الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٣٩٠

العدد ١٥٨ — الثلاثاء ١٩ من ذى الحجة سنة ١٣٦٠ — ٦ من يناير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العــــــدد

الثقافة فى عامها الرابع

هذا هو العام الرابع للثقافة ؛ وما أسرع ما تمر الأيام وتنقضى السنون مهما كان فيها من أحداث ، ومهما تضمنت من عظائم !

لقد بدأنا هذه المجلة ولنا فيها آمال كبار ، أملنا أن تلد فى صباها فتخرج منها مجلة شهرية للخاصة تعنى بالبحث الدقيق العميق ، وأخرى نسائية تعنى بشؤون النساء ، وثالثة للأطفال تقدم لهم القصص الممتع والأحاديث الشائقة ؛ وإذا بالحرب تطلع علينا بعد أشهر من صدورها ، فتقف دون آمالنا ، وتقصر خيالنا على الرضا بالواقع ، ونلاقى العناء فى الحـ[illegible] ورق الطبع ، وفى بدء المال وفى المطبعة مقا[illegible]ت مكدسة ، ونضطر إلى الاقتصاد فى عدد الصفحات ، والاختصار فى المقالات ، وصغر الحروف والكلمات ؛ وإذا كل رجائنا أن نحتفظ بها من غير أن تلد ، ومن غير أن تنقص من جديد .

لقد مرت عليها ثلاث سنوات عجاف ، لا يطعمها الناس ولا يعصرون ، اشتدت بهم وتشد ، حتى أصبحوا يحصلون على الخبز بالرجاء ، وعلى البفتة بالواسطة ، وعلى ورق الطباعة بالمصادرة وانتهاز الفرصة ، ولا يدرى بعدُ ما سيكون .

ومع هذا عودتنا الطبيعة أن نبات الحدائق لا يقوى على تغيرات الأجواء كما يقوى نبات الصحراء ، وابن النعيم لا يحتمل الشدة كما يحتمله ابن الشقاء ، والذهب إذا أذيب فى البوتقة خرج أنضر ما كان وأصفى ما كان ؛ فإذا نجونا فى البأساء والضراء فأحرى بنا أن ننجح فى

النعماء، إذا زال هذا الكرب، وانقشعت هذه الغمة بإذن الله.

ونحمد الله أن كان في مصر والعالم العربي قوم يحرصون على غذائهم العقلي حرصهم على غذائهم المادي، وقوم لا يصدهم كرب الحياة ومتاعبها من أن يجلسوا إلى أقلامهم يناجونها ويناجون قراءهم، ويبثون إليهم عواطفهم وأفكارهم، على الرغم من أن الموت يتخطف من حولهم، والدمار يخرب بجانبهم، فكان من هؤلاء وهؤلاء حفظ الحياة الأدبية سليمة وسط هذه الزعازع.

فإن نحن نظرنا إلى عامنا الماضي فإنا نغتبط إذ بذلنا جهدنا في أداء واجبنا، وخطونا خطوة في تحسين إنتاجنا وتنويعه وعرضه؛ وحاولنا جهدنا أن نزيل الملل عن القراء بتنويع الأبواب وتنويع العرض، وتقديم أقلام جديدة في موضوعات جديدة من حين إلى حين.

وإن نظرنا إلى مستقبلنا وعدنا القراء أن نتابع الجهد في الاصلاح، وأن يتصل قراء المجلة بها اتصالا أوثق، فيعرضوا عليها مطالبهم، وتعرض عليهم إجابتها عنها، ويزيد الاتصال الروحي والعقلي بينها وبينهم، حتى يكون منها ومنهم أسرة واحدة، تجمعهم وحدة الغرض، والسير إلى الغاية.

وكل سنة نخطوها نشعر أن معالم المجلة قد وضحت، وملامحها استبانت، وأنها وقراءها يكونون مدرسة لها برنامج خاص يخالف برامج غيرها من المدارس، وندع للقراء تفصيل ذلك، يستفتون فيه أنفسهم، ويستلهمون شعورهم.

***

ونأمل أن ينال هذا العام الجديد شرف السلام، فقد بلغت أزمة العالم حداً ليس بعده زيادة لمستزيد، واشتعلت النار في جميع غرفه، وما لم تنله ناره يكاد يختنق بدخانه، وسرت الحمى إلى جميع أجزاء الانسانية، فجعلت تهذي، وتلقي بنفسها في الجحيم ولا تدري، وتخرب بيدها ما شيدت، ولا تعبأ بتبعة، وغاب عنها عقلها فلم تقف برهة قصيرة تتساءل: لم كل هذا؟ وهل تتساوى النتيجة مع الوسيلة؟ أو ليست الانسانية قطعت طور الوحشية فاستكشفت طريقة للتفاهم غير السيف؟ أولم تصل الانسانية إلى حد أنها قومت نفسها بأكثر مما تقوم المال والمتاع وكل شيء في الدنيا؟ فلم إذاً تسيل دماء الملايين من أجل بقعة من الأرض تحتل أو شعب يخضع أو غنيمة تغتنم، أو كلمة تعلو كلمة، أو زعيم يسيطر على زعيم؟ هل هذا كله يساوي نفسا إنسانية واحدة، بله دماء الملايين وعذاب الملايين؟ ولكنه الجنون العارض الذي لا يسمع لصوت العقل إلا بعد أن يفيق، والحمى المضطرمة التي لا تصغي للحكمة إلا بعد انخفاض درجة الحرارة، والغضب الهائج الآثم الذي لا يندم إلا بعد أن يسجن صاحبه.

لقد ظل قوم من سخفاء الفلاسفة يشيدون مذاهبهم على أن القوة المادية هي كل شيء، وهي الحياة وهي السعادة، وهي الحق وهي العدل؛ فليجنوا — إذاً — أتباعهم نتيجة تعاليمهم؛ هذه هي القوى بلغت ذروتها، فماذا فعلت أكثر من أنها طاحت برءوس الناس وخلقت لهم البؤس والشقاء؟

وهؤلاء إخوانهم الفلاسفة السخفاء أيضا الذين أهدروا قيم الانسانية، وأرجعوا كل أعمال الانسان وطموحه وتساميه إلى الغريزة الجنسية.

وهؤلاء إخوانهم السخفاء أيضاً رأوا أن العلم وحده موئل العالم؛ فدعوا إليه وجردوا كل القوى في خدمته. فكانت نتيجته أنه أمد القوة بما طلبت، فاخترع وابتكر وأنشأ وسائل الموت على أحدث طراز، وأفقر الناس ليملأ مستودعات الذخائر، وضحك على عقولهم بمصابيح كهربائية وأصوات لاسلكية ليحصدهم فيما بعد حصاد الهشيم ويفتك بهم فتك الطاعون.

وهؤلاء إخوانهم سخفاء الساسة أيضاً استغلوا ما أودع عند الناس من عواطف نبيلة ، فوجهوها للفتك بالأرواح في غير رحمة ولأعمال التخريب من غير هوادة ، ونظروا إلى مجدهم بالظفر أكثر مما ينظرون إلى الإنسانية تنتحر ، واصطنعوا الفلاسفة والأدباء يغنون نشيد الوطنية لتفريق أجزاء الإنسانية .

ووراء كل هؤلاء قوم عبدوا المال ، واستعانوا بالأبهة على الكبراء والعظماء ، فذلوا لهم وكانوا عبيد العبيد ؛ فقوّم هؤلاء وهؤلاء كل شيء بالدينار ، وهزئوا بالرحمة والانسانية والعدل والحق ، لأنها لو وزنت بميزان الذهب لم تزن مثقالا ؛ فالحرب خير إذا أكسبتهم مالا ، وإهدار الأرواح غنيمة إذا امتلأت جيوبهم ، والتخريب منتهى الأمل إذا كان الدينار يربح به المائة والألف ، وأملهم أن تنتصر الأمة التي تستغل لهم وتستعبد بهم .

سيأتي اليوم الذي يصب فيه الناس غضبهم على كل هؤلاء المذاهب الفلسفية والمذاهب الدينارية . سيمقتون الدعوة إلى القوة دون الحق ، والجنسية دون الانسانية ، والعقل دون القلب ، والعلم دون الدين ؛ وسيلعنون كل أولئك ، وسيصغون فقط إلى دعاة العقل والعدل والانسانية ؛ ولا يسمحون لأي كان أن يتلاعب بهم ، فقد شاهدوا نتيجة التلاعب ، وانكشفت لعبة الكرة ؛ وهذا هو الأمل الوحيد والدرس الوحيد الذي يصح أن يعزّي من هذه المصائب . إن أمل الانسانية أن يملك زمام العالم قوم انسعت عقولهم ، وأكثر من ذلك أن تكون قد حييت قلوبهم ، وأن يشجعوا في قول الحق والدعوة إلى الحق ، لا أن يجروا وراء العالم يتملقونه ويستغفلونه ، وأن يعودوا إلى حرمة العقود والعهود والأقوال والوفاء بها ، فقد كان ذلك عزاً للانسانية أيام عزه ، وأن ينظروا إلى العدل الواسع جداً الذي يشمل العالم ، لا الذي يضيق فلا يتسع إلا لأمة ؛ فقد كان هذا النظر الضيق صحيحاً يوم كانت الأمة تعيش لنفسها في حدودها . أما وقد أثبتت هذه الحرب أن العالم وحدة ، وأنه إذا اشتعل اشتعل جميعاً ، وإذا انطفأ انطفأ جميعاً ، فلا يصلح له إلا النظر الواسع والعدل الشامل .

لقد نسيت أني أتكلم في «مجلة الثقافة في عامها الرابع» ونسيت أني أريد أن أتكلم في الأعياد التي أصبحت وسط هذه الحروب لا طعم لها ، إلا الذكرى الألمية لما كان ينعم به الناس في عهد الرخاء والسلام . لقد كان العام الراحل أقسى أعوام الحرب وأغشمها ، أزال أمماً وأفنى أمماً ، وأشعل النار في نصف الكرة الأرضية الآخر . فهل يسير العام الجديد سير الناس ، فيتسابق في الشر ، ويبز الأعوام السالفة في النكبات ، أو يعقل فيعقل الناس من شرورهم ، ويحبس الأرواح الشريرة في قماقم النحاس ، ويطلق الأرواح الخيرة تدعو إلى السلام ؟

علم ذلك عند علام الغيوب .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ صاغ

أقبـل عام جديد

للدكتور محمد عوض محمد

بالأمس ولى عام ، وأقبل عام . . . وليس فى العالم ما يبشر بأن هذا الانتقال سيخفف ما يعانيه سكان هذه الأرض من ويل وعذاب .

والحروب لا تبدأ سنتها فى شهر يناير كما تبدأ السنون عادة . فالحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بدأت فى أواخر الصيف ، وبدأت الحرب العالمية الثانية فى أوائل الخريف . لأن الذين يريدون أن يقذفوا بالجنود فى ساحة الدمار ، ينتظرون ريثما يحصد الحب ، وتخزن الغلال ، ويجمع القوت . وهنالك يثبون وثبتهم ، ويوقدون الجحيم الذى يريدون أن يصلى به العالم حيناً من الدهر . . . وهم فى مسلكهم هذا إنما يفعلون ما كان يفعل آباؤهم فى عهود الجاهلية الأولى . والمعروف عن المتوحشين اليوم أنهم لا يلبثون أن يجمعوا القوت ، ويحصدوا الغلال ، حتى يبادروا بالتفكير فى فريسة ينقضون عليها ، أو مال يسطون عليه . لهذا لم يكن من محض الصدفة أن بدأت الحرب العالمية الأولى والثانية فى موعد واحد ، وهو نهاية الصيف وأول الخريف .

ومع أن سنة الحرب لا تتفق فى بدايتها مع السنة المألوفة للناس ، فان من المناسب وقد استقبلنا بالأمس عاماً جديداً ، أن نقف لحظة لكى نلقى نظرة واسعة شاملة على هذه الأحداث التى تنتاب عالمنا المسكين . فان كثرة التأمل وإطالة النظر فى الحوادث المتعاقبة ، كثيراً ما يحول بيننا وبين رؤية الأطوار الكبرى ، والمراحل الواسعة لهذا الصراع العنيف .

لقد بدأت هذه الحرب فى غرب أوربا ، فى مكان محدود من سطح الأرض ، ولهذا لم يرد الكتاب أن يصفوها بأنها حرب عالمية . . . وقد وقفت ألمانيا وحدها فى ذلك الوقت أمام كل من فرنسا وبريطانيا . ولكن ألمانيا لم تشهر الحرب إلا بعد أن أعدت لها من أدوات التخريب والتدمير عدة هائلة ، لم يعرف العالم لها نظيراً . ولم يسبق فى أى عصر من العصور أن كان فى العالم كله هذا العدد العظيم من السلاح والذخيرة . وكان الناس يدركون بعض الادراك أن الاستعداد الحربى الألمانى كبير ضخم . ولكن لم يكن فيهم من يستطيع أن يحلم بأنه قد بلغ هذا الشأو البعيد الذى فاق كل وهم وخيال . . .

أجل ، وليس من الاسراف فى شىء أن نقول إن ألمانيا دخلت الحرب مدججة بالسلاح ، وخصومها عزل منه إذا قيسوا إليها . ولهذا لم تلبث انتصاراتها السريعة فى الخريف الأول والربيع الذى بعده أن بهرت العقول ، وأوقعت الرعب فى النفوس ؛ وأيقن كثير من الناس أن ألمانيا لا تغلب ، ولا يمكن لها أن تغلب ؛ وبنت بعض الدول سياستها على هذا اليقين ، فدخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا ، لكى تشاركها النصر وثمرات النصر . واتخذت حكومة فرنسا خطة الموالاة والاسترضاء للدولة الغالبة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه . أما بريطانيا ، التى لم تتعود الاذعان حتى تستنفد آخر ما فى جعبتها من السهام ، فانها وقفت وحدها أمام كل من ألمانيا وإيطاليا ، وساعدها على عنادها هذا موقع جزرها الجغرافى ، الذى عجزت قوات ألمانيا أن تصل إليه من البر أو البحر ، واضطرت لأن تقنع بامطاره وابلا من التخريب والتدمير من الجو .

ورغم ما أبدته بريطانيا من عناد وجلد . فلقد انقضى عام ١٩٤٠ ، تسوده ظاهرة واحدة هائلة ، وهى تفوق

ألمانيا الحربي الضخم ، وقوتها الساحقة الماحقة في ميدان القتال .

إن ألمانيا هي خير مقياس نقيس به أطوار هذه الحرب الشعواء . فالطور الأول : هو طور تفوقها واستعدادها الهائل ؛ وذلك ما امتاز به عام ١٩٤٠ . ولم ينقص من مركز ألمانيا هذا ما مُنيت به شريكتها إيطاليا من الويل والعذاب في ألبانيا ولوبيا . ولو أن الحرب انتهت في ذلك العام لما كان هنالك مندوحة من أن تخرج منها ألمانيا فائزة ظافرة ، ولها من القوة والمنعة ما يجعلها أكبر دول العالم إلى مدى سنين عديدة . ولعل هذا ما كان يقدره ساستها وقادتها . ولعلهم حسبوا حسابهم ، وبنوا سياستهم على حرب خاطفة ، تخرج منها جيوشهم بعد زمن وجيز وعليها أكاليل الظفر والمجد . لكي ينعموا بعد ذلك بسيادة العالم والسيطرة على حوادثه . . .

إن هذا الغرض الضخم الواسع لم يتحقق . وقد منيت خطة الحرب الخاطفة بفشل ذريع لا يمكن إخفاؤه أو إنكاره . ودخلت الحرب في طور جديد ، هو طور التكافؤ النسبي بين ألمانيا وخصومها ، الذين بدأوا هم أيضاً يجمعون للحرب عدتها ، ويتخذون أهبتهم الكاملة للقتال . ومنذ ذلك الحين انقضى عهد التفوق الساحق لألمانيا ، وبدأ الطور الثاني .

إن العام الذي ودعناه بالأمس قد امتلأ بالأحداث الهائلة ، والتغيرات الكثيرة ، والمفاجآت التي لم يكن يتوقعها أحد ، في ذلك العام مدت ألمانيا سلطانها حتى بسطته على جزيرة البلقان . وبلغت ساحل البحر المتوسط . وأرسلت قوة من جيشها معدة خير إعداد إلى صحراء لوبيا ، لكي تعاون الطليان في حربهم التي باءوا فيها بالخسران . فأحرزوا في الصحراء انتصارات سريعة ، ولكن هذه الحروب في البلقان والصحراء لم تستنفد من قوة ألمانيا سوى الشطر اليسير . ولم تفقدها مركزها الممتاز كدولة تملك من عدة الحرب ما لا تملكه دولة أخرى .

ولكن حادثاً آخر أقدمت عليه ألمانيا في منتصف ذلك العام الخطير . قد أدخل على هذه الصورة تعديلاً جوهرياً . فإن ألمانيا في شهر يوليو من ذلك العام قد قررت أن تقدم على عمل هائل جرىء . تعد أعمالها السابقة بالنسبة إليه من الأمور اليسيرة السهلة . ذلك العمل هو غزو روسيا ، ذلك القطر الواسع الأرجاء الذي لا بد لألمانيا أن تحشد فيه جيوشاً جرارة ، وعدة حربية هائلة ، في ميدان لم يسبق للعالم أن رأى نظيره في الضخامة والاتساع .

ليس لدينا دليل نستطيع أن نسترشد به على أن الهجوم على روسيا كان خطة مدبرة منذ بدأ عام ١٩٤١ . بل لعل هنالك بعض الأدلة على أن ساسة ألمانيا وقادتها لم يكونوا يقدرون في أول ذلك العام أنهم سيضطرون إلى الإقدام على هذه المجازفة الهائلة . فإن من المأثور عن زعيم ألمانيا أنه خطب في شعبه في نهاية عام ١٩٤٠ فقال : « أيها الجيوش النازية المجيدة ، إن عام ١٩٤١ سيحمل للشعب الألماني في الميدان الغربي نصراً باهراً لم يشهد العالم له نظيراً » . وقد انقضى ذلك العام دون أن تقدم ألمانيا على عمل جديد ذي خطر في الميدان الغربي . بل اتجهت قواتها إلى البلقان فاحتلته ، ثم زحفت زحفتها المشهور على دولة السوفيات .

* * *

لقد حدثت أحداث جليلة أخرى في عام ١٩٤١ ، أهمها من غير شك إقدام اليابان على إعلان الحرب على كل من أمريكا وبريطانيا . وقضت بعملها هذا على عزلة أمريكا وترددها ، وأدخلتها في حومة القتال راغبة أو كارهة . ولم يسبق للولايات المتحدة أن كانت متحدة الكلمة كما هي

اليوم ، وذلك بفضل هذا العدوان الفاجئ الجرىء . وهكذا بات المحيط الهادى — المرة الأولى فى التاريخ — ميدان حرب ضروس لا تعرف رحمة ولا هوادة . وبهذا استطاع شيطان الحرب أن ينشب مخالبه فى جميع أنحاء الأرض ، وأن يشمل بويلاتها كل قطر وكل ركن من أركان هذا الكوكب . وفى أقل من لمحة العين استحالت الحرب الأوربية إلى حرب عالمية .

فى العام الماضى إذاً اجتاحت الحرب قارات جديدة ، ومحيطات وبحاراً واسعة ، كانت بنجوة منها . واكتوى بلهيبها مئات الملايين من بنى الانسان . وأصبح من الجائز أن يقال إن ذلك العام لم يكد ينتهى حتى كان سكان الأرض جميعاً فى حرب شعواء تحمل الويل والثكل والتدمير لكل أسرة ولكل منزل . وبهذا كانت تلك السنة (١٩٤١) مقطوعة النظير فى تاريخ الأرض وسكانها . وليس من السهل أن نتصور أن سيكون فى عامنا الجديد تقلبات هائلة واسعة المدى تشبه ما حدث فى سابقه . بل أقصى ما يمكن حدوثه أن يفوز فريق على فريق فوزاً كبيراً أو صغيراً ، جليلاً أوحقيراً . ففى العام المنصرم قد اكتمل المعسكران ، وعرف كل شعب ودولة مكانه من كل منهما .

***

إن دخول اليابان وأمريكا الحرب حادث خطير من غير شك ، وقد بهر أعين الناس ، وأنساهم حقيقة عظيمة لا يصح أن تعزب عن أفكارنا . وهى أن موقف ألمانيا لايزال برغم هذا التطور الباهر العنيف ، هو الحادث الأول . الذى سيقرر مصير هذين المعسكرين . وبرغم ما أحرزته اليابان من انتصارات سريعة فى المحيط الهادى . فان من الواضح أننا إذا أضفنا اليابان إلى أحد المعسكرين وأمريكا إلى المعسكر الآخر ، فان هذا لم يغير كثيراً من تكافؤ القوى بين الفريقين . وسيظل الميدان الأوربى برغم هذه الاضافة الهائلة هو الميدان الرئيسى الذى يتقرر فيه مصير الحرب . وهنالك جزء واحد من الميدان الأوربى له من الخطر والشأن الواضح ما يجعله العامل المرجح فى مصير أوربا والعالم . وذلك الجزء هو من غير شك الميدان الروسى ، لأن ألمانيا إنما تهدَّد اليوم من هذا الميدان وحده . وألمانيا — كما قدمنا — هى المقياس الذى تقاس به أطوار الحرب . ولهذا فان الميدان الروسى لا يزال أكبر الميادين خطراً ، وأعظمها أثراً فى مصير الصراع العنيف .

والعام الماضى قد سجل فى هذا الميدان الخطير ظاهرة جديدة لعلها أهم وأخطر حادث فى الحرب كلها . تلك الظاهرة هى تراجع القوات الألمانية فى الميدان الروسى وتقدم جيوش السوفيات ... وفى شهر ديسمبر كنا نسمع فى الأنباء بمعارك تجرى فى نفس المواضع التى كنا نسمع بها فى شهر نوفمبر ، هذه الأسماء ترددت وتكررت فى خلال هذين الشهرين . ولكنها فى الشهر الأول (نوفمبر) كانت أمكنة تستولى عليها القوات الألمانية ، ويتخلى عنها الروس . أما فى شهر ديسمبر فكانت أمكنة يستردها الروس ، وتتراجع عنها الجيوش النازية .. وهكذا تقدم الروس فى جميع الميدان الممتد من شرق لينتجراد إلى بحر أزوف مسافة لا تقل عن مائة كيلو متر فى طول الميدان كله .

ولقد خطب زعيم ألمانيا فى أوائل شهر أكتوبر من العام الماضى فقال : إنه أخطأ فى تقدير قوة روسيا ، ولكنه مع ذلك بشر سامعيه بأن الجيوش الروسية قد ضعفت جداً ، ولم تعد قادرة على مقاومة خطيرة . ووعدهم بقيام الجيش الألمانى بحملة سريعة ، يحرز فيها نصراً حاسماً قبل حلول الشتاء . وقامت الجيوش النازية بجهود جبار حتى بلغت أبواب القوقاز فى الجنوب ، وأبواب العاصمة

(البقية على صفحة ٣٠)

حياة اسكندر الأكبر

وغزو مصر

افتتح الاسكندر أثر دارا . ولكن دارا كان أسرع ، وهرب إلى بلاد الكرد ، فلم يتمكن الاسكندر من أسره . ولما بلغ الاسكندر مدينة أربيل وجد فيها كنوز دارا وكية هائلة من ذخائر الحرب ، فاستولى عليها كلها . ولما تقمص الولاية والإمارة ، واستتب له الأمر ، لقب نفسه (ملك آسيا) ، ثم سار بجيشه إلى أن وصل إلى بابل ، وقبل أن يبلغها مثل بين يديه حاكم القلعة والكهنة وأعيان ووجوه المدينة ، وقدموا له الطاعة وبايعوه (ملكا على بابل) وبهذا انسلخت بابل من حكم الفرس ، كما انسلخت مصر من قبل . ولكسب عطف رعاياه الجدد ، أمر الاسكندر بتجديد وتعمير جميع المعابد التي دمرها الفرس ، وعلى الأخص معبد مردوك .

أقام الاسكندر شهرا في بابل ، ثم زحف بجيشه نحو الشرق ، فوصل بعد مسيرة ٢٠ يوما إلى مدينة سوس حاضرة الأخمينيين (وبالفارسية هخامنشى) وفيها وجد الخزانة عامرة بسبائك وافرة من الذهب والفضة قومها المؤرخون بألف وأربعمائة مليون من جنيهات اليوم .

وبعد ما استولى الاسكندر على سوس زحف واستمر زاحفا إلى أن عبر نهر الأراكس Araxe (واسمه الآن الكور) ووالى سيره إلى أن بلغ بازارجاد (الآن مشهدى مرغاب) ، وكان كسرى الأول ملك الفرس اتخذها مركزا ، وشيد فيها القصور الفخمة . ومنها تابع سيره إلى أن وصل إلى برسبوليس Persépolis (واسمها الآن تخت جمشيد على مقربة من شيراز ، ويفصلها نهر الكور Araxe) ، وكان ملك الفرس أكزركس Xerxes (وبالفارسية خشايارث) قد شيد فيها قصورا فخمة ، ومبانى غاية فى الأبهة . فلينتقم الاسكندر منه — لأنه سبق أن أحرق كثيرا من المدن اليونانية — أمر باحراق مدينة برسبوليس من أولها إلى آخرها جزاء وفاقا ونكالا لما بين يديها وما خلفها ، فأحرقها وتركها قاعا صفصفاً لا دار فيها ولا ديار ، قاصدا بذلك أن يمحو من الوجود ذكر ملك الفرس أكزركس . وقبل أن يحرقها عمل بقول من قال (من عزّ بزّ) أى من غلب أخذ السلب . فسلب جميع الأموال التي كان جمعها فيها ملوك الفرس ، وكانت قيمتها تبلغ فى ذلك الوقت ١٢٠٠٠٠ تالنت talents أى ما يعادل ٩٥٠ مليوناً من الفرنكات الذهب ، عبارة عن ٤٠٠ مليون جنيه انجليزى ذهباً ، واستولى أيضاً فى مدينة بازارجاد Pasargade على أموال مكنوزة قدرت بمبلغ ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ذهباً .

وفى ربيع سنة ٣٣٠ زحف الاسكندر بجيشه ، واستولى على آخر حاضرة للفرس هى مدينة اكباتان ، (ومحلها الآن همذان) .

أراد الاسكندر أن يقطع دابر دارا ، فعزم على مطاردته إلى أن يقبض عليه ، إلا أن بسوس Bessus حاكم ولاية باكتريان (بخارى) — وهو الذى غصب فيما بعد عرش الفرس وسمى نفسه ارتا كزركس Artaxerxès (وبالفارسية ارتخشيرشا . وقد ذكر فى الشاهنامة باسم اردشير) اغتاله وقبل أن يدركه الاسكندر قتله . فلما وصل الاسكندر إلى باكتريان لم يجد أمامه إلا جثة هامدة ، فأمر بدفنه فى برسبوليس فى مدافن آبائه وأجداده باحتفال عظيم يليق بمقامه ، وكان عمر دارا وقت قتله ٥٠ سنة ، وقد قتل فى شهر يوليه سنة ٣٣٠ .

يقول شاعرنا العربى : «إن الطعام يقوى شهوة النهم» l'appétit vient en mangeant ، فلما رأى الاسكندر أن البلاد التى أخضعها تخضع له بلا مقاومة زحف واجتاز

جبال البرز ، واستولى على البلاد الواقعة على مقربة من بحر قزوين : فاستولى على بخارى وتركستان وأفغانستان وبلوخستان ، وأسس ثلاث مدن سماها (اسكندرية) الأولى وتسمى الآن هرات Hérat فى مقاطعة خراسان ، والثانية فى جنوب هندكوش (وهى الآن قندهار) والثالثة فى بلاد القوقاز .

انتهز الاسكندر فرصة وجوده فى البلاد الواقعة على مقربة من بحر قزوين ، وجرد حملة عسكرية علمية لتدرس طبيعة بحر قزوين وتعرف إن كان هذا البحر يتصل بالأوقيانوس أو هو بحر قائم بنفسه فى وسط البلاد المحيطة به .

علم الاسكندر فى آخر صيف سنة ٣٣٠ أن بسوس Bessus نصب نفسه ملكا على آسيا باسم ارتاكزركسيس Artaxerxès فوالى الاسكندر مطاردته إلى أن قبض عليه بطليموس أحد قواد الاسكندر (وهو الذى أسس فى مصر بعد موت الاسكندر دولة البطالسة ونودى به ملكا على مصر) فأمر الاسكندر بجدع أنفه وقطع أذنيه ثم أرسله إلى همذان حيث أعدم صلبا .

استمر الاسكندر فى زحفه إلى أن وصل إلى سمرقند ؛ وبوصوله نهر ياكزارت (سرداريا الآن) بلغ أقصى حدود بلاد الفرس من جهة الشمال الشرقى ، وفيها أسس مدينة جديدة سماها إسكندرية القصوى (وهى الآن شوخشنت)

وهنا حدث حادث كانت له أهمية خاصة فى حياة الاسكندر . ذلك أن أحد قواد ارتاكزركسيس Artaxerses واسمه الأمير أوكسيارت Oxyarte اعتصم بقلعة حصينة اسمها قلعة ارياماز مشيدة فى وسط البلاد الواقعة بين بخارى وبلاد أفغانستان . فلما وصل الاسكندر إليها حاصرها ، ثم طلب من الأمير التسليم فأبى وتحداه . فأمر الاسكندر جنده بتسلق جدران القلعة ، ووعد من يفوز منهم بمكافأة مالية كبيرة ، فتسلقوها فى جوف الليل . ولما يئس المحاصرون من المقاومة سلموا . وكان من بين الأسرى روكسان بنت الأمير أوكسيارت ، وكانت فضة بضة كأنها سبيكة فضة ، وكأن عينيها كوكبان دريان . ويقال إنها وستاتير زوجة دارا كانتا أجمل نساء الفرس . فلما رآها الاسكندر هام بها ، وأصاب حبها شغاف قلبه ، ورغب فى الزواج منها ، وقد تمت حفلة زواجه بها فى قلعة خوريين Choriene ، التى سلمت بعدما سلمت قلعة ارياماز . وكان زواج الاسكندر بروكسان حسب العوائد والتقاليد الايرانية ؛ ومنها أنهم استحضروا رغيفا شطره الاسكندر بسيفه شطرين (ولا تزال هذه العادة متبعة عند أهالى تركستان حتى اليوم) .

بعد زواج الاسكندر ، وبعد بلوغه ذروة المجد العسكرى ، وبعد أن بسط سلطانه على جميع البلاد الواقعة بين البحر الأبيض وحدود الهند ، دبرت مؤامرة لاغتياله ، وكان من المؤتمرين به ليقتلوه فيلوتاس من أعظم قواده ، وأبوه بارمينيون أكبر قواده . حاكمهما الاسكندر أمام مجلس عسكرى ، والمجلس حكم عليهما بالاعدام .

وقد حدثت حادثة ثالثة قرح لها قلبه من الحزن . ذلك أن الاسكندر كان أقام حفلة فى سمرقند دعا إليها عماله وخواصه ، وكان من بينهم صديقه الحميم كليتوس Cleitos (والاسكندر مدين له بحياته ، إذ أنقذه من الموت فى موقعة الجرانيك ، أول موقعة نشبت بينه وبين دارا) ، وفى أثناء الحفلة ، وكانت الخمور قد لعبت بالرءوس ، والخمر جماع الاثم ، تبادل الاسكندر وكليتوس الكلام بشدة وعنف . فاض صدر الاسكندر من الغيظ ، وظن أن هناك مؤامرة مدبرة لاغتياله ، فثار ثائره وأفرط بيده إلى سيفه ليستله ثم طعن صديقه طعنة أطارت عظامه قضاضا ، ولما تنفس الصبح وأفاق الاسكندر من سكرته ، وعرف ماجنته يداه ، انفجر باكيا ، وغشيه هم وغم ، لأن موت كليتوس كان ثلمة فى الجيش لا تسد . اعتكف الاسكندر فى كن بيته

ثلاثة أيام أضرب فيها عن الأكل والشرب ، واحتجب عن خلانه وسجرائه .

لما وصل الاسكندر إلى حدود الهند ، دفعه زهوه وحب الاستطلاع إلى غزو الهند ، وكان قد سمع الشيء الكثير عن غنى أمرائها ، فأراد من جهة إخضاعها لسلطانه ، ومن جهة أخرى معرفة هذه البلاد النائية ، التي روى له عنها الرواة كل عجيب وغريب ، وقد اتخذ غزو الهند ذريعة لحث البعثة العلمية التي تصاحبه على درس جغرافية هذه البلاد ، ودرس نباتاتها وحيواناتها ودياناتها وعاداتها ، وكل ما يهم العلم معرفته عنها . ففي سنة ٣٢٧ قبل الميلاد برح الاسكندر بلاد باختر Bactriane ، وبرفقته زوجته الأميرة روكسان (وقد ولدت له ولداً في السنة التالية ، ولكنه مات وهو صغير) . بعد أن اجتاز وادي كابول دارت بين الاسكندر والهنود معارك عدة ، جرح الاسكندر في إحداها كما جرح بطليموس ، وفي أثناء زحفه استولى على قلعة ماساجا Massaga الحصينة ، ثم اجتاز وادي (بشاور) ، واستولى على سلسلة جبال بيرساور ثم اجتاز نهر أورنوس ornos إلى أن بلغ بلاد البنجاب ، ثم عبر نهر الهندوس في ربيع سنة ٣٢٦ ، والتقى بأمراء الهند على نهر هيداسب . دارت رحى المعركة بأشد ما يكون من الهول ، وفيها انتصر الاسكندر على الهنود انتصاراً مبيناً ، وسلم الملك بوروس Porus نفسه إلى الاسكندر . ولما سأله الاسكندر كيف يريد أن يعامل ؟ أجابه أريد أن أعامل معاملة الملوك ، فأجابه الاسكندر إلى طلبه وعامله معاملة الملوك ، وكانت هذه المعاملة أساس صداقة متينة بينهما ، وقد أسس الاسكندر في المنطقة التي حصلت فيها الموقعة مدينتين سمى الأولى Nicée (أي المنصورة) والثانية بوسيفال Bucéphalie باسم جواده Bucéphale المشهور . ولما أراد الاسكندر التوغل في بلاد الهند تذمر الجند ورفضوا المسير وقالوا إن الحرب أضنتهم وإنهم يودون العودة إلى بلادهم ، وكانوا قد قطعوا في ثماني سنوات ونصف سنة من يوم أن زايلوا وطنهم ووصلوا إلى الهند ١٨٫٠٠٠ كيلومتر ؛ وزادهم تصميماً على رفض المسير أن مطراً لا ينقطع استمر يهطل عليهم ٧٠ يوماً حتى أنهك قواهم المادية والمعنوية . ولتخليد ذكرى وصول الاسكندر إلى الهند شيد ١٢ معبداً في شكل أبراج .

عاد الاسكندر أدراجه ، ولما وصل إلى نهر اسيزين Acésine واسمه الآن شناب (وهو أحد الروافد الخمسة التي يتألف منها بلاد البنجاب والبنجاب معناها الأنهر الخمسة) وجد عامله هيفستيون Hephestion قد أسس مدينة جديدة سماها (الاسكندرية) وكان تأسيسها بناء على أمر الاسكندر ، وفيها استقبل سفراء أمير كشمير الذين حضروا ليهدوا إليه ٣٠ فيلا .

كان الاسكندر أراد أن يكشف مصب نهر الهندوس الذي قيل له إنه يصب في المحيط الهندي ، فكلف كراتير Cratère أحد مهندسيه بأن يبني له أسطولا كبيراً ؛ فاضطر كراتير أن يسير حملات إلى جبال هملايا لجلب الأخشاب من أدغالها وغاباتها ، وبعد مجهود جبار وعمل شاق وفق لبناء ٨٠٠ سفينة كبيرة وصغيرة موسقة زاداً وذخائر ، اختار لها أمهر البحارة من الفينيقيين والمصريين والقبرصيين واليونانيين ، ونصب صديقه نيارك Néarque أميراً لاعلى هذا الأسطول الضخم . أبحر الأسطول في نوفمبر سنة ٣٢٦ وقبل إبحار الأسطول صعد الاسكندر وباركه باسم (أبيه آمون) ، ثم سار الأسطول على الطائر الميمون . وفي أثناء هذه الرحلة اضطر الاسكندر إلى مقاتلة شعوب هندية كثيرة بعضها أولو بأس شديد ، إلا أن الاسكندر قاتلهم وانتصر عليهم ، واستولى على مدن كثيرة منها مدينة البراهمة ؛ وفي إحدى هذه الوقائع كاد الاسكندر يلقى حتفه ، لأنه أراد أن يبث الحماسة في روح جنده ، فتسلق سلماً وصعد على جدار حصن ثم ألقى بنفسه في

داخل الحصن؛ فلما رآه الهنود عرفوا من لباسه أنه الاسكندر فانهالوا عليه ضرباً وطعناً، فأصابته طعنة في صدره، فخر على الأرض بلا حراك. فلما رآه جنوده قد وقع دبت فيهم روح الحماسة والانتقام، فنزلوا وهجموا على الهنود وأعملوا فيهم السيف والنار إلى أن أفنوهم عن بكرة أبيهم هم ونساءهم وأولادهم، ثم حملوا الاسكندر وأخرجوا الرمح من صدره وعالجوه إلى أن شفي. وبمجرد شفائه واصل السير على نهر شناب إلى أن وصل إلى نقطة تلاقي هذا النهر بنهر الهندوس؛ وفيها أمر عامله بأن يبني مدينة جديدة سماها اسكندرية، وقعت في منتصف الطريق الذي تنتهي إليه هذه الرحلة النهرية.

وفي شهر فبراير سنة ٣٢٥ استأنف الرحلة على نهر الهندوس، وفي خلالها اضطر لمقاتلة البراهمة، وانتهز فرصة خضوع بعض الإمارات فغير اسم عاصمتهم وسماها الاسكندرية، ثم أسس مدناً أخرى كثيرة.

وفي يوليه سنة ٣٢٥ وصل الاسكندر إلى مدينة باتالا الواقعة على رأس دلتا نهر الهندوس (حيدر آباد الآن)، وبهذا خضعت له كل البلاد الواقعة على نهر الهندوس من بلاد الكشمير إلى الأوقيانوس الهندي. وقد وفق العلماء الذين كانوا معه في هذه الرحلة، فدرسوا طبيعة الأراضي وكشفوا ما فيها من معادن — ذهب وفضة وملح — ونباتات وحيوانات، كما كشفوا تخطيط هذه البلاد النائية.

أراد الاسكندر أن يعرف مجرى فرعي نهر الهندوس، فجرد تجريدة علمية عسكرية شطرها شطرين، رأس هو شطراً سار بأسطول مؤلف من أسرع السفن في الفرع الغربي، واستصحب معه ٩٠٠٠ مقاتل، وبعد مسيرة بضعة أيام لاحظ هبوط مستوى النهر ثم انسحابه نحو البحر ووقوف السفن، وكانت هذه أول مرة رأى فيها أهل أوربا هذه الظاهرة الطبيعية — ظاهرة جزر البحر — وزادت دهشتهم لما عادت المياه وارتفعت — ظاهرة المد؛ بعد ذلك استأنفت السفن السير إلى أن وصلت إلى الأوقيانوس الهندي. طار الاسكندر فرحاً لما رأى لأول مرة المحيط الهندي، فأمر بذبح الذبائح وتقديم القرابين إلى الآلهة ابتهاجاً وشكراً على هذا التوفيق الكبير؛ وبعد ذلك عاد الاسكندر إلى باتالا واجتاز الفرع الغربي إلى أن وصل إلى المحيط مرة أخرى، ومنه رجع إلى باتالا (حيدر آباد).

وفي أواخر أغسطس سنة ٣٢٥ قبل الميلاد بدأت رحلة العودة إلى الوطن، وفي أثناء الرحلة أمر بتأسيس مدينتين سماهما (الاسكندرية)، إحداهما في داخل البلاد والأخرى على شاطئ البحر، ثم دخل فيافي بلوشستان، وكانت فلاة جرداء لا ماء فيها ولا زاد، فقاسى الجند أهوال الحر والظمأ والجوع والعراء، ومات منهم آلاف، واضطروا إلى ذبح الخيل والبغال وأكلها. وكان الاسكندر يواسي المرضى والجرحى ويقوي عزائمهم، وكان يسير معهم على قدميه جنباً لجنب، فواصلوا السير إلى أن بلغوا مدينة بورا Poura (والآن Kelat عاصمة بلوتشستان) وفيها لموا شعثهم واستراحوا، ثم واصلوا السير إلى أن بلغوا مدينة اسكندرية (قندهار الآن) ومنها عم مدينة بازرجاد، حيث دخلها في أوائل سنة ٣٢٤ قبل الميلاد، وقد دهش لما علم أن لصوصاً سطوا على قبر كسرى ونهبوا ما فيه وسلبوا جثمانه. بعد ذلك سار حتى وصل إلى مدينة برسبوليس ومنها إلى سوس؛ وقبل أن يدخل مدينة سوس التقى بالأميرال نيارك، ومنه علم أن الأسطول طاف الخليج الفارسي ووصل إلى مصب نهر الفرات. وقد فرح الاسكندر فرحاً شديداً بوصول أسطوله سالماً بعد أن أدى مهمته خير الأداء. ومن فرط فرحه أنعم على نيارك بتاج من الذهب الخالص مكافأة له واعترافاً بجليل أعماله. ثم حث جنوده المقدونيين على الزواج من الإيرانيات، وفي ليلة واحدة زوج ٨٠ من قواده بثمانين أميرة من أميرات الفرس. وكل جندي مقدوني تزوج من فارسية أتحفه بتحفة مالية عظيمة،

فتهافت الجند على الزواج ، ويقال إن عشرة آلاف جندى تزوجوا من إيرانيات فى الفترة التى أقامها الاسكندر وجيشه فى سوس .

وفى صيف سنة ٣٢٤ بعد أن أخذ السفر أهبته زايل الاسكندر مدينة سوس وبلغ همذان حاضرة الاخمينيين ، ومنها انتقل إلى بابل فى ربيع سنة ٣٢٣ ، وكان فى نيته الطواف حول بلاد العرب والبحر الأحمر ، ثم تجهيز حملة قوية تؤيدها ١٠٠٠ سفينة حربية لغزو قرطاجنة (تونس) والبلاد المتاخمة لها وأسبانيا وجزيرة صقلية . ومن أجل هذا أرسل بعثة بحرية علمية أولى وصلت إلى جزائر البحرين فى الخليج الفارسى ثم عادت قبل أن تتم رحلتها ، فأرسل الاسكندر بعثة ثانية وصلت إلى جزائر البحرين هى أيضاً ثم عادت . ثم أرسل بعثة ثالثة وأمرها بأن تسير إلى أن تصل إلى هيرونبوليس (السويس الآن) ، ولكن البعثة لم تصل إلى نصف الطريق . أرسل بعثة رابعة وصلت إلى باب المندب ثم نفد ماؤها فعادت . وليسهل المواصلات بين الشرق والغرب أسس مدينة على مصب نهر الدجلة سماها (الاسكندرية) تكون فرضة بحرية (لعلها شط العرب الآن) تصدر منها حاصلاتها إلى بابل وما إليها . ثم أسس مدينة أخرى على ساحل بلاد العرب سماها الاسكندرية أيضاً ، رحل إليها كثيراً من الاغريق ومن المتطوعين ومن القوم الرحل . وقد حدث والاسكندر فى همذان أن أصيب صديقه الحميم هيفستيون بحمى خبيثة أودت بحياته . لحزن عليه الاسكندر حزناً شديداً ، حتى إنه بقى ثلاثة أيام طريحاً بجوار جثمانه لم يتناول فيها الطعام . ثم أمر بنقل جثمانه إلى مدينة بابل . ولتخليد ذكراه أمر بإقامة أثر فخم له . ومن عجيب أمر الاسكندر أنه وهو فى همذان أرسل بعثة إلى مصر لتزور واحة سيوة وتستلهم أباه (آمون) فى أمر صديقه هيفستيون ليلهمه إن كان يصح أن يقدسه ويرفعه إلى درجة الأولياء والقديسين ، أو يكتفى باعتباره بطلا من الأبطال . سافرت البعثة وعادت وأخبرت الاسكندر أن آمون أجاب بوجوب اعتبار صديقه (بطلا من الأبطال) ، فناط الاسكندر بصديقه كليومين بأن يشيد له فى اسكندرية مصر معبدين : معبداً فى وسط المدينة ومعبداً فى جزيرة فاروس (رأس التين الآن) .

بعد ذلك سار الاسكندر إلى بابل ، وفى أثناء سفره التقى بوفود كثيرة حضرت إليه من ليبيا ومن الحبشة ومن قرطاجنة ومن إيطاليا ، ومن سائر البلاد التى غزاها لتهدى إليه هدايا وتقدم له شعائر الولاء والاخلاص . ولما عبر نهر الدجلة التقى برسل من الكلدان جاءوا ليحذروه من دخول بابل بدعوى أن معبودهم ماردوك تنبأ بأن دخول الاسكندر مدينة بابل سيكون دماراً عليه . لم يبال الاسكندر بنبوءة معبود الكلدان ودخل بابل ، وفيها أقام حفلات كثيرة كان يدعو إليها جنده ووجوه البلد ومياسيرهم ، ويوزع عليها الهدايا واللحوم والخمور . وفيها أيضاً وجه همه إلى تجهيز حملة كبيرة لغزو بلاد العرب . وبينما الاسكندر يدبر شؤون بابل أصابته حمى الملاريا ، وكانت كثيرة الانتشار فى هذه البقاع ، والحمى بريد الموت ، فأقعدته وصارت وطأة الحمى تشتد يوماً بعد يوم ، إلى أن تجلى نهار ١٣ يونيه سنة ٣٢٣ ، وفيه تنازعته غمرات الموت ففاضت روحه ولفظ نفسه الأخير ، فكان آخر يوم له فى الدنيا وأول يوم من الآخرة ، والدنيا أمد ، والآخرة أبد .

ومن عجيب تاريخ الاسكندر أن حياته كانت كلها توفيقات آتاه الله من كل شىء سبباً ، منذ دب إلى أن شب .

مات الاسكندر وعمره ٣٣ سنة ، بعد أن تولى الملك ١٣ سنة ، وبعد أن ترك ذكرى لا تفنى أبداً ، ولا بعد الأبد ، إن كان بعده بعد .

عزيز خانكى

الحضارة البتراء

بحث الأستاذ «ريشة» في كتابه (العالم) عن خصائص العلم والعلماء، فوصف أخلاق العلماء، وتكلم على فضائلهم وعيوبهم، وقد قال في جملة ما قاله فيهم إنهم جُبلوا من الطينة التي جُبل منها البشر، فهم مثل الخليقة كلها، فيهم من وُفر حظه من العقل، ومنهم من عرف بالبلاهة، وفيهم جماعة بخلاء، وفيهم جماعة يميلون إلى التبذير، ومنهم أصحاب عفة في سيرتهم، ومنهم من انحرف عن هذه الصفة، وفيهم طائفة طائشة، وفيهم طائفة هادئة، ومنهم الثرثار، ومنهم السكّيت، ومن العلماء من غلبت عليهم الكآبة، ومنهم من ملأهم الفرح والسرور.

والفصل الذي أفاض فيه «ريشة» هذه الإفاضة، ودقق فيه هذا التدقيق أشبع فيه الكلام على فضائل العلماء وعيوبهم، وأبرز هذه الفضائل توخي الحقيقة؛ فقد أشربت قلوبهم محبة الحقيقة التي تشتمل عليها الأشياء، وهذا ما يفصل بينهم وبين البشر، ويجعلهم فوق الناس درجات؛ فالتجرد والجد في العمل والاستقلال بالفكر والاستقامة من جملة فضائلهم، ولكن إلى جنب أضياء هذه الفضائل تشتد ظلمة بعض العيوب، كالحسد مثلا، فانهم بشر مثل كثير من البشر، فهم لا يستطيعون أن يرتاحوا إلى رؤية طائفة من النعم يغرق فيها رفقاؤهم، فالفلكي يحسد الفلكي، ولكن حسده للنباتي أقل.

إلا أنهم على الرغم من هذه العيوب يمثلون — على نحو ما قال «ريشة» في خاتمة الفصل — أشرف شيء في النوع البشري. إنهم ليسوا بآلهة، بيد أنهم يحبون محاسن الأمور، ويتوخون أصدقها، وينقبون عن حقائقها.

***

خطرت ببالي وأنا أقرأ هذا الفصل فكرة شاعت فينا كثيراً، فقد نظن أن العلم يبدّل من أخلاقنا؛ ولكن الثابت من عصور الكهوف والغيران إلى عصرنا هذا أن العلم لم يهذب العواطف كل التهذيب؛ فاذا كانت طبقة العلماء، وهم في نظر «ريشة» أشرف طبقة في النوع البشري، قد استفاض فيها الحسد ونظيره من العيوب، ولم يستطع علمهم أن ينزع هذا الحسد من قلوبهم، فان طبقات الناس الباقية أعجز عن نزع هذا الحسد وأشكاله؛ وما يقال في هذه الطبقات يقال في الأمم، فان ما يتناهى إلينا في أيامنا هذه من ويلات التقتيل والتدمير، والتحريق والتغريق، أصح دليل على أن أخلاقنا لم يؤثر فيها العلم.

وإذا انحدرنا من هذا الأفق، أفق الويلات التي استنبطها العلم، فتغلغلنا في عامة الناس، وراقبنا ما شاع في هذه العامة، من طمع لا ينقطع، وتكالب على المادة لم يقع له مثيل في أيام السلم، وانصراف إلى الغش لا نعرف له نظيراً — إذا راقبنا هذا كله فانا نخلص إلى نتيجة ثابتة، أشد إيلاماً من النتيجة الأولى. فاذا كان العلم لا يزال ضعيف التأثير في تهذيب العواطف، فان أكثر العامة لا تزال بعيدة عن الاستعداد للارتداع عما يردعها عنه الدين. على أن أكثر الذين يشتد طمعهم في مثل هذه الأيام، أيام البؤس والشقاوة، ويعظم ميلهم إلى الغش أو إلى الافراط في طلب الربح، يصلّون ويصومون ويحجون، ولكن صلاتهم لم تخفف من طمعهم، وصيامهم لم يكفهم عن الغش، وحجهم لم يدخل على قلوبهم يسيراً من الرحمة. فهل نستطيع بعد هذه اللاحظات الألمية أن نقول: هل نفعنا العلم في أخلاقنا وغرائزنا؟

لقد تولى الجواب عن هذا السؤال كاتب فرنسي ستر اسمه، فقد نشر هذا الكاتب مقالا في جريدة

« الطان » فى باريز سنة ١٩٢٣ ، واحتفظت به فى حينه ، وهذه ترجمة هذا المقال البليغ :

« جهز العالم بكل ما يتمم نقصه من الأدوات والآلات ، فقد أنشأ البشر المعامل والزاق ، ودور الحرب والعاط والملاهى ، وبنوا القصور الشاهقة ، وجروا العجل ووضعوا المدافع ، وقذفوا القذائف التى من شأنها استهلاكهم ، ومدنوا المدائن ، ومصروا الأمصار ؛ ولكنهم ماذا عملوا من أجل نموهم وسعادتهم ؟ فقد ضاعف البشر سلاحهم البيد ، فهل سكنوا ثورة الناس فى استعمال هذا السلاح ؟ فما هى النسبة بين البرق اللاسلكى وبين العدل ؟ أم ما هى النسبة بين دور السينما وبين الفضيلة ، أو بين الصناعات وبين الجمال ؟ فهل قلل السدس من مقادير الجرائم ؟ لا شك فى أن البشرية أنشأت لها داراً جميلة ، ولكنها نسيت مدخنة هذه الدار !

« لقد وصل الدكتور « غستاف لوبون » فى كتابه (اختلال توازن العالم) إلى هذه النتيجة التى أذكرها بنصها : إنى سمت مدارك البشر ، وعظمت مقادير عقولهم وأحلامهم ، فانك لا تجد لعواطفهم تبديلا ؛ فما استحكم فيهم فى قديم الدهر من الحب والحسد والبغضاء يجانس لما استحكم فيهم فى حديث الدهر . إن ملاحظته هذه ملاصقة للسؤال الذى لا أنفك أسأله ، وهذا هو : هل نحن متمدنون ؟ لأن هذه الملاحظة توضح لنا الاختلاف البليغ بين العقل والأخلاق ، فان من طرائف الأدب العصرى — الذى لا طريفة فيه — أن يبحث الأديب فى خفايا الرجل المتمدن عن حقيقة الرجل الوحشى ؛ ولا يصعب علينا أن نبين فى هذا الشأن أن الفن لا يزال يعمل عملاً مخالفاً لما يعمله العلم ؛ فالعلم يلفتنا إلى الآتى ، والفن يرجع بنا إلى الماضى . ومن خصائص التآليف فى هذا اليوم اشتمالها على الكلام على الغريزة الخالصة الوحشية . فلو كان العقل يقود حقاً هذا الحيوان الذى عرّفه الفيلسوف اليونانى على الوجه الآتى : (حيوان عاقل) لتمهدت لنا السبيل إلى الاستضاءة بضياء مدنيتنا ، فالذى يقود البشر فى الحقيقة عواطفهم وأهواؤهم ومعتقداتهم وأوهامهم ؛ فان عمل الحواس فينا أعظم من عمل العقل ؛ وهذا السبب الذى من أجله نجد جماعة من نوابغ البشر فى حطة من الأخلاق ، ونرى رجالاً أنضجهم العلم قد أحرقوا المكتبات فى الحرب العظمى الأخيرة .

« لقد أنشأ الاختلاف الواقع بين العواطف والعقل فى نفوس بعض الناس شيئاً من القلق والاضطراب ، حتى ألقى الدكتور « غستاف لوبون » هذا السؤال : ماذا يحدث إذا استمر العقل على النمو ، وظلت العواطف ثابتة لا تتغير ؟ أجل لقد سأل « لوبون » عن مصير البشر : ماذا يحدث إذا كان العقل لا ينفك يهدى الناس المشربين محبة الحروب إلى استنباط أدوات التهديم والتخريب ، فقد أصبحت العواصم عرضة للخراب فى طرفة عين ؟

« لا شك فى أن فى ذلك خطباً جليلا يتوقف عليه مستقبل البشر بأجمعه .

« من عادتنا أن نبجل العلماء ، ولا نخطئ فى ذلك ؛ ولكن فلنعترف بأنهم لم يعملوا حتى اليوم عملا عظيما ، فقد اعتنوا بالأشكال المصورة على أوراقهم ، واهتموا بحركات النجوم التى تدور فى السماء أو بالأجرام التى تسقط على الأرض ، وقد شغلهم النظر فى الضياء والكهرباء ، وتراكيب الكيمياء ، وفى الطبيعيات والرياضيات ؛ وعلى الجملة فقد درسوا كل شىء فى العالم ، ما خلا الرجل فلم يدرسوه . لقد كشفوا لنا الغطاء عن أسرار السماء ، ولكنهم لم يكشفوا لنا الغطاء عن أسرار القلب ، فقد شرعوا فى دراسة ما هو سهل وبسيط ، وأرجأوا النظر فيما

هو صعب ومركب ، أى أنهم أرجأوا النظر فى سيرة البشر ؛ فالذى يسيّر البشرَ الأديانُ وعلومُ الأخلاق ، ولم يسيرهم العلم ، لأن علم الرجل ، أى علم النفس ، لم ينشأ إلاّ من قريب .

« فالحضارة لا تستند إلاّ إلى المخترعات العلمية ، فانها تنشأ عن تطبيق العلم على حاجات البشر ، وحضارتنا لم تستطع أن تستخدم إلا العلم الذى تعلمناه ، أى علم الطبيعة الذى وصفته . إن حضارتنا بنت المهندسين والصُّنّاع ، لقد استخدمت قوانين الطبيعة والكيمياء ، ولكنها ما ذا فعلت فى قوانين العواطف والأهواء ؟ قدر المهندسون على بناء الآلات والمعامل ، فهل قدر رجال الدول على إنشاء التعاهد على السلم ، ما ذا تقول فى المهندس الذى عقد جسراً ثم تهدم جسره ؟ ما ذا تقول فى رجال السياسة الذين ينشئون آثاراً ثم تتلاشى هذه الآثار ؟ فالأول عنده علم ثابت ، والآخرون يخبطون فى الأمور خبطاً . لا شك فى أن حياة المدن والأمم تتعلق بالسياسة ، ولا بدّ فى السياسة من وجود الأحزاب . فهل نجد أحزاباً فى الحكمة الطبيعية والكيمياء والميخانيك وما شابه ذلك ؟ فمعنى هذا كله أنه ليس فى أفكارنا السياسية إلا عواطف وأهواء وتفضيل ، فليتحقق عندنا أنه لو استفاض علم النفس كما استفاض علم الطبيعة لما كان من الصعب تهدئة أوربة والعالم ؛ كما أنه ليس من الصعب عمل محرك من غاز ، ولما أمكن الجدال فى مبادئ سياستنا وأخلاقنا أكثر من الجدال فى مبادئ توازن الأجرام ؛ لو كان عندنا كل ذلك لكان تسيير الشعب مشبهاً لتسيير آلة من الآلات ؛ فالبشرية لم تعمل بعدُ بحكمة سقراط القائل للانسان : « اعرف نفسك ، إن البشر لا يعرفون أنفسهم ، ولهذا فانهم ينجحون كل النجاح فى كل ما لا يتعلق بهم ، ويسيرون سيرة الصبيان فى الذى يتعلق بهم » كلاّ ، لا يمكننا أن نقول إنا ممدَّنون ، ولو بعض التمدن ، لأن الذى ينقصنا إنما هو الجوهر !

فإذا واظبنا على مخادعة أنفسنا بمبلغ حضارتنا فانّا نلق بالبشر إلى أجسم الخطوب ، أى إلى الحروب والثورات والأزَم الاقتصادية والخلقية ، أجل إنّا نلقيهم إلى شىء من الاضطراب العصبى ، وربما قدناهم إلى الموت ، على نحو ما يعرض لأنواع الحيوانات التى لا تلائم بيئتها .

فلنعرض عن زخرف الصناعة التى لا تؤدى فى أكثر الأحايين إلاّ إلى تبديل حاجات طبيعية بحاجات صنعية !

ولنحتفظ بذوق الحياة المعنوية ، لنحتفظ بالمثل الأعلى ؛ فهما اللذان يستطيعان أن يسدّا مسدّ العلم والطريقة !

ولنحرص خاصةً — فى جملة ما نحرص عليه من تقاليد الشعوب القديمة المهذَّبة — على الميراث الخلق العزيز الذى أصلحته تجاريب الدهور حتى أصبح هذا الميراث فى عصرنا الميخانيكى علم البشر الوحيد ؛ فان مستقبل النوع الذى يتعرّض لكثير من الأخطار المادية والمعنوية متوقف على ذلك . فلننظر فى أعماق نفوسنا ، وهنا نجد شيئاً من هذه الحضارة الحقيقية التى تقصينا عن كل أدوات هذا العصر » .

* * *

يفرغ المرء من هذا المقال والشؤم يحيط بنفسه من كل جانب . أفليس عجيباً أن لا يكون لحضارة هذا العصر على روعتها أثر بليغ فى صقل الأخلاق وتهذيب الطبائع ؟ كلاّ ، ليس فى هذا كله شىء من العجب ، لأن الحضارة بنت العلم ، ولا صلة لنمو العلم بنضج الأخلاق ، فان لتربية الأخلاق أساليب غير الأساليب التى يجرى عليها علماء الكيمياء وأضرابهم . فهل نهتدى بعد هذه الحرب إلى مذاهب حديثة تنضج بها أخلاقنا ؟

(دمشق) شفيق جبرى

الصديق الشاعر

عجيبٌ أمر هذا الصديق ! كان في فتوته مرهف الحس، موسيقي البيان، وأغرم بالشعر، فحفظ الكثير من مختار روائعه، ونظم في حداثته قطعا أكبرها الناس وظنوا أنها مثل بواكير الرياض سوف تتفتح من شاعرية ناضجة فياحة الأريج.

ولقد نشأ صاحبنا في قرية من قرى الريف، وفي بيئة وثيقة الصلة بالدراسات الأدبية والدينية ؛ ثم جمعتني وإياه المدرسة الابتدائية، فكنت أراه كثير التطلع إلى ارتقاء المنابر، لا تمر مناسبة مدرسية أو قومية إلا رأى فرضاً عليه أن يخلدها في أبيات كانت تقابل من الناس إذ ذاك بالإطراء والإعجاب. وأدركته الحركة الوطنية وهو في دراسته الثانوية فخبَّ فيها ووضع، واندفع مع جمهرة الشباب من سنه في تيار الخلاف السياسي الذي تمخضت عنه حركة المفاوضات، فكان له في نصرة الحزب الذي ينتمي إليه إذ ذاك خطب وقصائد سارت بذكرها الركبان، ولفتت خواطره الشعرية أنظار زعماء الأدب، فطوقوا جيده بقلائد التشجيع، وتنبأوا له بمكان الصدر من شعراء العصر.

ولقد شاء اختلافنا في سبيل الدراسي أن تتباعد الشقة بيني وبين هذا الصديق، وأن تنقطع عني أخباره وأشعاره مدة سنوات. ثم جمعتني وإياه منذ أيام فرصة من تلك الفرص السعيدة التي تفتح لأصحابها رحابا فسيحة من جميل الذكريات، فإذا صاحبنا قد خلق خلقاً جديداً، وإذا هو في حيرة من أمر هذا التحول في تيار فكره وشعوره : لقد خمدت فيه جذوة الشعر، فلم يعد يترنم كعهده أيام الصبا، ولم تعد تهزه تلك المواقف التي كانت في سالف الأيام تسرع بخفقات قلبه ؛ وتعصف بعزائم إحساسه، فيفيض عنها الأربعون أو الخمسون بيتاً من رائق الأشعار. يقف الآن أمام الطبيعة وقد سفرت له أقوى ما تكون جاذبية، وأشد ما تكون سحراً، فيسكر بخمر جمالها، ويقضي اللحظات الطوال خاشعاً أمامها، ويتمنى أن لو انطلق لسانه بأبيات من الشعر يرسم فيها أثر ذلك الجمال في نفسه، أو يصور فيها بعض ما اضطرب له وجدانه ؛ ولكنه لا يلبث أن يدرك بُعد هذه الأمنية من التحقيق، فيعود إلى مناجاته الصامتة وسكونه العميق.

وتمر عليه الأيام والليالي في إقبالها وإدبارها، وآمالها وآلامها، وأفراحها وأتراحها، فلا توحي إليه بما كانت توحي به في عنفوان الصبا من تلك النفحات القدسية التي اصطلح الناس على تسميتها شعراً.

ويسمع الكثير من قصائد شعراء العصر مما تُدوى به محافل التكريم والاحتفاء، والتوديع والرثاء، فلا تثير فيه — كما كانت تثير — وجداناً هائجاً، أو انفعالاً صاخباً، أو لذة فنية واضحة.

لقد تكسرت قيثارة الشعر عند صاحبنا، وأبدلته الأيام منها يراعة ثائرة تهش لعرض جوهر الفكرة أكثر مما تهش لاتقان زخرفها وطلائها، وتفزع كلما هتف بها داعي الخلق والتعبير إلى تدبيج رسالة أو تحرير مقال.

* * *

قلت مداعباً صاحبي — وقد رأيت موقفه بين أمسه ويومه — « لا تأس يا صاح على ما فات، فما كان شعرك في شبابك إلا نوعا من تلك الخطابة المنظومة التي انحدر إليها الشعر العربي في كثير من أقطاره، فأصبح ليس فيه من الفن إلا رسمه، ولا من موهبة الابتكار إلا اسمها ؛ صار يقصد به إلى استثارة الانفعالات الرخيصة في سامعيه أكثر مما يقصد به إلى خلق الجمال وتصويره ؛ ولعل دراساتك ومطالعاتك وتجاربك هي التي زودتك بمقياس ذوق جديد شالت به كفة هذا الشعر في نظرك، فانصرفت عنه واستبدلت به ذلك التفكير الهادئ الذي تطالع به

الناس بين حين وآخر في بحوثك ومقالاتك » .

قال صاحبي : « لست بمعترض على سخريتك ، لا بل لست مستطيعاً رد هذه التهمة عني ، فلقد كنتُ جمعتُ شعر حداثتي في مجموعات ثلاث رتبتُها ترتيباً زمنياً ، وصورتُ الجو الذي أُلقيت – أو نشرتْ – فيه كل قصيدة ، والأثر الذي بدا لي أنها تركته في نفوس سامعيها أو قارئيها ، ومقدار النجاح أو الفشل الذي صادفتْه فيها ، ثم لأمر ما استودعت هذه المجموعات بعض أهلي قبيل سفري إلى أوربا لمواصلة الدراسة ؛ فلما أذن الله بالإياب بعد طول الغياب ، بحثتُ فإذا الوديعة قد أضيعت ، وإذا آثار مرحلة من مراحل الحياة كنتُ أحرص على الاحتفاظ بها قد أصبحت مجرد ذكريات » .

قلتُ : « ألم أقل لك إن شعرك الذاهب لا يستحق منك أسى ولا لوعة ؛ إن تركك لهذه المجموعات قبيل سفرك إن دلّ فإنما يدل على أنك في قرارة نفسك لم تكن مستريحاً إليها ؛ بل لعل جانباً منك كان يتمنى أن لو ضاعت هذه المجموعات وعفّى عليها النسيان » .

قال : « ذلك دأبكم معشر الباحثين النفسانيين ، تنتهزون مثل هذه الظاهرة لتنفذوا منها إلى أعماق ما تسمونه العقل الباطن ، وتستخلصوا منها ما تشاءون من ضروب التأويل والتعليل . وكأني بك وقد خلوت إلى نفسك بعد افتراقنا ، فقلت إن هذا الصديق نشأ نشأة دينية كانت كلها كبتاً لشهوات النفس وكبْتاً لأهوائها ، وكان كغيره من الشباب يفيض فتاءً وحيوية ، وتتصل أحلام نومه بأمانيّ يقظته ، وكان لا بد لهذا التيار الزاخر من نشاط الحياة النفسية أن يشق طريقه إلى وادي التعبير ، وشاءت ظروف الثقافة والبيئة أن يبدو على شكل موجات شعرية ، تهتز لها نفوس سامعيها طرباً بحكم الاشتراك في الاحساس والوجدان . فلما قذفت النوى بالشاعر في الديار الأوربية ، وجدت نفسه هناك في جو الحرية متنفَّساً ، وتحررت أهواؤه ورغباته بعض الشيء ؛ فطامنت من جماحها وكسرت من حدتها ، وأخذت حياته الانفعالية تستقر وتهدأ ، ووجدت أطماعه وأحلامه منابع أخرى تروى منها صداها ، واتجه نشاط حياته وجهة أخرى من الدراسة والتفكير ؛ ولم يكن غريباً إذاً أن تتبلد تلك الحساسية التي كانت تقدح زناد الشعر ، وأن تتغلب ناحية الذهن في شعوره على ناحية الوجدان ، وأن تجد غرائز الجنس والسيطرة والرفعة عنده مظاهر أخرى ، غير إنشاء القصائد واستدرار إعجاب الجمهور ! »

قلتُ : « منذ متى يا صديقي أصبحت نفسانياً أكثر من النفسانيين ! وما هذه البراعة في التفصيل والتحليل ! إنه لا اعتراض لي على تخيلك هذا إلا أنك جمعت فيه بين فروض نفسانية متباينة ، لم يصل واحد منها بعدُ إلى مرتبة النظريات الثابتة . أما أنا فقد أحلتك على أسهل الفروض وأقربها منالاً ، وهو أن شعرك أيام الشباب لم يكن خلقاً بالمعنى الفني الدقيق ، بل كان تقليداً لأساليب القدماء التي اختزنتَ منها الكثير في ذاكرتك ؛ وكان تصويراً واستفزازاً لتلك النواحي السطحية من الحياة ، تلك النواحي التي لا تحتمل التأمل الانفرادي ، ولكنها تحيا وتعيش في جو الجموع والجماهير . فأما إذ أبيت إلا التعرض للفروض النفسانية ، فلا أقل من أن تتبين المنازع المختلفة التي تسلكها فيما تخيلته من تفسير وتعليل .

فإن شئت إذاً فقل : إن جذوة الشعر اتقدت مع الشباب وفورته وغلبة ناحية الوجدان عليه ، فلما تقدمت السن والتجارب ، وازدحمت مشكلات الحياة ومسئولياتها برزت ناحية النظر والتفكير ؛ فحلّ النثر الهادئ محل الشعر الصاخب . لك هذا ، ولكن على شريطة أن تتنبه إلى أنه فرض لا يستقيم لك على إطلاقه ؛ فغيرك من الشعراء نضجت شاعريتهم بنضج تجاربهم ، وازدهرت عبقريتهم في سن الرجولة والكهولة ازدهاراً أين منه محاولات الشباب ؛

وإن شئت فقل : إنك — كغيرك من الشباب الذين ينشئون في البيئات الشرقية — كانت لك كما ذكرت أهواء ورغبات مكبوتة ، بعضها يمت إلى الجنس بسبب ، وبعضها إلى دواعي الشهرة والذكر بين الناس . فلما لم تجد وسيلة إلى إشباع رغباتك أعلنت عنها في صيحاتك الشعرية ، وضمنت لنفسك الظهور في المجامع ، وأجبرت الكثيرين على أن يتحدثوا عنك ويحفظوا بعض آثارك . وإني لأذكر بعض ما كنا نتحدث به في أيامنا الأولى ؛ أذكر قولك لي في بعض ما قلت « إن قلبي ليخفق بالحب ولكني لا أعرف لحبي هدفاً يتجه إليه » ؛ فاقترحت عليك إذ ذاك أن يكون لك حبيب مجهول توجه إليه قصائدك ، كما تتخذ الأمم رمز الجندي المجهول تحج إليه بذكرياتها في كل عام . وإن أنس لا أنس قولك لي مرة إنك تخشى المرأة والوقوع في حبائلها ، وإنك ستتجه بحبك إلى الله والدين والوطن والمثل العليا ؛ فليتك الآن تصدقني الحديث : ألا تزال على هذا الاتجاه ؟ وهل أفلحت في تجنب أشراك الحب الانساني ؟ على أنني سوف لا أكلفك حرج الإجابة على هذه الأسئلة ، فأنا أعلم أنك قد أحببت ، وأنك قد أكملت نصف دينك وأنجبت ، وأن شخصيتك قد تخلصت من كثير ، من ذلك الخجل والاضطراب والحرص والحساسية ، تلك الصفات التي لم تكن تعرف لها مصدراً ، والتي طالما سببت لك من الهم والضيق ما لم تكن تستطيع لها إخفاءً . وإذاً فهل لك أن تلتمس بين كل أولئك وهجر الشعر إياك صلة ونسباً ؟ إنه كما ترى فرض معقول ؛ وأغلب الظن عندي أنه يفسر جانباً كبيراً من حالتك ، وأحوال الكثيرين من الفنانين أمثالك ؛ وهو فرض تؤيده اعترافات الكثيرين من الشعراء والكتاب ، إذ يخبروننا في صراحة أنهم لا يعرفون من أين يتنزل عليهم الشعر ، ولا من أين توافيهم تلك الشخصيات التي يمثلونها في رواياتهم ؛ وهم لا يجدون حرجاً أن يقال لهم إن هذا عمل عقولهم الباطنة وما فيها من رغبات وذكريات ؛ بل هم لا يأبون أن تقول لهم ما قالته الأمم القديمة : إن إلهة الشعر أو شيطانه يوحي إليهم بما ينتجون .

على أنك لست — في تخيلك — فرضاً ثالثاً قد تجد الجمهرة من الباحثين النفسانيين يوافقونك فيه ؛ ذلك أن كل فرد من الأفراد مزود في طبيعته بشيء كثير أو قليل من النشاط الحيوي . ذلك الذي سماه الفلاسفة أسماءً تختلف في ظاهر ألفاظها فحسب : سموه horme ، وسموه élan vital ، وسموه will-to-live ، وما أرادوا منه إلا تلك الطاقة الحيوية التي تدفع بصاحبها إلى الخلق والايجاد ؛ هذه الطاقة تبدو مرة في صورة قصيدة أو قطعة من الموسيقى ، وأخرى في صورة رسالة أو كتاب ، إلى غير ذلك من مظاهر الانشاء والتعبير ؛ وهي تختلف في اتجاهها حسب عوامل تحيط بها وتؤثر فيها ؛ وتخصصها في ناحية يضعفها بالطبع في أخرى ؛ فاذا كنت في بعض حياتك شاعراً ثم شاءت الظروف أن تصرفك إلى نوع من الدراسة العلمية ، التي تتطلب منك هدوء الفكر وترتيبه والتأني فيه ، فسيأتي عليك إذاً يوم يتحول فيه تيار نشاطك إلا الانتاج العلمي الدقيق ، وتلبس شخصيتك طابع الروية والأناة ، وتحس بالأنس في حضرة المعضلة الفكرية فوق ما تحس بلذة الشعر وألحانه .

وبعد فهلا ترى يا صديقي أن هذه الفروض متقاربة ، وأنها لا يناقض بعضها بعضاً ، وأن السبيل إلى الفصل بينها وتحكيم أحدها دون الآخر ليست شيئاً يسيراً ؛ أما أنا فأغلب ظني أنك لا تزال في قرارة نفسك شاعراً ، وأن شاعريتك سوف تولد من جديد في ثوب قشيب ، وأن تحت الرماد وميض جمر يوشك أن يكون له ضرام »

محمد خلف الله

مشكلة زيادة السكان

١ — شعار الأسرة :

إن قرار مجلس الوزراء الأخير الخاص بعلاوة الغلاء يثير أمامنا مسألة هامة ؛ فالقانون بفئاته المتفاوتة قد انحاز إلى جانب الأسرة ، وعمل على مساعدة العائلات الكثيرة العدد . وصدور هذا التشريع بهذه الصورة أمر طبيعى ؛ فإن الصيحة الأخيرة التى أثارها رجال الاجتماع فى السنين الأخيرة ، كانت تلح على فرض ضريبة على العزاب . فصدور هذا القرار إنما هو نتيجة لهذه الضجة ، وصدى لهذه الصيحة ؛ فكأن الغرض المقصود منه هو تشجيع الأسرة ، ومحاربة العزوبة . وهذه بالذات هى المسألة الهامة التى أثارها القانون الجديد ، والتى عنيتها ، والتى تدفعنى إلى الكتابة .

إن الدعاية للأسرة قد تكون مقبولة فى بلاد ديكتاتورية تستعد للحرب ، وتلد للقتال . وقد تكون مقبولة فى بلاد كفرنسا ، تشعبت نواحى ثروتها ، وأوقفت نسلها ، حتى أصبح سكانها فى حالة ثبات ، بل وحتى خيف على الشعب الفرنسى أن ينقرض ، وحتى رأت الحكومة الجديدة أن تجعل شعار الأمة الفرنسية « الأسرة » .

ولكن أيكون تطبيق هذا المبدأ مقبولا فى مصر ؟

إنك تعرف ولا شك الشىء الكثير عن حياة الفاقة فى هذا القطر العزيز ؛ فالناس فى الريف يتقاتلون على القيراط وما دونه ؛ والملكيات فى مصر ملكيات مكروسكوبية ، على حد تعبير الدكتور محمد عوض ؛ والأجور لا تكاد تكفى للكفاف ؛ والدخول فى الغالب وعند سائر الناس منحطة ؛ فلا عجب أن يكون مستوى المعيشة فى مصر مثيراً للشفقة والرثاء .

ويقابل هذه الفاقة نمو مطرد فى السكان ، نمو لا مثيل له . فخصب الشعب وظروفه الاجتماعية والدينية تهيئ له اطراداً جنونياً فى عدد سكانه ، حتى إن الكثيرين يتوقعون أن يصل عدد السكان إلى ثلاثين مليوناً فى زمن قريب ، بينما الثروة المصرية عند حدها لم تتزايد ولم تتحسن ؛ ولو تم هذا الوضع لكان معناه الضائقة والتدهور الذى لا قرار له .

فأنت ترى إذاً أنه من الخطر إباحة الزيادة فى مصر ، وتشجيع الزواج والنسل فى بلد عاجز عن إسعاد أهله . وقد لمس هذه الحالة قليلون ، فهالهم الأمر ، ولم يجدوا مصرفاً عن هذا الخطر إلا بالدعوة إلى تحديد النسل ، وإيقاف هذا التزايد المطرد . . . ولكن صيحاتهم كانت هادئة فلم يسمعها الكثيرون ، رغم أنها صيحات صادقة فيها الخير والنفع لهذا الشعب .

٢ — تشاؤم مالتوس

ولا نكاد نذكر هذه الصيحات حتى تعاودنا ذكرى أول صيحة من نوعها ، وأقصد بها دعوة مالتوس فى أوائل القرن التاسع عشر إلى إيقاف هذا النسل المتزايد ، وتحسين مستوى المعيشة عن طريق تقليل متقاسمى الثروة .

ففى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، كانت انجلترا تعانى حالة معيشية سيئة ، كتلك الحالة التى يعانيها كل شعب كل رزقه من الزراعة وما تدره الأرض من خير محدود . ولقد هال هذا الأمر كثيرين من الفلاسفة والمفكرين ، فدعا سبنسر إلى تحديد النسل ، ومهد بدعوته إلى ظهور آراء مالتوس ، الذى نظم دعوته الهائلة ، ومبادئه الشائعة ، بتحديد النسل .

لقد أدرك هذا الاقتصادى الفطن أن الناس يتزايدون تزايداً مضاعفاً ، بينما المواد الغذائية تتزايد تزايداً تدريجياً ، فتبين أنه بعد زمن قصير يصبح السكان فى

حالة حاجة وفاقة ، لزيادة عددهم وقلة المواد الغذائية وعدم تناسبها مع عددهم ؛ ولذا دعا بشدة إلى عدم الزواج والتأخير فيه حتى يحد من تكاثر النسل .

ولقد لاقت بحوث هذا المصلح ما تلاقيه فى العادة بحوث جميع المصلحين ، من الاعراض والنقد والسخرية ؛ ولكن الزمن أثبت صلاحية هذه الآراء التى أثارها هذا الرجل الفذ ، وأصبحت اليوم جمعية مالثوس التى اعتنقت مبادئه تجد تأييداً ، وتبدى نشاطاً لا نظير لها .

وكما وجدت هذه الدعوة فى انجلترا ، كذلك انتشرت إلى القارة ؛ وأصبحت فكرة تحديد النســل — رغم ما قوبلت به من رجال الدين من المحاربة — فكرة عامة شائعة يدعو إليها دعاة الاصلاح .

ولم يجمد أمام هذه الدعوة — للأسف — غير بلدان الشرق ، وهم أولى الناس بالتفكير فى مصائرهم ؛ فالصين واليابان والهند ومصر ، كلها بلاد مزدحمة بالسكان ، حتى لتكاد الأرض تنوء بثقل ما تحمل . ومع ذلك تقف العادات والتقاليد ، وأحياناً الديانات ، حائلا دون نشر هذه المبادئ .

وعلى الرغم من أن تعاليم مالثوس قد وصلتنا ، فانا كشعب متفائل ، لا نكترث قليلا ولا كثيراً لتشاؤمه . وعلى الرغم من أن تعاليمه قد مهدت لها تعاليم فيلسوفنا الشيخ أبى العلاء ، فانا لم نأخذ بعدُ بها .

٣ — مالثوس وأبو العلاء :

وما دمنا فى صدد الحديث عن أبى العلاء بعد مالثوس ، وما دمنا نتحدث فى مجلة تعنى بالأدب ، فلا بأس من أن نشير إلى مسألة هامة ، هى أن لأبى العلاء تعاليم أثارها فى القرن العاشر الميلادى ، تتعلق بالنسل . وهى تشابه تماماً تلك المبادئ التى نادى بهـا مالثوس فى القرن التاسع عشر .

أما كيف ندعى أن أبا العلاء قد وضع أسس مبـدأ اقتصادى هو اليوم عمدة كل بحث يتعلق بالسكان ، فذلك ما سنبينه من المقارنة بين ظروف المذهبين .

لقد عرفنا أن مالثوس عاش فى إنجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر ، فهالته حالة العمال وما يعانونه من بؤس وفقر . فقد كان هذا القرن بدء ظهور الآلات فى الصناعة ، وقد أحدث ظهورها تطوراً عظيما فى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ؛ فكثرت الهجرة إلى مواطن الصناعة ومراكزها الجديدة ، وكثر النسل تبعاً للنشاط المؤقت فى الميدان الصناعى ، فأثر ذلك على الزراعة وتجمعت عوامل كثيرة ، منها الكساد التجارى العام بعد الحروب النابليونية ، وزيادة أسعار الحاصلات الزراعية لحماية الحكومة لها ، وقلة أجور العمال الصناعيين ، وانتشار البطالة بينهم ، فساءت أحوالهم ، مما أثر فى مالثوس ؛ فتألم لهـذه الحالة ، واستيأس من إصلاحها ، وركبه التشاؤم ، فلم يجد مفراً من المطالبة بتقليل هذا العدد الهائل من السكان ، بايقاف زيادة النسل .

أما صاحبنا أبو العلاء ، فقد رأى فى عصره ما هاله ؛ فالحالة السياسية فى البلاد الاسلامية كانت مضطربة أشد الاضطراب فى وقته ، والحالة الاقتصادية سيئة منحطة ، وحكام الأقاليم شديدو الوطأة على الناس ، والتضييق عليهم فى معايشهم وموارد أرزاقهم . وأبو العلاء نفسه لم يسلم من هذه المضايقة ؛ فقد روى أن حاكم حلب ضايقه فى وقف له ، حتى اضطره للسفر إلى بغداد للشكوى منه أو التشفع لديه . والحالة المعيشية فى بلدان الشرق على العموم كانت بائسة تاعسة ، كلها فقر ومجاعات ، وجدب وأزمات ، مما اضطر الناس إلى أكل الكلاب والميتات ، وإلى أن يتخذ بعضهم بعضاً طعاماً فى القاهرة وبغداد .

كل هذا أثر فى عقلية أبى العلاء وشعوره ، فلزمه التشاؤم واليأس من صلاح الناس أو صلاح أحوالهم ، فكره

الدنيا ، وكره البقاء فيها ؛ وإذا كان النسل وسيلة البقاء فإنه كره النسل ، ودعا إلى عدم الزواج . . . ولكنه كان يعرف أن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تركن أو تقنع بالعزوبة والعفة ، ولذلك أباح الزواج بشرط أن يكون من امرأة عاقر ؛ ولقد شدد أبو العلاء كثيراً في ألا يترك مجالا للزيادة والتوالد ، حتى اتهمه بعضهم بأنه دعا إلى وأد البنات . ولقد سلم أبو العلاء بإباحته زواج العاقر من خطأ وقع فيه مالتوس ، الذي لم يسمح بالزواج المبكر إطلاقاً ؛ فإن هذا التحريم لا يمكن أن يتفق مع الاستقامة المطلوبة ؛ ولقد صحح هـذا الخطأ في مبادئه من جاءوا بعده ، فأباحوا الزواج المبكر ، بشرط استعمال الطرق الطبية التي عرفت فيما بعد لمنع النسل .

من هنا نستخلص أن أبا العلاء ومالتوس قد نشآ في ظروف متماثلة ، أورثتهما التشاؤم واليأس ، فخلقا تعاليم متشابهة . أما مالتوس فقد نظم مبادئه تنظيما حسابياً اقتصاديا . وأما أبو العلاء فقد نظم تعاليمه تنظيما شعرياً خالياً من التفصيل والتطويل . ولعل البعض يرى أنه لم يكن يرمي إلا إلى مسألة فلسفية بحتة ؛ ولكن المسلم به أن تشاؤمه وفلسفته كانا نتيجة الظروف التي عاش فيها ، مما يجعلنا نجزم بأن الحياة الاقتصادية هي التي أوحت إليه بمبادئه التي ندخلها ضمن القوانين الاقتصادية الخاصة بالسكان .

٤ — خاتمة :

لقد رأينا مما سبق الظروف التي أوحت بمبادئ تحديد النسل ، ورأينا تلك الشجاعة والصراحة التي عالج بها هؤلاء الاقتصاديون والفلاسفة موضوعهم . والواقع أن ظروف السكان وأحوال معيشتهم في مصر ، تحتاج إلى هذه الشجاعة لعلاجها . فإذا كان الرأي العام يميل إلى تشجيع النسل ، ومحاربة تلك الأفكار المسرة المقسم ، فليس معنى ذلك أن نسلم بهذه الحالة احتراما للرأي العام ، ومسايرة لرغباته ؛ بل الأجدر بنا أن ندرس الموضوع دراسة منزهة قائمة على العقل والمنطق ، حتى نوفق إلى رسم سياسة تهيئ لهذا البلد العيش اللائق بأمة محترمة .

وإذا كنت لا أحب إعادة ما كتبه غيري ، فإني مضطر إلى أن أكرر أن تساهلنا وتراخينا في موضوع السكان ، يعرضنا لأضرار هائلة ؛ فإن مستوى المعيشة آخذ في الانخفاض تبعاً لزيادة السكان ؛ وفي الوقت الذي يجب أن نفكر فيه في تهيئة مستوى لعيش أبنائنا أرقى من هذا المستوى الذي نعيش فيه ، نسمح نحن لعوامل الفاقة والفقر أن تضعضع هذا الأمل ، وأن تخلق مستوى من العيش لا يعلم إلا الله مدى هونه وانحطاطه .

أما بعد ، فإن لولاة الأمر العذر كل العذر في إصدار هذا القرار ، فقد كانت ظروفه ظروفاً ملحة سريعة ، لا هدوء فيها ولا استقرار ، فهو قرار مرتجل ، أملته الشا كل المضطربة الحالية . فلعل الوقت يسمح لهم فيما بعد ، بمعالجة هذه المشكلة في جو أكثر هدوءاً واستقراراً ، وليهيئ الله لهم في أمرنا رشدا .

(دكرنس) عبد الله القديم

الاشتراك في الثقافة

عن نصف سنة ١٩٤٢

مـ	
٣٠	في مصر والسودان .
٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام .
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد .
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد .

مـ

ثمن العدد ١ صاغ

الصحافة والأدب فى أسبوع :

بلغت الصحافة المصرية من قوة الأثر فى الرأى العام مبلغاً يحق لها به أن تتبوأ مكانها بين أصحاب الجلالة ؛ فرأيها رأىٌ وحكمها حُكم ، وما استحسنتْ أو استقبحت فهو الحسن أو القبيح ؛ بل إنها لتنزل منزلة الأب فى البيت ، ومنزلة المعلم فى المدرسة ؛ فالرأى ما تراه لا ما يراه الآباء والمعلمون ؛ بل وإنها لتزحم الكِتاب فى المكتبة ، فإن لها من وقت القراء ما لا يظفر عشره الكتاب أو بحلم به ؛ حتى أوشك علمنا أن يكون علماً صحافياً ، وأوشكت كتبنا أن تكون قصاصات ملمومة ، وأوشك كُتّابنا أن يكونوا .. يكونوا ماذا ؟ ... وأى كاتبٍ فى مصر يستطيع أن يزعم أن له الرأىَ الخالص فى كل ما كتب وألّف ؟

ولست أعنى بقوة أثر الصحافة المصرية أنها بلغت مبلغ النضج والكمال ، لا ، فلعلها اليوم فى حقيقة معناها أبعد من الكمال مما كانت منذ سنين ، يوم كانت وليدة تحبو مستشرفة إلى أمل ؛ فليس لأكثر صحفنا اليوم من أمل تهدف إليه أو تتدوّر مطلعَه على بُعد ، إلا أن تتكثّر من القراء بالزلفَى إليهم ، والتدلى إلى مستواهم العقلى والغريزى ... وبذلك بلغت مبلغها من قوة التأثير بقدر ما بعدت من حقيقة معناها الرفيع .

ولم يقف أثر الصحافة المصرية على قرائها المصريين فحسب ، فإن لها القراء فى كل دار من كل قطر عربى ، وإنها لتالٌ تحتذيه الصحف العربية فى الشرق كله ؛ لا جرم كانت بذلك قوة تهدم وتبنى ، ولها من الأثر هنا وهناك ما تستطيع به أن تطبع الشرق الجديد وترسم له صورته ومثاله ، فى يومه وغده .

وأى قارئ عربى لا يجد من حاجته اليوم أن يلم بما تنشره الصحف والمجلات فى مصر وغيرها من بلاد العربية ؟ ... ومن أين له أن يقرأ هذه الصحف والمجلات جميعاً على كثرتها وتعدد ألوانها وفنونها ؟ ... ثم كيف يتهيأ له أن يحكم حكمه على ما يقرأ ويعرف وجه الرأى فيه وإن له لفناً واحداً منها وإنها لفنون ؟ ...

أترانا فى هذا الحيز المحدود من هذه الصحيفة ، نستطيع أن نقدم للقارئ العربى فى كل أسبوع حاجته من كل أولئك ، فنقرب له البعيد ، ونختصر المبسوط ، ونجمل الدعوة ، ونجمع صفحات فى صحيفة ؟

إننا لنرجو ، وما نريد أن يقتصر عملنا على التلخيص والعرض ؛ ولكننا نأمل أن يكون فى طاقتنا أكثر من ذلك ؛ فننوّه بالدعوة الصالحة ، ونُشيد بالرأى الناضج ، ونعلق على الخبر المهم ، ونكشف من بواعث الحادثة الدامة ، ونهدى إلى الطريق السوىّ كلَّ من ضلّ طريقه — لتكون الصورة التى نقدمها لقارئنا عن الصحافة العربية فى كل أسبوع ، مُغْنيةً بقليلها عن الكثير ، وافية بمجملها عن كل تفصيل ، واضحة الدلالة فى إيجازها من كل إسهاب ؛ فتدخر للمسرع العجلان وقته ، وتوفر للمتعب المكدود راحته !

***

وما تزال « المطبعة العربية » تخرج لنا كل يوم من منتوج العلماء والأدباء وأهل الاختصاص فنوناً من الكتب ، لا يعرف منها القارئ العربى إلا العنوان ، أو ما يقرأ عنها من فنون الاعلان ؛ وليس من حاجة كل قارئ أن يملك كل كتاب ، وليس لديه من وسائل العلم ما يعرف به ما يحتاج إليه لفنه ؛ فقد يشترى الكتاب لعنوانه أو لكاتبه ولا حاجة به إليه ، وقد يغفل عن كتاب آخر فيه حاجته ، لأن عنوانه لا يدل عليه ، أو لأن اسم مؤلفه ليس فى الأسماء ! ...

... وما زال النقد فى اللغة العربية فناً رخيصاً من فنون الإعلان ، أو فناً وضيعاً من فنون التشفى والانتقام ، أو فناً بالياً من فنون القدماء ، يُعنى بالشكل دون

للموضوع ، وباللفظ والأسلوب دون الرأى والفكرة ؛ ولا سبيل مع كل أولئك إلى الاعتماد على رأى أكثر النقاد من كتابنا فى تقدير ما تخرج المطبعة العربيـة من كتب ، فإن القارئ العربى لفى حيرة بإزاء كل كتاب جديد : لا يعرفه حتى يراه ، ولا يراه حتى يحصل عليه ، ويحصل عليه بالثمن الغالى ثم لا يرضيه ؛ والقارئ العربى لم يدرك بعدُ أن على كل قارئ لكل مؤلف حقاً يدفعه من ماله فى كل كتاب يصدر ، وافق رأيه أو خالفه ؛ فهو لا يدفع ثمن الكتاب إلا أن يقدر قدره فى رأيه وهواه ؛ ومن أين له أن يقدر قدره قبل أن يحصل عليه ويبذل ثمنه والناقد العربى هو ذاك ؟

فهل لى أن أجعل بعض هذا الباب للتعريف بكل جديد فى المكتبة العربية ؟

إنى لأرجو أيضاً ؛ وما أريد أن يكون عملى هنا نقداً أو تقريظاً ، فما أُرَبِّئ نفسى وقد اتهمت النقاد جميعاً أو أكثرهم ، وإنى لأعيش فى الجو الذى يتنفسون فيه ؛ إنما أريد أن يقتصر عملى هنا على العرض الكاشف ، والوصف البين ؛ فأتحدث عن موضوع الكتاب ، والغرض منه ، وما أشبهه فى موضوعه ، وأبوابه وفصوله ، وما بذل فيه مؤلفه أو ناشره من جهد ، ومقدار توفيقه فى إصابة الغرض الذى أنشأه له ، وحظ القارئ من الانتفاع به ؛ ثم عن طريقته فى العرض ، وأسلوبه فى اللغة ، إلى غير ذلك مما يصوره لمن لم يره كأنه رآه ، ويعرّف به تعريف الفهرس الدقيق لا تعريف الناقد ؛ لعل ذلك ينفض شيئاً من الغبار عن كثير من الكتب طال احتباسها عن قارئها وإن به إليها لحاجة ، ويفتح للقارئ باباً من العلم يُفضى به إلى سبيل غير سبيله ، وينشئ فى بابى التأليف والنقد البرئ حركةً فيها بركة !

* * *

« الصحف والكتب فى أسبوع : ما فيهما من جديد ، وما تدعوان إليه من الرأى ، وما تصبيان إليه من غرض ؛ ما يهم القارئ من ذلك ، وما ينبغى أن يعرفه » .

ذلك سبيلى فى هذا الباب ، وإن الأشواك لتكتنفه من جانبيه ، وإن مزالقه لكثيرة ؛ وإن دواعى الهوى لتتجاذب من يسلكه غير مزوَّد بإيمان راسخ ، وجنان ثابت ، وعين بصيرة ، وعُدة من الحق يتوقى بها أن يلين لشفاعة صديق أو مخافة متسلِّط ؛ وإنى لأرجو أن يكون لى من ذلك سبب يمضى بى فى سبيلى على هدى وبصيرة ؛ وفى حسن توجيه القراء وكرم مفهوم ما يجنِّبنى كثيراً من مزالق الخطأ ومهاوى الضلال .

وبعد فماذا أقدم للقارئ فى هذا الأسبوع من حديث الأدب والصحافة ؟

هذه طائفة من الصحف من يمينى ، وتلك جملة من الكتب الجديدة إلى جانبى ، وهأنذا أتصفح جرائد الأسبوع ورقة ورقة ، وأطالعها صورة صورة ؛ فماذا أقرأ وماذا أرى ؟

العيد . . . العيد . . . العيد . . . فما هذا الدخان قد انعقدت فوق الرءوس ضبابتُه ، واستطار فى كل قلب لهيبه ، وتسعَّر فى كل دم حريقه ؟

العيد . . . فما هذه الأنات المكبوتة تتناجى بها الألحاظ فى صمت ، وتُخافت بها الألسنة فى حذر ، وتتجاوب بها الأصداء من طلل إلى طلل ، وما نطق بها فم ولا انفرجت عنها شفتان ؟

العيد . . . فما هذه الأشباح المسحورة السارية فى جوف الظلماء ، ممدودة الأيدى إلى غير هدف ، شاخصة الأعين إلى غير منظور ، فاغرة الأفواه لغير نداء ؟

العيد . . . أهذا هو العيد وهـذه مجاليه ، أم تلك « طبعات جديدة » لجرائد قديمة نفدت طبعتها منذ سنوات ؟

ولكنى أوثر أن أتحدث عن الجديد ، فأين الجديد ؟

لقد طال حديثى اليوم ، فمعذرة إلى أصدقائى ، والموعد الأسبوع القادم .

(قاف)

حفـــــلة شاى !

بقلم الأستاذ محمود تيمور

فكرية هانم : (لصابر بك بلهجة غضب ، وهى تناوله ما قصته من الرسائل) اعتذارات ... ! !

بدر بك : اعتذارات ؟ ... كيف ؟

فكرية هانم : البركة فى سعادة البك ... لم يتذكر أن اليوم افتتاح البناء الجديد لشركة الطوب ، وحفلة نادى القاهرة ...

(فكرية هانم محتقنة الوجه ، تروح على رأسها بالرسائل ...)

صابر بك : لقد دعوت ما يقرب من الخمسين ... والاعتذارات الآن خمسة عشر على الأكثر ... نسبة طيبة ... معقولة ...

عنايات هانم : الباقى خمسة وثلاثون ... عدد كاف جداً لحفلة منزلية طيبة ...

الأستاذ فرغلى : (لنعمان بجوار الباب) ألا تدفع جنيهاً ؟ ... مبلغ ضئيل جداً ... اسمع منى ... سأنشر صورتك فى الجريدة ، وأكتب تحتها « شخصية رياضية جديدة : نعمان الذى ربح على برقوق » .

نعمان : (بغضب) وأظنك ستكتب عنى أنى فراش ؟

الأستاذ فرغلى : لا أكتب هذا ، ماذا تحب أن أقول ؟

نعمان : لقد اشتغلت خمس سنين عند الأمير « عصام الدين التركى » . كان يعاملنى باعتبارى سكرتيراً خاصاً له .

الأستاذ فرغلى : عظيم ! عظيم ! ! نكتب تحت صورتك « سكرتير سعادة صابر بك » ...

نعمان : ولكن الجنيه كثير على يا أستاذ ؟ !

الأستاذ فرغلى : إن غيرك يدفع عشرة وعشرين لنشر صورته ، ومع ذلك ادفع ثمانين قرشاً : أربعين للصورة ، وأربعين اشتراكاً للجريدة . غداً تسمع بأذنيك باعة الجرائد ينادون باسمك فى الشوارع كما ينادون على العظماء والزعماء ...

نعمان : مناسب ... (يخرج له جنيهاً ويعطيه إياه ...) خذ ثمانين قرشاً وأعطنى الريال ... !

الأستاذ فرغلى : (وهو يضع الجنيه فى المحفظة) وما رأيك يا نعمان لو نشرنا صورتك وعلى صدرك وسام ... ؟

نعمان : وسام ؟ ... وكيف ذلك ؟

الأستاذ فرغلى : لا يعنيك أن تعرف ... هذا من اختصاص مصورنا ... ألم تقل إنك خدمت عند الأمير عصام الدين التركى ؟

نعمان : نعم ! ...

الأستاذ فرغلى : عظيم ! هو الذى منحك وسام النشاط من الدرجة الثانية ... !

نعمان : الدرجة الثانية ؟ !

الأستاذ فرغلى : الواقع أن وسام النشاط من الدرجة الأولى يا نعمان لا يناله إلا معاونو الدوائر والموظفون الكبار ...

نعمان : ... الأمر لله ... وهو كذلك ...

(يمد يده ليأخذ الريال من الأستاذ فرغلى ...)

الأستاذ فرغلى : (يبعد يد نعمان) حسابنا الآن كم ...

نعمان : (يهمس فى أذن الأستاذ فرغلى) سترى ماذا يقول صابر بك عن هذا الوسام ؟ !

الأستاذ فرغلى : لماذا ؟

نعمان : لأنه يود إحراز وسام من القنصل ، ضيفنا اليوم ! !

الأستاذ فرغلي : هيـه ... قلت لي ... إذاً الحفلة لهذا الغرض ؟ !

نعمان : احترس أن تشيع الخبر ... صابر بك يريد مفاجأتكم به ! !

(نعمان يغرق في الضحك ويجتهد أن يكتم ضحكه ...)

صابر بك (يشعر بنعمان يضحك فيقول له) :

ماذا جرى ؟ ألأنت في قهوة ؟ ! اخرج ! !

خليل باشا : أريد أن أرسل نعمان لشراء شيء ، أتأذن لي ؟

صابر بك : تحت أمرك يا باشا ...

خليل باشا : (لنعمان) علبة سيجار يا نعمان من سيجار الهافانا ... أتعرف « ماركة الطيرة » ... فاهم ؟ ! « ماركة الطيرة » .

نعمان : أعرفها يا فندم ... العلبة ثمنها خمسون قرشاً ... ...

خليل باشا : عليك نور ... أحضر لي حالا علبة من البائع القريب من هنا ... محله على ناصية الشارع .. !

(يقول ذلك ثم يذهب إلى المتكأ ويجلس عليه ، ويضع رجلا على رجل . نعمان ينتظر النقود . صابر بك ينظر إلى خليل باشا . خليل باشا يقول لصابر بك) : سعادتك تعرف أني لا أدخن إلا هذا الصنف ...

(صابر بك يعطي نعمان ورقة ذات خمسين قرشاً وهو متعجب .

يخرج نعمان .

التليفون يدق . « صابر بك » يهرع إليه) .

صابر بك : (يتكلم في التليفون) نعم ... هنا منزل صابر ... لن يحضر كسفنقل باشا ؟ ... لأنه مريض .. ؟!

عنايات هانم : كسفنقل باشا ؟ من هو ؟

خليل باشا : شخصية ممتازة ! !

صابر بك : بل ليس له أي امتياز .

خليل باشا : (لصابر بك) كيف ذلك ؟ إنه أكبر تاجر يحتكر الورق ...

صابر بك : هب أنه كذلك ، فهل خرج عن أن يكون تاجراً ... ؟ !

(فكرية هانم تنظر إلى ساعتها وهي متضايقة ، تذهب إلى النافذة . تنظر منها مترقبة حضور المدعوين ..)

الأستاذ فرغلي : (لبدر بك) لعل سعادتك راض عن « المقصلة » ؟ !

بدر بك : (وهو يحكم وضع النوتوكل على عينه) مقصلة ؟ ... وما هي المقصلة ؟ !

الأستاذ فرغلي : مجلة المقصلة التي أصدرها ... ألا تصل إليك أعدادها ؟

بدر بك : أوه ... مجلة عظيمة جداً ... ! مادتها غزيرة وأبوابها مدهشة ...

الأستاذ فرغلي : كل باب في المجلة على رأسه إخصائي فنان .

بدر بك : للبرانامج في المجلة رائع .. من الذي رتب الصفحات ؟ لابد أن يكون من كبار الفنيين !!

الأستاذ فرغلي : (ينحني أمامه) محسوبك هو القائم بهذا العمل المتواضع !

فكرية هانم : (وهي بجوار النافذة تصيح) لقد حضرت حفيظة هانم ...

(فكرية هانم وصابر بك يتوسطان الحجرة استعداداً لاستقبال الزائرة الكريمة . الأستاذ فرغلي وبدر بك منهمكان في الحديث . خليل باشا يتأمل في الصورة الزيتية ، ويتناقش مع عنايات هانم في شأنها ...)

بدر بك : برافو ، برافو ...

الأستاذ فرغلي : وتلاحظ سعادتك أن البـاب

الرياضى بالمجلة ...

بدر بك : حافل جداً ...

الأستاذ فرفل : أظن سعادتك تتبع مقالات « ذكريات قديمة » التى تنشر بإمضاء « كابتن » ؟

بدر بك : ... بدون شك ... « رورباك » مدهش من الحركة الرياضية فى القطر ... ومن القائم بتحرير هذه المقالات ... ؟

فرفل : (ينحنى أمامه فى تواضع) محسوبك هو القائم بهذا العمل المتواضع .. (فطومة تدخل معلنة قدوم الزائرة)

فطومة : عُطوفة حفيظة هانم بهجت ...

(تسلم عليها فكرية هانم ، ثم صابر بك ، ثم بقية الموجودين . خليل باشا يقبل يدها فى حذلقة كعادته . بدر بك يهم بمسح المونوكل ووضعه على عينه ...)

حفيظة هانم : (لصابر بك وفكرية هانم) أنا متشكرة جداً لهذه الدعوة ...

فكرية هانم : أنت الخير والبركة يا هانم ... !

حفيظة هانم : والله ياحبيبتى كان عندى اليوم خمس حفلات !

صابر بك : خمس حفلات ؟ !

الأستاذ فرفل : لا بد أن حفلة منها فى نادى القاهرة ، وحفلة أخرى لافتتاح البناء الجديد لشركة الطوب ...

حفيظة هانم : طوب ؟ لا ، لا ، لا ... واحدة للاحتفال السنوى بذكرى بتهوفن ، والثانية عند زوجة وزير بكفانيا الفوض ، والثالثة فى دار التجميل والاناقة ... ثم الرابعة ، والخامسة ... ضوضاء ، جلبة ، أنا لو طاوعت نفسى وحضرت كل الاحتفالات التى أدعى إليها لن أجد وقتاً للأكل والشرب ... ولكن صدقينى كل هذه الحفلات ليست شيئاً فى نظرى بجانب حفلتكم .. !

صابر وفكرية : (معاً) شكراً يا هانم ...

حفيظة هانم : ولكنى سأترككم بعد ساعة ...

صابر بك : ولماذا ؟

حفيظة هانم : والله عندى عمل صغير فى مدرسة « الأم الرحيمة » !

عنايات هانم : أظن ياعطوفة الهانم هذه المدرسة تحت رعايتك ؟

حفيظة هانم : ومن أجل هذا سأحضر اليوم حفلتها السنوية لتوزيع الجوائز ...

الأستاذ فرفل : أظن عطوفة الهانم لا تبخل على « المقصلة » بكلمة على الهامش عن « مدرسة الأم الرحيمة » ومركزها الأدبى بين المدارس ...

حفيظة هانم : بكل ارتياح ياأستاذ ... من عادة المدرسة كل سنة أن تقيم حفلة سنوية لتوزيع الجوائز ... وحفلة اليوم ستبدأ بالسلام الملكى ، ثم تتقدم فرقة الكشافة ، وتنشد أمامى نشيدى الخاص . لاحظ ياأستاذ أن كل بنت من بنات المدرسة تضع على يسار صدرها شارة محلاة بصورتى ، وتحت الصورة شريطان : شريط أزرق سماوى والآخر وردى صاف ... اللونان اللذان أهواهما .

(تدخل فطومة حاملة بضع تذاكر من تذاكر الحفلة) .

فكرية هانم : ما هذه التذاكر ؟ ! (تأخذ التذاكر وتتفحصها ، ثم تصيح) : إنها تذاكر حفلة اليوم (لصابر بك) : ألم ترسل هذه التذاكر ؟

صابر بك : أى تذاكر ؟ (يأخذ التذاكر منها ويقرأ الأسماء التى عليها ...) منير بك ، داود باشا ... جناب قنصل جنرال مملكة داغستان ، وزير نيروبيا الفوض ، فضيلة الشيخ أبو بكر ... الله . الله . عشر تذاكر لم ترسل لأصحابها ... كيف كان هذا ؟ !

فكرية هانم : (مهتاجة) يظهر أنك نسيت أن ترسلها ؟

صابر بك : كيف أنسى ؟ ... لقد وضعت التذاكر كلها على المكتب منذ خمسة أيام لأرسل السكرتير بها ليوزعها بنفسه .... !!

فكرية هانم : (واهتياجها في ازدياد) ولم لم ترسلها بالبريد كبقية التذاكر ؟؟

صابر بك : هؤلاء من الأحباب ، لا يصح إرسالها لهم بالبريد !!

فكرية هانم : (تصيح) سأختنق ... الحفلة ستخفق لا محالة ...

حفيظة هانم : تخفق ؟ كيف ذلك ؟ كم عددنا الآن ؟ ...

صابر بك : نحن يا عطوفة الهانم (يعد الموجودين) واحد . اثنان . ثلاثة . أربعة . خمسة . ستة ...

فكرية هانم : أتنسى نفسك ؟ ... نحن سبعة .

عنايات هانم : سبعة عدد معقول جداً ... حفلة منزلية لطيفة .

(يدخل نعمان الفراش بالسيجار) .

فكرية هانم : (بتلهف) هل حضر أحد ؟

نعمان : كنتُ أشترى السيجار الهافانا لسعادة الباشا

خليل باشا : (لنعمان) ما هذا التأخير ؟

(فكرية هانم وصابر بك وحفيظة هانم وعنايات هانم وبدر بك والأستاذ فرغلي يتناقشون جانباً في شأن عدد المدعوين وما يجب عمله) .

خليل باشا : (يأخذ علبة السيجار من نعمان ويقلبها بين يديه ، ثم يصيح في وجهه) يا غبي ... لقد قلت لك ماركة أبو طيرة ... ما هذا الذي أحضرته ؟

نعمان : هذا مثل أبو طيرة سواءً بسواء يا سعادة الباشا ، والثمن هو هو ...

خليل باشا : لكني لا أدخن إلا أبو طيرة ... أتشاركني في مزاجي ؟

نعمان : أبو طيرة غير موجود يا فندم !

خليل باشا : غير موجود ؟ ... غبي ... بليد ... أخرج حالاً ... !

(ينظر إلى صابر بك) مقطوعٌ من مرتبك خمسة أيام ... !!

(يتهيأ نعمان للخروج . رأى الجماعة الأخرى يستقر على شيء ...)

صابر بك : (لنعمان) اسمع يا نعمان ... تعال ... !

(نعمان يتقدم ... خليل باشا يفتح علبة السيجار باحتراس ويأخذ لفافة منها . ثم يضع العلبة في جيبه ...) . ألا تستطيع أن تلمَّ لنا طائفة من الناس يشاركوننا في شُرب الشاي ؟!

نعمان : كم شخصاً تريدون ؟

بدر بك : لاحظ قبل كل شيء أن تُحسِنَ الاختيار ... !

فكرية هانم : طبعاً يُحسِنُ الاختيار ... ولكن بسرعة ... ؟!

نعمان : كم تريدون تقريباً ؟

صابر بك : عشرة . عشرين ...

فكرية هانم : ثلاثين ... بقدر ما تستطيع ...

صابر بك : لو أحضرتَ العددَ المطلوب ، لا أقطع من مرتبك شيئاً ...

نعمان : أطال الله عمركَ يا سعادةَ البيك !

فكرية هانم : بسرعة يا نعمان ... بسرعة ... !

(نعمان يخرج) .

فكرية هانم : نكبةٌ علينا أن يصلَ القنصلُ الآن ونحن في هذه القلة .

الأستاذ فرغلي : عَلَيَّ أن أقفَ بالباب ، وحالما يصل أُشغلُه بالكلام وأعقدُ معه حديثاً المقفلة ...

(لها بقية) محمود تيمور

على هامش الأسبوع

لصاحب الإمضاء

علاوة الغلاء :

أحسب أني قرأت منذ أيام أن الرقم القياسي لأسعار الحاجات بلغ نحواً من ١٨٥ ، على فرض أنه كان ١٠٠ قبل قيام الحرب الحاضرة ، أي في سبتمبر عام ١٩٣٩ . ومعنى هذا أن قدرة النقود على الشراء هبطت إلى أن صارت ٥٤ في المائة مما كانت ، فكأنما الأجور والمرتبات قد أُنقصت ٤٦ في المائة من قيمتها الاسمية .

ومن أصحاب الأجور والمرتبات الثابتة موظفو الحكومة ومستخدموها . وقد كان الصخب قائماً على هذه المرتبات وضخامتها ، فاقترح مقترحٌ أن تُنقص ١٠ في المائة ، واقترح آخر أن تُنقص عشرين في المائة ، وغالى ثالث فاقترح أن تخفّض الثلث ، أعني ٣٣٪ في المائة . ولم يجرؤ أحد ، بل لم يخطر على بال أحد أن يبلغ التخفيض ٤٦ ٪ أبداً . ولكن الأيام استطاعت أن تفعل بالمرتبات ما لم تستطع أن تفعله الحكومات .

ومن حسن حظ الحكومة الحاضرة أن الغلاء جاء تدرّجا ، فشرب الموظفون كأسه المرة رشفة رشفة ، فكانوا أصبر على مرارته . فلما أخذت حلقاته تَضيق على الرقاب فتحبس الأنفاس ، جأروا بالشكوى ، فلبّت الحكومة الدعاء ، وقرّرت علاوة الغلاء .

وجعلت الحكومة هذه العلاوة درجات ، بلغت دنياها ٥ ٪ ، وبلغت قصواها ٢٥ ٪ ، وقصرتها على المرتبات التي تبلغ ثلاثين جنيهاً في الشهر فالتي دونها .

وهذه العلاوة الدنيا ، علاوة الـ ٥ ٪ ، تُعطَى لمن مرتبه بين العشرين جنيها والثلاثين ، إذا كان له ولد أو ولدان . فإذا اعتبرنا مرتب الثلاثين وجدنا هذه العلاوة تبلغ ١٥٠ قرشا ، قيمتها الشرائية اليوم ٨١ قرشاً . وإذا اعتبرنا مرتب العشرين وجدنا هذه العلاوة تبلغ ١٠٠ قرش ، قيمتها الشرائية اليوم ٥٤ قرشاً .

أما العلاوة القصوى ، علاوة الـ ٢٥ ٪ ، فتُعطَى لمن مرتبه ٣ جنيهات شهرياً فما دونها ، على أن يكون له ٣ أولاد أو أكثر . وهذه الثلاثة الجنيهات قيمتها اليوم ٥٤ × ٣ = ١٦٢ من القروش . فزيادة الـ ٢٥٪ ترفع هذه القروش إلى نحو من جنيهين . فصاحبها بعد العلاوة لا يستطيع اليوم أن يشترى إلا ثلثي ما كان يشتريه قبل الحرب . ورجل له زوجة وثلاثة أولاد فأكثر ، وهذا مرتبه ، لا يمكن أن يكون ما يشتريه في العادة إلا خبز يومه وغطاء ظهره ونعل قدمه ، وخبز من يعول وغطاء من يعول ؛ ولا أكاد أقول ونعل من يعول . فهو مع العلاوة لا يستطيع اليوم أن يشترى إلا ثلثى هذا الخبز وثلثى هذا الغطاء . ومعنى هذا أنه مع العلاوة سيكون أجوع مما كان قبل الحرب وأعرى ، وأن زوجته وأولاده الثلاثة من بنين وبنات ، وهم في سن النمو ، سيكونون أجوع وأعرى كذلك .

من أجل هذا عرفتُ الحكمة في أن حكومة لبنان زادت أمثال هذه الأجور أضعافاً ، لا كسوراً أرباعاً وأعشاراً .

ليت شعرى لماذا لا تَحبس الحكومات أمثال هذه الأجور الصغيرة عن أصحابها ، وتتكفل عوضاً من ذلك ، في هذا القرن ، بإعاشة أجرائها أدنى إعاشة ، وإعاشة من يُنجبون ، ما دام أن هؤلاء إنما يُنجِبون لخدمة الوطن والدفاع عن البلاد ؟

أو ليتَ شعرى لماذا لا يعود الرق من جديد ! لقد كان في الرق يعمل العامل ويكدّ ، ولكنه كان آمناً على

طعام يومه وطعام غده ولم يكن بعدم دفئاً ، ولم يكن مكلَّفاً بعياله ، ولم يخش التعطّل أبداً . لقد استعاض الرقيق بوقه حرية واسعة ، لكنها حرية التائه فى الصحراء الجرداء الواسعة ، له أن يجوب ما شاء من فجاجها ، وأن يطوى ما ودّ من أطرافها . فله الحرية أن يطلب العمل فلا يجده ، وله الحرية أن يطلب الطعام فلا يجده ، وله الحرية أن يجوع ما لذّ له الجوع ، وأن يَعرَى ما لذّ له العُرْى ، وله الحرية أن يتخير من ألوان المرض ما استطاب ، ومن صنوف الألم الجثمانى والألم النفسانى ما استعذب ، وله الحرية أن يُطارَد فى الطريق وهو يطلب أحقر الأرزاق ، وله الحرية أن يتقبل بالرضا وهو فى سبيل ذلك أقذر ما تبرّزه أفواه السادة الكرام . لقد كنت أعرف من الرقيق ، أو بقايا الرقيق ، من كان ينتفض للاهانة ويَستخذى من الهدية خشية أن يكون فيها معنى مستور من معانى التصدّق والاحسان .

على أنى ما كنت أقصد إلى أن أتعرض لعلاوة الغلاء من حيث مقدارها ، من حيث كفايتها أو قلتها ، فهذا أمر قد يقول بعض الناس إنه موكول لمقدور الحكومة ، وما تستطيع من الأمر وما لا تستطيع . وقد يكون ما يقولون حقاً . وقد يكون ما يقولون باطلاً . وإنما الذى قصدت إليه أولاً أن استخرج من هذه العلاوة وما جرى فى تقريرها ثلاثة أمور جديدة هامّة ، لأنها تتصل بالمبادئ الاجتماعية والاقتصادية وبالطور الذى تطوّرته مصر ، وقد تتطوّره من حيث لا تدرى .

المساواة فى التضحيات :

وأول هذه الأمور قصر هذه العلاوات على صغار الموظفين وحرمان كبارهم منها . ولعل من القراء من يذكر أنها كانت بعد الحرب الماضية علاوة غلاء عمّت جميع الموظفين دون تمييز بين أصاغر وأكابر . فهذا التغير فى عقلية الحكومة تغير خطير ، لأنه يماشى الزمن الحاضر الذى يقول بالمساواة فى التضحيات ، والمساواة فى الآلام ، إن تكن هناك آلام . والغلاء الحاضر عمّ الناس جميعاً ، وأرهق الميزانيات جميعاً ، ميزانيةَ الصغير وميزانية الكبير . ولكنه بينما أكل من شحم الكبير تراه قد أكل من لحم الصغير ومن عظامه ! وليس الذى يُعطى من شحمه كالذى يعطى من لحمه وعظامه ! بهذا تقول كل الدعقراطيات ، وبهذا أخذت حتى الدكتاتوريات ، وهى اشتراكية فى جوهرها . وقد أخذت به الحكومة فيما مضى فيما يختص بالضرائب ، ولكنها أخذت به أخذ المترفّق الحذِر ، فلم تقتطع من شحم الأثرياء شحما كثيراً . وعلى كل حال فالمبدأ عظيم ، والأخذ به تأخّر كثيراً ، فلعل الحكومة ماضية فيه بخطى أثبت وجرأة أكبر .

الأخوات المتعطلات :

وثانى التعليقات التى أعلقها على العلاوة تلك التفرقة الخبيثة التى فرقت بها الحكومة بين واجب الموظف نحو أولاده وواجبه نحو أخواته . وأقول خفية لأنها كانت تفرقة سلبية وصلت إليها بأنها لم تذكر شيئا عن هؤلاء الأخوات ، ولم تجعلهن عاملا مؤثرا فى تقرير الاعانة . والواقع ان مشكلة البنات الأخوات مشكلة من المشاكل الاجتماعية الخطيرة التى لابد أن يكون لها علاج . إن الزمن سيعالجها حتما إذا قصرنا نحن فى علاجها . فلِمَ لا نعالجها نحن ، ونجعل التطور اختيارا بدل أن يكون اضطراراً ؟ إن روح الزمن الحاضر تقول : إن الرجل الذى لا يعمل لا يأكل . وقضى الزمن كذلك بالمساواة بين الرجل والمرأة وهو سائر فى سبيل مساواتها سيرا حثيثا . وهى مساواة فى الحقوق ، كما هى مساواة فى الواجبات . إذاً وجب أن نقول : إن اليد التى لا تعمل لا تأكل كائنة هذه اليد

ما كانت ، وإن اليد التي لا تستطيع أن تعمل يجب أن تعلم كيف تعمل . وهذا مبدأ تطبيقه في ريف مصر هين ، لأن كل امرأة هناك تعمل ، ولكن نساء المدن لا تعمل ، ويقضي العرف بأن لا تعمل ، ويقضي العرف بالعار على من تعمل ، ولكنه لا يقول شيئاً من هذه الآلاف المؤلفة من البنات المتعطلات اللاتي يعشن عالة على أخ كثير العيال ، أو حتى على أب مُرهَق بالأحمال .

إن الأمة التي تريد أن تعيش في هذا الزمن الحاضر يجب أن لا تتخلف عن هذا الزمن في أفكارها ونظمها واقتصادها . ومسألة البنات المتعطلات ليست مسألة اجتماعية فحسب ، بل هي أيضاً مسألة اقتصادية . فتعطيل أيدي الإناث يعطل نصف الأيدي في الأمة ، وتعطيل نصف الأيدي معناه تنصيف الإنتاج . والأمم الآن في حروبها وسلمها إنما تعيش وتحيا بإنتاجها .

لقد هزّني هزة كبيرة ذلك القرار الذي عرضه المستر تشرشل على البرلمان الانجليزي يطلب به تجنيد كل النساء الانجليزيات في الأمة البريطانية ، مما دون العشرين إلى ما فوق الأربعين ، ولا يستثني الأمهات فيما يفيض من أوقاتهن . تصورت عندئذ ما يكون الحال لو تقدم سري باشا بهذا إلى البرلمان .

إن المعيشة الحرة بين الأمم في هذه الأيام غالية ، ولابد من دفع ثمنها مهما علا وغلا ، ولا يغنينا التغافل عن الحقائق شيئاً . فالذين يثيرون الماضي ، ويستنجدون بالعرف كلما طُلِب الاصلاح ، إنما يستنجدون بالأوهام ، ويطلبون المتعة بالأحلام ، وهي متعة الخراف التي ترعى في خرها على خضرة الحقل الجميلة حيناً قصيراً ، ثم تأتيها سكين الجزار .

لقد أحسنت الحكومة في إغفال حقوق الأخوات في إعانة الغلاء إحساناً كبيراً . فلعل الناس يفهمون مغزاه ، ويتداركون الأمور بتعليم المرأة لتكون قرينة للرجل فيما يلزم وطبيعتها من أعمال الحياة المدنية الحاضرة .

العزاب :

وتلك التعليقات التي أعلقها على علاوة الغلاء تلك التفرقة التي أخذت بها الحكومة بين المتزوج والأعزب ؛ وقد أحسنت الحكومة في هذا أيضاً ، فالحقوق والمزايا يجب أن تُوزَّع وتقسم على حسب الواجبات ، والموظف الأعزب قد قصَّر في حقوق الدولة ، لا شبهة في هذا . فالأمم بجودة رجالها ، ولكنها بأعدادهم أيضاً ؛ والأمم حولنا تعدّ بالملايين الخمسين والسبعين والثمانين والمائة ، وما زاد على المائة . حتى المستضعفون هم بأعدادهم قوة ، مثال ذلك الهند والصين . والأمة التي تجمع بين الضعف والقلة تجمع بين الأذلّين .

وقد سمعت من العزاب انتقاداً لنظام العلاوة ، فهم يقولون إنهم لم يتزوجوا لأنهم يعولون أخوات ، وربما يعولون أيضاً آباءً وأمهات . وقد يكون هذا حقاً ، ولكن من الحق أيضاً أن من المتزوجين مَن يعولون آباءً وأخوات . فاغفال هذه القرابات سوّى بين هؤلاء وهؤلاء .

وقف الغلاء خير من علاوة الغلاء :

فهذه ثلاثة مبادىء اتخذتها الحكومة في تقرير علاوة الغلاء . وهي كلها مبادىء محمودة .

ولكن أيّ علاوة للغلاء تنفع إذا لم تصحبها تدابير شديدة لوقف هذا الغلاء أن يتصاعد ، ولم تجد الحكومة إلى الآن التدابير الكافية لوقفه ، غير التسعيرة ! .

أنصتُّ في الأسبوع الماضي إلى تسعيرة الأشياء التي تذيعها الحكومة على الناس وكان بجواري سيدة أجنبية فضحكتْ ، فقلت : علام تضحكين ؟ قالت : أضحك من هذا العالم الذي يخبرنا أن اللحمة بأربعة قروش أو خمسة ،

وأن القماش بكذا ، والدقيق بكذا ، إلى ما هناك من أشياء القوائم ؛ فإما أن يكون هذا المذيع سكران ، وإما أن نكون نحن السكارى .

وقالت : إن الشعب يهمه أن يدفع لا ما يجب أن يدفع . ويهمه إذا دفع وجد الشيء الذي يدفع له . ماذا يهم الجمهور أن يعلم أن ثمن الزيح كذا ، وثمن الزُّهرة كذا ، ما دام أن الزيح والزهرة لا يتزلان إلى الأسواق .

وقالت : لو كنت من حكومتكم لمنعت هذه الإذاعة ، لأن فيها تشهيراً لا يجوز أن يتكرر كل أسبوع .

سمعت هذا ولم أحر جواباً .

وعلى كل حال فقد كانت الحكومة في تقرير هذه العلاوة كيسة في اختيار موعد التنفيذ . ذلك أنها قرنتها بإنزال قرض القطن إلى السوق . وقد سحب هذا القرض من التداول بضعة ملايين من الجنيهات ، وبسحب هذا المال من السوق سيقل ما بقي منه في أيدي الناس . وبسبب قلته ترتفع قيمته ، وتزيد قدرة النقود على الشراء فيقل الغلاء .

وقد اقتدت الحكومة المصرية في هذا بسائر الحكومات ، لا سيما الحكومة البريطانية . فالحكومة البريطانية لجأت إلى القروض من الشعب لأغراض ليس من أقلها تقليل المال الذي تتداوله أيدي الناس ، وتحدث إلى هذا الغرض إعلاناً وفي غير خفاء ؛ ولكنها لجأت إلى أساليب أخرى يكون من الإسراف أن نرجوها من حكومتنا ، أو من أي حكومة مصرية سابقة أو لاحقة ، ما بقيت تجارة البلد في أيد غير أيديها ، وما دام أن هذه التجارة تدور لغير صوالح أبنائها ، وما دامت هذه التجارة تحتمي بالقانون المصري ما حمىَ صوالحها ، فإذا جرى القانون بغير هذه الصوالح ، احتمت لنفسها بغير هذا القانون حامياً .

زكي

أقبل عام جديد

(بقية المنشور على صفحة ٩)

الروسية . وكان أكثر الناس يتوقع أن يتم الاستيلاء على تلك العاصمة بين آن وآخر ، وإذا بالعالم يفاجأ بأن الجنود الروسية في أوائل شهر ديسمبر قد عبرت نهر الدون في الجنوب ، واضطرت النازيين إلى التقهقر وإخلاء روستوف ! وسمعنا للمرة الأولى في تاريخ القوات النازية أنها تتراجع ، وأنها تخلي مكاناً خطيراً استولت عليه ، وارتبكت الدعاية الألمانية لهذه الظاهرة الغريبة ارتباكاً واضحاً . فأخذت تدلي بأعذار متناقضة ، فزعمت أول الأمر أن هذا التراجع إنما يراد به معاقبة الدنيين الذين كانوا يهددون مؤخرة الجيوش الألمانية . ثم زعمت بعد ذلك أنه يراد به تعديل لخطوط القتال ، وتنظيم لها من أجل حرب الشتاء ! ولكن التخلي عن بلدة مثل روستوف لا يمكن أن يساعد على تنظيم خطوط أو إصلاح دفاع . وجاء بعد ذلك كبير الدعاية النازية فأخذ يطالب من بني قومه أن يبذلوا للجنود في روسيا ما لديهم من ثياب وفراء وأغطية ، لأن القوات النازية تحارب عدواً يفوقها عدداً . . . وهذه المرة الأولى التي يدلي فيها بمثل هذا التصريح الخطير . وقيل أيضاً في تفسير تراجع الألمان ، إن الشتاء القارس جعل من الصعب أو من المستحيل تسيير العدد الميكانيكية التي لا يستطيع الألمان الحرب بدونها ، ولهذا اضطروا إلى التقهقر . . ونحن لا نستطيع أن نقطع أي هذه الأسباب أكثر رجحاناً وقوة . ولكن من الواضح أن هذا التراجع حادث على جانب غير قليل من الخطر في تاريخ هذه الحرب . وإن يكن من التسرع أن نبني عليه نتائج حاسمة . وهو على كل حال أعظم حادث جرى في ذلك العام الذي امتلأ بالحوادث الجسام ، لأنه أكبر اتصالاً بمركز ألمانيا الحربي من أي حادث آخر .

محمد عوض محمد

الانســجام

« كنت أستطيع أن أنسجم مع كريم ، لولا أنه دائماً يستفزني ويستثيرني بالطريق الملتوط » .

ذلك ما قالته لي آمال منذ أيام ، وقد رسخت هذه الفكرة في ذهنها حتى إنها لا تكاد ترى كريماً حتى تتحفز للتحدى والمعارضة ، وهو وضع من شأنه أن يطير طائر الآخرين ، ومع أن آمال لينة الجانب فتانة لكثير من الناس ، ومع أن كريماً شاب محبوب مقبول ، فإن كلا منهما يظهر للآخر شر نواحيه ، فلا يمكن أن ينسجما معاً في اجتماع ، وكأنها تقول في وصفه ما قاله أبو الأسود :

بُليتُ بصاحب إن أدنُ شبراً
يزدني في تباعــده ذراعا
أبتْ نفسى له إلاّ اتباعاً
وتأبى نفســه إلا امتناعا
كلانا جاهــدٌ : أدنو وينأى
فذلك ما استطعت وما استطاعا

ومن الغريب أننا كثيراً ما نندهش من الأسلوب الذى نعامل به ، في حين يكون نصف الذنب راجعاً إلينا ، لأنه إذا استثارنا أحد وهيج أعصابنا ، فهذا أعظم دليل على أننا لسنا على انسجام معه ، وما دمنا نشعر بذلك فإننا نستطيع في الغالب أن نريه كل نواحينا إلا الناحية الحسناء ؛ ولكل منا ناحيتان تختلف الواحدة منهما عن الأخرى كل الاختلاف ؛ ونحن نظهر الناس الذين نفهمهم ونحب مسايرتهم على أحسن نواحينا . أما أولئك المكروبون سيئو الحظ الذين يستفزوننا فلا نظهرهم إلا على الناحية المنفرة المزعجة فينا فقط .

ولن نستطيع أن ندهش إذا كانوا لا يقدرونها حق قدرها أو يعجبون بها . ويحدث في بعض أحايين أن يجهل أهلنا أفضل نواحينا جهلا تاماً قاطعاً ، لأننا نعتاد العيش معهم ونشعر أن أى شيء « يصلح » للبيت ولأهل البيت ، ولا نحاول مطلقاً أن نبذل أى مجهود لأداء ما يرضيهم وينال استحسانهم .

لا خير في قربي لغير مودة
ورُبَّ منتفع بود أباعد
وإذا القرابة أقبلت بمودة
فاشدد لها كف القبول بساعد

بيد أنه إذا كنا نريد أن نرى الناس في أحسن حالاتهم ، ونظفر بالأحسن والأفضل في كل زمان ومكان ، فإنه يجمل بنا أن نفعل بالآخرين ما نود أن يفعله الآخرون بنا ، وأن نعطيهم ما نريدهم أن يعطونا .

فساق إلىَّ العرف غير مكدر
وسقت إليه الشكر غير مجمجم

وإذا كان بعض الناس يغيظنا ويستفز شعورنا ، فقد يكون ذلك لأننا نؤثر عليه هذا التأثير بعينه .

من أشرع الرمح إلى وجهه
لا بدّ أن يقلبَ ظهر المجنّ

وعليه فلنذكر أننا إذا كنا لا ننسجم مع إنسان ، فإنه يتعين علينا أولاً أن ندرس تصرفاتنا معه ، وأساليب معاملتنا له قبل أن ننحى عليه باللائمة ، ثم نعمد إلى إصلاح الأمور وتغييرها ، لنعيش في محيط يفيض وئاماً ووفاقاً .

الزهرة

من الشعر التحليلي:

الوحش المكبل

"في أعماق كل نفس يكمن إنسان الغابة الأول مكبلا بالتقاليد والعقل والدين ، وكلما تقدمت الحضارة أحكمت وثاقه وأسلست قياده . وفي هذه المقطوعة صورة صادقة له بين الأغلال".

علىّ من النور الإلهي رونق
أكاد به فوق الحيـــاة أحلق
ولي من ضياء العرف والدين والحجا
نجوم بأحنـــاء الجوانح تألق
ولكنّ في أعماق نفسي غياهبا
تكاد على قلبي الخلـــق تطبق
وفي سترها المسدول يكمن ضيغم
شقي بأوهاق الحضـــارة موثق
به نهم للحم والدم ساعر وفيه اندفاع للمخاتم موبق
أذلته آلاف القرون وكبلت
براثنه فاستنّ في القيد يخفق
تمكن في عطفيّ من عهد آدم
فلســـنا على طول المدى نتفرق

* * *

طغى ما طغى ثم اعترته قيوده
فأسلس كرهاً وهو غضبان محنق
سجين بأعمـــاق الجوانح مفرد
ولكنه في ســـورة الفتك فيلق
يلوح له الماضي السحيق فينتشي
ويوهنـــه الغل الوثيق فيطرق
ويغدو طليقاً في الكرى بيد أنه
يحيط به من حاجز الصحو خندق

* * *

إذ ما طواه الليـــل جن جنونه
وأوثك بالتقريع والهجر ينطق
ويزجر ســـــــمرا فتشي زئيره
بثغري حديث شاعري منمق
ويا ربما يطغى فيهز نهزة تكاد لها أصفاده تتمزق
ولولا قيود الدين والعرف والنهى
لأضحت به الدنيا تغص وتشرق

علي عبد العظيم

يا مرحبا بالحب

يا مرحباً يا مرحبـــا — بالحب مهما أتعبـــا
أو بالقلوب لعبـــا — يا مرحباً يا مرحبـــا

يا مرحباً بركبه — وأهـــله وصحبه
ولومه وعتبـــه — يا مرحباً يا مرحبـــا

الحبُّ أمره عجب — فهو الأسى وهو الطرب
وهو الرضى وهو الغضب — يا مرحباً يا مرحبـــا

حروبه خـــواطف — شجونه نواسف
عواطف عواصـــف — يا مرحباً يا مرحبـــا

صاحبـــه مؤرّق — وهلكه محـــقق
سيف الهوى لا يشفق — يا مرحباً يا مرحبـــا

مهما يكن من أمره — هات اسقني من خمره
من حـــلوه أو مره — يا مرحباً يا مرحبـــا

إذا الفـــراق روّعا — إذا الحشـــا تقطعا
يا قلب فلنهتف معاً — يا مرحباً يا مرحبـــا

صبحي شوقي

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٥٩ — الثلاثاء ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣٦٠ — ١٣ من يناير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

الحرب فى الشرق الأقصى
وصداها فى مصر

تضطرم الحرب فى الشرق الأقصى قبل اضطرامها فى الغرب ببضعة أعوام ؛ ولكنها كانت تتخذ يومئذ صورة نضال عنيف بطىء بين القوتين الأسيويتين العظيمتين ؛ وهما اليابان المتوثبة إلى الفتح والتوسع ، والصين المجاهدة فى سبيل حريتها واستقلالها ؛ وكان انحصارها فى هذا المسرح النائى يكاد يجعلها بمعزل من سير الحوادث فى الغرب ؛ وكانت الدول الغربية ذات المصالح فى الشرق الأقصى أكثر اشتغالا بالأزمات العصيبة التى تواجهها ، فلم تحاول أن تتدخل فى الحرب اليابانية الصينية بطريق مباشر . ولما نشبت الحرب فى أوربا فى أواخر سنة ١٩٣٩ ، كانت اليابان قد قطعت شوطاً بعيداً فى سبيل تحقيق برنامجها الاستعمارى ، واستولت على معظم الأقطار الصينية الساحلية والوسطى ، وأخذت ترقب سير الحرب الأوربية ، استعداداً للقيام بوثبتها التالية .

وسنحت الفرصة لليابان فى صيف سنة ١٩٤٠ حينما انهارت فرنسا وشغلت بريطانيا العظمى بمواجهة خطر الغزو الداهم ؛ فاحتلت جزيرة هينان فى أقصى جنوبى الصين ، وشددت الضغط على الهند الصينية الفرنسية ، واستطاعت أن تحتل ثغورها وقواعدها العسكرية بموافقة حكومة فيشى ، ثم أعقبت ذلك بالضغط على تايلاند (سيام) لتفوز منها بمثل ما فازت به فى الهند الفرنسية ، وأخذت عندئذ خطتها تتضح شيئاً فشيئاً من الزحف نحو البحار الجنوبية ، والركن الجنوبى الغربى فى المحيط الهادى .

وفى هذه المياه الأسيوية الجنوبية تقع جزائر أندونسيا

أو جزائر الهند الشرقية الهولندية الغنية ، وهي سومطره وجاوه وسليبز وبورنيو ، كما تقع شبه جزيرة الملايو البريطانية وقاعدتها المنيعة سنغافوره ؛ وتقع في الشمال الشرقي لهذه المجموعة جزائر الفيلبين الأمريكية ، وفي الجنوب الشرقي تقع أستراليا ، وزيلندة الجديدة .

ولما غزت ألمانيا روسيا في أوائل الصيف المنصرم ، وشغلت روسيا برد هذا الاعتداء ، أيقنت اليابان أن روسيا ، وهي جارتها المباشرة ومنافستها القوية في الشرق الأقصى ، لن تستطيع تدخلا في شئونها في مثل هذا الظرف العصيب ، وعقدت بالفعل مع روسيا ميثاق حياد لمدة خمسة أعوام ؛ فلم يبق أمامها إلا أن تقدم مطمئنة على تنفيذ برنامجها في الزحف نحو المياه الجنوبية ، حيث تصطدم مع بريطانيا العظمى وأمريكا منافستيها في السيادة على المحيط الهادى .

— ٢ —

وفي السابع من ديسمبر رفعت اليابان القناع فجأة ، وقامت باعتدائها العنيف المبيت على ثغر بيرل في جزر هاواى الأمريكية ، ونشبت الحرب في الحال بين اليابان وبين أمريكا وبريطانيا العظمى من جهة ، وبين أمريكا وبين ألمانيا وإيطاليا من جهة أخرى ، كما أعلنت بين بريطانيا وأمريكا وحلفائهما وبين جميع الدول الأخرى المنتمية إلى المحور ، وتحولت الحرب الأوربية بذلك إلى حرب عالمية ، تعم جميع القارات والمحيطات .

وهنا تنعقد الصلة قوية بين ميدان الحرب في الشرق الأقصى ، وبين سائر الميادين الأخرى . فالحرب في روسيا ، والحرب في لوبية ، ومعركة الأطلنطيق ، تصبح كلها إلى جانب الحرب في المحيط الهادى ، حلقات متصلة متفاعلة تتأثر كل منها بسير الحوادث في الأخرى .

ونحن نعرف أن اليابان ترتبط مع دولتي المحور إيطاليا وألمانيا بميثاق مكافحة الشيوعية ، وميثاق التحالف الثلاثي الذي عقد بينها في سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، واعترفت اليابان فيه بحق دولتي المحور وضع نظام جديد لأوربا ، مقابل اعترافهما لليابان بمثل هذا الحق في وضع نظام جديد للشرق الأقصى ؛ وتعهدت أن تدخل الحرب إلى جانب دولتي المحور إذا دخلتها ضدهما دولة غير أوربية ، أو بعبارة أخرى إذا دخلتها أمريكا ؛ وقد كانت أمريكا بما تقدمه لبريطانيا العظمى ثم لروسيا من المعاونات القوية من المواد الحربية الزاخرة ، بمقتضى قانون الاعارة والتأجير ، تعتبر بالفعل في حالة حرب مع دولتي المحور قبل أن تشهر اليابان الحرب عليها ؛ فدخول اليابان الحرب ضد أمريكا من شأنه أن يستغرق قسطاً من إنتاج أمريكا الحربي المخصص لمعاونة بريطانيا وروسيا ، وهو ظرف قد تفيد منه دولتا المحور ، وإن كان الرئيس روزفلت قد أكد أن تدخل اليابان لن يكون له أثر في جهود أمريكا لمعاونة حلفائها .

بيد أنه من الواضح أن المحيط الهادى لم يبق طريقاً أميناً لإرسال الامدادات الأمريكية ، ولابد أن تعتمد أمريكا على طريق الاطلنطيق وجنوبي أفريقية لإمداد الصين وروسيا ، وجبهة الحلفاء في الشرق الأدنى ، بما تستطيع من العتاد الحربي والذخائر . ولا ريب أن أمريكا وبريطانيا لن تدخرا جهداً في إمداد روسيا بنوع خاص بما تحتاج إليه من العتاد والذخائر ، خصوصاً بعد أن تطور سير الحرب في روسيا ، وأخذت الجيوش الألمانية تتراجع أمام هجمات الروس العنيفة في منطقتي موسكو والقرم ، وانقشع خطر الغزو الألماني من القوقاز مؤقتا على الأقل ، وخف بذلك الضغط من جهة الشرق الأوسط ، وهو ما يمكن القيادة البريطانية من أن توجه عنايتها إلى الشرق الأقصى .

— ٣ —

ونستطيع من جهة أخرى أن نلمس الصلة قوية بين سير الحرب في الشرق الأقصى ، وبين سير الحرب في لوبية ؛ فقد وقع الهجوم الياباني على شبه جزيرة الملايو

وسنغافورة في الوقت الذي شغلت فيه القوات الامبراطورية وفي مقدمتها القوات الاسترالية والنيوزيلندية بمقاتلة قوات المحور في الصحراء الغربية ، وشغل الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط بمعاونة الحملة البرية من الشاطيء ، ومطاردة قوافل المحور البحرية ومنع الامدادات الألمانية والايطالية من أن تصل إلى لوبية ؛ ومازالت قوات المحور في لوبيـة تطاول القوات الامبراطورية ، وتشغلها ما استطاعت ، وهي بذلك تمكن اليابانيين من تشديد الضغط على القوات البريطانية في شبه جزيرة الملايو ؛ ولو أتيح للقوات الامبراطورية أن تتم مهمتها بسرعة في القضاء على قوات المحور في لوبية ، وتأمين حدود مصر الغربية بصورة قاطعة ، لاستطاعت القيادة البريطانية أن تنقل جانبا منها إلى الشرق الأقصى لتعزيز الدفاع عن سنغافورة ، ولأمكنها في نفس الوقت أن تنقل بعض الوحدات البحرية إلى الشرق الأقصى تعزيزاً للأسطول البريطاني هناك ، بعد الذي أصابه من الضعف بفقد بارجتيه الكبيرتين «برنس أوف ويلز» و «ريبالس» في بداية الهجوم الياباني .

وفضلا عن هـذا الارتباط الوثيق بين سير الحرب في لوبية وميدان الشرق الأقصى ، فانه قد ترتبت على نشوب الحرب بين أمريكا وبريطانيا وبين اليابان ودول المحور بالنسبة لمصر من الوجهتين السياسية والاقتصادية آثار هامة ؛ ذلك أن مصر قطعت علائقها الدبلوماسية مع اليابان اقتداء بحليفتها انكلترا ، وانقطع التبادل التجاري بينها وبين اليابان ؛ وقد كان هذا التبادل يشغل من تجارة مصر الخارجية حيزا لا بأس به . فالصادرات المصرية إلى اليابان تبلغ ماقيمته نحو مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، وأهمها القطن والفوسفات والملح الطبيعي ، وتبلغ قيمة ما تصدره مصر من القطن وحده إلى اليابان نحو مليوني جنيه . وتستورد مصر من اليابان عادة ماقيمته نحو مليون ونصف مليون جنيه ؛ وتشمل هذه الواردات الزيوت والشحوم وورق التبغ والمنسوجات القطنية والحرير الصناعي والمصنوعات الخزفية ولعب الأولاد ؛ وكان الميزان التجاري دائما في صالح مصر بما قيمته نحو مليون جنيه أو أكثر ؛ وكانت البضائع اليابانية الرخيصة تسد حاجات كثير من أبناء الطبقات الفقيرة ؛ فالآن تقضي الحرب في المحيط الهادي على هذا التبادل ، وتضطر مصر إلى البحث عن أسواق جديدة لتعويض هذا النقص في تجارتها الخارجية .

وأما العلائق التجارية بين مصر وأمريكا فهي باقية على حالها ؛ غير أنه يجب علينا أن نتوقع إزاء اضطراب المواصلات البحرية ، واضطرار البحريتين البريطانية والأمريكية إلى أن تخصصا أعظم قدر مستطاع من الفراغ لنقل المواد الحربية ، أن يضطرب سير التبادل التجاري بين مصر وأمريكا مدى حين على الأقل ؛ وتبلغ قيمة الصادرات المصرية إلى أمريكا نحو مليونين وستمائة ألف جنيه ؛ وهي تشمل القطن والصوف وزيت بذرة القطن والبصل والجلود والخامات المعدنية ، والسبائك الذهبية ؛ وتبلغ قيمة ما تستورده مصر من الولايات المتحدة في الأوقات العادية نحو مليوني جنيه ؛ وتشمل السيارات وهي أهمها ، والآلات الكهربائية والأدوات الطبية والأسمدة والمعادن الخام والملابس والمنسوجات والفاكهة والأغذية المحفوظة ؛ وقد زاد ما تستورده مصر من أمريكا منذ قيام الحرب الحاضرة زيادة كبيرة ، لانقطاع الوارد من الأصناف المماثلة من جهات أخرى ؛ غير أنه يخشى كما قدمنا أن يتعذر نقل الواردات الأمريكية إلى مصر بالسرعة اللازمة بعد نشوب الحرب بين اليابان وأمريكا ، وتغلب الضرورات الحربية على الاعتبارات التجارية ، سواء في الانتاج أو النقل البحري ؛ وهذه ظروف يخشى أن تعاني مصر منها الشيء الكثير ، ولا سيما فيما يتعلق باستيراد بعض المواد الجوهرية التي تحتاج إليها مثل الحبوب والأسمدة

كنوز فى بيت جائع

للأستاذ أحمد أمين بك

كنت أعتقد — كما علمونا فى المدارس — أن قيمة مصر فى واديها الضيق الواقع بين جبلين ، وأن هذا الوادى المزروع نفحة من نفحات النيل فيه كل ما فى مصر من خير ، وأنها بلاد زراعية فحسب ، غناها فى زراعتها ولا شىء غير ذلك ؛ وكانوا يلقنوننا أن « ما عدا الوادى برارى وصحارى قليلة النبات والسكان » ، فاذا زادوا شيئاً قالوا : « وفيها بعض المعادن كالرخام والنطرون والشب والملح والجير » .

هكذا كانوا يعلموننا أيام التلمذة ، فخرجنا من ذلك على أن مصر خط طويل مزروع ، أودع فيه كل ثروتها وإنتاجها ، وحوله صحراء جرداء « فيها كثير من الأرانب والغزلان وبعض الحيوانات المتوحشة » ؛ ووقع من ذلك فى نفوسنا أن هذه الصحراء ليس فيها من خير إلا أنها تلفحنا بسمومها وزمهريرها ، وتحمينا بجدبها وفقرها وقلة مائها من إغارة عدونا علينا ؛ وأحياناً تجود شمسها فى الشتاء ، ويجود قمرها فى الصيف ، فيخرج إليها الهواة يستمتعون بدفئها ونسيمها ، والغَزِلون والشعراء يستلهمونها فى غزلهم وشعرهم .

حتى أتيحت لى قراآت خاطفة ورحلات متعاقبة ، أيقنت معها أن الصحراء كنوز متفرقة وثروة ضخمة ، لا تقل شأناً من النيل ومزارعه ، والخصب ونتاجه ، وأنها كفيلة أن تحوّل مصر إلى بلد صناعى كما حوّلها النيل إلى بلد زراعى ، فتكون بلداً زراعياً وصناعياً معاً ، وينعم أهلها بالخصب الزراعى وبالنتاج الصناعى ، ويتدفق المال عن أيمانهم ومن شمائلهم فاذا هم أغنياء ناعمون ، وليس ينقصهم للوصول إلى ذلك إلا شىء اسمه العلم ، وشىء اسمه الخُلُق .

أدرك هذه الثروة فى بلادنا الأجانب قبل أن ندركها ، وعلموا من قيمتها ما لم نعلم ، فجابوا الصحراء ، وتسلقوا الجبال ، وهبطوا الوديان ، ودرسوا وامتحنوا واختبروا واكتشفوا ، ورسموا الخرائط ، ووضعوا الخطط للاستغلال ، وألفوا الشركات ؛ وما لم تواتهم الظروف لاستغلاله كتموه سراً دفيناً فى نفوسهم حتى يجىء زمنه وتنضج ثمرته ويحين قطفه ؛ وأبناء البلد لاهون غافلون يتجرعون أكثرهم الفقر ويتلوى من الجوع ، ولا يرون فى الصحراء إلا رملاً متجمعاً أو صخراً متجمداً ، والأجنبي يراها كتاباً مقروءاً وكنزاً مفتوحاً .

طف — إن شئت — بالصحراء تر الشركات على اختلاف أجناسها : هذه تستخرج زيوتاً ، وهذه تستخرج معادن لا حصر لها ، وما كل ذلك إلا قليل من كثير تضمه الصحراء بين جوانحها سراً مكتوماً ، تبوح به لمن

وقطع السيارات والورق وغيرها .

ولا ريب أن اتساع مدى الحرب على هذا النحو بدخول اليابان وأمريكا فيها مما يطيل أجلها ؛ وقد سمعنا مستر تشرشل يتحدث فى خطابه الأخير فى واشنطون عن استعداد الحلفاء المنتظر فى سنة ١٩٤٣ ، وسمعنا الرئيس روزفلت يبسط لمجلس الأمة برامج الانتاج الحربى فى سنة ١٩٤٣ ؛ وتدل جميع الدلائل على ترجيح هذا الفرض ، ما لم تقع حوادث مفاجئة ليست اليوم فى حسبان أحد ، كأن تقع ثورة داخلية فى ألمانيا ، أو تنهار قوتها العسكرية على أثر هزيمة ساحقة تصيبها فى الميدان الروسى ؛ وهذه افتراضات لا يمكن أن يعتد بها اليوم بالرغم مما قد يلوح فى الأفق من نذرها البعيدة .

محمد عبد الله عنان

أوتى « مزامز الكنوز » ، وهى العلم والخلق .

أما العلم فأعنى به طائفة تتخصص فى معرفة المعادن والتعدين معرفة واسعة عميقة تصل فيها إلى ما وصل إليه علماء الغرب ، من معرفة بطبائع الأرض وطبائع طبقاتها وطبائع معادنها وكيفية استخراجها وكيفية استغلالها ، وما إلى ذلك .

وأما الخلق فمطالبه أعسر ، إذ أعنى به حرصاً شديداً على مصالح الأمة ، ورغبة قوية فى العمل ، وإرادة جبارة فى التنفيذ ، وتعاوناً وثيقاً بين الجهات المختصة وأرباب الأموال ، وإهدار الحزبية للصالح العام ، والشجاعة فى التجارب أمام احتمال الفشل ، وما إلى ذلك .

ألم تبلغك مأساة كهربة خزان أسوان وما جر تأجيلها من كوارث وما أضاع على البلاد من فوائد كانت تجنيها منها ، وبخاصة أيام هذه الحرب ؟ لقد أضاعها تخلخل الإرادة ، وضعف الإيمان ، ودسائس الحزبية ، والرغبة القوية فى الجدل دون العمل .

* * *

كل الناس فى مصر يرغبون فى استثمار أموالهم من طريق ملكية الأراضى وزراعتها ، وكل الأمل معقود باستصلاح الأراضى « البور » واستغلالها ، خلق موروث من القرون الأولى ، وقفوا عنده وتمسكوا به ولم يتزحزحوا عنه ؛ وكان ذلك طبيعياً لو لم يكن لهم موارد غير الأرض ، وحتى هذا الاستغلال الزراعى لم يؤمنوا بمنهج له إلا مناهج قدماء المصريين فى نوع زراعتهم وآلاتها وتصريفها ؛ وفاتهم أن العلم فى العصر الحديث تفنن فى الوسائل الزراعية وأبدع فيها ، كما فاتهم أن العلم قد اكتشف فى مصر كنوزاً لا عد لها يمكن أن تستغل بخير مما تستغل به الأراضى الزراعية ، وأن رءوس الأموال يوم تودع فيها تربح ما لا يربح القطن والغلال ، ولكن عيبها أنها تحتاج إلى علم أوفى وخلق أرجح وإقدام أقوى وإرادة أنفذ وتعاون أوثق .

* * *

وليس الاستغلال الصناعى يعود على الأمة بالخير من ناحيتها المالية فحسب ، بل يعود عليها أيضاً من ناحيتها الخلقية والاجتماعية ، فالأمة الصناعية أرقى — عادة — من الأمم الزراعية فى عقلها وخلقها ، وإدراكها لحقوقها الاجتماعية وواجباتها القومية ؛ فإذا أضفنا إلى طبقتنا الزراعية طبقة أخرى صناعية ، كان لنا من ذلك طبقة جديدة أشد نشاطاً وأصلح حياة وأرقى إدراكاً ، تكون مع الطبقة الزراعية مزاجاً منسجماً ، ومزيجاً متجانساً .

* * *

دعانى إلى الكتابة فى هذا الموضوع رحلة فى الصحراء مع صفوة من الأصدقاء فى عطلة هذا العيد ، فاخترقناها من أسيوط إلى الواحات الخارجة فالداخلة ؛ وعهدى بالواحة الخارجة قديم ، فقد عيّنت فيها أول ما عينت قاضياً ، وجبت بلادها ، وزرت أكواخها ، وعاشرت أهلها ، وقضيت بين خصومها ؛ فلما زرتها هذه المرة بعد أكثر من عشرين عاماً ، حننت إليها حنينى إلى الشباب ، ووقفت على دورها القديمة ، وقلت هنا كنت أسكن ، وهنا كنت أقضى ، ورأيت أكثر من عرفت فيها قد اخترمتهم المنية ، وعدا عليهم الزمن . ورأيت مظاهرها الخارجية قد حسنت ، وأصبحت تعجب الناظرين ؛ فقد تحولت من مركز يديره معاون إدارة إلى محافظة يسكنها محافظ ؛ فشوارعها قد اتسعت ، ومدخلها نسق بالأشجار ؛ وهذا نادٍ للموظفين ، وهذه استراحات للحكومة ؛ ومع هذا فالشعب بائس كما تركته ، فقير كما تركته ، مريض كما تركته ، وموارده النخيل كما تركتها ، والأرض الطفيفة القليلة كعهدى بها ، والحيوانات الهزيلة كما خلفتها .

ورحلنا إلى الواحات الداخلة ، فوجدنا منجماً جديداً يكتشف ، وكنوزاً وافرة يهتدى إليها .

كانت منذ القدم مياه على بعد قريب من الأرض يُعثر عليها ، فاذا مدت الأنابيب إليها خرج ماؤها يسيح على وجه الأرض يستقون منه ، ويزرعون به أرضهم القليلة الضيقة ، ثم تقل المياه ، وتطمر عين وتفتح عين ، والماء محدود ، والعيون يؤثر بعضها فى بعض ، تتأثر العليا منها بالسفلى .

فمن عهد قريب أرادوا تجربة النزول بالأنابيب إلى عمق أبعد ، واختراق طبقة أسفل ، فما إن دقوا أنابيبهم ووصلوا إلى ثمانمائة قدم حتى تدفقت المياه على سطح الأرض فى غزارة عجيبة ؛ وإذا بالعين الواحدة تقذف خمسة عشر ألف طن فى اليوم من غير آلات رافعة ، ومن غير أى عناء ؛ ثم تجرب التجربة نفسها فى أربعة مواضع فتخرج عيون أربع كالتى وصفنا ، ويدل البحث على أن هنـاك مساحات فسيحة فى أعماق الأرض تدخر هـذه المياه فى وفرة عظيمة وغزارة عجيبة . فماذا كان ؟

هل حللت هـذه المياه لمعرفة عناصرها ، وما تحتويه من مواد وما لا تحتويه ؟ وما هو نوع الزرع الذى يناسبها والذى لا يناسبها ؟ هل اختبرت المياه وعرف ما تفيد من الأمراض وما لا تفيد ؟ هل رسمت خطة منظمة للانتفاع بهذه المياه الدافقة ؟ هل تعاونت وزارة الزراعة ووزارة الأشغال ووزارة الصحة فى استغلال هذه المياه ؟ فالأولى تنظم الزراعة ، وتشير بطرقها وما يصلح لها ، والثانية تنظم الرى ، وتستخرج كمية المياه المطلوبة ، والثالثة تنتفع بها من الوجهة الصحية ، وتمنع ما ينجم عن ركودها من أضرار ؟ لا شىء من ذلك كله ، وكأن العيون قد نبعت فى الربع ، وقد رأيت المتدفقات حولها تتكون ، والأيدى العاملة لا تتناسب وغزارتها ، وكأن العيون عز عليها سوء استقبالها ، فتسربت إلى الرمال لتعود إلى أعماقها فى خجل وخزى ؛ وسمعت بعض أولى الأمر هناك يشيرون بسدها إلى أن يستيقظ النائم ويجد الخامل .

رحماك اللهم ! لو نبعت مثل هـذه العيون فى أمة يقظة ، لحولت ما حولها جناناً ناضرة ، وبساتين مزهرة ، وحدائق غُلبا ، وفاكهة وأبّا ، ولأزالت البؤس وأجرت النعيم ، ولأفنت العطالة ، والتهمت البطالة ، ولرأيت المستشفيات تبنى حولها ، والمشاتى تقام فى نواحيها والمواصلات تمد إليها ، ولرأيت ثَمّ نعيما ومُلكا كبيرا ؛ ولكن وا أسفاه ! عز العقل المدبر ، وضعفت الهمة النافذة ، فلننتظر حتى يأتى إليها من غير أهلها من يعرف كيف يستغلها . ويالله للشعب البائس ! ويالله ممن بيدهم تصريف الأمور ! أليست هذه كنوزاً فى يد مساكين !

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠ مـ	فى مصر والسودان
	٢٥	الطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجية عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١ مـ مليم

تعـــــويض

للقاضي الفاضل صاحب الإمضاء

لفت نظرى يوماً وأنا أعمل فى إحدى محاكم القاهرة أن المحاضر التى تحول على عكمتى من إحدى النيابات تأتى وعليها « توقيمات » كبيرة الكلمات واسعة الحروف بحيث إن الكلمتين أو الثلاث منها كانت تستنفد السطر ، وبحيث كانت السطور الأربعة أو الخمسة تستنفد الصحيفة ؛ فهى إلى « البفط » و « إعلانات الحائط » أقرب منها إلى التوقيمات الفنية أو الادارية ، التى توضع على الورق لاستيفاء نقص فى التحقيق أو لتحديد جلسة تنظر فيها الدعوى . فأحببت أن أرى وكيل النيابة صاحب هذه التوقيمات الفخمة . وعرفت اسمه ثم التقيت به فاذا هو ممن يسميهم زملاؤهم على سبيل الفكاهة « عقلة الأصبع » لفرط ما هو عليه من قصر القامة ، ولأنه لا يكاد يفصل بين طربوشه الأنيق وحذائه اللامع إلا أشبار قليلة . فقلت فى نفسى : لقد كان طبيعياً أن أتهيأ لرؤية صاحب ذلك الخط على مثل هذه الصورة ، إذ ما حاجة الرجل الطويل العريض إلى أن يعلن من نفسه بمثل هذه الحروف الفخمة والكلمات الضخمة وله من قامته وعامته ما يغنيه من ذلك ؟ وإنما هو الجسم الضئيل والقوام النحيل الذى يحاول إخفاء نفسه وراء هذا الستار الفضفاض ، وهذا الخط العريض .

ودعانى ذلك إلى التفكير فى بعض من أعرف من الناس لأتبين طرق هذا النظر ، فرأيت أن أصغر الناس أجساماً هم فى الغالب أكثر الناس دوياً ، كأنما يريدون أن يتحاشوا من قصر قامتهم بطول باعهم فى لفت أنظار الناس إلى مواهبهم الأخرى . وذكرت أن أحد كتابنا النوابغ الذين يملأون الدنيا بمقالاتهم وكتبهم — وكانوا فى صباهم يملأون الدنيا أيضاً بشعرهم وقصيدهم — كان وما يزال يحمل لساناً أحد من السهم وأقتل من السيف ، حتى لقد اعتدنا أن نسميه فيما بيننا « بذى الشطب » . وكان فى مستهل حياته الأدبية حين كان يضع قواعد شهرته كأديب ، لا يحلو له أن يدعم هذا البنيان الجديد إلا بمحث من يهاجمهم من كبار الأدباء والشعراء . وكانت له فى ذلك جولات وفتكات لا بد يذكرها اليوم كل من كان مهتماً بشئون الأدب فى مصر منذ ربع قرن من الزمان . ولم تكن تلك الفتكات الجريئة وتلك الضجة الدوية هى أغرب ما فى شخصية ذلك الكاتب . ولكن الغرابة كلها كانت فى جسمه الذى لا يمكن أن يتجلى إلا فيه صدق قول القائل :

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل
لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

ولقد كنت أسمع بهذا الأديب وأقرأ له فأصوره لنفسى مارداً عملاقاً يسير فى الطرقات كما كان يسير « جلفر » فى دولة الأقزام . فيتناول بأصابعه ما شاء من رءوس المارة فيفركها بين أنامله ثم يلقيها على الأرض فتاتاً وتراباً . فلما رأيته هالنى أنه رجل جاوز الأربعين ولا يزال وجهه فى حجم القطعة الفضية من ذات القرشين ، وأنه كله بطربوشه الطويل وحذائه العالى يغرى الانسان بأن يضعه فى جيب سترته كأنه قلم من أقلام الرصاص .

وقد كان هذا الأديب الكبير فى أول أمره معلماً ، فحدثنى عنه بعض تلاميذه أن مدرس الترجمة فى مدرستهم كان رجلا ضخم الجثة عريض المنكبين ثم نقل من عندهم إلى مدرسة أخرى ، فاستشرفوا لقاء المدرس الجديد . وجاء يوم حصة الترجمة وحل موعد ساعة الدرس . وجلس التلاميذ فى مكتبهم ينتظرون وهم على عادتهم المألوفة من المرح والصخب والمازحة والتقاذف بالأوراق وغيرها ، ومطاردة بعضهم بعضاً فى الممرات الضيقة بين

المكاتب . وإذا رجل يدلف من باب الحجرة إلى منصة المعلم ثم يجلس على كرسيه . فتطلعوا إليه ولم يخطر ببالهم أنه المدرس الجديد . إذ كان أصغرهم سناً وأكبرهم منه جسماً . فلم يحفلوا به ولم يأبهوا له ، وظلوا آخذين فيما هم فيه من لهو وعبث ، وصاحبنا القابع على كرسيه يسلط عليهم عينيه الواسعتين النافذتين الصارمتين فلا تصيبان أحداً إلا تلقيان به في مقعده متخاذلاً مرعوباً ، حتى هدأت الثائرة واستقر الجميع في أماكنهم ، ثم قام لهم صاحبنا فأعلمهم أنه هو المدرس الجديد . واستقلظ من فتيان المكتب من شاء أن يجعله أمثولة لغيره ، فدعاه إليه على أنه زعيم هذا المرح وقائد هذه الثورة ، وما زال به يقرعه ويبكته ويُعَرِّض بضخامة جسمه وينوشه بلسانه اللاذع ونفثاته الساخرة حتى تركه كما يترك العنكبوت الذبابة بعد أن يداورها ويحاورها ويتركها مسحورة تحت تأثير لسعات سيقانه الطويلة القاتلة .

ويقول صاحبي الذي روى لي هذا المشهد إنه ظل ورفقاءه تحت تأثير الذعر الذي غمرهم به أستاذهم حوالى شهرين ، ثم اطمأن إليهم معلمهم فبسط لهم نفسه . وأذاقهم من حلوها بعد أن سقاهم مرها . فتحولت الصلة بينهما من رهبة مميتة إلى حب متبادل وألفة مستحكمة ، حتى لقد كانوا ينتظرون درسه ويؤثرونه بحبهم وإقبالهم دون باقي الدروس .

فهذه الشخصية الجبارة التي يتمتع بها هذا الأديب الكبير إنما جاءت له من طريق التعويض عن النقص الذي يحسه في تكوين جسمه الصغير . وإني لأذكر أني قرأت مرة مقالا لهذا الأديب الذي أتحدث عنه فإذا هو يتحدث فيه عن نفسه وعن بعض ذكريات طفولته . ويروي للقراء فيما يرويه أنه كان يقيم في بعض الأحياء الوطنية القريبة من الجبل ، وأنه كانت بين الفينة والفينة تقوم المعارك بين أولاد حارته وأولاد الحارة المجاورة ، فكان الفريقان يخرجان إلى الجبل حيث يقفان في صفين ثم يتراشقان بالطوب والحجارة ، وكانت مهمته هو — على حد تعبيره — أن «يحدف الزايقة» وهي الطوبة التي يشتبك على أثرها الفريقان — وظلت هذه مهمته حتى شب وكبر واشتغل بالسياسة واشترك في الحرب الحزبية الطاحنة التي كانت تدور متدا على صفحات الجرائد في السنوات العشر الأخيرة ، وأصبحت مهمته أيضا أن «يحدف الزايقة» بين الأحزاب . وأصبحت هذه «الزايقة» في عهده الجديد مقالا يحرره ، فيكون نشره إعلانا للحرب بين هذه الأحزاب تظل تتساجل فيها وتتراشق بما هو أنكى من الطوب والحجارة — الأسابيع والشهور الطويلة . . .

***

وتذكرني قصة هذا الأديب بقصة أديب آخر من أدبائنا المحبوبين ، حلى له أن يترك إخوانه يلقبونه بأنه «عدو المرأة» وقد استراح هو لهذه الصفة واطمأنت إليها نفسه ، وآمن الناس بوجود هذه العداوة حقا — وكنت أنا بينهم من المؤمنين — حتى كان الأسبوع الماضي ، إذ أخذت في مطالعة كتاب في علم أمراض النفس للدكتور إرنست نيكول — Ernest Nicole — Psychopatholohy — فوجدته يتحدث في بعض فصول كتابه من نظرية «أدلر» — adler — في تفسير «مركب النقص» عند بعض الناس ، والطريقة التي يعمدون إليها لتغطية هذا النقص . ووجدته يقرر أن الغريزة الأولى في الرجل هي أن يعيش قويا . وأن يرى في رجولته امتيازاً حبته به الطبيعة ليكون أفضل درجة من المرأة . فإذا حدث أن اعترضت طريق الرجل في حياته العملية أو الفنية امرأة تأثر بها في عمله وتفكيره ، وبدأ يشعر بسلطانها عليه هاله أن يرى نفسه مغلوباً على أمره . وكان ذلك سببا في أن تظهر عليه أعراض النفور من المرأة والابتعاد عن دائرتها . ويستطرد المؤلف فيقول : إن الرجولة أرفع قدرا من الأنوثة . والرجل أقوى إرادة وأحدُّ

دهننا من المرأة . فاذا وقع الرجل تحت تأثير المرأة وهذه منزلته منها راعه أن يرى نفسه خاضعا لها . وركن إلى الفرار من هذا الموقف بإعلان خصومته لها ونفوره منها وإعلانه منها أنها « مخلوق تافه » لا خير فيه ولا غناء عنده . . .

ولكن من الناس من إذا وقع تحت هذا التأثير عينه ذهب إلى النقيض الآخر ، فالتمس « التعويض » في السيطرة على جميع النساء ، بأن يتخذ فيهن سيرة « الدون جوان » .

ومن الواضح أنه لا سبيل للرجل كيا يظهر تفوقه على المرأة الا يسلوك أحد هذين الطريقين . فإما التعالى عليها بمقاطعتها والزراية بها ، وإما السيطرة فوقها بالحصول عليها

وإنى أرجو أن لايسوء هذا التفسير صديقنا الكبير ، فان علم النفس الحديث ما زال فى أطواره الأولى . وعماده عند أصحابه ما يقع لهم من المشاهدات . والقاعدة التى يقررها أحدهم قد يسارع إلى نقضها زعيم آخر من زعماء هذا الميدان .

والخلاصة التى نسعى لاثباتها فى هذا المقال أن الرجل مهما أوتى من المزايا لا يخلو من عيب كامن قد لا يحسه أحد من الناس سواه . ولكنه مع ذلك يؤذيه أن يرى فى نفسه هذا النقص فيعمد إلى إخفائه والتغطية عليه ، مدفوعاً إلى ذلك بغريزته الفطرية فى أن يعيش محترماً قوياً . وتسمى هذه العملية فى علم النفس الحديث بعملية « التعويض » — Compensation

* * *

وهذا الكلام وإن كان من مقررات هذا العلم الحديث غير أنه ليس من مبتكراته . فان الناس يعرفون هذه الحقيقة منذ أقدم العصور . وأمثالنا العربية طافحة بهذا المعنى . وأقربها إلى الذهن ما يقول : « كل ذى عاهة جبار » . ومن الطبيعى للرجل ذى العاهة أن لا يترك نفسه سخرية بين الناس بسبب عاهته ، فهو — بدافع من طبيعته — ينسج حول هذه العاهة هالة من الهالات التى يكبرها الناس ، كما تصنع الصدفة حين تفرز اللؤلؤة حول ما وقع فى جسمها اللين من قذى البحر .

بل إن من الأمثال العامية عندنا ما يعبر عن هذا المعنى فى صورة ساذجة ، وبعبار قد تخلو من اللياقة الأدبية ، ولكنها لا تقل من غيرها قوة فى تقريرها للواقع . فكثيرا ما نسمع على لسان العامة قولهم مثلا : « يا وحشة كونى نغشة » . وإنك لتجد حقاً أن أقل النساء حظا من الجمال هن أكثرهن اعتداداً بأنوثتهن وأشدهن ميلا إلى المغازلة .

وعلى العكس من ذلك ما يطرأ على الرجل الذى انهزمت نفسه تحت تأثير شهوات جسمه ، فانه يلتمس « التعويض » عادة فى الصلاة والعبادة ، يحاول أن يغرق هموم نفسه فى ممارستها . وكم من لحية أرخاها صاحبها ، لحملها الناس على أنها آية من آيات الهداية ، وعلامة من علامات التقى ، وهى فى الواقع ليست إلا محاولة من صاحبها فى سبيل تعويض ما يحسه فى قرارة نفسه من نقص .

ولسنا نريد أن نبحث الآن فى هل يتخذ الرجل هذه المظاهر أحابيل يوقع بها فرائسه فى أشراكه ، أو أنه إنما يحاول بها أن يعيد التوازن إلى قواه النفسية حين يرى أنه أفرط فى فسوقه ، فيعمل على تدارك هذا الخلل بلحية طويلة يرخيها ، أو عمامة ثقيلة يتوارى تحتها ، أو بوضع ركعات وسجدات يلقى بها فى الكفة الأخرى من ميزانه ، حتى لا يبدو للناس مائلا إلى أحد جنبيه . وكل الذى يعنينا هنا أن نسجل هذه الظاهرة النفسية على أنها من بين « التعويضات » التى يتوسل بها من يصابون فى قرارة نفوسهم بهذا النقص .

* * *

ولعل من المشاهدات التى لا يصح أن يغفل الانسان عن إثباتها وهو يخوض هذا الحديث ، أن الرجل الأحدب الذى شوهته حدبته كثيرا ما يكون من أشد الناس عناية

بهندامه ، وأ كثرهم تأنقا في ملبسه ، كأنما يصيح عن براه أن لا تؤاخذني بما قصرت فيه الطبيعة مني ، ولكن هذا هندامي ، وهو من صنعي وحدي ، فهل تراه إلا جديرا بالاستحسان والاعجاب ؟

ولقد كان شاعر الانجليز « بيرون » يشكو عرجا في إحدى رجليه ، وقدلك لم يكن يكف عن التحدث عن جمال وجهه ، كما كان « نيتشه » مريضا هزيلا يصرخ من الآلام التي كانت تمزق رأسه ، ومع ذلك فإنه كان أكبر داعية عرفه العالم يدعو إلى تمجيد القوة وتأليه الأقوياء .

وما لنا نذهب بعيدا ، فنستشهد بشعراء الانجليز وفلاسفة الألمان ، وهذه « دواويننا » هل نرى فيها رئيسا متغطرسا يحكم موظفيه بقسوة معاملته ووقاحة صلفه إلا كان ذلك لتغطية ما يحسه عند نفسه من النقص بسبب جهله في عمله ، أو عدم عفته في معاملاته ؟ إن الطبيعة التي خلعت على العقرب زباناها ، وعلى الثور قرنيه ، لا تجد مع هؤلاء الناس وسيلة أنفع لهم مما تغدقه عليهم من صفات العجرفة الفارغة والنفخة الكاذبة !

* * *

وأخيرا أود أن أختم هذه الكلمة — كما بدأتها — بمشاهدة مستمدة من دور المحاكم ، حتى نعود بذلك إلى الدائرة التي اعتدنا أن نحصر كلامنا فيها ...

فقد ظلت حوادث التصادم التي تقع بين بعض القضاة وبين المحامين أثناء العمل موضع بحث الباحثين والراغبين في الإصلاح ، حتى اهتدوا أخيراً بالاستقراء إلى أن معظم هذه الحوادث لم تقع إلا مع قضاة كان أسلهم من المحامين ، فكان وهمهم يخيل إليهم ، وهم في منصة القضاء ، أن كل محام يتكلم أمامهم إنما يرمي إلى التعريض بهم — فهو إذا ألح مثلا في طلب تأجيل قضية مدفوعا إلى ذلك بعامل المصلحة التي يجدها موكله في هذا الطلب ، فسر القاضي إلحاحه بأنه إنما يريد أن يعلن إرادته عليه ، غير معترف بسلطته التي امتاز بها بعد جلوسه على كرسي الحكم ...

وإذا استعمل القاضي حقه عند التصرف في قضية على وجه ما ، وكان هذا الوجه لا يتفق مع مصلحة المحامي ، فسر المحامي منه ذلك بأنه لم يعمد إلى هذا التصرف إلا تعاليا عليه ، وتحكما فيه ، وتباهيا بسلطان مركزه . وليس يخفى أن العلاقات إذا انتهت بين طائفتين من الناس إلى مثل هذه الحال من التفاهم السيء كانت كل إشارة منهم تحديا . وكل عبارة تعريضاً ، وحل التأويل الفاسد محل الفهم الصحيح والقصد السليم ، وفسدت العلاقات بين الفريقين ...

وإن جاز لي أن أبدي رأياً في هذه الحال فاني أرى أن الخطأ الجسيم في أمثال هذه المواقف إنما يقع في جانب القاضي ، لأنه في مجلسه أسلم عاقبة وأحصن موقفاً ، وأقل تأثراً بما يقع من العدوان ، وأقدر على الصفح ما دام أقدر على العقوبة .

وقد نعود قريبا فنتوسع في هذا المعنى . ونخصص له كلمة نوفيه بها حقه ، حتى لا نكون قد خرجنا عن موضوع هذا المقال .

ع . ج

فرويد والموت

الموت مشكلة قديمة ممتنعة الحل، ولغز دائم يضل في متاهاته الفكر، وقد جل شأنه، وعز علاجه، وصدق فيه قول المتنبي معزياً سيف الدولة:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا
وأعيا دواء الموت كل طبيب

ولكن هذا الموت القوي الغلاب لم يستطع أن يستأثر بالتفكير الانساني، ويستحوذ على المشاعر البشرية بصفة مباشرة، ولم يكن على الدوام من المسائل الحبيبة إلى الفن، القريبة من الشعر، العزيزة على الفلسفة؛ وتتفاوت العناية به بتفاوت طبائع العصور واختلاف الحوادث، ففي أيام الحروب وتفشي الأوبئة والأمراض، تتعلق به الظنون، ويتجه إليه التفكير؛ وقد تصور الانسان الموت تارة كالحاصد الذي لا يلين ولا يرحم، يحصد بمنجله الأرواح، ويزهق النفوس، وطوراً تمثله باب الخلود، وجسر الانتقال إلى عالم أسمى وأسوق من عالمنا الأرضي الزائل، ووصفوه مرة بالعدل، وأخرى بالظلم، وأبو تمام يقول:

متى ترع هذا الموت عيناً بصيرة
تجـــد عادلا منه شبيها بظالم

وكان جيتي يرى الموت حيلة تلجأ إليها الطبيعة لتستكثر من الحياة وتزداد نضارة، وكان يعتقد اعتقاداً عميقاً أن لا شيء في الحياة يصير إلى بلى ونفاد، وأن عقولنا باقية خالدة، وأنها كالشمس تغرب حيال ناظرنا، ولكنها في الواقع تظل تشع ضوءاً بلا انقطاع.

وكان القرن التاسع عشر يؤمن بفكرة التقدم، ويقبل فكرة جيتي بشيء من التعديل؛ ولكن جاءت الحرب الكبرى، فهزت هذه العقيدة ونالت منها، وأخذت حقائق الحياة المرة القاسية ترفع رأسها الحزين، وتبسم ابتسامتها الساخرة، وبدا الموت من جديد في صورة مشكلة عميقة تسترعي النظر، وتطالعنا من كل النواحي، وأخذ الأدب يعالجها والفلسفة تدور حولها.

والموت في الأدب العربي الحديث مشكلة حقة لها مكانتها؛ وقد جرى بعض الروائيين البارزين في علاجه على نمط التفكير الاقتصادي الغالب على هذا العصر، ففرق بين موت الفقير وموت الغني؛ فالفقير الصعلوك يستسلم للموت ولا يتقدم بطلبات؛ ولكن الغني — الرأسمالي — يجاهد ويقاوم لأنه يخشى أن يفقد ما يملكه، ويتشبث باسمه المحترم ومكانته السامية، ويحرص على رصيده في المصارف وما تغله عليه ضياعه الواسعة وأملاكه الكثيرة. وقد وصف الكاتب الألماني البارع فرانز ورفل Franz Werfel في أقصوصته «موت فقير» وفاة رجل من سكان فينا كان يعمل وكيلا لأحد المحلات التجارية، وأصيب بذات الرئة، وعلقته حبال الموت؛ ولكنه ظل يجاهد ويناضل لتأخير موته بضعة أيام حتى يتم الخامسة والستين، ويحصل لأسرته على مزايا التأمين المستحق في هذا التاريخ؛ وكانت بوادر أفكاره، وعوامل أحلامه، وهواجسه الأخيرة تنم جميعها عن الصراع العنيف القائم في عقله الباطن بين التحلل الطبيعي الذي أخذ يدب في جسمه ويستنزف حيويته، وغريزة المحافظة على أسرته، وضمان مستقبل أولاده، وكانت تمر قبالة عينيه الداخليتين حوادث حياته البارزة شوهاء مهوشة؛ ولكنها على ما بها من اضطراب جلية الرمز، ويتراءى له رؤساؤه السابقون مثل كاهن كنيسته، ومدير الشركة التي كان يعمل بها، وقائد فرقته، ويأمرونه بالخضوع لمشيئتهم، والاستسلام لطالب «الذات الأسمى»؛ ولكنه يظل يجاهد حتى يصل إلى بر السلام، وبر السلام هنا هو اجتناء غائلة الفقر، وذلك بحلول ميعاد دفع التأمين. وقد جرى الانسان أشواطاً بعيدة، وبذل جهوداً ضخمة ليؤكد خلوده، ويضمن

بقاءه ؟ ولكن هذا الجهد المبذول لم تعززه حجة واضحة ، وإنما أيدته رغبة حافزة ترى إلى درء الشكوك ، وانتزاع الإيمان ، وقد دلت هذه الرغبة المستحكمة على شدة حرص الانسان على تبرير هذا المعتقد العزيز ، وتسويغ هذا الأمل الغالي ؟ وليس عندنا دليل متماسك الأجزاء حاسم الاثبات على خلود النفس ، ولا تجربة معهودة ؟ وإنما اعتمادنا في الاستمساك بهذه العقيدة على قيمتها العملية من ناحية ، وعلى جذورها العاطفية الواغلة في أعماق الطبيعة الانسانية من ناحية أخرى . والاعتقاد بخلود النفس قد تخذله البراهين المنطقية ، وتعوزه الحجج الرياضية ؟ ولكن له من شدة تشبثنا به ، وعمق حاجتنا إليه ، ما يجعل لوجوده قيمة .

ولكن ما هو خلود النفس هذا ؟ يرى بعض المفكرين أن معنى خلود النفس هو امتداد كرج الفرد الانساني إلى ما بعد هذا الحادث الخطير المسمى « الموت » . ولكن هل الخير للانسان أن تنتهي حياته بتلك الخاتمة ، وتقف عند هذا الحد ، أو الخير له أن تكون هذه الحادثة مجرد انتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل الوجود يظل فيها الفرد محتفظا بذاتيته ، ومستطيل مجهوداته ، ويتسع نطاق أعماله ؟

وقد رأى فريق من الناس أن الاعتقاد بخلود النفس يحرم الفرد فرصة لقاء الموت بشجاعة ونبل ؟ وإذا كان الموت محض انتقال من حياة إلى حياة أخرى ، فما مصير البطولة والتضحية والشرف ؟ وأرجح أن المتنبي كان يرمى إلى ذلك في قوله عن الدنيا :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى
وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

ولكن الحقيقة أن مسألة خلود النفس في حاجة إلى البرهان العقلي ؟ وسيظل الموت خسارة ظاهرة ، ونكبة مرهوبة ، وسيظل الناس يخشون لقاءه ؟ والاعتقاد بالحياة المقبلة قد يلطف الموت ، ويهون وقعه ، ولكنه لا يقضي على فزعنا منه ، ولا يروضنا على قبوله والترحيب به ؟ وقد يمنحنا الأمل ، ولكنه مع ذلك يترك متسعاً لاظهار التجلد والعزم والشجاعة والنبل .

وقد أخذت الحرب الكبرى السالفة فرويد وغيره من الكتاب على غرة ، وأرغمته على التفكير في مشكلة الحرب ؟ ومشكلة الحرب في دورها اضطرته إلى تناول معضلة الموت ، ولغز البقاء والخلود ؟ وفرويد مفكر صارم التفكير ، صلب العاجم ، لا يترفق ولا يتجمل ، وإنما يتصلت في طريقه ، ويمضي قدما إلى غايته ، وهو من المفكرين الذين تعود الناس أن يسموهم هادمي الأصنام ومبددي الأوهام ؟ وقد لقيت آراؤه معارضة شديدة ومقاومة عنيفة من الخصوم والأصدقاء ، لاعتقادهم أن نظرياته واتجاهاته وتحليلاته تهز أسس الدولة ، وتناقض بناء الأخلاق ، وتراخي روابط الأسرة ، وتفسد الدين والوطنية ؟ ولكنه جعل ذلك كله دبر أذنه وتحت قدمه ، لأن رسالة المفكر في عرفه ليست تغذية الأوهام ، وتمهيد الأحلام ؟ وظل يعمل بعزيمة لا تكل ، وصبر لا ينفد . ويرى زفايج — وهو أحد المعجبين به القادرين عبقريته — أن فرويد لم يجعل الدنيا أوفر جمالا وأكثر سعادة ، وإنما أعان الانسان على أن يفهم نفسه .

قال فرويد في رسالته عن الموت التي وضعها في سنة ١٩١٥ : « لقد كنا بطبيعة الحال على أتم استعداد للتسليم بأن الموت هو نتيجة الحياة المحتومة ، وأن كل إنسان مدين للطبيعة ، وعليه أن ينتظر ذلك اليوم الذي توفى فيه دينه ، ويلقى فيه رهنه ؟ وباختصار إن الموت طبيعي ، ولا مفر منه ، ولا سبيل إلى تجنبه ودفعه ؟ ولكن الواقع أننا كنا نتصرف كما لو كان الأمر على نقيض ذلك ؟ ولقد كنا نظهر رغبة واضحة في نبذ الموت ، وإقصاء خياله عن الحياة ، واجتواء التفكير فيه ، ولم يمر ببالنا موتنا ،

بل لم تستطع تصوره . وتستطيع مدرسة التحليل النفسى أن تجترىء على القول بأن كل فرد لا يعتقد فى أعماق نفسه ومستكنات ضميره بأنه سيموت يوما ما ؛ والرجل المتحضر يتحاشى الاشارة إلى موت الآخرين فى حضرتهم ، بل هو لا يستطيع أن يخطر بباله فكرة موت غيره دون أن يبدو لنفسه فى مظهر المتحجر القلب ، الدنئ السريرة ، إلا إذا كان طبيباً ، أو من دونهما تحتم عليه مهنته أن يتناول موت الغير من الناحية العملية . ويعمل الانسان على تجنب الاشارة إلى موت الغير على وجه الخصوص إذا كان فى ذلك الموت ما يكسبه حرية أو ينيله مركزاً ويحقق له غاية . وعند ما يمضى الموت بأحد نتأثر تأثراً عميقاً كأننا قد أصبنا بما يعكس آمالنا ، ويحل بحسابنا . ومن عادتنا أن ننظر إلى السبب المرضى العابر للموت ، فنعزوه إلى حادثة ، أو ننسبه إلى المرض أو العدوى أو تقدم السن ؛ وتصرفنا هذا ينم عن محاولتنا تعديل معنى الموت ، ونقله من ضرورة قاهرة إلى حادثة عرضية ؛ ونقف من شخص الميت موقفا خاصا منطويا على الشعور بالاعجاب والاحساس بأنه قد قام بعمل شاق ، وننسى أخطاءه ، ونغض الطرف عن عيوبه ، ونمسك عن نقدنا له ، ونعتقد أنه من الخير أن نستبقى ما يحسن إلى ذكراه ؛ وهذه الرعاية لحرمة الميت أغلى فى نظرنا وأعز علينا من الحق نفسه .

وهذا الموقف التقليدى حيال الموت بين المتحضرين يبدو فى أسمى نواحيه فى ذلك الحزن الغامر الشديد ، والهم المقعد المقيم ، الذى يلم بنا عند ما يتخطف الموت شخصاً أثيرا فى نفوسنا ، جد قريب منا ، مثل الابن أو الزوجة أو الشقيق أو الصديق ؛ وهنا يخيل إلينا أننا نوارى معه فى القبر سعادتنا ، وندفن آمالنا ، ولا نجد ما يملأ الفراغ الذى تركه فى نفوسنا ، وتسلب الدنيا فى نظرنا ، وتنقبض بشاشتها ، وتصوح زهرتها ؛ ولهذا الموقف من الموت تأثير شديد على حياتنا ، فان مثل هذا الحزن الذى لا نقوى على حمله يجعلنا نحب السلامة والأمن لمن تربطنا بهم الروابط القوية ، وننأى بهم عن ركوب الأخطار وتجشم الصعاب ؛ والنتيجة المحتومة لذلك هى إقفار الحياة ، واضطرارنا إلى التماس التتمة فى عالم الخيال والأدب والمسرح ؛ فى هذا العالم الفسيح الرحاب المتسع الباذخ نحيا مع قوم يعرفون كيف يموتون ، ونستطيع أن نوثق علاقتنا مع الموت ، لأننا نرى أننا أنفسنا من وراء التقلبات ، ونوازل النكبات ، وعواثر الحظوظ ، محتفظين بوجودنا .

ولكن تجىء الحرب وتكتسح كل ذلك ، وتقلب تفكيرنا رأساً على عقب ؛ فى الحرب لا نستطيع إنكار الموت ، ولا مفر لنا من مواجهته والاعتراف بحقيقته ؛ فالناس فى الحرب لا يردون حياض الموت فرادى ، وإنما يردونها زرافات ، وربما يموت فى اليوم عشرات الألوف .

فى هذا الموقف لا نستطيع أن ننظر إلى الموت نظرتنا السابقة ؛ ومن أسباب حيرتنا وما أصابنا من تبلبل واضطراب أننا أصبحنا لا نستطيع الاحتفاظ بنظرتنا السالفة للموت ، ولم نعرف بعد السبيل إلى أن نقف منه موقفاً آخر يلائم الأحوال الراهنة ؛ وربما ينفعنا ، ويجدى علينا ، ويهدينا سواء السبيل ، أن نوجه هنا بحثنا النفسى إلى ناحيتين لها علاقة أكيدة بالموت : الأولى يمكن أن نعزوها إلى القوم البدائيين ، والثانية كامنة فى طوية كل منا ، ولا يكاد يسطع عليها ضوء الوعى ؛ وقد وقف الانسان البدائى من الموت موقفاً يسترعى النظر ؛ ولم يكن هذا الموقف مطرداً متساوقاً ، وإنما كان متناقضاً للغاية ؛ فهو من ناحية قد أخذ الموت مأخذ الجد ، واعتده نهاية للحياة ؛ ولكنه من ناحية أخرى أنكر الموت وأحاله لا شىء ؛ ومصدر هذا التناقض هو أن موقفه من موت الأغيار والغرباء عنه وأعدائه كان يختلف عن موقفه من موت أقاربه وأحبابه ؛ فلا بأس عنده فى موت الغير لأن معناه هلاك مخلوق عنته ، وهو لا يتردد فى تهيئة أسباب هذا الهلاك ، ولكنه — مثلنا اليوم — لم يستطع أن يتصور هلاك نفسه وانطفاء شعلة حياته ؛ ولكن

كانت هناك حالة كان له فيها موقفان متعارضان ، وقد أثرت هذه الحالة في تفكيره تأثيراً بعيد المدى ، عظيم الأثر ؛ وكانت تحدث هذه الحالة عند ما يرى الرجل البدائي أحد أقربه الأدنين جثة هامدة ، فقد كان ذلك يهيج لواعجه ، ويرغمه وهو يتنزى من الألم على أن يعتقد أن الموت قد يستلب حياته كما انتهبت حياة أقربه وأصدقائه ، وهو اعتقاد تأباه نفسه وتعافه وتثور به وتأبى الاستسلام له ؛ وحقيقة أنه قد فقد في موت أعزائه وأصفيائه جزءاً من نفسه ، وانهار ركن من حياته ؛ ولكن من ناحية أخرى كان في كل فرد من هؤلاء الأعزاء جانب آخر غريب عنه ومنافر له ؛ وكل واحد منهم كان إلى حد ما عدوا في ثياب صديق ؛ فالحزن على فقدهم يتضمن عنصراً من عناصر السرور ، وعاملا من عوامل الشماتة — ويستنجد هنا فرويد بقانون تناقض العواطف الذي فطن له ، واستوفى بحثه ، في كتابه القيم عن الطوطمية والمحرمات (Totem & Taboo) ويقضي هذا القانون باجتماع الحب والكراهة لشخص بعينه في وقت واحد — وقد كان لقانون تناقض العواطف مدى واسع في العصور البدائية ؛ فالموتى المحبوبون كانوا في نظر ذلك الانسان البدائي أعداء وغرباء إلى حد ما .

ولقد أعلن الفلاسفة أن الموت هو الذي كشف للرجل البدائي من تلك الأحجية العقلية التي أرغمته على التفكير . وفي اعتقادي أن الفلاسفة يفكرون هنا تفكيراً فلسفيا محضاً ، ولا يلقون بالهم إلى الدوافع البدائية التي كيفت تفكير الانسان ؛ والرجل البدائي يطرب لصرع خصمه دون أن يفكر في غريبة الموت ولغز الحياة ؛ وإنما الذي أثار تفكيره واستجاش عواطفه هو موت الشخص المحبوب ؛ والذي هو في نفس الوقت غريب ومكروه ؛ والانسان في هذا الموقف لا يستطيع أن ينفي شبح الموت ، فقد لبس قربه وتجرع مرارته في حزنه على من مات من أحبابه ، ولكنه مع ذلك لم يعترف بالموت كل الاعتراف ، لأنه لا يستطيع أن يتصور نفسه ميتاً ، ولذا أوجد حلا وسطاً ؛ فهو من ناحية سلم بفكرة الموت ، واعتقد أن هذا الموت قد يمضي به كما مضى بغيره ، ولكنه جرد الموت من معنى الفناء والهلاك والابادة ؛ وفي أثناء تأمله لجثة من أحبه ولم يهن عليه فقده اخترع الأرواح ؛ وشدة شعوره بالجريمة من جراء هذا الطرب الممتزج بالحزن عند مصرع الأعزاء ، جعل هذه الأرواح الحديثة الميلاد شريرة غادرة ، وخلق منها الشياطين المرعبة ، والأشباح الخبيثة المؤذية ؛ وما أحدثه الموت من تغيرات أوحى إليه فكرة تقسيم الفرد إلى جسم وروح ، وفي بادئ الأمر إلى جسم وأرواح كثيرة ؛ وصارت ذكرى الميت الباقية في الذاكرة أساساً لفرض حالات أخرى من الوجود ، ومهدت للانسان سبيل تصور بقاء الحياة بعد الموت الظاهري ؛ ثم جاءت الأديان وتوسعت في هذا الرأي ، بل ذهبت إلى أن الحياة الأخرى خير وأبقى من الحياة الحالية ، وأن الحياة الحالية هي مجرد إعداد وتأهب للحياة التالية ؛ وكان مما يلائم ذلك أن تمد جذور الحياة إلى الماضي السحيق ، وأن يتصور الانسان ضروباً شتى من الوجود سابقة لوجوده الحاضر ؛ وهذا هو أصل الاعتقاد بتناسخ الأرواح وتقمصها ؛ وكل هذا محاولات لتجريد الموت من معناه الأصلي من حيث هو خاتمة الحياة ، فانكار الموت جاء مبكراً في تاريخ الانسان .

وبإزاء جثة المحبوب لم تولد فكرة « الروح » و « الاعتقاد بالخلود » و « شعور الانسان العميق بالخطيئة » فحسب ؛ وإنما أيضاً وجد أول اتجاه إلى خلق القانون الأخلاقي والشرائع الأدبية . وأول أمر أصدره الضمير المستيقظ من سباته هو « لا تقتل » ، وقد نشأ ذلك نتيجة لرد فعل شعورنا الخفي بالسرور الذي كان يختبئ خلف حزننا على موت الأعزاء المحبوبين ؛ وقد قوي هذا الشعور وبسط ظلاله على الغرباء المكروهين ، ثم ازداد قوة واتسع رواقه حتى شمل الأعداء .

ولنترك الآن الرجل البدائي ، ولنتحول إلى تأمل أثر العقل الباطن في حياتنا الفكرية ؛ فما هو موقف عقلنا

الباطن حيال مشكلة الموت ؟ في هذه المسألة كما في غيرها من أمهات المسائل لا يزال الانسان البدائي متنبها في نفوسنا ، وعقلنا الباطن لم يتغير موقفه ، فهو ما يزال على إصراره في رفض الاعتقاد بإمكان موتنا المطلق ، فنحن في نظره خالدون ؛ ويتبع ذلك أن غرائزنا جميعها لا تؤمن بالموت — ولم يكن فرويد قد فرض بعد وجود غريزة الموت التي سبق أن تحدثت عنها في المقال السابق عن فرويد والحرب — وربما كان ذلك هو السر فيما يقوم به الانسان من أعمال المخاطرة والاقدام على المكروه ؛ ومن الناس من يفسر البطولة بأنها قائمة على اعتقادنا الصميم بأن حياتنا الشخصية الفانية أقل قيمة من مثلنا العليا المجردة ؛ ولكني أعتقد في الأغلب أن هـذه البطولة الفرزية لا تعرف مثل هذا الدافع الذي لا يقوى على مغالبة التردد والاتيان بأعمال البطولة التمشية مع عقلنا الباطن .

ونحن من ناحية أخرى — مثل الرجل البدائي — نعترف بموت الغرباء عنا وموت أعدائنا ؛ وعقلنا الباطن يحاول أن يزيل من طريقه كل من يعترض سبيلنا ، فاذا حكم علينا بما في عقلنا البـاطن من رغبات خفية ونيات مبيتة ، فاننا جميعاً مثل الانسان البدائي عصبة من المجرمين السفاكين ؛ ولحسن الحظ فان هذه الرغبات التي تعتمل في نفوسنا ليس لها قوة رغبات الانسان البدائي ، وعرام أهوائه ؛ وإلا لهلك الناس وفيهم أحكم الحكماء وأجمل النساء .

ويشعر هنا فرويد بأنه يذهب مذاهب غريبة ، وربما يدعى ادعاآت عريضة غير مألوفة ، فيسترسل قائلا : « وسواد الناس لا يثقون بالتحليل النفسي لأمثال هذه التأكيدات ، وهم يرفضونها ويعدونها افتراآت لا دليل عليها ولا سند لها ؛ والذي حدث للرجل البدائي يحدث نظيره في عقلنا الباطن حيال الموت ، وذلك عند فقد أحد أحبابنا والقريبين منا ؛ ففي هذه الحالة يتراءى لنا الموت من ناحية مبيداً للحياة عاصفاً بها قاضياً عليها ؛ ومن ناحية أخرى يبدو لنا عاجزاً عن الانتصار عليها ، مغلوباً على أمره ، منهزماً مدحوراً ؛ وهؤلاء الأعزاء الذين يطويهم الموت هم من ناحية أخرى أعداء لنا وغرباء عنا .

وعامة الناس يستنكرون هذه المشاعر ، ويستفظعون هذه الآراء ، ويخالون مثل هذا الانكار أو الاستفظاع كافياً لنقض حقيقتها ، ويتخذونه وسيلة للنيل من التحليل النفسي والزراية به ؛ وهذا في اعتقادي مذهب خاطئ ، فليس المقصود هنا هو الانتقاص لقدر الحب . حقيقة أن عقولنا لا تألف هذا الجمع بين الحب والبغض ، ولكن الطبيعة تحاول باستعمالها هذين التوأمين المتناقضين أن تجعل الحب يقظاً مستوفزاً ، متنبهاً للعدو الرابض له ، المختبئ خلفه . ويمكن أن أقول بأننا مدينون بخير ما في حياتنا الوجدانية من أزاهير جميلة لرد الفعل الذي يقوم بنفوسنا لمناهضة دافع العداء الذي نلمحه في طويات قلوبنا ، ودخائل نفوسنا . وخلاصة القول أن فكرة موتنا وهلاكنا لا يمكن أن ترتقي إلى شعاب عقلنا الباطن ، وأن هذا العقل الباطن لا يزال ينزع إلى قتل كل غريب عنا ، بعيد عن نفوسنا ، وأنه لا يزال موزع الميول متناقض المواطف تلقاء من نحبهم ونعزهم .

ومن السهل الهين أن نرى تأثير صدمة الحرب في مثل هذه المواطف المتناقضة ؛ فالحرب تجردنا من زوائد الحضارة وإضافاتها وحواشيها المصطنعة ، وتكشف عن الإنسان البدائي الكامن في نفوسنا ، وتضطرنا إلى أن نصير أبطالاً لا نصدق بأننا سنموت ، وتجعلنا ننظر إلى الغير نظرنا إلى العدو الذي نرجو موته ونريد قتله ؛ وما دامت الملاقة بين الأمم كما هي فالحرب باقية » .

ويرى فرويد أنه من الخير أن نفسح في نفوسنا مكاناً لفكرة الموت كما كانت تتراءى للانسان البدائي ؛ وليس

الصحافة والأدب في أسبوع :

الشاعر المجهول :

في العدد ٤٤٢ من مجلة الرسالة منظومة طويلة ، عنوانها « اللحن الجديد : للشاعر المجهول » ، يخاطب فيها ذلك الشاعر حبيبه ، أو حبيبته ، فيقول :

الليلُ قَصْقُونُ بحزني ما كان بيني وبينك ...

ويتساءل القارئ الفضولُ عما كان بين « الشاعر المجهول » وحبيبه والليلُ فضوان ؟ فلا يلبث أن يأتيه الجواب من قول الشاعر بعدُ :

في لحظة صار عيشي يفوق عُمر الوجود
فليحرس الحب « طيشي » في قطف تلك الورود
لِمَنْ صفاؤك بعدي ؟ « كدَّرتُ بالفتك وردك »
أعيش إن مُتُّ وحدى فعِش إن اسطعت وحدك !

ويترادف على القارئ من ألفاظ : الطيش ، والفتك ، وقطف الوَرد ، وتكدير الورود ، وتنغيص العيش — ما يذهب به مذاهبَ من الغيظ والحنق على هذا الفن الخليع في شعر « الشاعر المجهول » .

ويعود القارئ إلى التساؤل ، وإن كل قارئ ليسأل سؤاله : أهذا هو اللحن الجديد في الشعر ، أم هو المباهاة بالفاحشة ومرض الفاقة التي تستحق الستر عاريةً على عيون القارئين والقارئات ؟

وبعدُ ، فهل عرف القارئ مَن ذلك الشاعر المجهول ؟ ... هو الذى يقول بعد أبيات من منظومته تلك :

ارجع إليَّ تجددْ في كما عهدتَ وأسمح
أو فانتظر بعدُ مني فتًى « يُسمي ويَذبح » !
« يُسمي ويذبح » ... !

الطيش ، والفتك ، وقطف الوَرد ، وتكدير الورد ... ثم يسمي ويذبح ؛ إذاً فهو « الشاعر الجزار » ، وفي الجزارين شعراء لا تهيج شاعريتهم إلا معاني الدم !

المصريون المحدثون :

منذ أشهر تنشر « الرسالة » فصولا بعنوان « المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر » ، تأليف المستشرق الانجليزي إدوارد وليم لين ، وترجمة الأستاذ عدلي طاهر نور .

وهو بحث قيم يسجل للتاريخ صورةً واضحة الشيات معبّرة اللامح من تقاليد المصريين وعوائدهم الاجتماعية في القرن الماضي ؛ وعلى أن مؤلف هذه الفصول انجليزيُّ الجنس والنشأة ، مسيحيُّ الدين والتقاليد ، فقد استطاع أن يتغلغل في صميم الحياة المصرية ، ويتسلل إلى ضمائر مَن عاينهم من المصريين في تلك الفترة ، فأتى بما لا يقدر على مثله كاتب مصري يحيا الحياة المصرية نفسها ، فسدَّ نقصاً في التاريخ المصري ما زال جوانبُ منه في حاجة إلى التمام .

هذا بالعمل الجيد الباهر ، وإنما هو ارتداد إلى الوراء ، ونكسة تصيب الانسان ؛ ولكن فرويد يرى أن هذه المحاولة تمينا على احتمال الحياة ؛ واحتمال الحياة هو أول واجبات الأحياء ، ولا قيمة للأوهام إذا حالت بيننا وبين ذلك ؛ ومن أراد أن يستديم الحياة فليستعد للموت ! وهذه هي النصيحة الثالية والوصية القيمة التي يقدمها لنا كبير علماء النفس المحدثين ، وأحد شيوخ مفكري العصر وأعلام الثقافة ؛ وفي الحق أنها نصيحة عزيزة ، ووصية غير سارة ، زينا عمق التشاؤم الغالب على تفكير هذا العصر ، وتغرينا بأن نردد قول المتنبي :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

على أدهم

على أن لنا أن نسأل : لماذا يأتينا هذا الفنّ من أوربا ولا نجد في مصر مَن يُعنى به ؟ أ تُرى عيون الأوربيين أنفذ إلى حقائقنا من عيون المصريين ؟ حقاً أن الذى على الساحل يرى ما لا يراه السابح في اليمّ ، ولكنه مهما يبلغ من قوة التصوُّر ودقة الحس وصدق الفراسة ، ليس يستطيع أن يحسّ إحساس ذلك السابح الذى تكتنفه « حقيقةُ » البحر لا « صورتُه » ! فلماذا لا نرى كتّاباً من كتابنا يحاولون تسجيل ما حولهم من مظاهر الحياة المصرية في شتى ألوانها ؛ لتكون صورتهم في التاريخ من رسم أيديهم ، ليس فيها زيادةُ المتزيّد ولا مسخ الماسخ ؟

وأين من فنون الأدب عندنا ذلك الفنّ الذى يخلّد في التاريخ تاريخَ جيله وناسه وعوائدهم وشمائلهم ومآكلهم ومشاربهم ومعايشهم وملاهيهم وملابسهم ومراكبهم ونواديهم ، إلى غير ذلك مما تحيا به الحياة وتتصوَّر الصورةُ ويتلوَّن التاريخ ؟

ولكن أكثر حاجات مصر من واردات أوربا ... !

على هامش السباق :

ونشر محرِّر « المصوِّر » في العدد ٨٩٨ تحت هذا العنوان ما يأتي :

« شهدتُ حفلة السباق في الجزيرة ... وقد التقيت أول ما دخلت بسيدة لها مكانتها ، وكانت تلبس قفازاً جميلا ؛ وتحمل « شنطة يد » من نفس لون القفاز وجلده ، وتقول إن ثمنهما ٣٦ جنيهاً ... ...

« وطاب لى أن أقف دقيقتين أمام شباك تذاكر الخمسة جنيه — نعم هناك شبابيك للتذاكر التى ثمنها ريال ، وشبابيك للتذاكر التى ثمنها جنيه ، وشبابيك للتذاكر التى ثمنها خمسة جنيهات — وقفت أمام هذا الشباك دقيقتين ؛ ولأنقل للقارئ صورة مما رأيت :

« أقبل فلان باشا واشترى تذكرة ، ثم فلان بك واشترى أربع تذاكر — أعنى دفع عشرين جنيهاً — ثم أقبل فلان بك ومد يده بورقة كبيرة لم تقع عينى على مثلها منذ سنوات ... إنها ورقة ذات مائة جنيه ، أعطاها للبائع وطلب خمس تذاكر ، أخذها وترك الباقى ، ثم نبهه البائع ، فقال : سأعود لك ! ... وعاد فاشترى ...

« ... وفي آخر الأمر جرت الجياد ، فلم يفُز واحد من هؤلاء جميعاً ! » .

تُرى ماذا يفهم القارئُ غداً من هذا الخبر حين يصير تاريخاً من التاريخ يصوِّر حالا من حالنا في سنة ١٩٤١ ؟ أيصدّق لو قيل له إنه في ذلك الوقت نفسه كان آلاف وآلاف من المصريين يتزاحمون على أبواب المخابز ومتاجر الدقيق يطلبون الرغيف الذى يقيم صلبهم ويحفظ عليهم الحياة ؟ ... وإن فلاناً باشا الوزيرَ سابق كان له في الشئون الاجتماعية رأى ، وإن فلاناً بك وفلاناً بك لرجُلان من رجالات المال والأعمال لهما في شئون الاقتصاد جهاد وفكر ؟ فمن ذا يصدّق ؟ وماذا يأثر التاريخ من صور هذا الجيل ؟ ... في أىّ هاتين الصورتين يجد المؤرّخ غداً حقيقة مصر ووسائل حياتها في هذا الجيل ؟

الإحساس للإحساس :

... ولكن ذلك ليس هو كل ما نشاهد من المتناقضات في صور هذا الجيل ؛ أرأيت ما تنشر الصحف من أخبار وصور مَن تسميهم أولاد الذوات وذوى العيش الرفيع ؟ أترى ثمّة صورة مصرية تعبّر عن حقيقة من حقائقنا العامة ، أم فنّا من التزوير الملّق والزلفى أو للإيحاء والتغرير ؟

وهذه الأسواق الخيرية التى يسمّونها ويقتنّون في وصفها وتزيين صورها لمن لم ير ، أهى صور من الحقيقة العامة أم ... أم ماذا ؟ ... نعم إنها صور من حقيقة

أصابها لا من حقيقة المصريين عامة ... ولكن مَن ذا يعرف ومَن ذا يقول ؟

ثم ما معنى هذه الأسواق وما غايتها ؟ ... يقولون إنها أسواق للاحسان ! فهذه سوق خيرية للطفولة ، وتلك لتحسين الصحة ، وثالثة .. لماذا ؟ ... لقد نُسي الهدفُ الأصيل وصارت الوسيلة غاية !

أفلا يُحسن المحسن إلا في حفلٍ عام ، ثم لا يدفع حسنته إلا ثمناً لابتسامة فاتنة من بنت فلان ، أو نظرة ناطقة في عيني زوجة فلان ، أو زهرة معطّرة رَشقها في صدره أرملة فلان ... ؟

أتُراه حينئذٍ يُحسن للاحسان أو للزهرة والنظرة والابتسامة وما وراء ذلك مما يعرفه الليلُ الشَّفوقُ ، كما يقول الشاعر الجزار ... ؟

ولكن مصر ، كما يقولون ، قطعة من أوربّا ؛ وأوربّا التي ألفتْ « أسواق الرقيق » هي التي ابتدعتْ « أسواق الحِسان »

يا ابنتي ! لا يستهوينّك ما ترين من صور وما تقرئين من أخبار ؛ إننا نحن هنا وإنهم هناك ... هناك ، على بُعدٍ بعيد من حقيقة مصر المسلمة !

ذكريات عظماء :

تُرى أ كان مصادفةً واتفاقاً أن نقرأ في وقت واحد ثلاث مقالات لثلاثة من كبرائنا المشهورين في ثلاث مجلات مصرية ، يتحدّثون فيها عن ذكرياتهم الغرامية بلغة المتشوّق الفنان ؟

هذا اللواء فلان باشا ، وهذا الشاعر فلان بك ، وهذا الشيخ المحترم فلان أفندي .. ماذا أذكَرَهم بعد طول البعاد ... فخرجوا عن وقار الشيوخ إلى مثل هذر الصبيان ؟

لو كان فيما تحدّثوا به أمثلةٌ صالحة ، لقلنا نماذجُ من الحب الصادق يقدّمونها لشباب الجيل ؛ ولو كان فيه صورة من الفن الجميل لقلنا لونٌ من الأدب الرفيع يؤثَر في تاريخ أدب الجيل ؛ ولكن ... ولكن كبراءنا يتصاغرون أحياناً ليثبتوا أنهم كبراء !

هلاّ كتبوا مثل ما كتب أنطون الجميّل بك حين سأله محرِّر « الاثنين » عن ذكريات غرامه ، فكتب مقالته البارعة الرشيقة بعنوان « لم أجِدْها » ؟ ولكن أنطون الجميّل أديب !

وزارة الفلاسفة :

وترى الدكتور زكي مبارك في العدد ٤٤٤ من الرسالة تأليف وزارة من الأدباء ؛ يكون رئيسها الزيات ، ووزير الخارجية العقاد ، ووزير الداخلية زكي مبارك !...

وعلى ما في هذا القول من المزاح الذي يخرج به من وقار الرأي إلى معنى التندّر والسخرية ، فإن فيه معنى يحسن الالتفات إليه .

والبحث في طبقات الحكام والمحكومين قديمٌ في التاريخ ، وهو مذهب من مذاهب الفلسفة القديمة ؛ ولكن له في حياتنا اليوم معنًى يتصل بحقيقة نهضتنا السياسية والاجتماعية وأهدافها ومراميها . على أن محاولة بحثه اليوم يجب أن يسبقها بحث آخر يتحدّد به اتجاهنا إلى الهدف البعيد الذي نتطلع إليه في نهضتنا الحاضرة ؛ وإننا لبسبيل ذلك .

في وزارة المعارف :

وفي وزارة المعارف حركة تتحدث بها صحف الأسبوع ، وفي المجلس الأعلى مشروعات يدرسها المختصون من أهل الرأي والتربية ؛ فماذا يقولون وماذا نقول ؟ ...

... ولكن صفحات هذا الأسبوع لا تتسع ، فإلى الأسبوع القادم .

(قارئ)

حـــيران

أما آنَ للمغلوبِ أن يبلغَ النصرا؟
والمدْلجِ الحيرانِ أن يشهدَ الفجرا؟
أما آنَ للمظلومِ مسحُ جبينـــه
ولهواله المكروب أن يطلقُ الصدرا؟
طوَى نفسهُ في ميْعةِ العمرِ كاسفاً
وتمضي بريعان الصِّبا حُللاً خُضرا
وأسلمه طولُ الشُّـــجونِ لغمرةٍ
من السهو، تطوى خلف ساكنها الجمرا
على وجهه من حُزنه صمتُ راهبٍ
وإطراقةٌ حسْرى يظنُّونها كِبرا
ولو علم النـــاسُ الذى فى ضلوعه
لَرَدُّوا مقالَ اللوم والتمســوا العُذرا
يقولون لى داوِ الشــجون بشُرْبها
فقد يقتلُ الأحزانَ أن تشربَ الخمرا
وما تفعلُ الصهباء فى قلبِ غائبٍ
عن الكون، يقضى كل أيامه سُكرا؟
خليلىَّ إنَّ العيشَ فى مصر غُمَّةٌ
فهل غير وادى النيلِ أشدُّهُ قطْرا؟
أكُلُّ فتى فى مصرَ يحفظُ جاهداً
كرامتهُ، يطوى على أنفهِ قهرا؟
مُولَّعةٌ أنْ تلطِمَ الحُرَّ كفُّها
وتلكَ يدٌ ملعونةٌ تلطمُ الحُرَّا
فإن يكُ ليلى طالَ، أو ضاعَ صُبْحهُ
فحسبى ضياءُ الحُبِّ فى أفقهِ بدْرا

على شرف الدين

لغة العـــيون

هـــذه النظرةُ تنبى — منكِ عن سرٍّ دفين
هو ــ فى ظنى ــ حُبٌّ — صدَّق اللهُ ظنونى!
رنَّح الوجدُ أضلعى — بالهوى لى، وأبينى
كيف أستمرئ عيشاً — بين شكٍّ ويقين!!
كم تُدارينَ، وأحيا — بمداراةِ شــجونى
كلما أطنبتِ أذكى — طرفكِ الساجى حنينى
أصبحتِ الحبُّ يخفى — تحت أهداب الجفون!
أرسلى النظرةَ تجرى — تلهم السحرَ فنونى
أرسليها فهى سلوى — وعزاءُ المحـــزون
أرسليها فهى عطفٌ — ناله العشاق دونى
ربما يقنعُ مثـــلى — بتحيات العيون

(التوفيقية) **على الجندى**

هى

[هذه قطعة من الشعر على ميزان جديد استحدثه الشاعر، وهو لا يجرى على موازين الشعر العربى فى جملته . وأجزاؤه:
مستفعلن فعولْ — مستفعلن فعولْ]

كم ذا تؤمِّلينْ — ويقتلُ الأملْ؟!
قلبت مُقلتيك فى ...... — صبرتى مثلْ
بل أوثر اليقينْ — حتى مع الفشلْ
قد عاش الكونْ — وملَّنى المللْ
والعمر ينقضى — ماض إلى أجلْ
والحسن، للحظين — قادر على عجَلْ
لو ترجع السنونْ — أو تبعث الثُّقلْ
أو يخلد الفتونْ — أو كان يُرتجَلْ
أو ترقد الشجون — سرنا على مهلْ

حفـــــلة شاى !

بقلم الأستاذ محمود تيمور

بدر بك : أطيلُ معه فى الحديث . . . !

الأستاذ فرغلى : لن أتركه إلا بعد حضور ثمان بالمدعوّين . . .

صابر بك : حسن جدا . . . !

فكرية هانم : متشكرة يا أستاذ . . . !

(الأستاذ فرغلى يخرج . . . خليل باشا منهمك فى هذه الأثناء بتدخين لفافة الماقانا ، وهو مضطجع على المتكأ فى نشوة . . . فكرية هانم مهتاجة تروح وتجئ ، غير مستطيعة ضبط عواطفها . تذهب إلى النافذة وتراقب منها القادمين ، ثم تعود إلى السير وتنظر فى ساعة يدها . . . وهكذا دواليك . « صابر بك » قلق لا يقر له قرار . . . حفيظة ، هانم وعنايات هانم وبدر بك يتحدثون) .

بدر بك : (لحفيظة هانم) أحضرت الأوبرا هذا العام يا عطوفة الهانم ؟

حفيظة هانم : حضرتُ بعضها . . .

عنايات هانم : لعلك سُررت من لوهنجرن . . . ؟ لقد كانت دُرّة الموسم . . .

حفيظة هانم : لا أحب فى الموسيقى إلا بتهوفن ···

بدر بك : عطوفة الهانم على حق ··· موسيقى بتهوفن موسيقى تصويرية من الفن الرائع ··· فمثلا عند ما يدخل لوهنجرن فى الفصل الأول ···

عنايات هانم : ما أبدعه ··· !

حفيظة هانم : يدخل فى زى أبيض ، راكبا أوزة بيضاء ··· منظر رائع ···· !

(التليفون يدق)

صابر بك : أوه ··· لابد أنها اعتذارات . (لبدربك) : بدر بك ! ألا تنوب عنى ؟ !

بدر بك : (فى التليفون) آلو ··· آلو ··· نعم ··· ! (ثم يتكلم بالفرنسية) :

Oui ... Oui ... excellence ... tout de suite excellence ...

(صابر بك بصوت منخفض) : القنصل ··· ··· القنصل ··· ! ! (صابر بك يجذب السماعة من بدر بك . عند ما تسمع فكرية هانم كلمة القنصل تهرع إلى التليفون وتقف بجوار صابر بك وتسمع بشغف···)

صابر بك (فى التليفون بالفرنسية) :

Bon jour excellence ... Oh merci ... mille merci excellence pas de tout excellence ca n'a aucune importence excellence ... Avotre disposition, excellence. A toute à l'heure excellence ...

لكنها المنون تحدو وما تملّ

* * *

لو كنت تنصفين ما همّنا البخل
أو كنت تعدلين قلنا : أجل ، أجل
لكنما تلين حكمًا على دخل
والهجر يا «سكين» أمضى من الأسل
فأقبلى «سكين» وأكؤس القبل
لنوقظ الجنون بالنهل والعلل
فالسكر لا يكون فى الكأس أو ثمل
والشعر والرنين فى حيرة الغزل
والشوق والحنين فى نغمة المقل
والسحر والفتون كانا من الأزل

(عمان — شرق الأردن) أديب عباسى

(يضع صابر بك السماعة ويجفف عرقه ...)

صابر بك : يقول إنه سيتأخر قليلا ، لأن العمل اليوم كثير جداً فى القنصلية ...

(وهنا يكون خليل باشا قد أتم تدخين لفافة السيجار ... يقوم ويضع يديه فى جيبى حلته ثم يقصد إلى مائدة الشاى ينتقى منها خلسة بعض الحلويات ... تسمع جلبة فى الخارج ... الجميع إلا حفيظة هانم يسرعون إلى النافذة ويتجمعون عليها ...)

فكرية هانم : (تصيح فى طرب) أحسنت يا نعمان ! أحسنت ! !

بدر بك : حقاً أنه لعفريت ... كيف تسنى له أن يجمع هؤلاء ؟

فكرية هانم : ولد نشيط جداً ... والله لا أفرط فيه أبداً ... إنه يحمل أثقال البيت كلها على كاهله ...

(يدخل نعمان ومعه خمسة عشر تلميذاً ، وخلفهم الأستاذ فرغلى ... خليل باشا ينتبه لدخولهم ... يحشو فمه بالحلوى دفعة واحدة ، ويزدردها بسرعة ثم يتقدم نحو التلاميذ ...)

بدر بك : (يخاطب التلاميذ ، وقد أحكم وضع المونوكل على عينه) بدون زحام ، واحداً واحداً ... اصطفوا بنظام ... ! !

(بدر بك منهمك فى ملاحظة التلاميذ وإعدادهم فى صف واحد كأنه ضابط جيش ينظم عسكره ... ثم يسير أمامهم ذهاباً وإياباً كما يفعل الضباط عند ما يعرضون فرق الجيش ...)

صابر بك : (لنعمان جانباً) وأين وجدتهم ؟ !

نعمان : إنهم تلاميذ يا سعادة البك ، قد أنشئوا نادياً قريباً منا ... فدخلت عليهم ، وقلت لهم : عندنا حفلة شاى عظيمة ، ألا تحضرون لتشاركونا فيها ؟

فقالوا : حباً وكرامة ! ! فأحضرتهم ... ...

(خليل باشا يتقدم ويفتش التلاميذ محتذياً حذو بدر بك) .

خليل باشا : (بامتعاض) وأين الأناقة ؟ !

بدر بك : أرى يا باشا لا بأس به ...

(بدر بك يميل على الأستاذ فرغلى ويسر إليه كلاما ، الأستاذ فرغلى يسر إلى نعمان كلاما ... ويخرجان مسرعين)

خليل باشا : (مخاطباً التلاميذ فى لهجة الآمر وبصوت مرتفع) النظام . النظام ! ! قلت النظام ، النظام .

حفيظة هانم : كان الواجب أن تحملوا شارة فيها رسم القنصل لتشبكوها فى عروة السترة ... كتلاميذ مدرسة ...

(يدخل الأستاذ فرغلى ونعمان وفطومة حاملين الأمشاط والعطور والفوط وبقية أدوات النظافة ، ويسرعون إلى التلاميذ ينظفون لهم ملابسهم ووجوههم ويسرحون لهم شعورهم ، ويعطرونهم ...)

فكرية هانم : (لصاحبات هانم) والله إن فرغلى رجل ابن حلال ... ! (تلتفت إلى الأستاذ فرغلى وتهز يده) متشكرة جداً يا فرغلى بك ...

الأستاذ فرغلى : العفو يا سعادة الهانم ... أنا دائماً فى الخدمة ...

فكرية هانم : (تميل على صابر بك) ومتى تعلن مفاجأتك ؟ ... هذا الوقت مناسب جدا ... !

فكرية هانم : (تخاطب الجميع) صابر بك هيأ لكم مفاجأة لطيفة (يهتم الجمع وينصت ، صابر بك وفكرية هانم يتساران قليلا ، ثم تخرج فكرية هانم ... صابر بك يظهر ورقة كبيرة من جيبه ، ويبدأ ينظف حنجرته . فكرية هانم تعود ومعها صورة داخل إطار جميل . الصورة مغطاة) .

صابر بك : (يقف موقف الخطيب ويقرأ على الجمع) سيداتي ، سادتي ! أتشرف بأن أعلن لكم أن جناب قنصل جمهورية مندوزا ، تقديراً لما بذله هذا الضعيف الواقف أمامكم من جهود متوالية في سبيل حماية الدراجة وتأسيسه جمعية لها ، والعمل على جعلها أداة من أدوات الرياضة المحبوبة ...

(بدر بك يصفق في حماسة . الجمع يصفق بعده . صابر بك ينحني شاكراً) .

صابر بك : (يتابع خطبته) تقديراً للجهود التي بذلها هذا الضعيف الواقف أمامكم ، قد تكرم سعادة القنصل ، وهو رئيس نادي الدراجة في بلاده — أن يمنحني وسام الاستحقاق الرياضي ...

الأستاذ فرغلي : (يهتف بأعلى صوته) يحيي حامي حمى الدراجة !! (التلاميذ يرددون خلفه) يحيي حامي حمى الدراجة !

صابر بك : (متمماً خطبته) وعملا بالمراسم المتعارفة ، ثم بحملها ، وعرو غشياً مع آداب اللياقة سأريكم رسم هذا الوسام الذي سيحمله إلينا بعد لحظة جناب القنصل ...

(صابر بك يشير إلى نعمان وينزع الستار من الصورة ، ثم يحملها ، ويمر بها أمام المدعوين ، وهم يظهرون إعجابهم الشديد ... التليفون يدق ...) .

صابر بك : التليفون يا نعمان !

نعمان : (يضع الصورة على إفريز المدفأة ، ويذهب ليتكلم في التليفون ...) آلو ... آلو ... نعم ... (في دهشة) ما ذا تقول ؟ ... زلزال ؟ ... ما هذا ؟ ... انتظر قليلا ... (يضع السماعة جانبا ويهرع إلى صابر بك) .

يقولون : لقد وصلت إليهم برقية تخبرهم بحدوث زلزال شديد في بلد القنصل ...

صابر بك : زلزال ؟ ! (فكرية هانم منزعجة) .

حفيظة هانم : يا لطيف اللطف ...

(صابر بك يهرع إلى التليفون ...)

صابر بك : (في التليفون) أي زلزال ؟ ! ... البلد كلها تخربت ؟ ! ...

حفيظة هانم : يا ساتر استر ...

صابر بك : (يتابع حديثه في التليفون) خسائر تقدر بملايين الجنيهات ... والضحايا بالآلاف المؤلفة ... إذاً لن يحضر القنصل ... طبعاً سنذهب إليه لنعزيه ... ... !

(يضع السماعة بغضب ، ويوجه كلامه للموجودين في ثورة وعنف ...)

لا مناص لنا الآن من الذهاب لتعزية القنصل في النكبة التي أصابت بلاده ...

(فكرية هانم في أشد حالات الغضب والانزعاج تروح وتجيء ، وهي تشد منديلها بأسنانها ...)

خليل باشا : (لصابر بك) متأسفون جداً يا بك ... ما باليد حيلة ! ! ... وما دام القنصل لن يحضر ، فأظن من اللائق جبر خاطر هؤلاء الضيوف ... (يشير إلى التلاميذ) ويفتتح البوفيه .

صابر بك : (إشارة يأس) اعملوا ما شئتم ... ! !

(خليل باشا يتقدم وبدر يضع كلمات لحفيظة هانم ، فتتقدم وتتجه نحو البوفيه لافتتاحه . خليل باشا يصدر أوامره لنعمان وفطومة ليقوما بالخدمة ... تبدأ جلبة الأكل ... صوت خليل باشا يعلو على كل الأصوات) .

خليل باشا : (أمام البوفيه يجمجم قائلا) هات هذا هنا .. ضع ذلك هناك ... قرب هذا الطبق مني ... أعط هذا الأفندي تلك القطعة من الشطير ... النظام ... النظام ... ! حافظوا على النظام ...

(الكل يذهب للاشتراك في الأكل ما عدا فكرية هانم وصابر بك والأستاذ فرغلي وبدر بك وعنايات هانم ... تقبل عنايات هانم على فكرية هانم لتدلها ...)

(بدر بك والأستاذ فرغلي مع صابر بك .. التليفون يدق ...)

فكرية هانم : (صارخة وواضعة أصابعها فى أذنيها) .... سأكسر هذا التليفون ! !

صابر بك : (يذهب باستسلام إلى التليفون ويتكلم فى لهجة سآمة ...) آلو ... آلو ... نعم .... هنا منزل صابر بك (يتغير لهجته دفعة واحدة ..) ماذا تقول ؟ لم يكن الزلزال فى جمهورية متدوزا ؟ حدث فى المملكة المجاورة لها ؟ إذاً كان الخطأ فى البرقيات ؟ ... سعادة القنصل فى الطريق إلينا .... ! خرج منذ قليل ؟ ! ...

(عنايات هانم وبدر بك والأستاذ فرغلى وفكرية هانم يتجمعون حول صابر بك وهو يتكلم فى التليفون ... تبدو عليهم جميعاً دلائل الفرح والنشاط . سرعان ما يعتلى الأستاذ فرغلى مقعداً ، ويوجه كلامه للجمع الملتف حول مائدة الأكل ...)

الأستاذ فرغلى : (يصيح بأعلى صوته) قفوا الأكل ! ! ... قفوا الأكل ... ! !

الأستاذ فرغلى : (متما كلامه) لا زلازل ولا براكين ... ! جناب القنصل حاضر الآن ...

(بدر بك يتقدم وخلفه الأستاذ فرغلى ، وهما يبعدان الجالسين عن المائدة ، ويصدران أوامرهما للخدم بترتيب الأشياء من جديد ، الخدم يشتغلون ... الكل فى هرج ومرج) .

حفيظة هانم : (ملتفتة ومتسائلة) ماذا جرى ؟

بدر بك : حصل خطأ فى البرقيات يا عطوفة الهانم .. القنصل حاضر الآن ... !

حفيظة هانم : والزلزال ؟ ! ...

عنايات هانم : (وهى تساعد بدر بك) فى بلد آخر ... (التلاميذ يتذمرون لمنعهم من الأكل !)

خليل باشا : (وقد ملأ فمه بالطعام) النظام ... النظام ... ليست المسألة مسألة أكل ... وإنما هى مسألة ترحيب وتكريم ... ! ! (التلاميذ ما زالوا متذمرين) هدنة قصيرة ... وبعدها تعودون للأكل ...

(حفيظة هانم تترك المائدة ، وتتهيأ لاستقبال القنصل ... بدر بك يعيد تنظيم التلاميذ فى صف واحد ، يلقى عليهم التعليمات لاستقبال القنصل . صابر بك وفكرية هانم مهيآن زينتهما استعداداً لحضور الضيف ...)

عطوفة : (تدخل بسرعة) لقد حضر جناب القنصل .. لقد حضر جناب القنصل ... ! !

(الكل يستعدون . بعد برهة يدخل القنصل ويتقدم بخطى متزنة بطيئة ، وخلفه القواص يحمل علبة من المخمل ، مفتوحا غطاؤها ، وظاهراً فيها الوسام ...)

صابر بك وفكرية هانم : (يتقدمان خطوة وينحنيان وهما يقولان) إكسيلانس ! !

(الجمع خلفهما ينحني ويقول بصوت واحد : إكسلانس ... نعمان يقصد إلى الفونوغراف ويضع اسطوانة نشيد جمهورية متدوزا ... حفيظة هانم تتقدم الجمع ذاهبة إلى القنصل ، تمد يدها للقنصل فينحنى ويقبلها ... ...)

(انتهت) **محمود تيمور**

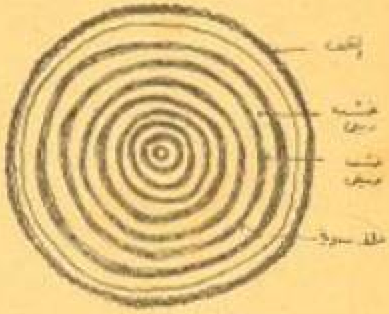
الخشب

— ١ —

من الناس من يقسم النباتات من حيث شكلها الخارجي إلى أقسام ثلاثة : هي الأشجار والشجيرات والأعشاب ، وتعتبر الأشجار المصدر الرئيسي لجميع الأخشاب المستعملة في الصناعة .

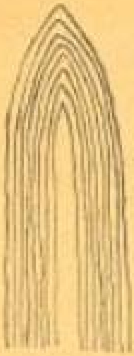
لذلك كان طبيعياً أن تلعب الأشجار دوراً هاما في الحياة العامة ، يغاير ذلك الذي تقوم به الأعشاب والنباتات الأخرى التي تستعمل غالباً كخضراوات .

ولعلنا جميعاً نعرف هذه الطبقات الخشبية التي نراها فيما نستعمله من أثاث وما نراه من أخشاب أو فروع من أشجار . فقد تكونت هذه الطبقات طبقة بعد طبقة أو حلقة بعد أخرى . وتدل الوسطى منها على حال الشجرة عندما كانت بادرة صغيرة أو شجيرة ضئيلة . ثم توالت عليها الأعوام التي تدل عليها هذه الحلقات . ولو تصورنا إمكان فصل بعضها عن بعض لحصلنا على حلقات تكاد تكون منتظمة سمكا ، ولكنها تتسع كلما بعدنا عن المركز ، أي أن قطرها يزداد كلما قربنا من المحيط الخارجي (شكل ١) .



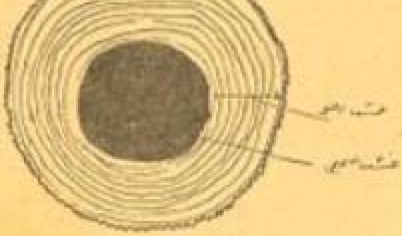
(شكل ١)

وهي تقل عددا كلما قربنا من قمة الشجرة أو الفرع ، فكأن الخشب يضاف كل عام في دوائر مركزية تكاد تكون منتظمة ، ولكنها بالنسبة لطول الشجرة تمثل مخروطاً رأسه عند قمة الشجرة (شكل ٢) .



(شكل ٢)

فإذا فحصنا قطاعاً عرضياً في جذع شجرة عمرها مائة عام مثلا ، فإننا نجد بها حلقات عددها مائة ، ويكون عمر الحلقة المركزية مائة عام . أما الحلقة التالية فقد عمرت تسعة وتسعين عاما ، وهكذا ؛ أما الأفرع الطرفية فإنها صغيرة . وتنتج الشجرة أجيالاً متعاقبة من الأوراق ، هي التي تهيء لها الغذاء ، وتمدها به لتكون منه الأنسجة والخلايا الجديدة التي يعتبر الخشب من أهمها ، حيث هو الموصل الرئيسي الماء والأملاح . وفي بعض الأشجار يفقد الخشب المركزي وظيفته في نقل العصارة ، حيث تمتلىء أوعيته بمواد صمغية وراتنجية وغيرها تسبب سدها . ويسمى مثل هذا الخشب بالخشب « الصميمي » ، ويكون لونه أدكن أقتم بالنسبة للخشب الذي يحيط به من الخارج والذي يحتفظ بوظيفته ، ويسمى بالخشب « الرخو » ، (شكل ٣) .



(شكل ٣)

ويعتبر الخشب الصميمي أشد متانة وصلابة وأكثر قوة ؛ وذلك لأنه مكون أغلب الأمر من أوعية وألياف مصمتة . وفي كثير من الحالات لا يمكن التمييز بين الخشب

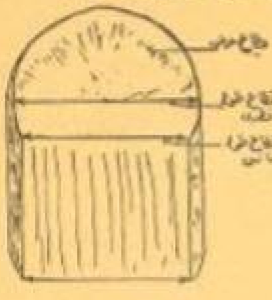
الصميمى والرخو ، فيكون الخشب كله أشد رخواً

ويحيط بالخشب طبقة أو (طبقات) من خلايا إنشائية حية ، تحتفظ بحيويتها ونشاطها دائمة الانقسام ، هى التى تزيد فى سُمك الشجرة سنة بعد أخرى ؛ ويلى ذلك اللحاء ويختص بنقل العصارة التى تجهزها الأوراق لتغذية الأعضاء والأجزاء المختلفة . وتخترق الطبقات الخشبية فى اتجاه نصف القطر صفوف من خلايا رقيقة الجدر تسمى بالأشعة النخاعية ، وظيفتها نقل عناصر التغذية فى هذا الاتجاه ، ويحيط بذلك كله ما نراه من « قلف » يتكون من خلايا جدرها مبطنة بمواد فلينية غير منفذة تحمى الطبقات الداخلية جيداً وتمنع تبخر الماء .

وتكون خلايا الخشب فى أول الأمر ذات جدر سليلوزية عادية ، إلا أنه سرعان ما تترسب عليها مواد أخرى مثل « اللجنين » تضيف إلى قوتها ومتانتها ، ولكنها تبقى عاملة على رفع العصارة وتوصيلها بين أجزاء النبات . وكلما ابتعدنا من القلف تضاءلت قدرة خلايا الخشب على توصيل الماء ، وامتصاص جدرها له . ويضاف الخشب عادة فى موسمين : هما الربيع والصيف .

وعند تقطيع الشجرة إلى ألواح طولية ، يكون اللوح الخارجى عبارة عن قشرة القلف المقوسة ، بداخلها قليل من الخشب الرخو ، ويكون اللوح الذى يليه عبارة عن شريط من الخشب الصميمى على جانبيه الخشب الرخو . ويزيد هذا الجزء من الخشب الصميمى كلما قربنا من مركز جذع الشجرة . كما أننا نلاحظ أن الخطوط التى تميز مخروطاً من آخر هى الحلقات السنوية ، وهى تبدو متوازية كلما بعدنا عن القمة .

ولذلك فإن القطاعات المختلفة الاتجاه تعطى الخشب تعريقاً وتجزيعاً مختلفاً حسب اتجاه القطاع وترتيب الحلقات السنوية والأشعة النخاعية . فالقطاع الطولى المركزى (القطرى) يختلف عن القطاع الطولى الجانبى ، وهما يغايران بطبيعة الحال القطاع العرضى (شكل ٤) .



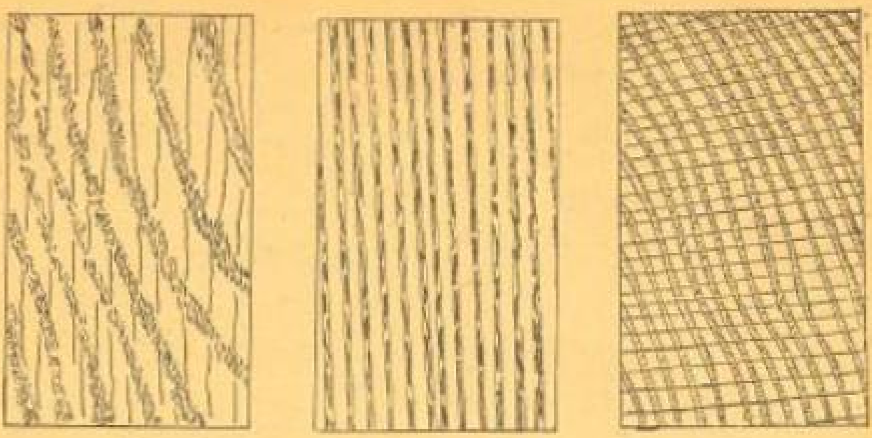
(شكل ٤)

وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح بالتأمل فى القطاعات (شكل ٥) فى خشب البلوط ، فالأول (أ) قطاع عرضى فى جذع الشجرة ، والثانى (ب) قطاع طولى مار بالمركز والثالث (ح) قطاع طولى جانبى .

ويندر أن يتشابه أو يتماثل لوحان من الخشب تمام التماثل فى التجزيع ، وذلك لكثرة العوامل التى تؤثر فى شكله وترتيبه .

كذلك لا ينبغى أن ننسى أثر الجو والبيئة فى شكل الخشب وتركيبه ، وذلك لما لهذين من أثر فى تكوين الحلقات السنوية ، ونشاط الطبقة الانشائية ، وتكوين الخشبين الربيعى والصيفى .

ومن الصفات الهامة التى تتفاضل بها الأخشاب المختلفة ، سُمك الحلقة السنوية ، أى كمية الخشب التى تضيفها الشجرة كل سنة ؛ فنى بعض الأشجار تكون هذه الاضافة طفيفة لا تكاد تبين . إذ أنها قد لا تجاوز الليمتر الواحد سنوياً فى بعض الأشجار ، على حين أنها تجاوز الاثنى عشر مليمتراً فى أشجار أخرى . وقد تكون الشجرتان من فصيلة واحدة ، بل ومن جنس واحد ، ومع ذلك فإن سمك الحلقة السنوية يتباين فيهما إلى هذا الحد الذى ذكرت .



أ ب حـ

خشب البلوط — شكل ٥

وهنـاك صفة أخرى لا تقل عن سابقتها أهمية واعتباراً . وهى تتخذ لتمييز أنواع الخشب بعضها من بعض ؛ تلك هى الحد الفاصل بين حلقة وأخرى ، فقد يكون هـذا الحد منتظا أو متعرجا أو مسننا أو متموجا . وقد يكون عبارة عن طبقة رقيقة من الخشب الصيفى ذى العناصر الضيقة المتكاثفة .

وفى بعض الأشجار كما فى الصنوبر يكون التمييز بين خشب الصيف الداكن وخشب الربيع الفاتح واضحاً جداً ؛ وذلك للفرق الكبير فى اللون والمظهر والتركيب . وفى بعض الأحوال لا يكاد يوجد هـذا الفاصل المميز . وعلى كل فإن هـذه الصفة أساسية جداً لمعرفة الأنواع المختلفة من الخشب . بل إن بعض العلماء والإخصائيين يتخذ من هذه الصـفة قاعدته التى لا تخيب فى تمييز أصناف الخشب .

ومن الأخشاب الجميلة نوع يسمى « موربالى »[1] من الفصيلة البقولية تنمو أشجاره فى غيانا البريطانية . به هذه الحلقات الداكنة متموجة على صورة بديعة ، حيث تتعشق قمة الموجة فى واحدة مع بطن موجة أخرى فى الحلقة التى تليها ، فتتلاقى الحلقات وتتباعد على صورة آية فى الإبداع .

وفى نوع من خشب الكافور يوجد مثل هذا التعرق الجميل ، الذى يكسب الخشب رونقاً أخاذاً ، ولكنه فى هذه الحالة نتيجة ترتيب الحلقات السنوية الخشبية نفسها .

وبدراسة قطاعات مختلفة فى الشجرة ، يمكن معرفة كل صفات الخشب ومميزاته ؛ ويعتبر القطاع الطولى المار بمركز الشجرة من أهم القطاعات التى يجب دراستها .

فهو يوضح الصـفات التى قد تخفى فى القطاعات الأخرى ؛ ويسمى تعرق الألواح المركزية بالتعرق الفضى ، فهو يعطى تموجات جميلة ؛ وتكون الألواح المركزية ثمينة غالية ، يعتز بها التاجر ، ويتشدد فى طلبها الهاوى ، وفيها يكون توزيع الأشعة النخاعية منتظا ، مما يزيد فى رونق الخشب وجماله .

ومن الصفات الأخرى ذات الأهميـة فى تمييز أنواع الخشب هذه الخلايا الرقيقة التى تكون محيطة بأوعيته . فالمعروف أن الأوعية تكون كثيرة متسعة فى الخشب الربيعى ، وهى قليلة ضيقة فى الخشب الصيفى ؛ وفى كلتا

(١) Stryphnocndron guianense.

الخلايا التي تتجمع حول الوعاء بصور مختلفة هذه الخلايا الرقيقة الجدر ؛ فقد تكون مغزلية أو مخروطية الشكل ، مما يجعل لتوزيعها أثراً واضحاً على تعرق الخشب وتجزيعه ، إذ أنها تكون متميزة الشكل وسط الألياف الخشبية .

وكلما تقدمت الشجرة في العمر ازدادت حجوم خلاياها وأوعيتها ؛ فهي تكبر حلقة بعد أخرى ، أي سنة بعد سنة ؛ فتكون الأوعية والخلايا الضيقة بالقرب من مركز الشجرة ، كما تكون تلك التي تقرب من القلف واسعة ، فهي تتدرج في الاتساع من المركز إلى السطح الخارجي . وعلى ذلك فإن اللوح الخشبي الواحد يكون واسع التعرق في بعض أجزائه ، ضيقه في بعضه الآخر . وإذا كان اللوح غير مار بالمركز ولكنه جاني قريب من السطح فإن تعرقه يكون منتظماً إلى حد كبير .

على أن هذا الاطراد في الزيادة في حجم وسعة الخلايا والأوعية يقف عند سن معينة ؛ كما أن هذه الزيادة تكون واضحة جداً في بعض الأشجار دون غيرها كما في البلوط . وعند ما تقف هذه الزيادة عند حد يقال للشجرة إنها قد نضجت . ويكون الخشب الناتج قوي الاحتمال شديد التماسك ؛ وهي صفات تهم التاجر والصانع ، لأن الأوعية والخلايا إن هي إلا ثقوب بالنسبة للجدر الخشبية التي تحوطها ، فكلما زادت حجوم هذه الثقوب وازداد عددها ، نقصت كمية الخشب ، وبالتالي قل وزنه وتضاءلت قوة احتماله .

ففي الشجرة الحديثة العمر تكون نسبة الأوعية إلى الألياف الخشبية كبيرة نسبياً ؛ أما في الشجرة الكبيرة الناضجة فإن نسبة الألياف الخشبية تزيد كثيراً جداً على الثقوب التي تحتل مساحة ضيقة . وكلما قلت هذه المساحة حسن نوع الخشب ، وزادت كثافته النوعية ، وكان أكثر صلابة ومتانة . وفي أخشاب الصنوبر حيث لا تكاد توجد هذه الأوعية (الثقوب) تكون عناصر الخشب ضيقة متماسكة متكاثفة .

ويمكن تقدير عمر الشجرة عن طريق عد الحلقات السنوية التي تبتدئ في القطاع العرضي . ولكن في حالات قليلة قد يكون عدد الحلقات أقل أو أكثر قليلاً من العمر الحقيقي للشجرة . كما لو أصابت الشجرة آفة حشرية أزالت أوراقها فلا تتكون الحلقة . وفي بعض الأحيان قد يحدث ذلك بعد تكون الحلقة السنوية ، ثم تتكون أوراق جديدة فتتكون حلقة أخرى في نفس السنة ؛ وعلى ذلك تتكون حلقتان في سنة واحدة . وقد قدمنا أن هذا النظام الحلقي قد يكون أكثر وضوحاً وتميزاً في بعض الأشجار عنه في غيرها . كما أن التميز إلى خشب صميمي وآخر رخو ليس واضحاً تماماً في جميع أنواع الأشجار ؛ فإن منها ما لا يكاد الفرق بينهما يبين ، وذلك كما في الزان وغيره . وفي بعض الحالات يكون التميز واضحاً بدرجة عظيمة كما في خشب الأبنوس ، وذلك حيث الخشب الرخو أبيض والصميمي أسود .

ولشكل النخاع تأثير كبير على شكل الحلقات السنوية ؛ فالنخاع في البلوط مخمس الشكل أو ذو خمسة فصوص ، ولذلك فإننا نرى الحلقات القريبة منه مخمسة هي الأخرى . ولابد أن يمضي غير قليل من السنين قبل أن تستدير الحلقات وتنتظم ، ولا تعود تتأثر بشكل النخاع .

وفي بعض الأنواع تحتفظ الحلقات السنوية بتعرجها تبعاً لشكل النخاع ، بل إن هذا التعرج يزداد على الأيام والسنين بدلاً من أن تنتظم الحلقات ، ويتلاشى ما بها من اعوجاج وانحناء . بل إن القلف نفسه ليتأثر تبعاً لشكل الحلقات ، وإن بدا أملس منتظماً من الخارج . إلا أنه يكون متموجاً مع الحلقات من الداخل ، فيغلظ عند بطن الموجة ، ويرق عند قمة الموجة في الحلقة .

وكثيراً ما تساعد صفات القلف على تعيين نوع الخشب ، بل إنها في بعض الحالات هي الحكم الفصل . فهناك نوعان من خشب الكافور ، لا يكاد يتميز أحدهما من الآخر إلا بشكل القلف ؛ فللأحدهما قلف جاف خشن متشقق وللآخر أدمة ناعمة ملساء ؛ ولن يستطيع

من شئون الفكر والعاطفة

يظن البعض أن التحدث فى شؤون الفكر والعاطفة فى مثل هذه الأوقات السود فى تاريخ الانسانية ، هذيان وسخف ؛ فأخبار التدمير والتخريب وسفك الدماء تشغل الناس وتلهيهم من أنفسهم . أما نحن فنزعم أن الحرب حدث عارض وقتى لا يلبث أن يزول وتزول أسبابه ، فتعود الانسانية إلى خطوها المتئد الرتيب ، مدفوعة بالأفكار التقدمية وسائرة نحو الكمال . . . فلنتحدث إذاً فى تلك الشؤون ، وليكن حديثنا أشتاتاً متفرقة ، سهلة المأخذ قريبة المتناول ، تقتل السأم وتزيل الشكوك .

الخير والشر :

هل هناك خير مجرد ، أم أن الخير فرض نسبى محدود ؟ وهل هو قديم ، أم محدث اخترعه الانسان ؟

هذه الأسئلة وأشباهها توشك أن تتأدى بنا سريعاً إلى نظرية المثل الأفلاطونية . فهل الأشكال سبقت الأفكار أم أن الأفكار سبقت الأشكال ؟

ولكن ما الذى يغرينى اليوم بحديث الخير والشر ؟! ألأنى مودت عقل التوص فهام باستكناه المجهول ؟ أم لأنى ملت قلبى الشكوك حين قرأت كلمة الجاحظ : « العوام أقل شكوكا من الخواص ، لأنهم لا يتوقفون فى التصديق ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الاقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك » . فأردت أن أكون من الخواص ولو فى حال الشك على أقل تقدير ؛ بل لعلى أردت أن أنهض إلى السؤال وألتمس المعرفة ، مسترشداً برأى أساتذتنا الكبار فى مصر ، بعد أن فزعت طويلا إلى كتبى فما زادتنى إلا شكا ، ولا أورثتنى مع الشك إلا الهم والنكد . وليت من يدرينى . هل تعدل نعمة التأمل فى ميراث الانسانية العقلى نقمة الاحساس بلذع الحرمان وانقطاع الرجاء ؟ بل هل تعدل جميع اللذائذ الحسية حرقة الوجد الصامت ورقة الشعور المرهف فيمن يود أن يحس بألم كل من يألم فى هذا العالم الشقى ؟! وهل كان أمية بن أبى الصلت صادقاً حين قال :

ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى
فى رءوس الجبال أرعى الوعولا

ليت من يدرينى .

الفحص المجهرى أن يحقق فارقا آخر بين الخشبين . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن شكل القلف ومظهره يختلف على الجذع عنه على الأفرع الحديثة ، حيث تتميز العديسات وهى منافذ التهوية . وكثير من الأشجار يتساقط قلفها ويغدو الخشب عاريا ، وفى بعض الحالات يبقى القلف لاصقا بالخشب ؛ وهو على أى حال يطبع على الخشب علامات كثيرا ما تساعد على تمييز نوعه وصنفه .

وقد تأوى الحشرات إلى قلف الأشجار لتضع بيضها وتربى رقاتها ، وبعضها يثقب الخشب مكونا حفراً مختلفة الأشكال والحجوم . وترى هذه الحفر والثقوب فى كثير من الأخشاب كالأبنوس وغيره . وبعض الحشرات لا يتعدى الطبقات السطحية الحديثة من الخشب ، وهى تلك التى تلى القلف . ولما كانت هذه الأجزاء التى تغزوها الحشرات محتفظة — ماتزال — بحيويتها ونشاطها ، فان هذه الثقوب تملأ بخلايا هشة سمراء ، وقد يكونها نسيج إنشائى جديد . ومن الغريب أن هناك حالة من النوعية أو التآلف بين بعض الحشرات وبعض الأشجار ، أى أن من الحشرات ما يهاجم أشجارا بذاتها ، ويصنع بها ثقوبا ذات شكل خاص ؛ فيكون شكل الثقب ، مع وجود دور من أدوار الحشرة ، مرجحا — وفى بعض الحالات جازما — فى الدلالة على نوع الخشب .

(له بقية) دكتور عبد الحليم منتصر

ولنعد بعد هـذا الاستطراد إلى ما كنا فيه ، فلقد رأيت من يقول إن الخير لا ينبغي له أن يكون حقيقة من حقائق الكون العليا إلا إذا أطلقناه مجازاً على النظام الذي يسيطر على الكائنات ؛ وأما أقول : إن في الكون جوهراً أزلياً مطلقاً لا يحد ولا يتغير ، وكل ما عداه أعراض متغيرة متجددة بقوة الدفع الحيوية ، وإن هذا الجوهر هو حقة التناغم والتناسق في الكون ، فهو الخير الأسمى ، وهو الحق الأعلى ، وهو الجمال المجرد ، وهو — بكلمة واحدة — مثال المثل ومصدرها تنبثق منه الحياة .

والانسان ، كيف نحكم على تصرفاته أنها خير أو شر ؟ الانسان هو مخلوق مشدود بغرائز تأصلت فيه بفعل التطور بالنسبة للكليات ، وبفعل الصدفة المحضة بالنسبة للجزئيات ؛ وبين هذه الغرائز وعالم الحقيقة نزاع ينتج هذا الشر الذي نقاسيه . فالشر مخالفة التناسق في الكون ، هو ما يصدم الروح فيعوق انطلاقها نحو النور .

أما الخير فهو معرفة الحق الأسمى وموافقة الارادة له ، هو أن يحقق المرء الغرض من وجوده ، ويتغلب بقوة روحه على عالم الأوضاع والحوادث والمناسبات ، هو التسامي في الرغبات والتحليق في جواء الصفاء ، والائتلاف مع تناغم الكون في وحدة كاملة .

ومن أراد مزيد إيضاح فليمعن النظر في رأي أبي الفلسفة الحديثة « كانت » في الأخلاق من كتاب (مطالعات) للعقاد : « فهو يقسم الأوامر إلى قسمين ، قسم الأمر المطلق ، وقسم الأمر المعلل ، فاذا قال لك قائل : اجتهد لتنجح ، فقد بين لك العلة التي توجب عليك الاجتهاد ، وهذا هو الأمر المعلل ، وليس هو من الأخلاق ، وإنما هو من التماس المنفعة . وأما إذا قال لك قائل : افعل الواجب ، أو كما يقول « كانت » لنفسه : افعل ما تريد أن يكون قانوناً عاماً لكل فعل ، فليس لهذا الأمر علة ما . فأنت في انقيادك لهواك خاضع للأسباب والمسببات والعلل التي يفهمها العقل ، وبهذا تقف عند حدود العالم المقيد ، عالم الأشياء في ظواهرها ، ولكنك في قيامك بالواجب حر مطلق من قيود السببية » .

فقضايا المثل العليا لا تفهم بالعقل ، بل إن العقل يدنسها ويشوهها ، وإنما هي تفهم بالبصيرة الواعية والشعور الوجداني العميق .

غرض الفنون والشعر العربي :

الغرض من الفنون التأليف بين الفكر والعاطفة لتصوير المُثُل العليا تصويراً جميلا . فالفنون غاية في ذاتها ، وهي أجلّ من أن تكون حرفة للكسب والغنى ومطالب العيش الرخيص . والفنان يجب أن يكون عبقرياً ليكون ملهماً قوي الاحساس ، فالالهام وقوة الاحساس مطلوبان في الفنان قبل العقل الرصين المتزن ، لأنهما وحدهما مصدر الخلق والابداع .

فاذا قسنا الشعر العربي بهذا المقياس استطعنا بجرة قلم واحدة أن نحذف أكثر من نصفه دون أن نجور في الحكم أو نعدو الصواب . وإلا فما قيمة شعر المدح بتهاويله ، وأباطيله وسخفه الناطق بالقسوة والابتذال ؟ وهل كان الدافع إليه إلا جذب النفع لنفوس مهومة بالشهوات ؟

غير أن في الشعر العربي ناحية جليلة مجهولة أو مهجورة ، لعدم تعرض الباحثين لدراستها دراسة مستفيضة . هذه الناحية هي تلك الأبيات العاثرة المنثورة هنا وهناك التي تصور مبدأ خلقياً مثالياً ، أو تنقد لؤم الطبائع المتدلية ، باللغة الثابتة في حسن التعبير والتأثير . من هذه الأبيات التي تلمح فيها قوة الدفع الوجداني قول القائل :

أتهزأ مني أن سمنتَ وأن تُرى
بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقول الشاعر :

رأت رجلا أودى بوافر لحمه
طلاب المعالي واكتساب المكارم

فقلت لها لا تعجبين فإننى
أرى من الفتيان إحدى الشائم

وقول الآخر :

إذا كنت ربا للقلوص فلا تدع
صديقك يمشى خلفها غير راكب
أنخها فأركبه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقب

وقول الآخر :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له
أكيلا فإنى لست آكله وحدى
أخا طارقا أو جار بيت فإننى
أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا
وما فىّ إلا تلك من شيمة العبد

وقول الآخر :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم
وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وقول الشاعر :

كفى بك داء أن تبيت ببطنة
وحولك أكباد تحن إلى القِدّ

الديمقراطية والدكتاتورية :

الحرية وملكة النقد من أثمن مقومات الانسان العالى ؛ ومن خصائص الرجل المثقف أنه لا يفقد ذاتيته فى المجموع ولا يعبد القوة فى أحط أشكالها .

والدكتاتور — ومثله «هتلر» على مسرح هذا الجيل — يسعى قولا وعملا إلى إزالة هذين العالقين ؛ فهو يطالب من رعاياه الفناء فى المجموع والطاعة العمياء للقوة الهوجاء .

فليت شعرى — وتلك حقيقة تقرب أن تكون من البديهيات — كيف لا يستحى الرجل المثقف الحر من نفسه إذا سمح لها أن تشك لحظة واحدة فى عدالة المبدأ الذى تحارب الديمقراطية من أجله ، وجدارته بالانسانية السامية التائقة للكمال .

ابتذال العقائد والعواطف :

لعل أول انتقاد يوجهه أعداء الشيوعية إليها أنها تفرض فى بنيها العلم والفهم والادراك ، فيلج بينهم الخصام فى العقائد والنظم ، ويشارك فى الجدل العقيم بطبيعة الحال التاجر والصانع والعامل ، كل بحسب مطالبه المادية واستعداده الثقافى ، فيتسع الخرق على الراتق ، ويصبح الأمر فوضى على العقول الناضجة التى كان يجب أن تقود وتسود ، ويضيع صوت الحق الهادى ، فى جلجلة الأصوات الناعبة التى لا تفقه ما تقول ، وتبتذل من ثم العقيدة الجديرة فى صورتها المجردة بالاحترام .

والحب عاطفة شريفة لكنه ابتذل أيضاً ، لأن كل إنسان يحب نوعاً من الحب ، ولو كان محروما من الوعى والاحساس والشعور ، غير أن الشيوع فى الحب قد أنتج خيراً كثيراً ، فالعبقرى أبى أن يكون رقماً شائعاً من الأرقام التى تحب ، فكان مظهر إبائه هذه الفنون الجميلة العظيمة التى تميز الانسان اللاحق بالذرى من الانسان اللاصق بالتراب .

الغنى والفقير :

أيها الغنى : إذا أعطيت فأعط من ذاتك ، ولا تنتحل لؤم نفسك المعاذير . فمن قال إنك تصلح لأن تكون موضعاً للنعمة الرخيصة الزائلة التى خصتك بها الصدف الهوج ! ؟ ومن زعم لك أنك خلقت لتكون آلة للعطاء ؟ سيقول لك شيطانك حين ترى الأكف تمتد إليك ، مسترحمة بكلمات مغسولة بالدموع : أعط هذا ، وامنع ذاك ، وانهر ذلك ، لأن نُعرة الحياء ، واليأس تخنق بعض أبناء الكآبة فلا يستطيعون أن يشبعوا نهم نفسك التى تستجدى الدمع الزوق الكاذب من فم يستجدى الخبز ليمسك حياته أن تفيض . . .

أعط وأنت مغمض العينين . أعط كتلك الزهرة التى تبث عطرها على جيد الطريق .

(عرق الأردن — أربد) سمير مجمعه

من هنا وهناك

السؤال رقم ٧ : ما هو الكرسي الكهربائي ؟

استعمل هذا الاسم لأول مرة في أمريكا سنة ١٨٩٠ عندما أعدم المدعو وليم كملر بتهمة القتل . وقد وُجد أن الاعدام بهذه الطريقة أسرع وأضمن من باقي الطرق الأخرى المعروفة ، كالشنق والقتل بالرصاص والمقصلة الخ .

يوضع الكرسي — وهو مصنوع من مادة عازلة للكهرباء — في وسط غرفة تحتوي على مولد (دينامو) جهده ألفا فولت تسلط على حلقتين من النحاس .

عندما تأذن الساعة يؤتى بالمجرم المراد إعدامه ويجلسونه على الكرسي — ويسمى أحياناً بكرسي الموت — ثم يوثق في عدة مواضع من جسمه لمنعه من التحرك ؛ وعندئذ يضعون إحدى الحلقتين حول رأسه والأخرى في أسفل قدمه . يسلط ذلك الجهد العالي دفعة واحدة ولمدة قدرها ثلاث ثوان ، ثم يخفض إلى خمسمائة فولت لمدة دقيقة ، ثم تكرر تلك العملية مرتين أخريين للتأكد من أن التيار الكهربائي قد سرى في جسم المحكوم عليه بالاعدام ، وأنه فعل مفعوله اللازم .

والمعتقد أن الموت بتلك الكيفية يكون بدون أدنى ألم ، فضلا عن أن النتيجة سريعة وتكون عادة في بحر الثانيتين الأوليين من بدء العملية .

وقد تعددت الآراء في سبب الموت : فمن قائل إن التنفس ينعدم ، ومن قائل إن سريان الدم في العروق يتوقف .

وقد وُجد أخيراً بتشريح جسم شخص مات بالتيار الكهربائي المستمر أن بعض أجزائه الداخلية حاولت أن تتخذ مواضع تناسقية ، وتحركت قليلا من مكانها الأصلي فالقلب مثلا — ويكون عادة منحرفاً نحو اليسار — حاول أن يتوسط الجسم ، وبذلك توقفت الأعضاء المختلفة عن أداء وظائفها الطبيعية .

السؤال رقم ٨ : هل يتساوى وزنا مُخَّيْ رجلين أحدهما ذكي والآخر غبي ؟

يتوقف الوزن الكلي لمخ الانسان على أربعة عوامل هي : (١) السن (٢) طول القامة (٣) الجنس (مذكر أو مؤنث) (٤) وزن الجسم .

يزن مخ الطفل عندما يولد حوالي ٣٨٠ جراماً أي بنسبة ١٢٫١٪ من وزن جسمه ، وفي السنوات الثلاث الأولى من عمره ينمو المخ نمواً مطرداً سريعاً ، تبعاً لما يلقاه من الدروس من أبويه والبيئة التي تحيط به . ثم يزداد المخ تدريجياً وبنسبة ثابتة في الوزن والحجم إلى أن يصل إلى ذروته في سن العشرين للذكور والثامنة عشرة للإناث ؛ وعندئذ يضمحل ثانياً وينكمش بنسبة جرام واحد للسنة الواحدة للجنسين .

وقد وُجد أنه غالباً ما يكون ذكاء الشخص نتيجة مباشرة لحجم مخه ، فكان لكوفييه Cuvier مثلا — وهو العالم الفرنسي المعروف — مخ يزن ١٨٣٠ جراماً . أما أكبر مخ ظهر في جميع أحقاب التاريخ فكان للشاعر والقصصي الروسي الذائع الصيت إيفان سرجيفتش ترجنيف (١٨١٨ — ١٨٨٩) فقد وصل وزن مخه إلى ١٩٤٠ جراماً .

وهذا لا يمنع أن يكون لتلك القاعدة بعض الشواذ كما في حالة أناتول فرنس مثلا ، إذ كان وزن مخه ١١٣٨ جم أي أقل من المتوسط بمقدار ٤٠٠ جم . ولا شك أن القاعدة تظهر بوضوح تام عند ما نعلم أن أوزان أمخاخ بعض البلهاء لا تزيد في أغلب الأحوال على ٣٠٠ جرام ؛

وقد قيل إن ذكاء الشخص يتوقف أيضاً على مقدار الثنايا التي يحتوي عليها المخ ، بصرف النظر عن الوزن . ولكن كثرة الثنايا والتجاعيد تكبر من حجمه ومن سطحه الخارجي ؛ فالنتيجة الظاهرية لا تتغير ، سواء كثرت التجاعيد أو كبر الحجم أو الوزن .

محمد أحمد أمين

أنباء وآراء:

لصوص ولصوص

كان الأستاذ الكبير شاعر القطرين خليل بك مطران قد أتحف مجلة الثقافة بالبيتين الآتيين تعليقاً على مقال الأستاذ « ز » (لصوص ولصوص):

ما بين لصوص ولصوص فرق فى الأعلى والأدنى
اصغارهم « الشنق » الزرى وكبارهم الشرف الأسنى

وقد جاءتنا من الأستاذ عبد الرحمن أحمد سعد بالأبيض عدة أبيات تعليقاً على بيتى شاعر القطرين ، وهذه الأبيات من نظم المرحوم جبران خليل جبران ، وردت فى مواكبه ننشرها شاكرين له ملاحظته :

والعدل فى الأرض يبكى الجن لو سمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا
فالقتل والسجن للجانين إن صغروا
والفخر والمجد والإثرا إن كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته
وقاتل الروح لا يدرى به البشر

عند ما تحارب أمريكا

كتب المستر ر . كلايد مقالا لخصته مجلة باريد ، شرح موقف أمريكا إذا ما دخلت الحرب ، ومهد له ببيان الاحتمالات التى يمكن أن تؤدى إلى ذلك ، وهى فى نظره إما أن تكون زيادة حوادث الاعتداء على السفن الأمريكية ، وإما أن تكون انتصار الحزب العسكرى فى اليابان ، وبذلك تصبح الحرب أمراً لا مفر منه للدفاع عن المصالح الأمريكية فى الباسفيك ، وإما أن تتحقق أمريكا من أن دخولها الحرب لازم لتحقيق النصر للديمقراطيات .

ويشرح مستر كلايد السبيل الذى تسلكه أمريكا فى الحرب فيقول : « عند ما تحارب أمريكا فهى مضطرة إلى تلقى بضعة ضربات أول الأمر حتى تتاح لها الفرصة لمعرفة مدى قوة عدوها ، وحتى تتهيأ للانتاج الواسع الذى يتطلبه سحق هذا العدو » ، ثم يقول بعد ذلك : « وهناك حقيقة واقعة يجب أن لا نتجاهلها ، هى أن القذف بقوات كبيرة طعمة لنيران الحرب بدون ترو ولمجرد إحراز انتصارات سريعة لا تحتاجه الديمقراطيات فى حروبها ، وإن كان لازماً للدول الديكتاتورية ؛ ذلك أن الحكام هم الذين يدفعون بالشعوب إلى الحرب ، ولا بد لهم من مثل هذه الانتصارات لتخدير أعصاب الشعب » .

ويتحدث الكاتب بعد ذلك عما سيحدث فيقول : « وسواء فوجئت أمريكا بالحرب أو بدأتها رعاية لمصالحها فان أثرها لن يكون فعالا قبل مضى شهور ، فستكتفى بوقوفها موقف الدفاع ، وستختار بنفسها وبمعونة حلفائها وقت الهجوم وميدانه ، معتمدة على مدى تحقق الانتاج الذى يهيئ لها هذا الهجوم ، وإذا كانت الظروف الحسنة ستكون فى صف أعداء أمريكا أول الأمر لبعد مصالحها فى الشرق الأقصى ، فان إنتاجها يستطيع أن يمضى فى طريقه دون أن يلقى معاكسة جدية من العدو ، وذلك يعطيها ميزة لا تتوفر لأعدائها ، وهى الميزة التى تتطلبها حرب تقوم على الوقت وكسبه ، لا على الضربات السريعة الخاطفة » .

ومع أن هذا المقال نشر قبل أن تدخل أمريكا الحرب بأكثر من شهر ، فقد تحقق الاحتمال الثانى ودخلت أمريكا الحرب بعد تغلب النزعة الاستعمارية على سياسة اليابان ، ويبدو أن ما رآه الكاتب من تطورات الحرب توشك الأيام أن تحققه شيئاً فشيئاً .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرماني رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٩٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٠ — الثلاثاء ٣ من محرم سنة ١٣٦١ — ٢٠ من يناير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

العام الهجـــرى

يحتفل العالم الإسلامى اليوم باستقبال عام جديد ، فيقفون وقفة قصيرة أو طويلة يستعرضون فيها ماضيهم ، وينظرون إلى حاضرهم ، ويتطلعون إلى مستقبلهم ؛ فيرون ماضياً جليلا فى أوله ، متعثراً فى وسطه ، مخجلا فى آخره . وليس ذلك كل تاريخه ، إنما هو تاريخ يوم واحد من أيامه ؛ ومن أجل هذا بدأ يتطلع إلى شروق اليوم الثانى ، فأحس بمواضع النقص فيه ، وكان قد وصل إلى درجة أنه لا يحس ، وبدأ يعمل وكان لا يعمل ، وبدأ يضع خطة استقباله ، وهذه أول علامة الحياة ، وبدأ يغربل ماضيه ينتقى خيره وينفى شره ، وبدأ يغربل الحضارة الغربية يختار خيرها ، ويستبعد شرها .

وماذا ينقصه الآن للسرعة فى سيره وتحقيق مثله ؟ ينقصه الإيمان الحق القوى المتين بالله وبالفضيلة ؛ فهذا هو ما أنجح أولهم ، وبضياعه ضاع آخرهم . لقد جاء الإسلام فدعا إلى عبادة الله وحده ، وتمجيده وحده ، والإيمان بخيريته ، وبذل المال والنفس فى سبيله ، لأن سبيله هو الحق ونصرة الحق .

فلما أن دخل هذا الإيمان نفوس قوم واختلط بدمائهم ، لم تقف أمامهم قوة بشرية . لم تقف الحضارة أمام بداوتهم ، ولا الأسلحة الحديثة أمام عصيهم وقسيهم وسيوفهم ، ولا الخيلة أمام إبلهم ، ولا كثرة العدد أمام قلتهم ؛ لأن الإيمان يجب كل شئ ، ولا يعوقه عن سيره

شيء — اعتبر ذلك بالحرب الحاضرة ؛ فالإيمان بالوطنية هو الذي يثابر ويدافع ، وهو الذي يكتب له النصر ، ومن لم يؤمن انهار لحينه ، ومن آمن ثبت بقدر إيمانه ، والمصابرة الآن مصابرة إيمان لإيمان ؛ فكيف بإيمان العقيدة ، وإيمان نصرة الله ، وإيمان نشر الفضيلة ، والحق في الله وبالله .

إن لنا في تاريخ الرسول (ص) والصحابة عبراً جمة ، وأمثلة رائعة لما يفعل الإيمان . خذ لذلك مثلا « يوم الأحزاب » ؛ فقد تضافرت قريش كلها على استئصال محمد ومن آمن معه ، وأطاعتهم القبائل حولهم ، وحالفهم يهود المدينة ومنافقوها ، واختارت كل قبيلة خير قادتها ، وجمعوا خيلهم وأحابيشهم ومؤنهم وذخائرهم ، وبلغوا نحو اثنى عشر ألفاً ، فيهم من يعد بألف كخالد بن الوليد في شجاعته وقيادته ، وعمرو بن العاص في رأيه ومكيدته ؛ فكل جزيرة العرب عليهم ، وكل يهود المدينة ومنافقيها أحلافهم ، وكل هؤلاء وهؤلاء على فئة قليلة من المسلمين بالمدينة ، لا يتجاوز جنودهم الألف ، ولكن ما قيمة العدد والعدد بجانب الإيمان !

لقد اهتدى المسلمون إلى فكرة الخندق حول المدينة فحفروا ؛ فأبو بكر وعمر ينقلان التراب في ثيابهما ، إذ لم يجدا مكاتل ، ومحمد رسول الله يأخذ المعول فيكسر به حجراً اعترضهم في حفرهم ، وقد تم الخندق ، وأخذ الجيش القليل يحرس الثغر ، ورسول الله معهم يحرس ثلمته ، وهم يتناوبون الحراسة في البرد القارس والجوع الشديد !

فماذا كان مع هذا كله ؟

كان الإيمان الصادق الذي لا يتطرق إليه شك « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » .

في أشد هذه الأوقات الحرجة التي بلغت فيها القلوب الحناجر ، كان النبي يعد قومه بنصرة دعوته ، ولا يخالجه شك في أن الحق لا بد أن يسود ؛ وفي هذا الوقت العصيب الذي لا يفكر فيه أحد إلا في النجاة من هذه المحنة ، كان « محمد » يقول : « والله لتفتحن الشام ، ولتظهرن عليه ولا ينازعكم أحد ، ولتفتحن اليمن ، ولتفتحن هذا المشرق » ؛ ويرى في هذه الأزمة الحادة قصور اليمن والشام ، والقصر الأبيض لكسرى بالمدائن ، كلها تتساقط في يد المسلمين ناشرين دعوتهم داعين لربهم ، ويبعث إلى أبي سفيان يقول : « أما بعد فقديما غرك بالله الغرور ، لقد ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، وذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى » .

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزاً » .

وما أكثر العبر ، وما أكثر الأمثال !

كان هذا والمسلمون لا يتجاوزون الآلاف ، فما بالهم اليوم وقد بلغوا حول مائتين وخمسين مليوناً موزعين على القارات الخمس ، ما بالهم اليوم لا يحتلون المكان اللائق بهم وبدينهم وبتاريخهم ؟ إنهم لا ينالون ذلك إلا بأن يؤمنوا ويعملوا ، وليس الإيمان تلفظا ومظاهر عبادة ونطقاً بالشهادتين ، إنما الإيمان قلب ينبض وعقيدة تمتزج بالدم . ليس الإيمان يعد بالأجسام بل بالأرواح ؛ ولرب روح واحدة أنفع من آلاف ، بل أجدى على الإنسانية من ملايين . إن الحياة بلا عقيدة تافهة لا طعم لها ، كالطعام بلا ملح والخبز بلا إدام ، ولا خير في الحياة من غير مثل أعلى تتجه إليه الأمم ويعمل له الأفراد ، يحمل تبعة هذا قادة العالم الإسلامي ، سواء في ذلك قادتهم الدينيون وقادتهم الاجتماعيون والسياسيون .

فأما قادتهم الدينيون فالمسلمون أطوع لهم ، وإصلاحهم أسرع على أيديهم ، وهم يقصرون دعوتهم — في الأعم

الأغلب — على الاتيان بالشعائر ؛ ولكن وراء ذلك يجب أن يدعوا إلى قلب يحيي وواجب يؤدى وتضحية في سبيل الخير تبذل ، واطلاع على الكون وشؤونه يلقن ، ومبادئ قويمة تغرس . لكل زمن تعبيراته ، وفي كل موقف للأمة واجباته ، وفي أحداث كل زمن عبرة ؛ فلا بد أن يخاطب رجال الدين الشعوب بأحداث زمانهم ولغة زمانهم ومطالب زمانهم ، ولا بد أن يمتوا بالقلوب فيحيوها ، وبالمثل العليا الصالحة فيرسموها ويبثوها ، وإلا ظل المسلمون مسلمين جغرافيا وبالتعداد ؛ ولا يتم ذلك حتى يعرف قادة الدين الدنيا وشؤونها وزعماءها واتجاهاتها ، ويعرفوا موقف أممهم من هذه الاتجاهات وما يصلح لهم وما لا يصلح ، ثم يوجهوهم خير توجيه وأنفعه لدينهم ودنياهم .

لقد أتى الاسلام لمحاربة الأصنام ولكل عصر أصنامه وأوثانه ، وأصنام عصرنا شهوات تقضي على التوحيد وسلطات تحارب العدل والحق ، وأموال تعبد من دون الله ، وتدع أمامها الفضيلة ؛ فواجب قادة الدين أن يحطموا هذه الأوثان كما حطمها مؤسس الدين وأنصاره ، وليدعوا — كما دعوا — إلى عبادة الله وحده والحق وحده . . .

وأما قادة الاجتماع والسياسة فمهامهم كذلك ثقيل ، وتبعاتهم عظيمة ؛ فالعالم الاسلامي يعاني المشاكل الاجتماعية والسياسية ما ينوء بالعصبة أولي القوة ، وأصبح المسلمون — رضوا أو كرهوا — جزءاً من عالم حي نشيط ، لا بد أن ينشطوا بنشاطه ، ويحيوا من جنس حياته ، ويسايروا حركته ، وتجري دورتهم الدموية جريانه ، وإلا تخلف العضو ومات ، ومعاذ الله أن يموت ؛ ثم هم أمام قوى تتناحر ، وهم بعض الغرض ، وجزء من الغاية ، فكيف يصح أن ينام قادتهم ، ويغمضوا عيونهم عما يجري حولهم ، وكيف يصح أن يتنازعوا على القليل التافه ، ويختلفوا على الأعراض ، وينقسموا على الأشكال ؟ ثم إن الاسلام أتى وكان دينا ونظاما اجتماعيا معا ، والمسلمون يجرون على هذا النمط في حياتهم إلى اليوم ، فقد رسم الدين عباداتهم ، وشكل حياتهم الاجتماعية ؛ وقد دخل على الدين في عصوره المختلفة ما لم يكن منه ، وترك أثره في حياتهم اليومية ، وغزت المدنية الحديثة المسلمين في مناحي حياتهم . فأي الأمور أصلح ؟ وأي الخطط توضع ؟ وأي الأمور يجب أن يكون ؟ وأيها يجب أن يستبعد ؟ ولا بد في هذا كله أن يتعاون قادة الدين وقادة الاجتماع ، فليس الشأن عندنا كالشأن عند غيرنا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

هذه ونحوها أمور تواجه العالم الاسلامي اليوم ، ويجب أن تحل ، ويجب أن يواجهها قادة الدين وقادة الاجتماع ، ولا يتركوها للزمان ، فالزمان وحده لا يحل الأمور كما ينبغي ؛ وليس غيرنا يترك زمانه يعمل وحده ، فأولى ألا نترك زماننا .

نرجو أن يكون عامنا الهجري الذي نستقبله اليوم خيراً على العالم الاسلامي ، ينطقنا بالثناء عليه يوم وداعه ، ونحتفظ له بالذكرى الجميلة عند استقبال أخيه .

أحمد أمين

على هامش السيرة :

طبيب النفوس

للدكتور طه حسين بك

أين الناضرة ؟ علىّ بالناضرة . ردّوا علىّ الناضرة . وكان صفوان بن أمية يقول هذا فى صوت تظهر فيه الحدة والغضب ، ويظهر فيه السخر والضحك معاً . وكان يقول هـذا وهو يرمى إلى قيم داره بنظرات كأنهن قطع النار ، حتى أخاف القيم وملأ قلبه روعا وهولا . فقام مبهوتاً لا يدرى ماذا يصنع ولا يعرف كيف يجيب . وكان يقول هذا وقد أخذ بيد صـديقه الحارث بن هشام يجذبه إليه جذباً عنيفاً لا رفق فيه ، ويضطره إلى المجلس الذى أراده على أن يجلس فيه ، لا يلتفت إليه ولا يسمع له ، كأنما يجذب شيئاً لا رأى له ولا إرادة ؛ فلما طال عليه وجوم القيم أقبل عليه منذراً لا يكاد يخفى حنقه وهو يقول : ألم أسألك عن الناضرة ؟ ألم أطلب إليك الناضرة ؟ أفى أذنيك وقر ؟ أتحولت صخراً لا يسمع ولا يجيب ؟ قال القيم فى صوت مضطرب وبلسان متلجلج : فإن الناضرة فى حيث أمر مولاى أن تكون من الحبس ، وعليها ما أمر مولاى أن يكون عليها من الأغلال منذ غنت ذلك الصوت . قال صفوان متضاحكا لا يكاد يهدأ غضبه : وقد ضربتها الأسواط التى أمرك مولاك أن تضربها فى كل يوم إذا أصبحت ، وكنت تتهيأ لتغذيها بالأسواط التى أمرك مولاك أن تغذيها بها فى كل يوم إذا مالت الشمس إلى الزوال ؛ فإنى أريد الآن أن أضعك مكانها ، وأجعل عليك أغلالها ، وأرد إليك السـياط التى قدمتها إليها منذ أمرتك ذلك الأمر الحنق . اذهب فأخرج الناضرة من حبسها ، وضع عنها أغلالها ، وأقبل علىّ بها مكرمة موفورة ، وأسرع فى ذلك ولا تبطئ ، فإنى أخشى أن يجر عليك الإبطاء شراً عظيما . قال ذلك ثم تحول عن مولاه إلى صديقه الحارث بن هشام وهو يقول : ما رأيت أحداً بلغ به الحمق ما بلغ بهذا الغلام . قال الحارث وهو يتكلف الابتسام : بل ما رأيت أحداً بلغ الغيظ به ما بلغ بك أيها الصديق ؛ إنك لتكلف هذا الفتى من أمره شططا : تأمره أن يحبس هذه الجارية وأن يعذبها ، ثم لا تظهر له أنك غيرت رأيك فيما أردت من حبسها وتعذيبها ؛ ثم تلومه الآن لأنه أمضى ما أردت ولم يخالف عن أمرك . قال صفوان : فإنه يزعم أنه ذكى لبق ، وأنه يعرف ما لا يعرف ، ويسبق إلى فهم الأشياء ، وهو قد رأى ما ترى وسمع ما تسمع وأحس ما تحس ، وعلم أن كل شىء من حولنا يتغير ، وأن كل سلطان من حولنا يزول ؛ فقد كان من الحق عليه أن لم يبق لنا على الناضرة حبس ولا تعذيب . قال الحارث وقد انجلى عنه ما كان يغمر وجهه من الحزن ، وابتسم ثغره عن ابتهاج صريح : نعم ، وقد كان ينبغى أن يعلم أن ليس لك عليه أمر ولا نهى ، وأنك لا تملك أن تلومه ولا أن تعنف عليه ، وقد كان ينبغى أن يدع دارك هذه وما فيها ومن فيها ، وأن يمضى إلى حيث يلقى حريته وأمنه ورجولته كاملة ، ثم يعود إليك متسلطاً ظافراً ، فيصدر إليك من الأمر ما يصدر الغالب إلى المغلوب . قال صفوان وقد ثابت إليه نفسـه ، واطمأن قلبه بين جنبيه : نعم ، هو ما تقول . لقد رأيت اليوم ما أخرجنى عن طورى ؛ وإنى أعجب لشىء ، فأنما أعجب لهدوئك واستقرار نفسك ، واطمئنانك إلى ما يقع حولك من الأحداث . قال الحارث : وماذا تريد أن أصنع ؟ لقد جاهدت محمداً ما وسعنى جهاده ، وحاربته ما وجدت إلى حربه سبيلا ؛ ولقد ذقت فى هذه الحرب مرارة الهزيمة وحلاوة النصر ؛ ولقد طاولته كما طاولته قريش ، وعاجلته كما عاجلته قريش ؛

فقد أبت الأحداث إلا أن يظهر محمد على قومه ، وأبت الأحداث إلا أن يدخلها علينا محمد عنوة ؛ وقد حلنا بينه وبين ذلك منذ أعوام ؛ فلم ينفعنا ما قدمنا إليه من عنف ، ولم يغن عنا ما أظهرنا له من بأس ؛ وها هو ذا يدخلها علينا ، لا عنيفاً بنا ولا مشتطاً علينا ، لا يجزينا من بأسنا بالبأس ، ولا يلقانا بمثل ما لقيناه به من الصلف والخال . ولكني لم أعرف الناضرة هذه التي تطلبها ، ولا أعلم فيم حبستها وأثقلتها بالأغلال ، ولا أفهم فيم سؤالك عنها وإلحاحك في هذا السؤال ، وفيم تكريمك لها بعد أن أرهقتها بالعذاب . قال صفوان : فإنك ستعلم من هذا كله ما جهلت وأقبل القيم يدفع أمامه في رفق فتاة قصيرة الخطو تتقدم في كثير من التردد والامتناع ، في وجهها جمال لا تبلغه العين حتى يصل إلى القلب فيحدث فيه أثراً عميقاً . ولكنها تتقدم مترددة ممتنعة قد ملكها الخوف والاشفاق ، وكأن مالقيت من السجن والعذاب قد آذى منها قلباً كريماً وأهان منها نفساً عزيزة ، وإن لم يؤمن ساجنوها ومعذبوها لها بكرم القلب وعزة النفس . ومتى آمن السادة الأحرار بالكرم والعزة للرقيق المستذل ؟ وكان وجه الفتاة يبين عما يملأ قلبها من خوف ، كما كان يبين عما يؤذى نفسها من هذا الشعور بالاهانة ، ولكنه كان يبين في الوقت نفسه عن شيء يشبه الرضى والاذعان ومن شيء يشبه العفو والمغفرة .

كان هذا كله يقرأ في ذلك الوجه الجميل المشرق ، وفي تلك اللحظات الوادعة الهادئة . فلما رآها الحارث مال إلى صاحبه وهو يقول : ما رأيت أنضر من هذا الوجه ؛ قال صفوان : وما عرفت أكرم من هذه النفس ؛ ثم نظر إلى الفتاة في رفق عظيم وهو يقول : أقبلي يا ابنتي فليس عليك بأس . أقبلي لا تراعي فأنت آمنة منذ اليوم . لقد آذيناك وشققنا عليك ، ولكنا سنصلح ما قدمنا إليك من مساءة . أقبلي وخذي مجلسك مني كما تعودت أن تجلسي ، وغنيني ذلك الصوت الذي كان مصدر ما لقيت من الأذى والذي سيكون مصدر ما تلقين من النعيم . ولكن الفتاة لبثت قائمة واجمة كأنها لا تسمع أو كأنها لا تفهم ، أو كأنها لا تصدق ما كان يساق إليها من الحديث . قال صفوان : أقبلي يا ابنتي واسمعي لما يقال لك ، وأزيلي من نفسك مغزل الحق ، فأنت حرة بعد أن تغنيني ذلك الصوت ، وأنت مطلقة تذهبين حيث تشائين ، وتستقبلين من أمرك ما تريدين ، ولك علي ألا تتعرضي لحاجة ، وأن تكفى غوائل الدهر . اجلسي يا ابنتي كما تعودت أن تجلسي ، وغنى يا ابنتي كما تعودت أن تغنى . ثم التفت إلى قيم الدار وقال في صوت حازم : سواء الخمر والاقدام يا غلام .

وما هي إلا ساعة حتى كان الصديقان مقبلين على شرابهما ، والفتاة تغنيهما في صوت عذب نفاذ إلى القلوب ، يغمر وجهها إشراق أخاذ للنفوس هذه الأبيات :

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا
فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم
ومقعدها المؤمنين بمرصد

قال الحارث بن هشام ، بعد أن أخذ من الغناء والشراب بحظ موفور : ألم يأن لك أن تنبئني عن قصتك ، وأن تبين لي من خطتك ، فإني أراك شديد الغموض منذ اليوم ، وما عرفتك قط غامضاً ولا ملتوياً فيما تأتي وما تدع من الأمر ؟ قال صفوان : أتذكر هذا الشعر ؟ قال الحارث : وكيف لا أذكره ، وقد عرفنا به وجه محمد في هجرته ، واستيأسنا به من القدرة على رده إلينا ، وتعلمنا به أن ستكون لنا معه خطوب ؟ إني لأسمع هذا الشعر الآن كما كنت أسمعه في تلك الليلة حين انطلق به ذلك الصوت الرائع الرهيب يتغنى به صاحبه من أسفل مكة إلى أعلاها ، والناس يسمعونه ويتبعونه ، ويلتمسون مصدره ،

فلا يرون له شخصاً ، فيستقر في نفوسهم أنه هاتف من الجن ؟ وما أدري الآن أكان هاتفاً من الجن أم كان هاتفاً من الملائكة ، ولكنه كان روحاً من هذه الأرواح التي ملأت علينا جونا في هذه الأعوام .

قال صفوان : فإني قد كرهت هذا الشعر كرهاً شديداً ، وازداد كرهي له منذ قتل أبي وأخي بأيدي أصحاب محمد ، ومنذ ورد الملأ من قريش موارد الموت فيما كان بيننا وبين محمد من حرب . ولقد حاولت الثأر في أحُد ، ولقد حاولت الثأر بعد أحد . ولقد كنت أظن أني سأجد فيمن قتلنا من أصحاب محمد وبني أبيه شفاءً ، ولكني لم أجد إلا غلاً يزداد تحرقاً وتأججاً كلما تقدمت الأيام . ولقد التمست السلو عن هذا الغل في الرحلة ، والتمسته في الصيد ، والتمسته في اللهو ، فما ظفرت به وما وجدت إلى شيء منه سبيلا . وأدعو ذات يوم بهذه الفتاة وأطلب إليها الغناء فتغنيني ما شاءت ، وأطرب لصوتها العذب وغنائها الحلو ، فأستزيدها فإذا هي تغنيني هذا الشعر ، فتذكرني بما كنت أريد أن أنسى ، ويكون ذلك حين أبلغتنا الأنباء بأن محمداً قد عبأ لحربنا ، وفصل من يثرب ليدخلها علينا عنوة بعد أن رددناه عنها كراماً ؛ فيملكني الغضب وتستأثر بي الثورة ، وآمر بالفتاة كما رأيت أن تحبس في بيت من بيوت هذه الدار ، وأن توضع عليها الأغلال ، وأن تصبح وتمسي بالسياط تلهب جسمها هذا الرخص الجميل . قال الحارث : ففيم إطلاقك لها ، وفيم استماعك لهذا الصوت وشربك عليه ؟ قال صفوان : فإن الرجل الكريم هو الذي يلقى جليل الأمر معترفاً به غير منكر له ولا جاحد لأخطاره ، وقد حاربنا هذا الرجل ما وسعتنا حربه ، وقد ظننا به الظنون وأرسلنا فيه ألسنتنا وعقولنا ، وقلنا فيه ما نعتقد وما لا نعتقد ، وكانت الأيام تكذبنا ، وكانت الحوادث تكشف لنا عما كنا فيه من الإثم والضلال ، فكنا لا نسمع للأيام ولا نؤمن للحوادث ، وإنما نمضي فيما كنا نضمر من البغض ، وفيما كنا نظهر من العدوان ؛ ولم تكن الحرب بيننا وبين هذا الرجل ، وإنما كانت بيننا وبين قوة أعظم من هذا الرجل بأساً وأشد منه نفاذاً وأبعد منه أثراً في حياة الناس . كنا نغالب القضاء فقد غلبنا القضاء . وكنا نحارب السماء فقد قهرتنا السماء . فما الخير في أن نمضي فيما كنا نمضي فيه من صلف قريش وكبريائها ، ومن جاهلية قريش وغرورها .

قال الحارث : إنك لتحدثني بما ناجتني به نفسي منذ أعوام ، وبما كانت تناجيني به نفسي حين لقيتك عائداً إلى دارك بعد أن سمعنا منادي محمد يؤذن في الناس أن من لزم داره فهو آمن وأن من لزم دار أبي سفيان فهو آمن . وكنت أريد أن أبلغ داري فألزمها حتى أرى لي مخرجاً من هذا الحرج . فلما لقيتك دعوتني إلى دارك فأقبلت معك ، وإن كنت لنائياً عنك أسمع لما كانت نفسي تحدثني به من النجوى . قال صفوان : أما أنا فقد عدت إلى داري مغيظاً محنقاً لا أملك نفسي من الغيظ ، ولكني عدت إلى نفسي معترفاً بأن أمر محمد قد ظهر على أمرنا ، وبأن قد ظلمت هذه الفتاة كما ظلمت غيرها من الناس . قال الحارث : فما تريد أن تصنع ؟ قال صفوان : ما أدري ، ولكني لن أذعن لهذا السلطان الجديد إلا أن أكره على ذلك إكراهاً . قال الحارث : أما أنا فمخرج نفسي من هذا البأس وذاهب إلى محمد فقابل منه دعوته ومعلن إليه إذعاني بما يريدنا عليه .

وهما في ذلك وإذا باب صفوان يطرق ، وإذا مولاه يدخل مضطرباً ، فينبئ سيده بأن رسول محمد بالباب . قال صفوان ، وقد ظهرت على وجهه ابتسامة حازمة : فأدخل رسول محمد ، ثم التفت إلى صاحبه وهو يقول : هذا أول الشر : ما تظنه يريد منا ؟ ولكن الرسول أدخل ، فحيا وتلطف في التحية ، وتلقى صفوان لقاءً حسناً ، ثم يقول الرسول لصفوان : إن رسول الله (ص) يستعد لحرب هوازن ، وقد جمعت له جمعاً عظيماً ، وقد علم أن عندك سلاحاً ودروعاً وكثيراً من أداة الحرب ؛ فهو

يسألك أن تمده بما عندك . قال صفوان فى لهجة لم تخل من سخرية : فهو الغصب إذاً . قال الرسول فى لهجة غلبت عليها الأناة والحلم : كلا يا صفوان ، ليس الغصب من أخلاق رسول الله ، وهو لم يملكنا غصباً ولا غدراً ولا تجبراً ، وإنك لتعلم قدرته عليك وعلى غيرك من الطلقاء ؛ أفتراه قد حكم بشر ، أو تحكم بأذى ؟ إنه يستعير منك سلاحك ودروعك وما عندك من أداة الحرب ، على أن يردها عليك موفورة بعد الظفر إن شاء الله . قال صفوان : فأبلغ محمداً أن لنا عنده ما رضى ، وأنا سنمده بما نقدر عليه من أداة الحرب . ومن يدرى ؟ لعلنا نمده بأنفسنا ، فهو بعد ملك قريش . قال الرسول : بل قل نبى الله . وأطرق صفوان ، ونهض الرسول فانصرف راضياً . قال الحارث : أباق أنت على ترددك ؟ أما أنا فسلم منذ الآن ، قال صفوان : ما أدرى والله ما أصنع . إن قلبى ليحب هذا الرجل ويؤمن له ، وإن نفسى مع ذلك لتستطيع أن تسلو عن عز قريش . قال الحارث : فإنى أرى أن عز قريش لم يتبدل ، إلا أن يكون ظهور محمد قد زاده قوة وبأساً . ألم ينبئنا منذ أظهر دعوته بأننا إن نؤمن له ضمن لنا ملك الدنيا ونعيم الآخرة ؟ لقد كذبناه وأعرضنا عنه ، وسخرنا منه . فلم يرعه ذلك ، ولم يفل من عزمه ، وإنما مضى أمامه لا يلوى على شىء ، ولا يحفل بشىء ، ولا يشفق من شىء ، حتى إذا لم يجد عند قومه خيراً ، ولا فى وطنه أملا ، هاجر بدعوته إلى حيث يستطيع أن يجهر بها ، وأن يذيعها آمناً ، ويذود عنها بالقوة إن تعرضت للخوف . ولست أخفى عليك أنى لم أعجب بشىء قط كما أعجبت بهذه الهجرة ، يفر فيها صاحبها برأيه ليذود عنه ، ويدعو إليه حراً طليقاً لا يخاف شراً ، ولا يتقى أذى . هذا الفرار بالحرية ، أو هذا الفرار فى سبيل الحرية ، شىء لم نعرفه من قبل ، لقد كنا نفر بأموالنا لنحصنها ، وكنا نفر بأمتعتنا لنؤمنها ، وكنا نفر بدمائنا لنحقنها . فإذا هذا الرجل وأصحابه يفرون بدينهم لينشروه ، ويتركون لنا أموالهم وأمتعتهم ومنافعهم ، ثم لا يخشون أن يبذلوا دماءهم فى سبيل ما يدعون إليه . ألا يروعك هذا ؟ قال صفوان : فما بال هذا كله لم يرعك قبل اليوم ؟ قال الحارث : والله لقد راعنى ، وما زال يروعنى ؛ وإنما هى الكبرياء ألحت بى فى هذا الضلال ، فقد آن لهذه الكبرياء أن تنجلى عن غمرتها . قال صفوان : أما أنا فلم تنجل عنى غمرة الكبرياء بعد ، وانظر إن أمرى لعجب حقاً ؛ إنى لا أستطيع أن أؤمن لمحمد ، ولا أومن لما جاء به ، ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن أبقى بمكة آمناً وادعاً ، وهو يلقى عدوه من قيس . لأشهدن حربه هذه كما يشهدها أصحابه ، ولأنظرن فى أمرى بعد ذلك .

ويتيح الله لنبيه الظفر يوم حنين على جموع قيس ، بعد أن امتحن المسلمون فى أنفسهم وقد أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً ؛ وإذا رسل النبى تصل إلى صفوان فى خيمته ومعه الحارث بن هشام قد أسلم وشهد الوقعة مسلماً ؛ فإذا دخل الرسل على صفوان قال قائلهم بعد أن حيا وتلطف فى التحية : إن رسول الله (ص) يرد عليك سلاحك ودروعك وأداتك موفورة ، ثم هو يهدى إليك حظاً من الغنيمة يمنحك مائة من الإبل ، ولا يكره أن يزيدك إن استزدت . قال صفوان : وصلته رحم ، فما عرفته إلا رجل خير ، وما أرى إلا أن الله قد منحه القدرة على تطهير القلوب من الحقد والبغض ، ومن الضغينة والإثم . هلم سيروا بى إليه ؛ فقد آن لغمرة الجاهلية أن تنجلى ، وآن لصفوان بن أمية أن يؤمن بمحمد وما أنزل عليه من الحق .

ومضى صفوان بن أمية إلى النبى فيسلم . ثم يعود فيخلو إلى نفسه ، ويفرغ لأمره ، ولا يكاد يشارك الناس فيما يضطربون فيه من الأمر . قال بعض أصحاب صفوان له ذات يوم : أى أبا وهب ! إنك قد أسلمت ، ولكن

الحرب والبلاد الاسلامية

للدكتور محمد عوض محمد

اتسع ميدان الحرب حتى بات يشمل الأرض كلها ، برها وبحرها ، سهلها وجبلها . ولئن جاز لنا أن نقول إن في العالم أقطاراً أشد اصطلاء بلهيب الحرب من غيرها ، فاننا لا نستطيع أن نزعم أن في العالم قطراً واحداً يستطيع سكانه أن يطمئنوا إلى أن هذه الحرب لن تتناولهم بأذى أو تلحق بهم ضررا .

ولم يكن بد — وقد اتسعت رقعة الحرب هذا الاتساع الهائل منذ دخلتها اليابان — من أن تعم الحرب أقطارا إسلامية جديدة ، كنا من قبل نرجو أن تظل بنجوة من العذاب . فالمسلمون منتشرون في جميع أنحاء الأرض ؛ ولهم شعوب عديدة تحتل أقطارا واسعة في الشرق الأقصى ، والشرق الأوسط ، وفي أوربا ، وفي إفريقية . وقد باتت الحرب على أبواب طائفة من تلك الأقطار ، واجتاحت وتوغلت في أقطار إسلامية أخرى .

في أوربا

إن مواطن المسلمين في أوربا تشتمل على بضعة أقطار في البلقان ، وفي روسيا . وقد أغار الطليان في خريف عام ١٩٤٠ على بلاد اليونان ، متخذين بلاد ألبانيا الاسلامية قاعدة لهجومهم ؛ فلم يلبثوا أن ضربتهم جيوش اليونان ضربات عنيفة ، وهزمتهم هزائم منكرة . ومضى الشتاء في عام ١٩٤٠ و ١٩٤١ وجيوش الطليان مدحورة مقهورة ، لا تعرف كيف تخرج من الورطة التي دفع بهم إليها الطمع والعدوان . وصادف ذلك اندحار قواتهم في برقة ؛ فلم يكن من زعيم إيطاليا إلا أن سلم زمام أمره وأمر جيشه وأمته إلى يد زميله القوى العنيد ، تاركاً له كل حرية في تصريف الأمور وإدارة دفة السفينة وسط هذه البحار الهوجاء التي اندفع إليها الطليان ، ولم يستطيعوا منها خلاصاً .

وتولى الزعيم الألماني وأعوانه القيادة كلها . وأخذوا يعدون العدة للزحف على البلقان . فاحتلت قواتهم بلغاريا من غير حرب . كما سبق لها أن احتلت رومانيا من غير قتال . وفي كلا البلدين جماعات من المسلمين مبعثرة في شرق البلقان وغربه ، وأرادت ألمانيا من حكومة يوغوسلافيا تسليما وانقياداً كما سلمت رومانيا وبلغاريا . وفي يوغوسلافيا عدد غير قليل من المسلمين يعيشون في مقاطعتي بوسنة وهرسك . ولكن يوغوسلافيا أبت الانقياد والتسليم . فجوزيت على عصيانها هذا بحرب خاطفة ، وبتدمير ساحق لعاصمتها . وقد أغير عليها فجأة دون أن تعطى مهلة تحشد فيها قوتها . أما الجيوش الألمانية فكانت معبأة منذ زمن ، وعلى كثرتها وقوتها ، فانها منذ انهزام فرنسا لم تكن تقوم بحرب في أي ميدان ... وأمام هذه القوة الهائلة ، لم تلبث جيوش يوغوسلافيا أن هزمت ، ولكن حكومتها أبت التسليم ، وارتحلت إلى جهة بعيدة

(البقية على صفحة ٣٢)

الاسلام لا يستقيم لك إلا أن تهاجر كما هاجر الناس . قال صفوان : فلأهاجر كما هاجر الناس . وخرج من مكة غير محب للخروج ، فلما بلغ المدينة لم يقم فيها إلا قليلا حتى قال له رسول الله (ص) : « عزمت عليك يا أبا وهب لما رجعت إلى أباطح مكة » . فرجع إلى أباطح مكة أحب ما يكون في الرجوع إليها ، وأقام فيها ما شاء الله أن يقيم . وكان يتحدث إلى الناس فيقول : « لقد أعطاني رسول الله (ص) يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلى » . قال قائل : فقد أحببته إذاً لعطائه ! قال صفوان : ويحك ، لا والله إن كنت لغنياً ؛ وإنما أحببته لأن الله علمه كيف يداوى القلوب المراض .

طه حسين

الهجــــــرة
مولد تاريخ

للدكتور عبد الوهاب عزام

تعمد الأمم إلى حدث جليل من أحداثها ، يبرز بين خطوبها ، ويثبت على مر الزمان في أنفسها ، فتجعله ميقاتاً تبتدئ منه حساب الأيام ، وتعدّها تعدّ من لدنه الشهور والأعوام ؛ وربما يكون موت أحد كبرائها ، أو مصيبة من المصائب التي لا تفصل طوراً من طور ، ولا تميز عصراً من عصر ، ولا تكون حداً بين سيرة وسيرة ، ولا برزخاً بين فساد وصلاح ، أو رشد وغيّ ، أو عزة وذلة ، أو جهالة ومعرفة ، ولا ينبوعاً يطرد منه في حياة الأمة نهر ، أو ذكرى تفيض منها للمواعظ والعبر ، أو مبدأ تُعطف عليه في الخطوب الذكر .

وخير ما أرخت به أمة حادث يلد لها تاريخاً ، أو يغيّر لها وجهة ، أو يهديها إلى غاية ؛ ويبقى على مر الزمان خلاقاً للعظائم ، مدّاداً بالفضائل ، فياضاً بالعظات ؛ تنظر إليه الأمة كلما بعد بها السير لتنظر أين هي من المكانة التي تراد لها ، وأين سيرها من الطريق البيّن ، وأين وجهتها من الغاية المرجوة .

وقد كان إلهاماً ما رآه ثاني الخلفاء الراشدين عمر الملهَم المحدَّث ، حين أشار على المسلمين أن يجعلوا الهجرة مبدأ لتاريخهم ، وميقاتاً لأعمالهم ؛ فما أعرف حدثاً ولد تاريخاً طويلا ، وخلق عصراً مديداً ، واطّرد في تاريخ البشر فياضاً بالخير مترعاً بالحوادث كالهجرة ؛ وما هي إلا سفرة محدودة قصيرة جعلها الله عنوان أسفار معنوية طويلة في نفوس الأفراد والجماعات والأمم ؛ وما هي إلا نقلة بين بلدين كانت انتقالا من الوثنية إلى التوحيد ، ومن الفوضى إلى النظام ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الجهل إلى العلم — من الجاهلية الى الاسلام .

بالهجرة عز الاسلام ، وانتصرت دعوته ، ونفذت شريعته ، وتألفت الجماعة الاسلامية الأولى — الجماعة التي انتشرت فاذا هي أمة تجمع الشرق والغرب ، وجاهدت فاذا هي ملء الزمان عزماً وحزماً ، وإقداماً وصبراً ، وثباتاً ودأبا . وسيطرت فاذا دولة تقوم على الأسود والأبيض بشريعة من الحق الشامل والأخوة الجامعة ، ثم استقرت وعملت فاذا الحضارة المؤمنة الرفيقة التي تحطم الحدود الفاصلة ، وتمحق العصبيات الباطلة ، وتسوّي بين الناس إخوة عاملين متعاونين ، كلهم لآدم ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

لقد كانت هذه الجماعة الاسلامية القليلة التي أقرّتها الهجرة في المدينة كالبذار الطيب يجمعه الزارع الصالح وينقيه ثم يبثره ، فيملأ الأرض خصباً وبركة ، وكبخار البحر يجمعه السحاب ثم يتفرق به في أرجاء الأرض حياة وطهراً وخصباً ونماء . فقه هؤلاء الصحب الأجلاء من رسولهم ، ووعى هؤلاء التلاميذ الصالحون من معلمهم ، ثم انتشروا في أرجاء الأرض قوّاداً فاتحين وولاة راشدين ، وقضاة عادلين ، وعلماء هادين ، وعبّاداً خاشعين ؛ فاجتمع السيف والكتاب ، والعرش والمحراب ، والسلطان والعلم ، والقدرة والحلم ؛ وما زال هذا البحر يمدّ ، وما زال هذا النور يشع ، وما زال هذا الخير يشيع ، وما زال هذا الحق يبسط ، وما زال هذا الدين ينتشر ، وما زال هذا العزم يمضي ، وما زال هذا الجهاد يدأب ، حتى شهد العالم أول مرة أمة واحدة منتشرة بين الصين وبحر الظلمات ، فنيت فيها الأجناس ، وامحت الألوان ، وصبغها لون وضاء من الأخوة والمودة ، وتعاونت فيها العقول على فلسفة

واحدة وفقه واحد وأدب واحد ، وتضافرت الأيدي على نسج حضارة واحدة .

كم في تاريخنا من أعمال تمت إلى الهجرة بسبب ، وكم فيه من أبطال ربطها بالهجرة نسب .

محمد بن القاسم الثقفي ثم محمود الغزنوي وظهير الدين بابر كانوا في فتح الهند وإقامة الدول فيه من آثار الهجرة ، وقتيبة وأسلافه وخلفاؤه في تركستان سهام رمت بها الهجرة فأبعدت المكان والزمان . وعقبة بن نافع على فرسه على شاطئ بحر الظلمات ، وطارق بن زياد في الأندلس ، وعبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء كانوا يطوون الأرض والممالك ، وينشرون العدل والأخوة مهاجرين على آثار الهجرة النبوية .

ثم ما وعى التاريخ من سير فقهاء وعلماء ، وكتاب وشعراء ، ومتكلمين وفلاسفة ، وصوفية ، وما شاد الزمان من مساجد ومدارس ، وقصور وقناطر ... كل ذلك للهجرة أثر فيه ، وطابع عليه . كل ذلك كتاب ، الاسلام بيانه ، والتاريخ برهانه ، والهجرة عنوانه .

ولا تزال الهجرة على بعد العهد ، وعراقة الزمان ، وضراوة الفتن ، وضعف المسلمين وتخاذلهم ، وحياً يملأ النفوس آمالا ، والقلوب إيماناً ، والأيدي قوة ، والعزائم فتوة ، ولا تزال نوراً في نفس كل مسلم ، وحديثاً في ضميره ، ودعوة في أذنه ، وعزة في جوانحه ، وسؤدداً في همته . لا تزال تدوي في الآذان والصدور ، كما لا يزال الأذان الأول يدوي في أرجاء الأرض ، لا يفتر ليل نهار ، ولا يقر له في ساعات الزمان قرار (١) .

ألا إن التاريخ الذي ولدته الهجرة لا يزال في ازدياد ، والنهر الذي أجرته لا يزال في اطراد ، والروح الذي نفخته لا يزال قوياً ، والعزم الذي شحذته لا يزال فتياً ، والكتاب الذي كانت عنوانه لم تقرأ صفحاته ، ولم تنفد كلماته ، وإن في ضمير الدهر لأحداثاً كباراً ، وإن في ثنايا الغيب لأسراراً وأسراراً .

قد أضاع المسلمون الزمام ، ورضوا أن يكونوا غيرهم الامام ، وفقد كثير من المسلمين عقولهم في هذه الفتن الحيرة ، وأضلوا رشدهم في هذه الخطوب المظلمة ، ورقت أبصارهم من هذه الأشعة ، وصمت آذانهم في هذه الضوضاء ، ورضوا بفضلات الأقوام لعقولهم وقلوبهم وأيديهم وألسنتهم . ولكن لا يزال وحي الاسلام يسمع من وراء الحجب ، ونوره ينفذ في ثنايا الظلمات ؛ ولا تزال هذه العقول تعرف غايتها ، وهذه الوجوه تقصد قبلتها ، ولا تزال هذه الهمم تسمو إلى سمائها ، وهذه الأرواح تطمح إلى عليائها ، ولا تزال هذه الابر تعرف قطبها وتتجه وجهتها .

إن التاريخ الذي ولدته الهجرة لم يمت ، والمجد الذي افتتحته لم ينقطع ، والجذوة التي أوقدتها لم تنطفئ . ولا يزال في الأرض خصب ، وفي النهر ماء ، وفي السماء سحاب ، وفي السحب مطر ورعد وبرق .

وإن علينا أن نتذكر فنحسن التذكر ، ونعتبر فنجيد الاعتبار ، ونخلق من العسر يسراً ، ومن النقمة نعمة ، ومن الضلال هدى ، ومن الضعف قوة ، مستبصرين بالوحي الذي لا يفتر ، والنور الذي لا يخبو .

من كان يظن أن الأقلام جفت ، والصحف طويت ، فليصخ ليسمع صرير الأقلام ، تخط في صفحات التاريخ الاسلامي فصولا جديدة . ومن كان يحسب أن الينبوع نضب ، فليمعن النظر ليرى أن الينبوع فياض ، وإن حجبته الأدغال ، أو تراكمت حوله الرمال . ومن أحس همود الحياة في نفسه ، وخمود الهمة في صدره ،

(١) إذا فكرنا في اختلاف الأوقات في البلاد الاسلامية ، عرفنا أن الأذان مستمر لا ينقطع ساعة .

أم المحســـنات

السـيدة زبيدة

للأستاذ عبد الحميد العبادى

هى زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور المؤسس الحقيق للدولة العباسية . واسمها فى الأصل « أمة العزيز » ، وكثيراً ما تكنى بأم جعفر ؛ وإنما لقبت زبيدة لأن جدها المنصور كان يرقصها وهى صغيرة ويقول : يازبيدة ! يازبيدة ! وذلك لسمنها وبضاضتها ، فلزمها هذا اللقب وغلب عليها .

ولدت سنة ١٤٥ هـ ، ونشأت فى مدينة المنصور نشأة الأميرات العباسيات فى ذلك العصر ، فثقفت أحسن ثقافة ، وأدبت أكمل تأديب ؛ هذا إلى عقل راجح ، وذكاء متوقد ، وإرادة قوية ؛ ومن أجل هذه الخلال كلها اختارها الخليفة المهدى زوجة لابنه هارون ، فأعرس بها فى عام ١٦٥ هـ . ومن ذلك الوقت إلى أن توفيت فى سنة ٢١٦ هـ كانت السيدة زبيدة ألمع شخصية نسوية فى العالم الإسلامى كله ؛ ولعلها من حيث الشهرة والمكانة التاريخية لا تقل عن زوجها الرشيد . وما أعجب سخرية الأقدار بهذا العاهل الجبار الذى قارع القياصرة ، وأذل الجبابرة عند ما تضع بإزائه فى النفوذ والسلطان والشهرة فى الحياة وبعد الموت امرأة هى زوجه السيدة زبيدة . ولقد شهدت زبيدة فى مدى خمسين عاما من الأحداث الجسام ما شهدت ، وذاقت من إقبال السعد وإدباره ما ذاقت ؛ ومع ذلك بقيت هى هى ، سيدة جليلة ، وملكة عظيمة .

* * *

لعل أول مشكلة واجهتها زبيدة بعد زواجها من الرشيد ، هى نفس المشكلة التى تواجهها كل امرأة تكون فى مثل حالها وعند مثل زوجها . لقد كانت قصور بغداد عامة والرشيد خاصة عامرة بالجمال الأنثوى المجلوب من كافة أقطار العالم الاسلامى المتنوع الأجناس والألوان واللغات ؛ ففيها ما شاءت العين من نساء جميلات لا حصر لهن ، من بين عربيات وفارسيات وروميات ومغربيات وصقلبيات ، جلهن بل كلهن ملك يمين الخليفة نفسه ، وهو بعد شاب فى ميعة الصبا وعنفوان الشباب ، فوق ما كان فيه من تجبر ونزوع إلى الاستبداد بكل شىء فى سلطانه ؛ فكانت زبيدة تخشى بطبيعة الحال أن تغلبها على قلب الرشيد من عساها تكون من هؤلاء النساء أبرع منها جمالا وأكثر حلاوة وأشد ذكاء ؛ ولكنها مع ذلك عرفت كيف تروض زوجها الشاب المرح الطروب ، وكيف تحل نفسها من قلبه بالمحل الأول . كل ذلك فى رفق ولطف وكياسة وحسن تأت للأمور وعلم تام بمداخلها ومخارجها . روى صاحب « الأغانى » أنه كانت ليحيى بن خالد البرمكى جارية فائقة الحسن بارعة الأدب والغناء تسمى دنانير ، وكان الرشيد يكثر من السير إلى دار يحيى ليسمعها ، حتى ألفها واشتد إعجابه بها . . وعلمت زبيدة

وضعف الأمل فى قلبه ، ومرض البيان فى لسانه ، فليرجع إلى الهجرة وآثارها ، والاسلام وتاريخه ، ليغترف من هذا الينبوع أو يقبس من هذه النار ، ويقرأ فى هذا الكتاب ، ويستمع إلى هذا الخطاب ، ليرجع إلى نفسه حياتها ، وإلى همته وقدتها ، وإلى أمله قوته ، وإلى لسانه بيانه ، وإلى عقله سلطانه . فإن الاسلام لا يعرف الموت ولا الضعف ولا الذلة ولا اليأس ؛ وإنما هو العيش فى عزة وكفاح ، أو الجنة تحت ظلال الرماح . وإن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب .

عبد الوهاب عزام

بالخير فشكته إلى عمومته ، فساروا جيعاً إليه فعاتبوه ؛ فقال : مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أرق فى غنائها ، فاسمعوها فان استحقت أن يؤلف غناؤها ، وإلا فقولوا ما شئتم ! ونقلهم إلى دار يحيى حتى سمعوها عنده ، فعذروه ، وعادوا إلى السيدة زبيدة فأشاروا عليها ألا تلح فى أمرها ، فقبلت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جوار منهن أمهات أولاده المأمون والمعتصم وصالح .

ومن هذا القبيل ما يروى من أن الرشيد غضب عليها يوماً ، ثم ترضاها ، فأبت أن ترضى عنه ، فأرق ليلته ؛ ثم قال : افرشوا لى على دجلة ! ففعلوا ، فقعد ينظر إلى الماء وقد رأى فيه زيادة عجيبة ، فسمع من بعيد مغنياً يغنى بهذه الأبيات :

جرى السيل فاستبكانى السيل إذ جرى

وفاضت له من مقلتىّ غروب

وما ذاك إلا حين خبرت أنه

يمر بواد أنت منه قريب

يكون أجاجاً دونكم فإذا انتهى

إليكم تلقّى طيبكم فيطيب

فيا ساكنى شرق دجلة كلكم

إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

فسأل الرشيد عن الناحية التى فيها الغناء ، فقيل دار ابن المسيب ، فبعث إليه : أن ابعث بالمغنى ، فإذا هو الزبير بن دحمان ، فسأله عن الشعر ، فقال : هو العباس ابن الأحنف ، فأحضر واستنشده فأنشده إياه . وجعل الزبير يغنيه والعباس ينشده حتى أصبح الصباح ؛ وقام فدخل إلى السيدة زبيدة ، فسألت عن سبب دخوله غرفتها ، فوجهت إلى الشاعر بألف دينار ، وإلى المغنى عثلها . وليس من شك فى أن الأمر كله كان مدبراً ، وأن زبيدة كانت صاحبة هذا التدبير اللطيف .

***

بهذه المهارة وتلك اللباقة عرفت زبيدة كيف تروض مليكها الشاب وتطامن من جماحه ، وكيف تضمن ولاءه لها وإخلاصه لحبها . ولو أنها تملكها الغيرة الطائشة وساورها الجزع ممن كن ينافسنها على قلب الرشيد ، فأكبر الظن أنها كانت هى التى تخرج من الميدان مهزومة مغلوبة على أمرها . على أن زبيدة لم تشأ أن تكون منزلتها من قلب زوجها مؤسسة على ما أوتيت من جمال وحسب ونسب فحسب ، بل أحبت أن تكون مديله فى الثقافة والفن والأدب ؛ فإذا كان الرشيد تعجبه بلاغة العبارة فلتكن بليغة قادرة على أن تذيل الكتب التى ترفع إليها بتوقيعات بليغة . روى الجاحظ قال : خبرنى جعفر ابن سعيد قال : ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات جعفر ابن يحيى ، فقال قد قرأت لأم جعفر توقيعات فى حواشى الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعانى » وناهيك بجعفر بن يحيى وعمرو بن مسعدة ، فالأول ممن يضرب بهم المثل فى البلاغة والثانى من أبلغ كتاب المأمون .

وإذا كان الرشيد شاعراً بطبعه أو على أقل تقدير عالما بالشعر عارفاً بجيده ورديئه ، فلتكن هى كذلك ، ولتأذن لكبار شعراء العصر أمثال أبى العتاهية ونصيب ومسلم الخاسر وأشجع السلمى بالإنشاد فى حضرتها ، ولتنقد شعرهم نقد خبير عارف بالشعر ، ولتجز المحسن منهم ، ولتدل المقصر على موضع تقصيره . وفى كتاب « الأغانى » أخبار كثيرة تدل على قبول هؤلاء الشعراء لنقدها ونزولهم على حكمها . . .

وإذا كان الرشيد مولعاً بسماع الوسيقى والغناء شديد الإقبال على كبار المشتغلين بهذين الفنين الجليلين فلتقتد به زبيدة فى ذلك . والحق أنها بلغ من عنايتها بالوسيقى والغناء أن أنشأت فى قصورها ما يشبه أن يكون معهداً موسيقياً ؛ فكان عندها مئات الجوارى يأخذن الصناعة عن أكبر شيوخها أمثال إسحق الوصلى وعلوية ومخارق

وأغراضهم . وكانت إذا بلغها أن مغنياً مشهوراً وضع لحناً جديداً أمرت جواريها فأخذنه عنه . ولقد دفعت ذات مرة ثلاثمائة ألف درهم ثمناً لعبد أسود يجيد الغناء . وكثيراً ما كانت تعرض بضاعتها في هذا المجال على زوجها في حفلات تجيد تزيينها وتنسيقها فيعجب بها أيما إعجاب .

***

وإذاً فقد أصبحت السيدة زبيدة مملكة على الرشيد مالكة لزمامه تصرفه كيفما شاءت فينقاد لها كل انقياد . لقد غزت قلبه من جميع أقطاره ، والويل للرجل الذي يلي مصالح العامة إذا غزت المرأة قلبه وملكت عليه زمام أمره . إنها لا تلبث أن تجعله مطيتها إلى السيطرة على مصالح العامة نفسها ، توجهها على حسب أهوائها ووفق أغراضها ، لا على وفق ما تقتضيه المصلحة العامة نفسها . والسياسة من الأمور التي تستهوي أفئدة النساء الجميلات الموهوبات الطموحات ، وهن لا يحجمن من التورط في مآزقها إذا ما وجدن السبيل إلى ذلك سهلة ميسرة . وسهامهن في شئون السياسة كسهامهن في شئون الحب مصميات قاتلات . . . ولله در أبي فراس حيث يقول :

ولا تملك الحسناء قلبي كله ... وإن ملكتها روقة وشباب

ولقد وجدت زبيدة سبيل التعرض لسياسة الدولة ممهدة ميسرة ، فركبتها غير هيابة ولا مترددة ، ولقد تعرضت لأدق أمور هذه السياسة وأشدها خطراً ؛ وأعني بذلك ولاية العهد أولاً والأخذ بناصر الحزب العربي ثانياً .

لقد رزقت زبيدة من زوجها ولدها محمداً الأمين ، ومع أنه لم يكن أكبر أبناء الرشيد ولا أنجبهم فإن أمه كانت حريصة على أن يكون الخليفة بعد أبيه . وقد أخذت تسعى إلى ذلك سعياً حثيثاً ؛ فهي آناً تدفع الشعراء إلى مدح محمد والإشادة بذكره ؛ وآناً تستغل نفوذها على الرشيد لصالح ولدها . وما زالت كذلك لا تفتر لها همة حتى نزل الرشيد على مشيئتها وعقد البيعة بولاية العهد لمحمد ، على أن تكون الخلافة لأخيه عبد الله المأمون من بعده ، وقسم الدولة بينهما ، وكتب بذلك وثائق أودعها جوف الكعبة توكيداً لما فيها من عهود أخذت على الأخوين وعلى رجال الدولة أجمعين .

على أن الأمين هاشمي الأبوين ، وهو بذلك يمثل الحزب العربي في الدولة العباسية لذلك العهد . أما أخوه المأمون ففارسي الأم ، وهو بذلك يمثل خؤولته من الفرس الذين أقاموا الدولة العباسية ، وكانوا المصرفين الحقيقيين لأمورها . فينبغي أن يحد من نفوذهم ، وأن يرفع من شأن العرب ، ليكون لخليفة المستقبل عصبية عربية قوية يستند إليها ويشتد بها أزره . وهنا نجد زبيدة تعمل على تنحية العنصر الفارسي عن إدارة الدولة العليا ، بادئة في ذلك بالبرامكة بطبيعة الحال . ويظهر أنها كانت لا تريد أكثر من ذلك ، ولكن الرشيد بالغ في فهم ما أوحت به إليه ، وذهب في الأمر إلى أبعد من الغاية التي كانت ترمي إليها زبيدة وبنو هاشم ، فنكب البرامكة نكبتهم المشهورة في عام ١٨٧ . والتبعة في ذلك واقعة لا على السيدة زبيدة ، ولكن على الرشيد ، فهو الذي لم يحسن تقدير الأمور ولا وضعها في مواضعها .

***

بلغت السيدة زبيدة ذروة مجدها في أخريات عهد الرشيد . فلما توفي سنة ١٩٣ بكته أحر بكاء ؛ فلقد كان زوجها ومصدر عزها وسلطانها ، ولكن عزاها عن فقده أن أصبح ولدها الأمين الخليفة من بعده ، فامتدت أسباب سلطانها أياماً أخر ، كانت قصاراً لسوء حظها .

لقد دب دبيب الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون ، وتفاقم الشر بينهما . ولقد حرصت زبيدة على أن يصفو الجو بين الأخوين ، ولكن المقادير جرت بغير ذلك ، فانتصر المأمون ، وقتل الأمين على شر حال ، فكان رزء زبيدة فادحاً وخطبها جليلاً ، إلا أنها تماسكت وتجلدت

وجعلت تروض نفسها على أن تنظر إلى الأمور نظرا هادئاً ، فهل المأمون إلا متبناها ، إن فاته أن يكون ابنها حقاً ، فلتنزله من نفسها هذه المنزلة ، ولتعامله على هذا الاعتبار . وينتقل المأمون من خراسان إلى بغداد ، ويعرف لها حقها أول الأمر ، ويتعهدها ببره وصلته ، ثم لا تلبث أن تعرف في وجهه الجفوة والنفور منها . فتتلطف للأمر على عادتها القديمة في معالجة الخلاف الذي كان ينشأ بينها وبين الرشيد ، فتطلب إلى أبي العتاهية الشاعر أن يقول شعراً على لسانها فيه عتاب المأمون على جفائه لها ، ويضع الشاعر هذه الأبيات المملوءة تفجعاً وتوجعا :

ألا إن ريب الدهر يدني ويبعد
ويؤنس بالآلاف طوراً ويبعد
أصابت لريب الدهر مني يدي يدي
فسلمت للأقدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يد
فقد بقيت والحمد لله لي يد
إذا بقي المأمون لي فرشيد لي
ولي جعفر لم يفقدا ومحمد

ثم أمرت جارية المغنى أن يغني المأمون بهذه الأبيات ، فسأل المأمون عن الخبر فعرفه ، فبكى ورق لها ، وقام من وقته ودخل إليها ، فأكب عليها يقبل يديها ، وقال لها : يا أمه ! ما جفوتك تعمدا ، ولكن شغلت عنك بما لا يمكن إغفاله . فقالت : يا أمير المؤمنين إذا حسن رأيك لم يوحشني شغلك . وأتم يومه عندها » .

ومهما يكن من تلطف المأمون لها ، فقد أدركت زبيدة أن قد انقضى زمانها ، ودالت دولتها ، ولم تعد تفكر إلا في كيف تخرج من الحياة العامة سالمة موفورة الكرامة . وسرعان ما سنحت لها فرصة ذلك . فعند ما بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ترى السيدة زبيدة تشترك في العرس ، وتنفق في ذلك أموالا ضخمة ، ولكنها في الوقت نفسه توعز إلى العروس أن تستأذن لها المأمون في الخروج للحج ، فلم يتردد المأمون في إجابة هذا الطلب .

* * *

من الناس من إذا تنكر لهم الزمان ضعفوا واستكانوا وعراهم اليأس من كل شيء في الدنيا ، فيصبحون أمواتاً وهم أحياء ! ومنهم من يحاول أن يثأر لنفسه من جده العاثر فيعيش لنفسه ولنفسه فقط ، فيصبح بذلك أنانياً أثراً مستهلكا غير منتج . أما النفوس القوية الكبيرة فهي التي ترى فرص العمل الصالح غير محدودة ! فهم أشبه بالسيل الدافع إذا اعترضته عقبة استدار حولها ومضى في طريقه . من هذه النفوس الكبيرة نفس السيدة زبيدة ، فإنها لما أدركت أن حياة الملك والسلطان قد آذنت بالزوال أو زالت بالفعل ، توجهت نحو عمل الخير فانفتحت أمامها آفاق لعمل الخير لا حد لمداها . ولقد اندفعت في اتجاهها الجديد بنفس الحمية التي كانت تندفع بها في صدر حياتها نحو أبهة الملك ومجد الدنيا ! فهجرت السياسة بتاتاً ، وكذلك تركت حياة الفن والأدب اللذين لم تعد ظروفها الجديدة مواتية لها ، واستبدلت بكل ذلك صنع البر والمعروف ، وقد تمنت أن تكون في برها ملكة متسلطة حقاً. فهؤلاء الجواري المغنيات أصبحن يتلون القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، حتى لقد كان يسمع من قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن . وهناك على حدود الدولة الإسلامية غزاة مرابطون للدفاع عن الدولة بمهجهم وأرواحهم ، فلترفه عنهم ولتنشئ لهم الربط والحصون يقيمون فيها . من ذلك رباط بدخشان ، أنشأته على حدود بلاد الترك في آسيا الوسطى ، وأنشأت عنده حصناً عجيباً ، يقول ياقوت

من همزية شوقى

في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

يا مَنْ له الأخلاقُ ما تهوى العُلا
منهـــا وما يتعشّقُ الكُبَراءُ

لو لم تقم دِيناً لقامتْ وحدَها
دِيناً تضيء بنـــورِه الآناءُ

وإذا سخوتَ بلغتَ بالجُودِ المَدَى
وفعلتَ ما لا تفعـــلُ الأنواءُ

وإذا عفوتَ فقادِرًا ومقـــدِّرا
لا يستهينُ بعفـــوِكَ الجهلاءُ

وإذا رحمتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌ
هـــذانِ في الدُّنيا هُما الرُّحَماءُ

وإذا غضبتَ فإنّما هيَ غضـــبةٌ
في الحقِّ لا ضِغْـــنٌ ولا بَغْضاءُ

وإذا رضيتَ فذاكَ في مرضاتِهِ
ورِضَى الكثيرِ تحلُّـــمٌ ورِياءُ

وإذا خطبتَ فللمنـــابرِ هِزّةٌ
تعرُو النّـــدِيَّ وللقلوبِ بُكاءُ

وإذا قضيتَ فلا ارتيابَ كأنّما
جاء الخُصُومَ مِنَ السّماءِ قضاءُ

وإذا حميتَ الماءَ لم يُورَدْ ولوْ
أنّ القيـــاصِرَ والملوكَ ظِماءُ

وإذا ملكتَ النفسَ قمتَ ببِرِّها
ولو انّ ما ملكتْ يداكَ الشّاءُ

إن الناس لم يروا مثله . وها هم أولاء حجاج بيت الله الحرام يلقون أعظم المشاق في اجتيازهم بلاد العرب ، فلتنشىء على حافتي هذا الطريق الآبار الطويلة والبرك العظيمة التي تختزن فيها المياه ليستقي منها الحجاج . وقد حجت السيدة زبيدة وشهدت موقع مكة بين جبال سود عاليات خاليات من الماء والنبات ، وعاينت ما يلقاه الحجاج من العنت في الحصول على الماء ، حتى إن الراوية لتباع أحيانا في موسم الحج بدينار ذهبا ، فرأت السيدة أن من أقرب القرب إلى الله أن تيسر وصول الماء من الحل إلى الحرم ، وعلمت أن بأرض الحل عينا تنبع من جبل شاهق يقال له طاد يبعد عن مكة بنحو ثلاثين ميلا . فأمرت السيدة المهندسين بنقب الجبال وإيصال مياه هذه العين إلى مكة ، فتم ذلك ، وأنفقت على عمل هذه العين ما يزيد على سبعمائة ألف دينار ذهبا ، وهو عمل هندسي عظيم هائل كما يصفه المؤرخون . ومن طريف ما يتصل بذلك من الأخبار أنه لما تم عمل العين اجتمع المباشرون والعمال لديها ، وأخرجوا دفاترهم لاخراج حساب ما صرفوه ، وكانت في قصر عال مشرف على دجلة ، فأخذت الدفاتر منهم ورمتها في النهر وقالت : « تركنا الحساب ليوم الحساب ، فمن بقي عنده شيء من بقية المال فهو له ، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه » ، وألبستهم الخلع والتشاريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين .

هذه العين هي عين زبيدة التي لا تزال تعرف بهذا الاسم ، والتي يشرب منها ملايين الحجاج حتى يومنا هذا . لقد ذهب ملك السيدة زبيدة ، وذهب حسبها ونسبها وجمالها ومجدها الدنيوي . أما ميزتها العظمى فباقية على وجه الدهر يذكرها بها الذاكرون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

عبد الحميد العبادي

وإذا بَنَيْتَ فخيرُ زوجٍ عِشْرَةً
وإذا ابْتَنَيْتَ فدونَكَ الآباءُ
وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطيتَه
فجميعُ عهدِكَ ذِمّةٌ ووفاءُ
وتَمُدُّ حِلْمَكَ للسفيهِ مُدارياً
حتى يَضيقَ بِعِرْضِكَ السفهاءُ
في كلِّ نفسٍ مِنْ سُطاكَ مَهابةٌ
ولكلِّ نفسٍ في نداكَ رجاءُ
يا أيها الأُمِّيُّ حَسْبُكَ رُتْبَةً
في العلمِ أنْ دانَتْ بكَ العلماءُ
الذِّكْرُ آيةُ ربِّكَ الكُبْرى التي
فيها لباغي المعجزاتِ غَناءُ
أما حديثُكَ في العقولِ فَمَشْرَعٌ
والعلمُ والحِكَمُ الغوالي الماءُ
أتت الدهورُ على سُلافَتِهِ ولم
تَفْنَ السُّلافُ ولا سَلا النُّدَماءُ
الحربُ في حقٍّ لديكَ شريعةٌ
ومِنَ السمومِ الناقعاتِ دَواءُ
والبِرُّ عندكَ ذِمّةٌ وفريضةٌ لا مِنّةٌ ممنونةٌ وجَباءُ
جاءت فَوَحَّدَتِ الزكاةُ سبيلَهُ
حتى التقى الكُرَماءُ والبُخَلاءُ
أنصفتَ أهلَ الفقرِ من أهلِ الغنى
فالكلُّ في حقِّ الحياةِ سَواءُ
فلوَ انَّ إنساناً تَخَيَّرَ مِلّةً ما اختارَ إلا دينَكَ الفقراءُ
الحقُّ عِرْضُ اللهِ كلُّ أبيّةٍ بينَ النفوسِ حِمًى له ووِقاءُ

هل كان حَوْلَ محمدٍ من قومِهِ إلا صبيٌّ واحدٌ ونساءُ
فدعا فلبّى في القبائلِ عُصْبَةٌ مستضعفون قلائلٌ أنضاءُ
رَدُّوا بِبَأْسِ العزمِ عنه من الأذى
ما لا تَرُدُّ الصخرةُ الصمّاءُ
والحقُّ والإيمانُ إنْ صُبّا على بُرْدٍ ففيه كتيبةٌ خرساءُ
نسفوا بناءَ الشركِ فهو خرائبٌ
واستأصلوا الأصنامَ فهي هباءُ
يمشون تُغْضي الأرضُ منهم هيبةً
وبهم حِيالَ نعيمِها إغضاءُ
حتى إذا فُتِحَتْ لهم أطرافُها
لم يُطْغِهِمْ تَرَفٌ ولا نَعْماءُ

من ادارة الثقافة
إلى حضرات المشتركين

ترجو إدارة الثقافة من حضرات المشتركين الذين لم يسددوا بقية اشتراكهم في المجلة عن سنة ١٩٤١ القيام بتسديده إلى إدارة المجلة.

كما ترجو من حضرات المشتركين الذين سددوا اشتراكهم عن سنة ١٩٤١ التفضل باخطارها من رغبتهم في تجديد الاشتراك عن سنة ١٩٤٢ ضماناً لاستمرار وصول الأعداد إليهم. وقد حددت الادارة نهاية شهر يناير سنة ١٩٤٢ موعداً لورود هذه الاخطارات؟؟

ادارة الثقافة

يوم أُحُـــــد

للأستاذ حسن جعول

لما عاد المشركون من بدر إلى مكة ، وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار الندوة . فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشاً كثيفاً لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وباعوها ، وكانت ألف بعير ، والمال خمسون ألف دينار ، وفيهم نزل قوله تعالى :

« إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلَبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » .

وخرج أربعة من وجهائهم إلى العرب يستنفرونها ، فألبوها وجمعوها . وخرج نساء مكة ومعهن الدفوف يبكين قتلى بدر وينحن عليهم ! وخرج جيش الكفار من مكة لخمس مضين من شوال في ثلاثة آلاف رجل ، فيهم سبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير .
أما عدة المسلمين الذين تهيأوا للقاء هذا الجيش عند المدينة فكانت ١٠٠٠ رجل منهم ١٠٠ دارع ، ولم يكن معهم إلا فرسان أحدهما للرسول صلى الله عليه وسلم ، والآخر لأبي بُردة بن نيار .

ونزل المشركون ظاهر المدينة ، فرعت إبلهم آثار الحرث والزرع ، حتى لم يتركوا خضراء . وبث النبي عيونه ليحزروا عددهم وما معهم ، فلما عادوا إليه بما علموا قال : لا تذكروا من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أجول وبك أصول !

وباتت وجوه الأوس والخزرج عليهم السلاح في المسجد بباب النبي صلى الله عليه وسلم خوفاً من إيقاع المشركين به أثناء الليل ، وقام حراس المسلمين على المدينة حتى أصبحوا .

ورأى صلى الله عليه وسلم رؤيا ، فلما أصبح يوم الجمعة واجتمع الناس خطب على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إني رأيت في منامي رؤيا : رأيت كأني في درع حصينة ، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظُبته ، ورأيت بَقَراً تُذبح ، ورأيت كأني مُردِفٌ كبشاً . فقال الناس : يا رسول الله فما أوّلتها ؟ قال : أما الدرع الحصينة فالمدينة ، فامكثوا فيها ، وأما انقصام سيفي من عند ظبته فمصيبة في نفسي ، وأما البقر المُذَبَّح فقتلى في أصحابي ، وأما أني مردف كبشاً ، فكبش الكتيبة (كتيبة الكفار) نقتله إن شاء الله !

وقال عليه السلام : امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام (بيوت الحجارة) ، فإن دُخل علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم ، ورُموا من فوق الصياصي والآطام . فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً ، وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو : أخرج بنا إلى عدونا .
وقال الأنصار : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبناً عن لقائهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فساقه الله إلينا في ساحتنا . وكان الرسول يستمع لما يقولون وهو لإلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح . وقال حمزة — عم النبي — : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة ! وتكلم كثير من الأنصار في معنى الخروج ؛ فلما أبوا إلا ذلك صلى النبي يوم الجمعة ، وقد وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ؛ ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم . ودخل

صلى الله عليه وسلم بيته ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فعمّماه ولبّساه ، وقد صف الناس له بين حجرته إلى منبره . فجاء سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا للناس : قلتم للرسول ما قلتم واستكرهتموه على الخروج ، والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه ، فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم فيه له هوى أو رأى فأطيعوه . فبينا هم على ذلك إذ خرج رسول الله عليهم وقد لبس لأمته (وهى أداة الحرب ولباسها كالرمح والبيضة والمغفر وغيرها) . فقال الذين يُلحون : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك . فقال : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، امضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم !

* * *

وصفّ الرسول أصحابه ، وجعل الرماة ٥٠ رجلا ، وجعل أحُدا خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وأقبل المشركون وقد دفعوا لواءهم إلى طلحة بن أبى طلحة . أما المسلمون فكان يحمل لواءهم مُصعَب بن عُمَير .

ودعا طلحة من شاء من المسلمين إلى البراز ، فبرز له على بن أبى طالب فقتله ، فكبّر المسلمون ، وسُر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله ، فإنه هو « كبش الكتيبة » . . .

وتقدم صلى الله عليه وسلم إلى الرماة ، فقال : احموا لنا ظهورنا ، فإنا نخاف أن نؤتى من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا . اللهم إنى أشهدك عليهم ، وارشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل .

* * *

ولما قتل طلحة — حامل لواء المشركين — حمله من بعده ابنه أبو شيبة ، فرماه حمزة عم النبي فقتله ، فتقدم لحمله أخو طلحة ، وهو أبو سعد ، فرماه سعد بن أبى وقاص فأرداه ، فحمل اللواء مسافع بن طلحة ، فرماه عاصم ابن ثابت فجندله . فحمله من بعده أخوه الآخر وهو الحارث ابن طلحة ، فرماه عاصم أيضاً فقتله ، فنذرت أمهم سلافة بنت سعد بن الشهيد أن تشرب فى قحف رأس عاصم الخمر ، وجعلت لمن جاء به مائة من الابل ، ثم تداول حمل لواء المشركين عدة ولكنهم كلهم يُقتلون .

وكانت نساء المشركين قبيل التقاء الجمعين أمام صفوفهم يضربن بالدفاف والغرابيل ، ثم يرجعن فيكنّ فى مؤخر الصف . فاذا دنا القوم بعضهم من بعض تأخر النساء وقمن خلف الصفوف ، فجعلن كلما ولى رجل حرضنه وذكرنه قتلاهم ببدر وقلن :

نحن بنات طارق ... نمشى على النمارق
إن تقبلوا نعانق ... أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

* * *

وما ظفّر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى موطن قط ما ظفره وأصحابه يوم أحُد ، حتى عصوا الرسول وتنازعوا فى الأمر . فقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهزمين لا يلوون ، ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدفاف والفرح . ولكن المسلمين أتوا من قبل الرماة ، فان المشركين لما انهزموا ، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا وينتهبون عسكرهم ، قال بعض الرماة لبعض : لِمَ تقيمون ههنا فى غير شيء ؟ قد هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم فادخلوا العسكر فاغنموا مع إخوانكم . فقال بعضهم : ألم تعلموا أن رسول الله نهاكم عن ذلك ، وقال لكم « احموا ظهورنا ولا تبرحوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن غنمنا فلا تشركونا » ؟ فقال الآخرون : لم يرد رسول الله هذا ! وانطلقوا فلم يبق مع أميرهم إلا دون العشرة . وبينا المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم إذ دخلت خيول المشركين من خلفهم وقد تنادى فرسانهم

شعارهم : يا لَلعُزَّى يا لَهُبَل ! ووضعوا السيوف في المسلمين وهم آمنون . وكل منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه ، فقتلوا فيهم قتلا ذريعاً . وتفرق المسلمون في كل وجه . وتركوا ما انتهبوا ، وأخلوا سبيل من أسروا . ومال خالد بن الوليد — وهو يومئذ مع المشركين لم يسلم بعد — إلى موضع الرماة فلم يترك أحداً منهم إلا قتيلا أو جريحاً ، وبلغ من اختلاط الأمر على المسلمين في انهزامهم أن صاروا يضرب بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون من العجلة والدَّهَش ما يصنعون ، وتفرقوا في كل وجه وأصعدوا في الجبل .

وكان رسول الله حين انكشف المسلمون لم يبق معه إلا رهط قليل ، لا يكادون يبلغون عدد أصابع اليدين ؛ فأحدقوا به وانطلقوا معه إلى الشِّعب ، وما للمسلمين لواء قائم ولا فئة ولا جمع . وإن كتائب المشركين لتحوشهم مقبلة ومدبرة في الوادي يلتقون ويفترقون ما يرون أحداً من الناس يردهم .

وثبت بين يدي رسول الله بعد ذلك يومئذ ثلاثون رجلا كلهم يقول : وجهي دون وجهك ، ونفسي دون نفسك ، وعليك السلام غير مودَّع !

وكان رجال من المشركين قد أجهدوا المسلمين بالرمي ، منهم حَبَّان بن قيس بن العَرِقة — والعرقة هي جدة خديجة أيضاً رضي الله عنها — فجعل النبي يقول لسعد ابن أبي وقاص : ارم فداك أبي وأمي ! ورمى حبان بسهم فأصاب ذيل أم أيمن — وقد جاءت تسقي الجرحى هي وعائشة من أزواج النبي — فانكشف عنها ذيلها ، فاستغرب حبان في الضحك ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له وقال : ارمه به ! فوقع السهم في نحر حبان ، فوقع مستلقياً وبدت عورته ، فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقادها سعد (أي انتصف) — أجاب الله دعوتك وسدد رميتك !

* * *

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم : عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبي وقاص ، وعمرو بن قَمِيئة ، وأُبَيّ بن خلف . ورمى عتبة يومئذ رسول الله بأربعة أحجار فكسر رباعيته ، ورماه ابن قميئة فشجَّه في وجنته حتى غاب حَلَق المِغفَر فيها (والمغفر درع على قدر الرأس ينسج من الحلق والزرد ويسبغ على العنق والعاتقين فيقيهما) ، وكانت حفرٌ حفرها أبو عامر كالخنادق يكيد بها المسلمين ، وكان رسول الله واقفاً على بعضها وهو لا يشعر به ؛ فأقبل ابن قميئة وهو يقول : دُلُّوني على محمد ، فواللات والعزى لئن رأيته لأقتلنه ، ثم علاه بالسيف فوقع صلى الله عليه وسلم في الحفرة التي أمامه فجُحِشت ركبتاه .

ورجع ابن قميئة إلى قومه يبشرهم أنه قتل رسول الله ، فقال له أبو سفيان بن حرب : إن كنت فعلت ذلك فإنا نسورك (نضع في يدك السوار) كما تفعل الأعاجم بأبطالها .

وأقبل أبو بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، فأسرع أبو عبيدة إلى النبي ، فأخذ بثَنِيَّتِه حلقة المغفر التي غاصت في خد النبي فنزعها بأسنانه وسقط على ظهره كما سقطت ثنيته ، ثم عاد فأخذ الحلقة الأخرى وفعل بها ما فعل بأختها .

وخرجت فاطمة عليها السلام في نساء ، فلما رأت الذي بوجه أبيها اعتنقته وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، وذهب عليٌّ رضي الله عنه فأتى بماء في ترسه ، فأراد النبي أن يشرب منه ، ولكنه لم يستطع ، فمضمض منه فاه ليغسل الدم الذي فيه ، واحتالت فاطمة على جرح النبي فلم ينقطع دمه ، وجعلت هي تغسله وعليٌّ يصب لها الماء ، حتى طال بها ذلك ، فأخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى صارت رماداً ، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم . وكان النبي بعد ذلك يداوي جرحه بعظم بال حتى يذهب أثره . ومكث يجد وهن ضربة ابن قميئة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر .

وأقبل يومئذ أبي بن خلف يركض فرسه ، حتى إذا دنا من رسول الله اعترض له ناس من المسلمين ليقتلوه ، فقال صلى الله عليه وسلم : استأخروا عنه ! ثم قام وحربته في يده فرماه بها بين سابغة البيضة والدرع ، فطعنه هناك ، فوقع عن فرسه وكسرت ضلع من أضلاعه فاحتملوه فمات لما ولوا به قافلين . وفيه نزلت الآية الكريمة :

« وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى » .

* * *

وكانت هند بنت عتبة أول من مثل بقتلى المسلمين ، وأمرت نساء المشركين أن يمثلن بهم ، فجدعن الأنوف والآذان .

وكان وحشي عبداً لابنة الحارث بن عامر ، فقالت له : إن أبي قتل يوم بدر ، فإن أنت قتلت أحد الثلاثة فأنت حر : إن قتلت محمداً أو حمزة أو علياً ، فإني لا أرى في القوم كفؤاً لأبي غيرهم . فكمن لحمزة رضي الله عنه إلى صخرة وقد اعترض له سباع بن عبد العزى ، فاحتمله حمزة ورمى به ثم برك عليه فذبحه ذبح الشاة ، ثم قام حتى بلغ المسيل ، فزلت رجله عن حرف ، فهز وحشي حربته وضرب بها حمزة فأصابت خاصرته وخرجت من مثانته ، فلحق بربه ! فأتاه وحشي فشق بطنه وأخرج كبده ، فجاء بها إلى هند بنت عتبة فقال لها : ماذا لي إن قتلت قاتل أبيك ؟ قالت : سلبي ! (والسلب ما على الانسان من ثياب وحلي) — فقال : هذه كبد حمزة ! فمضغتها ثم لفظتها ، ونزعت ثيابها وحليها فأعطتها وحشياً ، ووعدته إذا جاء مكة أن تعطيه عشرة دنانير . وقام معها حتى أراها مصرع حمزة ؛ فجدعت أنفه وقطعت أذنيه ، واتخذت من كل ذلك سوارين ومعضدين وخلخالين ، حتى قدمت بذلك مكة وكبده لا تزال معها . فلما علم النبي بما وقع لحمزة قال : هل أكلت من كبده شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : إن الله قد حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئاً أبداً !

ثم خرج رسول الله يمشي إلى حيث كان عمه رضي الله عنه ، فرأى به مثلا شديداً ، فأحزنه ذلك المثل ، ثم قال : لئن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين منهم ، فنزلت هذه الآية :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » . فعفا رسول الله ولم يمثل بأحد .

* * *

وكان عبد الله بن جحش — ابن عمة النبي — قد أقبل عليه صلى الله عليه وسلم قبل الوقعة ، فقال : يا رسول الله ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا حيث ترى ، وقد سألت الله فقلت : اللهم إني أقسم عليك أن ألاقي العدو غداً فيقتلوني ويبقروني ويمثلون بي ، فألقاك مقتولا قد صنع هذا بي ، فتقول : فيم صنع بك هذا ؟ فأقول : فيك يا رب — وإني أسألك يا رسول الله حاجة أخرى ، وهي أن تلي تركتي من بعدي ، فقال له الرسول : نعم ! فخرج وقاتل حتى قتل ومثل به ، ودفن هو وخاله حمزة في قبر واحد ، وولي تركته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشترى لابنه مالاً بخيبر ، فأقبلت أخته حمنة بنت جحش ؛ فقال لها رسول الله : يا حمن ! احتسبي ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : خالك حمزة . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه ، هنيئاً له الشهادة ، ثم قال لها : احتسبي . قالت : من يا رسول الله ؟ قال : أخوك . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه ، هنيئاً له الشهادة ! ثم قال لها : احتسبي . قالت : من ؟ قال : زوجك مصعب بن عمير ! قالت : وا حزناه ! فنظر صلى الله عليه وسلم إلى من حوله قائلا : إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد !

* * *

رحم الله شهداء أحد !

لقد كان يومهم يوماً عسيراً في تاريخ الاسلام

الصاحبان

لعل أكثر الشخصيات جاذبية في تاريخ الاسلام، وأبعدها أثراً في تمكينه ونشره – بعد الرسول (ص) – شخصيتا « أبي بكر » و « عمر » فقد آزرا الدعوة في شبابها، وتعهداها بعد انتقال مؤسسها إلى الرفيق الأعلى: رفع هذا رايتها بعد أن كادت تعصف بها أزمة الردة، وبنى ذلك على أساسها إمبراطورية فتية، وطيدة الدعائم مترامية الأطراف.

كلاهما يجتمع مع الرسول في النسب – هذا في مُرة وذاك في كعب، وكلاهما يمتُّ إلى الرسول بآصرة قوية عجيبة – هذا « بعائشة » وذاك « بحفصة »؛ وكان كلاهما متواضعاً خشن الملبس شديداً في ذات الله؛ وقد وقف الاثنان أحدهما من الآخر موقف الأديب الحلم والنصح الخالص، لم تشب ودهما شائبة من الغيرة، ولم يكدر صفو الاخاء بينهما تحاسد أو تناظر؛ ولو أن شيئاً من هذا جرى بين الرجلين ما كان في ذلك خروج على سنن البشرية ونوازع النفوس؛ وقد رزق كلاهما حظاً موفوراً من مضاء العزيمة، ورجاحة الرأي، وصفاء النفس، والاخلاص للدعوة والتضحية في سبيلها، حتى استحق أولهما شرف الرفقة في الغار، والذكر في محكم التنزيل، وحتى كان ثانيهما ليشير بالخطة على الرسول أحياناً فكأنما ينزل على وفقها القرآن.

ولكن نواحي الخلاف بين هذين الزعيمين العظيمين لا تقل طرافة عن نواحي الوفاق: « فالصديق » كان أكبر من « الفاروق » سناً عند ما جهر « ابن عبد الله » بالدعوة وكان أسبق منه إلى اعتناقها[1]. ويظهر أنه كان أكثر منه رزانة وأقوى نفوذاً؛ وهو في ناحيته العامة يتمثل لك ثابتاً في صورة السياسي المرن المجرب، العالم بأحوال قومه وأنسابهم، وحسناتهم ومعايبهم، المتزن في كل خطوة يخطوها أو أمر يبرمه؛ وفي ناحيته الخاصة يبدو لك إنساناً رقيق القلب ينهمر دمعه إذا تلا القرآن أو سمعه، ويبكي طرباً إذا بشر بأنه سيرافق الرسول في هجرته.

و « عمر » يتمثل لك في مستهل الاسلام شاباً مفتول الساعد، ذا وجدان هائج وعنف وشدة، وإسراع إلى امتشاق الحسام، وقناة لا تلين لغامز؛ ويتمثل لك في أيام الخلافة أميراً ذا عزيمة لا يفلها الحديد، وذا إرادة

(١) الجمهور أن أبا بكر كان أصغر من الرسول بثلاث سنوات، وأنه أول من أسلم من الرجال، أو من أول من أسلم، وأن عمر أسلم في السنة الرابعة قبل الهجرة. وكانت سنه إذ ذاك بين الخامسة والعشرين والثلاثين. وقد مات أبو بكر في جمادى الثانية سنة ١٣ هـ. وقتل عمر في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ.

والمسلمين، فقد أوذي فيه النبي إيذاءً شديداً في جسده وفي أصحابه، وحزن فيه المسلمون حزناً شديداً، وسنحت فيه الفرصة لليهود والمنافقين؛ فقال اليهود: ما محمد إلا طالب مُلك، ما أصيب هكذا نبي قط! وقال المنافقون للمؤمنين: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل، وجعلوا يخذلون الناس عن النبي ويأمرونهم بالتفرق عنه؛ وسمع بهم عمر بن الخطاب، فمشى إلى رسول الله يستأذنه في قتل من صدر منه هذا الكلام. فرد عليه الرسول صلوات الله عليه بقوله: يا عمر: إن الله مظهر دينه ومعز نبيه، واليهود ذمة فلا أقتلهم. قال عمر: فهؤلاء المنافقون! فقال: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال: بلى، وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف، وقد بان لنا أمرهم، وأبدى الله ضغائنهم عند هذه النكبة. فقال: نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ يا ابن الخطاب! إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن!

ولقد صدق ما وعد به رسول الله.

حسن جلال

وسياسة وسلطان ، ولكنك لا تزال ترى فيه طابعه الذى يميزه بين الرجال : شخصية لا تعرف التوسط ولا المساومة ، موقفها إما فى هذا الطرف وإما فى ذاك .

ومن الطريف أن « أبا بكر » — على رقته ودقة حسه — يصلب أحياناً حتى ليكاد ينسيك الجانب اللين منه : بلغه مرة من « أبى سفيان صخر بن حرب » أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له ، وأقبل « أبو قحافة »[1] فسمع صياح أبى بكر فقال لقائده . على من يصيح ابنى ؟ فقال له : على أبى سفيان . فدنا من أبى بكر وقال له : أعلى أبى سفيان ترفع صوتك يا عتيق ! لقد تعديت طورك وجزت مقدارك . فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار وقال له : يا أبت إن الله قد رفع بالاسلام قوماً وأذل به آخرين .

ويظهر أن رقة أبى بكر كان معها ما يحفظ توازنها من شدة وصلابة ، واجتماع هاتيك المتعمرين مما هو الذى ثبّت أبا بكر فى أزمة الردة ، وحفظ عليه تفكيره وسلامة تدبيره ، وجمع له مقاليد الأمور فى أطراف الجزيرة .

ومن الطريف كذلك أن « عمر » — على ثورة نفسه التى بين جنبيه ، وعلى أن كثيراً من المسلمين كانوا يهابونه أكثر مما يحبونه ، وكانوا فى كثير من الأحيان يكتمون من الأمر خشية من عمر أن يفسد عليهم إهابهم — على الرغم من ذلك كله كانت له ناحيته المرنة التى ظهرت فى تدبير أمر الامبراطورية الاسلامية ، وتدوين دواوينها ، ووضع الأنظمة العمرانية لها ؛ وظهرت كذلك فى سياسته التى اختطها مع قواده وعماله ، تلك السياسة التى جمعت إلى القوة والمضاء مقداراً وفيراً من المرونة وبعد النظر وحسن معالجة الرجال . وعلى أساس هذه السياسة يمكنك أن تفسر عزله « لخالد بن الوليد » بعد فتوحه الخالدة ، وإطلاقه يد « عمرو بن العاص » فى فتح مصر ، واحتفاظه « بالزبير » إلى جانبه فى مقر الخلافة .

ويظهر أن الدعوات العظيمة وما يتصل بها أو يشابهها من الهيئات والأحزاب لا بد لها من الرجلين معاً : رجل يداوى جراحات السنان ، ويسوس باللين ، ويهادن الخصم ويصالحه ، ويتألف النافر ، ويضع الخطط فى أناة وروية ؛ ورجل يقسو ليزدجر الأتباع والخصوم ، ويصرح حين يفضل التصريح ما لا يغنى التلميح ، ويجرد السيف من غمده حين تدعو الحال إلى عنف وتهديد . واجتماع هذين الرجلين معاً هو الذى حسم الموقف يوم السقيفة ، وحفظ كلمة الاسلام من التبدد والضياع .

ومن الانصاف لعمر وحزمه ووفائه أن يذكر له أنه كان يعرف أين موقفه من أبى بكر ، وكان يحرص على ألا يتجاوز طوره من رفيقه الأكبر ، وعلى ألا يبرز فى تنظيم أمور المسلمين إلا بقدر ، وكان لا يترك فرصة تمر دون أن يصرف الناس إلى أبى بكر ونواحى زعامته الموفقة . وكما كان عمر يقدر موقفه من أبى بكر ، ويفهم حدود وظيفته إلى جواره ، كان أبو بكر يفهم حواريّه على حقيقته ، وينفذ إلى ما فى خبايا نفسه من نواح رقيقة قد يغفل عنها بعض الصحابة ؛ قال « عبد الرحمن بن عوف » حين سأله أبو بكر رأيه فى عمر : « إنه فيه غلظة » ، وقال فيه « طلحة بن أبى عبيد الله » إذ دخل على أبى بكر فى مرضه : « استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، وكيف به إذا خلا بهم » . ولكن أبا بكر وعثمان كانا ينفذان إلى دخيلة عمر فيريان فيه ما يراه علماء النفس الآن فى أمثاله من الشخصيات التى يكمل باطنها ظاهرها ويصححه ، فيعلل أبو بكر غلظة عمر بقوله : « ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى إليه الأمر لترك كثيراً مما هو عليه ، وقد رمقته فكنتُ إذا غضبت على رجل أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له أرانى الشدة عليه » . ويقول فيه عثمان : « إن سريرته خير

(١) عاش أبو قحافة حتى قارب المائة ومات فى خلافة عمر ابن الخطاب .

من علانيته ، وليس فينا مثله » .

* * *

على أن شخصيتين كهاتين — إحداهما مطمئنة يغلب عليها عنصر التفكير ، والأخرى متوثبة يغلب عليها عنصر الوجدان — لا مفر لهما من أن يظهر ما بينهما من البون الشاسع حين تصدمهما صدمة من صدمات القضاء ، أو حادثة من حوادث الجسام . وهل هناك من حادثة تهز كيان الصاحبين وتكشف النقاب عن العنصر الأصيل في ذاتيهما أشد هولاً من حادثة انتقال صديقهما وزعيمهما المحبوب إلى الرفيق الأعلى ؟

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام « عمر بن الخطاب » فقال : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ص) قد توفي ، وإن رسول الله (ص) ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله (ص) كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله (ص) مات » . . .

وأقبل « أبو بكر » حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله (ص) في بيت عائشة ، ورسول الله مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : « بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » . ثم رد البرد على وجه رسول الله . ثم خرج — و « عمر » يكلم الناس — فقال : « على رسلك يا عمر ، أنصت » — فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه « أبو بكر » لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا « عمر » . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إن من كان يعبد « محمداً » فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » — ثم تلا هذه الآية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » .

قال الراوي : « فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس من أبي بكر فإنما هي في أفواههم » . قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات » .

أرأيت إلى الفرق بين الشخصيتين ؟ أرأيت كيف صدم المصاب « عمر » فأفقده اتزانه لحظة ، فرفض أن يصدق أن محمداً قد مات ؟ لا بل تهدد القائلين بذلك ، والمرجفين به ، تهددهم بأن محمداً سينهض من رقدته فيقطع أيديهم وأرجلهم ! ثم أرأيت إلى « أبي بكر » كيف جاء فأدى حقوق الصداقة أولاً ، ثم لم يقف طويلاً على جثمان النبي يندبه ويبكيه ، ولكنه خف إلى المسلمين يذكرهم أن الأمر ليس أمر شخص يموت فتموت رسالته ، وإنما هو رسول قد خلت من قبله الرسل ، وقد مات كما ماتوا ، وعلى أتباعه أن يتعهدوا غرسه ، وينفذوا خططه ، ويتمموا الأمر الذي بدأه .

هذه الصدمة التي أصابت « عمر » فهدت ركن عزائه ، كان لها أثرها عنده إلى حين ، ويظهر أنها بقيت تحز في نفسه أياماً ، وأن المسلمين تكلموا فيها وتساءلوا عن سر عباراته فيها ، حتى اضطر هو أن يعتذر عنها بعد وأن يحاول تفسيرها ؛ فإنه لما بويع أبو بكر في السقيفة ، وكان الغد ، جلس « أبو بكر » على المنبر ، فقام « عمر » فتكلم قبل أبي بكر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أيها الناس ، إني قد كنت قلت لكم بالأمس

مقالة ما كانت إلا من رأيي ، وما وجدتها في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله (ص) ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبّر أمرنا حتى يكون آخرنا ؛ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوا . . . . . . »

ويحدث ابن عباس فيقول : « والله إني لأمشي مع عمر في خلافته ، وهو عامد إلى حاجة له ، وفي يده الدرة وما معه غيري .. فقال : « يا ابن عباس ، هل تدري ما حملني على مقالتي هذه التي قلت حين توفي رسول الله ؟ » قال : « قلت لا أدري يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم » . قال : « والله إن حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا) ، فوالله إني كنت لأظن أن رسول الله سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها ، فإنه للذي حملني على ما قلت »

والواقع أن موقف عمر أمام هذه الصدمة ، والتعليل الذي ساقه بعد بتركان النفس وفيها حاجة إلى المزيد ، ولولا أن عمر رضوان الله عليه تطوع بالتعليل لرجح الباحث أن المسألة لم تكن وليدة تفكير ، ولا نتيجة منطق روّى فيه عمر وكوّن على أساسه رأياً رآه ، ولكنها كانت أثر الصدمة العنيفة تنقض على أمثال عمر من أصحاب الشخصيات الوجدانية فتفقدهم لحظة ما ثباتهم وتفكيرهم السليم ، ثم لا يلبثون أن يفيقوا من أثر الصدمة أقوياء النفس والعزمة والجنان . وربما كان لهذا الترجيح سند فيما تروية كتب السير من أن الرسول نفسه تحدث إلى المسلمين في شأن موته قبيل أن يموت ؛ فإنه لما رأى الأنصار اشتداد المرض على الرسول أطافوا بالمسجد ، فأخبره الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب بذلك ، فخرج متوكئاً على عليّ والعباس ، والفضل أمامهما ، وكان الرسول معصوب الرأس يخط برجليه ، فجلس في أسفل مرقاة من المنبر ، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، وهل خُلِّد نبي قبلي ممن بعث الله فأخلد فيكم ؛ ألا إني لاحق بربي ، وإنكم لاحقون بي ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً . . . وأوصيكم بالأنصار خيراً » .

ومن الطبيعي أن يكون أبو بكر وعمر قد سمعا بأمر هذه الخطبة وفحواها ، إن لم يكونا قد حضراها ، وإذاً تكون الفكرة التي ضمنها أبو بكر خطبته بعد وفاة الرسول قد أوحتها إليه خطبة الرسول ، وإذاً يكون عمر قد علم من قبل أن محمداً لامحالة ميت ، وتكون صدمة الوفاة قد أنسته هذا العلم حتى أذكره إياه أبو بكر في خطابه في جموع المسلمين أمام منزل الرسول . والرواية التاريخية المطولة تذهب إلى أن أبا بكر لما بلغه خبر الوفاة أقبل حتى دخل على الرسول (ص) وهو مغطى بثوب فكشف عنه وقال : « بأبي أنت وأمي ، طبت حياً ، وطبت ميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون ، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وإدناف يتحالفان ولا يبرحان ؛ اللهم فأبلغه عنا السلام ، اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة . اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا » . ثم خرج إلى الناس وخطب خطبته المشهورة .

* * *

رحم الله الصاحبين قدر ولائهما للاسلام ، ووفائهما لرسوله ، وبلائهما في سبيله ، وهدانا إلى اقتفاء آثارهما ، وتخليد ذكراها .

محمد خلف الله

مولانا جلال الدين الرومى

فى ميزان التاريخ والعقيدة

اطلعت فى « الثقافة » الغراء على مقال للأستاذ محمد خلف الله نبه فيه القراء والأدباء إلى عظيم من عظماء الشرق ، بل من عظماء الأدب العالى والفلسفة الانسانية ، أعنى مولانا جلال الدين الرومى مجدد القرن السابع الهجرى .

ونحن نحمد لحضرة الكاتب هذه الوثائق التاريخية ، وهذه الشهادات التى سجلها أساطين الأدب الغربى فى مختلف لغات أوربا ، ويذكرنى هذا بما يثير الألم العميق من تنبه هؤلاء الرجال وغفلتنا عن هذا التراث المجيد ، وإن كان مولانا جلال الدين ليس بالمجهول قدره ، ولا الخامل أدبه ، فكتابه فى جميع البلاد غير العربية ينال المكانة الأولى من الدرس والعناية ، بعد القرآن الكريم والصحيحين .

أذكر أنى فى تركستان كنت أتلقى شرح المثنوى على يد قاضى القضاة العلامة « داملا محمود الكاشغرى » فى جمع حاشد من كبار الطلبة تنتظم حلقتهم بعد صلاة الفجر ، وكذلك رأيت هذه المكانة عند ما وصلت إلى ربوع الهند ، وتبينت أن القيمة الأدبية والعلمية بلغت بالمثنوى إلى حد أن لا يقوم بتدريسه سوى كبار العلماء ، ويحدثنا الدكتور عبد الوهاب عزام عن مدرسة فى تركيا خصصت لهذا السفر الجليل باسم « دار المثنوى » . فأنت ترى معى أن هذا الكتاب على قدر صيته البعيد ، ومكانته القصوى فى أقطار الشرق ، يكاد يعد فى حكم المجهول فى الأقطار العربية ؛ وفى ظنى أنه قد كان حريا بالعلماء أن ينقلوه إلى العربية منذ ردح طويل ، وأرجو أن أكون ممن يوفقون إلى إتحاف قراء الثقافة بما يتيسر لى من نصوصه الباهرة ؛ ولكنى أعود إلى الأستاذ فأحدثه غير ناقد ولا متحيز إلى فئة ، ولكنى أردت إحقاق الحق وكشف الأوهام من صريح التاريخ . وأول ما يستدعى وقفة يسيرة مع الأستاذ مسألة ادعاء الأتراك بجلال الدين الرومى ، فأحسب أنه ما من مؤرخ يقصد إلى محض الحقيقة يستطيع أن ينكر على مولانا جلال الدين الرومى نسبه ونسب أسرته من الترك ؛ فأول ما يقال عنه إنه محمد جلال الدين الشهير بلقب (خداوندكار) بن محمد بهاء الدين بن الحسين البلخى ، وبلخ هى مدينة تاريخية من مدن التركستان ينتسب إليها غير واحد من العلماء المشهورين فى الفقه والتصوف ، وهى الآن فى ضمن الولايات التابعة لحكومة أفغانستان ، ولا زال سكانها يحافظون على قوميتهم ولغتهم التركية إلى الآن . ولئن يكن مولانا جلال الدين يمت بالقرابة القربى إلى من سماهم حضرة الكاتب ملوك فارس ، فما هؤلاء الملوك سوى الخوارزمشاهيين من الأتراك . وقد ذكر المؤرخون أنه لم ينس لغته الأصلية ، فقد نظم « ديوان شمس الحقائق » ملمعاً باللغة التركية ، كما نظم ابنه الشهير بسلطان ولد قصائد حافلة باللغة التركية كذلك .

وقد ذكر بعض مؤرخى الأدب الفارسى ما مختصره : « قد أخطأ بعض كتاب أوربا فى زعمهم أن مولانا جلال الدين وعلى شير نواى من الفرس ، وهو وهم خاطىء ؛ ولدينا من الوثائق الناطقة والبراهين الدامغة على أن الشاعرين تركيان نسباً ولغة ؛ وإنما اختارا اللغة الفارسية لنظم كثير من أشعارهما ، لأنها لغة الثقافة والأدب إذ ذاك فى تلك الأقاليم الآسيوية ، وقد عفا الاسلام على آثار الجنسيات والألوان أمام الوحدة الجامعة التى تربط الجميع برباط وثيق من الألفة التى لا تعز قوماً على قوم ، ولا لغة على لغة ؛ ولعله يجدر بى أن أدع والد مولانا جلال الدين يحدثنا عن نفسه فيقول فيما نقله العلامة مولانا امداد الله

المثنوى فى مقدمته التاريخية للمثنوى ، يقول نقلا عن والد مولانا جلال الدين ما نصه : (ما از أتراك اين ناحيتيم ، از قديم اجداد ما از آب امو بودند) «إننا من أتراك هذه الناحية ، وكان أجدادنا منذ القديم من نهر امو» .

ويعلم من بقية القصة التى فى المقدمة أن والد مولانا جلال الدين كان من العلماء المشهود لهم بالكفاية والقدرة ، وقد التف حوله الطلاب فى تركستان ، وتكاثر عدد تلاميذه ، إلى أن وشى به العلامة فخر الدين الرازى إلى السلطان علاء الدين خوارزمشاه ، وقد خشى السلطان أن يتزلزل الملك من تحت قدميه أمام تلك المكانة التى يتمتع بها ابن أخته مولانا بهاء الدين والد جلال الدين فى قلوب العامة ؛ ولما تنكر له السلطان اعتزم الرحيل فى أسرته من بلخ حتى وصل بغداد ، وبها ظهر نبوغه ومقدرته العلمية ، فطلبه السلطان علاء الدين السلجوقى حتى التحق به أخيراً فى قونية ، ونال عنده الحظوة والتقدير . ويعلم من هذا كله أن الأتراك لم يدعوه لأنفسهم لأنه زار قونية أو أقام بها ، كما يحدثنا حضرة الكاتب ، بل لأنه ولد فى بلاد تركية من أسرة تركية ، وهاجر إلى بلاد تركية ، وعاش فى ظل ملوك الترك ، ومات فى بلاد تركية .

ثم أخذ على الكاتب أيضاً نقله عن كتاب الغرب نقلا كان ينبغى أن يتناوله بشىء من التمحيص ؛ فنسبة الحلولية إلى مولانا جلال الدين وإطلاق هذا القول يثير الوهم والشك فى مكانة مولانا جلال الدين العلمية والدينية . ولعل هذا الوهم قد تسرب إلى كتاب الغرب لعدم من فهم الأساليب الشرقية مهما كانوا مستشرقين أو باحثين ؛ فالعبارات التى توهم الحلول لم ينفرد بها مولانا جلال الدين وحده ، بل هى عبارة ألوف من المتصوفة ، وليست إلا مجرد اصطلاحات يريدون بها أن يبينوا مكانهم من الحب الإلهى والتعلق بأنواره ؛ وهم يرجعون فى ذلك إلى أسلوب القرآن والحديث . ففى القرآن : «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ» ، «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» وفى الصحيحين نرى فى الحديث القدسى : «لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحب ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها» الخ ؛ فإذا جرى المتصوفون على هذا النحو من الأسلوب ، فهم إنما يعنون به شدة تعلقهم بالله ، وتأثرهم بذكره ، والاستغراق فى جمال صفاته وأسمائه ، وأنهم فى جميع حركاتهم وسكناتهم قد شغلوا بالله من كل ما عداه ، وانصرفوا بكلياتهم من الشواغل والأغيار ؛ وقد أوضح ذلك كله مولانا امداد الله المثنوى فى المقدمة السالف ذكرها . على أن مولانا جلال الدين لم تجر فى عباراته أمثال هذه الجمل إلا يسيراً ، وهو فى ذلك أقل من غيره بكثير وبأكثر من الكثير .

إننا نلاحظ فيما نقل عن أبى منصور الحلاج وفى كتب ابن العربى جملا لا يحصيها العد ، وقد فرغ المفسرون من تأويلها ، فهى عبارات لا يراد بها ظاهرها ؛ وكذلك قصائدهم فى العشق التى تملأ الأدب الفارسى ويوجد منها شىء فى العربية كديوان ابن الفارض ؛ وقد ألف الشراح الكتب الطوال المفصلة فى إيضاح ما غمض من إشاراتهم والكشف عما استغلق من عباراتهم ؛ فلم يكن مولانا جلال الدين حلوليا ولا ممن تأثر بمذهب التناسخ وإلا لكان المسلمون — وفى مقدمتهم علماؤهم — طوال هذه الأجيال والأحقاب وفى مختلف اللغات والأقطار ، أحرص على ملتهم ، وأغير على شريعتهم من أن يهملوا بيان ذلك . لم تتعمد عبارة مولانا جلال الدين بيان مراتب الوجود الإنسانى ، تلك العبارة التى أوهمت ميله إلى مذهب التناسخ ؛ ونحن نربأ بعقائده الدينى ومكانه من المسلمين عن النزول إلى هذا الدرك ، وهو مسلم سنى قبل كل اعتبار ؛ فإلى أن يحين الوقت للعودة إلى بيان تاريخ مولانا وأسرته على وجه التفضيل أرجو أن يكون الأستاذ الكاتب قد اقتنع واقتنع القراء معه أن

عذاب العبقريين

أمعن الأستاذ الجليل أحمد أمين بك في تمحيص سير الصالحين ، فاستخرج من إنمائه هذا مقالة الاجتماعي (عذاب الصالحين)[1] ، وقلب النظر في أسباب هذا العذاب ، فاهتدى إليها بفضل ما أوتيه من دقة في حل عناصر الموضوع ، ومن براعة في وصل أعجاز الأمور بصدورها . فلست بخائض في مقال هذا في شيء من الذي خاض فيه الأستاذ ، وإنما وقع في خلدي أن أضرب طائفة من الأمثال في عذاب العبقريين ، سواء أكانوا من أهل العلم أم من أهل الأدب ، وأن أختم المقال برأى لكاتب فرنسي كبير ؛ وهذا الرأى يكاد يكون بمنزلة دواء يداوى به العبقرى ما يقاسيه في حياته من أهل زمنه .

***

من يتصفح تاريخ العلم في القرنين المتأخرين يتبين له أن فريقاً من أماثل العلماء أصيبت العذاب في سبيلهم ، وأصابتهم شقاوة في حياتهم ، وبلغ العذاب منهم كل مبلغ ، وقد تختلف أنواع النوازل التي نزلت بهم ، ففريق منهم حبسوا في سبيل علمهم ، وفي مقدمة هذه الفئة جاليلو ، و برنار دى باليسى ، وباكون ، وسزالبان .

أما جاليلو فقد كان عالماً رياضياً ، شهر أمره في الطبيعيات وعلم الفلك ، وهو من علماء إيطالية ، كان جمهور المعلمين قبله يعتقدون أن الأرض هي مركز العالم ، فجاء جاليلو وأعلن أن الشمس هي مركز السيارات ، وأثبت أن الأرض تدور حولها كما تدور بقية السيارات التي تعكس ضياءها ؛ فأثار مذهبه هذا كامن الحقود ، حتى غضب عليه في جملة من غضب رجال الفلك في رومة ، وحرم رجال الكنيسة هذا المذهب ، و تهددوا جاليلو ، وتقدموا إليه في الاقلاع من إذاعة مذهبه ؛ ولما عاد إلى « فلورانسة » جمع الأدلة التي تؤيد معتقده في كتاب ، فرفع الكتاب إلى ديوان التفتيش ، فأكره « جاليلو » وعمره سبعون سنة على الركوع بمحضر رجال التفتيش ، والقول ببطلان مدعاه ؛ وعلى أثر ذلك جعلوه في شبه سجن ، وتشددوا في مراقبته ، فمات وهو أعمى ؛ ومن كلامه المأثور في خلال تعذيبه : « ومع هذا فإنها تتحرك » يعني بذلك الأرض .

وأمَّا « برنار دى باليسى » فهو كاتب وعالم فرنسي ، وهو من حذاق المخترعين ، ومن منشئي علم طبقات الأرض ، ومتفنن من أكابر المتفننين ، برع في صناعة الأواني البديعة المزوّقة بالتصاوير ؛ وقد قبض عليه سنة ١٥٨٩ لأنه كالفانى ، نسبة إلى « كالفان » وجعل في الباستيل حيث سُمّم فمات .

وأمَّا « باكون » الفيلسوف الانكليزى ، فقد أمر بسجنه ، وحكم عليه بدفع مقدار من المال ، فكانت نجاته من أهل الوشايات أمراً عجاباً .

وأمَّا « سزالبان » فهو عالم إيطالى من علماء الطبيعيات ، وفيلسوف وطبيب ، وهو أوّل من عرف

(١) طالع العدد ١٥١ من هذه المجلة .

مولانا لم يكن في تصوفه إلا موحداً ، ولم يكن حلوليا ولا تناسخيا .

وقد جرت في مقال حضرة الكاتب بعض ملاحظات في نقل عبارة الكنوى في المقدمة ، ولا ندرى أكانت محرفة في ذلك الترجمة أم غيرها ؟ وإنى أحيل حضرته إلى نص الكنوى وهو مطبوع ، وفي مقدوره أن يعود إلى مراجعته ، كما أنى أحفظ للكاتب في نفسى كل تقدير وإعجاب برغم هذه الملاحظات ، فقد نبه القراء إلى واجب من أسمى الواجبات التي تتناول مفاخر الشرق ومآثر الأدب وتراث الإسلام .

عبد العزيز جنكيز خان التركستاني

الأجناس في الأزاهير ، وقد كان طبيب البابا الخاص ، ومع هـذا فقد اتهم بالسحر والزندقة ، ودفع إلى رجال التفتيش .

هذه طائفة من العلماء الذين كان علمهم سبباً في حبسهم ، وفي موت بعضهم في الحبس . أمّا العلماء الذين نفوا من بلادهم في سبيل معتقداتهم فإني أذكر منهم « ديكارت » و « فيزال » .

كان « ديكارت » فيلسوفاً فرنسياً ، وقد علت منزلته في الطبيعيات والهندسة ، وله مذاهب علمية مشهورة وتصانيف رائعة ، قد صدرت عن روية طويلة ، فهي أساس العلوم النفسية في هذا العصر ؛ فقد أخرج من بلاده ، فتوجه نحو « استوكهولم » ومات في بلاد السويد ، بعد أن عاش عيشة جندي ، وعالم طبيعي ، وفيلسوف ، وطبيب ، متهاوناً بحياته .

وكان « فيزال » من أكبر علماء التشريح في القرن السادس عشر ؛ ولد في « بروكسل » عاصمة بلجيكا ، وذهب إلى باريز ومنها إلى « بولونية » ثم إلى « بيز » ، وقد عزيت إليه جناية ، فأجبر على السفر إلى الأرض المقدسة ، فمات جوعاً .

ومن العلماء من عاش في ضنك وفي مقدمتهم الفلكي الألماني « كبلر » فقـد عكف في مقتبل عمره على اقتباس العلوم الرياضية ، واشتغل بها في حياته كلها ، وله قوانين في الفلك خاصة تنسب إليه ، ومن أجل آرائه وعلمه عاش في خشونة .

ومن العلماء من حُرم لذة نشر أفكاره ، وهي لذة لا يعدلها شيء ؛ وفي جملة هؤلاء العلماء « كوبرنيك » الفلكي البولوني المشهور ؛ فقد أثبت هذا العالم حركة الأجرام السماوية حول ذاتها وحول الشمس ؛ فلم يرضَ البابا بهذا المذهب لمخالفته الكتاب المقدس ، ولم يجرؤ « كوبرنيك » على إذاعة تآليفه البارعة إلا في خاتمة حياته ، فلم ير كتاباً مطبوعاً إلا يوم موته !

هذا كان نصيب العلماء من علمهم . أما اليوم فقد سلموا من التعرض لما كانوا يتعرضون لمثله من الشدائد كالحبس والنفي والحرق ؛ فقد أصبح للعلماء سلطان في العالم منذ منتصف القرن السابع عشر .

وإلى جنب هذا الطراز من العذاب نجد طرازاً آخر يقاسيه الأدباء في نفوسهم ، وقد يكون أشد إيلاماً من الأول ، حتى قال « هوغو » في بعض كلامه : « لقد سمعت في هذا العصر رجالاً علت منزلتهم في السياسة والأدب والعلم يشكون الحسد والضغائن والمطاعن ، ويضجرون منها ، ولكنهم ليسوا على حق في شكواهم ، فإن ما يشاهدونه في هذه الأخلاق إنما هو سنة عامّة في البشر وهو المجد بعينه ، فإن الذين يذهب صيتهم في الآفاق يتعرضون لهذه المحن كلها ؛ فالحقد يمشي وراءهم في كل مكان ، ولا شيء مقدّس في نظر الحقد ، وليس في الأرض مأوى للعبقريين إلا القبر ! »

قد يكون كلام « هوغو » مرّاً ولكنه حق ؛ فالعبقريون لا يسلمون في حياتهم من الأذى ، ولكنهم إذا ذهبوا ودرجوا عرف الزمان فضلهم فوقّرهم بعد موتهم .

فمن الأدباء الذين لم ينجوا من أذى أهل عصرهم الجاحظ ، فقد حبس نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل ، وكان همه البعيد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ؛ فما هو جزاء عنايته بالأدب وبالعلم ؟ جزاء هذا كله تعقب الناس إياه وهو في أشـد علّة ؛ وأغرب من هذا أنه ربما ألّف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته ، حتى كان ينسب كتبه إلى من تقدم عصرهم ، فيأتيه أولئك الطاعنون بأعيانهم ،

فيكتبون كتبه المنسوبة إلى غيره بخطوطهم ، ويتدارسونها بينهم ، ويتأدبون بها ، ويستعملون ألفاظها ومعانيها ؛ ولو علموا أن هذه الكتب ألّفها الجاحظ نفسه لما كان منهم إلاّ الطعن والقدح .

ومن العبقريين الذين لاقوا الأذى من أهل دهرهم المتنبي ؛ فقد كان في ابتداء أمره في خشونة من العيش ورقة من الحال ، يشتهي كل شيء ، يشتهي الناعم من الملابس والكريم من المطايا ، ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين وكيد الكائدين ، فكان ضجره من هذه الأخلاق يطفح على جنبات شعره ؛ ولقد أفضى الأمر بحساده إلى أن تمنوا موت جدته ، لأنه كان يذهب في حبها كل مذهب ؛ وربما تمنى القوم موته فنعوه وهو حي ، ولكنه كان ينتفض من بعد منعاهم ، فيزول القطن والكفن !

ولما مات الشاعر (فلوبر) وصف نعشه الكاتب الفرنسي « زولا » فقال :

« لم يمش حول نعش هذا الشاعر إلا ثلاثة رجل من باريز ، فقد غاب كثير من الذين كان يجب عليهم أن لا يغيبوا ، ومدينة الشاعر نفسه وهي « روان » لم تشيع أشهر ولد من أولادها ، فقد قالوا إن أهل « روان » إنما هم تجار يسخرون من الأدب ، على أن فيها كثيراً من الأساتيذ والحامين والأطباء والشباب المستنير ، إن فيها من قرأوا رواية « مدام بوفاري » فلم يتحرك واحد منهم ، لم يصحب النعش إلا مائتا رجل من « روان » ، كثير من الناس كانوا ينظرون إلى النعش على سبيل اللهو ، فلم يكن على وجه أحد منهم أثر من آثار الحزن ؛ والحقيقة أن أربعة أخماس أهل « روان » لا يعرفون « فلوبر » ، والخمس الآخر كانوا يكرهونه » وقد ختم « زولا » مقاله المبكي بهذه العبارة « هذا هو المجد » .

* * *

إلاّ أن « موروا » وصف الناس عامة دواءً ناجعاً يبعد عنهم ما يرمون به من أذى غيرهم ، فقد رغب إلى كل واحد من البشر أن يحصّن نفسه في داخلها تحصيناً يقيها شراسة الأشخاص والأشياء ، فكل رجل يستطيع أن يبني في أعمق أفكاره ملجأ يتقي فيه أثقل القذائف ، وأقتل القوارص سماً ؛ فإذا يخشى الرجل الذي يعيش هادئاً في نفسه ، فلا الاضطهاد ولا المطاعن تستطيع أن تكدر عليه صفاء تفكيره ، وأن تدفعه في خلوه إلى هذا التفكير ؟

ما أخلق العبقريين بأن يعيشوا في بواطنهم دون أن يحفلوا بما يحيط بهم في الظواهر من الأذى ؛ ما أخلقهم بأن ينشئوا لهم في نفوسهم حجازاً يحجز بينهم وبين شر الناس !

(دمشق) شفيق جبري

العربيـــة تسود

بحث فى حلول العربية محل اليونانية والقبطية

أدرك العرب مصر فى أواخر النصف الأول من القرن السابع الميلادى ولغة الحكومة فيها يونانية ، تتأدى بها الأغراض الرسمية الرومانية ؛ ولا عجب أن تكون الحكومة رومانية ولغتها يونانية ، فقد كان كل شىء فى البلاط الرومانى الشرقى أغريقياً ؛ غير أنه منذ القرن الثالث الميلادى أخذت الروح المصرية القومية فى الظهور والقوة ؛ وكان من أثر ذلك أن بدأ رجال الدين المصريون يعظون الناس باللغة القبطية ، بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية لغة الحكومة والكنيسة الرسمية . وبدأ القبط منذ ذلك التاريخ ينقلون الآداب الاغريقية ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم الخاصة ، فدونوا بها أشعارهم وتآليفهم فى حياة القديسين وتواريخ الشهداء .

وهكذا ناهضت اللغة القبطية اللغة اليونانية الرسمية ؛ ولكنها لم تستطع أن تقهرها ، لأنها كانت لغة السلطان ، فلا سبيل إلى القضاء عليها إلا بالقضاء على ذلك السلطان ؛ وكان القبط رغم قوة حركتهم وإنتاجها ووضوحها ، ما زالون بعيدين من التغلب على نفوذ الروم .

سارت اللغة القبطية جنباً إلى جنب مع اللغة اليونانية التى بقيت لغة البلاد الرسمية بعد الفتح العربى زمناً ليس بالقصير ؛ غير أنه على الرغم من نهوض القبطية لم ينتج بها أصحابها أدباً ينافس الآداب اليونانية التى ظلت صاحبة الغلبة والنفوذ . والحق أن اليونانية بقيت بالنسبة لجمهور الأدباء طوال العصر الرومانى ضرورة ثقافية لا غنى عنها ، بها يكتب الأدباء والشعراء نثراً وشعراً . ومن أشهر من كتب باليونانية فى القرن الرابع الميلادى « لوسيانوس » صاحب « محاورات الموتى » و « أخيلاس تاتيوس » المؤلف الروائى . ومن أذيعهم صيتاً فى القرن الخامس الشاعر المصرى « قيرس الأخميمى » ، وفى القرن السادس الشاعر الطيبى « كرستودورس » .

وإلى جانب اليونانية وآدابها ، والقبطية وما كان لها من أدب خاص ، كانت هناك لغة ثالثة ، هى لغة السريان الذين هاجروا إلى مصر تحت ضغط الغزو الفارسى على بلدان آسيا الغربية ، وعكفوا على العمل فى أديرة وادى النطرون . ومن عجب أن تصبح لغة السريان هذه « لغة العلم » ولا سيما العلم الطبى ؛ فبها كانت تدرس العلوم الطبية فى القرنين السادس والسابع الميلاديين . سايرت هذه اللغة السريانية لغة البلاد الرسمية ولغتها القومية . وبلغ من شيوعها أن ترجم إليها الكتاب المقدس ، وكتب بها القس « إهرون » الاسكندرى مقالاته فى الطب ، وغدت السريانيـة ضرورة من ضرورات العصر الأدبية لا غنى لطالب العلم عن حذقها ، وظلت كذلك حتى عصر النقل الأعظم ، حين قام حذاقها بخدمة العرب فى عصرى المنصور والمأمون ، فنقلوا إلى العربية الكثير من كتب العلم .

* * *

وعلى الرغم من قوة هاتين اللغتين — اليونانية والسريانية — كانت لغة البلاد القومية تكافح وتناضل لتتخذ لنفسها مكانة تليق بأمة تطمح إلى الاستقلال وتعمل فى سبيله جاهدة ؛ واستطاع القبط أن ينجحوا فى الانفصال من جسم الدولة انفصالا روحياً تجلى فى اتخاذهم مذهباً دينياً يخالف المذهب الرسمى ، وأن ينهضوا بفن خاص عرفوا به ، وأن يحيوا لغة آبائهم فى شكل من أشكالها ، وأن يستخدموا هذه اللغة فى الوعظ والصلاة والتأليف ، فكتب بها المؤرخ « حنا النقيوسى » ديوانه المشهور ،

وإن يكن قد دوّن جزءاً منه باليونانية . وكذلك كتب بها الرهبان تواريخ البطارقة والقديسين والشهداء ، وتُرجم إليها « العهد الجديد » .

ومهما يكن من الأمر فلسنا بمستطيعين أن نبالغ في قيمة الآداب القبطية ، فلم تعدُ أن تكون آداباً دينية في مجموعها ، ولم يعرف من القبط إنتاج أدبي بحت يمكن أن يفخروا به ، اللهم إلا القليل من مأثور الحِكَم وبعض الأشعار .

وظل القبط في معزل من الاسكندريين ورثة العلم اليوناني ، ولعلهم كانوا ما يزالون على اعتقادهم القديم بأن العلم الاسكندري علمٌ وثني لا يجدر بهم أن يتناولوه ، ولا أن يخوضوا فيه .

أدرك العرب الاسكندرية وبها بقية من العلم اليوناني أفسدها الزمن ، أهم ما فيها مقالات من طب « جالينوس » ومأثور من حِكَم « بقراط » وشيء غير يسير من التنجيم والمعجزات ، وعلم الصنعة (الكيمياء) وفلسفة ممزوجة بالدين أشد الامتزاج ، غرضها خدمة المثل الأعلى المسيحي على أسس من مذاهب أفلاطون وأرسطو .

وكان العلم الديني أهم ميدان جال فيه مسيحيو الاسكندرية ، وأغلب الظن أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا من القبط ، فقد كره القبط دراسة فلسفة « الاسكندريين » كراهية عظيمة ، ولم يحاولوا ما حاوله غيرهم من استخدام هذه الفلسفة لتقوية العقيدة المسيحية ، بل لقد آثروا أسلوبهم الخاص في الدفاع عن العقيدة ، متخذين من الصعيد معاقل يحتمون فيها من اضطهاد مخالفيهم وعنتهم وعدوانهم ؛ لهذا كله وفد العرب على القبط فلم يجدوا بين أيديهم أدباً أو علماً أو فلسفة ؛ ولم يفت العرب أن يستفيدوا مما وجدوا في الاسكندرية من طب القدماء وعلومهم المختلفة ، فنقلوا منها الشيء الكثير في العصرين الأموي والعباسي . ومن أشهر الناقلين من علوم الاسكندرية في العصر الأموي « خالد ابن يزيد بن معاوية » الأمير الذي ينسب إليه استخدامه لكثير من العلماء ذوي الدراية باللغة السريانية في نقل طائفة من معارف الاسكندريين في علم الكيمياء ، و « ابن أبجر الكناني » الطبيب الذي استخدمه الخليفة عمر بن عبد العزيز في نقل عدد من كتب الطب إلى العربية . ومن أشهرهم في العصر العباسي « حنين بن إسحق » و « سرجيوس الرسعي » و « ابن الناعمي » وابن أخته . وقد قدر للعربية في هذا الطور من أطوار العلم أن تصبح لغة من لغاته الكبرى ، وغدت بفضل هذه الحركة المباركة تقف بين اللغات الكبرى مفاخرة بما أدته للثروة العلمية الانسانية ؛ ومنذ ذلك الحين أصبح من الضروري لكل باحث في التراث العلمي الانساني حذق العربية ؛ وما تزال لها في أوساط الاستشراق منزلتها الرفيعة ؛ فمن من المستشرقين يستطيع أن يغفل نفعها ، أو يغض من شأنها في البحث العلمي ؟ ولقد قام فريق من المستشرقين بنقل كثير من المصنفات العربية إلى اللغات الأوروبية ، بقصد أن ييسروا مهمة الباحث الأوربي ، وأن يكفوه مؤنة الالمام بالعربية ، ولكن بحثاً يعتمد على المراجع العربية ، ولا تكون العربية مصدره المباشر ، بحث لا يسلم من الخطأ إلا في القليل النادر ؛ لهذا كان الكثير من آراء المستشرقين ، ولا سيما الذين يجهلون العربية منهم ، أو يلمون بها إلماماً ضئيلا ، أبعد ما تكون عن الصواب ؛ ولا يجدر بنا — ولغتنا هي العربية ، وحذقنا لها أشد وأقرب إلى السليقة — أن نلجأ إلى ما كتب المستشرقون ، نستشهد به في تواليفنا ، ما دامت المراجع العربية الأصلية في متناول أيدينا ، لا تخلو منها مكتبة من مكتباتنا الكبرى .

* * *

ويثير الدهشة ويدعو إلى العجب حقاً أن ينزل العرب بلداً كمصر لغته الرسمية يونانية ، وبها من اللغات الأخرى السريانية والقبطية : الأولى لغة العلم ، والثانية لغة مناهضة للغة الدولة الرسمية ، يعمل القبط غاية جهدهم فى نشرها ، ويتخذون منها أداة لهدم ما بينهم وبين الدولة الحاكمة من روابط ، فلا ينقضى طويل زمن حتى تغزو العربية هذه اللغات جميعها فى مكامنها ، فتقضى على اليونانية قبل انصرام القرن الأول الهجرى بعد مهادنة قصيرة ، ثم لم تلبث أن انتزعت من السريانية وسيلة نقل علوم الاسكندريين ؛ ولم ينقض القرن الثالث الهجرى حتى وجدت سبيلها إلى الكنائس القبطية ، فوعظ بها رجال الدين ، وكتبوا بها سير الآباء المسيحيين ، وخطوا بها الأناجيل . وفى القرن الرابع الهجرى قام الأسقف « ساويرس بن المقفع » بمعاونة نفر من رجال الدين الأقباط بنقل ما وجدوه بالقلم القبطى والقلم اليونانى إلى القلم العربى .

وكانت العربية فى كل ذلك قوية جارفة ، لم تقو اليونانية أو السريانية أو القبطية على الوقوف فى سبيلها .

كان انتشار العربية غداة الفتح محدوداً ، فلم يكن يتكلمها إلا العرب فى مضاربهم ، ومن جاورهم من أهل البلاد ممن دفعتهم الضرورة الماشية إلى تعلمها . وكان الاسلام ذاته دافعاً كافياً لمعتنقيه إلى تعلم العربية حتى يتمكنوا بها من قراءة الكتاب والسنة وتفهم أصول الدين ؛ وكان لانسياب العرب فى الريف المصرى فى كل خريف ، واتصالهم بالمصريين أثر كبير فى انتشار العربية بين طبقات المصريين .

ثم جاءت حركة الاستعراب الكبرى ، فذهب القبط فيها إلى إهمال كثير من مظاهر قوميتهم ، وسارعوا إلى اعتناق الدين الجديد ، واتخاذ لغته فى أمورهم الخاصة وفى معاملاتهم مع المسلمين . وتحمل لنا أوراق البردى المتخلفة من العصر العربى الأول والمحفوظة بقسم الأوراق البردية بدار الكتب المصرية ، أصدق الأدلة على شيوع استعمال العربية بين القبط ؛ ففيها وردت أسماء قبطية فى معاملات جرت بين مسلمين وأقباط ، وبين أقباط وآخرين من بنى ملتهم ، بحيث أصبحت لغتهم القومية فى المحل الثانى بالنسبة للعربية التى غدت لغة الحكومة منذ عربت الدواوين فى خواتيم القرن الأول الهجرى ، ولغة الأفراد منذ زمن أكثر تبكيراً من ذلك .

وقامت القبطية فى الكنائس والأديرة . ولم تنج من مهاجمة العربية لها فى عقر دارها كما قدمنا ، فقد غزتها هذه وشاركت « اللغة القومية » فى مهمتها الدينية ذاتها ، فكانت المراسيم الكنسية تصدر بلغة البلاد الأصلية ، ثم تشرح بالعربية لتتمكن غالبية الأقباط من فهمها ، إذ بغير ذلك لم يكن إلى فهمها من سبيل !!! وأصبحت اللغة القبطية بدورها لغة كمالية ، لا يحذقها إلا المثقفون من المصريين ، كما كان الحال قبيل الفتح العربى ، حين كان العالم يفخر بحذقه لغة اليونان أو لغة السريان ، وكما هو الحال الآن بين طوائف المثقفين الذين يحذقون اللاتينية والاغريقية من قبيل الترف الفكرى . وهكذا قضت العربية بالتدريج على لغات اليونان والسريان والقبط ، وكتب لها فى عالم الثقافة نصر كبير .

إبراهيم جمعة

مراجع البحث :

(١) كترمير : أبحاث فى الأدب المصرى واللغة المصرية . (٢) تاريخ الأمة القبطية (لجنة التاريخ القبطى) . (٣) بطلر : فتح العرب لمصر . (٤) بطلر : الكنائس القبطية القديمة . (٥) مارجوليوث : محاضرة فى نهاية جامعة الاسكندرية . (٦) أحمد أمين : ضحى الاسلام . (٧) محمد كامل حسين : الأدب المصرى الاسلامى . (٨) جروهمان : أوراق البردى العربية . (٩) ابن المقفع : سير الآباء البطاركة . (١٠) عانوتو : تاريخ الأمة المصرية (العصر الأغريقى الرومانى) .

الحرب والبلاد الاسلامية

(بقية المنشور على صفحة ٨)

لكي تواصل الحرب جهد طاقتها . وقد تمكنت بعض الكتائب السرية — ولا شك أن فيها عدداً غير قليل من المسلمين من تنظيم مقاومة جدية ، في الجهات الجبلية المنيعة ، ولا تزال هذه الحرب الغريبة مستمرة إلى اليوم .

أما الأقطار الاسلامية الأخرى في بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ، فان جيوش ألمانيا المنتصرة لم تلبث أن تم لها النصر الكامل على جميع بلاد البلقان ، والجزر المنتشرة حولها . وذلك في ربيع ١٩٤١ . ولم ينج من غائلة النازيين سوى البلاد التابعة لتركيا .

ولم يكد الألمان أن ينفضوا غبار الحرب البلقانية في شهر مايو الماضي حتى بادروا بالهجوم على روسيا في الثاني والعشرين من شهر يونيو . وفي روسيا عدد غير قليل من المسلمين ، ولكن البلاد الاسلامية الروسية واقعة كلها في الجهات الشرقية والجنوبية الشرقية ، فهناك كثير من المسلمين في الحوض الأوسط من نهر فلجا . وفي شبه جزيرة القرم ، وفي بلاد القوقاز ، ومدينة كويبيشيف العاصمة المؤقتة واقعة في وسط قطر يكثر فيه المسلمون .

والمسلمون في روسيا هم أحياناً من صميم الشعب الروسي كما هي الحال في أعالي الفلجا ، أو من الطوائف المندمجة في دولة الروس كما هي الحال في التتر سكان شبه جزيرة القرم ، أو القرغيز المرابطين في أسفل نهر فلجا ، أو سكان أذربيجان وغيرهم من الطوائف التي تقطن القوقاز . فالبلاد الاسلامية جزء لا ينفصل من دولة الاتحاد السوفياتي ، وكثير منهم عبارة عن عناصر ممتازة في الحرب والقتال منذ قديم العصور . وليست لدينا أنباء كثيرة تصف أعمالهم في الحرب ، ولكن ليس من شك في أنهم ينهضون بنصيبهم من أعبائها إلى جانب مواطنيهم من الروس . ولم تستطع الدعاية النازية أن تمس المسلمين في الاتحاد السوفياتي ، بل لعل الحرب التي أثارها النازيون على روسيا قد وحدت كافة سكان هذه الدولة المترامية الأطراف التي تمتد من المحيط الهادي شرقاً إلى سواحل البحر البلطي غرباً .

وقد استطاع الألمان في توغلهم نحو الشرق أن يحتلوا بلاداً إسلامية مثل القرم ، وكانوا منذ شهرين يزحفون إلى القوقاز زحفاً حثيثاً . ولكن أدركهم بعد ذلك الشتاء الروسي والزحف الروسي ، فأجلاهم عن جزء من جزيرة القرم ، وأبعدهم عن أبواب القوقاز . وليس بمستبعد أن تراجع القوات الألمانية أكثر مما تراجعت . ولكن من العبث أن يظن أحد أن الخطر النازي على بلاد روسيا الاسلامية قد انتهى . بل الراجح أنه إنما أرجئ إلى الربيع القادم ، حين يعود الدفء والحرارة إلى سهول روسيا . وإلى شهر مايو أو يونيو المقبل يستطيع سكان القوقاز أن يلتقطوا الصعداء .

في إفريقية

لم يكد الحلفاء أن يبدأوا زحفهم في لوبيه في شتاء عام ١٩٤٠ و ١٩٤١ على الجيوش الضخمة العدة والعدد التي حشدها الطليان في برقة وعلى حدود مصر حتى تداعى ذلك البنيان الهائل ، وتقوضت صروحه صرحاً بعد صرح ، وطهرت برقة بأسرها من الفاشيين في شهرين أو ثلاثة أشهر . ثم عادت قوات الحلفاء فأغارت في شرق إفريقية على جيوش الطليان ، ولم يحل الربيع حتى حررت بلاد الأرترية والحبشة والصومال من الحكم الايطالي ، وعاد النجاشي إلى مقر حكمه في أديس أبابا . وانهارت الامبراطورية الايطالية الشرقية فأصبحت أثراً بعد عين .

وزال الخطر الايطالي عن إخواننا سكان السودان ، بعد أن كان خطراً داهماً قوياً .

ولكن في شهر أبريل عاد خطر المحور إلى الظهور بشكل قوي عنيف في شمال إفريقية ؛ فان القيادة البريطانية

فى الشرق الأوسط اضطرت لأن تنقل عدداً كبيراً من جيوشها من لوبية إلى البلقان ، ولم يترك فى برقة لحماية هذه الفتوح العظيمة سوى قوات قليلة العدد والمران . وقد تسلمت القيادة الألمانية زمام حرب المحور فى كل مكان . فبعثت إلى لوبيه بقوات مدرعة عظيمة العدة كثيرة الخبرة بالحرب ، بقيادة رجل فائق القدرة واسع الدراية بالحرب الحديثة ؛ فلم يلبث أن هجم هجومه الفجائى المشهور فى شهر أبريل الماضى ، حتى استردت جنوده جميع ولاية برقة ، ما عدا بلدة طبرق .

وحل الصيف بعد ذلك بحره وقيظه ، ولم يكن بد من أن تهدأ الحرب فى الميدان اللوبى فترة طويلة من الزمن . فنى روسيا يعوق المحور الشتاء ، وفى لوبيا يعوق الصيف جميع المحاربين ، ويعطل الحركات الحربية الواسعة تعطيلا تاما . واستطاع الحلفاء أن يستكملوا ما ينقصهم من العتاد والرجال ؛ وشغلت الحرب الروسية الألمان عن إمداد قواتهم فى لوبيا بأكثر من القدر الضرورى الذى لا غناء عنه .

ثم دارت الحرب منذ ثلاثة أشهر بين الحلفاء والمحور فى أرض برقة . وبعد أن نشبت عدة معارك عنيفة استطاع الحلفاء أن يرغموا جنود المحور على التقهقر من برقة ؛ فأخذوا يحاربون متراجعين نحو الغرب ، يقفون فى موضع بضعة أيام ، ثم يتراجعون منه إلى غيره . وللمرة الأولى فى هذه الحرب نرى قوات ألمانيا تحارب متراجعة ، فى كل من لوبيا وروسيا .

ومن سبق الحوادث أن يتكهن أحد بالنتيجة النهائية للحرب فى لوبيا . ولكن ليس من السهل على المحور أن يسترد مكانته فى هذا القطار ، وخصوصاً لأن أمامه فى حرب روسيا ما يشغله عن ميدان هو من غير شك أقل خطراً من الميدان الروسى ، الذى يواجه بلاد ألمانيا نفسها ...

وقد عاد زعيم السنوسيين إلى وطنه ، لكى يأخذ فى تأليف حكومة تنظم شئون برقة ، ولم شعثها ؛ لقد عانت برقة خاصة ولوبيا عامة ويلات شديدة على أيدى المستعمرين من الطليان . وليس من شك فى أن المسلمين فى جميع العالم يبغون أن يتقلص ظل النفوذ الايطالى عن هذا البلد بعد الذى قاساه من الحكم الفاشى .

على أن لوبيا ليست مجرد إقليم إسلامى قائم بذاته ، بل هو باب العالم الاسلامى كله . فلو انتصر المحور هنا انتصاراً حاسما ، لامتد نفوذ المحور إلى تونس ومراكش والجزائر غربا ، وإلى مصر وبلاد الشرق الأوسط شرقا .

فى آسيا

وننتقل الآن إلى آسيا . وفى آسيا أكبر دول الاسلام جميعاً ، وهى الدولة التركية التى استطاع رجالها بفضل حذقهم وبراعتهم السياسية ، أن يجنبوا بلادهم نكبات الحرب ، وأن يحافظوا على حيادهم الدقيق إلى اليوم ؛ ولقد بات النفوذ النازى على أبواب تركيا ، بعد أن تم للجيوش الألمانية النصر فى البلقان فى شهر مايو الماضى ، وحشدت قوات ألمانية فى بلغاريا ، وجنود إيطالية فى جزر بحر اليونان اللاصقة لسواحل تركيا . واضطرت حكومة الجمهورية التركية إلى أن تبرم معاهدة صداقة مع دولة ألمانيا . وتوقع المتشائمون أن تهاجم الجيوش الألمانية تركيا ، لكى تنفذ منها إلى الشرق الأوسط ، ولكن الله سلم ، وتحول العدوان الألمانى نحو روسيا السوفياتية ، وابتعد الخطر النازى عن تركيا قليلا ، وإن لم يكن قد زال عنها تماما .

ولو أن جنود المحور اخترقت الأناضول وزحفت على الشرق الأوسط لكان هذا خطراً جسيما على هذه الأقطار ، ولم يكن للحلفاء فى سوريا جنود ، وقواتهم فى الشرق الأوسط قليلة . . . وقد توغلت الدعاية النازية فى العراق

وإيران ، وتولى الحكم فى العراق حزب عسكرى برئاسة رشيد عالى ، لم يلبث أن شهر الحرب على الجيوش البريطانية ، واستجار بالنازيين فى شهر مايو الماضى فأجاروه بإرسال عدد كبير من قاذفات القنابل . وكانت تتخذ قواعدها فى أرض سورية نفسها . ولكن هذه المساعدة لم تجد نفعاً ، واضطر رشيد عالى وحزبه للفرار إلى إيران ، وعادت حكومة العراق الشرعية إلى مستقرها ، ورجع السلم إلى بلاد الرافدين .

وأغار الحلفاء على سوريا فى الثامن من يونيو الماضى ودارت الحرب أربعين يوماً ، وانتهت بزوال سلطان فيشى من القطر الشقيق ، وإنشاء حكومة جمهورية فى كل من سوريا ولبنان . واتصلت مصر بأقطارها الشقيقة فى سوريا والعراق . كما اتصلت بلاد الشرق الأوسط بتركيا .

وكان النازيون كما قدمنا أعوان ووكلاء فى إيران . وبين إيران وروسيا معاهدة صداقة ، ولم يكن فى وسع حكومة موسكو أن تغض النظر عن توغل الدعاة النازيين فى أرض إيران . وكذلك كان من المفيد أن يتصل الحلفاء بالروس من طريق إيران والقوقاز . وقد قيل إن بين روسيا وإيران معاهدة تخول قوات روسيا أن تدخل إيران إذا كانت حاجة الدفاع تتطلب ذلك . ومهما يكن من شىء فقد دخلت القوات الروسية أرض إيران من الشمال ، وقوات الحلفاء من الجنوب ، فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس الماضى . ولم تمض عدة أيام حتى سلمت حكومة إيران . وزال نفوذ المحور من البلاد ، كما زال بعد ذلك من بلاد الأفغان . وانفتح طريق إيران لوصول الامدادات البريطانية الأمريكية إلى الميدان الروسى وبذلك زال النفوذ المحورى عن الشرق الأوسط كله .

فى الشرق الأقصى

لقد ألف الحرب المسلمون فى الشرق الأقصى منذ زمن طويل ، بل من قبل الحرب الأوربية الجديدة ، فإن فى الصين عدة ملايين من المسلمين ، وأكثرهم فى الولايات الشرقية التى اضطر الجنرال تشانج كاى تشيك إلى التراجع نحوها أمام الزحف اليابانى الذى بدأ منذ أكثر من أربعة أعوام . فالأقطار الاسلامية اليوم تحارب اليابانيين فى الصين ، وتقاوم تقدمهم مع إخوانهم من غير المسلمين .

وقد اتسع مجال العدوان على البلاد الاسلامية ، وازداد الخطر المحدق بها منذ شنت اليابان الحرب على بريطانيا وأمريكا وهولندة . ولقد أعدت اليابان لهذه الحرب عدة واسعة . وكانت تعمل كمادتها فى الخفاء . ففاجأت العالم بهذا العدوان القوى العنيف ، الذى أصاب لهيبه البقية الباقية من الأقطار الاسلامية التى كانت تنعم بالسلم فى جزر الهند الشرقية وفى بلاد الملايو .

وهكذا نرى التخريب والتدمير قد تناول أطراف البلاد الاسلامية فى لوبيا ، وفى الشرق الأقصى وأوربا ؛ ولكن إلى اليوم لم تمس الحرب قلب العالم الاسلامى إلا مساً خفيفاً ؛ فالحروب التى دارت فى سوريا والعراق وإيران ، والاغارات الجوية على مصر ، بل الحرب فى شرق أفريقية نفسها تعد أمراً هيناً إلى جانب ما يحدث فى البلاد الاسلامية التى أغارت عليها اليابان فى الشرق الأقصى ، أو إلى ما أصاب المسلمين فى البلقان وروسيا .

وإن جاز لمسلم فى بدء هذا العام الهجرى أن يتمنى شيئاً ، فإن أقصى الآمال أن يحل الأمن محل الخوف ، والسلم مكان الحرب ، وأن يزول عن بلاد الاسلام طغيان الطغاة وشرورهم ، وأن يثوب الرشد إلى تلك العقول التى زايلها العقل والرشد .

محمد عوض محمد

طليحة الأســدى

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

كانت الليلة قمراء صافية والهواء لا يزال فيه البرد من أثر الربيع الجديد ، ورمال الصحراء تتراءى من وراء الخيام المنصوبة ، فتلوح فى ضوء القمر الباهر كأنها عالم لا نهاية له ، قد كمنت فيه أسرار تتهامس ، وكأن رءوس كثبانها تتواصى بالصمت لتزيد فى رهبة من يجوس خلالها . وانتحى جماعة من الناس فخرجوا من المعسكر حتى صاروا على فرسخ منه ، ثم نزلوا ينتظرون أن يمضى صدر الليل ؛ وأخذوا يسمرون فى حلقة وقد ربطوا أفراسهم فى جوانب شجيرات الطرفاء والأثل . وجلسوا حيناً ينظرون إلى السواد الذى عند حدود الأفق الأغبش الذى يتراقص أمام أعينهم . ثم دار بينهم الحديث ، فأخذ المغيرة بن شعبة يتحدث عن فارس وما رأى فيها منذ ذهب إلى المدائن مع الوفد الذى أرسله سعد بن أبى وقاص إلى ملك الفرس يزدجرد أول نزولهم القادسية ، ثم جعل يصف لهم كيف يأكل الفرس وكيف يركبون ، وما رأى من مهرجان الملك وحراسه ، ومن زخرف الجند وسلاحهم ، وما قاله ليزدجرد وما سمعه منه ، وكيف رآهم يظلم قويهم الضعيف ، ويستأثر غنيهم بالخير دون الفقير ، وكيف يعظم السكبر ويضل بهم الغرور ، حتى بلغ وصف آلات حربهم ، فأخذ يصف لهم الفيلة وهى تسير كأنها قطع الجبال عليها الهوادج كأنها البيوت وفى داخلها الجنود يحملون القؤوس .

فقال عمرو بن معدى كرب ، وكان يسمع حديثه صامتاً فى شىء من الامتعاض :

— لقد كنت معك إذ رأيت هذه الفيلة — وكأنى بها وقد لمت السيوف فى وجوهها تتصايح تصايح الخنازير ثم تقذف من عليها وتخبطهم بأقدامها .

فقال المغيرة فى شىء من الغضب ، وقد رأى أن عمراً يظن فيه التهويل :

— لست والله أبالى أن ألقى تلك الأفيال بالسيف ، وإن كان هولها أشد مما تصف يا أبا زيد .

فقال عمرو كأنه يعتذر :

— لقد علمت أنك من فرسان العرب يا مغيرة ، ولله علىَّ إن لقيتُ القوم لأبادرنَّ معك تلك الفيلة بسيف هذا الصمصامة . ولكنى رأيتك تعظم شأنها ، وخشيت أن تكون . . . . .

فقاطعه المغيرة وفى صوته شىء من الغضب :

— خشيت أن تكون قد خلعت قلبى عنظرها ؟ أما والله لَلفارس فى يده الرمح يلمع كعين الحية الرقطاء أشد منها هولاً إن كان فى قلب المغيرة محل لفزع .

فتبسم عمرو وقال :

— إذاً فالعهد بيننا على أن نجتمع أمام ذلك الفيل الأجرب الذى كان يهز الأرض إذا سار فى ساحة القصر .

فصاح رجل من جانب الحلقة لم يتكلم من قبل ، فقال وهو يضحك :

— كأنى بكما تفاخران أن تنطحا الصخرة البلقاء .

فضحك الجلوس جميعاً من قوله ، إلا رجلا واحداً كان يجلس فى طرف الحلقة ساهماً وهو يحدق ببصره فى الأفق البعيد ، فلما سمع الضحك عاد إلى نفسه ، والتفت إلى أصحابه كأنه يسائل نفسه مم يضحكون .

فاتجه عمرو إلى ذلك الذى أثار الضحك عليه وقال له فى شىء من الغيظ :

— يا معبد بن مرة ، لقد عرفتك العرب داهية من الدهاة ، فلعلك تجد حيلة من حيلك فى حرب هذه الفيلة ، إذا لم يكن من الحزم أن نلقاها بالسيوف .

فقال معبد بن مرة ولا يزال ضاحكا :

— لئن كان للفيل رأس وخرطوم إن له ذنباً !
وما عليك لو استدرته بسيفك فعرقبته أو قطعت رباط هودجه ؟

فصاح القوم ضاحكين ، وشاركهم عمرو والمغيرة ، إلا ذلك الرجل الصامت الذى كان فى طرف الحلقة ، فإنه قام ناظراً نحو السواد كأنه يريد أن يخترق ببصره الضباب الرقيق الذى يستر أقصى الأفق .

فالتفت إليه القوم ، ثم نظروا حيث اتجه ببصره ، وخشعت أصواتهم ، وداخلهم شيء من الخوف أن يكون صاحبهم قد أحس شيئاً يريبه . ولما طال الصمت صاح عمرو بن معدى كرب قائلا :

— هل رابك شيء هناك يا طليحة ؟

فوقف الرجل حيناً ، ولا يزال ينظر نحو الأفق صامتاً ، ثم التفت إلى عمرو فى بطء وقال :

— أنظرُ عند الأفق حركة ، وأحسبُ أن العدو قريب .

فتصايح الجمع متضاحكين ، وقال قائلهم :

— أنى للعدو أن يكون هنا ، وهو نازل بين النجف والفرات ؟

وأسرع عمرو بن معدى كرب نحو طليحة ، وجعل ينظر نحو الأفق ، حيث كان طليحة يشير بيمينه ، فرأى خطاً أسود يتحرك وراء الضباب وفى آخره غبار يرتفع ثم يختفى . فقال عمرو فى جد :

— أيكون الفرس حقاً قد أقبلوا ؟

فقال طليحة :

— أولى بنا أن نسير فى وجهنا الذى خرجنا إليه فقد طال هنا جلوسنا .

وكان القوم منذ رأوا عمرو بن معدى كرب يتجه نحو طليحة ، ثم يقف معه يتناجيه قد تحركوا ، ثم ساروا لينظروا فيم يتناجيان ، فأدركوهما والتفوا حولهما فالتفت عمرو إليهم وقال :

— لقد طال بنا الحديث هٰهنا ، فشغلنا عما هنالك . وما بعثنا سعد بن أبى وقاص إلا طليعة لنجس له هذه الشطوط ، فهلموا .

ثم أسرع نحو فرسه ، وسارع أصحابه إلى أفراسهم وساروا نحو خط الأفق الأسود اللامح من خلف الضباب . وهبطت بهم الخيول من فدافد الصحراء ، نازلة وهى تسير خفيفة كأنها الوعول تثب من صخرة إلى صخرة وتمس الأرض برفق كأنها تحاذر أن يسمع لها دبيب . ثم تغير لون الأرض الأصفر شيئاً بعد شيء ، فاعتكر حتى إذا ما سار الركب ميلا صارت الأرض سوداء ناعمة ، يثور غبارها الجاف فيكاد يحجب أول الركب عن أعين آخره .

وكان عمرو وطليحة يسيران فى صدر الجمع ، وقد أبطآ فى السير وطفقا بصريهما فى أطراف السهل يتحسسان بهما فى أكنافه وينفذان بهما ما بين غصون الشجر وجذوع النخل التى طلعت لهما من وراء الضباب . وفيما كان الركب يتبعهما صامتاً ، وقف طليحة فجأة وأشار لأصحابه أن يثبتوا . وقال هامساً :

— على رسلكم ، وأمسكوا عن الحديث ، فلعمرى إن جيش فارس وراء هذه الغيضة .

فصمت القوم ، وأصاخوا بسمعهم ، وهم فى شك من قول طليحة . فكيف يكون جيش الفرس وراء تلك الغيضة ، وقد كان منذ ليلة عند النجف يتحصن ويتربص ! وأدرك طليحة ما فى نفوسهم من الشك ، فمال إلى عمرو وأشار نحو نار تتقد وراء الغيضة ، وجعل يحدثه هامسا فالتفت عمرو إلى أصحابه ، وقال وهو يحاول أن يخفت صوته الجهورى .

— صدق طليحة . هذا سرح جيش الفرس ، يملأ شواطئ النهر . وهذه حراس السرح تستدفئ مطمئنة . ثم نظر إلى طليحة وقال :

— فلنعد إلى سعد ، فما ينبغى أن يجهل قائدنا قرب العدو .

فقال طليحة متجهاً نحوه :

— إن سعداً لم يبعثنا لكى نخبره عن مسرح الجيش ؟ فلنمض فى وجهنا حتى نعود إليه بخبر من الجند .

فقال عمرو فى هدوء :

— لا تغرر بأصحابنا يا طليحة ، فإن العدو يفتك بنا إذا نحن سرنا وراء هذا الموضع .

فقال طليحة :

— لقد خرجنا طليعة ، فلابد أن نخاطر القوم .

واشتد الجدال بين عمرو وبينه حتى علا صوتهما وشارك القوم فى الجدال ، فصاح طليحة بن خويلد غاضباً :

— لأذهبن وحدى إن كان قد ألم بكم الخوف .

وكأن سوطا قد هوى عند ذلك على ناصية القوم ، فكيف يجرؤ طليحة أن يتهم أمثالهم ؟ ومن يكون طليحة فى المسلمين حتى يكون أشد منهم فى الاسلام دفعة ؟

واتجهوا جميعاً نحوه صاخبين ، وقال عمرو :

— لكأنى بك ياطليحة قد أردت أن تمضى إلى هذا العدو لتسلم أصحابك إليه !

فصاح طليحة غاضباً :

— كذبت ، وإنما أنت تخشى الاقدام

وعلت الأصوات ، وتخلل الجدال سباب وخصام .

وصاح صائح يخاطب طليحة :

— لعلك نسيت ما كان منك ، إذ طمعت فى النبوة فى بنى أسد ، يا طليحة بن خويلد .

وصاح آخر قائلا :

— لئن ترد اليوم غدراً بأصحابك لقد كنت صاحب غدر

وصاح ثالث :

— والله لن تفلح يا قاتل عكاشة بن محصن .

فلم يجب طليحة بحرف ، بل همز فرسه فى عنف ، فاندفع به الفرس واثبا ، وبعد عن أصحابه ، وانحرف مائلا نحو الجنوب حتى غاب وراء الغيضة ، وابتلعته الظلال فى ظلامها ، وعاد عمرو بمن معه صامتين ، وكل منهم يناجى نفسه حانقا : ماذا عسى أن يكون من أمر ذلك الرجل العجيب ؟ أيكون قد عاد إليه شيطانه الذى وسوس إليه من قبل أن يخرج على الرسول ويحاربه ويقتل أصحابه ، فيكون قد ارتد مرة أخرى وعول على أن يلحق بالفرس مع من كان فى جيشهم من عرب السواد ؟ أم يكون حقا قد خلفهم وراءه وسار وحده فى وجهه كى يفوز بما لم يجرءوا عليه من مخاطرة العدو فى القتال ؟

وسار طليحة وحده ، وقد مال القمر نحو الغرب ، وركد الهواء إلا من نسيم بارد يهب على وجهه من قبل الجنوب ، فيمسح جبينه الذى يتقد من ذكرى ما سمعه من السباب . وعادت إليه ذكريات سنوات كاد ينساها فى معامع القتال مع المجاهدين . وانثالت إليه صور ذلك الماضى الشاحب منذ ادعى النبوة فى قومه بنى أسد ، يزعم أنه بذلك يبلغ السيادة والمجد اللذين كانا يحرقان قلبه الجاهل فى رغبتهما الثائرة . واجتمعت تلك الصور على نفسه الجائشة ، لتزيد إلى ثورتها لذعة قاسية من لفحات الأسف ، فتنازعته الميول والأشجان حتى حار بين غضبه مما ناله من سباب أصحابه ، وبين غضبه على ذلك الماضى الذى لا يستطيع أن يمحو ما فيه من جهل وعار . لم يستطع أن ينسى وقع كلمات أصحابه القاسية ، ولا تزال ذكرى ماضيه ماثلة فى أعماق نفسه ، تخذله إذا ثار ، وتكبته إذا أراد أن يدفع عن نفسه ، ولم يستطع أن يحقد على هؤلاء الصحاب الذين أساءوا إليه . فقد كان هو كذلك ينظر إلى شخصه الماضى نظرة الانكار والكراهة . وكيف يستطيع طليحة الذى يحارب مع المجاهدين ، ويسعى جهده فى التماس الشهادة ، أن يرضى عن طليحة الأحمق الذى كذب وخادع ، وسفك الدماء وشق عصا الجماعة ، فى سبيل أن يبنى لنفسه مجدا ليس له أن يغتصبه ؟ كيف يرضى عن طليحة الصغير

الذي استهان واعتدى وكابر في سبيل إرضاء نزغة من نزغات الكبرياء الجوفاء ؟

لم يكن ليقدر على أن يرضى عن تلك الصورة من شخصه الماضي ، ولذلك لم يجد في نفسه حقداً على أصحابه الذين شاركوه السخط على ذلك الشخص الماضي ، ولكنه كان يعرف أنه قد طرح تلك الصورة الشائهة ، واستقبل بها نفساً جديدة تدفعه إلى خوض غمار الوقائع في صفوف المجاهدين ، لعلها تغسل عن ماضيها ما علق بها من وصمة النزق والغرور ، وأحس عند ذلك صدى كلمات أصحابه تملؤه مرارة وشقاء ، حتى أوشك اليأس أن يغلبه . ألا يريد ذلك الماضي البشع أن يفارقه أو يزيل وصمته عنه ؟ وتنفس عند ذلك نفساً عميقاً بعثه الأسف الضني ، وناجى نفسه قائلا : « أواه ! ليتني كنت أعرف » . وكأن ذلك النفس العميق قد أعاد طليحة إلى وعيه وأيقظه من مناجاة همومه ، فرنت في أذنيه أصوات همهمة يحملها النسيم إليه من جانب النهر ، وهو لا يدري كم سار منذ ترك أصحابه عند حافة أرض السواد . فوقف لحظة يتأمل فيما حوله في شيء من الذهول ، ثم خطرت على قلبه خاطرة سريعة كأنها لمعة برق سرت في الظلام . لقد كان عند ذلك وحده لا يجد رفيقا ولا معينا ، ولو عثر به عدوه لكان كشعرة بيضاء في فرس أدهم . أليست هذه فرصة لكي يغسل عن نفسه أدرانها الماضية ، ويمحو عنها عارها الذي لا يفارقها ؟ أليست الشهادة هي سبيل المغفرة التي لا نقص فيها ؟ أليس الاقدام على الخاطرة الكبرى وسيلته الباقية لينزع من قلوب أصحابه ذكرى طليحة الماضي ، فلا يصبح أمامهم إلا طليحة الشهيد أو المجاهد الذي لم يأل في سعيه جهدا ؟

والتفت إلى يساره فإذا شطوط النهر قد غطتها الخيام لا تكاد العين تقع فيها على موضع ليس فيه قبة أو مظلة أو خباء .

وكان القمر قد انحدر إلى الغرب ، واستطالت الظلال ، فأسرع إلى شط النهر يتدارى وراء الشجر . وجعل ينظر ويتوسم وهو يسير بإزاء المعسكر العظيم الذي كان يمتد أميالا على طول النهر العظيم .

وكانت عينه تنظر إلى ما دونه على حين عاد قلبه إلى شواغله والاغراق في تأمله . ولكنه كان في هذه المرة يناجي نفسه مستبشراً بعد أن عاوده الأمل منذ عقد عزيمته على الخاطرة الكبرى . لقد زالت من طليحة عند ذلك مظاهر العالم الأرضي كلها ، ولم يبق أمامه إلا ما يلوح للبصيرة الصافية حتى لكأنه كان يلمح مشارف الملأ الأعلى وسدرة المنتهى . وخيل إليه أن روح الاسلام تسبح به في الملكوت الروحاني نحو الخلود ، وترددت في سمعه الباطن أصداء ما بعث به الاسلام من مكارم وفضائل ومن عدل وإحسان ؛ وعادت إلى ذهنه الهائم كلمات الخليفة عمر التي بعثها إلى قائده سعد بن أبي وقاص يقول له ولجنده : « اطرحوا الشك وآثروا اليقين عليه . فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه بإشارة أو بلسان ، وكان الأعجمي لا يدري ما كلمه به ، وكان ذلك عندهم أماناً ، فأجروا ذلك مجرى الأمان . وإياكم والضحك ! والوفاء الوفاء ! فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة ، وفيه وهنكم وقوة عدوكم ، وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم . واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شينا على المسلمين وسبباً لتوهينهم » .

وكان طليحة كلما مرت في ذهنه تلك الكلمة تبسم ارتياحاً وتنفس نفساً عميقاً يزيل عنه شيئاً من أثر كآبته الأولى . هذا روح الاسلام المهذب الذي يقصد إلى الوفاء والصدق والكرم . إن هذا الاسلام لم يقصد إلى العجم للسلب والقتل والغدر ، أو لكي ينزع عن قوم خيرهم ، أو لكي يركب بالسيف أعناقهم . إنه مبعوث ليذيع في العالم المكارم ، وفي سبيل هذه المكارم يبذل المسلمون نفوسهم فداء .

وكان طليحة قد بلغ آخر المعسكر بعد مسيرة طويلة لحدد موقعه ، وعرف مداخله ، ثم رأى القمر قد مال إلى الأفق ، وانجاب الظلام عن المشرق ، وخفتت لمة النجوم تؤذن باقتراب الصباح ، فأسرع عائداً ليحمل إلى قائده ما عرفه من خبر العدو .

ثم حانت منه نظرة ، فلمح قبة بيضاء عالية وقد ربط في جانبها فرس كأن قوائمه نحت وعل من غزلان البرية . فقال في نفسه : « ما أجمل هذا الفرس لو قام تحت مجاهد ! »

ولم يفكر في شيء إلا أن يحمل ذلك الفرس وسيلة لمناجزة القوم لعله يصيب فيهم الشهادة التي يبتغي أو يكون قد أعذر في المناجزة . فاندفع نحوه وانتضى سيفه فقطع مقود الفرس وضمه إلى مقود فرسه ، ثم همزه فخرج به يعدو من بين خيام العدو .

وأحس جنود الفرس بالحركة وهم في أول يقظة الصباح ، فتنادوا وركبوا ، وخرج بعضهم وراء المغير يريدون أن يستنقذوا منه الفرس ويجازوه على جرأته ؛ ولكن طليحة فاتهم فلم يدركوه إلا مع الصبح وقد بلغ حافة الصحراء .

وعجل أول الفرسان حتى صار على رمية الرمح من طليحة فسدد نحوه السنان لكي يضربه ، فال طليحة عن سبيله فجأة واندفع الفارسي حتى صار أمامه فكر عليه فقصم ظهره برمحه ، ثم لحق به الفارس الثاني ففعل به طليحة مثل ذلك ، حتى أتى الفارس الثالث وهو يغلي غليان المرجل من الغيظ ، وطلب الثأر لابني عمه القتيلين ، فأراد طليحة أن يحمل ذلك الثالث آية باهرة ، فلما رآه قد سدد إليه السنان ليطعنه ، مال عنه فاندفع الفارسي حتى صار أمامه كما فعل صاحباه ، ولكنه لم يكر عليه فيقصم ظهره ، بل دعاه إلى الاسار ، فلم يجد الفارسي بداً من الاستئسار . وساقه طليحة بين يديه حتى عاد به إلى قائده سعد ، وقد اجتمع الناس حوله ينظرون إلى طليحة العجيب .

وترك طليحة الأسير يقص القصة وهو يسمع باسماً وينظر إلى أصحابه الذين وقفوا حوله ينصتون ، وقد امتلأت قلوبهم إعجاباً ومحبة ، يختلطان بما ثار فيها من أسف على ما أصابوا من صاحبهم البطل في ثورة الخصام .

ولما انتهى الأسير من قصته خيم على الجمع سكون عميق .

وتقدم عمرو بن معدى كرب نحو طليحة يمد يديه نحوه حتى ضمه إلى صدره قائلا :

— أتعفو عني يا طليحة ؟

فقال طليحة والدمع يملأ مآقيه :

— بل يعفو الله عني وعنك يا عمرو .

محمد فريد أبو حديد

نبينا فى نظر جيته

« عندما ينثر الله الأبدى القدوس من قبضته الهادئة شهب الخير تتساقط من ثنايا السحب الصافية فقد شفتاى إلى أهداب ردائه تقبله ، وقد احتفظ القلب بما عهد فى طفولته من خوف ، إذ لا ينبغى لانسان أن يتساوى إلى الآلهة ، وما يشرئب عنقه لمس النجوم بناصيته حتى تفقد قدماه الجازتان كل مرتكز على صفحة الأرض فتتقاذفه السحب والرياح ، ماله لا يربض وقد جمع إليه عظامه الصلبة اللينة عاء الحياة فوق أديم الأرض الثابتة الدعائم وما يرتفع إلى أعلى مما ترتفع إليه أشجار البلوط أو عرائش العنب . وفى الحق بم يتميز البشر من الآلهة ؟ يتميزون بأن الأمواج تمر أمام الأرباب لا عداد لها ، سيلا لا ينقطع ، وأما نحن فتعلو بنا موجة وتبتلعنا أخرى ، فنهوى إلى القاع وقد طوقت حلقة ضيقة حياتنا حتى تتلاحق الأجيال جيلا بعد جيل أبد السنين فى سلسلة الحياة التى ليس لها انقضاء » .

هذه ترجمة لقصيدة جيته الشهيرة « حدود الانسانية » ومن منا لا يحس فى حناياها نفساً من روح الإيمان الشرقى ، بل من وحى القرآن وقوله الحق : « ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » . ومن الثابت أن جيته قد أولع منذ صباه بكتب الشرق المقدسة : بالتوراة والانجيل والقرآن ، وأن هردر Herder قد بصّره بالكثير من شعرنا العربى ؛ ولدينا قائمة بالمختارات التى انتقاها لنفسه من كتابنا العزيز من ترجمة مرجرلين Mergerlen التى صدرت بفرنكفورت سنة ١٧٧٢ .

ولقد كانت شخصية نبينا موضع إعجاب هذا الشاعر العظيم ، كما كان عصره المعروف فى تاريخ الآداب الألمانية بعصر « العاصفة والدفع » Sturm und Drang عهد إيمان بالوحى والالهام بالديانات والرسل ، بعد أن فشلت فلسفة القرن الثامن عشر العقلية فى قيادة حياة البشر وما تمخضت إلا من بلبلة الأفكار وبذر الشك فى القلوب ، فجفت الحياة ونضب معين الشعر ؛ ولا عجب أن يحل المقم بنفوس لا إيمان فيها .

ورأى جيته فى محمد نبياً حقاً ، فكان رأياً جديداً فى أوربا التى خلفت بها الحروب الصليبية ذكريات بغيضة عن الاسلام وأهله ونبيه ، ثم جاءت الحروب الطويلة بين الأتراك والأوربيين ، فزادت الهوة عمقاً حتى لنستطيع أن نقول إن الأجيال إذ ذاك قد توارثت سوء الظن بالاسلام وبالنبى ؛ ولا أدل على ذلك من أن القرآن ظل مجهولا لديهم قروناً عدة ، وقد تعمدت الكنيسة الكاثوليكية هذا الجهل بل التجاهل ، وقد أمرت باحراق طبعة البندقية للقرآن سنة ١٥٣٠ ، كما حرم البابا اسكندر طبع القرآن أو ترجمته ؛ ولهذا جاءت كل التراجم التى خلفها لنا القرنان السادس عشر والسابع عشر وقد ألحق بها مترجموها — دفاعاً عن عقيدتهم ، أو خوفاً على حياتهم — رداً على كتابنا الكريم ؛ ثم سار الزمن سيرته وأخذ هذا التعصب الظالم يتبدد شيئاً فشيئاً ، كما أخذت الخرافات التى ملأت العقول عن نبينا تتساقط الواحدة تلو الأخرى ، وكان للعالم الهولندى ريلاند Reland فى ذلك فضل السبق ، وجاء للمستشرق الفرنسى جانييه Gangier فكتب سنة ١٧٣٢ كتابه « تاريخ محمد » معتمداً فيه على وثائق جديدة بالنسبة لأوربا ، وتلته مؤلفات جورج سال G. Sale ، وبولانفليه Boulainvilliers التى ذهبت إلى أبعد مما ذهب إليه كتاب جانييه فى إنصاف نبينا ؛ فقدمه هؤلاء المؤلفون إلى جمهور القراء كرجل

آمن بالتوحيد ، واطلت به العناية الإلهية تنشر هـذا التوحيد فى العالم الاسلامى الواسع الذى امتد من الهند إلى أسبانيا ؛ وبالرغم من معارضة الكنيسة لهذا الرأى أخذ ينتشر بين الجمهور ، حتى لترى الكثيرين من كبار المفكرين كليبنتز Leibniz ، وجوتشـد Cottsched واسنج Lessing يأخذون به .

وهكذا انتهى الأوربيون إلى التسليم لمحمد بصـدق الايمان وصدق الرسالة ، حتى إن الأحرار من مفكريهم أمثال فولتير Voltaire – ممن تنكروا لكل الرسل وأنكروا كل وحى – لم يستطيعوا أن يمنعوا نبينا كل حقه .

فى ذلك الوقت جاء جيته وقد ظهرت ترجمة مرجولن كما ذكرنا وترجمة بويسن Boysen سنة ١٧٧٣ ثم الجزءان الأولان من تاريخ محمد لتيربين Turpin سنة ١٧٧٣ ، فرأى الشاعر فى نبينا رسولا صادقاً وروحاً كبيراً . ورأى فى حياته موضوعاً لمسرحية كتب القليل منها ثم لم يتمها ، كما فعل غير مرة أيام شبابه ، ولكنا نملك هيكل الرواية كما حدثنا عنه آخر حياته فى كتابه « الحقيقة والشعر » .

– تبدأ الرواية بنشيد يتغنى به محمد وحيداً فى ظلام الليل تحت السماء الساجية . ويأخـذ فى عبادة النجوم المتعددة تعدد الآلهة . يرتفع النجم « المشترى » فيخصه بالدعاء على أنه رب للنجوم ، ثم يظهر القمر فيخلب بصره وقلبه ، ولكن ما إن تبزغ الشمس حتى تتجدد حياته ويطرب إحساسه فيتجه إليها بدعاء جديد ؛ إلا أن قلبه بالرغم من روعة هذا النشيد الذى ينتقل من نجم إلى نجم لا يستشعر راحة الايمان ، وإذا به يسمو بروحه إلى الله الواحد الخالد الذى لا نهاية له وإليه تدين كل هذه الكائنات الرائعـة بوجودها ... وهكذا وصل إلى الايمـان فحاول أن يهدى قومه وكانت زوجه أول من آمن به فى غير تحفظ .

فى الفصل الثانى نرى علياً يحاول فى حماسة أن ينشر الايمان بين الناس ، فيلقى من البعض قبولا ومن الآخرين إعراضا تبعاً لاختلاف طبائع الناس ، وانتهى الأمر بأن دب الشقاق واشتدت الخصومة فلم ير محمد بداً من الهجرة . . .

فى الفصل الثالث ينتصر محمد على أعدائه ، فيقيم من إيمانه ديانة عامة لها شعائرها ، كما يطهر الكعبة من الأصنام ؛ ولكنه يدرك أن القوة لا تستطيع كل شىء ، وأن لا بد من سياسة الناس بالحكمة .

فى الفصل الرابع يواصل محمد فتوحاته وقد أصبح الدين عبادة إلهية ونظاماً حكومياً بما يستلزمه ذلك من وسائل .

فى الفصل الخامس يعود محمد إلى نفسه فيستشعر قوة خلقه ونبل مشاعره مما يجعله موضع إعجابنا ، فيزداد إيمانه ويثبت ملكه ثم يموت .

هذه هى خطة الرواية ومن خلفها فكرة كان جيته يؤمن بها طول حياته ، وهى أن الرجل العظيم مهما كانت عظمته لا بد له من النزول إلى مستوى الناس وأخـذهم أحيانا بما ينبغى أن يؤخذوا به من شدة ؛ ولكن ذلك لا يمكن أن يغير من طبيعة هؤلاء الأبطال الذين فطروا على النبل ، وهم لا بد عائدون إلى طبائعهم النبيلة .

ونحن اليوم لا ندرى لِمَ لَمْ يتم جيته هذه الرواية ، إذ كل ما لدينا منها ثلاث قطع :

١ – أنشودة محمد التى حللها جيته على نحو ما رأينا ، وفيها ينتهى النبى إلى الايمان .

٢ – حوار بين محمد وحليمة يحاول فيـه النبى أن يهدى حليمة إلى إيمانه الجديد ولكنه لا ينجح . وتخشى عليه حليمة من انطلاقه وسط الظلام وحيداً .

٣ – قطعة غنائية يتغنى بها على وفاطمة سماها جيته أغنية ، وهى حوار غنائى رمزى يمجد فيه على نهراً رائعاً يتدفق خلال المروج والآكام ، إلى أن ينتهى إلى أبيه

المحيط ، وترد فاطمة راجية أن يتقبل هذا النهر الكبير ما ينصب فيه من إخوته الروافد يقودهم إلى حيث ينتهي ! ومن الواضح أن النهر هنا هو محمد نفسه وأن المحيط هو الإيمان بالله جلت قدرته .

وأروع المقطع الثالث هو بلا ريب نشيد محمد :

« لا أستطيع أن أوزع بينكم ما تهتز به نفسي . لا أستطيع أن أمنح كلاً منكم شعوري كاملا .

« من إذاً بلغ السمع إلى الدعاء ؟ من إذاً وصل البصر إلى العين الضارعة ؟ هاهو المشترى النجم الحبيب يسمو ويتألق . لتكن ربي ! لتكن إلهي ! ... هاهو في لطف قد استجاب ... لا تبرح ! لا تبرح ! مالك تنحي عن بصرك ! ثم ماذا ! أأحببته ! وها هو يتحول موليا

« تباركت يا قمر ، يا من تهدى النجوم ، كن ربي ، كن إلهي ، أنت الذي ينير لي السبيل ، آه ! لا تدعني أتخبط في الظلمات مع من ضل من بشر .

« أيتها الشمس المتقدة ، إليك تنزع القلوب الحائرة ، كوني ربي ، كوني إلهي ، أنت يا من تزين كل شيء ، أيتها الرائعة ، أأنت أيضاً تأفلين فتشملني ظلمات كثيفة .

« اسمُ أيها القلب المحب إلى الخالق ، كن ربي ، كن إلهي . أيها المحب الشامل الذي خلق الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض كما خلقني » .

ومن البين أن جيته خلع على محمد صورة إبراهيم كما صورها القرآن ، إبراهيم الذي اتجه إيمانه إلى الكواكب ، فلما رآها تختفي تباعا سمت روحه إلى الله السامي على كل شيء ، (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين — وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) .

فنشيد محمد ما هو إلا صياغة شعرية لتلك الآية الكريمة ؛ ومن الثابت تاريخيا أنها مصدر جيته ، وهي من مختاراته التي أشرنا إليها .

وإنه لما يدعو إلى التساؤل أن نرى جيته ينسب إلى محمد ما يعرف أن القرآن قد ذكره عن إبراهيم ، وتفسير ذلك سهل . إذ أن جيته لم يحاول فهم محمد إلا على ضوء نفسه . وعنده أن الطبيعة هي أعمق مصادر الإيمان ، ولكن لا على النحو الذي يقول به الفلاسفة والمتكلمون ، من أن المخلوق يدل على الخالق والموجودات على الله ، ولكن بوحي مباشر ، وحي تتلقاه حواسنا إذا تفتحت للعالم الخارجي على نحو ما تفتحت نفس جيته الذي يقول في كتابه « الحقيقة والشعر » — « لقد كان البصر أهم حاسة حاولت أن أدرك بها العالم ، وقد نشأت منذ الطفولة بين المصورين فأصبحت لا أرى في الأشياء غير ما تمت به إلى الفن من صلة . والآن وقد خلوت إلى نفسي وخلت بي الوحدة أحس أن تلك الهبة التي فطرت على بعضها واكتسبت بعضها الآخر قد تمكنت مني . لقد كنت أرى لوحة في كل مكان يتجه إليه بصري ، وكنت أحاول دائماً أن أحتفظ بما يثيرني أو يخلب لبي ، كما أخذت نفسي في غير حذق بأن أصور من الطبيعة » .

وهنا ولا ريب اتجاه نفسي أبعد ما يكون من التأمل النفسي والانطواء الداخلي للاستجمام أو محاولة فهم نفوسنا بنفوسنا أو العثور على الله الذي استقر ضياؤه بكل

قلب ، وهو اتجاه جيته الذى لم تكن محركه روح seele — فيما يرى النقاد ، بل قوة دافعة Trieb تحوله إلى العالم الخارجى يتمم بما فيه من جمال ويستشعر ما يلهمه من وحى ؛ فتأمله هو تأمل الكون لا تأمل نفسه الخاصة . « منذ أقدم الأزمنة والناس يقولون ويرددون أن من الواجب معرفة أنفسنا بأنفسنا . وإنه فى الحق لواجب غريب لم يستطع أحد حتى اليوم أن يحققه ، وما أظن أحداً يستطيع . وما للانسان أن يدرك من حقيقة نفسه غير اللذة أو الألم وبهما وحدهما يستبين ما حق فيلتمس أو يتجنب ما يجب من أشياء .

« الانسان مخلوق غامض يجهل من أين أتى ، وإلى أين يذهب ، لا يعرف من العالم إلا القليل ، ولا من نفسه إلا الأقل . لست أعرف نفسى بنفسى ، وليحفظنى الله من تلك المعرفة » بذا يتحدث جيته إلى صديقه أكرمان Ackreman.

وأكبر ظنى أن إعسان جيته صدر عن اعتزاز قلبه لما شاهد من آيات صنع الله التى تقع عليها أبصارنا جميعاً دون أن نحس عما فيها من روعة أو نلق إليها بالا « لأنه كما يقول روسو . لابد لنا من فلسفة كبيرة لنلاحظ ما نراه كل يوم » .

قال جيته : « لم أبن قط تفكيرى على فكرى ، قاصداً إلى أن مصدر تفكيرى دائما هو ما تبعثه الحواس لا التأمل ولا العقل المجرد » وكذلك كان إيمانه . فأى غرابة إذاً أن يرى فى محمد رجلا آمن أمام جلال الطبيعة ، وأن ينسب إليه ما نسب القرآن إلى إبراهيم ؟

محمد مندور

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	الطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٦١ — الثلاثاء ١٠ من محرم سنة ١٣٦١ — ٢٧ من يناير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

اليابان

هات أطلسك ، وافتحه عن خريطة الدنيا ، وانظر إلى تلك الكتل الأرضية التي أسموها بالقارات ، تجدها كلها قد انفصل بعضها عن بعضها بالماء ، أو كاد إلا قارتين : أوربا وآسيا ، وقد التحمت هاتان القارتان التحاماً جعلهما قارة واحدة أسموها أوراسيا . ثم انظر إلى غرب هذه الكتلة الأرضية الهائلة ، تجد ، في المحيط الأطلسي ، بضعة من جزر صغيرة أسموها بالجزر البريطانية ، شاء القدر أن تكون قطباً من الأقطاب التي تدور عليها رحى الحرب العالمية الحاضرة . ثم ارجع البصر شرقاً ، إلى المحيط الهادي ، تجد فيه هو أيضاً بضعة من جزر صغيرة أخرى أسموها بالجزر اليابانية ، شاء القدر أن تكون القطب المقابل الذي تدور عليه تلك الرحى .

وهذا الشبه قد يتراءى لأول وهلة شبهٌ مصادف قليل الخطر ، ولكنه ليس هكذا . فالجزرة تُكسب أهلها نوعاً من التحفظ والتعزُّل عن الأمم لا تكسبه القارة . وهي تنمّي في قلوبهم نوعا عارما من الوطنية لا يترعرع ويشتد مثله في قلوب أهل القارة . وهكذا التحفظ والتعزّل والوطنية عارمة في قلوب الأمتين ،

أمة الحر وأمة الصفر . والبحر الذى يحيط بأهل الجُزُر يطبع أهلها على حب ركوبه ، وإن بدأ هـذا الحب اضطراراً فهو لا بد ينتهى اختياراً ، وكذلك هو فى البلدين ، وقد خـلّق منهما أمتين بحريتين عظيمتين .

وهناك غير هذا الشبه أشباه جغرافية وغير جغرافية ، أثرت فى طباع الأمتين أثراً واحداً ، وجعلت من حاجاتهما حاجات واحدة ، ومن خطوطهما خطوطاً واحدة . وعند التشابه الشديد فى بعض الطبع ، وفى أكثر الحاجة وأكثر الخط ، يكون إما السير فى خطوط متوازية واتجاهات واحدة ، ويكون من هذا تعاون أى تعاون ، وإما السير فى خطوط متوازية واتجاهات متضادة ، ويكون من هذا تصادم أى تصادم . وقد كان التصادم . وقد كان تمهّداً . فاليابان شاءت أن تصطدم ، واصطدمت على أسلوب ذهب بالبقية الباقية الواهية من معنى الشرف بين الأمم .

ولسنا نريد الدخول فى هذا الخصام . ولسنا نقصد السياسة بهذا المقال فالذى يليه . ففى أخبار الجرائد اليومية ، وما يذيعه الأثير من شتى النواحى كفاية من هذا وزيادة .

ولكن الأخبار تأتينا من الغرب فنفهم من ظواهرها وبواطنها الشىء الكثير . ثم هى تأتينا من الشرق فلا نكاد نتبيّن لها معنى أو مغزى ، إلا كالذى نتبينه عند رقعة الشطرنج ونحن نرقب اللاعبين وهم ينقلون فى ميدان من خشب بيادق من خشب ، فاتتها إرادة الدم وأعوزتها مآرب الحركة والحياة . وسبب هذا أننا نعرف الكثير عن أمم الغرب ، فقد عاملناهم وخالطناهم وتحدثنا بلغتهم ، وكثير منا من زار بلادهم . أما أمم الشرق البعيد فلم نخالطهم ، ولغتهم ليس فينا واحد يفهمها ، وبلادهم أشق على أقدامنا من لغتهم على ألسنتنا .

فالحرب تذكر لك الرجل الانجليزى فتتصوره قائماً فى صفحة الخيال ، وفى أفق الصورة كل ما جمع الذهن من أرض الانجليز ، وريف الانجليز ، ومدن الانجليز ، والأسلوب الانجليزى فى العيش والفكر ، وأسلوبه فى تسيير عجلة الحياة . والحرب تذكر الرجل اليابانى فتتصوره قائماً وحده فى الخيال ، فهو صورة لا أفق لها إلا صفحة الورق البيضاء ، وإلا صفرة الصحراء أو زرقة السماء .



فالذى نقصده هو ملء بعض هذا الفراغ من الصورة ، وأن نسوّد بالمداد بعض هذا البياض .

ولوصف الناس لا بد من وصف أرضهم أولاً ،

فعلى هذه الأرض تجرى الحياة ، وفى مسارحها من وهاد بسيطة أو جبال رفيعة ، أو بحار ضيقة ووسيعة ، يقوم جمهور هذه الأمة بتمثيل قصة الحياة . وهى قصة بلغت حوادثها اليوم الغاية ، وأدت فصولها إلى عقدتها الكبرى ، ولم يبق إلا فصل واحد تنحل فيه العقدة أو تتقطع ، وبانحلالها أو انقطاعها تنقطع أو تنعقد عقدات أخرى فى أقاصيص أخرى يجرى تمثيلها على مسارح أخرى من بقاع الأرض .

ولوصف أرض اليابان لا بد من التفرقة بين اليابان الأصيلة — اليابان الأم — وبين اليابان الدخيلة ، أى الجلوبة ، وقد جلبها الفتح والاستعمار .

أما اليابان الأصيلة فتتألف من جزر أربع ، تجرى فى المحيط الهادى فى خط واحد مستقيم ، يجرى من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى . واسم هذه الجزر من الشمال إلى الجنوب : جزيرة هكادو Hokkaido (أو يزو) ، وهى لشدة بردها أقل الجزر خطراً وأخفها سكاناً . ثم جزيرة هُنشو Honshu (أو هُندو أو نِبُّون) وهى أكبر الجزر وأكثرها خطراً ، وفيها تجمعت العاصمة وأمّ المدن ، فهى أشبه ما تكون فى الجزر البريطانية ببريطانيا العظمى نفسها ، ومساحتها تكاد تكون مثلها . وهنشو معناها الأرض الكبرى . ثم جزيرة شيكوكو Shikoku وجزيرة كيوشو Kyushu ، وهما أصغر الجزر الأربع مساحة ، ومساحات هذه الجزر على الترتيب السابق هى ٣٥ ، ٩٠ ، ٧ ، ١٥ تقريباً ، مميّزة جميعها بالأميال المربعة . . .

أما الأرض الجلوبة المكسوبة بالفتح ، فهى جزيرة سخالين Sakhalin فى أقصى الشمال ، ولليابانيين نصفها الأدنى ، وللروس نصفها الأعلى . وهى عند أسفلها تكاد تتصل بجزيرة هُكّادو أعلى جزر اليابان الأصيلة . ثم جزيرة فرموزا Formosa ، وهى فى أقصى الجنوب على مقربة من ساحل الصين . ويفصلها عن جزيرة كيوشو ، أدنى جزر اليابان ، خط من جزر (أرخبيل رِيُوكيُو Ryukyu) يمتد بينهما كالسلسلة فيكاد يربط بينهما . . .

وهذه الجزر تبلغ أقصاها شمالا خط العرض ٥٠° ، وتبلغ أدناها جنوباً خط العرض ٢٠° . ولكن اليابانَ الأمّ تقع بين الخط ٤٥° والخط ٣٠° . وإذا نحن نقلنا هذه الخطوط إلى جهة الدنيا التى نحن أعرف بها ، وجدنا الخط الأول يقطع جزيرة القرم فأدنى رومانيا وأوسط يوجوسلافيا فأعلى إيطاليا فالقسم الجنوبى من فرنسا ، ووجدنا الخط الآخر يقطع القاهرة وكوم بها دليلا .

والتتبع على الخريطة لهذه الجزر كلها ، من طارفة وتليدة ، يجد أنها موزّعة فى قُبالة القارة توزّعاً رائعاً ، لو اشتهت اليابان خيراً منه ما وجدت . فهى فى الجنوب تحبس الصين عن المحيط ، وفى الشمال تحبس عنه الروس .

ولم تكتف اليابان بهذا ، بل طلبت لنفسها موضع قدم على القارة ذاتها ، فاتجهت إلى كوريّة ، فكانت على الزمن لها . وهى شبه جزيرة عظيمة ، مساحتها ٨٥ مليوناً من الأميال المربعة ، تخرج من آسيا فى البحر مشرّفةً حتى تكاد تصافح أرض اليابان ، فالمسافة بينهما لا تزيد على مائة ميل إلا أميالا قليلة . وقد قرّب بينهما فوق هذا مدّة من جزر سدت هذا البوغاز سداً . ومعنى هذا أن اليابان ، فضلا عن أنها مدّت جناحيها فأطبقت بهما على جزء كبير من المحيط ، فهى بكوريّة قد قسمت هذا الجزء من المحيط قسمين ، هما بحران عظيمان ، بحر اليابان ويفصلها عن روسيا وكوريّة ، والبحر الأصفر وامتداده جنوباً ، ويفصلها عن كوريّة والصين . وعلى بحر اليابان الحبيس يقع ميناء فلاديفستك ، وهو نهاية السكة

الحديدية السيبيرية الكبرى ، وهى الوسيلة الوحيدة التى تصل الروس بالمحيط الهادى ، فما وراء هذا المحيط . ولشدة اعتماد هذا التوزّع الخطير على كوريّة ، ساوت اليابان بين الكوريّين واليابانيين فى الحقوق السياسية .

فهذه أول هبة من الهبات التى حبتها الطبيعةُ اليابان فكوّنت منها أمة حربية كبرى : هبة التوزّع المترابط ، التوزع الذى يَجمع ولا يُجمع

والناظر إلى هذه الجزر يجدها جزراً طويلة رقيقة ، أو إذا هى تكوّرت دخل فيها البحر فكانت كالرغيف الذى أوسعته الفئران قضما . فلو أننا قسنا من هذه الجزر سواحلها ، ثم مسحنا أرضها ، ثم قسمنا هذه المساحة على ذلك الطول ، لخصّ العشرةَ الأميال المربعة من الأرض ميل من الشاطئ . وهذا نصيب هائل . وهذه هبة الطبيعة الثانية لهذه الأمة البحرية . وبسبب هذه الهبة أو من جرّائها كانت كل مدن اليابان موانئ تشرف على الماء .

والمتأمل فى شواطئ هذه الجزر ، من جانبها الشرقى حيث تواجه المحيط الواسع ، يجد أنها شواطئ غاية فى التعرج حتى لكأن الطبيعة كانت ترتمد بدها وهى تخطّها على سطح الكرة الأرضية . ثم إذا هو سبر أغوارها وجدها تميل إلى قاع البحر ميلا سريعاً حاسماً . وهذه الشواطئ حقيقتها جبال امتدت سفوحها تحت الماء .

وقد بلغ عمق هذا الماء قرب الساحل الشرقى للجزيرة العظمى ، جزيرة هنشو ، ٤٦٥٥ قامة ، والقامة ست أقدام . فهذا العمق يبلغ ٢٧٩٣٠ من الأقدام . وهو أكبر أعماق الدنيا . وأكبر ارتفاعات الدنيا ٢٩٠٠٠ من الأقدام . وهو ارتفاع جبل أفرست بجبال الهملايا بالهند .

وهذا التعرج ، مع هذا العمق هبة ثالثة وهبتها الطبيعة لليابان ، فالعمق يأذن لأكبر السفن بالدخول ، والتعرج يحميها من الأمواج الهائجة والأنواء العاصفة ، ومن أجل هذا كان أعظم موانئ اليابان فى هذا الجانب الشرقى من شاطئها .

وليس هكذا شاطئها الغربى الذى يواجه القارة ، فليس له هذا العمق ولا هذا التعرج ، لأن البحر اليابانى الحبيس لا يضرب الشاطئ كما يضربه المحيط الطلق ، رغم أنهم أسموه الهادى . وتظهر نسبة التعرج فى ذلك الشاطئ الشرقى إلى ما قد يكون فى هذا الغربى من تعرج قليل ، من قياس الشاطئين . فشاطئ المحيط طوله ١٠٦٠٠ ميل ، وشاطئ البحر اليابانى ٢٩٠٠ ميل . ومن أجل هذا خلا الشاطئ الغربى من الموانئ ، إلا واحداً غير ذى بال .

وهبة رابعة لا تقل عن الهبات السابقة ، هى « البحر الداخل » الذى هو أشبه بالبحيرة ، وهو يقع بين الجزُر الثلاث الدنيا التى تتألف منها اليابان الأمّ ، الجزيرة العظمى هنشو ، والجزيرتين الصغريين جزيرة شيكوكو وجزيرة كيوشو . وهو لا يتصل بالخارج إلا بالبواغيز ، وهى ثلاثة كالأبواب الثلاثة . أو هو كبحر مرمرة انفتح فيه إسفوران ودردنيل . فهو بحر فى عقر الدار آمن ما تكون السفن فيه ، وأبعد من الأخطار . وهو من أجل بحار العالم ، وأكثرها لطلاب الفن والرحلة وحياً وإشباعاً ، وعلى هذا البحر تقع ترسانة الأسطول .

فهذه هبات من الطبيعة أربع ، أدّت بهذه الأمة الشرقية إلى ركوب البحار فركبتها زماناً فى وثوق واطمئنان . ولا اطمئنان إلا وله محنة . وهذه محنتها قائمة . وهى محنة لا تنجلى فى أيام أو شهور . وهى محنة لا يخفف من خطرها مكاسب خاطفة كثيرة . فهى مكاسب لا تحميها إلا بالتمدّد ، والسلامة كل السلامة فى التقبض ، لا سيما والثغور مفتوحة والخصماء أنداد عتاة أقوياء .

أحمد زكى

قيمة الانسان
فى نظر الانسان

من أبرز الصفات فى الإنسان تقلبه فى القيم ؛ فهو بالأمس القريب أو البعيد قد أكبر من شأن بعض الأشياء، وقدسها، بل وعبدها، فأصبحت فى نظره اليوم موضع سخرية وتحقير. وقد أحب فى الماضى ما كرهه اليوم، وأكرم فى الماضى ما ازدراه اليوم، ونعت بصفات الخير والحق والجمال فى الماضى ما وصفه اليوم بالشر والبطلان والقبح. على هذه السنة جرى الانسان فى نظرته إلى الأشياء والأعمال، بل وفى تقديره لحالاته النفسية من لذة وألم وفرح وحزن. جرى على هذه السنة فى حياته الفردية الخاصة، وفى حياته الاجتماعية العامة. وجرت عليها الجماعات الانسانية فى أدوارها التاريخية المتعاقبة، فلا تكاد الأمم تجمع على قيمة واحدة فى عصر واحد لشىء واحد. وليس هذا الحكم بأقل صدقاً على ما يسمونه القيم الذاتية العليا.

ولكن أعجب العجب أن تتغير قيمة الانسان نفسه فى نظر الانسان. أو أن يضع دين من الأديان قيمة للانسان، فيعمد هو إلى هدمها والانتقاص منها. ولا أدرى إذا كان هذا ضرباً من ضروب التطور الفكرى الايجابى، أو من ضروب التطور الرجعى، أو التطور إلى الوراء ؛ فان التطور الحقيق — كما أفهمه — يحمل فى طياته صعوداً فى سلم القيم.

لأمر ما — قد يرجعه بعض الناس إلى غرور الانسان بنفســه واعتزازه بها ؛ وقد يرجعه آخرون إلى جهله بالقيم الحقيقية للكائنات التى تحيط به وبقيمة الكون بأسره ؛ وقد يرجع لا إلى هذا أو ذاك، بل إلى نظرة عميقة فى النشأة الانسانية وما جبلت عليه من صفات، وما أودع فيها من خصائص لا يدانيها فيهـا كائن آخر.

اعتقد الانسان قديماً أنه أفضل موجود فى هـذا العالم على الاطلاق وأكمل الكائنات كلها خلقاً وخلقاً، وجسما وعقلا وروحا، من أجله خلقت السماوات والأرض، ولنفعه طلعت الشمس وأضاء القمر، ونزل المطر وهبت الرياح وجرت الأنهار، وله سخر كل ما فى العالم من حيوان ونبات وجماد وقوى طبيعية أخرى ظاهر منها ما ظهر وخفى ما خفى. نصب نفسه ملكا على هذه الأرض يحكم فيها بما شاء وكيف شاء، بل إن الأرض التى تشرفت بأنها قاعدة تلك المملكة الانسانية قد خلع عليها الانسان شيئاً من التعظيم أشبه بالتقديس. ألم يجعلها بطليموس مركز العالم الذى تدور حوله الأفلاك جميعها ؟ ونفس الانسان : ألم يميز بينها وبين نفوس الحيوان والنبات، ويختصها بالبقاء بعد الموت وبالخلود فى حياة أخرى لا يعرف الفنـاء إليها سبيلا ؟ وعقل الانسان : ألم يعتبره أرسطو الصفة الأساسية الذاتية التى تميز بينه وبين سائر أنواع الممالك الحيوانية ؟

جاءت الأديان فأقرت الانسان على ما صور به نفسه، بل أضافت إلى هذه الصورة ألواناً جديدة من التعظيم والتشريف والتقـديس، وأدخلت فى مفهوم القيمة الانسانية معانى جديدة لم يكن يدركها الانسان فى نفسه ؛ أخبرته « أنه خلق على صورة ربه »، فذهب فى تأويل هذا الخبر إلى أنه هو المرآة التى تنعكس عليها صفات الله وأسماؤه، وفيها يرى الحق نفسه، أو يرى العالم الأكبر فى ذلك العالم الأصغر الذى تنحصر فيه وحده جميع كمالات الوجود التى هى مظاهر الأسماء والصفات الالهية.

وأخبرته أنه « خليفة الله فى أرضه »، فأعظم من شأن هذه الخلافة واغتبط بهذا التشريف الالهى الذى لم يمنحه الله مخلوقاً سواه، وفهم الخلافة على أنها الخلافة

المعنوية الروحية لا خلافة الملك والحكم : فهو خليفة الله في الكون ، بمعنى أنه الحفيظ الأمين على أسرار الله في الكون ، إذ هو جامعها والمحيط بها والمدرك لها ، وإذ به يُعرَف الله ويقدَّس الله ويعبدُ الله ويتنزّه في صفاته وأفعاله.

أخبرته الأديان أيضاً « أنه أفضل من الملائكة » . ودعت الملائكة للسجود بين يديه إكباراً له وتعظيماً ، ليدرك قدر نفسه ومنزلته عند الله ؛ ففهم معنى هذه المفاضلة ، وأدرك الفرق بين الخلق النوري البحت المجبول على الخير والعبادة والطاعة وبين نشأته التي هي مزيج من النور والظلمة ، ومحل نزاع دائم بين قوى الخير والشر ، وأن في استطاعته — إذا أراد — أن يكون ملكاً كأكمل الملائكة ، وفي استطاعته — إذا أراد — أن يكون شيطاناً كأخس المردة والشياطين ، وأن من يشق طريقه إلى الخير بعد أن يهزم جنود الشر ، ويصل إلى النور بعد أن يكافح الظلمة ، خير ممن جبل بفطرته على الخير وخلق بفطرته من النور .

أبى الانسان في الماضي أن يعد نفسه في عداد النفوس التي مآلها الفناء والفساد ، وعز عليه ألا يراها تتخطى حدود الزمان والمكان ، وتشق طريقها إلى الأزلية والخلود كما شقت طريقها من الأبدية إلى هذا العالم الأرضي ؛ فقال إنها جوهر لا كالجواهر المادية ، وموجود لا كهذه الموجودات الفانية ، بل روح إلهي هبط على الأرض من عالم السماء ، ومردّه إلى العالم الذي منه هبط . فواجب الانسان نحو هذه النفس أن يصونها من أن تتلوث بأدران المادة ، أو أن تستعبدها شهوات البدن ؛ وأن يعمل على خلاصها فيطلقها في عالم الفكر ، أو يسير بها في طريق الرياضة الروحية التي تنتهي بها إلى تصفيتها .

وكذلك وضع أفلاطون ومن نحا نحوه « فردوسه الأرضي » (يوتوبيا) ليتم فيها الانسان ويحقق ما قدر له من كمال ، وضرب مثلا لما يجب أن يكون عليه « الانسان الكامل » الذي تتحقق فيه معاني الانسانية الحقة .

ومراعاة لقدر النشأة الانسانية وحقن دمائها سن الاسلام من القوانين ما لا أظن ديناً سماوياً آخر أتى به أو بما يقرب منه . فأمر بالشفقة العامة بعباد الله وجعلها أحقّ بالرعاية من الغيرة في الله أو في أمور الدين . وفرض على أعداء المسلمين إما الصلح أو الجزية ولم يفرض عليهم القتل . وأوصى بالسلم فقال : « وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله » . وما أجمل ما يرويه المسلمون من أن النبي داود عليه السلام أراد أن يبني بيت المقدس فبناه مراراً . وكان كلما فرغ من بنائه تهدم . فشكا ذلك إلى ربه فأوحى الله إليه : « إن بيتي لا يقوم على يدى من يسفك الدماء » . فقال داود : « يارب ألم يكن ذلك في سبيلك ؟ » قال : « بلى : ولكن أليسوا عبادى ؟ »

بل إن القصاص — وهو أول مبدأ يقوم عليه العمران وتؤمَّن به الحياة — قد عرَّضه الاسلام للتضحية به من أجل ألا يضحَّى بالانسان . فقد خير وليّ الدم بين أن يأخذ الدية أو يعفو عن القاتل . فأن أبى حكم بالقصاص وشرع أنه إذا كان أولياء الدم جماعة ورضى واحد منهم بالدية أو العفو وأبى الباقون إلا القصاص رُجح رأى من عفا على رأى من لم يعف .

كل ذلك لحماية النوع الانساني وحقناً لدمائه وإبقاءً على معنى الخلافة التي منحها الله الانسان . فان الانسان ما دام حياً يرجى له تحصيل صفة الكمال الذي خلق له ؛ وكل من يسعى إلى عدمه وتخريب كيانه إنما يسعى في منعه من الوصول إلى هذه الغاية .

كان هذا شأنَ الانسان في الماضي وكان موقفه من نفسه وموقف الأديان منه . سما بنفسه على جميع المخلوقات ، وخلع عليها كل معاني الفضل والنبل والاعظام والتكريم والتقديس . فما باله اليوم قد نزع من رأسه ذلك التاج الذي توجه به بالأمس ، وأنزل نفسه من العرش الذي أجلس نفسه عليه بالأمس . واختار لنفسه بين المخلوقات تلك المنزلة الوضيعة التي أباها عليها بالأمس ؟ ما باله قضى

على كل معانى الروح والروحية . وعلى كل فكرة متصلة بالقداسة والخلافة والخلود ؟ بل ما باله يعلن فى فلسفته الجديدة فى شىء من التواضع المزرى أن لا فرق بينه وبين الحيوان والنبات والجماد ، وأن الكل خاضع لقوانين المادة وأحكامها ؟ ما باله جرَّد نفسه من معانى العقل والنفس والروح والحياة ، مدَّعياً أنها أسماء على غير مسميات ، وأن لا شىء فى الوجود إلا المادة وحركاتها والافعال الآلية وأنواعها والعناصر وتفاعلاتها ؟

قضى على فكرة الكمال والغاية ، وقال لا كمال إلا ما يؤدى إليه التطور الطبيعى ، ولا غاية إلا الهدف الذى يرمى إليه ذلك التطور ؛ وعبثاً حاول المتخرصون من القدماء تكميل الإنسان ، لأنهم عموا عن حقيقته الشَّنيعية ، وصموا عن سماع زئيره ؛ وليس الانسان إلا حيواناً متعدد الوظائف معقد التركيب ؛ وآلة طبيعية إن فضلت الآلات الطبيعية الأخرى فى شىء فانما تفضلها فى إحكام الصنع ودقة الأجزاء : فلا فكر ولا وجدان ولا إرادة ولا شعور ، وإنما هذه كلها أنواع من الحركة فى جوهر مادى وأفعال وانفعالات فى خلايا الخ .

استعاض عن القيم الروحية العليا القيمَ المادية الدنيا ، فكثرت مطالبه المادية وتنوعت ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأخذ يتطلع ببصره إلى السماء علَّه يرى مكاناً يجد فيه مورداً آخر للمادة أو منبعاً آخر للثراء . وقال : ما هذا الشرف الرفيع الذى أولاه الانسان نفسه وخصها به دون سائر الموجودات ، وهو كائن حقير من بين كائنات هذا الكوكب الأرضى الحقير ، وذرة من بين ذرات الكون التى لا تتناهى ؟

وإذا ما تصور « فردوساً أرضياً » اليوم ، تصور عالماً تقدس فيه القوة ، ويسود فيه العنف والبطش والحروب ، ويداس فيه التواضع والحلم والعفو والاحسان ، وتنمحى فيه الشخصية والفردية ، وكل ما هو مميز للانسان . بل ليست القوة التى يدعو إليها ، ويضحى بكل ما هو خير وفاضل وجميل من أجلها قوة الفرد ، بل قوة الجماعة أو قوة الدولة ، إذ لا قيمة فى نظره للفرد الانسانى إلا بمقدار ما يؤدى من عمل لخير الجماعة .

لذلك نراه اليوم يزج بأبناء جنسه زجاً فى ميادين القتال ، تذبح الملايين منهم فى المعركة الواحدة مستشهدين فى سبيل تحقيق مطمع شخصى أو إرضاء رغبة قومية . فى هذه الميادين التى عمت اليوم وجه ذلك الكوكب التعس تحصد النفوس الانسانية البريئة حصداً ، وتراق الدماء الانسانية التى عظمها الله وحفظها وأوصى برعايتها .

ولقائل أن يقول : إن النزعتين قد ظهرتا فى كل العصور ، والفلسفتين قد تمثلتا فى كل دور من أدوار التطور الفكرى الانسانى ، فما هذا التشاؤم الذى يقطر من قلمك ؟ ألم يوجد فى العصر القديم ديموقريط إلى جانب أفلاطون ، والسوفسطائيون إلى جانب سقراط ؟ وفى العصر الحديث ديكارت وكانت وليبنتز إلى جانب هبز ولوك واسبنوزا . وبرغسون وميل إلى جانب نيتشه واسبنسر ؟ ألا يوجد اليوم روزفلت وتشرشل إلى جانب هتلر وجورنج ؟ ألم يظهر فى كل عصر — حتى عصرنا الحاضر — من يتفاءل بالانسانية خيراً ويعرف للانسان قدره وحقوقه ، ويدرك قيمته فيما يراه من إنتاجه فى ميادين الفكر والفن والعمل ؟

نعم تردد الانسان فى أدواره المختلفة بين فكرتى المادية والروحية وفلسفتى الحق والقوة والتفاؤل والتشاؤم ؛ ولكنى لا أعلم عصراً من عصور التاريخ — حتى عصور الرق والاستعباد — كان أكثر وبالاً على الانسان من عصرنا الحالى ، ولا فلسفة فى الحياة أكثر إهداراً للحياة من فلسفتنا الحاضرة . فان الانسان لم يكن فى وقت من الأوقات أقل تقديراً لنفسه ولا أكثر تقديساً لكل ما هو مادى وآلى وطبيعى ، ولا أزهد فى كل ما هو روحى ومعنوى ، ولا أضعف إيماناً بعقله وروحه ومنزلته من العالم منه اليوم .

الدكتور أبو العلا عفيفى

أحزان الطريق . . .

قد طال بي السيرُ يا طريقُ ... وأين؟ بل كيف لي القرارُ؟
في سكرة منك ما أفيق ... منها وقد عزني اصطبار

* * *

مللت حتى من الملال ... وضقت حتى بأن حييت
ولذ لي منك بل حلا لي ... أن قيل: إني غداً أموت

* * *

أظل أطويك بالمسير ... وأقطع الصبح والمساء
في غدوتي فيك أو رواحي ... أظل أذرو الصبا هباء

* * *

في القلب همس، وفي الحنايا ... توجس غير ذي سكون
قطعت نفسي عن البرايا ... وحشدهم خطوتين دوني..

* * *

أرى قروناً من العباد ... تكدست في ثياب فرد
واطردت أيما اطراد ... تكتم أولاها وتُبدي ..

* * *

لا ترحموني بكل طرف ... ونظرة تحجب الطريقا..
هنا أمامي، وثمَّ خلفي! ... يا ليَ في لجكم غريقا

* * *

أيخلدُ الفجُّ كالحياة؟ ... أم يذهب الفج بعد حين؟
أم يدفنُ الفجُّ في سُبات ... يطول فيه مدى السنين؟!

* * *

أعدو ... حيناً أرى لحدا ... وتارةً وانياً بليدا
وتارةً قد نبعتُ ركباً ... وتارةً هائماً فريدا

* * *

أسير في مهجتي وأغدو ... وأقطعُ السهلَ والنجودا
وما مللتُ الطريقَ بعدُ ... فكل حين أرى جديدا

العوضي الوكيل

محكمة الجيزة الجزئية الأهلية

إعلان بيع عقار

نشره ثانية مصر في القضية ٢٢٠٥ سنة ١٩٣٥ جيزة

في يوم الأحد أول مارس سنة ١٩٤٢ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسراي المحكمة بالجيزة

سيباع بالمزاد العلني العقار الآتي بيانه بعد ملك ورثة المرحوم مرسي عظيم وهم:

١ — فاطمة محمد سيام زوجته عن نفسها ووصية على أولادها القصر عبد الفتاح ومرسي الشهير بممدوح وجوهرة أولاد مرسي عظيم ٢ — عباس مرسي عظيم ٣ — شفيقة مرسي عظيم المقيمين جميعاً بجزيرة امبابة مركز امبابة جيزة

وهذا البيع بناء على طلب وزارة الأوقاف بصفتها ناظرة على وقف جامع الناصرية وسنان باشا وعنها المختار قسم قضايا باب اللوق بمصر وفاء لمبلغ ١٤٢ جنيه و١٢٢ مليم وما يستجد من المصاريف وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٩٣٥/١١/١٧ ومسجل بمحكمة مصر الأهلية في ٢٠ منه بنمرة ١٨٨٤ وبناء على الحكم الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٣ يوليه سنة ١٩٤١ القاضي بقصر البيع على المقادير الآتية

بيان العقار

١) نصف المنزل البالغ مساحته ٣٠ س و١٠٦ متر مربع بحوض النخيل والمبادية نمرة ٨ بحارة السعدة بناحية تابع الدول كفر الشيخ إسماعيل مركز امبابة مديرية الجيزة البحري منزل مرسي عظيم والقبلي حارة السعدة والغربي الحاج حسن دكروري والشرقي حارة أبو رية

ويكون الثمن الأساسي لهذا العقار مبلغ ٩ جنيه مصري

٢) ٢٥ س و ٢٦ متر من المنزل البالغ مساحته ٧٥ س و ١٢١ متر مربع بحوض داير الناحية نمرة ٢٤ بشارع محي الله نمرة ٢١٩ عوايد بناحية الجيزة والحد مركز الجيزة البحري بعضه منزل محمد حفناوي وعلى عوض وبعضه شارع محي الله وبه الواجهة والباب والشرقي بعضه منزل بهية جادو وبعضه منزل إبراهيم عبد السميع وبعضه طلة خليل النجار وبعضه منزل عبد الحي سالم وقائمة منزل حليمة مصطفى الأبحر والغربي مصطفى أبو علم

ويكون الثمن الأساسي لهذا العقار مبلغ ٧ جنيه م

وأوراق البيع والشروط مودعة بقلم الكتاب لمن يرغب الاطلاع عليها — قبل راغب الشراء الحضور

كاتب البيوع

قصة :

لا شيء أنجح من الهجوم !

للأستاذ صاحب التوقيع

الأستاذ عزيز صديق قديم ، تربطني به روابط قوية منذ عهد الشباب الأول ، وقد عرفته كما يقولون (ظهراً لبطن) ، فما يكاد يختفي مني شيء من دخيلة نفسه ؛ وهو فوق ذلك رجل لا بطن له ، فإن النظرة الأولى إلى وجهه تكشف ما في قرارة نفسه من طباع وآراء ، فلست أفاخر هنا بأني قد عرفته كل المعرفة ، فذلك أمر يتيسر لمن هم أقل مني ذكاء ، وأقصر مني عهداً بمعاشرته .

والأستاذ عزيز أديب موهوب كما يقولون أيضاً ، فله قصائد تجري فيها الشاعرية جريان الماء في الغصن الأخضر ، وهو يؤلف القصص ويكتب المقالات الأدبية في شتى الفنون ، من أدب قديم وحديث ، ومن فلسفة واجتماع ، وقد يعالج أحياناً مسائل العلوم في كثير من الجرأة ، ولكنه يفلح دائماً وفي كل الأحوال في أن يفوز بإعجاب قرائه ، سواء أكتب باسمه صريحاً أم كتب باسم سواه . وقد نسيت أن أذكر أنه كثيراً ما يكتب باسم سواه ، لا لكي يتنكر على الناس كما يفعل العظماء ، بل لسبب آخر بسيط ، وهو أن بعض الذين يريدون أن تكتب أسماؤهم في الصحف يقصدونه ليكتب لهم مقالا أو قصة ويأخذ منهم أجراً مقدماً ، تاركا لهم نشرها في الصحف إذا استطاعوا ، ولا يهمه بعد ذلك أكان الاسم الذي يوضع عند ذيل المقال هو اسمه أو اسم أحد آخر سواه ؛ فإن الذي يهمه من وراء الكتابة أمر واحد ، وهو أن يضع في جيبه بعض هذه النقود الخبيثة التي ما تكاد تستقر به حتى تتطاير وتضيع تاركة جيبه كما كان خاوياً .

وقد عرف بين أصدقائه بذلك ، فكانوا دائماً يتفكهون بحوادثه ، ويتندرون بها في مجالسهم مع كثير من التهكم والمازحة ، وأما هو فما كان يزيد في الدفاع عن نفسه على أن يقول : « إنها محنة الأدب » .

نعم فإن للأدب لمحنة ، ولن تجد أديباً يجيب داق ، ومن قال غير ذلك فهو غير أديب . ذلك قول مجرب لا شك فيه . ومن شك في ذلك فليسأل أي أديب صادق ، يجده دائماً مصدقاً لما نقول . ولئن وجد أحد أديباً له مال فليعلم علم اليقين أنه ليس بالأديب ، ولا يتخدعن به ، وإن كان ممن ذاع صيتهم ، وشهد لهم الناس جميعاً بالنبوغ في الأدب والعبقرية في التأليف .

أقول كان الأستاذ عزيز لا يزيد في دفاعه عن نفسه على أن يقول : « إنها محنة الأدب » قانعاً بقسمه الذي قسم له ، ينتظر اليوم الذي يموت فيه ليلقى جزاء العظماء من أهل الأدب الذين يموتون جوعا في حياتهم ، ثم تخلد أسماؤهم بعد زوال الحياة الدنيا ، وتبقى مسطورة في سجل العظماء .

كان الأستاذ عزيز يكتب في أكثر الصحف وفي أوسعها انتشاراً بين القراء ؛ فاسمه وحده كفيل بقبول ما يكتب ، وذلك لأسباب عدة : أولها أنه كان يقنع بالقليل ثمناً لعصارة ذهنه ، فكان يطير فرحا إذا حصل على جنيه أو جنيهين مقابل مقالة أو قصة ؛ على أن ذلك القليل كان في غالب الأحيان يضيع عليه ، لأن أصحاب الصحف كثيراً ما يصابون بمحنة الأدب ، فلا يقدرون على الوفاء بما عليهم للأستاذ ، وكان بعضهم أحياناً يؤثر أن يدفع أقساط ثمن الأرض التي اشتراها على أن يؤدي حقه وإن كان قدراً يسيراً .

ولهذا كان مع ذيوع اسمه وكثرة قرائه ، لا يذكر أنه اجتمع في جيبه عشرة جنيهات معاً في يوم واحد ، وإن اجتمع له مثل ذلك المقدار فإنما يجتمع لحظة ، ثم يتركه

الدهر بالتشتيت ، فلا يبقى له شملا مجتمعاً حتى يجر عليه ذيل العفاء .

وقد أثر هذا كله فى الأستاذ عزيز ، فأحدث له فلسفة خاصة به لا تشبهها إلا تلك الفلسفة العميقة الواقعية التى تميز سلفه العظيم (جحا) . فلسفة عميقة بسيطة ، مرحة حزينة ، صادقة صريحة ، جادة ساخرة ، متكبرة متواضعة ، قد اجتمعت فيها الأضداد كلها ، ولكنها مع ذلك فلسفة صحيحة .

وقد امتلأ قلبه بهذه الفلسفة ، وكان يتعلق بها فى كل يوم وفى كل ساعة ، ويتعلق بها عفواً ، وهو لا يعرف الحنق ولا الحقد ، ولم يشعر يوماً بأن الانسانية ظالمة أو أنها غير جديرة بالمحبة . فهو يأخذ الناس كما يجدهم بغير غضب ولا لوم . ولا أذكر مرة واحدة سمعته فيها ينزل عن مثله العليا الأثيرة عنده . فالحب الانسانى عنده أسمى العواطف ، والكرم والايثار هما اللذان يميزان القلوب البشرية العامرة ، والصدق والوفاء أجل شعار للكرام ، والكرامة أعز ما عند الانسان ، ولا يصح أن ينفر لأحد نزل عنها . فهو يقدس هذه المثل العليا وسواها من أعز المثل التى ورثتها لنا الأجيال الكريمة من خدام البشرية ؛ ولم يسمح لنفسه أن يسىء ظنه بها مع ما يقاسيه بين حين وآخر من الخيبة ، وما يتعرض له من الخداع واللؤم فى النـاس .

ويعز على أن أذكر موضعا واحداً للضعف فى خلق الأستاذ عزيز ؛ وذلك أنه ما كان يحب أبداً أن يعرف الناس حقيقة أمره فى مسائل المال ؛ فكان أشق الأشياء على نفسه أن يعرف الناس عنه أنه فقير أو أنه قد يمر به اليوم وليس معه قرش واحد . بل لقد كان يتكبر أن أعرف أنا عنه ذلك مع ما بيننا من المودة الوثيقة والارتباط بالمحبة منذ عهد بعيد . وكنت أعرف ذلك الطبع فيه ، فلم أحاول أن أتدسس فى أمره ، ولا أن أظهر له أنى على علم بما يعانيه من مشقة فى تدبير معاشه ؛ ولعل ذلك كان يرضى كبرياءه ، فكان فى بعض الأيام — وهذا نادر — يقص على من تلقاء نفسه بعض قصصه ، ويصرح لى بما حدث له من ضيق فى بعض ساعات حياته ، ولكنه كان لا يذكر لى شيئاً من ذلك إلا بعد أن يكون الحادث قد مضى حتى لا توجد شبهة فى أنه يطلب لنفسه معونة .

ومن ذلك أنه جاءنى ليلة وهو متهلل يكاد يرقص فرحاً ، فضحكت له واستأنست بمرحه وتركت عملى وأقبلت عليه لجعل يحدثنى حديثه العذب ، وما أحلى حديث الأستاذ عزيز فى مثل تلك الحالة النفسية .

قال : أنت تعرف يا صديق أنى لا أقدر أن أطلع أحداً على خاصة أمرى .

فقلت له : أعرف ذلك ولا أوافقك عليه ، فإن الصديق . . .

وأردت أن أستمر فى قولى فقاطعنى قائلا : ليس هذا موضوع حديثى ، ولكنى أردت أن أمهد لك تمهيداً لقصة انتصار عظيم وقع لى اليوم .

فتبسمت فى شىء من الخيبة وبقيت ريق متأثراً من مقاطعته ، ولكن ارتياحى له غلبنى فأصغيت إليه ونسيت ألمى . فقال :

— لقد اعتاد جماعة من أصحابى أن يقصدونى فى قروض بين حين وحين ، وكنت أجد حرجاً عظيما كلما قصدنى أحدهم فى شىء من ذلك . فاذا كنت أستطيع أن أقول لصاحب إذا جاء يطلب منى قرضاً ؟ أأقول له ليس معى ما تطلب ؟

فأحببت أن أرد عليه ، ولكنه أشار إلىّ كأنه يأمرنى بالصمت واستمر قائلا :

— ليس من الممكن أن أقول لمن يقصدنى إنى

لا أملك ما يريد . هذا شيء لا أقوى عليه . فإني بذلك أذيع بين هؤلاء شيئاً من خاصة أمرى . وما حق الناس فى أن أطلعهم جميعاً على حقيقتى ؟ إننى إذا قلت لهم جميعاً إننى لا أملك شيئاً كنت كمن يجعل للناس كلهم حقاً فى أن يسألوه كلما قابلوه : كم قرشاً فى جيبك ؟ هذا تدخل مشين فى شئون الناس بغير شك ، أتظن أنه من حقى أن أذهب إلى أحد معارفى وأبادره سائلا : كم جنيهاً فى خزانتك ؟

ونظر عند ذلك إلىّ كالمستفهم ، ولكنه عندما رأى أنى أهم بالجواب أشار إلى بالصمت ومضى قائلا :

— كان بعضهم يسألنى أن أقرضه مقداراً كبيراً لا أحلم بأن يكون لى مثله . فأحار حيناً حتى اشتد حيرتى وأفكر كيف أجيبه : أأجيبه باسماً بلهجة الاعتذار قائلا : ليس معى ؟ لا . لا . فهذا شيء ثقيل . فأضطر إلى أن أقول له : اسمع يا صديق . نحن صديقان كما يكون الأصدقاء فى الحياة ، ولكننا لم نتعامل من قبل . وأنا لا أريد أن أضيع مالى بأن أقرض أصدقائى . ثم لا أترك له فرصة للحديث بعد ذلك بل أنجهم له ، وقد أسيء إليه فى القول ، فيقوم عنى غاضباً ، وقد يقاطعنى فلا أراه بعد ذلك . نعم يقاطعنى وقد يعادينى . ولكن ذلك كله أهون على من أن أقول له « ليس معى » .

فتبسمت وقلت له : ولكن هذا عجيب ! ..

وأردت أن أستمر فى إيضاح رأيى ، فقطع على الحديث قائلا : ولكن اسمع ليس هذا ما أريد أن أقوله لك . إنما هذا كله تمهيد لقصتى .

فسكت ونظرت إليه باهتمام وقد زاد شغفى بسماع قصته . فقال :

— ولكنى كنت أحياناً أتعرض لسؤال صديق لا يطالب إلا القليل : جنيهاً أو جنيهين ، وقد يكون متواضعاً فيسألنى أن أقرضه نصف جنيه ، وهذا أشق على من طالب الكثير ، فإن الاعتذار عنه أشنع وأبلغ فى كشف حالى . فكنت عند ذلك أرتكب أهون الأضرار وأجود بما معى مرغماً .

وليس من العسير عليك أن تدرك أن هذه القروض كانت كلها تطلب لأمد قصير لا يزيد على أسبوع ، ولكنها جميعاً لم ترد إلىّ إلى هذه الساعة ، وقد مضى على بعضها سنوات عشر .

وسكت عند ذلك لحظة ، ولكنى لم أحاول أن أتدخل فى الحديث لشدة شغفى بسماع قصته ؛ وفوق ذلك كنت أخشى أن يعود إلى مقاطعتى إذا أنا هممت بالكلام . وبعد حين قصير استأنف قصته فقال :

— وكان أسمج هؤلاء الأصدقاء فى طلبه رجلا تعرفه ولا أسميه لك . فلا يليق بى أن أعيب أصدقائى فى غيبتهم . لم أستطع أن أتخلص من هذا الصديق إلا اليوم ، وقد جئتك وقلبى يفيض بزهو الانتصار الذى وفقت إليه : كان كلما جاء يطلب منى قرضاً أقبل على بخطى وئيدة وهو عالى الرأس منتفخ الصدر متعبساً كأنما يتنازل بزيارتى ثم يقول : إن إيراد العزبة قد تأخر على — لعن الله هؤلاء المستأجرين الذين لا يصدقون — كان موعدهم بالأمس فأخلفوا وقد طرأ على اليوم عذر فى جنيهين . ثم ينتفخ فوق انتفاخه ، ويمط شفتيه ويقول كأنما هو يأنف من نزوله إلى الاقتراض منى : جنيهان اثنان اضطررت إلى اقتراضهما ، ولست أثق فى صديق غيرك ! . ويأخذ بعد ذلك فى أن يؤكد لى أنه لولا ميل عنده من النزلة لما أقدم على الاقتراض منى . حتى أحس فى آخر حديثه أنه إنما جاء ليتفضل على بذلك الطلب . وأحمد الله على أنى كنت أجد معى فى كل مرة ما أقرضه له ، فلم أضطر يوماً إلى أن أصدمه برد قاس كما كنت أرد غيره إذا لم أجد معى ما أعطيه .

وسكت الأستاذ عزيز عند ذلك لحظة أخرى كأنه يستجمع حماسته ، وبدأ يتكلم بعد ذلك ؛ وما كان أشد دهشتى إذ وجدته قد انتقل إلى حديث آخر لا علاقة له بقصة صاحبه فقال : أتذكر صديقنا اليوزباشى محرم ؟

ولم أدرك قصده من ذلك السؤال ، ولكنى أجبت بغير تفكير فى شىء من الوجل فقلت : نعم أذكره .

ثم شرد بى الفكر لحظة وذهبت بى الظنون مذاهبها ، وساءلت نفسى : هل كان ذلك الصديق اليوزباشى أيضاً ممن يقترضون من الأستاذ عزيز ؟

وهممت أن أنطق متعجباً ، ولكنه لم يمهلنى وقال :

— أتذكر يوم كان هنا مع جماعة من أصدقائنا القدماء وجعل يحدثنا عن الحرب ؟

فزاد عجبى من الأستاذ ، وظننت أن شيئاً قد أصاب عقله فجعله يخلط فى الحديث ، واعترتنى رهبة أسكتتنى فقال الأستاذ كأنه لم ينتظر إجابتى :

— إنك لا شك تذكر يوم تحدث عن أساليب الحروب وأفاض علينا من تجاربه وعلمه . لست أذكر من كل ما قاله إلا شيئاً واحداً ، كلمة واحدة كانت بمثابة وحى هبط على ، فما زلت أذكرها بعد ذلك إلى اليوم . أتدرى ماذا قال ؟

فتمتمت قائلا بغير وعى : لا أذكر . وهززت رأسى لأؤكد النفى ، وفى نفسى مخاوف وهواجس .

فقال فى بطء وهو يضغط على كل كلمة : لقد قال اليوزباشى محرم إن خير وسيلة للدفاع أن تسلك خطة الهجوم

فنظرت إليه فاتحاً عينىّ واشتد بى الخوف ، فقال الأستاذ مستمراً :

— منذ ذلك اليوم تأكد لى صدق هذا الضابط الباسل ، فليس فى الحياة أنجح من الهجوم . الهجوم مع الأعداء ، ومع الأصدقاء ، عند الطلب وعند الرفض ، مع النساء ومع الرجال ، فى حال السلم وفى حال الحرب ، فى كل شىء وفى كل أمر ليس أنجح من الهجوم .

وسكت لحظة ، وبقيت ساكتاً أنظر إليه وقد امتزج الخوف بكثير من العطف والحزن ، ثم انطلق بجدّ فقال :

— واليوم أتى إلى صديق القديم الذى كنت أحدثك عنه ، وجاءنى يسير فى بطء وهو عالى الرأس منتفخ الصدر مبتسماً فى تنازل ، فعرفت أنه جاء على عادته التى عودنى .

خفَّت دهشتى وعاودنى الاطمئنان على سلامة عقل الأستاذ عندما رأيته يعود إلى موضوع حديثه الأول . وعرفت أنه كان لا يزال يمهد لقصته . واستمر قائلا :

— فلما رأيته عرفت لماذا جاء . وأسرع إلى ذهنى خاطر من الوحى الذى استمددته من صديقى محرم . وقلت لنفسى : لا شىء أنجح من الهجوم . وأسرعت قائماً نحوه فى فرح ولهفة ، وقلت له : مرحباً بك أيها الصديق . إنك والله ابن حلال كما يقولون . أتدرى أنى كنت على وشك أن أحضر إليك ؟ . . .

فتردد قليلا وتوقف فى سيره ونظر إلىّ فى شىء من الفزع ، ولكنه تمالك نفسه وقال : « القلوب تتجاوب » . ثم جلس واستعاد ثباته واستعد للحديث . ولكنى لم أدع له فرصة . وزادنى شجاعة وحماسة أنى لم يكن معى عند ذلك مليم فى جيبى . وخشيت أن أضطر إلى الاساءة إليه إذا هو طلب منى قرضاً فأفقده وهو عندى حبيب . فقلت له :

« اليوم ذهبت إلى شراء صفقة رابحة لا شك فيها . ودفعت كل ما معى من المال عربوناً لها . إنها صفقة رابحة تعود علىّ بأضعاف ثمنها . ولكن بقى علىّ من ذلك الثمن عشرون جنيهاً ليس معى منها مليم واحد . وسيضيع العربون علىّ إذا لم أتمم اليوم بدفع ما بقى من ثمنها ، وذلك فوق ما يضيع علىّ من ربح الصفقة السعيدة ! فهل لك يا صديقى فى إعانتى ؟ ولست أقصد بذلك أن أسترد شيئاً مما لى عندك وإن كان يبلغ أكثر من ذلك القدر . إنى لا أفكر فيما لى عند صديق مثلك وما كنت لأقصدك لولا أنك الرجل الذى أثق فيه » .

ثورة فى خزانة الكتب

شاءت لى المصادفة البصيرة — والمصادفة قد لا تكون عمياء — أن أقرأ فى ليلة واحدة فكرتين فى كتابين مختلفين ، لا علاقة لاحداهما بالأخرى ، ولكنهما — على ما بينهما من تفاوت بعيد — تعانقتا فى ذهنى ، واتحدتا فتكون منهما ازدواج عجيب ! أما الأولى فهى أن آباءنا من المصريين الأقدمين كانوا ينسبون للأسماء المنقوشة على التماثيل والتوابيت قوى سحرية عجيبة ، تكاد تدنيها من الأحياء ! فهم لم ينقشوا أسماء موتاهم على تلك الأصنام الحجرية للزخرفة والزركشة والزينة ، بل ليكون لها فى جوف القبور قدرة أن تصيح للروح فتهتدى بصياحها إلى الجسد الراقد لتسرى فيه الحياة من جديد . وأما الفكرة الثانية فكانت تعليقاً لكاتب حديث على رأى فيلسوف قديم فى أرستقراطية العقل وحلولها محل أرستقراطية المال ، إذ أراد أن يلقى زمام الأمر فى الدولة إلى من تثبت لهم الكفاءة العقلية وألا يحلى بين الأدنين فى قدرتهم الفكرية وبين مناصب الدولة العليا ! فليس أشد عبثاً فى هذه الحياة من أن يحرص الانسان ماوسعه الحرص على أن يختار أحسن الحذائين لاصلاح حذائه ، وأن ينتقى أحسن السائسين لتدريب جياده ، ثم لا يعبأ عن يتولى إصلاح دولته !

فرغت من القراءة وأعدت الكتابين إلى خزانة كتبى ، وليس فيها سوى بضع مئات قليلة منها ، تتفاوت أقدارها العلمية ، من كتب فى الطالعة والهجاء ، إلى مجلدات فى الفلسفة والعلوم ، رصت فى رفوف الخزانة الثلاثة رصاً يقع بين الفوضى والنظام ! أعدت الكتابين وأويت إلى مخدعى ، فسرعان ما استغرقنى نعاس دافق جميل ، ما كان أحلاه بعد يوم ملئ بالعمل والعناء ، وسبحت فى عالم الرؤى ، فماذا رأيت ؟

رأيتنى حاكماً فى دولة أصرّف أمور شعبها ، لعلها أن تكون أعجب ماشهدت الأرض من دول ، ولعله أن يكون أعجب ما ظهر على وجه الدهر من شعوب ! أما دولتى فمداها بناء ضخم ذو طبقات ثلاث ، لم ألبث أن أتبين فيه خزانة الكتب ضخمت فى عالم الأحلام ، ثم ضخمت حتى أصبحت هذا البناء الفخم الجليل ! وأما رعيتى فكانت بضع مئات قليلة من أمساخ لا تطمئن لها العين ، ما كدت أباشر شئونها حتى أدركت أنها كتبى قد أصابها فى أضغاث الأحلام هذا المسخ والتشويه ! فقد رأيتها كائنات حية ليست كالتى عهدت من كائنات ، يتألف واحدها من لسان غليظ طويل فى فم ضخم بشع ، ولكل منها جناحان بعضها يستطيع بهما الطيران وبعضها لا يستطيع !

وجعلت أشمره كما كان دائماً يشعرنى بأنى متفضل عليه بذلك الطلب منه . فصمت ذلك الصديق ساعة ، ثم قال وهو يكاد يغص بريقه : إنى أنتظر شيئاً من إيراد العزبة اليوم ، وسأذهب حالا لأعود إليك بما يتيسر لى . ثم قام مسرعاً وهو يطمئنى على صفقتى ويؤكد لى أنه عائد بعد ساعة قصيرة .

وسكت الأستاذ عزيز لحظة ، ثم نظر إلىّ مبتسماً وقال :

— كان هذا فى الصباح ، والطبع لم يرجع إلى حتى هذه الساعة من الليل . ولو عاد إلى لكنت بادرت وقهقهت فى وجهه وأعطيته ما يريد ، فقد جاءنى بعد أن مضى عنى إذن بريد يحمل لى خمسة جنيهات كاملة من مجلة « الكمال » .

فتنفست نفساً عميقاً ، وضحكت ملء صدرى ، وجلسنا نسمر فى أعقاب الحديث حتى مضى عنى الأستاذ وشيعته وأنا أردد حكمته فى قلبى ولا أعى ما أقول : حقاً ليس أعجب من المحجوم . « م »

وأحسب أن اللسان قد غلظ فيها وطال ، لأنها لم تصطنع من أول الدهر سوى بضاعة الكلام ، فتطور عضو الكلام وضمرت سائر الأعضاء ! وأعجب ما فيها أن خواطرها مكتوبة في عقد من أوراق الشجر يتدلى من عنقها ، بحيث تستطيع العين رؤيتها ، وهي حين تتكلم تهز من صدرها تلك الخواطر المكتوبة هزاً تتحول به من الكتابة إلى الصياح .

نظرت إلى دوابي وقلبت الرأي في رهيق ، فشاع في نفسي الأسف والأسى لسوء حالها ، وكاد يقعدني اليأس من محاولة إصلاحها . فقد خيل إلى أن فوضاها فوق كل إصلاح ! كانت دوابي مقسمة ثلاث طبقات ، علياها تسكن الطابق الأعلى ، ودنياها الأدنى ، وأوساطها في الوسيط ! وقد راعني ذات يوم أن أرى أن أطيب ما تنتج البلاد من خيرات ينصرف إلى الفئة العالية وهي لا تعمل ، وأما الحثالة فإلى الفئة التي تكدح وتشقى ، وهي التي سفكت في بناء الدولة حتى استقرت في قاعها . فقلت لنفسي : لا حيث بعد اليوم في الدولة حاكماً إذا أنا أغمضت العين على هذه النقائص والعيوب ، ولن تذهب ثقافتي عبثاً ، فسأهتدي بآراء المصلحين جميعاً ، من مضى منهم ومن حضر ، لأستأصل من جسم شعبي كل داء دفين .

وآثرت قبل البدء في الاصلاح أن أخالط رهيقي عن كثب ، وأحادثهم ، لعلي أعلم كيف علا من علا ، وسفل من سفل ، فإن في ذلك لبداية وهداية . فصعدت لتوّي إلى الطابق الأعلى ، فإذا فئة من شعبي تتقلب في ألوان النعيم ، أسدلت من دونها الستر لتتقى من النسيم ولفحة الضوء ، أجنحتها من المخمل وأوراقها المتدلية من الحرير ، وقد خط عليها ما خط بماء الذهب ، فأخذت أسأل هؤلاء واحداً بعد واحد : ماذا صنع حتى جاز له أن يصعد هذا المرتقى ؟ فأجاب أولهم : إن جواز صعوده هو أن اسمه المطبوع على صدره له رنين قوى إذا نُطق به ، وهو مكتوب بالخط الضخم العريض ! فعجبت له كيف يمكن أن يكون رنين الأسماء وضخامة الحروف من أسباب العلا ! لكنه أجاب بأن تقاليد الدولة منذ عهد بعيد قد أباحت لمن يعلو صوته على سائر الأصوات أن يتسع صيته ، فيأخذ من أمته مكاناً عالياً ممتازاً ، ولا عبرة بما في صياحه هذا من خطأ أو صواب . ثم سألني : ألست ترى — ياصاحب الجلالة — ما بين الصوت والصيت من علاقة في اللفظ ؟ وأضاف قائلا : إن علاقة اللفظ عند الفلاسفة دليل على روابط المعنى . فسألت آخر ، فأجاب بأن جواز صعوده هو أن جناحيه وما يتدلى على صدره من أوراق صنعت كلها من مادة جيدة مصقولة ، فعجبت له كيف تكون نعومة الملمس جوازاً للصعود ! فقال : إن تقاليد الدولة منذ أقدم العصور تعنى بظواهر الأشياء دون بواطنها ، لأن فيلسوفاً قديماً علمهم أن الانسان لا يدرك من الأشياء غير الظواهر ، وأما حقائق الأشياء فعلمها عند علام الغيوب . وسألت ثالثاً ، فقال : إنه مطبوع في بلاد الانجليز ، فعجبت له كيف يمكن أن يكون مكان الطباعة ذي شأن ، ما دامت الأحرف هي الأحرف والكلام هو الكلام ! فأجاب بأن تقاليد الدولة من أقدم عصورها تقضي أن يكون لذلك اعتبار عند قسمة الأقدار . وسألت رابعاً ، فقال : إنه ينتمي في نسبه إلى كاتب مشهور معروف ! فعجبت كيف يمكن أن تكون النسبة وحدها كفيلا له بالصعود ! فأجاب بأن تقاليد الدولة منذ فجر تاريخها قد جرت بأن يكون لأصحاب الانساب في الدولة أكبر الأنصاب . وسألت خامساً وسادساً وسابعاً . . .

هبطت السلم مسرعاً لا ألوى على شيء ، وأنا أوشك أن أصيح : كلا ، لن يكون لمثل هذا العبث وجود في

دولتي بعد اليوم ... إن شيخاً في الطابق الأسفل قيل إن به مساً من جنون ، قد جاءني منذ أيام يقص على قصة الاصلاح الذي يريده لأمتي ، فأعرضت عنه وتوليت ، وما كان ينبغي أن أفعل ؛ فما يدريني ? لعله يهدى ، فما يفصل الجنون من النبوغ إلا حاجز رقيق وقصدت إلى الشيخ حانقاً مغضباً ، فوجدته يروح ويغدو ولا يكاد يستقر به المكان ، فناديته : ادن مني أيها الشيخ وأعد على سمعي ما قصصته بالأمس ، فقال : أردت لأمتك الاصلاح — ياصاحب الجلالة — فما أعرتني أذناً مصغية ولا قلباً واعياً ، والأمر هين لا عناء فيه : أريد أن تسود في الدولة أرستقراطية العقل مكان أرستقراطية المال وغير المال من الأعراض التي لا تمت إلى طبيعة الانسان في شيء ؛ فهذا الفرد وهذا وذاك ممن تنطوي صدورهم على تفكير ناضج سليم ، وتتألف خواطرهم التي نقشت على صدورهم من فلسفة وعلم رصين ، لهم من الدولة المكان الأعلى ؛ وهذا الفرد وهذا وذاك ممن تغلب عليهم العاطفة فينطقون بآيات من الشعر والنثر ، لهم من الدولة المكان الأوسط ، لأن العاطفة عندي في منزلة دون العقل الخالص ، ثم احشر في الطابق الأسفل من رعيتك أصحاب العقول الفارغة والصدور الخاوية ، مهما يكن حظهم من ضخامة عنوان وجمال أوراق . فلم أجد في فعل ما أشار به الشيخ شيئاً من العسر ، إذا استثنيت بعض نظرات ملتهبة حداد رمقني بها أفراد الطبقة الممتازة حيث أنزلتهم من الدولة أسفل سافلين .

واتخذت بعد هذا الانقلاب مكاناً أستريح وأزهو ، ولكني لم أكد آخذ من الراحة نصيباً ، حتى ضجت في أرجاء الدولة ضجة وصياحاً ؛ فهذا صوت شيء يتحطم ، وتلك صرخة إنسان يتألم ، فسرت في جسمي قشعريرة الخوف ، وأرهفت الأذن ، فاذا في أنين كلمات تفيض بثورة الشعب ، فجمدت في مكاني لا أريم حتى هدأت العاصفة ، ثم طُفْتُ بأسفل الطوابق أول الأمر ، فإذا بأصحاب الفكر وأرباب الأدب ممن أصابتهم الرفعةُ في الانقلاب الذي قمت به في تنظيم الدولة ، قد أعيدوا إلى دركهم الأول ، بعد أن تكسرت منهم أجنحة وقطعت ألسنة وتمزقت أوراق ! !

فجلست محزوناً واعتمدت رأسي على كفيّ ، وغمغمت في يأس : لم يأت بعدُ أوان الاصلاح لأمتي ، فلا بد أن تنقضي قرون أخرى يعلو فيها أصحاب الظاهر البراق ويسفل أصحاب الحق المبين . . . واستيقظت فاذا موعد العمل قد حان ، فارتديت ثيابي مسرعاً وهرولت إلى العمل مسرعاً لأرد عن نفسي عادية الأذى .

زكي نجيب محمود

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

***

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

مليم ٣٠	في مصر والسودان
٢٥	لطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ مليم صاغ

الوحدة الفنية لا تتكرر

لعل أهم ظاهرة تفسر الفنون وتميزها أن وحداتها لا تتكرر ، فليس هناك نموذجان فنيان من صورة واحدة ولا من طراز واحد . كل نموذج فنى له شخصيته التى يفترق بها من أمثاله ، وطرافته التى ينفصل بها من نظرائه وأشباهه ، فلا يوجد نموذج يتحد مع غيره ، بل لا توجد وحدة داخل نموذج تتحد مع غيرها من وحدات فى نماذج أخرى .

إذا نظم شاعر قصيدة فى رثاء ، ثم أراد أن يرثى مرة أخرى ، وجدنا أفكاراً جديدة ، وإذا أعاد فكرة حوّرها تحويراً يكاد ينسينا أصلها . وغير الرثاء من موضوعات الشعر كالرثاء ، ليس هناك قصيدتان تتحدان فى الأفكار ، ولا فى الخيالات ، ولا فى الأصوات ، ولا فى أى جانب من الجوانب الفنية الخاصة .

والشأن فى الموسيقى والرسم والنحت كالشأن فى الشعر ، كلما أنعمت النظر وجدت فروقاً وخلافات لا فى النماذج فقط ، بل فى وحدات النماذج . وكما أن الجمال فى الطبيعة لا يتكرر بنفس الشكل والصورة ، بل دائماً نرى وجوهاً جديدة وألواناً جديدة ، كذلك فى الفن : لا تتكرر وحدة من وحداته ولا جزئية من جزئياته ؛ فالفردية أصله وأساسه ، كل وحدة فرد مستقل بنفسه ، له وضعه ولونه ، ووجهه وملامحه الخاصة ؛ وكما نتغاير فى أصواتنا وصورنا وتقاطيع وجوهنا ، كذلك تتغاير الوحدات الفنية ، فلا توجد وحدتان تتطابقان تطابقاً تاماً ، أو تتحدان اتحاداً تاما .

كل ما يمكن أن يكون فى الفن بين وحدة وأخرى ، إنما هو شىء من التشابه والتجانس . أما الاتحاد والتكرار فغير ممكنين ، إلا إذا صح أن ننقل صورة أو فكرة فى نفس حالها من الألوان والأوضاع والأنماط والأصوات .

وأكبر الظن أن ذلك ما جعل دراسة الفن معقدة غاية التعقيد ، فأفراده غير متحدة ، والحكم على فرد أو وحدة حكم مقيد بهذا الفرد أو تلك الوحدة ، ومن الخطأ أن نعممه دون اطراده فى الأفراد والوحدات الأخرى ؛ ولعل ذلك أهم سبب يفسر تخبط النقاد فى أحكامهم ، وما يشملها من اضطراب واختلاط .

ليست أفراد الفن ووحداته من نوع واحد ولا من فصيلة واحدة ، إلا إذا توسعنا فى مدلول النوع ومدلول الفصيلة ؛ وقصدنا إلى ما يوجد بين هذه الأفراد والوحدات من مشابهات ومشاكلات قريبة أو بعيدة . وهل يمكن أن نجد لوحتين من صورة واحدة ، أو قطعتين موسيقيتين من « نوتة » واحدة ؟ إن فكرة الاتحاد لا تتصل بالإنسان ولا بأعماله ، فأهم ما يميزنا التحول والتنوع . كل منا يشترك مع صاحبه فى إنسانيته ، ولكنا نختلف بعد ذلك اختلافات كثيرة فى الشكل والطبع ، حتى لكأنما تقوم بيننا أسوار فاصلة ؛ وكذلك وحدات الفن ، كل وحدة فن ، ولكن كل وحدة تفترق عن زميلتها افتراق الخلجان — على الشاطئ المتقطع — فى شكلها وصورتها ، وإن استمدت من موارد واحدة ومياه واحدة

ونحن إذا أخذنا نتبين فى ضوء هذه الفكرة آراءنا وأحكامنا ، وما وضعناه للفن من قواعد ومقاييس ، بدا لنا ذلك كله عاجزاً عن أن يفسر فنا خاصا تفسيراً تاماً ، أو يصور فناناً خاصاً تصويراً تاماً ، وكيف نصور الفنان أو نحكم عليه ؟ إنه يغلب علينا أن نبحثه فى نموذج خاص ، ولكن أى نموذج ؟ إن النماذج مختلفة ، ووحدات النماذج مختلفة ؛ وإذا حللنا نموذجا وكشفنا ما فيه من جمال ، كان هذا الجمال مقيدا بنموذجنا الذى حللناه ، وكان من الخطأ أن ننقل ما قلناه ، أو ينقله ناقد من بعدنا ، ويطبقه على نموذج آخر ، بل لابد — كلما عرضنا لنموذج — أن نحذف بعض آرائنا التى كوناها ، أو نضيف آراء أخرى ،

أو تعدل فيما ذهبنا إليه من تصوير وتلوين تعديلا يطول ويقصر، ويكبر ويصغر.

أحكامنا فى الفن أحكام معينة بنماذج خاصة، ومن الصعب أن نطبق حكما مستمدا من نموذج على نموذج آخر، لأن النماذج لا تتفق، ولأن النموذج الخاص إنما يفسر الفنان ومهارته فى أحوال وظروف معينة يتقيد بها، وقد نحكم على فنان بالاحسان لنموذج صنعه، بينما نماذجه الأخرى رديئة، وقد نحكم على آخر بالتقصير لنموذج ردىء، بينما نماذجه الأخرى جيدة. ونفس نظرياتنا العامة فى الفن يعتورها هذا النقص، فما هى الرداءة والجودة؟ وإلى أى شىء نرجع فى قياسهما؟ هل نعود إلى النماذج؟ إن النماذج لا تتحد. هل نعود إلى الوحدات الفنية الصغيرة؟ إنها أيضا لا تتحد، فلون أبيض فى صورة، لا يكون هو نفسه فى صورة أخرى، إذ يتقوس أو يتمرج، أو يطول أو يقصر، أو يضيق أو يتسع، أو يذهب عنة أو يسرة. بل إن هذا اللون الواحد نفسه تختلف أقسامه ومناطقه باختلاف ما يقع على دروبه ومساربه من نسب الظلال والأضواء.

ليس هناك جانب فنى يكرر، سواء فى الرسم وغير الرسم، فالخاطرة عند الشاعر، إذا عادت، عادت خلقاً آخر، متميزاً بصورة أخرى تختلف قليلاً أو كثيراً من الصورة القديمة. ليس هناك خاطرتان متحدتان فى قصيدة، بل إن الخاطرة دائماً إذا رجعت، شوهت تشويهاً، يفصلها من أصلها، ويضيف إليها شخصية الشاعر الجديد وما يميزه من مزاج وشعور، وخيال وتفكير؛ فإذا هى كوحدات الطبيعة فى لوحات الرسامين، إذ يشوهونها — ليعبروا عن أفكارهم — هذا التشويه الذى يكسبها زينة وأناقة جديدة. وانظر فى أى لون أو فى أى بدع، فستراه يختلف دائماً بين شاعر وشاعر؛ ولا يغرنك ما يقال من أن الشاعرين من مدرسة واحدة، فالمدرسة لا تعنى الاتحاد والاتفاق المطلق، إذاً لكان الشعر شيئاً مملاً يؤذى الأذهان والأسماع؛ إنما تعنى المدرسة التشابه فى الأذواق، والتقارب فى استخدام الوسائل؛ أما بعد ذلك فلكل شاعر طريقته الخاصة فى التلوين والتصوير.

– ويستطيع الباحث أن يعود إلى أى لون فنى استخدمه شعراء مختلفون، ويترك اسمه العام، ويدقق النظر فى استخدام كل منهم له، فإنه يرى حتماً أن كل شاعر يستخدمه بطريقة خاصة، تفترق قليلاً أو كثيراً من طريقة صاحبه، حتى ليثبت فى ظنه أنه ليس هناك ما يسمى عملاً مشتركاً بين الشعراء؛ فتلك الألوان التى تسمى تشبيهاً واستعارة وجناساً وطباقاً، وغير ذلك من أسماء منثورة فى كتب البيان والبديع، إذا حققناها وجدنا من الممكن أن نستخرج من اللون الواحد أشكالاً وصوراً عديدة، فليس تشبيه ابن المعتز مثلا كتشبيه الصنوبرى، وليس طباق أبى تمام كطباق البحترى؛ وليس جناس ابن الرومى كجناس المعرى. يمكن أن يتفق الشاعران فى اسم اللون العام؛ أما بعد ذلك فإنهما يفترقان افتراقاً شديداً فى طريقة استخدامه، حتى ليخيل إلى الانسان كأن اللون يتحول عند كل شاعر إلى لون جديد يختلف باختلاف الشعراء؛ فهو فاقع عند شاعر، وهو باهت عند آخر، وهو يتراوح بين هذين الصبغين إلى ما لا يحصى من أصباغ عند غيرهما من الشعراء.

ونفس اللون عند الشاعر الواحد، كلما جمعت طائفة من تعبيراته واستعمالاته، خرجت إليك منها أصباغ الطيف، أصباغ اللون واحد، لا يتقيد بعدد ولا بشكل ولا بصورة؛ بل فى كل مرة يحمل الصبغ حالا جديدة من خيال وشعور وتفكير، ويتدرج لونه، بحسب ما تحمل أجنحته من بريق ولمعان، يحدثان انعكاساً خاصاً فيه، فإذا هو غير صورته المألوفة، وكأنما اللون فى الفن كاللون فى الطبيعة يكون على أوضاع وأصباغ لا تحصى؛ فنحن نرى اللون الأخضر مثلا فى الطبيعة يأتى على صور تختلف

باختلاف مناظره وأماكنه ؛ كهذا التدرج الذى نشاهده فى ألوان الغسق أو الشفق ؛ وكذلك اللون فى الفن يلزمه هذا التدرج ويلزمه هذا التعدد ، ويكاد يصبغ فى كل موضع وكل منظر بصبغ خاص يتميز به . والنظر فى موسيقى الشعر ، فانك إذا نحيت العروض جانباً ، وأخذت تنظر بعد ذلك فى صوت الأبيات من وزن واحد ، وقرنت بعضها إلى بعض ، وجدت فروقاً بينها لا يمكن أن تحدد ، أو بعبارة أدق لم نتعارف بعد على أسماء تشخصها ، فكل بيت له صوته الخاص الذى لا يتكرر مع صوت بيت آخر ، والذى يفضى بنا دائماً إلى هذا الحلم الموسيقى الغريب .

– ليس فى الشعر بيتان من صوت متكافئ واحد ، ولا فكرتان من صورة معينة واحدة ، ولا لونان متحدان ، مهما يكن شكلهما أو لفظهما أو وصفهما ، بل إن اللون الواحد يختلف باختلاف مناطق استخدامه ، وما يؤديه من صوت أو شعور أو خيال أو تفكير ؛ وهو فى كل حال يعبر بصبغ جديد يخالف الأصباغ الأخرى ، ويقرب إليها قليلاً أو كثيراً . وهنا تبدو صعوبة تقدير المذاهب الفنية ووصف صناعة الشعراء وما يستخدمونه من ألوان ؛ فكل لون له أصباغه التى يفرق البصر فيها ؛ ولا بد من تتبع هذه الأصباغ فى المناظر والمواطن المختلفة ، حتى نعرف درجات حسنها وقبحها ، ومنازلها فى أشكالها وأوضاعها ، وما اتخذته لأنفسها فى كل موضع من وجوه مستعارة تعبر عن روعة الشعر وفتنته .

وأيضاً نحن إذا بحثنا لوناً فنياً عند شاعر وأردنا أن نحلله إلى أوضاعه وأصباغه ، كان من الواجب أن نبحثه ونحلله فى نور أعم وأوضح ، فلا نكتفى بتفسيره من ديوان الشاعر ، بل نرجع إلى صوره فى مدارس الفن المختلفة ، لنعرف كيف تأثر الشاعر الذى ندرسه عن سبقه ، وكيف أثر فيمن لحقه ، وما مقدار صنيعه فى تحويل اللون وتغيير أصباغه ، وهل قلد فى الصورة العامة أو جدد ، وما مقدار حظه من التقليد والتجديد . لا بد إذاً من الرجوع إلى مدرسة الشاعر لنرى كيف استخدمت اللون ، وكيف نوعت فى أصباغه ، وأيضاً لا بد من الرجوع إلى المدارس الفنية الأخرى لننظر صنيعها فى استخدام اللون ، وهل فارقت فى أصباغه مدرسة الشاعر أو قاربت ، فكثيراً ما تشترك فى لون مدارس من أذواق مختلفة ؛ وهو ما نسميه بالتداخل بين المدارس الفنية ؛ إذ ما تزال تتداخل وتتشابك فى هيآت وصور شتى ، وبخاصة فى استخدام الوسائل ، وما ينجم عنها من ألوان وأصباغ وصور وأوضاع ؛ فالوسيلة الواحدة تحمل مشتركة بين الشعراء ، ولكنهم يختلفون فيما يستخرجون منها من ألوان غريبة وأصباغ متنوعة ؛ وما يزال شاعر يكد ذهنه ، ويتعب فكره ، حتى يحيل جانباً من هذه الألوان والأصباغ إلى ما يشبه ألوان الطيف وأصباغه ، فلكل لون بهجته ، ولكل صبغ مسرته .

– لا يقف النقاد عند اشتراك الشعراء فى الوسيلة العامة ، بل هم يحللون هذه الوسيلة وطرق استخدامها ؛ فهذه وسيلة قد نمست فى « لبقة » العقل ، وتلك أخرى قد نمست فى « لبقة » الشعور ، وهذه ثالثة قد نمست فى « لبقة » الخيال الواهم ؛ وهى فى كل مرة تأخذ بخطوط تختلف من صورة إلى صورة ، ومن لون إلى لون ، ومن صبغ إلى صبغ . ونحن لا نبالغ إذا زعمنا أن نقدنا فقير فى تفسير هذه الجوانب ؛ فقلما استبان النقاد الوسيلة الفنية فى ألوانها وأوضاعها وأصباغها ، وحسبهم أن يجدوا شاعرا يستعمل لوناً أو وسيلة فى بعض نماذجه ، فيعمموا الحكم ويطردوه فى نماذجه الأخرى ؛ وكثيراً ما يفوتهم أن يتبينوا اللون عند صاحبه ومنشئه ، لأن لون الورقة فى الشجرة لا يتماثل ولا تنحسر عنه تلوناته الأخرى التى تشترك معه فى بدء ظهوره . وحقاً أن من أصعب الأشياء وأكثرها تعقيداً أن يفسر ناقد مذهباً فنياً ، بل أن يفسر لوناً فنيا ؛ ومع ذلك فان من أجمل ما يشعر به الناقد وأفضل ما يمر به من أوقات أن يحيى فى لون فنى يستعرض صوره وأطيافه ، ويستخرج منه أوضاعه وأصباغه .

شوقى ضيف

اللثغ ومخارج الحروف

وأثرهما في اللغـــة

يقوم مجمع فؤاد الأول للغة العربية بعمل معجم كبير يبحث في مواد اللغة ومفرداتها واستعمالاتها على طريق حديث ونظام جديد. وقد عنت لي بعض الآراء التي أوحتها إلى مطالعاتي في «تاج العروس» و«المزهر» وبعض المعاجم وكتب الأدب؛ وزادني بها اقتناعاً دراستي لهجات العرب ولغاتهم دراسة وافية مستمدة من عشرين مصدراً أو تزيد؛ فرأيت أن لا مانع من الادلاء بآرائي، لعلها تجد تأييداً فتظفر بالقبول، أو تجد معارضة فينالها التنقيح. وما دام المجمع اللغوي هو القائم على اللغة وشئونها، فإني أتقدم إليه بهذه الآراء وإلى كل مهتم بالدراسات اللغوية، تاركاً لهم مهمة الاختيار أو الرد، مع اعتقادي أن هـذه الآراء جديرة بالنظر وحرية بالقبول.

وما كان اختياري هذا الموضوع بادئ ذي بدء إلا لأنه موضوع طريف، هذا إلى أنه يمكن أن نستخرج منه أسس صحيحة ونعتمد منه قواعد غير واهية ولا واهنة.

ولو أردنا أن نعرّف اللثغ ما وجدنا أقرب إلى الصحة من أنه تحول اللسان من حرف إلى حرف لقصور ناشئ من خلل فيه أو في الأسنان. يقال لثغ بفتح فكسر لثغاً كفرح فرحا فهو ألثغ من قوم لثغ بضم فسكون، وهي لثغاء من نساء لُثغ أيضاً، كما يقال فيه لثغة بضم فسكون إذا كان متصفاً بهذا العيب. واللثغ من حيث الحروف الملثوغ فيها، إما حسن وإما قبيح، كما أنه بالنسبة إلى الألثغ نفسه إما مكروه أو محبب؛ فهو جميل من الشواب الغواني والملاح الحسان الوجوه ومن كل من تجيء له محاسنه بألف شفيع، وهو أيضاً حسن أو غير محبب من الأطفال وصغار السن؛ لكنه من العجائز قبيح، وهو من قباح الوجوه الذين كأنما خلقوا على عجل أشد قبحاً. وأحلى اللثغ في الحروف وأسره للنفوس ما كانت الثاء فيه مبدلة من السين، وما كانت الغين فيه مبدلة من الراء؛ ففي الثاء رقة تأسر وفي الغين نبرة تسحر؛ وعجيب أمر هذه الغين، فقد لاحظت فيها ظاهرة غريبة عز عليها الناس من غير أن ينتبهوا لها، مع أن نبرتها تتغلغل في النفوس وتغور إلى أعماق القلوب وتغرى المرء بالغزل أو الغرام؛ ذلك أنها جاءت في كل صوت فيه حنان أو رقة أو تطريب؛ فالطائر جميل وسجعه أجمل، فهو إذاً يغرد، والظبية جميلة، وإذا صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها فإنما هي تبغم، والشاة في ترديدها حنان، وإذاً فهي تثغو، والمرأة التي تداعب الطفل في عطف وحنو ورقة إنما هي تناغيه، والشخص الذي يشجى بصوته ويطرب بلحنه إنما هو يغني، وأغن الرجل أطربك بأحسن صوت، ولذلك يقال ظبي أغن، واللحن نفسه إنما هو نغم؛ فنحن نلاحظ أن الغين في الغنة والنغم والغناء والمناغاة والثغاء والبغام والتغريد. وحرف (r) في الافرنجية ينطق به أرستقراطيو الفرنسيين وظرفاؤهم غيناً، فيقولون في بارى (Paris) — التي هي باريس — باغى؛ فلا عجب إذاً إذا أولع الشعراء والمتغزلون بألحان اللثغ في الراء المحولة إلى الغين؛ فيحكي لنا أحد الشعراء في البيت الأخير من شعره هذه اللثغة الجميلة التي أطربته وأعجبته، ويبدع في عرضها حيث يقول:

أنا وبياض الثغر ممن أحبـــه
ونقطة خال الخد في صفحة الصدغ

لقد فتنتني لثغـــة موصلية
رمتني في تيار بحر هوى اللثغ

ومستعجم الألفـاظ عقرب صدغه
مسلطة دون الأنام على لدغي

يكاد أصم الصم عنـد حديثه
إلى اللثغة اللثـاء من لفظه يصغي

يقول وقد قبلت واضـح ثغره
وكان الذي أهوى ونلت الذي أبغي

وقد نفضت كأس الحيا وأظهرت
على خده من لونها أحسن الصبغ

تفقق فشغب الحغ من كغم فيقفق
تزيدك عند الشُّغب سكغاً على سكغ

ذلك شأن لثغة الغين وما فيها من رخامة واستحسان. أما لثغة السين المحولة إلى الثاء، فإنها لفرط رقتها وحلاوتها جعلت الشاعر العاشق يقوم من مجلس ساحره وآمره الذي بات يتعاطى معه الخمر، وهو مأخوذ مفتون ألثغ كالمحبوب نفسه، فيقول:

وشادن سألته عن اسمه ... فقال لي باللثغ عباثُ
بات يعاطيني سخامية ... وقال لي قد هجع الناث
أما ترى بعض أكاليلنا ... زيانه النثرين والآث
فقمت من لثغته ألثغا ... فقلت أين الكاث والطاث

والحروف التي يكون فيها اللثغ قد مر منها السين ولثغته. والراء وأحد لثغاته التي هي الغين. وللراء لثغات أخر؛ فهي قد يحولها بعضهم إلى اللام، فيقول في ضرب مثلا (ضلب)؛ وهذه ظاهرة في الأطفال كثيراً، وتوجد في بعض الكبار أيضاً. وقد وردت في معاجم اللغة ألفاظ بينها هذا الاختلاف اللثغي، نورد منها بعض الأمثلة: هذا من جنسك وجنثك، الوطس والوطث، الجسمان والجثمان. راث نفسه ترين وغاثت نفسه تغين، الرث والغث. الغاية من معانيها الراية يقال أريت الراية وأغييت الغاية بمعنى نصبت الراية؛ وقد استعملها بعض الشعراء أو أوردها بعض الرواة بهذا الضبط؛ فقد كان تجار الخمر في بلاد العرب ينصبون راية ليعرف الناس أنهم باعة للخمر فقال الشاعر:

قَدْ بِتُّ سامرها وغايةَ تاجر
وافيت إذ رُفعت وعز مدامها

ومما جاء: رمقته ولمقته، والطرس والطلس الخ. ومن لثغات الراء الياء أو الهاء، فيقال في ضرب مثلا (ضيب أو ضهب) وقد ورد: جوع درقوع وديقوع ودهقوع. أما لثغة اللام فإنما هي الياء، فيقال مثلا في ابن (يبن)، وفي المعاجم: اللث والليث مثله في بعض معانيه.

ومن الحروف التي يكون فيها اللثغ الزاي والشين والجيم، فالزاي يلثغ فيها بالذال مثل (حازه يحوزه وحاذه يحوذه ومزعزع ومذعذع). والشين يلثغ فيها بالسين وبعض الناس يقولون في الشمس (السمس)، ومما ورد الارتماش والارتماس والنهش والنهس، وقد يزداد اللثغ في الشين حتى يصير إلى الثاء بسبب العجز عن النطق بالسين، ومما ورد الهبش والهبث وفرشط وفرثط. أما الجيم فهذه يلثغ فيها بالدال ويسميها بعضهم لكنة؛ وكثير من الأطفال وقليل من العامة في قرى بعض مراكز الوجه القبلي يلكنون في الجيم فيقولون في الجيش مثلا (الديش)، ومما ورد في المعاجم أجهضت وأدهضت وجمست ودمست. وقد عد الجاحظ في البيان والتبيين أن الراء قد يلثغ فيها بالذال وبالظاء، وأن اللام قد يلثغ فيها بالكاف، وأن القاف قد يلثغ فيها بالطاء؛ ولكن هذه اللثغات التي عدها نادرة بل لا تكاد تكون موجودة.

وإذاً فهناك حروف يلثغ فيها، وهناك ألفاظ وردت في المعاجم في مادتين مختلفتين على وزن واحد وبمعنى واحد أو زادتا على معنى من معانيهما؛ فما منشأ ذلك، وما الداعي إليه؟ الواقع أن بعض الرواة كان يتحرى الأمانة في النقل فهو كما يسمع ينقل، فربما سمع أعرابيا وقد

يتفق أن هذا الاعرابي ألثغ فينقل عنه ألفاظاً ، ثم يسمع أعرابياً آخر صحيح اللسان وترد هذه الألفاظ السابقة سليمة فينقلها ذلك الراوي أيضاً ، ولكن يعتبر أنهما لغتان مختلفتان في مادتين مختلفتين ؛ وقد يكون بعض الرواة في البادية يستمع إلى الأعراب ويتلقى منهم ، وقد يجيء غلام حدث فينطق بالكلمة أو الكلمتين بالثغ ، فيسأل الراوي من حضر عن معناها فيجاب إليه على صحته ، فينقل لفظ الغلام ولفظ الكبار على أنهما مترادفان. وهناك بعض الرواة قد ينبه إلى أن هذه لثغة ، إلا أن أمانة المدونين أيضاً تأبى عليهم إلا أن يدونوا كل شيء في مادته ، مع معرفتهم أنه لثغة للفظ آخر ، لا أنه لفظ أصلي. غير أن هناك بعض الرواة لم يكن فيهم التحرز أو الأمانة في النقل أو التورع عن الاختلاق ، فيسمع مثلاً أحد الرؤساء يلثغ ، وحينئذ يتقرب الراوي إليه على حساب اللغة زاعماً أنه سمع أعرابياً ينطق بهذه الكلمة كما أوردها الرئيس ، فتؤخذ عنه هذه وتوضع في المعاجم على اعتبار أنها لغة ، واللغة في الواقع منها بريئة.

وبناءً على ما تقدم توجه الأسئلة الآتية ، محاولين الاجابة عنها مشتملة على الآراء التي عنت لي والتي كتب من أجلها هذا الموضوع :

١ — أيجوز لنا أن نتحاشى من هذه الألفاظ الملثوغ فيها وندعها في المعاجم كما هي في أماكنها ، أم نزيلها ونجرد المعاجم منها ؟

٢ — وإذا جاز لنا أن ندعها في أماكنها ، فهل يكون على اعتبار أنها ألفاظ جائزة الاستعمال ، أم أنها ألفاظ تاريخية سقطت إلينا من أعراب لثغ ، وحينئذ فينبغي أن ننبه إلى أنه لا يجوز استعمالها ؟

٣ — وعلى فرض التسليم بصحة هذه الألفاظ ، فعلى أي قاعدة أو أساس يكون هذا التسليم ؟ أعلى أساس اعتبار كل ما ينطق به العربي صحيحاً ، حتى ولو كان هذا العربي ألثغ معيب اللسان أو ساقط الأسنان ؟ أم على اعتبار التسليم المطلق بكل ما ورد في المعاجم من غير نقد ولا تمحيص ؟

٤ — وهل يحق لنا أن نتخذ هذا أساساً ومقياساً ، فنجيز لأنفسنا التفريع من كل كلمة مشتملة على حرف محتمل اللثغ الشائع ، فنجعل كل ما ورد بالسين مثلاً يصح أن يرد بالثاء ، ونجعل قول صاحب «تاج العروس» أساساً عاماً وقاعدة صحيحة ، حيث يقول في مادة (خنفث) : كثيراً ما تخلف الثاء السين ؟ أم أننا نقتصر على ما ورد فحسب ؟

تلك أسئلة تستحق أن نعيرها النظر ، وأن نستخرج لها الأسس الصالحة المقبولة. أما أنا فاني مقتنع بأنه لا يحق لنا أن نتخذ اللثغ مقياساً ، إذ لا يعقل أن نجعل العيب اللساني في بعض الاعراب قاعدة لمن هو صحيح اللسان سليم النطق ، خصوصاً وأن اللثغ داء لا يخلو منه أفراد في أي أمة ؛ وإذا كنا لا نتخذ شاذ اللهجات التي تطرد في بعض القبائل أساساً ، فمن الأجدر ألا نتخذ العيب اللساني أساساً أيضاً ؛ كما أني لست من أنصار التسليم المطلق بكل ما ورد في المعاجم من غير نقد ولا تمحيص ؛ وإذاً فمن الواجب أن نجرد المعاجم من هذه الألفاظ تجريداً تاماً ، ولا ينبغي أن نجعل لها مواد مستقلة ، كما هو موجود فيها الآن ؛ فان لم يمكن هذا لبعض اعتبارات ، كأن يجد الانسان بيتاً من الشعر ، أو قطعة أدبية فيها هذا اللفظ الملثوغ فيه ، فيحار في معناه إذا لم يجده في المعاجم بعد ذلك ، فلا أقل من أن نلحق هذه الألفاظ بموادها الأصلية ، لا أن ندعها كما هي في مواد مستقلة ، ولكن على شريطة أن ننبه إلى أنها ألفاظ تاريخية لا يجوز لنا استعمالها ، اللهم إلا كما ينطق أي انسان ألثغ بأي لفظ

صريع زنجية

من الناس من يعجبك ظرفه وحلو حديثه فتستأنس به ويهفو إليه فؤادك ، ولكنك لا تخالطه أو تتعامل معه حتى تمقته وتزدريه . ومنهم من لا تزيدك مخالطته والتعامل معه إلا شغفاً به وتعلقاً بصداقته .

ولعل أعظم من علق قلبي واطمأنت إليه نفسي في هذه الحياة هو شاب هندي عرفته يوم كنت طالباً في باريس ، فأحببته حباً جماً ، وأسكنته قلبي وكل جوارحي ، لا لأنه مغرم بالصداقة ومتصف بالشمائل والمزايا التي ينشرح لها صدري فحسب ، بل لأنه أراني الجمال كامناً في أكثر مظاهر الحياة ، فحببها إلي وجعل لها حرمة في نفسي وهيبة في خيالي ، أتحمل من أجلها المتاعب والمشاق كما يتحمل العاشق الولهان في سبيل معشوقته الضر والأذى .

اجتمعت وإياه المرة الأولى في حديقة اللوكسمبرج ، وصحبته بعد ذلك إلى مرقص العميان ، ثم إلى ساحل الباسك .

إن صديق الهندي ممن تحاملت عليهم الطبيعة ، فحرمته منذ الطفولة أثمن الأشياء ، وأغلاها عند المبصرين ، إلا أنها عوضته بالحنين ما سلبت بالإبصار ، فأعطته قلباً خفاقاً يخلق اللذائذ والمسرات خلقاً ، وعقلاً مستطلعاً نزاعاً إلى المعرفة واستشفاف روح الأشياء .

وقد شاءت المقادير الالهية أن يذوق صاحبنا لذة العلم منذ الصبي ، فيحفظ في قريته القرآن الكريم ، وينتقل بعد ذلك إلى المدرسة الابتدائية في (كيتون) ، فالثانوية في (سيفون) منقاداً نزاعاً إلى العمل بقوة الحاجة إلى الدرس والتفهم المجردين من كل غاية سوى الدرس والتثقف .

فهو لم يكن إذاً يعتبر العلم وسيلة من وسائل الرزق وآلة من آلات العيش ، كما يفعل الكثيرون الذين يدرسون ويتعلمون طلباً للثروة والجاه .

إن العلم في نظر صديق (ظريف) أجل وأكبر من أن يكون مطية من مطايا السيادة التي يمقتها مقتاً شديداً ويود لو يستطيع إلى الخلاص منها سبيلا

وكانت رغبته العلمية في بادئ الأمر عامة شاملة تتناول المعارف البشرية جمعاء ، فلما أخبره أحد معلميه بأنه

آخر غير موجود في المعاجم ، وإزاء هذا كله يمكننا أن نضع قاعدتين نسترشد بهما في تنظيم معجم جديد .

(١) كل لفظين جاءا (ا) على وزن واحد (ب) وبمعنى واحد (جـ) والتغيير بينهما في حروف اللثغ فحسب ، فاننا نعتبر الكلمة التي فيها الحرف الأصلي هي الأصلية ، وأنها هي التي تداولها العرب ، ثم نعتبر الكلمة الثانية التي فيها اللثغة ليست لغة مستقلة ، وليست موضوعة أولا ، ولا يصح أن نعتبرها مادة قائمة بنفسها . ولا هي مادة صحيحة ، لأنه لو أجزنا صحتها لصح لنا أن نجيز التفريع من كل كلمة مشتملة على حرف محتمل اللثغ الشائع ، فنقول مثلا يجوز في سكر أن يقال (سكغ وسكل وسكى ، وسكه وتكر وتكغ وثكل وثكى) وهكذا ، وهذا ما لم يقل به أحد .

(٢) كل لفظين جاءا (ا) على وزن واحد (ب) ولكل منهما معان مختلفة ، ولكنهما زادة على معنى (جـ) وكان التغيير بينهما في حروف اللثغ فحسب ، فاننا نعتبر هذا المعنى دخيلا على أحدهما ، وهو الذي اشتمل على الحرف الملثوغ به ؛ فالثاية مثلا معناها المدى والمنتهى ، ومن معانيها الراية ، وإذاً فالغاية بمعنى الراية دخيل على لفظة الثاية يجب أن نجرده منه ونترك ما استقلت الغاية بمعناه من معاني الراية .

(يتبع) عبد الستار أحمد فراج

يستطيع رغم عاهته أن يدرس الحقوق ، وأن يذهب في دراستها شأواً بعيداً ، هام بهذا الحلم هيام ابن الخطاب بالعدل ، والمتنبي بالسيادة ، وروسيو بالحرية الشخصية ؛ وكما أن هؤلاء الأبطال لم يرضوا عن أحلامهم بديلا ، ولم يعرفوا الراحة والقناعة إلا في متابعة السعي للوصول إليها ، كذلك صاحبنا الهندي ؛ فقد اعتقد اعتقاداً قاطعاً أن لا خير له في الحياة ولا رجاء إلا إذا درس الحقوق وأصبح علماً من أعلامها ، وإماماً من أئمتها ، ليس في الهند الصينية والأقطار الهندية فحسب ، بل في العالم كله .

إن الذين سبقوه إلى درس الحقوق واستوعبوا ما لها من قواعد وأصول ، واستخلصوا ما لها من روح يتمشى ويتغلغل بين الحروف والسطور ، لا يفوقونه عزماً ولا ذكاء ، ولا يستطيعون منعه من مجاراتهم والاستعلاء عليهم . أليسوا بشراً مثله ؟ ثم أليس بين جنبيه من العزم والحزم وشدة البأس وقوة الارادة ما في أعطافهم ؟

لا شك أن غاية كهذه تتطلب مجهوداً عظيماً ونشاطاً مضنياً ؛ ولكن أي روعة فيما يصيب المرء من غير عناء ؟

لقد خلقنا لا نستمرئ من متع الحياة ونعيمها إلا ما كان بكد اليمين وعرق الجبين .

فكلما كانت الصعاب التي تعترضنا والعقبات التي نصطدم بها عظيمة ، كان ذلك مدعاة إلى زيادة سعادتنا وتوسيع نطاقها .

وكان في الهند الصينية جامعة وطنية تشبه الجامعة السورية بمعاهدها والقائمين على أمرها ؛ فرأى صديق أنها المكان الخصب الذي يستطيع فيه أن يحقق أحلامه .

يدخل تلك الجامعة طالباً ، ويظهر فيها مقدرته وتفوقه ؛ فتعجب به الجامعة وتعامله كما عاملت الجامعة المصرية ابنها الفذ (طه حسين) فترسله على نفقتها إلى أوربا كي يتم فيها تحصيله ، ويعود إليها بعد ذلك أستاذاً للحقوق .

إن هذا المنصب بما يضمن له من حياة ميسورة يكفيه عناء المادة ، ويمكنه من أن يقف حياته وقلبه على خدمة العلم والتعليم .

على أن هذا الحلم الذي خاض نفسه ودغدغ حيناً من الدهر خياله ، لم يلبث أن تحطم وتلاشى على شفتي رئيس الجامعة المذكورة ؛ فقد أعلمه هذا الرئيس أن من المحال أن ينيله (السعادة والرضى) وأن يقبله في معهد الحقوق ؛ وحجته في ذلك أن هذا المعهد لم ينشأ إلا لتخريج المبصرين ، أما العُمْيُ فليس لهم في نظر ذلك الرئيس إلا أن يحفظوا القرآن الكريم ، وأن يتكسبوا عيشهم من تشييع الموتى وإيناسهم في مراقدهم الموحشة .

ولا ريب أنكم تقدرون ما تركت هذه الخيبة في قلب الفتى الحساس من ألم ؛ غير أن هذه الصدمة وإن تكن أعنف ما لقي في طريقه فإنها لم تزعزعه ولم تدفعه إلى اليأس والاستسلام .

إن نفساً كنفس (طريف) طموحاً جموحاً ، لا تعرف اليأس ولا ترضى دون غايتها مقراً ؛ فما إن قنط صاحبنا من الجامعة الوطنية وارتد عنها دامي القلب مغرورق العينين ، حتى ازدحمت في صدره الآمال وانبثقت منه الأحلام ؛ فتذكر أن في العالم جامعة غير الجامعة الوطنية ، وأن في مقدوره أن يجاور كلكتا ، وبومباي ، وطهران ، ولندن ، وباريس ، وغيرها من المدن الجامعية ، علّه أن يجد في كنفها من العدل والتشجيع ما لم يجد في الجامعة الهندية الصينية .

ولم تمض على ذلك غير شهور حتى كان (طريف) يختلف إلى مدرسة الحقوق الفرنسية في (سيغون) ؛ ثم ركب البحر إلى مرسيليا ، ومنها يأخذ القطار إلى باريس ، فينزل الحي اللاتيني ، ويتنقل بين مدارج معهد الحقوق والآداب ، ومدرسة العلوم السياسية .

(نبع — بيروت) **الدكتور عارف المعلوف**

اتحـــاد للرجال

هل تدعو الحاجة إلى تأسيس اتحاد للرجال يقف فى وجه اتحاد النساء ؟ !

يبدو غريباً من غير شك هذا السؤال الذى يضع مكانة الرجل فى العالم فى موضع الشك والامتحان .

ولكن الرجل الذى ورث من الأجيال الماضية سلطاناً على المرأة لم يكن محدوداً قد ورث أيضاً ثقة بدوام ذلك السلطان ، وإن منح منحاً متوالية للمرأة حدّت من ذلك السلطان وقصت أطرافه ؛ وهذه الثقة هى منشأ الخطر ، ثقة الأرنب بالظفر يوم سابقته السلحفاة ، فضحك منها ولها ولعب حتى سبقته وهو الذى يثب الوثبة الواحدة فيسبق سير السلحفاة ساعات .

لقد بدأت المرأة صراعها مع الرجل أحسن بدء يوم طالبت بقسط من التعليم وأيدها من الرجال فى ذلك كل مصلح .

وأحسنت المرأة بعد الحصول على ذلك القسط ، أحسنت المطالبة بمساواتها بالرجل فى التعليم ، وتسلحت بما لا يحسن غيره من السلاح ، وهو الصياح والبكاء والعويل ، ففازت فى تلك الجولة أيضاً ، إذ أيدها من الرجال من يشبه الطابور الخامس اليوم ، عن حسن نية من غير شك ، ولكنهم نالوا من مكانة الرجل فى العالم ما لم تنله أشد التطورات خطراً .

المرأة نصف الانسانية من غير شك ؛ وخير للانسانية ألف مرة أن يكون ذلك النصف مثقفاً متعلماً حتى يأنس إليه النصف الآخر لتقاربهما فى الثقافة والتعليم ، فلا يكون البيت نافهاً جافاً فى نظر الرجل ، ولكن مدى تلك الثقافة التى تتمتع بها المرأة هو الذى انخدع فيه الرجل ، وخدعته فيه المرأة بمساعدة فريق من الرجال أحسنوا النية أكثر مما يجب .

مكان المرأة فى العالم هو البيت تديره وتدبر شئونه ، وتسهر على رفاهيته وصحة أفراده ، وتحسن التصرف فى إيراد الأسرة ؛ وهذا كله يحتاج إلى ثقافة وتعليم لا ينكر أحد ضرورتهما ، وهذا كله يحتاج إلى مجهود يكفى المرأة ويزيد على طاقتها فى بعض الأحيان .

وأنا لا أدعى أن تعليم المرأة تعليماً كافياً لقيامها بذلك العبء غير ضرورى ، بل بالعكس أقرر أن تعليمها واجب جوهرى للارتقاء بالإنسانية إلى أوج الكمال .

ولكن ... ولكن المرأة لا تريد أن تؤدى رسالتها كما يجب عليها أن تؤديها ، تريد أن تقتحم على الرجل مكانه الذى خلق له ؛ وهنا أحب أن أسأل المرأة سؤالاً تبدو عليه البساطة :

— من الذى يقوم بعبء المرأة إن خرجت وقامت بعبء الرجل ؟ ! من الذى يدير البيت ويربى الأطفال ويهيئ للأسرة عيشها السعيد ؟ ! ليس فى العالم سوى الرجل والمرأة ، فإما أن يقيم كل منهما فى مكانه ، المرأة فى البيت والرجل فى معترك الحياة يكد ويكسب ، وبذلك يستمر التوازن فى الحياة بين الجنسين ، وإما أن تتم المرأة سعيها فى احتلال مكان الرجل ؛ وهنا لا بد لها من أن تجيب على هذا السؤال : من الذى يشغل مكانها من البيت ؟ !

لقد أحسن الرجل الظن بالمرأة حين قامت تطالب بقسط من التعليم ، وقال فى نفسه إن تعلمت المرأة جعلت البيت أقرب إلى الجنة منه إلى النار ؛ وتعلمت المرأة فكان لتعليمها أثر محمود فى سعادة البيت .

ولكن المرأة لم تقف عند هذا الحد ، بل تخطته تحت ستار طلب العلم لذاته وتذوقاً للذته ، فدرست الفلسفة والطب والقانون ، والرجل لاه لهو الأرنب عن السلحفاة ؛ وإذا المرأة بعد أن درست هذه الدراسات التى يدرسها الرجل رأت فى نفسها أنها ساوته ؛ فلم لا تطالب بالاشتراك معه فى

الأعمال العامة ؟ ولم لا تشتغل بالصحافة والمحاماة والطب وغيرها من الأعمال العامة ؟ وإذا بمشكلة البطالة بين الرجال تشتد وتستفحل وتزيد كل يوم، لأن المصلحة قضت على رجال الأعمال بتفضيل المرأة على الرجل لرضائها بالقليل من الأجر، فملأت المرأة مكان الرجل وتركت مكانها في الحياة شاغراً، فامّحت من الوجود أسرات كان يجب أن تتكون لو أن الرجل هو الذي تولى عمله الطبيعي، فإن الشاب لا يكاد يجد عملا يكسب منه حتى يفكر في الزواج وتكوين أسرة.

المرأة طردت الرجل من عمله ليتسكع في الطرقات، وحرمت عليه تكوين الأسرة ! وهي بعد ذلك إما أن تخرج على الطبيعة البشرية كما خرجت على المجتمع، وتتنكر على نفسها عاطفة الجنس التي تعترف بها جميعاً، وإما أن تطالب بالخطوة الطبيعية التالية، وهي أن تملك المرأة حق اختيار الزوج علنا وصراحة، فتتزوج المرأة الشاب الذي يعجبها، على أن تكفل له بيتا سعيدا تقوم هي بالإنفاق عليه، على أن يعنى هو بشئون البيت والسهر على الأطفال. هذا غريب طبعاً، ولكن إن سار الأمر في طريقه العادي فلا بد للإنسانية من الوصول إليه.

إن كان الرجل يرضيه أن يصل إلى هذا المكان من الوجود، وأن تتطور الإنسانية وتتحور، فيصبح الرجل مكان المرأة، وتصبح المرأة مكان الرجل، فليصبر على نشاط اتحادات النساء في مختلف البلدان صبر الأرنب على السلحفاة حتى تظفر بالجائزة.

لعلك بعد أن قرأت هذا الإنذار تتساءل عن السر في مبعثه، ولم لم يظهر هذا الإنذار قبل اليوم.

مبعث هـذا الإنذار أن جريدة الأهرام نشرت من أيام أن فتاتين تخرجتا من إحدى كليات الجامعة توجهتا إلى وزارة العدل، وطلبتا من أولى الأمر فيها أن يجدوا لهما عملا يتناسب مع مؤهلاتهما الدراسية.

ولقد قرأت هذا الخبر فإذا به يدل على أن المرأة لا تزال تواصل سعيها في حرص، تبدأ بالقطرة الواحدة حتى تصل إلى السيل، وبالحبة حتى تصل إلى القبة ؛ فظاهر الخبر لا يدل على شيء ذي خطر. فتاتان نجحتا ونالتا إجازة الكلية التي تسوغ للشاب التوظف في وزارة العدل، فطلبتا أن تسوي الوزارة بينهما وبين الشبان. ومن يكره المساواة في عصر الحرية والعدالة والمساواة ؟

ولكن طلبهما هذا إذا أجيب سيصل بنا بعد عشرين عاماً إلى أن نرى هيئة محكمة الجنايات وقد تصدرتها أقدم المستشارات، وجلست إلى يمينها مستشارة أخرى، وجلس إلى اليسار مستشار حديث ؛ وفي كرسي النيابة جلست وكيلة النائب العمومي تدهن شفتيها بقلم الزينة الأحمر، بعد أن محت من أظافرها ما كان عليها من أصباغ.

لا تدهش فهذا مصير الحال حتما. فهاتان الفتاتان إن لم تعينا عضوين في النيابة ستعقبهما غيرهما من الفتيات. ومن البديهي أن من تكون منهن من المتقدمات، وهن كثيرات، ستطالب بحقها في شغل وظائف النيابة ؛ وسينتصر لهن بعض حسني النية من الرجال كالعهد في كل خطوة خطتها المرأة، وهكذا ينسخ قول الله جلت قدرته: «الرجال قوامون على النساء». فيكون مصير القضاء والمجالس الحسبية إلى اشتراك بين النساء والرجال. ولتسمح لي المرأة أن أذكرها بما أجمع عليه رجال الاجتماع من أن العاطفة في المرأة لها من المكان ما للعقل في الرجل ؛ فالرجل دائما لا يصدر في تصرفه إلا عن وحي العقل، والمرأة لا تصدر إلا عن وحي العاطفة، فإلى أين يصل القضاء إذا تحكمت في القضاء العواطف ؟!

وستقول المرأة: وماذا على المرأة إذا اشتركت في القضاء مع الرجل تمشيا مع مبدأ المساواة الظاهرية ومبدأ الحيف

٢ - الخشب

ليس تمييز الخشب من الأمور السهلة ؛ فقد يكون ذلك ميسوراً في بعض الأخشاب المشهورة الشائعة الاستعمال . ولكن عند ما تتعدد الأنواع والأصناف في التجارة والصناعة — وهي تزيد على ألف وثلاثمائة من الأنواع الخشبية التجارية — يحتاج التمييز بينها إلى دراسة مستفيضة لمعرفتها . فكما أن أزهار الفصيلة النباتية الواحدة تتشابه جداً في الشكل والتركيب ، ويمكن وضع رسم إجمالي لها جميعاً ، فكذلك أخشاب هذه الفصيلة ، وإنما تتباين في تفاصيل دقيقة . كما أن هناك فروقاً ، يحتاج إبرازها إلى خبرة ودراية ؛ والمشتغلون بالصناعات الخشبية يعرفون الصعوبة في التفرقة بين بعض الأصناف كالماهوجني الأفريقي والأمريكي .

ويعتمد التاجر والصانع في معرفة أنواع الخشب التي يشتريها أو يصنعها على دقة ملاحظته وخبرته التي اكتسبها بالمران ، فهو لا يحتاج في التمييز بين أخشاب الزان والبندق والجوز والبلوط والصنوبر إلى فحص مجهري أو إجراء عمليات مما سنشير به هنا ، ولكنه لطول عهده بها أصبح يعرفها بمجرد النظر ، ولكنه لا يستطيع تمييز المئات من الأصناف الخشبية الأخرى ...

على أن الفحص الدقيق يضيف صفات أخرى كثيرة ، تسهل معرفة الخشب وتمييزه ، وتمنع الخلط بين صنف وآخر . فلون الخشب مع أنه من الصفات الأساسية إلا أنه قد يختلف ؛ فخشب الأبنوس المعروف بلونه الأسود قد يوجد أحمر اللون وبه خطوط سوداء ؛ وهناك نوع من الخشب أبيض اللون ، وقد يوجد هو نفسه أسود اللون .

وقد اصطلح على اتخاذ وزن القدم المكعبة من الخشب الجاف وحدة لمقارنة الأصناف الخشبية ، وأعدت جداول بها الأرقام الدالة على وزن القدم المكعبة من

والجور في الحقيقة ؟ فالمرأة بدل أن تكتفي بالبيت ، وهو نصف الانسانية ، قد خرجت إلى ميدان العمل تغتصب من الرجل ما تستطيع اغتصابه من حقه ، وتحتل ما يمكنها احتلاله من مكانه .

المرأة تسير بخطوة السلحفاة نحو السيطرة على الرجل والرجل يلهو لهو الأرنب ثقة منه بمكانته في الوجود ، تلك المكانة التي ورثها من الأجيال الماضية ، واعتزازاً بسلطانه الذي ورثه من الماضي وثقته بذلك السلطان .

والمرأة قد أسست الاتحادات المطالبة بحقها ؛ ولكنها بعد أن نالت ذلك الحق لم تحل تلك الاتحادات ، وإنما واصلت تلك الاتحادات مساعيها لا لنيل حق المرأة وقسطها من التعليم ، ولكن لتسطو على أماكن الرجل في الحياة ، وتطغى على حقه في القوامة على المرأة ؛ وهي بذلك كلما تقدمت في سبيلها هذه قللت من عدد الأسرات في العالم ؛ فالمرأة التي تشتغل مكان رجل قد منعت ذلك الرجل من تأسيس أسرة ، فاذا تزوجت وهي في عملها ، فمعنى ذلك أن أسرة واحدة قد اغتصبت حق أسرة أخرى في الوجود .

المرأة تريد السلطان ، ولكنها تهدم في سبيل الحصول عليه أمراً كان يجب أن تؤسس .

ولا سبيل إلى وقف هذا الاعتداء إلا بتأليف اتحاد للرجال يقوم في وجه مساعي اتحادات النساء ؛ وخليق بالمرأة قبل أن يبدأ الصراع الجدي الذي ستنهزم فيه من غير شك إن تنبه الرجل وبدأ الوقفة ، خليق بالمرأة أن تعود إلى البيت متعلمة مثقفة ، وأن تترك الأعمال للرجال ، فان لم تعد فاني أخشى أن تكون نتيجة المعركة أن يحرم على المرأة التعليم إطلاقاً .

عرفان سعد

أصناف الخشب المختلفة ، يمكن استشارتها لمعرفة الصنف المطلوب . وإن كنا نلاحظ أن هذه الأرقام مرنة إلى حدما ، إلا أنها مع الصفات الأخرى تحدد النوع

والصفات الطبيعية للخشب مرتبطة بعضها كل الارتباط ؛ فالوزن والصلابة والكثافة ، تختلف فيما بينها لتأثر التركيب والبيئة والافرازات وما إليها . فمقاومة الخشب لآلة ما تختلف ، فهي للمنشار غيرها للمسمار أو المطرقة أو السكين ، وصلابة الأبنوس معروفة مشهورة رغم قابليته للكسر .

وتعرف بعض الأخشاب ببرودة ملمسها ، فتكون كالرخام ، كما أن بعضها دافئ كالصوف ، وبعض أنواع الخشب تعرف رائحتها أو طعمها ، حتى إنه يمكن تمييزها دون فحص أو نظر . فخشب (تيك) معروف برائحته ، كما أن الخشب الذي تصنع منه أقلام الرصاص معروف بأنه لذيذ المذاق ، علاوة على طيب نكهته . أما خشب كاسيا Quassia فإنه يعرف بمرارة طعمه ، وكانت تصنع منه بعض الفناجين ، فكانت تكسب السوائل التي تترك فيها طعماً مراً .

على أن الرائحة هي أهم هذه الصفات المميزة للخشب ، وهي إن تلاشت أو ضعفت في الأخشاب القديمة ، فإنه يمكن إذكاؤها بعمل قطع حديث في الخشب ، وتكون واضحة كل الوضوح في عمليات النجارة المختلفة . وفي بعض الأحيان تكون رائحة الخشب قوية مثيرة ، حتى إنها قد تسبب العطس أو إسالة الدموع ، كما في خشب العطوس الذي تنمو أشجاره في جنوب أفريقيا حول مدينة الرأس . وبعض الأخشاب يفوح منها شذى عطرى عند الاحتراق ، كما في خشب الصندل الذي تصنع منه أعواد الند .

وتتباين قابلية الخشب للاحتراق بدرجة عظيمة في الأصناف المختلفة ؛ فمنها ما يشتعل متوهجاً ، ومنها ما يقاوم فعل النـار .

ومن المحقق أن الصانع والتاجر قد ألفوا خبرة واسعة من متانة الأخشاب وقوة احتمالها وصلابتها ومرونتها وطاقتها كوقود ، إلى غير ذلك من الصفات التي تميز خشباً من خشب ، مما يجعل لآرائهما قيمة كبيرة في مساعدة العالم الباحث أو النباتي الخبير .

وعلى عالمنا أن يبدأ بعمل قطاع رقيق في الخشب الذي يراد دراسته ، وأن يصقل بإحدى آلات النجارة قطعاً من الخشب ، ويحسن تنديتها بالماء أو الجلسرين لتسهيل العمل والدراسة ؛ ويستعمل الجلسرين خاصة في حالة الأخشاب التي تحوى تانين ، لأن هذه المادة تكون مع حديد الآلة مداداً أسود يشوه القطاع ويعوق عن دراسته ، أما عند وجود الجلسرين فإن هذا التفاعل لا يتم .

وهناك صعوبات ثلاث تعترض هذا العمل البدائي في دراسة الخشب :

أولاً — أن يكون الخشب هشاً طرياً .

ثانياً — أن يكون الخشب صلباً قوياً يقاوم الآلات وسواعد العامل .

ثالثاً — أن يحوى الخشب كثيراً من الأشعة النخاعية الرقيقة النسيج بطبيعة تركيبها وتكوينها ؛ فإن القطاعات في هذا الخشب تبدو مفككة ، حتى إن القطاع ليتجزأ إلى أجزاء بقدر ما فيه من أشعة .

لذلك فإن الحيطة والعناية واجبتان جداً للحصول على القطاعات المطلوبة . ويجب أن يحوى القطاع كلاً من الخشب الصميمي والخشب الرخو ، والثاني أسهل من الأول في معالجته ؛ وأحياناً يكاد يكون من المستحيل عمل قطاع في الخشب الصميمي كما في بعض أنواع الأبنوس . . .

ثم يوضع القطاع على شريحة من الزجاج ، ويندى بالماء بضع مرات ، ثم يجفف بورق النشاف ، ثم يطمر في الجلسرين . وأحياناً يجرى الفحص دون طمر ، كذلك دون صبغ ، حيث تبدو الأنسجة بلونها الطبيعي .

ويجرى عدّ الثقوب والأشعة في وحدة المساحة ، كذا يقاس عرض الأشعة النخاعية . وهي صفة ثابتة تقريباً في الأجناس . فأشعة البلوط العريضة خاصة بهذا الجنس . أما شجر الصمغ الأسترالي فإنه يتميز بالأشعة الضيقة ، فيصل عددها إلى ٢٢ في المليمتر المربع ، كذلك الثقوب فإن عددها يتراوح بين ١ و ٤٠٠ في المليمتر المربع الواحد . وطبيعي أن يجرى هذا الفحص بوساطة المجهر أو الفانوس السحري . فتعمل ثقوب في ورقة من القصدير ، مساحة كل ثقب مليمتر مربع ، ويغطى القطاع بورقة القصدير ، ويعرض تحت المجهر ، أو يعرض بالفانوس ، وتعد الأشعة والثقوب (الأوعية) وكذلك عدد الثقوب في كل مجموعة . وتعمل مثل هذه الدراسات على قطاع طولي قطري وآخر جانبي ، وذلك لمعرفة طول الشعاع وسمك القنوات الراتنجية ، وخاصة في أخشاب الصنوبريات . . .

واستعمال الفانوس السحري يسهل هذه الدراسات إلى حد كبير ، فهو فضلاً عن أنه لا يؤذي العين كالمجهر ، فإنه يمكن عرض مساحات عدة في وقت واحد .

ومن الصفات المميزة للخشب لون محلوله ، ويحصل عليه بغلي قطعة من الخشب في الماء أو الكحول . فمن المعروف أن الماء يذيب الأصباغ ، ولا يؤثر على الراتنجات ؛ لذلك تغلى بضع شرائح رقيقة في الماء ، ثم تغليها في الكحول ، وبذلك نستخلص الأصباغ والراتنجات جميعاً . ولنتأكد من وجود الصمغ يضاف الكحول إلى المحلول المائي ، فيتكون راسب أبيض .

أما التانين فيتثبت من وجوده بإضافة محلول ملح من أملاح الحديد ، فيتكون راسب أزرق ، كذلك يستعمل محلول البوتاسا الكاوية للكشف عن بعض الظواهر والخواص .

وهناك أخشاب لها أهميتها الطبية ، لما تحويه من مواد تستغل طبياً .

ولتقدير الوزن الجاف يكرر وزن الخشب عدة مرات حتى يثبت الوزن ، ومنه يحسب وزن القدم المكعبة ، وهي الوحدة المستعملة في هذه الحالة . كذلك يمكن حساب الوزن النوعي للخشب بغمس قطعة منه في مخبار مدرج به ماء أو زئبق أو ماء جير .

أما مذاق الخشب فقد قسم إلى مراتب هي :

لذيذ — مثل خشب Pencil Ceder .

مقبول — مثل خشب تنوب Spruce .

راتنجي — مثل خشب صنوبر Pitch Pine .

قابض — مثل خشب البلوط Oak .

مر — مثل خشب كاسيا Quassia .

مثير — مثل خشب العطوس Sneeze wood .

وبالمثل يمكن تقدير الرائحة . غير أن لكل تقديره الخاص بالنسبة للروائح ؛ ولتقدير درجة الاحتراق تؤخذ شظية من الخشب ويقرب منها عود ثقاب مشتعل ، فإذا احترقت الشظية وهي قائمة ، ولهبها المشتعل إلى أعلى فهي جيدة . أما إذا انطفأت واحتاجت لإعادة الاشتعال فهي رديئة . كما أن رماد الخشب قد يبقى متماسكاً أو يبدو هشاً تذروه الرياح .

وبعض الأخشاب تحدث فرقعة أثناء احتراقها ، وهي نتيجة اشتعال المواد الامرازية التي بالخشب . كذلك ينبغي ملاحظة رائحة الخشب عند الاحتراق ، وما يخرج منه من عصير أو أصباغ أو راتنجات سائلة ، وكذلك

لون هذه السوائل ؛ فهذه كلها معلومات لها قيمتها فى الدلالة على نوع الخشب وصنفه ؛ ولعلها فى كثير من الأحيان مع دراسة سطحية بعدسة جيب تغنى عن الدراسات المستفيضة بالمجهر أو غيره .

أما متانة الخشب فإنها مسألة تقديرية هى الأخرى ؛ ولقد ابتدع « تورد لنجر » طريقة لتقديرها ، وذلك بوزن مقدار النشارة التى يلفظها المنشار بعد أن يمر فى الخشب عدداً معيناً من المرات . وقد قدرها غيره ، بأن يحسب المسافة التى ترتدها كرة من الخشب بعد أن تصطدم فى جسم صلب ؛ وقدرها ثالث بالعمق الذى ينفذ إليه وزن معين مدبب من الصلب فى الخشب ؛ على أن هذه الطرائق جميعاً وغيرها كثير ليست دقيقة . ولكنها صالحة للمقارنة بين الأخشاب المختلفة . ولعل أقرب هذه الطرق إلى الدقة تلك التى وصفها « ستون » فى كتابه عن الأخشاب التجارية ، ولكنها تحتاج إلى جهاز خاص معقد التركيب .

ويستطيع الانسان أن يكون فكرة تقريبية عن متانة خشب ما ، بمحاولة عمل قطاع عرضى فى الخشب بالظفر ، فيرى إلى أى مدى اجتاز ظفره الخشب ، كما أنه سيحس بالمقاومة التى لقيها من الخشب ؛ وعلى أى حال فقد رتبت الأخشاب إلى مراتب تبعاً لصلابتها إلى : فائق الصلابة ، وممتاز الصلابة ، وصلب جداً ، وصلب ، ومعتدل الصلابة ، وهكذا[1] . وكذلك ملمس الخشب ودرجة لمعانه ... إلى غير ذلك من الصفات .

وينبغى أن نميز بين الصلابة والمتانة ، كالفرق بين صلابة حديد الزهر والصلب ، أو بين صلابة الأبنوس ومتانة الزان .

والآن : كيف نستطيع أن ننسب خشباً ما إلى شجرته التى اقتطع منها ؟

تنتسب الأشجار الخشبية إلى ثلاث مجاميع نباتية رئيسية هى :

١ — معراة البذور .

٢ — ذوات الفلقتين .

٣ — قليل منها ينتمى إلى ذوات الفلقة الواحدة .

ومن السهل جداً التمييز بين أخشاب هذه النباتات ، فبينها من الفروق التشريحية والتركيبية ما يمتنع معه كل لبس .

وفى معراة البذور يمكن التفرقة بين أخشاب الأشجار ذوات القنوات الراتنجية ، وتلك التى لا توجد فيها هذه القنوات . كذلك يسهل التمييز بين الصنوبريات والأرز والسرو وغيرها .

وقد أمكن بالمثل تقسيم أشجار ذوات الفلقتين إلى فصائلها وأجناسها تبعاً لتركيب الخشب والأشعة النخاعية وترتيب الثقوب ، ونسيجية الخشب ، ونظام النقر ، وغير ذلك من الصفات التشريحية الثابتة التركيب فى فصائل وأجناس بذاتها .

فعلى من شاء أن يعرف قطعة من الخشب أن يقدر الوزن الجاف للقدم المكعبة ، والوزن النوعى ، والصلابة ، ويتعرف إلى رائحة الخشب ، ومذاقه ولونه ، ولون محلوله ، وأن يصف تعرقه ، وقلقه ، وحالته عند الاحتراق ، وحالة الرماد ؛ وأن يقدر الخشب الصميمى والرخو ، ونسبة كل منهما ، ويفحص الثقوب ، ودرجة توزيعها ، كذا الأشعة النخاعية ، والحلقات السنوية ، والنخاع والأنسجة ذات الخلايا الرقيقة ، وأن يدرس قطاعات عرضية ، وطولية قطرية ، وطولية جانبية ، فانه إن أجرى هذه الدراسات جميعاً ، يصل حتماً إلى معرفة الشجرة ؛ ولعله يستطيع أيضاً معرفة موطنها إن كانت من الأشجار التى تجود وتكثر فى مواطن خاصة

وهناك بعض الصفات الأساسية التى تتميز بها بعض الأخشاب :

---

(١) درجات الصلابة : ١ — فائق الصلابة ٢ — ممتاز الصلابة ٣ — صلب جداً ٤ — صلب ٥ — صلب نوعا ٦ — متين ٧ — هش ٨ — هش جداً .

١ – خشب الأبنوس : زن القدم المكعبة منه نحو ٨٢ رطلاً ، درجة صلابته ١ لا رائحة له ، خشبه الرخو مرّ الطعم ، ولكن الصميمى أقل مرارة . جيد الاحتراق ، قليل الرائحة والدخان ، محلوله المائى أحمر خفيف ، والكحول أحمر .

التمرق – دقيق جميل ، والقلف أسود أدكن ، سمكه نحو ½ بوصة ، يتساقط على هيئة قشور ، ولون الخشب الصميمى أسود ، به خطوط قرمزية ، سهل التمييز من الخشب الرخو المنتظم ذى اللون الأحمر القاتم .

الثقوب – متوسطة الحجم (٣) ، منتظمة التوزيع فى الخشب الرخو ، والأشعة عديدة دقيقة مستقيمة أو متموجة ، تختلف بين ٨ ، ٢٣ فى المليمتر ، والحلقات غير واضحة .

٢ – خشب بندق : وزنه الجاف من ٣٥ – ٤٥ رطلاً للقدم المكعبة . درجة صلابته ٧ عديم الرائحة ، طعمه قابض بجفف ، يحترق بهدوء ، يتوهج فى الهواء الساكن ، محلوله المائى لا لون له ، تمرقه جميل دقيق ، سمك قلفه ١/٣٢ من البوصة ، متساقط داكن اللون . اللون أبيض أو أبيض مشرب بحمرة ، أغلب الخشب رخو غير متين ، الأشعة واضحة ، وهى على نوعين ، والحلقات متميزة ، والنخاع ذو ثلاثة فصوص .

٣ – خشب بلوط : وهو على أنواع : منه الأوربى ، والأمريكى الأحمر ، والأمريكى الأبيض ، والأسبانى وغيرها ، يتراوح وزن القدم المكعبة بين ٣٥ ، ٧٠ رطلاً فى أصنافه المختلفة ، درجة صلابته ٦ ، له رائحة خفيفة ، ومذاقه قابض مجفف ، جيد الاحتراق ، محلوله المائى أحمر ، تمرقه واسع جميل ، ولون خشبه الصميمى أحمر ، وهو واضح مميز من الخشب الرخو ذى اللون القاتم .

الثقوب واضحة . حجم ١ منتظمة التوزيع ، والأشعة على نوعين ، والحلقات واضحة متموجة ، والنخاع مخمس الشكل .

٤ – خشب زان : وهو على أنواع ، وزن القدم المكعبة منه ٤١ – ٥٦ رطلاً ، درجة صلابته ٦ ، لا رائحة ولا طعم له ، جيد الاحتراق دون شرر أو فرقعة ، قليل الدخان . محلوله المائى عديم اللون . تمرقه جميل دقيق ، وسطحه ناعم ، وقلفه ناعم غير متشقق جلدى ، سمكه ¼ بوصة . لون الخشب أبيض مشرب بحمرة ، وأغلبه رخو ، ولا يتميز الصميمى إلا فى الأشجار المسنة . الثقوب دقيقة ، والأشعة واضحة مستقيمة قصيرة لامعة . الحلقات واضحة والنخاع أحمر ذو ثلاثة أضلاع أو خمسة .

٥ – خشب صنوبر : ويسمونه فى التجارة Pitch Pine وزنه الجاف من ٣٧ – ٤٣ رطلاً للقدم المكعبة . درجة صلابته ٣ ، له رائحة التربنتينا ، وله نفس مذاقه ، جيد الاحتراق بلهب داخن ورائحة الراتنج . التمرق جميل منتظم . والثقوب عبارة عن قنوات راتنجية . وترى فى الخشب دوائر راتنجية اللون وأخرى حمراء فاتحة ، والأشعة واضحة حمراء ، متموجة والحلقات متميزة .

دكتور عبد الحليم منتصر

المراجع :
١ – ستون : الأخشاب التجارية .
٢ – جامبل : أخشاب الهند .
٣ – برسيفال : أخشاب نيوزيلانده .
٤ – شس : الأشجار الخشبية فى وبلز الجديدة الجنوبية

مجلة الأنصار

استقبلت زميلتنا « الأنصار » عامها الثانى فى غرة محرم سنة ١٣٦١ ، وقد صدر العدد الأول فى حجم أكبر ، ومادة أوفر ، وأبحاث جديدة ، وموضوعات شائقة ، وقد عبرت الزميلة عن اتجاهها الصادق فى خدمة الفكرة العربية ، ونشر الثقافة الاسلامية . فنرجو لها بهذه المناسبة دوام التوفيق .

من هنا وهناك

السؤال رقم ٩ : هل توجد أصوات لا يمكننا سماعها ؟

عند ما يهتز جسم فانه يرسل تموجات تنتقل من طبقة إلى أخرى فى الهواء بسرعة كبيرة جداً حتى تصل إلى الأذن فيتذبذب غشاؤها تبعاً لذبذبة الجسم وينشأ من ذلك ما يعرف « بالصوت » .

ويمكن لغشاء الأذن البشرية أن يتأثر بالذبذبات التى تقع بين ٢٠ و ٢٠٠٠٠ ذبذبة فى الثانية الواحدة ؛ فاذا كان عدد الذبذبات التى يحدثها صوت ما يخرج من نطاق هذين العددين بأن كان أقل من ٢٠ أو أكثر من ٢٠٠٠٠ ، فان الغشاء فى الحالة الأولى يتذبذب تذبذباً ضعيفاً ، وفى الحالة الثانية لا يستطيع أن يساير الذبذبة ، وفى كلتا الحالتين لا تشعر الأذن بوجود صوت .

وكلما كبر الانسان فى السن ازدادت صلابة غشاء الأذن وقلت بذلك حساسيته .

وقد وجد أن أذن الطفل تميز أصواتاً لا تستطيع أن تميزها أذن الشاب ، إذ أن غشاء الأولى لا يزال رقيقاً ذا حساسية كبيرة .

وهناك أصوات كثيرة تحدثها بعض الحيوانات الصغيرة والحشرات لا يمكن أن تميزها الأذن البشرية ، إذ أن ترددها (١) يكون عادة عالياً كما فى حالة الخفافيش أو منخفضاً جداً كما فى حالة السمك .

كما أن عكس ذلك جائز ، أى أن بعض الأصوات التى يحدثها الانسان لا تؤثر على أعضاء سمع الحيوانات ؛ ولنضرب لذلك مثلاً ظاهراً : فالضفدع لا يظهر التفاتاً أو مبالاة لصوت أقدام رجل يقترب منه لأنه لا يسمعه ، ولكنه عند ما يراه يجزع فيهرب إلى الماء أو يختفى وسط الحشائش . وكذلك حال الجندب — وهو نوع من الجراد الصغير المعروف بأبى نطيط — والصرصور .

ومن أسرار الطبيعة أن لكثير من الحشرات أعضاء سمع تميز بها شيئين لا ثالث لهما .

أولاً : الصوت الذى تحدثه مثيلاتها فقط .

ثانياً : الصوت الناتج من ذبذبة أجنحة أعدائها من الطيور .

ومن التجارب التى أجريت لبيان ذلك التجربة الآتية :

سجل صوت صرصور ذكر على شريط كهربائى ، ثم أذيع هذا الصوت فى مكان معين ، فلوحظ أن أنثى صرصور قد خرجت من جحر من أحد جدران هذا المكان ، واتجهت نحو جهاز الصوت وحامت حوله ، لأن صوت الصرصور الذى يزعجنا به فى ليالى الصيف هو مناجاة لاستمالة أنثاه كى تسعى إليه .

محمد أحمد أمين

(١) التردد هو عدد الذبذبات فى الثانية .

مع الكتب الجديدة

١ — من البرج العاجى
٢ — تحت المصباح الأخضر

للأستاذ توفيق الحكيم

هذان الكتابان الجديدان للأستاذ توفيق الحكيم يسجلان للأستاذ نشاطه فى الانتاج ، فقد صدرا فى أسبوع واحد ، وقامت على نشرهما مكتبة الآداب . أما الأول فهو الصفحات التى نشرها الأستاذ بمجلة الرسالة تباعاً . وأما الثانى فلا شك أن قراء الثقافة يذكرون ذلك الباب الذى كان يتولى تحريره فى عامها الأول ، مختاراً له عنوان هذا الكتاب ، وقد زاد الأستاذ على ما كتب فى كلتا المجلتين ، وأعاد النظر فى بعض ما رآه فى كثير من المقالات ، فخرجت آراؤه — ويجب أن نذكر أن الكتابين عبارة من تأملات لتوفيق الحكيم فى شئون الفكر والأدب والفن — ناضجة لها قيمتها بين الأحكام الأدبية والفنية .

ويمتاز عرض الأستاذ الحكيم لتأملاته وآرائه بالطرافة والقدرة على جذب القارئ نحو هذه الآراء والتأملات والاعجاب بها ، كما أنه يستعين فى الادلاء بها بالأمثلة المستمدة من إلمام واسع بالفن والأدب . ولا شك أن قراء الأستاذ الحكيم مغتبطون جد الاغتباط بحصولهم على هاتين المجموعتين لكتاباته ؛ ولا شك أن النقاد واجدون فى هذه التأملات — وقد ضمنها الأستاذ دفتى كتاب — موضوعاً طريفاً للمناقشة والدرس ، فهو قد سجل على نفسه فى هذين الكتابين آراء ، كان ينثرها من قبل على صفحات المجلات ، نثر السائر لأفكاره من نافذة القطار ، كما قال مرة فى إحدى مقالاته .

وقد طبع كلا الكتابين على ورق أنيق من القطع المتوسط وتبلغ صفحات كل منهما مائتى صفحة أو تزيد قليلا .

٣ — القاموس السياسى

وضع هذا الكتاب الأستاذ أحمد عطية الله وقامت على نشره مكتبة النهضة المصرية ، وقد جاء صدوره فى أفضل وقت ، فهو كتاب يستفيد منه كل مثقف فى حياته العملية ومرجع يستعان به فى الظروف الحاضرة على معرفة أسماء الأماكن والأشخاص والهيئات العالمية التى يتردد ذكرها فى الصحف والكتب .

وقد اتبع الأستاذ أحمد عطية الله فى تبويب قاموسه الطريقة الأبجدية لشرح أسماء الأعلام والأماكن والأحزاب والمصطلحات السياسية التى يعنى بها المصريون ، مما يرد فى الصحف المحلية والأنباء العالمية والأسماء التاريخية ، وعنى بالناحية المصرية فى قاموسه واستعان بالاحصائيات والخرائط لتوضيح كثير من نواحى النشاط الاقتصادى والسياسى ، ويزيد فى قيمة قاموسه المعلومات التى أضافها إليه ، كميزانيات الدول المختلفة وإحصائيات صادراتها ووارداتها وصلة كل منهما بمصر .

وتبلغ عدد صفحات هذا القاموس ٥٠٠ صفحة من القطع الصغير مذيلة بخرائط توضيحية قيمة .

٤ — حياة مى

وضع هذه الرسالة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وهى صفحة وفاء للفقيدة الكريمة ، ضمنها الأستاذ دراسة لحياتها وثقافتها ونواحى نشاطها ، وعرض بالتحليل لهذا النشاط ، وبسط الكثير من آرائها فى شئون الأدب والفن والمرأة . ثم أضاف إلى ذلك جملة أحاديث قيمة لأعلام الفكر والأدب والسياسة ممن اتصلوا بمى وخبروا نفسها وألموا بإنتاجها ، فأتم بهذا دراسته عنها ، فجاءت — على إيجازها — محققة إلى حد بعيد ما ترمى إليه من تقدير لمى .

وقد قامت مطبعة المقتطف بإصدار هذه الرسالة فى حجم متوسط ، وعلى صورة أنيقة ، فكانت آية جديدة من آيات وفاء الصحافة لمى ، الصحفية البارعة .

صلاح

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرماني عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٢٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٢ — الثلاثاء ١٧ من محرم سنة ١٣٦١ — ٣ من فبراير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــــدد

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكى بك

اليابان

فى المقال السابق تحدثنا عن اليابان ، كيف توزعت جزرها الأربع الأصيلة فى المحيط الهادى وقبالة القارة الأسيوية ، وكيف أنشأت لها بالفتح جناحين من الجزر طوّقت بهما بحرين عظيمين حبست وراءهما روسيا والصين . وألممنا كذلك بالهبات التى أعطتها الطبيعة إياها ، فخلقت منها أمة بحرية كبرى .

واليوم نترك البحر ونهبط على أرض اليابان ، على هذه الجزر الأربع التى منها تتكوّن اليابان الأم ، ندور بضع دقائق على سطحها وفى جوها دورة خاطفة تعين على ما نعالج بعد ذلك من حياة اليابان .

أرض اليابان ، اليابانِ الأمّ ، أرض أكثرها الجبال وأقلها السهول . والناس إنما يعيشون على ما تنتج الأرض السهلة من زروع . وسهول اليابان ، أو ما يزرع من أرضها ، لا يزيد على ١٢ ٪ من مساحة البلاد . وهى مساحة ما كانت لتقوم بطعام سكانها ، وهم سكان متزايدون زيادة دائمة على السنين ، لولا نظام للزراعة شديد الحبك محزوم الأطراف ، أساسه استغلال كل شبر من الأرض بأكبر مقدار من السماد فى كل شهر يأذن بزراعة كائنة

هذه ما كانت . حتى سفوح الجبال القريبة سوّوها مدرجات أفقية يعلو بعضها فوق بعض طبقات لتحبس وتحتفظ بالذي يصيبها من الأمطار . فعلى هذه الأمطار تعتمد الزراعة . وهي أمطار صيفية غزيرة جداً ، تنزل بالرىّ في أفضل أوقاته ، أوقات الصيف والحرارة والحياة .

وإن يكن فات اليابانَ ثروة السهول فقد كسبت جمال الجبال . وهي جبال خضراء ، لا كجبال مصر . تصعدها فتجد فيها خضرة النبات من صنع الانسان إلى ٥٠٠ قدم . ثم تصعد فوق ذلك فتجد خضرة البرارى تمتد إلى ٢٠٠٠ قدم . ثم تذهب صُعُداً فتدخل منطقة الغابات وبها الصنوبر والزان والبلوط . وأنت في أثناء هذا قد ترى خيالك في بحيرة تجمّع ماؤها في الأعالى ، أو تسمع خرير ماء يهبط من شلال . وقد تعددت هذه البحيرات ، وتجمّلت بما تشدّه الطبيعة حولها من مناظر رائعة زادتها بهاءً صنعةُ الانسان . لهذا اتخذوا منها منازل للصيف . وهى تعلو من سطح البحر أربعة آلاف فما فوقها من الأقدام . وهذه البحيرات تفوق ملأتها الأمطار ، لهذا قد يبلغ عمقها الثلث من الأقدام . وهى تُفرغ ماءها في مهابط سحيقة الأعماق ، يتراءى فيها الماء من بعيد كعمود الفضة السبيك الجامد ، فإذا اقترب الناظر منه وجد فيه الحياة ، حركةً عنيفة دائمة لا تسكن ، وثبا مُضطرباً واحداً لا يختلف باختلاف الليل والنهار . ولا تبلغ هذه الجبال مناطق الثلوج الدائمة أبداً ، فارتفاع أكبرها ١٢٤٠٠ قدم .

وكثير من هذه الجبال براكين ، وقد عدّوا البراكين فبلغت مائتى بركان ، أكثرها نائم ، والصاحى منها خمسون . وقد علّمت الحوادث أهلَ هذه البلاد أن لا يطمئنوا إلى بركان نام أبداً ، حتى لو سكن شخيره وانقطعت أنفاسه ومضى على انقطاعها السنون ، فهو قد يصحو فجأة من أعمق نومة ، فيتقلّب ، فتتقلب بتقلّبه القرى والديار .

وقد أحصوا ما كان في اليابان من زلازل ذات بال في القرون الثلاثة الماضية فكانت فوق المائة . والأرض تصيبها غير هذه الزلازل العنيفة هزّات هيّنة كل يوم ، تسجلها الآلات الدقيقة بالمراصد . وقد رصدت هذه الآلات في ثلاث عشرة من السنين في ختام القرن الماضى ١٧٧٥٠ هزة ! وهذا عدد مخيف يبعث الرعب في قلوب السكان ، ولكن العلماء وجدوا له تفسيراً خلقوا به من خوف الناس أمناً ، فهم يقولون إن هذه أنفاس القِدْر المكتومة تخرج نفساً نفساً فتذهب بالضغط من داخل القدر فلا يكون انفجار . فالناس مطمئنةٌ ما أحسّتْ أنفاسَ القِدر ، منزعجة عند سكون هذه الأنفاس . وقد عزا العلماء هذا الاضطراب الدائم إلى أن اليابان لم تستقر بعدُ في مجلسها من سطح الكرة الأرضية ، فوَرِكها اليمنى الشرقية على المحيط الهادى دائمة الصعود ، ووركها اليسرى الغربية على بحر اليابان دائمة الهبوط ، والجسم الذى بينهما يتحرك ما تحرّكت الوَرِكان .

ومن أشد هذه الهزّات عنفاً زلزال عام ١٩٢٣ ، فقد هدم نحواً من ثلث العاصمة توكيو . وللعاصمة ميناء بالقرب منها يُدعى يوكوهاما ، تدخل إليه البواخرُ الكبيرة التى لا تستطيع دخول ميناء العاصمة لضحالتها . فهذا الميناء مسحه الزلزال مسحاً . وبلغ عدد المنازل التى هدمها هذا الزلزال ٥٦٠٠٠٠ منزل . قال شاعرنا المرحوم شوقى يصفه :

قف بـ(طُوكْيو) وطف على (يُكُهامه)
وسل القريتين كيف القيامه
دنت الساعة التى أنذر النا
س وحلّتْ أشراطُها والعلامه

خُسفت بالمساكن الأرض خسفاً
وطوى أهلَها بساط الاقامه

طوّفت بالمدينتين المنايا
وأدار الردى على القوم جامه

لا ترى العين منهما أين جالت
غير نقْضٍ أو رمّةٍ أو حطامه

حازم من مراجل الأرض غير
في مدى الظن عمقه ألف قامه

دولة الشرق وهي في ذروة العزّ
تحار العيون فيها فخامة

خانها الجيش وهو في البر درع
والأساطيل وهي في البحر لامه

لو تأملْتَها عشيةَ جاشت
خِلْتَها في يد القضاء حمامه

رجّها رجّة أكبّتْ على فم
يه (يوقا) وزلزلت أقدامه

ويوقا لم ينكبْ وحده، فقد انكب وتحطم معه من تحف الفنّ وآثار التاريخ ما لا يقدر بمال.

أما جو اليابان فقد حدّده موقعها من البحر، وموقعها من القارة، وموقعها من خطوط العرض بسطح الكرة الأرضية. وأخيراً ما عليها من جبال. ويمكن تقسيمها من حيث جوها إلى نصفين: شمالي وجنوبي. أما الشمالي فبرودة شتائه تبلغ ١٠ درجات تحت الصفر، وحرّ صيفه ١٧ درجة فوق الصفر. وبما أن الياباني لا يصمد للبرد الشديد، فقد خفّ سكان الجزيرة العليا لشدة بردها. وأما النصف الجنوبي فبرودة شتائه يبلغ أقصاها ٩ درجات فوق الصفر، وحرُّ صيفه يبلغ سبعاً وعشرين. فهو قريب من جوّ مصر الشمالي.

أما من حيث المطر فاليابان في عمومها جافة شتاءً، بليلة صيفاً. وليس معنى هذا أنه لا ينزل شيء من السماء في الشتاء أصلا، فانه ينزل الكثير، لا سيما في الجبال الوسطى والساحل الغربي، ولكنه ينزل متلوجاً فيكسو الأرض كساءً أبيض سميكا عميقاً تلبسه ما دام الشتاء، فاذا حلّ الربيع ساح فسال يجري هابطاً متدفقاً يملأ الجداول والأنهار.

وأنهار اليابان لا يمكن بعد الذي وصفنا من أرضها إلا أن تكون قصيرة محدودة، إذا ملأها السيل سريعاً، أفرغها انحدارها سريعاً، فهي لا تلبث عند انقطاع السيول أن تنضمر فينكشف مجراها عن حصو ورمال. لهذا عز النقل بالسفن في اليابان.



ويأتي الصيف من بعد ذلك فتكثر الأمطار وتغزر، وتنهمر سفوح الجبال. وقد تتجمع فتسد الطرق. وقد

تشتدّ وتعنُف فتهدّها هدّاً . وقد عوّقت هذه السيول اليابان عن بناء السكك الحديدية زمناً طويلا ، وعوّقها عن بنائها كذلك انحدار جبالها الكبير . فالسكك لا بد أن تدور حول الجبال لكي تبلغ غايتها . مثال هذا أن المسافة بين العاصمة القديمة كيوتو ، والعاصمة الجديدة توكيو ، تبلغ ٢٣٠ ميلا ، ولكنها بالسكة الحديدية تبلغ ٣٣٨ ميلا . وبسبب انحدار هذه الجبال ، وبسبب غزارة الأمطار وعنف السيول ، لا تكاد تجد إلى اليوم في البلاد طرقات جيدة المواصلات تربط شتى المدن إلا نادراً .

ومن أجل هذا قلّت السيارات في البلاد ، فأنت تجد أكثرها في المدن تعمل في محيطها بالأجرة تكسيات .

وعلى كثرة جبال اليابان ، وتطاول سلاسلها ، فقد انكشفت أرضها عن سهول هنا وهنالك ، عليها استقرّت الأمة اليابانية ، ومنها تُنتج الغذاء .

ففي اليابان نحو من ١٦ مليون فدان تغذّي نحواً من ٧٠ مليون إنسان ، وهي مساحة ، إذا اعتبرنا موقع اليابان من شمال الأرض ، لا تكاد تكفي في تغذية هذا العدد من السكان . ويتضح هذا بمقارنتها بمصر ، وسكانها ١٦ مليوناً ، وأرضها المفلوحة ٥ ملايين . فالمليون من الأفدنة في مصر يعيش بمحصوله نحو من ٣ ملايين من الناس ، بينما هو في اليابان يعيش بمحصوله ٤½ ملايين من الناس . وأرض مصر تجود شتاءً وتجود صيفاً ، وأرض اليابان تحدّ من مقدورها قسوة الأجواء . فلولا أن مطر هذه البلاد ينزل صيفاً ، وينزل غزيراً ، ما كان لهذه الأمة بهذه الكثرة وجود . وقد سهل لها أمر الزراعة خصوبة أرضها ، واعتدال مناخ الجنوب . كذلك سهله أنه على كثرة أمطارها ، فهذه الأمطار لا تكاد تحجب الشمس إلا بمقدار ما ينزل المطر ، فاذا نزل وبلل البلاد حتى أغرقها أو كاد ، تحت السماء فأرسلت الشمس أشعتها طليقة طويلة بيضاء تنشر على الحقول سرّ الحياة من حرارة وضياء . وقد عدّوا أيام المطر والغيم فكانت ١٥٠ . وعدّوا أيام الصحو فكانت ٢١٥ .

وسيد مزروعات اليابان الأرز ، وهو يعدل نصف ماتنتج الأرض من المحصولات الأخرى أو يزيد . تجده في كل القرى وكل البقاع ، وحيثما اطمأنت له الأرض وساعد عليه الجو ، حتى على جوانب الجبال . وهو يُزرع في مربعات أو مستطيلات أو مثلثات تفصلها حواجز من الطين جدّدتها حشائش مزروعة فيه . وهي أشكال هندسية تُجلّل وجه الأرض فيتراءى هكذا في بلده الدائم للناظر إليه من أفق بعيد . وهي مساحات لا تخلو من الماء أبداً إلا قرب الحصاد . فاذا حُصِد الأرز ، فما أسرع ما تعمل الأيدي في الحقل تجهّزه للزرعة الثانية . فأكثر من ثلث أرض اليابان يقبل زرعتين ويُنتج حصدتين من الأرز في العام .

ومع هذا فاليابان لا يكفيها أرزها فتستورد المزيد .

وقد جاء على اليابان زمان لم تكن تعرف فيه القمح ، ولكنها أخذت في زراعته بعد ذلك ، حتى بلغ المزروع منه مليون فدان . ولكن الياباني الشعبي لا يود من أرزه بديلا . ومنه يَصنع خمره ، وتُعرف بـ « الساكي » . والشعب الياباني يشرب الكثير .

ومن الحبوب الأخرى تزرع اليابان الشعير ، والجويدار وهو حب كالشعير . ثم الفول ، وهو ليس كفول مصر ، ولكنه نوع آخر من البقول اسمه فول صويا ، يزرع بكثرة في شرق آسيا من قديم الزمان . ويزرع منه في اليابان أكثر من مليون فدان ، وهو يزرع لزيته ، فبالحب ٢٠٪ من الزيت . وهذا الزيت يصنع فيأكله الناس ، أو هو يستخدم في صناعة الصابون ؛ والثُّفل المتخلف من العصر يُصنع منه دقيق يُصنع منه

التضـــــحية

للأستاذ أحمد أمين بك

لعل من أهم الفروق بين أمة راقية وأمة غير راقية، أن أفراد الأولى يشيع بينهم العمل لأنفسهم ولغيرهم، وأن أفراد الثانية لا يعملون إلا لأنفسهم.

فاهو الجو حولنا مشبع بالأنانية إلى أقصى حد؛ هذا موظف كل همه أن يرضى رؤساءه في الحدود الضيقة لينال «درجة»، ولا يهمه بعد ذلك قضيت مصالح الناس أو لم تقض. وهذا موظف آخر لم يمنح من الرتب ما يشتهي، فهو يضن بمقدرته وكفايته على الناس، وكل ما يعمل أن يؤدى الأعمال الآلية التى تنجيه من العقوبة ومن التبعية القانونية، فهو يحضر فى الميعاد وينصرف فى الميعاد، ثم لا روح فى عمله، ولا شعور بواجبه. وهذا غنى لا ينظر فى تصرفاته إلا إلى شخصه مهما شقى الناس من حوله. وهذا مزارع من كبار المزارعين لا ينظر فى مشروع القطن والقمح إلا بمقدار ما يحتمل أن يدخل جيوبه من مال، مهما جاعت الأمة وعدمت القوت. وهذا ترى ذو جاه يستعمل جاهه ونفوذه فى الهرب من ضريبة واجبة عليه، أو يتحايل فى تخفيفها إلى أقصى حد ممكن، فتكون النتيجة أن يدفع الضريبة كاملةً غير القادر ويهرب منها أو ينقص منها القادر — وهذه هى الروح الشائعة التى نراها فى البيت وفى الشارع وفى المصلحة، وفى البيع والشراء، والأخذ والعطاء: أنانية مسرفة، فى حدود ضيقة، لا ينظر معها الانسان إلا إلى نفسه، وإلى نفسه فقط، يدور فى خلده أن ينهب من اللذائذ ما استطاع قبل فوات الوقت، ويهرب من الواجبات ما استطاع مع المحافظة على الشكل، حتى لا يقع فى يد القانون. يردد قول أبى فراس: «إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر»، ويهزأ ببيت أبى العلاء:

خبزاً يأكله المرضى بالبول السكرى. وللبابانيين فى هذا القول على اختلاف مخلوقه مآرب كثيرة ومنافع عدة للناس والحيوان. فمن ذلك أنهم ينقعونه ثم يسحقونه بالماء، ثم هم يصفونه، فيخرج صافيه كاللبن مظهراً، وهو كاللبن كذلك تركيباً، ففيه الدهن الكثير والزلال الكثير. ومنه غذاء الأطفال فى هذا الشرق البعيد.

ومن مزروع اليابان الشاى، ومن تهيئه أخضر للشراب، وأكثره يذهب إلى الولايات المتحدة. وقد كانت تصدّر لها من قريب بين ثمانين ومائة مليون رطل فى العام.

ومن مزروعها شجر التوت، يزرعه ثلاثة أرباع مدربيها. فتجده فيها أينما ذهبت، صفوفاً صفوفاً، قام عليها الشجر متباعداً، وفيما بينها يزرع اليابانى فى الأرض ما يشاء. واليابان تزرع التوت لورقه، فعليه يُرَبَّى دود القز فى كل البلاد. والذى يربيه هو نفس الفلاح الذى يحرث الأرض ويبذر البذر ويجمع الحصاد. وفى البلاد آلاف المغازل، يديرها الناس فى بيوتهم. وقد قارب عددها مائتى ألف بيت، فمائتى ألف أسرة. واليابان تنتج من الحرير إذا استثنينا الصين ثلاثة أرباع ما ينتجه العالم.

ولصغر المساحات المزروعة بالنسبة للسكان، ولشدة طلب الحَبّ لإعاشة الانسان، ضاقت أرض اليابان من أن تسع الكافى من الحيوان. فهى تشكو قلته، وقلة ما يترتب على وجوده من سائر الحاجات. فهى تشكو انعدام الصوف، وقلة اللبن والزبد والجبن، وكذلك الجلود.

فهذا ما تستظهره أرض اليابان من زروع، أما الذى تستبطنه من معادن . . .

أحمد زكى

فلا هطلت عليّ ولا بأرضى
سحائب ليس تنتظم البلادا

ويقول البـارودى :

أدعو إلى الدار بالسقيا وبى ظمأ
أحق بالرى لكنى أخو كرم

***

ليس مظهر التضحية مقصوراً على الجنود فى مواقف القتال ، فليس هذا إلا مثلا عالياً من أمثلة التضحية ، ولكن هناك أمثلتها العديدة فى الحياة اليومية لكل فرد ؛ فالذى يتنازل من لذته الفردية الضيقة للمصلحة العامة الواسعة يكون مضحياً على قدر ما بذل ؛ فالموظف ينال شيئاً من العناء لراحة الجمهور مضح ، والمدرس يبذل أقصى جهده فى إعداد درسه وإيصاله إلى طلبته مضح ، والغنى يتنازل عن بعض لذائذه لخير النـاس مضح ، والزارع يرعى حال فلاحيه مضح ، وهكذا . وعلى قدر انتشار هذه الروح فى الأمة يكون مقدار رقيها ونجاحها — ولا تفلح أمة يبحث أفرادها عن لذائذهم الشخصية فقط ، مهما حسن تشريعها وصلح قادتها ؛ فشرّع ما شئت لتنظيم التموين فلن ينجح ما دام كل فرد لا ينظر إلا إلى شخصه ، وشرع ما شئت من تنظيم الضرائب فلن ينجح مع محـاولة الأفراد الهرب منها ، وشرع ما شئت لاصلاح الفلاحين فسيظلون كما هم ، ما دام التشريع لا يلقى مجاوبة من نفوس القادرين .

***

لقد أضاع علماء النفس المحدثون جمال التضحية بما أفرطوا من تحليل ، وما أرجعوا من أعمال نبيلة إلى غرائز وضيعة ، وما وصلوا إليه من أن مظاهر إنكار الذات تعود فى آخر أمرها إلى حب الذات ؛ فقالوا — مثلا — إن السياسى الكبير الذى يدل مظهره على أنه يؤدى واجبه ، ويخدم أمته ، ويتحمل أشق الأعباء فى سبيل مجدها ورقيها ونهوضها ، لو حللت البواعث التى دفعته إلى عمله وسلوكه هذه السبيل ، لوجدتها ترجع فى النهـاية إلى غريزة حب الذات ، وشعوره الكمين بأهمية ذاته ، وعظم شخصه . والواعظ الذى يعظ النـاس ويذكرهم بالدين ، ويخلص فى سبيله ، ويتحمل أشد العذاب فى سبيل تحقيق دعوته وانتشار عقيدته ، إنما تصل فى النهاية عند تحليل نفسه إلى حبه إظهار شخصه ، وتمجيد ذاته ، والتفات الناس إليه ، واتجاههم نحوه . والزاهد الذى فر من الحياة ولذاتها ، واعتكف فى الأديار أو التكايا أو نحوها ، وتجرد من الدنيا وشؤونها ، لم يكن فى الحقيقة عند التأمل العميق فى بواعثه إلا ناظراً لنفسه ، هارباً من تبعات الحياة وتكاليفها . والطبيب الذى يعنى بمرضاه ولا يعنى بنفسه ، ويتعرض للأخطار أيام الوباء إنقاذاً للناس ، ولو كان فى ذلك حتفه — قالوا — إنما يبحث وراء حسن سمعته وذيوع شهرته . والعـالم الذى يقضى أوقاته فى معمله أو فى مكتبه باحثاً منقباً وراء حقيقة يكتشفها ، أو نظرية يعثر عليها ، أو اكتشاف يخدم به الانسانية دواءً لمرض ، أو إمتاعاً للناس فى ناحية من نواحى حياتهم ، ليس — فى نظرهم — إلا محبياً لمـا ركب فى طبيعته من حب الاستطلاع . والمصلح الذى يكدح ليله ونهاره فى سبيل خدمة قومه وإصلاح عيوبهم ، ومعالجة ما أصيبوا به من مرض اجتماعى ، ليس يرجع ذلك — فى رأيهم — إلا إلى حب الظهور ، وإشباع رغبته فى إعظام نفسه ، والدوىّ حول شخصه . بل قالوا أكثر من ذلك وأعنف ؛ فقالوا : إن الممرضة التى تهب نفسها لخدمة المرضى ، وتعمل جهدها فى الرحمة بهم ، وتلطيف عذابهم ، وتضميد جراحهم ، وتجد من نفسها السعادة فى تفريج كربهم وتخفيف آلامهم ، ليست فى الحقيقة مدفوعة إلى ذلك إلا لداعى ما ركب فى غريزتها من الاستطلاع الجنسى . قالوا : وإنما اختارت هذا

الضرب من الاحسان لأنه محفوف بما يغذى نفسها من مظاهر الاعجاب والمدح والثناء ، والظهور بمظهر من يفنى ذاته في نفع الناس ، ويضحى بخيره لخير الناس .

وهكذا رجعوا كل البواعث النبيلة ، ومظاهر التضحية الجلية للغرائز الوضيعة المتأصلة في النفس ، والبواعث الذاتية المتمكنة في الانسان منذ ظهوره على وجه الأرض .

وقالوا : وما ذنبنا أن وجدنا الانسان هكذا خلق ، وعلى هذا طبع ، وهو هو من بدايته إلى نهايته ؟

ولكن أحق كل هذا ؟ أيستطيعون أن يستمروا في تفسيرهم لكل أنواع التضحية من شخص لا يؤمن بدين ، وهو — مع هذا — يرى نفسه في ميدان القتال دفاعاً عن أمته ، وأم تضحى براحتها ولذتها لابنها من غير أن تنتظر مثوبة أو جزاء ، ونحو ذلك من أمثلة لا تعد ؟

وهب ذلك كله صحيحاً ، فهل ذهب جمال التضحية وقيمة التضحية ؟

لتكن كل هذه الأعمال النبيلة ناشئة عن غرائز شخصية وبواعث ذاتية ؛ فهذه الغرائز في الحقيقة والواقع قد تتجه إلى أعمال خسيسة فنكرهها ونشمئز منها ، وهي هي قد تتجه إلى أعمال تنفع الناس فنعجب بها ونمجدها . إن حب الذات قد يدفع الشخص إلى أن يقتل استيلاء على مال القتيل ، وقد يدفعه إلى أن يقتل دفاعاً عن أمته أو دفاعاً عن عرض فتاة ؛ وحب الظهور قد يغذى غريزته بتضليل الناس ، وخلق المؤامرات ، وتدبير الدسائس حتى يعترف له بالقدرة ؛ وقد يغذى غريزته بالاحسان الكثير والاصلاح الكبير . والمرأة قد تدفعها غريزتها الجنسية إلى الاستهتار ، وقد تدفعها الغريزة نفسها إلى التمريض ؛ فالغريزة في كل هذه الحالات واحدة ، ثم قد يصدر عنها الخير ، وقد يصدر عنها الشر ، فالعبرة بالنتائج لا بالتحليل إلى العناصر الأولية . وخطأ علماء النفس هؤلاء — إن كان ما يقولونه صحيحاً — أنهم أفرطوا في التحليل ، ولم ينظروا في التركيب ، بالغوا في المقدمات وأعرضوا عن النتائج .

لتكن كل الأعمال ناتجة عن حب الذات ، فلا تزال هناك أعمال نبيلة وأعمال خسيسة ، ولا يزال هناك من الأعمال ما يصح أن يسمى « أثرة » وأنانية وما يصح أن يسمى إيثاراً وتضحية ، وكل الفرق فرق في التعريف لا في المعرَّف ، وفي العرض لا في الجوهر ؛ فعلى قولهم تكون التضحية أن يجد المرء لذته الشخصية فيما يعود على الناس بالنفع ، وعلى قول الآخرين هي أن يبعثه على عمله نفع الناس وخيرهم ، ولا عبرة بالمقدمات إذا تساوت النتائج ، وليس يهمنا أن يكون الباعث له على إتيان الخير لذته الشخصية أو رغبته في الصالح العام مادام العمل ينتج هذا الخير .

ولا تزال الناس بعد هذا البحث السيكولوجي منقسمين إلى قسمين : قسم لا ينظر إلا إلى شخصه في حدوده الضيقة ، وقسم ينظر إلى شخصه في حدوده الواسعة . قسم ينظر إلى ذاته كما ينظر الحيوان ، وقسم ينظر إلى ذاته كفرد في أمة وعضو في جسم وفرع في شجرة ، يوفق بين نفعه ونفع أمته ونفعه ونفع شجرته . قسم بلغ به ضيق النظر أن يجد لذته في حرمان الناس وسعادته في شقاء الناس ، أو هو على الأقل لا يهتم بالناس ، وقسم بلغ من سعة نظره أن يجد لذته في لذة الناس ، وسعادته في سعادتهم ، وخيره في خيرهم ، وهذا غاية الرقي . وخير الناس من استطاع أن يوفق بين غرائزه وخير الناس ؛ فإذا كان محباً للظهور فليظهر بما ينفع أمته ، وإذا كان محباً للاستطلاع فلا يستطلع أخبار الناس وعيوبهم وخفاياهم ، وإنما يستطلع حقيقة مجهولة في العلم أو قانوناً مجهولاً في الطبيعة ؛ ومن كان في طبعه الخوف فليخف من شر يلحق الناس ، وأذى ينالهم ، ولا يخف من أوهام من خلقه ، وعفاريت من خياله . وهكذا

مهما قيل فالتضحية أنبل ما وصل إليه الانسان . منظرها أجمل منظر وأروعه ، ولا شيء يكسب الأمة قوة كما تكسبها التضحية ؛ فالأمة المضحية تأ كل غير المضحية في سهولة ويسر ، لأن الأمة المضحية كتلة متماسكة ووحدة واحدة ، والأمة غير المضحية أفراد متفككة ، وشهوات متعددة تتحارب أجزاؤها ، ويأ كل النزاع والشهوات والأنانية قواها . فالأسرة التي يعمل فيها كل فرد لشخصه أسرة ميتة ، والمصنع الذي يعمل فيه كل فرد لمصلحته الخاصة لا يبقى شهراً ، والحزب الذي ينظر فيه كل عضو إلى نفسه فقط حزب مصطنع لا حول له ولا قوة ، والأمة التي يحسب فيها كل فرد حساب لذته الخاصة هي أفراد لا أمة .

في الأمة التي تسودها التضحية كل أفرادها أقرباء ، وفي الأمة التي تسودها الأنانية كل أفرادها غرباء .

التضحية عشق وهيام ، ومحال أن يصدق عشق على أساس الأنانية ، إنما يصدق يوم يقول ويؤمن بما يقول : « إني أضحي أماني وسعادتي وشخصي وكل ما يقف في سبيل الحب لحبي » .

لا تكون التضحية حتى يشعر القلب لذة العطاء كما يشعر لذة الأخذ ، ولذة أن الناس يَحمِدُون ويسعدون كما يشعر أن يتلذذ من أن يحمد ويسعد .

التضحية إرادة القوي ليقوى ، وإرادة الضعيف ليتخلى من ضعفه — هي حجر السن تُشحذ عليه الارادة لتقطع الصعاب وتجتاز العقاب ، وهي النار المقدسة التي تطهر النفوس وتأ كل الأعشاب الطفيلية .

التضحية أشرف الطرق تسير فيه الأمة لتحقيق ذاتيتها ، وأنبل السبل تسير فيه الانسانية لتبلغ غايتها ، وبدونها يصبح الانسان حجراً لا روح فيه ، أو بهيماً يعيش ليأ كل .

التضحية أفق واسع تنعم فيه النفس بجمال السعة وبعد المدى وجلال اللانهاية ، والأنانية أفق ضيق تألم فيه النفس بضيق المكان ، وتنقبض فيه من كثرة السدود والحدود .

في التضحية حرارة تضيء وإيمان يثمر ، وفي الأنانية جمود بارد وإلحاد مقبض .

في التضحية حياة كلية شاملة وفناء النفس فيما حولها ومن حولها ، وفي الأنانية حياة جزئية محصورة ودوران النفس حول ذاتها في جمود وركود .

في التضحية كرم وسماحة ، وفي الأنانية شح وكزازة ، « ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

أحمد أمين

من معاني الوطنية :

نابليون أسطورة أدبية

« كان الأطفال يخرجون من مدارسهم ، فلا يرون سيوفاً ولا دروعاً ، ولا مشاة ولا فرساناً ، فيتساءلون : أين إذاً آباؤنا ؟ ويكون الجواب : إن الحرب قد انتهت ، وإن قيصر (نابليون) قد مات ، وإن صور ولنجتون وبلوخر قد أصبحت زينة غرف استقبال السفارات ودور القناصل ، وقد كتب من تحتها : إلى منقذى العالم .

هكذا جلست على أطلال عالم مندثر شبيبة مهمومة ، شبيبة نبتت من قطرات الدماء الحارة التى غمرت الأرض ، ولدوا فى جوف الحرب للحرب ، وقد رعت أحلامهم خمسة عشر عاماً ثلوج موسكو وشمس الأهرام ، لم يخرجوا من قراهم ، ولكن كم حدثوا أن كل باب من أبواب تلك القرى يقود إلى عاصمة من عواصم أوربا . لقد تمثل بعقولهم عالم بأكمله ، ثم هاهم ينظرون إلى الأرض والسماء والمسالك والطرق ، فإذا الكل صامت خال ، لا يسمع فيه غير دق النواقيس تتردد أصداؤه فى الآفاق البعيدة .

لقد كانت نفس الشبيبة عندئذ تتنازعها قوى ثلاث : من خلفهم ماض قد تحطم إلى غير رجعة ، وإن كان لا يزال ينتفض تحت ما خلف من أنقاض يرقد بين حناياها من تحجر من شيعة عهد الاستبداد المنصرم . ومن أمامهم فجر أفق شاسع قد أخذ يرسل أول أشعة المستقبل ، وبين هذين العالمين محيط كذلك الذى يفصل قارتنا القديمة عن العالم الجديد ، شباب يختلج مجهو العالم ، بحر عاصف يغص بالغرق ، وإن لاح بآفاقه البعيدة من حين إلى حين شراع أبيض أو سفين ينفث البخار كثيفاً ؛ ذلك هو عهدنا الذى يفصل الماضى من المستقبل ، فلا هو هذا ولا هو ذاك ، وإن أشبه كليهما . وما نخطو به قدم إلا تساءلنا : أبذرة ما نطأ أم طلل ؟

وسط هذا السديم كان على أولئك الشباب ، أبناء الأمبراطورية وحفدة الثورة الذين يتفضون قوة وإقداماً أن يتخيروا ما يريدون أن يشقوا من سبيل » .

فى هذه القطعة التى ننقلها عن « اعترافات فتى العصر » لألفريد دى موسيه فهم دقيق للحالة النفسية التى خلفها ما اصطلح على فرنسا من أحداث جسام فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وعن تلك النفسية صدر الأدب الرومانتيكى .

وذلك أن الرومانتزم ليست فى الحق مذهباً أدبياً دعا إليه الكتاب أو اصطنعوه اصطناعاً وهى على النقيض خروج على كل مذهب وتحطيم لكل قيد ؛ وإنما هى حالة نفسية ولدتها الثورة وما تلاها من مجد نابليون ، ثم من انهيار ذلك المجد ؛ وإنما أصبحت مذهباً عند المقلدين الذين طوى الزمن ما أجهدوا أنفسهم فيه من سخف مصنوع ، على نحو ما هو طاو ما لا يزال المتأدبون منا يأخذون به أنفسهم من التحدث فى شعرهم عن جبال نهار أو تلاع تشرق عليها شمس مصر وادينا المنبسط .

شبت الثورة فقلبت أوضاع الحياة : أعزت رجالا وأذلت رجالا ، بل كم من سرة أكلت بنيها ؛ وجاء نابليون فملأ الوجود بمجده حتى أصبح الشباب لا يحلمون بغير المعارك وقيادة الجيوش يكتسحون بها العالم ، فيتحدث الناس ببطولتهم كما يتحدثون عن أمبراطورهم العظيم ؛ ثم كانت واترلو التى تحطم فيها مجد ذلك البطل ، وإذا بجزيرة سانت هيلانة رمز لما يخبئ القضاء للرجال من محن .

وتساءلت الشبيبة : ترى أذلك ما ينتظرنا من مصير ؟ أما من سبيل إلى تحقيق أحلامنا ؟ ثم أبصرت ما بين الواقع وتلك الأحلام من هوة لم يعد سبيل إلى عبورها ؛

فانطوت على أنفسها ، وعن العمل فاتخذت حياتها موضوعاً للنظر ، وشغل الأدب نشاطها المتعطل فإذا به أدب شخصي.

وهال الشبيبة ما أحست من عجز وحزن ، فقال قائل منهم : « المرء طفل يهذبه الألم » ، « لا شيء يسمو بنا قدر ما تسمو الآلام » . وقال آخر : « إني أحب جلال الألم البشري » ، ولقد يعود قائلهم إلى نفسه ، فإذا بها قد ضاقت بحزنها ، وإذا بها تود أن تلتمس العزاء فيما تصيب من مسرات عارضة تقدرها قدرها لأنها عرفت الأحزان .

واستمع بعضهم إلى نداء الطبيعة تدعوهم إلى صدرها الرحيم ؛ فمنهم من خف إليها يلتمس في جمال زينتها سلوى من آلامه ، ومنهم من أخذته العزة بالإثم فقال : « لا ، ما بي حاجة إليك ، وما أنت لنا أم ، بل زوجة أب — كم أفنيت من أجيالنا نحن وأنت باقية خالدة تحدثينا عما نحن صائرون إليه من فناء » ثم انصرف إلى أطلال الماضي يحتضنها بحبه ، ولم لا ؟ وما هي إلا صورة لنفسه .

تلك هي الرومانتزم : خروج على تقاليد الأدب الكلاسيكي ، بل وعلى كل أدب ، في زمن بلغت فيه الحاجة إلى العبارة عن النفس مبلغاً لم يدع مجالا للتفكير في أصول الأدب — نظر في المصائر الخاصة ، وقد التوت السبل ، واستحال العمل ، فانطوى كل على نفسه . حزن عميق يصرف الشعراء إلى مناظر الطبيعة ، بل إلى أنقاض الماضي ، يفكرون خلالها وتفكر خلالهم ، ثم إحساس دقيق بما بين الواقع والخيال ، بما بين الفرد والجماعة ، بما بين الحرية والقيود ، بما بين الماضي والحاضر من صراع هو مصدر البلوى .

وأما ما دون ذلك من بحث عن طرق الأداء في آداب القرون الوسطى القومية النشأة ، أو من استلهام لآداب الألمان أو الإنجليز التي بصرهم بها مدام دي ستايل وشاتو بريان وأمثالها بدلا من الرجوع إلى الآداب اللاتينية اليونانية ، فأعراض لا تمس روح الأدب الرومنتيكي في شيء يذكر .

وعلى هذا النحو نفس الدور الذي لعبته شخصية نابليون في نشأة هذا الأدب الذي لسناه قريباً . أليس هو مصدر تلك الأحلام التي رنحت الشباب حيناً من الزمن ، ثم جاء الواقع القاسي فحطم تلك الأحلام ، وإذا بالأدب ينحو هذا النحو الحزين الثائر الذي يتميز به ما بين أيدينا اليوم من آثار ذلك العهد الأدبي الرائع .

جاهدت فرنسا في ثورتها ، وحسبت أن العناية الإلهية قد ساقتها لتحمل الحرية إلى شعوب الأرض قاطبة على يد نابليون ، ثم هاهو نابليون يُلقى أسيراً محطماً بجزيرة موحشة ، بل هاهي فرنسا ذاتها في قبضة أعدائها يملون عليها إرادتهم ، وقد أنزلت بها الحروب الطويلة البؤس والدمار ؛ فأي غرابة إذاً في أن تكتسح الرومانتزم الأدب الكلاسيكي — أدب الحقائق العامة — أدب التقاليد الأدبية والأرواح المطمئنة ؟

وبعد لقد تحدث الناس عن نابليون كقائد عظيم ، فمنهم من نقم عليه تحطيم فرنسا وإفناء أبنائها في سبيل مجده الخاص الذي لم يلبث أن انهار ، تاركا حسرة مرة بنفسه ، وخراباً مخيفاً ببلاده ؛ ومنهم من التمس له عذراً فيما كان يدعي من رغبة في تحرير الشعوب التي غزاها ، وحمل لمبادئ الثورة العريقة إليها ؛ وتحدثوا عنه كمصلح خلف في فرنسا آثاراً مدنية ما تزال إلى اليوم موضع فخارها — القانون المدني المعروف باسمه ، والمكتبة الأهلية التي تضم اليوم ملايين المجلدات ، ثم المعهد الفرنسي ، وبنك فرنسا .

وأما عن نابليون كمثل احتذاه الشبان ، فكان له في نفوسهم أكبر الأثر ، وأما عن نابليون كمصدر من مصادر حركة أدبية خصبة ، وأما عن نابليون كأسطورة قومية ، فذلك ما قل أن يتحدث عنه المحدثون

وفي الحق أن الرجل العظيم لا يصح أن تقاس عظمته بما استطاع تحقيقه ، أو بما خلفه من آثار ؛ فتلك أشياء قليلة الأثر مهما عظمت إلى جانب قوة إيحائه قوة قد تبلغ في توجيه النفوس ما لا يبلغه أكبر الأحداث ؛ وذلك لما هو واضح من أن الإشعاع الشخصي أنفذ إلى القلوب ، وبخاصة قلوب الشباب ، من أي معنى من المعاني أو أمر من أمور الحياة العامة .

ولكم من شاب يحدثك من أمله في أن يكون هذا الرجل أو ذاك قبل أن يكون صاحب هذه الحرفة أو تلك ؟

ذلك تأثير الأبطال في نفوس الشباب الطامح تأثيراً فيه الخير وفيه الشر : الخير إن تحققت الآمال ، وهذا ما يتاح للقليل ، والشر إن تنكرت لهم حقائق الحياة المرة ، وذلك لسوء الطالع مصير الكثيرين ممن لا يهتدون إلى الإيمان بأن الجهاد في سبيل المثل الأعلى لا يقل نبلا عن تحقيقه .

ولكن الزمن ما يلبث أن يسير ، فينتقل حديث هؤلاء الأبطال في طبقات الشعب ، وإذا به يصبح أسطورة قومية يقصها الشيوخ للأطفال ، والجدات والأمهات للأبناء ، وقد نمى الخيال الشعبي ما كان لهؤلاء الأبطال من أثر سيء ، أو ما انتهت إليه حياتهم من بؤس ، بل إن الإعجاب ليأخذ السبيل على كل تفكير ، فإذا بالبطل منهم قد خرج من طبائع البشر ، وإذا ببطولته معجزة من معجزات الحياة .

إلى هذا صار نابليون بعد موته سنة ١٨٢١ بجزيرة سانت هيلانة ، فقد رفض الشعب أن يصدق نبأ تلك الوفاة قائلا : إنه لم يمت وإنما أفلت من أسره كما أفلت من قبل من جزيرة ألبا ، وإنه لابد عائد فناج بنا من قبضة المستبدين . وتراخى بهم الأمل حتى كان اليأس ، ولكن ذكراه لم تمت في قلوبهم ، وكأنه رسول منتظر ، سيأتي يوما ما لخلاصهم ، إلى أن سقطت الملكية الاستبدادية سنة ١٨٣٠ ، فزادت ذكراه مجدا ، وبلغ من تملق الشعب به أن لم ير لويس فيليب وحكومته خيراً في تملق هذا الشعب الولوع من أن يحملوا رفاته من سنت هيلانة إلى باريس ، حيث دفنوه في متحف الجيش بساحة الأنفليد سنة ١٨٤٠ في قبر ضخم من خالص الرخام .

وتحدث الشعراء بمجده من أمثال هيني الألماني وهيجو الفرنسي ، ولكنه شعر خواص لا يعنينا اليوم في صدد الحديث من أسطورة هذا البطل الأدبية ؛ وخير منه أغاني الشاعر الشعبي الجليل جان بيردي برانجيه Jean Pierre de Béranger (١٧٨٠ — ١٨٥٧) الذي ابتدأ حياته بأغان مرحة فغنت شوارع باريس وملاهيها زمنا طويلا بنغماتها البهيجة إلى أن جد الجد ، فتسقطت قيثارته آمال الشعب وآلامه ، ترددها باسمة يوما ، حزينة في أغلب الأيام ، حتى لم يعد لأبناء الشعب أغان غير أغانيه يرددونها كما يرددون نجوى قلوبهم ، وهال رجال الحكم أمره وخشوا بأسه ، فزجوه في السجن مرتين عامي ١٨٢١ و ١٨٢٤ ثلاثة شهور ، ثم تسعة ، كما غرموه في المرة الأولى ٥٠٠ فرنك ، وفي الثانية عشرة آلاف ؛ ولكن الشعب لم يزده إلا تعلقا ، حتى ليجمع المؤرخون على أن باريس كلها قد شيعته إلى قبره في حفل رائع سنة ١٨٥٧

وكان سر نجاح هذا الشاعر صدوره عن وحي الشعب المباشر في أغان بسيطة ساذجة ولغة مألوفة قريبة إلى قلوب العامة قرب ما تموج به من معنى أو إحساس ، بحيث إنه ما كان ينظم المقطوعة إلا وقد انتشرت على كل الألسنة وجابت فرنسا طولا وعرضاً .

ثم إن لهؤلاء الشعراء الشعبيين الصادق الحس سراً رائعاً ، هو قدرتهم على أن يوحوا الشعب ما يجول بخاطره من آمال وآلام لا يستبينها بوضوح ، بحيث ما يسمع

العامة حديثهم إلا وكأنهم وقد عثروا على مفقود في نواحي نفوسهم ، أو أضاءوا مظلماً منها ، فيطمئنون إلى ذلك الحديث ، وإذا بالشاعر لا يقف من الشعب موقف الساقط ، بل يعدوه إلى التوجيه . »

وعلى هذا النحو سار بيرنجيه في خلق أسطورة نابليون بما لم يصل إليه هيجو أو هيني أو غيرهما ممن لم يصدروا عن وحي الشعب أو يحاولوا توجيه خطاه .

وها هي إحدى أغانيه ، سماها « ذكريات الشعب » ، وكتبها بلغة ساذجة قريبة إلى لغة العامة ، يقص فيها أحدوثة كالتي تقصها جداتنا عن « الشاطر حسن » أو عن « أبو زيد الهلالي » أنقلها محتفظاً ما استطعت ببساطتها :

« بمجده سيتحدثون في الكوخ . بعد نصف قرن لن يسمع السقف المتواضع قصة أخرى . . . هناك ستأتي الريفيات يسألن إحدى العجائز : سلي عشيتنا ، حدثينا عما كان في غابر الزمان . يقولون « قد أضر بنا » ولكن الشعب ما زال يحبه ، نعم يحبه . حدثينا عنه يا جدة ، حدثينا عنه .

— بهذه القرية مر يا أولادي ، ومن خلفه الملوك ، كان هذا من زمان بعيد ! بعد زواجي مباشرة ، صعدت فوق التل ، وجلست لأرى . كان يلبس قبعة صغيرة ومعطفاً رمادياً . وقال لي : « صباح الخير أيتها الصديقة ، صباح الخير » .

— آه ، أحدثك حقاً يا جدة ؟ ! أحدثك ؟ !

— في السنة التالية كنت بباريس ، فرأيته في أحد الأيام مع حاشيته وهو ذاهب إلى نوتردام . كانت كل القلوب في فرح وإعجاب بموكبه والكل يقول : « ما أجمل الجو ! إن السماء ترعاه ! » ما أحلى ابتسامته ، وقد رزقه الله ولداً .

— ما كان أجمل يومك هذا يا جدة ! ما كان أجمله !

— ولكن عند ما وقفت ثمانيا السكينة في يد الأجانب ، تحدى وحده كل الأخطار كأنه يحارب بمفرده . وفي ليلة مثل هذه الليلة ، سمعت دقاً على الباب ، ففتحت يا إلهي ! كان هو ، يتبعه قليل من الجند ، وجلس في مكاني هذا وهو يصيح : « يا لها من حرب ! يا لها من حرب » .

— أحقاً جلس هنا يا جدة ! أحقاً جلس هنا !

— وقال : « أنا جائع » ، فأعطيته بسرعة خبزاً وقطعة لحم ، ثم جفف ملابسه على النار وأحس بالدفء فنام ، ثم صحا فرأى دموعي فقال : « لا تيأسي ، سأعدو إلى باريس حيث أنتقم لفرنسا من محنها » ؛ ثم سار وإلى اليوم وأنا أحتفظ بكوبه ككنز ، نعم أحتفظ به .

— أما زال الكوب عندك يا جدة ؟ أما زال عندك ؟!

— ها هو ، ولكن البطل قد سار إلى قبره . . . البطل الذي توّجه البابا يموت في جزيرة مهجورة ؟ زمن طويل لم يصدق أحد هذا الخبر ، وقال الكل : سيعود ثانية . لقد نزل إلى البحر ، سيرى الأعداء سيده من جديد ، ثم ضاع الأمل فكانت حسرتي مرة ، نعم ما أمرها !

— ألا بارك الله فيك يا جدة ! ألا بارك الله فيك !

تلك أسطورة نابليون . ما قرأتها إلا انتفض قلبي متجهاً بالدعاء إلى الله أن يهب هذا الوطن المسكين — وطننا العزيز — من بين شبابنا بطلا كهذا تتحدث بمجده الجدات ، ونحن بعد في زمن وفي وطن لن ينقذه إلا بطل صادق العزم ، وقد تفاقم خطبنا ، بحيث لم يعد للكلام مجال ، وإنما نحن في مجال العمل — فهيا أيها الشباب ، فقد دقت الساعة ، ولنترك الحديث إلى الأجيال اللاحقة تتحدث ببطولتكم ، بل اتركوه لأفواه الزمن .

محمد مندور

أوضاع المسرح

وأثرها في مسرحيات شيكسبير

إذا درسنا حياة شيكسبير العملية وجب علينا أن نبحث الفرق بين الأوضاع المسرحية المختلفة التي دارت على طول عصور التاريخ، حتى نرى أي نوع منها كان المسرح في عهد إليزابث. فالكاتب المسرحي مهما أوتي من الحرية لا مناص له من أن يلتزم بعض القواعد الشائعة في عصره حتى تستسيغ الجماهير مسرحياته. ويذهب بعض النقاد إلى أنه لا قيمة المسرحية في نفسها إلا إذا مثلت على المسرح. وهم يشبهون الرواية بالسفينة لا غناء فيها إلا إذا أنزلت إلى اليم. وسواء أكان هذا حقاً أم باطلا فشيكسبير ومعاصروه كانوا يكتبون للجماهير. وكان شيكسبير نفسه ممثلا قبل أن يكون مؤلفاً وكانت رواياته ناجحة. وكل ذلك جدير بأن يوجه دراستنا إلى البحث في طبيعة المسرح الانجليزي في ذلك العهد حتى نرى إلى أي حد أثرت أوضاع المسرح في روايات شيكسبير . . .

يؤيد ضرورة هذا البحث عندنا أن مثل هذه المسرحيات كانت تؤلف لتمثل. وقد ضاعت الكثرة الغامرة من مسرحيات الصدر الأول من عصر إليزابث، لأن أحداً لم يعن بجمعها في كتاب مطبوع. وإنما عني بعض الناشرين بطبعها في نهاية هذا العصر. وكان الناشرون يختلسون تلك المسرحيات اختلاساً بحيث وقع فيها كثير من الخلط والتحريف والانتحال، مما أدى إلى كثير من البحث والتحقيق فيما بعد ذلك. فالمسرحيات التي ألفها شعراء هذا العهد لم تكن قد ألفت لتقرأ، وإنما قد ألفت ليراها الناس ممثلة. وقيمتها الأدبية عند معاصريهم كانت رهينة بملاءمتها للمسرح.

* * *

وقد تقلبت أوضاع المسرح منذ عهد الاغريق حتى اليوم، وتغيرت تبعاً لذلك الرواية المسرحية. أما في الزمن الأول من عهد الاغريق فقد كان المسرح دائرة في الخلاء يحيط بها مدرج يتسع لستة آلاف أو سبعة آلاف شخص. وفي مثل هذا المسرح الهائل كان على الممثل أن يلبس حذاءين عاليين من الخشب حين يمثل المأساة، وكان عليه أن يبالغ في التعبير عن مختلف العواطف، بحيث يكثر من الحركة والاشارة ويرفع من صوته. وكان على المؤلف أن يحدد مسرحيته في الزمان والمكان حتى لا يظهر التناقض في مثل هذا المتسع الهائل. وكان للموسيقى شأن كبير في تسيير القصة، بل لقد كان يقوم إلى جانب الممثلين فريق منهم اسمه «الجوقة» يعلق على القصة في فترات منها. فظروف المسرح الاغريقي هي التي وجهت التأليف المسرحي عند الاغريق، بل هي التي بعثت في النقد بعد ذلك ما أتى به أرسطو من التزام الوحدة في الزمان والمكان والعمل عند المؤلف المسرحي. وليس يستطيع دارس الروايات الاغريقية أن يتفهمها حتى يتفهم تلك الظروف.

إلى جانب هذه الصورة من المسرح الاغريقي نرى صورة أخرى من مسرح العصر الحديث، فقد نشأت إلى جانب وظائف المؤلف والممثل وظيفة أخرى هي وظيفة المخرج. والمخرج في العصر الحديث واسطة التعبير عن المسرحية بأكملها. وقد أصبحت مناظر الرواية المسرحية جزءاً لا يتجزأ منها. وبرنارد شو أحد المسرحيين المحدثين الذين يبذلون الجهد في شرح دقائق المناظر التي يريد أن تحوط أشخاص روايته. ولدقة المنظر وجماله، بل وللأضواء التي تأتلف وتختلف على وجوه الممثلين، وللستائر التي ترتفع وتهبط، أثر كبير في نجاح الرواية.

وأصبح للمناظر سلطان كبير فى توجيه التأليف المسرحى ، ونقص عددها لأن كل منظر منها يكلف كثيراً . ثم إن المؤلف قد اعتمد كثيراً على دقائق الأوضاع التى توحى إلى النظارة بمختلف الأفكار ، وكان من كل هذه الأوضاع أدب مسرحى يعنى بالواقع حيناً ، ويعنى بالأثر النفسى أحياناً . . .

***

ويقع العصر الاليزابيثى فى مكان وسط بين عصر الاغريق القدماء وبين العصر الحديث . وقد اتخذ هو نفسه سبيلا تفرّد بها . وكان لأوضاعه وظروفه المادية مثل ماكان للمسرح الاغريقى ، ومثل ما يكون اليوم للمسرح الحديث . وقد أثرت تلك الظروف المادية أيضاً فى ألوان التأليف المسرحى التى عاناها شيكسبير وأضرابه .

أولع الانجليز بالتمثيل منذ العصور الوسطى ، وقد تطور المسرح خلال تلك العصور حتى برز لنا فى أول العصر الاليزابيثى وهو ما يزال مسرحاً فطرياً . وكان الأمراء والنبلاء هم الذين يستخدمون الممثلين فى مباذلهم ويأوونهم فى قصورهم . وحينما آذن عصر الاقطاع بالاضمحلال اضمحلت معه طبقة الأمراء والنبلاء ، فخرج الممثلون من قصورهم هائمين ، ولجأ بعضهم إلى الفنادق العامة يعرضون بضاعتهم على الخاصة والدهماء . وكذلك أصبحت تلك الفنادق مثابة يؤمها النظارة والأدباء فيجتمع أولئك وهؤلاء ليشهدوا بعض الروايات الفجة التى تمثل فى أحنها وأفنيتها .

وفى سنة ١٥٧٦ بُنى أول مسرح للتمثيل فى مكان اسمه Shoreditch ؛ بناه جيمس بربدج خارج أسوار لندن ؛ لكنه أقامه على غرار المسارح الفطرية التى اعتادها الناس فى الفنادق العامة . بُنى هذا المسرح فى شكل بيت عادى تقع فى أحد جوانبه شرفة تطل على مستوى مرتفع من الخشب . وهذا المرتفع نفسه كان هو المسرح وكان يمتد إلى وسط الصحن الذى أقيم فيه . ولم يكن البناء جميعه مسقوفاً ، بل طلقاً يسمح للهواء والنور أن ينثالا إلى حيث المتفرجون . وكان إلى جانبى هذا الصحن شرفات نُبتت فيها أرائك الخشب وعرشت بسقوف مائلة . وكانت طبقات الشعب الدنيا هى التى تجلس على الأرض أمام المسرح ، وكانت الطبقات العليا هى التى تستوى على تلك الأرائك ؛ بل كان بعض المحظوظين من الشباب يجلسون على كراسى تُصفّ خاصة على حافة المسرح نفسه : يُدلون بثيابهم الفاخرة و « يشربون » الطباق . فجوٌّ مثل هذا كان حراً طلقاً لا تشوبه القواعد ولا المواضعات التى نصطنعها نحن اليوم حين نتهيأ لمشاهدة الرواية المسرحية .

كان المسرح الاليزابيثى يختلف كل الاختلاف عن المسرح الحديث ؛ فقد كان يخلو من المناظر المصورة والستائر ، ولم يكن يُعنى الممثلون ولا المسرحيون بالمناظر إلا حين يمثلون أمام الملكة أو فى قصور الأمراء . وكان النظارة يلحظون كل الذى يقع أمامهم : فلا فترات بين كل فصل وفصل ، ولا تغير بين منظر الكوخ وبين منظر القصر المشيد . وإنما كانوا يلجأون عند تغير المنظر إلى لوحة قائمة إلى جانب المسرح يثبتون فيها اسم المنظر الذى هم مقبلون على مشاهدته ، ويمحون منها اسم المنظر الذى انقضى ؛ هذا إلى أن التمثيل كان يبدأ فى العصر فى وضح النهار ، حتى إذا ما غشى الليل أضيئت مصابيح لا تتألق إلا قليلا . فلم يكن إذاً مجال لاصطناع الأضواء الذى يتقنه المخرجون فى العصر الحديث .

خلو المسرح من الستائر والمناظر ، ومن السقوف التى تحجب الضوء ، أهم مميزات المسرح الاليزابيثى . على أنه من خطل القول أن نحسب أن المسرح فى سنة ١٦٢٠ لم يختلف عن المسرح فى سنة ١٥٥٠ . ولا شك

أن الحيل المسرحية قد تقدمت كثيراً خلال السبعين سنة التي تفصل مبدأ عصر إليزابث ومنتهاه . فقد قامت محاولات لتصوير المناظر ، وأقيمت دور تمثيل سميت « المسارح الخاصة » ، كان فيها كثير من وسائل الراحة والترفيه ، وكان صحنها مسقوفا ، وحاول أصحابها أن يكون لها مصابيح قوية خاصة . على أن ذلك الفن المسرحي حين اطرد في طريق التقدم لم يكن ذا أثر في التأليف المسرحي عند شيكسبير ، لأن الكثرة الغالبة من مسرحياته قد ألفت لتمثل في مسارح عامة من النوع الأول : تلك التي كانت تخلو من المناظر والستائر ، ومن الضوء ومن لازمات الإخراج . وإذا كان قليل من المناظر ، قد استخدم في هذا النوع الأول ، فقد كان هو القليل الذي لا يجدي . فمسرح شيكسبير إذاً كان يخلو من زخرف المسرح الحديث .

على أن ذلك القصور في الزخرف وفي تصوير المناظر ، لم يمنع الانجليز على عهد إليزابث من أن يعنوا بلباسهم المسرحي . فقد شهد الأجانب بالزينة التي كان يتخذها الممثلون الانجليز وهم على المسرح . لكن لباسهم لم يتغير بتغير المواضع ولم يختلف باختلاف الأزمنة الممثلة . فالاغريق والرومان القدماء كانوا يظهرون على المسرح في لباس السادة الانجليز . و« كريولانس » كان يحمل نفس السيف الذي كان يحمله « هوتسپر » . ويوليوس قيصر كان يحمل نفس الصولجان الذي يحمله هنري الخامس . والجند الذين ظهروا في قصص الرومان ، وفي القصص الانجليزية القديمة ، كانوا يلبسون الزرد والحديد الذي يلبسه الجنود في العصر التيودوري . ثم إن أشجاراً وحجارة وصخوراً وعروشاً كانت تنقل على المسرح من جانب إلى جانب من غير أن تختفي وراء الستائر و « الكواليس » . ونرى من كل ذلك أن الجهود التي بذلت في سبيل التصوير لم تبلغ حتى ولا القليل من ذلك الزخرف الذي نشهده اليوم . ولم تكن فكرة التوفيق بين الممثل وبين لباسه تسيطر على التمثيل كما تسيطر عليه اليوم ، وكانت أدوات المسرح وعدته في أول نشأتها الفطرية .

وشيء آخر يميز المسرح الاليزابيثي عن المسرح الحديث : ذلك هو خلو المسرح الأول من النساء . وكانت المرأة قد وصلت إلى شأو عظيم في عصر إليزابث ، لما كان الملكة نفسها من الأثر في الحياة العامة . إلا أن المرأة لم تقدم على احتراف التمثيل إلا بعد ذلك بنصف قرن أو يزيد . وحينما خلا مسرح شيكسبير من المرأة استعيض عنها ببعض الصبيان . فكان الصبي منهم يقوم على المسرح مقام المرأة ، توكل إليه أدوارها ويلبس لباسها . وكان في هؤلاء الغلمان ميزات ليس أقلها أن يكونوا دون البلوغ حتى يؤدوا أدوارهم بنغم يشبه أنغام النساء .

***

كيف أثرت تلك الأوضاع المادية التي تفرد بها المسرح على عهد إليزابث في طريقة التأليف عند شيكسبير ؟ إن أول ما نلحظه في هذا السبيل ، أن رواية شيكسبير كانت تؤلف لتسد فراغاً يشعر به المسرح ، وأن المنافسة الحادة التي كانت بين المسرحيين ، أوجدت نوعا من الكفاح بين المؤلف والمؤلف ، حتى لقد تخرج المسرحية من بين يديه في شهور . وإذاً فقد جاءت مسرحياته إلا قليلا بوحي من النفس لا تعمّل فيها ولا تكلف . وقد تحدث عنه معاصر من الطابعين . فقال إن أصول كتابته خلت من الحذف والشطب . فمثل شيكسبير إذاً مثل الكاتب العمل الذي كان عليه أن يرضي حاجات الساعة التي هو فيها ، ولن يرضي حاجات الساعة حتى يتبع ما تواضع عليه الممثلون والمؤلفون في عصره .

والعلاقة بين المؤلف والممثل في ذلك العصر كانت

وثيقة ، بحيث لم يكن يستطيع أن يستغنى أحدهما من الآخر ، بل لم يعرف المخرج بينهما ، لأن المخرج لم يكن له وجود . وقد جمع شيكسبير فى نفسه الشخصيتين ، فوفق بين التأليف وبين التمثيل . وكان شيكسبير المؤلف يدرك حاجات شيكسبير الممثل أيّما إدراك . وكان عليه أن يوفق بين معانيه الفنية وبين مسرحه الخاص ، بل كان عليه أن يحسب حسابا لكل الظروف التى تحيط به . فليس من صحة النقد أن نذهب إلى أن شيكسبير أنتج الفن من أجل الفن وحده . بل علينا أن ندرسه كقطعة من حياة الجلترة . وقد امتلأت مسرحياته حبا بهؤلاء الإنجليز الذين عاش بينهم ، ومثل من أجلهم ، وألف ليرضيهم . وأنت ترى فى كل ذلك ألوانا لا نراها إلا فى أدب الصحافة اليوم من وصف أناس أحياء يعيشون ويضحكون ويحزنون كما كان يفعل الانجليز فى عصر إليزابث .

ولما خلا المسرح من المناظر المصورة كان على المؤلف أن يعتمد كل الاعتماد على هؤلاء النظارة الذين يؤمون المسرح ليشهدوا المسرحية . وفى كل مسرحية ينبغى أن يكون هنالك خداع نفسى ، يختلس من المتفرجين عقيدتهم ، ويجعلهم يعتقدون أن ما يرون ويسمعون من الحوادث والأحاديث إنما هو الحقيقة بعينها . وليست وظيفة المناظر والستائر إلا ذلك الخداع . فالمخرج الحديث يصطنع هذه الصور وتلك الستائر والأضواء والموسيقى حتى يقنع الرائى بأن الذى يراه هو الحق . لكن شيكسبير فى ذلك المسرح الفطرى لم يجد شيئاً يخدع به النظارة إلا الشعر . لقد كان على شيكسبير كما كان على معاصريه ، أن يؤلفوا شعراً يأخذ بألباب هؤلاء حتى يسلبهم عقيدتهم الشعرية ويجعلهم يتخيلون المناظر والحوادث كما ينبغى أن تكون ؛ لذلك امتلأ شعر شيكسبير بالتصوير — امتلأ بتلك المجازات والاستعارات الجريئة التى تثير السمع والأبصار ، وامتلأ بتلك البالغات التى يبرز بها فى نفس السامع مايبرز ، وهو فى كل ذلك يغشى ، صوراً عقلية تروح وتغدو فى خيال سامعيه .

لذلك كان شعر شيكسبير شعراً رومانتيكيا يميل للخيال . وكان الناس أنفسهم فى أرض دار التمثيل وعلى الأرائك المصفوفة يميلون إلى ذلك الجانب الخيالى من الشعر . كان يستبد بهؤلاء فكرة خيالية ، أنشأتها أحداث التاريخ فى عصر إليزابث . فقد كان الناس يعيشون فى عصر من عصور البطولة ، سمعوا فيه من قصص أبطال البحر مثل « فرنسيس دريك » و « ولتر رالى » وتلقفت تلك القصص بالخرافة والوهم . فكان خيال الناس بهما يريد أن يشبع . وكان على شيكسبير ومعاصريه أن يشبعوا هذا النهم ، فكان ذلك الشعر السامى الذى تمتاز به مسرحيات شيكسبير .

وما دام قد خلا المسرح من المناظر والستائر ، وما دامت نفوس الناظرين متشوقة إلى كل ما يمده الخيال والخداع ، وما دامت العقول مستعدة لأن تصدق كل خرافة تكبر فى الوهم ، فقد اتخذ شيكسبير موقفاً خيالياً حينا أكثر من مناظر الفصل الواحد ؛ وحينا انتقل بحوادث القصة من مكان فى أقصى الأرض إلى مكان آخر فى أقصى الأرض . وقد ينتقل شيكسبير فى لمح البصر من روما إلى الاسكندرية ، وقد يطير من ميلى إلى بوهيميا ، فتحس أن فى ذلك خروجاً عما يقتضيه المعقول ؛ لكن شيكسبير كان يكتب لقوم استبدت بهم العقيدة الشعرية ، فلم يجدوا فى تغير المناظر ، ولا فى اختلاف الزمان والمكان شيئاً يخالف العقل . ولقد يجد المخرج الحديث عسراً حينا يحاول أن يصور المناظر المتلاحقة التى تتسلسل فى الفصل الواحد ؛ لكن القائمين بأمر المسرح فى عصر إليزابث كانوا لا يجدون عناءً فى أن يكتبوا على

من تاريخ الصحافة المصرية :

جرنال الخديو

— ١ —

لا أذكر جديداً حين أعرض لقدر الصحافة عند الأمم المتحضرة ، وهي السلطة الرابعة التي يؤمن الكثيرون بأن لها الصدارة في كثير من اتجاهات الفكر وتطور الرأي وعلاج المسائل على نحو قد تباهى جميع السلطات الأخرى ، لذلك يرى بعضهم أن تاريخ الصحافة في العالم هو تاريخ تطور الفكر البشري .

وآية ما نذهب إليه أن جريدة التيمس في تاريخها الحافل تتضمن النشاط الانجليزي في نواحيه الاجتماعية والسياسية والتشريعية ؛ وليس هذا فحسب ، بل إن مصائر بعض الشعوب الأخرى كانت ذا علاقة وثيقة ومباشرة بما أذاعته تلك الصحيفة ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ؛ فلا عجب إذاً أن كانت جريدة التيمس أهم كثيراً من تاريخ بعض الدول التي تحتل شطراً كبيراً من خارطة العالم ، لحظ الصحافة من حياة الشعوب حظ موفور النشاط مقدور الأثر .

وينبغي أن نذكر أن صحافتنا مهما تكن حديثة عهد بالقياس إلى مثيلاتها في البلاد الأخرى ، فهي ليست شيئاً تافهاً لا يستأهل أثارة من وقتنا ، فالصحافة المصرية تحمل في طياتها التاريخ المصري الحديث منذ احتلال الفرنسيين لمصر سنة ١٧٩٨ إلى وقتنا الحالي .

وقد شهدت مصر نشاطاً في الطباعة والصحافة على عهد الحملة الفرنسية لم يشهده بلد من بلاد الشرق كله ، إذ أصدر بونابرت القائد العام لهذه الحملة جريدتين ، إحداهما صحيفة إخبارية لجنوده وضباطه ، فيها أنباء الداخل والخارج ؛ والثانية مجلة علمية لتلاميذ الحملة وعلمائها ، وهي في التاريخ وثيقة من أفضل الوثائق العلمية عن تاريخ مصر في السياسة والاقتصاد والاجتماع .. ومهما يكن من أمر هاتين الجريدتين فهما لا تعتبران من الصحافة المصرية الخالصة ، إذ أنهما جريدتان وصحيفتان

تلك اللوحة القائمة على جانب المسرح ما شاء لهم المؤلف . كانوا يثبتون روما والاسكندرية ونابلي وبوهيميا ، أو نحوها في سهولة ويسر .

زد على ذلك أنه كان على شيكسبير أن يأسر خيال النظارة بأن يخلق شخصيات الرواية وبأن يجوّدها حتى تأخذ من نفوس السامعين وحتى « تعلّق » تصورهم وتمد في وهمهم . فكل شخصية عند شيكسبير تخلق الوحدة التي تربط فصول الرواية الواحدة . وربما كتب المنظر الواحد حتى يكوّن عنصراً واحداً من شخصية البطل ، وربما أجرى على لسانه كثيراً من الشعر يناجي به نفسه حتى يتعمق الناظر إلى أغوار نفسه . كانت هذه الحيل يسيرة في ذلك العصر ، لكنها عسيرة لمن لا يدرسها دراسة عميقة من الراثين في العصر الحاضر .

* * *

وبعد فانك قد رأيت معي أن شيكسبير لم يكن إلا كاتباً عملياً ، ألّف ليرضي حاجات الجمهور الذي كان يشهد مسرحياته . وقد نجح كمؤلف لأنه استطاع أن يرضي تلك الحاجات . فلا يحسبن أحد أنه كان متفنناً يكتب الفن من أجل الفن ، بل لقد كان مؤلفاً يكتب المسرحية لتمثل وتمثل المسرحية ليكسب . ولكن لقد بقي بعد ذلك في مسرحياته شيء عميق ، هو الذي كان يأسر به خيال الجمهور في عصره : ذلك الشيء العميق هو الشعر .

(يتبع) أحمد خاكي

للحملة الفرنسية ، بقيتا تصدران باللغة الفرنسية وحدها حتى جلا الفرنسيون عن مصر سنة ١٨٠١ .

حقاً أن الحملة الفرنسية حاولت في أخريات أيامها إصدار جريدة باللغة العربية ، وأصدر قائد الجيش مرسوماً بإنشاء تلك الجريدة ، وعين لها المراقبين والمحررين ؛ غير أن الظروف السياسية واضطراب الأمن واختلاف الرأى ، حال كل ذلك دون تحقيق هذه الفكرة الطيبة ، وأخر إنشاء أول صحيفة عربية خمساً وعشرين سنة أخرى حين فكر محمد على في إصدار أول جريدة مصرية .

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ أنى أقصد الوقائع المصرية الصادرة في ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ ، والتي يعتبرها كل من مس تاريخ مصر من هذه الناحية أنها الجريدة المصرية الأولى ؛ ولكنى أحب أن أذكر — ولعلى أول من يذكر ذلك باللغة العربية — أن الوقائع المصرية ليست الجريدة الأولى منذ عهد محمد على الكبير ، فقد سبقتها محاولة طيبة هي موضوع حديثنا اليوم .

لم يشتر محمد على مطبعة الحملة الفرنسية ، وهى عبارة عن ثلاث مطابع فرنسية ومطبعتين عربيتين ومطبعة يونانية ؛ لم يشتر المطبعة ، وأضاف إليها كما تقول بعض الكتب ، بل إن محمد على أنشأ مطبعة ضخمة في سنة ١٨١٩ فذاها بالحروف العربية والفارسية والفرنجية واليونانية من صنع ميلانو ، كما اشترى من بلدة ليفورنو Livorno أصناف الورق المختلفة ، ودأب على ذلك إلى أن أصبحت صناعة الورق والحروف من الصناعات الوطنية ، ولم تكن مطبعة بولاق وحدها في خدمة الحكومة المصرية ، بل كانت هناك مطابع أخرى صغيرة بلغ عددها تسعاً ، منها مطبعة المدفعية بطره ، وأخرى في أبي زعبل ، وثالثة في مدرسة الفرسان بالجيزة ؛ وكانت وظيفة هذه المطابع جميعاً طبع لوائح وأوامر ودفاتر الحكومة ، وكتب وكراسات المدارس .

وليس يعنينا من أمر هذه المطابع شىء بالذات ، غير مطبعة صغيرة مماثلة المطابع التسع التي ذكرت طرفاً من وظيفة بعضها ؛ وهذه المطبعة التي أتحدث عنها تعتبر في تاريخ الصحافة المصرية حدثاً له خطورته ومكانته عند المؤرخ ؛ فهى مطبعة خاصة (بجرنال الخديو) ، وهى الجريدة المصرية الأولى . كانت المطبعة في القلعة مستقرة في جناح خاص بالقرب من الوالى التركى ، وهو أول مواطن مصرى عرف قدر الصحافة والطباعة في حياة الأمم ؛ وكانت هذه المطبعة صغيرة مناسبة للجريدة المصرية المسماة (جرنال الخديو) ، تتألف من بضعة أحجار ضئيلة ، ويقوم على خدمتها بعض العمال والموظفين .

وقد يبدو من اسم هذه الجريدة أنها شىء تافه لاينبغى أن نزعم له صفة قريبة أو بعيدة من الصحافة . بيد أنى أحب أن أقرر أن جرنال الخديو كان ذا تاريخ حافل لفترة من الزمان أرجح أنها خمس سنوات ، كان ميداناً خصباً لتسجيل نشاط مصر الاقتصادى والاجتماعى والأدبى أيضاً . وأحب أن أقرر مرة أخرى أن (جرنال الخديو) لم تقف على خدمته مطبعة القلعة بأحجارها وعمالها فحسب ، بل وقفت الحكومة كل نشاطها على هذه الجريدة .

أنشأ محمد على لجرنال الخديو إدارة واسعة يتولاها رجل موثوق به ، يؤثره الوالى ويجعل من إدارته واسطة بينه وبين مختلف الادارات في القاهرة ومراكز الحكومة في الأقاليم ؛ ويضم هذا الديوان الكبير نخبة من الكتاب والمحررين الذين يجيدون اللغتين العربية والتركية ، على رأسهم (محمود أفندى) ، وهو موظف له من ثقافته وواسع خبرته وجده ونشاطه ما يسمح له بمكانة الأمين الأول عند الباشا ؛ ومحمود أفندى هذا في تاريخ الصحافة المصرية أول مدير ومحرر لجريدة مصرية ؛ وكانوا يسمونه (جرنال ناظرى) ، أى ناظر الجرنال الذى يرفع للوالى بين آن وآخر .

لم تكن إدارة الجرنال أو إدارة الجريدة الرسمية بمعنى أوضح تقتصر على القــاهرة ، بل كان للمدن المصرية الكبيرة دواوين على غرار الديوان الرئيسى فى القاهرة ، يرأسها ناظران ناما الأخبار : أحدهما فى الوجه القبلى ، والثانى فى الوجه البحرى ، يتلقيان أخبار المدن والقرى ، كل فيما يخصه ، ثم يرتبانها ويصوغانها صياغة صحفية لا بأس بها ، ويرسلانها إلى الديوان العام بالقاهرة ، وفى القاهرة يستقبلها ديوان الجرنال ، ويتولى بحثها وتنقيحها وتبويبها . . . — وهذا أسلوب صحفى من غير شك ؛ المحررون فى القــاهرة والمراسلون فى العواصم والمدن والقرى يرسلون بأخبــارهم ، والجريدة تراجعها وتنقحها ، ثم يعرضها رئيس التحرير محمود أفندى على رئيس الدولة ويقرؤها له ؛ فإذا فرغ من قراءتهــا علق محمد على عليها وأشار بملاحظ فيما جاء من أنباء ، ومضى محمود أفندى يكتب للمصالح والدواوين تعليق الباشا وملاحظاته ، ويشير على كل ديوان بواجبه ، قاصداً من ذلك الرقابة على كل مصلحة وقلم ، وأن يكون جرنال الخديو سيفاً مشهوراً على كل مهمل يتغفل من حسابه جريدة الوالى التى تنقل إليه ما خفى وما ظهر .

وفوق الأخبار العامة التى تتصل بالأمن أو حيــاة المصريين العادية ، دأبت جريدة الوالى على نشر خلاصات لأعمال الدواوين والمأمورين فى كل أسبوع ، بحيث توضع هذه الخلاصات المتباينة فيما يتضمنه عادة جرنال الخديو . وقد أشارت الوثائق الموجودة بمحفوظات سراى عابدين العامرة إلى بعض ما كانت تتضمنه مجلة الخــديو كمقدار « المال المتحصل فى كل أسبوع وكميات الغلال والأصناف الأخرى ، حيث يعلم منهــا الأمير نشاط المأمورين أو تكاسلهم » ، وطلب (جنابه العالى) كاتشير وثيقة أخرى ، بأن يتداول حبيب افندى — وهو من رؤساء الديوان العالى — « مع الخواجه حنــا ، والمعلم باسيليوس » فى البيانات التى ينبغى أن يرسلها نظار الدواوين من حركة بيع وشراء الأصناف المختلفة إلى جرنال الخديو ، حتى تقف الدولة على درجة سعيهم وإقدامهم .

أثبت جرنال الخديو أن المأمورين والمديرين لم يتوانوا قط فى تلبية أوامر الأمير الكبير ، فوافوا إدارات الجرنال من هنا ومن هناك بما يكفل لهذه الجريدة النشاط ويجعل لوجودها ضرورة للوالى من حيث رعاية المصالح العامة ، ومعرفتها معرفة صحيحة ، وتقــدير المسئولين من خلال ما تثبته الجريدة الرسمية .

وقد يبدو من هذا العرض لماهية (ديوان الجرنال) أنه كان وقفاً على الوالى دون حكومته ، وأن صحيفة هذا الديوان صحيفة شخصية ، لا يعنى أمرها إلا أمير البلاد ، وأن مطبعة القلعة كانت تقوم بخدمة هذه الجريدة الخاصة بمحمد على وحده . والحقائق التاريخية تضيف إلى ذلك شيئا خطيراً ، فجرنال الخديو ليس صحيفة خاصة بمحمد على ، وإن صدر بأمره ووضع تحت ملاحظته وإشرافه ؛ فقد أنبأنا أحد موظفى المطبعة الأميرية فى نشأتها الأولى ، يحدثنا عن ديوان الجرنال أن جريدة الخديو لم تكن أسبوعية ، وإن كانت الأنباء تصل أسبوعية ، بل كانت جريدة يومية ؛ وكانوا ينشرون فى كل يوم بعض الأخبار ، مقدمين الأهم على المهم . . . فالجريدة المصرية الأولى جريدة يومية ، يطبع منها فى كل مرة مائة نسخة توزع على أساطين الدولة ، وهى من حيث لغتها أشبه ما تكون بالوقائع المصرية ؛ فكانت تصدر باللغتين العربية والتركية ، ولهذا خلط الكثيرون بين الوقائع وبين جرنال الخديو ، واعتبروهما جريدة واحدة ، إلى أن أثبتت الوثائق الحــديثة الخلاف العميق بينهما .

وأحب أن أسجل شيئاً لطيفا من جرنال الخديو ؛

فالصورة التي ذكرناها تصوره ورقة رسمية جافة ترفع للوالي ، أو جريدة رسمية مع شيء من التجوز ترسل إلى رجالات الدولة ومأموريها الذين يعنيهم أن يقفوا على أحوال البلاد صغيرها وكبيرها ، كما تقول الوقائع المصرية في افتتاحية العدد الأول « ووضع ديوان الجرنال قاصداً من وضعه أن ترد الأمور الحادثة الناتج منها النفع والضرر إلى الديوان المذكور ، وأن ينتخب وينتفع فيه منها ما منه ينتج النفع والضرر ، ينتخب ما منه تصدر النفعة ، ويجتنب عنه ما منه يحصل الضرر ؛ وهذه الإرادة الصالحة الصادرة من حضرة سعادة ولي النعم ، وإن كانت قد جرت في ديوان الجرنال إلى الآن ، إلا أنها لم تكن عمومية » ، وإلى ما ذكرته الوقائع والوثائق من تصوير جرنال الخديو ، أحب أن أضيف أن جزءاً من صفحات هذه الجريدة الرسمية قد خصص لنشر بضعة فصول من « ألف ليلة وليلة » ، وأنه فقد قيمته كجريدة رسمية لما صدرت الوقائع المصرية صحيفة الدولة والجمهور ، وإن بقيت مطبعته في القلعة ، ومضى موظفوه يؤدون واجبهم في حيز ضيق مقتصر على الأخبار الخاصة التي يجب أن يعرفها الأمير بنفسه .

وقد كان جرنال الخديو يعرض على الباشا في كل يوم ، ولا تحول أسفاره دون الاطلاع عليه ، إذ أن بعضهم قد تخصص لنقله يومياً إلى الباشا ، سواء كان في القاهرة أو في الاسكندرية ، أو في غيرهما من مدن القطر ، لا يقف سوء المواصلات دون تحقيق هذه الرغبة ، واطلاع الوالي على أخبار دولته .

والفروق واضحة بين جرنال الوالي والوقائع المصرية التي يعتبرها الناس أول جريدة مصرية عربية ، فهو عبارة عن تقريرات ترفع للباشا في أوقات معينة ، ويوزع منها نسخ على موظفي الحكومة المسئولين ليشتركوا مع السياسة العليا في الاتجاهات التي احتوت عليها التقارير ، والتي من شأنها أن تجعلهم على علم بمجرى الحوادث ، وتدلهم على الأمور التي تهم الوالي وحكومته ؛ وقد أذاعوا فيها بعض القصص مما يجعل قراءتها محتملة ، والرغبة فيها موفورة .

* * *

إن جرنال الخديو محاولة طيبة لإصدار صحيفة رسمية يشترك فيها موظفو الدولة ويطالعها جمهرة المتعلمين المصريين ؛ ولا يقف نشاطها عند الأخبار الداخلية ، بل تضم في أعطافها من الحوادث الداخلية والخارجية ، والموضوعات الأدبية والعلمية ، ما يجعلها جديرة بالقراءة في جميع الأوساط ، وإن كل من يتحدث عن الوقائع المصرية خاصة ، والصحافة في مصر عامة ، يذكر (جرنال الخديو) على أنه أول صحيفة مصرية خالصة ، وأول صحيفة عربية في الشرق كله .

إبراهيم عبده

التخصص والاصلاح

مركز أثر سكوبه : لعل المؤرخ الذى ليست له المراجع الوافية عن الحياة المصرية ، لا يعجز عن القول بأن الجيل الذى نعيش فيه اليوم ، بما يحيط به من أوضاع وهيئات ومنشآت ، أكثر فى الحديث والتعبير من الجيل الذى سبقه ؛ فالجرائد اليوم أكثر منها فى سنة ١٩١٠ مثلا ، سواء فى عددها أو فى عدد صفحات كل منها أو فى تنوع الموضوعات التى تعالجها . وما يقال فى الجرائد يقال فى المجلات والكتب أيضاً ، بل إنه ليقال فى قادة الرأى وزعماء الفكر . فالنظام السياسى دمقراطى يسمح للبرلمان وأعضائه بالتحدث والاكثار من الأحاديث . والجامعة بأساتذتها قد قامت بالشىء الكثير فى هذا الباب . والهيئات والجماعات الخاصة قد رفعت أصواتها وأعلنت ما يبدو لها من آراء وأفكار . فالكلام كثير ، والمتكلمون كثيرون جداً ، والموضوعات التى تلوكها الألسنة وتجرى بها الأقلام لا تقع تحت حصر . ومن هذه الموضوعات ما هو شديد الاتصال بحياة الأفراد ، ثم بحياة الأمة بالتبعية . ومن أهم هذه الموضوعات موضوع الاصلاح الاجتماعى . فلست تجد اليوم جريدة أو مجلة أو مؤلفاً أو حزباً أو جماعة إلا ولها أحاديث وأفكار فى الاصلاح الاجتماعى . بل إنى لأتجاوز هذا الحد إلى القول بأنك لن تجد فى مصر — وخاصة فى مدنها — إنساناً ، إلا وهو يتحدث فى الحياة وإصلاحها . وكل هذه الأحاديث فيها الكثير من الآراء ووجهات النظر المتباينة ، ولكنها جميعاً تتجه اتجاهاً واحداً ، هو فى طريقه المؤكد نحو الوضوح والجلاء .

مخزن البضائع : هذا النشاط الفكرى المتعدد النواحى والاتجاهات ، كانت له دون شك الآثار البعيدة فى توضيح الكثير من شئون الحياة ، حياة الأفراد وحياة الجماعات ؛ وكان من نتائج هذا النشاط الفكرى أن ازدحمت الأذهان المتيقظة بالشىء الكثير من كل ناحية ، ولكنه فى كثرته شغل العقول شغلا ذاتياً ، حتى أصبح كل ما نبذله من جهد فكرى يتجه نحو الاكثار من الآراء ، تذكرها ، جمعها ، القدرة على عرضها عند الحديث أو الكتابة . وأصبحنا وما إن تذكر أمامنا مشكلة من المشكلات ، إلا وقد تداعت المعانى والأفكار فى أذهاننا فى كثرة وسرعة وتدفع . هذه الأفكار الكثيرة تختلط ببعضها وتمتزج امتزاجاً شديداً . فبينها الفكرة الأساسية ، وبينها الفكرة التفصيلية الثانوية . بينها الفكرة الصحيحة ، والفكرة الزائفة . بينها النظرة العملية الواقعية ، وبينها النظرة الفلسفية المطلقة . كلها تتفاعل وتتجاوب فى الأذهان ، ولكنها لا تستقر ولا تستوضح ولا تترتب ، مما جعلنا فى حال من القلق الفكرى ، والتخمة الذهنية ، التى تسبب لنا الكثير من التعب ، تعب بين أفكارنا والسيطرة عليها ، تعب بين أفرادنا والمتناقشين معنا ، وتعب بين أنفسنا وحياتنا فى المجتمع الذى نعيش فيه . وأصبحنا فى حال لا تكاد تسمح لنا إلا بلمس المسائل التى تعرض لنا فى كثرة وسرعة . فنحن نلمسها ولا نكاد نتبينها فى وضوح وتفصيل وجلاء ، كالسائر فى مخزن مزدحم بالأشياء المتراكمة يظلل بعضها بعضاً ، نراها ونلمسها ، ولكن ليست لدينا الفرصة الهادئة لنتأمل ونتمعن ونرسم صورة واضحة دقيقة .

زحمة مقلقة للفكر : بذلك أصبحنا فى حال تسمح لنا إذا تحدثنا فى الاصلاح الاجتماعى مثلا أن نذكر مشكلاتنا الاجتماعية ؛ وأن نعددها فى سرعة وسهولة : الفقر ، الجهل ، المرض ، الأخلاق ، النسل ، المظاهر ، الاندفاع ... الخ . ولن يعجز رجل مصرى عادى ، أو حتى

فتى فى عهد الدراسة الثانوية ، من أن يقول لك الشىء الكثير المختلط عن هذه المشكلات والمعضلات ، ولن يصمت رجل أو فتى من التحدث والمناقشة وتكرار الكثير مما سمع أو قرأ أو شاهد من أقوال وأفكار ومشاهد ... حتى أصبحت حياتنا تمضى فى الأحاديث والمناقشات وصناعة الكلام .

الحياة والفكر : ولكن الحياة بطبيعتها حركة وممارسة وتصرف ؛ وقل من الناس من يستمرئ إلى الفكر الخالص دون التصرف . لذلك لم نلبث اليوم حتى أصبحنا نسمع الكثير من الأصوات تنادى بالعمل ، وتدعو إلى التنفيذ ، وتعلن الضيق ، والقلق ، وشعور التناقض ، والحرمان ، وعدم الانسجام بين ما يتردد فى الأذهان وبين ما يحدث فى الحياة فعلا . وهذا الدور هو الثالث فى الترتيب بين أدوار إصلاح الحياة وترقية المجتمع . فالدور الأول هو دور المشاهدة للحياة التى تخالف حياتنا والأحوال التى تخالف أحوالنا ، والدور الثانى هو دور البحث والمقارنة والتحدث فيما بين الحياتين من خلاف ، والدور الثالث هو دور الامتلاء بالأفكار والمطالبة بتحقيق هذه الأفكار التى أصبحت للشعب فى مواضع الرغبات والآمال والصور المثالية .

مطالبة بالعمل : وهذا التطور الذى تمر به الحياة المعنوية والنفسية فى مصر ، تطور طبيعى معقول ، بلغ أهم النقط وأخطرها ؛ إذ لو طال بنا الحديث والكلام ، وخفت حرارتنا فى المطالبة بالاصلاح العملى التنفيذى ، لكان معنى ذلك تبلد إحساساتنا ، وفقدان العلاقة بين أفكارنا وحياتنا ، ولباتت الأفكار بالنسبة إلى حياتنا فاقدة لكل تأثير أو توجيه أو إثارة ، ولأصبحت حياتنا — وقد تجمدت وتصلبت — إطاراً لا فكاك لنا منه ؛ وعلى ذلك فرحبا بالدعوة إلى العمل ، دعوة حارة مخلصة ، فهى دليل الحيوية والشعور ، ودليل على أننا نحس بأنفسنا ، وبوجودنا الحاضر بما فيه من علل ومزايا ، كما أنه دليل على إحساسنا بوجودنا فى المستقبل بما له من مزايا أيضا ، وبما يحيط به من آمال سامية ، وبالصورة المثالية التى صورناه بها ، وهى صورة لو بولغ فى رسمها فان المبالغة فى الرسم مبالغة فى التسامى والمثل .

*

سؤال : ما إن تبلغ بنا الحال إلى كثرة سماع الأصوات التى تنادى بالعمل ، حتى ينشأ بين الشعب أفراد وهيئات قد امتلأت أذهانهم بالنظرة الواقعية ؛ فهم يقولون لك إنه لا فائدة من الكلام ما دمنا لا نعمل ، فنحن نريد عملا . نريد إصلاحا ، نريد تحقيقاً للمثل والأوضاع التى امتلأت بها صفحات الأذهان والكتب والمجلات والجرائد ، نريد أن نعيش وأن نجدد حياتنا ، أو على الأقل أن نطعمها فنبعث فيها روحاً جديداً ، حتى نشعر بأننا نعيش ولا نتكلم فقط . وترتفع أصوات هذه الجماعات وتشتد حتى ليظنون أن شدة ندائهم ستغير من حياة الناس وأوضاع العيش ؛ ولكن حياة الناس باقية على حالها لم تتغير ، وأوضاع العيش ثابتة لم تتبدل ؛ وحينئذ يشتد الضيق ببعض الناس حتى ليقولون لك : وكيف نغير حياتنا ؟ كيف ننتقل من حال إلى حال ؟ كيف تتحسن أخلاقنا وتصدق ضمائرنا وتتطور شخصياتنا ؟ كيف يقل نسل الأسرة وعدد أولادها ؟ كيف أتمتع بالحياة وأشعر بأنى حى سعيد ؟ ما هى الطرق العملية ، طرق الحياة والتصرف ، لا طرق الفكر ومنطق الرأى ، منطق الواقع والممارسة العملية ، لا منطق الفكر والتخيل الذهنى ؟

والإجابة هنا : والاجابة عن هذا السؤال « كيف » يشعر المجيب وكأنه قد أنزل من عالم الخيال إلى عالم الواقع ؛ فهو يجب عليه أن يرى الحاضر بما فيه من عوامل ، رؤية جيدة ؛ وهو يجب عليه أن يقدم الوسائل العملية المترفقة التى تأخذ الفرد وتسير به فى رفق نحو حالة جديدة ولدها تفاعل الحياة الحاضرة فى الواقع ، والحياة الحاضرة فى

الفكر . هنا يشعر المتحدثون والمجيبون بأنه لا يكفي أن يقال : نريد أسرة قليلة العدد ، وأن هذه الأسرة هي الأسرة السعيدة الميسرة المستقرة . بل يجب أن يضاف إلى هذه الأقوال أقوال أخرى في كيف يقلل النسل ، وكيف يخفض معدل الاخصاب . كيف نترك عادة سيئة ونختط لأنفسنا بدلا عنها عادة طيبة ؟ كيف نمارس هذه العادة الجديدة ؟ كيف نتخلص من العادة القديمة ؟ كيف نبقي في نفوسنا عناصر الارادة والمثابرة واليقظة الذاتية والرقابة على النفس .

التخصص : وهنا يبدأ التخصص . إذ أنه لا يسهل على كل مفكر أن يقول لك كيف تربي إرادتك ، وتحافظ على شخصيتك المفكرة أو الشاعرة ، وتقلل من نسلك ، وتحب إخوتك حباً متعقلا ، وتحتفظ بأصدقائك ، وتكسب تكاليف عيشك ، وتفيد من قراءة كتاب ، وتستمتع بصورة فنية أو قطعة موسيقية ؟ .. الخ . كل هذه وعشرات غيرها من الموضوعات تتطلب للارشاد فيها ملكات خاصة ، وتفرغاً للدرس ، وتعمقاً في البحث ، ومثابرة على الدعوة ، واستقراراً في نفس الداعي .

الشباب والجهود : هذا هو ما يتطلبه الاصلاح اليوم . الوسائل العملية ، جهود كبيرة يقوم بها متخصصون ، مثابرة وإخلاص وتضحية وتعمق ، شعور بالمسئولية الاجتماعية والضمير الاجتماعي ، شباب يرى أنه بتخصيص ساعات قليلة في كل أسبوع يمكنه أن يتعاون مع جماعة من أصدقائه لخدمة أمة بأسرها ، ولبعث عناصر السعادة والاستقرار في أفرادها . شباب يوطن النفس على أن ينجح متعاونا مع غيره . شباب يتوقع ، بحيث إذا فشل في المجتمع فإنه قد نجح في نفسه ، إذ أرضى ضميره وعاش وجاهد لبلوغ غاية مقدسة ... ولابد لكل جماعة متعاونة ، يسيرها الغرض الشريف الواضح ، والصالح الاجتماعي ، والاخلاص ، لابد لجماعة مثل هذه أن تنجح وأن تصلح . وما نجاح لجنة التأليف والترجمة والنشر إلا مثال حي لذلك التعاون بين الشباب ، في إخلاص وجهد ومثابرة وتضحية وحب .

المثابرة والاستقرار : وعلى الشباب المجتمع المجاهد المتخصص ، ألا يضيق صدره من الاتساع لكثير من سخافات كتاب الحواشي والأطراف والألفاظ ، فلا شك أن لهؤلاء فائدتهم . وعليه ألا يظن في نفسه العبقرية ، فالحياة طبيعتها الهدوء ، والنظام لا الشذوذ أو المفاجأة . وعليه أن يتعلم السير لا القفز ، وأن يحسن ترويض نفسه قبل أن يطالب بترويض نفوس غيره ، وأن يعلم أن حياته وعمره لا يتسعان لكل شيء ، بل لقليل من الأشياء ، فما بالك لو كان من هذا القليل جانب من جوانب حياة أمة وكيان شعب ؟ عليه أن يعمل وأن يعمل حتى يفنى ، فإنه بنّاء ، وكل حياته ومجهوداته قد لا تكون أكثر من حجر في بناء أمته ، وكل حجر في هذا البناء حجر مقدس .

أعلم — كما يعلم غيري — أن هذا المقال لن يجدي إلا بين طوائف قليلة نادرة من الشباب ؛ ولكني أعلم أيضاً أن هذه الندرة هي الدليل القاطع على كفاية هؤلاء الشبان ، وما هم أهل لتحمله من مسئوليات وتضحيات وجهود .

(ثابت)

ليلة الغـــــــارة

سيذكر أهل العباسية ليلة منتصف سبتمبر ما نبضت لهم قلوب . وسأذكرها خاصة كأشدهم ذكراً لها . ولا عجب فقد امتحنا تلك الليلة بتجارب الرعب والفزع . وابتلينا برؤية الموت سافراً ، وأحاط بنا جو الظلام والوحشية . وكانت القاهرة قد ألفت أن تستيقظ فى جوانب متباعدة من الليل على عويل الانذار بالغارات ، متقطعاً منذراً بالشر ، ومتصلا مبشراً بالسلام ؛ ثم وقعت غارات الاسكندرية المفجعة ، وترامت بها الأخبار ، فحمل توقع الشر الناس على الأخذ بأسباب الحذر من اللجوء إلى المخابئ العامة أو المخابئ الخاصة أو الأدوار التحتية ؛ وانقضت الليالى بسلام ، فاطمأنت النفوس ، وتراخت عن الحذر ؛ ولم تعد الحجرة التى أعددتها لاستقبال سكان بيتنا تستقبل أحداً منهم ، ولبثت خالية بستائرها السوداء الكثيفة ونورها الأزرق الخافت .

فلما كانت الليلة المشئومة ، استيقظت كالعادة بعد منتصف الليل على صفارة الانذار ، ففتحت عينى ولما أفق من ذهول النوم ، وظللت ثوانى لا أفقه معنى الصوت المدوى ، ثم أدركت ما هنالك . واستولى علىّ سخط تلك النذير الذى يطير النوم عن أجفاننا ويرهف أعصابنا ويتركها فريسة السهاد ما بقى من الليل . ولبثت راقداً لا أحرك ساكناً ، وقد أخذت أسترد شيئاً من أفكار اليقظة وأحلام الليل وخواطر يشوبها القلق ... ... ثم تناهى إلى مسمعى صوت غريب ، فأرهفت السمع ورفعت رأسى عن الوسادة فى قلق ، وفى تلك اللحظة جاءنى صوت أعرفه وأحبه من الحجرة المجاورة يهتف بى : « ألا تسمع ؟ ... هذا أزيز طائرة » ... نعم وهو ما كنت منه فى شك . ونهضت على قدمى ، ودلفت إلى النافذة وفتحت أدرافها الزجاجية ، فسمع الصوت واضحاً متزناً متصلا ... وانتظرت آملا أن ينقطع ... أن يذيب فى أفق من الآفاق .. ولكنه استمر فى عناد بغيض مزهق للنفوس ، حتى خلت أن الطيارة تدور فوق البيت ... وجعلت أقلب ناظرى فى السماء ، فلا أرى شيئاً غير النجوم الساهرة ... والأزيز ينبعث من كل مكان ولا يمسك أو يخف أبدا ... وخطر لى أن يكون مصدره طيارات مطاردة ، وقوى الظن عندى سماع الأزيز سريعاً عقب انقطاع الصفارة ، وراق لى الظن ، ورجوت — صادقاً — أن يصح خبره .. وما عتم أن رن جرس الشقة ، فعلمت أن الجيران أقلقهم ما أقلقنى ، وأنهم آثروا أخيراً اللجوء إلى حجرة الغارات كما ندعوها ، وهرعت إلى الباب مستأنساً بالقادمين ، وفتحته فدخل الشيخ سيد مواهب — وهو من ذوى المعاشات — وزوجه ، وحيانى ، ثم قال وهو يأخذ مجلسه المعتاد :

— كأن السماء ملأى بالطائرات .

فقلت له بلهجة انطوت على الرجاء :

— لعلها طائرات المطاردة .

فتمتم قائلا : « على الله » . وقالت زوجه :

— الشتاء قريب ، ومغادرة البيت فى الليل عمل شديد الخطورة ، فينبغى إقناع صاحب البيت بانشاء مخبأ فى الحديقة .

وهممت أن أؤيد رأيها ، ولكن الأزيز اشتد وازداد وضوحاً ، فنسيت ما أردت قوله ، وانتقلت إلى مخدعى ، ونظرت خلال النافذة إلى السماء ، فتراءى لى مشهد جديد ؛ رأيت الأنوار الكاشفة تجول فى رقعة السماء بسرعة جنونية ، فتماس وتتلاق وتتقاطع ؛ فخفق قلبى وأيقنت أن ما نسمع من أزيز صادر حتما من طائرات معادية تخبط فى سماء القاهرة على هدى أو على غير هدى . وقبل أن أتحول عن موقفى أضاء الأفق بنور خاطف وهّاج ،

محا ضوء النجوم ... وكنت قرأت كثيراً من مصابيح المغنسيوم التي تقذفها الطائرات لتهتدي على ضوئها إلى أهدافها ، فلم أشك في أن ما ينير الأفق واحد منها ، وساورني الخوف ، وتساءلت مضطرباً : هل نبتلي بما ابتليت به الاسكندرية من قبل ؟ ... ثم سمعت صفيراً غريباً مبحوحاً ، أعقبه على الأثر انفجار مروع اهتزت له الأرض وجاوبته الألواح الزجاجية بطقطقة طويلة ، فجفلت إلى الوراء ، وتوالت الحوادث بسرعة فائقة . فدوى انفجار ثان وثالث ورابع ، وصكت الآذان أصوات غريبة مزعجة ، ثم انطلقت المدافع المضادة بكثرة وسرعة لا يتصورها العقل ، وانقلب الجو الهادئ إلى جحيم من النيران والزلازل والبراكين ، يقلقل النفوس ويكتم الأنفاس . وصرخت السيدة هاتفة : « هلموا إلى المخبأ » . ولكن زوجها هز رأسه بعنف ، وقال بصوت متهدج : « بل نلبث حيث نحن داعين الله الرحيم ... ألا ترين أن التعرض للجو مجازفة خطيرة ! » . واطرد انفجار القنابل وانطلاق المدافع ، وجرى الجيران نحونا مهطعين ، نساء ورجالا وأطفالا ، وتعالى الصراخ ، وهتف أناس : « يالطيف ... يا لطيف » . وسمعت شخصاً يقول وقد رأى ضوء المغنسيوم فأساء فهمه : « لقد أشعلوا النار في العباسية كلها ... وهلكنا جميعاً ... » . وعلى هذا النحو رأيت بعين لا تكاد تميز ما ترى الوجوه الفزعة التي هرعت نحونا صارخة . وجاءت أخيراً السيدة التي تقطن الطابق الثالث رافعة طفلها الصغير بين يديها ، وارتمت على مقعدها القريب من النافذة وضمته إلى صدرها لتسكن قلبه المذعور ، وهي في مثل حاجته إلى من يسكن قلبها ... ولم نحتمل الصراخ فصحنا بالصارخين أن يمسكوا ، وساد السكون الحجرة ، وران الصمت المذعورين الذاهلين ، ولبث أشدنا احتمالا يتبادلون نظرات الحيرة ، وكأنهم يتساءلون : أما لهذا الهول من نهاية ؟

وكان بين الحضور سيدة مهاجرة من الاسكندرية ، بلغ بها التأثر مبلغه ، فانتابتها نوبة عصبية غريبة ، فأغرقت في الضحك ، ضحكا جنونياً لا معنى له ، وذهبت كل محاولة لتهدئتها عبثاً ، وأراد الشيخ مواهب أن يقرأ آية الكرسي ، فبدت نبراته مرتعشة ، وصوته متهدجا ، ومضى يتلو مبدأ الآية : « الله لا إله إلا هو » ولا يزيد ، وكأنما أنسيها نسياناً تاماً ، وأما زوجه فكانت كلما أحست هزة عنيفة استغاثت طالبة ماء ، فلا تكاد تفرغ كوبا حتى تطلب آخر .. وأسندت رأسي إلى يدي فوجدت رأسي ساخناً ملتهباً ، وكأن دمي جميعاً قد تركز في دماغي . وكان أقصى ما أعداه ساعتئذ أن تكف القذائف لحظة ريثما أعالج أنفاسي المتداركة المضطربة ... وبعد فترة يستحيل تقديرها على وجه صحيح بدأت حدة الضرب تخف رويداً رويداً حتى لم تعد نسمع سوى طلقات منفردة هنا وهناك ، ثم ساد السكون . فتنفسنا الصعداء ... ترى هل انتهت الغارة ؟.. وهل ولت حقاً الطائرات المغيرة ؟ ... وأبرز أحد الموجودين ساعته وقال بصوت غريب : « مضى نصف ساعة على سماع الانذار ... » نصف ساعة ! ... ونظرت نحوه بحنق وموجدة ... رجوت والله أن يقول بضع ساعات ... وأن الصبح أسفر أو كاد . نصف ساعة فقط ! كل هذا الدهر ثلاثون دقيقة ... تباً له ! ونظرت فيما حولي فاذا الجميع ملازمون أماكنهم والسيدة ما تزال محتضنة طفلها . ولكن لم يطل اطمئناننا ، فانطلقت قذيفة مدفع قريب ، أعقبتها طلقات أخرى شديدة ؛ فارتجفت القلوب مرة أخرى ، وأيقنا أن الموت ما يزال محلقاً فوق رءوسنا . وأن طمأنينتنا وهم باطل . وفجأة أضاء الجو بذاك النور الوهاج الخاطف ، ونفذ إلى الحجرة كأنما حيطانها وستائرها السوداء من زجاج شفاف ، ومحا نور المصباح الأزرق الخافت . فلاح الهلع في الوجوه وارتسمت في الأعين نظرة تنذر بالهلاك ، وسمع الصفير

المجروح هابطاً تلاه انفجار شديد دكت له الدنيا دكا وزلزلت زلزالا . وأحدث أصواتاً عنيفة في كل مكان ، لعل أخفها وأهونها تكسر الزجاج خلف الستائر ، وسرت في بنيان البيت رعدة ، انتقلت منه إلى النفوس ، فضجت الحجرة بالصراخ ، ونهض الشيخ مواهب فزعاً رافعاً يديه ، كأنما ليدفع بهما سقف الحجرة وصاح لاهثاً : « سقط البيت ... سقط البيت ... » ، واختلط على الأمر فلم أدر أتصدع البيت حقاً أم ما يزال قائماً . ولكني سمعت صفيراً جديداً خلته أدنى إلينا ، وقبل أن تبلغ القذيفة هدفها طقطقت أدراف النوافذ بشدة ، ولطمتني موجة هواء عنيفة كتمت على أثرها أنفاسي ، فأحسست اختناقاً ، ثم هزة قاسية وانفجاراً يصم الآذان ويمزق شغاف القلوب ، فما أدري إلا والأرض تصدم وجهي ، وزكمت أنفي رائحة البارود الكريهة ، فاستولى على القنوط ، ودخلني مع القنوط استسلام غريب لا عهد لي به . بل استهانة سافرة ، وقلت لنفسي فلتأت النهاية ، ولتأت سريعاً ... ولبثت دهراً لا أدري كيف مر ، وقد ساد الصمت فداخلني شك في أني ما أزال على قيد الحياة ، أو أني على الأقل ما أزال سالماً ... ورفعت رأسي قليلا ، لم أشعر بألم قط ، ولكن ليس معنى هذا أني معافى ، فأنا أعرف أن الاصابات الشديدة البالغة لا تحس الضحايا آلامها وقت حدوثها . ورغبت أن أحرك أعضائي ، وأن أمر بيدي على جسمي ، ولكن لم تسعفني شجاعتي ، وأشفقت من أن أفتقد عضواً فلا أجده ، أو أن تتوص أصابعي في السائل الساخن الذي يمسك علينا الحياة ... ولبثت ساكناً حتى يقضي القدر بما هو قاض ، ومر الوقت في صمت رهيب ، فلا صراخ ولا كلام ولا انفجار . وعاودني الألم ولواحقه من الخوف والقلق . . . هل آمن النفس بانقشاع سحابة الهلاك ؟ ... أم تسقط علينا الشهب من جديد ويعقبها صفير الموت ؟ ... ومر الوقت ثقيلا — وعلى حين غرة انطلقت صفارة الأمان ... وياه ... إنه شيء لا يصدق ... ما أحلاها ... ما أجمل ترتيلها ... ما أعذب سجعها . وصاح الشيخ مواهب : « صلوا على النبي » ، فصلينا من الأعماق ، حتى جارنا أنيس منقريوس هتف بحرارة : « اللهم صل عليك يا محمد » وحركت أعضائي فتحركت ، ونهضت قائماً لا أكاد أصدق ... وياه ... إنها الحياة تدب في من جديد ، إنه البعث من غير جدال ، فوالله ما عرفت قيمة الحياة كما عرفتها في تلك اللحظة . . ولا لذتها ولا سعادتها ، وفاض قلبي بفرح سماوي ، طربت له أعصابي جميعا ، واندفع الناس في الثرثرة بغير حساب . لولا أن قطع علينا فرحنا سماع صرخة ألمية . فأمسكنا وتحولنا نحو مصدرها متطلعين ، فاذا بالسيدة تحتضن طفلها وتنظر إليه جزعة وتصيح : « أغيثوني ... أغيثوني ... انظروا إلى رأسه » . ودنوت منها ونظرت مع الناظرين ، فرأيت في وسط الرأس فجوة مروعة يتدفق منها الدم كالنافورة ، ويسيل على حجرها أحمر قانيا . جنت المرأة جنونا ، وجعلت تلتدم وتشد شعر رأسها بوحشية . وركض شاب يدعو الأسعاف . ولكن الشيخ مواهب اقترب مني وهمس في أذني بصوت حزين : « وا أسفاه ! ليس ثمة فائدة ترجى من استدعاء الاسعاف . . . ولكني أعجب كيف أصيب الطفل المسكين ! » . . . فلم تتحول عيناي من رأس الطفل ، وقد لفني الخوف ورانت على صدري الكآبة . . . وتساءلت متحيراً : كيف قتل الطفل ؟ لا شك أن شظية اخترقت النافذة أو الحائط واستقرت في رأسه ، وقد كان أينا عرضة لهذا المصير المخيف ! ولكنها اختارت الطفل وثكلت أمه التاعسة التي ما برحت تضمه إلى قلبها وتأبى أن تصدق أنه مات . . . وهكذا انتهت الغارة في مخبئنا الخاص .

لقد كانت تلك الليلة تجربة قاسية ، ابتليت بها قلوبنا ومشاعرنا ، وكان ختامها مأساة تلك الأم التي ذبح وحيدها في حجرها . . . .

نجيب محفوظ

صريع زنجية

كان فى تلك المعاهد المذكورة زهاء عشرين ألف طالب وطالبة ، لا يكادون يجتمعون إلا على صوت الأساتذة المحاضرين ، فإذا انتهى هؤلاء من بسط أبحاثهم ، تفرق القوم ، وانصرفوا جماعات جماعات ، يقصدون المنازل والمكاتب والمقاهى ، وما إلى ذلك من أمكنة الجد والتلهى .

ولا شك فى أنه كان من الصعب على (طريف) وهو غريب الأهل والديار ، أن يجد بين هذا الجمع المنتشر من يعينه على الدرس والمطالعة .

إلا أن صاحبنا الجرىء المقدام لم يضطرب أمام هذه الصعوبة السهلة ، ولم يحفل بها ؛ ذلك أنه اعتاد منذ الحداثة أن لا ينال من دهره شيئاً إلا بالكفاح وتذليل ما يصطدم به من صعاب وعقبات لا تنقطع .

فلم يمض على نزوله الحى اللاتينى واستقراره فيه وقت بعيد إلا وكانت تحوطه هالة من الطلاب والطالبات يختلفون إليه ، ويقرأون له ما شاء ، بالمال حيناً ، وفى أكثر الأحيان من غير مال .

وكان (طريف) فى بحر السنة الدرسية يختار من هؤلاء الطلبة من تعجبه قراءتهم وترضيه مخالطتهم ، فيدرس معهم منشرح الصدر منتبط النفس ، جامعاً بين لذة العقل والفؤاد .

أما فى أيام الامتحانات فقد كانت الضرورة تفرض عليه من القراء من يستهجن معاشرتهم والتعاون معهم ، ويجد فى فهم ما يقرأون له واستيعابه عناء كبيراً ومشقة زائدة .

ولعل أعجب من عرفهم فى تلك الأزمنة العصيبة ، واستعان بهم على قضاء الامتحانات هى فتاة زنجية جاءت من جزيرة (غوادیلوب) لتدرس الفلسفة فى باريس ، فاتصل بها (طريف) واستقرأها لقاء دراهم معينة خلال شهرى مايو ويونيه سنة ١٩٣٤ .

لقد كانت هذه الفتاة قصيرة القامة ، ضخمة الهيكل ، مخشوشنة الراحتين ، جشاء الصوت ، جافة النبرات ، مفتتنة بالراء الباريسية افتتاناً غريباً حقاً ؛ فهى إن قرأت أو تحدثت كان أول ما تهتم به وتسعى إليه أن تبحث عن الراء ، وأن تتصيدها من بين الحروف رغبة فى (تغنيتها) وطلباً لما بالتغنين من متعة التقليد ، واستمالة الأسماع أو تنفيرها بالأحرى .

ولعل الأكرب من هذا أنها علائية المذهب فيما يتعلق بالرجل ؛ فكما أن أبا العلاء احتقر المرأة واتهمها بكل سوء ، كذلك زنجيتنا العانس ، فإنها تحتقر الرجال ، ولا تثق بهم ، فكأنها والحالة هذه ترد النساء واحتجاجهن الأليم على « شيخ المعرة » ، وكأن طريفاً هو المسؤول عن شريكه بالصيبة ، وإن لم يشاركه فى الرأى ، فقد كانت صاحبتنا الزنجية لا تصافحه إلا مرسلة الأنامل متثاقلة ، ولا تتحدث إليه ، مع ميلها إلى الثرثرة ، إلا بتقزز ، كما أنها لا تقرأ له إلا بعد أن تتقاضى أجرتها سلفاً أربعة فرنكات وربع فرنك عن كل ساعة ، زد على ذلك أنها لا تأتى إليه فى المواعيد التى تضربها له وتسمى هى نفسها آجالها ، إلا متأخرة ساعة أو ساعات . فإذا عاتبها فى ذلك وأبان قيمة الوقت واضطراره إلى الدرس والمطالعة ، ابتسمت قائلة : « من حق الجميلات أن يُنتظرن » .

وقد تستبدل هذه العبارة المألوفة عند الفرنسيات بعبارة أخرى ، فتزعم أن الذى أمسكها عن المجىء فى الوقت المعين هو (أفلاطون أو أرسطو) أو غيرهما من فلاسفة اليونان ، وأن التبعة لا تقع عليها ، بل على هؤلاء

المفكرين الذين كانت غارقة في قراءة بعض مؤلفاتهم ، فنسيت (طريفاً) كما نسيت نفسها ، وطارت كالغراب إلى جبل (البرناس) والأولب ، مقر الفلاسفة والحكماء عند قدماء اليونان .

عندئذ تهبط فيلسوفتنا السوداء من عليـاء الفلسفة لتقعد على الكرسي ، وتضع رجلا على رجل ، مشعلة سيكارة تدخنهـا بتلذذ عظيم ، وتتحدث بلذة أعظم عن (إفلاطون) و (أرسطو) ، وعن المادة والروح والفنـاء والخلود .

وبعد أن تفنى ثلثي عمر السـاعة وأياماً (استغفر الله بل أعواما) من عمر طريف يخطر في بالها أنها جاءت لتقرأ لا لتلقى محاضرة في الفلسفة ، فتأخذ الكتاب وتشرع في القراءة ماصة حب (الباستيل) ومرسلة السعلة تلو السعلة ، والقحة أو القحة ، حتى إذا ما أدركها الملل أطبقت الكتاب قائلة : «أنا لا أحب الحقوق ، وإني لأعجب كل العجب كيف استطعت أيها السيد البائس أن تقبل على هذا النوع من الدرس ، وأن تهمل الفلسفة منار العقول والأذهان» ، ثم لا يلبث الوجدان القلـق أن يلهمها الذوق ، فتعود إلى الكتاب ، ثم إلى الحديث ، ثم إلى الكتاب قائلة بحديثها وقراءتها وتصرفاتها صاحبنا طريفا الذي يحتمل أذاها ويصبر على بلواه ، كاظما غيظه وأساه ، مخافة أن يجرح قرائحه الحساسة ، فتغضب عليه وتتخلى عن مساعدته في وقت هو أحوج ما يكون إليها .

إن موعد الامتحانات كان يقترب يوماً بعـد يوم ، وساعة بعد ساعة ، وإن طريفاً يهيئ في كل دورة من دورات الفحص أكثر من شهادة . فاذا تركته الزنجية كان من الصعب عليه أن يجد زمن الاختبار من يخلفها ، ويمكنه كما كانت تفعل بالتعاون مع أصحابه من متابعة الدرس آناء الليل وأطراف النهار .

فاذا انقضى عهد الامتحانات ، ونال طريف شهادتي الاقتصاد السياسي والحقوق العامة ، لم يركن خلال العطلة المدرسية إلى الهدوء ، إراحة لجسمه وعقله من التعب الذي ألم بهما ، بل أقبـل يلتهم الأسفار الحقوقية والفلسفية التهاماً ، ويستعد لنيل أربع شهادات في دورة تشرين .

ولا جدال في أن برنامجاً كهذا واسع المعلومات مختلف المواد ضرب من المستحيل ونوع من الجنون ، لما يستلزم من جهد ونشاط يفوقان طاقتنا البشرية .

إن الانسان مهما يكن فطنا سريع الفهم قوي الحافظة فانه كغيره من المخلوقات الحية وغير الحيـة خاضع جسما وعقلاً لقانون مقاومة الأجسام . فاذا خالف هـذا القانون وحمل نفسه أكبر مما تطيق أدركه الوهن ودب إليه الفناء .

وقد كانت نتيجة الدرس المتواصل والنشاط العنيف اللذين أبداهما طريف في مستهل العطلة الصيفية أن تعرض إلى هذا الخطر ، وأوشك أن يقع فيه . فخفف من جشعه العلمي ، واكتفى بتحضير شهادة واحدة لم تكن تكلفه غير نام من الحمية والحمى وأنواع متنوعة من الأدوية والمقويات ، ولولا أن تدارك الأمر بعض خلانه ، وحذروه سوء العاقبة ، لأصاب طريفا ما أصاب قيساً ، ولكان الآن من سكان مقبرة العقول .

وإذا قيل إن اللبيب من اتعظ بغيره ، فان طريفاً أبى إلا أن يتعظ بنفسه . وإلا أن يفنى صحته وشبابه في سبيل المعرفة عامة ، والحقوق خاصة ، إلا أنه لما أحس فداحة الخطر ، وأوشك أن يكون (كالمنبت ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) أدركه الجزع وتملكه الذعر ، فكبح جماح نفسه ، وأوقفها عنـد حدها ، ذاكرا أن الله عز وجل لم يخلق الانسان من جسم وعقل وقلب إلا ليستثمر كيانه كله ، وليعطي الأجزاء التي يتكون منها هـذا الكيان

غربة !

خفق القلب في الضـــلوع وزغرد
وطغى شـــجوه فصاح وعربد
ومشى اليأس ســـادراً في زواياه
وفي كهفه الأسى يتردّد
كم شكا للزمان غربتـــه الفظـ
ـى فأرغى الزمان غيظاً وأزبد
صاح ! إن الفراغ أترع نفسى
بقنـــــوط كلوعتى ليس ينفد
فأرحني من الشكاية والبـ ـثّ بود على المدى يتجدد
أنا في هذه الديار غريب ألمى لاذع وحزنى سرمد !
إطوني يا حمام في حلك الدجـ ـر لعل هناك أهنا وأسعد !
إطوني إطوني فإني من الســـرْ
ب ، وعُدْ بي إليه ، (فالعود أحمد) !

(حمص — سورية) عبد السلام عيون السود

عينـــــاها

إن في عينيك من سحر الهوى
فِتناً ترقص في قلبي سُكارى
كلما أرسلتِ منها فتنـــةً
تتهادى — أشعلت في القلب نارا
وإذا أسمعتُ سراً فيهما فتلتني عينك الوسنى جهارا
أنت يا فاتنة الدنيـــا ويا بابل السحر ويا قيد الأسارى
لم تكن عينك إلا قبساً كابتسام الفجر يفترّ افترارا
وهي الآن سهامٌ وظُبًا تقتل الصبَّ وتحييه مرارا
فاصنعي ما شئت يا قاتلتي إن في عينيك ليلا ونهارا !

***

هـــدّئي روحي وقولي لدمي
ويكَ يا ظمآن لا تشكو الأوارا !
هـــذه عيني وذيّاك فمي
وإذا الورد رأى خـــدي توارى

حقوقها الطبيعية ومطالبها الشرعية من غير ما إسراف أو تقتير .

وعلى هذا الأساس البسيط المتين الذي يستمد بساطته ومتانته من طبيعة الانسان وضع طريف أركان حياته الجديدة ، فوقف قسما من وقته ونشاطه على مطاردة اللهو والمسرات ، متنزها مع بعض أصحابه وأحبابه في الحدائق العامة والغابات ، ومتنقلا بين مسارح التمثيل ومحافل الوسيقى ، وما إلى ذلك من أماكن التسلية .

إن هذه الأشياء ، وإن سرته واستهوت فؤاده ، فإنها لم تلهه عن دروسه ، ولم تملأ فراغ نفسه ، ذلك أن طريفاً جدي الطبع ، مجاهداً أكثر مما هو عابث لاه .

وقد استطاع بجده هـذا ونشاطه المنظم المعقول أن يبلغ الغاية التي من أجلها أم باريس ، وأن ينقلب بعد ذلك إلى أهله وبلاده فرحاً جذلان ، تغمره البهجة ، وتبدو عليه مظاهر الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، كما أنه تخلص أخيرا من قارئته الرعبية ، تلك القارئة المظلمة التي لازمته أزمنة الامتحانات كلها ، وأبت أن تسقيه الدم إلا كل جرعة بغصة ، قائلة له بلسان نفسها الناقمة عليه ، وعلى الجنس الخشن كافة :

تُريدين إدراك المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من إبر النحل

(بيروت) الدكتور عارف العارف

ثم تشكو ظمأ الروح متى ؟!
وأنا أسقيك من عينى عقارا !!

أين أيامك فى عهد الصبـــا ؟
إذ خلعنـــا فى لياليها العذارا
وقضينـــاها ولا ندرى بها
بين أحـــلام كأنفاس العذارى

(كوم النور) أحمد أحمد العجمى

نـــداء...

ونادتنى الطبيعة وهى نشـــوى
بفيض من معانيها الفصاح !
فقمت أهيم فى الأجـــواء وحدى
أريق كآبتى فوق البطـــاح
وكان النهر يضحك من شجونى
وكان العشب يهزأ من جراحى
وكان النبت منتعشاً قريرا   وكان الطير يرقص فى مراح
وكان — ولست أحسد — كل شىء
يرنم فى حبـــور وانشراح
فما لى لا أسر بلا قيود   وأبسم فى غدوى أو رواحى؟
وأنسى الهم إن الهم ثقل   يهدد فى المساء وفى الصباح
وأمرح مثل عصفور سعيد   وألتمس اللهى فى كل ساح ؟
فما الدنيا سوى جذل وأنس   ولذات جنين من الكفاح
وليس يدوم للإنسان شىء   سوى البسمات واللهو المباح
وللبسمات ســـحر أى سحر
ووحى مشرق فى القلب ضاحى

مصطفى عبد اللطيف

ليل بهيم وقلب معذب

دجا الليـــل ، ولاح النجم فى مسبحه يسرى
وراح الناس فى الغفوة ، والدهر بهم يجرى
ونام الكون فى حضن الدجى منقبض الصدر
كذاك الليـــل قد نام على راحتى الدهر !

***

غفا الناس ، غفا الليل ، غفا الكون بما فيه
ولم يبق ســـوى قلب ، نأت عنه أمانيه
غـــدا يخفق للآمال ، والآلام ترديه !
يميت اليأس منه الخفق والآمال تحييه !!

***

تراءى لى فى جوف الدجى أطياف أحلامى
فرفت حولها روحى ، وخف فؤادى الدامى ...
ولما أن غفا قلبى لها من وجـــده النامى ؟
تلاشت فى حشا الليـــل ، وخلتنى لآلامى

***

إلى كم أنت ، ياقلب ، تعانى ثورة الوجد ؟
فتلقى للســـقام الجسم ، والعينين للسهد !
وترمى العقل للأوهام ، والأوهام لا تجدى ...
أما يكفيك ما عانيت فى دهرك من نكد ؟

***

ويا ربة أحـــلامى حتى م أناديك ؟
وحتى م بأنغامى فى الليـــل أناجيك ؟
لقد حولت الأيام قيثـــارى لواديك
خذينى نحو قيثـــارى وضمينى لناديك

(الكاظمية — بغداد) على جليل الوردى

أنباء وآراء :

مهرجان أدبي

جاءنا من لجنة الاحتفالات العامة أنه لمناسبة عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك السعيد في ١١ فبراير سنة ١٩٤١ تعقد لجنة المهرجان الملكي الأدبية عشيئة الله مباراة عكاظية يلتقي فيها الكتاب والأدباء والشعراء والزجالون بخطبهم وقصائدهم وأزجالهم وأناشيدهم ، كل بما يجود به يراعته وما تفيض به نفسه من إخلاص المليك المفدى وولاء وحب لصاحب العرش المكين .

وإن ميدان البيان البليغ لمتسع . شباب رائع فتي وعقل ألمعي وقلب تقي وخلق عظيم ودين مكين . قد ضرب أروع الأمثال في رعاية الفقير والترفيه عنه واحتضانه والأخذ بيده . لنا من سيرته الحميدة ومآثره المشهودة ، خير حافز على تسجيل نفثات اليراع في كتاب يرفع إلى مقام المليك وينشر على الملأ بعد أن يذاع منه بحفلة دار الأوبرا الملكية ما هو جدير بالتفضيل .

وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يحوز قصب السبق في المباراة .

إلى الثقافة

. . . . . يسرني أن تستقبل الثقافة عامها الرابع بنفس القوة التي استقبلت بها أعوامها السوالف . وكان جميلا أن تعلنوا عن صادق الرغبة في إجابة مطالب القراء والاتصال بهم اتصالا روحياً ؛ الشيء الذي دفعني إلى إبداء ما أشعر به من الأسف إزاء السياسة التي يسير عليها معظم مجلاتنا في مصر ، فلا تنشر إلا لمن لاقت أسماؤهم شهرة عريضة أو لمن وهبهم الله من « الكروت » ما يضيق بالرتب والألقاب . ومعاذ الله أن أتهم الثقافة بعبادة الألقاب دون تقدير الكفايات . ولكن الشيء الذي آخذه عليها أنها لم تفتح للشباب الناشيء مجال الاشتراك في تحرير المجلة والمساهمة في تقديم الموضوعات .

إن كل من كتبوا في الثقافة منذ نشأتها يمكن عدهم على الأصابع وكثر تردد أسمائهم في آذاننا .

ولما كان الغرض من مجلتكم تثقيف الشعب ، وكانت الثقافة لا تكتمل من طريق القراءة فحسب ، بل من طريق تطهير الأفكار وتسجيل الآراء أيضاً ، كان من واجب الثقافة أن تدعو الصالح من القراء إلى دخول الميدان ، وإلا تزعزعت قوى النشء الفكرية أمام عواصف الزمن ، فتأخذ سبيلها قدماً في عالم النسيان .

عبد المنعم عبد العزيز المليجي

(الثقافة) إنها تشجع الشباب على نشر ما يكتبون ، ولكنها لا تفرق بين شيخ وشاب إلا بجودة الإنتاج . فأمل الشباب الذين يتحمسون لنشر ما يكتبون يتحمسون كذلك في إجادة ما ينتجون .

أحاديث عن القصة

لفت نظري في صحف الأقطار الشقيقة ، التي طالعنا بها البريد في الأسابيع الماضية حديثان عن القصة ، أحببت أن أوجزهما لكتاب القصة وقرائها في مصر : أحدهما نشرته مجلة « المكشوف » لصديقنا الدكتور بشر فارس ، والثاني بقلم مديحة البرازي ، وقد نشرته صحيفة « الصباح » التي تصدر في دمشق .

أما الدكتور بشر فارس فقد أبدى رأيه في القصة والطريق التي يجب أن تسلكها بقوله : « القصة عندي حنية تنتزع من صور الحياة ، لا « قطعة من الحياة » ، كما يرى القصصيون غالباً . يجب أن تكون كبرق يلتوي في سماء مقبرة . السماء المقبرة هي الحياة الجياشة ، وهي طلسم من حيث دقائقها ، ومن حيث أسرارها . فالقصاص هو الذي يستطيع أن يطلع في لفتة على سر من هذه الأسرار أو دفينة من هذه الدقائق فيدونها » .

ويعرج بعد ذلك على صياغة القصة فيقول : إن القصة

لا تحتاج إلى حبكة ، بل يجب أن تكون كالرسم الحديث : جسات فى لوح الحياة الجارية ... الخ .

ولعل القراء يرون ذلك التحديد للقصة فى رأى الدكتور بشر فارس ؛ فهو قد أخرج القصص الواقعى كله ، أو كما عبر هو بقوله « القصاصون غالباً » وقصر القصة على أن تكون أصداء « الواقع » أو « التخيل » ، أما أن تكون صورة ، ومجرد صورة فلا .

وينعى الدكتور بشر بعد ذلك على الاسراف فى التحليل المنطقى والعلمى وينعى كُتّاب القصة عنه . وهو بذلك يثور على التوجيه الذى أخذناه من الكتاب الغربيين فى فن القصة . ويتفق بذلك مع الاتجاه الحديث فى الأدب الغربى نفسه ، ذلك الاتجاه الذى عرضنا له فى عدد سابق حين عرضنا رأى سير هيو والبول فى القصص الحديث .

أما الحديث الثانى فانه ينحو نحواً آخر ، إذ يرسم الطريق لكتابة القصة ، ويسرف فى هذا الرسم ، فيجعل القصة مقصورة على المواقف أو العواطف التى تمر بالنفس الانسانية ، والقصة ليست إذاً إلا تصويراً للمآسى ، فقد أحصى هذا الحديث أكثر من عشر حالات إنسانية على أنها مواضيع القصص الغالبة فى الحياة . على أن أطرف ما فى هذا الحديث ذلك الرأى الذى أنقله : « يحسن بالكاتب القصصى أن يمهد لفكرته . ذلك بأن يهيئ لها أفقاً مناسبا تبرز فيه الفكرة واضحة جلية ، بحيث يستطيع القارئ العادى أن يدركها لأول وهلة .... »

ونحن نترك لكتاب القصة وقرائها أن يدلوا برأيهم فى القصة « كبرنى يحترى فى سماء مغبرة » عند بشر فارس ، وفكرتها واضحة جلية لا تحتاج إلى إعمال فكر عند مدبجة البرازى ؟ ؟

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٣ — الثلاثاء ٢٤ من محرم سنة ١٣٦١ — ١٠ من فبراير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكى بك

اليابان

أتينا فى العدد الماضى على ما استظهرته أرض اليابان من زروع ، ونبدأ اليوم هذه الكلمة عما استبطنته أرضها من معدنيّات . وإن تكن الزروع حاجاتِ الإنسان الأولى ، وهى من حاجات الحيوان ، فالمدنيات حاجاتُه الأخرى التى لا بد منها للصناعة ، والصناعة سببُ الانسان الأول للثراء ، وسبيله إلى القوة ، والقوة والثراء سبيل الناس إلى العزة وامتناع الذلّ وحفظ الكرامة فى عالم تسوده الأَثَرة ، وتتحكم فيه صفرة الذهب وديب الحديد .

وسيّد المدنيّات الفحم والحديد .

وقد بلغ ما استخرجته اليابان من فحمها عام ١٩٣٥ ٣٣ مليون طن ، يقابلها ٢٣٦ مليون طن استخرجتها بريطانيا فى نفس هذا العام . والفحم يوجد من جزر اليابان الأربع فى الجزيرة الشمالية العليا ، والجزيرة الجنوبية السفلى ، وشىءٌ منه فى الجزيرة العظمى . ومناجم الفحم فى أيدى شركات قاربت الستمائة عدداً ، وقارب رأس مالها المدفوع ثلاثين مليوناً من الجنيهات .

وإذا اعتبرنا ما اختزنته أرض اليابان من رصيد وجدناه

غير كبير بالنسبة لما اختزنته أراضى الأمم الأخرى التى وهبها الله هبة الفحوم .

أما الحديد فليست اليابان فيه من ذوات الثراء ، فالقليل الجيد الذى بها منه بعيد عن مراكز الصناعات ، وبعيد عن مواطن الفحم ، والفحم لا بد منه لاستخراج الحديد ، وقربه منه ضرورىّ لاستخراجه استخراجاً رابحاً . ولكن اليابان لم تأبه لهذه العقبات ، ولم تحفل لها هذه الغذّلات ، فاحتملت تكاليفها فى سبيل أغراض أهم لديها وأخطر ، وهى أغراض الدفاع . فأنفقت الملايين فى إنشاء مصنعين عظيمين للحديد والفولاذ ، أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب ، على مقربة من فحوم الشمال وفحوم الجنوب . واعتمدت فى صناعة حديدها بعض اعتماد على خامة البلاد القليلة ، حتى تكون مناجمها حاضرة دائماً ومفتوحة أبداً عند ما تأزم الأزمات . واستوردت إلى جانب هذه الخامة القليلة خامة كثيرة من خارج البلاد ، لا سيما من الصين ومنشوريا ، وعلى أكثر مناجمهما تسيطر اليابان .

والذى أنتجه العالم من الحديد الزهر فى عام ١٩٣٥ بلغ نحواً من ٧٤ مليون طن ، أنتجت منه اليابان نحواً من ٣ ملايين ، وبريطانيا نحواً من ٧ ملايين ، وألمانيا نحواً من ١٣ مليوناً ، والولايات المتحدة نحواً من ٢٢ مليوناً . وقس على مثل هذه النسب أو على قريب منها ما تخرجه هذه الأمم من الفولاذ .

وعند ذكر الفحم والحديد ، لا بد من ذكر المصدر الخطير الآخر للقُوَى : أعنى البترول .

فهذا ليس لليابان منه شىء ، إلا القليل . ومنابعه فى الجزيرة العظمى على ساحلها الغربى . وقد استخرجت اليابان من البترول عام ١٩٣٥ نحو مليونى برميل ، استخرجت فيه مصر مليوناً ونصف مليون ، والولايات



المتحدة ٩٥٠ مليوناً . فأين الثريا وأين الثرى ؟ والبرميل ⅛ طن تقريباً .

والقوة فى البترول والفحم قوة كامنة يخرجها الحريق . وهى فى مساقط الماء قوة عارية لا كمون فيها ، تُصَبّ على العجل فيتحرّك ، ويتحرّك بتحرّكه محاور ولفائف من الأسلاك تُنتج الكهرباء ، ومن الكهرباء تُستمَد الحركة والحرارة والضياء . وقد انتفعت اليابان من مساقط أمواهها ، وهى كثيرة شقيقة ، كل انتفاع . ففى عام ١٩٠٥ كان لها منها قوة ١٢٠٠٠ حصان ، صارت فى عام ١٩١١ نحواً من ١٠٤٠٠٠ حصان ، صارت فى

عام ١٩٢٤ نحواً من ١٧٥٠٠٠٠ حصان . ثم زيدت بعد ذلك زيادة كبرى .

ومن معادن اليابان النحاس ، وتنتج منه في العام ما تزيد قيمته على خمسة ملايين من الجنيهات . ومنها الفضة ومنها الذهب ، وتبلغ قيمته فوق المليون .

فاليابان إذاً ليست من الأمم ذات الثراء الواسع ، حتى ولا الثراء المعتدل ، في المعادن والمعدنيات . فالذي بها منه بأرضها الأم قليل المقدار لا يكفي حاجتها . وهناك أنواع أخرى من المعادن ليست بأرضها أصلا . فهي لا بد أن تخرج من أرضها لجلب حاجتها كما تخرج الأمم . أو هي لابد أن تخرج فتمتش كما تمتش السباع .

من أطاق التماس شيء غلابا
واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

وهي لا تخرج المعادن والمعدنيات وحدها ، وإنما تخرج كذلك المزروعات . فقد علمنا أن أرضها تقع في المناطق المعتدلة الباردة ، وخير الأرض التي تقع في المناطق الحارة .

وكان اغتصابها أول الأمر فيما حولها من جيران . فحاربت الصين عام ١٨٩٤ ، واغتصبت منها جزيرة فرموزا ؛ واقتطعت منها كورية وجعلتها مستقلة إلى عام ١٩١٠ ثم ضمتها إليها . وغزت منشورية اقتصاديا بعد ذلك ؛ ثم سيطرت عليها سياسيا . كذلك غزت الصين اقتصاداً وسياسة وحربا منذ أعوام قريبة ، وهي لا تزال تغزوها . واليوم تمتد جنوبا إلى مناطق الاستواء ، حيث الأرض أخصب ما تكون ظهراً ، وأملأ ما تكون بالكنوز بطنا . ففيها البترول ، وفيها القصدير ، وفيها المطاط ، ثلاثة أسس من أساس الصناعة والمدنية ليس لليابان في بلادها نصيب منها . وأخطر الثلاثة في هذه الحرب القائمة المطاط . وكان محصول العالم منه قبيل الحرب فويق المليون طن ، جاء أكثر من ٩٥٪ منه من شجره المزروع في جزيرة سيلان وفي برما وجزيرة جاوه وجزيرة سومطرا وجزيرة بورنيا ، أي في الجانب الجنوبي الشرقي من آسيا الذي تهدده الآن اليابان .

وقد توقع الحلفاء انقطاع وارده بالغزو ، فحملوا ما استطاعوا منه إلى بلادهم قبل أن تشتد الحال وتصفر في هذه الجزر الأصفار . وقد أبلغتنا الاذاعة الأمريكية منذ أيام قليلة أن الذي استوردته الولايات المتحدة من المطاط منذ ٧ ديسمبر الماضي ، أي منذ أطلقت اليابان نيران حربها ، بلغ ١٤٠ ألف طن . وقد قدرت هذه الاذاعة أيضا أن بالولايات الآن من المطاط ما يكفيها عاما ونصف عام . وأنها آخذة من الآن في تجهيز مصانع تخرج المطاط من زيت البترول ، ووعدت بأنه لا تأتي نهاية هذا العام والنصف حتى تكون هذه المصانع قد أخذت تنتج من المطاط الصناعي مقادير تكفي حاجة الحلفاء جميعا .

واليابان غير ثروة الأرض ثروة الماء وما احتوته البحار . والياباني صياد للسمك قديم ، ولكن السماكة في اليابانيين ظلت على حالها البدائي الأول حتى جاءت النهضة ، فنهضت هي الأخرى مع الناهضات من شئون اليابان . وترأس السماكة أمير من الأسرة المالكة إعلاناً بتوسيعها وتجديدها ، وإيذاناً بخطرها . وفتحت المدارس لتعليمها وتدريب الصغار على الصيد ، لا كما كان يصيد الجد الذي قوسه الزمن ، ولكن كما يصيد الشاب المدرب في أحدث الأمم . وجيء لهذه المدارس بأحدث الأجهزة ، وصنعوها في بلادهم نقلا وتقليداً ثم ابتداعا . وبنوا سفن الصيد على أحدث طراز ، فدارت في المحيط الأعظم الهادئ ، فبلغوا بها ، وهي سفن الصيد ، إلى شواطئ أمريكا شمالها وجنوبها ، وضربوا بها في رد

الشمال إلى الروس ، وفي حر الجنوب إلى حيث تتعرك الأمم الآن . ونملوا بذلك إلى جانب الصيد من الشاطئ صيد الأعماق وتمكنوا وعملوا إلى جانب الصيد تربية الأسماك ، فربوها في حظائرها المائية كما تربى البط والدجاج — تطعم البيض وتبيض الفرخ ، ثم هم يقومون على الفراخ بالطعام حتى تشب وتطول .

وقد عُنوا بالأسماك من ذوات الصدف فربوها كذلك . ومن مجهودهم ، وشاهد صبرهم في هذا السبيل ، قصتهم المشهورة في تربية اللؤلؤ بالصناعة ، واللؤلؤ يجده الغواصون طبيعياً داخل أصداف المحار في أعماق البحار . ولكن أستاذا لعلم الحيوانات في جامعة طوكيو قال أن اللؤلؤة التي توجد في جوف المحارة لا يمكن أن تؤدي وظيفة كائنة ما كانت في حياة هذا الكائن البحري ، وفسر وجودها في بعض هذه الكائنات — وهي لا توجد إلا في القليل الأقل منها — بأن جسماً غريباً كقلامة من عشب أو حصوة رمل تفذ ما بين الصدفتين فأصاب جسم الكائن في الداخل ، وهو رخص طري ، فجرحه . والكلب إذا جرحه جارح لعق جرحه ، وكذلك يفعل القط ، والانسان يهرع إلى اليود أو هو يلعقه كما تفعل القطاط والكلاب . أما المحار فطريقته في دفع الأذى أن يحاصر الدخيل الغريب الذي جرحه ، أو هو حكه فأوشك أن يجرحه ، بافراز يفرزه حوله ، فيتجمد عليه طبقا فوق طبق ، فيكون من هذا حب أبيض هو اللؤلؤ الذي يزين لبات الحسان ، أو يقرط منهن الآذان . وعلى هذه النظرية اشتغل العلماء اليابانيون منذ خمسين عاماً كاملة صابرين متصابرين . ونجحوا أخيرا في مضاهاة الطبيعة .

وتتلخص طريقتهم في أنهم يربون المحار بادئين من بيضه ليضمنوا الذرية القوية التي تدافع الأمراض فتدفعها . فإذا بلغ عامه الثالث ، واستكمل نموه ، أجروا في جلده المبضع ، ثم لفوا بعض جلده السليخ على حصاة من أصداف المحار ، فهذه تقوم مقام الشوكة في جانبه ، فلا يلبث أن ينضح عليها بمادة اللؤلؤ عاما بعد عام . فاذا مضى عليه سبعة أعوام أخرجوا اللؤلؤ من محاره . واللؤلؤة الجيدة من محصول هذه الصناعة لا تفترق من أختها التي تولد بالطبيعة الكاملة إلا في نسجها ، فهو غالبا أدق في المصنوع منه في المطبوع . وقد عجز العلم إلى عهد قريب عن التفريق بينهما تفريقا جازما ، إلا أن تُشق اللؤلؤة نصفين فتظهر في مركز المصنوعة حصاة الصدف الدفينة .

ولقد يعجب القارئ إذ يعلم أن اللؤلؤة على غلو ثمنها ، وعلى ما منحها الحب والشعر من معان تطرب القلوب ، تتألف من مادتين تافهتين في الحقارة : إحداهما مادة الحجر وهي في جبل المقطم أطنان فوق أطنان ، وثانيتهما مادة من زلال تجف بجمد بالجفاف ، فيكون كزلال البيض . إلا أن الانسان يعود فيقول : إن الانسان نفسه والأشياء من كلس وزلال ، أو هم من لحم وماء ، والقيمة كل القيمة في تلك الصناعة التي تؤلف من المألوف الخسيس ، تحفة الفن ، وزينة الحسن ، وعجائب المخلوقات .

والأسماك في اليابان طعام رئيسي يقوم بأود الكثيرين ، ومن فاسدها ومن مخلفاتها يصنع السماد .

ويشتغل صيد السمك أعدادا وفيرة من السكان ، بلغوا منذ عهد غير بعيد مليونا ومائتي ألف من الرجال . والذي صدرته اليابان من السمك ومنتجاته بلغت قيمته في العام ٣٣ مليونا من الجنيهات . والذي تنتجه مصر من محصولها الرئيسي ، القطن ، في العام قيمته نحو من ٣٠ مليونا من الجنيهات .

أحمد زكي

ملاحظة : جاء في العدد الذي قبل السابق عن جزر اليابان أن « مساحات هذه الجزر هي ٣٥ ، ٩٠ ، ٧ ، ١٥ بجزء بالأميال المربعة » . وقد سقطت عند الطبع لفظة [مليون] تجيء بعد هذه الأرقام .

النـــار !

للأستاذ أحمد أمين بك

كان الجو بارداً قارساً ، وكان الهواء عاصفاً قاصفاً ، وكان الليل مظلماً حالكاً ؛ فأويت إلى بيتي وكأني لا أجد جسمي ، وخلعت ملابس التكلف ولبست ملابس البساطة ؛ وفرحت بالنار الموقدة في حجرتي ، والجو الهادئ حولي ؛ فكل شيء يحيط بي نائم ، وأنا والنار وحدنا يقظان .

جلست بجوارها أتأمل صنيعها ، وأستلهم معانيها .

* * *

يعجبني فيك — أيتها النار — ميلك إلى السمو دائماً ، يلعب بك الهواء في نواحيك ، فتقاومين وتفاوضين ، وقد يتغلب عليك الحين بعد الحين ، ولكن لا تذلين ولا تخضعين ، حتى يمل هو فيسكن ، وتستمرين في تساميك أبداً ، وفي تعاليك دائماً ؛ فتباً لمن يخضع لأول عاصفة ، ويطأطئ رأسه لأول صدمة .

قوية قوة لا نهاية لها ، لا تمسين شيئاً حتى تأكليه وتخضعيه لأمرك ، وتحيليه إلى شيء واحد مهما اختلفت أنواعه — جماداً كان أو حيواناً أو نباتاً ، عظيماً أو حقيراً ، جميلاً أو قبيحاً — إلى رماد ، إلى هباء ، إلى فناء . تحلّينه بحرارتك ، وتهضمينه بقوتك ، ثم تتركينه بارداً برود الموتى . أين منك مخالب الأسد ؟ وأين منك أنياب الأفاعي السامة ؟ وأين منك الريح العاتية ترمى ولا تفنى ، وتقتلع ولا تبتلع ؟ لولا أنْ رأينا أفاعيك قبل أن نعقل لجن جنوننا لرؤيتك ، وأخذنا العجب كل العجب لقدرتك .

* * *

عجب المجوس لقدرتها فعبدوها وألّهوها ، واستدل الموحدون بعظمتها على عظمة خالقها ، وامتن الله بها على عباده ، فقال : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » .

* * *

اشتق العرب أقوى فترة من العمر من صفاتك ، فسموا الشباب من شبوبك ، ووصفوا التهاب الشعور من التهابك ، وقالوا ضرام الحب من ضرامك . واندلاع لهيب الثورة من لهيبك . وكما استعاروا صفات القوة من قوتك ، استعاروا صفات الضعف لخبابك ، فقالوا : انطفأت شمعته إذا مات ، تشبيهاً بانطفائك ، وهمدت قوته وخمدت ، من همودك وخمودك .

وكما عبدك المجوس جعلك العرب أعظم مفاخرهم وأشهر مآثرهم ، فرفعوك للسَّفْر ولمن يلتمس القِرَى ؛ وكلما كان موضعك أرفع كانوا بك أفخر ، فقال شاعرهم :

له نارٌ تُشَبُّ بكل ريعٍ
إذا الظلماءُ جَلَّلت القِنَاعا
وما إن كان أكثرهم سَوَاما
ولكن كان أرحبهم ذراعا

ومثل ذلك كثير لا يحصيه عد .

* * *

لقد أبت الشمس أن تنزل من سمائها ، وتتنازل من عليائها ، فأنابتك في الأرض عنها ، ومنحتك أعظم صفاتها ، وهي الضوء والحرارة والقوة ، فضوءك من ضوئها ، وحرارتك من جنس حرارتها ، وقوتك بعض قوتها ؛ وكأنك تبرهنين على ولائك لها ، فتميلين دائماً الصعود إليها ؛ تستطيعين أن تمزقي الظلام ، فتكونين آية الليل كما كانت أمك آية النهار ، وتستطيعين أن تقهري البرودة ، وتبعثي الدفء إذا غابت أمك ، وتستطيعين أن تبعثي الحياة بحرارتك . وهل الحياة إلا حرارة ؟ وهل الموت إلا برودة ؟

* * *

ثم أنت بقوتك نفاعة إلى أشد حدود النفع ، ضرارة إلى أشد حدود الضرر . فيك الحياة وفيك الموت . فأنا أستدفىء بك وأحذر القرب منك ، وهذا الأكل تنضجينه وتحرقينه ، وهذا القطار تسيّرينه وتُزَفِّرينه .

عدَّ الإنسان اكتشافه لك أجَلَّ شيء في حياته وأعظم حادثة في تاريخه ، لا يستثنى منك بدوي في بداوته ، ولا حضري في حضارته . عرفَتْ المدنية الحديثة طرق استغلالك فقفزت في تقدمها ، واتخذتك أكبر وسائلها في بنائها وهدمها ، وبؤسها ونعيمها ، ورفاهيتها ودمارها ، وسلمها وحربها . وهل بنيت المدنية إلا على الحديد والنار ! ومهما اختلفت الأسماء التي وضعوها لك من فحم وبنزين وغيرهما فأنت أنت التي صيغت من ضوء وحرارة .

* * *

لقد كنا نحن وأرضنا وما حولنا جذوة منك ، فلما بردت قشرتها دبت الحياة فيها وظل باطنها شعلة منك ، تنبيء بأصلها وتدل على تاريخها ، ومن أجل ذلك كان كل شيء حولنا إما ناراً ظاهرة ، أو ناراً كامنة .

* * *

لك فوق جلالك وقدرتك جمال عجيب ؛ وقلّ أن يجتمع الجلال والجمال والقوة في شيء كما اجتمعت فيك . أدرك الرضيع جمالك فناغاك ، وشُدت عيناه إلى مرآك ، وارتبط جمال الليل بجمال رُبك ، واجتمع فيك سر جمال النور وجمال اللون وجمال الحركة وجمال القوة وجمال الوداعة . تهدئين فتكونين نعمة ، وتثورين فتكونين بركاناً ، وقد أنصف العرب إذ سموك « النار » قريباً من « النور » لقرب حقيقتك من حقيقته ، وجمالك من جماله .

* * *

ثم هاهي النار من أكثر ما في الوجود إيحاءً وإلهاماً . فلأمرٍ ما ارتبطت النار في حياة موسى بنور الوحي « إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً . لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » ؛ ولأمر ما كانت النار معجزة إبراهيم « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » ؛ ولأمر ما عظمها اليهود وقالوا : إنها تأكل قربان المخلص ولا تأكل قربان المتَّقيل . ثم هي والجنة يعدّلان تلعب عليهما عواطف الإنسان من خوف ورجاء ورغبة ورهبة ؛ وبغضها لم تجد تعبيراً خيراً من حرارة الإيمان وحرارة العواطف وحرارة القلب . ولو انعدمت حرارة الإيمان لكان إيماناً جافاً ، ولو انعدمت حرارة العواطف لتجمدت وماتت ، ولو انعدمت حرارة القلب لكان حجراً . إنما يقوّم الشاعر بحرارة شعره ، والخطيب بحرارة قوله ، والأمة بالتهاب وطنيتها ، ولا فرق بين الموت والحياة إلا الحرارة . وإذا أظلمت النفس فما أحوجها إلى لمة كلمعة البرق تضيء جوانبها ، وإذا برد القلب فلا يحييه إلا قبس من نار يلهب شعوره ، وإذا جمدت عواطف أمة فليس إلا النار والعذاب يحيي مشاعرها ، ويبعث وجدانها .

لم يجد العاشق — أيتها النار — تعبيراً صادقاً عما يجد إلا النار ترعى فؤاده ، والنار تحرق كبده ، والنار تكوى قلبه .

ولم يجد الصوفي خيراً منك ومن النور ولد منهما معاني عجباً .

* * *

وهنا أحسست أن جسمي أخذ حظه من الدفء ، ورأسي كأنه شعلة نار من التفكير في النار ، فأطفأت نارها وأطفأت رأسي وقلت : إلى غدي .

أحمد أمين

على هامش الحوادث:

الحياة الأمريكية

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

إذا ذكرت أمريكا عندنا تمثل للسامع الأقطار الشاسعة، وناطحات السحاب، وأصحاب الملايين، ومحاصيل القطن الوافرة، ومستخرجات الفحم والمعادن، وأشرطة السيما، وغرائب الطلاق، والمسابقات القوية الساحقة، والنظارات، ومواكب الانتخابات، وضخام الثمار والفاكهة، وجنون السرعة، وسيارات فورد، وآيات الاختراع والتجديد.

وهذه الصور الذهنية من مشخصات الولايات المتحدة خاصة؛ ولكن الناس جروا على اعتبار أن الولايات المتحدة هى أمريكا. وفى الواقع أن جمهورية «العم سام» أعظم دول العالم الجديد وأضخمها ثروة وأسبقها حضارة وأعلاها كلمة. فللناس إذاً فى تعميمهم وجه ولهم عذر. وما نحب أن نخالفهم. فنحن إذ نتكلم هنا عن الولايات المتحدة باسم أمريكا لا نشك أدنى شك فى أننا مفهومون، وأننا أيضاً معذورون.

المدخل: نيويورك:

لا يسع القادم إلى أمريكا وهو يتطلع المرة الأولى من ظهر الباخرة التى عبرت به المحيط الأطلسى إلا أن يعجب أول ما يعجب بميناء نيويورك الرائع العظمة النادر المثال. وهذا الميناء الفسيح الذى تتخلله الجزائر يعد أيضاً آية من آيات الطبيعة فى الجمال. وهو للجمهورية العظمى وراء البحار بابها الأكبر، ونقول الباب الأكبر لأن الأبواب إليها كثيرة من كلا المحيطين الأطلسى والهادى؛ ولكن قلما يتردد ذكر هذه الموانى الأخرى، لا لشىء إلا أن عروس الموانى ومدينة المدائن فى العالم الجديد هى نيويورك؛ ففى نيويورك يهبط معظم الوافدين على أمريكا من جميع أرجاء المعمور: سياح ورجال أعمال ومهاجرون، ونيويورك هى الطليعة والعنوان لأمة من مائة وثلاثين مليون نسمة. ونيويورك هى التى تتقرر فيها أقدار الأشياء، من كتب ومسرحيات وعطور وسيارات. وفيها تكتب الشهرة للقاص والممثل والغانية الحسناء والملاكم والسابح ولاعب البليارد والمخترع. وفيها يُقضى بالرواية التى تشهد، والحذاء الذى تلبس، وجهاز الراديو الذى تسمع. ذلك أنها على كثرة الحواضر فى هذه الولايات واتساع الشقة ما بين المسافات هى أم الحواضر المستعلية المتفردة.



تمثال الحرية فى مدخل الميناء

فإذا أوغلنا فى هذه الفرضة التى تمخر عبابها مئاتُ البواخر صغاراً وكباراً، تبدت لنا المدينة الجبارة على مصب نهر هدسون، فلا يسعنا ونحن نعجب بعظمتها واتساع رقعتها إلا أن نتمثل المدينة الأصلية — قبل أن تضم إليها بروكلين وغيرها — وقد بنيت على جزيرة مانهتن منذ قرون ثلاثة، فنذكر أن هذه الجزيرة كلها اشتراها من الهنود الحمر هولندىٌّ جرىء من مديرى شركة الهند الغربية اسمه بيتر منوى بأربعة وعشرين دولاراً لم يدفعها كلها نقداً، بل معظمها أداه للهنود أقمشة زاهية الأصباغ وخرزاً من زجاج ملون، ودعى المكان باسم أمستردام الجديدة. ثم صارت أمستردام الجديدة

نيويورك ، أى يورك الجديدة حين غلب الانجليز بعد نصف قرن على تلك الجهات .

ولا يكاد يتعلق بالوهم أن هذه المدينة الهائلة الخافقة لم تك إلا بلدة خاملة الشأن حتى العهد الذى أعلنت فيه الولايات المتحدة الثلاث عشرة استقلالها ، وأنها اليوم تضم وحدها أكثر من سبعة ملايين نسمة ، بعد أن كان سكان الولايات المتحدة جميعهم وقتئذ ثلاثة ملايين .

ناطحات السحاب :

وللقادمين على نيويورك دهشة لا تنسى ، فهم يقضون أيام السفر فى البحر الأعظم وكل ما حولهم ممتد منبسط ، فاذا شارفوا الميناء ارتفع بهم خط الساحل وكأنما تعلوه ربوة ، ثم يدنون فاذا الربوة فى حقيقة الواقع هى المدينة ، ولكنها مدينة أنافت دورها وذهبت فى الفضاء ذرى بنيانها حتى أشبهت سلسلة من الجبال ، ثم تبرز هذه الصروح الهائلة وتتميز واحدة واحدة ، فلا يملك القادم نفسه من دهشة المفاجأة ، ويحس أنه على باب عالم جديد ، وكأنه وجها لوجه أمام المستقبل .

ويهبط المسافر إلى المدينة ، ويرسل بصره فى شوارعها ، فيخيل له على اتساعها أنها ضيقة ، وذلك من استشراف هذه المبانى الشاهقة التى بلغت طباقها الثلاثين والأربعين . وقد يقوم بنفس الغريب أمام هذا البناء أو ذاك أن يحصى طبقاته ، فيبدأ بعدها واحدة واحدة ، فلا يلبث أن يمل التعداد ، فيتسورها بناظره جملة واحدة ، رافعاً بصره ، ملقياً برأسه إلى الوراء حتى لتكاد تنقصف رقبته ، ومع هذا فان الطابق الأخير الذى يبلغ إليه بصره المجهد إنما هو بداية سلسلة من الطبقات متراجعة مرتدة لا يراها إلا الناظر إليها من عل أو من بعيد . ولولا ارتداد هذه الطباق العليا — كما رسم القانون منذ عهد قريب — لما وجدت الشمس إلى شارع منفذاً إلا ساعة تكون فى السمت .

وتتابع ناطحات السحاب فى شوارع المدينة كأنها لفيف من المردة يتعاونون متساندين على العروج إلى السموات ، وتبدو بينها الأمواج المتلاحقة من الآدميين كالسيل المتدفع فى قرارة مضيق صخرى سحيق .

وفى هذه العمائر تحققت إلى حد الاعجاز نظرية فى العمارة جديدة ، وهى الاعتماد على هيكل من حديد وملاط ، بحيث لم يعد للجدران من شأن فى قوام البناء ؛ فالجدران أصبحت حجاباً لا أكثر ، ومن ثمة عدلوا فيها من الحجارة ، واتخذوها من لبنات من الآجر جوفاء خفيفة يسهل على البنائين أن يرتفعوا بها كل يوم طابقاً بأكمله . وأما ما تراه أحياناً من الرخام أو من الصوان المحبب عند قاعدة العمائر فهى صفائح رقاق جداً ، يقصد بها إلى الزينة لا غير . ولئن كانت هذه الأهرام المرصودة لسكنى الأحياء مسرفة فى ارتفاع السمك ذاهبة الذرى فى السماء ، فان أصولها الراسيات كالطود غائرة بمقدار أربع طبقات فى صميم الأرض الراسخة . وبعد ، فللزوابع والأعاصير أن تعصف ما تشاء ، فان هذه الهياكل المتينة فى لينها ومعاقدها كفيلة بالثبات والمقاومة .

وإذا كنا نشيد هنا بجمال ناطحات السحاب ، فنحن لا نعنى التجارب الأولى التى اتفق السياح والمقيمون على مجافاتها لفن الجمال فأزيل معظمها ، وإنما نعنى العمائر الجديدة التى تعد بحق أروع ما ظهر من طرز العمارة بعد الطراز القوطى .

أصحاب الملايين :

ومما لا اختلاف عليه اقتران اسم الأمريكانى بالمال والأشغال ، واتسام المجتمع الأمريكى بالطابع الاقتصادى .



تمثال السرعة — فى معرض نيويورك الأخير

ولا جرم ، فكذلك كانت نشأة هذا المجتمع وهذا هو الأصل فيه . فقد كان على الرواد الذين هاجروا إلى العالم الجديد وانقطعوا عن بيئتهم ووسطهم القديم أن يكفلوا حياتهم ويبنوا أنفسهم ويخلقوا عالمهم ، فجعلوا همهم الانتاج واستثمار هذه الأرض العذراء ، لا معدى لهم عن ذلك ولا سبيل غيره . فضرورة الانتاج إذاً أول ما انطبع فى الخلق الأمريكى ، ولم يزل لها فيه أعمق الأثر ، حتى لقد تخف وطأة الحاجة عند الأمريكى ، أو لا تعود به أدنى حاجة للسعى ، وقد يبلغ غاية الثراء ويعدوها ، ولكنه مع هذا يدأب على الشغل وعلى تشغيل ماله لإنتاج المال كذلك . وهيهات يخطر للرجل منهم أن يعتزل بعد إفادة الغنى وجمع الثروة الطائلة . وطبيعى أن يدعو ذلك إلى ما نراه من العقيدة السائدة بأن الأمريكى محب للمال ، وقد يزعم الأمريكى نفسه ذلك . ولكن الحقيقة أن الذى يحببه فى المال ليس مجرد اقتنائه وحيازته ، وإنما هو لذة طلبه والجد وراءه والاعتزاز بالهمة والقدرة على النجاح المحقق الملموس . وشأن الأمريكى صاحب الملايين فى ذلك شأن هواة الصيد من الطبقة السراة ، فهم يتكلفون الجهد فى مطاردة الفريسة لا حاجة إليها ، ولكنها لذة القنص والطراد .

ومن ثمة كان صاحب الملايين الأمريكى لا يزال يمضى قدماً ، وقد تزل به قدمه فيسقط من حالق . ولكن هذا الخطب أهون على طبعه وأدنى إلى قلبه من الوقفة والجمود ، ثم هو لا يعتم أن يستأنف السعى جاداً دائباً بنفس العزم والانشراح .

وليس أدل على رأى أصحاب الملايين الكثيرة فى المال ، من عدم جمودهم عليه ، ونفورهم من حبسه عن التشغيل والاستهداف للخسارة والضياع . وأكثر من هذا ، قلة حرص الآباء منهم على توريثه لأهلهم وأبنائهم من بعدهم ، وإيثارهم به المرافق العامة من جامعات ومعاهد أبحاث ومستشفيات ومشروعات هامة .

(له بقية) عبد الرحمن صدقى

موسى بن نصـــير

لـلأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الصراع الذي نشب بين الدولة الاسلامية الناشئة ، وبين الدولة الرومانية الشرقية يضطرم حينما تبسط الدولة الشرقية سلطانها . وكانت الخلافة في نفس الوقت الذي تسير فيه جيوشها الظافرة نحو الشمال وتقترب من عاصمة الدولة الشرقية ، تتجه ببصرها نحو الغرب ، حيث كانت أملاك الدولة الشرقية تمتد في شمال أفريقية حتى قاصية المغرب . وكان فتح العرب لمصر في سنة عشرين من الهجرة بدء تقدمهم نحو الغرب ، بيد أن تقدمهم في هذا الاتجاه كان محفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها في فتوحهم الأولى ، فقضوا زهاء نصف قرن في معارك عنيفة مع الروم (الرومان) والبربر ، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم بأكثر من هزيمة شديدة ، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة ، وانهار سلطانهم الفتي غير مرة قبل أن يستقر نهائياً في شمال أفريقية .

وفي أواخر القرن الأول الهجري كانت فتوح الخلافة تمتد من مصر غرباً إلى المحيط الأطلنطي ، وتمت هذه الفتوح العظيمة وتوطدت على يد نخبة من أكابر القادة الذين تعاقبوا في حكم أفريقية ، مثل عقبة بن نافع الفهري ، وزهير بن قيس البلوي ، وحسان بن ثابت الغساني ، وموسى بن نصير اللخمي . وكان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب ، وكان أول فاتح مسلم قدر أن يجوز الاسلام على يديه إلى القارة الأوربية . ومع أن الرواية تتبع حياته بالعناية منذ ولايته لحكم أفريقية فانها لا تقدم إلينا من نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأن كثير من زعماء الاسلام في القرن الأول . على أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين وأنه ولد في سنة ١٩ هـ في خلافة أمير المؤمنين عمر في قرية من قرى الجزيرة ، أو بوادي القرى في شمال الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وإن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد ابن الوليد في موقعة عين التمر[1] ، وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بني لخم ، وإن أباه نصيراً كان على حرس معاوية ابن أبي سفيان . ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه[2] . وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب في بعض المناصب العسكرية والادارية الهامة قبل أن يعهد إليه بحكم أفريقية . وقاد بعض الحملات البحرية في عصر معاوية بن أبي سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة[3] ، وفي بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة في سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر في خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة ، فلما ولى الحجاج حكم العراق في سنة ٧٥ هـ اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز بن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به ، ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة ،

(١) الطبري (طبع أوربا) القسم الأول ص ٢٠٦٤ ، و « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » ص ٣ ، وأبو المحاسن في النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦ ، وابن الأثير (المطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٢٠٩ ، والبلاذري في فتوح البلدان (مصر) ص ٢٣٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٥ .

حتى عين حاكماً لأفريقية[1].

وتختلف الرواية في تاريخ تولية موسى بن نصير لأفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت في سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ في عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت في سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ في عهد ابنه الوليد[2] ، ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثاني ؛ لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث في أفريقية ، ولأن معظم الروايات مجمعة على أن حسان بن النعمان والى أفريقية قبل موسى ابن نصير لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك . وقد توفى عبد الملك في شوال سنة ٨٦ هـ ، وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥ هـ وندب عبد الملك ولده عبد الله أميراً على مصر ، فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل ، وعزل عبد الله حسان بن النعمان عن ولاية أفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت أفريقية تابعة يومئذ لمصر في شئون الحكم والادارة ؛ وكانت ولاية موسى لأفريقية على أرجح الأقوال في سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز أفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز بن مروان في سنة ٨٤ هـ إلى برقة فافتتح درنة ، وسبي من أهلها جموعاً غفيرة ، وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلي الحكم حتى نزعوا إلى الثورة ، شأنهم عند كل تغيير في الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقت الثورة في كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة ، وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهي آخر معقل اعتصم به الثوار ، فافتتحها وولى عليها جنديا عظيما ، هو طارق بن زياد الليثي ، وأثخن في مفاوز المغرب الأقصى وطهرها من العصاة والمتآمرين ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد في جيشه آلافاً من البربر المسلمين ، واهتم بنشر الاسلام بين القبائل فذاع بينهم ذيوعاً كبيرا .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا في الحرب البرية ويئسوا من إنقاذ افريقية قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها . فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولا لحماية الثغور ؛ وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى في تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ولده عبد الله في السفن إلى الجزر الغربية فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك أسبانيا القوطي . وافتتح منها ميورقة ومنورقة ، وسارت حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت في ثغورها . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال أفريقيا كله في البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة ؛ وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ويحكمها أمير من القوط يدعى الكونت يوليان .[1] وكانت قد استطاعت لمنعتها

(١) ووردت هذه التفاصيل في كتاب « الامامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك ، فان الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والوثائق والتفاصيل المفيدة عن رجالات الاسلام في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية . (راجع الكتاب المشار إليه ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) .

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها (ص ٢٠٣) ، ويتبعه صاحب كتاب الامامة والسياسة (ج ٢ ص ٦٢) ، وابن الأبار في الحلة السيراء (ص ٧٠) ، والحميدي في جذوة المقتبس (نقله ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٦) ، والنجوم الزاهرة في ص ١٨٨ . ويقول بالثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ١٤٤ و ٢٠٦) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٢٦) ، وابن عذارى في البيان المغرب (ج ١ ص ٢٣) .

(١) في بعض الروايات ان سبتة كانت في ذلك الحين تابعة لامبراطور الدولة الشرقية ، ولكنها لبعدها وعزلتها رأت أن تستظل بحماية إسبانيا (راجع دوزى ج ٢ ص ٣١) .

الطبيعية ويقظة حاكمها أن ترد هجمات العرب ؛ وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين ، بيد أن مشروعاته في الفتح لم تكن تقف عند سبتة ، بل كانت تجاوزها إلى ما وراء البحر من الممالك والأمم المجهولة .

— ٢ —

كانت مملكة القوط في الضفة الأخرى من المضيق قد هرمت وأصابها الوهن ، وكانت وقت أن اقترب العرب من شواطئها فريسة الاضطراب والفوضى ، تمزقها الخلافات الداخلية ، ويقتتل حول عرشها الزعماء المتنافسون . وكان على عرش القوط يومئذ ملك شديد البأس والعزم ، هو رودريك أو لذريق حسبما تسميه الرواية العربية ، ولكنه كان يواجه خطر الانتقاض المستمر ، ولم يكن ملكا شرعياً ، ولكنه استطاع أن ينتزع العرش من صاحبه الشرعي الملك وتيزا (أوغيطشه) عقب ثورة دبرها بمؤازرة رجال الدين والأشراف الناقمين . ومع أنه استطاع أن يوطد سلطانه مدى حين ، فإن الخطر لبث مع ذلك محدقاً بعرشه وملكه . وكان اقتراب العرب من شواطئ الجزيرة يحفز خصومه إلى التماس الوسيلة لإسقاطه وسحقه

وكان الكونت يوليان من أنصار الحكم القديم ومن خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه ؛ وكان غنياً شديد البأس وافر الأتباع والجند ، بعيداً عن سلطة العرش ، يقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق ؛ فتفاهم معه أبناء الملك السابق وتيزا وباقي الزعماء الخوارج ؛ واستقر الرأي على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت . وهذا هو التعليل التاريخي للتحالف الذي عقد بين الكونت يوليان وبين موسى بن نصير ، وانتهى بفتح العرب لأسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الاسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلا آخر ، فتقول إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصي أيضاً ، فقد كانت له ابنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أرسلها إلى بلاط طليطلة جريا على رسوم ذلك العصر ، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ؛ فاستهوى جمالها الفتان قلب رودريك فاغتصبها وانتهك عفافها ؛ وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه ، وأقسم بالانتقام من رودريك ونزعه ذلك العرش الذي اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين رودريك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الاسلامية تجمع على قبول هذه القصة ، والأخذ بها مع أخذها في الوقت نفسه بالعوامل السياسية التي ذكرناها[١] . ولكن الرواية النصرانية تتردد في قبولها ، وتنفيها الرواية الأسبانية ، وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغاني والقصص القديمة ، بل يذهب بعض مؤرخي أسبانيا إلى إنكار شخصية الكونت يوليان نفسه ، ويعتبرها شخصية خيالية[٢] . وإنكار الرواية الاسبانية

(١) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فنراها في رواية ابن عبد الحكم الذي كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط ، (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) ، وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس (رواية نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩) ، وابن القوطية (افتتاح الأندلس ص ٨) ، وصاحب «أخبار مجموعة» (ص ٥) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) ، وابن خلدون (ج ٢ ص ٣٣٦ وج ٤ ص ١١٧) ، والمراكشي في المعجب (ص ٦) ، وابن عذارى (البيان المغرب ج ٢ ص ٨) .

(٢) ينكر ماريانا وماسدي أعظم مؤرخي أسبانيا هذه القصة ، ويذهب مونتجار إلى أبعد من ذلك ، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاتها ، ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط . راجع Aschbach : Geschichte der Ommajaden in Spanienn (V. I. P. 28) . ويقول كوندى Condé إن القصة إنما هي اختراع عربي اشتق من الأساطير والأناشيد العاصرة (الترجمة الانكليزية ج ١ ص ١) . ولكن المستشرق كاردون Cardonne يأخذ بالقصة في كتابه Histoire de l'Afrique et de l'Espagne (V. I. P. 65) . وكذلك العلامة دوزى Dozy في كتابه Histoire des Musulmans de l'Espagne (1932) V. I. P. 27).

لمثل هذه القصة معقول تحدوه بواعث لا تخفى ؛ فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء أسبانيا الأوائل ، وهى خيانة أدت إلى أن افتتح العرب أسبانيا ، وحكمها الاسلام قرونا طويلة . على أننا لا نجد فى القصة ما يحمل على إنكارها ، فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها أسبانيا يومئذ ، من خلاف فى الرأى وتنازع على السلطة واعتلال أخلاق واجتماعى . ولسنا من جهة أخرى نلمس فى الرواية الاسلامية أثر الاختراع ، فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الاسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى فتح أسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المساونة ذللت لهم سبل الفتح ، ولعلهم بدونها ما أقدموا عليه أو تعرضوا للفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الاسبانية القديمة ، ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية الاسلامية فى ذكر قصة فلورندا والأخذ بها[1] .

وعلى أى حال فقد اتصل الكونت يوليان بموسى بن نصير ودعاه الى فتح اسبانيا . ووقعت المفاوضة بينهما فى ذلك المشروع الخطير . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بهذه الدعوة أن يفتتح العرب اسبانيا لأنفسهم ، وأن يستأثروا بملكها ، بل كان مشروعهم على الأرجح أن يستعينوا بالعرب على محاربة المتغصب ، وإسقاطه واستخلاص الملك لأنفسهم . والظاهر أيضاً أن موسى وعدهم من جانبه بأنه لا يقصد سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة وراء البحر . وهذا تصور المشروع يؤيده منطق الحوادث وتشير اليه الرواية العربية[2] . وكان موسى قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها واستطاع أن يقدر أهمية هذا الفتح وجليل مغانمه ومزاياه ؛ فلما وقف من يوليان وحلفائه على ما تعانيه اسبانيا من أسباب التفرق والضعف ، وأيقن أنه يستطيع الاعتماد على عون يوليان وحلفائه كتب الى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ويستأذنه فى الفتح ؛ فكتب اليه الوليد أن يختبره بالسرايا وألا يزج بالمسلمين الى أهوال البحر . ومع أن المسلمين كانوا قد مرسوا فى أهوال البحر واختبروا هذه المياه بالحملات والفتوح الناجحة ، فان موسى لم يسعه إلا النزول على نصح الخليفة . فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ، الى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة ، وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليه سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء ، بإرشاد يوليان ، وأصابت كثيراً من الغنائم واستقبلت بالاكرام والترحيب . وشهدت كثيراً من مظاهر خصب الجزيرة وغناها ثم عادت سالمة . وسر موسى بنتائج الحملة واستبشر بالفوز وجد فى أهبة الفتح .

(له بقية) محمد عبد الله عنان

(١) مثال ذلك فى رواية إزيدور الباجى الذى عاش فى أوائل القرن الثامن .

(٢) راجع « أخبار مجموعة » (ص ٥) ، والمقرى فى = نفح الطيب (ج ١ ص ١٢٠) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) وراجع أيضاً Gibbon, Roman Empire Chap. LI ، و Dozy ibid, V. I. P. 272.

هل فى غير الأرض حياة ؟

للأستاذ محمد مرسان

نقصد بالحياة بطبيعة الحال حياة شبيهة بما يوجد منها على هذه الأرض ، نباتية كانت أو حيوانية ؛ ولسنا نريد أن نبحث فى احتمال وجود حياة من نوع آخر تدب فى أجسام من نار أو نور أو غاز أو أثير ، لأن ذلك موضوع خارج عن نطاق هذا البحث .

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال يحسن بنا أن نقرر هنا عدة حقائق هامة : منها أن صور الحياة التى نشأت على أرضنا صور تلائم الظروف المختلفة المحيطة بها على سطح الأرض ، أو تحت ثراها ، أو فى بحارها وأنهارها . ولسنا ننكر أن الحياة قد توجد فى ظروف تختلف اختلافاً كبيراً عن كل الظروف التى نعرفها نحن ؛ ولكنها مهما اختلفت يصعب علينا أن نتصور حياة أياً كان نوعها فى عالم ليس له « جو » أو له جو خال من الأكسجين . وأكبر الظن أن الماء ضرورى للحياة ، والراجح أيضاً أن الحياة لا توجد مع الحرارة المتطرفة أو البرودة القاسية ، وإن كنا لا نستطيع أن نعين بالضبط درجتى الحرارة اللتين لا توجد خارج نطاقهما حياة .

ومن هذه الحقائق أيضاً أننا حتى إذا تبين لنا أن الأحوال فى كوكب من الكواكب أو فى أى جرم من الأجرام السماوية تصلح لوجود الحياة فيه ، فإن هذا لا يستلزم وجودها حتماً ؛ وذلك لأن الظروف التى تلائم الحياة وتصلح لبقائها قد لا تكون هى الظروف التى تلائم نشأتها . وإنا لنجهل كل الجهل متى بدأت الحياة على أرضنا وكيف بدأت ، ولكن الذى لا شك فيه أن الحياة لم تكن على الأرض يوم وجدت ، لأن أحوال الأرض وقتئذ لم تكن صالحة لوجودها . ذلك أن العلماء يعتقدون أن الأرض وسائر الكواكب قد تجمدت من لسان من المادة فى هيئة ذراع أو سيجار خرج من الشمس بتأثير نجم آخر أقرب منها ؛ وسواء كانت هذه النظرية صحيحة فى تفاصيلها أو غير صحيحة ، فإن الكواكب السيارة التابعة لمجموعتنا الشمسية قد تكونت من جسم الشمس على نحو ما . والحياة على سطح الشمس مستحيلة ، لأن درجة حرارتها مرتفعة إلى حد يكفى لتحليل جميع المركبات الكيميائية — إلا قليلا منها — إلى عناصرها الأولية ، والخلية الحية من الناحية الكيميائية جسم مركب لا يمكن وجوده على سطح الشمس .

وإذاً فلابد أن تكون الحياة قد ظهرت على سطح الأرض فى عهد من عهود تاريخها القديم الذى يمتد إلى نحو ثلاثة آلاف مليون من السنين . وقد عثر علماء طبقات الأرض على آثار حيوانات بحرية لا فقارية فى الصخور التى تكونت فى رأيهم منذ ١٥٠٠ مليون من السنين . وإذاً فالحياة ربما نشأت على الأرض بعد أن تكونت لها قشرة صلبة بزمن يعد قصيراً فى عرف الجيولوجيين .

فإذا انتقلنا من البحث فى حالة الأرض إلى أحوال الأجرام الأخرى فى مجموعتنا الشمسية استطعنا أن نقول من أول الأمر إن الحياة لا يمكن أن توجد على معظم الكواكب السيارة وعلى جميع توابعها ؛ فعطارد لا يحيط به جو ما على الأرجح ، ودرجة حرارة سطحه المواجه للشمس تعادل حرارة الزنك المنصهر ، فى حين أنها على سطحه المحتجب عن الشمس منخفضة جداً لعدم وجود الجو الذى يلطف من زمهريرها . أما المشترى وزحل فيحيط بكليهما جو كثيف ، ولكن الأرصاد العلمية والأبحاث النظرية كلها متفقة على أنه لا يوجد فى هذين الجوين شىء من الأكسجين أو بخار الماء ، ويظهر أن

الجو الخارجي لكلا هذين الكوكبين يتكون معظمه من الإيدروجين وغاز النشادر وغاز المستنقعات ، وأنه يمتد حول كل منهما آلاف الأميال ، والضغط في أجزائه السفلى شديد إلى درجة تحيل معظم الغازات إلى سوائل ؛ وليس في مقدورنا أن نتصور وجود الحياة في مثل هذه الظروف حتى ولو كانت شدة البرد على سطحيهما لا تجعل هذه الحياة مستحيلة .

ولا تقل أحوال أورانوس ونبتون قسوة من أحوال المشترى وزحل ؛ فالبرد فيهما أشد وغاز المستنقعات في طبقات جوهما العليا كثير . وبلوتون جرم صغير ، وأكبر الظن أنه لا جو له قط ، وأن درجة الحرارة على سطحه منخفضة انخفاضاً لا يسمح بوجود الأكسجين أو الأزت بحالتهما الغازية ؛ وإذاً فالراجح أنه لا توجد حياة نباتية أو حيوانية أياً كان نوعها على كوكب من الكواكب السالفة الذكر

ننتقل بعد ذلك إلى التوابع الكبرى لكواكب مجموعتنا الشمسية ، ونخص التوابع الكبرى بالذكر لأن جميع التوابع الصغرى قد فقدت جواءها منذ عهد بعيد . فأما قمرنا فهو من العوالم الميتة التي لا حياة فيها على الإطلاق ، لأنه خال من الهواء ؛ وليس من التوابع الأخرى ما هو جدير ببحثنا إلا التابعين الكبيرين من توابع المشترى وأكبر توابع زحل ؛ وتدل الأرصاد والأبحاث الطيفية كلها على أن هذه التوابع الثلاثة خالية من الهواء وإذاً فهي خالية من الحياة

لم يبق بعد ذلك الا كوكبا الزهرة والمريخ . فأما الزهرة فتحيط بها طبقة كثيفة من السحاب لا تخترقها الأشعة المرئية ، حتى ولا الأشعة دون الحمراء ، ولم ير الراصدون في جوها شيئاً من الأكسجين ، وإن كان عجزهم عن تبينه لا يعد دليلا قاطعاً على عدم وجوده . غير أنه قد ثبت أن جو الزهرة يحتوى على ثاني أكسيد الكربون وأن مقدار هذا الغاز فيه أكبر منه في جو أرضنا . وجو الزهرة أكثر دفئاً ورطوبة من جو الأرض ، ولكنه من الجواء التي تلائم الحياة بشرط أن يكون فيه قدر كاف من الأكسجين الطليق . غير أنا لا نعلم علم اليقين أي نوع من الحياة قد تكون على سطح الزهرة إن كان على سطحها حياة ؛ وفي ظننا أن الحال التي عليها الزهرة الآن لا تختلف كثيراً عما كانت عليه الأرض في العهد الأول من تاريخها ، حين كان جوها أشد حرارة وأكثر رطوبة مما هو عليه الآن ، وحين كانت تغشى سطحها المستنقعات ؛ فإذا صح ذلك فربما تكون قد نشأت على سطح الزهرة صورة من صور الكائنات الحية تلائم هذه الظروف

على أن ما لدينا من شواهد ترجح كلها أن ما في جو الزهرة من الأكسجين في هذا الوقت لا يكفي لسد حاجة أي نوع من أنواع الحياة ، اللهم إلا الحياة النباتية البدائية ، وحتى هذا النوع لم يقم على وجوده دليل قاطع إلى الآن .

أما المريخ فإنا نعلم عنه أكثر مما نعلم عن سائر الكواكب ، لأن في مقدورنا أن نرى سطحه ؛ ولقد دلتنا الأرصاد على أن المريخ جواً رقيقاً لا تعطى ، إذا افترضنا أن فيه أكسجينا وبخار ماء . نعم إن هذا الجو رقيق وإن ما فيه من الأكسجين أقل كثيراً مما في جو الأرض ، ولكننا نعلم أن في طاقة الإنسان أن يتأقلم في وقت قصير حتى يصبح قادراً على أن يعيش في أماكن مرتفعة ذات جو رقيق ، ولا يبعد أن تكون أشكال من الحياة قد نشأت على سطح المريخ وكيفت نفسها حتى استطاعت أن تعيش في جوه الرقيق

وقد ذهب العالم الفلكي الاستاذ لول Lowel في كتاب له يسمى Mars as the Abode of Life إلى أن في المريخ صنفاً من الخلائق الأذكياء ، ويقول إنه قد تبين على

سطحه عدداً كبيراً من الخطوط الدقيقة يتقاطع بعضها مع بعض وتمتد مئات الأميال . وشاهد لول على سطح المريخ عدة نقط متفرقة يتقاطع في كل منها عدد كبير من القنوات ، وتظهر قاتمة على سطحه وتغطى كل واحدة منها مساحة واسعة تبلغ آلاف الأميال المربعة ، ويسميها لول « الواحات » .

ويعتقد لول أن هذه القنوات مزدوجة ، لأنها كانت تبدو له في شكل خطين متوازيين يبعد أحدهما عن الآخر مسافة قدرها بنحو مائة ميل أو مائتين ؛ وقد استدل من دراسته لعدد كبير من صور المريخ على أن هذه القنوات يتغير مظهرها في فصول السنة المريخية ، فتختفي أو تبدو غير واضحة في فصل الربيع ثم تزداد وضوحاً بالتدريج حين ينقص حجم الجليد الذى يغطى قطبي الكوكب ، وتبدو كأنها تأخذ في الامتداد نحو خط الاستواء بمعدل خمسين ميلا أو نحوها في اليوم الواحد ؛ وكثيراً ما تتراءى له كأنها تمتد إلى ما بعد خط الاستواء في النصف الثانى من الكرة المريخية ؛ ثم تأخـذ في الاختفاء بعد ذلك بالتدريج ، حتى إذا مضى نصف سنة مريخية على بدء اختفائهـا أخذت في الاستطالة مرة أخرى نحو خط الاستواء ، مبتدئة في هذه المرة من ناحية الغطاء الجليدى لقطبه الثانى

ومن هذه الملاحظات استنتج لول أن على سطح المريخ جيلا نشطا ذكياً من الخلائق يكافحون أشد الكفاح ليحتفظوا حياتهم في عالم جدب لا يسقط فيه إلا القليل من المطر أو لا يسقط فيه مطر على الإطلاق . فهو يعتقد أن هذه القنوات مجار اصطناعية احتفرها سكان المريخ لتحمل الماء من الثلوج القطبية الذائبة نحو خط الاستواء لتروى به الأرض في الأصقاع الجدبة . أما البقع السوداء التى يسميها واحات فهي في رأيه بقاع واسعة تسقى بالماء وتكون مراكز عامرة بالسكان يهرع إليها الناس من الأقاليم الجدبة التى ينضب منها معين الماء . ويؤكد لول أن بعض القنوات تختفي عدة سنين متوالية ، وأن قنوات جديدة تظهر في أماكن لم يكن فيها قنوات من قبل ؛ وهو يعلل اختفاءها بأن الطين يطمرها من حين إلى حين ، ثم تظهر بعد فترة من الزمان إذ تنشأ بدلها قنوات أخرى جديدة .

ولما كان إنشاء شبكة من « القنوات » أو مجارى الماء لا تقل سعة المجرى الواحد منها عن خمسين ميلا ، ويبلغ طوله مئات الأميال أو آلافها ، عملا ضخماً لا يقوى عليه إلا صنف من الناس أكثر منا مدنية ، فان لول يعتقد أن في المريخ أناسا بلغوا درجة عالية من الرقى ، وهم أكثر منا ذكاءً ونشاطا . وذلك من غير شك قول رائع جميل ، ولكن الذى ينقصه أن يثبت لنا بالدليل القاطع أن على سطح المريخ قنوات .

على أن من العلماء عالما آخر لا يقل عن لول حذقا وذكاءً ، ويمتاز عنه بحدة بصره وبأنه قضى عدة سنين يرصد الكوكب بطائفة من أكبر المراقب في أمريكا . ومع هذا فانه لم يستطع أن يرى هذه الشبكة الدقيقة من الخطوط الهندسية التى رسمها الأستاذ لول ووصفها ذلك الوصف الرائع ، واستدل منهـا على وجود سكان في المريخ . ذلك هو الأستاذ برنارد Barnard وهو من الفلكيين الثقات .

وقد يكون هذا الخلاف الشديد بين الراصدين الثقات نتيجة عوامل نفسانية معقدة . ذلك أن الراصد يطيل النظر من خلال مرقبه في صورة الكوكب مكبرة إلى أقصى حد مستطاع . وهذا المرقب الذى ينظر الصورة من خلاله يكبر أيضا كل هزة تحدث في جو الكوكب ، فيؤدى ذلك إلى اضطراب الصورة التى أمامه وعدم استقرارها . وقد يسعده الحظ فتستقر الصـورة وقتا ما ، ولكن العين لا تكاد تبدأ في تبين بعض دقائقها حتى تحـدث هزة

أخرى فى جوه تفسد عليه الرؤية ، وتكون العين فى ذلك الوقت قد لمحت بعض الدقائق الغامضة الكثيرة من غير شك على سطح المريخ ، فيربطها العقل بعضها ببعض بخطوط من نسجه وهو لا يدرك ما يفعله ، وبذلك تبدو الصورة النهائية وليس بينها وبين الأصل أو بين الصورة التى يجدها راصد آخر وجه شبه كبير وإن كانت خير ما استطاع الراصد أن يتبينه بما عنده من الآلات .

ومن ثم فان معظم الفلكيين لا يؤمنون الآن بوجود هذه القنوات التى يقول لول بوجودها على سطح المريخ ؛ وهم لذلك لا يصدقون أيضا وصفه الرائع لسكانه الأذكياء الذين يغالبون الطبيعة فى سبيل العيش والحياة . على أننا لا نستطيع أن نجزم بعدم وجود سكان فى المريخ ، أو أن نؤكد وجودهم فيه . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن جو المريخ صالح لوجود الحياة فيه ، وإن كان أرق من جو أرضنا ، كما أن درجة الحرارة على سطحه لا تمنع وجود الحياة ، وإن لم تكن هذه الحرارة من النوع الذى نرتاح نحن لأن نعيش فيه ، فهى لا تزيد عند خط استوائه على ٥٠° فهرنهيت فى وقت الظهر ، ثم تأخذ فى الانخفاض بسرعة عند ما تميل الشمس إلى المغيب ، حتى إذا غربت اشتد البرد فى أثناء الليل حتى يصل إلى حوالى ١٣٠° تحت الصفر . ولا شك فى أن الحياة أيا كان نوعها تكون حياة شاقة فى هذا الجو الذى يبلغ فيه مدى الحرارة هذا المبلغ الكبير فى ذلك الوقت القصير . وفى ظننا أن ما قد يكون على المريخ من حياة فى هذا الوقت لا يكون إلا فى الحفر والكهوف التى تصلح وقاية من هذا البرد الشديد ، وأن ما عسى أن يكون على سطحه من نبات لا يعدو أن يكون من نوع الطحلب والحزاز .

وخلاصة ما قلناه أن الحياة غير مستطاعة فى غير الأرض من مجموعتنا الشمسية إلا فى كوكبى الزهرة والمريخ ، وأن أحوال هذين الكوكبين مع ذلك ليست مما يلائم الحياة كل الملاءمة ، وأننا لا نعرف من أحوال الكوكبين ما يجعلنا نقطع بعدم وجود الحياة فيهما . وأحوال الزهرة شبيهة بما كانت عليه الأرض منذ ملايين السنين ، ولربما كانت أحوال المريخ الآن تشبه ما سوف تكون عليه الأرض فى المستقبل البعيد بعد ملايين السنين عند ما تقل حرارة الشمس وينفد الجزء الأكبر من أكسجين الأرض .

بقى أن نقول كلمة موجزة عن احتمال وجود الحياة فى غير مجموعتنا الشمسية ، وهنا أيضا لا بد لنا أن نعتمد على الظن والترجيح ، ذلك أننا لا نعلم علم اليقين هل للنجوم مجموعات من الكواكب مثل ما لشمسنا ؟ وإذا افترضنا أن لبعضها كواكب فليس فى مقدورنا أن نعرف شيئا من أحوالها الطبيعية . غير أن الذى لا شك فيه أن فى الكون عوالم كثيرة غير عالمنا تعد بالملايين بقدر عدد ما كشف منها حتى الآن بنحو خمسة وسبعين مليونا ، يشبه الكثير منها عالمنا فى حجمه وفى كثير من ظروفه ؛ وأكبر الظن أن فى هذا العدد الضخم شموسا ذات كواكب وتوابع ، ومن حقنا أن نفترض أن الظروف فى بعضها مما يجعل الحياة عليه مستطاعة . وإذا أخذنا بما يقوله بعض العلماء من أن الحياة تنشأ عندما توجد الظروف التى توافق نشأتها ، فأكبر الظن أن فى الكون عوالم كثيرة غير عالمنا توجد عليها حياة .

محمد بدران

حكم فى الجنحة المستأنفة رقم ٩٦٩٨ سنة ٤٠ ضد محمد حسن عباس بتغريمه ٥٠ قرش صاغ ولنشر الحكم بمجلة الرسالة والثقافة لبيعه كريما بأزيد من التسعيرة .

حكم فى القضية رقم ٣٥١ سنة ٤٠ مصر ضد حسن محمد الزوبى بالعزبة البحرية حلوان لأنه فى ٨/٣/٤٠ بقسم حلوان باع لحما بأزيد من السعر . نهائيا بتغريمه ٢٠٠ قرش صاغ ، وبتعليق الحكم على باب متجره وسراى المحافظة ونشره بجريدتين .

الدمقراطية والمساواة

للأستاذ علي أدهم

منذ عهد الثورة الفرنسية لم تلق الدمقراطية محنة كالتي قاستها في الفترة التالية للحرب الكبرى السالفة؛ فقد تكاثر عليها الخصوم والأعداء، وساءت بها الظنون، ورماها الكثيرون بالعجز والتقصير والاضطراب والفوضى؛ وكانت الدمقراطية تتلقى هذه الضربات صابرة محتسبة، مقتدية بمن قال فيهم الشاعر:

كأن ربك لم يخلق لخشيته
سواهمُ من جميع الناس إنسانا

وقرر بعض خصومها الذين أمعنوا في "الخرص، وادعوا في العلم معرفة، أن الدمقراطية فاشلة لا محالة، لأن البحث العلمي والتحليل النفسي والفقه التاريخي قد أثبت بطريقة حاسمة أن الناس تتفاوت في القدرات والملكات، ففيهم الجدّ العامل، والخامل البليد، وفيهم العبقري الفذ والفدم الغبي"؛ والدمقراطية ضلال وخطأ، لأنها قائمة على فكرة المساواة، وما قيمة المساواة مع وجود هذه الفوارق الأصيلة والتفاوت الطبيعي بين الناس؟

والمساواة إذاً أسطورة زائفة، ودعوى ملفقة، ولو تحققت هذه المساواة المزعومة، وهي أكبر أركان الدمقراطية، لاستنزلت العالي الرفيع إلى مستوى السافل الوضيع؛ وقد استخلص المفكرون الضاربون على هذه النغمة من مقدماتهم وفروضهم أن الدمقراطية قد اقترب يومها وحانت منيتها.

ومن عجائب الحياة أن بعض الحقائق الواضحة البسيطة الملقاة في الطريق قد تخفى على عيون الفلاسفة المتعمقين والعلماء المتنطسين؛ وقد غاب عن هؤلاء المفكرين الذين يكرهون الدمقراطية لقيامها على فكرة المساواة، أن الحركة الدمقراطية لم تكن حادثة عرضية أو تجربة عابرة موقوتة، وإنما كانت حركة بعيدة الأعراق عميقة البواعث قوية الأسباب، شاملة مستوعبة، لها سوابق معروفة ونظائر مألوفة، وهي في صميمها ثورة على استئثار أقلية من الناس بالحكم، وانفرادها بالبت في المصائر، واستغلال الخيرات، والاستمتاع بالامتيازات؛ وقد تحسن مثل هذه الفئة القليلة صناعة الحكم في بادئ الأمر، ولكن سرعان ما يتبين أن مصلحتها الخاصة غير مرتبطة بسعادة المجتمع، ولا موصولة بخير الأكثرية؛ وقد اكتشف الناس مرات عدة في خلال التاريخ أن تفرد طبقة خاصة بالنفوذ والغلبة معناه حرمان الأكثرية وإذلالها وسومها الهوان.

ولقد قال بسمارك: «إن خير الحكومات هي الحكومة المطلقة الخيرة الحازمة»، ولكن التاريخ أصدق حكماً، وأثقب نظراً من رجل الدم والحديد؛ فقد أثبت التاريخ أن الحكم المطلق لا يستطيع أن يظل طويلا خيراً ولا حازماً، وأصح من رأي بسمارك وأدل منه على سعة النظر والمعرفة بالطبيعة الانسانية قول المؤرخ الكبير اللورد اكتون: «القوة مفسدة، والقوة المطلقة تفسد إفساداً مطلقاً» وأي لون آخر من ألوان الحكم غير الحكم الدمقراطي يعوق التمدد الطبيعي للروح الانسانية — كما يرى الناقد الانجليزي الكبير ماثيو أرنولد — ويوقف نمو الحضارة، ويرفع الأقلية على حساب الأكثرية بأساليب لا يرضاها العقل ولا تقبلها العدالة، فلا يجني الجدّ ثمرة اجتهاده، ولا يثاب العامل على قدر إحسانه وتفوقه، ومزية الدمقراطية هي أنها ترفع الناس إلى مستوى تتساوى فيه حقوقهم، وتحترم شخصيتهم، وتمكن كل إنسان من أن يشق طريقه ويبني مستقبله.

ولكن الدمقراطية السياسية تدل على المساواة

السياسية ، والمساواة السياسية لها قيمتها بلا ريب ، ولكنها ليست كل شيء ، وإذا لم تتبعها المساواة الاقتصادية نصل لونها وضعفت متنها ؛ لأن السياسة لا تستغرق كل لحظة من لحظات حياتنا ، ولا تشمل كل جانب من جوانب وجودنا ؛ وتوزيع الثروة توزيعاً جد بعيد عن المساواة ، يستتبع توزيع فرص التعليم والتثقيف توزيعاً غير متساو ، وقد عجزت الديمقراطية السياسية عجزاً بيناً عن تعديل عدم المساواة في البناء الاجتماعي ؛ وقد أثار ذلك الاستياء الخطير في كل مكان ، وأغرى بعض الناس باليأس من الديمقراطية والارتماء في أحضان النظم التي تناوئها وتعمل على تقويضها ، وبدون تحقيق المساواة تضيق دائرة الحرية وتقل قيمتها ، وإذا زهد الناس في الحرية اقتربوا من السوائم والبهم .

والحرية الحقيقية لا توجد إلا حيث يتساوى الناس ، وتتماثل الأقدار ؛ ولكن حيث يوجد غني وفقير ، وجاهل وعليم ، فلا بد من وجود سيد ومسود ، لأن الغنى قوة والعلم سطوة ، ومن عاش فقيراً أو ظل جاهلا ، عاش محدود الذهن ، مطموس الشخصية ، كالشجيرة النابتة في ظلال الدوحة الباسقة ، فإنها تظل ذاوية مستضعفة لاحتجابها عن الضوء ؛ والفقر أو الجهل يئيم المواهب ويصدئ الملكات . وحقيقة أن هناك من تحفزهم قسوة الظروف إلى طلب المجد ، ونيل العلى ، ومغالبة الصعاب ؛ ولكن هؤلاء هم النوابغ القلائل الذين لا يقاس عليهم ، وأكثر الناس العاديين لا يستطيعون ذلك ولا يقدرون عليه ؛ وقد يسلبهم الفقر الشعور بالكرامة ، ويغريهم بالمهانة ، ويحرمهم من الأمل وهو باعث الحياة ، ويلقي في روعهم أن الفوارق بينهم وبين الأغنياء والمثقفين من البعد والاتساع بحيث لا يمكن أن يخالجهم الأمل في مساماتهم أو لحاقهم ، فيقضون حياتهم البائسة الظالمة في عالم المهام الحقيرة والشواغل التافهة .

وأفراد الطبقة الأرستقراطية لا يقدرون أثر هذه العوامل في تنشئة الطبقات الفقيرة ، وصوغ نفوس أفرادها ، ويخالون أنفسهم من طينة أرقى ، ودم أذكى ، ويحسبون أن لهم مواهب موروثة ، وملكات مقصورة على أرومتهم الطاهرة ؛ وخطر مثل هذا الوهم المضحك أنه يجعلهم يزدرون فكرة المساواة ، ولا يرون أن الميل إلى المساواة من أقوى ميول الإنسان . وقد قرر أرسطو أن الفشل في علاج مسألة المساواة من أكبر أسباب الثورات ، ووجود الفوارق الكبيرة في حياة الناس يستتبع اختلاف منازع تفكيرهم ، ويباعد الشقة بينهم ، ويفكك روابط المجتمع ؛ واتحاد الصالح العام هو أقوى الأسس التي تقوم عليها الدول ، والنتيجة المحتومة للتفاوت غير المعقول هي الثورة الخاطفة التي يولدها الشعور بالظلم ؛ ومن مآسي الحياة أن عبر التاريخ في كثير من الحالات تذهب عبثاً .

ومن الواضح أن المجتمع في العصر الحاضر فيه أغنياء لا فضل لهم في تحصيل ثروتهم ، وفقراء لم يتذوقوا طعم الراحة ، ولم يعرفوا غير الكدح . وصدقات الأغنياء وتبرعاتهم ومشاركتهم في إنشاء الملاجئ والمستشفيات لا تحل المشكل ولا تفض الخلاف ، فالفقير ما زال يشعر بخصاصته ومهانته ، والغني لا ينزل عن شيء من ماله إلا مكرهاً متورطاً أو ملتمساً بعض الحسنات في العالم الآخر ؛ وقد كان الفقر في العصور المتقدمة لا يثير الحقد لأنه كان مصحوباً بالعقيدة الدينية والإيمان القوي ؛ وكان الفقير يعتقد أن هذا حظه وما قسم له ، وأن عليه أن يقبل قضاء ربه مكتفياً بكنز القناعة ؛ ولكن فقراء العصر الحديث لا يميلون إلى المبادرة بالتضحية والاستشهاد ، ولا يرون أن هناك كبير إثم أو عظيم ذنب إذا حرصوا على أن يظفروا في حاضرهم بلمحات من الفردوس الموعود ، ويشموا شيئاً من روائح جنات النعيم .

وعدم التساوى فى الثروة يؤدى بطبيعة الحال إلى عدم التساوى أمام القانون ، لأن الغنى يستطيع دفع الغرامة أو تقديم الكفالة التى قد تخرب بيت الفقير أو ترسله للسجن ؛ والغنى يستطيع أن يستشير أقدر المحامين وأعرفهم بمداخل القانون ومخارجه ومصادره وموارده ، وليس من المستبعد أن يمكنه ذلك من أن يخلق من باطله حقاً . والفقير مضطر بحكم فقره وحاجته أن يعتمد على ما يستطيع القاضى استخلاصه من منطقه العاجز وحجته القاصرة ؛ فالعدالة أمام القانون تصبح موفورة إذا ما تحققت المساواة الاقتصادية .

وعدم المساواة يقسم المجتمع إلى فريقين : فريق يصدر الأوامر ، وفريق يقوم بالتنفيذ ويحرم من الحرية ، لأن أفراد هذا الفريق — وهم الأكثرية — يقضون أعمارهم أسرى الحاجة ، سجناء الفقر الذى لا ذنب له فى إيجاده واحتمال أسقاده ؛ وفى يد الفريق الآخر التوجيه واستقلال الرأى ، وقد مكنته من ذلك الظروف لا القدرة الشخصية .

وعدم المساواة الاقتصادية يؤدى إلى عدم المساواة فى التعليم ، فتصبح الاستفادة من المعرفة مقصورة على عدد قليل من الناس ، ويظل الكثيرون عاجزين عن عرض قضيتهم ، وبيان حاجاتهم ، ولا ينعمون بخيرات المدنية ، ولا يقدرون قيمة ميراث الحضارة ؛ وإذا قلت الرغبة فى المعرفة ، وغابت عن المدارك معانى الحياة السامية ، تنبه الحيوان الراقد فى جوانح كل إنسان .

وعدم المساواة فى الحياة الاجتماعية ، معناه فقدان الحرية فى عالم العقل والتفكير ، لأن استبقاء عدم المساواة يستلزم صياغة العقول على نمط خاص ، وتوجيهها وجهة معلومة ، وفى كثير من الأمم يتخذ الأغنياء الصحافة أداة لتوجيه الرأى العام لمصلحتهم عن طريق الاعلانات أو امتلاك تلك الصحف ، وهذا التوجيه أو الايحاء يخفى المعايب ، ويصور الأمور على غير حقيقتها ، ويلهى من موطن الداء ؛ وأثر عدم المساواة جد محزن ، لأنه يجعل الطبقة المتوسطة مهمومة بطلب الثروة ، مشغوفة بحب الامتلاك ، فتفنى جهدها فى هذه المحاولة ، ولا تجد متسعاً لتحصيل القيم الروحية السامية ، ويصبح الفن أو الأدب فى موقف حرج ، فهو من ناحية مضطر إلى أن يرضى الأقوياء الذين يملكون السيطرة والنفوذ ؛ ومن ناحية أخرى هو حريص على أن يتملق شعور الشعب الجاهل الذى لم تصقل غرائزه ولم يهذب عقله ، ولم يصل إليه ضوء الاستنارة .

ويقول المتشككون إن الناس يتفاوتون فى المواهب . وهذا حق واضح ، لا تحتاج معرفته إلى دراسة شاقة ، ولكن المساواة ليس معناها تجاهل الفوارق بين الناس ، وإنما معناها محاولة إبراز الفوارق الطبيعية التى تعود بالخير على المجتمع ؛ فهى رفض الاعتراف بتلك الفوارق الزائفة المصطنعة التى لم تلدها طبائع الأشياء ، وإنما خلقتها المصادفات غير المشروعة ، وترمى إلى إفساح المجال للمواهب التى يخنقها الفقر . وقد لا تكون الديمقراطية الحقة أقوى الحكومات وأقدرها على سرعة البت والتنفيذ ؛ ولكنها أقدر الحكومات على استثارة المواهب الدفينة ، وإبراز الشخصيات التى قد يقدوبها الفقر والاهمال ، وهى تمكن كل إنسان من أن يكشف عن كنوز نفسه ويستخرج ذخائره وما يستطيع أن يقدمه لخير الانسانية .

وعدم المساواة الحالية ، معناه ترك الفرد تحت رحمة القوى الاقتصادية العمياء . والعصر الحاضر من العصور التى اشتدت فيها حاجة العالم إلى المساواة من جميع نواحيها ؛ وقد جاءت الحرب فزادت هذه الرغبة قوة

وتأييداً . ولقد قامت الثورة الفرنسية على أساس المساواة والحرية والإخاء ، وجاءت الثورة الروسية وحملت فكرة المساواة إلى العالم الاقتصادى ، فشك الناس فى نجاحها ، ولكنها نجحت ، وخلقت من الروس أبطالا استطاعوا أن يثبتوا للاعتداء النازى ، ويكيلوا الضربات للألمان ؛ وإنما نجحت الثورة الروسية لأنها قامت على فكرة المساواة ، وقد نحت بالحرية إلى حد ما فى سبيل تحقيق ذلك ؛ وقد قدمت للعالم أنموذج حضارة تحيى رميم الأمل فى نفوس الكثرة الساحقة من بنى الإنسان ، وتجعل لحياتهم معنى ، ولوجودهم قيمة . وإذا تأملنا تاريخ أكثر الثورات التى يعرفها التاريخ ، وجدنا أن فكرة المساواة كانت حافزها الأكبر ودافعها الأصيل .

على أدهم

من معانى الوطنية :

رثاء بركليس لجند الوطن

لست أبدأ تلك الأحاديث برثاء بركليس لجنود الوطن لمحض المصادفة أو لمجرد الرغبة فى متابعة خطى الزمن ، بل لإحساس عميق بما امتاز به اليونان من نفاذ النظر وصدق النغمة فى المعانى الإنسانية التى تحدثوا عنها . وهل أجمل من حديث قوم يسمون الوطن فى لغتهم أرض الآباء Patris ، ومن معتقداتهم أن المواطنين الذين لا يدفنون بأرضهم تظل أرواحهم حائرة هائمة تنزل الويل بكل من تلقى وبكل ما تلقى ؟ وقد كانت أولى عباداتهم عبادة الموتى الذين حنت عليهم أرض الآباء . وهل بلغ شعب من شعوب الأرض ما بلغوا من حب للحرية حباً لا نستطيع اليوم أن ندرك كيف انتهى بهم إلى هذا الظلم البين الذى يتم عنه نظامهم العجيب نظام « المحار » Ostracisme[1] تحاكون بمقتضاه من أحسن إلى الوطن إحساناً يخشون معه أن يستغل محبة الشعب له فيستبد بالحكم ، وعقوبة المحسن النفى ، النفى من الوطن الذى تفانى فى خدمته . ولكنها الحرية عشقتها قلوبهم فلم تحرص على سواها .

رثاء بركليس الذى أنقله اليوم عن اليونانية ناطق بكل تلك القيم الإنسانية النبيلة التى كان اليونان يحرصون عليها الحرص كله . أورده المؤرخ الفذ العميق توكيديدس Thucydides فى الكتاب الثانى من مؤلفه القيم عن حرب البليونيز التى اشتعلت نارها بين أسبرطة وأثينا من سنة ٤٣١ إلى سنة ٤٠٤ قبل الميلاد . قالها بركليس تأبيناً لموتى السنة الأولى من تلك الحرب القاسية ، أو على الأصح رواها توكيديدس عن لسان بركليس ، والأمر بعد سيان ، فسواء أكانت صادرة بلفظها عن هذا القائد العظيم أم فقط بمدلولها ، فالذى لاشك فيه أنها من أروع ما وصل إلينا من اليونان فى سمو الفكرة ونبل المرامى .

قال توكيديدس : « فى نفس الشتاء احتفل الأثينيون على نفقة الدولة جرياً على عادتهم بتشييع موتى السنة الأولى للحرب . واحتفالهم عبارة عن عرض لأشلاء الموتى تحت فسطاط يضرب قبل التشييع بثلاثة أيام ، يأتى خلالها المواطنون فيقدم كل منهم قرباناً لمن فقد ، حتى إذا حان موعد الدفن جاءت العربات حاملة توابيت من خشب السرو لكل قبيلة تابوت تضع فيه أشلاء موتاها ، وأما من اختفى من جند فلم يعثر له على أثر فيحمل سرير خال مظلل بالقماش من جميع جوانبه تمجيداً لذكراهم . ثم يسير الموكب يتبعه من يريد من مواطنين أو أجانب ، وتذهب النساء إلى جوار القبور يندبن موتاهن ، ثم توضع

(١) سمى كذلك لأنهم كانوا يعطون كل مواطن محارة (باليونانية Ostracon) يكتب عليها « نعم » أو « لا » جواباً عن السؤال : « هل يجب نفى هذا الرجل أم لا » .

التوابيت إلى ساق تمثال المدينة القائم بأجمل أحيائها ، حيث جرت العادة بدفن من يموت دفاعاً عن الوطن — اللهم إلا أن تستثنى جند معركة مرتون ، فهؤلاء قد حملت بسالتهم النادرة مواطنيهم على أن يدفنوهم فى مكان قتالهم المجيد الذى استشهدوا فيه — ثم تدفن الاشلاء ، ويقوم أحد القادة فيرثى الموتى بالنيابة عن الشعب كله ، وبعد ذلك ينصرف الجميع » . . .

فى ذلك اليوم وقع الاختيار على بركليس فنهض إلى المنصة ثم قال :

« لقد جرت العادة أن يمتدح الخطباء من قرر أن نضيف إلى تشييع موتى الوطن رثاءً لهم كقربان نضعه فوق قبورهم . وأما أنا فكنت أفضل ألا تمجد الأفعال إلا بالأفعال ، وأن نرى فى تشييع الدولة لهؤلاء الأبطال أوفى تمجيد لفعالهم ؛ وذلك لأنى أخشى أن تعجز مواهب فرد مهما جلت عن تمجيد ذكرى هذا العدد الجم من الأبطال . وإنه لم أشق الأمور أن نوفق فى أمر تتفاوت فى تقديره النفوس ؛ فقد يجد السامع الخبير من محبينا فى اللفظ قصوراً عما يعلم ويرغب ، بينما يدعى السامع الجاهل أن هناك إسرافاً فى كل ما يتجاوز طوقه الخاص ، والمرء لا يستسيغ من مدح للغير إلا قدر ما يعتقد أنه قادر على مثله ، فاذا تخطى المادح هذا الحد ولد الحسد الانكار . ولكنه لا معدل لى اليوم — مادام هذا من تقاليد آبائنا — من النزول على حكم القانون لأشبع رغباتكم ولأرضى أمل كل منكم .

وإنى لبادئ الحديث عن أجدادنا ، ولذكراهم من نفوسنا أسمى مكان ، وهم الذين أورثونا هذه الديار الحرة التى لم يتزل بها قط غير بنيها ، ولآبائنا فضل يعلو هذا الفضل ؛ فقد أضافوا إلى ما ورثوا عن أجدادهم تلك القوة التى نملكها اليوم ، والتى أورثونا إياها بفضل جهودهم المستمرة . وجاء دورنا وقد اكتملت رجولتنا فبسطنا من سلطان هذا الوطن وأعددنا من عدته للسلم والحرب . واليوم لا أريد أن أطيل القول عما خضنا من معارك ، وما أحرزنا من نصر ، وما أظهرنا من شجاعة نحن وآباؤنا عندما دفعنا عن الوطن اعتداء البرابرة أو الأغريق ؛ وذلك لكى أعجل فى الحديث عن النظم التى ضمنت لنا تلك القوة ومن مبادئ أخلاقنا الخاصة والعامة ، التى جعلت من مدينتنا ما نرى ، وذلك قبل أن أنتقل إلى تمجيد موتانا ، لعلمى أن مثل هذا الحديث سيأتى فى موضعه ، وقد أنصتت لسماعه آذان الجميع أغريقاً كانوا أم أجانب .

دستورنا لا يثبت له فى المقارنة دستور . الكل ينقل عنا ، بينما نحن لا ننقل عن أحد . لقد أسميناه ديمقراطية لأنه يضمن الخير لأكبر عدد لا لأقله . نحن جميعاً سواسية أمام القانون ، لا يتميز أحد منا بمجد إلا لمواهبه . فالمواهب الشخصية لا الفوارق الاجتماعية هى التى تفتح عندنا أبواب المجد ، وما للفقر أو تواضع الأصل أن ينحى مواطناً عن خدمة وطنه .

نحن أحرار فى حياتنا العامة ، ولهذا لا نتطلع فى خبث إلى أمور مواطنينا فى حياتهم الخاصة ؛ لا نلومهم إذا التمسوا المسرات ، ولا ننظر إليهم تلك النظرات التى تجرح إن لم تقتل ؛ وبالرغم من هذا التسامح العام نعرف كيف نحترم كل ما له مساس بمقومات حياتنا العامة ، فنخضع لذوى الأمر فينا ونقدس حرمة القوانين ، وبخاصة ما وضع منها لحماية الضعيف ، بل وحرمة ما لم يدون من تلك المبادئ التى يجد من يخرج عليها فى استنكارنا العام لعمله أقوى عقاب له .

لقد أعددنا للترفيه عن النفوس أصنافاً من الملاهى : من ألعاب إلى حفلات عامة أو خاصة بمنازلنا ، حيث يسود ذلك الذوق السليم الذى يذهب بأحزان حياتنا اليومية .

وقد أخذت عظمة بلادنا تجذب من كل حدب كنوز البشر تضيفها إلى كنوز بلادنا .

وأما من إعدادنا للحرب فى هذا أيضاً نفوق منافسينا . مدينتنا مفتوحة لكل طارق ، فلا نقصى أجنبياً من دراسة أو من حضور حفل يمكن العدو أن يستفيد منه ! وذلك لأنه عند ما تدق ساعة الخطر لا نرانا نعتمد على ما اتخذنا من عدة أو ما حكنا من خديعة ، بل نركن إلى شجاعتنا الفطرية . لغيرنا أن يلتمس الشجاعة التى تعوز فطرته فى أخذ أبنائه بعنف التدريب منذ الرضاعة . فتلك شجاعة يتعلمونها ؛ وأما نحن فنتجاوه الأخطار دون حاجة إلى أن نعد أنفسنا لها بالجهد العنيف المتصل . وأكبر دليل على ذلك هو أن أهل أسبرطه لا يسيرون إلينا إلا وقد جمعوا حلفاءهم من خلفهم ، وأما نحن فنسير إليهم منفردنا ونغزوهم فى عقر دارهم التى يدافعون عنها . ثم إنه وإن لم يسبق لشعب أن نازل قوانا مجتمعة لما نحن مضطرون إليه دائماً من تزويد أسطولنا بالرجال ، وتسيير جندنا إلى مواقع عدة منتشرة على سطح الأرض ، فإنه لا يلقى عدو لنا رجالا حتى يفخر بقتله لهم جميعاً إن انتصر وعقابلته لقوانا مجتمعة — فيما يظن — إن انهزم .

على أنه لو صح أننا نربى أنفسنا على الشجاعة بحياة سهلة ميسورة بدلا من حياة جافة قاسية ، وأننا نفعل ذلك مسوقين بدوافع من خلقنا لا مجبرين بقوة القانون ، لكان لنا على الأقل فضل عدم إتلاف حياتنا الحاضرة بخوفنا من أخطار قد يأتى بها المستقبل ، ومع هذا ما جد خطر إلا وجدنا لا تقل شجاعة عمن يأخذون حياتهم بالجهد المتصل .

ومجدنا بعد يعدو كل ذلك .

فنحن نحقق الجمع بين الاناقة والبساطة ، بين ثقافة النفس ونشاط الإرادة . نحن نستخدم ثروتنا لا للمباهاة الباطلة ، بل كأداة للعمل . ليس من العار عندنا أن يعترف أحدنا بفقره ، وإنما العار ألا يحاول الافلات من هذا الفقر . ولكم نرى من رجالنا من يخدم مصالحه الخاصة والصالح العامة معا ، وكم منهم من يجيد فهم المسائل السياسية رغم عدم احترافه لها ، وذلك لأننا لا نعتبر من يتجنب السياسة رجلا حريصاً على راحته بل كائناً لا فائدة فيه . نحن نعرف كيف نفهم مصالح الدولة ونكشف عنها بأنفسنا ، وعندنا أن القول لا يضر بالعمل ؛ بل الضرر هو ألا نستنير بالمناقشة . وقبل البدء فى أى عمل نرانا نجمع بمهارة بين هدوء الروية وجسارة الاقدام . وأما الغير فاقدامه حماقة وتفكيره شل لارادته . وإنه لمن العدل أن نخص بالفخار من يقدم على أخطار الحرب رغم علمه التام بما فى السلم من لذات . وأما من عمل الخير فى هذا أيضاً نتميز من بقية الشعوب . نحن لا نكسب الأصدقاء بقبول الخير منهم بل بمنحه إياهم ، لأننا نعلم أن صداقة المانح أثبت ، وذلك لحرصه على أن يحتفظ بجميل ما منح ! وأما الممنوح إياه فحرصه أقل ، لأنه يعلم أن ما يقدم من خير المانح إنما هو قضاء لدين لا فضل له فيه ، ونحن نمنح من كرم خالص غير مقصدين منحة بمن أو أذى .

وبالجملة أستطيع أن أؤكد أن آثينا هى مدرسة اليونان جميعاً . ولو أنكم نظرتم إلى رجالنا لوجدتموهم من المرونة بحيث يتقبل الواحد منهم راضيا ما يصير إليه من مركز ، ولكى تستوثقوا من أن ما أقول ليس شقشقة باطلة بل العبارة الصادقة عن الحقيقة الراهنة ، أسألكم أن تتدبروا القوى المختلفة التى منحها ما ذكرت من صفات . فآثينا من بين شعوب الأرض يصدق خبرها خبرها ما جد جد . تستطيع آثينا دون غيرها أن تحارب العدو دون أن تثور إن نزلت بها هزيمة ، كما تستطيع أن تحكم الغير دون أن ينكر عليها ذلك الغير حق السيادة .

والفعال تدل على مجد هذا الوطن بما يكسبنا إعجاب معاصرينا ، وسوف يكسبنا إعجاب من يليهم من أجيال دون حاجة إلى شاعر كهوميروس يشيد بمجدنا أو إلى شعر تطرب له الآذان حيناً ، ثم تأتى الحقائق فتكذب نبأه .

لقد أرهقنا الأرض والبحر على أن يكونا فى متناولنا ، وفى كل مكان خلفنا نصباً خالدة لما لاقينا من نصر أو هزيمة ؛ ومن أجل هذا الوطن استشهد هؤلاء الأبطال مفضلين الموت على إسلامه للعدو ، وعلى سلامة هذا الوطن يجب على الأحياء أن يوقفوا حياتهم .

تمهلت فى الاشادة بمزايا هذا الوطن لأدلكم على أن الأمر ليس سواءً بيننا وبين من لا يملكون ما نملك من مزايا . والآن أستطيع أن أبنى على هذه الحقائق رثاء هؤلاء الأبطال دون أن يتسرب شك إلى صحة ما أقول ، حتى لأحسب أن مهمتى قد انتهت ، وكل ما ذكرت من فضل لهذا الوطن إنما هو دين لهؤلاء الأبطال ولأمثالهم ، وأنا لا أعلم من بين الاغريق من يستحق من جدارة ما يستحقون من ثناء ؛ وليس أظهر لفضل الرجل من الاستشهاد فى سبيل وطنه . لقد يجازف نفر بحياتهم فى سبيل الوطن ليكفروا من خلق معوج ؛ وأما هؤلاء فما توانى منهم أحد رغبة فى الاستمتاع بلذات الحياة ، ولاحاول إرجاءً لساعة الخطر فراراً من فقر أو التماساً لرزق ؛ وإنما كان همهم عقاب عدو ظالم والثأر لأنفسهم منه ، ورأوا فى ذلك أسمى المجد فصدفوا عما عداه . ساروا تاركين للأمل فى المستقبل احتمال النصر أو الهزيمة ، حاصرين جهدهم فيما يعمر نفوسهم من ثقة بالحاضر . فضلوا القتال والموت على الحياة مع الاستسلام ، فدفعوا العار من ذكراهم وجابهوا أخطار الحرب ، فغادروا الحياة صدفة وهم وسط المجد لا الخوف .

بهذا أظهر هؤلاء الأبطال أنهم أبناء بررة بوطنهم . وأما أنتم أيها الأحياء فعليكم أن تلقوا العدو بمثل جسارتهم ، آملين أن تطول بكم الحياة ، ولا يقف منكم تفكير عند الاشادة بما فى الدفاع عن الوطن وعقاب من يعتدى عليه من مجد ، فهذا إحساس طبيعى لا داعى للإفاضة فيه ، بل انظروا إلى عظمة هذا الوطن وأشربوا بها نفوسكم ، لتغذوا بذلك حماستكم ، حتى إذا استقرت عظمته من نفوسكم أدركتم بأى ثمن اكتسب هؤلاء الأبطال هذه العظمة ، فتحليتم بما تحلوا به من جلد وإقدام وفداء . لم يصادف النصر دائماً هؤلاء الأبطال ، ولكن الهزائم لم تصرفهم عن وقف حياتهم على مجد آثينا حتى أسلموا تلك الحياة ثمناً لذلك المجد .

ماتوا فى سبيل الوطن فاكتسبوا مجداً خالداً يقوم هيكله لا فى القبور حيث تستقر بهم المضاجع ، بل فى ذكرى بطولتهم . والأرض كلها مقبرة لعظماء الرجال . وسوف يخلد ذكرهم لا على النصب فحسب ، بل فى كل بقاع الأرض ، حيث ستحفظ لهم الذكرى مجداً لا يبيد ، وإن لم يتجسم .

خذوا منهم مثلا ، واذكروا أن المجد فى الحرية وأن الحرية فى الشجاعة ، ثم سيروا إلى ملاقاة كل خطر مهما جل ، ذاكرين أنه ليس لليائسين من مستقبل خير من حاضرهم ، أن يضحوا بحياتهم ، وهذا أوجب على من ينعمون بخير يمكن أن يجردوا منه ؛ وإنه لآلم للمرء الكريم أن يمتهن لضعفه بعد عزة من أن يموت ، وما يكاد يحس أبطال الوطن ونفوسهم عامرة بآماله الموت ألماً .

لهذا لا أريد أن أمنح دموعاً ، بل تشجيعاً لمن يستمع إلى من آباء ، وهم يعلمون بنشأتهم أن الحياة قلب وأن السعادة قد كتبت لمن يلق موتاً مجيداً كما لقى أبناؤكم ، أو حزناً نبيلا كالحزن الذى أصابكم اليوم ؛ وأى خير

بمثل انتهاء الحياة في أوج المجد ؟

لست أجهل أنه من الشاق أن أقنعكم بما أقول ، وأمامكم فرح الغير بسلامة أبنائهم يذكركم بما كنتم فيه من فرح بهم ، وأنا أعلم أننا لا نألم للحرمان من شيء لم نأمله بقدر ما نألم لفقد ما اعتدنا التمتع به . ولهذا أدعوكم إلى الشجاعة والتزود بالأمل في أن يكون — لمن يستطيع منكم — خلف جديد بدلاً ممن فقد ، وبهذا يحل أبناء محل أبناء ، فيعوض الوطن من خسارته ويزيد من سلامته ؛ وذلك لأن المرء لا يصدر في مناقشاته العامة عن نفس الروح الوطنية واعتدال الرأي عند ما يكون له ولد عرضة للخطر أو لا يكون . وأما من لم تعد السن تسمح له بخلف جديد فعليه أن يذكر أن معظم حياته قد تقضى سعيدا ، وأن ما بقي له هو الأقل ، وسوف يجد في ذكرى أبنائه المجيدة ما يخفف من آلامه ، وشهوة المجد هي الشهوة الوحيدة التي لا تهرم . وليس صحيحاً ما يدعيه البعض من أن هم الشيخوخة هو جمع المال ، وإنما الحق هو كسب احترام الغير .

وأما أنتم أبناء وإخوة هؤلاء الأبطال فأمامكم صراع عنيف ، وإنه لحبيب إلى كل نفس أن تمدح ما تقضى ، ولهذا أرجو لكم أن تصلوا إلى ما وصل إليه هؤلاء الأبطال ، أو على الأصح إلى ما يدانيهم ، وذلك لأن الحسد ينال دائما من فضل الأحياء ، حتى إذا ذهب الموت بما يلقون على معاصريهم من ظلال تغمرهم بظلمتها نزل فضلهم من كل القلوب منزلة التقديس .

وأما عن النساء اللائي تأيمن فأكتفي بأن أطلب إليهن أن يلتمسن المجد في ألا يظهرن من ضعف غير ما تقضي به فطرتهن ، وأن يتنافسن في أن يكون تأثيرهن على الرجال أقل ما يكون ، سواء كان هذا التأثير في الخير أو الشر .

والآن لقد وفيت ما علينا بذكر ما أعتقده الحق ، وسوف يلقى هؤلاء الأبطال تمجيداً أتم ، كما أن أبناءهم سينشأون على نفقة الدولة إلى أن تكتمل رجولتهم هبة من هذا الوطن لمن استشهد في سبيله ، ولمن خلفوا بعد موتهم من أبناء ، وذلك لأن تكريم البطولة من شأنه أن يولد الأبطال . ثم لينصرف كل منكم بعد أن يذرف الدمع على من فقد »

والآن نرى : أما لنا أن نأمل في أن نستطيع يوماً الحديث عن وطننا كما تحدث هذا الرجل عاملاً نفسه من عزة واعتزاز بنظم وطنه وأخلاق مواطنيه ؟ وماذا ينقصنا لذلك إلا ثقة بنفوسنا ، وثقة بوطننا ، وثقة ببني وطننا ، ثم انعقاد العزم على العمل ؟

محمد مندور

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لمدة ستة أشهر

٣٠ في مصر والسودان

٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام

٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

استعراض تاريخي :

أصل المادة وتكوينها

رأى القدماء :

قد حبانا الله بعدد وفير من الأجسام والمواد ، هي في مختلف صورها وأنواعها تعتبر بالآلاف ؛ فن معادن ثمينة وأخرى رخيصة ، ومن أجسام صلبة إلى سائلة إلى غازية ، فاتجهت العقول منذ أقدم العصور إلى دراسة أصل هذه المواد كلها ؛ فقال علماء الاغريق إنها لا بد أن تتكون من أصول دقيقة بسيطة ، فن قائل إن أصل الموجودات جميعاً هو النار ، ومن قائل إنها أربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب ؛ وقد تسلط على علماء العصور الوسطى الرأى القائل بامكان تحويل المعادن الرخيصة كالنحاس والحديد إلى معادن ثمينة كالذهب والفضة ، ولكنهم فشلوا ، إذ كانت آراؤهم ومحاولاتهم مبنية على غير أساس علمي متين .

عصر التجربة :

وفي أواخر القرن السادس عشر بدأت نهضة علمية على أساس جديد ، وهو أساس التجربة والمشاهدة والاستنباط ، والابتعاد عن طريقة القدماء من الرجوع دائماً إلى رأى أرسطو وغيره من علماء الأغريق في كل أمر من أمور الحياة والعلم . وكان العلماء يخشون الجهر بآرائهم الجديدة ، إذ أن من يقوم على نشر آرائه المخالفة لآراء القدماء ، فانه لا محالة مضطهد ، ويسام الخسف والهوان ، ويزج به في غياهب السجون ؛ ولعل أظهر مثال في ذلك العصر لما كان يلاقيه المجربون من العلماء ، هو ما حدث لغاليليو (١٥٤٦ — ١٦٤٢) ، وهو الذى سجن وعذب وفقد بصره في السجن ، وذلك من جراء جرأته في نشر آرائه المبنية على التجربة والمشاهدة والاستنباط .

وقد ظهر في هذا العصر علماء مجربون في مختلف الفروع مثل الدكتور وليم جلبرت (١٥٤٠ — ١٦٠٣) وهو مؤسس علم الكهربية ، ونيوتن وبويل ، وقد ولدوا في أوائل القرن السابع عشر ، ولهم آراء جديدة في الجاذبية والضوء والفلك وخواص المادة .

الذَّرَّة والكَهْرَب :

وفي القرن السابع عشر بدأت نهضة جديدة في علم الكيمياء ، وقد وضع الكيميائي الانجليزي جون دالتون أستاذ الكيمياء في مانشستر نظرية جديدة ، أرجع المواد فيها إلى نحو ٨٠ أصلاً ، بدلا من أربعة في عهد الاغريق ، وسمى كل أصل منها عنصراً ، وبين أن كل عنصر يمكن تقسيمه إلى أجزاء صغيرة ، وأن أصغر جزء يمكن أن نصل إليه ويبقى محتفظاً بخواص العنصر يسمى ذرة ؛ وهذه النظرية تسمى النظرية الذرية للعناصر ، أى أن دالتون أرجع المواد جميعاً إلى نحو ٨٠ ذرة ، ولكنها زادت من بعده إلى ٩٢ ذرة .

وفي سنة ١٨٩٧ أثبت العالم الانجليزي تومسون J. J. Thomson أن ذرات جميع العناصر يدخل في تركيبها أساس واحد ، وهو الذى نسميه الكهرب electron ، إذ وجده في جميع الغازات المختلفة عند خلخلتها وإمرار الكهرباء فيها ، وقد وجد العلماء أيضاً أن الكهرب ينفصل من المواد بفعل الأشعة السينية والأشعة فوق البنفسجية ، وينطلق من المواد ذات النشاط الاشعاعي Radio-active .

فها هو علم الطبيعة — أو الكهرباء بصفة خاصة — قد أثبت لعلماء الكيمياء أن الذرات يمكن تقسيمها ، وأنه يدخل في تركيبها جميعاً أساس جديد هو الكهرب .

تركيب الذرة :

بعد تجارب تومسون وكشف الكهرب في جميع الذرات ، تساءل العلماء : « هل ذرة كل مادة مكونة من كهارب فقط ؟ » ، وكان الجواب عليه بالنفي ، فقد أثبت رذرفورد سنة ١٩١١ أن الذرات بها بروتونات أيضاً ، ورذرفورد هذا هو الذي اقترح النظام الشمسي للذرات ، فتخيل الذرة مكونة من نواة بها بروتونات يدور حولها كهارب في أفلاك ، كما تدور الكواكب السيارة حول الشمس .

وقد أحدثت نظرية رذرفورد هذه انقلاباً كبيراً في نظرة العلماء إلى تركيب المادة ، وذلك لأن الذرات جميعاً قد أصبحت مكونة من وحدتين أساسيتين : الكهرب والبروتون . وما اختلاف ذرة من أخرى إلا في عدد كل من هاتين الوحدتين في كل ذرة وترتيبها ؛ فذرة الرصاص تشبه ذرة الذهب ، إذ أن كلتيهما مكونة من كهارب وبروتونات ، وعددها في إحداها يختلف عن عددها في الأخرى ، وترتيبهما في كل ترتيب خاص . واتجه التفكير بعد ذلك إلى إمكان تحويل العناصر بعضها إلى بعض ، وقد تمكن رذرفورد من تحقيق هذه الفكرة ، ولكنه حول مادة ثمينة إلى أخرى رخيصة ، وتبعه لورنس E. O' Lawrence العالم الأمريكي وأعوانه ، فحصلوا على الذهب من مادة أخرى ، ولكن بكميات قليلة جداً .

أنواع جديدة من الكهارب :

بحث العلماء خواص الكهرب الموجود في جميع الذرات ، وعرفوا عنه الشيء الكثير ، إذ بينوا أن له كتلة تبلغ ١/١٨٣٧ من كتلة ذرة الايدروجين ، وأنه مشحون بشحنة سالبة ، وأوجدوا مقدارها ، وهي أصغر شحنة معروفة في الكهربية .

وفي سنة ١٩٣٢ تمكن شادويك Chadwick ، وهو أحد زملاء رذرفورد من أن يدلل على وجود نوع جديد من الكهارب ، وهو الكهرب المتعادل وجده في نواة الذرة ، أي أن هذا الكهرب ليس عليه شحنة سالبة كالكهرب الذي كشفه تومسون ، بل إنه كهرب من نوع جديد لا يظهر عليه أي نوع من أنواع الشحنات الكهربية ، ولذلك سمي الكهرب المتعادل Neutron .

وما إن انقضت ستة أسابيع على هذا الكشف الجديد حتى جاء كوككروفت J. D. Cockcroft ، وهو أحد زملاء رذرفورد أيضاً ، وبين أن تحول الذرات من بعضها إلى بعض يمكن أن يتم بطريقة سهلة بوساطة آلات كهربية .

وبعد ستة أسابيع أخرى ، وفي نفس عام ١٩٣٢ أثبت أندرسون C. D. Anderson في كاليفورنيا وجود دقيقة أساسية جديدة وهي الكهرب الموجب Positron . وبعد بضعة أشهر حقق بلاكت P. M. S. Blackett في كمبردج وجهة نظر أندرسون ، وما إن نشرت هذه البحوث عن الكهرب الموجب حتى اتضح أن وجود هذا الكهرب قد تنبأ به بطريقة رياضية العالم الانجليزي ديراك P. A. M. Dirac ، وذلك في كمبردج سنة ١٩٣٠ ، وهي نبوءة تشبه تنبؤ مكسويل بموجات اللاسلكي قبل أن يكشفها العالم الألماني هرتز .

الكهرب الثقيل :

إلى سنة ١٩٣٢ كشف عن أنواع ثلاثة من الكهارب ، وهي الكهرب السالب ، والكهرب المتعادل ، والكهرب الموجب بترتيب تاريخ كشفها . وفي سنة ١٩٣٨ تمكن أندرسون المرة الثانية من العثور على دلائل وجود دقيقة جديدة ، ووجد أنها مكهربة وأخف بكثير من الذرة

المتأودة ، ولكنها أثقل بكثير من الكهرب ، وقد سميت هذه الدقيقة الجديدة الكهرب الثقيل Heavy Electron وقد أعاد التاريخ نفسه ، إذ تبين أن عالما يابانياً اسمه يوكاوا Yukawa وجد في سنة ١٩٣٥ أنه لابد من افتراض وجود مثل هذه الدقيقة أو الكهرب الثقيل لتفسير تحول المواد للشعة ، واستنبط بعض خواص هذا الكهرب الثقيل قبل كشفه ، ومنها أنه غير متزن في التركيب ، وأنه مشع ، وأن متوسط حياته لابد أن تكون نحو جزء من مليون من الثانية ، وأنه بعد هذه الفترة الزمنية القصيرة ينفجر ، ويُطلق إلى الخارج كهربا عاديا .

الأشعة وكشف الكهارب :

قد أعانت أنواع الأشعة المختلفة على كشف أنواع الكهارب ؛ فالأشعة السينية والأشعة فوق البنفسجية قد أعانت على كشف الكهرب السالب الذي كشفه تومسون . والأشعة السينية كشفها العالم الألماني رنتجن سنة ١٨٩٥ ، وفي سنة ١٨٩٦ كشف العالم الفرنسي بكريل Becquerel أن اليورانيوم Uranium يصدر أشعة سميت ألفا وبيتا وجاما ، والأخيرة لها قدرة على اختراق المواد أكثر بكثير من قوة اختراق الأشعة السينية ؛ وهذه الأشعة قد أعانت رذرفورد على كشف البروتون (بوساطة دقائق ألفا التي تشع من اليورانيوم) وهناك أشعة جديدة تسمى الأشعة الكونية قد أعانت على كشف الكهرب الموجب ومعرفة خواص الكهرب الثقيل . فما هي إذاً الأشعة الكونية ؟ أشير إليها باختصار فيما يلي :

في سنة ١٩١٠ قام جوكل السويسري بتجربة جديدة وهي أنه وضع كشافاً كهربيا — وهو الجهاز الذي يختبر مقدار الشحنات الكهربية ونوعها — في بالون ارتفع إلى علو وصل إلى ٤٥٠٠ متر ، ولشد ما دهش عندما وجد أن الكشاف الكهربي تفرغ شحنته في الطبقات العليا أكثر من تفريغها بالقرب من سطح الأرض ؛ إذ المعروف أن الكشاف إذا شحن بالكهربية ، فإن الأشعة السينية إذا مرت فيه تفرغه ، وكذلك أشعة جاما إذا مرت فيه فإنها تفرغه ، وإذا كان الكشاف بجوار الأرض فقد لوحظ أن شحنته تفرغ بتأثير أشعة جاما المنبعثة من الصخور الأرضية ، فلما وجد جوكل أنه في الارتفاعات الكبيرة يزداد تفريغ الكشاف بدلا من أن يقل بسبب الابتعاد من الأرض ، اتجه تفكيره إلى أنه لابد أن تكون هناك أشعة مصدرها طبقات الجو العليا ، وقُدْرَتها تفوق أشعة جاما ؛ وقد تصدى لدراسة هذه الأشعة عدد كبير من العلماء من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩٣٥ بل وبعد ذلك ؛ ومن تجاربهم أنهم أطلقوا بالونات وصلت إلى ارتفاعات تزيد على ١٥٫٥٠٠ متر ، بل وإلى نحو ثلاثين كيلو متراً ، وانتهوا إلى القطع بوجود أشعة جديدة مصدرها الطبقات العليا من الكون ، وأطلقوا عليها اسم الأشعة الكونية cosmic Rays .

الأشعة الكونية والكهارب

كشف أندرسون سنة ١٩٣٢ الكهرب الموجب ، وفي الواقع كان ذلك عندما تصدى لبحث بعض خواص الأشعة الكونية ، فزاد العلماء اهتمامهم بدراسة هذه الأشعة الجديدة ، ورغبوا في معرفة ما إذا كانت لها صفات إشعاعية لعلهم يهتدون بذلك إلى حقائق جديدة أو إلى دقائق جديدة ، وفعلا قامت جمعية من زملاء العالم الإيطالي روسي Rossi ، وسافروا إلى أريتريا في أفريقيا سنة ١٩٣٤ لقياس شدة الأشعة الكونية هناك ؛ ولشد ما دهشوا عندما وجدوا تحت ظروف خاصة أن الأشعة الكونية المتجهة نحو الأرض خلال الطبقات العليا من الكون توقف نسبيا بطبقات رقيقة من الهواء أكثر من إيقافها من طبقات سميكة ؛ وظهرت هذه الظاهرة

كأنها مناقضة المعلومات السابقة عن الأشعة السينية مثلا ، وشك العالم في صحة نتائج تجاربهم ، ولكن رومي وأعوانه كانوا علماء ممتازين في دقة الملاحظة والتجربة ، إذ كان رومي أستاذاً في جامعة بادوا ، وقد شغل بعض الوقت في الاشراف على بناء معهد طبيعة في الجامعة . وبعد أربعة أيام من نهاية هذا العمل الذي دام أربع سنوات كان يجلس ذات ليلة مع زوجته في مقصف ، وإذا به يسمع في الاذاعة اللاسلكية نبأ إحالته على المعاش وطرده من وظيفته ، فهاجر إلى انجلترا ، وتابع أبحاثه في معمل بلاكت Blackett في مانشستر ، وهو الآن أستاذ الطبيعة في جامعة كورنل cornell في نيويورك .

نترك قصة رومي ونعود إلى قصة مشاهداته في اريتريا ، فقد كانت الملاحظة الغريبة التي لاحظها رومي وأعوانه من أن الطبقات الرقيقة أقدر على إيقاف الأشعة الكونية من الطبقات السميكة مما يحتاج إلى تفسير بعد التسليم بصحة التجربة ؛ وقد اهتدى العلماء إلى تفسيرها إذ في الواقع قلت دهشتهم عندما تذكروا أن الكهرب الثقيل الذي كشفه اندرسون سنة ١٩٣٨ له خواص إشعاعية ، وأن الأشعة الكونية بها كهرب ثقيل ، ويحتمل كما تنبأ العالم الياباني أن يكون هذا الكهرب الثقيل مشعا ، فاذا كانت طبقة الهواء رقيقة فان الكهرب الثقيل يتحول خلال مروره في المسافات القصيرة وتتغير صفاته بسرعة ، وذلك لأن حياته الاشعاعية قصيرة ، وخلال هذه الطبقة الرقيقة من الهواء كان الكهرب الثقيل يقاوم طوال رحلته ، ولذلك ظهر أكبر أثر من آثار مقاومة الكهرب الثقيل وبعد مروره من الطبقات السميكة ، فان عدداً كبيراً من الكهارب الثقيلة لم تعش طويلا حتى تخترق هذا السمك الكبير من الهواء ، ومقدار ما مات من هذه الكهارب الثقيلة خلال المسافات القصيرة لم تعد تقاوم ، ولذلك فان تأثير إيقاف أو مقاومة الأشعة الكونية قد اختفى في المسافات الطويلة ، وقد أجريت تجارب لمعرفة مدى إيقاف الأشعة الكونية في الماء والرصاص ، وحصلوا على نتائج مماثلة لما يحدث في الهواء .

الكهرب الثقيل والاشعاع :

وإن خاصية الاشعاع التي ينسبها العلماء إلى الكهرب الثقيل ينتج عنها أغرب الحالات ، فقد لوحظ في الجو الداف‌ء أن شدة الأشعة الكونية عند سطح الأرض تميل إلى النقصان . وفي سنة ١٩٣٨ علل بلاكت Blackett أنه إذا ارتفعت درجة حرارة الجو ، فان طبقة الهواء المجاورة لسطح الأرض تتمدد بالتسخين وترتفع ، ولذلك فان الكهارب الثقيلة في الأشعة الكونية تزيد عليها مشقة السفر قبل أن تصل إلى سطح الأرض ، ويزيد مقدار ما يموت منها ، فتقل بذلك شدة الأشعة الكونية عند سطح الأرض في الجو الداف‌ء ، وقد شوهد مثل هذا التأثير عند تغير الضغط الجوي وتقديره بالبارومتر .

فهذه ظاهرة أمكن تفسيرها على أساس أن الكهرب الثقيل مشع . وهناك ظواهر أخرى يمكن تفسيرها على هذا الأساس ؛ ولذلك بذل العلماء جهود الجبابرة ليحصلوا على عينة من هذا الكهرب الثقيل ليشاهدوه وقت إشعاعه ، ومعلوم أن العالم ولسون C. T. R Wilson طريقة لتصوير الكهارب المتحركة ، وتسمى طريقة غرفة ولسون ؛ وقد استطاع بطريقته هذه أن يصور مسار دقائق لا يمكن أن ترى بأقوى مجهر ، بل إن هذه الدقائق أصغر عشرة آلاف مرة من الأجسام التي يمكن رؤيتها بالمجهر ، وهذه الدقائق تسير بسرعة ١٠٠٫٠٠٠ ميل في الساعة ، ومن مساراتها المصورة هذه أمكن كشف كثير من الخواص .

تصوير مسار الكهرب الثقيل :

وقد حاول العلماء أن يصوروا مسار الكهرب الثقيل عند إشعاعه بوساطة غرفة ولسون — المشروحة فى البند السابق ؛ ولكنهم وجدوا كل صعوبة ، لأن مسار الكهرب الثقيل طويل على الرغم من أن حياته قصيرة ، ولكن لأن سرعته كبيرة جداً ، فإنه يقطع فى زمن قصير مسافة طويلة .

وقد نجح أحد العلماء، وهو وليمز E. J. Williams ، الذى نشر سنة ١٩٤٠ أول صورة واضحة لمسار الكهرب الثقيل ، وقد عدل فى غرفة ولسون بما جعله يستطيع ذلك التصوير ، وأصبحت تعرف باسم غرفة وليمز وولسون . وقد أظهر المسار الواضح الجلى خطاً أبيض من السحاب ، وسمك المسار يدل على خواص الكهرب . وبفحص نهاية المسار فحصاً دقيقاً لوحظ مسار آخر أدق من المسار الأول ، ومتفرع منه ، وهذا الفرع الأخير هو المسار الذى خطه الكهرب المعتاد الذى نتج من تحول الكهرب الثقيل ، فأيدت الصورة والتجربة ما استنتجه العلماء بالرياضة .

والنتيجة ؟

وعلى ذلك نكون قد أرجعنا المواد جميعاً إلى أسس واحدة من البروتون والكهرب السالب والكهرب الموجب والكهرب المتعادل والكهرب الثقيل ، وذلك إلى سنة ١٩٤٠ .

وماذا بعد ذلك ؟ هذا ما سيكشفه لنا الغد ، وما سينتج من جهود العلماء المجربين ، هذا إن كانت الحرب الحاضرة لن تشغل العلماء عن هذا البحث الجليل إلى نهاية الحرب . . . فقد شغل أخيراً العلماء الأمريكيون واليابانيون . . .

محمد عاطف البرقوقى

إلى الهدهد

خدمت «سليمان» فى ملكه
وبلغته «نبأ» عن «سبأ»
وقلت : أحطتُ بما لم تحط
به ، واجترأتَ أمام الملأ
وحُمّلت منه «كتاباً كريماً»
فزرت «بالخبر المبتدأ»
فيم «أولى الأمر» منا وقل
معى نبأ يا له من نبأ
«حمام الحقول» — وأعنى بذلك
فلاحَ مصرَ علاه «الصدأ»
فَقَدْها وجاع ، وصان وضاع
وأروى الضياع وقاسى الظمأ
وأمراضه فوق هذا وذاك   تناهبته كباح الكلأ
وزتْ الجديدان من حوله   ولم يلق بينهما ملتجأ
فياليت شعرى متى يُعتنى   به ويصان له ما انطفأ ؟

شاهر البرازى

معرض نفس

أنا فى هذه الحياة خيال   هائم شارد بغير مقر !
لم أزل هائماً بروحى وفكرى
فى شعاب الحياة والكون أسرى
بين نور يغشى عالم حسّى   وظلام محجب مكفهرّ
وانفساح كأنه عالم الخلـ   ـد وضيق كأنه قيد أسر

أنباء وآراء :

أسرة الشعر بكلية الآداب :

اعتزمت أسرة الشعر بكلية الآداب تكوين مكتبة تضم دواوين الشعراء، وبحوث الأدباء فيما يتصل بدراسة الشعر، لتكون بمثابة أكاديمية للشعر. وقررت عمل سجل للشعراء المعاصرين والشاعرات في مصر والأقطار الشقيقة. وتحقيقاً لهذه الغاية ترجو الأسرة أن يتفضل حضرات الشعراء والكتاب، فيوافوها بدواوينهم وبحوثهم مصحوبة بصورهم الشمسية. أما حضرات الشعراء الذين لم تنشر دواوينهم بعد فليتفضلوا ببعض نماذج من أشعارهم.

وتكون جميع المكاتبات باسم حضرة الأديب محمد محمود زيتون أفندي سكرتير أسرة الشعر بكلية الآداب بالجيزة

الخوف من الكتب :

الكتاب كالرجل — تحاول الطبيعة أن تهدم الرجل، كما يحاول الرجل أن يهدم الكتاب — وقد ينتصر الرجل على الطبيعة ويفسد عليها تدبيرها، كذلك قد تبقى الكتب أجيالا عديدة رغم المصائب التي تحل بها. فالكتاب يشبه في هذا خالقه وصديقه وعدوه — فالرجل كتاب منشور، والكتاب حديث مقروء، وكفى الكتاب فخراً أن يكون الجهل والتعصب من أعدائه.

فالخوف من الكتب، أو الخوف مما تحدثه هذه الكتب هو ما يشغل أذهان الناس اليوم. فمنذ ما نشر

وأمانٍ كأنهـــا تبع الكو
نَ وتطويه في اختلاجة صدر !
وصلاة الصوفي أغرق فيها   وانصراف عن الصلاة وهجر
وظماء إلى الحيـاة وزهد   وخصيب من الحياة وفقر
ما تراني جمعت من كل هـــذا
وأنا شارد « بغــــير مقر » ؟

***

أنا كالطـــائر الطليق أغرا
هُ انطلاق الجناح في غير عسر
فاستطاب التحويم في كل أفق
إن لأمرٍ يبغيه . . . أو دون أمر !
إنما همه رفيف وخفق   وانطلاق كلمحة البرق تسري
دائب لا يمل، لم يلق بالا   وهو يمضي لهدأة المستقر

لم تشقه الأغصـــان كالطير يبني
مستقراً فيها بأحناء وكر
فإذا حن للغصـــون بناها   فكرة .. لا تعيش إلا بفكر
وتغنى وكرّاً عليها جميلا   مبدعا فيه عبقرية شعر
فتُقضى الحياة فيه خيالا   وأمانيّ طعمها جد مُغرٍ
وإذا حن للثمار فتى الفكـ   ـر ثمار بغير عد وحصر !
لم يذق « واقع » الثمار فهل يـ
طعم عيشاً بدونها ؟ ليت شعري
هكذا عالمي : خيـــال وفكر
وأنا فيه لم أجد مستقري
فنصيبي من الحيـــاة ضئيل
ومن الفكر والمنى ؟ لست أدري !

محمد قطب

دارون كتابه المعروف « أصل الأنواع » خشى الناس أن يقلب بدعوته إلى المادية الأسس الأخلاقية التى يقوم عليها المجتمع — ولكن هذا الخوف لم يبعد مقصوراً على ما فى هذه الكتب من أفكار ثورية أو آراء خطرة ، بل امتد إلى الكتب نفسها ، فأصبح الناس يخشون الكتب كما يخشون الحى ، وأصبحوا يفرون من القراءة مخافة أن تفسد أذواقهم من كثرة القراءة ، كما تفسد حاسة الذوق من كثرة الطعام .

والناس يبتعدون عن الكتب خوفاً من أن تثير أفكارهم كما يبتعدون عن حركة الشارع أو ضوضاء المدينة :

وقد يكون منشأ هذا الخوف جهل الناس بالكتب إبان حداثتهم ، فقد نلحظ مثل هذا الخوف عند كثيرين من طلبة المدارس ، فنرى المتأخرين منهم يعيبون على المجدين السهر الطويل والعمل المتواصل ، ومتى تمكن هذا الخوف من نفوس الناس كان من العسير إضعافه أو انتزاعه . يقول أحد كتاب إيطاليا المعاصرين : « يستطيع موسولينى أن يضطرنا إلى عمل أى شىء ، ولكنه لا يستطيع أن يضطرنا إلى قراءة « دانتى » ، ولو حاول هذا لكان فيه القضاء على الفاشية » .

وقد يظن البعض أن هذه الكراهية مقصورة على الكتب الرديئة أو الكتب التى تحمل بذور الشر والفوضى ، ولكن الواقع أن هذه الكراهية منصبة على جميع الكتب دون النظر إلى ما تحويه من أفكار ، إذ أنه يصعب على القارئ أن يحكم بأن هذا الكتاب نفره الأخلاق وذاك عدو للأخلاق ، فان هذا الحكم يختلف باختلاف الأشخاص والعصور والبيئات .

وقد يكون الكتاب المكروه الذى لا يتمشى مع الأخلاق كصاحبه يحمل من العبقرية ويبعث من اللذة ما يقصر دونه الكتاب الأخلاقى المحبوب . وفى مثل هذا يقول « برنارد شو » : « إن الجحيم مرصوفة بالأفكار الطيبة لا بالأفكار الخبيثة ، لذلك يجب أن تحذر دائماً أفكار الناس الطيبين ، فقد تكون أشد خطراً من أفكار الخبثاء » .

والنساء أشد خوفاً من الكتب من أزواجهن ، وليس بين الزوجة والمكتبة من المودة والألفة ما يغريها على المكث فيها ، بل إن هناك عداوة متأصلة بين المرأة والكتب ، حتى إننا نرى معظم الزوجات يكرهن الكتب التى يحبها أزواجهن ، إذ يجدن فيها منافساً قوياً فيعملن دائماً على إخفائها أو إبعادها عن أنظارهم — قال « كوبلر كوتش » من قصيدة بعنوان (Cornish Window) :

« ولم لا تثور الزوجة على الرجل ، وقد انصرف عن الجمال الحى ، ليعبد الجمال الميت فى تلك الأذرع الجامدة ؟ ولم يترك هذه الابتسامات الحلوة الرقيقة ، ويذهب إلى قراءة هذه الأوصاف فى تلك الأوراق الذابلة » .

وكثيراً ما تؤدى هذه الغيرة القوية إلى تكدير صفو الحياة المنزلية عند ما ترى الزوجة أن الكتب قد طغت على حقوقها وعواطفها . وقلما تمر تلك العاصفة بسلام ، كما حدث لذلك الأستاذ الذى نسى نفسه بين الكتب ، فدخلت عليه زوجه وقالت ساخرة : « أود يا عزيزى لو أنى أصبحت كتاباً » . فأجابها زوجها : « لماذا ؟ » فقالت له : « لكى تبقى معى » . فأدرك الزوج غرضها ، وقال لها مازحاً : « لا مانع عندى إذا أصبحت تقويماً » . فسألته : « ولماذا اخترت لى هذا ؟ » . فأجابها : « لأنه يتجدد كل عام . »

م . ع

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٤ — الثلاثاء ١ من صفر سنة ١٣٦١ — ١٧ من فبراير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــــــــدد

على هامش الحوادث :

٢ - الحيـــاة الأمريكية

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

الحياة الاجتماعية :

لاشك في أن الزائر المدن الكبرى الأمريكية يحس فيها حياة غير التي يعهدها في عالمه القديم ؛ فهو ينظر إليها وكأنه أمام آلة هائلة تدور دواليبها بأقصى سرعة ؛ فكل شيء هنا في حركة معجلة ، حتى في المطاعم وفي الملاهي ، وفي ساعات الراحة وأيام الفراغ ، ولهذه الحركة المعجلة معقباتها . فتراهم لا يحسنون ما يحسنه أبناء الحضارات الأخرى من التطلع إلى ما حولهم في غير مصلحة غير لذة التطلع ، والإلمام من شتى المعارف وألوان الثقافات بطرف ، والحديث في كل غرض ، والاسترسال في الأحلام ، والتوغل في متاهات النفس ، وتشدان لطائف الحس .

فالأمريكان قوم عمليون في أخلاقهم ، كما أنهم في عملهم يؤثرون التخصص ويلتزمونه ، وهم أقرب إلى أهل الفطرة البدائيين في بساطتهم واحتفاظهم بروح الشباب .

والأمريكي مخشوشن بطبعه وإن تقلب في أحضان النعمة . وحسبك حفلات اللاكمة ، فما زالت عندهم مثار الاهتمام الحق والحماسة الجنونية . وهم يكرهون كل مايشتم منه التأنث من بعيد أو قريب . فليس لهم أرب في التظرف

والترفق ، ولا صبر لهم على فرط التلطف والتأدب . وإذا نحن صدقنا الشاعر الناثر المبدع هنري هيني في أنه مع طول مقامه في فرنسا لم ينقض عجبه من أدب الباريزيين ، حتى زعم في بعض كتاباته أنه كان يتعمد أن يطأ القوم في الزحمة قدمه ، ليمتع عينيه بشهود ما يعروهم من ارتباك جميل وخجل لطيف ، وليطرب أذنيه بسماع اعتذاراتهم الحلوة المؤثرة — نقول إذا صدقنا هيني في شهادته للباريزيين ، وهيني مع كل إبداعه في الفكاهة لا يفتأ أبداً من الجادين الصادقين ، فليس يسعنا إلا أن نحمد الله له أن كفاه زحام الأمريكيين . فالقوم هنا في شغل عن هذا الارتباك المستظرف ، وتلك الاعتذارات التي تذوب لطافة ورقة . هنا الوقت من ذهب .

والأمريكي لا يعبأ بالساخرين . وإذا كانت السخرية سلاحاً في العالم القديم ، فإنها لم تقتل واحداً من الأمريكيين . ومن ثمة عرفت أمريكا بكل طريف جديد ، إذ ليس من عقبة فيها تعترض المجددين .

والشعور بما هو عظيم أقوى عند الأمريكي من الشعور بما هو جميل ؛ وهذا ظاهر في كل شيء : ظهوره في بناياتهم الشاهقة وفي قناطرهم الممدودة الهائلة ، وسائر مشروعاتهم الضخمة . وإذا أنت أردت أن تقع في نفس الأمريكي موقعاً جليلا ، فعليك أن تكون صاحب البداءة في أمر من الأمور ، وليكن هذا الأمر أيا كان ، فالمهم هو السبق والتميز على النظراء . فتراهم يقيمون المباريات التي لا آخر لها : هذه لاختيار أجمل النساء ، وتلك للتنويه بأطول الرجال أو بأضخمهم ، وهلم جرا . فالتميز هنا على كل حال ضمين بالتفات الجمهور ، ولا شيء عند الأمريكي يعدل التفات الجمهور . وقد يكون أو لا يكون للأمر شأن بالتجارة ، إلا أن هذه هي عقلية الأمريكان من حيث هم أصحاب أعمال . ومن فضول القول أن نذكر أن الأمريكان أبرع وأعجب أهل الأرض قاطبة في ابتكار الوسائل لجلب الأنظار ، وأنه ليس مثلهم شعب في الايمان بقوة الاعلان وإنفاق الأموال الطائلة عليه .

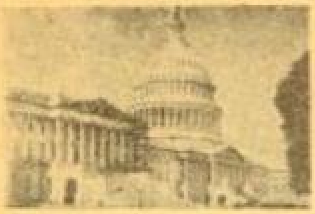
ومعلوم أن المدن الأمريكية مترامية الأطراف متباعدة الأقطار ، وأن أحياء السكنى فيها نائية عن أحياء العمل . وقد استتبع هذا ما لا بد أن يستتبعه ، وهو تعذر عودة العاملين إلى دورهم لتناول الطعام ، بالنظر لضيق الوقت واضطرارهم إلى الأكل في المطاعم أو الأندية ، أي أنهم يتركون أهل بيتهم في الصباح الباكر ولا يأوون إليهم إلا في المساء . وإذا كان الزوج لا يأكل على مائدته ، فليس ما يربط الزوجة إلى هذه المائدة مفردة مستوحدة ، ولا سيما إذا خرجت تقضي بعض الحاجات من المتاجر ، فهي أيضاً تؤثر الأكل في أحد الفنادق حيث تجد الكثير من صديقاتها كذلك . فالأسرة كما رأينا لا تلتقي إلا في المساء ، وهي تلتقي للذهاب إلى الصور المتحركة أو للسماع إلى المذياع . وإذا كان اليوم يوم فراغ فهو مخصص للرحلات المرموقة عندهم بآخر الأسبوع . على أنه ليس من شك في وجود الشعور العائلي في الأسرة ، ولكن الشك كل الشك في وجود الالتئام الفكري ، وذلك لما رأينا من عدم اتساع وقت الخلوة في البيت لتبادل التفكير وتجاذب أطراف الحديث . ولا يجب أن يغيب عن بالنا أيضاً أن ارتفاع أجور الخدم جعل الأمريكان يعمدون إلى الاستغناء قدر المستطاع عن حياة البيت بقضاء أوقاتهم خارجه ، ثم بالاعتماد على الطعام المحفوظ في العلب كلما اقتضى الحال ، وهو متنوع لا حد لتنويعه .

ولقد جرت هذه الأحوال بالاضافة إلى غيرها من غلاء المعيشة ، وتعود الاستمتاع بأسباب الرفاهة والمتعة والاستقلال ، مع كثرة التقلبات المالية وعدم الاستقرار ، فضلا عن علو ثقافة المرأة واشتراكها في الحياة العملية —

نقول إن هذه الأحوال وتلك كان مؤداها لا محالة الزهد في النسل وقلة المواليد . ولم يفت الرسامين الهزليين أن يساهموا في انتقاد ما وصلت إليه الأسرة ، فترى لهم صوراً بالريشة أو القلم الرصاص تمثل سيدا وسيدة وكلبا صغيرا وقد جعلوا تحتها هذا العنوان « عائلة أمريكية » .

ولا شك في أن وجود الطفل في الأسرة من العوامل المؤثرة في توثيق رباط الزوجية ، وأن الطلاق بين من لا ولد لهم أكثر منه عند ذوى العيال والولد . بيد أن وهن هذا الرباط مرجعه أحيانا إلى طريقة إبرامه . فالذى كان عليه أهل العالم القديم من استبداد الوالدين باختيار الزوجة لابنهما انقلب إلى النقيض في العالم الجديد ، فأصبح الأمر كله رهنا بما يبدو للفتيان والفتيات لما هم عليه من التربية الاستقلالية . فيتفق أن يجد الفتى للفتاة حلوة في عينه ، وأن تستلطف الفتاة مجلساً للفتى ، فإذا هما يحسبان الحب المتين الأسباب الوثيق العرى ، فإذا تزوجا لم يلبث الوهم عاجلاً أو آجلا أن يزول — وليته لا يزول ! — وعندئذ تفسد العشرة ويتم الفراق ويقع الطلاق . ولا يخفى أن تملُّل المرأة وشعورها بالمساواة للرجل وعدم اعتمادها عليه في المعاش ، كلها أمور من شأنها مجتمعة أن تجعل الطلاق غير مرهوب عند الزوجين .

بيد أنه من الانصاف أن نقول إن هذه ليست بالحالة الاجتماعية في أمريكا وحدها ، بل هي عامة تتفاوت خفةً وحدةً على حسب المقتضيات المحلية والضرورات الاقتصادية . وإذا طاب الانتقاد للنقاد الاخلاقيين فليذكروا أن ما ينقدون بعيونه ليس عيوب الامريكيين ، بل عيوب الحضارة الحديثة التى نحن جميعا إليها سائرون شئنا أو لم نشأ ؛ ولا غرو إن كانت العيوب أظهر في البلاد الأمريكية ، فان البلاد الأمريكية في طليعة الحضارة الحديثة والوقية على أمدها وصاحبة السبق فيها .



بناء الكابيتول مقر الكونجرس في وشنطن

ثم إن هذا الفتور في حياة البيت تقابله قوة الحياة في النوادى والجمعيات . فليس من أمريكى أو أمريكية إلا وهو عضو في واحد منها على الأقل . والعجيب أنه لا تكاد توجد بلاد يختلط فيها الجنسان في المدارس والجامعات ومكاتب الأعمال وسائر مرافق الحياة اختلاطهما في أمريكا ؛ ومع هذا فانهما خارج الدراسة والعمل يفترقان من تلقاء أنفسهما ، كما ينفصل في الاناء الواحد سائلان مختلفا الكثافة ساعة تكف من رجته وتترك ما فيه لشأنه . فليس في القطارات مثلا جناح للسيدات وآخر للسادة ، ولكنك تعجب إذ ترى الرجال متنحين ناحيةً والنساء ناحية أخرى ، وكل فريق سعيد في وسطه ، منطوٍ على نفسه ، متآلف فيما بينه . كذلك الحال في النوادى . فلكل من النساء والرجال منتديات خاصة به ، وهى ضروب وألوان : فمنها السياسية والأخلاقية والدينية والرياضية ؛ وثمة أيضا جمعيات لا تحصى لكل غرض ولغير غرض ، ولبعضها حفلات عجيبة ومراسم غريبة . ولا شك في أن أجلّ ما تعنى به هذه الجماعات من الرجال أو من النساء خاصة هى الخدمة الاجتماعية ، فهى تعمل جميعا ، كل واحدة على طريقتها ووسائلها لتخفيف الفاقة ، ومكافحة الجهل والرذيلة ، وتزويد الفرد بما يلزم للحياة من جهاز وعدة ، والملاءمة بينه وبين المجتمع ، وبالجملة جعله أفضل مما هو وأسعد .

الجامعات والحياة الجامعية :

والجامعات في أمريكا لا يراد بها مجرد الدراسات

العليا وإقرارها ومنح الدرجات أو الاجازات العلمية على أثر ما يعقد لها من امتحانات أو مسابقات ، كما يجرى عليه الحال فى فرنسا مثلا ، حيث الجامعة لا تعدو أنها دروس ومحاضرات ومعامل ومكتبات . بل الجامعات الامريكية تجرى على غرار الجامعتين الانجلوسكسونيتين اكسفورد وكامبردج ، فى العناية بإيجاد حياة جامعية مشتركة تترك طابعها على ذهن الطلاب وخلقهم وشعورهم . وهذه التربية الجامعية هى الغرض الأول قبل الدرجات والشهادات. والجامعات هنا كنظائرها فى الدولة البريطانية ، هيئات مستقلة لها عميدها ، وهو الرئيس المتصرف ، ولها مجلس الأمناء ، أو بعبارة أخرى مجلس الادارة ، ثم لها روحها كما يقولون ، فيقال : « روح جامعة هرفرد ، وروح جامعة يل » الخ ؛ وهذه الروح يتناقلها الطلاب جيلا عن جيل ، ويلتف حول كل جامعة تلاميذها الأقدمون الأوفياء ، وأنصارها المحبون الخلصاء ، وولاتها الأغنياء الكرماء .

وحسبنا فى بيان أثر هذه الحياة الجامعية وكفايتها وغنائها بنفسها ، أن الطلاب هنا يجتمع حولهم ويهيأ لهم كل ما يحتاجون لمعرفته ، وكل ما تفيدهم مزاولته . فهنا متسع لكل شىء : الصحة والعمل واللعب . فعندهم خزائن الكتب للاطلاع والتحرى ، والمعامل للتحقيق والتجريب ، وعندهم الملاعب لرياضة عضلاتهم ، والحوض للسباحة ، والبحيرة للتجديف ، وثمة حفل المناظرة ، ومسرح التمثيل ، وصحيفة التحرير ، ومنتدى يجتمع فيه الطلاب ويتآلفون ؛ وعلى هذا الوجه تكمل التربية عقلا وجسما وخلقاً . والتربية المشتركة أفضل ضروب التربية ، لأنها تكون الفرد تكويناً اجتماعياً ، وتكفل للبلاد مجتمعاً متجانساً متضامنا .

خاتمة :

وبعد فلا يصح أن نختم هذا الوصف للحياة الأمريكية دون أن نحاول المقابلة بين موقف الأمريكان من الحياة وموقفنا نحن الشرقيين ، أو بعبارة أصح الموقف المأثور من الشرقيين . فالحياة قاسية ولا ريب على الانسان ، تسلط عليه الأسقام والوحوش والهوام والمجاعات والأوبئة والطواعين والزلازل والبراكين . فلا يجد الشرقى القديم حيال هذه الحياة الدنيا العظيمة الشر القصيرة الأجل إلا أن يرجع إلى نفسه يحيا فيها . بينما يعمد الأمريكى الناشئ الجديد إلى استصلاح الحياة الدنيا وطلب السعادة على الأرض .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأننا باعدنا كل البعد ما بين الطرفين بغرض التوضيح والتمثيل . فان الطرفين يتقاربان كل يوم ، والخير كل الخير أن يلتقيا فى منتصف الطريق .

عبد الرحمن صدقى

خـــــداع النفس

للأستاذ أحمد أمين بك

هل علمت أن العين تخدع فتريك الشمس فى حجم الرغيف ، والقمر فى مقدار الكرة ، والنجم كجذوة نار ، وتريك المتساويين غير متساويين ، وغير المتساويين متساويين ، وهكذا الشأن فى الحواس كلها ، يخيل إليك أنك تسمع ما ليس له وجود ، ولا تسمع ما له وجود ، وتغمس إحدى يديك فى ماء بارد والأخرى فى ماء حار ، ثم تغمسهما فى ماء دافئ ، فتريك الأولى أن الماء حار ، وتريك الأخرى أنه بارد ، وهكذا من أمثلة لا تعد ولا تحصى ؟

وهل علمت أن الناس يخدعون الناس ، فيحتال محتال ويهرّج مهرج ، ويظهر الرجل بمظهر السياسى الكبير ، وليس فى حقيقته سياسياً ولا كبيراً ، ويظهر الآخر بمظهر العالم المحقق ، وليس عالماً ولا محققاً ، وتمر أمام أعيننا مناظر من الخداع لا عد لها ، تشبه منظر الحاوى فى لعبه ، والممثل فى روايته : غنى يتصعلك ، وفقير يتغنى ، وعيى يتفاصح ، وماجن يتوقر ، وفاسق يتصالح ؟

ليس هذا ولا ذاك شيئاً بجانب خداع النفس للنفس ، وكذب النفس على النفس .

هذا كل إنسان تقريباً يستصحب نفسه منذ صباه وشبابه ، فلا يقر بشيخوخته وهرمه ، فيرى نفسه شاباً مهما تجعدت أسارير وجهه ، ومهما دب الضعف فى جسمه .

وهذه المرأة — دائماً — تخدع نفسها بالجمال وبالصغر ، مهما حسبت عمرها ، ومهما رأت كبر أبنائها وبناتها ، ومهما نظرت فى مرآتها ؛ فترى آية القبح آية جمال ، وتقرأ علامات الكبر علامات الصغر ، وتغالط نفسها فى عمرها ، لا خداعاً للناس فحسب ، بل خداعاً لنفسها أيضاً ، حتى لتؤمن بما كذبت ، وتصدق بما ادعت ، وتجعلها حقيقةً ما توهمت .

وهؤلاء المؤلفون والمصورون والموسيقيون والأدباء والشعراء ، يرون أجمل ما فى الوجود ما ألفوا ، وخاصة آخر ما أبدعوا . والفنانون بما منحوا من خيال واسع وتصور عريض يستعملون خيالهم فى نتاجهم ، فيتخيلون أنه بعيد المنال ، قد بلغ حد الكمال ، إن نقص أسلوبه فهو بديع المعانى ، وإن أعوزته الحقيقة فهو بديع الخيال ، وعلى كل حال فهو وليد النبوغ ، تتجلى فيه العبقرية وتمتاز بالسمو ، إن عابه الناس فالعيب فى ذوقهم ، وإن انتقدوه فالفساد فى ميزانهم ، يأكل قلوبهم الحقد ، وتفسد حكمهم الغيرة .

سبحان الله ! حتى مشترى السلعة — ومثلها عند البائع كثير — لا خير مما اشترى ولا أجود مما اقتنى : سجائره أحسن السجائر ولو رخصت ، وثيابه خير الثياب ولو عيبت ، والتاجر إنما اصطفاه بها لأنه صديقه ، وأكرمه فى ثمنها لأنه يحرص عليه ؛ وفستانها خير الفساتين لأنه اختير بذوقها ، وخيط بإرشادها ؛ إن عيب الشيء بنسجه اطمأن الشارى لحسن منظره ورخص سعره ، وإن عيب بمنظره اعتذر بحسن نسجه وقوة متانته ، كالمرأة لم يعجب منظرها فتمزت بخفة دمها ، وطعن فى خفة دمها فاحتكمت إلى منظرها .

ما أظلم النفس تنقد الصغير فى غيرها ولا تنقد الكبير فى نفسها ، وتزن بميزانين ، فتبالغ فى تحرى العيوب إذا وزنت لغيرها ، وتبالغ فى تحرى المحاسن إذا نظرت إلى ذاتها : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا

على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون».

* * *

في السنين الأولى من حياة الطفل — وخاصة الثالثة والرابعة — يبدأ يشعر بذاته، وتبتدئ في الظهور شخصيته، ويأخذ رويداً رويداً يحدد موقفه من العالم، وتظهر عليه الأعراض الأولى منبئة بما سيصير إليه شأنه مع الدنيا من تشاؤم وتفاؤل، وأمن أو خوف، وأنس أو وحشة؛ وأهم من ذلك التفاته إلى نفسه وشعوره بها، وإعظامه لها، واهتمامه بشأنها؛ وهذه النظرات الأولى لنفسه ولعالمه تكاد تلازمه طول حياته، وتحدد نوع أخلاقه مع ما يدخل عليها من تعديل بعوامل التأثير.

بهذه النفس المتكونة تحت ظروف خاصة من وراثة وبيئة ينظر الانسان إلى العالم، فليس ينظره كما هو، بل ينظره من خلال نفسه، كمن يضع على عينيه منظاراً أسود أو أصفر أو أزرق، فهو ينظر الدنيا من خلاله بلونه. فكل يرى الدنيا بلون نفسه، ويفسر الأحداث تبعاً لمنظاره، ويقوّم الأشياء بميزان شخصيته، وينظر إلى الأعيان لا حسبما هي في الخارج، ولكن حسبما لونها نفسه، كالثوب تغمسه في لون من الصبغ فيظهر بلون ما صبغته، وكزجاجة المصباح تظهر نوره أحمر أو أزرق، حسب لونها لا حسب لونه. والفيلسوف والأبله تقع عيناهما على شيء واحد، فيرى الفيلسوف فيه معاني جمة، ولا يرى فيه الأبله شيئاً، وليس عيبه في عينه ولكن في نفسه. والعالم وكليه ينظران إلى صفحة في كتاب، هذا ينظر فيفهم، وهذا ينظر ولا يفهم.

من أجل هذا اختلف الناس في حكمهم على الأشياء، وفي تذوقهم لها، وفي سلوكهم نحوها، ومن أجل هذا آمن المؤمن وكفر الكافر، ومن أجل هذا نبل النبيل وسخف السخيف، وصلح الصالح، وفسد الفاسد.

فالمنظور واحد ولكن الناظر متعدد، والحق واحد والآراء مختلفة.

قد يبالغ الانسان في تقويم نفسه — وهو الأغلب — فيمنحها من الأهمية في العالم ما ليس لها في الحقيقة، ويرى كأن الدنيا لا تنتظم إلا به، ولا تسير إلا بنفسه، وأنه — في حقيقة أمره — ليس إلا ملكا متخفياً. ويبالغ الصوفي في احتقار نفسه، فهي ليست شيئاً، ولا قيمة لها في حياتها أو مماتها — ثم ينظر كل من هذا وذاك إلى العالم على أساس هذا الاعتقاد، ويختلفان اختلافاً تاماً في تقويم الأشياء، وقلّ من يعرف نفسه على حقيقتها، ويقومها حق قيمتها.

ثم خداع النفس هذا قد يكون عاما، وقد يكون خاصاً كالجنون، بعضه كليّ وبعضه فرعي؛ فيحدثنا الأطباء أن من المجانين من هو مجنون في كل شيء، ومنهم من هو مجنون في شيء خاص، فهو عاقل في كل شيء، ولكنه يعتقد أن له إصبعاً من زجاج، أو هو إنسان مألوف في كل شيء إلا في عقيدته أنه ملك سلب ملكه ونحو ذلك؛ وهذا هو الشأن في النفوس، قد تخدع النفس نفسها في كل شيء، في العلم والمال والخلق؛ وقد تكون عاقلة حكيمة، إلا فيما يتصل بعظمتها، فهي لم تتبوأ مركزها في الوجود، ولم يقدر الناس ما لها من قيمة. وقد يكون خداع النفس منصباً على الشؤون المالية وحدها، فهو حريص كل الحرص، يخدع نفسه بالخوف من الفقر، والخوف من الاغتصاب؛ وهكذا الخداع فنون، كما أن الجنون فنون، وكل الناس خادع لنفسه، ومخدوع بنفسه، إلا من رحم ربك. وقليل ما هم.

أحمد أمين

موسى بن نصير

تتمة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وفي شهر رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي حاكم طنجة؛ وقد اختلف في أصل فاتح الأندلس ونسبته. فقيل هو فارس من همذان، وإنه كان مولى لموسى بن نصير؛ وقيل إنه ينتمي إلى بطن من بطون البربر وهو الأرجح (١). وكان طارق جندياً عظيما ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته، وقدر موسى خلاله ومواهبه، فاختاره لحكم طنجة وماحولها، وهي يومئذ أخطر مناطق المغرب وأشدها اضطراما؛ ثم اختاره لفتح الأندلس. وعبر طارق البحر بجيشه في سفن يوليان، ونزل بالبقعة التي ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم، أعني جبل طارق، وذلك في يوم الاثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ. (٢٧ أبريل سنة ٧١١ م) واخترق الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان، ثم زحف على ولاية الجزيرة واحتل قلاعها بعد أن هزم جموعا من القوط تصدت لوقفه. وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم؛ وكان رودريك أو لذريق يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج في الولايات الشمالية، فهرول إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر الذي يهدد عرشه وأمته، وبعث قائده أديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته، ولكن طارقا هزمه، وتابع سيره صوب عاصمة القوط.

وكان رودريك أميراً شجاعا وافر العزم. ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والخصومات، وكان حزب العرش القديم الذي يلتف حول أبناء الملك السابق ويتزا (غيطشة) يتربص به ويعمل على إسقاطه، وكانت ريح الخلاف والتفرق تعصف بالشعب القوطي كله؛ ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد، واستطاع رودريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم، واجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف. وسار رودريك نحو الجنوب للقاء المسلمين؛ وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة، فكتب إلى موسى يستنجد به، فأمده بخمسة آلاف مقاتل؛ فبلغ المسلمون اثني عشر ألفاً، وانضم إليهم يوليان في قوة من صحبه وأتباعه.

كان القوط أضعاف المسلمين، وكان المسلمون يقاتلون في أرض العدو في هضاب ووهاد صعبة، ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم، فكان اللقاء بين الجيشين في سهل شريش على مقربة من قادس شمالي مدينة شذونة أو شدونة (مدينا سيدونيا) على ضفاف نهر وادي لكة (الجواداليت) وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليه سنة ٧١١ م). وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة لم تقع فيها بينهما سوى معارك بسيطة. وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة، واستمر القتال بينهما على أشده مدى أربعة أيام؛ وكان الجيش القوطي بالرغم من ضخامته مفككاً العرى منحل العزائم؛ وكانت الخيانة تعصف بصفوفه وقيادته؛ فلم يأت اليوم الرابع حتى كتب النصر للمسلمين، وهزم القوط شر هزيمة ومزقوا شر ممزق، وغرق ملكهم رودريك في النهر.

(١) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) ونزهة المشتاق للشريف الإدريسي (طبع رومه ص ١٧٩).

كانت شذونة موقعة الفصل ، وفيها دالت دولة القوط ، وغنم الاسلام ملك اسبانيا ، وساد الرعب على القوط ، فاعتصموا بالحصون والجبال ، وتفرقوا فى السهول ؛ وذاعت أنباء النصر فى أنحاء العدوة ، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر ، وزحف طارق بجيشه شمالا صوب طليطلة عاصمة المملكة القوطية ، وسارت حملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة والبيرة ومالقة ومرسيه ، فافتتحت كلها تباعا ؛ وبعد أن استولى طارق على طليطلة تابع زحفه شمالا ، واخترق قشتالة وليون حتى استرقه ، ثم عبر جبال اشتوريش[1] ، واستمر فى سيره حتى أشرف على شواطىء بسكونيه[2] . ثم عاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى أسبانيا .

– ٢ –

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح . فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومولاه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحول إعجابه إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، فكتب إليه ألا يتقدم حتى يلحق به ، وتوعده بالعقاب إذا توغل بغير إذنه . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق وحنقه به بأن طارقا خالف الاوامر

(١) Asturias .

(٢) Biscaya .

(٣) هذه هى رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) ، وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) ، وابن القوطية (ص ٩) ، وابن الأثير (٤ ص ٢١٥) ، وابن خلدون (٤ ص ١١٧) ، وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفح الطيب ١ ص ١٢٦) ، وبغية الملتمس للضبى (ص ١١) ، والحميدى فى جذوة المقتبس (أورده ابن خلكان ٢ ص ١٨١) .

الصادرة إليه بألا يتجاوز قرطبة ، أو حيث تقع هزيمة القوط[1] . وهذا تعليل حسن يتفق مع ما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة ؛ على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أيضا أثرها فى نفس موسى وفى تصرفه ؛ وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى أسبانيا فى عشرة آلاف من العرب ، وثمانية آلاف من البربر ، فى سفن صنعها خصيصا لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢م) وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة . ثم سار إلى قرمونة ، وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه ؛ وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس فافتتحها بعد أن حاصرها شهرا . ثم سار إلى ماردة ، وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين ؛ ولكنها انتهت بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال القتلى والكنائس غنيمة المسلمين ، دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة ، فالتقى بطارق على مقربة منها ، وكان قد سار إلى استقباله ، فأنبه موسى وبالغ فى إهانته ، وزجه مصفدا فى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل بل هم بقتله أيضا ، ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه[2] ووضع الاثنان خطة مشتركة لافتتاح ما بقى من أسبانيا ؛ ثم

(١) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

(٢) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨ و ٢١٠) ، وابن الأثير (٤ ص ٢١٥) ، والمقرى (١ ص ١٢٧) ، وابن خلكان من الحميدى (٢ ص ١٨١) . وذكر الطبرى أن طارقا ترضى موسى فرضى عنه وقبل عذره (القسم الثانى ص ١٢٥٤ فى حوادث سنة ٩٣) .

زحفا نحو الشمال الشرقي ، واخترقا أراضي الثغر الأعلى (أراجون) ، وافتتحا سرقسطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق غرباً ليغزو جليقية وليتم القضاء على فلول القوط ؛ وسار موسى شمالا ، فاخترق جبال البرنيه[1] ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا ، وكانت عندئذ تابعة لملوك القوط ، واستولى على قرقشونة وأربونة[2] . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج ، وغزا وادي الرون[3] حتى مدينة ليون فاضطرب أمراء الفرنج ، وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة ؛ ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونة .

وهنا فكر القائد الجريء في أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازيا ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون فيما يأتي : « وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ويتجاوز الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة[4] » . ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم ؛ فقد كان الاسلام يومئذ في ذروة الفتوة والبأس . وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت ، وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها انحلال شامل ؛ وكانت مملكة الفرنج وهي أضخمها وأقواها تمزقها الخلاف والتفرق ، وقد بدأ العرب فعلا بغزوها ؛ ولم يتح للنصرانية بعد أن توحد جهودها لرد الاسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها في جبهة دفاعية موحدة ؛ ولم تكن أوربا في ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة تمزقها المطامع والأهواء المختلفة ، فكان الاسلام الظافر يستطيع غزوها وفتحها ؛ ولم يكن حلما وإغراقا ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه ؛ ولكن سياسة التردد والاحجام التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية والتي كادت تحول دون فتح أسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ؛ وبعث الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ، ويأمره بالعود . فارتد موسى مرغما آسفا ، ولكنه تمهل في العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط ؛ فاخترق جليقية واستولى على معظم قلاعها ومعاقلها ، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة التفت حول زعيم يدعى بلاجيوس او بلايو ، ولجأت إلى ناصية جليقية . وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها اذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقا ويأمرهما بتعجيل العود ؛ ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما بلغه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها[1] ؛ أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه في الاستقلال بذلك الملك الجديد النائي ؛ وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال التي جمعت من الأندلس وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد . ومهما كانت البواعث التي

(١) في الجغرافية العربية جبال البرت أو البرتات .

(٢) قرقشونة Carcasson . وأربونة Arbonne .

(٣) يسمى الرون في الجغرافية العربية بنهر ردونه . وتسمى ليون لوطون أو لوذون .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

(١) أورد الغزيري اللبناني Casiri في معجمه نبذة من اوراق عثر عليها في الاسكوريال ، ويظن أنها من تاريخ الرازي ، وفيها ما يدل على أن خلاف موسى وطارق هو السبب في التعجيل باستدعائهما (راجع Casiri — Bibliotheca Arabico — Hispana Escurialensis V. II P. 333) .

دفعت الوليد إلى استدعاء فاتح الأندلس فلا ريب أنه كان خطرا على مستقبل الاسلام فى أسبانيا . ذلك أن هـذه الجموع الضئيلة من القوط التى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقيـة لم تلبث أن نمت وقويت ، وكانت منشأ للملكة النصرانيـة التى قامت فى الشمال ولبثت قرونا تكافح دولة الاسلام فى أسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفى ذلك الحين كان عبـد العزيز بن موسى قد افتتح المنطقة الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة فى إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيرا من الرفق والاعتدال والتسـامح .

واتخذ موسى أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة ، فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ، وجعل حاضرتها اشبيلية لاتصالها بالبحر ، وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبد العزيز ؛ واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، وعلى افريقية ولده الأكبر عبد الله . وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (اغسطس سنة ٧١٥م) قفل راجعا إلى المشرق وطارق معه وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ومن أشراف السبى عدد عظيم[١] .

— ٣ —

وتختلف الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير وفى أمر لقائه بالخليفة . فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك وقدم إليه الأخماس والغنائم ، فأكرمه وأحسن إجازته ؛ وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء أخيه سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة ، وإن سليمان غضب عليه ونكبه[١] . على أنه يمكن الجمع بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد ثم نكبته على يد سليمان ، وهنالك ما يرجح لدينا أن موسى لحق الوليد قبيل وفاته ؛ فان ابن عبـد الحكم ، وهو أقدم رواة فتوح الأندلس ، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين فى طريقه إلى دمشق[٢] . وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة من هذا العام ، أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف شهر . ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز فى هـذا العصر بضعة أسابيع ، فانه كان ثمة من الوقت ما يكفى لقدم موسى على الوليد قبل وفاته . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ، ونكبه . وذلك أن موسى وصل إلى الشام ، والوليد فى مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولى العهد يومئذ أن يتمهل فى السير حتى يموت الوليد ، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من جليل التحف والغنائم ، فأبى موسى وجد فى السير حتى قدم والوليد حى ، فسلم إليه الأخماس والغنائم ؛ ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفا سليمان على كرسى الخلافة ، فغضب سليمان على موسى ، وزاد فى سخطه عليه ما قدمه فى حقه طارق ومغيث فاتح

(١) تفيض الرواية الاسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة ، وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر . وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفا ، بينهم مئات من أشراف القوط ومن أجمل شبابهم ذكوراً وإناثاً (راجع ابن القوطية ص ١٠ . والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٦) .

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) وصاحب كتاب الامامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) وابن خلكان (٢ ص ١٨١) ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (٤ ص ٢١٤) وابن خلدون (٤ ص ١١٨) .

(٢) فتوح مصر ص ٢١١ .

قرطبة من مختلف التهم[1] . وفى الحال أمر بعزله ، واتهمه وبنيه باختلاس أموال عظيمة ، وقضى عليه بردها ، وبالغ فى إهانتــه وتعذيبه ، ثم ألقــاه إلى ظلام الســجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ لديه ، فألح يزيد على سليمان حتى عفا عنــه ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ولم يعفه من الغرامة ، وأن موسى استطاع أن يفتدى نفســه ببعض ما فرض عليه[2] . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصرّ على معاقبة موسى وتغريمه ، حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وأنه لبث على تلك الحــال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز حيث مسقط مولده ، وذلك فى سنة سبع وتسعين . بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة ؛ والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى وأقاله من محنته ، وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة سبع وتسعين ، وقيل فى سنة تسع وتسعين وهو فى نحو الثمانين من عمره[3] .

هذا ما تردده الرواية الاسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر فان فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ؛ وأبدت الخلافة بهذا التصرف أنها لم تقدّر فى هذا الوطن البطولة قدرها ؛ ولم تقدّر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها .

(1) راجع أخبار مجموعة ص ٩٦ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ . ومغيث هو مولى الوليد بن عبد الملك ويعرف بمغيث الرومى . وقد اشترك فى فتح الأندلس وفتح قرطبة وغيرها .

(2) ابن عبد الحكم فى فتوح مصر ص ٢١٣ والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٠ .

(3) يراجع فى مصير موسى بن نصير فتوح مصر (ص ٢١١) وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) وابن القوطية (ص ١٠ — ١١) وابن الأثير (٤ ص ٢١٦) ونفح الطيب (ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥) وابن خلكان (٢ ص ١٨١) والامامة والسياسة (٢ ص ٨٦ و ٨٩ و ٩٣ و ٩٦) .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والادارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة ؛ وقد ظهرت براعتــه الادارية فى جميع المناصب التى تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها . على أن هــذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لافريقية حيث كانت الحكومة الاسلامية تواجه شعباً شديد المراس يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة . وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى فى الوقت نفســه خبرة فائقة بنفسية الشعوب وبراعة فى سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الادارية والعسكرية غزير العلم والأدب متمكناً من الحديث والفقه عالماً بالفلك مجيداً للنثر والنظام . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش وشهوة الحقد والحسد[1] .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الاسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيهــا بعد أن أخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية ؛ ومع أن سيل الفتح الاسلامى ردّ غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء ، فان الاسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى أسبانيا قروناً يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى .

(النقل ممنوع) **محمد عبد الله عنان**

(1) نفح الطيب (١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

حكم فى الجنحة المستأنفة رقم ٩٦٨٠ سنة ١٩٤٠ ضد أحمد أمين حسن بقال بدرب البرازين بتغريمه ١٠٠ قرش ونشر الحكم بمجلة الرسالة والثقافة لبيعه ملحاً بأزيد من التسعيرة .

١ ـ الفلســـفة

بين التشاؤم والتفاؤل

ليس التشاؤم والتفاؤل من صفات الفلاسفة وحدهم ، فان الفلسفة ليست إلا صورة واحدة من صور أخرى كثيرة يبرزُ فيها الانسان موقفه من الوجود الذي يؤلف هو جزءاً منه ، ومظهراً واحداً من مظاهر متعددة يعبر بها الانسان عن فكرة من أشد الفِكَر تأصلا في نفسه . فان الانسان إذا تملكته فكرة من الفِكَر فأخذ يؤيدها بالبراهين والحجج ، واستدل لأساليب الاستدلال وتقديم المقدمات ، واستنتاج النتائج ، جاءت هذه الفكرة فلسفة . وإذا غلب عليه الوجدان والعاطفة اتصلات بهذه الفكرة فاضت شعراً أو موسيقى أو صورة أخرى من صور الفن . فجوهر الفكرة واحد ومظاهرها مختلفة .

كذلك نرى التشاؤم والتفاؤل في شعر الشعراء ، وألحان الموسيقيين ، ومنتجات أصحاب الفن ، في صور لا تقل روعة ووضوحا وتأثيرا عن أية نظرية فلسفية قال بها فيلسوف متشائم أو متفائل .

بل التشاؤم والتفاؤل عامَّان في الناس جميعاً ؛ إذ ما من الناس إلا من هو متشائم أو متفائل ، وإن لم يضع في وجهة نظره مذهباً أو قصيدة أو لحناً . هما دينٌ أو جزء من دين يعتنقه كل فرد من أفراد البشر ، ويشكل حياته بمقتضاه ، إذ هما تقديران للحياة ، أو هما — إن شئت — معنيان للحياة . والانسان عاجز عن أن يمضي في حياته على غير قاعدة ، ويأتي ما يأتي به من الأعمال إزاء نفسه وغيره وإزاء الله على غير أساس ، فهما ذلك الأساس الذي يبني عليه الفرد صرح أعماله ، والأصل الذي تصدر عنه فلسفته وفنه ، وبه يتشكل إلى حد كبير خلقه ودينه ومعاملته . وكما أنه مهما بلغ به الالحاد لا بد متخذ لنفسه إلهاً ما يُرضى به نزعة ملحة في طبيعته ؛ كذلك لا بد له من أن يتخذ لنفسه موقفاً من العالم يرضي به نفس تلك النزعة الملحة ، ويزن به قيم الأشياء وقيمة نفسه ، ويسوغ بمقتضاه سلوكه .

فكل إنسان بهذا المعنى فيلسوف متشائم أو متفائل ، إذا فهمنا الفلسفة على أنها وجهة نظر مطردة في الحياة أو الوجود . وربما كان هذا هو المعنى الذي أشار إليه « هيجل » عند ما قال : « إن كل إنسان فيلسوف بفطرته . وإن الحيوان وحده هو الذي لا يتفلسف » . وذلك لأن الحيوان ليست له وجهة نظر معينة في الحياة .

وتحمل اللغة شواهد لا حصر لها مما يشعر به الانسان من تفاؤل أو تشاؤم إزاء الوجود بأسره ، أو إزاء حياته الخاصة ، أو قيمته ، والدور الذي يقوم به في هذه الدنيا أو إزاء الله . فلا تسأل الرجل العادي في مسألة من المسائل إلا نطق بعبارة أو عبارات تشف عن وجهة نظره في الحياة وفي نظام الكون والعناية الالهية ، وفي طبيعة الانسان ، وفي الخير والشر في العالم ، وما إلى ذلك مما هو في الحقيقة وجوه متعددة لمشكلة واحدة هي مشكلة التفاؤل والتشاؤم .

هل لهذه الحياة قيمة ؟ هل في هذا الوجود نظام وتدبير ؟ هل الناس سعداء حقاً ؟ أفي الحياة أمل لتحقيق سعادة كاملة ؟ هل الشقاء عنصر ضروري في الوجود ؟ هل الألم من لوازم اللذة ؟ هل هذا الوجود أكمل وجود ممكن للعقل تصوره ؟ ما معنى الحياة والموت ، واللذة والألم ، والنظام والفوضى ، والله والطبيعة ؟ كل هذه أسئلة تدور بخلد الناس جميعاً ، فلاسفتهم وغير فلاسفتهم ، وكلهم يحاول الاجابة عنها

بقدر ما تتسع له ثقافته ، لأنها أسئلة تتصل بمشكلة الانسان الكبرى التي هي مشكلة وجوده وحياته ومشكلة النظام العام الذي يعيش فيه .

ولا يمتاز موقف الفلاسفة في هذه المشكلة من موقف غيرهم إلا بما قدمنا من أنهم أقدر من سواهم على الالمام بأطراف المسائل التي يبحثونها ، والوصول منها إلى نظريات عامة يدافعون عنها بما يمليه العقل من أدلة وحجج ؛ ولكنهم في هذا إنما يترجمون عن الفكر البشري في جملته ويدافعون عن وجهة نظر له في هذه الناحية أو تلك . فنظرياتهم أكثر تحديداً وأعظم شمولا وأدق وأعمق مما يستطيع غيرهم أن يأتي به .

ومبعث التشاؤم والتفاؤل في الانسان أمران : أولهما الحقائق الواقعية التي تجري في الكون على مرأى منه ومسمع ، ولا سيما ما يتصل منها به ويكون لها أثر فيه . وثانيهما حالته النفسية العامة (أو حالته في ظرف معين) وهي الحالة التي يفسر في ضوئها وقائع الوجود والحياة التي يعيش فيها ، ويعللها ويحاول وضعها في نظام عام يستوحي منه فكرته عن الوجود كله متشائما أو متفائلا . فالتشاؤم والتفاؤل إذاً نتيجتان لتقدير العقل البشري للحوادث ، أو معنيان يقرؤهما ذلك العقل في النظام الكوني في محاولته وضع تفسير أو تعليل لتلك الحوادث . وقد تكون محاولة الانسان وضع نظرية عامة في طبيعة الوجود على مثل هذا الأساس ضربا من ضروب الغرور الانساني . ولكن هذه هي الفلسفة ، والتفلسف جبلي في الانسان كما قال هيجل ، لأنه لا بد له من نظرة في الحياة ونظرية في الحياة . وقد لا يكون الانسان برما بنفسه وبحياته ولا ساخطا عليهما ، ولكنه برم بالعالم ناقم منه ، فيراه في مرآته المحدودة أولاً ثم تنعكس صورة العالم كله على هذه المرآة الصغيرة فيقول هو ذاك ! ويخلع عليه من الصفات ما يتفق وطبيعة مرآته الصغيرة التي لا ترى العالم ولا يستطيع أن يرى العالم إلا فيها .

أما الحالة النفسية التي أشرت إليها ، والتي إليها يرجع ذلك التفسير والتعليل ، فحالة متعددة النواحي كثيرة العناصر معقدة التركيب ؛ إذ هي التكوين العقلي العام الذي تتمثل فيه مبادىء الانسان الخلقية والاجتماعية ، وعقائده الدينية وآراؤه العلمية ، بل وخرافاته وأوهامه وأحلامه ومزاجه البدني ، وصحته ومرضه وغناه وفقره ، وما إلى ذلك من العناصر التي تربو على الحصر .

فلا غرابة إذاً إذا قلت إن عقيدة واحدة من عقائد الدين أو نظرية من نظريات العلم ، أو مذهباً من مذاهب الأخلاق ، أو مرضاً من الأمراض ، أو عقدة من عقد النفس ، كافية لأن تكون النواة التي تنمو حولها فلسفة فيلسوف في التشاؤم أو التفاؤل . فليس بعجيب مثلا أن يقف المسيحي من العالم ومن الانسان موقف التشاؤم ، لأن دينه علمه أن المادة بكل أنواعها ومظاهرها شرور وآثام ، وأن الانسان يولد في هذا العالم وهو يحمل في دمه آثار الخطيئة ؛ ولا بعجيب أن يقف المسلم من الدنيا موقف التشاؤم لأن دينه علمه حقارتها وزهده في زخرفها ونعيمها ، وحذره من مكرها وغرورها ؛ ولا بعجيب أن أن يقف العالم الطبيعي من العالم موقف التشاؤم ، إذا لم يرقيه إلا المادة وجزئياتها وذراتها ، ولم يدرك في ذلك نظاما ولا تدبيراً ولا حكمة ولا عقلا ولا قانونا ؛ أو يقف من العالم موقف التفاؤل إذا أقنعه بحثه العلمي بوجود الغاية في كل شيء والنظام والقانون في كل شيء ؛ وليس بعجيب أن يتشاءم « شوبنهور » ، وقد اعتقد أن الارادة الالهية والانسانية عمياء ، وأن العالم والانسان يتخبطان في الفوضى التي لا حد لها ؛ وأن يتفاءل « كنت » وقد اعتقد أن الارادة الانسانية خيرة في ذاتها وأنها تسمو على جميع

القوانين والأوضاع وتشرّع لنفسها ؛ ولا عجب أن يكون تشاؤم « نيتشه » وفلسفته التي لا تعرف حداً للعنف والقسوة وليدَى ذلك المرض العضال الذي لازمه طول حياته . بل العجيب حقاً ألا تكون لكل هؤلاء فلسفاتهم في التفاؤل أو التشاؤم ، وألا تصدر عنهم على النحو الذي صدرت .

والظاهر أن فلسفة التشاؤم أقدم الفلسفتين وأعمهما وأكثرهما ذيوعاً في العالم القديم والحديث على السواء ، وفي جميع مراحل التفكير الانساني ؛ فقد ظهرت في الشرق والغرب في أقدم العصور ، في حين أن فلسفة التفاؤل لم تظهر إلا في عصر خاص من عصور الفلسفة الغربية .

وربما كان السر في ذلك أن فلسفة التشاؤم أدنى إلى التعبير عما يدركه الانسان عادة من قيمة الوجود ، إذا اعتبرنا أن الغاية القصوى التي يسعى كل إنسان إلى تحصيلها هي السعادة والخلو من الألم ، وأن السبيل إلى تحقيقها محفوفة بالمكاره مملوءة بالعقبات ، وأن الناس يعانون في أمانيهم وأحلامهم وآمالهم أكثر مما يصيبون منها في حياتهم القصيرة المحدودة .

بل ربما كان الموت — وهو أعم ظاهرة في الوجود ، وأشمل قانون يخضع له الانسان — أعنف الصدمات التي تحمل الناس على الوقوف من العالم موقف التشاؤم ؛ إذ الموت مهما قدم العهد به ، وطال تفكير الانسان فيه ، يفجأ المبتلى به في كل حادثة يقع فيها ، كأنه حدث غريب جديد ، يطلق الفكر في النظر في هذه الحياة وقيمتها وأمدها . ومن النظر في الكون خلال ظاهرة الموت ، تتولد فلسفة التشاؤم ، لأن الانسان مجبول على حب الحياة ، والموت حد للحياة ، ومجبول على طلب اللذة والغنى والشهرة ، وعلى أن يفرض نفسه على الوجود فرضاً بكل ما يستطيع من وسيلة ، وعلى أن يسعى إلى تحقيق معانى الوجود في نفسه بما يعمل وما يفكر وما يقول وما يَتَعَقَّب من فكرة ، بل وبما يحلم ويأمل ويتمنى ؛ والموت حد لكل ذلك ، فهو حد لكل ماهو عزيز على الانسان ، إذ هو حد لبقاء النفس وكل ما يتعلق بها .

يرى الأحياء دور الموت يمثل بلا انقطاع على مسرح الحياة ، ويفجعون في هذا الصديق أو ذاك ، وفي هذا القريب أو ذاك ، وفي آبائهم وأمهاتهم ، وأبنائهم وبناتهم ، فيدركون في هذه المآسي الفجيعة الحقة ، وهي تجيئهم في آمالهم وأمانيهم ، والخيبة العظمى في الحياة ذاتها ؛ وتبدو لهم الدنيا شاحبة ذابلة عابسة زائلة ، ويبدو لهم غرورها ، وتتمثل أمام أعينهم شرورها ، فيقرءون في كل صفحة من صفحاتها معاني الشؤم والبؤس ، وتتمخض من كل ذلك في نفوسهم فلسفة التشاؤم .

هذه إحدى النغمتين اللتين تغنى بهما الانسان منذ فجر تفكيره ، ولا زال يتغنى بهما إلى اليوم ، وأرجو أن أسمعك في مقال آخر شيئاً من لحن المتفائلين ، وأن أضع أمامك بعض صور التفاؤل والتشاؤم الفلسفي .

(البحث بقية) **أبو العلا عفيفي**

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٠	الطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الملحقة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

مشكلة زيادة السكان

للأستاذ صاحب التوقيع

نشكر للأستاذ عبد الله القديم مقاله عن مالتوس ، ومشكلة تزايد السكان فى مصر ، وهو المقال الذى نشرته مجلة « الثقافة » الغراء بعددها رقم ١٥٨ ، إذ أتاح لنا فرصة الكتابة فى موضوع الفقر فى مصر ؛ فمهما زاد عدد الكتاب فى هذا الموضوع فلن يوفوه حقه ، إذ أن مستوى المعيشة بمصر منخفض لدرجة أن أصبح هذا المستوى مشكلة خطيرة .

ومع ذلك فنرجو أن يكون مقال الأستاذ القديم بداية لمناقشة واسعة تستحقها مسألة معقدة تمس كل القلوب ، ألا وهى مسألة تقدم بلدنا المحبوب ورقيه ، على أن تكون المناقشة كما قال الأستاذ القديم ، بعيدة من كل الأوهام التى أبديت من قبل فى هذا الموضوع .

وأعظم ظننا أن دراسة هذه المسألة — وهى مسألة اقتصادية قبل كل شىء — يجب أن تكون مرتكزة على الأرقام والاحصاءآت المضبوطة . ولكن مالتوس (وأ[illegible] العلماء) لم يبن نظريته على أرقام مضبوطة ، إذ كانت الاحصاءآت الدقيقة مستحيلة ، فضلا عن قلة الاحصاءآت العلمية المقررة فى وقته .

مالتوس يزعم فى نظريته أن سكان معظم البلاد يتزايدون بسرعة بحيث لا يمكن أن تجاريها وسائل زيادة الانتاج الذى تقوم عليه حياة الناس ؛ ولكن مالتوس وقع فى غلطتين كبيرتين : الأولى أنه لم يعمل حسابا لما يحققه التقدم الصناعى المبنى على العلم من إنتاج وفير ، والثانية أنه لم يعمل حسابا للفروق الكبيرة فى توزيع الثروة الحالى بين الأفراد ، بل وبين الأمم أيضا .

تطور الانتاج فى القرن التاسع عشر :

قد يصح زعم مالتوس فيما يتعلق بالنقطة الأولى ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكن خطأه ظهر جليا بعد التطور الصناعى فى بداية القرن التاسع عشر ، إذ ازداد الانتاج بنسبة فاقت زيادة السكان كثيراً جداً .

ويتفق كل المؤرخين على القول بأن كل الشعوب — حتى أحطها مستوى — قد ارتفع فيها مستوى المعيشة إذا قورن هذا المستوى بما كان عليه منذ قرن ونصف قرن ، فى حين ازداد عدد السكان فى هذه المدة زيادة كبيرة فى كل أنحاء العالم .

وفيما يلى أرقام تدل على تطور الزيادة فى الانتاج العالمى فى الحديد فى القرن التاسع عشر[1] .

السنة	الكمية الناتجة
١٨٢٠	١ مليون طن
١٨٤٠	٢ر٧ » »
١٨٦٠	٧ر٣ » »
١٨٨٠	١٨ر١٦ » »
١٨٩٠	٢٦ر٧٥ » »
١٩٠٠	٣٩ر٨ » »
١٩١٠	٦٤ر٧٦ » »

هذا مثال واحد يمكن أن يقاس عليه فى ضخامة الانتاج الذى ازداد فى القرن الماضى . وإن نحن اقتصرنا على إيراد أرقام الانتاج فى الحديد ، فذلك لأن هذه المادة تدل أحسن دلالة على تقدم الصناعة ، إذ أنها المادة الأولية لصناعة الآلات والعدد التى تستخدم لبقية أنواع الانتاج الصناعى والزراعى ؛ وعلى ذلك فمن الواضح أن كل هذه الآلات الصناعية والزراعية وآلات السكك الحديدية

(١) هذه الاحصاءآت مستخرجة من دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٢٩ .

والسفن الخ ، قد أدت إلى زيادة ما يعتمد الانسان عليه فى معاشه زيادة كبيرة جدا .

هذا من جهة الانتاج . ولننظر الآن إلى زيادة عدد السكان ، فنجد أنه فى حين ازداد إنتاج الحديد من مليون طن واحد إلى ٦٤ مليون طن ما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩١٠ لم يزد سكان العالم كثيرا ، فقد كانوا ١٠٠٩ مليون سنة ١٨٤٠ فأصبحوا ١٨١١ مليون سنة ١٩٢٠ . ومعنى ذلك أن إنتاج المادة الأولية التى تصنع منها آلات الانتاج قد ازدادت ٦٤ ضعفا فى ثمانين سنة ، فى حين أن عدد سكان العالم لم يتضاعف بعد فى ٧٥ عاما[1] ولم تصب هذه الزيادة الضخمة الناحية الصناعية وحدها ، بل أصابت الانتاج الزراعى أيضا ؛ فى سنة ١٩٢٧ ازيد ٣/٣٠٠/٠٠٠٠ طن من القمح ، فى حين كانت المجاعة تضرب أطنابها فى مناطق أخرى[2] هـذا علاوة على مئات الملايين من الأفدنة القابلة لزراعة القمح والمهملة للآن ، وفى استراليا وحدها ١٥٠ مليون فدان من هذه الأراضى . هذا قليل من الأمثلة ، ويمكن ذكر أمثلة أخرى كثيرة من النمو الزراعى والصناعى .

ولكن الأفضل أن نحصر كلامنا فيما يتعلق ببلادنا التى شاهدت فى القرن الأخير نهضة لا بأس بها ، فقد تضاعف إنتاج القطن ثلاث مرات عما كان عليه منذ خمسين عاما ، بل هو اليوم يبلغ أربعين ضعفا لما كان عليه منذ مائة سنة ؛ ولم تأت الزيادة على حساب الحاصلات الأخرى كالقمح والذرة ، بل إن هذين المحصولين قد ازداد إنتاجهما أيضا بفضل العناية بتسميد الأرض وريها بالطرق العلمية . وقد حدث نفس الشىء فى كل بلاد العالم التى عرفت طرق الانتاج العلمية الجديدة . لكن هذا لا يعنى أن هذا التقدم أفاد كل إنسان ، وقد نكتب فى هذا الموضوع فيما بعد .

لهـذا كان من الصواب أن نقول إن كل بلاد العالم أثبتت أن نظرية مالتوس لم تصدق على القرن التاسع عشر .

تطور الثروات فى القرن العشرين

جاء على نظرية مالتوس بعد إذاعتها حين من الدهر كانت نسيا منسيا . وكانت الحكومات فى ذلك الحين تشجع الزواج والنسل ، لأن ذلك كان فى مصلحة تطور الانتاج الصناعى الذى كان فى حاجة شديدة إلى الأيدى العاملة .

ولكن ما كاد القرن العشرون يبدأ حتى توقف هذا التقدم الصناعى . وبدأت المجتمعات تتحدث من الأزمات ومن فيض الإنتاج . وظهرت جيوش من العاطلين بين العمال ، لاسيما البلاد الصناعية ، وبلغ عددها عشرات الملايين بل مئاتها . ومن ثم ظهرت نظرية مالتوس إلى الوجود مرة أخرى . وكان يجوز أن يظن غير المدققين أن سكان الأرض ازدادوا أكثر مما ينبغى ، ما دام الكثير منهم لا يجد عملا ، ولا يستطيع أن يجد قوته بسهولة ؛ ولكن الحقيقة كانت وهـذا الظن على طرفى نقيض ، فقد أجمع الاقتصاديون على أن كل أزمات قرننا التى سببت كل ذلك الشقاء ، وكل تلك التعاسة ، إن هى إلا أزمات نتجت من فيض الانتاج لا من نقصه . فالمواد الأولية والمنتجات الصناعية ، بل والزراعية أيضا ، قد فاضت لدرجة لجأت معها بعض الدول إلى إحراق إنتاجها ، أو إغراقه فى البحر ، وحرّمت بلاد أخرى زراعة القمح أو القطن مخافة أن ينقص سعرهما فى السوق — وحديثنا هنا ينصب على وقت السلم بطبيعة الحال — وإنى مستطيع أن أدلل هنا بكثير جداً من أمثلة إعدام المحصولات أومنع زراعتها ؛ ولا إخال القارىء لم يسمع من إغراق القمح والبن والبن والقطن والماشية فى كل بلاد العالم التى تنتج هذه المنتجات ، كما لا إخاله لم يسمع عن وقف المصانع الضخمة للتقليل

(١) تقدير ميتلو للنشور فى دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٢٩ .

(٢) عن معهد الاحصاء الدولى .

من الانتاج ، يحدث كل ذلك فى الوقت الذى يجوع فيه بنو الانسان فى بلد آخر . من هذا يتضح أن الأزمات ليست أزمة فيض فى السكان ، بل أزمة فى توزيع الثروة بين الناس ، ولقد سمعنا أخيراً بنبأ ذلك العامل الذى مات برداً فى الاسكندرية ، مع أن بالبلاد القناطير من القطن المهمل .

مشكلة زيادة السكان فى مصر :

أما النقطة الأساسية الثانية التى وقع فيها مالتوس ومن جرى مجراه ، فتتلخص فى أنهم يفرضون أن عيوب النظام الاقتصادى ونقائصه شىء لا يمكن تفاديه ، ويظنون أن الانسان يجب عليه أن يضحى فى سبيل هذه النقائص وألا يهىء النظام الاقتصادى بحيث يكون أكثر انطباقاً على حاجات البشر . فهم فى ذلك مثلهم كمثل الطبيب الذى يتصدى لانتقاص عدد الفلاحين المرضى بالبلهارسيا ، فينصح بالاقلال من تناسل الفلاحين ، بدل أن يحارب هذا المرض بالطرق العلمية التى تساعد الفلاح على الحياة سليما .

ولكن قد يكون صحيحا أن مصر قد وصلت فى إنتاجها إلى الحد الأقصى ، فقد زاد سكانها فى أربعين سنة بنسبة ٦٠٪ ، إذ كان عدد السكان سنة ١٨٩٧ ٩،٧١٤،٥٢٥ مليون نسمة ، وهم فى سنة ١٩٣٧ ١٥،٩٠٤،٥٢٥ نسمة ، فى حين أن مساحة الأرض المزروعة لم تزد إلا بنسبة ٤ ٪ ، إذ كانت ٥،٠٨٧،٨٨٦ فدانا ، فأصبحت ٥،٢٨٨،٦٢٢ فدانا . كذلك لم تزد المساحة المزروعة حتى بعد الرى الدائم إلا بنسبة ٢٢ ٪ ، فقد كانت ٦،٨٤٨،٣١٦ ، فأصبحت ٨،٣٥٨،٤٩٨ ، ونقص ما يخص الفرد من هذه الحاصلات إذ أصبح ٤،٠٨ جنيهات سنة ١٩٣٧ ، فى حين كان ما يخصه سنة ١٩١٣ ٥،٥٥ جنيه . فالقول بأن مصر لم تعد تستطيع أن تغذى أبناءها ، وأنه يجب تخفيض عدد سكانها ، صحيح على فرض أن الظروف الاقتصادية لا يمكن أن تتغير أو لا ينبغى أن تتغير . فاذا كان علينا أن نعتقد أن مصر قد كتب عليها أن تبقى إلى الأبد بلاداً زراعية ، تزرع أراضيها بالشادوف الذى اخترع منذ خمسة آلاف سنة ، وإذا كان علينا أن نعتقد أن أراضى شمال الدلتا القابلة للزراعة والتى تبلغ مساحتها مليون فدان وثمانمائة ألف فدان تقريبا [1] ، لا يمكن زرعها أو لا ينبغى أن تزرع ، لأن المال اللازم لمشروعات ريها أولى به أن يصرف فيما هو أهم ، وإذا كان علينا أن نبقى على زعمنا أن الثروات المدفونة فى باطن الأرض المصرية كالحديد والبترول والمنجانيز والزنك والذهب الخ ، يجب أن تبقى أبد الدهر تسعد بالتماس تحت الأرض ، وأخيراً إذا كان علينا أن نظل معتقدين أن مصر لا يمكنها أن تكون بلداً صناعيا حديثاً ولا ينبغى لها أن تكون — إذا كان علينا أن نظل على هذه العقائد ، فان مصر حقاً لن تستطيع أن تغذى أبناءها . ولكن العشرين عاما الأخيرة من تاريخ مصر كذبت تماماً هذه العقائد وبددت كل هذه الأوهام فقد تقدمت الصناعة فى هذه الفترة ؛ ورغم أنها بدأت بداية التردد الذى تضع له أكثر من جهة واحدة العقبات فى سبيله فقد أصبحت هذه الصناعة تنتج من الثروات ما يكاد يعادل الثروات الزراعية . فمصر تنتج اليوم ما تحتاجه من الأسمنت والبنزين والأحذية والصابون ؛ كما تنتج جزءاً كبيراً ما زال يزداد على مر الأيام مما تحتاجه من الملابس القطنية الخ .

ولكن رغم هذا التقدم الصناعى الذى ضاعف ثروة مصر عما كانت عليه قبل خمسين سنة فان البؤس والفقر ما زالا ضاربين أطنابهما بين أغلبية الشعب . وعلاج هذا الفقر لا يكون بانتقاص عدد السكان بل يكون باستخراج الثروات الضخمة الراقدة تحت التراب والتى تستطيع أن

(١) فى الواقع أن مصاريف إصلاح الفدان الواحد هناك لا تزيد عن عشرة جنيهات

من تاريخ الصحافة المصرية :

نشأة الصحافة الهزلية

يعرف الكثيرون أن مصر قد امتازت في القرن التاسع عشر دون بلاد الدولة العثمانية جميعاً ، ودون تركيا نفسها ، بتقدمها في الحياة الاجتماعية والسياسية ؛ فمصر أول بلد شرقي أدخل الفنون الحربية الحديثة ، ومصر أول بلد شرقي فكر في حياة دستورية صحيحة ، وهي أول بلاد الشرق التي فكرت في الاصلاح القضائي وإذاعة التعليم في بيئاتها المختلفة ، والأخذ بطرف من كل جديد في أوربا ؛ ولكن كثيرين جداً يجهلون أن مصر كانت في القرن التاسع عشر ثاني دولة شرقية عرفت الصحافة ، غير أنها كانت أسبق من تركيا في تقدير قيمة الصحف واعتبار مكانتها في حياة الشعوب ؛ بل أصبحت في عهد الخديو اسماعيل ملجأ الأحرار من حملة الأقلام وكتاب الصحف . فكانت تركيا تضطهد كل كاتب حر ، ومصر تستقبله مرحبة مواتية ؛ وكانت الدولة المصرية على أوثق ما تكون صلة بكثير من صحف أوربا ، فاشتركت في خمسين صحيفة أجنبية بينها ست صحف الأزياء .

ولم يقتصر النشاط الصحفي في مصر على اشتراك الدولة في بعض الجرائد الأوربية ؛ بل كانت مصر نفسها مجال نشاط صحفي أقوى مما كان في تركيا . فمنذ أربعة وستين عاماً اضطربت الحياة المصرية ، وشغل الرأي العام بألوان جديدة من التفكير ، وكان من دعائم هذه النهضة الفكرية تسع وخمسون صحيفة تصدر في مدن مصر الكبيرة بين عربية ويونانية وفرنسية وإيطالية وإنجليزية . فالصحافة بالمعنى المفهوم لم تكن شيئاً جديداً على مصر الخديوية حين عرفت أول مجلة هزلية رفيعة القدر بعيدة الأثر ؛ ومصر أول من ابتدع هذه الصحافة الهزلية في الشرق الأدنى جميعاً ، حمل لواءها يهودي مصري ، كانت حرفته التمثيل الهزلي قبيل إصدار جريدته سنة ١٨٧٧ ؛ كان ممثلا محترفا ومؤلفاً مسرحياً لموضوعات هزلية ممتازة أرضت الخديو إسماعيل وأثارت إعجابه ، حتى أطلق عليه في يوم ما لقب « موليير مصر » .

هو كاتب من طراز آخر غير ما عرف به كتاب مصر إسماعيل ، ناقد مر النقد ، قاس في أسلوبه وحواره ، يطلق قلمه دون تقييد أو تحديد ، عرفه عصره كله بجميع طبقاته ، من القصور في المدن إلى أكواخ الفلاحين في الريف ، ولم تشهد الصحافة المصرية — سواء كانت جادة أو هازلة — قلماً صور البيئة المصرية شعباً وحكومة ، ونقد المصريين في حياتهم السياسية والاجتماعية ، ودافع عن رأيه بعنف وشدة ، مثل القلم الذي شهره يعقوب رفائيل بن صنوع في صحيفته الهزلية .

تفدى شعباً أكبر عدداً من شعبنا المصري هذا ، وأن تحفظ له كيانه وتضمن سعادته .

من أجل هذا يجب علينا أن توجه اهتمامنا ، كما قال بحق الأستاذ العميد أحمد أمين بك في مقاله المنشور بعدد الثقافة رقم ١٥٩ تحت عنوان (كنوز في بيت جائع) ، إلى استخراج هذه الثروات المدفونة والتي أهملت نتيجة لتوزيع الثروة غير المناسب ، أو نتيجة لعدم اهتمام الناس أو لنقص تعليم الأغنياء الذين يظنون أن الأرض هي المنبع الوحيد لثروتهم ، أو نتيجة المعارضة المباشرة التي تبديها بعض الأوساط لنهضة الصناعات وتطبيق طرق الانتاج العلمية . وأنه لمن واجب الشباب المصري المثقف أن يجاهد من طريق العلم والثقافة الفنية الصناعية في سبيل تحقيق مستوى مرتفع للمعيشة يتمتع به الشعب المصري جميعاً ، ذلك الشعب الذي يحس بحقه في الحياة ، ويرى أنه ليس في حاجة إلى وضع الحدود غير الطبيعية في سبيل نموه . (ر . ر)

تعلم هذا الصحفي في إيطاليا على نفقة أحمد يكن باشا حفيد محمد على الكبير ، واشتغل فترة مدرساً للغات والموسيقى والرسم لأفراد الأسرة الخديوية وأبناء الباشوات ، ثم احترف التمثيل فترة أخرى من الزمن ، تعرف خلالها بقادة الرأى العام فى ذلك الوقت ، وحضر مجالسهم ، وتتلمذ على زعيمهم السيد جمال الدين الأفغانى ، وكان هذا السيد شديد الثقة بأثر الصحافة فى تنوير الجماهير ، وهو الذى دفع بمعظم صحفيي ذلك العهد إلى هذا الميدان ؛ فليس غريباً أن ينصرف يعقوب من مجلسه يوماً مصمماً على إنشاء أول جريدة هزلية مصرية .

اختار يعقوب بن صنوع اسماً غريباً لجريدته ، يتفق فى الواقع مع روحها وطبيعتها ، اختار لها اسم (أبو نضارة) . ولهذه التسمية قصة ، فقد كان يستعمل لعينيه نظارة زرقاء تقيه الضوء الشديد وتعينه على تحمل لفحات الشمس ، وكان كثير النكتة مع المكارية الذين عرفوه جيداً فى تنقلاته من حى إلى حى ، وكانوا يسمونه (أبو نضارة) ، فأعجبته هذه التسمية وأطلقها على جريدته ، وهى أول صحيفة شرقية من نوعها عرفها القرن التاسع عشر ؛ فهى أول جريدة هزلية لها أدب خاص ، وهى ثانياً ذات أسلوب دارج فى أكثره ، يردد ما يجرى على ألسنة الشعب من حكم وأمثال ، وهى ثالثاً مصورة تصويراً هزلياً بديعاً .

كانت (أبو نضارة) فى قطع مجلاتنا السياسية الأسبوعية المعاصرة ، فى أربع صفحات فى أغلب أعدادها ، وهى كما نعتت نفسها « جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية » . وقد يضفى هذا النعت عليها صفة الجريدة الفارغة ، والعكس صحيح ؛ فأبو نضارة مجلة حافلة بتاريخها ، لها كما قلنا أدب خاص تغلب عليه اللغة العامية ، وإن لم تخل أحياناً من مقالات للأفغانى والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وعبد الله نديم وغيرهم من كتاب العصر . وكان يعقوب يقوم بخدمتها جميعاً ، فهو الكاتب لمعظم فصولها ، وهو المدير والمصور والطابع والناشر . وقد لقيت رواجاً منقطع النظير ، فقرئت فى المدن والريف ، وبلغ عدد ما كان يصدر منها خمسة عشر ألف نسخة . وكان الناس أميين ومتعلمين ينتظرون ظهورها ويقبلون على قراءتها إقبالهم على غذاء طيب ، حتى إن احمد سالم كبير مطربى مصر إذ ذاك توقف من الغناء فى حفل عام حين دخل بائع الصحف ، فقد شغلت الجريدة جمهور المستمعين .

وكانت موضوعات (أبو نضارة) من الأزجال والمحاورات — وخاصة الأزجال والمحاورات التى دارت بين الشيخ (أبو نضارة) وأبو خليل عن الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر ، وفيها نقد يعقوب السياسة المصرية والحياة الاجتماعية بين الوزراء والأغنياء ، وصورها تصويراً رائعاً حقاً ؛ وكان أسلوبه فى محاوراته وأزجاله عامياً مهلهلاً ، وإن نشر بين آن وآن مقالات أدبية وسياسية واجتماعية سماها (المقالات المصرية) فى ألفاظ مسجوعة غير محببة على أهل ذلك الزمن ، وخاصة العامة منهم الذين قد لا يفهمون من هذا الأسلوب شيئاً ولكنه رن فى آذانهم ويسترق تقديرهم وإعجابهم . ولم تحمل (أبو نضارة) على الأغنياء والمتعلمين وحدهم ، بل كثيراً ما وجهت أعنف النقد إلى عامة الشعب ، وأعلنت سوءاتهم المادية والخلقية ، وأشارت بالعلاج فى غير موضع ، وقست على تلك الجماهير التى رضيت الذل وأسلمت إلى الهوان . لم يعجبه المصريون فى هذه الدعة التى غلبت عليهم مشاعرهم ، فكان يرى الظلم واقعاً والأمة المصرية بأسرها تقول كما أذاع فى مجلته : « حكم ياسيدى ، المكتوب على الجبين تراه العيون » وهكذا يستمر فى نقده اللاذع الصادق وتصويره الرائع لنفوسنا واستعداداتها وآمالنا فى هذه الحياة ، منددا بتلك الألفاظ التى لا تزال لسوء الحظ مسموعة فى مصر ، ألفاظ الضعف والتواكل والاطمئنان حيث لا ينبغى الاطمئنان

قد يدهش القارئ إذا ذكرت أن موضوعاً سياسياً أو اجتماعياً ينشر في (أبو نضارة) لم يكن يخلو من صورة تفسره، وكان يعقوب يرسم هذه الصور بريشته، وهي صور كاريكاتورية بديعة تعتبر من الناحية الفنية مثالاً طيباً لهذا النوع من التصوير؛ ومن مميزاتها الظاهرة أنها تكاد تنطق بالمعنى الذي انطوت عليه، حتى ليخيل إلينا أن الصورة وحدها قادرة لدقة صنعها وصدق روح مصورها على إعفائنا من قراءة المقال الذي يفسرها؛ وكان بعض هذه الصور ملوناً وجذاباً كأحسن ما يشاهد في الصحف الهزلية المعاصرة. وقد أضاف هذا الصحفي إلى مجلته جديداً لم يكن معروفاً في الصحافة الهزلية الأوربية إذ ذاك، فقد اعتاد أن ينشر ترجمة فرنسية لهذه السخرية المصرية اللاذعة التي احتوت عليها مجلته، فعرف الفرنسيين بجهده هذا على ناحيتين مجهولتين في المصريين: أولاهما القدرة على الترجمة والتحرير باللغة الفرنسية. والثانية هذا الروح المرح في النكتة المصرية والملاحظة الصادقة، والتحليل البديع للطبائع وأصناف الرجال. ومن أعجب ما رأيناه في أحد أعداد (أبو نضارة) ترجمة حرفية له في سبع لغات مختلفة.

فيعقوب بن صنوع أول من خلق هذا الفن في مصر وابتكر له الأصول والأوضاع، حتى إن ما نراه اليوم من الصحف المماثلة لا يمكن أن يبزه لا في معانيه ولا في صوره، بالرغم من الطابعة الحجر التي صدرت عنها جريدته وبلوغ صحافة اليوم النضج والاستواء، سواء في الطبع والإخراج أو في التحرير والإنشاء.

وقد يسأل البعض: هل كانت تحتمل مصر هذه الجرأة الصحفية وهي تهز بعنفها وشدتها القواعد الحكومية والتقاليد المرعية؟ حقاً أن مصر احتملت في عصر إسماعيل حرية صحفية منقطعة النظير، تكاتفت على إظهارها بضعة عوامل ليس هنا مكان التدليل عليها، فلم تكن الدولة شديدة الوطأة دائماً على الحرية الفكرية، وكثيراً ما لقي يعقوب التعضيد الأدبي والمادي من الخديو نفسه، سواء كان ممثلا أو صحفياً، ولم يتجه هذا العطف الرسمي في تحديد الأغراض التي من أجلها أنشئت (أبو نضاره)، وأبى يعقوب أن يأخذ مكان التبعية بالنسبة للدولة، واشتد في أسلوبه ومضى يتهور في حملته تهوراً كان يلجئه إلى الإسفاف أحياناً في شكل لا ترضاه أي أمة مهما غالت في حرية النشر. وقد هاجم الأجانب النفعيين في مصر فيمن هاجم، وأسخط دولهم، ونادى بأن مصر للمصريين، وجعل ذلك شعاراً لصحيفته؛ فلم ترض عنه الحكومة المصرية كل الرضى؛ وهكذا تكاتفت عليه جميع القوى، فصادرت الحكومة صحيفته وأمرت بنفيه، وحرمت عليه العودة إلى مصر؛ فخرج إلى باريس وبقى يصدر جريدته من هناك زهاء أربعة وثلاثين عاماً حتى توفي سنة ١٩١٢.

وقد شغلت جريدة أبو نضارة الحكومة المصرية بالرغم من نفي صاحبها وصدورها في باريس. فقد كان لها في مصر عشاق تحايلوا على إدخالها وتوزيعها، إذ أصدرت الحكومة قراراً بمنعها من الدخول إلى مصر. ولما كان قرار المنع قد انصب على جريدة (أبو نضارة) فقد غير صاحبها اسمها باسم (أبو زمارة) مع الاحتفاظ بطابعها المعروف في التحرير والإخراج؛ وبذلك تيسر للشعب المصري أن يتلقى كثيراً من أعداد هذه الجريدة الجديدة، ثم فطنت الحكومة إلى ذلك التحايل، فأجرت على (أبو زمارة) ما قضت به في زميلتها، فغير صاحبها اسمها وأطلق عليها (أبو صفارة) ثم حرمت هذه الأخيرة من الدخول في مصر كما حرمت أختاها من قبل، فسماها (الحاوى) وشعارها «الحاوى الكاوى اللى يطلع من البحر الداوى عجايب النكت للكسلان والغاوى، ويرى الفشاش في الجب الهاوى»، فسرى على هذه أيضاً قرار المنع؛ وهكذا اضطر يعقوب إلى تغيير اسم صحيفته اثنتى عشرة مرة، حتى

الناقوس والمدفع

رب سائل يقول : ما هي العلاقة التي تربط الناقوس بالمدفع وكلاهما على طرفي نقيض ، يدق الأول فتسرى رناته الموسيقية العميقة رمز الوحدة والمحبة داعية بعض الناس للصلاة والعبادة — ويدوى صوت الثاني فتهلع له الأفئدة ، وتنطلق منه القذائف تحمل في طياتها الموت والدمار ، فلا تصادف شيئاً إلا أهلكته ؟

وتفسير تلك العلاقة هي أنه كما أن الناس من معدن واحد ومع ذلك يتفاوتون فيما تقدم أيديهم من أعمال ، كذلك الناقوس والمدفع من معدن واحد ، وإن تباينا في رسالتيهما .

فمعدن النواقيس ومعدن المدافع يتكونان أساسياً من النحاس ، مضافاً إليه القصدير بنسب مختلفة ؛ وينتج من خلط هذين المعدنين جملة سبائك يمكن تقسيمها وفقاً لخصائصها إلى قسمين : الأول ويشمل السبائك التي تكون أظهر خصائصها متفقة إلى حد كبير مع خصائص مركبها ، ويشمل القسم الثاني السبائك التي تكون خصائصها مختلفة تمام الاختلاف عن خصائص المعدنين المركبة منهما ، ومن هذا القسم الأخير السبائك المعروفة بمعدن النواقيس ومعدن المدافع .

والقصدير بطبيعته معدن ضعيف طري ينصهر بسهولة ، ولونه قريب من البياض ، بينما النحاس قوى وصلب نسبياً ، ولونه قريب من الحمرة ، فبإضافة القصدير إلى النحاس بنسب متزايدة نحصل على عدد كبير من السبائك لكل منها خصائصه المختلفة عن خصائص الأخرى .

فبإضافة ٥ ٪ من القصدير إلى النحاس تنتج سبيكة صلبة قوية محتفظة ببعض لون النحاس ولكنها أصلب منه ويمكن سحبها أو تشكيلها بالضغط ، ولذلك فهي تصلح لعمل الداليات والنقود — وبإضافة ٥ ٪ أخرى من

يستطيع أن يهرب منها إلى مصر بضعة آلاف بلغت أحياناً تسعة آلاف نسخة ، وقد استطاع ذلك في كثير من الأحيان .

لا يختلف أحد في الجديد الذي خلقه صنوع في الصحافة المصرية ، ولا ينكر عليه أحد عطفه وفنه . فقد كان رجلا مثقفاً شاعراً صادق الشاعرية ، كثير الرحلة من أجل التثقف والملاحظة ؛ فقد زار معظم بلدان أوربا ، ولقت في رحلاته صحف تلك البلاد ، فحيته وتحدثت عنه معظم صحفها وخاصة جريدة La Gazette de Bordaux وذى ورلد ووست وذى استاندرد ، ولم يجب هذه البلاد اغتباطاً كأي سائح عادى ، بل شغل جمهور هذه الشعوب بمحاضراته عن مصر في مختلف شؤونها العامة . وقد نعته شركة رويتر حين نزل به القضاء كأي عظيم معاصر . فلا غرو إن كان له ولجريدته أثر في بعض الحكومات الشرقية والغربية أيضاً ؛ فقد منحه السلطان عبد الحميد وشاه إيران وسلطان زنجبار وباي تونس الاعانات المالية والأوسمة الرفيعة ، كما قلدته فرنسا الليجيون دونور ، ومنحه ملكا بلجيكا وأسبانيا بعض النياشين .

يعتقد بعض الناس أن الصحافة المصرية لم ينهض بها مصرى ، ولم يفكر فيها مصرى ، بل هي صناعة طرأت على بلادنا من بعيد ، وليس لمصرى فيها فضل ؛ وإذا جاز أن يكون لهذا الرأى أنصار — وهو كما أعلم رأى ضعيف تنفيه الحقائق العلمية — فإني أقرر أن الصحافة الهزلية بالذات — سواء في التحرير أو في التصوير — هي من صنع الذهن المصرى الخالص ، وأن مدرستها وجدت في مصر قبل أن توجد في أى بلد شرقى ، بل قبل أن توجد في أوربا الشرقية كلها .

ابراهيم عبده

القصدير تحصل على سبيكة أكثر صلابة من الأولى حتى إنه لا بد من صبها ولونهـا أصفر فاقع ، وهى التى كانت تستعمل قديما فى صنع المدافع ؛ وإذا كانت نسبة القصدير المضافة للنحـاس ١٦٪ حصلنا على السبيكة المستعملة فى صنع الأجراس الصغيرة ذات الرنين الموسيقى اللطيف — وكلما زدنا نسبة القصدير بعد ذلك زاد الصوت عمقا إلى أن نصل إلى النسبة العظمى وهى ٢٤٪ التى تستعمل سبيكتها فى صنع النواقيس الكبيرة .

فما سبق ذكره يتضح لنـا قرب الصلة بين الناقوس والمدفع ، وبسبب هذه الصلة كانت النواقيس تؤخذ ضمن الغنائم الحربية ، وذلك لتكسيرها وصهرها لصنع المدافع وغيرها من الذخائر الحربية أو العكس .

وأشهر ما حدث من هـذا القبيل كان خلال الحرب العالمية السابقة ؛ فقد أمرت الحكومة النمساوية بصهر ناقوس كنيسة سانت ستيفان الضخم الذى يرجع تاريخ صبه إلى عام ١٧١٠ أيام حكم الامبراطور جوزيف الأول ، وقد صب هذا الناقوس من معدن ١٨٠ مدفعا تبلغ زنتها ١٨ طنـا تقريباً كانت قد غنمت من الأتراك .

وفى عام ١٨٧٤ وضع فى كاتدرائية كولونيا ناقوس ضخم زنته حوالى ٢٥ طنا وأطلق عليه اسم (ناقوس القيصر) وكان قد صب من مدافع فرنسية غنمت خـلال الحرب الفرنسية الألمـانية ، وقد نزع هذا الناقوس أيضا خلال حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وصهر لصنع ذخائر لاستعمالها ضد الفرنسيين ، فتمت بذلك المهزلة ؛ فبعد أن كانت فى الأصل مدافع فرنسـية تحصد الألمان تحولت إلى ناقوس يدعو للسلام والصلاح ، ثم انقلبت فأضحت أسلحة قاسية تفتك بالفرنسيين .

وفى بلدة بمقاطعة يوركشير بانجلترا سلسلة مكونة من ثمانية نواقيس صبت من مدافع وقد نقش على أحدها هذه الكلمات :

« هذه النواقيس الثمانية قد صبت فى عامى ١٨١٤ ، ١٨١٥ من نحاس مدافع غنمت فى معركة جنوى » .

وفى أوائل الحرب العظمى المـاضية نزع الروسيون عدة مئات من النواقيس من منطقة الحرب ، وكذلك كانت الكنائس فى بلجيكا وفرنسا تعانى كثيراً من فقد نواقيسها ونزع الألمان عدة نواقيس من كنائس جوتلاند الجنوبية ، وعند ما رغبوا فى عام ١٩٢٥ فى تعويض الكنائس عن نواقيسها الضائعة أصـدروا الأوامر بصهر ٦٠ مدفعا نحاسية قديمة قدمتها دار الأسلحة فى كوبنهاجن وصنع منها ٤٤ ناقوساً .

ويوجد فى قرية روفيرتو بايطاليا ناقوس يطلق عليه اسم « ناقوس الموت » كان قد صب من مدافع جلبت من جميع الأمم التى اشتركت فى الحرب المـاضية ، ويدق ليلا تعظيما للموتى .

ولم يكن ممكنا فى العصور الوسطى أن يتخصص صناع النواقيس فى تلك الصناعة فقط نظراً لقلة الطلب عليهـا ، وعلى ذلك كانوا يصبون القدور والأحواض والأجران والمدافع .

وفى عهد هنرى الثامن أصبح تصدير النواقيس أو معدنها من انجلترا يعتبر من الجرائم ، فقد أصدر قانوناً هذا نصه :

"Noe p'son or p'sons shoulde from henceforthe carrye or convey any brasse, copper, laten, bellmettall, gunemettall, ne shroffe metall into anye part or parts beyonde the sea."

وترجمته كما يلى :

« من الآن فصاعدا غير جائز لأى شخص أو أشخاص أن يحملوا أو ينقلوا النحاس الأصفر أو النحاس الأحمر أو البرونز أو معدن النواقيس أو معدن المدافع أو

النقود المعدنية إلى أي جزء أو أجزاء خارج انجلترا» .

ومن المحتمل أن الغرض من ذلك القانون كان منع الدول الأجنبية المعادية من الحصول على تلك المعادن التي قد تحولها إلى مدافع تستعمل ضد انجلترا ، خصوصاً أنه كانت في انجلترا في ذلك الوقت كميات كبيرة من النواقيس عقب انحلال الأديار ، ولكن نظراً لكون انجلترا كانت في تلك الفترة تستورد كثيراً من المدافع إلى جانب ما تنتجه مسابكها منها ، فإنه من الأرجح أن المقصود من ذلك القانون توفير المعادن لصنع المدافع في انجلترا ، حتى لا تعتمد على البلدان الأخرى . ودليلنا على ذلك أن هنرى الثامن أخذ يشجع الانجليز على التنقيب واستخراج النحاس من أرض الجزائر البريطانية ، كما أنه استحضر كثيراً من الاخصائيين في التعدين والصهر من القارة ، وكان من أثر هذه المجهود أنه لم تمض فترة طويلة حتى أضحت انجلترا تصدر المدافع

وخلال القرن الخامس عشر كان المتبع في انجلترا أن تنتج المسابك المدافع إلى جانب النواقيس ، فسبك هوايت شابل للنواقيس الذي أسس في عام ١٥٧٠ (ويعتبر حاليا من أشهر المسابك بانجلترا) كان يصب المدافع لتجهز بها سفن المملكة اليصابات الحربية تأهبا لاشتباكها بالأسطول الأسباني (الأرمادا) .

ومن الطريف أن خبرة الصناع في صب سبائك النواقيس كانت سبباً في تقدم صناعة المدافع النحاسية التي استعيض عنها فيما بعد بمدافع من الحديد الزهر ثم حلت محلها مدافع الصلب بأنواعه .

وفي الحرب الحالية — كما حدث في الحرب السابقة — تحولت أكثر الصناعات في انجلترا لانتاج الذخائر الحربية ومنها مسابك النواقيس ، ولكنها تخرج أيضاً أجراساً يدوية صغيرة توزع على متطوعي الوقاية من الغارات الجوية .

وبناءً على ما تقدم يمكننا تشبيه العلاقة بين الناقوس والمدفع بإنسان ذي شخصيتين : فإذا كان متقمصا إحداهما ألفيته عميق الصوت حلو النبرات كريم السجايا يدعو إلى التقوى والتمسك بأهداب الفضيلة . أما إذا رأيته في شخصيته الثانية فإنك لا تكاد تتعرف فيه أي شيء مما كنت تعهده في الشخصية الأولى بصلة ، فقد انقلب صوته إلى قصف مرعب ، لا يتكلم إلا ويلفظ شرا وشرورا ، ولا يعمل إلا على سفك الدماء وتخريب الديار . وكثيرة هي أمثلة ازدواج الشخصية في بني الانسان ، فلا غرابة إذا وجدناها في المعادن أيضا وهي جزء من الكائنات .

فريد عباسى

محكمة مركز المنصورة الأهلية

اعلان بيع نمرة ثانية

في القضية المدنية رقم ٢٥٠٦ سنة ١٩٢٩ مدني المنصورة

إنه في يوم السبت ٧ مارس سنة ١٩٤٢ الساعة ٨ ونصف أفرنكي صباحا بسراي المحكمة سيباع بالمزاد العلني العقار الآتي بيانه بسد المطلوب إلى إبراهيم محمد عبد الله من سلاموت الهياش مركز المنصورة وفاء لسداد مبلغ ١٢٣ مليم و٣١ جنيه وبثمن أساسي قدره ٣٠ جنيه والشروط المبينة بالعريضة وهذا البيع بناء على طلب زينب علي سلطان من سلاموت وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩ ومسجل بمحكمة المنصورة الأهلية في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٩ تحت نمرة ٦٣ جزء ٣٨ تسجيلات .

وهذا بيان العقار المذكور بناحية سلاموت الهياش مركز المنصورة دقهلية .

١٦ س ٣ ط ثلاثة قراريط وستة عشر سهما ضمن القطعة نمرة ١٠ بحوض أبو عبد الله نمرة ٢٦ مشاعا في مسطح القطعة المذكورة البالغ قدره ٨ ط ١ ف البحري القطعة نمرة ٩ بحوض ملك ورثة حسين عبد الله والغربي فاصل حوض نمرة ٣١ والقبلي القطعة نمرة ١١ بحوضه مسقى دائر والشرقي فاصل حوض نمرة ٢٣ .

١٦ س ٣ ط فقط ثلاثة قراريط وستة عشر سهما .

وشروط البيع وحكم نزع الملكية وباقي الأوراق مودعة بقلم الكتاب لمن يريد الاطلاع عليها .

فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان الموضحين بعاليه

كاتب البيوع

من هنا وهناك

السؤال رقم ١٠ : هل توجد ألوان لا يمكن أن نراها ؟

سبق أن قلنا في مقال سابق إنه توجد أصوات لا يمكننا سماعها ، وهي التي تقل ذبذبتها أو تزيد عن حد معين لا يستطيع أن يهتز له غشاء الأذن ، والصوت الذي نسمعه ينشأ دائماً من جسم يهتز ، ونرى الأجسام من طريق تموجات ضوئية تنتقل في الفضاء بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية الواحدة ، فاذا وقعت على العين ترجمها العقل إلى صورة مطابقة تماما لصورة الجسم الأصلي .

والأجسام المختلفة تمتص جزءا من أشعة الضوء ، وتعكس الجزء الآخر بدرجات متفاوتة ، وعلى هذا الانعكاس يتوقف لون الجسم ؛ فالكتاب الأزرق مثلا يمتص ألوان الضوء كلها ما عدا اللون الأزرق الذي يعكسه . كما أننا لا نرى الأشياء في الظلام لأنه ليس هناك ضوء يسقط عليها فلا يوجد انعكاس .

وألوان الضوء التي اكتشفت حتى الآن سبعة وهي : الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي . أما الألوان الأخرى المعروفة كالرمادي والبني وغيرها ، فمكونة من اثنين أو أكثر من الألوان السبعة المذكورة . والمعروف حتى الآن أن اللون الأحمر يشع موجات عدد ذبذباتها ٣٩٢ بليون ذبذبة في الثانية (أي ٣٩٢ مليون مليون) واللون البنفسجي يشع تموجات عدد ذبذباتها ٧٥٧ بليون ذبذبة في الثانية . أما الألوان التي تقع تحت الأحمر ، وهي التي يقل عدد ذبذباتها عن ٣٩٢ بليون ذبذبة في الثانية ، وكذا التي تقع فوق البنفسجي وهي التي تزيد عدد ذبذباتها عن ٧٥٧ بليون ذبذبة في الثانية ، فلا تتأثر بها حساسية العين ، ومعنى ذلك أننا لا نراها مطلقا . وقد ثبت علمياً أن بعض الحشرات كالنمل مثلا تستطيع أن ترى ألواناً فوق البنفسجية Ultra Violet وأن بعض الأسماك ترى ألوانا تحت الأحمر Infra Red ؛ ولكن ما هي تلك الألوان ؟ وقف العلم عند هذا الحد فلم يستطع أن يميزها أو يختبرها .

وهناك أسئلة كثيرة تتعلق بعلم الضوء وبهذا الموضوع يلذ لنا معرفة أجوبتها ، ننتقي منها السؤالين الآتيين :

(١) لماذا يرى الإنسان نورا إذا أصيبت عينه بضربة قوية ؟

(٢) ما هو خداع النظر ؟

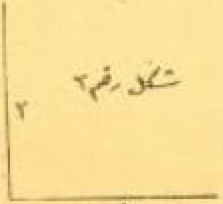
فللسؤال الأول جواب سهل حيث نعلم أن للأمواج الضوئية ضغوطاً تتأثر بها عين الانسان ؛ فاذا ضغطنا على العين بواسطة تأثير خارجي (كما في حالة الصدمة مثلا) فإن العقل يترجمها ويظهرها كأنها ضغط ضوئي ، أي كأنوار أو كصورة ؛ ومن هنا نتج الاصطلاح العامي المعروف «سأريك نجوم الظهر» .

أما الجواب عن السؤال الثاني فغير معروف سببه حتى الآن ، واستُدِل عليه ببعض الأشكال الهندسية حيث عُلم أن للعين أخطاءً كثيرة . وهاك ثلاثة أمثلة تظهر بوضوح بعض حالات يُخدع النظر فيها :

شكل رقم ١



شكل رقم ٢



التربية فى روسيا

تطغى علينا اليوم أخبار الحرب وميادين القتال ، ويغلب الحديث عن معدات الفتك وأفانين السياسة غلبة تقبض عن الناس أخبار جانب من جوانب الاستعداد لهذه الحرب لم تتغفله الدول ، بل لعلها بذلت فيه من الجهد والمال قدراً يزيد على ما بذلت فى تهيئة العدة المادية لهذا الكفاح ، ذلك هو إعداد الشعب إعداداً يهيئه للكفاح من أجله والإيمان بفكرته . ولعل أروع الأمثلة على هذا ما اتضح للدنيا من الحرب الروسية التى توافر فيها من ضروب التضحية والبسالة ما أدهش العالم بأسره إلى جانب دهشته من استعداد روسيا العسكرى وقدرتها الحربية .

والحق أن النظام السوفييتى إذا كان قد عاش ، وإذا كانت تلك هى الدلائل المادية على ما وفق إليه ، فإن الفضل فى ذلك يعود إلى أنه قد انتهج منذ معالمه نظاما محكماً للتربية وفلسفة طريقة لتنشئة الشعب ، لا نبالغ إذا قلنا إنه قد سبق فيها الشعوب الديمقراطية العريقة سبقاً يسلم به أصحاب التربية فى انجلترا بل فى أمريكا نفسها .

وترجع فلسفة التربية فى روسيا إلى الآراء والمؤلفات التى انتشرت فيها لخمسين سنة على الأقل خلت قبل قيام الثورة ، وكانت تدعو إلى تربية الشعب تربية تقوم على الحرية وعلى الإيمان بالعمل ، فكان ذلك عماد فكرة الروسيين من التربية فى العصر الحاضر ؛ لكننا سوف نبق الحديث من الناحية النظرية ، ونبدأ بعرض النظام القائم نفسه عرضاً موجزاً .

تبكر الدولة هناك بالتربية تبكيراً كثيرا ، ففى روسيا معاهد مختلفة للأطفال الذين لم يبلغوا السن المدرسية بعد ، منها رياض الأطفال وملاعبهم والغرف الملحقة بالمنتديات أو بالنادى الجمعية المختلفة . وتنحو التربية فى هذه المعاهد نحو استثارة ميول الصغار إلى فهم ظاهرات الحياة اليومية العامة ، وتنظيم خبرة الطفل وتوسيعها ، وغرس روح الحياة الجمعية فيهم . ومواد الدراسة فيها هى : الحياة الاجتماعية والطبيعة والأشغال اليدوية والرسم والإلقاء والألعاب والغناء والموسيقى .

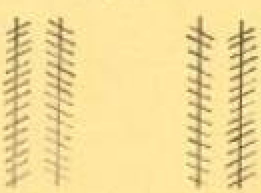
ثم يلحق الصغار بما يطلقون عليه « مدارس العمل الموحدة » من سن الثامنة إلى السابعة عشرة ، وهى تنقسم إلى قسمين : المدرسة الأولية التى تستغرق الدراسة فيها أربعة أعوام ، والمدرسة الثانوية التى تستغرق فيها سبعة أعوام .

والتعليم فى المدارس الأولية إلزامى بالمجان للصبيان والبنات جميعاً . أما فى المدارس الثانوية فهو بالمجان أيضاً إلا لأبناء الموظفين والتجار ، وهو مختلط بين الذكور والإناث فى مراحل التعليم جميعها .

ويعين نظار المدارس بوساطة وزارة التربية الشعبية . ولكل مدرسة مجلس إدارة ينتظم معلميها وطبيبها ومندوباً من خدمها (من البوابين والفراشين وغيرهم) كما يضم

فى الشكلين الأول والثانى يخيل لنا أن الخط المستقيم رقم (١) أصغر من المستقيم رقم (٢) .

شكل رقم ٣



أما فى الشكل الثالث فنتخدع أيضاً ويخيل لنا أن الخطين ليسا متوازيين .

محمد أحمد أمين

المجلس ممثلا لـكل من فرع الحزب الشيوعى بالمنطقة ومجلس السوفييت المحلى ورابطة الشباب الشيوعى وجماعات النساء ، ثم ممثلين من تلاميذ المدرسة واحداً عن كل فصل من فرق السنة الرابعة وما يليها ، على ألا يزيد عدد ممثلى التلاميذ عن ثلث أعضاء المجلس . وهم يضمنون بذلك أن يساهم كل من المعلمين والجمهور والتلاميذ فى إدارة المدرسة والاشراف على العمل فيها .

هـذا إلى « مجلس عون للمدرسة » الذى يتكون من ممثلين للآباء . يقدم العون المملى للمدرسة ويرقب سير العمل فيها بدون حق التدخل فى إدارتها ، إلا أن يشترك هؤلاء الممثلون فى مجلس الادارة الذى أسلفنا الحديث عنه .

ومن أهم مميزات المدارس السوفيتية عنايتها بتدريب الصغار على الحكم الذاتى ، فلـكل فصل لجنة ينتخبها تلاميذه ، كما أن المدرسة لجنة عامة تتكون من لجان الفصول . ولهذه اللجان أعمال ثلاثة : فهى تساعد مجلس إدارة المدرسة على ضبط النظام وحسن سير العمل . وهى تؤدى جانباً من الاشراف على الناحية الصحية والادارية ، مثل القيام بالدعاية الصحية ، وعون طبيب المدرسة على نشر أصول الوقاية ، وحفظ أثاث المدرسة وما إلى ذلك . ثم هى تقوم على نشر الثقافة السياسية بتنظيم نوادى المدرسة وجماعاتها ومكتباتها وتوزيع النشرات والاعلانات . ذلك لأن رجال التربية من السوفييت يؤمنون بأن خير مايعينهم على تنشئة الصغار هو الاعتماد عليهم وتدريبهم على الحكم الذاتى ، لأنهم يرون أن هذا الأسلوب هو خير وسيلة لتنشئة المواطن فى الدولة السوفيتية .

وتقوم المدرسة السوفيتية بتربية التلاميذ على الروح الجمعية ، أى أنها تعمل على إعداد الصغار للدراسة والعمل والحياة بروح التعاون والتماسك . ولهذا يلجأ رجال التربية فى روسيا إلى تقوية الجماعات المدرسية وتنظيمها ، ودفع الطلبة إلى القيام بما يرفع المستوى الاجتماعى فى البيئة التى يعيشون فيها ، وتوثيق الصلات بين المدرسة والهيئات العامة التى فى منطقتها كالمجالس البلدية والاتحادات الزراعية .

أما أهم فكرة تقوم عليها التربية فى روسيا فهى التعليم للعمل . وهم يصلون إلى تحقيق هذه الفكرة بتوثيق الصلة بين الثقافة النظرية والعملية وبين التربية والحياة . فالأعمال اليدوية جزء من برنامج الدراسة ، كما أن المدرسة توجه جل اهتمامها إلى دراسة الصناعة فى الحاضر وفى الماضى . هذا إلى أن المعلمين يبذلون جهداً كبيراً فى حث التلاميذ على أداء خير ما يستطيعون القيام به من عمل منتج للجماعة التى يعيشون فيها .

ومن سمات المدرسة السوفيتية إلى هذا كله ، اشتراكها فى الحياة السياسية للدولة اشتراكا كبيراً ؛ فالتلاميذ يقرأون الصحف ، ويعقدون الاجتماعات للنقاش فى الأحداث السياسية الجارية ، ويشتركون مع الشعب فى الحركات العامة والاحتفال بالأعياد القومية .

ويتميز برنامج المدرسة الأولية هناك بالوحدة فى نظامه ، أى أن ألوان المعرفة المختلفة تهيأ للتلاميذ مندمجا بعضها فى بعض ، فلا ينفصل بعض مواد الدراسة عن بعض ، بل هناك « وحدة » أى موضوع أساسى يستمد منه التلاميذ ما ينبغى أن يلموا به من المعارف اللازمة من الطبيعة والعمل والجماعة الانسانية . ونذكر فيما يلى ثبتاً لهذه الوحدات :

السنة الأولى

فى المدارس الريفية :

١ — الخطوات الأولى فى المدرسة .

٢ — عمل الأسرة فى الخريف .

٣ — الوقاية الصحية . الاشتراك فى الاحتفال بعيد الثورة فى أكتوبر .

٤ — الاستعداد للشتاء وعمل الشتاء . الاشتراك فى الاحتفال بيوم لينين .

٥ — الحياة والعمل فى الشتاء .

٦ — اقتراب الربيع والاستعداد للعمل فيه . الاشتراك فى الاحتفال بعيد مايو .

٧ — عمل الربيع . اشتراك الصغار فى عمل الربيع .

٨ — الاشتراك فى الامتحان . معرض المدرسة

فى مدارس المدن :

١ — الخطوات الأولى فى المدرسة .

٢ — الوقاية الصحية .

٣ — حياة الأسرة وعملها فى الخريف .

٤ — الاستعداد للشتاء . الحياة والعمل أثناء الشتاء .

٥ — إقبال الربيع . العمل خلال الربيع .

السنة الثانية

فى المدارس الريفية :

١ — حياة الصغار وعملهم فى الصيف . بدء عمل الخريف فى المدرسة .

٢ — عمل الخريف فى القرية . الاشتراك فى عيد الثورة فى أكتوبر .

٣ — الوقاية الصحية فى الأسرة وفى القرية .

٤ — الحياة والعمل فى القرية أثناء الشتاء .

٥ — الاستعداد لعمل الربيع . الاشتراك فى عيد مايو .

٦ — عمل الربيع فى القرى . دراسة العمل فى فرق المدرسة . وضع الخطط لعمل الصيف .

فى مدارس المدن :

١ — حياة الصغار وعملهم أثناء الصيف .

٢ — المدينة فى الخريف .

٣ — الوقاية الصحية فى الأسرة والمدينة .

٤ — الحياة والعمل فى المدن .

٥ — الربيع . العمل فى الربيع .

السنة الثالثة

فى المدارس الريفية :

١ — القرية : الحصاد والمحصول . القرية وما يجاورها . الصناعات المحلية . الحياة القروية وهيئات القرية .

٢ — المدينة والقرية : المصانع والورش . الحياة فى المدينة . الحياة الثقافية فى المدينة والقرية .

٣ — الربيع فى القرية وعمل الفلاح : حرث الأرض . الأنهار والبحيرات فى الربيع . المراعى . خلايا النحل . اشتراك المدرسة فى عيد مايو . استقصاء ما عمل خلال السنة الدراسية .

فى مدارس المدن :

١ — المدينة : المدينة وما يجاورها . عمل المدينة . التجارة والحياة الثقافية فى المدينة .

٢ — القرية : زراعة الحقول . السماد . مواسم الفاكهة . البذور .

٣ — عمل الفرقة خلال الربيع والصيف . زراعة قطعة من أرض المدرسة . الأنهار والبحيرات . الغابات فى الربيع . المراعى .

السنة الرابعة

١ — اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . الكرة الأرضية . المناخ . أهمية الطبيعة والعمل فى الاقتصاد الزراعى فى مختلف نواحى روسيا . دراسة الزراعة فى البلاد الأجنبية . الحدود الشمالية للاتحاد السوفيتى . الحدود الجنوبية . صناعات الاتحاد . تاريخ الاتحاد السوفيتى . حكومة الاتحاد . الحزب الشيوعى . العلاقة بين الاتحاد السوفيتى والدول الأجنبية . خصائص أهم الدول الأجنبية (ألمانيا . انجلترا . فرنسا . الولايات المتحدة) .

٢ — عناية الحكومة السوفيتية برفع مستوى حياة العمال

٣ — موضوعات من الأعمال التى قام بها التلاميذ خلال السنوات الأربع .

وهكذا يكون برنامج «الوحدات» إحدى الخصائص التى تميز المدرسة السوفيتية . وهم يربطون به دراسة اللغة المحلية والرياضة على قدر الامكان .

اسحق رمزى

نجوى حنين...

تعالىْ أعيدى على مسمعى   أحاديثَ أيامنا الغابرهْ
ونجوى غرامٍ مضى عهــدُهُ
كما مرّت النســمة العابره
تعالى نُرتّلْ نشيد الخلو   د ونستلهم الذكرَ العاطره
بعيــدينْ عن عالمٍ كاذبٍ
غبى ، ودنيا رُؤًى ، ماكره !
تعالى نجــددْ عهود الهوى
وننسى ليالى النوى الغادره !
تعالى نَطِرْ فى سماء المنى   ودنيا بفيض الهوى زاخره

• • •

مُنَى النفس رفقاً بهــذا الفؤا
دِ قد حطمتــهُ عوادى الزمن
وشاب ولم يتخطّ الشــبا
بَ وهــدّت قواه ضروبُ المحن
وأرّقهُ الهمُّ والنــائبا
تُ وذكرى هواكِ ودنيا الإحن
إذا لم تكونى به بَرَّةً   ولم ترحمى مابه من شجن..
.. إذا لم تنيليه صفو الحنــا
ن وتضنى عليه الحياة فمن ؟
هلمى إلى الروض قبل الخريف
فيــذبلَ عودٌ ويذوى فَنَن

• • •

هواكِ يُغــرّدُ فى خاطرى
أناشــيدَ طُهرٍ سرتْ فى دمى
مُرَدَّدَةً فى حنايا الضــمير
بخفق الفــؤاد ونجوى الفم
تطيرُ بروحى إلى عالمٍ   لغير القداسة لاينتمى
فما بال قلبك يقســو علىّ
... ولستُ — وحقك — بالآثم
تعالى نَعِشْ فى ظلــال الرُّبى
تعالى نعش فى ســنا الأنجم
لئن كنتِ فى الحب «نازيةً»
فما أنا فيه سوى «مســلم» !

(أبو نبيح)   «النسر»

املئيهــا...

املئيها فلقــد أو   رثهــا الهم مرارا
وقد أترعتهــا دمـ   ـعاً وأشــجاناً ونارا
أنا ذاك القانط المتـ   ـخذ اليأس شــعارا
جاور الهمَّ فــأنـ   ـكر للهم جــوارا
فاملئى كأسىَ من عيـ   ـنيك أو فيك عقارا
ناوليها الشاعرَ المحـ   ـروم سراً وجهــارا
علهـا تطفئُ أو تر   وى أواماً أو أوارا
واجعلى من وهج الكأ   س على الليــل منارا
ليرى فيه الهــدى والر   شد ضُــلّالٌ حيارى
املئيها من بنات الـ   ـكرم أصــلا ونجارا
تشبه الفضــة أو تحـ   ـكى إذا شئت النضارا
واملئى كأس بنى النا   س ازدراء واحتقارا

• • •

قتل الشاعر إن ما ... نع فى العيش وداری
والجموح الشامس الصعـ ... ـبُ قد اضطر يجاری
جعلوا القربان والبو ... مَ سواء والهزارا
آه لو أن جناحيـ ... ـه مريشان لطارا
إن هذا الحرّ لا ير ... ضى على الذل قرارا
قرّبيها قبل أن يُدْ ... كِر الجام انكسارا
قبل أن تصبح فى الجا ... م ضباباً أو غبارا

* * *

كان هذا العمر ـ لا كا ... ن ـ سويعات قصارا
نحن نجم الصبح فيه ... ما بدا حتى توارى
الثلاثون تولو ... ن تباباً وخسارا
فى سبيل الأمل العذ ... ب اختصرناها اختصارا
وسعينا لا نبالى ... كبواتٍ وعثارا
ثم عدنا لا نرى إلا ... ضلالاً وازورارا
ووجدنا خيبة الآ ... مال نمسى قُصارى
فاملئى كأسىَ نسيا ... ناً وإن شئت ادِّكارا
أترعيها فلعلى ... أبصر الليل نهارا

(بغداد: الكرادة الشرقية) عبد الحميد الراضى

أجـــــواء ...

بعد العاصفة ...

هدأ اليم واستفاق ضلالى وطويت الشراع طى الليالى
ومضى الفلك لا تشيدى بحدوه
ولا رسم شطه فى خيـــالى
خشعت حــيرتى وكانت جنونا
وتمشى الفنـــاء فى أهوالى
حولى الماء والسماء ودنيا لا رفاق بها ولا آمالى
أين يا فلك غايتى هل طـواها
عاصف الأمس يا فلكى ويالى
أنا وحــدى هنا وتلك خطوبى
ذابلات كأنهـــا أطلالى
غنّ يا فلكىَ العجيب وأنشــد
هدأ اليم واستفاق ضــلالى

قبل الفجر ...

لاح فجرى وآذنت أحــلامى
وترامت على الشــنَى أوهامى
ذهب الليل فى غناء وخمر بين شعر وبين سحر حرام
يا رعى الله ليلنـــا كان فينا
من جنون النهى وطيب المنام
سنحات من الشـباب تقضت
ومعان من الهوى والهيـام
صاحبى أطفئ الشـموع فإنى
ألمح الفجـــر من وراء الغمام
لحظـــات وينقضى كل شىء
هاهو الفجر يا صــديق أمامى
غنّ ياليلى العجيب وأنشـد
لاح فجرى وآذنت أحــلامى

(القاهرة) **محمد العموني**

لا تقولى نسيت!

صرخ النــاىُ فى يدى فتمالى
قبل أن تهب الليــالى لحونهْ !!!
ويح قلبى إذا غضبتِ عليه وتجاهلت صوته وأنينه
لا تقولى نسيت يا أخت رُوحى
أنت تدرين ما مضى وتعيـنـه
كيف تنسين يوم سرنا إلى النيـ
ـل وهمنا على الضــفاف الأمينه؟
والعصافير حولنا تتغنى طربات سعيدة ... مجنونه
فتمليتِ فى الجمال على الشـــط
وهومتِ كالطيور الحنــونه
وعلى وجهكِ الجميـــل شعاعا
تُ أثارتْ مســتورَه ودفينه
لا تقولى نسيت يا أخت رُوحى
أنت تدرين ما مضى وتعينه !!

(كلية اللغة العربية) **عبد العليم عيسى**

أنباء وآراء

حول لصوص ولصوص أيضاً

نشرت « الثقافة » فى عدد ماض تعليقاً للشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران على مقال الباحث « ز » بهذا العنوان ، يقول الشاعر فى تعليقه إنه تذكر بيتين للشاعر الفرنسى الأوحد « لافونتين » فى هذا الغرض والمعنى ترجمها :

ما بين لصوص ولصوص فرق فى الأعلى والأدنى
لصغارهم الشنق الزرى وكبارهم الشرف الأسنى

وأقول : إن هذا المعنى الدقيق تحدث به النبى العربى صلى الله عليه وسلم . فقد أورد البخارى بسنده من عائشة أن قريشاً أهمهم المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم رسول الله (ص) ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِبّ رسول الله (ص) فكلم رسول الله (ص) فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » ثم قام فخطب قال :

« يأيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

وقد أورده الأستاذ محمود خاطر بك أيضاً فى مائته المختارة .

(المجمع اللغوى) على فوده

المهرجان الأدبى

أقامت لجنة الاحتفالات العامة مهرجانها الأدبى على مسرح دار الأوبرا الملكية ، حيث تبارى الشعراء والزجالون فى إظهار عواطفهم نحو صاحب العرش ، وبهجتهم بعيد مولده ؛ وكانت فرصة طيبة للشعراء من الشبان تكشف من مواهبهم .

وأهم ما يمكن أن يبديه اللاحظ على هذا الحفل ، أن ما أتى من الشعر فى هذه المناسبة قد تفاوت فى الجودة ، ولكنه استوى عند ظاهرة واحدة ، هى تتبعه المدرسة القديمة فى الشعر وجريه على منوالها ، اللهم إلا قصيدة الأستاذ محمود غنيم ، فقد استطاع أن يتخلص بها من بعض أساليب هذه المدرسة وسار مع الحياة الراهنة ؛ فقد عرض لنا ، بعد الديباجة ، صورة للملك الدستورى مع إلمام بما فى حياته من معان سامية وأمثلة رائعة فى صورة أقرب إلى الواقعية .

ولا يعنى هذا أى انتقاص من قدر المدرسة القديمة وأتباعها ، فمن الحق أنه كان فى كثير من قصائد السيدة منيرة توفيق والأستاذ على الغلال أبيات ومعان تنتزع الاعجاب وتستدعى التقدير .

صلاح الدين ومملكة أورشليم

هذه هى المسرحية التى اختارتها الفرقة القومية لتعرضها فى بدء موسمها الثانى لهذا العام على مسرح حديقة الأزبكية ، وهى ليست جديدة على المسرح ، فقد أخرجت من قبل منذ عشرين عاما ونالت تقدير الجمهور . ومن ثم فقد كانت فرصة طيبة لعقد مقارنة طريفة بين مسرح اليوم والمسرح منذ عشرين عاما .

والذين شهدوا هذه المسرحية حين أخرجت لأول مرة يقرون فى إعجاب بالخطوات التى خطاها الاخراج

المسرحي خلال تلك السنوات ، ولا يكتمون إعجابهم بتوزيع الأدوار التناسق ، وأدعى ما يثير هذا الاعجاب هو روعة المناظر التي وضعت لهذه الرواية ، وروعة تتفق والعصر الذي تمثله أصدق تمثيل .

وقد أخرج هـذه الرواية الأستاذ سراج منير ، واشترك فيها غالبية ممثلي الفرقة وممثلاتها ، وقد وفق كل منهم في أداء دوره .

تعاريف مرة

نشرت إحدى المجلات الأوربية التعاريف الآتية لبعض الـكلمات :

١ — الصـديق هو الشخص الذي نعرفه جيداً حين نحتاج إليه ، ولا نعرفه جيداً حين يحتاج إلينا . وتسمى الصداقة سطحية حين يكون الصـديق فقيراً ، وقوية حين يكون غنياً .

٢ — النصيحة هي أتفه الأشياء وأرخص المساعدات

٣ — الثرثار هو الشخص الذي يتكلم حين تريد أن تتكلم .

٤ — المصيبة هي إنذار من القدر بأن هذه الحيـاة ليست تحت أمرنا . وهي نوعان : الأول البلايا التي تصيبنا ، والثاني الخيرات التي ينالها غيرنا .

٥ — المشورة : هي أن تنال موافقة الغير على ما انتهى إليه رأيك وصممت عليه .

٦ — الواجب هو الدافع الذي يسوقنا في طريق المنفعة على أساس الرغبة .

٧ — الحاضر هو الشخص الذي يضع يده في جيبك ولسانه في آذانه وتفته في صبرك .

وللقارئ أن يتأمل هذه التعاريف التي تبدو من خلالها نظرة مبتكرها السوداء إلى كل معاني الحياة . . .

لماذا يشربون القهوة ؟

كان جستاف الثالث ملك السـويد في القرن الثامن عشر ، مغرما بعمل الأبحاث وإجراء التجارب عن كل شيء يخطر له .

وفي يوم من الأيام بينما كان مشغولا مع بعض مستشاريه بدراسة الأضرار التي يحدثها شرب القهوة والشاي ، أدخل عليه اثنان قد حكم بإعدامهما ليقرر الوسيلة التي يعدما بها ، وذلك حسب التقليد المتبع في ذلك العصر .

وحانت الملك فرصة فتفاوض مع مستشاريه ، ثم نظر إلى الرجلين قائلا :

— لقد أبدلت حكم الاعدام عليكما بالسجن ، على شرط أن يتناول أحدكما كمية من الشاي ، والآخر كمية من القهوة يومياً طوال حياتكما . . .

وطالت التجربة ، فقد عاش الرجلان طويلا ، وأخيراً مات أحدهما قبل الآخر في سن الثالثة والثمانين ، وكان هو الذي يشرب الشاي ، على حين عاش زميله بعد ذلك عدة سنوات . . .

ولعل هذا هو السر في أن أكثر كمية تستهلك من البن في العالم هي تلك التي تستهلكها السويد بالنسبة لعدد سكانها .

أتهم حسانين سيد الجباس بقال بباب الشعرية في القضية رقم ٢٢٨ سنة ١٩٤٠ تسعيرة المقيدة بالاستئناف رقم ٩٧٢٨ سـنة ١٩٤٠ وحكم عليه في ١٩٤٠/٩/٣٠ بغرامة ١٠٠ قرش والنشر في الثقافة والرسالة لبيعه ملح ناعم بأزيد من التسعيرة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٥ — الثلاثاء ٩ من صفر سنة ١٣٦١ — ٢٤ من فبراير سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

ميدان الحرب فى الشرق الأقصى

تدور اليوم فى الشرق الأقصى حرب واسعة المدى ، فسيحة الميدان فُسحةً تتضاءل بجانبها ميادين الحرب فى أوربا . وقد توزع هذا الميدان وتناثرت أجزاؤه ، بحيث بات من الصعب على من يدرس تطورات هذه الحرب أن يتابع أحداثها ، وأن يساير مجراها وهى تدور فى أرض لم نألف التحدث عنها ، والالمام بمواقعها وبلدانها وأنهارها وجزرها . لهذا قد يكون من النافع أن نحاول شرح هذا الميدان قبل التحدث عما يدور فيه من قتال .

وربما كان مما يسهل فهم الموقف الحربى ، ويساعد على إدراك أهميـة تطور الحوادث فى كل موقع أن نقسم ميدان الحرب فى الشرق الأقصى إلى قسميه العظيمين : الميدان الجزرى ، والميدان القارى ، مع التسليم بأن القسمين مرتبطان أشد الارتباط ، متصلان اتصالا وثيقاً .

إن تأمل الميدان الجزرى الهائل وحده كاف لأن يروعنا . وحسب القارئ أن يذكر أن جزر الفلبين وحدها تشتمل على نحو سبعة آلاف جزيرة . ومع أن كثيراً من هذه الجزر ليس له اسم ، وكثيراً منها غير مأهول ، وبعضها صغير الحجم بحيث لا يسهل أن نجده فى الخرائط التى بين أيدينا . ولكن أحداث الحرب من الخطر والتعقيد بحيث لا يجوز الاغضاء عن جزيرة مهما كانت صغيرة ، مأهولة أو غير مأهولة . وقد يكون الموضع القليل المساحة شأن أى شأن حين تنصب فوقه المدافع ، أو تختفى بجانبه الغواصات .

وتمتد جزر الفلبين شمالا بحيث تصبح أطرافها الشمالية قريبة جداً من فرموزا التابعة لليابان ، وليس بين الاثنتين سوى نيف وستين ميلا . وتمتد أطرافها

الجنوبية بحيث تصل إلى مدى ثلاثين ميلا من جزيرة بورنيو ، وهي أضخم جزر الهند الشرقية وأعظمها مساحة .

والحقيقة أن جزر الفلبين — برغم تبعيتها للولايات المتحدة ، وبرغم اللغة الاسبانية التي يتحدث بها السكان — ليست سوى جزء من ذلك المجموع الهائل من الجزر الذي ندعوه جزر الهند الشرقية ، وهي بالنسبة لليابان مفتاح تلك الجزر جميعاً ، والطريق الذي يوصل إليها . وجزيرة فرموزة التابعة لليابان وهي أقرب ممتلكات اليابان إلى الفلبين ، كانت من غير شك محتشدا للقوات اليابانية ونقطة الوثوب ، التي بدأ منها هجوم اليابان الفاجئ منذ شهرين ونصف شهر .

إن مساحة الفلبين تقل عن مساحة بريطانيا العظمى قليلا (١١٥ ألف ميل مربع) . ولكن سكانها لا يزيدون على أربعة عشر مليونا من الأنفس . وفي وسعنا أن نتصور هذه الجزر العديدة ، وشواطئها المتناهية في الطول . وأن ندرك أية قوة بحرية يتطلبها الدفاع عن تلك الجزر .

فاذا ذكرنا مع هذا كله أن الدولة العظيمة التي ترعى الفلبين وتحميها ، هي دولة الولايات المتحدة الأمريكية التي يفصلها عن الفلبين أكبر المساحات المائية في العالم ، وهي المحيط الهادي . أدركنا أن الدفاع عن تلك الجزر ليس من الهنات الهينات . وأن الجمهور الأمريكي الديمقراطي الذي آمن بالسلم ، واطمأن إلى أن عظمة الولايات المتحدة كافية لدرء كل خطر ، ووجد بين قواده من يخدر أعصابه ، ويرقده على فوهة البركان ، هو آخر من يتحرك لبذل مجهود عنيف . استعداداً لعدوان قد يقع وقد لا يقع ...

لقد تحدث وزير من وزراء أمريكا بأن الدولة قد اتخذت العدة التي حسبتها كافية للدفاع عن الفلبين ، ولكن تلك العدة كانت دون ما يتطلبه العدوان الياباني الهائل ، الذي لم تقدر ضخامته قدرها الصحيح . وقد استطاع القائد الأمريكي أن يعتصم بقواته بشبه جزيرة باتان إلى جانب خليج مانيلا ، حيث يقاوم بجيشه الصغير مقاومة تبعث الاعجاب ، أمام جيوش يابانية لا تزال تتدفق على الجزر ، ويزداد عديدها كل يوم . وقد انقطعت الصلة بينه وبين موارد الأمداد ، ومع ذلك فهو يقاتل مستبسلا في شبه جزيرته بعد أن سقطت الجزر كلها في أيدي العدو .

***

وجزر الفلبين هي كما قدمنا مفتاح جزر الهند الهولندية بالنسبة إلى الغزاة الوافدين من الشمال ، ولم يكن بد بعد الاستيلاء على الفلبين التي هوجمت من كل جانب ، من أن يتحول العدوان نحو سائر جزر الهند الشرقية ، بعد أن تتخذ جزر الفلبين قاعدة ينبعث منها العدوان الجديد .

تمتد جزر الهند الشرقية — بقطع النظر عن الفلبين — من الطرف النهائي لآسيا الجنوبية الشرقية — عند شبه جزيرة الملايو ، وتستمر في امتدادها نحو الشرق — بانحراف قليل إلى الجنوب — حتى تنتهي إلى جزيرة غينيا الجديدة — وهي من أكبر جزر العالم — الملاصقة لأستراليا . وليس في العالم كله مجموعة هائلة من الجزر تضارع هذه الجزر المحتشدة كلها في مساحة عظيمة ، وكل جزيرة ملاصقة لصاحبتها ، وكثير منها ذو حجم عظيم — وهي تصل ما بين قارة آسيا وقارة أستراليا اتصالا مستمراً ، لا يقطعه سوى مضايق صغيرة المساحة من المياه الدافئة التي يخترقها خط الاستواء .

إن امتداد هذه الجزر من الشرق إلى الغرب يبلغ زهاء ثلاثة آلاف من الأميال ، وهي منحصرة ما بين خط العرض العاشر شمال وجنوب خط الاستواء ، وتشتمل على جزر عظيمة المساحة مثل سومطرة ، وبورنيو وغينيا الجديدة . وجزر متوسطة المساحة مثل جاوه وسيليبس ، وأخرى صغيرة المساحة نسبياً ، وعددها كبير جداً . وهنالك مجموعات عديدة من الجزيرات الصغيرة لا تقع تحت حصر . على أن أهم هذه الجزر جميعاً من غير شك هو جزيرة جاوه الغنية بمعادنها وثروتها الزراعية . ويزيد سكانها على أربعين مليوناً من الأنفس ؛ وموقعها

فى جنوب المجموعة ، وفى وسطها ، جعلها آخر الجزر اصطلاءً بنيران تلك الحرب ، ولو أنها لم تسلم من الغارات الجوية المتتالية .

تؤلف هذه الجزر العظيمة ، ميداناً غريباً من ميادين الحرب ، ليس لنا عهد بمثله فى تاريخ الحروب . ميدان أجزاؤه متصلة منفصلة ، ومساحته من الشرق إلى الغرب تزيد على ثلاثة آلاف ميل ، ومن الشمال إلى الجنوب زهاء ألف من الأميال . وقد بلغته الحرب من أطرافه جميعاً ، من سومطره إلى أستراليا ! وهكذا نرى لهيب القتال فى هذا الميدان وحده قد اندلع فى مساحة تبلغ ثلاثة ملايين من الأميال المربعة !

ذلك هو الميدان الجزرى لهذه الحرب ، اللهم إلا ما يكمله من جزر عديدة تمتد وسط المحيط الهادى ، بعضها تابع للولايات المتحدة الأمريكية ، وبعضها تابع لليابان ، ومنها التابع لبريطانيا وأستراليا وفرنسا الحرة . وهذا الميدان على اتساعه قابل للامتداد والاتساع ، فقد يمتد نحو الجنوب إلى أستراليا ، فتتضاعف بذلك مساحته ، وتزداد رقعته اتساعا وبعدا .

* * *

أما الميدان القارى ، فميدان لا يقل عن الأول خطراً ، ميدان لم يكن أحد يتوقع أن يأتيه الخطر من الجهة التى أتى منها . ولولا انهيار فرنسا فى صيف عام ١٩٤٠ ما كانت الحرب هنا أمراً ممكنا . فالميدان القارى عبارة عن مساحة واقعة فى الطرف الجنوبى الشرقى من آسيا ، يبدأ من برما فى الشمال إلى بلاد الملايو وجزيرة سنغافورة فى الجنوب . مساحة طولها ألف ميل ، ولكنها منحصرة بين البحار ، بحيث لا يتجاوز اتساعها فى بعض المواضع خمسين أو ستين ميلا ! فهى فى معظمها عبارة عن شبه جزيرة ضيقة تحتل بلاد الملايو ثلثها الجنوبى ، وبلاد سيام ثلثها الأوسط ، والثلث الشمالى جزء من برما ... وتفصل هذه الأرض مياه المحيط الهادى عن مياه المحيط الهندى ، والاستيلاء عليها يمكن القوات اليابانية من أن تصل إلى بحر الهند ، وأن تتناول بالأذى السفن الكثيرة التى تجرى فى هذا البحر .

هذا الميدان القارى ينتهى من الجنوب بجزيرة سنغافورة ، وهى برغم كونها جزيرة قريبة من جزر الهند الشرقية ، ولا يفصلها من سومطرا سوى بوغاز ملقا الضيق ، فإنها مع هذا جزء من قارة آسيا ، وليست من جزر الهند الشرقية . فجزيرة سنغافور ملاصقة تمام الملاصقة لشبه جزيرة الملايو ، لا يفصلها عنها سوى قناة طبيعية تسمى بوغاز جوهور ، لا يكاد يزيد اتساعها على ألف متر فى أى جزء من أجزائها . وقد أمكن وصل الجزيرة بالقارة بجسر .

ولكن جزيرة سنغافورة — على مساحتها الصغيرة التى لا تتجاوز مائتين من الأميال المربعة — ذات موقع من أجل المواقع الحربية وأبعدها خطرا . فهى فى الوضع الذى يتحكم فى الطريق المائى الضيق الذى يصل المحيط الهادى بالمحيط الهندى ! فإن اتصال جزر الهند الشرقية وامتدادها الهائل من سومطرا إلى استراليا ، يجعل من الصعب أن تجد السفن منفذاً آخر بين المحيطين سوى هذا المضيق . ولما لهذا الموقع من الخطر الحربى الجسيم ، ولعلو شأنه من الوجهة الاقتصادية . عنيت الحكومة البريطانية بإنشاء قاعدة حربية فيه تتسع لأسطول عظيم من السفن ، وقد زودت بالأحواض وبالعدة الكثيرة اللازمة لخدمة السفن وإصلاحها . وأنفقت عشرات الملايين من الجنيهات من أجل إعداد الجزيرة لتكون قاعدة بحرية من الطراز الأول ! ومع ذلك فإن الاغارة على سنغافورة من ناحية القارة أمر لم يكن فى حسبان أحد . ولهذا لم تحصن سواحلها الشمالية ، وبذلت العناية لتحصينها تحصينا متينا من جهة الجنوب ، وهى الجهة التى كان ينتظر أن يعتدى عليها منها بواسطة القوات الآتية من المحيط الهادى ! أى الجهة الوحيدة التى كان ينتظر منها العدوان .

إن الحرب في الميدان القارى باتت أمراً ممكنا منذ تدهورت فرنسا ، واستطاعت اليابان أن تحتل الهند الصينية ، وأن تفعل فيها ما تشاء . ولولا هذا الاحتلال لكان من المستحيل على اليابان أن تجد قاعدة تثب منها إلى بلاد الملايو . لقد قضت اليابان عاماً وبعض عام تحشد الجنود وتنشىء القواعد في الهند الصينية . ولا شك أن ما حشدته من الجنود والمعدات كان فوق كل تقدير وجاوز كل حساب . بدأت الحرب القارية بالهجوم على شبه جزيرة الملايو وعلى سيام التي لم تلبث أن سلمت وتحالفت مع اليابان . ومنذ ذلك الحين أخذت الحرب القارية تتجه في طريقين :

الأول نحو الجنوب وجهته بلاد الملايو وغايته الأولى سنغافورة . ولكن من الممكن أن يتسع بعد ذلك لكي يساعد الغزو على سومطرة وجزر الهند الشرقية .

أما الاتجاه الثاني فغايته المزدوجة غزو برما ، وقطع طريق الامداد عن الصين . وقد بات هذا الغزو ممكنا منذ « المحالفة » بين سيام واليابان . وقد قطعت القوات اليابانية مرحلة كبيرة نحو الوصول إلى رانجون ، ولم يبق دونها سوى مائة ميل . ولقد كانت منطقة الحدود بين سيام وبرما شديدة الوعورة ، تخترقها الجبال الوعرة . ولكن القوات اليابانية استطاعت بجهود شاق أن تتسلق هذه الجبال وأن تصل إلى الاقليم السهل القريب من مولمين على مصب نهر سالوين . ثم اخترقت هذا النهر عند مصبه ، ووصلت إلى مرتبان في الجانب الغربي من النهر ، ثم أخذت تزحف على نهر بلين ، في الطريق إلى رانجون عاصمة برما ، التي أصبحت اليوم الهدف المباشر للهجوم الياباني . ولكن الاستيلاء على رانجون ، بل على برما كلها لاينهي الحرب في هذا الميدان ، فمن وراء برما بلاد الهند العظيمة ، ومن وراء الهند بلاد السند ، ومن بعدها بلاد الأفغان والشرق الأوسط كله . ولهذا سمعنا أقوالاً بأن القوات اليابانية تريد الزحف حتى تقابلها القوات الألمانية الآتية من

القوقاز أو من لوبيا . وسواء كان هذا القول جداً أو عبثاً ، فانه مما لا شك فيه أن الميدان القارى الذى دخلته اليابان ميدان لايزال بعيد المدى مترامي الأطراف وإذا كان من الجائز لليابان في الميدان الجزرى أن تقنع بالاستيلاء على جزر الهند الشرقية ، ثم تقف موقف الدفاع . فان من الصعب أن نتصور خطاً للدفاع في الميدان القارى تقف وراءه الجيوش المغيرة .

لقد حاولنا أن نشرح ميادين الحرب في الشرق الأقصى بتقسيمها ، على هذه الصورة إلى قسمين ، ولكننا لابد أن نذكر دائماً أن الميدانين متصلان ، وكل منهما يساعد الآخر . والنصر أو الهزيمة في شطر له أثره البليغ في الشطر الآخر .

وهذه الميادين على تعددها ترتكز كلها على أمر واحد ، هو في النهاية الحكم الفصل في هذا النزاع ، وهذا الأمر هو القوة البحرية . فان قاعدة التموين الكبرى لليابان كانت — وستظل دائما — جزر اليابان ، التي تبعد عن ميادين القتال بآلاف من الأميال ولو ضعفت القوة البحرية لليابان لانهارت كل هذه الفتوح الواسعة الهائلة انهياراً سريعا ...

من الأمور من اليابان في حروبها السابقة شدة التكتم في استعداداتها وادخارها قوات احتياطية عظيمة . ولا شك في أن أحداً من الناس لم يقدر أن تكون استعداداتها عظيمة بهذا المقدار . ولليابان اليوم السيادة البحرية في المحيط الهادى . ولا ينتظر أن يجازف الحلفاء بحرب بحرية حتى تستكمل الولايات المتحدة مدنها البحرية . ولا شك في أن فقدان الجزر المديدة يفقد دول الحلفاء القواعد البحرية التي تستطيع أن تعمل منها . ولكن هنالك ناحية واحدة في التوسع الياباني تبعث على التفكير ، وهي أن احتلال هذه الجزر المديدة يتطلب دفاعا قويا ، لا بد أن يستوعب كثيرا من قوات اليابان المدخرة . وقد كان الدفاع عن هذه الجهات المتباعدة الأطراف ، التي يفصل بعضها من بعض آلاف الكيلومترات أمراً شاقا لدولة هولندة وأمريكا وبريطانيا ، وهذه الصعوبات لابد لليابان أن تمد العدة لمواجهتها والتغلب عليها .

محمد عوض محمد

مولانا جلال الدين الرومي

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

تكايا المولوية لا تزال قائمة في مصر والشام . وكانت إلى عهد قريب كثيرة في أرجاء تركيا . وكان لها عند القوم مكانة عظيمة . وكانت مشيخة الطريقة في قونية حيث عاش ومات صاحب الطريقة . وكان للشيخ المسمى چلبي قونية منزلة عند السلاطين العثمانيين . وجرت سنتهم أن يقلد الشيخ سيف عثمان من يتولى الملك من أبنائه . ونشأت تكايا المولوية كثيراً من كبار الصوفية ، وأخرجت أدباء كباراً ، وكان لها آثار شتى في العالم الاسلامي .

المولويون ينتسبون إلى «مولانا» . وهو جلال الدين الرومي الصوفي الشاعر العظيم صاحب «الكتاب المثنوي» الذائع الصيت ، والعظيم الأثر في العالم الاسلامي الشرقي .

وقد روى عن الشاعر الصوفي الكبير عبد الرحمن الجامي بيتان معناهما : « إن كنت عالما بأسرار المعرفة فدع اللفظ واقصد المعنى : إن المثنوي المعنوي المولوي هو القرآن في اللسان الفارسي . ماذا أقول في وصف هذا العظيم ؟ لم يكن نبياً ولكنه أوتي الكتاب » .

وقد شرح المثنوي كثيراً بالتركية والفارسية والعربية ، وطبع شرحه العربي في المطبعة الوهبيّة سنة ١٢٨٩ ، كما طبع في بولاق الكتاب نفسه وترجمته التركية التي نظمها الشاعر فيضي . ولا تزال هذه الطبعة أجمل طبعات المثنوي حتى يومنا . وفي آخر هذه الطبعة أبيات عربية لرئيس المصححين آخرها :

وإن بدا كالبدر في كله ... وقد زها بالحسن طبعا وضعه
فصحح وقل يا صاح في تاريخه: ... «المثنوي قد أتم طبعه»

وحساب الشطر الأخير بالجمل ١٢٦٨ ، وهو تاريخ الطبع . فقد أخرجت مطبعة بولاق أجمل طبعات المثنوي قبل ثلاث وتسعين سنة .

ولكن معرفة هذه البلاد بالمثنوي وصاحبه لم تزد في هذا القرن الذي مضى بعد طبع الكتاب إلا حين شرعت كلية الآداب تعلم الأدب الفارسي منذ خمسة عشر عاماً . وقد زادت عنايتها بالآداب الفارسية وما فيها من التصوف ، وبالآداب الشرقية الأخرى ، فأنشيء منذ سنتين معهد اللغات الشرقية بكلية الآداب . والمثنوي يدرس اليوم لطلاب هذا المعهد .

وقد سبقنا المستشرقون إلى العناية بجلال الدين وشعره ، فترجم الكتاب إلى لغات أوربية عدة . وكان أكثر الغربيين عناية به مستشرقو الانكليز . وقد بلغت هذه العناية غايتها بأعمال الأستاذ نكلسون الذي أتم أعماله الكثيرة في التصوف الاسلامي بترجمة المثنوي كله إلى الانكليزية ، وطبع الأصل الفارسي والترجمة .

— ٢ —

موضوع كلامي التعريف بجلال الدين الرومي ، والتعريف بأثريه الخالدين : المثنوي والديوان ، وتبيين مكانته في التصوف والشعر والآداب الاسلامية كلها

والكلام قسمان : الأول تاريخ جلال الدين وأسرته ، والثاني كتبه وآراؤه .

ذكر جلال الدين نفسه في المقدمة العربية التي صدر بها المثنوي فقال : « يقول العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة الله تعالى محمد بن محمد بن الحسين البلخي » لم يزد على هذا في تسمية نفسه وتسمية أبيه وجده . ويكاد الذين ترجموا لجلال الدين يجمعون على أنه بكري من ولد أبي بكر الصديق ، ومنهم من يذكر سلسلة نسبه إلى أبي بكر ، فيجعله محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد بن محمود بن مودود ابن ثابت بن المسيب بن المطهر بن حماد بن عبد الرحمن بن أبي بكر . وروى عن شمس الأئمة الحلواني نسبة أخرى

تصل جلال الدين بإبراهيم بن أدهم .

ولا أود أن أطيل الوقوف على هذا النسب ، فليس يتسع المقام له ، ولا أريد أن أشارك المتنازعين فى نسبه من الفرس والترك كما تنازعوا فى ابن سينا وغيره ، فإن هذه العصبيات أبغض شيء إلى هؤلاء الكبراء الذين نؤرخ لهم . وخير ما يقال فى جلال الدين وأمثاله ممن نشأتهم الحضارة الاسلامية وغذتهم بمعارفها أن ينشد قول الشاعر :

أبى الاسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وبعض المؤلفين يذكر جدّ جلال الدين باسم الحسين الخطيبى بن أحمد الخطيبى .

والذى لا يرتاب فيه الباحث أن مولانا من أسرة بلخية نابهة . وليس لدينا ما يدعو إلى الارتياب فى اتصالها بالمصاهرة بملوك خوارزم . تزوج حسين جد جلال الدين ملكة جهان بنت علاء الدين تكش خوارزمشاه (٥٦٨ — ٥٩٦ هـ) ، ويقول الغالون فى تعظيم هذا البيت إن هذا الزواج كان بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وله من هذه الزيجة محمد بهاء الدين ولد ، وهو والد جلال الدين . ويروى أن الحسين أبا بهاء الدين توفى وابنه فى الثانية من عمره ، فلما كبر بهاء الدين وتصدى للتعليم والوعظ ذاع صيته ؛ وأقبل عليه الطلاب من كل صوب ، حتى لقب سلطان العلماء — ويروى أن رسول الله لقبه بهذا اللقب .

يتفق الرواة على أنه وقع نفور بين بهاء الدين وبين خاله ملك خوارزم محمد قطب الدين (٥٩٦ — ٦١٧) ، وهو الملك الذى أثار التتار على البلاد الاسلامية من بعد ، فذهبوا بملكه وترك لابنه جلال الدين منكبرتى ملكا فى أيدى التتار جاهدهم عليه اثنتى عشرة سنة فى الشرق والغرب إلى أن قتل مخلفاً على الخطوب سيرة لا تمحى .

ويعزى النفور الذى وقع بين سلطان العلماء وملك خوارزم إلى غيرة الملك من مكانة الشيخ . ويروى أن خوارزمشاه أرسل إلى بهاء الدين يقول : « يرى السلطان أن يترك ملكه لك ويذهب إلى بلاد أخرى » ، فأجاب بهاء الدين : « إن الملك يستهزئ بنا ويأخذنا بكلام الحاسدين . ولسنا فى حاجة إلى ملكه الذى يعرضه علينا ، فليطمئن الملك ، فسنذهب نحن » . ثم أمر بالاعداد للسفر ، ولم يثنه عن السفر ندم السلطان ولا حزن العامة والمريدين . ثم رحل ومعه ثلاثمائة من تلاميذه ، وحمل معه أحمالا كثيرة من الكتب ، وتوجه تلقاء بغداد سنة ٦٠٧ ، وابنه محمد جلال الدين فى الرابعة من عمره ؛ فلما مر بنيسابور لقيه جماعة من العلماء منهم الصوفى الشاعر الكبير فريد الدين العطار . ويقال إن العطار بشر بهاء الدين بمستقبل عظيم لابنه ، وبارك على الطفل وأعطاه كتابه « إلاهى نامه » (وهى منظومة صوفية طويلة فيها زهاء ستة آلاف وخمسمائة بيت ، وقد طبعت فى استانبول منذ سنتين — نشرها الأستاذ ريتر) .

وواصل بهاء الدين ورفاقه السفر حتى بلغوا بغداد ، فاستقبله جماعة من كبرائها وعلمائها فيهم الشيخ شهاب الدين السهروردى ، وأنزلوه فى المدرسة المستنصرية التى بناها الخليفة المستنصر بالله العباسى ، ولا يزال كثير من أبنيتها قائماً مشرفاً على دجلة (والسهروردى الذى استقبل بهاء الدين ينبغى أن يكون أبا حفص عمر المتوفى سنة ٦٣٢ ، وأما السهروردى الكبير أبو النجيب فقد توفى سنة ٥٦٣) .

ولبث فى بغداد حيناً يعظ ويعلم ، ثم سار إلى الحجاز للحج ثم دمشق .

وكانت له بعدُ رحلات فى بلاد الروم (الأناضول) وأرمينية ، فأقام فى أرزنجان بأرمينية وفى ملطية مدداً مختلفة ، ثم انتقل إلى لارندة (قرمان) ، فأقام سبع سنوات يدرس فى المدرسة التى بناها الأمير موسى .

ثم دعاه السلطان علاء الدين السلجوقى (٦١٦ — ٦٣٤) إلى مدينة قونية حاضرة ملكه ، فرحل إليها

سنة ٦٢٣ واستقر بها بعد رحلات استمرت زهاء سبعة عشر عاما ، وأقام فى مدرسة ألتونبا وعلم بها حتى توفى ضحى يوم الجمعة لثمان عشرة خلون من ربيع الثانى سنة ٦٢٨ .

٣ — جلال الدين

وُلد جلال الدين فى بلخ سادس ربيع الأول سنة ٦٠٤ هـ ، ورحل به أبوه وهو طفل فى سن الرابعة . وصحبه فى حله وترحاله ، وتزوج فى مدينة لارندة ، وسنه إحدى وعشرون ، تزوج جوهر خاتون بنت لالا شرف الدين السمرقندى ؛ ومن هذه الزيجة ولد له ابناه علاء الدين وسلطان ولد . ويظهر أن جوهر خاتون لم تعش طويلا ، فتزوج بعد وفاتها أخرى عاشت بعده .

توفى سلطان العلماء برهان الدين وعمر جلال ٢٤ سنة ، فخلف أباه على درسه . فكيف درس جلال حتى تأهل لأن يخلف سلطان العلماء فى هذه السن ؟

لا ريب أن جلال الدين كان ذا مواهب نادرة وأن مخايل الذكاء وأمارات التصوف بدت عليه فى صباه . ويروى أنه كان مجدا فى تحصيل العلم لا يفتر فى السفر والإقامة .

وأما شيوخه فأولهم أبوه ، فلا ريب أن جلال الدين حضر درسه منذ أعدته السن للتلقى عنه . ويروى كذلك أنه تلقى العلم عن شيوخ فى دمشق وحلب ، وأنه أخذ التصوف عن برهان الدين الترمذى أحد أصحاب أبيه ، ومن صلاح الدين زركوب وحسام الدين جلبى ، ولا أعرف من درسه وشيوخه أكثر من هذا .

تولى جلال الدرس فى أربع مدارس فى قونية وكثر طلابه . واستمر على نهج أبيه فى درس العلوم الدينية بضع عشرة سنة ، ثم كان حدث غيّر وجهة جلال وأثر فى نفسه أثراً بليغا . ولست أستطيع تأريخ هذا الحدث ، ولكنى أرجح أنه وقع وجلال الدين بين الخامسة والثلاثين والأربعين من عمره ، وإن أرخه بعض الرواة تأريخا دقيقا : ٢٦ جمادى الثانية سنة ٦٤٢ .

ذلكم الحادث العجيب هو لقاء هذا الدرويش العجيب شمس الدين التبريزى ، فلا بد من وقفة على هذه المرحلة من تاريخ مولانا ، فعندها كان منعرج الطريق .

٤ — شمس الدين التبريزى

هو محمد بن على بن ملك التبريزى . قيل إن نسبه ينتهى إلى كيا بزرگ أميد خليفة حسن الصباح شيخ الاسماعيلية ، وكان أبو شمس الدين من الاسماعيلية فخالفهم وأحرق كتبهم ودعا إلى الاسلام فى قلاعهم ، وأرسل ابنه شمس الدين إلى تبريز لتلقى العلم .

ويقال أيضا إنه ولد فى تبريز وكان أبوه بزّازاً بها .

وأخذ التصوف عن شيوخ فى تبريز . وله سنة فى الطريقة يذكره بعض المؤرخين منهم دولتشاه السمرقندى صاحب تذكرة الشعراء .

يقول دولتشاه إن شمس الدين كان فى صباه جميلا رائعاً حتى ربى بين النساء غيرة عليه ، ثم كثرت سياحاته حتى لقب « پرّنده » أى الفراشة .

وكان قوى النفس ، جريئاً مؤثراً فى سامعيه شديداً عليهم ، يلقب من يعظهم أحياناً بالثيران والحمير . وكان قليل الدرس فيما يظهر ، ولكن ثورة نفسه واعتقاده أنه ملهم كانا يسحران من يلقاه .

وقد وصفه الأستاذ نكلسون المستشرق الانكليزى فى مقدمة كتابه الذى سماه قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز ، وبيّن مشابهته سقراط فى ثورته وقوته ، وأن كلا منهما وجد من يعبر عن آرائه الخشنة بكلام بليغ رقيق .

ذلكم إجمال ما يروى عن هذا الصوفى العجيب الذى نقل جلال الدين من مدرس يعلم العلوم الدينية إلى صوفى منقطع للرياضة الصوفية ، ونظم الشعر وسماع الموسيق .

جاء شمس الدين إلى قونية ونزل فى خان شكرريز ،

ويقال إن شيخه ركن الدين أرسله إلى جلال الدين ليدخله في الطريق الصوفي .

وتروى قصص من اللقاء الأول بين جلال وشمس يراد بها تمثيل ما بين علماء الظاهر والصوفية من خلاف ، وتبيين سرعة تحول جلال الدين من هؤلاء إلى هؤلاء .

وتأثير شمس في جلال ، ونفوذه إلى سرائره ، وتمكنه في قلبه لا يحتاج إلى بيان ؛ فأشعار جلال الدين في المثنوي وفي ديوانه الذي سماه ديوان شمس تبريز ، فياضة بالحب والاجلال والمبالغة في إعظام شمس والاعجاب به ، ولكن لا أحسب جلالاً تحول طفرة واحدة من العلماء إلى الصوفية ، فقد نشأ في بيت تصوف ، وأخذ عن شيوخ الصوفية ، ودل شعره على استعداد لها وميل إليها ، فلم يكن لقاء شمس إياه إلا إثارة للشوق الذي في نفسه ، وتأجيجاً للحرقة التي في فؤاده .

أخذ جلال الدين يهجر درسه ويأنس إلى التبريزي ، ويخلو به ويسايره في النزهات . ورأى تلاميذ جلال الدين أن هذا الضيف العجيب أخذ يستبد بأستاذهم ، ويصرفه عن سبيله ، ويحيد به عن سنن العلماء ، فثاروا بهذا الدرويش ، واضطروه إلى أن يهرب من قونية إلى تبريز . ولكن جلال الدين لم يصبر عنه ، فذهب إليه وأرجعه إلى قونية . ويقال إنه خرج إلى دمشق أيضاً ، فأرسل جلال الدين ولده فرجع به إلى قونية .

ثم تقع ثورة يختفي بعدها التبريزي وتنقطع أخباره ، وتختلف الأحاديث في أمره ؛ فيقال إن شرطة السلطان قتلته ، ويقال قتله بعض تلاميذ جلال الدين ، وشارك في قتله علاء الدين بن جلال الدين . ويقال إن سلطان ولد الابن الثاني لجلال تقصى أخباره حتى أخرج جثته من بئر ودفنها . وفي قونية اليوم مزار لشمس الدين مشيد عليه قبة عالية . وكانت وفاة التبريزي فيما يظهر سنة ٦٤٥

— ٥ —

شُغل جلال بالرياضة وشُغف بسماع الموسيقى والغناء ونظم الأشعار وإنشادها ، وردّد اسم شمس الدين في كثير منها ، ونظم الكتاب المثنوي ، واجتمع إليه المريدون فراضهم على طريقته التي عرفت من بعد باسم المولوية .

واستمر على هذا إلى أن توفي مغرب يوم الأحد خامس جمادى الثانية سنة ٦٧٢ ، ودفن بجانب أبيه في القبة التي شادها له علاء الدين السلجوقي . ولا تزال قائمة في قونية . وقد زاد عليها سلاطين العثمانيين أبنية اتخذت تكية المولوية على الشكل الذي نرى اليوم في قونية .

وكان جلال الدين رحمه الله معتدل القامة ، ليس بالبادن ولا النحيف ، وجهه مشرب بحمرة ، ثم نحف ومال لونه إلى الصفرة بطول المجاهدة .

وترك ابنه سلطان ولد صاحب الأثر المحمود في الأدب التركي العثماني .

وخلف مولانا في مشيخة الطريقة إنفاذاً لوصيته خديمه وتجيبه حسام الدين جلبي ، حتى توفي سنة ٦٨٣ ، فخلفه سلطان ولد إلى أن توفي سنة ٧١٢ ، وتداول حفدة الشيخ المشيخة ، وكل منهم يسمى جلبي قونية إلى أن عمل الكماليون ما عملوا بالطرق والتكايا . وتكية قونية اليوم متحف فيه بعض مخلفات جلال الدين وحفدته وبعض الكتب .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

خطبــــة الحجاج
في الكوفة

ما عرضتُ على ذهني أول خطبة للحجّاج في الكوفة إلاّ زادت لي في صاحبها أشياء غير بلاغته ، لقد انكشف لي بعد تقليب النظر في هذه الخطبة السرُّ في توفيق الحجّاج من أول يوم ولي فيه العراق . فليس بالأمر الهين أن ينقاد الناس إليه في المسجد هذا الانقياد ، ثم ينبسط سلطانه هذا الانبساط . فكيف خضع أهل المسجد خضوعهم الذي عرفناه ، وكيف سكنوا سكونهم الذي عهدناه ؟ لقد انتُدِب الحجّاج ، لا بل لقد ندب نفسه إلى أمر تهيّبه شيوخ بني أُميّة وخافوا عواقبه . أفليس بالأمر العجيب أن يخرج عبد الملك إلى أصحابه ويقول لهم ثلاث مرّات : ويلكم ! من للعراق ؟ فيصمت القوم ، وينبري الحجّاج فيقول : والله أنا لها يا أمير المؤمنين ، فيقول له عبد الملك : أنت زنبورها ، ويكتب إليه عهده !

ليس هذا كله بالأمر اليسير . فعلى أي شيء اعتمد الحجّاج في الإقدام على أمرٍ أحجمت عنه مشيخة بني أُميّة ؟ وما هي العدة التي أعدته وهيّأته لمثل هـذا الاقدام ، وهو لو هفا فيه أقل هفوة لذهبت هفوته بحياته وسلطان بني أمية في العراق ؟

لو بُعث المؤرخون في يومنا هذا ، وحاولوا النظر في سيرة الحجّاج ، ونقبوا عن أسرار توفيقه من أول يوم امتد فيه ظلّه إلى العراق ، ما أغفلوا العوامل النفسية في هذا التوفيق ، مثل معرفته بطبائع الناس ، وتمويهه القوم ببلاغته ، وفورة شبابه ، وحيطته لأمره ، وأشياء كثيرة اختص بها في سياسته في العراق ، لا مجال لذكرها في مثل هـذا المقام ، لأنَّ الكلام على سر توفيقه من أول خطبة خطبها ليس إلاّ .

لقد قال الناس في الحجّاج بن يوسف وأبيه ماقالوا ، وأنشدوا شاهداً من الشعر على أن الحجّاج وأباه كانا معلمين بالطائف ، ولمّا قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، أمرهم بشتم الحجّاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : إنه كان عبداً زبّاباً ، قنوّرٌ بن قنوّرٍ ، لا نسب له في العرب .

على أن فيلسوف المؤرخين وأعني به ابن خلدون ، تعرض في مقدمته لنسب الحجّاج وأبيه ، ولأمر تعليمهما في الطائف ، فوضّح هذا الأمر أكثر توضيح ، فقد نبّه على أخطاء المؤرخين ، ومن جملتها ماقالوه من أحوال الحجّاج ، وأن أباه كان من المعلمين ، فذكر أن التعليم في صدر الاسلام وفي صدر الدولتين ، الأموية والعبّاسية ، لم يكن فيه شيء من الضاضة ، فقد كان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملّة هم الذين يعلّمون كتاب الله وسنّة نبيه صلّى الله عليه وسلّم ، تبليغاً للخبر ، لا انتحالاً للمعاش ، إذ الكتاب إنما هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم ، والاسلام دينهم ، قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم ، لم يقصد بهم من هذا التعليم شيء من كبرهم وأنفتهم ، ويشهد بذلك بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمون الناس حدود الاسلام وما جاء به من شرائع الدين .

ولم يدخل التعليم في جملة الصناعات والحرف إلا بعد استقرار الاسلام ؛ فاشتغل حينئذ أهل العصبية بالملك والسلطان ، وشمخت أنوف الترفين عن التصدي للتعليم ، فانتحله المستضعفون من الناس ، وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبية والملك ، والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم ، ومكانتهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف معلومة ، فلم يكن تعليمه للقرآن للمعاش ، وإنما كان على ما وصفه ابن خلدون في الكلام المتقدم .

وعلى هذا الوجه لم يبق شك فى أن التعليم لم يحط من قدر الحجاج ، أو من قدر أخيه أو من قدر أبيه ؛ وكثيراً ما فخر الحجاج بأنه ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش . على أن هذا كله ليس ما أرمى إليه فى الباب الذى أخوض فيه ، فالذى أرمى إليه إنما هو الأمر الآتى : إنى أرى فى ممارسة الحجاج لصناعة التعليم سراً من أسرار نجاح سياسته ، فقد مكنه هذا التعليم من الوقوف على الطبائع ، والتغلغل إلى بواطن النفوس ، وكشف الغطاء من مواطن الترغيب والترهيب ، ومن مواضع الغضب والرضاء ، والطاعة والعصيان ، ومن الزمن الذى تنفع فيه الشدة ، والزمن الذى ينفع فيه اللين ، فان صلة المعلم بطلابه تمهد له السبيل إلى النفوس البشرية ، فتصبح له ملكة خاصة فى سياسة الناس ، وفى استمالتهم وتنفيرهم ، وفى استثارتهم وتسكينهم ، وأمثال هذا كله . وليس معنى كلامى أن كل معلم رزقه الله تعالى هذا الحظ من المعرفة ، ففى المعلمين مغفلون كما فى كل طبقة من طبقات الناس ؛ ولكن رجلا مثل الحجاج اختصه الله بمثل ما اختصه به من فضل السياسة زاده التعليم سعة فى هذا الفضل . فلما ولى العراق وقذف فى مسجد الكوفة بالخطبة التى قذف بها ، وكأنها نار جهنم ، كان عالما بطبائع الناس ، واقفا على المذاهب التى ترهبهم وتفزعهم ؛ ولولا معرفته هذه لما جرؤ على مثل ما جرؤ عليه فى الكوفة ، وأهل المسجد الذين سمعوا هذه الخطبة لم يكن هواهم فى بنى مروان ، وما منهم رجل جالس فى مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون من أهله ومواليه ، فلم يتحرك أحد منهم !

إلا أن التعليم لم يكن السبب الأوحد فى توفيق الحجاج ، فان بلاغة الحجاج كانت عاملا من عوامل هذا التوفيق ؛ ولم ينكشف تأثير الكلام فى الجماهير انكشافه فى عصرنا هذا ؛ فان أكثر رجال السياسة المبرزين فى سياستهم هم أمراء البيان ، ومن لم يكتب له نصيب من هذه البلاغة قل حظه من التوفيق فى السياسة ، والحجاج فى هذا الميدان فارس فى الرعيل الأول من الفرسان ؛ فقد ذكروا عنه أنه إذا صعد المنبر تلفع بمطارفه ، ثم تكلم رويداً ، فلا يكاد يسمع ، ثم يتزيد فى الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ، ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد ؛ وقال فيه مالك بن دينار : ربما سمعت الحجاج يخطب ، ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج ، ولست أشك فى أن شكله الشاذ كان له بعض التأثير فى الجماعات ، فضلا من بلاغته ، فقد كان أخيفش العينين ، مسلق الأجفان ، أصك الرجلين .

فأول خطبة خطبها فى الكوفة كان لها أبلغ أثر فى توفيقه ، ولقد تصرف فى خطبته هذه تصرف العارفين بأسرار التأثير ؛ فان صعوده المنبر متلثما ، متنكباً قوسه ، ثم جلوسه واضعاً إبهامه على فيه ، ثم تكلمه رويداً ، ثم تزيده فى الكلام ، ثم زجرته — كل هذا من الأمور التى تثبت الأنظار إليه . فالحجاج ملك عيون الناس قبل الشروع فى الكلام ، وهذا باب من أبواب البراعة ؛ ولو خطب من فوره دون هذه الحركات كلها ، لضعف سلطانه على القلوب ؛ ولكنه أحب قبل كل شىء أن يمكن العيون منه ، فلما تمكنت منه هذا التمكن ، وغص المسجد بأهله حسر اللثام عن وجهه ، ثم قام ونحى العمامة عن رأسه ، ثم اندفع فى الكلام ، وكان من أمره ما كان .

ولا ريب فى أن الحجاج لما قذف بأوائل خطبته علم العلم كله أنه نوم أهل المسجد على تعبير عصرنا هذا ، فسلبهم إرادتهم وشعورهم وتفكيرهم ، وعرف أنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا فى شىء من هذه الارادة ومن هذا الشعور ومن هذا التفكير ، فأخذ يلعب بهم كما يلعب الطفل بالتصاوير ، واستمر على طرازه من الشدة فى الكلام ، والغلظة فيه دون أن يخشى خروج أحد عليه من أهل المسجد ، فكان القوم قيد إرادته وقيد إشارته ، يأمرهم

فيأمرون ، وينهاهم فينتهون ؛ وأكبر دليل على ذلك قوله لهم : يسلّم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام ، فلما قال قوله هذا ، قال أهل المسجد كلهم : وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته ! ولم يشغب عليه شاغب .

وإذا أضفنا إلى بلاغة الحجاج قوّة شبابه عرفنا أن هذا الشباب عامل آخر من عوامل توفيقه ، فإن الشيوخ يهيمون لجلائل الأمور أو زائلها ، فلا يقتحمون في الأغلب من أحوالهم في الذي يقتحم فيه الفتيان ؛ وحجة ذلك أن عبد الملك بن مروان لما انتدب أصحابه إلى العراق تهيبوا الأمر وحذروه ؛ فقدم الشباب في الاقدام على عظائم الأمور غير دم الشيوخ . وقد كان الحجاج في أول ولايته العراق في مقتبل العمر ، كان عمره ينيّف على ثلاثين سنة ، وكان واثقاً بنفسه الثقة كلها ، علاه بأنه أمرُ الكنانة التي نثرها عبد الملك طمعاً ، وأحدها سناناً ، وأشدها مكسراً ؛ ومع هذا كله فقد أخذ الحيطة في أمره ، فلم يقدم العراق على ما ذكره بعض المؤلفين في ثمانية رجال أو تسعة على النجائب ؛ وإنما قدم الكوفة ومعه جيش ، ولكنه لما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقيلوا وأن يروحوا وراءه ، ودعا بجمل عليه قتب ، فجلس عليه بغير حشية ولا وطاء ، وأخذ كتاب عبد الملك بيده ، ولبس ثياب السفر ، وتعمّم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده ؛ ولم يدخل بغداد كما قال بعضهم ، فإن بغداد من بناء المنصور ، فلم تكن في أيام الحجاج ! وعلى هذا لم يبلغ منه التهور أن يقدم العراق في ثمانية رجال أو تسعة ، وإنما ترك جيشه في القادسية ، وهو على أبواب الكوفة ، فإن شباب الحجاج لم يمنعه من حيطة الشيوخ ، فهو أعقل من أن يجرؤ على العراق دون الاستعانة بالجيش ، والعراق يومئذٍ جبل من نار !

أظن أن هذه الأمور إنما هي في مقدمة الأمور التي مهّدت للحجاج سبيلاً إلى نجاح سياسته في العراق من أول يوم دخل فيه الكوفة . وقد بقيت أشياء كثيرة من سياسته ومن أخلاقه لا يتسع لها هذا المقام ، ولولا فضل هذه السياسة وهذه الأخلاق ما احتمله العراق عشرين سنة !

(دمشق) شفيق جبري

جامعة لاجادو

لم تعرف الانجليزية أديباً متشائماً ساخراً كسوفت Swift (١٦٦٧ — ١٧٤٥م)، فهو لا يتهكم على ضعف الانسان وغروره، ولا يهزأ بالتقاليد والمعتقدات، كما يفعل غيره من الأدباء الساخرين؛ وإنما هو ينقم على الانسان لانسانيته. يكفي الرجل أن يكون من بني آدم كي يسخر منه (سوفت) ويصب عليه نقمته

وأشد ما يكون الكاتب تهكماً وسخرية من بني جنسه في كتابه « رحلات جلفر ». في هذا الكتاب يصور لنا سوفت الانسان مخلوقاً ضعيفاً، مغروراً، قاسياً شرهاً، ظالماً، خائناً، حاقداً، منتقماً، محباً لذاته، مندفعاً وراء شهواته — مخلوقاً يجمع كل الرذائل، ولا يتصف بفضيلة واحدة.

ومجمل القصة أن ملاحاً اسمه (جلفر) أغرم بالأسفار وركوب الأخطار، فأقلع في سفينته يضرب في عرض البحر. وتحطمت السفينة على صخرة نائتة، وقذف به اللوج إلى بلاد عجيبة. ونظر حواليه فإذا به بين جنس من البشر لا يزيد طول الواحد منهم على نصف القدم. ثم رمى به المطاف إلى بلد آخر سكانه من العمالقة ضخام الجسوم. وما إن استطاع جلفر أن يفر من هؤلاء القوم حتى حل بجزيرة تسبح في الهواء ولا يحدها ماء، وأخيراً ألقى عصا التسيار عند أرض الخيل فيها سادة والناس عبيد ...

وفي ثنايا القصة يسخر كاتبنا من كل شيء، يسخر من أسباب الحروب، وما يثيره تافه البواعث من بغض وشحناء، ويسخر من العلم والعلماء. وهو يقول في رسالة له من هذا الكتاب: « إن الهدف الذي أرمي إليه هو أن أثير الحنق في نفوس القراء، ولست أبغي أن أدخل على قلوبهم السرور ».

وسنعرض على القارئ فيما يلي صورة من سخرية سوفت، وقد اقتبسناها من الجزء الثالث من أجزاء الكتاب حينما كان جلفر في الجزيرة السابحة في الهواء، وأدخلنا عليها من التحوير والتغيير ما يسيغ قراءتها ويجعلها مناسبة للمقال.

أخذ الرحالة يضرب في عرض البلاد حتى حل بعاصمة الجزيرة (لاجادو)، وطفق يتفقد منشآتها ومبانيها، حتى استوقفت نظره جامعتها ومركز العلم فيها. والكاتب هنا يسخر من ادعاء الانسان العلم والحذق والقدرة على الاختراع. وكأنه يريد أن يقول إن مجهود الانسان وعبقريته وذكاءه، ونشاطه كلها عبث باطل لا غناء فيه، ولا تؤدي بنا إلى السعادة ورفاهية العيش، وهما غاية البشرية المنشودة.

وليست جامعة لاجادو — مقر العلم ومثواه — بناء واحداً قائماً بذاته، وإنما تتألف من عدة منازل، تحوي في مجموعها ما لا يقل عن خمسمائة حجرة، في كل غرفة منها عالم مخترع أو عالمان.

ويقول جلفر: كان أول رجل التقيت به شخص هزيل الجسم، نحيل البدن، مغبر الوجه، أسود اليدين، غزير الشعر، كث اللحية، ممزق الأهاب، وقد احترقت ثيابه في كثير من أجزائها. أنفق هذا الرجل ثماني سنوات من عمره يحاول أن يستخرج أشعة الشمس من القثاء. وكان يرمي إلى أن يحتفظ بهذه الأشعة في قنينات محكمة الاغلاق، تفتح حينما يظلم الجو أو تهبط حرارة الهواء. فتفيض دفئاً ونوراً. وكان هذا العالم يأمل أن يبلغ مأربه بعد ثماني سنوات أخرى. ولكنه شكا لي من أن راتبه لا يتفق وما يبذل من مجهود وما يظهر من عبقرية ممتازة. وتوسل إليّ أن أعينه ببعض المال، وكان مني منه الكثير، أعطاني إياه حاكم الجزيرة لأنفح به أمثال هؤلاء. لأن الحاكم كان يعلم أنهم لا يكفون

من الشكوى والسؤال ، وأنهم يستجدون المال بمختلف الوسائل .

ثم انتقلت بعد هذا إلى مهندس معماري أنبئ حدثني أنه اخترع طريقة جديدة لبناء المنازل ، وهي أن يبدأ إنشاء البيت من أعلاه ، ثم يهبط ويهبط حتى يبلغ الأساس ، وهو يشبه طريقته هذه بطريقة النحل والعناكب ، وهي من الحشرات الحاذقة الحكيمة .

وصرت بعد هذا برجل كفيف البصر ، له تلامذة عديدون مثله لا يبصرون وكان عملهم جميعاً أن يمزجوا الألوان للمصورين . وقد علمهم أستاذهم أن يميزوا الألوان باللمس والشم . ولا يسعني إلا أن أقرر أن الأستاذ كان كثير الخطأ وأن طلبته لم يجيدوا ما عهد إليهم أداؤه . ولكن مكانة الأستاذ — على رغم هذا — كانت في الجامعة عظيمة كبيرة الخطر .

وفي حجرة أخرى سرني كثيراً أن أرى مخترعاً اهتدى إلى طريقة حرث الأرض بالخنازير . وهي وسيلة توفر علينا — كما يزعم — تكاليف الماشية والعمال . وطريقته هي أن يدفن الزارع في باطن الأرض على بعد نصف قدم من السطح عدداً من الكستناء وغيره من الفواكه والخضر التي تميل إليها الخنازير . ثم يطلق الخنازير في الحقل ترعى . وستنقب عن هذه الفواكه ، فتقلب الأرض في بضعة أيام ، وتجعل عاليها سافلها ، وسافلها عاليها ، وتمهدها بذلك للزرع وإلقاء البذور . وحقاً لقد دلت التجارب الأولى على أن تكاليف هذه الطريقة وما تقتضيه من مشقة مضنية باهظة ، وأن الأرض لم تنتج زرعاً ولا شبه زرع . ولكن أحداً في الجامعة لم يشك في أن هذا الاختراع قد يعود — بعد تحسينه وإصلاحه — على الإنسانية بالنفع والخير العميم .

ثم انتقلت إلى غرفة أخرى ، يغطي سقفها وجدرانها نسيج العنكبوت ، وينتشر النسيج في فراغ الغرفة ، لا يترك غير ممر ضيق يدخل منه المخترع ويخرج . وعند دخولي صاح الرجل في وجهي أن لا أزعج عناكبه ، وأن لا أهدّ نسيجها بعبثي . ثم أبدى لي شديد أسفه من أن الناس يتشبثون باستعمال حرير القز ، وتحت أعينهم وفي ميسورهم كثير من العناكب تفوق الديدان فيما تنسج من خيوط وعدداً منها بالشيء الكثير . وهي تستطيع أن تغزل وأن تنسج . ويعتقد هذا العالم أننا لو رضينا بنسيج العنكبوت لباساً لنا لتوفر على أنفسنا تكاليف الألوان التي يصبغ بها الحرير ، لأنه اهتدى إلى طريقة يستطيع بها أن يحصل على نسيج العنكبوت فيما شاء من ألوان . وما أيسر هذه الطريقة ! فإنك لو أطعمت العنكبوت بذباب أخضر كان لك منه خيط أخضر ، ولو أطعمته بذباب أحمر لكان لك منه خيطاً أحمر ، وهكذا . وإن لديه لعدداً من الذباب عديداً ، مختلف الألوان متنوعها ، لأنه يستطيع أن يتحكم في لون الذباب بإطعامه بمختلف أنواع الصمغ والزيت وغيرها من المواد اللزجة السائلة . وبداهة يمكن لكل امرئ أن يختار من ألوان اللباس ما يحب وما يهوى .

ثم عبرت الطريق إلى ناحية أخرى من أنحاء الجامعة حيث يقيم العلماء الذين يبحثون في العلم النظري . وأول من لقيت من الأساتذة كان في غرفة فسيحة ، يحوطه أربعون طالباً ، فحيّيته وحيّاني . وجلت ببصري في أرجاء الغرفة ، فاستوقف مني النظر هيكل خشبي يملأ فراغاً من الحجرة عظيماً . وحينئذ التفت إليّ الأستاذ وقال : لعلك تعجب من اشتغالي باختراع يصلح به من المعارف المنوعة بالحيل الميكانيكية والتجارب العملية . ولكن العالم سوف يدرك عما قريب فائدة هذا المخترع العظيم . ولم يشك الأستاذ لحظة في أن أحداً من الناس في تاريخ البشرية بأسرها لم تطفر إلى رأسه فكرة نبيلة جليلة كهذه . وكلنا يعلم مقدار ما يلاقي الطالب من عناء في إتقان الفنون والعلوم النظرية بالطريقة المألوفة . ولكن هذا الاختراع الجديد سيمكّن أجهل الناس بقليل من التكاليف ويسير

من الجهد من أن يمارس الفلسفة والشعر والسياسة والقانون والرياضيات وعلوم الدين، دون الحاجة إلى مقدرة خاصة أو درس عميق.

وسار بي الأستاذ نحو الهيكل القائم، حيث كان تلاميذه يصطفون حول قوائمه، وقد ألصقت فوق جوانبه صحائف من الورق تشتمل على ألفاظ اللغة كلها في صورها النحوية المختلفة، ولكنها تنتشر بغير ترتيب. وكان كل طالب يمسك بمقبض من الحديد، يديره عندما يأمره الأستاذ، فيتغير ترتيب الألفاظ، وقد يتكون من التلاف بعضها جمل مفيدة يسارع الطالب إلى تدوينها! وبهذه الطريقة يجمع الطلاب ألوفاً من الجمل تعبر عن كل ما في العالم من فنون وعلوم.

وانتقلت بعدئذ إلى قسم اللغات، والتقيت بثلاثة من الأساتذة، وقد جلسوا يتشاورون في طريقة إصلاح لغتهم القومية! واقترح أولهم أن يختصر الكلام بتقصير الكلمات الطويلة، ويكون ذلك بحذف المقاطع الأخيرة وقصر الكلمة على مقطع واحد، ثم تحذف — فوق هذا — الأفعال والصفات، لأن كل شيء نتصوره في الوجود هو في حقيقته «اسم»، لا هو صفة، ولا هو فعل، ولا هو من حروف الجر، إلى غير ذلك مما أدى إلى تعقيد الكلام.

واقترح الآخر أن يستغني الناس عن الكلمات بكل ضروبها، أسماء وأفعال وحروف. وسيؤدي ذلك من غير شك إلى السرعة في الأداء، وإلى رفع مستوى الصحة العامة. لأنه من الجلي الواضح أن كل كلمة ننطق بها تؤثر في الرئتين، فتقصر من طول أعمارنا. ولما كانت الكلمات — كما اقترح الأستاذ الأول — إن هي إلا أسماء لأشياء، أفلا يكون من الأصلح للناس جميعاً أن يحملوا معهم الأشياء التي يحتاجون إليها للتعبير عما يجيش بصدورهم من معان، وأن يستغنوا البتة عن النطق باللسان؟

وكان من الجائز أن ينفذ هذا الاقتراح فيسهل على الناس التفاهم وتتوفر لهم صحة الأبدان، لولا أن النساء والجهال والرعاع هددوا بتأجيج الثورة وإعلان العصيان إذا حرموا حرية الكلام باللسان على طريقة الأسلاف. ما أعدى العامة للعلم، وما أبعدهم عن الحكمة والتعقل!

ومهما يكن من شيء فإن كثيراً من العلماء والحكماء يأخذون بالرأي الجديد، فيعبرون عن أنفسهم بالشيء لا باللفظ. وليس من وراء ذلك سوى مشقة واحدة، وهي أنه إذا تعقد العمل وتنوعت الأفكار، ثقل على الرجل العبء، وتعددت الأشياء التي ينبغي له أن يحملها كي يؤدي بها غرضه. اللهم إلا إن كان تمكنه أن يستصحب معه خادماً — أو خادمين — من أقوياء الرجال، يرافقه حيث يسير، ويعينه على حمل ما يريد.

وقد شهدت مرة فيلسوفين ممن يأخذون بهذا الرأي يكادان ينوءان تحت ثقل ما يحملان. التقيا في عرض الطريق، فألقى كل منهما عن كاهله حمله، وأخذا يتجادلان ساعة عما لديهما من سلع. ثم استأذن كل منهما صاحبه في الانصراف، وتعانقا.

وإذا كان الحديث قصيراً فأنت تستطيع أن تحمل بضاعتك في جيبك، أو تحت إبطك. ولن تأخذك الحيرة وأنت في عقر دارك؛ ففي الدار كل شيء مما تحتاج إلى التعبير عنه. والغرفة التي تلتقي فيها الجماعة التي تأخذ بهذا الرأي وتمارسه تزخر بالأشياء كي تمد المتحدثين بوسائل التعبير كلما اقتضت ضرورة الحال.

ومن مزايا هذه البدعة الجديدة أنها تصلح أن تكون لغة عالمية، تفهمها الأمم المتمدنة كلها، فهي (الأمم) تتناول الأشياء عينها دون خلاف. ومن مزاياها كذلك أن سفراء الدول يستطيعون التفاهم مع الأمراء والوزراء الذين يختلفون عنهم لساناً وتعبيراً. ومن يدري؟ لعل بهذه الوسيلة يسود بين الناس حسن التفاهم والوئام، فتمتنع الأمم عن الحروب وشن القتال.

محمود محمود

السلك السياسي

للأستاذ راشد رستم

[أنشر هذه القصة تسجيلا لصورة من صور المجتمع المصري الحديث ، المجتمع "الراقي" ، أو جانب من جوانبه ، ليعلم الذين لا يعلمون ، وليطلع الغافلون ...]
[الكاتب]

اسماعيل — أتعرف هذه السيدة ؟

محمود — لا . ولكني أعرف التي معها ، أو على الأصح التي « هي » معها .

اسماعيل — وما الفرق ؟

محمود — الفرق واضح ، فأنت مع غيرك شيء ، وغيرك معك شيء آخر .

اسماعيل — إنها حذلقة ...

محمود — لا . ليست حذلقة يا سي اسماعيل ... فإن السيدة إذا كانت هي التي مع غيرها فإنها تكون في مركز ثانوي ، ولكن إذا كانت غيرها هي التي معها فإنها تكون في المركز الأول .

اسماعيل — إنها الحذلقة بعينها ...

محمود — لا . بل إن هو تقدير الأشياء أقدارها .

اسماعيل — اسمع يا محمود . قد تكون السيدة هي التي مع غيرها ، ولكنها تكون في المقام الأول ، وتكون هي التي عليها العين ! ...

محمود — هذا شيء آخر ...

اسماعيل — بل هو الشيء المهم ... والآن من تكون إذاً هذه السيدة الأخرى التي « هي » معها ؟

***

وهنا جاء عم صالح يحمل لهما طلباتهما من الشاي والجاتو والبسكويت ، وقد سمع هذه الجملة الأخيرة ، فظن أنهما يتكلمان كلاما جدياً ، ورأى أن يقوم بهذه الخدمة ، فأخبرهما بأن التي يسألون عنها (وهي غير التي يقصدانها ! ...) هي الزوجة الأجنبية لسعادة محجوب باشا الثري المصري المعروف ...

اسماعيل — ولكن من التي معها ؟

عم صالح — لا أدري . وهي تحضر لأول مرة هنا في جروبي . ولكني سمعت مدام محجوب باشا تناديها سعاد هانم ، وكانت تطلب منها أن تذهبا إلى زوج سعاد هانم في مكتبه ليأخذهما إلى السينما بعد العشاء في هذا المساء ، وقد ردت عليها سعاد هانم بأن زوجها لا يحب أن تذهب إليه في المكتب ، وإن كان نظام الحياة قد تغير ! ...

اسماعيل — متشكرون يا عم صالح .

محمود — وماذا استفدت ؟

اسماعيل — أشياء كثيرة ، فهناك مكتب ، وهناك عدم السماح بالذهاب إلى المكتب ، وهناك ذهاب إلى السينما ، وهناك واحدة حرة في هذا الوقت على الأقل ...

محمود — وهناك مدام محجوب باشا ...

اسماعيل — وهناك حضرتك ...

محمود — وهناك عم صالح ...

***

ومضت الأيام بل الأسابيع بل الأشهر واسماعيل يحضر يوميا إلى جروبي فلا يجدها . وأخذ يتحرى ويسأل ، ولكن بدون جدوى . إلى أن جاءت ليلة عيد الميلاد ، وقد اتفق اسماعيل ومحمود وغيرهما من الاخوان على أن يحتفلوا بالليلة في إحدى السهرات التي تقيمها الفنادق الكبيرة ، وذلك كما يفعلون كل عام . وهو التقليد الحديث الذي تأصل في هذه الأوساط من الشبان ، والذي اتخذوه وسيلة للترفيه والتسلية ، خصوصاً والأعياد القومية لا يعرف القوم تنظيمها ولا التمتع بها .

***

اكتظت صالات الفندق بالجماعات المختلفة ، وأخذت الحركة تزداد شيئا فشيئا ، ويعرف كل مكانه ، وأنشأت فرق الموسيقى تعزف ألحان الرقص المتنوعة ، فيرقص الراقصون ، ويفرح الفرحون ، ويأكل الآكلون ، ويشرب الشاربون ، والكل في طرب يمرحون يتعارفون ويتراقصون ، يتآخون ويتطربون ، وهم في موجة من الفرح مأخوذون ، يضحكون ولا يحزنون . فهي ليلة السرور ، وهذا عيد الحرية شامل ...

واسماعيل شاب ثري من أبناء العائلات المعروفة ظريف محبوب من اخوانه . مثقف ثقافة عالية . ذكي النفس ذكي الجنان . يميل إلى الجد من الأمور ، ولكنه يحمل بين جنبيه قلبا يميل إلى الظرف والدلال ، ويحب الرشاقة والجمال .

وهو يحسن الرقص ولا يتبذل فيه ، ويحبه ولا يسرف فيه . وقد وطد النفس في تلك الليلة على أن يكون من المتفرجين دون الراقصين ، على أنه كان مع ذلك كثير الحركة ، كثير التنقل هنا وهناك . يمشي مع هذا ، ويجلس مع ذاك ، فهو كثير الأصحاب ، كثير الصلات .

وهكذا رضي اسماعيل بهذا النوع من التسلية في تلك الليلة دون الرقص الذي هو في الواقع المحور الذي يدور عليه كل شيء في هذه السهرات الساهرات .

ولكنه وهو يتنقل من صالة إلى أخرى ، ومن مكان إلى مكان ، في رشاقة ظاهرة ، معروفة عنه بين إخوانه ، ولساعده عليها شأنه ولطافة حركاته وابتساماته وإيماآته ، واعتدال جسمه

وحسن قوامه — ثم في إحدى الصالات سيدة تنظر إليه مختلسة النظرات ، وقد لحظ هو منها ذلك ، ولكنه تظاهر بأنه لم يلحظ شيئاً ، إلى أن شعر بأنها احتوته ، وأنها لا تريد التفريط فيه ، ولا تريد عنه بديلا — وإذا به عند ذلك يقوم بحركة التفاف رشيقة ، تعقبها حركة التفات سريعة ، وإذا به يرى "سعاد" تلك التي يبحث عنها الأيام والليالي ... فيكاد يضطرب لشدة الفرح وتحقيق الأماني !! .

على أنه لم يكن فرحه بلقائها بأكثر مما لحظ أنها هي التي التقطته من وسط هذا الجمع الحاشد ... مع أنها في تلك المرة الأولى في محل جروبي منذ شهور لم يلحظ أنها ألقت إليه بالا .

لذلك كاد يطير فرحا . ثم أخذ يجرب تبادل النظرات فإذا هو ناجح تمام النجاح ، وإذا بالتبادل والرضا ، وإذا به يقوم بالمناورات اللطيفة ، فيصل إليها يطلب منها أن تراقصه ، وإذا بها تسرع إلى تلبية طلبه ، وفي نظراتها وقسمات وجهها الرضا كل الرضا ...

خطا أحاجيل بعض الخطوات بها راقصا . فإذا هي تراقصه رقصا بديعا كاملا . وما أشهى الرقص بين شخصين متفاهمين متفقين ! .

هي — إنك ترقص رقصا في غاية الإتقان ! .

هو — وأنت ترقصين رقصا رشيقا بديعا ! .

— أنت السبب .

— العفو .

— لا . هذا صحيح . إني أقول الحقيقة ، فإن الراقص Cavalier هو الذي يدير الرقص ، وأما السيدة dame فهي تبع ، وقد تكون هي راقصة ماهرة وهو راقص عادي فلا يستطيعان رقصاً ، ولكن قد تكون هي راقصة عادية وهو راقص ماهر ، فيرقصان ويرقصان ، وفي هذه الحالة يغطي الراقص بمهارة رقصه ما في السيدة من نقص في الرقص .

— هذا صحيح يا سيدتي . ولكن ما رأيك في أنك تجيدين الرقص تماما ! .

— مع أني لا أرقص كثيراً .

— وأنا كذلك أرقص نادراً .

— ولكن لا شك في أنه بالرغم من ذلك — قد جاء عليك زمان كنت ترقص فيه كثيراً وكثيراً — فيا ترى متى كان ذلك ، وأين كان ، ومع من كان ؟ ...

— نعم كنت أرقص كثيراً ، لأني كنت أجد الجمال لذلك ، وإني وإن كنت أجيد الرقص وأحبه ، فإني لا أرقص حتى أجد الجمال ، ولست على رأي غيري ممن يرقص ويرقص ويرقص ...

— اسمح لي أولا أن أقول لك إنك أناني ...

— !!! ...

— سأفسر لك ذلك . وثانياً اسمح لي أن أسألك : ما معنى أنك تجد الجمال للرقص ... أما أنك ...

— !!! ...

— لا تقاطعني . انتظر حتى أتم كلامي — أما أنك لا ترقص مثل غيرك لمجرد الرقص ففي ذلك دلالة صريحة على أنانيتك ... مادمت وأنت الذي يرقص رقصاً بديعاً ، جميلا ، رشيقاً ، لا يصح أن يحرم غيره من التمتع برقصه ...

— ولكن ...

— لا . لا . لا تقاطعني ، انتظر حتى أتم كلامي ...

— تفضل .

— إنك تقطع الكلام كثيراً ، ويظهر أنك تحب الكلام كثيراً ... ولا تحب أن غيرك يتكلم أكثر منك ... ولذلك تجدني قد نسيت ما كنت أريد أن أقوله ... فماذا هذه المقاطعة ؟...

— معذرة ...

— لا . لا . لو أنك كنت سكت ولم تقاطعني ، لكنت أنا الآن قد قلت ما أريد أن أقوله وخلصنا ...

— أعتذر . ولكن تقولين خلصنا ، فمن أي شيء خلصنا ؟ ...

— من الكلام الذي أريد أن أقوله ...

— أتريدين أن أذكرك بما كنت تريدين أن تقوليه ؟ ...

— نعم . نعم ...

° ° °

وإذا الموسيقى تنتهي من هذا الدور ، وسيقضيان الفترة الراحة بين الرقصات . وقد شكرته كثيراً على رقصة « الفالس » هذه ، وأخبرته بأنها سترقص الرقصة التالية مع صديق كانت قد وعدته بها . ثم سألته :

— في أي الصالات مكانك ؟ ...

— ليس في هذه الصالة ...

— ولماذا لا تحضر وتأخذ مكانك في هذه الصالة ... إنها كبيرة تضم أشخاصاً كثيرين متنوعين ...

— إني مع إخواني .

° ° °

ثم افترقا بعد أن أوصلها إلى مكانها منحنياً في تحية رشيقة بديعة ، وانسحب في لطف يمشي وحيداً .

وقد كانا يرقصان رقصاً لفت الأنظار إليهما ، من الراقصين وغير الراقصين ، كما لفت نظر الجميع كلامهما الذي لم ينقطع أثناء الرقص ، حتى ظن الكثيرون فيهما أنهما على تعارف قديم منذ سنين ، وليس في هذه الحالة الأولى منذ دقائق معدودة ...

° ° °

وبدأت الرقصة التالية على نغم « التانجو » ، فرقصتها مع زميلها الذي كانت قد وعدته بها . رقصتها معه دون أن تتكلم أثناء الرقص كلمة واحدة . أما إذا كلمها هو فكانت تجيب أقصر ما يمكن من القول ..

على أنها وهي ترقص مع زميلها لمحت أخاها إسماعيل يراقص شابة أخرى ، ولكنهما كذلك لا يتكلمان ...

حتى إذا انتهت الرقصة وعادت إلى مكانها أخذت تنظر إليه دون أن تؤدي إشارات أو علامات ، وهو من ناحيته يخرج من الصالة دون أن ينظر إليها ملتفتاً ، مع أنه قد شعر بنظراتها إليه ، وأنها تتبعه وكأنها تريد أن تقول له : إلى أين أنت ذاهب ؟ ... ابق هنا ...

أما هو فقد ذهب إلى إخوانه ، وبالأخص إلى صديقه محمود ، يخبره بأنه « وجدها » ...

ثم عاد بعد قليل إلى صالتها ، وكان الرقص قد دار مرة أخرى ، فلمحها قد رفضت مراقصة أحد ، كما أنه هو بدوره لم يطلب الرقص من أحد ، ووقف مع الواقفين يشاهد الراقصات والراقصين .

على أنه لم يقصد من هذا شيئاً بالذات ، اللهم إلا أن يجعل الأمر بينهما غير ظاهر لأحد ، مع أن الحال في مثل هذه السهرات لا يمنع سرعة الاختلاط ، بل يدعو إليه ، وإن كان الأمر لا يخلو مطلقاً من قيل وقال إذا أراد أحد أن يكون هناك قيل وقال . ولو لم يكن له من أساس ...

واسماعيل بطبيعته وبعهته يميل إلى أن يعمل في هدوء وكياسة ، وأن يصل إلى أغراضه بالتأني والسلامة .

ولما أن جاءت الرقصة التالية ، تقدم إليها يطلب مراقصتها ، وقد كانت هي في غاية اللباقة ، إذ بادرت قبل أن ترقص معه إلى تقديم سلمات وعزيز ولبنى عمها إليه ، ثم أسرعت به إلى ساحة الرقص .

هي — أين كنت ؟

هو — لم أذهب بعيداً ...

— ومن هي تلك السيدة التي رقصت معها التانجو ؟ ...

— لا أعرف .

— وكيف رقصت معها ؟

— أتريدين أن تقولي « لماذا » رقصت معها ؟ ... ألم تريدي أن تعرفي « كيف » كان الرقص معها ؟ ...

— نم معك حق ، أريد أن أقول ، أولا ، لماذا رقصت معها ؟

— وثانياً ؟ ...

— وثانياً كيف رقصت معها ؟ ...

— هل أفهم أن « كيف » هذه هي يعني كيف تحرق ...؟

— لا ، لا .

— إذاً ! ...

— إذاً أريد أن تفهم أن رقصك معها لا يهمني ، أي أنك حر ، على أنني أفهم أنك لم تشأ أن تقف ساكناً وأنا أرقص ... وكذلك لم تشأ أن تذهب بعيداً وأنا أرقص ، فقد تكون ، وأنت الراقص اللاهي ، تريد أن تعرف كيف ترقص تلك التي — أي أنا ... — التي راقصتها ، لأنك وأنت ترقصها لا تراها كيف ترقص ... وإن كنت تشعر بها وبرقصها ...

— إنه تحليل بديع وكلام صحيح ...

— سأجعل أحد أقاربي يرقص « الفالس » معي ، إنما يجب أن لا تذهب عند ذلك إلى الصالة الأخرى ... وعلى فكرة ، ماذا ترى بعد أن قدمتهما إليك أن أدعوك للجلوس معنا ؟ ...

— حسنا ، ولكنك لم تقدميني إليهما ...

— معك حق ، ولكن إذا كنت أنا لا أعرفك إلى الآن ، فهل كنت تنتظر مني أن أقدمك إليهما ! ومع ذلك كنت أتوقع ساعتها أن تتقدم بنفسك إليهما ، وليس في ذلك من غرابة ، في عرف الاجتماعات ، بل كانت تكون حركة كلها « شباكة » ، وتكون قد خلصتني من الورطة ...

— وتكونين قد خلصت من الاشكال الذي أوقعت نفسك فيه .

— ولكن أي إشكال تقصد ؟ ...

— إشكال ظهورك بأنك تراقصين شخصاً لا تعرفينه ، وفي الوقت نفسه تجدين له قيمة فتقدمين أقاربك إليه ...

— هذا يحصل كثيراً في مثل هذه الاجتماعات ... وليس فيه مخالفة للاصطلاح المتعارف عليه ... ولذلك فإن هذه الحركة تفسيرها عندها بسيط ... خصوصاً وقد عرفتك بهما ، فلم يبق إلا أن أعرفهما بك ... فهل تسمح ؟ ... كما أنه ستكون هذه المناورة مدعاة للجلوس معنا ... خصوصاً وأني سأراقص أحدهما رقصة « الفالس » التي يلوح لي أنك تحبها ...

— نم أحبها ... على أنك كنت بديعة في رقصة التانجو ...

— وأنت كذلك فقد أديتها أحسن أداء ... وإن كنت لا أزال أشعر بأنك في « الفالس » أرقص منك في التانجو .

— الواقع أني لا أميل إلى التانجو ، لما فيه من حركات أعتبرها حركات تكلف وظهور ...

— والآن فاسمح لي أن أسألك من أنت ؟ وسأدعوك إلى الجلوس معنا ، فلا تمتنع ... وهما في الواقع أهل أدب ودماثة أخلاق ... كما أنهما كثيراً ما سيرقصان ويرقصان عند ما تحيى عائلة عبد الكريم بك .

— أتريدين حقاً أن أخبرك من أنا ؟

— نم نم . بالطبع . ضروري . وفي الواقع كيف فاتنا نحن الاثنين هذا التعارف ... حقيقة أن الانسان عجيب !!

— حقيقة أنت الانسان غريب الأطوار بصفاته ونزعاته وظروفه وأحواله ... وإنى أشكرك قبل كل شيء على هذا الظرف وهذه المجاملة فى قبولك مراقصتى ، وعلى ما أخذت من سحر حديثك فى هذه البساطة والصراحة المحتشمتين النادرتين .

— بل بالعكس . إنى لا أجد غرابة فى أن يرقص المرء مع من لا يعرف ... بل إن فى هذا معنى سامياً يرتفع بالرقص عن ذلك المستوى الذى يتنزل به إليه كثير من الراقصين فى بلادنا ...

— ثم إن الرقص فن جميل ، فيجب أن يحيطه كل شيء جميل ... وأهم ما فيه من جمال هو جمال الأداء فى طلب المراقصة ، وجمال الأداء فى الرقص نفسه ، وجمال الحديث ، وجمال التوديع والشكر ... وإنى قبل أن أصرفك بنفسى أشكرك على كل هذه الاعتبارات ... إنى إسماعيل ثابت أحد رجال السلك السياسى ...

— خارجية ؟ ...

— نعم ...

— وهذا جميل ، تعرفنا ... وإنى أشكرك بدورى ، وإنه لمن الفخر أن يكون أمثالك فى سلكنا السياسى ... مهارة فى المناورة ... مهارة فى الحديث و و و ... ولكن هل أنت هنا فى إجازة ؟ ...

— نعم .

— وفى أى البلاد سفارتك ؟

— فى الصين ... سكرتير أول المفوضية ...

— الصين !! ... إنها بعيدة جداً ... ولكن لا ، لا بأس . إن الشباب لا يعرف الأبعاد ...

☆☆☆

ثم انتهت الرقصة ، وقد أوصلها إلى مكانها وانحنى منسحباً فى احترام كعادته ، وإذا بها تتقدمه إليهما قائلة إنها نسيت أن تقدمه من قبل لتسرعها ساعتها إلى الرقص ، وإن ذلك سهو منها ، ثم التفتت إليه تقدم الاعتذار عن ذلك قائلة ...

هى — وإلا فإن البروتوكول السياسى يغضب علينا !!

هو — العفو ...

ثم التفت هو إلى قريبيها محيياً منسحباً ، وإذا بها تستعيد من هذا الموقف وتدعوه إلى أن يجلس معهم ، ولو قليلاً من الزمن ، وقد رحبا به ترحيباً طيباً ، وطلب منه أحدهما أن يشاركهما السهرة ، وقال الآخر : خصوصاً وأن ابنة عمنا ثريا هانم ستجد زميلاً فى الرقص الذى تحبه كثيراً .

هى — وخصوصاً أن عائلة عبد الكريم بك ستحضر الآن ، وستحتاج كل من آمال وإحسان إلى راقصين ، وها أنا ذا أطوع منكما ...

وهنا حضرت عائلة عبد الكريم بك ، فأسرع ولدا عمها للاقاة وحرمه وبنتيهما آمال وإحسان . ذهبا مسرعين وبقيت ثريا مع اسماعيل ...

هو — ثريا ؟ أليس كذلك ؟

هى — نعم اسمى ثريا ، ألا يعجبك هذا الاسم ؟ ...

— بديع ، وهو يعجبنى اسماً و ..

— ومسمى ، أليس كذلك ؟ متشكرة ...

— نعم ... فقط ...

— فقط ! فقط ماذا ؟

— فقط ليطمئن قلبى ...

— يطمئن قلبك !! من أى شيء ... أى شيء لا سمح الله ؟!

— لا شيء ، اطمئنى ، اطمئنى ...

— أطمئن ؟! أنا ! إنى مطمئنة ولله الحمد ... ولكن أنت ، أنت الذى ليس مطمئناً ...

— الأمر سهل بسيط ...

— وما هو ؟ ...

— هل اسمك الحقيقى ثريا ؟

— نعم ثريا ثريا ... منذ ولدت إلى الآن ...

— لا تغضبى واطمئنى ...

— الآن ، صرت أنا كذلك أطلب الاطمئنان ... ولكنى أرجو أن تطمئن أنت أولاً ...

— سأطمئن ... فاطمئنى ... ثم هذا هو « الفالس » تضرب موسيقاه ، ونحن هنا جالسان نتحدث حديثاً غريباً ... مع أنى كنت أرجو أن أراك راقصة .

— يلوح لى أنك لن « ترانى » راقصة ... فإن سليمان وعزيزاً ولدى عمى قد تسابقا بآمال وإحسان ... على أنى أتوقع أنهما سيطلبان منى أن أنضم معهما إلى مائدة عبد الكريم بك ...

— وهل عليك من ضير فى ذلك ؟

— لا ، ولكن ليس معهم من يراقصنى ... ثم كذلك ما العمل وأنت قد انضممت إلينا !!

— عن لا تفكرى ، فإن مكانى لا يزال هناك مع إخوانى ...

— ألا يمكنكم أن تأخذوا مكاناً لكى نكون جميعاً فى صالة واحدة ؟

— قد يكون إخوانى قد تراقصوا مع راقصات ... تفضلى أنت إذا دعوك الانضمام إليهم ، وأنا أحضر إلى هنا من رقصة إلى أخرى ...

☆☆☆

وهنا انتهى دور الرقص ، وأقبل سليمان وعزيز ومعهما آمال وإحسان ، وقد سألوا ثريا الانضمام إلى مائدة واحدة ، فلم ترفض ، ولكنها أشارت بوجود إسماعيل بك ، وهنا أراد هو الانسحاب معتذراً بوجود مكانه مع إخوانه ... فما كان من الآنستين

إلا أن دعاه للانضمام معهم جميعاً ، فاعتذر بارتباطه بأخواته ... ولكن ألح عليه كل من سليمان وعزيز وثريا طبعاً ... وهنا انتهزت الفرصة وقدمته للآنستين ... وكان وظائف السلك السياسي لها كهرباؤها ... فأشرقتا سروراً ، وتمسكتا بضرورة وجود إسماعيل معهم جميعاً ... ثم انتقلوا جميعاً إلى مائدة واحدة .

والواقع أن المجال لا يتسع من هذه الحركات وهذه الملاقات ، بل إن جو هذه السهرات يدعو إلى ذلك ويتطلب ذلك .

وهكذا تسامروا جميعاً وتراقصوا ، وكلما قدموا إليه الشبابا قدم لهم هو بدوره الشبابا ، وقضوا الوقت في سرور مرتاحين لتوافق الطبقات والثقافات .

* * *

وقد أراد إسماعيل أن يجعل تحقيق مسألة الاسم أثناء رقصة من الرقصات ، لأنه يرى في ذلك مزايا لا يستهان بها ... فطلب من ثريا أن تراقصه ، ثم دار هذا الحديث ...

هو — ثريا ... أليس كذلك ؟ ...

هي — نعم ثريا ! ... ألا تصدقني ! ... ولكن قل لي ما هي الحكاية ... لا بد أن وراء ذلك سراً ...

هو — لا ، ليس هناك سر ... نعم قد تكون هناك حكاية ، وقد يكون هناك أمر عجب ... وقد لا يكون هذا العجب ... إنما هل تسمحين لي أن أسألك سؤالين قبل أن أخبرك كل الخبر ؟

هي — تفضل .

هو — هل تذهبين إلى محل جروبي ؟ ...

هي — نعم أذهب لشراء ما يلزمنا ... على أني أذكر أني لم أذهب إلى هناك منذ سنة أو يزيد ...

— لا وحيدة ولا معك أحد ...

— لا ، لا ، ولماذا هذا التحقيق البوليسي ، أو إن شئت هذا التحري الدبلوماسي ...

— ستعلمين واطمئني ...

— قلت لك إني مطمئنة ، ولكن يظهر أني في حاجة إلى زيادة الاطمئنان ...

— إذاً لا تستعجلي من فضلك ...

— ولكن ! ...

— ولكن إن الله مع الصابرين ... فإني في حيرة ...

— من أي شيء ؟ ...

— إني رأيتك منذ خمسة شهور في جروبي مع سيدة أفرنجية عجوز ...

— أنا ؟

— نعم أنت .

— أنا ثريا ؟ ...

— أنت نعم أنت ... ولكن ليست ثريا ...

— لم أفهم ... كيف أكون أنا وكيف لا أكون ثريا !!

— إني من الذين يترددون كثيراً على جروبي ، بل من الرواد المؤسسين القليلين المتمسكين به إلى الآن ... ومنذ خمسة أشهر رأيتك لأول مرة تتناولين الشاي في شرفة الحديقة مع تلك السيدة الأجنبية العجوز ... على أنك ما كنت تنظرين إلى أحد ... وبمجرد تناولكما الشاي خرجتما . وكان يجلس معي يومذاك أحد إخواني فسألته فلم يعرف ، ولكنه أخبرني من السيدة الأجنبية ...

— وماذا قال عنها ؟

— إن الله مع الصابرين ...

— لقد فرغ صبري ...

— نعم ، وفي ذاك الوقت كان الخادم عم صالح يحضر لنا طلباتنا ، وهو مثلي من مؤسسي جروبي ... فأخبرني أنه سمع الست الكبيرة تنادي حضرتك باسم « سعاد » ...

— آه ، فهمت ، فهمت ...

— انتظري قليلاً من فضلك ...

— لا ، لا ، فهمت ، فهمت ... لقد اطمأن قلبي ... قل ، قل ، هيه !

— ولكني أنا ...

— لا ، لا . اطمئن أنت كذلك ... إذا كان هذا يطمئنك . الله أعلم !

— ما هي الحكاية ؟ ...

— الحكاية عويصة جداً ... وبسيطة جداً ...

— من تكون هي ... هل تعرفينها ؟ ...

— سعاد ؟

— لا ، لا ، لا أقصد سعاد ولا ثريا ... إنما أريد أن أعرف من تكون تلك السيدة الأجنبية العجوز ؟ ...

— لا تحاورني ... إننا لسنا في مفاوضة سياسية .

— بالله ارجعي إلى بساطتك وصراحتك ...

— وهل أنتم يا رجال السياسة تحبون البساطة والصراحة ! وإلا فأين تكون السياسة ، وكيف تكون المهارة الدبلوماسية ! ...

— بالله عليك ، إننا لسنا الآن في شأن غير هذا ...

— ولكن بهذه اللغة ، وعلى هذه الطريقة أنتم تفهمون ، وتريدون أن الناس يفهمون بهذه الطريقة ، أو على الأقل يفهمونكم بهذه الطريقة !!

— بالله أما تركت هذا ...

— سبحان الله ... ! أيضيق صدرك للمداعبات وباسم المفاوضات ... إنك إذاً لسياسي عظيم ! ! ولكن هل تسمح لي وأنا الناشئة التي لم تعلم فن السياسة أو علم السياسة ، لست أدري

أيها أسمع ؟ هل تسمح لي أن أشير عليك بأنه يجب أن تكون في حالتي الداعيات والفاوضات واسع الصدر حليم النفس ... بل إنه يجب عليك أن تمرد نفسك الداعية حتى تلين الفاوضة ... وأرجو أن لا تتكبر من أن تأخذ هذه القاعدة الذهبية عن امرأة ... ...

— عفواً ... إن السيدات سياسيات بطبعهن ... .

— لا تتهكم ... ولنعد إلى موضوعنا ... ألم يخبرك صديقك ولا هو صالح زميلك القديم في تأسيس محل جروبي !! ... عن تلك السيدة ؟ ...

— أي سيدة !! يا سيدتي ؟ ...

— السيدة العجوز ... بالطبع ... أليست هي التي تريد أن تعرف عنها كل شيء ؟! ...

— بالله أما تركت هذا ...

— اسمع يا إسماعيل بك ... أنا لم أكن هناك في ذلك الوقت ، ولكني فهمت الموضوع ... فلا تحاول المناورات وقد انكشفت ...

— لا محاولات ولا مناورات ... وأنا لم أسألك إلا أن تكوني صريحة ، وأن تخبريني ما تعلمين ، فقد قلت إنك تفهمين كل شيء ...

— وهل تعد مجهودك فلا تستطيع أن تحاول وتحاول ... ما هذا اليأس وما هذا الافلاس الدبلوماسي ...

— لقد حاولت كثيراً وكثيراً إلى أن ...

— إلى أن ... ؟

— إلى أن رأيتها هنا هذه الليلة ... أو رأيتك أنت على الأصح ...

— لا ، لا . إياك والادعاء ... فإني « أنا » التي رأيتك ، وست أنت الذي رأيتها ... أو على الأصح رأيتني ... أليس كذلك ؟ ...

— من فضلك لا لزوم لزيادة العصبية ...

— لا عصبية ولا تعطية ... إنك أنت الذي كنت اليوم بمناورات تتظاهر فيها بعدم اهتمامك بالنظرات التي تلقى عليك منها ... أو مني ... على أنها كانت « هي » واضحة تشكل هذه المناورات ، فلماذا لا تظهر وتتشجع ... فقد يصح أن يكون الدبلوماسيون شجعاناً وماهرين ...

— لم تكن إلا مناورات ومحاولات بريئة ...

— الله أعلم ... على أنها كانت ولا شك موجهة إلى حضرة سعاد هانم جروبي ، وليس إلى ثريا هانم شيرد ...

— هذا حقيقي ... ولكني أحمد الله أن سعاد هانم جروبي هي هي نفسها ثريا هانم شيرد ... والعتب على النظر ...

— لا تحاول اعتذاراً ... ولا تدارى إخفاقاً ...

— سبحان الله ! ...

— لا ، بل قل سبحان الخلاق ...

— أتدعم ! ...

— أي نعم ، فسبحان الذي يخلق من الشبه أربعين ! مع العلم بأن سعاد وثريا ... توأمتان ... ...

... ...

***

ثم رقصا ورقصا ورقصا ... ...

وعلم إسماعيل من ثريا أن سعاد متزوجة من أحد رجال السلك السياسي العراقي . وأنها كانت بمصر إلى أن نقل زوجها إلى بلد آخر فسافرت معه ... ...

... ...

إسماعيل — والآن ، هل أنت كذلك تحبين السلك السياسي ؟

ثريا — نعم أحبه ... ولكن .

إسماعيل — ولكن ! ...

ثريا — ولكن هل السلك السياسي يحبني ؟ ...

إسماعيل — ... يحبك ويحبك ... ...

(المعادي) راشد رستم

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

***

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	الطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

البكتريا كسلاح

فى الحروب

قد ينظر الانسان إلى استخدام البكتريا فى الحروب نظرة استفظاع ، وقد يظن أن هـذا النوع من السلاح أقرب إلى الوحشية والبعد عن الشفقة ، ولكن الواقع أن الحرب لا تعرف شفقة ولا إنسانية ، ولا تراعى الشعور أو المبدأ السامى . وقديما كان المصارع يتغلب على خصمه بقوة جسمه ، ثم انتقل الصراع بعد ذلك باستخدام سلاح هو التراشق بالحجارة . ولا شك أن هذه الوسيلة قوبلت بشىء كبير من الاحتجاج ، ولكن الخصم المهاجم لم يلبث أن بحث عن حجارة حادة تنزل بخصمه أخطر الجراح ، بعد أن كان محتجاً على استخدامها . وحدث مثل ذلك أيضا عندما استخدم السيف والقوس ثم المفرقعات والقنابل والغواصات والطائرات ، وأخيرا حرب الغازات . وفى كل مرة يبدأ الخصم باستخدام نوع جديد من السلاح ، يقابل بشىء كثير من الاحتجاج ، ثم لا يلبث الخصم الآخر أن يتفنن فى إتقان السلاح الجديد وهكذا . ولا شك أن حرب البكتريا ستقابل بمثل هذا الشعور ، فاذا قذف العدو خصمه بملايين الجراثيم ، وإذا عمل على نشر الأمراض بين المدنيين ، حتى يعجزوا عن أداء أى عمـل من شأنه أن يفيد المحاربين ، أخذ هذا الهجوم على أنه منتهى ما وصل إليه البشر من الفظاعة والبعد عن التمدن . وقد تنبه العالم إلى احتمال استخدام هذا السلاح ، فبحثه فى المؤتمر الدولى المنعقد فى جنيف عام (١٩٣٣) لنزع السلاح ، فقرر منع استخدام البكتريا كسلاح فى الحروب . على أن العالم قد بالغ كثيرا فى أثر هذا النوع من السلاح ، وأثار عليه حربا هى أقرب إلى حرب الأعصاب منها إلى حرب النـار والحديد . ولكى نتبين مدى أثر البكتريا فى الحرب وجب علينا أن نعرف شيئاً من البكتريا وخاصة ما يسبب منهـا المرض .

فالبكتريا كائنات دقيقة تنتشر فى كل بيئة ، فى الأرض والماء والهواء ، على جسم الحيوان والنبات ، بل وفى أنسجتها فى كثير من الأحيان . ولهذه الكائنات أثر كبير فى الحياة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن البكتريا عماد الحياة ، فهى التى تحلل الأنسجة الميتة حتى ترجع إلى عناصرها البسيطة ، فتمد التربة بها وتدور العناصر دورتها . ولولا ذلك لتكدست بقايا الكائنات ونفدت المواد الضرورية لبقائها . والانسان من مهده إلى لحده يحيطه أسراب من البكتريا كما يحمل عدداً منها فى جسمه ، والقليل منها يسبب أمراضاً فتاكة ، قد زود الانسان بما يدفع عنه ضررها ، فله من مناعته ومقاومته ما يحفظه سليما معافى .

والبكتريا لا تخرج عن دقائق بروتوبلازمية يحيطها جدار رقيق ؛ وهذا التركيب البسيط قد سهل لها القيام بوظائفها المختلفة ، فهذه الوحدة البسيطة تتغذى وتتنفس وتتكاثر ، بلا تخصص ولا تعقيد ، فلا غرابة فى أن تسلك الحياة فى أى مكان وفى أى بيئة ، فان وجدت ما يلائمها من الظروف نمت وتكاثرت ، وإن لم توافقها بقيت ساكنة حتى يواتيها من الظروف ما يساعدها على الحياة .

والبكتريا مكونة من وحدة واحدة هى الخلية ، إن صح أن نعتبرها خلية ، فليس فيهـا من شكل الخلايا إلا أنها وحدة حية ، ولا نجد لها نواة ولكنها تنقسم . فالبكتريا الواحدة تستدق ثم تختنق ، وإذا بنا نحصل على فردين بدلا من واحدة ؛ والانقسام هنا انقسام بسيط ، لا تزاوج فيه ؛ فالحرارة المناسبة والرطوبة والهواء والغذاء ينشط هذا التكاثر فى البكتريا ؛ أما الحرارة

الشديدة فتقتلها والبرودة توقف نموها . ويمكننا أن نعتبر البكتريا كائناً يعيش إلى ما لا نهاية إذا أحيط بالظروف المناسبة ، بحيث يضمن إزالة ما يفرزه من فضلات . وليس من السهل أن تزال الفضلات باستمرار ، وهـذا عامل مهم يحدد نمو البكتريا .

والبكتريا لا قدرة لها على الحركة ، وتعتمد في انتشارها على الهواء والماء ، وعلى ما يقوم بحملها من مختلف الكائنات ؛ على أن لبعضها القدرة على الحركة في الوسط السائل فقط ، وذلك بواسطة أهداب تحيط جسم البكتريا ، على أن هذه حركة محدودة ولا تعدو وسيلة لانتقال البكتريا .

وبعض البكتريا يكون جراثيم ، وتتكون الجرثومة بأن تحاط محتويات الخلية بجدار سميك يحيطه الغشاء الأصلى الذى لا يلبث أن يتلاشى وتبقى الجرثومة بعد ذلك . وتعتبر الجرثومة من أشد الكائنات مقاومة ، فبعضها لا يتأثر بالغليان لمدة طويلة ، والبعض يقاوم المواد المطهرة ، ومثلها جرثومة التسمم ؛ فهى شديدة المقاومة وتبقى في أى مكان دون أن تتأثر بأى معقم أو مطهر ، وإذا ما صادفت وسطا مناسباً بدأت نموها مباشرة ، ثم تكاثرت وبدأت إفرازاتها وسمومها ، وبعض البكتريا يكون غلافاً جيلاتينياً حول غشاء الخلية ، وهذا الغلاف له قوام غروى يحيط الخلية فلا تتأثر بمعقم أو مطهر .

وبكتريا المرض تهاجم الانسان من طرق مختلفة ، فقد تهاجمه من طريق الغذاء أو الشراب ، مثل التيفود والدوسنطاريا البكتيرية ، ومن طريق التنفس مثل الالتهاب الرئوى ، أو من طريق الجلد مثل التسمم . والانسان هو الواسطة في نقل هذه الأمراض في الغالب ؛ وقد يتوسط حيوان في نقل المرض كما هو الحال في الطاعون الذى ينتقل من الجرذان إلى الانسان بوساطة البراغيث .

والجلد في الغالب يقى الأنسجة من الجراثيم ، إذ تجد من تركيبه حاجزاً منيعاً ، على أن مناعة الجلد تتوقف على صحة الشخص ؛ فإذا كانت سليمة زادت مقاومته إلى حد كبير ، وإذا ضعفت صحة الشخص تعرض جلده لكثير من الأمراض . كما أن تراكم الافرازات وغيرها على الجلد يساعد على وجود وسط يساعد على نمو البكتريا وتكاثرها ، ولذا تسهل الاصابة ، أما إذا وجد جرح في الجلد ، فانه يفتح طريقا يسهل مرور الجراثيم إلى الأنسجة الداخلية ، فإذا أريد نشر مرض جلدى ، وجب ضمان عدم النظافة وإحداث الجروح .

وفى حالة الاصابة من طريق الجهاز التنفسى ، فانها تكون ميسرة ؛ فالمسالك الهوائية مفتوحة على الدوام ، وجراثيم الأمراض تنتشر في الهواء فتدخل معه إلى الأنف فالبلعوم فالقصبة الهوائية ، ثم إلى الرئتين ؛ وفى كل هذه الأجزاء تجد الجراثيم مرتعا لحضانتها وتكاثرها . ومن الأمراض التى تصيب الانسان من هذا الطريق البرد والانفلونزا والالتهاب الرئوى والسعال الديكى والدفتريا والسل وغير ذلك ، وكلها أمراض بكتيرية ؛ وبعض هذه الأمراض قليل الخطورة ، والبعض يصيب سنا خاصة مثل الدفتريا . على أن الالتهاب الرئوى والسل يصيبان الانسان في أى سن ، والأول تزداد خطورته عند صغار السن والشيوخ . والاصابة بهذه الأمراض تتطلب ظروفا تتغير بتغير الأشخاص ، وهى غير معروفة بالضبط ؛ وما دامت هذه الظروف غير معروفة ، فليس من السهل أن يستخدم مرض الالتهاب الرئوى مثلا كسلاح في الحروب .

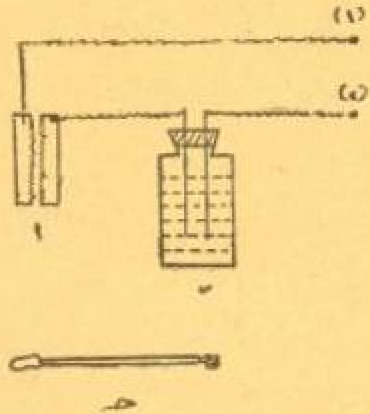
محمد أحمد بنونة

حكم في قضية الجنحة المستأنفة رقم ٩٧٢٦ سنة ١٩٤٠ بتاريخ ٣٠ / ٩ / ١٩٤٠ ضد شمس الدين الخطيب ومحل سكنه الأزبكية بتغريمه ٥٠٠ مليم لبيعه سكرا بأزيد من التسعيرة

كيف نستغنى عن الكبريت

توجد عدة طرق للحصول على لهب بدون ثقاب ، على أن أسهلها وأقربها تناولاً لليد هي الولاعة الكهربية ، وهي قليلة التكاليف ، ويمكن عملها بكل منزل به توصيلة كهرباء ، وتتكون كما فى الشكل :

(ا) قطعتان من النحاس طول كل منهما حوالى ١٠ سم ، وعرض كل حوالى ١ سم ، وتشرشر القطعتان بالمبرد ، ثم تثبتان على لوحة من الخشب بحيث تكون الحافتان المشرشرتان أمام بعضهما بدون تلامس .



(ب) زجاجة عادية تملأ حتى ثلاثة أرباعها بالماء ، ثم يغمس فيها قضيبان من الحديد أو النحاس ، ويضاف الماء قليل من الملح حتى يصبح قابلا لتوصيل جزء ضئيل من التيار .

(حـ) قضيب نحاسى مجوف له يد من الخشب وبداخله فتيلة من القطن .

(د) سلكان من النحاس ١ و ٢ .

للتوصيل : وصل كما فى الشكل أحد السلكين بقضيب الحديد ، والآخر بقطعة النحاس . أما القضيب الثانى والقطعة الثانية فيوصلان ببعض وحدهما ، والسلكان الرئيسيان (١ و ٢) يوصلان « بالكبس » ، وبذا يمر التيار من الكبس لقضيب الحديد ، ثم خلال الماء الذى يعمل عمل ملف مقاومة ، ثم للقطب الثانى ، ثم لقطعتى النحاس .

الاشعال : اغمس طرف القضيب النحاسى فى بنزين ، ثم مرره على قطعتى النحاس ، فتحدث شرارة تكفى لاشعال القطنة .

ملاحظة (١) يجب تجديد الماء كل عدة أيام ، ويحسن إحاطة قطعتى النحاس بعلبة من الخشب حتى تكون بعيدة عن ملامسة الانسان إذا مسها ووضع يده عليها .

(٢) تصلح هذه الولاعة لكل توصيلة بالمنازل مهما كان الفولت ١١٠ أو ٢٢٠ .

منير حبيب مشرقى

السمكة

حسبانها فلق الصبا ح ، وذيلها شفق الغروب
ولباسها بين الورى برد ولكن لا يذوب
تطفو وترسب فى الجدا ول كالصبابة فى القلوب
وتفر حين ترى ابن آ دم كالتقى يرى الذنوب
ترجو السلامة بالفرا ر ، وإنه أمل كذوب
كيف النجاة وهذه الـ شبكات من غزل الخطوب؟

شاعر البرارى

اللثغ ومخارج الحروف
وأثرهما في اللغة

قد تكلمنا في المقال الأول عن اللثغ وما تفرع عنه وما ترتب عليه من آثار ، وأبدينا رأينا في ذلك وما ينبغي أن يتخذ نحوه حين وضع معجم جديد . وفي مقالنا هذا سيكون كلامنا في موضوع أهم من السابق ، لما له في اللغة من آثار في مفرداتها أكثر عددا وأوسع دائرة ، ذلك هو مخارج الحروف وصفاتها ؛ وقد اهتم به أئمة اللغة وأعلام العربية ، وكان أشدهم اهتماما وأكثرهم به عناية علماء التجويد الذين أفردوا له أبوابا أو صنفوا فيه كتباً ، لأن صفات الحروف ومخارجها مما يتعلق بالقرآن الكريم والقراآت ؛ فهم مثلا يحتاجون إليها ليعرفوا ما يصح فيه الادغام وما لا يصح ، وبخاصة في الادغام الكبير في قراءة أبي عمرو بن العلاء المازني ؛ ويكفي أن نعلم أيضاً أن الخليل بن أحمد حينما صنف كتابه « العين » في اللغة لم يضعه على ترتيب الحروف الهجائية ، وإنما سلك فيه طريقاً أخرى ، حيث رتبه على نظام مخارج الحروف . وقد كان لصفات الحروف أو تقاربها في المخارج أثر كبير في مفردات اللغة كما قدمنا ، نتج عنه تضخيم المعاجم العربية وتكثير موادها ؛ ولكننا بشيء من التمحيص والمراجعة بعد معرفة لهجات العرب ولغاتهم ، نستطيع أن نلحق كثيرا من هذه المواد إلى أصولها التي تفرعت منها ، بعد أن كانت تنفرد بمادة خاصة بها . وأول ما نبدأ به من الحروف الحاء والهاء ، فهما حرفان متقاربان جدا ويدغمان معاً إذا تجاورا ، وأولهما وهو الحاء لا يوجد في كثير من اللغات ، واللغة الفارسية لا يوجد فيها حرف الحاء أصلا ، وإنما هو دخيل عليها من العربية ، ومع ذلك فإذا كتب فإنما ينطق به هاء ، ولهذا لو وجدنا كلمة في اللغة الفارسية مشتملة على الحاء فإننا نعتبرها دخيلة عليها . وفي معاجم اللغة العربية ألفاظ كثيرة اتحدت في الوزن والمعنى ، وليس من فرق بينها إلا أن هذه بالحاء وتلك بالهاء . وهذه بعض الأمثلة : المزح والمزه ، اللبح واللبه ، المدح والمده ، المحس والمهس .

تمدهي ما شئت أن تمدهي
فلست من هوني ولا ما أشتهي

ويسمى إبدال الهاء من الحاء « هَهْنَة » ؛ وذلك الابدال إنما هو من قبيلتي « لخم » و « سعد بن زيد مناة ابن تميم » . وهاتان القبيلتان كانتا متصلتين بالفرس اتصالا وثيقاً ، إما بسبب العمل والولاية وتلك قبيلة لخم ، وإما بسبب الجوار والسكنى وتلك قبيلة سعد من تميم ؛ وإذاً فنستطيع أن نضع قاعدة صحيحة يمكننا أن نسترشد بها في وضع معجم جديد .

١ — كل لفظين جاءا (ا) على وزن واحد (ب) وبمعنى واحد (ح) ولم يكن الاختلاف بينهما إلا في الحاء والهاء ، فالأصل منهما ما كان بالحاء ، وهو ما يجب أن يستقل بمادة أصلية في المعاجم ، ثم نلحق به في مادته ما كان بالهاء مشيرين إلى أنه تأثر بقبيلتي لخم وسعد بن زيد مناة اللتين كانتا متأثرتين بالفرس ، فنقول مثلا : اللبح هو الجبل ، ومما يلحق به « اللبه » بمعناه على لغة لخم وسعد من تميم .

وإذا انتقلنا إلى حرفي « العين والهمزة » وقلبنا الألفاظ التي وردا فيها ، لاحظنا أن لهما طرفين ، فتارة نجد ألفاظاً الأصل فيها العين ثم انتقلت إلى الهمزة كالسعف والسأف ودعم الحائط ودأمه وزعاف وزؤاف ، وتارة نجد ألفاظا الأصل فيها الهمزة ثم انتقلت إلى العين مثل خبأت الشيء وخبعته ، والخباء والخباع ، وأن وعن ؛ وحينئذ قد تبدو معرفة الأصل منهما أول الأمر صعبة ، وبخاصة

أن كثيراً من اللغات لا توجد فيها العين . هذا إلى أننا نجد قبيلة تميم تجعل الهمزة الأولى عيناً ، ويسمى ذلك عنعنة تميم ، فيقولون في « أسلم » « عسلم » ، وفي « أن » « عن » . ويظهر أيضاً من المثال الآتي أنهم يقلبون الهمزة الأخيرة عيناً ، فالخباء لغة عامة العرب ، والخباع لغة تميم فيه ؛ وإذاً فيمكننا أن نضع قاعدة تصلح أيضاً في تنظيم المعجم الجديد ، وذلك بعد ملاحظة « السعف والسأف ودعم ودأم وأمثالها » ، وبعد ملاحظة « أن وعن وخبأ وخبع وخباء وخباع وأمثالها » فنقول :

١ — كل لفظين جاءا « ا » على وزن واحد « ب » وبمعنى واحد « حـ » ولم يكن الاختلاف بينهما إلا في العين والهمزة « د » ولم يكن حرف العين والهمزة فاءً لكلمتيهما ولا لاماً لها فاللفظ الأصلي لها هو ما كانت فيه العين وهو الذي يجب أن تكون له مادة أصلية في المعجم ، وحينئذ نلحق به ما كان على زنته وفيه الهمزة مع الاشارة إلى أنه متأثر بقبائل كانت تجاور دولا غير عربية ، كما في دعم الحائط ، ومما يلحق به « دأمه » بمعناه ، والسعف ومما يلحق به « السأف » بمعناه ؛ هذا إذا لم يكونا فاءً للكلمتين ولا لاماً لها كما قدمنا ؛ أما إذا كانا كذلك فاننا نعتبر الأصل منهما ما كانت فيه الهمزة ، وهو الذي يجب أن يستقل بمادة في المعجم ثم يلحق به ما كانت فيه العين ؛ مع الاشارة إلى أنه متأثر بعنعنة تميم كما في خبأ الشيء مثلا ومما يلحق به خبعه بمعناه ، والخباء ومما يلحق به الخباع بمعناه وهكذا .

ننتقل بعد هذا إلى الحروف الثلاثة : السين والصاد والزاي . وتلك تحتاج الألفاظ التي وردت فيها إلى شيء من التفصيل قبل وضع القواعد والأسس ، وبخاصة أن هذه الحروف قد تتبادل في لفظ واحد أو يتبادل اثنان منها في كلمة واحدة ، وأول هذه الثلاثة حرف السين ، وقبيلة بلعنبر (بني العنبر) من تميم تقلبه صادا إذا وقع قبل أحد الحروف الآتية : (١) القاف (٢) الطاء (٣) الخاء (٤) الغين . سواء أوقع أحد هذه الأربعة تاليا له أم ثالثاً أم رابعاً ، لا يُبَالِى أيا كان ذلك ما دام واقعاً بعد السين . فيقولون مثلا في « سائق » : صائق ، وفي سراط : صراط وفي سخَّر : صخر ، وفي مسغبة : مصغبة . أما قبيلة « كلب » من قضاعة فإنها تقلب السين الواقعة كذلك أو مطلقاً « زايا » فيقولون في سَقَر : زقر ، وفي سراط : زراط ، وقد قرىء بها عن أبي عمرو قراءة صحيحة . أما الصاد فإن قبيلة طيء تقلبها دائما زايا ، ومما يحكى أن حاتما الطائي كان أسيراً عند بعض العرب فجاء بعض الأضياف فأمرت صاحبة الخباء حاتما أن يفصد بعيراً لهم — وكان من عادة بعض العرب أن يفصدوا بعيراً ثم يؤخذ ما سال من الدم فيوضع في الماء ويغلي معه وبعد ذلك يقدم هذا الحساء إلى الضيف ، يفعلون ذلك إذا لم يكن الضيف جديرا بأن ينحر له ، وقد حرم ذلك عليهم بقول الله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم » — فأقبل حاتم على البعير ونحره ولم يفصده كما طلبت منه ، فقالت له : لم فعلت ذلك ؟ فقال : هكذا فَزْدي أنه[1] . وإذاً لما تقدم نستطيع أن نستخرج قواعد تصلح أساساً في وضع معجم جديد .

١ — كل لفظ جاء بالسين مرة وبالصاد مرة أخرى وبالزاي مرة ثالثة فاننا نعتبر ما كانت فيه السين هو الأصل وهو ما يجب أن يستقل بالمادة الأصلية في المعاجم ، ثم يلحق به في مادته ما كان بالصاد مع الاشارة إلى أنه لغة بلعنبر من تميم ، وكذلك يلحق به ما كان بالزاي مع الاشارة إلى أنه لغة كلب من قضاعة ، فنقول مثلا : السراط ومما يلحق به الصراط بمعناه على لغة بلعنبر ، والزراط بمعناه على لغة كلب .

٢ — كل لفظ ورد بالصاد مرة وبالزاي مرة أخرى فحسب ، فاننا نعتبر ما كانت فيه الصاد هو الأصل وهو ما يجب أن يستقل بالمادة الأصلية ، ثم نلحق به في مادته ما كان بالزاي مع الاشارة إلى أنه لغة طيء ، فنقول مثلا : الفصد ومما يلحق به الفزد بمعناه على لغة طيء .

٣ — ما ورد بالصاد مرة وبالسين مرة أخرى فبناءً على

(١) من لهجات طيء أنهم يقلبون ألف ضمير المتكلم هاء عند الوقف .

ما تقدم يكون الأصل منهما ما كان بالسين وأما ما كان بالصاد فلغة بالعنبر .

٤ — ما ورد بالسين مرة وبالزاى مرة أخرى فبناءً على ما تقدم يكون الأصل منهما ما كان بالسين ، أما ما كان بالزاى فلغة كلب .

ثم ننتقل بعد ذلك إلى حرفى الخاء والغين وهما حرفان متقاربان جدا كتقارب الهاء من الحاء ، وفى المعاجم العربية ألفاظ متفقة فى الوزن والمعنى وفى الحروف ، ولكنها تختلف فى الخاء والغين فحسب ، مثل يخطر ويغطر واختضر واغتضر ، فيجب أن نضع لها قاعدة بحيث نلحق أحدهما بالآخر ؛ وهنا قد نتوقف فى أيهما يكون الأصل وأيهما الذى يلحق به . أما أنا فإنى أرجح أن الخاء هى الأصل بأدلة ثلاثة :

(١) مخرج الخاء فى الحلق أسبق من مخرج الغين

(٢) الخاء فيها من القوة والانتشار أكثر مما فى الغين

(٣) وهو الأهم أننا نجد الألفاظ التى اشترك فيها هذان الحرفان إنما المستعمل منها ما كان بالخاء ، وهو الذى يتداوله الناس غالباً كيخطر واختضر ، وفى هذا دليل على أن ما كان بالخاء هو الأصل وهو الذى حقه أن يستقل بالمادة فى المعاجم ، ثم يلحق به ما كان فيه الغين على اعتبار أنه متفرع عنه عنه ، وهذا خير من أن ندعهما فى مادتين مختلفتين فتكثر عدد المواد فى المعاجم من غير ضرورة ملحة تدعونا إلى ذلك ؛ على أننا يمكننا أيضا أن نزيد على الأدلة الثلاثة السابقة مرجحين آخرين لأصالة ما فيه الخاء على ما فيه الغين : أولها أن الخاء متقدم على الغين فى الترتيب الهجائى ، وثانيهما أن الخاء أيضا متقدم فى الترتيب الأبجدى .

ولو انتقلنا بعد ذلك إلى حرفى الباء والميم وجدنا أنه مخرجهما من الشفتين ، وإذا درسنا علم التجويد نجد أن الميم حرف يسرع الانتقال إليه ، فإذا وقعت النون الساكنة أو التنوين قبل الباء يحدث ما يسمى عندهم بالاقلاب ، فيقرأون قول الله تعالى : « من بعد ما جاءهم العلم » بحيث يكون فى القراءة كما يصوره الرسم الآتى « مم بعد ما جاءهم العلم » ، كما أنهم يقلبون الباء الساكنة إذا سبقت الميم إلى الميم ، فيقرأون قول الله تعالى « اركب معنا » بحيث يكون فى القراءة كما يصوره الرسم التالى : « اركم معنا » ، هذا ولو قمنا بدراسة اللهجات العربية لوجدنا أن الباء والميم يتبادلان عند قبيلة مازن ، فهم تارة يجعلون الباء ميا ، فيقولون فى بكر مثلا : مكر ، وتارة أخرى يجعلون الميم باءً كأن يقولوا فى « ما اسمك : باسبك » ، ولما كانت هذه القبيلة لم تسلك طريقة واحدة فى الابدال بين الحرفين فاننا نريد أن نضع قاعدة نختارها نستطيع أن نسير عليها فى تنظيم معجم جديد ، بحيث نقلل من عدد مواد اللغة التى يقولون إنها تجاوز ستين ألفاً إلى أن تبلغ ثمانين ألفاً ؛ فأى الكلمتين نجعلها أصلا بحيث تلحق بها الأخرى ما دامت ليست هناك ضرورة قصوى ترغمنا على أن نجعل لكل منهما مادة مستقلة ، وبخاصة أننا قد رأينا فى اللغة ألفاظا متفقة فى الوزن والمعنى ، وليس من فرق بينها فى الحروف إلا فى الباء والميم ، مثل رأيته عن كثب ورأيته من كثم . أما أنا فانى أرجح أن يكون اللفظ الأصل منهما وما يستحق أن يقوم بالمادة الأصلية هو ما كانت فيه الباء ، اعتماداً على الأدلة الآتية :

(١) حرف الباء أسبق فى الترتيب الهجائى .

(٢) وهو أيضاً أسبق فى الترتيب الأبجدى .

(٣) وهو فوق هذا وذاك أقوى من الميم .

(٤) وإلى جانب ما تقدم نرى أن الميم فى المثالين السابقين من القرآن الكريم ، عند التجويد هو الذى ينتقل إليه منقولاً من الباء أو النون الساكنة والتنوين ، فهو متفرع لا أصلى ، وإذاً فيمكننا استخلاص القاعدة الآتية :

١ — إذا اتفق اللفظان وزناً ومعنى ولم يختلفا فى الحروف إلا فى الباء والميم فالأصل منهما ما كانت فيه الباء ، ويلحق به ما كانت فيه الميم ، فنقول مثلا : هو يرى

من كثب ، ومما يلحق به « عن كثم » بمعناه متأثراً بلغة مازن .

وإذاً فمن الكلام في المقال الأول والكلام في هذا المقال نستطيع أن نعرف مثلا اللفظ الأصلي من هذين اللفظين : (شدخ وثدغ) ، فهما بمعنى واحد والاختلاف بينهما في حرفين : بين الشين والثاء ، وبين الخاء والغين ؛ فبناء على اللثغ تكون الثاء لثغة مركبة للشين كما في قرشط وقرثط ؛ وبناءً على مخارج الحروف يكون الخاء هو الأصل للغين كما في يخطر ويغطر ؛ وإذاً فكلمة ثدغ ليست هي الأصل ، وهي من حيث الغين فرعية جائزة الاستعمال ؛ ولكنها من حيث الثاء لثغة ممتنعة الاستعمال كما رأينا عند التكلم على اللثغ .

عبد الستار أحمد فراج

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

اليابان

ألممنا إلمامة خاطفة في مقالات ثلاث سابقة باليابان الأرض ، سهولها وجبالها وبحارها ، وما استبطنته قشرتها الجامدة وما استظهرته ، وما طواه الماء . واليوم نأخذ في الإلمام باليابان الأمة إلمامة خاطفة كذلك — بالناس ، ما كانوا وكيف كانوا ، وكيف هم في هذا العصر الحاضر الحديث :

إن أمم الأرض أشكال وألوان . وقد تختلف صفات الأفراد في الأمة الواحدة المتجانسة ، ولكن لا يكون هذا الخلاف في غير التفصيل ، ولا يعدم الباحث المتقصي أن يستخرج من دراسة هذه الأمة صفاتٍ غالبةً تميّزها عن بقية الأمم ، وهي لا تميزها فُرادى ، ولكن تميزها مجتمعةً . فاستقامة الشعر قد تجتمع في أمم كثيرة . وصغر القامة قد يجتمع في أمم كثيرة . وضخامة الرأس قد تجتمع في أمم شتى . ولكن هذه الصفات مجتمعةً لا تكون إلا في العدد القليل من الأمم . وهذا العدد يقل كلما زدنا الصفات تعداداً ، وينتهي الأمر إلى أن تتميز الأمة الواحدة بمجموعة من الصفات واحدة . وهكذا هي اليابان .

فالذين اختلطوا باليابانيين ، واختلطوا بهم جيداً ، واختلطوا بغير واحد منهم ، لا يكادون يخطئون الياباني أينما وجدوه . فأول ما يلفت النظر فيه قصر القامة ، فمتوسط أطوال الرجال فيهم ١٦٠ سنتيمتر ، ومتوسط النساء ١٥٠ سنتيمتر . وثاني ما يلفت النظر منه قصر الأرجل بالنسبة لطول الجذع ، وطول الرأس بالنسبة لقصر الجسم . فهذه النسبة الأخيرة تبلغ في الأوربي $\frac{1}{8}$ ، وقد تزيد فتقترب من $\frac{1}{7}$. ولكنها في الياباني تزيد على هذه .

ولعل أكثر ما يميّز اليابانيّ وأسرع الوسائل في تعرفه صفات الوجه . فالوجه دائماً هو الجهة التي يتجه لها بصر الانسان في تعرّف إنسان يلقاه . فأول ما يأخذ البصرَ من اليابانيّ انبطاحُ أنفه ، ثم علوّ عظام خده ، ثم محولة عينيه في محاجرهما ، حتى ليكاد الوجه أو أكثره ، من الجبهة إلى الشفاه ، أن يحتلّ سطحاً مستوياً واحداً .

ثم العينان ، وهما أول ما تقع عليهما عيون الفاحص المتعرّف عند ما تلتقي الأبصار . فهذان شقّاهما في الجلد ينحدران انحداراً إلى ناحية الأنف ، أو هما يشيلان شَيَلاناً في اتجاه الآذان . وهما شقّان يتراءيان ضيقين ، ويزيد في تراثيهما بهذا الضيق طيّةٌ في الجفن الأعلى تتدلى على ركن الشق من ناحية الأنف ، حيث يلتقي الجفنان ، فتحجب هذا الركن وتحجب ملتقى الجفنين . وقد تطول هذه الطية فتحجب شفرة الجفن الأعلى وتحجب معها منابت الشعر فيها ، وعندئذ تطبق فتحة العين ، ويضيق ما بين الجفنين ضيقاً شديداً لا يلبث أن

يبلغ أذاه عند الضحك ، فلا تكاد تدرى أراك الضاحك أم قد أغمضت عيناه . ويزيد فى تصوير العين بالصورة المعروفة فى اليابانى رموشهما ، فهى قليلة ، وهى قصيرة ، ولكن من أغرب ما فيها أن شعرات الرمش تنضم أطرافها بعضها إلى بعض ، بينما هى فينا وفى سائر من نرى من الأمم تتباعد فترسم بأطرافها قوساً هى أكثر اتساعاً من شفرة الجفن الذى يحملها .

ثم اللون والشعر . فأما اللون فهو الذى يعتريه بالصفرة . وأما الشعر فهو الشعر المستقيم الذى لا يتجعد أبداً . فإذا مُوِّج فلا يكون هذا إلا طيّاً ، فإذا زال من الطيّة عاد ثانياً استقام الشعر كما تستقيم الحبال . وشعر اليابانى قليل فى جسمه وفى وجهه قلة زائدة .

فهذه صفة اليابانى الجثمانية ، وهى صفة السواد منهم . وهى صفة يشترك وإياهم فى بعضها تلك الأمم التى تعيش حول هذا الجانب الشرقى من آسيا ، من شمال هذا الجانب عند أقصى سيبيرية الروسية ، إلى جنوب هذا الجانب عند حدود استراليا ، حتى والأمم الأقل تشريقاً من هذه فى أواسط القارة الأسيوية . فالصينيون والكوريون والمنشوريون وسكان الهند الصينية وسيام والملاى وجزر الهند الشرقية ، كل هؤلاء لا يكاد يلقاهم الانسان ، أو يراهم من لا يلقاهم على الشاشة البيضاء ، حتى يدرك أنهم واليابانيين أمم مختلطة الدماء ، كما يجرى الماء الحلو فى الماء الأجاج ، أو كما يصب ماء النهر فى ماء البحر ، يبدأ حلواً كله ، ثم يتدرج فى الملوحة حتى ينتهى أجاجاً كله . وأنت فى أثناء هذا لا تكاد تجد بين هذه المرحلات حدّاً فاصلا تقول عنده هذا انتهاء ، وهذا ابتداء .

فهذا ما يتراءى للعين العابرة إذا لقيها الرجل العادى فى ذلك الجانب القصىّ من القارة الأسيوية . وهذا نفسه هو ما وجده الدارسون الباحثون بالدراسة ، سواء كانت هذه دراسة أجسام وأشكال ، أو دراسة تاريخ وعادات ، أو دراسة آداب ولغات . حتى الأقاصيص عن العصور



العتيقة البائدة ، إن افتقد الدارسون فيها صحيح التاريخ وأسانيده ، ووجدوا فيها مبالغة القصص وخرافة القدم ، فإنهم لم يعدموا فى جوهرها حوادث تَنُمّ عن أصول هذه الأمة ، وعن حركاتها فيمن جاورها جزراً ومداً .

ويستنتج من هذه الدراسات على تعدّدها ، واختلاف وسائلها ، أن السكان الأولين للجزر اليابانية كانوا قوماً يختلفون اختلافاً بيناً عن يابانيى العصور الحاضرة . وبما أن الأرض لا تُنبت الناس ، فلابد أن هؤلاء القوم جاءوا من القارة الأسيوية إلى الجزر عبر البحر ، أو عبر ما بينهما من برازخ كانت تصلهما فى عصور قديمة . ويسمون هذا

الجبل من الناس بالأَيْنُو . ولِسواهم من خلْق الجبال ،



أشهر براكين اليابان ، فوجي يما ، وأقدسها عند اليابانيين

ولا هم من ظنون التاريخ المبهَم البعيد ، ولكنهم حقيقة في التاريخ المكتوب وفي المذكور من الحروب . فقد دخل عليهم الداخلون في جزرهم فحاربوهم وقتّلوهم وطاردوهم في هذه الجزر إلى شمالها وغربها . وهم حقيقة في العصر الحالي أيضا ، فلا تزال منهم بقية تسكن الجزيرة الشمالية ، وتعيش وحدها ، أو هكذا تكاد تعيش . وهي تشبه اليابانيين في قصر الجسم واكتناز الصُّنع ، ولكنها تختلف عنهم في الأنف فهو طويل ، وفي الحاجب فهو يركب حجاجا بارزا ، وفي العين فهي تسكن محجرا غائرا ، وفي الرمش فشعراته تنفرج كالمِروحة من محاجرها ، وفي الشعر عامةً فهو غزير في الجسم والوجه ، وهو على الرءوس كثير متماوج . فالأَيْنُو يشبهون في جلة صفاتهم وقسماتهم سكان أوربا .



على شاطئ « البحر الداخلي » بين الجزر الثلاث اليابانية ، وهو من أجمل بحار الدنيا . وعلى الجبل قام معبد صغير

وجريا على طراز اليوم نسبهم بعض الساسة إلى الآريين . وعلى أنهم في حروبهم وسلمهم خالطوا وزاوجوا من جاء إلى الجزر بعدهم من السواد الذي يملأ الآن أرض اليابان ، إذاً فقد تطعّم الدم اليابانيّ بالدم الآريّ . أو هكذا يقول القائلون المبدعون .

كذلك أثبتت هذه الدراسات أن اليابانيين يَمُتّون إلى الكوريين والمنشوريين بسبب متين . ويظهر هذا واضحا في قاماتهم فهي طويلة رقيقة ، وكذلك في وجوههم فهي طوال رقاق . وأيديهم دقاق . وفي شقّ العين المحدار كالذي في اليابانيّ ، ولكن الأنف أقنى كأنف الصقر والنسر . وتجد هذه الصفات اليوم غالبةً في الطبقات العليا من المجتمع اليابانيّ .



بحيرة في أعالي الجبال . ومصيف بجوار يوكوهاما

وفي اليابان عنصر المغول ، دخلوا مع الداخلين ، ومن صفات هذا العنصر وجه عريض ووجنات بارزات وفم واسع وأنف تطامنت قصبته فانبطحت .

كذلك أثبت الدرس أن آخر من دخل اليابان عناصر جاءت من الجنوب أصلا ، من الملايا ومن ذلك الأرخبيل العظيم في الجزر الكبيرة والصغيرة الواقعة في الجنوب الشرقي من آسيا ، ومنها الفيلبيين . وهذه العناصر من صفاتها صغرُ الجسم وقصره مع حُسن حبكٍ فيه ؛ وطولُ الجذع ، واستعراض الصدر ، ودقة اليد ، واستدارة الوجه ، وقصر الأنف ، وبروز الوجنات ، وهذه هي الصفات

التي ذكرناها في وصف الياباني فيما سبق من هذا المقال .

فتلك العناصر الإنسانية زحفت في عمليات اختلاط الأمم إلى الشمال ، على الشاطئ الشرقي من الصين ، ثم إلى كورية ، ثم عبرت البحر إلى الجزر اليابانية ، فحاربت من سبقها إلى هذه الجزر من كوريين ومنشوريين ومغول فغلبتهم . ثم هم انتشروا في الجزر حتى جعلوا عنصرهم فيها هو الغالب . وقد خلفت هذه العناصر ، وهي في طريقها إلى الشمال ، أثرها واضحا فيما يسمى اليوم الهند الفرنسية ، وفي الصين الجنوبية ، وفي شاطئ الصين كله من جنوبه لشماله ، وحتى في الجنوب من كورية .

فتلك هي العناصر الخمسة التي ائتلفت قبل شروق التاريخ المكتوب أمة اليابان الحاضرة :



فلاحات يابانيات تجمع الشاي . لاحظ صغرهن وظهور النعمة عليهن

الإينوي ، فالكوري والمنشوري والمغولي فالعنصر الجنوبي الأرخبيلي ، امتزجت كلها امتزاجا ، واختلطت كما يختلط دقيق القمح والأرز أو أشد اختلاطا . وزاد في اختلاطها بعد التاريخ الذي اختلطت فيه ، تلك الفسحة الكبيرة من الزمن التي عمل فيها التزاوج فالتوالد عمله في عجن هذه الأمة ولتّها حتى تجانست أرغفتها فكانت طعما واحدا ، سواء ما قُرص وخُبز منها في الشمال أو في الجنوب ، وفي الشرق أو في الغرب من الجزر اليابانية الأربع

أحمد زكي

في المكتبة العربية :

دعاء الكروان

الدكتور طه حسين بك

يذكر الكثيرون ولا شك تلك القصة التي بدأها الأستاذ الدكتور طه حسين بك في مجلة « الفجر » منذ أعوام خلت ، ثم حالت الظروف دون موالاة نشرها ؛ ومرت الأعوام ، وما من واحد ممن قرأوا ذلك الاستهلال الرائع لسرد القصة على لسان فتاة تناجي الكروان . هذه الفتاة آمنة التي كانت تجد في دعاء الكروان عزاءً ، وفي الاستماع إلى شدوه لذة تثير كوامن نفسها ، وتبعث صور الماضي حية قوية — ما من واحد ممن قرأوا بداية تلك القصة إلا وهو مشوق أن يمضي مع هذه الفتاة في ذكرياتها وحديثها ، فيستمع إلى ما تقص من أنباء حياتها ، وما تردد من خواطر ومشاهدات عبرت بها في رحلتها من الصحراء إلى الريف ، ومن الريف إلى المدينة ، ومن المدينة إلى العاصمة . هذه الخواطر التي تسردها في جلال الخاطر الحزين وروعته ، ورقته .

ها هي آمنة إذاً تخرج من صمتها الذي طال ، فتقص من أقاصيصها بين دفتي كتاب قصة رائعة ، رائعة بألوانها التي اتخذتها من الأجواء المختلفة التي انتقلت فيها وعاشت خلالها ، رائعة باسترسالها السهل قدر ما تسمح الخواطر لفتاة قدر لها أن تنال حظاً من العلم بالحياة غير يسير . وهل في الحياة دروس غير تلك الأحداث التي تنتاب الناس والتي تلم بهم ، فتبعث فيهم تلك الفلسفة الساذجة العميقة كفلسفة صاحبتنا آمنة ؟ هذه الفتاة البدوية التي ترغم إرغاماً مع أمها وأختها على أن يهجرن مأواهن على حدود الريف ، فيضربن في الأرض حتى يصل بهن المطاف إلى إحدى المدن يطلبن العيش بالخدمة في

بيوت الأثرياء وذوى النفوذ ! وما يكاد يطيب لهن المقام حتى يفجعن فى أعز ما تملك أسر البادية وهو الشرف ! فقد اعتدى على أخت آمنة مهندس شاب ، فلم يعد للأسرة مقام إلا أن ترحل بعارها .

وتحمل آمنة معها ذكرى أيامها السعيدة تحايلها فى كل مكان ، فى الطريق من الحضر إلى البادية ، وفى الصحراء فى تلك البقعة الموحشة من الأرض حيث يغسل خالها عار الأسرة على نحو ما يغسل أهل البادية العار ، ولا تكاد ذكرى هذه الحياة الهنيئة التى نفتها فى المدينة تلح عليها حتى تجذبها إليها ، بل وحتى تجذبها إلى حيث كانت أختها ، إلى بيت ذلك المهندس الشاب الذى عبث بأختها . والذى يوشك أن يعبث بها هى أيضا ، لولا ما تأخذ به نفسها من حرص وعناء تحسبه أول الأمر إعراضا وحقدا ، وتتصوره انتقاما تعذب به من كان السبب فى قتل أختها ، ولكنها ما تلبث أن تتبين أنه غير هذا وذاك ، وأنه ليس إلا الضوء الذى يجذب الفراشة ، وأن صدها ليس انتقاما فهى لا تحقد وإنما تحب ، وإنما تطيل التفكير فى أمر نفسها فلا تصل إلا إلى ما تصل إليه الفراشة ، أن تقع على جدار المصباح متحرقة بضوئه اللامع ، ولا تملك آخر الأمر إلا أن تستقر فى هذا الوضع .

وما أحسب أنى عرضت القصة أو لخصتها ، فهى صور للحياة وخواطر لنفس شاعرة حساسة قوية الاحساس والوعى معا . نفس متلسفة شديدة القابلية للصقل ! فما نشهدها أول الأمر فتاة البادية حتى ندركها آخر القصة فيلسوفة تفهم الحياة وتدرك أصدق الادراك ، وقد حلت محل أختها فى حب ذلك الشاب على كره منها ، أن شبح هذه الأخت وإن كان خليقا أن يبعث فى نفسها الحزن واللوعة فليس فى مكنته أن يحول دون هذا الحب ، بل إن فى طاقته أن يجعل ما بينها وبين هذا الشاب من الحب أشد قوة وأقوى رباطا . وإنه لكذلك ، فما تكاد تقص على الشاب قصتها حتى يدرك ما قضى عليهما به من اتصال ليحملا معا ذلك الشقاء الذى قدر عليهما .

ما أحسب أن العرض والتلخيص جدير بمثل هذه القصص ، وإنما الأجدر بها إشارة عابرة لما فيها من خطوط لأحداثها ، ولخير المرء أن ينصت مع الكروان إلى آمنة وهى تتحدث وتتثال عليها الخواطر ، وأن يبتسم مع الكروان أيضا حين يلمس حيرتها وهى تعالج ما فى نفسها من الحب فلا تكاد تتبينه ، أو تخشى أن تتبينه ، أو تخجل ! تلك الابتسامة الساخرة كابتسامة الشيخ ينصت إلى قصة الصبى الناشىء ، يرى من الأحداث والتجارب ما مر به هو من قبل ، وما يعرف منه أكثر مما يعرف الصبى ، ومع ذلك فهو يبتسم ولا يزيد عن الابتسام .

وما يمنع ذلك أن أشير إلى ما فى القصة من عرض لبعض ألوان الحياة فى الريف وفى البادية توشك أن تندثر ، فهى فى حاجة إلى ريشة فنان يسجلها ، وقد سجلها الدكتور طه فأحسن تسجيلها ، وما فيها إلى جانب ذلك من استرسال فى الوصف يذكرنا بالقصص الوجدانى ، حيث تبدو صفحات الوصف كأنها مقالات قائمة بذاتها ، وحيث يصبح التسلسل فى السرد أمرا ثانويا يحل محله اتساق الأسلوب وسهولته فى التشويق .

ولقد سمى الدكتور طه حسين بك هذه القصة عشا متواضعا للكروان ، وإن هذا العش المتواضع لجميل حقاً ! وإنه ليطل على آفاق كثيرة منفسحة مترامية ، يكاد الكروان وهو يطل منها أن يلم بها جميعا ، لولا ما يأخذ بصره من عديد الألوان ، والصور ، والخيالات . . .

صلاح الدين ذهنى

حكم غيابيا فى القضية رقم ٣٥٥ تسعيرة سنة ١٩٤٠ ضد محمد حسن سلامه بشارع بوابة الوداع رقم ١٩ بتغريمه ١٠٠ قرش لبيعه لحما بأزيد من التسعيرة وتعليق الحكم على باب متجره وسراى المحافظة ونشره بمجلة الرسالة والثقافة .

حكم فى قضية الجنحة المستأنفة رقم ٦٨١٤ سنة ١٩٤٠ بتاريخ ٤/٦/١٩٤٠ ضد عبد الرحيم عبد الجبار وحل سكنه شبرا بتغريمه جنيها لبيعه ملحاً بسعر أزيد من التسعيرة

يظهر هذا الأسبوع كتاب :

سعد زغلول من أقضيتــــه

ألفــــه

عبده حسن الزيات المحامى

كتاب تناول بالعرض والتلخيص والنقد والتحليل والتركيب زهاء مائتى حكم من الأحكام التى أصدرها أو اشترك فى إصدارها سعد المستشار — خلال حياته القضائية التى دامت أربعة عشر عاما — فى مختلف المبادئ والأمور من دستورى وإدارى ومدنى وجنائى ، وما يتصل بالأوقاف وما يتصل بالمجالس الحسبية ، وما يواجه تنازع الاختصاص بين القضاء بين الأهلى والمختلط والأهلى والشرعى ، وما يعرض لجرائم القذف والتعذيب الجنائى عامة الخ الخ . وبين هذه الأحكام عشرات لم يسبق نشرها ولا ذكرها مطلقا .

والكتاب فى جوهره محاولة لتصوير شخصية سعد على ضوء هذه الأحكام ، باعتبارها مظهراً لعقله ومبادئه القومية والاجتماعية والأدبية ، وربط هذه الأقضية بالمأثور من طبعه وأسلوبه القولى والخلقى ؛ وهو فى الوقت عينه تاريخ جزئى لقضائنا الأهلى فى عهده الأول وللحياة المصرية فى دُروب من نشاطها .

وقد تضمن الكتاب فوق أحكام سعد أحكاماً قديمة صدرت من غيره من قضاة سبقوه أو زاملوه ، (منهم صالح ثابت ، أحمد عفيفى ، محمد عبده ، قاسم أمين ، على ذو الفقار ، محمد مجدى ، يوسف شوقى ، أحمد زيور ، أحمد طلعت ، دوهلز ، هالتون ، بوند ، فتحى زغلول ، حفنى ناصف) ، أو من قضاة متأخرين وحاليين ؛ وذلك بياناً لمدى تأثير سعد فى غيره حتى الآن أو تأثره هو بغيره ؛ وفى هذا السبيل استطرد الحديث أحياناً إلى بعض الأحكام الفرنسية والمختلطة ، وإلى موقف الشريعة الاسلامية أو الفقه قديمه وحديثه من بعض هذه الأمور التى عرض لها سعد بقضاء .

واشتمل فصل القاضى الجنائى على عرض وتحليل متبسطين نوعاً لوقائع وظروف وأشخاص جنايات القتل التى آخذ سعد فيها بالقصاص .

والكتاب يملأ حوالى ٤٢٥ صفحة من القطع الكبير ، وينتظم مقدمة وتسعة فصول — جعل ثمنه ثلاثين قرشاً صاغا ، يضاف إليها حق البريد ، ويطلب من المكتبات ومن مكتب المؤلف بشارع إبراهيم باشا رقم ١٠ بعابدين بالقاهرة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٦ — الثلاثاء ١٦ من صفر سنة ١٣٦١ — ٣ من مارس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

أحـــــداث الربيع

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كثر التحدث عن الربيع القادم ، وما يخبئ في طياته من مفاجآت في ميدان الحرب والسياسة تتوقف عليها مصاير الأمم ؛ وقد كان الربيع منذ أعوام دائماً مليئاً بالأحداث الكبرى ؛ وفي ربيع العام الماضي فقط كان مصرع يوجوسلافيا واليونان وفتح كريت ، والهجوم العظيم على روسيا .

ومن الواضح أن اختيار الألمان الربيع لتنفيذ مشاريعهم يرجع إلى اعتبارات جوية وفنية لها قيمتها من الوجهة العسكرية ؛ ففي الربيع يذوب الثلج ، ويحل الدفء مكان البرد القارس ، ويصفو الجو ويغدو أصلح لنشاط القوات الجوية ، وتمهد الطرق ، ويسهل تقدم القوات المدرعة وتموينها ؛ ومن الربيع إلى مقدم الشتاء بضعة أشهر تتسع لإتمام المشاريع العسكرية الضخمة ، وتحقيق النتائج المرغوبة .

ونحن الآن على أبواب ربيع جديد ؛ وقد دخلت الحرب في أعظم أدوارها ، وامتدت رقعتها إلى مساحات جديدة ، وعمت جميع القارات والمحيطات ، فالآن يتساءل الناس جميعاً عما يخبئه الربيع القادم للعالم من أحداث ومحن جديدة ؛ ويتساءلون : أين تقع المعارك القادمة ؟ وهل تكون حاسمة تلك المرة ، أم هل يقضي على العالم

بأن ينتظر ربيعاً آخر أو أكثر قبل أن تنقشع غمار المحنة ؟

وهذه أمور ليس فى طاقة إنسان أن يجيب عنها إجابة شافية ؛ ولكن توجد ثمة طائفة من الفروض والتكهنات عما ينتظر حدوثه فى الربيع القبل ؛ وسنحاول فى هذا المقال أن نرى أيها أقرب إلى الحقيقة والواقع ؛ بيد أنه يجب قبل هذه المحاولة أن نستعرض مركز الفريقين المتحاربين على ضوء الحوادث والتطورات الأخيرة .

فقد دخلت اليابان فى الحرب ضد أمريكا وبريطانيا العظمى منذ السابع من ديسمبر الماضى ، وزادت بذلك قوى المحور الهجومية ؛ ودخلت أمريكا من جانبها الحرب ضد دول المحور ، فزادت بذلك قوى الجبهة الديمقراطية الدفاعية ؛ ولا ريب فى أن الحرب فى المحيط الهادى ، قد أسفرت حتى اليوم عن نتائج خطيرة بالنسبة لانكلترا وحلفائها ، ولا سيما بعد سقوط سنغافورة وغزو بورما ، ونزول اليابانيين فى عدة أماكن فى جزر الهند الشرقية الهولندية ، وفى غينيا الجديدة وما حولها من الجزائر ، واقتراب خطر الغزو اليابانى بذلك من استراليا ؛ وقد تفوز اليابان بانتصارات أخرى فى هذا الميدان قبل أن تتمكن النجدات البحرية والجوية المتحالفة من وقف زحفها ؛ وهنالك ما يدل على أن النجدات الامريكية قد بدأت تصل بالفعل ، وكان لتدخلها أثر فعال فى تحطيم الحملة البحرية اليابانية على جاوة ؛ وجاوة هى اليوم فيما يبدو أهم هدف لليابان ، فهى أغنى جزر الهند الشرقية ، وأهمها من الناحية العسكرية ، وبها أهم قاعدة بحرية بقيت فى يد الحلفاء فى هذه المياه ، وهى سورابايا .

ولا ريب أن الانتصارات اليابانية ، كان لها أثر سىء فى مركز الجبهة الديمقراطية بصفة عامة ؛ فان استيلاء اليابان على تلك الأراضى والجزر الغنية يحرم الحلفاء من موارد غزيرة من المطاط والزيت والقصدير وغيرها ؛ هذا فضلا عما يترتب عليه من تهديد المواصلات البحرية الامبراطورية أو قطعها ، وشل حركة الامدادات التى كانت بريطانيا العظمى تعتمد على جلبها من الهند واستراليا وزيلنده الجديدة .

على أنه يجب أن نذكر من جهة أخرى ، أن تطورات الحرب الروسية ، مازالت تلقى فى الميزان بعناصر جديدة ؛ فان تحطيم الجيش الأحمر الهجوم الألمانى فى الجنوب والوسط واستردادة روستوف وشبه جزيرة كيرش فى الجنوب ، وتحريره لجبهة موسكو ، ورد الألمان عنها غربا إلى مراكز أضحى بعضها على قيد أربعين ميلا فقط من سمولنسك ، واختراقه نطاق الحصار المضروب حول لننجراد فى عدة نقط ؛ وتقدمه المستمر فى الساحة الوسطى ، وانتصاره الضخم أخيرا فى معركة ستارياروسا التى طوق فيها جيش ألمانى بأسره ، كل ذلك مما يجب أن يحسب حسابه فى تطور الحرب الأوربية ، أو بعبارة أخرى فى تقدير موقف المحور ومشاريعه المستقبلة .

وقد قال لنا المستشار هتلر فى بعض خطبه الأخيرة ، إن الجيش الألمانى لم يتراجع فى روسيا إلا أمام البرد والثلوج ، وإنه متى حل الربيع فلن تقف فى وجهه قوة فى العالم . ومن المحقق أن البرد والثلوج قد لعبا دوراً هاماً فى تراجع الجيش الألمانى فى روسيا ؛ ولكن الذى لا ريب فيه أيضاً ، هو أن الجيش الألمانى قد عجز عن تحقيق أهدافه الجوهرية قبل حلول الشتاء ، بالرغم من كل ما بذله من جهود هائلة ، كبدته خسائر لايستهان بها ، وإن وقفة الجيش الأحمر الرائعة أمام موسكو هى التى حطمت مشاريعه ، وإن كثيراً من الفضل فى تراجعه الأخير يرجع بلا ريب إلى براعة الخطط الروسية وبسالة الجيش الأحمر .

— ٢ —

فلنحاول بعد هذا الاستعراض الموجز ، أن نرى ماذا

عسى أن يقترن بمقدم الربيع من الفروض والتكهنات .

إن أول مايتبادر إلى الذهن هو أن مقدم الربيع سيكون فرصة تنتهزها ألمانيا لاستئناف هجومها المنظم على روسيا ، ومحاولتها تحقيق الأهداف التي عجزت عن تحقيقها في الخريف الماضي ، وهي الاستيلاء على عاصمتي روسيا العظيمتين موسكو ولننجراد ، ورد الجيش الأحمر إلى ما وراء نهر الفولجا ، وغزو بلاد القوقاز ، وحرمان روسيا بذلك من أعظم مواردها الزيت والوقود ، وسحق قوتها العسكرية بذلك والقضاء على مقاومتها .

ومن المرجح أن تنشب الحرب بين اليابان وروسيا في تلك الأثناء إذا اشتد الأمر على روسيا ، ولاح انهيار جيوشها في الأفق ؛ فإن اليابان قد تعمد في تلك الآونة إلى طعن روسيا من الخلف ، وذلك بغزو سيبيريا وانتزاع ثغرها فلاديفوستك ؛ ولكن ذلك يتوقف على تطور القتال في روسيا ، ولن تقدم اليابان على تسديد طعنتها إلا متى وثقت من النجاح .

وقد تردد اسم تركيا بهذه المناسبة مراراً ، وقيل إنها ستكون بين الأهداف المقبلة للغزو النازي ؛ والذي نرجحه في ذلك هو أن القيادة الألمـانية لن تقدم على تحقيق هذه الخطوة إلا إذا رأت أنها ضرورية لنجاحها في غزو القوقاز والوصول إليه من الجنوب أيضاً ، وفي تلك الحالة ستكون بلغاريا إلى جانبها في مهاجمة تركيا . وربما كان ثمة ارتباط خفي بين مشاريع الألمان المقبلة في هذا الاتجاه ، وبين حادث قنبلة أنقرة الأخير ، الذي كاد يذهب ضحيته فون بابن سفير ألمانيا في تركيا

ومن الصعب أن نعتقد أن القيادة الألمـانية سوف تحاول الوصول إلى قلب الشرق الأوسط ومصر بطريق تركيا ، فمثل هذه الخطوة دونها صعاب عديدة ، وهي تقتضي على الألمان بتطويل خطوطهم إطالة غير معقولة ، وتوزيع قواهم توزيعاً خطراً ، وقد جربها الألمان في الحرب الكبرى ، وكانت تركيا إلى جانبهم فلم تنجح ؛ ومن غير المحتمل أن تعمد إليها القيادة الألمانية مادامت روسيا واقفة على قدميها والجيش الأحمر يهدد الغزاة ، ويستغرق معظم نشاطهم ؛ وقد ظهر من خطط الألمان في الصحراء الغربية ومن إصرارهم على تموين قواتهم الزاحفة إلى مصر عن طريق البحر الأبيض مع مايعتور ذلك من الصعاب الفادحة ، أنهم يرون الوصول إلى قناة السويس من برقة ، خصوصاً بعد أن تركت فرنسا على رغباتهم ، وأصبحت تعاونهم على تموين قواتهم الغازية من طريق تونس ؛ ولو قصد الألمان إلى الوصول إلى مصر من طريق سوريا وفلسطين لعمدوا إلى هذه المحاولة عقب افتتاحهم لجزيرة كريت في الربيع الماضي ، وتسرب رجالهم وقواتهم الجوية إلى سوريا وقت أن كانت في يد أعوان حكومة فيشي .

كذلك ليس من المحتمل أن يقوم الألمان بزحف على شمال أفريقية من ناحية جبل طارق ، فلسنا نرى لمثل هذه الخطوة نتائج عسكرية ذات شأن ؛ اللهم إلا إذا كان المقصود هو الاستيلاء على جبل طارق ذاتها ، وحرمان الانكليز من قاعدتهم البحرية القيمة ، وفي تلك الحالة يجب أن يتوقع محاولة غزو مالطة أيضاً ، وذلك حتى تتحقق خطة الألمان في قطع الخطوط الانكليزية البحرية ، وحرمان الأسطول الانكليزي في البحر الأبيض المتوسط من قواعد تموينه في الغرب والوسط ، وشل حركاته التي تضايق قوافل المحور وتقطع خطوط تموينه . وغزو جبل طارق لا يتم إلا بموافقة أسبانيا على مرور القوات الألمانية ، أو دخولها في الحرب إلى جانب ألمانيا ، وهو ما نشك في إمكان وقوعه ؛ وكل ما هنالك يشير إلى رغبة أسبانيا في الابتعاد عن مشاكل الحرب .

أما غزو الجزر البريطانيـة وهو المشروع الذي ملأ

جميع الأذهان في خريف سنة ١٩٤٠ ، عقب انهيار فرنسا ، وبدا عزم الألمان على تنفيذه ، في الغارات الجوية الهائلة التي قاموا بها يومئذ على بريطانيا ، فانه يلوح لنا اليوم أبعد احتمالا منه في أي وقت مضى ؛ أجل إن مستر تشرشل مازال يحذر قومه من الغزو المحتمل ، ويشحذ هممهم لتوقعه باستمرار ؛ ولكن يلوح لنا أن هذا التحذير طبيعي في مثل الظروف الدقيقة التي تجتازها الأمة البريطانية ، وأنه يرجع بالأخص إلى بواعث وتقديرات معنوية تقصد إلى إذكاء الهمم باستمرار لمواجهة الخطر الدائم ؛ وعلى أي حال فانه ليس من المستحيل أن يقدم الألمان على مثل هذه المغامرة الخطيرة ، على أنها ستكون آخر خطوة يفكرون في الاقدام عليها لمحاولة إحراز النصر ، وذلك بعد أن تتحطم كل مشاريعهم الأخرى .

وهناك أمر لا شك فيه ، هو أن حرب الغواصات ستشتد هذا الربيع اشتداداً هائلا ، وستعم جميع المحيطات والبحار ، وستأخذ فيها اليابان بنصيب وافر في المحيطين الهادئ والهندي ؛ وستحاول دول المحور بكل ماوسعت أن تقطع شرايين المواصلات البحرية بين أمريكا وبريطانيا العظمى ، وبينها وبين ساحات القتال المختلفة ، وبين بريطانيا وأجزاء الأمبراطورية ؛ وقد بدت نذر هذه المرحلة العنيفة من حرب الغواصات منذ الآن في ارتفاع نسبة خسائر الحلفاء البحرية في الأيام الأخيرة .

والخلاصة أن مقدم الربيع قد يسفر عن وقوع هذه الأحداث كلها أو بعضها ؛ وهي أحداث لها مقدماتها ودلالاتها ؛ على أنه يجب علينا في استعراض هذه الاحتمالات ، أن نذكر أنها لا يمكن أن تغيب عن تقدير الطرف الآخر ، وهو الجبهة الدمقراطية ؛ فاذا كان الألمان يعدون عدتهم لاستكمال غزو روسيا ، فلا ريب أن الروس قد استعدوا من جانبهم وحشدوا كل قواهم لرد هذا الغزو ؛ ولا بد أن يدفع الألمان ثمناً غالياً لكل نصر جديد ، وقد استعد الروس للدفاع عن القوقاز من الشمال والجنوب ؛ وتستعد بريطانيا العظمى وأمريكا لكل مفاجأة يأتي بها الربيع ، ولا سيما حرب البحار ؛ وإذا كان المحيط الهادئ لا يزال مسرح النصر بالنسبة لليابان ، ومسرح الهزيمة بالنسبة للقوات المتحالفة ، فمن المنتظر أن تتبدل الحال في الربيع ، وأن يتحسن موقف الحلفاء بوصول النجدات البحرية والجوية التي بدت طلائعها ، والتي أخذت تحدث أثرها في الموقف .

ولقد أحدثت انتصارات الروس ، ودخول أمريكا في الحرب إلى جانب بريطانيا ، نوعاً من التوازن بين القوات المتحاربة ؛ وسيكون لهذا التوازن أثره في جميع المعارك القادمة ؛ ويلوح لنا أنه مهما كانت ألمانيا لا تزال من القوة وحسن الأهبة ، فان عهد الانتصارات النازية السريعة الخارقة قد انتهى ؛ وإذا لم تقع في فترة النضال القادمة من الربيع إلى نهاية الخريف معارك حاسمة ترجح فيها كفة أحد الفريقين بصورة واضحة ، فلا مناص من أن تمتد الحرب عاماً آخر أو أكثر .

محمد عبد الله عنان

نظرة فى الـكون

للأستاذ أحمد أمين بك

ما أجمل الطبيعة ، وما أجلها ، وما أحكمها ، وما أغناها !

هذه حبّة واحدة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سُنبلة مائة حبة ، « وإن لـكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه — من بين فَرْث ودم — لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » . وهذه الأرض يصيبها الماء فتخرج من الأزهار ومن بدائع الألوان ، فى الجبال وفى الوديان وفى الغابات ، ما يسحر العين ويأخذ بالب ؛ وهذا المحار فى البحار ينشق عن صدفين منسجمين متساويين فى النقوش والألوان والتعاريج يعجز عن تقليدهما أمهر فنان ؛ وهذا الفم الذى يأكل ويقضم يخرج الدر من الحكم ، والطيّب من بدائع الكلم ؛ وهذه الشجرة العظيمة الضخمة خرجت من بذرة ؛ وهذا الانسان العجيب نشأ من ماء مَهين !

« هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون ، يُنبت لـكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخّر لـكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخراتٌ بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لـكم فى الأرض مختلفاً ألوانُه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذّكّرون . وهو الذى سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفُلك مواخرَ فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسيَ أن تَميد بكم وأنهاراً وسُبلا لعلـكم تهتدون » .

وهكذا من ملايين وملايين من العجائب ، قلل عجبَنا منها إلفُنا لها وأنسنا بها .

ومن أعجب هذا الباب ما يأتى من باب الغرائز ! فهذا ضرب من الأسماك يسافر آلاف الأميال إلى حيث يجد المكان الملائم لنسله ، فاذا ماتت الكبار عادت الصغار إلى مكان آبائها بهاد من غريزتها ؛ وهذه الطيور كالسمان تحتشد فى الربيع والخريف جماعات ، وتقطع الجبال الشامخة والبحار الشاسعة لتصل إلى الأقاليم الملائمة ؛ ما الذى دلها على الطريق فى ذهابها وإيابها ، ولا علامات ولا دلالات ؟ إنها الغريزة العجيبة التى تدل حمام الزاجل على مأواه والقط على مسكنه ، إنها الغريزة التى تحمل كل حى من نبات وحيوان وإنسان على أن يأتى بمختلف الوسائل والأعاجيب ليحفظ نفسه ويحفظ نوعه .

إن أعمال الطبيعة وأعاجيبها ونظامها ودقتها فوق أفهامنا ، وفوق منطقنا وتفكيرنا وتعليلنا . كل صغير مما لا يرى إلا بالمكرسكوب ، أو كبير يرى بالتلسكوب ، يحيى حياة عجيبة يدق سرها عن الفهم ، ويقصر عن إدراكها العقل ، الحبة فى الأرض ، والذرّة فى الهواء ، والسمكة فى الماء ، والنجم فى السماء .

وصدق الجاحظ إذ يقول : « ولو وقَفْتَ على جناح بعوضة وقوف معتبر ، وتأملته تأمل متفكر ، بعد أن تكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصاً على المعانى . . . لملأت — مما تُوجدك العبرة من غرائب — الطوامير[1] الطوال ، والجلود الواسعة الكبار . . . ولتبجست عليك كوامن المعانى ودقائقها ، وخفيات الحِكَم وينابيع العلم . . . وقد قال تعالى : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله) ؛ والكلمات فى هذا الموضع ليس يريد بها

(١) الطوامير جمع طومار وهى الصحيفة .

القول والكلام المؤلف من الحروف ، وإنما يريد بها النعم والأعاجيب وما أشبه ذلك ، فإن كلاً من هذه الفنون لو وقف عليها رجل رقيق اللسان حاذق الذهن صحيح الفكر تام الأداة ، لما برح أن تحسره المعاني ، وتقهره الحِكَم » .

* * *

ولكن بجانب هذه المعاني اللطاف والعجائب التي لا تنتهي ، نرى الطبيعة كذلك تقسو ولا ترحم ، لا تعبأ بالألم يصيب الأحياء ، كأنها آلة عمياء ، سلحت القوى ومكنته من الضعيف والضعيف من الأضعف . « هذا الأسد يصيد الذئب فيأكله ، والذئب يصيد الثعلب فيأكله ، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله ، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها ، والأفعى تصيد العصفور فتأكله ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله ، والجراد يصيد فراخ الزنابير فيأكلها ، والزنابير تصيد النحل فتأكلها ، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها ، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها » . والانسان سلط على الجميع ، وسلط بعضه على بعض . إنها لا تندم على إيلام ، ولا تحزن لموت ، ولا تعبأ أن تكون كلها ساحة قتال ، تسلح الغالب والمغلوب ، والقوي والضعيف ؛ ثم تقف متفرجة على القتال والالتهام ، والتنكيل والآلام ؛ كأن الأمر لا يعنيها في قليل ولا كثير . وضعت الشهوة في كل حي ، وأخضعت لها القوة والمكر والحيلة ، وأطلقت لكل أولئك العنان في النافعة والضارة ، واتخذت ذلك قانونها ودينها في كل شيء ، من أصغر حيوان إلى أعظم إنسان ؛ ثم نفضت يدها من كل ذلك ، ووقفت تسجل ولا تتدخل ، بل تمد هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يفتر النزاع ويبطل الخصام .

هذه أمة آمنة مطمئنة تلهو وتلعب ، وتعمل وتسعد ، تثور عليها الطبيعة ببركانها فتجعلها في لحظة عدماً ؛ وهذه مدينة حية بسكانها وما عليها زلزلت بها الأرض فخسفت وأصبحت كأن لم تَغْنَ بالأمس ؛ وهذا مركب بعد خير إعداد ، ووسع أكبر سعة ، وجهز أحسن جهاز ، فيبتلعه البحر بمن عليه في لمحة ؛ وهذه الأمراض تنتاب الانسان فلا ترحم طفلاً صغيراً ولا شيخاً هرماً ، ولا ترأف بالأم في وحيدها ، ولا بالأسرة في عائلها ؛ وهذا الموت سلط على كل حي ، فذهب بلذته وطاح بأمله . وهذا الانسان لعبت به غرائزه ، فأشعل نيران الحروب ، وأقام كل حين مجزرة هائلة مفزعة . وهكذا حتى أصبحت لذائذ الكائن الحي — وسط هذه الأمواج من الآلام — لحظات خاطفة ، ولمعات كوميض البرق .

* * *

نقرأ الصفحات الأولى من الطبيعة ، فنرى الجمال والجلال ، والحسن والانسجام ، والعظمة ودقة الصنع ، وعجائب الغريزة ؛ ونقرأ الصفحات الثانية فنرى القسوة والفظاعة والتعذيب والايلام .

من قديم حار العقل في تفسير هذه الظواهر المتناقضة . كيف يكون من الطبيعة بجانب هذه الحكمة هذا السفه ؟ وكيف يكون بجوار هذه الرحمة هذه القسوة ؟ وكيف يكون مصدر هذه اللذائذ مصدر هذه الآلام ؟

لقد ذهب بعض علماء الدين إلى أن نقمة الطبيعة من غضب الله على الانسان إذا خالف أمره وارتكب ما نهاه عنه ؛ ولكن — مع الأسف — لم نر هذا مطرداً ، فقد ينعم في هذه الدنيا الماكر الخادع ، والفاجر المنافق ، ويألم المؤمن الورع والتقي الصالح ، وكما قال الأول :

قد يُقتِر الحُوَّل التقي   ويُكثِر الحق الأثيم

ومن أجل هذا جرى على ألسنة الناس المثل القائل : « المؤمن مصاب » .

وذهب بعض الطبيعيين المحدثين إلى أن الألم يصيب الانسان إنما هو تحذير من الأخطار المستقبلة ؛ فصداع

الرأس علامة مرض تنبه الانسان إلى وجوب ملافاته ، والمغص كذلك ، والرمد كذلك ؛ وهذا التعليل أيضاً ليس صادقاً دائماً ، وإن صدق فى آلام الانسان فما تفسير إيلام الطبيعة بأحداثها ؟

وأذكر أنى قرأت مرة قولا طريفاً لبعض المفكرين فى هذا الموضوع ، خلاصته أن موضع الخطأ فى هذا السؤال هو أن الانسان يريد أن يطبق أخلاقيته على أخلاقية العالم ، فهو يسمى بعض الأعمال رحمة وبعضها قسوة ، وبعضها نعمة وبعضها نقمة ، وبعضها لذة وبعضها ألما ؛ ولكن هذه التسمية صحيحة بالنسبة له فقط وبقياسه هو فقط ، ولكن وراء عالمه الانسانى عوالم أخرى فى الأرض ، ووراء عوالم الأرض عوالم لا عداد لها فى غير الأرض . أليس من غرور الانسان أنه يريد أن يطبق العدل والظلم فى العالم حسبما يدرك بنظره القاصر وفكره المحدود ، ويريد أن يخضع العوالم الواسعة لعالمه الضيق ، ويريد أن يطبق قوانين العالم الكلية على قوانينه هو الجزئية ؟

وهو جواب ماهر لم أستطع أن أقف أمامه موقف تأييد أو تفنيد ومشايعة أو معارضة .

يظهر لى أن موضع الخطأ فى فهم هذه المسألة أنهم يعرضون مشكلة الآلام وحدها ويريدون حلها ، وهى لا يمكن أن تفهم إلا إذا عرضت الدنيا كلها على أنها وحدة . كيف نفهم الأبيض من غير أسود ، والحرارة من غير برودة ، والطول من غير قصر ، والعمى من غير بصر ؟

كذلك الآلام لا يمكن أن تفهم إلا على أنها جزء لا يستغنى عنه من نظام هذا العالم ، ولو انعدمت الآلام لانهار نظام هذا العالم من أساسه .

إن الفضيلة لا يمكن أن توجد فى هذا العالم إلا إذا وجدت الرذيلة ؛ فلا نفهم الايثار حتى نفهم الأثرة ، ولا توجد البطولة حتى توجد النذالة ، ولا العدل حتى يوجد الظلم ، ولا الشجاعة حتى يكون الجبن ؛ كذلك لا يوجد الحب من غير عذاب . ولا اللذة من غير ألم ، ولا التوبة من غير إثم .

ولو انعدمت الآلام والرذائل والآثام ، ما كانت الفضائل العالية ، ولا الأعمال النبيلة ، ولا أعمال البطولة التى يتغنى بها الشعراء . ولو انعدم القبح لانعدم الجمال . ولولا الأشقياء ما كان السعداء .

لا معنى لأن أحب من أحب إلا إذا اشتمل ذلك على الألم ، فمعنى أنى أحبه أنى أشاركه أحزانه ، وأخاف عليه الأذى يناله ، وأخاف انقطاع الصلة بينى وبينه ، وهل هذه كلها إلا آلام إذا ذهبت ذهب الحب .

إن احتمال الآلام فى هذه الدنيا كان لنا منه أكبر الفضائل ، من حزم وصبر وثقة بالنفس وتضحية للخير وعذاب للاصلاح ، ولولاه ما كانت .

لولا عواطف الألم ما كان شعر ولا فن ، ولا نحت ولا موسيقى ولا تصوير ، ولا معان إنسانية ، ولا وطنية ولا قومية .

فلو كان العالم كما يتطلبه العامة خاليا من الآلام لكان بالطبيعة أيضاً خاليا من اللذائذ ، ولو كان خاليا من الرذائل كما يبغون لخلا أيضاً من الفضائل ، إذ لا يمكن أن تتصور لذة بدون ألم ، ولا فضيلة بدون رذيلة .

إن عالمنا هذا بنى على الخير والشر ، واللذة والألم ، والفضيلة والرذيلة ، والسعادة والشقاء ، وكل منهما كأحد جانبى الوجه لا يكمل إلا بجانبه الآخر ، ولا يفهم إلا بالآخر . فمن أراد عالما لا ألم فيه فليطلبه فى غير هذا العالم ، وعلى غير هذا النظام كله .

وتبارك الله رب العالمين .

أحمد أمين

من أجل كلمة!

للأستاذ على أدهم

طالت المنافسة بين الأسرتين القديمتين ، أسرة الهابسبرج وأسرة البوربون ، على السيادة الأوربية ، واشتبت بينهما الحروب ، واحتدمت الملاحم فى ميادين السياسة وساحات الوغى ، حتى أثخنتهما الجراحات ، ونال منهما الكلال والاعياء ، وفى اللحظة الأخيرة أدرك الخصمان العنيدان أن هذا الصراع العنيف لم يعد عليهما بطائل ، وأنه مكن الأسرات الناشئة من الظهور والاعتلاء . وخطر ببال ذوى الرأى من أمراء الأسرتين أن الاتفاق بينهما وإزالة أسباب الخلاف خير من التمادى فى الخصومة المقيمة وإذكاء النيران القديمة . ولمح السياسيون وميض هذه النزعات ، فأخذوا يعملون على تحقيق هذه الرغبة ، وكان فى طليعتهم السياسى النمساوى الخطير كونتز والسياسى الفرنسى القدير شوازيل ، وكان الأول مستشار الملكة ماريا تريزا ، والثانى كان صاحب الكلمة المسموعة والرأى المتبع فى بلاط الملك لويز الخامس عشر .

ولكى يزداد الاتفاق بين الأسرتين قوة ودواماً اتفق الرأى على أن يتزوج ولى عهد فرنسا وحفيد الملك لويز الخامس عشر الأميرة النمساوية مارى انطوانيت ، وتمت مراسيم العقد وحفلات الزواج فى سنة ١٧٧٠ .

وعند مجىء الأميرة مارى انطوانيت إلى بلاط فرساى كانت الملكة قد ماتت منذ عامين ، وكان المنظور أن ينتقل نفوذها إلى بناتها الثلاث كريمات الملك لويز ، وهن مدام ادلييد ومدام فيكتوار ومدام صوفى ، ولكنهن لم يكن راجحات العقل ساميات اللب ، بل كن على النقيض قصيرات الرأى محملات خاقدات ليس لهن أى تأثير على والدهن المتهالك على اللذات الحسية والشهوات الوضيعة ، ولم يرهب أحد مكانتهن ولم يرج إنسان نفعهن ! ولذا هان أمرهن ، وضعفت مكانتهن ، وكانت مدام دى بارى آخر حظيات الملك لويز فى أوج مجدها وقمة نفوذها ، وقد وقع الملك فى قبضتها وكان زمامه فى يدها تصرفه كيف تشاء . وكان الملوك والأمراء والأعيان يغدقون عليها الهبات ويتملقونها ويتوددون إليها لأنهم يعلمون أنها تستطيع عزل الوزراء ، ومنح المناصب الكبيرة التى تدر المرتبات الضخمة ، وأن فى استطاعتها أن تبذر أموال الدولة وتبتنى القصور حين تشاء .

وساء نجاحها الوزير شوازيل فأخذ يكيد لها ويغرى بها الصحف والمجلات ، واتسع نطاق حملة التشنيع والهجاء ، فلم يثر ذلك غضبها . ولما قال لها كبير الشرطة : « لقد قبضنا ياسيدتى على رجل نذل يتغنى بأبيات من الشعر بذيئة نظمت فى هجائك ، فماذا تريدين أن نصنع به ؟ » أجابته : « دعه يغنى لك هذه الأبيات وتصدق عليه بعد ذلك بشىء يمسك رمقه » ، وأمعن الوزير شوازيل فى تحديها فادالت نفوذه ، واقتلعته من منصبه ، وجعلته عبرة لغيره .

وقد استرعى وجودها فى بلاط فرساى نظر الأميرة مارى انطوانيت من أول وهلة ، فسألت أحد رجال البلاط : « ما وظيفة هذه السيدة ؟ »

فأجابها : « وظيفتها إمتاع الملك » !

فقالت مارى انطوانيت فى بساطة ملحوظة : « إنى أستطيع أن أحل محلها » .

ولكنها علمت فيما بعد من هذه السيدة ما فيه الكفاية .

وكانت مجرد رؤية مدام دى بارى تحزن الأميرات بنات الملك وتثير نقمتهن . وكانت الفضيلة التى أكرهتهن الظروف على التعلق بها تدفعهن إلى التبرم بهذه الحالة ، وكان عملهن من الصباح إلى المساء هو نحت أثلة مدام دى بارى ، وقد بذلن جهدهن فى أن يحشرن مارى انطوانيت فى زمرتهن .

وكانت التقاليد المرعية في البلاط الفرنسي تقضي بأن لا يبدأ الصغير الحديث مع الكبير إلا إذا بدأ الكبير الحديث. وكانت مارى أنطوانيت تعد أكبر سيدات البلاط مقاما، لأنها حرم ولى العهد. وكانت مدام دى بارى تنتظر أن تسمع من بين شفتي الأميرة مارى هذه الكلمة. وكانت مارى تضن بتلك الكلمة؛ ونمى ذلك إلى علم الملكة ماريا تريزا، فأوصت وزيرها كونتز أن يرسل إلى وزير النمسا المفوض في فرنسا (مرسى) بأن يذكر مارى بواجباتها السياسية، وأن ينصحها بإظهار الرعاية لمن لهم مكانة عند الملك، سواء كانوا جديرين بها أو لا؛ ولكن مارى ظلت ملتزمة سياسة الصمت.

وكانت مدام دى بارى تود أن تعترف لها مارى أنطوانيت وتشعر بوجودها، وكبر عليها أن تتجاهلها هذه الفتاة الغريرة التي لا تكاد تجيد الحديث باللغة الفرنسية، وأن تستهين بها، وتجعلها أضحوكة لرجال القصر، ومضغة في أفواه الحاشية.

ولكن مارى ركبت رأسها ومضت في سننها، ولم تكن مدام دى بارى امرأة نكداء خبيثة شرسة، أو مطبوعة على الدس والايقاع، وإنما كانت امرأة طروبا، لا يضمر قلبها السوء، ولا يعرف الحقد، وكانت مأنوسة المحضر محبوبة القرب، غاية في الملاحة والصباحة. وقد اتفق مرة أن زارت الوزير شوازيل لأمر من الأمور، فلمحها الملك لويز، وكان لا يني يترقب فريسته، ويطلب صيدا، فاسترعى نظره جمالها الباهر وحركاتها الرشيقة، وسعى وسطاء المسرات بينهما، وكان الطريق معبداً، فقبلت في سرور وارتياح أن تشغل المكان الذي خلا بوفاة مدام دى بومبادور منذ سنوات، وتطلعت إلى القرائد والحلى، وكانت بهما مشغوفة، وأحبها الملك، وفتن بها من أول لقاء، لأنها لم تتكلف شيئا، ولم ترتد ثياب البراءة والقداسة لتتملقه، وتترضى كبرياءه، وإنما جرت على طبيعتها، وكشفت له عن حقيقة نفسها.

وكانت مدام دى بارى تحب الاعتراف بقوتها، والاستمتاع بمكانتها السامية، وأن تلبس أفخر الثياب، وأثمن الجواهر، وأن تكون لها العربات الفخمة التي تجرها الجياد المطهمة، ولم يضن عليها أسير هواها بشيء من ذلك، فقد كانت عنده مستجابة الدعوات، ملباة المطالب.

وتحلق رجال القصر وسيدات البلاط حول هذه المعركة السلبية القائمة بين المعتصمة بالصمت الشامخة المتعالية والأخرى التي يكاد يستطيرها الغضب وتنفجر الدموع من عينيها؛ فأيتهما تكسب المعركة، وتنتصر في النهاية، ولية عهد فرنسا وملكتها المقبلة، أو حظية الملك وفاتنة لبه؟

لم تشهد فرساى مثل هذه المعركة منذ سنين. ولما اشتدت الحالة، وتعقدت الأزمة، اهتم الملك اهتماما جديا بالموضوع، وكان قد تعود أن يطاع بمجرد الاشارة، ولكنه لقى معارضة لأول مرة من فتاة ناشئة بلهاء.

وكانت الخطة الواضحة القريبة أن يدعو إليه هذه الفتاة الشموس الحرون، وأن يفاتحها في الأمر، ولكن حتى هذا الساخر اللاهى السادر في لذاته كان فيه بقية من التردد ومراجعة النفس، فلم يجترئ على أن يأمر زوجة حفيده أن تتنازل وتخاطب عشيقته، فحول المسألة إلى الناحية السياسية، واستدعى السفير النمساوى (مرسى) من طريق وزارة الخارجية، وحضرت الاجتماع مدام دى بارى، وأوضحت للسفير أن مارى أنطوانيت قد أساءت معاملتها، وأنها لا تنطوى لها إلا على الاخلاص والتقدير؛ وحار السفير في الأمر، وتكلم كلاما عاما غامضاً، وتحدث الملك في صراحة عن مارى أنطوانيت، فقال إنها صغيرة السن متوثبة الروح، وأنها قد زوجت من رجل لم يستطع

أن يسيطر عليها ، وأنها أصبحت ألعوبة فى يد عصبة من مستشارى السوء ؛ وأشار عليه أن يبذل جهده ويستعين بنفوذه لحمل مارى على تعديل سلوكها . وقدر مرسى خطورة الموقف ، وأرسل إلى بلاط فينا رسالة مسهبة أوضح فيها بلمسات لطيفة من ريشته أن مدام دى بارى لا تريد إلا ترضية يسيرة ، وهى أن تخاطبها ولية العهد بكلمة أمام الناس . وقبل أن يتلقى الرد زار مارى أنطوانيت وخاطبها فى الأمر ، ومزج حديثه بشىء من التهديد ، وأشار إشارة خفية غامضة إلى « السم » الذى كان يستعمل فى البلاط الفرنسى للخلاص من كل شخص فى مكانة عالية غير مرغوب فى بقائه ، وصارحها أن مثل هذه المسألة قد تحدث صدعاً فى العلائق بين الهابسبرج والبوربون ، وتفسد ذلك الاتفاق الذى رمت إليه والدتها وجعلته هدف حياتها وأساس سياستها .

وأخاف هــذا الحديث مارى أنطوانيت ، وأثار شجونها ، فوعدته بأنها ستقول تلك الكلمة فى وقت قريب ؛ فخرج فرحاً مسروراً معتقداً أنه قد وفق فى معالجة المشكل وإزالة أسباب الخلاف .

وذاع فى القصر أن مارى أنطوانيت ستنطق بالكلمة المنظورة فى ختام إحدى الحفلات المسائية . واتفق على أن يبدأ السفير الحديث مع مدام دى بارى ، ثم تجىء ولية العهـد وتتحدث إليه ، ثم تنتقل من الحديث معه إلى مخاطبة مدام دى بارى بالكلمة الموعودة ؛ ورتب الأمر ترتيباً دقيقاً ؛ ولكنه لم ينفذ ، وخاب السعى ؛ وذلك لأن الأميرات كريمات الملك تدخلن وأبين أن تنتصر مدام دى بارى عدوتهن انتصاراً علنياً ، فلما أقبلت مارى على البهو وأخذت تنثر التحيات ، وتوزع الابتسامات ، وكادت تطيل الحديث عمداً مع بعض الحاضرين ؛ وكادت تتم الدورة ، ولم يبق بينها وبين مرسى ومدام دى بارى إلا سيدة واحدة ، وإذا بمدام أدليد تسرع إليها فى اللحظة الحاسمة — وكانت أشد بنات الملك حقداً على مدام دى بارى — وقالت لها بلهجة الآمرة : « لقد حان ميعاد الانصراف ، وسنذهب إلى مخدع شقيقتى فكتوار لننتظر قدوم الملك » . وكانت مفاجأة لمارى أطارت صوابها ، وأفقدتها شجاعتها ، ولم تسعفها البديهة بشىء تخاطب به مدام دى بارى ، فعادت أدراجها مرتبكة غير عالمة بما تفعل ، ولم تنطق بالكلمة الموعودة ، وفسد التدبير وساء الموقف ، وتحرجت الأزمة ، وطرب الناطقون فى الشر ودعاة الفتنة ، وغضب لويز الخامس عشر لغضب خطيئته ، وقال لكونت مرسى بمرارة : « يظهر أنك لم تصنع شيئاً ، ولا بد أن أسعفك وأعينك » . واشتد غضب مدام دى بارى ، وتداعت أركان الاتفاق بين النمسا وفرنسا ، واستهدف سلام أوربا للخطر ، وأخطر السفير البلاط النمساوى بخطورة الأمر ، وفداحة الخطب ؛ ولم يبق إلا أن تتدخل ماريا تريزا بنفوذها ، لأنها هى الوحيدة التى تستطيع كبح جماح هذه الثائرة ؛ واضطربت الملكة وساورها القلق ، وقد حرصت فى بادئ الأمر على أن تبعد ابنتها عن المسائل السياسية ، وتجنبها مزالقها ، لأنها كانت تعلم سوء أحوال فرنسا الداخلية ، ولا تود أن تحمل ابنتها أوزارها ، وفضلا عن ذلك كان يشغل بالها فى تلك الأيام أمر هام ، وهو تقرب فردريك الأكبر ملك روسيا وكاترينا الروسية من البلاط النمساوى ؛ وكانت هى تكره فردريك وتخشى شره ، ولا تثق بالملكة كاترينا ، وكانا يرميان من وراء التقرب من النمسا إلى استدراجها إلى الاشتراك فى تقسيم بولنده ، وقد استطاعا أن يجذبا إلى رأيهما السياسى كونتز والملك جوزيف ابنها ، ولم يكن ضميرها مطمئناً إلى هذا التقسيم المشئوم لاعتقادها أنه عمل ظالم ، وأنه جريمة منكرة ؛ وسامها

أن يرضى ذلك ابنها الطموح ، وأن يؤيده ويشد أزره صنيعتها كوينتز الذى رفعته من الحضيض ، وأنالته المجد والسلطة ؛ وكانت تشعر بخيبة أمل شديدة ، وتود أن تعتزل الملك ، لولا شعورها بالتبعة الملقاة على عاتقها ، وخوفها على مصير الأمبراطورية ؛ وكانت قد اضطرت إلى إقرار الاتفاق اضطراراً ، لالحاح ابنها وشدة ضغط وزرائها ؛ وكانت تتساءل : هل يرضى هذا الاتفاق فرنسا ؟ وهل يرتاح له لويز الخامس عشر بعد عقد الاتفاق وتوثيق العلائق بين البوربون والهابسبرج ؟

وواتاها كتاب مرسى وهى تعانى هذه الحالات ، وتفكر هذا التفكير ، وعلمت من الكتاب أن الملك لويز جد مستاء ، وأنه أظهر استياءه للسفير النمساوى ؛ والآن بسبب امتناع مارى انطوانيت عن التحدث إلى مدام دى بارى قد يثير تقسيم بولندة أزمة سياسية ويجر إلى الحرب ؛ وإذ كانت الأم قد ضحت بضميرها من أجل السياسة ، فهل تظل ابنتها ملكية أكثر من الملك ، ومحافظة على التقاليد أكثر من أمها ، وتمتنع من مخاطبة حظية الملك ؟

بادرت الملكة ماريا تريزا إلى إرسال كتاب إلى مارى انطوانيت أشد لهجة ولم تشر فيه بطبيعة الحال إلى مسألة تقسيم بولندة ، أو غير ذلك من شئون الدولة ، وإنما ذكرتها أن من واجباتها إرضاء الملك ، والخضوع لمشيئته ، وليس فى الأمر ما يمس الشرف ، ويزرى بالكرامة ، ولا تطلب المسألة أكثر من كلمة عابرة وابتسامة بسيطة لتسوية الموقف وتصفية الجو .

فخضعت مارى انطوانيت ولان عصيها ، فقد كانت على عصيانها وتمردها لا تجسر على مخالفة أمها ، فصممت على التسليم ، وقبول الأمر الواقع .

وفى اليوم الأول من سنة ١٧٧٢ ظهر أثر ذلك التصميم على التسليم وإلقاء السلاح ، واجتلاء الموقعة من انتصار مدام دى بارى ، وأعد المسرح لشهود الحادثة ، واجتمع النظارة من رجال البلاط ونسائه ، ومرت سيدات البلاط على ولية العهد ، ومن بينهن مدام دى بارى ، وحبس الجميع أنفاسهن ليسمعن الكلمة الموعودة ؛ فلما جاء دور مدام دى بارى حولت الملكة وجهها إلى ناحيتها وقالت لها : « فرساى حافلة اليوم بالناس » ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك ، وكان لهذه الكلمة التافهة وقع عظيم فى الدوائر السياسية ، والبلاطات الأوربية ، فقد خاطبت ولية العهد حظية الملك ، فحقنت الدماء ، وتحسنت العلائق المتوترة بين فرنسا والنمسا ، وزالت العاصفة ، وصفا الجو ، وعانق الملك ولية العهد ، وشكرها السكونت مرسى متأثراً متهدج الصوت ، وتخطرت مدام دى بارى فى أبهاء فرساى تخطر الطاووس ، واشتد حقد الأميرات كريمات الملك ، وهاج البلاط وماج ، وهزمت مارى انطوانيت وانتصرت مدام دى بارى .

وفى الحق أن هذه الكلمة التافهة التى أرسلتها مارى انطوانيت كانت بعيدة الأثر ، كانت هذه الملاحظة العابرة هى الخاتم الذى طبعت به جريمة سياسية من جرائم التاريخ الكبرى ، وكانت الثمن الذى تقاضاه الملك لويس الخامس عشر ليقبل تقسيم بولندة ، ولأول مرة قبلت مارى انطوانيت الهضيمة ، واعترفت بالهزيمة ، وخفضت رأسها الأشم الذى لم ينحن بعد ذلك إلا أمام المقصلة .

قالت مارى بعد ذلك لمرسى : « لقد ألقيت إليها هذه المرة بهذه الكلمة ولكنها لن تسمع صوتى مرة أخرى » . وصارحت والدتها بذلك ، وعبثاً حاول مرسى والملكة ماريا بعد ذلك حملها على تغيير هذا السلوك ولكن لم يجد معها الارهاب ولا الترغيب .

ولم تكن مدام دى بارى حاقدة على مارى انطوانيت ، وإنما كانت مجروحة الاباء ، وقد أحدثت هذه الترضية

تحية :

دعاء الكروان

بقلم الأستاذ عوض عقارب

بسم القلب من شقاء الزمان
فاسقنى اليوم من رحيق البيان
إن فى كأسه الشهى الصفى
فتنة السحر وانبثاق الأمانى
يا أديباً قد أتحف الذهن بالصفو
والفن فى أدق المعانى
صغت من قصة الغرام حديثاً
قد تجلى فى روعة وافتنان
وأمطت اللثام عن نزعات غامضات فى فطرة الإنسان
إن دنيا الغرام رفافة الحسن ولكن كثيرة الأحزان
كم شقينا بعهدها ورجعنا من مآسيها رجعة الخذلان
ما أرق الحديث ينساب كالماء
رقيقاً من نبرة «الكروان»
جمل القلب مشرقاً بغناء
عبقرى معذوذب الألحان
قد لقيتُ الصفاء فى عشه الزاهى
وأنسيت شقوتى بالزمان
وتلاشت عنى خواطر سودٌ غشيتنى من ابتعاد المكان
من لنفسى غريبة تتبدى كل آن فى لوعة وحنان
غيرُ هذا الجمال فى القصص العالى
مثيراً من أوحدىّ البيان
أنا من فيضه الغداة أراقى واجداً متعتى وأنس جنانى

عوض عقارب

طالب سودانى — بالقاهرة

البسيطة لتضمد جراحها ، وخجلت بعد ذلك من انتصارها ، وكانت تعلم جيد العلم أن قوتها قائمة على قواعد غير مكينة ، فقد كان سيدها الملك متقدما فى السن ، وقد تودى بحياته نوبة من نوبات الصرع ، وتصبح مارى انطوانيت ملكة فرنسا ، وتستطيع إرسالها إلى سجن الباستيل ، وكانت تتحرى بعد ذلك أن تظهر فى اجتماعات القصر النسائية ، وكانت مارى تتعمد إهمالها ، وهى تحتمل ذلك صابرة ولا تظهر ضجراً ولا حقداً ، وكانت ترسل لمارى التحيات التى تعبر عن ولائها وإخلاصها ؛ وحاولت اجتذاب رضاها بإطرائها عند الملك ، ولما لم يصلح ذلك كله فكرت فى أن تقدم لها هدية ثمينة ، وكانت تعرف ولوعها باقتناء كريم الجوهر ، وثمين الحلى ،

وكاشفت إحدى الوصيفات بذلك وكلفتها بإبلاغ الأمر إلى مارى انطوانيت ، فلم تتنازل مارى إلى الرد عليها ، فقد صممت على الترفع عن مخاطبة المرأة التى أذلتها علانية ولو قدمت لها جواهر الأرض جميعها . وما حاجتها إلى كريم الجواهر ونفيس الحلى وهى ستلبس عما قريب تاج فرنسا الذهبى ؟ وتميزت مدام دى بارى من ذلك بقولها : « ولية العهد تأبى مخاطبتى ، ولكن لا بأس لقد ملكت كل شىء غير ذلك » .

لقد جمع بينهما القدر بعد ذلك فى وحدة المصير المحزن ، فكلتاهما ماتت تحت المقصلة وذهبت ضحية الثورة الحاطمة .

على أدهم

مذاهبنا الفنية

لعل أهم ما يعوز كتاباتنا في النقد الأدبي أننا لم نتواضع على اصطلاحات خاصة نرمز بها إلى مذاهبنا في الشعر ومناهجنا الفنية ، إلا عنا الخليط من الألفاظ العربية ، والمصطلحات الأوربية ، من مثل « كلاسيك » « ورومانتيك » ، من غير تحديد بين هاتين الكلمتين وأمثالهما ، وفي إطلاق غامض لهما ولنظائرهما على صور وأشكال فنية لنا ، تختلف عما يقابلها في الأصول الغربية ؛ وكأنما جف معين لغتنا فلا نستطيع أن نستنبط منه ما ندل به على أعمالنا في الشعر والفن . وبذلك تحجرت مدلولاتنا واستبهمت مسمياتنا رغم ما تتصف به لغتنا من الاتساع في الأسماء الدالة ، وما عرفت به من النحت والاشتقاق اللذين استعان بهما العباسيون في وضع أساس العلوم والفنون . إن لغتنا غنية بالمفردات والمترادفات التي تؤهل لوضع ما نريد من مصطلحات ، غير أننا لا ننتفع بها في أعمالنا وأبحاثنا ، وخاصة في نقدنا ، إذ لا نزال يعوزنا البيان من أصوله وفصوله .

وأي أصل أو فصل في رواية نقدنا قد نظم وقسم إلى مناظر وأقسام ؟ إن الرواية كلها تكاد تسقط من أيدينا ، وإلا فأين ما يصور مناهجنا الفنية وألوانها وأوضاعها ؟ إن نقدنا فقير في بيان هذه المناهج وبيان شاراتها الدالة ، ولذلك كان شعراؤنا المحدثون يسعون إلى غاياتهم ، بدون مصابيح في أيديهم ، تنير لهم ما اعوج من طرائقهم ، وتجعلهم يستفيدون من تراث أسلافهم وآبائهم . وأنت تبحث عن موهوم أو معدوم إن كنت تريد أن تقف على مذاهبنا ومناهجنا ، وأي مذاهب أو مناهج تقصد أو تطلب ؟ إنه لا توجد لنا مذاهب عامة معروفة ، وإلا فانظر هل لنا مصطلحات خاصة أو ألفاظ دالة نصف بها أعمالنا ونماذجنا في شعر أو فن

ليست عندنا أسماء لمذاهب فنية ، ولا ما يصور أن لنا مذاهب فنية ؛ وقد يكون من العبث أن نبحث بعد ذلك عن جزئيات مذاهبنا وعناصرها ، وعن وجود تقاربها وتفارقها . كل ما عندنا فيض من ألفاظ لا تخصص بمدلول واضح ، ولا تعين بمسمى ظاهر . هي فصول عامة تقرأها فلا تجد فيها علما ولا ما يشبه العلم ، كأننا نعيش في النقد بعقل غير عقل العصر الحديث الذي يعنى بالدقة في ألفاظه وعباراته ، حتى لتتحول في كثير من جوانبها إلى ما يشبه أوضاع الرياضة الدقيقة .

ليست لنا لغة علمية في النقد الأدبي ، أو قل ليست لنا لغة رياضية ، إنما النقد عندنا ضرب من الاجتهاد في الحكم والتعليل ، ولكل مجتهد ذوقه وعقله . أما المقاييس التي تضبط مسائل النقد والقوانين التي تصحح آراء النقاد ، فلن تجد لها ظلالا في أعمالنا ، وأنت لذلك لن تقتنع بنقدنا إن كنت من أصحاب العلم والرياضة أو كنت من هؤلاء الذين يرفضون التعميم في الأحكام والاعتماد على الذوق المطلق من كل قيد فني في تأسيس الحكم وتأصيله .

ونحن لا نذهب إلى أن النقد ينبغي أن يكون علما ورياضة خالصين ، فإن فيه جانبا من الشخصية يمنع قواعده أن تصبح كقواعد العلم والرياضة في عمومها واطرادها ؛ ولكننا مع ذلك نحرص أن نأخذ بطرف من عمل العقل الحديث ، فيكون لنا في نقدنا منهج علمي أو قريب إلى العلم ، حتى نستطيع رسم مذاهبه ووضع ألفاظه ومصطلحاته الخاصة .

وحقا أننا نجد عند بعض النقاد منا ما يشير من بعض الوجوه إلى أن لنا في الشعر مذهبين قائمين : هما مذهبا المطبوعين والمصنوعين ، ولكن إياك أن تظن أننا نحن الذين سمينا هذين المذهبين ، إنما سماهما القدماء ، إذ كانوا يقسمون الشعراء إلى أهل طبع وأهل صنعة . أما الأولون فهم الذين يسيرون وفق عمود الشعر المعروف فلا يحيلون

ولا يغربون ولا يتأنقون ولا يتكلفون . وأما الأخيرون فهم الذين كانوا ينحرفون عن هذا العمود وما يتبعه من الأصول المألوفة . وهو تقسيم يبدو فيه شيء من السذاجة ، وقد نقله بعض نقادنا نقلا دون نظر فيه أو محاولة لتفسيره ، وما الطبع والمطبوعون ؟ إن كل شعر متأثر بجهد حاضر وموروث أكثر من تأثره بما يسميه نقادنا الطبع . بل نحن نزعم أنه لا يوجد طبع في الشعر إلا إذا كنا نطالب أن نحيل في كلامنا ، وكنا نريد أن نقرب على قرائنا بهذه الكلمة الغامضة التي تنطلق بهم إلى آماد فسيحة من الأوهام والظنون . وكيف يعتمد الشعر على الطبع وهو دائما يقوم على تقاليد موروثة ومراسيم موضوعة ، سواء في ألفاظه أم في معانيه وأوزانه ؟ إن كل شعر يتقيد بمصطلحات كثيرة ، حتى هذا الشعر المرسل الحر الذي لا يتقيد بقرار القافية ، بل إن إحسان هذا الضرب من الشعر يتصعب على الشعراء بأكثر مما يتصعب عليهم شعر القصائد ذات القوافي المكررة ، فإن الشاعر مضطر فيه أن يوفر من الأصوات والموسيقى ما فاته من هذا المفتاح الموسيقي التام ، مفتاح القافية الذي يحدث التوازن التام بين الأبيات ، ويمنع الشاعر بتوازنه من الاندفاع والسقوط . وأكبر الظن أن توفير هذه القيم الموسيقية في الشعر المرسل ، وما يطوى فيه من مشقة وصعوبة هو الذي جعل شعراءنا لا يصحبهم التوفيق في هذا الضرب من ضروب الشعر الحديث .

على أن من يقف عند تقسيمنا الشعر إلى مطبوع ومصنوع ، يخيل إليه كأن الطبع والصنعة نموذجان ثابتان ، يعيش شعراؤنا القدماء والمحدثون على تقليدهما والضرب على مثالهما دون أن يحدثوا لأنفسهم شيئا من تغيير أو تبديل ، وكأن كل صنيعهم أنهم ينقلون رسوم هذين النموذجين ومصطلحاتهما نقلا ؛ ولكن أي رسوم ومصطلحات ؟ إن هذه الرسوم والمصطلحات التي نشير إليها إنما توجد ، أو بعبارة أدق لا توصف ؛ فليس بين أيدينا ولا تحت أعيننا ما يفسرها أو يبين عنها ، كأن لغتنا عجزت عن أن تمدنا بالكلمات والمفردات التي يمكن أن نصور بها هذين النموذجين ؛ بل لكأن عقولنا نفسها لا تستطيع أن تفصح من أعمالنا الفنية سوى هذا الكلام الكثير المرتبك الذي تدل به على هذين النموذجين الثابتين . وإحدى اثنتين : إما أن يكون شعراؤنا أصحاب مذاهب فنية متنوعة ، وغاية ما في الأمر أننا لم نفسرها تفسيرا يكشف عن ألوانها وأوضاعها ، وإما أن يكونوا مقلدين حقا لنموذجين ثابتين تقليداً مطابقا للأصل ، على شاكلة هؤلاء العمال الذين يحاكون نماذج ثابتة في النحت أو في التصوير محاكاة الصور « الفوتوغرافية » ، وإن أثبت لهم فضلا فقل الصور « الفوتوغرافية » ذات الألوان !

ونحن نشفق على شعرائنا – وبخاصة قدمائهم – أن نحمل عليهم هذا الفرض الثاني الذي لا يعتمد على درس أو بحث ، بل نحن نشفق على روحنا الفنية الأصلية في أعمال شعرائنا القدماء أن نصفهم بأنهم قوم لا شخصية لهم في حرفهم وصناعتهم . ومن يستطيع منا أن يؤمن بأن نماذجنا ليست أكثر من تقليد لمثلين ثابتين إلا إذا كنا نعتصم في أحكامنا بنظرات طائرة لا تعبر عن وجه من حق أو صواب ؟ وأينا يستطيع أن يزعم لنفسه أو للناس بأن نماذج الشاعر الجاهلي كنماذج الشاعر العباسي أو كنماذج الشاعر الأندلسي ، لا فضل لشاعر على آخر إلا بمقدار ما يحسن من المحاكاة أو التقليد ؟ أظن أحداً منا لا يستطيع أن يقطع بذلك ، بل إننا لنجد الشاعرين من عصر واحد تتباين نماذجهما وتفترق مفارق واسعة ، إلا إذا كان منا من يسوي بين نماذج بشار ومسلم وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري ؛ فكلهم شعراء ، وكل نماذجهم شعر ، وهي لذلك من مادة واحدة وصورة واحدة !

والحق أن أعمال شعرائنا ليست من نموذج معين ولا من نموذجين معينين ، فهناك نماذج كثيرة لم نصور معانيها وخصائصها تصوراً يفصح عن أساليبها وطرائقها ؛ ولعل شيئاً من ذلك يرجع إلى أننا ينقصنا جانب من الفلسفة في أبحاثنا ، حتى تبني عقولنا بمواد أصلب وأقوى ، فنستطيع أن نفسر جوانب حياتنا المختلفة ومذاهبها المتنوعة من اجتماعية وسياسية وعقلية وأدبية . ولعل من الحتم أن نشير هنا إلى أن من الضروري لنا دائماً أن ننظر إلى أنفسنا في كل ما نريد أن نؤسسه من علم أو فن في المرآة الأوربية ، ولكن لا ننتقل من عند الغربيين أسماءهم وألفاظهم نقلا ، بل لنتأثر بتوجيهاتهم من جهة ، ولننتفع في تصوير مسائلنا العقلية والفنية بما سبقونا إلى إحكامه وضبطه من جهة أخرى .

وإنك لو رجعت إلى النقد الغربي تستضيء به في النظر إلى نقدنا لعجبت من نشاط القوم في تفسير المذاهب الفنية ، إذ تراهم يتحاورون دائماً في اتجاهات الشعر حواراً له أثره المستمر في ظهور المذاهب والمناهج الحديثة ؛ وكأنما الشعر عندهم موجات يتلو بعضها بعضاً ، فما تبلغ موجة الشاطئ حتى تعقبها أخرى لها حركاتها وأصواتها ، وكل موجة ترتفع ثم تهبط رويداً رويداً ، حتى تتلاشى في ظن القلوب ، فتخلفها موجة أخرى أكثر حركة وضوءاً ، وأتم بريقاً ولماناً ، فتلفت الأنظار ، ويلهي الناس إليها أو تسعى إليهم ردحا من الزمن ، ثم تتلوها أخرى ، وهكذا تستمر موجات الشعر الغربي ومذاهبه الفنية بين ارتفاع وهبوط .

وإذا قابلنا هذا النشاط في إحداث المذاهب وتفسيرها عند الغربيين بما يماثل ذلك من أعمالنا ، وجدنا ضروباً من الجمود والركود ؛ فنحن لا نعني في نقدنا الحديث بعمل مذاهب لشعرنا وفننا ولا ما يشبه أن يكون مذاهب ؛

وقد يكون من أسباب ذلك ودوافعه ضيق شعرنا وتحيزه في فن واحد هو الشعر الغنائي ، فبدا غير قليل من الصعوبة في إحداث مذاهبه ، فضلا عن تفسيرها ، بخلاف الشعر الغربي ، فإن تباين أنواعه الكبرى من قصصية إلى غنائية وتمثيلية أتاح للنقاد الغربيين مادة واضحة في تفسير مناهج الشعراء ومذاهبهم الفنية ، إذ اتصلت هذه المناهج والمذاهب بالموضوعات ومنابعها من التاريخ أو من الطبيعة أو من واقع الحياة أو واقع النفس الانسانية ، كما اتصلت بطريقة النظم وصورة التأليف ، وذلك كله مما يجسم المذاهب ، ويحكم أصولها ، ويوثق أوضاعها ، ويقيم الحواجز والفوارق الواضحة بينها .

وباب آخر ينفذ منه إلى الناقد الغربي أضواء كثيرة ، تجعل من السهل عليه أن يحكم المذاهب الفنية في الشعر ويضبط ألوانها وأوضاعها ، ونقصد هذه الممرات الكثيرة التي تصل عند الغربيين بين الشعر وغيره من الفنون ، كالرسم والموسيقى ، فإن هذه الفنون جميعاً تتشابك عندهم تشابكا شديداً ، بحيث نرى دائماً أنه كلما تلون فرع منها بلون ضربت الفروع الأخرى إلى لونه الحادث قليلا أو كثيراً ؛ ومن أجل ذلك كانت هذه الفنون عندهم يفسر بعضها مناهج بعض ومذاهبه ، لأنها تتزامل في التجديد وتترافق في التعبير ؛ فإذا أردت أن تفسر المذهب الرومانتيكي في الشعر وتصعبت عليك بعض جوانبه كان الرسم خير معين لك ، وإذا أردت أن تفسر المذهب الرمزي فيه وتعسرت عليك بعض نواحيه كانت الموسيقى خير مرشد لك ، وهكذا إن أعياك تفسير حال أو بيان جانب في مذهب ، وأردت ما يكشف عنك الغمة أعانتك الفنون الأخرى وأمدتك بما تريد من بيان أو تفسير ، فهي جميعها تشترك في الوجهة والتعبير ، واختلافها إنما يقصر على الأداء والوسيلة .

وأنت لا تستطيع أن تفسر اتجاهاً أو مذهباً لنا في

شعر يعمل لنا في رسم ، فضلا عن موسيقى ، فإن هذه الفنون عندنا متباعدة لا يقبل بعضها على بعض ولا يستفيد بعضها من بعض . وآية ذلك أنك لا تستطيع أن تفسر قصيدة في ضوء لوحة ، ولا لوحة على رنين قطعة موسيقية ! فتلك فنون تتقاطع عندنا وتتخاصم ، وينقبض بعضها من بعض ؛ فإن وجد في أحدها فنان ممتاز له مذهب مرسوم أو منهج موضوع ، كان شذوذاً في ذوق النقاد ، ورأيناه يتخذ سمته بعيداً عن زملائه في فنه ونظرائه من أصحاب الفنون الأخرى .

غير أن ذلك كله ينبغي أن لا يولي وجوهنا عن غايتنا من وضع مذاهبنا في الشعر ومناهجنا ، حتى يستطيع شعراؤنا المحدثون أن يكونوا لأنفسهم تربية فنية أصيلة ، وحياة مدرسية قوية ، فيطلعوا على شعرنا القديم ، ذلك الشعر النموذجي ، ويعرفوا أصوله وطرقه ونواميسه وأسراره . ونحن لا نشك في أنه ستصادفنا أبحاث ماكرة عديدة ، وستهتز أيدينا وترتجف كثيرا ، إذ ليس من السهل أن يهجم باحث على تصوير مذاهبنا ومناهجنا دون أن يتثقف ثقافة واسعة بشعرنا من عصوره الأولى إلى عصوره الأخيرة ، ويديم النظر طويلا في هذه الجداول الكثيرة التي رفدته بما بدّل ألوانه وغيّر مياهه وانحرف بمجراه عن وجهته .

ونحن لا نذيع سرا إذا قلنا بأن نقدنا القديم يكمن في صدره كثيراً من الخواطر والالتفاتات الشاردة التي تحدرت من أجيال بعيدة والتي تعد إعداداً دقيقاً لأحداث مذاهبنا في أعمالنا الأدبية وآثارنا الفنية . ولست أقصد إلى ما جرى على ألسنة نقادنا من أسماء وألفاظ كثيرة تعد لوضع مصطلحاتنا ، بل أقصد أيضا إلى ما نثروه في كتاباتهم من وصف طرق الشعراء ومناهجهم ، فقد تركوا في هذا الجانب كثيراً من الظنون والآراء الضيقة .

ولابد لمن يضطلع منا بهذا العمل أن يتثقف ثقافة واسعة بالنقد الغربي وما كتبه الغربيون عن مناهجهم ومذاهبهم الفنية ، حتى يستطيع أن يستغل ما أثاروه من نظريات ودراسات في مادة عمله وصورته . وكأننا نعرف أن من أهم الأصول التي تساعد على وضع القواعد والمذاهب في العلوم والفنون أن يطلع أصحاب هذه القواعد والمذاهب على الخطوات التي سبقتهم عند غيرهم من الأمم والشعوب ، ولذلك كان من الباحثين من يفترض أن العرب اطلعوا على النحو عند غيرهم كما اطلعوا على العروض عند غيرهم ، وإلا فكيف تم عملهم في النحو والعروض بهذه السرعة الشديدة ؟

ونحن لا نشك في أنه حين يتعمق نقادنا مذاهب الشعر الغربية ويضيفون إلى ذلك ثقافة واسعة بنقدنا القديم وما كتب فيه من محاولات ودراسات ، حينئذ يستطيعون أن يضعوا مذاهبنا الفنية وضعاً دقيقاً يتيح لشعرائنا المحدثين أن يسموا إلى وجهاتهم في الفن سمواً واضحاً قائماً على أصول بينة .

شوقي ضيف

من معانى الوطنية :

أناشـــــيد الرين

فى ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ انتصرت جيوش محمد على باشا إلى جوار الفرات على سلطان تركيا فى حرب سوريا الثانية ، وفى أوائل يوليو توفى السلطان محمود ، وخلفه طفل فى الثالثة عشرة من عمره ، وانسحب أمير البحر التركى من سوريا إلى الاسكندرية ، حيث أسلم أسطوله إلى باشا مصر ؛ ونظرت أوربا فرأت الدولة العثمانية على وشك أن تقع كلها فى يد والى بلاد النيل ، فهالها الأمر ، وسرعان ما تضافرت جهودها لحماية الدولة العثمانية .

ولكن فرنسا ظلت من بين دول أوربا الدولة الوحيدة التى تعطف على مصر وتود أن يصل واليها فى مفاوضة منفردة مع السلطان إلى الاستفادة من انتصاراته الحربية ، وهذا ما حاوله سراً « تير » Thiers وزير فرنسا إذ ذاك .

وأحس بلمرستون بما تسعى إليه فرنسا ، فأسرع إلى عقد معاهدة لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ مع الروسيا والنمسا وبروسيا ، وبمقتضاها اتفقت الدول الأربع على أن تحمل محمد على على أن يكتفى بمصر له ولأولاده من بعده ، وبسوريا مدى حياته فقط . وسار أسطول انجليزى نمساوى إلى الاسكندرية ، حيث أرغم واليها على قبول هذا الحل ، بل ورد سوريا كلها إلى السلطان .

لم تشترك فرنسا طبعاً فى هذه الحركة ، بل اعتبرتها جرحاً لعزتها ، ورأت فى تحالف أوربا كلها ضد صديقها والى مصر تحالفاً ضدها ؛ فهاجت النفوس ، وأوشكت الحرب أن تقع بينها وبين أوربا ، لولا تسليم محمد على ، وحكمة لويس فيليب ، وحلول Aberdeen أبردين محل بلمرستون فى رياسة وزارة إنجلترا .

وهكذا مرت تلك الأزمة الخطيرة ، ولكنها بعثت آلام الفرنسيين الوطنية ، فذكروا ما نزل ببلادهم من محن منذ هزيمة نابليون فى واترلو سنة ١٨١٥ ، واحتدم سخطهم بوجه خاص ضد البلاد الألمانية التى حرمتهم بفضل مناورة بلوخر لونجعن على هزيمة أمبراطورهم من حدودهم الطبيعية على ضفاف الرين ، فسارت جموعهم فى شوارع باريس منشدة المرسييز مطالبة بالاستيلاء على الضفة اليسرى لذلك النهر الخطير .

وتجاوبت الأصداء ، إذ ثارت ثائرة الألمان ، فنادوا بتحطيم فرنسا واسترداد الألزاس واللورين ، حتى قال أحد قوادهم : « إن فرنسا تمثل فى الأرض مبدأ انحلال الأخلاق ، وإنه لا بد من استئصالها من الوجود ، حتى لا يمحى الله من السماء » .

ونفث الشعراء ثارهم — ومن أقدر منهم على ذلك ؟ — فى تلك الثورة النفسية الحادة ، وما هى إلا أيام حتى كنت لا تسمع بألمانيا كلها صوتاً يتغنى بغير « نشيد الرين » ، وضعه الشاب نيكولا بيكر Nicolas Becker (١٨٠٩ — ١٨٤٥) المولود بمدينة « بون » على الضفة اليمنى لنهره المحبوب . ومن عجب أن تتطاول ألسنة حتى بأنه شاعر مجهول ، إذ لم يعرف بغير هذه الأغنية الرائعة ، حتى لكأن الشهرة لا يصيبها إلا المكثرون من الهذر يرددونه على الأسماع مشفوعا بأسمائهم التى لا تستحق أن تشرق عليها شمس ، أو كأن الشعر صناعة يحترفها الناس مدى الحياة ، فيقولون بأفواههم ما لا ترغمهم على قوله القلوب ، أو كأن المجد لا يجوز أن يبتسم لنفس كبيرة أودعت مكنونها نفثات قليلة ، فاذا بها نجوى شعب بأكمله . بل من يدرينا أن « بيكر » قد قصد من نشيده إلى ذيوع

الصيت أو خلود الذكر ، وما نشيده إلا نفثة قلب جاش بنار الوطنية ، فاذا به يتغنى غناء سهلا قريباً من الحياة ، وإذا بمواطنيه يستجيبون لغنائه ، لأنه مس مألوف شعورهم . وهل الوطن إلا هذه المياه الجميلة التي تتدفق وسط الحقول أو الغابات ؟ وهل الوطن إلا تلك الخيرات قوتنا وقوت عيالنا ؟ وهل الوطن إلا تلك الثمرات التي تتوفر لنا بين ربوعه ، فاذا نحن راضون عنه حريصون على مجده ؟ وهل الوطنية إلا استعداد دائم لأن نريق دماءنا ذوداً عن بلادنا التي هي عزنا ولا عز لنا في سواها .

« لن ينالوه — ريننا الألماني الحر — وإن علت بالمطالبة به صيحاتهم كغربان متكالبة .

لن ينالوه ما تدفق هادئاً بمعطفه الأخضر وما ضرب مجداف أمواجه .

لن ينالوه — ريننا الألماني الحر — ما ارتوت القلوب من لهيب نبيذه .

لن ينالوه ما نتأت عجراء الصخور ، وما انعكست بمرآة مياهه كنائسنا العالية .

لن ينالوه — ريننا الألماني الحر — ما داعبت شبيبتنا الجريئة فتيات رشيقات القدود .

لن ينالوه — ريننا الألماني الحر — أو تصير أواذيه قبراً لعظام آخر رجل منا » .

وردد الألمان على بكرة أبيهم نشيد « بيكر » ، حتى كان يوم تسقط فيه شاعر آخر هو « شنيكنبرجر » Schneckenburger رجع صيحات الفرنسيين خلف النهر ، فنادى مواطنيه في أغنيته الخالدة « حرس الرين » :

« ها النداء يرتفع كقصف الرعد وقعقعة السنان وصخب الموج داعياً — إلى الرين ! إلى الرين ! إلى الرين الألماني — فمن منكم يريد أن ينهض حامياً له ؟

أيهـا الوطن العزيز ! باستطاعتك أن تطمئن على سلامتك ، فحرس الرين يسهر عليك أميناً قوياً » . . .

ووصلت أناشيد الرين إلى أسماع الفرنسيين ، بل وأرسل بيكر نص أغنيته إلى لامارتين ، الشاعر الذي بلغ من رقة النفس ووداعة القلب أن حاول أن يطفئ من لهيب القلوب ، وقد غضب الألمان من صيحات الحرب التي ترتفع بها نغمات مرسيلييز الثورة ، فلم لا يكتب « مرسيلييز السلام » مناشداً الشعبين أن يذكرا أنهما إخوة في الانسانية ، وأنه لا يجب أن تفصل بينهما حدود :

« تدفق — أيها الرين — حراً أبياً بين ضفافك الفسيحة ، تدفق يا نيل الغرب فيصلا بين الشعوب التي تعدو لتشرب من مياهك الحية ، ولتجرف صيحات الطمع والتحدي .

فيم العداوة والبغض ؟ ولم تقيم بين الشعوب تلك الحدود أو تلك المياه التي يعقبها الرب ؟ وهل ترى في السماء آثاراً لتلك الفواصل ؟ هل لقبابها حوائط أو حدود أو حواجز . . . ؟

ألا فلتمزقوا تلك الأعلام ، ولتستمعوا إلى ذلك الصوت الذي يناديكم أن لا وطن لغير البغض والأثرة ، وأما الأخوة فلا وطن لها » .

وجاء شعر لامرتين على عادته فاتراً ، فلم يصب آذاناً مصغية ، والشعوب غضبات من الحق إن لم يكن من الاجرام أن تحاول إخمادها ، إذ يا ويل شعب يجبو ، ويا ويل رجال لا تعرف كيف تثب ، بل يا ويل قلوب تخشى ثورة الدماء في حناياها .

وكان مساء سمع فيه الفريد دى موسيه أغانى الألمان ورد لامرتين الرخو ، وكان ذلك بمنزل مدام جراردان Girardin صاحبة الصالون الشهير في تاريخ الأدب الفرنسي ، فانتفض هائجاً وقد اعلوت قلوب الألمان على وطنهم ، فتعصبوا له وثاروا من أجله ، بينما يتنكر لامرتين

لفكرة الوطن — الوطن المقدس — وحـدة الآمال والآلام ، فيود أن لو يحل محله الانسانية الموهومة الغامضة ، حتى لينادى بتمزيق الأعلام القومية ، وحتى ليزعم أن الوطن لا يخط حدوده غير الأثرة والبغض يحمله الشعوب بعضها لبعض . وما إن غلت نفس هذا الشاعر الحارة حتى جرى لسانه مرتجلا ذلك النشيد الرائع المنيف « الرين الألمانى » الذى ما زال الفرنسيون إلى اليوم يلقنونه أبناءهم طفلا من أب :

« لقد سبق أن ملكناه — رينكم الألمانى — يوم أن احتواه كوننا . وهل تستطيع أغنية تدندنون بها أن تمحو ما خلفت حوافر خيولنا الأبية بدمائكم من آثار ؟

لقد سبق أن ملكناه — رينكم الألمانى — وما زال صدره يحمل جرحا فاغراً منذ أن مزق بطلنا كونديه Condè منطقه الأخضر — وحينما مر الآباء عبر الأبناء .

لقد سبق أن ملكناه — رينكم الألمانى — فأين كانت رجولتكم الجرمانية يوم غطى قيصرنا[1] الجبار بظله سهولكم — حدثونا أين سقطت آخر عظامكم ؟

لقد سبق أن ملكناه — رينكم الألمانى — فإن كنتم أنسيتم تاريخكم فإن بناتكم لا شك قد احتفظن بذكرانا خيراً مما احتفظتم . ألم يسكبن « نبيذكم » الأبيض بكؤوسنا ؟

إن كان رينكم الألمانى ملكاً لكم فاغسلوا فيه سيقانكم ، ولكن أخفضوا الصوت عندما تتحدثون عنه ، ولتذكروا كم كنتم من غربان تكالبت على النسر[2] المحتضر يوم تناهشتم أشلاءه .

ألا فليتدفق رينكم الألمانى ، ولتنعكس فى تواضع كنائسكم القوطية بمرآة مياهه ، ولكن احذروا أن توقظوا بأغانيكم المستهترة — الأموات من راحتهم الدامية » .

وبعد ، فلنا نيل كما للألمان والفرنسيين رين ؛ ولكن لديهم أناشيد ، بينما نحن نغنى : « يا لوعتى يا شقايا » ، « يا وبور قول لى رايح على فين » ، « بكره السفر يا حبايب » . وقد نصل إلى « النيل نجاشى » . وأما أناشيد الرجولة التى تسمو بالقلوب إلى النضال عن مهرنا العزيز الذى امتهنته الأقدام ، فذلك ما نطالب به شبيبة هذا الجيل ربيب الثورة الوطنية ، وطلائع مجدنا القوى ؛ ولا نتحدث عن شعراء النيل وشعراء الوادى ، فشعرهم قد أفسدته صناعة الألفاظ والطنطنة بالمعانى الكبيرة الخاوية ، ونحن بحاجة إلى غذاء جديد نستمده من حياتنا القريبة وجزئياتها المألوفة ، وذلك أشق الشعر وأنبله

محمد مندور

(١ ، ٢) نابليون .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

***

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	الطلبة ومعلمى الإلزام
لستة أشهر	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

أفعل التفضـــــيل
فى الاصـــلاح

صرخة أخرى :

مع أن أصوات المتشائمين من أواسط الناس وجهلة الكتاب وساقطى الهمة ، ترتفع بين حين وآخر ، معلنة أن الأحاديث فى الاصلاح قد توارت فاستباحها الخاصة والعامة ، حتى أصبح ترديدها سهلاً رخيصاً فهو لا يكلف تعباً ولا ينتج منفعة ، إلا أنه لا يمكن لحكيم هادئ ، متعقل ، بعيد النظر ، أن ينكر جدوى أحاديث المصلحين وبحوث المصريين المتكلمين المخلصين . فلو راجعنا نواحى الحياة المصرية كلها لتبين لنا أن روح التطور والتجديد والاصـــلاح قد أخذت تدب فيها رويداً رويداً . فالفلاح ولا شك يعلم أن قانون الخمسة أفدنة مثلاً قد سن لحماية ملكيته ، والتاجر وصاحب المشروع يعلمان أن هيئات كالغرف التجارية تعمل على إيجاد روح التعاطف والمشاركة بين أصحاب المهنة الواحدة ، وتشتغل بالدفاع عن حقوقهم ورعاية مصالحهم ، ورجل الشعب يلمس المعاونة التى تقدمها إليه وإلى أهل بيته هيئات كالمستشفيات الأميرية ومراكز رعاية الطفل . . . وهكذا قل فى نشاط مختلف الهيئات والطوائف كالجامعة والأزهر وجمعيات الشبان والصحف والأدباء ورجال العلم والفن والتربية والتشريع . وعلى هذا فلم تكن أحاديث المصلحين باطلة وكتاباتهم ناقلة آمالهم وأشواقهم من الخيالات والأوهام . ونقول فى إيمان وثقة وشعور بالحاجة : إننا لا زلنا فى حاجة إلى الكثير من الأحاديث المنظمة الواضحة ، فهى غذاؤنا الروحى والمعنوى بما تقدمه لنا من تشجيع وتوجيه وتوضيح . وليس أجدى من الوضوح الفكرى وسيلة توجه الحياة وتبعث الروح وتستحث الجهود .

تفتح ذهنى ومعنوى :

وإذا تساءلنا : لماذا تتكاثر الأحاديث عندنا من كل ناحية من نواحى حياتنا المصرية ؟ فقد يكون الجواب أننا فى حالة كظم وحرمان من الحيـاة تفرجه كثرة الحديث والمناقشة ؛ أو قد يكون الجواب أننا نضيق ذرعاً بالحياة التى نحياها فى الواقع ، فنشغل أفكارنا بأحاديث فى حياة أخرى نحياها فى الفكر على طريقة الأفكار والخيالات ؛ وقد يكون الجواب أن السبب راجع إلى رغبة طبيعية فى الانسان تلح عليه فيتكلم وينطق . . . ومع أن لكل من هذه الأجوبة نصيبه من الصدق ، إلا أنها جميعها تتجمع فى سبب واحد — ذلك هو أننا فى حالة تفتح ذهنى شديد . فقد كنا من قبل فى حالة ركود ذهنى نمارس الحياة ولا نفكر فيها كثيراً ، وما إن أثير عنصر التفكير فينا حتى اندفعنا فى نشاط معنوى متدفع ، نمارسه فى شغف ونتمتع به فى نهم ولذة .

هذا التفتح الذهنى العجيب لم يكن إلا تحقيقاً لمعنى الحياة الانسانية المتمدنة بشقيها : الشق التصرفى والشق الادراكى . فنحن نريد الحياة تصرفاً وحركة بأيدينا وأقدامنا ، كما أننا نريدها فى صورة أخرى : حية فى أذهاننا ، متمثلة فى مخيلاتنا ، ذات غاية ومعنى ورونق وبهاء . . !

المتحررون المحبطون :

يرى الناظر فى مطبوعاتنا ، ظاهرة عجيبة تلفت النظر . يرى كتاباً وأدباء ، تفتحت أذهانهم ، حتى أصبحت تقبل على كل شىء ، وتتحدث فى كل باب . فالأدباء عندنا يتحدثون فى السياسة ، ويعالجون الشعر والفن ، ويتشورون فى علم النفس ، وينطلقون مرات كثيرة فى مجالى الفلسفة والمنطق ، ثم يتحولون نحو الحياة المصرية يدعون إلى الاصلاح الاجتماعى والسياسى والفنى

والتشريعي ... فهم يدعون إلى كل شيء ، وفي دعوتهم حرارة تكاد تكون اندفاعاً ، وفيها حيوية تكاد تكون عبقرية ، ولكنها عبقرية على طريقة عبقرية الشباب في الأدوار الحادة لبلوغه الذهني.

وإن كنت لا أنكر ما في العقلية المصرية من ألمعية ومقدرة ، إلا أنني لا أنسى أن هذا النشاط الذهني هو من دلائل القلق الروحي وعدم الاستقرار ، كما أنه من الدلائل القوية على أننا كثيراً ما نتجه اتجاهاً خيالياً ترفياً فيه بعد عن الحياة العملية . وذلك لأن الحياة العملية مهما اتسعت حدودها فهي ضيقة ، ومهما تعقدت فإن فيها الجوانب ذات الأهمية البارزة ، ومهما سخفت هذه الحياة وامتلأت بالعلل والأمراض فإن فيها من الجوانب الانسانية العميقة ما يستحق أن ننظر إليه في وضوح واحترام وأن نتناوله بالتشذيب والحب والاعجاب . فإذا كان كتاب الكثرة عندنا يكثرون التنقل من حديث إلى حديث آخر غيره ، ويكثرون التحدث في إصلاح كل شيء كأن كل شيء يحتاج إلى إصلاح ، فإني أخاف أن أقول ان اتجاهنا فيه خيال وغموض وقلق ، وإن في قدرتنا قصوراً عن تفهم الحياة على حقيقتها ، وإن فيها ضعفاً لا يسمح لنا بتمييز جوانب حياتنا وتقدير قيمة كل جانب منها ووضعه في المرتبة التي يجب أن يوضع فيها . بل وأخاف أن أقول إن من كتابنا هؤلاء من يقدر فكره أعمى تقدير فيرى فيه كل شيء ، ويفقد الثقة في حياتنا الحاضرة فلا يرى فيها ما يستحق أن نحبه وأن نقدره وأن نحافظ عليه . واتخاذ الأشياء هذا الوضع وهذه الصورة فيه من الخيال والخطورة والبعد عن الاصلاح العملي الشيء الكثير .

سياسة عليهة :

ولعل أخطر من هؤلاء الكتاب المحيطين ، كتاب آخرون ، كتبوا في إحاطة ، وتحدثوا في كثرة حتى تعبوا ، ثم أرادوا بعدئذ أن يقدموا رأياً في الاصلاح ، فقالوا في قطع وشدة وعنف — إن حياتنا كلها أخطاء وعلل ، فلنصلح فيها كل شيء ، ولنقلبها رأساً على عقب بحيث لا نصلح منها جانباً ونترك الجوانب الأخرى ، لنصلح كل شيء دفعة واحدة . وأقوال مثل هذه هي أقوال لا تميز إلا من روح اليأس والانزعاج والضايقة والثورة . وسياسة مثل هذه هي سياسة تجرى على خطة الارغام ولا تنفذ إلا على منوال من القسر . ومنطق مثل هذا هو منطق خيالي بعيد عن الحياة العملية وبعيد عن فهم الروح الانسانية . بل إن سياسة مثل هذه ليس لها من معنى إلا أن المطالبين بها قد فقدوا القدرة العملية على التمييز بين المهم والأهم ، وأنهم لم يتعمقوا في نفس الحياة التي يريدون لها الاصلاح ، ولم تتضح أمامهم بعد الأسس والمقاييس التي يقيسون بها هذه الحياة — بل وأنهم لم يدركوا حتى الساعة أن معنى الاصلاح ليس هو الانقلاب بل هو التعديل المترفق والعلاج المتأني والرعاية الحذرة المتعمقة والقصد الواضح الجلي .

من معاني الحضارة :

وإذا كان للحضارة كثير من المعاني ، فإن من أهم هذه المعاني معنى الوضوح الذهني . فالرجل المتحضر له القدرة أن يجمع خواطره ، وينظمها ويرتبها ، والرجل غير المتحضر يصعب عليه ذلك . الرجل المتحضر يذهب بفكره باحثاً عن التفاصيل والمعاني والحقائق الكامنة وراء المظاهر ، أما الرجل غير المتحضر فيعسر عليه أن يؤدى هذا العمل . الرجل المتحضر يمكنه أن يميز وأن يقارن ، والرجل الآخر لا يمكنه . الرجل المتحضر يقيس الأشياء بمقياس الفكر الواضح المحقق ، والرجل الآخر يقيسها بمقياس الكم والحجم والأبعاد الحسية المنظورة . الرجل المتحضر يختار فيحسن الاختيار ، وأما الرجل الآخر فإنه لا يختار ، بل يأخذ الأشياء أخذاً دون أن يفرق في ذهنه بين مزايا الشيء الذي أخذ ومزايا الشيء الذي ترك .

فأين كتاب الكثرة عندنا من هذه المعانى ؟ وأى حكم نصدره عليهم إذا قسناهم إلى هذه المقاييس ؟ وهل انتقلنا بعد من دور الغموض والاختلاط والكثرة إلى دور التمييز والتفضيل وحسن الاختيار . . ؟ إن الشباب عندنا يشعر بهذه الكثرة شعوراً شديداً ، وهو يقاسى منها أشد الألم ، حتى ليكاد — فى هذه الكثرة — يفقد ماله من شخصية ومميزات ، وحتى ليكاد ينطمس من معالمه ما يجب أن يكون واضحاً مفسراً .

فعلى كتاب الكثرة عندنا أن يأخذوا أنفسهم بالمحافظة والتريث ، وأن يضبطوا عقولهم فى حدود من الاعتبارات العملية والاتجاهات الواضحة ؛ وكفانا بعدئذ ما نقاسيه من تخمة التقدم المادى الغربى ، فلا نضيف إليها تخمة أخرى تقتحم علينا حياتنا الفكرية بعد أن اقتحمت المخترعات العلمية حياتنا النفسية والمزاجية .

من أخطار الحضارة :

مهما قيل فى مدح الحضارة والتحضر ، ومهما سمعنا من حث ورأينا من إغراء يجذباننا نحو الأخذ بأساليب الحضارة الحديثة ، فإن مما لا يستطيع أن ينكره أحد ، أن فى هذه الأساليب الحديثة كثيراً من الأخطار .

نعرف اللغات الأجنبية فنقبل عليها إقبالاً شديداً ، نغترف منها لأنفسنا الأفكار والمشاعر والاتجاهات ؛ فإذا ما أردنا أن نمارس هذه المشاعر فى البيئة الاجتماعية التى نعيش فيها صدمنا الواقع الذى لا يتلاءم وهذه الأفكار والمشاعر .

فى أيدينا المال وأمامنا الكتب والمطبوعات رخيصة ، نشتريها ونكثر من شرائها ومطالعتها ، فإذا ما أغلقنا الكتاب ، وخرجنا إلى الحياة والناس ، وأردنا أن نعيش الحياة التى قرأناها ، صدمتنا الأوضاع الحاضرة وبعثت شعور الاضطراب والوحشة فى نفوسنا .

جاءتنا من الغرب أجهزة الإذاعة وصناعة الخيالة وفنون الأدب والتأليف ، فكان التحضر جهازاً نشتريه ، ودوراً للخيالة نرتادها ، وكتباً وتآليف نضعها ونصنفها لكى تباع وتربح . وأما البحث الجدى فيما ينقله إلينا المذياع واختيار ما يتلاءم منه وحياتنا مع ترك غيره ؛ وأما البحث فيما تعرضه لنا دور الخيالة من قصص ، والدعوة إلى حسن الاختيار لما نشاهده ، وحسن التفهم لما نراه ؛ وأما قراءة الكتب التى تسد حاجة واضحة ملموسة ، وتصنيف المؤلفات التى ترضى الذوق والذهن فى مستوى قريب من مستواهما الحالى . . . هذه كلها أمور ننساها ولا نستوضحها ، وقد نضعها فى مرتبة بعيدة . . . فالمدنية أن يكون لنا مذياع ، وأن يكون لنا عشرات من دور الخيالة ، وأن نكتب وأن نؤلف كتباً تنشر وتباع .

وهذا الوضع الخطير يجعل من نفوسنا وأفكارنا ساحات تحتلها الغرائب والأعاجيب والمظاهر اللاهية ، دون أن تكون لنا ذاتية خاصة ، وحيوية وشخصية متفردة موجبة ، تختار وتفهم المعانى وتتلاءم مع الواقع فى إحساس بالحياة وثقة فى النفس .

فأبعدوا هذا الخطر من الشعب ، وقدموا إليه الأشياء متآزرة متقاربة ، تسد حاجته وتشبع رغبته وتبعث الاستقرار والوضوح فى روحه المتطوحة ، فيعرف بذلك ماذا يطلب أولاً وأين يهدأ ويستكن ، وكيف يرضى حاجاته ومطالب عيشه إرضاء متأنق ماهر بحسن الاختيار . ضعوا فى هذه الأوانى التى صدرتها إلينا المدنية الغربية عقلاً مصرياً ، وآلات مصرية ، وروحاً مصرياً صميماً واضحاً .

رضى المتعقلين :

إذا تعقلنا الحياة استوضح معالمها ونواحيها ، وإذا انتظمت هذه النواحى فى أذهاننا مترتبة حسب أهميتها ، وإذا تمثلنا دائماً الروح المصرى الحالى ، ثم قمنا بعد ذلك بجهودنا الإصلاحية ، نوجهها إلى الأهم أولاً ثم إلى الأقل أهمية بعدئذ ، أنتجنا وأصلحنا وحققنا أفكارنا ومشروعاتنا ، فإذا عدنا بعدئذ نراجع الجهود التى بذلناها منتظمة حتى

الوردة الغريقة

أشرقت في الروض « بلقيس » الزهر
تملأ القلب حنانا والبصر
تهم الحسناء في أشواكها
أن زين الحسن صون وخفر
لم يداعبها سوى زوج سرى
ليلتي في روضها روح السحر
كم تهادى من رباها هدهد
عاطر الأذيال سحري الخبر
وسرى يحمل أسرار الهوى   لقلوب ناعمات بالسمر
أين مني هي ما أعذبها   إيه يا صداح إيه يا شجر!
أين مني وردة كنت إذا   زرتها أينع قلبي وازدهر!
جنح الطير إلى أغصانه   شاكياً يبكي الأزاهير الغرر
وانحنى الدوح على الماء كما   تنحني أم الغريق المحتضر
هبت الريح به عاصفة   ورمت بالزهر في جوف النهر
وبحه في الماء لا تؤنسه   صور الدوح ولا ظل القمر
كم طفا يستعطف الدوح فما   أشفق الدوح عليه والشجر
ما أعق الريح ما أظلمها   حينما تعصف بالروض النضر
تحزن الروض وتذوي زهره
وهي تحيا منه بالنفح العطر
يا عروس النيل حيي وردة   غرقت مثلك في لهو الصغر
أعجبت بالحسن حتى زفها   ذلك الحسن عروساً للقدر
تشكر الماء الذي نضرها   بالرحيق العذب منه في البكر
فدوت بين يديه حرة   تفتدي كل شهيد قد غبر

(دار العلوم)   عبد الحليم داود

أجدت ، سرى في أرواحنا شعور الاستقرار والهدوء ، وانبث في حياتنا عنصر التعقل ، وبات السعي والاصلاح أمامنا حقيقة تتمثل فيها المعاني ، وحياة تتجسم فيها الآمال والرغبات ، وخدمة إنسانية تنتظم العمل والفكر والروح في اتساق وحيوية وجمال .

أساس التضحية :

وتتابع الجهود الاصلاحية على هذه الصورة يتطلب تضحية . وأساس التضحية في الاصلاح — كما في كل شيء آخر — هو المفاضلة والترجيح : أن يتحدث المصلحون فيلتزموا حدود الحياة في الواقع بغير الانسياب نحو الخيال والنظريات والمطلق ؛ أن يقيدوا تفكيرهم ويغربلوا آراءهم حتى تنصب ملكاتهم الفكرية في مجال واضح ؛ أن يقتصروا في مطالبتهم بالاصلاح على الجانب الأكثر أهمية ؛ أن يعملوا على توضيح مدى تقدم الأمة في الناحية التي يدعون إليها ، دون أن يدفعهم سحر الجديد إلى الانتقال السريع من دعوة إلى دعوة أخرى غيرها ؛ أن يدركوا دائما وفي وضوح تام أن جميع جهودهم الاصلاحية ليست الغاية منها إظهار عبقرية المصلح ، بل إقرار الحياة في نفوس أفراد الشعب .

حكمة التفضيل :

وكما أن الحياة الأولى في عصور نزوعها وانتشارها لم تتأكد ولم تتقدم وتتطور إلا بعد انتخاب وتفضيل ، وكما أن الآكل لن يتغذى بدنه تغذية صحيحة إلا بعد انتخاب وتفضيل ، فهكذا الأمر أيضاً على مدى عصور تفتحها واستصلاحها ، لا تفيد ولا تصلح ولا تتقدم في وضوح وهدوء وتعقل إلا على أساس قوي من صدق الموازنة ، وحكمة التفضيل ، وعمق المعالجة ، وبراعة الملاءمة .

(ثابت)

من أديب إلى أديب

بقلم الأستاذ محمد كامل سليم بك

[بعث الأديب الكبير الأستاذ محمد كامل بك سليم إلى صديقه الأستاذ طاهر الطناحي بهذا الكتاب النفيس، وهو قطعة من الأدب والفن، بمناسبة إهدائه إليه «كتاب على فراش الموت» الذي أصدرته مجلة الهلال هدية لمشتركيها. ونحن ننشر هذا الكتاب النفيس فيما يلي]

عزيزي الأستاذ الأديب طاهر الطناحي.

لقد أهديتَ إليّ كتابك «على فراش الموت»، فهل تدري ماذا فعلت؟ إنك أهديت إليّ في الواقع غذاءً للروح معدوم النظير، وهززت نفسي إلى أعماقها هزاتٍ، فيها لوعةٌ وفيها أسى، ودفعتني إلى لون من التفكير يلازمه شجى، ورأيتني بين عَبْرة في عيني، وعِبرة في قلبي، هذه هي هديتك وما فعلت بي. وكيف لا يكون الحال كذلك وقد استطعت ياصديقي أن تُخرج من الأجداث أعزائي وأحبابي، ومن كانوا بالأمس موضوع درسي وموضع إعجابي، أخرجتهم يمشون بيننا بعد رقود، ويعيشون ثانية في أخريات أيامهم بعد جهادٍ وجهود، ويتحدثون إلينا من الحياة بعد نشاط وتجربة وخمود، حديث العارف الخبير الذي ذاق حلوها ومرها، وعرف خيرها وشرها، سرورها وهناءها، شقاءها وبلاءها. وكان لك الفضل الأكبر في جمع شتات تلك الأحاديث والآراء، مستشهداً بمختارات ممتازة من أشعار شعرائهم، ونثر كتابهم، ومن أفواه القادة الصالحين فيهم، والزعماء الوطنيين منهم، سجلت ذلك كله تسجيلا بارعا، وصورت أولئك النجوم التألقة تصويرا حيا رائعاً، وعرضتهم أمامنا واحدا واحداً في جمال وجلال: سعد زغلول الزعيم الوطني الموهوب، ومحمد عبده العالم العامل المجدد المرهوب، ومصطفى كامل شعلة الوطنية وضرامها، ومحمد فريد قديس الوطنية وإمامها، وإسماعيل صبري الشاعر الحكيم البعيد الأغوار، وحافظ إبراهيم الشاعر الفحل الذي لا يشق له غبار، وباحثة البادية، النابغة الهادية، زعيمة النهضة النسوية المصرية، وحفني ناصف الشاعر الناثر الأديب المطبوع، والوالد المتهدم المصدوع، وعلى يوسف شيخ الصحافة وفارس الميدان، وشوقي ينبوع الشعر عبقري البيان، وزيدان العالم المحقق، والمؤرخ المدقق، العامل الشهيد، والبكري جامع الحكمة والوسيق في أسلوبه الفريد، ومن إلى هؤلاء من أفذاذ الأعلام، والجهابذة العظام.

أولئك شموس مصر، سطعوا في سمائها زماناً، وكان منهم لأبناء مصر بل لأبناء الشرق كله النور والدفء، والهداية والرعاية، والقوة والحياة.

وإنك لحقيق بكل ثناء، وكل تهنئة، إذا استطعت بفضل براعتك وفرط براعتك، وصفاء نفسك، وجمال أسلوبك، أن تسجل في كتابك ما سجلت، وأن ترسم لكل منهم وهو يودع عالم الفناء إلى عالم البقاء صورة قلمية حية هي أدق وأكمل من الصورة الشمسية، وأن تجمع في كتاب واحد فلسفة الحياة، من أعقل الأحياء، قبيل مغادرة الحياة. ذلك توفيق من الله أدركته، وحق لك أن تغتبط بما أدركت، وهنيئاً بما فعلت، فقد خلدت ذكرك بين العاملين، حين سجلت كلمات الخالدين.

وبعد فلعلك تظن أنك أهديت إليّ بكتابك هذا هدية واحدة. كلا، فلقد أهديت إليّ هديتين اثنتين: هدية العبرة بالكتاب، وهدية الجمال في الاهداء. فقد جاء أسلوبك في الاهداء آية في جمال الود وحسن الرأي والتقدير، وجاء تحفة أدبية من أديب مطبوع، فلك الشكر المكرر، والسلام للعطر. من المخلص

محمد كامل سليم

زنوبيا

بقلم الدكتور طه حسين بك

للأستاذ فريد أبو حديد رأى فى القصة صوره لى فى بعض كتبه إلى ؛ فهو لا يسمى الأثر الأدبى قصة إلا إذا اجتمعت له شروط أربعة : الأول أن تشتمل على حوادث تقص وتحكى . الثانى أن تشتمل على وصف للأشياء والأحياء . الثالث أن تشتمل على أشخاص يصورهم المؤلف تصويراً دقيقاً واضحاً . الرابع أن تشتمل على حوار يشيع فى القصة بين هؤلاء الأشخاص . فإذا فقدت القصة شرطاً من هذه الشروط لم تستحق عند الأستاذ فريد أبو حديد أن تسمى بهذا الاسم ، ويجب أن يلتمس لها اسم آخر ، وأن تلحق بفن آخر من فنون الأدب . وما أريد أن أجادل الأستاذ فى هذه الشروط ، وما أريد أن أناقشه فى القواعد التى يضعها النقاد لهذا الفن أو ذاك من الفنون الأدبية ، وإنما أكتفى بأن أقول إنى من أنصار الحرية فى الأدب ، هذه الحرية التى لا تؤمن بالقواعد الموضوعة والحدود المرسومة والقيود التى فرضها أرسطاطاليس وفرضها النقاد المحدثون الذين أرادوا أن يشبهوا أرسطاطاليس فيشرعوا للأدب فى العصور الحديثة كما شرع أرسطاطاليس للأدب فى العصر القديم . إنما الأثر الأدبى عندى هو هذا الذى ينتجه الكاتب أو الشاعر كما استطاع أن ينتجه ، لا أعرف له قواعد ولا حدوداً إلا هذه القواعد والحدود التى يفرضها على الأديب مزاجه الخاص وفنه الخاص ، وهذه الظروف التى تحيط بمزاجه وفنه ، فتصور أثره الأدبى فى الصورة التى يخرجه فيها للناس . فهو قد يخرج هذا الأثر الأدبى قصة تستوفى الشروط التى يريدها الأستاذ ، وقد يخرجه شيئاً آخر لا يستوفى هذه الشروط كلها أو بعضها . وحسبنا منه أن يمتع ما نقرأ ، فنجد فى قراءته هذه اللذة الفنية العليا التى يتركها الأثر الأدبى الممتع فى النفوس . وأخشى أن يكون الأستاذ فريد أبو حديد شديد التأثر بالقرن التاسع عشر وأدبائه ونقاده ، قليل الاحتفال بما طرأ على الأدب والنقد من تطور منذ أواخر القرن الماضى ، وفى هذا القرن ، وبعد الحرب الماضية بنوع خاص . والشيء المهم هو أن الأستاذ يفرض على القصة هذه الشروط . ومعنى هذا أنه يفرض على نفسه هذه الشروط حين يعالج هذا الفن الأدبى .

والأستاذ فريد أبو حديد رجل دقيق جداً ، صارم فى دقته ، لا يحب الانحراف من الطريق التى رسمها لنفسه إلى يمين أو إلى شمال ، وهو لا يظلم الناس حين يطلب إليهم أن يسيروا فى الطريق التى يفرضها على نفسه ، وحين يكره منهم أو يكره لهم أن ينحرفوا عن هذه الطريق إلى يمين أو إلى شمال ، فما ظلمك من سواك بنفسه . ولكن الناس يظلمون أنفسهم ، فينحرفون عن القوانين الأدبية ، ميامنين مرة ومياسرين مرة أخرى ، ومضطربين بين اليمين والشمال مرة ثالثة ؛ لأنهم لا يحسنون الفن أحياناً ، ولأنهم لا يحسنون الخضوع للقوانين الفنية بمقدار ما يحسنون الثورة عليها والتحرر منها أحياناً أخرى . أما الأستاذ فريد أبو حديد فقد وضع قصصاً نشرت وقرأها الناس ، وأخذ نفسه فى هذه القصص بشروطه هذه الأربعة ، فخضع لها خضوعاً تاماً حقاً ، وهو فى ذلك يذكرنا بقانون الوحدات الثلاث الذى فرض على القصة التمثيلية فى وقت ما ، والذى لم يخضع له كورنى فى قصته (السيد) ، فأثار على نفسه الأدباء والنقاد ثورة لا يزال التاريخ الأدبى يردد أصداءها إلى الآن .

وقد قرأت أخيراً القصة التي نشرها الأستاذ فريد أبو حديد والتي عرض علينا فيها حياة زينوبيا ملكة تدمر، وما ألم بها من الأحداث. وأعترف بأني حاولت أن أتأثر بالقانون الصارم الذي فرضه الأستاذ على نفسه وأحكم على القصة من حيث إنها تستوفي أو لا تستوفي هذه الشروط، ومن حيث إنها تستوفيها على وجه ممتاز أو على وجه متوسط، فلم أستطع أن أمضي في هذا النحو من القراءة المقيدة، ولم أستطع أن أكون رأيي على هذا النحو الذي أقل ما يوصف به أنه ضيق شديد الضيق، وأنه أضيق جداً من القصة التي كتبها الأستاذ فريد أبو حديد، وأن التقيد به يوشك أن ينقص علينا ما تقدم القصة إلينا من صور الجمال الفني الممتاز. وما رأيك في أن تجلس إلى مكتبك وتضع أمامك هذه الشروط الأربعة، وتأخذ بعد ذلك في قراءة القصة وتنظر أوضع الأستاذ فيها من القصص والوصف ومن الأشخاص والحوار مقادير معتدلة يلائم بعضها بعضاً أم قصر في هذا اللون وأسرف في ذلك اللون؟

ألست ترى أنك إن صنعت هذا الصنيع إنما تقرأ القصة بعقلك لا بقلبك ولا بذوقك. تقرأها كما يقرأ كتاب في النحو أو في المنطق أو في الحساب، وما هكذا أحب أن أقرأ الأدب، إنما أقرأ الأدب بقلبي وذوقي وبما أتيح لي من طبع يحب الجمال ويطمع إلى مثله العليا. والكاتب المجيد عندي هو الذي لا أكاد أصحبه لحظات حتى يتسلط على نفسي ويشغلني عن التفكير ويصرفني عن التعليل والتحليل والتأويل، ويسيطر علي سيطرة تامة تمكنه من أن يقول لي ما يشاء دون أن أجد من نفسي القوة على أن أعارضه أو أقاومه أو أنكر عليه شيئاً مما يقول، حتى إذا فرغت من قراءة أثره الأدبي واضطررت بحكم هذا الفراغ إلى أن أفارق الكاتب وأشغل عنه وعن أثره وقتاً ما استطعت بعد ذلك أن أعود إلى الأثر الذي بقي في نفسي بعد القراءة، فأفكر فيه وأخضعه للنقد أو التحليل والتعليل.

وأشهد لقد بدأت في قراءة هذه القصة وما كدت أمضي في قراءتها حتى بلغ الأستاذ فريد أبو حديد مني هذه المنزلة، فأنساني نفسي وصرفني عن التفكير والنقد، واضطرني إلى أن أمضي معه وأسمع له وأقبل منه في غير ممانعة أو مقاومة. ماذا أقول؟ بل إن الأستاذ فريد أبو حديد لم ينسني نفسي فحسب. وإنما أنساني شيئاً ليس من السهل أن ينسى عادة. أنساني الانفلونزا التي انتهزت فرصتها لأقرأ هذه القصة. ومن يدري؟ لعل قصته كانت دواء لي من هذه العلة الطارئة التي لا تكاد تلم بالمريض حتى تثقل عليه وتضايقه ألماً، وقد ألمت بي هذه العلة وكنت أنتظر أن تثقل علي وأن تضايقني كما تثقل على الناس وتضايقهم؟ ولكني شغلت عنها بهذه القصة يوماً وبعض يوم، ولما فرغت منها لاحظت أن العلة لم تثقل علي وأن الحرارة لم تسرف في الارتفاع، وأن الطبيب لم يشتد في التضييق. أليس من الجائز بل من الراجح أن قصة الأستاذ فريد أبو حديد قد رفعتني من هذا الطور من أطوار الحياة العادية إلى طور آخر ممتاز أشاع في نفسي قوة ونشاطاً، ومكنني من أن أقاوم العلة بدل أن أقاوم القصة، وجعل مقاومتي لهذه العلة شيئاً لاشعورياً، وهو فيما يقال أحسن أنواع المقاومة؟ مهما يكن من شيء فقد شغلتني قصة الأستاذ فريد أبو حديد عن نفسي وعن علتي، وشغلتني بالطبع عن شروطه هذه الأربعة، فلم أفكر في قصص ولا في وصف ولا في أشخاص ولا في حوار، وإنما رأيت نفساً عذبة تتحدث إلي حديثاً عذباً، فأغرقت في الاستماع لهذا الحديث، وأغرقت في الاستمتاع بعذوبة هذه النفس، ووجدت في هذا الإغراق هذه اللذة الممتازة التي أجدها حين أقرأ الآثار الأدبية الرفيعة.

وأعود الآن وقد مضى وقت غير قصير على قراءتي لهذه القصة، أعود إلى هذه اللذة الممتازة لأحللها وألتمس

مصادرها ، فأعترف مرة أخرى بأنى لا أستطيع أن أرد هذه اللذة إلى شرط من هذه الشروط الأربعة أو إلى عنصر من هذه العناصر الأربعة ، إن صح هذا التعبير ؛ وإنما أردها إلى أشياء ثلاثة هى فيما أعتقد مصدر ما فى هذه القصة من جمال :

الأول أن فى القصة روحاً من البطولة يشيع فيها منذ الصفحات الأولى ، ثم يزداد اتساعاً وانتشاراً حتى يملأ عليك الجو كله ، وإذا أنت تعيش فى بيئة يمتاز أهلها من الناس الذين تعيش معهم ومن الناس الذين تألفهم حين تفكر فى الناس . وأنت تجد فى عشرة هؤلاء الممتازين امتيازاً لنفسك وراحة من حياتك اليومية ورضى بالقرب من المثل العليا ساعات من ليل أو ساعات من نهار . فكل الذين يحيون فى هذه القصة إلا أقلهم ممتازون فى سيرتهم ممتازون فى تفكيرهم ممتازون فى تقديرهم للأشياء وحكمهم عليها . والحياة معهم تنصف نفسك الطامحة من هذه الحياة اليومية السخيفة التى نحياها مفكرين فى صغائر الأشياء ما كفين عليها غارقين فيها إلى الأذقان أو إلى الآذان .

الشىء الثانى أن هؤلاء الأبطال الممتازين لا يمتازون بعنف ولا يرتفعون إلى أجواء بعيدة جداً تقصر هممنا وطبائعنا عن الارتفاع إليها ، ولكنهم يعيشون فى أجواء ترتفع ارتفاعاً هادئاً ، ويمتازون امتيازاً رفيقاً يخيل إلينا لقربه وسهولته أننا نستطيع أن نشاركهم فيه ، فيشعرنا ذلك بأن لنا حظاً من قدرة على الامتياز ، ويكبرنا ذلك فى أنفسنا . وعواطف هؤلاء الأبطال المعتدلين تعرض علينا عرضاً هيناً واضحاً بريئاً من الغلو ، فنرى فيها كثيراً من عواطفنا وكثيراً من أهوائنا وكثيراً من نقائصنا وكثيراً من هذه الفضائل التى نظن أننا نستطيع أن نصل إليها إن أتيحت لنا الفرص ، ولكن الفرص لا تتاح لأن الحياة اليومية تحول بيننا وبينها .

وكذلك نرى فى هذه القصة مرآة لذات نفوسنا ، وليس قليلا أن نرى نفسك فى مرآة تصور الأبطال الممتازين .

والشىء الثالث هو هذه العذوبة التى تمتاز بها نفس الأستاذ فريد أبو حديد والتى حدثتك عنها آنفا ، والتى تفيض على ما حولها فتشيع فى القصة وتحبب إليك ألفاظها على ما قد يكون فى بعضها من ضعف ، وتحبب إليك معانيها على ما قد يكون فى بعضها من سذاجة ، وتحبب إليك صورها على ما قد يكون فى بعض ألوانها من شحوب ؛ وفى هذه العذوبة كما قلت آنفا شىء من الصرامة والحزم يزيدها إلى نفسك حبا ويزينها فى قلبك ، وقد يثير على ثغرك وفى وجهك شيئاً من الابتسام ، يصور حبك للكاتب وإشفاقك عليه من نفسه هذه التى تفرض عليه ألوانا من الشدة فى التفكير والتصور ، لعله يستطيع أن يخفف من بعضها .

هذه هى الخصال الأولى التى أرد إليها ما وجدت من لذة حين قرأت هذه القصة الرائعة .

ولست أخفى على الأستاذ فريد أبو حديد أنى لم أحفل مطلقا بأن تكون زينوبيا هى الزباء أولا تكون ؟ ولم أحفل مطلقا بأن تكون زينوبيا من نسل كليوباترة أولا تكون ؟ ولم أكد أحفل بما يكون أولا يكون من الدقة التاريخية فى تصوير الأشخاص ورواية الحوادث . فكل هذا من عمل العقل ، وما أكثر الكتب التى تعمل عقولنا فى قراءتها ؛ وما الذى يعنينى أن يقيد الأستاذ فريد أبو حديد نفسه بهذا القيد أو ذاك من قيود البحث ، وأن تتفق مع هذا الرأى أو ذاك من آراء المؤرخين ، وأنا لا أقرأ قصته لأتعلم منها البحث أو لألتمس فيها التاريخ ، وإنما أنا أفزع إلى قصته من البحث والتاريخ ؟ وما الذى يعنينى أن يقيد الأستاذ فريد أبو حديد نفسه بما شاءت له صرامته الخلقية والفنية من القيود ما دمت أنا أستطيع أن أقرأ قصته حراً ، وأن أجد فى حريتى هذه من اللذة أكثر مما وجد المؤلف من اللذة فى القيود التى فرضها على نفسه ؟

هناك خصلة أخرى حببت إلى القصة ، وأظن أن الذين يشاركونني في إكبار هذه الخصلة ليسوا كثيرين ، ولكن منهم الأستاذ فريد أبو حديد على الأقل . وهي أن القصة مزاج رائع حقاً من الحياة العربية الخالصة ومن الحياة اليونانية الرومانية الخالصة أيضاً . ثم هي تصوير رائع لهذا المثل الأعلى الذي أطمح إليه دائماً من التقاء الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، وتكوين هؤلاء الناس الذين يستطيعون أن يقرأوا أفلاطون وهوميروس وسيشرون وفرجيل وامرىء القيس والجاحظ ، دون أن يجدوا في أنفسهم تناقضاً أو تباعداً أو اضطراباً أو نبواً . هذه الخصلة نادرة فيما يكتب من القصص ، بل فيما ننتجه من الأدب ؛ وقد وفق فيها الأستاذ فريد أبو حديد توفيقاً نادراً حقاً ، مع أنه لم يتعمق دراسة الأدب اليوناني واللاتيني كما تعمق دراسة الأدب العربي ، فكيف به لو فعل ؟

وبعد فهل يأذن لي الأستاذ في أن أعبث عبثاً خفيفاً ببعض أشخاص قصته ؟ فقد خيل إلى أن زنوبيا تسرف جداً في التنهد وتتنفس كثيراً وتتعمق أنفاسها أكثر مما ينبغي ، وقد هممت بأن أحصى تنهدات الملكة فوجدتها أكثر مما تطيق القصة ؛ ويظهر أن الملكة كانت تعدى غيرها بتنهداتها وأنفاسها العميقة . فقد كان أستاذها يتنهد كما كانت لاميس تتنهد أيضاً ، وحتى أذينة البطل لم يبرأ من تنفسات عميقة . ويخيل إلى أيضاً أن الملكة لم تكن تملك مكتبة غنية ، وإنما كانت كتبها لا تكاد تتجاوز أفلاطون وهوميروس ، بل لم يسم لنا كتاب من كتب أفلاطون فيما أذكر ، فأما هوميروس فلم يكن عند الملكة منه إلا الإلياذة ، ومع ذلك ففي أوذيسة ما كان يستطيع أن يلائم ذوق الملكة ويسليها عن كثير من الخطوب . والمكتبة اليونانية أغنى جداً من هذا . وكانت الملكة تستطيع أن تقرأ للشعراء الغنائيين والممثلين وللفلاسفة الأفلاطونيين والمشائين والرواقيين . ثم يخيل إلى أن الملكة لم تكن تحسن اللاتينية ، فهي لا تقرأ كتاباً لاتينياً مع أن أستاذها روماني . ولست أدرى أكان من الممكن أن تؤخذ الكتب وتقرأ وتطوى ويلهى بها على نحو ما نفعل بكتبنا الآن . فقد يخيل إلى أن شكل الكتب في ذلك الوقت لم يكن يسمح بشيء من هذا وأنها كانت أضخم وأثقل من أن تتصرف فيها كما تتصرف في المجلات التي تتناولها أيدينا الآن في كثير من الخفة والرشاقة ، لأنها بحكم أشكالها وبحكم الورق والطبع خفيفة رشيقة .

وأخيراً يخيل إلى أن زنوبيا معاصرة لنا في ذوقها وميولها وأهوائها ، بل في قوتها وضعفها أيضاً . وإذا لم يكن بد من أن أمضي قليلاً في هذا العبث فإني أخشى أن يكون هناك تشابه بين زنوبيا ملكة تدمر وكرستين ملكة السويد التي تتحدث عنها القصص وتعرضها أفلام السينما . وقد أعجبتني شخصية الأستاذ وهذا الحب الذي ملك حياته ، وهذه العواطف التي كانت تعطف عليها الملكة ، وذكرتني بقصة ما أظن أن الأستاذ فريد أبو حديد قد قرأها أو ظهر عليها ؛ فالأمر لا يعدو أن يكون توارداً للخواطر مصدره أن الأستاذ فريد يفكر كما يفكر العصر الذي يعيش فيه . وهذه القصة هي قصة « الملوك في المنفى » للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه ، فيها ملكة يحبها مربي ابنها كما يحب لونجين زنوبيا ، وتعطف هي على المربي كما تعطف زنوبيا على لونجين عطفاً يوشك أن يكون حباً .

وبعد فإني أشكر أجل الشكر للأستاذ فريد أبو حديد هذه الساعات الحلوة التي أنفقتها معه ومع أبطاله . ولو أن لي من الأمر شيئاً لأتحت هذه الساعات لشبابنا في المدارس . فأي شيء أنفع لعقول الشباب وقلوبهم وأخلاقهم من قصة كهذه القصة الرائعة ؟

طه حسين

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

اليابان

يذهب اليابانيون بتاريخهم إلى القرن السابع قبل الميلاد. ويسمون أول أمبراطور لهم «جيمو». ويدعون أنه ولي الحكم في اليوم الحادي عشر من فبراير عام ٦٦٠ قبل ميلاد المسيح. وألحوا في هذه الدعوى، وأرادوا أن يزيدوها ثبوتاً في عقيدة الناس لإيقاظ وطنيتهم، فأبرموا دستورهم الجديد عام ١٨٨٩ في يوم تلك الذكرى، يوم الحادي عشر من فبراير، وجعلوا من هذا اليوم عيداً يحتفلون به كلما دار العام. وجاءوا إلى بقعة في سهول اليابان الوسطى زعموا أنها المكان الذي دُفن فيه ملكهم الأول، فأقاموا له عليها قبراً يحج له الناس. وكانت إقامة هذا القبر عام ١٨٩٠.

أما قبل هذا التاريخ العتيق، فيعتقد اليابانيون أنهم سلالة الآلهة، وأن البيت الأمبراطوري أصل هذه السلالات. ومن أجل هذا كان احترامهم الشديد، بل عبادتهم، لملوكهم، لأنهم أرباب، أو سلالة أرباب، جاءت من السماء.

أما بعد هذا التاريخ العتيق، فتحكي كتبهم القديمة من ملوك تتابعت، وأحداث وقعت، هي أشبه شيء بالأقاصيص. ولكن مع إعوازها السند التاريخي، فهي ولا شك تلقي بصيص ضعيف على هذا العهد البعيد. ففي هذا العهد المبهم كان الأمبراطور يحتجز لنفسه من النساء العدد الذي يشاء. وقد ذكروا عن أحد أباطرتهم أنه خلّف ثمانين ولداً، أشخصهم إلى المقاطعات، فخص كلا بمقاطعة ولاه إياها. ولعل هذا الإكثار من النساء فالإكثار من الأبناء لدى الأباطرة والأمراء، وهم جميعاً من نسل الملوك، ثم تفريقهم في البلاد هذا التفريق، هو الذي ثبّت في قلوب الأمة اعتزازها بالعصبية، وعبرتها على الأصلاب إلى عصرنا الحديث الحاضر، لأنها أصلاب ملوك، والملوك من أصلاب الآلهة.

وعلى الرغم من إكثار هؤلاء السادة من التسرّي، نجد في هذا التاريخ المبهم أخبار النساء تتربع عرش اليابان القديم. ونسمع عنهن أقاصيص البطولة تُروَى كما تُروى عن الزباء عند العرب.

ويذكرون في قصة هذا الماضي أن الأمبراطور «سينين» أنشأ في الأرض ثمانمائة بركة لتجميع الماء، وأجرى منها الجداول إلى الحقول. ويذكرون أنه لصعوبة المواصلات في الأرض صدر الأمر في العام الحادي والثمانين قبل الميلاد بإنشاء السفن لتجري بين المدن على الساحل فتربط بينهم من طريق الماء ما عزّ ربطه على الأرض.



جانب من حديقة القصر الأمبراطوري في العاصمة القديمة كيوتو. وترى الماء بحيرات في أرض البستان

ويذكرون أنه كان إذا مات ملك أو أمير قُبر معه رجاله الأخصاء وهم أحياء. ثم استبدل هذا برجال من طين وضعوا في القبر مكان الأحياء من الرجال. ويحكون في هذا التاريخ المبهم البعيد عن حروب في الجزر نفسها،

طاردوا فيهـا « برابرة الشمال » — يعنون الأينو سكانَ الجزر الأولين . ويحكون من حروب عبْر البحر على القارة نفسها غزوا فيها كوريّة فقتَلوا فيها و قُتّلوا طوال السنين . وأخرجوا من أخبار هذه الحروب للذرارى أقاصيصَ من بطولة آبائهم تُحكي بالزهو والفخر على مرّ القرون .

أرسل امبراطور ابنه من جزيرة كيوشو ، وهي سفلى الجزر ، عبْر البوغاز إلى الجزيرة الكبرى ليطارد « وحوش الشمال » ، فما وضع قدمه على الشاطئ ، حتى أثخنهم إثخانا ، وشرّدهم شرقا وغربا وشمالا فى وقائع رائعة عزّت أن يفوز بمجدها شابٌ لم يتعدّ بعدُ الثلاثين . فلما أوغل البطل الشاب فى البلاد إيغالا ، وأبعد من مواقعه الأولى إبعادا ، جاءه الحظ العاثر وهو فى أوج مجده ، فمرض ومات حتف أنفه ، وقد كان يرجو إن كان لابد من الموت أن يموت بالسيف . وبينا هو فى نزعه الأخير ، كان كل الذى عزّ عليه أنه لن يحمل إلى أبيه الامبراطور خبر نصره . فكتب إليه يقول : « وحدى أرقد على خضرة هذا الريف الوحشى ، وبيدى أوسّد رأسى على ثراه الندىّ ، وليس إلى جانبي لسان ينسكب كلمة واحدة للوداع فى أذنى . ولكن ما أساىّ على ضياع هذا الجسم وهو من تراب ! إنما أساىّ أنى لا أستطيع أن ألقاك قبل الممات » .

ثم يتعاقب الأباطرة على حكم هذه الجزر ، فيكون منهم الخيّرون ويكون منهم أشرار . ومن أخير خيارهم فى تلك الحقبة المبهمة من التاريخ امبراطور اسمه « نِنْتُو كُو » حكم فى ختام القرن الثالث وأوائل الرابع بعد الميلاد . ولكنه لما جاءه الحكم أول الأمر رفضه ، وفضّل عليه نفسه أخاه . ولكن أخاه رفضه كذلك . وبقى العرش خاليا ثلاث سنين . فلما لم يجدوا للأزمة مخرجا ، تطوّع أخوه بإيجاد هذا المخرج ، فانتحر . فلما خلا الجوّ ولم يكن لابدّ من الحكم حمل أثقاله اضطرارا ، واتخذ له عاصمة هى أوزاكا ، أو ما كانت أوزاكا فى تلك الأيام . وتوجه الامبراطور الجديد إلى برج عالٍ فى قلعة من القلاع تُشرف على المدينة ، وأخذ ينظر إلى بيوت الناس . فلم يجد الدخان ينبعث منها . فاستنتج أن الناس ليس عندهم أرز يطبخونه ، ونزل عن البرج كئيبا حزينا . ومن يومها ألغى السخرة ورفع الحيف عن النـاس . وبإلغاء السخرة وانصراف الناس إلى أعمالهم لم يجد هو نفسه من العمال من يحفظ قصره من التلف ، ويُصلح من حوائطه ما فسد ، ويُبقى عليها بهاءها ورياضها . ولكنه خرج إلى المدينة فوجد السماء سوداء من دخان المطابخ ، فتعزّى بهذا أى عزاء . أما هو ، فقد سبّح به الناس . وأما ذكره فقد سارت به الركبان .



فلة يابانية حديثة

وينتهى القرن الرابع من الميلاد ويدخل الخامس فيأخذ التاريخ المائع يتجمد قليلا . ويأخذ الامبراطور يظهر على رأس هذه الأمة حاكما مطلقا ، آباؤه مقدسون ، ووزراؤه مقدسون كذلك . يعينه فى الحكم دائما أسرتان كبيرتان ، إحداهما من نسل الآلهة نسل الأباطرة ، والأخرى من نسل الآدميين . لأحداهما إدارة الدولة والأخرى إدارة الجيش . وإلى جانب هؤلاء أسر كبيرة عديدة عريقة الأنساب متفرقة فى بقاع الدولة الواسعة ، فى كل بقعـة أسرة ، لا تحكمها فحسب ، بل هى تملكها أيضا .

وفي هذا القرن الخامس تبدأ الصلات تتوثق بين كورية والصين من جهة وبين اليابان ، والأوليان أعرق مدنية ، فتبدأ اليابان تأخذ منهما « جيرَق الحياة » . ولم تكن تأخذ منهما أخذ المغلوب من الغالب . فقد كان لها على الشاطئ الكوري معسكر ، وكان على الرغم من هذا بينها وبين الكوريين ودٌّ وصداقة .

وما انتصف القرن السادس بعد الميلاد حتى كان عدد المهاجرين من الصين إلى اليابان (٧٠٥٣ بيت) ، وكان منهم « رئيس الخزانة » . وفي هذه الحقبة أخذ اليابانيون عن ضيوفهم كل ما استطاعوا أخذه من مدنية القارة . فأخذوا عنهم شق الترع ، ورصف الطرق ، وتخطيط المدن ، وتربية الشرانق ، ونسج الحرير ، وكل ما وجدوا عندهم من صناعات . وأخذوها كلها وبحذافيرها دون تردد أو مناقشة . وإدارةُ الحكم فيهم رسموها لأنفسهم كما رسمها أهل الصين . وقواعد الآداب عندهم من رسمية وأهلية نقحوها حتى صارت كآداب أهل الصين . والملابس فصّلوها على طراز أهل الصين . وخُلِق فيهم أدبٌ جديد وفن جديد هو وليد أدب الصين وفن الصين . واتُّخذ الذوق الصيني مرجعا لا يُناقش ، وحجة أخيرة تدفض كل الحجج .

ونقل اليابانيون عن الصينيين نقلا ، ونقلوا بالجملة . فذكَّر هذا النقل المؤرخين بنقل اليابان الأخير الأحدث عن أوربا ، وقد كان بالجملة أيضاً . أما خصماؤهم من هؤلاء المؤرخين فسموهم من أجل هذا أمة النقالين تحقيراً . وأما نصراؤهم منهم فذكّروا الخصماء بالذي كان من نقل أوربا المدنية الأغريقية في عصر النهضة ، وقد كان نقلا جامعا شاملا ، وبالذي كان بعد ذلك من التزام أوربا لشكل ما نقلته ، والتزام حرفيته قروناً عدة دون تغيير أو تبديل . ونبّهوا في مقابلة ذلك إلى أن اليابان لم تلبث بعد نقلها ما نقلت في هذا الزمن القديم ، أن هضمته وخلقت منه خلقاً جديدا . واستشهدوا بالفن ، فقد دخل اليابان صينيا ، ولكنه لم يلبث فيها قرنين اثنين حتى تأقلم تأقلما باعد بينه وبين أصوله ، فكان فنا يابانيا صرفاً بزّ مصادره الأولى روعة وإبداعا .

وبانتقال مدنية الصين في تلك الحقبة إلى اليابان انتقل أيضاً دينها .

فحول منتصف القرن السادس جاءت بعثة من القارة إلى الجزر تستعدي اليابان في حروب لها ، وحملت البعثة معها هدايا : تمثالا لبوذا وكتبا مقدسة . وحار الامبراطور في أمر هذه الهدايا فلم يدر ماذا يصنع بها .



في الطريق إلى المعبد

وقد كان لليابان عند ذلك دينها ، وقد أسموه بالشنتو . وهو دين غاية في البساطة ، يحدث اليابانيين بخلقهم ، فيقول إن أول إله حلّ اليابان كان إلهاً ذكرا ، وإنه من عينه اليمنى خلق إلهة أنثى صارت فيما بعد إلهة الشمس ، ومن عينه اليسرى خلق إلهاً ذكرا صار إله القمر ، ومن طرف أنفه

أخرج الشيطان . ثم اتفق أن كان لإلهة الشمس حفيد تولى حكم الأرض ، فكان أول امبراطور حكم اليابان . ومن نسله جاء أباطرة اليابان فى تسلسل لم ينقطع أبداً إلى اليوم .

وليس لهذا الدين رأى كالأديان فيما يكون عليه حال الناس بعد الموت ، فهو لا يقول بجنة أو نار ، ولا بنعيم أو عذاب . ولكنه يقول بخلوص الروح من الجسم ، فإذا هى خلصت صار لها القدرة على النفع تجلبه للأحياء ، وعلى الضر تنزله بهم . ومن أجل هذا كادت تنحصر عبادة الشنتو فى استرحام الآلهة واستعطاف أرواح الآباء لترحمهم على هذه الأرض ، فتجود لهم الزرع ، وتملأ الضرع ، وتحفظ السلام فى البيت والأمن فى الطريق .

وليس لهذا الدين رأى فى الأخلاق ، وليس له قواعد المعاملة . ولكنه مع هذا يدعو إلى التطهّر بالماء بعد الخطيئة ، وهكذا يفعل الشنتيون ، وهم يعتدون الخطيئة بكل قال لديهم نجس .

وهم لا يعرفون الأصنام . ومعابدهم من الخشب الأبيض ، فلا يجوز عليها الدهان بالألوان ، ولا الزخرف كائناً ما كان .

حار الامبراطور فيما يصنع بتلك الهدايا : بوذا والكتب المقدسة .

فتقدم إلى البلاط ساجو ، وكان كبير الأمراء ، وقال لسيده : كيف تعبد الدنيا كلها بوذا وتبقى اليابان بمعزل من عبادته ؟ وجاء النصحاء والأمراء يعترضون ويحتجون . وحسم الامبراطور الخصام بأن أذن لساجو ولأسرته أن يعتنقوا دين بوذا على سبيل التجربة ففعلوا .

أحمد زكى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ عابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٧ — الثلاثاء ٢٣ من صفر سنة ١٣٦١ — ١٠ من مارس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العــــــدد

على أبواب الهنـــــد

حينما بلغت الدولة البريطانية ذروتها العليا ، واتسعت أقطارها حتى عمت جميع البحار والقارات ، كان من الواضح الجلى أن أجل شىء تشتمل عليه تلك المجموعة الهائلة من الممالك والدمنيون ومن الحمايات والمستعمرات ومناطق النفوذ ، هو من غير شك بلاد الهند ، ذلك القطر الواسع الفسيح ، المزدحم بمئات الملايين من السكان ، الذى يوشك أن يكون عالما صغيرا وسط العالم الكبير ، قطر قد امتلأ بالأجناس والديانات واللغات ، وتنوعت فيه المذاهب واللهجات ، وتعددت فيه الممالك والدول ، منها الصغير الضئيل ، وفيها الضخم العظيم .

وكثير من الناس لا يعلمون أن ما يقرب من ثلثى مساحة الهند عبارة عن دول هندية صغيرة يحكمها أمير وطنى ، يبلغ رعاياه بضعة ملايين ، وأحيانا بضعة عشر مليونا من السكان . وإلى جانب هذه الامارات الوطنية أقطار فسيحة تخضع خضوعا مباشراً للحكومة صاحبة السيادة .

ومن الخطأ أن يقال إن الهند مستعمرة بريطانية ، وإنما هى دولة فى داخل الدولة . ويوشك هــذا الجزء أن لا يقل خطراً من الكل الذى يحتويه . لهذا نرى حاكم الهند يدعى نائب الملك . وهو أجل وأرفع منصب فى الامبراطورية كلها . ويشرف على شئون الهند فى لندن وزير من وزراء المرتبة الأولى .

فالهند إذاً عالم عظيم يخضع لحكم امبراطور قضت الظروف أن يكون مقره الدائم فى لندن ، فأناب عنه فى حكم الهند نائب ملك . أو بالأحرى نائب امبراطور . واتخذ من خيرة رجاله وزيراً يكون حلقة اتصال بينه وبين نائبه من جهة ، وينظم علاقات الهند بالحكومة البريطانية من جهة أخرى .

لقد كانت الهند أول الأمر خاضعة لحكم شركة من الشركات التجارية. ثم خلفتها الدولة البريطانية فى الحكم. وقد قيل فى نقد الحكم البريطانى للهند الشئ الكثير، ولا شك فى أن هنالك محلا للوم غير قليل. ولكن من الانصاف أن نلاحظ أن الحكم فى الهند قد تحسن بتحسن الحكم فى بريطانيا نفسها، وحينما ارتفعت مقاييس العدل والانصاف فى الدولة كلما كان للهند من ذلك نصيب وافر. وليس هذا بمقام نقد الحكم فى الهند. وإنما غرضنا هنا إظهار ما للهند من الخطر والمكانة بين الدول.

لقد أثرت الهند فى التاريخ الحديث تأثيراً بليغا؛ فلقد كانت الهند السبب المباشر فى الكشف عن العالم الجديد، ورفع غياهب الظلام عن قارتى أمريكا، وعن الشرق الأقصى، والمحيط الهندى والهادى. وما اشتمل عليه من الجزر والقارات.

ومنذ تولى ملك الانجليز منصب امبراطور الهند، واضطلع رجاله بأعباء الحكم فيها، لم تلبث الهند أن أصبحت قوة هائلة فى توجيه السياسة البريطانية. فمن الحقائق الجغرافية القاسية أن يكون مقر امبراطور الهند فى بريطانيا، وبينه وبين الدولة التى يرعاها آلاف الأميال من البحار، ومساحات هائلة من اليابس. ولم يكن بد من أجل الاضطلاع بحكم الهند على الوجه الأكمل أن يكون الطريق بين الدولتين مأموناً، وأن يستبعد كل خطر يهدد الهند، من قريب أو بعيد، وأن تتخذ لذلك احتياطات واسعة النطاق، وأن يؤثر هذا كله فى سياسة بريطانيا، وبالتالى فى سياسة العالم، وفى التاريخ الحديث أثرا بليغا.

فمن أجل الهند سعت بريطانيا لتأمين الطريق المحيطى حول جنوب إفريقية، والطريق البحرى المار بالبحر المتوسط، وقناة السويس، والبحر الأحمر، وبوغاز باب المندب. ومن أجل الهند، حدثت الأحداث الخطيرة المرتبطة بجبل طارق ومالطة والسويس وعدن وجيبوتى. ومن أجل الهند تمقر التفاهم بين بريطانيا وروسيا القيصرية، التى كانت تسعى أبداً للتوسع نحو الجنوب فى أوربا وآسيا. ومن أجل الهند أوشك المحيط الهندى أن يكون بحيرة بريطانية، وبذلت جهود جبارة لكى تظل الدول المنافسة بعيدة عن سواحله. ومن أجل حسن الدفاع عن الهند قامت دولة الأفغان لكى تكون بمثابة حاجز أمام روسيا القيصرية، إذا حاولت التوسع نحو الهند. وحينما أبدت ألمانيا فى السنين الأولى من القرن الحالى اهتماما خطيرا بالعراق وبسواحل بحر العجم، اتخذت السياسة البريطانية موقف الحذر، ثم العداء نحو هذا التوسع الألمانى، ونحو ألمانيا نفسها.

وقد نجحت سياسة بريطانيا فى إبعاد الخطر عن الهند نجاحاً يوشك أن يكون تاما. فلم تصبح فى العالم قوة يستطيع العقل أن يتصور تهديدها للهند من قريب أو بعيد. فقد أصبحت روسيا فى شغل بثورتها وبتطورها الاقتصادى، وبالخطر الألمانى الذى يهددها. وألمانيا بعيدة عن الهند كل البعد، وليس لها مستعمرات، وأسطولها صغير قليل الخطر. وفرنسا صديقة حميمة مأمونة الجانب. وإيطاليا خصم لا يعبأ به. واليابان لا تطمع فى أكثر من التوسع فى الصين، وبينها وبين الهند آلاف من الأميال، وطريقها إلى الهند تحرسه الجزر والمضايق المنيعة والقواعد الحربية. إذاً فالهند فى مأمن من كل خطر يتصوره العقل . . . ومن العبث أن تبنى سياسة الدولة على أوهام تصور أخطارا خيالية، بعيدة الاحتمال، فترهق الدولة بتكاليف دفاع واسع النطاق. وأولى بهذه الأموال أن تنفق فى التعليم والترقيه عن الشعوب، وتحسين الاقتصاد القومى . . . والهند فوق هذا محاطة بسياج من الجبال المنيعة، وليس هنالك طريق برى يؤدى إليها سوى ممر خيبر وبلوخستان من جهة الغرب، وبرما من الشرق؛ وليس وراء هذين الطريقين عدو يحسب له أدنى حساب . . . أما الطريق

البحرى فإن مفاتيحه فى يد بريطانيا ، التى لم ينازع سيادتها للبحار منازع .

يقول شيكسبير : إن أكبر خطر على المرء إحساسه بالأمن ! . . . واليوم يحـدث ما كنا نعده بالأمس مستحيلا ، وقد أصبح عدو غريب مريب واقفاً على أبواب الهند ، يهدد بالحرب قطرا لم يعرف الحرب منذ أجيال . فكيف حدث كل هذا ؟

من سخريات المقادير أن تكون هذه الضربة قد جاءت على يد أعز أصدقاء بريطانيا ، وأكبر حلفائها فرنسا ، التى سمحت لليابان بأن تحتل الهند الصينية .

وحسبك بهذا الاسم نفسه دلالة على ما لهذا الاقليم من الخطر بالنسبة إلى الهند والصين معاً . وقد سلمت فرنسا لليابان الهند الصينية ، فأصبح لليابان قطر تتصرف فى أمره كما تشاء ، قطر شديد القرب من برما الملاصقة للهند . واستطاعت اليابان — فى صمت وسكون كعادتها — أن تحشد فى هذا القطر قوات هائلة ، وأن تمدها بالعدة اللازمة لغزو بعيد المدى واسع النطاق .

وقد أخذت اليابان فى تنفيذ خطتها بدقة شديدة ، ومراعاة لتفاصيل ضئيلة تبعث الدهشة ، وتدل دلالة واضحة على أن الغزو اليابانى قد رسمت خطته منذ سنين طويلة ، ودرس دراسة عميقة فى جميع نواحيه ، وظل سرا مكتوما فى أثناء هذه الدراسة كلها . وقد برعت اليابان فى إخفاء ما أعدت من قوة ، حتى ليكون من الحق اليوم أن يتكهن إنسان عما لديها من السفن ، مع أن السفن من الأشياء التى لا يسهل إخفاؤها . ولكن اليابان استطاعت التلاعب بالأسماء ، وبتحويل سفن الصيد والبواخر التجارية ، التى روعى فى بنائها أن يكون من السهل تحويلها من أدوات سلم إلى أدوات حرب . بهذه الوسائل وغيرها برزت اليابان فجأة بقوة بحرية فوق ما كان يقدره أبعد الناس تشاؤما ، واستطاعت كذلك فى بدء الحرب بمزيج من المهارة والغدر أن تضعف قوة أعدائها البحرية . وأن يصبح لها التفوق المطلق فى النصف الغربى من المحيط الهادى . وأن ترسل قوافل السفن واحدة بعد واحدة للغزو والفتح ، حتى تسنى لها فى ثلاثة أشهر أن تبسط نفوذها على جميع المراكز الهامة فى تلك المنطقة التى تبلغ بضعة ملايين من الأميال المربعة .

ولقد كان كثير من المتفائلين يظنون أن اليابان منهمكة فى حربها مع الصين بما يشغلها عن التفكير فى فتح جديد وغزو جديد . وأن خزائنها مرهقة بتكاليف حرب دامت خمس سنوات ، فمن الحق أن تضطلع بعبء يزيدها إرهاقا ؟ ولكن حزب الحرب رأى غير هـذا . وقرر أن حرب الصين هى فى المحل الثانى ، وأن العدو الحقيقى هو أمريكا وبريطانيا التى تمد الصين بأدوات الحرب ، وأن « المسألة الصينية » كما يسميها اليابانيون لا تلبث أن تحل إذا انتصرت اليابان فى هذه المجازفة الواسعة .

وقد أغرى اليابان على هذه الخطة الجريئة بسط نفوذها على الهند الصينية ، وقد مكنها هذا من أن تستولى بسرعة على سيام ، وأن تنقض من سيام على برما ، وأن تصل بسرعة إلى سواحل المحيط الهندى . ثم أخذت تتقدم نحو الشمال فى برما ، حتى أصبحت قواتها محاذية للعاصمة رانجون . وليس بينهما سوى بضعة أنهار لم تلبث أن عبرت أولها وهو نهر سالوين ، ثم عبرت ثانيها وهو نهر بيلين ، ثم نهر سيتانج ونهر بيجو ، وبات رانجون مهددة تهديدا خطرا . وهذا الزحف يتجه من الشرق إلى الغرب ، من مولمين إلى رانجون مخترقا تلك الأنهار . ولكن لا بد لليابان أيضا أن تبعث بجنودها نحو الشمال لكى تحاول الاستيلاء على مندلاى ولاشيو ، وبذلك يتم لها التسلط على الجانب الشرقى من طريق برما ، وهو طريق الاتصال البرى بين الهند والصين . وقد أخذت القوات اليابانية تتجه نحو الشمال تحقيقا لهذه الخطة .

ولئن كان الغرض الأول من الزحف على برما قطع طريق الامداد عن الصين ، فان اليابان لا تستطيع أن

تقف عنده ربما إذا أرادت التوقف ، أو إذا كان من مصلحتها التوقف . فإنها قد زجت بقواتها في طريق لا تستطيع أن تقف عند نقطة منه ، ولا أن تهدأ فيه لحظة ، ولا أن تريح قواتها ردحة من الزمان . لقد أصبحت اليابان على أبواب الهند . وبالرغم من أن بين رانجون وكلكتا ألفاً وخمسمائة من الكيلو مترات ، فإن اليابان مرغمة على المضي ، رغبت ذلك أم لم ترغب .

ومن العبث أن يقال إن اليابان نالت تقدمها هذا كله من غير ثمن . فإن من الواضح أن كل خطوة خطتها قد كلفتها خسائر غير قليلة في الرجال وفيما هو أثمن من الرجال : العتاد . وكانت خسارتها في الطائرات في ميدان برما عظيمة وخسارة أعدائها يسيرة . ولابد للحلفاء الذين لم يعدوا لهذا التهديد عدته ، من أن يتبعوا خطة واحدة لا ثانية لها ، وهي أن يضحوا بالمساحة لكي يكسبوا الزمن ، وأن يقاوموا منسحبين ويحاربوا متراجعين . حتى تكمل عدتهم في الهند ، ويتخذوا أهبتهم لمحاربة عدوهم العنيد على قدم المساواة .

ولقد يقال إن المسافة بين بريطانيا وأمريكا من ناحية وبين الهند من ناحية أخرى هي من البعد والاتساع بحيث لابد من مضي زمن طويل قبل أن تكمل عدة الحلفاء في الهند . وهذا من غير شك صحيح ، ولكن يجب أن نذكر أن في الهند نفسها معامل الصلب ومناجم الفحم ، ومصانع أنشئت وأخرى في دور الإنشاء لإنتاج طائفة من الأسلحة والعدة الحربية . فليست هنالك حاجة لأن يستورد كل شيء من بريطانيا وأمريكا . ويجب ألا ننسى أن على اليابان أيضاً أن تجدد عدتها وأن تستورد من بلادها من أدوات الحرب وآلاتها ما لابد من إضافته حيناً بعد حين . والميدان الهندي شديد البعد عن اليابان وإن كان أقرب إليها منه إلى بريطانيا ، كذلك يجب أن نذكر أن اليابان تعتمد على ما تدخر لا على ما تنتج ، وأننا مهما غلونا في تقدير هذا المدخر ، فليس من المعقول أن نتصور أنه يكفي في حرب حديثة طويلة الأمد . واليابان فقيرة في الصلب وهو عماد الحرب . وإنتاجها أضعف كثيراً من إنتاج الحلفاء ، ولهذا كان عامل الزمن من غير شك في جانبهم وليس في جانبها .

لقد خسرت بريطانيا من قبل في دنكرك كل ما كان لدى جيوشها ، من عتاد حربي . ولم يبق لها سوى قوتها البحرية وقوة جوية لا تكاد تقاس إلى قوة أعدائها . أما قواتها البرية فقد باتت عزلاء لا تستطيع الاضطلاع بحرب . ورغم هذا كله وقفت بريطانيا العزلاء وحدها أمام ألمانيا الهائلة المدججة بالسلاح ، وإيطاليا حليفتها ؛ واستطاعت بريطانيا أن تخرج من تلك المحنة ، وأن تثبت للغارات الجوية العنيفة التي لم تردها إلا صلابة وقوة . . . انتصرت بريطانيا في تلك المحنة بفضل قوة الروح والجلد وليس الخطر الياباني في عام ١٩٤٢ بأشد من الخطر الألماني في عام ١٩٤٠ وإنما الخطر الحقيقي اليوم — كما كان دائماً — أن تضعف النفوس ويخونها الجلد ويضجرها طول الجلاد . أما إذا لقي البريطانيون هذه الهزائم الجديدة بنفس الروح التي قابلوا بها هزيمة دنكرك ، فإن طريق النصر الياباني ليست تلك السبيل المعبدة السهلة التي قد يتوهمها بعض من يبهرهم هذه الانتصارات السريعة .

باتت الهند اليوم ، للمرة الأولى ، موئل الديمقراطية ، التي تستطيع أن تلم فيه شعثها ، وأن تجمع فيه عدتها ، وأن تحشد فيه جندها ، لكي تسترد المفقود ، وترد المتعدين . وبعد شهرين تأخذ الأمطار الغزيرة في السقوط ، وتنتشر الأوحال ، ويتعذر الانتقال . فعسى أن يحدث هذا فترة من الركود تنعم فيها الهند بأشهر من الهدوء النسبي ، وتحاول فيها قوات الديمقراطية أن تستكمل عدتها ، وتتأهب للأشهر التالية . . . ولكن الحرب الهندية إذا سكنت في البر فإنها لن تهدأ في البحر ، فإن الاستيلاء على سنغافورة قد فتح باب المحيط الهندي للسفن اليابانية . وقد يؤدي هذا إلى محاولات ومغامرات جديدة ، ليس من السهل التكهن عنها بشيء . . .

محمد عوض محمد

مولانا جلال الدين الرومى

للدكتور عبد الوهاب عزام

٦ — المثنوى والديوان

ترك جلال الدين أثريه الخالدين على الدهر : المثنوى والديوان . وتنسب إليه رسالة منثورة اسمها «فيه ما فيه» ، ومنها نسخ فى مكتبات استانبول .

فأما المثنوى فمنظومة صوفية فلسفية عظيمة ، تحوى خمسة وعشرين ألفاً وسبعمائة بيت فى ستة أجزاء ، والجزء السابع الذى تشتمل عليه بعض نسخ الكتاب منحول لا يشبه كلام جلال الدين والمؤلف نفسه يقول فى مقدمة الجزء السادس مخاطباً حسام الدين جلبى :

پيشكش مى آرمت أى معنـــوى ،
قسم سادس در تمام مثنـــوى
شش جهت راورده زين شش صحف
كى يطوف حوله من لم يطف

وقد خلت منه النسخ القديمة . وكتب سلطان ولد ابن جلال الدين خاتمة للكتاب عقب الجزء السادس .

وقد سمى الرومى كتابه «المثنوى» ، وهو اسم هذا الضرب من القافية التى تسمى فى العربية المزدوج . سماه هذه التسمية اللفظية كما سمى أبو العلاء كتابه اللزوميات باسم لفظى محض .

وأما تاريخ نظم المثنوى ، فيحدثنا الناظم فى مقدمة الجزء الثانى أن نظم المثنوى تأخر مدة لغياب حسام الدين ، وأنه يستأنف النظم سنة ٦٦٢ . وقد استمر بنظم الأجزاء الخمسة حتى توفى سنة ٦٧٢ . فيكون لكل جزء سنتان ، فاذا قدرنا أن الفترة بين الجزأين الأول والثانى كانت سنتين كما روى ، وأن الجزء الأول نظم فى سنتين ، فقد بدأ الشاعر الصوفى بنظم منظومته الخالدة سنة ٦٥٨ من الهجرة وسنه ٥٤ سنة .

٧ — حسام الدين والمثنوى

يقول جلال الدين فى المقدمة العربية التى صدّر بها الجزء الأول إنه نظم الكتاب بدعوة من صديقه حسام الدين جلبى ، ويكرر هذا فى أول كل جزء ، معلناً أن حسام الدين يوحى إليه نظم الكتاب ، وأنه يسير فيه ببركة هذا الرجل وهمته وتشويقه . ويكفى أن نعرف أنه ترك النظم حين غاب حسام الدين فى الفترة بين الجزأين الأول والثانى . وأنه سمى الكتاب فى فاتحة الجزء السادس «حسامى نامه» (١)

كان جلال يملى ، وحسام الدين يكتب ، وكانا أحياناً يقطعان الليل كله إنشاءً وكتابة . تدل على هذا الروايات وفصول من المثنوى نفسه .

فمكانة حسام الدين من المثنوى تشبه بعض الشبه مكانة شمس الدين التبريزى فى الديوان .

وانظر ماذا يقول فى مقدمة الجزء الأول فى صفة حسام الدين ومكانته عنده :

المثنـــوى

قسم جلال الدين كتابه الذى سماه المثنوى ستة أقسام ، وصدر كل قسم بمقدمة منثورة قصيرة . من هذه المقدمات الست ثلاثٌ عربية هى مقدمات الأجزاء الأول والثالث والرابع . والأخريات فارسية .

فأما مقدمة الجزء الأول ، وهى مقدمة الكتاب كله ، فقد وصف فيها كتابه وبالغ فى الاشادة به ، ثم بين دعوة صديقه حسام الدين إياه إلى نظم الكتاب ، وأشاد بحسام الدين وبيته .

---

(١) گشت أز جـذب چونو علامه
درجهان گردان حسامى نامه

ونثبت هنا شذرات من قوله فى كتابه ، ليتبين اعتداده به ومغالاته فيه . بدأ الكتاب بقوله : « هذا كتاب المثنوى ، وهو أصول أصول أصول الدين فى كشف أسرار الوصول واليقين ، وهو فقه الله الأكبر ، وشرع الله الأزهر ، وبرهان الله الأظهر . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، يشرق إشراقاً أنور من الإصباح ، وهو جنان الجنان ، ذوات العيون والأغصان ، منها عين تسمى عند أبناء هذا السبيل سلسبيلا ، وعند أصحاب المقامات والكرامات خير مقاما وأحسن مقيلا . الأبرار فيه يأكلون ويشربون ، والأحرار منه يفرحون ويطربون ، وهو كنيل مصر شراب للصابرين ، وحسرة على آل فرعون والكافرين ، كما قال الله تعالى : « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين » . وإنه شفاء الصدور ، وجلاء الأحزان ، وكشاف القرآن ، وسعة الأرزاق ، وتطييب الأخلاق ، بأيدى سفرة كرام بررة ، يمنعون بألا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » . « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » . والله يرصده ويرقبه ، وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين . وله ألقاب أخر لقبه الله تعالى ، واقتصرنا على هذا القليل ، والقليل يدل على الكثير ، والجرعة تدل على الغدير ، والحفنة تدل على البيدر الكبير » .

وأما المقدمات الأخر فبعضها وصف للكتاب ، ونصيحة للطلاب . وقد بين فى مقدمة الجزء الثانى الحكمة فى تأخير نظمه بعد الفراغ من الجزء الأول . وفى مقدمة الجزء الخامس بين الفرق بين الشريعة والطريقة والحقيقة .

— ٢ —

والذى يلقى نظرة على فهرس الكتاب يرى ألواناً مختلفة من الآيات والأحاديث والحكم والقصص . وإليكم هذا المثال من فهرس الجزء الأول : تفسير رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر — مجئ رسول الروم إلى عمر — إضافة آدم عليه السلام الزلة إلى نفسه — سؤال سبب ابتلاء الروح — قصة الببغاء والتاجر — تفسير بيت العطار .. الخ — تعظيم السحرة موسى حين رمى العصا — بيان حديث إن سعداً لغيور الخ — مضرة تعظيم الخلق والشهرة — تفسير ما شاء الله كان — قصة الراهب الهرم الذى ذهب يرمى حسبة فى المقابر — حديث إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات .

وفصول الكتاب لا يستقل بعضها من بعض ، بل يؤدى الاستطراد من واحد إلى الآخر ؛ وربما يبدأ القصة ثم يستطرد إلى قصة أخرى ثم يرجع ليكمل الأولى . وهو يأخذ القصة القصيرة يجعلها وسيلة إلى بيان مقاصده ويطول به البيان حتى يدع حوادث القصة ضئيلة خفية بجانب البيان أو الحوار الذى يقتضيه ، ومن أجل هذا يتبين القارئ ضعفاً فى القصص أحياناً أو اختلالا . وأنى يبالى جلال الدين فى استغراقه ووجده وهيامه بإحكام القصص والعناية بصورها ؟

وهو قوى البيان فياض الخيال بارع التصوير ، يوضح المعنى الواحد فى صور مختلفة ، ويسوق المثل إثر المثل ، والمعانى تأتيه أرسالا ، والألفاظ تواتيه انثيالا ، وبحر الرمل يطاوعه رهواً مسترسلا ، حتى ينظم حول القصة الصغيرة القصيرة مئات الأبيات ، فيستخرج منها ، ويصل بها ما يشاء من الآراء والنصائح والعظات والعبر . فقصة الأسد والوحوش والأرنب التى أهلكته من قصص كليلة ودمنة نظم فيها زهاء خمسمائة بيت ، وسنذكر طرفا منها فيما يأتى . وقصة الببغاء والتاجر نظم فيها نحو ثلاثمائة بيت وهى قصة صغيرة الخ

وقلبه مفعم بالعشق الإلهى ، ومستغرق فيه ، فكل شئ يذكره به وكل فكر يؤدى إليه ، فتراه يبتدئ القصة التى

حول مؤتمر تدريس العلوم

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

قال لي صديق شهد مثلي جلسات مؤتمر تدريس العلوم الذي عقد بالقاهرة في الأسبوع الفائت ، واستمع كما استمعتُ إلى ما أُلقي فيه من أبحاث وما أُثير من مناقشات : أترى يتحقق هذا الحلم ، ويأتي اليوم الذي تسودنا فيه العقلية العلمية ، وتعالج مشاكلنا كلها بالأسلوب العلمي ؟

قلت له : أو تشك بعد أن رأيت هذه الجموع التي هرعت إلى دار المؤتمر من كل بقاع مصر ، ومن خارج مصر من بعض الأمم العربية الشقيقة ، وتابعت الحضور والاستماع بشوق وإصغاء ، وساهمت في المناقشة مساهمة دلت على الحرص الوصول إلى نتائج عملية تحقق ما قصد إليه المؤتمر ، أو تشك بعد هذا أن الروح العلمي سرى في نفوس الكثير ، وأن العلم أصبح يشق طريقه في البيئة الشرقية ، ويتبوأ مكانه الصحيح في توجيه أمورنا ، وأننا اجتزنا المرحلة البدائية التي تعالج فيها الأمور بالنزوة والفهقة والخواطر المرتجلة والنزعات العاطفية ؟

أو تشك أننا والأحداث العالمية الكبرى تقع تحت آذاننا وأعيننا ، ناطقة بأثر العلم وتطبيقاته في تغيير وجه الحياة في السلم والحرب ، نقنع بموقف المتفرج ، ونسير سيرنا البطيء المتخلف ، في الوقت الذي تسير فيه قافلة الدنيا سريعة الخطى ، وتثب فيه وثباتها الخاطفة ؟

وهل يغني عنا أدب الماضي وخيالاته في عالم عدته علم الحاضر وثمراته ؟

لا ، أيها الصديق . لقد رأيت مني ما كان ينبض به قلب المؤتمر من لهفة على تدارك ما فات ، وحرص على أن تصطبغ المدرسة بالصبغة العلمية العملية ، وأن تكون قطعة من الحياة العملية الحاضرة ، تحل مشاكلها وتواجه

تحسبها بعيدة كل البعد من العشق والاستغراق والفناء ، فإذا هو ينتهي إلى هذه المعاني ويغوص فيها . ذلكم مراده مهما يقل ، وتلكم قبلته أنى توجه ، وغاية تصريحه وكنايته ، وهو في عبوسه يكنّ السرور به ، وفي صمته يكثر القول فيه ، وإذا نق فانما يغنيه . يقول :

أنا غريق العشق الذي غرق فيه عشق الأولين والآخرين .

إذا ذكرت الشفة فهي شفة البحر ، وإذا قلت لا فانما مرادي إلا .

من السرور جلست عبوسا ، ومن كثرة المقال قعدت صموتا .

بل إذا فكر في القافية وهو مستغرق في النظم نقله هذا الشاغل اللفظي إلى الحبيب المقصود . فبينا نراه في قصة التاجر والببغاء ميضا في بيانه إذا هو يقول :

أفكر في القافية وحبيبي يقول : لا تفكر إلا في رؤيتي . اطمئن أيها المفكر في القافية فأنت قافية السعادة أمامي . ما الحرف فتفكر فيه ؟ إنه الشوك في جدار البستان ؛ إني أمحق القول والحرف والصوت لأناجيك بغير هذه الثلاث . أفشي إليك السر الذي أخفيته عن آدم يا سر العالم الخ

وكل هذا البيان ، وكل هذا القبض ، وهذه الحرقة ، وهذا الوجد يقصر عن تبيين ما في نفسه ، فيشكو هذا القصور بين الحين والحين ، ويقف حائرا صائحا : أين الذي أحسه وراء الصوت والحرف بل وراء الأسماع والأفهام .

مجلس كفتم نه كردم من بيان

ورنه هم أفهام سوزد هم بيان

قد أجملت وإلا احترقت الأفهام واحترق البيان .

(انتهى)

عبد الوهاب عزام

مطالبها ، وتعد الشباب لمستقبلها اللائق بها . وسيحمل من حضر المؤتمر — وجلهم من أساتذة المدارس — رسالة المؤتمر إلى دور التعليم ، ويوشك أن يكون لها صدى قوى فعال .

ستعالج مشاكلنا كلها قريباً بالأسلوب العلمى . ستعالج مشاكل الفقر والبطالة والصحة والزراعة والصناعة والتجارة والتموين — فيما بعد — بالطريقة العلمية القائمة على الاحصاآت وحصر العوامل التى يحتمل أن تكون مؤثرة فيها ، وتحليلها التحليل العلمى الدقيق ، والاهتداء إلى العوامل الفعالة بالتجارب العملية الوافية ، ثم نصل فى كل حالة إلى العلاج الشافى .

سنغزو البيت والسوق والمصنع والحقل والديوان وكل ناحية من نواحى المجتمع بالروح العلمى ، ونختزل الجهود المبددة والقوى الضائعة ، ونوجهها جميعاً التوجيه العلمى الذى يكفل أن تنتج كلها أفضل إنتاج .

إننا سائرون فى الدرب الموصل ، والأمر أمر وقت وصبر ، والغلبة للعلم أخيراً .

وقد أكون مبالغاً فى تفاؤلى ، ولكن نجاح المؤتمر أكبر ما يقوى فى نفسى الأمل ، ويبعث فىّ روح التفاؤل الصادق .

تجلت فى المؤتمر بعض الظواهر الطيبة التى تؤيد هذا الروح أبلغ تأييد .

الظاهرة الأولى — تلاقى بحوث الباحثين جميعاً عند ضرورة تغيير ما نحن عليه فى مدارسنا من بعد عن الحياة الواقعية ، واشتغالنا بغير مسائلها الهامة . ولقد تجلى شعور المؤتمر فى الحماسة الفائقة التى قابل بها الدكتور زكى بك وهو يصور بعد ما بين علم المدرسة وعلم البيت والسوق .

الظاهرة الثانية — إحاطة الباحثين بجميع نواحى مشكلة تدريس العلوم من حيث مناهج الدراسة وطرائقها والنشاط المدرسى الحر الذى يعاونها ، وتحديدهم الوسائل العملية التى تتبع فى كل حالة .

الظاهرة الثالثة — اشتراك العنصر النسائى فى أبحاث المؤتمر اشتراكا دل على أن المرأة التى كانت كما مهملا فى حياتنا الاجتماعية أصبحت عنصراً فعالا يساهم بنصيب قوى فى درس مشاكلنا ، ويعنى بما يعنى به الرجل من الشؤون الجدية فى الحياة .

الظاهرة الرابعة — اهتمام الرأى العام بالمباحث العلمية ، فقد اشترك فى المناقشات بعض من لا يشتغلون بالعلم ، وبدا تأثرهم العظيم بما دار فيه من أبحاث .

الظاهرة الخامسة — روح الاخاء العلمىّ الصادق الذى ألف بين المجتمعين فى أخوة خالصة ، وربط بينهم رباط ود وثيق ، تجلى فى حفلاته الاجتماعية ، ودل على أن وحدة الهدف والاخلاص للعلم والاندماج تحت لوائه الطاهر من أقوى الروابط .

ولو لم يكن المؤتمر من ثمرة إلا هذه لكان مبرراً لضرورة عقد مثل هذا المؤتمر . وكفى بالمؤتمر نجاحاً أن يكون قد مهد الطريق لأمثاله ، وساعد على تكوين رأى عام علمى يؤمن بالغاية السامية التى يسعى لها ، وألقى ضوءاً على بعض جوانب الحياة المدرسية ، وفتح العيون على الاتجاه الصحيح الذى يجب أن تتجه إليه .

وبعد فلرابطة التربية الحديثة المصرية ، ولرئيسها الفاضل الدكتور كردانى بك ، الذى كان له أكبر الفضل فى تنظيم هذا المؤتمر وبلوغه ما بلغه من نجاح أكبر تهانينا .

محمد عبد الواحد معروف

حكم فى القضية نمرة ٦٧٨ عسكرية الفيوم سنة ١٩٤١ ضد عبد الحفيظ قنديل من الفيوم بحبسه شهرين شغل وبتغريمه ١٠٠٠ قرش ليبعه ذرة بسعر يزيد عن المقرر .

صور قضائية :

عندنا وعنـــــدهم

للقاضي الفاضل صاحب الإمضاء

حتى فى تدبير الجرائم ، ووضع خططها ، وتقدير خطواتها ، لنا أسلوبنا ولهم أسلوبهم — نحن المصريين ... وهم الأوربيين ..

فى جمهورنا بساطة ، فكانت فى خطط المجرمين فى بلادنا سذاجة ...

وفى جمهورهم يقظة ، فكانت فى خطط مجرميهم جرأة ، وفطانة ، وحسن سبك ...

* * *

تقدمت إلىّ طفلة فى الثالثة عشرة من عمرها تهمتها أنها اشتركت مع أخرى — مجهولة — فى الاستيلاء على مصوغات من محل صائغ معلوم تربو قيمتها على خمسين جنيهاً ، وكان ذلك بطريق النصب والاحتيال . فلما سألتها عن تهمتها قالت :

— نحن نقيم فى حى سيدنا الحسين ، وخرج والدى إلى محله فى الصباح كعادته . وبقيت وحدى مع أمى فى المنزل . وكانت أمى حاملا فى شهرها التاسع ، فأحست فى ذلك الصباح أنها توشك أن تضع ، فبعثت بى فى طلب (الولادة) التى ستتولى استقبال الطفل ، ولأشترى لها من السوق بعض حاجاتها . فخرجت والنقود فى يدى ، ورأسى محشود بخواطر البهجة والسرور أن سيمنّ الله إلىّ بأخت أو أخ صغير . فلقيتنى فى الطريق سيدة تلتف فى ملاءة ، ولكن عليها سيما اليسار . وكانت جميلة الوجه ، على الرغم من أن لونها كان يميل إلى السمرة ، حتى يحسبها من يراها أنها من أهل أسوان أو ما وراءها . وأنا كما ترانى حضرتك سمراء اللون أيضاً ، ويكاد من يرانى يحسبنى من (البرابرة) . فأقبلت علىّ هذه السيدة وسألتنى من وجهتى بكلام لين بشوش . فأنست إليها ، ورضيت أن أجيبها قائلة : إنى فى طريق إلى (الولادة) أدعوها ، لأن أمى توشك أن تضع ، فسألتنى من أمى ، فعرفتها بها ، فرأيتها تتهلل وتقول :

— أحقاً أنت ابنة فلانة ؟ أحقاً هذا هو يوم الوضع ؟ إنى أعرف أمك ، وهى حبيبتى وصديقتى منذ زمان ، ولها علىّ حق فى هذا اليوم السعيد أن أقدم لها شيئاً على سبيل الهدية ، ولقد أحببتك أنت أيضاً ، وسأجعل هديتى لأمك أن أشترى لك ثوباً من الحرير ، فهيا معى إلى محل .... لأقوم نحو أمك العزيزة بهذا الواجب المحبوب . ما كان أحسن عشرتها معى ، وما أوفى ودادكم أنتم يا أهل أسوان !

فقلت لها : يا سيدتى نحن من القاهرة ، ولسنا من أسوان .

قالت : كونوا من أهل أى بلد تشاءون ، فأنتم أحبابى وأعزائى ، وقلبى دائماً يهفو إليكم ، ويخفق دائماً نحو أيام عشرتنا الماضية ، حين كنت أقيم أنا وأمك معاً قبل زواجها من أبيك . تعالى يا بنيتى تعالى ...

* * *

قالت الفتاة : وأشرفنا على حى الصاغة ، فقالت لى السيدة :

— ميلى بنا هنا يا صغيرتى أشتر لنفسى حليتين من الذهب ، قبل أن نذهب لشراء الثوب . فدخلت معها شارع الصاغة وأنا مأخوذة بسحرها وحلو حديثها ، فعطفت على محل صائغ كبير هناك ، وطلبت إليه أن يعرض عليها ما عنده من الأساور الرفيعة ، فقدم لها من

ذلك شيئاً كثيراً ، فظلت تقلب فيه وتختار منه حتى انتهت إلى ما شاءت أن تشتريه . وجاء دور وزن هذا المصاغ ، وتقدير ثمنه ، فأراد التاجر أن يقوم بوزنه ، ولكنها اعترضت ، وطلبت أن يكون الوزن خارج المحل لتطمئن إلى صحته ونزاهته ، فصحبها عامل كبير من عمال المحل إلى حيث (الوزان) المشهود ، وأمرتني أنا أن أبقى بالمحل ريثما تعود ، فبقيت وانصرفت هي مع العامل . فلم يلبثا إلا قليلا ، ثم رأيتهما يعودان وقد احتدت هي في الكلام مع العامل ، ثم مع صاحب المحل ، لأن العامل الذي رافقها إلى الوزان كان يتبادل معه إشارات لا تطمئن هي إلى أثرها في عملية الوزن ؛ ولذلك فإنها تصر على أن تذهب وحدها عند وزان آخر لتأمن هذا التواطؤ الملحوظ بين عمال المحل وبين من جاورهم من (الوزانين) ، وأفهمها صاحب المحل بأنه ليس من المعقول أن يتركها وحدها بالمصاغ ، وطلب إليها أن تدفع ثمنه بحسب وزنه الحالي ، ثم تذهب به حيث تشاء ، فإذا ثبت لها بعد ذلك أن هناك خلافاً في الوزن ، كان لها أن تتقاضى من فرق الثمن ما تشاء . ولكن الرجل ما كاد ينتهي من كلامه حتى ثارت عليه السيدة ثورة أذهلته وهي تقول له :

— أنت لا تريد أن تأمنني على ذهبك ، فكيف تريدني أن آمنك على نقودي ! ومن أنا حتى تشك في أمري ؟ وهل بلغت الخيانة بإنسان أن يذهب ببضاعة الناس على هذه الصورة التي تتوهمها ؟

ثم فتحت له حقيبة يدها وأخرجت منها لفافة كبيرة من الأوراق المالية ذات الألوان البنفسجية والحمراء ، وضربتها له فوق منضدته وهي تقول :

— إني بهذه النقود أستطيع أن أشتري كل ما في محلك من ذهب . فكيف تسول لك نفسك أن لا تأمنني على ثلاثة أزواج من الأساور أو أربعة ، وهذه أختي ستظل في انتظاري حتى أعود ...

وظلت السيدة تهدر على هذه الصورة وهي تبتعد من المحل رويداً رويداً ، بعد أن بدأت ترى علائم الخجل والتراجع ترتسم على وجه الصائغ ، حتى ليكاد يعتذر لها عما بدر من كلامه الأول . وبقيت أنا مشدوهة تحت تأثير هذه الأمور التي تجري أمامي ، وشعرت بصغر شأني مع هذه السيدة الكريمة الثرية الودود التي تأبى إلا أن تسميني أختها وأنا لا أليق أن أكون خادما لها ؛

وكان الصائغ قد أرسل في أثر السيدة عقب انصرافها بقليل عاملا آخر من عماله أوصاه أن يعرف الوزان الذي ستقصد إليه ، فانطلق الفتى وبقيت أنا أنتظر . . .

ومضى على انتظاري وقت بدأت أقلق معه على أمي ، كما بدأ الصائغ يقلق على ذهبه ، فأقبل عليّ يسألني من أختي وأين ذهبت ، فقلت له مستفهمة :

— تريد هذه السيدة التي اشترت الأساور ؟

فقال : أو ليست أختك ؟

قلت : كلا . إنها صادفتني في الطريق واستصحبتني إلى هنا .

قال : ولكنك سمعتها وهي تقول عنك إنك أختها وأنها ستتركك هنا في انتظار عودتها !

قلت : وأي باعث كان يبعثني في مثل هذا المقام على أن أعترض على هذه التسمية التي اعتبرت صدورها على سبيل التدليل منها والتشريف لي . . . ؟

وبينا نحن في هذا اللجاج إذ أقبل فتى المحل وهو يبكي ويقول إن شخصاً كان يجري في الطريق فاصطدم به فوقع الاثنان على الأرض ، ولما نهض أمسك به هذا الشخص وضربه ، ولكن المارة تدخلوا بينهما وحالوا دون تمادي ذلك الآخر عليه . فما كاد يفيق لنفسه عقب ذلك حتى كانت السيدة قد اختفت عن ناظره ، وحاول

عبثاً أن يهتدى إليها عند كل الوزانين المجاورين . ولما يئس من العثور عليها آثر أن يعود ليخطر صاحب المحل .

* * *

وانكشفت الحقيقة ، وظهر أن هذه السيدة لم تكن إلا محتالة لعبت بي أولاً ، فسخرتني في تمثيل دور لم أكن أفقه له معنى في الرواية التي أخرجتها ؛ ثم لعبت بالتاجر نفسه حين أطلعته على ما في حقيبة يدها من النقود ، وحين ثارت عليه تلك الثورة التي أضعفته أمامها وأخجلته . ثم حين « رهنتني » عنده على أن أخنها . وأخيراً حين رصدت لعامل المحل الذي خرج يتعقبها ذلك الشريك الخبيث الذي اصطدم به وأوقعه على الأرض ، ثم تشاجر معه ، فعاقه — من حيث لا يعلم — من حراسة مال سيده . . .

هذه حقيقة ما جرى لي مع هذه السيدة ، وقد اتهموني بالاشتراك معها في الاستيلاء على مال الصائغ ، مع أني شريكة الصائغ نفسه في الخديعة ، وفي الوقوع تحت تأثير هذه السيدة .

* * *

ويرى القارئ أن هذه القصة ليست إلا صورة من عشرات أمثالها تقع كل يوم وتعرض على المحاكم قضاياها ، وتنشر الصحف تفصيلاتها ، ومع ذلك فإن الإنسان لا يعدم بين الناس من ينخدع بهذا الأسلوب الساذج من الاحتيال المكرر المعاد . . .

* * *

وقد أذكرتني هذه الحادثة بحادثة أخرى كنت قد قرأت عنها قبل وقوع هذه الحرب . ولكن هذه الواقعة الثانية وقعت في فرنسا ، وكان « المخرج » في هذه المرة فرنسياً ، ولذلك كان الفرق بين روايته ورواية السيدة السمراء بقدر ما بين باريس وأسوان من الفروق !

قصد هذا السيد إلى أفخم فنادق باريس فنزل فيه .

ثم أرسل إلى أكبر تاجر من تجار الجواهر في المدينة فاستدعاه .

ثم طلب إليه أن يقدم له أكبر ماسة عنده على شرط أن لا يكون لها نظير في السوق ، لأنه يريد أن يهديها إلى سيدة ترغب في اقتناء حلية تنفرد بها بين زميلاتها .

فذهب الرجل ثم عاد ومعه وكيل محله ليعاونه في حراسة الماسة ، وليشد أزره في المساومة على ثمنها . ولكن السيد الوجيه لم يكن في حاجة إلى شيء من كل هذه الحيطة ، فإنه حين رأى الماسة النادرة أعجب بها إعجاب الرجل الخبير بقيمة الجواهر العارف بأقدارها الحقيقية ، وسأل عن ثمنها ، فاشتط التاجر في الطلب ، وبالغ في التقدير ، ولكن السيد لم يعترض على الثمن المطلوب ، وقال : إن هذه الماسة جوهرة حقيقية تساوي هذا الثمن ، وأخرج حافظة نقوده فدفع الثمن فوراً إلى التاجر الذي خرج يتعثر من فرط ذهوله إزاء إتمام هذه الصفقة الكبيرة بهذه البساطة المتناهية .

وانقضى على ذلك شهر . . .

وعاد السيد فأرسل في طلب التاجر مرة أخرى ، فأقبل عليه فرحاً مستبشراً ، يمني نفسه بصفقة جديدة على غرار الصفقة الأولى ، فأفضى إليه بأنه حين قدم الماسة إلى السيدة التي طلبتها راقتها إلى حد كبير ، وبدا لها أن تتخذ منها قرطاً . ولذلك فإنه يريد ماسة أخرى تكون في حجم الماسة الأولى وفي مثل شكلها ليتسنى عمل القرط المطلوب ، فأجاب التاجر بأن تلك الماسة كانت ماسة فريدة في السوق ، وأنه لا يعرف أن لها شبيهاً أو نظيراً في كل أسواق فرنسا ، فأشار عليه السيد بأن يصدر نشرة إلى البلاد المجاورة كبلجيكا وهولندا وانجلترا وإيطاليا ، لعل تاجراً آخر يكون عنده ما يشبهها ؛

وفوضه في شراء الماسة الجديدة — إن وجدت — بأي ثمن ، لأنه لا يهمه علو الثمن بقدر ما يهمه العثور على الماسة المنشودة . فخرج التاجر على أن ينفذ مشيئة السيد .

وبعث بالنشرة التي حدد فيها وزن الماسة ومقاسها وصورتها ، وأفسح الطريق أمام من تكون عنده مثل هذه الماسة ليطلب في ثمنها ما يشاء .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى جاءته من هولندا رسالة تفيد أن أحد تجارها يملك شقيقة الماسة المطلوبة بكافة أوصافها وخواصها . ولكنه طلب ضعف الثمن الذي كان التاجر الباريسي قد باع به الماسة الأولى ، فطار الرجل من الفرح ، وأسرع إلى هولندا بنفسه ، فدفع الثمن واستولى على الماسة ، وهو واثق من أنه إن كان قد دفع الضعف في سبيل الحصول عليها ، فإنه سيتقاضى من صاحبه الضعفين .

وعاد إلى باريس ، وقصد إلى السيد المنتظر في فندقه ، وعرض عليه الماسة الجديدة . . .

ولكن السيد في هذه المرة خيب أمله ، فإنه أفضى إليه بأن السيدة عدلت عن الشراء . . . .

ولم يكن للتاجر عليه من سبيل ! . . .

فإن كل ما حدث بينهما لم يكن يعدو شروعاً في عقد صفقة عدل عنها المشتري في اللحظة الأخيرة دون أن يكون قد تقيد في سبيل عقدها بأي قيد .

* * *

ويسأل الانسان نفسه بعد ذلك : وأين الاحتيال في هذا الحادث ؟

والجواب على ذلك قريب . . . فإن الماسة الثانية لم تكن إلا نفس الماسة الأولى . . . وكان السيد هو الذي تولى بنفسه إيداعها عند شريك له في هولندا ، ثم دبر كل هذا التدبير ، ليستولي على الفرق بين الثمنين . . .

ويلاحظ القارئ أن هذا النصب الفرنسي يمتاز من النصب المصري في أمر آخر . . . هو اختلاف كلمة رجال القانون في الحكم على هذا العمل الغريب . وهل هو جريمة يعاقب عليها القانون ، ما دام من الثابت أن السيد المحتال كان سيء النية في كل تصرفاته ، وأنه إنما استولى على مال التاجر باستعمال هذه الأساليب الصورية التي لا جد فيها إلا أن يصل إلى يديه آخر الأمر فرق الثمنين . أم أن هذه التصرفات لا تزيد على أن تكون غشاً مدنياً مما لا يقع تحت طائلة العقاب ، ما دام أن المسألة كلها تدور على البيع والشراء في سوق دولية حرة كان للتاجر كل الخيار في أن يتعامل فيها أو لا يتعامل .

وإلى أن يتم الاتفاق على تكييف هذا العمل التكييف الثابت النهائي ، تبقى الفرصة واسعة أمام هذا السيد وأمثاله ينعمون فيها بثمرة تفكيرهم البارع الجريء .

ع . ج

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
...
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ الطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الملحقة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ صاغ

برنارد شـــــو

للأستاذ أحمد فاكى

١ — نشأته :

لسنا نريد أن نتحدث عن برنارد شو كما يتحدث الناس عن الناس ، إنما نريد أن ندرسه دراسة عميقة ، لأنه ظاهرة غريبة بين مؤلفى هذا الجيل وناقديه . هو ظاهرة لأنه نشأ فى عصر من عصور الجمود الاجتماعى والسياسى ، حين كانت قد استقرت فى العالم المتمدن كثير من قيم الخلق . فكان فى هذا العصر ثورة دافعة يريد أن يتحلل من تلك القيم . وهو غريب فى هذا العصر لأنه أتى بأفكار وآراء خالصة صادقة ، لكنه افتنها فى أثواب تبعث على الضحك وتثير السخرية والاعجاب . لقد ولد فى أيرلندة ، لكنه حاول أن يتهكم على بناة الأمبراطورية البريطانية . وهو ناقد ، لكنه يرى أن الأدب ينبغى أن يكون دعاية عنيفة . وهو متدين يدعو إلى الفضيلة ، لكنه لا يؤمن بالأديان كما يفسرها أصحابها . ثم إنه غنى رزق بسطة من الجاه والمال ، لكنه اشتراكى يرى ألا منجى لهذا العالم حتى تسود المساواة فى توزيع الثروة . وهو شيخ بلغ الخامسة والثمانين ، لكنه ما زال فتيًا يعمل كما كان يعمل وهو فى الثلاثين . وهو بعد ذلك كاتب مسرحى ، وموسيقىٌّ بالفطرة ، وفيلسوف ومهرج .

لقد أساء الناس فهم برنارد شو ، لأنهم رأوا فيه وجهاً واحداً من الوجوه التى ذكرت . رآه بعضهم فى ثوبه المزركش البراق ، فحسبوه مهرجاً أراد أن يضحكهم فأضحك ، وأقبلوا على مسرحياته يدرسون فيها أسباب الضحك وأصول الدعابة . واتهمه آخرون بالالحاد ، لأنه حاول أن يفرق بين الدين الصحيح وبين التدين . وطالبه كُتّاب بأن يتخلى عن المال الذى كسب ، لأنهم لم يستطيعوا أن يوفقوا بين مبادئه الاشتراكية وبين مكاسبه الطائلة ، وازورّ عنه الكثير من أبناء بريطانيا ، لأنهم لم يجدوا فى كتاباته ما يؤيد مبادئهم القومية . وذهب بعض النقدة الفرنسيين إلى أنه لم يكن أصيلا فى أسلوبه الفكه الساخر ، لأنه لم يكن إلا مقلدا لكتاب ساخرين سابقوا من قبل ، أشهرهم فولتير . وعلى الرغم من كل ذلك فينبغى أن نرى الرجل كما يريد هو أن يراه الناس ؛ فقد سمى نفسه فى كتابه عن الاشتراكية « مفكرا محترفا » . وعندنا أن مثل هذا الوصف يجمل الرسالة التى ألزم نفسه بها . فهو رجل إذاً قد احترف التفكير ، وما دام قد احترف التفكير فيجب أن ندرس نواحيه جميعاً كما يُدرس التفكير .

* * *

ولد برنارد شو فى دبلن عاصمة أيرلندة فى ٢٦ يوليه سنة ١٨٥٦ من عائلة كريمة قليلة المال . وكان أبوه الابن الأصغر لبعض علية القوم ، لكنه لم ينل من الارث إلا ما يناله أمثاله الأبناء الصغار حسب القانون الانجليزى . وأسرة كريمة مثل هذه أخنى عليها الدهر كان لا بد لها أن تلتزم على الرغم من فاقتها كثيراً من أوضاع الطبقة الوسطى . وكذلك ولد برنارد شو فى بيت يتكلف أهله ما ليس من شأنهم ، ويتظاهرون بما ليس فى طاقتهم . وقد أحيل أبوه إلى المعاش وهو فى الأربعين ، وحاول أن يستبدل معاشه ببعض المال ليتاجر فيه ، لكنه أسرع إليه الافلاس ، فلجأ إلى الخمر وأسرف فى تعاطيها . أما أمه فقد كانت سيئة الطالع ، تحاول دائماً أن تصلح من شأن زوجها ، ولكن هيهات ! على أنها كانت موهوبة لها غرام عظيم بالموسيقى . فكانت تلجأ إلى هذا الضرب من ضروب الفن لترفه عن نفسها ، ولتخفف مما يحيق بينها من الفاقة وسوء العشرة .

وقد كان لكل ذلك آثار عميقة فى حياة برنارد شو ، سواء أكان فى نشأته الأولى أم فى حياته وهو رجل تم

كهل ثم شيخ طاعن فى السن . ذلك بأن هـذا العبث الذى رآه فى والده قد أنشأ عنده فكرة خاصة عن الدعابة . فى مثل ذلك الجو كان يبدر من أبيه السكير ما يبدر دائماً من السكارى . فكان ذلك يثير عند الطفل الناشىء شعور السخرية والعبث . ويحكى لنا برناردشو عما كان يفعله أبوه فى تلك الأيام ، فهو فى مرة يأتى إلى المنزل وقد تأبط أوزة تحت إحدى ذراعيه ولحماً ملفقاً تحت الذراع الأخرى . ثم يحاول أن ينطح باب البيت برأسه كى يفتحه ، لكن الباب لا يُفتح . وينطح برأسه ثم ينطح حتى تتورم قبعته ويحمى رأسه ، لكن الباب لا ينفتح أيضاً . ثم يفيق الرجل من أثر الضرب فإذا به واهم وإذا الباب على قيد خطوات منه ، وإذا به كان ينطح الحائط يحسبه باباً ولم يكن بالباب !

ومثل تلك المناظر كانت أدعى إلى الرثاء ، لكن جورج برناردشو كان يتخذها وسيلة للسخرية . فهو قد كان يرى الجانب الفكه من أحزان أبيه وأمه . وهو قد كان لا يرى فى حياة الفقر والفاقة التى عاشها إلا صوراً من الصور الضاحكة التى رسمها فيما بعد ، وهو لم يكن من الأولاد الذين يرون المآسى فى توافه الأمور ، بل لقد كان يرى المآسى نفسها من توافه الأمور .

أهو بهلوان ذلك الذى تقمص روح هـذا الفتى الناشىء ؟ أم هو عفريت من الجن يحاول دائماً أن يقهقه ؟ إن هذا الشعور الساخر هو الذى يميز كل ما كتب برناردشو ، وكأنما قد استطاع وهو صبى أن يكوّن لنفسه أسلوباً خاصاً يتخذه حين يكتب قصصه وسير حياته ومقالاته . وسوف يشب هذا الفتى فتتفتح عيناه على أحزان وآلام مكدسة بعضها فوق بعض . سينظر إلى الفقر والجهل والتعصب الأعمى ، وسيرى الظلم والعنت والإرهاق . وسيكون لكل ذلك أثر بالغ فى نفسه . لكنه سوف يتخذ من الدعابة قوة تعصف بكل هؤلاء . سيسخر من أوهام العامة ؛ وسينكر على الخاصة ما يحبون وما يكرهون وسيدب إلى مستقر النفوس فيكشف ما بها من عداء للخير وولاء للشر . وسيكون كما كان الأنبياء الأولون غرضاً لسوء الفهم وسوء التقدير وسوء المقالة .

لكن الجو المنزلى الذى عاش فيه برناردشو كانت تتجاوب فيه ألحان الموسيقى . وأمه الوفية هى التى كانت قد أغرمت بهذا الضرب من ضروب الفن وكان للسيدة حلقة من الخلان تضم النساء والرجال ، وكان كل واحد منهم قد أشرب قلبه حب ذلك الفن الجميل . وكانوا يكوّنون من أنفسهم جوقة تعزف على مختلف الآلات ؛ فهنا يضرب على القيثارة ، وذلك يعزف على البيان ، وأخرى تغنى وهكذا . وكان لا بد لبرناردشو أن يتأثر بهذا الجو أيضاً ، فنشأ وفى نفسه ميل إلى الغناء والموسيقى ، وكان لهذه النشأة وزن كبير فى توجيهه ، لأنه كان ناقداً موسيقياً قبل أن يكون ناقداً مسرحياً ، ولأنه تكسب بالنقد الموسيقى قبل أن يتكسب بالنقد المسرحى . ثم إن ملكته الموسيقية قد نشّأت أسلوبه النثرى وعدّلت منه حتى أصبح واضحاً متسقاً . زد على ذلك أن أمه نفسها قد اضطرت إلى أن تعوله بين العشرين والثلاثين ، وقد كانت تتكسب من تعليم الموسيقى فى هذه الفترة الطويلة . وكأنما قد كان للنشأة الموسيقية أكبر الفضل على برناردشو فى حياة أمه وفى حياته الخاصة .

لكن لهذه النشأة أثراً آخر فى حياة هـذا الرجل الكبير . فعلى الرغم من تلك المضحكات التى كانت تدوى فى أنحاء ذلك البيت المتداعى ، وعلى الرغم من دقات الموسيقى التى كانت تتجاوب بين جدرانه ، فقد كان ينشأ فى نفس هذا الصبى اليافع شعور خفى . لقد تنكّر لأهل البيت كل من كانوا يعرفونهم من علية القوم ، وضاق بهم الأقرباء من ذوى القربى : تنكروا لهم وضاقوا بهم لأن رب البيت سكير ممعن فى السكر ، ولأن ربة البيت لا تُعنى بتدبير الأمر كما كان ينبغى . لذلك شعر هذا الفتى بالذلة والمسكنة وصغار النفس ، وعلم أن الناس يحتقرون أباه وأمه ، وعرف كذلك أنه فى مركز اجتماعى صغير . مثل هـذا الشعور ولد فى نفس برناردشو حياءً ما زال يلازمه فى قرارة

النفس حتى اليوم. كان حييًّا لأنه شعر بالحياء وهو صبي يتأثر، لكنه حاول بعد ذلك أن يعوِّض من هذا النقص النفسي، فإذا به يتظاهر بالصلف والكبرياء. ولأنه كاتب عام ومفكر محترف فقد عالج حياءه بمظاهر الغرور والصفاقة، وربما تمادى في كل ذلك، حتى أصبحت جرأته الظاهرة مضربا للأمثال. فليس برنارد شو ممن يختلط بالناس ويرى بينه وبينهم صلات الودة والتحابّ. ولكنّ في نفسه ازورارا من الناس نشأ معه وهو طفل حينما رأى أنه في أسرة كريمة قليلة المال، وفي مركز تافه يحاول دائما أن يستقل به، وفي مهانة يجاهد دائبا في التحلل منها.

وقد أرسل برنارد شو إلى المدرسة كما يُرسل غيره من الصبية، لكنه ما لبث أن تبين أنها لم تخلق له ولم يُخلق لها. لقد كانت نشأته الأولى في منزل أبويه في دبلن، وكانت تربيته الأخرى في شوارع لندن. أما حياته المدرسية فلم تكن إلا فترة اضطربت لها تربيته، ولم يكن ينقيه في المدرسة إلى مدرسيه، ولم يكن يعبأ بتلك المعارف التي تتثال من أفواههم، ولم يكن يُعنى بما تفرضه عليه المناهج والكتب. وكأنما خلق هذا الفتى وقد أوحى إليه أن يعلم نفسه بنفسه. لذلك قرأ وهو مازال فتى «ألف ليلة وليلة» وروبنسن كروزو وقصص سكوت وديكنز ومارك توين وشعر بيرون وسبنسر. وعني وهو يقارب العشرين بكتب أهمها كتاب داروين عن أصل الأنواع وكتابا ستيوارت مل عن الحرية والحكومات النيابية وبحث في العلوم ولو أنه لم يقرأ شيئا في الرياضة.

واشتغل كاتبا في شركة لبيع الأراضي وهو في الرابعة عشرة، وأخذ مرتبه يعلو حتى بلغ الثمانين جنيها في السنة حينما استشرف على العشرين. ثم كان أن شعر بهاتف يدعوه إلى لندن، وكان أن رأى أن ذكاءه يكاد أن يختنق في ذلك الجحر الضيق الذي اطمأن إليه ليكسب رزقا ميسَّرا محدودا. وحينما نازعته النفس إلى قلب الامبراطورية العظيمة لم يفتأ أن استقال من الشركة التي هو فيها، وقصد إلى لندن حيث لحق بأمه التي كانت تتكسب من تعليم الغناء والموسيقى. وكذلك غادر برنارد شو دبلن في سنة ١٨٧٦، لكنه سيظل تسع سنوات أخرى من الجهاد الدائم والكفاح المضني حتى يجد لنفسه مرتزقا. سيظل تسع سنوات أخرى يطعم ويلبس مما تجود به عليه أمه من دراهم معدودات تقتنصها من أيدي تلامذتها في الموسيقى.

لكن شيئا يجب أن نذكره عن برنارد شو قبل أن نلاحقه إلى لندن، ذلك أنه زار سجن مونتجوي Mountjoy Prison وهو فتى. وقد رأى المسجونين في روحاتهم وغدواتهم مكبلين بالسلاسل والأصفاد، وعرف فيهم القسوة والعنف، ورأى في جرمهم كثيرا من الفظاظة والغلظة. وقد انطبعت هذه الصورة في خياله وما زالت تتوضح حتى انعكست في كثير مما كتب. وإذا كان قد قال فيما بعد عن هؤلاء المجرمين: «إنه من المستحيل أن نصلحهم، ومن العبث أن نعذبهم، ومن الخطر أن نطلق سراحهم» فإن المشكلة قد بذرت بذورها في نفسه حينما كان يغادر باب السجن إلى الهواء الطلق.

وشيء آخر يجب أن نذكره قبل أن نلاحقه إلى لندن: ذلك أنه كان قد نشأ وبنفسه حب عميق للحيوان. فقد نشأ في بيت فيه كلب وببغاء، وكان يصحب الكلاب ويتحدث إلى الببغاء كما يتحدث الآدمي للآدمي. ولمثل هذه الصلة بينه وبين الحيوان وزن كبير في تقدير فلسفته بوجه عام. فقد كان يشعر أن الإنسان والحيوان كليهما مظهر من مظاهر الخليقة، ويقول إنه يتحدث إلى الحيوان بنوع من الحديث قد ابتدعه، ويخال أن الكلاب مثلا تستمع إليه ولو أنها لا تدرك مما يقول إلا قليلا. وهو يبتهج حينما تسكن إليه الطير الرعاديد — كل ذلك وجّه برنارد شو إلى نوع من التصوف. ففكَّر في الحيوان ثم فكر، وانتهى إلى نتائج كان من بينها إيمانه بالتطور الابتدائي

Creative Evolution وكان من بينها حدبه على الحيوان حتى حرّم قتله ، وحرم على نفسه لحمه ، ودعا إلى التخلي عن الصيد لأنه رياضة وحشية ، وأنكر على الأطباء والعلماء أن يشرّحوا بعض أنواع الحيوان وهي حية . وبينما نذكر الدين الذي اعتنقه برنارد شو ينبغي لنا أن نذكر أنه نشأ محبا للحيوان وأن حبه هذا هو الذي انتهى به إلى الاعان بهذه القداسة التي حاط بها تطور الخليقة .

* * *

غادر شو أيرلندة في إبريل سنة ١٨٧٦ ، وقد آن لنا أن نبحث حياة أيرلندة السياسية والاجتماعية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، حتى نقدر الآثار التي خلفتها هذه الحياة العامة في نفس هذا الصبي اليافع . وقد كانت تمتاز الحياة فيها بالفقر المدقع الذي شاع في كل مكان . كانت البلاد قد رزئت بمجاعة في سنة ١٨٤٠ وما بعدها أتت على الأخضر واليابس ، وكانت ما تزال ترزح تحت أعباء الفقر والفاقة بعد ذلك بثلاثين سنة . لقد انقضت المجاعة ، لكنها خلفت الأرض عقيما لا تنتج ، وخلفت الفلاح الأيرلندي في حاجة إلى السماد الذي لا يجد وإلى البذور التي لا يستطيع أن يستصدر . حتى البطاطس الذي كان يعتمد عليه عامة الناس لم ينبت ، ولذلك فقد هاجر من أيرلندة كثير من أهلها ، فقصد بعضهم إلى أمريكا ، وقصد آخرون إلى أستراليا ونيوزيلند . وكان أهل هؤلاء وأولئك ينتظرون المساعدة من أقاربهم المهاجرين !

وقد زاد هذه الحال بؤساً النظام الذي جرى عليه العمل في أرض أيرلندة . ذلك أن أغلب مُلاك هذه الأرض كانوا من الانجليز . وكان هؤلاء يعيشون في انجلترا نفسها لا يكادون يفكرون في أملاكهم إلا إذا قصر وكلاؤهم في جباية الايجار . كان الأمر إذاً في أيدي بضعة من الوكلاء الذين لا يرعون ولا يشفقون ، وكان هؤلاء إذا حاولوا إصلاحا قاما على حساب هذا الفلاح البائس . وكذلك استنزف هذا النظام كثيراً من حيوية الزارع الأيرلندي ، وشر ما يصيب الفلاح أن يقتل عالك يريد أن يأخذ ولا يعطي ، وأن يستغل من غير أن يستصلح . لذلك كان الفقر الأيرلندي ظاهراً في كل وجه من وجوه الحياة . وكان لا بد أن يتأثر رجل حساس مثل برنارد شو بمظاهر الفقر التي تنظرت له في كل طبقة وفي كل مكان .

وكثير من الأيرلنديين في النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يرضوا بكل هذه المظاهر البائسة . لكن مفكريهم انقسموا قسمين : أما القسم الأول فهو فئة من الزعماء السياسيين أنكروا ذلك وعزوه إلى الحكومة ؛ فطالبوا بالاستقلال الذاتي . وتزعم هؤلاء بارنل Parnell . وكانت تنطوي هذه الحركة السياسية على المطالبة بكثير من الاصلاحات فيما يتصل بملكية الأرض وإصلاحها . وأما الفريق الآخر فقد هاجروا من أيرلندة إلى انجلترا باحثين عن الرزق والجاه في وقت معاً . هاجر إليها أوسكار وايلد وجورج مور وكونان دويل ولورد نورثكلف ولورد كتشنر . كل هؤلاء وعشرات آخرون هاجروا من أيرلندة إلى انجلترا ، وقد هاجر برنارد شو مثلهم في سنة ١٨٧٦ ، ولم يرجع إلى أيرلندة إلا بعد ذلك بثلاثين سنة في زيارة قصيرة قام بها في سنة ١٩٠٥ نزولاً على رغبة زوجه ، لا لشيء آخر .

فلا نحسبن إذاً أن مولد برنارد شو في أيرلندة قد بثّ في نفسه عاطفة القومية الأيرلندية . إنه يستوي وجميع من ذكرنا في أنهم لم يشعروا بالوطنية العنيفة التي تحركت في قلوب الزعماء السياسيين . لم يكن لأيرلندة في سنة ١٨٧٠ وما بعدها شخصية ثقافية أو فنية خاصة تمتاز بها من

أجزاء الجزائر البريطانية . ولم يكن لها مسرح قومى مثل الذى نشأ فيما بعد . وكانت أفكار الأيرلنديين لم تزل فى حاجة إلى التنظيم والتدبر . فدلك درج الطامحون من أبناء أيرلندة على أن يغادروها إلى حيث يستطيعون أن يجدوا مجالا لما يحسنون من الكتابة أو الصحافة أو القيادة . وقد فعل برنارد شو مثل ما فعل الآخرون . وقد اتهمه بعضهم فى مبلغ حبه لأيرلندة ، فأجاب على ذلك قائلا : « كنت واحداً من أتباع الفن الأوربى ، والفن الأوربى يتضمن الأدب الانجليزى والموسيقى الألمانية والتصوير الايطالى والهولندى . فى سنة ١٨٧٦ لم تكن أيرلندة قد ظهرت فى أى صورة من الصور . فإذا كانت قد ظهرت منذ ذلك الحين ، فإن ذلك خير لها وأجدى » .

* * *

إذاً فنحن أمام رجل عرف الفقر فى البيت الذى شب فيه ورأى أباه السكير وقد تنكر له أهله ، وعاش مع أمه التى لم تكن تمس بشئون البيت إلا بمقدار . نحن أمام رجل عرف الفقر فى المدينة التى عاش فيها وفى البلاد التى قضى فيها شبابه الأول . ولا بد أنه قد رأى الحقول وقد صوّح نبتها ، ولا بدّ أنه قد رأى جماعات الايرلنديين وهم يتهافتون على بعض المال الذى يرد إليهم من أبنائهم وآبائهم المهاجرين فى أمريكا واستراليا ، ولا بد أنه قد سافر بين دبلن وبين غيرها من بلاد الجزيرة ، فتحمل وعثاء السفر على عربات تجرها الحمير . ولا بد أنه قد سمع بالغارات التى كان يشنها الناس على مواشى الأغنياء وممتلكاتهم . لا بد أنه رأى كل ذلك وسمع به . وقد تخرج من كل ذلك وهو عدو للفقر لدود ، وتكونت منذ ذلك الحين أكثر آرائه الاقتصادية ، فنشأ اشتراكياً قبل أن يقرأ كارل ماركس .

(بنى سويف) **أحمد خاكى**

آلام الشاعر ! . . .

عادتِ الشـاعرَ يوماً بعضُ آلامِ الحياةْ
فرأى الكونَ كما قد صوّرَ الكونَ أساه
مِنْ شقاه مبتـداه وإليه منتهاه
ثم جنَّ الليـلُ إذ كان معى يبكى هواه
قال : ما الليل كالطوفان يطغى جانباه ؟ !
لكأنَّ النورَ فُلْكٌ بيْنَ غرْقى فى دُجاه
وكأنّ الـسُحْبَ أفلاكٌ على تلك المياه
وكأنَّ البـدر يعلوها مَنارٌ فى سناه
وكأنَّ الخلق حِيتانٌ تهاوت فى ثراه
وأنا حوتٌ بهذا اليَمّ قد ضـلّ وتاه

* * *

ومضى الشـاعر يحكى عن هناه وعناه
وكأنْ لم يبق فى دنيـاهُ مأخوذٌ سواه
وكأنى أسمع الوحى إليـه أو أراه
يُلهَمُ الشـعرَ كما يُلهَمُ أنفاسَ الحياه
وأحسُّ النفَسَ الصاعدَ من همْسِ الشفاه
ورأيتُ النورَ غشّاهُ ، وبالفيض غذاه
وجلالُ الشعرِ والرُّوحُ السماوىُّ احتواه
وكأنّ الكونَ عبدٌ وهو فى الكون إله

* * *

هكذا الشاعرُ يرعى الكونَ والكونُ حماه
كلما أبلى شجوناً جعل الشـعرَ عزاه
فإذا بالشـعر دمعٌ من بُكاه لشجاه
وإذا بالشـعر وجدانُ المُنى وجَناه

رضوان العوادلى

أحلام طائشة

قصة — بقلم نصرى عطا الله سوسى

تعتذر لى لأنك لم تستطع أن تحدثنى ، أو حتى تحيينى عند ما شاهدتنى فى مقصف حديقة . . . وأن السبب يرجع إليها لا إليك ، وأنك عرضت عليها أن أشارككما مجلسكما ، وأن تقدمنى إليها ، ولكنها رفضت واحتجت بتوعك مزاجها واضطراب أعصابها فى ذلك اليوم . . . وتخبرنى أنك حدثتها عنى طويلا ، وقلت لها إنى سأكون أكثر الناس تردداً على منزلكما فى المستقبل عند ما تحققان أحلامكما السعيدة ! وتشكو لى انقباضها واضطراب نفسها فى ذلك اليوم ، وأنها خيبت أملك فى جلسة هادئة تجمع بين الماء والخضرة والفتاة التى وهبتها قلبك . . . والصديق الذى اصطفيته .

حسناً يا صديقى ! إنى أشكر لك شدة إخلاصك وصفاء قلبك ، وليمنحنى الله القوة على أن أقابل إخلاصاً بإخلاص ووفاءً بوفاء . لقد ترددت ألف مرة ومرة فى الكتابة إليك ، وهأنذا أدفع إليك أخيراً بهذه الرسالة ، واضعاً صداقتك لى وكل ما تعنيه فى كفة القدر . . .

ولا أدرى إذا كنت — بعد قراءة هذه الرسالة — ستلعننى أم تشكر لى صنيعى . نعم ، رغم الصداقة النادرة التى مرت بتجارب عدة صهرتها وطهرتها ، والتى قلما يجود بها الزمن مرتين ، بل التى قد لا يمنحها الزمن لكل الناس ، ورغم الإيمان الهائل المتبادل بحسن النية وعمق الإخلاص ، أقول لا أدرى كيف ستلقانى — إذا كنت ستلقانى — بعد أن تقرأ رسالتى هذه . . .

هل تذكر رسالة قديمة أرسلتها لك منذ سنتين أو أكثر ، قلت لك فيها إننا نتدلل على الحياة ونسرف فى هذا الدلال ، كما يسرف الطفل فى التدلل على أمه . . ؟

والطفل يجد عند أمه تحقيق رغباته ونزواته وأحلامه ، يجد عندها الحب والحدب ، والغفران والحنان الذى لا ينضب ، ولكننا نخطئ كثيراً حين نتدلل على الحياة كما نتدلل على أمهاتنا ، ونخطئ حين نسرف فى مطالبنا منها ، وننظر إليها بعين الأمل والأمان ، وننام فى ظل أشجارها الخضراء . . . آملين أن نستيقظ فنجد ثمارها الشهية مبعثرة حولنا على الأرض . إن الحياة تربت على أكتافنا بيمينها فى رقة ، ثم تصفعنا بيسارها فى قسوة ! عندئذ ندرك أن التدلل ، أن الإسراف فى الأمل والأحلام نعيم نخلقه بخيالنا ، ولكننا ندفع فيه ثمناً فادحاً . . . .

ولا أدرى إذا كنت سأرسل إليك هذا الخطاب . . أم أمزقه ! فما زلت متردداً . . . فليس أقسى على المرء من أن يُفجع فى أحلامه ، وأن يرى الريح الهوجاء تجتاح قصوراً عالية ضاعت الأعوام فى تشييدها ، ولكن . . يجب أن نكون على استعداد للدموع دائماً .

. . . وإنى لأسترجع فى ذهنى الأحاديث الطويلة الشهية التى كنت تسر لى بها عن فتاة أحلامك ، وكيف أنك عثرت عليها . . . وكيف أنها تشبه الماء الجارى المتجدد ، فى حين أن بنات جنسها يشبهن الماء الراكد الآسن . . وإنى لأتذكر بريق عينيك وبسمتك السعيدة المشرقة وأنت تحدثنى عن شخصيتها وعمق تفكيرها ومميزاتها . . . وحبها لك مع وجود من هو أجدر منك بهذا الحب ، فأشفق عليك من رسالتى هذه وما ستحدثه فى نفسك . . .

إن الصدفة الساخرة وحدها هى التى ساقتك أنت ، و « منى » إلى حيث كنت أجلس ، ولم يكن هناك حاجة لأن تقدمنى إليها لأنها تعرفنى جيداً ! ! ولأنى أعرفها أكثر مما تعرفها أنت . . أنت لا تعرف إلا الطلاء الظاهر . أما أنا فأعرف خبايا نفسها وأسرار روحها . .

هل عرفت الآن سر انقباضها ؟ هل آن الأوان لأحدثك

من « مي » الآن أعيش من جديد ذلك الفجر الحالم في ساحة الذكريات المريرة ؟ ؟ إني أجهل من ذلك ولم أحاوله قبل الآن ، إن الجرح لم يندمل بعد رغم مضي السنين — ولكن شكراً لمي ، إنها أول من أنقذني من الخيالات الشفافة والأحلام البيضاء ! إنها أول من هزتني هزات عنيفة ، وفتحت عيني على بشاعة الحياة وقسوتها ومرارتها وحقيقتها . هل سأحدثك من نفسي ؟ لا أدري . سأحدثك لا من « سامي » الذي عرفته وألفته وخبرته ، بل عن شخص تافه ضعيف الارادة وضيع التفكير !

كان ذلك في عام ١٩٣٩ ، وكنت أعيش بحكم وظيفتي في بلدة صغيرة تشبه سجناً ضيقاً ، خالية من كل وسائل الراحة والتسلية ، وكنت ضيق النفس منقبضاً من الناس أقضي وقتي مع كتبي أو في الهيام بين المزارع الخضراء .

ولكنني عثرت على صديق واستطعنا أن نأتلف .. أحببته لبساطته وطيبة نفسه ، وإن كنت لا أستطيع أن أعرف لماذا أحبني ! كنا نلتقي كل يوم ، ونرتاض على الشاطئ ، أو بين الحقول ، وفي الشتاء كنا نقضي وقت فراغنا في منزله أو منزلي ، وكان عزباً مثلي ... وكانت مي تسكن قريباً من داره ، وكان والدها موظفاً في تلك البلدة النائية ...

وعندما رأيتها أول مرة ، تقفز الدرج في خفة في سبيلها إلى حيث تقطن إحدى صديقاتها في نفس المنزل الذي كان يقطنه صديقي ، وكانت ثيابها تظهر كل محاسن جسدها الحار الطري ، تمنيت أن أمتلكها ليلة ، ثم سخرت من نفسي ومن رغبتي ، وتابعت صعودي في هدوء إلى مقر صديقي .. كانت تتقدمني بقليل ، والتفتت خلفها ، ونظرت إلي نظرة طويلة تعبر عن أشياء كثيرة ! هل كانت قد رأتني قبل ذلك ؟ لا أدري .

لم أفكر فيها كثيراً ذلك اليوم ، ولكن نظراتها ظلت تلاحقني بإصرار ، ولم أذهب لزيارة صديقي مرة واحدة بعد ذلك إلا رأيتها من نافذتها القريبة من مسكنه ، وكان بيننا حديث صامت بليغ ! وشعرت أن قلبي المتعب الشريد قد آن له أن يستريح .. هل صادفت « مي » هوى من نفسي حقاً ؟ لا أعرف — كنت شاباً قليل الخبرة بالحياة ، ظامئاً إلى الحب ، مفتقراً إلى التجارب ، وكانت حياتي في تلك البلدة الجدبة حياة شظف وخواء وركود .. وشجعت « مي » على الاستمرار في طريقها .

وبعد أيام بعثت إلي في منزلي برسالة — مع غلام صغير — وخفت العاقبة ! ولكنها كانت رسالة رزينة محتشمة ، تبتدئ بـ « أخي العزيز » ، ولا تحوي إلا عدة سطور تعبر ببداهة عن فرحها وسعادتها . وأرسلت مرة بعد مرة تطلب الرد .. فكتبت لها رسالة كرسالتها ، وتتابعت رسائلنا وازدادت جرأة وصراحة ، وجرى فيها ذكر أشياء كثيرة . وكنت أراها كل يوم تقريباً ، وأحياناً كنت ألقاها صدفة على الدرج في منزل صديقي الساذج الطيب القلب . وعلى هذا الدرج قبلتها أول قبلة .

وعرفت شيئاً عن مي من خطاباتها وملاحظتي الكثير من تصرفاتها .. أن مظاهرها لا تدل إلا على ما يمتدح ويستحب : فهي محتشمة في ملابسها ، مقتصدة في نظراتها ، رزينة في مشيتها وحديثها ، وعليها طابع الاعتزاز بالنفس والاحساس بالكرامة .. وكانت خطاباتها تفيض بالمعاني العميقة الخالدة في أسلوب مشرق جميل ... وإن كانت أحياناً تتحدث عن أتفه الأشياء ، بلغة الحديث الدارجة ، كأنها تستحضر من تكاتبه في خيالها ، وتجلس إلى جانبه وتحدثه حديثاً لا كلفة فيه .

وشعرت أن هناك منافساً خطراً يحاول اقتناص « مي » ، ولكنها كانت تنقل إلي كل أخباره ، وكل ما كان يفعله من أجلها ! ولم يدع لي هذا مجالا للشك في إخلاصها ، واعتقدت أن وجود مثل هذا الغريم امتحان دائم لثباتها وإخلاصها .

ولم يكن هناك مجال للقاء طويل في هذه البلدة الضيقة خصوصا وأن الأهالي يعدون على الموظفين حركاتهم .

وكان قد مضى على تعارفنا شهران أو ثلاثة عند ما اتفقنا على أن نلتقي في القاهرة : أن أحصل أنا على إجازة وتسافر هي لتقضي أياما عند إحدى قريباتها .

وعند ما قابلتها لأول مرة في العاصمة عرضت عليَّ أن نقيم في فندق ، أن توهم عمتها أنها ستسافر إلى الاسكندرية وأن تحمل حقائبها إلى المحطة وتمثل دور المسافر . . . ثم تعود الحقائب بعد قليل إلى فندق أختاره لها — ذهلت ! ماذا ؟ فتاة عذراء تعرض على شاب أن تعيش معه في فندق . . . أتراها واثقة من نفسها إلى هذا الحد ؟ أم بلغت بها طيبة القلب والسذاجة هذا المبلغ ؟ أم تظنني قديساً أم راهبا ؟ . رفضتُ .

وكانت مي مثال العاشقة الوالهة التي استولى الحب على كل مشاعرها وأصبحت أسيرة عاطفتها . . . كورقة ذابلة ألقتها الريح على صفحة النهر فأصبحت أسيرة تياره الجارف .

وقضينا في القاهرة أياما هنيئة ، وشعرت من أحاديثها وتعليقاتها أنها تشفق عليَّ أكثر من نفسي وتعرف الحياة أكثر مني ، وأن نواحي الضعف أو القصور فيَّ لم تقلل من إعجابها بي . . . إنها استطاعت أن تفهمني — بعض الشيء — وتقدرني . وكان أظهر ما فيها الغيرة الشديدة . كانت تغار حتى من مجرد تأمل فتاة عابرة في الطريق فتنظر إليَّ نظرة طويلة عاتبة . . والحب والغيرة توأمان . ولكن تصرفاتها لم تخل مما يثير شكي . . . وسخطي : كانت تسهر مي أحيانا إلى منتصف الليل وتغشى الحلات العامة سويا ! ودهشت لما عرفت أنها تدخن ، وقالت إنها اقتبست هذه العادة من أمها . وعرفت أيضا أنها تميل إلى الخمر ولم يخل حديثها من شذوذ ، من جرأة . . . جرأة ؟ بل وقاحة سافرة مفترة ، ولكني لم أستطع أن أعترف لنفسي بهذا في ذلك الحين ... كنت قد قطعت شوطا كبيراً من الطريق ، وكان عقلي في فترة هائلة لا يوقظه منها قصف الدافع ، كنت أفكر فيها تفكيرا غامضا مشوشا مضطربا لا ينتهي إلى شيء ، وكنت أخلق لنفسي ولها المبررات ، وأقرأ الشعر الناعم الخليع لأمضي في تخدير عقلي ... هل فعلت مي أكثر من أنها عبرت بصراحة عن طبيعة جنسها كما تفعل أي فتاة حديثة ؟ ألا تشكر لها هذه الصراحة ؟... كنت أغتفر لها كل شيء ، وألتمس لها العذر في أسلوب نشأتها أو الوسط الذي تأثرت به ؛ ولكني كنت واثقا أني سأخلق فيها مخلوقاً جديدا مبرأ من كثير من النقائص والعيوب ، والحب — كما يقولون — يفعل المعجزات .

إن الحب — يا صديق — يكسب كل قضاياه من العقل دائما مهما كانت أدلته واهية ملفقة ... والعقل المسكين يخسر دائما مها كان الحق في جانبه ... ولكنه يعرف كيف ينتقم في النهاية . إنه ينتظر حتى تحل الكارثة ، وعندئذ يقف باسما في سخرية مرة ، ويصب في آذاننا من الاستهزاء والتقريع والاستصغار أحاديث تحرق الصخر الجامد ... عندئذ — عندئذ فقط — يغرقنا الندم وندفع ثمن الحب دموعا وآلاما وندما .

قضينا عشرة أيام في القاهرة ، وسافرت مي إلى الاسكندرية ، وسافرت أنا إلى مقر عملي ، ولحقت بي بعد أيام ... وعادت إلى حياتنا سيرتها الأولى ...

ومضت عدة أشهر أخرى ثم اتفقنا على أن نلتقي في مدينة قريبة ...

والتقينا ، وما كنت أخشى أن يحدث في القاهرة حدث هناك — وقضينا ليلة في أحد الفنادق الفاخرة — ولا أدري كيف استطاعت أن تسخر من والديها وتبيت خارج المنزل ، ولكنها كانت فخوراً مزهوة ببراعتها وقدرتها على التعمية والتضليل .

إن مي لا تزال عذراء ، أو على الأقل كانت كذلك

عند ما قطعت صلتي بها ... ولكنها كانت ليلة عزاء ماجنة ! إن هـذه الفتاة العذراء تعرف أشياء كثيرة لا تعرفها النساء المتزوجات .

وكان قد نمى إليَّ بعض إشاعات عن علاقتها بشخص ما ... وحدثتها في ذلك حديثاً رقيقاً رفيقاً فأربد وجهها وبكت ! إن المرء منـا تمر به أزمات عاصفة تزلزل كيانه ، يتوق أثناءها إلى أن يذرف قليلا من الدموع لتنفيس عن روحه ، ولكنه لا يجد الدموع ، ويفزع إلى الله ضارعا أن يمن عليه بنعمة البكاء فلا يستجيب ! ولكن المرأة يا صديقي تسكب من مآقيها ما تشاء حين تشاء ! وأي دموع ... ! وزال من نفسي كل أثر للشك وعرفت أن مي مخلصة لي .

لو اطلعت على رسائلنا ! لو رأيت كيف كنت أذيب روحي وأسطرها كلمات رقيقة أبعث بها إليها ، لو عرفت أي أحلام همت بها ، وكم من صفحات طوال كتبتُ — وكتبتْ هي — عن حياتنا في المستقبل ، عن المنزل والأثاث وكل شيء ... بل عن ميزانية الأسرة وحدود السهر خارج المنزل ... آه لو عرفت ...

ولكن ما في رسائلها من تباين في الأسلوب والمعاني أثار بعض شكوكي ... كنت أعجب كيف تجتمع البلاغة والرقة مع التفاهة والهذر على صفحة واحدة ! وسألتها : هل تنقل بعض ما في رسائلها من ؟ كتب فأقسمت غاضبة أنها لا تفعل ذلك ... وآمنت بالقسم المعظم ...

* * *

لم تمض أيام حتى فوجئت بخبر نقل والدها ... يا للحزن والأسى ! استقبلت أياما سوداً دامسة وليالي لم أذق فيها طعم النوم ! وأعترف لك أني بعد هـذه الليلة المجنونة التي قضيتها معها لم أعد أفكر فيها إلا تفكيرا شهوانيا محضا ، أصبحت نفسي مسرحا لصراع عاصف بين الحقائق والخيالات ... ومع كل هذا لم أكن قد استطعت بعد أن أعترف لنفسي أن مي لم تخلق لي .

ثم بدأ الستار يرتفع شيئاً فشيئاً .

عرفت أن البعض يعرفون سر علاقتنا ، وكانوا يقحمون ذكرها للإساءة إلي ، ولكنني كنت أتجاهل كل شيء ، ألوذ بتلك الكبرياء الصامتة التي تعرفها فيَّ جيداً .. ثم عرفت أن الناس يعرفون أشياء كثيرة عن مي ، ولكن انقباضي عنهم وعنادي لم يتيحا لي فرصة سماع أي شيء .

وأخيراً سمعت وعرفت . عرفت أن الزمن لم يكن قد أصابته نوبة كرم مفاجئة ، فمنحني في يسر وسهولة المرأة التي ظللت أنتظرها عدة سنين ، بل أراد أن يسخر مني فنصب لي شركا .

ومضت السنون وأنا أهيل التراب على الماضي لأمحو ذكراه ، ولكني لم أتخلص من آثاره بعد ...

كانت مي تذهب إلى دار البريد كل يوم لتتسلم رسائلها ، وكان بينها وبين موظف البريد صلة طيبة ...

وكثيراً ما كانت تتصل تليفونياً ببلاد عديدة ، لأن مي لها أصدقاء وأحباب في كل مدينة عاش فيها والدها ! وكثيراً ما كان الموظف الذي يمهد لها سبيل الاتصال يقبض ثمن هذه المواصلات من مداعبة جسمها . وكانت مي على صلة جيارة بطبيب الرمد بالبلدة ، وتتردد عليه كثيراً « لتمس » عينيها محافظة على جمالها ! ... وذكرني حديث العيون بشيء طريف ، فقد اعترفت لي عندما سألتها كيف أحبتني ، فقالت : إن عينيَّ جبانتان ... برغم الزجاج السميك الذي يغطيهما !

وحدث أن سافرت مرة إلى أحد البلدان المجاورة إجابة لدعوة صديق من عهد الدراسة ، وأدهشني كثيراً أنه سألني عن « مي » ، وحدثني عن علاقته بها ، وأطلعني على بعض صورها .. وقد كتبت خلفها — كما فعلت معي — « اذكرني كما أذكرك إلى الأبد » .

لم يدر بخلدي مطلقاً أن المرأة يمكنها أن تكون

خدعة ضخمة إلى هذا الحد المروع ، وعرفت أنى كنت طفلا كبيراً ساذجا .. وتضاءلت فى عين نفسى .

إن مى يا صديقى درست سوق الرجال ، وخبرت أساليبها ، وليس من السهل عليك أن تهتك القناع الزائف من حقيقة نفسها أو حتى حقيقة مظهرها . إن هذا المظهر الفاخر الذى تبدو فيه لا يدفع ثمنه إلا أحبابها — وقد ساهمت فى ذلك ! ولها فى ذلك أساليب تدل على منتهى الدهاء ، ولكنه الدهاء المستور الذى يرتدى ثوب البساطة .. إنها تنتهز فرصة الثقة العمياء بها ، وتوحى إليك بما تطلبه ، قد لا تطالبك أبداً ، ولكنها تخلق الظروف التى تملى عليك ما يجب أن تفعله .. وأى عاشق لا يلتمس الفرصة كى يثبت إخلاصه واستعداده للتضحية ؟

إن مخلفات غرامها لا تزال عندى ، وليتك تأتى إلىّ لترى بعينيك .. عندى عشرات وعشرات من رسائلها ، وعدة صور ، ومنديل ... منديل صغير ملوث « بالأحمر » كنت أزيل به ما يعلق بشفتىّ من خضاب شفتيها بعد قبلات جنونية تحت ستار الظلام على شاطئ النيل أو فى خبايا الأشجار .

أتدرى كيف كانت تكتب رسائلها — تلك التى أقسمت أنها لم تكن تنقل من كتب ؟ كانت تنقلها من رسائل عشاقها وأحبابها الآخرين ... كم وددت لو أحرق هذه الرسائل لأتخلص من شبحها المؤلم ، ولكن رسائلى لا تزال لديها ، وأخشى أن تستغلها يوما فى الانتقام منى ... لأن المرأة لا تغتفر . كم أتوق إلى استرداد هذه الرسائل . إنها عصارة روحى وخلاصة دمى وأحلامى .

... بعد أن عرفت كل شىء من مى كف ذهنى من التفكير فيها ، بعد أن ضحيت فى سبيلها ، وفى سبيل تحقيق رغباتها ونزواتها بواجبات مقدسة ، ولم أراسلها بعد رحيلها ، رغم إلحاح رسائلها علىّ

ولم تكن هذه الخاتمة ... فقد حدثت لى بسببها مشكلات كثيرة لا داعى لذكرها .

ولكنى استفدت بقدر الخسارة ، إن الحقائق تقحم نفسها تحت أعيننا ، ولكننا نتعامى ، وبذلك نجرح كبرياء الحياة ونصيبها فى عزة نفسها ، إننا نتغاضى عن حقيقتها كأنها لا ترضينا ونضع على وجهها من أوهامنا وخيالاتنا نقاباً مزخرف الألوان ، فتسخر منا فى صمت ، ولا تلبث أن تنزع عن وجهها ذلك النقاب الزائف وتقهقه ساخرة .. ثم تنتقم ...

نصرى عطا الله سوسى

معرض تصـوير

وصلنى الكتاب الآتى من صديق زار أحد معارض التصوير الحديث التى أقيمت أخيراً فى القاهرة ، فقضت ألا أستأثر به وحدى ، ورأيت نشره فى مجلتنا الزاهرة إن سمحتم بذلك :

. . . ولقد خرجت من ذلك المعرض ، ومن قرآتى المديدة ، برأى فى الفن الحديث ، أعرضه عليك لتناقشه على مهل ، وتبادلنى فيه الصواب ، فأنا كما تعلم لست بالفنى المختص ، ولم أدرس أصول التصوير ، ولست أدعى النضج فى التفكير ، فما أنا إلا رجل متوسط الذكاء ، ولكنى لست محروما من قوة الخيال . وأعتقد أن المصريين قد يقدرون رأيى كواحد من الشعب .

أنا لا أعجب بالفن الحديث بل أكرهه ، وسأبدى لك الأسباب التى أدت بى إلى هذا الحكم الخطير .

يصور الفنان موضوعات مستمدة من الطبيعة إلى أكبر حد ، فهى إما مناظر طبيعية أو أجسام حية أو نماذج صامتة أو حفر أو مبتكرات خيالية . ولقد استحوذ على ذهنى منذ نشأتى شعور بأن المصور الفنى قوة إدراك خارقة وبصيرة نافذة وخيالاً أعمق مما لغيره ، فهو بذلك ترجمان صادق ورسول الطبيعة للانسان . وأنا عندما أتأمل واحدة من صوره ، أتوقع أن أجد فيها أكثر مما يمكننى رؤيته بنفسى فى الطبيعة .

وأنا لما أنصرف إلى الريف ، آخذ فى تقدير جمال الطبيعة وما فيها من سحر الضوء والظل ، وأعجب بألوان الشمس وانعكاساتها ، وأشكال السحب وسيرها ، وتسترخى نفسى لرؤية الوديان الخصبة والتلال ، وينال الهدوء من نفسى مكاناً كبيراً تحفه الرهبة ، فأسبح بقدرة الخالق فى ملكه !

ولما أتجه للانسان وأتأمله ، ألمس الكمال فى تكوين جسمه وانسجام حركاته ، فيتملكنى الاعجاب بهذا الكمال فى التكوين وبتلك الدقة فى التشييد .

وحتى النماذج الطبيعية الصامتة ، إذا تأملتها لمست فيها قدرة الخالق جل جلاله فى صنعته ، وفى مهارة إتقانها .

* * *

والآن ماذا أتوقع أن أرى فى صورة لمثل هذا المصور الفنى ؟ بل ماذا أتوقع أن تكون قيمة ترجمته لما ذكرت ؟ خصوصاً وأنا أعتقد كما سبق أن قلت ، أنه أعلى فى الادراك من الانسان العادى ، ويستطيع أن يرى وينفذ ببصيرته إلى أعمق مما أرى وأدرك . إنى أتوقع أن يدلنى بفنه على ما خفى علىّ إدراكه أو رؤيته . ولست أنتظر منه دائماً أن يترجم إلىّ المظاهر التى تنال إعجابى ، وأن يتابعنى فى مجرى تفكيرى ، كما أنى لا أتطلب منه أن لا يصور إلا ما يسر فى ويبهج نفسى ، لأنى كثيراً ما أرى لوحات عظيمة بحثت فى تصوير الآلام والهموم والظلم والقسوة ونحوها . وأنا كفرد من الرأى العام أنصت للرأى الجديد ، وأرحب بالأفكار الحديثة الجدية ، وبالفرصة التى تتيح لى درس وجهات نظر غيرى وتعاليمه .

فهل يصادفنى شىء من هذا فى الفن الحديث ؟ وهل يهبنى الفن الحديث لى شيئاً مما ذكرت ؟ كلا ؛ ذلك لأنه ليست له مظاهر العظمة ولا سمة الالهام ، ولا التبحر فى تقدير الجمال والارشاد إليه . وليست له قوة التعبير ولا النضج ، حتى ولا ما يشعر بالجد فى العمل وبتحمل المشاق فى سبيله . وأنا لا أستطيع أن أعتقد أنه صادق فى طويته ، لأنى أرى عليه مظهر التراخى والتقصير والكسل والعجز التام عن تقدير الجمال . فالفنان الحديث ملول شذ عن القديم ، ضجر تملكت الكآبة من نفسه ، وهو لا يثق بالمستقبل ، ولا يفهم الانسان إلا على أنه حيوان وأنه عبد

لشهواته . وهو لا يفهم الطبيعة إلا على أنها قاسية ظالمة . وهو ينكر قيمة الجد فى العمل ويجرده من عظمته وهيبته .

وبينما يحيط به الجمال من كل صوب فهو لا يلبى له نداء . وقد غمره اليأس واستسلم لعقيدة تعمقت فى نفسه ، تقضى بعدم الثقة فى المستقبل ، وأهمل الدرس والبحث واستمرأ الكسل ، فقلت مقدرته على الرسم ، وأضحى تصويره مكوناً من لطخ هوجاء ، تقوم دليلا على عدم نضجه فى صنعته . وما الأشخاص التى يرسمها إلا تشويهات مضخمة معجرفة . وغالباً ما يفقد البقية الباقية عنده من الرغبة فى تصوير الأشخاص ، فلا يكبد نفسه مشقة الحصول على نموذج حى ، فيعمد إلى رسم خطوط لا معنى لها . ولكى يخفى نقصه يطلق على رسومه أسماء مغتوية ، ويخلق حوله جواً من العظمة الفارغة ، ويحيط نفسه بمظهر الكبرياء والعجرفة ، راجياً من وراء ذلك أن يوهم الجمهور ويؤثر فى نفسه . بذلك خلق الفنان الحديث ما أسميه رطانة فنية ، أعتقد أنه لم ينجح أن يغش بها أحداً إلا نفسه ، وهو إذا أهمل الجمهور فنه ، ملأ صراخه ، واتهم الناس بالجهل والتأخر وقلة الذوق .

وهو يتخيل أن لبعض الأجزاء أهمية أكثر مما لغيرها ، فيعمد بذلك عند رسمها إلى المبالغة فى بعض النواحى ، والحذف الكثير فى غيرها ، على زعم منه أن العظمة تقاس بالحذف والتبسيط ، وعلى أن مهمة المطلع على فنه أن يتم ما نقص فى الصورة بخياله عندما يتجه بنظره إليها . وغالباً ما يفشل تقديره فى هذه الناحية ، بسبب الفرق بين العقليتين ، ولمقدار البعد بين الحقيقة والخيال ، لا سيما ونحن نعرفه ذلك المثالى غير المتبحر فى فنه ، والمكتفى بالقشور دون اللب .

وليست هناك حدود لنزعات الفن الحديث ، فإنتاجاته كلها مجهودات فردية هى ضرب من الاعلان عن النفس . ونحن نعلم أنه ليست للأمور الشخصية جاذبية القضايا العامة التى تهم كل إنسان .

ولما نجحت آلة التصوير الشمسى نجاحها الذى بلغ حد الكمال ، فبدت بعض منتجاتها تحتل مكان الصور الفنية اليدوية ، ولما اشتهر الفنان الشمسى واحتل مكانه بين بقية الفنانين ، تساءل الفنان الحديث عما بقى له من صنعة الفن ، وحزت المنافسة الجديدة فى نفسه ، فحاول أن يتخذ له أسلوباً جديداً فى التصوير لا تتمكن آلة التصوير الشمسى أن تنافسه فيها ، فعمد إلى نزعاته المختلفة ، وكان للسينما دخل كبير ، ففيها تكرار سريع متواصل . ولما كان الفنان الحديث يميل بطبعه للتجديد ، فانه صور على طريقة السينما ، فكرر الحركات لا فى ذلك الشريط الطويل المعهود ، بل فى لوحة محدودة ، وفى أوضاع تكاد تكون فوق بعضها فى طبقات .

وربما اتهمنى صديق بأنى ثائر مندفع فى نقدى . ولكن لا بد أنك زرت معارض الموسم السابق بمصر ، ورأيت إلى أى مدى سرت العدوى بين ناشئتنا ، فلطخوا لوحات اشمأزت لرؤيتها نفوس الناس . وقد حاول بعض النقاد الاشادة بذكرهم على صفحات الجرائد ، ولكنى أحمد الله أن تلك المعارض انتهت للخفاء كما بدت نكرات ، فالبقاء للأصلح ، ولا يمكث فى الأرض إلا ما ينفع الناس .

فالفن الحديث فن زائف وسبيله كما يحدث عادة للعملة الزائفة إذا اندست بين الصحيحة ، فانها لا تلبث أن تكشف فتعدم . ولكن سيظل أثر الفن الحديث علماً على عصر من اليأس ، هبت فيه زوبعة من الصنعة الكاذبة . وعندما يصفو الجو ، وتعود للفنان الحديث مبادئه القويمة ، وإدراكه الحقيق السامى ، ويفتح عينيه فيرى نور الفن الحقيق ، ويعود إليه تحمسه ، فيوجه جهوده كلها لصميم الفن ودراسته الصحيحة ، فحينئذ ، وحينئذ فقط ، يعود الفن إلى مكانته السامية ، فيكتسب عطف الجمهور وتأييده له كما كان . . .

(طبق الأصل) محمد يوسف همام

٢ - البكتريا كسلاح في الحروب

المقصود باستخدام البكتريا في الحروب أن ينثر العدو أمراضاً بكتيرية على أفراد خصمه ، المحارب منهم وغير المحارب . وهو سلاح لا يضر الخصم فقط بل قد يضر شاهره . وليس الغرض الأساسي من حرب البكتريا قتل الأفراد فقط ، بل المقصود به تعطيل أكبر عدد من السكان . لأن الوفاة لا تسبب كثرة عناء ، فذاكرة الانسان يعدو عليها الزمان وتطوى الذكريات في عالم النسيان . أما المرض فانه يعجز الأشخاص ، ويلقيهم بين الحياة والموت ، فلاهم أحياء فيرجوا ولا أموات فينسوا . فاذا تمكن العدو من نشر مرض من الأمراض مثل التيفود أو الطاعون أو غيرهما من الأمراض الخطيرة ، عاد ذلك عليه بأعظم الفائدة وتمكن من التغلب على خصمه ، إذ علاوة على ما يسببه المرض من تعطيل المصاب ، فانه يشغل عدداً آخر من أفراد خصمه يقوم بتمريض المريض وخدمته ، فضلا عما يعانيه أهل المريض من تفكير قد يشغلهم عن تأدية عملهم أثناء الحروب على أكمل وجه .

ومما يعزينا ويلقى الطمأنينة في قلوبنا ، أن نشر وباء بطريقة صناعية ليس بالأمر الهين ، فمن السهل أن نتصور الطائرات تحلق فوق رءوسنا ، وتمطرنا بقنابل مشحونة بالبكتريا ، ولكن تحقيق ذلك عمليا يكاد يكون مستحيلا . فما حجم القنبلة ؟ أيقل عن مائة سنتيمتر مكعب ؟ وما مقدار البكتريا التي تملأ هذا الحجم ؟ من المعروف أن جراثيم الأمراض تعيش على أنسجة حية ، وإذا حوول تربيتها على وسط صناعي ، فقدت جزءاً كبيراً من أثرها وقل بذلك خطرها .

ومن حظ البشر أن معظم الأمراض ، لا تنمو جراثيمها على مزرعة صناعية ، لأنها لا تلبث أن تفقد نشاطها ويضعف أثرها في إحداث المرض . ولكن قد يتجه التفكير إلى تربيتها في الحيوانات مثل الخيول والأغنام ، فتشحن أنسجتها بجراثيم المرض ، إلا أن تضحية المواشي في الحروب ليس بالأمر الهين ؛ فهي وسيلة النقل كما أنها قد تكون غذاء ، وعلى فرض التضحية بهاتين الفائدتين ، فإن نقل البكتريا بواسطة هذه الحيوانات قد يؤدى إلى نشر المرض في موطنها ، وإذا أمكننا أخذ كل احتياط لوقاية السكان من خطرها ، فالجراثيم لا بد أن تؤخذ من جسم الحيوان وتملأ بها القذائف ، وفي هذه العملية تفقد شيئاً كبيراً من نشاطها . على أن الخيال قد يجرنا إلى القول بأن تقوم الماشية ، وتمطرنا العدو بوابل من قنابلها المشحون بالجراثيم ، كما يجب أن تعمل الطائرات على دفع السكان نحو الجراثيم حتى تنتقل إليهم العدوى .

على أنه تمشيا مع الفرض النظرى يمكننا أن نتصور القذائف وقد عبئت بالمقادير اللازمة من الجراثيم ، فيجب استخدامها في الحال ، وقبل أن يمضى عليها وقت تفقد فيه نشاطها . على أننا نفرض أنها احتفظت بأثرها الشديد حتى انفجرت القذيفة ، لا شك أن شدة الانفجار تولد حرارة مرتفعة تكون كافية لقتل أى نوع من البكتريا . على أنه قد يقترح استخدام نوع من القنابل الزجاجية ذات الجدار الرقيق ، لتنفجر بمجرد اللمس ، ولكن ذلك يعرض الصناع وعمال النقل لخطر محقق . ولو استخدمت قنابل معزولة وأخذ كل احتياط ممكن ، فانه لا بد لها لتحدث أثرها أن تسقط الجراثيم بين أفراد العدو المحتشد ، كأن تسقط في الأسواق أو المدارس أو الجوامع أو الكنائس . أما إذا سقطت في شارع أو ميدان أو حديقة ، تعرضت الجراثيم للضوء والحرارة والهواء ، هذا إلى أن عدد الأشخاص الذين يحتمل أن ينتقل إليهم المرض يكون صغيرا . وقد يحاول العدو أن يسقط قذائفه على مستودعات مياه الشرب ، ولكن في هذه الحالة يحتاج إلى مقدار كبير ليلوث المستودع ، في حين أنه يمكنه أن يسمم المستودع بمادة كيميائية ، فهي أرخص وأيسر .

ويمكن للعدو أن يعد سائلا يحوى ملايين الجراثيم عالقة به ، ثم يرشها بواسطة الطائرات ، على أن ذلك يتطلب مجهوداً كبيراً للحصول على مقدار كاف من البكتريا ، وأخذ كل احتياط لبقائها محتفظة بحيويتها وأثرها فى إحداث المرض ، وفى هذه الحالة لابد للطائرة من أن تنثر هـذا الرذاذ من ارتفاع منخفض ، مما يعرض الطائرات للاصابة بالمدافع المضادة . وإذا ارتفعت عاليا ، تناثرت الجراثيم فى الجو وقل احتمال الاصابة بها ، لأن الجراثيم قد تتعرض لأثر الرياح والضوء مما يقلل من نشاطها . على أنه لو فرضنا تلافى كل الصعوبات السابقة فلا بد من احتشاد الأفراد فى مكان تناثرها لتتلقى الجراثيم وأمراضها ، فاذا لم يكن هناك تجمهر قلت نسبة الاصابة ، كما أن باقى الجراثيم ستقع على الأسطح أو الطرقات فلا تلبث أن تكتسحها مياه الأمطار أو الرياح أو المنقيات والمطهرات . على أنه لو استخدم العدو جراثيم الأمراض فان ذلك يكون أكبر أثرا ، لأنها تحتفظ بنشاطها وتقاوم مختلف العوامل ، ولكن فى هذه الحالة لا يضمن إحداث الجراثيم المرض ، فهى تتطلب ظروفا خاصة لا يتحكم فيها العدو .

فبكتيريا التسمم مثلا لا تؤثر جراثيمها إلا إذا وقعت فوق جرح ، فلا بد من جرح الشخص ثم تلويث الجرح بجراثيم التسمم ، وقد يلوث العدو قنابله بجراثيم التسمم ، كما كانت قبائل البربر تلوث رءوس حرابها فى العصور البعيدة ، ولكن فى هذه الحالة لا يتعدى أثرها زيادة نسبة الوفيات بين المصابين بشظايا القنابل الملوثة ، ولكنها لا تسبب انتشار وباء التسمم بين السكان . ومن ذلك يتبين أن العدو لن يتمكن من نشر وباء بأى من الطرق المتقدمة .

والطريقة العملية أن يعمل العدو على تلويث مصادر لمياه الشرب أو الألبان أو الأغذية ، ولا يتم ذلك بواسطة الطائرات ، لأن هذا يستلزم دقة فى الرماية ، كما أنه يمكن قتل الجراثيم بتطهير . ولذا وجب على العدو أن يكون له أشخاص فى السكان المراد نشر الوباء به ، وهؤلاء الأشخاص يجب أن يكونوا مندمجين بين السكان بحيث لا يشك فيهم أحد . وهؤلاء يحملون جراثيم المرض بدون أن تظهر عليهم أعراضه إذا اكتسبوا مناعة قوية تتقدم من هذه الأمراض . فالتيفود والدوسنطاريا البكتيرية والكوليراء كل هذه أمراض تنكثر جراثيمها مع براز المريض ، وفى حالة التيفود تخرج مع البول أيضاً . ولا يمكننا أن نميز بين شخص سليم وآخر حامل لجراثيم المرض فى الحياة العادية ، كما أن الجراثيم يمكنها أن تعيش فى جسم الانسان مدة محتفظة بحيويتها ؛ ولا شك أن هذه طريقة قد يلجأ إليها العدو ، فيرسل ممثليه ممن يحملون جراثيم المرض لنثرها فى البيئة المناسبة ؛ ولهذه الطريقة مميزاتها ، فهى توفر على العدو مزرعة صناعية للبكتيريا وحملها بواسطة الطائرات واحتمال تناثرها وعدم وصولها إلى الوسط المناسب ؛ كما أنه يضمن مورداً مستمراً لجراثيم نشطة تصل إلى السكان مباشرة .

وحامل الجراثيم يلوث مياه الشرب واللبن والأغذية بكل سهولة ، وخاصة إذا كان ملما بلغة عدوه وكان بينهم كمواطن لا يشكون فيه . على أن الماء إذا عومل بالكلور واللبن إذا عقم كان ذلك أكبر ضمان للقضاء على جراثيم المرض ، ولكن الخطر فى وجود حامل الجراثيم ممن يعملون فى تعبئة الألبان مثلا ، ففى هـذه الحالة قد يتمكن من تلويث عدد من الزجاجات ، على أنه لا يلبث أن يفتضح أمره . أما مياه الشرب التى لا تعامل بالكلور فهذه تحتاج إلى تلويث مستمر ، ولا يمكن لشخص واحد أن يقوم بهذه العملية إلا إذا داوم عليها ، مما يؤدى حتما إلى ضبطه ، ففى البلاد المتمدنة تعين حراس على موارد المياه لحفظها من العبث وخاصة أيام الحروب .

على أن الدفاع ضد هذه الأخطار إنما يكون بما تتخذه السلطات التنفيذية من إجراآت صحية وطبية ، وما يتعلمه الشعب من طرق الوقاية من أخطار هذه الأمراض . وفى البلاد الأوربية نجد أن كلا من الحكومة والشعب يعملان على حفظ الصحة العامة من أخطار هـذه الأمراض ،

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكى بك

البوذية فى اليابان

فى القرن السادس قبل ميلاد المسيح ، فى الشمال الشرقى من الهند ، على مقربة من جبال الهملايا ، كان يقطن قبيلٌ من المحاربين يُدْعَى بالساقيِّين . وكان لهذا القبيل ملك . فأنجب هذا الملك غلاما . وقبْل أن يولد الطفل ، وحين كان نطفةً لم يستتم تكوينها ، طلب أبوه إلى المنجِّمين أن يخبروه خبره ، فقالوا : لن يقع بصر هذا الوليد حين يَشُبّ على رجل مريض ، أو شيخ كسيح ، أو جثة هامدة حتى يعتزل الدنيا اعتزالا . ومن أجل هذا نشَّأوا الطفل المرهَف الحسِّ على النعيم وأذاقوه من طيِّبات الحياة . ولكنه على الرغم من هذا لم يكد يبلغ التاسعة والعشرين حتى ترك بلاط أبيه ، وطلب الخلوة بنفسه للتأمل فى أمر هذه الدنيا . وظلّ يفكّر فى غوامضها ستة أعوام كاملة ، تكشّفت له فى ختامها حقائق الوجود

من أجل هذا أسموه بوذا ، ومعناها المستنير ، ذلك لأنه استنار من بعد ظلمة ، وأبصر قلبُه من بعد عماء . وبعد استنارته خرج أول ما خرج إلى مدينة فى الشمال الشرقىّ من الهند اسمها بنارس ، وفى هذه المدينة بدأ الدعوة إلى دينه الجديد . ومن بعدها خرج إلى الهند يُطوِّف فيها ويدعو ، وكان دين الناس البَرَهْمِىّ ، فلقى من البراهمة عنتا كثيرا . ولكنه احتمل ، وتاق الهانة بالصبر ، والغلوّ بالاعتدال ، وعاش عيشة البساطة والطهارة إلى أن مات فى عامه الثمانين . وكان موته سنة ٤٨٠ قبل الميلاد .

وقبل أن يموت كسب الملوك لدينه ، فعاش فى كنفهم محميًّا زمانا . وفى حياته ألّف نظاما رهبانيا عظيما دخل فيه كثير من الراهبين والراهبات ، فكانوا رسله بعد وفاته .

ودين بوذا دين قلِقٌ فى أصوله ، غرضه الأسمى الخلاص من الوجود . لكن الوجود والألم مترادفان ، ففى الوجود الولادة والشيخوخة والمرض والموت . « فالولادة ألم . والشيخوخة ألم . والمرض ألم . والموت ألم » . فالخلاص من الوجود يجب أن يخلص المرء من الآلام ، وللخلاص من الآلام يجب أن يفقه الطالب

فلكل دولة معمل بكتيريولوجى يعمل به جمهرة من الاخصائيين فى هذه الناحية ، ولهم من يمثلهم فى كل بقعة من بقاع الدولة ؛ فاذا ظهر أى أثر لمرض من الأمراض ، بادر المختص بأخذ التدابير اللازمة للقضاء عليه . ويشرف هؤلاء العلماء إشرافا تاما على مياه الشرب والأغذية ، فيقومون بتحليل عينات منها من وقت لآخر ، ضمانا لخلوها من الجراثيم المعدية ، كما يكشفون عن كل شخص له علاقة باعداد الأغذية أو مياه الشرب . على أن تعاون الأفراد خير ضمان لنجاة الشعب من خطر البكتريا ، فإحراق الفضلات وغلى ماء الشرب واللبن ، يخلصنا من البكتريا الضارة . كما يجب تغطية الغذاء بغطاء يقيه شر الذباب وما يحمله من جراثيم ، وأخيراً يجب أن يطعم الشعب ضد الأمراض المختلفة حتى يأمن الاصابة بها .

ولا شك أن أخذ كل هذه الحيطة ، من شأنه القضاء على أى محاولة يحاولها العدو إن أقدم على استخدام البكتريا كسلاح فى الحروب . نعم إن القنابل المحرقة والمتفجرة والغازات يهابها الانسان أكثر من البكتريا ، ولكن يجدر بنا أن لا نقلل من أثر البكتريا فنهمل ما يتبع لدرء خطرها . على أن الحكومة الساهرة على حياة أفرادها ، والأفراد المتيقظون المتعاونون على بقاء وطنهم ، هذان هما خير ضمان للنجاة من حرب البكتريا .

محمد أحمد بنونة

أسبابها . وأسبابها توجد في التحرّق إلى المطالب ، في التحرّق إلى إشباع الشهوات بشتّى صنوفها وعلى اختلاف درجاتها . فلزوال الألم لا بد من زوال التحرّق إلى إشباع الشهوة ، ولا بد من إسكات المطالب وإخراس الرغبة في المتعة بهذا الوجود . فإن زال التحرّق ، زال الألم ، وإن زال الألم زال الوجود ، وتخلّص المرء من أعبائه فبلغ مراتب السعادة ، فالسعادة إنما تكون في إنكار هذه الذات وهذا الوجود .



بوذا

أما الطريق إلى ذلك فيتألف من مسالك ثمانية ، وهي بالترتيب : النظرة الصائبة ، فالنيّة الصائبة ، فالقول الحق ، فالعمل الحق ، فالرزق الحلال ، فالمجهود الصادق ، فالذكر الصادق ، فالتأمل الصائب . وسلوك هذا الطريق يتضمن تدريباً شديداً شاقاً لا يتفق مع حياة الأسرة ، ومن أجل هذا كانت الرهبنة . ومن أخطر هذه المسالك الثمانية ثامنها وهو التأمل . ففيه يتركز التأمل على شيء واحد يختاره ، ثم هو يُمعن فيه بالفكر ثم يُمعن ، وكلما أمعن بَعُد عن نفسه ، واضمحل فيه الحس بجسمه ، حتى يشمله الذهول فلا يعود يرى أو يسمع أو يدرك مما حوله شيئاً . وهو يرتقي إلى هذه الغاية من التأمل على درجات أربع أو خمس أسموها المراتب .

والبوذية قانون في الأخلاق يتألف من أوامر ، أهمّها خمسة : أنْ لا تقتل . أن لا تسرق . أن لا تزن . أن لا تكذب . أن لا تسكر .

وفي البوذية فضائل ست ، لا تؤهل بذاتها إلى غرض العيش الأسمى — إلى الخلاص من الوجود — ولكنها تُعين عليه . وتلك هي : الكرم ، الطهر ، الصبر ، الشجاعة ، الفكر ، العلم .

والكرم الذي تنصح به البوذية كرم كامل شامل ، فهو في اتساعه يشمل كل الخلائق ، كائنةً هذه ما كانت ، وهو في نوعه يكلف صاحبه أشد صنوف التضحية وأقسى ضروب الحرمان .

حكوا من بوذا أنه في تنقّل روحه بين الأجسام التي تقمّصتها قبل أن يحيي حياته الأخيرة في الهند ، مرّ على لبوة فوجدها تتضور جوعاً ، ووجد حولها أشبالها يتضورون منها ضرعاً جف اللبن فيه . فما لبث أن جاد بجسمه للبوة كي تتلّ ضرعها فيتغذى صغارها .

وفي البوذية أخلاق أخرى يتخلق بها المريد لبلوغ الغاية ، ولكنها لا ترتفع إلى درجة ما سبق . ومن أمثلة هذه حب الكافّة ، والصفح عن إساءة الأعداء ، وأنْ يمتنع البوذي عن مقالة السوء ، وعن السفه والهذر ، وعن خشونة اللسان .

ومن عقائد بوذا ما اعتقده البراهمة من قبله من تنقّل الروح الواحد في الأجساد العدّة على الأجيال المتتابعة في سبيلها إلى الخلاص الدائم . فالحياة ألم وإيجاب ، والخلاص راحة وسلب ، وهذا التنقّل درجاتٌ إلى السلب الكامل والفناء الأخير الهانيء . وفي نحو هذا قال البراهمة الموحّدون : صِل كينونتك بكينونة الله الذي لا ذات له ،

بكينونة الله الذى أنت منه ، فانك عند الموت تفقد ذاتك ، وتفقد فرديتك ، وتفقد الاحساس بوجود شخصيتك ، لتندمج فى الاله الأكبر الذى هو الوجود كله ، كما تندمج قطرة الماء فى المحيط .

ومن عقائد بوذا دفعُ ما ارتآه البراهمة من قبله مِن أن الناس مراتب ، علياها القساوسة البَرْهَمِيُّون ، وسفلاها الأنجاس النبوذون . فناقضهُ لهم أسس دينه على أن الناس سواءٌ مهما اختلفت الأصلاب وتباينت الدماء . فالرجال عنده بأعمالهم لا بأصولهم . ومن أجل هذا رحّب بالكبير كما رحب بالصغير ، وأكرم الشريف الرفيع كما أكرم النبوذ الوضيع .

فهذا هو الدين الذى جاء يدقّ باب اليابان فى منتصف القرن السادس بعد الميلاد .

وكان لليابان دينها الذى وصفناه فى المقال السابق ، وهو دين بدائىٌّ ، غايةٌ فى البساطة ؛ وغايةٌ فى الاجداب ، لا ينظر إلا إلى أصول أهل هذه الجزر اليابانية ، ولا يفرض إلا أنهم نزلوا من أصلاب الآلهة . فهو ينظر إلى مَآتى الناس ولا ينظر إلى مآلهم . وهو لا يفترض لهم كينونة إلا هـذا الواقع الذى تراه العين وتسمعه الأذن ، وهو لا يرسم طريقة للحياة ولا برنامجاً للأخلاق والمعاملات . وهو لا يدعو الآباء الآلهة إلا لزيادة الخير ودفع الضر فى هـذه الحياة الدنيا . أما الحياة الآخرة فهى ليست عنده إلا أرواحاً تعمر الفضاء بالنفع والايذاء لمن خلّفت على الأرض من أبناء ، فاليها تُرفع الدعوات ، وفى سبيل ترقيق مزاجها واستقرار رضيها تقام الصلوات .

حار اليابانيون بين دينهم القديم ، وهذا الدين الطارق الجديد . وكان هذا الدين الجديد دين الصين . وكانت مدنية الصين سبقت إلى اليابان ، فأخذ اليابانيون منها أخذاً ، وأكبروا كل ما أخذوا منها إكباراً ، وجاء هذا الدين أخيراً فى أذيال ما أخذوا . فلم يكن بد من إكباره ، لا بسبب ما تضمن من فلسفة فحسب ، بل لأنه صينىٌّ ، والصينية كانت جواز المرور لكل شىء يريد أن يدخل اليابان دخولا سهلا هيناً .

ولكن حدث أن نزل باليابان فى تلك السنين وباء ، فزعم القوم أنه غضبُ الآلهة على هذا الدين الجديد ، فمنذئذٍ حُرِّمت البوذية على الناس . ولكن الوباء زاد واستفحل شره ، فزعم الآخرون أنه غضبُ بوذا ، وأنه سيُهلك البلاد والعباد . فمنذئذ أذن الامبراطور لكبير الأمراء أن يعتنق هو وأهله البوذية على سبيل التجربة ففعل .


كاهن معبد بوذىّ

ومن يومها أخذت البوذية تنتشر فى البلاد . فاعتنقها الأباطرة . وكان من أكبر نصرائها ولىٌّ للعهد اسمه تَيْشِى ، مات دون أن يبلغ المُلك عام ٦٢١ ، ولكنه حكم البلاد قبل موته قرابة ثلاثين عاما ، وكان رجلا مثقفا ، وكان بطبعه فنّانا ، وكان أديبا عالما ، وكتب كثيراً فى تاريخ بلاده ، وكتب فى الدين الجديد باحثا ومفسرا ؛ ولكنه فعل باسم البوذية خيرا من ذلك . وكان سوء الحال بلغ فى اليابان أقصاه ، فلم يعد الزوج يحنو على امرأته ، ولا المرأة على زوجها ؛ ولم يعد الرجل يرحم ابنه ، ولم يعد الابن يرحم أباه . فقام تَيْشِى بسن القوانين ، ورسم أسلوباً للمعاملة وطريقة للعيش الطاهر ، أخرجها للناس فى ثلاثين مادة ، كانت أول ما عرف اليابانيون من أمثالها . وكانت سلطة الامبراطور قد ضاعت ، أضاعها حكّام الأقاليم من الأمراء ، فأعاد تَيْشِى إلى الامبراطور سلطانه ليكون حامياً للدين الجديد والفلسفة الجديدة من بعد ذلك . واختصاراً فالتاريخ يذكر تَيْشِى بأنه صاحب

الفضل الأول في تدعيم البوذية في اليابان .

وبدخول البوذية استفاق الناس إلى رأي في السيادة جديد . فقد كان النظام الإقطاعي بلغ حداً مرهقاً من الإجحاف ، سارّ به ، لا إلى فوق حيث جلس الأمبراطور على عرش ليس له منه غير مظهره ، ولكن كذلك إلى تحت حيث خَلَق في جمهور الأمة طبقة مسخَّرة من الناس ، هي أكثرية الناس ، بلغ بها التسخير درجات العيش الدنيا ، فكانت أشبه بالعبيد . فبدخول البوذية استفاق العبيد إلى أنهم وأسيادهم سواء ، وأن العبودية ليست إلا من أوضاع البشر ، وأنها ليست من قوانين الوجود . وأن الناس ، كما قال بوذا ، بأعمالهم لا بأصلابهم . وحدثت الثورة المرجوّة ، فخُلع سادة الريف عن سيادتهم ، ورُدّت ملكية أرض اليابان جميعاً إلى الأمبراطور — بعد أن صار ربّ الدولة حقاً — ليفرّقها على الناس من جديد ، على أساس الفكر الجديد الذي يقول إن الناس سواسية ، وإن ما تخرجه بطن الأرض من ثمرات رزقٌ حلال يوزَّع بالقسطاس على من حلّ على ظهرها من الخلائق .

والبوذية عند دخولها اليابان كانت بلغت من عمرها نحو ألف عام . فكان لها ، إلى جانب فلسفتها وأخلاقها ، آداب كثيرة تراكمت على القرون ، وكان لها إلى جانب الآداب فنون ظهرت في معابدها ، فكانت قطعاً روائع من الفن الخالد . واليابانيون لهم سليقة في الفن لا تُجحَد . فدخلت هذه الثروة الكبيرة من أدب وفن مع البوذية إلى اليابان . فتلقّف الناس هذا الفن الجديد فصنعوا منه فناً يابانياً أصيلا يتراءى إلى اليوم في صورهم ومعابدهم ، حتى وصناعاتهم .

ولكن بقي بين قلوب الناس وبين هذا الدين الجديد شيء من تجافٍ تحسه المهج في قراراتها ولا تنطق به الألسنة . ذلك أن آباءهم ، وهم مَعبودوهم ، والمحاور التي دار ويدور عليها العيش فيهم ، لم يكن لهم مكان في دين بوذا . وأباطرتهم وهم نسل الأرباب ، وهم من هذا النسب القديم يستمدّون سلطانهم على هذه الأرض ، لم يكن لهم مكان في دين بوذا . وبقي هذا الشعور كالغصة في الحلقوم ، حتى إذا استفحل استفحالا ، وأصبح المداء فيه تصريحاً وإعلاناً ، قام قِسٌّ ياباني يؤلف بين العقيدة القديمة ، وهي وطنية قومية صميمة ، وبين العقيدة الجديدة وهي روحية صميمة ، فأعلن في الناس أن بوذا كان قد حل في أجساد هؤلاء الأرباب والآباء قديماً ، فهم ليسوا إلا نسخاً منه . وبهذا أشبعت القومية في أكثر المعارضين ، وزالت الجفوة واستقر الدين ، وسلّم الشنتيّون معابدهم إلى البوذيين .

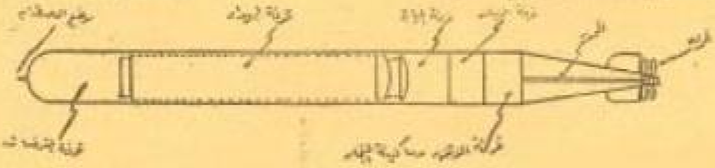
وما جاء ختام القرن السابع حتى كانت اليابان بفضل البوذية والمدنية الصينية ، بلداً متحداً تحكمه حكومة مركزية ، على رأسها امبراطور ذو سلطان ، وقد أمحت فيها نُظُم الاقطاع امحاءً كبيراً ، وتوزعت الأرض على الناس توزيعاً أكثر إنصافاً . وكان للناس أسلوب مدني إنساني عليه يعيشون ، وقواعد جديدة للتعامل والتخلّق إليها يرجعون .

أحمد زكي

من هنا وهناك

السؤال رقم ١١ : ما هو الطوربيد ؟

كثر الكلام في أيامنا هذه عن إغراق كثير من البوارج الكبيرة والسفن الحربيــة والتجارية بفعل الطوربيد ، سواء قذف من الطائرات أو الغواصات . ولكي نستطيع أن نتصور مفعوله الفتاك يكفي أن نذكر أن المدة التي تصنع فيها البارجة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات يكون فيها العمل مستمراً ليل نهار ، ومثل هذه البارجة التي تكلف الدولة بضعة ملايين من الجنيهات تمحى من الوجود وتغوص إلى أعماق البحار ، فتذهب مجهود آلاف وآلاف من العمال في زمن لا يزيد على خمس دقائق إذا أصيبت بطوربيد محكم التصويب .



الطوربيد

اخترع الطوربيد مهندس أمريكي يدعى روبرت فولتون في سنة ١٨٠٥ ، وكان له أثر فعال إبان الحرب الأهلية الأمريكية ، وبالرغم من أنه لم تكن له حينذاك تلك الصفات والتحسينات التي أدخلت عليه حديثاً ، فقد كان السبب في إغراق كثير من السفن المشحونة بالذخائر والرجال .

أما الطريقة التي كانت متبعة في ذاك الوقت فهي كما يأتي : يوضع الطوربيد في زورق صغير يقوده ضابط أو بحار وينزل به من على ظهر السفينة الحربية إلى الماء ، عندما يشاهد إحدى السفن المراد نسفها ، ثم يتجه الزورق بأقصى سرعته صوب سفينة العدو ، وعندما يقترب منها يقذف القائد بنفسه في البحر ويعود إلى باخرته سابحاً تاركا زورقــه — حامل الطوربيد — يصطدم بسفينة الأعداء التي غالباً ما يكون مصيرها إلى قاع البحر بما فيها من مال ومتاع وأرواح . ويسهل علينا أن نعرف أنه كان لتلك الطريقة مميزات كثيرة ، كما كان لها أيضاً عيوب أكثر . ومن أهم مزاياها أن الزورق كان يصيب في أغلب الأوقات منتصف السفينة لأنه كان تحت قيادة بحار واسع التمرين ، فاذا ما انفجر الطوربيد شق السفينة إلى نصفين ، أو أحدث بها فجوة كانت القاضية . أما عيوبها فعديدة ، منها أن شظايا الطوربيد كانت غالباً ما تصيب البحار وهو راجع إلى باخرته سابحاً فتقتله ، هذا إذا لم يقتل برصاص مدافع العدو قبل أن يقذف بنفســه إلى البحر ، وفي تلك الحالة الأخيرة ينحرف الزورق عن هدفه فلا يصيب سفينة العدو في الموضع المطلوب ، أو لا يصيبها على الإطلاق .

وقد تقدم العلم بعد ذلك ، وتعددت التحسينات في صناعة الطوربيد ، وتلافى عيوبه ، حتى ظهر أخيراً في سنة ١٨٦٤ بثوبه الجديد ، وهو لا يختلف كثيراً عن صورته في أيامنا الحاضرة ، وينقسم — كما هو مبين في الشكل — إلى عدة أقسام .

١ — غرفة المفرقعات : وبها خمسمائة رطل من المواد الشديدة الانفجار ، تنفجر بمجرد اصطدام رأسها بالسفن بجسم صلب ، وعندما ينفجر الطوربيد يتفتت غلافه الخارجي ، وتتناثر شظاياه في جميع الجهات .

٢ — غرفة الهواء : وتحتوي على هواء تحت ضغط ٢٥٠٠ رطل لكل بوصة مربعة ، وهو يمد المواد المفرقعة بكمية الأكسيجين اللازم لاحتراقها .

٣ — غرفة المياه : ولها فائدتان عظيمتان : أولاً

تصنع مع الهواء توازناً للطوربيد فلا يطفو على سطح البحر أو يغوص إلى عمق كبير . وثانياً غد غرفة الآلات بالماء اللازم حيث يحول بالتسخين إلى بخار يدير الماكينات

٤ — غرفة الآلات : وتحتوي على ماكينة Turbine تدار بالبخار ودينامو ليولد كمية من الكهرباء كافية لإدارة الموتور ، وهذا الأخير يدير محركاً في نهاية الطوربيد ، فيسبب سيره في الماء .

٥ — أجزاء صغيرة أخرى ، وآلات ضبط تحتفظ بسريتها الدول المختلفة فلا تذيعها خوفاً من استفادة العدو منها

ولانطلاق الطوربيد من السفينة الحربية طرق كثيرة : فنها الهواء المضغوط (وكان يستعمل قديماً) ومنها انفجار المواد المفرقعة كما في حالة البندقية حيث يتولد من الانفجار غاز يرتفع ضغطه ارتفاعاً كبيراً فيسبب طرد الطوربيد بسرعة ابتدائية عظيمة .

وهنـــاك مسائل هندسية دقيقة يجب معرفتها وحلها قبل إطلاق الطوربيد . فإذا ما شوهدت إحدى سفن العدو وجب حساب المسافة التي تفصل الطوربيد عنها وسرعتها واتجاهها وطولها ، كما يجب أيضاً معرفة سرعة الطوربيد بعد انطلاقه وسرعة السفينة التي كان بها الطوربيد . وتحل تلك المســائل رياضياً بأسرع وقت وبكل دقة وعناية . حقاً أنها لكارثة إذا ما انحرف الطوربيد عن إصابة هدفه .

وإلى الآن لم تُعترف طريقة مباشرة لتفادي ضربة الطوربيد ؛ ولكن هناك احتمالات ألا يصيب السفينة إذا سارت في اتجاهات ملتوية أي مرة إلى اليسار وأخرى إلى اليمين .

وقد وفر اليابانيون على أنفسهم عناء الحساب ، فابتدعوا ما يسمى « بالطوربيد الحي » فينطلق الطوربيد من السفينة وقد امتطاه رجل (وما أكثر من أرواح الرجال عندهم) فيسيّره كيفما شاء ، ويضحي بحياته في سبيل إغراق إحدى سفن العدو . لقد خرقوا بذلك القوانين والاتفاقات الدولية . وعبثاً أن يتبع في زمن الحرب نظام القوانين والاتفاقات .

محمد أحمد أمين

محكمة طنطا الأهلية

إعلان بيع عقار في القضية رقم ١٣٦٦ سنة ١٩٣٨ (المرة رابعة)

إنه في يوم الأحد ٥ أبريل سنة ١٩٤٢ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسراي المحكمة بغرفة المزادات . سيباع بطريق المزاد العلني الجبري العقار الآتي بيانه بعد الملوك إلى ورثة أبو الناطي محمد عباد وهم عبد الحميد وشلبي وفطومة وياسين أبو الناطي محمد عباد — ورثة المرحوم الشاذلي إبراهيم وهم إبراهيم ومفيدة ووهيبة الشاذلي إبراهيم — محمد عوض سيد أحمد — مرسي محمود أحمد الجميع من مصرف الجرن تبع طنطا مركز بيلا وهذه هي بيانات العقارات .

١٢٤ متر القطعة نمرة ١ بحوض مصرف الجرن نمرة ٥١ ملك محمد عوض سيد أحمد . البحري فضاء ضمن القطعة نمرة ١ بحوضه وبه باب المنزل يفتح بطول ١٣/٨ متر والشرقي فضاء ضمن القطعة ١ بحوضه بطول ١٣/٥٠ متر منكسر والقبلي حماد اسماعيل بطول ١٨ متر والغربي شارع بطول ٩/٢٠ متر منكسر .

٢٩٦ متر — قطعة بحوض مصرف الجرن ٥٩ ملك ورثة الشاذلي إبراهيم . البحري شارع وبه باب يفتح بعضه حماد اسماعيل بطول ١١/٥٠ متر والشرقي بعضه حماد اسماعيل وبعضه ورثة المرسي البحري وبعضه ورثة المتولي مصطفى بطول ٣١/٢٠ متر منكسر .

٢٦٣/٣٨ متر قطعة نمرة ١ بحوض مصرف الجرن نمرة ٥٩ ملك ورثة أبو الناطي محمد عباد . البحري شارع وفيه الباب منفتحان بطول ١٥/٠٥ متر منكسر والشرقي ورثة ابراهيم عيسى بطول ١٧/٥٠ متر والقبلي بعضه محمد النبوي وبعضه محمد علي الشاذلي وبعضه فضاء بطول ١٦/٣٠ متر والغربي فضاء بطول ١٥/٢٠ متر

٧٥/٦٢ متر قطعة نمرة ١ بحوض مصرف الجرن ملك ورثة المرسي محمود احمد . البحري حارة وفيه باب يفتح بطول ١١ متر منكسر والشرقي بعضه شارع وبعضه فضاء بطول ١١/٦٠ متر والقبلي علي محمد سالم بطول ٧ متر والغربي ابراهيم محمود بطول ٨/٥٠ متر

٧٢٩ متر فقط سبعمائة تسعة وعشرون متراً لا غير

وهذا البيع بناء على طلب الحكومة المصرية النائب عنها حضرة صاحب العزة مدير عام مصلحة الأملاك الأميرية والمتخذ له محلاً مختاراً بقسم قضايا المالية بشارع الدواوين بالقاهرة وفاء لمبلغ ٣٧٩ جنيه و ٢٨٨ مليم مع ما يستجد من المصاريف بثمن أساسي قدره ١٣ جنيه و ٨٢٤ مليم بعد تنقيص الخمس لآخر مرة — وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢/١/٩٤٠ والمسجل بمحكمة المنصورة المختلطة الأهلية في ٤/١/١٩٤٠ نمرة ١٢٣ جزء ٢٠ السجلات

فعلى من له رغبة في الشراء الحضور وشروط البيع وكافة الأوراق بدوسيه الدعوى لمن يريد الاطلاع عليها كاتب البيوع

حكم في القضية المستأنفة رقم ٦٨٤ سنة ١٩٤٠ بتاريخ ٤/٦/١٩٤٠ ضد محمد حبيب عباس وسكنه بشارع غيرت بتغريمه ١ جنيه لبيعه عدساً بسعر أزيد من التسعيرة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٣٩٠ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٨ | الثلاثاء ٣٠ من صفر سنة ١٣٦١ — ١٧ من مارس سنة ١٩٤٢ | السنة الرابعة

فهرس العـــــــدد

على هامش الحرب :

حرب الطائرات

للأستاذ السيد محمود زكي

لقد أصبح الهجوم بالطائرات ، سواء على الأهداف العسكرية أو المدنية ، مظهراً ملموساً من مظاهر هذه الحرب الحالية ، وأصبح سماع صفارات الانذار أمراً عادياً ، قد ينـذر بشر مستطير ، وقد تمر الطـائرات بسلام لغرض استكشاف .

والطائرات عند ما تبغي هجوماً نحو هدف معين ، تهجم عادة على شكل سرب لا يزيد عن خمس وعشرين طائرة ، وتتابع موجات الأسراب متتالية على فترات متقطعة الواحـد تلو الآخر ، ويحاول كل سرب أن يكمل ما فات السرب الذي سبقه ، أو أن يزيد من شدة الاصابات .

وكثيرا ما توجه هذه الطريقة الوجيهة نحو مراكز متعـددة في وقت واحد لتشتيت الجهود الدفاعية ومنعها من تركيز انتباهها في الدفاع عند نقطة واحدة .

ويتكون السرب عادة من قاذفات قنابل مثقلة بما تحمل ومن طائرات مقاتلة تحمي القاذفات وتسهل لها مهمة إلقاء القنابل على الأهداف التي تقصدها .

قاذفات القنابل :

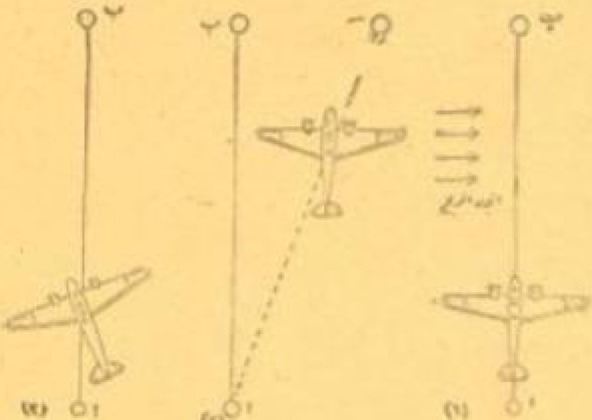
فى الوقت الذى لا يمكن لطائرة الطاردة ذات المقعد الواحد البقاء فى الجو أكثر من ساعتين ، نجد أن قاذفة القنابل يمكنها البقاء ورجالها فى الجو لمدة عشر ساعات ، معرضين لبرودة شديدة ناشئة من ارتفاعهم لمسافات عالية .

ومهمة قاذفة القنابل هى الاهتداء لهدفها وإلقاء القنابل عليه ، والواقع أن الاهتداء إلى هدف على بعد مئات الأميال من قاعدة الطائرة ، وشق الطريق إليه ليلا فى الظلام ، مع عدم وجود أجهزة راديو تساعد الطائرة على تحديد الوضع فى الظلام الدامس الناشىء من إطفاء الأنوار فى البلاد المقصودة ، كل هذا يجعل الوصول إلى الهدف صعباً ويحتاج إلى مهارة فائقة .

ويساعد أفراد الطائرة على الوصول إلى أهدافهم تعاون رجالها تعاوناً كاملاً ، ومعرفة الملاح الجوى الذى بالطائرة طريق سيره ؛ فعليه قبل مغادرة المطار أن يعمل حساب التغيرات التى تقابله فى الطريق ، وأن يدرس الطريق الذى سيخترقه من ماء أو أرض ، وأن يعرف جميع نقط الطاردة والمدافع المضادة التى عليه أن يتجنبها ، وأن يكون مزوداً بالمعلومات التى تقدمها طائرات الاستكشاف .

وأهم ناحية أخرى تستحق منه العناية دراسة حالة الأرصاد الجوية ، ومنذ بدأت الحرب الحالية تعتبر التقارير عن الأرصاد الجوية من الأمور السرية التى يجب عدم إفشائها ، مع أنه كانت تذاع قبل الحرب من محطات الإذاعة الأجنبية التنبؤات بحالة الجو التى تعدها محطات الأرصاد الكثيرة الموجودة فى إنجلترا وألمانيا وسائر بلاد العالم لهذا الغرض .

ولنضرب مثلا نبين فيه أهمية التغيرات فى حالة الجو ، وما تحدثه من مضاعفات للطيار ما لم يتداركها ؟ فالريح إذا تغيرت أو اشتدت بحيث كانت تهب عمودية مثلا على خط سير الطائرة ، فإنها تبعد الطائرة عن قصدها وتسبب لها انحرافاً كبيراً يترتب عليه إصابة نقطة أخرى خلاف الهدف المقصود ، ما لم يكن الطيار مدركاً لتغير سرعة الريح ، فينحرف بطائرته زاوية مخصوصة تعادل أثر سرعة الريح ، فيصيب الطيار هدفه تماما .



(شكل ١)

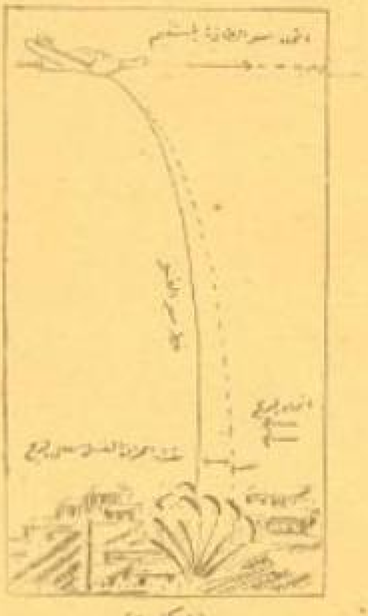
فحين تقوم الطائرة من المكان ا فى الرسم قاصدة ب لضربه ، فإن خط سيرها يكون محدداً فى الاتجاه ا ب ، أما إذا تغير اتجاه الريح وكان عمودياً على جنب الطائرة ، فإن الطائرة تصل إلى نقطة حـ بدلا من ب ، ويترتب على ذلك إصابات خاطئة غير مقصودة .

ومهمة قاذف القنابل هى تصويب القنابل وإلقاؤها بعد تقدير العوامل التى تؤثر فيها كارتفاعها وسرعة الطائرة والانحراف الذى تحدثه الريح الخ . ويستعين الطيار على ذلك بالأجهزة الموجودة فى الطائرة ، ولها أزرار إذا ضغط عليها

بأكمل يده اليسرى السابت القنابل الواحدة بعد الأخرى .

ومما يزيد في صعوبة مهمته اضطراره إلى البحث عن الأهداف التي يبغى إصابتها في وقت زاد فيه إتقان فن إخفاء المواقع الحربية أو المصانع أو المخازن ؛ ولهذا فإنه يلجأ إلى ملاحظة ظلال المباني المرتفعة ، وعليه أن يعرف كيف يميز بينها وبين مدلول كل منها كعلامات يسترشد بها في الوصول إلى أهدافه .

ولإحكام تسديد إصابة الأهداف إذا كانت الطائرات غير منقضة يتحتم على قائد الطائرة أن يوجهها في اتجاه مستقيم ، على حين يقوم قاذف القنابل بإلقاء قنابله بعد أن يكون قدر العوامل التي تؤثر على سير القنبلة كما ذكرنا ؛ وهذه اللحظة من أخطر اللحظات التي تمر بالطائرة ، فهي تعطي فرصة لبطاريات المدافع المضادة ، لحساب سرعة وارتفاع الطائرة لتكون عاملا في إصابتها .



(شكل ٢)

فإذا أجبرت المدافعُ المضادة الطائرةَ على الابتعاد من هدفها فإنها تغير في خط سيرها وتمرج اتجاهها وارتفاعها ، فيصعب على المدافع المضادة ملاحقتها أو حساب موقعها بالضبط .

والرسم المبين هنا يوضح طريق سير القنبلة عند سقوطها في الجو من الطائرة التي تسير في خط مستقيم كما أنه يبين مدى الانحراف الذي يحدث لها من أثر الريح ويترتب عليه إصابات خاطئة .

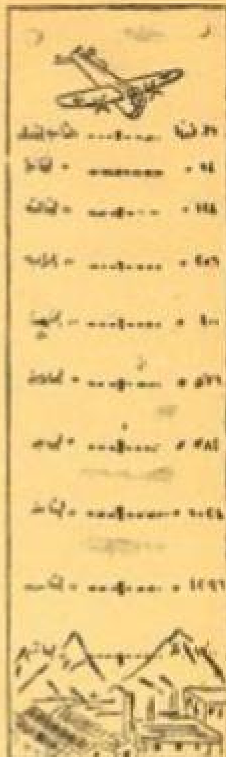
والطائرات الهاجمة لاتنساب منها القنابل عندما تكون فوق هدفها تماماً على ارتفاع ١٠٠٠٠ قدم مثلا ، لأن سرعة الطائرة تدفع القنبلة بعيداً عن هدفها ، كما أن تياراً من الهواء قد يحرف القنبلة عن مسلكها ؛ فكلما كان سقوط القنابل من ارتفاع شاهق كان مجال خطأ إصابة الهدف كبيراً .

والقنابل كأى جسم يسقط في اتجاه الأرض يكتسب سرعة عند هبوطه ، فكلما كان ارتفاع القنبلة عالياً كانت سرعة هبوطها كبيرة جداً .

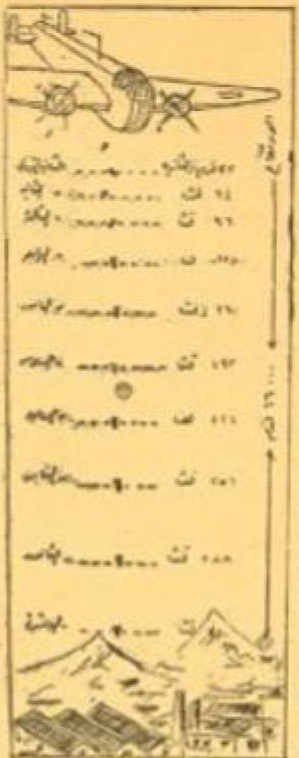
فمثلا إذا سقطت قنبلة من ارتفاع ١٦٠٠ قدم فإنها تهبط ١٦ قدماً بإنتهاء الثانية الأولى ، وتقطع ٦٤ قدما بعد الثانية الثانية و ١٤٤ قدماً بعد الثانية الثالثة ، و٢٥٦ قدماً بعد الثانية الرابعة ، وهكذا ، أى أنها تصل للأرض بعد عشر ثوان ، ويظهر ذلك بوضوح في شكل ٣] .

كما أنه يتضح من الشكل المجاور له السرعة التي تهبط بها نفس القنبلة التي تلقى من نفس الارتفاع ؛ فسرعة هبوطها في نهاية الثانية الأولى ٣٢ قدما في الثانية ، وفي نهاية الثانية الثالثة تكون سرعتها ٩٦ قدما في الثانية . . . وفي نهاية الثانية العاشرة أى عند وصولها للأرض تكون سرعة هبوطها ٣٢٠ قدماً .

ويمكن بسهولة حساب السرعة التي تهبط بها أى قنبلة ، وكذا زمن وصولها للأرض من ارتفاع الطائرة التي تلقى القنبلة .



(شكل ٣ أ)



(شكل ٣ ب)

* * *

الطائرات المنقضة :

والطائرات المنقضة تهبط عادة من ارتفاع كبير (١٠٠٠٠ قدم مثلا) بزاوية حادة كبيرة وبسرعة عظيمة . والرسم (شكل ٤) يوضح الطريق الذي تسلكه طائرة منقضة لاصابة هدف معين ، فحين تصل إلى الوضع (١) تقذف بقنابلها ثم تعود إلى الصعود في الجو .

وطريقة إلقاء القنابل أنه يوجد تحت جسم الطائرة « شوكة قاذفة » وظيفتها أخذ القنابل وإلقاؤها وقت انقضاض الطائرة بعيداً عن مروحة الطائرة تجنباً من إصابتها .



(شكل ٤)

ولما كانت الطائرة المنقضة تكسب سرعة كبيرة أثناء هبوطها فانه توجد فرامل هوائية "Air Brakes" مثبتة بالجناحين تحرك عند الهبوط بحيث تصنع زاوية قائمة مع سطح الجناحين للتخفيف من سرعة الهبوط الكبيرة .

* * *

بقيت مسألة طريفة نود أن نسجلها في ختام هذا المقال ، فقائد الطائرة الهاجمة يحتاج إلى الاحتفاظ بجزء كبير من نشاطه وهدوء أعصابه بالقدر الذي يساعده على نجاح مهمته الشاقة ، وهي إلقاء قنابله على الأهداف التي تبعد عن قاعدة طيرانه بمئات الأميال ، ولذلك فهو يستعين بصديقه « جورج » ؛ وهو جهاز آلي معقد التركيب ، يطلق عليه الطيارون الانجليز اسم « جورج »

ويلتمسون منه العون في قيادة زمام الطائرة في الساعات القليلة التي تسبق الوصول إلى الهدف .

* * *

وأخيراً ، لقد وثب الطيران وثبة جبارة في الفترة القصيرة التي مضت بين الحرب العظمى الماضية والحرب الحالية ، وأصبحت الدول المتحاربة تتسابق في بناء طائرات من مختلف الأنواع ، ويدرب لها شبان ينتخبون بشكل خاص ، وما ذلك إلا لأهمية الدور الذي تلعبه الطائرات في الأغراض الحربية . وبانتهاء الحرب الحالية ينتظر أن يكون للطيران شأن كبير أيضاً لتحقيق أغراض أخرى .

فهل يقدر لنا أن نرى اليوم الذي تنتشر فيه ثقافة الطيران بين أبنائنا ، وأن تزداد قوة أسطولنا الجوي ؟

نرجو أن يتحقق ذلك ، وأن يكون قريباً .

السيد محمود زكي
وكيل المدرسة التوفيقية

مولانا جلال الدين الرومي

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٣ —

ولصاحب المثنوى مهارة وبراعة في تضمين الآيات والأحاديث والملاءمة بينها وبين الوزن بتغيير يسير مثل قوله :

وز ملك هم بايدم جستن زجو
كل شيء هالك الا وجهه

پس عدم كردم عدم چون ارغنون
گويدم إنا إليه راجعون

وقوله في حديث الشيطان في غزوة بدر :

كه أخاف الله مالي منه عون
اذهبوا إني أرى ما لا ترون

وقوله في فاتحة المثنوى :

عشق جان طور آمد عاشقا
طور مست وخر موسى صعقا

ومن تضمين الأحاديث :

گوش من « لا يلدغ المؤمن » شنيد
قول پيغمبر بجان ودل گزيد

رمز الكاسب حبيب الله شنو
أز توكل در سبب كاهل مشو

— ٤ —

ويتخلل بعض فصول المثنوى أحياناً أشطار وأبيات عربية خالصة . ولا يخلو فصل من هذا الضرب ، ويندر أن يتوالى بيتان أو ثلاثة .

ومن أمثلة الأبيات المفردة والشطور :

چه كفتند أي حكيم باخبر
الحذر دع ليس يغنى من قدر

ناوانى دم مزن اندر فراق
أبغض الأشياء عندى الطلاق

وادخـــلوا الأبيات من أبوابها
واطلبوا الأغراض في أسبابها

ومن الأمثلة القليلة ما جاء في الجزء الثالث أثناء قصة وكيل صدر بخارى .

عن لي يامتيق لحن النشور
اركى يا ناقـــتي تم السرور

إبلعى يا أرض دمعى قـــد كفى
إشربي يا نفس وردا قد صفا

عدت يا عيدى إلينا مرحبـــا
نعم ما روحت يا ريح الصبـــا

— ٥ —

وقد افتتح الكتاب بحديث الناى . ووصفه وصفا

مبينا من أثره فى نفسه ، وجاعلا للناى بين المولوية مكانة وحرمة . وقد ترجمت هذه الفاتحة إلى الانكليزية باسم «أغنية الناى» .

وترجمتها إلى العربية منذ سنين . وهى ستة وثلاثون بيتا . ويقول فى الافتتاح :

استمع للناى غنَّى وحكى   شفَّه البين طويلا فشكا
مذ نأى الناى – وكان الوطنا –
ملأ الناسَ أنينى شجنا
أين صدر من فراق مزقا   كى أبث الوجد فيه حُرَقا
من تشرده النوى عن أصله   يبتغى الرجعى لغنى وصله
كل نادٍ قد رآنى نادبا   كل قوم تخذونى صاحبا
ظن كل أننى نعم السمير
ليس يدرى أى سر فى الضمير
إن سرى فى أنينى قد ظهر   غير أن الأذن كلَّت والبصر
ليس بين الجسم والروح حُجُب
لكن الروح علينا تحتجب
ان صوت الناى نار لا هواء   كل من لم يصلها فهو هباء
هى نار العشق فى الناى تثور   وحباب العشق فى الخمر يفور
إلى أن يقول :
ومن العشق وأنَّى يجمل ؟
رقص الطود وخفَّ الجبل
عشق الطود أجل قد عشقا   فهوى إذ خرَّ موسى صعقا
لو لمسنى من نديم لى فم   قلت كالناى حديثا أكتم
صمت البلبل عن ألحانه
حين ولى الورد من بستانه . الخ

٦ – الديوان

وأما الديوان الذى سماه ديوان شمس تبريز وعرف باسم ديوان شمس الدين التبريزى ففن آخر من النظام ؛ هو قصائد متفرقة ، كل واحدة مستقلة عن الأخريات ، أعنى أنها نظمت الإبانة عما جال فى ضمير الشاعر حين نظمها ، واختير لها وزن خاص وقافية ، ولم يرد أن تكون مقدمة لمنظومة أخرى أو مكملة لها ، وإن كانت المعانى متشابهة متقاربة أو متماثلة . وهى فيض فى العشق والفناء ، وغيرهما من المطالب العالية فى نحو ستة وأربعين ألف بيت .

والفرق بين المثنوى والديوان أن الأول منظومة واحدة فى وزن واحد ونظام واحد من التقفية ، وفيها تعليم بين تفسير آية أو شرح قصة أو ضرب مثل ، وإن كان هذا كله متصلا بمقصده الأخير : حب الله والفناء فيه . جلال الدين فى المثنوى أستاذ معلم مختلف الأساليب ، يخاطب وينصح ويعظ ، وينتقل بتلاميذه من فن إلى آخر ، ويغلبه الوجد بين الحين والحين فيرتمى فى البحر الذى لا يعرف ساحله أو غريقه ساحلا .

وأما الديوان فهو كما أسلفنا قصائد قصيرة يغلب فيها ثورة الشعر وخياله ، فهو من هذه الناحية أعلى من المثنوى وأدق ، وأدخل فى الشعر .

ويكثر فيه الرمز ، ويجود فيه التصوير ، ويعنى كذلك بالصناعة اللفظية أحيانا ، وبردف القافية ويلتزم ما لا يلزم . على حين يظهر فى المثنوى كثيرا أثر الاملاء المرتجل والثورة التى لا تتريث للترتيب والإحكام .

– ٧ –

وهذا مثال من الديوان يبين ما يكثر فيه من الرموز والاشارات .

اين خانه كه پيوسته درو بانك چغانست
از خواجه بپرسيد كه اين خانه چه خانست ؟ الخ

هذه الدار التى لا تفتر فيها الألحان سل ربها أى دار هذه . إن كانت الكعبة فما صورة الصنم هذه ؟ وإن كانت دير المجوس فما هذا النور الالهى ؟ فى هذه الدار كنز يضيق به العالم ، وإنما هذه الدار وهذا السيد (رب

الدار) فمل وذريعة. لاتضع على الدار يد آفا هي إلا طلاسم، ولا تكلم السيد فقد أوفى الليل سكرا. تراب هذه الدار وقامتها مسك وعنبر وعطر. كل سطحها وبابها شعر وألحان. فمن وجد سبيلا فيها فهو سلطان الأرض وسليمان الزمان.

أيها السيد أطلّ علينا من الشرفة مرة فإن في خدك الجميل أمارة من الاقبال.

أقسم بروحك أن ما عدا رؤية وجهك، ولو كان مُلك العالم، خيال وخرافة. تحير البستان أى ورق وأى زهر! وولهت الطير أى شبك وأى حَب!

هذا سيد الفلك كالزهرة والقمر، وهذى دار العشق لا حدّ لها ولا نهاية.

حينما أخذت مرآة الروح صورتك في القلب تدلت في القلب طرتك كالمشط.

. . . .

إن سكارى الله واحد وإن كانوا ألوفا. وإن يكن من سكارى الهوى واحد فهو اثنان — اقتحم غاب الأسد ولا تخش الجراح فإن الخشية والخوف ليسا من الرجولة.

ليس هناك جراح، كل ما هناك رحمة ومحبة، ولكن وهمك حجاب خلف الباب.

لا تضرم النار في القابة واصمت أيها القلب. أمسك لسانك فإنه لسان النار.

٨ — آراء جلال الدين

شرح جلال الدين آراءه في المسائل الفلسفية والصوفية والدينية والأخلاقية في أكثر من اثنين وسبعين ألف بيت، في المثنوى والديوان. ويتعذر على الباحث أن يجمل آراءه ولو في المسائل الكبرى، فإن مسألة واحدة منها تحتاج إلى مقال أو أكثر. فقصارى المتكلم في مثل هذا المقام أن يعرض أمثلة من قوله في بعض المسائل. وأنا أعرض بعض أقواله في الروح وصلتها بالله، وحنينها الدائم إلى موطنها الأول، وفي تطور الموجودات وفنائها في الله. ثم أعرض ناحية من فلسفته العملية، فأبين رأيه في القضاء والقدر، والعمل في هذه الحياة. وأنا في هذا أعرض صورة واحدة من صور شتى لمسائل قليلة من مسائل كثيرة جدا:

الروح من عالم آخر امتحنت بهذا السجن الأرضي، وهي تسمع كل حين النداء من تلك الديار.

يقول في الديوان:

كل حين تسمع صوت العشق من يمين وشمال.

ها نحن ذاهبون إلى الفلك، فمن يريد تسريح النظر؟

كنا من قبل في الفلك، كنا أصدقاء الملَك، وهنالك نعود، فتلك ديارنا.

والحق أننا أعلى من الفلك، وأننا أكثر من الملك، فلماذا لا نجتاز هذين؟ إلا أن منزلنا الكبرياء.

أين عالم التراب، وأين الجوهر الطاهر؟ سنعود وإن هبطنا، فما هذا لنا بمقام.

الجدّ الناصر رفيقنا، وبذل الروح عملنا، ودليل قافلتنا فخر العالم المصطفى.

عَرْف هذا النسيم من ثنايا طرته، ولألاء هذا الخيال من ضُحى غرته.

قد انشق القمر من وجهه، فلم يستطع رؤيته؟ سعد القمر بهذا الجد وهو السائل الصغير، فانظر في قلوبنا كل لحظة شق القمر . . .

جاء موج «ألست»[1] فحطم سفينة القالب (البدن) وإذا حطمت السفينة فهذه نوبة اللقاء.

الخلق كطير الماء، خلقوا من بحر الروح، وكيف يسكن إلى المقام هنا طائر ارتفع من ذلك اليم؟

(١) إشارة إلى الآية «ألست بربكم ...» الخ.

بل نحن درّ من ذلك البحر ، كلنا حاضر فيه ، وإلا فما هذا الموج المتتابع من أرواحنا ؟ إنه وصل اللقاء ، إنه حسن البقاء ، إنه اللطف والعطاء ، بحر صفاء فى صفاء .

ارتفع موج العطاء ، وجمع زخير البحر ، تنفس صبح السعادة ؟ لا . إنه نور الله .

الفنـــاء فى الله

وهو يتحدث كثيراً كما يتحدث كبار الصوفية عن فناء الانسان ، ويتكلم عن زوال الاثنينية ، وامحاء أنا وأنت . وهى فكرة شائعة فى شعر ابن الفارض وغيره ، ولكن جلال الدين يذكر الفناء فى الله سبحانه فى صورة أخرى : يرى أن العالم يرقى إلى الله ، حائلا من جماد إلى نبات إلى حيوان فانسان فملك ، ثم يفنى فى الله . وقد ذكر بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى صاحب « الانسان الكامل » ما يؤخذ منه أن الانسان صلة العالم كله بالله ، وهى فكرة جلال الدين فى شكل آخر .

كرر هذا القول جلال الدين فى المثنوى والديوان . يقول فى قصة وكيل صدر بخارى فى الجزء الثالث من المثنوى على لسان العاشق الذى لا يبالى بالموت : « أز جمادى مردم ونامى شدم » الخ .

صرت ، إذ متّ جماداً ناميا مت نبتاً صرت حياً ساعيا
متّ حيواناً إذا بى بشرٌ
كيف أخشى الموت ماذا أحذر

ثم أغدو مائتاً بين البشر طائراً فى ملَك لا أستقرّ
ليس لى إلا مسيرٌ نحوه كل شىء هالك الا وجهه
ثم أسمو طائراً فوق الملَك ذاك فوق الوهم لا يخطر لك
ثم أفنى والفنا كالأرغنون منشدى : إنا إليه راجعون

وقد كرر هذا فى الديوان فى القصيدة التى أولها :

هرنفس رازكه ديدى جنبش زلامكانست
كرنتش رفت غم بنست أصلش جوجا ودانست

فقال :

قد وضع أمامك منذ جئت عالم الوجود سلّم الخلاص .
كنت جماداً فصرت نباتاً ، ثم صرت حيواناً ، كيف خفى هذا عليك ؟
ثم صرت إنساناً ذا عقل وعلم وإيمان ، فانظر أى زهرة صار هذا الجسم الترابى ؟
وإذا جاوزت الانسان فلا ريب تصير ملَكاً ، فتترك هذه الأرض إلى السماء .
جاوز الملكية أيضاً ، وادخل ذلك اليم لتصير قطرتك بحراً هو مائة بحر .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

مقاييس الحياة

للأستاذ شفيق جبرى

أجلس فى شدة هذا الشتاء ، وفى وحشة لياليه السود إلى طائفة من كتبي القديمة بعد أن انقطعت عنى بسبب هذه الحرب كتب الافرنجة ومجلاتهم وجرائدهم ، فأنبش الموتى الخالدين فى تضاعيف هذه الكتب ، وأستمع إلى أحاديث عبقريين فى الشعر والسياسة والأدب ، وأستطلع آراءهم فى الحياة ، وما أشد اختلاف هذه الآراء ، ما أعظم تفاوت المقاييس التى يقيسون بها الحياة . وأى لذة أبلغ من معرفة رأى كل واحد منهم فى هذا الباب ؟

أربعة مجالس نثر فيها أصحابها آراءهم الخاصة فى النعيم والسرور واللذة : مجلس فى الجاهلية ، ومجلس فى دولة بنى أمية ، ومجلس فى دولة بنى العبّاس ، والرابع فى الصحراوات !

فما هو السرور فى نظر فريق من شعراء الجاهلية ؟ أمّا طرفة فما الحياة عنده إلاّ مطعم هنىء ، ومشرب روىّ ، وملبس دفىء ، ومركب وطىء . وأمّا امرؤ القيس فلا يتم سروره إلاّ ببيضاء رعبوبة ، بالطيب مشوبة ، باللحم مكبوبة . وأما أعشى بكر فلا يكمل حبوره إلا بصهباء صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية !

فانظر إلى رأى هؤلاء الشعراء فى الحياة ، انظر إلى الآفاق التى يسرحون فيها ويمرحون ، وأنت حر فى أن تغبطهم عليها أو تلومهم .

ولكن انحدر عن هذا الأفق قليلاً ، وخالط بنى أمية فى دولتهم . أفتعلم أين كان يجد زياد نعيمه ؟ اسمع حديثه وقد سأل ذات يوم أهلَ المجلس : أى الناس أنعم ؟ قالوا : معاوية . قال : فأين ما يلقى من الناس ؟ قالوا : أنت . قال : فأين ما ألقى من الثغور والخراج ؟ قالوا : فمن ؟ قال : شاب له سداد من عيش ، وامرأة قد رضيها ورضيته ، لا يعرفنا ولا نعرفه ، فان عرفنا وعرفناه أفسدنا عليه دينه ودنياه !

فانظر إلى ضجر رجل مثل زياد من السلطان ، وهو داهية العرب ، الصالح لكل صغيرة وكبيرة ، الذى كان يقول : لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت من أخذه . أفكنت تظن أن رجلاً مثل زياد يمل من السلطان ؟ أم أن رجلا مثل معاوية تدخل عليه السآمة من الناس وهو الذى كان يقول : نحن الزمان ، من رفعناه ارتفع ، ومن وضعناه اتضع !

وإذا تركت زياداً وما يلقاه من الثغور والخراج ، وجئت بنى العباس فى دولتهم ، وسألت أبا مسلم صاحب الدعوة عن السرور قال لك : ركوب الهماجة وقتل الجبابرة . واللذة عنده إقبال الزمان وعز السلطان .

ثم غادر هذه الدولة وما تمتعت به فى قصور سقوفها من ذهب ، وحيطانها من رخام ، واضرب فى صحراوات العرب ، فى هذه الصحراوات التى لا تجد فيها إلاّ خشونة العيش ووحدة الحياة ، فلا تطلع فيها الشمس على منظر جديد ، ولا تغرب فيها عن منظر جديد ، واسأل أعرابها عن السرور . واحد يقول لك : لبس البالى فى الصيف ، والجديد فى الشتاء ، وواحد يقول لك : ماء حار فى الشتاء وبارد فى الصيف !

فانظر إلى هذا الزهد فى الحياة ، يقتلهم الصيف بشدة حرّه ، فلا يشتهون فيه إلا الماء البارد ، ويقتلهم الشتاء بشدة برده فلا يتمنون فيه إلا الماء الحار !

ولكن ما الذى يستخرجه الانسان من هذه النظرات المختلفة فى الحياة عامة ، وفى السرور والنعيم واللذة خاصة ؟ لا شك فى أن الأمور فى هذه الدنيا نسبية ، فما يسوءنا قد يسرُّ غيرنا ، وما يُحزن غيرنا قد يُفرحنا ، فلكل واحد منا ينظر إلى الحياة من وجه خاص : هـذا ينظر إليها من وجه يظنه حسناً فيتم سروره ونعيمه ، وهذا ينظر إليها من وجه يظنه سيئاً ، فيغمره الهم والحزن . وأكثر آلامنا التى نعانيها إنما هى صادرة من هذه

النظرات المختلفة فى الحياة ؛ فبعضنا يرى الحياة حسنة ، وبعضنا يراها سيئة ، ومنهم يجمع بين الحسن والقبح على السواء ؛ إنها تؤلف بين الأحزان والأفراح ، فمرة يغلب الحزن على الفرح ، ومرة يغلب الفرح على الحزن ؛ وهما يتعاقبان فى هـذه الحياة ، على نحو ما يقع فى يوم غائم ساعة ، وصحو ساعة ، فبينما الغيم فى السماء ، إذ تطلع الشمس فتشتته .

ولقد أدرك هذا الأمر « أناتول فرانس » فقال :

« إذا قال الناس : الحياة حسنة ، وإذا قالوا : الحياة سيئة ، فإنهم يقولون شيئاً لا معنى له ، فيجب علينا أن نقول : إن الحياة إنما هى حسنة وسيئة معاً ، لأننا لا نتصور فكرة الحسن والقبيح إلا بالحياة وحدها . والحق أن الحياة لذيذة ، كريهة ، فتانة ، رهيبة ، حلوة ، مُرّة ، إنها كل شىء ، ومثلها كمثل ثوب ألوانه شتى ، واحد يرى هذه الألوان حمراً ، وواحد يراها زرقاً ، والاثنان يرأيها كما هى ما دامت ألوانها حمراً وزرقاً ، وما دامت هذه الحياة تجمع الألوان كلها ؛ وهـذا ما يحملنا على الاتفاق ، هذا ما يحملنا على الإصلاح بين الفلاسفة الذين يتناحرون فيما بينهم ؛ ولكننا جُبلنا على صورة نريد معها أن نجبر غيرنا على أن يشعر وأن يفكر على نحو شعورنا وتفكيرنا ، إننا لا نسمح لجارنا بأن يكون جذلاً إذا كنا محزونين . »

نحن فى أكثر الأوقات نحكم على الأمور بالقياس إلينا ، لا بالقياس إلى الذين صدرت عنهم هذه الأمور ، فيختلف حكمنا لاختلاف الآراء ؛ فلكل واحد منا رأى فى هذه الحياة على قدر مزاجه وتربيته وبيئته وتفكيره ، وقليلاً ما نجمع على رأى واحد فى الكرم والبخل مثلاً ، أو فى الجاه والخمول ، أو فى الحب ، أو فى الجمال ، أو فى أى مظهر من مظاهر الحياة ؛ فقد يجود المرء ويكون جوده خطرات من وساوسه ، ويبخل ويكون بخله علة من علل نفسه . فما يكون راحة لنا فى الكرم قد يكون تعباً لغيرنا . هذا زياد ، ومنزلته فى بنى أمية على ما علمت ،

فانظر كيف كان ، تأتيه ساعة فيتعب فيها ذهنه من الثغور والخراج ، من مشاغل الدولة كلها ، فيتمنى أبسط عيشة فى هذه الدنيا ليجد فيها راحته . وما أظن أحداً من الناس فى زمنه كان لا يتمنى جاهاً مثل جاهه ، وعظمة مثل عظمته ، وسلطاناً مثل سلطانه !

وهذه « كليوباترة » كانوا يقولون فيها : إنها صغيرة القامة ، وإنها لم تكن جميلة . وربما كان فى عصرها أجمل منها ، ولكنها كان لها حديث إنما هو السحر الحلال ، وكان لكلامها نغمة لها رنات مختلفة تذهب بالقلوب كل مذهب ، وكانوا يقولون : إن لها أنفاً كبيراً حتى قال « باسكال » : لو كان أنف « كليوباترة » أصغر لقلب وجه العالم . غير أن الوجه الذى أنسى قيصر ملك الدنيا كما قال « أناتول فرانس » لم يشوهه أنف قبيح !

فانظر كيف كان قبح « كليوباترة » فى نظر بعض الناس ، حسناً فى نظر قيصر . ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الحقيقة المطلقة فى هذه الدنيا لا أثر لهـا . وإذا زلت الحكمة على أحد بعد الأنبياء فقد زلت على الشعراء ، فاسمع ما قاله أبو الطيب المتنبي :

راعتك رائعة البياض بمفرقى
ولو أنهـا الأولى لراع الأسحم

فقد اعتاد الناس أن يروا الحسن فى الشعر الأسود ، والقبح فى الشعر الأبيض ، ولو تعوّدوا أن يروا المحاسن فى الشعرة البيضاء والمساوئ فى الشعرة السوداء ما كان لاشتعال الرأس شيباً أثر سيئ فى العيون .

أجل ، لا حقيقة مطلقة فى هذه الدنيا ، فكل واحد منا يحمل للأشياء الصفات التى تناسبه ، كل واحد ينظر إلى هذه الأشياء من الوجه الذى يحبه ؛ فالحياة ليس لها صفة صحيحة ، ونحن الذين نحمل لها الصفات التى نريدها ، فالعاقل من يكون وجهها فى نظره أبيض ناصعاً ، فإنها أحقر من أن تكون سبباً فى همنا وتناحرنا .

(دمشق) شفيق جبرى

الرهان

للكاتب القصصي الروسي تشيكوف

كان الصيرفي يذرع الغرفة ذاهباً آيباً ، محدثاً نفسه :

— ترى لم أقدمت على هذا الرهان ، وما فائدتي منه ؟ المحامي يخسر خمس عشرة سنة من حياته ، وأنا أقدم مليوني دون مقابل ! أفهل يقتنع هذا الناس بأن عقوبة الاعدام شر من السجن مدى الحياة ، أو خير منه ؟ كلا ، كلا ! فهذا كله لغو من القول وعمل باطل ، لم يكن في الأمر إلا أنه مخرج لهوى جامح متقلب ، يغذيه الثراء والترف . أما المحامي فقد كان يدفعه الشره العظيم لنيل المليونين .

وكان يستعيد ذكرى تلك الوليمة ، والحوادث التي تلتها ، فقد تقرر أن يكون سجن المحامي غرفة في جناح من منزل الصيرفي ، قريب من الحديقة ، وأن يراقب مراقبة شديدة ، وتم الاتفاق على أن يحرم اجتياز عتبتها طيلة تلك السنوات ، كما يحرم رؤية الناس وسماع أصواتهم ، وتسلم الرسائل والصحف . ولكنه سمح له بقراءة الكتب وتحرير الرسائل وشرب الخمر وتدخين التبغ ، وأن يكون لديه آلة موسيقية .

وهكذا كان له الحق ، بموجب العقد ، في أن يتصل بالعالم الخارجي ويخابره ، ولكن في صمت ، وذلك بواسطة نافذة صغيرة فتحت خصيصاً لهذه الغاية ، يصله منها كل ما يحتاج إليه من الكتب وقطع الموسيقى والخمر ، إذا طلب ذلك في مذكرة ، وبعث بها من النافذة . وقد نص الاتفاق أيضاً على جميع التفاصيل الدقيقة ، التي جعلت من سجنه عزلة تامة ، كما فرض عليه البقاء فيه خمس عشرة سنة كاملة ، من الساعة الثانية عشرة ، أي عند منتصف ليلة اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر من سنة ١٨٧٠ ، إلى مثل تلك الساعة من مثل ذلك اليوم من سنة ١٨٨٥ . وقد جاء فيه أيضاً أن أدنى محاولة يأتي بها المحامي السجين للخروج على شروط الاتفاق ، كأن يهرب قبل الوقت المعين ، ولو بدقيقتين ، تحمل الصيرفي في حل من دفع المليونين له .

* * *

كانت المذكرات التي كان المحامي يبعث بها ، في السنة الأولى من سني سجنه ، موجزة تدل على عظم ما يقاسيه من العزلة والكلال . وكان ينبعث من غرفته صوت البيان ليل نهار . وكان يرفض الخمر والتبغ . وقد كتب يوماً في إحدى تلك المذكرات يقول : « إن الخمر تهيج الشهوة ، والشهوة ألد أعداء السجين ، ثم إنه لا شيء أدعى إلى الملل والمضايقة من أن يشرب الانسان جيد الخمر ، وهو في عزلة » . كما ذكر في غيرها أن دخان التبغ يفسد الهواء في الغرفة . وكانت تصله ، أثناء تلك السنة كتب لا تكلف قراءتها كبير عناء : من قصص غرام أو خيال أو جرائم ، إلى روايات مضحكة ، إلى غيرها .

وفي السنة الثانية انقطع صوت البيان ، ولم يطلب السجين من الكتب إلا القيمة . ثم عاد إلى الموسيقى في العام الخامس ، وصار يطلب الخمر . وقد قال مراقبوه إنه اقتصر عمله ، في تلك السنة ، على الأكل والشرب والاضطجاع فوق فراشه ، وإنه كان يتثاءب كثيراً ، ويخاطب نفسه في غضب ، وإنه لم يقرأ كتاباً واحداً ، بل كان في بعض الليالي يقضي ساعات طوالا وهو يكتب ، حتى إذا جاء الصباح مزق ما كتب ، وإنه سمع يبكي مرات عديدة .

وفي النصف الثاني من العام السادس ، أخذ السجين

يدرس اللغات والفلسفة والتاريخ ، وأكب على ذلك في حماس وشره ، حتى لم يعد الصيرفي يجد الوقت الكافي لموافاته بجميع ما يطلب . فقد ابتاع له نحواً من ستمائة كتاب في أربع سنوات . وفي أحد الأيام تسلم منه الرسالة التالية :

« سجاني العزيز :

« أكتب إليك هذه الأسطر في ست لغات . فاعرضها على الخبراء ليقرأوها ، فإن وجدوها خلواً من الغلط ، أرجو منك أن تأمر بإطلاق عيار نارى في الحديقة ، لأعرف أن جهدي لم يضع سدى . إن نوابغ الرجال في كل قطر وزمان ، يتكلمون لغات مختلفة ، ولكن شعلة واحدة تلتهب فيهم جميعاً . كم أتمنى لو كنت تدرك مبلغ السعادة السماوية التي أشعر بها ، حين أجدني قادراً على فهم ما يقولون ! » .

تحققت رغبة السجين ، وأطلق في الحديقة عياران ناريان .

وبعد السنة العاشرة ، كان يجلس إلى الطاولة بلا حراك ، ويقرأ « العهد الجديد » ، ولا يقرأ شيئاً سواه . وكم كان يستغرب الصيرفي كيف أن الذي يستوعب ما في ستمائة مجلد من غزير العلم في أربع سنوات ، يقضي ما يقارب العام في قراءة كتاب صغير الحجم يسير الفهم . وبعد ذلك انتقل إلى دراسة تاريخ الأديان وعلم اللاهوت .

ولما كانت السنتان الأخيرتان من مدة سجنه ، كان عظيم الانصباب على القراءة ، ولكنه كان يقرأ كيفما اتفق له ذلك ؛ فكان يعكف حيناً على علوم الطبيعة ، وحيناً ينصرف إلى بيرون أو شكسبير . وكانت ترد منه مذكرات يطلب فيها كتباً في الكيمياء والطب ، أو قصة أو رواية ، أو أطروحة في الفلسفة أو اللاهوت وكان يقرأ ، وكأنه يعوم بين ما تفكك من أوصال سفينة حطمتها العواصف والأمواج ، فيمسك بالواحد منها بعد الآخر ، وكل همه أن يتخذه وسيلة إلى النجاة من الغرق .

• • •

ظل الصيرفي يذرع الغرفة ، وظلت هذه الذكريات تطوف به . ثم قال في نفسه : « غداً ، عند الساعة الثانية عشرة ، يستعيد السجين حريته ، وعليّ أن أنقده المليونين كاملين . وإني — إن فعلت ذلك — مضيع كل مالي بلا رجعة أبداً . » . ثم رفع يده ، وأطبق بها على رأسه بشدة ، وقال : « تباً له من رهان ! لم لم يمت صاحبي ؟ ويلاه ! إنه لا يزال في الأربعين من عمره ، وسيأخذ مالي إلى آخر كوبيك منه ، فيتزوج وينعم باله ، وينزل إلى ميدان التجارة فيقامر ويقاص ، وأنظر أنا إليه نظرة السائل الحسود ، وأسمع منه كل يوم قوله : « إني مدين لك بهذا كله . فهل لي أن أمد يداً إليك ؟ » . وهنا أخذت الصيرفي الحدة ، فصاح : « كلا ، إن هذا لأكثر مما ينبغي ! إن هذا لن يكون ! ثم إنه لا مفر من الإفلاس والعار ، إلا أن يموت ذلك السجين » .

كانت الساعة قد دقت ثلاثاً ، والصيرفي مصغ وقد نام كل من في المنزل ، ولم يكن يسمع سوى صوت الأشجار ، وقد عصفت بها الريح الباردة ، فأخذت تئن . دنا من الخزانة الحديدية . وفي أقل ما يستطاع إحداثه من الصوت ، فتحها ، وأخرج منها المفتاح ، مفتاح ذلك الباب الذي ظل مقفلاً خمس عشرة سنة . ثم لبس معطفه وخرج من المنزل . كانت الحديقة مظلمة باردة ، وكان المطر يتساقط ، وكانت الريح الرطبة النفاذة تهب مُعولة ، فتحرم الأشجار راحة الهجوع . حدق الصيرفي النظر جهده ، فلم ير الأرض أو الأشجار ، ولا التماثيل البيضاء القائمة في الحديقة ،

ولا ذلك الجناح من منزله المقتد فيها . ولما دنا من موضع الحارس ، ناداه مرتين ، فلم يسمع جوابه ، فقال فى نفسه : لابد أن يكون قد فر من وجه الطبيعة المكفهر ، ولجأ إلى المطبخ يطلب الدفء ، أو إلى الكوخ يريد النوم .

تأمل الصيرفى قليلا ثم قال فى نفسه : إذا كان لى من الشجاعة ما أحقق به هذه الرغبة ، وقدر لعزمى هذا أن ينفذ ، فالحارس أول من تقع عليه الشبهة فى الأمر ! ثم سار وأخذ يتحسس الدرجات والباب تحت جنح الظلام ، واجتاز قاعة ذلك الجناح إلى باب الغرفة التى فيها السجين . وهناك أشعل عوداً من الثقاب ، فرأى أختام الشمع على حالها لم تفض . وعندما انطفأ العود ، استرق الصيرفى النظر من النافذة الصغيرة ، وكان يرتعش من شدة انفعاله ، فرأى فى الغرفة شمعة تتقد ، فينبعث منها ضوء خافت ، ورأى السجين جالساً إلى الطاولة . ولكنه لم يستطع أن يتبين منه سوى الظهر وشعر الرأس واليدين . أما الكتب فقد كانت مفتوحة مبعثرة على الطاولة والكرسيين والبساط .

مرت دقائق خمس ، والسجين لا يأتى حراكاً . فقد علمته عزلة خمس عشرة سنة كيف يجلس دون حراك . نقر الصيرفى بإصبعه على النافذة ، ولكن السجين لم يجب بحركة . ثم انصرف إلى أختام الباب ، ففضها فى حيطة وحذر ، وأولج المفتاح ، ولما أداره صدر من المزلاج الصدىء صوت كالأنين الأبح . ثم كان لحركة الباب صرير . وكان يتوقع أنه سرعان ما يسمع صرخة الدهشة ، أو وقع الخطى . ولكن مرت دقائق ثلاث ، والهدوء شامل أرجاء الغرفة ، كما كان يشملها من قبل . وهنالك عقد الصيرفى النية على الدخول .

دخل الغرفة ، فرأى قبالة الطاولة رجلا ليس كالعادى من بنى الانسان . كان الهادى السجين هيكل عظام التصق بها الجلد مشدوداً ، وعلى رأسه شعر طويل ملتف كشعر النساء ، وكانت لحيته كثة ، ووجهه أصفر مشوباً بلون الرماد ، وخداه غائرين ، وظهره كثير الاستطالة . كان جالساً ، ورأسه الأشعر يستند إلى يده الهزيلة العجفاء التى تبعث الألم فى نفس رائيها . وكان شعره قد أخذ يخطه الشيب ، وكان فى وجهه من هزال الشيخوخة ما لا يسمح لأحد بأن يصدق أنه لم يجاوز الأربعين سنة .

دنا الصيرفى من سجينه ، فرأى على الطاولة أمامه ، وتحت رأسه المحنى ، ورقة عليها كتابة بحروف دقيقة . نظر إليه ، وقال فى نفسه . هذا هو الشيطان المسكين . إنه نائم ، ولعله يرى ملايينى فى نومه . ليس على إلا أن أحمله ، وهو شبه ميت على هذه الحال ، فأطرحه على الفراش ، وأخنقه بالوسادة فى مثل لمح البصر . ومهما دق الفحص بعد ذلك فلن يسفر عن أمر سوى أن الموت كان طبيعياً . ولكن قبل تنفيذ العمل ، دعنى أقرأ ما خطه فى هذه الورقة .

ثم تناول الورقة ، فاذا فيها : « غداً ، فى الساعة الثانية عشرة ، عند منتصف الليل ، سأنال حريتى ، ويكون لى حق الاختلاط بالناس . ولكنى أرى أن من الضرورى ، قبل مغادرتى هذه الغرفة ، وقبل أن أرى الشمس ، أن أكتب إليك بضع كلمات . إنى أصرح لك ، مقسماً بضميرى ، أمام الله ، أنى أحتقر الحرية والحياة والصحة ، وجميع الأشياء التى تدعوها كتبك بركات الدنيا .

« لقد درست الحياة الدنيا فى جد ومثابرة ، طيلة خمس عشرة سنة . نعم ، إنى لم أر الأرض ولا بنى البشر عليها ، ولكنى شربت من كتبك خمرا عطرة ، وغنيت فيها الأناشيد ، وطاردت الظباء . وفى كتبك أحببت النساء ، وزارتنى منهن الجميلات ليلا ، وكأنهن سحب الأثير ، إذ خلقهن سحر نوابغ الشعراء ، فهمسن فى أذنى

أقاصيص عجيبة جعلت رأسي مثقلا ، مثل فعل الخمر . وفي كتبك صعدت إلى ذرى البرز والجبل الأبيض ، فرأيت منهـا كيف تشرق الشمس في الصباح ، وتخضب السماء والمحيط والروابي بذوب من الذهب عند الأصيل ، وكيف تلمع البروق وتخطف ، فتنشق لها وكناء النجوم . ورأيت الغابات الخضر ، والحقول والأنهار ، والبحيرات والمدن . وفي كتبك أصغيت إلى عرائس البحر يغنين ، وسمعت صوت مزامير كبير الآلهة ، ولمست أجنحة جميلة رفرفت بها حول ملائكة الجحيم ، وهي تحدثني عن الله . وفي كتبك ألقيت بنفسي في هوىً سحيقة ليس لها قرار ، وأتيت بالمعجزات ، وأحرقت المدن حتى غدت أثراً بعد عين . وفيها بشرت بأديان جديدة ، وخضعت ممالك لسلطاني .

« كتبـك أعطتني الحكمة . وكل ما أبدعه الفكر البشري الكدود ، على مر العصور ، قد اجتمع لي في كتلة صغيرة قد احتوتها هذه الجمجمة التي يحملها كتفاي . إني لأعرف أنني أعلم منكم جميعاً . غير أني أحتقر كتبكم وما تدعوه بركات الحياة الدنيا . كل شيء باطل واهن ، وهي غبار كالسراب . وإنكم ، على رغم زهوكم وحكمتكم وجمالكم ، ليمحونكم الموت من على وجه الأرض ، كما تمحى تحته الجرذان . أما خلفكم وتاريخكم وخلود نوابغكم ، فأمور أشبه ما تكون بالنفايات ، وستأكلها النيران وتفنى . إنكم جد ضالون ، تحسبون الباطل حقاً والقبح جمالا ، ياءمن أسأتم البادلة فأخذتم الأرض وأعطيتم السماء . إني لا أريد أن أفهمكم .

« وإني ، رغبة مني في أن تدركوا كيف أحتقر ذلك الذي به تحيون ، أتخلى عن المليونين اللذين كانا لي ، في وقت مضى ، قبلة الأحـلام وفردوس المنى ، بعد أن غدوت أنظر إليهما محتقراً مشمئزاً . وإني ، عمـلاً على تأمين حرماني من الحق فيهما ، سأخل بشرط من شروط الاتفاق ، فأخرج من هنا قبل نهاية المدة بخمس دقائق » .

ولما فرغ الصيرفي من قراءة هذه الورقة ، أعادها إلى الطاولة ، وقبل رأس سجينه ، وأخذ يبكي . وبعد قليل خرج من ذلك الجنـاح ، وهو يشعر بأنه يحتقر نفسه ، شعوراً لم يسبق له أن عرفه أبداً . ولـما عاد إلى منزله واضطجع في فراشه ، استحال شعوره عصفاً ، وانهمرت دموعه سخينة ، فحال ذلك دون نومه طويلا .

وفي الصباح التالي ، أتاه الحـارس المسكين يجرى ، وأخبره أنه رأى سجين الجنـاح يخرج من النافذة إلى الحديقة ، ثم يسير إلى بابها ، فيخرج منه ، ثم يختفي في ظلمة الليل .

عصام الشريف

الأدب العربى فى المهجر الأمريكى :

مصر فى أمريكا

إن دراستى أدب المهاجرين سارت بى إلى البحث عن العوامل ذات الأثر الفعال لما يظهر فى أدب المهاجرين العرب فى أمريكا من ألوان التجديد والتمايز ، إن تفكيراً وإن أسلوباً ، بين الأدب الحديث المعاصر ، فوجدت أن للبيئات أثراً كبيراً فى ذلك .

وتراءى لى أثناء البحث أن لمصر وللبيئة المصرية أثراً فى الحركة الأدبية فى العالم الجديد ، وأن لها عملاً فى بعض أدبائه العرب ، ويظهر أن هذا الأثر وهذا العمل أشد وأقوى مما يتصور عند الوهلة الأولى .

كيف كان ذلك ، وكيف حدث ؟ ! لا أقول زعموا — كما يقال — إنما استقراء الحوادث ، وتتبع الحركة الأدبية العربية فى أمريكا ، وقراءة آثار أدباء المهاجرين ، يدلنا على هذا الأثر ويهدينا إليه . وأرانى مدفوعاً إلى أن أعرض بداءة ذى بدء ، إلى المسالك والمسارب التى منها نفذ هذا الأثر ، أثر مصر فى أدب أمريكا العربى ، ثم بعد ذلك أتخطى فأشير إلى بعض مظاهره .

المعروف أن الأكثرية الساحقة من مهاجرى العرب فى العالم الجديد هم من السوريين واللبنانيين ؛ وقد كان هؤلاء يرحلون عن أوطانهم وفى العين دموع وفى الأحشاء كلوم ، غير أنه كان لا بد لهم من الرحيل ؛ لكن أنى الرحيل وأين المفر ؟ ! من البديهى أن يكون اتجاههم نحو بلاد يتوفر لهم فيها العيش ، وتكون فى نفس الوقت أكثر قبولا لحرية التفكير والقول ؛ وهم ما تركوا أوطانهم إلا سعياً للعيش وهرباً مما يلقون من تقييد الحريات ، وخصوصاً فى الطور الأخير للهجرة عند ما بدأت تظهر فى سوريا النزعات الاستقلالية المطالبة بحقوق العرب . وإذا رجعنا إلى تاريخ الهجرة السورية يجد الباحث أن كثيرين من أدباء المهاجرين هؤلاء كانت تدفعهم عوامل شتى ، منها الجغرافى والقومى والسياسى والاقتصادى ، إلى أن يتخذوا من وادى النيل مرحلة أولى من طريق هجرتهم ، وكان وادى النيل الملجأ الأمين بل الوحيد لأحرار العرب ، رحب الدار بهم واسع الضيافة لهم .

من هذه الفئة التى عرجت على وادى النيل نجد الذى يعيش متنقلا بين مصر وأمريكا ، كما نجد الذى يستقر فى أمريكا نهائياً . على سبيل التمثيل أذكر من الذين تنقلوا بين مصر وأمريكا فرح أنطون وخليل سركيس صاحب « مجلة سركيس » ، ومن الذين استقروا فى الديار الأمريكية الصحافى شكرى الخورى صاحب جريدة « أبو الهول » وغير هذا وذينك كثيرون .

ولم يقتصر الأمر على الرحلة القصيرة الموقوتة التى كانت أحد المسالك التى نفذ منها أثر مصر إلى أدب أمريكا . بيد أن هناك ما هو أهم وأخطر ، ذلك أن بعض أدباء المهجر جاء إلى مصر وهو فى ريق العمر ، وفيها نشأ وترعرع ، فكانت البيئة المصرية والروح المصرية هى العنصر الأول والأهم الذى صاغ طباعهم وكون نفوسهم ، ومن البيئة المصرية هذه تقبلوا غذاء عقولهم وشعورهم . وحسبى أن أذكر على سبيل المثل اثنين من هذا الطراز ، هما الشاعر الكبير إيليا أبو ماضى فى نيويورك ، والصحافى شكرى الخورى فى الأرجنتين .

أما إيليا أبو ماضى فقد جاء إلى مصر وهو فى عمر يكاد يكون أقرب إلى الطفولة ، إذ وفد إليها وهو فى الحادية عشرة من سنه ، فعاش فيها إحدى عشرة سنة ،

ثم رحل إلى أمريكا ؛ ومعنى هذا أنه جاء إلى مصر لا يعرف خيراً ولا شراً ، فقضى فيها مرحلة التكوين والتثقف ، فرحل عنها رجلا يحمل فى رجولته ما يمكن أن يكون فى الرجولة من خير ومن شر .

ومثل هذا قل عن الصحافى شكرى الخورى ، فإنه جاء إلى مصر وهو فى العاشرة من عمره ، ورحل عنها وهو فى الرابعة والعشرين ؛ فهو والحالة هذه ترعرع فى مصر ، وفيها عرف مذاق الحياة بكل ما فى الحياة من حلو ومر .

وآية كل هذا أن العناصر التى كونت ، من هذين وأضرابهما ، النفس والعقل ، وصاغت منهم الشعور والاحساس هى عناصر مصرية حقة . ومصر كانت عند عبورهم فيها تتحرك عن حيوية عنيفة ، تتمثل فى تيارات مختلفة من الحياة السياسية والفكرية ، كما يدلنا تاريخها منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فكان لا بد أن تتأثر نفوسهم بما يضطرب حولهم من تيارات ويثور من حركات .

لكن هل يمكن أن نتلمس فى أدب أمريكا العربى تلمساً مباشراً ، هذا الأثر الذى يدور حوله الحديث ؟ هذا ما أريد عمله بعد أن قدمت المسلك الذى قد يكون سلكه .

إنى أرى أن أول المظاهر التى يتضح منها أثر مصر فى الحركة الأدبية فى العالم الجديد هو دخول الصحافة الفكاهية العربية إلى أمريكا ، وقد دخلتها من طريق مصر ، حملها منها إليها خليل سركيس أحد هؤلاء الوافدين على وادى النيل ، بعد أن أغلقت الحكومة جريدته فى بيروت ، وفى مصر أنشأ جريدة « المشير » ، وكانت مسرحا لأقلام الأحرار العثمانيين ، ولكن الحكومة التركية عملت على أن قبض عليه وسجن . ولما أفرج عنه رحل من مصر إلى أمريكا ، وهناك أنشأ مجلة « الراوى » وكانت مجلة نقدية فكاهية على نمط المجلات المصرية الفكاهية فى ذلك الزمن .

ولا أظن أحداً يرتاب فى أن هذا اللون فى الصحافة العربية هو وليد مصر ووليد الروح المصرية ، وهو لا يزال إلى اليوم أكثر شيوعا فى مصر منه فى أى قطر عربى آخر .

والنقد فى أسلوب الدعابة والفكاهة ظهر عند أديب مهاجر آخر من الذين نشأوا فى مصر ، وقد مر ذكره ، هو شكرى الخورى الصحافى . فإنه وضع كتاباً باللغة العامية أسماه « النحفة العامية » . والقارئ لهذا الكتاب لا يأخذ بالقراءة حتى يلقى نفسه مغرقة فى الضحك حتى يخرج الضحك من عينيه ، ولا يخال نفسه إلا جالساً فى أحد المقاهى المصرية فى مجمع من ظرفاء الشعب ، فأنا لا أشك لحظة فى أن أخذ المؤلف بهذا اللون ليس سوى أثر من تأثير نشأته صغيراً فى مصر ، وخصوصاً إذا عرفنا أنه نشأ بين العامة من الشعب .

وإيليا أبو ماضى الشاعر الكبير ، قد رأيناه ينشأ فى مصر ، فعند هذا الشاعر نجد نغمة غير ما نجد عند شعراء المهجر ، بل هو فيها على طرفى نقيض مع الآخرين ، هى نغمة التفاؤل والدعوة إلى المرح ، بينما رأينا فى مقال سابق أن النغمة الغالبة على أدب المهجر هى من اللون القاتم .

فهذه النغمة عند إيليا أبى ماضى هى فى رأيى أثر من آثار نشأته بين أحضان الطبيعة المصرية ، فهذه الطبيعة الشمسة النيرة الخيرة الدافئة ، حيث النهار جميل بنوره ، والليل جميل بصفاء سمائه ولمع نجومه ، حيث كل شىء يدعو إلى الطرب ، إن مثل هذه الطبيعة تترك فى النفس نغم الدعوة إلى المرح والتفاؤل حتى عند اشتداد الخطوب .

وإنى أشعر فى شعر إيليا أبى ماضى أن مناحى التفكير عنده فيها كثير من الشبه والقرب بينه وبين أحد كبار شعراء مصر الحاضرين فى هذا الجيل . ولو أمعن القارئ قليلا فى قراءة أبى ماضى أظنه يرى رأيى .

لا أريد أن أنهى هذا المقال دون الإشارة إلى مسرب آخر كان يوصل بين مصر وأمريكا ، عنيت به المجلات الأدبية المصرية ، وخصوصاً مجلتى المقتطف والهلال ، لما لها من الانتشار بين المهاجرين ؛ فهذه المجلات كانت من ناحية تنشر بعض أدب المهجر فى مصر ، وتوصل إلى المهاجرين أرق المحصول الأدبى المصرى . وبهذا أوجدت شيئاً من الترابط بين التيارات الأدبية هنا وهناك ، فوجد من ثم شىء من الاستجابة الأدبية المتبادلة بين الديارين على بعد الشقة ، وخصوصاً فى المرحلة التى تلت الحرب العالمية الماضية ، فكل حادث فى وادى النيل إن فى الحياة السياسية وإن فى الحياة الفكرية كان له صدى عند المهاجرين العرب . ونتيجة لهذه الاستجابة ، ومن بعض مظاهرها ، أننا نجد بعض أدباء المهجر يعارضون بعض شعراء مصر ، كما فعل المرحوم فوزى المعلوف بمعارضته قصيدة المرحوم شوقى فى توت عنخ آمون ، ونجد أيضاً ذكر مصر وذكر بعض ما يجرى من الأحداث السياسية يتردد فى شعر بعض الشعراء . ومن بين الأحداث الأدبية التى كان لها صدى بعيد عند أدباء المهجر حركة النقد العنيفة التى أوجدها فى مصر الدكتور طه حسين والعقاد والمازنى ، وقد صدموا بها من صدموا من الشعراء ، حتى جرأوا على إثارة الشعر نفسها ؛ فإن أدباء المهجر طربوا لهذه الحركة وهللوا لها . ومن يرجع إلى الآثار الأدبية النقدية التى صدرت عن أدباء المهجر ، مثل كتاب « الغربال » لميخائيل نعيمه وغيره ، يلمح الاستجابة القومية بين الديارين ، والرابطة القوية بين التيارين .

مما تقدم يظهر جلياً أن لمصر وللبيئة المصرية بعض الأثر والعمل فى أدب المهجر الأمريكى . أما مدى هذا الأثر وعمقه فلا أتعرض له . وما أردت من هذا المقال إلا التنبيه إلى وجوده والاشارة السريعة إلى الخطوط العامة من الموضوع ، على أمل أن أعود إليه فى فرصة أخرى إن شاء الله ، فانه السميع المجيب .

لويس الريس

من صور الزهد في الإسلام :

يزيد بن أبان الرقاشى

ما كان أعجب ذلك المجتمع الزخار المتدافع المتضرب الذى كانت البصرة تموج به وتصطخب ، كما يكون النهر العظيم أول ما يكون نهراً من روافده التى تنصب عليه منجلة وتجتمع فيه تارة فتارة . بل ما كان أعجب تلك المدينة التى أسست على أصل عسكرى وحقيقة حربية ، فاذا بها فى قليل من السنوات تمثل أروع الصور الاجتماعية ، وأبدع المثل المدنية . كانت فى أصل نشأتها وأول تكوينها معسكراً للجند الاسلامى الذى خرج من الجزيرة العربية يحمل للدنيا معنى الاسلام ، ويكتسح فى طريقه آثار الوثنية الزرية بالعقل ، ومظاهر الرق الاجتماعى فى أساليبه المختلفة ، ويضع الانسان فى مكانه الكريم الذى تهيئه له حقيقته السماوية . فاتخذ من البصرة — كما اتخذ من غيرها من المراكز الصالحة فى التدبير الحربى — معسكراً له ، يجتمع فيه ، ويفيض منه . يقبض منه على ناصية العراق أن يتفلت من يده ، أو تعبث به العوابث بعده ، ويسيّر منه الأمداد إلى البلاد المتاخمة له ، كالأهواز وفارس وما إليهما من أرض الأكاسرة . حتى تأذن الله أن يديل منهم ، ويبسط كلمته العليا على ملكهم . وأقبل المسلمون من ذلك على عالم زاخر بتهاويل المجد والثراء والزخرف ، و « انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة » كما قال أنس بن حجية لأمير المؤمنين عمر ، حين بعثه عتبة بن صفوان إليه ، فأخذ الناس يفيضون إليها ، أو يسار بهم نحوها ، من مشارق الأرض ومغاربها ، يحملون إليها شتى النوازع ومختلف العقول . فماذا عسى أن يكون الأمر فيها بعد ؟ لقد أصبحت البصرة من أخطر البيئات التى تجتمع فيها كل ألوان الحياة العقلية تصطرع وتتنافس وتتلاقح ، كما تلاقت فيها كل صور الغرائز الانسانية تهدر وتتصاول وتتدافع ، وقد أتاحت لها مظاهر الحضارة الجديدة أن تأخذ فيها شاءت من لهو وعبث وفتك ومجون ، وأن تقبل على الدنيا وزينتها إقبالا يصرفها عن العاطفة الدينية وما تقوم عليه من شتى المعانى النفسية السامية .

إذاً فقد كانت تلك الجماعة الاسلامية الأولى معرضة لخطر التحلل . بما يتبرج حولها من المغريات والفواتن التى تثير الشهوات الدنيا ، وتدفع الغرائز الأولية إلى الاندفاع فى مسالكها ، والتشوّق فى فرص رغباتها ، والانحدار بتلك الجماعة فى ذلك المنحدر السحرى الذى مُنى به كثير من أمم التاريخ ، حتى انتهى بهم ذلك المنتهى .

هذا إلى أن الوازع الرسمى الذى يستمد وجوده من شرائع الاسلام وقوة السلطان لم يكن هنالك مُرصِداً لهذه الفتن الخفية ، إذ كان قد غلبت عليه أهواء السياسة ومكايد الساسة ، فهو مسخر فى يدها ، منصرف إلى مرضاتها ، حتى ما يكاد يستطيع شيئاً غير ما تريده له ، وتمليه عليه .

هـذا واحد من الأخطار التى كانت تهدد الجماعة الاسلامية الأولى ، وكانت خليقة أن تقضى عليها ، لولا ما فى هذه الجماعة من قوة ذاتية ، كان من مظاهرها تلك الشخصيات العظيمة فى ذلك العهد ، وفى مدينة البصرة على الأخص ؛ وقد قامت هنالك لتكون بذواتها مثلا رائعة لصفاء النفس ، وطهارة الضمير ، ورقة العاطفة ، وسمو الروح ؛ فتهفو إليها القلوب ، وتبعث الناس عما فيها من قوة إلى النزوع إليها والتأسى بها ، ثم لتكون بمثابتها القوى أداة لمقاومة تلك العوامل الحالة ، بما تبثه فى قلوب القوم من تلك الأشعة الروحية النفاذة التى توقظ القوى النفسية النائمة ، وتبعث الحنين إلى المثل العليا والحماس الاطمئنان لها .

هذا هو المكان الصحيح لهذه الطائفة من الزهاد

الذين نرى منهم فى القرن الأول بكر بن عبد الله المزنى ، ومؤرقا العجلى ، وصفوان بن محرز التميمى ، وعامر بن عبد قيس العنبرى ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وغيرهم ممن قاموا يمسكون المجتمع أن تهوى به الأهواء . ومن هذا فيما يبدو كان أبو عثمان الجاحظ كثير الاحتفال بهم ، عظيم التقدير لهم ، مما يدلنا أيضا على مبلغ ما أحدثوه من أثر .

ومن هذه الشخصيات أبو عمرو يزيد بن أبان الرقاشى البصرى ، ويردد الجاحظ اسمه فى أطواء كتبه كلما ذكر الزهاد والنساك من أهل الخطابة والبيان ، ويصفه بأنه كان زاهدا عابدا ، وعالما فاضلا ، وقاصا مجيدا .

ولقد هيأت لمكانه هذا جملة الأسباب التى تطبع الشخصية ، وتلون الحياة ، وتحمل الرجل على طريقه التى يركبها ، من وراثة ودراسة وبيئة وغير ذلك ، وكانت كل هذه الأسباب تتساير فى نفسه متسقة منسجمة متعادلة .

وكما كانت الوراثة أول العوامل فى توجيه الرجل وتكوينه ، فهى — فيما نحسب — أبعدها أثرا ، وأشدها فى ذلك خطرا . وما أكثر ما نفتقد هذا العامل فى دراستنا لأعلام الاسلام من « الموالى » فلا نجده ، أولا نتبينه على الوجه الذى تتطلبه هذه الدراسة ، فنلجأ إلى تلك الوراثة العامة المطلقة ، نتلمس فيها الخصائص والفوارق ، ونستلهمها القول استلهاما ، ونقسرها على الكلام قسرا ، ونكرهها بذلك على إرضاء رغباتنا العلمية الحائرة ، أو نزوتنا السخيفة الفارغة ، ثم نذهب نخادع أنفسنا بأن قد ظفرنا من ذلك بما يرضى الأسلوب العلمى ، وينصف الحقيقة التاريخية !

أما الأمر هنا فمختلف عن هذه الغاية ، إذ احتفظ الجاحظ لنا ، فى كتابه البيان والتبيين ، بنص لأبى عبيدة نستطيع أن نتبين منه — بعض التبين — شيئاً من الخصائص الوراثية التى كان يزيد الرقاشى يحملها فى أعصابه فوجهته فى الحياة تلك الوجهة ، وبوأته منها ذلك المكان .

يقول أبو عبيدة عن أسرة الرقاشيين : « وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الأكاسرة ؛ فلما سبوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الإسلام وفى جزيرة العرب ، نزعهم ذلك العرق ، فقاموا فى أهل هذه اللغة كقيامهم فى أهل تلك اللغة ، وفيهم شعر وخطب ، وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم ، ففسد ذلك العرق ودخله الخور » .

إذاً فقد ورث يزيد الرقاشى عن آبائه هذه القدرة البيانية التى جعلته قاصاً من الطبقة الأولى ، وخطيباً من الطراز الأول ، كما ورث عنهم تلك العاطفة الدينية التى يدل عليها وصفهم بأنهم كانوا خطباء الأكاسرة ، وهو وصف يتضمن فى مطاويه القول بأنهم كانوا من رجال الدين لذلك العهد . وكلا الأمرين — العاطفة الدينية والقدرة البيانية — يرجع فى مرد أمره إلى شىء واحد ، وهو تلك الحالة العصبية الخاصة التى تجعل صاحبها مرهف الحس ، شديد التأثر ، سريع الاستجابة . وكذلك كانت — فيما نرى — أسرة الرقاشى الأولى ، وما زالت كذلك ما بقيت بعيدة عن المؤثرات الغريبة ، كما يقول أبو عبيدة ؛ ولهذا نرى فى هذه الأسرة كثيراً ممن يعد تعبيراً لهذا الميراث . ونحن نستطيع الآن أن نعد منهم فى باب الزهد والبيان يزيد الرقاشى هذا ، وأباه أبانا ، وابن عمه الفضل بن عيسى بن أبان ، ثم عبد الصمد بن الفضل .

ولكن الوراثة ليست هى وحدها التى تطبع الشخص وتوجهه وتلون حياته ، وإنما هى فى حقيقة الأمر تهيئه ، وتمده لقبول مؤثرات خاصة ، قد تختلف آثارها اختلافاً بعيداً ؛ فكان من الممكن — مثلا — أن يكون يزيد غير من كان لو أنه تعرض لمؤثرات غير التى تعرض لها وتأثر بها ، مما تتطلبه أعصابه المرهفة الطيبة ، كما نرى فى أسرته

من لا يكاد يرى الناظر العابر صلة بينه وبينه . ولكن زيد كان قد نُشّئ تنشئة الصبي الذي يريده أبوه ليكون إماماً في الدين ، وعلماً من أعلام المسلمين ! وبذلك امتلأت نفسه ، واتجهت أعصابه ، ووضع نفسه في مكانه الذي أريد أن يتبوأه ! ومن ذلك المكان جعل يصعد كل نزوة تتبرج له ، وتحاول أن تنزو به .

وفي هذا الجو النفسي امتنع زيد واستعصم ، ومنه أوحى إليه أنه ليس في هذه الحياة إلا عمل يعمل ، وغاية تلتمس ، ولله وحده يجب أن يكون العمل ، والتوجيه عباده نحوه ، ولتشويقهم إلى الكمال المطلق والخير المجرد يجب أن تلتمس الأسباب وتتخذ الوسائل ! وأخذت هذه المعاني تدور في نفسه وجعلت أعصابه المرهفة تتلقاها ثم تقوى منها وتذكيها وتنشرها وتملأ جوه بها ، حتى كادت ذاتيته أن تفنى فيها ، وتتحول جميعاً إليها .

ثم كان إلى جانب هذا الجو النفسي الذي كان ينتشر من أعماقه جو نفسي آخر تتنفس به تلك الأرواح العالية التي كان مسجد البصرة يسطع بها ، وينفح بعطرها ، من أمثال أنس بن مالك وصفوان بن محرز وبكر بن عبد الله ، وأبي سعيد الحسن بن أبي الحسن . وكان هؤلاء أئمة في علوم الدين ، كما كانوا أئمة في سمو النفس ، وارتفاعها عن صغائر الدنيا وسفاسف المادة ، وفي هـذا الجو كان زيد يقضي أيامه يستروح به تلك النسمات العطرة ، ويستشرق به تلك الأضواء الساحرة ، ويتلقى فيه ما وجهه أبوه له من علوم الدين ، فيقرأ القرآن ، ويروي الحديث ، كما كان ينتقل أحياناً إلى بعض تلك الحلقات التي كانت تروى فيها أخبار الغابرين ، وآثار الملوك الماضين ! ولكن سرعان ما كانت تتحول في نفسه هذه الأخبار التي كانت تلتمس للتسلية أحياناً ، ولإرضاء النزعة العصبية أحياناً أخرى ، فإذا بها عظات حارة تجلوها عبرة وموعظة حسنة ،

ولكأن أرواح هؤلاء الغابرين ، بعد أن تمحصت منها في سماء الله ما كان في حياتها من رجس ، جعلت تحف به ، فتناجيه وتنبئه ، وتكشف له الحقيقة المجهولة فيما يسمع ، فجعل هو يأنس لهذه المجالس ، ويصغي إلى تلك الأحاديث ويرددها ويستروح بها . وما أدري أيمكن أن نفرض — فوق هذا — أنه كان للطبيعة الفارسية أثر في ذلك الميل وهذا النزوع ؟

وهكذا جعلت هذه القوى النفسية التي كانت تنجذب إلى نفس زيد من هنا وهناك ، تتجمع فيها ، كما تتجمع قوى الكهرباء في أداتها ! فكان لا بد لها بعد من أن تنبعث وتشع وتحدث أثرها في توجيه النوازع ، وتكييف القلوب ، وإماتة الشهوات الدنيا أو تحويلها ، وإشاعة روح الخير في ذلك المجتمع . وكذلك أخذ زيد مجلسه في المسجد ، وجعلت روحه تجذب الناس إليه ، وجعلت هـذه القوى الروحية المذخورة تنبعث من بين شفتيه كلاماً فيه جاذبية الروح ، وله قوة الكهرباء ! فينطلق إلى دخائل القلوب ومكامن الداء ، فينتزع منها ذلك العلق الخبيث من علق الشيطان .

وقد آثر أن يتخذ في مواعظه طريقة القصص ، إذ كانت نفسه لا تزال مصغية إلى تلك الأحاديث التي كانت تتفتق فيها عن معاني العظة والتذكرة ، كما كانت تثير فيها أبلغ الخواطر عن متاع الدنيا ونعيم الآخرة ! فما له لا يلجأ إلى هذا الأسلوب ؟ وما له لا يستغل ما سمع من أقاصيص الأولين يشقق بها حديثه ، ويزخرف بها مواعظه ، ويسوق فيها العبرة ، فتصل إلى القلوب من أقرب الطرق ، إذ كانت بذلك أدنى إليها ، وأبلغ في استهوائها ؟

وكان زيد — فيما يظهر — من أوائل الذين أدخلوا هذا النمط من الوعظ وتقوية العاطفة الدينية ؟ فكان الناس

يختلفون في تقديره ، ولم يكونوا جميعاً مأخوذين به ، بل كان هناك — بطبيعة الأمر — من كان يرى في هذا الأسلوب شيئاً من التكلف الثقيل والتلفيق والاجتلاب ، فكان من أجل هذا معرضاً عنه ، يستثقل حديثه ، ويبغض مجلسه . ويتحدث ابن أبي أمية عنه فيقول :

شهدت الرقاشي في مجلس ... وكان إلى بغيضاً مقيتا
فقال : اقترح كل ما تشتهي

فقلت : اقترحت عليك السكوتا

هذا إلى أن طبيعة القصص ، والرغبة في التأثير ، والقصد إليه ، لم تكن تتفق كثيراً مع التزمت في رواية الأخبار ، فكانت تعدو به في كثير من الأحيان من الدقة وتحرى الصحة ، وبذلك كثرت في رواية الحديث مآخذه ، كما كثر الطعن عليه من المحدثين ، فيقول أحدهم — مثلا — وهو شعبة : « لأن أقطع الطريق أحب إلى من أن أروى عن زيد » .

كما أن هناك سبباً آخر لا نراه بعيداً ، في انصراف المحدثين عنه ، هو أنه كان قدرياً ، كما يقول صاحب « تهذيب التهذيب » في ترجمته له .

ومهما يكن من شيء فقد كان زيد بن أبان الرقاشي من أعلام الناس في صفاء القلب وقوة الروح وبلاغة التأثير ، وما نحسب أن قول المحدثين فيه وطعنهم عليه ينزل به عن مكانه الذي هيأته له طبيعته ، ومكنته منه أيامه .

عاش في القرن الأول وأدرك طرفاً من القرن الثاني ، ومات — كما يقول البخاري — في العشرة الثانية من هذا القرن .

محمد طه الحاجري

أسطورة مصرية للصغار :

الربة المنقـــــذة

أما — يسرني أن أراكما حولي الآن في هذه الساعة الباكرة ، لأني وعدتكما بأن أسرد لكما قصصاً غريبة عن بعض ربات مصر القديمة .

سوسو — وهل أنت مزمعة أن تحدثينا عن واحدة منهن بالذات ، أم تتوسعين في حديثك فتخبرينا شيئاً عن الأرباب أيضاً ؟ شد ما أتوق إلى ذلك .

أما — لو أني عمدت إلى التحدث إليكما من جميع أرباب مصر ورباتها لبقيتما تنصتان لي إلى ما بعد منتصف الليل .

ثريا — حبذا لو فعلت ، فلن يضايقنا طول السهر .

أما — ولكن السهر يضايقني ، ولذلك سأقتصر على إنبائكما بحديث طائفة قليلة من أشهر المعبودات والأرباب ، فاسمعا مشكورتين .

كان « رآ » ملكا عظيما ، لأنه كان مانح النور الأرض كلها وامصر كذلك ، واعتاد كل يوم أن يعتلي غارب السحاب في سفينة ليشرف على سلامة الكون وحسن نظامه ، ولكنه أخذ يشيخ على توالي الأيام ، وكانت تعاصره سيدة اسمها إزيس ، ولها رغبة أكيدة وتطلع شديد إلى معرفة اسم « رآ » ، ويحق لي أن أخبركما بادئ ذي بدء أن كل ملك كان له اسم سري خفي كما كان له اسم عادي معلوم ، وكان اسم « رآ » السري خافياً على كل مخلوق سواه ، ولو اهتدى إليه أحد لظفر بتمام القوة وملك أعنة الجبروت ، فماذا تظنان إزيس فعلت ؟

ثريا — إني لا أستطيع أن أعرف ماذا فعلت .

سوسو — هل سألت « رآ » أن يفشي لها سر اسمه ؟

أما — كلا ، بل صنعت ثعباناً له أنياب سامة ، ووضعت ذلك الثعبان في طريق « رآ » ، وتربصت النتيجة ، وما هي إلا لحظات حتى أضاءت السموات بنور باهر ، واقترب « رآ » ، فنظرت إزيس مبهورة الأنفاس ، وأخذت سفينته تقترب من مكان الثعبان الذي لم يلبث أن هجم عليه فجأة ولدغه بفيه ، فكتمت إزيس أنفاسها ، وصاح الإله العظيم متوجعاً وقال : لقد لدغتني الحية ، وها أنذا أشرف على الموت ، وأخذ يكرر صيحاته أو ! آو ! إو !

ثريا — يا له من إله شجاع ! إنه نموذج عال للألوهية .

أما — وكلما كان يصيح مرة قائلاً « أو » كان أهل الأرض يسمعون هزيماً قاصفاً كالرعود ، وأسرع سائر الآلهة إلى المكان الذي انبعثت منه صيحاته وسألوه جماعة قائلين : ما خطبك ؟ فصاح قائلا : إني أموت ! إني أموت ! وقد لدغني ثعبان ! فحار الأطباء في أمره ، وأعيتهم الحيلة في علاجه ، وإن كانت قلوبهم قد تفطرت لرآه في مثل هذه الأوجاع المبرحة . أما إزيس فكانت ترقص فرحاً ، إلا أنها تظاهرت بالحزن الشديد ، وكتمت ما كان يفيض به قلبها من السرور ، وتقدمت إلى « رآ » قائلة : سيدي وربي لعلك تستطيع أن تخبرني عما يوجعك ، ولعلي أستطيع أن أقوم لك بخدمة ما . فأجابها قائلا : إنه لطف عظيم منك أن تعرضي على مساعدتك يا سيدتي ، وقد لدغني ثعبان ، وأنا أعاني برحاء الألم . فقالت : أطلعني على اسمك السري لأتمكن من معالجتك . فصاح « رآ » قائلا : أو ! آو ! كل شيء إلا هذا ، إني أمنحك كل شيء ، فقط أرجو منك أن تشفيني ، ولكن لا تطلبي إلى أن أبوح لك باسمي السري . فقالت إزيس : ولكني لا أطلب شيئاً سوى هذا : أطلعني على اسمك السري لأشفيك .

واضطر « رآ » أن يخضع لها تحت وطأة الألم اللذيب الذي كان ينهشه ، وباح لها باسمه السري ، وإذ ذاك قالت إزيس : أيها السم ! اترك جسم « رآ » ، وللحال شفي « رآ » .

سوسو – وماذا كان اسمه السرى ؟

أنا – إنه سرى للغاية ، ورهيب للغاية ، ولا يمكنني أن أذكره لكما .

ثريا – أرجو منك أن تذكريه لنا !

سوسو – إنها لا تعرفه بالتأكيد !

ثريا – إنها تعرفه !

أنا – فى الواقع أنا لا أعرفه .

ثريا – هل انتهت القصة ؟

أنا – نعم .

سوسو – ولكن أظنك قد وعدتنا بأن تقصى علينا نبأ بعض ربات مصر !

أنا – أجل . سأقص عليكما قصة إزيس وابنها الصغير هورس .

كان أوزوريس زوج إزيس ، وكان لأوزوريس أخ اسمه ست . وكان ست يبغضه وحاول جهده أن يقتله

سوسو – أكبر ظنى أنه أفلح فى محاولاته ؟

أنا – أرجو ألا يخفى عليكما أن أوزوريس كان ملكا ، ولكن ست أراد أن يحل محله ، ولبث زماناً طويلا ينتظر الفرصة التى تؤهله لنيل مراده ، وأخيراً انتهزها وقتل أخاه وقطعه إرباً ، ورمى تلك الارب فى أماكن مختلفة فى البلاد المصرية .

ثريا – ياله من شخص بغيض ممقوت !

أنا – ثم قبض على إزيس وحبسها فى بيته ولم يسمح لها بالخروج مطلقاً ، وكان لإزيس صديق وفى ، اسمه الاله توت ، فجاء لنجدتها وأخرجها من سجنها ، ولم يكتف بذلك ، بل جعلها تحت عناية هيئة حرسه المؤلفة من حيوانات كثيرة ، وكانت ترافقها أينما سارت ، وقد راحت تضرب فى أنحاء البلاد باحثة عن جثة زوجها القتيل ، وصادفت فى طريقها حوادث غريبة كثيرة ، منها ما جرى لها ذات ليلة حين وصلت إلى بيت نبيلة اسمها السيدة يوسرت . وقرعت بابها وسألتها أن تسمح لها بالمبيت عندها فرفضت ، ولم يكن رفضها لقسوة فى قلبها ، بل لاشمئزازها من منظر الحيوانات الغريبة التى كانت تصحبها ، فشكرتها وتابعت مسيرها ، وإذ كانت السيدة يوسرت تخاطب إزيس هجم أحد وحوشها على طفل السيدة ونهشه على غير علم منها ، ووصلت إزيس بعد ذلك إلى بيت امرأة فقيرة اسمها تاها ، وسألتها قائلة : هل تسمحين لى بالمبيت عندك الليلة ؟ فقالت لها : تفضلى بالدخول واحسبى نفسك فى بيتك ، وانتظرينى قليلاً ريثما أذهب وأهيىء لك ماتاً كليله . وإذ كانت إزيس جالسة تستريح فى بيت المرأة الفقيرة سمعت صيحات داوية منبعثة من فم امرأة هائمة على وجهها فى عرض الطريق وهى تقول : النجدة . النجدة . باسم جميع الآلهة أطلب النجدة . فهبت إزيس من مكانها لترى جلية الأمر ، وأبصرت السيدة يوسرت الغنية التى لم تسمح لها بدخول بيتها تتقدم نحوها وهى تحمل طفلها بين ذراعيها ، وأخذت المرأة المسكينة تتوسل إليها قائلة : النجدة . إن بيتى يحترق ، وهو ذا ابنى يموت فقد تسمم . وكان والد إزيس ساحراً وعلمها الكثير من فنون السحر ، ومنها ما تستعين به على إنقاذ حياة المصابين بالتسمم ، فالتفتت إلى السيدة يوسرت وقالت لها : إننى أعرف شيئاً من السحر ، فسأطبق ولدك لأرى هل أستطيع إنقاذ حياته . وأخذت الطفل فى حنان بين ذراعيها وقالت بصوت منغوم : « سيحيا الطفل وسيموت السم » وكان ماقالته ، فعاود السرور قلب الأم .

ثريا – لقد ذكرت أن بيتها كان يحترق .

أنا – هذا صحيح إلا أنها لم تهتم لذلك بعد أن نجا ابنها

سوسو – وهل أصبحت مدام يوسرت تشفق على الناس بعد ذلك ؟

أنا – أرجو أن تكون قد تعلمت الاشفاق ، بل إنى أتوقعه منها ، إلا أنى فى الحقيقة لا أعرف ما صارت إليه حالها بعد هذه النجدة .

في المعبد ...

يا أنة المحزون لا تخمدى
في خافق المحجوب عن مورده
فالقلب ما زال حليف الأسى
يجدد الشجو لدى معبده!
لهفان يا سقمى ويا وحشتى
والبلسم الشافى لجرحى قريب
يطوف قلبى حول زهر الربى
ويلتقى بادى الضنى والشحوب
سئمت أطيارى وأنغامها
وعفت أشجارى وأزهارها
وجئت المعبد أرنو إلى ...
من أضرمت في مهجتى نارها

* * *

فقال يا عابد لا تبتئس ...
ليلاك قد ناحت عليها الطيور
وغاض من روضك ينبوعه
والزهر قد أخنت عليه الدهور
بعد الجوى البادى وما أذبلت
من غصنك الزاهى بأهدابها
قد جئتها أسيان في لوعة
ترتل الشعر .. بمحرابها !!

* * *

فأرعد الخافق يشدو له
بشعره بين الأسى والنحيب
وأرسل اللحن له شاكياً ...
كروحه الصادى المعنى الكئيب
وقال يا نجمى ووادى الهوى
أوّاه لو تشرق بعد المغيب

(القاهرة) محمد عبد الفتاح ابراهيم

سوسو — لقد ذكرت أنك ستحدثيننا عن هورس ابن إزيس .

أما — أجل . سأقص إليكما بالقليل منه . لقد كان طفلها العزيز الصغير ، ولما ترعرع أحبه الجميع . عفواً . ليس الجميع ، فقد كان عمه الظالم ست يكرهه ، وأراد أن يقتله كما قتل أباه في أول فرصة سانحة ، إلا أن إزيس كانت تسهر على ولدها بكل قواها ، ولم تدع سبيلاً إلى اقتراب ست منه ، ولكن حدث ذات يوم ...

سوسو — خبرينا أرجوك بسرعة ماذا حدث .

أما — حدث أنها خرجت وتركته دون حراسة مدة دقائق ، فدخل العم ست ، فصاح هورس : عمى ! فقبض عليه العم ، ولما عادت أمه — ماذا وجدت ؟ وجدت وحيدها ميتاً ، فبكت وناحت ولاذت بالاله « رآ » قائلة : أيها الاله أنقذ ابنى . فأرسل إليها « رآ » المعبود « توت » كى يسعفها .

وما إن رآها « توت » حتى قال لها : تشجعى فسيعيش ابنك وسيقوم حالاً . واقترب من جثة الطفل وقال : استيقظ يا ابنى . وعاد هورس إلى الحياة .

ثريا — ليتك تسترسلين في الاستزادة من أنباء المعبود « توت » فقد بدأنا نحبه .

أما — حسبكما هذا اليوم يا صغيرتى . والتوت ، بل لكتاب توت السحرى ، حديث طويل يحسن أن أرجئه إلى فرصة أخرى .

سوسو وثريا — وهل تسمحين بإرسال ما سردته لنا الآن إلى مجلة « الثقافة » المحبوبة لتطالعه أخواتنا وإخوتنا الصغار ؟

أما — يسرنى أن ألبى رغبتكما ، والآن أتمنى لكما ليلة هادئة وأحلاماً سعيدة .

الزهرة

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

اليابان

ليس في التاريخ القديم لليابان متعة كبيرة للقارئ العادي ، فما هو إلا تاريخ حروب لا تكاد تنقطع ، وأطماع لا تكاد تُشبَع ، وأفراد لا تكاد تَمَلّ من فرض نفسها وفرض إرادتها على الناس ، وأشياع ترى النفع في التشيّع ، فتجعل منه سبباً للعيش وآلة للحياة ، واستئثار بالسلطان كلما أمكنت القوة ، يتبعه غلوّ الفتوة وظلمُ القدرة ، والشعب في أثناء هذا لا يكسب إلاّ الهلاكَ والحربُ قائمة ، وإلاّ الجوعَ والعرى والسلم هي القائمة . وهذا هو تاريخ الأمم في أكثر أزمانها ، لا سيما تلك الأزمان القديمة ، واليابان لم تخرج في تاريخها من أسلوب تلك الأمم في تلك الأيام .

ولكن مع هذا ، فحوادث اليوم لا يمكن فهمها إلاّ بحوادث الأمس ؛ وسعادة الرجل أو شقاؤه في كهولته لا يُفهمان إلاّ بأحداث شبابه ، وأحداث شبابه قد لا تُفهم إلاّ بأحداث طفولته ؛ حتى هذه قد تمتد أصولها والعوامل المؤثرة فيها ، إلى حياة مَنْ أوجد هذه الطفولة من الأمهات والآباء .

والسنون في أعمار الرجال لا يماثلها إلاّ العقود والقرون في أعمار الأمم . فلِنَفهم هذا القرن الحاضر من حياة اليابان لا بد من إلمامة ، ولو خاطفة ، بما سبق هذا القرن من قرون .

لقد تركنا اليابان في المقال السابق في ختام القرن السابع ، وقد استقرّت البوذية فيها ، فما كسبتها ما يكسبه الدين الجديد دائماً من إصلاح . فتركناها ذات حكومة واحدة ، على رأسها أمبراطور ذو سلطان ، يحكم شعباً أكثر حظاً من طيبات الأرض ، وأكبر استمتاعاً بالعدل والسلام .

وجاء القرن الثامن من بعد ذلك ، فاطّرد الحال الذي كان في سابقه ، فالأباطرة ظلوا ذوى السلطان ، والدين الجديد امتد واشتد ، وتوطّدت أركانه ، وكثر رهبانه ، وامتدت معابده ومعاهده . والمدنية الصينية ظلّت تدخل البلاد من أبواب أكثر اتساعاً ، وأكثر تعدّدا .

ولكن لا يلبث الحال أن يتبدّل بدخول القرن التاسع بعد الميلاد ، ففي هذا القرن يدخل على حكم اليابان نظام غريب عجيب ، يمتد من هذا القرن إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، أي نحو ألف عام . وفي هذا النظام نجد الأمبراطور يجلس على عرشه ، ولكن لا حكم له . ونجد على دست الدولة رجلاً آخر من أسرة عظيمة يقوم بالحكم كله . وتتوالى الحكّام من الأسرة الواحدة حتى تقوم أسرة أخرى تناليها فتغلبها ، فينتقل الحكم إليها ، والأباطرة باقية تتسلسل من أصلاب الآلهة على عرش اليابان . وأسموا هذا الحاكم بالشّوجن ، وهي لفظة معناها القائد العام ، وكانت في أول الأمر لقباً منحه الأمبراطور لقائد عظيم حارب سكان الجزر الأوّلين في الشمال فغلبهم غلباً كبيراً . وقد مُنِح هذا اللقب لأول مرة في ختام القرن الثامن . ولكن بدخول حكم الأُسَر ، صار هذا اللقب لقباً لكل حاكم للبلاد ، يَمنحُه الأمبراطور طوعاً ، فإن لم يفعل منحه قسراً ، فإن لم يفعل وجد نفسه بين عشية وضحاها بين جدران دير من الأديرة الكثيرة راهباً متعبّداً غيرَ مختار . ويحل مكانه من عرش اليابان قريب أو نسيب من أسرة الأباطرة أسرة الأرباب نفسها .

وأول أسرة حكمت البلاد بهذا الأسلوب كان اسمها فوجيوارا . وقد حكمتها نحوا من ثلاثة قرون ، أى حكمتها فى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر . وفى هذه القرون الثلاثة جلس على عرش اليابان خمسة عشر من الأباطرة ، منهم سبعة ركبوا العرش أطفالا ، ومنهم ثمانية نزلوا عنه اعتزالا . واستمد الحكّام الشواجن فى هذه الأسرة سلطانهم من الأباطرة ، لا بحد السيف ، ولكن بصلات القرابة التى حرصوا على إيجادها بين أنفسهم والأسرة المالكة ، وهى صلات لم تكن صعبة الايجاد . فهم كانوا أيضاً من نسل الملوك الأباطرة ، ولهم فى الأسرة المالكة وشائج وأرحام . ومن أمثلة الحرص على تلك الصلات أنْ كان منهم شوجن زوّج بناته الثلاثة أباطرة .

وكان عهد هذه الأسرة عهد رخاء ، بقدر ما كان يُرجى الرخاء فى تلك الأيام ، وكان عصرُها عصر سلام ، وعصر أدب ، انتعشت فيه الفروسية كما انتعشت البوذية . ولكنها فى اشتغالها بنفسها ذهلت عن الريف ، فتركت أقطابه يكبرون ويكبرون حتى اتسعت مساحاتهم ، وتضخمت أحجامهم . وكانت اليابان يتركز أهلوها فى الجنوب . وكان الشمال وارى يسكنها سكان اليابان الأصليون — الأينُو — وكان لا يزال من مشاغل الدولة طردُ هؤلاء إلى الشمال توسيعاً فى الدولة وكسباً لأراض شاسعة . فكانت تُطلق عليهم رجالَ حربها ، وتعقد لهم الألوية ، فالذى يحوز النصر منهم تُقطعه الاقطاعات من أراضى الغزو المكسوبة . وتقطعها إياهم دون مطالبة بضرائب ، ترغيباً فى الغزو ومكافأة على النصر . ولم تكن تحس بأن هذه الضرائب إنما اقتُطعت من مال الدولة . وقد أعانها على هذا الاحساس أن هذه الضرائب لم تكن دخلت فى خزانة الدولة يوماً . وكانت الضرائب فى أقاليم الدولة القديمة ضرائب باهظة تثقل الظهور .

فكان أن استهوى غزاةُ الشمال أهلَ الريف فى الجنوب ، فأقاموهم على الأرض الجديدة ، واقتضَوهم مالا دون الذى كانت تقتضيه الدولة ضرائبَ فى الجنوب ، ودونه بكثير . فبهذه السياسة وأشباهها عاد عهد الإقطاع الذى كان خف بدخول البوذية إلى الظهور ، وأخذ نظام الاقطاع يكتسب على الزمن قوة ، ويكتسب استقراراً ، ويدخل فى نسيج الأمة فيكون سداها ، ويكون لُحمتها ، إلى منتصف قرننا هذا الماضى القريب .

ولكن هذا الاقطاع الذى بدأ فى عهد أسرة فوجيوارا ، فى القرن الحادى عشر ، فالذى يليه ، وأخذ يشتد ويعتد فيما تلاها من الأسر ، كان إقطاعاً لغزاة ، إقطاعاً لأبطال حروب ، ولنُصراء هؤلاء الأبطال ؛ فهو إقطاع عسكرى فى أسسه ، عسكرى فى أغراضه ووسائله ، عسكرى فى جوه ، إذ كان لكل قطب من هؤلاء الغزاة أن يحتفظ بالعدد الأكبر من رجاله ، ليحتفظ بالقسم الأكبر من الأرض التى أصاب . فأنشأ هذا فى الأمة قبيلا من العسكريين لا نزال نسمع عنهم فى أخبار اليوم .

ومن أجل هذا كانت الأسر التى حكمت اليابان بعد أسرة فوجيوارا تستند فى صلتها بالامبراطور على السيف ، فهى مع احترامها له ، ومع استبقائها إياه ، كانت تتركه فى قصره المَشيد ، للتأمّل ، وليتّصل بالسماء ليستدرّ للناس الخير عن أبوابها . أما هم فكان لهم هذه الأرض ، يستنبتون منها الخير لأنفسهم ولأتباعهم ، ثم ما بقى فللناس . وصار الأباطرة لصلتهم بالسماء أحياءً كأموات . فمن أراد منهم أن يتصل بالأرض ، اعتزل الملك فكان له ما يشاء ، ولكن فى تلك الحدود التى يجد فيها نفسَه الملكُ المخلوع . لذلك كان منهم من تنازل عن الملك لولده ، ثم ترهّب ودخل إلى الدير . وفى رحَى الدير ، ومن وراء جدرانه ، كان يَشدّ الخيوط الدقيقة التى تتصل برجاله فى المعترك السياسى فيلعبون له الدور الذى يراه . والأديرة نفسها

صارت على الزمن معاقل محوفة ، يحمل رهبانها السيوف ، ويهبطون بها على الوديان لفض خصام واستكمال نقاش .

فتاريخ اليابان القديم — وكل تاريخها قديم إلى منتصف القرن التاسع عشر ، حين فتحت عينها أول فتحة على مدنية العصر الحديث — هذا التاريخ القديم تهيمن عليه هذه العسكرية الطائفية أكبر هيمنة ، هذا القبيل من الجند الذي أسموه بالسُّموريين ، هذا القبيل الذي انفلقت الأمة منذ خلقه طبقتين ، طبقة الجند وهي العليا ، وطبقة غير الجند وهي الدنيا . وانقسمت الطبقة الدنيا بعد ذلك ، ومن أجله أيضا ، إلى ثلاث مراتب : مرتبة الزرّاع ، ومرتبة الصناع ، ومرتبة التجار . وعليا هذه المراتب مرتبة الزرّاع ، لأنها الطبقة التي خرج منها السموريون . فكل فلاح طويل القامة طويل الباع أهل للصراع ، فهو سموريّ . ويلي الزراع الصناع ، لأن منهم من يصنع السيوف ، والسيف للسموريّ بداء ، وهو من أجل هذا يحمل منه اثنين ، طويلا وقصيرا ، فبالطويل يقطع ، وبالقصير يجهز على الرقاب . والصناع منهم الفنانون ، والفن كان له مقام لا يفوقه إلا فن الحرب ومنازلة الموت على شفرات السيوف . وآخر المراتب مرتبة التجار ، لأن حياتهم في المساومة والمماحكة والمطاولة .

لقد كان للسيف الأثر الأكبر في حياة اليابان القديمة ، من نحو القرن العاشر إلى منتصف القرن التاسع عشر . كان شارة الشرف ورمز التفوق ، ولحامله كانت حقوق ، وللاعب به في براعة كان تمييز وتمجيد . وحمل السيف كان فنا ذا دراسات ، ودراساته كانت طبقات . والسموريّ من بعد دراسته كان يطوف في البلاد يطلب لسيفه منافسا ، فإن وجد من ينفسه تلقفه اليد التي حلته .

ولم تكن السموريّة عند القوم لهوا ولعبا ، ولم تكن طريقا إلى الرزق السهل والحياة العابثة . وإنما كانت نظاما يتضمن تدريبا قاسيا ، لا فيما يختص بالسيف ، ولكن فيما يختص بالعيش أيضا ، فقد فرضت فيه فروضا من التقشف قاسية ، وفيما يختص بالواجبات وفهم الشرف ، فقد فرضت فيها فروضا أقسى ، حتى لكادت السُّموريّة أن تكون ضربا من الصوفية ، أساسه احتقار العيش ، والاقبال على الموت عند ما تخون الرجلَ أسبابُ الحياة . فمن صفة السموري أنه يحتقر المرتزقة من الناس ، ويحتقر أبواب الرزق إلا بابه . ومن صفته احتقار المال وكل ما يدفع إليه المال من مصانعة واحتيال . ومن صفته احتقار الأنوثة في الرجال . ومن صفته امتلاك أمر نفسه يعذبها حتى تعتاد الآلام ، وحتى تطمئن إلى الخروج من هذا العيش طوعا ، وتطمئن إلى آلام هذا الخروج إذا شاء صاحبها أن يختزل الحياة .

والسموريّ يخرج من الحياة إذا هو شاء اختزالها على شرّ أسلوب ، فهو يَبْقُر بطنه بيده . فإن هو فعل ولم يَمُت ، قام صاحب إلى جانبه بتمامه . وهو يلجأ إلى البقر إذا هو أخطأ فزلّ في حق قائده وسيده . وهو يلجأ إليه إذا وقع في الأسر . وهو يلجأ إليه إذا وجد ظلما لم يستطع دفعه ، فهو يموت احتجاجا . حدث مرة أن وقع في القصر شيء عدّته البطانة خذلانا لربّه ، والبطانة بالطبع عسكرية سموريّة ، فكفّروا جميعا عما وقع بشق البطون .

فهذه هي السموريّة التي عاشت في اليابان ما عاش الشواجن ونظام الاقطاع العسكريّ فيها ، وانتهت بانتهائهم في عام ١٨٦٧ .

والسموريّة كانت شرا على اليابان كلما وجهها أربابها إلى طريق الشر ، وكانت خيرا عليهم كلما وجهها أربابها إلى طريق الخير .

ومن خيرها دفع الغزو الذى أراده المغول لليابان فى القرن الثالث عشر ، وقد كانوا دوخوا الدنيا شرقاً وغرباً ؛ ففى عام ١٢٦٨ كتب رب المغول قبلاخان إلى ملك اليابان يطلب منه التسليم ، ويذكره بالذى حدث فى الصين وغير الصين . فرفض . فأعاد إليه الرسل تسأله التسليم ، فكان جزاؤهم قطع الرءوس . فجهز قبلاخان عسكراً كثيراً ، ساروا إلى اليابان عبر البحر ، فأذكى هذا قلوب اليابانيين فاستعدوا للقائه ، وأعانتهم الريح ، ففشلت الحملة . واقتنع المغول بالخيبة فما عادوا بعد ذلك .

ومن شر السمورية ما عانته البلاد من حروب داخلية دامت ثلاثة قرون ، جرت فى أذيالها الخراب والدمار . لأن الصراع كان صراعاً بين قواد عسكريين ، لكل منهم عسكره من السموريين ، أى بين جند شداد لا يرهبون الموت ، بل يطلبونه ؛ فالنصر الحاسم بين هؤلاء عزيز بعيد . ومن أجل هذا كان القرن الخامس عشر ، فالذى تلاه أشد القرون حمرةً واصطباغاً بالدماء ، وفيها خيف على الدولة اليابانية أن تنقسم إلى دول مستقلة لكل دولة أمير ، حتى قيض الله لليابان فى مستهل القرن السابع عشر أسرة فاقت كل الأسر ، لا بسيفها وحده ، ولكن برجاحة عقلها وحسن سياستها أيضاً ؛ فأعادت إلى اليابان وحدتها ، وأعادت لها سلاماً دام قرنين ونصف قرن بل يزيد ، من عام ١٦٠٣ إلى عام ١٨٦٧ ، عام النهضة الحاضرة .

وهذه الأسرة أكبر الأسر اليابانية القديمة خطراً ، واسمها توكوجاوا . واتخذت لها على عادة الأسر عاصمة فى يدو Yedo ، فى حين بقى الميكادو فى عاصمته التى احتلها أجداده زماناً من قبله ، فى كيوتو Kioto . وبقيت الأباطرة تتسلسل فى اطراد فى عاصمة الملك . وبقيت الشواجن تتسلسل فى اطراد فى عاصمة الأسر ، عاصمة الحكم .

وكان للعاصمة الأولى الفقر واحترام الناس ، وكان للعاصمة الثانية الغنى والجاه .

وقد امتازت هذه الأسرة بسياسة تغليق الأبواب — تغليق أبواب اليابان فى وجه كل ما هو أجنبى ، لاسيما ما هو أجنبى أوربى ، وعلى الأخص ما هو أوربى نصرانى . لأنها أوجست فى النصرانية الأوربية خيفة أن يكون هؤلاء المرسلون طلائع الجيوش إلى سواحل جزرها ، وبلغ بها هذا الايجاس مبلغ الذعر من كل قادم إلى شواطئها ، فكانت تلقى القادمين بقطع الرقاب . ودامت هذه السياسة — سياسة تغليق الأبواب — إلى عام ١٨٦٧ ، عام النهضة الحاضرة .

وقد كررنا ذكر هذا العام — عام ١٨٦٧ — وكررناه تعمداً ، لأنه الحد الفاصل بين قديم اليابان وجديدها — بين يابان خان الخليلى ويابان قصر الدوبارة .

ولنا فى هذا القديم كلمة ، وفى هذا الجديد كلمات باذن الله .

أحمد زكى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

بين المجد والقراء :

النــدى

١ — وانسحب رداء الليل رويداً رويداً عن رقيق النبت ونقط الندى تلمع فوق أوراقه ، تخيل الى أنها لؤلؤ تساقط ، وتطاير الندى فوددت أن لو كانت الحياة كنقطه يبرق صفاؤها حيناً ثم تذهب من غير أثر ، ورأيت في ذلك أتم معاني الخلود .

وأعمى سناه وامتد بصري فما وجدت لسناه رماداً ، فبكى قلبي ووددت أن لو كنت ندى تذهب نفرقني ثم لا تجد الأكف ما توارى ، وقد عدت إلى عناصر المادة متصاعدا إلى حيث أسبح في فسحة الفضاء وقد حفت بي الذرات وتناثرت حتى لتنشأ كل عنصر الروح مني .

وتصاعد الندى فاختلط جماله بجمال الكون ، وحزنت نفسي إذ كانت ترفرف حول نقطه ، تعجب باجتماع ذراتها وقد تكاثف صفاؤها فتود أن لو استطاعت أن تلم ما انتشر منها لتبقى للمدى نقاء ما ترى . ثم التمست العزاء فيما حال إليه هذا اللؤلؤ الجميل .

واختلط الندى بعناصر المادة ، فما لعين أن تنعم بجماله ، ولكم غفلت من جماله أعين .

٢ — ولاحت بالأفق طلائع الشمس فكان الندى ما كان ، فأغمضت عيني لعلي أمسك ما رأيت ، وإذا بنفسي تبدد ما حرصت عليه الحواس . أتراها لا تسكن إلا إلى ما هو رهن ساعته ؟ يا لها من صناع لا تبطل لها يد !

وعريت الأوراق من لآلئها ، فقلت ولكنها الذكرى تخصب ما تمي فاذا به أزهى مما كان . وقوى إحساسي بجمال ما رأيت ، وأما صوره ففيها خانتني الذكرى .

ووددت أن لو أخذت بغصن صغير أنديه بالماء ، فاذا بها الذكرى تناديني : إنه لن يكون ذلك ما أحببت من ندى الصباح .

وانطوت نفسي في مكنونها تنتظر الصباح المقبل ، وجاء ألم الانتظار ويقظة الترقب ينذران بأن ندى اليوم لن يكون ندى الغد .

وذهب جمال الندى غير مخلف أملا ، وبقيت وحدي أبكي ما لن أراه .

٣ — وانطلقت النفس في أثره ، وعهدي بها ولوع بما هو فان . ومن عجب أن يصيب الفناء الجمال ! ولكن الفناء سبيل الخلود . فأنى لنا به حتى نفلت من ضيق البقاء ؟ خلود الفناء ! ما أجمله من خلود ! خلود الندى يتطاير إلى حيث يختلط بمثال الجمال .

محمد مندور

سرقة أدبية

حضرة الأستاذ رئيس التحرير :

إجلالا ، وبعد ، نشرت « الثقافة » في العدد رقم ١٦٧ قصيدة بعنوان « آلام الشاعر » وبإمضاء « رضوان الموادني » . . وقد عجبت لهذا « السارق » كيف تسمح له نفسه أن يجترئ فينهب تراث ميت لا يستطيع أن يرد حقه أو يدافع عن نفسه ! فهذه القصيدة الطريفة الشجية من أشعار « أبي القاسم الشابي » ، ذلك البلبل الذي فارق عشه في ربيع الحياة . . . وهي منشورة في « أبولو » مجلد ١٩٣٣ . وقد نقلها بنصها وفصها ، حرفاً حرفاً ، ولكنه (الأسف) لم ينقل اسم صاحبها . . .

رحم الله أبا القاسم الشابي . . . وأخزى الله لصنا الجريء ، ووهبه ضميراً حياً ، وعاطفة نبيلة .

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام .

ع . عيسى

الدكتور زكي مبارك والمرأة

جاءتنا الكلمة الآتية من حضرة الكاتبة صاحبة الامضاء. ننشرها عملا بحرية النشر.

الدكتور زكي مبارك رجل مولع بالصيال والمناوشة؛ وهو فيهما دائماً البادئ بالعدوان والهجوم، ويندر أن تجده في موقف الدافع. وهو في ذلك إنما يريد أن يرغم الناس على الاقتناع بأنه أديب العربية الأوحد، وكاتبها الفرد الذي لا يشق له غبار، ولا يجرى له في مضمار. وهو يُلحّ في ذلك جهد طاقته، فتراه يكثر في أكثر مقدمات كتبه، وفي كثير من مقالاته في الصحف، من الثناء على نفسه، والاشادة بمواهبه، ويقذف الناس بتجاهله وعدم تقديره. وإذ يرى أن ذلك لا يزيد الناس إلا (مَطّ شفاه) له، تراه يعمد إلى مناوشة أساتذته الأعلام، وزملائه الأفذاذ، وأصدقائه من الأدباء اللامعين؛ وكل ذلك ليبنى له مجداً وشهرة على حساب مجدهم وشهرتهم. ولكن فليثق الدكتور المبارك أن ذلك كله لن يزيد في قدره، ولن يرفعه فوق منزلته.

وقد وجّه الدكتور المبارك في هذه الآونة الأخيرة هجومه وصياله إلى المرأة. المرأة التي نالت من أدبه أوفر حظ، وكانت ملهمته في شعره ونثره، ومؤنسته في وحشته وتنقلاته بين القاهرة وباريس وبغداد وغيرها من البلاد، والتي كان في شعره يجلها إلى حد التقديس، ويتودد إليها إلى حدّ الذلّ والخضوع. هذه المرأة القلب حب الدكتور زكي مبارك لها، وتقديسه لحبها، وتودّده إليها، ورضاه عما يشبه الذل في هذا التودد، كل ذلك انقلب إلى عدوان شنيع، وهجوم عنيف لاهوادة فيه ولا رفق، يشنه الدكتور المبارك (خريج جامعة السوربون في فرنسا، والدكتور المضروب في ثلاثة، والمفتش بوزارة المعارف المصرية، ومؤلف «ليلى المريضة في العراق» في ثلاثة أجزاء ضخمة و «مدامع العشاق» و «ذكريات باريس»، وغيرها من المؤلفات الوجدانية التي أوحت بها إليه روح المرأة، وأنوثتها وسحرها). هذا الرجل هو نفسه الذي يقول — ولا يستحي من هذا القول السخيف — «رحمك الله يا أبي! فما كنت تشترى النعل إلا بعد أن تجربها على رءوس زوجاتك».

وليس غريباً من الدكتور المبارك مثل هذا التحدي وهذا العدوان، وهو رجل يريد في كل يوم أن يأتي بجديد، مهما كان هذا الجديد تافهاً. وليعلم الدكتور أن هذا «الجديد» الذي طلع به على قراء مجلة «الرسالة» مؤخراً، وهو هجومه البغيض على المرأة، لهو أسخف من أن يقام له وزن. ولعل أبلغ رد عليه كان هذا السكوت المطلق الذي لقيه الدكتور من أقلام الكتاب والكاتبات، وهو سكوت يحز في نفسه المطشى الى الصيال والمناوشة أكثر من حد السيوف البواتر.

(رام الله — فلسطين) ابلجه زنانيري

محكمة إسنا الأهلية

إعلان بيع المرة ثالثة في القضية المدنية رقم ٢٣٢٢ سنة ١٩٣٩

إنه في يوم الثلاثاء ١٤ أبريل سنة ١٩٤٢ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بسراى المحكمة سيباع بالمزاد العلني العقار الآتي بيانه المملوك إلى عبد الحليم حماد جمعة من حمرة دوم وفاء لمبلغ ٢٢ جنيه و ٩٦٠ مليم والمصاريف بثمن أساسي قدره ١٢ جنيه و ٢٣٧ مليم وهذا بيان العقار

٢٠ س و ٧ ط أطيان بزمام النجوع مركز إسنا مديرية قنا بحوض الطول الوسطاني نمرة ٢٥ ضمن ٨ شيوعا. الحد البحري ملك قاسم عبد الغفار وإخوته. الحد الشرقي ترعة الرمادي عمومية بجسرها. الحد القبلي فهمي عبد الله على حديثا وقديما أسطاس الدمس غالي. الحد الغربي ترعة أم مدس عمومية بجسرها

٢٠ س و ٧ ط فقط سبعة قراريط وعشرون سهما لا غير

وهذا البيع كطلب عبد القادر محمد جمعة من حمرة دوم

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٨/٥/١٩٤٠ ومسجل بمحكمة قنا الأهلية في ١٢/٥/١٩٤٠ تحت نمرة ٣٩١ بالصحيفتين ٥٤ و ٥٥ أما أوراق وشروط البيع فمودعة بدوسيه القضية لمن يرغب الاطلاع عليها فعلى راغبي الشراء الحضور في الزمان والمكان الموضحين أعلاه للمزايدة كاتب البيوع

من الأدب الغربي :

فلسفة الحب

"عن شيلي بتصرف"

الينابيع والهات تهادت ... وترامت شوقاً إلى الأنهار
والغدير الحنان يدلف للبحـ ... ـر حداه الجوى إلى التيار
نسمات السماء تسرى سكارى ... هائمات يحبها الدخار
ليس في الكون من فريد يعانى
ما يعانى في وحـدة وشفار
ربط الله كل إلف بإلف ... وحبا الله كل جار بجار
فلماذا أعيش دونك وحدى ... بين يأس وغربة وادكار

...

شامخات الجبال لم تعل إلا ... بالغات بقبـلة للسماء
واصطخاب البحار تصفيق بشر
لوفود الأمـواج والأنواء
تذبل الزهرة التي تتعـالى
عن أخيها بالزهو والكبرياء (١)
ترسل الشمس قبلة الود في الصبح
وتلقى بقبـلة في المساء
وشعاع الهلال في الليل يلقى ... قبلات على جبين الماء
هاهو الكون قبلة وابتسام ... وعناق الهوى وسحر الغناء
أى معنى له وروحى ظمأى ... ليس من قبلة تبل ظماى

دار العلوم ... عبد الرحمن محمد أيوب

(١) المراد بالزهرة وأخيها الذكر والأنثى من الزهر ، ويرمز الشاعر بذلك إلى ما فرضته الطبيعة من انعطاف الأنثى على الذكر لاتمام عملية التلقيح . [المترجم]

سيرة أحمد بن طولون

كتاب ألفه الإمام البلوى ، وحققه العلامة الأستاذ كرد على ونشرته المكتبة العربية بدمشق

الأستاذ محمد كرد على بك ، رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق ، حركة لاتنى وعمل لا يفتر . صاحب الدهر ستين عاماً ، وما نراه إلا مؤلفاً أو محدثاً أو محاضراً أو مشجعاً أو ناشراً كتب السلف باحثاً عن جواهر الأجداد : فإذا كتب فصفاء أسلوب وحلاوة سرد ، وإذا حدث فبراعة حديث ولطافة نكتة ، وإذا شجع فقوة تدب فى الجسم ونشاط يتنقل فى الجوارح ، وإذا نشر كتب السلف أراك معرض مناقب ومحاسن وجواهر .

أراد الأستاذ الجليل أن ينشر ذخائر السلف ؛ فعثر على نسخة فريدة من سيرة أحمد بن طولون فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، فرأى أن فى إحيائها مادة جديدة فى تاريخ مصر والشام ، ولوناً طريفاً من أدب مصر ابن طولون ، فيه حلاوة وعليه طلاوة ، وألفاظاً فصيحات ومعربات فى شئون الحياة ، كانت مألوفة فى زمن المؤلف ونحن بحاجة إليها اليوم . دع ما هناك من قصص واقعية على مثال قصص الصولى والقاضى التنوخى ، تدل على كياسة ابن طولون وسياسته ، وتفيد القارئ من حكمته وحنكته ، وفيها متعة للنفس وسلوى ، وصورة صادقة من صور ذلك المجتمع[1] .

صوّر البلوى ابن طولون تصويراً بارعاً ؛ فأبان من ذكائه وفراسته وسياسته ورحمته ، ومحاسنه ومكارمه ، مذ كان فى بغداد طفلاً يحفظ القرآن ويجوّده ، ويأخذ الحديث ويتقنه ، وينظم الشعر بالتركية ، لغة أمه وأبيه ، فيبرع فيه . إلى أن أصبح جندياً ، ثم فى مصر والياً ، وكيف تجلى نبوغه بأجلى مظاهره ، وبدا حسن تدبيره ونظامه ، وبان طموحه وثقته بنفسه . فأبعد الفوضى عن أحكام مصر ، ووضع لها قواعد العمل ، وأصلح الرى والطرق والترع والجسور ، وأسقط بعض الضرائب ، واكتفى بالخراج والمكوس . ثم استطاع أن يتغلب على أصحاب بغداد ؛ فأنشأ دولة ، وجعل القاهرة فى أعوام قصار كأعظم مدن الشام ، وتفرّغ إلى إصلاح مصر .

وإنك لتستشف من خلال أقاصيص البلوى عن ابن طولون ، صورة السياسى الحاذق الذى رضى الخصوم والأعوان ، والداهية الماكر الذى يكيد لمن فى بغداد ، والقاضى العادل الذى يقضى على نفسه ، والطاغية الجبار الذى يسفك الدماء ، والتجسس الظلامة الذى يعلم كل شىء ، والناسك الذى يحافظ على صلواته ، والتقى الذى يصطنع التقوى ، والغادر الذى يغضب على أقرب الناس إليه ، والرجل ذى القلب الرحيم الذى يتفقد اليتامى والأيامى ، وذى القلب القاسى ، الذى كان فى سجنه ثمانية عشر ألف إنسان ، والحذر القسطن الذى يسىء الظن بالمخلص له ، ولا يثق بأحد من الناس .

وقد كتب البلوى هذا كله بأسلوب نامٍ وقصص بارع . ولقد قرأت هذا الكتاب مرات ، وإن نفسى ما تزال تهفو إليه . فهو سيرة بطولة ، وسبيل زعامة ، وطريق حكم ، وصورة من صور العظماء ، ولا شىء يهذب الرجال كسير عظماء الرجال .

ولقد أضاف الأستاذ الجليل إليه كثيراً من الشروح والتعليقات ، وألحق به بعض الفهارس . ولعمرى إن كتاباً يخرجه كبير العلماء فى الشام ، ويشرف على طبعه الأديب الشاعر الأستاذ أحمد عبيد ، وتسمع فيه أحاديث البطولة والعصامية ، وترى صفحات ناصعات من تاريخ مصر . إن كتاباً هذا شأنه لجدير بالقراءة جدير بالاقتناء .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(١) انظر المقدمة ص ١٥ .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : { ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٦٩ — الثلاثاء ٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦١ — ٢٤ من مارس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

على أبواب أستراليا

تقدم الزحف الياباني حتى وصل في ثلاثة أشهر ونصف شهر إلى أبواب قارة أستراليا . ومنذ شهر أو أكثر نشرت هذه المجلة مقالا ، حاول فيه كاتبه أن يقسم الميدان في تلك الجهات النائية إلى قسمين : قاري ينتهي إلى الهند ، وجزري غايته أستراليا ؛ ولم تصل القوات اليابانية بعد إلى باب الهند تماما ؛ ولكنها بعد احتلال عاصمة برما ، واستيلائها على وادي نهر إراوادي ، قد أصبحت وليس بينها وبين الهند سوى بضع مئات من الأميال ؛ ولا بد للقوات اليابانية لكي تصل إلى الهند ، أن تتجه نحو الغرب . ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك حتى تخضع القوات المرابطة شمال رانجون ، وما بين رانجون ومندلاي .

وقد توهم بعض الكتاب أن اليابان تريد وقف الزحف على الهند ، لكي تتفرغ للزحف على أستراليا ؛ ولكن الوقوف عند برما أمر لا يرجع إلى إرادة اليابان وحدها ، بل للقوات المتحالفة في هذا رأي أيضاً . فليست المسألة إذاً مسألة رغبة اليابان في الاكتفاء بقطع طريق برما ، ثم الوقوف موقف الدفاع ، بل هي أيضاً مسألة رضى الحلفاء بهذه الحالة ، وعدولهم عن الهجوم . على أنه ليس من المعقول أن تتخذ اليابان ذلك الموقف وهي تعلم أن الزمن يعمل لمصلحة أعدائها ، وأنها إذا لم تحاول الحصول على انتصار باهر سريع ، فإن مر الزمان لا يدنيها من ذلك النصر ، ولا يقربها من تحقيق رغباتها .

وقد ساعد تطور الحرب في المحيط الهادي وفي

الشرق الأقصى ، على الفصل بين هذين الميدانين ، بعد أن كانت بينهما صلات وروابط مباشرة . واستقل كل منهما بقيادته الخاصـة ، وتولت بريطانيا أمر الميدان الهندى الصينى ، تمده بالرجال والعتاد . وتولت ولايات أمريكا المتحدة شئون الميدان الأسترالى ، وإمداده بالجند والذخائر والعدة الحربية . وقامت حكومة أستراليا بخطوة تنطوى على كثير من الجرأة النادرة ، بأن طلبت بنفسها إلى أمريكا تولية الجنرال ماك آرثور الأمريكى بطل الفلبين ، رئاسة الجيوش الحاربة فى أستراليا ، على ما فى هذا من غضاضة لابد أن يحسها القواد الأستراليون . ولكن حكومة أستراليا كانت أعلى نظراً من أن تتمسك بالمظاهر التافهة ، وكان قرارها هذا ينطوى على كثير من الحكمة ، فليس الأمر مقصوراً على تولية قائد ناجح جرىء ، أمر الدفاع عن القارة ، بل إن فى هذا ما يشعر الولايات المتحدة بأن هذا الميدان الأسترالى قد أصبح ميدانها ، وأن عليها ألا تألو جهداً فى إعداده وإمداده ، وهى وحدها التى تستطيع أن ترسل إلى هذا الميدان سيلا متدفقاً لا يكاد ينتهى من القوات والعدة الحربية . لهذا كانت الخطوة التى خطتها أستراليا لا تنطوى على الجرأة فقط ، بل على الحكمة وحسن التبصر فى الأمور أيضا .

وهناك ظروف تجعل تقسيم الميدانين بين أمريكا وبريطانيا أمراً طبيعياً . ذلك أن الهند متصلة اتصالا وثيقا بالشرق الأوسط ، حيث توجد قوات بريطانية ومصالح بريطانية عديدة ، وكثير من الامدادات البريطانية ترسل إلى المحيط الهندى ، منذ زمن طويل ، عن طريق المحيط الأطلسى الجنوبى ؛ ومع أن هذا الطريق لا يخلو من أخطار ، فانه على كل حال طريق لابد من سلوكه . وقد سلكته السفن البريطانية إلى الشرق الأوسط ، وهى الآن تتخذه وسيلة لامداد الهند أيضا . والجزر البريطانية أقرب إلى الهند من الولايات المتحدة الأمريكية .

أما الميدان الأسترالى فهو أدنى إلى الولايات المتحدة ، والطريق إليه أكثر أمنا ، لأن الامدادات تصل إليه من طريق المحيط الهادى الجنوبى ، والمسافة بين أمريكا وبين أستراليا تبلغ نحو ثمانية آلاف من الأميال ، ولكن المسافة بينها وبين بريطانيا تزيد على أحد عشر ألفاً من الأميال . وهذا الطريق الجنوبى شـديد البعد من الجزر اليابانية ، ولم تستطع غواصاتها وطائراتها أن تهدده تهديداً جديا ؛ وفى الطريق جزر كثيرة تابعة لبريطانيا ، أو فرنسا الحرة ، وفى طرفه الشرقى جزر زيلنده الجديدة ، التى يمكن الاعتماد عليها فى حماية الشطر الشرقى من هذا الطريق ، وإمداد السفن التى تسلكه بما قد تحتاج إليه من الوقود والزاد .

ولم تستطع اليابان بعد أن تضع قدمها فى بعض جزر هذا الطريق ، المتصل بالجزر . لأن اليابان تخشى خطوة خطوة فى توسعها ، ولا بد لها أن تقطع مرحلة واسعة جدا قبل أن تتمكن من إرسال قواتها إلى جزر زيلندة الجديدة أو ساموا ، أو فيجى أو نيوكاليدونيا ، البعيدة عن القواعد الأساسية لليابان بعدا شديداً . . . ولا شك فى أن كلا الفريقين يسابق الزمن لكى يتمكن من السيطرة الحربية التامة على تلك الجزر وأمثالها ، وتحصينها تحصينا متينا ، وإمدادها بالطائرات البعيدة المدى ، لمنع عدوان الفريق الآخر عليها . ويمتاز الحلفاء فى هذا السباق بأن الجزر تابعة لهم ، وأن لهم فيها قوات قليلة ، يستطيعون أن يزيدوها متى توافرت لديهم العدة اللازمة . أما اليابان فلا بد لها من غزو تلك الجزر ، وتجهيز حملة ضخمة للاستيلاء عليها .

لذلك أصبح من الميسور على الولايات المتحدة أن ترسل قواتها فى الوقت الحاضر ، وإمداداتها عن هذا الطريق ، دون أن يعوقها عائق خطر ، سوى الغواصات التى تعمل بالقرب من سواحل أمريكا الشرقية والغربية . ويتوقف نجاح الولايات المتحدة فى إمداد أستراليا من هذا الطريق ، على عامل واحد ، وهو سرعة مصانعها فى إنتاج السفن

الكثيرة جدا التي لابد منها لنقل الامدادات في تلك المسافة الهائلة من الماء . فاذا أصبح هذا الأمر ممكنا جاز لنا أن نتوقع أن تصبح أستراليا حقيقة هي القلعة الحصينة التي تستطيع القوات المتحالفة أن تبدأ هجومها منها على القوات اليابانية ، وأن تحاول استرداد تلك الامبراطورية الجزرية العظيمة التي استولت عليها اليابان في هذه الأشهر الثلاثة .



ومما ساعد على فصل الميدان الاسترالي عن الهندي ، فقدان جزر الهند الشرقية ، ووقوعها تحت سيطرة اليابان . لقد كان استيلاء اليابان على هذه الجزر خسارة فادحة للحلفاء لا شك فيها . فقد اشتملت هذه الجزر على ثروة زراعية ومعدنية طائلة ، ومنشآت هندسية واقتصادية كلفت حكومتها مئات الملايين من الجنيهات . وكثير من هذه المنشآت قد دمر تدميراً تاماً لكي لا ينتفع به العدو . ولم يكن بد من أن يدافع الحلفاء عن هذه الجزر دفاع المستميت ، مع علمهم برجحان كفة عدوهم ، ونقص العدة الحربية اللازمة للدفاع عنها . وقلة الأمل في نجاح هذا الدفاع ، والتضحيات الكثيرة التي لم يكن بد من بذلها . لأن إخلاء هذه الجزر وتركها للعدو من غير دفاع ، أمر مناف للطبع البشري ، حتى ولو جاز أن تتطلبه الخطة الحربية الحكيمة .

وقد بدأت اليابان زحفها السريع على جزر الهند الشرقية ، منذ اليوم الأول من الحرب ، ولكنها سارت في ذلك خطوة خطوة ، وانتقلت من جزيرة إلى جزيرة ؛ فبدأت بمهاجمة جزر الفلبين ، وهي المفتاح الشمالي للمجموعة كلها ، ونفذ القائد الأمريكي في تلك الجزر الخطة التي سبق الاتفاق عليها ، وهي أن يقاتل متراجعاً ، حتى يعتصم بشبه جزيرة باطان ، وجزيرة كوريجيدور ، وبالسيطرة على هاتين ، استطاعت القوات الأمريكية أن تحرم اليابان استخدام ميناء مانيلا ، واتخاذها قاعدة للسفن والامدادات .

لقد استرعى الأنظار هذا الدفاع الجليل الذي قام به الجنرال ماك أرثور في ذلك الركن الصغير الخطير ، وفي الوقت الذي كانت الجيوش اليابانية فيه تنتقل من فتح إلى فتح ، ومن غزو إلى غزو جديد ، عجزت قواتها عجزاً واضحاً من أن تزحزح تلك القوة الصغيرة من أماكنها . وأن تجليها من معاقلها .

وسواء أنجحت تلك القوات الفليبية الأمريكية في الدفاع زمناً آخر ، أم اضطرت للجلاء أو التسليم ، بعد أن انقطعت عن كل إمداد ومعونة . فانها من غير شك قد أدت خدمة جليلة ، وأخرت الزحف الياباني إلى الجنوب فترة من الزمن .

ورغم هذه المقاومة مضت اليابان في فتح الجزر الأخرى ، بادئة بجزيرة بورنيو ، وهي أقرب الجزر إلى الفلبين ، ثم جزيرة سلبيس ، ثم أخذت تعد العدة لغزو

جاوه ، وهي أهم جزر الهند الشرقية وأعظمها خطراً ، وأوسعها ثروة ؛ فاستولت أولاً على جزيرة بالى الواقعة شرق جاوه مباشرة . وفى الوقت نفسه بسطت نفوذها — بعد سقوط سنغافورة — على جزيرة سومطرة ، وهددت جاوه من طرفيها الغربى والشرقى فى آن واحد ؛ ثم وجهت إليها ثلاث إغارات فى ثلاثة مواضع مختلفة ، ولم تلبث أن ثبتت أقدامها فيها جميعاً .

وقد اتبعت اليابان فى السيطرة على هذه الجزر طريقة واحدة ، فهى تكتفى أولا بالاستيلاء على الجزء المهم من كل جزيرة ثم لا تنتظر حتى يتم لها الاستيلاء عليها كلها ، لأن ذلك يتطلب مجهودا وزمنا طويلا ، بل تمضى لمهاجمة غيرها ، والسرعة هى مدار نجاحها ، وعمادها فى تقدمها . وقد وفقت فى هذه الخطة ، فاستطاعت أن يكون لها اليوم السيطرة التامة على جزر الهند الشرقية . مع أن فى كل جزيرة مواضع قليلة أو كثيرة لا تزال تقاوم مقاومة متفاوتة فى القوة والخطر . ولكن طلائع الأمور لا تدل على أن فى بعض تلك الجزر مقاومة عنيفة كمقاومة الجنرال ماك أرثور فى جزر الفلبين .

واليوم تسير اليابان فى مهاجمة جزيرة غينيا الجديدة على نفس الخطة التى سلكتها فى الجزر الأخرى . وغينيا الجديدة جزيرة عظيمة المساحة تبلغ نحو ثلثمائة ألف من الأميال المربعة ، وهى من أكبر جزر العالم ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالجزر التى استولت عليها اليابان ، لا يفصلها عنها سوى مضايق ومساحات صغيرة من الماء . ولم يكن بد من أن يجىء دور هذه الجزيرة بعد أن تم لليابان السيطرة على جزر سليبس وتيمور وغيرها من الجزر المجاورة .

وهنالك مجموعة أخرى من الجزر تقع شمال غينيا الجديدة ، وفى شمالها الشرقى ؛ وقد استطاعت اليابان أن تستولى عليها منذ بضعة أسابيع ، وكان هذا من غير شك تمهيداً لمهاجمة غينيا الجديدة نفسها ، فإن الاستيلاء على جزيرة بريطانيا الجديدة ، قد قرب اليابان من جزيرة غينيا الجديدة قرباً شديداً . وقد استطاعت بعد ذلك أن تستولى على موقعين مهمين على الساحل الشمالى ، ولكن قواتها لا تزال بعيدة عن العاصمة الواقعة فى الناحية الجنوبية ، وهى بورت مورسبى ، وبين الساحل الشمالى والجنوبى سلسلة من الجبال لا يسهل اجتيازها .

تنقسم جزيرة غينيا الجديدة من الوجهة السياسية قسمين : الغربى وهو تابع لهولنده ويعد جزءا من ممتلكاتها فى الجزر الهندية الشرقية ، والشرقى وهو تحت الانتداب الاسترالى . والجانب الشرقى أجل خطرا من الغربى ، وموقعه الحربى بالنسبة لأستراليا من جهة ، ووجود العاصمة فيه من جهة أخرى ، وقابلية موانئه فى إمداد السفن والطائرات لغزو أستراليا ، كل هذا جعل هذا الجانب الشرقى هو الناحية التى تغير عليها اليابان أولاً ، ماضية فى هذا على الخطة التى سلكتها من قبل فى الجزر الأخرى .

وليس من المستحيل أن تحاول اليابان إرسال قوة لاحتلال نقطة من سواحل أستراليا ، قبل أن يتم لها الاستيلاء على غينيا الجديدة ؛ ولكن هذا العمل يناقض الخطة التى سارت عليها اليابان حتى اليوم . فإن مفتاح أستراليا الحقيقى هو غينيا الجديدة ، التى لا يفصلها عنها سوى بوغاز توريس الذى لا يزيد اتساعه على مائة وخمسين ميلا ، وتكتنفه جزر صغيرة كثيرة العدد . ولا يستطيع أحد أن يتكهن بأن أستراليا ستدافع عن غينيا الجديدة دفاعاً تاماً ، أو تكتفى بإرهاق القوات اليابانية فترة من الزمن ، ثم تتراجع إلى القارة الاسترالية . وربما كان الرأى الثانى أرجح قليلا .

وقد كثرت الإغارات اليابانية على بورت داروين ، كما أخذت القوات الجوية الأمريكية والأسترالية تغير على السفن اليابانية ، وعلى الطارات والموانى التى احتلتها اليابان

وجميع الشواهد ترينا أن معركة أستراليا ستكون من أشد المعارك التى خاضتها اليابان إلى اليوم .

محمد عوض محمد

الربيع

للأستاذ أحمد أمين بك

لعن الله السياسة وألاعيبها ، فقد أفسدت علينا كل شيء ، حتى الطبيعة وجمالها . كنا ننتظر القمر ننعم بجماله ، ونمرح نفوسنا في ضيائه ، فإذا الغارات تنتهزه كما كنا ننتهزه ، وترقبه كما كنا نرقبه ، فاقترنت هالته بالقتل والدمار ، وتلوّن بياضه بحمرة الدماء ، وأصبح ضياؤه وخير منه الظلام ، وبياضه وخير منه السواد ، وفقد شعريته وفضيته وجماله وبهاءه ، إلى حين .

وعَدَتْ أيضاً على الربيع الذي لم يمس جماله أحد ، ولم ينتقص جلاله أحد ؛ فأخرجت لنا « لعبة » شيطانية سمتها « هجوم الربيع » أفقدته جماله وجلاله ، وأحلت بها الخوف محل الأمن ، وكراهة الاستقبال مكان بهجة الاحتفال .

ومع هذا فستنتهي ألاعيبها وإفسادها ، ولنخلص للربيع نستقبله ونحييه ، فألاعيب السياسة موجات لا تعلو حتى تهبط ، ولا تخلق حتى تنعدم . ولا تكون حتى تفسد ؛ والزمان باق ، والقمر باق ، والربيع باق ، وقلوب الناس لاستقبال الجمال والاحتفاء به باقية .

* * *

هذا أنت — أيها الربيع — أقبلتَ فأقبلتْ معك الحياة بجميع صنوفها وألوانها ؛ فالنبات ينبت ، والأشجار تورق وتزهر ، والهرة تموء ، والقمري يسجع ، والحمام يهدر ، والغنم تثغو ، والبقر يخور ، وكل أليف يدعو أليفه ، و « بإحسانها حين تدعوه فينتسب » ؛ حتى الأغصان في الأشجار تغار فتمايل وتتعانق ، ولا تهدأ حتى تمثّل دور الأحباب . فكل شيء — بك — يشعر بالحياة ، ويحتفل بالحياة ، ويستولد الحياة ، ويستجمل الحياة ، وينسى هموم الحياة ، ولا يذكر إلا سعادة الحياة ؛ فإن كان الزمان جسداً فأنت روحه ، وإن كان مظهراً فأنت سره ، وإن كان عمراً فأنت شبابه .

* * *

هذا أنت تغار على النهار المضيء ، وقد اعتدى عليه الليل وظلمته ، فسلبه قطعة منه ، صبغها بأدرنه ، وأمده الشتاء القاسي فأعانه على ظلمه ، حتى اعتدلْتَ في منصبك ، واستويتَ على عرشك ، فرددتَ ظلامته في رفقٍ وأناة ، بالثانية والدقيقة ، حتى اعتدل الليل والنهار ؛ ثم أبيتَ إلا أن يظلم النهارُ كما ظلم الليل ، فالجروح قصاص ، فكنتَ في ظلمك عادلاً ، وفي محاباتك منصفاً ، وكان لكَ المجد إذ وقفتَ بجانب النور والبياض ، على حين وقفَ غيرك بجانب الظلمة والسواد .

* * *

وهذا أنت — بسحرك العجيب — استطعت أن تجعل من الشمس حائكا وشاءً نساجا ، يحوك أجمل الروض ويوشيه ، ويبدع في النقش والألوان والتصوير ، فإذا الدنيا كلها جمال ألوان وجمال تصوير ، يقلده أكبر فنان فيفشل ، ويحاكيه أكبر مصور فيعجز ، فأين المادة من الروح ؟ وأين التقليد من الابداع ؟ لقد حولت فعل الشمس في السماء إلى الأرض فجمّلت الثرى بنجوم الثريا ، ونسّقتْ فيه ألوانا تزرى بقوس قزح ، وألفت من أزهاره أشكالا وألوانا وهندسة أبن منها نهر المجرة ، حتى خيّلتْ أن أهل السماء يرحلون منها ليروا ما أبدعت الشمس في الأرض .

أبدى لنا فصلُ الربيع منظرا
بمثله تُفتَن ألباب البشر

وشياً ولكن حاكه صانعه
لا لابتذال اللبس لكن للنظر
نمنمه طرف السماء فانثنت
عشقاً له تبكي بأجفان المطر
فالأرض في زي عروس فوقها
من أدمع القطر نثار من درر

جعلت الدنيا ملء العيون بما أبدعت من ألوان وما مالت من أغصان، وما حاكت من وشي، وما صنعت من جمال؛ فأبيض ناصع في أخضر ناضر، وتعاريج سوداء في زهرة صفراء أو بيضاء، وأشكال مهندسة تستخرج العجب وتأخذ بالقلب.

من زهرة جمة النظور   ضاحكة كالوافد المحبور
باكية كالعاشق المهجور   شذرها الغيث بلاشذور
شقائق كناظر المخمور   وأقحوان كثغور الحور
ونرجس كأنجم الديجور   والطل منثور على المنثور
يرصع الياقوت بالبلور

تذكرنا قدود الأشجار بقدود الحسان، وحمرة الورد بحمرة الخد، وبياض الزهر ببياض الثغر، وتعانق الأغصان بتعانق الخلان! فأنت تعرض الجمال وتوحي بمعاني الجمال.

أرتك يد الغيث آثارها   وأعلنت الأرض أسرارها
فما تقع العين إلا على   رياض تصنف أنوارها
يفتح فيها نسيم الصبا   خباها ويهتك أستارها
ويدني إلى بعضها بعضها   كضم الأحبة زوارها
كأن تفتحها بالضحى   عذارى تحلل أزرارها
تغض لترجسها أعينا   وطورا تحدق أبصارها
إذا غنية سكبت ماءها   على بقعة أشعلت نارها

وعلى الجملة فقد كانت الدنيا — كما قال أبو تمام — بغيره معاشا، فأصبحت به منظراً.

* * *

وكما جعلت الدنيا ملء العين جعلتها ملء السمع، فرأت الأطيار ما وشيته في أرضك، فحرك أشجانها، وأطلق أصواتها، وجعلت منها موسيقى مختلفة النغمات متعددة الأصوات. هذا البلبل يغني ضاحكا، وهذا الحمام يغني باكيا.

من كل دبسي[1] له رنين   وكل قمري له حنين

كانت عجماء فأفصحت في أيامك، وكانت خرساء فأنطقها جمالك، وكانت بكماء فراعها منظرك؛ فوقفت على السرو والدوح من خطبائك، فلما غنت حركت أشجان الانسان، وأوحت إليه بالمعاني الحسان؛ فأفاض الشعراء في وصفها، وبكوا لبكائها، وتغنوا من غنائها.

* * *

ثم هذا أنت ملأت الجو عطراً بأزهارك الطيبة، وثمارك العطرة، فأنعشت النفوس، وبعثت الأمل. فلما خاف الناس من غيبتك، وانقطاع شذاك، أعملوا الفكر في الاحتفاظ بأعطتك، فاستخرجوا الروائح من أزهارك، وتحايلوا للانتفاع بها في غيابك، فاخترعوا القوالي والقدور، وعنوا بالاستقطار والتصعيد، يتعطرون بها ذكرى لعطرك، ويفتنون فيها تقليداً لعبيرك.

* * *

لقد اعتدلت في حرارتك فلم تغل في بردك غلو الشتاء ولا في حرك غلو الصيف، فكنت جميلا في جوك كما كنت جميلا في كل شيء من آثارك.

* * *

ليت الزمان كان ربيعاً كله، إذاً لتذوق الناس الجمال كما ينبغي، فكان كل ما يصدر عنهم جميلا لا قبح فيه، خيراً لا شر فيه. فهل الرذيلة والشر إلا قبح كقبح الشتاء والصيف؟ وهل الفضيلة والحق إلا جمال كجمال الربيع؟

أحمد أمين

---

(١) الدبسي الذكر من اليمام.

دستور أثينا المفقود

للفيلسوف أرسطو

في يوم من أيام سنة ١٨٨٩ أي منذ أكثر من ٥٣ سنة حضر إلى كلية أسيوط الأمريكية ثلاثة من القرويين من بلدة مير بمركز منفلوط بمديرية أسيوط وطلبوا مقابلة عميد الكلية . وكان عميدها في ذلك الوقت المرحوم الدكتور جون الكساندر الذي توفي منذ سنتين في الثانية والتسعين من عمره ، وقد سمعتُ منه شخصياً هذه الرواية الشائقة .

ولما أذن لهم بالدخول إلى مكتبه قال أحدهم إنهم يريدون إدخال ولد صغير بالمدرسة . ولما لم تكن لديهم المصروفات المدرسية المطلوبة (وكانت زهيدة جدا في ذلك الوقت ، ربما لا تتجاوز جنيهين للفصل الدرسي في القسم الداخلي) طلبوا من عميد الكلية أن يقبل منهم بعض أوراق أثرية عثروا عليها أثناء محاولتهم الحصول على سماد طبيعيّ من أكوام أثرية بجوار بلدتهم . وحينئذ أخرج أحدهم من بين ثيابه مجموعة من ورق البردي وعقوداً من الخرز وقطعاً من الكتان الذي كان يلفّ به أجساد الموتى . وكان بعض تلك الأوراق ممزقاً بسبب عدم العناية به . فقدّر العميد تلك الأوراق بثمن اعتقد أنه معقول في ذلك الوقت ، فرفضوا ما عُرض عليهم وخرجوا من عنده علّهم يجدون من يشتريها منهم بقيمة أكبر ، وبعد أن طافوا بمدينة أسيوط على غير جدوى رجعوا إلى الكلية وقبلوا الثمن الذي كان قد عُرض عليهم أولاً ، وكان الثمن بطبيعة الحال زهيداً جداً ، نظراً لعدم تقدير الناس لمثل هذه الكنوز ، ولعدم معرفتهم محتوياتها في ذلك الوقت .

أخذ الدكتور الكساندر هذه الأوراق ، ولكنه لم يستطع قراءتها ، ولذا فضّل إرسالها إلى المتحف البريطاني حيث يوجد في العلماء من يستطيع قراءتها . وما كان أشدّ دهشته عندما وصله كتاب من المتحف البريطاني بعد مضيّ زمن طويل — وكان قد نسي تلك الأوراق — ينبئه بأن تلك الأوراق الممزقة المشوهة المهملة لم تكن سوى « دستور أثينا » لفيلسوف الاغريق العظيم أرسطو . وهو مكتوب باللغة الاغريقية القديمة . وقد ورد ذكر ذلك الكتاب في كتابات الأقدمين إلى القرن الأول الميلادي ؛ ولكن بعد ذلك التاريخ فُقدت نسخه الأصلية ولم يصل للعصور الحديثة عنه سوى اسمه وبعض الاشارات إليه فيما كتبه الأقدمون . وبقي العالم يجهل محتوياته أكثر من ١٨٠٠ سنة ، إلى أن ظهر في بلدة مير المذكورة على أيدي قرويين لا يدركون قيمته في طريق بحثهم عن السماد . ولذا يُعتبر اكتشافه من أهم الاكتشافات الأثرية في أواخر القرن التاسع عشر .

وقد كان ترتيب تلك الأوراق من أشقّ الأعمال على من وُكل إليهم القيام به من علماء الآثار بالمتحف البريطاني ، وبالأخص لأنها وصلت إليهم في حالة سيئة جداً ، ولكنهم أفلحوا في مهمتهم . ثم قام المتحف البريطاني بطبعه طبعاً متقناً ، وأرسل نسخة منه لكلية أسيوط الأمريكية وهي محفوظة في متحفها .

أما باقي الأشياء الأثرية من عقود الخرز ، وقطع الملابس الجنائزية ، وقناع يوضع على وجه الميت مشابه لوجهه الطبيعي ، فهي محفوظة بمتحف الكلية أيضاً . وظهر من قراءة ما كُتب عليها أنها كانت لرجل إغريقي غني كانت له مزارع واسعة في تلك الناحية ، وكل ما وجد من ورق بردي وغيره وجد في قبره حيث دفنت جثته وجثة زوجته . وقد كتب اسمه واسم زوجته على أكفانهما ، وأنهما ماتا بدون أن يُعقبا نسلا . ومن سوء الحظ أن الأشخاص الذين وجدوا تلك الآثار المشار إليها عبثوا بالجثتين طمعاً في الحصول على ما يحتمل وجوده من النفائس في طيات أكفانهما . واستنتج علماء الآثار أن ذلك الإغريقي كان يملك ضيعة كبيرة في تلك

الجهة ، لأنهم وجدوا على حواشي بعض الأوراق حسابات مزارعه كما كتبها وكيل دائرته .

أما « دستور أثينا » لأرسطو فهو تحفة يفخر بها المتحف البريطاني . وقد قال الدكتور الكساندر في مقال له كتبه لاحدى المجلات الأمريكية عن هذا الاكتشاف العظيم : « إن المتحف البريطاني لا يقبل أن يتنازل عن تلك التحفة النفيسة في مقابل مائة ألف جنيه » .

وقد يستغرب البعض وجود مثل هذه الكنوز الأدبية باللغة الاغريقية في بلدة صغيرة نائية في الوجه القبلي مثل بلدة مير ؛ ولكن يظهر أنه كانت توجد جاليات إغريقية منتشرة في بعض مدن وقرى الوجهين القبلي والبحري . فقد وُجدت ورقة بردي تُعرف باسم « ورقة بردي حيبة[1] » وحيبة هذه قرية صغيرة بمركز الفشن بمديرية المنيا على الجانب الشرقي للنيل وبجوار الجبل الشرقي . ومن هذه الوثيقة التاريخية نفهم أنه كانت توجد جالية اغريقية تسكن تلك البقعة النائية . وكان أفراد تلك الجالية يقرأون أشهر الكتب الاغريقية لأشهر شعراء وفلاسفة اليونان ، أمثال هومر وأفلاطون وأرسطو وسفوكليس وغيرهم ، حتى أنهم لم يكتفوا بمطالعة هذه الكتب الشهيرة ، بل كانوا يروضون أنفسهم أدبياً بقراءة أشهر الخطب لكثيرين من خطباء الاغريق في العصور السالفة .

وقد وُجدت أيضاً بعض أوراق البردي باللغة الاغريقية في بلدة البهنساء بمركز بني مزار بمديرية المنيا . ووُجدت أيضاً نسخة خطية لأنجيل مرقس باللغة الاغريقية في بلدة شاروبة بمركز مغاغة بمديرية المنيا . وهذه المخطوطة القيمة تُعتبر من أشهر المخطوطات الأثرية التي اكتشفت ببلادنا منذ أكثر من ثلاثين سنة ، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع للميلاد . وربما عدت إليها في مقال آخر لأهمية هذا الاكتشاف من الوجهة التاريخية ، وللظروف التي أحاطت باكتشافه ، التي تجعل قصة اكتشافه شائقة للغاية .

(للكلام بقية) زكي فام

(١) راجع كتاب "The Ptolemies of Egypt" by P. G. Elgood" ، صفحة ٧١

شخصـــــية الشعب

الحياة والعيش :

وكل إنسان ، وكل حي يعترى تماسك المشاعر والاحساسات عند ذكر هذه الكلمة ... الحياة ... ولكن قل من الناس من إذا ذكرت أمامه كلمة الحياة هذه ، سارع إلى التعبير عنها فى فكر واضح جلى محدود . فالحياة عمل وجهد وشقاء ، وهى حركة دائبة وسعى لا ينقضى . الحياة كائنة خالدة ، ولكنها مجاز لا يلبث أن يذهب فى الجو بددا . الحياة إرادة وفكر ، وهى سر الطبيعة ومظهر الوجود . الحياة دنيا والحياة آخرة . الحياة مادة وهى أحياء وناس . الحياة ... الحياة ... وهكذا يجد الإنسان أنه بعد فترة من الزمن ، مليئة بالتفكير والشعور ، قد شعر بالتبدد والتشتت فتعب وهجع ، ولم يعد يقوى على التحديد فيقول لك إن الحياة هى كل شىء ، هى الحياة ...

وإذا كان معنى الحياة كثيراً ما يبعث الشعور بالإبهام وعدم الوضوح ، فلعل استعمال كلمة « العيش » يعلنا إلى جو أكثر ضياء وإلى محيط أقل فى الاتساع . فالعيش — على الأغلب — تعبير يقوله الفرد وفى ذهنه أن يذكر نفسه على اعتبار أنه وحدة لها ذات وشخصية ، ولكنها وحدة ليست أكثر من جزء صغير من كل واحد كبير ، وبين الجزء الصغير والكل الكبير علاقات كثيرة ، متينة ، وواضحة . وإذا كان معنى الحياة قد يثير فى الذهن اتجاهات مطلقة فلسفية ، فإن معنى العيش لا يثير فى الذهن من الاتجاهات إلا ما اتصل منها بالناس والمجتمعات ، بما فى هذه المجتمعات من جهود وعواطف وأفكار واجتماع . فالعيش أن نوجد فى بيوتنا بين عيالنا وأبناء عشيرتنا ، نحب ونعطف ونشجع ونعاون ونأكل ونسمر وننام . العيش أن نتصل بالأقارب والجيران نشاركهم العاطفة ونتبادل وإياهم الرأى والمعونة . العيش أن يشترك الفرد فى عمله ومهنته مع من يحيطون به من أقرانه . العيش أن نخرج إلى المجتمعات والناس ، حيث نتمتع بروح الاجتماع . وحيث نسعد بالاندماج فى روح الجماعة الحية حين تطفى عليها عواطف السرور أو الحماسة أو الارتياح . العيش أن نوجد مع الناس ، وأن نتعامل معهم وأن نتبادل وإياهم المنافع والسلع والخدمات والقيم ، فنأخذ ونعطى مقابلا لما أخذنا ، نبيع ونشترى ، نناقش ونساوم ، ثم نتفق .

وعلى ذلك فإذا كانت كلمة الحياة تثير فى الذهن معنى الوجود والكينونة المطلقة ، فإن كلمة العيش تمزج هذا المعنى المطلق بحركات الناس ، ونواحى نشاطهم وأوضاع اجتماعهم ، وبالانسانية البشرية المتحدة متمثلة فى أفرادهم وشخصياتهم ؛ وهى بذلك تعبر من حالة الاجتماع بكل ما له من ميزات تشمل العقل حين يفكر ، والفؤاد حين يشعر ، والشخصية الاجتماعية حين تمثل مزاجها وتبرز أخلاقها .

بيت الأمة :

يمارس الانسان عيشه فى هيئات وتكوينات اجتماعية متصلة ، فهو يمارس شئون العيش فى بيته بين أولاده ، وفى بيوت أصدقائه وفى الجمعية أو النادى بين خلانه ورفقائه ، وفى مكاتب الأعمال ودواوين السلطات ومنشآتها مع زملائه وأقرانه ؛ وهو يمارس شئون عيشه أيضاً مع جميع مواطنيه فى الدكان والسيارة والحديقة والطريق . فإذا جلس الانسان إلى نفسه وحيداً منفردا وجعلت الخواطر تتجارى فى ذهنه متتابعة تحمل إليه صوراً لأخوته وأبنائه ومنزله ، ثم صوراً لأصدقائه وخلانه ، ثم صوراً لزملائه وأقرانه ، ثم صورا لمواطنيه وأهل بلده — إذا تأمل الانسان كل هذه الصور والبيئات مترتبة فى ذهنه هذا الترتيب فإنه لا يحس انتقالا فجائياً من بيئة إلى بيئة أخرى تخالفها ، بل إنه ليشعر بنوع من الانسياب الهادئ الجميل كالذى يشعر به مسافر فى عربة تتهادى فى اتزان وارتياح ، وهذا الانسياب الهادئ من محيط إلى محيط آخر ليس له من معنى إلا أن بين هذه البيئات كلها روابط وعلاقات ومشابهات تجعل الانسان يسكن إلى كل بيئة منها بقدر واضح ملموس فهو يسكن إلى أهل بيته ، لأنه فى « بيته » هو الذى يشاركه فيه هؤلاء الأهل الذين يحبهم . وهو يسكن إلى أصدقائه وخلانه لأنه يجد فى عواطفهم وأمزجتهم وأفكارهم مجالا تتبلور فيه أفكاره ويتلاقى فيه مزاجه ويتجاوب فيه عواطفه . وهو يسكن إلى زملائه وأقرانه إذ يجد فيهم من يشاركه عمله بروح من التعاون والموافقة والانسجام نحو قصد واضح شريف . وهو يسكن إلى مواطنيه إذ يجد فيهم إنسانية تتصل بإنسانيته ، وقد اتخذت طريقاً واحدا مشتركا من اللغة والأخلاق والمزاج وطريقة التفكير والادراك .

فكأن الانسان حين ينتقل من بيته إلى أصدقائه ثم إلى زملائه فمواطنيه ، هو فى الواقع ينتقل من تفكير محصور ضيق إلى تفكير يجرى على الطريقة عينها ، ولكنه أوسع آفاقاً وأيسر تنفيذاً . ومن عواطف شديدة محببة إلى عواطف من نفس النوع ولكنها أنسج وأشمل ، ومن بيت إلى بيت آخر ، ولكنه بيت أوسع وأرحب . وبذلك يكون للانسان بيوت كثيرة متعددة — بيته ، فبيت أصدقائه ، فبيت زملائه ، ثم بيت مواطنيه الذى هو بيت الأمة جمعاء ... بيت الشعب ، وبيت الشعب هذا يجمع تحت سقفه كل مواطن مهما بعد من الديار أو نأى من أرض الوطن .

وإذا كانت شئون العيش عسيرة معقدة فى بعض الأحيان ثم مريضة مختلة فى أحيان أخرى ، وإذا كانت جهود الناس خفية

متينة فى بعض الأوقات ثم تألهة خرقاء فى أوقات أخرى ، فليس هذا إلا من باب الشذوذ . وأما القاعدة فهى أن الحياة فى أغلب أوقاتها تكون هادئة متزنة مستقرة ، وأن شئون العيش فى جل ظروفها وأحوالها تسير فى مجراها المعتاد حية نشيطة لا أثر بها لثورة أو التوتر أو الجمود .

وهذا الانتظام فى شئون العيش وأحوال الناس واجتماعهم ، يستمد عناصره من طبيعة النفس الانسانية ، ومن أخلاق الناس وأمزجتهم ، ومن طريقة تفكيرهم وإدراكهم . وكلما تقاربت هذه العناصر وتوافقت ، انتظمت حياة الأمة ، واستقرت نفوس الأفراد ، وترتبت شئون عيشهم ، وتمتع الناس بأسبابهم فى سعادة ورضى وارتياح .

مصرنا هى بيتنا :

وبيت الأمة الأرحب الذى نحيا فيه ، ونرتع فى جوانبه وبخدماته ونواحيه ، ونسكن إليه ، نمارس عيشنا فى هدوء وانتظام ورضى ، هو بيت أمتنا ... بيت شعبنا ... مصر . ومصر العزيزة لنا وهى الوطن ، وهى حمانا وبيتنا وهى السكن . ومصر هذه التى نعنيها ليست هى الوادى بل هى الشعب يعيش فى هذا الوادى . وعيشنا بين مواطنينا من المصريين هو الذى ينتظم نشاطنا فى المنزل والنادى والديوان والمتجر والطريق . ونشاطنا فى هذه التكوينات والهيئات الاجتماعية هو الذى ينتظم منطق تفكيرنا ، وطريقة شعورنا ، وأسلوب تعبيرنا ، وذوقنا العام ، وأخلاقنا القائمة المشتركة ، ودوافعنا التى توجهنا وجهات متقاربة . وراحتنا وسعادتنا فى مصر كشعب ، وكأمة نحيا ونتحرك ونعيش — هذه الراحة تتوقف على وجود روح من الانسجام والموازنة تلائم بين جميع نواحى نشاطنا المعيشى ، سواء فى ذلك ما ظهر من هذه النواحى وتمثل كالعمل والرياضة والحديث والثقافة والاجتماع ، أو ما خفى منها وتعمق كالتفكير والشعور والآمال والأشواق .

عوالم خاصة متفرقة :

وفى ضوء هذه المعانى التى توضح لنا مسالك الوحدة الشعبية ، ننظر فى شئوننا المصرية فنرى تبايناً شديداً وانقلابات متكررة ، واتجاهات كثيرة متباعدة لا تكاد تظهر حتى تختفى ثم تتلاشى ، فكأنها لم تكن قد وجدت من قبل . ويتضح لنا ذلك إذا ذكرنا أن بقاعا كثيرة فى مصر يسودها الشجار الدائم والنزاع المتواتر ، فى حين أن من البقاع الأخرى ما لا تكاد تسمع عنه لفرط هدوئه — إن لم نقل خموده — وأن بقاعا اعتاد أهلها بسطة فى اليد حتى أصبحوا من المترفين ، وغيرها من البقاع اتخذت أكثر ساكنيها فى الفقر من شظف ، وأن بقاعا تحرر أهلها حتى خرجوا من حدود اللياقة إلى الاباحية المعيبة ، فى حين أن من سكان البقاع الأخرى من يضيق عليهم الخناق حتى لكأنهم أسرى فى سجون ، بل وأعجب من هذا وذلك أن من المناطق المصرية ما تمرد سكانها واعتصموا فى أحرازهم ، حتى لكأنهم حكومة صغرى فى بطن الحكومة الرسمية القائمة ! كما أن الانقلابات السياسية والتحولات المتعاقبة فى حياة الأحزاب والوزارات لما ليست عنا ببعيدة ، وعنصر التباين فيها ظاهر غير خاف .

وكذلك أحوال الثقافة والفكر ، فإنها تنطوى على مفارقات كثيرة من هذا النوع . فعندنا صاحب الثقافة الفرنسية شاعر ، رقيق المزاج ، حاد العاطفة ، لا يرى الحياة إلا ذوقاً وخيالاً ومتعةً ، وعندنا صاحب الثقافة الأمريكية الذى لا يرى الدنيا إلا مكسباً وربحاً ، وصاحب الثقافة الانجليزية وهو يعيش بمعزل عن الحيرة والآخرين ، لا يخرج من عزلته إلا اضطراراً . وأما صاحب « الثقافة المصرية » فإنه بين هذه كلها كشكول جامع ، فيه من كل ثقافة من هذه الثقافات جانب لم يتأكد ولم يتضح بعد .

وأخذت هذه الفوارق الفكرية والمزاجية والأدبية تتفشى وتتمثل فى شئون عيشنا حتى أصبحنا فى حال من التوزع والانقسام مرهقة للجهود مبددة للكيان ، بحيث لم يعد من العجيب أن يكثر بيننا التوزع وسوء التفاهم والفرقة والخصام . وبلغت هذه الصفات حداً جعل انقسام الشخصية من الاختبارات الشائعة ، وانقسام الأسرة من مشكلاتنا الحادة ، وانفصام الكثير من حبال المودة بين العامة والخاصة والقادة أمراً عادياً ليس فيه غرابة ، وحتى أصبح من محصولنا اللغوى تعبيرات كثيرة التداول من مثل — الثبات على المبدأ — فرص النقد — الانقلاب — السخط ...

بل وأكثر من هذا ، فإن المسألة من الجوانب الخفية ما يثير الخاطر ويلفت النظر ، إذ إننا نجد من كتب الأدب الكثيرة بين أيدى الشباب ما يقرأ ويعاد ويرجع إليه مرة ومرات ، فيبث فى أجيال الناشئة ذات البادئ وذات المزاج . ولسنا نجد من بين أنواع الآداب الكثيرة عندنا نوعا معيناً واضحاً نال مقاما ثابتا فى الأوساط الأدبية وفى أوساط القراء ، واستمر فى مقامه هذا جيلا واثنين أو أكثر يوجه الشباب ويصنع لهم مزاجا أدبيا وخلقيا فيه عنصر الوحدة والتقارب .

هذه الظاهر كلها ليست تدل على شىء أكثر من الدلالة على أننا شعب لا زال فى دور التوزع والكثرة والامتلاء الدافق بالقوى والملكات . فنحن نحتاج إلى الاستقرار والتشكل والتوازن والتقارب والترتيب ، حتى تكون لنا شخصية متميزة لها طريقة تفكيرها ، ولها مزاجها ، ولها طريقة تأثرها وأسلوب تعبيرها — أى أن يكون لها طابعها الخاص الذى تظهر معالمه فى كل فرد من أفراد الأمة حين يفكر أو يشعر أو يعمل أو يعبر أو يعيش .

وبنا شئنا أن نتعرض لتوضيح العلل التي تعمل على بث الاختلال بين القوى التي تشكل الشعب فإنه يتيسر لنا أن نذكر الكثير منها .

طغيان الفكر :

فأول هذه العلل علة الفكر . ويكفي الباحث الاجتماعي أن يضع أمامه عدداً من مجلات الكتب والمجلات المصرية ، ثم يأخذ في مراجعتها لينتهي إلى أي حد تمتلئ صحائفها بالآراء والأفكار الكثيرة ، والمذاهب والنظريات الاجتماعية المتباينة ، والبحوث الفلسفية والعلمية والطبيعية ، وبالنقد المتطرف قدحاً أو مدحاً ، وكل ذلك في كثرة وغزارة وغنى . ثم يتعب الباحث علّه يجد شيئاً مكتوباً يخاطب القلب والعقل معاً ، فلا يجد إلا القليل ، وحتى إذا هو وجده فكثيراً ما يكون ذلك الحديث حاداً قد قصد به إلى الإثارة والإيقاظ الشديد . وأما الأحاديث الأخلاقية الهادئة المتزنة ، التي تراود النفس وتهذب النفس وتشكل المزاج ، فإنها قليلة نادرة تكاد لا تكون موجودة .

ومعنى ذلك أن الكتاب عندنا في جل ما يكتبون — سواء في الاجتماع أو في الأخلاق أو في العلم — إنما ينسون الحكمة العتيقة الخالدة (الأدب فوق العلم) . وترجمة هذه الحكمة أن الإحساس في الإنسان سابق للإدراك ، وأن شعور البشري أفعل من تفكيره ، وأن أخلاقه أقوى من عقله وأثبت ، وأن ممارسة شئون العيش بين الناس يجب أن توضع في المقام الأول ، ثم يأتي الفكر والعلم في المقام الثاني .

مزالق التجديد :

وأما العلة الثانية التي تعمل على فساد الوحدة الشعبية عندنا فإنها كامنة في حركات التجديد والمجددين . فمع أن كل إصلاح يحتاج — فيما يحتاج إليه من وسائل عديدة — إلى قدر من التجديد ، إلا أن هذا القدر يجب أن يكون قليلا واضحاً ، ويشترط أن يراعى فيه اعتبار عدم المفاجأة والاستغراق الذهني ؟ ويرجع ذلك إلى أن التجديد مزالق خطيرة يجب أن تجنب نفوس أفراد الشعب ويلاتها . فكثيراً ما يؤخذ المجددون بسحر الجديد والطريف من أوجه النشاط الإنساني ، فينسون أغراضهم الأساسية ويندفعون في تجديدهم لا يلتفتون إلا بالسعي وراء كل عجيب جديد ، وكأنهم أصبحوا من البهلوانات أو من رجال الاكتشاف ، وهم في حقيقة الأمر لا يفعلون أكثر من إرضاء رغبة التطلع في النفوس ، حتى إنهم كثيراً ما يلجأون إلى الاختراع والابتكار أو المزاوجة الخيالية المتفرقة بين أشياء لا توجد بينها علاقات طبيعية معقولة . وقد يحدث أيضاً أن يتوجه هؤلاء المجددون إلى الأجنبي ليأخذوا منه بقدر تطعيم الحياة المصرية ، فتتشعب بهم المسالك وتجذبهم غرابة الأجنبي وغناه حتى تغمرهم ، فإذا ما تركوه وعادوا إلى أوطانهم وأخذوا يبذلون الجهود الإصلاحية شعروا باتساع الشقة بين الأجنبي وبين المواطن في ميدان الإصلاح ، ثم بين أنفسهم وبين أوضاع المجتمع الذي يريدون له الإصلاح ، فتصيبهم حيرة مربكة ، وكثيراً ما ينتهي بهم الأمر إلى الوحدة القاتلة والانطواء على الذات في شعور تمتزج فيه عناصر الخيبة والفجيعة .

فالتجديد ، والمبالغة ، والإغراق في تقصي الغرائب والمبالغات ، واتساع الهوة بين المتغربين والمواطنين ، كل هذه الظاهرات تنجم عن التوسع في الاهتمام بالوسيلة ، حتى تصبح هي الغاية ، ويصحبها عدم المحافظة على وضوح الغاية وجلاء القصد ، والابتعاد عن الواقع بقدر أكبر من القدر اللازم . فإذا ما تطرقت هذه الآثار إلى جماعات الشعب كانت نتيجتها الأولى هي إخفاء شخصية أفراده بين أستار كثيفة من الغرائب والأعاجيب والمبالغات . وهنا موطن الخطر الذي يهدد العامل الأهم في إنجاح الجهود الإصلاحية ، ذلك هو ما يكمن في هذه الجهود الأولى من قدرة على إحياء الروح ، وتوضيح الشخصية ، وإنماء ملكة الجلاء ، والإدراك الذاتي ، سواء في ذلك إدراك الأفراد لذواتهم أو إدراك الجماعات والطبقات لكيانها .

مشكلة الارتباط الزمني — التطور :

وعلة ثالثة تعمل على ضياع الكثير من جهودنا الإصلاحية ، تلك هي إهمالنا لفكرة الارتباط الزمني ، أي التطور . فكم من راغب في الإصلاح متشوف إلى التقدم والمستقبل لا يرى من الصور والأوضاع إلا ما تعرضه عليه مخيلته القوية على طريقة الخيالات والرؤى والنبوات ! وكم من مصلح يمتلئ ذهنه بالعيوب والقصور والمآسي الحاضرة ، فلا يعود يرى ببصيرته شيئاً من أضواء المستقبل الزاهي وألوانه الزاهية . فالأول إذ يتوجه ببصره إلى الآفاق البعيدة التي هو واقف عليها ، والثاني وهو لا ينظر إلا بين يديه يرى من الزمن فسحة قصيرة تموج بالآلام . وكم عندنا من ثالث لا يرى إلا ذكريات السنين الخوالي وأمجاد ما قبل كليوبطره والبطالمة .

ولكن يجب أن نعلم أنه إذا كانت الصور التي نسجلها لأيامنا وعصورنا وأجيالنا متباعدة غير مترابطة ، وإذا كانت نظراتنا في أزمنتنا وأدوار تاريخنا يشيع بينها القلق والتخليط ، وإذا كنا حين نتحدث عن الماضي لا نذكر إلا ماضياً تأخر أمد منه ، وحين نتحدث عن الحاضر لا نرى إلا أوضاعه المحيطة بنا ، وحين نتشوف إلى المستقبل ننسى أننا في الحاضر نعيش — إذا كان هذا هو ما يحدث في أذهاننا ، فمعنى ذلك أننا لا نفكر تفكيراً اجتماعياً إصلاحياً صادقاً ، وأننا لا ندرك المعاني متسربلة في ثنايا أحداثنا التاريخية المتصلة ، بل معناه أننا نرى صوراً للعيش تجرد من عناصر الحياة والوحدة والتطور .

فهاتوا لنا عيشنا الماضي صوراً صادقة صريحة ، ولكن عيشنا الحاضر واضحاً ملموساً بما يحتويه من أمراض أو قوى ، وضعوا في الأذهان رغبات وآمالاً ومقاييس توجه الأهداف والرأي المقبلة ... أمكنكم أن تفعلوا كل هذا ، وأن تعرضوا منه علينا ما شئتم ، ولكن قبل أن تفعلوا ذلك يجب عليكم أن تبسطوا كل هذه الصور في خط واحد جامع ، وأن تكبوا عليها بالدرس والتمحيص ، ثم تقولوا لنا بعدئذ كم تقدمنا وكم تأخرنا ، وفي أي المسالك نحن نتجه ونسير ، وما الذي أردناه بالأمس ونريده اليوم ، وكيف تحققت رغباتنا تلك على مدى الأجيال والعصور .

وإذا عرفنا أي ماض نحمل في حياتنا ، وأي حاضر يؤثر فينا ويحملنا في تياره ، وأي مستقبل نحبه ونرجوه وأي معنى جليل يربط حاضرنا بماضينا ومستقبلنا ، إذا عرفنا ذلك ، أدركنا حينئذ أن لحياتنا الاجتماعية مسالك واضحة نخترها واتجاهات مشتركة نتجه إليها ونلتقي بها ، وبذلك الإدراك الذي ينتظم الشعب كله في وحدة فكرية وعقلية وشعورية . وهذا الادراك الموحد يجعلنا نمارس شئون عيشنا في ظلال من المعاني المشتركة النافعة ، فتجعل لشعبنا شخصية واضحة البنيان ، مقررة القوى والاتجاهات ، متساندة الجوانب والأجزاء .

الشعب ، الشعب ، الشعب :

طغى الفكر في حياتنا حتى امتلأت أذهاننا بالآراء الكثيرة المتعارضة ، فحرمنا صفاء الفكر وهدوء العاطفة والشعور ومتعة العيش مع الناس والاجتماع بهم ، وتعددت دعوات المجددين وغرائبهم ومبالغاتهم واختلافاتهم حتى كدنا نرى الحياة لمحات كالتي يراها مسافر راكب في قطار سريع ينهب الأرض ! وأهمل رجال التاريخ وصل ماضينا بحاضرنا في ضوء المعاني الانسانية والاجتماعية ، فأصبحنا لا نرى التاريخ إلا كلوحات متناثرة لا رابط يربطها بنا ، فلم يعد لها أثر في نفوسنا واجتماعنا ، وتحدث الكثيرون وأدبوا ، ولكن كانت أحاديثهم فردية شخصية ضيقة النطاق لا تمس سواد الشعب .

ولو كان كل مفكر حين ينشط ذهنه يذكر أنه إنما يفكر لا من أجل الحقيقة فقط بل من أجل الشعب أيضاً ، ولو كان كل مجدد حين ينوي القيام بدعوة يذكر أنه لن يخلق شيئاً جديداً مبتكراً إنما سيهز في الشعب روحاً موجوداً راكداً ، ولو كان كل مصلح يبدأ إصلاحه وتوجيهه بأن يوضح للشعب المعنى الكامن في تطوره التاريخي ، ولو كان كل أديب ناصح حكيم ، يمثل المجموع لا الأفراد ، والوضع الشائع المشترك لا الحالة الفردية الخاصة — لو كان كل هؤلاء يتوخون الحكمة ، لكان لنا منهم إصلاح محلي شعبي شامل حكيم بعيد الأثر .

وليعلم كل مشتغل بالاصلاح أنه ما من سياسة أو اقتصاد أو طب أو علم أو تربية أو تأديب أو تدين — ما من قوة من هذه القوى يمكن أن تعاون في الاصلاح ما لم تنبعث مستقرة من الشعوب في مواطن الادراك ومصيبة منها بواطن الشعور . ولن يحدث هذا إلا إذا كانت الجهود الاصلاحية كلها ذات صبغة إنسانية ، بعيدة عن الفكر البحت المجرد من الشعور والفردية الضيقة المحدودة .

التأهب والبروز :

لا تعوزنا الأدلة لنعلم أن حياتنا وعيشنا في حاجة إلى إصلاح وأننا نشعر بهذه الحاجة ونعبر عنها ، وأن عندنا من قوى العلم والعرفان والشعور والاخلاص ما يكفل لنا الاصلاح الذي نريد ، وأننا بدأنا نحقق البعض من أوجه هذا الاصلاح حتى بتنا نحس آثارها وجدواها ... لسنا في حاجة إلى هذه الأحاديث ، لأن الكلام فيها قد بلغ غايته منذ زمان ليس بالقريب . إنما نحن الآن في حاجة إلى رجال إصلاح يتأهبون لمهامهم بالدرس والوضوح والقصد والخطة الموضوعة ، حتى يعملوا في نظام ، ويبذلوا الجهود في حكمة ، ويحققوا أكبر قسط من النفع يشمل الشعب كله — روحه ، عقله ، مزاجه ، شئون عيشه .

ونحن نقصد بقولنا هذا أن يتجنب رجال الاصلاح الشطط والغموض والمزالق والعثرات وضيق النظرة والفردية . نحن نقصد أن يسلك رجال الاصلاح المسالك الطبيعية الواضحة ، وأن تستقر نفوسهم وتهدأ أعصابهم حتى إذا خطوا إلى الأمام قدماً لا تراجع ولا قلق إلا في خطواتهم روح وحكمة ومتانة .

شخصية وشخصية :

وكل فرد عامل لن يكون لجهوده اتصال وجدوى إلا إذا كانت له قدرة على العمل والبذل ، ومثابرة على الدعوة ، وهذه الصفات تستمد معدنها من أعماق العاملين وشخصياتهم : عقولهم النيرة ، أخلاقهم القوية ، شعورهم الاجتماعي ، ضميرهم الانساني الحي ، خططهم المنظمة المحكمة .

وكل شخصية عاملة عاقلة ، مخلصة متأهبة ، تخدم الشعب والأمة ، لا بد لها أن تفنى بمزاياها في مجال الشعب وكيانه ، إذ ينمو ويتكامل .

وكلما كانت الشخصية العاملة قوية ، مصفاة ، متميزة الدعوة ، نقية من الشوائب ، أفاد منها الشعب إذ يمثلها في نوره غذاء دسماً ، وفي عيشه معنى ورمزاً شائعاً ، وفي شخصيته ميزة ظاهرة مقررة .

وإذا لم يكن من الاسراف والتبذير الانساني أن يفني عدد من الممتازين شخصياتهم في سبيل إعلاء شخصية الفرد ، فإنه ليس بالكثير أيضاً أن تفنى الألوف من الشخصيات المفردة في سبيل صياغة الأمة وإيجاد شخصية الشعب .

(ثابت)

من تاريخ الصحافة المصرية :

سهم مصر في الصحافة الشرقية

أصدر الجنرال عبد الله جاك منو قائد الحملة الفرنسية على مصر في أخريات أيامها مرسوماً بإنشاء جريدة (التنبيه) العربية في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، على أن تتخصص الجريدة لأربعة أبواب : أهمها الأخبار الخاصة بأوربا وآسيا ، ثم البحث في الفنون والآداب والأخلاق ؛ وقد عين لرئاسة تحريرها السيد إسماعيل الخشاب ، وهو من أدباء العصر وشعرائه المروفين وسكرتير عام الديوان الذي أنشأه الفرنسيون في تلك الأيام ؛ ولو نفذ هذا المرسوم لكانت مصر أول دولة في الشرق كله تنشر صحيفة يقوم على خدمتها وتحريرها مصريون ، بصرف النظر عن الجريدتين الفرنسيتين اللتين شهدتهما مصر قبل هذا المرسوم بعامين تقريباً .

لم ينفذ هذا المرسوم عن عجز في التحرير ، وإنما حالت الظروف السياسية دون التنفيذ ، مع أن جميع الأسباب لإنشاء (التنبيه) قد هيئت . وبعد خمسة وعشرين عاماً من هذا الحدث في تاريخ مصر ، أصدر محمد علي من القلعة شبه جريدة تصدر في حيز ضيق ، والمئات في أكثرها حكومية رسمية ، ولم تحتو علاوة على الأخبار غير بعض قطع من «ألف ليلة وليلة» ، ولم تكن توزع إلا على نفر قليل من رجال الدولة والمسؤولين فيها ، ولم يصدر منها أكثر من مائة نسخة في كل مرة ؛ وقد عرفت مصر هذه الجريدة الصغيرة عندما عرفت السلطنة العثمانية أول جريدة بالمعنى المفهوم ، وهي جريدة ريد أزمير الصادرة باللغة الفرنسية في سنة ١٨٢٥ .

ولا يستطيع المؤرخ لتاريخ الصحافة في الشرق أن يشير إلى سهم مصر في خدمة الصحافة الشرقية عامة ، إلا حين تظهر الوقائع المصرية في ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ كأقدم صحف الشرق العربية جميعاً ، وكأقدم وثيقة رسمية تحتوي على تاريخ مصر زعيمة الولايات العثمانية في القرن التاسع عشر ؛ وليست الوقائع المصرية كأي صحيفة أخرى سواء كانت صحيفة رسمية أو شبه رسمية أو حرة الرأي ؛ فالوقائع بقيت وحدها في السوق ثلث قرن لا تنافسها جريدة أخرى ، وهي مدرسة لصحفيي الشرق وأدبائه عامة ومصر خاصة في القرن الماضي ؛ من خريجيها رفاعة رافع الطهطاوي الذي عمل بها محرراً ورئيساً للتحرير ، ومنهم أيضاً علي جودت بك والشيخ إبراهيم الدسوقي وأحمد خيري بك والشيخ أحمد عبد الرحيم والشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوي — ولكل من هؤلاء التلاميذ سهمه في الصحافة والأدب والسياسة والقانون ؛ ومن أهم تلاميذها الشرقيين السيد شهاب الدين ، وأحمد فارس الشدياق صاحب جريدة (الجوائب) التي صدرت في القسطنطينية في النصف الثاني من القرن الماضي ، وهي أخطر صحف الشرق في ذلك الوقت ، ولصاحبها تاريخ حافل في الأدب والصحافة .

فالوقائع المصرية المدرسة الصحفية الأولى في الشرق الأدنى ، مدرسة للترجمة والآداب والفنون ، ومدرسة للتمرين على التحرير والأصول الصحفية الأخرى ، والوقائع أول من هذب الألفاظ العربية ، ونقلها من العجمة السائدة في ذلك الوقت إلى اللغة العربية الصحيحة

وسنرى من حديثنا الآن أن سهم مصر في الصحافة الشرقية وكل أمره إلى ولاة مصر وخديويها حتى نهاية عهد الخديو اسماعيل ؛ فمحمد علي الكبير أول من أنشأ صحيفة شرقية وولاها بعنايته وبره ، ومنحها من وقته وعطفه ما مكن لها من الرواج والانتشار في مصر وخارجها ، فكانت

الوقائع تقرأ في مصر والشام وبلاد العرب وكريت والسودان وعند طلاب البعثات في باريس وغيرها من العواصم الأوربية .

ثم استبق الأمير سعيد باشا سنة العطف على الصحف الشرقية ، وإن لقيت الوقائع في عهده إهمالاً منقطع النظير ، فقد اشترك سعيد في أكثر من جريدة شرقية في القسطنطينية ، ودفع ألف فرنك اشتراكا سنوياً لجريدة عربية بدأت تظهر في باريس وسميت (برجيس باريس) .

ولقد كان من أسباب عطف سعيد على الصحف الشرقية الكرم المفطور عليه حكام الشرق عادة ورغبتهم في حسن الأحدوثة عند من يملك إذاعتها ونشرها . أما الخديو اسماعيل فقد كان شيئاً آخر ، كان بطبعه كما أعتقد يقدر للصحافة مركزها ويعرف مكانها من حيث نشر العلم والمعرفة ، فجدد الوقائع ، وكان يرى للصحافة كما يقول هو « منافع ومحسنات عند الأهالي » وحقاً أن الوقائع كانت في عهده صحيفة ممتازة ، ودخلت كما أراد هو في « عداد الجرائد المعتبرة » . ثم هو لا يقتصر على إدخال الوقائع في عداد الجرائد المعتبرة فحسب ، بل ينشىء جريدة للأمور الطبية ويسميها (يعسوب الطب) ، وجريدة للمعلمين والتلاميذ ويسميها (روضة المدارس) وصحيفتين للجنود والضباط ويسميهما (الجريدة العسكرية المصرية) و (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) ؛ ولا يقتصر الأمر على هذه الصحف الرسمية ، بل يبسط يده للصحف الحرة من كل لون حتى تمنحه التأييد عند الشعب المصرى .

وقد ووجه إسماعيل بكثير من المشاكل في خلال حكمه ، رغب في توسيع سلطته وبلوغ لون من الاستقلال وتحديد ولاية العرش في نسله بفرمانات يمنحها السلطان العثماني ، ولقى في أول حكمه أزمة قناة السويس ، ثم إنشاء المحاكم المختلطة فيما بعد ، ثم ووجه بأزمات داخلية وخارجية عنيفة . . . كل هذه الأزمات استخدمت بره بالصحف الشرقية ، فالفرمانات تصدر من القسطنطينية ، لذلك قام وكيلاه إبراهام بك وعلى بك الكريدى بدفع مبالغ طيبة لأصحاب الصحف ومحرريها مكنت لهم البقاء ولصحافتهم الذيوع والانتشار ، واستقبل هو هؤلاء في مصر استقبال الأمراء والملوك ، واستضافهم على نفقته الخاصة ، حتى إن صحفياً عثوياً نزل الأسماعيلية فنقله منها إلى القاهرة قطار خاص ؛ تجاوزت اشتراكاته في صحفهم أربعة آلاف فرنك في كل عام ، غير الهبات الظاهرة والخفية التي دفعت هذه الصحف التابعة إلى تأييده في وراثة العرش وأزمة القنال وإنشاء المحاكم المختلطة . ومهما يكن من أمر الهبات وأمر التأييد فالثابت أن الصحافة في الآستانة استمدت لبقائها ونموها كثيراً من مال مصر وعطف خديويها المتصل .

وإذا كانت صحافة السلطنة لقيت هذا البر فإن صحف الشام كانت تتمتع بعطف ظاهر من خديو مصر ، اشترك فيها أيضا ، وكان من أهمها صحف ثلاث : الجنان ، وحديقة الأخبار البيروتية وجريدة الجنة ، نالت الأولى خمسمائة جنيه اشتراكا سنوياً ، وبلغ اشتراك الاثنتين الأخريين أكثر من هذا القدر بقليل .

ليس في وسعى أن أبسط في هذه العجالة سهم مصر في خدمة الصحافة في الشرق ، غير أنى أحاول أن أجمع في مقالى أظهر ما قدمته الدولة المصرية والشعب المصرى لهذه الصحافة من خدمات ؛ وقد رأينا طرفاً من سخاء ولاة مصر الأدبى والمادى على الصحافة المصرية والشرقية ، وأحب أن أضيف إلى ما ذكرت أن مصر هيأت للصحافة الشرقية نضجها وتقدمها ، لا بالمال وحده ، فقد كان حاكمها مهتماً بالصحافة مرعياً فيها ، يمنح رعايته ويبسط حمايته على كل صحفي شرقي تضطهده الحكومة العثمانية ، ويفسح له في مجال الأقلام المصرية مكاناً ، ولولا هذه البيئة الحرة

ما استطاع الكثيرون من أعلام الصحفيين إلى النجح سبيلا ، فقد عزت الحرية فى بلاد الدولة العثمانية جميعاً ، حيث ضغطت الحكومة على المطبوعات ، وطبقت قوانينها التى أفادت مصر منها بتشجيع واليها وإهماله لها . وإنى حين أذكر قوانين المطبوعات فى ذلك الوقت فلا أصور قانوناً عيناً يحتمل الشر والخير كشكل القوانين ، فإن السلطة العثمانية لم تكن دولة تهضم الملاحظة والنقد ، لذلك سنت قانوناً هو أقرب ما يكون شبهاً بتشريع العصور الوسطى ؛ ولم تفرضه على تركيا فحسب ، بل كان معمولا به كغيره من قوانين الدولة فى جميع ولاياتها ومن بينها مصر ، أوجبت فيه الامتناع بتاتاً عن كل نقد لأعمال الحكومة ، أو تعليق على تصرفات موظفيها ، على أن جميع ما تنشره الصحف ينبغى أن يجيزه مكتب الصحافة . ومع أن هذا القانون يعتبر القانون الأساسى للمطبوعات فى مصر ، من عهد سعيد باشا إلى سنة ١٨٨١ ، فإنه لم ينفذ إلا قليلا ، وبشكل لا يحتمل تلك الروح الصارمة التى تلقى فكرة المحرر قبل أن تنبت فى ذهنه ، إلا ما كان يرضى منها الحكومة ومسؤوليها .

فالبيئة المصرية ، والبيئة المصرية وحدها ، كانت تتمتع بحرية منقطعة النظير ، لا توجد فى سوريا ولا لبنان ؛ والطبيعة المصرية والتفكير المصرى فى ذلك الوقت هما اللذان سمحا بوجود نهضة صحفية موفقة ؛ وظروف الحياة المصرية بحدوثها وأزماتها ، واضطراب الأفكار فيها بجديد فى شتى الميادين ، هى وحدها على رأس بلاد الدولة العثمانية التى تحتمل آداباً وصحفاً وسياسة . أما غيرها فلم يكن له فى ذلك الزمن هذا الحظ ، حظ الشخصية المعنوية التى فرضت وجودها على الدولة العلية ، مستمدة هذا الوجود من تاريخ حافل وذكريات يحسب لها فى مقومات الشعوب ألف حساب ؛ كما أن مصر تستطيع أن تفخر بأنها المدرسة الأولى لصحفيي الشرق ، وأن أدباءها وعلماءها المصريين ملأوا صفحات الجرائد المصرية والشرقية بعلمهم وأدبهم وغذوها بواسع تفكيرهم وتراث عقولهم .

وبعد جهد مصر الذى فسرناه فى خدمة الصحافة الشرقية إلى القرن التاسع عشر حتى نهاية حكم الخديو إسماعيل . أما فى الأيام التى تلت الاحتلال البريطانى فلمصر فضل جديد ، مصدر هذا الفضل تلك الخصومة التى قامت بين الوطنية المصرية وصحفييها من جهة وبين السلطات البريطانية حيناً والسلطات المصرية حيناً آخر . فالمدرسة هنا لا تقتصر على فضل الحكومة كما رأينا ، وإنما للكتاب المصريين فضل آخر ، هنا توجهت الصحف إلى الشعب وعرفت الأساليب الصحفية الجديدة فى الإخراج والتحرير ؛ ومن ثمّ شهدت الصحف الشرقية مثلاً جديداً فى الكفاح الصحفى ، يعتمد بعضه على التنظيم كاعتماده على التحرير ، ونشأت فى الصحافة المصرية إدارات وميزانيات بجانب أقلام التحرير ، وأدخلت الصحافة المصرية تعبيرات جديدة وألفاظاً لم تكن معروفة فى الصحافة العربية من قبل ، وعنيت بالبرقيات ، وبوبت صفحاتها تبويباً جذاباً ، وشغلت جزءاً منها بالصور ، وتعددت أغراضها ، فلم تقف نفسها على السياسة وحدها ؛ ولم تعد مدرسة الصحافة المصرية مثلاً للصحفيين الشرقيين فحسب ، بل إنها أصبحت مدرسة يتلقى منها العلم والأدب والسياسة والاجتماع كل قارىء يعرف اللغة العربية ويرى على نفسه حق التعلم والتثقيف .

وليس أدل على قدر الصحافة المصرية ونصيبها من نهضة الصحافة الشرقية من أن صحفها لا تقرأ فى مصر وحدها بل إن بعض الصحف المصرية يقرأ فى الشام والعراق وغيرهما من البلاد الشرقية ، وعدد قرائها فى تلك البلاد يفوق كثيراً عدد قراء الصحف المحلية هناك .

وقد أحست السلطات العثمانية أخيرا أن صناعة

الصحافة في مصر لم تعد شيئاً ثانوياً ، لأثرها البعيد في حياتنا الأدبية والسياسية والاجتماعية وحياة الشعوب الشرقية الأخرى ، فأنشأت لذلك معهداً عالياً في الجامعة للتحرير والترجمة والصحافة . وأكبر الظن أنه جدير بعد وقت قصير أن يخرج لهذه الصناعة فئة تستطيع أن تستكمل أسباب الكمال للصحافة المصرية خاصة والشرقية عامة ، عما يشترع لهذا الفن من أصول وأوضاع ، وبذلك تتوج مصر جهدها الصحفي شعباً وحكومة كدولة شرقية لها الزعامة في كل جديد صالح .

ابراهيم عبده

برنارد شـــو

للأستاذ أحمد غاكي

٢ — حياته الاقتصادية :

حينما قصد برنارد شو إلى لندن في سنة ١٨٧٦ ، لم يلق المجد الأدبي لقمة سائغة ، بل ظل تسع سنين مقتراً عليه في الرزق ، لا يصيب من المال إلا القليل الذي لا يغني . كانت هذه السنوات العجاف فترة طويلة من فترات الجهاد المضني ، ولو لم يوطد النفس على أن يصبح كاتباً ومفكراً لطوّح به تيار الفقر والحاجة إلى حيث طوح بغيره من العباقرة المغمورين . لكن أمه كانت تعطي دروساً في الموسيقى ، فاستطاعت أن تموله خلال هذه السنوات التسع . حاول في سنة ١٨٧٩ أن يلتحق بشركة إديسون للتلفونات ، فما لبث أن انتقلت الشركة إلى أيد أخرى ، وعاف هو العمل ، وانثنى إلى الكتابة والقراءة والخطابة ، ليعد نفسه للرسالة التي وطد النفس على تبليغها .

وينبغي أن نبحث حال إنجلترة في هذه الفترة من الزمان . وكانت قد سلخت البلاد مائة وخمسين سنة أو تزيد وهي تسير في اقتصادياتها على مبدأ حرية التجارة Laissez faire . وكانت حرية التجارة شبيهة من الحرية السياسية العامة ، وقد ظن أولو الأمر يومذاك أن هذه الحرية جديرة بأن تشجع كل صانع وتاجر على أن يبذل الجهد في هذه المنافسة العنيفة ، وأن من هذه المنافسة سيحدث توازن بين المنتجين والصناع والتجار . لكن الواقع أن حرية التجارة فتحت الباب للرأسماليين فقط ، فأصبح أصحاب رءوس الأموال في أخريات هذا العهد هم المهيمنين على كل نواحي الانتاج . ولم يستطع المنتجون الناشئون أن يصمدوا أمام الشركات الرأسمالية الكبرى ، بل وانعدمت المنافسة ، لأن هذه الشركات اتحدت وأصبحت تتحكم في أثمان البضائع . وكذلك تلاشى ذلك التوازن المنشود ، وانتقلت رءوس الأموال إلى أيدي بضعة من الموالين ، وانتقلت الثروة من فئة كثيرة إلى فئة قليلة أفادت من حرية التجارة .

وفي سنة ١٨٧٩ ابتليت انجلترة بأزمة اقتصادية لم تبتل بمثلها إلا في سنة ١٩٣١ . وقد ظهرت أخطار الرأسمالية واضحة ، فكثر عدد المتعطلين ، وفشت البطالة ، وساءت حال صغار التجار حتى أغلقوا متاجرهم ، وهجر الناس المسارح والملاهي إلى الحانات الرخيصة . أما الأغنياء فقد استغنوا من المآدب والحفلات ، وهم يتوجسون خيفة مما يجيش في صدور الفقراء من الحقد والضغينة . وشح الطعام والفحم والخشب والشمع ، وأغلقت المصانع ، وأضرب عمال الميناء في ليفربول ، وأفلست بعض المصارف الكبيرة .

إلى جانب هذه الأزمة التي ظهرت في لندن وغيرها من أمهات المدن كان هناك حركة فكرية دفاعة ؛ فقد كانت لندن تموج بأفكار تناولها المفكرون والقادة والأدباء بكثير من التأييد أو التفنيد . كان داروين قد خلف كتابه

عن أصل الأنواع ، تخلف ثورة جائحة من الأفكار ، وفتح آفاقاً جديدة لمن أراد أن يفكر تفكيراً حراً طليقاً . وقد انتهى الكثير من الانجليز إلى أن الانسان يتطور من مرحلة إلى مرحلة أخرى ، وإلى أن الحياة نفسها تسير في سبيل التقدم . ثم كان كارل ماركس قد خلف كتابه من الرأسمال ، تخلف بذلك ثورة اقتصادية متبقة ، لأن المفكرين والقادة والأدباء أيضاً تناولوا الاشتراكية بالتأييد ، واعتبروا الرأسمالية سبباً من أسباب الضنك الذي آل إليه النظام الاجتماعي والسياسي .

كان يؤمن زعماء الفكر بأن الرأسمالية الخبيثة هي أساس الشقا كل العامة ، وكانوا يرون أن المساواة في توزيع الثروة يجب أن تكون مبدأً لكل إصلاح آخر . وقد دعا كارل ماركس إلى الثورة المسلحة ضد طبقة الملاك لأنها استأثرت بالربح الوفير . وكان يرى أن مثل هذه الثورة واجبة ، وبعدها تسود الطبقة المنتجة ، وإذا ما سادت هذه الطبقة فسوف تسوى بين الأفراد جميعاً ، أو إنه سوف يسود النظام الاشتراكي الذي لا يعترف بأن شخصاً واحداً يحل له أن يستغل جهود الآخرين ، والذي يؤمن بأن الجماعة الانسانية كلٌّ واحدٌ علك الخدمات والبضائع التي تقدم أو تصنع في محيط الجماعة .

لكن الاشتراكية البريطانية اتسمت بطابع التدرج ، فهي لم تؤمن بهذه الثورة المسلحة التي دعا إليها كارل ماركس ، ولم تتخذ طريق العنف بل طريق الاقناع ، ولم تكن الطفرة تميزها ، وإنما كان يميزها التطور البطيء . ولأن الاشتراكيين الإنجليز آمنوا بالتطور التدرج فقد أنشأوا جماعات للبحث والمناقشة والمناظرة والدعاية والنقد . وكانت هذه الجماعات حلقات تعرض فيها المبادئ ، ويقوم الخطباء دونها معارضين ومحبذين . وكانت جماعة الفابيين (١) أكبر هذه الجماعات ، فقد تألفت سنة ١٨٨٤ وضمت أكبر المفكرين الاشتراكيين وبينهم برناردشو .

كانت الاشتراكية ديناً جديداً وكانت ككل دين جديد في حاجة إلى من يدعو إليها ويفسر أصولها ويدافع عنها . وهذه الجماعات هي التي نشأت الاشتراكية البريطانية ، فلم يحدث الكفاح بين النظام القديم وبين النظام الجديد في شوارع لندن وطرقاتها ، وإنما حدث بينهما في النوادي حيث تجتمع اللجان ، وحدث كذلك في دور الحكومات المحلية في كل مقاطعة من المقاطعات . وقد قرأ برنارد شو كل الكتب التي خرجت عن الاشتراكية . قرأ كتاب « رأس المال » الذي ألفه كارل ماركس في المتحف البريطاني ، وقرأ كتاب هنري جورج من « الفقر والتقدم » وقرأ كتاب الاشتراكي الفرنسي برودون وعنوانه « ماهي الملكية ؟ هي السرقة . » وقرأ مئات من الكتب الأخرى التي ألفت وترجمت من الاشتراكية . ثم انثنى بعد ذلك ، فدخل في غمار هذه الجماعات التي تحدثنا عنها . وخطب في كل مكان : في النوادي وفي الميادين وفي الحدائق العامة . وقد أحصيت المرات التي خطب فيها في هذه السنوات التسع ، فكانت ألفاً أو تزيد .

* **

لبرنارد شو إذاً مثل هذه الآراء الاشتراكية التي ذهب إليها كارل ماركس وهنري جورج وبرودون . لكن له طابعاً خاصاً اتسمت به آراؤه ، فيجب إذاً أن نجمل لك تلك الآراء . وسترى أن بعضها مأخوذ من كل واحد من هؤلاء ، وسترى أيضاً أن بعضها أصيل أنتجه هو نفسه

يذهب برنارد شو إلى أن الفقر أساس كل الشرور والآلام التي تفت في عضد الجماعة . فقد انقسم الناس في هذا العالم إلى طبقتين . طبقة قد ملكت المال وطبقة أخرى في حاجة إلى المال . طبقة قد أسرفت في جمع المال حتى أصبحت مكفولة الأوليات والكماليات في وقت معاً ، فهي إذا فكرت فيما تحتاج إليه لم تفكر في الخبز ولا في الطعام

(١) The Fabians

ولا فى اللباس ، لأن كل ذلك متوفر عندها ، وإنما تفكر فى السيارات الفاهمة وفى الرحلات الغالية وفى بناء المتاحف الضخمة وفى جمع المقتنيات النادرة . ثم طبقة أخرى أنزلها الفقر إلى الحضيض ، فهى تفكر أبداً فى الحاجات الضرورية الأولية ؛ إنها تفكر فى الخبز والطعام وفى اللبس وفى غير ذلك مما يسد الرمق ويقوم بالكفاف ، فأفرادها قد يكتفون بحجرة مظلمة لا تدخلها الشمس وتسرح فيها الهوام ، وقد يكتفون بالخبز الأسود والطعام التافه والشراب الميت . الطبقة الأولى تتمتع برخاء دائم ، والطبقة الأخرى تعانى شدة دائمة . الطبقة الأولى تملك ولا تعمل ، والطبقة الأخرى تعمل ولا تملك .

ولا يرى برنارد شو أنه يجب على المجتمع أن يخفف من هذا الفقر بالاحسان أو بإنشاء الجمعيات الخيرية أو بصرف مرتبات تافهة للفقراء . وعنده أن هذا الذى يدعيه بعض الأغنياء من الحدب على الفقراء ومن رعايتهم وبذل الهبات المالية فى سبيلهم ليس إلا عملا مؤقتاً يضطر إليه الأغنياء لأنهم فى حاجة إلى تبرير مركزهم أمام طبقة الفقراء . برنارد شو لا يرى أن الفقر شيء محتمل ، بل هو يرى أنه شر يجب أن يُبلى . وهو لا يتردد ولا يتوانى ولا يبين فى الدعوة إلى استئصاله استئصالا تاماً لا هوادة فيه ، وهو بعد ذلك لا يعترف بقوانين الفقر[1] التى سنتها إنجلترة لتخفف من غائلته ، لأن هذه القوانين لم تسن إلا لتجعل الفقر أمراً محتملا مقدّراً على السواد الأعظم من الناس . لقد قال فى بعض ما كتب : « لا يجب أن ننظر إلى الفقر بعين الرحمة ولا أن نعتبره من البلايا التى لا محيص عنها . ولا ينبغى أن نحتمله كما لو كان جزاءً وفاقاً لبعض الناس على ما أسلفوا من السيئات . وإنما يجب أن نمحقه محقاً وأن نمنعه من أن يعود إلينا كما نمنع المرض القتال الذى يخترم جسم المجتمع » .

وإذا كان الفقر عنده مرضاً قتالا فقد رأى ألا علاج للفقر إلا بالمال . فالمال عنده أصل لكل دواء تحاول الجماعة أن تصطنعه ، وفى ذلك يقول : « إن تقديرنا المال هو الحقيقة الوحيدة التى تبعث الأمل فى حضارتنا هذه . . . فالمال أهم شيء فى العالم . فلا شك أنه يمثل الصحة والقوة والشرف والكرم والجمال ، كما أن الحاجة إلى المال تمثل المرض والضعف والعار والقبح . وليس أقل فضائله أنه يفسد من أمر اللئام بقدر ما يصلح من أمر الكرام . والمال لا يكون نقمة إلا إذا أصبح عند البعض رخيصاً وفيراً لا قيمة له ، وعند الآخرين عزيزاً محالا لا سبيل إليه . أى أنه لا يكون نقمة إلا إذا حاقت بالحياة ظروف سخيفة جعلت الحياة نفسها نقمة على الذين يعيشون فيها . ولأن الحياة والمال مرتبطان لا انفصام بينهما ، فقد أصبح المال هو الذى يوزع الحياة توزيعاً اجتماعياً » .

وفى هذا الذى ذكره برنارد شو كثير من الحق . ولعله لم يستطع أحد أن يوضح العلاقة بين المال وبين الحياة مثل ما وضحها برنارد شو . أليس من المآسى التى تحدث بيننا كل يوم أن الأطباء يحاولون أن يقاوموا أمراضاً ليس الأصل فيها إلا قلة الغذاء وسوء المسكن وقذارة الملبس ؟ إن شطراً كبيراً من أفراد المجتمع يعيشون فى حالة مزمنة من سوء التغذية ، وليست حاجة الجماعة فى هذا الذى يذهب إليه الكثير من المصلحين حينما يتهمون الجريمة والطمع والحرب والوباء بأنها هى السبب فيما نحن فيه ، لأن السبب فى كل ذلك ليس إلا الفقر . فإذا أردنا أن نغير من هذه الحال المزرية فينبغى أن نغير النظام الذى نعيش فيه . وإذا أردنا أطفالا أصحاء فينبغى أن يكون أمهاتهم وآباؤهم أصحاء كذلك . ولن يكون هؤلاء أصحاء حتى ينالوا نصيبهم من الثروة ، ولا سبيل إلى أن ينالوا نصيبهم من الثروة حتى توزع الثروة فى أنحاء العالم توزيعاً عادلا محكماً .

توزيع الثروة توزيعاً عادلا — عند برنارد شو — هو الأصل الذى يجب أن نبدأ به إذا أردنا الإصلاح الاجتماعى

(1) Poor Laws.

والسياسى العاجل . أما إذا ظلت الثروة كما هى الآن فسوف نعانى الشرور الاجتماعية التى ما نزال نعانيها . إذا ظل عُشر سكان الأرض يتمتعون بتسعة أعشار ما تنتجه الأرض وإذا ظل تسعة الأعشار الآخرون لا يصيبون إلا العُشر الذى يعفّ عنه الأولون فلا مناص من أن تستمر الدعارة والفحش والسرقة والمرض والحرب والجهل كما هى الآن . أما إذا حاولنا توزيع الثروة توزيعاً عادلا فلا بد لكل تلك الشرور أن تختفى من على ظهر الأرض . وقد يكون هذا وهماً باطلا عند بعض الناس ، وقد يكون أمراً محالا عند الآخرين ، لكن برنارد شو لا يرى أنه وهم ولا أنه محال . هو يعلم أن الثروة قد تغيّر توزيعها بين كل طبقة وطبقة فى القرن الأخير ، حتى لقد تقدمت بعض الطبقات واستلبت الثروة من الطبقة الأخرى . وإذا كان مثل هذا التغيير قد حدث فى المائة سنة الأخيرة فلمَ لا يجيء توزيعا عادلا للثروة فى المائة سنة القادمة ، على ألا يحدث هذا التوزيع بين كل طبقة وأخرى كما هو الآن ، بل على أن يحدث بين كل فرد وآخر كما ينبغى أن يكون ؟

وهو يجد أن توزيع الثروة كما هى الآن تحلق للأغنياء كل المزايا وتحرم الفقراء من كل المزايا . هو يرى أن أصحاب الثروة وهم أقلية ضئيلة قد تآمروا على من لا ثروة لهم وهم الأغلبية الساحقة . أنت ترى آثاراً لهذا التآمر إذا حللت نظام التشريع والقضاء ، فالذين يضعون القوانين وينفذونها ليسوا إلا أغنياء أوتوا قليلا أو كثيراً من المال ، وهم ينظرون إلى الجرائم بعين المالك الرأسمالى الذى يحرص كل الحرص على ماله مهما يكلفه ذلك . وأنت تجد آثاراً لهذا التآمر إذا بحثت نظام التربية ، فقد نشأ المتعلمون على احترام ما يمت إلى الغنى وعلى احتقار ما يمت إلى الفقر . حتى نظم التعليم التى تسير عليها الجامعات ما زالت موسومة بذلك الطابع الذى يؤهل الغنى لما لا يستطيع أن يتأتى له الفقير . وأنت كذلك ترى آثاراً لنفوذ الأغنياء فى الكنيسة وفى الصحافة ، فقد نشأ المتدينون على الولاء للغنى ، وأصبح هذا الولاء بضعة من إيمان المؤمن ! كذلك قامت الصحافة بأكبر دعاية للثروة حينما ملأت أعمدتها بكثير من الأنباء والأخبار والمقالات التى تزيد من قدر الأغنياء . فنحن أمام نظم خلقتها الثروة ، أمام نظم تدافع عن الغنى وتحميه ، لأنها تأخذ اللصوص والجهلة والأغبياء بالقصاص العادل ، لكنها تتجاهل كثيراً من الجرائم التى تقترف ضد الفقير باسم الثروة .

حتى النظام الخلقى كان لا بد له أن يتأثر بنظم التشريع والاقتصاد والاجتماع . فقد تواضعت الجماعة على تقاليد سمتها مكارم الأخلاق ، من هذه أن يبذل الإنسان لبنيه ما يستطيع أن يبذل من حسن السمعة وجمال التربية ، ومن هذه أن يكون عفيفاً مؤدباً ، ومن هذه أن يحسن الانتفاع بأوقات فراغه . لكن أنى للطبقة المعدمة كل ذلك ؟ إن مكارم الأخلاق كان لا بد لها أن تقتصر على الطبقة الوسطى أو الطبقة الغنية ، أما الطبقة المحرومة فإنا نكلفها شططاً إذا ألزمناها باتباع مكارم الأخلاق ، لأن مكارم الأخلاق هذه قد أنكرت على الفقير حق الحياة ، وبررت الجرائم التى تقترف ضد الفقير باسم الثروة .

أجل ! هناك جرائم يقترفها الأغنياء ضد الفقراء ، لكن القانون لا يأخذهم بها . هناك جرائم لا يقترفها السكارى ولا الجهلة ولا المرضى ، وإنما يقترفها قوم أوتوا المال وأوتوا الجاه العريض . أما أكبر هذه الجرائم فهى البطالة . وإذا كان العمل واجباً على كل فرد فقد جرى نظامنا الاجتماعى والاقتصادى على احتقار العمل اليدوى . بل وأصبح للأغنياء من الامتيازات ما يجعلهم أكبر من أن يعملوا بأيديهم . فأصبحت طبقة الأغنياء عاطلة يتمتعون بالبطالة وينعمون بالدعة ، من غير أن يحاسبهم القانون على

ذلك . ولنستمع إلى برنارد شو حين يعرض قضيته هذه ، فهو يقول :

« إن أكبر الامتيازات التي يجمعها الأغنياء ، وأشدها عدوانا وأعمها ضررا هو أن يتمتعوا بالبطالة من غير أن يكون من القانون رادع لهم . ومثل هذا الامتياز قد أصبح لسوء الحظ ثابتاً بحيث إننا نعتبره مما تقضي به طبائع الأشياء . بل إننا لنبجل صاحبه أو صاحبته لأنه أصبح من لازمات السيدات والسادة . ولو فكرنا قليلا لرأينا أن كل من يستهلك البضائع أو يستفيد من خدمات الناس عليه أن يصنع بضاعة تكافئ ما أخذ أو يقوم بخدمة تكافئ ما تقبل . أما إذا استفاد ولم ينتج شيئاً ولم يقم بأي خدمة فإنه يسيء الى الجماعة مثل ما يسيء السارق إليها . والحق أن هذا هو معنى السرقة . نحن لا يخطر لنا في وهم أن نسمح للناس أن يقتلوا ، أو يخطفوا الأولاد ، أو يقتحموا المنازل الخاصة ، أو يغرقوا ويحرقوا ويدمروا ما في البر والبحر ، أو يطالبوا بإعفائهم من الخدمة العسكرية . كل ذلك بسبب أنهم ورثوا ضيعة ضخمة أو دخلا سنويا يبلغ الألف من الجنيهات . لكننا على الرغم من ذلك ما زال نتسامح في التبطل ، وهذا في نفسه يحدث من الأضرار ما لا تحدثه كل الجرائم التي نعاقب عليها في العالم جميعه خلال عشر سنين » .

مثل هذا التبطل جعل للطبقات العاملة مكاناً حقيرا في هذا المجتمع ، حتى لقد أصبح العمل — وهو رسالة الانسان فوق ظهر الأرض — سمة من سمات المهانة والصغار . وفي مثل هذه الحال يعيش العمال والمتعطلون في ظروف أخس من ظروف العبودية . كان الرق في الزمن القديم يقوم على اقتناء الآدمي كما تقتنى الأنعام والسوائم . لكن الموالي كانوا مضطرين الى أن يقدموا للأرقاء الغذاء والملبس والمسكن . ذلك لأن صاحب الرقيق كان كصاحب البهم والسوائم تماما . فهذا يحاول أن يغذي خيله وحميره وماشيته حتى تصح فتنتج له ما يريد ؛ وكذلك كان المولى مضطرا إلى أن يقوم بحاجات عبيده ، فيقدم لهم الغذاء والملبس والمسكن لكي يصحوا فيعملوا له ما يريد . لكن العامل في المدنية الحاضرة أقل شأناً من الحيوان الأعجم ومن الأرقاء في العصر القديم ، لأن صاحب العمل يستغله لبضعة دريهمات وهو غير مسئول من غذائه ولا من ملبسه ولا من مسكنه . والعامل مضطر الى أن يرضى بهذا الوضع ، لأن العمل كمثل شيء آخر في حياتنا الاقتصادية خاضع لقانون العرض والطلب . فهو إن رفض أن يعمل فسوف يطرد ، وهو إن طرد فسوف يجوع ، فكأنما أصبح العامل من خوف الفقر في فقر ومن خوف الجوع في جوع .

* * *

تلك جملة من الأفكار التي ذهب إليها برنارد شو فيما يتصل بنظامنا الاقتصادي . ولا نحسبن أن اشتراكيته عملية يسيرة التنفيذ ، لأن دونها تغيير الآلة الرأسمالية الهائلة التي تدور في هذا العالم ؛ لكنها أفكار !! هي رياضة فكرية تفقهنا في بعض الشرور التي تخترم جسم هذا المجتمع الذي نعيش فيه . ولعل مثل هذه الأفكار الاشتراكية هي التي صبغت الديموقراطية الحديثة ؛ ولعل من آيات هذه الديموقراطية أنها اتخذت لها مثلا مما دعا إليه برنارد شو . أما إذا أردت أن تقدر مثل هذا الطابع الاشتراكي في الديموقراطية الانجليزية ، فاعلم أن زعيما من زعمائها وهو رامزي مكدونالد قد تولى رآسة الوزارة مرتين ، وأن مقدار المال الذي صرف على الخدمات الاجتماعية في انجلترة بلغ أكثر من ١٨٦ مليوناً من الجنيهات في سنة ١٩٢٨ ، وأن برنارد شو نفسه قد أصبح بفضل دعايته الاشتراكية من أصحاب الملايين .

(بني سويف) أحمد خاكي

مولانا جلال الدين الرومى

للدكتور عبد الوهاب عزام

القضاء والقدر

وأما القضـاء والقـدر فجلال الدين يذهب فيه إلى الاختيار ويشتد على الجبرية :

إن جنين وآن جنان فرد اكنم
أين دليـل اختيـار ست أى صنم

(سأفعل هذا وذاك غدا دليل الاختيار أيها الصنم)

وقد حكى فى الجزء الأول قصة الوحوش والأسد التى فى كليلة ودمنة ، فبدأها بمحاورة بين الأسد والوحوش فى الجبر والاختيار :

الوحوش — اترك الحذر فلا يغنى من قدر ، وتوكل ولا تحارب القضاء فيحاربك .

الأسـد — نعم ، التوكل حسن ، ولكن الأخذ بالأسباب سنة نبينا . وما أحسن الجهد والكسب فى التوكل : قد قال الرسول اعقلها وتوكل . ألم تسمع قوله : الكاسب حبيب الله .

الوحوش — أى شىء أحسن من التسليم ؟ كم فارّ من البلاء إلى البـلاء ، وهارب من الثعبان إلى التنين ؟ كم احتال الانسان فكانت حيلته شبكته ، وأقفل الباب والعدو فى الدار ؟ وكذلك كانت حيلة فرعون بقتل مئات آلاف من الأطفال والذى يخشاه فى داره . إن أبصارنا عليلة فأفن بصرك فى بصر الحبيب . نعم العوض بصره من بصرنا : إن فى بصره كل ما تبغى : ألا ترى الطفل يحمل على عنق أبيـه قبل أن تقوى رجلاه ، فإذا اعتمد على رجليه وُكل إلى نفسه فوقع فى العناء والكَبَد . وقد كانت أرواح الخلق قبل الأيدى والأرجل طائرة بين الوفاء والصفاء ، فلما أمروا بالهبوط لبثوا فى سجن من الغضب والحرص والنم . نحن أطفال رُضّع ، وقد قيل : الخلق عيال الله . إن الذى ينزل المطر من السماء قادر برحمته أن يعطى الخبز والماء .

الأسد — نعم ولكن رب العباد وضع سلما أمامنا ، فلا بد من الصعود فيه درجة بعد درجة . ما الجبرية إلا غفلة . إن لك رجلا فكيف تجعل نفسك أعرج ، وإن لك يدا فكيف تخفيها . إن السيد إذا أعطى عبده فأسا فقد أعلمه مراده بغير قول ، أليست اليد كالفأس ؟ فافهم إشاراته فإنها عباراته . إن الاشارات تكشف لك الأسرار وتخفف عنك الأعباء ، وتؤديك إلى المراتب التى تبتغيها . إن السعى شكر نعمته ، والجبرية إنكار هذه النعمة . وشكر القدرة يزيدها ، والجبرية تزيلها . الجبرية هى النوم فى الطريق فلا تنم . لا تنم إلا أن ترى تلك السدة وذلك الباب . لا تنم أيها الجبرى الغافل إلا تحت هذه الشجرة : الشجرة التى تساقط عليك كل لحظة من ثمرها كلما حركتها الرياح . الجبر نوم بين قطاع الطريق . وكيف يأمن الطائر إذا فقد جناحيه ؟ من لم يفهم إشارته فقد أضاع عقله . وإن الرأس الذى يفارقه العقل أشبه بالذنب . إن أردت التوكل فاعمل ؛ ازرع ثم اتكل على الخلاق .

الوحوش : إن أهل الحرص الذين زرعوا الأسباب واحتملوا العناء لم ينالوا شيئا وظلوا منذ بدء العالم آلاف القرون يفتحون أفواههم كالتنين فلا ينالون شيئا . ولقد مكر هؤلاء مكراً تزول منه الجبال ، فلم يحصلوا من مكرهم وعملهم إلا على القسمة التى قدرت فى الأزل . ذهب تدبيرهم وعملهم ، وبقى تدبير الخالق وعمله . إن الكسب ليس إلا اسما ، وإن الجهد ليس إلا وهما .

وضربت الوحوش للأسد مثل الرجل الذى ذهب إلى سليمان فزعا وشكا إليه نظر عزرائيل إليه نظرة ملأته رعبا ، ثم سأله أن يأمر الريح أن تحمله إلى الهند . ولقى سليمان عزرائيل فقال له : لماذا أخفت هذا الرجل فاضطررته إلى

الاضطراب وترك أهله وماله ؟ فقال عزرائيل : لقد أخطأ . ما نظرت إليه غاضبا ولكن متعجبا . فقد أمرني الله أن أقبض روحه اليوم في الهند ، فلما رأيته عجبت كيف يبلغ الهند اليوم ولو كان طائراً ما استطاع ذلك . فلما ذهبت إلى الهند بأمر الله وجدته هناك فقبضت روحه :

الأسد : نعم . ولكن انظروا أيضا إلى جهد الأنبياء والصالحين كيف أثنى الله على جهادهم وبلغوا هم بالجهاد درجات الكمال . ليس الجهاد محاربة للقضاء ، فهو أيضا من القضاء .

واستمرت المحاورة حتى اتفقت الوحوش على أن الاجتهاد أولى من التوكل ، ثم استمرت حوادث القصة المعروفة في « كليلة ودمنة » .

ولا تنجلى عظمة جلال الدين في المناداة بالاختيار ، وحفز الناس إلى العمل والسير قُدُما . بل هو يرى أن الحياة جهاد مستمر لا ينبغي أن يسكن المجاهد فيها ساعة .

يقول في المثنوى في قصة التاجر والببغاء (جـ ١ ص ٧٢) :

الغريق يجهد نفسه ويضرب بيده على كل حشيشة أمامها تنقذه من الخطر .

والحبيب (الله) يحب هذا الاضطراب ، وإن الجهد الناصب سدى خير من النوم .

إن الملك نفسه ليس فارغا من العمل ، ولهذا قال الرحمن : كل يوم هو في شان . اكدح في هذا الطريق واجهد ، ولا تفرغ ساعة ، حتى الساعة الأخيرة .

والألم عنده وسيلة اللذة ، والبكاء سبب الضحك (كيف يضحك المرج إذا لم يبك الربيع ؟ وكيف ينال الطفل اللبن بغير بكاء) والفناء أحرى ، والكد أنفع . ورجل الطريق أو رجل الله يلقى الخير والشر ، واللذة والألم ، راضيا مقدما موقنا أنه بالألم يكمل ويرقى حتى يبلغ غايته .

يقول في المثنوى :

إن مكروهه محبوب في نفسي

فدى روحي للحبيب المعذب قلبي .

أنا عاشقٌ تعبَه وألمه في رضاه . إني أكحل عيني بتراب الغم لتمتلئ بحر العينين بالجواهر . إن الدموع التي تقطرها العين في سبيله جوهر يحسبه الناس دموعا

ويقول : « ذلك المكروه الذي يصيبني به غاضبا أكثر إطرابا من الرباب يامن جفاؤه أحسن من السعادة ، وانتقامه أحب من الروح . هذه نارك فكيف نورك ؟ وهذا مأتمك فكيف العرس ؟ . أنوح وأخشى أن يستمع لنواحي فيخفف عني هذه الشدة كرما . إني عاشق قهره ولطفه ، فاعجب لعاشق هذين الضدين ، والله لئن جاوزت هذا الشوك إلى البستان لأوحين نواح البلبل . اعجب لبلبل يفتح فاه ليأكل الشوك والورد ! أي بلبل هذا . إنه تنين نارى يحبب إليه العشق كل مكروه . هو عاشق الكل وهو الكل نفسه ، هو عاشق نفسه وطالب عشق نفسه » .

إن هذ النواح من الأرواح المجاهدة مناجاة دائمة ورقى مستمر .

حين ينوح بغير شكوى ولا شكر ، تضج له السموات السبع . له كل حين مائة نوحة ، ومن الله مائة رسالة . منه يارب مرة ومن الله سبعون لبيك . وله كل لحظة معراج خاص ، وإلى رأسه مائة تاج خاص . صورته على الأرض ، وروحه في لا مكان ، لا مكان . لا يدركه وهم السالكين .

تلكم قطرة من بحر جلال الدين ، وشرارة من ناره ، وبصيص من نوره . ومثل هذا الفيلسوف ينبغي أن تذاع فلسفته . لقد أثرت هذه الفلسفة الاسلامية في رجل من رجال عصرنا جعلته شاعر القوة والحياة في الهند . وحسبه الناس سائراً على أثر فلاسفة أوربا ، ولكنه قال من نفسه : إنه أثر من جلال الدين . فما أجدر جلالاً أن يخرج للمسلمين في كل جيل مثل محمد إقبال .

عبد الوهاب عزام

من أدب الجهاد :

أنا انتهيت !

قصة مصرية رمزية

« ابذروا الحب هنا وهناك ، في قلوبكم وقلوبهم ، في نفوسكم ونفوسهم ، ابذروه في كل مكان وكل آن ، فسوف يثمر زهرا نضيرا ، وسوف يكون لكم منه جنة فيحاء تجرى من تحتها الأنهار ، اكشفوا عن ميولكم وأغراضكم ، فيزيل هذا الكشف ما بها من أقذار ، وتستحيل إلى مثل نقاوة الثلج . احكموا الطبيعة ، اعشقوا الحقيقة ، وانشدوا النور فقد عم الظلام » .

اختتم « هو » خطابه بهذه الكلمات وسط الجمع الغفير الذى يحيط به ، ورغم الشيخوخة التى كانت تتحفز للوثوب عليه كان قوى الصوت ، ظاهر اللفظ ، منتصب القامة ، صادق الحجة . في عينيه بريق من العظمة والخلود . في أسارير وجهه قبس من النور والقداسة .

وارتفعت أصوات باستحسان وأخرى باستهجان . وهلل البعض وروع آخرون .

ثم هبط « هو » الربوة التى كان يشرف منها وشق طريقه بين الجموع المتراصة ، لا يلوى على شيء ولا يأبه لصفق أو يألم لمانف . والعيون تسير في أثره . والشمس تنشأ تنحى قليلاً قليلاً نحو الأفق ، و « هو » في سبيله إلى داره ، كوخ يستقيم فوق مرتفع من الأرض ، يحده شمالاً زرعة القرية ، وجنوباً منبسط من الأرض تغشاه الخضرة .

وتهامس النـاس حين غاب عن الأبصار : من يكون « هو » ؟

وقال شاب يافع : لعله رجل قدم من بلاد نائية لأمر خفى سوف تظهره الأيام .

وقال شيخ وقور : وما أدراكم ألا يكون من المبشرين الذين تبعث بهم الرسـالات الأجنبية ليفسدوا النفوس وينشروا الالحاد ؟ .

وقال ثالث : لا . ما أحسبه إلا رجلاً كريماً ، فقد أبصرته أمس في جوف الليل ، وكان يجوس خلال القرية ، رأيته ينحنى إلى الأرض حيث رجل ضرير قد ضل الطريق بين الأشجار فأخذه بيده وأنهضه من كبوته ، ثم سار وإياه في طريق شاق حتى بلغ بائع الخبز فاشترى له خبزاً وجبناً ودفع إليـه قطعة فضية ، ورأيتها بعينى تتلألأ ضياءً في حندس الظلام .

وقال رابع : إذاً هو مندوب أحد السلاطين العظام .

وقال خامس : ولمَ لا يكون هو السلطان بعينه . فله قامة مهيبة وطلعة شريفة يحفهما جلال ووقار .

وشرع سادس يتحدث وإذا زعيم من شيوخ القرية يقبل عليهم ، عرف بحصافة الرأى وصدق النظر وعمق البحث . فسأله سائل عمن يكون « هو » الذى استجد في القرية والذى يجوبها ويخطب الناس في كلمات لايدرون مداها . فلا ينفك ينادى : الحرية ، الحب ، النور ، طبيعة الأشياء ، حقوق الانسان ؟

فتنحنح الزعيم وحرك بصره إلى الجهات الأربع حتى إذا استوثق أن « هو » لا يقف في صفوف الجمع قال :

« لقد هبط هـذا الرجل قريتنا في الثالث عشر من شهر نوفمبر . وأنشأ الكوخ الذى يقيم فيه الآن . وهو يحرض فتيان القرية وفتياتها على أن يهجروا أعمالهم جزاً من ساعات النهار والليل ليجتمعوا إليه فيجلس إليهم في الفضاء الواسع الذى يقع خلف كوخه . وهو يقرأ عليهم من كتب يحفظها لديه . وقد انضم إليه حتى الآن — وقد أمضى بيننا عشرة أيام — خمسة وعشرون رجلاً . ومما لاجدال فيه أنه رجل غنى ، فقد علمت من مصادر موثوق

بها أنه يتصدق كثيراً ويطعم الناس كثيراً . وأما عن حقيقة مقصده فقد جاءتنا أخبار متضاربة أرويها لكم ، وأحب أن تقيموا حولها سياجاً من الصمت لئلا يصيبنا مكروه .

« فلقد قيل إنه كان يملك أرضاً وزرعاً ورأى نفسه — وهو العبد الفقير إلى الله — غير حرى أو صاحب حق في هذا الملك الكبير ، بينما مئات الناس من جيرانه الزراع لا يملكون أكثر من قوت يومهم ، فقام ووزع الأرض بالتساوى بين هؤلاء الجيران . وأنشأ يعمل معهم بالفأس والمحراث ليأكل قوته بعرق جبينه ، فلما انتعشت القرية وأصبح نامها في يسر ورخاء هجرها إلى هنا ، وقد حمل معه قدراً من المال ، لست أدرى من أين جاء به ، ثم جاء إلى هنا ليمثل الدور الذى قام به في القرية السابقة .

« وقيل إنه رجل كان له مال وعقار ، وقد حباه الله من العلم والعرفان شيئاً كثيراً ، وإنه كان له عند الله حاجة ، فسأل العلى القدير أن يمنحه إياها ، وأنه ينذر نذراً أن يفعل كيت وكيت ، فلما أجاب الله ضراعته ، شرع يؤدى النذر ، وهو أن يطوف بالقرى يلقن أبناء القرويين شيئاً من العلم والعرفان » .

وهنا نظر الزعيم مرة أخرى إلى الجهات الأربع ، حتى استوثق من وجوه السامعين ثم استطرد :

« وقيل إنه انتدب من لدن إحدى الدول الطامعة لدرس أحوال القرية وتنفيذ سياسة ملعونة ، فيها شىء من الضرائب وإلغاء المزارع وإقامة المصانع بدلاً منها .

« وقيل — وقد قال لى هــذا فتى ممن انضموا إليه واجتمعوا به — إنه رجل ملهم ، فيه شىء من الله ، وقد أرسله سبحانه وتعالى ليؤدى رسالة سامية إلى أهل هذه القرية .

« والخلاصة أنه رجل خطير ، جليل القدر ، يجب علينا أن نحذره ، ونخافه ونحبه » .

ثم صمت الزعيم وساد السكون ثم تبعه الهمس ، وهز الرءوس والتمتمة ، وأنشأ الجمع يختلط ثم يتفرق .

والشمس توشك أن تودع المكان ، والأفق مخضب بشعاعها ، والقرية يغطيها لون الشفق الأحمر .

تشتت شمل الجمع إلا من شابين صديقين ، قد أذهلهما وسلب لبهما حديث « هو » . وجذبهما إليه تلك الروايات الشائقة التى ينسجها الناس من حوله ، فيمما شطر الكوخ ، تدفعهما نحوه رغبة مجهولة .

* * *

الليل ينشر أجنحته ، والقرية تنشأ تتسربل برداء السكون .

هى قرية معتمة مجهولة تقوم إلى جانب نهير صغير ينسلخ من النيل العظيم ويضرب في عرض الصحراء . تبرز من بعض طرقاتها أشجار النخيل ذوات السعف والتمر . فمن الأول تشاد الدور ، أو بالأحرى سقائف الأكواخ ، ومن الثانى تشاد جسوم الأهلين . ففى التمر غذاء وفيه حياة .

ويجرى في جسم القرية من أعلى الرأس إلى أخمص القدم نهير « السعادة » السالف الذكر مثلما يجرى الشريان في جسم الانسان ، فيهب القرية الحياة .

ويحـد القرية من نواحيها المختلفة صحراوات وبحار مترامية ، قد أرادتها الأيام أن تكون جيران سوء . فهى تسوق إليها في الهنية بعد الهنية ريحاً صرصراً عاتية ، تهلك الحرث والنسل .

وكانت القرية إلى زمن غير بعيد تعيش في دعة الرفاهة وسعادة العزلة . يجمع الأهلون مما تنبتهم الأرض الطيبة ، ومما يفيض من حاجاتهم ، ثم يبادلون به جماعات البدو الرحل الذين يمرون بالقرية بين الحين والحين ، أثناء تجوالهم وضربهم في مشارق الأرض ومغاربها ، فيحصلون بذلك على الكساء والسمن والعسل .

حتى كان يوم عبوس قمطرير رجع إلى نيف وخمسين عاماً ، هبت فيه ريح سامة من الشمال الغربي دمرت الدور ، وسدت الطرقات ، وحملت في طياتهـا المرض والجوع والفقر . ترى الناس سكارى وماهم بسكارى . ولقد جثمت جراثيم الفساد في كل ذي روح في القرية .

الأرض الغنية الكريمة ذات الفيض العميم ، قد اندست إليها آثار هذه الريح القذرة ، فأفسدت البذور والجذور ، وأحالت التربة الخصبة صحراء جرداء لا تنبت إلا اليسير التافه .

وأشجار النخيل تخلع عنها سعفها وثمرها .

واستنشق الأهلون هـذا الهواء الفاسد فجرى في الجسم مجرى الميكروب القاتل . الناس أبداً في خصام وتضاد . يكره بعضهم بعضاً . الأخ يكيد لأخيه كيداً .

وذهبت تلك النضرة التي كانت تعلو الوجوه ، وذوت البسمات التي كانت تتلألأ فوق الشفاه ، وحل مكانها عبوس دائم وتجهم كبير .

ومضت السنون تتبعها السنون والقرية تزداد حلوكة والضمائر خبثاً والعيش ضنكاً .

* * *

سار الشابان الصديقان في صمت إلى حيث نهير السعادة ، فهناك إلى جانبه يقوم كوخ « هو » ، وكانا يفكران فيما قال للناس منذ لحظات : أحبوا بعضكم ، أ كشفوا عن نياتكم ، أنشدوا الحقيقة ، النور ، الحرية .

كان الشباب في هذه القرية يأسف على الحال السيئة التي تحدر إليها الشعب مادياً وأدبياً ، ويطالعهم بعض الشيوخ أن القرية كانت قبل ذلك فردوساً أرضياً .

وكان هذا التاريخ المجيد مثل ضياء يبرق حيناً فينير الذهن ، ويبعث إلى القلب البهجة وحب الفخار . ثم يخبو فترتد النفس كليلة محسورة . وكان أيضاً يدفع الهمم ويحفزها لاستعادة هذا المجد السالف والانطلاق إلى فخار جديد .

لم يمش الشابان طويلاً حتى أبصرا الكوخ فوق مرتفع من الأرض . وكانت الليلة ذات قمر منير . وإذا شباب كثير من أبناء القرية يلتف حول « هو » ، وقد قعدوا كلهم على الأرض الفضاء التي خلف الكوخ ، فوق الحشائش الخضراء ، وإذا فتى يسأله وهو يجيب :

— وكيف ننال هذه السعادة ؟

— والسعادة ممكنة فوق ظهر الأرض بشيء كثير من الحب والاخلاص والعمل الصالح .

فيسأله ثان :

— وكيف نستعيد المجد القديم والرخاء الذاهب ؟

— والمجد والرفعـة والرخاء تقوم على أسس من التكاتف والجهد المستمر ، وإنكار الذات ، والرغبة التي يبغيها العمل في خدمة الغـير ، وتوفير أسباب السعادة للمجموع .

فيسأله ثالث :

— وكيف نحيل هذه القرية إلى فردوس أرضي ؟

– والحديقة إن أهملها صاحبها ذبلت أشجارها ، وذوت ثمارها ، وتقدمت إليها البهائم والديدان فنشرت فيها الفساد . وإن تعهدها صاحبها بالرعاية والسقيا ، والرقابة والدفاع ، أينعت ثمارها وازدهرت أشجارها ، فاذا هي جنة مورقة تؤتي أكلها .

وهنا يتقدم الشابان ويقولان : (السلام عليكم) .

فتنبسط أسارير « هو » ويجيب : أهلاً بالشباب الناهض . هاهما رقيبان جديدان نضمهما في ناحية من الحديقة يرعيانها ، ويذودان عنهـا لنصل بها إلى الفردوس المنشود .

ويجلس الشابان ، ويستمر الحديث في مثل ما كان حتى منتصف الليل ، فيتفرق التلاميذ إلى أكواخهم متواعدين للقاء في الغد القريب .

* * *

انبثق الفجر ، ثم بزغت الغزالة ، فاذا الدنيا ضياء .

وإذا جماعة الشبان وبعض الرجال يقودهم « هو » إلى حيث نهير السعادة ، فيغتسلون ثم يقفون صفاً صفاً ، ويبدءون عمل اليوم بالتوجه إلى الله بكلمات ملؤها الاخلاص والحب والعبادة .

فاذا انتهى هذا ، وانتهى بعده الافطار ، انتشروا في جسم القرية ساعة وبعض ساعة يتحسسون مواضع الألم ، ويصفون العلاج في شيء كثير من العطف والتآلف .

ثم يعود شملهم بالتئم بعد ذلك فيحملون فؤوسهم ومعاولهم ، وينزحون إلى بقعة من الأرض جرداء صلباء ، فيضربونها ضربات وضربات ، ثم يرسمون فيها خطوطاً وزوايا ، ويبذرون البذور هنهنا وهنهنا ، ثم يصلون طرقاً منها بنهير السعادة فينقع غلتها بعد ظمأ ، ثم يقيمون حولها سياجاً يقيها عبث العابثين .

وعند ذاك تقف الشمس في كبد السماء ، فينطلقون إلى الكوخ ، وقد تنازل « هو » بجعله ملكاً مشاعاً للجميع ؛ فيتغدون ويستريحون ، ثم يعودون إلى العمل .

يذهبون إلى الجهة الشمالية الغربية ، حيث تهب تلك الريح السامة التي حطمت القرية ، فيقضون الساعات في قياس الأرض وتخطيطها ، والتحدث في العلاقة بين هذه الريح وبين الفقر والأمراض التي تمطر على الناس من جرائها .

يقول « هو » : وإصلاح هذا البلد ، وكشف الغمة عن أهله ، وابتعاث السعادة والابتسام في جنباته ، إنما تكمن في شيء واحد ، هو سور هائل يقوم في تلك البقعة ، يقف سداً منيعاً في مقبل الأيام ضد الأتربة والرمال التي تسفيها هذه الناحية الشمالية الغربية .

ثم يرفع وجهه ويديه إلى السماء ويدعو : « اللهم هبني العمر والقوة لانشاء هذا السور واستكماله » .

فيردد التلاميذ : « آمين » .

ثم يشرع البعض منهم بجبل الطين بيديه ، ويذهب آخرون يحتون من قوائم خشبية من سعف النخيل وجذوعه .

فاذا كان الأصيل وقد نال منهم الاعياء عموا صوب الربوة المعهودة ، فيعتليها « هو » ، ويتجمع الناس ، ويأخذ يخاطبهم في كيفية تحسين الزرع ، وتربية الأبناء والحيوانات ، وأن النظافة تطيل العمر ، وأن الله يأمر بالحب ، والقيام على خدمة الغير ابتغاء مرضاته .

فاذا جاء الليل انطلقوا إلى كوخ القرية يأخذون نصيبهم من الطعام والراحة والدرس .

ويوم ثان يخططون في أرض القرية ويشقون السبل والطرقات .

ويوم ثالث يبنون من الطين بيوتاً .

ويوم رابع يجعلون من هذه الدور ملاجئ للعجزة والمرضى والأطفال .

وفي كل يوم يقضون جزءاً من الساعات في بناء السور ، وجزءاً في بناء مجد الشعب .

وذهبت الأيام تجرى وتبعتها السنون

* * *

وحم القضاء ، ونفذ سهم القدور في الثالث والعشرين من شهر أغسطس

* * *

« أكملوا السور ... فأنا انتهيت » .

ثم استخذى « هو » في مثل وداعة الطير ورقة النسيم ، والقلوب تحيط به واجفة ذاهلة . أى خطب وأى مصاب ؟ هل مثله يموت وينتهى !

وانتشر الخبر في لمح البصر ، فاستيقظت القرية وأمواتٌ وولولت وسارت إليه زرافات ، رجالاً ونساءً شيباً وولداناً .

وكان في الكوخ جماعة المخلصين ، وأبصروا القرية تمشى إليهم باكية .

فقال كبيرهم وفيض الدمع يحبس صوته : « يقول أنا انتهيت ، وهذه النفوس الأمينة غرس يديه ، هذه الدور القائمة ، وتلك الحقول المثمرة ، والأشجار الباسقة ، هي هبة منه ومنحة ، هو حي فيها على مر الأيام والأحقاب . لا . لم يمته » .

* * *

فإذا كان الصباح فهم يوارونه التراب ، ويقيمون له نصباً مرقوماً عليه « هنا يرقد من لا ينتهي » .

وهم بعد هذا ييممون شطر الدور ، يأخذون في إتمامه تحقيقاً لوصية الراحل العظيم .

محمود إسماعيل المكي

على هامش الأسبوع

النصرانية في اليابان

للدكتور أحمد زكي بك

قلّ أن يوجد في تاريخ الأمم حِقبةٌ من الدهر تميّزت عن سائر حِقبها كما تميّزت الحقبة الواقعة بين عام ١٦٠٣ وعام ١٨٦٧ من تاريخ اليابان . ففي هذه الفترة ، في هذين القرنين والنصف قرن ، ساد السلامُ اليابان على نحو ، وعلى طول من الزمن ، لم تكد تعهده في سوابق قرونها . وزاد في قيمة هذا السلام ، وزاده تحبيباً إلى قلوب الناس ، وزاده بياضاً في أبصارهم حمرةُ القرون الثلاثة التي سبقته ، وما اصطبغت به من الدماء في حروب أهلية داخلية لم يكن لها من غاية إلا التسابق إلى السيطرة بين أُمَر اليابان وبيوتاتها التوّاقة بحكم النعرة العصبية إلى نشر سلطانها على البلاد . وقد دامت هذه الحروب ما دامت قوى المتنازعين متقاربة . وكانت سجالا ما بقيت الأُمَر فيها كأفراس الرهان ، لا يسبق أحدها إلا برأس أو عنق ، وقلما يسبق بقامة كاملة . وكان لا بد للسلام من غلَبة إحداها ، وغلبتها غلباً صريحاً إن لم يكن دائماً . وقد تأتّى هذا أخيراً لأسرة توكوجاوا Tokugawa ، وهي الأسرة التي حكمت اليابان ، إلى جانب الميكادو السجين ، هذين القرنين والنصف قرن من الزمان ، يتوارث حكمَها شوجنٌ عن شوجن ، حتى اعتزل منها آخر شوجن عرفته اليابان في عام ١٨٦٧ ، عند ما زال نظام الإقطاع كله ، وعاد الحكم والسلطان إلى قصر الميكادو ، بعد أن ظلّ صاحبه حبيساً في قصره قرابة ألف عام .

وقد مهّد لمجيء هذه الأسرةِ الكبرى ثلاثةُ رجال من الحكّام ، كان ثالثهم رأس هذه الأسرة . وكان أول هذه الثلاثة اسمه نوبوناجا Nobunaga . وكان قد بلغ بحروبه الطاحنة في سبيل توحيد اليابان أن حكم نصف الولايات جميعاً . ثم مات فحل مكانه خادم له قديم ، هو ثاني الثلاثة ، كَبُر رأسه عن الخدمة فاصطفاه سيّده ، فلما تعلّق فنّ الحرب عقد له البنود ، ثم مات سيّده فقام مقامه من بعده ، وحارب حتى أخضع اليابان إخضاعاً . ثم سوّلت له نفسه أن يطلب الحرب وراء حدودها . وقد أسموه نابليون ، لبراعة فنّه ، ولاتساع أمله ، ولامتداد أطماعه في الفتح إلى ما كاد أن يكون كارثة على نفسه . فلما مات مات من أمة متّحدة قام عليها من بعده أيياسُو Iyeyasu ، وهو ثالث الثلاثة ، وأول أمراء أسرة توكوجاوا التي شاء القدر أن يمتد حكم اليابان في أصلابهم إلى القرية الخامسة عشرة من الشواجن .

فهؤلاء الثلاثة من الرجال ، هذا الثلث من الساسة القوّاد ، هو الذي خرج باليابان من عهد الثورة الدائمة إلى عهد الطمأنينة الدائمة . ولم يكن الثلاثة من أسرة واحدة . وهم لم يستطيعوا ، على وضوح مقدرتهم ، وكبير احتيالهم ، أن يحتفظوا بالحكم في ذراريهم ، إلا ثالثهم . ومن أجل

هذا قالوا : إن أولهم ، نوبوناجا ، طحن القمح ، وإن ثانيهم ، هيديوشي Hydeyoshi ، خبز الكعكة ، ثم جاء ثالثهم أيياسو ، فأكلها ، وكان له وحده حظ استمرائها . ولكنه أكلها ولم يجع بعدها . فقد حرص على استدامة الطحن واستدامة الخبز وخروج الكعك إلى قصره وإلى الأسواق لتأكل الأسر الأخرى ويأكل الناس . وابتدع في اليابان ابتداعاً للمجتمع جديداً ، أساسه بالطبع نظام الإقطاع وسيادة الطبقات ، ولكنه نظّم هذه الطبقات وخلق لكلٍّ مكانه . وقام على الأمر فسرّح رعوسها إلى الريف يقومون على الزرع والحصاد ، وأبقى نساءهم وذويهم في العاصمة رهائنَ يذكرها الذاكرون عندما تلعب برءوسهم الأطماع .

وقد امتازت هذه الأسرة بشيء أخطر من السلام الذي ضربته على اليابان : بالعزلة الشديدة التي فرضتها على البلاد ، نفوراً من كل ما هو أجنبي ، وذعراً من كل ما هو أوربي ، وخشية أن يصيبها الغزو الذي سمعت أنه أصاب غيرها من البلاد . وجرت هذه الأسرة في عزلها اليابان على سياسة حُجُّل معها أنها لو استطاعت لفكت هذه الجزر الأربع عن سطح هذه الأرض إلى بعض أجرام السماء .

ولم تبلغ هذه العزلة غايتها في سنة أو بضع سنين ، بل تدرّجت إلى التمام نحواً من خمسين عاما .

فقد بدأت أعراضها في عهد نوبوناجا ، أول الرجال الثلاثة الذين مهّدوا لحكم الأسرة المذكورة ، وتمّت في عهد الشوجن الثالث من شواجن هذه الأسرة ، ثم دامت ما دامت هذه الأسرة في حكم اليابان ؛ وكانت هذه العزلة بسبب دخول النصرانية إلى اليابان ، وبسبب دخول البرتغاليين إليها ، يتبعهم الأسبانيون فالهولنديون . فإلى النصرانية وحديث دخولها إلى اليابان يجب أن نسوق الكلام .

كان هذا في عام ١٥٤٢ ، إذ كان جماعة من البرتغال يجوبون البحار ، يقصدون إلى ساحل الصين حيث يتّجرون ، فحملهم البحر إلى ساحل بلد جديد ، فكان هذا الساحل ساحل اليابان . فلما أذاعوا الخبر جاء منهم إلى اليابان البعثات ، فرحب اليابانيون بهم طمعاً في تجارة لا شك رابحة .

وفي عام ١٥٤٩ حلّ في اليابان أول مُرسَل نصراني ، وكان جزويتياً ، فلقيه من لقيه من أمراء اليابان بالترحاب ، لجنسيته البرتغالية ، ولأنهم أفادوا من تجارة القوم . وأذنوا له بالدعوة إلى النصرانية ، فقبل وكسب إلى دينه قوماً كثيراً . وتبعه بعد ذلك كثير من المرسلين ؛ فلم يأت عام ١٥٨٢ حتى كان عدد من اعتنقوا النصرانية في اليابان ١٥٠٠٠٠ . وفي هذا العام مات نوبوناجا ، أول الفرسان الثلاثة الذين ذكرنا . ولم يكن نصرانياً ، ولا يُعرف عنه أنه كان يميل إلى النصرانية ، ولكنه ناصرها كثيراً حتى نُسِب اتساعها إلى ما أسبغه على قساوستها الجزويت من حماية . وبنى لهم كنيسة ، وبنى لهم بيتاً . وتُعزى مناصرته إياهم إلى اطمئنانه إلى تجارة مواطنيهم من البرتغاليين ، وإلى تطلعه إلى علم ما لم يصله من أمور تلك القارة التي يُسمّونها أوربا ؛ ولعلها كانت ترجع في الأكثر إلى كراهته البوذية ، أو على الأصح كراهته لكهنتها . فقد كانت البوذية انقلبت فصارت قوة سياسية هائلة تقفل بالأمراء الأقاويل . وكان من أشد كهنتها مراساً أولئك الذين سكنوا جبل حِيزان ، حتى قال فيهم أحد الأباطرة ، ثلاثة أشياء ليس لي عليها سلطان : نهر « كامو » إذا فاض ، ووجه النرد إذا ألقيته في اللعب ، ثم رهبان جبل حيزان . فهؤلاء انضموا إلى خصومه وحاربوه ، فاضطر إلى أن يصعد الجبل إليهم ، وهو مقدس ، فيذبح كل من لقي منهم ، ويحرق ما صادف من أديرتهم . وكانت بلغت ثلاثة آلاف .

فمن أجل هذا ناصر الجزويت ، ومكّن لهم ما مكن في البلاد . قيل له مرة في ذلك ، فقال : وما ضير شيعة

جديدة فى بلاد مزّقتها أشياع عدّة ؟

وبموت نوبوناجا ، أمسك هيديوشى زمام الحكم من بعده ، فحارب ووحّد اليابان على ما قدّمنا . وبدأ حكمه فى غير عداء للنصرانيين . ولكن حروبه فى الجنوب وصلته بالجزويت ، فأوجس منهم لأول مرّة خيفة ، إذ أحسّ أنهم يؤسسون فى الدولة اليابانية دولة نصرانية ، أى دولة فى دولة ، وتصوّر ما يجر هذا فى أذياله من نكبات . فصارهم حتى انتهى من بعض حروبه كيلا يزيد فى أعدائه ، ثم عاد فوجّه إليهم أسئلة معدودة وطلب منهم الجواب : بأى سلطة يُكره الجزويتُ الناس ، وهم رعايا يابانيون ، على اعتناق المسيحية ؟ ولماذا يدفع الجزويت أتباعهم إلى إحراق المعابد البوذية ؟ ولماذا هم يضطهدون القساوسة البوذيين ؟ ولماذا يقتلون المواشى ليأكلوا لحومها وهى حيوانات تنفع الناس ؟ ولماذا هم يأذنون لمواطنيهم البرتغاليين فى خطف اليابانيين ليستعبدوهم بعد ذلك فى جزائر الهند ؟ وأجاب القوم من تلك التهم ، فما أرضاه جوابهم . فما كان منه إلا أنْ أصدر أمره إلى قساوستهم بمغادرة البلاد . وضرب لهم موعدا عشرين يوما ، فمن تخلف فجزاؤه الموت . وكان هذا فى عام ١٥٨٧ . وحرّق لهم بضع كنائس . ولكن عاودتْ هيديوشى الرحمة وكان بطبعه غفورا ، وعاودته رغبةٌ فى الكسب الذى أفادته البلاد من تجارة البرتغاليين ، فأغمض عينه عن هذا الأمر الذى أصدره ، ورجع الجزويت عن عنفهم ، ومارسوا صناعتهم أكثر اعتدالا وأصابوا خيرا كثيرا ، حتى كان منهم فى اليابان عام ١٥٩٧ من القساوسة ١٣٧ ، ومن المتنصّرين ٣٠٠٠٠٠

ولكن حدث فى عام ١٥٩٣ أن جماعة من الفرنسسكان الأسبان جاءوا إلى اليابان يبشرون . وكان البابا جعل التبشير فى اليابان ملكا خالصاً للبرتغاليين ، فاختصم رجال الأمّتين ، وسعَوْا بالنميمة إلى رجال الحكم فى اليابان . كلٌّ يذمّ صاحبه . وحدث فى أثناء هذا الصراع أن ارتطمت سفينة على الساحل ، وكانت سفينة أسبانية . وأراد ربّانها أن يفخر فيعرّف سامعيه بمكان أمته بين الأمم . فتحدّث عن فتوحات الأسبانيين . فسأله اليابانيون : وكيف كان ذلك ؟ فقال : إن مليكنا ، وهو كاثوليكى ، إذا أراد فتح أمة ، أرسل لها الرسل قساوسةً يبشرون ، فإذا هم كسبوا بعض أهل البلاد ، كانوا من بعدُ عونّ العسكر فى فتحها » . وتلك قصة ينكرها بعض المؤرخين . ولكنها هى أو شبيهةٌ لها تناقلتها لا شك الألسن حتى بلغت أذن هَيْدِ يُوشى ، وعندها استشاط غضباً ، وقام فقتّل عدداً من النصارى ، برتغاليين ويابانيين ، وحرّق من الكنائس ما حرّق ، وأمر القساوسة بمغادرة البلاد توًّا . وتلكّأ القساوسة على عادتهم فى تنفيذ أمره ، وأنقذهم منه أنه مات قبل نفاذه ؛ وكان هذا فى عام ١٥٩٨ .

وارتقى الحكم من بعده ثالث الثلاثة ، ورئيس الأسرة الجديدة والدولة الجديدة ، أيِاسو . وبدأ حكمه فى غير احتفال بالنصرانية ، ولكنه لم يلبث أن فتح عينيه لها . وفى حكمه ، فى عام ١٦٠٠ ، جاء الهولنديون لأول مرة إلى اليابان يطلبون التجارة . وكان ربان سفينتهم انجليزيا اسمه آدم . فما وطئت أقدامهم أرض اليابان حتى بدأت السعايةُ فيهم لدى حكامها ، بدأها البرتغاليون والأسبان فزعموا أن القادمين قرصان عملهم نهب البحار ، وكان من ذلك أن سُجن آدم ، وطلب البرتغاليون رأسه . ولكن الشوجن لم يجد سبيلا إلى قتل رجل لم يجرم جرما فخلّى سبيله ، ثم هو اصطفاه من بعد ذلك . وقام آدم ببناء سفينتين للشوجن ، فزاد الشوجن فى إكرامه ، وزاد فى إعزازه ، وأفاده مالا كثيرا ، وأقطعه الأقطاع ، وحاطه بالخدم ، وأعاشه « عيشة لوردات » وأخلص آدم لمضيفه وصاحب نعمته ، وألِفَ اليابان وألفته ، حتى

مات فيها . ولعلها كانت ألفة طباع أكثر منها ألفة أطماع . ولعل من تشابه الطباع ما كان من تلك الصداقة الطويلة التي دامت بين اليابان والإنجليز أعواما كثيرة في هذا القرن الحاضر ، تلك الصداقة التي أفادت منها اليابان خيراً كثيراً. وكان لآدم أصحابٌ أرادوا الاقامة في اليابان والعمل فيها ، ولكن منافسة الهولنديين لهم ومضايقتهم إياهم زهّدتهم في البلاد فغادروها .

ومما أفاده الشوجنُ من آدم أنه تفقّه في معنى الكاثوليكية ومعنى البروتستنتية ، وفي فروق ما بينهما . ولم تزد أياسو على الأيام إلا ريبة من هذا الدين الجديد . وحدث أن طلب الأسبان مسح شواطئ اليابان ، فأذن لهم . ولكنه لم يلبث أن رأى بعض قساوستهم يلحق بهم ، فيمسح الشاطئ معهم . عندئذ توثقت الريبة من قلبه ، فأصدر أمره عام ١٦١٤ بجمع كل القساوسة في ميناء ناجازاكي تمهيداً لترحيلهم من البلاد ، وأمر فحرّقت الكنائس وحرم على الناس الدين المسيحي . ولكن القسس عادوا فتلكأ منهم من تلكأ ، واختفى في البلاد من اختفى ، وخرج منهم من خرج ثم عاد ، ومات أياسو عام ١٦١٦ .

وخلفه ابنه ، فما لبث أن ضيّق حلقة تلك السياسة التي سنّها أبوه ، وزاد فجعل التنصّر جريمة يعاقب عليها اليابانيُ بالإحراق ومصادرة الملك والمتاع . وحرّم الخدمة العامة على النصرانيين . وأمر الأمراء فحرضوا من كان اعتنق المسيحية من أتباعهم على رفضها . فلما لم تُحدِثْ هذه الأوامر أثرها كاملا في مسألة ، عمد إلى العنف ، فقتل الآلاف . وعاد بعض من غادروا البلاد من القسس فاستأثر برءوسهم ، حيناً إعلاناً وحيناً في الخفاء . وبعث الرسل إلى أوربا يستخبرون خبرها ، فلما استثار أمر بطرد الأسبان جميعاً من أرض اليابان .

وجاء من بعد هذا الابن ابنه ، واسمه أيميتسو ، فبلغت تلك السياسة في عهده غايتها . ذلك أن النصرانيين تجمعوا في منطقة على مقربة من ناجازاكي ، وتحصنوا في بعض حصونها ، ورفضوا طاعة الأمر ، وجاهروا الدولة بالعداء . فحاصرهم الجوشن بجيوشه أشهراً ، وأعانه الهولنديون بسفنهم في هذا الحصار . فلما سقط الحصن أثخنتهم الجيوش تقتيلا . وكانوا نحواً من ٣٧ ألفاً ، منهم الشيوخ ، ومنهم النساء والأطفال ، فلم يبق منهم الأسر غير مائة .

وبانتهاء هذه الثورة انتهى عهد النصرانية في اليابان ، على الأقل إلى عهد بعيد ، وانتهى كذلك عهد البرتغاليين . ففي عام ١٦٣٨ صدر مرسوم يحرّم السواحل على سفنهم ، فمن اجترأ منهم فاقترب منها أحرقت سفينته وأهدرت دماء رجالها . وعلّل الشوجن هذا بأنهم هم الذين أشعلوا نيران تلك الثورة ، ولأنهم عصوا الأوامر فمكنوا على استيراد القساوسة ولم تنفعهم نُذُرٌ كثيرة . وعزّ على البرتغاليين ضياع ثروة من التجارة هائلة ، فعادوا يحاجّون ويستصفحون . فقابلهم الشوجن بحجّة ليس إلى رفعها من سبيل . ذلك أنه قطع ٥٧ رأساً منهم ، وترك رءوساً ثلاثة عشر على أجسامها لتعود فتحكي خبر ما كان . وأعطى لهؤلاء الثلاثة عشر ورقة مخطوطاً فيها : لاتتعبوا رءوسكم بالفكر فينا ، وافرضوا أننا اختفينا من سطح الأرض .

وجرى القانون كذلك على اليابانيين ، فحرّم عليهم الخروج من اليابان ، فمن خرج منهم حُرّم عليه دخولها حياً . وحرّم كذلك على اليابانيين بناء السفن الكبيرة التي تستطيع عبر البحار .

واختصاراً غلّقت اليابان أبوابها تغليقاً لم يعهد مثله في أمة أبداً ؛ فاحتجبت عنها على الدنيا ، ووضعت أصابعها في آذانها في وجه العالم ؛ فلم تُرد أن تسمع منه أو عنه شيئاً . ودام هذا فوق القرنين من الزمان ، إلى عام ١٨٦٧ . حتى الهولنديين الذين أعانوهم في تلك الثورة ،

التي أدّت إلى هذا الختام ، حرّموا عليهم أرض اليابان ، إلا مصطبة في الماء على الساحل اليابانيّ بنوها للاغاثة خطوة في مثلها ، وأذنوا لهم أن يُنزلوا بضائعهم إليها ويتجروا عليها في نطاق من حديد .

كتب الكبتن بركلي ، وهو إنجليزي نصراني ، في صدد هذا يقول : «إن هؤلاء الرجال الذين مثّلوا أوربا لدى اليابان في القرن السادس عشر ، لم يكن لديهم مدنية أرقى من مدنية اليابان يهدونها إليها . فلم ير اليابانيون فيهم إلا الخشونة ، وإلا الشراسة والقسوة ، وإلا الفسق والدعارة ، وإلا الفقر البالغ في العادات ، وإلا الصلف والغطرسة في معاملة الناس والأمور ، وإلا الشره في المكاسب والفقر في أكثر لطائف الحياة . وقد كانت المدنية الصينية جاءت اليابانيين قبل ذلك بنحو ثمانية قرون ، فتقبلوها راغبين ، وفتحوا لها أذرعهم مرحّبين . ولكنهم أعرضوا عن المدنية الأوربية لما حملها إليهم تجار أثانيّون ، وتجارة خشان غلاظ ، ودعاة دين غلاة قساة لم يعرفوا إلا التعصب ديناً . فهذه المدنية رفضوها إلا شيئين فيها : ضرب النار وعلم تحصين القلاع ، فهذان أقبلوا عليهما إقبالا » .

احمد زكى

نجوى القمر

تَمَلِيكَ الليالى الخَالِيَاتِ وَقَدْ مَشَى
عَلَى هامةِ الآبادِ للكونِ مؤنسا

طلعْتَ عَلَى الدُّنْيا جَلالاً وَرَوْعَةً
وألبسـتها فى الليلِ نُوراً مُقَدَّسا

موشًى بأحلام الضـياء مُعَطَّراً
برىحكَ منه رُوحىَ الظامىء احتسا

مليئاً بأحـلام التهاويل حافلاً
يشـق الرائى طاهراً ما تدنسا

تَحَجَّبَ فيـه الليلُ حتى كأنه
خفْ تُوارى خلفَهُ وَتَكدسا

وأغرقْتَ فيـه النورَ فجًّا مُبَهماً
يَشِعُّ دُخاناً أبيضَ اللون أملَسا

كأنْ ضباباً لفها ساعة الضـحى
وخالط ضوء الشمس فارتد أغبسا

فلاحت لرأى العين كالدير أطفِئَتْ
مصـابيحه إلا سراجاً تَنَفَّسا

يُبعثرُ فيه الضـوء تَدَيانَ ناحلا
وَيَنْبَعِثُ فيه الوَهْمَ والصمتَ والأسى

هنا !! مَلْعَبُ الأرواح من بدء خَلْقِها
ومسرحها الخافى إذا الليلُ عَسْعَسَا

هنا !! فى مجال النفس والعين والحجى
وفى معبد بالسـحر أو ظله اكتسى

وتحت خيال الليل والليـلُ مغرق
بأحلامه القمراء حيرانَ أخرسا

أسيخ لهمس النور فى جنبـاته
وقد شاعَ فى قلب الظلام وَوَسْوَسا

وأسلهم الأشباحَ حولى كشاعر
لمعنى وراء الظاهرات تلمسا

وأطلق حسى فى مجاليه سابحاً
فيسبح فى آفاقه متحسـسا

ويعبرُ فيـه عالماً بعد عالم
وينهلُ من أصدائه الشعر أكؤسا

كأنى رُوحٌ فى الوجود تقمصت
مظاهر هذا الكون نوراً وحِندسا

(عراق — بغداد) **عبد الستار عباس**

محكمة الجيزة الأهلية

إعلان بيع عقار فى القضية المدنية رقم ٣٥٨ سنة ١٩٤١

نشرة ثالثة

إنه فى يوم ١٢/١/١٩٤٢ الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بسراى المحكمة سيباع بطريق المزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد مقاسه على على البربرى من ناحية الجيزة والمحكوم بنزع ملكيته من هذه المحكمة بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ والمسجل فى ٢٧ مايو سنة ١٩٤١ بمحكمة شبين الكوم الكلية رقم ٣٤٨ سنة ١٩٤١ صحيفتى ٢٣١ و ٢٣٥ جزء أول وفاء لمبلغ ٨٢٨ قرش بخلاف المصاريف وما يستجد من الملحقات بثمن أساسى قدره ٢٥ جنيه و ٦٠٠ مليم بعد تنقيص الخمس

بيان العقار

٣٠ متر مربع مقاما فى ١٠ قيراط و ١٤٨ متر له منزل مبنى بالطوب الأخضر دور واحد بزمام الجيزة بحارة النحاس نمرة ٩ ملك محدود البحرى حارة النحاس وفيها الباب والشرقى شارع والقبلى الحاج محمد البربرى والغربى إسماعيل بازيد

٣٠ فقط ثلاثون متر مربع لا غير وما يناسب هذا القدر من البناء والأخشاب

وهذا البيع بناء على طلب زهيرة عباس البربرى من الجيزة وعليها العقار بمكتب حضرة الأستاذ منير السكندر المحامى وجميع الأوراق مودعة بدوسيه القضية لمن يريد الاطلاع عليها

عن راغب الشراء الحضور للمزايدة   كاتب البيوع

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٠ — الثلاثاء ١٤ من ربيع الأول سنة ١٣٦١ — ٣١ من مارس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

قضـــية الهند

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حينما نشبت الحرب الحاضرة ، كانت الهند — كما كانت فى الحرب العالمية الماضية — فى مقدمة أمم الإمبراطورية البريطانية التى سارعت إلى نجدة بريطانيا العظمى ، فأمدتها بما وسعت من الرجال والمتاد والمواد الأولية والوارد المختلفة ؛ وأبلى الهنود بلاء حسناً فى معارك لوبية واليونان والحبشة وسوريا والشرق الأقصى .

ورأى فريق من زعماء الهند يومئذ ، أن هذا التعاون الوثيق فى الحرب بين الهند وبريطانيا العظمى ، يجب أن يدعمه التفاهم الوطيد ، ولن يكون ذلك إلا بتسوية المسألة الهندية تسوية عادلة نهائية ، وتحقيق أمانى الهند فى الاستقلال الذاتى ، وأنه يجب على الأقل أن توضع الأسس التمهيدية لهذه التسوية منذ الآن ، فتكون بمثابة تقدير عادل لجهود الهند وتضحياتها العظيمة فى سبيل القضية المشتركة .

ولكن الحكومة البريطانية لم تشاطر هذا الفريق رأيه يومئذ ، وأعلن نائب الملك اللورد لنلتجو ، أن بريطانيا العظمى مع تقديرها المعاونة العظيمة التى تسديها الهند ، ومع تأكيدها لما سبق أن قطعته على نفسها من العهود ، بتحقيق أمانى الهند فى الاستقلال الذاتى ، ترى أن يرجى بحث التسوية النهائية إلى ما بعد الحرب .

على أن دخول اليابان فى الحرب ضد الدول المتحالفة وما ترتب عليه من فقد سنغافورة ، وجزر الهند الشرقية ،

وغزو بورما ، وتهديد الهند من البر والبحر ، يحمل الحكومة البريطانية اليوم على أن تعيد النظر فى سياستها الهندية . والسياسة البريطانية عملية كثيرة المرونة ، لا ترى غضاضة فى تقدير الأمور بحقائقها الراهنة ، والنزول على مقتضيات الظروف فيما يحقق الغاية المنشودة ؛ ومن ثم فقد رأت الحكومة البريطانية ، أن تتقدم فى هذا الظرف الدقيق إلى معالجة المسألة الهندية بشجاعة ، وندبت للاضطلاع بهذه المهمة سير ستافورد كريبس ، سفيرها السابق فى موسكو ، وهو من أقدر قادة بريطانيا وساستها فى هذه الساعة ، وكان لجهوده أعظم أثر فى تمكين أواصر التحالف بين روسيا وبريطانيا .

وقد وصل سير كريبس بالفعل إلى عاصمة الهند ليبدأ مباحثه مع الزعماء الهنود ، وليقف على اتجاهات الرأى العام الهندى ؛ ومع أنه لم يفض بشىء من الاقتراحات الجديدة التى وضعتها الحكومة البريطانية لحل المسألة الهندية ، فقد صرح بأنها ترمى فى جوهرها إلى تحقيق الوعود التى سبق أن قطعتها بريطانيا العظمى على نفسها بشأن تحقيق أمانى الشعب الهندى فى الحصول على الاستقلال الذاتى ، وأنه يعتقد أنه يمكن الآن أن توضع أسس معقولة للخطوات العملية التى تؤدى إلى تحقيق هذه الغاية ؛ وزاد سير كريبس على ذلك بأن الوقت لا يتسع للمناقشات الطويلة ، وأن مهمته يجب أن تنتهى بسرعة فى مدى لا يتجاوز أسبوعين .

— ٢ —

من الواضح إذاً ، أن السياسة البريطانية تعتزم هذه المرة أن تتقدم إلى معالجة المسألة الهندية بتسوية سريعة حاسمة ، يرجى أن تصل فيها إلى أقصى ما يمكن منحه إلى الهند من صور الاستقلال الذاتى .

ويرجع جهاد الهند فى سبيل هذه المرحلة من قضيتها الوطنية إلى الحرب الكبرى ، والتاريخ يعيد هنا نفسه . ففى أثناء الحرب الماضية ، طالبت الهند بالاستقلال الذاتى ، ورأت فى تضحياتها العديدة إلى جانب بريطانيا العظمى ما يبرر هذا الطلب ، ووقعت فى بعض الولايات اضطرابات وحوادث سياسية . وفى سنة ١٩١٧ أوفدت الحكومة البريطانية إلى الهند ، اللورد مونتاجو وزير الهند ليبحث مع نائب الملك ، وهو يومئذ اللورد شلمسفورد ، ما يجب اتخاذه لاقامة حكومة مسئولة فى الهند ؛ وفى العام التالى صدر تقرير مشترك عرف باسم واضعيه ، مونتاجو وشلمسفورد ، يتضمن بعض اقتراحات تتعلق بالاصلاحات الادارية ، وحكم الولايات .

ولكن الشعب الهندى لم ير فى هذه الاقتراحات ما يرضى أمانيه ، وحدثت عقب الحرب اضطرابات سياسية جديدة ، ودعا غاندى يومئذ إلى العصيان المدنى ، ووقعت حوادث امرتسار الشهيرة ؛ فندب البرلمان البريطانى لجنة للنظر فى مشروع قانون جديد للهند على أسس اقتراحات مونتاجو ؛ وصدر القانون متضمناً لبعض إصلاحات دستورية ، أهمها أن تعرض الميزانية على المجلس التشريعى لاقرارها ، وأن تمنح حقوق الانتخاب إلى بعض الطوائف ، وأن يعين للهند مندوب سام فى لندن ؛ ونوه فى هذا القانون بأنه تجربة ومرحلة انتقال إلى الحكم الذاتى .

ومضت الهند فى جهادها أعواماً أخرى ، وهى تغلى وتضطرم من وقت إلى آخر بأعنف الحوادث ؛ حتى اتخذت الحكومة البريطانية خطوة جديدة بانتداب لجنة سيمون فى سنة ١٩٢٧ ، لتبحث المسألة الدستورية كلها ، ولتقرر بعد ذلك ما يمكن منحه للهند من صور الحكم الذاتى ؛ وذهبت لجنة سيمون إلى الهند فى أوائل سنة ١٩٢٨ ؛ ولكنها قوطعت مقاطعة شديدة ؛ وبعد

تحقيقات ومباحث مستفيضة ، أصدرت عن مهمتها تقريراً ضخماً ، أوصت فيه بعدة إصلاحات ، أهمها أن يلغى نظام المقاطعات التي يختص بحكمها الانكليز ، وأن يعاد إنشاء مجلس نائب الملك على نمط جديد ، وأن ينشأ للهند دستور اتحادي تقوم على تنفيذه جمعية تشريعية اتحادية ، وأن تستشار الولايات فيما يهم الهند البريطانية بصفة عامة ، وأن يسن الانتخاب الطائفي للأقليات مثل المسلمين والسيخ والمنبوذين والأوربيين ، وأن تفصل ولاية بورما عن الهند ، وتعتبر وحدة إدارية مستقلة .

وفي سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن لبحث قضية الهند ، وحضره مندوبون عن جميع طوائف الشعب الهندي ؛ وشهده غاندي في العام التالي ؛ ولكن المؤتمر لم يوفق إلى وضع حل نهائي ترتضيه جميع الطوائف الممثلة فيه ؛ وعندئذ رأت الحكومة البريطانية أن تتناول الأمر بيدها ، وأن تنفذ جوهر الاصلاحات الدستورية التي أوصت بها لجنة سيمون ؛ وقد كانت هذه الاصلاحات ، هي آخر مرحلة قطعتها السياسة البريطانية في سبيل تحقيق مطالب الهند في الاستقلال الذاتي .

بيد أن السياسة البريطانية ما زالت تكرر من ذلك الحين أنها ترمي إلى أن تصل بالهند إلى نظام الأملاك المستقلة (الدومنيون) ، وهو ما يحقق لها أقصى درجات الحرية والاستقلال الذاتي ؛ وقد تعاقبت تصريحات المسئولين من رجال الحكومة البريطانية ونائب الملك في هذا المعنى ؛ أما متى يتحقق هذا النظام ، فمسألة مرهونة بالوقت الملائم ، ويجب على أي حال أن تسعى الهند إلى تسوية مسائلها الطائفية ، إذ يتعذر قبل ذلك أن تحل المسألة الهندية حلا عادلا نهائياً .

— ٣ —

هذا استعراض موجز لأهم المراحل التي تقلبت فيها مسألة الهند الدستورية إلى اليوم ؛ وعلى ضوء هذا الاستعراض نستطيع أن نفهم الوضع الحالي للقضية الهندية .

فالهند تطالب بالاستقلال الذاتي بمعناه الحقيق ؛ وهي تستند في هذا الطلب إلى حقوقها الطبيعية ، وإلى تضحياتها العديدة ، وترى أن هذا الوقت الذي يرتبط فيه مصيرها بمصاير الامبراطورية البريطانية ، هو أفضل الأوقات لتحقيق أمانيها بصورة عادلة نهائية . وقد اعتزمت السياسة البريطانية ، فيما يبدو ، أن تخطو الآن في هذا السبيل خطوة سريعة ناجحة ، فتعمل على تسوية المسألة الهندية بصورة ترضي أماني الهند ، وتطمئنها على مصايرها ، وتوثق أواصر التعاون بين الهند وبريطانيا العظمى ، في دفع الخطر المشترك ، الذي يهدد الهند والامبراطورية البريطـانية .

على أنه يجب قبل الوصول إلى هذه النتيجة أن تحل عدة مسائل فرعية ، تتوقف على حلها أي تسوية نهائية .

وأولى هذه المسائل وأهمها المسألة الطائفية ؛ فالهندوس ، وهم الأكثرية الساحقة يعارضون مبدأ التمثيل النسبي في الحقوق السياسية والثقافية والوظائف العامة ، ويستندون إلى مبدأ القومية العام ، واليقين من أن كثرتهم تكفل لهم تحقيق التفوق في جميع الميادين . ولكن المسلمين ، وعددهم نحو سبعين مليونا ، يقولون إنهم ليسوا أقلية بالمعنى المفهوم ، وإنهم أمة بأسرها ، ويتمسكون بمبدأ التمثيل النسبي ، لأنه هو وحده الكفيل بصون مصالحهم من تحكم الأكثرية الهندوسية ، ويرون أن خير تسوية هي إقامة دولتين أو وحدتين سياسيتين كبيرتين في الهند ، إحداهما للهندوس والأخرى للمسلمين ؛ وقد أكد السيد جناح رئيس الرابطة الاسلامية أخيراً تمسك المسلمين بهذا المبدأ ، وأنهم لا يقبلون عنه بديلا .

وتحذو الطوائف الأخرى ، مثل المنبوذين ، والسيخ ، وغيرهم حذو المسلمين في التمسك بالمبدأ الطائفي .

والمسألة الثانية هي مسألة الولايات الهندية المستقلة ،

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكى بك

أول لقاء بين الروس واليابان

غلّقت اليابان أبوابها دون العالم ، فحسبت أنها بهذا أمِنت غزو الأمم فاسترقاقهم إياها ، وأنها أفلتت من هـذا المآل الذى آلت إليه بلادٌ أقل منها حظا وأقصر بصيرة . ورضيت من الدنيا بأن تندمج فى سبيلها على المنهج الذى صنعه آباؤها ، وأن تجرى فى سبيل الترقّى على الخطة التى سبقت بها القرون فيها . ونظرت إلى البحر يحيط بجزرها ، فزادها تعلق الماء هذا اطمئنانا إلى عزلتها . ودعمت هذه العزلة بسياج من قوانين . ولكن البحر الأمين لا يفهم القوانين . وهو إن حمى من القدم والحافر لا يحمى من السفين . وكان لليابان سفن صغيرة لا حصر لها تجوب الشواطئ ، تطلب البحر الأبيض لأمة عزّ عليها البحر الأحمر كثيرا . والسفن من طبيعتها أن تضعف أحيانا إذا غضب الموج من تحتها ، أو عصفت الريح عاتية من فوقها ، وهى عندئذ ترى السلامة أن تستسلم للريح ، فتلقى لها زمامها تقودها إلى حيث شاءت وشاء لها هواها من شواطئ الأمم . وإذاً يتعين على هذه الأمم أن تردّ التائهين ، فيتعين عليها أن تحملهم إلى شاطئ اليابان . وتلك مجاملة لا يمكن أن تمنع منها عزلة ، وذلك معروف لا يمكن أن يقف فى سبيله قانون . وعلى ظهر هذه المجاملة ، أو فى بطن هـذا المعروف ، حاول الروس أن يدخلوا إلى هذا الحرَم اليابانىّ .

فى عام ١٧٨٢ ارتطمت سفينة يابانية فى البحر فيما بين شواطئ اليابان وشواطئ سيبيرية ، وكانت سيبيرية للروس ، فكان أن نجّا الروس البحارة اليابانيين من الغرق ، ثم ذهبوا بهم إلى إركُتسك Irkutsk ، وهى من سيبيرية عاصمتها الشرقية ، فأقاموا هنالك ما طاب لهم

وعلاقتها بالهند البريطانية وبالتاج ؛ ومنها حيدر أباد ، وبارودا ، وميسور ، وكشمير ، وراجبوتانا ، والبنجاب ، وغيرها ، وتشمل نحو سبعين مليونا من الأنفس ؛ فهذه الولايات ترتبط مباشرة بالتاج البريطانى ؛ وهى تصر على بقائها فى هذا الوضع بعيدة عن نفوذ الهند ومجلس نائب الملك فيما يتعلق بشئونها العامة .

هذه المسائل وغيرها مما يتعين على السياسة البريطانية أن تبت فيه قبل كل شيء .

والمعروف من السياسة البريطانية أنها تؤيد وجهة النظر الاسلامية فى المسألة الطائفية ، كما تؤيد وجهات نظر الأقليات الأخرى فيما تراه لصون حقوقها ، وهى ترى أن تسوية المسألة الهندية على هذه القاعدة أكفل بتحقيق الغاية المنشودة .

ولم يعرف شيء بعد عن اقتراحات الحكومة البريطانية الجديدة ، ولكن يبدو مما صرح به سير ستافورد كريبس أنها تقوم فى جوهرها على منح الهند نظام الأملاك المستقلة (الدومنيون) على مثل كندا ، وجنوب أفريقية ، واستراليا ، وزيلندة الجديدة ، وذلك مع مراعاة أوضاع الهند الخاصة ، الجغرافية ، والسياسية ، والطائفية ؛ ومن المفهوم أن مشروع الحكومة البريطانية ، سيقوم على تصريح أو قرار يتضمن المبادئ العامة ، وأن تُرجأ تفاصيله كما يرجأ تنفيذه إلى ما بعد الحرب .

ولن تكون السياسة البريطانية فى منحها الاستقلال الذاتى للهند إلا منجزة لوعودها التى قطعتها على نفسها ، وأكدتها فى فرص عديدة ، على النحو الذى أسلفنا .

محمد عبد الله عنان

العيش ، عشر ســنوات كاملة . وكانت كترينة الثانية قيصرة الروس ، فأوعزت إلى حاكم سيبيرية أن يذهب باليابانيين إلى بلادهم ، وأن يبعث معهم رسولا من لدنه ، لا من لدنها . ففعل . وألقى مراسيه في ميناء بالجزيرة العليا من جزر اليابان . وما كاد يتصل هنــاك بالسلطة المحلية ، حتى اتصلت هذه توًا بالسلطة المركزية تستفسر عما تصنع بهذا القادم وهو يزعم أنه رسول الروس . فلما جاءها الجواب كان جواباً حاسماً ، فأعطته إياه .

وجرى الجواب هكذا :—

« إن القانون اليابانى يقضى بالحبس المؤبد على كل أجنبى سوّلت له نفســه أن يُرسى على أى شاطىء من شواطىء اليــابان ، أو ميناء من موانيها ، إلا ميناء ناجازاكى . ولــكن ، عِلْماً أن الرسول ومن معه من الروس إنما فعلوا ما فعلوا من جهالة ، وعلماً أنهم جاءوا معهم بيابانيين أنجوهم من الغرق ، فقد رأت الحكومة هذه المرة ألاّ تحتجزهم وأن تأذن لهم بالرحيل على شرط أن لا يعودوا إلى ما فعلوا ، بأية عِلّة ، وعلى أية تُــكأة » .

أما عن الغرقى من اليابان فقد قال الجواب :—

« والحكومة تشكر الروس ردّهم من أنجَوْا من اليابانيين ، ولــكنها مع هذا تأذن لهم أن يعودوا بهؤلاء من حيث جاءوا ، فإنهم بحكم القانون لم يعودوا يابانيين ، وإنما هم رعايا ذلك البلد الذى قذفتهم فى أحضانه الأقدار » .

ويظهر أن رسول الروس لم يفته أن يتحدث فى التجارة ، واتصال المعاملة ، فقد جاء فى هذا الخطاب الذى تسلّمه :

« أما عن التجارة فالمفاوضة فيها لا تكون إلا فى ميناء واحد ، هو ميناء ناجازاكى ، وقد صدر الأمر إليه بقبول سفينة روسية واحدة قصْدَ المفاوضة ، فإن أرسل الروس هذه السفينة فليعلموا أن العبادة النصرانية غير مأذون بها ، وإذاً وجب عليهم أن يكفّوا منها ما وطئت أقدامهم أرض هذه البلاد » .

وأكرم اليابانيون الرسول ، وأضافوه هو ورجاله ، وكان مع الضيافة رقابةٌ شديدة عليه وعلى رجاله . فلما اعتزم الرحيل أثقلوه بالمؤن والهدايا ، ورفضوا أن يأخذوا الشىء مما أعطوه ثمنا .

ومضى على هذا الحادث اثنتان وعشرون ســنة ، حتى إذا كان عام ١٨١١ ، أوفـدت الحكومة الروسية ربّاناً لها يدعى جولوفنين ، أوفدته لمسح جزائر الكوريل ، وهى جزائر تمتد فى البحر كالعقد ويتصل جنوبها بشمال اليــابان . فركب لهذا القصــد سفينة حربيــة تدعى ديانا . فلما مسح ما مسح ، أدّى به الطاف إلى قرية فى أقصى اليابان . وكان بهــا معسكر يابانى صغير . فنزل الربّان من سفينته إلى البر ، ونزل معه ضابطان وأربعة من رجاله . فاستدعاهم الجند ، ولم يكد أن يحتويهم معسكرهم حتى اعتقلوهم ، ثم أخذوهم مُسوقين إلى الجنوب ، إلى حيث الأرض أعمر باليابانيين ، وربطوا كلا منهم برباط أمسك بطرفه حارس . ودار الرباط على الأيدى ، وهى وراء الظهر ، ودار على الصدر والعنق ، بطريقة لا تأذن بالهرب أبداً ، فقد كان يكفى الحارس أن يشد على الطرف الذى بيده حتى يتقارب المرفقان وراء الظهر فى ألم شديد ، وحتى تضيق العقدة على الرقبة فيكاد الأسير أن يختنق . وأوثقوا الركبتين فلم تتحرّكا بعيداً ، ظنا منهم أن الروس قد ينتحرون على عادة اليابانيين إذا هم وقعوا فى الأسر . وكانت رحلة شاقة طويلة طالت أياماً . وكانت الأسرى تأكل مما يأكل الحراس ، وكانت تنام إذا جاء وقت النوم على وثير الفراش . وكان لكل أسير وهو يقطع الأرض فى هــذا السفر الطويل رجُلٌ يهش عن وجهه الذباب . وكانوا إذا اعترضهم غدير ، حمل الجند الأسرى خشية أن تبتلّ أرجلهم بالماء .

وكانوا يلقون الناس في طريقهم ، فيجتمعون أفرجة أفواجا على عادة الناس . قال الربان في ذلك : « وكان الزحام على رؤيتنا شديدا ، وامتلأ من الطرق جانباها ، ولكن لم تصدر من أحدهم شارة مخلة باللياقة أو فعل منافٍ بالآداب . وتأملت تمعنا في وجوههم ، فلم أر فيها نظرة حاقدة أو تعبيسة كارهة . ولم يبد فيهم أقل ميل للسخرية بنا أو الضحك الفاجر في وجوهنا . وفي القرى كان لنا من الناس بعض مؤاساة لنا ، وشيء من عطف للذي حل بنا » .

وأودعوا السجن حتى جاء يوم التحقيق .

وسيقوا في البلدة الصغيرة إلى حيث دار الحكم فيها . وأدخلوا بهوا كبيرا ، جلس حاكم البلدة في صدره ، وجلس من يساره ، وهو موضع الشرف عند اليابانيين ، من يلي هذا الحاكم قدرا . ومن يمينه جلس من له القدر الثالث . ثم جلس على أيمان هؤلاء وأيسارهم طائفة من الجند لهم صنائع أخرى . وجلسوا جميعا من أرض البهو على حُصُر ، وأرجلهم من تحتهم على نحو ما يفعل المسلم في الصلاة . وكانوا يلبسون السواد ، ويحملون سيفين ، طويلا على اليسار ، وقصيرا في المنطقة إلى اليمين ، وهما شارة الساموريين ومن علاهم من الأشراف .

ومن وراء كل هؤلاء جلس كاتبان ، ومن أمامهم وقف الأسرى ، ضباطهم في صف ، والبحارة في صف وراءه . وبين هؤلاء وهؤلاء جلس الترجمان .

وحوائط البهو زانتها الحبال والحدائد ، هذه لشد الأيدي ، وتلك للعقاب وشتى أنواع العذاب .

وبدأ الحاكم تحقيقه ، فألقى السؤال تلو السؤال . والسؤال يُكتَب ، والجواب يكتب في كتاب . وسألهم فيما سأل عن كل كبيرة وصغيرة : ما اسمهم ، وما بلدهم ، وما سنهم ، وما أسرهم ؟ ولما تبين له أنهم جاءوا من مدن وقرى مختلفة ، تعجب وسألهم : وإذاً فما الذي جمع الشتيت بالجانى ؟ وسألهم عن سفينتهم : ما هي ، وما حمولتها ، وما أغراضهم منها ؟ وسألهم عن خطة سيرهم منذ غادروا عاصمة الروس ، وطلب منهم رسمها على الورق . وذكر لهم الحاكم فيما ذكر أنه منذ اثنتين وعشرين سنة جاء اليابان رسول من الصين يحمل غريقا من اليابانيين ، وكان له من شعره الطويل ضفيرة تتدلى على قفاه . وكان يشد الدقيق (يقصد البودرة) على شعره . أما أنتم فشعركم قصير مقصوص ، ولا أرى عليه دقيقاً ، فهل تتغير دينكم بتغير شعوركم يا معشر الروس ؟ فلما أجاب الروس بأن دينهم لا يتدخل في شعر الرأس ، ولا في طوله أو قصره ، ضحك اليابانيون ملء أفواههم ، وعجبوا أن يُطلَق أمر الرأس هكذا للهوى ، فلا ينظمه دين أو يُهيمن عليه قانون .

ومضت أيام كان لهم بعدها مجلس جديد للتحقيق جديد .

وكان سائر الروس الذين لم ينزلوا إلى البر فلم يقعوا في الأسر لا يزالون عند سفينتهم ينتظرون . فلما عرفوا الذي كان ، أرسلوا إلى إخوانهم الأسرى كتابا . ففي هذه الجلسة الجديدة فُضّ الكتاب ، وطلب اليابانيون علم ما احتواه ، وكان في هذا الكتاب أن الروس اعتزموا الرحيل إلى سيبيرية ليأتوا بالنجدة ثم يعودوا ، وأنهم لن يتركوا عندئذ ساحل اليابان إلا والأسرى معهم . وتنصل الأسراء من تبعة هذا الكتاب ، وبرأوا حكومتهم منه . ولكن اليابانيين هزوا أكتافهم غير مصدقين .

ورحل الروس بسفينتهم ، ثم عادوا من جديد . فلما لم يجدوا على شاطئ اليابان من يصغى لما يقولون ، اختطفوا تاجراً يابانياً يعللون به أيديهم إذا هم رجعوا إلى بلادهم ، وقد رجعوا به فعلا . وعلمت زوجة التاجر بالذي وقع له ، فحزنت حزنا مراً ، ونذرت أن تطوف في الآفاق وتقطع أرض اليابان كلها حجا . وكان الرجل صديق حميم ، فلما علم بالذي جرى له حزن حزنا بالغا ،

وكان ثرياً ، فقام ففرّق نصف ماله على الفقراء ، ثم صعد الجبل يختلي فيه خلوة الترهّب ، واتخذ له عليه مسكناً .

وعاد الروس بمخطوفهم إلى اليابان . ونزل كاتي — فهذا اسمه — إلى الشاطئ ، فاستراب الناس فيه برغم مكانة له سابقة معروفة . ومنعوه أن يتصل بأهل أو أصدقاء ، إلا في حضرة رقيب . وأخيراً أصابه التوفيق فبرّأ نفسه ، وأعان الروس الأسرى على الخلاص . فخلصوا من الأسر ولكن بعد أن قضوا فيه عامين أو يزيد .

وتهيأت السفينة للإبحار فصعد إليها كاتي ، وكانت تجارته ازدهرت في غيبته ، ففرّق على رجالها أثواب القطن والحرير . وطباخ السفينة تعمّد أن لا ينساه ، فأعطاه في سخاء ما أرضاه .

وعبرت السفينة الماء إلى سيبيرية ، وفي يدى ربّانها كتاب . وكان الكتاب من الحاكم الياباني لتلك القاطعة يخاطب فيه الروس . قال فيما قال : —

« منذ اثنتي عشرة سنة أرسى الروس بشاطئ اليابان . ومنذ إحدى عشرة سنة عادوا ، فدخلت سفينة لهم ناجازاكي . وقد فُسّر قانون اليابان منذئذ لهؤلاء وهؤلاء تفسيراً لا يحتمل الإبهام . ولكن يظهر مع كل هذا أنكم لم تفقهوا ما قلنا لتباين ما بين لغتكم ولغتنا ، والفرق الشاسع بين كتابتكم وكتابتنا . أما الآن ، وقد احتبسنا كم طويلاً ، فستكونون أفقه لقولنا ، وأفهم لقوانيننا . فإذا عدتم إلى روسيا فأفهموا الحكام معنى هذه القوانين ، كيلا يتكرر ما كان . فإن هم عادوا القيام على الشاطئ بالقنابل . فليفهموا هذا ، وليفهموه جيداً ، حتى لا تكون مأساة »

ومضى الكتاب يقول :

« وفي قانوننا أن الأوربي الذى يحاول في اليابان تعليم الناس النصرانية يعاقب عقاباً قاسياً ، ثم هو لا يعود إلى بلاده أبداً . ولكنكم معشر الروس لم تحاولوا تعليم هذا الدين ، ومن أجل هذا فككنا أسركم لتعودوا من حيث أتيتم . فاذكروا هذا ذكراً طويلاً » .

ومضى بعد ذلك يقول :

« إنا معشرَ اليابانيين لا نطلب تجارة الأمم ، لأننا لا تُعوزنا ضروراتُ الحياة . وقد أذنّا للأجانب أن يتجروا في ميناء ناجازاكي ، ومع هذا لم نسمح بذلك إلا للأمم التي عاملتنا من قديم الزمان : الصينيين والهولنديين . ونحن لا نتجر معهم للكسب ولكن لمآرب أخرى . وقد يتراءى لنا من إلحاحكم في المتاجرة معنا أنكم تحسبون أن عاداتنا وعاداتكم سواء . ولكنكم في هذا غير مصيبين . فالخير إذاً أن تنسوا هذه التجارة ولا تذكروا لنا منها في المستقبل شيئاً أبداً » .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

في الأدب العربي :

١ - المتنبي وسيف الدولة

للأستاذ أحمد أمين بك

كان لسيف الدولة ناحية فنية قوية ، لا تقل شأناً عن ناحيته السياسية والحربية ، فهو يحب الفن ويولع به ، ويتذوقه ويساهم فيه .

وقد وردت في ذلك أخبار متفرقة تدل عليه .

فهو مولع بالتصوير ، رغم النزعة الشائعة إذ ذاك في كراهيته ، فيروي صاحب اليتيمة أن سيف الدولة أمر بضرب دنانير للصلات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، فأمر يوماً لأبي الفرج الببغاء بعشرة منها ، فقال :

نحن بجود الأمير في حَرَمٍ
نرتعُ بين السعود والنِّعَمِ
أبدعُ من هذه الدنانيرِ لم
يجرِ قديماً في خاطرِ الكرمِ
فقد غدتْ باسمه وصورته
في دهرنا عوذةً من العدمِ (١)

ولعله استوحى ذلك من صورة دنانير الروم .

وأدل على ذلك ما ذكره المتنبي في صفة خيمة لسيف الدولة ، تدلنا على ذوق سيف الدولة ، وحبه للفن حقاً ، فقد ذكر المتنبي أن هذه الخيمة أو القبة التي كانت تضرب على سيف الدولة ، كانت قطعة فنية رائعة .

ففيها صورة روضة بديعة لم يحكها السحاب ، وإنما حاكها النساج ، وأغصان الأشجار ترفرف عليها طيور لا تنقص من الطيور الطبيعية إلا بالغناء .

وفيها صور وحوش يحارب كل جنس عدوه ، ولكنها سلبت الروح فسالمت .

وإذا ضربتها الريحُ ماج بعضها في بعض فكأن صورَ الخيل تجول ، وكأن صورَ الأسود تختتلُ صورَ الظباء لتصيدها وتدركها .

وفي ناحية من الخيمة صورة ملك الروم ، وصورة سيف الدولة ، وملك الروم يسجد لسيف الدولة ، ويخضع له ويتذلل ، ويُقبّل بساطه ، إذ لا يقدر على تقبيل كمه ويده لارتفاع مكانه .

وبين يدي سيف الدولة الملوك متكئين على مقابض سيوفهم من هيبته .

وفي حواشي الخيمة لآلىء من النسيج تكاد لا تختلف عن اللآلىء الحقة إلا أنها لم تنظم ولم تثقب . وفي ذلك يقول المتنبي :

عليها رياضٌ لم تحُكْها سحابةٌ
وأغصانُ دوحٍ لم تغنِّ حمائمُهْ
وفوق حواشي كل ثوبٍ موجّهٍ
من الدُّرِّ سِمْطٌ لم يثقّبْهُ ناظمُهْ
ترى حيوان البرِّ مصطلحاً بها
يحارب ضدٌّ ضدَّهُ ويسالمُهْ
إذا ضربتْهُ الريحُ ماجَ كأنّهُ
تجولُ مذاكيه وتدأى ضراغمُهْ
وفي صورةِ الروميِّ ذي التاج ذِلّةٌ
لأبلجَ لا تيجانَ إلا عمائمُهْ

(١) اليتيمة ١٢/١ .

تُقبِّلُ أفواهُ الملوكِ بِساطَهُ
ويكبُرُ عنها كُمُّهُ وبَراجِمُه
قياماً لمن يشفي من الداء كَيُّه
ومن بين أذنَيْ كلِّ قَرمٍ مَواسِمُه
قبائعُها تحتَ المَرافِقِ هَيبةً
وأنفَذُ مِمّا في الجُفونِ عَزائمُه

وهي صورة بديعة ، تشهد بحب سيف الدولة للتصوير والفن .

ثم أولع بالموسيقى ، فكان في قصوره الجوارى المغنيات ، ويروون أن الفارابي لما زاره عرض عليه سيف الدولة قيانه فأسمعنه ، فأسمعه الفارابي من قانونه خيراً مما سمع .

وأهم من هذا وأظهر ناحية سيف الدولة الأدبية ، ولم يذكر المؤرخون لنا كيف ثقف وكيف تعلم ، إلا أنهم ذكروا أنه كان من شيوخه أبو ذر الشاعر وابن خالويه اللغوى النحوى ، وأنه درس دواوين الشعر القديم ، وكانت تغذى عواطفه العربية ، من تمدح بالشجاعة والكرم كما كان يعرف أيام قبيلته (تغلب) ومفاخرها .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبي وذوقه الفني . يقول فيه المتنبي :

عليمٌ بأسرار الديانات واللُّغَى
له خطراتٌ تفضح الناس والكُتُبا

فهل نستدل بهذا على أنه كان يعرف غير اللغة العربية أيضاً ؟ أظن ذلك ؛ فابن خلكان يروى في ترجمة الفارابي أنه كان لسيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يحدثهم به .

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كان كثيراً ما يتمثل بأبيات قديمة ، وتعجبه أبيات يرددها ، أو قافية يستملحها ، أو معنى يستجيده ؛ فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها . فمرة — مثلا — ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف :

أمَسِّي تخاف انتشار الحديث   وحظِّيَ في سَتْره أوفر
ولو لم أصُنه لبُقْيا عليـ   ـك نظرتُ لنفسي كما تنظر

واستحسن المعنى ، فأرسل رسولا مستعجلا لأبي الطيب ومعه رقعة فيها البيتان يسأله إجازتهما ، فقال المتنبي أبياته المشهورة :

رضاكَ رضاى الذى أُوثرُ   وسِرُّكَ سِرِّى فما أُظهِرُ الخ

وديوان المتنبي وغيره من الشعراء مملوء بهذه الأمثال .

ثم مجلسه الأدبي الحافل في حلب ، والذى قلّ أن يكون له نظير ؛ فالشعراء والأدباء في مجلسه يثيرون الموضوعات المتنوعة ، ويساهم فيها سيف الدولة ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، ويجزل العطاء لمن أجاد ؛ فأحياناً يستذكرون الشعر القديم ، وأحياناً يسألهم إجازة شعر ، وأحياناً مسألة نحوية ، وأخرى مسألة لغوية ، حسبما اتفق ؛ فمثلا مرة ينشىء سيف الدولة هذا البيت :

لكِ جِسمى تُعِلُّه   فدمى لِمْ تُحِلُّه

ويطلب من أبي فراس أن يجيزه ، فيقول :

أنا إن كنتُ مالكا   فَلِيَ الأمرُ كلُّه

ومرة يسأل المتنبي أن يعيد إنشاد قصيدته :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وكان سيف الدولة يحب هذه القصيدة ويستعيدها ، فلما وصل إلى قوله :

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً
ووجهُك وضّاحٌ وثغرك باسم

قال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، لأن الشطرين لا يلتئمان ، وكان خيراً أن تخالف بينهما فتقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف
ووجهك وضـاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

وهو نقد دقيق ، وإن كان المتنبي قد رد عليه فقال : « إن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك » .

وسأل سيف الدولة مرة فى مجلسه : هل يعرفون اسما ممدوداً ، وجمعه مقصور ؟ فلم يجيبوا جواباً إلا ابن خالويه فقال عذراء وعذارى ، وصحراء وصحارى . وهكذا كان مجلسه حافلا بالأدب والنقد .

وهو مع ذلك شاعر غير أنه مقل ، فقد رويت له فى كتب الأدب أشعار ، وإن كان كثير منها قد نسب لغيره فى بعض دواوين الشعراء . فلعله كان يتغنى بها فيظن بعض الناس أنها له ، ولكن بعضها يكاد يجمع الرواة على أنه لسيف الدولة ، كقوله فى جارية رومية له كان يهواها ويخشى عليها من حظاياه ، فأودعها قلعة وقال :

راقبتني العيونُ فيك فأشفقـ
ـتُ ولم أخلُ قط من إشفاق
ورأيت العذول يحسدنى فيـ
ـك مُجِداً يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكونى بعيداً
والذى بيننا من الود باق
رب هجرٍ يكونُ من خوف هجر
وفراقٍ يكون خوف فراق

وقال :

تجنى علىَّ الذنبَ والذنبُ ذنبُه
وعاتبنى ظلماً وفى شقه العتب
وأعرض لما صار قلبي بكفه
فهلا جفانى حين كان لىَ القلب

إذا برِمَ المولى بخدمة عبده
تجنّى له ذنباً وإن لم يكن ذنب

سيف الدولة هذا الفنان الناقد الشاعر الملك ، هو الذى اتصل به المتنبي .

كان المتنبي بعد خروجه من سجنه لدعواه النبوة ، أو لما قيل من دعواه النبوة ، بائساً فقيراً ناقماً على الزمان وأهله ، يشعر بعظمته وعلو نفسه ؛ ثم لا يجد لهذه العظمة متنفذاً ؛ فهو يتردد على من يسميهم الناس عظماء ، فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديراً لنفسه ولا لشاعريته ، حتى رووا أنه مدح على بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها :

بأبي الشُّموسُ الجانحاتُ غَوارِباً
اللابساتُ مِنَ الحريرِ جلابِبَا

فأعطاه عليها ديناراً واحداً فسميت القصيدة الدينارية .

وقالوا إن أكثر ما نال على شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار ، منحها له الأمير أبو محمد الحسن ابن عبيد الله بن طغج بالرملة .

فكان اتصاله بسيف الدولة صفحة جديدة فى أدبه ، وصفحة جديدة فى رخاء عيشه .

كان أبو الطيب يتنقل فى ربوع الشام مادحاً من يخاله كريماً محسناً ، حتى نزل على أبى العشائر ، عم سيف الدولة ، وعامل أنطاكية ، ومدحه بقصائد كثيرة ، يقول فيها :

شاعرُ المجدِ خِدنُهُ شاعرُ اللفـ
ـظِ كلانا رَبُّ المَعانى الدِّقاق
لم تزلْ تسمعُ المديحَ ولكنْ
نَ صهيلَ الجيادِ غيرُ النُّهاق

وسار مع أبى العشائر سيرة مصغرة لسيرة التى سارها بعد مع سيف الدولة .

ففى شهر جمادى الآخرة من سنة ٣٣٧ هـ زار سيف

الدولة أنطاكية ، وكان بها أبو الطيب . وكان قد سمع سيف الدولة به وبشعره ، ورأى أن يزين به بلاطه ، فقدمه إليه أبو العشائر ، وعرض عليه أن يكون شاعره .

كان غير أبي الطيب من الشعراء لو عرض عليه مثل هذا العرض يطير فرحاً ، ويرى أن ذلك أمنية الأماني وسعادة الدهر . ولكن أبا الطيب تردد طويلا ، وأداه تردده أن يشترط ، لم يشترط مالاً يعطاه ، ولا جائزة ينالها ، وهو لهذا ضامن . ولكنه اشترط ألا يعامل معاملة سائر الشعراء ، لأنه ليس شاعراً فحسب ، بل شاعراً وعظيما . وقد سمع أن الشعراء يدلون لسيف الدولة ذلة لا يرضاها لنفسه ؛ سمع أنهم يقبلون الأرض بين يديه ، وأنهم ينشدون شعرهم وهم وقوف أمامه ؛ فاشترط ألا يكون شيء من ذلك ، إنما يكون « ملك الشعراء يمدح ملك الناس » ؛ فإذا كان سيف الدولة راكباً مدحه المتنبي وهو راكب ، وإذا كان جالساً مدحه وهو جالس ، ثم لا يظهر مظهر الخضوع من تقبيل الأرض ونحوه .

وعرف سيف الدولة منزلته وشهرته ، وأنه سيكون صوتاً مدوياً في العالم العربي يشيد بذكره ، فقبل شروطه .

لبث المتنبي مع سيف الدولة نحو عشر سنين من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ أغلبها في حلب ، وقال فيها نحو ثلث شعره كماً ، وأجود شعره كيفاً .

لم يجُدْ شعر المتنبي في زمن جودته أيام سيف الدولة لأسباب : أهمها أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة ، كما وجدها في هذه الأيام ، فالمتنبي عربي يعتز كل الاعتزاز بعربيته ؛ فكان يحتقر كافوراً لأعجميته ، ويحسب ابن خالويه لأعجميته ، ويقول في أبياته :

تهابُ سُيوفُ الهندِ وهي حدائدٌ
فكيف إذا كانت نِزاريةً عُرْبا

وجرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل ، فسأل سيف الدولة المتنبي ما تقول ؟ فقال :

إن كنت عن خير الأنام سائلا
فخيرُهُمْ أكثرُهُمْ فضائلا
مَنْ أنتَ منهم يا هُمامُ وائلا
الطاعنين في الوغى أوائلا
والعاذلين في الندى العواذلا
قد فضلوا بفضلك القبائلا

فكان — لهذا — إذا مدح كافوراً وغيره لم يُخلِص ولم يواته طبعه ، وإذا مدح سيف الدولة مدح عربياً لا يرى غضاضة في مدحه ، وانثالت عليه المعاني العربية انثيالا .

وكان المتنبي وسيف الدولة قد شاء الله أن يولدا في سنة واحدة سنة ٣٠٣ ، واصطحبا وسنهما أعز أيام الشباب ، فقضيا معا من سن ٣٤ إلى ٤٤ ، والعواطف تمازج وتتجاذب إذا تقاربت في السن واتفقت في الشباب .

وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس كلاهما يعشق الخيل والضرب والطعان ، فإن خرج سيف الدولة فارساً خرج المتنبي فارساً ، وقد صحبه في عدة غزوات إلى بلاد الروم ، ومنها غزوة قالوا إنه لم ينج منها إلا سيف الدولة وستة نفر من صحبه أحدهم المتنبي — فإذا شعر المتنبي في الغزوات والقتال والشجاعة والحرب فإنما يستمد ذلك من نفسه ومن شعوره ، لا من ألفاظ حشاها في رأسه ينظمها ولا تتصل بقلبه .

ثم ما أغدق عليه سيف الدولة من مال لم يحلم به ولم تره عينه من قبل ؛ وكان المتنبي محبا للمال حبا لا يتناسب وطلبه المجد وعلو همته ، وقد علله هو بأن ذلك يرجع إلى أيام صباه يوم كان لا يجد قوت يومه ، فعلمه ذلك قيمة المال والشهوة إليه والحرص عليه ، ويعبر عما في نفسه من ذلك فيقول :

فلا يَنْحَلْ في المجدِ مالُكَ كلُّهُ
فيَنْحَلَّ مجدٌ كانَ بالمالِ عَقْدُهُ

وَوِزْرُهُ تدبير الذى المجدُ كفُّهُ
إذا حاربَ الأعداءَ والمالُ زَنْدُهُ
فلا مجدَ فى الدُّنيا لمن قلَّ مالُهُ
ولا مالَ فى الدُّنيا لمن قلَّ مجدُهُ

فغذاه سيف الدولة من هذه الناحية حتى أتخمه ، وكان فى سيف الدولة الأريحية العربية والكرم العربى فتقابلت هذه الصفة مع شره المتنبى وطمعه ، فكان يعطيه فى كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ، غير الهدايا من أفراس وجوار وسيوف ، وأقطعه مرة إقطاعا بناحية معرة النعمان كان يخرج إليها المتنبى أحيانا ، فزاد العطاء فى فصاحة المتنبى وحمله على العمق فى استخراج المعانى ، واللهى تفتح اللها .

وفوق هذا وذاك فقد كان كل الوسط الذى حول المتنبى أيام سيف الدولة يتطلب منه الاجادة . فلقد كان حوله شعراء مجيدون نابهون كأبى فراس والنامى والببغاء وابن نباتة وغيرهم ، ونقاد ونحاة ولغويون ، والملك على رأسهم يشعر وينقد ويقدر ، ويأتى من أعمال الفروسية والبطولة ما ينطق العيى .

فكيف بعد ذلك كله لا يكون عصر المتنبى مع سيف الدولة خير عصوره وأحسنها إنتاجا . وقد سئل هو نفسه فى ذلك : لم تراجع شعره بعد مفارقة آل حمدان فقال : قد تجوزت فى قولى وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة ، منذ فارقت آل حمدان ، وفيهم من يقول : (تسائلنى من أنت وهى عليمة) يعنى أبا فراس ، وفيهم من يقول :

وقدْ علمتْ بما لاقتْهُ منّا
قبائلُ يعربٍ وبنى نزارِ
لقيناهمْ بأرماحٍ طوالٍ
تُبشّرُهُمْ بأعمارٍ قصارِ

يعنى أبا زهير بن مهلهل الحمدانى .

وفيهم من يقول :

أأخا الفوارس لو رأيت مواقفى
والخيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تخط يدُ الوغى
والبيضُ تشكلُ والأسنةُ تنقط

يعنى أبا العشائر . اهـ .

وهكذا اجتمعت كل هذه الأسباب على أن يحسن المتنبى فى هذه الفترة كل الاحسان . وإن كان ذلك الخوف من الناقدين ، والعمق فى إعمال الفكر ، أخرجه أحيانا إلى ما يسميه النقاد بالخيال الواهم ، ويعنون به الابعاد فى الخيال إلى حد الوهم .

(يتبع) أحمد أمين

تحليلات نفسية :

شخصية الحجاج

من الطبيعي أن يتأثر النقاد المعاصرون بظروف الحرب الحاضرة ، وأن يتجه الكثيرون منهم – حين ينقدون بعض جبابرة التاريخ في الحرب والسياسة – إلى العناية بنواحي عظمة أولئك الجبابرة من جهة ، وإلى التخفيف من حدة الأحكام الأخلاقية على أعمالهم من جهة أخرى .

ولعل من أبرز هذه الشخصيات في تاريخ الاسلام وأحزابه ، وطرائق الحكم فيه ، شخصية « الحجاج » ، التي عرض لها الأستاذ شفيق جبري (في العدد ١٦٥ من الثقافة) عرضاً طريفاً ، وبيّن أهم النواحي التي يرجع إليها – في نظره – نجاح الحجاج وتوفيقه ، من أول خطبة خطبها في الكوفة .

ويبدو لي أن هناك عناصر رئيسية أخرى في شخصية هذا الحاكم الجرئ ، هيأته للدور الذي لعبه في سياسة عصره ، وأتاحت له النجاح في خطته والياً وقائداً وزعيما ؛ ولقد كشفت خطبة الكوفة عن بعض هذه العناصر ، وجلت الخطب الأخرى بعضها الآخر .

ليس هناك من شك في أن الحجاج كان ممثلاً بارعاً في أول موقف له بالعراق ؛ فقد عمد إلى نوع من التأثير النفساني جذب به انتباه القوم ، وحرك فيهم الاحساس بالغامض والمجهول ، وأرهف أذهانهم لسماع النغمة القوية التي أعدها لهذا الموقف ؛ بل نجح في أن أثار عند بعضهم نوعاً حاداً من الاستخفاف به والزراية على بني أمية لاختيار مثله والياً على العراق ، حتى إذا بلغ الاستغراب والتهيؤ من الناس مبلغه ، رفع اللثام ، وحسر الحجاج اللثام عن فيه ، وملأ القلوب والأسماع دوياً ورنيناً . هذه حيلة بارعة في الخطابة ، لعل الحجاج هو أبو عذرتها .

أما الرواية التي مثلها في هذا الموقف فتدور كلها حول بطل واحد هو شخصه : فهو يعرض ذلك البطل في مقدمة الرواية لغزاً مقفلاً ، قد غطى أكثر وجهه ، وتقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، ومكث ساعة لا يتكلم ؛ ثم يختار لحن الافتتاح في الفصل الأول « أنا ابن جلا وطلاع الثنايا » . وتتعاقب المناظر بعد ذلك مركزة كلها حول ذلك « الأنا » : « إني لأحمل الشر بحمله » – « إني لأرى أبصاراً طامحة وإني لصاحبها » – « وكأني أنظر إلى الدماء » – « إني ما يقعقع لي بالشنان » – « لألحونكم لحو العصا ...... »

ويقدم الحجاج البصرة فيخطب أهلها قائلاً : « من أعياه داؤه فعندي دواؤه ، ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ...... » . ويقول من خطبة له بعد وقعة دير الجماجم : « يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ، ينفي عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر .... »

هذا نوع من التفكير مركز الذات كما ترى ، وأنت إذا استعرضت بقية خطبه ، رأيت عنصر الذات يحتل المكان الأول فيها ، ويظهر أن عصامية الحجاج وكونه قد بني صرح شهرته بيمينه ، كان لهما أثر كبير في تنمية إحساسه بنفسه ، واعتزازه بها ، واشتغاله بالحديث عنها ، فالمؤرخون يذكرون أنه بعد أن اشتغل بالتعليم حيناً لحق بروح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان ، فكان في عديد شرطته ، وأنه أظهر في أثناء ذلك قوة شكيمة ومضاء عزم جعلا الوزير يقترح على الخليفة تقليده أمر العسكر ؛ فتاول الحجاج هذا الأمر حتى ضبطه ، وحتى أصبح العسكر يرحلون برحيل الخليفة ، وينزلون بنزوله ..

* * *

أما العنصر الثانى فى شخصية الحجاج فهو فنه البيانى الذى يجمع بين التأثير الخطابى والصور الشعرية ؟ فلقد كان صاحبنا ظاهر الاحتفاء باللغــة ومأثور أساليبها ، كثير الاستعمال للكنايات والتشبيهات التمثيلية ، واسع الخيال دقيق التصوير . أرأيت لو أن شاعراً أراد أن يتدفق من أمامه ، ويدخل الرعب على قلوبهم ، ويشعرهم سطوته وسلطانه ، أكان يجىء فى هــذا التصوير بأروع من قول الحجاج : « إنى لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق » !

يقول الحجاج فى خطبة دير الجماجم : « ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية !؟ بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم ، وبراءة الله منكم ، ونكوص وليكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانهـا ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ عن بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتكم الرماح . ثم يوم دير الجماجم ، وما يوم دير الجماجم ؟ به كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله » .

هذا المستوى البلاغى العالى الذى وصلت إليه خطابة الحجاج يقوى عندنا الظن أن الرجل كان واسع الثقافة اللغوية ، مزوداً بمجموعة كبيرة من مأثور الأدب الرصين . ولقد كان بيانه فى نوعه قريباً من بيـان الإمام على فى خطبـه التى كانت تفيض حرارة وغيظاً ، وتقريعاً وإيجاعاً . وهو نوع لا يجىء فى العادة وليد تكلف أو تصنع ؟ وإنما هو الوجدان المتقد ينساب على اللسان فيضاً خطابياً عندما يضطرب كيان النفس فتنسى نفسها الظاهرة ، وتتفتح عليها أبواب المخزون من معانيها وأساليبها الباطنة . والذين يمارسون خطابة الجماهير يدركون الفرق بين الخطيب وهو هادىء ، أو لابس مسوح الانفعال تصنعاً ، وبينه وهو مضطرب الجوانب فى حالة من التأثر غير عادية ، وكثير من الخطباء لا يستطيعون الإجادة إلا إذا عرتهم هزة الوجدان وملكتهم سورته .

ومما يلفت النظر فى بيان الحجاج — بجانب ما بينا من تلاحقه وتدفقه وتتابع صوره — كثرة استشهاده بالشعر ؟ فهو فى خطبته الأولى بالكوفة يستشهد بشعر سحيم الرياحى « أنا ابن جلا وطلاع الثنايا » ، ويقول رويشد العنبرى : « هذا أوان الشد فاشتدى زيم . . . » وفى خطبـة أخرى بالكوفة يتمثل بقول عمرو بن براق الهمدانى :

وكنت إذا قوم غزونى غزوتهم
فهل أنا فى ذا يا لهمدان ظالم
متى تجمع القلب الذكى وصارماً
وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

وفى خطبة غيرها يتمثل ببيتين لأحد بنى ذبيان :

إذا حاولت فى أسـد فجوراً
فإنى لستُ منك ولست منى
هم درعى التى استلأمت فيها
إلى يوم النســار وهم مجنى

وعوت ابنـه « أبان » فيقوم على قبره متمثلا بقول زياد الأعجم :

الآن لمـا كنت أكمل من مشى
وافترّ نابك عن شباة القارح
وتكاملت فيك المروءة كلها
وأعنت ذلك بالفعال الصالح

ولقد تقع له أحياناً صور ومعان هى بالشعر أشبه ، حتى ليتناولها الشعراء فيصفونها كما هى شعراً رصيناً . كتب مرة إلى قتيبة بن مسلم :

« إنى نظرت فى عمرى فإذا أنا قد بلغت خمسين سنة ،

وأنت تحوى فى السن ، وإن امرأ قد سار إلى منهل خمسين عاما لقمين أن يكون دنا منه » . فسمع التيمى منه هذا فقال :

وإن امرأ قد سار خمسين حجة ... إلى منهل من ورده لقريب

والظاهر أن طبيعة الحجاج كانت شاعرة ، وأنه لولا أبهة الولاية ومشاغل الحكم لكان شاعراً ، وقد كان ينمى هذه الشاعرية فيه بحفظه بالشعر وتمثله به ، وتخيره الجيد منه فى مناسباته ، وإرساله فى طلب أهله . وكان يهش لرواية الشعر الجيد ويطرب له ويستزيده .

وكان يقرب الشعراء إليه ويشجعهم على الانقطاع إلى مدحه ، وينقد شعرهم فيه ، ويتبسط معهم فى الحديث ، ويلهو وإياهم بالمنادمة والسمر . وكتب الأدب حافلة بالروايات التى تشير إلى هذه النواحى . ولعل أظهر مثال على عناية الحجاج بالشعر أنه لم يكد يقدم البصرة حتى وصل ما بينه وبين جرير ، وأعانه فى مناقضاته مع الفرزدق ، فأنشد جرير فى مدائحه غر قصائده ، وسار شعره فيه حتى بلغ الشام وعبد الملك بن مروان .

هذا العنصر البيانى — إذاً — لا يقل وضوحاً وأهمية عن عنصر الذاتية فى شخصية الحجاج ، وقد كان لكل منهما دوره من غير شك فى تلك البيئة العربية الجامحة ، التى قامت فيها الثورات على قدم وساق ، والتى كان البيان فيها من أقوى أسلحة النزال والطعان .

* * *

وهناك ناحية ثالثة متناقضة فى ظاهرها ، هى جمع الحجاج فى شخصيته بين القسوة والفتك وإراقة الدماء من جهة ، وبين التدين والوعظ وقراءة القرآن والاقتباس منه من جهة أخرى . فأما قسوته وتجبره فقد حفلت بأخبارها كتب التاريخ ، وقد جلبا عليه كثيراً من الذم وسوء الأحدوثة ، ولعلهما أشهر ما تذكره به الأجيال اللاحقة . وأما الجهة الأخرى المعارضة فإنها طريفة كل الطرافة ، فهو يستشهد بالقرآن ويقتبس منه ، ويصوغ منه أقيسة طلية حقا . يقول فى خطبة خطبها بمكة بعد مقتل ابن الزبير : « ولو كان شىء مانعا للعصاة لمنع آدمَ حرمةُ الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة » . ولعل المتنبى يشير إلى ما يشبه هذا المعنى إذ يقول :

أبوكم آدم سنّ المعاصى ... وعلمكم مفارقة الجنان

ويقول الحجاج فى خطبة له فى أهل الكوفة : « زعمتم أنى ساحر ، وقد قال الله تعالى (ولا يفلح الساحر) وقد أفلحت ، وزعمتم أنى أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ! » .

وأرجف أهل العراق مرة بموته فقال من خطبة له : « وما رأيت الله رضى بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : إنك من المنظرين . ولقد دعا الله العبد الصالح فقال : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) فأعطاه ذلك إلا البقاء » .

هذه الظاهرة جزء من ظاهرة أوسع يتمثل لك فيها الحجاج الجبّار زاهداً ورعا تقيا ، يخاف الآخرة ويخوّف منها ، ويرجو رحمة ربه ، كأنما استحالت نفس « الدكتاتور » بين جنبيه إلى نفس أبى بكر أو ابن أبى طالب أو الحسن البصرى . يقول فى إحدى خطبه الوعظية : « ... الحاسب الله ، والصراط منصوب ، وجهنم تزفر وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون فى روضة يحبرون ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » .

ويقول : « أيها الناس اقدعوا هذه الأنفس فإنها أسأل شيء إذا أعطيت ، وأعصى شيء إذا سئلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاماً وزماماً ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله » .

ويقول الشعبي : « سمعت الحجاج يقول بكلام ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول : إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . . . » . ويروى الجاحظ من أبي عبد الله الثقفي من عمه قال : « سمعت الحسن البصري يقول : لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج . قلت : وإن كلام الحجاج ليقذك ؟ ! قال : نعم ، سمعته على هذه الأعواد يقول : إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحرى أن تطول عليها حسرته . »

ولقد تنبه معاصرو الحجاج لما في شخصيته هذه من تناقض ، فقد سمع الحسن البصري يقول في إحدى خطبه : « أيها الناس ، قد أصبحتم في أجل منقوص ، وعمل محفوظ ، رب دائب مضيع ، وساع لغيره ، والموت في أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم . خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم . فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترونه فإنه ذاهب . . . . » . فقال الحسن البصري : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ، يرقى عتبات المنبر فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ، ويخالفه في فعله ! ! »

هذا — إذاً — فرض من رجل مثقف معاصر للحجاج ، يحاول به أن يفسر هذا التعارض الظاهر بين جانبي شخصيته .

وهناك على الأقل فرضان آخران ، يصح أن يطرقهما الباحث الحديث : أحدهما أن الرجل كان ذا شخصيتين مستقلتين ، تحيا كل منهما حياتها الخاصة ، فهو — إذاً — مثل قديم لشخصية (دكتور جيكل آند مستر هايد) ، التي صورها الكاتب الانجليزي (ستيفنسون) في روايته التي سماها بهذا الاسم ؛ فقد جعل بطل هذه الرواية يظهر في مظهرين مختلفين متناقضين ، كأنما هما شخصيتا فردين مختلفين تماماً .

والفرض الآخر أن القسوة والصلاح جدولان يمتزجان معاً ، فيكونان هذه الشخصية الصاخبة . وعلى قدر إسراف الرجل في قسوته ، يكون شعوره بخطيئته ، وزهده في دنياه ، وتحذيره الآخرين عواقب عصيانهم ، وهو إنما يحذر في الحقيقة نفسه . والبحوث النفسانية الحديثة فياضة بأمثال هذه الشخصيات ، والحياة من حوالينا تزخر بضروب الناس الذين يمثلون — إن قليلا وإن كثيراً — أحد الفرضين أو الفرض الآخر .

وكاتب هذا المقال يميل إلى ترجيح أن ناحية الصلاح كانت ناحية حقيقية عند الحجاج ؛ فكل خطابه الوعظية يغلب عليها روح الصدق ، وهي كثيرة كثرة ظاهرة . وقد أثارت العبرة في نفوس سامعيها ، وما يخرج من القلب يغلب أن يصل إلى القلب . أضف إلى هذا ما لمسناه من غلبة روح القرآن وأساليبه على معظم هذه الخطب ، مما رجح أن صاحبنا كان كثير القراءة للقرآن .

وليس هناك من شك في أن هذا العنصر الثالث ، الجامع بين القسوة والصلاح في شخصية الحجاج ، كان سلاحاً من أسلحة هذا الحاكم الجرئ ، في عصر جمع بين الثورة والجموح ، وبين احتقار الدنيا وبذل الأرواح سماحاً في سبيل الله . .

محمد خلف الله

عذاب الكاتب

. . . . . . وقضى زهرة شبابه بين الكتاب والقرطاس ، يقرأ ويكتب وينشر روائع الفكر بين الناس . لا يكاد يعلم من حياة المجتمعات والحفلات شيئاً ؛ حتى جاءه ذات يوم كتاب من صديق ، يدعوه فيه لتناول العشاء في داره . فخرج من صومعته وتوجه إلى دار الصديق . وما إن ولج الدار حتى قدمه صاحبها إلى الجماعة المدعوة . وكان من بينها فتاة رائعة الحسن والجمال . وكان مقعد صاحبنا الكاتب إلى جوار مقعدها . ولم تكن تجهله ، فقد سمعت باسمه وقرأت له كثيراً . ودار بينهما حديث طويل ، نقتطف منه ما يلي :

الفتـاة : كم وددت لو كانت لي مكانتك .

الكاتب : مكانتي ؟! لماذا ؟ إنك في جمالك هذا الفاتن سلطانة تتأمرين على قلوب الرجال . كيف ترضين لنفسك أن تكون لك مكانتي ، وأنا لا أكاد أرضى من نفسي ؟

الفتـاة : إنما أحب أن أشعر بما يشعر به كاتب موهوب ذائع الصيت ، أحب أن أحس بالشهرة ، وأن أعلم مدى تأثيرها في حياة صاحبها .

الكاتب : مدى تأثيرها ؟ ما أظن أن لها أثراً ما . بل وما فكرت في هذا الأمر من قبل ، وما أحسب إلا أنك تبالغين في شهرتي ، أو أن حياتي لم تتأثر بالشهرة بتاتاً .

الفتاة : أفما تقرأ ما يقال عنك في الصحف ؟

الكاتب : إن كان ثناءٌ سررت به قليلا ، وإن كان هجاءٌ أرقت نومي وأقضَّ مضجعي .

الفتاة : إنها حياة عجيبة هذه التي تحيا ، وآه لو عرفت كيف أغبطك ! ما أبعد شقة الخلاف بين حياة وحياة ! من الناس من يعيش أيامه لا يعرفه أحد ، أمسه كيومه ، ويومه كغده ، لا يشعر بالسعادة ، ولا يكاد يدرك وجوده إنسان . ومن الناس من يحيا حياة ممتعة مجيدة ، حياة معروفة مشهورة ، وهو بها جد سعيد .

الكاتب : لعلك بهذا تعنينني ! إن ما تسمينه سعادة ومجداً ومتعة ضروب من الحس أنا أبعد ما أكون عنها . هي ثمار حرام عليَّ جنيها . ولكنك ما زلت حديثة السن لا تعلمين .

الفتاة : لا يمكن إلا أن تكون حياة الكاتب المعروف جليلة حقاً .

الكاتب : وما جلالها ؟ . . . ولكن ليس لديَّ الآن متسع من الوقت أبادلك فيه الحديث عن هذا الموضوع . فإني جد مشغول ، وعليَّ أن أكتب بضع صفحات هذا المساء قبل أن آوي إلى فراشي . فاسمحي لي أن أسكت عند هذا ، ولعلي أستطيع أن أبسط لك رأيي في فرصة أخرى ، فإني مغادر هذا الحفل بعد لحظة .

الفتاة : أرجو أن تبقى قليلا ، وتحدثني برهة عن حياتك المجيدة الجليلة ، فكم تقت إلى أن أسمع شيئاً منها .

الكاتب : ماذا عساي قائل في لحظة يسيرة ! . . . هناك من الأفكار ما يلح على المرء إلحاحاً يدفعه إلى التفكير فيها صباح مساء ، فهي كشبح الجريمة يلاحق الجاني أنى سار . وعندي من هذا الضرب فكرة احتلت من ذهني ركناً ركيناً لا تبرحه ، وتلك هي ضرورة « الكتابة » . وكأن منادياً يسير خلفي ولا يفتأ يصيح بي : « لا بد أن تكتب ، ولا بد أن تكتب ، هيا انهض وسجل على القرطاس خواطرك » . فما أكاد أفرغ من كتابة قصة حتى يدفعني الهاتف إلى البدء في الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، وهكذا . . . . فإني أكتب بغير انقطاع ، وما أشبهني في هذا بالمسافر في القطار ، يتحرك أبداً إلى الأمام راضياً أو راغماً . وإني لأسألك : أين جلال هذه الحياة وأين جمالها ؟ إنها أشبه ما تكون بحياة المجنون .

الآن أراني معك مضطرباً لأني أذكر في كل لحظة أن القصة التي بدأتها أخيراً تنتظر مني أن أتمها . وبالأمس تطلعت إلى السماء فشهدت سحابة تشبه الزورق . فقلت لنفسي : « آه . لا بد لي أن أذكر في القصة أن سحابة كانت تسبح يوماً في السماء وكأنها مرج يتحرك . » وقد أرى زهراً جميلاً ، فيعز على أن لا أقحم الربيع في قصتي إقحاماً كي أصف هذا الزهر . . . . وهذا الحديث الذي يجرى بيني وبينك الآن ، أنا أشد ما أكون حرصاً على ضمه إلى رصيدي الأدبي ، وقد أفيد منه يوماً في كتاب من الكتب .

إذا فرغت من عملي هرولت إلى المسرح أو إلى شاطئ البحر أصيد السمك بغية الترفية والترويح . فهل تظنين إني أحقق بغيتي . كلا ! إن الأفكار تطاردني حيثما ذهبت ، وتتزاحم في رأسي حتى يثقل على حملها ، فأجدني مضطراً إلى العود إلى مكتبي كي أفرغ حشوه على القرطاس ، لكي أكتب ثم أكتب ، وهكذا . . . . إنها حلقة مفرغة ليس لها بداية ولا نهاية . إني لا أجد من نفسي راحة ، وإني لأشعر أني على نفسي أجني . إني أعتصر زهرة حياتي كي يرشف غيري رحيقها . أنا أحترق كي أضيء لغيري الطريق . ألست مجنوناً مخبولاً ؟ وهل يعاملني أصدقائي ورفاقي كما يعاملون عاقلاً متزناً ؟

« ما أجمل ما كتبت لنا بالأمس ! وما في جعبتك لنا للغد ؟ » بهذا السؤال وبغيره من عبارات الإعجاب والثناء يخدعني أصدقائي . وإني لأثوب إلى نفسي أحياناً ويخيل لي أنهم مني يسخرون ، وأنهم بالجنون وخبل العقل يصمونني .

ولا أذكر لك تلك الأيام البعيدة ، أيام الشباب ، وخير سني حياتي ، حينما كنت أمارس الكتابة لأول عهدي بها . لقد قضيتها في عذاب متصل وهم ناصب لا ينقطع ، إن المبتدئ في حرفة الأدب ، حين لا يصادفه حسن الحظ ، يرى نفسه شخصاً غريباً شاذاً متطفلاً على الفن . أعصابه دائمة التوتر ، تكاد تنقطع نياط قلبه أسى وكرباً . إنه إلى رجال الأدب والفن منجذب طوعاً أو كرهاً ، ولكنه بينهم مجهول غير ملحوظ . يخشى أن يشخص ببصره إلى الأمام ، وأن تلتقي عيناه بعيون الناس . إنه كالقاص المدمن بعد إفلاسه .

في تلك الأيام لم ألتق بأحد من قرائي ، ولكني لم أتصور واحداً منهم إلا ساخطاً علي ناقماً . كنت أخشى الجمهور . كنت إذا أخرجت كتاباً جديداً ما تخيلت إلا أن أحداً من الناس لن يحتفل به ويكترث . آه ! ما أتعس تلك الأيام وما أشقاها !

الفتاة : ولكن لا شك أنك ساعة الوحي والخلق والانشاء تشعر بسمو الروح وعلو النفس .

الكاتب : أجل . إني حين أكتب جد مسرور ، وحين أقرأ « تجارب » الكتب جد مسرور .

ولكن ما يكاد الكتاب يتم وينشر بين الناس حتى أضيق به ولا أحتمله . بل إني لأنكره لكثرة ما يتجسم لي فيه من أخطاء . وإني لأسخط ، وإني لأغضب ، وما كان أغناني عن السخط ومن الغضب ، بل وما كان أغناني عن إخراج الكتاب .

وقد يقرأ كتابي قارئ ، ولا أظفر منه بعد قراءته إلا بمثل هذا التعليق : « حقاً أنه لساحر وجميل ، ولكن أين هو من كتابات فلان أو فلان » . وسأبقى هكذا حتى أموت ، لا يني قرائي عن إذلالي بغيري من الكتاب ممن هم خير مني خيالاً وأجمل أسلوباً . .

الفتاة : اسمح لي أن أقول إني لا أفهمك . إنك لا شك قد نجحت في بعض ما كتبت ولو بعض النجاح .

الكاتب : النجاح ! يا لها كلمة تخرج من فيك ! إني ما رضيت عن نفسي يوماً ككاتب . لا بد لكي ينجح الكاتب أن يكون عبقرياً نابغاً ، وأين أنا من العبقرية والنبوغ ؟ الطبيعة تسحرني فأصف جمالها ، وآلام الناس

عبقـــرى ينتحر

لم تكن الأمواج الخفاقة على ضفاف الدانوب غير صدى لنبرات تلك المدينة العتيقة ، مدينة فينا . فقد كانت تحاكى فى لونها الأزرق القاتم ، الذى أضفته عليها الغابة السوداء حيث ينبع النهر ، هذه الروح الصوفية العميقة التى شاعت فى أرجائها ثم فاضت بها من بعدُ على أنحاء الاقليم الشاسع المتعدد الألوان الذى كانت المدينة عاصمته الدنيوية ومركز إشعاعه الروحى ، وإن كانت شمس الجنوب قد جعلت لونها أكثر صفاءً ، وأشد حرارة ، فأكسبت النزعة الصوفية نصاعةً جعلتها أعظم رقة ولطفاً ، وحرارة سرت فيها فأحالتها إلى لهيب يشتعل بنار المعذوبة . وكانت فى تعدد ألوانها وتدرج أضوائها تمثل الروح العالمية والنزعة الانسانية العامة اللتين تشبع بهما أبناؤها المتفرقو الأجناس المختلفو الشعوب ، فان المدينة كانت خليطاً من الألمان والتشك والمجريين والرومانيين والسلوفنيين والكرواتيين والصربيين ، فضلاً عن الأجانب ، وما أكثر عددهم ، من كل البقاع ؛ وكانت مفتوحة لتيارات روحية عنصرية ثلاثة رئيسية : فمن الجنوب والغرب كان التيار اللاتينى يغزوها بقوة وبجاذبية خاصة ؛ ومن الشرق كان العنصر السلافى يسرى فى أنحائها متدفقاً حاراً يكاد أن يقضى على طابعها الأصيل ؛ ومن الشمال كانت تستمد أصولها الحقيقية وتستلهم طبيعتها الخاصة ، تلك الطبيعة الألمانية التى ارتبطت بها لغة وجنساً وتقاليد وثقافة . وكان النهر فى تثنيه يصور فتيات فينا الجميلات القدود ، الأسيلات الخدود ، الباسمات العيون النجل السود ، وهن يرفلن متدللات فى ثيابهن البيض ذات المناطق المصنوعة من الحرير القاتم الرقاق . وكانت القاعات الساحرة تردد فى صمتها الناطق ورنينها الفاتن والتفافاتها اللانهائية تلك الموسيقى المستمرة العذبة الرقيقة التى كانت تتجاوب بها

تؤذينى فأصورها قصصاً ومسرحيات ، والحرية تختنق ولا بد لى أن أحررها ، ومستقبل العلم : لابد لى أن أقول فيه كلمة . ما أكثر الموضوعات وما أضيق الذهن والوقت . الحياة والعلم يسيران بخطى أوسع من خطاى ، مهما سارعت فى العمل فأنا لابد متخلف مسبوق . ومن ثم كان خطئى ، ومن ثم كانت هفواتى وزلاتى .

الفتاة : إنك قد أرهقت نفسك بالعمل ، وشغلت كل لحظة من حياتك حتى لم يبق لك من الوقت فسحة تدرك فيها قدرك بين الناس . قد تكون عن نفسك غير راض ، ولكنك فى أعين الآخرين عظيم جليل ! لو كنت كاتبة مثلك لوجدت سعادتى فى أن ينهض الناس إلى المستوى العالى الذى إليه أدعو ، ولكانت لى متعة فى قيادة الجمهور والسير به إلى أمام .

من لى بسعادة الكاتب ! وإنى فى سبيلها لأحتمل إهمال المهملين ، وإنكار المنكرين ، وألاقى الفقر وخيبة الأمل ، وأسكن فى كوخ حقير ، وأرضى بالخبز اليسير ، وأكابد سخط النفس ، والشعور بالنقص . . . ولكنى لقاء ذلك سوف أظفر بالشهرة وبعد الصيت . . .

مالى أراك منشاغلا عنى ، ولا تصغى إلى ما أقول ؟ ماذا عساك تفعل ؟

الكاتب : أنا أسجل خاطراً بدا لى هذه اللحظة . إنها فكرة تصلح نواة لقصة .

الفتاة : وما تلك ؟

الكاتب : فى حفلة ساهرة التقيت بفتاة حسناء ، علمتُ من حديثها أنها كانت من قبل بحياتها سعيدة ، وعن نفسها راضية . فلما علمت بحرفتى شغفت بها وتطلعت إليها ، فأفسدتُ على نفسها حياتها ، وفقدت هناءتها .

محمود محمود

أرجاء المدينة طوال الليل في أنديتها وملاعبها ، وآناء النهار على شفاه غاداتها الحسان . وأي موسيقى أعذب وأجمل من موسيقى شوبرت ، هذا الناي الإلهي المحترق بنار الألم العميق ، أو موسيقى رتشرد اشتروس ، هذا النبر الرائع الجسور ذو العينين الناصعتين ، كما نعته دنُّنتسيو !



أستيفان تسفايج

في هذه المدينة الغريبة ولد أستيفان تسفايج في الثامن والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٨١ ، من أسرة إسرائيلية من تلك الأسر البورجوازية الغنية الحرة التي حال السلطان بينها وبين الاشتغال بالسياسة ، فانصرفت إلى الناحية المادية تحاول أن تجني منها أكبر قدر مستطاع ، ومثلها الأعلى الظفر بأكبر مقدار من الثروة ، وأعظم مؤهلاتها « دفتر الشيكات » ، هذا إن اشتغلت بالمادة ؛ أما إذا شعرت بأن لها رسالة روحية فإنها تنصرف حينئذ إلى كهوف الأحلام في الفن أو تنزل إلى أعماق الغريزة والعواطف اللاشعورية ، تحاول أن تسبر غورها وتكشف عما فيها أو تحيا بعالمها المستور . ولا تجد منفذاً لإرادة القوة عندها إلا في الأحلام الإسرائيلية الخالدة ، أحلام الشعب المختار الذي اصطفاه يهوا لسيادة العالم . ومن هنا تنكر القومية وتنزع إلى العالمية ، وإن كانت هي الأخرى ذات نزعة قومية عنيفة كل العنف ، وتعني بها القومية الإسرائيلية ، ولا تفهم في الواقع من العالمية إلا سيادة إسرائيل .

نشأ صاحبنا ، كما ينشأ عامة أبناء هذه الأسر من أصحاب المواهب الروحية ، فتى قاصداً ، أمّي مدللا لم يكن يعنيه في شيء أن يتزود بما يؤهل للكسب . فسار على هواه ، يدرس ما يشاء ويتصرف عما يشاء . وكان نزوعاً إلى التنقل ، فهيأ له يسار أسرته أن يتنقل في ربوع أوربا وآسيا وإفريقية ، فيزور فرنسا واسبانيا وإفريقية ، وانجلترا وأمريكا والهند وسيلان . وفي كل هذه البلاد استطاع أن يرتبط بصلات وثيقة مع كثير من كبار المفكرين . ففي فرنسا عرف دوهامل وفلدراك ، وفي سويسرا توثقت صلته بالكاتب المشهور رومان رولان ، وفي بلجيكا قامت صداقة قوية بينه وبين الشاعر الفنان الممتاز إميل فرهيرن . فكان من شأن هذه الصلات ، وتلك الرحلات ، مضافة إلى النزعة العالمية المتأصلة في طبيعة الإسرائيلية ، أن جعلت أبواب نفسه مفتحة لجميع التيارات والتأثرات ، تخضع في نفسه للتيارات الأجنبية أيا كان مصدرها ، وخصوصاً التيار اللاتيني ، وحاول أن يخضع الثقافة الألمانية لهذه التيارات كذلك ، فبدأ حياته الروحية الأولى بترجمة أشعار فرهيرن وبودلير وفرلين ورنبيو ، وكتب عنهم دراسات قيمة هم ورومان رولان ، كشف فيها من المدى العظيم الذي إليه وصل تعمقه لنفوسهم وامتزاج روحه بأرواحهم .

ومن هنا نشأت الميزة الأولى والرئيسية في تسفايج ، ونعني بها النزعة العالمية التي لا تفهم للقومية معنى ، ولا تعترف للحدود جغرافية أو جنسية أو لغوية أو دينية بأي سلطان . وهي ميزة انطبع بها كثير من المفكرين في الربع الأول من هذا القرن ؛ نجدها واضحة كل الوضوح عند ركله أكبر شعراء هذا القرن ، وعند رومان رولان ؛ كما نجدها أقل وضوحاً عند توماس مان وجول رومان . والعلة أن نفوسهم مرتبطة بروح المدنية العالمية ، تلك الروح التي تسود الحضارة الأوربية اليوم ، وكل حضارة ، في الدور الأخير من أدوارها ، وتكون مظهراً من مظاهر انحلالها . ونحن نجدها عادة بوجه خاص عند ركله ورومان رولان ، لأنهما نشآ في بلاد كلها

أخلاط من الأجناس والقوميات ، وعند تسفايج بدرجة أكثر حدة لهذا السبب عينه ، ولسبب آخر هو طبيعة الاسرائيلية ، خصوصاً وقد انضاف إلى هذه العوامل كلها عامل آخر جديد ، هو الحرب العالمية الماضية ، ولو أنها أنتجت في نفوس المفكرين أثرين متعارضين : فجعلت أصحاب النزعة القومية يغالون في هذه النزعة كما هي الحال بالنسبة إلى هوفمنستال ؛ كما جعلت في الطرف الآخر أصحاب النزعة العالمية أكثر إيماناً بها وأحرص على الدعوة لها . فنرى تسفايج يؤلف هو ورولان جماعة القصد منها أن تدافع عن الوحدة الروحية لأوربا ، وأن تبشر بالاخاء الانسانى العام الذى يعلو على كل الحدود والقيود ، وأن تدعو بالتالى إلى القضاء على الحرب .

وهذه النزعة قد عبر عنها تسفايج أجلى تعبير في مسرحيته « أرميا » (سنة ١٩١٦) . فأرميا النبى يبشر بالسلام ويستنكر الحرب ، ويهيب بأبناء قومه أن لا تدفعهم النزوات ، نزوات السيادة أو نزوات التحرر من العبودية ، إلى الحرب ؛ وهو في سبيل دعوته هذه يحتمل صنوفاً من الأذى وألواناً من العذاب تكاد أن تصل حد الاستشهاد . فهو ينذر قومه بالويل والثبور ، ويتنبأ بالهزيمة المحققة والفناء التام إذا هو أشعل نيران الحرب إلى جانب المصريين ضد الكلدانيين . ولكن قومه من بنى إسرائيل لا يصيخون إلى دعوته ، بل يندفعون في حماسة هوجاء مرددين أنشودة (إسرائيل فوق الجميع) . وهو ينصحهم في إلحاح جنونى بعدم الحرب ، حتى يتبينوا في النهاية صحة نبوءته ، ولكن بعد أن خُرِّبت أورشليم وحُطِّم المعبد .

ومسرحية « أرميا » من الناحية الفنية المسرحية ليست بذات قيمة كبيرة ؛ فلا حبكة ولا عقدة ولا حوادث مشوقة . وإنما قيمتها في هذه الفصول الغنائية الرائعة التى ضرب فيها تسفايج على أوتار عاطفة ملتهبة بحب الانسانية .

والواقع أن قيمة تسفايج الحقيقية ليست في مسرحياته ، وإنما في قصصه الصغيرة ثم في دراساته النقدية . أما الأقاصيص فقد برع فيها تسفايج كل البراعة . وفيها نجده قد تأثر بتيارين رئيسيين : تيار التحليل النفسى المتأثر بفرويد ومدرسته ، وتيار النزعة التعبيرية في الأدب الألمانى المعاصر .

فقد كان لفرويد أخطر الأثر في القصصيين في أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، وبخاصة في القصصيين المواطنين له ، أعنى القصصيين النمساويين والفيناويين على وجه التحديد . وهذا الأثر أوضح ما يكون في أكبر هؤلاء القصصيين النمساويين ، ونعنى به ارتور اشنتسلر (سنة ١٨٦٢ — سنة ١٩٣١) ثم في صاحبنا تسفايج . ولئن كان اشنتسلر قد هيأ له ذلك خصوصاً استعداده العلمى ، إذ كان طبيباً ، فأصبح متأثراً به عن إيمان علمى ، إلا أن تسفايج قد تأثر هو الآخر ، على الرغم من عدم دراسته للتحليل النفسى دراسة علمية ، بدرجة لا تقل من تأثر اشنتسلر ، حتى إن ناقداً مثل جوزف كيرتر يحاول أن يرجع كل تحليل نفسى عند تسفايج إلى التحليل النفسى عند فرويد . والواقع أننا نجد الفكرة التى تبدو حولها كل أقصوصة من أقاصيص تسفايج متأثرة دائماً بمسائل التحليل النفسى واكتشافاته .

وأول هذه المسائل التى عنى التحليل النفسى بدراستها الميول الطبيعية من حيث الموقف الذى يجب على المربى أن يقفه بإزائها . أما التربية التقليدية فتطالب دائماً بكبت الكثير من هذه الميول ، وعلى الأخص الميول الجنسية . وعلى العكس من ذلك يجد فرويد أن في هذا الكبت أعظم الضرر . فالطفل الذى تكبت ميوله يعانى كثيراً من الأذى من هذا الكبت طوال حياته ، فضلاً عن أنه يولد ميولاً أشد ضرراً وأعظم خطراً عنده . وإنما الواجب على المربى أن يدع الميول حرة تسلك سبلها كما تشاء ، بل ويجب

أيضا أن ييسر لهــا هذا السبيل حتى تتحقق على الوجه الأكمل . وهذه المسألة هي المحور الذي تدور من حوله قصتان لتسفايج هما : « السر المحترق » و « الزريبة » .

وإذا كان التحليل النفسي عنــد فرويد يعطى أهمية كبرى للغريزة الجنسية حتى ليكاد أن يفسر بها كل شيء ، فإن الطبيب إذاً أن يكرس لموضوعها تسفايج بعض أقاصيصه ، وعلى رأسها قصة « رسالة امرأة مجهولة » .

وفيها يصور لنا فتاة تسكن منذ الطفولة إلى جوار رجل شاب جميل ، ظنت فيــه مَثَل الرجولة الأعلى ، فأحبته وزاد هذا الحب شيئاً فشيئاً ، بينما هو من جانبه لا يعرف عن هــذا الحب شيئاً ، ولا يحمل لها أي عاطفة غرامية ، وبالتالي لا يفكر في الزواج بها . ويلح الحب عليها فيدفعها إلا مقابلته في مكان منفرد ، ولا يجد هو حرجاً من أن يفض بكارتها . فيطردها أهلها ، وتلد جنينها البائس وحدها بعد أن اتخذت سبيل الرذيلة . ولا يبقيها في الحياة بعد أن عرفت شدة خطيئتها إلا هذا الابن ، حتى ما يكاد يموت إلا وتبعث بهذه الرسالة إلى من غرر بها ، تريد أن تعتذر عن سقوطها ، وتطلب إليه أن يعفو عما اقترفته من إثم بأن سقطت بعــد أن أحبته ، فــكانت الرسالة اعترافاً منهــا بالخطيئة ونهاية لحياتها التي قضت عليها بيدها في اليوم التالي .

ولفرويد في نظر تسفايج اليد الطولى على الشواذ ، لأنه جعلنا ننظر إلى أحوالهم نظرة عطف ومشــاركة وجدانية ، وعدم جزع من أحوالهم ، لأنه قرب خصوصاً بين العاديين وبين الشواذ ، حتى ليــكاد الناس جميعاً أن يكونوا شواذ ! وهذه ناحية قد عنى تسفايج كذلك بتصويرها ، فصورها تصويراً رائعاً في قصته (أموك) ، وقصته (اختلاط العواطف) . وبطل القصة الأولى رجل التزم الصمت حتى قال : « إني أموت من الصمت » ، وفيها يصور لنا هذيان هذا البطل الشاذ ، ويحلل الصدمات الروحية المروعة والاضطرابات الحسية المعقدة التي تردى فيها ، مما دفعه الى الموت ، كما هي الحال أيضاً بالنسبة الى كثير من أبطال تسفايج .

أما النزعة التعبيرية في الأدب الألماني فتمتاز بالثورة على القيود التي رسمها أصحاب النزعة الطبيعية من أبناء الجيل السابق عليهم ! وقد ظهرت بوضوح لأول مرة سنة ١٩١٠ وتمتاز ثانيا بنشدانها للحركة والتنوع ، لأنها تميل إلى أن تحيا حياة عاطفية متقلبة تسودها الأحلام والعواطف الحسية والغرائز والاندفاع الحركي الحسي . وطابعها الرئيسي هو انفجار العواطف المكبوتة ، وهي هنا متأثرة بمذهب فرويد . وتمتاز ثالثاً وأخيراً بأنها نزعة إنسانية بكل معاني الكلمة ! فقد رأى أصحابها ما أصاب الانسانية من انحطاط لفناها الروحي بسيطرة الصناعة الفنية والروح الآلية والعلم بإحصاآته وقوانينه التجريبية ، فأرادت أن تعيد المعنى الروحي والقيمة الخالدة للانسانية ككائن روحي يقوم على أساس التقويم الروحي الخالص . فليس المهم هو المنشآت والاختراعات والقوانين ، بل المهم هو الانسان . ومثل هذه النزعة طائفة من الشباب أهابوا بالعواطف والمعاني الانســانية من إحسان وعطف وإخاء وحب لجميع الناس بدون تفريق . ولم يعد المقصود إعلاء الكائن الأناني ، ولا إظهار العطف على أحوال طبقة اجتماعية بالذات ، وإنما الغاية النهوض بالنفس الانسانية جمعاء .

وكل هذه الخصائص نراها واضحة كل الوضوح عند تسفايج ، نراها في القصص ، خصوصاً قصة « عيون الأخ الأبدي » التي يمثل فيهــا الصورة العليا للاخاء الانساني في شخص أحد الهنود ، وهو فيراتا ، بطل القصة ، وفيها تأثر بمستوى التأخر البشر بجميل الرحمة والشفقة والزهد فيما يقرب حياة القديسين ، ونراها كذلك في دراساته النقدية .

وبراعة تسفايج فى الدراسة النقدية التاريخية براعة هائلة ، فاق فيها بمراحل عدة من طرقوا هذا الباب فى هذا القرن مثل لدفج وأندريه موروا . فهو يمتاز عن لدفج بالعمق وإدراك المعانى العامة واستخراج النماذج الانسانية العامة واستنباط العبرة من كل الأحداث التى يعنى بدراستها . ويمتاز عن موروا إلى جانب العمق وكل هذه المميزات ببراعته فى وصف المناظر الطبيعية التى تجرى فى داخل اطارها الأحداث . فان لدفج وإن برع فى وصف المناظر إلى حد كبير ، حتى ليكاد المرء أن يستقرئ كل الشخصية من خلال الملامح التى يعرضها لدفج فى الطبيعة وفى الشخصية ، إلا أن تسفايج يمتاز كذلك عن لدفج بأنه يشعر بأن بينه وبين المناظر الطبيعية والملامح الحسية التى يصورها نوعاً من المشاركة الوجدانية والامتزاج الروحى ، مما يجعل لنبرته قوة ولألوانه نصاعة ولنغماته حرارة . أما موروا فلا يمتاز من هذه الناحية بشئ .

وإن فى طبيعة تسفايج لأحسن مفسر لطريقة اختياره لأشخاص دراساته ، وهى طبيعة كشف عنها بوضوح فى حديث له مع جول رومان فقال : « أنا فى أعماق ملتهب العاطفة ، ملىء بكل أنواع العنف والانفعال . ولا أستطيع أن أسلك سلوكا معقولاً إلا بعد بذل جهد جهيد فى ضبط النفس » . لهـذا نراه قد اختار خصوصاً هذه الطبائع الملتهبة الشيطانية المضطربة الكيان الروحى ، فكرس لها أحسن دراسته . وهذا أظهر ما يكون فى المجموعة التى سماها « الصراع مع الشيطان » وفيها عرض لنا ثلاثة من أعظم هذه الشخصيات الغريبة ، ونعنى بهم كليست وهيلدرلن ونيتشه . ونكاد نشعر وهو يحدثنا عنها أنه إنما يدلى باعترافات ، لأن التشابه بينها وبين طبيعته يجعله يصفها من تجربة روحية عاناها فى نفسه ، فصورها لنا وكأنه حي هذه الشخصيات .

ومن منا قرأ دراسته لكليست ، ولم يدرك سريعاً أنه إنما يتحدث هنا عن نفسه . ولم لا وقد تشابه الاثنان فى كل شئ : فى حياة التشرد التى حييها تسفايج طوال حياته ، حتى اضطر فى سنة ١٩٣٥ أن يغادر وطنه نهائياً ويعانى شريداً آلام الغربة فى انجلترا وفرنسا ثم أمريكا الجنوبية ، وفى النهاية التى بها ختمت حياة كل منهما ، فكليست انتحر هو ورفيقته ، وكذلك انتحر تسفايج هو وزوجته فى البرازيل فى الثانى والعشرين من الشهر الماضى (فبراير سنة ١٩٤٢) ، ولا مفسر لهذا الانتحار غير الطبيعة الشيطانية عند الرجلين ، تلك الطبيعة المتألمة المعذبة الدائبة الصراع مع الشيطان ، شيطان السمو الروحى . فلنختم حديثنا عنه بالعبارة التى ختم بها حديثه عن كليست : « أجل ، إن صاحب الروح الممزقة هو وحده الذى يعرف النزوع إلى الكمال ، ومن قدر له التشرد هو وحده الذى يبلغ اللانهاية » .

عبد الرحمن بدوى

حلم غاليليو

[كاتب هذه الرائعة كاتب ألماني شهير ، هو يوحنا يعقوب إنجل Engel ، وروائي من خيرة الروائيين . ولد في أواسط القرن الثامن عشر ، ودرج على نوعي الخلائق ومحاربة مفاسد الجيل . امتازت كتابته بالنزعة الواقعية ، والعرض المجرد الساخر ، وكان صادق النظر دقيق التصوير .

وإنجل من الطائفة التي يرتبط بها لسنج Lessing وأقرب كاتب ألماني إليه من حيث الوضوح الشفاف والنثر المتناسق القوي الذي كثيرا ما يبلغ في حرارة موضوعه وفي روايته شأو الدراما .

وليس إنجل نداً لليسنج في الدراما ولا عديلا له في العمق والباع الأفق وإن فاقه إلى حد كبير . وقد يقابل هذا التفوق لليسنج أن لإنجل طريقة في تركيب الجملة تمتاز بسبكها وكلفها على الكثيرين . وكان إنجل رجلا عالي الثقافة سامي الرتبة ، تولى تربية الأمراء ، وفي جملتهم أمير بروسيا ومليكها بعد ذلك فريدريك غليوم الثالث . وكان عضوا في أكاديمية برلين ومديرا أول المسرح الأهلي وأستاذاً ومشتغلا بالفلسفة وتحصيل اللغات . وقد عاش إحدى وستين سنة ومات في مستهل القرن التاسع عشر] .

كان غاليليو غاليلاي يعيش في أوان القصة في أرسيتري بفلورنسا في سن ساجية وهالة من الشهرة . كان قد حُرم أكرم حاسة وهي حاسة البصر وإن كان ينعم بالربيع : ينعم بالبلبل الشادي والزهر الفوّاح ، وينعم بالذكرى المتجددة من مسرات فائتة .

وفي آخر ربيع له في هذه الحياة قاده أصغر تلاميذه ڤيڤياني وأبرهم جميعاً به إلى الحقل المحيط بأرسيتري ، فلحظ أنه مضى في الحقل إلى أبعد مما تحتمل قواه ، وربما من قائده أن لا يتجاوز به منطقة فلورنسا ، ثم قال له مازحا معقبا : إنك تعلم يا صديقي ماذا أقسمت أمام المحكمة المقدسة .

وأجلسه ڤيڤياني فوق ربوة ليستريح . وإذ هو في تلك البقعة ، والجو عَبِق بالروائح الذكية تذكر تحرقه إلى الحرية ، إذ هو ذات مرة في رومة عند اقتراب الربيع .

فقام بنفسه أن يصب البقية الباقية من مرارة على مضطهديه القساة ، لكنه سرعان ما ضبط النفس ولامها بهذه الكلمات :

إن روح كوبرنيكوس[1] لتسخط إن فعلت .

لم يكن ڤيڤياني قد علم بعد بقصة الحلم الذي أشار إليه غاليلاي بهذه الكلمات ، فاستوضحه ما قال . لكن الشيخ الذي كان برد المساء فوق ما يحتمل ، وأرطب مما تطيق أعصابه المريضة ، شاء أن يعود أولاً قبل أن يوضح .

وقال لتلميذه وقد استجم قليلا : لست تجهل كم قسَت عليّ الأقدار ، وكم أبطأت الحرية . فإني لما وجدت أن أقوى شفاعة تُحال من آل مديسيس ، بل إن اعتذاري إلى سحب أقوالي قد بقي كلاهما بلا تأثير ، ارتميت على فراشي ساخطا على مصيري ناقما على العناية الإلهية ؛ وجعلت أسبح بأملي صوب وإلى أبعد مما يخطر الخيال ، ناعيا حياتي التي لم تعلق بها وصمة ، ذاكراً جدي في عملي وكدي في اجتياز تيه الحكمة الزائفة طلبا للنور الذي لم أستطع اجتلاءه . كنت أقول : كم حشدت قوى النفس جميعا لتنفذ بك إلى الحقيقة على رغم التحامل القوي القديم الذي كان يعترض طريقك ! وكم حرمت نفسك اللذائذ وأبعدت من شفتيك الرحيق الذي كان مشتهاك أن تحتسيه ، كي لا تتخاذل في عملك الروحي ! كم وهبت الحكمة ساعات نومك ، وكم ارتعشت من البرد وارتعدت من الجليد وأنت ترعى الفلك وعجائبه ، والناس من حولك رقود لا يزعجهم هم ، أو منهمكون ينعشون الجسد باللذاذ ! كم سهرت الليالي الناعمة الكدرة على ضوء المصباح طامعا في أن تعلن فضل الله وأن تضيء العالم بنوره ! فماذا كانت ثمرة عملك بعد

(1) Nikolaus Copperanicus هو مؤسس علم الفلك الحديث ، إذ عارض النظرية البطليموسية القديمة القائلة بأن الأرض ثابتة والكواكب تدور من حولها ، فقال بدوران الأرض والكواكب حول الشمس . وقد احتفل العالم العلمي بأسره في سنة ١٨٧٣ بمرور ٤٠٠ سنة على ميلاده .

هذا كله أيها النفس ؟ ماذا كسبت من كل تمجيدك الخالق وتنويرك الخلق ؟ أذلك الغم الذى يكتنف مصيرك ويجفف ماء عينيك ؟ أم هذه الدموع التى لا تقوى على حبسها وهى تطفىء نورك الضئيل إلى الأبد ؟

بهذا كنت أخاطب النفس يا فيثيانى ثم ألقى نظرة ملؤها الحسد على مضطهدىّ — كنت أصيح : هؤلاء الأزرياء الذين يسترون سخفهم بالصيغ الغامضة وزخارفهم بالطارف الهيبة ، الذين يفترون على الله الأكاذيب ليجعلوا منها كلامه ، ويزلزلون تفهمهم بالحكيم كى لا يزعجهم من تمامهم اللذيذ نور الحق الذى يمليه الحكيم . هؤلاء المنحطون الذين لا يعملون إلا لشهواتهم ودمار العالم ، كيف يضحكون فى قصور الأسى ، وينعمون فى فوضى الحياة السادرة ؟ كيف حرموا الفضل صاحبه وجردوه من أقدس ما يملك وهو الشرف ؟ وكيف يجثو الشعب بين أيديهم ضارعا وهم خادعوه من ثمرة كده ومتخذو ولائهم من دمع قطعانه وعصير عنبه ! — أيها النفس الذى لا تعيش إلا لله ولنفسك والذى لم تشبّ يوماً فى نفسك غير أطهر الشهوات وأقدسها وهى الشغف بالحقيقة ؟ أنت يا من هو عند الله خير من هؤلاء كلهم إذ تكشف من معجزاته فى نظام الكون وترى الناس آياته فى الدودة الحقيرة : أقُدِّر لك الآن أن ينقصك الشىء الوحيد الذى تشقى فى طلبه والذى مُنِحه حتى الحيوان فى الغابة والطير فى جوه — الحرية ؟ أى عين تسهر على مصاير الانسانية ، وأى يد عادلة توزع بالقسطاس متاع الحياة وطيباتها ؟ فتترك الأدنياء ينهبون كل شىء ، وتحرم الأجلاء كل شىء .

وغلبنى النعاس وأنا على هذه الحال ، وما كاد يغمض ؟ إذ تقدم من فراشى شيخ مهيب النظر ، فوقف عنده يتأملنى راضيا صامتا ، واستقر بصرى فوق جبينه الفكر وخصل رأسه الفضية وكلى إعجاب به .

وصاح بى أخيراً : غاليلاى ! إن ما تعانيه الآن إنما تعانيه فى سبيل الحقيقة التى تفتك إياها . ولولا أن أعجلنى الموت من هذا الأسر وردنى إلى تلك الحرية الخالدة لطاردتنى الخرافة التى تطاردك .

وصحت أنا : كوبرنيكوس ! وضممته إلى صدرى قبل أن يحير جوابا . — آه يا فيثيانى ! إن أواصر الدم التى تصلها الطبيعة حلوة ما فى ذلك شك ؛ لكنه أحلى من تلك الأواصر وأحلى ما تصله الروح ، وأمكن من روابط الحب الأخوى وأقل ما تربطه الحقيقة . والمشاعر التى يتقدم بها المرء إلى الصديق تقوده إليه الحكمة ما أعذبها ، فهى مشاعر العمل الناجح والقوة الروحية النامية والرغبة فى السخاء بكل كنوز المعرفة .

وقال الشيخ بعد أن رد على عناقى : لقد خلعت ما كان يسترق ونضوت الغلالة التى كانت تخفيني ، وأريد أن أكون لك من الآن ما كنت سأكونه لك فى المستقبل — مرشدك . فالراحة هناك إن هى إلا ضرب من العمل ، والروح الطليقة التى تحررت من أسر الجسد لاتنى هناك من العمل دون ما كلل . فبحثنا فى الأعماق من الحقيقة الالهية يتحول هناك إلى إرشاد لمن يلحق بنا من أهل الأرض . وأنا خليق بأن أرشدك وقد كنتُ أول من وجّه روحك إلى أكتناه اللانهائى .

واقتادنى من يدى إلى سحابة موطأة فحملتنا إلى السماء وطرنا فى فضائها الذى لا يحد . رأيت هناك القمر يا فيثيانى بمرتفعاته ووديانه ، ورأيت نجوم المجرة والثريا والجوزاء . رأيت بقع الشمس وأقمار المشترى . كل ما رصدته إذ ذاك من هذه الأرض رأيته هناك بالعين المجردة خيرا منظرا وأصدق خبرا . وقد تنقلت فى ملكوت السماء بين ثمار أبحاثى ، كما يتنقل المحسن بين حسناته فوق هذه الأرض مبتهج النفس . وكل ساعة قضيتها على هذه الأرض فى الكد والنصب تحفل هناك بالهناء الذى لا يحده من قلق الدنيا وقلبه من الحكمة خواء .

لن أكف أبدا يا فيثيانى حتى فى هذه السن الرزينة

من البحث عن الحقيقة ، فإن طالبها هنا لا تقع عينه هناك إلا على ما يسره . يسره اليقين الذى ثبّت ، والشك الذى بدّد ، والسر الذى كُشف ، والخطأ الذى أصلح . وقد شعرت بهذا كله ، ونعمت بلحظات الهناء التى قضيتها هناك .

وإذ أنظر يا فيثيانى وأعجب ، وتشرق عظمة الذى خلق هذا كله بحكمته القادرة ، وحله وحفظه بمحبته الخالدة ، كانت كلمات مرشدى ترمى إلى معان أسمى — قال : ليست حدود حواسك بالتى تحد هذا الكون أيضا ، وإن طالمك عالم من الشموس على أبعاد لا يدركها الفكر ؛ فلا يزال بصرك يستضيء فى الأثير الذى لا ينتهى بآلاف لا تحصى من هذه الشموس . وكل شمس كشكل منطقة من حولك مأهولة بكائنات تشعر وأرواح تفكر . وحيثما كانت مسالك فهناك أجسام تدرج ، وأنى تسعد كائنات تكون كائنات . ولا بقاء فى هذه اللانهائية المترامية إلى ما شاء الله لمتكبونة واحدة إذا لم يهبها الخالق المدبر الحياة أو المادة الصالحة للحياة . وفى هذا المديد المتمدد الذى لا يحصى من الكائنات يسود حتى فى أتفه الذرات ، نظام لا يضطرب ؛ قوانين خالدة تربط السماء بالسماء ، والشمس بالشمس والأرض بالأرض بروح من الانسجام . ومادة التأمل فى الخلود لكل حكيم خالد بعيدة القرار ، ولا نضوب لمعين الغبطة التى تتفجر من هذا التأمل . ولعل أنا بحاجة يا فاليليو إلى أن أقول لك إن هذه الغبطة لا تصيبها الروح التى ما برحت مقيدة برفيق بليد ، لا تستطيع المضى فى عملها إلى أبعد مما يطيق هذا الرفيق ، ولا تلبث أن تشعر بأنها ترد إلى التراب كلما حاولت الارتفاع ! .

فصحت : قد لا يستطيع المرء أن يصيب هذه الغبطة بكل ما فيها من إتمام إلهى ، لكنه يعرفها على التحقيق يا كوبرنيكوس على طيبتها وعاهيتها . أو فأين النفس التى لم تبهجها الحكمة فى هذه الحياة الأرضية ؟ وأى هناء لم تشعر به الروح فى هذا الجسم الفانى إذا ما جعل عشق الأفكار الغامضة يتجلى ، ويطلع نهارها ، وينتشر ضوؤها قدما حتى تتم المرفة ، ويعم نورها الكامل ، وتتكشف للعين المجردة المتبسطة آفاق من الجمال لا تحد ! — تذكر وأنت الذى اطلعت على غور الأسرار الإلهية وكشفت من بديع صنع الخالق ؛ تذكر تلك اللحظة التى خطر لك فيها خاطرك الجرىء الأول فتملكتك الغبطة ، وتألبت قوى نفسك جميعا على هذا الخاطر تقتنصه ، وتكوّنه ، وتنظمه ؛ تذكر إذ كل شىء تام فى ذهنك متناسق تناسقا باهرا ، وإذ أنت تستعرض كرة أخرى صنيع الروح الجميل ، وكأنك نشوان برحيق الحب ، تستشعر شبهك بخالقك وقدرتك على فهمه وإدراكه !

أجل يا مرشدى حتى فى هذه الأرض لا تعدم الحكمة مسراتها ، وإذا لم تكن الحكمة كذلك فكيف وسعنا أن لا نكترث فى أحضانها بغرور الحياة ؟

وهبطت السحابة التى كانت تحملنا إلى الأرض ، واستقرت فوق تل يواجه رومة ، فانبسطت لأعيننا عاصمة الدنيا ، لكنى مددت يدى من مرتقى مزدريا محتقرا ، وأنشأت أقول : يمكنكم أن تحسبوا أنفسكم شيئا مذكورا يا سكان هذه القصور ، إذ ترفلون فى حلل القرمز ، ويجلب الذهب والفضة لموائدكم أنفس ما تخرج أوربا والهند . لكن الحكيم ينظر إلى هؤلاء الأغبياء كما ينظر الدبر إلى الدودة فى الشرنقة ، فهم مثلها سجناء النفس لا يستطيعون الخروج من هذه الورقة التى التصقوا بها . أما الحكيم الحر فيصعد إلى الأعالى ويشرف على الدنيا أو ترفعه أجنحة التأمل إلى ربه ويحوم فى سمائه بين النجوم .

وبينا أتكلم على هذا المنوال إذا بسحابة من الجد الصارم تظلل جبين مرشدى ، وإذا بذراعه المعاوف تزل من كتفى ، وإذا به يرمينى فى الصميم بنظرة تنذر بالحبوب . ولقد صاح بى قائلا : يا عديم الأهلية يا من لا تستحق شيئا ، أهكذا شعرت على الأرض بمسرات السماء ، وتمجّد اسمك بين أيدى الحكماء ؟ أهكذا ارتفعت بقوى النفس

يوم الانتخـــاب

للقاضى الفاضل صاحب الإمضاء

وصلتنى الرسالة الخاصة التالية من صديق حميم حضر عملية الانتخاب التى تمت فى الأسبوع الماضى . وأنا أرجو أن لا يسوءه منى أن أوثر نشرها على القراء . . . .

« أخى :

كان من سوء حظى أن وقع علىّ الاختيار لأتولى رياسة إحدى لجان الانتخاب أمس فى دائرة . . . . فأنت لتعلم مبلغ ما يلقاه الانسان من جهد فى ممارسة هذا العمل . وإنى لأغبطك على أنك أنت نجوت مما وقعت أنا فيه . ولكن أموراً لفتت نظرى أثناء عملية أمس ، وددت أن لا يفوتنى أن أتحدث إليك فيها . فطالما سمعنا فى أحاديث الناس الخاصة أن الحياة النيابية فى مصر جاءت سابقة لأوانها ، وأن تقدير الرأى العام لهذه الحياة ما زال فجًّا . ويستشهد أصحاب هذا الرأى بأن بعض الناخبين لا يزال يُساق سوقاً إلى قاعات الانتخاب لإعطاء صوته . ولكنى أقول إن مشاهداتى فى عملية أمس جاءت تدعو إلى إعادة النظر فى صحة هذه الأحاديث .

كانت دائرتنا واسعة ، ولذلك أُعِدَّت لها ثلاث لجان فرعية تقوم بأخذ أصوات الناخبين فيها . وقد جُعلت كل لجنة من هذه اللجان الثلاث فى طَرَف من أطراف الدائرة . وظللنا نعمل طيلة النهار فى استقبال الناخبين الذين لم ينقطع سيلهم حتى نهاية موعد العمل . وكان من الأمور التى لفتت نظرى أن كثيراً ممن كان يصح أن يُلتمس لهم العذر لو أنهم تخلفوا عن الحضور للتصويت ، لم ترتح نفوسهم إلى قيام معاذيرهم . وأقبلوا علينا يسعون للقيام بواجب بدءوا يقدرون خطورته . فهل من السهل على الرجل الكفيف مثلا أن يزاحم بمنكبيه وسط الناخبين ليصل إلى قاعة الانتخاب حتى يتمكن من إعطاء صوته ؟ ومع ذلك فقد حدث هذا

لتستطيع المضى فى عملها دهراً ، ولتكون فى ظل الحقيقة أكثر حرية وأعظم أثراً ؟ أمِن أجل هذا كرَّمك الله باحتمال الاضطهاد ، وجعل الحكمة من نصيبك واستحقاقك ، وزان قلبك بالفضائل وروحك بالمعرفة ؟ هل اخْتُنِقَتْ ذكرى الطيب من نفسك فلم تترك أثراً ، وطغت نفسك بالثورة على الله ؟

هنا استيقظت من حلمى فألفيت نفسى قد رددت من أمجاد السماء إلى سجنى ، ففاضت عيناى حتى غمر الدمع فراشى ، ثم رفعت بصرى فى ظلام الليل وجعلت أصيح : رباه أيها الفياض بالحب ! هل اعترض العدم الذى جعلته شيئا ، على أساليبك ؟ هل اغتصب التراب الذى نفخت فيه الروح ، ما هو هبة من لدنك ورحمة ، فأضاف ما ليس من حقه إلى حقه ؟ هل الحقير الذى غذيت على صدرك وسندت إلى قلبك ، والذى نولته قطرات الهناء من قدحك — هل نسى فضلك عليه وتفضيلك إياه ؟ اللهم ارمه بالعمى ، وأصم أذنه بعد الآن من صوت المحبة ، ودع الشيب يوقر فى السجن ظهره ! ثم ليطب بهذا نفسا ، وليستشعر الحمدَ على ما أصاب من مسرات ، والهناءَ فى انتظار ما هو آت ! .

فى هذه الضراعة بإيقيانى صبيت روحى صباً . وكان الله بى رحيما ، فلم يستمع إلى تذمر الساخط ، بل استمع إلى حمد الحامد وأشعرنى الهناء الكثير . فها أنذا أعيش حراً فى ارستزى ، وها أنت ذا يا صديق تقودنى بين زهور الربيع .

وتحسس يد نفيده ليضغط عليها شاكراً ، فتناول قيقيانى يده ورفعها إلى شفتيه أمارة التبجيل .

محمود الدسوقى

الأمر في لجنتنا أمس مراراً وتكراراً . وكانت نفسي تمتلىء إعجاباً بهؤلاء الرجال الذين جشموا أنفسهم مشقة الطريق ومشقة الجو في هذه الأيام ليريحوا ضمائرهم بأداء هذه الأمانة الوطنية التي ألقيت في أعناقهم .

وكان من الأمور التي لفتت نظري أكثر من ذلك ، أن دخل علينا بعد الظهر شاب عاري الرأس كث الشعر ، يلبس الملابس (البلدية) ، وهو دون العشرين من عمره ، وقدم تذكرة انتخابية كانت معه ، وطلب أن يدلي بصوته . فلما سألته عن التذكرة التي معه قال إنها لأخيه الأكبر . وإن أخاه هذا طريح الفراش ، ولكنه يريد أن يستعمل حقه الانتخابي فأوفده للإدلاء بصوته نيابة عنه . فأفهمته بأن ذلك لا يجوز . فألح في ضرورة إعطاء الصوت قائلا :

— إن أخي مرض فجأة منذ يومين . وقد ظل طول النهار يتربص أن تتحسن حاله ولو لحظة يتمكن فيها من الحضور لإعطاء صوته . ولكنه رأى اليوم يوشك أن ينصرم وهو ما زال على ما هو فيه من الإعياء . فأوفدني نيابة عنه لأحمل إلى اللجنة صوته . وإني مستعد أن ترسل اللجنة معي واحداً تنتدبه ليتحقق من صدق قولي

فعدت أبين له أن هذا غير متيسر ، فضلاً عن أنه عمل غير مسموح به . فقال :

— إذاً أستحضر إليكم منه توكيلا كتابياً بأنه ينيبني عنه في إعطاء صوته .

قلت : وكيف تعرف اللجنة أن التوقيع الذي يحمله هذا التوكيل هو توقيع أخيك ؟

قال : إن كانت آرائي لا تعجبكم ، وترفضونها جميعها ، فأشيروا علي إذاً بما تريدون !

قلت : إن التعليمات تقضي بأن الناخب يعطي صوته بشخصه وليس بتوكيل .

قال : إذاً لابعثوا معي (شيخ الحارة) فهو شخص تعرفونه ، وهو أيضاً يعرف أخي ، فيسمع منه أنه يأتمنني على إعطاء صوته . . .

وقد جادلناه فأطال جدالنا . ولما رأى من جانب اللجنة إصراراً على تمسكها برأيها انصرف مغضباً ، ثم ما لبث أن عاد إلينا ومعه أخوه ، وقد اعتم كما يعتم المرضى وتدثر كما يتدثرون ، مفضلا أن يضحي براحته وصحته على أن يفوته القيام بهذا الواجب المقدس ؛ فكان ذلك موضع إكبار جميع من شهدوه .

على أن هناك حادثاً آخر كان في نظري أعظم وقعاً في النفس من الحادث السابق . ذلك أني قبيل انتهاء عمل اللجنة بحوالي عشرين دقيقة — وكان قد بدأ يخف زحام الناخبين نوعا — سمعت لغطاً يدنو من باب قاعة اللجنة وأصواتاً تقول :

— حاسب ! على مهلك ! انتظر ! رويداً ! رويداً .

فاشرأبت أعناق الحاضرين يتطلعون نحو الباب ليروا ماذا هنالك . وإذا بشيخ مُسِن عاري القدمين خلق الثياب ، قد أقعدته الشيخوخة والمرض ، يحمله رجل قوي على كتفه كما تحمل الأم وليدها . ومن حوله شابان آخران أو ثلاثة تبينت فيما بعد أنهم أبناؤه . ثم تعاون الجميع على إجلاسه في المقعد القريب مني ، فأخرج الرجل تذكرته الانتخابية وقدمها إليّ . فلما اطلعت عليها تبين لي مع الأسف الشديد أن لجنتنا غير مختصة بأخذ صوته . وأن ذلك يقع في اختصاص اللجنة الثانية التي تعمل في الطرف الآخر من الدائرة . فتحرجت كثيرا وأنا أبدي له هذه الملاحظة ، لعلمي بأنه إن كان هو ومن معه قد تجشموا مشقة الحضور إلى مقر لجنتي ، فليس من السهل عليهم بعد كل هذا العناء أن يتحملوا أثر الفشل الذي انتهت إليه جهودهم . وما راعني بعد ذلك إلا أن أرى الرجل يقول : لا بأس ! أليس الوقت يتسع لنا للذهاب إلى مقر اللجنة الثانية ؟ فقلت له : يا عمي ! إن الطريق طويل

والوقت قصـير ! فنظر إلى نظرة غير راضية ثم التفت إلى من معه قائلا : أحضروا لى مركبة محمالى إلى هناك !

ولست أخفى عليك أن شيئاً من المرة قد ملأ نفسى إذ رأيتنى مواطنا لمثل هذا الشيخ الضعيف الذى إن كان مظهره ينم عن فقره الشديد ، فإنه أثبت أن نفسه كانت زاخرة بكل معانى الغنى الروحى .

على أنى لم أستمتع طويلا بهذا الاحساس الجميل . فقد دخل علينا بعد ذلك بلحظات ناخب مطربش متأنق طغت عليه فكرة التحلى بالذهب ، حتى لا تقع العين منه إلا على شىء مذهب أو مموه بالذهب . . . فأصابعه مختمة بالذهب ، وسلسلة ساعته مصوغة من الذهب ، وإطار منظاره من الذهب ، وقبضة عصاه من الذهب ، وحتى فمه كان يوشى الذهب بعض رباعياته . . .

دخل علينا هذا السيد الذى جاوز العقد الخامس من عمره فى دلال ظاهر ، وكان موقفنا معه — بطريق الصدفة — مثل موقفنا مع زميله الشيخ الآخر الذى سبقه ، فإن اسمه كان غير مثبت فى كشوفنا ، وكانت تذكرته تعطيه حق التصويت أمام اللجنة الثانية أيضا ، ولكنه ما عرف ذلك حتى صاح قائلا :

— باسلام ! أأذهب من جديد إلى اللجنة الثانية ؟ ! لقد كنت مترددا فى الحضور إلى هذه اللجنة على قربها من دارى لما أتوقعه من أمثال هذه الاضطرابات . فليتنى لم أفكر أصلا فى الحضور !

ولست أدرى كيف حز فى نفسى مسلكه حتى لقد هممت بأن أوجه إليه شيئاً مما يستحقه من عبارات التنديد والتقريع على مايبديه من تلك الزينة المخنثة والسلوك المعيب ، لولا أنى وجدت أمارات الامتعاض من تصرفه مرتسمة على وجوه الموجودين جميعا . فاكتفيت بصدور هذا الحكم الاجماعى على سخافته . وقد خرج — لا غفر الله له — وهو يرمقنا بنظرات شزراء ، ونحن نشيعه بمثل ما استقبلناه به من الزراية والاستخفاف .

وإذا كنت قد لقيت مشقة فى ملازمتى « صندوق الانتخاب » نحو عشر ساعات متوالية ، وفى استقبال الناخبين وإثبات أصواتهم ، ثم « جردها » و « فرزها » و « إحصائها » فقد أكرمنى الله بصحبة أعضاء اللجنة الذين كانوا يعملون معى ، وبينهم ثلاثة من الناخبين الذين اختارهم المرشحون للجلوس معنا نيابة عنهم ليطمئنوا بوجودهم على صيانة مصالح كل واحد منهم . فقد كان من بين هؤلاء الأعضاء رجل ظريف من الأعيان يرتدى الزى العربى ، وهو شديد التمسك بدينه حتى لم يترك فرضاً واحدا من فروض اليوم الأربعة التى وجبت علينا ونحن فى مجلسنا ذاك دون أن يقوم به فى وقته . وكان على جهله المفترض باللغات الأجنبية يفاجئنا بين الفينة والفينة بتعابير (فرنسية) ظريف ينطقه نطقا فنيا سليما يقع فى السمع كأحلى ما يقع كلام أهل باريس . وناهيك بشيخ سنى ممن يرخون لحاهم ويطلقون عذباتهم وهو يتكلم بهذا اللسان الفرنسى اللطيف .

ولست أنسى كيف أنه — حين اشتد الجدل بيننا وبين الشاب الأول الذى ذكرت لك قصته فى صدر هذه الرسالة — كيف أنه ظل يناقشه ويحاوره ، والفتى يحاول أن يرد على كل اعتراض يثيره فى وجهه . وأخيراً ضاق به صاحبنا الشيخ وصاح فيه قائلا :

— يا ابنى قلنا لك أمبوسيبل ! Impossible .

فلقد صدرت منه هذه الكلمة فى موضع لم يكن أحد منا يتوقع صدورها من مثله ، فكانت مفاجأة جميلة أحدثت فى نفوسنا جميعاً أطيب الأثر .

كما أنى لا أنسى — ونحن نقوم بعملية إحصاء الأصوات — كيف كان يختم كل عملية يتمها بقوله : جوست ! juste . فكانت هذه اللازمة الظريفة بدورها موضع التفكهة والتندر طول مدة الفرز الشاقة المضنية .

ومع ذلك فإن عمليتنا لم تكن « جوست » تماما عند

ختامها. فقد ظهر نقص صوت واحد من الأصوات التي أخذناها. وبقيت ورقة هذا الصوت ضائعة لا نجدها، مع أن الثابت في الكشوف التي بين أيدينا أننا أثبتنا صوت صاحبها. وكان هذا الصوت الواحد سبباً في إعادة عملية «الجرد والإحصاء» كلها من جديد. فقمنا وأقبلنا على هذا العمل المعاد كارهين متذمرين. ومنا من أخذ الكشوف ليراجعها، ومنا من قام إلى أوراق الأصوات التي لم يحضر أصحابها ليحصيها. واختص آخرون بأوراق الأصوات التي استعملت، وعمد آخرون إلى غيرها، وهكذا. أما صاحبنا الشيخ فإنه رأى أن يتخلى عنا في ساعة محنتنا، واستأذن في القيام لصلاة العشاء. ثم انتحى ناحية من القاعة التي نحن فيها، وشرع يصلي...

وبينا نحن غارقون في عملنا الثقيل، وقد حلّ علينا تعبُ النهار وهمُّ هذا الصوت الضائع، إذ صاح من أعضاء اللجنة صائح يقول:

— ها هو الصوت الضائع!

فنظرنا إليه في لهفة، فإذا هو يشير بأصبعه إلى صاحبنا الشيخ وهو في سجدته الأخيرة، وقد ظهر الصوت لاصقاً بملابسه من خلف. فلم نتمالك أن قهقهنا جميعاً ضاحكين، حتى لقد أوشكنا بعملنا هذا أن نخرج الرجل من صلاته...

أما كيف لصق به هذا «الصوت» على هذه الصورة العجيبة فقد تذكرنا ونحن في نوبة الضحك التي استولت علينا أننا كنا عند «فرز» الأصوات نرص أوراقها الصغيرة بعضها فوق بعض على المائدة التي أمامنا. فكانت بعض «الأكوام» إذا بلغت حدها من العلو تأبى إلا أن تنهار، فنعود إلى رصها من جديد خشية اختلاطها. ونظراً لخشونة الورق وصلابته فإنه كان ينفر ولا يرسب بعضه فوق بعض كما هو الحال في الورق الناعم الخفيف.

فقام صاحبنا الشيخ إلى هذه الأكوام العالية فرصها فوق كرسيه ثم جلس فوقها ليكون تحشم وتستقر. ولما جاء دور الإحصاء أخرجها من تحته أكداساً مكبوسة مستوية. وبقي هذا الصوت لاصقاً بثيابه لأمر لا يعلمه إلا الله، حتى انكشف أمره أخيراً على هذه الصورة التي رويتها لك.

فهلك واجد يا صديق في هذه الصور التي سقتها إليك أشباهاً لها صادفتك حين كنت تشترك في العمليات الانتخابية السابقة، فتستعيد ذكراها وتحيا لحظاتها السعيدة مرة أخرى. والسلام عليكم ورحمة الله». اهـ.

(طبق الأصل) ع . ج

شمس الشتاء

شمس الشتاء ربيعي — ومتعتي في الشتاء
الزهر والماء عندي — في دفئها والسناء
إذا جلست إليها — نسيت برد المساء
وخلت نفسي بدنيا — فسيحة الأرجاء
دنيا رؤى وخيال — وذكريات ظماء
تطيف بي حائمات — مع السنى الوضاء

* * *

شمس الشتاء وداد — يحب من ذُكاء
وحكمة بعد نأي — في الأرض أو في السماء
أشعة من حنان — وألفة ورضاء
تحف بي ثم تطفو — في لجة اللألاء
كأنما أنا خيط — في نسج هذا الضياء
فلا أرى غير طيف — أنا وشمس الشتاء

محمد طاهر الجبلاوي

فى المكتبة العربية :

١ — سعد زغلول من أقضية

هذا الكتاب الجديد للأستاذ عبده حسن الزيات يضيف إلى المكتبة العربية لونا جديدا من ألوان التراجم ، ألفناه عن الشعراء وعن الأدباء ، ولكننا لم نألفه بعد عن العظماء ، وهو يسد نقصا بينا فى تاريخنا القومى ، هو تقصيرنا فى استيفاء دراستنا عن حياة سعد زغلول وأعماله . فالأستاذ الزيات قد اختار ناحية من هذه الحياة وتلك الأعمال ، هى الحياة القضائية والأحكام التى أصدرها خلال هذه الحياة .

ولقد يبدو لمن يقرأ عنوان هذا الكتاب أنه دراسة قانونية تهم رجال القانون ، وإنه لكذلك . ولكنه ، إلى جانب ذلك ، دراسة أدبية ، وإلى جانب ذلك أيضاً قطعة أدبية ليس موضوعها سوى أحكام سعد التى أصدرها وهو فى سلك القضاء منفرداً أو مع زملاء له . فقد تناول الأستاذ الزيات هذه الأحكام بالتحليل فى أسلوب الأديب الذائق الدقيق الاختيار ، واستشف من خلالها مكونات شخصية سعد زغلول ومقومات خلقه ، واستعان بموازين النقد فى إصدار آرائه ؛ فكان كالناقد الأدبى الذى ينقد شاعراً أو يترجم له ، يحقق ما ينسب إليه ، فإذا ما أثبته عاد فاستشف شخصيته من خلال ما قاله من شعر أو نثر .

ويبدو أن مابذل المؤلف من جهد فى المحاولات التى اتبعها فى دراسته ؛ فهو قد استخلص الأحكام التى أصدرها سعد أو شارك فى إصدارها . أما الأولى فقد عالجها علاجاً طريفا لم يكتف فيه ببيان قيمة الحكم أو تمشيه مع القانون أو تعارضه معه ، وإنما رجع إلى الحيثيات فعرض مافى عباراتها من أصداء لنفسية سعد ولتفكيره . وأما الثانية فقد سلك بإزائها سبيل البحث العلمى ، مستعينا بالمنطق ومميزات الأسلوب والصفات الخاصة لكى يكشف عن أثر سعد خالصا فى إصدار هذه الأحكام وفى صياغتها ؛ وربما كلفه ذلك أن يدرس أكثر من قاض متبما إياه فى عدة أحكام لكى يخرج إلى تمييز أثره فى حكم واحد من أثر سعد ؛ ولا يحجم فى سبيل تقصيه من الاستعانة بالمعاصرين من أقران هذا القاضى أو ذاك ، ليصل إلى غايته ، إلى جانب البحث فى المراجع وفى مجموعات الأحكام .

ذلك العناء الذى بذله الأستاذ الزيات لم يذهب عبثا ، فهذا الكتاب الضخم الذى ضم بين دفتيه مجهوده الرائع خليق أن يرضى الأدباء ورجال القانون على حد سواء ، وخليق أن تطمئن له نفوس الناشئة حين تلمس فى صفحاته قصة قاض فى أحكامه ، وأخلاق زعيم فى آرائه ، وهو بعد ذلك رسالة قيمة توفرت فيها طرائق البحث العلمى ودقته ونزاهته .

٢ — أغاريد ربيع

قراء الثقافة ولاشك يذكرون الشاعر الشاب المرحوم فؤاد بليبل ، فقد قرأوا له على صفحاتها قصائد رائعات تنم عن مستقبل باهر . ويبعث على الأسى أن يفتقد صاحبها فى ريعان العمر ونضرة الصبا . ولعلهم حين يذكرونه تخطر فى أذهانهم زهرات الربيع التى تذبل وهى أنضر وأبهى ما تكون .

هذه إذاً هى زهرات الربيع ، مجموعة شعر الشاعر الشاب التى صدرت حديثا بفضل عناية السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى وأريحيتها ، وبفضل وفاء الشاب الأديب « ميشيل قسطندى » قريب الفقيد وصديقه ، تصدر فى مستهل الربيع بعد أن حال الحول على يوم الشاعر ، بعنوان « أغاريد الربيع » ، فتعيد إلى الأذهان ذكراه القريبة ، وتجدد الأسى فى فقده ؛ ولكنها تبعث على العزاء

عما تحمل من أثر طيب له ؛ فهي تحوى ما قال من شعر خلال حياته القصيرة . وقد قدم لهـا الأستاذ الشاعر على محمود طه بمقدمة موجزة من حياة الشاعر ، كما ضمت مجموعة مما قيل فيه من مراث لكثير من الأدباء والشعراء .

رحم الله الشاعر وأحسن الجزاء لمن وفوا له فساهموا في إخراج هذه المجموعة .

٣ — ٨٩ شهراً في المنفى

هذا هو الكتاب الثاني من مذكرات الأستاذ محمود حسن العراقي عن الفترة التي قضاها في منفاه ، وقد لقي كتابه الأول من الرواج ما دفعه إلى إعادة طبعه ؛ وفي الحق أن هذه المذكرات على بساطتها طريفة لما تمتاز به من حرارة وصدق ، وهي أقرب إلى العمل الفني منها إلى الكتابة الأدبية ؛ فصاحبها يرسم صوراً سريعة خاطفة ؛ ولكنها دقيقة ناطقة ، ينتقل خلالها بالقارئ من بلد إلى بلد ، ملماً في إيجاز بالحياة الاجتماعية في مختلف البلدان التي زارها ، معنياً بتصوير ما لقي من أزمات ومحن متتالية ، تصويرا عاطفياً يحاول أن يخفيه بألوان من السخرية لا تعدو أن تكون ستارا شفافاً ينم عن نفس حساسة متألمة مهتاجة .

وليس المؤلف دخيلا على الحياة الأدبية ؛ فهو صحفي مارس الصحافة ولا يزال يمارسها ، وأديب ظهرت له إلى اليوم عدة كتب ، لعل أهمها ترجمته لكتاب رمزي ماكدونالد عن الحركة الاشتراكية وترجمته لقصة كنوت هامزون الرائعة « الجوع » ، ومجموعة مقالاته .

وتبلغ عدة صفحات هذه المذكرات ١٤٤ صفحة .

٤ — المغامر المرموقة

هذه قصة للأديب عبد السلام محمد شحاته الطالب بكلية الآداب ، وهي كما يعبر عنها الأستاذ محمد مندور في مقدمته لها « صورة نفسية محيرة المعالم كالحالة التي أوحت بها ، وقد امتزجت بها خواطر متناثرة بعضها خيال محض وبعضها أفكار مجردة ، يمر بها الكاتب وكأن قد ألهبته نزعات متضاربة لم تترك لنفسه قرارا إلا أن يبلغ الشوط مداه . ومن ثم كثر التساؤل وطار الجواب ، وفي هذا ما يغرى بالمضي فيها » .

وفي الحق أن في هذه القصة ما يغرى بالمضي فيها ، فهي باكورة طيبة لكاتب يخطو مستندا إلى الاطلاع والفهم الصحيح ؛ ومن ثم فهو حقيق بالتشجيع وحقيق قبل ذلك بعناية من يتولون إرشاده .

٥ — السينما معجزة القرن العشرين

وضع هذا الكتاب الأستاذ محمد عبد القادر المازني ، وهو يبسط فيه نشأة فن السينما منذ اختراع آلة التصوير العادية إلى اليوم ، باسطا التطورات التي مرت بها هذا الفن ؛ فهو بذلك يؤدي خدمة لعشاق هذا الفن ، إذ يكشف لهم عن العقبات التي تعترض سبيل العاملين فيه ، وينير لهم السبيل بما يقدم من آراء لرجال هـذا الفن من مديرى شركات ومخرجين ونجوم .

وقد طبع هذا الكتاب طبعاً أنيقاً ، وحلى بالصور التي تتصل بتاريخ السينما وأبطالها ، وتبلغ عدة صفحاته ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط .

صموع الدين زهني

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٧١ — الثلاثاء ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٦١ — ٧ من أبريل سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العــــــــدد

فى تطورات الحـــــرب

للدكتور محمد عوض محمد

الحرب ظاهرة بشرية ، ابتدعها الانسان ولازمته فى جميع العصــور . وقد تطورت الحرب كما تطورت سائر شئون الانسان ، أى انتقلت من طور الى طور . ولقد كان الكتّاب فيما مضى يعبرون عن معنى التطور بعبارة « النشوء والارتقاء » . وليس أدل على فساد هذا الاصطلاح مما نشاهده فى الأطوار المختلفة للحروب على مدى الأجيال . فلقد انتقلت الحرب حقاً من طور إلى طور . ولكن من ذا الذى تبلغ به الجرأة أن يزعم أن هذا الانتقال ينطوى على ارتقاء أو ما يشبه الارتقاء ؟

لننظر لحظة فى النواحى المختلفة التى يشتمل عليها هذا التطور ، تاركين جانباً تلك الحروب التافهة التى تنشأ بين الجماعات البدائية فى عصور الجاهلية ، وقاصرين تأملنا على حرب المدنية والمتمدنين ، منذ أن وجدت على الأرض حضارة ومدنيــة . ومع التسليم بأن الحرب الحديثة تشتمل على كثير من عناصر الحرب القديمة ، فاننا مع ذلك نرى اختلافات جوهرية فى النواحى الآتية :

وأول ما يروعنا فى الحرب الحديثــة العدد الهائل للقوات المقاتلة ؛ فقد كانت الجماعات المحاربة إلى وقت قريب ، طوائف محدودة العدد ، ينزل بها القائد إلى الميدان ، ويلاقى بها العدو فى رقعة محدودة من الأرض . وكانت هذه الطوائف فى العادة ممن اتخذوا الحرب حرفة ، ولا يكاد أن يكون لهم غرض ينشدونه سوى القتال من

أجل القتال ، وكثيراً ما التحقوا بقائد ليس منهم ، أو بجيش غريب عنهم ، ويقال في هـذا إن نابليون الأول كان في زحفه على روسيا يقود جيشاً جله من عناصر غير فرنسية ، وقد انضوى تحت لوائه عدد كبير من محبي الحرب والمغامرة ، سرهم أن يخوضوا غمار الحرب بقيادة قائد عظيم ، يستطيعون بواسطته أن يشبعوا شهوتهم في الحرب والقتال .

أما اليوم فقد حلت حرب الشعوب محل حرب الطوائف ، وابتدعت الحكومات التجنيد الاجبارى ، الذى يجعل من كل فرد من الأمة جندياً محارباً . وأصبحت الجيوش تعد بالملايين بدلا من الآلاف ! ولم يعد الغرض المنشود من الحرب أن يوسع أمير رقعة ملكه ، بل أن يقهر شعبٌ شعباً آخر ، ويسخره لإرادته ورغباته . وقد استتبع هذا التطور الهائل في عدد المحاربين أن يزداد عدد ضحايا الحرب زيادة شديدة الهول . ففي الحرب العالمية الماضية أزهقت أرواح بضعة عشر مليوناً من الأنفس ، عدا الملايين العديدة ممن غادرتهم الحرب يشكون عاهة لعل الموت أفضل منها .

وبازدياد الجيوش ، اتسع ميدان القتال اتساعا هائلا ، وبدلا من أن يلتقى الجمعان فى رقعة ضيقة المدى ليقتتلوا فيها ، أصبح الميدان عبارة عن الجبهة الواسعة التى تفصل بين القطرين المتحاربين ، بل لقد شاهدنا فى الحرب الماضية وفى هذه الحرب ، أن يعمد أحد الفريقين إلى توسيع ميدان القتال ، باكتساح قطر محايد ، وإقحامه فى الحرب إقحاما ، وبذلك نرى الميدان الغربى فى أوربا قد بلغ زهاء ألف ميل ، وفى روسيا تجاوز ألفين من الأميال .

ولعل أشد مظاهر الحرب الحديثة هولا وروعا ما طرأ على عدة المحاربين من تطور جليل . وكثير منا يذكر فى شىء من الحسرة والألم أولئك المحاربين القدماء الذين كانت عدتهم ، الرمح والسيف والسهم والقوس يعززها الساعد القوى والروح الجرىء ، يوم كان العدو يبرز لعدوه فى العراء ، غير مستتر بصخر أو خندق ، يوم كانت عدة الجندى ما اعتاد حمله من سلاح سهل يسير ، هو شارته وقت السلم ، وأداته وقت الحرب . أما اليوم فان عدة الحرب وليدة العلم الحديث ، وقد تضخمت هذه العدة واشتد فتكها ، وبات من الواجب أن تنشأ المصانع العظيمة لانتاجها ، وأن يكون وراء كل جندى فى الميدان ، ستة أو سبعة من العمال رجالاً أو نساءً ، لكى يعدوه بتلك العدة الجهنمية ، ولكى يجددوا تلك الأسلحة حين تبلى ، ويمدوها بالقذائف تغذية متصلة لا تنقطع . أجل ويجب أن تصل تلك المصانع الليل بالنهار فى الانتاج الدائب ، ويجب أن تظل آلاتها تعمل فى كل حين من غير ملل أو كلال . ولقد يستحدث سلاح جديد ينسخ سلاحا قديما ، فسرعان ما تقام المصانع الجديدة لاستبدال الحديث بالقديم ولمجاراة المبتكرات والمخترعات .

ولا بد لتلك المصانع من وقود ومعادن وفلزات ومواد مما ينتفع به الناس عادة فى زمن السلم لكى يستكملوا مظاهر الحضارة والرخاء . فتضطرهم الحرب الحديثة أن يجتزئوا بالقليل اليسير من الزاد واللباس ، لكى تستطيع تحويل المواد الأولية نحو المصانع التى تعمل للحرب وتخدم المقاتلين فى الميدان .

ولسنا بحاجة إلى أن نفصل القول عن عدة الحرب الحديثة وما اشتملت عليه من آلات ضخمة هائلة ، منها الزاحف على وجه الثرى ، والسابح فى جوف الماء ، والحالق فى جو السماء . وحسبنا أن نشير إلى نتيجتين خطيرتين لهذا التطور الحديث .

أولاهما زيادة الفتك والتخريب وإزهاق الروح . فى زمن وجيز جدا يفنى فى الحرب الحديثة من الأنفس أضعاف ما كان يفقد من قبل على مدى الشهور أو السنين . ولقد ذكرت الأنباء أن الذين هلكوا فى الميدان الروسى

وحده في ستة أشهر يزيد على ما فقد في هذا الميدان في ثلاث سنين في الحرب الماضية ، وإذا كان في هذا التقدير بعض الإسراف ، فانه ليس شديد البعد من الحقيقة .

وبفضل هذه المدمرات السريعة أصبح من الممكن أن تشهد ما يسمونه الحرب الخاطفة ، وهي التي أريد منها أن تخرب وتدمر وتهلك في فترة قصيرة من الزمن ، ما يكفي لاكتساب نصر شامل سريع . وقد لقيت الحرب الخاطفة نجاحاً بيناً في الميدان الغربي ، وفي ميدان البلقان ؛ ولكنها لم تأت بالنصر الكامل في ميادين أخرى . ولهذا طالت الحرب ، وأوشكت أن تتم عامها الثالث . . . ولهذا ستؤدي هذه الحرب إلى تخريب وتدمير أشد هولا وأوسع مدى من الحرب العالمية الماضية .

النتيجة الثانية لتلك المبتكرات الحربية أنها لا تتناول المحاربين في ميادين القتال بالتدمير والهلاك وحدهم ، بل تتجاوزهم إلى المدنيين القابعين في عقر دورهم ، وإلى النساء في خدورهن والأطفال في مهودهم . . . فأصبح ميدان الحرب هو القطر كله بمدائنه وقراه ، ومنازله ومصانعه . وكما أن الشعب أصبح كله يحمل عبء الحرب ، كذلك بات ميدان القتال القطر كله الذي يسكنه ذلك الشعب .. ولقد أتى على المحاربين حين من الدهر كانوا يفخرون فيه بما يسمونه الشرف العسكري ، الذي يحول بينهم وبين إيذاء الضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال ، ويحملهم على أن يحترموا المستشفيات ومركبات الصليب الأحمر . أما اليوم فان المحارب كثيراً ما يلقي بقذائفه على أغراض لا يكاد يتبينها . ومن العبث أن يطالب بتسديد قذائفه ، وهو كثيراً ما يطير في سواد الليل البهيم . وطالما أخطأ الهدف حتى أصاب بقذائفه بلاداً ليس بينه وبينها حرب ، بل قد تكون بينها وبينه صداقة ومودة .

وقد استتبع هذا التدمير الهائل أن كثيراً مما شيدته الحضارة من آيات الصناعة والفن قد زال من الوجود في مثل لمح البصر ؛ فمن أكبر ما استحدثه الانسان على سطح الأرض ، تلك المدن العظيمة الشاهقة القصور ، وقد أغمض الناس عيونهم على مدن عامرة مثل وارسو وروتردام وبلغراد ، ثم فتحوها فاذا شطر عظيم منها بات أثراً بعد عين ، فاذا الخرائب والأنقاض هي كل ما بقي من عجائب الفن وبدائع العمارة .

* * *

وهنالك طور آخر من أطوار الحروب الحديثة يستحق ذكراً خاصاً . وقد كان لهذه الظاهرة شأن خطير في الحرب الحاضرة ، وربما كانت أغرب شيء فيها . وليست تلك الظاهرة بالشيء الجديد الذي لم يكن معروفاً من قبل . ولكنها في هذه الحرب قد نظمت ببراعة وإتقان ، وكانت عاملا من أكبر العوامل خطراً وأبعدها أثراً : تلك الظاهرة أن تحارب عدوك من داخل أرضه ، فلا تكتفي بمهاجمته من وراء حدوده ، بل تشن عليه الحرب من باطن حدوده ، وذلك باعداد النزلاء والسائحين والخائنين من أبناء البلاد إعداداً كاملا ، بحيث لا يأتي يوم الروع حتى ينهضوا لكي يطعنوا الجيش المدافع في ظهره ، وقد أثبتت هذه الحرب أن ضربات العدو الباطني أشد فتكا وأبلغ تأثيراً من طعنات العدو الظاهري ، وأن التعاون الوثيق بين الضربتين يأتي بأسرع النتائج الحاسمة .

وقد استطاعت ألمانيا أن تستغل هذا السلاح الخطير أبلغ استغلال ، فكان لها الأعوان والأنصار في جميع الأقطار المجاورة لها ، لا يستثنى من ذلك فرنسا نفسها ، وبريطانيا لو لم تتخذ لدرء هذا الخطر أشد الحيطة في الوقت اللازم . وبفضل هذا السلاح استطاعت ألمانيا أن تستولى على هولنده ، وأن ترسخ قدمها في نرويج في بضعة أيام .

ثم جاءت اليابان ، فاذا هي تكاد أن تبز ألمانيا في هذا السلاح الخطير ؛ وقد طالعتنا الصحف في الأيام الأخيرة بأنباء الخائنين من سكان برما ، الذين استطاع

اليابانيون تجنيدهم ، وإقحامهم في هذه الحرب . ولقد كان معقولا أن يتصور المرء جهود الألمان في بث تلك الجماعات — التي لا يقيها اسم الطابور الخامس حقها — في أقطار قريبة مثل هولنده وتروج . ولكن اليابان أبعدت مرماها ، ووسعت أفقها ، حتى بلغت به إلى رما التي تبعد عنها آلاف الأميال ، والتي لم يكن أحد يقدر أنها ستستطيع الوصول إليها . ومع ذلك فقد عنيت دولة الميكادو بإعداد هذه الطوابير وتنظيمها منذ عهد طويل من غير شك ، في الوقت الذي لم يكن أحد يجرؤ أن الاغارة على رما جزء من البرنامج الياباني .

وقد كانت الولايات المتحدة خاصة وأمريكا عامة ، ميداناً خصباً لهذه القوات الباطنية من الألمان واليابان ، وقد سمعنا بالحوادث الروعة التي كان من نتائجها تدمير الكثير من مصانع الأسلحة والذخيرة .

وفي أمريكا من المهاجرين من رعايا برلين وطوكيو عدد كبير جداً ، وقد ابثوا في أنحائها وتغلغلوا في كل جزء منها . وقد سمحت حكومتها الحرة لهؤلاء أن يعيشوا ويتنقلوا من غير حرج أو رقابة . فلم يألوا جهداً في الانتفاع بهذه الفرصة المتاحة .

والسلك السياسي والقنصلي ورجاله حرمة ومزايا حرصت حكومة أمريكا على رعايتها أشد الحرص وحافظت عليها كل المحافظة . وقد انقلبت دور القنصليات إلى مراكز لتجنيد أولئك المهاجرين العاملين وتنظيمهم وتوجيه نشاطهم ، وفي مياه أمريكا أسطول عظيم من سفن الصيد اليابانية ، صح له في الماضي أن يلجأ إلى الموانى ، وأحواض السفن ، وأن يراقب في هدوء وصفاء جميع الاستحكامات ومخازن البترول ، وحركة السفن الحربية . وقد كان من الغريب أن سفن الصيد هذه كثيراً ما يحلو لها الصيد في الجهات التي تقام فيها المناورات البحرية ، وقد ثبت أن أكثر الملاحين فيها من رجال البحرية اليابانية .

وقد صنعت زوارق الصيد هذه على طراز عجيب ! فهي قادرة على أن تقطع ستة آلاف من الأميال ، مجهزة بآلات للإذاعة ، ولسبر غور البحار بالجهاز الصوتي وبأنوار كشافة قوية ، ومن الممكن تحويلها في وقت وجيز إلا سفن تبث أو تكسح الألغام ، وقد أعد فيها مكان يتسع لأربعة طوربيدات ، وتستطيع كل منها أن تحمل تسعين لغما .

وقد وقعت في أيدي رجال الحكومة الأمريكية وثيقتان على جانب عظيم من الخطر : الأولى وصف دقيق لكل سفينة أمريكية في كتاب مطبوع يشتمل على بضع مئات من الصفحات ، وكل وصف مشفوع بالصور الشمسية الدقيقة . والثانية خريطة تفصيلية للتحصينات الساحلية في الولايات المتحدة وجزر هاواي . وتشتمل على رسم دقيق جداً لتشكيلات الأسطول الحربي في المحيط الهندي . والمفروض أن هذا من الأسرار الحاطة بكل تكتم شديد .

ولقد رأينا هذا الاستعداد الياباني العجيب يثمر تلك الثمرة المدهشة في ميناء پرل ، وما دمر فيها من السفن والأنفس ما بين عشية وضحاها .

• • •

وهكذا نرى الحرب في طورها الحديث ، وبعض أشكالها بعيد كل البعد من مظاهر الشرف والنبل ، قد أغرقت النوع البشري في حمأة من الشقاء والدنس ، ومن العبث أن يقال عنها إنها ترجع بالعالم القهقرى ، فليس في التاريخ البشري بلاء أو شقاء كالذي يعانيه الناس اليوم ، ولئن لم يبتكر الانسان وسيلة يقضي بها على الحرب ، فان الحرب كفيلة بأن تقضي عليه .

محمد عوض محمد

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

أمريكا تقتحم أبواب اليابان

وقف الرُّبّان أميرُ البحر على جسر القيادة من سفينته يتأمّل ما بدا من الساحل على ضياء الصبح الطالع . فبدا له ساحل تَكَنَّفه جبال تَركّب أعاليها الأشجار . وتكاد الخضرة تكسو أسافلها حتى حافة الماء . وزاد الصباحُ طلوعا فزادت الأشياء في العين اتضاحا ، فبدا على تلك السفوح النائية الصامتة فُسحات في الأرض تعرّتْ من الشجر المطبوع ليحلّ محلها النبْت المصنوع مما غرست يد الانسان . وتابعت السفينة مجراها في صمت في محاذاة هذا الساحل ، وحولها توابعها الثلاث يرَ ايقنهم ، وقد استعد رجالها أجمعين لملاقاة العنف بالعنف إنْ عنفٌ كان . فقد كانت هذه السفن الأربع تمهّلت وقتاً طويلا على ساحل الصين تتأهب لهذه الرحلة الأخيرة الخطيرة من رحلتها ، وتجمع لها ما استطاعت من سلاح وعتاد ، وتفعل هذا في وَضَح النهار في غير مواربة أو خفاء . فلا بد أنّ خبرها كان سبق إلى هذا الساحل ، ساحل اليابان ، حمله إليها ذلك النفر من الصينيين الذين كان يؤذن لهم بالدخول إليها والاتجار فيها على تلك الجزيرة الصغيرة من أرضها بالقرب من نجَزاكي .

ولم يكن أمير هذا الأسطول — واسمه الكومادور بيرى Commadore Perry — يطلب في الواقع حرب اليابان . وكيف يطلب حربهم وهو يحمل في مخدعه من السفينة صندوقا جميلا من الذهب بلغت كلفته ألفا من الريالات ، تضمّن خطابا رقيقاً من رئيسه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يتوجه به إلى امبراطور اليابان يطلب فيه صداقته ، ويخطب ودّ أمته . وكيف يطلب الكومادور حربهم ، وهو قد حمل في سفينته غير هذا الخطاب هدايا أشكالا وألوانا ، يُتحف بها كاهلٌ عظيم كاهلا عظيما . وهي عدا هذا عربون الودّ ، ومثَلٌ مما قد تجنيه اليابان من الخير لو أنها رضيت بالمتاجرة وفتحت أبوابها للتعامل إما بيعاً وشراءً وإما مقايضة .

وقف الرُّبّان أميرُ البحر على جسر القيادة من سفينته يتأمل ساحل هذه الأرض الحرّمة التي لم تطأها قدم أمريكي قبله ، ويفكّر فيما عسى أن يجد فيها ، لا سيما فيما عساه أن يفعل إذا لم تلقه البلاد بالترحاب ، وهو غير مأذون بحرب ، ولو أنه غير ممنوع من دفاع . أما الحرب فقد أُفهم صريحا أن رئيس الولايات الأمريكية لا يستطيع أن يعلن الحرب من تلقاء نفسه ، وهو لابد راجع فيها إلى مجلس الشيوخ من أمته لإعلانها . وهو لم يفعل ، ولم يرَ باعثا على أن يفعل . كذلك جاءت مقاصد أمريكا من هذه البعثة صريحة في كتاب رئيسها إلى وزير دفاعها . فقد جاء في هذا الكتاب أن مقاصدها ثلاثة :

أولاً — الوصول إلى اتفاق دائم تكون من نتيجته حماية من يرتطم على ساحل اليابان من أمريكيين ، أو من تضطره منهم قسوة الأجواء إلى دخول موانيها . وكذلك حماية ما قد يكون معهم من متاع .

ثانياً — الاذن للسفن الأمريكية بالدخول إلى ميناء أو أكثر من موانئ الأمة اليابانية لتتموّن فيها بالطعام والماء والوقود وأشباهها ، أو لتصلح ما قد يصيبها من كوارث البحار .

ثالثاً — الاذن للسفن الأمريكية بالدخول إلى ميناء أو أكثر من موانئ الأمة اليابانية تستبدل بما تحمل من بضائع بضائع أخرى أو مالا نقداً .

فمن أجل هذه الثلاثة المقاصد الصريحة الواضحة ، لم

يكن لرب هذا الأسطول إلا السالة سبيلاً . ولكن المسالمة لم تنفع قدماً فى اليابان . فنى عام ١٨٣٧ حملت سفينة أمريكية تدعى موريسُن Morrison ، جماعة من اليابانيين ارتطموا على ساحل أمريكا ، ساحل المحيط الهادى ، وجماعة أخرى منهم ارتطموا على جزر الفيليبين وتوجهت بهم جميعاً إلى اليابان فلم يؤذن لها بالبقاء ، ولم يؤذن لليابانيين بالنزول . وعمد اليابانيون المرفوضون إلى حلق ذوءوسهم إعلاناً للحزن على ما فاتهم من لقاء أهليهم ، وتطليقاً لوطن لم يعد لهم بحكم هذه القسوة المتناهية وطناً . وفى عام ١٨٤٨ سارت سفينة أمريكية أخرى إلى اليابان فى طلب أمريكيين ارتطموا بدورهم على ساحلها ، فلم يؤذن لركابها بالنزول ، وإنما أذن لهم باسترجاع المرتطمين من الأمريكيين .

وفى هذا العام ، عام ١٨٥٣ ، وجد رب هذا الأسطول نفسه يسير إلى نفس هذا الساحل الممنوع ، وليس معه تميلة يتملّق بها كالتى تملق بها سابقوه ، ولكن معه خير منها — خطاب صريح فى موضوع صريح ، وحول الخطاب مدافع تؤيده ، إن لم يكن بخبرها ، فعلى الأقل بظاهرها .

وكان هذا الصباح صباح اليوم الثامن من يوليو . فلما انتصف نهاره ، بلغت السفن رأس ساجامى ، وهو رأس فى مدخل الخليج إلى عاصمة اليابان ، يدُّو Yedo عاصمة الشوجن ، أى عاصمة الحكم الفعلى فيها . فظهر على الساحل القريب ما فيه من حقول خضراء ، وما فيه من بساتين غناء . وفى الأفق البعيد تراءت الجبال عالية رفيعة . ولم يكد الأمريكان أن يقتربوا من هذا الرأس الأرضى حتى خرج لهم منه عشرة من القوارب تعترض سبيلهم ، ولكنها لم تستطع أن تلحق بهم ، فخلفوها وراءهم بعيداً . ودخل الأسطول الخليج المظيم ، فحاد إلى يساره ، حتى إذا بلغ مدينة أوراكاوا ألقى مراسيه بالقرب منها . عندئذ سمعت ثلاثة مدافع تنطلق من الشاطئ ، وخرج منه على أثر ذلك قوارب أربعة يقوم على التجديف فيها رجال عُرى ، لهم جسم سوى ، وعضل قوى ، وهم يتصايحون إذ يجدفون . وفى مؤخرة كل قارب علم ذو ثلاثة أزياق ، زيق أسود فى أوسطه ، وزيقين أبيضين على جانبيه . ووقف إلى سارية العلم رجال أربعة فى لباس حسن ، وقد حمل كل منهم سيفين . واقتربت القوارب من سفن الأسطول ، وجرى الحديث بين القومين فكان نقاشاً طويلا منع فيه الأمريكان اليابانيين من الصعود إلى سفنهم إلا أن يكون فيهم من هو فى مرتبة رب الأسطول ، الكومادور برى ، حتى يلتقى ندٌّ بندّ . ولم يكن بين اليابانيين إلا ذو المقام الثانى فى المدينة . وانتهى النقاش إلى أن صعد هذا تمهيد اللقاء الواجب . فلما صعد لم يقابله الأميرال نفسه ، وإنما دفع إليه بوكيله . فأفهمه الوكيل الغاية من قدومهم ، وأنه خطاب حلوه من رئيس دولة إلى رئيس دولة لا بد أن يتسلمه رجل فى الدولة اليابانية نابه كبير المقام . وأفهمه أنه لا جدوى من اللجاج . وأخذ الضابط اليابانى يستفسر من الأسطول من أين جاء ، وكم به من الرجال ، فقطع عليه الأمريكى استفساره ، واسترفع سؤاله ، وأفهمه كذلك أن من الوقاحة أيضاً أن تبقى هذه القوارب اليابانية الصغيرة حول الأسطول تخفره على عادة اليابانيين ، وأن الخير كل الخير فى صرفها . وأراد الضابط أن يعطى الأمريكى صوراً مطبوعة بالهولندية والفرنسية والانجليزية لايضاحات جرت العادة بتسليمها لكل سفينة أجنبية تأتى ساحل اليابان . فرفض الأمريكى أخذها .

عندئذ رجع الضابط اليابانى إلى قاربه ، وانصرفت القوارب ، ولكنها بقيت تخفر من بعيد . وبعد ساعة

عاد الضابط اليابانى يقول إن رئيسه يعتذر عن تسلم الكتاب ، وإنه يشك فى أن يكون للكتاب جواب ، وأن نجزاكى هو الميناء الوحيد الذى تدخله سفن أجنبية . فقيل له فى غير إطالة ، إن كان هذا هكذا ، فسيشق الأسطول طريقه فى الخليج إلى أبعد مما فعل ، وسيقوم الأسطول بتقديم الكتاب بيد رجاله عند ساحل العاصمة . عندئذ اضطرب الضابط ، وسألهم أن يرجئوه إلى الغد ، ففعلوا .

وخيّم الليل . وتقمّص البحارة اليابانيون بعد عُرْى ، وتزيّنوا بملابس زرقاء ازدانت بأشرطة بيضاء وحمراء ، وبشارات سوداء ، تُفصح بألوانها وأشكالها عن مراتبهم . والضباط منهم غطّوا رءوسهم بأغطية جميلة زانها طلاؤها ، وشارة الرتبة فيها وهى من ذهب فى مقدمتها .

والساحل انطمس بدخول الظلام ، إلا من نيران أوقدوها للخفارة على طوله ، وسكون الليل ساد إلا من أجراس أخذت تدق كل ساعة فتردد أصداؤها إلى السفن الراسية فى السواد المخيّم عَبْرَ الماء والهواء .

وأصبح الصباح فجاء إلى الأسطول حاكم البلدة نفسه وأخذ بدوره يعتذر عن تسلّم الكتاب . ثم عاد بعد أخذٍ وردٍّ يطلب المهلة حتى يتصل بالعاصمة . فضربوا له أجلا ثلاثة أيام .

وبقيت السفن هذه الثلاثةَ الأيام تَسْبُر قاع البحر فى هذا الخليج . وتقدّمت بهذا السبر نحو العاصمة أميالا ، وكلما تقدمت جاءها الحراس يعلنون رجالها بأن سبر البحر لا يجيزه القانون اليابانى . ولكن الرد كان دائما : ولكن القانون الأمريكى يجيزه . وفى عشية اليوم الأخير حضر حاكم البلدة مستبشراً ، يحمل إلى الأمريكيين خبراً يطيب به خاطرهم : أن الكتاب سيجىء لتسلمه كبيران من اليابانيين فى حفل مشهود . ولم يفته أن رجاهم أن يكفوا عن سبر الماء ، ولكنهم لم يستمعوا له .

وجاء يوم الحفل المشهود . فاختار اليابانيون له بقعة على نحو ميلين من تلك البلدة ، وحشدوا عند ساحلها عسكراً كبيرا بلغ خمسة آلاف . وأقاموا عليه بيتا عاجلا للقاء الأمريكيين . وانتظم الجند حول هذا البيت بالرماح وعليها الرايات فى حمرة وبياض . ومنهم من حمل البنادق ولكن من طراز قديم . والمدافع صففوها ، ولكنها كانت أحرى بالزينة منها بالإطلاق . والقوارب اصطفت فى الماء ووقف رجالها إلى سواريها فى أزهى ثياب . وصنع اليابانيون ما أمكنهم للظهور بالقوة والسلطان . وأوجس الأمريكان من هذا الظهر خيفة ، فاقتربوا بسفنهم وعليها الرجال ، ولكن عند مدافعهم ينتظرون الأمر بإطلاق النار إن كانت خيانة . ونزل من البحارة عدد عظيم فى نظام فخم ، ونزل الكومادور أميرُ البحر أخيراً . وساروا جميعاً بين الجند اليابانىّ إلى بيت اللقاء . وكان بيتاً اصطنعوه سريعا لهذا الحفل ، وأثثوه سريعاً . وسار الأميرال ورجال حاشيته من هذا البيت على بساط من قطيفة يؤدى بهم فى أقصاه إلى كراسى صُفّفت لهم على اليمين . وكان على يسارها كرسيان جلس عليهما أميران هما رسولا سيِّد اليابان فى استلام الكتاب . وكانا فى ثياب من الحرير أثقلَها وَشْيُ الفضة والذهب . ودخل الكومادور ، فقام الأميران فانحنيا انحناءة كاملة للقادمين ، ثم عادا فجلسا ، فجلس القوم أجمعين .

وظل الأميران طولَ الحفل فى مكانهما لا يتحركان كأنهما بعض الأصنام . وقام بين القوم الترجمان . فلما تسلم اليابانيون صندوق الذهب والكتاب الذى احتواه ، سلّم أكبرُ الأميرين إلى الترجمان إقراراً باستلامه . وكان كتابا باليابانية ، ترجمه الترجمان إلى الهولندية .

وجاء فى الكتاب :

أعمى يغنى . . . !

يا إلهى . . . علامَ كنتُ ضريرا
وأنا ما جنيتُ ذنباً صغيرا !
كلهم يعرفون كيف يسيرو ن ولكننى ضللت المسيرا !
ومكانى شبر . . . إذا قمت منه
كان حظى من القيام العثورا
لَعزيزٌ على أن أعبر الدنيا جريحاً منكداً مأسورا

* * *

ليتنى كنت كالعباد بصيراً لأرى الحسن مثلهم والنورا
وأرى فتنة الطبيعة والفجر وليد والطير يشدو حبورا
كم تمنيتُ يا إلهى . . . ولكن
غلبَ اليأسُ قلبىَ المفطورا
إيه يا خيمة الدياجى على صحبى
دعينى أسعدْ زماناً قصيرا !
الورى ضاحك يروح ويغدو
ويغنى نشيده مسرورا
وأنا واقف أداعبُ عكازى وأبكى محطماً محسورا
وصفوا خضرة الحقول وقالوا :
إنها تُبرِئُ الفؤاد الكسيرا
هكذا قيل . . . غيرَ أنىَ أعمَى
ليتنى كنتُ فى الحياة بصيرا ! !

* * *

الدجى مرعب . . . وحولى أوهام
تُعنّى فؤادىَ المحرورا !
وطريق معطَّل تعزف الجن
عليه نشيدها المسحورا
أينما سرتُ غاب عنى أمانى
وتَطلبتُ كل شىء عسيرا
هكذا قسمتى . . . فيا قلب صبرا
ويل نفسى ! والصبر كان مريرا

(دمياط) عبد العليم عيسى

« هذا إقرار منا باستلام خطاب رئيس الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية ، تسلمناه لترفعه إلى السدة الامبراطورية . . . وقد أخبرنا كم مراراً يامعشر الأمريكان أن المعاملات الأجنبية لا تؤدى فى هذه البلدة ، بلدة أوراكاوا ، وأن مكان أدائها ميناء ناجازاكى . ولكن ظهر الآن أن الأميرال - بوصفه رسول الدولة الأمريكية - يرى فى هذا سُبّة لنفسه وهواناً لسيده . وقد نظرنا فى الأمر فصوّبنا وجهة نظره ، وأقررنا عدالة مطلبه ، وعلى هذا تسلمنا كتابه نقضاً للقانون اليابانى . ولكن مع هذا ، فهذا المكان من اليابان لا يجوز أن تجرى فيه مفاوضة ، ولا يجوز أن يجرى فيه ترحيب وتكريم ، وإذاً وجب عليكم يا أهل أمريكا أن ترحلوا بعد تسلُّم كتابكم ، وأن ترحلوا توّاً » .

فأجاب الأميرال على هذا بأنه سيرحل ، ولكنه سيعود لاستلام الجواب فى أبريل أومايو . فسأله الترجمان : وتعود بهذه السفن مرة أخرى ؟ قال : نعم ، وبما كثر منها . ووقف الكومادور للرحيل ، فوقف الأميران ، ولم ينبسا ببنت شفة ، لا أوّلا ولا آخرا ، فلو أنهما وُلِدا أخرسين ما كانا أكثر صمتا .

(يتبع) أحمد زكى

في الأدب العربي :

٢ - المتنبي وسيف الدولة

اتصل المتنبي بسيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه الأول ، فأخذ يسجل أحداثه الحربية والمدنية تسجيلا أدبيا . فإن سجل المؤرخون الحقائق صرفة فالمتنبي يسجلها ممزوجة بعواطفه ومشاعره .

قد كانت هذه الفترة فترة غزوات متوالية من سيف الدولة للروم وللخارجين عليه من أقاربه وغيرهم ، فأخذ المتنبي يقول قصيدة لكل موقعة ، فقد ظفر بحصن برزويه سنة ٣٣٧ فقال المتنبي قصيدته :

وفاؤكما كالربعِ أشجاهُ طاسمُهُ
بأنْ تُسعدا والدمعُ أشفاهُ ساجمُهُ

وحارب سيف الدولة القرامطة هذا العام ، واستنقذ منهم عمه أبا وائل ، فقال المتنبي قصيدته :

إلامَ طماعيةُ العاذلِ
ولا رأيَ في الحبِّ للعاقلِ

وخرج هذا العام أيضاً لنصرة أخيه ناصر الدولة على معز الدولة الديلمي ، فاضطر معز الدولة إلى الصلح ، فقال المتنبي قصيدته :

أعلى الممالكِ ما يُبنى على الأَسَلِ
والطعنُ عندَ محبيهنّ كالقُبَلِ

واستعد لغزو الروم سنة ٣٣٩ وأعد جيشه ، فقال المتنبي قصيدته :

لهذا اليومِ بعدَ غدٍ أريجُ
ونارٌ في العدوِّ لها أجيجُ

فلما انهزم سيف الدولة في هذه الوقعة قال قصيدته :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ ينخدعُ
إن قاتلوا جبنوا أو حدّثوا شجعوا

وقال : إن سبب الهزيمة ما لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبناء ، وإن كل غزوة بعد هذه الغزوة فلسيف الدولة النصرة . لأن جنوده قد نُقِّيت من الأنذال ، ولم يبق فيهم إلا الأبطال .

وبنى سيف الدولة مرعش سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي قصيدته :

فديناكَ من ربعٍ وإنْ زدتنا كربا
فإنكَ كنتَ الشمسَ للشرقِ والغربا

وجاء رسول ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي :

لقيتَ العفاةَ بآمالِها   وزرتَ العداةَ بآجالِها

وبنى سيف الدولة ثغر الحدث سنة ٣٤٣ ، فقال فيه المتنبي القصيدة المشهورة :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ
وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وهكذا كان كل عمل حربي يأتيه سيف الدولة يسجله المتنبي ويفلسفه ويؤديه ، ويخرجه قصيدة رائعة .

وكذلك كان يسجل أحداث سيف الدولة المدنية ، فتموت أم سيف الدولة فيرثيها بقوله :

نُعِدُّ المشرفيةَ والعوالي
وتقتلُنا المنونُ بلا قتالِ

ويموت ابن سيف الدولة فيرثيه بقصيدة :

بنا منكَ فوقَ الرملِ ما بكَ في الرملِ
وهذا الذي يُضني كذاكَ الذي يُبلي

ويموت غلام سيف الدولة « يماك » فيرثيه بقصيدته :

لا يُحزنِ اللهُ الأميرَ فإنني
لآخذُ من حالاتِهِ بنصيبِ

وتموت أخت سيف الدولة فيرثيها بقصيدته :

إنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرَّزِيئَةِ فَضْلاً
تَكُنِ الأفْضَلَ الأعَزَّ الأجَلاَّ

ويمرض سيف الدولة فيقول المتنبي :

إذا اعْتَلَّ سَيْفُ الدَّوْلَةِ اعْتَلَّتِ الأرْضُ
وَمَنْ فَوْقَهَا والبَأْسُ والكَرَمُ المَحْضُ

ويخرج لسيف الدولة دُمّل فيقول المتنبي :

أيَدْرِي مَا أرَابَكَ مَنْ يُرِيبُ
وهل تَرْقَى إلى الفَلَكِ الخُطُوبُ

ويشفى سيف الدولة فيقول المتنبي :

المَجْدُ عُوفِيَ إذْ عُوفِيتَ والكَرَمُ
وَزَالَ عَنْكَ إلى أعْدَائِكَ الألَمُ

ويأتي عيد الفطر فيهنئه ، وعيد الأضحى فيهنئه .

وبذلك أصبح شعر المتنبي في هذه الفترة سجلا لكل أعمال سيف الدولة وأحداثه كبيرها وصغيرها ، سلمها وحربها ، أحزانها وأفراحها ، جدها وهزلها .

والمتتبع للديوان يرى أن شعر المتنبي في وصف حروب سيف الدولة ، وشعره في الحزن أرق من شعره في المديح وشعر السرور . وسبب ذلك — على ما يظهر — أن نوع الشعر الذي يشتد اتصاله بنفس المتنبي ، يجود ويغزر . وقد كان المتنبي فارساً تعجبه الفروسية والبطولة ، فإذا قال في ذلك يستخرجه من أعماق قلبه — وكانت نفسه حزينة لأنه لم ينل المجد الذي يصبو إليه ، فيحزن حزناً عميقاً على الميت ، وهو في حقيقة الأمر يحزن على ليلاه . أما السرور وأما المديح في غير البطولة فصياغته لا تلمس إلا السطح الظاهري من قلبه .

وكما سجل المتنبي أحداث سيف الدولة ، سجل نفسه في مشاعرها المختلفة وانقباضها وانبساطها ، وأنسها واضطرابها . وكان المتنبي حاد الذكاء ، حاد المزاج ، صريحاً ، لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه ، وقد توالت عليه أوقات شدة ورخاء ، وتتابعت عليه ساعات أمن وساعات قلق . وكان مضطرباً بين الرضا والغضب ، والبؤس والنعيم . ومما زاد الأمر صعوبة أن سيف الدولة من جنسه سريع الرضا ، سريع الغضب ، سمح إلى آخر حدود السماحة ، منتقم إلى آخر حدود الانتقام ، ينفعل أحياناً لقصيدة واحدة المتنبي انفعالات متباكية ، فيعجبه البيت في مدحه فيطرب له أشد الطرب ، ويفخر المتنبي عليه بنفسه فيهيج أشد الهياج — وطبعان على نمط واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودهما الصفاء التام ولا الجفاء التام ، فإذا ساد الصفاء فسرعان ما يعتكر ، وإذا اعتكر فسرعان ما يصفو . وهكذا كان حالهما دائماً ، فترى سيف الدولة يعطي المتنبي الألوف في لحظة ، ويرضى عن قتله في لحظة ، وترى المتنبي له عينان ، عين في المجد وعين في المال ، يأخذ المال فيرضى ، وينظر المجد فيثور ، والمجد في نظره أن يسود هو ، ولا يكون مَسُوداً لأحد ، حتى ولو كان سيف الدولة .

وبجانب ذلك كان بلاط سيف الدولة مسرحاً ، تمثل فيه دسائس كثيرة للمتنبي ؛ فقد كان فيه شعراء كثيرون ، كانوا شعراء سيف الدولة قبل المتنبي وأيامه ، وكانوا ذوي حظوة كبرى عند سيف الدولة ، فكسفهم المتنبي ، وعلاهم بنفسه وبشعره ؛ فكان من الطبيعي أن يحقدوا عليه ويحسدوا له ، وغير الشعراء من الأدباء والعلماء كذلك ، يرون المتنبي يأخذ أكثر مما يأخذون ، وينال القرب من سيف الدولة أكثر مما ينالون ، فكيف لا يغضبون ؟

وربما كان من أشد هؤلاء عداوة له أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس وابن خالويه النحوي اللغوي .

كان سيف الدولة يميل إلى النامي قبل المتنبي ، فلما جاء المتنبي مال عنه ، فغاظ ذلك النامي ، وخلا يوماً بسيف الدولة وعاتبه وقال له : لم تُفَضِّل عليَّ ابن عَبْدان السقا ؟ (يعني المتنبي) فأمسك سيف الدولة عن الجواب .

فلما ألح قال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله

يعودُ من كل فتحٍ غيرَ مفتخرٍ
وقد أغذَّ إليه غيرَ محتفلِ

فنهض مغضباً ، واعتزم ألا يمدحه أبداً :

وأبو فراس يقول لسيف الدولة : « إن هذا المتشدق كثير الادلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

ويأخذ دائماً السالك على المتنبي ، فاذا قال بيتاً جيداً قال أبو فراس إنك سرقته من قول بشار ، أو من قول دعبل ، أو من قول معقل .

ويتجادل المتنبي وابن خالويه في مسألة لغوية ، فيغضب ابن خالويه (وهو أستاذ سيف الدولة) فيخرج من كمه مفتاحا حديداً ليلكم به المتنبي .

وهكذا كان بلاط سيف الدولة حربا علنية وخفية على المتنبي . ولم يخلص للمتنبي من حول سيف الدولة من الشعراء إلا أبو الفرج الببغاء . فقد كان المتنبي يأنس به ويبثه شكواه من سيف الدولة وممن حوله ، ويأمنه على سره ؛ وقد ساعدت طباع أبي الطيب على نجاح هذه الدسائس ، فهو يتعاظم فيغضب الشعراء ، بل ويتعاظم فيغضب الأمير ، وهو دائم الاعلان من نفسه والفخر بها ؛ ويجفو سيفُ الدولة فيجفو المتنبي ، ويتكلم سيف الدولة فيجيبه المتنبي ، وتأتي المناسبات ليقول الشعراء ، وينتظر سيف الدولة من المتنبي أن يقول فلا يقول ، والمتنبي حائر النفس بين المجد والمال يجفو مجدا ، فلا يغني في الجفاء مالا ، ويصد لأنفته ، ويخضع لمطامعه ، وهي حال تُربك النفس وتفقد الحياة .

هذا كله قد سجله المتنبي أيضاً في شعره في سيف الدولة ، ففي السنة الثانية لاتصاله بسيف الدولة يذكر الحسد ويذم الناس ويقول :

فأبلغْ حاسديَّ عليكَ أني
كَبَا بَرْقٌ يحاولُ بي لَحَاقا

وهل تُغْني الرسائلُ في عَدُوٍّ
إذا ما لم يكنْ ظُبَىً رِقاقا

إذا ما الناسُ جرَّبهمْ لبيبٌ
فإني قد أكلْتُهمُ وذاقا

فلم أرَ وُدَّهمْ إلاَّ خِداعاً
ولم أرَ دِينَهمْ إلاَّ نِفاقا

ويتمنى لو تسيطر الملوكُ على أقدار الناس ، فلم يكن ينال الخسيسُ شيئاً :

ليتَ المُلوكَ على الأقدارِ مُعْطِيَةٌ
فلمْ يكنْ لِدَنِيءٍ عِندَها طَمَعُ

ولعل أوضح ما يدل على هذه الحال قصيدته التي مطلعها :

واحرَّ قلباه ممن قلبه شَبِمُ
ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

ففي تصور هياج نفسه أشد هياج ، فهو لا يعبأ بسيف الدولة الامدارلة ، ولا يعبأ بمن حوله من الناس ومن الشعراء ، ويمدح سيف الدولة ليمدح نفسه ، ويعرض بأبي فراس وغيره من الشعراء :

يا أعدلَ الناسِ إلاَّ في مُعامَلَتي
فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصْمُ والحَكَمُ

أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادِقَةً
أن تحسَبَ الشحمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ

وما انتفاعُ أخي الدُّنيا بناظِرِهِ
إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

سيَعْلَمُ الجمعُ ممن ضم مجلسُنا
بأنني خيرُ مَنْ تسعى به قَدَمُ

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ

الخيل والليل والبيـــداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

....

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن أمركم من أمرنا أمم

....

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ثم يهدد بالرحيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به
وشر ما يكسب الانسان ما يصم

ثم يطعن الشعراء حوله فيقول :

بأى لفظ تقول الشعر زعنفة
تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هـــذا عتابك إلا أنه مقة
قد ضمن الدر إلا أنه كلم

قصيدة — من غير شك — من أقوى شعر المتنبي ، سكب فيها نفسه ، ولم يعبأ بمقام أحد ، وكانت كافية لأن يطرده سيف الدولة شر طردة ، ولكن كما قد قلت قبل إن سيف الدولة من جنس المتنبي ، فإن كانت القصيدة أغضبته أشد الغضب فقد جاء فيها :

إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهذا أطرب سيف الدولة أيما طرب .

وانتهت المعركة بأن أعطى سيف الدولة المتنبي ألفاً وألفاً ، فقال المتنبي :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلة ألفاً على ألف
أشبهها فعلك في فيلق قلبته صفاً على صف

ولكن إن انتهت هـذه الحادثة فلا بد أن يعقبها حوادث مثلها ما دام سيف الدولة والمتنبي على ما هما والبلاط على ما هو .

وظل المتنبي يتعاظم في شعره ، ويعرض بغيره من الشعراء ، ويقول لسيف الدولة :

إن هذا الشعر في الشعر ملك
سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لي والحمد لك
فإذا مر بأذني حاسد صار ممن كان حيا فهلك

وشاء القدر أن يكون آخر شعر في سيف الدولة من هذا القبيل وعلى هذه النغمة وهو :

لا تطلبن كريماً بعـــد رؤيته
إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره
قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وظلت السعايات تعمل ، فابن خالويه وغيره يلح في الايقاع بالمتنبي ، والمتنبي يمعن في تعاليه حتى ضاق الأمر ، فمل سيف الدولة كثرة القول في المتنبي ، ومل المتنبي كثرة الغضب والعتاب ، فتلاقت رغبة المتنبي في الخروج من حلب ورغبة سيف الدولة في الراحة مما ينظر ويسمع ، فرحل المتنبي إلى مصر ، وأسدل الستار عن فصل من رواية المتنبي وإن كانت الرواية لم تتم فصولا .

وفي الحق أن الزمان أخطأ فوضع المتنبي في غير موضعه ؛ أعطاه نفس ملك ولسان شاعر ، ووقفه بدف

على أبواب الأمراء يمدحهم ، وهو إذ يمدحهم يرى منزلته — حقاً أو باطلاً — فوق منزلتهم ؛ فكان شأنه شأن كثير من الناس لا تتلاءم نفسيتهم ومنصبهم ، نفس رئيس ومنصب مرءوس ، أو نفس حرب ونضال ومنصب ذلة وهوان ؛ وهذان العنصران إذا اجتمعا سببا شقاء صاحبهما ؛ لذلك كانت نفس المتنبي ثائرة دائماً . ومن يدري ؟ لعل ما منحنا من شعر جزل جميل كان نتيجة هذا العناء ، ولو تلاءم منصبه ونفسه لأخلد إلى الراحة ؛ فكم كان الشقاء والبؤس والفقر والاضطهاد والعذاب نعمة على الانسانية بما أخرجت من شعور نبيل وفن جميل .

وبعد فمع هذا كله لم يجد المتنبي عوضاً عن سيف الدولة في علو شأنه وكرمه وعروبته وذوقه وفروسيته ؛ وخرج ينشد ذلك في مصر وغير مصر فلم ينل ملكاً ولم يجد ممدوحاً ينطقه بالمعاني كما أنطقه سيف الدولة ، وعرض في أول أمره بمصر بسيف الدولة ، ولكنه أدرك الحقيقة المرة بعدُ ، فتاب وأناب وندم على ما كان ، وحن إلى سيف الدولة وحن سيف الدولة إليه ، فيقول من قصيدة في غير ديوانه :

عثرتُ بسيري نحو مصر فلا لعاً
بها ولعاً بالسير عنها ولا عثرا
وفارقتُ خير الناس قاصد شرهم
وأكرمَهم طرّاً لألأمهم طرا
فعاقبني المَصِيّ بالغدر جازياً
لأن رحيلي كان من حلب غدرا
وما كنت إلا فائلَ الرأي لم أعِنْ
بحزم ولا استصحبتُ في وجهتي حِجْرا

لقد كان المتنبي حين فارق سيف الدولة يعتقد أنه غدر به فيقول :

حَسِبْتُكَ قلبي قبلَ حبِّك مَنْ نأى
وقد كانَ غدّاراً فكُنْ أنتَ وافيا

ولكن مرور الزمان ، وتكشف الحوادث وخيبة الأمل في غيره جعلته يرى غير رأيه الأول ، وأن المتنبي لا سيف الدولة كان هو الغادر ، إذ يقول : « لأن رحيلي كان عن حلب غدرا »

وحن سيف الدولة إلى المتنبي ، فبعث إليه ابنه من حلب إلى الكوفة ، بعد أن خرج من مصر ، وبعث إليه مع ابنه هدية ، فكتب إليه المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

ليس إلّاكَ يا عليُّ هُمامُ
سيفُهُ دُونَ عِرْضِه مَسْلُولُ

....

أنتَ طُولَ الحياةِ للرُّومِ غازٍ
فمتى الوعْدُ أن يكُونَ القُفُولُ

....

ما الذي عنده تدار المنايا
كالذي عنده تُدار الشَّمُولُ

....

مِنْ عَبيدي إن عشتَ لي ألفُ كافو
رٍ ولي مِنْ نَداك رِيفٌ ونِيلُ
ما أبالي إذا اتّقَتْكَ الليالي
مَنْ دَهَتْهُ حُبُولُها والخُبُولُ

ثم بعث إليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله المسير إليه ، فاعتذر بالوشايات :

وما عاقني غيرُ خوف الوُشاة
وإنّ الوشاياتِ طُرْقُ الكَذِبْ

* كان ذلك في سنة ٣٥٣ ، ولم تطل مدة المتنبي بعدُ ، فقد قتل في السنة التي تليها ، وهي سنة ٣٥٤ ، وكلاهما يحمل نفساً حبيبة إلى صاحبه .

(انتهى) أحمد أمين

حول رسالة الغفران :

١ - مناهج النقـد

« إن قيمة الانسان ليست في الحقيقة التي يمتلكها أو يعتقد أنه يمتلكها ، وإنما هي في الجهد الصادق الذي يبذل للوصول إليها . فالبحث عن الحقيقة لا تملّكها هو الذي ينمي الملكات ويبلغ بالنفس مرتبة الكمال . ولو أن الله قبض على الحقيقة كاملة بيمينه وعلى النزوع الأبدي إليها بيساره ، وربما قضت إرادته أن يلازمه الخطأ الدائم ، وقال لي اختر لنفسك ما تريد ، لاخترت بقلب خاشع اليد اليسرى قائلا : رباه : أعطني هذه فالحقيقة الخالصة ليست لسواك » .

بذا يتحدث « لسنج » . ونحن بعد لا نعرف متعة أنبل من الحماس الحق ، وورواده أشبه ما يكونون بالشعراء أو الصائدين ، أولئك يستقصون الصور وهؤلاء يطاردون القنص ، وفي جهدهم من اللذة ما تنحط دونه كل النتائج .

والبحث من الحقائق في الانسانيات شاق ، لما هو واضح من أن مثل المرء عندما يحاول فهم نفسه كمثل العين تبغي رؤية نفسها رؤية مباشرة ، أو كمثل « من يقف في النافذة ليرى نفسه مارا بالطريق » على حد تعبير أوجست كونت ؛ وفي هذا ما يشبه الاستحالة المطلقة إلا أن نستعين بمرآة أو أن نسجل حركاتنا بالصور فيأتي فهمنا غير أصيل .

والنفوس بعدُ وحدات قل أن تتشابه في غير جوانبها العامة التي لا تمس الأدب في شيء ، ومثلها في ذلك مثل كل الكائنات ؛ فأنا أعرف شجرة الزيتون أو شجرة الرمان ، وأما مطلق شجرة فهذا ما لا أكاد أدركه ؛ وبالمثل أعرف شكسبير أو جيته ، وأما مطلق رجل فذلك ما لا وجود له لا في الواقع ولا في ذهني ، بحيث يخيل إلى أن في تفكيرنا فساداً أصيلاً مصدره ذلك التجريد الذي مكنتنا منه ألفاظ اللغات فكان شراً مستطيراً .

ولهذا أراني دائما شديد الحذر من كل تعميم ؛ فقد أستطيع أن أطمئن إلى تصور أديب ما لنفسية ما في رواية أو مسرحية ، ولكني أرفض أن أثق بما يقوله الفلاسفة أو علماء النفس عن الانسان إطلاقاً أو ملكة من ملكاته ، لأني أحس دائما أن حديثهم لا يلاق حقيقة أي نفس ممن أرى حولي ؛ وأنا أعلم تمام العلم ما في هذا الاتجاه من خطر قد يؤدي إلا شك مدمر بل قد يشل التفكير ؛ ولكني غير آسف على شيء ، لأني لا أومن بالتفكير إلا كخادم للملكات النفس الخالقة . ولعل علماء المادة أنفسهم يقرونني على أن ما نسميه الخيال هو في الواقع مصدر كل خلق ، فهم لا يكتشفون الحقائق بتفكيرهم . ومن الثابت أن كل قانون من قوانين المادة لا يهدى إليه غير « الفرض » ، والخيال هو الذي يتصور ذلك « الفرض » ثم يأتي العقل فيطبقه على الظواهر التي يراد تفسيرها ليتأكد من صحته ، فالأمر إذاً أمر خيال وإن شئت فقل أمر إلهام .

وإذا صح أن النفوس وحدات غير متشابهة في خصائصها المميزة ، وأن التجريد حيلة عقلية عقيمة ، وأن التفكير قوة خادمة ، وضح ما في البحث من حقيقة الأدب وقيمه الفنية من صعوبات لا نزال إلى اليوم نتخبط في علاجها . ونحن نعلم أننا مهما أجهدنا أنفسنا لن نرضي كل الأدباء ، ولكنا رغم ذلك سنحاول قبل دراسة « رسالة الغفران » أن نعالج القول في مناهج النقد ، لعلنا نهتدي إلى ما نعتقده المنهج الصحيح في دراسة الأدب ، ولعل تطبيقه على رسالة الغفران يثبت صحته .

وللمنهج أهمية كبيرة ، لأن آفة التفكير عندنا وآفة الأدب هو خبطه على غير بينة .

النقد الذاتي والنقد الموضوعي :

يقرأ الناقد القصيدة من الشعر ثم يتساءل عن رأيه

فيها ، وإذا به يصدر ألواناً من الأحكام يسمون بعضها « قيمية » وهي ما تدور حول الجودة وعدمها في سلم القيم يضعه كل ناقد لنفسه ، وبعضها « واقعية » يستمدها من حقيقة ما ينقد ، كوصفه القصيدة بأنها شعر عقلي أو عاطفي أو حسي ، وأحكامه في كلتا الحالتين إما أن تكون مطلقة وإما أن تكون نسبية ، أي مردودة إلى ملابسات القصيدة ، من حالة نفسية لقائلها أو ظروف خاصة بعصره أو ضرورة لموضوع الشعر ، أو ما شاكل ذلك مما ينقل الحكم من الاطلاق إلى النسبية .

فإذا كان رأيك عن قيمة القصيدة وكانت أحكامك مطلقة جاء نقدك — فيما يقولون — نقداً ذاتياً ، وإلا فهو موضوعي .

وهذا قول يبدو سليم المنطق ، ولكنك ما تكاد تمعن النظر حتى تحس بوهنه ؛ وذلك لأن كل حكم قيمي لابد راجع إلى حكم واقعي ، فالناقد الذي يحتمي وراء ما يسميه ذوقه الخاص إنما يحيلك في حقيقة الأمر على مجموعة من الآراء السابقة المقررة التي تبلورت في نفسه بوعي منه أو على غير وعي ، بحيث نستطيع أن نقول إن الذوق ما هو إلا راسب من رواسب العقل الخفية .

يقسم ابن قتيبة الشعر — مثلا — إلى أربعة أضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه ، وفي تلك التقاسيم والألفاظ ما يدل على أن أحكامه قيمية ، بدليل قوله « حسن » و « جاد » و « حلا » و « قصر » و « تأخر » وهي أحكام مطلقة إذ لم يعلقها على توافق بين لفظ ومعنى أو بين قائل ومقول أو بين الشاعر وعصره ؛ فهو إذاً ناقد ذاتي .

ومع ذلك ما تكاد تمعن البصر حتى ترى أن أحكامه القيمية هذه تستند إلى حكمين تقريرين سابقين هما اللذان أملياها :

١ — أولهما أن اللفظ في خدمة المعنى ، وأن المعنى الواحد يمكن أن يعبر عنه بألفاظ مختلفة يحلو بعضها ويقصر الآخر .

٢ — وثانيهما أنه لابد لكل بيت من الشعر من معنى .

ولنناقش هذين الرأيين :

فأما أن اللفظ في خدمة المعنى أو العبارة عنه فنظر جزئي هو الذي ألف ذوق ابن قتيبة على غير وعي منه ، بل هو إحدى تلك المسلّمات التي أفسدت الكثير من أدبنا العربي ومن نقد نقادنا ، وذلك لوجوب التمييز بين نوعين من الأساليب : (١) الأسلوب العقلي الذي تستخدمه في العلم والتاريخ والفلسفة وأدب الفكرة إن صح أن يسمى ذلك أدبا ، وعلى هذا الأسلوب تصدق وجهة نظر ابن قتيبة ، إذ اللفظ عندئذ لا يقصد منه إلى غير العبارة عن المعنى ؛ بل نحن نذهب إلى أبعد مما ذهب إليه العرب ، فنقول إن المعنى الواحد لا يمكن أن يعبر عنه إلا بلفظ واحد ، فاللغات لا تعرف — ولا يجب أن تعرف — الترادف ، وأمر الألفاظ كأمر الجبر ، فالكاتب الحق هو الذي لا يطمئن حتى يقع على الجملة الدقيقة التي تحمل ما في نفسه حملا أمينا كاملا ، بحيث تصبح عبارته كجسم حي لا يمكن أن ينتقص منه أو يزاد عليه شيء ؛ والتحدث عندئذ من العلاقة بين اللفظ والمعنى كالتحدث عن شفرتي مقص ، والتساؤل عن جودة أحدهما كالتساؤل عن أي الشفرتين أقطع ، وإنما لك أن تحكم على المعنى المعبر عنه فتقبله كرأي مصيب أو ترفضه كرأي باطل .

(٢) الأسلوب الفني : وهذا هو أسلوب الأدب الجيد بمعناه الضيق كما يفهمه الأوربيون ؛ بل هو الأدب ذاته إذا سلمنا كما سنرى أن الأدب « هو العبارة الفنية عن موقف إنساني عبارة موحية » . واللفظ عندئذ لا يستخدم للعبارة عن المعنى ، بل يقصد لذاته ، إذ هو في نفسه خلق فني ، فمن اليسير مثلا أن نقول : « إن وقت الظهيرة قد حان » فتؤدي المعنى الذي تريد أن تنقله إلى السامع ، ومع ذلك

يقول الأعشى : « وقد انتعلت المطى ظلالهـا » لعبارة عن نفس المعنى ، فتحس لساعتنا أن عبارته عبارة فنية قصد منهـا إلى خلق صورة رائعة لا إلى أداء فكرة ؛ وكذلك نستطيع أن نقول : « وسارت الإبل فى الصحراء » عائدة من الحج كما يقول ابن قتيبة وكما يريد أن يفهم من قول الشاعر : « وسالت بأعناق المطى الأباطح » . ولـكن عبارة الشاعر عبارة فنية قصد منهـا الى نشر ذلك المنظر الجليل أمام أبصارنا ، منظر الإبل قافلة من مكة متراصـة متتابعة فى مفاوز الصحراء ، وكأن أعناقها أمواج سيل يتدفق . وكذلك يستطيع مؤرخ أن يقول : إن العرب أنهـكوا الفرس . وأما الأعشى فيقول إنهم تركوهم « وقد حسوا من أنفاسهم جرعاً » . ولقد نصف الصحراء بأنها جرداء تضل عابريها ، وأما الشاعر فيقول : « وغبراء يقتات الأحاديث ركبها » . وفى هذه الأمثـلة الأربعة أربعة أفعال : « انتعل » و « سال » و « حسا » و « اقتات » هى أمارة الفن فى العبارة ، ولها وظيفتان .

أولاها أنها تعبر عن المعنى عبارة حسـية ، لأن كلا منها يحمل صورة تدركهـا الحواس ؛ فالإبل تنتعل الظل ، وأعناق المطى تسـيل فى الصحراء ، والفرس يجرعون أنفاسهم ، والركب يقتات الأحاديث ؛ وهـذه خاصية من أهم خصائص الأسلوب الفنى ، وأعنى بها أن « تصاغ العبارة من معطيات الحواس » . وذلك على خلاف الأسلوب العقلى حيث تكثر المعانى المجردة والألفاظ المجردة التى إن حملت صورة فصورة هامدة كتلك التى نجدها فى معظم تلك الألفاظ التى أصبحت « مجازات ميتة » ، أمثال « الرفعة » و « الانحطاط » التى لم يعد أحد يفكر فيما اشتقت منه من « رفع » و « حط » .

ووظيفتها الأخرى أنها تربط بين عوالم الحس المختلفة ، فتحررنا مما اضطرنا إليه ضعف عقلنا من إدراك النفس كـكل من تقاسيم مفتعلة ؛ وذلك لأنه ليس من الصحيح أن كل حاسة من حواسنا قد ذهبت بطائفة من المدركات ، ولا أدل على ذلك من أننا نستطيع أن ندرك الفجر ، بل وأن نحس بنداه فى نفوسنا من طرق شتى من حواسنا : من طريق الأذن عندما نسمع لحناً موحياً ، ومن طريق البصر إذا ما رأينا أول أشعته رؤية مباشرة أو فى لوحة فنان ، بل إن من النحاتين من استطاع أن يحمل الحجر وقعه فى النفس ، بأن مثل فتاة تخلع عنها غلائل النوم ، وإلى ساقها طائر يبسط جناحيه البليلين . والشعراء بدورهم يصلون إلى ما يصل إليه كل هؤلاء ، عند ما يحدثنا أحدهم عن زوغه وقد لاحت بالآفاق « أصابعه الوردية » بما فيها من رقة وصفاء .

وإذا صح أن معطيات الحواس تتلاقى فى النفس التى تكون كلا لا يعرف تقاسيم العقل ، استطعنا أن نفهم معنى الخلق الفنى عند الشعراء ، إذ كثيراً ما يكون بفضل إمكان تبادل الحواس صورها إمكاناً نسـبياً لا شـك فيه . فهذا شـاعر انجليزى يطيل التحديق فى ضوء الصباح فيقول : « إنه أخذ ينظر إلى الصمت فى جوف الضياء » . وذلك آخر فرنسى يتحدث عن « أزهار الربيع التى ترسل عطرها إلى السماء كما يرتفع البخور إلى قباب الكنائس » . فنرى الأول وقد تمثل الصمت شبحاً يُرى ، بينما بعثت نشوة الربيع بالآخر ما يشبه إيمان اليافع فى قوته ، فرأى الطبيعة معبداً تحوطه آفاق السماء وكأن عطر الزهر بخور ، ومن الشـعراء من يذكر « شربه » « لون » الشمس السائل ، ومنهم من « يرى » ضـوء أمسية الخريف فى نومة اللؤلؤ .

بل إن منهم من تتلاقى فى عبـارته وحدة النفس بوحدة الوجود على حد قول بودلير : « إن الأشياء تفكر خلاله كما يفكر خلالها » ، وذلك عـندما تأخذه نشوة الأحلام ، فإذا بذاتيته قد أخذت تختلط بما يحوطه من جلال الطبيعة ؛ « ولـكم من مرة نستمع إلى « همس »

الزاح فتفهم أنفسنا بصور الأشياء، كما تخلع على الطبيعة معانى الانسان ، ولكم تهزنا كلة (كيتس) : « عندما يأتى إلى جوارى عصفور ينقر الحصى يخيل إلىّ أنى أنقر معه وأنى أشاطره حياته » .

وفى هاتين الوظيفتين ما يساعد على إيضاح تعريفنا للأدب بمعناه الصحيح « إنه العبارة الفنية عن موقف إنسانى ، عبارة موحية » ، إذ من البين أن كل أدب هو قبل كل شىء صياغة لموقف إنسانى ، وأن بين الأمرين رابطة وثيقة ، إذ فى تلك الصياغة يتركز موقف الكاتب مما أمامه من عالم النفس أو عالم الطبيعة ، وفى الصيغة التى يختار يحساب ذلك العنصر الشخصى الذى يميز الأدب من التفكير المجرد ، فلا يضيف إلى موضوع مشاهدته عنصراً من نفسه أو يتلقى منه عنصراً ، ومن تمازج العنصرين تخرج الصور التى تحقق وحدته النفسية أو تصل بينه وبين العالم الخارجى .

ولتلك الصور قدرة على الإيحاء لا يمكن أن يصل إليها أى تعبير مجرد ، وذلك لأنه من الثابت أن العبارة الحسية أغنى بقوة رمزها ، وما يرقد تحتها من احتمالات أو ما تستدعى من إحساسات وخواطر من العبارة المجردة التى لا تملك مادة غير محولها المحدود .

وهذا هو الأدب ، إذ فيه عناصره الثلاثة : ١ — عبارة فنية ٢ — موقف إنسانى ٣ — قوة إيحاء . وقد اتحدت تلك العناصر فى وحدة متينة هى وحدة الفن !

وأمر الصياغة فى الأدب الفنى ليس أمراً شكلياً كما ظن معظم نقاد العرب ، فهو ليس أمر مجازات أو تشبيهات تتعلق بظواهر الأشياء ، أو تستخدم لإيضاح المعنى أو تقويته ، بل أمر الخلق الفنى فى صميم حقيقته النفسية كما وضحنا . فالشاعر الذى يشرب لون الشمس أو يحس به فى نعومة اللؤلؤ ، لا يقصد إلى تجميل معنى أو تنميق عبارة ، وإنما يخلق قيمة فنية لها أصولها فى نفسه ، ومن هنا تمايز الكتاب بطرق صياغتهم ، وأدق ما يكون ذلك التمايز فى موسيقى كل منهم . والذى لا شك فيه أن لكل نفس موسيقاها الداخلية ، وأن الأسلوب هو مرآة تلك الموسيقى ، وأن الكاتب الأصيل العميق هو من تحس موسيقاه دون أن تستطيع إدراكها .

والأمر بعد كثيراً ما يعدو الكتاب إلى الشعوب فى حدود ما يتشابه فيه أفراد الشعب الواحد ، وذلك بنوع خاص فى الحكم والأمثال الشعبية . ولهذا نرى العربى يحدثك عن « إهداء التمر إلى هجر » ، والانجليزى عن « حمل الفحم إلى نيوكاسل » ، والمصرى الشعبى عن « بيع الميه فى حارة السقايين » ، وتلك عبارات فنية مختلفة لأداء معنى واحد هو « إعطاء الشىء لمن لا حاجة له به » .

إلى شىء من كل هذه الحقائق لم يفطن ابن قتيبة ، فجاء يعقد الشعر فى ألفاظه ومعانيه بما يحسبه البعض ذوقاً خاصاً ، وهو فى حقيقته رأى سابق مقرر من خدمة اللفظ للمعنى وإمكان العبارة عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة يحلو بعضها ويقصر البعض كما يقول دون فهم منه ولا تفصيل لأنواع الأساليب وطرق العبارة ، مما أفسد الكثير من أحكامه .

مشكلة المعنى :

وكما يرجع ذوق ابن قتيبة إلى رأى فى العلاقة بين اللفظ والمعنى ، كذلك يستند إلى إحدى المسلمات الأخرى ، وهى ضرورة حمل البيت لمعنى من المعانى .

وبمراجعة الأمثلة التى أوردها يخيل إلى أنه يقصد بالمعنى أحد أمرين : ١ — فكرة . ٢ — معنى أخلاقياً .

فأما الفكرة فبدليل أنه ينتقد الأبيات الآتية لخلوها فيما يقول من كل معنى مفيد :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشُدت على حدب المهارى رحالنا
ولا ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

إذ من الواضح أن هذه الأبيات الجميلة التى نثرها ابن قتيبة بقوله : « ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح » لا تحمل أى فكرة ، وإنما هى قصص فنى رائع ، سبقنا الجرجانى فى « دلائل الإعجاز » إلى إظهار ما بها من صور أخاذة ، وخصوصاً فى الشطر الأخير « وسالت بأعناق المطى الأباطح » .

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الآداب الأوربية الحديثة قد شهدت مذهباً قويا فى أواخر القرن التاسع عشر ، مذهب أمثال Heredia هرديا و Goutier جوتييه ممن يقولون بالفن للفن ويجعلون من أسس مذهبهم نظرتهم إلى اللغة نظرة المثالين إلى مقاطع الرخام ، أولئك ينتزعون من اللغة صوراً وهؤلاء تماثيل ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد أن يقدح فى أدبهم أو يخرجه من فنون الشعر لخلوه من المعانى ، وقد رأينا أى دور تلعبه الصور فى حياتنا النفسية التى تغذيها كافة الفنون ، كما رأينا فى الأمثلة التى سقناها من الأعشى وغيره تفاهة ما بها من معنى تفاهة لم تنل مما بها من قيم فنية ، ولم لا ؟ ألم يقل رجال الفن غير مرة : إن الفن أن تخلق شيئاً من لاشىء .

وأما تطلبه لمعنى أخلاقى فواضح من إعجابه بأمثال قول القائل :

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهذه النظرة — نظرة الفقيه ابن قتيبة — بدورها نظرة ضيقة ، إذ من الواضح أن مادة الشعر ليست المعانى الأخلاقية ، كما أنها ليست الأفكار ، وأن من أجوده ما يمكن أن يكون مجرد تصوير فنى ، كما أن منه ما لا يعدو مجرد الرمز لحالة نفسية رمزاً بالغ الأثر قوى الإيحاء ، لأنه عميق الصدق على سذاجته ؛ ولعلنى لا أعرف لذلك مثلا خيراً من قول شاعرنا العربى الدقيق الحس ذى الرمة ، وقد حط رحاله بمنزل الحبيبة وتفقدها فلم يجدها :

عشـية مالى حيلة غير أننى
بلقط الحصى والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده
بكفى والغربان فى الدار وقع

فأى معنى يريد ابن قتيبة من هذه الصور الجميلة الصادقة ، صورة شاعر أصابه الحزن بالذهول ، فجلس إلى الأرض منهمكا يائساً يخط ويمحو الخط بأصابع شرد عنها اللب ، فأخذت تعبث بالرمال ، وفى الغربان الواقعة بالدار ما يملأ الجو أسى ولوعة ، وهل أصدق من هذا وصفاً ؟ وهل أقوى منه على إيحاء ؟ ثم من يدرينا ؟ لعل جماله فى خلوه من كل فكرة ، ولعل صدقه فى تناهى بساطته .

وهكذا يظهر لنا ما فى نظرة ابن قتيبة من ضيق عند ما يتطلب معنى فى كل بيت من الشعر ، كما ظهر لنا فساد رأيه فى الملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وفى هذا تفسير لضعف ما يسمونه ذوق هذا الناقد .

والأمر عند ابن قتيبة كالأمر عند غيره ممن نسمى منهجهم بالمنهج الذاتى ، فأحكامهم القيمية تستند دائماً إلى أحكام واقعية ، بحيث نستطيع أن نخلص من هذا المقال بالنتيجة التى سبق أن عبرنا عنها بأن الذوق ليس فى الحقيقة إلا راسباً من رواسب العقل الخفية ، وأن كل نقد ذاتى هو فى حقيقته نقد تقريرى .

وليكن موضوع المقال الآتى إذاً النقد التقريرى والنقد التاريخى .

محمد مندور

من تاريخنا المجهول :

محمد بن بشير

كان قاضيا عظيم الخلق ، جيد الفطنة ، ملتهب الخاطر ، شديد الشكيمة ، ماضي العزيمة ، جعل الحق رائده ، والعدل قائده ؛ ومشى في ضوء ضميره المؤمن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، لا يفرق من بطش الموتورين ، ولا يتخشع لوعيد المبطلين ، أنى كانوا من العزة الرفيعة والجاه العريض ؛ فعاش مرفوع الذكر ، موفور الكرامة ، مرهوب الجانب ؛ وقضى فجعل له لسان صدق في الغابرين ، يترجم عن عظمة باهرة ، وبطولة نادرة ، تبهر النفوس ، وتقسرها على الإعجاب بها والإعظام لها والتأسي بهديها ، وإن فيها لأسوة حسنة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

تطلعت نفسه منذ الحداثة إلى العلم والأدب فرحل إلى «قرطبة» دار العلم والعلماء ، وقرارة الأدباء والشعراء ، وأقبل على الدرس والتحصيل برغبة قوية وعزيمة فتية ، حتى تملأت نفسه وسار ذكره ، فاتخذه القاضي «مصعب ابن عمران» كاتباً له[1] . وقد اشتهر هذا القاضي بأصالة رأيه وكرم نفسه وشجاعته في سبيل الحق ، وله في ذلك مواقف مشهورة كان فيها ملء الأبصار والأسماع والعقول ؛ وقد استفاد ابن بشير من هذه الوظيفة أكبر الفائدة ، وكان لها في حياته أبلغ الأثر : بصّرته بدقائق المجتمع ، وعلمته كيف يكون صراع الأقوياء العظماء في سبيل مثومهم ، واستطالتهم على الناس بغير الحق ، وعرفته كيف تكون مغالبة الأهواء ، ومجالدة الأغراض حتى تكون كلمة الحق هي العليا .

(١) تاريخ علماء الأندلس ١/٩ طبع مدريد ١٨٩٠ م .

وتاقت نفسه إلى تأدية فريضة الحج ليشهد منافع له ، فالتقى بالإمام مالك بن أنس[1] . وانتفع بعلمه وخلقه ، واتخذه مثلا يترسم خطاه ، ويقتفي أثره . ثم ذهب إلى «مصر» وعمل على المقام بها ، واختلف إلى علمائها ؛ فصاحب الكثير منهم ، واقتطف من ثمار علومهم ما طاب له الاقتطاف . ثم سار حتى ألقى عصا التسيار بضيعته في مدينة «باجة» فاتخذه مالك بن عبد الله القرشي كاتباً له[2] . ولبث بها حتى توفي القاضي «مصعب» فاستدعاه الحكم[3] . فأقبل وما يدري ما يراد منه ، وعرج في طريقه على بعض أصحابه ، وتحدث معه في شأن استدعائه ، فقال له صاحبه : ما أراه أرسل في طلبك إلا للقضاء .

فقال له : فأنا أستشيرك في ذلك إن وقع . فقال له : لا أشير إلا بعد أن تصدقني القول عن ثلاثة أشياء ، فقال : وما هي ؟ قال : كيف حبك للأكل الطيب ، والباس اللين وركوب الفاره ؟ فقال : والله لا أبالي ما رددت به جوعي وسترت به عورتي وحملت به رحلي .

فقال صاحبه : هذه واحدة . فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان ، والتبطن للكواعب الغيد ، وما شاكل ذلك من الشهوات ؟ فقال : هذه حال ما استشرفت إليها قط ، وما خطرت ببالي ولا اكترثت لفقدها . فقال : وهذه الثانية . فكيف حبك لمدح الناس لك ، وثنائهم عليك ، وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل ؟ فقال : والله ما أبالي في الحق من مدحني أو ذمني ، وما أسر للولاية ولا أستوحش للعزل . فقال : وهذه الثالثة . اقبل الولاية فإنك من الآمنين . فسار حتى قدم «قرطبة» ؛ فولاه الأمير الحكم القضاء والصلاة . وحكم في أول

(١) المدارك للقاضي عياض (مخطوط) .
(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٢ .
(٣) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ١/٩ ، وأخبار مجموعة ص ١٢٢ طبع مجريط ١٨٦٧ م .

قضية نظرها على الحاكم وفيها يقول : « رحم الله محمد ابن بشير فلقد أحسن بنا فيما فعل على كره منا . كان في بدأ شيء فصححه لنا ، وصار حلالاً طيب الملك في أعقابنا[1] » .

عمل ابن بشير من أول يوم تولى فيه القضاء على إصلاح النظام القضائي ، وجعله متسقاً وحالة العصر ، ودل بأعماله على خصوبة ذهنه ورجاحة عقله ونضج فكره ، وغرامه بالتجديد وشغفه بالنظام : رأى أن عقد مجلس القضاء في المسجد يعكر صفو السكون ، ويذهب بجلال الهدوء المنشود للعبادة ، فاتخذ سقيفة خاصة بجوار المسجد ، ورأى المتقاضين يهبطون عليه في أي وقت شاءوا فحدد لهم أوقاتاً ، وجعل لهم جلستين في اليوم ، تبتدىء الأولى مع الصباح وتنتهي قبل الظهر بساعة ، وخصها بسماع أغراض المتخاصمين فقط . وتبتدىء الجلسة الثانية من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر ، ولا يسمع فيها إلا بينات الشهود . ونظم كيفية الانعقاد : فكان يجلس وحده في الصدر ، وبجانبه كاتبه ، وأمامه خريطته ، وبيده قلم ، ويدخل عليه المتقاضيان بحسب ترتيب قضيتهم في ورقة خاصة بذلك ، ولا بد من وقوفهما على أقدامهما أمامه حتى يفرغ من نظر قضيتهما[2] . وكان مع هذا لا يسمح لأحد من أصحاب القضايا أن يخالطه أو يزوره في داره مهما كان مركزه ، ولا يقرأ لأحد كتاباً يتعلق بقضية من القضايا . وفوق ذلك كان لا يجمع بين الشاهد والمشهود عليه ، بل ولا يصرح له باسمه إذا خشي أن يناله بأذى . حكم ذات مرة في قضية على الوزير بن فطيس ولم يعرفه بالشهود ، فاغتاظ الوزير ، وشكاه إلى الأمير واستعان به عليه ، فكتب إليه الأمير : « إن الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرفه بهم ، ولا أعذرت إليه فيهم . وإن أهل العلم يقولون إن ذلك له » فرد عليه ابن بشير : « ليس ابن فطيس ممن يعرف عن شهد عليه لأنه إن لم يجد سبيلا إلى تجريحهم لم يتحرج من طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم ، فيدعون الشهادة هم ومن التمس بهم وتضيع أموال الناس » .

وكان يدقق أشد التدقيق في قبول الشاهد ، ويرده إذا لم تطب به نفسه ولم يرتح إليه ضميره ، ولو كان من أحب أصدقائه وأكرمهم عليه . حدث أن شهد عنده صديق له مع رجل آخر ، فرد شهادة صديقه وقال للمشهود له : زدني بينة . فعجب وطلب منه أن يعرفه الشاهد الذي رده ليعدله . فقال له : إن الذي لم أقبله لا ينفعك تعديله عندي وهو صديق ورفيق . فخرج الرجل مشدوهاً لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه . ولما علم صديقه أتاه في مجلس النظر على عيون الناس وقال له : أيها القاضي ، قد علمت أني لا أقدر على سؤالك عما أحب أن أسألك عنه إلا في هذا المجلس ، وقد رأيت أن أوقف نفسي بين يديك هذا الموقف وأسألك عن السبب الذي أوجب ردك لشهادتي ، فقد علمت أنه جمعني بك النشأ وطلب العلم وطريق الحج ، واطلعت على باطني مثل ما اطلعت على باطنك ، فعرفني السبب الذي أنكرت علي لأعرفه وأعترف بخطئي فيه أمام هذه الجماعة . فقال القاضي : صدقت ، قد جمعني بك ما ذكرت وعرفتني كما وصفت ، وما أعثرت لك على خربة في دينك ، ولكن صدرنا من الحج وزلنا بمصر ، واجتمعنا بالسماع من شيوخنا ، وعملنا على المقام بها ، فقلت لي : إن الغربة قد أضرت بي وإني أحببت ابتياع جارية ، فحسنت لك ذلك ، واستعرضت الرقيق ، فقلت لي إني وجدت جارية تساوي على وجهها كذا وكذا ، وبيدها صنعة ، ويسأل بها صاحبها من أجل صنعتها كذا وكذا ، أكثر مما تساويه

(١) المدارك للقاضي عياض (مخطوط) .

(٢) القضاة للخشني ص ٥٥ طبع مدريد ١٩١٤ م .

بغير صنعة . فقلت لك : لا حاجة لك إلى صناعتها ، وأما ابتياعها القيمة فدعها وابتع غيرها فإنها تقوم لك مقامها . فلا معنى للزيادة فيها . فأظهرت منى القبول ومضيت فابتعتها ، وزدت فيها على قدرها . فلما رأيت الشهوة قد غلبتك فى ابتياعها وإتلاف المال فى المغالاة فيها ، خشيت أن تكون مثل تلك الشهوة قادتك إلى هذه الشهادة لمال تأخذه أو ميل تميله ، فاحتطت لدينى ولم أجدنى فى سعة من قبول شهادتك »[1] . وهذه القصة الطريفة تدلنا أوضح الدلالة على سمو أخلاقه ، وشدة توقيه ، ومبلغ حرصه على أن تكون أحكامه خالصة لوجه الحق ، ومن أجل ذلك كان لا يفتأ يستشير العلماء فيما يعنّ له من مسائل ، فإذا اختلف وإياهم ، أو أشكل عليه وعليهم أمر كتب إلى علماء « مصر » يستفتيهم[2] ؛ ومن أشهر من كاتبهم الإمامان العظيمان : عبد الرحمن بن القاسم المتوفى سنة مائة وإحدى وتسعين ، وعبد الله بن وهب المتوفى سنة مائة وسبع وتسعين[3] .

كان محمد بن بشير على شدة ورعه أنيقاً رشيقاً ، لا يحرم على نفسه زينة الله التى أخرج لعباده ، ولا الطيبات من الرزق ، يرسل لمته ، ويفرق جمته ، ويخضب يده ، ويكحل عينه ، ويضع فوق رأسه المعطر قلنسوة من الخز ، ويلبس رداءً معصفراً وينتعل حذاءً صراراً[4] . ومن طريف ما يروى أن رجلا من أهل القرى جاء فى أمر له وهو لا يعرفه ، فلما رأى زيه الغريب ، وأثر الزينة فى أطرافه توقف وقال : دلونى على القاضى ، فقالوا له : هاهو ذا الجالس أمامك ؛ فقال : إنى رجل غريب وأراكم تستهزئون بى . أنا أسألكم عن القاضى وأنتم تدلونى على زامر ! فأكدوا له أنه هو ، فارتاع الرجل وطفق ينثر الأعذار ، ويطلب الإعتاب ، فأعتبه وقضى له بالقسطاس المستقيم . واتخذ الحاسدون والمتطفلون هذا اللباس الغريب ملهاة لهم يسخرون منه ويضحكون عليه ، ويتنادرون به ، وأسرف فى ذلك الفقيه « محمد بن عيسى » حتى ضجر منه ابن بشير ، فقال له : « إن الشر لا يعجز عنه أحد ، وكل من رضى به قدر عليه ، وإن الخير لا يناله إلا أهل الصبر ومن يقوم على نفسه بالرياضة المحمودة ، فأقصر عما يلقى عنك » .

وقد دعاه حبه للأناقة إلى ابتداع شىء طريف لم يسبق إليه أحد فى القضاء ، لا إخال أحداً سبقه إليه : فقد طبع عشرة طوابع باسمه وجعلها فى خريطته ، فإذا رغب إليه أحد فى أن يستعين بجاهه على قضاء أمر من أموره ، أعطاه « طابعاً » ، وأمر كاتبه أن يكتب اسمه ومسكنه ، وفيم أخذ « الطابع » وقال له : « إياك إن كنت ظالماً أن تقدم على أحد بطابعى » . ويعهد إليه برد الطابع ثانية فى أجل يضربه له[1] ، وما زالت تلك « الطوابع المشرفة »[2] تتردد عليه طول حياته المباركة . وهذا عمل طريف معجب حقاً يدل على عبقرية فذة ، وذوق بلغ غاية الرقى والكمال ، وينطق بأن محمد بن بشير كان من أعاظم الرجال ، وهو شاهد عظيم على أن نظام البطاقات قد عرفته المدنية الإسلامية قبل أن تعرفه المدنية الغربية بقرون وقرون . .

(كلية اللغة العربية) السيد أحمد صقر

(١) القضاة للخشنى ص ٥٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٣) وفيات الأعيان ٣١٢/١ ، ٣٤٦ ، وشجرة النور الزكية ص ٥٨ .

(٤) أخبار مجموعة ص ١٢٧ ، والبيان المغرب ٨١/٢ طبع ليدن .

(١) القضاة ص ٥٥ .

(٢) قال لسان الدين بن الخطيب : « إن عبد الرحمن بن بدر وزير الناصر كان « ينفرد بالولايات فتكتب السجلات فى داره ثم يمنها للطبع فتطبع وتخرج إليه فيمنها إلى العمال » . وألف أبو بكر القدسى الأندلسى كتابا فى الحرائس وصنعة الأمدة وآلة الطبع » .

من سير الرحلات

٢٥ مارس سنة ١٩٣٤

للأستاذ الدمرداش محمد

« ظل الناس القاطنون على طول البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى يروون مدى أجيال طويلة حكايات غريبة عن مضيق عجيب وسط الجبال بين البحرين الميت والأحمر يؤدى إلى مدينة سحرية منقورة فى الصخر يسكنها قوم أشداء قد فرضوا سلطانهم على طرق التجارة ، وتحكموا فى أمور القوافل التى تتنقل بين الجزيرة العربية ومصر وفلسطين والشام ، واحتكروا جباية المكوس وتبادل السلع بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ! كما تناقلوا كذلك قصصا مروعة عن مصير الأفراد والقلائل الذين أمكنهم التسرب إلى المدينة السحرية لاستجلاء غامضها ، وكيف لاقوا حتفهم على صورة مخيفة ، قرابين بشرية على مذبح المدينة الصخرية — كما انتشر فى الأقطار القريبة والبعيدة أخبار عجيبة عما حوته خزائن القصور والمعابد فى المدينة من كنوز طائلة من ذهب وفضة ، وجواهر ثمينة مما أطمع فيها الشعوب المجاورة والممالك المتاخمة — وكانت سببا فى شن الغارات عليها ، وقد صمدت المدينة فى وجه العدوان مدة ستة قرون كاملة بفضل منعتها الطبيعية النادرة وشجاعة حماتها الأبطال ، وأخيرا اجتاحها الرومان فى عهد الامبراطور تراجان سنة ١٠٦ بعد الميلاد ، ونهبوا كنوزها وقوضوا أركان حكومتها ، وزالت بسقوط المدينة مملكة النبط فى وادى موسى ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة » .

من معان الى مدينة السحر والجبال — البطراء :

لم نمكث طويلا بمعان فغادرناها بعد راحة قصيرة تزودنا خلالها بالبنزين وبعض أنواع الطعام والفاكهة ، قاصدين وادى موسى فى طريق جبلى كثير الصعود والهبوط .

وقبيل العصر أشرفنا من أعلى جبل الشراه على وادى موسى العظيم ، فبدا الوادى كأنه حدائق متصلة ، فسفوح الجبال خضراء ، تغطيها حقول القمح والشعير فى عرصات تتدرج فى الارتفاع من بطن الوادى حتى ذرى الجبال ، وتنساب بينها جداول الماء تتدفق فى انحدار مكونة مساقط وشلالات ، وتتخللها أشجار الأثمار تتوجها أزهار الربيع فى ألوان بديعة وأشكال جميلة تبهج النفوس وتسر الأنظار ، ويفوح من أزهار المشمش والخوخ عبير لطيف ينتشر مع الهواء فى كل مكان .

ثم هبطنا فى طريق شديد الانحدار ، ووقفت بنا السيارات أمام مخفر البوليس على مرحلة من الوادى ! وبعد الحصول على الترخيص بالزيارة أركبونا خيولا هزيلة صغيرة للاعراب لتنقلنا باقى الطريق إلى البطراء مقابل أجر قليل ، فدرجت بنا فى مسالك زلقة ضيقة تخترق قرية حقيرة بيوتها مبنية بجلاميد الصخر يسكنها قوم من



السيك الشرقي

الشجر . وفى الوادى تابعنا السير نحو الجنوب بمحاذاة نهير صغير ، وبعد ساعة اعترض الوادى جبل شامخ ، أحمر اللون داكنه ، فمال بنا الطريق قليلا إلى اليمين ، ودخلنا شقا هائلا فى الجبل ، لا يزيد عرضه على ثلاثة أمتار ، جانباه طودان شاهقان يناطحان السحاب ، قائمان فى استواء عجيب ، تتخللهما ثلمات وأخاديد ، تنمو على حافاتها الأعشاب والأزهار والأشجار ، تتدلى منها على جوانب الشق الفروع والأغصان ، فبدا المنظر غريباً جميلا مدهشاً .

وكنا كلما أوغلنا فى الشق ازداد عرضه ضيقاً ، وجدرانه ارتفاعاً ، وحلكته سواداً وطريقه التواءً ، فأخذتنا الرهبة ولولا الخوف ، وبعد ساعة انفرج الشق عن ساحة ضيقة يطل منها ضوء النهار ، فرأينا فى الجدار المقابل معبداً جميل الوضع جميل الهندسة ، تقوم على مدخله الأعمدة ، تعلوها الأقواس والشرفات ، كلها منقورة فى الصخر الأصم — فقال الدليل : إن هذه هى خزانة فرعون .

ثم عاد الشق إلى ضيقه وظلمته والتوائه ، وبعد ساعة أخرى انفرج الشق عن ساحة أخرى عظيمة الاتساع ، تحف بها الجبال من كل جانب ، تخترقها الوديان والأخاديد ، وتكسو سفوحها الأشجار والأعشاب ، وتجرى منها ماء العيون فى جداول ونهيرات ، ونقرت بجوانبها المعابد والمقابر والقصور والمساكن والدرجات ! فظهرت سفوحها مفرغة كخلايا النحل ، على شكل يثير الدهشة والإعجاب — فألقينا فى الساحة عصا الترحال ، ونصبنا خيامنا أمام أحد الكهوف ، وقال الدليل إنكم الآن فى البطراء عاصمة النبطيين .

كان صباح اليوم التالى منعشاً جميلا ، وكان شروق الشمس على رءوس الجبال بديعاً ساحراً — فاستعدنا نشاطنا ونسينا متاعب الطريق ، وذهبنا مبكرين لزيارة الدير على قمة الجبل الغربى ، والطريق إليه صاعد مستو منحوت فى جدار الجبل ، يمر فوق مهاو مرعبة ، ويخترق أنفاقاً لها شرفات تطل على ساحات البطراء ، ومعابدها ،



فى الطريق إلى الدير

ويوشى جوانبه على طوله إلى القمة ألوان الطبقات الرملية فى تموج جميل ، متداخلة بعضها فى بعض حمراء وصفراء وبيضاء ، تخالها منقوشة على الصخر .

والدير فوق الجبل على ارتفاع خمسمائة متر من الوادى منقور فى الصخر كذلك ، تقوم على مدخله الأعمدة ، تعلوها الشرفات والتيجان ، فى عظمة وجلال وجمال ، وأمامه ساحة كبيرة يغطيها زهر النرجس البرى بلونه الأبيض الأصفر الجميل . ومن قمة الجبل فوق الدير شاهدنا جهة الغرب وادى العربة والبحر الميت فى الحضيض .

وفى اليوم الثانى ذهبنا لزيارة مذبح المدينة وبركة الماء وعلم الضحايا ، وكلها فى مستو من الأرض على قمة الجبل



الدير في أعلى الجبل

الشرق ، والطريق إليها صعب المرتقى كثير العقبات ، ثم عدنا من طريق آخر أشد وعورة من الأول ، ينتهي إساحة البطراء عند مسرح المدينة يحجبه عن الأنظار صخور نابتة كبيرة وأشجار ملتفة كثيفة .

وقال الدليل إنه كان من عادة النبط بعد كل غزو أن يصعد الملك والحاشية والأعيان والرهبان ؛ في موكب ضخم فخم إلى قمة الجبل لتقديم القرابين التي يؤتى بها من ساحة القتال ، فتنحر الضحايا على المذبح كما تنحر الشاة ، وتسيل دماؤها في البركة المقدسة وتحرق أجسادها تحت الظُّلل زلفاً للإله دوشارا معبود النبط .

وفي المساء حول بؤرة النار حدثنا الدليل حديثاً طويلاً عن أصل النبط فقال : إنهم قوم من العرب هجروا البادية إلى الحضر ، وأسسوا في القرون الأخيرة السابقة على ميلاد المسيح مملكة في شمال بلاد العرب وجنوب فلسطين والشام — وكانت حاضرتهم الشمالية البطراء هذه ، وحاضرتهم الجنوبية « الحِجْر » ، وتعرف الآن بمدائن صالح . وكان المدخل الوحيد للبطراء هو الشق الذي أتيتم منه ، ويعرف بالسيك الشرقي . وكان يقوم على حراسته ليل نهار رجال أشداء لا يسمحون بالمرور منه في الدخول والخروج إلا لمن قال كلمة السر والأمان .

وفي العودة إلى معان تفرجنا على مسرح المدينة في مدخل السيك ، وهو يتسع لثلاثة آلاف متفرج ، كل مقاعده من الصخر ، وعلى خزانة فرعون في منتصف السيك . وكانت داراً للحكم ، وتحتوي على ثلاث قاعات وبهو ، ومع أن جدرانها من الحجر الرملي فإنهم عالجوها بالصقل حتى أصبحت كالمرآة لمعاناً مع تموج في الألوان منقطع النظير .

الدمرداش محمد

محكمة إسنا الجزئية الأهلية

نشرة بيع عقار في القضية المدنية رقم ٢٤٢٢ سنة ١٩٤١

نشرة ثانية

إنه في يوم الثلاثاء ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٢ من الساعة ٨ الإفرنكي صباحاً بسراي المحكمة بإسنا سيباع بالمزاد العلني العقار الآتي بيانه بعد ملك على حسن على إبراهيم القيم بنجع الحلية تبع ناحية الحله مركز إسنا بناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٤/١٠/١٩٤١ المسجل بمحكمة قنا الابتدائية الأهلية بتاريخ ١٨/١٠/١٩٤١ بنمرة ٦٩٠ سنة ١٩٤١ بالصحيفتين ٢٣٥ و ٢٣٦ — وفاء لمبلغ ٣٦ جنيه والمصاريف وما يستجد ويبيعه بالمزاد العلني بثمن أساسي قدره ٢٠ جنيه طبقاً لشروط البيع المدونة بحكم نزع الملكية وعريضة الدعوى وهذا البيع بناء على طلب القاصة محمد عثمان من نجع الحلية تبع ناحية الحله مركز إسنا وهذا بيان العقار

١٢ س و ٢ ط تعادل ٤٣٧٫٥٠ متراً عبارة عن منزل مبني بالطوب الأخضر كائن بزمام ناحية الحله مركز إسنا مديرية قنا بحوض الحلية نمرة ١٩ القطعة نمرة ٢٧ الحد البحري حرم الناحية بحوض نمرة ٢٩ بحوضه وبه الباب بطول ٣٦ متر الحد الشرقي فاصل حوض نمره ٢٠ سكن محمد على حران بطول ٨٫٨٠ متر الحد الغربي حرم الناحية بحوض ملك احمد حسن بطول ١٢٫٤٠ متراً والحد القبلي بعضه فاصل حوض نمرة ٢٠ وبعضه نمرة ٢٨ بحوضه ملك المدين بطول ٥١ متراً منكسر من سبعة خطوط

١٢ س و ٢ ط قيراطين واثنى عشر سهماً تعادل ٤٣٧٫٥٠ متراً مربعاً لا غير

فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان الموضحين عاليه وله الاطلاع على شروط البيع وباقي الأوراق المودعة بملف القضية

كاتب البيوع

من أدب الحرب :

أنا وأختي

[يوميات طفل هولندي في الثانية عشرة من عمره ، يدعى "ديرك فان درهيد" شاهد غزو روتردام بالقنابل]

الخميس ٩ مايو سنة ١٩٤٠ — سنسافر إلى فرزلند يوم السبت لزيارة جدي وجدتي ، وتحية يومين ، وذلك لو تمكن والدي (الطبيب البيطري) من مرافقتنا . جاء عمي بيتر ليشرب القهوة معنا بعد العشاء ، وقال إننا سنشترك في الحرب على الرغم من كل ما يقال ، فأجاب أبي إنه جنون ، سألتهم أمي السكوت عن حديث الحرب ، وقال عمي بيتر إنه مما يدعو إلى الأسى ألا يهتم بما يحدث ، واستأنفا قائلا : اخبروا بما حدث في الدنمرك والنرويج . وكانت معه بطاقة مطبوعا عليها « ماذا تفعل ؟ » . يجب أن أكتب موضوع إنشاء لقد من ١٥٠ كلمة عن حياة أرامس ، وكم أبي الذهاب إلى مدرسة لا يعلمون فيها اللاتيني .

الجمعة ١٠ مايو — حدث شيء عظيم في الليلة الماضية ، فقد بدأت الحرب ، وكان عمي بيتر على حق ، وأنا أكتب هذا في مخبأ البارون ، ولا يوجد الكثير من المخابئ هنا ، لكن البارون ومدموزيل كلاس وأبي أنشأوا هذا المخبأ لنا ، وقد قال كل الجيران فعندئذ إن في ذلك مضيعة للمال . واستيقظت قبل الفجر على أصوات الطيارات وصراخ الأهلين ، وأمرني أبي بلبس معطفي والاسراع ، وكانت ألسنة اللهب تندفع نحو السماء تراقصها الأنوار الكشافة ، بينما تنطلق صفارات الانذار بعنف ، وكان المخبأ مليئاً بالناس يرتدون المعاطف فوق ثياب النوم . وبدأت كيتج (أختي وهي في التاسعة من عمرها) تبكي ، فهمس والدي في أذنها وقبلها ، فكفت ثم نامت بين ذراعيه . وأعلن المذياع الحرب ، وأمر الجنود الاحتياطيين بتقديم أنفسهم للسلطات العسكرية . وكانت القنابل تنهال علينا طوال الوقت .... بوم .... بوم .... ووضع أبي كيتج في أحضان أمي وخرج ، ثم عاد مرتدياً ثيابه حاملا المذياع الرقيق ومعطفه ، وقبلني وأمي وكيتج بحرارة ، ورحل ، وأوصتنا أمي أن يحترس لنفسه .

وعند ما نادى المذياع بانتهاء الغارة كانت الشمس تشرق على يوم صحو جميل ، فعدنا إلى منزلنا ، وكان على أمي أن تسرع بالذهاب إلى المستشفى ، إذ كانت رئيسة قسم الأطفال هناك ، وكان أبي يؤنبها لارهاقها نفسها في العمل ، بينما لم يكن هناك ما يدعوها إلى ذلك ، لكن أمي كانت تقول دائماً إنهم في حاجة إليها .

وكان القوم على طول الطريق يملأون الغرارات بالرمل والفاذورات يحمون بها بيوتهم . وعدت وكيتج وبرتها (الخادم) إلى المخبأ عند ما عاد مجهور فان هلسنت قائلاً إن طائرات هيكل

عادت ، وكان الصوت أفظع من المرة الأولى ، وأمسكت بيد كيتج التي كانت تضغط بدي حتى آلمتها ، واهتزت الحجرة مرة إلى الأمام والخلف ، ثم أخرج طفل ما في أسنانه ، وعند ما انطلقت صفارات الأمان خرجنا ، وقد أصابت قنبلة منزل مجهور شابمان ، وقال أحدهم إنه قتل ، وإن ابنته أصيبت وقد حملها رجال الاسعاف إلى المستشفى .

وعاد المذياع فقال إن الألمان يهبطون بالطائرات ، وطلب من الأهلين التسلح ، فأمرنا دستور أيروس بالتطلع إلى السماء فوجدنا الفزع الذي يملأ الظاهر مقرواً بمظلات بيضاء تهبط . وحوالى الظاهرة عادت أمي من المستشفى ، وقالت إنهم يرحلون الأطفال المرضى إلى داخلية البلاد بعيداً عن القنابل ، وإنها ستعود من المستشفى في أقرب فرصة ، وإن عمي بيتر سيحضر إلى منزلنا . وظللنا ملتفين حول المذياع الذي قال إن جنود المظلات الألمان يرتدون ثياب الجنود الهولنديين ، وإن بعضهم هبط في جنوب هولندة ، وهم في ثياب سوداء وقبعات عريضة ، وهي ثياب القسس الهولنديين . فعفا دستور أيروس من الغضب ، وفكرت في أستاذي وفي موضوع الانشاء عن حياة أرامس ، وتمنيت لو لم أكتبه ؛ فقد كان أستاذي يحارب ، لكن ربما لا تطول الحرب ، وهو لا ينسى قط .

وعادت أمي عند الغروب ، كما جاء عمي بيتر بعد العشاء بالغ الحزن وقال إنه رأى جنود المظلات يهبطون بالثلات ، وإن الطائرات الألمانية تنزل الجنود في المطار وهي تلعب وتعود كقطارات الضاحية . وقال البارون إن هذا مستحيل ، وكذب كل الرجال عمي بيتر ، لكنه قال إنه رآهم بنفسه ، ونامت كيتج أخيراً ، وبدأت غارة أخرى ، وكان صوتها أكثر إزعاجاً من الرعد ، مما سبب لي الصداع واضطراب المعدة . وجلست كيتج في فراشها خلال الغارة بين النوم واليقظة ، وطلبت وقف تلك الأصوات . وأخيراً عاد الصمت ، وتناول البارون يدي واتجهنا إلى زريبة الحيوانات ، وصار ينادي الجياد بأسمائها وبعض الأبقار ، وأخبرني أن الخوف جعل من الصعب حلب الأبقار ، وكانت الجياد تصهل برقة في صوت يشبه بكاء كيتج خلال نومها . وقال عمي بيتر إننا لن نحتمل يوما آخر كهذا اليوم ، وبدا الاعياء والتعب على وجه أمي ، وكانت طبيباً تفكر في أبي ، وإن لم تقل . إلا أنه يجب ألا يظهر علينا الخوف لتشجيع الآخرين .

السبت ١١ مايو — وهذا يوم سيء آخر ، فقد ازدادت الحرب فظاعة ، وقد أقبل المساء ونحن في المخبأ ، وكان الناس أمس لا يدرون ما يفعلون . أما اليوم فقد كنا نملأ الغرارات بالرمل ونحفر الخنادق ، وكان منظر الناس مضحكا وقد وضعوا غلايات الماء فوق رءوسهم لحميهم من شظايا القنابل ، وقد رأينا عصر اليوم أول جندي من جنود المظلات ، فقد نزل خلف (زريبة) البارون ، فأخرج مجهور فان هلسنت مسدسه ، وأسرع نحوه وأطلق الرصاص ثلاث مرات ، ثم عاد يأوي الحزن وبداء

ترجمان ، فقد كان كهلا طيباً لم يعتد قتل الناس .

وألقت طائرة ألمانية منشورات ، وأحضر ماكس بلوك أحدها إلى المخبأ ، فقرأنا فيه إن الألمان جاءوا كأصدقاء ، وإنهم يأسفون لما يحدث ، لكن نحب عاينا من الانجليز والفرنسيين ، مما أضحك الجميع أولا ، ثم أثار غضبهم . وقال الدكتور إنه من الحمق الاستمرار في المقاومة بينما هزمت البلاد تماماً ، ثم سأل الدكتور : لماذا تحارب أصدقاءنا الألمان ؟ وقال جنهير فان هلست وهو يضحك : « أصدقاءنا الألمان » . ولم تر أبي طوال اليوم ، وسمعنا المذياع قبيل العشاء يقول إن تحرب هولندا أغرق بالماء ، لكن الألمان يتقدمون باستمرار مستعملين زوارق من المطاط ، وقد أسقطت طائرة وجدوا بها كما قال المذياع جواداً عليه القائد الألماني لاستعراض النصر .

فيما بعد — نفس اليوم — جاءت أسوأ الغارات جميعاً ، وقد امحى من الوجود أكثر من نصف منازل شارعنا ، وقد سقطت قنبلة ولم تنفجر بجوار المخبأ ، وذهب البارون وآخرون لاتلافها ، وبكى مدو هارتوج مما أثار أعصاب الجميع ، قتل هنتج كلابس ، فقد خرج لمشاهدة النيران الهائلة ولم يعد إلا تسلمه القنابل ، كما قتل ثلاثة رجال وهم يحاولون إتلاف قنبلة لم تنفجر ، وكان أحدهم وكيل مكتب البريد ، وكنت أحبه جداً ، إذ هو الذي علمني ركوب الدراجات . ومن المؤلم رؤية القوم الذين نسفت منازلهم ، إنهم لا يعملون شيئاً ، بل يسيرون بادي الحزن .

وقد مات اثنا عشر شخصاً من حينا أعرفهم جميعاً ، لا سيما هنتج . وكان البعض يصلي طوال الوقت ، بينما يغني آخرون ، ويجلس الباقون محملقين . وصليت لأجل والدي ، وأرجو أن يكون الله قد سمع صلاتي على الرغم من كل هذه الأصوات المزعجة ، وقد ذهب عمي بيتر إلى المستشفى ليبحث عن أبي ، فقد تأخرت وربما نقش عليها ، وأعتقد أنه سيعثر عليها . وكانت كيتج تتكلم في نومها وتستيقظ من حين لآخر ، تسأل عما إذا كانت الحرب قد انتهت . مسكينة كيتج ! إنها صغيرة ولا تدري ما يحدث ، وهو أفظع من أسوأ معركة في السينما ، وكانت سيارات الاسعاف تروح وتغدو تحمل مئات القتلى ، مما دعاني إلى البكاء ، ولم يلحظ ذلك أحد لكثرة الأطفال في المخبأ .

فيما بعد — عاد عمي بيتر دون أن يعثر على أبي لأنها ماتت ، ولم أصدق ذلك ، لكن عمي بيتر لا يكذب ، ولن تخبر كيتج الآن ، وما زالت سيارات الاسعاف تعمل ، وليست لي طاقة على النوم أو الكتابة الآن .

الأحد ١٢ مايو — أكتب هذا في الصباح ، بينما أنتظر وكيتج عمي بيتر الذي سيأخذنا إلى زيشت ، إن أمكننا الرحيل . ولست أصدق أننا لن نرى أبي ثانية ، وقد قتلت أثناء ضرب المستشفى بالقنابل ، وقد حاولت الفرار من عمي بيتر عندما ساق لي النبأ المؤلم ... حاولت الفرار إلى الشارع لمقاتلة الألمان . وظللت عادياً حتى منتصف الليل حينما سقطت القنابل ، فانهارت أعصابي وصرخت وعضضت يد عمي بيتر واعتقد أني جننت .

ولم تعلم كيتج بعد عن أمنا ، وبدا عليها الاعياء ، وأفرغت ما في جوفها ، فقرر عمي بيتر أنه يجب أن نرحل إلى إنجلترا . وقد مات كهلان مساء أمس أثناء إلقاء القنابل ، لكن لا منها ، بل بتأثيرها ، وقال البارون إن ذلك من حسن حظهما ، وجاءت برقعا الآن بحقائبنا وعروس كيتج الكبيرة ، وسألت كيتج براقعا عن موعد عودة أمنا ، وعما إذا كانت سترافقنا في السفر .

فيما بعد — نحن في دووردرشت الآن ، وهي تبعد بضعة أميال عن منزلنا ، ولا يحتاج الذهاب إليها في العادة إلى أكثر من نصف ساعة على الطريق السكبي الحديث المزدوج ، لكنها استغرقت منا اليوم ست ساعات في سيارة عمي بيتر (البويك) ، وقد غادرنا المنزل في العاشرة صباحا ، وكدت أبكي ثانية ، بينما بكت كيتج لأن أمي لم تحضر لتودعنا ، ولم يبد منزلنا قط أجمل مما تراءى عند رحيلنا ، على الرغم من نوافذه المحطمة .

كان الطريق مليئاً بالناس بين راجل وراكب ، متجهين جنوبا بعيداً عن القنابل ، وقد جلس بعضهم على حافة الطريق وخلعوا أحذيتهم وراحوا يدلكون أقدامهم . وقد حضر بعض الأطفال في العربات الصغيرة المملوءة أطعمة ومفروشات . وكان عمي بيتر يقود سيارته في مهارة ، واليوم مشرق بديع ، ومما يدعو للأسى أن يحدث كل ذلك عند ما كنا نتأهب لاستقبال صيف جميل ، وقد أركب عمي بيتر في سيارته أربعة كهول .

وجاءت بعض الطائرات الألمانية حوالي الساعة الثالثة ، واندفعت خمس منها نحو الأرض حتى خلناها ستصدمنا ، ثم أطلقت علينا مدافعها الرشاشة ، فاختبأنا جميعا تحت السيارة ، بينما استلقى الناس على الأرض وغاصوا في الوحل . وظلت الطائرات في غدو ورواح وهي تضربنا ، ثم رحلت ، فتبع ذلك هرج واضطراب شديد ، وقد جلست امرأة شابة تئن والدماء تنساب من ثقب في رأسها فتمرت بجوار ، وشاهدنا على طول الطريق الجرحى والناس ما زالوا مستلقين على الأرض . وقد اضطر عمي بيتر مرة إلى النزول وإزاحة ثلاث جثث إلى جانب الطريق حتى يتسنى لنا استئناف السير ، وكم كان ذلك فظيعا ، وما أجبن الألمان الذين يقتلون الأطفال غير المسلحين ، وكم أرجو أن يسقط هؤلاء الألمان بطائراتهم فيموتوا ولا يروا وطنهم ثانية .

وعندما غادرنا الطريق الرئيسي رأى عمي بيتر طفلين واقفين متماسكين بادي الجزع ، ولم يبدأ الحديث أولا ، وكانت البنت في طول كيتج ، بينما كان الولد أصغر منها ، وحملهما عمي على الحديث بعد أن أعطاهما بعض الحلوى ، وسألهما عن أبويهما ، فقالا إنهما يظنان أنهما قد قتلا ، فسألهما عمي بيتر عن وجهتهما ، فلم يفعلا إلا أن حدقا فيه ، فتنهد عمي بيتر وقال إن السيارة مشحونة لكن يجب زيادة أحمالها . وطوال الطريق إلى دووردرشت لم يقولا شيئا ، وظلا متماسكين ينظران إلى الأمام .

أوقف جنودنا عمي بيتر عند حدود المدينة ، إذ لا يصرح

إلا السيارات الحكومية بشحوها . فذهب بنا عمي بيتر إلى مقهى صغير أعطى صاحبه نقوداً وقال له : « أعط هؤلاء الأطفال شيئاً يأكلونه ، ولا تدعهم يبعدون عن ناظرك حتى أعود ، وأنا ذاهب للعثور على باخرة إلى فلشنج » . فقال له صاحب المقهى : « لن تجد بغيتك » . فقال عمي بيتر : « سأرغم تيس نورمان العجوز على العثور على واحدة » .

غاب عمي بيتر طويلا ، وعند ما عاد كان بادي السرور ، وقال إننا سنذهب إلى فلشنج هذه الليلة ، وبدأ الطفل والفتاة اللذين عثرنا عليهما يتحدثان بعد تناول العشاء ، وكانا من نفس مدينة دوردرشت ، وقد نسف منزلهم في الليلة الماضية ، فأعطى عمي بيتر بعض المال لصاحب المقهى ، طالبا منه العناية بالطفلين حتى يعثر على من يعرفهما ، فأعلن صاحب المقهى قبوله المهمة ، وإن رفض أي مال أجراً على ذلك ، وفي الساعة العاشرة حان وقت الرحيل ، فسرنا في الظلام ، وقد سقط عمي بيتر مراراً لضعف نظره ، وعند ما وصلنا إلى المرفأ وجدنا مئات الناس يرغبون في الرحيل ، وبعد وقت طويل عثر عمي بيتر على صديقه وركبنا سفينة صغيرة .

الاثنين ١٣ مايو — استغرقت رحلتنا إلى فلشنج ساعات وسارت السفينة دون أنوار ، وكنت طوال الوقت أفكر في أصدقائنا ، فقد كان من الظلم أن نكون في أمان تام ، بينما هم ما زالوا معرضين للقنابل ، وأطلعت عمي بيتر على أفكاري ، فقال إننا أبعد ما نكون عن الأمان ، وقد عرفت سبب ذلك أخيراً . وكان علينا أن نمر تحت كوبري موردجك ، حيث لا يزيد اتساع القناة على ٥٠ ياردة ، وكان الألمان هناك بينما حارب الهولنديون طوال اليوم لاستعادته ، وأنا مسرور لأني كنت نائما عندئذ ، ولم أعلم بذلك إلا فيما بعد . وقال عمي بيتر إننا لا نهرب ، بل نفعل ما فيه راحة كيتي ، ولكم سررت لأنه لم يعتمد علي ، لأني كنت أحاول المساعدة ، وأحاول إثبات أني لست فقط طفلا كبيراً كما بدوت عند ما أخبرني بوفاة أبي . وسنبحر إلى إنجلترا مساء غد ، وقد حجز عمي بيتر لنا أماكن في السفينة المبحرة ، وسننام عصر اليوم ، إذ لم ننم بنوم هادئ منذ قامت الحرب ، أي من ثلاثة أيام ، ولو أن الفترة تبدو أطول .

الثلاثاء ١٤ مايو — هذه سفينة أكبر ، واضطررنا إلى الجلوس ، لكن عمي بيتر أخذ كيتي بين ذراعيه ، وهي نائمة الآن .

(فيما بعد) لقد مرت ساعات كثيرة ، وعاجني كابوس فظيع من القنابل ، ومن قاذفة قنابل تطاردني ، وكيتي في الترع ، ونحن مرتدون أحذية الانزلاق ونسقط دائما ولا يمكننا الهرب ، وشعرت بالبرد عند ما استيقظت ، فوضع عمي معطفه الكبير حولي .

(فيما بعد) سارت السفينة طويلا ، فسألت عمي بيتر عن موعد وصولنا إلى إنجلترا ، فقال : بعد وقت طويل ، لأنه يتحتم علينا السير في طريق إهليلجي تتقدم وتتأخر الخنادق حول الألغام ، ففزعت خوفاً من أن تمس إحداها فنغرق ، ولست أحسن السباحة ،

ولا يمكن لكيتي أن تسبح أكثر من عشر خطوات ، فقال عمي بيتر إنه يحسن ألا أفكر في ذلك ، فحاولت .

فزعت عند ما سمعت انفجاراً مروعا ، فقد مست السفينة التي تتقدمنا لغما فانفجرت ، وحاولت سفينتنا إنقاذ الركاب من الماء ، ثم يعثر القبطان إلا على القليلين ، لأنه رفض استعمال الأضواء الكشافة ، وكم كرهت التفكير في هؤلاء القوم وهم يسبحون في الماء البارد ، وأرجو ألا يغرقوا جميعا . إن هذه الحرب تقتل الجميع ، وحالتي سيئة الليلة ، وربما سيعتريني دوار البحر ، لكني أظن ذلك نتيجة الغارات والقنابل . وقد فاتني أن أشيد برقة كيتي قبل مبارحتنا دوردرشت ، فقد أعطت عروسها الكبيرة إلى الطفلة الصغيرة ، وكانت كريمة أنانية . وأدعو الله أن يحفظ أبي ، فلا يمكننا أن نحتمل فقد أبينا بعد أن فقدنا أمنا .

الأربعاء ١٥ مايو — وصلنا إنجلترا في الصباح ، وركبنا القطار إلى لندن ، وذهبنا إلى مكان يجب على اللاجئين قصده ، حيث وجدنا الكثير من الإنجليز لمساعدتنا ، وبعثا على بعض اللاجئين الرعب . كما كان هناك أطفال بدون أهل أو أقارب أو أصدقاء . وأنا أكتب هنا في الفندق الذي أخذنا عمي بيتر إليه ، وقد ذهب لإرسال برقية لمس كلاس في أمريكا ، وليزور القنصل الأمريكي ، ويقول عمي بيتر إننا قد نذهب إلى أمريكا ولن يرافقنا .

(فيما بعد) عاد عمي بيتر الآن بأخبار فظيعة ، فقد سلمت هولندا للألمان ، ويكاد عمي يبكي ، وأرجو أن يكون أبي بخير ، وأن يعود إلى مباهة حيواناته . وسألت عمي بيتر عما إذا كان يمكننا العودة الآن وقد انتهت الحرب ؟ فقال : إنه من المحال أن نعود ما دام الألمان هناك ، وقال : إن الموت أهون من معيشة الهولنديين كالعبيد ، ولا أظن أن الألمان سيتمكنون من تحويل أبي إلى رقيق ، فإن نفسه تأبى ذلك .

كيتي مريضة جداً ، وقد أمر عمي بيتر بإرسال لين صاحب ويش إليها هنا ، وحجرتنا كبيرة مرتفعة الجدران ، والنوافذ مغطاة بستائر ثقيلة منعا لتسرب الأنوار ، وقالت كيتي إنها تتمنى ألا يزعجها أي صوت الليلة . وتقول الصحف الإنجليزية إن روتردام ضربت بالقنابل ضربا فظيعا مرة أخرى اليوم ، وقد دمر ثلث المدينة ، ولست أفهم لماذا يرغب الألمان في إيذاء قوم لم يؤذوهم قط . وكان مما يحزن أبي أن نسمع هذه الأنباء ، فقد قابلت أبي هناك قبل الزواج .

الاثنين أول يوليو — نحن في ليفربول في انتظار باخرة إلى أمريكا ، فقد طلبتنا عمتي كلاس ، وظلت كيتي مريضة أسبوعا في الفندق في لندن ، وقد عادها طبيب وقال إنها في حالة عصبية ، وكم كان رقيقا ، وقد رفض تناول أجره من عمي بيتر ، وقال إنها هديته إلى هولندا الشجاعة ، وقال عمي بيتر إن هذه هي أخلاق الإنجليز مع غيرهم . والجميع يحملون الأقنعة الواقية ، وقد حصلنا على أقنعتنا الآن ، ولها خراطيم طويلة ، وقد ارتدى عمي بيتر قناعه

أمس ونظر إلى نفسه في مرآة ، وقال إنه لا فرق بينه وهو جائع وبينه وهو يدوّنه ، فضحكت وضحك ، ولقد سررت لضحكه ، فقد استولى عليه الأسى منذ علم أن ربيع جيفنا قد قتل ، ولم اسمع شيئاً من أبي .

تقل الأخبارية تحسن ، وإن كانت كيتج تحصل على تمرين أكثر مني ، إذ يزورها الجميع لمحادثتها ، ويلفرون السكثير من النقل ، ويسعدنا أن تذهب إلى الرفأ لتشاهدنا ، لأنها تذكرنا بهولندا العزيزة . ولم يتمكن عمي بيتر من توديعنا ، لأن هـذا يخالف قوانين الحرب ، وقد أرسل لنا عامل الفنار كي من يأخذنا للسفينة ، فيجب أن أكف عن الكتابة لمساعدة كيتج وعمي بيتر في حزم الأمتعة ... الوداع يا إنجلترا ... فقد اضطررنا إلى الرحيل عند ما بدأنا نحبك ، وأعتقد أننا سنحافظ على الأوطان الجديدة ...

الأربعاء ٣ يوليو — رحلنا أمس بعد الظهر ، وكان من الصعب فراق عمي بيتر الذي قبلنا مراراً واحتضننا بعنف ، وسيقابلنا عمي كلاس في نيويورك ، وأرجو أن تسره رؤيتنا ، وقد قال عمي بيتر إنه سيسر ، وسفينتنا كبيرة ، وبرافقنا الكثير من الأطفال ، وبعض الأطفال الأنجليز ترافقهم أمهاتهم أو مربياتهم ، ولم تعبر كيتج إلى أمنا قط ، كما لم أفعل ، لكني أعرف شعورها ، وهي كثيرة الشرود والهدوء ، ولم تكن هادئة قط قبل الحرب ، لكنها شجاعة ، ولا تبكي أمام الغرباء ...

والقبطان الأنجليزي كثير المرح ، وهنا طفلان هولنديان آخران ، ونحن نتحدث الهولندية لاراحة ألسنتنا ، وكيتج مريضة منذ رحلنا ، ولم أركب باخرة عظيمة من قبل ، إنها تشبه الفندق في لندن .

السبت ٢٨ سبتمبر — وصلت باخرتنا إلى نيويورك ليلا في اليوم العاشر من رحيلنا من انجلترا . وفي اليوم السابق لوصولنا عادت السفن الحربية التي كانت تحرسنا إلى إنجلترا ، وتركتنا في جزع وخوف ، ثم هتف أحدهم مشيراً إلى السماء حيث رأينا منطاداً مكتوباً عليه بحروف كبيرة « الجمهورية البحرية رقم ١٤ الولايات المتحدة » . وحرسنا المنطاد بقية الطريق ...

وكانت نيويورك مثيرة للنظر من بعد بأنوارها المتقدة ، فطوال المدة التي قضيناها في إنجلترا لم نر ضوءاً في الشوارع ... وقابلنا عمي كلاس وعمتي هلين ، والأخيرة أمريكية بأظافر حمراء صقيلة ووجه ساحر الجمال ! وقد مضى علينا في أمريكا عدة أسابيع الآن . وأذهب وكيتج إلى مدرسة خاصة ، وهناك دراسات جديدة ، لكن لا توجد لغات متعددة كما في هولندا ، وأنا أتدرب على لعب كرة القدم ، وتفضل كيتج رياضات الصبوا . وقد جاءتنا رسائل عديدة من عمي بيتر ، ولم يصل إلى هولندا بل اضطر إلى قرى الطاقي الأنجليزية ، وقد استلم عمي بيتر خطاباً من أبي كما جاءنا آخر ، وقد عاد أبي إلى روتردام وكان على خطابه طابع بريد سويسري ، وقال عمي كلاس إنه لابد لم يمر على الألمان ، وقال والدي إن الألمان غيروا

أسماء كل شيء حتى كلمة (ملسكي) حولت (لوطني) ولا يسمح لأي هولندي بالانصات إلا للإذاعات الأسبانية والايطالية والألمانية ، ولا قرم معمرة آلاف جنيه ، وسجن سنتين ، والطعام يحول من سيء إلى أسوأ ، وربما أبي ألا نهتم بذلك فانه يمكنه أن يحتمل .

كيتج وأنا سعيدان ، وكانت سعادتنا تتم لو كان أبي وعمي بيتر معنا هنا ، ولم أحصل على درجات عالية في المدرسة ، وقال الطبيب إن أعصابي لم تتخلص بعد من رعب القنابل ، وإني سأتحسن بمرور الوقت ، وكان الطبيب الأمريكي في كرم زميله الأنجليزي ، فلم يقبل نقوداً لعنايته بي .

وفي بعض الأحيان عند ما تحلق طائرات في سماء المدينة أرغب في الجري والاختباء ، واستيقظت ذات مساء وسمعت قطرات المطر تضرب زجاج النافذة فتولاني الرعب إذ ظننت أني في هولندا وأن النقر على النافذة ما هو إلا شظايا القنابل . ولهذا يغضب عمي كلاس من كل من يسألني عن الحرب . لكني أعلم أني لن أنسى ما حدث أو أنسى الألمان وكيف مات أمي ، كما لن أنسى أمريكا ، إنها أمة طيبة قابلتنا بصدر رحب .

[مترجمة من مجلة The Reader's Digest]

(أسيوط) حسين محمد السيد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة من اتحاد البريد

ثمن العـدد ١ قرش صاغ

من هنا وهناك

السؤال رقم ١٢ : متى وكيف ابتدأت الغارات الجوية ؟

عند ما اندلعت نيران الحرب العالمية السابقة (سنة ١٩١٤) لم تك فكرة الاغارة على المدن الآمنة قد نضجت ، ولم يعطها أحد فى بادئ الأمر قليلا أو كثيراً من الاهتمام . كان النشاط جميعه موجها لميادين القتال والجيوش المتطاحنة فيها ، بينما تركت المدن بما فيها من نساء وشيوخ آمنة مطمئنة لا يقلقها أزيز الطائرات ولا يزعجها صفير القنابل . لم تستمر الحال مدة طويلة إذ روعت الأراضى البريطانية فى يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٤ لأول مرة بغارة نهارية بواسطة طائرات ومناطيد ألمانية ، كانت قد اجتازت البحر الشمال وأخذت تحلق فوق بقع مختلفة من الجزر الانجليزية قاذفة لهيب قنابلها يمينا ويساراً تبذر الموت والدمار . ورجعت الطائرات المغيرة إلى ألمانيا سالمة لأن الغارة — كما أسلفنا — كانت مفاجئة للبريطانيين ، فلم تتحصن لها بالمدافع المضادة والطائرات المقاتلة وسائر طرق الدفاع المعروفة فى ذلك الحين .

عند ما عرفت ألمانيا بنتائج تلك الغارة تاهت فخراً ، وأخذت تشيد بمناطيدها المعروفة « زبلن » وأخذت ترسل بها الفينة بعد الفينة إلى أرض أعدائها ، بينما كانت انجلترا من جانبها تستعد لدفع الغارات عنها وترشد الجماهير إلى اتقاء ويلاتها .

فى ذلك الوقت ظهر قائد سرب للطائرات الألمانية يدعى ماتهى Mathy عرف بالجسارة والشجاعة والمقت الشديد للانجليز . وعند ما تطوع للاغارات على انجلترا ازداد سرور الألمان به وزودته الطائرات الألمانية بالدعاية والقنابل والوقود ، على أن يأتيها بالنتائج الطيبة والمعلومات القيمة .

وكانت أول غاراته المعروفة يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩١٥ على لندن .

ويكفى أن نذكر أن التلف الذى لحق بالعاصمة فى تلك الليلة يقدر بأكثر من نصف مليون من الجنيهات . وعند ما قفل راجعاً كانت نيران الحرائق تندلع فى الأرجاء .

وتلت تلك الغارة إغارات أخرى كان عدد ضحاياها أقل والضرر الناشئ عنها يسيراً ، إلى أن جاءت تلك الليلة التى حاول ماتهى فيها هدم لندن بأكملها . وكان ذلك فى مستهل شهر أكتوبر من سنة ١٩١٦ عند ما امتطى طائرة على رأس سرب من أحد عشر منطاداً تحيط به طائرات أخرى مدافعة بعد أن زودت بالقنابل على كافة أنواعها وأحجامها .

ابتدأت القافلة من ألمانيا فى الساعة الثامنة مساء ، فاجتازت القارة الأوربية بسلام ، وعمت شطر الجزر البريطانية وطياروها يمنون أنفسهم بما سيصيبونه من نصر ويلاقونه من فخر بعد تدمير وإحراق عاصمة بلاد أعدائهم . وعند ما وصلت القافلة لندن كان الجو معتدلا وقد أضاء القمر أعلى منازلها ومبانيها فظهرت وكأنها فى وضح النهار .

استعد الألمان لإلقاء قنابلهم ، ولكن — وفى اللحظة المناسبة — ظهرت قذائف نارية انجليزية دفعة واحدة ملأت أرجاء السماء ، وأخذت تحيط بالطائرين الألمان والطائرات ، بينما سلطت الأنوار الكاشفة من كل جانب على المغيرين .

ذهل ماتهى ومن معه الذهول كله . وفى سرعة البرق أجبر على إلقاء بعض قنابله فى العراء والرجوع من حيث أتى . لقد خيبت قوة الدفاع التى لقيها آماله ، وجعلته يقدر مخاطراته ويحتاط لكل خطوة يخطوها مستقبلا ويعمل لها ألف حساب .

رجع إلى بلاده بأنسا والغيظ يأكل أحشاءه ، وصمم على أن يضحى — إذا دعت الحال — عن عمه وبنفسه فى سبيل رؤية لندن أطلالا .

أخذ يستعد وقتاً طويلا حتى جاءت الليلة القمرية المناسبة ، فأغار بعدد كبير من الطائرات والناطيد ، ورمى كثيراً من القنابل (ويقال فى بعض المصادر إنه يربو على المائة) فى منطقة واحدة ، كان شارع ليفربول فى لندن مركزها الرئيسى ، وهو أحد الشوارع التى تشتد فيها الحركة ليل نهار . ويقال أيضاً إن إحدى القنابل قد سقطت فى شارع مزدحم بالجماهير فقتلت شظاياها ثلاثة وثلاثين فى الحال ، وجرحت مائة وثلاثة وعشرين .

ويجدر بنا أن نذكر فى هذا المقام أن الاصابة من شظية قنبلة غالباً ما تكون مميتة إلا إذا أصابت فى جسم الانسان موضعاً غير خطير كالأطراف مثلا . أما الشظية نفسها فيمكنها قتل أكثر من شخص واحد ، مع العلم بأنه عند ما تنفجر القنبلة المتوسطة الحجم يتناثر منها مئات ومئات من الشظايا .

والجدول المبين فيما يلى يظهر عدد ضحايا الغارات الجوية فى لندن وباقى الجزر البريطانية مدة الحرب الماضية ، كما يبين أيضاً عدد الطائرات التى أغارت عليها وعدد القنابل التى أسقطتها .

الطائرات والناطيد			الضحايا	
التاريخ	العدد	عدد القنابل	منطقة لندن	باقى الجزر البريطانية
١٩١٤	٣	٤	....	....
١٩١٥	٤٦	١٥٥٦	٣١٣	٣٢٦
١٩١٦	١٥٤	٣٧٧٦	١٤٧	٧٨٤
١٩١٧	٣٧١	٢٨٦٧	١٢١٣	٩٠٢
١٩١٨	٦٩	٥٧٣	٥٤٩	٨٢

قد يلاحظ فى هذا الجدول أن عدد الضحايا قليل إذا قورن بعدد القنابل التى رميت أو بالمجهود الذى بذل من الجانب الألمانى ، وقد شاهد بعض منا وسمع البعض الآخر تأثير القنابل التى أسقطت فى حربنا هذه على بعض المدن المصرية . ولكن يجب ألا يفوتنا أن العلم قد تقدم كثيراً فى المدة التى انصرمت بين الحربين ، وأن فنون الآلات الحربية قد تطورت حتى كادت تبلغ درجة الكمال فى أيامنا الحاضرة ، نذكر منها ما أفاد الطيران البعيد المدى والمواد المتفجرة داخل القنابل وتعدد أنواعها وأحجامها ، واختلاف مدة انفجارها ، إلى آخر تلك البدع الشيطانية التى اخترعها علماء الدول المتحاربة . وكما أن لندن وباقى الجزر البريطانية نالت الشىء الكثير من الغارات الجوية إبان الحرب الماضية ، كذلك يقال عن أهم المدن والموانى الأوربية مثل باريس وكاليه فى فرنسا ، وسالونيكا فى اليونان ، ودورازو فى ألبانيا وفريبورج ومنطقة الرين فى ألمانيا (على هذين البلدين الأخيرين أغارت الطائرات الفرنسية والانجليزية)

ولا ننسى (فى هذه المناسبة) تلك الغارة النهارية التى شنتها طائرة نمساوية على مدينة القاهرة ، فكانت الأولى عليها ، وأسقطت فيها بعض القنابل فى أهم أحيائها ، فأحدثت بعض الضرر فى الممتلكات ، وأصابت عدداً قليلا من القتلى والجرحى .

ولما خرجت إنجلترا فائزة فى عام ١٩١٨ ، لم تنس أن تستعد لحرب الغارات ، وتعوض فى الحرب الحاضرة ما فاتها فى الحرب الماضية ، فصبت بواسطة طائراتها وطائريها لهيب نيرانها على برلين ، كما تلقت ضربات برلين .

محمد أحمد أمين

أنباء وآراء:

العالمية والقومية

ذلك هو الرأى الذى رجحت كفته فى المناظرة التى أقامتها أخيراً كلية الآداب، ووقف الأستاذ أنطون الجميل يكافح من القومية، والأستاذ أحمد أمين ينادى بالعالمية، ومن وراء كل منهما حشد من الأساتذة والطالبات والطلبة.

أما المنادون بالعالمية فكان أولهم الطالب عبد الرحمن صادق بكلية الآداب، فقد استنجد بالدين والتاريخ لمناصرته، فقال إن الدين دعا إلى التآلف، وإن التاريخ قد أثبت أنه ما ترعرعت فكرة القومية بين الشعوب حتى اشتعلت الحروب، فهى — أى القومية — تقيم الحدود وتضع القيود على الناس.

وكان الثانى الأستاذ العميد أحمد أمين بك، فقد تكلم بعد الآنسة زينب البشرى التى لم تر فى التاريخ يوماً تحققت فيه العالمية إلا فى الطوفان؛ فكان أول ما فعل أن صوب رأى الآنسة، فقال إن الطوفان المعروف لم يكن إلا حرباً على القوميات، وإن العالم ليشهد قصة الطوفان كلما اشتدت نزعة القومية، فى الحروب آناً وفى كوارث الطبيعة آناً آخر، فيفيق على دعوة العالمية تنبعث من أعماقه، تلك الدعوة التى سيؤمن بها الناس يوماً من الأيام.

ونستطيع أن نلخص حجج الأستاذ العميد فى ثلاث نقط رئيسية:

١ — أن العالمية تقيس الأعمال بمقياس العدالة العامة، على حين تقيس القومية الأعمال بمقياس مصلحة طائفة محدودة من الناس، وضرب المثل بالاستعمار والفتح وكيف تنظر إليه كلتا العقيدتين.

٢ — أن التطور الطبيعى للانسانية يسير نحو العالمية. إذ يتطور الانسان من الحياة الفردية إلى الحياة للأسرة إلى الحياة إلى القبيلة. ولا بد أن يصل يوماً إلى دائرة العالمية فيسير المجتمع سيراً طبيعياً.

٣ — أن تقدم العالم واتصاله بوسائل النقل الحديثة لم يدع مجالا للقومية التى كانت تستساغ حين كانت هناك حدود ومسافات تفصل الأمم بعضها عن بعض، فالعالم اليوم فى الواقع وحدة تربطها المدنية بشبكة من المواصلات كالطائرات والسكك الحديدية والأسلاك البرقية.

وأضاف ثالث المؤيدين للعالمية الأديب عباس عمار حجة جديدة تؤيد أنصارها، هى ما تفرضه القومية على الشعوب من قيود! فهى تحد من الحرية وتدفع إلى الاسراف فى التسلح، وتؤدى إلى نشوب الحروب. وكانت نهاية حديثه تلك الاحصائيات التى أوردها عن ضحايا الحروب، ثم إحصائيا الانتاج العالمى التى يبين بها أن العالم ينتج ما يفيض عن حاجة شعوبه، ومع ذلك فهناك شعوب تعانى المجاعات كل عام.

ولم تعدم القومية أنصارها، فقد قام الشيخ المحترم أنطون بك الجميل يذود عنها فى عذب بيانه ولطيف حجته، فكان الأديب فى دفاعه والمحامى الموفق فى حججه. فالقومية فى نظره ليست الأنانية والأثرة. وإنما هى عاطفة وغريزة ومصلحة؛ فقومية الطفل فرحته بأهله واحتفاله بهم، وقومية الشاب فى اطمئنانه لاخوانه، وقومية الرجل احتفاله بوطنه وقومه أجمعين.

ولم يعدم الكاتب الكبير حجة يرد بها على دعاة العالمية فى نقطة المصلحة، فالمصلحة فى نظره عند القومية هى الدفاع المشترك بين أبناء القومية الواحدة.

وكم كان جميلا حين خرج الأستاذ من حججه وأدلته إلى نصيحته الحارة للشباب، وما أحوجهم إلى مثل هذا النصح، بأن يرعوا حرمة الوطن ومقومات القومية من لغة وتاريخ وتقاليد وعقائد، وأن يحتفظوا بذلك التراث الخالد من العزة القومية التى تقوم عليها حياة الأمم فى العصر الحاضر.

وكان ختام المناظرة فى يد آخر المؤيدين للقومية

الأستاذ توفيق الطويل ، وقد كان — كعهده — المؤرخ الذي يلحس في التاريخ حجته الدامغة ، ولقد أعانه التاريخ حين قدم له قصة الحرب بين روما وقرطاجنه ، وهي قصة الدفاع عن القومية ، بل لعلها أروع قصصه ، ففيها أخلد آيات التضحية في سبيل الوطن بحدوده الطبيعية ، وفيها أنبل صور البطولة ، التي تقوم على حب الوطن والقومية .

وكانت المالية أخيراً هي التي فازت ، فقد أخذ الرأي في نهاية المناظرة فأيدها أكثر الحاضرين . (ص)

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٢ — الثلاثاء ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٣٦١ — ١٤ من أبريل سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــــدد

نحو الوحدة العربية :

الشعب العربي

للدكتور يوسف هيكل

استيقظ العرب أوائل القرن التاسع عشر ، وانتبهوا إلى أنهم أمة لها ماض مجيد ، لعبت في تاريخ المدنية دوراً هاماً ، فنمت فيهم الروح الاستقلالية ، وأخذت تتقوى وتنظم ، وأضحوا يطمحون إلى نيل حقهم الطبيعي من الحرية ، وأخذوا يعملون على جمع صفوفهم وتوحيد أقطارهم لإعادة ما كان لهم من ملك عظيم وشأن رفيع ، ومكانة سامية بين الأمم . فأجريت محاولات لتحقيق ذلك ، كانت أولاها حركة محمد علي الكبير ، مؤسس العائلة المالكة في الديار المصرية . ولما حالت دون هذه عوامل خارجية ، واضطر إلى الاكتفاء بملك مصر ، ظلت الروح الاستقلالية العربية مشتعلة ، ولكن كامنة ، إلى أن ظهرت بشدة في الثورة العربية الكبرى ، خلال الحرب العامة السابقة ، على يد الشريف حسين ، جد العائلة المالكة في البلاد العراقية .

نال العرب من هذه الثورة بعض حقوقهم ، غير أنهم لم يصلوا إلى هدفهم ، ولم يحققوا غايتهم ، إذ ظلت

البلاد العربية متفرقة إلى أقطار ، لا سياسة عامة تربط مصالحها المشتركة ، ولا علاقات تمكن من توحيد نظمها وأمورها العامة ، لتبق الشعوب العربية واحدة في نظمها الرئيسية وثقافتها العامة . وللخروج من هذا الموقف والسير نحو الهدف الرفيع ، دعا رجالات العرب في أوقات مختلفة إلى الوحدة العربية ، بعضهم بعقله ، وبعضهم بعاطفته ، وتادوا إلى العمل لتحقيقها ، إذ لا أهمية للعرب من دونها ، ولا مكان لهم شريفاً على الأرض دون الوصول إليها

على أن من يقيمون قاعدة (خالف تعرف) ، ومن أثرت فيهم الدعاية الاقليمية الأجنبية المصدر من غير أن يشعروا ، قاموا ينادون بالاقليمية ، ويدعون بأن الوحدة العربية ، مهما كان نوعها ضرب من المحال ، لا فائدة منها ترجى ولا مصلحة تتوخى ، وعدد هؤلاء — ولله الحمد — جد قليل .

وبما أن هذا الموضوع من المواضيع الحيوية الهامة لجميع البلاد العربية ، وبما أن ما قيل فيه لم يكن جامعاً لنواحيه المختلفة ، وبما أن الظرف يوجب الاكثار من القول فيه ، فانى أحاول بحثه بإيجاز . وهذا البحث يقودنا إلى تحديد الشعب العربى ، ويؤدى بنا إلى معرفة موقف مصر من البلاد العربية ، وإلى بيان عوامل الوحدة ، ويحملنا على ذكر أنواع الدول ، وبالتالى يقودنا إلى تحليل الوحدة العربية ، وما يفهم منها ، وكيف تكون ؟ وإننا نقتصر في هذا المقال على التعرف على الشعب العربى ، ونتناول النقاط الأخرى من البحث في مقالات متتالية .

هذا ، على أنى لا أدعى إيفاء موضوع الوحدة العربية حقه من البحث . وكل ما أبتغيه من هذه الفصول هو إثارته ، وإعطاء فكرة عامة شاملة عنه .

وإذا حملت هذه الفصول بعض رجال العلم وقادة الفكر ، على تناول الوحدة العربية بأبحاث علمية مفصلة دقيقة ، تكون قد أنتجت ما أبتغى منها ، وأكون قد نلت السعادة التى يشعر بها من يتوفق فى القيام ببعض الواجب الوطنى المترتب عليه .

***

إن تحديد الشعب العربى يتطلب قبل كل شيء معرفة بلاده . فبلاد العرب قبل الاسلام كانت جزيرة العرب المحدودة شرقاً بخليج فارس وبلاد إيران ، وغرباً بالبحر الأحمر وصحراء سيناء ، وجنوباً ببحر العرب ، وشمالاً بجبال طورس والبحر الأبيض المتوسط ، فالعراق وبر الشام المجزأ الآن إلى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن ، ليسا سوى جزء من بلاد العرب قبل الاسلام .

جاء الاسلام فوحد بين صفوف العرب ، وأوجد منهم قوة دافعة لا تغلب . فخرجت جيوشهم من رجال ونساء من قلب الجزيرة ، فأعادت إليها ما كان قد احتله الروم والفرس منها ، أعادت إليها بر الشام والعراق . ثم وجدت هذه القوة الدافعة أن الجزيرة لا تكفى مجالاً لحيويتها ، فخرجت منها ، مشرقة ومغربة ، سارت شرقاً حتى نهر السند فى الهند ، وبلغت كشغر فى الصين ، وسارت غرباً حتى المحيط الاطلنطى ، ووصلت تور فى فرنسا . على أن العرب نشروا الاسلام فيما فتحوا من بلاد أسيا وأبعروا على ما فيها من لغات ، واضطروا إلى الانسحاب من جنوب فرنسا ، وإلى الخروج من الأندلس ، التى استوطنوها خلال ثمانية قرون ، وأسسوا فيها ملكا شامخا ومدنية زاهرة ، وجعلوا منها منارة العلم والعرفان ، غير أنهم ظلوا مقيمين فى بقية الأقطار حتى اليوم .

فتح العرب مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، واتخذوا منها موطناً لهم غير موطنهم الأول

هم وذريتهم من بعدهم ، وصبغوا هذه البلاد بالصبغة العربية الثابتة ، وأصبح من فيها عربياً ، لغة وثقافة — بكل ما في الكلمة من معنى — ودما إلى حد ليس بقليل . وأخذ العرب ، عرب الجزيرة وعرب شمال أفريقيا ، ينتقلون خلال الثلاثة عشر قرناً الأخيرة من قسم إلى آخر من هذا الوطن الشاسع ، من الجزيرة إلى شمال أفريقيا ومن شمال أفريقيا إلى الجزيرة ، فامتزجت القبائل واختلطت العائلات ، حتى صارت بلاد العرب هي الجزيرة بحدودها السالفة الذكر مضافاً إليها شمال أفريقيا .

* * *

والشعب العربي يتألف من سكان البلاد العربية ، ممن كانت لغتهم القومية اللغة العربية ، فسكان جزيرة العرب ، بما فيها العراق وبر الشام ، وسكان مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، هم الشعب العربي ، إذ أن لغتهم القومية هي اللغة العربية ، بها يتفاهمون وبها يعبرون عن أفكارهم وعواطفهم ، وبها يقرأون ما دون أجدادهم من علم وما أحسوا من عاطفة . فالشعب هو جماعة من الناس لغتهم وآدابهم وثقافتهم واحدة .

وأدب الشعب العربي وثقافته هو الأدب العربي والثقافة العربية . وإنك لواجد في كل قطر من الأقطار العربية أن الأدب القوي فيه هو الأدب العربي ، منه يستقي الشعب عواطفه الأدبية ، وبه يتمتع ببهجة الحياة . وإنك لواجد أيضاً في كل قطر من الأقطار العربية أدباً وشعراً وفناً مما ينتجه أدباء الأقطار العربية الأخرى .

فاللغة العربية تقرب بين الأقطار العربية المتنائية ، وتوحد بين سكانها وتجعل منهم شعباً واحداً . وفي اعتقادنا أن من كانت لغته القومية اللغة العربية ، وكان بها يفكر وبها يعبر عن تفكيره ، وبها يدون ما ينتج من علم أو أدب فهو عربي وإن كان أبوه وأمه من جنس آخر . فالإمام أبو حنيفة عربي صميم ، وابن المقفع عربي صميم ، وابن الرومي عربي صميم ، وأحمد شوقي عربي صميم ، شأن أي عربي خلق هو وآباؤه وأجداده في قلب الجزيرة ، إن لم يكن أكثر . فالعربي ليس من كان دمه عربياً خالصاً ، بل من كانت لغته القومية اللغة العربية .

وكما أن اللغة وثقافتها عاملان في تكون الشعوب ، فهما أيضاً عاملان رئيسيان في تكوين الأمم . وإننا نجد في الأمم الأوربية اليوم ، كثيراً من رجالاتها السياسيين وقادتها المفكرين ، وكتابها القديرين من أصل أجنبي . غير أنهم يعتبرون بحق من أخلص أبناء الأمة التي يعيشون بين ظهرانيها ، وذلك لأسباب : أهمها أن لغتهم لغة تلك الأمة ، وثقافتهم ثقافة ذلك الشعب . والأمثلة على ذلك عديدة نكتفي بذكر القليل منها .

ففي انكلترا نرى أن أصل الأستاذ هارولد لاسكي ، أستاذ العلوم السياسية في جامعة لندن ، من أوروبا الشرقية ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يكون انكليزياً صميما ، ومن أن يكون القائد الفكري لحزب العمال ، ثاني حزب في البلاد الانكليزية ، ومن أن يكون كاتباً انجليزياً كبيراً . وأصل لاسكي لم يمنع الانجليز من الافتخار به ، ولا الحكومة البريطانية من الأخذ بآرائه في كثير من الأحيان .

وليون بلوم في فرنسا ، من أصل أجنبي ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يكون من كبار رجالات فرنسا الذين لعبوا دوراً هاما في تاريخ الأمة الفرنسية خلال القرن العشرين . لم يمنع ليون بلوم دمه وأصله من أن يكون زعيم الحزب الاشتراكي ، الذي كان في الدورة التشريعية الأخيرة ، أكبر حزب في فرنسا ، أو من أن يترأس الوزارة الفرنسية ، ويغير نظم السياسة الاجتماعية في البلاد .

لم يمنع بلوم دمه وأصله من أن يكون كاتباً فرنسيا

كبيرا ، وأديبا عظيما ، عظيم الأثر فى أفكار الشباب الفرنسى ، عاملا على توجيهه إلى ما يريد .

وأندريه موروا الكاتب الفرنسى الشهير أجنبى الأصل أيضا . غير أن ذلك لم يقلل من فرنسيته ، ولم يمنعه من أن يكون من كبار كتاب فرنسا ومفكريها ، ولم يحل بينه وبين عضوية المجمع العلمى الفرنسى ، وأن يصبح بين الأربعين من علمائه الأعلام .

على أنه ربما يخيل للبعض بأن اللغة ليست شرطا فى تكوين مصير الأمم . ويستدلون على صواب رأيهم ببلجيكا وسويسرا .

نعم يتكلم النصف من سكان بلجيكا اللغة الفرنسية والنصف الآخر الفلمنكية . كما أن سكان سويسرا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : قسم يتكلم الفرنسية ، وثان يتكلم الألمانية ، وثالث يتكلم الإيطالية . واتحاد كل فريق من هؤلاء ، سواء فى بلجيكا أو سويسرا ، مع أبناء لغته ، يوجب تقسيم هذين البلدين . غير أن موانع كثيرة وصعوبات عديدة ، جغرافية واقتصادية وسياسية ، تحول دون هذا التقسيم ، والمقام لا يتسع لبيانها وتحليلها ؛ ومع ذلك فقد أدت حرب ١٩١٤ إلى حدوث اختلافات خطيرة فى سويسرا بين المقاطعات الألمانية اللغة وبين المقاطعات الفرنسية والإيطالية اللغة ، كادت تؤدى إلى انقسام سويسرا وتجزئتها .

ولقد كان قبل الحرب العامة السابقة امبراطوريات واسعة لا تربط أجزاءها لغة قومية واحدة ، بل لكل قسم منها لغته القومية الخاصة . نذكر منها الامبراطورية النمساوية والامبراطورية العثمانية . فلما اكتوت هذه الامبراطوريات بنيران الحرب خرجت منها مجزأة إلى دول وممالك ، حسب اللغة التى يتكلمها سكان كل جزء . ومن أكبر الانتقادات التى وجهت إلى معاهدة فرساى ، أنها لم تراع تمام المراعاة لغة السكان فى تقسيم البلدان ، فتركت أقليات فى بعض الممالك ، مما أدى فيما بعد إلى الاضطراب الداخلى الذى اتخذته بعض الدول ذريعة إلى التدخل فى شئون غيرها ، ووسيلة إلى التهديد وإعلان الحرب الحالية ، للوصول إلى مآربها الاستعمارية . وكما أن اللغة كانت سببا فى تجزئة بعض الامبراطوريات ، فقد كانت أيضا سببا قويا فى توحيد أطراف امبراطوريات أخرى وتقريب الدول بعضها من بعض .

فهذا نظام الدومنيون البريطانى تربط أواصره اللغة الانكليزية . فلو كان لكل دومنيون فى الامبراطورية البريطانية لغة قومية غير اللغة الانكليزية ، ما كانت ملتحمة الأجزاء ، متماسكة الأطراف كما هو اليوم ، ولما هب كل جزء منها للدفاع عن الآخر بكل ما أوتى من قوة وعن طيبة خاطر . واللغة الانكليزية من أهم العوامل التى تقرب بين بريطانيا والولايات المتحدة . وليس بغريب أن نرى بعد الحرب الحالية ، أن هذين البلدين قد ارتبطا بروابط سياسية تقرب بينهما ، وتوحد بين قواهما الدفاعية .

***

وقصارى القول لقد وسع الفتح العربى رقعة الوطن العربى ، فبعد أن كان مقصورا على الجزيرة العربية ، بما فيها العراق وبر الشام ، أصبح شاملا تلك البلاد وشمال أفريقيا الذى يضم مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . وهذا الفتح أدمج سكان هذه البلاد بالعرب ، وجعل منهم شعباً واحداً ، لغته اللغة العربية وثقافته الثقافة العربية . وكما أن اللغة مكونة للشعوب ، فهى أيضا عامل هام فى تكوين الأمم . فما هو مركز مصر من الوطن العربى ؟ وما هو رأى قادتها فى الوحدة العربية ؟ هذا ما نعرضه فى المقال المقبل .

(القدس) يوسف هيكل

١ - نزعة صـــوفية

ومزاج رمزي

للأستاذ أحمد أمين بك

كان لي صديق — رحمة الله عليه — له نزعة صوفية ومزاج رمزي ، كان لا يرى الأشياء كما نرى ، بل يرى كل شيء رمزاً لمعنى . وكان لا يسمع كما نسمع ، بل كانت كل كلمة يسمعها توحي إليه بمعان تنسجم مع نزعته ومزاجه .

كنتُ أسايره مرة في شارع من شوارع الاسكندرية ، فطلع علينا بائع جرائد يقول : « البصير ، البصير » . فقال صاحبي : « سبحانه وتعالى » .

وأسمعته يوما أبياتاً لأبي تمام ، حتى إذا وصلت إلى قوله :

وأنجدتُمُ من بعدِ إتهام داركمْ
فيا دمعُ أنجدْني على ساكني نجد

استعادني البيت ، ثم رأيته يكرره حتى دمعت عيناه ، وقص عليَّ في اليوم التالي أن البيت ظل عالقاً بذهنه حتى شطره وخمّسه وسبّعه ، ولم يذكر لي أي المعاني رمز إليها هذا البيت حتى بعثته على ذلك كله .

وله في ذلك طرف كثيرة لا أطيل بذكرها .

وسميت ذلك مزاجا لأن هذا النموذج من الناس أقرب إلى أن يكون خلقة من أن يكون اكتساباً ، وإلى أن يكون استعداداً فطرياً من أن يكون تعلما ومراناً . هذا المزاج لا بد من قدر منه للشاعر والموسيقى والفنان والصوفي ، وإن اختلف حظهم منه واختلفت نواحي تلقيهم وأدائهم .

هؤلاء كلهم يرون أن الدنيا كلها جمال مقنع ، فلا بد أن تكشف القناع لترى الجمال ، وأن حقائق العالم مستورة ، وأن مظاهره ليست إلا أعلاما يستدل بها على خفاياه ، وأن قيمة العالم في باطنه ، وليس ظاهره إلا رمزاً له ، وأن الجمال المكشوف ليس جمالا ، والحقيقة العارية لا تلذ النفوس الكبيرة ، وأن البحث عن الحقيقة ألذ من الحقيقة نفسها ، وأن جمال الجميل في بعده ، تنظر إليه وكأنك لا تنظر ، وتقرب منه وكأنك لا تقرب ، ومعالجته يقتضي أن تكون من جنس طبيعته تدل عليه وكأنك لا تدل ، بالرمز وبالايماء ، وباللمحة تجعلك تسبح في خيالك ، وبالاشارة تستدل بها على الطريق بجهدك ؛ ومن أجل هذا كان الفرق بين تعبير العلم وتعبير الشعر والموسيقى والتصوف . فتعبير العلم واضح محدود ، يفهمه الناس بوضوح ، ويفهمونه على السواء متى تحقق شرط الذكاء . أما الشعر والموسيقى والتصوف فتعبير في غير استقصاء ، ورمز في غير جلاء ، كل يرمز عما يهوى ، وكل يفهم كما يشاء ، حسب مزاجه وظروفه ونفسيته . ومن أجل هذا أيضاً كانت اللغة أداة طيعة للعلم ، وأداة مسكينة للفن والتصوف .

يقول في ذلك ابن الفارض في تائيته الكبرى :

وثَمّ أمور تم لي كشفُ سِترها
بصَحْو مُفيق عن سواي تغطّت
وعنّيَ بالتلويح يفهم ذائقٌ
غنيٌّ عن التصريح للمتعنّتِ
بها لم يَبُح من لم يُبِح دَمَه وفي الـ
إشارة معنًى ما العبارةُ حَدّتِ

وهو معنى جميل في أسلوب غير جميل .

لقد مالت بعض الأديان القديمة إلى هذه النزعة الرمزية ، كما نرى في ديانة قدماء المصريين بصورهم ورموزهم ،

وفى ديانة قدماء اليونان بأساطيرهم ، وعند قدماء الهنود فى قصصهم وعباداتهم .

ولكن يظهر أن الاسلام لم يمل إلى هـذه النزعة ، وخاصة فى أيامه الأولى ، كما لم يمل إليها دعاة الاصلاح الدينى فى النهضة الأوربية ؛ ومع هذا لم يخل أهل دين من الأديان منها حسب مزاج معتنقيه ؛ فكان فى النصرانية رمزيون ومتصوفون ؛ وكان فى الاسلام هذا النزاع الحاد بين الفقهاء والصوفية ، وبين أهل الشريعة وأهل الحقيقة ، وأهل الظاهر وأهل الباطن ، وأهل العقل وأهل الذوق ؛ وكلها ألفاظ تعبر عن شىء واحد ، وهو أن هناك مزاجا يميل إلى العقل والاقتصار على التصريح ، وأن لا شىء وراء ظاهر القرآن وظاهر الدين ، وأن هناك مزاجا رمزيا لا يرى الاقتصار على الظاهر ، وأن وراء كل ظاهر باطنا ، وأهم من العقل الذوق ، ووراء المشهورات خفيات ، ووراء التفسير التأويل .

هؤلاء الرمزيون يعتمدون على قلوبهم أكثر مما يعتمدون على عقولهم ، وعلى أذواقهم أكثر من منطقهم ، وعلى خيالهم وإلهامهم أكثر من تفكيرهم ، وعلى مواطفهم أكثر من مقدماتهم ونتائجهم ، وعلى حبهم أكثر من بحوثهم .

قلت لصاحبي هـذا يوما : إن الحب يفسد الحكم ويُعمى ويُصم .

قال : إنك لا تدرك الحق إلا بالحب . ألا ترى أن الأم أعرف الناس بأبنائها ، لأنها تعرفهم بعاطفتها وذوقها وحبها ، على حين أن غيرها يعرفهم بعقله وإن شئت فقل بجهامم بعقله ؟ أو لا ترى أن الشاعر يتخير بذوقه بحوره وكلماته وقافيته وصوره ، فاذا حُكّم فيها العقل وحده لم يدرك جمالها ولم يتذوق حسنها ؟ إن ذوقنا الذي نعتمد عليه فى إدراك موسيقى الشعر ونشازه وجماله هو الذى يجب أن نعتمد عليه فى إدراك موسيقى العالم ونشازه وجماله — ألا ترى الأحلام اللذيذة كيف تنبعث فى ظلام الليل الحالك فتلعب ألعابا سارة وتتقدم بصور جميلة ترمز بها إلى حقيقة تاريخ الانسان وما جرى له من أحداث وما تعلق به قلبه من أمانى ومخاوف ؛ كذلك الانسان الصاحى إذا وهب القدرة على فهم الرموز يرى الحياة صوراً رمزية جميلة متعاقبة متلونة ترمز إلى حقيقة العالم وسرائره .

قلت له : إن الفهم عن طريق الرمز مسألة شخصية ذوقية لا يمكن ضبطها ولا الاشتراك فيها ؛ فكل يفهم من الشىء رمزاً لمعنى قد لا يوافقه فيه الآخر ، فقد يفهم أحدهم البحر رمزاً للعظمة والسلطان ، وقد يفهمه آخر على أنه رمز للغيظ وثوران الغضب ، وقد يفهمه ثالث على أنه رمز للخطر المحدق . ذلك أن الشىء صفات متعددة ، و كل صفة ترمز لمعنى ، فأى المعانى يراد ؟ ثم هذا أمر وليد الخيال والخيال لا حد له ، فقد يمعن حتى يأتى بالأوهام ويكون شأنه شأن المتشائم الموسوس ، كالذى يحكى من ابن الرومى أنه خرج من داره فرأى حانوت خياط قد صنعت دفتاها كهيئة لام ألف ورأى تحتها نوى تمر ، فقال إن هذا يرمز إلى أن « لا تمر » ، وكان بعض العابثين به يقرع عليه الباب فيقول : مَن الطارق ؟ فيقول : « مرة بن حنظلة » فيتشاءم من ذلك يومه ولا يخرج من بيته ؛ وكالخيالات التى تبعثها الخمر أو الحشيش أو الأفيون ، فيخلقون دنيا غير دنيا الناس ، ويتخيلون فيها ما يضحك وما يبكى ، ويعتمدون فى كل ذلك على خيالهم الخادع ووهمهم الكاذب ؛ فلو أقررنا هذه الدلالة الرمزية أفسدنا التفاهم . ألا ترى أن من يعتمدون على اللغة وعلى منطق العقل يسهل تفاهمهم ، لأن لألفاظ اللغة معانى محدودة لا يتسرب إليها الخطأ إلا من طريق الجهل ؛ والعقل له منطق محـدود وشروط معينة يعرف بها وجه الخطأ والصواب — أما طريقتكم الرمزية والذوقية فلا ضابط لها ، ومن أجل هذا صعب فهم كلام الصوفية ، لأن صاحبه

يعبر عن ذوقه هو ومواجيده هو ، فلا يفهمه إلا من منح ذوقاً كذوقه ومواجيد كمواجيده ، ولا يشاركه في فهم رموزه إلا من كان في حالة مزاجية تشبه حالته . فالمعقول — إذا أنتم أردتم التفاهم — أن تستعملوا القدر المشترك بين الناس من اللغة والنطق ، وإلا فلا تستعملوا اللغة . إنكم باستعمالكم اللغة أفسدتموها برموزكم ، فأخذتم كلمات الخمر والحب والغزل المعروفة التفاهمة ، ووضعتموها لأشياء صوفية رمزية لا ضابط لها فكانت غامضة الدلالة ، ومن تصدى لشرحها وقع في نفس الغموض الذي وقع فيه أصلها . ذلك لأنكم استعملتم اللغة في غير ما وضعت له ، وأطلقتم لخيالكم العنان تحملتم الألفاظ والأساليب ما لا تطيق ، فلا أنتم عبرتم عن أنفسكم تعبيراً صحيحاً ولا أنتم تركتم اللغة من غير إفساد .

تبسم ضاحكاً من هذا القول وصمت قليلا ثم قال : إن كلا من العقل والذوق والعاطفة والخيال له حالة يكون فيها صحيحاً سليما وحالة يكون فيها مريضا ؛ فالعقل قد يمرض فيكون جنونا ، والذوق قد يمرض فيجد الحلو مرا ، والعاطفة قد تمرض فتغلى أو تبرد ، والخيال قد يمرض فيكون وهما . فاعتمادنا على الذوق كاعتمادكم على العقل ، كلانا يعتمد على صاحبه في حال صحته ، والذوق إذا صح أرشد إلى خير مما يرشد إليه العقل . وأين التفاهم والاتفاق في عقولكم ؟ ها أنتم تخضعون للعقل فانظروا مصيركم ، هل يتفاهم عقلاؤكم ؟ وهل تتفقون في مجالسكم وأحاديثكم وتصرفاتكم ؟ إن لكل إنسان عقله كما أن لكل إنسان ذوقه ، وهل تظن أن العقل أداة صالحة لفهم الحقيقة ؟ وما هذا العقل الذي تمجده ؟ إنه خادم الغرائز والشهوات ، انه ليس الا منظما لحياتنا اليومية ، إنه ليس قائدا لسلوكنا ، إنما هو تابع لأغراضنا ، إنه يخدم الحق والباطل ؛ والمحاميان في قضية واحدة يجدان منطقاً يخدم مطالبهما المتناقضة . لولا الذوق والعاطفة يلطفان من حدة العقل في هذه الحياة ما صلحت . ما الوطنية وما القومية وما حب الآباء لأبنائهم ؟ إنها سخافات في نظر العقل المجرد ، ولكنها تحكم الدنيا وتسير العالم . الفرق بيننا نحن الصوفية وبينكم أنتم العقلاء ، أننا نعتمد على نفوسنا وتعتمدون على حواسكم ، نطهر أنفسنا ونصفيها فيلمع فيها نور الحق ، وتدورون أنتم حول العالم الخارجي تودون معرفة الحق من طريق حواسكم ، وهيهات أن تصل الحواس وما يتبعها من عقل ومنطق إلا إلى الظواهر الخارجية . إذا أردت أن تعرف شيئاً فاما أن تلف حواليه وإما أن تتغلغل في باطنه ، فالأولى هي طريقتكم والمعرفة بها معتمدة على حواسكم ، وتنوعها راجع إلى مشتهياتكم ، ومحدود بزمانكم ومكانكم وظروفكم . أما طريقتنا نحن فتجلية مرآة نفوسنا حتى تنطبع فيها الحقيقة مجردة عن الزمان والمكان والظروف والتشهى ، إنا نعتمد على البصيرة وتعتمدون على البصر ، إنكم بحواسكم عددتم الأشياء حسب مظاهرها ، ونحن وحدنا الأشياء حسب حقيقتها ، فالخلاف بينها في العرض لا في الجوهر ، فالحقيقة واحدة والأشكال متعددة ، وربما صدكم التعدد عن رؤية الواحد ؛ وليست الشرور والرذائل إلا مظاهر عارضة للحقيقة الواحدة ، وليس هناك في الحقيقة تقسيم لخير وشر و . . .

وإلى هنا اندفع في قوله وشطح في تفكيره ، فكاد يغيب عن وعيه ، ولم أفهم ما يقول ، وأبعد في رمزه فلم أتابعه في سيره ، وانتهزت أول فرصة أرده فيها عما لم أفهم إلى ما أفهم .

ثم كان قد أداه ضاحبه الرمزي هذا إلى أن يفهم بعض النصوص الدينية على أنها تلويح لا تصريح ورمز لا تقرير ، وسأقص بعض آرائه في هذا الموضوع في المقال التالي إن شاء الله .

أحمد أمين

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكى بك

أمريكا تقتحم أبواب اليابان

حديث الأمم فى تفصيله لطيف ظريف ، فيه اللذة لطُلاّب اللذة ، وفيه العبرة لرُوّاد العِبْرة ! ولكنه بعض التاريخ ، لهذا وجب أن تكون عبرته أكبر من لذته . ورائد العبرة فيه يجب أن يزودها بذلك الصدر الرحب الذى يسع كل الأمم ، وبذلك الذهن الصبور الذى لا يقتنط فيَنكُص من بلوغ الدوافع الانسانية الأولى فى منابتها من طبائع البشرية ، وبذلك الأمل الفسيح الذى لا يضيق عن استيعاب كل آمال الشعوب ، أحمرها وأصفرها ، وأبيضها وأسودها ، وبذلك القلب السموح الذى يغفر للأمم ذلّ الضعف كما يغفر لها بطش السلطان ، ويغفر لها وضاعة الفقر كما يغفر لها غرور الثراء ، ويصفح فيها عن وداعة الجهل كما يصفح عن شراسة العلم ، بحسبان كل هذا مظهراً من مظاهر الحياة وطوراً من أطوار الانسان لا بد أن يتطوره فى سبيله إلى غايته الأخيرة المنبّة من هذا الوجود ، كما تُسقط الشجرة أوراقها الصفراء كل شتاء لتتزيّن فى الربيع بأوراق جديدة خضراء ، وكما تنسلخ الثعابين من جلود لها قديمة لتلبس جلوداً أخرى جديدة تستجدّ بها الحياة والنشاط .

بهذه الروح وحدها نصل الحديث فيما جرى بين أمريكا واليابان .

خرج الكومادور ، أميرُ البحر ، من هذا الحفل اليابانىّ القصير الصامت ، واعداً ، أو متوعداً ، أن يعود بعد أشهر لأخذ جواب اليابان عن كتاب رئيس الولايات المتحدة إليها . وقد ساء الكومادورَ من هذا الحفل أن يؤمر فيه بمغادرة البلاد ، وأن يغادرها توّا . لهذا ركب سُفنه ، وبدل أن يوجهها إلى خارج الخليج ليخرج من البلاد ، سيّرها الى داخله فى اتجاه العاصمة ، حتى لم يبق له على بلوغه إياها غير بضعة أميال . وظلت رجاله فى أثناء هذا تسبر أعماق البحر . واليابانيون يتوسلون إليه أن يمتنع عن سبْر الماء ، وأذنه عنهم صمّاء . وبقى على هذا التلكؤ أياما متعمّداً . فلما كان له ما أراد خلّف المياه اليابانية إلى مياه الصين ، وهناك أقام فى انتظار العودة عند الأجل المضروب .

ولم يكد يختفى بأسطوله عن ساحل اليابان حتى أخذ الهرج مأخذه من الناس . وسرت فى البلاد موجة اضطراب يشوبه رعب . فتلك السفن الحربية الكبيرة لم يكن لهم عهد بها . وهى تدار بالبخار . وفيها من آلات الحديد شىء غريب . ومدافعها طويلة قوية هائلة مُخوفة . وقد كان حَرَصَ الأمريكانُ على دعوة ضباط اليابان إلى زيارة السفن ، وتركوا لهم من الوقت ما فيه ينظرون ويتفحّصون . ونظروا طويلا ، وتفحّصوا طويلا ، وعجبوا كثيرا ، ولكن لم تنبس شفاههم بكلمة تدل على عجب ، ولم تَنُم أساريرهم عما كان يعتلج وراء جباههم من فكر ثائر . وكل الذى بدا عليهم أنهم كانوا كثيرى السؤال تواقين إلى علم كل شىء من هذا الجديد الذى يرون .

علت اليابان ما علتْ ، ولكنها لم تدر ما تصنع . لقد نامت كل تلك القرون فى بيت مغلّق الأبواب والنوافذ ، بعيدة عن كل ما يُقلق النائمَ الهانىء من ضوضاء . فجاء هذا الطارق على غير انتظار ، فطرق إحدى النوافذ طرقة عنيفة شدختها وفتحتها وكاد أن ينطّ منها إلى عُقر الدار ، ثم هو ترفّق لأمر فى نفسه ، وذهب لكى يعود فيجد باب الدار نفسه مفتوحاً لاستقباله . وقامت اليابان فى دهشة النائم الذى أيقظه الصوت العنيف بغتة من نوم

عميق ، فبدا لها ما يبدو للمستيقظ الذاهل المدهوش أول وهلة ، أنْ تدفع القوّة بالقوة . ولكنها لم تلبث عند تمام صحوها أن أدركت حقيقة الحال ، وأيقنت أن دفع القوة بالقوة من المحال .

واستغرقت لتمام هـذا الصحو خمسة أشهر كاملة ، أصدرت بعدها الأوامر إلى ثغورها بالكف عن مقاومة الأمريكيين إذاهم عادوا . وصدرت هذه الأوامر في الثاني من ديسمبر من نفس ذلك العام ، عام ١٨٥٣ .

وكان شوجن اليابان قبل هذا قد مات ، فأرادت اليابان أن تتخذ من موته سبباً إلى تأخير عودة الأمريكان ، فطلبت إليهم على لسان الهولنديين — وعاصمةُ ملكهم الشرق عند ذلك في باتافيا من جزيرة جاوه — أن يتمهّل الكومادور في العودة بأسطوله مراعاة للحداد ، وحتى تتمكن الحكومة من مشاورة الأمراء فيما يتضمنه الجواب الامبراطوري المطلوب . فكان ردّ الكومادور على هذا الرجاء أنْ ظهر برجاله في خليج العاصمة اليابانية شهرين أو ثلاثة أشهر أسبقَ مما كان وعد وقدّر أوّلاً .

وكان اصطحب معه في المرة الأولى أربعاً من السفن ، فجاء هذه المرة وبصحبته عشر . وكان بلغ في المرة الأولى موضعاً على مسيرة بضعة أميال من العاصمة أسموه لهـذا مرمى الأمريكان ؛ فأراد هذه المرة أن يبلغ العاصمة نفسها لتجري المفاوضة فيها . وتوسل إليه اليابانيون أن يُبعد عن هذا المرمى في غير اتجاه العاصمة ، فما بلقوا منه مأرباً ؛ فلما لم يجدوا لرجائهم نفعاً ، طلبوا إليه أن يُقلع عن عزمه بلوغَ العاصمة ، وأن يرضى بيوكوهاما مكاناً للمفاوضة . وكانت في قبالة ذلك المرمى ، وكانت عند ذلك قرية صغيرة ، فرضى بهذا منهم إبقاءً على البقية الباقية من الكرامة فيهم .

والآن فلنترك للأمريكيين أنفسهم وصف ما حدث بينهم وبين اليابان بعد ذلك . وقد كان وَصَفه كاتب منهم على ظهر سفينة من سفن هذا الأسطول ، وبعث به إلى أمريكا فنشرته صحيفة Journal of Commerce ,New York في ذلك العام . قال الكاتب :

« وكان اليوم الثامن من مارس ، وهو اليوم الأول من أيام المفاوضة ، فنزل من السفن إلى الأرض تسعمائة رجل قد أثقلهم سلاحهم إثقالاً . وانتظموا على البر صفوفاً على إيقاع الموسيقى الصدّاحة ، وبين الأعلام الملوّنة الخفاقة ، واستعدوا لاستقبال الكومادور . فلما ساد السكون نزل الكومادور من السفينة ، ووراءه بطانته من الضباط في ذيل طويل . فما كادت تمس الأرضَ قدمُه حتى دقت الموسيقى ، وأطلقت المدافع ، وأدّى العسكر التعظيم بالسلاح . ومشى أمير البحر ببطانته بين صفين من الجند حتى بلغ مكان الاجتماع . وكانت على الشاطئ ، وعلى تلاعه من اليابانيين جند كثير ، أخذوا ينظرون مستخبرين مستطلعين ، وكلهم عيون ، وكلهم أسماع » .

ولما فرغ الكاتب من وصف المكان قال :

« فلما دخلنا جلسنا إلى طاولة . ثم دخل المفوّضون اليابانيون فجلسوا إلى طاولة قُبالتنا . ومن ورائنا وورائهم جلس الضباط اليابانيون راكعين . وجرت المفاوضة عن طريق التراجمة . فكان يُلقَى السؤال منا ، فيصل إلى الترجمان ، وهذا يؤديه إلى ضابط ، يؤديه من بعده إلى ضابط أعلى منه ، فأعلى ، حتى يصل إلى المفوّضين أخيراً ؛ وكلما تهيأ ضابط لأداء رسالته إلى من هو أعلى منه ، حبا بالسجود إلى الأرض .... وقدموا لنا المرطّبات ، فكانت شاياً ، ثم حلوى مختلفة الأنواع ، وكعكاً كالاسفنج . واليابانيون قوم يُغرَمون بالسكر ويتقنون صناعة الحلوى ؛ وأخيراً قدّموا لنا البرتقال وخمراً لذيذةً قطّروها من خمير الأرز ، وتُعرَف عندهم بالساكى . فكانت مأدبة كأخف ما تكون المآدب ، أبنا منها بالخيبة ،

وقد كنا جياعاً . وزاد في خيبتنا أننا كنا نعلم أن اليابانيين يأكلون بالعصيّ ، فأحضرنا معنا شوكات وسكاكين حتى لا نُخدَع بهذه العصيّ عن طعامنا . فتصوَّرْ كم بلغ اليأس منا عند ما لم نجد لحماً يُقطع أو فرخاً يُشاك . ولما فرغنا سرُّوا لنا — على عادتهم — ما بقي على أطباقنا من حلوا لنعود به إلى سفننا » .

ووصف الكاتب بعد ذلك لباس اليابانيين ، وهي ثياب من الحرير زاهية ، ووصف سلاحهم ، وهما سيفان في مناطقهم ، ووصف أحذيتهم وهي شباشب من قش يخلعونها على باب الدار ، ووصف شعورهم ، وهم يحلقونها من فوق جبهتهم وعلى أم رءوسهم حلقاً . ثم قال :

« وكنا نجلس للمفاوضة جلستين في الأسبوع . وجرى العمل بيننا على نفس الأسلوب أياما ، إلا أنهم زادونا إكراما لما زادوا بأذواقنا علماً . وفي جلسة من الجلسات قدمنا إليهم ما حملناه لهم من هدايا حكومتنا . وتضمنت هذه الهدايا فيما تضمنت آلة وأدوات زراعية وأسلحة نارية ، وتضمنت قاطرة بخارية تجر عربة ركاب ، وكلتاهما في ربع حجمها العاديّ . وأجرينا القاطرة بعربتها على قضيب أقمناه في دائرة ، فظلت تجرى في الدائرة بسرعة ٢٠ ميلاً في الساعة . ونصبنا لهم على الشاطئ تلغرافاً طوله ميل وشغلناه . وقد اهتموا لهذا من سائر الأشياء اهتماما كبيراً ، ولكن لم يظهر عليهم عجب منه أبدا . فهكذا هم ، قادرون كل القدرة على إخفاء مشاعرهم والتحكم فيها . فقد امتحنوا على السفن المدافع ، وامتحنوا الآلات في تركز واستيعاب ، ولكنهم لم يظهروا دهشة أبدا . إن اليابانيين في قبائل البشر قبيل أدق خلقاً من الصينيين ، وفيهم ذكاء وأدب وكرم ، ولكنهم قوم متزمّتون فلا يمقتون ، وطُلاّب ثأر فلا ينسون ولا يغفرون » .

وانتهت المفاوضة بالاتفاق . فأمضى الطرفان وثيقة تضمنت اثنتى عشرة مادة .

وجرت المادة الأولى هكذا : يكون بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ، وبين قوميهما ، سلام كامل شامل دائم ، وصداقة خالصة ، لا يُستثنى منها شخص في الأمتين ولا يخرج منها مكان .

وجرت المادة الثانية هكذا : يفتح اليابانيون للسفن الأمريكية ميناءى شيمودة وها كودات ، لتتمون فيهما بالخشب والماء والطعام ، وكذلك بالفحم وشتى الضرورات مما تستطيعه اليابان . ويفتح الميناء الأول عند إمضاء هذه الوثيقة . ويفتح الميناء الثاني بعد عام من إمضائها .

وجرت المادة الثالثة هكذا : إذا ارتطمت سفن أمريكية على ساحل اليابان ، ساعدتها السفن اليابانية ، وحملت رجالها إلى الميناءين السالفين وسلمتهم إلى مواطنين لهم من الأمريكان يخصّصون لذلك . ويُرَدّ إلى هؤلاء الرجال ما يكون قد أنقذ من متاعهم . ولا تَرُدّ أيٌّ من الأمتين نفقةً تكون أنفقتها في إنقاذ المرتطمين ، على أي الساحلين وقع الارتطام .

وجرت المادة الرابعة هكذا : ويكون المرتطمون الأمريكان وغيرهم من رعايا الولايات المتحدة إذا نزلوا إلى أرض اليابان أحراراً كما هم في أي أمة أخرى ، فلا يُسجَنون ، وإنما يخضعون لعدالة القانون .

وجرت المادة الخامسة هكذا : والأمريكان في الميناءين السالفين لا تُطبَّق عليهم أمثال تلك القيود التي تُطبَّق على الهولنديين والصينيين في ميناء نجزاكى . فتكون لهم حرية التجوال في دائرة قطرها سبعة أميال من ميناء شيمودة ، وفي دائرة يُحدَّد قطرها في ميناء ها كودات بعد زيارة الأسطول لها .

وجاء بعد هذه المادة مواد أخرى ضَمِنت حرية المبادلة ، بضاعة ببضاعة ، أو بضاعة بذهب أو فضة .

وجرت المادة التاسعة هكذا : واتفق الطرفان على

شـــكوى الناس من الناس

للأستاذ شفيق جبري

مررت وأنا أطالع «مروج الذهب» المسعودي ببيتين من أبيات أبي العتاهية في صدق الإخاء ومحض الوفاء، وهما:

إن أخاك الصـدق من يسعى معك
ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك
شتت شمل نفســـه كي يجمعك

وبعد أن أثبت المسعودي هذين البيتين قال: وهذه الصفة في عصرنا معدومة، ومسـتحيل وجودها، ومتعذر كونها.

لا ريب في أن رأي المسعودي في هذا المعنى ناضج، ولكنه لو توسع في هذا الرأي لكان أنضج، فقد قال: وهذه الصفة في عصرنا معدومة، ولكن في أي عصر من العصور نجد أمثال هذه الصفة، أفلا قلب المعنى فقال: إنّا لا نطلب إلى إخواننا أن يسعوا معنا، ولكنّا نطلب إليهم أن لا يسعوا علينا، ولا نأمل أن يضروا أنفسهم لينفعونا، ولكنّا نأمل أن لا يضرونا لينتفعوا، ولا نرجو إذا صدعنا ريب الزمان أن يشتتوا فينا شملهم ليجمعونا، ولكنّا نرجو أن لا يشتتوا شملنا ليجتمعوا، فلو قلب المسعودي المعنى على هذا الوجه لكان قضله أبرع، ولكن ما فات صاحب مروج الذهب استدركه أبو الطيب المتنبي بقوله:

إنّا لفي زمن ترك القبيح به
من أكثر الناس إحسان وإجمال

هذا ما يطلبه الناس في كل عصر من العصور، وفي

أنه إذا حدث في المستقبل أن أعطت اليابان لأمة ثالثة رُخصاً أو منافع ليس في هـذه الوثيقة مثلها للولايات المتحدة، ولأهل الولايات المتحدة، صارت هذه الرخص والمنافع رخصاً ومنافع للولايات المتحدة توّاً من غير مشاورة أو مفاوضة.

وقبيل اختتام المفاوضة، وحين أوشك أن تتم الموافقة، أولم الكومادور وليمة في سفينته لليابانيين. وكان عددهم سبعين. وجرى فيها على ما يتطلبه العرف الياباني، فجعل في بطن السفينة مائدة للمفوّضين من اليابانيين والأمريكان ولرّابنة السفن، وجعل على ظهرها موائد أخرى لمن دونهم في الرتب. ووصـف الكاتب السابق هذه الوليمة قال: «وقد أحسن اليابانيون الشهادة للطبخ الأمريكي عما أكلوه. والشمبانيا أغرموا بها إغراماً. وشرب منها أحدهم حتى بلغ به الفرح والمرح مبلغاً عظيماً، زالت معه الكلفة، فقام يقبّل الكومادور، واحتمل الكومادور هذا التقبيل، حتى إذا اشتد وحي وطيسه، وأخذت شارة الرتبة على كتفه تدخل في الصراع، قام يدفع عن نفسه حرّ هذه الشفاه الجائعة»

وأعطى اليابانيون الأمريكان ثلاث صـور من هذه الوثيقة كُتبت كلها باليابانية، وعليها إمضاآتهم، واعتذروا عن إمضاء غيرها بأن إمضاءة الياباني لا تلزمه أمام القانون الياباني إذا كانت على وثيقة غير يابانية. وبادلهم الأمريكان صوراً كُتبت بالانجليزية وإلى جانبها ترجمتها بالهولندية والصينية.

وفي غد اليوم الذي سُلّمت فيه الوثائق جاءت إلى السفن هدايا كثيرة، بعضها لرئيس الولايات المتحدة، وبعضها للكومادور، وسائرها لرجال أسطوله.

أحمد زكي

كل أمة من الأمم ، فما انفك البشر يضجرون من بعض أخلاق البشر على تراخى الأحقاب . وإذا استقصينا أخلاق الناس فى قديم العصور وحديثها ، ونقبنا عن المساوى التى تأصلت فى نفوس الأولين ، وتفرغنا للموازنة بينها وبين مساوى المتأخرين ، فقد يتحقق عندنا أن تباين الأوائل والأواخر فى مقابح الأخلاق إنما هو يسير جداً ، لا يكاد يكون له أثر ، وهذا السبب الذى من أجله قال أبو العلاء المعرى :

وبحن فى عالم صيغت أوائله
على الفساد فغىّ قولنا : فسدوا

فلنتبسط فى هذا الباب قليلا ، فقد سمعنا شكوى المسعودى ، وهو معتدل فيها ، وسمعنا شكوى أبى الطيب وشكوى المعرى ، وهما مرّتان ، فلنسمع ما قاله بديع الزمان فى كتابه إلى الشيخ أبى الحسن أحمد بن فارس :

« والشيخ يقول : قد فسد الزمان ، أفلا يقول : متى كان صالحاً ؟ أفى الدولة العباسية ، وقد رأينا آخرها ، وسمعنا بأولها ؟ أم المدة المروانية ، وفى أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها ؟ أم البيعة الهاشمية ، وعلى يقول : ليت العشرة منكم برأس من بنى فراس ، أم الأيام الأموية ، والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ، أم الامارة العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد النزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات فى نأنأة الاسلام ؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتى يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :
بلاد بها كنا وكنا نحبها
إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وروى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها   ووجه الأرض مغبر قبيح

أم قبل ذلك ، وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ وما فسد الناس ، وإنما اطّرد القياس ، ولا أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام ، وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح ؟ ويمسى المرء إلا عن صباح ؟ » .

ولنغادر العصور التى عاش فيها المعرى والهمذانى والمتنبى والمسعودى وهى متقاربة ، ولنذهب إلى عصر أبعد ، وفى جيل غير جيل العرب ، أفنجد شيئاً من صلاح الأخلاق ومن صلاح الزمان ؟

ظهر قبل السيد المسيح فيلسوف يونانى اسمه « ثيوفرسطوس » عرف بدماثة أخلاقه ورقة كلامه ، وقد درس فى مدرسة أفلاطون ، ثم صار إلى مدرسة أرسطاطاليس ، ولما اتهم أرسطاطاليس بالنض من الآلهة والقدح فيهم ، عزم على الازعاج من أثينة ، فاستخلف على كرسى حكمته ثيوفرسطوس ، فتسلم ثيوفرسطوس مقاليد المدرسة ، وكانت الفلسفة تختلف إليه ، وتقتبس عنه ، وبلغ تلاميذه ألفى تلميذ ، ألف ثيوفرسطوس ما ينيف على مائتى كتاب ، ضاع معظمها ولم يبق منها إلا عشرون كتاباً فى تاريخ النبات وفى الرياح والنار والأحجار والدخل والصحو والعار والحيوان والسمك ، وكتب فى الطبائع والأخلاق . أما كتابه هذا فهو يدل على عقل راجح وأسلوب خاص .

وصف ثيوفرسطوس فى كتابه مفاسد الغرائز ومساوى الشمائل ، فكتب فى الملق والفلظة والارضاء والنذالة ، والشح والوقاحة والنميمة والخيلاء وما شابه ذلك ، وصف هذه الأخلاق كلها ، وأفاض فى بيان دقائقها وأطوار أصحابها ، وبين ظواهر الرجال وأقوالهم وأفعالهم ،

وعرّف فى مبادىء الفصول ضروب الرذائل تعريفاً موجزاً موجزاً ، فإذا قرأت كلامه على خلق من أخـلاق رجال أثينة فكأنك تشاهد أصحاب هذا الخلق فى عصرك يروحون ويغدون ؛ فالمماذق الذى وصفه مشابه لمماذق كثير من جماعاتنـا ، والشح الذى عرّفه مجانس لشح كثير من طوائفنـا .

أتى على كتاب تيوفرسطوس ماينيف على ألفى سنة ، فنشأ فى فرنسة فى القرن السابع عشر كاتب اسمه « لا برويير » ولد فى باريس ، وقضى أيامه إلى جانب « كوندة » الكبير ، وكان أستاذه الخاص ، فترجم « لا برويير » كتاب « تيوفرسطوس » ، ووصف أخلاق أهل عصره فى القرن السابع عشر ، ولا سيما أخلاق رجال الملك وحاشية لويس الرابع عشر ، وقد رأى « لا برويير » أن الأخلاق التى استفاضت فى أثينة من ألفى سـنة والأخلاق التى ذاعت فى القرن السابع عشر فى باريز متجانسة فقال :

« إن الذين وصفهم تيوفرسطوس فى كتابه إغام من أثينة ، ونحن رجال فرنسيون ، فإذا أضفنا إلى تباين الأماكن والبيآت تعاقب الأحقاب ، وعلمنا أن كتاب « تيوفرسطوس » قد أتى عليه ألفا عام ! عجبنا العجب كله من أن نرى فى تضاعيف سطوره صور أعدائنـا ، وأصحابنا ، ونعرف الذين نعيش معهم ، ونتأكد لنا أن الرجال الذين يفصـل بينهم تقادم العصور متشابهون فى شيمهم وخيمهم التشابه كله ، فإن البشر لم تتغير قلوبهم وعواطفهم ، فهم فى الحاضر على نحو ما كانوا عليه فى الغابر ، زمن تيوفرسطوس ، جبلوا على الخيـلاء والداهنـة والوقاحة والنميمة والأثرة وأمثال ذلك من مستهجن الأخلاق » .

من هذا كله يتبين لنا أن فساد الأخلاق متسلسل فى البشر منذ بدء الخليقة ، ففى كل دهر كان الناس يشكون من أخلاق الناس ، حتى قال لابرويير :

« لا ينبغى لنا أن نغضب على الرجال إذا آنسنا منهم الشدة ، وكفر النعم والظلم والكبرياء ، ونسيان إخوانهم ، فإنهم على هذه الأخلاق جُبلوا ، وعلى هذه الشيم طبعوا . وإذا كنا لا نستطيع أن نحتمل أخلاقهم هذه ، فكأننا لا نستطيع أن نحتمل سقوط الحجر إذا ثقلت منك ، وإحراق النار إذا تأججت » .

فالأخلاق التى يتوارثها الناس تثبت دهراً طويلا ، وأحقاباً مديدة ، فلا يخطرنّ ببال أحد أن تعاقب خمسين سنة أو مائة سنة ، يبدل من الأخلاق أو يغير من الطبائع . وما أصدق ما قاله فى هذا المعنى أناتول فرانس :

« كنت فى بعض الأحايين أشاهد صغار أمور تجرى بمرأى منى ، فأظن أنها من خصائص الدهر الذى أنا فيه ، وأنها تجرى فى أيامنا ولم تستفض من قبل ؛ غير أنى كنت أجد فى تواريخ قديمة الأمور نفسها فى أحوال متشابهة ، ففى أعماق نفوسنا أشياء كثيرة من الطبائع البشرية التى قلما نجد لهـا تبديلا ؛ فإذا اختلفنا عن أجدادنا ، فإننا نختلف عنهم اختلافاً يسيراً جداً ، ولا تتغير أذواقنا وعواطفنا إلاّ إذا تغيرت الأعضاء التى تتولد منها هذه الأذواق والعواطف ، وهذا لا يتم إلا فى قرون ، فلا بد من تعاقب مئات أو آلاف من السنين ، حتى تبدّل طبائعنا تبديلاً عظيماً » .

***

ولكن ما الذى نستنبطه من كل ما تقدم ، فلا بد لكل مقدمة من نتيجة ؟ أما النتيجة التى نصل إليها فى أمثال هذه المشاهدات فإنها مُرّة ، نفتح الكتب المنزلة على الأنبياء ، ونمعن فى دراسة كتب الأدب ، ونسمع آراء رجال التربية ، فنظن أن البشر انسلخوا من أفقهم

للمتصلين به ، واتصلوا بأفق اللاشكلا ، وهو آخر مرحلة من مراحل الكمال ، ولكنا نترك قليلا كتب الأنبياء ، وتصانيف الأدب ، ونبتعد قليلا عن رجال التربية لنختلط بالعالم وحقيقته ، وبأخلاق الناس وحقائقها ، فما الذى نشاهده ؟ إنا نشاهد تناقضاً راعباً بين أقوال البشر وبين أعمالهم . فأى رجل منا لا يسمع فى النهار ألف شكوى من قلة الوفاء أو من الحسد أو من الحقد أو من اللؤم أو من الانتقام ، أو من أى خلق من الأخلاق السيئة التى استفاضت فينا وتمكنت منا حتى عششت وباضت وفرّخت ؟ فهذا التناقض بين الكتب التى ندرسها وهى تشتمل على تصوير محاسن الأخلاق فى أروع صورها وبين أعمال البشر فى حياتهم الخاصة وفى حياتهم العامة ، قد يدخل على قلوبنا حين نختلط بالعالم ونتصل بطبقاته غمرة من الحزن ، فنفاجأ بأمور لم تخطر لنا ببال ، حتى لو وصفنا واصف بقلة الخبرة والتجربة لصدق وصفه .

أفلا يرى أصحاب العقول الراجحة أن إفراطنا فى الأخذ ببعض الكتب وببعض مذاهب التربية التى تصوِّر الأخلاق الفاضلة وتمدح هذه الأخلاق ، هو الذى أفضى بنا إلى النتيجتين السابقتين : غمرة الحزن وقلة الخبرة ؟ أفلا يرى أصحاب العقول الراجحة أن الانسان ينبغى له أن يعرف الحياة على قدر حقائقها الواقعة حتى لا يكون غريباً عن العالم الذى يعيش فيه ، مباينا لهذا الأفق الذى يتصل به ؟ إذ أنه لو ظل يعتقد أن البشر هم على نحو ما وصفه أبو العتاهية فى شعره ، لكان اعتقاده سبباً فى ألمه فى الحياة وفى كآبته وفى سوبدائه وفى انبساطه إلى الخيال وبعده عن واقع الحال . والخلاصة أفلا يرى أصحاب العقول الراجحة أن كثيراً من أدبنا وكثيراً من أساليبنا فى التربية يستلزم تعديلا غير يسير حتى تتناسق حياتنا فى مدارسنا ودراساتنا وحياتنا فى العالم ، فلا تصدمنا الحقائق المرة ، والأخلاق المزعجة ، وإنما نخرج من المدارس ونفرغ من الدراسات ونحن عالمون بما فى هذا العالم من خلق سيء أو من خلق حسن ، فتقل شكوى الناس من الناس !

قال أحد الكتاب الفرنسيين :

« أعرف بنتاً صغيرة عمرها تسع سنين ، وهى أعقل من العقلاء أنفسهم ، قالت لى مرة :

« يرى الانسان فى الكتب ما لا يستطيع أن يراه فى الحقيقة ، إما لأنه بعيد عنه ، وإما لأنه ماض ؛ ولكن الذى يراه فى الكتب إنما يراه رؤية سيئة ، فالأولاد الصغار لا ينبغى لهم أن يقرأوا كتباً ، فكثير من الأمور الحسنة يجب عليهم أن يروها ، وهم لم يروها ، كالبحيرات والجبال والجداول والمدن والبرارى والبحر والسفن والسماء والنجوم .

« إنى على رأى هذه البنت ، ليس عمرنا إلا ساعة من الساعات ، فلماذا نحمّل أنفسنا أشياء كثيرة ؟ ولماذا نتعلم كثيراً من الأمور إذا كنا نعرف أننا مهما نتعلم فإننا لا نعلم شيئاً ؟ إننا نعيش كثيراً فى الكتب ولا نعيش فى الطبيعة إلا قليلا ؛ وما مثلنا فى ذلك إلا كمثل « بلين » الفتى الذى كان يدرس كتاب خطيب يونانى فى الوقت الذى كان فيه جبل النار (فزوف) يغطى على مرأى منه خمس مدن بالرماد ! »

حسبنا من هذه القصة الرائعة العبارة الآتية : إننا نعيش كثيراً فى الكتب ولا نعيش فى الطبيعة إلا قليلا . من أجل هذا النمط من العيشة يعجب الناس من بعض أخلاق الناس ، فيندفعون فى الشكوى والضجر !

(دمشق) شفيق جبرى

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤١ فى القضية رقم ١٥٢٧ سنة ١٩٤١ المتهم فيها تهامى عبد العال فلاح بسنهوت بتغريمه جنيهين لأنه امتنع من بيع قمح بالتسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٥٥١ سنة ١٩٤١ المتهمة فيها زينب حجازى فلاحة بالعارين بتغريمها جنيه لأنها باعت ذرة بأزيد من التسعيرة

السعادة البشرية

من الأفكار ما يستعبد الانسان ويتحكم في مشاعره وعواطفه تحكم الأريحية بالكريم والفضيلة بالفاضل .

ولعل من أقوى الأفكار تأثيراً في نفوسنا نحن الشرقيين وامتلاكا لضمائرنا وميولنا هي فكرة الملل من الحياة والتبرم بها ، والاعتقاد بأنها سلسلة من الآلام والأوجاع المتتالية ، وأن ما يخيل إلينا فيها بين الفينة والفينة إن هو إلا سراب لا يكاد يلمع وميضه حتى يختفي من الأبصار تاركا في القلب غصة وفي المخيلة شبحا مؤلما .

ولا نزاع في أن هذه الفكرة التي نقتبسها منذ الطفولة في البيت والمدرسة والمجتمع فتنطبع في أدمغتنا وتصبح جزءا من أجزاء عقليتنا وركنا من أركان تفكيرنا ومعتقداتنا ، نؤمن بها إيماننا بالليل والنهار والموت والحياة ، مستمدة إلى حد بعيد من تركة أبي العلاء « ذلك الفيلسوف الجليل الذي تبرم بالحياة وأبى أن يتزوج مخافة أن يجني على نفس بشرية بشقاء الوجود ، والذي جنى مع ذلك على العرب جميعاً بما بث في الأدب العربي من أفكار ما زالت حتى اليوم تعمى الأفئدة والبصائر بنورها القاتل » .

وليس من غرضي الآن أن أحلل تشاؤم أبي العلاء أو أن أشرح العوامل التي أثرت في نفسه فأغصته بريقه وفجرت من قلبه (المتشائم المعذب) تلك الآراء القاتمة . وإنما يهمني أن أبحث شيئاً واحدا ، هو حبك للحياة وتوخيك السعادة في جميع ما يصدر عنك من أفعال وأقوال ، وما يختلج بين جنبيك من أحلام وأماني ، ومشاطرة البشرية كافة نزعتك وشعورك ، لا فرق في ذلك بين عالم وجاهل ، بين مؤمن وملحد ومحسن ومجرم .

وإذا كانت السعادة مبدأ أحلام الانسان ومنتهى آماله ، فإن من الحق علينا أن ندرس هذا الموضوع الخطير درسا علميا مجردا عن الهوى الشخصي والتعصب القلبي أو الديني ، وأن نبني بحثنا على طبيعتنا البشرية وعلى ما تستلزم هذه الطبيعة في المجتمع الذي نعيش فيه من أسباب الرضا عن الحياة والاطمئنان إليها والرغبة فيها .

ويبدو لي أننا إذا ما تدبرنا تاريخ الانسان في الشرق والغرب في الحاضر والماضي اتضح لنا أنه مهما ارتقى في سلم الحضارة ومهما بلغ من العلم وسمو التفكير ، فانه ما زال يعيش بشعوره وهواه أكثر مما يعيش بعقله وتفكيره . ولو أننا حللنا ما لنا من هوى وشعور وأرجعناهما إلى المصدر الذي ينبعثان منه لتبين لنا أنهما ليسا في الواقع إلا صدى لما في أنفسنا من حاجات جسمية عقلية قلبية . فنحن من مطلع حياتنا إلى مغربها مفتقرون إلى أن نغمر جسمنا بالطعام وعقلنا بالمعرفة وقلبنا بالحب وما إلى ذلك من ألوان الشعور .

وهذه الحاجات المتزايدة مع الزمن تختلف قوة وضعفا عند الأفراد حسب أمزجتهم الخاصة وحسب ما يكتنف حياتهم الفردية والاجتماعية من مؤثرات . فالذين فطروا ونشئوا على حب المعرفة مثلا يشعرون بوطأة الحاجة للدرس والتثقف أكثر ممن لم يدخلوا معهدا أو يقرءوا كتابا . فاذا أحببنا أن نعرف ما الذي تسعد به أو تشقى به وجب علينا أن نعلم نوع الحاجات الجوهرية التي يحسها كل منا ويرى نفسه مجبولا على إرضائها طوعا أو كرها .

وعندي أن الناس جميعا ينتظمون من هذه الناحية ثلاثة أصناف : العاديين والارستقراطيين والمرضى .

إن أكثر الناس عاديون في حاجاتهم ، أي أنهم لا يحسون إحساساً قويا ملحا غير الحاجات الضرورية لحفظ النوع البشري ، كالافتقار إلى الطعام والشراب والتزاوج والتناسل . فهذه الحاجات وما يتصل بها مباشرة أو بطريقة

غير مباشرة هي وحدها مصدر آمالهم وكعبة أحلامهم وأمانيهم . فان وفقوا في قضائها رضوا عن الحياة واطمأنوا إليها وكانوا سعداء ؛ ماشين ذلك أن السعادة عندهم تقوم على إرضاء ما لهم من حاجات حيوانية . وهذا اللون من ألوان السعادة هو أقدم ما عرفته البشرية في تاريخها ، إذ أنه يكاد يكون مشتركا بين الانسان والحيوان ، كما أنه أكثر انتشارا في المجتمعات المتأخرة .

أما الارستقراطيون — أعني الارستقراطيين في حاجاتهم لا الارستقراطيين في الجاه والنفوذ — وإن شاركوا الماديين فيما لهم من حاجات حيوانية فأنهم يمتازون عنهم في أنهم يحملون بين جوانحهم حاجات ضخمة قهارة تتغلب على الحاجات الضرورية لحفظ النوع ، كالافتقار إلى العلم والفن والسيادة والتصوف وما إلى ذلك من مظاهر الحياة . ويبين أن هذه الحاجات الضخمة قد تكون في بادئ الأمر عادية بسيطة ليس بينها وبين سائر الحاجات التي يحسها المرء فرق كبير ، لكنها إذا وجدت في جو ملائم نمت واشتدت على حساب رفيقاتها إلى أن تصبح المحرك الأول لأعمال أصحابها . فحاجة البحث عن الحقائق عند الإمام الغزالي مثلا كانت كغيرها من الحاجات في حداثته ، فلما تعلم العلوم العصرية والدينية ودرس في المدرسة النظامية واطلع على المذاهب والآراء المنتشرة في عصره ، ورأى الأخطار المحدقة بالشريعة الاسلامية السمحاء ، اشتدت حاجته للبحث عن إدراك الحقائق فوقف حياته كلها عليها .

وما قلته في الغزالي ينطبق على كل من حمل بين جنبيه حاجة أو بضع حاجات ، من تلكم الحاجات الضخام ، سواء أكان غرض تلك الحاجة علما أم فنا ، دينا أم سياسة ، هوى بريئا أم فسوقا .

فالغزالي وابن الفارض والأفغاني وزغلول وأديسون ورفائيل وقيس لبنى وأبو نواس كلهم أرستقراطيون في حاجاتهم وإن اختلفت أهدافهم نبلا وصغارا .

لا ريب أن الأرستقراطيين يجدون في إرضاء حوائجهم الحيوانية غبطة وابتهاجا ؛ فتناول الطعام والشراب يبعث إلى نفوسهم اللذة والسرور ، كذلك التزاوج والتناسل في أكثر الأحيان .

غير أن هذه الأشياء مهما بلغت من نفوسهم فانهم لا يهنأون بها ولا يسعدون ، ذلك أن السعادة عندهم تقوم على إرضاء ما لهم من حاجات ضخام ، وعلى العمل على إشباع تلك الحاجات .

فالغزالي (حجة الاسلام) لا يجد السعادة إلا في إدراك الحقيقة المطلقة والدفاع عنها والتقرب منها بالعبادة والتأمل . وابن الفارض (سلطان العاشقين) لا يجد السعادة إلا في حظيرة الخالق (جل جلاله) والفناء في ذاته العلوية على مذهب المتصوفين . والمتنبي (شيخ شعراء العرب) لا يعرف السعادة إلا في السيف وتضريب أعناق الملوك . وأديسون لا يعرف السعادة إلا في فهم أسرار الطبيعة وتسخيرها .

أما قيس لبنى فلا يلقى السعادة إلا في أحضان زوجته المطلقة قسرا . كما أن أبا نواس لا يدركها إلا في تأليه الخمرة وتجرير أذيال الفسوق .

ويتضح مما تقدم أن السعادة عامة مطلقة تقريبا عند الماديين ، نسبية عند الأرستقراطيين . وسواء أكانت السعادة مطلقة أم نسبية فانها ممكنة ، لأنها تقوم على إرضاء ما لنا من حاجات أمارة قاهرة .

فإذا أسعدنا الحظ واستطعنا قضاء تلك الحاجات كنا على ما أعتقد راضين عن الحياة مطمئنين إليها راغبين فيها . وأي شيء يحق لنا معشر الآدميين أن نطلب من الدنيا أكثر من هذا الشعور بالرضا والارتياح ؟

ذلك الشعور الحقيقي الذي قد يصفو ويكدر بين حين وحين ، كما يشتد ويضعف تبعاً لأمزجتنا الخاصة ولما يكتنفنا من مؤثرات وعوارض .

قد تقول إن الانسان طماع مفطور على الجشع والاستزادة ؛ فهو لا يدرك هدفاً من الأهداف حتى يطمع في أهداف جديدة متفرعة في أكثر الأوقات عن الهدف الأصلي ومتممة له . فالشاب الذي يستهدف البا كالوريا مثلا بدافع اللذة العلمية لا ينال هذه الشهادة حتى يطلب الليسانس وبعدها الدكتوراه وهكذا دواليك .

فهذا المثل وما شاكله من الأمثلة التي لا تحصى يبين لنا بصورة جلية أن حياتنا كلها حاجات متسلسلة متعاقبة آخذ بعضها برقاب بعض .

إن هذا الاعتراض حق لا نزاع فيه ، ولكن أي ضرر في ذلك ما دمنا كلما بلغنا هدفاً من الأهداف نشعر بلذة فائقة وسرور عظيم ، وما دام السعي نفسه وراء الهدف مما يحرك قلبنا ويفعمه غبطة وانشراحاً ؟

إن تسلسل الحاجات وانبثاقها بعضها من بعض لا يبعد عنا السعادة كما نتوهم ، بل يدنيها ويجعلها دائمة الحركة مطردة النمو والازدهار ، كالشجرة المثمرة تغرسها وتتعهدها بالسقاية والعناية ، فان نمت تلك الشجرة وارتفعت خضراء متأوجة وارفة الظل طيبة الثمر أبهجك ما أوليتها من نعمة الوجود ، وتمتعت بما لها من منظر رائع وظل منعش وثمر مشتهى .

على أن السعادة إذا لم تكن — كما زعم المعرى وأناتول فرنس وغيرهما من أقطاب التفكير — عنقاء مغرب خيالية التكوين مستحيلة الوجود ، فانها ليست أيضاً طيراً من طيور الجنة ، لا تشتهي حتى تلبي رغبتنا طائعة منقادة ، بل لا بد للوصول إليها من عمل .

وقد خصتنا الطبيعة بمواهب سامية ، وجهزتنا بمؤهلات عظيمة ؛ فعلينا أن نستخدم هذه القوى ، وأن نعلم حق العلم أن استخدامها عنصر من عناصر سعادتنا وهنائنا .

على أن فريقاً من الناس عاديين كانوا في حاجاتهم أم أرستقراطيين ، وإن وفقوا في أعمالهم ، وبلغوا ما لهم من مآرب جوهرية ، فانهم لا يستسيغون السعادة ولا يؤمنون بها ، ذلك أنهم مرضى .

إن النفوس كالأجسام لها أمراضها المختلفة المتنوعة التي تؤذيها ، وتنغص في بهجة الحياة وأفراحها عما يغير طعمها ويجعلها مريرة المذاق بعد أن كانت حلوة طيبة . وكما أن الأمراض الجسمية حقيقية أو وهمية ، كذلك الأمراض التي تنتاب النفس ، فانها إما أن تكون حقيقية أو وهمية .

فالأولى إن لم تكن من غرس الطبيعة تصيب بعض الأفراد الذين تحققت أحلامهم بلا عناء ، كما تصيب في أكثر الأحيان أولئك الذين ازدحمت عليهم المصاعب في مقتبل العمر وأطبقت من كل جانب ، فأعمت بصائرهم ، وطيشت سهامهم ، وخيبت مرة بعد مرة ما لهم من آمال عزيزة وأحلام غالية . أما الأمراض الوهمية فهي التي نخلقها بتفكيرنا وشرود خيالنا أو نقتبسها بالعدوى من البيئة التي نعيش فيها .

ولا شك أن كلا المرضين منتشران في الشرق انتشاراً عظيما جداً لتحكم التشاؤم الظلم الموروث في أكثر الأفئدة والعقول ، ولانعدام الوعي الاجتماعي أو ضعفه في معظم الأقطار العربية التي توشك أن تكون مقابر العبقرية والطموح .

ولا يخفى ما لهذه الأمراض النفسية أياً كان مصدرها ونوعها من أثر سيء في حياة الأفراد والشعوب ، إذ من البين أن الانسان عالماً كان أم جاهلا عظيما أو صغيراً

هو عبد لعقليته يأتمر بأوامرها وينتهي عن زواجرها ، ويستمد منها أحلامه وأمانيه .

فعلى الحكام والمسئولين — كما أن على قادة الفكر من ومربين — أن يتعاونوا في معالجة هـذه العقلية المريضة وإرجاع الصحة والسلامة إليها ، ليفهم المجتمع جمال الحياة وروعتها .

إن الحياة وإن تكن مرة قاسية متسلسلة المصائب والرزايا مزدحمة المتاعب والهموم ، فإنها حلوة جذابة محببة إلى كل نفس قريبة من كل قلب ، حتى إن أتعس الناس حظاً وأعظمهم بلاءً لا يرضون عنها بديلا ولا يغادرونها إلا مرغمين .

وإذا كان حبنا للحياة قويا إلى هذا الحد متمكنا في الطبع ، فإن من الخطأ والطيش والجنون أن نعرض عنها وأن نفني أعمارنا المحدودة في البكاء وشكوى الزمن .

إن مثلنا في هذه الدنيا كمثل قوم هبطوا على غير علم منهم جزيرة من الجزر واضطروا إلى الاقامة فيها . فهل من العقل والحكمة أن يقضي هؤلاء القوم أيامهم باكين منتحبين بحجة أنهم نزلوا الجزيرة من غير استفتاء ، أم أن من الواجب عليهم أن يقبلوا على تلك الجزيرة ويستمتعوا بما تحويه من مسرات ولذائذ ؟

إن الطبيعة فتانة في محاسنها غنية في مواردها معطاء لخيراتها وأرزاقها . فمن الحق علينا أن نقبل عليها وأن نعلم كيف نخضعها لسلطاننا ونفجر من أحشائها وعلى جنباتها ينابيع النعمة والثراء .

ولما كان الانسان لا يستطيع تحقيق أحلامه الواسعة ومشروعاته العظيمة إلا بالتكاتف والتعاون مع أبناء جلدته ، فقد وجب علينا أن ننظم المجتمع الذي نعيش فيه تنظيما يضمن لأبنائه السعة والرخاء ويمكنهم جهد المستطاع من إرضاء حاجاتهم وإشباع رغباتهم .

على أن الرجل النابه إذا ما أخفق في سعيه وتنكر له المجتمع لغباوة منه أو حسد ، لا ينكر السعادة ولا يدعي كما نفعل نحن الشرقيين أنها سراب لا يكاد يلمع وميضه حتى يختفي من الأبصار ، ولكنه يرضخ موقتا للهزيمة ، ويقنع بما عنده راضيا إلى أن يستعيد نشاطه ويستجمع قواه ، فيعيد الكرة ثانية يطارد غايته غير وان ولا متقاعس ، ويستوحي من النجاح الذي يلقاه بأسا جديدا وآمالا جديدة .

لذلك يجمع في صدره بين القناعة والطموح ، ويأخذ من تينك الصفتين المتناقضتين ما لهما من فضائل وحسنات ، فلا قناعة خانعة مستكينة ، ولا طموح سادر غشوم ، بل سعي مستمر وجهاد منظم ورضى عن الحياة وارتياح إليها ورغبة فيها واجتلاء للذائذها المبثوثة في كل مكان .

عارف العارف المحامي
دكتور في الحقوق

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٠٤٨ سنة ١٩٤١ المتهم فيها محمد العربي حسن جزار بميت سهيل بتغريمه جنيهين لأنه باع لحما بأزيد من التسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٤٠٥ سنة ١٩٤١ المتهمة فيها زينب ابراهيم فلاحة بنوبة والنواشنة بتغريمها جنيه لبيعها قمح بأزيد من التسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٤٣٢ سنة ١٩٤١ المتهمة فيها كفاية ابراهيم فرحات بكفر حافظ بتغريمها خمسين قرشا لأنها باعت ذرة بأزيد من التسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٤٩٠ سنة ١٩٤١ المتهم فيها عبد الحميد الشحات زامل فلاح بجنة بتغريمه ١٥٠ قرشا لأنه امتنع عن بيع ذرة بالتسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٤٩٢ سنة ١٩٤١ المتهمة فيها هنا كيلاني نبات فلاحة بميت ربيعة بتغريمها جنيه لأنها باعت ذرة بأزيد من التسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٤٩٩ سنة ١٩٤١ المتهم فيها اسماعيل سلامة اسماعيل جمال بقناة القاضي بتغريمه ١٥٠ قرشا لأنه باع ذرة بأزيد من التسعيرة

جابر بن حيان

لن يستطيع الباحث فى تاريخ الفكر الاسلامى أن يجد شخصية أغرب وأخصب من شخصية جابر بن حيان . فهى شخصية أمعنت فى الغموض واكتنفها السر ، حتى كادت أن تكون أسطورة ؛ وتسامت فى التفكير حتى ليقف المرء اليوم ذاهلاً أمام ما تقدمه لنا من نظرات علمية فلسفية كلها عمق وكلها حياة ، وأمام هذه الروح العامة التى تسودها ، روح التنور والنزعة الانسانية ، التى تصبو إلى اكتناه كل الأسرار ، وتثمر بما يشيع فيها من قوى الحُمَيَّة مُبدِعة فترتفع بالانسان إلى مقام الألوهية ، ويحدوها الأمل فى التقدم المستمر الوثّاب للانسانية فى تطورها . وشخصية هذا حظها الروحى ستظل حية باستمرار ، لأنها من النماذج الحية أبداً للانسان السالك سبيله قُدُماً نحو تحقيق «الصورة» العليا على الأرض ؛ ولن يستطيع البحث العلمى والفيلولوجى والحضارى أن يفرغ منها فراغاً تاماً ، مهما أنفق من جهد فى هذا السبيل : بل ستمعن فى البعد كلما توغل فى الطريق إليها ، وسيزداد مقدارها كلما تلمّس المرء نواحيها . ونحن اليوم أبعد ما نكون من إدراكها إجمالاً ، فضلاً من الاحاطة بخطوطها الرئيسية وتياراتها التوجيهية . لأن البحث فيها لم يكد يبدأ جديا بعد ، أو إن بدأ فلا زال فى مستهل الطريق . بل إن التراث العلمى الاسلامى لا زال الغموض يغزو أطرافه من كل جانب ، لأن المستشرقين ، وهم وحدهم الذين يقومون بشىء فى الكشف عن مناحى الحياة الروحية فى الاسلام ، لم يبدءوا البحث فى تاريخ العلوم فى الاسلام إلا منذ عهد قريب جداً لا يكاد يتجاوز هذا القرن ، ولم يأخذ هذا البحث مظهراً جديا ، ولم يظفر بعناية صحيحة إلا منذ سنة ١٩٢٥ . وإنما كانوا يعنون فى القرن الماضى بالناحية الدينية فالتاريخية فاللغوية فالفلسفية فالصرفية على الترتيب أو ما يشبهه . وبدأت العناية بالناحية العلمية واضحة بعض الوضوح عند الرحوم نلّينو فى دراساته «لعلم الفلك عند العرب» ونشره «لزيج» البتّانى ، وكان ذلك فى مستهل هذا القرن .

ولكن لم يكد يمضى ربع هذا القرن الأولُ حتى بدأ تيار جديد قوى يتجه نحو الناحية العلمية على وجه التخصيص ؛ ثم ما لبث هذا التيار أن توطدت أركانه ، حتى شعر المستشرقون بأن مهمة الاستشراق الاسلامى تنحصر فى البحث فى هذه الناحية ، ناحية تاريخ العلوم فى الاسلام ، حوالى سنة ١٩٣٠ : فنرى مارتن بلسنر يكتب رسالة صغيرة يدل على هذا الاتجاه عنوانها وهو «تاريخ العلوم فى الاسلام كمهمة للاستشراق الاسلامى الجديد» (طبعت فى تيبنجن سنة ١٩٣١) . وإذا بجيل ممتاز من المستشرقين الشباب يمضى قدماً فى سبيل تحقيق المهمة الجديدة . فبدأ روسكا بالعناية بالناحية الكيميائية أو علوم الصنعة عند العرب ، فأخرج كتاباً قيماً بعنوان «الكيميائيون العرب» (فى كتابين طبع فى هيدلبرج سنة ١٩٢٤) ، وتلاه بالبحث فى الناحية السرّية أو ناحية المذاهب المستورة فى الفكر الاسلامى بما قدمه لنا فى بحثه فى الجزء الأخير من كتاب «سر الخليقة» المنسوب إلى بلنياس الطوانى (ظهر فى هيدلبرج سنة ١٩٢٦) . وأكمل البحث فى هذا الكتاب الأخير بلسنر الذى عنى خصوصاً بالناحية الفيثاغورية ، فى دراسته لكتاب «تدبير المنزل» لبريسون (هيدلبرج سنة ١٩٢٨) ، ولكتاب «الفلاحة النبطية» المنسوب إلى ابن وحشية (بحث فى «مجلة الساميّات» ج ٦) واتجه هلموت رتّر إلى هذه الناحية كذلك ، فى دراساته ونشره لكتاب «غاية الحكيم» المنسوب إلى مسلمة المجريطى (نشره فى ليبتسك سنة ١٩٣٣) . ثم جاء بينس فعنى بمذاهب الفزياء ، وذلك فى

كتابه « مذهب الجوهر الفرد فى الاسلام » (برلين سنة ١٩٣٦) .

ولكن هؤلاء جميعاً قد بحثوا أبحاثاً عامة أو جزئية مفردة ، فلم يعنوا بدراسة الشخصيات العلمية الفذة فى تاريخ العلوم فى الاسلام . وإنما الذى فعل ذلك الأستاذ بول كِرَوْس الذى يقدم لنا اليوم خلاصة أبحاثه عن أبرز هذه الشخصيات جميعاً ، ونعنى به جابر بن حيان .

وعناية الأستاذ كروس بجابر عناية قديمة شاملة ، حتى لنستطيع أن نقول إن مجهوده العلمى قد لازمته شخصية جابر كل الملازمة ومنذ اللحظة الأولى ، وحتى أصبح أعظم حجة فى كل ما يتصل بجابر . وإن دراساته المختلفة لتكاد أن تكون دائما « على هامش جابر » : فأبحاثه فى الاسماعيلية وكل المذاهب المستورة فى الاسلام إنما مصدرها عنايته بجابر ، أعظم ممثل لهذا التيار الروحى المستور . وكانت باكورة هذه العناية بحثا على الرغم من صغره فانه بحث ممتاز جداً ، إن بالدقة الفيلولوجية أو بالطرافة فى النظر ، وهو « تهافت أسطورة جابر » (وقد ظهرت فى الجزء الثالث من « النشرة السنوية لمعهد الأبحاث الخاصة بتاريخ العلوم » فى برلين سنة ١٩٣٠) . وفى هذا البحث أثبت أن مجموعة كتب جابر كانت اسماعيلية ، وأنها النموذج السابق لكتب إخوان الصفا . وكان عليه من أجل أن يقدم بحثه عن جابر أن يبدأ بنشر شىء من كتبه ، فنشر مختارات منها بعنوان « مختار رسائل جابر بن حيان » (مطبعة الخانجى سنة ١٣٥٤ هـ — سنة ١٩٣٥ م) : من هذه المختارات نشر فصولا رئيسية من كتب جابر ، كما نشر رسائل كاملة ، وعنى فى اختياره بأن تكون هذه النصوص ممثلة لمختلف نواحى مذهب جابر : ففيها نماذج لأبحاثه الكيميائية ، ولأبحاثه الفزيائية الفلسفية ، كما أن فيها نصوصاً تتعلق بالناحية الدينية ، من شأنها أن تبين لنا الصلة بين آرائه وآراء الغلاة من الشيعة ، مما رجح نسبة رسائل جابر إلى الأوساط الشيعية الاسماعيلية . وقد بذل فى نشره مجهوداً جباراً حقاً ، لأن النسخ التى اعتمد عليها مشوهة جداً ، وبعض الرسائل قد اعتمد فى نشره على مخطوطة وحيدة ، فكان عليه حينئذ أن يكمل النقص فى كثير من المواضع وأن يقترح تصحيحات لا تحصى . وقد وُفِّق فى هذا كله إلى حد بعيد ، فاستطاع أن يقدم لنا نصاً واضحاً قليل الأغلاط التى يمكن إصلاحها (ولنذكر على سبيل المثال ما أضافه فى ص ١٠ س ٩ : « (المبتدأ والخبر ، وأما) الخبر فهو الذى فيه الفائدة العظمى » ، فهنا أضاف كلمة « المبتدأ » والصحيح أن يضيف كلمة « الانشاء » ، لأن جابراً يتحدث هنا عن تقسيم القول إلى إنشاء وخبر ، والشاهد على ذلك قوله عن الخبر إنه « الذى يحتمل الصدق والكذب ... ») .

وهاهو ذا اليوم يقدم لنا الجزء الثانى من بحثه الكامل عن جابر بن حيان . وقد ظهر هذا الجزء قبل الجزء الأول لأسباب فنية ، على أن الجزء الأول سيظهر بعد قليل . وهذا الجزء الثانى قد نشر ضمن مطبوعات المعهد المصرى (المجلد الخامس والأربعين ، سنة ١٩٤٢) باللغة الفرنسية . والجزء الأول خاص بكتب جابر كلها ، فهو إلى جانب المقدمة الطويلة ثبت بكل كتبه مفصل كل التفصيل .

ولو أننا لا نستطيع أن نقدر هذا الكتاب حق قدره إلا إذا ظهر الجزء الأول ، بل والجزء الثالث الذى ينوى المؤلف إخراجه ، إلا أن هذا الجزء الثانى يكاد أن يقوم بذاته لدرجة أنه فى وسعنا التحدث عنه وحده .

فى هذا الجزء يعرض لنا الأستاذ كروس المسائل العلمية الرئيسية الواردة فى الكتب المنسوبة إلى جابر بن حيان ، ونقول « المنسوبة » لأنه أثبت فى الجزء الأول أن هذه الكتب منحولة كلها ، وقد وضعها طائفة من علماء الشيعة المشتغلين بالكيمياء حوالى سنة ٣٠٠ هـ — سنة ٩١٢ م .

ثم يتبع عرضه لكل مسألة البحث فى الأصول اليونانية والشرقية التى اعتمد مؤلف هذه الكتب عليها واستمد منها آراءه .

فعرض أولاً مسألة « الاكسير » ، وفى هذا العرض تحدث من تحول المعادن ، وتركيب الاكسير ، لا من المواد المعدنية فحسب ، بل ومن المواد النباتية والحيوانية كذلك ، ودرس إلى جانبها تصنيف المعادن عند جابر وعند غيره ، وخصوصاً عند محمد بن زكريا الرازى والصابئة . وهو عرض يمتاز بالوضوح والتنظيم ، ولكن البحث المهم فى هذه المسألة هو الخاص بالمصادر التى استقى منها جابر نظرياته فى المعادن وفى الاكسير . فهنا نجد الأستاذ كروس يعرض لنا فى إيجاز تطور الكيمياء اليونانية ، وخصائص كل دور من الأدوار التى مر بها هذا التطور ، ثم يبحث فى صلة الكيمياء الجابرية بكل دور من هذه الأدوار ، ويعنى خصوصاً بصلة جابر بكيمياء ذوسيموس وبلنياس . ويخرج لنا من هذا البحث ببيان ما هنالك من اختلاف كبير جداً بين الكيمياء الجابرية والكيمياء اليونانية القديمة . فعلى الرغم مما هنالك من تشابه فى التعبير الاصطلاحى وفى جزئيات كثيرة ، إلا أن كيمياء جابر تختلف اختلافاً بيناً عن غيرها إن فى الروح أو فى التفصيلات ، فإن كيمياء جابر تمتاز بالميل إلى الناحية التجريبية ، واستبعاد الخوارق ، والاتجاه العلمى العقلى . بينما الكيمياء القديمة كثيراً ما تلجأ إلى الرؤيا الوجدانية واستخدام فكرة الخوارق فى التفسير . ومن ناحية التفصيل ، نجد جابراً يعنى بالكيمياء العضوية خصوصاً ، ويستعمل ملحاً لم يعرفه القدماء اليونانيون والشرقيون ، وإنما استعملته الكيمياء الاسلامية ، ونعنى به ملح النوشادر ، ويرجع العناصر إلى الكيفيات الطبيعية من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة .

ولكن جابراً يظهر لنا أكثر قرباً من الكيمياء اليونانية ، وأبعد عن الروح العلمية العقلية فى المسألة الثانية من المسائل التى عرض لها الأستاذ كروس . فإن « علم الخواص » عند جابر متأثر كل التأثر بالكيمياء اليونانية والهلينية ، حتى لنمكن إرجاعه كله إلى هذه الكيمياء ؛ وفيه نرى فكرة الخوارق تلعب دوراً كبيراً فى تفسير خواص المعادن والنبات والحيوان ، وما بينها من انجذاب أو تنافر ، ولهذا كان هذا الجزء أقرب ما يكون إلى علم السحر والطلسمات .

وثمة ناحية ثالثة ، لها أكبر القيمة من الناحية الحضارية ، ومن الناحية الانسانية العامة ، ونعنى بها مسألة « التكوين الصناعى » . فإن جابراً يريد من وراء علم « التكوين » كما يسميه « أن يكوِّن » ، أى يخلق ، بالصناعة أنواعاً من الكائنات تنتسب إلى الممالك الطبيعية الثلاث ، وخصوصاً المملكة الحيوانية . فإذا كان فى وسع الكيمياء أن تستنبط مواد جديدة بتركيب الأجسام بعضها مع بعض ، فلم لا تقوم أيضاً بإنتاج النبات والحيوان ، بل وبخلق الانسان الصناعى ؟ إن هذا العلم ممكن ، لأن الكائن الحى — والانسان كائن حى — هو نتيجة لتضافر القوى الطبيعية . والطبيعة فى إنتاجها الكائنات إنما تخضع لقوانين كمية عددية يكشف عن سرها علم « الميزان » ، أى علم القوانين الطبيعية الكمية التى يجرى عليها الكون والفساد فى الطبيعة . فما على الانسان ، وقد عرف هذا السر ، إلا أن يقلد ما تبرزه الطبيعة ، وليس فى هذا خروج على الطبيعة ، بل هى تساعد على ذلك ، لأنها « إذا وجدت للتكون طريقاً (غير طريقها هى) استغنت به من طريق ثان » ، على حد تعبير جابر .

ففكرة تكوين إنسان بالصناعة ؛ تلك الفكرة التى شغلت أذهان كبار العلماء فى عصر النهضة ممن نزعوا نزعة سحرية ، نجدها واضحة كل الوضوح عند جابر ، يؤمن

بها ويؤكد إمكان تحققها فى حماسة ونشوة تذكرنا بحماسة بركلسوس ، ورجال القرن السادس عشر فى أوربا ؛ وهذا يكشف لنا من ناحية خطيرة الشأن فى الفكر الاسلامى ، وتحتاج إلى أن ندرس أعمق الدرس ، خصوصاً وأنها تعبير عن فكرة عاشت حية فى وسط دينى ، وكانت مدار التفكير عند أصحاب هذا الوسط ، وفيها يظهر تأثير العناصر الغنوصية فى الحياة الروحية فى الاسلام أجلى ظهور .

ومن هذه الناحية العملية من مذهب جابر ينتقل الأستاذ كروس إلى الناحية النظرية ، فيحلل لنا فى دقة مذهب جابر الطبيعى . فيتحدث عن نظرية العناصر عند جابر ، وعن الكيفيات المركبة لها ، ويبين الأصول التى أخذت منها ، وهى أصول تجمع بين أرسطو وبين الرواقية والأفلاطونية المحدثة . ثم يتحدث طويلا وبوجه خاص عن نظرية (الميزان) التى تعد العمود الفقرى والمحور الرئيسى لمذهب جابر كله . والميزان يقصد به هنا القوانين الكمية العددية التى تحكم كل شىء فى الوجود ؛ وبالتالى إرجاع كل الظواهر الطبيعية وكل ما فى الوجود إلى قوانين الكم والعدد . وهذه الفكرة هى أكبر محاولة قامت فى العصور الوسطى من أجل إيجاد علوم طبيعية تقوم كلها على فكرة الكم والمقدار ، وهى المثل الأعلى الذى سعى العلماء الطبيعيون المحدثون جهدهم إلى تحقيقه . ومن هنا جاءت الطرافة والعمق فى نظرة جابر هاتيك . ذلك لأننا نجد الشغل الشاغل والهم الأكبر للعلم الحديث بكل أنواعه وفروعه يتجه إلى إحلال النسب الكمية محل الخواص الكيفية فى كل تفسير لأى مظهر من مظاهر الوجود . ويكفى أن يكون جابر قد شعر شعوراً واضحاً قويا بهذا الاتجاه لكى يتبوأ مركز الصدارة فى تاريخ العلم كله قديمه وحديثه . ولا يهم كثيراً أن لا يكون قد استطاع أن يصل إلى نتائج ذات قيمة فى هذا الباب ، لأنه فى الواقع قد تأثر هنا بالناحية الصوفية السحرية من نظرية الأعداد عند الفيثاغوريين وخواصها العجيبة ، فلم ينته إلى نتائج علمية صحيحة . وفى حديث المؤلف عن الصلة بين جابر والأقدمين فى هذه الناحية ، تناول مشكلة تاريخية فيلولوجية على الدرجة الأولى من الأهمية ، ونعنى بها مشكلة كتاب (سر الخليقة) ، المنسوب إلى بلنياس الطوانى . ولو أنه لم يصل إلى نتائج حاسمة هنا ، إلا أن هذا الفصل أروع ما فى هـذا الجزء الثانى من الكتاب ، فقد استطاع فيه أن يعقد مقارنة بين هذا الكتاب و (كتاب الكنوز) لأيوب الرهاوى (الذى نشره منجانا وترجمه سنة ١٩٣٥ ؛ وهو باللغة السريانية) ، ويخرج منها بأنه لا بد أن يكون مصدر الكتابين واحداً ، وأن يقدم لنا فكرة دقيقة عن الصورة التى كانت عند اليونانيين ، وفى العالم الاسلامى عن بلنياس . وكثيراً ما يعرض المؤلف لمسائل هامة على هامش البحث يدلى فيها بآراء ذات أهمية كبيرة ، ويوجه فيها العناية إلى دراسة ناحية ما من نواحى البحث التاريخى فى الحياة الروحية فى الاسلام .

ولهذا فإن التعليقات المحشودة فى الكتاب بكثرة من الأهمية فى ذاتها ما للنص الأصلى ، إن لم يكن أكبر فى أحيان ليست بالقليلة .

والمنهج الذى سلكه الأستاذ كروس فى هذا الجزء منهج فيلولوجى من الطراز الأول . فإنه — كما يذكر ذلك فى المقدمة — يبدأ من نص رئيسى يحدد معانى مصطلحاته فى دقة ومهارة فى المقارنة والاشتقاق ، ويحشد حوله ما هنالك من نصوص تعين على فهمه وإبراز كل معانيه . وبعد أن ينتهى من هذا التحليل الدقيق ، يحاول أن يعرض لنا المسائل واضحة منتظمة الأجزاء ، ثم يتلو ذلك بيان المصادر والأصول التى قد ترجع إليها الآراء التى أوردها صاحب المذهب . وهو المنهج الفيلولوجى بالمعنى الدقيق .

في الشرق الأقصى :

الصين

في الألوف الغابرة من السنين

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

هو الشرق مهد الحضارات الأولى . وأقدمها في الشرق الأدنى الحضارة المصرية والحضارة الآشورية البابلية ، وأقدمها في الشرق الأقصى الحضارة الهندية والحضارة الصينية . وجميعها نشأت في أحضان الأنهار العظيمة .

فالذي عليه جميع من استقصوا تاريخ الصين من قدماء ومحدثين أن حضارتها القديمة ترعرعت وازدهرت في سيق نهرين كأرض الجزيرة ، وهما النهر الأصفر «هوانج هو» والنهر الأزرق «يانج تسي كيانج» . وذلك أن الجنس الصيني النازح من منابته الأصلية في أواسط آسية إلى شرقها قد صحب النهر الأصفر حتى البحر ، ثم انساحت أفواجه ما بين النهرين التاريخيين . ولم يلبث هؤلاء المستوطنون أن وثبوا من السهول الطينية اللينة على الحزون الغليظة الصلبة في الصين الجنوبية . وما تزال بين أهل الشمال وأهل الجنوب حتى بعد تمام الفتح وتطاول الأحقاب فوارق واسعة الشقة بعيدة المدى ، بقدر الفوارق الجغرافية ما بين السهول من الغرين والطينة الصفراء الدمثة وبين الأودية الضيقة الفجاج الجبلية .

قبل التاريخ :

والصين كسائر الأمم الذاهبة الأعراق في القدم ، لم يشهد التاريخ ميلادها . فلا غرو أن كانت الكلمة في بيان خبرها قبل التاريخ للخرافة والأساطير مثل غيرها . فهي تروى لنا عهد الأسرة السماوية ، ثم عهد الأسرة الأرضية ، ثم الأسرة البشرية . وجملة هذه العهود الأولى أربعون وخمسمائة قرن . يجيء بعدها ثبت للملوك الأقدمين ، ونكتفي من أسمائهم باثنين أو ثلاثة : فهذا ملك اسمه «انتشرت الوكون» ، وآخر اسمه «حك حطبة بأخرى تقدح ناراً» ، وغيره يكنى «الاطار والقب» . وظاهر أن هذه إشارات إلى مراحل الحضارة الأولى في حياة الدولة الناشئة . فواحدة تصور لنا قيام المساكن واستقرار القوم ، والأخرى مرحلة تسخير النار ، والثالثة اختراع العجلة واستخدامها في النقل .

ويذكر الصينيون على رأس عهدهم التاريخي اسم «فو — هي» ، قبل ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح . ويزعمون أنه هو الذي علمهم الصيد في البر والبحر ، وتأنيس الماشية وتربيتها ، وزودهم بالمحراث الأول ، وهداهم إلى ضرب من حساب الأيام ، وهو الذي شرع لهم نظام الزواج ، وجعل الرجل قواماً على الأسرة ، وإليه يرجع الفضل في اختراع الكتابة الصينية .

وكنا نود من المؤلف أن يضيف إلى هذا المنهج النهج الفلسفي الذي يحاول أن يستخلص النتائج العامة ويرتب عليها صورة كاملة عامة متناسقة الأجزاء للمفكر الذي هو موضوع الدرس ، يضعها هي الأخرى في إطار الحضارة التي نشأ هذا المفكر فيها ، رابطاً إياها بكل التيارات المرتبطة بها ارتباطاً عضوياً حيا . وعلى كل حال فان هذا الحكم قد يكون سابقاً لأوانه ، لأن المؤلف قد وعدنا بجزء ثالث لعله أن يعنى فيه بهذه الناحية . فلنمسك عن تقدير الكتاب جملة حتى يظهر الجزء الأول على الأقل ، ولنتقدم إلى الاستاذ كروس بأحر التهانى على هذا العمل العلمى العظيم الذي يعتبر بدون أدنى شك من أعظم الأعمال العلمية النادرة التي قام بها الباحثون حتى اليوم .

عبد الرحمن بدوي

وأقبل خلفاء « فو — هى » على هذه الخطة العمرانية من اختراع للآلات الزراعية ، واستخراج لخواص النبات الطبية ، ووضع المكاييل والموازين ، وتقرير لمناسك الدين وغير ذلك . فنحن نسمع عن « هوانج تى » الذى أطلق الدينة التقشية فى البلاد ، ورتّب التقويم القمرى ، ورسم باختصاص السحرة ، وأمر بالتقريب للأرواح . ثم « ياو » الذى دبّر المياه ، فأجرى السواقى والأنهار وأقام المصانع والسدود ، ونظّم الرى والصرف . و « شون » مبدع التقويم الشمسى وأول واضع لقانون العقوبات . كما نسمع من « يو » البطل الوطنى الذى قاد أمته من ضفاف النهر الأصفر إلى ضفاف النهر الأزرق ، فقامت على يديه الدولة وتوطدت أركان الملك .

ويلاحظ أن مدة حكم الواحد من الحكام الأولين على ما جاء بالتواريخ الصينية أطول مما يمكن أن يمتد له أجلُ أحدٍ من بنى الانسان . فالشأن فيهم كما قدمنا لايعدو أنه تصوير المراحل التى مرت بها حضارة الصين ، وإن كانت الفترات المزعومة أقل مما ينبغى تقديره للانتقال من مرحلة إلى مرحلة فى سير الحضارات .

عهد الأسر المالكة :

كان نظام الحكم فى ذلك الأوان كنظام المشائر توكل فيه ولاية الأمر لمن ينتخبه شيوخ القوم من بينهم ، حتى ولى أمرهم « تا — تو » فصار الملك فى بيته وراثياً . وتعرف الأسرة الحاكمة الأولى باسم « هيا » ، وخلفتها بعد قرون أسرة « شانج » . ثم جاءت بعدها أسرة « شو » وليس يصح قبلها تاريخ يقينى عن الصين ، ومدة حكم ملوكها أطول مدة عرفها التاريخ (من ١١٢٢ إلى ٢٤٩ قبل المسيح) . ولم تلبث الامبراطورية أن صارت على عهدهم إقطاعات على كل إقطاع أمير يتوارث إقطاعه أباً عن جد ، وللامبراطور عليهم السلطان الأدبى والسيادة الروحية . وقد بلغت عدة الدويلات الصغار فيما بين النهرين الأصفر والأزرق بضعة ألوف ، وكان يتنازع السيطرة عليها خمسة أو ستة من أصحاب الامارات الكبار ، فنشبت بينهم حروب وجرت وقائع تتغنى بها وتأتى على تفصيلها مأثورات القوم نظماً ونثراً . على أن الذى جعل هذه الحقبة من تاريخ الصين أنبه ذكراً وأجلّ خطراً ، لا يتصل بأحداث السياسة والملك ، ولا يمت إلى معارك القتال ومواقف الأبطال ، وإنما هو ظهور الحكمة على لسان « كونفشيوس » و « منسيوس » و « لاوتسى » .

قيام الوحدة الصينية :

وإذا كان الحكماء الثلاثة قد مضوا يدعون إلى الخير ، ويضعون للصين قواعد المجتمع ونواميس الأخلاق باقية خالدة ، فان الأمراء أصحاب القطائع قد مضوا فى التقاتل والتناحر مبادرين إلى الشر استجابة للأطماع وحباً فى الغلبة على سائر الملك والاستئثار بالسلطان كله . وما برح الأقوياء منهم يقتلون الضعفاء ويستغرقون ما بأيديهم ، حتى صارت البلاد التى كانت من كثرة الامارات مثل رقعة الشطرنج مجتمعة فى مملكتين : مملكة « تسين » ومملكة « تسو » . وكان أهلهما أصلاً أهل حرب وجلاد بطبيعة وقوع هذه وتلك على الثغور ما بين الصينيين والهمج . فاحداهما « تسين » مقاطعة شنسى الواقعة فى منحنى النهر الأصفر كانت موكلة بمدافعة أفواج الجنس التركى مُغْلاً وتتراً وهوناً وغيرهم فى الشمال ، وكلهم بدوٌ من الرعاة الرحّل . والأخرى « تسو » مقاطعة هوبى قائمةٌ فى وجه أبناء البلاد الأقدمين الأصليين ، وهم على حال الفطرة ، ومعاشهم على صيد الأوابد من الخيل والسائمة . فلما أن تم للأولى احتواء أقاليم الشمال ، واستوعبت الثانية أقاليم الجنوب ، التقت الأسرتان الحاكمتان وجهاً لوجه ، وقام فى مطلع هذا الفجر البعيد من التاريخ أول نزال عظيم بين

الشمال والجنوب . فكتبت الغلبة لامارة « تسين » . وكان من أثر ذلك فيما يقال أن غلب اسمها على البلاد كلها ، فعرفت من ذلك الحين باسم الصين . ونادى الأمير الشاب الجرىء القلب الشديد البأس « وانج تشنج » بنفسه عاهلاً على الصين جميعاً ، وتسمى باسم « شو هوانج تى » أى الامبراطور الأصفر الأول (٢٤٦ — ٢١٠ قبل المسيح) وراح يعمل على ترسيخ قدمه وتمكين ملكه واستجماع الأمر له .



الامبراطور الأصفر الأول : شو هوانج تى

النظام الجديد :

صرف الامبراطور كل همه إلى جعل الصين أمة ، وتوحيد هذه الأمة . فوفق فى ذلك التوفيق كله . ولقد أزال النظام الاقطاعى ، وتجشم لازالته ما تجشم ، وقسّم الصين إلى أعمال ، أقام عليها من قبله عمالاً مسئولين أمامه . فلم يعد الأمر بعدها موزعاً ، وتركزت فى يده أزمة الحكم . ولكى يكون قضاؤه على النظام الاقطاعى مبرماً لا رجعة له ، ارتأى أن يقطع كل صلة بالماضى ، ويزيل كل أثر له فى الأذهان . وإذ كان لا سبيل إلى ذلك والمخلفات الموروثة والأخبار المأثورة عند القوم فى الوضع الأرفع من التجلة والاكرام ، فقد أجمع رأيه على عزم لم يثنه عنه ما للسلف من قداسة واعتبار ، فأمر بالأسفار أن تحرق جميعها بما تضمنت من خبر من تاريخ الصين القديم ، وإسناد إلى نظمها العتيقة . واستتبع ذلك اضطهاد شيوخ العلم وحفظته القائمين على تراثه وأماناته . ومن اجترأ منهم على المخالفة أو المراجعة فى أمر الكتب ألحقه بها ، يصلى حيًّا لهيبها ويكون نصيبه نصيبها . ولولا أن بعض ذوى الشكيمة والعناد الذين لم تصدهم خشية النار قد أفلح فى إخفاء بعض الكتب ولم يفتضح تدبيره ما خلص إلينا شىء من أسفار كونفشيوس المقدسة وسائر الذخائر الأدبية التالدة .

ومن عجيب ما يروى عن هذا الامبراطور العجيب أنه كان أطيب الناس نفساً بقبول مشورة النصحاء — وهم فى كل بلد كثيرون — ولكنه كان إذا ظهر فساد النصيحة أمر بالناصح المتطاول ، فألقوه فى مغطس يغلى بالماء غلياناً ، جزاءً لسوء رأيه وغروره بنفسه .

ولا ريب فى أن القارىء يلمس فيما تقدم شدة حفيظة الامبراطور على المشايخ العلماء لوقوفهم فى وجه التجديد ، فلم يكن يرضيهم إلا أن يبقى الحال فى أخص مطالب الدولة ونظم الحكم وفى سائر الأشياء ، كما كان منذ آلاف السنين ، وأن تبقى الادارة كلها فى أيديهم ، وأن يظلوا على سنتهم جامدين . ولقد أورد المؤرخ الصينى الكبير « سى — ما — تسين » منطوق خطاب ألقاه أحد وزراء الامبراطور بين يديه . ومثل هذا الخطاب لا محالة أصدق بيان للحالة . ومنه قوله : « فأنتم يا صاحب الجلالة أول من تحقق على يديه هذا السعى الجليل . لقد بنى صاحب الجلالة اليوم مجداً سيبقى على ألوف السنين . ذلك لعمر الحق ما يقصر عن إدراكه الفقهاء الأغبياء الجامدون . فالسادة الفقهاء لا يهتدون بهدى الحاضر ، ولا ينهجون سبيله ، وإنما اشتغالهم بالعهد القديم يعيدون فيه النظر ويكثرون فيه المقال ، يقصدون من ذلك إلى الحط من قدر النظام الحاضر والغض من شأنه ، فهم يوقدون الريبة ، ويشيعون القلق فى الرءوس السود أبناء الصين . . »

وإذاً فالمشايخ العلماء لم يكونوا مشايخ علماء فى نظر الامبراطور ، بل أعداء الدولة ودعاة الرجعة ، وعناصر الشغب والفوضى . وكذلك الأسفار المقدسة لم تكن فى

نظر الامبراطور أخباراً ومواعظ وأدباً ، بل قيوداً وعراقيل من وراء القبر ، يفرضها الماضي الميت على الحاضر الحي . ومن ثمة عمد إلى الضرب على أيدي الشانع العلماء والتنكيل بهم ، وأراد إلى إحراق الأسفار التالدة ، حتى لا يبقى لها أثر ولا يعرف عنها خبر .

ولم يقتصر نشاط الامبراطور على الشئون الداخلية ، بل أبلى أحسن البلاء في مدافعة العدو الخارجي . فقد كانت قبائل الهون الرحل في منغوليا لهم الغلبة على الأقطار الشاسعة من بحر اليابان إلى جبال أورال ، وقد شرهت نفوسهم إلى خيرات المملكة الصينية المتوسطة ذات التربة الصفراء الدسمة والسهول الخصبة الغنية . ولكن « شي هوانج تي » صمد لهم وردّ عدوانهم مراراً ، ثم أقام في حدود الأقاليم الشمالية دونهم سداً وهو المعروف بالسور الأعظم ، وعتد مائتين وألف ميل من إقليم تشين سي في الغرب حتى البحر شرقاً ، ومتوسط ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه ستة ، وبين كل مسافة وأخرى مرقب عالٍ وحصين ،



سور الصين الأعظم

وفي مواطن الخطر يقوم فيما يلي السور ثانٍ وثالث ، وقد قضى الامبراطور بأن من يترك من العاملين في بناء السور ثلماً مثل سم الخياط فعقابه الموت . ولا مرية فيما اقتضى هذا البنيان الضخم المتين من عظام الجهد وشدة النصب . وأكبر الظن أن الطاغية قد سخر في الملايين الذين سخرهم لبنائه ألوف العلماء المضطهدين ممن اعتقد ذنبهم أخف من ذنب إخوانهم الشانع المحسابة المحرقين .

فالامبراطور له سياسته في الداخل والخارج محدودة واضحة كما مر بنا ، وله كذلك في تنفيذها طرائقه التي رأينا ، ولا شك في أنها طرائق قد اختص بها . وليس يعرف التاريخ محاولة للانفصال من الماضي والقضاء على روح المعارضة للتطور والرقي أجرأ وأعنف وأبعد مما ذهب إليه « شي هوانج تي » . ولكن النظام القديم كان أعمق جذوراً وأوكد تأثلا وأتم تعبيراً عن روح البلاد من أن تمتنع عودته إلى الظهور . ففي اليوم الذي مات فيه الامبراطور المجدد مات معه نظام الحكم الجديد ، وعادت البلاد كما كانت خاضعة لنفوذ الشانع العلماء ورهن أحكام الكتب القديمة ، وأصبح اسم المصلح العظيم تنصبّ عليه لعنة الأبد في مصنفات المؤرخين الصينيين .

(له بقية) عبد الرحمن صدقي

حكمت محكمة العرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٥٠١ سنة ١٩٤١ المتهم فيها محمد على صبيح التاجر بأكياد بتغريمه ثلاثة جنيهات لأنه باع درة بأزيد من التسعيرة

الشاعر!

للأستاذ محمد عبده عزام

لماذا ننتظر من الشاعر أن يلق إلينا برأيه في الحياة، ولماذا نجد فيه هذا الأب الحنون وهذا الأخ الكريم؟ لماذا نحب حديثه ونقبل عليه بلذة وشغف؟ ولو أنا وعينا هذه الحقائق التي يسوقها إلينا من تأملنا نحن ما تأثرنا بها كما نتأثر حين نقع للشاعر... وفي الوصف مثلاً نرى الصور مبسوطة لأعيننا، ولكنا مع ذلك نحب أن نراها بعين الشاعر، وتخفق قلوبنا بالحب والبغض والرضا واليأس، ولكنا نظل كأننا نهتف بالشاعر أن يرينا إياها ويحملنا نحسها! ومهما سجل الشعر من خلجات النفس، ومهما رسمت يد الشاعر من صور، فلن يبلغ هذا شيئاً من كل ما في نفس الانسان وما في الطبيعة من حقائق وجمال! بل نحن نشيح بوجوهنا في كثير من الأحيان عن هذه الحقائق وتلك الصور، على حين نقبل على هذا الاطار السحرى لنرى فيه ونسمع عنه ونتفهم به...! لكأن الشاعر هو الانسان الذى رأى صور الطبيعة وحده، وأحس الأشياء وحده...! ما سر هذا الحنين في قلوبنا إلى هذه الكلمات الموسيقية التي يرسلها هذا الانسان الشاعر؟ لماذا إذا انحدرت من عينه دمعة انحدرت لها دموع الناس، ولماذا إذا أشرق ثغره بابتسامة أشرقت معها الحياة!؟ لماذا استبد بنا هذا الانسان الشاعر فشغلنا بحياته وما فيها من خير وشر، وسخط ورضا، على حين شغلنا عن أنفسنا، وكدنا لا نحس ما يسخطنا وما يرضينا؟ ما هذه الحرمة التي تستولى على نفوسنا حين نقرأ لهؤلاء الشعراء؟ أليس في الدنيا إلا حب هؤلاء الشعراء وأحلامهم؟ أليس في الحياة إلا آراؤهم وزعماتهم!؟ لم نظل نتغنى هذه الأحلام، ونردد هذه الخواطر، فتدمع عيوننا وتخفق قلوبنا كما خفقت قلوبهم؟ ومن يدرى؟ فالبيت قد يقوله الشاعر، فلا يأخذ من نفسه قدر ما يأخذ من نفس قارئه! ومن يقول إن النادبة أشد النساء حزناً؟

لا! ليس هذا الإنسان الشاعر أقوى الناس عاطفة وأحدهم مزاجاً وأكثرهم تأثراً بما في الكون من معان وجمال... لكنه أقدر الناس على التعبير، وأكثرهم جرأة على الكشف عن ذات نفسه بهذه الألفاظ المنغمة السحرية... إن هذا الانسان الشاعر فيه أثرة وإيثار اتحدا بقوة عجيبة فلا نستطيع الفصل بينهما... فهو لا يصنع شعره ليتغناه وحده، ولكنه يتغناه وقد اتخذ من الناس جوقة تردد معه وتوقع على نغمه، وكلما كثر أفراد هذه الجوقة زادت غبطة الشاعر ورضى عن نفسه وإن كان ما يتغنى به شعراً حزيناً باكياً... وهذا الشاعر يقطع نياط قلبه ويفرغ دموع عينه وينزح أعماق نفسه ليقدم كل ذلك لعواطف الناس وأحلامهم وعقولهم، فيتنفس بذلك عنهم ويترجم عن نفوسهم...! فمن منا التابع ومن المتبوع؟ أنحن حين ننضم إلى هذه الجوقة ونهتف مع الشاعر ونسلم عقولنا وأحلامنا إليه يصرفها كيف شاء فيزداد صوته ارتفاعاً وقلبه جهداً وإرهاقاً، وربما قتله هذا، أم هذا الانسان الشاعر الذى يقف بقيثارته بيننا فيسيطر على عقولنا ومشاعرنا، فاذا شاء أضحكنا وإذا شاء أبكانا!؟ تباركت يارب، لقد هيأت هذا الانسان الشاعر، وجعلت وظيفته في الحياة الترجمة عن جمال الكون وطبائع النفوس، جعلته يصغى إلى وساوس الحياة، وأمرته أن يفصح عنها، خلقته ليتأمل ويتغنى، ليس له من عمل غير دموع يسفحها، أو ابتسامات يرسلها، أو حقائق يلقنها أو صور يتأملها! ينظر إلى الناس ويتحدث إليهم، غير أنه ينظر ليسجل، ويسمع ليصور

الربيـــع

هذا «عروسُ العام» زُفَّ — إلى رُبَى بهواه صَبَّهْ
فتطلعت لجمـــــال طا — مته ، وقد كانت مُكِبَّه
والتفَّ فى الأزهار عا — ربها ، وغافِلُها تنبــه
متهاديا يهـــــدى إلى — مُقَلِ الأغصان حِبَّه
ويطِرُ الشـــداخ كى — ف يبث الأفنان حُبَّــه
وعبيره لغــــة الهوى — ونسيمه عتب الأحبَّه
ونداه عــــبرة عابد — متذكر فى الليل ربَّهْ

شاعر البرارى

الشـــفق

أسألتَ قلبى ما الذى — يشْقيه فى هذى المآقى ؟ !
دَعْنى فإنى فى شِـــعَا — بِ الموتِ فى مجرى أعاقى
فى ظلِّها مُتحَـــيِّرُ ال — خُطُوَاتِ موءود الأمانى

ويرى ليفهم . . . ! لكأن أمس الشاعر وبغيته من الحياة هذه المعانى التى يطلقها خياله أو يستوعبها فهمه . . الناس والأشياء عنده ليست إلا دلالات لهذه الصور ، ولتلك الحقائق . . . وقد يجرى وراء متعة وكأن لذته منها أن ينقلها إلينا ، وقد يتسلق إلى الشقاء ، وكأنه يعمد إلى ذلك ليمتحنا عواسانه والعطف عليــه ! فنتألم راضين ونتمنى مشفقين . . . ! !

أفى كل هذا يا رب شقاء له ، أم نعمة أنعمت بها عليه ؟

محمد عبده عزام

أمشى إلى شَفَقِ السُحُبْ — بِ مثلَ مقبرةِ الأمانى

***

فى رهبةِ الشفقِ المُوَشْـ — ـحِ بالرَّدَى المتضرِّمِ
دَعْنى أســيرُ إلى النها — يَةِ فى طريق المُعْتِمِ
أنا لا أضنُّ على الرَّدَى — وعميقــه المتكرِّمِ
فلقـــد وُلِدْتُ ببابه — واليومَ يُولَدُ فى دمى

محمد الحانى

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٠٥٦٣ سنة ١٩٤١ المتهم فيها محمد متولى اسماعيل فلاح بطرانة بتغريمه جنيهين لأنه باع قمحا بأزيد من التسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٦٤ سنة ١٩٤٢ المتهمة فيها زينب عوض من كفر غنام بتغريمها جنيه لأنها باعت قمحا بأزيد من التسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٢٤٣ سنة ١٩٤٢ المتهم فيها احمد احمد حنفى العامل طرف فريد رجب محمد صاحب مخبز بالزقازيق بأنه باع خبزاً بأزيد من التسعيرة — بحبسه أسبوعين بشغل وغلق المحل يوما واحداً

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٢٦١ سنة ١٩٤٢ المتهمة فيها زينب حسن عبد بنهوا بتغريمها خمسين قرشا لامتناعها عن بيع ذرة بالتسعيرة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٢٦٦ سنة ١٩٤٢ المتهم فيها عبد الرحمن محمد مشطاوى كلاف بشركة شل بهبيا بحبسه شهرين بشغل وغلق المحل لمدة يوم لأنه باع غازاً بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٣٩١ سنة ١٩٤٢ المتهم فيها فرج اسماعيل جزار بجزيرة سعود بتغريمه عشرة جنيهات لأنه باع لحماً بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٤١٠ سنة ١٩٤٢ المتهمة فيها عاقلة عطا فلاحة بميت الفر بتغريمها ١٥٠ قرش صاغ لأنها امتنعت من بيع قمح بالتسعيرة .

قصة مصرية :

رجعة ضمير

للأستاذ صلاح الدين ذهني

لم أغير موضعي من ذلك المقهى الهادئ عند منتصف المدينة ، في تلك الزاوية التي المطلة على الشارع المزدحم بالعابرين كنت أستطيع دائماً أن أتأمل الحياة في صورتيها الرائعتين : الحركة والأمل ، تبدوان في وقع كل قدم ، وعند كل حين ، وتشعان من كل وجه ، حتى تلك الوجوه المكتئبة بالألم ، لم تكن تعدم ومضات الأمل في الخلاص تشع من خلال الكآبة التي تعلو صفحتها .

ظللت كذلك عامين كاملين ، كنت في خلالها أرى ذلك الرجل المعتوه بملابسه الزرية ووجهه المتغضن الشاحب ، وعينيه الضيقتين تومضان ببريق غريب كنت أحار في تعليل قوته ، كان يمر دائماً بين التاسعة والعاشرة ، ولم يخلف موعده يوما حتى أضحى مروره أمراً عادياً بالنسبة إلى ، وأصبحت لا أعير مقدمه أي التفات .

كان يدخل من باب المقهى ويمر بين الصفوف ، ولا يعدم كل يوم شخصاً يعرفه بين الجالسين فيحييه في ضحكة بلهاء ، ضحكة لا يبدو بينها وبين بريق عينيه الغريب أي صلة ؛ ثم يمضي مخترقاً الصفوف غير عابئ بما يحيط به ، حتى يصل إلى نهاية المقهى فيفتح الباب الزجاجي ويقف على إفريز الشارع قريباً من متضدتي ساهماً ، ثم ينظر إلى الطريق وقد اتسعت حدقتاه ، ولا يلبث أن يرسل ضحكة بلهاء ، وتتمتم شفتاه كأنما يخاطب نفسه ، ثم يمضي في طريقه .

كان ذلك يتكرر كل يوم ، فلا أذكر أني جلست على المقهى في يوم من الأيام بين التاسعة والعاشرة دون أن أرى هذا الرجل يكرر نفس العمل ؛ ولطالما انتبه إلى وجودي فغض بصره ثم نظر إلى يحييني تحية غريبة لا تعدو رفع إصبعه السبابة إلى جبينه ثم خفضها مثنية في حركة عصبية ، ولطالما أخذ جولته دون أن يعنى بأحد ، ساهما كأنما يفكر في موضوع هام ، ثم يمضي في طريقه ساهما كما كان ، حتى لتحسبه آلة ميكانيكية تؤدي عملا محتوما لا تملك أن تحيد عنه .

كنت دائما أنظر إلى هذا الرجل نظرة رثاء وعطف ، إنه واحد من هؤلاء الذين يعيشون في الحياة محرومين من نعمة العقل ، ولا يعرف إنسان أهم السعداء أم نحن الذين نرثى لهم ونضحك من تصرفاتهم ؟

كثيراً ما أثارت في نفسي رؤية ذلك الرجل هذا السؤال ، وكنت أظل دائما حائرا بين حكمة المجانين في سخريتهم من العالم ، وبلاهة العقلاء في الاحتفال به ، وما تكاد نزعة الرثاء لهذا الرجل تتلاشى حتى تعاليني فيها نزعة الغبطة له كمخلوق لا يحفل بالعالم ولا يعبى به ، ولكني لم أتردد طويلا بعد أن سمعت هذه القصة التي رواها لي أحد الأصدقاء ... ...

كنت آخذ مجلسي كعادتي قبيل التاسعة ، حين أقبل صديقي زكي ، أحد أطباء وزارة المعارف في الأرياف ، وكان سروري به عظيما ، فلم أكن قد رأيته منذ كنا نعمل سويا في إحدى ضواحي القاهرة ، فكان هو طبيب المنطقة ، وكنت أنا ممثل النيابة بها ، وقضينا إذ ذاك أوقاتاً سعيدة ، لم يكن بد أن نتذاكرها وقد التقينا الآن ... ...

وأخذنا الحديث عبر الأيام ، وعشت مع صاحبي خارج تلك الجلبة التي تعمرنا من الشارع ومن داخل المقهى ، ومرت ساعة كاملة لم أنتبه خلالها لما حولي ، وإذا بصديقي ينهض فجأة وهو يقول متهللا :

— أهلا وسهلا بالدكتور سعيد ... إزى صحتك يا راجل ؟

والتفت بدوري لأرى ذلك الضيف القادم ، فلم أجد إلا ذلك المعتوه مقبلا من داخل المقهى ومتجها نحو مكانه المعهود إلى جوار منضدتي ، بينما وقف صديقي أمامه وأخذ بيديه يهزها بحرارة وشوق ، مرددا ألفاظ التحية والترحيب ، على حين ظل صاحبنا جامداً كأنه تمثال ، لم يبد عليه جديد إلا لمعان دمعة تترجرج عند حافة عينيه في قلق ، كأنما تشفق أن تغادر مأواها ... ...

وطال وقوف صديقي مع الرجل ، وتتابعت أسئلته دون أن يحظى بجواب ، ومرت اللحظات ثقيلة بغيضة على نفسي ، فقد كنت أتلهف لمعرفة سر هذه الصداقة بين صديقي وذلك المعتوه ، وسر تسميته بالدكتور وترحيبه به مع ذلك البرود الذي يلقاه ...

ومضى الرجل بعد لحظات دون أن يغير شيئا من خطته ! وقف إلى جوار المنضدة ، ونظر نحو الشارع ساهما ، ثم أرسل ضحكته البلهاء الخبيثة ، وحيا زكي ثم سار مخترقا الطريق ، ولم أكد أندفع في بالسؤال حتى ابتدرني زكي قائلا :

— ماذا ؟ ألا تعرف الدكتور سعيد ؟ !

وقلت مستوضحا :

— هذا المعتوه دكتور ؟ !

ولم ترق زكي فجيعتي ، فقال في امتعاض :

— إنه ليس معتوها ! إنه دكتور ! الدكتور سعيد كان من خيرة أطبائنا الجراحين وأمهرهم ، ولولا ما أحاط به من ظروف لكان اليوم علما من أعلام الطب في مصر ... إنك تتكلم كما لو كنت تجهل ما حدث له !

وحاولت أن أذكر شيئا سمعته عن شخص بهذا الاسم ، فلم تسعفني الذاكرة ، فقلت :

— كل ما أعلمه عن هذا الرجل أنه معتوه يحضر كل يوم لزيارة المقهى ، هذه الزيارة السريعة ، ثم يمضي في سبيله كما رأيته ... ...

وتمهل زكي، وبدا على وجهه التأثر وهو يجيل عينيه في المكان، ثم قال في صوت شاع فيه الأسى والحزن:

— أجل! هذه القهوة! منذ أربعة أعوام، وفي هذا المكان حدثت المأساة ... إني من حقه أن يزوره مثله يذكر الماضي ... هنا، وحول هذه المنضدة كنا نجلس، كان إذ ذاك قد نال شهرة واسعة كجراح ماهر، ولم يكن في مصر كلها من لا يعرف الدكتور سعيد عبد الواحد بعد أن قام بمخاطرته الجريئة، ووقف وحيداً لوجه أمام ستة من أعظم أطباء مصر معارضاً لهم ومصراً على إجراء عملية جراحية لكريمة الثري الكبير إسماعيل باشا توفيق، بينما كانوا يصرون على أن هذه العملية مخاطرة فاشلة. ولكنه مع ذلك استطاع أن يقوم بها بعد أن وضع شرفه ومستقبله كطبيب ضماناً، وقد ساعده على تنفيذ رأيه صديقه ابن إسماعيل باشا نفسه، إذ كان يثق به كل الثقة، فأمكنه أن يقنع والده بالأخذ برأي الدكتور سعيد.

أجل. كانت مخاطرة حقاً، ولكنها نجحت، فقد شفيت الفتاة، وأصبح اسم الدكتور سعيد على كل لسان! وقفز في عام واحد إلى الشهرة، وتوالت عليه بعد ذلك مظاهر التقدير، فمنح الدرجات العلمية في مصر ومن الخارج، وكانت الظاهرة التي تميز ما ناله من الشهرة إجماع الناس على تغلب الناحية الانسانية عليه في حياته العملية. وفي الحق كان سعيد — كما عرفناه جميعا — زاهداً في كل نفع مادي، فلم نعرف يوما السبيل إلى إقناعه بالادخار. ولطالما كنت أتحدث إليه في شتى الشئون، فكانت تروعني منه دائما عبارات الزراية بالمادة ومن يجعلونها أساسا لمساعيهم، ولطالما كان يبدي اشمئزازه من هؤلاء الذين يحرصون على مصاهرة ذوي النفوذ أو الأثرياء طمعا في مكانتهم أو ثروتهم، وكان يضرب المثل بنفسه، فينتهي إلى أن أمنيته الوحيدة أن يوفق إلى فتاة من أسرة متواضعة يستطيع أن يرتفع ويرفعها معه بمجهوده هو. ولطالما ضحك منا حين كنا نعرض عليه مصاهرة أسرة كبيرة، قائلا ببساطة:

— انتم عاوزين تجوزوني البنت، والا الخمسماية فدان بتاعة أبوها؟!

فذلك كان عجبا، بل لا أكتم إذا قلت إننا لم نصدق أول الأمر من نقل إلينا نبأ زواجه من ابنة السيد بك عمران، ذلك الرجل الذي يعرفه الجميع بثرائه، وبثرائه فقط، فقد قفز إلى الثروة في خطى يشك فيها الكثيرون، ولم نكن نسمع أو نعلم بأي صلة بين الدكتور سعيد وبينه.

كانت مفاجأة لنا أن نسمع نبأ ذلك الزواج، ولقد احتجب سعيد عنا فترة من الزمن لم يعد إلى مجلسنا إلا بعد زواجه بأكثر من شهرين، وحين عاد لم يكن كما نعرفه. لقد انقلب في هذه الفترة الوجيزة من ذلك الشاب المرح الباسم القوي الثقة بنفسه وبالحياة إلى مخلوق آخر تراكمت فوق رأسه أحمال الهموم، فانخفض ذلك الرأس قليلا، وبدا كأنما قد ثقل على كتفيه، وحل على الجبين المشرق الطلق، جبين مقلق ينم على اليأس والحزن، وأصبح وجهه ستاراً شفافاً ينم عن قصة ألم هائل يوشك أن يرتفع عنها ذلك الستار.

لم نجرؤ في أول الأمر أن نسأله عن شيء، كنا نلحظ هذا الهم البادي على وجهه، وكانت ابتساماته التي يحاول أن يخفي بها ما يبدو عليه أكثر دلالة على هذا الحزن من تجهمه، كانت ابتساماته ابتسامة مقتضبة تثير الرثاء، سريعة كأنها كانت لا تطيق نفسه ما تحمل من خديعة، فتقتضبها ليعود وجهه إلى حاله من الكآبة، ولنعود نحن إلى حيرتنا في أمره، وإلى ذلك القلق الذي نحسه محاولين أن نفهم شيئا مما ينغص حياته.

على أن حيرتنا لم تطل كثيراً، فقد بدأ سعيد يضيق بما يحمل من هم، وأخذت تفلت من بين شفتيه عبارات السخط على الزواج والحياة الزوجية.

كان أول الأمر يتحدث عن الزواج حديثا عاما، وكنا نتحاشى أن نثيره، برغم اعتقادنا أنه إنما يشير إلى زواجه، وأن كلمات التبرم والسخط، وانتقاص الزواج، لم تكن رأيا عاما بقدر ما كانت أصداء لنفسه ولأحاسيسه.

وجاء مساء طالت جلستنا فيه إلى منتصف الليل، وأخذت طريقي معه بعد السهرة على أن يوصلني إلى منزلي بسيارته، ولكننا لم نكد نمضي في الطريق حتى اقترح أن نقوم بجولة على شاطئ النيل عند الجزيرة، وهناك جلسنا نرقب التقاء السماء بصفحة الماء عند الأفق، وفي هذا المكان قص على قصة زواجه ...

أدركت في هذا المساء لم تزوج صديقي ابنة عمران بك. لقد كان زواجا غير موفق أملته ظروف قاسية كان لا بد أن يخضع لها ... ...

كان أبوه مدينا لعمران بك بمبلغ ضخم، وكان قد طال الأمد بهذا الدين، فتراكمت أرباحه حتى زادت عن ضعفه، وأصبح أبو سعيد مهدداً بالافلاس، وألحت أي مطالبة من عمران بك تكشف موقفه وتؤدي به إلى الخراب، إذ كانت أحواله التجارية مرتبكة إلى حد بعيد ... ...

وفي الوقت الذي كان شبح الخراب يحلق فوق الأب باسطاً جناحيه كان الابن يقفز نحو الشهرة بخطى جبارة، ويتخذ اسمه مكانه بين أطباء مصر الممتازين رغم حداثته، وكان إلى ذلك وسيم الطلعة موفور الصحة. ولعلك تدرك أي حلم جميل يكونه مثل هذا الشاب في خيال الفتيات.

لذلك لم تتخذ المساومة وقتاً طويلا. وكان زواج الدكتور سعيد عبد الواحد بابنة عمران بك صفقة رابحة لا تقل شأناً عن أعظم صفقة عقدها ذلك الثري في حياته المطوقة بالشكوك. ولم تذهب ديون عمران بك عبثاً، فقد كان مصير ثروة مدينه إلى ابنته وزوجها.

كانت الصفقة رابحة حقا! لقد اقترن اسم ذلك الثري باسم نظيف لأول مرة في حياته. وقد يهمك أن تعرف أن والد

الدكتور سعيد استفاد قليلا من هذا الزواج ، فقد استطاع أن يسترد مكانته المالية ويشرع في سداد ديونه .

إنما كانت الضحية الوحيدة التي قدمت قربانا على مذبح التاجرين الكبيرين هي سعادة سعيد وهناؤه ، لم يكن هذا الزواج موفقا بالمرة ، ولم يكد يمضي الشهر الأول حتى بدأت مظاهر الاختلاف في الميول والأخلاق تبدو بشكل واضح ، وزاد الأمر سوءاً ما كانت تعتقده الزوجة من حرج حالة والد سعيد ، وإيمانها بأن أباها هو الذي أنقذ هذا الوالد من الدمار . ومن حقها ، ومن الوفاء لهذا الجميل ، أن يصبح سعيد لها أكثر من زوج ، أن يصبح دمية لتعبثها فقط .

كان أول ما اختلف عليه الزوجان هو العمل . فالدكتور سعيد كشاب يبني مستقبله في حاجة إلى كل دقيقة من وقته يصرفها في هذا البناء ، ولا بد له أن يضع وقته — حتى لحظات راحته — في خدمة مهنته وواجبه أيا كانت ظروفه .

وكان ذلك لا يتفق وزوجة ثرية لا تنظر إلى شيء إلا بمنظار الثراء .

كان في دنيا خلق ذلك الوالد الذي أثرى بغير حساب ، وفي مفاجآت تثير الريبة . ولعل أصدق وصف لها أنها كانت محدثة نعمة لم يجد سعيد لديها ما يطلب وما يطلبه شاب يعمل في جد ونشاط . كان في حاجة إلى ذلك الركن الهادئ ، إلى عش الزوجية كما يتخيله شاب ، ولكنه لم يجد هذا الزوجية ، ووجد جحيما ينتظره بعد أن بدا في الأفق شبح الخلاف . أوقدت يدها ذلك الجحيم ، وكان عليه وحده أن يحتمل لظاه ، أما هي . لقد كانت بعيداً عنه . هناك في حياتها الثانية التي تحياها في رحاب مالها الواسع وجاهها العريض . لو غير سعيد لوضع حداً لهذه الحياة بالطلاق . ولكن كيف ؟ ووالده ؟ أجل ! ماذا يفعل والده لو حدث الطلاق ؟

لقد قبل التضحية من أول الأمر ، وعليه أن يحتمل إلى النهاية . أمر آخر كان يرغمه على البقاء في هذا الجحيم . إن الطلاق في نظره لم يكن حلا ، كان يحس أنه طعنة في مستقبله قد تميته ، فلن يفهم الناس أبداً أنه طلق زوجته إلا لأسباب غير الواقع ، هكذا شأنهم دائماً في تعليل كل شيء . ومن يدري أن يكون أحد هذه التعليلات أنه أدار صفقة قذرة لينقذ والده .

كان جوابه كلما حدثني عن شقائه في تلك الزيجة ، وكلما أشفقت عليه فالتمست له مخرجاً في الطلاق ، أن يرفض ما أقترح بشدة ، فإذا ما خيم علينا سكون اليأس سويا تمتم في لهجة حالمة :

— أمر من اثنين . لا بد أن يموت أحدنا ليسعد الآخر . أنا . أو هي . ذلك هو الحل الوحيد ...

ومرت بعد ذلك شهور استحال سعيد خلالها إلى كتلة من أعصاب مشتعلة مهتاجة دائماً أن تلطف من حدة اشتعالها . استحال يأسه إلى كره شديد لزوجه ، وتحسم ذلك الظلام الذي يخاله به المستقبل مع هذه الزوجة إلى حاجب كثيف تبلور حتى أمسى لا يرى غيره . كان هو الحقد على هذه الزوجة إلى أحد حدود الحقد . فكان يودعنا وهو يؤوب إلى منزله كما يودع المحكوم عليه أصدقاءه في طريقه إلى السجن .

ولم يجد عليه على مر الأيام شيء غير تلك الصورة القاتمة لأمله الوحيد في الخلاص . أصبح لا يرى سبيلا لخلاصه غير وفاتها ، ولا يجد غضاضة في أن يتمنى لها هذا المصير ، ولطالما كان يردد وهو يلمح السيارات تعبر الشارع جيئة وذهاباً :

— هذه السيارات ، إنها تدهم كل يوم عشرات السائرين ؟ ما لها تعمى عنها ؟ إنها تخرج كل يوم ! كل مساء في سبيلها ؟

وكأنما يستشعر اليأس من هذا الأمل البعيد ، فينتقل إلى آمال أقل تواضعا وهو يردد :

— وهذه الأمراض التي تسخر من الطب والقهر ، ألا تعرف طريقها إليها ؟ إنها تتخطف آلاف الناس فتقتل آمالا ! ما لها لا تحيي أملا واحدا ؟!

كنا نرتجف أحيانا ونحن نسمع تلك الآمال البشعة تخرج من بين شفتي سعيد ، ذلك الشاب المرهف الاحساس الطيب القلب ، ولم يخالجنا الشك يوما أنها أصداء نفس ثائرة لا تعدو أن تنفجر ، ولا يلبث أن يحتله الألم أو اليأس فيركن إلى الاستسلام ، وتتخذ حياته صورة الآلاف من الأشقياء يحياهم في كل مكان .

وذات مساء جلسنا إلى مكاننا بالمقهى وبيننا سعيد ، وأخذنا ندير الحديث حول كل ما يعن لنا من خواطر . وأوشك سعيد أن يؤوب إلينا من خواطره السوداء ، حين حانت منه التفاتة إلى عرض الطريق ، وبدا لنا كأنما لمح شيئاً أثار اهتمامه ، فأدرنا أبصارنا حيث ينظر ، ولم نكن قد تبينا شيئا بعد حين انطلقت منه صيحة مدوية ارتعدنا لها ، وقال في جنون :

— هي ! هي ! يا ساتر يا رب . حاسب !

ولم يتم كلامه ، أو لعله أتمه ، ولكنه ضاع في حنايا صرخة مفزعة هائلة ، أعقبها اصطدام ، واختلطت الأصوات ... ...

حدث ذلك كله في سرعة البرق ، فهرعنا مأخوذين لنرى ما الخبر ، فوجدنا جسما آدميا ممدوداً على وجهه فوق الأرض وقد جحظت عيناه ... كان جسم امرأة ، وكان تفصيل الحادث واضحا من سيل الدم الغزير المتجمع حول الرأس في هالة حمراء رهيبة ...

لقد كانت هي حقا ! كانت زوجته التي رآها مندفعة تجتاز الطريق ... ...

كل ما رواه التحقيق أن الحادث كان قضاء وقدراً ، فقد عبرت الشارع في اندفاع ، في حين كانت إحدى السيارات تجتازه خلال الظلام وإسراع السيارة دون تلافي الصدمة الرهيبة التي أودت بحياتها ... ...

ظل ذلك التساؤل هو التفسير لهذه الفاجعة ، وكنا ونحن نواسي سعيداً في مصابه نحس على مر الأيام إحجامه عن هذا الحديث وإعراضه ، ولقد كنا نوشك أن ننسى مع الأيام مصابه ، لولا أن هذا الاحجام تحول أخيراً إلى صمت عجيب ... إلى ذهول

لا يدع مجالا للشك في انصراف عقله إلى التفكير في أمر يعنيه ويقلق باله ....

ولقد كان يخالجنا الشك أحياناً في أن يكون سعيد قد استراح لهذه النهاية ، ورضى عن هذا المصير لزوجته حباً لنفسه ، ولكن هذا الذهول ما أمره ؟ إنه ليس مظهراً من مظاهر الرضى ، ولا مظهراً من مظاهر الحزن ، إنه لم يكن يحبها للدرجة التي يذهله الحزن لفقده إياها ، ولا هو بالإنسان الميت الشعور ليرضى عن هذه الميتة لها ، وإن كان قد تمناها يوما لفرط يأسه ...

تحتمت أول الأمر أن أسأل سعيداً سر هذا الذهول ، حتى كان يوم ذهبت فيه إلى المقهى مبكراً ، فوجدته جالسا وحده ينظر إلى الشارع بنفس الوجوم الذي اعتدناه منه ... ...

وحانت الفرصة فسألته : إلى متى سيظل على هذه الحال ؟ وكأنما كان يترقب هذا السؤال ، فقد أجاب مسرعا :

— إلى الأبد طبعا ... إلى أن أموت كما قتلتها ... ...

وسألته مدهوشا :

— قتلتها ؟ ولكن ما ذنبك أنت ؟ ألم تذهب ضحية حادث لا دخل لك فيه ؟

ونظر إلى في شك وارتياب ، ثم قال :

— لا دخل لي ؟ أنت تعرف جيداً أني أنا القاتل ، بل كلكم تعرفون ذلك ، كما أعرف أنا

وقلت في انزعاج :

— أنت ؟ لقد كنت جالسا معنا ... ما الذي أصاب عقلك .

— عقلي ؟ إنه هنا في مكانه . لا يمكن أن تبرحه هذه الحقيقة . أنا الذي دفعتها إلى هذا المصير . لقد كانت تسير في طريقها ولم تحاول اختراق الشارع إلا تحت تأثير نظراتي الملتهبة حقدا وكراهية ... يا له من انتقام دنيء ... يا لي من نذل ! !

لقد ضاعت كلماته التي أرسلها بعد ذلك سخطا على نفســه في موجة متدافعة من النشيج ... كانت عبراته تتساقط خلالها في غزارة وحرارة ....

وشعرت بحرج الموقف ، ولمحت الأنظار ترقبنا مستفسرة عن ذلك البكاء ، ولم يكن أحد من أصدقائنا قد أقبل بعد ، فأخذت بذراع سعيد وسألته أن يرافقني .

وفي هذا المساء حاولت ما أمكنني أن أسرى عنه ، وأخفف ما ينوء به من عبء الألم . كانت قد تجسدت في رأسه عقيدة لا تتزعزع في أنه قتل زوجته ، قتلها على الصورة التي اختارها . لقد رسم لها هذا المصير في خياله وجذبها إليه بقوة إيحاء لا يمكن مقاومتها ...

حاولت ما أمكنني أن أسفه له هذا الرأي ، وخيل إلى أخيراً أنه أوشك على الاقتناع ، وأنه بسبيل نسيان هذا الخاطر الذي ينوء به ضميره . ولقد أوصلته إلى منزله ، وشعرت بشيء من الراحة وأنا أصعد درجات السلم في منزلي ، إذ أمكنني أن أجعله يقضي ليلة بعيداً عن هواجسه وخواطره السوداء .

ولكنني استيقظت في صباح اليوم التالي على جرس التليفون يدق في منزلي ، وإذا بأحد أصدقائي ينعى على نبأ محاولة الدكتور سعيد الانتحار ، وأنه ترك لأسرته رسالة يذكر فيها أنه لا يستطيع الحياة ، وشبح الجريمة يطارده في كل مكان ، فهو وحده المسئول عن قتل زوجته وهو الذي ظل يطاردها بخواطره وقوة إيحائه حتى خضعت لسلطان فكره الملح الحاقد ، واستجابت لحواسه فعبرت الشارع وتسمرت أقدامها في منتصف الطريق ، حين التفت عيناها وأملى عليها ما يريد بقاءات تلك الميتة الشنيعة .

* * *

... ... وسكت صديقي زكي لحظة كأنما يستعيد صورة ذلك الماضي ، ولكنني لم أمهله ، بل سألته في لهفة :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

وأجابني في مرارة :

— حدث ما تراه الآن ... لقد أنقذ الطب سعيداً ، ورد له بعض الدين لقتلت محاولته الانتحار ولم يمت ... لكنه عاش ، كما رأيته الآن ....

صلاح الدين ذهني

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــــدد ١ قرش صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٣ — الثلاثاء ٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٦١ — ٢١ من أبريل سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العــــــــدد

نحو الوحدة العربية :

مركز مصر من البلاد العربية

الدكتور يوسف هيكل

إن الناظر إلى خريطة الوطن العربي يرى أن البلاد العربية تمتد من بلاد فارس شرقاً حتى بحر الظلمات (أي المحيط الأطلنطي) غرباً ، ويرى أن مصر واقعة في وسط هذا الوطن ؛ فمركز مصر الجغرافي يجعل منها قلب البلاد العربية .

وإن المتتبع للحركة العلمية الأدبية في الشرق العربي يرى أن هذه الحركة قد ابتدأت في القرن التاسع عشر في بر الشام وفي مصر . غير أن شعلتها في بر الشام خبت ، ونورها في مصر سطع لأسباب ، منها انتقال جماعة من رجال العلم والأدب من سوريا ولبنان إلى وادي النيل ، ساهموا في نشاط الحركة الأدبية وزادوا في ثروة البلاد العلمية . وإننا نرى حتى اليوم كبرى الجرائد والمجلات الشهرية لمفكرين مصريين شاميين .

وانتقال الأدباء والعلماء من البلاد العربية إلى مصر أمر لا غرابة فيه . فمصر قلب البلاد العربية ، وفيها من السكان ثمانية عشر مليوناً ، في حين أنه لم يبلغ سكان أي قطر آخر من الأقطار العربية نصف هذا العدد . وما يطبع وينشر في مصر يقرؤه عرب الأقطار الأخرى ، في حين أن ما يطبع وينشر في أي قطر آخر ، يكون توزيعه محلياً ، ولا يقرؤه ولا يطلع عليه إلا القليل من قراء بعض الأقطار العربية . ولذا نجد ما يطبع في مصر من جرائد كبرى ومجلات مختلفة منتشرا في البلاد العربية .

فالعربي يقرأ الجريدة المصرية بالإضافة إلى جريدته المحلية ، ويجد أيضاً ما يطبع في مصر من كتب علمية وأدبية يدرس في مدارس الأقطار الأخرى ويقرؤه المثقفون فيها . فهذه الحالة وهذه العوامل قد شجعت رواج الحركة الأدبية والعلمية في مصر ، وأدت إلى إضعافها في بقية الأقطار العربية ، وجعلت من مصر المركز الثقافي الرئيسي لجميع البلاد العربية . فمركز مصر في الشرق العربي كمركز القاهرة في مصر . وعليه يتوق من يميل إلى البحث والتأليف إلى العيش في بلاد وادي النيل .

* * *

إن مركز مصر الجغرافي ، ومركزها الثقافي ، يجعلان منها قوة عظيمة في توجيه مستقبل البلاد العربية ! فماذا تراها تشعر تجاه فكرة الوحدة العربية ؟ وماذا يرى قادتها في هذا الموضوع الخطير ؟

لقد تحدثت مع عدد كبير من أصحاب الرأي وكبار المفكرين في مصر في موضوع الوحدة العربية ، فكنت أخرج من الحديث وإيام على تفاهم واتفاق . فالكل يرى أن بقاء البلاد العربية على وضعها الحالي ، متفرقة ، لا رابط رسمياً يربط بينها ، مضر بها وبمستقبلها ، والخير كل الخير في تفاهمها واتحادها . على أن الآراء مختلفة في كيفية الاتحاد ونوعه . وإني أذكر تلك السهرات الشائقة المفيدة التي قضيتها خلال شهر رمضان في دار لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وأذكر كم كان يلذ المجتمعين فيها التحدث عن البلاد العربية ومستقبلها وما ينبغي على قادتها فعله . . وقد عرض الأستاذ الجليل أحمد أمين بك ما دار في إحدى هذه السهرات من حديث في مقال نشره في مجلة الثقافة الغراء بعنوان « حديث الخميس » . .

على أننا لا ننكر أن فريقاً من رجال مصر رأوا ، بعيد الحرب العامة ، الابتعاد عن البلاد العربية ، وصرح آخرون بأن لا علاقة لمصر بالشرق العربي ، وأن روابطها مع الغرب واتجاهها نحوه . ولهذا الرأي ، ولهذه التصريحات دواع وأسباب . .

غير خاف أن المصريين بصورة عامة ، لا سيما بعد الحرب ، كانوا لا يعرفون عن الأقطار العربية إلا أنها بلاد متأخرة ، لا رقي فيها ولا مدنية ، وأن أهلها على جانب من الجهل عظيم . وقد حدث أن أحد السياسيين المصريين الذين يعتقدون هذا الاعتقاد زار فلسطين وسوريا ، فدهش عندما رأى القدس وحيفا ودمشق وبيروت . دهش عندما رأى مدناً لا مثيل لها في مصر ، إذا استثنينا القاهرة والاسكندرية ، وزاد دهشة عندما زار المدن الصغيرة والأرياف ، ووجد أنها تفوق مثيلاتها في مصر بناء وجمالا ونظافة . وقد استغرب هذا السياسي الكبير عندما علم أن حملة أرقى الشهادات الأوربية عديدون في البلاد ، وأن الأمية فيها أقل مما هي في مصر بكثير . وقد أخذ رأيه يتغير عندما اجتمع بعدد من مفكري البلاد وكتابها وقادة الرأي فيها ، ووقف على ما لهم من آثار علمية وأدبية لم يكن قد سمع بها من قبل ، فاعتذر مصرحا بأنه رأى في بر الشام قطراً عربياً زاهراً ، لا يعلم المصريون حقيقته .

فعدم معرفة بعض قادة مصر السياسيين بالبلاد العربية وقضاياها الوطنية ، إبان الحركة الوطنية في مصر ، قد أخافهم من الالتفات نحو الشرق العربي والتفاهم معه ، وحملهم على التهرب منه . وأذكر أني قضيت سهرة سارة في بيت نائب مصري نابه ، دار فيها الحديث حول الموضوع الذي نعالجه فقال مضيفنا : « إن أصل الرأي في أن مصر ليست قطراً من الأقطار العربية يرجع إلى الأنانية ، وهو أنه حدث لما كان المرحوم سعد زغلول في أوربا ، على أثر الحرب القائمة ، أن كانت هناك وفود من البلدان العربية الأخرى ، وقد أرادت هذه الوفود توحيد جهودها مع

سعد ، ولكن سعداً لم يكن واقفاً على حالة الأقطار المجاورة ، وعلى الحركات الوطنية فيها ، ولذلك رأى أنه خير لمصر أن لا تدمج قضيتها مع هذه القضايا المجهولة . فقال الوفود : إن قضيتنا مصرية وليست عربية . ومن هنا نشأ الرأى الخاطىء القائل إنه خير لمصر أن لا تتجه نحو البلاد العربية ، وأن تكون منفصلة عنها » .

وقد قام فى مصر بعد ذلك بعض الكتاب ممن درسوا فى الغرب ولم يقفوا على أحوال الشرق العربى ، ورأوا أن الحاجة تدعو مصر إلى الاتجاه نحو الغرب ، وجعلوا يوضحون ذلك بقولهم : إن مصر أرقى من البلاد العربية ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، فهى ليست فى حاجة إليها ، وعليه ينبغى أن لا تهتم بها ولا تفكر فى قضاياها ، فى حين أنها فى حاجة إلى الغرب ، ولذا يجب عليها أن تتوجه نحوه وتتبع آثاره وأحواله .

ومهما يكن من أمر فإن حسن النية كان ولا يزال يسود تصريحات وآراء هؤلاء السياسيين والكتاب . غير أنه ظهر عدد قليل من الكتاب الذين لم يكتفوا بالدعوة إلى اعتبار مصر أجنبية من البلاد العربية ، وحسبان المصريين بعيدين عن الشعب العربى فى كل شىء ، بل تجاوزوا ذلك فنادوا بترك اللغة العربية ، وقالوا بإحياء الفرعونية ، بدعوى أن المصريين فراعنة قبل كل شىء وبعد كل شىء ، وألبسوا حركتهم هذه ثوب الوطنية المصرية لإخفاء ما يضمرون . وقد حدث أن تجادل أحد المستنكرين لهذه الحركة مع قطب من أقطابها ، فلما تضايق داعية الفرعونية ، ولم يجد حججا حقة يدعم بها رأيه ويفحم مجادله ، قال بصراحة : نريد أن نتخلص من القرآن ...

* * *

إن الوحدة العربية لا تحول أبدا دون أن تتولى مصر أو أى قطر من الأقطار العربية حل مشاكله الخاصة منفرداً ، ولا تبيح له التدخل فى المشاكل الخاصة بالأقطار الأخرى . بل إن من شأن تفاهم البلاد العربية مهما كان شكله واسمه ، وحدة أو اتحاداً أو حلفا ، أن يكون عونا كبيرا على حل هذه المشاكل . ولو لم يكن هناك تفرقة بين البلاد العربية ما تعددت مشاكلها ، ولا تعقدت بالشكل الذى هى عليه الآن .

وتفاهم البلاد العربية وسيرها المشترك نحو العلى ، لا يفقر مصر ولا يؤخرها ، ولا يمنعها قط من الاتجاه نحو الغرب والاستقاء من مناهل العلم والعرفان فيه . والغرب ، من هذه الناحية ، وجهة الشرق أجمع . على أنه لا يجدر بنا أن نجهل ما فى الشرق من قوى ، وما فى تفاهم البلاد العربية من عز ومناعة لمصر ولشقيقاتها .

أما أن المصريين شعب غير عربى ، وأنهم فراعنة أبناء فراعنة ، فمسألة لا يقول بها إلا القليل ، وهؤلاء يرمون إلى أغراض لا ضرورة لعرضها ، على أن ذلك لا يمنع من البحث فى موضوع الشعب الذى ينتمى إليه أهل وادى النيل .

أيصح أن نحدد الشعوب عملا بنظرية الدم ، فنقول إن الدم الذى يجرى فى عروق أهل وادى النيل دم فرعونى ، ولذا فالمصريون فراعنة ؟ إذا تتبعنا تاريخ قطر من الأقطار نرى أن عناصر مختلفة تعاقبت على سكناه ، وأن كل عنصر كان يختلط بالسكان الذين يجدهم فيه . فالشعوب الحالية ما هى فى الحقيقة إلا مزيج من عناصر مختلفة . فالشعب الانكليزى مزيج ، والشعب الفرنسى مزيج ، والشعب الأسبانى مزيج ، والشعب الايطالى مزيج ، وشعوب أوربا الوسطى والشرقية كذلك مزيج فى مزيج . أما مصر فقد ابتدأ تاريخها بتاريخ الفراعنة ، على أنه دخلها أقوام من الجزيرة العربية عرفوا بالرعاة أو الهكسوس . وامتزجوا بأهلها ، وأسسوا فيها دولة باسم الفراعنة أيضا . ثم دخلها اليونان ، فالرومان ، فالعرب . وكل عنصر من هذه العناصر كان يمتزج بمن سبقه من السكان . فدم المصريين الحاليين كدم غيرهم من الشعوب مزيج . فإلى أى عنصر

من هذه العناصر ينتمى سكان وادى النيل ؟ فى اعتقادنا أن كل مجموعة من الناس تنتمى إلى العنصر الذى أثر فيها أكثر من غيره من العناصر . وميزان التأثير هو اللغة العربية وآدابها ، وبالتالى الاعتقاد الدينى . فلغة أهل وادى النيل وآدابها اللغة العربيــة وآدابها ، ودين مصر هو الدين العربى ، الدين الاسلامى . فهل يجوز لنا أن نتجاهل هذا كله ، فنقول إن المصريين فراعنة ؟ أوليس قولنا هذا كقولنا إن الأسبانيين عرب ؟

إن الحقائق تثبت لنا أن أهل وادى النيــل شعب عربى ، والقول بخلاف ذلك فرار من الحقيقة الواقعة التى لا يمكن تغييرها ، كما أنه لا يمكن تغيير مجرى النيل ، وجعله يجرى من الشمال إلى الجنوب بدلا من جريه من الجنوب إلى الشمال . والظاهر تضلل بعض الناس ، كما أن نهر النيل يضلل الناظر إليه الجــاهل بحقيقته ، فيظنه يجرى من الشمال إلى الجنوب ، لهبوب الريح من الشمال وإحداثها تموجات فى سطحه متجهة نحو الجنوب ، على أن هذه التموجات لا تغير من حقيقة اتجاه مجرى النيل . والحقيقة كالظل لا يهرب منــه إلى بطريق واحد هو العيش فى الظلام .

على أن هذه الحقائق لا تحول بين المصريين والافتخار بالأهرام وأبى الهول وبما فى المتحف المصرى من آثار تدل على مدنية قديمة زاهرة . غير أن هذا الافتخار يجب ألا يزيد على اعتزازهم بما فى القاهرة من آثار عربية إسلامية ، وبما فى دار الكتب من آثار أدبية وعلمية ، تدل على المدنية العربية الزاهرة التى أنارت الطريق خلال القرون الوسطى ، ومهدتها للمدنيــة الحديثة . وجدير بأهل وادى النيــل ألا ينسوا ميزاتهم ولغتهم ودينهم . فالافتخار بالآثار الفرعونية جميل ، على أن يكون كافتخار الفرنسيين بما فى مدينة (نيم) من آثار رومانية هامة ، غير أنها لم تنس الفرنسيين لغتهم وآدابهم وما هم عليه من صفات تميزهم عن الرومان .

والدعوة إلى الوحدة العربية لا تلزم المصرى أن يتجرد عن شعوره الخــاص بمصريته ، بل تطالب منه ألا ينسى شعوره العام بعروبته ، وأن يكون مثله كمثل الاسكتلندى البريطانى الذى يفتخر باسكتلنديته ، على أن هذا الافتخار لا ينسيه أنه بريطانى ، أو كمثل فرنسى الجنوب الذى يفتخر بأنه من بلاد (لانغدوق) ، ولكن هذا الافتخار لا ينسيه أنه فرنسى . فالاسكتلندى والفرنسى من الجنوب يعمل كل منهما لاقليمه ، على أنه يعمل فى الوقت نفسه لبلاده . فالمصرية والشامية والعراقية الخ لا تتضارب مع العروبة ، والعمل لمصر أو للشام أو للعراق ، الوطن الخاص ، يجب ألا يحول دون العمل لبلاد العربيــة الأخرى ، الوطن العام ، إذ أن فى ذلك فوائد حيوية لكل البلاد العربية ، تلك الفوائد التى نتناول بحثها فى المقال المقبل .

(القدس) يوسف هيكل

بين قاسم أمـــين

ودوق داركـور

[توفى المرحوم قاسم أمين فى الخامس والعشرين من شهر إبريل سنة ١٩٠٨ ، ونحن نورد فى ذكراه الرابعة والثلاثين حديثاً عن المناقشة بينه وبين الدوق داركور ، لأن فى ذلك إحياء لآرائه ، ودراسة لمبادئه ، واحتفاء بذكراه كمصلح وطنى] .

حدثت فى أخريات القرن التاسع عشر مناقشة كتابية بين المرحوم قاسم أمين وبين أحد الأعيان الفرنسيين الذين زاروا مصر . وقد كان « الدوق داركور » Le Duc d'Harcourt من بين الفرنسيين الذين اعتادوا أن يزوروا مصر فى الشتاء ليتقلبوا بين أنحائها . زارها ثلاث مرات كما يزورها غيره من السائحين العابرين ، فكتب كتاباً[1] فى سنة ١٨٩٣ يجمل فيه كل آرائه عن مصر والمصريين . فكانت كتابته سلسلة من المطاعن القاسية ، لأنها تناولت الجماعة المصرية فى صميمها ، ولأنها كانت صادرة عن تجربة قصيرة ، ولأنها بعد ذلك لم يكن باعثها الإخلاص ولا المروءة ولا حسن النية .

وما لبث قاسم أمين أن كتب كتاباً آخر[2] يرد به على هذه المطاعن . ألفه بالفرنسية فى الشهور الأخيرة من سنة ١٨٩٣ ، وأخرجه للناس فى سنة ١٨٩٤ . وحاول قاسم أمين فى كتابه هذا أن يرد على كل تجريح أتى به الدوق داركور . فالكتابان معاً دراسة قوية لفترة من تاريخ حياتنا العامة ، لأن الدوق الفرنسى حاول بكل ما أوتى من قوة وجلد أن يصف مصر ، وأن ينقد نظم الحكم والأخلاق والعادات التى كانت عليها الجماعة المسلمة ،

كما أن المستشار المصرى قد حاول أن يجلو هذا المجتمع فى صورته التى رآها . الدوق الفرنسى كان متشبعاً بجملة من الآراء التى استقامت للمفكرين الغربيين فى القرن التاسع عشر ، فحاول أن يطبقها على المصريين . والمستشار المصرى كان مؤمناً برقى العنصر المصرى وسمو الدين الإسلامى فى أصوله الأولى ، فحاول أن يدافع عن أهل وطنه ودينه ، وأن يرد على المثالب التى اختلقها الدوق الفرنسى فى أحيان ، وصورها بحق فى أحيان أخرى .

نقول إن الدوق داركور لم يكتب كتابه عن مصر والمصريين بدافع من الاخلاص ولا المروءة ولا حسن النية ، لأن نقده كان قاسياً ، بحيث لم يقف مرة واحدة ليعطف على المصريين ، ولم يقل كلمة واحدة تبعث على حسن الظن بنياته . قام كثير من المصلحين فى أخريات القرن التاسع عشر ينقدون النظم القائمة يومذاك فى مصر . وكانت محاورات جمال الدين الأفغانى ، وكتابات الأستاذ الامام آيات من السخط ؛ لكن آراءهما كانت سائغة ، لأنهما لم يصدرا فيما كتباه أو نشراه عن ازدراء للعنصر المصرى ، ولا عن احتقار للحضارة الاسلامية ، بل على العكس من ذلك ، لقد كانا من الساخطين لأنهما حاولا أن يدفعا بالمصريين والشرقيين فى سبيل التقدم . ولكن الذى ميز كتاب الدوق داركور هو هذه اللفحة من التعصب الأعمى التى امتاز بها كتاب الغرب فى ذلك العهد ؛ فهو لم يكتب كتابه طمعاً فى الاصلاح ولا دعوة إلى التقدم ، وإنما كتبه ليبصر قومه أنه كان فى مصر مجال للسلب والنهب ، وأنهم أخطأوا السبيل حينما تركوا الأمر جميعاً بين يدى إنجلترة .

ويجب أن نبحث أمر السياسة الفرنسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، حتى نوضح موقف رجل أرستقراطى مثل الدوق داركور نحو بلد مثل مصر .

---

(١) L'Egypte et les Egyptiens تأليف الدوق داركور

(٢) Les Egyptiens – Réponse à M. Le Duc d'Harcourt

فقد ظهرت الفكرة الأمبراطورية واضحة فى السياسة الفرنسية فى تلك الفترة . وكانت أفريقيا مطمحاً ترنو إليه أنظار الدول الكبرى . وكان الفرنسيون يؤمنون أن مصر نفسها مجال لهم منذ أن استمالت بهم أيام محمد على ، ومنذ أن انتشرت الثقافة الفرنسية أيام سعيد ، ومنذ أن افتتحت قناة السويس أيام إسماعيل . وكان المؤمنون بهذا المذهب الامبراطورى يحاولون دائما أن ينتقصوا من حضارة الشعوب الذين يغيرون عليها ، وكذلك قامت بين الفرنسيين فئة من الكتاب تحاول أن تصور الاسلام فى صورة الدين الخرافى العتيق ، والمسلمين فى صورة الضعاف العجزة . ومن هؤلاء هانوتو الذى لم يعتد المسلمين إلا دراويش كسالى ، يتكئون على الأرائك . ومن هؤلاء الدوق داركور الذى كتب كتابه ، فأتى بصورة يتجلى فيها السخط والبغض والحقد والهانة فى وقت معا .

فى سنة ١٨٩٠ وما يليها كان بين الانجليز وبين الفرنسيين نزاع دبلوماسى حادّ حول مصر وغيرها من أقطار إفريقيا . وكانت فرنسا لم تعترف بعد بالاحتلال البريطانى ولا بنفوذ إنجلترة فى مناطق خط الاستواء ، حتى لقد همّت فى سنة ١٨٩٨ أن تبسط نفوذها هناك باحتلال فاشودة . كان الفرنسيون قد احتلوا السنغال وحاولوا أن يمدوا إمبراطوريتهم نحو الشرق ، وكان الانجليز قد احتلوا مصر والسودان وحاولوا أن يمدوا إمبراطوريتهم نحو الجنوب ، فكان لا بد للخطتين الانجليزية والفرنسية أن تصطدما . وفى مثل هذا الجو من التفكير فى الامبراطورية الفرنسية ومن الندم على ما فات فرنسا ومن الحقد على إنجلترة لاحتلال مصر ، كتب الدوق داركور كتابه ، فلم يستطع أن يتحلل من التفكير السياسى حينما تعرض للإسلام والمسلمين ، مثله فى ذلك مثل هانوتو حينما تحدث

من المسلمين . ودليل على هذه النزعة الامبراطورية فى كتاب الدوق داركور أنه كتب عن الجيش المصرى ناقداً فقال : إن السياسيين الفرنسيين كانوا مخدوعين فى قوته ، لأنهم كانوا يذكرون أنباء انتصاراته فى حروب المورة وفى نصيبين ، ولأنهم حسبوا أن قوته سنة ١٨٨٠ كانت لم تزل كما كانت فى أيام محمد على وإبراهيم . فهو ينقد السياسة الفرنسية التى اتبعت فى أزمة الاحتلال البريطانى ، وهو يرى أنه لو لم يخطئ الفرنسيون تقدير هذا الجيش المصرى ولو لم يصوروا قوته فوق حقيقتها لاستطاعت فرنسا أن تشارك إنجلترة مثل هذا النصر اليسير .

ذلك إذاً تفسير لما أسلفنا من أن مثل الدوق داركور لم يكن فى موقف يطوّع له أن يصل إلى الحق الخالص . وشيء آخر فى التفكير الفرنسى كان يحول دون وصوله إلى الحق الخالص فيما يتصل بالشعوب الضعيفة عامة : ذلك أن فريقا من الكتاب كان قد بدأ يؤمن بنظرية الجنس[1] التى ازدهرت فى أعقاب القرن التاسع عشر ، ولا زالت تزدهر إلى الآن فى التفكير الألمانى النازى . ولعله لم تنحدر فى تاريخ التفكير العلمى فكرة أشد مجافاة من الواقع ولا أبعد أثرا فى السياسة من فكرة العنصرية هذه . لقد كانت غامضة يرددها علماء القرن التاسع عشر الأولون حتى أتيح لها عالم فرنسى هو الكونت جوبينو[2] فى سنة ١٨٥٨ . فهو الذى فصلها ودافع عنها ودعا إلى الإيمان بها . وقد ذهب جوبينو إلى أن الجنس الأبيض قد تفرّد بكل الخلق العظيم وأن ما عداه من الأجناس الأخرى عالة عليه . الجنس الأبيض عنده قد اختص بالجمال والذكاء والقوة فى تاريخ الحضارات المتعاقبة . وكل حضارة من تلك الحضارات — حتى الصينية نفسها — تشتق

(١) Racialism

(٢) Le Comte de Gobineau

وجودها من الجنس الأبيض ، ولا تستطيع حضارة أن تقوم من غير أن تستعين بأفراده . والجماعة الانسانية نفسها لا يمكن أن تبلغ أى مدى من العظمة أو الازدهار حتى تحتفظ بالدم الذى ورثته عن سلفها الأول ما دام هذا السلف نفسه ينتمى إلى فصيلة من هذا الجنس العظيم .

وقد تأثر الكتاب الآخرون بما ذهب إليه جوبينو وغيره من العلميين ، حتى فرّقوا بين الجنس الآرى والجنس السامىّ ، وحتى لقد ذهب رينان إلى أن الأمم السامية « قصيرة الخيال جافة التصور ، تدرك الأشياء إدراكا أوليا ، ولا تتعمق فى بحثها ، ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها ، وتحكم على الأشياء لأول وهلة حكم المعتقد الجازم بصحة الشىء الذى أقنعته التجاريب والبراهين القاطعية . خيالاتها محدودة وإدراكاتها محدودة ، ونظاماتها الاجتماعية لا تعرف التطور . . . وليس فى نظام حكومتها ما يدل على سعة الادراك ، ولا على أثر التفكير ، وليس لها فى عالم الأدب والفن أثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الأخرى . . . بل ليس لها فلسفة . . . ولم تسترشد الأمم الأخرى بتراثها . . . ويظهر كل ذلك فى آداب هذه الأمم[1] » .

كانت فكرة تفوق الجنس الأبيض إذاً من نوافل العلم ، حين كتب اللوق دار كور كتابه . وكانت تطغى على تفكير الكتاب حين يعالجون مشاكل الشرق أو الاسلام . حتى رينان كما رأيت قد انحرف عن جادة التفكير السليم حينما كانت تبدو له أساطير الجنس الأبيض فى ثوبها الخيال . لذلك كان من المحال أن يفكر أرستقراطى مثل الدوق دار كور ، إلا كما يفكر غيره ممن آمنوا بتفوق الجنس الأبيض ، ولذلك كانت كل كلمة من كلماته تنقصاً من أهل الشرق ، وذمًّا فى المصريين وطعناً فى المسلمين .

وقد أتيح لنظرية الجنس هذه أن ترحل إلى ألمانيا ، وأن تجعل الجنس النوردى جماع الفضائل ، وأن تخلق فلسفة النازية نفسها ، وأن يعانى العالم منها ما يعانى من آلام الحرب ؛ ولكن دعاة الامبراطورية الفرنسية فى القرن التاسع عشر لم يكونوا يفكرون فى خطرها عليهم كما كانوا يتخذونها أداة للتجنى على أهل الشرق من تونس والجزائر ومراكش ثم مصر .

* * *

ماذا عسى أن يكون بحث رجل مثل هذا ؟ أيكون منطقياً سليما ، أم يكون زاخراً بالمغالطات ؟ إن آفة الأسلوب العلمى أن يكون الباحث متحيزاً لوجهة من وجهات النظر قبل أن يقرب المسألة التى هو معنىٌّ ببحثها . وسنرى أن طريقة الدوق دار كور فى كتابه لم تكن طريقة علمية سليمة ؛ فهو قد زار مصر ثلاث مرات فقط فى ثلاث سنوات ، وهو لم يرَ من المصريين إلا بعض التراجمة ، وهو لم يختلط إلا بفئات الأروام والفرنسيين . وقد تلقّى من أفواه أولئك وهؤلاء أكثر المعلومات التى جمعها فى كتابه عن عقائد المصريين وعاداتهم . ولم تكن طريقته علمية أيضاً ، لأنه رأى أفراداً قلائل ، وشاهد حوادث تافهة ، ومارس تجارب عارضة ؛ لكنه حاول من كل هذا أن يرسل أحكاماً على المصريين وعلى المسلمين جميعاً ، فجاءت أحكامه منحرفة مقتضبة ، وظهر فيها التحيز فى كثير من نواحيها .

كذلك لم تكن طريقته علمية ، ولم يكن أسلوبه سليماً ، لأنه اعتمد على ما قرأ فى كتابات الرحالة الفرنسيين . لقد زار مصر من قبله قوم مثل فولنى وهامون ، فوصفوا الحياة الاجتماعية فيها كما كانت فى القرن الثامن عشر . وقد كان يشيع فى أبحاثها كثير من الفوضى ، لأنها

(1) عن « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » للدكتور أحمد ضيف .

كانت فى عصر من اللاحكومة . وحسب دوق داركور أن مصر فى آخر القرن التاسع عشر هى نفسها مصر القرن الثامن عشر . حسب أنها ما زالت فى عصور العبودية ، وأن المصريين ما زالوا يعانون السخرة والكرباج . وأرجع الجهل والمرض والفقر إلى الدين . ولم يعلم أن مصر فى آخر هذا القرن كانت قد بدأت بحركة تريد أن تنهض ، وأن القومية المصرية كانت قد بلغت مدى بعيداً من العمل المثمر المجيد .

لكن أوضح ما يشوب أسلوبه فى كتابه أنه أنكر بعض الحقائق من غير ما سبب ظاهر ؛ فقد قرأ كتاب المستشرق الفرنسى سديّو عن تاريخ العرب[1] ، وقد كان سديو من المؤرخين الذين تشبعوا بنبل الاسلام ، وآمنوا بالجهود التى بذلها فى سبيل العلم . لقد ذهب إلى أن العالم فى سنة ٦٣٢ من التقويم الميلادى كان غارقاً فى جهالة جهلاء ، وأن الظلمة كانت قد ضربت بجرانها على الامبراطورية الرومانية المتداعية ، وأن علوم الإغريق كانت قد ترايلت حين انطلق العرب من جزيرتهم يغزون أنحاء المعمورة . وبعد أن استقروا فى فتوحهم قاموا يغزون العلم ، فكانت حضارتهم هى الحلقة الوثيقة التى وصلت علوم الاغريق والرومان بالعصر الحديث . كل ذلك قد برهن عليه سديّو فى حماسة العالم الأمين . لكن رجلا مثل الدوق داركور قد أنكر كل ذلك ، وقال وهو يتنكر كل ذلك : إنه يعترف بجهله بتاريخ العرب ، وإنه لا يحكم على عرب القرن الثامن الميلادى إلا بحالة حفدتهم فى القرن التاسع عشر ؛ فان هذا الخلف الجاهل المتأخر لا يمكن أن يكون سلالة لأى سلف صالح متحضر ! !

ثم إنه أخطأ كثيراً حينما ألقى حبله على غاربه ، فراح يكرر حوادث وآثاراً كانت قد اختلقتها الدعاية الصليبية فى العصور الوسطى عند العرب . فالذى حرق مكتبة الاسكندرية عنده هو عمر ، وقد حرقها لأنه وجد فى القرآن غناءً عن علوم الأوائل والأواخر . وهذه حادثة يعترف هو نفسه بالتشكك فى صحتها ، لكنه على الرغم من ذلك يتخذها وسيلة من وسائل التدليل . وهو يلقى حبله على غاربه أيضا حينما يردد ما قيل عن الحكومة المصرية فى عصور المماليك ، فهو يصور ما أذاقوه الناس من الجور والخسف . وفاته أن الحكومة كانت فى بعض عصورهم قوية لها من السلطان ما رد أوربا على أعقابها ، فاته أن الحكومة فى عصورهم وإن كانت دخيلة فقد كانت فورة من نشاط المصريين أنفسهم ، أو قل مظهرا من مظاهر الطاقة الاجتماعية والسياسية التى تصطخب فى الجماعة ؛ ثم هو يلقى حبله على غاربه مرة أخرى حين يؤمن بالدعاية الصليبية التى صورت العرب فى صورة الهمج البرابرة ، وحينما يشبههم بالجزائريين الذين لقيتهم الجيوش الفرنسية وهزمتهم فى القرن التاسع عشر . وفاته أن الأمر فى القوة ليس قوة المادة فحسب ولا كثرة الجيوش ، ولا عدد الجند ؛ إنما الأمر فى القوة يرجع إلى العقيدة ، وقوة العقيدة هى التى بعثت العرب إلى أقصى آفاق المعمورة . ثم فاته بعد ذلك أن تاريخ الحضارة سلسلة متصلة الحلقات ، كل حضارة أخذت عن سابقتها وأعطت لاحقتها ، وأن الحضارة العربية لم تختلف عن سائر الحضارات حينما تأثرت بالحضارة القديمة وأثرت فى الحضارة الحديثة .

وعلى الرغم من أن كتاب « مصر والمصريين » نتيجة لكل تلك المشاعر والآراء ، فهو كتاب قيم ، لأنه سجل للتهم التى وجهها عابر سبيل إلى المجتمع المصرى فى فترة من فترات الانتقال ، هو سجل لكل المساوىء

(١) Sedillot تأليف Histoire generale des Arabes .

حول رسالة الغفران :

٢ - أبو العلاء والنقاد

لعل أبا العلاء من أكثر من تناول النقاد بالدرس من بين شعراء ومفكرى اللغة العربية . وما نريد اليوم أن نعرض للأبحاث التاريخية التى دارت حوله كأبحاث نيكلسون ومرجوليوث وسلمون وفون كريمر والراجى كونى ؛ فتلك تستند إلى مناهج فى البحث التاريخى أكثر اعتمادها على الأدلة النقلية ، وهى كتب علمية نصيب الأدب أو النقد الأدبى منها محدود ، وهى وإن تكن غنية بالتفاصيل التى لا بد لمن يريد الحديث من أبى العلاء من الالمام بها ، إلا أنها لا تغنى عن ضرورة تخطيها إلى الفهم العام لنفسية أبى العلاء فهماً لا يستقيم نقد بدونه ولا يأتى بغناء ، بل إنه لمن الواضح أن أمثال تلك الأبحاث قد تميت أبا العلاء بدلا من أن تحييه فى نفوس القراء الذين لا يعنون بما يخلف الشعراء والأدباء إلا إزاء ما يفيدون من تجارب الغير ينفذون إليها ويضيفونها إلى حياتهم الخاصة التى لا يمكن أن تتسع لكل أنواع التجارب البشرية ، بله أن تستطيعها عملا ، وتلك مهمة الأدب الأساسية ، إذا فقدها لم يعد لوجوده معنى إلا أن يكون ضرباً من العبث بالأفكار والألفاظ ، يلهو به الناس أو يلهون الغير .

وإذاً فالنقد التاريخى تمهيد للنقد الأدبى — تمهيد لازم ، ولكنه لا يجوز أن نقف عنده ، وإلا كنا كمن يجمع المواد الأولية ثم لا يقيم البناء . وأنا بعد لا أجهل فضل هؤلاء الباحثين الذين يتوفرون على الكشف من وقائع الحقائق ، كما أدرك مدى النشوة العقلية التى يجدونها فى شق الحجب عما نجهل من تفاصيل ؛ بل وأعلم أن من الأبحاث التاريخية ما ينتهى برد العناصر المستقاة عند الشاعر أو الكاتب إلى أصولها التى استمدت منها ، وبذا تبصرنا بما عندهم من أصالة ؛ ولكنى فى الحق شديد

الظاهرة التى كان يراها الغريب فى البيئة المصرية فى القرن التاسع عشر . بل بعض هذه المساوىء ما زالت ظاهرة فى بيئتنا حتى اليوم . وليس يستطيع أن يكشف لك من مساوئك مثل رجل غريب . لذلك كان كتاب « مصر والمصريين » جديرا بالدراسة العميقة . ولعل قاسم أمين كان من بين المصريين القلائل الذين قرأوه . ولو أن كتابا مثل هـذا ترجم إلى اللغة العربية فى حينه لأفاد المصريين أكبر فائدة ، لأنه كان يحدث من رد الفعل ما أحدثه فى نفس قاسم أمين . فقد كانت مصر مقبلة على نهضة كبرى فى السياسة والقانون والعلم والأدب والفن ، وكان حقيقا بأبنائهم أن يتعرفوا مساوئهم حتى يصلوا إلى العلاج الناجع .

نقول إن قراءة هـذا الكتاب قد أثرت كثيرا فى نفس قاسم أمين ، فهو أول ما وجهه إلى التفكير فى الاصلاح الاجتماعى . فقد كان فى الحادية والثلاثين حينما تصدى للرد عليه . وسيظل أربعة عشر عاما أخرى يكتب ويخطب ويدعو إلى إصلاح الجماعة المصرية . ولعله لم يفكر جديا فى هذه الدعوة التى اتسمت باسمه إلا حينما رد على الدوق داركور . فانه حينما تهيأ لهـذا الرد بحث الحياة المصرية من صميمها ، وتفطن فى مساوىء المجتمع المصرى ، وتعمق تاريخ مصر والاسلام . ومنذ سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٩٠٨ لم يفتر من أن يدعو إلى الاصـلاح من كل وجوهه : إصلاح المرأة حتى يصلح المجتمع ، وإصلاح التربية حتى تصلح الأمة ، وإصلاح رجال الدين حتى يعود الدين سامياً قويا كأول ما بدأ .

(للكلام بقية) أحمد خاكى

الحذر من كل تلك الأبحاث ، ولا أكاد أطمئن إلى نتائجها من الناحية الانسانية ؛ وذلك لأنى أفهم الأدب كما قلت فى مقالى السابق على أنه تعبير فنى عن تجارب بشرية ؛ والكاتب أو الشاعر لا يواجه الناس أو الأشياء وفى نفسه عناصر أصيلة ومستقاة ، وإنما يواجههم بنفس مجتمعة موحدة كقطرة من الماء لا تمايز بين ذراتها ، وإنه لينفعل بالأشياء والناس كما تتردد الأصداء فى أنحاء بناء تام . وإن كانت للأديب صفة نفسية فهى على ما أرجح تلك الوحدة التى تختلط فيها الأفكار بالمشاعر والاحساسات حتى لتحس أن فى خياله فكراً وفى شعوره نظراً وفى حسه شعورا .

ونحن إذ نترك النقد التاريخى إلى النقد الأدبى لا نلبث أن نمر بأنواع من النقد التقريرى الذى لا أحسبه أقل خطرا على الأدب الحى من سابقه ؛ وهنا لا بد لنا من التمييز بين نوعين متباينين من النقد الأدبى .

فهناك نقد الشعراء والكتاب الذين نادوا بمذاهب معينة فى الأدب أو الفن ، وهذا نوع من النقد نسميه إنشائيا ولا نعرض له بتأييد ولا تجريح ، وإنما يكون مجال الحديث عنه إذا واجهنا ما يدعو إليه ، فنقبله أو نرفضه تبعا لما نبغى من الأدب . فلشتوبريان مثلا أن يفضل وحى المسيحية فى نظره إلى الطبيعة على وحى أساطير اليونان ، وله أن يقول إن المسيحية قد ردت إلى الطبيعة ما بها من صمت عميق يحثو على النفس فيرفعها إلى الله ، بينما ملأ اليونان حنايا الطبيعة بآلهة وربات استقرت بكل غابة وكل نبع وكل جبل وكل يم ، حتى لم تعد الطبيعة معبداً مقدسا ، بل حظيرة لكائنات غريبة . ولهيجو أن يدعو إلى الرومانتزم ، ولغيره أن يدعو إلى غير الرومانتزم من المذاهب المعروفة فى أوربا والتى نرجو أن تنشأ عندنا يوماً ما جماعات تدعو إلى مثلها وتقتتل فى سبيلها من إيمان .

وهناك نقد الأدباء والمفكرين الذى نسميه نقدا وصفيا لأنه تناول التراث الأدبى الذى خلفه لنا الكتاب والشعراء السابقون والمعاصرون ؛ وكل نقد من هذا النوع نقد تقريرى كما رأينا فى المقال السابق ، وهنا نصل إلى مشكلة النقد الأساسية .

وذلك لأنه من حقنا أن نتساءل : هل من الممكن أن نستقرى مما بين أيدينا من أمهات المؤلفات الأدبية أصولا عامة للأدب على نحو ما استقرى النحويون قواعد اللغة من الاستعمال ، أو استقرى الفلاسفة المنطق من مقولات اللغة ؟ وهبنا استقرينا أصولا كهذه أتراها متحكمة فيما ينتج الأدباء اليوم أو سينتجون فى الغد على نحو ما تتحكم قواعد اللغة أو المنطق فى تعبيرنا أو تفكيرنا ؟ وهل من الخير للأدب أن نقبل هذا القياس ، بل هل من الممكن أن نقبله ؟

والواقع أن لدينا طائفة من المبادىء قد استقرأها النقاد بالفعل فى كل فرع من فروع الأدب ، ومرد الكل إلى أرسطو فى كتابيه عن «الشعر» و«الخطابة» . ولكن لسوء الحظ قد حدث فى الأدب ما حدث فى اللغة ، إذ جنح الناس إلى اتخاذ تلك المبادىء — التى كانت فى الأصل مجرد ملاحظات — كقواعد آمرة على نحو ما لا نزال اليوم نتخذه فى قواعد اللغة فنحاول أن نتخذ منها متناً باقياً من كل تطور فيه لا شك إثراء اللغة ، كما أنه فى طبائع الأشياء باعتبار اللغة أداة يستخدمها أحياء دائمو التقدم أو على الأقل التغير .

هنا يظهر سخف أصول النقد الدعاة ، ولكن ذلك لا يذهب بكل قيمتها ، فنحن لا نستطيع أن نتجاهل كل ما جرى عليه كبار الكتاب ، كما لا نستطيع أن نتجاهل كل قواعد اللغة ، وإلا كنا جهلة نخفى جهلنا وكسلنا خلف حرية باطلة ندعيها ، فنفسد حياتنا بإفساد أداة تفاهمنا وإدخال الاضطراب فى أصولها . بل نحن

نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنرى فى تلك الأصول الأدبية عوناً على الخلق وادخاراً للطاقة ؛ ولا أدل على ذلك من أن الشعر نفسه ، وهو أخص ما تمتاز به الآداب ، هو أكثر فنونها خضوعاً للقواعد . ولكم من شاعر يحدثك عما وقع عليه من صور رائعة ، أو عبارات دالة بفضل ضرورة القافية مثلاً أو استقامة الوزن ؛ ولكم من شاب يبدد قواه هدراً لأنه لا يريد أن يكد ليكتسب خبرة بفن الكتابة وهو يحسب أن الأمر أمر عبقرية مزعومة تهتدى كما تشاء .

وإذاً فهناك قواعد تؤيدها أمهات الآثار الأدبية التى خلفها كبار الأدباء ، ولهؤلاء من القداسة ما يحملنا على احترام ما صدروا عنه من أصول ، ولا معدل لنا إن أردنا أن نصل إلى مثل ما وصلوا إليه من أن نهتدى بهديهم ، ولكن على شريطة أن نميز بين عنصرين فى الأدب :

١ — عنصر التجربة البشرية .

٢ — عنصر الصياغة ننظر فيها على ضوء الأصول الأدبية .

وأنا أميز بين التجربة البشرية وصياغتها وبصدرى حرج ، وذلك لأننا مضطرون إلى هذا التمييز اضطراراً وإن كان الواقع أن بين العنصرين تداخلا قويا يكاد يكون وحدة فى كثير من الأحيان ، فإن العنصر الشخصى الذى يميز كل أدب عن غيره من مظاهر نشاطنا الروحى كثيراً ما يكون فى الصياغة ، وهنا يختلط العنصران بحيث إنه لا شك نظر سطحى ما يقرره النقاد من انعدام الشاعر فى الشعر القصصى مثلا ، إذ لو صح ذلك لخرج هذا الشعر من الأدب .

ومع هذا يجب أن نفهم التجربة البشرية فى ذاتها ، وهذا الفهم ليس بالهين ، إذ الأمر بين الكاتب والقارىء أشبه ما يكون بأمر الأوانى المستطرقة ، فنحن لا نفهم من الغير إلا إذا اتصلت نفوسهم بنفوسنا ، وفهمنا محدود بقدرتنا على الاستجابة ، بل كثيراً ما نخطىء فهم ما نقرأ لأننا نحمله من نفوسنا فوق ما تستطيع أن توحى به ألفاظه ، أو نرى فيه ما لم يخطر ببال قائله إن لم نحد بمعانيه وفق هوانا ، حتى لكأننا نقرأ ما بنفوسنا لا ما تقع عليه أعيننا ؛ وفى كل هذا ولا ريب إثراء للآثار الأدبية ، ولكنه أيضاً موضع خطر قد يبلغ أحيانا مبلغ المغالطة الباطلة ، وهذه مشكلة تستحق أن نقف عندها قليلا

وفى الحق أنى لا أعرف أصدق من كلمة للأديب الانجليزى إليوت (Eliot) يقول فيها : « إنه لم يؤثر فى الآداب القديمة شىء قدر ما أثرت الآداب الحديثة » وتلك ظاهرة تحت الشرق والغرب ، فى فرنسا مثلا رأينا ناقداً كبيراً كبرونتيير (Brunetiere) يطبق نظرية التطور على الأدب ، فيحاول أن يثبت أن أنواعه المختلفة قد صدر بعضها عن بعض كما صدر فى وهم دارون الانسان عن القرد ؛ فيقول إن مادة الشعر الرومانتيكى هى مادة الخطابة الدينية فى القرن السابع عشر ، لما شاهده من حديث الشعراء الرومنتيكيين من بؤس الحياة وفنائها المستمر وما شاكل ذلك فى نغمة حارة تشبه من قريب أو بعيد نغمة الخطابة ، والأمر عندنا أخطر .

فها هو الأستاذ العقاد يقحم النظريات الفلسفية التى تقوم كمذاهب ذات أسس نظرية عميقة شاملة فى ميدان الأدب ، فيكتب فصولا طويلة ليدلل على أن أبا العلاء قال بالاشتراكية أو بقاء الأصلح وما إلى ذلك مما قد يدل على براعة الناقد ، ولكنه لا يغنى شيئا فى فهمنا لنفسية أبى العلاء ومأساته التى صدر عنها فى كل ما كتب من شعر إحساس أو فكرة .

ولقد يلقى الأستاذ أمين الخولى محاضرات عامة عن أبى العلاء ، فيأتى الجزء الأول منها مستنداً إلى مقدمات

غير ثابتة لا أعرف أخطر منها ، فهو يفترض أن المفكر الحق هو من يسير فى حياته وفق تفكيره . وأبو العلاء لم يفعل ذلك ، وإذاً فهو ليس مفكراً حقيقياً . وكل هذا قول مردود لا هو معروف من تاريخ الفلاسفة ، أمثال بيكون وسبنيك مثلا من تناقض واضح بين حياتهم وتفكيرهم ، ولا هو ثابت فى بداهة المعقول من أننا لا نسير فى الحياة بعقولنا ، بل بقوى دفينة أغلبها مضوى الصدر . ولكم من مرة نأتى الشر ونحن نعلم أنه شر ولا نستطيع أن نمسك منه . وهو يجرد قوائم بتناقض أبى العلاء فى كل نواحى المعرفة وسبل المعرفة ، ثم يخلص من ذلك فى النصف الثانى من بحثه إلى أن كل ما كتبه أبو العلاء ، إن هو إلا خواطر شاعر ، وأن مصـدر تناقضه هو « مركب نقص » قال به اليهودى فرويد منذ سنين ، فلم يأت بجديد ، وإنما أسرف فيما كانت تعلم الانسانية من حق منـذ قرون ، وعممه واتخذ منه مذهباً ، وأتى الأستاذ الحوفى فطبقه على أبى العلاء . فياعجبا ! ولم دفع هذا المركب أبا العلاء إلى اعتزال الحياة ، بينما دفع بشاراً مثلا إلى المعاصرة فيها باستهتـار لم نعهده حتى فى المصريين ؟

وللأستاذ طه حسين بك كتابان عن أبى العلاء : أولهما « ذكرى أبى العلاء » وهو كتاب طه حسين الشاب الذى كان لا يزال فى حماسته الأولى لمناهج البحث العلمى وأقسام الفلسفة ، وهو بعد قريب عهد بالثقافة الأزهرية التى تحرص على محفوظها تستثيره لأداء ما تريد بجلال ما تستشهد به من منقول نثراً كان أو شعراً ؛ وفى هذا خطر واضح على سير التفكير ، لأنه يدفع عندئذ إلى الانصراف عن مجاراة فكرتنا الأصيلة تمهد للشـاهد . والـكل يعلم ما فى كثرة محفوظنا من إضلال للتفكير ! فهو منـذ المقالة الأولى يريد أن يلم بعصر أبى العلاء – وفقاً لمناهج البحث الحـديث – إلمامة الطغرائى بالجزع – تلك التى تمناها لتنقع غلته وتشـفى علته ، وتثلج فؤاده وتقبض على نفسه العافية والسلام .

لعل إلمامة بالجزع ثانيــة
يدب منها نسيم البرء فى علل

وهو يلم به إلمامة مهما تكن قليلة قصيرة المدى فهى شاملة الخير موفورة النفع عظيمة الغناء .

ألا بى قبل أن تطرح النوى
بنا مطرحا أو قبل بين يزيلها
فان لا يكن إلا تعلل ساعة
قليـــلاً فانى نافع لى قليلها

وهذا كلام جميل وشـعر جميل يدل على ما نعرف لأسـتاذنا من ذوق أدبى مرهف ، ولـكنه ليس من مقتضيات مناهج البحث الحديثة ، وهو بلا ريب يمثل دور النضج الذى كان طه حسين الشاب لا يزال فى أول عهده به ، وفيه ما يذكرنا نحن الشبان جميعاً بماضينا القريب . وما تترك الجزء الأول من الكتاب الذى يلم فيه المؤلف بعصر أبى العلاء ، وتاريخ حيـاة أبى العلاء لتصل إلى فلسفة أبى العلاء وشعر أبى العلاء ، حتى تجد طائفة من التقاسيم المدرسية التى تقف عند الشكل دون أن تمس الصميم ، فهو يدرس شعره فى أبواب من مدح وفخر ووصف ورثاء ونسيب ودرعيات ولزوميات ، ثم ينتقل إلى نثره بما فيه من نقد وسخرية وخيال ومهارة لغوية ، فيتحدث عنه حديثاً موجزاً غير واف ، حتى إذا انتهى إلى فلسفته اصطنع لدراستها تقسيم المسلمين للفلسفة إلى أربعة أقسام : الأول الفلسفة الطبيعية أو العلم الأدنى ، والثانى الفلسـفة الرياضية أو العلم الأوسط ، والثالث الفلسفة الالهية أو العلم الأعلى ، والرابع الفلسفة العملية . ثم يتحدث عن كل تلك الأقسام عند أبى العلاء فيورد

شعره في المادة والزمان والمكان ، وتناهي الأبعاد ، ثم الله والجبر والروح والتناسخ والجن والملائكة والنبوات والبعث وأصل الإنسان والقرآن والدنيا والعدم والزواج والمرأة والسياسة والاقتصاد والحيوان والمرأة . وما نظن دراسة كهذه تستطيع أن تنتهي إلى فهم أبي العلاء ، ذلك الفهم الرائع الذي انتهى إليه نفس المؤلف في كتابه الآخر الذي ألفه أخيراً ، وقد تمت خبرته واتسعت آفاقه ، كتاب «مع أبي العلاء في سجنه» . ولكم يخيل إلي أن كتاب ذكرى أبي العلاء أشبه ما يكون بقطعة من الأثاث تامة التركيب معدة الأدراج أي المؤلف فلأها ، أو برواية من أمثال روايات الأستاذ توفيق الحكيم التي أراها دائماً قد وضعت لتنفيذ فكرة سابقة لا تتحرك الشخصيات إلا لإظهارها أو التدليل عليها ، بحيث نرى كل تلك الشخصيات غير المتميزة تمييزاً كافياً في خدمة الفكرة التي هي عند المؤلف بمثابة بروجرام سابق . ومن الثابت أنه لا الروايات الجيدة ، ولا كتب النقد القيمة يمكن أن توضع وفقاً لخطة مرسومة من قبل بعيداً عن الحقائق الراهنة ، خصوصاً عند أبي العلاء الذي سوف نرى أنه لم يكد يثبت على أي رأي ، وإن ثبت فعلى إحساسه بالألم ، ولكنه طغيان المرحلة الأولى بالفلسفة هو الذي وجه المؤلف تلك الوجهة المدرسية الشكلية .

ونحن بعد ذلك لا نجد في هذا الكتاب عن رسالة الغفران العظيمة الخطر في أدبنا العربي شيئاً يذكر ، لا من وحدة تأليفها ، ولا عن فكرتها وروحها ، ولا من طرق الأداء فيها ، بحيث لا نتردد في أن نفضل على هذا الكتاب كتاب المؤلف الثاني «مع أبي العلاء في سجنه» . فهذا الكتاب هو فيما أعتقد خير ما كتب عن أبي العلاء ، وذلك لأنه لا يقف عند التفاصيل والأقسام المدرسية التي تفسد وحدة أبي العلاء ، بل يتناوله كتجربة بشرية يقصها بأسلوب ساحر ووسائل روائية تغرينا بالقراءة ، ولكننا هنا نقع على خطر آخر ، وذلك لأن المؤلف لم يكد يخلص من طغيان النظرة التعليمية التي ظهرت في أوائل حياته ، حتى ضرب في آفاق الثقافة الأوربية يحاول في إمعان أن يدخلها في مجرى تفكيرنا ، وهذا اتجاه نافع نحن في أشد الحاجة إليه ، ولكن على أن نستخدمه في حذر ، وألا نسرف في الركون إليه . وأوضح ما يظهر هذا الإسراف في مقارنات الدكتور طه بك ، وهنا لا بد من الوقوف عند هذه الناحية من اتجاه الأستاذ لما له من عظيم التأثير في توجيه أدبنا الحديث ، ولما لهذا النهج من خطورة .

وأول ما نلاحظ هو عدم التفرقة بين البحث عن المؤثرات وإقامة المقارنات ، فهو عندما يعرض المقارنة بين الشاعر اللاتيني لوكريس وأبي العلاء ينكر طبعاً أن يكون أبو العلاء قد عرف لوكريس أو سمع به ، ولكنه يعود فيقرر أن لوكريس لم يكن إلا تلميذاً لأبيقور ، ويقرر أن العرب قد عرفوا فلسفة أبيقور ، وإذاً فمن المعقول أن يكون هناك تشابه بين لوكريس وأبي العلاء ، وهو يلتمس هذا الشبه في مسائل جزئية وأفكار في أدب أبي العلاء ما يؤيدها وفيه ما يناقضها ، لما هو معروف من أن أبا العلاء لم يثبت قط على رأي ؛ وكل هذا الحديث لا يتمشى مع الحقائق ولا مع منهج البحث العلمي ؛ فنحن لم نعرف كيف تأثر أبو العلاء بالفلسفة الأبيقورية ، ونحن نعجب من مقارنة لوكريس بأبي العلاء ، لما هو معروف من أن للوكريس فلسفة ثابتة مستقرة متماسكة الأجزاء ، فلسفة تقريرية في كل مشكلة عرض لها ، بينما أبو العلاء رجل ابتلاه الله بمحنة بلبلت أفكاره فلم يؤمن بغير «النحس والبؤس» وفيما عدا ذلك فكل شعره ونثره من وحي الساعة ووفقاً لحالته النفسية التي لم يترك لها الألم اطراداً . فالمقارنة بينهما لا يمكن أن تنعقد ، بل إن ما أورده المؤلف من اتفاق على بعض الجزئيات يخيل إلي أنه غير ثابت .

ولنضرب لذلك مثلا بالعلة الغائية (ص ٢٣٢ وما بعدها)، فإن الأستاذ يقول من لوكريس إنه ينكر العلة الغائية، إذ أن الأعضاء كما يقول لوكريس قد أوجدت غاياتها ولم توجد هي لتحقيق هذه الغايات» ومع ذلك نجد في الكتاب السادس من «طبائع الأشياء» الوكريس في الأبيات (١٠٣٣ وما بعده) ما ترجمته: «عند كل كائن إحساس بما يستطيع أن يستخدم فيه ملكاته، فالعجل الصغير حتى قبل أن تبرز قرونه بجبهته إذا استثير يحاول استخدامها فيهدد خصمه ويطارده وقد حنى رأسه، وكذلك صغار الفهود والأسد تدافع عن نفسها بمخالبها وأنيابها قبل أن تنمو لها مخالب وأنياب. وأما الطيور بكافة أنواعها فتراها تركن إلى ريش أجنحتها طالبة إليها عونا لم تقو عليه بعد» ونحن لا نناقش نظرية أبيقور على العموم، ولكن أليس من الواضح أن عبارات لوكريس هذه تدل بوضوح على وجود العلة الغائية، وعلى أن تلك العلة هي سبب خلق الأعضاء لا العكس؟ والأستاذ يستدل على إنكار أبي العلاء للعلة الغائية بقوله في الفصول والغايات: «يقدر ربنا أن يجعل الانسان ينظر بقدمه ويسمع الأصوات بيده وتكون بنانه مجارى دمعه، ويجد الطعم بأذنه ويشم الروائح بمنكبه ويمشى إلى الغرض على هامته». ولست أرى هنا دخلا للعلة الغائية التي تربط بين العضو ووظيفته، وإنما هنا حديث عن قدرة الله الذي كان يستطيع لو أراد سبحانه أن يجعل من أبي العلاء مبصراً، وفي القرآن ما يمكن أن يوحى بذلك «يوم تشهد عليهم ألسنتهم ..» الخ. فما العلاقة هنا بين أبي العلاء وفلسفة أبيقور أو لوكريس؟ وهل هناك نفع من وراء هذه المقارنة أو داع إليها أو حقيقة لها؟ والأستاذ يبني على ذلك نتائج كثيرة تدل على مهارة في التفكير والعرض؛ ولكني أخشى ألا تلاقي حقيقة أبي العلاء النفسية، كما لا تلاقي حقيقة فلسفة لوكريس أو روحه.

وهناك بعدُ اتجاه عند نقادنا طالما حير لبي؛ فهم دائما يحاولون البحث عن أوجه شبه في مقارناتهم؛ وهذا اتجاه خاطيء، فالنفوس كما قلت لا يمكن أن تتشابه، بل إن نفس الفكرة يعبر عنها أديبان فتكتسب من لون نفوسهما ومن الروابط بعوالم الحس والنفس الأخرى ما يجعلها أصيلة عند كل أديب منهما، على نحو ما تتكون أحاديثنا المختلفة من نفس ألفاظ اللغة الشائعة بيننا، بل على نحو ما تتكون تلك الألفاظ ذاتها من الحروف الهجائية المحصورة العدد، ومع ذلك تتنوع أفكارنا إلى غير حد كما تتنوع ألفاظ اللغة رغم انحصار وحداتها المكونة.

وهناك عدة أبحاث حول أبي العلاء صادرة عن نفس هذا الاتجاه: منها مقارنة حامد الصراف في كتابه عن عمر الخيام بين عمر وأبي العلاء، ومقارنة قسطاكي حمصى في كتابه «منهل الوراد في علم الانتقاد» بين دانت وأبي العلاء، ومقارنة الأستاذ على أدهم في مجلة «الهلال» بين أبي العلاء وشوبنهور. وكل تلك الأبحاث على اختلافها في الاصابة بعيدة فيما أحسب عن الحقيقة النفسية الثابتة من تمايز النفوس تمايزاً لا يمكن أن ينال منه — وبخاصة في النفوس الأصيلة — أي وحدة في الجنس أو الزمان أو المكان أو الثقافة، أو غير ذلك مما زعمه تين وغير تين من النقاد الشكليين الذين فهموا كل شيء غير أصالة النفوس واختلاف طرق انفعالها عما يحيطها من ناس وأشياء، بل عما يدور في حناياها من حس أو شعور أو فكر.

والآن وقد انتقدنا الشكل، وفيهم كبار رجالنا الذين تتلمذنا لهم، فلنحاول بدورنا أن نتحدث عن أبي العلاء حديثنا الخاص. وليكن هذا موضوع المقال الآتي.

محمد مندور

حكم في القضية ن ٨٧١ عسكرية الفيوم سنة ١٩٤١ ضد حسن عبد العظيم حسن وعبد العظيم قطب من إطسا بحبس الأول شهر شغل وبتغريم الثاني ٢٠٠ قرش لبيعه ذرة بسعر يزيد عن المقرر

مشاكل السكان :

النسل والطبقات

كنت أحسب أني سأكتفي بما تفضلت بنشره مجلة « الثقافة » الغراء ، متعلقا بموضوع النسل . ولكن مقال الأستاذ إسماعيل مظهر بعدد الأهرام الصادر في ١٠/١/١٩٤٢ قد فتح باباً جديداً لبحث في الموضوع نفسه . ولقد أحسست عند قراءة هذا المقال بإحساس غريب ، هو مزيج من الفخر والفرح والألم في وقت واحد . وأحسست إلى جانب ذلك بضرورة إجابة هذه الدعوة الصادقة الكبيرة التي يدعو إليها الأستاذ مظهر بك . وهي معالجة هذه الحالة الاجتماعية الناشئة من اندفاع الطبقة الفقيرة في إكثار نسلها وعددها ، وغلو الطبقة العالية الغنية في تقليل نسلها وحفظ ثروتها . وما يستتبع ذلك من تسلسل الثروة وتقسيمها بين الطبقة الدنيا . واحتفاظ الطبقة العالية بثروتها كاملة . وما يترتب على ذلك من اتساع الهوة بين الطبقتين .

هذه هي الحقيقة الهائلة التي يضعها أمامنا الأستاذ مظهر في مقاله « حصاد الدنية » ، وهي حقيقة مخوفة مروعة حقا ، كان على رجال الاقتصاد أو رجال الاجتماع أو هما معاً أن يبادروا قبل اليوم بزمن بعيد إلى حلها ومعالجتها ؛ فإن من أخطر الأمور على هذه الأمة أن تترك أفراد الطبقة الفقيرة الجاهلة يتناسلون كالأرانب ، حتى ليكاد عددهم يطغى على كل طبقة سواهم ، بل أصبحوا في الواقع سواد الأمة وغالبيتها . وإن كان مما يسر — ولعل ذلك يخالف رأي الأستاذ مظهر — أن يفهم بعض المتعلمين حقيقة لها قيمتها ، وهي أن العبرة في الذرية بالكيف لا بالكم . فالأثرياء أو المتعلمون بالأحرى قد قاموا بواجبهم ، فعلينا أن نبين الفريق الآخر واجبه حيال نفسه ، وحيال ذريته ، وحيال أمته . وليكن مبدؤنا في تقريب الشقة بين الطبقتين أن نأخذ بيد الطبقة الفقيرة إلى مصاف الطبقة الغنية ، لا أن نأمر الطبقة الغنية على النزول إلى الطبقة الفقيرة .

إننا إذا فهمنا فكرة الزواج على أساس أنه اقتران شخصين لإنتاج شخص ثالث أكثر سعادة وأكثر حظاً ، كما يقول نيتشه ، كان علينا أن نفكر قبل الزواج أو قبل الإقدام على النسل فيما يجب إعداده لهذا الطفل القادم الذي نحمل له الحب والاعتزاز ، فإن كان ما أعددناه كافيا لسعادته سمحنا له بالخروج إلى الحياة ، وإلا وفرنا عليه وعلى أنفسنا الكد والتعب . وهكذا يجب أن يكون تفكيرنا منطقيا عمليا ، لا عاطفيا .

أنتقل إلى الحلول التي تكفل لنا بر السلام ، ذلك البر الذي ينشده الأستاذ مظهر بك ، ويناشد الجميع لإيجاد الطرق الموصلة إليه ، وإني أرى أن ذلك لا يكون إلا من طريقين :

الأول : طريق تشريعي ، أي بتدخل الحكومة في مسائل الزواج والنسل ، ويكون ذلك بالوسائل الآتية :

١ — تأخير سن الزواج : أي برفع الأسنان التي يسمح فيها الفتى أو الفتاة بالزواج ، وبذلك تضيق الفترة المخصصة للتناسل والزيادة . وهذا التشريع ضروري ، لأن سن السادسة عشرة للفتاة والثامنة عشرة للفتى أسنان فجة ، يستحيل فيها نضج الزوجين جسمياً أو ماديا . والحاصل فعلا أن لا يقدم على الزواج في هذه السن المبكرة إلا البسطاء والسذج . فإذا علمنا أن الزواج في سن متأخرة يكون دائماً أنجح وأكثر توفيقاً منه في السن المبكرة ، وأن الذرية تكون أنضر وأقوى على الحياة ، علمنا مقدار الفائدة التي نجنيها من وراء هذا التشريع . والغريب أن القانون

لا يسمح للرجل بمزاولة التجارة قبل سن الحادية والعشرين بينما يسمح له بالزواج فى سن الثامنة عشرة ، كأن تدبير الأسرة وشئونها أسهل أو أيسر من مزاولة التجارة وإدارتها ! منطق شاذ ولا شك ، لأنى سمعت أن أحد الملوك كان يقول إن سياسة المرأة أصعب بكثير من سياسة المملكة ! !

٢ — تحريم التثنية فى الزواج : أى عدم السماح للرجل بأن يجمع بين امرأتين أو أكثر . ولعل هذه العادة قد انقرضت تماما فى أوساط المتعلمين والمثقفين ، وإن كانت لا تزال باقية فى أوساط الدهماء والبسطاء ؛ وبالأسف أن عددهم كثير . ولقد طالما سبب الزواج المتعدد مشاكل اجتماعية وأخلاقية كثيرة ، فوق أنه ثغرة واسعة يتدفق خلالها النسل باندفاع .

٣ — شهادات الدخول : فيتقرر حد أدنى للدخول ، لا يجوز لمن لم يتحصل عليه أن يتزوج ، وقد وجدت هذه الفكرة نجاحا فى أوربا وقتاً ما ، ولكنها فشلت تحت إلحاح العسكريين المطالبين بتضخيم عدد المجندين . وقد نكون فى غير حاجة إلى هذا التشريع ، لو لم نكن شعباً مفرطاً فى تفاؤله ، مندفعاً فى عواطفه . إن من المفروض ألا يقبل الانسان على الزواج إلا عند ما يتوافر له الدخل الذى يكفل له ولامرأته الحياة الشريفة الناعمة ؛ ولكن الحاصل غير ذلك ، فان الكثيرين يندفعون بلا روية أو تعقل إلى الزواج ، بل أحيانا إلى التثنية فى الزوجات ، بلا حساب أو اكتراث لأرزاقهم أو أقواتهم . ذلك الرزق الذى يتوهمون أنه يولد مع الطفل .

الطريق الثانى : طريق اقناعى ، بواسطة الدعاية والنشر ، وهذا الطريق فى رأيى أبعد أثراً من الطريق الأول ، لأن الاقناع خير من الارغام ؛ ولكن مما يؤسف له أن كل إصلاح فى هذا البلد لا بد أن يأتى من طريق الحكومة والتشريع ؛ فتنظيم الصناعة والزراعة والحياة الاجتماعية لا يتم ولا يترتب إلا بسن القوانين واللوائح ، وذلك شأن البلاد البدائية .

وقبل أن نرسم سبيل الدعاية علينا أن نعلل سبب إقبال الطبقة الفقيرة على النسل والتهافت عليه . . . وعلة ذلك فى رأيى ما وضحه سبنسر قديما من أن الانسان بغريزته متعلق بالحياة يتشبث بها ، والنسل وسيلته للبقاء والتغلب على الموت . فكلما كان الانسان أكثر اطمئنانا على حياته كان أقل تفكيرا فى إكثار نسله ، والعكس صحيح . وهذا ما عناه الشاعر العربى قديما بقوله :

بغاث الطير أكثرها فراخا
وأم الصقر مقـــلاة نزور

فالأمن فى الريف لا يزال حتى اليوم مرتبطا بمسألة النسل وكثرته ، أو ما يسمونه « العزوة » ، فالعائلة فى القرية تكتسب هيبتها وقوتها حتى اليوم بكثرة أفرادها . فالرجل لذلك يلح فى استغلال المرأة من هذه الناحية ، والمرأة تترضاه وتشبع رغبته من هـذا الطريق ، حتى تحافظ على ارتباطها به . لأن علاقة المرأة بالرجل فى الريف متوقفة على استطاعتها إنتاج النسل ، وليس النسل على وجه الاطلاق ، بل الذكور على وجه خاص .

فالدعاية يجب أن تنصب على محو تلك العقيدة البدوية القديمة الراسخة فى عقول العامة ، ثم بتهذيب طباعهم وغرائزهم عن طريق التعليم والتثقيف ، وأخيراً بإفهامهم حقائق مسائل النسل بتفصيلاتها .

بهذا نستطيع أن نوجد التوازن بين الطبقتين العالية والسافلة ، وأن نقضى على الخطر الهائل الذى ينتظرنا من وراء ترك الحبل على الغارب ، وإباحة التناسل بلا قيد أو شرط ، وهو الارتطام بمشاكل الفاقة المدقعة ، والبطالة ، وانحطاط مستوى العيش ، وما يستتبع ذلك من اضطراب فى نواحى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية .

عبد الله الشريم

بين العمائر الإسلامية الأثرية في القاهرة :

بيت الكريدلية

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

غنى عن البيان أن القاهرة متحف عظيم للعمائر الأسلامية من مختلف الطرز الفنية ؛ فلا يزال جامع ابن طولون يشهد بعظمة الطراز العباسى بمصر فى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، منذ انتقل إليها على يد مؤسس الأسرة الطولونية الذى نشأ فى سامرا . ولا يزال الناظر إلى القلعة يعجب بالجامع العثمانى الطراز الذى شيده فيها مؤسس الأسرة العلوية الكريمة . أما ما بين العصر العباسى والعصر التركى من حقبة طويلة ، فإن طرز العمارة الإسلامية فيه ممثلة بالقاهرة فيما خلفه الفاطميون والايوبيون والماليك من مساجد وأضرحة وأسوار ومدارس وقصور وبيوت وأسبلة وكنائس ، كالجامع الازهر وجامع الحاكم وجامع الصالح طلائع وباب النصر وباب الفتوح وباب زويلة من العصر الفاطمى ، والقلعة وضريح الإمام الشافعى والمدرسة الصالحية من العصر الايوبى ، وجامع الظاهر وقبة وبيمارستان قلاوون وقصر يشتاك وجامع الماردانى وجامع صرغتمش وجامع السلطان حسن من عصر الماليك البحرية ، ومدرسة برقوق وجامع المؤيد ، وضريح الغورى وخان الخليلى من عصر الماليك الجراكسة ، ومسجد المحمودية ومسجد سنان باشا ومسجد الملكة صفية وبيت جمال الدين الذهبي ومسجد محمد بك أبى الذهب وسراى المسافرخانة من العصر العثمانى . أما الكنائس فمنها كنيسة المعلقة وكنيسة الست بربارة وكنيسة أبى سيفين ، وقد شيدت قبل العصر الاسلامى ، ولكن معظمها هدم ، وأعيد بناؤه وزيد عليه بعد الفتح العربى .

وطبيعى أن معظم هذه العمائر الأثرية دب إليها التخريب والدمار وضاع أو نهب ما كان فيها من تحف ونفائس إلى أن صدر أمر عال فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١ بإنشاء لجنة حفظ الآثار العربية لصيانة تراثنا القومى فى العصر الاسلامى . وقد استطاعت هذه اللجنة أن تنقذ مئات العمائر الأثرية من الدمار المحقق ، وأن تجمع نفائس التحف الاسلامية فى دار الآثار العربية ، التى أنشأتها لهذا الغرض ، وأقبلت على رعايتها حتى نمت وازدهرت . ولا سيما بفضل حفائر الفسطاط ، وألحقت الدار سنة ١٩٣٠ بوزارة المعارف . وظلت لجنة حفظ الآثار العربية تابعة لوزارة الأوقاف حيناً من الزمن ، ثم ضمت إلى وزارة المعارف أيضاً ؛ فأصبح فى هذه الوزارة هيئتان للآثار الاسلامية : إدارة حفظ الآثار العربية ، ويشرف عليها مجلس أعلى للآثار الاسلامية ، ومهمتها صيانة العمائر القائمة من العصر الاسلامى ، ثم دار الآثار العربية وهى التحف الذى يضم التحف المصنوعة فى العصر الاسلامى .

ولسنا نستطيع أن نذكر إدارة حفظ الآثار العربية بدون الاشارة إلى عملين جليلين لها ، يحسبان من أجل الأعمال التى تمت لحفظ الآثار فى العالم أجمع : وهما تجديد جامع ابن طولون وجامع محمد على .

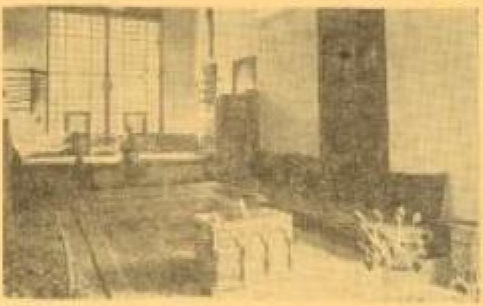
وقد أقبلت إدارة حفظ الآثار على تجديد بعض البيوت الأثرية التى ترجع إلى العصر العثمانى . ومن هذه البيوت اثنان أصبح لهما شأن عظيم . وهما بيت محمد بن الحاج سالم الجزار ، وبيت السيدة آمنة بنت سالم . ويقعان شرق جامع ابن طولون ، فيمر بينهما دهليز يوصل إلى الباب الشرقى لهذا الجامع . فالبيت الاول ، وهو الذى يعرف الآن باسم بيت الكريدلية ، يقع إلى يمين الداخل من هذا الدهليز إلى باب الجامع ، بينما يقع البيت الثانى إلى يساره . ولكن البيتين متصلان بممر فوق هذا الدهليز

محمول على عقد ستيني [1] . وبيت الكريدلية يرجع إلى سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣٢ م) ، وقد أنشأه « الحاج محمد بن المرحوم الحاج سالم بن المرحوم الحاج جلمام الجزار » ، كما جاء في شريط من الكتابة بسقف « المقعد » . وفي ركنه الشرقي القبلي سبيل ذو سقف به زخارف جميلة ، متعددة الألوان . والباب الرئيسي لهذا البيت إلى يمين الداخل في الدهليز . ويؤدي هذا الباب إلى « صفة » ، تبدأ عندها « طرقة » ذات سقف معقود تسير إلى اليسار وتنتهي إلى فناء الدار . وترتيب المدخل على هذا النحو أمر معروف في معظم البيوت الأثرية الاسلامية ، ولعل المقصود به ألا يكون فناء الدار مكشوفاً إذا كان باب البيت مفتوحاً .



ش ١ — وجهات بيت الكريدلية

ويمتاز فناء بيت الكريدلية ببعض الأساليب المعمارية الطريفة ، ولا سيما بروز الطابق الأول على خرجة (ماواردة) من ثلاث حطات من « المقرنصات » فضلا من تنوع عقود الأبواب ، ثم النوافذ الجميلة المصنوعة من الخشب والجص . ومقعد بيت الكريدلية في الجنب القبلي يطل على الفناء بعقدين محمولين على عمود من الرخام . ويتصل المقعد (التختبوش) بقاعة كبيرة تطل على الواجهة القبلية للدار كما تطل على الفناء ، وتؤدي إلى غرفة صغيرة تطل على الواجهة الشرقية ، ثم إلى قاعة كبيرة تطل على فناء الدار وعلى الواجهتين البحرية والغربية . وفي هذه القاعة الأخيرة سقف غني بالزخارف الجميلة ، وبه إفريز من الكتابة قوامه أبيات من قصيدة البردة . كما أن فيها « مشربيات » جميلة .



شكل ٢ — القاعة الكبرى بيت الكريدلية

أما بيت آمنة بنت سالم فان بعض الأساليب والزخارف المعمارية في بابه تدل على أنه يرجع إلى عصر السلطان قايتباي (٨٧٣ — ٩٠١ هـ ، ١٤٦٨ — ١٤٩٥ م) . ولعله آل بعد ذلك إلى صاحب بيت الكريدلية . وأهم ما في هذا البيت قاعة كبيرة ذات إيوانين ، بينهما جزء أرضه منخفضة قليلا ، وهو « الدرقاعة » .



ش ٣ — مقعد بيت الكريدلية

(١) راجع « دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة » تأليف محمود أحمد باشا ص ١٩٧ — ٢٠١ .

والمعروف أن مصلحة التنظيم نزعت ملكية هذين البيتين سنة ١٩٢٨ . وأرادت هدمهما تنفيذاً لمشروع التوسيع حول جامع ابن طولون ، ولكن لجنة حفظ الآثار العربية اعترضت على ذلك واستطاعت أن تتسلمهما ،



ش ٤ — قاعة بيت الكريدلية

ثم بدأت في تجديدها ، وإصلاح ما فيهما ليصبحا من أبدع الأمثلة القائمة لطراز العمارة في العصر العثماني . وقد وفقت اللجنة في ذلك إلى أبعد حد ، وأتيح لهذين البيتين أن يعود إليهما ما كان لهما من عظمة وجمال ، حين تقدم الميجور جاير أندرسون بك[1] سنة ١٩٣٥ إلى اللجنة طالباً أن يسكن هذين البيتين على أن يقوم بتأثيثهما على الطراز العربي ، ويعرض فيهما مجموعته الأثرية النفيسة ، وعلى أن يصبح الأثاث والتحف النفيسة ملكاً للأمة المصرية بعد وفاته أو حين يغادر مصر نهائياً .

وأقبل جاير أندرسون بك على تنظيم البيتين في همة لا تعرف الكلال وذوق فني وخبرة في الفنون والتحف يحسده عليهما الاخصائيون في المتاحف ودور الآثار ، وأنفق الأموال الطائلة في شراء الأثاث والتحف والأطباق من البيوت الأثرية الخاصة ومن أسواق العاديات في مصر وغيرها من البلدان . وأصبح « بيت الكريدلية » من معالم القاهرة التي لا يفوت السياح زيارتها ليروا مثالا حيا للبيوت الاسلامية في القرن الحادي عشر الهجري (١٧م) وليتبينوا في قاعات البيتين الترف والبذخ والذوق الفني الجميل وما إلى ذلك مما يتجلى في زخارف الجدران والسقوف والأبواب والنوافذ والخزانات وغيرها . ورتب جاير أندرسون بك بعض قاعات البيتين لتكون معرضاً لطراز أو عصر خاص ، كالقاعة التي جمع فيها بعض التحف والأثاث الذي يرجع إلى عصر محمد علي باشا . كما أضاف إلى ذلك كله مكتبة عامرة بالكتب النفيسة عن مصر ولا سيما وصف الرحالة لها .



ش ٥ — قاعة بيت الكريدلية

ولكن يلوح أننا لن ننعم طويلا بمقام جاير أندرسون بك بين ظهرانينا ، فان حالته الصحية تضطره إلى العودة إلى وطنه في انجلترا ؛ ويعمل المجلس الأعلى للآثار العربية على تسلم البيتين الأثريين بما فيهما من أثاث ومجموعات أثرية ليصبحا متحفاً عاما ينسب إلى صاحب هذه الهبة الكريمة .

زكي محمد حسن

(١) من كبار الضباط الانجليز الذين خدموا الحكومتين المصرية والانجليزية في وادي النيل ، والذين أحبوا مصر وآثارها فاتخذوها وطناً ثانياً لهم بعد تركهم العمل الرسمي .

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

خليفة الكومادور

ما كاد الكومادور بيرى ، أمير البحر الأمريكي ، أن يذهب بأسطوله من الساحل الياباني ، وتحت إبطه ، أو في درج مكتبه من السفينة ، تلك الوثيقة التي أمضاها اليابانيون ، والتي بها يأذنون للأمريكيين أن يطأوا أرض اليابان ، حتى تهيأ سائر الأمم من ذوي السلطان في الدنيا ليطلبوا من اليابان مثل الذي منحوه الأمريكان . ولم يطل الزمن حتى نال هؤلاء مثل ما نال أولئك ، وأعطيت لهم كهذه الوثيقة وثائق .

ولم تكن تلك الوثيقة بالذي منحته معاهدةً كاملةً للتجارة المطلقة الكاملة كالتي تكون بين الأمم الأصدقاء ، فكل الذي منحته إنما كان إذناً في مبادلة محدودٍ مقدارها ، محدودٍ مكانها . ولكنها كانت كالأسفين تدقّه في الشق ، أول ما يهمّك منه أن يبلغ بسنّه أقصى الشق ، فإن هو فعل لم يبق لبلوغ المراد منه إلا زيادة دقّه .

وكان الكومادور صاحبَ الأسفين ، وطارقَه أول طرقه . فلما بلغ به ما ظن أن الشق يحتمله دون تهشم جانبيه ، رجع إلى بلاده ، وفيها سلّم المطرقة إلى زميله ، ووارث خطّته ، المستر هارس Harris .

وحضر هارسُ إلى اليابان في عام ١٨٥٦ أولَ سفيرٍ لها . وما لبث أن حاول توسيع ما نالته الولايات المتحدة من منح ، فطرق الأسفين طرقتين وهو في مكانه من ميناء شيمودا ، أحد الميناءين اللذين فُتحا للأجانب بحكم المعاهدة ، فجرى الأسفين ولكن إلى غير بعيد . فوجد هارسُ أن لا بد له من الذهاب إلى رب الأمر والنهي في البلاد ، إلى الشوجن ؛ فمع الشوجن وحده تكون المفاوضة أخصر طريقاً وأجدى نفعاً . وقضى يطلب الإذن ويُلحّ في الطلب عشرة أشهر فلا يجاب . وأخيراً أجيب ، ورضي الشوجنُ أن يتشرف السفير الأمريكي بالمثول بين يديه ، في بلاطه بعاصمة حكمه يدُو Yedo . وأدركت الحكومة خطورة هذه السنّة الجديدة ، وظهر إدراكها إياها فيما أصدرته من أوامر لأعوانها والناس .

قالت في أمر من هذه الأوامر : « إن مثول السفير الأمريكي بين يدي الشوجن تقليد جديد سيطلبه لا شك سائر الأمم من بعد الأمريكان ، ولهذا وجبت عنايتنا به كل العناية . . . وسيترتب على هذه الصلات بالأغراب من الأمم حلٌّ لما انعقد من قديم من قيود وقوانين ، وفي هذا ما فيه من صعوبات بيّنة ، وفيه من الشر ما لا نستطيع أن نتنبأ به اليوم ، لهذا وجب التيقظ لكل دقيقة من هذا الحدث الجديد ، حتى لا تفوتنا فيه فائتة » .

ومن هذه الأوامر ما دلّ على حرص الحكومة على تكريم السفير ، وخوفها في نفس الوقت مما قد يقع في طريقه إلى العاصمة من اضطراب . فقد طلبت في هذه الأوامر إخلاء الطريق من الشحاذين ، وطلبت إلى أصحاب البيوت التي تقع بيوتهم على الطريق أن يقوموا بتنظيف الجزء الذي يخصهم فيها . ومنعت تجمهر المتفرجين ، إلا في مواضع خاصة ، وحرّمت عليهم أن يتجمعوا في نوافذ الطبقات الثانية من الأبنية . وأذنت للراحلين من بلد إلى بلد أن يمضوا على العادة في سبيلهم ، ولكنها أرصدتْ قواتٍ في مراكز الخفر لقمع ما قد يقع من إخلال بالنظام .

وفي عاصمة الحكم تشرف هارسُ بلقاء الشوجن ، ومن بعده اتصل برجاله ، رجال حكومته ، وفاوضهم فيما أتى فيه ، وبالطبع جادلهم فيما يعود على اليابان من تجارة حرّة واسعة تقوم بينها وبين الأمريكان . ولو أنه اقتصر

على هذا الجدل ما يجمع مسماه . فاليابان كانت بصيرة بالتجارة وما يجنى من ثروة فيها ، فقد خبرت ذلك مع الصينيين ، وخبرته مع الهولنديين ، وكانت ما تزال تخبره معهما على تلك الجزيرة الصغيرة المحدودة فى نجازاكى ، بل إنها تحدثت بالكثير من هذه الثروة التجارية قرنين ونصف قرن من الزمان لتكسب أخرى أمم عندها من التجارة . أو على الأصح دعماً لمخاوف أخرى هى عندها أخطر من ثمرات البيع والشراء . فإلى هذه المخاوف وجب أن يتوجه المفاوض الماهر توا ليزيل أثرها من أنفس القوم . وهكذا فعل السفير هارس .

فأول هذه المخاوف كان الخشية من النصرانية ، ودفع ما تجره وراءها من كوارث ، كتلك الكوارث التى دخلت اليابان بدخول الكثلكة فيها ، والتى من أجلها حُرّم على الجزويت دخول اليابان . فى هذا الصدد أكد السفير أن أمته تؤمن بحرية التدين ، وتقبل فى حدودها كل الأديان .

وثانى هذه المخاوف ، وأكبرها ، كان الخشية من الغزو فالاستعمار . بل لعل اليابانيين كرهوا النصرانية ثانياً ، لذاتها ولكنهم كرهوها أولاً لأنها فيما زعموا إنما تمهد للأمم النصرانية سبيل الغزو فالاستعمار . ولم يكن هذا الوقت الذى جاء السفير يفاوض فيه أنسب الأوقات لتبديد هذه المخاوف . فعلى الجانب الآخر من البحر ، على شاطئ القارة الأسيوية غير بعيد من سمع اليابان وبصرها ، كانت الصين تؤدب أدب القوة ، وتصيبت من وقع السياط . فاتخذ السفير الحاذق من هذا الأدب الصارم عند اليابانيين مثلا ، وقرّب آذانهم فأسمعها أكثر مما كانت تسمع من فرقعة السياط ، ليقول لها من بعد ذلك إن أمريكا غير ذلك ، وإنه لا إيمان لها فى استعمار ، وإنها آخذة فى إدراك معنى الديمقراطية بين الأمم بمقدار ما تدرك من معنى الديمقراطية بين فئات الأمة الواحدة وأفرادها . وحكى لهم ما كان من تطوّر فى الولايات المتحدة بعد ما استقلّت هى بأمر نفسها ، واستقل أكثر جيرانها بأمر أنفسهم فى الجنوب من القارة الأمريكية . وذكر لهم ما كان من تقدير الولايات لاستقلال جيرانها ، وذلك باعترافها به أولاً ، ثم بإرسالها السفراء إليهم يخطبون ودّ شعوبها .

وحكى لهم حكاية الرئيس منرو Monroe ، رئيس الولايات المتحدة التى رأسها بين عام ١٨١٧ وعام ١٨٢٥ . فقد كان أكثر هذه الشعوب بأمريكا الوسطى والجنوبية مستعمرات إسبانية ، شبّت عن طوق الرقّ ، فقامت تطلب الحرية من أفواه البنادق . وكانت الدول الأوربية تعين أسبانيا فى حربها الثائرين فى مستعمراتها . وكان من هذه الدول الأوربية فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا . ولم تكن هذه الإعانة بالمجان ، فقد كان لها ثمن تبيت القلب بمدّه فى الظلام ، ولكن لا ينطق به فى وضح الشمس لسان . وعرف منرو أن هذه الإعانة وراءها ما وراءها من أطماع ، وأن هذه الشعوب الأمريكية الصغيرة الناشئة نالت استقلالها ، ولكنه استقلال لا يلبث أن تتمزق أوصاله وحوله تلك الذئاب الجائعة . ففى رسالته إلى أمته ، فى السنة السابعة من رآسته ، أعلن منرو المبدأ السياسى الذى عُرف بعد ذلك باسمه . قال فيما قال : « لقد نالت شعوب أمريكا الآن استقلالها ، وقد حافظت إلى الآن على هذا الاستقلال ، فلم يعد من حق أوربا أن تتجه إلى هذه الشعوب فى طلب استعمار . إن الصراحة ، وما بيننا وبين أمم أوربا من علاقات ودّية ، يدفعاننا إلى الجهر بأننا فى المستقبل سنعدّ أية محاولة تقوم بها أوربا لبسط سلطانها على أى جزء من أجزاء أمريكا عملا يهدّد سلامتنا ويذهب بأمننا . إنه لا يزال فى أمريكا بقاع تخضع لأوربا ، فهذه لن نتدخل فى أمرها . ولكن تلك الشعوب الأخرى التى أعلنت استقلالها ، وحفظته ، وأمّنّا نحن عليه بعد اعتبار طويل ونزولاً على حكم من أحكام العدل مكين ،

فهذه لن تتدخل في أمورها أمة أوربية بقصد الاجحاف بها أو التحكم بأية صورة كانت فيما يريده القدر لها . فان هي تدخلت فقد أخلّت بما بينها وبين الولايات المتحدة من وداد » .

في هذا المبدأ ، مبدأ منرو ، أسهب السفير الأمريكاني لحكومة اليابانية وهو يفاوضها . وخشية أن تظن اليابان أن الولايات المتحدة إنما أرادت بهذا حماية هذه الشعوب الأمريكية الناشئة لتفترسها هي من بعد ذلك ، أورد السفير ما جاء في تفسيرها على لسان وزير الولايات ، جون آدم John Adams ، وهو صاحب مبدأ منرو ، ومؤلفه من وراء ستار . قال : « ومعنى هذا أن كل شعب من هذه الشعوب الأمريكية سيدفع بقوته هو كل محاولة لاستعمار تقع في داخل حدوده » .

ولم يقف السفير عند هذا . فقد ختم حجاجه إياهم بفكرة لعل سر نجاحه كان فيها . قال لهم : هذا هو رأي الولايات في الاستعمار والمستعمرين . فالمحالفة التي تعقدها اليابان مع بلد كالولايات ستكون محالفة معتدلة رزينة ، ظاهرها كباطنها ، تنتفع بها اليابان إذا جاءها سائر الدول يطلب مثلها . فعندئذ تكون الولايات سنّت سنتها ، فلا تستطيع دولة من الدول تخطيها ، أو طلب الزيادة فيها .

فبهذا المنطق وبهذه الصراحة كسب هارس ود الحكومة اليابانية . وأمضيت المعاهدة عام ١٨٥٩ ، وبها فتحت اليابان فوق ما فتحت من الواني ، ميناء يوكاهاما ، وجعلت التجارة بينها وبين أمريكا أكثر حرية وأوسع نطاقاً . وكان للأمريكيين حق الاقامة المطلقة في اليابان .

وبعد إمضاء هذه المعاهدة ببضعة أسابيع ، حضر إلى اليابان سفير انجلترا بالصين ، اللورد إلجين Elgin وطلب منها مثل ما أعطت أمريكا ، فأمضت له مثل معاهدتها الأولى ، وذلك في العشرين من أغسطس عام ١٨٥٩ . ولم يمض على هذا أسابيع حتى حضر البارون جرو Gros نائباً عن فرنسا ، يطلب مثل ما طلب سابقوه ، وفي أكتوبر من نفس العام أمضيت له معاهدة كالتي سلفت . .

وتوثقت العلاقة ما بين السفير الأمريكاني واليابان في أيام محنتها الأولى ، أو على الأقل بينه وبين ما قام في اليابان من حكومة الشوجن ، حتى إنه لما أراد مغادرة البلاد طلبت اليابان استبقاءه .

قال أحد المعقّبين على ما صنع السفير هارس : إن كان معنى السفارة أن ترسل دولة عظمى برجل صادق ليكسب لها في سبيل خيرها وتوسيع استعمارها ، فهارس لم يكن سفيراً ، ولم يكن دبلوماسياً . أما إن كان معنى السفارة ، لا سيما لدى بلاط شرقي ، أن يمثل السفير أسمى المبادىء الأخلاقية لجمهورية كبيرة نصرانية ، فهارس كان خير سفير .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠ في مصر والسودان

٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام

٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

من مجموعة « بريق سراب » :

نزهة ...

يا حبيبي هيـــا بنا نملأ الكو
ن غناء في غـــدوة ورواح
تحت أعطاف ذي الخمائل ثم عبير المسرة الفواح
نتمشى في الروض نستمع العصـــ
فور يشـــدو أغرودة الفراح
يتناجى وإلفه فوق غصن توجتـــه أزاهر التفاح
يبعث اللحن في الفضاء شجيا فيناجي لطائف الأرواح
وتراه يقبل الزهر غريداً طروباً مرفرفاً بالجناح

•••

سر معي يا حبيب كي نتمشى
في هدوء المساء بين الضواحي
لا تدعني في الليل أمشي وحيداً
إنما أنت في الدجى مصباحي
سر بنا للغدير حيث يقيم الـ ناس في عالم من الأفراح
حيث يقضي بنو الفنون الليـــالي
بنشـــيد السرور أو بالنواح
ههنا جدول وهـــذى رياض
باسمات الظلال والأشـــباح
وهنا ترقص القوارب فو ق المياه اللآلئ بالغانيات الملاح
تتهـــادى بهن تحت سماء
نسجت من معاطف الأدواح
يتراشقن في الزوارق بالما ء فيسلبن مهجة الملاح
والنسيم العليل يلعب منهن بشعر نشرنه كالوشاح

(دمشق) **أنور هدى البرازي**

في ليلة العيـــد

يا فؤادي . . . سئمتُ مَرَّ الليالي
وخطاها على نظـــام رتيب
ما تنتها كوارث هـدَّت النفـ
ـسَ وأودت بحلمهـا المرغوب
فكأني بها تمر أمامي موكباً حافلا بكل عجيب . .
أو كأني أتيَّ بعرض السبيل
وهي ركب يضج بالتهليل
ليلة العيد . . . أسفرى عن جديد
أو فكونى نهـايةَ الآباد
ما غَناء الأعمار إن كان آتيـ
ـها كماضيها موحشَ الأعيـاد ؟
ها هو القلب من متاعك محرو
مٌ وها أنت متعــةُ الأوغاد

* * *

آه ! من لي بضحكة من صميم !!
قلب أُخفى بها موات الرجاء ؟
ليست البسمة المضيئة في الوجه
دليلا على الرضا والصـفاء
ويح للناس إن تكن مثل ضحكي
ضحكات لم يجوف القضـاء
فرحةُ العيد جئتِ أتراحي !!
مثل يُتم اليتيم في الأفراح
ليس في العيش ليلةٌ جادها الصة
وُ فأخفي ميعادها المحبـوبا
خليق بمثـلىَ الآن أن يحـ يىَ عيداً بعمره مرغوبا !!
أو يواسى الفؤاد بالنغم البا كي وبالدمع ناحباً وصبيبا

* * *

ليت أن الأعياد تُصنع يوما
لصنعتُ الغداة عيــداً سعيدا
ولَمَا القلبُ في حداه وغنّى وعلى جمـاله المنشودا
وهمَ الناس . . . إنما العيد فن
صاغه الروح من لقاه فريدا

(القاهرة) المهدي مصطفى



https://t.me/megallat أرشيف الشارخ oldbookz@gmail.com

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة: ٩ شارع الكردانى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم: ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٤ الثلاثاء ١٢ من ربيع الثانى سنة ١٣٦١ — ٢٨ من أبريل سنة ١٩٤٢ السنة الرابعة

فهرس العدد

نحو الوحدة العربية:

عوامل الوحدة العربية

تتألف الأمم من عناصر وشعوب مختلفة فى الأصل ولكنها تقاربت مع السنين ، وتوحدت مع الزمان . على أن تقارب الشعوب والعناصر وتأليف أمة مميزة منها ذات مميزات خاصة ، لا يكون إلا بتوفير عوامل الوحدة فيها . ففرنسا مثلا وحدة سياسية ، ولشعبها مميزات خاصة به ، مع أن البلاد الفرنسية ليست وحدة جغرافية . ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ فرنسا رأينا أن الشعب الفرنسى تألف من شعوب مختلفة ، وعناصر شتى ، وأنه كانت لكل شعب منها لغة خاصة به . ولكن لما تفوقت مقاطعة «إيل دى فرانس» ونشرت سيادتها ولغتها شيئا فشيئا ، على المقاطعات المشكلة الآن لفرنسا ، أخذت هذه الشعوب المختلفة العناصر تتقارب ، وأصبحت تتكلم لغة واحدة ، لغة «إيل دى فرانس» . فتوحيد اللغة فى فرنسا قد كون من هذه الشعوب شعبا واحداً ، كما أن ماجريات التاريخ التى تلت تكوين هذا الشعب ، قد كونت الأمة الفرنسية . ففرنسا وليدة فوز تشكيلات حكومة «إيل دى فرانس» التى وحدت اللغة وماجريات التاريخ ، فأوجدت عوامل الوحدة فى تكوين الأمة الفرنسية . «فالأمة هى جماعة من الناس ، لهم لغة واحدة ، ومدنية واحدة ، وميراث تاريخى متماثل أو مشترك ، تربطهم مصالح مشتركة ؛ ويشعرون بالرغبة فى تشكيل وحدة سياسية . فهل هذه العوامل متوفرة فى البلاد العربية ؟ .

***

اللغة من العوامل الهامة فى تكوين مصير الأمم .

فهي موحدة للأفكار ، ومقربة بين الشعوب . والأمم تتألف من شعوب هي واحدة في لغتها وثقافتها ، وما الأمة المؤلفة من أكثر من شعب واحد لغة وعنصراً ، إلا شاذة عن القاعدة . وقد رأينا في المقال الأول من هذه السلسلة كيف أن الشعوب القاطنة « الوطن العربي » من أقاصي العراق حتى أقاصي مراكش ، هي في واقع الحال شعب واحد ، شعب عربي لغة وثقافة ، وما الفروق بين أجزاء هذا الشعب الواحد إلا سطحية ، تنحصر في اختلاف اللهجات العامية ، وعدد قليل من الاصطلاحات والتعبيرات الاقليمية . أما اللغة في المعنى الصحيح فواحدة ، هي اللغة العربية الفصحى ، لغة قريش ، لغة القرآن الكريم . بها يقرأ الجميع ويكتبون . والفروق بين سكان قطر وقطر من الأقطار العربية ، أقل من الفروق بين سكان أقطار البلاد الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية . وهذه حقيقة ظاهرة لا تحتاج إلى تدليل .

وكما أن اللغة وآدابها يؤلفان العامل الأول في تكوين الشعوب ، فالتاريخ يؤلف العامل الأكبر في تكوين الأمة . وتاريخ كل أمة بالطبع متشعب متفرع ، غير أن التاريخ الذي له التأثير في تكوين الأمة هو الذي يعطي تلك الأمة لغتها وآدابها ، ويخلف لها الذكريات القومية . فتاريخ الأمة الفرنسية لا يبدأ من تاريخ هذا الجزء من أوربا الذي يطلق عليه هذا الاسم ، اسم فرنسا ، ولا يبدأ بتاريخ السلت أو الفرنك أو الفيزيكوت ، ولا باحتلال الرومان ، وإنما يبدأ حين أخذت تتكون اللغة الفرنسية

رجاء إلى حضرات الكتاب

ترجو مجلة الثقافة من حضرات الكتاب الأفاضل أن يقدروا ظروف تحديد الصفحات ، وحرص المجلة على تقديم أوفى قدر من المادة في الحيز المفروض ، فيراعوا الإيجاز في الكتابة ، بحيث لا يزيد المقال على ثلاث صفحات . وستضطر المجلة إلى اختصار ما ترى نشره من المقالات التي لا يراعى فيها الإيجاز .

وينشأ الشعب الفرنسي . وهذا كان في القرن التاسع على أبعد تقدير . وكذلك تاريخ سكان شمال أفريقيا ، وبر الشام والعراق ، لا يبدأ بتاريخ هذه الأصقاع من المعمورة ، ولا بتاريخ الفراعنة أو البابليين والأشوريين ، ولا باحتلال اليونان ، ولا باحتلال الرومان ، وإنما يبدأ بالزمن الذي أصبح فيه سكان هذه البلاد شعباً عربياً ، لغته القومية اللغة العربية ، وآدابه وثقافته الآداب العربية والثقافة العربية . فالقرون الثلاثة عشر الأخيرة ، تكون تاريخ سكان الأقطار العربية ، الذي فيه اندمجت الشعوب وتوحدت روحها وثقافتها وعاداتها ، وصهرت آمالها صهراً ، وفيه نالت من السعادة ما نالت ، كما قاست من الشقاء ما قاست ، وفيه لها جميعاً ميراث كبير من مدنية وذكريات . وهذا الميراث هو عماد الأمة العربية إن لم نقل قوامها وكيانها .

ومن الميراث العربي الدين الاسلامي ، وقوامه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله محمد بن عبد الله القرشي . ومع أن الدين ليس من العوامل الرئيسية في تكوين الأمم ، فله في الشرق مكانة هامة ، لتغلغله في كل ناحية من نواحي ثقافتنا العربية . فالدين كعامل من عوامل الوحدة في الوطن العربي متوفر إلى حد بعيد ، حتى إن المثقفين من إخواننا المسيحيين يدرسون الدين الاسلامي ، ويدعون إخوانهم في الدين إلى درسه والوقوف على أحكامه ، لأن تفهم الثقافة العربية ، سواء في الفلسفة أو العلم أو الفن ، لا يتم إلا بدرس الدين

الاسلامى وتفهم روحه ونظامه .

فعامل التاريخ وميراثه فى الشرق العربى متوفر التوفر كله ، كتوفر العامل اللغوى فيه . أما عامل المصالح المشتركة فيمكن النظر فيه من ناحيتين : اقتصادية وسياسية .

عندما اشتدت حركة القوميات فى أوائل القرن التاسع عشر ، وأخذت الأمم تنسلخ من غاصبي حريتها ، وعملت الأقطار والشعوب على نيل وحدتها ، كانت عوامل الوحدات السياسية مستمدة من الماضي ، وهى العنصر واللغة ، فاستقلت على هذا الأساس دول البلقان ، وتوحدت دويلات إيطاليا ومقاطعات ألمانيا . غير أنه أضيف إلى هذين العاملين فى القرن العشرين عامل مستمد من الحاضر ، وهو المصالح الاقتصادية . ونحن إذا نظرنا إلى الأقطار العربية تبين لنا أن اقتصادياتها فى ضعف ، وأن منتوجاتها لا تجد أسواقاً رائجة ، ورأينا أن كل قطر من الأقطار العربية يقيم سداً من الضرائب يحول دون دخول منتوجات الأقطار الشقيقة ، بينما هو يبتاع هذه المنتوجات أو ما شابهها من البلاد الأجنبية ، والأمثلة على ذلك عديدة . فلو أن هناك وحدة بين الأقطار العربية ، وتفاهماً على الأمور الاقتصادية ، لوجدت مصر مثلا لقطنها ولمصنوعاتها أسواقاً جديدة . ولكان على مصانع فلسطين أو مصانع غيرها من البلاد العربية أن تبتاع القطن المصرى بدلا من القطن الهندى ، وأن تستهلك السكر المصرى بدلا من السكر الإيطالى أو الأمريكى ، ولكانت صناعة السكر فى مصر دوما فى ازدهار ، بدلا من أن تكون فى تأخر وإشراف على الهاوية إلا فى أيام الحرب . والوحدة العربية تجعل من الأقطار العربية وحدة اقتصادية قوية الأركان ، تستطيع الثبات أمام الهزات الاقتصادية والأزمات المالية . ويتضح للعيان أن كثيراً من هذه الأقطار يعيش الآن عيشاً اقتصادياً مصطنعاً غير طبيعى بالمرة ، وأن فقر بعضها ناجم من تجزئتها ، ومن تكوين وحدات سياسية من أقطار لا تستطيع العيش الاقتصادى منفردة . فالمصالح الاقتصادية المشتركة بين البلاد العربية ترينا أن زوال التجزئة ، وإيجاد التفاهم ، وتكوين الوحدة ، أمور تؤدى إلى إرجاع الحياة الاقتصادية الطبيعية ، وإلى الانتعاش الاقتصادى ، الذى يتلوه رخاء ورفاهية لعموم الأقطار العربية . .

وها هى الحرب الحالية التى ستقرر مصير العالم إلى ألف سنة ، تفرض إضافة عامل جديد إلى عوامل تكوين الوحدات السياسية ، وهذا العامل غير مستمد من الماضى أو الحاضر ، بل من المستقبل ، وهو يرمى إلى جعل الوحدات السياسية قادرة على الوقوف أمام الهزات السياسية ، والصمود أمام الهجمات الحربية ؛ فقد برهنت هذه الحرب على أن الدول الصغيرة عامل خطر على سلام العالم ، ومنشأ الاضطرابات الدولية والحروب العالمية ، إذ هى هدف لأطماع الأقوياء ، وسبب للنزاع فيما بينهم ، لأنها لا تستطيع المحافظة على حيادها ، ولا تتمكن من إرغام الغير على احترام حدودها ، فمصيرها الزوال من بين الأمم المستقلة ذات السيادة القومية ، وإن بقى رسمها ظاهراً على الخرائط الجغرافية . والأمثلة الواقعية عديدة قرأنا أخبارها ، ونقرأ حوادثها فى الصحف اليومية .

ولإزالة هذه الأخطار ترى السياسة الدولية أن السلام المقبل يقضى بإيجاد وحدة أو اتحاد بين الامم الصغيرة المتجاورة ، وتكوين دولة منها منيعة الجانب ، قوية البنيان ، لا يجرؤ الطامع فيها على التعدى عليها . ولهذه الغاية ترى ساسة البلاد الديمقراطية إلى إيجاد وحدة بين دول أوربا الشرقية ، واتحاد بين دول البلقان .

فالحروب الحالية تضيف إلى عوامل مصير الأمم وتكوينها عاملا جديدا مستمداً من المستقبل ، وهو عامل المصالح المشتركة السياسية . فهل هذا العامل متوفر فى البلاد العربية ؟ .

إن كل قطر من الأقطار العربية — بما فيها مصر — أضعف من أضعف بلد من البلدان الأوربية . والأقطار العربية كانت ولا تزال مسرحاً للنزاع الأجنبي ، وساحة للقتال في سبيل الاستيلاء عليها . وطبيعي أنه لا يستطيع كل قطر منها أن يقاوم منفرداً ، أو أن يصل إلى حياة الحرية ، أو يحافظ عليها . أما تفاهم هذه الأقطار واتحادها على أي شكل من الأشكال ، وتقوية هذا الاتحاد مع مرور الأيام ، فأمور ترقى البلاد العربية علمياً واجتماعياً واقتصادياً ، وتجعل منها أمة محترمة مؤلفة من ستين مليوناً ، ووحدة سياسية لها مكانتها بين الأمم . فعامل المصالح السياسية المشتركة أقوى في البلاد العربية مما هو في أي مجموعة من الدول الصغرى في أوربا . وهذا لأنه جاء ، في البلاد العربية ، متمماً لعوامل تكوين الأمم المتوفر فيها تمام التوفر ، بينما هو في دول أوربا الشرقية ، وفي دول البلقان ، يعمل منفرداً .

* * *

لا أود أن أختم هذه الكلمة دون أن أشير إلى أمرين : أولهما الوحدة الاسلامية ، وثانيهما الوحدة النيلية :

كثيراً ما نرى بعض كبار الكتاب يمزجون بين الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ، ويستعملون هذين التعبيرين كأنهما مترادفان . لقد رأينا عوامل الوحدة العربية والبلاد التي تشملها . أما الوحدة الاسلامية فشيء آخر ، أوسع وأعم من الوحدة العربية . وهي تشمل جميع البلاد التي يدين سكانها بالدين الاسلامي . وهذه البلاد منتشرة في القارات القديمة الثلاث ، وسكانها يتكلمون لغات مختلفة ، ولهم عادات وذكريات تاريخية مختلفة ، ومصالحهم الاقتصادية والسياسية غير مشتركة . فعوامل الوحدة غير متوفرة فيما بينهم . ولهذا فإننا نعتقد أن الوحدة الاسلامية أمر بعيد عن المنال ويحتاج إلى عوامل غير متوفرة الآن .

على أن الوحدة العربية لا تتعارض مع الشعور بالوحدة في البلاد الاسلامية ، بل هي تقوى هذا الشعور ، وتمكن من توثيق الصلات الثقافية الدينية معها .

أما الوحدة النيلية ، التي دعا إليها أحد رجال مصر في مقال نشر في جريدة المقطم بتاريخ ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤١ ، فترمي إلى إيجاد اتحاد يربط أمم وادي النيل ، ويشتمل على مصر والسودان والحبشة وأوغندا وإريترية . ويرى صاحب هذا الرأي أن الاتحاد النيلي هو الخطوة الأولى لتأليف الاتحاد العربي الذي يعقبه اتحاد شرقي يجمع بين الدول والبلاد الاسلامية . والاتحاد النيلي هذا يفرض قيامه على أساس العامل الجغرافي ، وهو عامل لا نرى له وجوداً ، لأن البلاد النيلية ليست وحدة جغرافية . فالفروق الجغرافية شاسعة بين مصر والحبشة ، وبين مصر وإريتريا . هذا علاوة على أن العامل الجغرافي ليس بعامل فعال في تكوين مصير الأمم وتشكيل وحدات سياسية منها . أما عوامل الوحدة ، التي سبق ذكرها ، فمفقودة بين البلاد التي يجري فيها النيل وفروعه . وما لم تتوفر هذه العوامل يستحيل إيجاد وحدة من هذه البلاد ، أو اتحاد بينها ، مهما بذل من جهود في سبيل ذلك .

* * *

نخرج من هذه الكلمة بمجمل يفيدنا أن اللغة والثقافة ، والذكريات التاريخية بما فيها من مدنية وعادات ، والمصالح المشتركة من اقتصادية وسياسية ، هي الأساس المتين في تكوين الأمة ، وخلق وحدة سياسية منها تستطيع العيش والتقدم ، ولعب الدور الذي لها في تاريخ العالم . ونحن على يقين من أن هذه العوامل جميعها متوفرة في البلاد العربية ، ولا يعوق تحقيق الوحدة العربية غير انهماك القادة ورجال السياسة في الأقطار العربية في المسائل الحزبية الإقليمية التي لا تعود على الأمة بفائدة . أما ما يقال من أنه ليس في الامكان تحقيق الوحدة العربية لمقاومة الدول الأجنبية ذات المصالح لها ، فقول يخالف الواقع ، توضح حقيقته في المقال المقبل .

(القدس) يوسف هيكل

على هامش الأسبوع

الدكتور أحمد زكي بك

عودة الميكادو

بقاء الحال من المحال . هكذا قال الناس ، وعلى هذا أمشت الحوادث ، حوادث الفرد ، وحوادث الأسرة ، وحوادث الحكومات وحوادث الأمم . حتى والطبيعة من تحت كل هؤلاء ، ومن فوقهم أيضاً ، تدور بالغير وتأتى عليها من بعد الحال أحوال .

وتلك الأسرة ، أسرة توجوكاوا ، التى حكمت اليابان من عام ١٦٠٣ فى سلام متصل خيّل للناس أنّ ليس له آخر ، لم يأت منتصف القرن التاسع عشر حتى بدأت دعاماتها تهتز ، وأخذ كيانها يرتج ، فلم يأت عام ١٨٦٧ حتى انهار هذا البناء الذى الرفيع الذى ملأ أعين اليابانيين كل صباح وكل مساء ، عاما بعد عام ، وجيلا بعد جيل ، قرنين ونصف قرن من الزمان كاملة . وكان بناءً شاخ وخوّخ ، فتهشّش صَلده ، وتترّب جامده ، فلما وقع ، وقع كما يقع التراب المَهِيل ، فلم يحدث ضجة كبيرة كالتى يحدثها البيت الشديد الذى يسقط فى عنفوانه ، ولم يخلق فزعاً ولا استأثر بالضحايا الكثيرة ، فقد كان سقوطا من بعد تشقق فى الجدران أنذر السكان ، فنجا بنفسه منهم من نجا وكانوا خلقا كثيراً .

لقد كان الحكم فى اليابان فى عهد هذه الأسرة ، وفى عهد الأسر التى سبقتها لقرون ، حكما ثنائيا يقوم به اثنان رجلان : الامبراطور والشّوجن . وكان الامبراطور قديما ، وقديما جداً ، يعيّن الشوجنَ الذى يرتئيه من الأسر الكبيرة ، وكان هو الذى يعزله ، فانقلب الحال ، فصار الشوجن هو الذى يضع على سرير الملك الميكادو الذى يرتئيه ، وهو الذى يعزله ، ولا يثير عزله أىّ حدث فى الأمة ما دام أنّ الميكادو الجديد من ذرية ذلك الميكادو المعزول أو من أقرب الأمراء دماً إليه . وصارت الشوجنة كالمُلك يتوارثها ولد من والد أو نسيب من نسيب فى أسرة واحدة تدوم ما دام لها السلطان . وكان للشواجن كما للأباطرة عواصم مُلك ، وفى عهد هذه الأسرة الشوجنية الأخيرة كانت يدّو Yedo (واسمها الجديد توكيو Tokio) عاصمةَ الشواجن ، وكانت كيوتو Kioto عاصمة الأباطرة . ولم يكن للأباطرة فى قصرهم حُرّاس من عندهم ، فقد كان حرّاسهم من جنود الشوجن ، ولم يكن يؤذن لهم فى الخروج والدخول ، فكان القصر سجناً يدخله سليل الملك ليموت أو حتى يعتزل ، وقد اعتزل من الأباطرة كثيرون . ولم يكن الشوجن فى آخر الأمر ليُمشَى حتى بزيارة الامبراطور فى قصره ، ولم يكن يُعنَى بالنفقة على رجاله كما يُعنَى هو بالنفقة على رجاله . فكان لبلاط الامبراطور الفقر ولبلاط الشوجن الغنى . وكان لبلاط الشوجن مع الغنى السلطان والمظاهر الفاخرة ، وكان لبلاط الميكادو مع الفقر العجز ومظاهر العزّ القديم ، الذى ذلّ فمشى فى حُلَل فاخرة مهلهلةٍ عتيقة ، فيها الرُّقع من قطن على بدن من حرير . وكان للشوجن أمراءُ الحكم ينتشرون فى البلاد انتشاراً ، فلهم الأقطاع ولهم الجاه ، وكان للميكادو أمراء الدم أقاموا حول قصره يَلمقون قطيرة الحياة من أطرافها على استحياء حفظاً للأرماق ، فما أجزتْ وما أغنت . وتكاثروا فى تلك العاصمة ، عاصمة المُلك القديم الحبيس ، فكان منها بهم وبربهم متحفٌ عظيم ، به كل آثار ذلك الجاه الغابر والسلطان العتيق ، متحفُ أحياءٍ أمواتٍ ، أمضوا فى تأسيسه وتأثيثه قرابةَ عشرة من القرون . وما انتصف القرن التاسع عشر حتى أخذت تلك الجثث

تتحرك في صناديقها من هـذا التحف الامبراطوري ؛ فكأن أن قام من بين تلك العظام الشبح المتنكر الذى نشر بنشره تلك الأمة ، وحاها أن تكون مضغة تستمرئ بها بعض البلاعيم ، وأشرق في ظلام هـذا الشرق البعيد شمساً حفر زوقها بعض الأحياء من آبائنا في مصر اليوم .

لقد قام الحكم في آخر أسرة الشواجن في اليابان ، أسرة توجو كاوا ، على مبادىء سياسية ، ونظم عمرانية ، كان ألخصها وأشخصها سياسة تلك العزلة التي غلّقت بها أبواب اليابان دون ما هو أجنبي من العقائد والرجال . وقد امتزجت هذه السياسة بحكم هذه الأسرة ، حتى صارت بعض كنهها والسبب الأول في وجودها . فلما اقتحم الأمريكان أبواب اليابان ، ودخلها من بعدهم من دخلها من أمم أوربا النصرانية ، وأمضى الشوجن وحكومته وثيقة هذا الدخول ، كفر الناس بهذه الأسرة ، وغضبوا على شواجنها لما خابوا في أخطر الأمور التي قامت الأسرة عليها . ونظروا فوجدوا في الأفق البعيد شبح الميكادو يدور في بلاطه يشير أرضه غادياً رائحاً يلعن الخونة الذين مهدوا « للبرابرة » طريق الدخول . ولم يكن في عزلته يدرك كل الذى يجرى عند الثغور ، ولم يكن وهو يعيش على هامش الحياة يدرك حقيقة ما يجرى في غمرة الحياة . فما هي إلا أيام حتى جرت في اليابان صيحة : « سن أو جو إى » ، أى كرّموا المليك . وما هي إلا أيام حتى قطعت تلك اليد التي أمضت تلك الوثائق ، وكانت يد وزير الشوجن الأكبر ، واسمه « لى » . قطعوه في عام ١٨٦٠ ، أى بعد المفاوضة الأمريكية الثانية بعام . ولم يكن رجلاً خواراً ، ولكن رجلاً شجاعاً ، أدرك من قوة الأجانب وعزومها ما لم يدرك اليابانيون ، وعرف ما يكون في الرفض من خطر قد يذهب بكيان الدولة ، فبدا له أن يميل مع الريح كما يميل العشب الطرى فلا ينقصف . وتحمّل تبعة الامضاء وحده ، وهو يعلم أن قومه غاضبون .

وأراد الشوجن أن يحتمى في بلاط الميكادو من الريح السموم العاتية التي هبّت على بلاطه ، فتزوج أخت الميكادو الامبراطور عام ١٨٦٢ . وزاد فزار القصر الامبراطورى — وهذا تنازل عظيم لم يقع من شوجن منذ قرون ثلاثة قبل ذلك — وبقى فيه ثلاثة أشهر كاملة أمره الميكادو أثناءها أن يجيّش الجيوش لطرد « البرابرة » ، فأخذ يفعل .

ولكن الضغط الأجنبي لم يقف عند تلك الوثائق الأولى ؛ ففي عام ١٨٦٢ هجم الغاضبون من اليابانيين على القنصلية الانجليزية وقتلوا حارسين عند بابها . وفي العام نفسه ، اختلط إنجليزى يدعى ريتشاردسن Richardson بموكب أمير على الطريق بين يدّو ويوكوهاما ، فقتله اليابانيون وقطّعوه . وطلبت الحكومة البريطانية الفدية وعقاب الجناة . وكان الأمير شيمازو Shimazu أكبر الأمراء الاقطاعيين وأكثرهم من حكومة اليابان استقلالا ، فأبى الطاعة ، وأبى دفع الفدية . وعندئذ سيّر البريطانيون أسطولهم إلى عاصمة مقاطعته ، وهي مقاطعة في أقصى الجنوب من اليابان ، واسمها ستسوما Satsuma ، وعاصمتها كاجوشيما ، فضربوا هذه العاصمة بقنابلهم وخرّبوا ما خرّبوا فيها . كان هذا في أغسطس ١٨٦٣ .

وفي نفس هـذا العام شق أمير آخر عصا الطاعة ، ومقاطعته تشوشو Thoshu في أقصى الغرب من كبرى الجزر اليابانية ، فصوّب ما لديه من مدافع على سفن في البحر هولندية وفرنسية وأمريكية . فردّت هذه الأمم على هـذا الأمير الثائر بأسطول مؤلف من تسع سفن بريطانية ، وأربع هولندية وثلاث فرنسية ، ضربوا به ميناءه ضرباً شديداً وفرضوا على اليابان فوق هذا غرامة

ثلاثة ملايين من الريالات .

ولم تكن تلك المعاهدات التي أمضاها الفوتشون اليابانيون قد صدّق عليها الامبراطور . فجاء اليابانَ عام ١٨٦٥ سفيرٌ بريطانيٌّ جديد ، فكان أول عمله أن طلب التصديق على المعاهدات ، وطلب أن يفتح اليابانيون غير ماافتتح من موانيهم ميناء كوبي Kobe ، وأوزاكا ، وأن تخفّض اليابان ضريبتها على الواردات فتجعلها خمسة في المائة بدل خمسة عشر . وشفع هذا الطلب بأسطول كالذي ضرب عاصمة ستسوما لعامين قبل ذلك ، سيره إلى ميناء كوبي ، ففيها ضُرب الموعد لاجراء هذه المفاوضات . وكوبي على مقربة من عاصمة الميكادو ، وهي التي لهامن القداسة حظ غير يسير في قلوب اليابانيين . وكانت ذكرى ماصنع الأسطول في عاصمة ستسوما لا تزال عالقة في الأذهان . من أجل هذا أذعن الامبراطور ، ووجّه رسالة قصيرة إلى الشوجن : أنْ أعطهم ما يسألون . وكان هذا رأى الشوجن ورجاله . فلما أعطاهم ما سألوا رجع الامبراطور إلى الفوتشين اليابانيين فعزل منهم من عزل ، وأنزل العقاب بمن أنزل . فقدّم الشوجن على أثر هذا إلى الامبراطور استعفاءه ، وما كانت هكذا تفعل الشواجن إذا اختلفت مع الأباطرة . ولكن الشوجن الآن صار له حال غير ذاك الحال . واستبقى الميكادو استقالة الشوجن فلم يقبلها . ولكن الشوجن مات في عام ١٨٦٦ . ومات الامبراطور بالجُدَرى عام ١٨٦٧ .

وخلَف الامبراطورَ الراحل على عرش اليابان ابنُه ، وكان اسمه مُتسُو هيتُو Mutsuhito ، واتخذ له لقباً مَيْجى Meiji ، ومعناها الحكم المستنير ؛ فحكم اليابان من عام ١٨٦٧ إلى عام ١٩١١ ، أى أربعة وأربعين عاماً ، نقل فيها اليابان من أمة تؤمر إلى أمة تأمر ، ومن أمة تريد أن تدفع العدوان فلا تستطيع ، إلى أمة تعرف كيف تأتى العدوان .

وارتقى مَيْجى العرش وعمره خمسة عشر عاماً . وكان قد تقلّد الشوجنةَ قبل ذلك شوجنٌ جديد ، تقلّدها كارهاً مُكرَهاً . وكانت في الأمة روح قلق بيّنة . وتهيّأت النفوس للثورة ، وتلفّتت الأبصار تنظر أى الرجال يثور . وتألفت عصابة بلغت نيفاً وخمسين رجلا ، منهم ثلاثة أو أربعة من الأمراء الإقطاعيين ، وبضعة آخرون من الأمراء الفقراء ، أمراء البيت الثالث ، ونفر كبير من السموريين حرّكوا الثورة وأداروها . وفي أكتوبر عام ١٨٦٧ أرسل الأمير توسا Tosa إلى الشوجن يطلب منه إلغاء الشوجنة وردّ الادارة والسلطان إلى الميكادو . وكأنما كانت نفس الشوجن تتوق إلى هذا ، فإنه ما لبث أن استدعى كبراء أسرته ، أسرة توجوكاوا ، وأرباب الحل والعقد من عشيرته ، وهم الذين حكموا اليابان خمسين ومائة عام ، وتحدّث إليهم فيما طُلب إليه من إلغاء الشوجنة ، وردّ السلطان إلى صاحب السلطان ، وقال لهم إنه هو راض بهذا ، وإن الخير كل الخير للبلاد فيه . فرضوا بالذى قال في غير مناقشة أو جدال . فلم يَدْرِ حاضرُ هذا الجمع أىّ الرجال أعلى في الوطنية كعبا ، وأثقب في الحوادث بصيرة .

وفي هذا اليوم المشهود ، زالت الشوجنة من الوجود ، واستردّ الميكادو سلطانه بعد ألف عام .

احمد زكى

٢ - نزعة صوفية

ومزاج رمزي

للأستاذ أحمد أمين بك

أهم ما امتاز به هذا الصديق - رحمة الله عليه - شيوع الحب في نفسه ، والسعة العظيمة في قلبه ، كان يحب الصديق ويفهم العدو فيحبه ، ويحب المؤمن ويرحم الكافر فيحبه ، ويحب الحيوان والأطفال ، ويحب الأمة غير أمته والعبادة غير عبادته ، وكثيراً ما ينشد قول ابن العربي :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة
فرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

وقول ابن المعتز :

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

واسع الصدر لكل رأى ، واسع النفس لكل عاطفة ، راحم حتى لمن أساء إليه ، كان يرى أن الناس إذا فاض حبهم وضاق قلبهم عاشوا في كوخ مظلم ، وهو بسعة نفسه وسعة قلبه يعيش في قصر منير ، إنهم يلتصقون بالأرض وهو يحلق في السماء ، إنهم يشقون بالكراهة وهو يسعد بالحب ، إنهم يضجرون لضيق الأفق وهو يرتاح للانهاية .

* * *

يرى كل شيء من الله ، فهو يحب الله ويحب ما صدر عنه ، ويرى كل كراهية منشؤها الجهل ، فمن عرف عفا ، ومن عرف أحب .

له عين ترى محاسن الأشياء ولا ترى عيوبها ، كالمسيح مر هو وأصحابه على جيفة ، فقالوا : ما أنتن رائحتها ! فقال : ما أجمل بياض أسنانها !

* * *

انعدمت في نظره الفروق ، فاجتمعت المتفرقات ، وأتلفت المتباينات ، فالدنيا كلها صفات الله تختلف بالاسم وتتحدد في المسمى . وكان يقول : « إذا رأيته لم تر غيره ، وإذا رأيت غيره لم تره » .

* * *

كان يحب أن يكون من عامة الناس لا من خاصتهم ، فهو لا يحب أن يتميز أمام الناس بعلم ولا بجهل ، ولا بغنى ولا فقر ، ولا بفصاحة ولا عي ، ولا اجتماع ولا عزلة . لذلك كان يختار من اللباس ما لا يمتاز بشيء ، ولا يحب أن ينتمي إلى هيئة ولا جمعية ، ولو كانت جمعية صوفية ، ولا أن يظهر منه ما يدل على تصوفه . يعرفه الناس تاجراً كسائر التجار ، لا يمتاز عنهم إلا بتحرى الصدق في القول والسماحة في المعاملة ، أما جانبه الصوفي فلا يعرفه إلا اثنان أو ثلاثة من خاصة أصدقائه .

كان يرى الطبيعة كتاب الله المفتوح ، فأشجاره صفحة ، وإنسانه صفحة ، وبحاره صفحة ، وكل شيء فيه صفحة ؛ ولكن إن كانت الكتب لا تفهم إلا بواسطة اللغة ، فكتاب الطبيعة المفتوح لا يفهم إلا بالقلب المفتوح ، فاذا انبهم القلب انبهمت الطبيعة ؛ فكان إذا رأى القمر يشع من خلال أوراق الشجر قال : هنا موضع سجدة ، وإذا جلس على شاطئ البحر فرأى تلاعب الرياح بالأمواج فزع إلى الصلاة . وكان يقول إن قلبه

يحقق فى الريف أكثر مما يحقق فى المدن ، وينبض عند الطبيعة العارية أكثر مما ينبض فى المدن الكاسية ؛ وكان يعجبه من الكتب المقدسة أنها كتب تدل على كتاب الطبيعة .

***

كنت ألاحظ دائماً أن تقويمه للناس والأشياء يخالف تقويمنا ، وميزانه يخالف موازيننا ، أرى الناس يقوّمون الناس بقوتهم وبجاههم وبعلمهم وبمقدار النفع الذى يتلقونه من أيديهم ، والضرر الذى يتقونه منهم ؛ ثم أراه شاذاً فى ذلك شذوذاً غريباً ، فيصطفى من لا يُصطفى ، ولا يحتفل بكثير ممن يحتفل به ، وله فى ذلك فراسة نادرة ، فهو يستفتى قلبه ولا يستفتى عقله ، ويحكم روحانيته ولا يحكم ماديته . حدثته فى ذلك فقال إنى لم أصل إلى ذلك إلا برياضة نفسية شاقة علمتنى اليقين بأن النفع والضر بيد الله وحده ، والإيمان بأن خير الناس أنفعهم للناس ، وألا أدخل فى موازينى الظاهر من حسب أو نسب ، وغنى أو جاه ، وقوة بالمنصب وعظمة بما يفنى . اقرأ إن شئت : « أما من استغنى فأنت له تصدّى ، وما عليك ألا يزّكّى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهّى ! » . وهو مع اختلافه عن الناس فى التقدير ، لا يمعن فى التحقير ، فهو يعجب بالأعلى ويرحم الأدنى ، ويكبر العظيم ويحنو على الوضيع ، فالله يتجلى على كل شىء بما ينسجم وطبيعته ، فهو الرافع الخافض ، وهو المعز المذل .

***

أحب حتى عمره الحب ، ولم يتركز حبه فى إنسان ولا فى أسرة ولا مال ، بل شع على كل شىء ، وشع من كل شىء على قلبه ؛ فكنت تقرأ الحب فى عينيه وفى بسمته وفى نظرته للبائس والمجرم ، وفى دمعته تنحدر للكارثة تحدث لمن يعرف ومن لا يعرف ، وفى المال يخرج من جيبه للسائل والمحروم .

وكان يحب السماع حباً جماً حتى كأنه غذاؤه الذى يعيش عليه ، وأكثر ما يعجبه من النغمات الحزين الباكى ، وهو يحب السماع على اختلاف أنواعه من قرآن يتلى بصوت جميل ، أو غناء لمذكر أو مؤنث أو موسيقى أو نشيد ذكر ، وله فى ذلك طرف ، فقد سمع مرة بائعاً جوالا ينادى على سلعة بصوت أعجبه ، فتبعه إذا وقف وقف وإذا سار سار ، حتى نسى غرضه وفوت مقصده ، وكان السماع يوحى إليه بالمعانى الغزيرة ، فتراه وهو يسمع وقد كاد يغيب عن وعيه لكثرة ما يفكر فيما أوحى إليه سماعه .

أعجب ما كان يعجبنى منه موقفه أمام الكوارث والمصائب ، فقد يصاب فى ماله وقد يصاب فى ولده فاذا هو مطمئن ثابت كأنه فيلسوف يرى فقدان الولد كما يرى القانون الطبيعى فى ذبول الوردة وسقوط أوراق الشجر ، قد يحزن ولكن لا يلتاع ، وقد تدمع عينه ولكن لا يجزع ؛ بل كان أكبر من الفيلسوف ، فقد رأى الدنيا على حقيقتها فلم تخدعه ، وتمثلت له كما تتمثل الرواية على الشاشة البيضاء ، ففهم ما سيكون والمآل إلى ما يحدث ، فلم يفجأه الحادث فيفزع ، ولا الموت فيجزع ، فهو مطمئن عند الأخذ والعطاء ، والصحة والمرض ، والموت والحياة .

***

كان يرى أن الدين روح ، وإذا كان روحاً فهو خالد خلود الروح ، وأن خير أيام الأديان أيامها الأولى ، لأنها تكون حية حياة الروح ، ثم تفقد روحانيتها شيئاً فشيئاً ، وتتجسد بأشكالها ، فتكون تافهة تفاهة الجسد ، ميتة ميتة الجسد ؛ ومن حين إلى حين يبعث الله من يفهم روح الدين ويحيى بها ويدعو لها ، وقليل ما هم .

كان يسمع القرآن فيولد منه معانى بعيدة حسب

مزاجه الرمزى ، لا يزعم أنها تفسير ، ولكن يقول إنها إلهام الآية كما تلهم المناظر الجميلة المعانى الجميلة فى قلب الفنان والشاعر .

ولست أنسى رمضاناً من الرمضانات منذ عشرين عاما ، قضينا لياليه فى بيت صديق طبيب ، أنعم الله على أبيه بالثراء وبنعمة الأعيان ، وبمحافظته على تقاليد البيوت القديمة ؛ فكان رمضان فى بيته منظراً جميلا من مناظر الماضين قبل أن تغزوهم المدنية الحديثة ؛ فترى على باب البيت عند الافطار طائفة كبيرة من الفقراء يوزع عليهم الطعام ، ويفطر على المائدة أشكال وألوان من أصدقاء أبيه ، ويسمع أذان المغرب والعشاء من داخل البيت ، ويتعاقب بعد صلاة العشاء والتراويح ثلاثة من أحسن القراء صوتاً وأحسنهم أداء .

فكنا نجلس ثلاثتنا نستمع للقرآن ، ونتحدث حول ما نسمع من آياته ، فكان صديقنا الصوفى يُغرب فى التأويل ، وأبدع ما كان عنده تأويله قصص القرآن على أنها رمز ، كفهمه لقصة آدم وحواء ، وقصة إبراهيم وابنه الذبيح ، والاسراء ، ونحو ذلك ، لعلى أجهد ذاكرتى يوما فأستحضر ما كان يقول — رحمة الله عليه

أحمد أمين

حكمت محكمة العرقبة العسكرية بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ فى القضية رقم ١٨٩٨ سنة ١٩٤١ بتغريم كل من فاطمة أحمد شاهين وأمام إبراهيم عطية من بلبيس جنيه لامتناعهما عن بيع ذرة بالتسعيرة .

حول التجديد في التعليم :

مميزات المدرسة الحديثة

تطورت أساليب التربية مع الزمن تبعاً لتطور المثل العليا التي تسود كل عصر من العصور ؛ فلما كانت القوة الجثمانية خير غاية للانسان ، أقيم صرح التربية على هذا الأساس ، وعني بتقوية الجسم وتمرينه على أنواع الرياضة وضروب الفروسية . ولما اتجه الفلاسفة نحو العناية بالقدرة الكلامية ، وقرع الحجة بالحجة ، تسيطرت هذه الفكرة على القائمين بتربية النشء .

ثم استولى على الانسان الاعتقاد بأن أسمى الغايات هي أن يحصّل المرء من العلم والمعرفة أكبر قسط . وعندئذ أخذت السلطات التعليمية تتنافس في تزويد الناشئين بالمعلومات علهم يحيطون بعلم الأقدمين والمحدثين . فتزايدت ساعات العمل الدراسي وتضاعفت المناهج ، وازداد الحمل على التلميذ المسكين .

ثم وضعت السلطات التعليمية غلاً عتيقة بغيضة ، وأطلقوا عليها اسم الامتحانات ، وأحاطوها بجو رهيب مصطنع لا يقيس في التلميذ سوى ذلك القدر الذي استظهره من تلك المواد التي تعلمها . واصطبغ التعليم بصبغة ميكانيكية . وانتشر هذا التعليم ، وكثر عدد الخريجين وامتلأ بهم السوق . وإذا ما كثرتم بعجز من الناحية في الحياة ومن النجاح في أعماله . وعندئذ أخذ كثير من المربين يتساءلون : هل هذا النوع من التعليم هو خير الأنواع ؟ وهل هو عدة مناسبة للنشء في الحياة ؟

وفيما كان رجال التربية يراجعون أنفسهم في أغراضها وأساليبها كان علم النفس يتقدم بخطوات واسعة ، وتتطور بحوثه ، وتصطبغ بالصبغة العملية التجريبية ، فدرست الطفولة في مختلف مراحلها ، وانتهى علماء النفس في القرن العشرين إلى مبادئ عامة أهمها :

أولا — أن لكل مرحلة من مراحل نمو الانسان جسمياً وعقلياً خصائص ومميزات ؛ فالدور الأول من الطفولة مثلا أهم مميزاته اللعب ، وما يتجلى فيه من نشاط وما يبدو فيه من خيال واسع .

ثانياً — أن لكل فرد مميزات واتجاهات خاصة تتكون منها فيما بعد شخصيته ، وأن نشاط الطفل الحر يكشف عن استعداداته الخاصة ومواهبه الكامنة .

ثالثاً — أنه يجب للاعتبارين السابقين أن تكون دراسة الطفل والاهتمام بألعابه وميوله والحياة الخاصة التي يحياها مع رفاقه هي الأساس الذي تبنى عليه أساليب التربية . فالطفل إذاً يجب أن يكون هو المركز الذي يدور حوله تفكير المربين .

وظهر من علماء التربية فريق يدعو إلى تطور أساليبها تبعا للاعتبارات السابقة . وبجهود هؤلاء المربين ظهرت في ربع القرن الأخير طرق جديدة طبقت في مدارس خاصة . نتكلم الآن عن أهم مميزاتها :

كان الطفل في نظر المربين فيما مضى كائنا وديعاً مستقبلا . وكانوا يشبهون عقله بلوح تنطبع عليه نتائج التعلم انطباعات ثابتة ، ويصورونه وهو جالس منصت كقطعة من الطين يشكلها المعلم كيفما شاء . وهذه الحقائق فيها كثير من الصحة ، ولكنها تهمل عنصراً أساسياً ، هو أن الطفل كائن حي ينمو بنشاطه الذاتي ويتفاعل مع الوسط والبيئة التي يعيش فيها والحياة الزاخرة بالنشاط التي يحياها .

ولكي يُستغل نشاط التلميذ الذاتي أو فاعليتُه (his activity) يجب أن يجد الطفل من نفسه باعثاً داخليا يستثير فيه هذا النشاط ؛ وخير وسيلة لذلك إثارة الشا كل

أمامه أو عرض المشاهد والموضوعات بصورة يجد فيها التلميذ مسائل تتطلب الحل . وصعوبات يستشعر رغبة في التغلب عليها .

فالمشكلة هي الحافز على النشاط العقلي استجابة لميول حية في نفس الطفل . وذلك النشاط يمده بالمعلومات التي يجد لذة كبرى في الحصول عليها ، والتي تنطبع في نفسه ثابتة لا تمحى ، والتي تتفاعل مع معلوماته السابقة ، وذلك على عكس الحقائق التي كان يتلقاها التلميذ من مدرسه فتملأ ذاكرته دون أن يكون لها أثر ثابت أو تفاعل محسوس مع ماسبقها من معلومات ؛ ولكل واحد من كبار المربين طريقته الخاصة في تحقيق ذلك الغرض ، فدكرولي له طريقته ، ومونتسوري لها طريقتها ، وهيلين باركهرست لها طريقتها المعروفة بطريقة دولتن ، وكلباترك له طريقته المعروفة بطريقة المشروعات ، وهكذا .

هذا إلى أن المدرسة الحديثة قد اتخذت صورة مجتمع حي يعيش فيه الأطفال على النسق الذي سيعيشونه في المستقبل كأفراد في مجتمع إنساني يتساوون على تحقيق أغراض وضعوها نصب أعينهم . فهم يجتمعون فيما بينهم وينتخبون ممثليهم لادارة شئونهم ومحاسبة المقصرين أو المذنبين منهم ، ويرسمون الخطط لتنفيذ ما يتراءى لهم القيام به من أعمال ويقوم كل بقسطه بأمانة وحماسة .

وهذه كلها الأسس التي تقوم عليها الحياة الديمقراطية الصحيحة والتعاون الفعال بين المواطنين على اختلاف استعداداتهم وطبقاتهم ووظائفهم في الحياة ، تبذر بذورها كلها في الطفل وهو في المدرسة ؛ فنحن هناك نعده للحياة بواسطة الحياة نفسها .

وكان من أثر الاهتمام بالنشاط الذاتي للطفل أن تغيرت معالم المدرسة تغيرا أساسيا . فبعد أن كانت مجرد فصول تشغل كلا منها فرقة من الفرق ويتناوب عليها المعلمون بالتوالي ، أصبح يخصص في كثير من المدارس فرقة لكل مادة يطلق عليها اسم المعمل ، وتحتوي الأجهزة والكتب والمراجع والأدوات اللازمة لدراسة هذه المادة دراسة عملية ، يقوم بها التلميذ معتمدا على نفسه تحت إشراف المعلم وبتوجيهه توجيها غير محسوس .

وفي كل مدرسة ورش للأشغال اليدوية يصرف الطالب فيها وقتا طويلا لتدريب يده وتعويدها الدقة والمهارة . وأعطيت للتلميذ حرية واسعة في التصرف في كثير من ساعات الدراسة يشغلها بالدرس أو العمل اليدوي بالكيفية التي يراها .

وتطورت دراسة العلوم تطوراً محسوساً ، بحيث أصبحت تؤدي إلى غرس الروح العلمية الحقيقية في التلاميذ ، تلك الروح التي تحملهم على تفهم الظواهر وإدراك مسبباتها ، والمناقشة في كل رأي ، فلا يسلمون بصحته إلا من عقيدة واطمئنان بعد إجراء التجارب اللازمة للتأكد من اتفاق ذلك الرأي والقوانين الطبيعية المعروفة وانسجامه معها .

وأما بقية المواد فقد عني في دراستها بالكيف لا بالكم ، فقدار المعلومات التي يحصلها التلميذ لا أهمية له ، وإنما المهم هو العناية بترقية أسلوبه في التفكير ، وبتعويده طرائق البحث ، فيكفي في التاريخ مثلا أن يدرس التلميذ بنفسه أي عصر من العصور (بمناسبة حافزة كتمثيل رواية) يدرسه دراسة مستنيرة عميقة ، بعناية واهتمام وتحمس ، تحت إرشاد المعلم ؛ فاذا احتاج في المستقبل إلى دراسة عصر آخر استطاع أن يدرسه بنفسه ، معتمداً على خبرته السابقة .

والتربية البدنية وما تحتاج إليه من أفنية وملاعب وتنظيمات ، تنال أكبر قسط من العناية ، لأنها مجال فسيح لترويض النفس وتهذيب الخلق وتمرين الطالب على حسن المعاملة والتعاون بمعناه الكامل الصحيح .

شكســـــبير

[مدينته وحياته — مدرسة الحياة ووحي الطبيعة ، أثرهما في تكوينه وصقل نفســه — آراء في نشأته — ظهوره في لندن وعلو كعبه على مناقسيه — مسرحياته . أغانيه . أثر حياته الخاصة في كتاباته . صلته باللورد أسكس — وفاؤه لمهنته ... ...]

تفتحت عينه للحياة في مدينة استراتفورد أون أفون وسط خمائل الزهر وعلى ضفاف نهر الأفون ، فتعشق الطبيعة الخلابة ، وملأ منها نفسه وحسه ، فانطبعت روحه بالجمال واستجابت إلى وحيه ؛ فلما اشتد عوده وترعرع تفتق ذهنه عن شاعرية جبارة أعجزت القرون والأجيال . ولا عجب في ذلك ، فــكل النابغين قد وعوا في صباهم صور الحياة حولهم ؛ فلما انطلقت شاعريتهم ملأوا شعرهم بها . . . كانت استراتفورد إذاً مهد العبقرية بما حبتها الطبيعة من جمال يبعث الفكر ويوحى بالشعر والخيال .

يختلف الناس في حياة شكسبير الأولى ، وتكثر الروايات والقصص حول طفولته وشبابه ؛ ففريق يذهب به الخيال بعيداً فيباعد بين منبته وفنه ليثبت للناس أن ما فعله شكسبير كان ضربا من الاعجاز ، لا تقوى عليه روح بشر ، فيصورنه جزاراً يذبح الشاة بمهارة ويسلخ جلدها تارة ، وقائداً للخيول عند باب المسرح تارة أخرى ، حتى أتاه الوحى فجعل منه رجلا جديداً . . .

ولا شك أن مثل هذه الآراء ، وإن أثارت روح التندر والفكاهة ، فهى لا تعتمد إلا على الحدس والتخمين . فكل ما نعرفه عن شكسبير أنه ولد لأبوين من متوسطى الحال ، وعاش في كنفهما يدرس كما يدرس الأولاد في أيامه في مكتب القرية ، ويسمر كما يسمرون بالاستماع إلى القصص وحكايات الجن والعفاريت . وقد وعى شكسبير في دراسته قدراً من اليونانية واللاتينية أعانه على القراءة بهما ، واستطاع بذلك أن يقرأ شعر أوفيد في أصوله . على أن الأيام لم تلبث على جانبها اللين ، بل قلبت ظهرها لأبى شكسبير ، ويقال إنه اضطر إلى إلحاق ولده في خدمة أحد النبلاء من الكاثوليك كمنشد في الحفلات الدينية ، كما كانت عادة أهل العصر . ولعل هذا الرأى يفسر لنا كيف صار شكسبير ممثلا وكيف استطاع أن يكتسب معارف من أهل الطبقة الراقية لا تقل من خبرته بأهل الطبقة المتوسطة ، إذ أن التدرج من الانشاد إلى التمثيل تدرج طبيعى تدعو إليه ظروف الفتى عند بلوغه . ومهما يكن من شىء فان شكسبير لقى الحياة في لندن مزوداً بالخبرة الكافية من العالم وأحواله ، مما لا يتحقق لو سايرنا

هذا إلى فوائدها المعروفة كسلامة الجسم وصفاء الذهن وهدوء الطبع .

وأخيراً نشير إلى أنه يبدو على تلاميذ المدرسة الحديثة اشارات تنم عن السرور والمرح والسعادة ، واشارات أخرى تنم عن الرجولة وقوة الشخصية والاعتزاز بالنفس . كما أن تصرفاتهم تكشف عن بعد في الأفق ، وسعة في الحيلة وسرعة في البديهة ، ومرونة تعينهم على إحسان التصرف في كل موقف ، والتخلص من كل مأزق . هذا إلى أنهم يكونون أغزر مادة في كل العلوم ، لأن ما حصلوه منها قد استقر في ذهنهم للحافز الذى حاهم على تحصيله واللذة التى وجدوها فيه .

ولعل خير ما نختتم به هذه الفقرة ذكر الغرض الذى وضعته نصب عينها الهيئة الدولية المعروفة « برابطة التربية الحديثة » . وهو نشر الاصلاح التعليمى ، وترقيته بحيث يستطيع كل طفل أن يتلقى التربية الكفيلة بإظهار شخصيته الكاملة ، وتنميتها نمواً متزناً ، وإعداده لادراك التبعات الاجتماعية الملقاة على عاتقه ، واضطلاعه بها على خير وجه .

أحمد عبد السلام الكرداني

الغرض القائل بأن حياته الأولى كانت بعيدة عن فنه .

زودت الطبيعة وليم عادة لا تفنى من الجمال ظلت معينه الذى لا ينضب ، كما زودته الحياة بمادة قصصه ورواياته؛ فقد عاش وليم فى عصر ملىء بالمفاخر والحوادث ، عاش فى عصر اليزابث الذى سجل فيه لبريطانيا النصر على منافسيها فى البحر فى حرب الارمادا . على أن شكسبير الرجل قد صقلته الأيام وهو لم يزل بعد غض العود ، فأحب وتوله فى حبه ، وليس كالحب يلهب النفوس ويلهم الأفئدة ويفتق الأخيلة . أحب وشقى فى حبه وحيل بينه وبين محبوبته فأرسل الزفرات ألحاناً والشكوى أشعاراً عاشت مع الزمن . أحب آن من كل قلبه ، فلما حيل بينه وبينها تزوج من آن أخرى لعله يجد فيها سلوة تنسيه آلام حبه الأول .

نزح شكسبير إلى لندن ليعمل بها بعد أن تكاملت له أسباب الحياة ؛ وأول ما يعرف من ظهوره على مسارح لندن إشارة مبهمة فى كلام أحد المؤلفين المسرحيين فى ذلك الحين يدعى « جرين » عن ظهور نجم جديد فى عالم التأليف ليس من رجال الجامعات ولا من محترفى التأليف ، إذ كان التأليف المسرحى حينذاك يحتكره جماعة من نوابغ الجامعة أمثال « جرين وللى وناش » . فكان عجيباً أن يجرؤ شاب لم يتجاوز العشرين ربيعاً على أن يحارب هؤلاء الثقات فى أرضهم وأن يقحم نفسه فى فنهم الذى كرسوا له حياتهم .

أحفظ ظهور هذا الحدث صدور أهل الفن ، ونعتوه « بالغراب الذى يتحلى بريش الطواويس » ، مشيرين بذلك إلى أن شكسبير كان يستعمل أصول رواياتهم ويخرجها فى ثوب آخر قشيب . حاول هؤلاء أن يطفئوا نور هذه الشعلة بأفواههم فلم يفلحوا ، وعاش شكسبير على رغمهم ، وحالفه الحظ فمات أكثرهم فى سنين متقاربة ، وخلا له الجو دون منافس ، فأصبح يخرج للناس كل عام ثلاث روايات أو أربعاً تضج استحساناً لها مجتمعات لندن الراقية . . . وجذب هذا النجاح الذى صادفه شكسبير النبلاء إليه ، فأخذوا يغمرونه بعطفهم وتشجيعهم ، حتى أضحى صاحب مسرح كبير فى لندن وخلعت عليه ألقاب الشرف ، وأصبح هو ورجاله فى خدمة الملكة . وكان أظهر هؤلاء النبلاء اللورد « اسكس » صاحب الحظوة عند الملكة اليزابث ، وقد حباه بالرعاية ووجد وليم فى رعايته معيناً على اجتياز الأيام السود التى أغلقت فيها المسارح بسبب الطاعون ، فقد اتخذه صاحباً ومشيراً . وعاش معه طوال هذه الفترة يسليه ويذهب عنه السأم بما يؤلف له من أشعار وما يمثل له من روايات . . . وكانت أولى مقطوعات شكسبير الشعرية Venus anb Adonis مهداة إلى اللورد اسكس حثاً له على الزواج . وقد لقيت هذه المقطوعة من النجاح ما لا نظير له ، فقد طبعت سبع مرات خلال سنوات قليلة ، وأحدث ظهورها ثورة فكرية ، لأنها كانت أول شىء من نوعه يعالج فى صراحة الحب الجنسى و« لذة الجسد » ، هى قطعة من الفن السامى تشرك بالجمال والجلال . وأعقبها مقطوعة أخرى «Rape ot Lucrece» نظمها على طريقة أخرى وتحدث فيها عن العفة والدعوة إليها كأحسن من تمثلوا ، وأثبت بذلك أنه شاعر يتغنى باللذة تارة وبالعفة أخرى ، ثم جاءت بعدها مقطوعاته الثنائية «Sonnets» .

ظل شكسبير يتدرج فى الشهرة عاماً بعد عام ، ويرجع ذلك لأمرين : الأول انقياد المعانى الشعرية له مع سلاسة العبارة وحسن الوقع الموسيقى فى مقطوعاته الشعرية ، ورقة التناول وجمال التنسيق فى كوميدياته — عالج شكسبير أول ما عالج الكوميديات ، وكانت قدرته على خلق الشخصيات الكوميدية أظهر ما تكون فى الطبقات الدنيا . وظل شكسبير يسير مع الزمن ، وكلما تعمق فى دراسته للطبيعة الانسانية وللحياة ، أحس بالمأساة وأثرها ، إلى أن انتهى أخيراً إلى أن الحياة كلها مأساة طويلة ، فهجر الملهاة بعد أن رسم فيها الطريق وحدد الغاية ، وبعد أن ترك آثاراً فيها لن تمحو ذكراها الأيام . فشخصية « فلستاف » الفذة التى طرب لظهورها أهل لندن فى ذلك الحين لا تزال محببة إلى الناس فى كل مكان . ولقد

اضطر شكسبير أن يظهرها في سلسلة من الروايات إجابة لرغبة الشعب وتنفيذاً لمشيئته ، حتى إذا ضاق بها تخلص منها بالقتل في رواية هنرى الخامس .

ترك شكسبير الكوميديات ، وعكف على إخراج « التراجيديات » . ولا بد لهذا التحول من المرح الدائم إلى الحزن والكآبة من سبب في نفس الشاعر ، إذ لا يمكن بحال أن نفهم أن شاعراً خالداً مثل شكسبير يتخذ من فنه صناعة فحسب ، صناعة آلية ، لا تعبر عن حس نفسي ولا شعور وجداني ؛ بعيد جداً أن يخلد فن شكسبير إذا لم يكن يعبر عن حس صادق ، وعن شعور بالحياة التي تضج حوله . لا شك أن فن شكسبير مهما قيل في بعده عن التقيد بحوادث الزمان الخاصة ، وفي تجافيه عن أن يكون صدى لجيل بعينه ، هو ترجمان لعصره ، كما هو لسائر العصور . فالباحث الدقيق لا تخفى عليه لفتات شكسبير في كل رواياته لحوادث عصره . . . شكسبير عاش في كنف اسكس أكثر حياته ، ولقي من بره وعطفه ما جعله يرتبط به أشد ارتباط ، ويرى مصيره مقيداً بمصيره . لم يترك شكسبير فرصة تمر دون أن ينتهزها للتعبير لوليه من حبه الخالص وإعجابه الدفين . . . شكسبير يحيي عودة اسكس من أسبانيا منتصراً وكيف تلقاه أهل لندن بالتحية والإكبار ، ويخلد هذا الحادث في رواية من رواياته هي هنرى الخامس .

لم يكن عجيباً إذاً أن يتملك الجزع نفس شكسبير ، وأن تطلق روحه المرح ، وأن يزهد في إضحاك الناس ، وهو حزين النفس لمقتل سيده وباعثه اسكس ؛ فقد قبضت الملكة على « اسكس » ، وألقت به في غياهب السجن ، ثم أمرت به فقتل ، وهو لما يزل في ريعان الشباب والفتوة . وأنهم وليم بعنايته الأمير الفتى والعمل على نصرته ؛ ولكنه — وإن استطاع أن ينجو برأسه ، وأن يثبت إخلاصه وولاءه — لم يستطع أن ينزع من قلبه الألم ، والحب للفتى ، حزنه على فقده ، وتبرمه بالدنيا من بعده ، وهو الذى يقول فيه :

فإذا ما مات وقضى ذهب معـــه الجمال
وإذا ما ذهب الجمال عادت الفوضى السوداء إلى الدنيا

أجل ملأ الحزن نفس شكسبير وطغى عليها ، فلم تعد مزاميره ترتل ألحان الفرح ؛ أذهلته الفاجعة فلم يدر ما يقول ، ويحدثنا التاريخ أنه هجر الكتابة ثلاث سنين (١٦٠١ — ١٦٠٣) . وكل الذى نعرفه له في هذه الفترة رواية « هملت الخالدة » ، وقد ألفها تنفيساً عن صدره المحزون ، وتخليداً لذكرى اسكس المحبوب . فالذى يدرس نفسية هملت وروحه الحائرة وفلسفته الغامضة وتبلبل أفكاره ، وتردده بين السوداوية حيناً والمرح حيناً آخر ، وحبه للفن والمسرح ، وكرهه للنساء وفروسيته وشبابه وجماله ، وضيقه بالدنيا ، وتردده بين هذا وذاك من الأفكار لتحقيق غرضه ، يجد فيها صورة صادقة لنفسية اللورد اسكس . أراد شكسبير أن يخلد اسكس في كل شيء ، فكتب هملت ليعرض قضية اسكس على مواطنيه ، وليتركها تراثاً خالداً يحير أفكار القارئين من بعده . ليس هذا كل ما في « هملت » من جمال وروعة ، فهملت مليئة بصور الحياة التى تحتاج إلى التأمل الطويل . وياليت شكسبير انتهى بنا عند حل لمشكلتها ، بل تركها لنا لأنها مشكلة الحياة ، مشكلة الخلق ، والناس في أمرها حيرى ولن يزالوا . . . .

خلق شكسبير إذاً المرح من شعور نفسي أولاً ، ومن حس بما حوله ثانياً . فقد كانت السوداوية والكآبة تتملك نفوس كثير من الناس في أواخر عهد اليزابث ، وقد سخر منها شكسبير أول الأمر عندما كان بعيداً من الحس بها . فنحن نراه يصور هذا الاتجاه عند الشبان ، ويضحك منه عند ما صور لنا « جاكويز » الفيلسوف الحزين في رواية « كما تحب » . فلما وقعت الكارثة وأحس

بها شكسبير فطن لهذا الشعور الذي يمتلك الناس ، وأحبه وأجازه واتخذه وحياً وهدفاً . . .

على أن السوداوية والكآبة في الأدب والكتابة وإن كانت مفتعلة أول الأمر ، فقد صارت تعبر عن حس صادق عندما ماتت الملكة اليزابث وتولى جيمس الأول العرش ، وبرم الناس بالأيام الثقيلة والأعباء الجسيمة التي وقعت على رءوسهم أيامه — فعمق هذا الهوة وزاد الجرح نزفا ، وأصبح الشعر والأدب والروايات وحتى العظات في الكنائس مملوءة بهذا الطابع الجديد .

تعبر إذاً مآسي شكسبير الخالدة (هملت وعطيل ولير ومكبث) من شعور شخصي ، وتفصح عن حالة روحية تملكت نفس الشاعر . ولا غرو فالخالدون أمثال دانتي وملتون لم يصلوا إلى مرتبة الخلود إلا بتسجيل حبهم الخاص وما لقوا في سبيله في أشعارهم الغنائية . وصل شكسبير القمة في هذه المآسي ، ورسم النفس الانسانية أوضح صورة ، وقرب إلى الأذهان غرائزها وميولها ونزعاتها ، ووضع في الميزان عوامل الشر وعوامل الخير ، وتركها تقتتل ، فينتصر الخير حينا وينتصر الشر أحيانا ... وأصبحت القراء تذكر فيذكر معها شخصية من شخصيات شكسبير ، فالغيرة تقترن بعطيل ، والغدر بإياجو ، والوفاء بروميو .

ظل شكسبير عشرين سنة يغذو المسرح بلبان أفكاره ، ويقدم من قلبه ودمه مقداراً لست وثلاثين رواية ؛ حتى إذا بلغ القمة وتوفرت له أسباب النعمة هجر الكتابة والمسرح في سن الثامنة والأربعين ، وعاد إلى حياة الهدوء في ريف استرافورد ، يستجم من عناء العمل ، ويطلب الراحة في ظلال الوادي الذي أولع بحبه والذي أوحى إليه بالشعر والخيال . وهكذا قضى شكسبير وفيا لمدينته كما عاش وفيا لولي نعمته .

وفي سن الثانية والخمسين قضى نحبه ، تاركا للعالم تراثا من المعرفة ونبعاً من الحكمة ونورا من الفكر الصافي لا يزال يرتشف منه الناس ويهتدون بقبسه .

مصطفى طه حبيب

من هنا وهناك

المظلة الواقية (الباراشوت)

بينما كان السيد سيباستيان لينورمان Sebastien Lenormand جالساً فى مكتبته فى أحد أيام صيف عام ١٧٨٣ ، دق جرس الباب الخارجى . وكان يسكن شقة فى الدور الخامس بإحدى العمارات فى ضواحى باريس . ولما تكرر صوت الجرس ولم تبلغه الخادم بالقادم ، قام بنفسه وتوجه نحو الباب ، وكم كانت دهشته عند ما رأى أن الطارق لم يكن سوى نفس خادمه ، فاستشاط غضباً وقال :

— لم ذهبتِ إلى السوق تاركة عملك دون أن تخبريني ؟

فأجابته الخادم على الفور : إنى لم أترك عملى ياسيدى .

— إذاً من أين أتيت ؟

قالت الخادم وما زالت مفاصلها ترتعش .

— لقد كنت واقفة على حافة نافذة أنظفها ، ثم زلت قدمى فهويت إلى الأرض . وكانت معجزة من عند الله إذ رأيت نفسى أهبط ببطء شديد نحو الشارع . وما هى إلا برهة قصيرة حتى لمس الأفريز قدمى ، ووجدت أننى لم أصب بسوء ! ومررت بين دهشة جماهير الشارع وفزعهم ، وقد حسبونى شبحاً أو عفريتاً يتسلق النوافذ . فمنهم من تنحى ، ومنهم من فر هارباً من أمامى ، وجئت ياسيدى لأبلغك الأمر !!

تحقق السيد سيباستيان من صدق كلام خادمه عند ما رأى أن جمعاً غفيراً من الناس كان قد اجتمع تحت المنزل ، وأخذ بعض منهم يتطلع إلى طابقه ويشير نحو النافذة التى سقطت — بل على الأصح هبطت — منها الخادم .

* * *

تلك كانت قصة المظلة الواقية ، أو على وجه التحقيق تلك كانت الفكرة الأولى التى أوحت باختراعها . وعلينا أن نذكر أن الجزء الأسفل من أثواب نساء ذلك العصر كان مخروطى الشكل فضفاضاً عند طرفه يشبه تقريباً شكل المظلة الواقية .

* * *

وبعد بحث استغرق عاماً كاملا عرض سيباستيان فى حفل حضره علية القوم أول مظلة ظهرت فى تاريخ الاختراع ، فجاء بسلة ووضع فيها كلباً ، ثم علقها فى المظلة وقذف بها من فوق برج منبلييه ، فنزلت تتهادى بين تصفيق وتهليل الجماهير . وقد سميت بالفرنسية Parachute وهى كلمة مكونة من جزءين منفصلين هما Para بمعنى « ضد » ، Chute ومعناها « سقوط » . وكان سيباستيان يرى أنها ذات فائدة عظيمة ، إذ يمكن استخدامها والنزول بها فى حالة شبوب الحرائق ، وأهاب بمواطنيه أن يقتنوا عدداً منها .

حوادث المظلة الواقية :

فى عام ١٩٣٥ قام بعض السياسيين فى فرنسا بثورة على الحكومة لإهمالها تدريب شبان الطيران على كيفية استعمال المظلة على أصولها ، حتى تعددت حوادث السقوط وكثر عدد الضحايا من الهابطين . فمظلة تظل مقفلة ولا تنفتح طوال المسافة ، فيسقط صاحبها إلى الأرض فاقد الحياة ، وأخرى يتمزق قماشها أو تنقطع حبالها فتسبب حوادث يكون أغلبها مميتاً . ولما بحثت الحكومة الفرنسية فى الأخطار التى يتعرض لها الهابطون بالمظلة ، وحققت فى أسبابها ، طلبت أن توضع المسائل الآتية نصب أعين رجال الطيران ، وأن تدرس دراسة وافية منتجة ، وتلك المسائل بحسب ترتيب أهميتها هى :

أولا : الوثوق من فتح المظلة .

ثانياً : التخفيف من أثر الصدمة عند الانفراج مهما اختلفت سرعة الهبوط أو وزن الطيار .

ثالثاً : التقليل من مقدار التأرجح فى الجو .

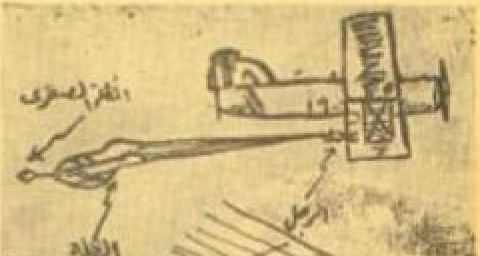
رابعاً : النزول بسرعة بطيئة مناسبة .

خامساً : اختيار نوع الأقمشة التى تتكون منها المظلة .

كان مجموع تلك النقط الخمس أساس المناقشات والابحاث التى تدور فى هذا الموضوع . وقد أبدع المخترعون ، وقتلوا تلك المسائل بحثاً ، ولكل منهم رأيه الخاص ، ولكل دولة طريقتها .

فى انجلترا وألمانيا وإيطاليا مثلاً ، تصنع الهابطات من الحرير الطبيعى لخفته ، وعظم مقاومته للشد ، ولكنه سريع التمزق لا يحتمل أشعة الشمس وفعل المطر . أما الولايات المتحدة وفرنسا فتستعملان القطن الذى يقاوم تأثير أشعة الضوء فوق البنفسجية ، ولكنه أثقل من الحرير ومعرض للتمزق فى حالة السقوط السريع ، والانكماش فى حالة المطر .

فتح المظلة : والمظلة الواقية تنفتح بطريقتين : تعتمد الأولى منهما على فعل الريح ، ويعتبر الفتح آلياً ، ويشترط فى هذه الحالة أن تكون الهابطة جافة ومطوية بترتيب خاص ينفك رباطها بنفسه عند القذف من الطائرة ، ويساعدها فى تلك العملية مظلة أخرى أصغر حجماً وأرق صنعاً (انظر شكل ١) .



شكل ١ — القذف من الطائرة

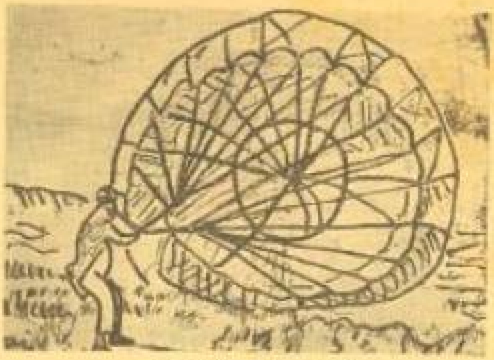
وقد أتاحت لى الظروف أن أرى فى ألمانيا عام ١٩٣٦ مشهد هبوط جنود بالظلات فى ضاحية من ضواحى برلين . وعندما فحصت إحداها (وكان فتحها بالطريقة الآلية المذكورة) وجدت أن بها جهازاً صغيراً فيه هواء مضغوط يساعدها على الفتح ، وآخر يزين الطيار سرعة هبوطه نحو الأرض . وفى الطريقة الثانية يتحكم الهابط فى المظلة نفسها ، فيفتحها متى شاء بجذبه مقبضاً معلقاً بحزام فى وسطه . وهى الطريقة التى فضلتها الولايات المتحدة وانجلترا ..

أما الروس فيستعملون الطريقة الأولى فى الميادين . وأما الطريقة الثانية فتستعمل عندهم كوسيلة من الوسائل الرياضية فقط .

وطالما عقدت قبل نشوب الحرب مباريات بينهم فى حفلات عامة ، وكان بطلهم الدعو جيفدو كيموف Gevdokimow الذى كان يقذف بنفسه من طائرة على علو ٨١٠٠ متر ، ولا يجذب مقبضه (أى لا يفتح مظلته) إلا بعد أن يصل إلى ارتفاع مائتى متر من الأرض ! ويمكن تصور الأخطار التى يتعرض لها أولئك الذين يمارسون ذلك الضرب من الرياضة ويعتمدون فيها على القدرة فى تلك شعورهم وأعصابهم ويقظة حواسهم فى الأوقات المناسبة ، إذا عرفنا أن بعضهم قد يخطىء فى تقدير المسافات التى يجب أن يحرك عندها القبض ، كما أن الكثيرين لازمهم سوء الطالع فلم تتفرج مظلاتهم حين جذب القبض فسقطوا وماتوا لساعتهم .

وأظن أن بعض القراء لايزالون يذكرون تلك الحادثة التى وقعت عام ١٩٣٦ وكان ضحيتها أحد الضباط الفرنسيين وقد توفى عندما سقط على الأرض ، وكان السبب فى موته التفاف حبل من حبال المظلة حول إحدى ساقيه عند ابتداء القذف من طائرة احترقت فى أعالى الجو .

قبل تدريب جنود المظلات تؤخذ أطوالهم وأوزانهم



شكل ٢ — الهبوط إلى الأرض

وظيفة المظلة أن تجعل تلك السرعة الهائلة تتناقص تدريجيا وبتقصير منتظم ، حتى تكاد تتلاشى ، فيصل الهابط إلى سطح الأرض سالما . والشكل (رقم ٢) يبين كيفية الهبوط . أما (رقم ٣) فصورة لبعض الجنود يتلقون الدرس الأول فى القذف .

* * *

وقد تقدم البحث كثيرا وبخطوات واسعة ثابتة فى كل مايتعلق بالمظلة الواقية ، وخاصة فيما يرتبط بنقل المهمات الحربية إلى مسافات شاسعة . ففى إحدى المناورات الروسية أمكن إنزال ١٢٠٠ جندى و ١٥٠ مدفعاً رشاشاً و ١٨ مدفعاً كبيراً ، وصلت كلها سالمة إلى الأرض . ومن طريف ما يقال أن القائد كان يشرف على النظام فى سيارة

بكل دقة ، ثم تملى عليهم الأوامر فى كيفية السقوط تبعاً لتلك الأطوال والأوزان . فمن قل وزنه عن حد معين — يختلف باختلاف أنواع المظلات — يتحتم عليه أن يقذف بنفسه من الطائرة ورأسه إلى أسفل لاكتساب سرعة ابتدائية كبيرة تساعد على سرعة انفراج المظلة — والمعروف أن الرأس هو أثقل جزء من جسم الانسان — وفى هذه الحالة يبسط الجندى ذراعيه فى الفضاء من نافذة الطائرة أو من على جناحيها ، ثم يرمى بنفسه تماما كما يفعل القاذف إلى الماء عند ما يعتلى أحد العروق الخشبية . أما الذى يزيد وزنه من الحد المطلوب فيقذف نفسه بحيث تكون قدماه متجهتين نحو الأرض وجسمه فى اعتدال ، مع ملاحظته أن يبتعد قدر ما أمكن عن موضع السقوط ، ليتفادى اشتباك قماش مظلته أو أحد حبالها مع جناح أو ذيل الطائرة . وتقدر سرعة الجندى عند ابتداء انفراج المظلة بثلاثمائة وستين كيلومترا فى الساعة تقريبا فى الحالة الأولى ، وبمائتين وخمسين كيلومترا فى الساعة فى الحالة الثانية .



شكل ٣ — الدرس الأول فى القذف من ارتفاع ثلاثة أمتار

قذفت من إحدى الطائرات وهي معلقة في مظلتين كبيرتين !.

* * *

وهكذا كانت المصادفات البحتة في هذه المرة أيضاً هي التي أوحت إلى المخترعين والمكتشفين باختراع جديد لم يعرف في بادىء الأمر مدى نجاحه وإلى أي حد يمكن أن يغير مجرى التاريخ !.

محمد أحمد أمين

حنان أعمى

قصة — بقلم نصري عطا الله سوسى

كانت في الثلاثين من عمرها عندما ماتت في زوجها بعد عشر سنوات حالمة قضتها في عش الزوجية الهنيء ... وكانت تحبه إلى درجة الجنون ، وكان يحبها إلى درجة العبادة ، ولكن ما أقصر عمر السعادة ، حتى لو طال أمدها ! إنها تسرق سير الزمن ، فتمر الأيام الطويلة كأنها لحظات قصار تستيقظ بعدها على آلام الجراح والطعنات ، والقدر يعطي ليسلب دائماً ، ولكنه كان رحيماً بها ، فقد أعطاها أكثر مما يعطي الناس ، وحين سلب منها عطيته كان إلى جانبها يدان ناعمتان رقيقتان تمتدان لها بالعزاء والسلوى : كان « عادل » في الثامنة من عمره عندما مات أبوه ، وكان يشبهه إلى حد كبير حتى في لهجته وحركاته ، وكم كانت تحدق في وجهه فتغيم عيناها بالدموع ، وتضمه إلى صدرها وتقبله قبلات حارة مفعمة بالذكرى والحنان والعزاء ، إنه رجلها الصغير ، ولكن إخلاصها لذكرى فقيدها هو السهر على تربية ابنه ، حتى يغدو رجلا تفاخر به الأمهات .

وما أعظمها من تضحية ! إنها ما زالت في أوج شبابها ، تشع عيناها فتنة ، وتفيض قسماتها بالاغراء ، وكانت تدرك أنها جميلة ، فهل تترك عطرها يضيع عبثاً في صحراء وحدتها القاسية ؟

كانت « فوزية » شديدة الحساسية ، مشبوبة العبرة ، فهل يمكنها أن تقاسي طويلا مرارة الوحدة ؟ كانت تحس أنها لو ماتت قبل « حسني » وتزوج بعدها ما اطمأنت عظامها في التراب ، فلتعامله إذاً كما كانت تود أن يعاملها ، إنه ما زال حياً في قلبها .

وهل يمكنها أن تنسى تلك السنوات الحلوة التي تعجب الآن من سرعة مرورها ؟ هل تسمح لرجل آخر أن يكتسح ذكراها من قلبها ؟ قد تكون هذه الذكريات أحلى وأسمى من أي سعادة يمنحها لها رجل آخر ، وقد لا يجلب لها الرجل الآخر أي سعادة . لتبق إذاً على حياة هذه الذكريات ، ولتطرح فكرة الزواج من رأسها ، ولتقدم كل حياتها لابنها ، الوديعة الغالية التي خلفها لها أبوه .

وبدأت تنسج الأحلام من جديد : إن ما سنعانيه من مرارة وحرمان وألم هو الثمن الذي تدفعه سلفا للسعادة التي سيجلبها لها عادل ... ولكنها كانت فقيرة وإيرادها الشهري ضئيل . فكيف يمكنها أن تعيش وتنفق على نجلها وتحافظ على المظهر الذي اعتادت أن تظهر به دائما ؟ .. وبدأت تحس بمرارة الأيام ، إنها يتيمة منذ الطفولة سهر على تربيتها شقيقها ، وشقيقها الآن رب أسرة كبيرة لا يكاد يفي بنفقاتها . كما أنها تكره زوجته التي طالما أثبتها على حدة طبعها وغرورها ، ولم تكن فوزية مغرورة في الحقيقة ، ولكنها كانت رقيقة العاطفة سريعة التأثر ، وكان هذا يدفعها إلى توقي الناس كي لا تتعرض لما في معاملاتهم من خشونة وغلظة ... وها هو الزمن يطلبها التضحية بأعز ما تملك ، فتلق بعزة نفسها جانبا وتدوسها بقدميها من أجل عادل .. ! إن « المكافأة » التي صرفتها لها الشركة التي كان يعمل بها زوجها لن تكفيها أكثر من شهور معدودة أو عام على الأكثر .. وماذا تفعل بعد ذلك ؟ كانت تعرف مدير الشركة فقد استضافه زوجها الراحل عدة مرات ، وكانت تعهد فيه سمو الاحساس ورقة الشعور . وكم حزن لفقد حسني ، فلم لا تزوره وتعرض عليه أمرها ؟ إنه سيفهمها إلى حد بعيد ويعطف عليها . وظلت تبكي بكاء مرا طول الطريق ، وعندما وصلت إلى مقر الشركة حاولت ضبط عواطفها فلم تستطع وغطت وجهها بنقابها الرقيق والدفعت إلى غرفة المدير ، ولم يخب ظنها فقد وعدها أن يعاونها معاونة صادقة في تربية عادل . إنه سيستخدم كل نفوذه لإدخال عادل في مدارس الحكومة بالمجان ، وعندما ينال شهادة الدراسة الثانوية يحل محل أبيه . أما هي فيمكنها بمساعدته أن تعمل كخياطة في إحدى شركات الملابس .. أتقبل .. ؟؟ ترددت قليلا ثم قالت (نعم) والدموع تنهمر من عينيها .

وأخذت تروض نفسها على الحياة الجديدة التي لم تألفها قبلا .. كانت تستيقظ في الصباح الباكر فتعد لنجلها طعام الإفطار ويخرجان سويا .. هو إلى مدرسته وهي إلى محل عملها . وقبل خروجها كانت توصي صديقتها « فتحية » التي تقطن معها في نفس المنزل بأن تعنى بشأن عادل حتى تعود هي عند الغروب ... وما أقسى الحياة ! ترفعنا إلى أوج السعادة لتركلنا بقدمها في النهاية فنهوي حطاما ... ما أمر الحياة التي فرضتها الأيام على فوزية . ولكنها كانت تعطي عينيها بعصابة من نسج الأحلام فلا ترى شيئا من الواقع البغيض ، وتقفز ببصرها إلى المستقبل فلا ترى إلا الحياة الهنية الباسمة التي

سيهيئها لها عادل . . .

ومرت سنوات شب فيها جسم عادل وعقله .

وكان يؤلمها منه شدة عناده وحدة طبعه وانصراف كل تفكيره إلى اللهو رغم صغر سنه . وكانت تعامله باللين حينا ، وبالشدة حينا ، ولكنها كانت تؤمل أنه سيغير طباعه عند ما يبلغ رشده ويستنير عقله وتتوطد إرادته .

وكانت تقتر على نفسها وعليه لكي تدخر ، وإلى جانب عملها بالنهار كانت تقضي بصرها تحت ضوء المصابيح وهي تعمل ليلا في خياطة ملابس عملائها المخصوصين : كل ذلك كي تتمكن من أن تعلمه تعليما عاليا . . . إنها تود أن تراه قاضيا ، أو طبيبا ، أو مهندسا لا كاتبا في شركة . وكانت تتحمل آلام الجهاد من أجله في صبر آملة أن يرتدع ويجد من غيه عند ما يتأمل حالتها وحالته ، ولكن الشر كان يزداد تمكنا من نفسه على مر الأيام : كان يطالبها بكثير من النقود ولا يعود إلى المنزل إلا في أعقاب الليل رث الهيئة ممزق الملابس أحيانا ، وأصبح الشجار بينه وبين أمه من المناظر التي تتكرر كل يوم ولكنها لم تفقد أملها فيه . كانت تبكي وتتوسل وتلح عليه عند قدميه وتذكره بكل ما تقاسيه من أجله ، وكيف أن مسلكه سيخالف الضرر له ولها ... ولكنه لم يأبه لضراعتها وتوسلاتها .

☆☆☆

وكان قد بلغ العشرين عند ما نال شهادة الدراسة الثانوية ، وقبلته في فرح ، وقالت له وهي تربت على خده : « لقد أصبحت رجلا يا عزيزي ويجب أن تتخلى عن طيش الطفولة » .

ولكن عادلا كان قد باع نفسه نهائيا للشيطان ! وأخذت أنباء مغامراته وفجوره تتواتر عليها وتتساقط على قلبها الحزين كقطع الجمر المتقدة ، ولم تعد تراه إلا مرة كل عدة أيام ، فقد استطاب حياة الليل وما فيها ولم يعد يتذكر أمه إلا عند ما يحتاج إلى نقود ، عندئذ يعود إليها ويبتز ما يريده منها في قسوة وعنف .

ورفض أن يتم تعليمه ...

ورأت قصور الأماني تتحطم فوق رأسها ، ولكن ما زال هناك بعض الأمل : لتذهب إلى مدير الشركة وتذكره بوعده ، لا شك في أن عادلا سيقدر مسئولية العمل ، وعند ما يصبح موظفا ويعتمد على نفسه سيلجأ إلى إرادته ويحكمها في طيشه وجنونه .

وبر المدير بوعده وحصل عادل على عمل يكفل راتبه أسرة متوسطة الحال تعيش باعتدال ، وعلت وجهها الحزين ابتسامة : لقد كانت ظامئة إلى الفرح ، كانت تود أن تخلد إلى الراحة في منزلها وتنظر إلى أيام كدحها ونصبها كذكرى مجيدة ، مجيدة لأنها أنتجت ثمارا شهية ... ولكن أين الثمار التي حلمت بها ؟

وفكرت أنها لو أقنعت عادلا بالزواج فلا شك أنه سيقلع نهائياً عن اعوجاجه وجنونه ... وأفضت إليه برغبتها ، فقهقه ساخراً ، وقال لها : إن أمامه سنوات طويلة يقضيها في الجهاد بين أحضان النساء !

يا لها من قصة شقية ! إن عادلا لم يغير من مسلكه شيئاً ، رغم كل ما فعلته من أجله ، بل ازداد اعوجاجا ورسوخا في الشر ، وأصبح يرتكب أمامها الآثام التي كان يأتيها خيرها فتتردد في تصديقها .

وأخيراً أيقنت المرة الأولى أن آمالها فيه قد تبددت نهائيا .

لقد باعت شبابها ، وبحت براحتها وكبريائها من أجله ! والآن — وقد بدأ الشيب يقتحم شعرها في جرأة — تدرك أن الزمن كان يسخر منها .

وبدأت أعصابها التي خدرتها الأحلام عشرات السنين تنتقم منها ، وتلتهم ما بقي لها من حيوية وشباب . وما أتعس أولئك الذين يجنون بعواطفهم وأعصابهم عند ما يخادعهم الزمن ! كانت تفكر في ماضيها السعيد مع زوجها ، وفيما قاسته بعده ، وفيما بنته من آمال ... فتتفجر الدموع من عينيها ، وتظل تبكي ساعات متصلات ، ولا تجد من يسري عنها آلامها أو يمسحها كلمة عزاء ، وساءت حالتها ، وفقدت شهيتها ، ولم تعد تشعر أنها في حاجة إلى طعام . كل هذا وعادل مندفع في تيار غيه ، ولم تجد توسلاتها أو مشاداتها العنيفة معه نفعاً ، ونمي إليها أنه يعيش مع امرأة تحترف الرقص في إحدى الحانات ، ولما لاحقته في أمرها ثار عليها وأنالت نياله أعصابها من جنبها وعنفه ، فلطمها على وجهها وأغمي عليها ... وتحول شعورها نحوه من الحب إلى المقت . وكم من مرة رفعت رأسها نحو السماء وتضرعت إلى الله أن يصب نقمته على ابنها : أن يصيبه بمرض قاس لا يشفى منه ، أو تصدمه سيارة فتبتر ساقيه . إن أي مصيبة تحل به لن تزيد من أحزانها شيئاً ، بل ستريحها من شماتة الناس ومذمة العار الذي يلحقها من جراء مسلكه . ولم تدم هذه الحال طويلا ، فقد أخذ عقلها ينوء بالحمل الثقيل .

وأخيراً أقنعت نفسها بوجوب السفر إلى القاهرة ، لتعيش في كنف أخيها ولو كخادمة ! وسافرت وتركته لشأنه .

كانت حالتها تثير الحزن والألم في أقسى القلوب : كانت شاعرة من الناس ، غارقة في همومها ودموعها ، شاعرة في أعماق نفسها أنها فقدت سلطتها على تصرفاتها وتفكيرها . إن العاصفة تجرفها نحو هوة مظلمة عميقة ، وليس لها إلا أن تستسلم للمقادير ، إنها لن تفكر في العزاء ، وأي عزاء تجده في الحياة ، بعد أن سخر منها الزمن هذه السخرية المرة ؟ وظل شقيقها كل ما في طوقه لعلاجها ، ولكنه فشل . وبدأت تصرفاتها وأحاديثها ، خصوصاً في الليل ، تفزع الأطفال ، وتبرمت ربة الدار ، ولم يعد في وسعها

أن تمس يقتون منزلها وأولادها وهذه الرجفة التي تنم من الخوف والقلق أكثر مما تنم من الحزن والاشفاق .

وفي إحدى الليالي حاولت نوزية أن تلقي بنفسها من النافذة ، وفي ليلة أخرى رفضت أن تبيت إلا على السلم !

وأخيراً ... لم يعد هناك بد من مواجهة الحقيقة المؤلمة ، ولم يكن هناك مفر من إرسالها إلى المكان الوحيد الصالح لايوائها . وهناك ، في مستشفى الأمراض العقلية ، ترى بما الطاف الخفي بهذه أيامها في الظلام الذي لا يعرف حتى نفسه ؟

كان قد مضى عليها ما يقرب من عام في المستشفى عندما حضر عادل إلى القاهرة — وكان قد رفت من العمل لسوء أخلاقه — وذهب لزيارة خاله ، وسأل عن أمه ، وعرف أين تعيش ، واستفسر عن الأوقات التي يمكنه أن يزورها فيها ... وانصرف .

وفي صباح أحد الأيام اصطحب عادل ابن خاله « صبري » ، وذهب لزيارة أمه .

وعندما سمع الصراخ والعويل المنبعث من أفواه المجانين وهو يقترب من المستشفى شعر بقشعريرة هائلة تسري في كل جسمه .

وعرف من إحدى الممرضات أن أمه تعيش في العنبر رقم ١٢ وأن حالتها متوسطة ، ويمكنه أن يراها ، وقادته الممرضة إلى هناك ، وطلبت منه ألا يجهدها بحديث طويل .

وتقدم عادل نحو أمه ذاهلا ... وقابلته بصمت عميق . كان يحدثها فلا يظفر منها إلا بكلمات متقطعة فاترة ...

وكان يخيل للناظر إليها أنها تحاول جاهدة أن تنتزع من محيط النسيان الذي ابتلع عقلها ذكريات عزيزة غالية ، وكانت أطياف السر الهائل الذي يصطرع في خبايا نفسها ، وحطام الأفكار السابحة في رأسها تطفو على عينيها وتكسبهما بريقاً مخيفاً ، ثم حدجته بنظرة طويلة غامضة وأخذ جسدها يرتجف ارتجافاً شديداً ... ثم انفجرت دموعها ... وبكى هو بكاء مراً . وفجأة ضمته إلى صدرها في عنف وأخذت تقبله في شره ونشوة ...

بينما وقف صبري — الذي كان يخشى الاقتراب من عمته — يرقبهما من بعيد بعينين ذاهلتين جامدتين ...

نصري عطا الله سوسه

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ في القضية ١٨٩٧ سنة ١٩٤١ بتغريم محمد محمد شحاته بالعراقية جنيهين لعرضه للبيع قمح بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ في القضية رقم ١٨٩٥ سنة ١٩٤١ بتغريم إبراهيم عبد العال على فلاح بالجوامدة جنيهين لامتناعه عن بيع ذرة بالتسعيرة .

رجعة الحب

بعد ما عشت زماناً فى قناعة
أقبل الحب ملحّا فى الشفاعه
طائر قد ذدته عن أيكه   سنوات ثم أنبت ارتجاعه
راعه ما راءه من وحشتى   أترى أنكر أم أصغى تباعه
قد سلا القلب ، فلا القيا غدت
مشتهاه ، لا ، ولا يخشى وداعه

• • •

قال لما خفت من لجته :
ذلك الزورق ما أقوى شراعه !
قلت : أخشى للوج أن يطغى على
جانبيه . قال : لا تخش الصداعه
قلت : قلبى ! أين قلبى ؟ قال لى :
إنه عندى مملوء شجاعه
آمن فى ظل وضيئاً مشرقاً   فأعد الخطو واستقبل شعاعه
إنما الدنيا — بل الأخرى هنا
أعلنت عن سحرها تبغى اتجاعه »

• • •

أقلع الزورق بالقلب ، وبى   فى سبيل الحب ما تلقى الجماعه
جد (فاستوقفته أسأله) :
أفلا تخشى من اليم اتساعه ؟!
بعدت عن ناظرى شطآنه
وترامى موجه ، فانظر صراعه !
قال : ما فى للوج من بأس على
هيكلى ، فأنت ! ولا ترهب قراعه
قلت : تغرينى ! فألوى باسماً   يتهادى فى ليان ووداعه
يضرب الموج فيهوى ساكناً
فاتحاً من حرقة الشوق ذراعه

• • •

ذاك لحن بيننا منبعث
من صناع نال أسرار الصناعه
لم حتى أنصت الدهر له   مستطاراً يتمنى لو أذاعه
لا الكراوين ولا الورق ولا
قربات الكون تستطيع اصطناعه
ذاك لحن الحب ، ما أروعه !
ذاك صوت الحب ، لا أخشى اتباعه
زمر الحب فيا أذن اغنمى
نغم الحب ، فما أحلى استماعه !

• • •

يا منى نفسى ومرمى خاطرى
وحمى قلبى إذا ما الدهر راعه
هل ترى أنت فإنى لا أرى
غير بدر واحد ألقى شعاعه
جرع القلب أفانين الهوى
وأذاق النفس أهوال الضراعه
كلما شع تهاوت أنجم
واستنار الكون من نور أشاعه
لا تقل لى : هذه الشمس ، ولا
ذلك البدر بدت منه الشداعه
فالدجى يطغى على شمس الضحى
ويجور البدر ما شمت التماعه
لا تخف زهراً من الروض فما
ضاع إلا فى سويعات مُضاعه

لا تخف شيئاً وردد : إننى أيدى النفع قدسى النصاعه
أنا وحى الخلد فى هذا الورى
فاحس من خمرى ولا تخش انقطاعه »

* * *

يا منى نفسى ! صفا الليل فما
فيه إلا هدأة عمت بقاعه
ههنا الحب دعانا ، فاستجب
إنه لم يدع إلا من أطاعه
طر بنفسى فى خيال مطلق
بعدت فيه عن النفس القناعه
واجل لى الخلد فإنى ظامئ قلبي الحران قد ود انتجاعه
وامض بالروح بلا جسم فما
أثقل الجسم إذا رمت ارتفاعه !

محمد عبد الحميد أبو العزم
مدرس بالمدرسة النموذجية

يا لواء الحب . . .

يا لواء الحب يا نعم اللواء — نحن نفديك إذا عز الفداء
نحن لا نرضى بديلاً للهوى — فهو للأنفس رىّ وغذاء
يا عذولاً يبتغى شقوتنا — لا علينا نحن قوم سعداء
نحن كنا وسنبقى أبدا — مضرب الأمثال فى أهل الوفاء
قد بلغنا فى هوانا ذروةً . . . — عزّ أن ترقى إليها الرقباء

* * *

نحن لا نُعنى بمالٍ أو غنى — بهوانا نحن قومٌ أثرياء
نحن لا نعبأ بالحرب ولا — نرهب الموت ولا نخشى القضاء
نحن لا نذعر من غاراتها — فلتدمّر ولتحطّم ما تشاء
وقلوب بالهوى عامرة — لا تبالى بالردى أو بالفناء
وحبيبى كيف يخشى غارة — وله بالقلب مأوى وخباء
إن يفرق بيننا الموت هنا — بلغ الحب بنا أوج السماء

حسين شوقى

حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ فى القضية رقم ١٨٩٣ سنة ١٩٤١ بتغريم حلمى دوس تادرس التاجر ببلبيس جنيهين لبيعه ذرة بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ فى القضية رقم ١٩٠٧ سنة ١٩٤١ بتغريم فهيمة محمد سلامة وعائشة ابراهيم من مركز بلبيس الأولى ٥٠ قرشاً صاغ والثانية جنيه لامتناعهما عن بيع ذرة بالتسعيرة .

حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ فى القضية رقم ١٩١١ سنة ١٩٤١ بتغريم فتحية محمود مزاح من كفر جراح جنيهين لبيعها ذرة بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ فى القضية رقم ١٨٩٩ سنة ١٩٤١ بتغريم أمونة إبراهيم من شبرا الخيمة جنيه لبيعها ذرة بأزيد من التسعيرة

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ الطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٥ — الثلاثاء ١٩ من ربيع الثانى سنة ١٣٦١ — ٥ من مايو سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

موقف فرنســا الجديد

للدكتور محمد عوض محمد

تتمخض الأزمة العالمية الحاضرة من آن إلى آن عن حادث جديد ، وآخر ما تكشفت عنه الأحداث عودة المسيو لافال ظافراً إلى فيشى ، بعد أن أقصاه زعيم فرنسا ، بل طرده طرداً منذ عام ونصف عام ، واضطره إلى أن يلجأ إلى باريس ، وأن يظل فيها هذه المدة الطويلة يلعب دوره الخاص ، ويتنهز فرصته المؤاتية . وكنا نسمع الحين بعد الحين أن عودته إلى فيشى وإلى حكم فرنسا وشيكة الوقوع . ولكن مضت الشهور دون أن تتحقق تلك الأمنية التى يشتهيها لافال من غير شك ، وتشتهيها ألمانيا ، ولكن فى غير إسراف ، إلى أن تحققت فى الأسبوع الماضى .

إن فرنسا تقف من الأزمة العالمية الحاضرة موقفاً عجيباً ؛ فلقد اضطرتها هزيمتها فى ميدان القتال إلى أن تلقى السلاح وتطلب الهدنة . فأملى عليها العدو الظافر شروطاً كانت مزيجاً من الشدة والإغراء . ولعل العدو كان يقدر فى ذلك الوقت أن الحرب قصيرة الأمد ، وأن انتصاره الكامل على بريطانيا لا يلبث أن يتم بالحيلة والخديعة أو بالفتح والظفر . ولذلك سمح لفرنسا أن تحتفظ بأسطولها ، ووعدته وعداً صريحاً أن هذا الأسطول لن يستخدم فى الحرب . وكذلك لم يطلب من فرنسا اقتطاع جزء من أرضها أو مستعمراتها . وكان الإيطاليون يرغبون فى أن يستولوا فوراً على كرسيكا وتنيس وسافواى . ولكن هذا كله أرجئ ، وحيل بين الطليان وبين ما يشتهون . واكتفت ألمانيا بتجريد

فرنسا من سلاحها ، وباحتلال الأقاليم الشمالية والغربية ، وبفرض أتاوة كبيرة تدفع كل يوم ، تعادل أو تزيد على ما كانت فرنسا تنفقه ، لو أنها ظلت تحارب .

وفي أيدي الألمان أسرى من الفرنسيين يزيد عددهم على مليون ونصف مليون . وهم بمثابة الرهائن يستطيعون أن يجعلوا منهم ذريعة لتحقيق مأرب أو استجابة مطلب يتقدمون به إلى حكومة فرنسا .

ولو أن ألمانيا أملت شروطاً أشد قسوة ، وتعسفت في مطالبها وقت الهدنة ، لاضطرت حكومة فرنسا المترددة أن تلجأ إلى المستعمرات ، وأن تستمر في الحرب من هناك . وهذا آخر شيء تريده ألمانيا الظافرة . لهذا كانت شروط الهدنة وسطاً بين الشدة والاحتيال . ومن أجل هذا أغريت حكومة المرشال بيتان بقبول تلك الشروط ، وفضلت أن تهادن العدو ، وأن تداريه ما أمكنت المداراة . وقيل للمرشال إنه ليس من العقل ترك الشعب الفرنسي من غير حكومة وطنية تحميه ، وإن مواصلة الحرب من المستعمرات لن تجدي . واقتنع المرشال بهذه الحجة ، وقبل الهدنة ، وأن يقيم حكومة في فيشي ، تحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه ، وأن ترد غائلة العدو اللدود ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . واستعان المرشال على تنفيذ خطته هذه بتولية الجنرال ويجان إدارة قوات الامبراطورية الفرنسية . ولعل هذه كانت أقوى ورقة في يد المرشال ، على اصطلاح اللاعبين ، أو أقوى سلاح في يده كما يقول سواهم ، ولعل لغة اللاعبين أجدر بهذا الموقف القمم بالمقامرة .

ومهما يكن من شيء ، فإن وجود الأسطول الفرنسي والقوات الامبراطورية الفرنسية وعلى رأسها ويجان ، قد جعل من الواضح أن جميع الأوراق الهامة ليست كلها في يد الزعيم الألماني . وفي يد المرشال سلاح آخر لا يقل خطراً من السلاحين المذكورين . ألا وهو الشعب الفرنسي نفسه ، الذي يريد أن يرى بعض الفائدة من سياسة المهادنة والمداراة . والذي لم يُخف امتعاضه من الاستسلام للعدو اللدود ، واتخذ وسائل شتى لاظهار هذا الامتعاض .

ولا بد لإكمال الصورة من الاشارة إلى أمرين خطيرين : وهما علاقة فرنسا الجديدة بحليفتها بريطانيا ، ونشأة فرنسا الحرة . كانت حكومة رينو المستقيلة وعدت بريطانيا بأن ترسل الأسطول الفرنسي إلى مياه بريطانية أو إلى مستعمرات بعيدة . ونقضت حكومة فيشي هذا الوعد ، فهوجم الأسطول الفرنسي في موانئه ، ودُمرت بعض وحداته الهامة كما هو معروف . واضطرت حكومة فيشي لأن تقطع علاقتها بحليفتها . وقد كان يُخشى أن يؤدي هذا الحادث إلى ما هو أسوأ من قطع العلاقات ، لولا أن وساطة الولايات المتحدة ، وسفيرها اللبق في فيشي ، قد خففت من حدة الخصومة بين الحليفتين . وكثيراً ما كنا نسمع أن السفيرين الفرنسي والبريطاني في مدريد ، يلتقيان سراً أو علانية لتصفية ما قد يكون بين الطرفين من أمور أو مشاكل . أما فرنسا الحرة — تلك القوة التي لا يستهان بها — فقد ولدت يوم ألقت فرنسا سلاحها ، وطار زعيمها ديجول إلى بريطانيا ، وأعلن مواصلة الكفاح حتى يجلو العدو عن أرض فرنسا . ولم يلبث أن احتشد تحت لواء هذا الزعيم الحر جموع من الفرنسيين أخذ عددها يتزايد وينمو ، حتى تألفت منها قوات برية وبحرية وجوية ، وأخذت تحمل نصيبها من أعباء الحرب في الشرق الأوسط وفي أوربا نفسها . واحتضنت بريطانيا هذه الحركة وأيدتها بكل قوتها ، وأخذ الفرنسيون يهربون من فرنسا ومن سوريا ، ومن جميع جهات الامبراطورية الفرنسية ، لكي يلتحقوا بقوات فرنسا الحرة . ونظم الفرنسيون الأحرار من لندن إذاعات فرنسية حرة يحملها الأثير ليلا ونهاراً على مختلف الموجات لتدعيم الروح المعنوية في الشعب الفرنسي وتنظيم المقاومة للعدو المغير . ولا شك أن لهذه الاذاعات

أثراً كبيراً في مقاومة الجماهير الفرنسية التي تبدو من وقت إلى آخر، وفي تقوية التفاهم بين الشعب الفرنسي والشعب البريطاني. وقد اعترف المرشال بيتان نفسه بما لهذه الاذاعات من أثر وخطر. واضطرت حكومته لأن تحرم الاصغاء إليها.

واستطاعت قوات فرنسا الحرة أن تستولي على أقطار واسعة في المستعمرات. ولئن عجزت عن الاستيلاء على جيبوتي أو داكار، فانها استطاعت أن تستولي على إفريقية الاستوائية، وإقليم تشاد، والجهات المجاورة له. ثم أمكن لها في الصيف الماضي أن تجلي قوات فيشي من الشرق الأوسط.

وهكذا تعقد موقف فرنسا، إذ بات من الواضح أن ليس كل الفرنسيين خاضعاً لفيشي، وأن الشعب الفرنسي نفسه الذي ظل مقيماً في فرنسا، يعطف على الفرنسيين الأحرار أشد العطف، ولا يريد من حكومته أن تنقاد للعدو المغير، وأن تخضع لرغباته كل الخضوع.

أخذت حكومة فيشي تعالج هذا الموقف الصعب بما لديها من وسائل، وبما رزقته من قوة وحيلة. ومن الجائز أن نسمع أناساً يتهمون المرشال وأعوانه بالخيانة، أو قلة الوطنية، وأنهم لولا ما يخشونه من ثورة الشعب الفرنسي لسلموا لألمانيا بكل ما تطالب. ولكن المنصف لا يستطيع أن يقبل هذه التهمة، وأن ينكر أن فيشي قاومت وراوغت ما وسعتها المقاومة والمراوغة. وإن أقصى ما يقال عن المرشال وحكومته أنهم أخطأوا الرأي الصائب، وأن خير فرنسا الحقيق كان يقضي بالنزوح إلى الجزائر ومداومة القتال من الامبراطورية الفرنسية، وأنها اليوم تعاني نتائج هذا الخطأ. ولكن سبيل التراجع لم تعد مفتوحة، ولا بد لفيشي أن تمضي في خطتها التي رسمتها، وهي أن تحاول مداراة العدو، والمحافظة على رعيتها جهد الطاقة.

وبدأ الدفع والجذب بين ألمانيا وفيشي. ورأت ألمانيا أن الحرب قد طالت أكثر مما قدرت لها أن تطول. وقد تعقدت أمورها باتساع الميادين الجديدة في روسيا، وبدخول اليابان وأمريكا الحرب. وبمضي الزمن ازدادت القوات البريطانية، ونما السلاح الجوي بوجه خاص، وأخذ يغير على ألمانيا والأراضي التي تحتلها إغارات منظمة بالغة الأثر. ولا شك أن ألمانيا أخذت تحس أن شروط الهدنة لم تعد كافية، وفي وسعها أن تنقض تلك الشروط عنوة. ولكنها فضلت أن تنال ما تبغيه برضى المرشال وحكومته. وكانت مقاومة فيشي تشتد حيناً وتتراخى حيناً، حسبما يصيبه المحور من خذلان أو نصر.

وقد استطاع المرشال أن يتخذ قرارات لا يمكن أن تكون في مصلحة ألمانيا، كطرد لافال من الحكم في ديسمبر سنة ١٩٤٠. وقد أرادت ألمانيا من غير شك أن تسوء العلاقات بين بريطانيا وفرنسا، ولكن المرشال أعلن أن الشرف يقتضيه ألا يرفع السلاح ضد حلفائه القدماء. وتعرضت علاقة الدولتين لأقسى تجربة يوم أغار البريطانيون على سوريا بمساعدة الفرنسيين الأحرار. ولكن مرت تلك العاصفة بسلام، وظلت فرنسا على حيادها.

ولكن هنالك ظروف أخرى لم تستطع فيها المقاومة الفرنسية أن تقف للضغط الألماني؛ فقد احتل الألمان الإلزاس ولورين، وضموها ضماً إلى ألمانيا، وهذا خرق واضح للهدنة، فلم تملك فرنسا سوى الاحتجاج.

وسمعنا عدة مرار بمحاولات تبذل لعقد الصلح بين فيشي وألمانيا، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل. ورأت ألمانيا أن ترسل إمدادات إلى قواتها في شمال إفريقية، فاضطرت فرنسا للاذعان حيناً، واستطاعت أن تقاوم هذا الطلب أحياناً. وأرغمت فرنسا على عزل الجنرال ويجان من منصبه، فأذعنت لهذا الأمر. ولا شك أن هنالك أموراً

كثيرة وطلبات عديدة اضطرت فيشي لأن تقبل بعضها ، وترفض ما استطاعت رفضه .

واليوم تذعن فيشي لأقسى مطالب ألمانيا وأبلغها أثراً . فتضطر لأن تغضب صديقتها أمريكا ، وأن تولى لافال البغيض رئاسة الحكومة الفرنسية .

لعل ألمانيا كانت تفضل ألف مرة أن تنال ما تبتغيه من حكومة فيشي كما كانت تفعل من قبل ، دون الاستعانة برجل مثل لافال يبغضه الشعب الفرنسي أشد البغض ، حتى حاول أحد أفراده الفتك به ، لولا أن القادر أنقذه من الموت . ولكن ألمانيا لابد أن تكون لها مطالب واسعة لا تستطيع أن تحصل عليها من فيشي ، وهي في حاجة إلى حكومة فرنسية تعاونها معاونة أصدق مما عاونتها به حكومة المرشال . ولعل خطر غزو بريطاني أمريكي أمسى أصبح يشغل بال ألمانيا ، بعد تكرر الغارات المحلية المحدودة على السواحل الفرنسية والنرويجية ، وبعد تلك الزيارة الطويلة للجنرال مارشال ، الذي جاء من الولايات المتحدة ليتحدث إلى الحكومة البريطانية عن شئون الحرب .

فاذا كان من الراجح أو من المحتمل لدى ألمانيا أن يحدث هذا الهجوم فانه من الضروري لألمانيا أن يكون في فيشي حكومة تستطيع ألمانيا أن تركن إليها وأن تثق بها ، وأن تقمع أي ثورة يحاولها الشعب الفرنسي ، حين يكون الألمان منهمكين في الدفاع عن البلاد التي احتلوها . لهذا لم يكن بد لألمانيا من أن تعتمد على لافال وعصبته ، إذ ليس لديهم من هو خير منه ، ولا بد أنهم ضغطوا على فيشي ضغطا شديدا حتى أرغموها على قبول هذا الرجل البغيض ، واضطر المرشال الشيخ لأن يستقبل الرجل الذي سبق له أن طرده وأقصاه . ولكنه حتى في هذه اللحظة لم يذعن كل الاذعان ، وقاوم بعض المقاومة .

فجعل اختصاص لافال مقصورا على الشئون الداخلية والخارجية ، وأبعده من القوات الحاربة ، وولى الأميرال درلان القيادة العليا لجميع القوات الفرنسية ، وجعله مسئولا أمامه فقط .

وهكذا يتراجع المرشال شبراً شبراً . ولكن الحالة الجديدة مفعمة بالمتناقضات . فإن قوات الدفاع تخضع كلها لدرلان المسئول أمام رئيس الدولة دون سواه . ولكن وزراء الدفاع جميعاً أعضاء في حكومة لافال ومسئولون أمامه . وهذه التفرقة بين القوات الحاربة ، وبين وزارة الحرب تفرقة عجيبة . ولن تلبث غرابتها أن تبدو بعد وقت قليل .

وعلى كل حال فان في يدي لافال الشئون الداخلية والخارجية ، وفي وسعه أن يخدم ألمانيا في هذين الميدانين خدمات جليلة ، بأن يقمع العناصر المتطرفة في الداخل ، ويناوىء أعداء ألمانيا عامة ، وأمريكا خاصة في الخارج .

محمد عوض محمد

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

كُنفوش، حكيم حكماء الصين

في الصين، في الشمال الشرقي من تلك البلاد الشاسعة، توجد ولاية اسمها شانتنج Shantung. وفي هذه الولاية، ولاية شانتنج، توجد بلدة تُسمى كِيوفاو Kiuh fow، وهي على بعد مائتي ميل أو تزيد من عاصمة الصين الأولى بكنج Peking جنوبا. وفي ظاهر هذه البلدة، بلدة كِيوفاو، توجد جبّانة تُسمى جبانة كُنْج. وعلى طرف هذه الجبانة، جبانة كنج، توجد مقبرة واسعة فصلوها من سائر المقابر. وتدخلها من بابها فيلقاك منها طريق طويل جميل، تسير فيه بين صفين من شجر السرو، فيؤدي بك إلى ربوة عالية في الأرض تضم رمّة عتيقة غاية في القدم. وأمام هذه الربوة تمثال من رخام لصاحب هذه الرمّة، كُتب عليه «هنا يرقد أقدم العلماء وأحكم الحكماء».

وإلى جانب هذه الربوة، إلى يسارها، وإلى يمينها، ربوتان صغيرتان، إحداهما لابنه والأخرى لحفيده. وفي المقبرة تجد مفرّقاً في نواحيها ألواحاً من رخام، صنعتها الأسر الامبراطورية المختلفة التي حكمت الصين، وكتبت عليها ما شاءت من معاني الاجلال والإعظام لرجل الصين الأوحد، صاحب هذا القبر العتيق.

واسم هذا الرجل (كُنْج فُوتسي). أما كنج فاسم أسرته، وبه أسمينا الجبانة لأنها تضم عظام أهله وعشيرته، وفي البلدة التي ذكرنا، بلدة كيوفاو، يوجد الأحياء من سلالته، ويعدّون منهم اليوم أربعين ألفاً أو فوق ذلك عداً. وأما فُوتسي فمعناها الحكيم. فهو إذاً كنج الحكيم. وقد استعصى هذا الاسم، كُنْج فُوتسي، على اللسان الأوربي، فلتّنوه، فقالوا كُنْفُوشيوس، وسمّوا فلسفته بالكُنْفُوشية.

فهذا هو حكيم الصين الأكبر، وفيلسوفها الأعظم. وهذا هو الرجل الذي حكمت تعاليمه الصين عدداً من القرون بلغ اليوم خمسة وعشرين قرناً. وقد كانت أول الأمر تعاليم لرجل حكيم، فانقلبت من بعد صاحبها ديناً هيمن على الحياة الصينية، فامتلك إجمالها وتفصيلها، واشتمل على كل مرافقها ومناشطها من تعبّدية وسياسية واجتماعية وعمرانية وفكرية، فكان كالماء دخل الأرض الجافة فجرى فيها بين كل حبّة وحبة. وكانت أرضاً من طَفَل فاحتفظت بمائها دهراً طويلاً.

وامتد هذا الدين، وهذه التعاليم، وراء الحدود الصينية، إلى الحدود اليابانية، فكان له ولها أثر أي أثر فيما حدث في اليابان من سقوط الشواجن وعودة الأباطرة عام ١٨٦٧. فإلى هذا الحكيم، وإلى هذه التعاليم، يجب أن نتوجه ساعة من الزمان.

وُلد كُنْج الحكيم، أو كُنْفُوش على ما يسميه الأوربيون، في عام ٥٥٠ قبل ميلاد المسيح. وكان أبوه جندياً من سلالة ملكية. ولكنه مات وكنفوش في عامه الثالث. فكفلته من بعد ذلك أمه في فقر وقلّة. وتعلم في صغره حرفاً كثيرة، عزاها في كبره إلى فقره في صغره. ولما بلغ عامه السابع عشر عيّنوه مفتشاً في سوق الغلال. ولما بلغ عامه التاسع عشر تزوّج وأنجب ولداً وابنتين، وُلدوا له في أربع سنوات. وعندها رأى أن يحترف التعليم.

وفي نحو عامه الثاني والعشرين فتح مدرسة، لا ليدرّس فيها للصبية مبادئ القراءة والكتابة، ولا ليعلّم فيها الجمع والطرح، ولا قواعد النحو والصرف، ولكن ليدرّس لكل نفس شابّة توّاقة متسائلة معنى الحق والباطل في تخلّق الفرد وحكومة الجماعة. ودرّت عليه المدرسة خيراً كثيراً، ولكنه لم يكن يرفض

تلميذاً لفقره، ولا استبق تلميذاً متراخياً ترباً لثرائه.

ومضت سنوات، فحدث أن وقعت ثورة في ولايته، وكان اسمها لو، تحزب فيها الوزراء على الوالي وهزموه، ففر الوالي هارباً. وخرج وراءه كنفوش غاضباً كارهاً أن يبقى فيلاقي هؤلاء الأعين الذين اعتدوا على سيدهم وولي أمرهم وصاحب السلطان فيهم. وخرج مع كنفوش تلاميذه. وإذ كانوا في سبيلهم بين الجبال سمعوا صوت امرأة تبكي بكاءً مراً. فاقتربوا منها فوجدوها تبكي فوق قبر. فطلب كنفوش إلى أحد تلاميذه أن يسألها عن سبب هذا البكاء. فقالت: قتل النمر حموي، ثم جاء فقتل زوجي، ثم ها هو قد قتل ابني. فسألوها: ولمَ لا تتحولين من هذا المكان وفيه الموت حقٌّ لا ريب فيه؟ فقالت: لأنه مكان لا ظلم فيه. عندئذ نظر الحكيم إلى طلابه فقال: تذكروا هذا دائماً يا أبنائي، الحكومة الظالمة أبعث على الخوف من النمر وأشدُّ افتراساً.

وبلغ الحكيم وأتباعه ولاية إتسى، فأراد أن يقيم بها. ورحب الوالي بالضيف، وأكرمه بأكثر مما يكرَّم به الأمراء، وصاحبنا لم يكن أميراً. وأراد الوالي أن يجري عليه مالا كثيراً. ولكن كان بين أتباع الوالي قوم كرهوه فعادوه وتحدثوا فيه؛ فرفض الحكيم المال من قوم استباحوا عرضه ورفضوا اتباعه، وحمل متاعه ورجع إلى بلده مرة أخرى.

وبعودته عاد إلى الدراسة والتدريس، فمارسهما خمسة عشر عاماً. وزاد تلاميذه فبلغوا الآلاف، وحاطوه وبجّلوه، والتقطوا الحكمة التي تسقط من فيه كما تلتقط الآذان الحكمة من شفاه الأنبياء. أما رجال الحكم فترفع عنهم. ولكنه لما بلغ عامه الثاني والخمسين قبل منهم منصب القضاء في بلدة شُنْج تو. وما تقلد القضاء حتى أحسن الناس بعضهم إلى بعض إحساناً كبيراً. وما لبثوا أن نصبوه وزيراً للجرائم، فامتنعت الناس من الإجرام. وتدخل في الحكم فأحلَّ النصفة محل العسف، والإخاء مكان العداء. وكان بين ولاية لُو وولاية إتسى خصومة دائمة فصالح بينهما، وأغرى حكامهما بهدم القلاع ففعلوا، وإنما هدموها ليهدم من أنفسهم ظلم القوة ويقيم مكانه عدل الضعف. واستقام الناس من ذوات أنفسهم. «وعمّ الولاء والثقة الرجال. وعمَّت الوداعة والعفة النساء. وأحبوه وعبدوه. وخرج اسمه من شفاههم حلواً خفيفاً كما تخرج الأغاني».

ولكن حاكم إتسى رأى الكسب في هذا كلّ الكسب لولاية لُو، ورأى الغرم كل الغرم لإتسى. فاحتال، فرأى أن يبعث إلى لُو بطائفة غير قليلة من نساء حسناوات، علمهن الرقص، ودرَّس لهن صنعة الاغواء. فلما حللن بها أقبل عليهن رجالها، وانصرفوا عن الحكيم الأول ونسوا حكمته.

عند هذا خرج الحكيم من بلاده، وأخذ يطوّف في الولايات الصينية العديدة ثلاثة عشر عاما. وكان يبحث في مطافه عن أمير يرضى به عونا في إدارة الحكم ليجربه على ما ابتدع من نُظُم وما هداه إليه تأمله الطويل من آراء. ورجا بهذا أن يضع للناس مثالا حياً للحكومة كيف تكون، والدولة كيف تُساس، مثالاً يُحتذى في بقاع الأرض جميعها. ورضي الأمراء بإكرامه، وبذل الخير الكثير له، ولكن أحدا منهم لم يرض بالنزول عن إدارة ملكه أو أسلوب حكمه.

وعاد بعد هذا المطاف إلى ولايته، وكان بلغ التاسعة والستين من عمره. فعرضوا عليه المناصب فرفضها، وآثر أن يقضي ما بقي من حياته في التدريس والتعليم.

ولم يمض عام حتى مات ابنه، فصبر صبراً جميلاً. ثم مات بعد ذلك أحب تلاميذه إليه وأخلص أتباعه، فلوت هذا جزع جزعاً شديداً أخرجه من وقاره. وفي العام التالي فات تلميذ آخر من أعز أحبابه، فهزته الوفاة هزة كبرى كان فيها هدُّ كيانه. وذات يوم، في الصباح

الباكر ، رآه الناس يمشي عند باب داره ، وبداه خلف ظهره ، وفيهما عصاه يجرها من ورائه ، وهو يتغنى :

الجبل العظيم لا بد أن يهدّ
والعاتق المتين لابد أن ينقدّ
والفيلسوف الحكيم لابد أن يذوى كما يذوى النبات

فأسرعوا إليه يستفسرون . فقال لهم : خاب رجائى عند الأمراء فلم يبق غير الموت رجاء .

ومات من بعد ذلك غير هيّاب ولا جازع .

واحتفل به أحبابه ومريدوه احتفالا فخما ضخما . وأقاموا الأكواخ عند قبره ، وعاشوا فيها يبكونه ثلاثة أعوام . وكان له من الأصفياء ثلاثة ، مات الاثنان اللذان ذكرنا منهم قبيل موته ، وبقى ثالثهم ، فهذا بقى فى كوخه عند قبر شيخه يبكيه ثلاثة أعوام أخر .

وجرى نعيه فى شعاب الصين فبكاه من لم يكن بكاه وهو حى يسعى . ونجمه الذى كان خفاقا فى حياته ، يخبت حينا ويسطع حينا ، سطع بعد موته فملأ ضياؤه أقطار الصين كلها .

ومن حكمه التى تجرى مجرى الأمثال على ألسنة أهل الصين إلى اليوم :

« الرجل الحذر قلما يخطىء » .

« الرجل الفقير الذى لا عالق رجل محمود . والرجل الغنى الذى لا يزدهيه الغِنَى رجل محمود كذلك . ولكن أحمد من هذين الرجلين فقير دائم البشاشة على فقره ، وغنى يحتشم على غناه » .

« الرجل الكبير مطالبه من نفسه ، والرجل الصغير يبحث عن مطالبه فى الناس » .

« الرجل قوام على مبادئه وقواعده ، والمبادىء والقواعد لا تذل أعناق الرجال » .

« علمٌ مكسوبٌ لا يهضمه فكرٌ ، علمٌ غير نافع . وفكرٌ لا يُعينه علم مكسوب مطية جامحة لا سلامة فيها »

الرجل الكبير ألوف يختلط بالناس ، ولكنه لا يتحزّب . وهو لا يخضع الرجل المرّ لحلاوة لفظه ، ولا يخذل اللفظ الحلو لمرارة صاحبه » .

« كلّ ما يطلب من أسلوب أن ينقل معنى صاحبه » .

لا تفعل بأخيك ما لا تحب أن يفعله أخوك بك » .

وسألوه مرة عن الموت ، فقال :

« كيف يسأل عن الموت من لا يعرف ما الحياة ؟ » .

أحمد زكى

في الأدب العربي :

ابن الشبل البغدادي
وأبو العلاء المعري

للأستاذ أحمد أمين بك

الشهرة حظ كحظ المال ، غني جاهل ، وفقير عاقل ، ومال ينهال انهيالا على من لا يستحق ، وقد لا تعرف السبب ، ومحروم بائس ولديه كل أسباب الغنى ؛ وكذلك الشهرة ، مشهور لا تعرف لشهرته علة ، ومغمور يستحق كل شهرة .

وهذا ينطبق على ابن الشبل البغدادي : أديب كبير ، وفيلسوف حكيم ، ضن عليه المترجمون فلم يرووا لنا أخباره ، وضاع بين الأدب والفلسفة ، فلم يشتهر شهرة الأدباء ولا شهرة الفلاسفة . لم أعثر له على ترجمة تشرح حياته إلا نحو خمسة أسطر وردت في « معجم الأدباء » لياقوت الحموي ، ومثلها في « طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة ؛ فهما يقصان علينا أنه كان حكيماً فيلسوفاً ، وأديبا بارعاً ، وشاعراً مجيداً ، وأنه ولد ونشأ ببغداد ، وتوفى بها سنة ٤٧٤ ، ثم رويا شيئاً من شعره . وهذا كل ما قالاه وكل ما عثرت عليه بعد البحث ، حتى لم يكف الناس أن يظلموه بتعفية آثاره فعمدوا إلى خير قصائده وأشهرها ، والتي مطلعها « بربك أيها الفلك المدار » فسلبوها منه ونسبوها إلى ابن سينا ؛ وكذلك الدنيا « إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت سلبته محاسن نفسه » .

كل ما عثرت عليه من شعره نحو مائة وخمسين بيتاً ؛ ولكن ليس الشعر بالعدد ، ولا التقويم بالكمية . فقد يروى لشاعر بيت واحد يساوي دواوين ، ولو أنصف الناس لعدوه شاعراً كبيراً ، وقد يكون لشاعر ديوان في أجزاء وهي كلها لا تساوي بيتاً ، ولو أنصف الناس لأهملوه وأهملوا ديوانه .

ابن الشبل البغدادي — كما تدل عليه هذه الأبيات — شاعر ممتاز من جنس الشعراء القليلين الذين جمعوا بين الشعر والفلسفة ، أمثال دانتي وملتن في الشعر الغربي ، وأبي العلاء وعمر الخيام في الشعر العربي ؛ ولكن الأخيرين رزقا الحظوة في شعرهما فسار ذكرهما في الناس ، وعرفهما الشرق والغرب ، وخمل ابن الشبل فجهل في الشرق والغرب .

كان ابن الشبل شاعراً حائراً حيرة أبي العلاء ، كلاهما يبحث عن الحق بعقله فتضطرب الدلائل وتختلف الأعلام ، فيصرخ بالشعر من حيرته ، وكانا متعاصرين تقريباً ، تأخرت وفاة ابن الشبل عن وفاة أبي العلاء بخمسة وعشرين عاماً ؛ فهذا شاعر حائر في بغداد ، وهذا شاعر حائر في معرة النعمان : هل العالم خير أو شر ؟ إن في العالم لذائذ ومسرات ، فهل نستمتع بها أو نرفضها ؟ ما الدين وما نتائجه ؟ ما القدر وكيف يتفق والثواب والعقاب ؟ هذه الأسئلة ونحوها أثارها كل منهما ، لا إثارة فيلسوف فحسب ولا شاعر فحسب ، بل إثارة شاعر فيلسوف معاً ، ينظر كلاهما النظرة الفلسفية العميقة ، ثم لا يخضع لنظم الفلسفة وعباراتها وترتيب مقدماتها ونتائجها وفصولها وأبوابها ، ويوقع كلاهما أفكاره على النغمة الموسيقية الشعرية ، مازجا عاطفته بفكرته وخياله عنطقه . بل عندي أن ابن الشبل أصح شاعرية وأرق موسيقية ، وأجزل أسلوباً من صاحبه أبي العلاء في اللزوميات . لقد أتعب أبو العلاء نفسه بإلتزام ما لا يلزم ويتظاهره بمعرفته الواسعة بمادة اللغة . أما ابن الشبل فسهل جار مع الطبع ، لا يتكلف ولا يلتزم ما لا يلزم ولا يحب الغريب .

* * *

حار كلاهما في السماء ونجومها ، والأفلاك ودورانها ، هل تعقل أو لا تعقل ؟ وهل هي مخيرة أم مسيرة ؟ وهل تسير لغاية أو تخبط خبط عشواء ؟ فأما ابن الشبل فقال :

بربك أيها الفلكُ المُدار   أقصدٌ ذا المسيرُ أم اضطرار ؟
مدارُكَ قل لنا في أي شيء   ففي أفهامنا منك انبهارُ ؟

وفيك نرى الفضاءَ وهل فضاءٌ
سوى هذا الفضاءِ به تُدار ؟
وعندك تُرفع الأرواح أم هل
مع الأجساد يدركها البوار ؟

وأما أبو العلاء فقال :

استحى من شمسِ النهار ومن
قمرِ الدُّجى ونجومِه الزُّهْر
يجرين في الفلك المُدار بإذ
نِ الله لا يخشَيْن من بُهْرِ (١)

ولهُنَّ بالتعظيم في خَلَدِى   أولى وأجدر من بنى فِهْر
سبحان خالقهن لست أقو   ل الشهبُ كاسية مع الدهر

لا بل أفكر هل رُزِقنَ حِجًى
نجساً يجزن به من الطهر

وقال :

العالم العالى برأى معاشر   كالعالم الهاوى يحس ويعلم
زعمتْ رجال أن سياراته   تسق العقولَ وأنها تتكلم

فهل الكواكب مثلُنا في دينها
لا يتفقن فعاندٌ أو مسلم ؟

وكلاهما نافم على العالم لم وجد ؟ وما الغرض منه ؟ وما فائدته وقد امتلأ بالشرور وأفعم بالرزايا ؟ فأما ابن الشبل فيقول :

ودهرٌ ينثر الأعمارَ نثرا   كما للغصنِ بالورقِ انتثار
ودنيا كلما وضعتْ جنيناً   غذاه من نوائبها ظُؤار (٢)

(١) البهر تتابع النفس وانقطاعه من الجرى .
(٢) جمع ظئر وهى المرضعة .

هى العشواءُ ما خبطت هشيم
هى العجماء ما جرحتْ جُبار (١)

ويقول :

إنما نحن بين ظُفْرٍ وناب
من خطوبٍ أُسودهُنَّ ضِراءُ (٢)

تمنى وفى المنى قصر العُمـ   ـرِ فنغدو بما نُسرُّ نُساء
صحة المرء للسقام طريقٌ   وطريق الفناء هذا البقاء
بالذى نقتدى نموت ونحيا   أقتلُ الداءِ للنفوس الدواء

ما لقينا من غدر دنيا ؟ فلا كا
نت ولا كان أخذها والعطاء

راجعٌ جودُها عليها فمهما   يَهب الصبح يسترد المساء
ليت شعرى حلماً تمر بنا الأ   يام أم ليس تعقل الأشياء

ويقول أبو العلاء :

وكأنما دنياك رؤيا نائمٍ   بالعكس فى معنى الزمان تُعبَّر
فإذا بكيتَ بها فتلك مسرة   وإذا ضحكت فذاك حين تعبر
سُرَّ الفتى من جهله بزمانه   وهو الأسير ليوم قتل يصبر

ويقول :

أضاح هى الدنيا تُشابه ميتة
ونحن حواليها الكلاب النوابح
فمن ظلَّ منها آكلا فهو خاسرٌ
ومن عادَ منها ساغباً فهو رابح
ومن لم تُبيِّته الخطوبُ فإنه
سيصحَبُه من حادث الدهر صابح

وكلاهما يعتب على آدم فعلته ، ويحمله تبعة شقائنا فى هذا الكون . فأما ابن الشبل فيقول :

فإن يك آدمٌ أشقى بنيه   بذنب ما له منه اعتذار
ولم ينفعه بالأسماء علمٌ   وما نفع السجودُ ولا الجوار
لقد بلغ العدو بنا مناه   وحل بآدمٍ وبنا الصَّغار

(١) جبار أى هدر لا مؤاخذة عليه .
(٢) الضراء الضارية المفترسة .

فيالك يا أكلة ما زال منها ... علينا نقمة وعليه عار

ويقول أبو العلاء :

خير لآدم والخلق الذى خرجوا

من ظهره أن يكونوا قبل ما خلقوا

فهل أحس وبال جسمه رمم

بما رآه بنوه من أذى ولقوا ؟

وكلاهما يحار فى علة الوجود وفى التكليف مع الجبر ، فيقول ابن الشبل :

فاذا الامتنان على وجود ... لغير الموجدين به الخيار

وكانت أنعما لو أن كونا ... نخير قبله أو نستشار

ويقول :

قبح الله لذة لأذانا ... نالها الأمهات والآباء

نحن لولا الوجود لم نألم الفقـ ... د فإيجادنا علينا بلاء

ويقول أبو العلاء :

جئنا على كره ونرحل رغما ... ولعلنا ما بين ذلك نجبر

ويقول :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى

ولا حياتى فهل لى بعد تخيير ؟

وكلاهما يحار فى « البعث والنشور » فيقول ابن الشبل :

وقليلا ما تصحب المهجة الجـ ... ـسم ففيم الأسى وفيم العناء ؟

ولقد أيد الإله عقولا ... حجة العود عندها الإبداء

غير دعوى قوم على الميت شيئاً

أنكرته الجلود والأعضاء

وإذا كان فى العيان خلاف ... كيف بالغيب يستبين الخفاء ؟

ويقول أبو العلاء :

أرواحنا معنا وليس لنا بها ... علم فكيف إذا حوتها الأقبر ؟

ويقول :

دفنّاهم فى الأرض دفن تيقن

ولا علم بالأرواح غير ظنون

ويقول :

وقد زعموا هذى النفوس بواقيا

تشكل فى أجسامها وتهذب

وتنقل منها فالسعيد مكرم

بما هو لاق والشقى معذب

ولو كان يبقى الحس فى شخص ميت

لأيقنت أن الموت فى القبر أعذب

هذا إلى كثير من وجوه الشبه بينهما فى الحيرة والنظرة الفلسفية للحياة ، وتصوير ذلك كله تصويراً شعرياً ؛ ولكن شيئاً واحداً جوهرياً يخالف بينهما تمام المخالفة ، ويجعل نظرتيهما للحياة متغايرة ؛ فأبو العلاء بطبيعة مزاجه وعاهته ومثله قال إن الحياة باطلة فلأزهد فيها ، وابن الشبل بحكم ظروفه التى لم ترو لنا قال إن الحياة باطلة فلأنعم ما استطعت بها . مقدمتان متساويتان لنتيجتين متضادتين ، كالكهرباء الواحدة تستعمل فى التبريد وفى التدفئة ، تارة تكون مروحة وثلاجة ، وتارة تكون مدفئة وناراً .

فأما أبو العلاء فتبنى على أوتار حزينة ، يلعن الدنيا ويلعن الناس ويلعن نفسه ، ويفر من الدنيا فراره من الجرب ، ويزهد فى كل ملذاتها من نساء وخمر وأكل شهى ، ويفرض على نفسه فروضاً قاسية من عزلة ورهبانية وصيام حتى عن الطيبات من الرزق ، فلا يأكل السمك لأنه أخرج من البحر ظلماً ، ولا اللحم لأنه عذب حيوانه ذبحاً ، ولا يفجع الطير فى نفسها وأولادها ، ولا عسل النحل الذى جمعه بجده من الأزهار فيقول :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما

ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير وهى غوافل

بما وضعت فالظلم شر القبائح

ودع ضرب النحل الذى بكرت له

كواسب من أزهار نبت فوائح

فما أحرزته كى يكون لغيرها   ولا جمته للندى والمنائح

مسحت يدى من كل هذا فليتنى
أبيت لشأنى قبل شيب المسائح

ويقول :

وأرحت أولادى فهم فى نعمة الـ
ـعدم التى فضلت نعيم العاجل
ولو أنهم ظهروا لعانوا شدة
ترميهم فى متلفات هواجل (١)

ويقول :

وزهدنى فى هضبة المجد خبرتى
بأن قرارات الرجال وهود
كأن كهول القوم أطفال أشهر
تناغت وأكوار القلاص مهود
إذا حدثوا لم يفهموا ، وإذا دعوا
أجابوا وفيهم رقدة وهمود

ويقول :

أأخرج من تحت هذا السماء   فكيف الإباق وأين المفر
وما جبلت لأسود العرين   أظافير إلا ابتغاء الظفر
لحا الله قوماً إذا جئتهم   بصدق الأحاديث قالوا كفر

وأما ابن الشبل ، فيرى بطلان الحياة، فيضحك منها ولها ، ويغزل غزلا طريفا ، ويدعو إلى انتهاب اللذات قبل فوات الأوان ، فيقول فى غزله :

إن تكن تجزع من دمـ   ـعى إذا فاض فصنه
أو تكن أبصرت يوما   سيداً يعفو فكنه
أنا لا أصبر عمن   لا يحمل الصبر عنه
كل ذنب فى الهوى يغـ   ـفر لى ما لم أخنه

ويقول :

قالوا وقد مات محبوب فجعت به
وبالصبا وأرادوا عنه سلوانى
ثانيه فى الحسن موجود فقلت لهم
من أين لى فى الهوى الثانى صبا ثانى ؟

وله اللفتات النفسية اللطيفة كقوله :

لا تظهرن لعاذل أو عاذر   حاليك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة   فى القلب مثل شماتة الأعداء

والتشبيهات المبتكرة كقوله :

يفنى البخيل بجمع المال مدته
وللحوادث والوراث ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يخنقها
وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ويقول فى انتهاب اللذات :

ما أمكنت دولة الأفراح مقبلة
فانعم ولذ فإن العيش تارات
قبل ارتجاع الليالى وهى عارية
وإنما لذة الدنيا إعارات
لعله إن دعا داعى الحمام بنا
نقضى وأنفسنا منا رويات

***

قد وقع الدهر سطراً فى صحيفته
« لا فارقت شارب الخمر المسرات »
خذ ما تعجل واترك ما وعدت به
فعل اللبيب فللتأخير آفات
وللسعادة أوقات ميسرة
تعطى السرور وللأحزان أوقات

وهكذا كانا لطيفين فى موافقاتهما ، لطيفين فى مفارقاتهما — رحمهما الله .

أحمد أمين

(١) الهواجل جمع هوجل وهى المفازة لا أعلام بها .

بين قاسم أمين

ودوق داركور

٢ — كتاب «مصر والمصريون (*)»

لنبحث كتاب «مصر والمصريون» بحثا هادئا ، ولنجمل لك ما فيه من الآراء حتى ترى إلى أى حد كان مؤلفه الدوق داركور على حق فيما ذهب إليه من نقد الجماعة المصرية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . والكتاب كما أسلفنا صورة — قد تكون غير عادلة — لنواح من الحياة المصرية فى نهاية ذلك القرن ؛ ولاشك أن قوما مثلنا يفيدون كثيراً من ذكرى هذه الدراسات ، بل لابد أننا واجدون نقطا تثير البحث فى كتاب مثل هذا كتب عن مصر خاصة .

* * *

أول ما لاحظه الدوق الفرنسى أن مصر لا تتمتع بخلق قوى واضح ، وأن فى المصريين ضعفا قوميا عاما . أما المجد الفرعونى الغابر فقد عفت آثاره ، وأما الأمة المصرية نفسها فقد عانت من الظلم ما نزل بها إلى المستوى الأدنى من الحياة . وقد تدهور الخلق القوى منذ نهاية العصر القديم لما عانت البلاد من الحكم الأجنبى ، فقد كانت فى تاريخها الوسيط والحديث مسرحا للغاصب الأجنبى . أما أبناؤها فقد كانوا من ضحايا القوة الغشوم . حكمهم المماليك خمسة قرون فكان لحكومتهم أثر سيء ، لأنها باعدت بين أهل البلاد وبين مناصب الحكم ، ولأنها عزلت الحكام عن المحكومين فأصبحت التفرقة بين الحاكم والمحكوم تقليداً سرى فى نظم الحكم حتى أيام إسماعيل . أما الظلم الذى يعانيه الفلاحون فهو بليغ لأنهم يسخرون من غير أجر ويعيشون فى ظروف أتعس من ظروف العبودية الأولى . فليس الظلم هنا شيئا خياليا ، وإنما هو مظهر مادى يدل على ما وصل إليه الفلاح المصرى من الضنك والفقر والفاقة ، ويدل كذلك على ما ورثه من القرون الأولى من الذل والهوان . كل ذلك فتّ فى حياة مصر لجعلها جسما ضعيفا لا تتردد فيه روح القومية .

وعنده أن أشد ما أوهن الروح القومية عند المصريين إنما هو تهاونهم فى التربية العسكرية ، فالمصريون ينقصهم النشاط العسكرى العنيف ، وليس لهم عهد طويل بنظام الجندية ، وحين أهملوا تربيتهم العسكرية فقدوا روح المغامرة واكتفوا بالخلق الزراعى الذى وثق بينهم وبين الأرض التى يزرعون . فأصبحوا وهم لا يفكرون فى شىء ما خلا الأرض ، وضاقت آمالهم لأنها انحصرت على ذلك الوادى الضيق الذى يمتد على ضفتى النيل . أما الروح الحربى الذى بدأه محمد على فى تكوين الجيش فقد كان موقوتا بالانتصارات التى حازها ، فقد وهن الجيش بعد محمد على فأصبح هزيلا ، وكان انتصار الانجليز عليه محققا ميسورا .

وانتقل الدوق بعد التحدث عن القومية فى مصر إلى نقد الطبقات الاجتماعية فيها ، وهو أرستقراطى لا تستقيم الجماعة عنده إلا إذا كان فيها طبقات اجتماعية تختلف كل واحدة عن الأخرى . وهو يرى أن النظام الأوربى فى عصره يكاد يكون كاملا لأن كل طبقة من طبقات المجتمع تؤدى واجبات خاصة ، وأن الذى يحدث الفروق بين كل طبقة وطبقة إنما هو اثنتان : الوراثة والتربية . فكل فرد من أفراد الطبقة العليا يورّث أولاده وحفدته ما بلغ من مجد وما أصاب من مال . أما فى مصر فإن الدوق داركور لم يجد مثيلا للطبقات فى المجتمع الأوربى ، لأن صلات الأسرة المصرية ضعيفة واهنة ، أضعفها الطلاق وتعدد

(*) L'Egypte et les Egyptiens تأليف le Duc d' Harcourt

الزوجات والرق ، ولأن توغل الأجانب فى الحكم لم يسمح للمصريين أن يكوّنوا منهم طبقة أرستقراطية حاكمة ، ولأن المرأة قد أهملت التمتع بسلطتها على ما تملك فأصبحت متاعا يملكه الرجل ، ولأن الأرض جميعاً كانت ملكا للوالى حتى سنة ١٨٧١ ، ولم توزع حين وزعت بقسطاس عادل لأنها أعطيت لمن استطاع أن يدفع مقدما ضرائب ست سنوات . كل ذلك لم يسمح للطبقات فى مصر أن تتكون ، ولا أن تدرك كل منها ما هى مطالبة به من الواجبات والخدمات فى الحياة العامة . فاذا كانت أوربا قد عانت من وجود اختلاف بيّن بين طبقاتها فقد عانت مصر من أنها لم تعرف نظام الطبقات على الإطلاق .

على أنه يرى أن فئات من الناس فى مصر هى التى تتمتع بأكثر الخير . وأن هـذه هى التى تحلّ فيها محل الطبقة العليا فى المجتمع الأوربى من غير أن تؤدى الخدمات التى تقوم بها تلك الطبقة . وليست هذه الفئات من صميم المصريين بل هم دخلاء : فئة منهم ينتمون إلى الأصل التركى ، وشراذم أخرى جاءت من ألبانيا والقوقاز وأرمينيا وبلاد اليونان ومالطة : كلهم يريد استغلال البلاد بأقرب سبيل وبأدنا وسيلة ، وكلهم يتفقون فى الشيئين : فى أنهم مسلمون أولا ، وفى أنهم غير مصريين ثانياً . أما المماليك فقد ظلوا قروناً وهم الطبقة الحاكمة فى هذا البلد ، وقد استأثروا بالسلطة خلال تلك القرون ، وتكثّروا بالبيع والشراء ، دون أن يتكثّروا بالولادة والزواج . وظلوا يكوّنون الأرستقراطية الحاكمة ، حتى قضى على سلطانهم محمد على فى سنة ١٨١١ . وبذلك سقط نظامهم الحكومى ، لكنهم خلّفوا فى مصر تقاليد تنمّ من ضعف المحكوم وطغيان الحاكم . فأما الأتراك ومن لفّ لفهم من الأرمن والشراكسة فقد ظلوا يستأثرون بمناصب الجيش العليا حتى آخر عهد إسماعيل . فكأنما حلوا محل المماليك فى التمتع بسلطان الحكم . أما الدخلاء الأجانب فهم أيضاً يستغلون مصر استغلالاً ماكراً لا رحمة فيه ، ومعنى ذلك أن المصرى مضيّع بين فئات من الناس يأخذون ولا يعطون ، ويغنمون ولا يغرمون .

* * *

ويصل المؤلف دار كور بعد ذلك إلى الفصل السادس من كتابه فيعالج موضوعاً هاماً ، لعلّه هو الذى أثار قاسم أمين ، بل لعله هو الذى دفع قاسم أمين إلى الكتابة عن المرأة . . .

لقد لاحظ فى جولاته أن تحجب النساء فى مصر شائع مطلق عند الأغنياء . وأن المنازل المصرية نفسها قد بنيت لتحجبهن ؛ ففن العمارة فى مصر قد مضى فى أطوار متعاقبة ، لكنه فى كل طور منها كان متأثراً بفكرة الحريم . هذه المداخل الملتوية ، وتلك المشربيات التى تطل على حوش داخلى ، وذلك التخطيط الذى يفصل قسم الحريم من قسم الرجال ، كل ذلك يدل على أن الحجاب فى مصر كان بالغ التأثير ، وكل ذلك يدعو إلى التفكير فى أسباب الحجاب .

أما السبب الاجتماعى للحجاب فقد رآه فى حالة الخوف والذعر التى نشرها النظام الحكومى المستبد فى مصر . ذلك بأن الجماعة المصرية كانت تقوم فى نظره على فكرة واحدة هى الخوف : خوف المظلوم من الظالم ، وخوف المحكوم من الحاكم ، وخوف الضعيف من القوى . وكان الرجل يخفى كل ما يملك لأنه مستضعف تهدده السلطة السادية الجائرة . وكانت المرأة من أنواع المتاع الذى يخفيه الرجل . وقد قضى على المرأة بالحجاب خوف الحاكم المستبد الظالم . وذلك الذى كان يخفى المال فى أغوار الأرض كان يخفى المرأة فى أعماق البيت . فهو فى كلا الحالين يخشى على شطر مما يملك ، وهو يعيش فى حالة من الفزع تهدده القوة الغشوم ، والقوة الغشوم كانت تغتصب المال كما تغتصب النساء . إنه يجاهد فى

حياته ليبق وهو في جهاده هذا يحرص على زوجه كما يحرص على الفضة والنضار ؛ ذلك إذاً تفسير الحجاب الذي ضربه الرجل على المرأة ، وهو تفسير لا يمت إلى الدين بأي علاقة من العلاقات .

أما السبب الديني لحجاب المرأة عند دوق دار كور فهو أن الاسلام قد أمر به ؛ ذلك بأن الاسلام في نظره قد تدخل في كل العادات الشخصية التي يتبعها المسلمون والمسلمات ، فهم مقيدون بأوامر دينهم ونواهيه فيما يقل أو يجل من الأمور . والدين يملي عليهم ما يفعلون في حركاتهم وسكونهم ، وفي ملبسهم ومآكلهم . وقد أمرهم بالحجاب ، فكان ذلك أساساً من أسسه . وحينما تحجبت النساء انحطت المرأة المسلمة وأصبحت في معزل عن الحياة العامة ، وعاشت في جو تنتشر فيه الخرافات وتتجلى فيه القرائز الدنيا . بل لقد أصبحت هذه الخرافات وتلك القرائز من بين الغايات التي يعيش لها المجتمع المصري ، لأن الأطفال قد نشأوا في هذا الجو الفاسد الذي تملأه القصص البذيئة والعادات الخشنة . وفي مثل هذه الحياة الاجتماعية القاصرة لا يستطيع الذين أوتوا شيئاً من العلم الحديث أن يفيدوا مما تعلموا . حتى الفتيات اللاتي تعلمن في مدارس أوربية أسأن فهم الحياة في أوربا ، فقرأن أسوأ الروايات وأسأن التصرف فيما أوتينه من حرية ضئيلة محدودة .

***

ويبدأ دوق دار كور كتابه الثاني من مصر والمصريين بحديث عن تأخر الحركة الفكرية في مصر ، وهو حين يعرض لهذا الأمر يعود إلى الاسلام ثانية ، لكنه يعود في هذه المرة أشد عنفاً وأكثر تجنياً .

والدين عنده هو السبب الأساسي في هذا التأخر الذي لاحظه في كل بلد إسلامي . وقد ادعى أن الاسلام لا يحض على البحث في العلوم غير الدينية ، لذلك احتقر المسلمون علوم الغرب ، واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين وأن كل ما عداه باطل . بل هو ينكر على العرب الأولين أن كان لهم مدنية خاصة ، لأن المدنية لا تقوم إلا على أساس علمي ، والعلم عندهم لم يكن يخرج عما أتى به القرآن ، لذلك أمر عمر بإحراق مكتبة الاسكندرية !

ثم إن العرب لم يحاولوا استكشاف علوم الدنيا لأنهم تعصبوا لأصول دينهم وآمنوا بالقضاء والقدر ، لذلك قامت مدنيتهم على قوائم المدنيات العتيقة . فالنسطوريون كانوا هم أئمة الطب في سوريا ، والاغريق هم الذين أدخلوا الرياضة في ممالك العرب ، والفن البيزنطي هو الذي أوحى إليهم أصول الفن العربي . وبالجملة فقد كان الشرق مشبعاً بآثار المدنيات القديمة حينما غزاه العرب ، فما استولوا عليه حتى ظهرت مخلفات هذه المدنيات . أما شبه الجزيرة العربية نفسها فلم تكن صاحبة مدنية خاصة نستطيع أن نسميها « المدنية العربية » .

وهو ينتقل إلى حالة العلوم والآداب في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ؛ فيدعى أن مصر ما زالت — على الرغم من أنها ملتقى الشرق والغرب — غارقة في بحار الجهالة . فالحياة العلمية فيها قاصرة على بعض الدوائر الأوربية المحدودة ، وقلما ينشر كتاب في العاصمة . أما دار الكتب المصرية فقد امتلأت بمخطوطات قديمة مكدس بعضها فوق بعض . والكتب الأوربية ليست أحسن نظاماً من الكتب العربية . وبالجملة فدار الكتب المصرية عنده كانت تشبه دور الكتب الاوربية في العصور الوسطى . ومكتبة شارل الخامس لم تكن في خياله تختلف كثيراً عن دار الكتب المصرية في آخر القرن التاسع عشر .

أما الذوق الأدبي فقد أحس بأنه غير موجود في مصر . ذلك بأن المصريين قوم يعشقون المادة في كل مظاهرها ، لكنهم لا يهتمون كثيراً بالمعنويات . وهم لا يحبون العلم لذات العلم ، وكذلك لا يحبون الأدب لذات

الأدب . ثم إنهم قوم لا يدركون معنى الاجتماع ، والمجتمع المصرى فى ذلك العهد لم يكن قد أصّل لنفسه أصولا ، ولم يكن قد أقام علائق بين الرجل والرجل ، وبين الرجل والمرأة ، وبين هذه الطبقة وتلك الطبقة . والأدب وفكرة الاجتماع مرتبطان أشد الارتباط . العلاقات بين الناس فى مصر لم تكن علاقات اجتماعية ، لأنها لم تخرج عن دائرة الأعمال والأشغال . أما الناس فإنهم يقضون أوقات فراغهم على المقاهى ، حيث لا يمكن أن تترقى علائق الاجتماع ، ولا أن تنتقل الآراء وتتمحص ، فلذلك لم ينم الأدب المصرى الحديث ، لأنه لا يستطيع أن يكون صورة لأى مجتمع راق يحيا فيه الناس حياة اجتماعية نبيلة .

أما عن التعليم فقد شهد الدوق داركور أن مصر قد تقدمت كثيراً فى فتح المدارس ، إلا أن التلميذ المصرى لا يحسن فى حياته المدرسية إلا التلقى . إنه يعتمد كل الاعتماد على الذاكرة ، لكنه لا يربى ملكات الحكم والموازنة والابتكار . لذلك استطاع أن ينجح فى الامتحانات بجدارة ، لأنه يستذكر الكتاب من بدئه إلى نهايته . لكنه قلما يجد مجالا لاستثمار ذكائه الفطرى . التلميذ المصرى من أحسن الذين يعرفون نظرية الهندسة مثلا ، لكنه من أسوأ الذين يطبقون مثل هذه النظرية ، ولأن المصريين يعتمدون على الذاكرة فحسب فقد وُئدت فيهم روح التفكير الصحيح ، وقلت عندهم موهبة التعميم والتدليل . وقصروا عن أن يدركوا الأحكام العامة على الرغم من ظهور الفروض والقضايا أمامهم .

ثم ينقص التلميذ المصرى بعد ذلك خلق الرجولة والشجاعة : ذلك الخلق الذى يتحمل كل مسئولية تلقى عليه . وقد استق الدوق داركور رأيه من ناظر مدرسة الفنون والصنائع وكان فرنسيا إذ يقول : « إن الأطفال المصريين تظهر عليهم دائما علائم الفطرة الأولى . أما الجهود التى تبذل لتحويلهم فإنها تذهب سدى . وأما الذى ينقصهم فهو ليس المهارة ولا القوة حتى ولا الذكاء ، وإنما تنقصهم صفات الرجولة . . . صفات الإرادة والنشاط ، أى أنه ينقصهم الخلق . فلا يمكنك أن تعتمد عليهم ولا يمكنهم هم أنفسهم أن يتحملوا أتفه المسئوليات . » لذلك يظهر انحطاط المستوى العقلى متى قربوا من البلوغ ، ولذلك تدلت الحياة الفكرية عند المصريين عامة . ولا أمل فى أن تنجاب هذه الجهالة عن البلاد ، لأن المصريين يستطيعون أن يؤدوا أشق الامتحانات فيظهروا كأحسن ما يكون المتعلمون ، لكنهم عاجزون عن تطبيق ما يتعلمون فى حياتهم العامة .

* * *

تلك جملة الآراء التى ضمنها دوق داركور كتابه عن « مصر والمصريين » وقد أسلفنا أن الدوافع التى دفعته إلى كتابة كل ذلك لم تكن مخلصة ولا شريفة . بل لقد كان يكتب وبصره يشرئب إلى تلك الأسلاب التى أقبلت عليها إنجلترة دون فرنسا . ولكن بعد كل الذى نقلت إليك ، وبعد أن أحسست بالضغن الذى يثيره مثل هذا النقد القاسى ، وبعد أن رأيت أن الدوق داركور جاهل بما فى الاسلام من قوة ، ألا ترى أنه على حق فى كثير مما وصف من آثار الجهل والفاقة ؟ ألا ترى معى أنه على حق فيما وصف من حرمان المصرى واستغلال الدخيل ؟ وألم تقم الثورة العرابية نفسها لأنها ضاقت بذلك التمييز بين الشراكسة والأتراك وبين أبناء البلاد ؟ ثم ألا ترى معى أنه على حق فيما وصف من ظلم يمتد إلى أغوار الحياة المصرية نفسها وفيما صور من آثار العبودية ، وفيما نقد من اتجاهات التربية والتعليم والأدب ، وفيما بين من هضم حقوق النساء ؟ إنه على حق فى كل ذلك ، لكنه مخطىء حيث يبدى أسباب هذا الظلم والتأخر ، وحيث يتفلسف فيتحدث عن الدين حديث الواثق الدقيق . وفى الحق أنه لم يبحث أصول الدين كما كان

يد النســـاء
فى مأساة أوربا الحاضرة

للأستاذ محمد بدران

[ملخصة عن الانجليزية]

يقول الفرنسيون فى أمثالهم « فتش عن المرأة » . وقد يظن البعض أن هــذا المثل لا يصدق إلا على بعض نواحى الحياة الفردية الخاصة ، وما يحدث بين الأسر من مشاكل وخصومات روائية ، ومآس فى بعض الأحيـان . وقلما يظن الانسان أن سياسة الدول العليا تصرفها النساء فى كثير من الأوقات ، وأن الملوك ورؤساء الوزارات ، والقادة كثيرون أنفسهم يخضعون للنساء ، أو على الأقل يستخدمونهن خفية لنيل أغراضهم وتحقيق مطامعهم . وسنقص فى هذا المقال وفيما يليه من المقالات — إن سمحت الثقافة — طرفاً من أعمال النساء ، والدور الذى يلعبنه فى مأساة أوربا الحاضرة . وسنبدأ ببلغاريا لأنها كما يلوح مقدمة على عمل خطير فى القريب العاجل ، ولأن الرواية التى تمثلها لم تتم فصولها :

يقولون إنه لولا نشـاط الأميرة يودكسيا Eudoxia أخت الملك بوريس ، لظلت بلغاريا على الأرجح بعيدة عن دائرة النفوذ الألمانى ، ولتجنبت ويلات الحرب الأوربية . إن هذه الأميرة تعيش فى الظـاهر فى عزلة بعيدة عن تيارات السياسة العليا ، ولكنها فى الحقيقة اليد التى تحرك الملك بوريس ، وهى ملـكة بلغاريا غير المتوجة التى ترفع وزراءها إلى السماك الأعلى أو تنزل بهم إلى الحضيض ، وهى بطبعها كائدة دساسة يلذ لهـا أن تدبر المؤامرات . أما فى حياتها الخاصة فهى فى نظر الناس الأخت البارة المخلصة للملك بوريس التى لا تفكر إلا فى خيره ومنفعته ، وهى تسمى نفسها دائماً ربة منزله وطاهيته ، وكثيراً ما تذهب إلى مطبخ القصر لتعد للملك صنفاً من الأصناف التى يشتهيها . ولا جدال فى أن يودكسيا من أقدر النساء وأقواهن عقلاً ، وهى تتكلم ست لغات بسهولة ، وكان فى وسعها أن تصبح من أهل الفن ، لأنها تجيد التصوير بالألوان المائية ، وقد عرضت فى معارض صوفيا عدة مناظر جميلة ؛ ولكن أخص خصائصها هى رغبتها الشديدة فى السيطرة على شئون البلقان بأسرها ، وهى عاجزة عن أن تظل بعيدة عن التيارات الخفية تيارات المكايد والدسائس فى تلك البلاد .

فرجال السياسة الذين يطمعون فى الشهرة والمجد يسعون إليها ليعرضوا عليها آمالهم ورغباتهم ، وهم يعلمون أنهم إذا كسبوا يودكسيا فقد كسبوا كل شىء . وقد اندفعت يودكسيا فى تيـار الدسائس البلغارية وهى فتاة لم تبلغ العشرين ، وكان تزنكوف Tsankof رئيس وزراء بلغاريا الألمانى النزعة يعمل فى ذلك الوقت للاستيلاء على أزمـة

يفيض ، بل لقد قفز إلى أحكام طائشة كان أجدى عليه لو تريث فى إرسالها قليلا .

ثم كان دوق دار كور جاهلا بأسس الدين الاسلامى وبتاريخ العرب وبفضل الثقافة العربية فى تاريخ المدنيات العامة ، لكن قيمة كتابه ليست فى ذلك ، وإنما هى فى تصوير الحياة التى رآها والتعبير عن الآثار النفسية التى تلقاها . ولعله كان جاهلا كذلك بأن المصريين أنفسهم كانوا قد أحسوا بالنقائص التى يتحدث عنها وأنهم كانوا على أبواب نهضة فى السياسة والقانون والعلم والتربية والخلق ، وأنهم ثاروا بحكومة الشراكسة وطالبوا بالحرية والمساواة فى سنة ١٨٨٢ ، وأنهم نالوا حقهم الدستورى قبل ذلك بقليل ، وأن طبقة مثقفة من أمثال قاسم أمين كانت تنظر إلى الأمام بينما كان الدوق الفرنسى ينظر إلى الوراء .

(بنى سويف) أحمد غاكى

الحكم . وزنكوف رجل كثير المال ميت الضمير ، وكان يعتقد أن الملك غير راغب فيه كاره لسياسته ، فاتصل ببودكسيا وضمها إلى جانبه ، فأصبحت إلى مطالبه وعاونته بنفوذها بالقدر الذي كان لها من النفوذ وقتئذ ، وعين زنكوف وزيراً . وكان ذلك قبل الحرب الأوربية الماضية .

ولما هزمت بلغاريا في تلك الحرب سقط زنكوف وثار الشعب البلغاري الذي سئم الظلم والاستعباد الطويل ، وتولى الحكم أستمبوليسكي زعيم حزب الفلاحين ، وهو رجل خيالي عفيف اليد عظيم المواهب ، ولكنه قليل المال . ولم تستطع الوزارة التي ألفها أن تقاوم سيل الرشا الذي انساب من زنكوف وأعوانه . وكانت بودكسيا ألد أعداء زعيم الفلاحين ، لأنها وجدت فيه منافساً قوياً في وسعه أن يسقط الملكية ويقيم على أنقاضها دولة شيوعية . وكان زنكوف طوال هذه المدة يعمل لبث الرعب في قلب الأميرة وفي قلب الملك من طريقها . وظل يعمل كذلك حتى تأزمت الأمور في بلغاريا وقام فيها حكم الإرهاب ، وانتشر جواسيس زنكوف في كل مكان يضايقون أنصار رئيس الحكومة ويقتلونهم في كثير من الأحيان ، حتى أفلح آخر الأمر في العودة إلى الحكم .

وكانت ألمانيا منذ قيام الحكم النازي تعمل على أن تكون صاحبة الكلمة النافذة في شئون البلقان تمهيداً للسيطرة التامة عليه في الوقت المناسب . وكان لا بد لها أن تعمل في الخفاء ، لأن إيطاليا كانت تنظر شزراً إلى كل خطوة يخطوها الألمان . وأخذ المال الإيطالي ينساب إلى بلغاريا ، وكان للأميرة بودكسيا نصيبها منه ومن العمل على تقوية النفوذ الإيطالي ؛ وكانت حجتها أنه سواء قوي النفوذ الإيطالي أو الألماني فإن العرش سيظل في أمان ، وانضوت الأميرة تحت لواء الحزب الفاشي الإيطالي لتبرهن بذلك على إعجابها بموسوليني وعطفها على الأغراض التي يعمل لها حزبه .

وإزاء كل ذلك ضاقت ألمانيا ، فقررت أن تضاعف من نشاطها ، وأسرع رسلها إلى صوفيا ، وعرف ريبنتروب أن الأميرة حليف قوي يحسن بالنازيين أن يصطنعوه ، ودله زنكوف على الطريق الموصلة إليها ، وأيده في ذلك الرسل السريون الذين كانوا يعملون لصالح ألمانيا في بلغاريا ، وصدرت الأوامر من برلين إلى هؤلاء الرسل أن ينشروا في طول البلاد وعرضها الأنباء عن أغراض الشيوعيين ليقذفوا بذلك الرعب في قلب الملك وقلب بودكسيا من الخطر الداهم الذي أعلن هتلر أنه سيقاومه إلى آخر رمق من حياته .

وأثرت هذه الحملة من حرب الأعصاب في بودكسيا ، فظنت أن الخطر الأحمر يهدد البلاد ، وأن الثورة الشيوعية ستطوح بأخيها عن عرشه ، وتقضي على سلطانها قضاءً لا مرد له . وأخذ وكلاء النازيين في زي عمال من الروس الشيوعيين يكيدون لبودكسيا ، وأخذت بودكسيا وأعوانها يكيدون لهم ، واضطرت أن تلجأ إلى زملائها الفاشست الطليان ليأخذوا بيدها في هذا النزاع . وأبلغ زنكوف النبأ سراً إلى برلين ، ورأى الألمان أن يسارعوا لكسب بودكسيا واستخدامها لغرضهم ، وهو ضم بلغاريا إلى دائرة النظام الجديد .

وكانت الحرب دائرة رحاها منذ أربعة عشر شهراً ، وكان يلوح أن النصر مكفول فيها للألمان . وكان الذين يأخذون بظواهر الأمور يعتقدون أنه لن يمضي إلا بضعة أسابيع حتى يتم النصر لألمانيا ، ويقضي على انجلترا القضاء الأخير . وكان موسوليني يتأهب للانقضاض في الوقت الذي يظن فيه أن انجلترا لن تستطيع النهوض من كبوتها ، ويمني نفسه بنصر عاجل لا يكلفه كبير عناء ؛ ولذلك حبس المال الذي كان ينساب إلى بودكسيا ومواطنيها ، وقصر كل جهوده على نيل مطامعه القريبة . واستاءت بودكسيا من هذه المعاملة التي

لم تألفها قوات وجهها شطر برلين . وبدأ النفوذ الألماني يقوى ويشتد في صوفيا ، وأذاع الألمان أنه لم يبق ثمة خطر على بلغاريا من الشيوعية ، وأن الترك هم الخطر الداهم المحدق بها ، لأن في وسع الأتراك أن يتحالفوا مع الانجليز ، ويفتحوا للأسطول الانجليزي أبواب الدردنيل ، ويهددوا تجارة البلغار في البحر الأسود . ولكن الملك بوريس لم يكن في أول الأمر يؤمن بأن الألمان سوف ينالون النصر السريع ، وحاول أن يقف على الحياد ؛ ثم لاح في ذلك الوقت أن هيبة بريطانيا في الشرق الأوسط آخذة في الاضمحلال ، فقد كانت الجيوش الإيطالية بعد دخول إيطاليا الحرب منتصرة في كل مكان ، وفتحت رومانيا أبوابها للألمان ، وأخذت الطريق أمامهم إلى آبار الزيت الغنية . ولم يكن الحظ يبسم للانجليز إلا في بلاد اليونان ، حيث كان الايطاليون يتقهقرون أمام الجيش اليوناني الصغير ومساعديه الانجليز . ولكن الألمان والايطاليين كانوا يؤكدون أن الأمور ستستقيم بعد حين ، وحشدت الجيوش الألمانية في رومانيا لتنجد الطليان في اليونان ، ولم يكن في طريقها إلا الملك بوريس .

وسرعان ما هبط الوحي من برلين ، ودعيت إلى العمل يودكسيا التي لم يكن لأحد غيرها سلطان على الملك بوريس ، وعقدت هي ورنكوف اجتماعا سريا في دارها لم يعرف ما دار فيه من الحديث ، ولكن كانت نتيجته العاجلة أن ضعفت مقاومة الملك بوريس . وتكرر اجتماع يودكسيا بأخيها الملك ، وأخذت تقنعه بأن من العبث مقاومة ألمانيا الأمة القوية التي ستساعد بلغاريا على تحقيق أمانيها القومية واستعادة ما خسرته من الأراضي في الحرب الماضية ؛ ويقال إن بوريس أجابها أول الأمر بقوله : « لقد انحزنا إلى الجانب الخاسر في الحرب الماضية فجدير بنا ألا نرتكب الخطأ نفسه في هذه الحرب » . ويقال إن يودكسيا ردت عليه بقولها : « إن الخطأ الذي يمكن أن نرتكبه هذه المرة هو أن نتخلى عن أصدقائنا وحلفائنا السابقين . إن اليونانيين سوف يطردون من ألبانيا ويهزمون في عقر دارهم قبل أن يصل إليهم المدد من شمال أفريقية ، وستستولي على سالونيك ونهدد الترك إذا سولت لهم أنفسهم المقاومة ، وستصبح بلغاريا أعظم قوة في بلاد البلقان . لقد وعدني بذلك هتلر وريبنتروب ، وقالا إنهما سيعيدان إلى بلغاريا ما فقدته ، وإننا عندما نجلس في مؤتمر الصلح سنجني ثمار النصر . فلتبق على الحياد إذا شئت ولتقف في وجه قضية الرقي والرخاء إذا أردت ، ولكن عليك أن تتذكر أن مستقبل هذه البلاد مرهون بالخطوة التي تخطوها الآن » .

ولم يلبث بوريس بعد ذلك أن أذعن لمطالب أخته وانحاز إلى جانب النازيين ، وخطا الخطوة التي لم يستطع بعدها النكوص .

وتبلغ يودكسيا الآن الثالثة والأربعين ؛ وكثيرا ما حاولوا في صوفيا أن يجدوا لها زوجا ، وفكروا أولا في الملك كارول ثم في أمير من آل هوهنزلرن ، واستدعى الأمير بالفعل إلى صوفيا ، ولكن يودكسيا أبت أن تتزوج من ألماني بادن مختال غير ظريف . ثم وقع الاختيار على أمير إيطالي ، ولكن هذا أيضا أساء إلى سمعته بمسلكه في صوفيا ، ثم اختير دوق ورتمبرج ، ولكن منظره لم يرق في عين يودكسيا .

وكذلك ظلت الأميرة عزبة ، ويلوح أنها تفضل العمل على تدبير الدسائس والبقاء ملكة غير متوجة لبلغاريا على أن تكون زوجا لأمير صغير الشأن في بلد بعيد لا يتسع لنشاطها ومطامعها الواسعة .

محمد بدران

عبقرية محمـــــــد

كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ توفيق الحكيم

نشر عن النبي محمد فيما نشر ثلاثة كتب لثلاثة من الأدباء المعاصرين في مصر : « حياة محمد » لحسين هيكل و « على هامش السيرة » لطه حسين و « محمد » لكاتب هذه السطور . وقد ظهر اليوم كتاب رابع هو « عبقرية محمد » لعباس محمود العقاد ، فكان من الطبيعي أن يخف لاستقباله كل أو بعض من ذكرت . . . ولقد سمحت لنفسي بالسبق إلى أداء هذه التحية . . . لأني فطنت إلى أني المتخلف دون غيري من أداء الواجبات . وليس لي من عذر إلا انصرافي عن باب النقد منذ أول الأمر وانجاهي إلى ما كرست نفسي له من ألوان الإنتاج ، فأنا أعرف قيمة النقد وأنزهه من أن يكون عملا هينا ينظر إليه بغير عناية واحتفال ، وهو الخليق بالتخصص والانقطاع . ولطالما تمنيت أن أكون ناقداً ؛ ولكن الناقد يجب أن يقرأ ، والقراءة عندي عمل شاق . فأنا أقرأ وكأني أؤلف مع المؤلف وأنحت معه من تلك الصخور التي نحت منها . لهذا أخرج كتباً كثيرة من نطاق مطالعاتي . . . ولا أستبقي غير الصفوة التي تستحق أن أنفق فيها مثل هذا الجهد من أعمال المؤلفين الذين لديهم مادة فكرية أو عندهم على الأقل ما يقولون . لعل هذا من أبرز الأسباب التي دفعتني إلى مطالعة كتاب « عبقرية محمد » . فمن الفصل الأول أدركت أن الأستاذ العقاد لديه ما يقول . . . وأن الكلام الذي عنده يرغمنا على أن نصغي إليه . . . وأن كل ما عرف من قبل من النبي محمد لن يغنينا عما عند العقاد . . . لأن العقاد قد درس وفكر واستنتج لنفسه ، ثم صنع للنبي صورة لا يمكن أن نرى نظيرها على هذا التمام في صفحات مثل صفحات كتابه المتوسط الحجم ؛ إنه لم يكتب سيرة كما فعل الذين سبقوه ، ولم يرو لنا قصة ، ولم يسرد تاريخاً . ولو أنه فعل ما كان قد أتى بجديد . ولكنه رسم ملامح وخطوط قسمات أبرزت ذلك الوجه الشريف الجليل ، وعكست ما في أعماق تلك النفس الرحبة العظيمة . . . لقد تقصى أثر محمد في مختلف نواحيه : فالناحية الانسانية تعقبها وأظهرها في فصوله من : « محمد الرجل » و « الزوج » و « الأب » و « العابد » ، والناحية الخلقية والاجتماعية في فصوله من : محمد « الرئيس » و « الصديق » و « السيد » ، والناحية الذهنية في فصوله من : عبقرية محمد في « البلاغة » و « الدعوة » و « السياسة » و « الادارة » و « قيادة الجيوش » . على أن الحرى أن نلتفت إليه هي الطريقة التي جرى عليها العقاد في تحقيق غرضه . فهو لم يكتف باستخراج الوقائع من بطون كتب السيرة ، لأنه يعلم أن هذه الوقائع قد أصبحت معروفة لأكثر الناس بما ظهر من كتب حديثة العرض عصرية الأسلوب ، فتراه قد استخدم هذه الوقائع استخداما آخر جديداً واستنطقها معاني أخرى طريفة . ولم يرض أن يسير خلفها لتقوده كما فعل أكثر الرواة ؛ بل تناول هو زمامها وقادها بيدين من المنطق السليم والتفكير المستقيم في طريق كلها ضوء ونور . في الحق أن أظهر ظاهرة في الكتاب هي قوة الاستنتاج العقلي التي تستولد من الحوادث الصماء خصائص ومقومات لتلك الشخصية الانسانية الكاملة التي دق فهمها على كثير من أهل الشرق ، وأساء فهمها كثير من علماء الغرب . وجاوز الأستاذ العقاد التمحيص والاستقراء إلى البحث المقارن في أغلب الأمور ، عارضاً حال الأمم الأخرى في مختلف العصور ، ليبين على وجه التحقيق مركز الفكرة التي يجليها من التاريخ الانساني

العام . ولأورد على سبيل المثال ضربا من ضروب هذه الطريقة البارعة فيما جاء من مقام المرأة فى الاسلام ، فقد قال :

« وإنما تعرف مكانة المرأة التى وصلت إليها بفضل محمد ودينه ، متى عرفت مكانة المرأة التى استقرت عليها فى عصره — وبعد عصره — بين أمم أخرى غير الأمة العربية .

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت إليه بعد رسالة محمد :

كانت متاعا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ، فأصبحت بفضل الاسلام ونبيه صاحبة حق مشروع ترث وتورث ، ولا يمنعها الزوج أن تتصرف بمالها وهى فى عصمته كما تشاء .

وكانت وصمة تدفن فى مهدها فرارا من عار وجودها ، أو عبئا تدفن فى مهدها فرارا من نفقة طعامها ، فأصبحت إنسانا مرعى الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه .

ولم تكن فى البلاد الأخرى أسعد حظا منها فى البلاد العربية ، فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء ، ولا نذكر المتنطسين فى صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة ، وتجريدهم إياها من الروح .

وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذى قيل فيه إنه عصر المرأة الذهبي بين الأمم الأوربية ، وأن الفرسان كانوا يفدون فيه النساء بالدم والمال .

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر « السيدة المفداة » .

والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الازدراء . وإليك مثلا حادثة يروى فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينها الملك بيبين Pepin تسأله معونة أهل اللورين . فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على أنفها بجمع يده ، فسقطت منه أربع قطرات من الدم ، وصاحت تقول : « شكراً لك . إن أرضاك هذا فأعطنى من يدك لطمة أخرى حين تشاء » .

ولم تكن هذه حادثة مفردة ، لأن الحكايات على هذا النحو كثيراً ما تكرر كأنها صيغة محفوظة . وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة .

ولقد تقدم الزمن فى الغرب من العصور المظلمة إلى عصور الفروسية إلى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ، ولما تبرح المرأة فى منزلة مسفة لا تفضل ما كانت عليه فى الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة فى تلك الجاهلية .

ففى سنة ١٧٩٠ بيعت امرأة فى أسواق انجلترا بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التى كانت تأويها .

وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢ محرومة حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة .

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، فلما كانت اليصابات بلاكويل تتعلم فى جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ — وهى أول طبيبة فى العالم — كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ، ويزون ذيولهن من طريقها احتقاراً لها ، كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها .

ولما اجتهد بعضهم فى إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجامعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء .

وهكذا تقدم الغرب إلى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقدما يرفعها من مرتبة الاستعباد التى استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية .

فماذا صنع محمد ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ؟

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة

من الحقوق كفاء ما فرض عليها : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » .

وحكم آخر من أحكامه العالية أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات حظوة عند زوجها : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وأباح لها الدين أن تكسب كما يكسب الرجال : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » .

ولم يفضل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها والسهر عليها .

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم » .

* * *

ويمضى الأستاذ العقاد على هذا النحو فى فصوله من « عبقرية محمد السياسية والإدارية والعسكرية » ، وفى كل نواحيه وأعماله التى أحاط بها ليظهر قيمتها وعظمتها لا فى محيط البيئة العربية وحدها . . . بل فى المحيط الانسانى كله على مر الدهور كلها . . . وليس يتسع المقام هنا لأسرد أمثلة أخرى ، وأقتطف سطورا من الكتاب تدل على أن كثيرا من أساليب محمد العسكرية تتبع فى الحرب الحاضرة على أنها من أحدث مبتدعات هذه الأيام . وأن كثيرا من تصرفات محمد السياسية تنطبق على القانون الدولى الحديث . ولقد حرص الأستاذ العقاد بسعة اطلاعه الفائقة على أن يورد نصوصا ومقارنات حتى لعلامة القانون الدولى المشهور « أو بنهايم » . . .

لا إخال الأستاذ العقاد قصد بكتابه هذا أن يكون دفاعا مجيداً ومرافعة قوية ورداً حاسما على المستشرقين الأوربيين الذين جحدوا فضل النبى العربى . فالاطار الأدبى والفكرى لهذا الكتاب أروع وأسمى من أن ينحصر فى هذا الهدف المحدود . ومع ذلك فإن هذا الكتاب خليق أن يترجمه الأزهر الى اللغات الأوربية ، لينتشر كالنهار المبين من وجه النبى الكريم !

* * *

وبعد ، فلا أحسبنى قد كونت للقراء صورة واضحة للكتاب . فهذا ما لا أريد وما لا أستطيع . . . ولكنى أردت أن أغرى القارىء وأنصح له بمطالعته . لأن محمداً النبى والبشر نور ينبغى لكل مقلة إنسانية أن تكتحل به . ولأن هذا الكتاب خير مرآة مصقولة تبصر فيها طيف هذا النور . فقد استطاعت كتب السيرة السابقة قديمها وحديثها ، ما صب منها فى قالب التاريخ وما وضع فى القصص والأساطير ، أن تفعم القلوب بحب محمد . ولكن ما من كتاب ، فى نظرى ، استطاع حتى الآن أن يملأ العقول بفهم محمد مثل كتاب الأستاذ العقاد . . . ولعل الفهم أرفع أنواع الحب .

توفيق الحكيم

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
لستة أشهر	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

الصحافة والأدب فى أسبوع :

اعتذار !

كم أسبوعا ، بل كم شهرا والباب مغلق بينى وبين الدنيا ، مغلق بينى وبين نفسى ؟ . . .

ما أقسى سخرية الدنيا بناسها !

لكأن بينى وبين ماضىّ أعواما وأعواماً ، وعمرا طويلا من الآلام ، وأجيالا من التجارب والذكريات كأنها حديث أمم وتاريخ أقوام ؛ وكأنْ ليس بين يومى وأمسى صلة من الزمن كالصلة بين كل يوم وأمسه ؛ فأنا من ذلك الماضى القريب كالمستيقظ فى أعقاب حلم ساحر كان حقيقةً تمسده فصار وهماً يشقيه ؛ فليس نور النهار فى عينيه إلا ظلمةً متدجّية تضرب بين حياتين من عمره بسور ليس له باب ، من ورائه ركام من الذكريات وحطام من الأمانىّ وأشتات من الأباطيل والأوهام !

وهل كان يقوم بنفسى يوم بدأتُ الكتابة فى هذا الباب منذ بضعة أشهر (*) ورسمتُ خطتى وحدّدتُ نهجى — أنْ سيقطعنى عنه ما قطعنى من بَغَتات القدر ، فلا أكاد أضع القلم بعد الكلمة الأولى حتى يغشانى ما غشينى ، فلا أملك أن أقرأ بعدُ ولا أن أكتب ، ويُغلَق البابُ بينى وبين الدنيا ، وبينى وبين نفسى ؛ وتظلّ موعدتى للقارىء بلا وفاء ؟ . . .

. . . وكانت موعدة صدق فكذّبها القدر !

واليوم — وبعد بضعة أشهر — أحاول أن أعود إلى موضعى من الحياة والناس ؛ ولكنى لا أعيد ولا أعنى ، فإنى لأخشى ؛ أفيعذرنى القارىء مما كان ، ويُحسن بى الظنّ فيما سيكون ؟

مهرجان الربيع :

هذه نفسى تثوب إلى الحقيقة رويدا رويدا ، وهذه الظلمات تنقشع من عينىّ قليلا قليلا ، وهذه هى الدنيا . . .

. . . هنا غناء ورقص وموسيقى وأفراح ؛ وهناك نُواح وجراح وأنّات وأحزان .

هنا . . . على الشاطئ الريان « ليلة من ألف ليلة » تترنم فيها الأقداح ، وتترنح الأرواح ، وتُخاطب العيونُ بالكلمة الهامسة ، والنظراتِ الضاحكة والعابسة ؛ لتجمع من نحن ذلك كلّه بضع مئات من الجنيهات معونةً لمن هناك . . .

وهناك . . . وراء خيال التخييل ، دور خالية ، وظلمات داجية ، وأطفال يتضاغون من الجوع ، وأمهات يُقفقفن من العُرى ، ورجال تتجاذبهم أسباب الموت والمذلة والتشريد والجزعة . . .

ليت شعرى أيَعرف مَن هنا حقيقة مَن هناك ؟ . . .

ألا إنه لو لم يكن هؤلاء هنا ما كان أولئك هناك !

انظر ! هذا عديدٌ من صُور أولئك وهؤلاء ، وهذه أشتات من أخبار أولئك وهؤلاء . . . فى صحيفة واحدة من صحف الأسبوع . . .

أفرأيت كيف تهزأ الدنيا بناسها ، وكيف يسخر ناسها من ناسها . . . !

ويقول لى قائل : على رسلك يا صاحبى ، هذه هى الدنيا . بل هى الدنيا ، وإن وراء كل غفوة صحوة ، وبعد كل نشوة صداعٌ من خُمار !

رجعية !

كتب الأستاذ أحمد الصاوى محمد فى « إلى النحل » من المصرى يوم ٢٥/٤/١٩٤٢ يقول : « . . . كنت أول عودتى من أوربا نصير لبس القبعة تمشيا مع التقدم والراحة والصحة ، حتى دلتنى تجارب العيش فى بلادى على ضرورة تمسكنا بالطربوش ، حتى نعلم كل أجنبى فى هذا البلد ، كبير أو صغير ، كيف يحترمه وينحنى له . . .

(*) العدد : ١٥٨ يناير سنة ١٩٤٢ .

فليعرف المصرى أنه فى بلاده ، وليدرك أنه مستقل ، وليحرص على الزهو بحريته والاعتداد بكرامته ، ولا يمكنن كائنا من كان أن يشعر بأن له أى فضل عليه أو أى حق عنده . . . »

وهذا الذى يقوله الأستاذ الصاوى اليوم ، هو ما كنا نقوله — وما نزال نقوله — منذ سنين ؛ ليس يعنينا الطربوش أو القبعة فى ذاتهما ، ولكن فى المعنى القوى الذى يوحيان به فى النفس . . .

فإلى الأصدقاء الذين لا يملكون من أساليب الجدل إلا كلمات : « الجمود والرجعية » أن يحسبوا حساب الغد ، يوم يتكشف لأعينهم ما لا يرون اليوم ، فيعودون إلى آرائهم القديمة بالمحو والإثبات .

على أنه مما لا ينبغى إغفاله هنا ، هو التنبيه إلى خطأ الكلمة المشهورة : « الثبات على المبدأ » واعتبارها فضيلة ؛ وما نراها تدل إلا على الجمود الحق والخطأ المتجدد ، وإنما يثبت الفكر نشاطه ويثبت الأديب الحق صلته بالحياة — بالرأى الجديد وإن كان يخالف قديمه .

رجعية أخرى !

وجاء فى الأهرام يوم ٢٤/٤/١٩٤٢ أن وزارة المعارف التركية أصدرت أمراً إلى المدرسات والتلميذات فى مدارسها أن يلتزمن جانب الاعتدال فى ملابسهن ، ويستغنين من مظاهر البذخ والترف . . وفى جملة ما حرم عليهن لبسه : الجوارب الحريرية ، والأحذية ذات الكعوب العالية ؛ وكذلك منعهن من تجميل وجوههن بالأصباغ وتمويج شعورهن ... ...

هذا فى تركيا التى قالوا فيها ما قالوا ، فماذا فى مصر ؟

أترانى أستطيع أن أقول كل ما أعرف فى هذا الباب ؟ لقد أتيح لى أن أرى وأعرف — عن قرب — ما لا يعرفه إلا الأقلون من شئون المعلمات والتلميذات فى مدارسنا ؛ لكنى مع ذلك أوثر أن أسكت ؛ فلى ... متى أرانى ونفسى على وئام فيكون سكوتى من اقتناع لا عن تأدب واحتشام ؟

شاعر الوحل :

فى العدد ٤٦٠ من الرسالة أبيات « للشاعر المجهول » عنوانها : « إلى . . . » ، والمجرور محذوف ؛ منها :

أبحتك من قلبى نفائس عطفه
وحررت فيك المال من ربقة الضن
فلم ترع صدرى من سهامك فى رمى
ولم ترع جيبى من نصالك فى أمن

إلى أن قال :

مضيت إلى قبرى جهارا وخلتنى
فمن أى وحل صيغ طبعك خبرنى ؟

وهذا الذى يقوله الشاعر المجهول هو لون جديد من ألوان الغزل يستحق التسجيل فيما أرى ؛ وما ظنك بالشاعر الذى يحاول الغزل فيمن على حبيبه بما أباحه من نفسه وما بذل له من ماله ؛ ثم يكون خاتمة شعره إليه : « فمن أى وحل صيغ طبعك ! »

لقد كان القدماء يلقبون الشاعر بكلمة من بيت من قصيدة ينظمها ، أفترى من حقنا — قياسا على ذلك — أن نسمى شاعرنا المجهول : شاعر الوحل . . . ؟

ويغرينى الشيطان بأن أسأل سؤالا آخر : أتكون هناك صلة بين « الشاعر المجهول » الذى يتغزل فى الوحل ويمن بما أنفق على حبيبه من ماله وما أباحه من حبه ، وبين « الكاتب المعروف » الذى كتب منذ أسابيع فى الرسالة يقول : « رحم الله أبى — يعنى أباه — ؛ فقد كان لا يفكر فى شراء حذاء جديد حتى يبلى حذاءه القديم على رأس أحب زوجاته إليه ، وكانت أمى — يعنى أمه — أحب زوجاته إليه ! ! »

والذوق نعمة !

قاف

فى المكتبة العربية

سوء تفاهم

فى هذه المجموعة من قصص الدكتور بشر فارس لون جديد من ألوان القصة ، فهى لا تجرى فى سبيل القصة كما نعرفها من موضوع أو فكرة أو صورة يعرضها القاص فى أسلوب شائق جذاب ، منتزع من الحياة طوراً ، ومن أصداء هذه الحياة فى نفس القاص طوراً آخر ، ومن التأمل العميق طوراً ثالثاً .

لا تعرف قصص الدكتور بشر فارس هذا السبيل ، إنها تجرى على سبيل رسمه هو للقصة فى مقدمة كتابه حين يعرف القصة فيقول إنها «حنية من صدر الحياة تنتزع .» وهى أيضاً « برق لاح على سحب سود ... » ولعل القارئ يستطيع أن يلمس الفارق بين هذا اللون من القصة وما ألفته القصة إلى اليوم حين يعلم أن أقاصيص الدكتور بشر لا تعرف الحادثة ولا تعنى بالتصوير واقعياً كان أو وجدانياً بقدر ما تعنى بالفتات الدقيقة نحو ما أسماه « مباحث الحياة ودقائقها » .

وقد يكون الغموض الذى يحسه القارئ فى فكرة الدكتور عن القصة هو الذى يثير هذا السؤال فى النفس : « ما هدف هذه القصة ؟ » وذلك حين يعيد قراءة إحدى قصص الدكتور باحثاً عما ألفه من التتمة عند القصص إلى اليوم ، ولكنه لا يلبث أن يبدو له الأمر جلياً حين يعلم أن بشراً يرى فى بعض رأيه عن القصة أنها ليست للتسلية ، وأن عليها أن تثير القارئ وتشغل باله ، وما بها حاجة إلى حبكة متصلة السلك .

ومع هذه المقدمة التى تضع القصة فى حدود خاصة ، يستطيع القارئ أن يستقبل هذه المجموعة فيقرأها بحذر ، فلا يسرع بالحكم على قيمة هذا اللون ؛ فما أخطر السرعة فى الحكم على كل جديد ، لاسيما إن كان من أديب له خطره وقدره . وإنما الذى سيحكم على هذا اللون من الأدب ، هو الأدب نفسه . هل تستطيع هذه المدرسة الجديدة للقصة أن تعيش إلى جانب مدارسه أم لا .

ذلك هو السؤال . وما تمنع الحيرة فى الإجابة من أن يقرر القارئ أن كتاب بشر الجديد جهد واضح لعقل ناضج يجد القارئ بين صفحاته الكثير من التتمة كما ألفها عند القصة المصورة المحللة ، كما يجد فيه على حد تعبير المؤلف « ما يثيره ويشغل باله » .

(صموع)

عاشق المحال

ضقت بالقيد فانطلق أيها الآبق الشرود
قد تحررت فاستبق للصراعات من جديد

* * *

انطلق تصعد الإباء ثم تهوى إلى السفوح
شارداً تقطع الحياة فى التلات والطموح

* * *

انطلق تعبأ الخطر كالذى يعبأ الرجاء
لعبة فى يد القدر تذرع الأرض والسماء

* * *

جمرة أنت تتقد خلف ستر من الرماد
وهى تذكو بلا مدد ثم تغدو إلى نفاد

* * *

أنت من طينة القلق صاغك الله والجموح
تعشق الأين والحرق والعقابيل والجروح !

* * *

أنت ترنو إلى المحال عاشقاً بعده السحيق
فإذا شارف المنال خلته من لقى الطريق

* * *

ضقت بالقيد من ذهب ضقت بالأمن والقرار
فانطلق ثم . لا تثب عشت للخوف والعثار !

(حلوان) سيد قطب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ١٧٦ — الثلاثاء ٢٦ من ربيع الثاني سنة ١٣٦١ — ١٢ من مايو سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

الإحصائيات سيف ذو حدين

خطأ الاستنتاجات الشائعة عن توزيع الثروة العقارية الزراعية في مصر

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

أستاذ علم الطفيليات بكلية الطب

علق أفراد مسئولون في مصر من الوزراء ورجال الأعمال وقادة الرأي العام في مصر ، والمؤلفون والصحافيون على سوء توزيع الثروة الزراعية العقارية في مصر ، معتمدين في ذلك على الإحصائيات الرسمية المصرية . وهذا ما جاء في مقال لمسئول كبير وهو نموذج لما قاله الآخرون :

« فإن مجموع الملاك الذين يملكون أرضاً تبدأ من أقل من فدان إلى أكثر من خمسين فداناً لا يتجاوز ١٥ في المائة من مجموع سكان القطر المصري ، ومن هؤلاء يملك ١٧١٨٠٠٠ أقل من فدان ، بينما يملك ١٣٠٠٠ أكثر من خمسين فداناً . وإذا نظرنا إلى تفاصيل توزيع الملكية في مصر وجدناها أبعد ما تكون عن المساواة ، فإن ٩٣ في المائة من الملاك يملكون ٣٠ في المائة من الأراضي الزراعية ، بينما ٧ في المائة يملكون مساحة تصل إلى ٨٠ في المائة من مجموع الأراضي ، ومنهم ½ في المائة من السكان يملك مساحة تصل إلى ٣٨ في المائة من المساحة العامة » .

وقد صارت هذه المعلومات على شكل ما واسعة الانتشار في مصر ، واستفاد منها ذوو النزعة الاشتراكية في إثارة الرأي العام لصالح الطبقات الفقيرة في مصر . والحق يقال أن هناك تبايناً كبيراً في توزيع الثروة العقارية

فى مصر ، ولكن ليس إلى الحد الغالى فيه الذى انساق إليه الكتاب بحسن نية ، مما لا مبرر له مطلقاً ، إذ أنه أولاً لا يمثل حقيقة الحال تماما ، وثانياً أنه يثير الطبقات فى مصر بتمثيل الحال على شكل أسوأ مما هو عليه .

ويرجع السبب فى ذلك إلى عدم اهتمام هؤلاء الكتاب بكيفية جمع هذه الاحصائيات ، وقيمتها وما تحتمله من الاستنتاجات . وقد قيل إن الاحصائيات سيف ذو حدين ، قد يستنتج منها أفراد مختلفون نتائج متباينة إن لم تكن متناقضة ، مع أن الحقيقة لا تتغير .

فمصلحة الاحصاء — كما تأكدنا — جمعت المعلومات الخاصة بتوزيع الثروة العقارية الزراعية من المكلفات والأوراد الموجودة فى مصلحة الأموال المقررة ، واعتبرت كل تكليف واحد عبارة عن فرد واحد ، ولو كان شركة عقارية تملك الآلاف من الأفدنة كشركة كوم امبو مثلاً ، أو وقف كبير ، وهكذا . .

وكانت مصلحة الاحصاء دقيقة فذكرت عدد الملاك وقسمتهم إلى فئات حسب ما يملكون من المساحة إلى من يملكون أقل من فدان ، ومن فدان إلى خمسة ، ومن أكثر من خمسة إلى عشرة ، وهكذا إلى من يملكون أكثر من ٢٠٠٠ فدان . وقسمت الملاك إلى مصريين وأجانب وأوقاف ؛ ولكنها — وهذا هو المهم — لم تذكر نسبة الملاك إلى مجموع أفراد الأمة ، وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه قادة الرأى العام من الزعماء والاقتصاديين والاجتماعيين وغيرهم . فمصلحة الاحصاء مثلاً ذكرت أن مجموع من يملكون أرضاً زراعية فى سنة ١٩٤٠ هم ٢ر٤٩٦ر٥٤٦ مالكا ، ولكن هؤلاء الكتاب نسبوهم إلى مجموع سكان المملكة المصرية ، فقالوا إن الأرض الزراعية فى مصر يملكها ١٥ فى المائة من السكان . وهذا خطأ فاضح ، لأن هذا معناه أن الفرد الذى يملك مئات الأفدنة أو ألوفها اعتبر مالكا واحداً ، واعتبرت زوجته وأولاده ممن لا يملكون شيئاً ، مع أنهم يتمتعون بما تنتجه الملكية الزراعية أسوة برب العائلة ، وهم سيملكونها مستقبلاً طبقاً لقانون الوراثة فى مصر ؛ ومتوسط عدد أفراد العائلة فى مصر ٥ أفراد ، وعلى ذلك يكون المالكون الرسميون فى مصر ١٥ فى المائة ، ومن يتمتعون بالملكية يقدرون بـ ٧٥ فى المائة تقريباً من السكان ، وحكمهم فى التمتع بآثار الملكية الزراعية حكم المالك الرسمى ، إذ أنهم يقيمون ويأكلون ويعيشون من مورد مشترك ، ولا يمكن اعتبارهم ممن لا يملكون أطياناً .

فإذا ملك ثلاثة أرباع السكان تقريباً جميع الأراضى الزراعية ، فان ذلك يعتبر توزيعاً معقولا للثروة الزراعية فى مصر قل أن يماثله الحال فى أى بلد آخر .

وإذا وزعنا الأرض الزراعية وقدرها فى سنة ١٩٤٠ ٥ر٨٤١ر٠١١ فداناً على مجموع السكان المقدر فى سنة ١٩٤٠ بـ ١٦ر٧٧٦ر١٠٠ نسمة لكان ما يصيب الفرد فى المتوسط هو تسعة قراريط تقريباً ، أى ما يزيد قليلا عن ثلث فدان .

وقد تبين أن الملاك الرسميين لمساحة قدرها عشرة أفدنة فأقل سنة ١٩٤٠ ، هم ٢ر٤٢٠ر٧٧٣ مالكاً رسمياً ، وعدد من يتمتعون بهذه الملكيات ، أى أفراد العائلة الأقربون هو ١٢ر١٠٨ر٨٦٥ أى ثلاثة أرباع السكان

ولما كان هؤلاء يملكون ويتمتعون بآثار ٢ر٤٦٨ر٥١٥ فداناً فيكون نصيب الفرد الواحد فى المتوسط خمسة قراريط تقريباً ، أى ما يقل قليلا عن ربع فدان .

وهذه الإحصائيات تقريبية ، لأن أساسها هو المكلفات والأوراد ، وهذه المكلفات والأوراد بها العيوب الآتية من الوجهة الاحصائية .

أولاً — قد توجد أوراد ومكلفات متعددة باسم شخص واحد ، فيدخل فى الإحصاء مكرراً بمقدارها ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — إذا ملك الفرد أطياناً فى جملة قرى ، ولو كانت متجاورة يكون له تكليف خاص فى كل منها .

٢ — إذا حرف اسم الشخص الواحـد فى بعض العقود ، ولو بحذف اسم الجد أو الجد الأعلى ، أو أضيف إليه لقب كشيخ أو أفندى أو بك أو باشا ، صدرت له مكلفة مستقلة ولو فى نفس القرية ، ما لم يطلب هو ويثبت أن هذه الأسماء على اختلافها هى لشخص واحد .

٣ — إذا اشترى الشخص بالاشتراك مع الآخرين ، صدرت مكلفة مستقلة بأسماء الشركاء مجتمعة عدا المكلفة الخاصة لكل منهم .

ثانياً — يوجد ملاك حقيقيون غير مدرجين فى الاحصاء للأسباب الآتية :

١ — الورثة ، فقد تستمر المكلفة باسم المورث الأصلى ما لم تحدث تصرفات فى العقار ، فتتغير فيما يخص الجزء الذى حصل فيه التصرف ، وقد يتسلسل الورثة لمدة أجيال ، وتستمر الملكية باسم الجد الأعلى ، كمالك واحد ، بينما يكون الورثة يعدون بالمئات .

٢ — تعتبر كل واحدة من الشركات العقارية كمالك واحد ، بينما يتمتع بالملكية كل المساهمين ، وقد يعدون بالمئات أو الألوف ولا أثر لهم فى الاحصاء .

٣ — الأوقاف ، وفيها تستمر الملكية باسم الواقف بينما يكون المستحقون يعدون بالمئات ، وأمثلة الوقف الذى يحتوى على مئات الأفدنة ويصيب كل مستحق بضعة قروش من ريعه ليست نادرة .

ملحوظـة — لا يدخل فى إحصاء توزيع الملكية العقارية فى المملكة المصرية الأملاك الأميرية ، وقدرها ٣٢٤ر٣٦٣ر١ فداناً منها ١١٨ر٢٠٤ فداناً مزروعة والباقى بور صالح للزراعة . وهـذه المساحة تبلغ ٨ر٢٣ فى المائة من المساحة التى يشملها الاحصاء .

كل الاعتبارات السابقة على أهميتها لم يعرها المتكلمون من توزيع الثروة العقارية الزراعية فى مصر ما تستحق من العناية . وعلى ذلك فنتائجهم لا يمكن الاعتماد عليها فى مثل هذا الموضوع الخطير .

وسيظهر أثر هـذه الاعتبارات قريبا عند تطبيق ما اعتزمته الحكومة من إعفاء الملاك الذين يدفعون ضريبة عقارية زراعية أقل من ٥٠٠ مليم فى العام ومن تخفيض الضريبة على صغار الملاك الذين يدفعون ضريبة تصل إلى عشرة جنيهات ، فسيحرم الورثة المشتركون فى تكليف واحد باسم والدهم أو جدهم المتوفى ، لأنه معتبر كمالك واحد يدفع أكثر من عشرة جنيهات ، بينما لو قسمت الأرض على الورثة لأصاب بعضهم التخفيض أو الاعفاء الكامل .

وعلى الضـد من ذلك سيحق بعض الملاك الذين لهم مكلفات متعددة يقع بعضها فى دائرة التخفيض أو الاعفاء ، بينما لو جمعت إلى بعضها لكانوا ممن يدفعون أكثر من عشرة جنيهات .

وتعـدد المكلفات للشخص الواحد ليست نادرة كما يتبادر إلى الذهن ، فانى أعرف شخصيا ثلاثة إخوة لهم ٢٥ ورداً موزعة على ثمانية قرى تتراوح المساحة فى كل ورد بين بضعة قراريط وبضع مئات من الفدادين ، وهذا هو الذى وجه نظرى إلى دراسة هذا الموضوع .

وعلى ذلك فلا يمكن الوقوف على حقيقة حال توزيع الثروة العقارية إلا إذا عملت إحصائيات فى هذا الموضوع بالذات مع مراعاة جميع الاعتبارات السابقة .

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

الكُنفوشية، حكمة وحكومة ودين

تحدثنا في الأمس القريب من كُنج الحكيم ، أو كُنفوش ، واليوم نُلِمّ إلمامة خاطفة بفلسفته .

اتجه كُنفُج في دراسته أول ما اتجه إلى دراسة ما سبقه من تاريخ الصين وآدابها ، أي تاريخ ما قبل القرن الخامس قبل الميلاد المسيحي . ومن هذه الدراسة ، من هذا التاريخ ومن تلك الآداب التي سبقته هو نفسه بقرون ، استمدَّ الفكرة ، واستوحى الحكمة ، وكان له إعجاب كبير بكل ما سبق من هذا . وكانت الصين في أيامه على غير تلك الحال الجميلة القديمة التي كشفت عنها دراسته ، فأقبل على هذا القديم يجمعه ، وأقبل عليه يشرحه للناس ويوضحه . ومن هذا القديم رسم للناس في زمانه صوراً للحياة كيف تكون ، والفضيلة كيف تكون ، والحكم كيف يكون . وألّف من كل هذا نظاماً للعيش كاملاً شاملاً ، صار من بعده هيكلاً ثابتاً للحياة الصينية مدى القرون ، تتقلّب على الصين الأحداث وهو دائم ، وتأتي الحوادث وتروح وهو قائم لا يروح . قال يصف حكمته : « إني إنما أدرّس ما درّسه آباؤنا من قبلنا ، وأورّث ما ورّثوه إيانا ، لم أزد فيه شيئاً ، ولم أنقص شيئاً . وأنا أدرّسه على نقائه الأول . إنه الحكمة الدائمة القائمة التي لا تتغيّر ، فهو كالسماء التي هي ماثلة . وهو في يدي كالبذور في يد الباذر ، هي من وراثته لا من صناعته ، وهو يبذرها في الأرض كما هي لا يستطيع لها تغييراً ولا تبديلاً » .

نظر كنج في الكون وأصول الأشياء ، فخالها مكوّنة من عنصرين ، عنصر القوة ، وعنصر المادة . أما عنصر القوة فرمزه السماء ، وهو عنصر ذَكَرٌ خلّاق . أما عنصر المادة فرمزه الأرض ، وهو عنصر مؤنث يقبل الخلق . والقوة تأتلف بالمادة فتشكّلها وتدفعها وتحييها ، ومن هذا تنتج الحياة . والقوة خير العنصرين ، وأجلّهما . ورمزها السماء ، فإلى السماء اتجه الصينيون يُمجّدون ويتعبّدون . وفي تلك الأجرام الدائرة رأوا قدرة ، وفي إحكام طلوعها وغروبها وانتظام دورانها رأوا جمالاً ، فخالوا أنها إنما تضرب المثُل لأهل الأرض في حياتهم كيف تكون : حركة في وداعة ، وجريان في غير اصطدام . ومن أجل هذا عبدوا الشمس والقمر ، وعبدوا النجوم وسائر ما يسطع في القبة السوداء في ظلام الليل . وقالوا السماء حيث قال غيرهم الله . أما المادة فرمزها الأرض ، ولها المحل الثاني . وعلى الأرض يظهر للأبصار ائتلاف العنصرين ، وبائتلافهما تفعل الطبيعة أفعالها ، وترتدي الوشي من ثيابها ، وتتبدّى على شتى مظاهرها .

والسماء تفعل ما تفعل مدفوعة بطبيعتها ، ومن غير إدراك . وكذلك تفعل الأرض . ولكن من تفاعل الأرض والسماء خُلِق الانسان ، وهو المدرك الوحيد من سائر الكائنات . « فالسماء أبو الأشياء ، والأرض أمها . والانسان وحده بين أشياء العالم له الإدراك والتمييز » . والسماء والأرض كفتّان متقابلتان ، والانسان في موضع المركز من عاتق الميزان ، وعليه وحده تقع التبعة في اتزانه . فإذا هو قام بفروض العيش في حركة ونظام كما تفعل السماء والأرض انتظم حال الكون ، وإن هو ترك مكانه من منتصف العاتق ساءت الحال واختل الميزان .

فالانسان ، والانسان وحده ، هو ثمرة الطبيعة من تفاعل قوتيها ، وتآلف عنصريها . وهو من حيث جسمه نتيجة « المادة الأولى الدوارة في الخلائق ، خلقاً من بعد خلق » ، ولكن به من عنصر القوة — عنصر السماء — أكثر مما به من عنصر الأرض . ومن أجل هذا كان له روح وكان له إحساس ذاتيّ بالوجود ، ومن أجل هـذا كان مصدر العلم ومصدر الأدب ومصدر الفضيلة ، وهو

بطبعه خيِّر يطلب الفضيلة اختياراً . فان هو طلب شيئاً غيرها فذلك بسبب عنصره الأرضى ، وإذا هو تحرر من طبعه ، تحرر من الخير ، ولم تكسبه هذه الحرية إلا ضلالاً .

ومن ضلّ فعقابه عليه واقع ، وواقع على هذه الأرض ، عليه أو على ذريته . أو هو يخلّ بالنظام العام فيصيبه بعض خلله . فليس للكنفوشية جنة تحبّب إليها أو نار تخيف منها . وكنفوش لم يُعْن بالذى يكون بعد الموت ، وقلما عُنِى بالذى كان قبل الحياة ، فكل عنايته كانت بالانسان وهو على ظهر هذه الأرض .

وأفضل الفضائل عند كنفوش الطاعة لكل ما تأتى به السماء ، والرضا بكل ما يدور به الوجود . والسماء لا تأتى إلا بالخير ، والوجود لا يدور إلا بالسعود . فان جاءت السماء بشرّ أو دار الوجود بالمصائب فذلك من اختلال الميزان فى الناس على هذه الأرض ، ومن ظلم بعضهم بعضا ، ومن عسف الأمراء وفساد الملوك . فان فاض نهر فأغرق ، أو اهتزت أرض فقوّضت ، أو جاء وباء فأهلك ، أو فسد الزرع وجاع الناس ، وجب مواجهة الحال بالتسليم ، لأن هذا ما كان ليكون والناس أخيار صالحون . فباختلال الناس تختل الطبيعة ، فلاعتدالها يجب أن يعتدل الناس ويَصلح قومٌ فاسدون .

والصلاح منهجه واضح ، وهو منهج الطبيعة . فالذى يريد أن يعرفه يجب أن يفتش عنه فى قلبه ، لأن قلبه من الطبيعة إذا هو لم يدخله فساد . والناس قلوبهم هكذا صالحة ، فان فسدت قلوبٌ فيهم فقلّة . وإذاً فالذى ترتضيه جمهور الناس هو النهج الطبيعى الواضح ، والقانون هو ما ترتضيه الناس قانونا . ورضاهم به من رضا الله ، أو على حدّ قولهم من رضا السماء ، فالسماء لا تُنطق ألسنة الخلق إلاّ بالحق .

وفلسفة كنفوش تتركّز فى الانسان ، ولكن الانسان وحدةٌ لا تقوم بنفسها ، وإنما هى تُشكلت لتندمج فى غيرها وترتبط بسواها . وهى لا قيمة لها وحدها ، وإنما قيمتها كلها فى صلتها بتلك الوحدات الأخرى فى تكوين الأسرة . فالأسرة هى حجر الزاوية فى فلسفة كنفوش ، فالأسرة تسعد أولاً ويسعد الفرد ثانيا . والأسرة تثرى أولاً ويثرى الفرد آخراً . والأسرة تَسلم ولو كان فى سلامتها هلاك الفرد . من أجل هذا كانت طاعة الابن لأبيه فرضاً . وطاعة الزوجة لزوجها فرضاً . وطاعة الأخ الأصغر لأخيه الأكبر فرضاً . وطاعة الكل لرب الأسرة الأكبر فرضاً . فرْضاً ليس اطّراحه إخلالاً بواجب أدبىّ ، بل إخلال بنظام كونىّ يختل معه الوجود ، وتتنزّل به الرزايا حاصبةً من السماء . فاذا مات رب الأسرة فلم تعد طاعةٌ له ممكنة ، استحالت الطاعة احتراما فتعظيما فعبادة ، وكلها درجات فى معنى واحد . ومن هذا جاءت عبادتهم لآبائهم ، وإقامتهم المعابد تخليداً لذكراهم . وعندهم أن الرجل ذا الحظ الوافر من الفضيلة إذا مات صعدت روحه إلى السماء فاحتلت مكانا منها ، فهو يُعبد بعد ذلك فيما يُعبد من السماء . أما فى الأرض فيعيش بالذكر فى قلوب الناس ، وتلك حياة أخرى للصيتى ذاتُ بال .

ومن إعزازهم للأسرة وتكريم فروضها أنهم يخذّلون الأبناء حتى لا يذهبوا فى طلب الرزق بعيداً عن الأشياخ من الآباء . وأنهم يكرّمون المرأة التى يموت زوجها فلا تتزوج من بعده أحدا . وأنهم يزاوجون بين أبنائهم وبناتهم قبل أن يبلغوا الحُلُم وعلى غير سابق صلة بينهما اعتباراً أن هذه الزيجة ليست رباطا بين فرد وفرد ، وإنما هى رباط بين أسرة وأسرة ، ومَن أدرى عما ينفع الأسر من شيوخها ؟ ومن خطر الرّباط الأسرى عندهم أنهم يحتفلون بالأعراس احتفالا ضخماً كثير النفقة ، وكذلك هم يحفلون بالمآتم ، ففى هذه نقص الأسرة وفى تلك زيادتها . كذلك للأسرة مواسم يجتمعون فيها ، تلتمّ فيها أطرافها ويتقارب الأباعد منها . وفى الأسرة تقضى حاجاتُ المعوزين ، وتُسَد خَلّةُ منقوصهم بفضلة مزيدهم ، فيَستقبل المزيدُ والمنقوص غِيَر الزمان بقلب أكثر اطمئنانا وأروح بالا .

وفي القرية تقوم الأسر إلى جانب الحكومة تشدُّ أزرها. فمن الأسر يتألف مجلسٌ يضم شيوخها والمحنكين من رجالها. حتى وظائف الدولة في القرية والريف تقوم فيهم. وقد تعصف السياسة وتضطرب النظم في الدولة، فيحمي الريفَ أن زمامه في يد أهله؛ فإن انقطعت صلتهم بالعواصم، فإن الأسر تدير دولاب الحكم في قوم ليس فيهم إلا قريب أو نسيب يدين بالطاعة لشيخ من شيوخ الريف.

ومن الأسر تألفت العشائر في نظام كنفوشيوس، وعلى رأس هذه العشائر الامبراطور، وهو رب أكبر عشيرة، يعني الدولة. فتصبح الدولة كلها ديمقراطية أفرادها الأسر، وربها الملك. والأسر والعشائر تدين الملك، كما يدين الابن لأبيه والأب لجده. فالملك أبو الدولة الأكبر، وهو ابن السماء، فالملك وجبت طاعته كطاعة السماء. والملك يختار أعوانه وموظفي دولته، لا من الأسر من أجل أسرهم، ولكن من جمهرة الناس. وهو يختار أكثرهم فضيلة. وهو يختارهم بالامتحان. والبرنامج الذي يمتحنون فيه فلسفةُ الصين القديمة وآدابها، لأن فيها صفة الحكم، ولا يليق للحكم جاهلٌ بها. ومن أجل هذا تسابقت الأسر في كسب الرهان، وأنشأت مدارس للتخصص في هذه الدراسة. وعلى الزمن صار الحكام هم فئة العلماء. فإذا اعتزل حاكم لم يستطع أن يورث ذريته أعنة الحكم ولا أن يحتفظ بها لأسرته، إلا بالامتحان. ولكن الامتحان لا يكون إلا من دراسة، والدراسة الطويلة لا تكون إلا من ثروة، والثروة في الأسر القادرة، لهذا تكونت على القرون أرستقراطية حكم ثرية عالمة، وهذه هي الأرستقراطية الوحيدة التي عرفتها وتعرفها الصين. وهي ليست بالأرستقراطية المضمومة الصفوف ضماً يمنع الناس من دخولها. فقد كان بابها مفتوحاً لكل مريد قادر، على أي فراش وُلد. فالكنفوشية، مع توكيدها معنى الأسرة، وتوكيدها معنى الطاعة ولو عمياء، لا تعرف الطبقات.

سأل كنفوشَ أحدُ تلاميذه: «ماذا تصنع أولاً لو وُليت الحكم؟». قال: «أدعو الأشياء بأسمائها». يشير بذلك إلى العلاقات الخمس التي يُبنى عليها المجتمع الكنفوشي: وتلك هي علاقة الحاكم بالرعية، والوالد بولده، والزوج بزوجته، والأخ الأكبر بالأخ الأصغر، والصديق بصديقه. لكل منها اسم يُسمى به، وواجبات يُعرف بها، وأسماؤها رهنٌ بواجباتها. وفي العلاقة الأخيرة الولاء، وفي الأربع الأول الطاعة. والولاء ثمنه الولاء. والطاعة ثمنها المحبة والعدل.

والكنفوشية لا تفرق بين الحكومة والأخلاق. فأجدر الناس بالحكم أكثرهم حظاً من الفضيلة. والملوك لا تحكم لعزّها، ولا لتراثها، ولكن لحظها من الفضيلة، وهو حظ يفوق حظوظ الناس جميعاً، ولولاه ما كان الملك سيّد الناس. والملك أبو الناس وهم أولاده. وعمال الملك يمثلون أبوّة الملك أينما حلّوا، فله على الناس الطاعة، ولكنها طاعة الأب، ولهم عليه العدل والمحبة، ولكنها محبة الأبناء. فإذا نقص حظ الملك من فضيلة اختل كيان الدولة كما يختل كيان الأسرة وعلى رأسها أب فاسق. وإذاً تثور الطبيعة تخلل في اتزانها، وإذاً يثور الناس طالب الاتزان. وثورة الناس عندئذ واجبة.

إن العالم يجري بمشيئة السماء. وحال الناس بعض أحوال هذا العالم، فلهذا وجب أن تتسق حال الناس وسائر أحواله، ويجب أن يساس أمرهم كما تُساس السماء. والملك الفيلسوف وحده هو القمين بحكومة الناس كما تريد السماء أن يُحكموا. فالسياسة والخلق صفتان متلازمتان. والحكومة لا بد أن تتخذ لها من الأخلاق زوجاً تأنس إليه. وقد يكون زوجاً براً، وقد يكون زوجاً عاقاً، ولكن لا يسمح لحكومة أن تكون عانساً أبداً. وفي الصين لا يقولون ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فعندهم ما وجب لقيصر إنما وجب لله. والملك إنما هو خليفة السماء على ظهر هذه الأرض.

أحمد زكي

صورة قضائية :

من جرائم الجنون

« السكوز »

كان « عطوة إبراهيم » من أهالى الصعيد . وكان يشتغل بتجارة الفلال فى بلدة قريبة من مدينة أسيوط . ولم تكن تجارته من الاتساع بحيث تكفل له حياة رغدة ، فإن بضاعته كلها كانت توضع على عربة صغيرة يطوف بها على المنازل . ولم تكن وحدة المبيعات عنده « الأردب أو الكيلة » . ولكنها كانت « الربعة والقدح » . وكان فى ضنكه هذا لا يطيق أن يرى « عبد العال » ذلك البائع الجوّال الآخر ، الذى كانت له عربة مثل عربته ، والذى كان يحمل عليها بضاعة مثل بضاعته . ويطوف بهما فى نفس الأحياء التى يغشاها هو ، وينافسه بذلك فى رزقه الضئيل ، ويشاطره رغيف الخبز الذى لا يحصل عليه إلا بعد الكدح والكفاح الطويل .

وكان « عطوة » شاباً فى مقتبل العمر لم يبلغ الثلاثين من عمره . ولكنه كان هزيل الجسم ضعيف النظر — أستغفر الله ؛ فان عينه اليمنى لم تكن إلا ثقباً ضيقا مفرغا . أما عينه اليسرى فكانت باهتة خافتة كسراج آخر الليل . ولئن كان الشباب عند الشبان قوة وصحة وأملاً فان عطوة المسكين كان فى شبابه ينوء تحت أثقال الضعف الذى يُزرى بضعف الشيخوخة ، ويعيش فى ظلال يأس دونه يأس العاجزين . . . .

ركب الهم « عطوة » ، وملأت خياله صورة « عبد العال » وعربة عبد العال ؛ فهو يراه فى منامه إذا نام ، ويراه فى أحلام يقظته إذا خلا إلى نفسه . وكانت نفسه تجد شيئاً من الراحة كلما ظفر بغريمه فى أحلامه فأوسعه فى أضغاثها سباً ولكما وضرباً . ولكنه لم يكن يلبث أن يعود إلى عالم الواقع فتركبه همومه من جديد . أما « عربة عبد العال » — تلك العربة الضيقة الصغيرة — فانها كانت أثقل على قلبه من الدبابات الأمريكية ، التى يملأ حديثها أسماع العالم فى هذه الأيام . وكان إذا لمحها من بعيد ، وهى تدرج وتقعقع يحس بها إحساساً مرهقاً كأنما كانت دواليبها تدور فوق صدره ، فهى لا تفتأ تعصر قلبه ليلاً ونهاراً ......

واختلط عقل هذا التعس . واشتبهت عليه الأمور . وانتهى من كل ذلك إلى حالة انعكست فيها صور نفسه وأحقادها على الوسط الذى كان يعيش فيه . فبات يعتقد أن « عبد العال » يغرى به من يقتله ، ويحرض الناس على الخلاص منه . فكان لا يقترب منه إنسان إلا يظن به السوء ، ولا يرى فيه إلا أنه رسول « عبد العال » إليه الموكل بقبض روحه . وأصبح لا حديث له إلا أنه مطلوب ، ووراءه من لا يني يطارده . وأنه فريسة نصبت حولها الشباك ، فهو لا يعرف أين من هذه الشباك المفر . وضاقت به الدنيا وأدرك أن الخلاص من هذا الضيق مستحيل . فاعتزم أمراً ، وأعد لهذا الأمر عدته ......

وفى ذات يوم التقى عرضاً فى الطريق بعبد العال ، فهجم عليه وأغمد سكينه — التى أعدها — فى صدره ، واستراح منه إلى آخر الدهر ......

وعرضت القضية على المحكمة .

وقالت النيابة : إن المتهم أعد عدته للقتل . ثم إنه قبض عليه وهو يفارق جريمته ، وإن السكين التى قتل بها غريمه ضبطت معه ، وإنه اعترف على نفسه بما فعل ، وطلبت الحكم عليه بالاعدام ...

وكان هذا المصير فى الواقع هو المصير الجدير بمثل من يرتكب فعلة هذا المتهم .

ولـكن أحد قضاة المحـكمة حدث زملاءه بأنه يرتاب في سلامة عقل المتهم . وأشار عليهم بضرورة فحصه من هذه الناحية بواسطة الخبراء الفنيين من رجال الطب . فوافقوه وأحالوا المتهم فعلا على مستشفى الأمراض العقلية ليقوم خبراؤه بامتحانه ، وليقرروا مدى ما يصح أن يتحمله من مسئولية العمل الذى ارتكبه .

فقام الأطباء بفحصه ، وتبين لهم أنه « سيكوزى » وأنه مريض بما يسمونه « بارانويا » ، وأنه لذلك لا يعتبر مسئولا عن عمله ، ولا يجوز توقيع أى عقوبة عليه ! فلم تر المحكمة بداً من الكف عن السير فى محاكمته . واكتفت بأن تأمر بإيداعه فى المستشفى على أنه من « المجانين » .

***

فما هو هذا « السيكوز » ؟

وما هى هذه « البارانويا » ؟

قالوا عن « السيكوز » : إنه نوع من الجنون يمكن تسميته بأنه « جنون الوهم » ، وأن « السيكوزى » هو الذى يتوهم أمراً لا أصل له ، ثم يعتقد على أنه حقيقة واقعة ، ثم يتصرف فى شئون حياته على أساس قيام هذه الحقيقة . وإن حالة السيكوز إن كانت خفيفة فإن المريض يدركه الصحو أحياناً فيتحرر من أوهامه ، بل ويدرك أنه كان فريسة هذه الأوهام الباطلة . ولـكنه لا يلبث أن تكتسحه موجة المرض من جديد ، فيعود يسبح فى لجج الوهم التى كان يخبط فيها قبل صحوه . أما إن كان مسه شديداً فإنه يبقى مغموراً فى أوهامه لا يفيق منها أبدا ، ويعيش فيها على أنها هى حقائق الحياة التى تحيط به ، ولا تزيده محاولات الناس فى إنقاذه من هذه الأوهام إلا تشبثاً بها وتعلقاً بخيالاتها . ولا يعترف قط بأنه فى حالة مرض عقلى ، ويذهب إلى حد الدفاع عن أوهامه فيثبت بذلك أن جنونه قد أطبق على عقله ، وأنه أصبح ولا عاصم له من أمر الله ، فهو من الغرقى . .

أما « البارانويا » فهى نوع من « السيكوز » . وأساس العقيدة الباطلة عند صاحبها أنه يعتبر نفسه موضوع مؤامرة يشترك فيها كل من حوله ، وأن هؤلاء المتآمرين يريدون قتله ! ولذلك يندفع المريض عادة فيسبق إلى اغتيال أعدائه لينجو هو من المؤامرة الموهومة !

***

ولقد أتيحت لنا فرصة لقاء هذا الرجل أخيراً أثنـاء جولة لنا فى مستشفى الأمراض العقلية . وتحدثنا إليه فى أمر جريمته ، فقـال إنه إنما ارتكبها دفاعا عن نفسه . وسألناه عما تم فى أمر غريمه (لنرى هل تحسنت حالتـه بعد أن تخلص منه) فدهشنا لجوابه ، إذ قال إنه لا يعرف ما إذا كان قد مات أو لم يمت ! وزادت دهشتنا إذ سمعناه يقرر بلهجة اليقين أنه ما زال — حتى هنا فى الخانكة — يتلقى رسل عدوه الذين جاءوا وراءه من الصعيد ليقتلوه ! فأدركنا أن هذا التعس لا يزال فى بحرانه (لأن غريمه كان قد انقضى على قتله أكثر من ثلاثة أشهر !) .

***

ومن المشاهدات فى أمر هذا المرض أن أكثر حوادث الاغتيال السياسية إنما ترتكب فى ظله . وأقرب الأمثلة إلى الأذهان وأروعها فى الوقت نفسه حادث الاعتداء المشهور الذى وقع على المغفور له سعد باشا زغلول . فقد تبين أن الطالب الذى اعتدى عليه كان يتلقى علومه فى أوربا . فلما عاد إلى مصر ظهرت عليه أعراض « البارانويا » إذ كان دائم التحدث عن أنه واحد من عظماء العالم وأن مؤامرة واسعة النطاق تدبر لقتـله . وأن ثلاثة يعرفهم بالذات يشتركون فى تدبير هذه المؤامرة . وأنهم يريدون قتله بواسطة الـكهرباء والمناطيس . وأن هؤلاء الثلاثة هم : أستاذه الذى كان يتلقى عليه العلم فى أوربا . ثم ح . ر . بك (والآن باشا) ثم سعد زغلول باشا . ونظراً لدوى

الذى كان يحيط باسم سعد إذ ذاك فإنه رأى أن يبدأ به .

* * *

وهناك من أمراض الجنون ألوان كثير أخرى من بينها الـ . . « مانيا » — جنون السرور — والـ . . . « ملانخوليا » — جنون الكآبة — والنورستانيا . والهستريا . والشلل الجنونى . والصرع . وهذا النوع الأخير من أشد أنواع الجنون اتصالا بالجريمة ، بل إنه يحمل صاحبه عرضة لارتكاب أبشع الجرائم . فقد روى أن امرأة فى نوبة صرعها قطعت ذراع ابنها وهى تحسب أنها تقطع رغيفاً من الخبز . . .

ويتميز « المَصْرُوع » — كما يسمونه — بمسحة من الكآبة يتسم بها وجهه ، وبمعنى من معانى الغضب يرتسم على نظراته . وهو إذا تكلم ثقل اللفظ على لسانه ، فأخرجه من فوقه إخراجا . وهو فى سلوكه العادى أنانى متطرف فى أنانيته . تبدو على شفتيه الغليظتين ومنخريه العريضين سيما البهيمية . وقد تنتاب الواحد منهم نوبة الصرع فيكون أول ما يبدو عليه من أثرها صيحة تنطلق منه على غير إرادته . ودلت البحوث على أن هذه الصيحة تأتى فى الغالب نتيجة ما يعترى جدران الجنبين من تقلصات مفاجئة ، ثم ينهار الجسد على الأرض دفعة واحدة كما تقع القطعة من الخشب . وليست النوبات على حال واحدة من الشدة ، فإن بعضها يأتى خفيفا غير محسوس . فينتفض له المريض نفضة أو نفضتين فى ثانية أو ثانيتين . والعامة يطلقون على مثل هذه النوبة الخفيفة اسم الـ . . . « فوته » . ولكن خطر المريض يظل كامنا فيه عقب هذه الـ « فوته » لأنه يدخل من بعدها فى حالة أخرى تسمى "automatism" ويعبرون عنها « بالحالة الذاتية » أى الحالة التى يكون فيها المريض مسخرا غير مخير ، يأتى من الأعمال ما لا سلطان للعقل عليه ولا للإرادة دخل فيه .

ومن ذلك ما حدث منذ سنوات فى إحدى بلاد الوجه البحرى . فقد قتل عمدة هذه البلدة فى وضح النهار وهو يسير فى الطريق العام بين رجاله . وكان القاتل له شابا من أهل القرية ينتمى إلى أسرة بينها وبين أسرة العمدة جفوة . واستعمل فى القتل بلطة مما يستعملها الفلاحون لقطع الأشجار . وقد اهتمت الحكومة اهتماماً مضاعفا بهذا الحادث خشية ما قد يؤول إليه من تبادل الثأر بين العائلتين ؛ فاستمعت لكل ما يقال ، واحتاطت لكل ما قد يقع . وكان مما قيل أن إخوة الشاب المتهم هم الذين حرضوه على القتل . فجىء بهم جميعا ، وأدخلوا السجن معه . ولم يكن يفطن أحد ممن بيدهم التحقيق إلى أن هذا الشاب كان « صرعيا » ولم يكن بدرك من فطن منهم إلى هذه الحقيقة أن حالة الصرع قد يكون لها دخل فى وقوع الجريمة . وقطع التحقيق أشواطه الأولى وكل شىء ينذر بخراب بيت هذا الشاب وأسرته ، إلى أن قيض الله من كشف القناع من حقيقة هذا الشاب ، وأنه ممن لا يسألون فى نوباتهم عما يصنعون . وأنه ارتكب جريمته وهو فى نوبة من نوبات تلك « الحالة الذاتية » التى سبقت الاشارة إليها . وكان عزيزاً جداً على المحكمة أن تسلم بهذا الرأى . وأن ترى المجرم يوشك أن يفلت من يدها بهذه السهولة . فاستدعت الطبيب المختص وجادلته جدالا طويلا . واستوضحته واستفسرت منه . وخرجت من درسها وبحثها إلى الاقتناع برأى الطبيب فعدلت عن خطتها الأولى ، وأخلت سبيل الاخوة . وأمرت بإيداع المتهم فى المستشفى . وخفت حدة الثأر تحت ضوء هذه الحقيقة . وحقن الله على أهل القرية دماءهم . وكفى الله المؤمنين القتال .

* * *

هذا طرف من حديث « جرائم الجنون » . وسنأتى فى كلمة أخرى إن شاء الله على حديث « المجانين غير المجرمين » ، فإن لهم لحديثا تستمتع به العقول .

ع . ج

نحو الوحدة العربية

العمل للوحدة العربية

للدكتور يوسف هيكل

عوامل الوحدة كلها متوفرة فى الأقطار العربية . والشعب العربى يشعر بأن مستقبله ، كأمة لها من المكانة بين الأمم ما يليق بماضيها ، متوقف على تحقيق هذه الوحدة ، ولذا فهو راغب فيها ، ويود لو يعمل بجد إلى تحقيقها . ولكن نرى أنه لم يتم عمل جدى فى هذا السبيل ، وأن معظم قادة الفكر منصرفون إلى أمور لا قيمة حيوية لها إذا هى قيست بهذا الأمر الهام ، الذى يتوقف عليه مصير أمة بكاملها . فهى إما أن تبقى مفككة العرى ، مجزأة الأقسام ، ضعيفة الجانب ، إن بقيت على ما هى عليه اليوم ، وإما أن تصبح أمة كبيرة قوية ، ذات مكانة دولية ، تلعب الدور الذى لها فى تاريخ العالم ، وتساهم بالنصيب الذى عليها فى رقى المدنية . ونرى العدد الأكبر من رجال السياسة صارفين قواهم فى الأمور الحزبية ، فى محاربة بعضهم بعضاً ، والسعى فى تغلب الواحد على الآخر ، فى هذه الأمور المحلية المجردة ، والنواحى النفعية الشخصية المحضة . وهذا هو السبب فى ضيق المجال الذى يعمل فيه رجال السياسة فى البلاد العربية ، وفى أنهم لا يعرفون ولا يهتم بهم إذا خرجوا من دائرتهم وولجوا دوائر أخرى فى القطر نفسه ، أو ذهبوا إلى قطر آخر من الأقطار العربية . ومن المؤسف أنه لم يظهر حتى الآن من رجال السياسة فى الأقطار العربية من هو عربى بالمعنى العام ، له مكانة وكلمة مسموعة فى جميع البلاد العربية ، ثم إنه لمن المؤسف أنه لم يظهر مثل هذا القائد السياسى ، فى حين أن الأقطار العربية التى هى وطن واحد للشعب العربى ، فى حاجة إليه ، وفى حين أن أوربا المؤلفة من أوطان مختلفة لشعوب وعناصر مختلفة ، قد ظهر فيها رجال أوربيون بالمعنى السياسى العام ، يعملون لخير أوربا وعظمتها ، كما يعملون لخير بلادهم وعظمتها ، فدعوا « بفلان الأوربى » بدلا من « فلان الفرنسى أو البريطانى » . ومن هؤلاء كان أرستيد بريان . ولكن هى العظمة الشخصية ، والسمو الفكرى ، والعلو النفسانى ، وميزات أخرى ، قد حررت هؤلاء الرجال من القيود المحلية ، وجعلتهم يعملون للدولية الأوربية ، ورفعتهم إلى مرتبة لا يصل إليها إلا من كان فى طبقتهم عظمة وسمواً وعلواً . وهؤلاء عددهم جد قليل .

فإن كان هذا مسلك عدد من رجال السياسة فى أوربا المؤلفة من ممالك ودول عديدة ، وعناصر وشعوب مختلفة ، المتصهرة فى الدولة الواحدة منها عناصر شتى ، أفليس من واجب نبهاء رجال السياسة فى الأقطار العربية ، وهى بلاد واحدة لشعب واحد ، أن يتحرروا مما قيدوا به أنفسهم من قيود سياسية محلية ، فيعملوا لخير البلاد العربية وعظمتها ، ويبذلوا الجهد فى تكوين الوحدة العربية ، ورفع هذه الأمة إلى مستوى دولى رفيع ؟ .

على أنه إن حرمت البلاد العربية مثل هؤلاء الساسة ، فقد منحت رجالا عربا بالمعنى العام ، من الناحية الأدبية والفكرية ، أمثال صاحب المعالى محمد حسين هيكل باشا ، وصاحب العزة الأستاذ أحمد أمين بك والدكتور طه حسين بك ، وغيرهم من كبار رجال الفكر والأدب فى مصر . فهؤلاء الأعلام من قادة الفكر ، ليس فى مصر وحدها ، بل فى العالم العربى أجمع ، وكل عربى يفتخر بهم ، ويسر لرؤيتهم ، ويود التحدث معهم ، ويرغب فى الاحتفاء بهم . وما احتفاء فلسطين مثلا بمعالى هيكل باشا إلا وسيلة عبر بها عرب فلسطين عن شعورهم نحو زعيم

البلاد العربية الفكرى . أما آن الأوان أن يكون للعالم العربى كمجموع زعماء سياسيون كما له زعماء فكريون ؟

* * *

أما أن الوحدة العربية لا تزال فى خوالج النفوس ، ولم تخرج بعد إلى ميدان العمل والتنفيذ ، فيرجع إلى انهماك رجال السياسة فى المسائل الحزبية المحلية ، وعدم التفاتهم إلى النزعات السياسية السائدة فى الأقطار العربيـة ، وتوانيهم فى العمل على تحقيق رغائب الشعب ومآربه ، وتأمين مستقبل الأمة العربية وعظمتها . أما ما يقال من أن هؤلاء الساسة لا يستطيعون العمل للوحدة العربية ، لأن الدول الأجنبية ذات المصالح تحول دون العمل من أجلها ، وتعارض فى تحقيقها ، فقول لا يتفق مع الواقع .

لقد شعرت دول الحلفاء برغائب الشعب العربى ، وعرفت الهـدف السامى الذى يرمى إليه ويود تحقيقه . علمت دول الحلفاء أن المثل الأعلى للبـلاد العربية هو الاستقلال والوحدة ، فالقيام بما عليها من واجب نحو الدنية . فأدلى المستر إيدن ، وزير الخارجية البريطانية ، فى مقر رئيس البلدية فى لندن ٢٩ مايو (أيار) سنة ١٩٤١ ، بتصريح خطير جاء فيه قوله : « إن كثيرين من مفكرى العرب يرغبون فى أن تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحـدة أكبر من النصيب الذى تتمتع به الآن . وهم يأملون منا المساعدة فى بلوغ هذه الوحدة . ولا يجوز لنا أن نغفل أى نداء يوجهه إلينا أصـدقاؤنا بهذا الصدد . ويبدو لى أن من الطبيعى ومن الحق أن تتوثق الروابط الثقافية والاقتصادية ، والروابط السياسية أيضا ، بين الأقطار العربية . وستساعد حكومة جلالته ، مساعدة تامة ، أى مشروع ينال الموافقة العامة ، ويرمى إلى توسيع مدى الاتحاد بين الشعوب العربية » .

يلاحظ من هـذا التصريح المظيم المغزى ، البعيد المرمى ، أن الحكومة البريطانية تنتظر أن يضع العرب مشروعاً يرمى إلى توسيع مدى الاتحاد بين أقطارهم ، وأن يوجهوا إليها نداءً للمساعدة فى بلوغ هذه الوحدة . وبعبارة أخرى إن وضع مشروع الوحدة يقع على عاتق العرب أنفسهم ، وهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، لأن الوحدة كالاستقلال تؤخذ ولا تعطى ، ولأنه ينبغى أن يكون الدافع إليها من الداخل لا من الخارج ، وأن تكون بوحى من قادة العرب أنفسهم وأن يعملوا هم على وضع أسسها وتفصيلات إنشائها . إن قول المستر إيدن أمر طبيعى يتمشى مع روح تكوين الوحـدات السياسية الوطيدة الأركان . والغريب أن يختار رجال الفكر والسياسة فى العالم العربى لأنفسهم الوقوف صامتين مكتوفى الأيدى ، فى حين أن الوقت لا يدعو إلى صمت أو سكون ، بل يوجب العمل على وضع ميثاق يتفق عليه قادة البلاد العربية ويتقدمون به متحدين قائلين : هذا هو ميثاقنا ، وهذه هى آمالنا ، وهذا ما نريد تحقيقه ، ولسنا عنه بحائدين .

نعتقد مع الكثيرين أنه قد حان الوقت لاتخاذ الخطوة الأولى نحو الوحدة العربية ، ونظن أن من الخير أن يعقد مؤتمر يضم ممثلين من الأقطار العربية ، يتفاهمون فيه ويبحثون قضيتهم القومية الكبرى ، ويضعون ميثاق الوحدة ، على أن يحتوى هـذا الميثاق على الأسس العامة للوحدة ، وأن لا يدخل فى التفرعات . ويكون هذا المؤتمر النواة لمجلس مشترك بين الأقطار العربية ، يتولى النظر فى كيفية الوحدة ، ووضع الخطط والمشروعات لتنفيذها . وإننا نعتقد أن مركز مصر ، ومكانتها الثقافية والاجتماعية ، وموقف حكومتها السياسى ، يجعلها أليق قطر يتولى الدعوة إلى عقد مثل هـذا المؤتمر ، ويجعل حكومة جلالة الملك فاروق المعظم خير حكومة تقوم بتنفيذ هـذه الدعوة ، وبتحقيق غاية المؤتمر .

فهل لقادة الرأى ورجال السياسة إعارة هذا الموضوع اهتمامهم والسير نحو الغاية المنشودة ؟ .

* * *

وهناك أعمال لا تتعلق بالوحدة العربية مباشرة ، ولكن تمهد لها السبيل ، وتقوى الروابط بين الأقطار العربية ، وتساعد على نشر روح الوحدة فيها ، وإننا نذكر بجمل بعضها ، دون الدخول فى التفاصيل .

يعقد أطباء البلاد العربية مؤتمراً كل عام فى قطر من أقطار العالم العربى ، يتعارفون فيه ، ويبحثون مواضيع طبية . ولهذا المؤتمر وأمثاله فوائد جمة . ولذا يحسن الاكثار من هذه المؤتمرات ، وتوسيع دائرة أبحاثها . وليت قادة الفكر يعملون على الدعوة إلى مؤتمر ثقافى اجتماعى يعقد سنويا فى أحد الأقطار العربية ، ويجمع عددا من قادة الفكر ورجال العلم والأدب فى العالم العربى ، يبحثون فيه المشاكل العامة المشتركة بين الأقطار العربية ، ويعرضون المشاكل الخاصة لكل منها . ومثل هذا المؤتمر يخدم القضية العربية الكبرى ، إذ يمكن رجال الفكر فى الأقطار العربية من التعاون الشخصى ، الذى عليه معول كبير فى تقوية الروابط بين البلاد العربية ، ويطرح المشاكل العربية العامة على بساط البحث للتفاهم على طرق حلها ، ويوقف المؤتمرين على المشاكل الخاصة بأى قطر من أقطارهم . ومن المفيد أيضا جمع بحوث المؤتمر فى كتاب خاص ، ليطلع الرأى العام العربى على ما دار فى المؤتمر من بحوث ، ويستفيد منها فى تفهم ما للبلاد العربية من مشاكل عامة وخاصة .

ومن شأن عقد مثل هذا المؤتمر ، سنة فى واحد من الأقطار العربية ، وأخرى فى قطر آخر ، أنه يصبح وسيلة لتعرف المؤتمرين على ذلك القطر ووضعيته وأحواله . ومعرفة المتعلمين من العرب للبلاد العربية معرفة حقة أمر ضرورى للتفاهم والاشتراك فى العمل العام لصالح هذه الأقطار جميعها . وكم كان جهل المتعلمين لهذه الأقطار وأمورها المختلفة ، سببا للتباعد والتقيد بالأمور المحلية ، إذ المرء عدو ما يجهل . وإننا نرى أن تبادل الزيارات بين البلاد العربية ينبغى أن لا يقتصر على أعضاء المؤتمرات بل يجب أن تزداد هذه الزيارات عددا وشمولا ، بحيث تشمل زيارات رجال السياسة وقادة الفكر ، وزيارات الهيئات التعليمية وطلبة المدارس العليا .

ومن الأعمال المقوية للروابط بين الأقطار العربية ، تبادل مدرسى المدارس الثانوية ، وأساتذة الكليات والجامعات ، وذلك التبادل يؤدى إلى إيجاد عدد من مدرسى القطر العربى الواحد وأساتذته فى المعاهد العلمية القائمة فى غيره من هذه الأقطار . وقد خطا العراق الخطوة الأولى فى هذا السبيل ، فدعا المدرسين والأساتذة من مصر وبر الشام إلى التدريس فى معاهده العلمية . إن هذه الخطوة مباركة ، وإن تكن جاءت بسبب الحاجة . وكم تكون الفائدة عامة لو أن مصر وحكومات بر الشام ، تدعو المدرسين والأساتذة من الأقطار العربية الأخرى للتعليم فى معاهدها العلمية ، حتى تتاقح أذهان الطلبة بأفكار غير الأفكار الاقليمية المفككة للأمة العربية ، المميتة لمستقبلها .

أما الصحافة ، ولها سيطرة كبرى على الرأى العام ، فلم تقم بما عليها من واجب نحو الوحدة العربية . إذ أنها لم تبحث هذا الموضوع الهام بحثا مفصلا من نواحيه المختلفة ، ولم تعمل على إعداد الرأى العام لتحبيذه وتأييده والعمل لتحقيقه . وإننا نرى لزاما تشكيل هيئات أو روابط من الرجال المثقفين والشباب المتعلمين ، فى كل قطر من الأقطار العربية ، يكون من واجباتها تغذية الصحافة بمواضيع عن الوحدة العربية والدعوة إليها ، ونشر روحها

من تاريخ الصحافة المصرية :

تشريع الصحافة وتطوره

يكاد إجماع الفقهاء والمشرعين ينعقد على أن المطبوعات وفى مقدمتها الصحافة تجد فى قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ أول تشريع ينظم شئونها ويحكم مسائلها ، وإذا كان رأى هؤلاء الفقهاء صحيحاً من حيث اكتمال الأداة التشريعية بهذا القانون فإنه يكون رأياً مبتسراً من ناحية الأصول التاريخية ، فإن المعنيين بهذه الشئون يمكنهم أن يردوا تاريخ التشريع الخاص بالمطبوعات إلى عهد محمد على منذ أنشأ مطبعة بولاق فى سنة ١٨١٩ أو فى سنة ١٨٢٠[(١)] .

كانت أمور المطبعة هينة فى أول الأمر ، وقد ظل نظام الرقابة على مطبوعاتها بسيطاً ، ليس لها لوائح ولا قوانين تحدد سياستها وتوضح نظامها ، غير أن بساطة هذه السياسة أخذت تتعقد شيئاً فشيئاً ، بحيث أصبح من المتعذر أن تسير سياسة المطبعة على فطرتها أو تطرد على طبيعتها ، فسرعان ما دعا هذا التعقيد إلى إصدار الأوامر وسن القوانين وتحديد سياسة للنشر بها ووضع نظام للرقابة على مطبوعاتها . ويروى لنا السائح المحقق جوفانى باتستا روكى Brocchi الناسبة التى تمت فيها هذه الخطوة ، فيذكر أنه كان بين مدرسى مدرسة الفنون ببولاق مدرس إيطالى يدعى بيلوتى Bilotti نظم قصيدة دينية طويلة سماها « ديانة الشرقيين » طعن فيها طعناً شديداً فى الإسلام والمسلمين ، وكان فى هذه القصيدة ما يغرى بالإلحاد وينتقص من احترام رجال الدين ، وقد اتفق بيلوتى مع نقولا مسابكى أفندى ناظر مطبعة بولاق على طبعها بالمطبعة الأميرية ؛ ولا غرابة فى ذلك فقد تعلم مسابكى فى إيطاليا موطن العداء للدين الإسلامى فى ذلك الوقت ، وشجعه على نشرها عدم وجود قانون لمراقبة المطبوعات ، ولكن سولت Salt قنصل إنجلترا فى مصر كانت علاقته بالناظم الإيطالى شديدة التوتر ، فسعى للوقيعة به عند الباشا

(١) اكتشفت فى المطبعة الأميرية أخيراً لوحة تشير إلى سنة افتتاح المطبعة وهى سنة ١٢٣٥ هـ أى من أكتوبر سنة ١٨١٩ إلى أكتوبر سنة ١٨٢٠ . وبذلك وجب ذكر هذه الحقيقة التاريخية التى أخطأها المؤرخون جميعاً .

بين مختلف الطبقات ، وغرس المثل الأعلى القوى فى قلوب الشباب والناشئة .

هذه الأمور وأمثالها تمهد الطريق للوحدة ، وتزيل ما فى سبيلها من العراقيل ، وتساعد رجال السياسة والفكر ، مساعدة كبيرة ، على تنفيذ المشاريع التى يضعونها لتحقيق الوحدة العربية ، وتأمين مستقبل الأمة العربية ، والوصول بها إلى المكانة التى تتناسب مع ما لها من ماض مجيد .

* * *

عرضنا فى المقالات السابقة الأمور النظرية المتعلقة بالوحدة العربية . فتكلمنا من الشعب العربى ، وحددنا وطنه ، وذكرنا عوامل الوحدة ، وأوضحنا أنها متوفرة فى الأقطار العربية . وسنحاول فى المقالات التالية أن نعرض رأينا فيما نرى إليه عبارة الوحدة العربية ، وكيف يجب أن تكون . على أننا نرى أن من اللازم قبل البحث فى نوع الوحدة العربية وخطوات تحقيقها ، أن نفرد مقالاً لشرح أنواع الدول ، والبحث فيما إذا كان من الضرورى أن تكون الوحدة العربية على غرار نوع أو آخر من هذه الأنواع . . .

(القدس) يوسف هيكل

وبين «ولى النعم» الخطر من نشر وإذاعة مثل هذا الألحاد الذى يستحيل أن توافق أى سلطة أوربية على قبول معانيه وألفاظه ، فضلاً من سلطة إسلامية تجيز طبعه ، فأمر محمد على بمخطوط الكتاب فألقى فى النار ، ولولا وساطة المقربين إليه لقضى الوالى على حياة مدير المطبعة .

ثم أصدر محمد على أمراً فى ١٣ يوليو سنة ١٨٢٣ يحرم طبع أى كتاب فى مطبعة بولاق إلا إذا استصدر مؤلفه إذناً خاصاً من الباشا بطبعه ، وفرض عقاباً شديداً على كل من يخالف هذا الأمر ، وقد انسحب هذا الأمر على الكتب التى يصدر قرار بطبعها من دواوين الحكومة أيضاً . ويقرر أرتين باشا أن هذا الأمر يعتبر أول تشريع للمطبوعات فى مصر ، وأنه يطابق قانون المطبوعات الفرنسى إذ ذاك ؛ وقد أصاب أرتين فى الأول وأخطأ فى الثانية ، إذ أن أمر الوالى يماثل قانون المطبوعات الفرنسى فى القرن السادس عشر .

ومجمل القول أن التشريع الذى أصدره محمد على كان أول تشريع للمطبوعات وآخر تشريع لها فى عهده ، وقد نفذ هذا الأمر بدقة ، فلا نجد مطبوعاً من مطبوعات بولاق إلا ونجد أمراً عالياً بطبعه وعليه خاتم المطبعة وتاريخ نشره ، وذكر أن ولى النعم أصدر أمره بأن يطبع فى المطبعة لما رأى فيه « من الفائدة والملاءمة » . وكانت هذه الكتب تقرأ أو تلخص له ، وقد أبى نشر بعضها ، فقد كلف الباشا المترجم والتيل بترجمة كتاب الأمير لمكيافيلى فلما قرىء عليه لم يجز طبعه وبقى إلى اليوم مخطوطاً بدار الكتب .

هذا فيما يختص بنشر الكتب . أما علاقة محمد على بالصحف فكانت علاقة صاحب البيت ببيته ، صدرت فى عهده خمس جرائد . جرنال الخديو حوالى سنة ١٨٢٢ ، ثم الوقائع المصرية فى سنة ١٨٢٨ ، ثم الجريدة العسكرية بعد ذلك التاريخ بقليل ، وأخيراً جريدة لومونيتور إيجيبسيان الفرنسية سنة ١٨٣٣ ، وجريدة Lo Spettatore Egiziano الايطالية سنة ١٨٤٦ . والصحف الثلاث الأول صحف الدولة الرسمية ، والصحيفتان الرابعة والخامسة صحيفتان شبه رسميتين .

ويعنينا أن نعلم شيئاً عن علاقة الرقابة والرقيب بهذه الصحف ؛ فجرنال الخديو قد عرفنا قصته . أما الجريدة العسكرية فكانت خاضعة لرقابة صاحب الدولة السر عسكر إبراهيم باشا ، وهى تختص بالشئون العسكرية وحدها . وأما الجريدتان الفرنسية والايطالية ، فكانت موضوعاتهما جميعاً منقولة من الوقائع المصرية ؛ وإذاً تكون الوقائع وحدها الجريدة التى شغلت حياة الدولة وعنيت بها الحكومة ، اشترك فيها الموظفون فرنجة ومصريون ، ومنحت للعلماء وتلاميذ المدارس ، وفرضت على طلبة البعثات فى باريس وفينا وروما وباريس ولندرة ، ووزعت فى بلاد العرب والسودان والشام وكريت . وقد أشرف محمد على بنفسه على الوقائع وإخراجها ؛ فكان يكلف الموظفين بكتابة المقالات ، ويوعز بنشر الأخبار ، وتقرأ له مسودات الجريدة قبل طبعها ، ويعاقب المسئولين إذا أساءوا اختيار الخبر أو المقال ؛ وكان إشرافه هذا غريباً حقاً ، فانه ليخيل إلى من لا يعرف تاريخ مصر فى هذه الحقبة أن محمد على كان محرراً للوقائع فحسب !

وفى عهد سعيد باشا صدر تشريعان خاصان بالمطبوعات أوسع نطاقاً مما ذكرنا : أحدهما للمصريين والثانى للأجانب . فأما الأول فيه أن مصرياً له علم « بفن الطباعة على الحجر » تقدم إلى ديوان الداخلية يرجو أن يؤذن له بفتح مطبعة لنشر بعض كتب صغيرة لازمة لتعليم الأطفال ، فأقر المجلس المخصوص فى أول يناير سنة ١٨٥٩ هذه الرغبة ، وإنما اشترط أن تؤخذ على الطالب شروط

خمسة ، أصدرها هذا المجلس بهذه المناسبة دستوراً وقاعدة لمثل هذه الحالة . جاء في أول هذه الشروط « أن كل كتاب أو رسالة يراد طبعها لا يصير الابتدى (الابتداء) في طبعها ، ولا تجهيز لوازماتها ، ولا عقد شروط مع من يريد الطبع والالتزام ولا أخذ شيء منه ، ما لم يقدم نسخة ذلك إلى نظارة الداخلية لأجل مطالعتها والنظر فيها إن كانت مضرة للديانة ولمنافع الدولة العلية والدول الأجنبية والعامة أم لا » . ثم ذكر الشرط الثاني أنه لا يطبع ولا ينشر « جرانيل وغازيتات وإعلانات من دون استحصال على الرخصة من ديوان الداخلية ، وإلا فتغلق وتسد مطبعته » . وينصب الشرط الثالث على من يطبع رسائل وينشر كتباً تسيء إلى الدين والآداب ، « والبولوتيقة » ، وأن للضبطية أن تحول دون ذلك . أما الشرط الرابع فيقرر عدم طبع نسخ زيادة عما يحدث الاتفاق عليه بين الكاتب والناشر والحكومة ، وأن الزيادة في النسخ المتفق عليها تعتبر سرقة وتصادر . وينص الشرط الخامس على العقوبات التي يعاقب بها المخالف للشروط السابقة .

فالجديد هنا في هذا القرار أنه انصب على مطابع الحجر ، ثم جمع بين الكتب والصحف والرسائل . والواقع أنه بالرغم مما يتبادر إلى ذهن القارئ ، فإن هذا القانون يعتبر قانوناً سهلاً ليناً ، لأن ناس ذلك الوقت كانوا بطبعهم لا يعرفون السياسة ، وكانوا مؤمنين لا أمل للألحاد والملحدين بينهم . وهذا القانون صورة من القانون العثماني المعمول به في الدولة العثمانية وإن لم يصدر في نصه ، وهو شبيه بالقانون الذي صدر من أجل الأجانب في مصر وسائر ولايات السلطنة العثمانية .

كان للأجانب في عهد سعيد دالة كبيرة على الحكومة المصرية ؛ فقد اتسعت لهم رحاب الوالي وكثر عددهم ، واستتبع ذلك إنشاء خمس صحف بين فرنسية وإيطالية ، غير ما ذكرنا من صحف في عهد أسلافه . وطبيعي أن هذا العدد الكبير من الصحف كان يقتضي رقابة من الحكومة الشرعية في البلاد ، حتى تأمن نتائج الآراء المتضاربة التي تذيعها هذه الصحف المتباينة ؛ فبلغت مصر قناصل الدول منشور التنظيمات الصحفية التي صدرت في الآستانة في ٦ يناير سنة ١٨٥٧ ، وأرسلتها إلى هؤلاء القناصل في شهر ديسمبر من نفس السنة ؛ وليست مواد قانون الصحافة التي بلغها الوزير المصري لقناصل الدول مواد حرفية لقانون المطبوعات العثماني ، بل هي تحمل روحه وطابعه ، وقد بسطها ناظر الخارجية تبسيطاً ملحوظاً إذا قورنت المواد المبلغة بمواد القانون التركي .

ويبين القانون الذي بلغ للقناصل اهتمام الحكومة بخطر الصحافة الفرنجية في مصر ، إذ كان يهمها أشد الاهتمام الامتناع من نقد أعمالها مما قد يؤثر على الأمن أو يدعو إلى اضطراب في الأفكار العامة ، وهي كذلك حريصة على حماية موظفي الحكومة من النقد الذي قد توجهه إليهم هذه الجرائد ، فشرطت لتحقيق هذه الرغبة أن يقر الأخبار التي تذيعها الصحف عن الحكومة وموظفيها مكتب للصحافة أنشأه سعيد في نظارة الخارجية ، وليست الأخبار وحدها المطلوب رقابتها ، بل إن الافتتاحيات أيضاً كانت تمر على المسئولين في مكتب الصحافة أو يقرها موظفوه مشافهة ، على شريطة أن يذعن المحرر للاعتراضات التي توجه إليه اجتناباً لإذاعة الأنباء الباطلة ؛ وكذلك فرض قانون الصحافة على الجرائد الأجنبية أن تفسح صدرها لتكذيب وتصحيح الأخبار التي تنشرها صحف أوربا أو يذيعها المغرضون عن الحكومة المصرية ؛ وقد أخذ مكتب الصحافة على عاتقه تزويد الصحف بهذا كلما دعت الحاجة إلى تكذيب أو تصحيح . ولكي تمكن

الحكومة لسلطانها على هذه الصحف وتحت عقوبات مختلفة ستفرضها على من يخالف مواد القانون أو يستهين بها ، كما جعلت لهذا القانون أثراً رجعياً ؛ فكل صاحب مطبعة أو ناشر ينبغى أن ينال ترخيصاً بفتح مطبعته أو نشر جريدته ، وإلا تعرض لجزاء بقفل مطبعته وبعطل صحيفته. وألقيت كل هذه المشاكل الصحفية الجديدة التى نشأت فى الحياة المصرية على مكتب الصحافة الذى أنشأته حكومة الوالى سنة ١٨٥٧ .

ومع أن علاقة الحكومة المصرية بالمطبوعات أصبحت واضحة بعد هذين القانونين ، إلا أنه ينبغى أن نذكر أن حكومة سعيد كانت لهذه المطبوعات بكيلين ؛ فالأجانب كانت لهم الحظوة ، وكان لهم فى قناصلهم حصانة حالت فى كثير من الأحيان دون بطش الحكومة بصحفييهم ، ودون رقابتها على صحفهم ؛ فقد فتح السيد محمد هاشم من رعايا أمير المغرب مطبعة حروف دون أن يستأذن الحكومة ، وكان هذا أول حدث من نوعه ، فاستفسرت الضبطية المصرية عما يجب أن تصنعه مع هذا الأجنبى ، فكتب إليها سعيد والى مصر يقول : « يا مبارك إن الأشياء التى مثل هذا لم هى يد واحدة مثلما تعملوا . إن اليد الواحدة مرفوع وملق . افهموا . » ! وهو يعنى فى هذه الوثيقة التاريخية عدم مساواة الناس أمام القانون ، ويطلب إلى المسئولين فهم ذلك جيداً ؛ فالمصرى والأجنبى يختلفان إذا جد الجد ، فبالرغم من وجود القانون فتح الرجل المطبعة دون إذن ودون تحرير الشروط التى نص عليها التشريع ، وإن كان فى نهاية كتابه للضبطية يقول : « فأما إذا طبع شيء يعيب الحكومة والملة فيجب مؤاخذة ومعاقبة فاعلين ذلك . »

(البحث بقية) ابراهيم عبده

دنيا الربيع

ههنا نسمة وهذا عبيق ههنا بسمة وهذا بريق
ههنا للمراح خلق طليق ههنا ياصديق : دنيا الربيع

* * *

صدحة ههنا وهذا بغام وغناء هنا وتلك مدام
ومعان شتى وفيها انسجام جمعتها ياصاح : دنيا الربيع

* * *

هاهو الزهر مشرقاً فى رباه لا بل الأفق مزهراً فى سناه
قد كساه الربيع أبهى حلاه
فبدا فتنــــة : بدنيا الربيع

* * *

أنا نشــــوان ياصديق براح
من رحيق الحياة فى كل صاح
أينما سرت أصمت أقداحى وأنا سابح : بدنيا الربيع

* * *

غربت شمســـه ولات غروب
وتجلت والكون زاه طروب
إن شمس الربيع ليست تغيب
حبــــذا طيفها : بدنيا الربيع

* * *

أيها اليائس الذى ضاق حزناً
قم تملَّ الربيع يســـعدك حسنا
وانشــد الخير فيه حساً ومعنى
فنعيم الحيـــاة : دنيا الربيع

محمد طاهر الجبلاوى

حول رسالة الغفران :

٣ـ أبو العلاء ورسالة الغفران

رسالة الغفران مجموعة من أصداء محنة أبي العلاء ، بحيث لا يمكن فهمها ما لم النقد إلى معنى تلك التجربة البشرية الأليمة التي عاناها أبو العلاء ، وأن تدرك ملامحها المطبوعة في إحساسه وتفكيره ، وفهم تلك التجربة على وجهها الصحيح هو أهم عمل للناقد ، وذلك لأن التفسير والبحث عن العوامل التي أثرت في حياة الكاتب أو الشاعر لا يمكن أن ينتهي إلى شيء نهائي ، فقد يبصرنا العلماء بما في حياة أبي العلاء من مؤثرات ، ومع ذلك يظل دائماً شيء لا يمكن تفسيره هو أصالة الأديب التي تتلخص في كيفية انفعاله بتلك المؤثرات . وهذا هو السبب في أن نرى ناقداً نافذ البصيرة كالدكتور طه حسين يك يعرض لما كان من تفاوت أثر المحنة عند أبي العلاء وبشار ، فلا يجد تعليلا غير ما يسميه « غريزة أبي العلاء الوحشية » . ومن الواضح أن هذا التفسير لا يعني شيئاً لما فيه من دور ، إذ ما نريد أن نفهمه هو سبب تلك الوحشية التي تميز بها .

وإذاً فمحاولة الفهم خير من محاولة التفسير ، وعلى أساس هذا الفهم يستقيم النقد أو يعوج ، والذي لا شك فيه أن الكثير من النقد الوصفي لم ينجح في أداء رسالته لعجز أصحابه عن كل فهم صحيح لنفوس من ينقدون ، بل روح العصر أو الأدب الذي يعرضون له . فالمرء لا يستطيع أن يتذوق الأدب اليوناني مثلا ما لم يحاول أن يخلق لنفسه روحا يونانية قديمة بقراءة ما خلفوا من آثار أدبية وتاريخية ، حتى يتشبع بروحهم فتتداعى خواطره وإحساساته على نحو ما كانت تتداعى عندهم .

والأمر كذلك في أدبنا العربي القديم . فالناقد ذو الخيال القادر على تصور حياة العرب والاحساس بها فكرة التمثل الجيد على أن يحيا الدور الذي يلعب ، يستطيع أن يدرك ما في بكاء الديار عند هؤلاء القوم الرحل من جمال وصدق لا أعرف لهما مثيلا في أدبنا ، ومع ذلك كم نرى من أحمق يسخر من هذا البكاء ، بل كم من ناقد لا يرى فيه إلا مجرد تمهيد لأغراض الشعر عند العرب ، وهذا نظر قصير لحقائق العرب النفسية ، أو قل من قصور عن فهم تجارب الغير .

والواقع أن النقد ليس بالمهمة الهينة ، ولا هو في مقدور كل إنسان ، إذ لابد لمن يريد أن يحاوله أن يكون غنيا بتجارب الحياة في يشعب بما في النفس من جود ، بحيث تستطيع أن تخرج دائما من محيطها لتعيش بالخيال في محيط جديد ، وهذا يحتاج إلى مرونة نفسية لا تكتسب إلا بأحد أمرين : إما بالتجارب المباشرة أو بالمران الطويل على فهم تجارب الغير ، كما يقصها الأدباء .

ولقد ضرب هؤلاء النقاد عندنا في فهم روح أبي العلاء كل مضرب . وفي الجزء الثالث من رسالة الغفران طبعة الأستاذ كامل الكيلاني تراه عدينة لكثيرين من كبار مفكرينا وأدبائنا ، ولكنهم في الغالب لم يخضعوا أنفسهم لتذوق أدبه ، بل أخذ كل منهم بفكرة سابقة في مسألة من المسائل التي يثيرها . وهذا موضع الداء عندنا ، وأكبر دليل على أننا لا نزال بعيدين عن النضج الأدبي المنشود ، ذلك الذي يخضع الفن ويخرج منه منطوقه بدلا من أن يملي عليه رأياً كونته لنا من قبل ثقافتنا الاسلامية ، أو مطالعاتنا في كتب الأوربيين .

فبين يدي الآن رأي للأستاذ عبد الوهاب النجار يقرر فيه أن أبا العلاء « كان متين الدين قوي اليقين ، وأنه كان شديد الوطأة على مدعي التقوى المتظاهرين بالدين والتصوف » ، وأنه « لم يقصد بالدين هزؤا ولا سخرية ، وإنما هو شيء جر إليه الخيال الشعري وأملاه حب الاغراب في التصوير » . ومن الواضح أن رحمة الله واسعة وأن أبا العلاء في غير حاجة إلى هذا الدفاع قدر حاجتنا نحن إلى فهم محنة ذلك الرجل ومشاركته إياها لنثري ونفيد ، وكذلك الأمر في رأي ذلك المفكر الروحي الجاد العميق الأستاذ فريد وجدي ، فهو يصدر فيه عن فكرة سابقة من حقيقة الايمان يحاول أن يطبقها على أبي العلاء ، دون أن يبصرنا عن كيفية استمرائه لها من أدبه ، فهو كالكاتب يريد أن يصب فيه إيمان أبي العلاء أراد أبو العلاء أو لم يرد ، وذلك حيث يقول « إذا كان التدين هو الخضوع لصورة ذهنية تحمل صفات علوية منتزعة من الصفات البشرية والتأمل في الرذائل خوفاً من عقاب ، والتحلي بالفضائل طمعاً في ثواب ، والتقليد في العبادات والمعاملات ، وإهمال أحكام العقل والنظر ، والجمود على حالة نفسية لا تتغير ، والاستعصاء على ناموس الترقي . فإذا كان التدين هو تقمص هذه الروح فإن أبا العلاء لم يكن متديناً . ولكن إذا كان التدين — على ما نفهمه اليوم من معنى الاسلام — هو محو كل صورة ذهنية ، وتعريض صفحتي العقل والقلب للوجود المطلق رجاء أن ترتسم عليها الحقيقة تحميها الشكوك من عبث الخيالات ، والثورة على كل تقليد يناهضه بداهة العقل وعلى كل نظام لا يوافق سنن الطبيعة واستشعار الروعة من المجهول الضخم الذي يحيط بنا من كل مكان ، والترفع عن الدنيا لأنها لا تتفق وكرامة الانسان ، وإمالة الحاجات البدنية إلى أدنى حدودها . فإذا كان التدين هو هذا ، فإن أبا العلاء كان من أحفل الناس تديناً » .

وهذا كلام جميل ، ولكنه لا يتفق مع روح الاسلام ولا مع روح أي دين آخر ، لأن الدين جزم وشعائر وطقوس — كما هو حالة نفسية ومبادئ أخلاقية ، كما لا يتفق في شيء مع نفسية أبي العلاء ، وإنما هو فهم خاص للأستاذ وجدي يريد أن يلقيه على أبي العلاء .

والأمر أغرب في الخصومة التي نشبت بين الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد . والعقاد يبدأ فيؤكد — فيما يعلم — أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الآخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته في الأولمب والهاوية . وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تلك كلمات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب ، والتي كثيراً ما تدهشنا لجرأتها . ففكرة الرحلة إلى العالم الآخر

قديمة قدم الانسانية ، عرفها اليونان قبل لوسيان ، وعرفها العرب قبل أبي العلاء . والشكل يظهر ما في أساطير اليونان من وصف لنزول أورفيوس إلى العالم الآخر ليسترد منه زوجه أوريديس ، والشكل يظهر وصف هوميروس رحلة أوليس ، ووصف فرجيلوس شاعر الانيادة لرحلة أنيوس بذلك العالم ، كما نظم عنها أشعار الصوفية في أحلام يقظتهم وتوهمهم ، ومن تلك الرحلات الرائع الجميل ، كوصف الحارث بن أسد المحاسبي في « التوهم » الذي نشره المستشرق الدكتور آربري وصدره الأستاذ أحمد بك أمين . وفي عصر مقارب لعصر أبي العلاء كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع المنشورة بكتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » (ج ١ ص ٢١٠) ، وهي شديدة الشبه برسالة الغفران . ومع ذلك يؤكد العقاد أن فكرة رسالة الغفران لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان (٢) . وهو يخلص من ذلك إلى الحكم على الرسالة بأنها « نمط وحدها في آدابنا العربية ، وأسلوب شائق ، وفن طريف ، وفكرة لبقة ، ومشكلة جامعة لأشتات من نكت النحو واللغة . وأما أن ينظر إليها كأنها نفحة من نفحات الوحي الشعري على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التي يفتن في تمثيلها الشعراء والقصص التي يخترعونها اختراعاً أو ينظر إليها كأنها محل من محال توليد الصور وإلباس المعاني المجردة لباس الحركات المحسوسة ، فليس ذلك حقاً » . وهذا كلام غريب يستند إلى مسلمات لا نعلم من سلم بها ، وما نحسب أن الأرض قد أعيت كتابنا يخترعون القصص اختراعاً ، كما لا نظن أن أبا العلاء لم يصور مواقف وأوضاعاً حسية عديدة بالرسالة تحمل ما يحمله من سخرية . ورد الدكتور طه يحاول العقاد في قدرة الخيال أهي خالقة مقيدة ، وما كان أغنانا عن هذه الخصومة بأن نتناول النص نبين ما فيه وما ليس فيه دون الرجوع إلى « فلسفة علم النفس » .

وكذلك الأمر في مشكلتي « تشاؤم أبي العلاء » و « سخرية أبي العلاء » .

في « مطالعات » الأستاذ العقاد عدة مقالات عن المعري . ولكن موضع الداء هو دائماً ما ذكرت من إلمام كتابنا لآراء كونوها من مطالعاتهم في الكتب الأوربية عن أدبنا إلماماً ، بدلاً من الخضوع لتلك الأدب والصبر على فهمه واستخلاص ما به في تواضع وإخلاص . فالعقاد يبدأ بتقرير تشاؤم أبي العلاء (ص ٧٠ وما بعدها) مع أن هذا التشاؤم هو ما نريد أن نعلم لونه ونتائجه . ونحن نعلم أن التشاؤم مصدره اتساع الشقة بين الأمل والواقع أو بين قدرتنا وبين ما نبغي . ولكنا نعلم أيضاً أن نتائجه تتفاوت في النفوس ، فهي عند رجل كأبي العلاء قد تبلغ حد اليأس ، واليأس قد يريح بعض النفوس ، كما قد يحطم أخرى ، واليأس قد ينصرف إلى نوع من السخرية أشبه ما يكون بمحاسبة العقل . وهذا نفس الاتجاه الصحيح نحو فهم نفسية أبي العلاء ككل ، وهو ما كنا نبغيه من نقادنا ، ولكنهم لم يفعلوا مكتفين بعموميات لا غناء فيها .

وكذلك أمر السخرية ، فقد تحدث عنها العقاد ، كما ذكر الدكتور طه بك أنه كان أول من لفت الأنظار إليها في رسالة الغفران ، ولكنا لا نخرج من حديثهما بفهم واضح لتلك السخرية أو تمييز لها مما يشابهها من اتجاهات النفس ، وعلة ذلك فيما أحسب هي فقرنا إلى الفارقات الدقيقة . ولنوضح قليلاً ما قصد إليه في التشاؤم وفي السخرية .

فالتشاؤم قد يكون تشاؤماً عقلياً وليداً لنظرة فلسفية للوجود وما فيه من قوانين كتشاؤم شوبنهور ، وهذا لا يعنينا لأننا لسنا من الطموح بحيث قد يدفعنا العقل إلى الحكم على العالم بأنه خير العوالم الممكنة كما يقول ليبنتز أو أسوأها كما يقول شوبنهور . ولنترك ذلك للفلاسفة يحبون العالم كما يريدون . وإنما يعنينا تشاؤم الأدباء ، وتلك صفتهم الغالبة حتى كتاب الكوميديا منهم ، وإن تفاوتت ألوان ذلك التشاؤم : فشعراء الرمانتيكية كلهم متشائمون لما في حسهم من إرهاف وبالغ في الشعور يولع عن الحياة ويجز الإرادة البشرية عن كبح جماح الأمل . ولقد يولد أحدهم من أصل شريف ، ثم تأتي أحداث الحياة فتحطم من فؤاده وتذهب بأمنه ، وما كان يبقى من مجد كما فعلت الثورة الفرنسية بشاتوبريان فاذا به حزين « بمتاعب الحياة » بدلاً من أن يحياها ، وهذا النوع من الأدباء أقرب إلى الحزن منه إلى التشاؤم .

ومن الشعراء أمثال الشاعر الايطالي « ليوباردي » من تقعد به آفات الجسد عن المشاركة في الحياة لا يريد فاذا به يصيح : « إنه ليس إلا عدماً تقرأ بحس ويتألم » . ومنهم أمثال أبي العلاء ممن نزلت بهم محنة لا فرار منها ، فأصابهم ما يشبه اليأس من الحياة فتبرموا بها في ضرب من الاستهتار العقلي الذي يأخذ بكل فكرة وكل عقيدة وكل عاطفة ، لأن اليأس لا يستطيع غير ذلك . ومنهم من استهتر محللاً ما ليس والحس الانتاشي غير عياه ، ولا نخف كبطار ، وكان هذا أيضاً مظهراً ليأسه . والأمر بعد سيان . فاستهتار العقل واستهتار العمل مردهما واحد ونحن بعد لا نخرج إلى أي حد نسمي هذا تشاؤماً وهو أقرب ما يكون إلى الثورة .

هناك إذاً حزن وهناك ألم وهناك يأس ، وهناك ثورة ، ولكل هذه مظاهرها ، وهي تختلف عن التشاؤم الذي هو توقع دائم لأسوأ الفروض ، وتغليب لجانب الشر في الأشياء والناس على جانب الخير منها ، وفي تفكير أبي العلاء شيء من هذا ولكنه ليس صفته الغالبة التي نراها في يأسه العقلي الذي يرى إشكال كل رأي ولا يكاد يجزم في شيء برأي وفي يأسه الخلقي الذي لم يعرف يقيناً غير اليقين بأنه الحتفه التي لا ذنب له فيها .

والسخرية كذلك ألوان نفسية لا معاد لها ، فلا أقل من أن نميز بين ما نستطيع التمييز بينه منها ؛ فهناك « روح العبث » المعروفة لانجليز الخيوص Humour ، وهي غير التهكم sarcasme وغير السخرية بمعناها الدقيق ironie وغير الضحك le comique فلكل منها مصدره النفسي ولكل منها دوره في حياتنا الروحية .

ولجورج ريماسل في كتابه « دفاع عن الآداب » عدة أسطر عميقة يتحدث فيها عن « روح العبث » ، ويميز بينها وبين ما ليس منها إذ يقول : « إن روح العبث تختلف عن روح الاضحاك ، فالاضحاك يرمي إلى إثارة الضحك بأسلوب خاص ولغة خاصة ، بحيث

يصحب أن يتصل في التراجيديا مثلاً ، وهو غير الفرح الخالص الذي هو حالة نفسية عارضة يطول أو يقصر دوامها . وليست لها قدرة على الكشف عن حقائق النفس . وعنده « أن روح العبث نوع من التعبير في الضياء يمكننا من أن نرى الشيء في كافة مظاهره ، ولقد يكون بين بعض تلك المظاهر تناقض يجعله تكتسب تلك المظاهر دلالتها ؛ وفي روح العبث نوع من الحزم والتحفظ وتلك النفس لا يرضيه القول الصريح » . ثم إن « روح العبث استعداد طبيعي في نفس صادقة لا تصدف من أن تعرف كل ما ترى وأن تقول كل ما تعرف » . أي أنه — على حد قول وبجامل — حيلة نفسية تخلعها العبارة عن كل ما نريد أن نعبر عنه في حذر وتحفظ ، وتلك صفة من صفات أبي العلاء البارزة .

وأما السخرية والتهكم فالفرق بينهما مرده إلى طبائع النفوس ، فمن الناس من يسخر من آلامه ليهون حملها عليه ، فهي حالة نفسية عادية أميل إلى الطبع القلق منها إلى طبع الشعراء ، وأما التهكم فيصدر من النفوس الخبيثة التي لا ترحم حمق الغير أو جهله فتتهكم منه ، فالسخرية أغلب ما تكون من النفس وإليها وإن امتدت إلى الغير في رفق ، بينما التهكم سلاح قوي ضد الآخرين .

وكل هذه طرق ملتفة للعبارة عن مكنون نفوسنا ، التي لا نريد العبارة عنه عبارة مباشرة . فمن الكتاب أمثال موليير من يضحك من الناس ليقوم من اعوجاجهم ، ومنهم أمثال شارل شابلن من يضحكنا لنثير شجوننا ورفقنا بضعفاء الناس ، ثم ثورتنا على الظالمين منهم ، وهناك من أمثال فيجارو الذي يضحك اتقاء لنفسه وخوفاً من أن يبكي من نحسه ، ومنهم من يضحك لمجرد اجتماع صور الظواهر لا يعرف لها علاجاً ومن هذا النوع ضحك رابليه Rabelais .

ومن الواضح أن ما نسميه سخرية أبي العلاء ليست شيئاً من كل هذا ، وإنما هو عبث Humour عبث يأس ، عبث رجل استوى عنده كل شيء ، لأنه لا يؤمن بغير ألمه ، بل ولا يستطيع بطبعه أن يعبر عن هذا الألم إلا في حذر وحياء .

وهكذا يتضح أمامنا الآن بعض الوضوح ، أن ما في نفسية أبي العلاء مما يسميه غالبنا تشاؤماً وسخرية ونسميه ثورة وعبثاً مردها إلى ما ابتلي به من محنة تركت خلافات مزاجاً خاصاً أنتج ما بين أيدينا من أدبه ، ولنصور تلك النفسية كما نفهمها :

يخيل إلى أن مفتاح فهمنا لنفسية أبي العلاء ليس في شعره ولا في « الفصول والغايات » ، وإنما هو في رسالته لداعي الدعاة ؛ حيث يناقش مشكلة الجبر والقدر ، وإرادة الله لهذا الشر أو عدم إرادته ، ومن الواضح أنه لم يحرك هذه المشكلة في نفسه غير محنة عماه ، ولقد عنت مشكلة الشر ومصدره ، وإمكان الإفلات منه أو عدم الإمكان أبا العلاء طول حياته ، ولقد انتهى به الأمر إلى اليأس من الفهم ولهذا غلب عليه التفكير الأخلاقي أكثر من التفكير العقلي . ولقد انتهى إلى الشك في كل شيء والاعتقاد بإمكان كل شيء ، فلبثنا يأسه من كل شيء ، وثقته من عدم إمكان أي شيء عملياً ، والفرق هنا بينه وبين ديكارت الذي قارناه به لنستعين على فهم نفسيته أن شك ديكارت لم يصدر عن علاجه لمشكلة الجبر والقدر ، بل عن فطنته لخداع حواسنا التي هي أبواب معارفنا .

ثم إن ديكارت انتهى به الأمر على خلاف أبي العلاء إلى اليقين ، وذلك لأنه استطاع أن يتغلب على ما واجهه من إشكال ؛ إذ فطن إلى أنه إذا كانت معارفنا تأتينا كلها من طريق حواسنا الخداعة ، فهناك عقلنا الذي يتلقى تلك المعارف والذي هو سابق لها ، ومن ثم قال كلمته الشهيرة : « أنا أفكر فإذاً أنا موجود » . وكان لإيمانه بهذه الحقيقة — حقيقة التفكير — فضل الاهتداء إلى اليقين إذ اتخذها أساساً لكل فلسفته . وأما أبو العلاء فلم يستطع أن يدرك لمحنته حكمة . لم لم يخلق أو يترك بصيراً كغيره ؟ ثم من أراد به هذا الشر ؟ أهو الله الذي هو سبحانه خير مطلق ؟ ثم أما لهذه المحنة من نهاية ؟

ظلامي قال بعض الأماني   فمت والظلام ليس بفاني

فلا غرابة أن تساور أبا العلاء الشكوك في كل شيء ، حتى في الله والأديان ، بل وفي ذلك العقل نفسه الذي عجز عن أن يحل مشكلة الشر فيحمل إلى نفسه الرضى بما نزل به ، وعنده أن العقل أداة عدم لا يقين :

إذا رجع الحصيف إلى حجاه   تهاون بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب   ولا يغمسك جهل في صراها
وهت أديانهم من كل وجه   فهل عقل يشد به عراها

ثم قوله :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا   دين وآخر دين لا عقل له

وإذا كان أبو العلاء قد ركن إلى يقين في حياته ، فهو لا ريب لم يكن يقين عقل بل يقين حس .

وقال أناس ما لأمر حقيقة   فهل أيقنوا أن لا شقاء ولا نعمى
وشكك في الإيجاب والنفي معشر   حيارى جرت خيل الضلال بهم سحما
فنحن وهم في مزعم وتشاجر   ويعلم رب الناس أكذبنا زعما

إيمانه إذاً إيمان بالشقاء ، والنعمى شقاؤه هو ونعمى الغير ، وذلك لا ريب إيمان سلبي خليق بأن يحطم النفس لا أن يقودها إلى اليقين ، ومتى ولد الألم الإيمان ؟ والألم سخط وحيرة وتبلبل وضجر ، بينما الإيمان اطمئنان وسكون ورضى وأمان ، حتى لكأنا نحس بين الأمرين تناقضاً تاماً .

وهكذا شك ديكارت لخداع حواسه ، فخرج من الشك إيماناً بوجود العقل وجوداً سابقاً على معطيات الحواس ، وشك أبو العلاء لمحنته ، وطول تبرمه بمرها لم يهده إلى شيء ، ولهذا لم يؤمن بغير الألم ، والألم لا يقود إلى يقين .

ولما كانت الحياة لا تحتمل الشك ولا تنتظر اليقين ، فقد اتخذ ديكارت لنفسه قواعد أخلاقية سماها مؤقتة ، وأما أبو العلاء وقد يئس من كل يقين ، فقد اتخذ له في الحياة سبيلاً نهائياً ، باعتزال الحياة والناس رهين محبسيه أو محابسه الثلاثة .

وبذلك أسدل ستار على أبي العلاء في حياته العملية ، ولكن بقيت حياته الروحية تعمل ما لم يستطع تحقيقه عملاً من معالجة الحياة والضرب فيها ، واتخذ نشاطه العقلي ذلك اللون من العبث الذي جاءت رسالة الغفران أحد مظاهره ، كما سنرى في المقال التالي .

محمد مندور

الصحافة والأدب في أسبوع :

"... هذا رأيي وعلى تبعته وحدي . فمن سره فهو لي صديق ، ومن ساءه فليس أحب إلى من أن يجلو لي رأيه ويعرض برهانه ، لتصحيح رأي ، أو تعديل فكرة ، أو تحقيق خبر . وإن من الفضيلة ألا تثبت على الرأي إلا بمقدار ما تؤمن به ... "
(قاف)

دبلوماسي !

هل قرأتَ « رسالة الحج » للقاضي الدبلوماسي ، الأستاذ حافظ عامر بك قنصل مصر السابق في جدّة ؟ .

إن كنتَ قرأتها فقد كفيتني مئونة التعريف ، وإلا فهاك البيان والخبر :

أما « رسالة الحج » فكتيِّب لطيف الحجم ، جليل الموضوع ، أخرجته المطبعة العربية منذ سنتين ، وليس عليه من اسم مؤلفه إلا كلمة « دبلوماسي » ؛ فاستقبله الأدباء وأهل الرأي استقبالاً حميداً ، وأكبروا موضوعه وواضعه ، وقدروا جلال موضوعه وجمال معرضه وبيانه .

واستوثق صاحبه من رأي الخاصة والعامة فيه ؛ فأخرجه في طبعته الثانية منذ قريب ، وعليه اسمه « حافظ عامر » . وأضاف إليه ما أضاف من تقاريظ كرام الأدباء، وثناء أهل الرأي والنظر . . .

هذه هي « رسالة الحج » . وأما كاتبها فهو الأستاذ حافظ عامر المحامي والقاضي والسياسي « الدبلوماسي » . وحسبك بها من ألقاب !

ثم ماذا ؟ . . . ثم لا شيء إلا ما كتبه الأديب « حسين نصيف : جدة » في العدد ٤٦٠ من الرسالة ، وإن فيه لمجالا للعجب والدهشة والتأمل . . .

يقول : إن « رسالة الحج » ليست للأستاذ حافظ عامر وليس له أن يدعيها ، لا بحق التأليف ، ولا بحق الترجمة ، ولا بحق البيان ؛ أما مؤلفها فهو السيد عبد الله الدهلوي المكي ، وقد نشرها منذ سنين باللغة الأردية باسم « أسرار حج » ، وهي قائمة مشهورة ؛ وأما مترجمها إلى العربية فهو تلميذ من تلاميذ المؤلف بتكليفه ورأيه وشهادة جلسائه ؛ وأما حائك بردتها وصاحب بيانها فهو المرحوم مصطفى صادق الرافعي كما يزعم راويته وصاحب خبره في كتاب « حياة الرافعي » .

قلت : فاذا صحّ هذا الذي يزعمه الأديب « حسين نصيف » فماذا بقي من « رسالة الحج » للأستاذ حافظ عامر ؟..

ولكني لا أميل كثيراً إلى تصديق ما يزعمه الأديب الجُدّي ، وأراه تهويلاً من التهويل على كبير من رجالنا « الدبلوماسيين » له خطر وجلال ؛ فهل عند الأستاذ حافظ عامر بك ما يدفع به ورودَ أسباب الشك ؟ وهل علك الأديب حسين نصيف أن يبعث إلينا بالنسخة الأردية من رسالة الحج ، أو أسرار حج — كما يسميها — لنقرأ ونوازن ونحكم ؟

أهل الفن :

يحلو لكثير من القراء أن يتتبعوا ما بين النظراء من أهل الفن والأدب من أسباب وعلل ، ليثيروا بينهم ألواناً من الخصام والجدل والمناقشة يجدون فيها متاعاً ولذة ؛ ولست أعرف مأتى ذلك ، ولكني أحسُّه في نفسي أحياناً ؛ فكم سوَّل لي الشيطان أن ألتمس مَدخلا بين اثنين من الأدباء لأشهد معركة من معارك الفن والأدب ؛ وإنه ليخيل إليَّ أحياناً أن هذه المعارك مظهر من مظاهر النشاط ويقظة من يقظات الفكر ، وإن كانت عند طائفة من أهل الأدب لوناً من ألوان العداوة والبغضاء ينبغي أن يتنزه عنها الأدباء وأهل الفن .

وقد خُيِّل إلى الأستاذ توفيق الحكيم في بعض « شطحاته الصوفية » أن من واجبه أن يقوم بعمل ما لإصلاح ذات البين وتوثيق رابطة المحبة والسلام بين المشهورين من أدبائنا ، فكتب كلمة ... وردَّ العقاد . . .

واستحالات الابتسامة تكشيرة ، وبحرت بوادر المعركة ... في سبيل السلام !

ما أحبَّ إليَّ أن تحتدم المعركة ويشتدّ أوارها ؛ فتفتح الأغلاق ، وتفض الأقفال ، وتُنثر الأعلاق المخبوءة من بنات الأفكار وبنيها ؛ ولكنّ الأدب ، وفي سبيل الأدب ، بعيدة من « أنا وأنت » ، وشخصي وشخصك ، وحقي وحقك ؛ ليكون فيها للقارئ المتاع واللذة ، وللأدب الكسب والفائدة !

أم كلثوم وعبد الوهاب :

وثمة معركة أخرى حاولت أن تُشبها « آخر ساعة » ؛ فطلبت إلى الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يتحدث إليها من الآنسة أم كلثوم . . . . وكتب عبد الوهاب :

« . . . لا يصح ولا يعقل أن يكون بيننا حساب للتصفية ، بل لا يجب أصلا أن تكون بيننا منافسة . . »

« ذلك لأني والآنسة أم كلثوم يكمّل كلٌّ منا الآخر ؛ فاسمي واسمها ، وجنسي وجنسها ، وفني وفنها ، وصوتي وصوتها — يؤديان معاً وبالتضامن والاشتراك رسالة موسيقية ! » .

هذا طرف من حديث محمد عبد الوهاب من أم كلثوم ، وإنه لنموذج من أدب الحديث وأدب الفن يدعو إلى الاعتبار .

تُرى ماذا كانت تقول أم كلثوم لو أجاب عبد الوهاب من سؤال « آخر ساعة » بغير هذا الأسلوب الرشيق ؟

وددتُ لو كان الحديث غير ما قرأتُ ولو أغضب توفيق الحكيم وأمّ كلثوم ؛ إذاً لاستمتعتُ في الغناء بلحن جديد لن يتاح لي أن أستمتع بمثله حتى تثور المعركة من جديد بين عبد الوهاب وأم كلثوم !

وفاء . . . !

في استفتاء وجّهه المصوِّر إلى قرائه : « صديقٌ علم أن زوجة صديقه تخونه : أيخبره بخيانتها أم يسكت ؟ » .

وانثالت أجوبة القراء على المصوِّر ، وأجاب طالب في الجامعة :

« أعتقد أن هذه الزوجة لا تخون زوجها إلا بدافع حب قديم كامن ، وبذلك تسكت أنت ؛ لأنه إذا كان ثمة خيانة ، فهناك أيضاً وفاء ! »

أرأيت ؟ طالب يمدّ نفسه لحل تبعات الزوجية في غد ، يسمّي خيانة الزوجة وفاءً ، لأنها بدافع حب قديم كامن ! أين الحب من الخيانة ؟ ولماذا رضيت أن ترتبط إلى رجل برباط الزواج وفي نيتها أن تخونه ؟ . . . على أيّ وجه يفهم هؤلاء الشباب المتبطلون معاني الحب والزواج ، وحدود الوفاء والتضحية ، وتبعات الإثم والخطيئة ؟

وهذا الشباب الغر ، بأيّ ميزان يزن رأيه ؟ . . . أتراه يحكم حكمه في حالة بخصوصها ، أم هو يُلقي حكمه عامًّا شاملاً كالشَّرَك في طريق الصيد ، ليقول لكل امرأة تعترض سبيله — أو يعترض سبيلها — : « إليّ يا حبيبتي ولا تخشي معابة ، فإن لنا ماضياً عريقاً في الإثم والخطيئة ! »

ليتني أعرف ذلك الغلام فأهمس في أذنه بالكلمة التي لا أستطيع أن أقولها هنا ، فيحمر وجهه خجلا ! .

الغازلات التي لا أنساها !

ويسأل سائل : مِن أين لفتياننا وفتياتنا هذه الخواطر الخبيثة تتسلل إلى عقولهم وقلوبهم ، فتجعلهم شيئاً غير أبناء آبائهم ؟

وأجيبه بمقال طويل في العدد ٤١١ من مجلة الاثنين عنوانه « الغازلات التي لا أنساها » ، تتحدث فيه طائفة من هواة هوليود من ذكرياتهن ، وإنها لذكريات . . .

ماذا أقول ؟ . . . لقد أحسست وأنا أقرأ ذلك المقال كأنما عدتُ القهقرى بضع عشرة سنة من عمري ، ودبّ نشاط « ابن العشرين » في دمي وفي أعصابي ، وتمثلتْ لي أمانيه وأحلامه ، وتجسّدت أمام عيني

صور من الأوهام . . . !

ويحى ! لقد كدتُ أصبأ بعد مشيب !

معذرة لكَ أيها الفتى ، ومعذرة لكِ أيتها الفتاة ؛ ولكن لا عذر لأبيك وأخيك ، ولا عذر للدولة التي تسمح بأن تكون مثل هذه الصحائف تحت عينيك وعيني أخيك الفارغ المتبطل !

ثروة !

قرأت في « الصباح » :

« عرفت رجلاً من إخواننا أبناء الملة الثالثة ، يعيش بطريقة شريفة ، وفذة ، وسهلة ! فهو يذهب إلى محل بائع السجاير أو الحلوى في نقطة كثيرة المرور ، فيتفق مع صاحبه أن يركب له آلة تليفونية باسمه — أى باسم صاحب المحل — ويدفع الأول اشتراكها السنوى ، ويضع عليها غطاءً لجمع قروش من يستعملون التليفون من المارة ، ويعطى صاحب المحل في مقابل ذلك خمسة عشر قرشاً شهرياً ! وقال لى الرجل إن له عشرين آلة في محال مختلفة ، ودخله اليومى من كل منها خمسون قرشاً في المتوسط ، أى أنه يربح يومياً من هذه العملية السهلة عشرة جنيهات وهو جالس على مقعده ! »

قلت : ومعنى ذلك أن صافى إيراده السنوى يقرب من ٣٥٠٠ جنيه ، على حين لا يزيد رأس ماله على ٢٠٠ جنيه ! فهل فكر كثير من شبابنا المتعطلين في استغلال مثل هذا العمل الهيِّن ؟ وهل امتدَّت أحلام أحدهم يوماً إلى تحقيق مثل هذه الأمنية ؟ . . .

. . . ولكن لشبابنا المتعطلين عمـا يشغلهم عن مثل ذلك أشياء وأشياء !

قاف

من هنا وهناك

الضـــــــوء والحرب

من المضايقات الشديدة التي يصادفها قائد سيارة في الظلام ، تلك التي تحدث عندما يتقابل مع سيارة أخرى قذفت بأشد أضوائها في عرض الطريق . فبينما كل شيء حوله في حلكة دامسة ، إذ هو يرى فجأة ضوءاً حاداً ينبع من مصباحين قويين في اتجاه معاكس لاتجاه سيره ، فيُبهر نظره وتُغشى عينه ويختل توازنه ؛ فيضطر عندئذ إلى التمهل في سرعته ، وربما إلى الكف من السير بتاتاً لتفادي الاصطدام والاحتفاظ بتوازنه الحسي .

وعندما تمر السيارة ، يسخط السائق على أولئك الذين لا يراعون شعور الغير ، ويستهترون بنظم ولوائح قيادة السيارات ، ثم يسائل نفسه في آخر الأمر : « ألا من حل يمنع من النظر ذلك التأثير الخطير ؟ » .

ولكن هناك من سبقه فصاغ هذا السؤال بطريقة أخرى وَوَضع معاكس : « أيمكن استخدام هذا التأثير في إثارة شعور الغير ومضايقته في أداء مهمته ؟ » انقلب الوضع وترك البحث من الناحية السلمية ، وقوى وترعرع من الناحية الأخرى ، واستخدم كغيره كضرب من الشر لاستعماله في الحروب .

يُبهر النظر على بعد مائة متر من تأثير مصباحين قوتهما معاً مائة شمعة ؛ فما بالك بهذا التأثير إذا ضوعفت هذه القوة إلى مئات بل آلاف من المرات ، لا سيما إذا تركزت أشعة الضوء وخرجت من مركز واحد ؟

استُخدم الضوء ليلاً كوسيلة لمحاربة الطائرات ، وطرد الغير من الأعداء ، فاخترعت لذلك « المصابيح الكشافة » كنبع له .

وقد أجمع الطيارون الذين يغيرون على المدن ، والذين حوصروا بالأنوار الكاشفة على أن السبب الأكبر في عدم إصابة الأهداف العسكرية ، كان منشؤه تلك الأنوار . وهذا مقر وجيه حفز الهيئات المسئولة على أن تكثر من عدد المصابيح ، وتنظم من شأنها ، فوزعتها في أمكنة متقاربة ، ووضعتها تحت أيدي رجال مدربين أحسن تدريب .

ويخطئ الكثيرون في اعتقادهم أن فائدة الأنوار الكاشفة محصورة في شيء واحد ، ألا وهو اكتشاف الطائرات المغيرة لتسليط المدافع المضادة عليها ، وضربها بقذائفها ؛ وهذا زعم باطل يبعد كل البعد عن السبب الأساسي الذي من أجله اخترعت المصابيح .

أما القصد الوحيد الذي جعل المخترع يفكر في اختراعه ، والذي جعل الأمم من بعده يفكرون في اقتناء أكبر عدد منها ، فهو تضليل الطيار بأن يسلط عليه ذلك الضوء القوي الذي يعمي بصره ويبهر نظره فلا يستطيع التمييز بين صحراء جرداء ومدينة عامرة ، فيلجأ إلى أحد أمرين لا ثالث لهما : إما محاولة الافلات من تلك الأشعة الجهنمية ، وإما إلقاء القنابل التي يحملها حيثما اتفق .

ويجدر بنا أن نذكر في هذا المقام ، أنه من الأمور العسيرة جداً أن تصاد الطائرة بواسطة مدفع من المدافع المضادة للطائرات ؛ فقبل إطلاق القذيفة يجب معرفة ارتفاع الطائرة وسرعتها واتجاهها ثم يضبط المدفع ، ويشحن إلى آخر تلك العمليات التي تستغرق زمناً لا يستهان به يكفي لابتعاد الطائرة من موضع انفجار القذيفة . ولا شك أن المصابيح الكاشفة تساعد كثيراً على إتمام بعض هذه العمليات ، ولكن نتائجها ليست ملموسة كما في الحالة الأولى ، وهي التأثير على نظر الطيار وتضليله بذلك عن موضع الهدف . ويمكننا على هذا الأساس أن نقول إنه سواء صيدت الطائرة بين شبكات الأنوار الكاشفة أم لم تصد ، فلن يكون هناك فائدة كبيرة ترجى من إطلاق المدافع عليها إلا إذا

اقتربت من حصار الأهداف العسكرية وحاولت اختراقه ، فالستار الذى تصنعه تلك المدافع غالباً ما يصيب الطائرة ويسقطها .

تتكلف الدولة فى شراء المصابيح أو صنعها تكاليف باهظة وأموالا طائلة إذا ما أرادت حفظ منشآتها على صورة مرضية . فمدينة كالقاهرة يجب أن تحصر بعدد من الكشافات لا يقل عن مائتين كيما تقع الطائرات المغيرة فى حبائل أضوائها ، ولا تفلت من بينها لحظة مهما صغرت . فإذا ما حاولت إحداها أن تغوص أو ترتفع لتفادى تلك الأشعة وقعت بين براثن أخرى ، وهكذا حتى إذا ما يئست رجعت إلى بلادها خائبة .

كان لا بد حينئذ من وجود حل مرضى للتغلب على مفعول هذه الأنوار إذا أريد معرفة مواقع الأهداف بالضبط وإلقاء القنابل عليها . وكان الحل البديهى هو مهاجمة مواقع المصابيح ، فينقسم السرب المغير إلى قسمين : أحدهما يحوم حول تلك المواقع صابا نيران قذائفه عليها ليقتل رجالها ويتلف شبكة الأسلاك الكهربائية والتليفونية ، والآخر يتجه رأسا نحو الأهداف المراد نسفها ، فيتعاون بذلك قسما السرب على أداء واجبهما . ولكن كانت نقط المصابيح محصنة تحصينا شديداً تكثر بها المخابئ والاعارات المختلفة ، ففشل المشروع ولم ينتج ثمرته المرجوة . وأخيراً — وفى هذه الحرب فقط — وجدت الطريقة المنشودة . فقبل الشروع فى إغارة ليلية ترسل فى وضح النهار طائرات استكشافية تحلق فوق أرجاء المدينة وتأخذ صوراً فوتوغرافية للضواحى التى يحتمل أن تكون فيها النقط العسكرية المختلفة . وبعد تحميض وتكبير تلك الصور تعين الأهداف على خريطة وتؤخذ مساحاتها وأبعادها من موضع الهجوم . وما على الطيار فى هذه الحالة إلا أن يسلك الطريق الذى رسمه له رؤساؤه ويقذف بقنابله عندما يبين العداد المسافات التى حسبت بكل دقة على الخريطة . وكثيراً ما تكون الطريقة ناجحة منتجة ، وكثيراً أيضا ما تفشل لأسباب تتعلق بظواهر خارجية لم تكن منظورة (كهبوب رياح مفاجئة فى بقع مختلفة تسبب انحراف الطائرة وتقلل من سرعتها ، أو خلل غير متوقع فى بعض أجزاء العدادات) الخ .

على أن استخدام الضوء فى الحروب لم يقتصر فقط على الدفاع عن المدن ، بل تعداه إلى مساعدة الجيوش على الهجوم فى ميادين القتال .

ويقال إن بعض خطوط القتال فى الحرب الحاضرة مجهزة بمصابيح كشافة مسلطة على الدوام شطر العدو . وتلك المصابيح فضلا عن أنها تكشف بعض المواقع فى الميدان المقابل فإنها تستر على حركات الجيوش من ورائها فتنقل المدافع وتحفر الخنادق وتتحرك القوات خلف تلك المصابيح ، إلى آخر تلك العمليات الحربية ، فلا يستطيع أن يميز العدو منها شيئا .

ومهما قيل فى تعدد منافع الأنوار الكشافة ومهما عظم من شأنها وجلل من قدرها فإن استعمالاتها تعد محدودة لسبب ظاهر ألا وهو الاقتصار على استخدامها أثناء الليل فقط .

محمد أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٣٠ قرشاً فى مصر والسودان

٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام

٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين – القاهرة – التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٧ الثلاثاء ٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٦١ — ١٩ من مايو سنة ١٩٤٢ السنة الرابعة

فهرس العدد

نحو الوحدة العربية :

أنواع الدول

الدكتور يوسف هيكل

تنقسم الدول إلى مستقلة وغير مستقلة . وبحثنا يتعلق بالمستقل منها ، وهي المالكة لسيادتها "Souveraineté" . وينظر إلى هذه السيادة من ناحيتين : السيادة الداخلية "La souveraineté interieure" أو الهيمنة والاستقلال في أمر جميع أفراد الأمة ، والسيادة الخارجية "La souveraineté exterieure" أو الحق في تمثيل الأمة تجاه الأمم الأخرى وتنفيذ علاقاتها معها .

أما من حيث الشكل ، وتركز السيادة وتوزيعها ، فتنقسم الدول إلى ثلاثة أنواع : دول موحدة "Etats unitaires" ، ودول اتحادية "Etats fédératifs" ، ودول تحالفية "Etats Confédératifs" .

ففي الدول الموحدة نرى السيادة واحدة غير مجزأة ولا موزعة . تهيمن الدولة بموجبها على جميع المواطنين ، وتنفذ علاقات الأمة مع جميع الأمم الأجنبية . وهذا النوع من الدول هو النوع الطبيعي والأكثر انتشاراً . ومثاله : فرنسا وانكلترا وإيطاليا الخ ، حيث الدولة في كل منها صاحبة السيادة التامة ، تمارسها في الداخل والخارج دون أن تنازعها دولة أخرى هذا الحق .

أما الدولة الاتحادية " Etat fédéral " فهي على عكس ذلك ، تتوزع السيادة فيها وتتجزأ ، مع المحافظة على الوحدة القومية . وهي تتألف من مجموعة من الدول الخاصة تحتفظ كل منها بقسم عظيم من سيادتها الداخلية ، ولكن تتنازل عن جميع سيادتها الخارجية إلى دولة الاتحاد . ففي الاتحاد دول خاصة تتمتع كل منها باستقلال داخلي

واسع ، لها حكوماتها ومجالسها التشريعية ونظام قضائها . ولـكن له دولة عامة مركزية هي دولة الاتحـاد . وهذه تتألف عادة من سلطة تنفيذية ، وسلطة تشريعية مؤلفة من مجلسين ، وسلطة قضائية . وتكون الدول الخـاصة جميعها ممثلة في المجلسين . وما يقرر في هذين المجلسين ينفذ على جميع الدول الخاصة ، وإن كان بعضها قد عارض القرار أو لم يوافق عليـه . ومجموع المواطنين في الدول الخاصة يؤلفون الأمة ، ويكون أفرادها مواطنين لدولة الاتحاد . ودستور الاتحاد يجرد الدول الخاصة من بعض الصلاحيات النـاشئة عن السيادة الداخلية ، ويجعلها من صلاحيات دولة الاتحاد . وبموجب ذلك تسن دولة الاتحاد قوانين عامة تكون نافذة في جميع دول الاتحاد الخاصة .

أما السيادة الخارجية فهي من صلاحية دولة الاتحاد ، وهذه لها وحدها صلاحية تمثل الأمة في علاقاتها مع الأمم الأجنبية . ويمكن القول بصورة عامة أن للاتحـاد علما واحـداً ، وجيشاً واحداً ، وأسطولا واحداً ، وسلـكا دبلوماسيا واحدا .

ولنظام الاتحاد مزايا عظيمة قد أدت إلى انتشاره ، وستجعل منه نظام الدول في المـستقبل . فهو من جهة يعطي الحرية الداخلية للدول الاتحادية ، فتحكم نفسها كما تريد ، ومن جهة أخرى يوحد قواها ، ويجعل منها دولة واحـدة أمام الدول الأجنبية ، قادرة على الظهور بمظهر الدولة الـكبيرة العظيمة ، وعلى نيل مكانة رفيعة بين الدول الـكبرى . ومن أمثلة هذا النوع من الدول الولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السويسري .

ثم إن بين الدول الموحدة — التي تكون السيادة القومية فيها واحدة غير مجزأة — وبين دول الاتحاد ، التي فيها السيادة مجزأة ، الداخلية منها موزعة بين دول الاتحاد ، والخارجية منها من اختصاص دولة الاتحاد ، نوعاً ثالثاً من الدول هو وسط بين هـذه وتلك ، وهو المعروف بالدولة التحالفية "Etat confédéral" . وهذه عبارة عن جمعية أو عصبة دائمة لدول مستقلة متعددة ، تحتفظ كل منها بسيادتها التامة ، ولـكن هذه الدول تتفق فيما بينها بموجب ميثاق الجمعية أو العصبة ، على توحيد قواها من أجل غاية معينة ، وعلى حماية بعض المصالح وبعض المبادىء ، وعلى أن يكون لها أنظمة وأعمال متماثلة ، عملا على تحقيق بعض الأهداف في الداخل والخارج .

ويمثل الحلف مجلس "Assemblée" مؤلف من ممثلين عن مختلف دول التحالف . ويكون هـذا المجلس بمثابة دولة قائمة فوق دولة أخرى . غير أنه ليس له أي سلطة على مواطني هذه الدول . ولا يستطيع محاكمهم ، ولا يحق له فرض الضرائب عليهم ، بل إنه لا يتمكن من سن قوانين يربطهم بها . وبعبارة أخرى : ليس لهذا المجلس سلطة تنفيذية ، ولا سـلطة قضائية ، حتى ولا سلطة تشريعية حقيقية ، لأن القرارات التي يتخذها لا تصبح نافذة في دول التحالف إلا إذا قررتها تلك الدول من جديد . وإن رفضت إحداها إقرار قرار مجلس التحالف ، فليس من وسيلة لإرغامها عليه غير التهديد بالحرب . وكذلك ليس لهذا المجلس ، أو هذه الدولة العليا ، سيادة في الشؤون الخارجية ، ولا مجـال لها في الميدان الدولي إلا في حالات محدودة . ويمكن القول إن مجلس التحالف شبيه بمؤتمر دبلوماسي ، بمعنى أن أعضاءه يمثلون دولا مستقلة ، ولذا ينبغي أن تجمع الآراء على الأمر لاتخاذ قرار بشأنه يكون نافذاً على الجميع . ومن أمثلة هـذا النوع من الدول التحالف الجرماني الذي كان قائماً قبل عام ١٨٦٦ . ومنهـا — إلى حد ما — « الممتلـكات المستقلة » "Dominions" .

* * *

بعد هذه الـكلمة الموجزة عن المبادئ العامة لأنواع الدول المستقلة ، نعرض باختصار التشكيلات الدستورية

الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السويسرى ، والتحالف الجرمانى ، ونظام المتشكلات المستقلة .

— من الأمثلة الناطقة على نجاح نظام الاتحاد نجده فى الولايات المتحدة الأمريكية . إن هذه الولايات لم تتخذ الاتحاد شكلا لدولتها منذ استقلالها ، بل فضلت عليه — فى بادئ الأمر — نظام « التحالف » . فقد كانت الولايات الثلاث عشرة ، التى استقلت عن بريطانيا ، تريد أن تكون مستقلة الواحدة عن الأخرى ، إلا حين تقرير العمل معاً . وقد كاد هذا الاستقلال يؤدى بالجمهورية الأمريكية الحديثة إلى الدمار ، لولا أنها انتبهت إلى حكمة المثل القائل : « الاتحاد يولد القوة » فعملت به . ففى عام ١٨٨٧ وضع الدستور الذى قام بتوجيه نظام الاتحاد الخالص . فتنازل كل من الولايات ، وعددها الآن ٤٨ ولاية ، عن جميع سيادتها الخارجية ، إلى دولة الاتحاد ؛ وهى سلطة مركزية مؤلفة من رئيس للجمهورية ، ومجلس النواب تمثل فيه الولايات على أساس عدد سكان كل منها ، ومجلس الشيوخ يمثل كل ولاية فيه عضوان ، دون اعتبار عدد سكانها . غير أن هذه الولايات قد احتفظت بسيادتها الداخلية ، فلها حكومات ومجالس تشريعية . ولحفظ هذا الوضع بين الحكومات المحلية والحكومة الاتحادية المركزية ، أنشئت محكمة عليا ، من صلاحياتها النظر فى الخلافات الناشئة بين الولايات ، وفى القضايا المشكو من تعدى هذه الولايات على الدستور ، ومن تدخل السلطة المركزية فى صلاحيات مجالس الولايات .

أما الشؤون الخارجية فمن صلاحية السلطة المركزية ؛ ومن صلاحية الرئيس أنه السلطة التنفيذية العليا ، وتمثيل الولايات المتحدة فى علاقاتها مع الخارج . أما الوزراء فمعاونون له ، وغير مسئولين أمام مجلس النواب ، أو مجلس الشيوخ . والرئيس يستشير المجلسين مجتمعين (ويطلق عليهما حين اجتماعهما اسم الكونكرس Congrès) فى الأمور المالية والحربية . ولمجلس الشيوخ وحده حق مراقبة أعمال الرئيس الدبلوماسية ، مراقبة دقيقة ، والموافقة على تعيين السفراء ، وإقرار المعاهدات ، التى يعقدها الرئيس بأغلبية الثلثين . ولذا فمركز مجلس الشيوخ أهم من مركز مجلس النواب بكثير .

وتقدم لنا سويسرا مثالا آخر لدولة الاتحاد ؛ فنظام الدولة منذ عام ١٨٤٨ هو نظام الاتحاد ، ومظاهره آخذة فى الازدياد . إذ أن السيادة الخارجية للمقاطعات الاثنتين والعشرين السويسرية قد زالت ، وحريتها التشريعية أقل من حرية المجالس المحلية فى الولايات المتحدة .

ودولة الاتحاد مؤلفة — كما هى الحال فى الولايات المتحدة — من مجلسين : الأول يدعى المجلس القومى « Conseil National » (يقابل مجلس النواب) ، ويمثل الشعب السويسرى . والثانى يسمى مجلس الولايات «Conseil d'Etats» (يقابل مجلس الشيوخ) ، ويمثل المقاطعات السويسرية ؛ وهو مؤلف من نائبين عن كل مقاطعة . ومن سلطة تنفيذية قوامها « مجلس حكومة الاتحاد » «Conseil fédéral» المؤلف من سبعة أعضاء ، ينتخبهم المجلسان الآنفا الذكر ، مجتمعين (ويطلق عليهما حين اجتماعهما اسم الجمعية القومية La Diète nationale) . ومجلس حكومة الاتحاد هو الذى يدير السياسة الخارجية السويسرية ، مع إشراف المجلسين الذين انتخباه . ولكن ليس لمجلس الولايات تلك الصلاحيات التى لمجلس الشيوخ الأمريكى ، كما أنه ليس لرئيس مجلس حكومة الاتحاد ، الذى ينتخبه المجلس من بين أعضائه السبعة ، تلك الصلاحيات التى لرئيس الولايات المتحدة ، وإنما مركزه شرفى فقط .

* * *

ولعرض مثال من الدولة التحالفية نضطر إلى الرجوع إلى التاريخ ، لأن هذا النوع من الدول قد زال ولم يعد له وجود بين الدول الحالية ، وإن كان في الامكان تبين المشابهة والمقارنة بينه وبين نظام الممتلكات المستقلة . أما المثال الكلاسيكي له فهو التحالف الجرماني الذي كان قائماً قبل عام ١٨٦٦ .

كان نظام التحالف في ألمانيا وليد النظام الاقطاعي ، الذي كان الأمراء فيه يعتبرون أنفسهم متساوين في المكانة والحقوق ، ويتحالفون — من طيبة خاطر — لمدة معينة أو لغاية محدودة . وكان لسبعة من هؤلاء الأمراء حق انتخاب الأمبراطور ، الذي يقوم مقامهم بدور السلطة المركزية . غير أن هذا الحق قد زال حينما أصبح مركز الأمبراطور وراثياً في العائلة المالكة في النمسا . ولكن الفكرة المزدوجة بقيت ، وهي أن الأمراء الألمان متساوون ومستقلون بعضهم عن بعض ، غير أنهم يقبلون أن يكون فوقهم سلطة عامة لا تبطل ما لهم من حقوق السيطرة كل في إمارته .

لقد وجد مؤتمر فينا عام ١٨١٤ الفرصة مواتية لاقامة تحالف حقيق في الأراضي الألمانية . وهكذا أنشيء « التحالف الجرماني » ، ودام حتى عام ١٨٦٦ . وكان يشتمل على ٣٣ دولة من درجات وأنواع مختلفة ، من بينها الامبراطورية النمساوية ، وممالك مهمة كبروسيا وبفاريا وسكسونيا ، وإمارات كبيرة وصغيرة ، ومدن أرستقراطية مستقلة مثل برمن وهامبورك ، حتى إنه كان يشتمل على أراض تابعة لسيادات أجنبية عن ألمانيا ؛ وهكذا كان ملك الدنمارك ممثلا في التحالف بصفته ملك هولستين «Holstein» ، وكذلك ملك هولندا بصفته صاحب اللوكسمبورك . وكان هذان الملكان ، كبقية الملوك والأمراء في التحالف الجرماني ، مستقلين في أعمالهما الداخلية والخارجية ، مع الالتزام بعدم التجاوز على حقوق « جمية التحالف » «La Diète Confédérale» .

وكانت هذه الجمية ، التي تمثل التحالف الجرماني ، مؤلفة من مبعوثين من الدول المختلفة ، وكان حق رئاستها للنمسا . أما صلاحياتها فقد كانت مقصورة على المسائل التي تهم جميع دول التحالف ، مثل الاتحاد الجركي «Zollverein» ، وعلى الشئون الخارجية التي لا يطالب أعضاء التحالف بأن يمارسوها ، كل بمفرده .

ولما قبض بسمارك على زمام الحكم في بروسيا ، أخذ يعمل على تقويض بناء التحالف الجرماني ، إذ كان يضايقه في تحقيق خططه وتنفيذ سياسته ، الرامية إلى تقوية الروابط بين الممالك الألمانية وتكوين اتحاد منها . وتمكن من هدمه نهائياً حين انتصر على الدنمارك والنمسا عام ١٨٦٦ . وعقد ذلك نقض أسس التحالف الجرماني ، باقصاء النمسا عن الشئون الألمانية ، ونشر السيطرة البروسية على سكان ألمانيا . وبعد أن ضمت بروسيا إليها بعض الامارات ، ألفت عام ١٨٦٧ تحالف ألمانيا الشمالية «La Confédération de l'Allemagne du Nord» وكانت رئاسة هذا التحالف لملك بروسيا .

وفي ١٨ يناير سنة ١٨٧١ أعلن بسمارك إنشاء الامبراطورية الألمانية . وكان نظامها مزيجاً من الاتحاد والتحالف ، وبموجب هذا النظام كان ملك بروسيا امبراطور ألمانيا بالوراثة ، وكان رئيس الوزارة البروسية مستشاراً للامبراطورية ، مسئولا أمام الامبراطور وحده . وكان الجيش امبراطورياً موحداً ، وكذلك كانت البحرية والتمثيل الخارجي . ولم يشذ من ذلك غير بفاريا وورتمبرك «Wurtemberg» اللتين احتفظتا بشيء من الاستقلال الخارجي ، مع تمثيل دبلوماسي خاص ، ولكن دون

صلاحيات هامة .

وكان للامبراطورية مجلس تشريعي «Reichstag» ومجلس الاتحاد «Bundesrath» . وكان الأخير مؤلفاً من «مبعوثين مطلق الصلاحية» تعينهم حكومات دول الاتحاد . وبموجب هذا النظام تمت الوحدة الألمانية ، وأضحت ألمانيا دولة كبرى ، مع الاحتفاظ بالاستقلال الداخلي للدول الألمانية المختلفة .

* * *

وأقرب نوع قائم اليوم لنظام التحالف هو نظام « الممتلكات المستقلة » "Dominions" وإن كان نظاماً مبتكراً لم يعرف تاريخ العالم له مثيلا .

عند البحث في نظام الممتلكات المستقلة ينبغي التفريق بينها وبين مجموعة الأمم البريطانية "The British Commonwealth of Nations" التي يقصد بها الامبراطورية البريطانية بكاملها ؛ وعليه يدخل في مجموعة الأمم البريطانية جميع الممتلكات البريطانية ، من مستقلة ومستعمرة . أما الممتلكات المستقلة فهي : كندا ، واستراليا وزيلندا الجديدة ، وجنوب أفريقيا ، ونيوفوندلاند ، ودولة إرلندا الحرة . وقد عرفت الممتلكات المستقلة في المؤتمر الامبراطوري الذي عقد سنة ١٩٣٦ بـ « أنها أمم مستقلة داخل نطاق الامبراطورية البريطانية ، متساوية في المركز ولا تخضع إحداها للأخرى بأي شكل في شئونها الداخلية والخارجية ، وإن تكن تشترك في الولاء للتاج ، ويرتبط بعضها ببعض بمحض إرادتها ، كأعضاء في مجموعة الأمم البريطانية » .

تتمتع كل من الممتلكات المستقلة بسيادتها الداخلية والخارجية . ففيما يتعلق بالسيادة الداخلية ، نجد في كل منها مجلس الوزراء "Cabinet Government" ، كما هي الحال في انكلترا . ولكل منها حاكم عام يعينه الملك بناءً على مشورة وزرائها ، لمدة تتراوح بين خمس سنوات وسبع . ويكون هذا الحاكم عادة من أبناء البلاد ، وهو لا يمثل حكومة لندن وإنما يمثل التاج . وحكومات هذه الممتلكات غير خاضعة لحكومة لندن ، وإذا اقتضى الأمر مخابرتها ، فهي لا تخابر وزير المستعمرات ، وإنما رئيس الوزراء مباشرة .

وبجانب مجلس الوزراء يوجد برلمان مؤلف من مجلسين تشريعيين : أحدهما مجلس الشيوخ ، وثانيهما مجلس النواب ؛ ولهذا البرلمان من السيادة ما للبرلمان الامبراطوري ، وهو يشرع لأمور البلاد الداخلية والخارجية ، في حدود القانون الدولي العام . ولذلك لم يعد للبرلمان الامبراطوري — من الوجهة العملية — حق إصدار التشاريع الخاصة بالدومنيون ، وإن كان له هذا الحق من الوجهة النظرية ، وبعبارة موجزة ، فإن دول الممتلكات المستقلة سيدة في بلادها تحكمها كما تود وتشاء .

أما فيما يتعلق بالسيادة الخارجية فالتمثيل السياسي من حق كل دومنيون ، كأي دولة مستقلة ذات سيادة تامة . وقد مارست حكومات كندا وجنوب أفريقيا وإرلندا هذا الحق بأوسع معانيه . أما الممتلكات المستقلة الأخرى فلا يزال يمثلها في الخارج الممثلون السياسيون والقناصل البريطانيون . وللممتلكات المستقلة مندوبون سامون في لندن ، لهم مرتبة السفراء ، يمثلونها لدى الحكومة البريطانية ، كما أنه يمثل هذه الحكومة في كل من الممتلكات المستقلة مندوب سام ، هو غير الحاكم العام الذي يمثل التاج ، ويعتبر هؤلاء المندوبون حلقة الاتصال بين تلك الممتلكات ومجلس الوزراء البريطاني . أما السياسة الخارجية فالتشاور بشأنها بين لندن والممتلكات المستقلة وثيق ومستمر . وفي كثير من الأحيان لا تتفق وجهات نظر وزارة الخارجية في لندن

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكى بك

أسباب الثورة اليابانية

تركنا اليابان عند عام ١٨٦٧ ، عندما جاء أمير توسا يطالب إلى الشوجن أن ينزل عن الحكم ، وأن يرده إلى الامبراطور . وروينا ما كان من رضاء الشوجن ورضاء عشيرته بهذا ، ورضائهم به توا ، حتى لكأنهم كانوا منه على ميعاد . وبنزول الشوجن عن الحكم انتهى الحكم الثنائي الذي دام في اليابان نحو ألف عام ، حين كان للشوجن حقيقة الحكم وبحره ، وكان للامبراطور اسمه ومظهره . وبنزول الشوجن عن الحكم زال عنه أيضا أسرته وعشيرته ، وانتهى بانتهائه وانتهائهم نظام راتب واحد دام في اليابان بدوام هذه الأسرة قرنين ونصف قرن من الزمان .

والذي ينظر إلى اليابان قبل هذا العام ، عام ١٨٦٧ ، والذي ينظر إليها بعد هذا العام ، عام ١٨٦٧ ، يدرك أنه أخطر الأعوام في تاريخها . ويسمونه عام الاسترجاع ، أو عام الاسترداد ، ويعنون بهذا أنه العام الذي استرد فيه الميكادو ملكه ، واسترجع سلطانه . وهو يعام الانقلاب أقمن ، وبعام الثورة أجدر . وأي عام أحق بهذه التسمية من عام قبله السواد وبعده البياض ، من عام هو الحد الفاصل بين اليابان القديمة واليابان الحديثة ، يابان القرون الوسطى ويابان القرون الحاضرة ، أو على الأصح الأدق يابان القرن الحاضر ، فهي لم تستتم بعد هذا العام إلى الآن إلا قرنا واحدا من الزمان .

وقد كان السبب الظاهر لوقوع هذا الانقلاب ،

مع وجهات نظر هذه الممتلكات . ومما يساعد على التفاهم والاتفاق المؤتمرات الامبراطورية التي تعقد مرة كل أربع سنوات ، والاجتماعات غير الرسمية التي تعقد في لندن كل عام .

ومما هو جدير بالذكر أنه لا توجد محكمة عليا لتسوية الخلافات الناشئة بين الممتلكات المستقلة ، أو بين إحدى هذه الممتلكات والحكومة البريطانية . وهذا دليل على مرونة العلاقات بينها ، وبرهان على أن جوهر الرابطة التي توثق بينها هي رابطة الحرية والاستقلال بين دول حرة مستقلة ، وثما اتحادها في مثل عليا مشتركة بينها . وهذه الرابطة وهذا الاتحاد ، لا يتنافيان مع السيادة والاستقلال التام . ومن هنا نرى أنه متى اعتدى على إحدى هذه الممتلكات ، أو على بريطانيا العظمى ، تهب جميع الممتلكات الأخرى دفاعاً عنها ، دون قيد ولا شرط

* * *

نرى من هذا العرض الموجز أن نظام الدولة في الاتحاد "Fédération" وفي التحالف "Confédération" وفي الممتلكات المستقلة Dominions يمكن الدول الصغيرة ، أو التي ليس بينها تجانس تام ، من أن تشبع غريزة التجمع السياسي فيها ، فتوحد قواها وسياستها في أمور معينة ، وتنضم في كتلة واحدة ، لها مزايا الدول العظمى ، ومكانة الدول الكبيرة ، ومع ذلك تبقى كل منها مستقلة استقلالا داخلياً ، في بعض الحالات ، أو داخلياً وخارجياً إلى حد كبير في حالات أخرى . ولا أمل للأقطار العربية في الحصول على هذه المكانة ، وتلك المزايا ، إلا إذا توحدت . فأي نوع من أنواع الوحدة يتفق ووضع البلاد العربية الحالي ؟ أم ترى في الامكان إيجاد نوع من الوحدة جديد ، أكثر من هذه ملاءمة لمزاج الأمة العربية ، والوضع القائم في مختلف أقطارها ؟

يوسف هيكل

وإحداث هذه الثورة ، ما كان من اقتحام أسطول الأمريكان لأبواب اليابان وما تلاه من أساطيل الدول الأوربية الأخرى ، ومن إكراهها على إمضاء معاهدات أمضتها والسيف مصلتٌ فوق رأسها . ففي هذا كانت الحجة واضحة بيّنة على خيبة الحكم القائم في أخطر سياساته ، في الأمر الذي صار على الزمن أكبر الأمور لتبرير وجوده ، ذلك حفظ البلاد من الغزو وتجنيبها شرّ الذلّة على يد الأجنبي .

ولكن هذه الثورة ، ككل الثورات ، لها أسباب فاجئة ظاهرة ، ولها أسباب مقيمة باطنة . والأسباب المقيمة الباطنة تهيّئ المسرح للحوادث ، فهي تستحضر آلاته وهي تزوّق حيطانه وتوزّع أنواره ، وهي تهيّئ رجاله . والأسباب الفاجئة الظاهرة إنما تمدّ يدها إلى الحبل فتشدّه فتشق عن المسرح الستار . ثم تجرى الرواية من بعد ذلك على مقدار ما هيأتها لها الأقدار من أنوار ورجال .

واليد التي شقت الستار من مسرح الحوادث في اليابان كانت يد أمير البحر الأمريكيّ ، الكومادور بيرى . فلتحمد اليابانُ يدَه ، فقد كانت يداً بارزة العضل من عزم ، حديدية الجَسّ من تصميم ، ولكنها توقفت عند شق الستار تجرى وئيداً متثاقلا ، فكأنما أريد به أن تجرى الحوادث في مثل المجرى الذي جرت فيه .

أما قبل الكومادور فقد ظلّت الأشياء تختمر في الأمة اليابانية اختمار العجين في بطئه وانسلاله ، حتى إذا ارتفع وزاد فاض عن القصعة وسقط فلم يحدث دويا كبيراً .

ولهذا الانقلاب ، أو هذه الثورة ، أسباب مقيمة سابقة باطنة كثيرة نجتزئ منها بأكبرها وأخطرها ، وهي أربع :

أما السبب الأول ، فهو أقدمها ، وهو يمتد إلى ما قبل أسرة توجوكاوا ، أسرة الشواجن الأخيرة . فقبل هذه الأسرة ، في القرن السادس عشر فالذي قبله ، كانت تحكم اليابان أرستقراطية حربية بحتة ، تحولت في آخر أمرها وعند انحلالها ، إلى حكومات متعددة في أمة متجزئة ، على رأس كل جزء منها عينٌ دينيّ ، ضعفت الصلة بينه وبين الحكومة المركزية حتى انقطعت أو كادت . فانبرى كل عين من أعيان الريف ، حتى وكل حاكم من حكام المدن إلى النظر في شئون نفسه ، والعمل لصوالحه . وكانت المواصلات تحسنت ، والبلاد البعيدة اتصلت ، والتجارة في داخل البلاد وخارجها راجت واتسعت ، وأثرى التجار وهم الفئة المحقّرة في البلاد . وبأثرائهم قوى عضدهم واشتد زندهم ، وتألفت لهم في مراكز التجارة الكبرى نقابات حماها جندٌ مأجورون . وزاد في قوتهم حاجة أعيان الريف إلى المال وتنافسهم ، وهم المتقاطعون ، في استرضاء أصحابه . وببروز هذه الفئة الجديدة في عالم الأمر والنهى ، وبكثرة أعدادهم على السنين ، نشأت طبقة جديدة متوسطة في المجتمع الياباني الذي لم يكن لها من قبل وجود ، وحلّت في الوضع الذي حلّته طبقة البرجوازي Bourgoisie في أوربا .

كذلك كان من جراء تجزّئ السلطان في اليابان أن عمد هؤلاء الأعيان العديدون إلى استجلاب العون ، واستمداد القوة والتجنيد محليا من دوائرهم في الريف . وكان لهم سَمُورِيُون لهم الحربُ صناعة ، ولكنّ تقسّم السموريين بين الأعيان والأمراء قلّل من أعدادهم في الموضع الواحد ؛ فلم يبق للعين مندوحةٌ من أن يلتجئ إلى الفلاحين يجنّد منهم ، ويؤلف لنفسه من جموعهم جيشاً قائماً يحفظ له ما في يده ، ويردّ عنه كيد المعتدين من جيرانه . وسهّل صناعة الحرب على من صناعتهم الزرع ، أن البرتغاليين كانوا أدخلوا إلى اليابان في منتصف القرن السادس عشر البارود والبنادق ، فنزلت مكانة السيف في فن الحرب ، وبنزولها لم يعد السمورى ، وهو

الماهر فى تقليب السيوف ، بذلك الجندى الذى لا غَناء بغيره فى الحروب . وصار كل فلاح حربيًّا بالجندية والكفاية فيها ما أحسن حمل تلك الآلة الجديدة وإطلاقها وإصابة الهدف البعيد بها . وبدخول الفلاحين الجندية صار لهم وجود سياسىّ رُخصته حشْوُ البارود من بنادقهم . فبهذه البنادق حَموا أمراءهم وذوى السلطان فيهم ، ولكنهم أخذوا يتعلمون كيف يحمون أنفسهم من هؤلاء الأمراء ، وأصحاب الأرض والأقطاع . فاستمنحوهم المنحة بعد المنحة ، فلم يكن لهؤلاء سبيل غير الطاعة . فأصابت القرى استقلالاً محليًّا واسعاً ، استلذ القرويون طعمه ، فلم يكن القوّة بعد ذلك أن تَفطمهم عنه طول الزمان .

فنى المدن صار لأرباب البيع والشراء وجود ، وفى الريف صار لأرباب الحرث والزرع وجود ، ومن هذين تكوّنت طبقة جديدة لم يكن لها شرف قديم كالسموريين والأشراف . . .

وزاد خطر هذه الطبقة الجديدة عند ما دخل نظام النقد فى اليابان ، فى عهد أسرة الشواجن الأخيرة ، أسرة توجو كاوا . فقد كانت وحدة العملة فى الدولة فى زمن هذه الأسرة الأرز ، به تحسب الضرائب ، وبه يُسَدّ الدخل والخرج . فكان أنْ دخل البلاد من الصين نقدٌ كثير . واستحث الحكام استخراج المعدن من الأرض ، فأخذ النقد المعدنىّ يحلّ محل الأرز فى تجارة الناس . وكانت توحدت الدولة فى زمن هذه الأسرة الشوجنية من أقصاها لأقصاها . وكانت عاصمة البيع والشراء فيها أوزاكا ، كما كانت يدّو عاصمة الحل والربط والسياسة . وقام على يدّو السموريّون والأشراف . وقام على أوزاكا المحقَّرون من التجّار . واضطرّ أهل السياسة والسيادة أن يحملوا رواتبهم ، وهى من أرز ، إلى أهل التجارة والحقارة فى أوزاكا ، يستعيضون عنه النقد حتى يستطيعوا به البيع والشراء . وتحكّم التجّار فى أسعار الأرز وأسعار النقد . وتقلبت حظوظ الأرز بين رفع وخفض . فحينا جاءه المطر القليل فقتله ، وحينا جاءه السيل الكثير فأغرقه بالماء ، وفى كلا الحالين استدان الأشراف واقترض الأمراء . واقترضوا واستدانوا من تلك الطبقة التى أحلوها الموضع الأدنى من طبقات اليابان . والمقترض الدين لا يبالى إذا أرخى له الدائن الحبل وأجرى إلى جيبه سيلا من الذهب ، وهكذا فعل التجار فى أسيادهم الأخيار ، فزادوهم نعمة وزادوهم رقا ، فلما انتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان خمسة عشر جزءاً من كل ستة عشر مما ملَكَ الأشراف رهانَ دينٍ لهؤلاء التجّار المحقَّرين .

وكان من نتيجة هذا أن عمد هؤلاء الأشراف ، كبارهم وصغارهم ، إلى تخفيف أعبائهم بوسيلتين ، زادت كلتاهما فى استعجال الختام ، ختام هذا النظام الاقطاعى الشوجنىّ الأخير . وأولى هاتين الوسيلتين فصل السموريين وقطع رواتبهم . وثانية الوسيلتين إرهاق الفلاحين بالضرائب ، حتى لم يعودوا يستطيعون لها حملا . وبأغضاب السموريين وهم جند الأقطاع ، وبإرهاق الريفيين ، وهم كثرة الدولة ، لم يكن فى منتصف القرن التاسع عشر لهذا النظام من نصير . فلما جاء أمير البحر الأمريكى إلى اليابان عام ١٨٥٣ ، لم يحتمل هذا النظامُ من رجله غير ركلة واحدة .

فهذا أحد الأسباب التى أدّت إلى سقوط الشوجنة فى اليابان .

أحمد زكى

حكمت محكمة مصر العسكرية ضد لبيب حنا ويوسف إبراهيم فى القضية رقم ٣٠ سنة ١٩٤٢ عسكرية الموسكى بتغريم كل منهما عشرة جنيهات لبيعهما كراسات بأزيد من السعر المحدد .

مع الطـــير

للأستاذ أحمد أمين بك

من نعم الله علىّ أن قُسِيِّت حديقتي الصغيرة هذه الأيام بالطيور ؛ فهذه شجرة — لا أدرى السر فيها — جذبت العصافير الكثيرة إليها ، فهى فى حركة دائمة حولها وفيها ؛ وهذه بعض زوايا البيت عشش فيها الحمام يغرد من حين إلى حين بصوته الشجى الجميل .

وددت أن أتخير من الطيور أجملها وأظرفها وأضعها فى أقفاص تحت سمعي وبصرى ، أستمتع بجمال شكلها وجمال صوتها ، لولا ما يؤلمنى من حبسها .

هى أحب الحيوان إلىّ وأقربه إلى قلبى ، وهى تقوم فى عالم الحيوان مقام الأديب والفنان فى عالم الانسان : جمال فى شكلها ، جمال فى هندامها ، جمال فى غنائها ، مرح فى حياتها ، ظرافة فى بناء عشها ، حنان فى حبها لأولادها .

***

أبرز شىء فيها عواطفها ، فهى تغنى استجابة لعاطفة ، وتمرح لعاطفة ، وتحب لجنسها وأولادها لعاطفة . وبحق علمت الانسان الأول أن يوارى سوأة أخيه بعد موته ، فقال : « يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ سوأة أخى ، فأصبح من النادمين » — كما علمته درس الحرية ، ولقد كان حراً مثلها ثم أباح لنفسه أن يُقَيِّل غُلا بعد غل ، فلما استثقل حمل الأغلال أخذ يجاهد فى فكها قيداً بعد قيد ولما ينجح .

وغار من الطير فأخذ يحبســه حبس نفســه ، ويتحين الفرص لصيده وتكبيله ، فما يجد الطائر فرصة للفرار حتى يهرب ، ولو كان قفصــه من ذهب وحَبه أغلى حب وشرابه ماء الورد ، ضناً بحريته أن تباع بأى ثمن ، وأن تسترق بأى جزاء . وحافظ على حريته من مبدئه إلى منتهاه ، لا كالانسان الأبله رضى بالقيود ، ثم يبذل فى فكها الجهود ، وما كان أحراه ألا يقيد ولا يفك .

وقديماً حكوا أن رجلا كان يدعو : « ربنا أدخلنا بيوت الظالمين وأخرجنا منها سالمين » . فأجابه آخر : « وما أدخلك وما أخرجك ! » .

***

حلوة الغناء ، تغنى حبّاً ، وتغنى سروراً ومرحاً ؛ تغنى سروراً فى موسم الوصال ، وأجمل ما فى ذلك غناء الكروان ، وتغنى أسى وضنى وحزناً يوم الفراق — وكم وددت أن يسجل صوت الطيور وأغانيها على أسطوانات أو على شريط الراديو حتى أكررها على سمعى كلما شئت ، فهى أفعل فى نفسى من كثير من أغانى الانسان ؛ ولكن — لا — لست أريد حبسها ولا حبس أصواتها ، فلتكن حرة فى كل شىء لها ، ولو حرمتُ الاستمتاع بها وبأصواتها .

إن موسيقاها متنوعة تنوع نغمات البيان ، علواً وانخفاضاً ، ورقة وغلظاً ، وقوة وضعفاً ، تغنى إذا هاجت عواطفها ليلا أو نهاراً . وما أحلاها وهى تغنى فتقفز من شجرة إلى شجرة ، ومن سطح منزل إلى سطح ، مندفعة فى طيرانها بشكل كله خفة ورشاقة ! لقد حرمنا دقة الملاحظة فحسبنا أن كل أصواتها سواء ، وأن غناء كل نوع منها متشابه ؛ ولكن ما أبعد هذا من الحق ، فهى تغنى مناغاة للحب ، وتغنى محذرة من خطر ، وتغنى سروراً بحياة الربيع ، وتغنى دعوة إلى الرحيل ، وتغنى حزناً على فقد حبيب ؛ فما أكثر أغانيها وما أغبانا فى فهمها ! لَغاية مغنينا أن يكون « بلبل الشرق » ، وغاية أديبنا أن يكتب « هدية الكروان » و « دعاء الكروان » .

***

أمامى الآن يمامتان ظريفتان حقاً ، يسكنتا بالقرب من غرفة نومى ، ما أجمل غناءهما ، وخاصة فى الفجر إذا شعشع النور ، وما أرشق حركتهما ، لا عيب فيهما إلا أنى آنس بهما ولا تأنسان بى ، وأحن إليهما وتفرقان منى — ما ألطفهما وألطف نوعهما وألطف الحمام كله ! لقد كان ذوق رسول الله (ص) ظريفاً حقاً ، إذ روى أنه كان يعجبه النظر إلى الخضرة وإلى الأترج وإلى الحمام الأحمر ، وكان فى منزله حمام أحمر يقال له « وردان » ؛ وشكا إليه « على » الوحشة فقال له : « اتخذ زوجاً من حمام تؤنسك وتوقظك للصلاة » .

ظريف هذا الحمام كل الظرف ! غزله علم الانسان الغزل ، يدعو فتتمنع ، ثم تجيب وتلوى منه عنقها ، « ثم يتعاشقان ويتطاوعان » ، ثم ما شئت منه من رشف وتقبيل ، ثم ما شئت منها من تيه ودلال ، ثم ما شئت منهما من فرح ومرح بالوصال .

ثم هو لطيف فى حنانه على ولده ، أرأيت كيف يقلب بيضه حتى تنال جوانب كل بيضة حظها من حرارته وحضنه ؟ أو رأيت تعاقبه ذكراً وأنثى على رعاية بيضه وفرخه فى الحضن والتغذية ؟ أو هل رأيت عنايته بعشه كيف يتخير مكانه ، وكيف يتخير عيدانه ثم ينسجها نسجاً متداخلا ؟ وكيف يهندسه ليحفظ البيض من التدحرج ، ثم يتعاون الذكر والأنثى على العش : « يسخنانه ويطيبانه وينفيان منه طبعه الأول ، ويحدثان له طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما ، ومستخرجة من رائحة أبدانهما . . . لكى تقع البيضة إذا وقعت فى موضع أشبه المواضع بأرحام الحمام[1] » .

ليت كل أسرة تربى فى بيتها حماماً وترقب عيشته ، فيتعلم منه الآباء كيف تكون العناية وكيف يكون الحنان ، ويتعلم منه الأبناء كيف يجازون جهد الآباء وتضحيتهم .

* * *

تمنيت أن تكون الطيور كالأزهار ، آنس بها وتأنس بى ، وأكون بجوارها وتألف جوارى ، ولكنها سيئة الظن بالانسان جداً ؛ ولعلها وحدها هى التى عرفت حقيقة الانسان ، فهربت منه ، وأبت أن يكون بينها وبينه رابطة ، تحوم حوله فى حذر ، وتمس أرضه فى وجل ، وتفضل حياتها القلقة — تتعب فى البحث عنها — على القرب منه ، وإن كان معه شبعها وريها ، أنفة منه ، وكراهية له ، وضناً بحريتها وطلاقتها .

هل عرفت بغريزتها طبيعته ففرت منه ابتداء ، أو سالمته وأنست به ، فلما جربته ورأت أنانيته وسوء سلوكه رسمت خطتها فى البعد عنه ؟ أقرب ظنى أنه الوجه الثانى ، فانها تأنس ببعض الحيوان الذى لا يؤذيها . ويذكر بعض الرحالين أنهم نزلوا فى جزيرة لم ينزلها قبلهم إنسان ، فرأوا طيورها تألفهم وتطير عليهم وتأكل من الحب فى أيديهم — وهذا حمام الحرم أمن شر الانسان فاستأمن ، وأنس به الانسان فاستأنس . فلولا ما رآه قديماً من مطاردة الانسان ومحاولاته فى نصب الشباك له والايقاع به بكل الأشكال ، واستلذاذه قتله ، وتعلمه الرماية فيه ، وتصويب أسلحته عليه ، ما ذعر من الانسان هذا الذعر — ثم هو قد رآه خائناً غادراً ، فغفر له أولاً أن كان جائعاً فصاده ليأكله ، فكيف يغفر له أن رآه شبعان ثم يصيده لمجرد اللذة فى قتله ؟ وعجب كيف يكون مجرد القتل لذة ، فعد الانسان — بحق — أعدى أعدائه ، ولم يقرب منه للضرورة إلا وترتعد فرائصه ، وأمر الآباء الأبناء هذا السر الرهيب — فما رأى طائر إنساناً إلا واستحضر هذا السر وأدركه الفزع منه .

* * *

(١) الحيوان للجاحظ .

من عظمة الطير أن الانسان سهل عليه أن يدرك مزايا الحيوان فيقلدها وينتفع بتقليدها ، تعلم من الأسد شجاعته ، ومن القرد كياسته ، ومن الحرباء تلونها ، ومن الذئب خداعها ، ومن الثعالب روغانها ، ومن النحل مهارتها في صناعتها ، ومن النمل جده وادخاره الخ . ولكن مرت آلاف السنين وهو يعجب من الطير كيف يطير ، وحاول تقليده فلم ينجح ؛ وأخيراً جداً بعد أن شاب الزمن اهتدى إلى سر طيرانه فطار ، وليته لم يطر ! فقد عاش الطير منذ خلق وهو يطير من ظلم الانسان ، يظلم الانسان ، ويطير جالاً ولا يطير قبحاً ، ويطير سروراً إلى عشه ، وحنيناً إلى إلفه ، وطلباً في رزقه ؛ فلما طار الانسان لوّن طيرانه بشره ، لحرب ودمر ، وسفك وأهلك ، وكرّه إلينا السماء والقمر ، وطأطأ رءوسنا مما لزمنا من عار وخجل ! فيا لله للانسان !

ومع هذا التقليد من الانسان لا يزال أمر الطير عجباً أي عجب ! فهو يقطع المسافات الشاسعة باحثاً من غذائه ودفئه ، فما كان منه في شمال آسيا يأتي في الربيع إلى مصر ، وما كان في شمال أوربا يرحل إلى جزائر في البحر الأبيض ، أو يعبره إلى أفريقيا ، ويرحل أكثر ما يكون ليلا يتقى الأخطار ، ويهتدى بالريح وبالشواطئ ومسير الأنهار ، ويعلو في طيره من الأرض ميلا إلى ثلاثة أميال ، ثم هو يقطع آلاف الأميال عابراً البر والبحر من غير دليل إلا طبيعته ، فاذا لم يقتله الانسان عاد كما جاء إلى عشه مهتدياً بذاكرته . فسبحان خالقه .

* * *

تحسن الطيور إلى الانسان كثيراً ويؤذيها الانسان كثيراً . فهل كان الانسان يستطيع أن يحصل على قوته وزرعه لو لم يمنه الطير على الفتك بدوده وحشراته ؟ فتلتهما طعام كل يوم لكل طير من أكلتها ، فكيف لو سلطت على مزارع الانسان ولم تسعفه الطيور فتقضي عليها ؟ إذاً رأيت الأرض غطيت بالدود ، واكتسحت الزرع وأعقبه فناء الانسان . لقد أحصى ظريف ما تأكله الطيور من الدود في مقاطعة في أمريكا فكان مليونين ونصفا كل يوم ، فقدّر حالها لو تركت وتناسلت — ومع هذا كله جهل الانسان فضل الطير ، واتخذه ملهاة لصيده ، ومجالاً لقماره ، وملعباً لرمايته ؛ كان المتوحش يصيد طلباً لغذائه ، فأصبح المتمدن يصيد مَلأً لفراغه .

* * *

لقد عجب أوربي أن الطيور في مصر لا تغنّي كثيراً ، فلك الله أيها العاجب . فلمَ تغني وكيف تغنّي ولمن تغني ؟ لو رأت ما يسرها لغنت ، فالأسى يبعث الأسى ، والسرور يبعث السرور ، وسعادة الجار تنضح على الجار ، ولو ضحك من في الأرض لضحك من في السماء ، ولو غنت الطير في مصر كثيراً لغنت حزيناً كما غنى الناس حزيناً ، ولكن تأبى طباعها إذا غنت إلا أن يكون غناؤها مرحاً وطربها فرحاً ، ففضلت السكوت إلا أن تلح بها الحاجة . وهل سمع الناس — يا أخي — غناءها القليل لتفيض عليهم بالكثير ؟ إنهم في شغل عن جمال الطبيعة بتزييف الصناعة ، وعن غناء السرور بغناء الحزن ، وعن النداء العالي بالنداء السافل ، وعن التسامي إلى التدلي ؛ فيوم يبتهج أهل الأرض يبتهج أهل السماء ، ويوم يسعد السكان يغني الطير ، ويوم يتسامى الناس تعلو أغراضهم وتطير نفوسهم ، فتحاذي الطير وتحدو لها فيمرح كثيراً ويغني كثيراً .

* * *

ولفخر الطير عظيم أن تخلق الملائكة خلقته ، وتعار أجنحته « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء . إن الله على كل شئ قدير » .

أحمد أمين

صور قضائية :

النيوروز : Neurose

ذكرت في كلة الأسبوع الماضي طرفاً من حديث « جرائم الجنون » . وأوردت بياناً من بعض حالات الجنون ، ولكني قصرت الكلام على « السيكوز » ، و « البارانويا » و « الصرع » . وضربت مثالا لكل حالة من هذه الحالات ، وبينت أن المريض الذي يرتكب جريمة وهو في نوبة من نوبات هذه الحالات ، يعفى من العقاب بحكم القانون ، لأنه يكون غير مسئول من عمله ، حتى ولو كان هذا العمل جريمة من جرائم القتل العمد .

ويقتضي إتمام هذا الحديث أن نتناول في كلة موجزة نوعاً آخر من أنواع الجنون هو « النيوروز » — أو جنون العاطفة — وهذا النوع وإن كان يقع في التقسيم تحت عنوان « الجنون » ، إلا أنه ولله الحمد لا يكاد يخلو منه إنسان ، والفرق الأساسي بين هذا النوع من الجنون وبين غيره من الأنواع أن صاحبه يعلم أنه مريض ويسلم بهذه الحقيقة ، ولو بينه وبين نفسه . وهو يود لو استطاع أن يتخلص من هذا المرض . بل إنه ليعمل جاهداً على التحرر من قيوده — ففي حالة « . . « كليبتومانيا » Kleptomania مثلا — أو جنون السرقة — نرى المصاب بهذا المرض (ومن الشاهد أن هذا المرض يصيب النساء أكثر مما يصيب الذكور) تراه إذا دخل محلا تجارياً كبيراً بقصد شراء شيء من بضائعه لا يكاد يرى هذه البضائع منتثرة أمامه ، حتى يتحرك داؤه الذي بين جنبيه ، فلا يطيق أن يسير رأساً إلى حيث يجد سلعته فيشتريها وينصرف . ولكنه تتراخى إرادته أمام الإغراء الواسع الذي يحيط به . ويبدأ يتسكع في جنبات المحل ، ثم يمد يده إلى بعض السلع فيقلبها ، ويعود فينصرف إلى سبيله . . ثم تقع الواقعة . . . .

فيرى نفسه وقد سحب قطعة من قماش أو منديلا من حرير أو غير ذلك ، فدسه في جيبه أو في حقيبته وانطلق به كما تنطلق الحدأة التي أصابت صيدها .

وإنك لتجد من يعمل هذا العمل أشد الناس ندماً بعد وقوع الجريمة على ما فرط منه . بل إنه ليتملكه الحزن والأسف والنكد العميق في المراحل الأولى لفعلته ، وهو يرى نفسه مندفعاً نحو ارتكابها كأنما يسوقه نحوها شيطان عتيد . فهو حين يدخل المحل وتراوده الفكرة الشريرة عن نفسه قد يستعيذ منها بالله ، أو يأخذ في تلاوة بعض السور القصار ليحصن بها نفسه من الإغراء الذي يحيط به ويوشك أن يتغلب عليها . وإن من هؤلاء المرضى من يدس البضاعة في عبه أو في جيبه ولما تزل على شفتيه الكلمات الأخيرة من « آية الكرسي » . فإذا ما فرغ من فعلته وخلص بالغنيمة لنفسه ، ونجا بها من عيون الرقباء ، وبعد من مكان الحادث ، افترسه الندم ، ووخزه ضميره وخزات أليمة قد تودي أحياناً بموضوع الجريمة وثمرة هذا الجهاد العنيف . فترى بعض هؤلاء العابثين يعمد إلى ما سرقه فيتصدق به على أول محتاج ، بل إن الندم ليبلغ ببعضهم أحياناً إلى حد أنه يلقي بما استولى عليه في عرض الطريق ليتخلص منه ، وليصل إلى إدخال بعض الطمأنينة إلى نفسه ، وتقديم شيء من الترضية لضميره لإقدامه على مثل هذه التضحية التي تهدم جوهر عمله ، وتودي بزهرة كسبه . وقد يتوب المريض وهو في نوبة ندمه توبة خالصة صادقة يصحبها بالأيمان الثاقلة ، والنذور الضخمة ، أنه إن عاد إلى مثل هذه السقطة ، لتلزمنه كفارة يمينه أو ليصلين مائة ركعة ، أو ليصومن أسبوعاً ، أو ليطعمن عدداً من المساكين أو ليتصدقن بكذا من المال . كل ذلك ليضع أمام نفسه هذه العقبات حتى تكون واقياً له من أن يعود إلى مثل ما وقع فيه .

ومع ذلك فإن كثيراً من هؤلاء المرضى إذا عادوا إلى الميدان من جديد عاودهم ضعفهم . وصروا في نفس

الأدوار المرسومة التي سبق لهم أن مروا فيها عشرات المرات . ولم تجدهم أعمارهم ولا تدورهم نفعاً ، ولم تغن عقباتهم المصطنعة من سقوطهم في تلك المهاوي شيئاً .

* * *

وأذكر أنى تقدم إلىّ يوما في الجلسة الجنائية رجل بلغ الستين من عمره ، وقد وقف ينتفض في « قفص الاتهام » على الرغم مما عليه من ملابس السجن الثقيلة . فأذكرني منظره منظر ذلك الفأر الصغير المرتعد الذي قنصته مصيدة (دفترخانة المحكمة) في نفس ذلك الصباح . في لقد أشفقت عليه من إجراآت المحاكمة فأرجأت قضيته إلى آخر الجلسة لأنظرها على انفراد ، لعل في ذلك ما يخفف من حدة ذلك الانفعال العنيف الذي كان يهزه هزاً حتى ليكاد يعوقه عن الكلام . ولما خلصت له نظرت في تهمته فاذا هي « شروع في سرقة » . وكانت تتلخص وقائع جريمته في أنه دس يده في جيب أحد الناس أثناء وجوده في سوق بلدته ، ولم يفلح في نشل ما في جيبه ، لأن أحد رجال البوليس الملكي ضبطه وهو يوشك أن يتم فعلته . فلما راجعت صحيفة سوابقه وجدت أن له تسع عشرة سابقة كلها من جرائم النشل والسرقات ؛ ووجدت أن آخر « سابقة » له انقضى عليها نحو أربع سنوات ، وأنه سبق الحكم عليه بالأشغال الشاقة في مثل هذه الجريمة ، وأنه أصبح بذلك في حكم « المجرمين معتادى الاجرام » ، وأن فعلته هذه على تفاهتها وخيبة نتائجها تعتبر قانوناً في حكم « الجناية » . وتغلظ لها العقوبة كأغلظ ما تبلغ مع الجناة الخطرين .

فأقبلت أسأله كيف وقع منه ذلك . ولماذا لم يفكر في غير هذه الطريقة للحصول على المال . وكيف رضى لنفسه أن يعود إلى ما نجح في الاقلاع عنه أربع سنوات سويا ؟ فاغرورقت عينا المسكين وعادت إليه رعدته وقال وهو يبكي : إنه لم يكن في حاجة إلى نقود ، وإن توبته بعد « السابقة » الأخيرة كانت توبة صادقة . وإنه استقام واهتدى . ونجح في صيانة نفسه طول هذه المدة لأنه كان يتحاشى المجتمعات ويتجنب أن يرى نفسه وسط أى حشد من الناس ، لأنه في مثل هذه الظروف لا يملك أن يرى يده تمتد إلى ما في جيوب أقرب الناس إليه ، كأنما يدفعها دافع لا سلطان له عليه . وهو في مثل هذا المقام يجاهد نفسه ويحاول أن ينجو بها من الزحام حتى لا يقع ما لا بد من وقوعه . والذى حدث في يوم هـذا الحادث الأخير أنه قصد إلى سوق بلدته في يوم انعقاده الأسبوعى ليشترى مقدارا من الذرة ، فذهب وهو يسأل الله أن يكتب له السلامة ، وأن يخرج من السوق وليس معه إلا الذرة التى ذهب لشرائها . فلما وصل إلى حيث يجلس باعة الغلال وجد حولهم زحاماً شديداً . فوقف بعيداً عنهم ، وقرأ الفاتحة بنية أن يكفيه الله شر ذلك اليوم . ثم أقبل يساوم مع الساومين ويشترى مع المشترين . وشاء الله لحكمة لا يعرفها إلا هو سبحانه وتعالى أن ترتطم يده بجيب جاره . فاذا هو جيب « وارم » تربعت فيه حافظة أثقلتها حمولتها . فخارت لها قوى الرجل . وانهارت عزيمته . وما درى إلا وقد تشنجت أصابعه ... وتقلصت ... ثم تسربت إلى فتحة الجيب فاستقرت فوق الحفظة . وكان ذلك في نفس اللحظة التى استقرت فيها يد « المخبر » على قفاه . فدارى وجادل . ثم اعتذر واستغفر . ثم بكى واسترحم . فلم يجد من يرحم ضعفه ، أو يتستر على سقطته ، أو يقبل منه توبته . وانتهى به الأمر مرة أخرى إلى الحبس الاحتياطى وإلى المحكمة .

وقد أثبت التحقيق صحة دفاع الرجل حتى لقد وجد معه المبلغ الذى كان يعتزم أن يشترى به حاجته من الذرة . ولكنه « النوروز » — قاتله الله — كانت يده فوق يد المسكين ، وكان إغراؤه أقوى من مقاومته . فكانت هذه النتيجة التعسة التى أودت بحرية ذلك البائس فيما بقى له من أيام على ظهر هذه الدنيا .

أما قصة « المخبر » الذى قبض عليه فانه كان منوطا بالخدمة داخل السوق في ذلك اليوم . فلما رأى المتهم بدخله

بين قاسم أمين
ودوق داركور
٣ – «المصريون»(1)

قرأ قاسم أمين كتاب الدوق داركور فأصيب بحمى لازمته عشرة أيام، لأن كل هذه الآراء التي أتى بها الدوق الفرنسي كانت مثيرة لحواسه جميعاً، وقد كان لا بد لرجل مثله أن يصاب بمثل تلك الحمى، لأن كل ذلك كان طعناً في المصريين والمسلمين. وقد كان مصرياً مسلماً تحز في نفسه الألم حزاً، وطغت على حواسه أزمة عصبية حادة. وما لبث الألم النفسي أن أصبح مادياً فأثر في جسمه تأثيراً بالغاً ألزمه الفراش. ولا بد أنه قد وقعت كل كلمة من كلمات الدوق في نفس قاسم أمين موقع الاهانة التي وجهت لشخصه هو نفسه. وما دام قد أحس بهذه الاهانة فقد ثارت نفسه، فراح يعرض آراء الدوق على أصحابه، وراح يقلبها في نفسه على وجوهها، وراح يبحث وينقب عن مدى صحتها، وراح بعد كل ذلك يجمع بحوثه في كتاب يرد به على الدوق الفرنسي فألف كتابه «المصريون – رد على الدوق داركور» في خلال أشهر قليلة.

وشعور آخر أثارته في نفس قاسم أمين قراءة هـذا الكتاب، فقد كان الرجل مؤمناً بكثير من المثل العليا التي انتهت إليها الجماعة المستنيرة في مصر، وحينما قرأ هذا الكتاب أحس بأن آماله الكبار التي كانت تجول في نفسه كادت تنتزع من أساسها انتزاعاً. وقد كان حفياً بمثل هذه الآمال، يرى أن قومه مقبلون على تحقيقها، فخشي أن يكون هو وأصدقاؤه مخدوعين فيها، وخشي أن تكون الجماعة المصرية حقاً قد قضى عليها التحلل الاجتماعي الذي وصفه الدوق. وساورته تلك الفكرة كالألم المبرح، ونهض إلى الرد عليها كما لو كانت قد لدغته أفعى. فقد كان هـذا التشكك تشككاً في وجوده هو نفسه. وهو لا يستطيع أن يعيش إلا بالأمل، ولا أن يعيش في أمته إلا إذا آمن بأنها سائرة في سبيل التقدم. فدفاعه عن المصريين إنما هو دفاع عن كيانه، ودفاع عن آماله في الوطن والدين. ثم هو بعد ذلك بحث يحاول به أن يطامن الشك الذي كاد أن يتسلل إلى نفسه. إنه تبرير لوجوده وإحياء للرجاء الذي كاد يخيب وبعث للروح التي كادت تخبو.

(1) Les Egyptiens - Reponse à M. Le Duc d'Harcourt تأليف قاسم أمين.

أوجس شرا. وحدثته نفسه أنه إنما جاء يطلب صيداً. فتبعه من حيث لا يراه، فلم تخطئ فراسته. وأبصر به وهو يحاول نشل جاره فأسرع إليه. وكان سبباً في القبض عليه وتقديمه للمحاكمة.

***

والآن بقيت هذه الكلمة الأخيرة التي لا يتم هذا البحث إلا بها... وهي أن «النوروز» – بخلاف «السيكوز» – تدخل أعراضه تحت طائلة العقاب. ولا يعفي القانون أصحاب هذا الداء إذا تركوا أدواءهم تعيث بمصالح الناس. لأن «النوروزي» فوق إدراكه التام لما يصدر عنه من الأعمال، وعلمه العلم اليقين بأنه يقارف عادة فيها افتئات على صالح الجماعة التي يعيش فيها، لا يزال يملك شيئاً من الخيار في توجيه نفسه، وتحديد مسلكه. ومهما تكن قوة البواعث النفسية التي ترمي به في الاتجاه الخاطئ فإنه يستطيع أن يقي نفسه من شر المهالك. وأن يربأ بها أن تقف مواقف الغواية. وفي المثل الأخير الذي سقناه رأينا كيف عرف ذلك الشيخ المسكين أن يجنب نفسه مواطن العطب طوال أربع سنوات. وصدق رسول الله إذ يقول: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه». أو كما قال...

ح. ج

بدأ قاسم أمين رده على دوق داركور وهو مؤمن بمبدأ التقدم ، أى أنه مؤمن بأن كل جماعة من النـاس تتطور إلى غرض أسمى ، وأنها فى تطورها قد تلقى أخطاء ، وقد تعانى الظلم والجهل والفقر ، لـكنها على أى حال سوف تتغلب على كل ذلك ، فتصل فى يوم من الأيام إلى ما جعلته أمامها من أغراض سامية . ومصر نفسها كانت فى آخر القرن التاسع عشر تعانى كثيراً من هـذه الأخطاء التى صادفتها فى انتقالها من طور إلى طور ، فاذا كانت مصر فى حالة من الجهل والفقر ، فقد مرت فرنسا بمثل هذا الطور ، لكن الماضى لم يقف حجر عثرة دون تقدم الفرنسيين ، ولن يقف كذلك حجر عثرة دون تقدم المصريين . كانت فرنسا فى السنين التى سبقت الثورة الكبرى تعانى من النقائص ما هو معلوم ! فقد كان الزراع فيهـا مرتبطين بالأرض يباعون معها ويشترون كما يباع الرقيق ، وكان الخول من الحقوق فى عهد الاقطاع ما لم يحلم به أمير شرقى ، وكان الأمر فى القضاء رهينا بالقوة الغشوم ، وكان أسلاف الفرنسيين يسامون الخسف والعذاب لأتفه الأمور ، وكان النبلاء الفرنسيون يحتقرون التجارة والصناعة والعلم والفن . لـكن كل ذلك لم يمنع الأمة الفرنسية من أن تصبح أمة عظيمة ، فلم يرى دوق داركور أن ماضينا سوف يحول دون التقدم الذى نرجوه ؟

ثم هو يحلل المجتمع المصرى ، فيبحث فى شئون الفلاح والحكومة والدين والنساء والخلق والعلم والأدب ، وله فى كل شأن من هذه الشئون رأى ينبغى أن نجمله لك .

***

إن الذى انتقده الدوق داركور فى الجماعة المصرية من عدم وجود الاختلاف بين الطبقات آية من آيات كياننا الاجتماعى . ويرى قاسم أمين أن الاسلام قد سوى بين الناس جميعاً ، وليس من قواعد الجماعة المسلمة أن يرث الرجل امتيازاً خاصاً لأنه ولد من أسرة أو طبقة خاصة . بل لقد سبق الاسلام كل النظم السياسية الثورية بألف سنة أو يزيد ، حين أنكر امتيازات الميلاد أو الثروة ؛ وهو من بين الأديان جميعاً يفسح المجال لكل ذى عمل أن يحسن عمله فيرقى من أدنى الدرجات حتى يبلغ أسماها . ثم ليس فى الاسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت للكنيسة ، وليس فى الجماعة المسلمة فئة تتمتع بالسلطة الدينية على حساب الآخرين . وللفقراء والمحرومين حق معلوم فى أموال الأغنياء ، فلهم جزء من أربعين جزءاً من كل مال منقول ؛ وهذه ضريبة لو أحسن القيام عليها لاستطاع الفقراء أن يعيشوا فى هناءة إلى جانب الأغنياء . ومثل هذا النظام يوفق بين المصالح المختلفة ، وهو فى مجموعه يمثل الاشتراكية الحقيقية . ثم قد انحدر إلينا من تعاليم الاسلام ما يؤيد دائماً الاخاء والمساواة ؛ فقد وقف على بن أبى طالب أمام القاضى الذى عينه هو نفسه ؛ وخطب عمر لما أن ولى الخلافة ، فطلب إلى المؤمنين أن يقوموه إذا رأوا منه اعوجاجا . وكل هذه ميزات ينبغى لأوربا أن تتعلمها من الاسلام ، ويجب على فقهائها أن يوفقوا بينها وبين بيئاتهم الخاصة .

ذلك النظام الاجتماعى والسياسى قد هوى فى حال من الانحطاط والتدلى ، حينما اضطرب المسلمون وأصبح الأمر فوضى ليس له أساس من علم ولا من دين . فقد قام على الجماعات المسلمة طغاة لا يعرفون إلا صالحهم الشخصى . وقد عبرت مصر قروناً يستغلها وحوش فى صورة آدميين ، أقبلوا عليها من كل بقاع الأرض ، فكانت مسرحاً لفظائع الظلم والقسوة ؛ لـكن الحكومة الحديثة فيها قد قامت بكثير من الاصلاحات ، فقد ألغت الكرباج والسخرة ، وحددت مواعيد دفع الضرائب ، وثبتت مالية البلد ونشرت التعليم . وكل هـذه الاصلاحات سوف ترجع بنا إلى النظام الأول الديموقراطى .

ويرد على الدوق داركور فيما يختص بالمرأة المسلمة فيقول : إن حظها قد ارتبط بحظ الرجل ، والذى أثر فى مركز الرجل فى عصور الجهالة والظلم هو نفسه الذى أثر

فى مركز المرأة . وليس الدين هو الذى أنزل المرأة ذلك المنزل الوضيع ، وليس هو الذى وسمها بميسم المهانة والصغار ، لأن الاسلام قد منح المرأة المسلمة من الحقوق ما لم تكن قد منحته المرأة الفرنسية حتى آخر القرن التاسع عشر . « فالمرأة المسلمة — حتى إن تزوجت — تحتفظ بحقوقها المدنية . فلها الكفاءة شرعاً على أن تتصرف فى أمورها دفعاً أو متماً من غير أن تستصدر تعويضاً من زوجها أو من المحكمة . إنها تستمد كفاءتها هذه من شخصيتها هى نفسها ، وليس للزوج عليها إلا سلطان معنوى فحسب . »

وهو لا يرى فى تعدد الزوجات ولا فى الطلاق هذه الشناعة التى يراها كتاب الغرب ، لأن عدداً كبيراً من رجال المجتمع الغربى تتقسمهم زوجاتهم وخليلاتهم . وليس هذا إلا تعدداً للزوجات ، لولا أنه تعدد غير شرعى ، ينتج أطفالا بلا آباء ، ويترك زوجات بلا أزواج ، ويطبع الفتيان والفتيات بطابع الجريمة . وقد أدرك الشرع الاسلامى كل هذه الأخطار ، فحلل تعدد الزوجات والطلاق إذا فسدت العلاقة بين الزوجين . على أن الأصل فى الدين أن يكون للرجل زوجة واحدة ، وعلى أن يُبقى عليه زوجه ، لأنه قضى على صاحب الزوجتين أن يكون عادلا أشد ما يكون عدلا ، واعتبر الطلاق حلالا ، لكنه حلال مكروه كالحرام .

ويحاول قاسم أمين أن ينقد حال المرأة فى أوربا ، وهو يورد إحصاءً قاسياً من عدد المومسات فى فرنسا ، ويدلل على أن ربع المواليد فيها كانوا غير شرعيين ، وأن مائة وخمسين ألفاً منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون أمهاتهم ، حتى كاد جول سيمون يهذه الحالة المزرية . أما السبب فى كل ذلك فيرجع إلى الاختلاط الشديد بين الرجل وبين المرأة . فالمرأة الأوربية تسقط دائماً فى حمأة الرذيلة ، لأنها تجد الظروف مهيأة لها . فهناك الفُسح الطويلة التى يقضيها الرجل والمرأة وحدهما على الحشيش الأخضر البراق ، وهنالك حمامات البحر حيث تلبس المرأة كل ما يبدى تقاسيم جسمها ، وهناك تلك الحفلات الصاخبة ، حيث يصطحب الصديق زوجة صديقه ، وهناك الولائم الفخمة حيث الخمرُ تفقد الأنسن ، وحيث تلتف الساق بالساق ، وتصطك الأقدام بالأقدام تحت الموائد ؛ ثم هناك بعد كل ذلك المراقص حيث تلبس النساء من الثياب الشفافة ما يبلغ إلى تحت الأكتاف . تلك الصور المتهتكة الباريسية التى ذكرها قاسم أمين هى التى أنتجت ذلك التحلل الخلقى فيما يختص بالمرأة الفرنسية وهى صورة يجب أن نذكرها نحن حينما نعالج رأيه فى الحجاب .

وعنده أن وجهة النظر المصرية نحو المرأة تختلف عند المصريين من ذلك كل الاختلاف . فالمصريون يؤمنون بأن الفضيلة مثل معنوى أعلى يضحى فى سبيله بكل ملذات الدنيا . وقد استطاع المسلمون أن يضحوا بملذات الدنيا فى الألف سنة التى عاشوها على ظهر الأرض . وقد وقى كل ذلك من بناء الأسرة ، فتمنا كل دخيل من أن يفسد علينا حياتنا الخاصة ، وطهرنا دورنا مما قد يخدش نساءنا .

* * *

وهو يفسر قواعد الاسلام الخمس ، ويثبت أن الاسلام دين فيه بساطة ، بحيث لم يتغير فى مئات السنين التى عاشها على ظهر الأرض . أما القرآن فهو كتاب خلقى خالص تحس فى آياته فلسفة واقعية فكرية ، كما أنه ينطوى على مبادئ إنسانية تؤثر فى الاجتماع والتشريع . والقرآن هو الذى خلق من تلك الأمة الهمجية شعباً قوياً منظماً ، وهو الذى ثبت فى نفوس المسلمين وحدانية الله ، وأشاع بينهم الاخاء والمساواة ، وألف بين قلوبهم بالصدق والكرم والاخلاص والأمانة والتسامح .

ولكن ألا يزال المسلمون مسلمين حقاً كأول

ما بدأوا ؟ كلا ! فهل الاسلام يأمر بالتهاون والانقسام والحقد والهوى والكسل والجهل والتعلق بالخرافات وكل ما نلقاه في مصر من تلك المساوئ ؟ هل الاسلام هو الذي منع علماءنا من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك ؟ هل الاسلام هو الذي أسلم المصريين لجماعة من الطغاة المستبدين ؟ وهل سمح الاسلام لهم أن يعبدوا صنما في صورة إنسان ؟ لقد كان المسلمون عظماء حقاً حينما تمسكوا سياسيا بالنظام الاسلامي وحينما بنوا كيانهم الاجتماعي على الخلق الشديد . وفي الوقت الذي تخلوا فيه عن تلك الأخلاق بدأت كل الكوارث التي تربصت لهم في تاريخهم الحديث .

أما العلاقة بين الاسلام وبين العلم فقد عالجها قاسم أمين في فصل قائم بذاته ، وهو يرجع الدوق الفرنسي إلى كتابات المستشرق الفرنسي سديو . فالاسلام لم يعترض تطور العقل الانساني ولا تقدم العلوم ولا الآداب ، ولم يحل دون استكشاف الحقائق العلمية . وقد مضت فترة كان العلماء المسيحيون ينقلون العلم عن العلماء العرب . وفي القرآن آيات تحض المسلم على أن يفكر في خلق السموات والأرض ، وأن يبحث ماهية هذا العالم والعوالم الأخرى . وإنما عاق التقدم قوم من الجهلة الذين حاولوا تفسير القرآن حسب ما يمليه عليهم الهوى ، وعند ذلك تسربت إلى الدين فئة من الأوهام والخرافات هي التي يحسبها الساذجون من أصول الدين ، وليست في الواقع من الدين في شيء . وسيأتي يوم تجتمع فيه الانسانية تحت راية الاسلام حينما يتبينون أنه دين العلم ودين السياسة ودين الاجتماع .

* * *

وكان للخلق نصيب كبير من كتابة قاسم أمين لأن دوق داركور اتهم المصريين بأنهم لا يؤدون من واجبات دينهم إلا شكلياتها ، واتهمهم بالكذب وباختلاقه وبخاصة في المحاكم ، واتهمهم بالانغماس في الشهوات . ويرى قاسم أمين أن النظرة إلى الخلق تختلف دائما باختلاف الجماعات والأفراد والأديان . ولعل مدار الخلق عند المسلم أنه يفكر في الآخرة أكثر مما يفكر في الدنيا . فهو يحتقر المال ، وبعض المسلمين الأغنياء لا يتقاضون أرباحا على أموالهم في المصارف . والمسلم بعد ذلك عفيف يكره من الأوربي استهتاره ، ويرى أن الغربيين يعيشون في نظام اجتماعي يثير في الرجال والنساء كل غرائز الدنيا .

أما من الكذب الذي ذهب الدوق داركور إلى أنه عيز المصري فقد أخطأ الدوق حيث قدره . ذلك بأنه استقى معلوماته من قضاة في المحكمة المختلطة ، وهؤلاء لا يقدرون موقف المدعين ولا الشهود المصريين الذين يؤتى بهم أمامهم . إن المصري ليعلم أن المحاكم المختلطة أداة من أدوات الظلم والعسف التي يستخدمها سكان البحر الأبيض لإذلاله ، فهو يحاول دائما أن يتخذ من الكذب سلاحا يدافع به عن نفسه . والفلاح بوجه عام لا يقترف جريمة إلا مضطراً لأنه يفعل ذلك انتقاما من أولئك الذين يسيئون إليه . لقد يكذب وقد يسرق وقد يبدد المحصول ، لكنه إنما يفعل ذلك لينتقم لنفسه . فإذا هو أقام وحده بعيداً عن تلك العناصر التي تسيء إليه تمثلت فيه الصفات الكريمة من الأمانة والكرم وطيبة القلب .

* * *

ويبلغ بنا قاسم أمين الفصل الأخير من كتابه حيث يتحدث عن « أوربا » ، وهنا تشتعل نفسه اشتعالا ، لأنه يدافع عن بلاده بكل قطرة من قطرات دمه . والفصل في نفسه آية من آيات الوطنية لأنه صرخة من فؤاد مفزوع . ولأنه يبين لك مدى السخط الذي كان يحس به قاسم أمين على النشآت الأوربية التي حاول أهل الغرب أن يفسدوا بها أهل الشرق . هو صرخة داوية من صرخات السخط على المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية وعلى العبث الذي لازم كل ذلك ، ولن يحدثك عن كل

ذلك مثل مستشار خبير .

ويرى قاسم أمين أن حكام مصر في الزمن الحديث قد حاولوا أن يسيروا بالبلاد نحو التقدم المنشود . لكن الشوط الذي قطعوه كان قصيراً ، لأن أوربا هي التي خلقت لهم العثرات في طريقهم . أوربا هي التي حاولت دائماً أن تؤيد مصالحها ، وأن تنبذ مصالح مصر ، ومصر نفسها أصبحت لعبة تعبث بها بلاد الغرب . فالقناصل في بلادنا يكونون ممالك مستقلة تحمي المجرمين واللصوص وسفاكي الدماء من رعاياهم . وعلى الرغم من أن مصر تعاملهم بأكثر مما ينبغي من التجلة والاحترام ، فانهم لم يجدوا سبيلا للاساءة إليها إلا سلكوه . محاكمهم تعتدى على محاكمنا ، وتجارتهم مفروضة علينا ، لأنهم عارضوا في تعديل تعريفتنا الجمركية ، ورعاياهم يعيثون في الأرض فساداً ، ويتمتعون بأكثر خيرات الأرض دون أن يدفعوا ضريبة واحدة . وهكذا نحتمل نحن هذه المساوئ التي يسمونها امتيازات ، لكنها في الواقع لم تكن إلا سلاسل تقيد حركاتنا . وكيف يستطيع وطن هذا شأنه أن يسير نحو التقدم ، ما دام كل ما نفعله رهيناً بإشارة نتلقاها من أي بلد من بلاد أوربا ؟

***

تلك خلاصة لدفاع قاسم أمين ، لعلك قد رأيت فيها وجهاً من الوجوه القومية المصرية في آخر القرن الماضي . فاذا كان الدوق داركور قد بصرنا بكثير من المساوئ التي عانت منها الجماعة المصرية منذ خمسين سنة ، فان قاسم أمين قد وصف لنا الأمثلة العليا التي كانت تحدو هذه الجماعة . الدوق الفرنسي كان يصف الواقع ، والمستشار المصري كان يعترف بهذا الواقع ، لكنه كان يبسط لنفسه ولأهل وطنه ذلك الأمل العريض . وسوف يكتب قاسم أمين بعد ذلك عن كل تلك المساوئ ، وسوف يدعو إلى إصلاحها بكل ما أوتي من قوة الايمان ، لكن بدء تفكيره في الاصلاح هي هذه المناقشة الكتابية الحادة التي رمته في جنبات الشك حيناً ، لكنها كانت مقدمة لبناء اليقين .

(بني سويف) **أحمد خاكي**

ماهية الألوان الفنية

للدكتور شوقي ضيف

قد يكون من الصعب أن يتحدث ناقد عن ماهية الألوان الفنية ، وبيان طبيعتها وحقيقتها ، فغير قليل من الغموض يحوط صناعتهـا ، ويقف بيننا وبين معرفة أسرارها . غير أن من واجبنا دائماً أن نحاول الكشف من هذه الأسرار وإذاعتها ، حتى نحقق لأنفسنا فهماً دقيقاً ، أو على الأقل فهماً واضحاً بالفن وطبيعته وطبيعة صناعته . ونحن لا نرتد في هذا الصنيع إلى فكرة التعريف ، فعقلية العصر الحديث لا تؤمن بتلك الفكرة التي عرفت من التحديد المنطقي واللغوي ، والتي نراها قاصرة عن بيان حقائق الأشياء وطبائعها ، إنما يؤمن العقل الحديث بالتحليل الذي يقوم على التقسيم والمقارنة ومعرفة الخواص والصفات معرفة دقيقة ، ولكن كيف نحلل الألوان الفنية ، وما وسائلنا إلى ذلك ؟

إن هذه الألوان تختلف باختلاف الفنون ، فألوان فن كالرسم ، ليست كألوان فن آخر مثل الشعر : الأولى يمكن أن تنظر وأن تحدد وتعين بمكان خاص ولوحة خاصة ، ولذلك كانت دراسة الألوان في الرسم دراسة واضحة قد عرفت أصولها واكتشفت رسومها ، أما ألوان الشعر فلا تزال مبهمة لم تتضح أوصافها وشاراتها ، لأنها لا تتقيد بمكان من لوحة نبصرها ، إنما تشيع في زمان ممتد واسع تنبسط فيه صورها وأصباغها التي تفترق بافتراق المناظر والمواطن ، كما تفترق زرقة وحمرة وخضرة ، فإذا الباحث حائر يريد أن يجمع اللون في حيز معين ، فيستعصي عليه إذ يراه يهتز في أزمان واسعة ، ما تزال تصبغ حواشيه فيها بتلونات تتغير في إطاره أو في داخله تغيرات تنفذ به إلى ما لا يحصى من أصباغ ، تقع بين طرفي اللون الفاقع والباهت .

ليس من السهل أن نحدد اللون في الشعر ، فاللون يكون على ألوان مختلفة ، أو كما نريد أن نصطلح يكون على أصباغ مختلفة ، فله تلوناته التي نراها داخل ورقة من شجرة لا تكون في جميع جوانبها بصبغ واحد ، بل له تلوناته التي نراها داخل اللون في الطبيعة ، يكون على صور وأشكال مختلفة ، تختلف باختلاف مناظره ومواطنه ، كما تختلف باختلاف أوضاعه ، وما ينعكس عليه من أشعة وأضواء ، فإذا هو يتحول عن لونه ، أو بعبارة أدق عن صبغه ، إلى صبغ جديد مخالف . غير أن تلك الحقيقة الكبرى التي توشك أن تجعل ألوان الشعر غير منحصرة ولا محدودة ، بحيث يستطيع الباحث أن يحللها تحليلاً دقيقاً ، ينبغي أن لا تولي وجوهنا عن غايتنا ، بل ينبغي أن نستعين بها على خفي هذه الألوان ومستورها ؛ فنحن إنما ندير أبصارنا من الشعر إلى الطبيعة ، حتى نعرف أن الصحيفة لا تتبدل ، وأن من الممكن أن نطبق ما نعرفه في إحدى الصحيفتين على الأخرى دون أن نقع في حيرة أو اضطراب . ولعل أول ما نلتفت إليه من ذلك أن الألوان في الشعر يمكن أن تنقسم — كما تنقسم في الطبيعة — إلى ألوان زاهية وأخرى قاتمة .

أما الألوان الزاهية فهي التي توجد في الشعر دائماً ، هي الألوان الذاتية البهيجة التي زينه بها الصانع الأول ، واقترحها يوشي بها أجنحته ، حتى تضيء بتلك الألوان الخالدة التي ينبع بعضها من التصوير وبعضها من الموسيقى . هناك إذاً في الشعر ألوان متأصلة توجد فيه دائماً مهما تكن لغته ومهما يكن موطنه ، ومهما تختلف أدواته ووسائله ، وهي ألوان تستمد وجودها آونة من الأشباح التي تحدث حركة دائمة في الشعر ، وآونة أخرى من الأصوات التي ما زال الشاعر يؤلف بينها وينسق ، حتى تتحول جوانب منها إلى ما يشبه إيقاعات الرقص ، فالألفاظ تتشابك وكأنها تريد أن تتعانق ، ذاهبة راجعة في موازنات ومعادلات غريبة .

وأما الألوان القاتمة فليست من طبيعة الشعر ، ولا من

جوهره ، ونقصد بها تلك الألوان التى تتسرب إليه من الفلسفة أو الثقافة ، فهى ألوان ليست فنية ، وليس من طبيعتها أن تكون زاهية ، ليست كالألوان الأولى . هى ألوان من نوع مخالف ، هى ألوان فلسفية أو هى ألوان ثقافية ، وهى لا تصيب الشعر بآية من جمال إلا حينما يأخذها شاعر ممتاز ، ويحولها من ألوانها الأصلية إلى ألوان جديدة يجعلها ألوانا زاهية أو ضاربة إلى الألوان الزاهية : يخرج ما فيها من قتمة ، ويحولها إلى ألوان فنية مفرحة . فالفلسفة تتحول إلى فن ، والتاريخ يتحول كذلك إلى فن ، وكل نبع ثقافى يتحول إلى نبع فنى ، تضىء مياهه بألوان غريبة ، ليست هى ألوان القاع الذى جاءت منه ، إنما هى ألوان الوادى الذى تتحول إليه والذى يحيلها إلى بدع جديد ، فإذا هى تتراءى على أشكال غير أشكالها ، وتنقلب إلى صور غير صورها ، تنقلب إلى عجب من الفن والتصوير ، على تلك الشاكلة التى نرى فيها السحاب القاتم حينما يصبغ بحمرة الشفق فتلتمع ألوان بهيجة فى كُنَفه وحواشيه .

والألوان فى الشعر كما تختلف هذا الاختلاف العام من زاهية وقاتمة تتحول من صورتها ، كذلك تختلف فى نفسها بحسب ما يصيبها من ألوان أخرى تتعلق بها فإذا هى غير شياتها وألوانها . وكما أن اللون يتحول من شكله حين يمر فى ضوء صناعى أحمر أو أزرق أو أخضر ، فكذلك اللون فى الشعر يختلف فى تلونه أو فى صبغه ، حين يمر فى ثقافة جديدة أو فى مدنية جديدة . وكم من لون ذابل التف عليه أو احتضنه لون ثقافى أو فلسفى ، أو دار معه دورة على أى شكل أو أى وضع فإذا هو غير صورته المألوفة . وانظر فى لون الطباق المعروف ، فقد مرّ فى ضوء صناعى من الفلسفة عند أبى تمام ، فاستحال إلى لون مخالف ، استحال إلى لون التناقض . وهو لون قاتم ، غير أن أبا تمام عرف كيف يحوله إلى لون زاه من ألوان الفن الزاهية ، واقرأ هذا البيت فى بعض ممدوحيه :

صيغت له شيمة غراء من ذهب لكنها أهلك الأشياء للذهب

فستجدك أمام تفكير غريب ، شىء يهلك نفسه ، بل هو ذهب يهلك نفسه هذا الهلاك الغريب الذى يستخرجه أبو تمام بقانون التناقض ، فإذا هو يعبر عن ممدوحه بصورة متناقضة ، ولكنها صورة ذهبية تحلو فى نفوس السامعين لغرابتها وما بها من لمعان الذهب ، بل من لمعان الفلسفة والفن . وانظر إلى قوله :

بيضاء تسرى فى الظلام فيكتسى

نوراً وتسرب فى الضياء فيظلم

أرأيت إلى هذا التناقض وهذا الضياء المظلم ؟ إن حقائق الأشياء تتغير فى شعر أبى تمام تغير هذا الضياء ، وإنه لضياء غريب لا يستطيع شىء أن يعبر من فتنته إلا أن يعود أبو تمام فيتصور السَّحر كأنه ضحى إذ يقول فى الربيع :

ما كنت مثل السحاب حباً ضحكت حواشى خده القرب

فكأنه صبح تبسم من سَحر ضئيل فى ضحى شَحب

وعلى هذا النمط ما نزال نرى أبا تمام ينقل النهار إلى الظلام والظلام إلى النهار ، ويستخرج من ذلك ألوانا متعاكسة ، تخرجنا من أوقاتنا التى تقيدنا ، وتطلقنا من عقال أمكنتنا ، وتجعلنا نتحرر فى داخلنا من كل ما يتعلق بنا . وانظر إليه إذ يقول :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يمطر

أرأيت إلى هذا المطر الذى يمطر صحواً ، وهذا الصحو الذى يكاد يمطر مطراً ؟ ثم أرأيت إلى هذه النضارة الخاصة التى توشك أن تجعل الصحو يمطر ؟ إنها نضارة غريبة يعرف عقل أبى تمام كيف يحيلها إلى هذه الصورة من الحياة والمطر . وإن كنت تعجب من هذه النضارة الممطرة ، فارجع إلى شعره تجد نضرة أخرى شاحبة لعلها لا تقل عنها غرابة إذ يقول :

رب خَفض تحت السُّرى وغَناء

من عناء ونضرة من شحوب

فالنضرة قد تكون زاهية ، وقد تكون باهتة ، ويستخرج أبو تمام من أحوالها صوراً متناقضة ! فإذا هو يهيج مشاعرنا ، وينفخ في أرواحنا وعقولنا بهذا البوق القريب من التناقض أو الطباق ، وما أصابه من ثقافة الفلسفة .

ونحن نعود فنلاحظ من طرف آخر أن اللون لا يتكرر في صورة من صوره ، فمهما تراكت أوضاعه وأصباغه ، فلن نجد وضعاً ولا صبغاً مكرراً . وكما أن الزمان لا يعود وإنما يمتد ، كذلك اللون في الشعر لا يعود وإنما يمتد ، وهو أثناء امتداده تتغير أصباغه وأوضاعه بحسب ما يعرض فيه . وإذا كنا نرى منظر المياه يختلف باختلاف ما يقع عليها من حركات ، وما يعلوها من زبد وأمواج ، والمياه واحدة لم تتغير ! فكذلك اللون في الشعر دائماً يتحرك هذه الحركة ، فإذا هو يرى متموجاً ، أو متقوساً ، أو منحنياً ، أو في شكل دائري أو كروي ، إلى ما لا يحصى من صور وحركات لا سبيل إلى حصرها أو ضبطها ، إلا إذا استطعنا أن نحصر أو نضبط الأشكال المتعاقبة لأمواج ما تزال بين صعود وسقوط على ساحل تختلف مناظره باختلاف ما يستقبل منها ، وما يقبل به من تلقاء نفسه عليها .

اللون في الشعر غير منحصر لا نستطيع أن نحدده ، أو نعينه ، إذ يتراءى في كل منظر وفي كل موطن بأوصاف تختلف باختلاف المناظر والمواطن ، وما يتشح به من ألوان أخرى ، قد تطوقه أو تنطقه أو تقع في ذروته ، أو في حاشيته . ليس في الشعر لون مادي جامد ، فاللون فيه دائماً لون سائل ، كلما مر على عنصر أو طبيعة مغايرة من الفكر تحول عن شيأته وسماته إلى أوساط لا تحصى من الألوان والأصباغ .

وأنت تستطيع أن تعود إلى تلك الألوان الكثيرة التي اصطلحنا عليها ، والتي تقوم أسماؤها بيننا وبين رؤيتها في حقيقتها ، وتطبق عليها هذه الفكرة ، ! فإنك ستراها تأخذ أشكالا جديدة في نفسك ، ولن تصاب بعقم ولا جمود بعد اليوم ! بل ستفهم هذا الجانب الفني في صناعة الشعر فهماً لا أزعم أنه دقيق ، ولكني أزعم أنه يكشف لنا من جوانب لم نكن نحسن النظر فيها ، وكنا قد ألفنا أن نفكر بالاسم والتعريف ، لا أن نفكر بالعقل والتحليل ، فإذا اللون في الشعر يطوى منا ، وإذا هو يدور في أوعيته بعيداً عنا ومن أنظارنا التي قلما علق بها شيء منه ومن أصباغه وأوضاعه .

شوقي ضيف

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيي وهو ثمرة بحثي وجهدي ، فمن سره فهو لي صديق ، ومن ساءه فليس أحب إليّ من أن يجلو لي رأيه ويعرض برهانه ؛ لتصحيح رأيي ، أو تعديل فكرة ، أو تحقيق خبر . وإن من الفضيلة ألا نثبت على الرأي إلا بمقدار ما نؤمن به ..."

(قاف)

الأدب والسياسة :

فى العدد ٩١٧ من المصوّر :

« الحاكم اليوم لا تسمع مرافعات طويلة ؛ بسبب قلة القضاة ، وكثرة القضايا ، وضيق الوقت . . . »

« البرلمان اليوم لا يسمع خطباً طويلة ؛ بسبب ضيق الوقت ، وضرورة التصديق على الميزانية . . . »

« الاجتماعات اليوم ممنوعة بمقتضى الأحكام العرفية »

« هذه هى الحرب ، وهذه هى الظروف وضروراتها ؛ وسيترتب على هذا وذاك حتماً ، أن اللسان الفصيح لن يجد إلى أمد بعيد المجال أمامه للجولان والصولان والتدفق فى البيان . . . »

قلت : هذا لون من المؤثرات السياسية فى أدب الجيل ، وإن للحرب والسياسة لأثراً عميقاً فى الأدب ، وإنه ليتناوله فى « الكيف » والقيمة أكثر مما يتناوله فى « الكم » قلة وكثرة . على أن ثمة مؤثرات أخرى « إيجابية » لعلها أبقى أثراً وأبعد غاية من هذه المؤثرات « السلبية » . . .

. . . هذه « التعبيرات الجديدة » التى تجرى على ألسنة المتحدثين من رجال الحرب والسياسة ، فتُخفق وتوهم أنها تعلن ، وتنفى حيث تظن أنها تثبت ، وتقر وأنت تحسبها تنكر . . .

. . . وهذه « الأساليب الجديدة » التى تكتب بها الصحف والمجلات ، فتَنطوى لِتنتشر ، وتصرّح لتكنى ، وتستفهم لتُفهِم . . .

. . . هذه التعبيرات وهذه الأساليب هى أثر من آثار هذه الحرب فى أدب الأدباء ، وحديث الخطباء ، وكلام المتكلمين ؛ وأحسب لو أن باحثاً مدقّقاً تتبّع هذه التعبيرات والأساليب فى الصحف والمجلات ومنشورات الدعاية وأفواه القواد والساسة ، لخرج من بحثه بمعجم أدبى حافل يضيف فصلا كبيراً إلى كتاب « أدب الحرب »

هذا أثر السياسة والحرب فى « البيان الناطق » ، بيان الخطيب والزعيم والقائد والمحامى والنائب ؛ فأين يبلغ هذا الأثر فى « البيان الصامت » ، بيان الكاتب والمؤلف والصحفىّ ؟

هذه جرائدنا ومجلاتنا ، ماذا كانت وكيف صارت ؟

ماذا تقرأ اليوم فى جريدة مثل « الأهرام » وكانت كتاباً فصارت ورقة ؟

وكم تخرج المطبعة العربية اليوم فى مصر من كتب وكانت مطبوعاتها ذائعة فى المشرق والمغرب ؟

ومن أين للقارىء العربى اليوم ما يدفعه ثمنا للكتاب وهو يفكر فى ثمن الرغيف ؟

وهل قرأت ما كتب ناجى والصاوى عن الباعة الذين يدورون بدكاكين الجزارين والبقالين يبيعونهم ما يقع لهم من كتب العلم والأدب والحكمة ليتخذوا منها « قراطيس » للحم والملح ، أوللعدس والفول و« السردين » بعد ما كسدت للأدب سوق وراجت للورق سوق ؟

. . . ولكن ذلك كله ليس هو « كل » أثر الحرب والسياسة فى أدب الجيل وأدباء الجيل ؛ إن كانت على شفتىّ تختلج ، وإن حديثا على لسانى يجمجم ولا يبين ، وإن خواطر تصطرع فى رأسى وفى وجدانى . . . إن هنا ، على شفتىّ ولسانى وفى رأسى ووجدانى ، أثراً من آثار

الحرب والسياسة فى الأدب والفكر والبيان ، بل إن هنا « كل » آثار الحرب والسياسة فى الأدب والفكر والبيان !

فى سبيل السلام !

فى سبيل السلام نشبت الحرب بين توفيق الحكيم والعقاد ، ونال رشاشها طه حسين و « الأديب الفلاح » زكى مبارك !

هل كان توفيق الحكيم يقدر يوم نشر كلمته الأولى يدعو الأدباء إلى السلام والمحبة أنه يبذر بذور معركة يناله منها ما يناله وينال أصدقاءه ما ينالهم ، ويقول فيها الطالبُ الفتى لأستاذه الشيخ ما يقول ويستمع ما يستمع ؟ . . .
ولكن المعركة قد نشبت وإنها لتوشك أن تحتدم !

. . . وقلت لتوفيق الحكيم وقد لقيتُه ذات مساء بعقب دعوته الأولى وكان يتحدث فى موضوعها : ياصديق ! إنك لتفترض وهماً وتدعو إلى محال ؛ فليس بين أدبائنا خصام ولكنك لا تستطيع أن تجمعهم على سلام ! . . .
وخيِّل إلىّ أنى قد أبلغتُ وبلّغت ، ولكن توفيق مضى فى دعوته إلى السلام والمحبة لينشىء معركة ويورِّث ناراً !

وبين الكناية والتصريح والإيماء والإشارة ، بدرت إلى ذهن القارىء مما كتب الأدباء الثلاثة فى هذه المعركة معانٍ لعل أحداً منهم لم يقصد أن ينال بها صديقه ، ولكنها تناولتهم فى ذهن القارىء من قريب أو من بعيد .

فى الأدب وفى السياسة ما نزال نجرى على أسلوب واحد فى جدال خصومنا فى الرأى ، هو أسلوب « التأويل » ، ثم « الاستنباط » ، ثم « الحكم » !

ليت شعرى أذلك من المؤثرات السياسية فى أدباء الجيل ، أم هى طبيعة الجيل تؤثر أثرها فى أدبائه وساسته على قدر سواء ؟

عبث !

للعقاد فى ابن الرومى رأى مشهور ذائع يحلو له أن يؤكده كلما سنحتْ له الفرصة ، وقد سنحت له فرصة فى حديث نشره فى الرسالة منذ أسابيع ، فبرز له فتى يعارضه ويسأله تطبيق رأيه فى بيتين نسبهما الفتى إلى ابن الرومى وطلب إليه أن يدله على موضع الجمال فيهما ؛ ولم يحجم العقاد ولم يجمجم ، ولكنه لم يقطع برأى فى نسبة البيتين إلى شاعره ؛ وليس فى الدنيا كلها أديب يزعم أن له الحق فى أن ينفى شعراً من شاعر لأنه لم يقرأه فيما قرأ من شعره ؛ وكان فى جواب العقاد الشفاء لو أن سائله كان يستشفى ؛ ولكن الفتى لم يكن مستشفياً يطب لدائه ، ولا متعلماً ينشد المعرفة ؛ ولكنه كان عابثاً يلهو ؛ فكتب فى « الصباح » يقول : لقد أوقعتُ العقاد ؛ فإنما هذان البيتان من نظمى نحلتهما ابن الرومى لأمتحن العقاد وأختبر فطنته وذكاءه ! . . . ثم كتب فى الرسالة مثل ذلك تعقيباً على جواب العقاد !

ماذا نسمى هذا العبث الأخرق ؟ وأين مرده من الأخلاق والصفات النفسية ؟ ألأنه يميل إلى غير رأى العقاد فى مذهب من مذاهب الأدب يجترح هذه السيئة ؟ . . . فأين الإيمان بالأدب إن كان هذا الفتى يُعدّ له نفسه ويأمل له غداً ؟ . . .
. . . أم هو أسلوب من « السياسة » كذلك يؤثر تأثيره فى الأدب ؟

صاحب الدين وصاحب الأدب :

فى الكلمة البليغة التى نشرها الزيات بالعدد ٤٦٢ من الرسالة تنويها بكتاب « عبقرية محمد » للعقاد — عرض فيما عرض للمؤلفين الذين سبقوا العقاد فى الكتابة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فقال :

« . . . صاحب الدين موافق ، وصاحب الدنيا منافق ، وصاحب الأدب خدّاع ، وصاحب الهوى متعصب » .

وهو كلام — كما نرى — لا يسيغه المنطق بلا

مناقشة ؟ فلست أدرى أيقصد الزيات بذلك حكماً عاماً على كل صاحب دين وصاحب دنيا وصاحب أدب وصاحب هوى ، أم هو حكم خاص يَلفّ وينتشر ويجمع ويفرق على مذهب أصحاب « البديع » ، فلا يعنى به إلا الذين سبقت إشارته إليهم ممن كتبوا عن محمد قبل العقاد .

ولكن الزيات أحصف رأياً وأعف ضميراً من أن يعنى عمومَ هذا الحكم ، أو خصوصَه على هذا الوجه ؛ فإنه ليعرف لأصحاب الدين ما يعرف من الرأى والعقل ، ويعرف لأصحاب الأدب ما يعرف من الايمان وصدق العقيدة ؛ وإن له إلى ذلك لرأياً فيما كتب الكاتبون قبلُ عن محمدٍ للدين والفن والأدب .

لست أعنى بذلك أن أنقض رأيه فيما كتب عن « عبقرية محمد » ، فلعله لم يَعْدُ الصواب والرأىَ العام فيما كتب عنه ، وإنه لكتاب جدير بالتنويه والاشادة وطيب الذكر ، وإن العقاد لحقيق أن يتبوأ به منزلا يجتمع إليه المتفرقون من أصحاب الدين والأدب والفكر والبيان

ولكن هذا الرأى الحكم الذى حكم به الزيات حكمه — وحكم الحق — على الكتاب ، كان كالاطار اللامع يأخذ بريقه العينَ عن تبيُّن جمال الصورة التى يحتويها الاطار !

أصحاب العمائم :

ويذكرنى مقال الزيات عن صاحب الدين وصاحب الدنيا ، وعن الموافق والمنافق ، ما قرأت فى بريد سوريا الأخير :

« تشكلت لجنة بمرسوم ، من مفتى الجمهورية ، ومدير الأوقاف العام ، وثلاثة من العلماء ؛ كما تشكلت لجان فرعية فى المديريات من أمثال هؤلاء ، لدرس وتدقيق حالة من يحق له لبس العمامة البيضاء . . . »

وكانت العمامة زيا فعادت شارة ، وكانت (عزيمة) فصارت (رخصة) ، وما بدٌّ من ذلك ما دامت العمامة البيضاء قد آل أمرها إلى أن تكون سمة خاصة لطائفة من رجال الدين ، وما دامت طائفة من رجال الدين قد صار لها « حقوق شرعية » يستطيع أن يدعيها كل من لبس العمامة البيضاء . !

وفى سوريا كما فى مصر — وكل أخ يشبه أخاه — من ذوى العمائم البيضاء طوائف وطوائف ، ينكر بعضُها بعضاً ويدّعى بعضُها حقَّ بعض ، على تفاوتٍ بينها كما تتفاوت الجمرة والجمرة ، ؛ وقد كان اختلاف الحال والمقدار بين ذوى العمائم فى مصر حافزاً لجماعة من خير من لبس العمامة إلى خلعها والتبرؤ من ماضيها ، وتوشك أن تحتذيهم طائفة وطائفة ، حتى لا يبقى من لابسى العمائم فى مصر إلا الذين لا يحق لهم أن يلبسوا العمائم !

ليت شعرى أأخطأت حكومة سوريا أم أصابت ؟ ولكنى أدرى أنها اجتهدت فى الرأى لحل مشكلة اجتماعية ذات خطر ؛ وما على المجتهد من بأس فيما يخطىء أو يصيب .

قاف

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٣٠	فى مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١ قرش صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٢٩٩٩ ، ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٨ — الثلاثاء ١١ من جمادى الأولى سنة ١٣٦١ — ٢٦ من مايو سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــدد

نحو الوحدة العربية :

نوع الوحـــدة العربية

إن في الحقوق الدستورية من المرونة ما يبيح أن تقام الدولة الجديدة على غرار جديد يختلف عن الأنواع المعروفة حتى اليوم ، بل إن في هذه الحقوق مرونة لا نهاية لها ، تمكن من التكييف في شكل الدولة وجعله ملائماً لنفسية الشعب ، وتاريخ الأمة ، ووضع البلاد . فالبلاد العربية غير مقيدة بقبول نوع من أنواع الدول التي أوردنا موجزاً لها في المقال السابق ، بل هي حرة في إيجاد ما يلائمها من نوع الدول الصالح لها . واختيار نوع الدولة يتطلب درس الوضع السياسي الحالي للبلاد العربية ، والنفسية السياسية لسكانها ، والتوفيق بين هذا الوضع وهذه النفسية من جانب وبين نوع الدولة التي يرجون من ورائها تقوية الروابط بين أقطارهم ، تقوية تؤدي مع الوقت إلى الوحدة المنشودة ، من الجانب الآخر .

وإذا نظرنا إلى البلاد العربية ، رأيناها منقسمة إلى قسمين رئيسيين : أولهما يشتمل على طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وتحكمه الدول الغربية مباشرة ، ولا يتمتع أهله بشيء من السيادة . أما الثاني فيشتمل على مصر ، وبر الشام ، والعراق ، والجزيرة ، وهي مستقلة بعض الاستقلال ، والسيادة القومية فيها على درجات متفاوتة . فمصر مستقلة تربطها مع بريطانيا معاهدة ، وكذلك العراق . أما الجزيرة فهي منقسمة إلى قسمين رئيسيين : أحدهما نجد والحجاز ، والآخر اليمن ، والسيادة في كل من القسمين عائدة إلى مليكه . غير أن إمارات الكويت والبحرين وحضرموت وهي أقاليم من الجزيرة صغيرة نسبياً ، تسودها بريطانيا . أما بر الشام فتنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية : ففي الشمال تقع سوريا ولبنان ، وهما مستقلان

حديثاً ، وتربطهما مع الفرنسيين الأحرار معاهدتان ، وفي الجنوب يقع الشرق العربي (شرق الأردن) وفلسطين ، يجمع بينهما أنهما تحت الانتداب البريطاني ، ويختلفان في أن الأول مستقل إداريا وسيادته الخارجية بيد بريطانيا ، بينما الثاني تحكمه بريطانيا حكما مباشرا . والعرب يرمون إلى وحدة تجمع أقطار الوطن العربي ، من أقاصي العراق حتى أقاصي مراكش . غير أن الوضع السياسي القائم في طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، لا تمكن الآن من التفكير في ضم هذه الأقطار في مشروع الوحدة العربية . وهذا لا يعني أن هذه الأقطار أقل عروبة من غيرها ، بل إن واقع الحال يدل على أن العروبة فيها عظيمة جدا ، ولا تقل عما هي عليه في بقية الأقطار العربية إن لم تكن تزيد ، كما أن ميلها إلى الوحدة العربية قوي جدا لا يقل عما هو عليه في بقية الأقطار . وكذلك لا يعني هذا أن تلك الأقطار ستظل بعيدة عن الوحدة ، بل إن من واجب الأقطار العربية الأخرى ، لا سيما بعد نيل وحدتها ، أن تعمل بجد وقوة على إدخال هذه الأقطار في الوحدة العربية الكبرى . وعليه فشروع الوحدة يشمل اليوم مصر ، وبر الشام ، والعراق ، والجزيرة . وكل مشروع للوحدة ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار وضع هذه الأقطار السياسي ، وحالات سكانها النفسية السياسية ، أي أن المشروع ينبغي أن يحقق تقوية الروابط بين هذه الأقطار ، ويجعل منها ، في بعض النواحي ، كتلة واحدة تجاه الأمم الأجنبية ، مع مراعاة غيرة كل إقليم على سيادته الخاصة ، واحتفاظه بالاستقلال في معظم أموره الداخلية والخارجية .

* * *

إن نظام الاتحاد Fédération هو خير أنواع الوحدة للبلاد العربية ، إذ أنها تبقى بموجبه متمتعة بسيادتها الداخلية ، حاكمة نفسها ، ومدبرة شئونها كما تحب وترغب ، وبموجبه تتوحد قواها ، وتكون لها سياسة خارجية واحدة ، فتصبح دولة واحدة كبيرة تجاه الدول الأجنبية ، فتصبح منيعة الجانب ، رفيعة المكانة ، ذات شأن في السياسة الدولية .

غير أن الوضع السياسي القائم في البلاد العربية لا يمكن من الوصول إلى هذه الغاية دفعة واحدة ، ولا يسهل معه التفكير الآن في وضع مشروع لنظام الاتحاد العربي ، وذلك لأن في الأقطار العربية المستقلة ملوكا وحكومات يعز عليها أن تتنازل عن سيادتها الخارجية ، وتسلمها إلى سلطة مركزية عليا سلطة الاتحاد . ولهذا ينبغي التفكير في نظام يبقى للملوك والحكومات سيادتها الداخلية والخارجية ، ويمكنها من التفاهم على توحيد بعض أمورها وأعمالها . وقد رأينا أن في الإمكان الاتفاق على نظام قريب من نظام التحالف Confédération يؤدي إلى الغاية ، ويخطو بالحكومات العربية ، من وضعها الحالي ، إلى وضع الاتحاد الخالص ، في خطوات متعددة . وفيما يلي بعض تفاصيل هذا النظام .

تبقى الدول العربية محافظة على مالها من السيادة . غير أنها ، عملا على مصلحتها المشتركة ، تتفق فيما بينها وتتحالف على توحيد جهودها في ميادين معينة . وهذه الميادين هي : التعليم والتشريع ، والجمارك ، والدفاع القومي ، والسياسة الخارجية .

وللوصول إلى تنفيذ ذلك ، تشكل الدولة العربية هيئة عامة ، قد يصح أن تدعى «مجلس الدول العربية المتحالفة» ولتمثيلها في هذا المجلس تعتبر أربع وحدات : أولاها مصر ، والثانية بر الشام (سوريا ، لبنان ، فلسطين ، شرق الأردن) والثالثة العراق ، والرابعة الجزيرة العربية . ويكون لكل وحدة في مجلس الدول العربية المتحالفة عدد متساو من المبعوثين المطلقي الصلاحية . ويحسن أن يكون عدد مبعوثي كل وحدة خمسة ، وعليه يكون المجلس مؤلفا من عشرين مبعوثا ، تعينهم حكومات الدول المتحالفة ، وتكون

عضوية كل منهم خمس سنوات ويتجدد خمسهم كل سنة .

والوصول إلى تكوين وحدة من بر الشام ، المجزأ الآن إلى أربع دول وحكومات ، يشكل من هذه الدول والحكومات اتحاد يدعى « الاتحاد السورى » . وحكومة الاتحاد المركزية هذه تمثل وحدة بر الشام فى التحالف العربى .

ويكون لمجلس الدول العربية المتحالفة مقر دائم فى إحدى المدن المتوسطة بين الأقطار العربية ، على أن لا تكون إحدى عواصم هذه الأقطار . ويكون له رئيس من أعضائه ، ينتخب كل سنة مرة ، على أن يترأس المجلس أحد أعضاء كل وحدة من الوحدات الآنفة الذكر بالتوالى . ولا يكون للرئيس صلاحيات سياسية خاصة ، بل يكون مركزه شرفياً ، وتنحصر مهمته فى إدارة الجلسات . وطبيعى أن يكون للمجلس سكرتيرون ومكاتب خاصة حسبما تقتضى الأحوال .

* * *

أما صلاحيات هذا المجلس فتتناول التعليم ، والتشريع (المدنى والجزائى والتجارى) والجمارك ، والدفاع القومى ، والسياسة الخارجية :

إن توحيد التعليم فى البلاد العربية أمر حيوى لا بد منه ، سواء تمت الوحدة العربية أم لم تتم ؛ إذ أن اختلاف مناهج التعليم فى البلاد العربية يعدد المشارب ، ويباعد بينها . أما توحيد التعليم فيساعد على التفاهم ، ويجعل للبلاد العربية روحاً ثقافية واحدة . ولذا فلا غرابة أن يهتم مجلس الدول العربية المتحالفة بالتعليم ويعنى بتوحيده ، ويجعل هذا من طلائع أعماله .

وتوحيد التشريع ، لا سيما المدنى والجزائى والتجارى منه ، مزيل لهذه الفوارق القانونية الموجودة الآن بين البلاد العربية . وتوحيد هذا النوع من التشريع هين سهل ، لأن له فى جميع البلاد العربية أساً واحداً ، وهى الشرع الاسلامى مشفوعاً بالاجتهاد . وإننا على يقين من أن الشرع الاسلامى ، إن فهم على حقيقته ، وعمل بطرق التشريع فيه ، وهى لا تتقيد بشىء سوى العقل ومصلحة الجماعة — أمكنه الاتيان بقوانين تتلاءم التلاؤم كله مع مقتضيات العصر الحديث ، مع المحافظة على المبادىء الحقيقية القويمة التى جاء بها الدين الحنيف . لقد علقوا جواز النسخ بأن المصلحة قد تختلف باختلاف الأوقات . فإذا كانت المصلحة تختلف فى الوقت القصير أيام النبى المعظم ، أفلا يجوز أن تختلف على مر السنين والعصور التى تعاقبت منذ ذلك التاريخ ! . بلى . وعليه ألا يجب أن يكون باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه فى وضع القوانين التى تلائم العصر الحاضر ، دون أن تتضارب مع الشرع الحنيف ؟ . ونعتقد أن لا غضاضة على الدول العربية إذا هى عهدت إلى مجلس الدول العربية المتحالفة ، بوضع تشريع عام فيما ذكرنا من المواضيع ، على أن تحتفظ هذه الدول بما لها من حق فى التشريع فى القوانين الأخرى ، لا سيما المالية منها .

والوضع الاقتصادى فى معظم الأقطار العربية ، إن لم يكن فيها أجمع ، غير طبيعى . والحواجز الجمركية بين هذه الأقطار ضارة بالاقتصاد إضراراً بليغاً . والأمور الاقتصادية تتطلب درساً علمياً عميقاً منظماً ، وتسوية منطوية على الحصافة وبعد النظر والجمع بين مختلف المصالح . فمجلس الدول المتحالفة يتمكن من درس هذه الأمور وإيجاد حل لها فى مصلحة الجميع .

أما قوى الدفاع القومى ، من برية وبحرية وجوية ، فتبقى تحت إمرة وإدارة الدول المتحالفة كل ضمن دائرتها . على أن يكون « المجلس » حق تنسيق هذه القوى ، بمعنى أنه يعين الحد الأدنى الذى ينبغى أن تكون عليه فى كل دولة ، ويوصى بأن تأخذ كلها بنظام واحد للتدريب وأنواع واحدة من المعدات . ونرى من الخير أن يكون بجانب مجلس الدول العربية المتحالفة « هيئة أركان حرب عليا مشتركة » تشرف بصورة عامة على القوى الدفاعية للدول المتحالفة ،

ويكون وضعها من هذه الدول مماثلا لوضع «هيئة أركان حرب الحلفاء» أثناء الحرب القائمة . على أن تقدم الهيئة الحربية العليا المشتركة تقاريرها وإرشادها إلى مجلس الدول العربية المتحالفة ، وهو بدوره يتصل بدول التحالف . وحين وقوع اعتداء على إحدى هذه الدول ، يقرر المجلس ما ينبغي عمله ، وتلبي الدول المتحالفة طلبه ، لأنه ممثل لها ، ساهر على سلامتها ، وتتولى تنفيذ مقرراته هيئة أركان الحرب العليا المشتركة .

أما السياسة الخارجية والتمثيل الديبلوماسي ، فيبقيان أيضا من صلاحيات الدول المتحالفة منفردة ، على أن لا تتعدى هذه الدول بسياستها الخارجية الأسس الرئيسية التي تتفق عليها ضمن التحالف . وللاقتصاد في تكاليف التمثيل الديبلوماسي والقنصلي الباهظة يستحسن أن يقوم ممثلو إحدى هذه الدول في بعض البلدان بتمثيل دولة أو أكثر من الدول المتحالفة . فتقوم مثلا سفارة مصر في واشنطون بتمثيل العراق والجزيرة ، وتقوم سفارة العراق في طهران بتمثيل مصر والجزيرة ، كما تقوم سفارة الجزيرة في موسكو بتمثيل مصر والعراق ، وهلم جرا .

وعلاوة على هذه الصلاحيات التي يمكن أن تنقص أو تزيد ، يستحسن أن تحمل جوازات السفر في جميع الدول المتحالفة في القسم العلوي من وجه الجواز اسم (التحالف العربي)، وفي وسطه اسم الدولة التي ينتمي إليها صاحب جواز السفر . وبهذه الصورة يشعر كل عربي أن له وطنين : أحدهما عام هو (الوطن العربي) ، والآخر خاص وهو القطر الذي ولد ويقطن فيه . كما أن من المفيد أن توحد العملة في البلاد العربية على أن يبدأ بتوحيد قيمتها . والمراد بذلك إبقاء أسمائها كما هي وتوحيد قيمتها فقط . فالجنيه المصري يبقى جنيها مصريا ، والدينار العراقي يبقى دينارا عراقيا الخ ، على أن تكون قيمة الجنيه المصري والدينار العراقي وأجزائهما من قروش وملاليم وفلوس متساوية .

* * *

مما لا ريب فيه أن في الإمكان تحقيق الوحدة العربية بأشكال مختلفة . وفي اعتقادنا أن ما عرضناه في هذا المقال هو أحد هذه الأشكال الملائمة لوضع الأقطار العربية ، وللنزعات السياسية السائدة فيها . ومتى توحدت الثقافة في الأقطار العربية ، وتقوت الروح القومية العربية فيها ، يتحول هذا الشكل من التحالف إلى اتحاد خالص ، يمكن البلاد العربية من الوقوف مع الدول الكبرى ، على قدم المساواة ، ومن أداء الدور الذي لها في تاريخ العالم ، وفي تقدم المدنية .

وإنه برغم ما نحن عليه من تفاؤل بمستقبل العرب ، ومن يقين بأن الوحدة العربية لا بد آتية ، ومن أن ما عرضناه ، من شكل لها ، بسيط سهل التحقيق في القريب العاجل ، إن حسنت النية وقويت العزيمة — نرى أن من الخير الشروع بتوحيد الثقافة في البلاد العربية ، والاتفاق على الأمور الاقتصادية ، والوصول إلى ذلك لا يتطلب بحث الوحدة وشكلها ، بل يكون في الواقع الخطوة الأولى لتحقيقها . وهذا ما نتناول بحثه في المقال المقبل والأخير . .

(القدس) **يوسف هيكل**

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
لستة أشهر	١٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

على هامش الأسبوع

للدكتور أحمد زكي بك

أسباب الثورة اليابانية

ومن أسباب الثورة اليابانية ، أو ثانى أسبابها ، الكُنفوشية .

وحديثها أنه فى أوائل القرن السابع عشر ، تولّت حكمَ اليابان أسرةُ توجوكاوا . وكان أول شواجنها على ما يذكر القارئ الشوجن أيياسُو . فهذا منح رعايته للآداب فى عصره ، وأمر بإحياء « العلم القديم » وتحصيل كتبه ونشرها ودراستها . وبالعلم القديم والأدب القديم إنما قصد إلى كتب الكنفوشية الصينية وتعاليمها ، إلى كتب كُنفُشيوس الحكيم وما تلاه من حكماء الصين ففسروا حكمته وشرحوها وزادوا فيها .

والكنفوشية على ما قدمنا لها رأى فى السياسة فريد . فمن آرائها أن الحكم فى الصين ، وفى أى بلد غير الصين ، لا يكون إلا للفضيلة وبالفضيلة . فالحاكم لا يكون حاكما إلا لحظّه الفائض من الفضل . وكذا الملوك يَفْضُلون الناس كلَّ الفضل ، ولهذا كان خير الملوك الحكماء . والسماء هى التى تختار ملوكها على هذه الأرض . فالمُلْك مؤسّسة من عمل الله . ولكن المُلْك قد يقع فى غير أهله ، فأنّى للناس أن يعرفوا أن مشيئة السماء وقعت حيث أرادت السماء ؟ يعرفون ذلك من أخلاق الملوك ، ومن تصريفهم أمور الناس . فمن حَسُنَ خُلقًا وعَدَل فى تصريفه الأمور فمن السماء مأتاه . ومن ساء خلقا ، أو حتى نقص حظه من الفضل ، فمن غير السماء مأتاه . والناس وحدهم مسئولون أن يتحققوا أنّ مشيئة الله نزلت حيث أريد بها أن تنزل . والناس فى هذا لا يخطئون أبداً . « فالسماء ترى كما يرى الناس . والسماء تسمع كما يسمع الناس » . و« الحكومة من الله ، ولكن الحكّام من الناس » . فليس للحاكم فى ذاته حق سماوى . وليس للمَلِك حق قدسىّ . ولكنّ الحكم فى ذاته سماوىّ ، والمُلْك قدسى . والمَلِك الذى يحكم الناس بغير ما أراد الله ، ولا يصغى إلى ما يُلقَى إليه من نصيحة وتحذير ، قد حقّ على الناس عزله . وعندئذ يُستحلُّ دمه ، وعندئذ « لا يكون القتل قتلا » .

فهذا ما وجب للناس عند الملوك والحكام . وهذا هو حق تقرير المصير يضعه أقدم حكماء العالم فى يد الشعوب ، لأن الشعب « أخطر شىء فى الدولة » . وهذا هو رأى الشعوب وخطره فى ارتضاء الحكومة ورفضها ، هذا الذى نسمّيه فى عصرنا هذا بالرأى العام . وهذا هو الطريق مرسوماً إذا لم ترتض الشعوب ملوكها : نصيحةٌ فتحذير فإقالة . ثم يجئ بعد ذلك القتل ، وهو قتل حلال . ولم نسمع بدين حلّل قتلاً فى مثل ما حلّله هذا الدين . ولم نسمع بفلسفة برّرت مثلَ هذا العنف مثلَ هذا التبرير . وهى لم تبرره عن أزمة نفس طارئة ، أو لسان ذرب شطّت به فى الخطابة عاطفةٌ جامحة . ولكنها تبرره عن فكر وتدبر حاضر غير شارد ، وعن بصر كالحديد يقطع فيُدمى وهو مثلوج بارد . ومن ذا الذى يردّ الحاكم إذا جار ؟ ومن ذا الذى يردّ المَلِك إذا المَلِك ظلم ؟ يجيب عن هذا منشيُس الحكيم — وهو خليفة كُنفُشيوس الحكيم ، جاء بعده بقرن ، أى قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون أو أربعة . عن هذا يجيب ثانى حكماء الصين فيقول : يتصدّى لرده أولاً فردٌ من أفراد الأسرة المالكة نفسها ، فيؤلّب عليه الأسرة لتعزله ، ثم هى تُجلس فى مكانه رجلاً منها أكثر حظاً من الفضيلة . فإذا هم لم يستطيعوا ، أو إذا هم لم يشاءوا ، وقع فرض

هذا على أعز من الوزراء ، ولو لم تكن له صلة بالملك أو نسب فى بيته . فإن لم يكن هذا ولا ذاك وقع هذا الفرض على « وزير السماء » . وعنى بهذا رجلاً من رجال الشعب ، قد يكون وضيع النسب ، وقد يكون قليل الحسب ، ولكنه فى موضعه الدنىّ من الناس ، يحصّل من الفضيلة ما أمكنه التحصيل ، ويتحصّن بالحق ما أمكنه التحصّن ، ثم هو يتخلق فى الناس بما يلفت إليه الأبصار ، ويؤلف حوله الأنصار ، ثم هو يسير فى جموعه حاملاً علَماً ، لا علَم الثورة ، ولكن علم الحق والفضيلة .

رحمك الله أيها الشيخ الحكيم القديم . إن لم تكن هذه هى الثورة فكيف إذاً تكون ؟ !

فهذا حق الناس عند الملوك . أما حق الملوك عند الناس من بعد ذلك فالطاعة التى لا تردّدَ فيها ، سواء للملوك أو لعالهم . فالحكومة فى الكنفوشية لا تكون إلا لصالح الشعب . والشعب أسرة واحدة لها ملك واحد . والأسرة لا تصلح أحوالها إذا فسد ربها ، ولكنها كذلك لا تصلح إلا بطاعة الأبناء لما يقضى به الآباء . والأسرة الشعبية آباؤها وأبناؤها من صنع السماء . فكالسماء يجب أن تجرى ، طيّعة لإرادة واحدة تضمن لها أن لا تصطدم أجرامها أو يختل نظامها .

فتلك هى الكنفوشية التى نصح بإدخالها إلى اليابان ربّ الأسرة الشوجنية الأخيرة فيما نصح بإدخاله من « العلم القديم » . وقد زعموا أنه أدخلها غير عالم بالذى فيها ، وما أحسب هذا هكذا . فأبرز ما فى الكنفوشية نزعتها السياسية ، ورأيها فى الحاكم والمحكوم . وأيباسو إنما كان يؤسس دولة ، ويطلب الوحدة لأمة مجزأة مقطعة ، والكنفوشية فيها العون كل العون على هذه الوحدة ، وفيها الطاعة لربّ واحد . ولم يكن لأيباسو أن يفرض فى نفسه نقصاً فى فضيلة ، أو تقصيراً فى صفات الملك ، ثم إن الكنفوشية تطلب مَلِكاً واحداً ، أباً واحداً لأسرة واحدة . وكان هنا إلى جانب الشوجن الأمبراطور . ولكن مع هذا فالشوجن كان يستمد السلطة من الامبراطور شكلا ، وكان الامبراطور — وحوله من خفراء الشوجن ما حوله — لا يقول لا أبداً . فهو فى أمور الحياة الواقعية كالصفر على يسار الواحد ، لا يجعله عشرة ، ولا يجعله اثنين ، وإذاً فهو واحد أبداً ، شوجنٌ واحد وحاكم واحد له الأمر كل الأمر كما تقضى بذلك الكنفوشية . والكنفوشية لم تصطدم مع حكم هذه الأسرة الشوجنية ما صلح حكمها ، فى أول الأمر والحكم فى عنفوانه . ولكن لما تضعضع السلطان واختل الزمان ، فعلت الكنفوشيةُ فى حكومة الشواجن ما يفعله الماء فى جدار البيت العتيق البالى ، فكانت عوناً كبيراً على انحلالها لما جاء أوان انحلالها فى منتصف القرن الماضى .

فهذا ثانى أسباب الثورة اليابانية ، ثورة عام ١٨٦٧ .

أما ثالث أسبابها فالشنتُو ، وهو دين اليابان الأول ، وهو دين على ما وصفنا بدائى أولىّ ، لا يُرجع الناس إلى عقل ، ولا يردهم إلى عاطفة ، ولا يسنّ للناس فى خُلُقهم ومعاشهم سنّة . ولكنه مع فقره فى هذا ، وفى غير هذا ، قد أعطى اليابان ما لم يعطه دين آخر من الأديان : عزةً جنسيّة ليس فوقها عزة ، وحرارة وطنية لا تدانيها حرارة ، وعُجْباً قوميا لا يضاهيه عجب أمة فى الوجود . فهم أولاد السماء وسلالات الآلهة ، وليس على أرض اليابان رجل إلا وصعدٌ نسبه وإن طال إلى إله أرض أو إله سماء . وأكبر آلهتهم هو ذلك الذى انحدر وينحدر من ظهور الأباطرة فى تسلسل قديم لم ينقطع حبله إلى اليوم . فالأباطرة عندهم ملوك الأرض وقساوسة السماء ، والوطنية عندهم والدين سواء .

ودخلت البوذية اليابان ، وهي دين أغنى بالحكمة ، وأثرى بالعاطفة ، وأغزر بالجمال ، فأقبل عليه اليابانيون طوعاً ، ولكن قلوبهم لم تنفتح له انفتاحاً ، حتى قالت البوذية : إن روح بوذا من أرواح الآلهة والأباطرة ، وإن هذه من تلك انفسخت في تنقلها بين الأصلاب . واشتملت البوذية من بعد ذلك دين الشنتو ، وابتلعته ؛ ولكنها مع ذلك لم تستطع هضمه أبداً . فبقيت في البوذيين عقائد الشنتو ، وبقي فيهم معابده ، وبقيت فيهم أعياده وشيء من مراسمه ، وبقي فيهم فوق كل هذا تلك الحرمة البالغة التي للأباطرة في قلوب اليابانيين . حتى الشوجنة خافت تلك الحرمة ، وخشيتها ، وتجنبتها ؛ فابتدعت ذلك الحكم الثنائي العجيب ، الذي استمد فيه الشوجن سلطانه من ربه الامبراطور ، ولكن من وراء جدران السجن العالية ، ومن فوق صفوف الجند الكثيفة الحافرة .

والذي قيض للكنفوشية شوجناً يدخل كتبها وتعاليمها إلى اليابان في أوائل القرن السابع عشر ، قيض للشنتو شوجناً مثله يحييها ويذكيها بعد ذلك بقرن واحد ، أي في أوائل القرن الثامن عشر . وبأحيائها وإذكائها أحيي الحب الدفين الذي في القلوب الأباطرة ، وأذكى النار التي اتقدت لهم فيها ، والتي خبت حيناً تحت الرماد ولكنها لم تنطفئ أبدا . فلما ساء الحكم واختل الحال ، وجاء الغزو الأجنبي ينذر الأمة بضياع استقلالها ، وذهاب ريحها ، تطلعت الأبصار إلى الرب المنسي ، واتجهت الوجوه إلى القبلة المهجورة ، فسرت في الناس الصيحة المشهورة : « كرّموا الامبراطور » ، وفي سبيل « تكريمه » كانت الثورة ، واسترجع الامبراطور سلطانه .

أما رابع أسباب الثورة ، وآخرها ، فتلك الجزيرة الصغيرة التي اصطنعها اليابانيون اصطناعاً ، للبرتغاليين أولا ، ثم للهولنديين من بعد ذلك ، ليتجروا عليها ، وعليها وحدها ، ووصلوا بينها وبين أرض اليابان بجسر محفور يمنع الرائح عليه والغادي إلا بإذن مسطور . فعلى هذه الجزيرة ، وعليها وحدها ، أجاز القانون اتصال اليابانيين ، أعداد محدودة منهم ، بالهولنديين ، وعن طريق هذه الجزيرة لا من سواها — وهي كالنافذة الصغيرة الواحدة في البيت العظيم الضخم — أطل اليابانيون على أوربا ، علمها وطبها وصناعتها ، وحضارتها ، ممثلة جميعاً فيما جاء به هؤلاء الشقر من غرب أوربا . وبالرغم من تحريم اللغة الهولندية على اليابانيين ، فقد تعلمها خفية منهم قوم كثيرون . وأباحوا تعليمها أخيرا للأطباء وطلاب الطب اضطرارا ، حتى يكسبوا من أهلها علم الطب وفن العلاج . فادعى كل من أراد تحصيل هذه اللغة أنه إنما يطلب طبًا . فلما جاءت الثورة كان في الأمة اليابانية نفر من طلاب النهضة الحديثة ، تأثروا بالحضارة الأوربية التي كسبوها استراقا ، فكانوا عون الثائرين في ثورتهم ، وكانوا عيونهم التي بها يهتدون .

أحمد زكي

صور تاريخية :

١ – سلطان العلماء

هذا لقب لقبه به تلاميذه لما رأوا من سعة علمه ، وعظمة خلقه ، فسار اللقب في الناس ، وأصبح في البلاد سلطانان : سلطان الدولة والأمراء وسلطان العلماء . وكان السلطانان أحياناً يتحاجزان ويتصالحان ، وأحياناً يتصارعان ويتصادمان ؛ فيكون اصطراعهما منظر لطيف كمنظر الجيوش إذا تقاتلت ، والسباع إذا تصاولت ، والديكة إذا تهارشت . وأكثر ما يدعو النظر إلى الإعجاب إذا رأيت المحارب غير المسلح يغلب المحارب المسلح . وسلطان الدنيا بجنوده وبنوده يخضع لسلطان الدين ، وليس له جنود ولا بنود ، إلا قوة الخلق ، وقوة الحق ، وقوة اليقين .

عُمِّر « سلطان العلماء » هذا عمراً طويلاً عريضاً ، فقد عاش ثلاثة وثمانين عاماً ، والأعوام وإن اتحدت في الطول فهي تختلف في العرض . فهناك أعوام طويلة لا عرض لها ، وهناك أعوام طويلة عريضة ، وهناك أعوام عقيم ، وأعوام ولود . وأعوام « عالمنا » هذه أعوام خصبة طالما ولدت الأحداث العظام ، والخطوب الجُلّى — فقد شاهدت دولة الأيوبيين في عزها وآخر أيامها ، وشاهدت دولة المماليك البحرية في نشأتها وعزها ، وشاهدت بعض الحملات الصليبية على الشرق ومقاومته لها ، وشاهدت حملة التتار على الممالك الاسلامية واكتساحهم لها ، ووقوف مصر أمامهم تصد هجماتهم وتكسر شوكتهم ، وشاهدت سقوط الخلافة العباسية في بغداد وانتقالها إلى القاهرة .

ذلك كله شاهدته حياة « عالمنا » الدمشقي . فقد ولد سنة ٥٨٧ ، وتوفي سنة ٦٦٠ هـ . لقد نشأ في دمشق فقيراً يعمل بيديه ليكسب عيشه ويحصل قوته ، يبيت في مسجد دمشق إذ لم يجد له مأوى . وظل على هذا حتى صار شاباً ، ثم حبّب إليه أن يتعلم وهو كبير فقير ، فارس العلم ، فسرعان ما نبغ فيه ، ولفت النظر إليه ، وجمع إلى العلم التصوف ، فيأخذ العلم عن شيوخه ، والتصوف عن رجاله ، ويكسبه العلم سعة في عقله وصقلاً لذهنه ، ويفيده التصوف صفاءً في قلبه ، ونوراً في روحه وقناعة وطمأنينة في نفسه ، وزهداً في نعيم الدنيا ، وحباً لله وطلباً لرضاه ؛ فهو إذا تكلم رأيت علماً غزيراً من دراسته ، ورأيت إخلاصاً من تصوفه ، ورأيت هيبة وجلالاً ، ونفوذاً لكلامه إلى قلوب سامعه من قوة يقينه وصفاء روحه . وإذا بعالمنا « عبد العزيز بن عبد السلام » أو عز الدين بن عبد السلام » الذي كان يعمل بيديه نهاراً ، ويفترش أرض المسجد ليلاً ، خطيب الجامع الأموي وإمامه ، وقبلة الناس ومدارهم ، ومعقد رجائهم .

لقد رأى بنظره بعد أن نضج عقله ، فرأى حال الدولة تدعو إلى الأسى ، هذه الأسرة الأيوبية تقسم أبناؤها الملك . ففرع في مصر ، وفرع في دمشق ، وفرع في حلب ، وفرع فيما بين النهرين ، وفرع في حماه ، وفرع في حمص ، وفرع في جزيرة العرب ، وبين بعضهم وبعض إحن وعداء ، وحزازة ودماء . والصليبيون على الأبواب ، والتتار يتحفزون الوثوب ولا قبل لهم بذلك كله إلا أن تذهب حزازاتهم ، وتتوحد كلمتهم ، وتصفو قلوبهم ، ويُعدّوا ما استطاعوا من قوة — فاتخذ عالمنا هذا متجهه في الخطب على المنبر ، وفي الوعظ ، وفي نصح الأمراء . فهاهو يدخل على الملك الأشرف موسى بن العادل بدمشق وهو يتأهب لغزو أخيه السلطان الكامل في مصر ، فيقول له : هذا أخوك الكبير ورحمك ، وأنت مشهور بالفتوح والنصر على الأعداء ، والتتر قد خاضوا بلاد المسلمين ، فخير لك ألا تقطع رحمك ، وأن تتوجه إلى نصر دين الله وإعزاز

كله ، وأن تحوّل وجهتك فى مقاتلة أخيك إلى مقاتلة أعداء الله وأعداء المسلمين ، وأن تتقرب إلى الله قبل ذلك بإصلاح داخل مملكتك ، فتبطل المكوس ، وترفع المظالم ، وتمنع الخمور والفجور . فيصغى السلطان إلى نصيحته ويعمل بها . ويقول له : جزاك الله خيراً عن إرشادك ونصيحتك . ثم أصلحَ ما فى الداخل وحوّل وجهته إلى الخارج ، وقدّم السلطان للشيخ ألف دينار يستعين بها على شئون الدنيا ، فردها الشيخ فى لطف وقال : إن هذه نصيحة لله وللدين ، فلا أكدرها بشىء من الدنيا ، وذاعت نصيحة الشيخ وزهده فى المال ، فزاد مقامه علواً ومكانته رفعة .

* * *

لكن فى كل عصر سخافات تستوجب الضحك ، لولا أنها تحدث فى مأتم ، فهؤلاء ضيقو العقول من الحنابلة — والدولة كلها معرضة لخطر الغزو من عدوين لدودين قويين : وهما التتار والصليبيون — يبدون فتنة خلق القرآن والكلام فيها كما كانت أيام المأمون والمعتصم والواثق ؛ فهم يزعمون أن كلام الله القديم هو ما نقرؤه بألسنتنا ونكتبه بمدادنا ، ونخطه فى أوراقنا ، وترمقه عيوننا . والأشعرية من أهل السنة يرون أن كلام الله الأزلى القديم ليس بحرف ولا صوت ، وإنما ألفاظنا وكتابتنا ومصاحفنا دلالة عليه ، فيجب احترامها لدلالتها على كلامه ، كما يجب احترام أسمائه لدلالتها على ذاته .

وتقوم الثورة فى هذا بين الحنابلة والأشعرية ، ويتبادلون السب والضرب — فهنا فى دمشق مجادلات حارة ومناقشات حامية : هل الحروف والأصوات كلام الله ؟ وهناك على مقربة منهم فى صفوف الصليبيين دعوة حارة أخرى لتنظيم الأدوات ، وإعداد المعدات ، وتوحيد الصفوف : هنا كلام وخصام فى الكلام ودعوة إلى الانقسام ، وهناك عمل وإعداد وسيوف وقنابل ودعوة إلى الوئام .

ويشتد النزاع بين الحنابلة والأشعرية : المكتوب والمقروء كلام الله — ليس المكتوب والمقروء كلام الله . كلمات يعلو بها صوت الناس فى المساجد والشوارع والبيوت ، ويتزعم فريق الأشعرية عالمنا . وأعوان السلطان منقسمون كذلك إلى قسمين ، والسلطان يسمع من هؤلاء اتهاما ومن هؤلاء اتهاما : هؤلاء يتهمون الأشعرية بأنهم يستهينون بالمصحف ، وهؤلاء يتهمون الحنابلة بأنهم مجسمة . ويعكف العلماء من هؤلاء وهؤلاء على تأليف الرسائل واستنباط الأدلة . وأخيراً يحار السلطان بينهم فيأمر بقطع الكلام فى هذا الموضوع بتاتاً ، ويأمر الشيخ عز الدين بأمور ثلاثة : ألا يفتى ، وألا يجتمع بأحد ، وأن يلزم بيته . فلما جاء الملك الكامل من مصر وسمع ما جرى قال للملك الأشرف : ما فعلت أكثر من أنك سويت بين أهل الحق والباطل ، وحرضه على القول برأى الأشعرية ونصرة الشيخ عز الدين . ففعل وشدد على الحنابلة فسكتوا ، وانتهت المشكلة بعد أن أخذت من قوتهم وأكلت تفكيرهم ، وعاد عز الدين إلى مجده وسلطانه .

* * *

أخذ الشيخ يدعو دعوته الأولى إلى أن يتحد سلاطين الأيوبيين وتتحد كلمة المسلمين ، ويخطب فى ذلك على منبر دمشق ويختم خطبته — فى العادة — بقوله : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً ، تُعز فيه وليّك ، وتُذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » والناس وراءه يبتهلون ابتهاله ويدعون بدعائه حتى ترتفع أصواتهم إلى عنان السماء .

وكان يقول : « كل جندى لا يخاطر بنفسه فليس بجندى » و « المخاطرة بالنفوس مشروعة لإعزاز الدين » و « ينبغى لكل عالم إذا أُذِل الحق وأهمل الصواب أن يبذل جهده فى نصرهما ، ومن آثر الله على نفسه آثره الله ، ومن

طلب رضا الله بما يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن طلب رضا الناس بما يسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، وفى رضا الله كفاية عن رضا كل أحد .

« فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب »

هذا بعض ما كان يقوله الشيخ . ولكن من كان يظن أن هذا القول الصريح الذى لا مجمجة فيه ولا إبهام يؤول بأنه يريد به نصرة بعض الأيوبيين على بعض ؟ ومن كان يظن أن هذه الدعوة التى يبذلها الشيخ إلى الاتحاد تنتكس ولا يستجاب لها ، وتنتهى بأن الملك الصالح إسماعيل يصالح الصليبيين على أن يدفع لهم صفدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين لينجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب ؟ ومن كان يظن أن الشيخ لا يُسمع إلى دعوته ، فيرى المسلمين فى دمشق يبيعون السلاح للصليبيين ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين ؟

لقد صرخ الشيخ من أعماق قلبه مستنكراً هذه الأحوال ، مستغيثاً بالله من هذه المخازى والأهوال ؛ فاعتقل الشيخ وعذب ، فما بالى باعتقال ولا بعذاب .

وجاءه رسول من قبل الصالح إسماعيل يحتال عليه كما يحتال الشيطان ويوسوس له ويخوفه ويمنيه ؛ وأخيراً يقول له : « ليس بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وأكثر منها إلا أن تطأطئ رأسك للسلطان وتقبل يده » .

هاج الشيخ وغضب واحمر وجهه ، وصاح فى الرسول : « يا مسكين ، والله ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده . يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به » .

هؤلاء ملوك المسلمين فى الشام يعبثون بحقوق المسلمين ، ويبذلون للصليبيين الحصون والقلاع ، ويسمحون لهم بشراء السلاح من بلادهم اليوم ليحاربوهم به غداً ، والشيخ فى اعتقاله فى خيمته ، يحز فى قلبه الألم مما صار إليه حال المسلمين ، فيعكف على القرآن يتلوه وعلى العلم يدرسه . ويمر الملك الصالح إسماعيل الذى فعل تلك الأفاعيل مع ملك الفرنج من الصليبيين على الشيخ فى خيمته ، فيفتخر الملك ويزهى بعمله ويقول :

« هذا أكبر قسوس المسلمين ، اعتقلته لأنه أنكر علىّ تسليمى لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة وعن مناصبه ، ثم أخرجته من دمشق ، وأبعدته هنا فى بيت المقدس ، كل هذا لأجلكم وحباً فى رضاكم » .

ملك الفرنج — لو كان هذا قسيسنا لتشفعنا به وتبركنا بماء طهوره .

وانتصرت العساكر المصرية فأطلق سراح الشيخ ، فأبى أن يكون فى دمشق ، حيث رأى ما رأى .

وفى سنة ٦٣٩ رؤيت قافلة فيها شيخ أبيض اللحية مهيب وقور ، يتجاوز الستين قليلا ، ومعه صديق له يبدو عليه أنه مصرى اسمه ابن الحاجب[١] وفيها أسرتهما وأمتعتهما وأتباعهما ، تجتاز بلاد الشام قاصدة مصر .

(يتبع) أحمد أمين

(١) ابن الحاجب : هو العالم الكبير والمؤلف المشهور فى النحو والصرف والأصول .

يوم بين المجانين

للقاضي الفاضل صاحب الإمضاء

لم أكن أعلم عن المجانين وأطوارهم أكثر مما علمت عن جار لنا كان مسكنه يواجه المنزل الذي قضيت فيه أيام طفولتي . فقد كان هذا الرجل طيباً وقوراً ، هادئاً رزيناً . ولكنه كانت تغلب عليه مسحة من الكآبة في أكثر الأوقات . وأذكر أني لم أكن أراه حين يخرج من منزله أو يعود إليه ، إلا وهو يمشي مكباً على وجهه وقد استغرقه تفكير عميق . . . . . ثم غاب عني فجأة . وانقطعت رؤيتي له . فلم أعد أراه في خروجه أو دخوله . ولم أصادفه إلا بعد انقضاء أكثر من ستة أشهر على هذه الغيبة المفاجئة . وكان حين رأيته في هذه المرة يقف فوق سطح منزله وهو بلباس النوم ، عاري الرأس ، منفوش الشعر ، طويل اللحية والشاربين ، فأنكرته حين رأيته على هذه الصورة . ولما استفسرت عن أمره قيل لي : إنه أصيب بالجنون ، فتقاعد بطبيعة الحال عن عمله ولزم منزله . وأصبح لا يسمح له بترك غرفته إلا ليقضي فوق السطح ساعة أو نحوها ثم يعود إلى محبسه .

وكثرت مراقبتي له بعد ذلك وأنا مدفوع بحب الاستطلاع . فكنت أصعد إلى سطح منزل فأقوم بمكان أرصد منه حركاته وسكناته . ولكنه فيما بدا لي لم يرقه مني ذلك . فإنه أفسد عليّ مشاهداتي بأن تصدّاني بالطوب كلما وقعت عينه عليّ أثني عليّ واحدة . ومن أسف أنني كنت أشركت في أمري معه أخي الصغير . ولعله لم يحسن التطلع إلى صاحبنا ذات يوم ، فأصابه بحجر في رأسه ، فكان ذلك آخر عهدنا بالسطح ، إذ حرم علينا الصعود إليه حتى يلطف الله بجارنا ذلك .

وبقيت منذ ذلك الحين أحسب المجانين كلهم على غرار صاحبنا — قوما طوال اللحى ، حمر العيون ، منفوشي الشعر ، يرجمون الناس بالحجارة . وكنت أتصور « مستشفى المجاذيب » تحت هذا التأثير في صورة معتقل به حجرات صغيرة كثيرة وضعت على نوافذها قضبان الحديد ، وقد أودع في كل حجرة واحد من هؤلاء « المجاذيب » ، ولعل بعضهم مشدود الوثاق ، أو لعله يرتدي قميص الأكتاف — كما يسمونه — تمتنع عليه الحركة فلا يؤذي نفسه ، ولا تتسنى له فرصة إلحاق الأذى بغيره . وكنت أقول لنفسي : إن كان صاحبنا الطيب على شراسة سلوكه قد سمح له بالبقاء في منزله ، فإن الذين قضي عليهم بأن يودعوا في المستشفى لا بد أن يكونوا أكثر منه شراسة وأشد خطراً . وقد بقيت على هذه العقيدة إلى أن أتيحت لي منذ أيام فرصة زيارة « مستشفى الخانكة » ، فإذا الحقيقة الواقعة في واد وتلك الصورة العجيبة التي مثلتها لنفسي في واد آخر .

* * *

استقبلنا المدير في غرفته قبل أن نأخذ في الطواف بالمستشفى . وأراد أن يمهد لزيارتنا بحديث يعرفنا فيه بنزلاء مستشفاه ، وبأمراضهم وبطرق العلاج التي تتبع معهم . وكأنه كان على علم سابق بتلك الصورة الخاطئة التي رسمناها لأنفسنا عن مرضى العقول ، فبدأ حديثه معنا بقوله :

« لا تنتظروا أن تجدوا بين نزلاء دارنا كثيرين ممن يتركون لعابهم يسيل على صدورهم وهم زائغة أبصارهم ، متقلصة جوارحهم . فإن أكثر من ٩٠٪ من « زبائننا » يكادون يكونون كغيرهم من الخلائق التي تدب في أرض الله الواسعة خارج المستشفى » .

ثم قال باسما : « وإني لأخشى أن يكون ٩٠٪ أيضا ممن يعيشون خارج المستشفى هم أولى من بعض نزلائه بالإقامة فيه . فإن الأمراض العقلية متعددة الصور والدرجات ، وقل أن ينجو منها إنسان في ظروف الحياة الحاضرة . »

وقد لمحت بعض زملائى فى هذه الزيارة يتبادلون النظرات عقب هذا التصريح . ولاح عليهم إحساس من يرى نفسه قد وقع فى فخ . ولم يفت المدير هذا المعنى ، فتدارك إخواننا بقوله : إنه لا بأس عليهم لأن المستشفى مكتظ بنزلائه ، وإنه لا توجد به غلات لنزلاء جدد ، وإنهم يستطيعون على أى حال أن يثقوا منذ الساعة أنهم سينصرفون بسلام عقب انتهاء الزيارة !

* * *

وكان أهم ما عرفناه من حديثنا مع المدير أن « مستشفى الخانكة » يضم أكثر من ألفى مريض فى الوقت الحاضر ، وأنهم كلهم من الذكور . وأن هناك فى العباسية مستشفى آخر خصص للنساء ، ولكن به جناحاً أعد لإيواء المرضى الذكور ، الذين يريدون العلاج على نفقتهم الخاصة ، وأن أمراض الجنون تنقسم بالاختصار إلى قسمين رئيسيين : الأول — يرجع سبب المرض فيه إلى عاهة عقلية تترك المريض معتوهاً قصير الإدراك بحكم خلقته . والثانى — يرجع السبب فيه إلى علة نفسية استحالت إلى مرض عصبى . وإنه طبقاً لنظرية فرويد يجدر بالأمراض العصبية أن تسمى أمراضاً عصبية جنسية ، لأن السبب الأساسى فيها يرجع إلى عوامل نفسية لها اتصال وثيق بالغريزة الجنسية . وإنه نظراً لما يصيب هذه الغريزة عادة من عوامل الكبت الذى تقتضيه ظروف الحياة الاجتماعية الحاضرة وآدابها ، فان الصدمة العصبية التى تحدث بسبب هذا الكبت المستمر يكون لها أكبر الأثر فى إحداث الأعراض المرضية ، فيما لو غابت لدى الانسان وسائل التصعيد والتسامى بعواطفه المكبوتة . وتوجيه نشاطه إلى نواح أخرى تخفف بعض الضغط الواقع على نفسه .

وليس من شأننا فى هذه الكلمة أن نسترسل فى الحديث عن « الجنون » من ناحيته الطبية ، فان البحث فى ذلك لا يخلو من تعقيد . وليس المقام على كل حال مقام دراسته . ولنكتف من حديث هذه الزيارة بأثبات ما شاهدناه من شئون بعض المرضى لنعمل على تصحيح تلك الصورة الخاطئة التى أثبتناها فى مستهل هذه الكلمة ، حتى يشاركنا الآن فى الاقتناع بتصحيحها من كان يشاركنا أولاً فى اعتناق خطئها .

* * *

يقيم نزلاء « مستشفى الخانكة » فى عنابر واسعة يتسع الواحد منها لبضع عشرات من المرضى . ولولا أن يقال للإنسان إن هؤلاء الناس مرضى بعقولهم ما أدرك أنهم كذلك . وقد لقينا كثيراً منهم فى يوم زيارتنا وتحدثنا إلى كثير ، ومع ذلك لم نستطع أن نلمس فى معظم الحالات أين يقع جنون هؤلاء القوم . فلما سألنا فى ذلك قيل لنا عن بعض من تحدثنا إليهم إنهم من مدمنى المخدرات الذين تأثرت قواهم العقلية بفعل ما كانوا يتعاطونه ، وإنهم الآن آخذون فى التحسن بحكم امتناعهم عن تلك « المكيفات » . وقيل عن بعضهم إن جنونهم يأتى فى صورة نوبات ، وهم فى غير هذه النوبات لا يمكن تمييزهم عن غيرهم ممن لم تختلط عقولهم . ثم قيل لنا عن الباقين إن الانسان يحتاج إلى أن يطيل التحدث إليهم ليكشف عما فى عقولهم من خلط ، فأحببنا أن تكون لنا جلسة مع فريق من هؤلاء ، فأعدوا لنا خمسة منهم قضينا معهم نحو ساعة سمعنا فيها حقاً أعجب الأحاديث .

* * *

كان الخمسة يجلسون على دكة قريبة من المكتب الذى جلسنا نحن إليه . فنادى الطبيب الذى كان يرافقنا أول الخمسة بقوله :

— تفضل يا « معالى الباشا » !

فأقبل علينا رجل طويل القامة فى حوالى الستين من عمره ، حسن الهندام ، له نظرات رزينة هادئة ،

جلس فى تؤدة على المقعد الذى أُعِدّ له بجوار مكتبنا ؛ وبعد أن أدار بصره فينا لحظة ، تكلم بلغة عربية فصيحة ، وبنفس الألفاظ التى أثبتها هنا . قال :

« إن (الوظيفة) أمانة وتكليف ، فمن أحسن القيام عليها فهو بها جدير ، ومن لم يحسن سياستها فقد وجب إقصاؤه عنها ، وتسليمها إلى أهلها . . . . »

وكان معنا صديقٌ مجهول لم يستطع الصبر على ما سمع من « معالى الباشا » ، فهتف قائلا : إن هذا الكلام لا يصدر إلا من عاقل حكيم . فأشار له الطبيب أن انتظر .

ولم يغضب « الباشا » من هذا الاعتراض ، فاستمر فى حديثه قائلا :

« ولقد علمت أن هيأة كانت بوضع نظام كامل لاصلاح هذا المستشفى . وإنى أنتهز هذه الفرصة لأقترح أن تقبلونى عضواً من أعضاء الهيأة التى كانت بوضع نظام كامل لاصلاحه ، لخبرتى بشئون الادارة الداخلية العامة ، حرصاً على وقت هذه الهيأة من أن يضيع بالركون إلى أقوال الضالين من المرضى ، وحرصاً على الذين لا يزالون يوجدون فى هذا المستشفى إلى الآن بعد الذى قضى عليهم فيه سجنا وتشغيلا وتعذيبا وآلاما وهماً وحزناً بالدعوى عليهم بالمرض العقلى ظلما وزورا ، وحرصاً على ما لهم من نفوس فى الخارج وأموال ، وحرصاً على مال الحكومة أيضا الذى خصص صرفه له من ميزانية كل عام باعتباره مستشفى حقيقيا ، ولمرضى بعقولهم حقيقة ، وهو ليس كذلك إلا شكلا ، أما موضوعاً فهو محل اصيد المال وأهله لاتفاق مع المديرين والمحافظين على حساب الحكومة .[1] »

ولم يكد يصل الرجل فى خطبته إلى هذا الحد حتى كان قد جاء دورى فى نفاد الصبر ، لا دور صديقنا المجهول . فنظرت إلى الطبيب قائلا :

— وما مصلحة المستشفى فى الاحتفاظ بمثل هذا السيد ؟

فأومأ إلىّ وأسر فى أذنى أن هذه الخطبة قيلت قبل اليوم أكثر من مائة مرة ، وأن الرجل أوشك أن يكشف عن نفسه . وطلب إلىّ الصبر قليلا حتى نصل إلى نهاية هذا الخطاب . فاضطررت إلى الصبر . ولكن علم الله أنه كان صبراً على مضض .

واسترسل الباشا فى حديثه فقال :

« وفى علم الخاص والعام أنى عينت مديرا لهذا المستشفى فى أول سنة ١٩٣٦ ببراهين وأدلة دلت على دراستى الفنية الشاقة الخطيرة . وأنى انتخبت مديرا للغربية ثم محافظا لمحافظة الغرب سنة ١٩١٦ انتخاباً صادقت عليه هيأة محكمة جنايات مصر والقليوبية المتنقلة يوم السبت ٣٦ يناير سنة ١٩١٧ . وأنى طالبت إسناد وزارة الصحة إلىّ ووزارة الأوقاف الأهلية ببراهين وأدلة مستندة بمؤهلات كافية . وأن المرحوم حضرة صاحب الفخامة اللورد الذى انتخبنى لرياسة مجلس الوزراء الادارية ، وتودت من جانب السراى أن اذهب إلى وزارة الداخلية . . . . »

وهنا تنفست أنا وإخوانى الصعداء . فقد أدركنا أننا وصلنا أخيراً بحمد الله ، وأن جنون صاحبنا كان من العمق بحيث كان ينبغى لنا أن نصبر عليه حتى يرفع كل هذا الركام عن طبقاته الأولى . . . .

ورأى الطبيب أن يفسح المجال لغيره فى الكلام ، فاستأذنه فى الاكتفاء بما قال ، فطلب الرجل أن يسمح له بتقديم باقى كلامه فى عريضة يقدمها لنا فسمح له . وهنا انسحب « معاليه » وأكب على مقعده يحرر هذه العريضة فى حماسة ظاهرة . ومال علىّ الطبيب قائلا : لقد أحصينا العرائض التى حررها هذا المريض منذ دخوله المستشفى فاذا هى ١٤٧٩٥ عريضة ، وكلها لا تخرج عن معنى ما سمعتموه الآن .

وقد تبين لى من الاطلاع على تاريخ هذا المريض أنه

(١) سلمنى « معالى الباشا » ورقة قبل مغادرتى المستشفى ، فلما قرأتها وجدتها ترديدا لنفس الخطبة التى سمعناها . ومن هذه الورقة نقلت هذه الكلمات .

كان موظفاً كبيراً بوزارة المالية ، ولكنه انصرف فجأة إلى تقديم الشكاوى فى حق رؤسائه ومرءوسيه على السواء يتهمهم بالإهمال وبالرشوة وما إلى ذلك ، حتى انتهى أمره إلى دخول المستشفى حيث ظهرت عليه « أعراض » هذه الوزارة الباطلة التى ظل يعانى سكرتها طوال العشر السنوات الأخيرة .

٢ — إبراهيم الأول بن فتح الله باشا :

نادى الطبيب بعد ذلك على المريض الثانى فجلس حيث كان يجلس زميله « الباشا » وكنا نظن أن الوزارة أو رياسة الوزارة على الأكثر هى كل ما تصل إليه مطامع سادتنا أولئك ، وإذا بصاحبنا الجديد يعرفنا بنفسه على أنه إبراهيم الأول بن فتح الله باشا ، وأنه أنشأ بأمره « الملك » جميع الطوابق القائمة على ميناء الاسكندرية ! وظل يتحدث بعد ذلك حديثاً طويلا عن الخيانة التى وقعت على « شخصه الملكى » وكانت سبب نكبته والقبض عليه وإدخاله فى المستشفى بعد أن ادعى عليه خصومه أنه من المجانين ليخلو لهم الطريق . . .

فسألنا الله له اللطف واستأذناه فى إخلاء مكانه لمن بعده ، فودعنا الرجل وداعاً كريماً وانصرف ليتخذ مكانه إلى جوار زميله « الباشا » من جديد .

٣ — عبد العزيز ع . س . أفندى :

كان حديث هذا السيد يخالف حديث من سبقوه . وأغلب الظن أن إقامته فى المستشفى لن تطول إلى ما بعد هذا الشهر الحالى . فأن حالته لم تكن حالة جنون بمعناها الأخص . ولكنها كانت نتيجة عدة صدمات عصبية حادة رواها لنا المسكين بقوله : إنه كان مدرساً للرياضة فى إحدى مدارس القاهرة ، وإنه وقعت له سلسلة كوارث عائلية هدمت أعصابه وأطارت النوم من جفنيه . فأصابه أرق مزمن أدى به إلى المستشفى . وكانت أولى هذه الكوارث وفاة والده م . س التاجر الشهير وضياع أمواله بعد وفاته — ثم وفاة زوج كريمته وتركه لها هى وأطفالها الصغار فى حالة من البؤس يرثى لها — ثم وفاة زوجته هو وإحساسه بالفراغ التام يحيط به من كل جانب بعد وفاتها — ومحاولته بعد ذلك أن يسد هذا الفراغ بزوجة جديدة ولكنه لم يوفق فيها . فأصابه من نكد الزوجة الجديدة ما أزرى بكل ما أصابه من فقد والده وزوجته الوفية الأولى .

قال الرجل : « وكان لى أخ شقيق أتم دراسته فى أوربا . فكنت أجد فيه الركن الركين الذى يعصمنى من الانهيار على أثر ما كان يصيبنى من هذه الكوارث — ولكنه توفى هو الآخر . فتداعت أعصابى لموته . ولم يبق لى فى هذه الدنيا من أعتمد عليه أو أستظل بظله . وغشيتنى الغواشى ، فلم أفق لنفسى إلا وأنا فى هذا المستشفى . وقد تحسنت حالى الآن ولله الحمد ، فأصبحت أنام فى الليلة الواحدة نحو ثمانى ساعات . وليس يشغل بالى الآن إلا بناتى ، فان لى خمس بنات لم يبق لهن فى هذه الدنيا غيرى » .

وقد أدركتنا رقة حقيقية لحال هذا الرجل وسألنا الله له الشفاء والسلام وحسن الختام . ولم ير هو أن يرد على تحيتنا له إلا بقوله : « ربنا يحفظكم لأولادكم ، ويرجعكم لهم بالسلامة » .

وكان لهذا الدعاء معناه من رجل لا يشغل باله إلا بعده عن بناته ، وإشفاقه على مستقبلهن من بعده !

٤ — سعادة المدير :

ونادى الطبيب بعد ذلك على المريض الرابع بقوله : « تفضل يا سعادة المدير »

فأقبل رجل ربعة عريض الجبهة ، ذكى الملامح ، علمنا من أمره أنه قصد ذات يوم إلى محافظة القاهرة ، حيث طلب إلى المختصين هناك أن يقوموا بتنفيذ عقد «شرائه

« لمستشفى المجاذيب » ؛ فما كان من الحافظ إلا أن أمر بإرساله إلى المستشفى فى صحبة أحد الجنود . ففسر هو ذلك على أن هذا الجندى هو الذى سيقوم بإجراءآت التسليم الرسمية . ولكنه ما كاد يدخل المستشفى حتى رأى نفسه يعامل معاملة باقى زملائه . فضج لذلك وثار ، وظل على ثورته هذه حتى أذن الله بنقل المدير السابق ، فاطمأن قلبه ، لأنه كان يعتقد أنه لم يلق هذه المعاملة فى عهده إلا لما كان يخشاه هذا المدير من منافسة صاحبنا له فى سلطته . واستقبل المدير الحالى راضياً مسروراً ، وسلمه ورقة كتب فيها إنه يأذنه فى صرف ٣٥ ألف جنيه من البنك الأهلى على سبيل الهدية للاعراب عن رضائه عنه . فلما قبل المدير منه هذه الهدية شاكراً وهم بالانصراف ، استدعاه وسحب منه الورقة ، وأضاف عليها أنه يأمر أيضاً بخمسة ملايين سجارة لجنود الدولة الحليفة !

٥ — س . م .

أما هذا المريض الخامس فكان مرضه من نوع يغاير مرض زملائه ، إذ كان مصاباً بما يسمونه « الشلل الجنونى العام » . ومن أعراض هذا المرض ثقل فى اللسان وفى التفكير ، وفى حركات الجسم ، وهو ينتهى عادة بالموت ، ومنشؤه الأمراض الزهرية . غير أنه من الممكن شفاؤه إذا ما تداركه العلاج فى مراحله الأولى . وقد شوهد أن المريض بهذا الشلل إذا أصيب بحمى تتحسن حالة مرضه العقلى . فكان ذلك باعثاً على اتباع طريقة جديدة فى العلاج ، وهى تلقيح المريض بميكروب الملاريا الجيدة ، فتصيبه حمى صناعية حميدة العاقبة تكون سبباً فى رفع حرارته عدة أيام ، تقضى فى خلالها هذه الحرارة على جرثومة مرض الزهرى المستقرة فى الأعصاب ، والتى لم تكن تبلغها مادة الأدوية التى كانت تستعمل عادة فى معالجة الزهرى ؛ وبذلك يزول سبب الشلل فيتماثل المريض ، وتعود إليه صحته .

وهكذا يذيق الله بعض الجرائيم بأس بعض ، كما يفعل بالأفراد ، وكما يفعل بالأمم : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » — صدق الله العظيم .

ح . ح .

الحجاج وتعدد الشخصية

فى العدد (١٧٠) من الثقافة كتب الأستاذ محمد خلف الله عن الحجاج ، وعرض لما يبدو فى شخصيته من تناقض ظاهرى ، إذ « جمع فى شخصيته بين القسوة والفتك وإراقة الدماء من جهة ، وبين التدين والوعظ وقراءة القرآن والاقتباس منه من جهة أخرى » .

ولقد أصاب الأستاذ حين رفض تفسير الحسن البصرى الذى ذهب إلى أنه « يوافق الله فى قوله ويخالفه فى فعله » ، مشيراً إلى أنه لا يصدر فى وعظه عن صدق شعور ، فالحق أن خطابته الدينية أشد حرارة وأبلغ أثراً من أن تكون تكلفاً وادعاءً ، وإنما هى فيض نفس تؤمن كل الإيمان بما تقول ، فتملك قوة التعبير وقوة الايحاء .

وقد فرض الأستاذ لتفسير تلك الظاهرة فرضين يقبلهما : الأول أن الحجاج « كان ذا شخصيتين مستقلتين تحيا كل منهما حياتها الخاصة » ، أى أنه مثل قديم لشخصية « دكتور جيكل ومستر هايد » . ولقد حركنى هذا الفرض ودفعنى لكتابة هذا المقال ، فهو ليس بالفرض الهين ، إذ أنه يعرض لمشكلتين خطيرتين : إحداهما وحدة النفس الانسانية ، وهل يمكن أن توجد فى الهيكل الواحد شخصيتان منفصلتان بل متناقضتان . والمشكلة الأخرى هى مشكلة فهم الأدب « كنقد للحياة » ، فقد من الخير أن نتبين إلى أى حد يطابق الواقع أو يعدوه ليعيننا على فهمه .

والذى أراه فى موقفنا من الأدب أن ليس لنا أن نفهمه على ظاهره ، وأن نرى فى أداة التعبير جوهر الفكرة ، وليس لنا أن نطالبه بأن يعرض لنا الحقيقة عارية ، الحقيقة كما تنقلها الآلة المصورة ، فانه حينئذ لا يكون قد أدى رسالته ، بل لا يكون أدباً على الاطلاق . إنما الأدب يصور ما نشاهده كل يوم دون أن نراه ، أو يسرع فى عرض ما يمر بطيئاً متباعداً مفككاً ، فتدركه وحدة متفاعلة متماسكة ؛ أو يبطىء فى تصوير ما يمر سريعاً متلاحقاً حتى يفلت منا ، فنراه واضحاً جلياً مفصلا ؛ أو هو يتسلل إلى النفوس ويشق الحجب ويطلعنا على الأسرار والدوافع التى لا تدركها كل نفس سوى نفس الأديب النافذة . وأخيراً هو قد يعمد إلى التجسيم والتهويل ليبرز الفكرة ويطبع الأثر . وليس لنا أن تأخذ حديثه على أنه الحقيقة بذاتها ، بل له الرمز ولنا ما وراءه ، له أن يعمق الألوان حيثما أراد ، ويركز الأضواء حيثما ابتغى ؛ له أن يفصل بين ما تداخل وتراكب حتى يقيم من أجزائه وحدات مستقلة تلوح متمايزة للعيان فتستحوذ منها على الانتباه ، وتستثير التجاوب والتأثر . وهل رأينا أحداً فى الحياة الواقعة يتحدث إلى نفسه ؟ ولئن تحدث فبغير كلمات ، أو هى كلمات لا تهمس بها شفة ولا تسمعها أذن ؛ ولكن فى المسرح ، أما نرى الممثل يطالعك بخطرات فكره ، وخلجات نفسه فى مناجاة علنية مسموعة له ولك ولآلاف الشاهدين ؟ وما ذلك إلا ليجسم لك الواقع فيستثير وجدانك ويطبع أثره فى نفسك . فالابراز والتشخيص — وإن اختلفت طرقهما — من وسائل الأدب التى لا غنى عنها ، بل من وسائل الفنون جميعاً .

وعلى ضوء هذه الحقائق أحسب أن مؤلف « دكتور جيكل ومستر هايد » لم يقصد إلى أن النفس الانسانية يمكن أن تحل بها شخصيتان « مستقلتان تحيا كل منهما حياتها الخاصة » . بل أظنه رأى ما فى جوانب النفس الواحدة من تباين قد يبدو تناقضاً ، ورأى كيف يصطرع الخير والشر ، وكيف يتعاقبان على الانتصار حتى تكون لأحدهما الغلبة فى النهاية ؛ فأراد أن يجسم تلك الحقيقة ، فاصطنع للرجل شخصيتين يلبس إحداهما فيصير مارداً شريراً ، ويلبس الأخرى فيصبح خيراً رحيما . وليس أدل على أنه إنما قصد إلى التجسيم لحسب من أن الأثر فى

تحول رجله لم يكن تفكيراً يطوف بخلده أو عاطفة تختلج بها نفسه أو أى مؤثر من المؤثرات الانسانية ، بل سائلا كيمياوياً يعمل فعله السحرى العجيب ! فهو قد سار مع فكرته إلى النهاية ، إذ رمز لتلك النوازع التى تميل بالنفس نحو الخير طوراً ونحو الشر تارة بهذا السائل الكيمياوى ، كما رمز للقوتين اللتين تسيطران على النفس بهاتين الشخصيتين المختلفتين . فالكاتب إذاً قد قصد إلى تقلب النفس الواحدة وترددها بين الخير والشر تبعاً للنزعات والأهواء المختلفة ، لا إلى وجود شخصيتين متمايزتين تفعل إحداهما الخير على الدوام ، وتفعل الثانية الشر على الدوام ، وتحيا كل منهما حياتها الخاصة ، لا تؤثر ولا تتأثر .

وفى الحق أن النفس الانسانية لأدق وأكثر تعقيداً من أن توجد فيها مثل هاتين الشخصيتين المنفصلتين كل الانفصال ، إذ هى كالجسم الانسانى ذاته ، كائن مركب معقد ، ذو غدد وأجهزة لا حصر لها ، يقوم كل بوظيفته الخاصة ، ولكنه ليس بمعزول عما سواه . بل تراه يتفاعل وينفعل ، ولا يستطيع الاستقلال بمهمته . كما أنها ليست من البساطة بحيث تظل ساكنة جامدة لا تتحول ولا تهتز أمام الأهواء والأعاصير . فما من نفس تطمئن إلى حال واحدة ، وما من نفس تثبت على إيمان لا يساوره شك ، أو شك لا يداخله يقين ، بل هى نزعات متشابكة تنقلها من حال إلى حال فى صلات دقيقة خفية ، وذلك دأبها أبداً ما دامت لها صفة الحياة . ولقد دعا موسى ربه من قبل : « قال رب أرنى أنظر إليك » أو لم يكن من المؤمنين ؟ ولكن النظر إلى الظواهر هو الذى يجعلنا نرى فى النفوس تناقضاً . أما الناقد المتأمل فيستطيع أن يحس خلفها العلاقات الدقيقة الخفية ، وأن يرى الطريق الذى سارت فيه النفس من حال إلى حال دون أن تطفر أو تنقلب .

فالنفوس الإنسانية — ونفس الحجاج من بينها — لا يمكن أن تنطبق عليها رواية « دكتور جيكل ومستر هايد » ، كما نفهمها فهماً ظاهرياً .

على أن نفس الحجاج لم تكن أيضاً من تلك النفوس التى تجنح إلى الكفر فتطغى ، ثم إلى الإيمان فتنيب ، ولم يكن « على قدر إسرافه فى قسوته يكون شعوره بخطيئته وزهده فى دنياه » ، كما يقول الأستاذ فى فرضه الثانى . كلا ، بل لم يكن الحجاج نادماً قط ، ولم يشعر مطلقاً أنه أخطأ فى جبروته ، بل لقد كان تقياً صريح التقوى ، وفى كل الأحوال ، ولكن ... على طريقته هو وكما يفهم الدين وأوامره ونواهيه . ومن قال إن الدين الواحد لدى الناس جميعاً — حتى الأتقياء منهم — سواء ؟ فما دام الانسان متأثراً فى فهمه وتأويله ببيئته وطبيعته وظروفه ، فلا سبيل للاتفاق المطلق ! فهذا كافر عند فريق ، وورع عند فريق . ولقد كفر الخوارج كافة المسلمين ، وأدخلوا فى الدين أحكاماً وأوضاعاً آمنوا بها واقتنعوا ، وأهدروا فى سبيلها الدماء والأموال ! فأى الفريقين كان إذاً من الكافرين ؟!

ولكن الحجاج قد فهم الدين ، وفهمه على أنه الطاعة ، فمن عصى فقد كفر ، ومن كفر فقد حل دمه . إذاً فقد كان الحجاج يقسو عن بينة ، ويرى أنه إنما ينفذ مشيئة الله ويسعى لطاعته ؛ أفلم يأمر جل شأنه بطاعة أولى الأمر ؟ فما لأهل العراق العصاة البغاة ؟! أفلا يرجعهم إلى الجادة ؟

وقد ورد فى خطبة له بالبصرة أنه قال : « قال الله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) فهذه لله وفيها مثوبة ، وقال (واسمعوا وأطيعوا) وهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك بن مروان . أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا فى باب واحد فأخذوا فى باب غيره لكانت دماؤهم لى حلالاً من الله » .

إذاً هو يرى الدين طاعة ، وطاعة عمياء فى كل صغيرة وكبيرة ، ولحق فى رأيه ما يصطنع من أسباب . وليس لنا أن نسأل أأخطأ أم أصاب ، بل هل فعل ما فعل عن إيمان واقتناع أم اتخذه سلماً للأغراض . والحق أنه قد أخطأ ولكن عن يقين .

ولقـد كان الحجاج مستعداً لذلك النوع من الفهم إذ كان تابعاً لعبد الملك بن مروان ، وهو الذى رفعه إلى تلك المنزلة السامية ، فرأى فى طاعته كل شيء . ثم تملكته شهوة الطاعة ، طاعة المحكومين للحاكمين . ومتى استبدت بالمرء شهوة فقد عمى عما عداها ، خصوصاً إذا كان رجل عمل كما كان الحجاج لا رجل فكر . رجل عمل يريد أن تستقر الأمور وتسير فى طريقها مهما اتخذ من أسباب ، لا رجل فكر يقلب الأمر ويمعن النظر ، فيرى الأشياء من كافة الوجوه فتدخل نفسه السماحة ولا يملك التعصب لوجه دون آخر إلا فى كثير من الرفق والحذر ؛ وإذا رأى هواه قد تشبث بما بدا لعقله خاطئاً حمل نفسه بشق ألوان الرياضة على أن تطمئن للحق . وتلك رياضة لا يفطن لها ولا يصبر عليها إلا قليل .

هذا ، إلى أن عصره وما فيه من فتن مع منزلته التى جعلته من الناس حاكماً ، قد دفعته إلى أن ينشد استتباب الأمن والنظام ، وأن يستأصل الفتن مهما دفع من أثمان . وأى حاكم يريد الفوضى فى دائرة حكمه ؟ وأى حاكم يغضى عن الفتن والقلاقل ، ويرضى عن المروق والعصيان ؟ إذاً لما قدر له أى نجاح .

ورب قائل يعترض : لِمَ لَمْ يصطنع الحيلة والسياسة ؟ ولكنى ما أظنها كانت تنجح مع كل الطوائف ، فالخوارج وهم هم ، واستمساكهم بعقائدهم على ما تعلم ، ما أحسب السياسة كانت تجدى معهم شيئاً . ولكن ليس هذا هو كل السبب ، بل إلى ذلك شيء آخر فى طبع الحجاج .

لقـد كان رجلا صلباً جافى الطبع ، رجلا صريحا لا يدارى ولا يداور ، حتى ليجابه أهل العراق بقوله :

« يا أهل العراق إنى لم أجد دواءً أدوى لدائكم من هذه المغازى والبعوث ، لولا طيب ليلة الإياب وفرحة القفل فإنها تعقب راحة ، وإنى لا أريد أن أرى الفرح عندكم ولا الراحة بكم ، وما أراكم إلا كارهين لمقالتى ، وأنا والله لرؤيتكم أكره . . . . » كان صريحا لا يعرف سوى الأمر الصريح ، فإذا لم يطع فليس أمامه سوى العقاب الصريح .

إذاً تجمعت العوامل التى جعلت من الحجاج رجلا قاسياً ، وأنست من طبعه عجيباً ، فأنتجت لنا تلك الشخصية الصارمة التى لم تمنعها قسوتها من أن تكون ورعة زاهدة واعظة من غير ما تناقض أو تعارض . فليس للحجاج شخصيتان ، بل ليست شخصيته الواحدة من ذلك النوع الذى يميل للشر ثم يؤوب للندم ، كما أن رواية « دكتور جيكل ومستر هايد » ليست مثلا لتعدد الشخصية ، الذى لا يصدق على الرجل العادى وإن صدق فى بعض الأحوال المعروفة فى الأمراض العصبية ؛ وما أظن أن مؤلفها قد قصد إلى شيء من ذلك ، فما بالك بتطبيقها على الحجاج الذى أحسب أنه ما كان يستطيع أن يملك تلك الشخصية القوية التى هزت التاريخ الأموى لو أن أهون شيء من الازدواج قد تسرب إلى نفسه .

ملكة عبد العزيز

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى وعلى تبعته وحدى ، فمن سره فهو لى صديق ، ومن ساءه فليس أحب إلى من أن يجلو لى رأيه ويعرض برهانه ؛ لتصحيح رأى ، أو تعديل فكرة ، أو تحقيق خبر . وإن من الفضيلة ألا نثبت على الرأى إلا بمقدار ما نؤمن به ..."

(قاف)

المجلة المصرية :

هل فى مصر « مجلة مصرية » واحدة ؟ . . .

أعنى : هل فى مصر مجلة واحدة يسوغ لى أن أزعم أنها صورة صادقة التعبير عن « حقيقة » مصر التى تعيش اليوم على ضفاف هذا الوادى ، تُعرّف بها من لا يعرفها ، وتُريه ما لم يرَ من شئونها ، وتقرّب البعيد من رسومها ، وتكشف عن الغامض من أسرارها ، وترسم بريشة الفنان وعدسة المصوّر وقلم الكاتب ما يختلج فى أمانيها ، وما يصطرع من أهوائها ، وما يتنازعها من قديم الرأى وجديده وحديث الزّى وباليه ؟ . . .

. . . هل فى مصر مجلة واحدة أستطيع أن أهديها إلى أخى فى بغداد ، وابن عمى فى دمشق ، وصديقى فى بيروت ، وجارى فى القدس — ، وأقول له : هذه بلادى وهؤلاء أهلى بعواطفهم ونوازعهم ورسومهم الاجتماعية وعوائدهم الخاصة والعامة ؟ . . .

... هل فى مصر مجلة واحدة تصلح أن تكون « بريداً عاماً » من كل مصرى هنا إلى أبناء عمومته هناك ، تربط بينه وبينهم برباط من المعرفة والرأى ، وتعرّف بعضاً إلى بعض على الوجه الذى ينبغى أن يتعارف عليه أهلُ أسرة واحدة ووطن واحد تقاذفتهم البلادُ وترامت بهم الأقطار ؟

. . . اللهم لا . . . !

بلى ، فى مصر عشرات من المجلات : الرسالة والثقافة ، والإسلام والفتح ، والمصوّر والاثنين ، آخر ساعة وروز اليوسف ، الصباح والبكوكة المجلة الجديدة . . . إلى مجلات ومجلات لا تدخل تحت حصر . . . ولكن أين المجلة المصرية التى وصفتُ ؟

تستطيع أن تجمع صفحة إلى صفحة إلى صفحات من عشرين أو ثلاثين أو أربعين مجلة مما ذكرتُ لتُخرج من جملتها صورة واحدة فى لون واحد من ألوان حياتنا التى نحيا كلّ يوم ، وتقول : هذا « عددٌ » واحد من « المجلة المصرية » التى لم تُنشر لقارئها بعد . وهذا طيّب وفيه غناء ، لو لم يكن إلى جانب هذه الصفحات القليلة المختارة من ثلاثين أو أربعين مجلة — مئاتٌ ومئات من الصفحات لا تصوِّر إلا هوى محرِّرها ، ولا تكشف إلا عن شهوات أصحابها ، ولا ترسم فى ذهن قارئها إلا الصورة التى ينبغى أن تمحى وينسكبَ عليها الليلُ من ظلمائه السوداء، فلا تقع عليها العينُ إلا مطموسة متوارية فى مداد الظلام !

... وإن القارئ فى الأقطار البعيدة ليقرأ كل أولئك فلا يعرف أين « حقيقة مصر » من كل أولئك ؛ بل لعل بريق الباطل يخدعه ونبضات الهوى والشهوات تجتذبه فيزعم أن مصر هنا وإنها لهُناك !

كم قارئٌ وقارئةٍ قد زيّن الباطلُ له ولها أن ما يقرأ ويشاهد ما صوِّر فى بعض المجلات هو صورة مصر الحقيقية ، وأنه آخر مبتكرات المدنية ، فاندفع واندفعتْ وجرفهما التيار ، فإذا الفتى غير أبيه ، وإذا الفتاة عدوُّ أمها ، وإذا صورته وصورتها وخبره وخبرها بعضُ ما تنشر المجلةُ فى « العدد التالى » للإيحاء والتغرير والإيهام !

بلى ، فى مصر عديد من المجلات ، تعبّر عن رأى « أصحابها » فى الأدب ، وتصور مذهب « كتّابها » فى الفن ، وتكشف عن « أهواء محرِّريها » فى الحياة ؛ ولكن المجلة المصرية التى تعبّر عن « حقيقة مصر » كاملة لم تنشأ بعد !

حَذار حذار يا إخوتنا فى فلسطين وسوريا ولبنان والعراق ، وفى عمان والرياض وصنعاء — حذار أن تسيئوا الظنَّ بنا وتستبقوا الحكم علينا بما ترون وتقرءون فى

هذه الصفحات التي ينقلها إليكم بريد القاهرة . إن حقيقة مصر العربية المسلمة ليست « كلها » في هذه الصفحات ، وليس منها « كل » هذه الصفحات !

أسواق الحسان :

كتب الأستاذ محمد فريد أبو حديد إلى محرر المصور الكتاب التالي :

« تحياتي واحترامي ، وبعد فإنه جميل جداً أن تقام الاحتفالات الرائعة من أجل مساعدة الأعمال الخيرية ، وجميل جداً أن يشترك الآمنون في تخفيف الويلات من المجاهدين الذين يبذلون دماءهم في سبيل الحرية والديمقراطية . ولكن . . . ألا ترى معي أن هذه الاحتفالات يجب أن يسودها روح المساواة ، وأن تسرى فيها نفسية العطف على النكبات المروّعة التي تصيب الإنسانية ؟

« إنه ليثير نفسي أن أرى صور المرح والرقص الصاخب والسرور الصاخب في تلك الحفلات التي تقام من أجل مواساة جراح الإنسانية المعذبة التي تئن وتبكي ؛ فهل أنا وحدى المخطئ في هذا الشعور ؟ » .

وأجابه محرر المصور في العدد ٩١٨ :

« . . . إن أهل الخير يستعينون بالتناقضات والتنافرات على النفوس التي « لا تدفع » إلا « لتقبض » مرحاً وسروراً ولذة ! . . . »

اسمع يا فتى واسمعي يا فتاة .

« هذه الحفلات الرائعة التي تقرأ و تقرءين من وصفها وخبرها ، و ترى و ترين من أزيائها وصورها ، فيستهويكما ما تقرآن وما تريان — هي مزيج من طائفتين : طائفة تبيع المرح والسرور واللذة وطائفة تشترى المرح والسرور واللذة ، وعلى الباب بوّاب من « أهل الخير » يقبض ثمن المرح والسرور واللذة لينفق منه على البائسين والمحرومين والأشقياء !

لقد طالما شاقك أيها الفتى ، وطالما شاقك أيتها الفتاة . . . فأين رضيكما أن يكون موضعكما من « السوق » التي قامت لتجارة « المرح والسرور واللذة » وليس فيها إلا بائع أو مشترٍ ، وكل طائفة تتفضل أختها لأن كل طائفة بحولها تعمل ؛ والبائس المحروم وراء الأسوار ينتظر انفضاض السوق ! ؟

شبان وشابات :

بهذا العنوان قرأت في « الأنصار » مقالاً للمرحوم مصطفى صادق الرافعي ، يعيب فيه اختلاط الجنسين في معاهد التعليم ، ويقول :

« أفما رأيتَ شاباً وشابة حول كتاب علم وكأنهما على زجاجة خمر ؟ . . . إن هذا العلم شيء ، ومخالطة الشبان شيء آخر ؛ فذلك يطلق فكرها يتجاوز الحدود ، والاختلاط يجعل فكرها يحصرها في حدود إحساسها ؛ وأحدهما يرهف ذهنها لادراك الأشياء ، والآخر يرهف عواطفها لادراك الرجُل . . .

« . . . ومَن هذا الذي يستطيع أن يقرأ قصة تؤلفها أربع أعين في وجهين ؟ وكيف تكتشف الحقيقة التي أول وجودها كتمان الكلام منها ، وأول الكلام منها الهمس بين اثنين دون غيرهما ؟ ومن ذا الذي في طاقته أن يمد يده إلى قلبين أصبحا في تلقي الرسائل كصندوق البريد ؟ »

وهذا الذي نقرؤه للرافعي اليوم ، هو مذهبه ورأيه الذي ظل يدعو له مدة حياته ، وما زال صداه يتردد على شفاه طائفة من أصدقائه وأنصار رأيه ؛ وقد ذهب الرافعي إلى ربه منذ سنوات ، أفتراه كان يثبت على رأيه ذلك لو امتد به أجله إلى اليوم ؟ . . . وإن ابنة الرافعي اليوم لطالبة في كلية الآداب ، وما أراها رضيتْ ذلك لنفسها على خلاف في الرأى لأبيها ، وأحسبني قرأتُ لها رأياً في « الرسالة » منذ سنتين تُنكر فيه على المرأة أن تزاحم الرجل في الأعمال العامة ؛ فأين رأيها من رأى أبيها في اختلاط الجنسين بمعاهد التعليم ؟ وأين عملها من رأيها ؟

أتراني أظفر من الآنسة الأديبة بالجواب ، فأقرن

رأياً إلى رأى ، وأعرف أين « التجربة » من « النظرية » ؟

شاعر الوحل أيضاً :

عرضتُ في هذا الباب — منذ أسبوعين — لأبيات من الشعر نشرتها الرسالة « للشاعر المجهول » يعتب فيها على محبوبه أنه أباحه من نفائس عطفه ، « وصرف عليه من ماله » ، فلم يسلم صدره من سهامه ، ولم يسلم « جيبه » أيضاً .. إلى آخر ذلك « الغزل القروشي ... » ، وقلت إن هـذا لون جديد من الغزل يستحق التسجيل ، لأنه يمثل مظهراً من مظاهر « السياسات الاقتصادية » التي فرضت نظامها في هذا العصر على كل شيء ، حتى قلوب العاشقين و « جيوبهم » !

وانتهيت إلى قول الشاعر المجهول لحبيبه :

مضيت إلى غيرى جهـــاراً وخنتنى
فمن أىّ وحلٍ صيغَ طبعك خبّرنى !

فنوهتُ بعبقريته في قوله : « من أى وحل صيغَ طبعُك ؟ » ، وهو تنويه كان ينبغى ألا يفوتنى فيما أظن ؛ فليس من اليسير أن يقع الانسان على كثير من مثل هذا التعبير بين شعراء الغزل ! . . .

ولكن الشاعر المجهول — لم يُرضه ما كتبتُ تنويهاً بشعره وتعريفاً بفضله ؛ فنشر بالعدد ٤٦٣ من الرسالة كلة على أسلوبه وطريقته يهدد فيها « قاف الثقافة » بالرجفات التي تزلزل قمم الجبال ، ثم راح يلقى علينا درساً « هو الفيصل في معضلات النقد الأدبي » ؛ وإني ليسرني أن أستمع إلى كل متفضّل يحاول أن يعلمني ما لم أكن أعلم !

ولكن ماذا قال ؟ . . . لقد ظنّ أن كل ما عبته على شعره هو استعمال كلة « وحل » ، فراح يحاول إثبات أنها أبلغ كلة في هذا المقام ، قال :

« . . . وكلة وحل وردت في قول مسلم بن الوليد :
مشينا بها مشى المقيّد فى الوحل

« . . . وأقبح من كلة وحل كلة مستنقع ، وقد وردت في قول أبي تمام :

فأثبت فى مستنقع الموتِ رجلَه

« لو كان (قاف الثقافة) يعرف أسرار البلاغة لأدرك أن الكلمات تأخذ قوتها وبلاغتها من السياق . . . » الخ

وإني لأشكر له محاولته الوصول إلى كل ذلك ؛ ولكن حق العلم يقتضيني أن أزيد على ما قاله شيئاً لعله لم يقله استصغاراً لشأنه لا جهلا به : أما مسلم بن الوليد فذلك قوله في الخمر :

إذا ما علَت منا ذؤابةَ شاربٍ
تمشّت به مشىَ المقيّد فى الوحْلِ

وهى كما ترى صورة بديعة للسكران تتجاذب الأرضُ رجليه ؛ وكان الظن أن يعرف أن الوحل الذى يقيّد رجلَى السكران غير الوحل الذى صيغَ منه حبيبه الخائن جهاراً نهاراً بعد ما أنفق عليه من جيبه !

وأما أبو تمام فذلك قوله في رثاء محمد بن حُميد الطوسى :

فتًى مات بين الضرب والطعن ميتةً
تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ
وما مات حتى مات مضربُ سيفه
من الضربِ واعتلّتْ عليه القنا السُّمر
وقد كان فوتُ الموت سهلا فردّه
عليـه الحفاظُ المرُّ والخُلُق الوعرُ
ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنه
هو الكفر يوم الرَّوع أو دونه الكفرُ
فأثبت فى مستنقع الموت رجلَه
وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ

وإنما عُنيت بأن أذكر هذه الأبيات كلها على قلة احتفالي بالشواهد فيما أعالج من نقد الشعر ؛ ليعرف أن « مستنقع الموت » فى شعر أبي تمام غير المستنقع الذى أوحى إليه أن يقول لحبيبه يعاتبه : « من أىّ وحل صيغَ طبعُك ؟ » .

قاف

من هنا وهنــاك

مـــدفع برتا (Bertha)

فى أوائل أيام الحرب الحالية عندما هبت فرنسا وانجلترا معاً لمساعدة بولندا بإعلانهما الحرب على ألمانيا، صرح هتلر فى خطبته الأولى أن لديه سلاحاً سرياً فتاكا سوف يستعمله جنوده فى الوقت المناسب وفى المكان الذى يختاره، وسيكون له عندئذ مكانته بين الاختراعات الحديثة. ولم تمض بضعة أسابيع على تلك الخطابة حتى ظهرت الألغام البحرية على أنواعها، وظهر معها الخطر الدائم الذى هدد طرق المواصلات على السفن الحربية والتجارية.

ولقد قابلت الدول المتحالفة هذا السلاح بطرق مضادة فعالة قللت كثيراً من تأثيره، وأبطلت فى حالات عدة من مفعوله؛ ومن بين هذه الطرق ظهرت كاسحات الألغام والطائرات ذات الأطواق المغناطيسية (وسيأتى شرحها فى مقالات أخرى إن شاء الله). وظُن فى ذلك الوقت أنه قضى نهائياً على السلاح السرى الألمانى، وأن أساليب الحرب الحالية سترجع إلى ما كانت عليه فى الحرب العظمى الماضية. ولكن رجعت الدعاية الألمانية مرة ثانية وقالت إن السلاح الذى هدد به هتلر لم يستعمل بعد، وإن الوقت المناسب لاستخدامه لم يأزف . . . وأخيراً قرأنا فى أحد البلاغات السوفيتية فى الأسبوع الماضى أن الألمان أخذوا يستعملون فى الميادين الروسية بعض المدافع الجديدة، وأن مفعولها شديد جداً وتأثيرها فى غاية من القوة والبطش. فذكرنا هذا بمدافع برتا الهائلة التى كانت تستخدم فى الحرب العظمى الماضية لصب نيران قنابلها على باريس وما جاورها من البلدان.

والمعتقد حتى الآن أن تلك المدافع المستعملة ضد روسيا هى بنفسها مدافع برتا بعد إدخال تحسينات عليها مستمدة من تطورات علم الآلات الحربية فى ربع القرن الأخير، ولا يزال سر تركيب هذه المدافع ودقائق أجزائها مجهولاً للحلفاء.

وأغلب الظن أن هذا النوع من المدافع هو سلاح ألمانيا السرى الذى طالما تكلمت ألمانيا عنه وتوعد به هتلر أعداءه. وسيظل هذا مرجحا إلى أن تظهر لنا الأيام سلاحاً آخر. وقبل أن أشرح بعض خصائص هذا المدفع يحسن بى أن أذكر أن المعلومات التى سأدونها فيما يلى مستقاة من تقرير الجنرال شيَّاه General Challiat وهو الرجل الفرنسى الوحيد الذى شاهد هـذا المدفع الجبار عند ما أسر فى الحرب الماضية.

أدلى هذا الضابط بمعلوماته عند ما رجع إلى بلاده فى أواخر عام ١٩١٨ إلى وزارة الحربية الفرنسية. وتقريره هو الوحيد من نوعه فى العالم فيما يتعلق بمدفع برتا، عثرت عليه فى مجلة فرنسية نشرته عام ١٩٣٨. فاقتبست منه هذا المقال.

* * *

استيقظ أهل باريس فى صباح يوم ٢٣ من شهر مارس سنة ١٩١٨ مذعورين على أثر انفجار شديد من قنبلة كبيرة كانت قد سقطت فى أهم ميادينها، اهتزت لها جدران المنازل وارتجت لها الأرض، وسجل مرصد ليون فى هذا الوقت بعض الاهتزازات. وكان الألمان لا يزالون فى بلجيكا على بعد مائة وثلاثين كيلو مترا تقريبا من حدود العاصمة الفرنسية. لقد ظن الباريسيون فى بادئ الأمر أن طائرة من طائرات الأعداء أفلتت من بين نقط المراقبة الفرنسية وأغارت فجأة على العاصمة ثم قذفت ببضعة طوربيدات فى وقت واحد وفى مكان واحد. ودوت فى الحال صفارات الانذار وهرع الجمهور إلى المخابىء، بينما كان الضرب لا يزال مستمراً، ولم يك مع ذلك أثر لطائرة ما.

وعندما انتهى صوت القنابل فى الساعة الثانية بعد الظهر

كان قد عُرف أن هناك مدفعاً هائلاً على الحدود البلجيكية منحرفاً بمقدار ٦٢° ومصوباً نحو باريس يقذف المدينة بنيران قنابله . قال شابوه فى تقريره : « ... وكان طول ماسورته أربعة وثلاثين متراً ، وقطرها متراً . أما وزنه فسبعمائة وخمسون ألف كيلو جرام ! ! » ولكى نستطيع تصور مدى قذيفته نقول إنه إذا نصب أحد هذه المدافع فى دمنهور فان قنابله ستسقط فى وسط مدينة القاهرة ! ولكى ندرك مدى مفعول قنبلته نقول إنها تحتوى غرفتين بهما مائة وخمسون كيلو جراماً من البارود ، وإنها مصنوعة بحيث تنفجر فى كل أوضاع سقوطها ، فلا خوف هناك من عدم الانفجار واستحواذ العدو عليها واستفادته منها . أما ثمن تلك القنبلة فكان بلا ريب باهظا جدا ، إذ أنه كان يعادل ما قيمته ثلاثة آلاف من الجنيهات المصرية على التقريب !

كان الألمان يتوهمون أنه بهذا المدفع وبأمثاله يمكن إحباط عزيمة فرنسا فى الحرب ، وبث الرعب والفزع فى قلوب الفرنسيين . ولكن كانت روح الشعب المعنوية فى هذا الوقت قوية عظيمة ، وروح العداء نحو الألمان كبيرة إلى حد لا تزعزعها قنابل مدفع . فأخليت باريس أو معظم مناطقها فى الحال ، وهجرها سكانها إلى مدن فرنسا الجنوبية . وبقى على الجنود بعد ذلك معرفة موقع المدفع ، كى يأمنوا ضربه وإبعاد خطره . فطارت الطائرات ، ونشط الجواسيس ، وعلى ضوء الاستنتاجات الرياضية ، عُرف موضعه على وجه التقريب . ولكن كان من الصعب — بل قل من المستحيل — أن يحاصره جنود أو تقترب منه طائرة ، وذلك لشدة الاستحكامات حوله وقوة الدفاع عنه .

وفى عام ١٩٢١ وبعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات أعيد الكلام عن مدفع برثا . ولكن كان ذكره فى تلك المرة من مصدر ألمانى عليم . فقد كتبت إحدى المجلات فى هذا الصدد تقول : « عندما تم تركيب هذا المدفع أطلق عليه اسم « مدفع باريس » Pariser Jeschütz . وذلك للقصد الذى عُمل من أجله .

« وكانت قذيفته ترتفع فى الهواء مسافة أربعين ألف متر ، وتصيب هدفها بعد ثلاث دقائق ونصف دقيقة من ابتداء قذفها ، وقد انطلقت منه ثلاثمائة وعشرون قنبلة طوال مدة الحرب ، كان نصيب باريس منها مائة وثمانين .

« ويستغرق شحن المدفع زمناً يتراوح بين خمس عشرة دقيقة وعشرين دقيقة ، يتعاون فى خلالها ستون جندياً . وقد أعطى الأمر بقذف أول قنبلة منه فى الساعة السابعة والدقيقة التاسعة والثانية الخمسين ، من صباح يوم ٢٣ مارس سنة ١٩١٨ » .

أما باريس فقد عانت كثيراً من شظايا القنابل ، فسقطت منازلها وتعدد ضحايا أهلها ، وتهدمت آثارها ، ولم يبق منها سوى أكوام كانت فيما مضى قبلة السائحين ومحط الزائرين .

وكان آخر قذفاته فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ١٩١٨ . وبعد ذلك فُككت أجزاؤه ونقلت إلى ألمانيا .

وقد حاول الجواسيس جهد طاقتهم فى المدة التى انصرمت بين الحربين الماضية والحالية ، معرفة الشىء القليل أو الكثير من هذا المدفع ، والمكان الذى صُنع أو يُصنع مثله فيه . ولكن ذهبت مجهوداتهم عبثاً ، ولم يُعثر له على أثر ! . . .

محمد أحمد أمين

حكمت محكمة الدولية العسكرية فى الجنحة ٤٧ سنة ١٩٤٢ بتغريم محمد إسماعيل على من سبك الأحمد مركز أشمون ٢٠٠ قرشاً لعرضها لبيع ذرة بسعر أزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة مصر العسكرية فى القضية رقم ١٤١ سنة ١٩٤١ عسكرية الموسكى بتغريم محمد حسين على خمسة جنيهات لامتناعه من بيع سكر بالسعر المحدد .

العـــقد الفريد

اطلعت على الجزء الأول من كتاب العقد الذي تخرجه لجنة التأليف والترجمة والنشر أيام ظهوره، وقرأت جملة منه، فوقفت عند بعض الكلمات وبعض التصحيحات، وكتبت مقالة في ذلك أرسلتها لمجلة الرسالة الغراء، فلم تنشرها — ولست أدري سبب ذلك — ثم نشرت بعد ذلك في هذا الموضوع مقالات « لاستاذ جليل » وأظن أنه لم يتمها.

إن الكتب القديمة أمانة في عنق كل أديب، وإصلاحها من أوجب الواجبات، وكل من وجد فيها شيئاً وجب عليه أن ينبه إليه، وإلا كان ظالما ومقصرا في أداء الحقوق.

وعلى هـذا الأساس أبعث للثقافة الغراء بهذه التصحيحات رجاء بحثها وتمحيصها.

١ — كتب معاوية إلى زياد: « إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعا فتمرح الناس في المعصية، ولا نشتد جميعاً، فنحمل الناس على المهالك» هكذا كان الكلام في النسخة القديمة التي معي من العقد، ولكنه في النسخة الجديدة: « لا نلين » فلماذا؟ إن سياق الكلام يقتضي أن تكون « لا » ناهية لا نافية، لأن معاوية يوجه زيادا إلى أصل من أصول سياسة الناس، وقد جزم المضارع المبدوء بنون المتكلمين بلا الناهية، وذلك كقول الوليد بن عقبة:

إذا ما خرجنا من دمشق فلا نعد
لهـا أبداً ما دام فيهـا الجراضم

وأشاروا في كتب النحو إلى أن ذلك نادر، ولكني أبين هنا أن هذه الندرة ليست ترجع إلى ضعف القاعدة النحوية، وإنما ترجع إلى قلة دوران هـذا المعنى في استعمالات الكلام.

٢ — جاء في صفحة ٩٤: قال المغيرة بن شعبة: « أحب الإمارة لثلاث، وأكرهها لثلاث، أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء. وفي النسخ القديمة: « وفوت العزل » وكلاهما خطأ والصواب: « خوف العزل ».

٣ — في صفحة ٤٩ جاء في وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز: « وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب لم يصدقوك في الحق » وهذه العبارة تحتاج لتصحيح بدون شك، وقد صححت هكذا: « وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق » أقول: إن هذه الزيادة الطويلة في التصحيح ينبغي ألا تكون إذا أمكن البعد عنها، وذلك حتى يسير الكلام على نهج واحد وأسلوب متفق، أليس الأحسن أن يقال: « وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب وإلا لم يصدقوك في الحق »، بزيادة إلا دون غيرهـا في الوضع المناسب لها. أو يكون التصحيح هكذا: « وإنك إن يظهر لرعيتك منك كذب لم يصدقوك في الحق » وظاهر أن « إنك » قريبة من « إياك » في الخط، وتحريف إحداهما عن الأخرى أمر غير بعيد.

٤ — جاء في هذه الوصية: « واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك بأنك رأي فيه إن شاء الله» وكنت أحب من حضرات المصححين أن يبينوا مرجع الضمير في كلمة « فيه ».

أكتفي الآن بهـذا القدر آملا أن تسمح الفرصة بالتابعة إن شاء الله في أعداد قادمة.

الزقازيق عمر عبد الخالق

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين . بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٧٩ — الثلاثاء ١٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦١ — ٢ من يونيه سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

نحو الوحدة العربية :

الخطـــوة الأولى

للدكتور يوسف هيكل

إن كل من يفكر في الشعب العربي ومستقبله ، تفكيراً خالصاً من الشوائب والأغراض ، يرى أن هـذا المستقبل يتوقف على تقوية الروابط بين الأقطار العربية وتحقيق وحدتها . وتحقيق الوحدة العربية يحتاج إلى جهود عظيمة متنوعة . ولكن مهما عظمت هذه الجهود فهي لا تعدل مثقال ذرة بالقياس إلى الهدف السامي الذي يرى إليه . وهو غاية نبيلة تمكن الأقطار العربية إذا بلغتها من أن تتبوأ مكاناً بين الأمم العظيمة ، ومن أن تؤدي رسالتها نحو المدنية والانسانية .

فالوحدة العربية هدف العالم العربي ، وإليها ينبغي أن تتجه الأبصار والأفكار ، وفي سبيل تحقيقها يجب أن تتضافر القوى وتبذل الجهود . على أن هناك أموراً يقتضي العمل من أجلها ، بكل قوة وعزم ، وهي لا تتطلب بحث ماهية الوحدة وكيف يجب أن تكون ، وإن كان تحقيقها في الواقع بمثابة الخطوة الأولى للوحدة العربية . وهذه الأمور هي : توحيد مناهج الثقافة في البلاد العربية ، وتقوية الروابط الاقتصادية بينها .

* * *

إن تجزئة البلاد العربية إلى أقطار ، لا رابط بينها ، قد أدت إلى اختلاف مناهج التعليم فيها . وقد حمل هذا الاختلاف بعض المتعلمين على اعتبار الثقافة في القطر الواحد منها غريبة عنها في الأقطار الأخرى ، وجعلهم يتكلمون عن وجود ثقافة مصرية وأخرى سورية وثالثة عراقية الخ . ويتحدثون عن الأدب المصري الحديث ، وعن الأدب

العراق الحديث وعن الأدب الشامي الحديث الخ ، في حين أن ما في البلاد العربية من ثقافة عامة هي الثقافة العربية ، وما فيها من أدب هو الأدب العربي . ومهما حاول البعض تفريق الثقافة بالنسبة إلى الأقطار ، والادعاء بأن لكل منها شخصية ثقافية خاصة تجعلها مستقلة عن الأخرى ، فالمحاولة غير مجدية ، والادعاء لا يتفق مع الواقع . على أننا لا ننكر أن بقاء ما نجده من الاختلاف في مناهج التعليم في البلاد العربية من شأنه أن يؤدي ، مع الزمن الطويل ، إلى تفرقة ثقافية بين هذه الأقطار ، وإلى نشوء أدب خاص في كل منها يختلف ، بعض الاختلاف ، عن الأدب العربي العام من جهة ، وعن الأدب الحديث في بقية الأقطار من جهة ثانية . ووجود مثل هذه الثقافة ومثل هذا الأدب من العوامل الهامة في التفرقة بين الأقطار العربية في النواحي المختلفة . وهذا شر لا يرى إليه إلا من كان لا يريد للبلاد العربية خيراً ولا مستقبلا .

وقد نجم عن الوضع الحالي في البلاد العربية أن صار كل قطر من أقطارها يدرس كتباً لا تدرس في مدارس الأقطار الأخرى . وأدى فقدان الروابط العلميـة بين المؤلفين والكتاب في الأقطار العربية إلى استقلال كل مؤلف أو كاتب في ترجمة أو تعريب الكلمات والمصطلحات العلمية الحديثة ، مما أدى إلى اختلاف هذه الكلمات والمصطلحات في مختلف الأقطار ، إن لم يكن في القطر الواحد أيضا ، وبالتالي إلى إيجاد صعوبة على التلاميذ في قطر ما من الأقطار العربية في فهم ما يوضع من كتب « علمية » في الأقطار الأخرى . وهذه الحال تساعد كثيرا على التفرقة العلمية والثقافية بين هذه الأقطار .

وكما أن اختلاف مناهج التعليم يباعد بين الأقطـار العربية ، فان المدارس الأجنبية فيها تفرق بين مشارب المتعلمين ووجهاتهم في كل قطر ، وتجعل الشباب يذهبون في آرائهم وأفكارهم وعقائدهم مذاهب شتى ، فتفقد الوحدة ويتكون الخلاف . . . وليس السبب في ذلك أن العلم أنواعاً مختلفة متبـاينة الألوان بالنسبة إلى الأمم والقوميات ؛ بل لأن المدارس الأجنبية في الشرق لا تلقن تلاميذها وطلبتها العلم الخالص ، وإنما تقدم لهم مادة بالعلم المنقوص المشوه بالآراء والنزعات القومية الخاصة بها ، وتجعل من معظم تلاميذها وطلابها شخصيات غريبة ، لا هي عربية خالصة كما قد ينبغي ، ولا هي فرنسية أو انكليزية أو أميركية الخ ، إن كانت تلك المدارس تابعة لإحدى هذه الأمم . أما العلم الخالص فواحد لا يختلف ولا يتغير لونه باختلاف الأمكنة . والشباب الذين يتعلمون في الغرب ، وينالون من العلم الحقيق قسطاً وافياً ، يظلون عادة محافظين على شخصياتهم القومية ، غير مختلفين بعضهم من بعض حسب اختلاف البلاد الأجنبية التي تعلموا فيها . وإن بدا عليهم مثل هذا الاختلاف ، فلا يعد دليلاً على أن مادة العلم وتأثيره في قطر يختلفان عما هما عليه في آخر ، وإنما يعني أن هؤلاء الشباب الذين عاشوا في بيئات مختلفة وتعرضوا لتأثيراتها المتباينة ، تأثروا بمظاهر الحياة فقط ، ولم ينالوا العلم الخالص . إذ العقل العلمي واحد ، وصاحبه يستطيع التفاهم والعمل مع أصحاب العقول العلمية ، مهما كانت جنسية الجامعات التي نشأوا فيها .

* * *

إن اختلاف مناهج التعليم في البلاد العربية من ناحية ، والوضع الحالي للمدارس الأجنبية فيها من ناحية ثانية ، يضران بالعرب وبمستقبل بلادهم . ولذا ينبغي اتخاذ الوسائل لاتقاء الأضرار الناجمة عن الوضع التعليمي الحالي ، والمحافظة على وحدة الثقافة في البلاد العربية .

إننا نعتقد مع الكثيرين أن توحيد مناهج التعليم في البلاد العربية أمر ضروري ، ولا بد منه إن رمنا توحيد الأفكار والمحافظة على الثقافة العربية من التفرقة

والثانوي . وتوحيد المناهج يحتاج إلى درس واف عميق ، يشترك فيه نخبة من رجال التعليم في مختلف الأقطار العربية . ومحل من يتولى درس هذا الموضوع ، ويضمن له النجاح ، من الناحية العملية أن يدعو إلى عقد مؤتمر في القاهرة ، العاصمة الثقافية للبلاد العربية ؛ ويمثل الأقطار العربية في هذا المؤتمر فريق من رجال التربية والتعليم ، وعدد من قادة الفكر . ومما يدعو إلى الاغتباط أن حكومة جلالة الملك فاروق الأول قد درست هذه الفكرة ، وهي جادة في تنفيذها .

وللإشراف على تطبيق مناهج التعليم بعد توحيدها ، أو بعبارة أخرى على سير التعليم في البلاد العربية ، يشكل مجلس يدعى « مجلس التعليم العام » ، يختار أعضاؤه من رجال التربية والتعليم في مختلف الأقطار العربية ، ويكون مركزه القاهرة ، على أن يكون له مكتب خاص دائم ؛ أما الأعضاء فيجتمعون لدى عقد دوراته . ومتى تكون التحالف العربي ، وتشكل « مجلس الدول العربية المتحالفة » الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، كان « مجلس التعليم العام » مسئولاً أمام مجلس التحالف .

ومن الأمور الجوهرية التي ينبغي أن تحتوى عليها مناهج التعليم الموحدة تدريس تاريخ العرب والحركة العربية خلال القرن التاسع عشر ، والقرن العشرين في الدورتين الدراسيتين : الابتدائية والثانوية . أما في الدورة الجامعية في كليات الآداب والحقوق ، وإعداد المدرسين فتدرس الحركة الاستقلالية العربية خلال القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٨ مفصلة تفصيلاً تاماً ؛ وكذلك وضع البلاد العربية بعد هذا التاريخ ، وما ينبغي عمله لتأمين مستقبل الأمة العربية وتبوئها المكان اللائق بها بين الأمم العظيمة .

وتوحيد مناهج التعليم يساعد كثيراً على توحيد الكلمات والمصطلحات العلمية التي تترجم من اللغات الأجنبية . غير أنه للوصول إلى التوحيد التام ينبغي وضع قاموس واسع يشمل هذه الكلمات والمصطلحات ، ويكون بمثابة مرجع رسمي للكتاب والمؤلفين . وللسير مع الحركة العلمية ، وتوسيع مفردات اللغات ، يقتضي أن يكون هناك مجمع لغوي نشيط يقدم للكتاب والمؤلفين ما يحتاجون إليه من ترجمات المفردات والتعابير الحديثة في اللغات الأجنبية . والمجمع اللغوي في القاهرة ، المؤلف من شخصيات ذات مكانة في الأقطار العربية ، ومن بعض كبار المستشرقين ، يستطيع القيام بهذه المهمة إن قويت همته ، وعظم نشاطه ، ودخلته عناصر الشباب العالم العامل .

وتبادل المنتوج الفكري بين الأقطار العربية أمر حيوي لتقوية الوحدة الثقافية . ونحن بينما نرى المنتوج الفكري في مصر ، من جرائد ومجلات وكتب ، ينتشر اليوم في جميع الأقطار العربية ، لأسباب متنوعة ، نجد قليلاً من المنتوج الفكري في بر الشام أو العراق الخ ، يطلع عليه قراء الأقطار الأخرى ، لقلة الدعاية له ولعدم معرفة القراء به . فمن الواجب الثقافي ، والحالة هذه ، تعريف القارئ العربي بجميع الكتب التي تنتجها المطبعة العربية في كافة الأقطار . ولتحقيق ذلك يقتضي إنشاء مجلة كبيرة ، رفيعة المستوى ، تأخذ على عاتقها تعريف القراء بالمؤلفات العربية الحديثة ، وتتولى نقدها . على أن يكون ذلك النقد حسب قيمة الكتاب الحقيقية ، لا حسب ما لمؤلفه من شهرة ومكانة .

ما أكثر ما نرى النقاد والكتاب اليوم يتخذون النقد وسيلة للتزلف إلى كبار المؤلفين ، ووسيلة للتقرب منهم ونيل رضاهم . وكم من مؤلفات لكتاب شهيرين ، لا قيمة لها ، ولا فن فيها ، نالت إعجاب كثيرين من رجال الأدب وقادة الفكر وإطرائهم ، وخدعت القارئين وسلبت أموالهم . ولو أن هذه الكتب بعينها نشرها كتاب

ليس لهم مكانة مؤلفيها لكان حظها التقبيح ، وارسال ماليهم التشنيع . وكم من مؤلفات ثمينة لكتاب قديرين لا يتخذون الدعاية لأنفسهم مهنة ، كان حظها أنها ظلت مجهولة مبهمة ، ولم تلفت الأنظار إليها ، ولم يعترف بقيمتها أحد .

وانجاح مثل هذه المجلة ، يقتضي أن لا يعتمد موردها المالي الرئيسي على قيمة الاشتراكات فيها وثمن ما تبيع من أعداد ؛ لأنها إن اكتفت بذلك انحط مستواها ، لاضطرارها إلى النزول إلى مستوى جمهرة القراء . بل ينبغي أن تسندها مؤسسة ثابتة ، فردية كانت أم حكومية ، كلجنة التأليف والترجمة والنشر ، أو كالمجمع اللغوي في القاهرة ، أو « كمجلس التعليم العام » بعد إنشائه . ومتى وجدت هذه المجلة يبعث المؤلف العربي إلى إدارتها نسخة أو اثنتين من مؤلفه ، وتكل إدارتها إلى كتاب قديرين أمر درس الكتاب ونقده وتعريف القراء به . فان كان للكتاب قيمة أسهبت في التقريظ ، تقريظاً علمياً خالصاً ، وإلا اكتفت بكلمة عنه أو بذكر اسمه . وهكذا يقف القراء على المنتوج الفكري في مختلف الأقطار العربية ، ويقرأون منه ما يطيب لهم ؛ وبذلك يتم تبادل المنتوج الفكري الذي هو من عوامل تقوية الوحدة الثقافية في البلاد العربية .

وينبغي ، لجعل الوحدة الثقافية تامة قوية ، أن يقضي على الأضرار الناجمة عن المدارس الأجنبية في البلاد العربية . وفي إمكان هذه المدارس أن تكون مفيدة لتلاميذها إذا هي اتبعت ، إلى حد كبير ، مناهج التعليم الوحدة ، واعتنت باللغة العربية وآدابها ، وبتاريخ العرب بقسميه الدني منه والسياسي ، وخضعت للتفتيش الوطني ، كما هي الحال في البلاد التركية .

فالمحافظة على الوحدة الثقافية في البلاد العربية عامل رئيسي في تقدم هذه البلاد والوصول بها إلى الوحدة المنشودة . ولا يمكن أن تقام وحدة سياسية أو اجتماعية يكتب لها البقاء ، إن لم تدعمها وحدة التفكير والشعور . والثقافة الموحدة هي التي تخلق لنا هذه الوحدة العقلية الروحية ، وهي التي تبرز مواهب الأمة العربية ، وتجلو الصفات التي تميزها عن غيرها . وإننا لا نعدو الحق إذا قلنا إن إيجاد الوحدة الروحية ، والمحافظة على الوحدة الثقافية ، والوصول إلى الوحدة السياسية ، كل هذه تبلغ بالأمة العربية إلى مكانتها السامية ، وتمكنها من أن تقوم في المستقبل بمثل الدور الانساني العظيم الذي قامت به في الماضي .

* * *

وكما أن توحيد مناهج التعليم في الأقطار العربية ممكن دون التعرض للوحدة العربية ، فانه من الممكن أيضاً تقوية الروابط الاقتصادية بين هذه الأقطار والاتفاق على إقامة نظام شامل لها ، دون الاضطرار إلى بحث العلاقات السياسية . وفي بعض البلاد سبق الاتحاد الاقتصادي الاتحاد السياسي ، وكان ممهداً له . فاتحاد الزولفريين "Zollverein" قد جمع بين مقاطعات جرمانية مستقلة ، قبل نشوء الدولة الألمانية الحديثة . وقام الاتحاد الجمركي في استراليا بين المستعمرات الست ، واستمر ست سنوات ، قبل اتحادها سياسياً عام ١٩٠٠ .

والوصول إلى نظام اقتصادي مشترك ، أو اتحاد اقتصادي بين البلاد العربية ، يتطلب تنازل هذه البلاد عن قسم من سيادتها الاقتصادية إلى مجلس مشترك يدعى « المجلس الاقتصادي » ، ويؤلف من أعضاء ممثلين للبلاد المشتركة في الاتحاد الاقتصادي . وعلى هذا المجلس أن يدرس الحالة الاقتصادية ، في جميع الأقطار العربية دراسة دقيقة مستفيضة من نواحيها المختلفة . وهو يقرر موارد كل من الأقطار وحاجاتها الاقتصادية ، وطريقة تنسيقها ، ويبحث العلاقات التجارية السائدة بين هذه

الأقطار وقدرتها على تشكيل منطقة تجارية واحدة ، ويقرر الصلاحيات الاقتصادية التي تترك للسلطات المحلية ، ومدى خضوع أجزاء الاتحاد للرقابة المركزية . ومتى تم التحالف السياسي العربي ، يكون هذا المجلس مسئولا أمام « مجلس الدول العربية المتحالفة » .

ومما لا ريب فيه أن الاتحاد الاقتصادي بين الأقطار العربية ، يجعل هذه الأقطار إلى حد كبير ، متممة بعضها بعضاً ، وفي ذلك خير لها جميعاً . وموضوع الاتحاد الاقتصادي موضوع هام عظيم . وبيان ما تجنيه الأقطار العربية من فوائد يحتاج إلى فصول علمية عديدة وإحصاآت دقيقة . وإننا نرجو أن يقوم الاختصاصيون في المسائل الاقتصادية في الشرق العربي ببحث هذا الموضوع والكتابة فيه ، فتتضح للرأي العام العربي مزاياه ويلمس فوائده .

* * *

جلوت ، في هذا المقال ، الخطوة الأولى نحو الوحدة العربية ، ودعوت فيه إلى اتخاذها دون توان ، وآمل أن يكون ذلك قريباً ، وأن تتلوها الخطوة الأخرى . وبه تنتهي هذه الفصول التي وضعتها في هذا الموضوع الخطير ، ودعوت فيها إلى الفكرة العامة . ولست أجحد أنها بمجموعها ليست سوى معالم الموضوع أو هيكله . وكم أكون سعيداً إذا قام الأكفاء بدرسه دراسة علمية حقة ، وبيان خطورته وما يعود به تحقيقه على البلاد العربية من الفوائد والخيرات . وعلى كل حال ، فإننا على يقين تام من أنه ليس للبلاد العربية مستقبل لامع إلا بوحدتها ، وإن عظمة الأمة العربية وتبوءها مكانتها بين الأمم الكبيرة ، وقيامها بالواجب الذي عليها نحو المدنية والانسانية ، كل هذا متوقف على توحيد بلادها ، ثقافياً ، واقتصادياً ، وسياسياً . فهل لقادة الفكر في البلاد العربية أن يجتمعوا ويضعوا ميثاقاً قومياً عربياً ، يعلنونه على الملأ أجمع ، ويدعون إلى تحقيقه ، دون هوادة أو وجل ، فتلتف الأمة العربية من ثم حوله وتعمل به ، وتنتهز الفرص لتحقيقه ، حتى تبلغ الغاية المنشودة ؟ وهل للحكومات العربية بصورة عامة ، وللحكومة المصرية بصورة خاصة ، أن تبادر إلى القيام بما عليها من الواجب الأسمى ، فتوحد هدفها ، وتعمل في سبيله ، وتتخذ الاجراآت لتحقيقه ، والفرصة سانحة ، والظروف مواتية ؟

(تم البحث) (القدس) **يوسف هيكل**

صور تاريخية :

٢ – سلطان العلماء

للأستاذ أحمد أمين بك

دخل عز الدين بن عبد السلام مصر ، وقد سبقته شهرته بالعلم الواسع في مذهب الشافعية ، وبخبرته الدينية وبعظمته الخلقية ، وكان يعرفه بذلك كله ملك مصر « نجم الدين أيوب » . فولاه الخطابة في جامع عمرو بن العاص ، وقلده القضاء في مصر (الفسطاط) والوجه القبلي (أما القاهرة فأفرد لها قاضيا خاصا) وعهد إليه بعمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة .

وزاره المحدث الكبير وعالم مصر العظيم « عبد العظيم المنذري » فرأى من عز الدين فقها غزيراً وعلما كثيراً ، ورأى عز الدين من عبد العظيم بحراً في الحديث وعلمه ، فامتنع « عبد العظيم » من الفتوى وقال : لا أفتى وعز الدين بها ، وامتنع عز الدين من « الحديث » وقال : لا أحدث وعبد العظيم بها .

وسرعان ما شاهد الناس من « عز الدين » فصاحته في الخطابة ، وعلمه بأسرار الفقه ، وإخلاصه في عمارة المساجد ، ونزاهته في القضاء ، وصلابته في الحق ، فكانت مكانته في مصر كمكانته في الشام .

ولكن هذه المناصب مع هذه الأخلاق لا بد أن تصطدم بذوى الرغائب وأولى الجاه والسلطان ، فالحق مر لا يحلو في ذوقهم ، والعدل ثقيل لا تهضمه نفوسهم ، فما لقيه في الشام بدأ يلقاه في مصر .

هذا السلطان أيوب تُقبَّلُ الأرض بين يديه ، فيستفظع «عز الدين» هذا العمل أيما استفظاع ، ويستنكره في صراحة أمام السلطان وأمام الحاشية وأمام الجمهور ، ويخشى أخصاؤه عليه من هذه الجرأة فيقول : « لقد استحضرت هيبة الله فرأيت السلطان أمامي قطاً » ، ويطيع السلطان أمره وتنتهي المسألة بسلام .

ولكن كل يوم أحداث تؤلم الشيخ وتثير غضبه .

كان في منصب « أستاذ الدار » فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ ، وقد كان عظيماً في منصبه ، فهو القيم على الدواوين ، والواسطة بين الرعية والسلطان ، والمشرف على تحصيل الأموال من الملاك والزارعين ، والمتسلط على كثير من شؤون الدولة ، كما كان عظيماً في جاهه ؛ فأولاد شيخ الشيوخ الأربعة متقلدون أهم المناصب ، مقربون إلى السلطان لأنهم إخوته من الرضاع .

هذا فخر الدين[1] — وهو ما قد رأيت — يعمد إلى مسجد من مساجد مصر ، فيبني فوقه بناءً يتخذه «طبلخاناه» تضرب فيه الطبول ، وتنفخ فيه الأبواق ، وترن الزامير لاستدعاء الجند والاعلام بالنوبة ، وكان لكل أمير « طبلخاناه » لجنده ، تضرب فيها الصنج من النحاس بإيقاعات خاصة يدل كل إيقاع على معنى ، فاذا خرج الجند للقتال صحبت كل فرقة «طبلخاناتها» تحمسهم للقتال ، وتفهمهم حركات الحرب من تقدم أو تأخر ، أو تجمع ، أو نحو ذلك — فنخر الدين يبني هذه الطبلخاناه لأخيه عماد الدين ، فالناس تحت في صلاة ، والجنود فوق رءوسهم يطبلون ويزمرون ، ويفسدون عليهم عباداتهم .

هذه قلة ذوق لا ترضي أحداً . أيليق أن تستخدم بيوت الله بيوتاً للجند ؟ وأن يؤذن المؤذن للصلاة والجنود تنفخ في بوقها ، وترن بزمارها ، وتضرب بكاساتها ؟ إن في هذا إفساداً لسكون العابد ، وانتهاكاً لحرمة الصلاة . وكان في الأرض ذات الطول والعرض ما يسع الطبل والزمر بعيدا عن بيوت الله ، ولكنه الغرور بالجاه الذي لا يعبأ بشيء .

(١) ينسب المقريزي في السلوك هذه الحادثة لمعين الدين أخي فخر الدين ، وينسبها غيره لفخر الدين .

وآذان المغرورين لا تسمع لنصح ناصح، ولا عظة واعظ، فما هو إلا أن يأخذ «عز الدين» أولاده وتلاميذه وأتباعه ويهدم الفؤوس والمعاول. وإذا بحركة هدم عنيفة تقضى على الطبلخاناه فى لمحة، وإذا الشيخ عائد إلى منزله بعد أن أبعد من المسجد الطبل والزمر. ويصبح الصباح فيذهب إلى مكان القضاء، فيحكم على «فخر الدين» بإسقاط عدالته وعدم قبول شهادته، ثم يسجل ذلك ويكتب استقالته ويرفعها إلى السلطان فيقبلها، ويجلس فى بيته راضياً عن عمله مخلصاً لربه.

وتذيع الحادثة، وترد على كل لسان فى مصر، ويُعجب المصريون بالشيخ فى صلابته للحق، وتضحيته بمناصبه حسبة لله! وينتقل الخبر من مصر إلى الشام، ومن الشام إلى بغداد، حتى يصل إلى أذن الخليفة، فيُكبر الشيخ ويجله. وتشاء الأقدار أن يبعث السلطان رسالة إلى الخليفة، فيسأل الخليفة الرسول: هل سمعتها من السلطان مشافهة؟ فيقول الرسول: لا — ولكن سمعتها من أستاذ الدار فخر الدين عثمان. فيقول الخليفة: لا أقبلها، لأن عز الدين أسقط فخر الدين فلا تقبل روايته.

***

استراح الشيخ من عناء المناصب الحكومية، وتفرغ للدرس، والتف حوله نوابغ الطلبة الذين تصدروا للعلم فى الجيل التالى، كشيخ الاسلام ابن دقيق العيد، وعلاء الدين الباجى، وهبة الله القفطى! فهو يدرس فقه الشافعية، ويتحلق حوله الطلبة يتناظرون ويتفقهون ويستفتون، والشيخ فى بيته يحضر دروسه، وفى المسجد يلقى دروسه، وكلهم معجب بصفاء ذهنه وصدق نظره فى الاستنتاج الفقهى، وسعة اطلاعه. وفى لحظة إعجاب قال تلميذه «ابن دقيق العيد»: إنه «سلطان العلماء»، فصادفت هوى من نفوس السامعين، وشاعت على الألسنة ولبست الشيخ، كما قرر صديقه ابن الحاجب أنه أفقه من الغزالى. وأصبح الشيخ مصدر حركة علمية واسعة فى مصر، فى الفقه والتوحيد والتصوف. وتأتيه الأسئلة الدينية من الأقطار الاسلامية فيفتى فيها. ويخطئ مرة فى فتواه، فيرسل من ينادى فى مجتمعات الناس: إن الشيخ أفتى بكذا، فلا يؤخذ به لأنه قد أخطأ فى الفتوى.

***

ولكن اضطربت البلاد بغزو الصليبيين لمصر، فجمع لويس التاسع (ملك فرنسا) الجنود، وأعد الأسطول، وقاد ذلك كله بنفسه، وإذا بسبمائة قطعة صليبية محملة بالجنود وآلات القتال تظهر أمام دمياط، فيهرع أهلها إلى المنصورة. وتأتى الأخبار إلى مصر بأن الصليبيين أخذوا برج السلسلة [وهو برج عال مبنى فى وسط النيل، ومن ناحيتيه سلسلتان عظيمتان إحداهما تمتد منه إلى دمياط، والأخرى منه إلى البحيرة، تمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها، وكانوا يسمون — بحق — هذا البرج بسلاسله «قفل الديار المصرية»]، ونزل الصليبيون دمياط، وتوجهوا إلى المنصورة.

***

تحول الشيخ عز الدين من عالم مدرس فى المسجد إلى خطيب فى المجتمعات، يحرض على القتال، ويؤلب المسلمين على الصليبيين، ويستحث الأمراء على السرعة فى الإعداد، والشعب على الامداد، ويقوم بما تقوم به الآن الدعاية، مع فارق واحد، وهو تأسيس الدعاية إذ ذاك على العزة الدينية والغيرة الاسلامية.

وها هى الدعوة تستجاب، والمدد تمد، وينضم إلى جيوش الأمراء والمماليك وجنودهم طائفة كبيرة من العربان ومن عامة الشعب المصرى. وإذا الشيخ عز الدين — الرجل الأشيب السن — يسافر مع العسكر إلى المنصورة، وينضم فى صفوفهم، ويخطب فيهم، والجنود إذا رأوه ازدادوا حماسة وقوة، وامتلأوا أملاً فى الله، وعقيدة فى النصر.

حارب المسلمون في البر والنيل ، وانكسر الصليبيون ، وأسر لويس التاسع واعتقل في دار ابن لقمان القائمة بالمنصورة إلى اليوم ، وبعث الكتب إلى الأمصار تبشر المسلمين بالظفر بالعدو وتقول : « وكان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا : لا تيأسوا من روح الله .... فانتصرنا عليهم ، فتركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم .... وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزي والويل ، فلما أصبحنا قتلنا منهم ثلاثين ألفاً ، غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، وطلب الفرنسيس (لويس التاسع) الأمان فأمّناه ، وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته » .

ورجع الجيش ظافراً منصوراً ، وعاد الشيخ عز الدين فرحاً مسروراً . (يتبع) **أحمد أمين**

ملحوظة : حدث خطأ مطبعي في المقال السابق ، إذ جاء فيه أن ميلاد عبد العزيز بن عبد السلام سنة ٥٨٧ ، وصوابه ٥٧٧ .

خطبة زياد في البصرة

قدم زياد البصرة والياً لمعاوية بن أبي سفيان ، والفسق فيها فاش ، ظاهر ، فخطب خطبته البتراء المشهورة ، فهل نستطيع وقد تباعدت الأحقاب بيننا وبينه ، أن نرجع إلى خطبته ، فنستخرج منها الأصول التي بنى عليها سياسته ، مستقلين بالرأي ، دون أن يكون لهوى النفس ، أو لعصبية التأريخ ، شيء من السلطان علينا ؟ هل نستطيع أن نعرف زياداً في خطبته البتراء ؟ فلنقرأ هذه الخطبة مرة ثانية .

لا شك في أن الذين سمعوا خطبة زياد كانوا من طبقات شتى ، فمنهم أهل البيوتات والأنساب والآداب ، ومنهم العامة . فبأي طراز من الكلام لقي زياد هذه الجماهير المختلفة ؟ فاسمع فاتحة خطبته :

« أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغي الموفي بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ! » .

جهالة جهلاء ، وضلالة عمياء ، وغيّ موفٍ بأهله على النار ، هذه مقدّمة الكلام الذي لقي به زياد أهل البصرة ، سفهاءها وحلماءها ، صغارها وكبارها . ولا ريب في أن مثل هذا الكلام ليس من شأنه أن يكون له وقع حسن في نفوس الذين سمعوه ، فليس من الهين أن ينسب الوالي أهل البصرة إلى الجهالة والضلالة والغي ، وأن يرضوا عنه . فكيف حاول زياد أن يصدر عن هذا المورد المنكر الذي ورده ؟ لقد قذف بما قذف به في مقدمة الخطبة ، ولم يندفع في هذا النمط من القول ، فبعد أن عاب أهل البصرة بما عابهم به ، بعد أن ظهرت الشدة على كلامه ، أحب أن يظهر اللين عليه ، فقال :

« كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول » .

لم يجد زياد أبلغ من كتاب الله للاستعانة به على سفهاء البصرة وحلمائها ، فبعد أن آلمهم بما آلمهم به تحصن بكتاب الله ، وهو الحصن الحصين في مثل هذه الحال ، فذكّر أهل الجهالة والضلالة والغي بكريم ثواب الله وبأليم عذابه ، وفاته شيء واحد ، فاته ذكر آية في الأمر بالمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر ، وكأن زياداً قد علم بأن الاستعانة بكتاب الله تمهد له السبيل إلى النفوس ، فتبسط في هذا الضرب من الوعظ فقال :

« أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي

لم تسبقوا إليه ، من تركِكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله » .

فاستعمل زياد طرفاً من الحكمة فى تنبيه أهل البصرة على أعمالهم ، مثل إيثارهم الدنيا ، وسدّ الشهوات لمسامعهم ، فكان كلامه عاماً ليس فيه شىء من التخصيص ، فلم يفاجئ الناس مفاجأة بذكر الأمور التى خالفوا فيها كتاب الله ، ولكنه لم يرد أن يختم عبارته دون ذكر واحد من هذه الأمور ، وهو ترك الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، وفى هذا الكلام شىء من إغراء العداوة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا شك فى أن فى جملة من سمع خطبته كثيراً من هؤلاء الضعفاء .

فلمّا تمكّن بعض التمكن من قلوب الناس ، سواء أكان هذا التمكن بالتذكير بكتاب الله ، أم بالتجوء إلى يسير من الوعظ ، أم بالإغراء بين الضعفاء والأقوياء ، خلا له الجوّ ، فاستطاع أن يكاشف أهل البصرة ، سفهاءَها وحلماءَها بأنواع جهالتهم وضلالتهم وغيهم ، فقال :

« ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس ، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه ، صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً فى مكانس الريب . »

هذه حالة البصرة لما قدمها زياد عاملاً لمعاوية : مواخير منصوبة ، ضعيفة مسلوبة ، غواة فى الليل والنهار ، إغضاء على المختلس ، ذبّ عن السفيه . ولعمرى إنها لأمور مخالفة لكتاب الله ، مخالفة لقانون الاجتماع ، أمور لا يصح لعامل مثل زياد أن يسكت عنها ، لأن فى السكوت عنها ضياعاً للمسلمين ، وضياعاً لزياد نفسه ، وضياعاً لسياسة معاوية أمير المؤمنين . فماذا أعد زياد لأهل البصرة ، وحالهم على ما علمت ؟ فهاك خطته :

« حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً ، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد ! أو تستقيم قناتكم . »

الآن تكشّف زياد لأهل البصرة ، فظهرت سياسته فى حقيقة صورتها : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . ولكن الشدة كانت أغلب على كلامه من اللين ، وإن لم تظهر هذه الشدة فى عزمه على هدم مكانس الريب وإحراقها ، فإنها قد ظهرت فى أخذه الولى بالولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم . ولولا هذه الشدة ما استقامت قناة أهل البصرة ، لولا هذا العنف ما استطاع زياد أن يضبط من أهل البصرة ما ضبط والفسق فيها على ما علمنا .

ولكن زياداً خاف أن لا يصدقه الناس فى الذى عزم عليه ، فقد خاف أن يرموه بالكذب فى يمينه ! فاضطر إلى تأييد هذه اليمين بقوله :

« إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ؟ فاذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتى ، فاذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ ، واعلموا أن عندى أمثالها » .

أما وقد اطمأن زياد إلى أن كلامه قد وقع فى آذان الناس وفى قلوبهم ، ولم يخَف بعد هذه الطمأنينة شيئاً من تكذيب الناس إياه ، فليبادر إلى إيضاح سياسته فى إصلاح حالة البصرة ، وليتوسع فى تبيين العقوبات التى أعدها فى مثل هذا الاصلاح .

« من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منـه ، فإيّاى ودلج الليل ، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجّلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم ، وإياى ودعوى الجاهلية ؛ فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحـداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، من غرّق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنـا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه » .

يتبين لنا أن العقوبات التى وضعها زياد فى هذا الكلام أخف من العقوبات التى ذكرها من قبل ، فالفرق ظاهر بين أخذ الولى بالولى مثلا ، وبين تغريق من يغرق قوماً ، فقد نزل زياد عن شدته بعض الشىء ، فأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ، وأحدث لكل ذنب عقوبة ، فقد كانت البصرة حين مقدم زياد فى حالة لا يصلح معها اجتماع ولا ينمو فيها مال ، ولا يكثر فيها عمران . وأى بلد أسوأ حالا من البلد الذى يفشو فيه التغريق والإحراق ، والنقب والنبش ، وأشباه هذا كله ؟ فبعد أن أدخل زياد على أهل البصرة الطمأنينة إلى أموالهم وأرواحهم ، وبعد أن خوف سفهاءها بهذه العقوبات التى أحدثها ، لجأ إلى اللين فى كلامه حتى يستميل القلوب إليه فقال :

« وقد كانت بينى وبين أقوام إحن ، فجعلت ذلك دبر أذنى ، وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى ، لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له ستراً حتى يبدى صفحته لى ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس . » .

إنا نجد زياداً فى هذا المقام قد طوى أحقاده ، وظهر فى أخلاق الوالى المنصف ، فلا يحاسب الناس على بواطنهم ، فقد أخذ يتشبه فى هذه السياسة بعمر رضى الله عنه ، وعلم بأن مثل هذه السياسة تزيد فى تحبيل الناس إليه ، بعد الشدة التى ظهرت آثارها على كلامه ، فتوسع فى هذا المذهب فقال :

« أيها الناس ! إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه ، فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ، ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيه لكان شراً لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله . »

هذا كلام أشبه شىء بكلام عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، فقد انسحب زياد على أذيال عمر فى هذه السياسة ، فجمل بين الراعى وبين الرعية هذه الصلة المتينة ، صلة الناصحة ؛ فإذا فقدت المناصحة بين الحكومة وبين الأمة تمكن من الأمة كره الحكومة ، وتمكنت من الحكومة النقمة على الشعب ؛ ومتى اشتدت الكراهية من ناحية الأمة ، والنقمة من ناحية الحكومة ، ضاعت الأمة والحكومة فى وقت واحد ؛ وهذا ما فطن إليه زياد فى أواخر خطبته ، فأحب أن يصور الولاة للأمة فى صورة الكهف الذى ترجع إليه فى شدائدها ، فإذا صلح

الوالي صالحت الأمة ، وإذا فسد فسدت ، وهذا هو المثل الأعلى في الحكم .

إلا أن زياداً خاف أن يكون اللين آخر ما يعلق بأذهان أهل البصرة من خطبته ، وخاف أن ينسوا الشدة التي غلبت على بعض كلامه ، والعقوبات التي أحدثها لذنوبهم . والخلاصة خاف أن ينسوا زياداً ، فهدر هذا الهدير ، فقال :

« وايم الله ! إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي ! » .

وهكذا فقد بدأ خطبته بالشدة ، وختمها بالشدة ، أما اللين فكان يتخلل كلامه .

أما وقد فرغنا من قراءة خطبة زياد في البصرة ؛ فهل استطعنا أن نعرفه في خطبته ، أظن أنا لا حاجة بنا بعد أن دققنا في كلامه هذا التدقيق إلى معرفة رأي الناس في سياسته ، فقد كان تصرفه في خطبته عنوان تصرفه في سياسته العامة . ولئن كان مكتوباً في مجلسه الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، فتكون هذه الحكمة أبرز شيء في سياسة زياد ، فإن لجوءه في كلامه إلى الرفق مرة وإلى الغلظة مرة ، ثم تقلبه بين الوعد والوعيد ، دليل على حذقه أساليب السياسة ، ومهارته في مداخلها ومخارجها ، ووقوفه على طبائع الناس . ولولا هذه البراعة في السياسة وعلم النفس ما كتب له هذا النصيب من التوفيق ، فقد قدم العراق وهي جمرة تشتعل ، فرأينا الشدة التي أعدها لإطفاء هذه الجمرة .

فلنرجع الآن إلى خطبة زياد في البصرة ، ولنملأ خواطرنا منها ، فلعل فهمنا لأسرارها ولمحاسنها يكون أتم وأكمل .

وإذا قرأنا خطب رجالات سياستنا ، وكلام أدبائنا في القديم على هذا الوجه ، فلعلنا نختصر المسافة بين أفهامنا وبين إدراك عبقريتهم .

(دمشق) شفيق جبرى

(الثقافة) : جاءتنا هذه المقالة عن زياد للأستاذ شفيق جبري ، وفي البريد نفسه مقال عن زياد أيضاً للأستاذ محمد خلف الله سننشره في العدد القادم .

حكم في القضية ٨٩ سنة ١٩٤٢ عسكرية بولاق بتغريم إسماعيل إبراهيم الدريني خمسة جنيهات لامتناعه عن بيع زيت بالسعر المحدد .

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٢ في القضية ١٦٤٩ سنة ١٩٤٦ بتغريم حسن السيد عطا جزار بالزقازيق ٢٠٠ قرش لبيعه لحم بأزيد من التسعيرة ، وغلق المحل يوما

لمحة إلى أدب لبنان

للدكتور بشر فارس

من الحديث المستفيض تبادل الثقافة بين الأمم العربية إلى جنب تزعم مصر هذه الأمم من الناحية الفكرية . فما عذرنا إذاً في إهمال أدبها ، بل إن في إعراضنا عن آثار أدبائها المحدثين مما لا يجمل بنا ، ولا سيما أن كتبنا وأصحابها يظفرون هنالك بالإقبال والمؤاساة . ولو كان أدب تلك الأمم ساقطاً أو تافهاً لانبسطت لنا سبل التنصل ، ولكن عندهم ما ليس دون ما عندنا ، بل إن عندهم ما يعوزنا كما أن عندنا ما يفوتهم . واليوم أحب أن أطلع القارئ على بعض وجوه الأدب اللبناني وطائفة من عيونه ، ذلك أني استطعت أن أتبين الأمر في الخريف الماضي بعد قضاء أسابيع في بيروت وما يعلوها ، وبعد أن نظرت فيما أخرجته المطابع ولا سيما دار « المكشوف » في هذه السنوات . على أن كلمتي لا تدّعي الاستقصاء ولا الإحصاء ، وإنما هي تنبيه يجري إلى تعريف .

أول من يستوقفك من وجوه الأدباء ميخائيل نُعَيْمَة . رجل في الخمسين ، عالي الثقافة ، نزح إلى شمالي أمريكا لثلاثين سنة خلت . فكان هنالك دعامة من دعائم المدرسة العربية في المهجر بجنب أمين الريحاني ، وجبران خليل جبران ، وإيليا أبي ماضي ، تلك المدرسة التي وجهت أدبنا الحديث إلى التصرف في مقاطع العبارة ومطالع الفكر . وقد بقي اثنان من هذه المدرسة : نعيمة في لبنان وأبو ماضي في نيويورك . ونعيمة هو الكاتب المفكر ، البعيد مرمى النظر ، الغزير فيض الخاطر . له « المراحل » و « زاد المعاد »(١) ، وفيهما يبدو روحانياً غالياً ، بل صوفياً يرجع من الحواس الظاهرة الواهمة إلى الحس

(١) الأول : بيروت ١٩٣٢ ، الثاني : مصر المقتطف ١٩٣٦ .

الباطن الصادق ، ومن العقل إلى الخيال . وهو بعد هذا يذهب إلى الحلولية ووحدة الوجود ، ويدعو إلى المحبة ، ويرى فيها الرسول الأفضل إلى الجمال والحرية والحق ، إلى قلب الله . ومن آرائه الجذابة أنه لا غربة على هذه الأرض سوى غربة الإنسان من ربه ثم من نفسه ، وأن الكون كامل لكاملين ، وأن الفرق الذي بين الشرق والغرب محصور في استسلام الشرق إلى قوة لا يقدر على مغالبتها ، في حين يعتد الغرب بقوته ويتاجر بها كل قوة .

ويلي نعيمة في أدب التفكير قسطنطين زُرَيْق ، إلا أن تفكيره خلاصة تبصر في التاريخ لا عصارة تصوف فتأمل . في « الوعي القومي »(١) يستند قسطنطين زريق إلى ماضي الأمة العربية : كيف نشأت ونشطت ، وكيف نضجت لغتها ونهضت تقاليدها ، فيستوضح خصائصها ، من باب النظر دون الاستقراء ، ثم يشير إلى مشكلاتها الحاضرة ، وإلى مبلغ صلتها بالغرب ليرسم لها طريق المستقبل ، عسى أن تؤدي إلى حضارة الكون الرسالة المفقودة بينها . ذلك هو « الوعي القومي » ؛ وإن يستوي إلا إذا انعقدت أمور : منها علو شأن المرأة ، والدين القومي ، والسهر على التراث الثقافي من بعد إحيائه ، والانصراف إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس .

وفي أدباء لبنان من يحذق فن القصص : فيهم نعيمة صاحب « كان ما كان »(٢) . ففي هذه المجموعة ينحدر صوتي « المراحل » و « زاد المعاد » من أبراج الحدس والكشف إلى ميادين الوصف الباشر والفكر المحسوس ، فتراه يتعقب ألوان الحياة في مسالك جبل لبنان على نزع مائل إلى الواقعية تلطفها الإشارات واللفتات ، وأغراضه العليا مندسة بين السطور تارةً وأخرى ماثلة . ومن هذه الأغراض : الحض على الرجوع إلى الطبيعة ، وعلى نبذ

(١) بيروت طبعة ثانية ١٩٤٢ .
(٢) بيروت ١٩٣٧ .

زخرف الحياة الشرقية ، وعلى التطلع إلى حقائق المدنية الغربية — ولخليل تقي الدين «عشر قصص» ، و «الاعدام» [١] . وفي هذه المجموعة الأخيرة عرف تقي الدين كيف يتلمس طريق النفس الغامضة ، المتوبة ، المكبوتة كما نقول اليوم ، فعرض بعض الدخائل في أسلوب جلي وتعبير عربي رصين ودراية بموالج القصة ومخارجها . ولتوفيق عواد قصة طويلة عنوانها « الرغيف » ، وله قبل ذلك مجموعتان : « الصبي الأعرج » و « قميص الصوف » [٢] . وفيهما يستطيع عواد أن يجعلك تتقرى نبض الحياة الهائجة ؛ فلله ضراح القصاص ، ثم به انعطاف إلى البشرية المتألمة ، ولولا تهاون بالأداء لذهب في التأثير فوق ما يذهب . وهنالك قصاص اسمه سليم خيّاطة ، له « الأزليان (قصة حلم) » [٣] . وهو كتاب كالشاذ ، يلحق بفن الفكاهة ، وهي فكاهة هذا العصر وإن بدا فيها أثر « الساق على الساق » للشدياق ، وذلك بسبب الألفاظ الحوشية والغريبة بل المرتجلة أحياناً يبثرها المؤلف في عباراته . وإذا انثنينا إلى الأدب الافرنجي ، رددنا بعض ما في هذا الكتاب من الصور والتراكيب والغرائب المنطقية إلى أسلوب « ما وراء الواقع » أو « المكعّبية » .

وأما الشعر فلميخائيل نعيمة بعض قصائد مشهورة في مصر ، منها « النهر المتجمد » تتجاذبها الوجدانية والرمزية الباشرة ، يداولها التنفّس الصافي وقوامها الإيقاع المستتر ؛ فهي تذكرك بطريقة شعراء المهجر الأمريكي ؛ ما عدا إيليا أبي ماضي الذي انفرد بنسجه في « الجداول » ، وقد حاول بعض الشعراء هنا وهناك أن يقلدوه فسطوا عليه . وفي لبنان بعد هذا شعراء كثيرون ، كما هي الحال عندنا . ولكن المبتكرين الصادقين حسّا قليل .

(١) بيروت ١٩٣٧ ، ١٩٤٠ .
(٢) بيروت ١٩٣٩ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٧ .
(٣) طرابلس ١٩٣٩ .

فمنهم من لا يزال يعارض الأقدمين ، ومنهم من يجري مجرى شوقي أو مطران أو جبران أو أبي ماضي ، ومنهم من يقنع باللفظ الجلجل شأن فريق من الناظمين عندنا . غير أني أحب أن أنبه إلى سعي الشاعر سعيد عَقْل ؛ فانه يحاول مقتنعاً أن يجعل الشعر تعبيراً لحالة نفسانية منفلتة من الوعي ، تكون مادتُها الوسيق لا العاطفة ، وغايتُها الاتحادَ بحقائق الكون الأزلية ، حتى تنتقل من دخيلة الشاعر إلى حس القارئ من طريق الإيحاء ، إذ يجاوب اللفظ المعبِّر جوهرَ الحالة النفسانية بل يبدلها . ذلك رأى الشاعر بسطه في مقدمة قصته الشعرية « المجدلية » [١] بلفظ قلق وتركيب ملتو . وأما القصيد نفسه فلا شك أنه يضم بدوات وتعبيرات فيها انطلاق وافتنان ، وربما أرادت أن تكون طريقة . وممن يسعى وراء التجديد في التصوير صلاح لَبَكي [٢] . ولصلاح الأسير مقطّعات غير مجموعة يلوّن فيها اللفظ تلويناً . وممن تغلب على طريقته النزعة الابتداعية (الرومانتسم) مع انجذاب إلى ألفاظ الشر على نحو (بودلير) الفرنسي إلياس أبو شَبَكة [٣] .

وفي باب النقد نعود مرة أخرى إلى ميخائيل نعيمة . فكتابه « الغربال » ، الذي خرج في مصر سنة ١٩٢٣ ، مع مقدمة جيدة بقلم عباس العقاد ، قضية الحديث على القديم ، بل ثورة الجديد المتمكن المتبصر المتطلع على البالي المتصنع المترهل المتفكك . وفصوله كلها جرأة لا ادعاء فيها ، وحماسة لا تكلف بها ، وهي تجري في جملتها إلى غايات الأدب الصرف ، المنزّل منزلة الرسول ، المصغي إلى الطبيعة ، الباحث عن الحق ، التارك لهرج النطق ،

(١) بيروت ١٩٣٧ . وله قبل ذلك بيروت ١٩٣٥ « بنت يفتاح » ، وهي مأساة شعرية في فصلين .
(٢) له « أرجوحة القمر » بيروت ١٩٣٨ .
(٣) له « أفاعي الفردوس » بيروت ١٩٣٨ ، و « الألحان » بيروت ١٩٤١ .

المتعالي عن ابتغاء مرضاة الجمهور . هذا هو « الغربال » ، وهو على شاكلة « الديوان » الذي أخرجه في ذلك العهد أيضاً العقاد والمازني ، فجاء حرباً على صنعة التقليد وحرفة التزويق . ولنعيمة كتاب كشّاف عنوانه « جبران خليل جبران » (بيروت ١٩٣٤) ، وهو يتناول سيرة ذلك الفنّى العجيب في استشفاف لخُلقه الانسانية واستيضاح لطبيعته الفنية — وفي بيروت اليوم ناقد من أهل الدراية بالأدب والاخلاص للفن ، هو عمر الفاخوري صاحب « الفصول الأربعة »[1] . وهو عدو الأدباء الفضوليين ؛ من ذلك قوله : « الأديب في بلادنا رجل من ورق وحبر ، لا تكاد تجد فرقاً إلا في لون الحبر ونوع الورق » ، وقوله : « يجب على الفنان أن يتصل بهذا الوجود ، فلا يعتمد على الحفظ والقراءة » . وفي الكتاب بعد هذه الحلة الصادقة مباحث تدخل توّاً في فلسفة النقد ، يسلّط فيها على الشعر العربي أضواء مستحدثة تنجلي بها الرقائق واللطائف — وهنالك جمهرة من النقاد يكتبون في المجلات البيروتية ، منها « المكشوف » و « الجمهور » و « الأديب » لصاحبها الكاتب الاجتماعي ألبير أديب (وهذه مجلة حسنة الظهر والخبر ، برزت في رأس هذه السنة) و « الحديث » الحلبية لمنشئها سامي الكيالي ، ذي النفس السمحة التواقة . ومن هؤلاء النقاد مارون عبود ، وفؤاد حبيش ، وميشال أبو شهلا ؛ فالأول بصير عالم بالأدب الابداعي وبأصول اللغة ، والثاني والثالث حس فني .

لأنتقل الآن إلى الناحية العلمية ، فأحدثك بأمر المشتغلين بآداب العربية ؛ فهذان شيخان جليلان : فيليب دي طرّازي ، وعيسى اسكندر المعلوف ، قد جمعا الفوائد . الأول صاحب « تاريخ الصحافة العربية »[2] ، ذلك المرجع النفيس المشهور ، وله أيضاً كتاب فريد جامع لا يزال مخطوطاً ، قد أطنبتُ في وصفه في « مقتطف » مايو لسنتنا ، وعنوانه « خزائن الكتب العربية في الخافقين » . وأما الثاني فله عدة تواليف ، يتنازعها التاريخ واللغة ، ولا سيما لغة العامة . وإني مفصل هذا في المقتطف الآتي ؛ هذا وما أظن القارئ يجهل شيخاً جليلا ثالثا ، هو شكيب أرسلان صاحب « التعليقات والحواشي على حاضر العالم الاسلامي لستودارد الأمريكي » (مصر ١٣٥٢ ﻫ) ، و « تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض المتوسط » (مصر ١٣٥٣ ﻫ) ، و « علاقات التاريخ باللهجات العربية » (مجلة المقتطف يناير ، فبراير ، مارس ١٩٣٢) . وقلم هذا المؤلف يجري في التاريخ واللغة على أسلوب المتقدمين في التثبت والتقصي .

ثم إن هنالك فريقا من العلماء المنصرفين إلى التعليم في جامعة اليسوعيين وجامعة الأمريكان ، وجلُّهم شباب . وهم ينشرون مباحثهم في غالب الأمر في مجلة « المشرق » وهي مجلة تكاد تكون موقوفة على الآداب العربية والشئون الاسلامية ، ولا نظير لها عندنا (!) . ولهؤلاء العلماء دراسات حسنة ، متنوعة ، مثال ذلك : « مجموعة الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا »[1] لأسد رُسْتُم ، و « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي »[2] لأنيس المقدسي ، و « الديارات النصرانية في الاسلام »[3] لحبيب زيات ، و « الخزانة الشرقية »[4] له أيضاً ، و « فخرالدين المَعْني

---

(١) بيروت ١٩٤١ . وله أيضاً « الباب المرصود » بيروت ١٩٣٨ .

(٢) خرج في أربعة أجزاء ، بيروت ، سنة ١٩١٣ ، ١٩١٤ ، ١٩٣٣ .

---

(١) خمسة مجلدات ، بيروت ، « سلسلة العلوم الشرقية » سنة ١٩٣٠ — ١٩٣٤ .

(٢) بيروت ١٩٣٢ .

(٣) بيروت ١٩٣٨ .

(٤) بيروت ١٩٣٧ . وهي تنقيبات في مخطوطات عربية زاخرة بفوائد تاريخية وأدبية وعمرانية لزمن العباسيين .

في الشرق الأقصى :

٢ - الصـــــين

في الألوف الغابرة من السنين

فترات الفوضى وعصور العظمة :

كان من معقبات ذهاب عاهل الصين ومنشىء دولتها الأمبراطور الأصفر الأول «تشي هوانغ تي» أن ارتفعت القبضة الحديدية التي كانت تخمد الطمع في صدور الطامعين . فنشبت الحروب الأهلية على أشدها بين المتنافسين ، إلى أن وصلت إلى متبوأ الحكم أسرة «هان» ومدتها نيف وأربعمائة سنة (من ٢٠٦ قبل المسيح إلى ٢٢٠ ميلادية) . ولقد بلغت الآداب والفنون ورواج التجارة وصلاح الأداة الحكومية على يد ملوكها مبلغاً لم يعهد له نظير قبلها ، كما اتسعت رقعة ملكهم فبلغت بنودهم الظافرة إلى منشوريا ومنغوليا وكوريا ، ولم يلبثوا بعد قهرهم التتر أن امتد سلطانهم إلى تركستان الشرقية ، فانفتحت أمامهم طرق التجارة البرية إلى غربي آسيا ، وأخذت المنتجات الصينية سبيلها إلى الشام والديار المصرية وإيطاليا ، وعاد التجار الصينيون يحملون فيما يحملون إلى بلادهم طرفاً من أخبار دنيا غير دنياهم ، وحضارة تختلف عن حضارتهم . وفي أيام هذه الأسرة كان أول دخول الديانة البوذية إلى الصين . ولسنا نجد إشادة بأسرة هان وعظمة ملكهم أبلغ من انتساب أبناء الصين إليهم حتى اليوم فتراهم عند التفاخر يتسمون «أبناء هان» .

وبسقوط أسرة «هان» الحاكمة ، عمت الفوضى وشاع الاضطراب مدى أربعة قرون ، وانفصمت أسباب الملك وانحلت عراه ، وانقسمت الأمبراطورية العظيمة إلى دويلات متدابرة متنافرة ما برحت تتناحر على السيادة

الثاني» للأب بولس قرألي[1] ، و«نقد الشعر في الأدب العربي»[2] لنسيب عازار . وهنا لا بد من التنويه بلبناني ، نزح إلى شمالي أمريكا فاشتغل بالاستشراق ، فنبه وبرز حتى أصبح رئيس قسم اللغات الشرقية في جامعة برنستون ، وهو فيليب حِتّي صاحب «تاريخ العرب» (في الانجليزية لندن ١٩٣٧) ، وحسبه هذا الكتاب[3] . ويلحق بهذا ما نُقل إلى العربية نحو : «أمراء غسان» المستشرق الألماني (نولدكه)[4] . ويلي ذلك ما يخرجه هؤلاء العلماء في بيروت من الآثار إخراجاً محكماً . فقد نشر الأب صالحاني «تاريخ مختصر الدول لابن العبري (سنة ١٨٩٠) و«ديوان الأخطل» (١٨٩١) و«الأضداد للأصمعي وغيره» (١٩١٣) ، و«نقائض جرير والأخطل» (١٩٢٢) . ونشر قسطنطين زُرَيق «الزبدية قديماً وحديثاً لإسماعيل بك جول» (١٩٣٤) وأجزاء من «تاريخ ابن الفرات» بمشاركة الدكتورة نجلا عز الدين . ونشر أسد رستم ، وفؤاد إفرام البستاني «لبنان في عهد الأمير فخر الدين المَعْنِي للشيخ أحمد بن محمد الخالدي» (١٩٣٦) .

هذا ومما يثير الدهش ، بل يورث الأسف ، أن ليس في الناشئة الحديثة من تستهويه اللغة العربية وعلومها ، ومن لبنان فرع اليازجيان : ناصيف وإبراهيم ، والبستانيون : المعلم بطرس وسليمان وعبد الله ، والشدياق «الجاسوس» ، والشرتوني الذي «قرّب الوارد» .

بشر فارس

(١) المجلة البطريركية ، السنة ١٠ ، شباط — أيار ١٩٣٥ ، حريصا (لبنان) ١٩٣٢ . وظهرت الوثائق العربية لتاريخ هذا الأمير في اللغة الايطالية بقلم قرألي أيضاً (رومة ١٩٣٦) راجع وصف هذا الكتاب مع تعليق وانتقاد بقلم حسن عثمان في «مجلة كلية الآداب» القاهرة ، المجلد ٦ ، مايو ١٩٤٢ .

(٢) بيروت ١٩٣٩ .

(٣) تجد وصفه في مقتطف فبراير ١٩٣٨ بقلم زكي محمد حسن .

(٤) نقل هذا الكتاب بندلي جوزي وقسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٣ .

وإحراز الغلبة . واغتنمت الشعوب الهمج المجاورة فرصة هذا الانقسام فأقامت لها سلطاناً في الصين الشمالية ، ولم يبق في يد الحكومات الصينية غير الجنوب مما يلي النهر الأزرق . وكان من أثر هذه الغزوات أيضاً ما لا يزال قائماً ملحوظاً حتى اليوم من الاختلاف في السحنة واللغة بين أهل الشمال وأهل الجنوب .

على أن هذه الغاشية الطويلة من الفوضى والانقسام انتهت بقيام أسرة « تانج » ومدة حكمها من ٦١٨ م — ٩٠٧ م . وفي عهدها أصبحت الصين أعظم دول العالم اتساع رقعة وضخامة سلطان ، وأعزها جانباً وأقواها شوكة . فبلغت حدودها إلى فارس وبحر قزوين غرباً ، وبلغت برما وجبال الهملايا جنوباً . واستفاضت إلى ما وراء ذلك شهرتها ، فسارت بذكرها الركبان في الآفاق وتردد اسمها في الخافقين . وتوافدت على بلاط الملك « تاى تسونج » رسل الملوك وسفراؤهم من أقاصي الأقطار من أقيال نابال وبحادها في الهند ، ومن شهنشاه الفرس ، ومن أمبراطور بيزنطة ، كما قدم إليه من بلاد العرب رسول النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

وخطت الحضارة الصينية في عهد هذه الأسرة خطوة جديدة . فقد دخلت على الثقافة القديمة مؤثرات ثقافية من الهند وأواسط آسية ، فتهيأت من هذا المزاج نهضة جديدة في الأدب والفن ، وارتقى التصوير خاصة إلى أبعد غايات الاحكام والاتقان . وجمعت القوانين ودونت ، وأخرجت للناس آثار كونفشيوس كاملة صحيحة . كذلك أنشئ معهد « هان لين » ، وهو أكبر مجمع علمي في الامبراطورية ويضم أربعين عضواً وقد جرى الأباطرة على اختيار الوزراء من بينهم ، وكان سائر المرشحين للمناصب العليا من المتخرجين فيه . وفي هذا العهد البعيد صدرت أقدم صحف العالم ، وهي « جريدة بكين » لنشر الأوامر والمراسيم الملكية ، وغيرها من الوثائق الرسمية . ثم إلى هذا جميعه عملت أسرة « تانج » على رفاهة البلاد مادياً وتوفير الرخاء لها ، فخفضوا الضرائب على الأهلين ، وسهروا على إبطال الرشوة وإقامة العدل ، وعملوا على مد القنوات الكثيرة لتقوم هذه المسالك المائية مقام الطرق المعبدة في دولة الرومان ، لتيسير نقل التجارة في داخل الامبراطورية . وكانت المتاجر ترد من فارس والعراق والشام ، وسائر الأقطار الاسلامية على ميناء كانفو ، ولعلها المعروفة اليوم باسم كانتون ، وقد خصصوا لها سوقاً كبيرة ، ووكلوا بها من يحصيها ويتقاضى منها الثلث عيناً . وكان التجار المسلمون أول من توطنت لهم جالية في ميناء كانتون ، وكان لهم فيها قاض منهم ومسجد للعبادة . وفي أيام أسرة « تانج » كان يصنع ألطف أنواع الخزف وأنقاها لوناً وأشفها مادة ، وكذلك المنسوجات وسائر الطرائف والتحف . ولقد طبعت الصين بحضارتها جميع من حولها من الأقوام مثل الكاموك والتنجوس في سهوب سيبيريا ، والنشوبين في سيف نهر آمور ، ومثل أهل التبت وأنام وكوريا ، بل تأثرت بحضارتها اليابان نفسها فأخذت منها لغة الكتابة والفن والديانة البوذية والنظام السياسي .

ثم صارت الصين مرة أخرى إلى الانحلال والفوضى ، وبقيت أمداً غير قصير نهب الفتن والحروب الأهلية ، حتى غلبت على الحكم أسرة جديدة هي أسرة « سونج » فأقرت النظام وردت على الأمة العلا نينة والرفاهية ، وامتدت أيامها إلى أكثر من ثلثمائة عام (٩٦٠ م — ١٢٨٠ م) . وكان ملوكها في قتال مستمر لا ينقطع مع القبائل الهمجية من التتر الشرقية . إلا أنه لا القوة أغنت في صدهم ولا المال كف عن البلاد شرهم . وانتهى الأمر باستقرار هؤلاء التتر في أقاليم الصين الشمالية ، وانتشار سلطانهم حتى النهر الأزرق . فلم ينقض من القرن الثاني عشر نصفه ، حتى كانت أسرة سونج لا حكم لها إلا على الصين الجنوبية .

دولة المغل :

ولم يلبث أن هبَّ من الصحارى المعروفة اليوم باسم منغوليا الشمالية ، إعصار من أبنائها لا يحصى عددهم كثرة ، وكلهم فرسان محاربون ذوو بأس وجلد ، وقد اجتمعوا تحت زعامة جنكزخان سيد العالمين . فوقع أول وقوعه في الصين على أقاليم التتر الشمالية ، فاجتاحها بعسكره العارم الكثيف الذي لا يغالب ، ودكَّ آثارها وخرَّب أمصارها ، فلم يبق منها حجر قائم ، وكانوا بذلك جد فخورين ، حتى ليقول قائلهم مزهواً مدلاً : « إن الفارس أن يركض فرسه في حيث كانت هذه الأمصار دون أن يخشى العثار » . وبعد أن دالت دولة التتر في الشمال ، تدفقت جحافل المغل إلى ما يلي النهر الأزرق ، فدالت دولة سونج في الجنوب ، واجتمع أمر الصين كلها في يد قبلاى خان حفيد جنكزخان ، وقامت في الصين أسرة « يوان » المغلية (١٢٨٠ — ١٣٦٨) .


أمبراطور الصين المغولي قبلاى خان

وقد اتخذ « قبلاى خان » قاعدة ملكه في بكين بدلا من نانكين ، وكانت تعرف لعهده باسم كمبالوك أى أقصى الشمال . وكانت في أيامه من أغنى مدن الدنيا ، عظيمة العمران كثيرة السكان ، غاصة بالقوافل لا ينقطع ورودها من هذه الآفاق ، وقد أعدت لها الخانات والحانات وأمنت المسافرين الطرقات . وبلغ من رواج التجارة والأخذ والعطاء بين الناس أن اخترع قبلاى خان للتعامل في البيع والشراء قطعاً من الكاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة فأخذ عوضها جُدُداً ودفع تلك ، ولا يعطى على ذلك أجرة أو سواها ، فهي في حكم ورق النقد المتداولة عندنا سواء بسواء . كما أنه أجرى ماء البحيرات إلى قنوات اصطنعها لوصل الأنهار ، ومدَّ تفاريع منها إلى المدن ، جريا على السنة المتبعة في هذا البلد الشاسع المترامي الأقطار ؛ وإليه يرجع الفضل في حفر القناة الكبرى الواصلة ما بين النهرين التاريخيين عند بكين ونانكين عاصمتي الامبراطورية . وقد اشتهر عهد قبلاى خان في التاريخ بما نالت الفنون والعلوم على يديه من تكريم وتشجيع . وفي أيامه كانت زيارة الرحالة البندقي « ماركو بولو » للصين ، وقد وصف عظمة هذا القان المعظم في كتابه أروع وصف . وتدل الشواهد على أن الصين كان لها بأوربة اتصال كبير في عهد دولة المغل .

انتصار الوطنية :

على أن أبناء الصين لم يعدوا قط أن المغول الذين يحكمونهم إنما هم علوج غرباء عنهم . فطردوهم قبل أن يتم لهم في ولاية الحكم قرن على أثر ثورة وطنية ناجحة . وولوا أمرهم أسرة منهم هي أسرة منج الباهرة (١٣٦٨ — ١٦٤٤) ولم يكن يشمل سلطانها في الواقع أكثر من الأقاليم الصينية الثمانية عشر . وفي أيامهم زاد وفود التجار الأوربيين على الصين ، وخاصة البرتغاليين والأسبان ، على أثر استكشاف الطريق إلى الشرق الأقصى بحراً .

من الأسرة المنشورية إلى قيام الجمهورية

إلا أن عدوان القبائل المعجبة في شمال الصين وشمالها الغربي كان خطراً ملازماً للصين من مفتتح تاريخها . وآخر هؤلاء المغيرين قبائل منشو التترية وهم من منشوريا الجنوبية . وكان قدومهم بدعوة الحكومة الوطنية لإخماد الفتنة والضرب على أيدي المفسدين الذين استولوا على عاصمة بكين وخلعوا الملك . فأبلى المنشويون أصحاب النجدة البلاء كله في قمع الثورة وإخضاع الثائرين ، ولكنهم لم يرحلوا مشكورين بل آثروا البقاء . وأقاموا على عرش الصين واحداً منهم . وتعرف هذه الأسرة المنشوية باسم

تاشنج أى الأسرة المنشية الخالصة .

وفى هذا العهد الأخير اشتبكت الصين بالمصالح الأوربية والأمريكية واليابانية ، ووقعت الحروب بينها وبين هذه الدولة وتلك ، ونالت منها المنازعات والمعاهدات ، وامتدت إليها مناطق النفوذ الأجنبي . وعلى أثر ذلك قامت بين أبناء هذه البلاد القديمة حركات ودعايات انقلابية عصرية كان روحها الدكتور سن يات سن ، وهو طبيب صيني مسيحي ؛ فنشبت ثورة فى أواخر سنة ١٩١١ ، انتهت بقيام الجمهورية ، وكان أول قيامها فى الجنوب . وقد عاد سن يات سن من منفاه ليكون أول رئيس للجمهورية الصينية ، ثم انضم إليها الشمال ، فنزل الزعيم الوطنى عن الرياسة — إيثاراً لوحدة البلاد شمالها وجنوبها — للقائد من قواد الحرب المشهورين المشتغلين بالسياسة من قديم . وتقلبت منذ ذلك الحين أحوال وأحوال على الصين ، وتداول عليها الزعماء مرة من السياسيين ومرات من العسكريين .

عبرة التاريخ :

فى تاريخ الصين أدوار تتكرر وتتكرر ، حتى ليرد على بالنا فى كل دور منها ذلك القول المأثور « التاريخ يعيد نفسه »

فنحن نشهد الصين فى عنفوان الشوكة وأوج العظمة يتولى أمرها عاهل قدير ، يعاونه وزراء من أذكى دهاقين السياسة ، وقواد من أبرع رجال الحرب ، وقد تحقق على يديه تركز الحكم وحسن الادارة داخلا ، والتوسع وامتداد رقعة السلطان خارجاً . ويستتب الحال على هذا المنوال ردحاً من الزمن ، إلى أن يستوطئ خلفاؤه من بعده حياة الدعة ، ويشتغلوا بالشكل دون الجوهر فى شؤون الدولة ومسائل الدين ، أو ينتقلوا من الدين والدولة عنام القصر بين الحسان والخصيان ، منغمسين فى اللذات والشهوات وسائر أنواع الترف . فلا يلبث الملك أن يفسد ، وتفشل الادارة وتختل أحوالها ، وتنحل الامبراطورية وتتفكك أوصالها . فإذا الصين غير الصين ، وقد أصبحت أقاليمها وأعمالها نهب كل من غلب من رؤساء الجند وأصحاب العصابات والثائرين ؛ ثم لا تنفك رحى الحرب تشتجر بين هؤلاء المتملكين ، فإذا صحت الغلبة لأحدهم فذلك إلى حين ؛ فإن ما استنزفته الحرب الأهلية من قوى الأمة كفيل بإدخارها تحت ضربات المغيرين من جيرانها . وتمضى السنون على ذلك تتلوها السنون ، طوالا أو قصاراً ، خفافاً أو ثقالا . . . ثم تعود الدورة سيرتها الأولى ، فتعود إلى الصين وحدتها السياسية بفضل ما لها من وحدة الحضارة ، وتسترد رفعتها وعظمتها ، حتى إذا تطرق الوهن إلى حكومتها المركزية ثانية ، وضعف قلبها من إيصال دم الحياة إلى أطرافها البعيدة ، ساء حالها كما ساء من قبل ، ووقعت فيما سبق أن وقعت فيه . وهكذا وهكذا حقبة بعد أخرى . فخلاصة القول أن الصين بتاريخها المسترسل الأمد المتطاول الحقب خير مصداق لما يورده القائلون بأن التاريخ يعيد نفسه ، ولكن بمعنى واحد يحقق العبرة ، وهو أن الأسباب الواحدة تكون آثارها لا محالة واحدة .

خاتمـــة :

وبعد ، فلقد تعرضت الصين كما تعرضت مصر فى تاريخها الطويل إلى غزوات الفاتحين ؛ ولكنها — كما يرى الناظر فى التاريخ — كانت أعرق مدنية وأقوى شخصية من أن تنسى نفسها أو تنقطع سيرتها أو تتوقف حضارتها ، بل كانت فى كل مرة تستغرق غزاتها ، وتطوى العادين عليها ، كما يفنى المحدود فى غير المحدود ، أو على حد قولهم « الصين بحر عظيم يغلب على ملحه جميع ما يصب فيه » . ثم هى بعد أن تسلب الفاتحين شخصيتهم كلها أو جلها ، وتنحلهم عاداتها وخصالها وعباداتها ، تعود فتحق حقها وتجلوهم من عرشها وتسترد أمرها . ولعلها صفة فى الحضارات القديمة الأصيلة ، مهما يحركها الدهر وتنتورها النائبات فلا تنصل صبغتها ولا تحول طبيعتها .

عبد الرحمن صدقى

يد النســـاء

فى مأساة فرنسا

للأستاذ محمد بدران

من ثلاثين عاما وقفت فتاة على رصيف ميناء مرسيليا تجادل طائفة من التجار الصاخبين كانوا يشكون من كساد تجارتهم ويقولون : إن البلد ينحدر بسرعة إلى هاوية الإفلاس ، وإن الذنب كله ذنب الحكومة ، فقالت لهم الفتاة : « ولم لاتعملون على تغيير هذه الحكومة ؟ » . فأجابوها فى سخرية : « إنا ننتظر منك أن تفعلى أنت هذا » فقالت لهم فى أنفة وكبرياء : « سوف أفعل » تلك الفتاة هى هيلين ربوفيه Hélène Rebuffet ابنة صانع السفن التى أصبحت فيما بعد الكنتس ده پورت Contesse de Portes صديقة پول رينو وزعيمة الطابور الخامس فى فرنسا .

وكانت هذه الفتاة كثيرة الطامع عظيمة النشاط ، تجتذب الناس إليها ، وتوقعهم فى شراكها . اتصلت ببول رينو وهى فى صباها ، ولم يكن هو فى ذلك الوقت أكثر من طالب عادى يدرس القانون ولا يستطيع إشباع مطامعها ، ولكنه أحبها وأحبته . على أنها لم تكن من أولئك الفتيات اللاتى تتغلب عواطفهن على عقولهن ، وكانت تريد زوجا يرفع مقامها ، وترقى عليه إلى الثروة والسلطان ؛ ولذلك رفضت أن تتزوج ببول رينو أو بغيره من الشبان الذين تقدموا إليها ، حتى ساقت لها الأقدار رجلا سريا من أصحاب الأعمال هو البارون ده پورت Baron de Portes ، فأخذت تمد سيطرتها عليه وعلى أمواله . واندفع البارون نحوها كما يندفع الفراش نحو النار ، وأعجب بذكائها النادر وقدرتها على الأعمال التالية ، وظن أنه قد أحبها فتم زواجهما فى عام ١٩١٤ ، ولكنه تبين بعد قليل أن الكنتس ده پورت ليست هى الفتاة التى كان يتصورها ، فقد سيطرت على حياته كلها ، ولم تسمح له بشىء من الحرية التى يسمح بها عادة للأزواج الفرنسيين . فافترقا بعد عامين من زواجهما . وبعد أن عرفت فى الأوساط الراقية فى فرنسا ، وأصبحت دارها ملتقى العظماء من رجال الفكر والسياسة ، رضى البارون أن يرتب لها سنويا مبلغا من المال يفى بترفها ونفقات مجالسها ، ووقع كلاهما الوثيقة التى تبيح لهما أن يعيشا كما يشتهيان دون حاجة إلى محكمة الطلاق .

وكان پول رينو فى تلك الأيام محاميا متزوجا بابنة كبير المحامين فى باريس . وكانت زوجته من اللاتى يترددن على مجالس الكنتس ده پورت ، ونشأت بين الاثنتين صداقة متينة ، فكانتا تقضيان معا كثيراً من الوقت . وكان پول رينو غير راض عن هذه الصداقة ، ومن كثرة غياب زوجه عن منزله ، وصارح زوجه بذلك ، وطلب إليها أن تقطع علاقتها بالكنتس ، وإلا ذهب إليها وقال لها ذلك بنفسه . ولكن رينو حاول عبثا ، وظلت زوجته تتردد على الكنتس ؛ فكان إذا عاد من عمله ، لم يجدها فى داره ، وطالت هذه الحال ، فاعتزم أن يذهب إلى دار الكنتس ويصارحها برأيه لأن الزوج على الزوجة حقوقا حتى فى فرنسا نفسها .

وذهب رينو إلى الدار ، واستأذن فأذن له بالدخول ، فدخل والغيظ يضطرم فى قلبه ، والغضب باد فى وجهه ؛ فلما وقعت عينه عليها قال وهو لايكاد يصدق عينيه : « هيلين أهذه أنت » ؟ وأجابته فى دهشة : « پول أهذا أنت ؟ » . ثم مدت إليه ذراعيها وقالت : « ها نحن أولاء نلتقى مرة أخرى بعد الغياب الطويل » .

ولم يعد رينو هو الذى يشكو من غياب زوجته ،

وإهمالها أمر بيته بعد أن وجد هيلين ، وصحبها تقسم أنها تحبه ، بل صارت مدام رينو هي التي تشكو من إهمال زوجها وقضائه كل فراغه مع المرأة التي كانت تسميها صديقتها .

ورأت الكنتس أنها إذا استطاعت أن تدفع رينو في تيار السياسة فقد يصبح وزيراً بل رئيس الوزراء، وتصبح هي ملكة فرنسا غير المتوجة ، وتسيطر على الأمة الفرنسية بسيطرتها عليه ، فأخذت تعمل بجد للوصول إلى هذه الغاية ؛ ومن أجل ذلك زينت لرينو الانضواء تحت لواء « الحلف الجمهوري الديمقراطي » وهو هيئة تضم معظم السياسيين الذين يعدون أنفسهم من المستوزرين . ومن ذلك الحين أصبح مجلس الكنتس ملتقى السياسيين من جميع الأحزاب .

ولما استولى النازيون على زمام السلطة في ألمانيا ، وبدءوا يعدون عدتهم للحرب في أوربا لم يكن عجيباً أن تسترعى مجالس الكنتس أنظارهم . وعين ريبنتروب الهر أبتز Abetz للعمل في فرنسا ، ولم يمض على قدومه إلى باريس بضعة أسابيع حتى صار من أصدقاء الكنتس وممن لا ينقطعون عن حضور مجالسها . ورأى أنها أقدر الفرنسيين والفرنسيات على أداء أغراضه ؛ وكتب في رسالة سرية إلى رئيسه ريبنتروب يقول : « لقد وجدت في باريس امرأة هي خير من يوصلنا إلى أغراضنا ، وهي معروفة باسم الكنتس ده بورت وتبلغ من العمر ٤٣ سنة ، وهي قوية نشيطة محتالة طموح مغرورة عظيمة التأثير في الناس . ورينو عبد خاضع لها لا يعصى لها أمراً ، وهي غنية لا تشترى بالمال ، ولكنها تشترى بالملق ، ومجالسها ذائعة الصيت ، ويلتقى فيها كبار رجال فرنسا السياسيين ، ومن رأيي أن تقابلها في زيارتك التالية لباريس » .

وزارها ريبنتروب فعلا وتيقن مما كتبه له عامله ، وتألفت في فرنسا جماعة أبتز اللجنة الفرنسية الألمانية ، لتعمل في الظاهر على توثيق عرى الصداقة بين الأمتين ، ولتعمل في الخفاء على إفساد الحياة السياسية الفرنسية . وكانت اللجنة تجتمع في دار هيلين ، وكانت هيلين نفسها من أعضائها البارزين ، ووقع عليها الاختيار للذهاب إلى ألمانيا لتعمل على تحقيق أغراض اللجنة . وقوبلت في ألمانيا ثم في إيطاليا بمظاهر التبجيل والتعظيم ، وعادت من برلين وروما معجبة بالنازية والفاشية ، وداعية إلى التعاون بين فرنسا وألمانيا .

وكان من المعجبين بها والمترددين على مجالسها المسيو بول بودون . وكان هو أيضاً من الذين يطمعون في القوة والنفوذ السياسي ، وسرعان ما انضم إلى اللجنة الفرنسية الألمانية . وكان منهم أيضاً الجنرال فيجان ، وكان هو وبودون من الذين يعتقدون أن فرنسا في حاجة إلى التجديد ، وأن هذا التجديد لن يكون إلا عن طريق الآلام .

ولم يكن في فرنسا غير امرأة واحدة تعرف حقيقة أمر هيلين ، وتستطيع أن تقف في وجهها ؛ تلك هي المركيزة ده كروسول صديقة دلادييه رئيس الوزراء ، الانجليزية النزعة ومن أشد أنصار التعاون مع انجلترا . وكانت كلتاهما تحقد على الأخرى ؛ وأخذت هيلين تعمل لإسقاط دلادييه ، لاختلافها معه في المبادئ السياسية ، وللعداوة القائمة بينها وبين صديقته المركيزة . وكانت الحرب قائمة والألمان يدفعون بجيوشهم نحو الغرب ، وسقطت وزارة دلادييه ، وعين بول رينو رئيساً للوزارة ، وأصبحت هيلين اليد المحركة من وراء الستار ؛ فكان رينو يستشيرها في كل ما يعرض له من الشئون . وكانت تحدثه دائماً بأن فرنسا ضعيفة لا أمل لها في كسب الحرب ، وبأن انجلترا عاجزة عن إنقاذها . وكان في وزارة رينو

وزيران من أنصار التعاون مع انجلترا ، والقائلين بمواصلة الحرب حتى ينال النصر ، فعملت هيلين على إخراجهما من الوزارة ، فأخرجا وعين بول بودون وزيراً للحربية ، فكان تعيينا غريباً ! وهل هناك شيء أغرب من أن يعين وزيراً للحربية ، والحرب دائرة الرحى ، رجل من القائلين بأن لا أمل لفرنسا في كسب الحرب ، وبأن الآلام هي طريقها إلى الحياة .

وكان رينو حين تولى الوزارة قوى الاعتقاد بأن فرنسا ستكسب الحرب في النهاية ، وكان أول من رأى أن خطط جاملان خاطئة ، وأن المعاقل لا تفيد ضد الوحدات الميكانيكية ! وكثيراً ما كان وهو وزير الحربية في وزارة دلاديه ينتقد سياسة جاملان ، ويطالب إبعاده . وكان من المتصلين به ضابط شاب يدعو هو أيضا إلى تعديل الخطط الحربية وإلى اصطناع حرب الحركات والدبابات والوحدات الميكانيكية ، وهذا الشاب هو الجنرال ده جول رئيس قوات فرنسا الحرة في هذه الأيام ، وكان رينو يصغي إليه ويعجب به .

وعرض رينو هذه الآراء على هيلين ، وقال لها إن ده جول هو الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذ فرنسا ، فسخرت منه ، وسفهت رأيه . ثم اخترق الألمان خط الدفاع الفرنسي ، واتجهوا نحو باريس ، وأرسل رينو الضابط ده جول إلى لندن ليبلغ المستر تشرشل أن فرنسا ستحارب إلى النهاية ، وأوشك أن يعين ده جول قائداً أعلى للقوات الفرنسية لعله يستطيع أن يقف الزحف الألماني ، وكان قد انحاز إلى رأى هذا الضابط حين عرض عليه أن يتخذ الفرنسيون موقفهم الأخير في شبه جزيرة بريطاني في شمال فرنسا الغربي ، فاذا هزموا فيها انتقلوا إلى المستعمرات الفرنسية وواصلوا الحرب إلى جانب بريطانيا العظمى .

ولم يكن هذا من رأى هيلين ، وكان لها داعما الرأى الأخير ، وتردد رينو بين رأى ده جول ورأيها ، فأشارت عليه باستدعاء فيجان وإسناد قيادة الجيش إليه ؛ ولكن القائد الجديد لم يعمل شيئاً لوقف الزحف الألماني ، بل كان كل ما يهتم به أن يحصل من الألمان على شروط الهدنة .

وانتقلت الحكومة الفرنسية إلى بردو ، وحاول ده جول المرة الأخيرة أن يضم رينو إلى جانبه ، وكاد رينو أن يوافق على آرائه رغم من كان يحيط به من دعاة التسليم .

ووصل نبأ اجتماعهما إلى هيلين ، فأسرعت إلى حجرة الاجتماع ، ونحت الحارس من الباب واندفعت نحو المؤتمرين وقالت ونار الغضب تشع من عينيها : «ما هذا ؟ إني أؤكد لكم أنه مستحيل ، وأن الموقف لا أمل فيه ، وأنكم تنتحرون . فهل جن جنونك يا بول ؟» وفي هذا اليوم نفسه استقال بول رينو ، وتألفت حكومة بتان ونالت هيلين بغيتها .

محمد بدران

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
احمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	مليم	
	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

أزمة الرأى :

غضب صديق « فلان » وتعتّب ، لأن رأياً من رأيى عارضَ رأياً من رأيه فى بعض ما كتبتُ فى هذا الباب ؛ وأسلمَ لغضبه العنانَ ، « فتأوّل » ، ثم « استنبط » ، ثم « حكَم » ؛ واتهمنى تهمة ... وكتب كتاباً إلى واحد من أصفيائى يقول . . .

... وصديق « فلان » عزيز بين أهل الأدب لا ينال منه النقد ، ومثالٌ بين أهل الخُلق لا تنال منه التهمة ، وعودج بين أهل الحياء لا يُحْسبه بالظّنة ؛ فليت شعرى كيف ساغ له أن يقول . . ؟

والأدب كالدين إيمان وعقيدة : أساسه الخُلق ، ودعامته الصدق ، ونوره اليقين ؛ والرأى فيه وليد العقل المدرك والوجدان النابض ، فلا صداقة الصديق ولا عداوة العدوّ . . . فإن كانت غضبة صديق للحق فما أحراه ، وإنه لذو لسان وبيان . . . وإن كانت غضبته لنفسه فلا عَلىّ منه ولا عليه ، وتبقى صداقةُ الصديق وإن تدابر الرأيان !

***

. . . ويسألنى سائل : ولِمَ لا تكتب اسمك صريحاً وقد فرضتَ نفسك رقيباً على الكتاب والأدباء ، ونزلتَ منزل الحكم لكل ذى رأى وفكرة ؟ أهجوماً وتقنّع ؟ . . .

ولا والله ياصديق ما تقنّعتُ مخافةَ الناس ولكنْ مخافةَ نفسى ؛ فإن لكل رأى فى الناس لونين : لونَه فى ذاته ، ولونَه منسوباً إلى كاتبه ؛ ولكل فكرة فى رأس صاحبها رأيان : رأىُ العقل المدرك والوجدان النابض ، ورأىُ البيئة والزمان والخلاّن ؛ وإنى لضنينٌ برأيى أن يظهر فى الناس بلونين ؛ وإنى لحريص على فكرتى أن أجلوها « مجرّدة » لا تحجبُها حواجبُ البيئة والزمان والخلان ؛ أفلا يكون الرأى رأياً إلا أن يكون له غلاف وعنوان ؟ . . . ألاَ إن الرأى الحرّ لا يقع موقعَه إلا أن تقرأه بلا غلاف ولا عنوان !

المرأة المصرية :

سألت « آخر ساعة » الأستاذ توفيق الحكيم — فيمن سألت — أن يقترح وسيلة عملية لإنهاء الحرب ؛ فأجاب :

« أحسن طريقة لإنهاء الحرب هى إبعاد هتلر عن التفكير فى الحرب ، والشىء الوحيد الذى يبعده عن التفكير فى كل شىء ، حتى عن التفكير فى نفسه ، هو أن يتزوج فتاة مصرية ؛ إنه لا يلبث أن يسأم كل شىء ويزهد فى كل شىء حتى حياته ! ...

« ... فلو أرسلنا إليه فتاة مصرية فانها لا تلبث أن تبتليه بالهم والغم ، فلا يتفرغ للتفكير فى الحرب دقيقة واحدة ... لأنه لا يستطيع الحرب فى جبهتين ... ! »

وجواب الأستاذ الحكيم لا يخلو من قصد الفكاهة ، ولكن له دلالته الجدية على رأيه « الصريح » فى المرأة المصرية ، وهو رأى يحلو له أن يكرره وإن لم يستند إلى تجربة ولا برهان .

تُرى ماذا بين توفيق الحكيم والمرأة المصرية ؟

إنه ليخيل إلى أن هنا « عقدة عصبية » تملى عليه الرأى من وراء « الواعية الباطنة » فى كل ما يكتب عن المرأة ، وتقفه منها ذلك الموقفَ فى حياته وفى أدبه ؛

ولكنى هنا لست بسبيل البحث عن هذه العقدة العصبية التى تركت فى نفسه كلّ هذا الأثر النافر ، فلذلك مكانه فى تاريخ الأدب يوم يهم الباحثون بالكشف عن المؤثرات النفسية فى أدباء الجيل ؛ ولكن الذى يعنينى

هنا هو « المرأة المصرية » نفسها لا توفيق الحكيم !

أحقا أن المرأة المصرية على ما يصف ؟ ... ومين أين له أن يعرف فيصف فيحكم هذا الحكم العام الذي ينتظم كل سيدة وفتاة وطفلة في مصر ؟

لعله يعني هذه الطائفة المشهّرة التي يقرأ من أخبارها ويشاهد من صورها في مجلات اللهو والعبث ؛ أو لعله يعني تلك الطائفة الأخرى التي تتوزعها عيونُ السابلة على أرصفة الشوارع فيما بين الأزبكية وعماد الدين ؛ أو لعل صديقاً شكا إليه ، أو لعل امرأة حاولت أن تتودّد إليه ، أو ... أو ماذا ؟ ...

... ولكنه أصدق نظراً من أن يفوته الفرقُ بين امرأة مصرية وامرأة في مصر ؛ إنه ليعرف أن « المرأة المصرية » ليست هي هذه الفتاة التي تدفع « الثمن » لنشر صورتها في المجلة كما تدفع أجرة « إعلان » ، وليست هي هذه الغانيةَ التي تتخايل لعيون الرجال على أرصفة الشوارع في ثياب تشفُّ وتصف ، وليست هي زوجة ذلك الصديق الذي شكا إليه ، وليست هي هذه الفتونة التي توددت إليه ، وليست ... ليست واحدة ممن يعرف ...

بلى ، في الصحف والمجلات صور نساء وفتيات ، وعلى أرصفة الشوارع نساء وفتيات ، وفي المسارح ودور اللهو نساء وفتيات ؛ ولكن « المرأة المصرية » ليست هناك ، ولم يُتَحْ لتوفيق الحكيم أن يعرفها بعد ، ولعله يعرفها « في يوم قريب » ، فيعتذر إليها عما رمى به المرأة المصرية !

أسبوع الأدب

ولا أسميه « أسبوع البر » ، كما ارتضى دُعاته أن يسمّوه ، فإني لأحصي ما ربحه « الأدب » ، وما ربحه « البر » في هذا الأسبوع فترجح كفة وتشيل كفة ؛ وما ظنك بأسبوع يتعاور المذياعَ فيه عدةٌ من وزراء الدولة وكبرائها ليخطبوا في موضوع واحد لغرض واحد ، وكل خطيب يحاول أن يبزّ ويسبق ويكون أبلغ تأثيراً في عواطف السامعة وقلوبهم !

ولو كان الموضوع الذي تعاور الخطباء الحديث فيه مما يحتمل المفاضلة في الرأي ، أو الموازنة في الفكرة ، أو المعاوضة في الحساب ، أو المناقشة في الأسباب والمسببات ، أو المعارضة في النتائج — لكان مجال القول فاسحة ، ولكان ربح الحقيقة المجلوّة أكثر من ربح الأدب ؛ ولكن الموضوع لم يكن مما يحتمل شيئاً من ذلك ؛ فما هو إلا الدعوة إلى الاحسان وبر الفقراء ؛ فماذا يقول قائل بعد قائل في الدعوة إلى الاحسان وبر الفقراء ، إلا أن يكون له تعبير وبيان ، وفي حديثه شعر وموسيقى ، وفي مقاله فن وعاطفة ؟ وهل هي إلا صنعة الأدب وفن الأديب ؟

... وصَبَر كل وزير وكل كبير منهم على حرفة الأدب ساعة ، وأحس إحساس الأديب وقلقه وحيرة نفسه ، حين يعالج موضوعه ويسأل نفسه : ماذا يقول للناس ، وماذا يقول الناس ؟

... على أن ربح الأدب في هذا الأسبوع لم يكن من ناحية « الموضوع » ولكن من ناحية « الشكل » ، وإنه لأجدى على الأدب ؛ فبحسْبِ الأدباء أن يحس وزراءُ الدولة إحساسَهم ساعة من نهار ، فيعلموا أي رجال هم ، وكم يبذلون من جهد ، وماذا يؤدون للأمة !

بحسْبهم من ربح في « أسبوع البر » أن يعترف بهم « عمليا » أساطينُ الدولة وأصحاب الحكم والسلطان في وقتٍ يوشكُ فيه الأدب أن يكون في حكم العامة ترفاً من الترف لا جدوى فيه ولا منفعة .

الدبلوماسي !

كتب كاتب في العدد ٤٦٤ من الرسالة يعيب جوابَ الأستاذ حافظ عامر بك عن نسبة كتاب « رسالة الحج » ودعوى انتحاله ؛ ولكن ماذا قال ؟

إنه ينفي عنه دعوى الانتحال ، ويُثبت له حق التأليف ، ولا ينكر أن « رسالة الحج » و « أسرار

حج » مما كتاب ٌ واحد ، وإن كان أحدهما بالعربية والآخر بالأردية ، وإن اختلف اسم المؤلف على النسختين ؛ ولكن كيف يصح فى الذهن ذلك ؟

ويجيب الكاتب — فيما روى على لسان الأستاذ حافظ عامر — فيحكى حكاية ويقص قصة ؛ ويخرج من الجواب بإبهام السيد عبيد الله السندى ، والشيخ عبد الوهاب الدهلوى ، وينقلب المدَّعِى مُدَّعًى عليه ، أو كما قال …

ولكن أسئلة ثلاثة تتحيّر على شفتى :

١ — لماذا لم يردّ الأستاذ حافظ عامر نفسُه وإنه لقاض ٍ يعرف حُكم السائل والمجيب ، ويفرق بين اعتراف الأصيل واعتراف الوكيل ؟

٢ — وما قوله فيما نسب إليه صاحبُ « حياة الرافعى » وأسند عِلمَه إلى الأستاذ الزيات صاحب الرسالة ، وهو أن المرحوم مصطفى صادق الرافعى هو « منشىء العربية » فى هذا الكتاب ؟

٣ — وكيف يعلّل ظهور الترجمة الانجليزية « فى السوق » وراء البحار ، لكتاب « أسرار حج » الأردى قبل أن يتسامع الناس بالنسخة العربية « لرسالة الحج » ؟

… ولكن من حق السادة : عبد الوهاب الدهلوى ، وعبيد الله السندى ، وحسين نصيف — أن يجيبوا كذلك ؛ فهل بلغهم النبأ ، وهل نسمع منهم الجواب ؟

قرأت فى هذا الأسبوع :

« كل لؤلؤة على صدر امرأة غانية دمعةٌ لا تنضب فى عين أحد الفقراء ، وكثيراً ما تكون تبركا خفيا لسقوط امرأة أخرى ، أو إعلاناً صامتاً عن مذلة عدو كبير من أشباه الرجال !

« إنها لتنظر إلى نفسها وهى منتشية بتصجيج الرجال السكارى ، كما ينظر المحارب الزنجى إلى القلادة المعلقة فى عنقه منظومةً من أصابع الرجال الذين قتلهم . إن كل لؤلؤة صغيرة تمر بين إصبعيها تساوى بحساب المال جمجمة رجل صريع ! إنها أشبه الأشياء على صدرها بالجائزة الموضوعة لرأس القضية ! ! »

الأنصار : ١٧ — محمد ظافر

* * *

« إن برنامج تعليم البنات فى المدارس الثانوية فى حاجة إلى إصلاح ، فأنا لا أريد زوجة تعرف حساب مثلثات ، وتحفظ نظريات الهندسة ، و « تكر » نظرية أرشميدس . . . ثم لا تعرف كيف ترتق جوربا ، أو كيف تنظم بيتها ، أو كيف تعنى بطفلها !

« زيد قاسم أمين جديداً يرفع من عقول الفتيات الحجاب ، كما رفع قاسم أمين الحجاب عن الوجوه ! »

الاثنين : ٤١٤ — كاتب اليوميات

* * *

« كيف أربى ابنتى ؟

« لن أقول لها لا تتحدثى إلى شاب إذا التقيتما فى حفلة أو مكان ما . كلا ، بل سأقول لها : كليه ، وبادليه الرأى بالرأى والحجة بالحجة ؛ ولكن حذار يا ابنتى من نوع خاص من الرأى والحديث ، حذار من الحديث الذى لن يكون فى استطاعتكما أن تتبادلاه ، لو كان معكما شخص ثالث !

« ولن أقول لها لا تراقصى شاباً ثم أسكت . كلا ، بل سأقول لها : لن يراقصك شاب يا ابنتى إذا كنت دميمة ، ولن يراقصك إذا كنت مع أقربائك وكانت رقابتهم دقيقة ، ثم هو لن يراقصك إذا كان نور القاعة وهاجاً أكثر مما يجب ، أو كانت أركانها قريبة أكثر مما يجب !

« وأخيراً أن أهتم بثقافتها الدنيوية بقدر اهتمامى بثقافتها الدينية ؛ فليس فى تعليمها الجبر والحساب والهندسة غناء كثير ، وليست هى فى احتياج إلى هذا النوع بقدر حاجتها إلى الارتواء من علوم الدين ؛ فى تشبّع روحها بمبادىء الدين درع متينة تقيها شر الأحداث والحوادث » .

آخر ساعة : ٣٩٨ — الممثلة ميمى شكيب

قاف

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ ، ٥٦٢٦٩

العدد ١٨٠ — الثلاثاء ٢٥ من جمادى الأولى سنة ١٣٦١ — ٩ من يونيه سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

على هامش الأسبوع :

اثنان وعشرون عاما بين الثورة والدستور

١٨٦٧ — ١٨٨٩

للدكتور أحمد زكى بك

ليس الخطير فى أمة أن تقوم بها ثورة ، ولكن الخطير أن تنجح الثورة بعد أن قامت . والثورة معركة تقوم بين قُوَى الماضى وقوى الحاضر ، أو قوى المستقبل إن صحّ فى المعقول أن توجد قواه قبل وجوده .

ولكنها تختلف عن المعارك فى أنها ذات بدء فاجىء ، قلما يسبقه تدبير وتأريخ . فخطط الشعوب قلّما يدبَّر قبل وقوعه ، وغضبها قلّما يُؤرخ قبل أوانه .

وهى تختلف عن المعارك فى أن جانبا من جوانب الثورة تكون فيه القوّة مصفوفةً مرصوصة ، تديرها رءوس خبيرة بمداخل الحرب ومخارجها ، عليمة بتيارات السياسة ورياحها ، تُصفح إن وجب إصفاح ، وتصلح إن وجب إصلاح ، فهى أقدر على قيادة السفينة فى العاصفة الهوجاء — تلك قوّة الماضى العتيق الذى لا يريد أن يتجدّد ؛ تلك قوة الأمس الذى لا يريد أن يكون غدا .

وفى الجانب الآخر من جوانب الثورة توجد القوة مهوّشة مختلطة ، تديرها رءوس لم تألف عراكا ، ولم تصقلها حرب ولم تحنّكها سياسة — تلك هى قوة المستقبل المُشرق الذى يريد أن يحمل إشراقه غصبا . وهى قوة هائلة بضعفها التفكك والتوزّع ، ولكنها مع هذا قد تفعل ما تفعله قوة البهيم ، فتكتسح ما أمامها ، لا تبالى أطار لها قرن أم تهشّم حافر .

ويصبح الصباح فتكون قوة البهيم قد ذهبت ، أو يكون قد ارتطم البهيم فاحتُبس فيما أسقط من أنقاض . وفى كلتا الحالتين يكون ضياع الثورة وضياع ثمرتها .

ولكن كثيرا ما تخرج قوى المستقبل الناهض من

للمترك وفيها بقية تصمد للحوادث والأيام، ويخلو لها الجو، وتصفر فيتجاوب صفيرها وحده فيه . فتحسب أن قوى الماضي الرجعي كلها ذهبت ، وأسلحته كلها تكسرت ، فيدور برأسها خبر النصر الذي لم تتعود شرابه ، فتنسى علة وجودها وسر قوتها ، فتأخذ الناس بشر مما أخذهم به أعداؤها ، فلا يلبث هؤلاء الأعداء أن تخرج أشباحهم من ركام الأنقاض الذي لم يسكن بعد غباره ، فتكون للثورة ثورة مناهضة تذهب بنور القبس الذي اشتعل فلم يعرف حاملوه كيف يدرأون عن شعلته الرياح . وعندئذ تكون الثورة عقيمة أيضا .

وحال أخرى يسيء فيها أهل الثورة ، لا من زهو بقوة ، ولا من غرور بنصر ، وإنما من خطأ في حساب ، وجهل بربط النتائج بالأسباب ، ومن طفرة لم تأذن لأربابها بدُربة في إدارة ، ولا تجربة في حكم ، والإدارة خبرة لا تكتسب بين عشية وضحاها ، والحكم فن لا يُستوعب في يوم وليلة . وهذه أيضا حال تأذن لبذور الشر أن تتنفس . فإذا شقت هذه البذور طريقها في الأرض مُستَمِدّاً غذائها الهواء والضياء ، أخذت ترتوي من يد الجنان نفسها التي تروي الزهور والورود ... ترتوي من أخطائه . ثم لا يلبث العشب الشيطاني أن يسلب الزهر والورد غذاءه في طاقة الأرض ، فيقتله في الخفاء قتلا بطيئاً هادئاً ، يكون فيه ضياع الثورة ، ويكون فيه ضياع زهرها وورودها وكل ثمرة مرجوة منها .

والذين بدأوا الثورة في اليابان ، إن كان لهم فضل في بدئها ، فقد كان لهم الفضل الأكبر في تمهيدها حتى تبلغ ختامها ، وقد بلغته في عشرين سنة أو تزيد قليلا .

ولكي نفهم الثورة كيف سارت يجب أن نتصور قُواها ، ما كانت ، وكيف كانت ، وكيف توزعت على رقعة الشطرنج عند بدء اللعب .

فأول هــذه القُوى الميكادو : صبي في قصره في بدُو ، لا يعرف إلا أن أباه كان بابابا فحلا ، فأراد بتربيته وفطرته أن يكون باباباً فحلا كذلك . ومن حوله أشراف البلاط الوراثيون ، يمارسون الفقر ويحترفون الفنون .

وثانيها الشوجن الذي اعتزل : فهذا ذهب توا إلى قلعته في أوزاكا ، فاحتمى في هدوئها ، وأخذ ينظر ماتخبأت الأيام لأمته الحبيبة من فوق أبراج القصر العالية . وحول قصره ، إن قريبا وإن بعيداً ، افترش الأرض رجال أسرته ، أسرة توجوكاوا ، افتراش المتعطل الفارغ بعد اشتغال طويل ، ينتظرون ماذا يراد بهم ، بعد أن زال عنهم عبء الحكم ، وامتنع عنهم حَلَبه ، وقد نزل رؤساؤهم عنه طوعا واختيارا .

وثالث القُوى : أمراء الجنوب الأربعة ، أمير سَتْسُوما ، وأمير توسا ، وأمير تشوشو ، وأمير حَيْزان ، وهي مقاطعات أربع في جنوب اليابان ، ظلت في حكم الشواجن كله على نوع من الاستقلال لم يكن لغيرها من مقاطعات الأقطاع . وكانت صلاتها بأسرة توجوكاوا ، أسرة الشواجن والحكم ، صلة الصاحب للعائد ، أو صلة العدو الهاوه ، أو صلة الرفيق المتخم تلف عليه ذراعك فيضيق عنه إبطك . فهم خصماء الحكم ونُقاده ، وهم المتربصون به غِيَر الزمان . والقارئ يذكر أن أمير توسا هذا هو الذي كان أرسل إلى الشوجن يطلب إليه رد الحكم إلى الميكادو ففعل لساعته .

ورابع القوى : أشراف الإقطاع المتوزعون في البلاد؛ الرؤساء منهم والوكلاء . فهؤلاء توزعت البلاد بينهم ، يستغلونها ، ويجمعون أموالها منها ، لينفقوها فيما وجب وما لم يجب ، على هواهم . ثم هم القوامون بالحكم المطلق بعد ذلك في إقطاعهم . وكل الذي فرضته الدولة عليهم في مقابل ذلك إقامة جيش دائم التجنيد ، يصغر ويكبر بمقدار

ما يدخل جيب الشريف الإقطاعى من خراج

وخامس القوى : جنود الإقطاع أنفسهم ، ويُدعَوْن بالسموريين ، وقد احترفوا الجندية على ما وصفنا ، ومارسوها بالوراثة أبا عن جد ، وحلوا شارة ذلك سيفين ، طويلا وقصيرا ، واستنّوا للعيش طريقة فلسفية صوفية وطنية دينية ، من سَنَنها التقشفُ واحتقار المال .

وسادس القوى ، قوى الأساطيل فى البحار ، وكان لها على الأرض اليابسة عيون وأسماع .

فهذه هى الرقعة ، وهذا شاهها وفوارسها وبيادقها ، كما تبدّت فى عام ١٨٦٧ . ولا ننسى رجال الثورة أنفسهم ، وكانوا نحوا من اثنين وخمسين رجلا ، لا يزيد متوسط أعمارهم عن ثلاثين عاما . كان منهم خمسة من الأمراء الاقطاعيين ، ومن هؤلاء أمراء المشائر الجنوبية المذكورة ، ستسوما وتوسا وتشوشو وحيزان . وكان منهم ثمانية من أشراف البلاط الأمبراطورىّ . والاثنان والأربعون الباقون ، وهم رءوس الحركة وأيديها ، جلّهم سموريون .

أحس الثوار أول ما أحسوا بفراغ الإدارة فى البلاد . فهذه الحكومة التى ربطت أجزاء اليابان ، على أى أسلوب كان ، منذ ربع قرن من الزمان ، قد تقوضت فى نهار وليلة . وهذا الامبراطور ، وله من العمر خمسة عشر عاماً ، رابض فى قصره ، لا يعرف من السياسة والحكم إلا النية الحسنة ، وإلا القلب الخفّاق بحب بلده ، وإلا الأمل الوسيع الفسيح فى مستقبلها . وهذه القوات الأخرى مرصوصة فى غير حشد ، مترقّبة فى غير تحفّز ، تتطلع إلى ما يكون بعد هذا الحل من عقد ، وبعد هذا الهدم من بناء . فكانت أول حركة أتاها الثوّار أن التفّوا سريعاً حول العرش ، وقبضوا على أطراف الحبال من وراء ستائره . فالثورة كانت للميكادو ، الامبراطور ، رب الأمة اليابانية ، وسليل أجدادها وآلهتها ، لكى يتربّع العرش عن قوة ، ولكى يُمسك بأزمّة البلاد عن سلطان . فاليوم له ، والغد له ، وهو مركز القطب الذى دارت عليه الثورة . فمن سبق فاستولى على القطب استولى على الثورة ، ومَن أحق بذلك من مُبدعيها ، وراسمى خططها والمُنفّذيها ؟

وبدرت بوادر فى الجنوب كادت تفسد الثورة . ذلك أن بعض المشائر المعينة عليها أخذت تعمل بما أثار الريبة — إن حقا وإن باطلا — فى أنها إنما أعانت بما أعانت لتقلب السلطان وتحتل هى المكان الذى خلا بسقوط الشوجن . فأخذت المشائر المُعينة الأخرى تنظر إليها شزراً ، وتحذر منها تألبا ، وتكاد تبدى العدوان . فحسم رجال الثورة هذا الشر المنذر حسماً ، ونصحوا الامبراطور ، فاستدعى الأشراف إلى قصره ، وحلف فيهم يميناً وعَدَ فيها ووعد فيها « بأن أمور الدولة سيُفصَل فيها بالنقاش والمناظرة العامة » ، وأن مجلساً سيُجمع لهذا ، وأن كل الطبقات سيكون لها نصيب فى الحكم ، وأنّ العدل ، لا العرف القديم ، سيكون رائد



صور تاريخية :

٣ – سلطان العلماء

للأستاذ أحمد أمين بك

التاريخ يعيد نفسه ، فقد نبتت فكرة استعانة الخلفاء بالموالي من الأتراك وغيرهم في العصر العباسي ، يجندونهم أيام الحرب ، ويتخذونهم زينة لهم وأبهة لملكهم أيام السلم . يخضعون بهم الخارجين عليهم لما عرف من بأسهم ، ويتخذونهم عدة لهم في أيام شدتهم . وبدأ يفعل ذلك المهدي والرشيد ، واستكثر منهم المعتصم ، حتى ضاقت بهم بغداد ، فاتخذ لهم مدينة سامرا ، وما زالوا يقوون ويستولون على شئون الدولة شيئاً فشيئاً حتى صاروا كل شيء ، ولم يبق للخلافة شيء .

كذلك فعلت الدولة الأيوبية ، فاستكثر منهم صلاح الدين الأيوبي وأخوه العادل ، ثم من أتى بعدهم ، حتى بلغ الصالح نجم الدين أيوب في ذلك ، وحتى كان كل عسكره من هؤلاء الموالي ؛ ثم ضاقت بهم القاهرة كما ضاقت بغداد بإخوانهم من قبلُ ؛ فاتخذ الصالح أيوب لهم مكاناً في الروضة إزاء المقياس ، ثم استفحل أمرهم أيضاً ، فكان لهم الملك والسلطان ، وزالت على أيديهم دولة الأيوبيين .

كان هؤلاء الموالي من ترك وتركمان وأرمن وروم وجركس وغيرهم . وكانوا يصلون إلى أيدي الأيوبيين إما من طريق الأسر في الحروب ، وإما من طريق تجارة الرقيق . وكانت تجارة رائجة واسعة منظمة ، تستخدم في ذلك البر والبحر ، ويورِّد النخاسون من الرقيق أشكالاً وألواناً ؛ فهؤلاء جنود ضخام شداد يصلحون للقتال في البر والبحر ، وهؤلاء غلمان حسان يعلكهم الأمراء

الادارة . بهذا قُطِعت المطامع على الطامعين ، وبهذا وُقِي الأصلاء شرّ أنفسهم ، وبهذا عاد أمراء المقاطعات الجنوبية الأربع إلى التعاون والصفاء ، وإلى الثقة ، والثقة في البحر المضطرب صخرة النجاة .

كذلك كان من الطبيعي لهذه العشائر الجنوبية الأربع ، وهي أقوى عشائر اليابان بعد عشيرة توجوكاوا ، وهن أعداء هذه الأسرة ما كان لها السلطان ، أن يَرْمُقْنَ التقدم في هذا العهد الجديد ، وأن يحظين بأكثر النفوذ فيه إن فاتهن أن يحظين به كله . فمدن أول ما عمدن إلى محو آثار الأسرة البائدة ، أسرة توجوكاوا . وأعانهن رجال الثورة على هذا ، لوحدة الغرض واتحاد القصد ، وعملا بالبيت القائل :

لا تقطعنْ ذنَب الأفعى وترسلها
إن كنت شهماً فأتبعْ رأسَها الذنَبا

فعزلوا كل من اتصل بهذه الأسرة من وظائف الدولة ، ونحّوهم عن إدارة البلاد .

وكان الشوجن القديم ، رب هذه الأسرة ، لا يريد أن يتحرك لهذا ، بحسبانه أمراً مقبولا ، أو مصبوراً عليه ، في منطق الحوادث الجارية . ولكنّ أتباعه من الساموريين جلّت هذه اللطمةُ من أن تصمد لها أصدافُهم ، وهم الذين حسبوا أنهم نحّوا هم أيضاً فيمن نُحّي في سبيل الأمبراطور بنزولهم من الحكم اختياراً . فدفعوا الشوجن إلى السير بهم إلى عاصمة حكمهم بالأمس القريب ، إلى كيوتو ، ليستردوها ، وليعيدوا سيرتهم الأولى فيها . ولكن جيوشهم هُزِمت شرّ هزيمة ، وفرّ الشوجن إلى أحضان خصومه . ولكنه اختار منها أدفأ حضن ، حضن الامبراطور نفسه ، فهبط على قصر الميكادو في يدُّو – أو توكيو ، فهكذا صار اسمها بعد الثورة – وعند قدمَيْ صاحب القصر ، أي الدولة وابن السماء ، ألقى الشوجن سلاحه . وبإلقائه لم تقم لهذه الأسرة بعد ذلك قائمة .

(لها بقية) أحمد زكي

وبلا مونهم ، وهم يتجملون فى الملابس ويتزينون تزين النساء ، ويفتنون الناس بجمالهم وزينتهم ، وهؤلاء جوار كاللآلى ، عيون نجل وشعور شقراء وبياض مشرب بحمرة وقدود حسان . والبريد كل حين يحمل ما يتمنى الأمير من مماليك وجوار ، والمراكب تحمل الثالث من هؤلاء وهؤلاء .

وقد كثرت فى تلك الأيام هذه التجارة ، لأن غزو التتار قد هيج هذه البلدان ، وأوقع بالترك والخفجاق والروس والأرمن ، فشرد سكان هذه البلاد ، وخرجوا هائمين على وجوههم ، فمنهم من قتل ومنهم من سبى ، وكثير ممن سبى شحن إلى مصر بلاد الغنى والترف والرخاء ، وهى التى تقوّم الجندية وتقوّم الجمال .

يأتون كلهم إلى مصر ولا يعرفون شيئاً من العربية ولا من الاسلام ولا من تقاليد الأمة ، فيأخذ الأيوبيون فى تعليمهم كل ذلك ، والجند يمرنون على الناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والرمى فى البر والبحر . والغلمان والجوارى يمرنون فى القصور حتى ترق حاشيتهم وتتهذب طباعهم وتصقل عاداتهم ؛ فما هو إلا قليل حتى يملكوا زمام الأمور فى الحكومة ، وزمام الأسر فى البيوت ، ويرقى المملوك حتى يكون السلطان أو نائب السلطان ، وترقى المرأة حتى تكون شجرة الدر . ثم هؤلاء المماليك ينقسمون أقساماً ويتشعبون شعباً ، ويختلفون نسباً ؛ فهؤلاء العزيزية مماليك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وهؤلاء الصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين الخ ، وكل فرقة تتعصب لسيدها وتتحزب ضد خصمها .

* * *

أصبح الناس فى مصر فى ذلك العهد — عهد آخر الدولة الأيوبية وعهد المماليك — ينقسمون قسمين متميزين : عنصر المماليك من أتراك وأرمن وما إليهما ، وفى يدهم أغلب المناصب الحكومية وأمراء الجيش ، ومنهم أغلب الجنود . وعنصر الشعب المصرى ، وهؤلاء هم الفلاحون والتجار والصناع ، وعلى الجملة هم القائمون بالحركة الاقتصادية فى البلاد ، وأحياناً يجند منهم جنود إذا اشتد الأمر وجدّ الجدّ . وهناك طبقة العلماء ، وهؤلاء يكادون يكونون حلقة الاتصال بين الطبقتين الأوليين ؛ فطبقة الشعب تحتاجهم فى أخذ الدين والعلم عنهم والاستشفاع بهم عند الولاة والأمراء ، وإيصال شكاياتهم وتبليغ رغباتهم وما إلى ذلك . وطبقة الأمراء تحتاجهم فى بعض المناصب الحكومية كالقضاء والخطابة والامامة ، وتحتاجهم فى تلقية رغباتها ، لأنهم مسموعو الكلمة عند الشعب ، فالشعب يطيعهم من قلبه ويطيع الأمراء من خوفه ، والأمر إذا جاء من قبل الدين فالناس له أطوع ، وقيادهم له أسلس . من أجل هذا كانت تلتقى فى العلماء رغبات الشعب ورغبات السلاطين والأمراء ؛ فاذا ضج الشعب من شىء وسطوا العلماء ، وإذا احتاج الأمراء إلى مال من الشعب وسطوا العلماء . وكان كثير من العلماء يخضعون للولاة والأمراء أكثر مما يخضعون لله ، فهم يتحسسون رغباتهم ليجاروهم فى أهوائهم ، ويؤولون أوامر الدين ونواهيه حسب مطالب رجال الحكم ، ويقلبون صفحات كتب المذاهب ليعثروا على قول لأحد الفقهاء يجارى رغبة الأمراء . وقليل منهم قد باع دنياه لآخرته ، ورضا الأمراء لرضا ربه ، فلا يهمه ماله بقى أم صودر ، ولا تهمه حريته أطلق أم سجن ، بل لا تهمه نفسه حيي أم قتل .

وكان صاحبنا عبد العزيز بن عبد السلام من هذا القليل الذى فنى فى الحق وأخلص لدينه ، فلا يقدر عاقبة نفسه ، وإنما يقدر عاقبة أمته وموقفه بين يدى ربه .

* * *

لقد اشتد التتار في الغزو واجتاحوا البلاد ، ووصلوا إلى «عين جالوت» ، ولابد لمصر أن تقف أمامهم وترد كيدهم ؛ ولكن العدوّ شديد وعدده وفير ، والقوة لا تدفع إلا بالقوة ، والعدد بالعدد والعدة بالعدة ، وهذا يتطلب أن تبذل الأمة أقصى ما تستطيع من المال في سبيل المكافحة ، والعلماء هم الذين يستطيعون أن يغنموها بالانفاق من طريق الدعوة الاسلامية والغيرة الدينية .

فهذا الملك المظفر سيف الدين قطز يجمع العلماء بحضرته ، وعلى رأسهم عبد العزيز بن عبد السلام ، ليتدبروا في المال كيف يجمعونه ، والعاطفة الدينية كيف يستغزونها ؛ فيقف الشيخ ويقول : «يجب أولاً أن تخرجوا ما في بيوتكم من حليّ لا حصر لها ، وما في بيوت أمرائكم وجنودكم من الثياب المزركشة والمناطق الذهبية والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة في أيديكم وأيدي أتباعكم ومماليككم ، ثم تذيبوها وتضربوها نقوداً وتنفقوا منها على إعداد الجيش وتموينه ؛ فاذا تم ذلك واحتجتم إلى مال بعدُ فكلنا على استعداد — إذاً — أن نطلب من الناس أن ينفقوا ومن العامة أن يخرجوا عما في أيديهم . أما أن تبقوا على ما في أيديكم من أنواع الترف والسرف ، ونطلب من الناس أن يتجردوا عما في أيديهم من ضرورات الحياة فلا . يجب أن يسوّى الأمراء بالرعية فيما يملكون ، فاذا تساووا وجب الانفاق من الجميع» . وإذا قال الشيخ لا فلا ، ولا رجعة فيها ، والأمة وراءه .

فاضطر الملك أن ينفذ ما قال ، فخرجت الأكداس المكدسة من الحلى والثياب المزركشة . وانتزع الذهب والفضة من البيوت والأواني ، وصيغ سكة فكفت وأغنت ، ولم يحتج إلى أن يمس الناس في شيء من أموالهم .

* * *

ثم كانت الحادثة العجيبة الجريئة التي أقامت الدنيا وأقعدتها ، هؤلاء جماعة من المماليك دفعت أثمانهم عند الشراء من بيت المال ثم لم يعتقوا ، والشيخ في منصب القضاء والمشرف على بيت المال ، والمسئول عن مال المسلمين وصحة الأحكام الشرعية ، وهؤلاء المماليك أصبحوا أمراء بارزين وبيدهم الحل والعقد ، ومنهم من بلغ أن يكون نائب السلطنة ، وجاههم عريض وأمرهم نافذ ؛ ولكن الشيخ لا يأبه بذلك كله ، ويحدث أزمة حادة قلّ أن يكون لها مثيل : أعلن الشيخ أنهم أرقاء لا يصحح لهم بيعاً ولا شراءً ولا زواجاً ، فتعطلت مصالحهم ؛ فهم إن ملكوا لا يسجل لهم ملكاً ، وإن تزوجوا لا يعقد لهم زواجاً ، ثم هم أهينوا في أنفسهم وشرفهم وجاههم بدعوى رقهم ؛ ولكن الشيخ واقف وقفة الأسد لا يلين ولا يتزحزح .

— وما الحل أيها الشيخ ؟

— الحلّ أن يباعوا في الأسواق ويتزايد الناس في شرائهم ، ومن ملكهم إن شاء أعتقهم وإن شاء استرقهم ، وثمنهم يدخل في بيت مال المسلمين كما خرج منه

— هذا غير معقول . نائب السلطنة يباع ؟ ومن هم أسياد البلد يصبحون عبيداً كالسلع يباعون ويشترون ؟ هذا ما لا يكون ولا يدخل في عقل !

الشيخ — هذا حكم الله وكلنا عبيده وعبيد أحكامه ، وأنا القيم على تنفيذها :

والمسألة كل يوم تتسع وتتحرج ، وينقسم الناس حزبين : طبقة الأرستقراطية والحكام والسلطان في جانب ، والشعب وعلى رأسه الشيخ في جانب ، والمجالس تعقد والأزمة تستحكم ، والحلول تعرض ، والشيخ يأبى إلا بيع الأمراء .

* * *

غضب السلطان واحتد على الشيخ ، وأعلن أنه لا يعمل برأيه .

ها هي الخبر تمد ، ومتاع الشيخ يزم ، والشيخ يعتزم الخروج من مصر كما خرج قبل من الشام . ويطير الخبر ، فيعتزم كثير من الأعيان والعلماء والتلاميذ الخروج مع الشيخ والرحيل معه متى رحل ، والاقامة معه حيث يقيم ؛ وإذا البلد في حركة عجيبة وفوران شديد ؛ وإذا طائفة كبيرة من العلماء والصلحاء والتجار بنسائهم وأولادهم وأمتعتهم يستعدون للرحيل ، وإذا العزم يصبح تنفيذاً ، فهاهي قافلة كقافلة الحج تخرج من مصر .

وينظر السلطان فيرى أن خير من في البلد راحل من مصر ، وأن مصر لا تصلح بعد خروجهم ، وأن من بقي بعدهم باق على مضض ، فكيف يستقيم ملك مع هذا كله ؟ فإما أن يرجع الشيخ وإما أن يضيع الملك .

لا بد مما ليس منه بد — هـذا السلطان يخرج مسرعاً ويلقى الشيخ في طريقه فيستسمحه ويرجوه في العودة ، فيأبى الشيخ إلا أن ينفذ البيع في الأمراء ، فيقبل السلطان ويعود الشيخ .

* * *

علم نائب السلطنة أنه سيباع فيمن يباع ؛ فهاج وغلى الدم في عروقه ، واعتزم ألا يتم ذلك بأي وسيلة ، فركب فرسه وجرد سيفه ، وقصد إلى الشيخ يحتز رأسه وقرع الباب ، وأبلغ الشيخ أن نائب السلطنة حضر وسيفه مسلول يريد قتله ؛ فنزل الشيخ في هـدوء واطمئنان وثبات ، وهو يقول : « أنا أقل من أن أقتل في سبيل الله » . فلما رآه نائب السلطنة حتى تمازجت في نفسه مشاعر مختلفة : هيبة الشيخ ووقاره ، والخوف من نقمة الناس وهياجهم عليه حتى لقد يفقد نفسه ، والرحمة على شيخ مسن لم يقل ما يقول شهوة لنفسه ، ولكن إرضاءً لدينه ؛ فيبست يده على سيفه ، وتخاذلت عزيمته وعاد كما أتى .

* * *

هـذا هو مجلس البيع يعقد ، وهؤلاء هم الأمراء ينادى عليهم ، وهذا هو الشيخ يقبل ثمناً ويرفض ثمناً ، حتى يبلغ ثمن المثل ، وهذا هو يقبض المال ، وهذا هو يودعه في بيت مال المسلمين ، وهذا هو يبلغ ذروته في المجد والعظمة ، ويحتل في نفوس الناس مكاناً لا يحتله أحد من بعده .

لقد مات الشيخ فخرجت مصر تشيعه ، وتشيع الصلابة في الحق ، والعظمة في الدين ، والاخلاص للعقيدة .

ويطل الظاهر بيبرس ، فيرى مصر وراء جنازة الشيخ وقلبها يتفجع لفقده ، فيلتفت إلى بعض خواصه ويقول : « اليوم فقط طاب ملكي » .

(تمت) أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

* * *

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
لستة أشهر	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١ قرش صاغ

التضحية

كتب الأستاذ الكبير أحمد بك أمين مرة في مجلة الثقافة مقالا قيماً يدعو فيه الأفراد للتضحية بمصالحهم الذاتية في سبيل مصلحة الجماعة . وقد جاء في هذا المقال : « إن علماء النفس المحدثين قد أضاعوا جمال التضحية بما أفرطوا من تحليل ، وما أرجعوا من أعمال نبيلة إلى غرائز وضيعة ، وما وصلوا إليه من أن مظاهر إنكار الذات تعود في آخر أمرها إلى حب الذات » .

وقد ذكرني هذا الكلام بكتاب قرأته منذ سنين للكاتب الأمريكي (مارك توين) عنوانه «من هو الانسان؟» ضمنه رأيه في طبيعة الانسان وحقيقته . والكتاب على صورة حوار بين رجل مسن عركه الدهر وخبر صروف الزمان ، وشاب لا يزال غريراً ساذجاً تخدعه الظواهر .

وفي هذا الكتاب فصل يشرح فيه الكاتب التضحية والايثار . ولعله من أنصار أولئك العلماء النفسيين الذين لا يؤمنون بأن الانسان يضحي براحته أو بماله ، إلا إن كان له من وراء ذلك نفع شخصي . وفي هذا الرأي خلاف لما ذهب إليه الأستاذ أحمد بك أمين في مقاله . وقد يكون الأستاذ أدنى إلى الصواب . ولست أريد بكلمتي هذه أن أنحاز إلى أحد الرأيين . وإنما أحب أن أعرض — مع شيء من التصرف والتحوير — صورة من ذلك الحوار الجميل الذي يدور بين الشيخ والشاب في كتاب (توين) عن الأثرة وحب النفس .

قال الشيخ : هناك دافع واحد يدفع الانسان إلى العمل

الشاب : وما ذاك ؟

الشيخ : ذلك أن يظفر باللذة الذاتية ورضى النفس .

الشاب : إن هذا الزعم لا يتفق والواقع ، فمن الناس من يقوم بالعمل يضره ويؤذيه ، ولكنه يعود على غيره بالنفع والفائدة .

الشيخ : أنت لا شك مخطئ ، فالعمل لا بد أن يعود على فاعله بالخير أولاً ، وقد تأتي مصلحة الآخرين في ذلك عرضاً واتفاقاً .

الشاب : عجيب منك أن تظن هذا ! وماذا ترى في التضحية بالنفس ؟

الشيخ : وما هي التضحية بالنفس ؟

الشاب : هي أن تفعل الخير في شخص آخر حيث لا ظل من الأمل في الفائدة تعود على فاعل الخير .

الشيخ : اضرب لي مثلا ، ثم لنحلل هذا المثل معاً حتى نصل إلى لباب الحق .

الشاب : خذ مثلا ما شاهدت بعيني رأسي بالأمس . رأيت رجلا على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، وقد أقبل الليل واشتد البرد وتساقط الثلج ، فاستأجر عربة تحمله إلى بيته . وما إن هم باعتلائها حتى تقدمت إليه امرأة عجوز في ثياب رثة وبؤس شديد . ومدت إليه يدها العجفاء تطلب إليه أن ينقذها من الجوع والموت . ولم يكن لدى الرجل غير قروش معدودات ، وهي الأجر الذي اتفق مع سائق العربة أن يدفعه له . ولكنه لم يتردد لحظة ، وآثر أن ينفح المسكينة بالمال ويسير إلى بيته راجلا وسط العواصف والأنواء . أليس هذا عملا نبيلا جميلا لا تلوثه وصمة من حب الذات ؟

الشيخ : هل لك أن تضع نفسك موضع الرجل وتخبرني بماذا أحس وفيم كان يفكر ؟

الشاب : هذا أمر يسير . إن منظر تلك العجوز المتألمة حز في قلبه الكريم وآلمه إيلاما لم يقو عليه ولم يستطع له احتمالا . كان بوسعه أن يحتمل مسير الأميال الثلاثة راجلا ، ولم يكن بوسعه أن يحتمل عذاب ضميره لو أنه أشاح بوجهه عن العجوز وخلاها فريسة الموت . لو أنه فعل هذا ما استطاع أن ينام ليلته من بشاعة الصورة وشناعتها .

الشيخ : ولعله نام تلك الليلة ملء جفنيه ؟

الشاب : لا أشك في هذا .

الشيخ : حسنا . والآن دعنا نجمع ما فصّلت ، ونرى ما حصل عليه الرجل لقاء المال اليسير الذي جادت به نفسه على المرأة العجوز . ولنحاول بعد هذا أن نتعرف إلى السبب الحقيق الذي دفعه إلى إنقاذ المسكينة من البرد والجوع .

إنه لم يستطع أن يحتمل الألم الذي كان ينبعث من منظر المرأة العجوز . ومن ثم ترى أن هذا الرجل الطيب كان يحاول أن يتحاشى الألم ، فاشترى بماله راحة النفس . وإذا لم يتقدم للعجوز بالمعونة فإن ضميره يعذبه وهو في طريقه إلى البيت ، فاشترى بماله راحة الضمير . وإذا لم ينقذ المرأة فقد لا ينعم بالنوم ، فاشترى بماله نوماً هادئاً .

يا لها من صفقة رابحة ! لقد اشترى هذا الرجل بعده عن الألم وراحة الضمير ونوم ليلة كاملة ببضعة قروش ! وأنت بعد هذا كله تقول إن قلبه كان يرقص طرباً وهو سائر في طريقه إلى البيت ، وهذا ربح جديد .

فالدافع الذي دفع الرجل إلى معونة المرأة إذاً هو إرضاء نفسه وتخفيف ألمه قبل كل شيء . أفلا ترى معي بعد هذا أن الانسان لا يندفع إلى ما يعمل إلا بدافع واحد وذلك هو حب الذات ؟

الشاب : من اليسير أن أبرهن لك على خطأ هذا الزعم .

الشيخ : اضرب لي مثلا .

الشاب : تلك العاطفة النبيلة : حب الوطن . وهل يسعى وراء راحته رجل يترك بيته وأبناءه ويخرج للدفاع عن بلده معرضاً نفسه للجوع والبرد والتجريح والموت ؟ إنه يتعرض لكل هذا رغم أنه لا شك يحب الراحة ويخشى الألم ، ولكن حب الوطن فوق هذا وذاك .

الشيخ : ما إخال إلا أن هناك شيئاً آخر يحبه أكثر مما يحب الراحة والأمان . وربما كان ذلك رضى جيرانه ورضى الجمهور . وشيئاً آخر يخشاه أكثر مما يخشى الألم ، وذلك سخط جيرانه وسخط الجمهور . فإن كان ممن يخشون العامة فهو يذهب إلى ميدان القتال لا لأنه يتطلب هناك راحة الضمير كاملة ، ولكنه يلتمس هناك راحة نفسية أكثر مما يلتمس في بيته . إن هذا الرجل يترك وراءه أبناءً باكين وهو جد آسف ؛ ولكن أسفه لم يبلغ به حداً يدفعه إلى أن يضحي راحة ضميره الشخصي في سبيل راحة أبنائه .

الشاب : وهل تظن حقاً أن الرأي العام يدفع رجلا جبانا محباً للسلم إلى النزول بساحة الوغى ؟

الشيخ : أجل ، إن الرأي العام يدفع بعض الناس إلى القيام بأي عمل .

الشاب : لا أظن أن الرأي العام يستطيع أن يدفع رجلا يعتنق مبادىء الخير على فعل الشر ، أو يدفع رجلا شفيقا على القسوة . وماذا تقول في رجل يضحي بحياته كي ينقذ طفلا من بيت محترق ؟

الشيخ : إن مثل هذا الرجل لا يحتمل أن يرى طفلا في خطر الموت لأن طبيعته لا تسمح له بهذا ، فهو يندفع وراء طبيعته غير مكترث بالنتائج . وقد تكون لغيره طبيعة أخرى فيترك الطفل للنار تنشب فيه ولا يتحرك .

الشاب : وماذا ترى في حب الأم ابنها ؟

الشيخ : إنه لا يخرج على هذه القاعدة الصارمة — حب الذات . إن الأم لتعرى كي تكسو ابنها ، وتموت جوعاً كي تشبعه ، وتتحمل صنوف العذاب كي تنقذه من الألم . ولكنها تستمد من هذه التضحية سروراً ما بعده سرور . إنما هي تقدم هذه التضحيات كي تظفر برضا النفس واطمئنان الفؤاد . ولو كانت تظفر بمثل هذا الشعور لو قدمت هذه التضحية لابنك أو ابني ما ترددت لحظة في تقديم التضحية .

الشاب : وما الرأي في المحسنين ؟

الشيخ : إنهم يشترون بالاحسان سعادة النفس . وأما البخيل فيلتمس السعادة في الشح والكزازة . كل يعمل وفق طبيعته .

الشاب : أنت إذاً لا تعتقد أن أحدا يعمل الواجب للواجب .

الشيخ : هذا أمر لا وجود له . إن الواجبات لا تؤدى من أجل الواجبات . وإنما تؤدى لأن إهمالها يجلب القلق لصاحبها ، والانسان إنما يسعى دائماً لتحقيق الطمأنينة ورضا النفس . وإن كان يجدهما في معاونة جاره لفعل . وإن كان يجدهما في غشه وخداعه لفعل . وقد يظن فاعل الخير غير ذلك ، ولكنه من حقيقة نفسه مخدوع .

الشاب : عندي في هذه القصة التي بين يدي دليل على التضحية البريئة من الغرض والهوى . وتلك قصة شاب موظف علم بوجود فئة من الناس ثائرة على الدين فاستقال من وظيفته ، وضحى براتبه كي يناوئ هذه الفئة ويخطب ضدها في كل ناد ومجتمع .

الشيخ : وهل كان لدى هذا الشاب من يعولهم من أسرته ؟

الشاب : أجـــل .

الشيخ : وكيف كان أثر هذه التضحية التي ضحى على هؤلاء ؟

الشاب : كان يعول أباً متقاعداً ، وأختاً لها صوت رخيم تتعلم الموسيقى ، وتبشر بمستقبل عظيم في عالم الغناء ، وأخاً يتعلم في كلية الهندسة . . .

الشيخ : وماذا كان من أمر هؤلاء بعدما ضحى الشـاب بعمله ؟

الشاب : اضطر الأب إلى أن يقلل من أسباب راحته ، وانقطعت الفتاة عن دروس الموسيقى ، وعجز الطالب عن مواصلة التعلم ، واضطر إلى العمل كي يعول أباه وأخته .

الشيخ : عجباً لهذا الشاب الذي زعم أنه ضحى بنفسه ، وهو كما ترى لم يضح بغير أبيه وأخته وأخيه . إن هذا الشاب قد أفسد على هؤلاء حياتهم كي يرضي ضميره ، فظفر بسعادة النفس ، ولم يبوءوا بغير الخسران والنحس

الشاب : أنت إذاً تنكر التضحية بالنفس ، وهي أجمل ما في الانسان !

الشيخ : كلا . أنا لم أقل بهذا !

الشاب : ماذا عنيت إذاً ؟

الشيخ : إنما قصدت أن أقول إن أحداً لا يضحي بنفسه بالمعنى الذي يفهم الناس من هـذا — وهو أنه يضحي بنفسه لمصلحة غيره من النـاس وحدهم . أنا لا أنكر أن كثيراً من الناس يضحي كل يوم في سبيل غيره . وإنما الدافع الأول هو إرضاء نفسه ، وتأتي بعد ذلك مصلحة الآخرين .

الشاب : وما رأيك في هذه القصة : كانت هنـاك سفينة انجليزية مزدحمة بالجند وأزواجهم وبنيهم . وقد ارتطمت السـفينة على صخرة ناتئة ، وبدأت تهبط إلى قاع البحر . ولم يكن في زوارق النجاة متسع لغير النساء والأطفال ، فأمر القائد جنده أن يخلوا الزوارق لهؤلاء الأطفال وأمهاتهم ، وأن يضحوا بحياتهم في سبيلهم . فقبلوا جميعاً . ولم يبد السخط على جندي واحد منهم ، وماتوا جميعاً ضحية الواجب المقدس .

الشيخ : لو كنت مكان أحدهم أفما كنت تفعل ما فعل ؟

الشاب : ما أظن ذلك ، فاني جبان أخشى الموت ، ولست كهؤلاء الجنود الشجعان .

الشيخ : ولكن هؤلاء الجند كانوا ألفاً ، بل وأكثر من ألف ، أفلم يكن بينهم رجل واحد جبان كذلك ؟ إنك لو جمعت ألفاً من العمال الآن وأوقفتهم مثل هذا الموقف لوجدت من بينهم من يحتج ومن يسخط . ولكنك لو دربتهم جنوداً لـكانوا كتلك الزمرة المضحية ، لأنهم يكتسبون بعد التدريب كبرياء الجند ، ومثلهم الأعلى . ولا بد لهم إذا حزب الأمر أن يرضوا هذه الكبرياء التي اكتسبوها بالتدريب والمران . وهم إذاً حين يؤدون هذا الواجب المقدس إنما يرضون أنفسهم أولاً .

أفلا ترى مني بعد هذا كله أن الفرد حين يضحي بنفسه إنما يفعل ذلك من أجل نفسه أولاً ومن أجل غيره ثانياً ؟

محمود محمود

صورة من الحياة الفكرية

في السودان

في عام ١٩٣٨ زار السودان الأستاذ محمد عوض محمد في رحلة علمية . ولما كان الزائر الكريم معروفاً في السودان بكتاباته وتواليفه ، فقد هرع إلى لقائه عدد من السودانيين المثقفين في أحد منتديات الخرطوم . وجرى الحديث في الأدب وعن الكتاب المصريين ، وجاء على لسان الأستاذ أنه لو كان يعلم أن له قراء في السودان لكان ذلك من دواعي غبطته ، ومما يحفزه على الاستزادة في الانتاج والتجويد من أجل هؤلاء الذين يقرءون له . وقد سررنا نحن بهذه المجاملة وهذا التواضع الجم ، وشكرنا للأستاذ فضله ؛ ولكن بقي أن نقول للأستاذ وزملائه من رجال الأدب في مصر : إن كتاباتهم يقرؤها الناس في السودان بشغف زائد ، ويتأثرون بها ويأخذونها مأخذ الجد ويعنون بها عناية صادقة . ولكن لعل هذه الحقيقة غير واضحة ، أو غير معروفة مصر . وذلك راجع لقلة الكمية التي ترد إلى السودان من صحف أو كتب ، لأن عدد الذين تلقوا تعليماً يجعلهم يتذوقون الأدب ويتفهمونه قليل بالنسبة لعدد السكان . ولكن إذا أحصينا عدد القارئين والمتتبعين للحركة الفكرية بين هؤلاء ، لوجدناهم أغلبية بالقياس إلى أي قطر عربي آخر ، ولا أظنني مغالياً في ذلك ، إذ ليس للقارئ السوداني مثل اهتمام أخيه المصري بالكتابات السياسية التي تستنفد كثيراً من وقته وتفكيره .

وأكثر الجرائد المصرية انتشاراً عندنا ، هي الثقافة والرسالة وآخر ساعة والأهرام والمصور . ولا يكاد يظهر كتاب جديد لكاتب مشهور حتى يسارع الأدباء إلى اقتنائه وجلبه من مكاتب القاهرة المشهورة . والناس هنا يقرءون الكتب الأدبية فقط ، ولا يعنون بالأبحاث العلمية قدر عنايتهم بها ؛ وهذه الظاهرة تبدو في كل بلاد الشرق العربي ؛ وذلك لأن الاشتغال بالعلوم العقلية التي تخلو من أثر العاطفة دليل على النضج التام في الأمم ، والأحوال الاجتماعية في الشرق لم تصل إلى هذه المرحلة بعد . وسوف يجيء اليوم الذي نضطر فيه إلى توجيه الناس وإغرائهم بشتى الوسائل للاقبال على الطائفات العلمية البحتة ، والعلوم الحديثة التي بواسطتها ترقى التجارة والصناعة والزراعة .

ولا يقرأ الأدباء في السودان إلا للأعلام في الأدب ، والفحول الذين استطاعوا أن يسيطروا على دولة الأدب في ربع القرن الأخير . أما الذين دون هؤلاء فلا تصلنا كتاباتهم ؛ فللأستاذ العقاد مدرسة وتلاميذ ، كما للدكتور طه والأستاذ أحمد أمين معجبون وأنصار ؛ وكذلك للزيات وهيكل وتوفيق الحكيم والمازني قارئون متأثرون بما ينتجون . ومن المؤرخين الأدباء : أبو حديد والخفيف وعنان ، ومن شعراء الشباب المهندس والدكتور ناجي ومحمود حسن اسماعيل ؛ وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر والاستقصاء . وفي السودان أيضاً قارئون متحمسون لأسلوب مجلة آخر ساعة في السياسة . وللأستاذ مصطفى أمين معجبون بطريقته الفكهة ، ينسجون على منوالها في أحاديثهم ورسائلهم .

ولا يقف الأدباء عند حد القراءة والاستمتاع الذهني فقط . فهم يفكرون فيما يقرءونه ، ولهم في ذلك رأي ونقد وتعليق جدير بالعرض والتسجيل . وذلك لأن الطباع صحيحة والأذواق على فطرتها العربية السليمة . ونظراً لأنهم بعيدون عن كل تأثير خارجي من المؤثرات الخاصة ، كالاعجاب البالغ فيه أو الحسد أو التشيع لكاتب دون رأيه . هذه المؤثرات قد يحسها القارئ المعاصر لهؤلاء الأدباء في القاهرة ، ولكن بعد المسافة

العنـدليب والوردة

أوسكار وايلد

كان الطالب الفتى يفترش العشب فى وسط الحديقة ، وهو يناجى نفسه قائلا : « لقد وعدت بأن ترافصنى ، إذا أتيتها بورود حمر ؛ ولـكن حديقتى كلها لم تمط وردة واحدة حمراء » . وكان العندليب فى عشه فى شجرة السنديان ، فسمع النجوى ، وأطل على الطالب من بين الأوراق ، متعجباً ، ولم يقل شيئاً . ثم قال الطالب صائحاً : « ويلاه ! ليس فى حديقتى كلها وردة واحدة حمراء . آه ، ما أتفه ما تقوم عليه السعادة ! لقد قرأت كل ما كتبه الحكماء ، وجلوت جميع أسرار الفلسفة ، ومع هذا تُمر حياتى فقدان وردة حمراء » . واغرورقت عيناه بالدموع .

أطل العندليب ثانية ، وقال : « هذا عاشق ما فى حبه ريبة ، وها إنى أخيراً قد وقعت عليه ! فطالما جعلته موضوعاً لتغريدى ليلة بعد ليلة ؛ وما أكثر ما قصصت على النجوم حكايته ، وأنا لا أعرفه . أما الآن فانى أراه عياناً ، فأتلمح شعره الأسود كبراعم الخزامى ، وأتبين شفتيه الورديتين كالزهرة التى يرجوها . غير أن الهيام قد جعل وجهه شاحباً كلون العاج ، والحزن قد غشى منه الجبين » .

ثم تمتم الطالب الفتى : « سيحيى الأمير حفلته غداً ، وتكون حبيبتى بين الجمع . فاذا ما أتيتها بوردة حمراء ، راقصتنى حتى الفجر : فطوقتها بذراعى ، ومالت برأسها على كتفى ، وتشابكت منا أصابع اليدين . لكن حديقتى لم تمط وردة واحدة حمراء ؛ ولذا سأجلس وحيداً ، وتجتاز بى حبيبتى مولية ، إذ لا تكون بها حاجة إلىّ . أما قلبى فلا إخاله إلا ينفطر » .

وكان العندليب يصغى ، فقال : « حقاً ، ما فى حبه ريبة . إنه ليقاسى مما ينطوى عليه تغريدى ، وما أستمد منه اللذة يعانى به الآلام . إن الحب أمره عجب : لكنه أنفس من الزمرد ، وأغلى من العقيق . إنه لا يعرض فى الأسواق ، ولا يباع باللآلىء . إن التاجر لا يملك شراءه ، والذهب لا يوازنه فى كفة الميزان » .

وواصل الطالب القول : « غداً يجلس العازفون فى شرفتهم ، ويفتنون فى التوقيع على الأوتار ؛ فترقص حبيبتى على أنغام الكمان والقيثار ، رقصاً خفيفاً ، لا تمس قدماها فيه الأرض ؛ ويزدحم حولها رجال القصر . أما أنا فلن ترافصنى ، لأنى لا أجد لها الوردة التى تريد » . ثم رمى بنفســه فوق العشب ، وغطى بكفيه وجهه ، واندفع يبكى .

فرّ به ضب أخضر ، يجرى منتصب الذنب ؛ ولما رآه على تلك الحـال ، وقف وتساءل : « فيمَ البكاء ؟ » وكانت حوله فراشة حائمة ، تحاول القبض على شعاع من

بين مصر والسودان ، قد قضى عليها ، وأصبح الناس ينظرون إلى الأثر الأدبى نظراً مجرداً من الهوى ، وكما يظهر لهم فى الصحائف والـكتب ، وكما أراده صاحبه أن يظهر للناس . فاذا جلست إلى جماعة من الخريجين يتحدثون عن أحدث الـكتب أو عن البريد الأدبى من القاهرة ، فانك سوف تستمع إلى طائفة من الآراء والتعليقات لا يسعك إلا أن تعجب بها . ولو حاولوا جمع هذه اللاحظات ونشرها فى الصحف المصرية أسوة بغيرهم من أدباء البلاد العربية ، لوجدت العروبة فيهم خير معين ولقدموا للغة العربية والأدب العربى خدمة متواضعة نرجو أن تطرد مع الأيام ومع انتشار التعليم فى السودان . كما نرجو أن تفسح المجلات المصرية صفحاتها للنابهين منهم ، وأنا واثق أنها ستجد فى كتاباتهم الطريف الممتع ، وألواناً جديدة من التفكير لا بأس بها . .

محمد الطاهر زروق

نور الشمس ؛ فضمت صوتها إلى صوته ، قائلة : « حقاً ، فيم البكاء ؟ » وهمست الفراشة في أذن جارة لها ، همساً خفيفاً خافتاً : « حقاً ، ملام تراه يبكي ؟ » فأجاب المنداب : « إنه يبكي على وردة حمراء » . فصاح الجمع : « وردة حمراء ؟ يا للسخرية ! » وقهقه العشب على شدقيه ، إذ كان ميالاً إلى التهكم .

غير أن المنداب أدرك السر في حزن الطالب ؛ فظل صامتاً في عشه على شجرة السنديان ، وجعل يفكر في خفايا الحب .

• • •

وبعد قليل هبَّ المنداب ، ونشر جناحيه الداكنين ، واندفع طائراً ؛ فاجتاز الغابة ، ومر بالحديقة ، وكأنه ظل من الظلال ؛ حتى جاء منبسطاً من العشب الأخضر ، تقوم في وسطه شجرة ورد جميلة . فحام حولها ، وحط فيها على فنن ؛ ثم صاح بها أن « اعطيني وردة حمراء ، أغنك أعذب أغاريدي » . ولكنها هزت رأسها ، قائلة : « إن ورودي بيضاء كزبد موج البحر ؛ بل إنها لأنصع بياضاً من الثلج الذي يكسو الجبل . عليك بأختي تلك ، القائمة خلف المزولة ، فقد تعطيك ما أنت في طلبه » .

طار إلى الشجرة التي تحتضن المزولة القديمة ، وصاح بها : أن « اعطيني وردة حمراء ، أغنك أعذب أغاريدي » غير أن هذه أيضاً هزت رأسها ، قائلة : « إن ورودي صفراء كشعر حورية البحر التي تجلس على عرش من العنبر ، بل إنها لأنقع صفرة من الزنبقة التي تتفتح في المرج ، قبل أن يأتيها الحاصد بمنجله . عليك بأختي تلك القائمة تحت نافذة الطالب ، فقد تعطيك ما جئت في طلبه . »

ولما طار المنداب إلى هذه الشجرة ، وأعرب لها من طلبته ، هزت هي أيضاً رأسها ، وقالت : « إن ورودي حمراء كلون قدمي الحمامة ، بل إنها لأشد حمرة من مراوح المرجان العظيمة ، التي لا تفتأ تتموج في مغاور البحر المحيط . غير أن الشتاء قد جمد عروقي ، والصقيع قد قرس أكمامي ، وأغصاني قصفتها العاصفة ؛ فلن تكون فيّ زهرة واحدة هذا العام » . وعندئذ صاح المنداب في وجهها : « وردة حمراء واحدة ، هي كل ما أبتغي ! أليس إليها من سبيل ؟ » فأجابت : « بلى . غير أنه مليء بالرعب ولا أجرؤ على إرشادك إليه . »

— لست أخشى شيئاً ! أرشديني .

— إذا كنت تبغي وردة حمراء ، فعليك أن تصوغها من ألحان الموسيقى في ضوء القمر ، وأن تصبغها بدم قلبك . عليك أن تشدو لي بالأغاريد ، وصدرك مستند إلى إحدى الأشواك . عليك أن تظل تشدو طيلة الليل ، والشوكة نافذة إلى قلبك ، والدم — الذي هو قوام حياتك — يجري منه في عروقي ، حتى يصبح لي .

— الموت : إنه لثمن غال أدفعه لوردة حمراء . الحياة ! إنها لعزيزة على كل حي . ما أبهج الجلوس في الغابة الخضراء ، ومراقبة الشمس تتهادى في مركبتها الذهبية ، والقمر مطلاً من مركبته اللؤلؤية ! ما أعطر رائحة زعرور الفلاة ! وما أجمل أجراس الزهور المتوارية في أعطاف الوادي ، ونور الخلنج يكسو الهضاب ! لكن ! لكن الحب خير من الحياة . ثم ما قلب الطير إذا قيس بقلب من قلوب البشر ؟

• • •

وبعد إطراق ، نشر المنداب للريح جناحه ، واندفع يطير صعداً . فمر بالحديقة ، وكأنه ظل من الظلال ؛ واجتاز الغابة ، وكأنه ذات شراع تشق البحر الساجي . أما الطالب الفتى ، فكان لا يزال مضطجعاً فوق العشب والدمع لما يجف من مآقي عينيه الجميلتين . فلما دنا منه الطائر ، قال مبشراً : « لك السعادة ؛ قد وافاك الهناء ! ستنال الوردة الحمراء التي تبغي . سأصوغها لك من ألحان

الموسيقى في ضوء القمر ، وسأصبغها بدم قلبي . وليس لي عليك ، لقاء ذلك ، إلا أن تكون صادق الحب . إن الحب لأحكم من الفلسفة ، على ما فيها من الحكمة ؛ وهو أعنف من القوة ، على ما فيها من العنف . وإن له جناحين مصطبغان بلون اللهب ، وبهذا اللون يصطبغ باقي جسمه . إنه معسول الشفتين ، ومن بينهما يفوح عبير اللبان الذكر .

وعندئذ رفع الطالب عينيه ، وجعل يصغي ، لكنه لم يفهم مما سمع شيئاً ؛ فقد كانت معرفته تقتصر على ما في بطون الكتب . أما شجرة السنديان ، فقد أدركت معناه ، وشعرت بالحزن ، لأنها كانت شديدة الولع بذلك الطائر الصغير الذي آوته في أغصانها . ولذلك همست له أن « غنني آخر أغاريدك ، فستؤلني الوحدة حين تذهب » . فلبى العندليب لها الطلب ، واندفع يشدو بصوت كصوت الماء يتدافع في عنق إبريق من الفضة . ولما انتهى الشدو نهض الطالب من ضجعته ، وأخرج من جيبه دفتراً وقلماً ، وسار في الغابة .

ثم أخذ يناجي نفسه ، قائلاً : « أما أن لهـذا الطير شكلا ، فأمر لا ينكر عليه أحد ؛ ولكن هل تراه يشعر ؟ إني إخال أنه لا يشعر . وفي الحق أنه ، شأن معظم مبدعي الفن ، محض أسلوب ، خلو من الروح . لست إخاله يضحي نفسه في سبيل الناس . إنه لا يفكر إلا في الموسيقى ؛ والفنون جميعها أنانية ، كما يعلم الجميع . ولكن من يجحد أن في صوته بضع نغمات عذاب ؟ لولا أنها خلو من كل معنى ، عاجزة عن جلب النفع ، وهذا مدعاة للأسف . » ثم دخل الغرفة ، واضطجع فوق فراشه الخشن ، وجعل يفكر في حبه . وسرعان ما غلبه النوم .

***

ولما أقبل الليل ، وبدا القمر في قبة الفلك ، طار العندليب حتى جاء شجرة الورد ، فحط منها على فنن ، وأسند صدره إلى إحدى الأشواك ، وجعل يصدح . وقضى الليل طوله مغنياً ، والشوكة توغل في صدره أعمق فأعمق ، ودم قلبه يسيل بلا انقطاع ، ومد حياته ينحسر دون رجعة ؛ بينما القمر البلوري البارد مطل من علاه يصغي

بدأ تغريده شادياً بالحب حين يولد في قلب الفتى والفتاة ؛ فتفتحت على ذلك الفنن وردة جل مبدعها ! وبدت أوراقها ، الواحدة تلو الأخرى ، كلما تتابعت منه الأغاريد . كانت الزهرة باهتة اللون ، بادئ البـدء ، كالضباب الجثم فوق النهر ، أو كأقدام الصباح . كانت فضية كأجنحة الفجر . كانت كظل الورد منعكساً على مرآة من الفضة ، أو على صفحة غدير صاف . . .

ولكن الشجرة صاحت بالعندليب أن « ادن من الشوكة ، أيها الطائر الصغير ، وزد بها التصاقاً ؛ وإلا طلع النهار ، والوردة لما تكمل » . فدنا الطير وزاد ، وارتفع بالصداح وعلا ، إذ جعل يغني بالعاطفة حين تولد في روح الرجل والعذراء . وعنـد ذلك أخذت الأوراق تتورد ، كوجه الزوج إذ يجني من عروسه أولى القبل . أما قلب الزهرة ، فقد ظل أبيض ؛ لأن الشوكة لم تبلغ قلب الطائر الشادي . وليس من شيء يصبغ قلب وردة بلون القرمز ، سوى الدم الذي يتدفق من قلب العندليب . ولذلك أعادت الشجرة عليه أن يدنو ويزداد التصاقاً « وإلا طلع النهار ، والوردة ناقصة التكوين » .

فدنا من الشوكة ، وزاد بها التصاقاً ، حتى أصابت قلبه ، فاجتاحت جسمه موجة عنيفة من الألم المرير . ثم ازدادت مرارة الألم ، وازداد عنف الأغاريد ، حين جعل يشدو بالحب الذي يصهره الموت ، فيخلص من الشوائب ، ويخلد هازئاً بالقبر . وعندئذ اصطبغت الوردة — تلك الزهرة التي جل مبدعها — بلون قرمزي ، كلون السهام التي ترمي بها الشمس جيوش الظلام ، فتهزمها من السماء

قبـل الشروق . كانت أوراقها تتمنطق بلون قرمزى ، وقلبها قد اصطبغ بلون الياقوت .

غير أن صوت العندليب جعل يخفت ، وجناحيه الصغيرين أخذا يخفقان ، وعينيه كستهما غشاوة . ثم ازداد صوته خفوتاً ، وشعر أن فى حنجرته غصة ؛ فاندفع يشدو غناءً آخر أناشيده . سمعه القمر ، فنسى انبثاق الفجر ، وظل يتلكأ فى قبة الفلك . وسمعته الوردة الحمراء ، فهزتها نشوة السرور ، ونشرت أوراقها تستقبل نسيم الصباح المنعش . وحمله الصدى إلى كهفه الأرجوانى فى سفح الجبل ، فأيقظ الرعاة من نوم ملؤه الأحلام . ونقله القصب فى النهر ، رسالة إلى البحر . وصاحت الشجرة : « انظر ، انظر ، فقد تم تكون الوردة » ؛ أما العندليب فلم يجب ، إذ كان قد وقع فى العشب الكثيف ميتاً ، والشوكة مثبتة فى قلبه .

* * *

وعند الظهيرة ، فتح الطالب النئوم ، نافذته ، ونظر منها ، فصاح : « يا لحسن الطالع ! ها إنى أجد وردة حمراء ، لم أر لها مثيلا طول حياتى . إنها جميلة خلابة ، لا بد أن يكون لها فى اللاتينية اسم طويل » . ثم مد يده ، وقطفها فى غير عناء . وتناول قبعته ، وذهب مسرعاً إلى بيت أستاذه ، والوردة فى يده .

كانت ابنة الأستاذ جالسة فى مدخل المنزل ، تطوى حول الملف خيطاً حريرياً أزرق ، وكلبها الصغير مقع عند قدميها . فلما أقبل الطالب عليها ، نادى قائلا : « قلت لى إنك سترافصيننى إذا جئتك بوردة حمراء . فهاك وردة ليس فى الدنيا ما يضاهيها احمراراً . لك أن تزينى بها الليلة ، على أن تثبتيها من قلبك فى أدنى مكان ، حتى تحدثك عما لك فى هذا الفؤاد » .

غير أن الفتاة عبست ، ثم أجابت : « لست إخالها تنسجم مع لون فستانى ؛ ناهيك أن ابن شقيق رئيس الديوان قد أرسل إلى بضع جواهر حقيقية . ومن يجهل أن الجواهر أغلى من الزهور أضعافاً مضاعفة ؟ » .

فلما سمع الطالب قولها ، قال فى غضب : « حقاً أنك لا تدركين معنى الجميل ! » ثم رمى بالوردة فى الشارع ، فوقعت فى قناة على جانبه ، وداستها عجلة عربة للنقل .

« تدعوننى منكرة للجميل ؟ وأنت ، ألست جافياً خشناً فظاً ؟ ثم من أنت ، وماذا تكون إذا قورنت به ؟ طالب ، لا أكثر ! ولست إخال أن فى حذائك أبازيم من الفضة كالتى فى حذائه . » قالت هـذا ، ثم نهضت من مجلسها ، ودخلت الدار .

وفيما كان الطالب يسير ، عائداً إلى غرفته ، أخذ يحدث نفسه قائلا : « يا لحماقة الحب ! إنه تافه أجوف ! ليس فيه من النفع نصف ما فى علم المنطق ، إذ هو لا يثبت أمراً من الأمور ، بل يظل ينبئ الانسان بأشياء لن تحدث ، ويحمله على تصديق ما ليس بالصحيح . الحب ! حقاً أنه ليس أمراً عملياً ، ونحن فى هذا العصر نعلق كل همنا على الأمور العملية . لذلك أعود إلى كتب الفلسفة ، وما وراء الطبيعة » .

تابع المسير ، حتى بلغ الغرفة ، وسرعان ما دخلها ، ثم تناول كتاباً ضخماً كساه الغبار ، وأخذ يقرأ . . .

عصام الشريف

عظماء التاريخ :

ادوارد جـــنر

(١٧٤٩ – ١٨٢٣)

الناس جميعاً يعرفون أسماء أولئك القواد العظـام ، والفاتحين المشهورين ، والطغاة الجشعين ، الذين محوا بحياة المئات والألوف واللايين من بني الانسـان في ميادين الحروب في سبيل أطماعهم التي لا حد لها . ولـكن قليلون الذين يعرفون حياة هذا المحسن العظيم إلى الانسانية ، الذي وقف كل حياته وجهوده لانقاذ حياة اللايين من بني الانسان ، وأعني به الطبيب الانجليزي إدوارد جنر .

فهذا المكتشف العظيم « التطعيم ضد الجدري » ، الذي جاهد كثيراً في إظهار فائدة هذا الاكتشـاف الكبير النفع ، عاش في الوقت نفسه الذي عاش فيه نابليون الأول ، الذي خاض كثيراً من المعارك الرهيبة الدامية . ولـكن ليس شك في أن عـدد النفوس التي أنقذها جنر من الموت باكتشافه هذا ، يفوق كثيراً العدد الذي أهلـكه نابليون في المـعارك المئة التي انتصر فيها على أعدائه .

وليس ثمة شك في أن جنر لم يتوصل إلى هـذا الاكتشاف المفيد بغير الملاحظة الدقيقة التي يتميز بها عظماء المخترعين والعلماء ، وجنر واحد من هؤلاء العظماء الخالدين الذين تفخر بهم انجلترا ، ويفخر بهم العـالم بأجمعه ؛ فهو من الذين قدموا أجل خدمة للجنس البشري

وقد بدأ هذا الطبيب اللامع ملاحظاته الأولى لهـذا الاكتشاف ، وما زال طالباً في المدرسة . وكان يعرض هـذه الملاحظات على بعض أقرانه ، فيسخرون منه ، أو يغضبون عليه ، ويهددونه بطرده من صحبتهم إذا هو ظل يذكر أمامهم مثل هـذه الأمور الغريبة المضحكة . ولـكن ذلك لم يكن يزيده إلا تشبثاً بآرائه ، وثباتاً على عقيدته .

ثم ذهب إلى لندن ، وشاء حسن حظه أن تكون دراسته على يد أستاذ حكيم ماهر ؛ فما إن رأى الأستاذ ملاحظات تلميذه ، حتى أدهشه منه هذا الذكاء النادر ، وهذه الاختبارات الكثيرة الفائدة . فراح يشجعه بكل وسيلة ممكنة على متابعة ملاحظاته واختباراته ، والسير إلى النهاية الممكنة . ومما كان يقول له مشجعاً العبارة التالية : « لا تفكر فقط ، بل اختبر أيضاً ، وكن دائماً صبوراً ، ودقيقاً في اختباراتك » .

فلما عاد إلى بيته ، بعد الانتهاء من الدراسة ، عكف على الدرس والاختبار ، حتى إنه اقتنع اقتناعاً راسخاً لا يتزعزع بالفائدة العظيمة التي تنجم من التطعيم ، وحتى إنه بدأ اختباره — بعد الاقتناع — بابنه نفسه ، فلقحه ثلاث مرات !

وقد شرع جنر بإعلان فائدة هذه الوقاية المفيدة من هذا المرض الخطير بين الناس منذ سنة ١٧٧٥ ، وكان له من العمر ٢٦ سنة . وفي سنة ١٧٩٨ نشر النتائج الباهرة التي وصل إليها بواسطة اختباراته العديدة الدقيقة . ومنذ ذلك الحين بدأ هـذا الاكتشاف الخطير ينتشر ويعم في العـالم كله .

ولا بد لنا من أن نذكر أن هذا الطبيب اللامع والمكتشف العظيم قد لقي كثيراً من العقبات والعراقيل في سبيل اكتشافه هذا ، حتى إن كثيراً من زملائه الأطباء كانوا يصرون بشدة على عقم فائدته ، ويعارضون بشدة أيضاً في استعماله بله تعميمه . وبلغ بهم ذلك إلى حد أن أحدهم رسمه رسماً كاريكاتوريا مثله فيـه دائبا على تحويل الآدميين إلى حيوانات . ونشر بعضهم فكرة سيئة بين الناس مؤداها أن الطفل الملقح ضد الجدري عند ما يكبر

تتحول هيئته إلى هيئة نور ، وكذلك صوته يصبح أشبه بخوار الأبقار .

غير أن إدوارد جنر لم يبال بكل هذه العراقيل وهذه الاهانات والشتائم ، بل عدها كلها سخافات مضحكة لا تستحق منه أكثر من ابتسامة هازئة . وظل مثابراً على نشر اكتشافه وإظهار فائدته بنشاط لا يعرف الملل ، حتى تكلل عمله العظيم بالنجاح الذي كان يقدره له ، وحتى أصبح اسمه على كل لسان وصار الجميع يحيون فيه أحد العظام المحسنين إلى الانسانية .

وحتى مدينة لندن التي احتقرته في بادىء الأمر وعدته طبيباً قروياً غبياً أو مصاباً بداء عقلي شديد لم يسعها في النهاية إلا أن تجله وتبجل اسمه العظيم الخالد . فدعي إليها ليقوم بوظيفة فخرية بمبلغ عشرة آلاف جنيه في السنة ؛ ولكنه رفض هذا العمل الفخري قائلا بإباء وترفع : « لقد اخترت في فجر أيامي حياة العزلة والظلام ، اخترت قرارة الوادي لا قمة الجبل ، والآن وقد وصلت أيامي إلى مسائها لا يليق بي أن أحط من قدري وأتنازل إلى التشبه بأولئك الناس الحمقى الذين يتصيدون الجاه والثروة » .

وقد توفي هذا الطبيب الانساني عن أربعة وثمانين عاما .

وكانت تعزيته الوحيدة في ساعة الموت أنه استطاع وحده في حياته بواسطة اكتشافه الخطير أن ينقذ من النفوس البشرية من خطر الموت ، ما يعجز عنه كل أطباء العالم مجتمعين بواسطة عنايتهم وحذرهم .

وإنه لمن حق هذا الرجل الخالد على الانسانية ومن واجب الوفاء له أن تعلم الشبيبة اسمه وتطلعهم على تاريخ حياته قبل أن تعلمهم أسماء اسكندر المكدوني ويوليوس قيصر ونابليون الأول بونابرت وأضرابهم ؛ فقد عمل هؤلاء على تضحية النفوس البشرية على مذابح أطماعهم وغرورهم . أما هو فقد ضحى بحياته في سبيل إنقاذ هذه النفوس .

(رام الله — فلسطين) عيسى ابراهيم الناعوري

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىَّ تبعته وحدى ... ... "

أزمة القراءة — أين الهدف ؟ — أغلاق مزعجة ! — قرأت فى هذا الأسـبوع :

أزمة القراءة :

« لاحظت وزارة المعارف أن لغة كثير من الـكتب العلمية التى يتقرر تدريسها لتلاميذ المدارس ، لا تُناسب مستواهم العقلى واللغوى ، فلا تؤدى مؤداها ولا يستفيد التلميذ منها بشىء من حقائق العلم ؛ وعلاجاً لهذه الحالة تفكر الوزارة فى إنشاء مكتب فنى خاص يقوم على تهذيب ما يتقرر تدريسه من الـكتب العلمية ، وتقريب ما فيه من حقائق العلم إلى عقول التلاميذ وقلوبهم ، بأسلوب شائق وعبارات بريئة من التعقيد والعُجمة ! »

قرأتُ هذا الخبر فى جرائد الأسبوع فسألت نفسى : تُرى هل آن الأوان لعلاج أزمة القراءة فى مصر ؟

وإن بين هذه الحالة التى تنبَّهتْ إليها وزارة المعارف أخيراً — أو قيل إنها تنبهتْ إليها — وبين ما نشكوه من قلة قراءة العربية فى مصر — لسبباً وثيقاً ؛ بل إنها هى كلُّ السبب ومصدرُ الداء ؛ نعم وإنى لأعزو إليها فوق ذلك ما نشكوه من ضعف اللغة العربية فى ألسنة التلاميذ ومُنشآتهم ، على شدة ما يبذل المعلمون من جهد فى تقويم ألسنتهم وتصحيح منطقهم ؛ وإنها لَسبيل إلى هذه العجمة التى تعقل ألسنة سادتنا وكبرائنا حين يتحدثون أو يكتبون ، على شدة ما يلتمسون أسباب التجويد والفصاحة !

وأحب أن أعرض للموضوع من بابه وقد اشتغلتُ بالتدريس وصحبتُ الحركة الأدبية زماناً ؛ فإنى لأزعم أن لى من التجربة ما يبيح لى أن أتحدث وأن يكون لحديثى وزنٌ واعتبار عند من يعنيهم هذا الأمر من المربين وأهل الأدب :

فليس من شك فى أن اللغة تلقين ومحاكاة ، وأن الأذن حين تسمع ، والعين حين تقرأ ، إنما تقدِّمان للسان مادته وبيانه . هذا هو مذهب الطبيعة ، وهو وسيلتُها فى إنطاق الطفل الأعجم ؛ فكل وسيلة غيرها فى تعليم اللغات عبثٌ باطل لا يؤدى إلى غاية ؛ ولـكن الأذن اليوم ، فى البيت ، وفى الشارع ، وفى المتجر ، وفى الترام — لا تسمع من العربية ما يساعد اللسان على البيان والإفصاح ، بل لعلها لا تسمعه فى المدرسة ؛ فليس ثمة وسيلة إلى تعلّم اللغة والتزوُّد من مفرداتها وأساليبها وطرق التعبير فيها غير العين ، أعنى الـكتاب ؛ فلـكى يتعلّم الطفلُ الناشئُ فى العلم لغةً من اللغات ، يجب أن نحمله على القراءة الـكثيرة ، ونعقد آصرةً من الود بينه وبين الـكتاب ، ونحبِّبَ إليه الخلوةَ به ، ونشوقه إلى موضوعه ، ونُدنى به إليه ، ونجعل القراءة له عادة ؛ فإذا بلغنا ذلك فقد فرغنا من الدرس الأول والأخير ؛ ويقوم الـكتابُ من الناشئ مقام المعلِّم والمدرسة والأب والصديق ، ويستبين سبيله .

ووزارة المعارف لم تكن تجهل هذه الحقيقة ، ولـكن حقيقةً أخرى كانت فى غفلة منها ، فأخطأت التطبيق وعكست النتيجة ؛ ذلك أن أول كتاب قدمته إلى الطفل فى مدارسها كان فى يده أثقلَ من وزنه ، فلما بسطه تحت عينيه ليقرأ ، تراءت له سطورُه كفرقة زنجية راقصة تتلوّى وتعتدل ، وتلتقى وتفترق ، ولها ضجة وعجيج كما تدق الطبلَ وتقرع الودعَ بالودع ؛ وتثقل على سمع الفتى وعينيه ما يسمع وما يرى فدار رأسه ؛ وكان الـكتاب أولَ قسوة المدرسة المصرية على تلميذها ، ورآه من أول يوم عقوبةً وضريبةً ، فتمرَّد عليه ورمى به إلى حيث لا يراه بَعدُ إلا أن تحمله عصا المعلم على استظهاره !

ونشأت العداوة بين التلميذ والـكتاب من أول يوم ، فلما صار التلميذُ رجلا لم يتغير رأيه فى الـكتاب بعدُ ،

واستمرّت بينهما القطيعة ؛ ولو عُوّدَ من أول يوم لتعود !

ألا إن وزارة المعارف لتستطيع أن تستغنى عن نصف البرامج المقررة ، وعن نصف المعلمين ، وعن نصف اليوم الدرسى ، لو أنها أحسنت اختيار الكتاب الأول الذى تقدّمه للتلميذ المستجد ...

إنها لتؤدّى رسالتها كاملة وتبلغ كل ما تريد لو أنها بلغت أن تحمل تلاميذ مدارسها على القراءة وتشوقهم إليها .

إن المدرسة للتوجيه لا للتعليم . هكذا ينبغى أن يكون عملها ، وسبيلها أن تفتح الكتاب للتلميذ وتقول له : اقرأ .

... فهل لى بعد ذلك أن أقول إن المدرسة المصرية لم تعمل كثيراً ، لأن كثيراً من المتعلمين فى المدرسة المصرية لا يقرءون ، وتنقطع صلتهم بالعلم يوم يطوون آخر كتاب مدرسى ؟

* * *

إن أكثر الكتب المدرسية المقررة اليوم فى مدارسنا فى حاجة إلى أن تكتبَ من جديد ، إنها فى حاجة إلى « الترجمة » من عربية مؤلفيها إلى العربية البينة ، ليستطيع التلميذ أن يقرأها وحده ويفهمها وحده ؛ لا ، بل ليجد فيها من قوة الجذب ما يحمله على أن يقرأها وحده ، فتنشئ له لذة وتحدث أثراً .

ليس يكفى أن يحكم أهل الاختصاص فى « العلم » أو « الفن » حكمهم على مادة الكتاب ، من غير أن يتناوله « أسلوب الأديب » و « فنّ المربّى » . إن القمح هو الخبز مادته وعناصره وقوة تغذيته ، ولكنه لا يهنأ ولا يمرأ ولا يسمّى خبزاً إلا أن تتناوله يد الطحّان والعجّان والخبّاز ؛ فإنّ عمل أولئك هو « ترجمته » من بذر إلى رغيف !

والكتاب الأول للتلميذ الأصغر ، هو الدرس الأخير للرجل الكبير !

أين الهدف ؟

كتب كاتب فى صحيفة من صحف الأسبوع يعارض ما نشرتُ من الرأى فى « المجلة المصرية » ، ويسألنى أن أصوّر له « المجلة المصرية » التى أريد والتى أنكر وجودها بين هذا العديد من مجلاتنا ....

وأنا لا أحسب أنه فرضٌ على كل ناقد أن يبرهن على قدرته أن ينشئ « مثالاً صحيحاً » كما نقد مثالاً فاسداً ؛ فإن النقد غير الإنشاء ، وليس عجز الناقد — إن عجز — دليلا على صلاح الفاسد ؛ هذا الكلف فى وجه القمر الشاحب ، عيبٌ يراه الناس فيه عُمرَ الدهر ، أفتراني أستطيع أن أصنع قمراً خيراً منه ، لأنى رأيتُ فى وجهه هذا الشحوبَ والكلفَ ؟

وإن لى أيضاً أن أسأل : أين الهدف الذى تقصد إليه أكثر مجلاتنا ؟

قد يكون لبعضها أهداف تعمل لها دائبة ؛ رغبةً فى الإصلاح العام أو رغبة فى « المنفعة » ؛ ولكنى أسأل عن الهدف العام الذى يصوّر « أمنية مصرية » يجتمع عليها « رأى المصريين » جميعاً أو ترتسم فيها « صورة المصريين » جميعاً ، فيعجزنى الجواب !

ومع ذلك فهأنذا أقدم مثالاً من مجلة فى مصر تطبع عشرات الآلاف ، ويقرؤها شبان وشواب ، تنشر فى أحد أعدادها مقالا عنوانه « فنّ البصبصة فى ربع قرن » ، يحاول فيه كاتبه « أن يعرف مدى تطوّر هذا الفن الجميل فى خمس وعشرين سنة » ... وفى العدد نفسه حديث لسيدة عن أمنيتها فى تربية ابنتها على قواعد الشرف والدين والمروءة ...

أنظر هذه المجلة وقد جمعت هذين الموضوعين فى صفحتين متعاقبتين من عدد واحد من أعدادها تعرف لها هدفاً « عاماً » يجلى عليها الرأى فيما تكتب وما تنشر وما تقدّم لقرائها من وجوه الرأى وصور الناس ؟

وثمة مجلة أخرى لا تقل عن السابقة رواجاً وذيوعاً تكتب عن « الغازلة التى لا أنساها » و « القبلة التى لا أنساها » و « الصورة التى لا أنساها » ؛ ثم تتحدث بعقب ذلك عن الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ... ...

أنظن مثل هذه المجلة جادة فيما تعمل ، ساعية إلى هدف « عام » يخولها لقب « المجلة المصرية » ؟

لست أتجنى حين أزعم أن مصر — وقد بلغت صحافتها ما بلغت من قوة الفن وقوة التأثير — ليس فيها « مجلة مصرية » واحدة تتيح للقارئ المصرى الغريب أن يقول فى تأنه وغربته وقد وقع على عدد واحد من أعدادها : هذه بلادى وهؤلاء أهلى !

أسلوب مترجم :

قرأت فى مجلة ....

« أقامت السيدة ... وقرينها ولمجة عشاء أعقبتها حفلة ساهرة حضرها السيدات والسادة ... ... »

« وأحسن ما فى الحفلة أن العشاء لم يعقبه لعب الورق ! وهذا حادث يعتبر غريباً . . . فى حفلات الطبقة الراقية ... ... »

هذا هو الخبر ، وله عناصر ثلاثة ! ولكل قارئ منه ما يأخذ وما يدع :

١ — سيدة وقرينها وسيدات وسادة ...

٢ — وحفلة « ساهرة » ، والسيدة وقرينها ، والسيدات والسادة ...

٣ — والشيء « الغريب » أن العشاء لم يعقبه « لعب الورق » ...

وثمة عنصر رابع يوحى به تعليق المجلة عن حفلات « الطبقة الراقية » ...

وتحاول أنت بعدها أن تقنع زوجك ، وأختك ، وابنتك — وقد قرأن الخبر وبلغتهن الدعوة ونال منهن الإيحاء — أن هذا شيء « هناك » ! ولكنك لا تبلغ منهن موضع الاقتناع ، لأن المجلة قد سمتهن لزوجك ، وأختك ، وابنتك : « طبقة راقية » ، أفلا تريد لهن أن يرتقين ؟ !

ويقرؤه الفتى والفتاة فى فلسطين ، وسوريا ، والعراق ، فيقول : هذه فى مصر هى « الطبقة الراقية » !

وتسأل نفسك : من هذه الطبقة الراقية ؟ فتترادف عليك أسماء وصفات تعرف منها وتنكر ؛ فتعبس وتبسم ، وتمط شفتيك أسوان ، وتطأطئ رأسك حزيان ! ثم تروح تستنجد بمعاجم اللغة تبحث عن معنى « رق رقى » ، فإذا المعنى فى « رَقَ يَرْقِى » ، وظننتها من ظنها « رق الانسان » وإنها « رُقية الشيطان » !

وأخطأ المترجم فى ترجمة كلمة فأوشك أن يترجم أخلاق أمة !

قرأت فى هذا الأسبوع :

« ... عندنا ولله الحمد أغنياء ، وفيهم من يشترى صورة من الزيت لشحاذ فى أسماله البالية بمائتى جنيه فأكثر ؛ فإذا وقف هذا الشحاذ بلحمه ودمه على باب ذلك الغنى وطلب لقمة خبز انتهره الخدم وتناولوه بالسب ، وربما زادوا فى « تكريمه » ، فأوسعوه ضرباً ولكماً ! »

المصرى افندى : ٢٨٠

***

من جلسة النواب فى مساء الاثنين أول يونيه سنة ١٩٤٢

« ... وهنا صاح السيد البدراوى باشا معترضاً على تأجيل المناقشة فى مسألة التموين ، قائلا : إنه يستقيل من المجلس ، ذاكراً أن ابنه قال له فى التليفون : « إنه جائع » وإنه شرب الشاى بالعسل لعدم وجود سكر ! »

الأهرام فى صباح الثلاثاء ٢ يونيه سنة ١٩٤٢ . . .

قاف

في المكتبة العربية

١ – أرواح وأشباح : لعلي محمود طه
٢ – بيجماليون : لتوفيق الحكيم

من المصادفات الطريفة أن يصدر هذان الكتابان في وقت واحد، وأن يغترفا من معين واحد، هو أساطير الاغريق.

والحق أن أدبنا متأخر في الاغتراف من هذا المعين الذي لا ينضب. فأساطير الأغريق كانت ولا تزال منهلا عذبا يرتاده أدباء الغرب، وهي بطبيعتها طريق ممهد جاس خلالها الفكر الغربي فأخرج منها ثماراً تحمل طابعه، ولا زال على الشرق أن يخرج منها ثماره التي تصطبغ بتفكيره الخاص.

أما الكتاب الأول فهو ديوان شعر، لشاعر يحمل لواء التجديد ويرتكز على دعائم ثابتة من اطلاع موفور وخيال خصب وأسلوب شاعري، وديوانه رحلة يسير فيها شاعر بسماء آلهة الأساطير، فتختلف عنده الفنون كما اختلفت عند آلهة اليونان، فمنها من يراه حيواناً لا يطالب غير اللحم والدم كما تراه بليتيس الشاعرة :

تأثم بالفن حتى غوى ... فمج الرحيق وذم الصباح
هو الدم واللحم ما يشتهي ... هو الخمر والنشوة الطارئة

ومنها من يراه روحاً جميلا كتاييس الراقصة :

نعم هو روح جميل الاهاب ... يظل الرواح جناحي ملك
عرفناه . . . لا شك هذا فتى
سيسلكه الفن فيمن سلك

وحتى الفن لا تكاد الآلهة تستقر على رأي فيه، أهو حقاً يسمو بالآدمية أم إنه أعجز من أن يعلو بها لأنها بنت « ماء وطين » ؟

« يريد لها الفن أفق النجوم
فيقعدها جسم عبد سجين »

ويمضي الشاعر في ركاب الاله هرميس صعدا في السماء، حتى يلتقي بليتيس وسافو وتاييس، وهن من نساء الأساطير، منهن الراقصة ومنهن الشاعرة، وعند تفكير كل منهن نلمس نزعة من نزعات التفكير الانساني في الكون والفن والجمال. وما أحسب أن الملاحم الشعرية قصة تلخص، وإنما هي نشيد يتلى، فيه الموسيقى وفيه الفكر؛ وغاية ما يجب أن يقف عنده العرض أن يتأمل مدى ما في القصة من صياغة ومدى ما أفاد الشاعر من المورد.

ولقد استطاع الأستاذ علي طه أن يقف بنا طويلا في سماء الآلهة ليسرد لنا على ألسنتهم وعلى ألسنة شخصيات الأساطير الأخرى قصة الشاعر التي تملأ حياته هو فتبعثها إعلانا برسالة الفن يبدو في كل بيت يزهو فيه بمكانة الشاعر.

أما مسرحية بيجماليون لتوفيق الحكيم فهي الثالثة فيما أعلم، التي وضعت عن أسطورة بيجماليون وجالاتيا اليونانية؛ فالمسرحية الأولى هي التي وضعها سير وليم جلبرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد تناولها من ناحية القصة الظاهرة كما ترويها الأسطورة. أما الثانية فهي التي وضعها برنارد شو، والتي أخرجتها للسينما شركة مترو جولدوين، وعرضت في العام الماضي في مصر. وقد دار فيها شو حول فكرة الخلق على طريقته الساخرة، إذ أخرج من فتاة الشارع سيدة راقية صنعها الفنان العالم، واستخدم فيها قواعد اللغة الحديث. ولكن شو الساخر أبى إلا أن ينتهي بجالاتيا الحديثة إلى الأرض والأوحال حيث بدأت، فجعلها أضحوكة العالم وأضحوكة نفسها آخر الأمر.

وعند توفيق الحكيم انتهى الحال بجالاتيا إلى نفس المصير؛ فقد خرجت من رأسه فكرة ومن يديه فناً،

لتجحد فضله وتهرب مع نرسيس ، ثم لا تلبث أن تعود إليه .

والفارق بين قصة شو وقصة توفيق هو الفارق بين التفكير الشرقى والتفكير الغربى ، فتوفيق فى هذه القصة يرى فى جالاتيا المرأة التى خرجت من بين جنبى الرجل بيجماليون هو آدم ، وابتكار توفيق فى القصة هو ذلك العرض الجميل لعديد الآراء والأفكار فى الفن والحياة على لسان شخصيات الأسطورة عرضاً يبسط به التفكير الشرقى . وليس معنى ذلك أنه يسير وشو على طرفى نقيض كلا ، بل إنها ليتممان الصورة . صورة التفكير فى مظهريه المادى الغربى والروحانى الشرقى .

ولك أن تعود إلى القصة أيها القارئ لتلمس فيها جهد الكاتب فى إبراز مشاكل الفكر فى حوار رقيق رائع ، ولتحكم أن مسرحية بيجماليون تقفز من بين مؤلفات توفيق الحكيم لتقف جنباً إلى جنب مع مسرحيتيه : أهل الكهف وشهرزاد ...

٣ — تاريخ الوقائع المصرية : للأستاذ إبراهيم عبده

هذا هو الكتاب الثانى الذى يصدره الأستاذ ابراهيم عبده هذا العام . وقد كان الأول من تاريخ الصحافة خلال الحملة الفرنسية . أما هذا الكتاب فهو تاريخ الصحيفة الرسمية المصرية ، أو هو على الأصح صفحة من تاريخ مصر الحديثة ؛ فالوقائع المصرية لازمت تطورات مصر الحديثة منذ عام ١٨٢٨ وسجلت فيها طرأ عليها من تغيير أهم هذه التطورات . وهذا الكتاب هو الأول من نوعه فى المكتبة العربية . ولعل ذلك يدلنا على مقدار الجهد الذى بذله المؤلف فى جمع شتات هذا التاريخ من المراجع المختلفة والوثائق المخطوطة

وقد حرص الأستاذ إبراهيم عبده على الصبغة العلمية فى الكتاب ، فرتب بحثه ترتيباً علمياً ، وقدم له بنبذة من الصحف الرسمية التى سبقت الوقائع ، ثم تتبع تاريخ الوقائع منذ إنشائها فى عهد محمد على إلى اليوم ، مبيناً طريقة تحريرها وأثرها فى الحياة الحكومية والحياة الاجتماعية والأدبية ، وأثر من تولوا تحريرها فى توجيهها ، حتى وصل بها إلى العصر الحاضر ؛ ولم يغفل الناحية المادية من تاريخها ، فتناول ما طرأ على مطبعتها من تطورات .

ومع ما لهذا الكتاب من صبغة علمية ، فقد استطاع الكاتب بأسلوبه أن يجعل منه كتاباً عاماً يستطيع أن يقرأه غير المعنيين بهذه الدراسة على أنه ناحية طريفة من الثقافة التاريخية . وحبذا لو أضاف الأستاذ إلى هذا البحث بحثاً مكملا يتم به تاريخ الصحافة ، فيتناول تطورات الصحافة بعد الحملة ، إذاً لأتم بذلك دراسة ناحية هامة من نواحى النشاط التى تمخضت عنها نهضة مصر الحديثة .

صموع

أغنية :

من ليالى الدانوب

يا ليالى الحبِّ ، عادَ الحبُّ ذكرى ، يا ليالى
يا مجالى النهرِ ، أينَ النهرُ منا ، يا مجالى
غابَ عن عينى ، وما غابتْ رؤاهُ عن خيالى
وسلامٌ يا مهادَ الحبِّ ، يا نبعَ الجمالِ
يا ليالى الحبِّ ، عادَ الحبُّ ذكرى ، يا ليالى

* * *

أينَ تحتَ الدوحةِ السَّكرى أمانيُّ اللقاء
حينما أرختْ بنانُ الكونِ أهدابَ المساء
أينَ ضفّاتُكَ يا نهرُ النديّاتُ اللواتى
قَبّلتنا بينَ ألحانٍ وأزهارٍ وماء
حُلُمٌ من غفوةِ الماضى تراءى فى جلال
يا ليالى الحبِّ ... ...

* * *

حَدِّثى يا سرحةَ الوادى ويا خُضْرَ الرحابِ
واذكرى يا كأسُ أحلامَ ليالينا العِذابِ
واروِ يا نهرُ تراتيمى وأصغى يا روابى
أنا مَنْ خلّفتُ فى واديكَ قلبى وشبابى
وانطوتْ صفحةُ أحلامى على تلك الرمال
يا ليالى الحبِّ ... ...

* * *

ههُنا كم صافحَ الزهرُ ندى راحتيها
والفراشاتُ إلى الضوءِ تسامى وإليها
ترتمى الأمواجُ لو فاضت فمسّت قدميها
وتودُّ الكأسُ لو تبقى طويلا فى يديها
والغصونُ الخُضْرُ ما بين سُجودٍ وابتهال
يا ليالى الحب ... ...

* * *

سألتنى : أترى النهرَ جميلاً فى مُرآهُ
لِمَ يبدو أزرقَ الصفحة يُسبى من رآه ؟
قلتُ : يا أنشودةَ القلب ، ويا حُلْمَ هواه
هذه الزرقة من عينيك لمّستها المياه
وتهادتْ راقصاتٍ بين زهوٍ واختيال
يا ليالى الحب ... ...

* * *

أيها الأزرق يا مسرحَ أحلام الحسان
يا الذى غنّته قيثارى شجيّات الأغانى
أنا من غنّتْ بألحانىَ أيامُ الزمان
وشدا كلُّ لسانٍ بالذى يشدو لسانى
وحىُّ أيامكَ يا نهرُ وأيامى الخوالى
يا ليالى الحب ... ...

* * *

يا ليالى الحب ، عاد الحب ذكرى ، يا ليالى
يا مجالى النهر ، أين النهرُ منا ، يا مجالى
غاب عن عينى وما غابت رؤاهُ عن خيالى
وسلام يا مهاد الحب يا نبعَ الجمال
يا ليالى الحب عاد الحبُّ ذكرى يا ليالى

أحمد فتحى مرسى
المحامى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين . مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين – القاهرة – التليفون رقم : ٤٢٩٩٢ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٨١ — الثلاثاء ٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦١ — ١٦ من يونيه سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

بيد التاقرة :

ضرورة التنظيم الدقيق

لمواجهـــة حال الحرب

تجتاز مصر في هذه الأيام مرحلة من أدق مراحل تاريخها الطويل ، مرحلة لم يسبق لها أن مرت بمثلها منذ مئات أو آلاف من السنين مع كثرة ما شهدته مصر من الحوادث الجليلة ، بين عصور شدة وعصور رخاء ، وبين عصور مجد وعصور شقاء ... ولكنها مع كل ذلك تسير سيراً هيناً هادئاً ، كأنها لا تشعر بخطورة حالها ، أو كأن تاريخها الطويل الحافل بالحوادث قد علمها الاستهانة بكل ما يأتي به الدهر . وهي اليوم تنظر إلى المستقبل عالمة أن هذه الأيام الحاضرة تتحكم فيه وتقرر مصيره في مئات السنين . ومع ذلك لا يبدو منها ما يدل على أنها تدرك حقيقة الموقف ، ولا أنها تريد أن تسير على منهج معين لتحقيق الخير في ذلك المستقبل وتجنب ما قد يأتي به من الشر .

حقاً أن مصر ليست مقحمة في الحرب الطاحنة التي تدور رحاها في أطراف الأرض ، وليست محاربة بالمعنى المفهوم من هذا اللفظ في عرف الدول ؛ ولكنها مع هذا في وسط العالم المضطرم بالحروب ، ولا تملك أن تكون بمعزل من حوادثه ، ولا أن تتجنب الآثار الخطيرة التي

تنجم من هذه الحروب ؛ فهى إن لم تكن محاربة فى ميدان الدماء والنيران تشهد آثار المعركة الطاحنة وتحس صداها فى جيشان روحها ، وفى إجهاد مواردها وسواعدها وكل طاقة مجتمعها . هى تقاسى شدائد الحرب وتبذل جهود الحرب ، وتميل بعاطفتها إلى نصرة السلام والحق والديمقراطية ، وتتطلع إلى اليوم الذى تنتهى فيه هذه الحرب بنصر مبادئها وتحقيق آمالها الوطنية ، فعواطفها متأثرة بالحروب ، وكل مظاهر حياتها تنعكس فيها صورة الحروب .

وقد أثرت الحرب فى مصر أثراً آخر غير كل هذا وبعد كل هذا ؛ فقد حرمت من أشياء كثيرة كانت تجد نفسها فى أيام السلم فى أشد الاحتياج إليها . وذلك نتيجة صرف كل المجهود المالى نحو الحرب والاستعداد لها ، وحصر كل جهود النقل فى البحر والبر على معداتها ومؤونتها . فمصر التى اعتادت منذ سنوات طويلة أن ترى نفسها مركزاً للتعامل الدولى ، ترى نفسها فجأة وقد انقطع عنها هذا التعامل ، فلا هى ترسل كل ما اعتادت إرساله إلى غيرها من الدول ، ولا هى تتلقى كل ما اعتادت أن تتلقاه من غيرها من الدول ، مع أنها قد جعلت كل نظمها قائمة على أساس ذلك التعامل الطليق .

ولكن أعجب ما فى أمر مصر أنها مع هذا الشعور العميق بالحرب ، ومع شدة تأثرها المادى والنفسى بالحرب ، لم تظهر بعد أنها قد أدركت حقيقة موقفها أو فطنت إلى ضرورة مواجهة الواقع . وهى من هذه الناحية أسوأ حالا من كل الدول المحاربة ، لأن تلك الدول قد علمت أنها تحارب ، وأنها ستقصر كل جهودها على الحرب والاستعداد لها ، فبادرت بتحوير كل نظمها لتجعلها تتناسق مع حالة الحرب ؛ فى حين أن مصر مع كل إحساسها بما يدور فى نفسها وفيما حولها تتجاهل الأمر الواقع ، فلم تبادر بتحوير نظمها وتدبير شئونها لتجعلها متناسقة مع أحوال الحرب . والأمثلة كثيرة على ذلك فى كل نواحى حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فلن نجد صعوبة فى التماس الأمثلة الدالة على هذا الأمر ، ولعل مثلا واحداً يؤدى إلى الغرض المقصود .

إننا اليوم نشعر بنتائج خطيرة فى مسائل التموين ، كان من الممكن تلافيها بقليل من ضبط النفس والتنظيم ، فقد أثيرت فى السنة الماضية مسألة كادت تكون مشكلة بين الحكومة القائمة وبين البرلمان عند ما عرضت فكرة تحديد زراعة القطن وزيادة المساحة المزروعة بالحبوب والحاصلات الغذائية ، ولسنا ندرى كيف غاب عن الكثيرين أن هذه السنوات لا يحتاج فيها العالم إلى القطن مثل حاجته إلى الأغذية ، ولا ندرى كيف لم يفطن الجميع إلى أننا نستطيع أن نجد أسواقاً كثيرة مستعدة لشراء كل ما قد ننتجه من المواد الغذائية بأسعار فيها ربح كثير ، فى حين أننا لا نجد أسواقاً مستعدة لشراء القطن ، وإذا وجدنا هذه الأسواق لم نجد الطريق إليها سهلا ولا آمناً . كان التفكير السليم الذى يتفق مع ظروف الحرب أن نسارع إلى حصر زراعة القطن فى أضيق حدودها ، وأن نسارع إلى تلبية من ينصحون بالإكثار من زراعة مواد التغذية بغير تردد ، والعمل على الحصول على أكبر فائدة من هذه المواد بتنظيم تصدير ما يفيض منها إلى حيث تشتد الحاجة إليها . ولكنا مع ذلك ترددنا كثيراً ، ولم تنفذ السياسة الاقتصادية السليمة إلا فى أضيق حدودها ، وقد كان الحساب المجرد يؤدى بنا إلى نتيجة حاسمة ، وهى أن العالم الآن يحتاج إلى الغذاء ، وأن أسواق هذه المواد أضمن وأوسع وأقرب من كل الأسواق الأخرى ، وأن الربح الذى يعود على المنتج من زراعة هذه المواد أوفر وأقرب إلى التحقيق .

وليس هذا التردد في إدراك الواقع هو النقص الوحيد الذي نعاني آثاره السيئة الآن ، بل هناك نقص آخر بدأنا نحس أول آثاره ، ولا ندري إلى أين ينتهي بنا إذا نحن لم نتداركه .

فقد بدأت الأزمة الغذائية تشتد منذ أواخر السنة الماضية حتى كادت البلاد تقع منها في كارثة ، لولا ما بذلته الحكومة المصرية من جهود ، ولولا ما بذلته الدولة الحليفة من مساعدة مشكورة في توفير القمح في وقت المحنة . ولا شك في أن جهود الحكومة يستحق كل تقدير ، كما أنه لا شك في أن مساعدة الحليفة وإخلاصها يستحقان كل اعتراف وزيدان في توثيق المودة المتبادلة بيننا وبينها . ولكنا مع ذلك لم نزد على أن تداركنا الأزمة بعد وقوعها ، ولا نزال نخطو كل يوم خطوة تكفينا مؤونة اليوم بغير أن ندبر تدبيرا منظما يكفل لنا السلامة في المستقبل . فلم لا نستفيد بنظم البلاد التي واجهت حالة الحرب ، ونقلدها في تطبيق تلك النظم عندنا لكي نقابل الأزمة ونجتازها بأقل ما يمكن من المتاعب ؟

لقد لجأت البلاد جميعها مثلاً إلى نظام البطاقات في كل حاجات الحياة ، حتى في الملابس وأدوات الغزل ، فخصصت لكل فرد حصة تكفيه ، وسمحت له بأن يحصل على تلك الحصة دون زيادة فوقها ؛ وبهذه الطريقة عينها أمكننا نحن أن ندبر أمر البترول في تجربة نجحت نجاحا يدعو إلى الارتياح العظيم .

فلسنا ندري العلة التي تمنعنا من أن نعمم نظام البطاقات منذ الآن في كل ضروريات الحياة بلا استثناء ، حتى يستطيع الجميع أن يجدوا حاجتهم من الضروريات دون زيادة ؟

إن ظروف الحروب تستدعي التفكير والتنظيم في كل شيء ، فالنظام ضروري في صفوف القتال وهو كذلك ضروري وراء صفوف القتال بين جماهير الشعوب ذاتها .

فإذا كانت لنا صيحة نرسلها من هذه النافذة ناصحين مشفقين فهي الدعوة إلى التنظيم والتنسيق ومواجهة ظروف الحرب بما تستدعيه من تدابير دقيقة حازمة .

ف

على هامش الأسبوع :

اثنان وعشرون عاما

بين الثورة والدستور

للدكتور أحمد زكي بك

« ... انتصار القوة لا يكون دائما كسبا ، وقهر الأهل لا يجنى إلا المرارة ... »

فهذان هما الشوطان الأولان في الصراع ، كسبهما الثوار .

أما الشوط الأول فطمأنة العشائر الجنوبية الناصرة للثورة . فالثوار أنطقوا الامبراطور بالذى شاءوه ، ومنطق الامبراطور قانون تطمئن إليه القلوب . وقد نطق الامبراطور فقال ما مغزاه : إن الحكم لن يكون كما كان ، بعشيرة دون عشيرة ، ولا بطبقة دون طبقة ، وهو لن يكون لعشيرة واحدة أو طبقة واحدة ، ولكن للعشائر والطبقات أجمعين . وبهذا امتنعت الريبة بين العشائر ، ريبةُ بعضهم من بعض ، وتوثقت على أثر هذا عُرَى التعاون بينهم على السير بالثورة إلى خاتمتها المرجوة .

أما الشوط الثاني فالتخلص إلى الأبد من الأسرة التى اعتزت ، أسرة الشواجن ، فقد تحدَّوها فتحدتهم ، فقابلوا تحدِّيها بالقوة فكانت حاسمة .

غير أن هذا علم الثوار أن انتصار القوة لا يكون دائما كسبا ، وأن قهر الأهل لا يجنى إلا المرارة ، وأن من الحق حقا أحق خيرٌ منه الباطل ، وأن العدل الذى لا يعتبر غرائز البشر عدلٌ غير بشرى لا مكان له فى هذه الدنيا . لهذا اعتزم الثوار أن يكونوا أثقب بصرا ، وأكثر حذرا ، وأن يذهبوا إلى غايتهم ، لا عن طريق الخط المستقيم الذى يأبى الالتواء ، ولكن من طريق يأذن بالتواء يعقبه التواء مما كسب يتبق أثره ويحملهم ولو فى بطء قُدُمًا نحو الغاية ، كالنهر يتلوّى فى انحداره ، ولكن لا يمنعه ذلك من بلوغ مصبّه البعيد .

واتجه الثوار إلى غايتهم الكبرى : إلى توحيد الأمة تحت الامبراطور كما قضت بذلك الكنفوشية . ولكن كيف يوحّدونها والإقطاع قائم ؟ كيف يوحّدونها والدولة فى قبضة أشراف ، لكل منطقة شريفٌ هو جابيها وهو قاضيها ، وهو رب الأمر فيها . وهو غيرُ هذا قائد جندها ، ومالك أرزاقها ؟ لقد كان الناس نهيأوا الثورة ، الغضب للامبراطور ، والغضب على السالبين ملكه ، والسارقين حكمه ، والمطلين بذلك إرادة السماء . ولكن لم يكن يخطر لكثير منهم أن توحيد الدولة ، وتوحيد نظامها ، وتوحيد قانونها ، وتوحيد إدارتها ، تحت الامبراطور ، سيقتضى يوماً زوال الإقطاع ونقضٌ أمرائه . حتى أرباب الثورة أنفسهم لم يدركوا هذا الوضع تماماً حتى قابلوه وجها لوجه .

وهم لم يكونوا فى الدولة ذوى حسب معروف ، ولم يكونوا فيها ذوى جند مصفوف ، وكانت كل ثروتهم غيرة وفكر ، والفكر إذا قدحته أورى كالزناد فأنار الظلمة وهدى الحائر ، وفتح السبيل التى لا تنفتح لذوى السيوف اللامعة والأذهان المعتمة . وتراءى لهم فيما تراءى أنهم إذا رفعوا أصواتهم يطلبون محو الإقطاع ومحو نظامه ، كان أول المعارضين منهم وفيهم ؛ ومَن أولى بالمعارضة من أمراء الأقطاع الجنوبيين ، أمير توسا وسنسوما وتشوشو وهيزان ، فقد كان إقطاعهم إقطاعاً حقاً ، كان مُلكا للملوك لا تُردّ لهم كلمة ولا يُعصى أمر ، ولا يقال لهم فى دينار جمعوه أنى جمعوه ولا كيف أنفقوه . فكيف يأتى الثوار أمرا فيه إغضاب هؤلاء الأمراء وهم عون الثورة

وجاهها وسلطانها ؟ ولكن لا بد لتوحيد البلاد حول الامبراطور من توحيد حكومتها ، ولا بد لتوحيد حكومتها من زوال تلك الحكومات المتباينة المتناقضة المنتشرة فى البلاد . عندئذ قدحوا الفكر ملياً فلم يجدوا سبيلا غير منازلة الخصم الصديق فى داره — غير مفاتحة هؤلاء الأمراء الأربعة فى أمر الأقطاع ، ورجائهم فى النزول عنه باعتبار ذلك تضحية لابد لها من إنجاح الثورة ، ونتيجة منطقية حتمية لا مفرّ منها بعد ردّ الحكم إلى الميكادو ، فلا حكمَ إذا كان وراء الحاكم حكّام .

لكأنى بهذا الشباب من الثوار فتحوا أعينهم وسعها ، وتنهدّت واسترخت شفاههم دهشةً عند ما أجاب الأمراء رجاءهم ، ورضوا بالتضحية أنْ يكونوا مُثلَها الأولى . فى عام ١٨٦٩ أعلن الأمراء الأربعة فى الناس نزولهم عن إقطاعهم وردّهم أراضيهم إلى الميكادو . وعندئذ أصدر الميكادو رجاءً إلى كل ذى إقطاع أن يقتدى بهؤلاء الأمراء . فبُهت الأقطاعيون ساعة من الزمان لفُجاءة الخبر وفداحة الحادث ، ولكنهم لم ينتبهوا من الصدمة حتى أسرعوا فأجابوا دعاء الميكادو ، ولم يتردّد منهم غير سبعة عشر ، وقد كانوا ستة وسبعين ومائتين .

ولقد يريد بعض المؤرخين أن يبخس من هذه الوطنية النادرة ، وأن يعزوها إلى غريزة الانسان فى حب الكسب وتصيّد الربح ، والنزول عن شىء غبن عاجل طمعا فى شىء أثمن آجل . وقالوا فى ذلك إن هؤلاء الأمراء إنما نزلوا عن هذا الأقطاع ليكون لهم فى الدولة الجديدة جولة وصولة . ونعم قد كان لهذه العشائر الأربع فى الدولة الجديدة جاه وسلطان . ولكن لمَ نتهم هذا الجاه بأنه جاهٌ بيّتوا له وتصيّدوه ؟ ولمَ لا نقول إنه جاه كسبوه إنْ عفواً وإن عمداً بسبب موقفهم من الثورة ، وقد كان موقفا مجيدا أشاروا فيه للناس بأصبع طويلة إلى طريق الخلاص الذى لا تكون فيه فتنة ، ولا يكون لهم فيه بعد الثورة انتكاس . وقد نسمع أن فرداً يطمع أن يتفرّد بالنفوذ من بعد الثورة ، فكيف جاز فى معقول هؤلاء الأمراء الأربعة أن يطمعوا أجمعين بتفرّد كهذا وهم المتنافسون الموجسون بعضهم من بعض خيفة ، ثم ما بال الأشراف ورؤساء الأقطاع الآخرين الذين ينيفوا على الخمسين والمائتين ، أطمعَ هؤلاء أيضاً فيما طمع فيه هؤلاء الأمراء ؟ بل هى الوطنية الصادقة وروح العصر الذى كان، دفعت بالناس جملةً إلى التضحية بكل شىء فى سبيل الامبراطور ، فى سبيل ذلك الرب البشرىّ الذى ظل يحتل الهامش من الحياة اليابانية طوال القرون ، حتى تهيأت كل الظروف من سياسية ودينية وعمرانية فدفعت به فى غمرة الحياة اليابانية ، فتطلعت إليه كل الأعين ترجو عنده الخلاص من مستقبل ينذر بالشرور ، وترفع نحوه الأكف كما ترفع فى الدعاء ليبارك اليابان زرعَها ونسلَها وكل دابّ بالحياة فيها ، فقد كان انقلب حب الناس له واحترامهم إياه عبادةً فى غير مجاز أو تشبيه .

نزل الاقطاعيون عن إقطاعهم وردّت الأراضى إلى ربّ الدولة ليعيد تنظيمها وتوزيعها كما يشاء وكيف يشاء ، وبالنَّصَفة التى تُرجَّى من الأرباب . فهذا نصر صريح قاطع أحرزه الثوار . ولقد جاز لهم من بعده أن يسيروا بالأمر إلى غايته اقتحاماً كما يسير الجند المنتصر ، فى عنف وفى غير احتفال ، فقد اختص بهم السلطان ، وتفرغ لهم دون سواهم الزمان . ولكنهم لم يفعلوا . لأنهم كانوا قوماً بصيرين ، كما كسبوا كسباً زادهم هذا الكسب حذراً . فاعتزموا أن يأخذوا الأمة ، حتى ولو دانت لهم رقابها ، بالموادة والترفّق .

لقد علموا أن النزول عن الاقطاع ، ورد الضّياع ، تضحية تحلو فى النفس ساعة ، هى ساعة التجلّى ، هى

ساعة التجرد من أثقال المادة والتسامي مع أنفاس الوجود، هي ساعة تصفو فيها النفس وتروق فترتفع من تكَدّر الأجسام في غَبَرة هذه الأرض إلى شفيف الأرواح في زرقة هذه السماء. وهي ساعة قصيرة عابرة كطيف الحالم، أو كندى الصباح في اليوم الصائف. وهي لقصرها قليلة الغَناء، لا يمكن لحاسب متشدد أن يدخلها في حساب. لهذا عمد الثوار في تدبير خططهم التالية إلى اعتبار الطبيعة البشرية في أحوالها العادية، من غير زُخرف ولا دهان.

فعمدوا أول ما عمدوا إلى تثبيت الاقطاعيين في مواضعهم، ولو إلى حين. تثبيتهم، لا بأنهم إقطاعيون يأمرون الناس من ذوات أنفسهم وينهون، ويجبون المال لأنفسهم وينفقون، ولكن بأنهم عمال الدولة وحكامها، لا يَصدرون إلا عن أمر الدولة، ولا ينهون إلا بنهيها، ولا يجبون المال إلا لخزانتها. ولا ينفقونه إلا عما يؤمرون. وأُعطِي هؤلاء الأشراف والرؤساء الأقطاعيون معاشاً عُشر دخلهم من إقطاعهم عوضاً عن فقد ضياعهم. فارتاحوا لذلك. أولاً لأن هذا الدخل الذي حُسب المعاش عليه كان دخلاً اسمياً وهمياً أصغرَ بكثير منه الواقع. وثانياً لأن الرئيس الأقطاعي أُعفِيَ من النفقة على جنده، على السموريين من خفره، ومن النفقة على خدم الاقطاع وهم أعداد كبيرة. كذلك دونه ألفت الحكومة المركزية بعضها وتحملت ببعضها. وفوق هذا، كان في الدولة أشراف إقطاع — أشراف ريف — وأشراف قصر يَمُتّون إلى الأباطرة بصلة الدماء. وكان أشراف الاقطاع دون أشراف القصر مراتب، فسوّت الحكومة الناشئة — أي الثوار — بين هؤلاء وهؤلاء، فلم يبق بين الاقطاعيين قلب ساخط.

ولكن ما حال السموريين، جند الإقطاع؟ بقيت رواتبهم كما هي.

وحين عمَّ الرضاء، بمقدار ما يُنتظر في عهد انقلابي رضاء، علم الثوار أن الوقت طاب للخطوة التالية. فقد كان بيّناً واضحاً أنه لن يكون توحيدٌ للأمة والرؤساء الاقطاعيون يأتون على رءوس إقطاعهم، ولو بوصف أنهم عمّال الدولة ووكلاء الامبراطور لا رؤساء الاقطاع. وقد كان بيّناً واضحاً أن تعيين هؤلاء الرؤساء عمّالاً رسميين للدولة إنما كان درجة السُّلَّم الأولى، ولا بدّ أن تعقبها درجات. عندئذ أوعزوا إلى بعض القاطعات أن تلتمس من الامبراطور أن يصلهم وإياه بصلات مباشرة. كذلك قامت حركة مماثلة لهذه بين طوائف من السموريين. وبينا هذه الحركة في إبانها، وبينا الأمة اليابانية آخذة في هضم هذا الطعام الجديد، كانت الحكومة تهيأ لإحداث حدث جديد.

ففي التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٨٧١، صدر مرسوم امبراطوري يقضي بعزل حكام القاطعات الاقطاعيين جميعاً من مناصبهم، مع احتفاظهم برواتبهم. وفرض المرسوم عليهم أن يتخذوا من بعد ذلك عاصمة البلاد مسكنا. وقضى المرسوم أيضاً بزوال الحكم المحلي من الريف، وبأن الأموال والضرائب تدفع من وقتذاك قاصدها لخزانة الحكومة المركزية، وأن هذه الحكومة المركزية، ومركزها توكيو، هي وحدها صاحبة الحق في تعيين موظفيها في أي طرف كانوا من أطراف الدولة.

وشفعت الحكومة هذا المرسوم، وكان جديراً أن يحدث لسفينة الثوار ما يحدثه الموج إذا هاج البحر، بشيء من الزيت صبّته على ما حولها من الماء. فطلبت إلى رؤساء العشائر الجنوبية، توسا وسَتسوما وتشوشو، أن يقبلوا مناصب وزارية فقبلوا. وبعث هؤلاء إلى توكيو جيوشهم لتكون نواةً لجيش الدولة الجديد.

أحمد زكي

أول ثورة على التربية

فى مصر

للأستاذ أحمد أمين بك

قلت للكتبي الذى اعتدت أن أمر عليه حيناً بعد حين :

— هل عندك من جديد ؟

— نعم . عندى تاريخ اليمن لعمارة اليمنى طبع أوربا ، وثمنه مائة وخمسون قرشاً .

— وماذا غيره ؟

— وعندى رحلة ابن جبير طبع أوربا أيضاً ، وثمنها مائة وعشرون قرشاً .

— ثم ماذا ؟

— وعندى كتاب قيم جداً لم يقع فى يدى إلا مرة واحدة منذ احترفت بيع الكتب ، وسيعجبك جداً .

— هل هو مما طبع فى أوربا أيضاً .

— لا لا ، هو أثمن من ذلك ، قد طبع فى مصر ، ولكنه نادر جداً ، وأثمن من كل ما طبع فى أوربا .

— وما اسمه وما موضوعه ؟

— لا أخبرك باسمه ولا بموضوعه حتى تراه . ولا أريكه حتى تنتهى فى هذين الكتابين وتشرب القهوة .

وشربت القهوة ، وشريت الكتابين ، واستنجزته وعده ، فأحضر الكتاب وهو يضحك ، وفتح صفحة من الكتاب ، فإذا فيها « ألف باء » إلى آخر حروف الهجاء ، بالتلث !

شاركته فى الضحك ، واستظرفت مزحته ، ورأيت أن أتقبل مزاحه جداً ، فأجعل من الكتاب موضوعاً .

فقلت : ما ثمنه ؟

قال : هو أتفه من أن يكون له ثمن .

وأخذت الكتب وانصرفت .

لم يجذبنى إلى القراءة تاريخ اليمن ولا رحلة ابن جبير كما استرعى نظرى كتاب « ألف باء » .

رأيت فى الصفحة الأولى منه : (« كتاب طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية » بالمطبعة الخديوية الإسماعيلية أعزها الله ، وبهمة سعادة على مبارك باشا مدير المدارس الملكية ، والأشغال العمومية ، وسكك الحديد المصرية ، والقناطر الخيرية — للتعليم على مقتضاه فى المكاتب الأولية المصرية) . ثم قريباً من الذيل حديث شريف : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » ، وفى آخر الصفحة « الطبعة الأولى بمطبعة وادى النيل فى القاهرة سنة ١٢٨٥ » .

* * *

رأيت فى أول الكتاب مقدمة بديعة حقاً ، مفيدة حقاً ، تعد ثورة على طرق التربية القديمة ، ورسماً لخطة جديدة ، كتب فى أولها إنها « مقدمة تشتمل على بعض تعريفات تتعلق بأصول طريقة التعليم التى يقتضى أن يجرى عليها العمل » ، وإنها « خطاب من إدارة عموم المدارس المصرية الملكية إلى حضرات الخواجات (ولعله يريد الخوجات) ، والمؤدبين بالمكاتب الأهلية وسائر المدربين للتربية الأولية » . وكتب فى آخرها « حررها على مبارك باشا » .

هى ثورة تعليمية حدثت من نحو ثمانين عاما ، فقد كتبت كما أسلفت سنة ١٢٨٥ هـ — ١٨٦٨ م .

كانت نظم التعليم قبل ذلك فى المكاتب تجرى على أنماط القرون الوسطى ، فالطفل يذهب إلى الكُتّاب ، فيسلم له « سيّدنا » أو « العريف » لوحاً من الصفيح كُتب فيه بالحبر : ا ب ت ث الخ ، ويحفظه : « ا » لا شئ

عليها ، ب واحدة من تحتها ، ت اثنان من فوقها ، ث ثلاثة من فوقها الخ ؛ فيكررها الطفل كما يقول « سيدنا » أو « العريف » وهو كاره لذلك كل الكره ، غير فاهم لما يقول ، فإذا لم يحفظ فالعصا على ظهره ، فإذا لم ينجح فرجلاه في « الفَلَـقَة » ، فإذا انتهى من ذلك بعد عناء ، انتقل به « سيدنا » إلى خطوة أخرى ، فكتب له في اللوح : « ا ألف » ، ونطقها ألف ألف لام فاء ، « با » با ألف ، « بو » با واو الخ .

وهي ألغاز لم أفهمها إلا وأنا في سن العشرين ، وتفسيرها أن كلمة ألف تتركب من ألف ولام وفاء ، وكلمة « با » تتكون من باء وألف ، و« بُو » تتكون من باء وواو الخ . وهو نمط عجيب في التعليم ، فإذا انتهى من ذلك كتبت الحروف مشكولة ، و « سيدنا » ينطق والطفل ينطق وراءه كالببغاء .

فإذا تم ذلك كله بعد مشقة وعناء تدوم أشهراً ، كتب له سيدنا في اللوح سورة الفاتحة فسورة الناس الخ . والطفل يقرأ اللوح ويحفظه ويُسَمِّعه ؛ وهكذا يسير في حفظ القرآن إلى أن يتم حفظه أو ينقطع ، ومن حين إلى حين يعلمه « سيدنا » أن يكتب اللوح بنفسه ، ثم لا التفات إلى شيء من العلوم ، ولا إلى شيء من السلوك ، ولا مراعاة لعقلية الطفل .

جاء « علي مبارك » فأراد في هذه المقدمة أن يغير هذا كله ويقرر مبادىء في التربية جديدة يأخذ بها المعلمين ، أجملها في خمس عشرة فقرة .

فقرر أن خير مناهج التربية ما أوصل إلى الغاية من أقرب طريق ، من غير أن يُمل الطفل أو يتعبه مع مراعاة قواه العقلية .

وأن تكون التربية مؤسسة على استخدام الطفل جميع حواسه ما أمكن ، ولذلك يجب أن تقترن كتابته بقراءته .

ويجب تأخير استعمال الحبر والورق في التعليم ، والبدء باستعمال الطباشير والألواح السوداء ، فذلك أوفر وأنظف .

وأن تكتب أولاً الحروف المفردة بالخط الثلث الثخين في لوحات سوداء بالطباشير ويكررها المعلم على التلاميذ ؛ فمن تقدم منهم في معرفة ذلك جُعلوا عرفاء ، ثم يوزع المعلم التلاميذ الضعفاء على العرفاء ليعلموهم على اللوحات المختلفة نطق الحروف ثم كتابتها تحت إشراف المعلم ، ولا ينتقل من درس إلى درس حتى يتصوروا الدرس القديم ويتقنوه ويعرفوا نطقه وكتابته .

وبعد ذلك يعلمهم الحروف متصلة بحروف العلة ، فيكتب الباء مع الألف هكذا « با » وينطق بها « با » ممدودة وكذلك من غير الفلسفة القديمة في التهجية ، ثم يعلمهم الحروف بالعلامات كذلك .

فإذا عرفوا الحروف الهجائية انتقلوا إلى الكلمات الصغيرة من حرفين فثلاثة الخ ، ثم الجمل ، ولا يعطي المعلم لهم جملة من غير أن يفهمها لهم .

وقد وضع منهجاً لمدة الدراسة وهي ثلاث سنوات : ففي السنة الأولى يتعلم القراءة والكتابة باللغة العربية واللغة التركية (وهذا عجيب) ، ويحفظ بعض نوادر ونصائح وأمثال وحكم وأعداد الحساب .

وفي الثانية والثالثة يتعلمون قواعد النحو والصرف مع الاستمرار على المطالعة في الكتب ، وحفظ بعض نوادر تركية ، ومواد تاريخية وجغرافية ، وتكميل العمليات الحسابية ، ورسم جميع الأشكال الهندسية ، وفهم بعض خواصها وتعريفاتها .

هذا من حيث التعليم . أما من حيث التربية ، فوضع لها خططاً محكمة ، ووجه المعلمين إلى العناية بحسن سلوك التلاميذ ، ومراعاة صحتهم ، فالمعلمون يجب أن يلاحظوا سلوك التلاميذ ونظافتهم ، ويضعوا لذلك « نمراً » كل يوم ، تجمع مع « نمر » العلوم ، ويرتب التلاميذ بحسبها جميعاً ،

ويوضع على كل فصل لوحة كل ستة شهور بأسماء التلاميذ مرتبة حسب متوسط درجاتهم العلمية والخلقية والنظافة .

ويجب أن يكون الأمور (ناظر المدرسة) أباً رحيماً مثالا لحسن السلوك والفضائل والشرف ، للتلاميذ والمعلمين ، وأن يفهم « أنه القائم فى وظيفته مقام الحكومة فى تأدية ما يلزم من الواجبات ، والنائب من طرف الأهالى فى الرأفة بأولادهم ، ومزاولة أحكامهم ، والتحفظ على صحتهم ، فهو مسئول عن هؤلاء الأطفال بين يدى الخالق والخلق » .

ثم ذكر أن من أهم ما يجب على المعلمين ، تربية حواس التلاميذ ، فيجب أن يمرنوا حاسة البصر ، بأن يؤتى بالطفل ويؤمر بالوقوف عند شباك مفتوح وينظر ما أمامه ، ثم يؤمر بالتحول ، ويكلف وصف ما رأى بالتفصيل ، ومقدار بعده وارتفاعه الخ ، وأن يمرن أذنه ، فيعوّد الطفل — وعيناه مربوطتان — أن يعرف الناس بمجرد سماع أصواتهم ولو غيروها ، وعلى معرفة الأشياء بما ينشأ عنها من رنين وحركات ، وهكذا وضع خطة لتمرين كل حاسة .

ونصح بعدم التضييق على الأطفال ، لميلهم الطبيعى إلى اللعب والحركة ، فينبغى انتهاز فرصة ميلهم الطبيعى وتوجيهه إلى توسيع دائرة معلوماتهم وتحسين سلوكهم .

* * *

هذا مجمل الخطة التى اختطها فى تقريره ، وحسبها ثورة لبعد الفرق بين ما كان وما أراد « على مبارك » أن يكون .

ثم أراد أن يخرج الفكرة إلى العمل ، فوضع أول كتاب فيما أعلم لتعليم القراءة والكتابة والمطالعة على النمط الحديث ؛ فالجزء الأول هو الحروف الهجائية فى الخطوط المختلفة ، ثلث وفارسى ونسخ وتوقيع ورقعة ، ثم الحروف متصلة بحروف العلة ، ثم الحروف مضبوطة بالحركات ، ثم كلمات مركبة من حرفين فثلاثة الخ ، ثم كلمات فى جسم الانسان ومراحل عمره ، ثم جمل صغيرة ، ثم أمثال ومواعظ ونوادر تاريخية ، ثم أشكال الحرف الكوفى ، وبذلك تم هذا الجزء .

ولم يشأ أن يجعله حروف مطبعة لصعوبتها على التلاميذ ، فعهد إلى أكبر خطاط فى مصر ، وهو « مؤنس أفندى » فكتب هذا كله ونوّعه بخطه الجميل ، وطبعه على مطبعة الحجر ، وتدرج بذلك من كلمات مشكولة إلى كلمات مشكولة بعض الشكل إلى كلمات غير مشكولة ؛ فإذا جئنا إلى الجزء الثانى رأيناه مجموعاً من الحروف ومطبوعاً كذلك ، وقد قسمه إلى جملة مجموعات ، سمى كل فصل مسامرة ؛ فالمجموعة الأولى تاريخية اجتماعية ، والثانية فى الكون وأجزائه من إنسان وحيوان ونبات ومعادن وهواء ونور ونار وزلازل وماء وبخار وندى وسحاب ومطر وشمس وقمر وكسوف وخسوف . والثالثة فى الدين وقواعده وأركانه ، والرابعة فى قوانين الصحة . والخامسة فى النصائح والمواعظ والأخلاق الإسلامية ، وبذا يتم الكتاب .

ويذكر فى أول الجزء الثانى أنه استعان فى أداء هذه الخدمة بقلم السيد صالح مجدى أفندى . والكتاب بجزئيه يصور عقلية القائمين بأمر التعليم فى هذا العصر ، ويصور أسلوب الكُتّاب ومنهج تعبيرهم وتفكيرهم ، والمثل الذى ينشدونه لأبنائهم ، ومقدار ذوقهم فى تخير ما يعرضونه على أطفالهم ، وفيه موضع لدراسة دقيقة وافية لمدى تقدمنا الآن ومراحل سيرنا ، وهل هى تساوى ثمانين عاما أو لا تساوى ، وفيه موضع عبرة كيف يتوفر وزير المعارف بجلالة قدره — مع ما عهد إليه من إدارة الأشغال والسكك الحديدية والقناطر الخيرية ، يعاونه أشهر الكتاب فى ذلك العصر السيد صالح مجدى — لوضع كتاب فى ألف باء الأطفال بعداً فى النظر وشعوراً بعظم الواجب . فهل ترى يا صديق « الكتبى » أن هذا كله لا يساوى شيئاً غير الاستهزاء به والضحك منه ؟

أحمد أمين

فى حياتنا الفنية

معرض القاهرة سنة ١٩٤٢

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

أهم ما يعنينا من الفنان أن تكون له فى آثاره شخصية ظاهرة قوية ، وأن تكون له نظرة أو حساسة اختص بها لنشهدها معكوسة على صوره ، فاذا نحن نتعرف على أعماله بما عليها من طابع روحه قبل أن نعرفها بتوقيع اسمه ، على أن يكون هذا التميز عمن سواه غير متكلف ، وإنما هو صادر فيه عن سليقة وطبع ، وليس له عنه مندوحة تعبيراً عن نفسه وتصويراً لعالمه .

وما دام هذا الذى ذكرنا هو موضع العناية منا ، فليس يسعنا إلا أن نستفتح بالكلام عن الفنان « محمود بك سعيد » :

إن فن محمود سعيد مزاج عجيب من الحقيقة والحلم ، من حقيقة الحياة الواقعة التى مركها وعركته ، وحلم الطبيعة الملهمة الذى يغشاه ويتسلط عليه .

ومن نافلة القول وإضاعة الوقت ، إيثار لوحة على أخرى من لوحاته . فانها جميعاً موصولة الرحم به ، راسخة العرق فى النسبة إليه ، وفيها من أجلها لمحة الأب فى أعماله . على أننا مع هذا نحب أن نبدأ بتحية « شيخ يصلى » ، فهذا الشيخ الضامر الجسد ، المرز القوى ، العصبى المزاج ، الساجد فى المسجد إلى جانب سارية من تلك العمد المصطفة المتوازية ، مثال حى على شدة الايمان فى عصر مضطرب يسوده الشك . وهو فى جلسته المتصلبة قوى بالله ، متعصب لفكرته ، مستمسك بمروءته ، تتزلزل الدنيا ولا تتزلزل عقيدته . هذا الايمان لا يشبه تلك السبحات الروحية المتسلفة التى يطبعها الرسامون على وجوه القديسين والقديسات ، وإنما إيمان شيخنا إيمان



"شيخ يصلى"
للفنان محمود سعيد

توكل وقوة . ولقد تمثلت فى ظلال المسجد هدأة الانقطاع من الدنيا والخلوة والعكوف . ثم هذه الخيوط من الأضواء التى تقاطع العمد وتكشف من المسجد عن ضروب من المنظور ، هى ألطف مصاحبة لذلك القبض النورانى الذى فاض رأسياً على شيخنا المتعبد ، فاذا إزاءه الجدار يجلو أروع تجلية ، وأخيراً هاتان الراحتان على الركبتين تكفيان وحدهما للتعبير عن شخصية الراكع وروع خشوعه القوى .

واللوحة الثانية « الهجرة » هى أيضاً من وحى هذه الأيام ، فتمة العالم يحترق ، والمدنية حطام ، وقد خرجت الانسانية هاربة شاردة ؛ ولكنك ترى الرجل متقدماً فى خطى ثابتة ، وإنه مكدود — ولكنه متجلد ، رافع الرأس ، قوى اليد . . . ووراءه المرأة تحمل طفلها وهى بجنانها العصب وأنوثتها الخالدة .

وثالثة اللوحات « صيادون فى رشيد » ، وهى أيضاً آية فى الانشاء والتأليف ، فثمة القوارب ، وصيادو السمك ، والفلاحات بقوامهن الناصب الشطاط ، والنخيل الباسقات الموقرات بمذوق البلح ، وهذا النيل لا تخطئ شخصيته ، وهذه طينة مصر لا سواها ، وجميع أولئك مؤتلفة فى شمسنا الضاحية الساطعة . وفى هذه الصورة تجتمع خصائص محمود سعيد من إظهاره الأحجام دون التفاصيل ، واصطناعه فن التماثيل فى التصوير ، وإفراطه أحياناً فى تنفيخ المثل وتفخيمه ، ونفاذه إلى قرار كل طبيعة فى استقامة وصرامة ، وشدة التفاته إلى الثياب وإبراز نقشها وإشعارك بنوعها ، فتحس دفء الصوف وصفاقة البفتة الزرقاء . وأعجب من ذلك أنك — مع غلبة الصلابة والقوة — تحس رقة الخمار من الشاش وشفوفه .

كل هذا الجلال والجمال ، وكل هذه الحقيقة والخيال ، وكل هذه الحسية والروحية ، كل أولئك اجتمعت لمحمود سعيد كما رأينا . فلا غرو إذا اجتمع أهل الفن على أنه مفخرة وأى مفخرة للفن المصرى الحديث .

وندع الآن الفنان « محمود بك سعيد » وننتقل إلى هذا الحفل من أشخاص الأستاذ « محمد صبرى » وقد عاود نشاطه وراجعته حماسته الفنية . والأستاذ صبرى من مجيدى الفنانين المعنيين برسم الأشخاص ، وخبرته بذلك طويلة . وصوره ترضى الحقيقة من جهة المشابهة لأصحابها ، وترضى الجمال من حيث أثرها الفنى . والناظر إلى أشخاصه لا يخطئ ما لكل واحد من شخصية متميزة ، وصفة خلقية مستقلة ، ومع هـذا فهى مشتركة فيما خلع عليها الفنان من طبيعته وطبيعة مُثُله العليا ، فترى على صور الأستاذ صبرى كلها طلاوة ، ورونقاً مصقولاً ، وجلوة مبذبة الحواشى ، مهما تكن المعانى التى تؤديها هذه الصور . وتختلف الصـور المعروضة بعضها من بعض فى طريقة المعالجة والصنعة ، كما تختلف أقدارها فى النفس . وإذا كنا أقل إعجاباً بواحدة من لوحاته الزيتية لما نراه فيها من تكرار لجانبى الوجه ، ولوحة أخرى له بالأقلام الملونة على قدرته فى هذه الناحية ، فاننا شديدو الإعجاب بأكثرها ، وعندنا أن عروسها جميعاً « السيدة ذات العمامة » فهى مصورة من عجينة غنية مشبعة ، وتتألف من لمسات الريشة عليها سطوحٌ وبقاعٌ لطيفة التكوين . والصورة فوق هـذا ساخنة البشرة ، رائعة النظرة ، متجاوبة الأصباغ ، متغنّية الألوان .

ويطيب لنا ونحن بسبيل الكلام عن تصوير الأشخاص أن ننوه بلوحة ممتازة للفنان « سند بسطا » ، وهى صورة « حرم خطاب بك » ، فأنها بانسجام خطوطها وصفاء تلوينها وجوّها الشفاف قد ضمنت التوفيق فى إظهار الخصال الفكرية الروحية .

وعلى كره منا نودع هذه الحجرة العامرة ، لنمضى إلى الحجرة المقابلة ، فاذا نحن فى ريف الدلتا ، لانمتع إحساسنا الحضرى المترف بمناظر الحقول التراخية ، بخضرتها الزمردية وحصادها الأصفر الذهبى ، وشجراتها العاشقة الوادعة ، بل لنشترك فى الحياة الريفية حيث الفلاح وأنعامه وطينة الأرض مجموعة واحدة . وحيثما أرسلنا الطرف على جدران الحجرة الأربعة تطالعنا من ريشة الرسام الأستاذ « يوسف كامل » هذه المجموعات متعددة متنوعة ، وكلها مصرية صميمة — لا فى مظهرها ولونها المحلى فحسب — بل وفى جوها وروحها . والعجيب أن أشخاص الفلاحين صغاراً وكباراً نساء ورجالاً تتكرر جلستهم ولفتتهم فى سائر الصور ، فهم هم برسومهم الثابتة وسماتهم المتكررة . ولا يسع الناظر إلى لوحات الأستاذ يوسف كامل إلا أن يشيد بريشته بالسرعة الخارقة الخاطفة ؛ ولكننا نحب إلى هذا لو تركزت لمساته هنا وهناك ، توكيداً للصفة الثابتة والمعنى المقترح ، حتى نجد فى رش ديكته كبرياءها ، وفى صوف نعاجه ودفئها ، وهو الذى وُفّق هذا التوفيق

في التعبير عن نور بلادنا وجوّ ريفنا .

والآن نجاوز الحجرة إلى أختها المجاورة . فإذا نحن لا نزال في الريف ، فالموضوع يشبه أن يكون واحداً في جملته ، ولكن الفن غير الفن . هذا فن الأستاذ حسين فوزى نامم . فإذا الفلاحات على وجوههن بساطة محببة . وقد ظهرت براعة الفنان في خطوطه ، وفي هذه المساحات من الألوان المسطحة ، يوقعها اللطيف ونسقها الزخرف . ولسنا نكتمه أننا لم نحبب الألوان في مؤخرات صوره . كما أنه لم يجذب اهتمامنا إلى « صندوق الدنيا » ولم يُشعر الناظر إليه بفعله السحرى . بيد أننا نحمد له كل الحمد مشاريعه في « بيع الرقيق » ، وأكثر من ذلك رسومه بقلمه الكرتونية لأصحاب المهن الشعبية فإن خطوطه القاطعة الحاسمة تستوقف النظر وتوجب الإعجاب .

ثم نصعد الدرج معجلين إلى الطابق الثاني . هذه لوحات الأستاذ « محمد ناجى » بخضرتها الناضرة وصفرتها الفاقعة وزرقتها البنفسجية . وهى ثلاث تصاوير زيتية ، وسطاها تمثل بحر باخوس (مهد افروديت) في الخرافات اليونانية ، وقد اصطنع فيها التأليف الوضعى القائم على تشاكل الأجزاء ، فى سرة الصورة الحسان الثلاث ، وفي طرفها الأيمن خذروف القارب الداعر المعروف بـ « الدائير » منبطح برقب ، وعلى الطرف الأيسر غانية منحنية تغتسل ، وفى مؤخرة الصورة حورية تركب محارة تقابلها حورية تركب محارة . وأما الصورة الثانية فتمثل قافلة من حمير الريف . ثم الثالثة وتمثل صياد السمك ، وهى التى نحبها لما للصياد من شخصية وما فى وجهه من تعبير ؛ ومن أجل هذا بعينه نحب كل الحب ما عرضه من رسوم تخطيطية لشتى وجوه أهل الصعيد ، فكل واحد منها مَثَلٌ على هذا النمط أو ذاك من أنماط الخلق الذين نلتقى بهم فى الطريق .

بقى أن نذكر من العارضين في هذا الطابق الفنان « صالح الشيتى » ذلك الملوّن الجرىء — وإن كنا نأخذ عليه هذه الحدود الحاسمة للأشكال في لوحاته ، والفنان « سعيد حامد الصدر » بخزفه القوية الجميلة ، وكثيرين غيرهما . كما بقى علينا أن نذكر في الطابق الأول الأساتذة أعضاء جماعة الدعاية الفنية وقد حفلت بهم قاعة المدخل ، والأستاذ أحمد أحمد يوسف بمناظره البديعة الأنيقة ، والأساتذة : البنانى ومنصور فرج وجابر وغيرهم من المصورين المبدعين والمثالين الممتازين . وقبل ذلك كان يجمل بنا نظم عقود الثناء لمدام بشتلى والسيدة زينب عبده وسائر المنظومة المتألقة من الفنانات العارضات . ولكننا نمسك القلم على الرغم منا لأن الحيز المسموح به الآن في الصحف يضيق عن الإفاضة . وإنما نريد مختمين ونحن بصدد الكلام عن الفنون الجميلة ، كلمة تحية للأستاذ محمد حسن



"الأستاذ محمد حسن"
حديد مطروق تصميم وصنع الأستاذ عبد الحميد جواد

شخصية زياد

ابن أبي سفيان

للأستاذ محمد خلف الله

لم يكد عصر الخلفاء الراشدين تؤذن شمسه بالمغيب ، حتى وجد المسلمون أنفسهم أحزاباً وشيعاً ، امتزجت في تفكيرها السياسة والعصبية والدين ، ولعب البيان في اصطراعها دوراً كبير الخطر ؛ فبرز من كل فريق دعاة يقررون حقه ويدحضون باطل خصومه ، وخلق الداعم للملك قواداً وولاة على الأقاليم ، يسلون السيوف تارة والألسنة تارة أخرى ، لإخضاع الثائر وتشريد الخارج على سلطان الدولة .

ومن هؤلاء الرجال خطباء حفظ التاريخ بعض خطبهم ، كزياد بن أبي سفيان ، وقطري بن الفجاءة ، وعبد الله بن الزبير ، وعتبة بن أبي سفيان ، وعمرو بن سعيد الأشدق ، والحجاج . ولا تزال شخصيات هؤلاء الأفذاذ على توالي العصور مصدر إلهام لمن يحاول أن يرسم صورة متحركة لذلك العهد ، ويضع كل علم من أعلامه في مكانه من المنظر العام .

وقد حاولت في مقال سابق أن أتبين الخطوط الرئيسية لشخص « الحجاج[1] » ، وأن أربط بينها وبين نوع بيانه وأحداث أيامه . وأحب أن أنهج اليوم هذا النهج نفسه في رسم شخصية « زياد » ، وأن أستمد من كل من الصورتين ضوءاً يجلو الأخرى . والحق أن بين شخصيتي الرجلين فروقاً أساسية هي التي تهمنا في هذا المقال ، ولكن بينهما إلى جانب ذلك تشابهاً في بعض النواحي : فقد شهد زياد تأسيس الدولة الأموية على يد « معاوية » ، وشهد الحجاج إعادة بنائها على يد « عبد الملك » ، وبلغ كلاهما الجهد في إرضاء بني أمية وفي قمع الثائرين عليهم ، وحكم كل منهما العراق بيد من حديد ، وخطب كل منهما في مستهل حكمه بالعراق خطبة حفظتها الرواية الأدبية ، ووطد كلاهما دعائم الحكم على أساس القوة والجبروت .

* * *

نشأ زياد نشأة غامضة ، عرض لها الغموض من ناحية النسب ؛ فقد كانت أمه أمة اسمها « سمية » ، ولم يتفق المؤرخون من أبوه ! ولكنهم يروون تارة أن أباه عبيد أحد موالي الحارث بن كلدة ، ويروون تارة أخرى أنه أبو سفيان ، ثم يزعمون أن أباسفيان كاد أن يدعيه بعد أن سمع خطبة له في عهد « عمر » لولا خوفه من عمر « أن يفسد عليه إهابه » . ويروون أن « معاوية » استلحقه وشهد الشهود بنسبته إلى أبي سفيان ، وأن « زياداً » قام في أعقابهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بآخره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهد الشهود ما سمعتم ، فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس ، وحفظ منا

(١) ساهمت الأديبة الفاضلة ملك عبد العزيز في فهم شخصية هذا الوالي الإسلامي العظيم بمقال طريف في منزعه حصيف في نقده ؛ وقد أثارت نقطتين أراهما جوهريتين في مثل هذه الدراسة ، وأرجو أن أعود إلى مناقشتهما في فرصة قريبة .

مراقب الفنون الجميلة في مهدها الحالي بوصفه أول مراقبيها من الفنانين النوابغ المصريين ، وكان الحمد للتوفيق الذي شاء أن نطمئن على مستقبل الثقافة والفنون عندنا ، فكان أن وضعت مقاليدها بين يدي الدكتور طه حسين مستشار المعارف الفني ، وهو أغنى عن التعريف بسعة آفاقه وتعدد جوانبه .

ومجمل مسك الختام ما يتجلى في كل أوان من رعاية صاحب الجلالة الملك المعظم للفنون وتشجيع أهلها ، تدعيماً للنهضة واستكمالاً لأسبابها ، واستئنافاً لحضارة التي تعتبر مصر بحق مهدها .

عبد الرحمن صدقي

ما ضيعوا . . . . » . فإن صحت رواية هذه الخطبة كان فيها إشارة إلى جانب من جوانب حياة زياد لا يستطيع الباحث إلا أن يتنبه إليه ، ويضيفا بما سيكون له من أثر في موقف زياد الشاب والرجل من الحياة ومن الناس . فهناك — إذاً — جانب من زياد وضعه الناس وضيعوه ، وقد جرت سنة الحياة وموازينها على أن يحاول صاحب الضعة تعويضاً لنفسه بالسبق في ميدان ما ، أو بالثورة على المجتمع ، أو باصطناع الاستخفاف وعدم المبالاة ، أو بغير ذلك مما بحثته الدراسات السيكولوجية الحديثة ، وضربت له مئات الأمثال . ولهجة صاحبنا في خطبته تشير إلى أنه اتخذ عدم المبالاة سلاحا ، وستثبت سيرته بعد أن ذلك كان شعاره في موقفه من الخصومة بين على ومعاوية ، وأن رائده في ذلك الموقف لم يكن العقيدة والاخلاص ، وإنما كان السياسة والدهاء .

وكانت ولادة زياد — على الأرجح — في السنة الأولى من الهجرة ، وكان منذ صغره — كما تقول الأخبار — ذكياً عماماً سديد الرأى مثلا في الصرامة والكياسة . ويظهر أن لبعض هذه الأحكام ما يؤيدها ، فقد روى « صاحب العقد » أن أحد عمال عمر بن الخطاب وجّه « زياداً » بفتح فتحه الله على المسلمين به فأمره « عمر » أن يخطب الناس به على المنبر فأحسن في خطبته وجوّد . فإذا صح هذا . وإذا عرفنا أن خلافة عمر كانت من سنة ١٣ إلى ٢٣ من الهجرة ، وجدنا أن « زياداً » كان إذ ذاك حوالى العشرين من عمره . وشاب في العشرين أو أقل يقود حملة وينتصر ويخطب في أمر الفتح ويعجب به الخليفة الخطيب عمر ، لابد أن يكون على درجة كبيرة من مضاء العزم وقوة الجنان وفصاحة اللسان . وإذا كان هذا الشاب قد حظى من عمر بإعجابه فمن المحتمل كثيراً أن يكون قد تأثر عمر في شدته وفي خطابته ، ووجد فيه بطله الذى يحذو حذوه ويقلده . وهذا احتمال تؤيده رواية صاحب العقد إذ يقول فيما روى : « تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس » . ومن مظاهر هذا التشبه أنك تجد في نفس زياد الخطيب أحياناً ريحاً من عمر . روى الطبرى أنه لما جمعت الكوفة والبصرة لزياد أقبل حتى دخل القصر بالكوفة ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإنا قد جُرِّبنا وجرَّبنا ، وسسنا وساسنا السائسون ، فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، بالطاعة اللينة الشبيه سرها بعلانيتها ، وغيب أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا اللين في غير ضعف وشدة في غير عنف . وإنى والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذلاله . . . . » .

ألست ترى أن هذه اللهجة تذكرك الفاروق ، إذ يحلف بالله ليحملن العرب على الطريق ، وإذ يدعو الله في خطبة بيعته أن يرزقه الغلظة والشدة على أعداء الله ، وأن يرزقه خفض الجناح ولين الجانب المؤمنين ! ويظهر أن هذا المزج بين الشدة واللين كان شعاراً يحب زياد أن يعرف به بين الناس ، فقد كان مكتوباً في مجلسه . كما يقولون . « الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، والمحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته ، والأعطيات في أيامها ، لا احتجاب عن طارق ليل ، ولا صاحب ثغر » .

هذه الصلة بين زياد وعمر لها جانبها السلبي ، ولسنا نريد أن نستطرد إليه هنا إلا بمقدار ما يعيننا ذلك على فهم شخصية زياد ؛ فعمر كان خليفة ، وصحب النبي وأبا بكر ، وكان كأنما ينزل الوحى بلسانه أحياناً ، وكان رجلاً معروف النسب غير مجهول في قريش ، ثم كانت الرعية في عهده موحدة الكلمة متجهة كلها إلى الفتح ونشر الدين . أما زياد فقد حرم معظم هذه المزايا . كان والياً من ولاة الأقاليم يجتهد في إرضاء خليفة فوقه ، وقد استلحقه معاوية كما رأيت استلحاقاً يمكن أن يتهم فيه ، وكان العراق في عهده

مباءة لمعارضة سياسية مذهبية عنيفة متآمرة ، فقد رفعت «الكوفة» لواء الشيعة ، وأذعن هؤلاء ظاهراً ولكنهم لبثوا يتربصون الفرص بمعاوية . وغلبت على «البصرة» دعاية الخوارج ، وهؤلاء كانوا عنابلة السياسة في ذلك الوقت . هـذا إلى أن الجو الاجتماعي كان إذ ذاك جوا مضطربا اختلط فيه العرب بغيرهم من الموالي ، وظهرت فيه أحداث لا تلائم الطهر والنقاء اللذين دعا إليهما الاسلام .

واجه زياد الكوفة والبصرة وهما على هذه الصورة ، ففرض النظام عليهما قوة وقسراً ، ورويت عن صرامته فيهما أخبار يجب الاحتياط في الأخذ بها مخافة أن تكون يد التهويل قد امتدت إليها في العصر الذي كتبت فيه . فشخص زياد — إذاً — وظروفه وأهدافه كانت مختلفة عن مقابلاتها في عمر . ولعل من بعض مظاهر هذا الاختلاف أنك تقرأ خطب زياد واحدة بعد الأخرى فلا تكاد تعثر فيها على اقتباس من القرآن أو الحديث ، أو إشارة إلى هديهما وأسرارهما ، على حين أنك لا تقرأ خطبة لعمر إلا تراه فيها مشيراً إلى القرآن أو مقتبساً منه صراحة أو ضمناً أو منتفعاً به فيما يعقد من أحكام وموازنات ، يقول : (اقرءوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله) ، ويقول : (فأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، ورزقكم من الطيبات) . ويقول : (فان الله عز وجل قال لموسى : أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وقال لمحمد : واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) . وعمر — على أنه خليفة — شاعر بضعفه ، إلا إذا أعانه الله ، وبأنه إنسان يجوز عليه الخطأ والصواب ، وهو يعد المؤمنين أن يتقدم إليهم في مهام الأمور التي يجتهد فيها ، ثم هو دائم الذكر للحساب والوقوف بين يدي الله .

وخلو خطابة زياد من هذه النواحي السامية يجعلنا نشك كثيراً في أنه أنس بالقرآن ولازمه وفقه أسراره ، وفي أنه تشرب روح الدعوة الإسلامية وصقل بها نفسه البدوية الخشنة . ومهما يكن من أمر فان هذه المرحلة من تحليلنا لحياة زياد قد أبرزت لنا فيها ثلاث نواح : غموض نشأته ، وذكاء عقله ، ونفسه الجاهلية التي لم تنفذ إلى أعماقها دعوة القرآن .

* * *

ليس ما بين أيدينا من أخبار التاريخ كافياً لرسم سلسلة متصلة من حياة زياد . وإنما نعرف — فيما نعرف — أنه ولي الكتابة حقبة لأبي موسى ، وأن عمر رضي الله عنه عزله عنها ، فقال له زياد : «أعن عجز أم عن خيانة ؟» قال : «لا عن واحدة منهما ، ولكن كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك» . ونعرف أنه كان عاملا لعلي بن أبي طالب على العراق ، وأنه ظل طوال النزاع بين علي ومعاوية على الولاء لعلي ، فلما مات علي وبايع الحسن معاوية ، بقي زياد بفارس ، فاغتم معاوية لهذا ، واستدعى ناصحه المغيرة بن شعبة ، فذكر له «زياداً» واعتصامه بأرض فارس ومقامه بها ، وهو داهية العرب ومعه الأموال ، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها يدبر الأمور ، وأن المغيرة بن شعبة استأذن معاوية في أن يأتيه ، فأتاه (أي زياداً) ، وقال له : «إني أنصحك أن تصل حبلك بحبل معاوية ، وأن تعير الناس أذناً صماء وعيناً عمياء» فراقت زياداً الفكرة وعمل بها ، وكان ما كان له من شأن في توطيد الملك لمعاوية .

(يتبع) محمد خلف الله

تصويب — في المقال المنشور في العدد ١٧٩ بعنوان «لمحة إلى أدب لبنان» ، ص ١٣ س ١٠ : بدلا من «لله مزاح العباس» اقرأ «لله مزاج النحاس» .

من أغانى الربيع :

ذات الرداء الأحمر

عاد الربيعُ إلى الرُّبوعِ فأبشرى
بالصفوِ يا ذاتَ الرِّداء الأحمر . .
لما تبلَّجَ فى الرِّياض أخالها
جنَّاتِ عدنٍ ساحرات المنظرِ
فالفجر يُلهمُ كل لحنٍ رائعٍ
فيها ، ويلثم كلَّ غُصن مُزهِرِ !
ولقد أتيتُ مع الربيع يقودنى
شوقٌ لغيرِ هَوَاكِ لم يثمرِ !
أقبلتُ يحدونِى الحنينُ لمَوْرِدٍ
أصفى مِن الفجرِ الطَّرُوبِ النيِّرِ
وربيــعُ أيَّامى لديكِ فذَهْبى
أحلامه بيَدِ الغرام ، وَنضِّرِى
وهَبيــه سِرَّكِ فِى الحياةِ فإنه
سِرُّ الحياةِ لشاردٍ متحيِّرِ !
هذا ربيعُ العاشقين كَسَا الرُّبا
من حُسنه الزَّاهى بثوبٍ أخضرِ
الحـــب يا لحبُّ ذاك أوانه
فتمايلى بين الجداول وَأخطرى !
وتبسَّمِى كالرَّوضِ داعبَهُ الصبا
والطَّلُّ فى فَلَقِ الصَّباحِ المسفرِ !
ولتسمَعِى همْسَ الربيع وحَنينهُ
يَدْعُو الشَّبابَ إلى الوُرُودِ السكوثرِ !
وتقبَّلى نجــوايَ فَهْى نميمة
حيرى تطوفُ عَلَى شفاهِ الزهرِ !

يا فتاتى هل كنت إلا شاردا ؟
هيمان يضرب فى الوجود المقفر ؟
ألهمته نَمّ المنى ، وخلقته
من كل فن فى الحياة مطهر
حتى تفجّرَ فى الربيع نشيده
فغفا الوجود على طِلاه المسكر !

* * *

ولقد حننت إلى لقائِك مثلما
حن الغريب لأهله والمعشر . . .
لم أنس أحلامى لديك وصفوها ،
والحب فى ليل الربيع المقمر !
أيام كان الروض يجمعنا على
أمل يرف على الهوى المتفجر . .
وبلابل الوادى تروح وتغتدى
نشوى وتصدح بالنشيد العبقرى !
والنور يرقص فى الخميل وما بنى
ينساب فيه كجدولٍ متخطر !! . .
يا طيب هاتيك العهود ! جمالها
وَلّى مع الماضى الحبيب الأطهر !
ومضى الزمان بحسنها ، فتغيرت
أحــوالها والحب لم يتغير !!
باق على الدنيا ! كأن حــديثه
ينساب طهراً فى حنايا الأعصر !

فؤاد كامل

قصـــــة حب

للأستاذ حسين شوقى

قال أحدنا ونحن جلوس شـامس : إنى لآسـف حقا إذ لم يعد لمآسى الحب القديمة العظيمة — كحب روميو وجوليت وحب مجنون ليلى — من وجود الآن . فرد آخر : إنه يعتقد أن هذه المآسى لم توجد قط ، بل هى أوهام من تسبيح خيال الشعراء . وأطرق صديقنا حينا مليا ثم قال فى صوت مكتئب : بل لا تزال تحدث مع الأسف مثل هذه المآسى ، أقول مع الأسف لأن الحادثة التى أعرفها محزنة وهى مازالت عالقة فى ذهنى رغم مضى سنوات ثلاث عليها . . . قلنا : ألا تحدثنا عنها ؟ قال : أود ذلك لكنى أخشى أن أدخل عليكم بها الحزن ، فألححنا فى سماعها . عندئذ أخذ يقص علينا قصته :

ذهبت منذ ثلاث سنوات إلى حى من الأحياء الوطنية فى شأن من الشئون ، وصادف أن نفدت منى سجايرى الأمريكية ، فسـألت رجلا معمما يجلس أمام دكان به عروض مختلفة ومنها السجاير ، عما إذا كان لديه سجاير أمريكية ، فاعتذر الرجل لعدم وجود هذا الصنف عنده ، قائلا إنى لاشك واجده لدى إبراهيم أفندى بائع الدخان ، ثم أشـار إلى دكان آخر ليس بالبعيد ، وبالفعل وجدت طلبى عند إبراهيم هذا ، ولـكنى كم أسفت بعد ذلك على ذهابى إليه لأن المنظر الذى رأيته أحزننى كل الحزن : كان إبراهيم شابا فى ريعان الصبا دمثا جميل الصورة جدا ولـكنه مع الأسف ضرير . ثم لاحظت من الحركات غير المنتظمة التى كان يبديها أنه حديث العهد بمصابه ، وكان بالدكان صبى فى العاشرة يعاونه فى تجارته المتواضعة ، فإذا انقضى النهـار سحبه إلى منزله . فأبلت لدى عودتى من عند إبراهيم ذلك التاجر المعمم الذى دلنى عليه ، فسألنى متلطفا : هل وجدت ياسيدى طلبتك لدى إبراهيم أفندى ؟ قلت : أجل ، أشكرك ولو أنى كنت أوثر ألا أذهب إليه لأنى رأيت ما أحزننى . . . تنهد الرجل طويلا ثم قال : حقا . . إنه شيء محزن ، ولـكن الأكثر إيلاما أن تعرف كيف فقد بصره . . . هل ترغب فى سماع قصته ؟ . . . قلت : لا بأس ، لأن مصاب إبراهيم أثار شفقتى . فقدم الرجل إلى عندئذ كرسيا جلست عليه شاكرا ، ثم أخذ يقول : إبراهيم أفندى هذا كان ابنا لرجل بسيط يعمل كاتبا فى دائرة أحد البكوات العظام ، وكان يرافق والده كل يوم فى الصباح إلى مقر عمله وهو قصر ذلك البك . حيث كان الصبى إبراهيم يلقى بشاشة وترحابا . ذلك لأنه فضلا عن كونه مؤدبا كان آية فى الجمال . كان إبراهيم يشارك فى القصر أمينة بنت البك الوحيدة ألعابها ، وهى من سنه . ولا يفترق الصغيران ، تراهما يمرحان فى الحديقة وفى القصر على السواء . . . وأمينة جميلة أيضا فكان الكل يأسفون على أن إبراهيم ليس من أبناء الذوات وإلا لـكانا لدى نضجهما زوجين من الطراز الأول ، يقال أيضا إن إبراهيم كانت له عينان جذابتان جدا . . . يحدث أحيانا أن تزل قدم أمينة أثناء عدوها فتصاب بخدش فى يدها أو فى رجلها يبكيها ، عندئذ يكفى أن يرمقها إبراهيم بعينيه حتى يجف دمعها فجأة ، وإذا مرضت كانت عينـا إبراهيم علاجها الوحيد فى تسكين الألم . سألها إبراهيم ذات يوم مبتسما : لماذا ياأمينة حينما تنظرين إلى عينى تنسين آلامك ؟ أجابت الصغيرة فى سذاجة : لأنى أشاهد فيهما أشياء باهرة يخيل إلى أننى أنظر إلى مياه بأكلها إلا أنهـا سماء فى حجم مصغر . . .

ثم مرت السـنون وفى ذات يوم شاهد الناس الصغيرين قد تحولا إلى شاب وشابة على جانب عظيم من الجمال قل

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ... ... "

عذارى ! — باعة الورد ! — الأخلاق المترجمة أيضاً — قرأت في هذا الأسبوع :

عذارى !

استهلّ الصبيُّ صارخاً الصرخة الثائرة ؛ ولمّا يمض على رقاده في الفراش ساعة ؛ ووضعت قلمي وطويت كتابي وهرولتُ إليه أنظر ما به ؛ والتقت عينانا بعينين ، وأبلغ الداعي الصغيرُ بعينيه ما لا يستطيع بيانه بلسان ؛ وجثوتُ بجانب فراش الطفل أهدهدُه برفق وفي القلب وجيبٌ وفي العينين دموع ؛ وأغراني سكونُ الليل بالنجوى فرحتُ أبثُّ الطفلَ من وجدي وما به أن يسمع ولا أن يجيب ، واستجابتْ لي عيناي !

ألك يا بنيّ من الدنيا وبالي ... !

وتجاذبتني ذكرياتُ الماضي فانسربتُ إليها وغفلتُ من طفلي ومن دنياي ، إلا يدينا تُهدهدان فراشَ الصبي في حركة آلية كأنها رعشةُ المقرور ؛ وكأنما أحس الطفل أن اليد التي تهزُّه في المهد ليس فيها قلبُ صاحبها ، فتململ ثم عاد يبكي ؛ واستيقظتُ من ذكرياتي ، وتناولته بين ذراعيّ أحاول أن أشعره في حرارة صدري ببعض ما فقد من حنان الأم ، الأمّ التي ودّعتْ دنياها ساعةَ استقبل دنياه فلم تكتحل عيناها بمرآه ولم تكتحل عيناه !

... واستنام الطفلُ إليّ وانسرح في دنيا أحلامه الناعمة ، وما دنيا أحلامه إلا ثدي وأرجوحة وأغنية ؛ ومَن يدري ؟ لعل في دنيا أحلامه خيال الأمّ التي غيّبها الموتُ من عين أبيه منذ بضعة أشهر ، لعلها وقد حال الموت بينها وبين الأحياء ، وحُرمتْ أن تراه كما ترى الأمهات أطفالهن — أن يدنو بها شوقُ الأم فتجتاز إليه أو يجتاز إليها في أحلامه برزخَ الغيب لتراه ويراها ؛ وإلا فما هذه الابتسامة الدافقة ترفّ على شفتيه وإن عينيه لمغمضتان !..

نم يا بنيّ نم ! لأمر من أمر الله كان مقدمك وكان سفرها الباغتُ بلا وداع !

وأودعتُ الصبيَّ فراشه وهممتُ أن أعود إلى قلمي وكتابي ؛ وماذا تملك يداي بعدُ من متاع الدنيا غير القلم

أن يرى مأتمهما . انقطعت الألفة التي كانت بينهما بحكم التقاليد على مضض منهما وأسف ، لأن حبهما توثق على مر الأيام ... ولم يعودا يتقابلان إلا قليلا ... ثم حدث أمر لا محيص منه وهو خطبة أمينة لأحد أبناء العظماء ، ولكن أمينة التي ما برحت تحب إبراهيم لم ترض بهذا الزواج ، بل قصدت إلى إبراهيم تسأله أن يعاونها على إيجاد مخرج لها ، ولكن إبراهيم رأى خلاف رأيها ، رأى أن هذه الخطبة في صالح أمينة ، ولو أنه يضحي بنفسه لقاء ذلك ، على أنه لم يستطع إقناعها برأيه إلا بتأثير عينيه اللتين لا قبل لأمينة بعصيانهما ...

ثم تم الزواج بعد مضي وقت قليل على ذلك وسط أفراح عظيمة ، ولكن ما هي إلا أشهر حتى توفيت أمينة حزناً وكمداً ... فثارت ثائرة إبراهيم على نفسه ، أليس هو الذي نصحها بإتمام الزواج ؟ بل كان غضبه أشد على عينيه اللتين اتهمهما بإرغام أمينة على الزواج على غير رأيها ، عندئذ فعل هذه الفعلة الشنيعة ... طمس نور عينيه بنفسه ...

قلت : لو عمد إبراهيم إلى الانتحار لكان أقل قسوة من هذا العمل ... قال الرجل : لم ينتحر إبراهيم يا سيدي لأنه شاب شديد التدين ، خشي إن فعل هذا أن يذهب إلى جهنم التي هي مصير المنتحرين فيبقى فيها ، ولا يتقابل ثانية في الجنة مع أمينة .

حسين شوقي

والكتاب؟ .. وأحسستُ حركةً خلفي فتلبّثتُ هُنيهةً ، ولكن الحركة لم تهدأ ، وكانت الطفلة في الفراش الآخر تدعوني لأن أختها الصغيرة ضغطَت ذراعها وهي إلى جانبها نائمة ؛ وقضيتُ إلى جانب فراش الصغيرتين ساعة أتحدث إليهما ساعةً وتتحدثان ، بالشفتين تارةً وبالعينين ، ثم غلبهما النوم كما نام أخوهما من قبل وبقيتُ أحلامي ساهرة !

وتسحّبتُ في مثل حركة اللص إلى مكتبي لأقضي ما بقي من ساعات الليل ، وتناولتُ ركاماً من الصحف أقلبها بعيني ، وما بي أن أقرأ ولكنه ملل العاجز الحيران .

وترادفتْ على عيني عناوين ... ماذا ؟ ... لكأني كنتُ وهذه الصحف على ميعاد ...

« رعاية الطفل » ، « حماية الأمومة » ، « إنقاذ الطفولة المشرّدة » ، « المولود والوالدة » ، « بيت الطفل » ، « مستشفيات الأطفال » ، « الاصلاح الاجتماعي » ، « الشئون الاجتماعية » ....

أين كل ذلك مني ؟ ... وماذا يحملني على ما لا طاقة لي به ؟ ... وما صبري على لؤم الخدم وإمارة المراضع وفي البلد كل هذه المنشآت ؟ ...

حنان الأب ؟ ... لا ، إني لأستطيع أن أتجلد وأرضى وأحمل مشقة الفراق ما دام في ذلك منفعة أطفالي !

المال ؟ ... ولا هذا ، فإني لأنفق في حال تلك ما لا قِبَل لمثلي به ولا أجدني مع ذلك أقوم بالواجب ؛ بل ، وإني لأطيق أن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، وإني لأملك أن أرتق جوربي وأرقع قميصي وأرفأ ثوبي ، إن كان ذلك يقوم بحق أطفالي !

يا بارك الله للعاملين ! ... أفي مصر كلُّ هذه المنشآت المعنية بالطفولة وأكلّف نفسي حمل أعباء الأمومة والأبوة معاً وما كلفتني الطبيعة ولا أعددتُ نفسي ؟ وإني لرجلٌ من أهل الفنون وللفنون تكاليف ولها ضريبةٌ على أهلها من الأعصاب والدم !

... واستيقظتُ قبل أن أنام لخرجتُ أسعى مع أول شعاعة من نور الصبح أتحسس السبيل إلى هذه المنشآت الاجتماعية أسألها أن تؤوي أطفالي وعليَّ ما تفرض من النفقة ...

... هذه واحدة ، وأخرى ، وثالثة ، ومنشآت أخر بين شعبية وحكومية ، وطنية وأجنبية : أما واحدة فلا تقبل الأطفال الرُّضَّع ، وأما ثانيةٌ فليس فيها مكان لطفل دون الرابعة ، والثالثة تُؤوي من تشاء ولكن ليس فيها مراضع ! ؛ والرابعة فيها مكاتب وأبهاء للمحاضرات العامة تزينها صور الأعضاء ... ؛ وقالت الخامسة وهي أعظم المنشآت الحكومية : نحن على استعداد لقبول الطفل الرضيع بالمجان على أن تتنازل عن حق أبوّته ، فإننا لا نؤوي إلا اللقطاء من مواليد « صندوق القمامة » ! ... وقالت لي العذراء الوقور في المنشأة الأجنبية العظيمة : « حبيبي ! مسكين ! ماتت أمه ؟ ... كلنا أمهاته وأخواته باسم الأب والابن والروح القدس ! ... »

وانتهيت من طوافي قبيل الغروب لأعود إلى داري على حدود الصحراء ، فتستقبلني بالباب طفلة تثغ ، وطفلة تحبو ، ورضيع يمص إصبعيه من ظمأ وجوع ! وقالت الكبرى : أين كنتَ يا أبتِ ؟ لقد انتظرتك طويلاً بالحديقة حتى ذبلت الوردة وكنت أريد أن تقطفها لي ! !

قلت : معذرة لك ولأخويك يا ابنتي ، لقد كنتُ في سياحة بين طائفة من « عناوين » الجرائد والمجلات !

باعث الورد !

بالله ماذا أقول ؟ ...

... ما هذه الحفلات الحاشدة ، وهذه الصور الرائعة ، وتلك « العناوين » الخلابة ، إذا لم يكن وراء أولئك كله عملٌ واحد حقيق من أعمال « الخير » يحقق منفعة اجتماعية يحس الجميع أثرها ويرى ثمرتها ؟

هذه الهارج ، وهذه المباهج ، وتلك المجامع الحاشدة التي تبدأ بالرقص والموسيقى وتختم بالرقص والموسيقى ، وهذه الأسواق التي لا يعرف « البائع » فيها ماذا يبيع ولا يعرف « المشتري » ماذا يشتري : ما غايتها وما فائدتها وما جدواها ؟

لا أريد أن أزعم مع من يزعم أن الغاية كل الغاية من هذه الهارج وهذه المباهج وهذه المجامع وتلك الأسواق هي هذه « الصور » وتلك « المناوين » وهذه المبيعات وتلك المشتريات . . . !

لكنم حاولت أن أقنع نفسي بأن الغاية من وراء ذلك هي أسمى وأنبل ، ولكني لم أستطع بعد أن أقدم البرهان لنفسي وفي البلد هذا الجيش من الحفاة والعراة والجياع والطفولة المشردة !

ما أن كل ما أقمنا من « الليالي الساهرة » وما ألفنا من « الحفلات الرائعة » وما بعنا وما اشترينا منذ أنشأنا هذه « الأسواق » — إلا هذه « الصور الفاتنة » التي تتسلل بها المجلات إلى خدور بناتنا وأخواتنا وزوجاتنا ، وأمهاتنا أحياناً . . . ! لتوحي إليهن بما ليس من طباعهن وتغريهن على التمرد والعصيان وتمزيق الحجاب ! ؟

. . . ولكني إلى كل ذلك ما زلت أحاول أن أقنع نفسي بحسن النية وشرف القصد ، ولكن نفسي لا تحاول أن تقتنع بحسن النية وشرف القصد إلا أن تؤيدها النتيجة . . . النتيجة !

يزعمون المترجم أيضاً !

كتبت زوجة إلى الأستاذ (ص) صاحب « إبر النحل » تقول :

« زوجني أبي على الرغم مني من شخص عشت معه طوال السنوات السبع الماضية ، وفية له ، محافظة على شرفه ، في ثورة بيني وبين قلبي الذي اتجه إلى شخص آخر وضعه في صميمه ووهبه أعز مكان فيه . . .

« نعم لم أحب زوجي يوماً ولم أخنه ، ولكني أخشى وقد طفح الكيل وبدأت أشعر بالخور أن تزل قدماي ! فهل أخرج من طاعة والدي وأتزوج (الرجل) الآخر وأطلقني رب يتولاه ، أم أتبع نداء قلبي — ولي في تحلل الأخلاق في البلد أسوة — وأبقى مع زوجي مطيعة والدي ؟ . . . »

وأجاب الأستاذ (ص) :

« سامحك الله يا سيدتي للحيرة التي أوقعتني فيها والحرج الذي ضربته علي والمسئولية التي ألقيتها عنقي !

« لو قلت لقلت . . . ولو قلت لقال الناس . . . ! سأدع الأمر للقراء أسألهم الفتوى ولي بعد ذلك رأيي ! »

وتقرأ الاستفتاء وجوابه فتقول : قصة مترجمة ! فليست هذه المشكلة في طبيعة أخلاقنا ، ولا في طبيعة ديننا ، وليس إليها باب في حياتنا الاجتماعية ! وأقول : بل هي الأخلاق المترجمة خلعت قيمها واعتمدت وزعمت أنها مصرية . . .

وكما تقرأ لبعض المشهورين من الصحفيين والأدباء في مصر فصولاً ومقالات ليس لهم منها إلا الإمضاء وإنشاء الحروف العربية ويزعمونها من وحي أدمغتهم — كذلك ترى في الأخلاق !

« أتفارق زوجها لتتزوج بمن تحب وطلقها رب يتولاه ، أم تبقى له زوجة وللآخر خليلة ، طاعة لأبيها ؟ »

هـذا هو الاستفتاء ، وترجمته : أريد أن أكون لحبيبي جسداً وروحاً ، وما علي أن يطلقني زوجي لأتزوج حبيبي أولا يطلقني ، فأنا على الحالين له !

فماذا بقي بعد هذا الحكم القاطع للاستفتاء ؟ ولماذا يتحير مفتيها وقد تخيرت واختارت ، وادعت وحكمت ؟ على أن الذي يسترعي النظر في القضية هو قولها إن

لها في محافل الأخلاق في البلد أسوة ... ! وهو قول امرأة تعبّر من إحساسها في ذات نفسها ! فهل قدَّر هذه النتيجةَ في إحساس كل فتاة وسيدة هؤلاء السادةُ من أصحاب المجلات الذين يسوّدون الصحائف كل أسبوع بما ينشرون من الفضائح وما يذيعون من أخبار السوء ؟

أسوة : هكذا يفهم الفتيات والسيدات أنباء هذه الفضائح ، وهذا أثرها في أنفسهن ! على امتراثهن بسوئها وحقارتها !

إن أثر هذه السيئات وتلك الفضائح إيحاءٌ قوىٌّ يحدث في نفس كل فتاة وكل سيدة كأنه يقول : هذه حال البلد (جميعا) في فساده وانحلال خلقه ! فما وقارُكِ أنتِ وتَصَوُّنُكِ وعفافُكِ على ماتعانين من الجهد ومشقة المقاومة ! ... وما أحراه بعد ذلك أن يكون مَقَادةً لكل فتاةٍ وسيدة إلى الاستهتار والتبذُّل ، وما أسوأ النتيجة بعد !

قرأت في هذا الأسبوع :

« يصدر الحاكم العسكرى مئات الأوامر العسكرية الخاصة بالتموين والأموال ! وما دام الأمر كذلك فإنه يحسن صنعاً لو انتهز الفرصة فأصدر أوامر عسكرية اجتماعية وأخلاقية ! فالفرصة الوحيدة مهيّأة الآن لإصلاح اجتماعى إن عجزت عنه الأداة التشريعية البطيئة فلن يعجز عنه الحاكم العسكرى ...

« وهذه الأوامر العسكرية الاجتماعية تعالج فيما تعالج مسائل خطيرة ، لها مساس بالاقتصاد الأهلى ، والأسرة ، والصحة ! ... فلو اتجه الحاكم العسكرى هذا الاتجاه لوجد أنه يستطيع أن يحدث إصلاحاً واسع النطاق ! وما تعجز عن تشريعه وزارة الشئون الاجتماعية بسرعة ، يسنها فيه الحاكم العسكرى » .

المصور : ٩٣١

« قاف »

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٢٠	في مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

سعد زغلول من أقضيته

كتاب من تأليف الأستاذ عبده حسن الزيات المحامى

كلمة تمهيدية :

إن الله سبحانه وتعالى عظيم . ولكن شتان بين عظمته كما يراها الانسان المجرد وبين عظمته كما يراها نيوتون أو أينشتين . فان الرجل العادى ليهوله بُعد ما بين القاهرة والاسكندرية ، أو بعد ما بين مصر كلها وبين غيرها من أقطار الأرض . فيصيح : وا غوثاه ! ما أعظم قدرة الله ! !

ولكن العالم الفلكي ينظر إلى النجوم فيقيس بُعد ما بينها وبين الأرض . فيرى أن بعضها يحتاج إلى آلاف السنين ليصل إلينا ضوؤه . وأن هذا الضوء ليسرى فى الفضاء بسرعة ١٨٠٠٠٠ ميل فى الثانية الواحدة ، فيدرك من عظمة الله ما لا يستطيع أن يدركه الرجل العادى .

وكذلك يصنع العالم الرياضى أو الكيمياوى ، فانه يدرس « المادة » ، ثم يتعقب عناصرها فيرجعها إلى « الذرة » ثم يتعقب « الذرة » فيردها إلى « إلكترونات » و « بروتونات » ، ويكشف من خواص كل ذلك فيرى من عظمة الله صورة أخرى أروع وأعلى وأوقع من كل ما يستطيع أن يدركه الانسان العادى .

* * *

هذه كلمة تمهيدية رأيت أن أجعل معناها بين يدى القارئ ، منذ البداية لأن هذا المعنى هو المحور الذى يدور عليه كلامنا فى هذا المقال .

فلقد كان سعد — رحمه الله — عظيما . ولكن شتان بين عظمة سعد كما يراها المصرى المجرد وبين عظمته كما يراها الأستاذ عبده حسن الزيات . ولقد كتب كثيرون من عظمة سعد . ولكن الصورة التى وفق الأستاذ لرؤيتها من عظمة سعد صورة فذة لم يلتفت إليها أحد بكل هذه العناية . وإن له لفضل إبرازها لنا على هذا الوجه . وإنا لمدينون له بالمتعة التى نحسها إذ نجتليها معه وندرك على يديه القديرتين أسرار محاسنها .

* * *

كان سعد زعيما حراً ، وكان وزيراً نابهاً ، وكان نائباً جريئاً . ولكنه كان قبل كل ذلك قاضيا نزيها حى الضمير . ولم يكن ليقبل وهو يقيم ميزان العدل إلا أن يرضى هذا الضمير اليقظ الحساس . وفى سبيل ذلك كان يطأ بقدمه كل الاعتبارات الأخرى . إن القانون نفسه لم يكن يستطيع أن يقف بنصوصه فى وجهه إذا ما أيقن سعد أن هذه النصوص ذاتها لا تحقق مثله العليا فى مناسبة بعينها . إنه هو الذى قال : « فى أى شرع يمنع القاضى من إبداء رأيه بحسب ذمته ؟ أمن أجل أن نوافق — فى الظاهر — المبادىء القانونية نخالف مكارم الأخلاق ؟ ! » .

إنه لم يرض لنفسه أن يكون « عبد » القانون كما هو شأن كثيرين ممن يشتغلون بالقانون ، وأصر — كدأبه — على أن يكون هو « السيد » دائما ، السيد ولو على القانون نفسه !

* * *

ولقد عرفنا جميعا سعداً الثائر فى وجه الظلم . وإن الأمثال على هذه الناحية من شخصيته لتخم أذهاننا . فان السنين الأخيرة من حياته لم تكن إلا سلسلة واحدة طويلة من هذه الأمثال الرائعة . فلننظر اليوم إلى صورة أخرى جديدة يقدمها لنا الأستاذ الزيات فيما يقدمه من عشرات الصور التى استنبطها من الاطلاع على ما بقى من أقضيته فى دور المحفوظات . . . تلك هى صورة سعد الثائر

فى وجه . . القانون — أو بعبارة أدق فى وجه الاجراآت القانونية التى لا ترضيه . وإنه ليثور هـذه الثورة وهو القاضى الذى كان يتعين عليه بحكم منصبه أن يكون راعى هذه الشئون وحاميها !

وإنمـا اخترت هذه الصورة بالذات لأعرضها على القارىء من بين عشرات الصـور الأخرى التى عرضها الأستاذ عبده الزيات فى كتابه لدقة الحكم على تصرف سعد فى هذه القضية التى وقع عليها الاختيار . وليلم القارىء بطرف من تلك الطريقة التى اتبعها المؤلف فى رواية أقضية سعد وفى التعليق عليها .

* * *

فى هذه القضية تقدم إلى سعد ستة من المتهمين كانت تهمتهم أنهم اشتركوا فى جريمة سرقة استعملوا فيهـا وسائل الاكراه . فقضت عليهم جميعا محكمة أسيوط بالأشغال الشاقة . واستأنف المتهمون هذا الحكم . وقدمت القضية إلى دائرة الجنايات الكبرى التى كان يرأسها سعد . فلما اطلع على القضية سرى الريب فى نفسه ، فأعاد التحقيق وانتهى منه إلى أن التهمة ثابتة على الأربعة الأولين من المتهمين . فأصبح من المتعين تأييد الحكم المستأنف بالقياس إليهم . أما المتهمان الباقيان فإن ما هو ثابت فى أوراق الدعوى لم يكن يقطع بأدانتهما . فأصبح من المتعين إلغاء الحكم المستأنف بالقياس إليهما ، والحكم ببراءتهما مما أسند إليهما . . .

وحل يوم الخميس الذى كانت تنعقد فيه جلسات تلك المحكمة . وجلس سعد على رأس الهيأة . وتأهب للنطق بالحكم . فألقى على لسانه سهوا أنه « البراءة » للمتهمين الأربعة الأول وأنه « التأييد » للمتهمين الخامس والسادس . وبذلك انعكس الوضع بين الفريقين .

يقول المؤلف :

« ومضى الخطأ غير ملحوظ حتى حـل يوم الاثنين التـالى وهو اليوم الذى اعتاد سعد فيه أن يملى أسباب قضاياه على كاتبه . فاذا بهـا أسباب براءة لهذين المتهمين الآخرين وإذا حوار بين القاضى وكاتبه ، يراجع القاضى فيه قراره فاذا « التأييد » يخطئه ! — ولـكنه لن يتقهقر :

سعد — استمر فى الأسباب !

الـكاتب — ولـكن . . .

— لا لكن !

— لقد نفذتُ فعلا حكم المحكمة وقيد المتهمان فى حديدهما إلى الليمان !

— سَيُفكّ إذاً الحديد ويترك الليمان .

— والحكم ؟

— لا بد من تصحيحه !

— لا سبيل إلى التصحيح لأنه لا سبيل إلى إدخال القضية فى الجلسة من جديد .

— بل لا بد أن تدخل !

— إن قلم الجدول لن يسمح بإدخالها . لأن القضايا تحمل أرقاما فى جدول النيابة وأرقاما فى جدول المحكمة . وتقدم إلى الجلسات على هـذا الأساس . والنيابة لم يعد عندها قضية لهذين المتهمين .

أدخلها الجلسة القادمة ولا شأن لك بالجدول .

* * *

وأخذت القضية فى جلسة الخميس التـالى إلخاما . ونودى المتهمان فلم يحضرا . إنهما لم يُسْتَلا . إنهما فى غير هـذا المكان ، وإنهما لطالقا السراح منذ ذلك اليوم — يوم الاثنين — الذى تبين القاضى فيه خطأه . فأنه ما رضى أن يلم ببيته فى ذلك اليـوم حتى يزور كوريت — النائب العام — ويستصدر أمره بالافراج عن الذنبين البريئين !

وتهم النيابة فى جلسة المجلس بالوقوف للاعتراض على أنه لا توجد قضية لهذين المتهمين ، فلا تكاد تبدأ الحرف الأول من اعتراضها حتى تكون هاء البراءة قد استكملت لضمير القاضى أسباب راحته ! » انتهى كلام المؤلف .

* * *

ويرى المؤلف أن هذا الحادث يستحق التعقيب ، فانظر إليه كيف يعقب عليه . . . إنه يقول : « لست أعرف فى عشرات الأحكام التى تُشرف هذا الكتاب ما يستحق الاعجاب والتنوية استحقاق هذا الموقف . بل إنى لأرى الكلام فيه جرحا لعزته ونيلا من جلاله . إن كان « الجهاد الأكبر » جهاد النفس فهذا إذاً هو « العدل الأكبر » . العدل على النفس بل العدل على القانون نفسه . وعلى الأشكال التى تعترض الحق ، وتهم بمصادرة ضمير يريد أن يتخفف من وزر خطئه .

لقد أصاب سعد . وكثر حديثنا فى صواب أحكامه . ولكن صوابه كله . وسحره كله . ودقته فى أوجها . ومصريته جميعها . وفقهه الشرعى وغير الشرعى متألقا وإنما ليس شىء منها ليبلغ من احترامنا وإعجابنا وإشادتنا ما يستحق هذا السهو وهذا الخطأ » .

* * *

ومثل هذا التقدير السليم من المؤلف هو الذى يحملنا نكبر فيه هذه السماحة التى سرت إليه بعض روحها ولا شك من كثرة عكوفه على أقضية سعد وامتصاصه لمعانيها والتخلق بأخلاقها . فليس من السهل على النفس العادية أن تقول إن الخطأ فى أوضح صوره ، يكون باعثا على الاحترام أو على الاعجاب .

وهذا هو الذى جعلنا نقول منذ البداية إن العظمة فى نفس العظيم سر لا يستطيع كل ذى عينين أن يبصره .

* * *

إن الانسان العادى لتعرض عليه صورة من صور الفن الخالدة — صورة « الجوكوندا » مثلا — فلا يرى فيها إلا ما يشتمل عليه كل وجه آخر من عينين وأنف وشفتين ، وما إلى هذه القسمات والملامح . ولن يرى الانسان العادى فيها أكثر من ذلك مهما حدق وأمعن وتفرس . . . ولكن الفنان يقف أمامها مشدوها مأخوذا لأنه يرى الوجه غارقا فى ابتسامة فياضة مشرقة . ثم يبحث عن هذه الابتسامة فى الفم فلا يجدها هناك . ويعود فيبحث عنها فى الوجنتين فلا يجد لها عليهما أى أثر ظاهر ، ويظل يتعقب هذه الابتسامة فى مَظَانّها فلا يستطيع أن « يضبطها » فى جارحة بعينها من جوارح الوجه . ولكنها مع ذلك هناك تكاد تضىء أو قل تكاد تدغدغ من ينظر إليها فتحمله هو الآخر على الابتسام !

والناس فى حاجة إلى مثل هذا الفنان ليفتح أعينهم على نواحى الجمال فى أعمال غيره من الفنانين . والأستاذ الزيات تطوع لحمل عن قراء كتابه مثل هذا العبء بالقياس إلى ما انطوى عليه أقضية سعد من الصور الرائعة . جزاه الله خيرا فتح عليه أعيننا من نواحى عظمة سعد أحسن الجزاء .

ع . ج

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين ، مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٢ — الثلاثاء ٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦١ — ٢٣ من يوليه سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

المثـل الصالح

ومن أحق من المليك أن يكون المثل الصالح لشعبه الوفى ؟

يرى المصريون فى كل يوم آية جديدة من آيات هذا المثل الذى يضربه الفاروق فى الإخلاص للمصلحة العامة والتضحية فى سبيلها . فكان جلالته أول من أخذ نفسه بقصر ألوان الطعام فى المآدب الملكية ، نزولا على ضرورة الحياة ، وأول من التزم قيود القوانين — وهو فوقها — فى أيام الإمساك والاقتصاد .

وما يزال كلما طلع يوم جديد يضرب المثل السامى ويلفت الفتة الكريمة ، يدفعه قلبه الكبير إلى المكارم ، وتتجه به نفسه الطاهرة إلى المجد والعلا ، ماداً يديه إلى شعبه دائماً ليسمو به .

وقد سمع المصريون بالأمس القريب أن جلالة المليك قد نزل لحكومته عن كل ما أنتجته المزارع الخاصة من القمح لتكون عوناً لها على تفريج كربة الأهلين فى أقواتهم ؛ فكان بذلك حافزاً للمصريين على أن يقتدوا ويتبعوا مثله الكريم ، ويتساموا بجهدهم نحوه . ولعلنا نسمع فى القريب صيحات التلبية تتجاوب من أنحاء البلاد كلها . فلا يبقى من أصحاب المزارع الكبرى قاعد لا يلبى . ونحن موقنون أنه ليس فى كبار المصريين من يؤثر الشح والمنفعة على المسارعة إلى احتذاء المثل الكريم الذى ضربه المليك .

وإذا كانت المسارعة إلى الخير فضيلة قد استحقت من جلالة المليك العطف والإنعام ، فإن القعود عن الخير إساءة تستحق بغير شك أن يحرم القاعدون من عطفه السامى وإنعامه . فليس القاعد عن تلبية نداء المليك إلى الخير جديراً بأن يكون سيداً بين المصريين .

(ooo)

بين الفترة :

ضرورة التنظيم الصناعي

إن كان للحرب أضرار – وهى كثيرة بغير شك – فانها لا تخلو من منافع للأمم والأفراد على السواء ؛ فهى تدفع الناس إلى مقابلة معانى الحياة الحقيقية مكشوفة ، وهى تظهر الانسان فى مظهره الطبيعى الذى لا تحجبه أغطية العرف والجاملة ، وهى تحفز الناس إلى بذل جهود كثيرة ما كان السلم يتيحها لهم ، وهى تحتم على الطبقات المختلفة تضحيات كثيرة ، فالغنى ينزل إلى الميدان كالفقير والتاجر يضطر إلى توجيه تجارته حيث تقتضى مصلحة الأمة ، والشركات الغنية تبذل كل ثراثها فى سبيل الانتاج ، ولا تفوز من الربح الزائد إلا فى حدود ضئيلة ، وهى وهى وهى ، إلى آخر ما يعرفه الناس جميعاً مما يتردد صداه فى الصحف كل يوم .

ومن هذه الفوائد التى تعود على بلاد مثل بلادنا ، أن الحرب فرصة عظيمة لتشجيع الانتاج الصناعى ، لأنها تقوم بمثابة حماية طبيعية للمصنوعات الداخلية ، وتمهد لها السبيل لكى تنشأ وتنمو وتقوى ، بغير أن تتعرض للمنافسة الأجنبية القاتلة التى تتعرض لها فى أيام السلم .

وقد سبق لمصر أن استفادت فائدة تذكر فى نمو صناعاتها فى الحرب الكبرى الماضية ، فلما انتهت الحرب بقيت الصناعات التى نمت فى أثنائها ، واستطاعت أن تكون نواة طيبة لنهضة مباركة ، ولو أنها كانت نهضة محدودة فى نوعها وفى نموها .

ولما بدأت هذه الحرب كان من الطبيعى أن تبدأ نهضة صناعية جديدة ، وأخذ كثير من أصحاب الأموال فى الاتجاه إلى ذلك الميدان للفيد ، وأدى هذا إلى فوائد لا يسع الانسان إلا أن يحمد عليها الحرب ، وإن كانت حاجة البلاد لا تزال تتطلب المزيد والاكثار وبذل الهمة .

ولكن الدولة سارت إلى الآن على خطة ترك الأمور لجهود الأفراد والجماعات ، تقبل على الصناعة إذا شاءت ، وتختار من أنواع الصناعة ما تراه أقرب إلى تحقيق الربح أو أسهل فى التناول وأهون فى الكلفة المالية والفنية . وفى هذا يظهر أثر المبدأ العام الذى تسير عليه مصر فى كل حياتها – ذلك المبدأ الذى قد يكون سليما فى حالة السلام العادية ، ولكنه لا يلائم الحالة التى تنشأ فى أيام الحروب ، نعنى به مبدأ « اترك كلاً يعمل كما يشاء » .

هذا المبدأ له ما يبرره فى أحوال السلام ، وإن كان كثير من البلاد الأخرى لا يسلم به ، وهو على كل حال مبدأ إنسانى تختاره البلاد المؤمنة بالديمقراطية وبالتعاون بين الأمم ، فتترك الجهود الاقتصادية تسير على القواعد الاقتصادية الحرة بغير تدخل من الحكومات .

ولكن أحوال الحرب لا تسمح بأن يترك كل شىء يجرى فى مجراه الذى يختاره الأفراد والجماعات ؛ وقد دلت التجربة فى كل الدول على أن الضرورة تقتضى فى أوقات الحروب أن تتدخل الحكومات فى تنظيم كل شىء ، لأن وقت الحروب أضيق من أن يسمح للقوانين الاقتصادية أن تحدث التعادل المطلوب ، ولأن زحمة الحركات الحربية ، والخطر الذى ينجم عن الاضطراب فيها ، لا يتركان للحكومات بدًّا من أن تتدخل وتنظم كل شىء .

فالحكومات تنظم الاستهلاك تنظيما دقيقاً ، وتقيم تنظيمها للاستهلاك على إحصاء محكم وحصر لا يتسرب إليه الخطأ ، وهى فى الوقت عينه تعمل على تنظيم الانتاج حتى لا يبذل مجهود فى ناحية لا يحتاج إليها المجتمع ، وتترك ناحية أخرى محتاجة إليه .

فاذا نحن رجعنا إلى النهضة الصناعية الطبيعية التى أحدثتها حالة الحرب فى مصر ، وجدنا أنها بدأت حرة ولا تزال تسير حرة ، فنشطت فى بعض النواحى ، ولكنها قصرت فى نواح أخرى ، فمثلا قد استطاع الانتاج الصناعى أن يوفر الكبريت ، فلم نحس فى هذه الحرب بالأزمة التى شعرنا بها فى الحرب الماضية ، واستطاع ذلك الانتاج الصناعى أن يبذل مجهوداً كبيراً فى إعداد أوانى الزجاج ، فلم نحس بالشدة العظمى التى كنا نعانيها فى تلك السلعة فى الحرب الماضية . وكذلك قد أفادت صناعة الغزل والنسيج فى تخفيف الشدة التى كان من الطبيعى أن يعانيها الشعب ، ولا سيما الفقراء ، فى أمر ملبسهم الضرورى .

كل هذه فوائد نحمدها للصناعة ، ولكن الدولة كانت تستطيع أن تساعد كثيراً فى توجيه الجهود الصناعية ، وتشارك أصحاب الأعمال فى تنظيم الانتاج ، بحيث تستفيد البلاد أكبر فائدة من الطاقة الصناعية فى مصر ، فهناك أشياء كثيرة قد صارت نادرة أوغير موجودة ، ولا يستطيع الناس أن يستغنوا عنها ، مع أنه من الممكن توفيرها مع التنظيم والتعاون بين الحكومة وأصحاب المصانع ، ونضرب لذلك بعض أمثلة : يشعر الناس بضيق شديد لقلة وجود آلات صغيرة لا غنى عنها مثل (عدة) مواقد البترول والأوانى الخزفية وألواح الزجاج ، وأمثال هذه السلع الصغيرة التى لا تنقطع الحاجة إليها . وتوجد فى البلاد مدارس صناعية كثيرة ، كما توجد مصانع كثيرة لسبك المعادن وصناعتها ، أفما كان من التيسر أن تشترك الحكومة وأصحاب هذه المصانع ، أو الهيئات الحكومية التى تتبعها هذه المدارس الصناعية ، حتى يمكن إنتاج هذه الأدوات التى اشتدت الحاجة إليها ؟ لقد بلغ ثمن القطعة من (عدة) موقد البترول أكثر من عشرة أضعاف ثمنها قبل الحرب ، ولا يزال ثمنها يزداد يوماً بعد يوم ، وكان من اليسير أن تصنع بغير شك ، فانها بسيطة لا يصعب على الفنيين أن يعرفوا طريق صناعتها . فلسنا نستطيع أن نتصور أن كل الفنيين من أهل الصناعة فى مصر يعجزون من التماس وسيلة لانتاج مثل هذه الآلة الصغيرة .

وهناك مصنع أو مصانع للزجاج فى مصر ، ومع ذلك فقد امتنع من الأسواق وجود ألواح الزجاج ، وغلا ثمنها غلاء شديداً حتى كاد يصبح مانعاً من الشراء ، مع أن شيئاً من توجيه الدولة ومساعدتها كان يؤدى إلى دفع المصانع المصرية لسد هذا النقص ؛ وقد يقال مثل هذا من أوانى الخزف ومن عشرات من الأدوات المنزلية الضرورية فى الحياة اليومية . وإنه ليطول بنا الحديث إذا حاولنا الاكثار من ضرب الأمثال ، فحسبنا أن نقول إن أيام هذه الحرب فرصة عظيمة لنمو صناعى دائم قد يعود بالخير الكثير على البلاد بعد الحرب ؛ ونعتقد أن الحكومة تفيد فائدة عظيمة إذا هى وضعت خطة لحصر الأدوات التى يمكن صنعها فى مصر ، وأعدت العدة لهذه النهضة ، وتعاونت تعاوناً جدياً مع الهيئات الصناعية المختلفة لتحقيقها .

إننا نطالب بالتنظيم الشامل فى الانتاج الصناعى . كما طالبنا من قبل فى هذا الموضع بضرورة تنظيم الاستهلاك ، فان حالة الحرب تقضى بهذا ، ومستقبل مصر الاقتصادى يتوقف كثيراً على مثل هذا التنظيم .

وقد ترددت فى بعض الصحف أحاديث تنم من أن رجال الدولة يحاذرون من أن يفهم الناس أن تنظيم الاستهلاك قد يتخذ دليلا على تحرج الأحوال ، وأنهم لذلك يترددون فيه لكيلا يسود الذعر بين الناس . ولكننا نستطيع أن نؤكد أن الناس جميعاً يتوقون إلى ذلك التنظيم الدقيق ، وأنهم يرحبون به ؛ فان المصريين يعلمون علم اليقين مقدار الخدمات الجليلة التى أداها التنظيم فى البلاد الأخرى ، سواء أكان ذلك فى ميدان الاستهلاك أم فى ميدان الانتاج .

ف

على هامش الأسبوع :

اثنان وعشرون عاما

بين الثورة والدستور

للدكتور أحمد زكي بك

زال الإقطاع ، وزال آخر أثر له من اليابان عام ١٨٧١ .

وكان مما سهل زواله أن الثوار تحملوا ما نشأ عن هذا الزوال من تبعيات مالية . كالذي يقبض شركة كريهة ، ثم هو يشترى شر عمالها المتعطلين بالتزامه دفع رواتبهم . وبقيت معاشات الجند ، جند الإقطاع الساموريين ، وعددهم مئات الألوف ، حملا ثقيلا على عاتق الدولة . فاتجهت حكومة الثوار في سبيل التخفف من هذا الحمل البالغ إلى الطريقة السهلة المألوفة في مثل هذه الظروف ، إلى زيادة الضرائب الجمركية على الواردات . ولكن هذه الضرائب كانت جامدة لا يجوز عليها زيادة أو نقصان . فهي ضرائب فرضتها المعاهدات التي أمضتها اليابان قسرا للدول الغربية وأساطيلها على الأبواب . وكانت خمسة جنيهات ، لا أكثر ، على كل مائة جنيه بضاعة تمر الجمرك إلى داخل البلاد . فتراءى لها أن تطلب إلى الدول تغيير تلك المعاهدات ، وعلى الأخص أن تتحلل اليابان من شرط الخمسة في المائة في سبيل موازنة ميزانيتها . وتألفت لهذا الغرض بعثة سياسية ذهبت إلى أوربا وأمريكا تفاوض حكوماتها في عقر ديارها . وتضمنت هذه البعثة نفراً من كبار رجال الثورة والناهين فيها . وسافرت عام ١٨٧١ ، وعادت عام ١٨٧٣ . وعاد معها خفا حنين .

ولو أن هذه البعثة استغرقت نحوا من عامين ، إلا أن عودتها كانت استعجالا ، استعجلتها عاصفة سياسية في اليابان كادت تقتلع أصول الثورة من جذورها . وكان مبعث هذه الزوبعة كورية . وكورية شبه جزيرة في القارة الأسيوية في قبالة اليابان . وقد كانت اليابان غزتها أكثر من مرة في قرون متعددة . ولما تغير الحال وسقطت حكومة الشواجن ، أبلغت اليابان كورية فيما أبلغت من الدول هذا التغيير الكائن ، فكان ردها رداً لا تسكت عليه كرامة . وكانت كورية ، كلما ذهب شوجن وحل مكانه شوجن ، تبعث إلى اليابان رسلها بهدايا . فلما ذهب آخر شوجن ، وحل محله الميكادو ، قطعت عادتها في الرسل والهدايا بحجة أنها لا تريد أن تتصل بأمة وصلت شئونها بالحضارة الغربية . وأرادت اليابان أن تبعث هي رسلها إلى كورية ، فرفضت كورية الرسل . ولم تكن كورية بالبلد المستقل حتى تكون لها هذه العزة ، وحتى يصير لها على هذه الكبرياء ، فقد كانت تتبع الصين . فأثار هذا الموقف منها ثائرة اليابانيين . وقد كانت حكومتها كتمت أمره أول الأمر ، ولكن كل مكتوم مفضوح على الأيام .

عاد رجال البعثة الأوروبية الأمريكية ، وهم من كبار أقطاب الثورة ، فوجدوا الخلاف على أشده بين رجال الحكم من جراء كورية ، فبعض هائج يطالب حربها والنوال منها وتأديبها على لحنها ، والبعض مالك أعصابه بتصابر ويرى أن الثورة لم تستتب بعد ، ولن تستقر إلى قرار متين يأذن بإدارة حرب وراء الحدود . وحضر المبعوثون فانحازوا إلى حزب السلم . ذلك أنهم رأوا في بعثتهم في أوربا وأمريكا من حضارة تلك الأمم الغربية ما أقنعهم بالبون الواسع بين حال أمتهم وحال أولئك الأمم ، في مال أو علم أو صناعة أو وسائل حرب أو عدة سلام . فاعتزموا أن ينفقوا ما بهم من جهود في سبيل اللحاق بهؤلاء السابقين ، وقد كانوا سبقوهم بأشواط هي القرون . وتراءى لهم أن حرب كورية مجهود ضائع ، إن أشبع شهوة للعزة حاضرة ، فقد لا يكون منه إلا إجاعة شهوات أخرى للكرامة مستقبلة . وكان لهؤلاء المبعوثين جاه معروف وكلمة مسموعة ، فترجحت بهم كفة السلم ، وقررت الحكومة أنه لا حرب اليوم .

وعندئذ انشق الثوار على أنفسهم ، واستقال من الوزراء عدد غير قليل ، وكانت كوريا سبب الانشقاق . ولكنها لم تكن كل السبب . فقد كانت القلوب امتلأت من غيرها حتى أفعمت قبل ذلك ، وكان سبب هذا السموريين ، جند الإقطاع .

فالحكومة لم يكن لها بد ، وهى فى سبيل إلغاء الإقطاع ، من مداهنة جنده . فأبقت للسموريين رواتبهم ، ثم هى سعت فى تخفيف أعبائها المالية ، عند الدول الأوربية ، بزيادة رسوم الجمارك ، تخاب مسعاها . فلم يكن لها مفر من اختطاط خطة تؤدى بها إلى اختزال هذه الرواتب والمعاشات ولو على سنين . فنى عام ١٨٧٣ أعلنت خزانة الدولة أنها تشترى تلك المعاشات نقدا . فالذى له معاش وراثى نزل إليه من أبيه وجده — فالجندية كانت وراثة فى السموريين — تشترى الخزانة معاشه بما يساوى معاش ست سنوات . فالذى له معاش عشرون جنيها فى العام تعطيه بديلا منه مائة وعشرين . والذى له معاش ذاتى ما بقى على قيد الحياة ، أى معاش لا يورث ، تشترى معاشه بما يساوى أربع سنوات . فالذى له معاش عشرون جنيها فى العام تعطيه بديلا منه ثمانين . وهى لا تعطى غير نصف هذا المال نقدا . أما النصف الثانى فتعطيه سندات على الخزانة لها ربح فى العام ثمانية فى المائة .

ولقد كان فى هذا إجحاف بيّن بالسموريين . ولكنهم كانوا قوما دربوا على إلقاء المصائب بالصبر ، وتعودوا من صغرهم على احتقار المال . وكانت لهم وطنية ، وفيهم رجولة . فأجاب الكثير منهم رجاء حكومتهم فى نزع سيوفهم ، والدخول فى معترك الحياة ، وكسب الرزق من طريق العمل الذى مع الكاسبين . واتخذ الكثير منهم ما دفع لهم جملة من المال رأس مال يغزون به الأسواق ، ويؤلفون به فيما بينهم البنوك والشركات . وأعانهم فيما بعد رجال الحكم — والسمورية تمرد أصولهم جميعا — فانتعشت هذه البنوك والشركات وترعرعت ، وصار لها اليوم فى اقتصاد اليابان شأن أى شأن .

وعدا من غضب السموريين على هذا الإجحاف ، أن الحكومة جرت به على عادتها فى الوصول إلى غاياتها على درجات . فقد جعلت من استبدالات هذه المعاشات عرضا ، للسموريين أن يقبلوه ولهم أن يرفضوه . وقد قبله منهم من قبل ، ورفضه منهم من رفض .

ولكن السمورية لم تكن مشكلة مالية فحسب ، بل كانت مشكلة سياسية كذلك . فقد كان لا بد لاستقرار الثورة من محو السمورية واستئصالها . لأن السمورية ، على قلة رجالها ، كانت تهيمن على البلاد . وهى لما اتصف به رجالها من الثبات فى العقيدة ، وإرخاص الحياة ، كانت خطرا دائما ، قد يستيقظ كلما أريد إصلاح لا يأتلف وما يراه السموريون . فالوزراء الذين اختلفوا على حرب كوريا ، كان خلافهم فى شغاف قلوبهم على السمورية ، على بقائها أم زوالها . فالذين رأوا أن لا حرب مع كوريا ، أقنعهم بهذا القرار فيما أقنع أن فى الحرب إحياء السمورية ، وإحياء لرجالها فى عهد يحسن فيه إعمالهم وعزلهم . والذين أذنوا للكرامة أن تجمح برءوسهم غضبا ، إنما أوجسوا من إخوانهم فى الوزارة خيفة أن يكون السلام الذى يطلبون ، ليس سلاما مع كوريا ، ولكن سلاما للسمورية يكون فيه القضاء عليها . وتبيّنهم فيما خافوه أن الحكومة شفعت استبدال هذه المعاشات بقانون للقرعة العامة ، يأذن لكل فتى من أى الطبقات ، ومن هؤلاء الزراع والصناع والتجار ، أن يلتحق بالجيش ، وكانت صناعة الحرب وقفا على السموريين .

من أجل هذا انشق الوزراء ، وزراء الثورة ، فانفصل حزب الحرب منها ، ومضى الباقون يطلبون السلام ، ويؤسسون الحكم فى البلاد ويثبتون أركانه .

ولكن المنشقين لم يهدأوا خارج الحكم ، وكان منهم قوم لهم وطنية معروفة ومواقف مشهودة . وكان لهم فى قومهم كلمة مسموعة . فهؤلاء أخذوا يروحون النار التى ذكت بين السموريين ، ويلقون الحطب على الفتق أنى

تسكون ، ويطالبون الحكومة أن تجمع الناس لتعرف رأيهم . والناس قصدوا السموريين . والحكومة في أثناء ذلك تلين حيناً ، وتشتد حيناً .

وحدث ومسألة كورية قائمة ، أن وقع في جزيرة فرموزا ، وهي جزيرة في الجنوب من اليابان وفي حيازة الصين ، أن نفراً من اليابانيين رماهم البحر على ساحلها ؛ فما كان من أهل الجزيرة — وهم قبيل من الناس البدائيين الأولين الذين لا مدنية لهم ولا فهم فيهم — إلا أن ساموا هؤلاء اليابانيين شر عذاب . فاتخذ المتشققون من هذه الحادثة سبباً للصراخ والتهييج . ولم تظهر الصين ميلاً لمعاقبة الجناة من رعاياها . واضطرت الحكومة اليابانية تهدئة للخواطر الهائجة أن ترسل إلى فرموزا بعثة عسكرية تؤدب أهلها . وقتلت البعثة من الفرموزيين — وهم قوم في منتصف الطريق بين الوحشية والمدنية — أعداداً ظنت فيها الكفاية ، ثم عادت .

وقد كانت تحسب الحكومة اليابانية أن في هذه البعثة إشباعاً لشهوة الحربيين من حرب ، ولكنها لم تجن منها ما أملت فيها . فالفرموزيون لم يكونوا لليابانيين أنداداً ، وليس في صيدهم عند ذي النجدة العسكرية إلا كما في صيد حُمُر الوحش في الوديان أو صيد الوعول في قنن الجبال . وعدا هذا فالحكومة كادت أن تلغي البعثة في الساعة الأخيرة . وعدا هذا فالحكومة أرسلت إلى الصين رسولا يبغي الوفاق والسلام . وما بهذا يقضى نجب اليابان وكبرياؤها .

ومضت الحكومة في إصلاحاتها الداخلية ، ومضى المتشققون في تأليب الجمهور عليها .

وغاب الخط الحكومة من وراء الحدود . فمسألة كورية التي رجت الحكومة أن تظل في الأفق البعيد ، عادت في ختام عام ١٨٧٥ ، فاحتلت البؤرة من أذهان الناس . فقد وقع في هذا العام أن سفناً حربية يابانية كانت على مقربة من ساحل كورية تشبر ماءه . فما كان من الكوريين إلا أن أطلقوا على السفن النار . فلم يكن بد اليابان ، حتى حكومتها المسالمة التي لا تطلب حرباً ، من أن تطلب الحرب وتشتريها مهما غلا ثمنها . ولكن اليابانيين من أذكى الخلق ومن أسرعهم تقليداً لما يرون فيه الخير ، ومن أكثرهم استفادة من دروس الحياة ، لاسيما القاسية . ومن هذه الدروس الدرس الذي ألقاه عليهم أمير البحر الأمريكي «الكومادور بيري» . فقد أراد منهم أن يفتحوا بلادهم للأغراب من الشعوب ، وأن يرفعوا الحواجز التي أقاموها على موانيهم يمنعون بها تجارة الأمم . وسيّر إليهم أسطولا أرهب به ، فأغنى إرهابه عن إطلاق مدافعه . فهكذا أعاد اليابانيون هذا الدرس على الكوريين ، ولكنهم كانوا فيه هذه المرة السادة المدرّسين . فسيّروا إلى كورية أسطولا جمعوه من سفن القتال وأخرى النقل ، وحذقوا في جعل مظهره أضخم من مخبره ، فنالوا بهذا المظهر الضخم من كورية ما أرادوا ، فعاهدتهم على الودّ والتجارة ، وفتحت على ساحلها ثلاثة من موانيها تبيع فيها الأمم وتشتري .

فهل أرضى هذا الخافقين الحربيين من المتشققين ؟ لا . أوّلاً لأنه لم يكن هناك حرب ، والحرب كانت غاية . وثانياً لأنهم عدّوا مفاوضة الكوريين ، وهم يدينون بالسلطان للصينيين ، هواناً لليابان ليس فوقه هوان .

واستشعرت الحكومة القوة ، فرأت في عام ١٨٧٦ أن تصفّي حسابها مع الخوارج فتضربهم آخر ضربة . فقضت بأن يكون استبدال السموريين ورؤساء الإقطاع معاشهم غصباً . وحرّمت حمل السيفين على جند الإقطاع ، وكانوا بهذين السيفين يتشرّفون ويُعرفون . فنزل هذا القرار كالصاعقة على رءوس السموريين . فقامت فئات قليلة منهم تحتج ، ولكن على أسلوب «الفتوّة» القديم : يقتحمون قلاع الحكومة فيقتلون ما يستطيعون من جندها ، ثم يفرّون إلى الجبال المجاورة ، وعلى قممها يبقرون بطونهم بأيديهم . ولست أعرف احتجاجاً أصرخ في صمته من هذا ، ولست أعرف رأياً أصدق من رأي تعبّر عنه أمعاء مقطوعة وبطون مبقورة .

أحمد زكي

حوار في أسرة

للأستاذ أحمد أمين بك

كانت أسرة وسطا ، لم يفسدها الفقر ، ولم يبطرها الغنى ؛ تتمثل فيها الإنسانية بصنوفها ، فأبٌ وأم وابن وبنت ؛ كان الأبوان من الجيل الماضي بأخلاقه وميوله ، وتقاليده وعقائده ، يكرهان البهرجة والرياء ، ويغاران على سمعتهما كل الغيرة ، ويحرّمان على أنفسهما اللذائذ إلا ما أحلّ الله ، ويديران مالهما على قدر مطالب الحياة ، ولا يسمحان لأنفسهما أن يقترضا لأي سبب وفي أي ظرف .

حتى شبّ الابن وشبّت البنت في ظروف غير ظروفهما ، وحياة غير حياتهما ، وجيل غير جيلهما — نشآ بين أغاني الراديو ومناظر السينما ومشاهد التمثيل ، وفي بحبوحة الحرية وبهرجة السفور والاعتداد بالشخصية ، ونظرا إلى أبويهما نظرهما إلى التاريخ القديم وآثار القرون الوسطى ، تحترم لقدمها لا لصلاحيتها ، وتبجل لدلالتها على زمنها لا لرقيها . ونظر الأبوان إليهما نظر الآمل ضاع أمله ، والسلطان خرج الأمر من يده ، والمربي فشل في تربيته ؛ فهم إن جمعتهم أسرة فأهواؤهم متفرقة وقلوبهم موزعة وآراؤهم متباينة ، وإن ضمهم بيت واحد فلضرورة الحياة لا وحدة المشرب .

* * *

كانت ليلة سعيدة تلك التي اجتمعوا فيها على مائدة المنزل يتصالحون بعد خصام ، ويتعاتبون بعد نفار ، ويتصارحون بعد الكتمان ، وحضر ولمة الصلح قريب للأسرة يحترمه الجميع لسعة عقله وصدق نظره وحسن حديثه ، قد منحته الطبيعة ما منحت البلسم لمداواة الجروح وما منحت الدواء لشفاء الداء ، متقدم في السن ، ولكن عقله من عقول المستقبل لا الماضي ولا الحاضر ، خبير بالماضي عما قرأ وبالحاضر عما شاهد وبالمستقبل عما استنتج ، له جاهه في النسب وجاهه في المال وجاهه في العلم وجاهه في الخلق ، فإذا تكلم أنصت الجميع وأطاع الجميع ، رأيه الحق وقوله الفصل .

قال الأب لابنه : كم تعبت في تربيتك ، وعانيت الأمرين في العناية بك ، وسهرت الليالي لمرضك ، وهجرت راحتي لراحتك ، وضيقت على نفسي في الانفاق لأوسع عليك ، وحرمت نفسي من اللذائذ لأوفرها لك ، فإذا جاء زمن تعليمك في المدرسة فكم بذلت جهدي لتنجح ، وأنفقت مالي لتكون رجلا ، وترقبت النتيجة كل عام في وجل من رسوبك ؛ وعلى الجملة إن تعدّ نعمي عليك لا تحصها ، فقد ضحيت كل شيء لي في سبيلك ، وأنفقت عمري من كل شيء وراء هذه الدار لأجلك ؛ أفحين شاب رأسي وضعفت قوتي ، وحين صرتَ رجلا تهدر كل هذه التضحيات ، وتكافئ الجميل بالقبيح ، والاحسان بالجحود ؟

قال الابن : لقد أكثرت يا أبي من ذكر التضحية والاحسان ، والجميل والمعروف ، فهل فعلت شيئا أكثر مما يجب عليك وعلى كل أب أن يفعله ؟ إنك تفسد ما أديت من واجب بالمن به ، وتذهب بجمال التضحية بذكر اسمها — إنك تريدني أن أكون ذيلا لك أتبعك في حركاتك وسكوناتك وميولك ، فهل هذا يتفق والطبيعة ؟ إن زمني غير زمنك ، وآمالي غير آمالك ، ونظرتي إلى الحياة غير نظرتك ، إن الثمرة إذا نضجت فارقت شجرتها ، إني شاب أخضع لقوانين الشباب ويجري فيّ دم الحياة ، وتغريني الآمال وتستهويني المغامرات ، فمحال أن تخضع إرادتي لإرادتك ، وليس لك مني إلا احترامك وإجلالك . لا بد لي أن أعيش حسب طبيعتي وشخصيتي وزمني وأملي ، حتى أحقق غرضي أنا في الحياة لا غرضك لي .

ولأن أشكرك على أن أبحت لى حرية العمل خير من أن أشكرك على أن تعاملنى معاملة طفل كبير يحتاج إلى الرعاية دائماً ، بل إن تركت لى الحرية فأنا أشكرك وعملى الحر الطليق يشكرك ، ويعترف لك بفضل أنك نزلت من استبدادك وسلطانك وسايرت الزمن فى تغيره الطبيعى وتقدمه المستمر ، ثم لا تخش من خطئى إن أخطأت ، فسأتعلم من خطئى أكثر مما أتعلم من تحذيرك ، وأستفيد من فشلى أكثر مما أستفيد من نصائحك ، ولأن أكون رجلا يخطئ خير من أن أكون حجراً لا يخطئ . وليس أشبع من ابن سلب إرادته ، ولو كان السالب لها أباه ، ولا أفشل من إنسان أحيط بالرعاية التامة فمنعته العناية به من أن يجرب بنفسه الحياة . دعنى أتعلم السباحة فى بحر الحياة ، ولا بأس إن غرقت ، فسأغرق حتماً إن لم أتعلم العوم ، وسأغرق احتمالا إن تعلمته .

دهش الأب من هذا الحديث الصريح الجرىء ، وأطال التفكير .

فانتهزت الأم فرصة هذا السكوت وخاطبت ابنتها :

— إن موقفى معك موقف أبيك من أخيك ... لقد وقفت حياتى على العناية بك ، وكم خفق قلبى حزناً لألمك وسروراً لسرورك ، وعددتك صورة منى ، واتخذتك فى الحياة أملى ، وأنست بك أكثر من أنسى بأخيك ، لأنك من جنسى ، أعرف شعورك كما أعرف شعورى ، وتدور برأسك الأفكار التى كانت تدور برأسى ، وتتحركين بالعواطف التى كانت تحركنى ، وقد اختصصتك بأسرارى وآمالى وآلامى ، وحرمت نفسى من الخير لخيرك ، وتحملت الآلام لراحتك ونعيمك ، والآن وقد صرت شابة لم أر قلبك يتناغم مع دقات قلبى ، ولا عطفك يساير عطفى ، وأرى شخصك فى البيت وأحلامك وآمالك خارج البيت ، وأرى حباً منى لا يقابل بحب منك ، وحنانى لا يجازى بحنانك .

قالت البنت : أصارحك يا أمى أنى أحترمك أماً ، ولكن لا تنتظرى أن تكونى معقد أملى ومجال حبى ، إنك إن تطلبى ذلك تطلبى محالا فى الطبيعة ، إن كان الحب أنواعاً فنوع منه أساسه الاحترام والاعتراف بالجميل ، وهذا لك منى ، ولكن هناك نوع آخر من الحب أسمى وأرق وأصفى ، وهـذا أمنحه لمن يكون زوجى ، إن الرابطة بينى وبينك رابطة الدم ، والرابطة بينى وبينه رابطة الروح ؛ إنى ألجأ إليك حتى ينضج هذا الحب ، كما تبقى الثمرة على شجرتها حتى تنضج ، وألجأ إليك — لا قدر الله — إذا فشل هذا الحب ، ففيك العزاء — سأحافظ على شرفى من أجلى وأجلك وأجل أبى ، وسأحافظ على الوفاء لك لمعروفك عندى ، ولكن ليس من حقك أن تطلبى منى الحب الروحى الخالص الذى لم تمده الطبيعة إلا للأليف . إذا طلبت إجلالا واحتراماً فهذا حق لك جزاء تضحيتك ، وإذا طلبت حباً سامياً خالصاً روحياً ، فليس ذلك لك ولا تجابين إليه ؛ لأنك إذ ذاك لا تتكلمين باسم التضحية ولكن باسم الأنانية .

دهشت الأم كما دهش الأب من قبل ، وساد الجميع سكون عميق .

ثم بدأت الزوجة تقول لزوجها : ما دمنا وصلنا إلى هذه الدرجة من الصراحة ومن العتاب ، فلأصارحك بما فى نفسى . لقد أصبحت حياتى معك عناءً فى عناء ، حرمت متاع الدنيا لإدارة البيت ومطالبك ومطالب أولادك ، وأصبت بالأمراض ، والحمل لم يخفّ عنى ، وأنا طول النهار موزعة بين نظافة البيت وإعداد الأكل ، إلى ما لا يحصى من مطالب ، فلا يجىء وقت النوم إلا وقد دار رأسى ، وفتر جسمى وكلّ عقلى ؛ وقد أصبح البيت سجناً أبدياً مظلماً ، ليس له نافذة إلى العالم — ومع هذا كله لا أرى منك اعترافاً بحسن صنيع ولا إقراراً بجميل ، ولا مظهراً لحب ، ولا تقديراً لقديم ؛ وأصبحت المعيشة

كآلة تدور بلا زيت ، وزيت الحياة هو العطف والحب ، وقد فقدا ، فلست أسمع إلا أوامر جافة ، ونواهي جازمة قاسية ، متى يأتي الموت فنيه راحتي ؟

قال الزوج : وهل أنا أقل منك في حمل الأعباء واحتمال الرزايا ؟ فلا أزال أسعى وأكد سداداً لمطالبكم ، وحرصاً على راحتكم ، وليس لي نصيب مما أجمع إلا أقل من نصيب أحدكم ؛ ولو كنت وحدي لكنت سعيداً ، أنعم بلذات الحياة ولا أحمل عبء الواجب ، وأعيش كالفراشة تنتقل من زهرة إلى زهرة — ثم تطلبين أن أظهر لك بمظهر الحب كأيامنا الأولى ، ونسيت أن الزمن له حكمه ، فالحب إن لم ينطفئ هدأ ، والنار تشتعل ثم تكون رماداً ، وطول العشرة يذهب الكلفة ويذهب بالتصنع ، وأنت تغارين أن أضحك مع الضيوف ولا أضحك معك ، وأمزح مع الأصدقاء ولا أمزح معك ، وتحاسبينني على أني أتكلم في التليفون برقة لا تبدو في خطابي معك ؛ وفاتك أن التصنع عبء ثقيل يتكلفه المرء مع الغريب ، وثوب مصطنع مع الناس ؛ فكيف تكلفينني أن أتصنع دائماً وأرائي دائماً ؟ ألا تريدني أتجمل في ملبسي إذا خرجت وأتبذل إذا رجعت ؟ أتريدينني مرائياً حتى في البيت ، ومتصنعاً حتى معك ؟ فأين إذاً تكون سعادة المعيشة على الفطرة — ثم لا تكثري من ذكر التضحية ، فتضحيتك لا تساوي شيئاً بجانب تضحيتي ، ومتاعبك تافهة بجانب متاعبي — أين عمل اليد من عمل العقل ، وأين مطالب الأولاد من مطالب الرؤساء ، وأين تعب الإنفاق من تعب الكسب ؟

***

ساد الجمع سكون رهيب ، وانتهى الأكل ولم يشعروا أنهم أكلوا ، وانتهت الأصناف ولو سألتهم ما دروا ماذا طعموا ، لأن الحديث التهم عقولهم وأفكارهم ، وتسلط على كل حواسهم ، ثم انتقلوا إلى حجرة أخرى وانتظروا كلام الشيخ الحكيم .

بدأ الشيخ يقول :

— لعل أمرتكم هذه من خير الأسر شعوراً بالتبعة وأداءً للواجب ، وإن متاعبكم التي سمعت الليلة بعضها ليست شيئاً بجانب ما أعلم من أسر تحطمت ، وبيوت خربت ، وأمراض فتكت حتى استعصت ، وكانت أمراضها أشكالاً وألواناً : هذه مرضها في ربها ، سكير وقامر حتى خر البيت على رأسه ، وهذه مرضها في ربتها ، أسرفت في ملذاتها وملاهيها حتى انهار البنيان عليها ، وهذه مرضها في أبنائها وبناتها ، أسرفوا على أنفسهم وجرفهم تيار المدنية حتى أصبح البيت شعلة من نار لا يستقر لأهله قرار .

أما أنتم فمرضكم على هامش الأسرة لا في صميمها ، والأعراض قريبة العلاج سهلة الدواء ، ويخيل إليّ أنها ترجع إلى سببين : أولها — أن الأبوين لم يدخلا في حسابهما عامل الزمان ، فلكل زمن تقاليده ، ولكل جيل مطالبه ؛ ومحال أن تتجاهلوا فعل الزمن وتغير الأحداث وتطور الناشئة ، فنشأ كثير من النزاع تحجر عقول الآباء وقلة مرونتها ، ومحاولتها إخضاع الحاضر للماضي ، وهو ما تأباه الطبيعة ، إن أبناءكم مخلوقون لزمن غير زمانكم ، فإما أن تحسبوا في سلوككم حساب زمانهم ، وإما أن يثوروا عليكم — ألا ترون أن أثاث البيت من عشرين عاماً لا يصلح أن يكون أثاث بيت اليوم ، وأن البدع في ملابس أمس غير البدع في ملابس اليوم ، وأن طراز البيوت منذ أعوام غير طرازها الآن ، وأن التربية والتعليم ومناهجهما ونظمهما منذ عهد قريب غيرها في عهدنا ؟ فلماذا تؤمنون بهذا كله ولا تؤمنون بتغير طباع الأولاد وعاداتهم وتقاليدهم ، وتودون أن تسلكوا معهم سلوك آبائكم معكم ، على أن الفرق كبير بينكم وبين آبائكم وبينكم وبين أبنائكم ؟ فقد

شخصـــــية زياد

ابن أبي سفيان

للأستاذ محمد خلف الله

(بقية المنشور في العدد الماضي)

هذا العرض المجمل لحياة زياد السياسية يريك دورانه مع الدهر حيث دار ، وانقلابه في ولائه من الضد إلى الضد ، ثم يريك جانباً آخر من جوانب شخصيته لا بد من تسجيله ، وهو وصف معاوية إياه بأنه داهية العرب . ومثل معاوية من تقبل شهادته في هذه الصفة . والظاهر أن معاوية ليس وحده في هذه التزكية ، فإن صاحب العقد يقول : « الدهاة أربعة : معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة » . وهذا الدهاء جزء من ظاهرة أوسع هي التي قام عليها مجد زياد وخلوده ، وتلك هي براعته في فن السياسة والحكم ، وفهمه لتطورات الحوادث ، وقدرته على تكييف نفسه حسب الظروف المتغيرة . ويظهر أن عبقرية زياد السياسية وجدت من خبرته خير معين على النضج والاكتمال ، فأتت ثمارها في ضبطه أمور العراق ، وفي آرائه التي تكشفت عنها خطبه في فلسفة الحكم ونوازع النفوس .

ولعل ما بين أيدينا من خطب زياد خير سجل لهذه المراحل التي تقلبت فيها أحاسيسه وعواطفه . فحين كان في صف علي خطب في الأزد يحرضهم على نصرة صاحبه ويقول : « وليس ابن آكلة الأكباد — في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان — بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار .

ويقول : « وإني والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أتيت فيكم إلا على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتموني حتى نصبتم لي منبراً وسريراً ، وجعلتم لي شرطاً وأعواناً ومنادياً وجمعة . . . »

حدثت في العالم ثورة قلبت الأوضاع وكسرت الحدود ، ولا أمل في المسالمة وحسن العلاقة بينكم وبين أبنائكم إلا أن تفهموا الواقع وتسايروا الزمان ؛ نعم إن الأبناء يجب أن يعذروكم في نظرتكم ويقدروا حسن نيتكم ، ولكن من العسير أن يفهموا ذلك ولما تنضج عقولهم وتكتمل مشاعرهم .

وثاني الأمرين أني لمست في حديث كل منكم طغيان الشعور بـ « أنا » وضعف الشعور بـ « نحن » ، إن « أنا » مبعث الاحتكاك والنزاع والخصام ، فمتى برزت « أنا » في الميدان قابلها « أنوات » أخرى تعاكسها وتحاربها . أما « نحن » فليس لها محارب ، لأنها تعبير عن الجميع . إذا قلت : أنا ضحيت ، قال الآخر : أنا ضحيت . وإذا قلت : أنا فعلت ، قال الآخر : أنا فعلت . ولكن إن قلتم جميعاً « نحن » لم تكونوا في حاجة إلى « نحن » أخرى تعارضها .

إنكم في أسرتكم كالهواء في منزلكم ، وأشعة الشمس تغمر حجركم ، والروحانية ترفرف عليكم . إنها تسعكم جميعاً من غير نزاع ، فكونوا كالهواء سعة ، وأشعة الشمس امتداداً ، والروحانية شمولاً ، تضمر « أنا » فيضمر النزاع ، ويضمر المن بالتضحية ، إن « أنا » مظلمة ظلمة السجن ، ضيقة ضيق القبر ، و « نحن » شاملة شمول الشمس ، منعشة إنعاش النسيم ، سمحة سماح الكريم .

***

نزل كلام الشيخ برداً وسلاماً على الجميع ، وودعوه كما استقبلوه بالتبجيل والتعظيم ؛ وعاد كل إلى مأواه يفسر كلام الشيخ بما يهواه . وكل يغني على ليلاه .

أحمد أمين

ولم يكد علي يقتل حتى كتب معاوية إلى زياد يتهدده فغضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس فخطبهم خطبة صب فيها جام غضبه على معاوية ، ووصفه بأنه «ابن آكلة الأكباد (هند أم معاوية) وقاتلة أسد الله . ومظهر الخلاف ومسر النفاق ورئيس الأحزاب ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله» . ووصف تهديد معاوية إياه بأنه «إرعاد وإبراق عن سحابة جَفْل لا ماء فيها وعما قليل تصيرها الرياح قُزَعاً» . ثم نفذ ببصيرته إلى سيكلوجية معاوية فقال : «والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة» . ثم تحدى معاوية فقال : «والله لو أذن لي فيه أو ندبني (أي الحَسَن) إليه لأريته الكواكب نهاراً» . وأسلوب زياد في هذه الخطبة ومثيلاتها قوي مرٌّ لاذع ، إلا أنه غير فوّار ولا متدفق . وتبدو هذه الخاصية الأخيرة أوضح ما تكون في خطبته البتراء . وهو على وضوحه وقوة منطقه يستطيع أن يبهم أحياناً إذا اقتضت المصلحة السياسية ذلك ؛ فانه لم يكد معاوية يتألفه ويرسل إليه المغيرة بن شعبة برسالة الود والسلام حتى غير نغمته القوية الصريحة ، وبدأ يشكك الناس في موقفهم ، وخطبهم خطبة ردد لهم فيها كلمات السلامة والعافية ، وشككهم في مواقف المتحاربين منذ قتل عثمان ، حتى تركهم — كما قال هو في كتابه لمعاوية — كالمتحيرين بهمه ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير» .

وأما خطبه وهو في جانب معاوية فقد أشرنا قبل إلى بعضها ، ونضيف هنا أنه بلغه أن جماعة من الشيعة بالكوفة يجتمعون إلى حجر بن عدي ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، فصعد المنبر وعليه قباء سندس ومطرف خز أخضر ، قد فرق شعره . وحجر جالس في المسجد وحوله أصحابه أكثر ما كانوا — فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد فان غب البغي والغي وخيم . إن هؤلاء جمّوا فأشروا ؛ وأمنوني فاجترأوا علي ، وايم الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم» وقال : «ما أنا بشيء إن لم أمنع باحة الكوفة من «حُجر» وأدعه نكالا لمن بعده — ويل امك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان» .

هذه الصرامة والجرأة والاقتحام والأخذ بالحزم في الضرب على أيدي الثائرين جانب من جوانب «زياد» أعدته له طبيعته إعدادا كبيرا ، وفي هذه الناحية يقول الطبري : إن زيادا كان أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديدا حتى أمن الناس بعضهم بعضاً — وقد كان له في مطاردة الحرورية مواقف فاصلة . وكان من أساليبه معهم أن يغري بهم أهل البصرة ويجبرهم على التنكيل بهم ، فقد قال مرة وهو على المنبر : «يا أهل البصرة والله لتكفنّي هؤلاء أو لأبدأن بكم ، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهما» ، فثار بهم الناس فقتلوهم .

وليس هناك من شك في أن أشهر خطبة عُرفت لزياد وأثرت عنه ، وحفظت له مكانه بين خطباء الولاة والقواد هي خطبته البتراء التي خطبها في البصرة سنة ٤٥هـ . والتي ترويها أمهات كتب الأدب والتاريخ . وهي وثيقة سياسية أدبية ، جديرة بأن تفرد بالدراسة والتحليل من هاتين الناحيتين . ولكننا سنشير إليها هنا بقدر ما تعيننا على فهم شخصية زياد ونوع بيانه . إن القارىء لهذه الخطبة لا يملك إلا أن يلاحظ أنها تكاد تكون مقسمة أقساما ثلاثة متكافئة : (أحدها) تناولَ الحكم العام على ما كان فيه البصريون من الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغي الموفي بأهله على النار ، ومن إهمالهم كتاب الله ونسيانهم ما أعد لأهل الطاعة والمعصية من مثوبة وعقاب ، ثم خصص بعد تعميم فعدّد عليهم تركهم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، وتسامحهم لأماكن الريبة والفسوق أن تنتشر فيهم ، واعتذارهم بغير عذر ، وإغضاءهم على المختلس ،

وحاجتهم لسفهائهم . (والقسم الثانى) كان إعلاناً المنهج الذى اعتزم نهجه فى معالجة هذه الأدواء ، منهج يجمع بين اللين والشدة ، ولكنه لا يتفق ومبدأ المسئولية الشخصية ، بل هو رجوع إلى المسئولية الجمعية التى تأخذ الولى بالولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى . وزياد فى هذا القسم يعد ويوعد ، ويذكر سامعيه أنه فى موقف ليس من السياسة فيه الكذب ، وأن كذبة المنبر بلقاء مشهورة . فهو قد عقد العزم على أن يفعل ما يقول ، وقد أخذ على نفسه حماية المحكومين وضمان أموالهم ، على أن يتجنبوا دلج الليل وإثارة روح العصبية ، وأن يكفوا عن الوالى أيديهم وألسنتهم ، وألا يقفوا مواقف الريب . (والقسم الثالث) يشبه أن يكون رأياً فى الرعية وراعيها ، وما يجب أن يكون بين هذين من صلات وشئون . فالله قد أعطى زياداً وأضرابه من الولاة السلطان على الناس ، وجعلهم ساسة لهم وذادة عنهم ، فللرعية على راعيها العدل على شريطة أن تناصح له ، وله عليها السمع والطاعة فيما أحب . ويأخذ زياد على نفسه عهداً أمام الجمهور أنه مهما يقصر فلن يقصر فى ثلاث مسائل مهمة . لن يحتجب عن طالب حاجة ولو أتاه طارقاً بليل . ولن يحبس عطاءً أو رزقاً عن إبانه ، ولن يجمر بعثاً ؛ ثم يستمر فى تقرير ما أشار إليه من العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فيذكر أن الأئمة هم ساسة الأمة المؤدبون لها ، وكهفها الذى تأوى إليه ، وأن فى صلاحهم صلاحها ، وأنه لاخير يرجى للأمة من وراء بغضها لأئمتها . ثم يختتم الخطبة على نغمة واضحة من الانذار والتهديد فيقول : « وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة . فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى » .

فأظهر ما يطالعنا فى هذه الخطبة كما نرى ذلك الترتيب الذى يشبه أن يكون معداً مزوراً من قبل ، فهى تسير فى حدود المعنى الذى رسمته جزءاً جزءاً ، وكلما انتهى جزء المعنى انتهى معه ما يقابله من الكلام . وهذا البيان بيان منطق وروية ، له وجدان وانفعال ، بيان يتفق والعناصر الأخرى التى لمسناها فى زياد من دهاء وحزم وترقب لتطورات الأيام .

والخطبة مظهر من مظاهر ذلك الروح القوى الذى لازم زياداً منذ نشأته ، والذى لم يعرف ضعفاً ولا فتوراً ، روح يفيض قوة فى ألفاظه ومعانيه ، ويعتمد فى تلك القوة على ما تمد به اللغة صاحبها من لفظ جزل وفواصل محكمة وتأكيد متنوع الأشكال والضروب . والخطبة كما رأينا ليست تحذيراً وتهويلاً وتعريباً فحسب ، ولكنها تقرر أفكاراً فى فلسفة الحكم وفى النظرية السياسية للدولة ، وتقرر نوع الصلة الذى يجب — فى عرف الخطيب — أن يكون بين الراعى والرعية .

هذه صورة من غير شك تخالف صورة الحجاج الشاعرة المتيقظة الصاخبة التى تتدفق كالسيل المنهمر ، وتقذف بالفقرة بعد الفقرة من بيان شعرى ذى صور فنية رائعة ، تعتمد على الخطابيات أكثر مما تعتمد الاقناع ، وتستمد ما شاء لها الموقف من أساليب قرآنية بالغة ، وصور شعرية ساحرة ، ولا كذلك زياد .

محمد خلف الله

٤ـ رسالة الغفران

وقال أناس ما لأمر حقيقة

فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى

بهذا البيت تتركز – فيما أحسب – مأساة أبي العلاء النفسية على أن نفهم منه أنه هو ذلك الرجل الذى يؤمن بأنه « ما لأمر حقيقة » وإن آمن « بالشقاء والنعمى » ، بل بالشقاء فحسب ، إذ أنه قد عرف الألم ، وأما السرور فطالما تساءل عن سره :

أمين باكياً لج فى حزنه وسل ضاحك القوم : م ابتهج

وهو يؤمن بأن الموت حق :

يكر الحول بعد الحول عنى

وتلك مصارع الأقوام حولى

كأنى بالأولى حفروا لجارى

وقد أخذوا المعاول وانتحوا لى

فيفزع :

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

فإن اطمأن فالحديث إحساسه :

متى غدوت ببطن الأرض مضطجعاً

ثم افتقد أوصابى وأمراضى

أو :

متى ألق من بعد المنية أسرتى

أخبرهم أنى خلصت من الأسر

وهكذا جاء يقين أبى العلاء يقيناً حسياً ، فهو لا يثق بغير ما تستشعر نفسه ، وهو يقين سلبي : يقين بالألم ، ويقين بالموت ، ويقين بالخلاص من أسره ومن ألمه ـ ثم شك فيما عدا ذلك ، أى فى كل ما يحدثنا به العقل أو النقل ، سيان فى ذلك حديث عقلنا أو حديث عقول الغير ، وأياً كان مصدر ذلك النقل .

وسر هذه المأساة هو ما ذكرت فى مقالى الأخير من عجز أبى العلاء عن فهم حكمة ما ابتلى به من محنة ، مع إحساسه القوى بوقعها فى نفسه : يقين من الألم وعجز عن الفهم : هذا هو مصدر الحالة النفسية التى تحكمت فى كل ما كتب .

نزلت بالرجل محنة العمى ، وهو المرهف الحس المعتز بملكاته ، فتألم ألماً مبرحاً ، ويئس من الإفلات منها ، ثم حاول أن يجد فى فهم سرها عزاء ، فيئس من الفهم أيضاً ، ولكأنى به يتساءل فى فزع : ولم ابتليت دون غيرى ؟ وهل لم يكن من الممكن أن أكون بصيراً كسواى ؟ وطغت الممكنات على تفكيره ، فانتهت به إلى ذلك الاستهتار العقلى الذى يفسر الكثير من متناقضاته ، كما نجده فى أساس ذلك العبث الذى يطالعنا فى رسالته .

والذى لا شك فيه أن طول الاحساس بالألم والعجز عن الخلاص منه أو التسليم بحكمته خليق بأن يقود إلى نوع من اليأس العقلى يرد كل رأى ولا يؤمن بأى رأى ، وقد امحت قيود الواقع التى تحكم تفكيرنا وتقضى فيه بالصحة أو البطلان ، وهذا ضرب عنيف من الثورة العقلية كم سيق إليه رجال ممن يعجزون عن تغيير الواقع فيرفضونه وكأن لا وجود له ، وقد ذهب إيمانهم بكل شىء وبكل أحد ، لأن قوة إحساسهم بالألم لا تدع فى نفوسهم فراغاً لغيره .

لم يستطع أبو العلاء أن يرضى بالواقع ، فرفضه فى ثورة عنيفة لم تجتح واقعه هو فحسب ، بل اجتاحت كل واقع ، وضرب بعقله الجريح فى عالم الممكنات ، وقد أرهف الألم تفكيره ، فإذا به عابث ، والعبث أكبر مظاهر حساسية العقول .

ألا تذكر قوله فى (الفصول والغايات) : « يقدر ربنا أن يجعل الانسان ينظر بقدمه ويسمع الأصوات بيده وتكون بنانه مجارى دمعه ويجد الطعام بأذنه ويشم الروائح بمنكبه ويمشى إلى الغرض على هامته » وكأنى بنجوى نفسه

تهمس : وإن صح ذلك فلمَ لم يترك لي بصيراً ؟ وفنيت بنفسه « بيض الأماني والظلام ليس بفانٍ » فتزعزع إيمانه بكل ممكن ؛ وكيف يؤمن والواقع يتقله ؟ وإذا عزت الممكنات أحالها ألم الواقع ضربا من العبث تجد فيه عبدا من أعياد الذكاء ننتقم به من كل المحن .

وفي جنّة أبي العلاء من هـذه الممكنات أنواع في تصورها نفسيه أكبر ثورة على حقائق الإيمان . فكيف بها وقد أحالتها روح العبث (Humour) نِسبا تتقابل فتتعثر لها الشفاه . فهذا أعشى قيس وقد أصبح « شابا غرانقا وصار عشاه حورا ، وانحناء ظهره قواما » وهؤلاء عوران قيس الحمسة لم ير ابن القارح أحسن من عيونهم في أهل الجنان ، وهذا زهير الشيخ الفاني « شاب كالزهرة الجنية كأنه ما لبس جلباب هرم ولا تأفف من البرم » بل إن الجارية توفيق السوداء لتستبدل بسوادها بياضا أنصع من الكافور .

ومن عجب أن يصير الناس إلى هذا التغيير في جنة دخلها أسد الفاصدة لافتراسه عيينة بن أبي لهب كما دخلتها حية رضابها أصبح أفضل من الدرياق لأنها حفظت القرآن إذ سكنت في دنيانا دار الحسن البصري وطال استماعها تلاوته للكتاب بل دخلها « أخنس ذيال لأنه كان يروض في بعض القفار فمر به ركب مؤمنون قد كرى[1] زادهم فصرعوه واستعانوا به على السفر ، فعوضه الله بأن أسكنه في الخلود ثم . » عليج وحشي ما التاف عنده عجشي ، إذ صاده صائد بمخلب وكان إهابه له كالسلب ، فباعه في بعض الأمصار ، فاتخذ منه غرب[2] شق عاته الكرب ، وتطهر بترنيمه الصالحون فشملته بركة من أولئك ، فدخل الجنة يرزق فيها بغير حساب » وليست تلك جنة القرآن التي يعاود المؤمنين فيها شبابهم وجمال أجسامهم « لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » وإنما هي ممكنات يبعث

(١) عقد . (٢) دلو .

بها عقل أبي العلاء القصي وقد أمامت الشوز لذلك العبث ذكريات الأدب بل تداعي الألفاظ كحور الأعشى وبياض السوداء وما إلى ذلك مما لاحصر له في كل ما كتب المعري . وفي الحق أن جنة أبي العلاء مثلها كلها مثل الحور العين التي حدث عنها أحد اللائكة ابن القارح قائلا : « إنها على ضربين : ضرب خلقه الله في الجنة لم يعرف غيرها وضرب نقله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة » فهي مزيج عجيب من ماضي العرب وجنة الخلد ، وفي ذلك الماضي كما في حقائق الجنة ما يمكن أبا العلاء من أنواع من الممكنات في نسبها وقلبها للأوضاع مما يحوط ذلك من منحى الدراما وواقعية الحديث ، ما يمكن لروحه العابثة . فلقد نرى فيها أحمد بن يحيي وقد غسل من الحقد على محمد بن زيد فصارا يتصافيان ويتوافيان ، وسيبويه وقد رحضت سويداء قلبه من الضغن على علي بن حمزة الكسائي وأصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة ، فهم كما جاء في الكتاب العزيز : « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » بينما نرى النابغة الجعدي والأعشى يتشاجران كما يتشاجر الشعراء ، وتبلغ بهم الخصومة حد الإقذاع وكأنما قد « نُزِفوا[1] » فيصيح الجعدي بالأعشى : « اسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم إن دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله . لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلي بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنك قد غلط بك » .

وهكذا يتصافى من احتدمت بينهم الخصومة بدنيانا ، بينما يتقاتل من لم يرد عنهما القتال ؛ وهذا دأب أبي العلاء المتصل ، حتى لنراه يصرف عدي بن زيد إلى ما ألف في دنياه من قنص رغم ما في الجنة من متع وخيرات « ورضوان من الله أكبر » كما يأبى المغفل إلا أن يحتلب ناقة معلفلة قيضها له الله بقدرته إرضاء لهوى نفسه التي لا تتذوق إلا

(١) من قوله تعالى : « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » ، أي يجنون .

ما اعتادت رغم ما في الجنة من أنهار من لبن ، حتى إذا أصاب ما يريد صاح أن « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

وعند أبي العلاء أنه ما دمنا قد رفضنا الواقع وثرنا على ظلمه حتى تحرر العقل من حكمه « فليس ثمة شيء على قدرة ربنا بعزيز » بل قدرة خياله هو وعبثه الجريء ، فللنفوس أن يتنزع عنها أو يعود ، وللجنة أن تضم خيار البشر أو الوحوش ، ولسكانها أن ينعموا بلذاتها أو يعودوا إلى ما ألفوا من قنص واحتلاب ، بل للمذنب أن يحمد الله على أن هداه إلى حليه وأن يرى في ذلك الحليب تلكم الجنة التي يورثها المؤمنون ، فالأمر كله عبث « وما لأمر حقيقة » .

بل للكائنات أن تتناسخ كما يحلو للتصور ويمكن من العبث ، فإذا مر ابن القارح رف من الأوز انتفضن فصرن جواري كواعب يرفلن في وشي الجنة وبأيديهن المزاهر وأنواع ما يلتمس من الملاهي ، بل لشجر الجوز أن ينع لوقته ثم يتساقط عددا لا يحصيه إلا الله ، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جوار يرقن الرائين ، يرقصن على أبيات منسوبة للخليل . كما يمر طاووس من طواويس الجنة يسر من رآه حسنا ، فيشتهيه أبو عبيدة مصوصا[1] فيكون كذلك في صفحة من الذهب ، فإذا قضى منه الوطر انضمت عظامه بعضها إلى بعض ثم يصير طاوسا كما بدأ ، فتقول الجماعة : « سبحان من يحيي العظام وهي رميم — وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى . قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

ولقد يكون في هذا ما يتفق مع ما قال به الهنود أو اليونان من تناسخ علم به أبو العلاء ، ولكن الوقوف عند هذا الفهم لا يرينا من نفسية أبي العلاء إلا شكلها الخارجي ، وأما صميمها فهو فيما أعتقد من إيمان بالألم يقابله يأس من اليقين العقلي ، وثورة على الواقع ، وعبث بالممكنات ، وفي هذا جماع حقيقته النفسية .

وتلك تجربة أبي العلاء لا يغني في فهمها منهج ولا أصول النقد ، لأن النفوس كما قلنا ليست قطرات ماء أو أوراق شجر يمكن أن يشابه بعضها بعضاً ، وإنما هي حقائق فريدة نحس أكثر مما ندرك .

فأبو العلاء لا يشبه أحداً على الاطلاق ، فلقد التمس له النقاد أشباهاً من لوكريس إلى أناتول فرانس إلى دانتي إلى ملتون إلى شوبنهور إلى الخيام ، وليس في كل ما كتب إلا ضروب من التجوز وإغفال لدقيق الفارقات ؟ إذ أين إيمان دانتي وملتون من يأس أبي العلاء العقلي ؟ وأين تقريرات لوكريس من عبث رجلنا الفكري ؟ وأين تشاؤم شوبنهور الفلسفي من ثورته العاطفية ؟ وأين سخرية أناتول فرانس من استهتاره ؟

ثم كيف تنعقد مقارنة بين الخيام والمعري ، والخيام رجل عاف الحياة لطول ما انغمس في خمرها ، حتى إذا هفت نفسه إلى الفناء المطلق أحسسنا فيه لساعتنا عدمياً واعياً لما يفعل ، صادقاً عن ملل : « مللت بإلهي وجودي وضيق صدري وفراغ يدي . أمن يجعل من العدم وجوداً أخرجني من عدمي بحرمة وجودك » . بينما أبو العلاء رجل لم ينصرف عن متع الحياة إلا لأن خيارها قد « خشن عنه » ، فالتمس في أمجاد الذكاء عزاء من الحرمان .

وواجب النقد فيما أحسب هو فهم تجارب الكتاب والشعراء فهماً نفسياً لا تحده أصول ولا علية علم ، وإنما نستعين بالعلم وبالأصول عند دراسة صياغة ما كتبوا .

ورسالة الغفران من هذه الناحية ليست « كتوم » الماسي الذي يطلب إلى قارئه أن يتصور ما هو صائر إليه من نعيم أو عذاب في آيات القرآن وأحاديث النبي ما يصرنا بوقعها في النفوس إن لم يصرنا بحقيقتها على

(١) طاما على طريقة خاصة .

وجه التحديد ، وهي ليست قصصاً لخلق العالم وخروج آدم من الجنة كما فعل ملتون في « فردوسه المفقود » ، بل ولا تصويراً شعرياً للعالم الآخر كما يحدثنا عنه الاسلام، وإنما هي حيلة أدبية تجمع كما قلنا بين بعض حقائق الدار الأخرى وبين أدباء وكتاب العرب كما يحدثنا عنهم التاريخ

وأبو العلاء يفكر أو يعبث بكل هذا معتمداً على ما يحفظ يجيء له المناسبات ، بحيث أن وحدة تأليفه لا تلوح في غير تداعي الألفاظ ، أو على الأكثر تداعي المعاني لروابط شكلية أكثر منها داخلية .

وهذه الحقيقة أظهر ما تكون في هيكل الرسالة ، فلقد بدأ المعري بأن نقل ابن القارح إلى الجنة رأساً بفضل كله الطيب الذي يستطيع أن يصعد به إلى السماء ، وهناك لقي من لقي من شعراء ، حتى إذا كان بينه وبين أحد عوران قيس حوار يسأل فيه ابن القارح أعور قيس عن بعض أبياته فلا يذكرها مدعيا أن وقفة الحشر قد أنسته كل شيء ، ذكره ابن القارح بما نسي ، فيعجب الرجل من عدم ذهاب ذاكرة ابن القارح مع أنه قد مر بلا ريب بالحشر والصراط قبل أن يصل إلى الجنة ؛ وهنا يحتال أبو العلاء فيعود إلى ما كان يجب أن يبدأ به فيدفع ابن القارح إلى سرد قصته الممتعة عن عبور الصراط وكأنه في سبيل العبور بالفعل ، ثم يعود به إلى الجنة ومنها إلى الأعراف يشرف من عليائها على أهل النار ، وفي النهاية يرجع ثانية إلى الجنة ؛ وبذا ينتهي الجزء الأول من الرسالة وهو الذي يعنينا ، إذ الجزء الثاني رد على رسالة ابن القارح عن الزندقة والزنادقة .

وفي الحق أن من الروايات ما يبدأ كتّابه من منتصف القصة ، بل وأحياناً من نهايتها دون أن ينال ذلك من جمال القصص إن لم يزده تشويقاً ، ولكن هذا ممكن عند ما يكون للقصة موضوع واحد يفسر بعض أجزائه البعض الآخر ، وأما في رسالة الغفران حيث الأمر كله أمر مناظر مختلفة وحوادث متفرقة ، ومقابلات شتى أمكنة متعددة وبين أشخاص متباينين ، فنظام التأليف يلوح مشوشاً .

نعم إن دانتي قد أسرف في تنظيم « كوميدياه » ، وأملّ بعض الملل بتقاسيمه المنطقية التي عهدها كل رجال القرون الوسطى ، فجعل كلا من الجحيم والمطهر والجنة تسع طبقات ، كما جعل من وصفه لكل منها ثلاث وثلاثين أغنية لولوع المسيحيين بالعدد ثلاثة ومضاعفاته ، تقديساً لثالوثهم الالهي ؛ ولكن أبا العلاء بدوره قد أهمل وحدة التأليف إهمالا تاما ، بل نحن لا نظن أنه قد قصد إلى شيء من هذا ، وإنما هي كما ذكرت مجموعة من تداعي ما يحفظ ، ولعله في هذه الرسالة قد كفّر عما في لزومياته وفصوله وغاياته من تنظيم وتقييد أشياء أكثر مما يضنيا القارئ اليوم .

ومع هذا فنحن لا نتخذ من انعدام الوحدة سبيلا للحط من قدر هذه الرسالة الممتعة ، إذ فيها من الصفات الأخرى ما يحتفظ لها بقيمتها من ناحية الصياغة ، فوق ما بها من ألوان نفسية ، ولنفصل ذلك في إيجاز .

نعم ، إن الرسالة عارية عن تلك القيم الرمزية التي تشهد لدانتي بالعبقرية ، والكل يعلم كيف افتن الشاعر الإيطالي في وصف وتصوير أنواع العذاب والنعيم مقيما رابطة بين عمل من يصلى العذاب أو ينعم بالنعيم وبين ما هو فيه من ذلك على نحو ما نرى المواصف تتقاذف أصحاب الشهوات وسط النيران ، أو المنتحرين يقضى عليهم بأن يحيوا حياة أبدية سجينين داخل الأشجار التي استحالت قشرتها أسيجة منيعة ؛ وفي القرآن بعض من هذا كقوله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . ولكن أبا العلاء لم يفكر في شيء من ذلك .

ومع هذا فثمة خصائص أخرى تكسب « الرسالة »

من الجنة والحياة ما لم يتوفر لكوميديا دانتى ؛ هناك تلك الواقعية التى تطالعنا فى الحوار وفى المشاهد فتقربنا من حياة العرب الخشنة كما نألفها فى كتب التاريخ والأدب مما يحدو لذة القارئ» . وفى قنص عدى بن زيد واحتلاب المذلى للناقة أمثلة جيدة لما نقول . وهنالك عنصر التمثيل بما يحمل من حركة وحوار يخالطهما العبث فتفتر الشفاه ويستيقظ الانتباه ، وفى قصة عبور الصراط مثل رائع لذلك ، حتى لتكاد تكون مهزلة صغيرة متماسكة كأروع ما كتب مؤلفو المسرح . وهل أبلغ فى الهزل من أن ترى فى يوم الحشر الذى تشيب من هوله النواصى شيخا أبيض اللحية مرسلها كأن القارح يصاح به وسط الجموع : «يا على بن منصور ! يا على بن منصور ! يا قاضى حلب» ، أو أن تراه على الصراط وقد عجز عن عبوره فحملته إحدى جوارى الجنة «زقفونة» على نحو ما يفعلون فى «كفرطاب» ، وهناك أخيراً روح الدعابة (Humour) التى سميناها العبث وهى تعتمد على التناقض والاسراف فى النسب يستعين بهما الكاتب على أداء كل ما يعرف وما يريد أن يقول فى تقية بل فى خفر .

وتلك فيما أحسب أهم وسائل أبى العلاء الفنية نضيفها إلى الحالة النفسية التى سيطرت عليه فتخرج بنوع من الفهم إلا يكن مطابقا لحقيقة تلك الرسالة فهو مقارب قريبا أرجو أن يدنيها إلى أكبر عدد من القراء .

محمد مندور

وزارة المعارف العمومية

اعلان

قررت وزارة المعارف العمومية إنشاء معهدين للعميان أحدهما بمدينة طنطا والآخر بمدينة أسيوط على أن يتم فتحهما فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ .

والغرض الأساسى من إنشاء هذين المعهدين هو تعليم العميان القراءة والكتابة وبعض الصناعات التى يمكن أن يحذقوها . والتعليم بهما مجاناً وداخلية . وتقدم الوزارة للتلاميذ الأغذية والملبس من غير ثمن .

ويقبل بهذين المعهدين الذكور العميان (من سن السادسة إلى العاشرة) أو الذين لا تزيد قوة أبصارهم عن $\frac{٦}{٣٦}$ فى مجموع العينين فى حدود هذه السن أيضاً .

وتشتمل خطة الدراسة بهذين المعهدين على القرآن الكريم والدين واللغة العربية والأشغال والحساب والمعلومات العامة .

فعلى من يرغب فى اللحاق بأحد هذين المعهدين أن يقدم طلبه لمراقبة منطقة وسط الدلتا التعليمية بطنطا لمن يريد اللحاق بمعهد طنطا ولمنطقة مصر العليا الشمالية التعليمية بأسيوط لمن يريد اللحاق بمعهد أسيوط وآخر موعد لتقديم الطلبات هو ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٢ .

٩٥٠٨

سرقة بغير سارق

من الذكريات التي تستأثر بوجدان كامل افندي كامل واحدة كلما استدعاها من غياهب الماضي لبث في هالة من نور الوضوح والقوة وأيقظت في صدره العواطف والانفعالات التي بعثتها فيه وقت حدوثها ، فتتمثل لوعيه ممثلة حياة ، حتى لتوشك أن تحرك أعضاءه وتدفع بالدم إلى أطرافه دافقاً . . .

كان ذلك لسنوات خمس خلون . وفي مساء من أماسي يناير والجو قارس البرودة ، والهواء يندفع في شوارع القاهرة مزمجراً يبعث القشعريرة في الأطراف المرتعشة والأسنان المصطكة . وكان يأوى من سينما دائما إلى مأوى دفء ، ساخن بأنفاس النظارة ، فاطمأن إلى مجلسه من الصفوف الخلفية واضعاً معطفه على حجره متتبعاً الحوادث التي تعرضها جريدة البرق .

ولم يكن ذلك اليوم خلي البال ولا صافي النفس ، فقد احتدم الشقاق بينه وبين رئيس قسم الرسم بوزارة الحربية . ونفد صبر الرجل فكتب مذكرة يقترح فيها حرمانه من العلاوة التي يستحقها قريباً ، وأجمع على رفعها إلى المدير العام ، وذهبت مساعي محبي الخير سدى ، فلم تثن الرجل عما أجمع عليه . وكان يحتقر رئيسه ويخيل إليه شبابه أنه تركة بالية ولى زمانها ؛ على أنه لم يغب عنه معنى المذكرة لو تحقق الاقتراح التي تضمنته ، واستولت عليه الكآبة وتبلبلت أفكاره وظل يومه مغتماً . وقد مضى إلى السينما فراراً من فكره ، ولكنها لم تغن عنه كثيراً ؛ فجعل يتابع أخبار جريدة البرق المصورة بانتباه مذبذب ، بين ما تعرضه الشاشة وما تقلق له نفسه ، حتى أضاءت الأنوار مؤذنة بالاستراحة ؛ فنهض واقفاً وترك معطفه على مقعده ، ومضى إلى المقصف فاحتسى فنجاناً من القهوة ، ووجد الجو في الخارج شديد البرودة فعاد إلى مقعده واتخذ مجلسه واضعاً معطفه على حجره كما كان .

وأخذ يتسلى بالنظر فيما حوله في هدوء وعدم اكتراث ، ثم لاحت منه التفاتة إلى معطفه فخال أنه يرى شيئاً لم يتبينه يبرز من الجيب ، فأمعن فيه النظر فأدرك أنه طرف ورقة من ذات الجنيه ، ولاح في وجهه الانكار ، لأنه ذكر جيداً أنه غادر البيت وجيبا معطفه خاليان ! وقد قطع الطريق ما بين محطة الترام والسينما واضعاً يديه في جيبيه ، وهو إلى ذلك استبدل بآخر جنيه تبقى له من مرتبه نقوداً فضية ! فمن أين أتى هذا الجنيه ؟ وكيف وضع في جيبه !

وتحير من أمره ، لأن وجود جنيه غريب في جيب إنسان مما يحير حقاً . خاصة إذا حدث هذا في مكان عام كالسينما حافل بخلق حاشد من الناس ، وخطر له خاطر عجيب ، والخواطر ترد على الذهن أحياناً كأنما تبعثها قوة خفية فتكشف من حقائق نائية في القوة والابداع ، أو توقع في الضلال المبين . وفي كلتا الحالتين يغدو الانسان لعبة بين يديها لا رأى له ولا حيلة . وقد خطر له أن يكون بين الجالسين حوله نشال بارع ، لعله دس يداً إلى جيب واحد من جيرانه وانتشل الورقة النفيسة ، ولكنه لسبب من الأسباب لم يتمكن من إيداعها جيبه ، أو خشي أن تلفت حركته بعض الأنظار ، فدسه في جيب معطفه حتى يعود إليه في أمن من الرقباء . . . . وقد حاول أن يجد لظهور الجنيه في جيبه تعليلاً فلم يظفر إلا بهذا ، وقوي أثره في نفسه ، فاشتد وضوحه في ذهنه ، وصارت له صفة الحقائق الملموسة ، واستولى عليه القلق ؛ فابتعدت يده عن الجيب ، ورفع عنه ناظريه ، لأنه أيقن أن عيناً بغير شك تراقبه عن كثب ، واشتد قلقه ، واستحوذ عليه الخوف ، وأمضته هذه الحقيقة الرهيبة ، وهي أنه يحوز جنيهاً مسروقاً . . . فكيف يطمئن ، وخطر الافتضاح قد يكون أقرب مما يتصور ! ؟ . . .

وازدادت مخاوفه ، وتساءل ساخطاً : من عسى أن يكون ذلك الذي أوقعه في الحرج والضيق ؟ . . . إنه يذكر حين أشرف على مقعده بعد احتساء القهوة ، أنه رأى

جاره الأيسر مائلاً في جلسته إلى ناحيته ، إنه يذكر ذلك جيداً ؛ فهل كان يتوثب لاسترداد صيده ؟ .... إن قلبه يحدثه بأن ذلك الجار هو النشال الخطير .... وأراد أن يختلس منه نظرة ، وقد وجد في تحقيق إرادته مشقة ، فعطف رأسه بعد تردد إليه . وفي تلك اللحظة تحول رأس الرجل نحوه ، فالتقت عيناهما فخفق قلبه بشدة ، وغض طرفه ، وقد أحس نظرته تنفذ إلى صميم قلبه ، وقطع الشك باليقين ؛ لم يعد يشك في أنه نشال الجنيه الماكر ، وقوى شعوره بأنه فطن إلى قلقه ومخاوفه ، وأنه — بتلك النظرة الحادة النافذة — قرأ أفكاره وهواجسه ، ولا ريب أنه رصد حركاته ، وراقب الورقة الثمينة بطرف خفيّ ساهر وهو آمن مطمئن ...

وانطفأت الأنوار وبدأ عرض الفلم فارتاح لظلمة قليلا ، ولكن جاره مال نحوه وارتفق يد مقعده وأسند ذقنه إلى كفه . وقد تمنى صادقاً أن يسترد الجنيه ويكفيه شره ، ولكنه في نفس الوقت تحسست يده حافظته في خوف وحذر ، وعلى حين غرة خطر له خاطر جديد أشد عذاباً من الأول ... ألا يجوز أن الرجل وجد الجنيه بعد استلابه معلماً بإمضاء أو نحو ذلك فدسه في جيب معطفه حتى يطمئن إلى غفلة صاحبه ؟ .... إنه فرض محتمل جداً ، وقد يفتقد المسلوب الجنيه فلا يجده ، وهنالك يتهدده خطر الافتضاح والجريمة ، ويعوزه الدليل الذي يدفع به عن نفسه التهمة الخطيرة .... وبلغ به القلق حد الذعر والفزع ، فتفصد جبينه عرقاً بارداً ، وخال أن طمأنينته وسعادته وشرفه أمست معلقة بخيط واه ، انفصاله رهن بإشارة بسيطة تصدر من صاحب الورقة المجهول . وتملل في مجلسه ، وارتعشت أعصابه ارتعاشاً شديداً فدوى نبض صدغيه في أذنيه وأحس اختناقاً ، وضاق صدره ، وبعث الجزع في صدره استماتة ، فقال لنفسه : «إذا لبثت هنا فلن تنتهي الليلة بسلام» . ونهض قائماً وأخذ معطفه وغادر المكان إلى البهو الخارجي ، وكان يظن أن الرجل حتماً تابعه على الأثر ، ولكنه لم يأبه لذلك كثيراً ، وتقدم نحو الباب الخارجي ، فلفحه الهواء البارد ، فارتدى المعطف ، ثم انعطف نحو الطريق المؤدي إلى شارع فؤاد الأول ومضى في سبيله . وكان انتباهه موجهاً إلى ما وراءه ؛ فوصل إلى أذنيه وقع أقدام تتبعه من بعد قريب ، وخال أنه يرى صاحبها رؤية العين ، ولكنه لم تواته شجاعته على إطاعة رغبته في التحقق من ذلك ، فحث خطاه وقد عاوده بعض قلقه ، وجعل يقول لنفسه ليهدئ روعها : «من الحماقة أن أخاف لصاً أحق بأن يخافني ويخاف الناس جميعاً .» ولكنه كان يخشى في الواقع أن يبحث عما ليس في الحسبان ، كما يخشى بوجود الجنيه في جيبه ، وعزم على أن يتخلص نهائياً من دواعي القلق ؛ فأدلى يده من الجيب وأمسك الورقة بطرف إصبعيه وسحبها بلطف وتركها تسقط على الأرض وهو يقول : «فليذهب بها إلى الشيطان» ... ومضى وهو يتنفس الصعداء ! ... ولكنه لم يكد يخطو بضعة أمتار حتى سمع هاتفاً يقول : «يا أفندي» ، فالتفت وراءه منزعجاً لغير ما سبب واضح فرأى الرجل الذي كان يتبعه — وقد أدرك أنه يراه لأول مرة في حياته — يقبل نحوه ماداً يده بالجنيه وهو يقول : «لقد سقط هذا منك» ؛ فأذهلته الدهشة وتناول الورقة بحركة آلية ، وهو يعجب لهذا الجنيه الذي يأبى أن يفارقه ، وألقى نظرة على ما حوله فوجد الطريق كالقفر ، فداخلته الطمأنينة وبات كل ما يهمه هو ماذا يصنع بهذا الجنيه الذي لا حق له فيه ... وسار متفكراً ودس يده في جيبه فاذا بأنامله تلمس رزمة من الأوراق فارتجف كأنما مست ناراً ، واستخرج ما في جيبه فوجد في يده ثمانية جنيهات ... رباه ... هل تكاثرت الجنيهات في جيبه ؟ ... من أين جاءت هذه الثروة الصغيرة ؟ ! .... ووقف ينظر في الأوراق بعينين ذاهلتين ، وقد انعقد لسانه من الدهشة والانكار ، ولم يجد للمسألة إلا حلاً واحداً ، هو أن النشال اختلس

فى الواقع ثمانية جنيهات وخبأها فى جيبه ، ولكنه رأى طرف واحد منها فقط .... وتفحص ما حوله بحذر فلم يجد ما يريبه ! فاختبر الجنيهات بعناية فلم يعثر بها على أى علامة ! فعجب كيف رضى الرجل أن يودع هذه الثروة جيبه ويرضى من الغنيمة بالإياب .. . ولم ير بداً من العودة إلى بيته فقال لنفسه وهو يستأنف السير : « مهما يكن من أمر هذه الجنيهات فسوف أجد وسيلة لردها إلى صاحبها ... »

وفى صباح اليوم التالى ذهب إلى قسم الرسم بوزارة الحربية حيث يعمل رساماً ، ولم يكن انتهى من مسألته إلى حل ، فجعل فى نيته أن يستعين بمشورة أصحابه . على أنه بمجرد أن دخل الحجرة ووقع بصره على رئيسه نسى مسألته إلى حين . وعاودته عواطف الحنق والوجدة ، وذكر العلاوة التى قد يحرم منها ، فاسترجع ضيقه وحزنه . وكان يجلس إلى جانبه شاب من زملائه المحبوبين يشاركه عواطفه نحو الرئيس ، فمال نحوه وهمس فى أذنه :

— انتقم الله لك منه .

فأدرك كامل أنه يعنى الرئيس دون غيره فسأله بلهفة :

— كيف ؟

فقال الشاب بنفس الصوت الخفيض :

— أضاع أمس ثمانية جنيهات ، وأنت تعلم مقدار حرصه وشحه !

فحدجه كامل بعينين متسعتين ، وقد نفذ كلامه إلى قلبه ، ولكن الآخر لم يفطن إلى بواعث دهشته الحقيقية ، فاستدرك قائلاً :

— وقد قال إنها كانت فى جيب معطفه ، وإنه أودعها بنفسه هنا فلا محل للقول بأنه فقدها فى الطريق ، وجعل يهدر مغيظاً محنقاً حتى كاد يذرف الدمع ساخناً .

ونظر كامل إلى مشجب الحجرة فرأى معطفه معلقاً إلى جانب معطف الرئيس ! فلم يشك فى أن الرجل أودع نقوده فى جيبه سهواً وخطأ ، هذا هو الحل المعقول للمسألة التى أزعجته فى السينما ، ومهدت لبلته وولدت فى قلبه أوهاماً لا أساس لها من الحق .... وهز رأسه وقد علت شفتيه ابتسامة ، ونظر صوب الرئيس المكفهر الوجه بغبط وكبر عليه أن يسخره القضاء لكشف محنته ... على أنه لم يكن من الأمر بد ! فنهض متثاقلا ومضى نحو مكتب الرئيس وأبرز الأوراق من جيبه بسكون ووضعها بين يديه وهو يقول : « هاك نقودك ترد إليك بمشيئة الله » !

فحملق الرجل فى الجنيهات ثم فى وجهه ، وثبت النظارة على عينيه وقد جرت الدهشة فى ناظريه وتألق وجهه بنور فرح لم يستطع كتمانه ! .. فقص عليه الشاب القصة بحذافيرها .

ومنذ ذاك اليوم صفا بينهما الجو ، فلم يعد الرجل فى نظره تركة بالية ، ولم يعد هو فى نظره غلاماً مشاكساً .

نجيب محفوظ

محكمة إسنا الجزئية الأهلية

إعلان بيع عقار فى القضية المدنية رقم ١٨٠ سنة ١٩٣٦

إنه فى يوم الثلاثاء ٣٠ يونيه سنة ١٩٤٢ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد المنزوع إلى أحمد محمود الزنيرى من إسنا والراسى مزاده أخيرا على الخواجه بسادة جرجس بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٩٣٨ بثمن قدره ٢٣ جنيه والمصاريف وقدره مبلغ ١١٢٧ قرش صاغ خلاف ما يستجد من المصاريف ونظرا لتخلف المشترى من دفع الثمن صدر أمر حضرة القاضى بإعادة البيع على ذمته على أن يكون الثمن الأساسى الذى يبنى عليه المزايدة ٢٣ جنيه وهاك بيان العقار السكائن بزمام ناحية زرنيخ والسكلاية مركز إسنا مديرية قنا .

١ فدان بحوض الثلاوى رقم ٧ من ٦٢ مشاعا فى القطعة البحرى رقم ٢٦ ملك ورثة أحمد الصاوى ضمن فاصل حوض رقم ٦ والقبلى رقم ٦٢ مكرر ورثة محمود عبد الرحمن والشرق المحكومة ومحدودة الجبل والغربى رقم ٦١ ورقم ٦١ مكرر ملك ورثة سعيد عمر وآخرين .

١ فدان واحد لا غير .

وهذا البيع بناء على طلب صالحين حسن رمضان من إسنا وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٩٣٦ ومسجل بمحكمة قنا الأهلية بتاريخ ١٩٣٦/٦/٢٥ تحت رقم ٥١٤ بالصحيفتين رقم ٦٦و٦٧ .

أما أوراق وشروط البيع فمودعة بدوسيه القضية بقلم كتاب المحكمة تحت طلب من يرغب الاطلاع عليها . فعلى راغب الشراء الحضور فى الميعاد المحدد للمزايدة . (كاتب اليومية)

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ......"

معركة السلام ! — أدباؤنا العشرة ! — نحن الأدباء ! — مخالفات أدبية ! — عـــدو المرأة ! — تناقض !

معركة السلام !

انتهت معركة السلام ... إلى الســلام بين العقاد وتوفيق الحكيم ، ونُغضى — سروراً بهذه النتيجة — عن شىء من الاسراف فى « التأويل » و « الاستنباط » و « الحكم » أوشك فى بعض مراحل المعركة أن ينقلها من ميدان إلى ميادين !

على أن شيئاً من بعض مظاهر هذه المعركة الطريفة لا ينبغى أن نُغفل إثباته ، هو أن شيئاً من « العنف » فى ناحية كان يقابله فى الناحية الأخرى لونٌ من « التسامح » يشبه « التسليم » وإن لم يستسلم ؛ ولعل هـذا هو الذى عجّل بانتهاء المعركة ؛ وحسْبك بما ينتظر القراء من معركة أحد طرفيها العقاد ! ... ولكن فى الطرف الثانى كان توفيق الحكيم !

أدباؤنا العشرة !

... وشىءٌ آخر « على هامش المعركة » يثير طرفاً من الحديث ؛ فقد جاء فى آخر مقـال لتوفيق الحكيم بالعدد ٤٦٦ من الرسالة :

« ... أدباء مصر البـارزون الدائبون على الانتاج لا يتجاوز عددهم العشرة مع التسامح الشديد ... ...

« ... وكان الأجدر بنا — نحن العشرة ! — أن توجّه صراعنا لا إلى بعضنا البعض ، بل إلى الفن ومصاعبه وأسراره ! » .

عشرة ... ! نعم ، إنهم توفيق الحكيم وتسعةٌ معـه — مع التسامح الشديد ! — هكذا يقول توفيق الحكيم ؛ ويتنبّه القـارىء العربى من غفلة ، فيسأل : أ كلُّ هـذا الدوىّ الصاخب فى الشرق والغرب يُحدثه عشرةُ نفر ؟ ... يا للمجد ! ... ويرفع القارىء عينيه عن صحيفته ليَعُدّ ويحصى ويعرف مَن هؤلاء العشرة ، فيختلط عليه الرأى وتتزاحم الأسماء ؛ لعلهم أقلُّ من ذلك عدداً ، أو لعلهم أكثر ؛ ولكن مَن هم ؟ ... هـذا هو السؤال فمن ذا يجيب ؟ وإن فيه لمجالاً للاستفتاء ، وإن شيطانى ليُغرينى بأن أتوجّه به إلى قرائى لأعرف ويعرفوا ؛ ولعل بهذا الاستفتاء أبذر بذور معركة أخرى ، أو معَارك ؛ وإنى ليحلُو لى — كما قدمتُ فى بعض ماسبق من حديثٍ فى هذا الباب — أن أشهد معارك الأدباء !

فهيّا ، هيّا يا قرائى ... مَن هم أدباؤنا العشرة ؟ .. بل التّسعة ، فإننا نعرف منهم توفيق الحكيم !

إنى أنتظر !

نحن الأدباء !

... ويسأل قارىء : ما بال توفيق الحكيم يتحدث عن نفسه بهذا الأسلوب ، وهو الذى تَمنّى على الأدباء فى أول مقـال يدعوهم به إلى السلام أن يتألموا ويُغالوا بأنفسهم ؟ — ما باله يجعل فى بدء مقاله : « نحن العشرة .. » ، ويجعل فى خاتمته :

« ... ثم اتسعت آفاق باتساع مطالعاتى فى أصـول هذا الفن فى الآداب الأجنبية ، وضاقت بى مصر فرحلت إلى فرنسا ... ...

« ... ولكن أى شيطان فى أعماق كان يدفعنى إلى إضاعة حياتى وراء فن لم يكن له عصر أى احترام ؟ ...

« ... ولبثت فى هذا الجهاد زمنا لا أجد فى آدابنا العربية مرجعاً لهذا الفن ولامصدراً محترماً يجعلنى أبدأ منه أو أضيف إليه ؛ إنما كان علىّ أنا أن أخلق البداية خلقا !! » .

ماذا يقول ؟ ... لعل كل ذلك حق ؛ ولكن أين موضعُه من موضوع ذلك المقال ؟ وكيف نسى أنه بدأ هذه

المركة يعيب مثل ذلك على الأدباء ؟

إن القارىء ليسأل ولكني لا أملك الجواب ؛ ثم لأسأل معه : ماذا يحمل كثيراً من أدبائنا ، صغارهم وكبارهم ، المشهرة ومَن وراء المشهرة — على الحديث عن أنفسهم بمثل هذا الإطناب ؟

ويخيَّل إليّ أنى أعرف الجواب ؛ فهذه هى النتيجة المحتومة لمثل حالة النقد الأدبى فى مصر .

لو كان فى مصر نقدٌ أدبىٌّ صريح ينوِّه ويوجِّه ما وجدنا هذه الظاهرة الفاشية فى كثير من أدبائنا المعاصرين .

إن الأديب بَشَر من الناس ، بل لعله أكثر البشر إعجاباً بنفسه وإحساساً بوجوده ؛ وإن له لَحَقًّا على قارئه أن يَعْرِفه ، فإن لم يعرفه فلا عليه أن يسعى بنفسه ليتعرَّف إليه ويقول له : هأنذا ! . . . إن فيه مِن أخلاق المرأة : إن لم تجد من يقول لها « ما أحلاكِ ! » أسرعتْ إلى مرآتها لتقول لها « ما أحلانى ! » سواءٌ فى ذلك القبيحةُ والشَّوهاءُ الدميمة !

فإن كان أحدٌ يعيب على أديبٍ من الأدباء ، أو دعيٍّ فى الأدباء ، أن يقول : « هأنذا ! » فليدلَّنى على الناقد الذى يقول مخلصاً من واحدٍ من هؤلاء أو أولئك : « ها هو ذا ! » ، وإلا فليَدَعْه ومرآته !

محالفات أدبية !

ويدعونى ذكر حديث الأدباء عن أنفسهم إلى حديث يمتّ إليه بسبب ، هو حديث المحالفات أو المَحَاوِر الأدبية فى مصر — قياساً على محور « برلين — روما » فى السياسة — ولا بأس أن نستعير هذا التعبير من أساليب الحرب فى الدلالة على مثل معناه فى لغة الأدب ؛ فكما تجد أقطاب السياسة فى برلين وروما بعضهم لبعض ظهير على الحق والباطل — تجد هنا طوائف من الأدباء ... ، فثمة محور « الصاوى — توفيق الحكيم » ، ومحور « على طه — الصاوى » ، ومحور « مصطفى أمين — كامل الشناوى » ، ومحور « محمود غنيم — الأسمر » ، وهلمَّ جرًّا . . . . . .

هـذه المَحَاوِر هى لون آخر من الحديث عن النفس بلسان الغير ، وهى أيضاً أثرٌ لفقد الناقد الصريح الذى ينوِّه ويوجِّه ؛ فلو وُجِد هذا الناقد ما كانت هذه الاتفاقات « الثنائية » ليظاهر بعضها بعضاً على الحق والباطل ، فلا يكاد أحد الشريكين فى محور من هذه المحاور ينشىء حديثاً ، أو يكتب مقالاً ، أو يؤلف كتاباً ، أو ينظم قصيدة — حتى ينتفض شريكه فى المحور قلمه لينوِّه ويُشيد ويُطنب ويُطرب . . . . .

لستُ أعيب على هؤلاء ما رسموا لأنفسهم من نهج ، ولكنى ألوم الناقد ؛ لقد أخلى الناقدُ مكانه ونزل عن حقه فى التنويه والتوجيه ، فزعم « المؤلِّف » لنفسه أن من حقه أن يكون « ناقدَ نفسه » ، ولا عليه أن يضلَّ الجمهور أو يهتدى !

عدو المرأة !

ماذا ؟ . . . أليس لدىَّ من حديثٍ فى هذا الأسبوع إلا عن توفيق الحكيم ؟ ولكن توفيق الحكيم — وهو المُكْثِر من أدباء مصر مع التسامح الشديد — ليس عجيباً أن يشغلنى بالحديث عنه طول الأسبوع ! . . .

وماذا أيضاً ؟ . . .

توفيق الحكيم يزعم أنه عدوّ المرأة : هـذا حديث قديم ، وإنه ليُمعن بأن يؤكِّد هذا المعنى فى كل ما يكتب عن المرأة ؛ ولكنْ ليت من يدرى كما أدرى . . . !

إنه ليخيَّل إلىَّ أن فى المرأة سرًّا من سر « أولياء الله » ، فما غالبها أحدٌ إلا غلبته ، ولا تمرّد على سلطانها متمرِّد إلا قهرته وردَّته إلى الطاعة والاستغفار !

لقد قلتُ منذ أسابيع فى بعض ما كتبتُ عن توفيق الحكيم : إن « عقدة نفسية » تُملى عليه الرأى من وراء « الواعية الباطنة » فى كل ما يكتب عن المرأة وتثقفه

منها ذلك الموقفَ في حياته وفي أدبه !

فمن شاء أن يعرف ما هذه « العقدة النفسية » فليقرأ قوله في العدد ٤٦٦ من الرسالة :

« ... إنني لم أنتفع بقدر ما أضعْتُ ، فإن الشهرة قد جاءتني حقيقة بمحض المـال ... ، ولكن ، هل كنت محتاجاً إلى ذلك المـال ؟ ... أجاءتني بالمركز الاجتماعي ؟ ... كلا ، فقد كنت قبلها من رجال القضاء المحترمين ، ولو أني بقيتُ كذلك ، ولا شيء غير ذلك ، لظفرت بالحيـاة الهانئة الهادئة ... ولتزوَّجتُ الزوجة الصالحة وأنجبتُ الأولادَ البررة المفلحين .. ... .

« ... لقـد جاوزت الأربعين وما أبصر في الأفق بعدُ طيفَ واحة مورقة في صحراء حياتي المحرقة ! ما قيمة الشهرة بغير سعادة ؟ وفيم الأدب والفن بغير هناء ؟ ... »

وا أسفا يا صديقي ! ... أمِن هنـا كانت عداوتك المرأة ؟ ... ولكنها عداوة الفقير لـكل ذي مال ؛ لا ، بل إنه « شوق الحرمان » يتمثل لهفةً وحسرة ويبدو في زيٍّ عداوة ؛ لا ، بل إنه « برهان الحب » الذي يعطِّل ملكةَ التحكم فيُجري غيرَ ما يُرَى !

ولكنْ ما كان أقساك ياصديقي في عداوة من تحبُّ ! .. أكذلك يمتزج الحبُّ والحرمان والكبرياءُ فينشيء عداوة ؟..

... معذرةً ، لقد أسأتُ التعبير كما أسأتَ أنتَ الحكم ؛ إنها لم تنشيء عداوة ؛ أرأيت الأم تضم وليدها إلى صدرها فتشد ذراعيها حوله حتى لتوشك أن تحطم أضلاعه وما بها عداوتُه ؟ ... أوْ رأيت الفتى النشوان يضم راحته على الزهرة العطرة فيهصرها حتى تنتثر أوراقها وما به إلا أن يستوعبها من فرط النشوة عطراً ومادة ؟ ...

ما أشبه صـورةً بصورة ياصديقي وما أشبهك في عداوة المرأة !

تناقض !

في مصر مجلة اسمها « المجلة الجديدة » ، ولكنها ليست جديدة ، لأنها تحـاول أن تبعث من تحت التراب تاريخاً ماتَ في مصر منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ....

على أن هذا التناقض بين اسمها ودعوتها ليس هو كلَّ ما هناك من متناقضاتها ، ولكنه عنوانٌ على كلِّ ما فيها

١ — فهي تزعم أنها تدعو إلى الاشتراكية والمساواة ومحاربة الفقر والجوع ، ولكنها تقول إن الزكاة نظام بالٍ لا يتفق مع مقتضيات الحياة اليوم . لأن الزكاة لم تكن مشروعةً في مصر قبل ألف وثلاثمائة سنة ....

٢ — وهي تزعم أنها تدعو إلى العالمية ، أو الأممية ، ولكنها مع ذلك تنـاهض الدعوة إلى الوحدة العربية ، لأن مصر لم تكن من بلاد العربية قبـل ألف وثلاثمائة سـنة ....

٣ — وقد كان العقاد عند كاتبها يوماً « أعظمَ أديب في الشرق » ، ولكنه عندها اليومَ صنم ينبغي أن يحطَّم ، لأن كتابه « عبقرية محمد » لم يكن في مصر من يدين برأيه فيه قبل ألف وثلاثمائة سنة ....

وهي مع كل أولئك تزعم ويزعم كاتبها أنهـا مجلة « الجيل الجديد » !

« قاف »

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
مـ
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ لطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

مـ
ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

تراث العرب العلمى
فى الرياضيات والفلك

تأليف الأستاذ قدرى حافظ طوقان

للأستاذ قدرى ولع شديد بدراسة الآثار العربية فى الرياضة والعلوم والفلك ، قد توفر على ذلك منذ سنين ، صبر فيها على البحث والتنقيب وعمـل دائبا فى تعرف آثارهم ونشرها على قراء العربية بمـا يكتب فى الثقافة والرسالة والمقتطف ، وما يحاضر فى المجتمعات الفلسطينية — يؤمن حقاً بأن الأمة العربية « من الأمم التى خلفت آثارا جليلة فى ميادين المعرفة عادت على الحضارة بالتقدم والارتقاء » وأنه « لولا نتاج القريحة العربية لتأخر سير المدنية بضعة قرون » ، كما يؤمن بأن نشر تلك الآثار ووقوف النشء العربى عليها بجعله « يؤمن بأن له كيانا معتبراً فى عالم الاكتشاف والاختراع ، وأن الأمة العربية فى إمكانها المساهمة فى خدمة الانسانية — وفى هـذا كله قوى تدفع الأمة إلى السير بخطى أوسع نحو المجد ورفع مستوى الحضارة » .

وكانت نتيجة بحوثه إخراج هذا الكتاب القيم الذى اعتمد فيه على كثير من المصادر العربية (مطبوعة ومخطوطة) والمصادر الانجليزية .

تتبع فيه مآثر العرب فى الرياضة والفلك منذ العصر الجاهلى إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ، فى الحساب والجبر والهندسة والمثلثات والفلك ، وأبان ما اقتبسوا من غيرهم وما ابتكروا من أنفسهم ، وترجم لمشاهير العلماء فى تلك العصور المختلفة كالخوارزمى فى القرن التاسع الميلادى والبوزجانى فى القرن العاشر والكرخى فى الحادى عشر ، ثم الخيام والطوسى وابن الهائم والكاشى والقرشى إلى الروداني فى القرن السـابع عشر . وبعد أن يترجم لحياة كل من هؤلاء يذكر أشهر مؤلفاته ووصفها ومدى التقدم العلمى الذى بلغه ومشاهير العلماء الذين كانوا فى عصره .

وبذل جهداً موفقا فى العثور على كثير من المؤلفات ، مستعينا بكثير من علماء الأقطار المختلفة ، مستشهداً على ما يقول بالنصوص التى تؤيد دعواه ، مانحاً كل مؤلف حظه الذى يستحقه من الاطناب والايجاز .

ثم كان لتبحر المؤلف فى الرياضيات وتخصصه فيهـا أثر واضح فى شرح ما غمض من عبارات المؤلفين الأقدمين وتقريبها إلى الأذهان بالتفسير الحديث .

ولعـله أول كتاب عربى من نوعه يسلسل التقدم العلمى عند العرب فى هذه الفروع ، ويبين مدى تقدمهم وابتكارهم ، وفضلهم على المدنية الغربية .

كان هذا كله أشتاتاً فى كتب متفرقة ، فجمعها وصاغها ونفخ فيها من روحه المتحمسة وغيرته المتقدة ، فله جزيل الشكر على حسن صنيعه .

ويقع الكتاب فى نحو ٢٧٠ صفحة ، وطبع فى مطبعة المقتطف والمقطم بمصر .

أ . أ

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٣ الثلاثاء ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦١ — ٣٠ من يونيه سنة ١٩٤٢ السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

صوت الثقافة :

عـــــدونا الأكبر

قال لي الأمريكي الفاضل الذي كان يحدثني : « إن رقي شعب لا يقاس بما نراه من مظاهر المدنية والغنى في المدن الكبرى ، بل بما نجده في منازل الملايين من عامة الفلاحين والعمال وما نراه في قرى الريف ووسائل الحياة فيها » .

وخجلت أن أطيل معه الحديث والجدال ، إذ تمثل لي ما أعرفه من مظاهر الحياة في ريف مصر بين طبقات أهله من الفلاحين والعمال . ولقد هممت بعد ذلك أن أستعير نعرة القومية ، وأن أنقل ميدان الجدل إلى المعنويات الشائعة في الفلسفة الشرقية ، فخانني قلبي ، إذ أني أعتقد في قرارة نفسي أن التعلل بالمعنويات لا يغني من حقيقة الواقع في حياتنا المادية .

وإنه لمن حسن حظ مصر أن عقلية أهلها قد تغيرت فاتجهوا في الوقت الحاضر إلى وجهة جديدة ، كانت المسائل السياسية من قبل تصرفهم عنها ، ولا تدع لهم فراغاً للاقبال عليها . كان المصريون منذ حين يكتفون بأن يفاخروا بقوميتهم وبمجدهم الماضي ، وبجدارتهم للحياة بما لهم من ذكاء ، وما لبلادهم من مركز ممتاز في العالم ، لخصبها وحسن موقعها بين الأقطار . كانوا يتعمدون أن يفاخروا بهذا كله عندما كان النضال السياسي يتطلب منهم مثل هذه المفاخرة ؛ ولكن حدة ذلك النضال السياسي قد زالت أو اضمحلت وأخذت الأمور تستقر . فجعلهم ذلك ينظرون إلى الحقائق ويقرون بها ، ويلتمسون بالبحث مواضع ما يحسونه من ضعف لكي يلتمسوا بعد ذلك له الدواء ، وكانت أول الخطى نحو التوفيق أنهم علموا علم اليقين أن المجتمع المصري مريض يوشك أن يبلغ مرضه مبلغ الخطر .

اهتدى المفكرون إلى أن في الشعب المصري عيوباً كثيرة ، وإلى أن فيه نقصاً عظيماً في كل نواحي حياته ، وإلى أن هناك أدواء كثيرة تفتك بجسمه وبروحه وبعقله .

وعادوا بعد أن دققوا وبحثوا إلى نتيجة واحدة صارت اليوم عقيدة عامة نسمع صداها يتردد على ألسنة الشبان والشيوخ وعلى ألسنة المثقفين والجهلاء ، وعلى ألسنة أهل السياسة على اختلاف نزعاتهم ، وفي مباحث أهل العلم على تباين مذاهبهم . وهذه العقيدة هي أن شعب مصر فقير فقراً مدقعا ، وأن مصر بلاد لا تتسع مواردها الحاضرة لستة عشر مليونا يعيشون فيها ، وأن هذه الموارد مع قلتها قد شاركهم فيها جماعة من غير أهل البلاد ففازوا منها بحظ الأسد ، وتركوا لهم الفضلات .

ولقد سمعنا صدى هذه العقيدة من وزير خطير من وزراء الحكومة الحاضرة ، وهو وزير الشئون الاجتماعية ، إذ قال في مناسبة من المناسبات : « إن علة العلل هو الفقر فعلينا به إذا أردنا إصلاحا » .

إذاً لقد عرف المصريون أنهم شعب يشكو من علل كثيرة ، وأنهم لا يستطيعون مفاخرة الأمم ، وأنه هو الفقر عدوهم الأول ، وهو الفقر داؤهم الأكبر الذي يفتك بالصحة ويسلب الفقير ثوبه وكرامته وخلقه ، ويخيم بالجهالة على عقله ، ويهبط بروحه إلى مستوى يجعله لا يعبأ بالمعنويات السامية .

عرف المصريون أنه هو الفقر إذاً الذي يجب عليهم أن يحاربوه وأن يقاتلوه بما استطاعوا من قوة ، وأن يجعلوا كل همهم في مطاردته والقضاء عليه إذا أرادوا أن تكون لهم بين الأمم مكانة . وإنه لكسب عظيم لنا أن ندرك هذه الحقيقة التي كنا غافلين عنها أو تمنعنا العزة القومية من الاقرار بها . ولن يمتنع علينا التماس الدواء بعد أن عرفنا الداء ، وإن كان الحصول عليه شاقا أو كان بلوغه يكلفنا الجهد القاطع والهم المتصل .

لن يمتنع علينا أن نجد الدواء متى التمسناه من مظانه كما التمسته الأمم الأخرى التي كانت في مثل حالنا منذ قرن ثم صارت اليوم في صدر العالم ثروة وعظمة .

ونستطيع من هذه النافذة أن نشير إلى بعض أمور نرجو أن نشارك بها في التفكير وأن نرى بسهمنا في ذلك الجهاد الشريف . ولن ننقطع عن التحدث بهذا الحديث ما بقيت فينا قوة على ترديد القول مع الانفاس .

ونحن وإن كنا نشارك الباحثين في مشاكل الفقر في مجمل آرائهم ، نخالفهم في أمر هام ، وهو أنهم جميعا يميلون إلى أن يحسبوا الفقر نتيجة لتوزيع الثروة في البلاد ، أو لاستيلاء الأجنبي عليها ، أو لقلة موارد الطبيعة في بلادنا ، في حين أننا نرى أن السبب الأكبر في الفقر عندنا يرجع إلى عامل واحد ، وهو قلة فرص العمل أمام هذه الملايين المكدسة في الوادي الضيق . ونظرتنا هذه تؤدي إلى تجنب الاصطدام بين طوائف الأمة ، وتتحاشى ما لا داعي له الآن من مشاكل خطيرة لا قبل لنا اليوم بحلها .

ويمكن أن نلخص العوامل التي نظنها أسباب الفقر الكبرى في ثلاث شعب تلتقي جميعاً عند نتيجة واحدة : أما الشعبة الأولى فهي أن عدد سكان البلاد أعظم بكثير من قوة الانتاج الحاضرة ، فأفضى هذا إلى أن الفلاحين يتزاحمون على العمل المحدود تزاحما عظيما أدى إلى قلة الأجور ، فأصبح أجر العامل لا يكفي لأن يحفظ رمقه . وأما الشعبة الثانية فهي أن الفلاحين لا يجدون العمل إلا في أيام قليلة من السنة ، وقد قدر الباحثون أنهم لا يجدون عملا إلا في ثلث أيام السنة ، ويقضون الثلثين الباقيين عاطلين .

وقد ساعد على ذلك التعطل أن الانتاج الأكبر في البلاد إنتاج زراعي ، والزراعة بطبيعتها لا تحتاج إلى عمل متصل كل أيام العام .

فالفلاح إذا حرث وبذر كان عليه أن ينتظر حتى تهتز الأرض ويظهر نباتها ، وينمو العود ويحتاج إلى ري أو إلى (عزق) أو إلى رعاية .

فالانتاج الزراعي تشترك فيه الطبيعة والفلاح ، ومن

المحتوم على العامل أن يقبع فى داره حيناً بين أدوار عمله حتى تتم الطبيعة دورها فى العمل .

وأما الشعبة الثالثة فهى أن قوة الانتاج عند الفلاح محدودة لا تكاد تتعدى الزراعة ؛ فالفلاح الذى لا يجد عملا فى موسم زراعى ، يضطر إلى البطالة ولا يجد أمامه ميداناً آخر يتجه إليه بنشاطه . فهو فى كل حياته لم يهيأ بغير الزراعة ، ولم تهيأ الدولة باعداده لانتاج آخر غير هذه الصناعة الموروثة الآلية فى الزراعة ، يتوارثها أبناء الشعب ولداً عن والد بغير تفكير ولا حماسة ولا استعداد صالح .

ولسنا بحاجة إلى تناول أسباب الفقر الأخرى التى أشرنا إليها آنفاً ، فهى تعرضنا لنزاع الطبقات ، إذ نحن فى حالنا الحاضرة فى غنى عن التعرض لها .

ويكفى أن نقول إن الشعب الثلاث تلتقى كما قدمنا فى سبيل واحد يؤدى إلى نتيجة واحدة ، وهى أن جمهور الشعب المصرى من الفلاحين لا يجدون عملا كافيا يعود عليهم بما يكفى لسد حاجاتهم ، ولا يستطيعون أن يؤدوا عملا آخر غير الزراعة مع كثرة فراغهم وشدة رغبتهم فى العمل وحاجتهم اليه .

وينبغى ألا ننسى أن العمل أهم عنصر من عناصر الانتاج ، ويمكن للشعب العامل أن يستغنى به عن الثروة الطبيعية إذا توفرت له الفرص الباعثة عليه . فكثير من أغنى أمم الأرض لا تستمد ثروتها من وفرة خيرات طبيعة بلادها ، بل من حسن استعدادها للعمل وتوفر الفرص فيه

فاذا نحن عرفنا أن هذا هو الداء كان من السهل أن نفكر فى التماس الدواء ، وهو يسير فى التفكير وإن كان من أشق الأمور إذا أردنا تحقيقه ، ولكن صعوبة الحصول على هذا الدواء لا ينبغى أن تعوقنا عن العمل على بلوغه مهما تكلفنا من المشقات . فالواجب الأول هو أن نوفر أبوابا جديدة للعمل ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وأن نعد الشعب فى الوقت عينه لكى يكون قادراً على الانتاج الصالح فى هذه الأبواب الجديدة ، حتى يستطيع أن يلجها ويفتح الميادين التى وراءها بقوة وإتقان ، وحتى يمكنه أن ينتج فيها إنتاجا اقتصاديا سليما .

هذا هو البرنامج الذى يجب أن تضعه الدولة نصب أعينها ، وأن تعمل على تحقيقه بكل الوسائل التى تقدر عليها ، وأن تبدأ منذ اليوم بذلك ، فتضع سياسة للانشاء والتعمير كما تفعل الأمم الأخرى التى نكبتها هذه الحرب الطاحنة فى حياتها وهددتها بأن تصير إلى مثل ما نحن فيه من أمراض

وسنحاول أن ندلى برأينا فى رسم هذه الخطة ، وأن نشير إلى الطريقة التى نظنها تكفل النجاح فيها . وموعدنا لذلك فى مقال تال إن شاء الله .

ف

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة من اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

على هامش الأسبوع :

اثنان وعشرون عاما

بين الثورة والدستور

للدكتور أحمد زكى بك

ألّف بين الثوار أول ما ثاروا غايةٌ واحدة وجّهوا وجوههم إليها ، واتّفقوا بين قلوبهم عليها ، تلك هي ردّ السلطان إلى الميكادو ، ثم ما انبلجت عنه الثورة من ضرورة زوال الأقطاع من اليابان . والناس عند ما تؤلف بين قلوبهم غاية كبرى ، ينسون في سبيل تلك الألفة ما طُبعت عليه القلوب من خلاف على غايات صغرى ، أو غايات كبرى ليست هي من مشاغل الساعة الحاضرة .

وقد نال الثوار ما أرادوا من الشواجن ، ونالوا ما أرادوا من الأقطاعيين ، فزال بذلك السبب الأول في قيام الوحدة بينهم . واضطلعوا بالحكم ، وتحمّلوا تبعاته . ولم يكن حكما عاديا يطّرد في تسلسل سهل من حكم سابق ، ولكنه كان حكما جديداً لا قواعد له ، ولا خطّة له . فكان الحكّام يختطون خطّته وهم سائرون فيه . كالذى يقف على طرف بساط مطوىّ ، ثم هو يبسطه وهو يخطو فوقه ولكن بمقدار خطْوه . وكان حكما جديداً يركب ماضياً عتيقاً ، فلا يُركبه . كالذى يضع سداداً صريماً في فم قارورة ؛ فقد يحمل الفمُ السداد ، ولكن السداد لا يمنع القارورة إذا مالت أن يندلق ما فيها . وهو لم يكن حكما فحسب . فقد كان حكما وبناءً . فقد كان على رجال الحكم أن يبنوا الأمة من جديد ، فيسنّوا لها سُننا للعدل جديدة ، وسننا للمال جديدة ، وسننا للتعليم جديدة ، وسننا للمجتمع جديدة . وكان عليهم أن يجيّشوا جيشا جديداً لم يكد أن يكون له عند ذلك وجود . وللبناء الجديد لا بد من هدم القديم . وإلى أى حد يكون الهدم ؟ وعلى أى طراز يكون البناء ؟ والقلوب متشبّثة بقديمها . والعقول وثّابة إلى جديدها . والناس ، في قلوبهم وأفهامهم وأمزجتهم ، نعوتٌ شتى ، فَهُمْ كقوس قُزَح ألوانا ، وهم كالسائمة في المرعى الأخضر اختلافَ سبيل . فلم يكن بدعا ، وقد بلغ الثوار الغاية التى جمعتهم إجمالا ، وتعدّوها إلى ما وراءها من تفاصيل ، أن يتفرّقوا عند هذه التفاصيل شيَعاً ، فنرى الحكومة — حكومةَ الثوار — وقد تصدّعت بعد ست سنوات من قيام الثورة .

وتصدّعت على صخرة كورية ولو لم تتصدع على هذه الصخرة لتصدّعت على غيرها . ولكن الذى يريد تحطيم السفينة يسوقها إلى أقرب صخرة وأكبرها في نظر راكبيها حيث تبدو لهم من الموقع الذى هم فيه . وليس أدل على وجود أكثر من صخرة في هذا الخضم الذى أخذ الموج يَهيجه ، ليس أدل على وجود أكثر من سبب حدا بكتلة الثورة أن تتفكك ، من أن الذين استقالوا من الحكومة بسبب الأزمة الكورية ، كان من بينهم اثنان من رءوس الثورة جمعتهما الثورة ، وجمعهما الخصام على كوريّة ، ولكنهما لما انشقا ، حارب كلاهما الحكومة الباقية لغايتين متناقضتين غاية التناقض : إحداهما رجعية تعود بالثورة إلى الوراء ، إلى يوم كان الحكم في يد عشيرة تسود سائر العشائر وتحكم الدولة بالسيف والنار ، والأخرى إقداميّة تدفع بالثورة إلى الأمام ، إلى حيث يكون الحكم حديثا ديمقراطيا على أسلوب أشبه بالذى عرفه الغربيون عند ذلك

وجنى أولهما من خصام الحكومة حربها ، ثم الموتَ جاء في أعقابه . وجنى الآخر من خصام الحكومة الدستور لأمته .

وكان أول الرجلين اسمه ساجو . وكان رجلا ذا ماض مجيد ، جرى فى حياته وَفْقا لما تقضى به السمورية ، فذوّق نفسه الحرمان والتضحية . وتنزّه من الدنايا ، فشاع عنه الطهر والعفة . وحذق فنونَ الحرب فكان له فيها شهرة واسعة . وكان له جسم ضخم مَهيب ، يعلوه وجهٌ متهلّل وضّاء ، فيجتمع الناس حوله على الحبّ والأجلال والأعجاب . ونشأ فى مقاطعة سَتْسوما الجنوبية ، وموضعها فى أقصى الطرف الجنوبى الغربىّ من جزر اليابان . فكان ستسوميًا لحمًا ودما ، تنشّأ على خدمتها ، وقضى أول شبابه فى نصرتها ، واختطّ الخطط لمستقبلها . وكانت ستسوما فى المشائر اليابانية أقواها ، وكانت فى عهد الشواجن ذات حظ من الاستقلال كبير ، تكاد تُطيع بمقدار ما تَعصى . فلما جاءت الثورة ناصر الثورة ، وكان أحد أعلامها الضخام . وعمل للثورة والناس يحسبون أنه يعمل لليابان . وحسب هو كذلك أنه يعمل لليابان وللميكادو ، ولكن كان فى قرارة نفسه غير الواعية أنه يعمل لحبيبة الأمس وربيبة الصبا ، ستسوما .

فستسوما كان لها نصيب كبير فى إثارة الثورة وفى إدارتها من بعد ذلك . وستسوما أول من ضرب المثل الأعلى فى التضحية بنزول رئيسها ، الأمير شيمادسو ، أولَ من نزل من ملكه ، وردّه إلى رئيس الدولة الامبراطور . وستسوما أرسلت خيرة جندها إلى الحكومة تؤلف بهم فيمن تؤلف نواةَ جيشها . والشوجنة قد زالت ، وحق الاقطاع قد زال . فالحكم لا بد أن يتقسم من بعد ذلك على المشائر . ومَنْ أولى بالنصيب الأول من عشيرته ، عشيرة الجنوب ، بالذى أولته الثورة من نصرة وتضحية ؟ والعشيرة تتمثل فى جندها ، وبخاصة فى حربها — فى السموريين . ومن أولى بالتقديم والتمييز من سموريّى ستسوما ، وعليهم أكثرَ من غيرهم اتكأ الثوار فى صنع ما صنعوا ، ولنيل ما نالوا . ولكن الحكومة التى ناصرها السموريون ، والتى لم يكن فى مقدرتها فى أول عهدها أن تتربع على دَسْت الحكم يوما واحداً لولا ارتكاز هذا الدست على أسنّة سيوف السموريين . هذه الحكومة عمدت إلى محو هؤلاء السموريين ، بأنهم خطرٌ على مستقبل البلاد ، وبأن السمورية صناعة عتيقة تجعل أمر الدفاع والحرب وقفا على فئة من الأمة دون فئات . نعم لقد اختطت الحكومة محو السمورية . وهى لم تكن صناعة حرب فحسب ، بل كانت مذهباً فيه دين ، وفيه فلسفة وله آداب . وكانت أسلوبا مختاراً للحياة اليابانية على أحسن ما تكون ، أو على أحسن ما يجب أن تكون . فالسمورية روح اليابان العزيزة القديمة يراد إزهاقها . والسمورية مظهر الفتوة الأصح فى اليابان يراد تخنيثها بحشد الفلاحين فيها — بإبدال حلة السيوف بمجْرَاري المحاريث . وأين يقع السيف اليابانىّ الجميل القديم الذى اعتاد أن تقلّبه فى الهواء كفٌّ مرِنةٌ وراءها ساعد فى خفة النسيم حركةً وقوةِ الريح عصفاً ، من كفّ قد انجمدت على مِقبض المحراث وساعدٍ تضخّم عضلُه على غير مرونة فى دقّ الأرض ؟

هكذا فَهِم ساجو ما يراد اليابان من صلاح .

وكان ساجو رجلا ضخما عظيما فى أمته ، وعلى الأخص فى سَتْسوما ، عشيرته . والرجال الضخام كثيرا ما تختلط فى قلوبهم آمالهم لأممهم بآمالهم لأنفسهم . وساجو كان رجلا كبير القلب أمّالا .

ووقعت الأزمة الكورية ، فأراد ساجو أن يمتحن مزاج أقرانه فى الحكم ، فصوّت فى مجلس الوزراء لحرب كوريّة ، وأراد بذلك أيضا أن يُثبّت أقدام السموريين بالحرب ويزيد فى سلطانهم . فلما رفض أقرانه الحرب تكشّفت له سياسة الدولة الجديدة من وجه صريح فى

نهار صاحٍ ، فاستقال من الحكومة وانشق مع الأربعة المنشقين . وأخذ سبيله إلى ستسوما .

كان هذا في عام ١٨٧٣ .

وفي ستسوما ، بين أهله وعشيرته ، قضى أربع سنوات يتجهز فيها لحرب الثورة ومنازلة الحكومة ، حكومة الثوار .

وفتح المدارسَ لتدريب الجند على سلاح أوربا الجديد ، على البنادق والمدافع . ولم ينس أمر السيف ، فالسيف كان مَشغلة السموريين الأول . واجتمع حوله في ستسوما أعوانٌ مهرة شِداد . حتى أمير ستسوما المعزول ، وله من السلطان ماله ، أعانه على أمره فيمن أعان . وكان هذا الأمير من أول من توجّه إلى أمم الغرب ، يصلها ويأخذ عنها ، ولكنه كره أن يرى قديم اليابان يُمزّق هكذا إربا . وصارت ستسوما مأوى المحافظين ، ومجتمع الغاضبين الناقمين .

وجاء عام ١٨٧٦ ، فضربت الحكومةُ السمورية ضربتها المُجهِزة الأخيرة ، وقد وصفناها ، فجمات إبدال معاشات السموريين غصبا ، وجمات نزع سيوفهم أمرا بعد أنْ كان اختيارا . فوقع هذا موقع الحِمل الأخير الذي يقصم ظهر الجمل . فما حلّ العام الجديد حتى بدأت الفتنة في ستسوما ، وقام ساجو يحارب الحكومة على رأس جيش سموريّ عدده ثلاثون ألفاً . وكان جيش الحكومة على مثل هذا العدد . وكان جيش الحكومة ذا سلاح كله غربيّ . وكانت الحكومة عبّأت رجالها في الحرب الأوربية . واصطدم الجيشان ومضيا يتحاربان من التاسع والعشرين من يناير عام ١٨٧٧ إلى الرابع والعشرين من سبتمبر من نفس العام . وفي هذا العام قتل من رجال ساجو من قُتل وانتحر من انتحر ، وكان ساجو في المنتحرين

وكانت الحرب حربا مُرّة ، زاد في أثنائها جيش ساجو حتى بلغ أربعين ألفاً . وزاد في أثنائها جيش الحكومة حتى كان ستة وستين ألفاً . وقُتل من الجيشين معاً خمسة وثلاثون ألفاً ، أي نحو من ثلث المتحاربين .

وقد كانت هذه الحرب حربا ودرسا . فهي قد علّمت اليابانَ أن السيافة لا تُغني في الحروب الحديثة شيئاً ، وأن السيف صار الماضي ، وصار للشعر والآداب ، وصار للتجمّل والزهو ، كما يزهو الطاوس بريشه عند ما ينتفش وينفض ريشه الطاوس . وعلمتها أن المستقبل للنار وماتقذف النار من حُمَم . وعلمتها درساً آخر لايقل إبلاغا عن هذا : علّمتها أن من نشأ على المحراث لايقل غَناءً عمن نشأ على السيف ، وقد تغيرت من الحرب أداتها

ولن يفوتنا أن نذكر أن هذه الفتنة التي قامت في ستسوما لم تكن فتنة للسموريين عامة ، فقد كان من السموريين من أعان الحكومة في حربها ، ومن لزم خدمتها في أحرج أيامها . ولن ننسى أن الحكومة نفسها كان رجالها سموريين .

أحمد زكي

أنا أهواك

أنا أهواكِ في الزهور شذاها ... ينعش الروح بكرة وأصيلا
أنا أهواكِ في الدياجي ظلاماً ... لفَّني في الرؤى زماناً طويلا
أنا أهواكِ في المياه خريراً ... عبقرياً مغيباً مجهولا
أنا أهواكِ خفقة من ضياء ... لستُ أدري لكنهها تأويلا
يا ابنة «المرج» لا عدمتكِ معنى
وهوى خالداً وروحاً جليلا
أنت سر الحياة دبّ بجسمي ... فرأيت الحياة شيئاً جميلا

محمد مصطفى الملجي

من صــــور الحياة

للأستاذ أحمد أمين بك

وسطٌ في ثقافته وعقليته ، وسطٌ في خلقه ، ولكن آتاه الله بسطة في المال ، وقوة في الجاه ، وحظاً في مباهج الحياة . له المزارع الواسعة بحيواناتها وآلاتها ، تغل عليه خيراتها ، وله القصر الفخم على البحر يتخذه مصيفاً ، وعلى حافة الصحراء يتخذه مشتى ؛ ما اشتهى شيئاً إلا كان لديه حاضراً ، فالمال لا يعز عليه شيء . كل الناس مسخَّرة له تنفذ إشارته وتمجد إرادته ، سواء منهم من انتفع بغناه ومن لم ينتفع . طلبه نافذ بين رجال الحكومة لجاهه ، وفي بلده لماله ، وعند من لم يعرفه لمظهره الفخم ورنة صوته التي توحي بالعظمة والسلطان . استطاع المال أن يجعل منه « باشا » ، وأن يتخذ منه عضواً في البرلمان ، على اختلاف الحكومات في ألوانها ومذاهبها . تخالَف قوانين الري لسقي أرضه ، وتمطل اللوائح لتحقيق غرضه ، ويوقَف تنفيذ الأحكام عليه خوفاً من بطشه .

لم تستطع رغباته الكثيرة ، ولا مطالبه الوفيرة ، ولا نفقاته الواسعة أن تنقص شيئاً من ماله ، بل كل سنة يشترى أرضاً جديدة وأسهماً في الشركات جديدة .

ولم يذق يوماً طعم الحاجة ولا ألم الدَّين ، ولا تمنى شيئاً ثم لم يجد من المال ما يسعفه ، بل إن حق له أن يشكو شيئاً فهو أنه يأكل في الحياة من مائدة تخمة دائماً ليس فيها توابل ، وينعم دائماً نعمة لم يلونها الشقاء .

ثم تزوج فسعد في زواجه سعادته في ماله ، ضم زواجه مالاً إلى مال ، وجاهاً إلى جاه ، ونعيماً إلى نعيم ، ورأى في زوجته ما يتمنى من جمال ومن خلق ومن ذوق . تكشفت له الدنيا من صورتها الجميلة ، وحجبت عنه كل نواحيها السيئة ، فكان يعجب من شكوى الناس ومن ذم الدنيا ، ويقيس كل شيء بقياسه ، فيرى أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ؛ ويعلل شكوى الناس بسوء طباعهم ، وفقرهم بقلة عقلهم ، وألمهم بضيق نظرهم .

* * *

لم يرزق من الدنيا إلا ابناً واحداً وضع فيه كل أمله ، ومنحه كل عنايته ورعايته ، حتى شب كأحسن ما يكون الشباب صحة وثقافة وخلقاً .

أخذته الحمى فارتفعت حرارته ، وذبل جسمه ، واصفر وجهه ، وغاب عقله ، وبذل الأب كل ما يستطيع لنجاته ؛ هؤلاء أشهر الأطباء ، وهـذا أعز الدواء ، وهؤلاء الممرضات ينفذن التعاليم في دقة وإحكام ، وهذا كل ما يستطاع وما لا يستطاع لإنقاذه .

وينظر الأب إلى مزارعه الفسيحة ودنياه العريضة فيراها أضيق من سم الخياط .

يتمنى أن لو جرد من كل ثروته ، ومن كل صحته ، ومن عينيه يبصر بهما ، ليبرأ ابنه من المرض ، وينجو من الموت . ويرجو أن يكون سائلا يتكفف الناس ، ومعدماً لا يجد قوت يومه ، ومسكيناً لا يملك من الدنيا إلا ثوبه المهلهل يستر جسمه ، ثم يشفى ابنه .

ويود أن لو كانت الصحة توهب فيهبها ابنه ، والحياة تمنح فيخلعها عليه ، ويشتهي أن يفقد كل نعيم الدنيا لينعم فقط بابنه صحيحاً بجانبه .

كان يؤمن بالطب فدعا الأطباء ، وكان يكفر بالرقى والتعاويذ ودعوة الصالحين فآمن بها وتشفع بأهلها ، وكان لا يذكر الله في سرائه فذكره في ضرائه ، وحشد لشفاء ابنه كل ما يستطيع من قوى مادية وقوى روحانية . ولكن غلب القدر فمات الولد .

* * *

لقد انقلب برنامج حياته رأساً على عقب، شكا الدنيا كما كان يشكو الناس، ولم يستطعم لذائذ الحياة كما كان يستطعمها من قبل. ما قيمة المزارع الواسعة والقصور المشيدة والمال الكثير إذا لم تكن نفس تتذوقها ورغبة تشربها؟ وما جمال الدنيا إذا لم تكن عين تبصرها؟ وما الموسيقى الرائعة إذا لم تكن أذن تسمعها؟ إن النفس المرحة التي لم تصب بكارثة تجتاحها تستطيع أن تخلق من العدم وجوداً، ومن الألم لذة. أما النفس التي براها الحزن فلا تستطيع أن تجد في الجنة متاعاً؛ والروح التي أظلمتها الكوارث لا تضيئها الشمس.

لقد وجد في الدين عزاءه الوحيد فتدين. أدرك فشل المال والجاه في دفع المرض فآمن بسلطان القدر، ورأى عجز الطب والعلم والدواء فلجأ إلى من لا يعجز، وفهم أن الإلحاد يدعو إلى اليأس ويقرر فناء الميت، فكفر بذلك كله، ورأى الإيمان يقول بحياة بعد هذه الحياة وتلاق بعد الفراق وفناء الجسم وحياة الروح، فطبق ذلك على ابنه وعلى نفسه، فبعث عنده الأمل وأحيا فيه الرجاء، وقرأ أن العمل الصالح يقربه إلى بغيته ويجعل الحياة الأخرى أسعد وأهنأ، فأكثر من الصلاة والزكاة، وشارك في أعمال البر، وكان يقرأ القرآن ويقف كثيراً عند آيات الجنة ونعيمها، فيتلهف شوقاً إلى أن يجمعه الله وابنه فيها. كان يناجي ربه «أن قد مات قلبي بموت ابني فأحيه بك، وقد انطفأت شعلتي فأمدها بنورك، إني فقير إليك فألهمني الصبر. لقد كنت في حلم فتبدد، وفي سعادة فزالت، وكنت معتمداً على مالي وجاهي فإذا هما هباء، فلا ألجأ الآن إلا إليك، ولا أسألك الآن سعادة فقد مللتها، ولا شيئاً من متع الدنيا فقد زهدتها؛ وإنما أسألك أن ألمس نورك لأستعين بها على حل عيني، وأن أمس رحمتك لأطفئ بها حرارة الحمى في كبدي، وأن أسبح في بحرك الواسع أطهر فيه نفسي من يأسي، وأن تنيلني قبساً من حكمتك أدرك به الدنيا على حقيقتها، فلا أجزع لمصابها، ولا أخدع بزخارفها.

أي ربي — اغفر لي جهلي بك، وغروري بمالي، واعتزازي بجاهي، فلا عز إلا بك، ولا أمل إلا فيك، ولا اعتماد إلا عليك.

أي ربي — اسكن قلبي فقد صار هواء، وآنس وحشتي فقد فزعت من كل شيء حولي، واطو الحياة طياً حتى ألقى وجهك ووجه ابني».

* * *

كان يقرأ الجرائد فأهم ما يلفت نظره أخبار الوفيات، ومصادمة السيارات، وحوادث الحريق، وخروج القطار والترام من الطريق، ثم يعقد مقارنة دقيقة سريعة بين مصائب الناس ومصيبته، ثم يقرأ أخبار الحرب فيسليه إحصاء القتلى والجرحى وغرق السفن بمن فيها وشن الغارات وكثرة ضحايا الطائرات، ويقف عند ذلك طويلا يفكر ويوازن، فإذا وقع نظره على حفلة عرس أو خبر خطبة مر به سريعاً، وعلق عليه بأن السرور ظل زائل والسعادة حلم نائم.

وأخذ يتذوق الأدب، ولكن لم يعجب فيه بشيء إعجابه بقصائد الرثاء ولزوميات أبي العلاء. سمع الثناء على قصيدتي ابن الرومي في الرثاء فما زال يرددهما حتى حفظهما، وتخير من اللزوميات أشكاها في شكوى الزمان وحقارة الدنيا وفساد العالم.

ولم يعجبه من المجتمعات إلا عزاء في ميت أو حديث وعظ في مسجد — ودلوه على كتاب مخطوط في دار الكتب للسيوطي اسمه «فضل الجلد عند فقد الولد»، فذهب ونسخه بيده.

* * *

ما الدنيا إذا كانت تذهب في لحظة؟ وما النعيم يضيع في لمحة؟ وما كل شيء في الدنيا بجانب الحياة؟

الشك المتطرف
والشك المعتـــدل

يقول الشريف الرضى فى مطلع إحدى مراثيه المشهورة:

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع
وغالط العيش لا صبر ولا جزع

وموقف الشك هذا الذى ينصح لنا بوقوفه شاعرنا الكبير ، وهو يمارس حالة من الحالات النفسية الكثيرة التى عالجها ، واصطلى بنيرانها ، يقتضى الاضطراب بين المذاهب المتعارضة ، والعقائد المختلفة ، وعدم الانتهاء إلى تصميم قاطع تلقاء الحجج المتكاثرة ، والبراهين المتنوعة ؛ وهذا هو معنى الشك فى اللغــة الدارجة ، والعرف الشائع ؛ وأما فى الفلسفة ومصطلح التفكير النظرى فإن الشك معناه الاعتقاد بأن الحق أو المعرفة الصادقة من وراء قدرة الانسان ، ومن فوق طاقة عقله ، فلا سبيل إلى إدراكه أو تلمس أسبابه ، وإزاحة النقاب عن أسراره ، ونحن من أمورنا فى ليل لا تنجلى ظلمته ولا يسفر له صبح .

وليس الشك هو الأصل فى الانسان ، لأن المرحلة البدائية من مراحل التفكير البشرى هى التصديق البرىء والايمان الساذج ، وإنما يسود الشك فى أدوار نضج الحضارات وعهودها المتأخرة التى تضعف فيها قوة الطبع ويعلو مستوى الذكاء ، والتأكيد يسبق النفى ، والتعصب يتقدم الشك . وقد فطر الانسان على الايمان بحواسه والاعتماد على إدراكه المباشر ، ولا يزال التشكيك فى صحة ذلك مما يستنكره الكثيرون ويحسبونه نوعا من الحذلقة والتفكير المعوج ، وهذا الايمان العميق البسيط بصدق الحواس لا يزال عماد الحياة العملية وركنها الركين ، ومعولنا فى معركة تنازع البقاء ، وتحصيل القوت .

وقد نشأ مذهب الشك عند اليونان عند ما تعارضت إدراكات الحس مع استنتاجات العقل ، وأوحى توالى المذاهب المتناقضة والنظريات المتعارضة فكرة أن هذه المذاهب جميعها قد تكون خاطئة زائفة ، وأن الحقيقة هى أنه ليس هناك حقيقة ، وأن الأمر كما صوره الأستاذ العقاد فى قوله :

الحياة عرض ، ونعيمها وشقاؤها عرض العرض .

موجة سارت إلى الشــاطىء ثم اختفت ، ولفافة تحولت إلى دخان ، ثم تحلل الدخان فى اللانهاية .

كلمة لفظ بها ثم انتهت .

لم يسلم أحد من لطمة القدر لعلل لم تدرك أسرارها ولا الغرض منها ، والحياة طريق مملوء بالأشواك لا يسلم مار من أن يُشاك بها ، ومهما اختلفت المسالك فستنتهى بالنتيجة المحتومة ، بالموت ، وإليه ينتهى كل سالك من ملك وصعلوك ، وبه تتحلل كل كمية من اللذة والألم إلى صفر .

ثم إن هذا الطريق — طريق الحياة — امتحان شاق للسالكين ، فمنهم من يجتازه فى خوف وضعف ، كلما مسته شوكة صرخ وتحطمت نفسه وسقط من الإعياء ؛ ومنهم من يجتازه فى شجاعة وقوة واحتمال ، فمهما أصابه فإنه يركن إلى ركن ركين من قوة نفسه وحكمته وروحانيته .

لا شىء يضىء هذا الطريق الشائك المظلم إلا طهارة النفس ونور القلب وسمو الروح ؛ إن أضاء القلب بدد ضوؤه ضباب الطريق ، وإن طهرت النفس انسجمت مع العالم ، وإن سمت الروح لم تعد المادة إلا جسم الشمعة لا نورها ، وغمد السيف لا نصله ، وجذع الشــجرة لا ثمرتهــا ولا زهرتها ، فلا يأبه كثيراً بالحوادث ، ولا تحطمه الكوارث ، إن مسه الخير فليس منوعا ، وإن أصابه الشر فليس جزوعا .

أحمد أمين

أين الحقيقة ؟ لا حقيـ ـقة كل ما زعموا كلام

وقد كان السوفسطائيون هم أول المتشككين ، فقد ردوا المعرفة إلى الآراء الفردية ، واستشهدوا فى ذلك الحواس ، وأعلنوا مغالطات كثيرة أشهرها مغالطات غورغياس ، وتتلخص فى قضايا ثلاث ، وهى أنه لا يوجد شىء ، وإذا كان هناك شىء فالانسان قاصر عن إدراكه ، وأنه إذا كان هناك شىء وكان يمكن معرفته ، فانه من غير المستطاع التعبير عنه بالكلام ، وكان السوفسطائيون مجادلين بارعين ، متأهبين للدفاع عن كل مغالطة ، وكانوا أحرص على إشباع شهوة الغرور ، وحب الفلج ، منهم على رعاية الحق وجلائه ، ولم يكن ينتظر منهم إ كبار الحق ، فى حين أن فلسفتهم قائمة على إنكاره ، وعدم التسليم بوجوده ، ومغالطات السوفسطائيين تقوم فى بعض الأحيان على القياس الفاسد ، وأحياناً أخرى على تفاهات منطقية لا قيمة لها .

والمعروف أن واضع أساس مذهب الشك عند اليونان هو الفيلسوف بيرون المولود فى مدينة إيليس سنة ٣٦٥ وقد كان معاصراً لأرسطو . وهو لم يدون آراءه ، وإنما ذكرها تلميذه تيمون ، وكانت غاية الفلاسفة المتشككين غاية عملية ، فهم مثل الرواقيين والأبيقوريين ، ينشدون السعادة ، ويطلبون الطمأنينة ، ولكن هذه الفلسفة التى تؤدى إلى السعادة تقتضينا أن نعرف ماهية الأشياء وكيف نحدد علاقتنا بها ، وقد رأى المتشككون أن حقيقة الأشياء من وراء حدود معرفتنا ، لأننا لا ندرك الأشياء فى ذاتها ، وإنما ندركها بحسب ما تبدو لنا ، وأفكارنا عنها ليست حقا ولا باطلا ، وليس فى وسعنا أن ندلى برأى أو نقطع بحجة عن أى شىء ، ولا يمكننا أن نطمئن لما تقضى به إلينا مشاعرنا وإدراكنا الحسى ، وكل فرض له نقيضه ، ومن ثم تناقضت أفكار الناس عامة ، وتضاربت آراء الفلاسفة خاصة ، والعلاقة الحقة بين الفيلسوف والأشياء هى أن يعلق حكمه ويرجئ بتّه ، وقد رجا الفلاسفة المتشككون أن يصلوا إلى السعادة عن طريق إرجاء الحكم ، وتجنيب أنفسهم مشقة احتمال تبعة الآراء الحاسمة ، والمذاهب الفاصلة ، وعندهم أن من لاذ بحمى الشك عاش فى أمان ومتعة من البلادة والفتور لا يرنّق صفوها شىء .

ولعل أكبر مغالطة تطرف فيها المتشككون هى أنهم مدوا رواق الشك إلى صميم الشك ، وهذا الضرب من الشك المدى له نظير فى العصر الحديث ، فقد قال بسكال عن مونتانى : « إنه أتى بكل شىء فى غمار الشك حتى تشكك فى شكوكه » ، وقد انتهى الشك ببعض كتاب العصر إلى مدى بعيد ، فبابينى الايطالى يقول فى كتابه « إنسان كامل » :

« نظرت فى كل شىء إلى ماله وما عليه ، وما عليه وماله ، فهل أنا متشكك ؟ لا . لسوء الحظ لست حتى متشككا . إن المتشكك سعيد رخى البال ، فقد اطمأن إلى يقين ، وهذا اليقين هو عدم الاهتداء إلى الحق ، فهو يستطيع أن يكون وادع النفس ، بل يستطيع إذا شاء أن يكون متعصباً متحمساً ؛ ولكننى لست كذلك ، فلست أعتقد بعبث كل بحث عن الحق ، ولست واثقا حتى من عدم وجود الحقيقة ، وقد يكون الحق فى حيز الممكنات وقد يهتدى إليه الإنسان » .

ويقول هرمان بهر : « لقد حاولنا إثبات كل شىء فلم يثبت لتجاربنا شىء ، وعلى الأقل نتيجة أنه لم يثبت لتجاربنا شىء هى نفسها لم نتمكن من إثباتها بعد ، ولقد طفنا بكل وجه من وجوه اليأس حتى يئسنا من اليأس » .

وهذا الشك فى الشك واليأس من اليأس قائم على استحالة معرفة الحق والباطل ، فالشك هنا مضاعف

ومزدوج ، ويظهر أن هذين الكاتبين لم يستطيعا احتمال هذه الحالة طويلا ، فقد انقلبا مؤمنين واستقرا بظل الكنيسة وتخلصا من رمضاء هجير الشكوك .

وفي العصور الوسطى كان الشك لا يبدو إلا مستورا ملفقا ، ولكن كان عندما يكشف عن نفسه تبدو طبيعته القائمة على المغالطة ، فقد ورد في رسالة منسوبة إلى البابا أنوسنت الثالث هذه الكلمات « كلما أنفق الانسان جهدا في البحث قل ما يجده ، لأن أكثر الناس فهما أكثرهم شكا ، والذي يبدو في نظر نفسه حكيما عاقلا هو في الواقع سخيف مأفون ، والله قد برأ الناس صالحين ، ولكن الانسان أوقع نفسه في حبائل مشكلات لا نهاية لها » .

وفي أواخر العصور الوسطى ظهرت نظرية « ازدواج الحق » وهي أن الفرض قد يكون حقا في الفلسفة ولكنه غير حق في عالم الدين والعكس بالعكس ، وقد رفضتها الكنيسة في بادىء الأمر ، ولكن تصدى للدفاع عنها الفيلسوف الايطالي بومبونازي في بواكير القرن السادس عشر ، وهي وسيلة لجأت إليها الفلسفة للاحتفاظ بحريتها والمحافظة على كيانها .

ومونتاني هو أنموذج المتشككين في عهد إحياء العلوم ، وقد كان متأثراً بفكرتين ، فكرة استحالة إثبات مدركاتنا وفكرة نسبية جميع أحاسيسنا ، ومن أدلته على سخف البشرية وركاكة عقلها قوله : « يزداد إيماننا رسوخا بما نعرفه أقل معرفة » وقوله : « الانسان جد مجنون فهو لا يستطيع أن يخلق دودة ، ولكنه مع ذلك يصنع الآلهة بالعشرات » وقوله : « لقد ولدنا للبحث عن الحق ، ولكن امتلاكه يتطلب قوة أكثر مما أوتينا » .

وشك مونتاني يحمل طابع الشك الحديث فهو خال من هدوء الشك اليوناني وفيه القلق الممض والحيرة اللاهفة التي تميز الشك الحديث ، ونلمح في المتشككين المحدثين النزوع إلى اليقين وألم العجز عن إدراكه .

وهناك فريق من الناس يبنون يقينهم على الشك وهم يشبهون في ذلك اليهودي الذي قال عنه بوكاشيو في الديكامرون إنه ذهب إلى روما وهاله مارآه من فساد الكنيسة ، واختلال أحوالها ، فأغراه ذلك بأن يدخل في المسيحية ، لأنه اقتنع بأن الكنيسة التي تنحدر إلى مثل هذا الفساد ثم لا يقضى عليها ويفشل أمرها لا بد أن تكون ملحوظة بالعناية المقدسة !

ولكن هل بناء اليقين على أساس من الشك مما يجلب الراحة ويؤدي إلى الطمأنينة ؟ وإذا كان الشك سبيل الايمان أفلا يكون من المحتمل أن يظل الشك عالقا ببعض النتائج التي ينتهي إليها الانسان ؟

وهذا هو على أي حال الشك الذي قد يولد الايمان ، كما أن هناك الايمان الذي قد ينتج الشك .

ويشبه المتشكك من بعض الوجوه « الهاوي » وهو الرجل الذي يهوى الأفكار لذاتها ويتابع في تطلع وشغف كل المشكلات الفكرية ، ولكنه لا يتحيز لفكرة لأنه يجد في كل فكرة طرفا من الحق ، فهو يُعشَق بكل شيء ، ولكنه لا يتعصب لشيء . وقد يبدو في بادىء الأمر أن المتشكك نقيض الهاوي ، لأن المتشكك يسائل كل شيء ، والهاوي يؤكد كل شيء ويقبله ويحتضنه ، ولكن الواقع أن موقف الهاوي يحطم التعصب ، ويعصف باليقين ، ويغري بالاعتدال والتأمل الساخر مثل موقف المتشكك .

ومذهب الشك يقتل نفسه بنفسه ؛ وهو بحكمه على المعرفة بأنها غير صادقة ولا ممكنة ، يحكم على نفسه حكما ضمنيا بأنه غير صادق ، لأنه إذا لم يكن هناك حق فإن مذهب الشك إذاً ليس فيه حق ، لأنه ثمرة عقل هو بطبيعته عاجز عن إدراك الحق ، فاذا صح مذهب الشك فمعناه أنه مذهب لا يقوم على أساس ، ولا مفر للانسان إذا أراد

أن يتحاشى التناقض من أن يعترف بأن المعرفة ممكنة وأن الحق يمكن الوصول إليه .

وهناك لون طريف من الشك وهو ما يصح أن يسمى بالشك المعتدل المعقول أو الشك على الطريقة الإنجليزية ، وأقصد به شك الفكر الإنجليزى الممتاز برتراندرسل ، فليس شكه من ذلك النوع اليائس من العقل أو ذلك الشك الموكل بالمتناقضات والمشوب بالنزعة الصوفية ، وليس هو بالمتشكك على طريق الهواة من أمثال رينان وأناتول فرانس وربى دى جورمون ؛ ولأترك يعرض علينا رأيه ويوجز لنا مذهبه كما ورد فى مقاله القيم عن « قيمة الشك » حيث يقول : أريد أن أعرض على نظر القارئ رأياً ربما يبدو متناقضا هداما ، وهذا الرأى هو من غير المرغوب فيه أن نعتقد رأيا من الآراء لم تقم الأدلة على صحته ، وإنى أقرر أنه لو عم هذا الرأى لتغير أحوالنا الاجتماعية ونظامنا السياسى .

وإنى أعرف أن هذا الرأى سيقلل من دخل أدعياء معرفة الغيب والقساوسة وغيرهم ممن يعيشون على تغذية الآمال غير المعقولة ، ومما روى عن بيرون مؤسس مذهب الشكوكية أنه كان يقول : إننا ليس عندنا من المعرفة ما يجعلنا نرجح سبيلا على آخر . فلما كان يرتاض فى عصر يوم من الأيام أبصر أستاذه الذى تلقى عليه دروسه الفلسفية ورأسه ملصق فى خندق مترع بالماء ، وقد عجز من إخراجه ، فتأمله مليا ثم سار فى طريقه ، ذاهباً إلى أنه ليس هناك دليل كاف للاعتقاد بأنه سيحسن الصنيع إذا أنقذ الرجل الكهل من هذا المأزق ، وتقدم غيره ممن هم أقل منه شكا وأنقذوا الرجل ، ولاموا بيرون لتحجر قلبه وجمود عواطفه ، ولكن أستاذه أثنى عليه لإخلاصه لمبادئه !

وأنا لا أدعو إلى مثل هذه « البطولة » فى الشك ، والشكوكية التى أدعو إليها تتلخص فيما يأتى :

(١) عندما يتفق الخبراء الاخصائيون فإن الرأى الناقض لرأيهم لا يمكن أن نثق بصحته .

(٢) عند ما يختلفون وتتعارض آراؤهم لا يمكن لغير الاخصائى أن يعتقد بصحة رأى .

(٣) عند ما يجمعون على أنه ليس هناك دليل ثابت على صحة رأى فانه يحسن بالرجل العادى أن يرجئ حكمه

وهى فروض معتدلة فى ظاهرها ، ولكنها لو قبلت وعمل بمقتضاها لأحدثت ثورة فى الحياة الإنسانية .

وهذا هو الشك الذى يدعو برتراندرسل إلى ترويج سوقه ، ونشر أعلامه ، ولست أرى بأسا فى اصطناعه عند تناول ما يتقلب علينا من الأحوال ، وما يعرض لنا من الحوادث ، وهو يوحى الاعتدال والأناة فى إصدار الأحكام ، ويجنبنا مزالق الآراء المتسرعة والأحكام المرتجلة .

على أدهم

في الميزان الجديد

يحدثنا التاريخ عن شاعر يوناني اسمه فرينيكوس . قالوا إنه عرض على المسرح الأثيني رواية « الفينيقيات » عن معركة سلامين وجاء أسكيلوس فعرض لنفس القصة في روايته الرائعة «الفرس» . وكم كانت دهشة الحاضرين عندما رأوا هذا الشاعر العظيم يبتدئ مسرحيته بالبيت الأول من دراما فرينيكوس . وحار الجمهور في تفسير هذا الاستهلال وقال قائلهم : ولم ابتدأ أسكيلوس مطلع رواية فرينيكوس في نفس الموضوع ؟ وأجاب ذوو النظر منهم : إنها لا ريب تحية يوجهها اللاحق للسابق .

ذكرت هذه الواقعة التاريخية عندما هممت باتخاذ هذا العنوان « في الميزان » للدلالة على ما أريد من الكتابة عن منتجات أدبائنا المحدثين ، فهو صدى لكتاب صغير قديم اشترك فيه الأستاذان الفاضلان العقاد والمازني بنفس العنوان .

ولقد تناول الأستاذان إذ ذاك شوقي والمنفلوطي بتجريح قوي لا يزال وقعه بنفسي رغم تراخي الزمن ، وهو نقد يشفع لصاحبيه فيه ما يلوح في نقدهما من حرارة وإيمان ، وإن كنت أذكر أنه أصابني بأذاه ، إذ كنت شابا صغيرا وكان المنفلوطي بأسلوبه الرقيق قد مس نفسي ، وكل شباب هذه البلاد لا شك معترف لذلك الرجل بتفتح قلبه لنسمات الحب ومعاني الجمال ، وإنه لمن الظلم أن نسلبه مجده ككاتب الشباب في مصر . الكاتب الذي لا ند له .

والآن وقد نهض جيلنا يحق لنا بل يجب علينا أن نحصي التراث لنرى ماذا عمل من يكبرنا سنا وماذا بقي علينا أن نعمل ، لنسير على بينة كما ساروا واثقين من أن مراجعة القيم ورسم النهج وتخطيط الأفق هو دائما من عمل الشباب في أول مراحل نضجه ، إذ سرعان ما تسلمنا الحياة بطول معاشرتنا لها إلى المحافظة ، اللهم إلا أن نستثني العبقريات الفذة التي تظل شابة بل طفلة أبد السنين ، ومن اليقين أنه لا بد في كل نزعة ثائرة مجددة من شيء كبير جداً من السذاجة أو ما يسميه الناس سذاجة نستطيع معها أن نستخف بالصعوبات وأن نعمى ولو مؤقتا عما نستهدف له من أخطار عند ما نجاهد في سبيل الحق من بأيديهم القوة والبطش .

والناظر في أدبنا الحديث يلحظ أن الجيل السابق قد نجح في شيء ، وأخفق في أشياء .

وأكبر ظواهر الاخفاق فيما يبدو لي هو خضوع ذلك الجيل لضغط الهيئة الاجتماعية . نعم إنني لا أجهل أن امتداد الزمن بالحياة كثيراً ما ينتهي بنا إلى الصلح معها ، فالشيوخ عادة أكثر رضى وتفاؤلا من الشبان الساخطين المتشائمين . كما أعلم أن طول التجارب كثيراً ما يبصرنا بحدود الممكنات لم نكن نفطن لضيقها أيام حداثتنا . بل إن كل تجربة عبء يثقل خطانا . وأضيف إلى ذلك أنه قد يكون من الخير لحياتنا الاجتماعية أن ترتد هجماتنا من بعض المقومات التي في نهوضها ضرورة لاستقامة الأمور واطرادها على نحو يشفع فيه الثبات لكل ماعداه . بل وبقلبي من اليقظة ما يبصرني بأن للحياة السادية على حقارتها قسوة كثيراً ما تلين أصلب العزم ؛ وثمة الطموح وإغراء الشهرة وسحر الجاه وشهوة السلطة الزمنية وما إلى ذلك من نزعات فردية جديرة بالاحتقار ! ولكني رغم كل هذا أتساءل : مابال معظم كتابنا قد انتهوا بالكتابة من « محمد » ؟ أهو إيمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخر ؟ ذلك مانرجوه . ولكن ثمة أمر لاشك فيه ، وهو أننا قد وصلنا من التزمت حداً نبرئ منه كل الأديان على السواء . ولكم هالني يوماً أن رأيت أحد كتابنا المعروفين باتساع أفق التفكير يدعوني إلى أن

أسقط من حـديث لى بالراديو كلمة « حوريات » ترجمة لعرائس الغابات المعروفة فى الأساطير اليونانية خوفاً على من أن يتهمنى أحد بالروق عن دينى لاستعمال لفظة وردت فى القرآن وأنا بصدد الحديث عن خرافات الوثنية اليونانية ! ! !

إذاً بقى لنا أن نعود إلى التقاط الأسلحة التى ألقاها سابقونا إلى الأرض وأن نناضل دون حرية الرأى وكرامة الفكر البشرى وتقديس حقوقه غير باغين ولا معتدين .

وكان نجاحهم أوضح ما يكون فى المجال الفنى ، إذ استطاعوا أن ينتقلوا بالنثر العربى الحديث بل وبالشعر فى السنوات العشر الأخيرة من اللفظ العقيم إلى التعبير المباشر ومن الصنعة إلى الحياة : من « حديث عيسى بن هشام » إلى « دعاء الكروان » ، وكان « للميزان » وأمثاله من كتب سابقينا فى هذا التطور فضل كبير ، ولقد استطاع كتابنا أن ينقلوا معنى الأدب وفن الكتابة كما يفهمه الأوربيون إلى المتخلفين منا بحيث لم يعد اليوم لأنصار المذهب اللفظى السقيم فى بلادنا نفوذ يذكر .

وسار الزمن سيرته فلم نعد نرى « موازين » حتى أصبح النقد عندنا إما سباباً أو إعلانات ؛ فهذا يريد أن يحطم « الأصنام » والجمهرة العظمى لاهم لها إلا أن ترضى هذا أو ذاك بالاعلان عن كتبهم إعلاناً متنكراً فى صيغة النقد الأدبى . وأكبر ظنى أن معظم هؤلاء النقـاد المحترفين لايقرأون ما يكتبون فيما عدا العنوان أو بعض صفحات .

وليس هذا بالنقد الذى يستطيع الجمهور أن يثق به فيعمد إلى قراءة ما يستحق أن يقرأ أو رؤية ما يجب أن يرى من مسرحيات وأفلام ، على نحو ما نرى فى المجلات الأوربية التى تحرص فى الباب الهام الذى تخصصه للنقد على الأمانة فى هداية الجمهور أمانة مستنيرة صادقة الذوق .

وليس هذا بالنقد الذى يدرس عن قرب ما يريد أن ينقد ، فيولد ما فيه من معان يضعها تحت بصر القارئ الذى لا يملك عادة من الوقت ولا من الخبرة ما يستطيع معه أن يستخرج من النص كل ما فيه . بل إن الناقد الحقيق قد يضيف إلى النص الشىء الكثير يخلقه خلقاً بفضـل ما فى الكتب الجيدة من قدرة على الايحاء ، وهذا من حقه بل من واجبه ، ما دام لايتعسف فيخرج المعانى غير مخرجها أو يحملها مالا تطيق . وفى الحق أن النقد الجيد خلق جديد ، إذ سيان أن نحس ونفكر ونعبر بمناسبة كتاب أو بمناسبة حادثة أو مشهد أو إنسان وكل تفكير لا بد له من مثير .

وليس هذا بالنقد الذى يستطيع أن يساهم فى توجيه الأدب وجهة الأمانة العقلية والصدق فى النغمات . وما أحوجنا إلى الأمانة والصدق فى كل مظاهر نشاطنا المادية والروحية ؛ وهما فى مجال الروح ألزم ؛ والأدب فيما أرى أقوى عامل فى مراجعة القيم وتفنيد باطلها من صحيحها ، والأدب أسلم مناهج حياتنا . وإنه لمن الاجرام أن ننزله منزلة السلع فنجامل هذا الكاتب أو ذاك بأن نتحدث عن كتابه كما نعلن عن « صابون النمر » أو « اسبرو الروماتزم » وذلك فى غير نفع لأحد . فالكاتب نفسه لايخدعه هذا النفاق ، وإلا كان من الغفلة بحيث لا يستحق أن يسمى كاتباً ، والجمهور قد طالت خديعته حتى استيقظ ففقد الثقة فى الكثير مما يقرأ عن الكتب والكتاب .

وأنا أعلم بعد ما ستتطلب هذه الصفحات من جهد ، ولكنى مقدم لغرضين : أولها وأنبلهما أن أحاول أن أكون هادياً أميناً لجمهور القراء . أسبقهم إلى قراءة ما يقع تحت يدى من الكتب الجديدة ، فإن وجدت فيها خيراً أظهرت ذلك الخير ، ودعوت غيرى إلى مشاطرتى إياه ، وإن لم أجد حدثت القراء عن تجربتى لعلها تنفع غيرى ، ولو فى تلك الحدود الضيقة التى يفيد فيها الناس من تجارب غيرهم . وثانيهما أن أكون عوناً للكاتب

الجيد على أن يؤدى رسالته لدى الجمهور ، سواء أكان هذا الـكاتب ناشئاً ينبعث منه الأمل أم منتهيا قد وفق إلى أن يخلف على « رمال الزمن » وقع أقدامه ؟ بل من يدرينا ؟ لعل منهم من يستحق أو سيستحق أن تستبدل له « رمال الزمن » « بصخوره » وإن كنت أظن أن هذا لا يزال أملا .

وإنه ليسرنى أن أقود الجمهور خلال ما يكتب أدباؤنا الذين انتهوا إلى أوج المجد ، ولـكن على شرط أن لا يقع هؤلاء الـكتاب فريسة لنجاحهم نفسه ، فتنعقد نفوسهم بالزهو وتفسد أمانة عقولهم ، فلا يأخذون أقلامهم بالجهد معتمدين على ما اكتسبوا من مجد أو شهرة ، وكم لدينا من كتاب قد أصبحنا نحس بأنهم لا يشقون فى العناية بما يكتبون ، بل ولا فى التفكير فيه ، لوثوقهم — فيما يظنون — من إقبال الجمهور عليهم ، ولو كانت كتابتهم هذرا وسخافة . وأصحاب المجلات والمطابع يقبلون بلهفة ما يقدمون إليهم ، إذ يضمنون من ورائه الرواج المادى بفضل حق الجمهور فى تعلقه بالأسماء أكثر من تعلقه بقيمة ما يقرأ . وفى هذا استخفاف بعقلية القراء اليقظين ذوى النظر السليم ، كما أن فيه قضاء مبرما على الـكتاب أنفسهم وخسارة كبيرة تنزل بتراثنا الروحى وثقافتنا الراهنة التى نريد أن نبنيها بناء أصيلا والتى ما زلنا عند الحجارة الأولى من أساسها . وكتابنا الأفاضل يعلمون حق العلم أن أول واجباتهم إن كانوا حريصين على المجد الحقيق ، المجد الذى يفلت من طوفان الزمن ، المجد الباقى لا تهريج الجماهير ، هو أن يأخذوا أنفسهم بالجهد المتصل والمراقبة المستمرة والقسوة اليقظة فى القال وفى الـكتاب بل وفى الحديث إلى الناس بمجرد حديث يتبدد أنفاسا ، فالتفكير أمر شاق والعبارة عنه أشق .

فليحفروا إذاً أنفسهم وليحذروا النجاح .

وثمة مشكلة السينما والراديو والمجلات والجرائد ، والذى لا شك فيه أن هـذه الوسائل قد احتلت فى حياتنا بل وحياة كل الشعوب مكانا لا يدانيه مكان الـكتاب ، والأمر فى بلادنا أوضح إذ نرى الاقبال على المشاهدة والاستماع أكبر من الاقبال على القراءة ، وذلك بحكم قانون أقل المجهود الذى يسيطر على حياة الـكسالى من أمثالنا أشد سيطرة ، والقراءة على قلتها لا تكاد تمتد إلى الـكتب القوية ، بل تقتصر على الجرائد والمجلات التافهة ، وهذه حالة محزنة يجب التماس علاج لها . وأنا لا أشك فى أن المسألة الاقتصادية وفقر الناس دخلاً فى هذه الظاهرة ، ولـكنى أعتقد أن هناك ما يمكن عمله من الناحية الثقافية أيضا ، وذلك بكسب النقد لثقة الجمهور ثم دعوته إلى القراءة ، ففيها ما يرفع القلوب ويهذب الأحساسات ويثير العقول ويربى الخلق ، بل فيها ما يجدد الحياة ويذهب بملالها .

وأمر السينما والمسرح والراديو والكثير من المجلات متروك بين أيد أخشى أن لا تستطيع أداء رسالتها ، بل إنها قد لا تعرف أن لها رسالة ، وهذا إجرام فى حق الشعب وحق الوطن ، ولهذا يجب أن نقف عليها بعضاً من وقتنا ، فهى وإن تكن أشياء فانية عابرة محدودة الأثر فى تثقيف الشعوب ثقافة حقيقية ، إلا أنها واسعة الانتشار شديدة الضرر ، وليس من شك فى أن من واجبنا أن نساهم فى تجميل حياة مواطنينا ومحاربتها والدفاع منها إلى جانب ما نستطيع أن نكتب لأنفسنا أو للخواص من الناس

وبعد فقد حقق جيل « الميزان القديم » ما استطاع تحقيقه ، وها نحن بدورنا نسعى إلى أن نخطو الخطوة الأخيرة ليدخل الأدب المصرى المعاصر والتفكير المصرى المعاصر فى التيار الأنسانى العام .

وسبيل ذلك هو بلا ريب الاخلاص لأنفسنا ، فلكل نفس قيم أعتقد أصالتها ؛ ولعل فى النقد ما يساعد تلك

من تاريخ الصحافة المصرية :

تشريع الصحافة وتطوره

— ٢ —

أقبل عصر إسماعيل ، وقد أحل الصحافة من نفسه مكاناً واسعاً وجعل لها من جهده نصيباً ، غير أن من الظواهر الشاهدة في بداية عهده أن كان للصحافة الخارجية المكان الأول ، فاشترك في أكثر من خمسين صحيفة أجنبية بينها ست صحف للأزياء ! ودفع آلاف الجنيهات لشراء الجرائد وأصحابها ، وله في ذلك بعض العذر ، فقد نشأ بينه وبين شركة القنال خلاف شديد في صدر ولايته حكم مصر ، فانتصرت له معظم جرائد فرنسا بالبذل هنا وهناك ، وأراد أن يغني ، بعدئذ المحاكم المختلطة فدفع ماله بعض صحف فرنسا وانجلترا وألمانيا إلى الوقوف في صفه ، ووسع اختصاصاته الخديوية ، وانتزع قانون وراثة العرش في أولاده يبذل المال للمسئولين في الآستانة ومحرري صحفها وصحف الشرق الأدنى . . . فسياسته مع الصحف والصحافة الخارجية سبقت علاقته بالصحف والصحافة المصرية .

كانت مصر قد دبت فيها نهضة لا بأس بها ، وبدأ رعايا الخديو يحسون وجودهم ، وأخذت نشأة الصحافة في مصر تتطور وتبلغ مراتب القوة والحياة ، فشجعها إسماعيل وجاملها كثيراً ، ثم جدت في حياة مصر ظروف اضطرته إلى محاربتها ، فاندفعت إلى الثورة عليه ، فاشترى بعضها وقسا على البعض الآخر ، وكان للتدخل الأجنبي أثر في ذلك كله .

كانت النكبات المالية والضرائب الفادحة التي تعددت ، ومراعاة خواطر الأجانب واستكانة الحكومة لهم وتدخلهم في شئون مصر ، وكراهية المصريين للحكم الأوربي ،

النفوس على إدراك ما تمتاز به من عناصر تنميها فتؤتي ثمارها .

وأكبر نقص في أدبنا على ما أعتقد هو بعده عن الألفة (Intimacy) فهو قلما يهمس . وهل لذلك من سبب غير ضعف الأخلاص فيه وغلبة المهارة عليه سواء في الصياغة أو التفكير ؟

كثير من كتابنا في حاجة إلى التواضع بل إلى السذاجة ليأتي أدبهم مهموساً على نحو ما أتت معظم الآداب الخالدة هذا ومن الانصاف أن نقرر سبباً آخر :

كثير من كتابنا على الدولة أن تنجو بهم من ضرورات الحياة لكي يحسوا لأنفسهم ويفكروا لأنفسهم ويكتبوا لأنفسهم في هدوء واستجمام ، فعندئذ فقط سنجد جميعاً أنفسنا فيما يكتبون .

لأمر ما استطاع تيمور والحكيم وطه حسين في السنوات الأخيرة أن يكتبوا قصصاً طويلة في حالة استقرار نفسي ، بينما نرى كاتباً آخر أعتقد أنه لا يقل موهبة عن أحد من هؤلاء ، إن لم يفق البعض بخفة روحه وسحر «الهيومر» عنده ، لا يستطيع أن ينتج غير رواية واحدة ، ثم يذهب معظم جهده الساخر في كتابة مقالات أو أقاصيص ؛ وأخيراً احتجب من الجمهور فلم يعد يطالعه إلا مرة كل أسبوع في إحدى الصحف اليومية ؛ وهذه فيما أعتقد جريمة يجب أن تسأل عنها الهيئة الاجتماعية التي تفرط هذا التفريط المعيب في حقوق الروح ومنتجات الروح الخصبة الخالدة الشرقة .

ولكنها حقائق مؤلمة لا نستطيع نحن إزاءها شيئاً ؛ وإذاً فلنحاول ما نستطيع ، وهو قيادة الجمهور ونقد منتجات نشاطنا الروحي ، وليكن بدء حديثنا في المقال الآتي عن الأساطير والأدب عندنا بمناسبة «بجماليون» للأستاذ الحكيم .

محمد مندور

ووجود بعض المسائل الاقتصادية الأخرى دافعا إلى الشكوى ، وخاصة بعد أن وجد فى مصر بعض المفكرين الذين تأثروا بالحضارة الأوربية أو أرهفت إحساساتهم بعض مظاهر الحياة الجديدة ، أو كانوا من الوافدين عليها كجمال الدين الأفغانى الذى أثار وجوده عاصفة من الرضى بين الوطنيين وعاصفة من السخط بين الحكوميين ، وأصبح بقاؤه فى البلاد مضاداً إلى ما ذكرنا باعثا قويا على هزة فى الأفكار الخاصة ، أساسها التفكير فى إصلاح الحال والمطالبة بحكم عادل يشعر بواجباته نحو مصر ، ويهتم بمصير شعبها ويتألم لمصابها ، وكانت الصحافة المصرية لسان هؤلاء الخاصة عند عامة المصريين .

لم تكن معظم الصحف الوطنية تخضع لرأى أو تجرى فى اتجاه معين لا تحيد عنه ، بل كانت حرة الرأى طلقة الفكر ، تذكر المسئولين والحكومة بالخير كما استوجبت مواقفهم الحمد والثناء ، ولا تتحرج من الحديث عنهم حديثا مؤذيا لأشخاصهم كلما تكاسلوا أو أساءوا ؛ فرأى إسماعيل جديداً فى صحافة بلاده لم يشهده من قبل ، فأصدر أمراً فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٦٦ بتوسيع اختصاصات مكتب الصحافة وتحويله إلى قلم يتبع نظارة الخارجية ، يشرف عليه موظفون يجيدون اللغات العربية والتركية والفرنجية جميعاً .

كان من شأن هذا المكتب الاشراف على الصحافة ورعاية شئونها ومراقبة أقلام أصحابها ، وقد اتسعت مهام هذا المكتب لكثرة الصحف الصادرة ؛ فكان يراجع ما ينشر بها ، فإذا وجد فيها ما يستوجب المؤاخذة درس جرائم النشر هذه ، ثم عليه بعدئذ أن يعد التقارير بالموضوعات التى تستحق المؤاخذة أو الموضوعات التى من شأن الحكومة أن تهتم لها ، ورفعها إلى الجهات العليا وهى هنا مجلس النظار ، وأصبح هذا المكتب يتكون من خمسة أعضاء : ثلاثة من الأجانب منهم الرئيس ، وهو إذ ذاك جودار بك (باشا فيما بعد) ثم اثنين من الوطنيين ، توزعت اختصاصاتهم فيما بينهم ، فكان على العضوين المصريين مراقبة الصحف الوطنية ، عربية أو تركية ، بينما اختص الثلاثة الآخرون بمراقبة الصحف الفرنجية ، وقد بقى مكتب الصحافة قائما حتى صدر قانون المطبوعات المصرى فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، فانتقلت بذلك الرقابة من الخارجية إلى الداخلية ، غير أن وظيفة المسئولين فى هذا المكتب قد تناولها التغيير فى أخريات أيام الخديو إسماعيل ، فأصبح المشرف على الوقائع المصرية حق الإشراف على الصحف والمطبوعات الأهلية .

وكان على طالب الترخيص لإصدار صحيفة من رعايا الدول أن يكتب إلى قنصليته ، وهذه تكتب إلى مكتب الصحافة بنظارة الخارجية ، وتلك بدورها تكتب المسئولين فى ديوان الخديو ؛ يتقدم مثلاً فرنسى إلى قنصليته بطلب ترخيصاً ، فتكتب القنصلية إلى نظارة الخارجية ، وتلك ترفع الأمر إلى الخديو ؛ فإذا وافق فإنما تجيز موافقته الأمر بشروط ، منها « أن تكون الصحيفة خاضعة للقانون الموضوع لهذا الشأن ، والمعلوم لدى نظارة الخارجية » . ومن أهم هذه الشروط أن تؤخذ عليه التعهدات مصدقاً عليها من قنصليته ، وليس لأجنبى حق طلب الترخيص مباشرة من السلطات المصرية ، بل لا بد أن يأتى طلبه من طريق قنصليته ، وأن تضمنه هذه القنصلية فى سمعته وعمله الصحفى ؛ وليس لأجنبى أجيز له إصدار صحيفة أن يتصرف فى ترخيصها بالبيع أو النقل إلا إذا اتبعت مع المالك الجديد نفس الاجراءات التى اتبعت مع صاحب الترخيص الأصلى .

ويجب أن نقرر هنا أن السلطات المصرية وقانون المطبوعات الذى كان ينفذ فى عهد اسماعيل وسلفه لا يقاس قدرها إلى قدر الخديو فى هذا الموضوع ، فإرادته وحدها هى القانون وهى السلطات العليا جميعاً ؛ وقد حفلت

المحفوظات التاريخية بعابدين عا يثبت ذلك كله ؛ فقد التمس « الخواجه بيرتيه » أن يسمح له بأصدار جريدة لنشر وإذاعة أخبار المراسح والقهوات على ألا تتداخل فى السياسة ؛ بيد أن « المية » رفضت التصريح بذلك . وإذا أراد صاحب جريدة أن يضيف إلى جريدته مواد جديدة لم يذكرها فى ترخيصه ، كأن يدخل عليها الشئون السياسية ، وكانت من قبل خلوا منها ، كتب فى ذلك إلى قنصليته ، وتلك تمضى فى إجراآتها ، حتى تبلغ الموافقة أو الرفض من الخديو نفسه . ولم يكن فى وسع أى سلطة حكومية حتى ناظر الخارجية أن يشير برأى فى إجازة الترخيص أو رفضه ؛ ولتأكيد هذه الحقيقة التاريخية نشير إلى موقف المية حين بلغها استئذان إحدى القنصليات فى شأن ترخيص لصحيفة تبحث فى الأدب والتمثيل ، فقد أرتج عليها ورفضت أن تقطع بأمر فى الموضوع ، محتجة بأن هذه الأمور من اختصاصات « الذات العلية » وحدها ، والذات العلية فى ذلك الوقت كانت تستجم خارج القاهرة ، وبقى الأمر معلقاً حتى عاد الخديو وفصل فيه .

ولم تكن العلاقة معقدة هكذا بين الحكومة المصرية والصحافة العربية الوطنية ؛ فكان المواطنون من أصحاب الصحف يتقدمون إلى مكتب الصحافة بنظارة الخارجية فى أول الأمر ، ثم نظارة الداخلية فى عهد توفيق الأول ، دون وساطة أو شفاعة ، يطلبون الترخيص لهم بإصدار صحفهم ، ويسمون طلبهم هذا « العرضحال » . فالعلاقة هنا بسيطة وواضحة بين طالب الترخيص والحكومة ؛ فهذا مواطن يطلب إصدار صحيفة وطنية ، فتجيز له السلطات ذلك إن لقى (عرضحاله) قبولاً ، وإن فرضت على الطالب نفس الشروط التى تفرض على طالب التصريح الأجنبى ، غير أن الخاتمة واحدة ، فالخديو هو هنا وحده المرجع الأعلى فى إجازة الترخيص أو رفضه .

وتعنى هذه الاجراآت أن الخديو الذى يستطيع أن يمنح حق إصدار الصحيفة أو يقبض يده عن ذلك ، تعنى هذه الاجراآت أن الصحف التى تصدر فى مصر كانت كلها تدين بالولاء المطلق لخديو مصر ، لأنه صاحب الفضل فى إصدارها وله عليها اليد والمعروف ؛ بيد أن هذا ليس صحيحاً كله ، فمن بين تلك الصحف ما ناصب الحاكم المصرى العداء ، وجاهر بهذه العداوة فى غير تحفظ ، وخاصة الصحف الفرنجية أو الصحف المصرية التى تحتمى بقنصلية من القنصليات ؛ ولقى المصريون من تلك الصحف شيئاً من الضيق مع والبرم ، فبينما يأمر اسماعيل بأغلاق إحدى الصحف ، فيحول (قوّاص) القنصلية الفرنسية دون تنفيذ أمره ، نرى صحفاً أجنبية أخرى تحمل على الدين الاسلامى وتسخر منه ، ولم تستطع الدولة ولا تشريع الصحافة ، ولا سلطان الخديو حماية المصريين ، وحماية دينهم الرسمى ، لتدخل القناصل وحيلولتهم دون بطش الحكومة وتنفيذ قانون المطبوعات ، حتى إن إيطاليا التى لم تكن قد بلغت من العمر ست سنوات احمت يعقوب بن صنوع المصرى القح من سلطان الخديو ، وتوقيع الجزاء عليه ، وبعد جهد عظيم استطاع اسماعيل أن يستأذنها فى نفيه ومصادرة جريدته .

وفى عهد الخديو توفيق أصبح للمشرف على الوقائع المصرية حق الإشراف على الصحف والمطبوعات الأهلية من عربية وتركية ، والمشرف هنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وفى عهده صدر قانون المطبوعات المصرى ، وأصبحت العلاقة بين الحكومة والصحافة علاقة غريبة بعض الشيء . الصحافة حرة فى حدود القانون ، ولكن المشرف على الوقائع يأبى أن يكون القدح الشخصى قاعدة السياسة الصحفية ، فهو ينذر ويعطل كل صحيفة تلغ فى الأعراض أو تجعل المسائل الشخصية سياستها المرسومة ، وهو يفرض على الحاكم ومصالح الدولة الأخرى أن توافيه

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ..."

ثورة على التربية — مكتبة الاسكندرية — أحزان الأديب — مسابقة ! ... ...

ثورة على التربية :

عاد الطفل إلى أمه فى يوم من أيام أكتوبر سنة ١٩٣٥ يضم إلى صدره بكلتا يديه طائفة من الكتب لم يحمل مثلها فيما سبق من أعوامه الثمانية ، وكان يبدو فى مشيته وفى تقاطر العرق من جبينه أنه مثقل بما يحمل ، ولكن فى عينيه مع ذلك بريق الرضا والسعادة ؛ لأن اليوم أولُ أيامه بالمدرسة .

ووضع الفتى حمله بين يدى أمه وراح يُربها ويقص عليها وهو سعيد جذلان : هذا كتاب المطالعة العربية ، وذاك كتاب مبادئ العلوم ، وذلك كتاب الجغرافيا ، وهذه المطالعة التاريخية ، وتلك دروس تدبير الصحة ، إلى كُتيبٍ وأشباه . . .

. . . وقالتْ للفتى وقد فرغ من تعداده : وما تفعلُ بهذه الكتب جميعاً يا ولدى ؟

ونظر الطفل إلىّ نظرةَ التعجب الساخر ، ثم سكت ؛ وعاد إلى كتبه يتهجى أسماءها ويَعُدّ صفحاتها ، وترك السائلَ بلا جواب ؛ وهل تكون الكتب إلا للدرس والقراءة ؟ . . . .

. . . . ولكن هذه الكتب بين يدى « صديق الصغير » لم تكن للدرس والقراءة ، فلم يلبث بعد أيام من تملكه إياها أن مَلّها فطواها ، ثم لم يعرف ولم يعرف أحد أين موضعها من « مكتبه » بعد !

. . . . ورأيت هذا الطفل نفسه فى يوم من أيام

بأخبارها فى أسلوب حسن ، وإلا كشف عورتها فى اللغة بنشرها ونقدها فى الجريدة الرسمية ، وهو كذلك يفرض على الصحف أن تعنى بالأساليب العربية فى مقالاتها وأخبارها وإلا أنذرت . فرئيس المطبوعات فى ذلك الوقت كان معلما للصحافة الأمة ومصالح الدولة وإن لم يوح بذلك قانون المطبوعات أو أشار إليه نص من نصوصه .

وقد صدر هذا القانون فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ مشتملاً على ثلاث وعشرين مادة ، تضمنت شروط فتح مطبعة ، ثم حدد أنواع المطبوعات التى ينسحب عليها القانون ، ثم انتقل المشروع إلى الجرائد والرسائل الدورية فنص على ضرورة الاذن بها من الحكومة قبل إصدارها ، كما نص على أن هذا الإذن شخصي ويجب تجديده كلما تغير صاحب امتياز الجريدة أو النشرة أو رئيس تحريرها أو مديرها كما فرض دفع تأمين نقدى ، وأثبت حق الحكومة فى تعطيل أو مصادرة أو قفل أى جريدة أو رسالة دورية بأمر من ناظر الداخلية بعد إنذارين ، وبقرار من مجلس النظار بدون إنذار ، وذلك بغية المحافظة على النظام العام أو الدين أو الآداب ، وواجه القانون الجزاء الذى يحيق بكل من يخالف قرار التعطيل أو يتحايل عليه ، وأشارت بعض مواد القانون إلى المطبوعات والصحف التى تصدر فى خارج القطر المصرى وهيأت فرصة مصادرتها متى شاءت ذلك ؛ وأهم ما جاء فى هذا القانون أنه ألغى كل قانون أو لائحة أو أمر أو منشور مخالف له .

ويعتبر هذا التشريع حداً فاصلا بين ماضى قوانين المطبوعات فى مصر ، وهو ماض غامض أعان على غموضه وغموضه الوثائق المختلفة التى ترجمت حديثا عن اللغات التركية والفرنجية إلى اللغة العربية ولم تدع قبل نشرها فى الثقافة ، وبين مستقبل سجلته التشريعات والأحكام واللوائح المتباينة ، فى وضوح حينا وفى التواء أحيانا ، خلال حكم الاحتلال أو بعد ذلك فى ظل الدستور المصرى ، إلى أن تبين أمرها أخيرا فى وضوح لم يستقم بعد أمر التاريخ له .

ابراهيم عبده

مايو سنة ١٩٤٢ ، وقد شب وأيفع وطال « بنطلونه » ، وإنه لتلميذ في المدرسة الثانوية ، وكان جالساً إلى مكتبه ، عن يمينه كتاب ، ومن يساره كتاب ، وبين يديه كتاب ، والعرق يتقاطر من جبينه كشأنه يوم لقيته منذ سبع سنين ، ولكن البريق في عينيه غير البريق !

وتناولت كتاباً مما بين يديه ومضيت أقرأ منه ، ثم طويته لأنظر في غلافه ؛ ذلك كتاب « المطالعة العربية » ؛ وتناولت كتاباً آخر ، ثم كتاباً ثالثاً ، ورابعاً ؛ وقرأت العناوين ؛ هذا كتاب في التاريخ ، وذاك في الجغرافيا ، وذلك في الأدب ، إلى كتب ذات أسماء . . .

ماذا . . . ؟ ألا يكون العلم علماً إلا أن يختص بكتاب وعنوان ؟ وما يمنع أن يكون كتاب المطالعة هو كتاب الجغرافيا ، وكتاب التاريخ ، وكتاب الأدب ، وكتاب « الحياة » ؟ . . . ماذا يمنع أن نعوّد التلميذ أن يتعلم الجغرافيا ، والتاريخ ، والأدب — من كتاب « المطالعة » ، ليعرف أن « المطالعة » هي السبيل إلى كل أنواع المعرفة وإن اختلفت أسماؤها ومسمّياتها ؟

وماذا يقرأ التلميذ في كتاب « المطالعة » إن كان لكل فنّ من فنون المعرفة كتابه وعنوانه ؟ . . . هل يقرأ فيه إلا فضولَ القول وزخرف اللفظ وبريق العبارة ؟ . . . وماذا يقع في نفسه من ذلك وقد أيقن أن كتاب « المطالعة » ليس فيه « العلم » ولكنه « رياضة عملية » على تجويد النطق وحسن إخراج الحروف ؟ . . . أتراه يعرف بعدُ أن « المطالعة » فائدة تغريه بها وتدعوه إليها ؟ . . .

. . . إن كان أحد في شك من الجواب فإن فيما نشكوه من قلة إقبال شبابنا على القراءة ما يعرّفه الجواب الصريح ويكشف له عن سوء النتيجة !

العلم هو القراءة ، والمدرسة هي الكتاب : هكذا ينبغي أن يعرف تلامذتنا ومعلّمونا والقائمون على شئون التعليم منا ، وأن يرسموا نهجهم على هذا الأساس .

يخيّل إليّ أن شدة ولوعنا بقاعدة « الفصل بين السلطات » هي التي بعثرت العلم بين هذا العدد الجمّ من الكتب ، فأنشأت كتابَ الجغرافيا للجغرافيا ، وكتاب التاريخ للتاريخ ، وكتاب التهذيب للتهذيب ؛ وتركت فضولَ القول للمطالعة ؛ فتعوّد التلميذ ألا يأبه بالمطالعة وألا يحس لها أثراً في تكوين ثقافته وتكميل علمه ، فاكتفى منها برياضة اللسان في المدرسة على تجويد النطق وحسن الأداء ؛ ثم أهمل شأنها في المدرسة وبعدَ المدرسة !

ولكن ، أتجهل وزارة المعارف ذلك اليوم وكان يعرفه على مبارك باشا مدير المدارس الملكية (المصرية) في سنة ١٨٦٨ ؟

* * *

ثارت هذه الخواطر في نفسي حين قرأت الفصل البديع الذي قدمه الأستاذ أحمد أمين بك لقراء الثقافة في العدد ١٨١ يعرض به « كتاب طريق الهجاء والتمرين على القراءة في اللغة العربية » المرحوم على مبارك باشا ؛ وسماه « أول ثورة على التربية في مصر » ، وأتمنيه « الثورة الأخيرة » ؛ فلست أرى صلاحاً لهذه الحال السيئة في مناهج الدراسة المصرية إلا أن نعود إلى المذهب الذي أنشأه ورسم مثاله على مبارك منذ خمس وسبعين سنة ؛ فلا كتاب للجغرافيا ، ولا كتاب للتاريخ ، ولا كتاب لتدبير الصحة ؛ ولكنه كتابٌ واحدٌ للمطالعة ، تضم أجزاؤه وفصوله أشتاتاً من المعرفة مما ينبغي أن يلم به التلميذ ، متدرّجة على أساس لغوي وعقلي يلائم عقل الطفل ولغته وأسلوب تفكيره ؛ فإن ذلك حقيق بأن يجمل العناية في المطالعة « بالموضوع » ، ويعوّدَ الطفل أن يقرأ ليستفيد ويتزوّد من المعرفة ؛ فإذا بلغ التلميذ مرحلة « التخصص » فلا بأس حينئذ من تفريع الفروع وتنويع الأنواع و « فصْل السلطات » .

الكتاب الواحد، والمعلم الواحد: هذه هي الطريقة المثلى في تعليم الناشئة، وكل ما عدا ذلك « عناوين » ليس لها علم ولا وراءها معنى!

مكتبة الإسكندرية:

ويتصل بموضوع هذه « الثورة على التربية » ما نشرتُ قبلُ في هذا الباب من « أزمة القراءة »؛ فقد كانت قاعدة « فصل السلطات » سبيلا لأن تقرر الوزارة على تلاميذها من الكتب الدراسية في بعض موضوعات العلم مالا قبل لهم بقراءته ولا طاقة لهم على فهمه وتحصيله؛ لأن لغته فوق مستواهم العقلي، أو لأنه من العجمة والضعف في البيان بحيث يحتاج إلى « الترجمة » من عربية مؤلفيه إلى العربية المبينة...

ولدىّ اليوم مثل آخر على سوء ما تجنيه قاعدة « فصل السلطات » على حقائق العلم وما تسيء إلى عقول التلاميذ

هذا كاتب في العدد ٤٦٧ من الرسالة تنبه إلى عبارة في كتاب المطالعة الأنجليزية المقرر تدريسه لتلاميذ السنة الرابعة الابتدائية، ترجمتها:

« ... وفي سنة ٦٤١ أرسل الخليفة عمر جيشاً إلى الأسكندرية؛ وقد دمّر القائد — واسمه عمرو — كثيراً من المؤسسات، وأحرق مكتبة الأسكندرية، واستغرق إحراق الكتب جميعاً ١٨٣ يوماً... »

هذه العبارة ما كان لتمكن أن تقع تحت عين التلميذ المصري في كتاب مدرسي لولا قاعدة « فصل السلطات »؛ فهذا الكتاب للمطالعة الانجليزية، ومادام كذلك فلا شأن لأحد به لا من ناحية لغته وأسلوبه وصلاحهما لتلميذ السنة الرابعة الابتدائية؛ أما « الموضوع » فلا عناية به ولا احتفال؛ إذ لم يكن « الموضوع » مقصوداً لذاته ولو كان فيه ما فيه من التجني على التاريخ الحق، ومن الجناية على عقل التلميذ وخلقه القومي!

ويقرأ التلميذ في كتاب التاريخ وفي دروس التهذيب عن عمرو بن العاص غير ما يقرأ في كتاب المطالعة الأنجليزية، فيختلط في رأسه الحقُّ بالباطل، ويتضارب الرأي والهوى؛ ولكن ذلك لا يعني وزارة المعارف؛ إذ كانت القاعدة عندها هي « فصل السلطات »

ويدرس المدرس ما يدرس بمعاهد التربية عن « وحدة العلم » و « تجميع المواد »، فإذا خرج إلى المدرسة ليعلّم طُلب اليه أن يدرس على منهاج يبعثر العلم ويفرّق المواد، فيفصل العلم بين النظرية والتطبيق، وينتهي أمره إلى أن يكون « آلة » تدور كما تدار!

أحزان الأدب:

« صديق الزيات

« حتى أنت قد خاب أملي فيك! أنا الذي دعا إلى الصفاء بين الأدباء كما رأيت، وبذلتُ في ذلك مابذلت، ورددت الحقوق إلى أصحابها، وأديت الواجبات على تمامها، وأزلت من النفس أسباب الكدر، وطهرت القلم من أدران الشر ... ...

« ... ليكن اليوم آخر عهدي بك و (بالرسالة) والأدباء... لن أكتب شيئاً لك، ولن أذكر بعد اليوم أديباً بخير ولا بشر... سأصمت عن أشخاصهم صمتَ القبر، لأنصرف إلى الإنتاج وحده من حيث هو إنتاج، ماضيا في إصدار كتبي لقرائي الأوفياء... فلا حلم في صفاء، ولا أمل في مودة بين أدباء! ... ... »

قرأت هذا من رسالة لتوفيق الحكيم إلى صديقه الزيات في العدد ٤٦٨ من الرسالة ففزعت!

لأمرٍ ماغضب توفيق الحكيم وثارت نفسه!... أمِن أجل كلمة في الرسالة يغضب؛ فيقطع صديقه وينسى وداده ويتجاهل دعوته إلى التسامح والصفاء؟ وإن توفيق الحكيم لرحب الصدر كريم المغدرة!

ورجعتُ إلى نفسي ألومها : ماذا يقول صديق توفيق وقد قرأ حديثي عنه في العدد الماضي من « الثقافة » ؟ أتراه يقطعني كذلك وينسى ودادي ؟ . . . ولكني لم أقصد إلى شيء غير المزاح والدعابة ، وإنه ليعرف ما أعنيه ؛ أم تراه لا يغضب إلا لأني أقصد إلى المزاح والدعابة في حديث أنشأه جادًّا لا يقصد إلى المزاح والدعابة ؟ . . .

وعُدتُ إلى مقاله في العدد ٤٦٦ من الرسالة أقرؤه — وقد قرأته قبل ذلك مرات — فإذا المقال يكشف لي عن معناه . . . وآسفني أن أعرف . . . :

« إني لم أنتفع بقدر ما أضعتُ ! »

« لقد جاوزتُ الأربعين وما أبصر في الأفق بعدُ طيفَ واحة مورقة في صحراء حياتي المحرقة ! »

« ما قيمة الشهرة بغير سعادة ؟ وفيم الأدب والفن بغير هناء ؟ »

هذا كلام لم يقله توفيق الحكيم قبلُ ولم يقع مثلَ موقعه الساعةَ في نفسي ؛ إن في هذه الكلمات قلبًا ينطوي على معنى من معاني اليأس والألم يتوارى وراء مظهر من مظاهر التسليم والرضا .

أحسَبُها أزمة نفسية أشعرَتْه لجاجةً وقد جاوز شبابَ العمر ، أن أسرة الأدب لا تستطيع أن تغنيه عن الأسرة الحقيقية ، وأن إنتاجه في الفن لا يعوِّضه شيئاً عن إنتاج الذرية ! ومن يدري ؟ لعل دعوته إلى الصفاء بين الأدباء لم تكن إلا مظهراً لما يحسه في نفسه من الحاجة إلى المودة والحنان اللذين حُرمهما في حياة الوحدة الباردة التي يحياها مطويا على نفسه منقطعاً لفنّه ؛ فهل تكون غضبته الأخيرة شعوراً بخيبة الأمل في الأدباء الذين قابلوا أحزانه بالتهكم ؛ فلما آلمته الصدمة لم يجد في نفسه إلا أن يصمت على أصدقائه صمت القبر كما يقول في كتابه إلى صديقه الزيات ؟

إني لأحس الساعةَ كأن معنى من أحزانه يتسرب إلى نفسي فأعرف ما لم أعرف قبلُ فأتأسفُ ويدركني الندم على أنْ طاوعتُ شيطاني فجعلتُ أحزان الصديق موضوعاً للمزاح والدعابة !

أنا . . . أنا الذي أخفي وراء ابتسامتي أقسى ما تحتمل النفس البشرية من معاني الألم ، وأضم جوانحي على آلام ما يُدْمِي القلبَ من عميق الجراح — لم يكن يجمل بي أن أجعل من أحزان الصديق موضوعاً للمزح والدعابة ؛ أم تراني أتوهم ما لا يقع لأن صديقي يعرف من نفسي مثل ما يعرف من نفسه ؟

مسابقة !

... وسواء أكان من حقي أن أمزح أم لم يكن حقي ، فقد كان حتماً عليَّ أن أتحدث إلى قرائي حديثاً عن توفيق الحكيم ، وقد تحدثتُ ؛ فإن كنت قد أغفلتُ جانباً من حديث الجد عنه إلى جانب من الفكاهة فإنما أخادع نفسي بذلك عن آلامي ؛ وإنَّ في كلا لونيه من الجد والفكاهة لمجالاً لمن يريد أن يتحدث ؛ أفتحملني خشيةُ العتْب من صديق على التراجع ؟

... وقد سبقتُ بين القراء في العدد الماضي مسابقة ، فطلبتُ إليهم أن يعرفوا أدباءنا العشرة ، وإني لجادٌّ في انتظار الجواب ، وموعدي وموعدهم بعد أسبوعين ؛ وإن هذا الاستفتاء لحقيق بأن يفتح باباً من القول لمن يشاء الحديث عن رسالة كل أديب من أدبائنا وخصائصه وأثره ، وإن في ذلك لفائدة ؛ فليسمح توفيق الحكيم ويُسَرِّي عن نفسه !

وإذ كان من حق « المرشح » و « الناخب » أن يكون لكل منهما رقابته على « هيئة الحكم » ، فإني أرجو أن يكون توفيق الحكيم عضواً في هيئة الحكم ؛ فمن يا تُرى سيكون الناخبَ الأول ؟ . . .

« قاف »

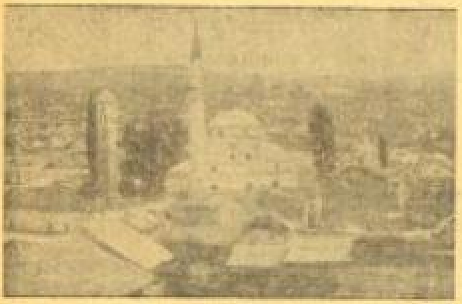
المسلمون فى أنحاء العالم

(١) مسلمو الهند

عندما سار محمد بن القاسم من العراق لفتح الهند عام ٨٣ هجرية ، الموافق عام ٧٠٢ ميلادية ، رحب سكان السند بقدومه ، لأنهم كانوا حتى ذلك الحين يخضعون لحكم فئة قليلة من الطبقة الحاكمة . وقد توغل محمد بن القاسم فى بلاد السند والجهات المعروفة الآن باسم البنجاب ، حتى وصل إلى حدود كشمير . وقد استمر الاسلام ينتشر فى الهند خلال القرون التالية ، بعد أن رسخت قدمه فى البلاد من الوجهة السياسية . ولما كانت اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم ، أخذ الناس يقبلون على دراستها ودراسة آدابها ، وبدأت الطبقات المفكرة فى الهند ، تتأثر بالآراء العربية . ولما بدأ الحكم الاسلامى يتخذ شكلا دائماً فى شمال الهند فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، احتلت اللغة العربية مكانة سامية بوصفها لغة الدين . وساعد على انتشارها إنشاء المعاهد التى أعانتها الأوقاف الخيرية وأساتذة الدين الاسلامى الذين استقدموا من الأقطار العربية .

أما علاقة العرب بجنوب الهند وجزيرة سيلان فترجع إلى عهد قديم جدا . فقد وصل تجار العرب إلى ساحل ملبار (Malabar) فى طلب التوابل فكانوا بذلك عاملا فى ازدهار التجارة بين الهند وبين جنوب جزيرة العرب وشواطئ البحر الأحمر . وأصبحت الطرق التجارية وسيلة لنقل الآداب العربية إلى هذه الجهات . وعن طريق اللغة العربية بدأ الأدب الاسلامى يعرف فى الهند وبدأت الآداب الهندية تعرف فى العالم الاسلامى ، كما هو الحال فى قصص كتاب كليلة ودمنة ، التى قد يرجع أصلها إلى قصة هيتوباديشا (Hitopadesha) السنسكريتية . ولما استقر المقام بالمسلمين فى الهند أصبحت العربية الفصحى لغة الدين والآداب ومنبع الوحى والالهام لكثير من العلماء والكتاب فى الهند . وهناك رابطة أخرى تربط مسلمى العالم أجمع ببلاد العرب ألا وهى رابطة الحج إلى مكة المكرمة ، فمن بين الحجاج الذين يحتشدون هناك فى كل سنة ، عدد كبير من الهنود . ولاتصال الهند بالعالم العربى على هذا الوجه أهمية عظمى فى توسيع وجهة نظر مسلمى الهند ، وجعلهم على اتصال مباشر بالمسائل العالمية الكبرى ، التى قد تؤثر على الاسلام .

وكثيراً ما يجد المسلم الهندى أن العالم العربى لا يعرف إلا القليل عن مشاكله الخاصة به ، ولا يجد سوى القليل من المناسبات والفرص التى تسمح له بعرضها . وبينما تجد الصحف الهندية تقتبس الكثير من موضوعات الصحف العربية ، تجد الأخيرة قلما تقتبس شيئاً من صحف الهند الاسلامية بأى شكل من الأشكال . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أمرين : أولهما أن مسلمى الهند ليس لديهم سوى بضع صحف مطبوعة بالانكليزية ، والثانى أن صحفهم المكتوبة باللغة الأردية الدارجة لا يقرؤها الناس خارج الهند إلا قليلا . ولا شك أن تبادل الأساتذة ورجال الجامعات بين البلدان العربية والهند ، يؤدى إلى القضاء على هذه العزلة ؛ وإذا نجحت الجامعة الأزهرية بالقاهرة فى تجربتها الخاصة بجعل اللغة الأردية وآدابها إحدى المواد التى تدرس بين مناهجها ، فان ذلك سيؤدى ولا ريب إلى قطع شوط بعيد فى إحكام الاتصال الفكرى والثقافى بين الهند والعالم العربى .



أحد مناظر مدينة (سراجيفو Sarajevo) عاصمة البوسنه . ويرى فى الوسط الجامع المسمى (Begova Djamia) ، أى جامع (حرم البك) ، ويظهر خلفه من بعد عدة مآذن لجوامع أخرى .

(٢) مسلمو يوغوسلافيا

تعتبر الطائفة الاسلامية فى يوغوسلافيا أهم طوائف المسلمين فى أوربا جماء وأكثرها عدداً . إذ يؤلف المسلمون نحو مليون ونصف مليون من مجموع سكان يوغوسلافيا البالغ عددهم حوالى أربعة عشر مليون نسمة حسب إحصاء سنة ١٩٣١ . ويقيم السواد الأعظم منهم فى ولايتى البوسنه والهرسك وجنوب مقدونيا ، ولئن كان المسلمين طوائف صغيرة منتشرة فى الأجزاء الأخرى من البلاد .

ومسلمو مقدونيا ينتمون فى عددهم إلى الأتراك أو الألبانيين ، وهم يتكلمون هاتين اللغتين ، بخلاف مسلمى البوسنه ، لأن تركيا حينما فتحت البوسنة فى القرن الخامس عشر الميلادى اعتنق أغلب أهلها الدين الاسلامى الحنيف . فلذلك من الخطأ وصف مسلمى هذه الولاية بأنهم أتراك ، إذ إنهم فى الحقيقة ينحدرون من سلالة السلاف ، كالصربيين والكرواتيين ، وليس بينهم إلا بضع أسر قلائل تنتسب فى أصلها إلى الأتراك .

وقد صبح النمساويون لكبار ملاك الأراضى المسلمين باستيفاء ممتلكاتهم حينما احتلوا البوسنه والهرسك فى عام ١٨٧٣ ، لأنهم لم يهتموا بالاستيلاء على الضياع الصغيرة القليلة التى كانت فى حوزة

المسلمين ، بل كان اهتمامهم موجها لاستغلال موارد البلاد في المعادن والغابات واستثمارها . وقد استفادت الامبراطورية النمساوية فائدة عظمى من ضم هاتين الولايتين إلى مملكتها . ولكن عندما وضعت الحرب الماضية أوزارها وبرزت المملكة اليوغسلافية إلى الوجود تحققت بذلك أمنية توحيد الشعوب السلافية الجنوبية ، فقسمت ضياع المسلمين الكبيرة في البوسنه والهرسك بالتجزئة والتقسيم ، ووزعت أراضيها على الفلاحين بالتساوي . ولم يكن ثمة مندوحة من القيام بهذا الاصلاح الاجتماعي ، بل إن المسلمين أنفسهم لم يروا في هذا التصرف من جانب الحكومة اليوغسلافية أي غضاضة أو إجحاف بحقوقهم . والدليل على ذلك أنه لم يهاجر منهم إلى تركيا والبلاد الاسلامية الأخرى إلا القليل . وبقي المسلمون محتفظين ببيوتهم في مدينتي (سراجيفو Sarajevo) أو (موستار Mostar) ، كما احتفظوا في الأرياف أيضا ببيوتهم وبأراض كافية للفلاحة على نطاق صغير . ولم تتدخل الحكومة مطلقاً في شئون المسلمين الدينية .



شيخان بوسنلاويان يتقابلان

فالمساجد مفتوحة في المدن والأرياف يؤمها المسلمون دون قيد أو شرط . والكلية الشرعية الاسلامية في (سراجيفو) شهيرة ذائعة في العالم الاسلامي . وأطفال المسلمين يلتحقون أولا بالكتاتيب قبل التحاقهم بالمدارس الأهلية الابتدائية . وقد حمي طلبة المسلمين ذكوراً وإناثاً بالانتساب إلى جامعات بلغراد وزغرب وغيرها .

وقد ساهم المسلمون بنصيب هام في إدارة المجالس البلدية لا سيما في مدينتي (سراجيفو) و (موستار) ، فعند نشوب الحرب الحالية مثلا كان رئيس بلدية (سراجيفو) مسلما . وكذلك اشترك المسلمون في المناصب الوزارية والحكومية . وقد شغل الدكتور محمد صباحو زعيم حزب البوسنه الاسلامي منصب وزير المواصلات مدة سنوات إلى أن عاجلته المنية فخلفه في زعامة الحزب (الدكتور كولينوفيل Dr. Kulenovil) المسلم الذي عين وزيراً للمناجم والغابات .

(٣) مسلمو بولندا

ببولندا عدد كبير من المسلمين وقد وجدوا أن التعمق في دراسة الأديان برهن على أن كلا من الديانة الاسلامية والمسيحية تدعو إلى التعاون وتوثيق عرى المودة بين الشعوب وبعضها . وهذا ما يرمي إليه التفكير الحديث من التقريب بين الشعوب الأسيوية والأوربية يتغلب على مشاكل العصر الحاضر ، وخير شاهد على صواب هذا التفكير قول الله تعالى في كتابه العزيز :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير »

وهذا نداء لا يفوقه نداء لتعاون الدول والعمل على استتباب الأمن العالمي والسلام البشري . فلذلك تتلخص رسالة مسلمي بولندا في إقامة دعائم هذا التعاون بين الشعب البولندي . ثم نقل ما يمكن اقتباسه لخير الانسانية — مما تمخضت عنه المدنية الغربية — إلى الأقطار الشرقية ، بينما يعملون من ناحية أخرى على تلقين الشعب البولندي مبادىء الاسلام والمدنية الشرقية ، وفي نفس الوقت يكونون حلقة اتصال بين بولندا وإخوانهم المسلمين في البلاد الأخرى ، ليحتفظوا في المستقبل بأواصر الصداقة القديمة العهد ، المتينة بينهم وبين شعوب العالم الأخرى .

(البحث بقية) [ملخصة عن مجلة المجتمع العربي]

عش الهـــوى

زرتُ ووجدي مستعر ... عش الهوى الذي هجر
فراعني خـــــلاؤه ... وكاد قلبي ينفطر
يا ويحـــه ما باله ... منه السرور قد نفر
ولم كانت روضة ... غنـــاء تبهر النظر
ترفل في ســــوسنها ... وفلها الغض العطر
والورد في حياضها ... يأخذ حسناً بالبصر
كم شهدت غرامنا ... بين أصـــــيل وسحر
ما بالها قد أصبحت ... خالية من الزهر
طفتُ بها في حسرة ... أسألها عن الخبر
قلت لطـــير جاثم ... هناك في بعض الشجر
ما بال زهر الروضة الـ ... ـغناء جفَّ وانتـــثر
فقال طيري مطرقاً ... والدمع منـــه ينهمر
منذ حبيبـــه نأى ... من يأسه الزهر انتحر

حسين شوقي

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٤ الثلاثاء ٢٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦١ — ٧ من يوليه سنة ١٩٤٢ السنة الرابعة

فهرس العدد

من النافذة :

مصر المستقلة دائماً

كنا نريد أن يكون حديثنا اليوم من تعطل المصريين ومن رأينا في وسائل علاج ذلك التعطل ، وعن مستوى حياة عامة الشعب ، ومن الطرق المؤدية إلى إعلائه ؛ وهو ما وعدنا بالتحدث عنه في العدد السابق من « الثقافة » ولكن ....

ولكن كيف السبيل إلى أن يقبل القلم على مثل هذا البحث ، والحال من بين أيدينا ومن خلفنا لا تدع فراغاً للذهن إلا أن يفكر في موقف مصر ، ولا يدع انصرافاً للقلب إلا إلى الشعور بموقف مصر ، ولا يدع للقلم قدرة إلا على التحدث عن موقف مصر ؟

لقد أقبلت الجيوش تلج أبواب مصر ، وتحارب في دهاليز مصر ، ولا تزال تجوس خلال محاريها عند حافة الريف ؛ ونحن ننظر إلى السماء ، وتذهب أبصارنا عبر السنين من ألوف أعوام مضت إلى اليوم ، ومن اليوم إلى سنين كثيرة مقبلة ؛ وتزدحم الأسئلة في القلوب ، وتتنازع خوالج العواطف في الصدور ، وتلمع العبر من ثنايا كل ذلك لمعات خاطفة لا تكاد تضيء حتى تخبو ، ويخفى عليها الواقع الغامض المليء بالاحتمالات .

لقد كانت مصر أم العالم المتمدن منذ آلاف السنين وكانت سيدة العالم المتمدن منذ مئات السنين ؛ ثم دار بها

الفلك الدوار ، فاعترتها عصور غطت على فضلها القديم ، وأنست العالم سيادتها النابرة ؛ فإذا هي اليوم ميدان حرب الأمم المتناضلة ، تنظر نظرة إلى الماضي ، ونظرة إلى المستقبل ، ثم تمضي ويطول بها الإغضاء .

عقدت مصر مع بريطانيا العظمى محالفة صداقة شريفة ، عقب نضال سياسي طويل ؛ ورعت حق هذه المحالفة منذ أبرمتها ، وقامت على إنفاذها شريفة مخلصة ، وكان الشرف يحتم عليها أن ترعاها ، وكانت بذلك مثلا للشرف في هذا العالم المضطرب الثائر ؛ ووفت لحليفتها في غير مَنٍّ ولا كبرياء ، فلم يعل صوتها بالمن عند النصر ، ولم يخالطها وهن في الهزيمة ؛ فكانت بذلك جديرة بميراثها القديم من خلق مصري صميم .

إن الأقدار لا تزال سائرة في مجراها ، وكل شيء معلق في خيط القضاء ، والسيف ليس فيه إلا شرف ، وسنة الحروب لا بد فيها من نصر وهزيمة .

والحرب اليوم حرب جبابرة عمالقة ، لا تطمع مصر فيها إلا أن تخرج ناجية من الويلات والنكبات ؛ فلقد كفاها منها ما قاسته في تاريخها الطويل .

ولكن أمراً واحداً يجب أن نقف عنده قليلا ، لكي نؤدي حقاً علينا نحو الحقيقة ، أو لكي نقرر أمراً لا مناص لنا من تقريره .

لقد حددت المحالفة المصرية البريطانية موقف مصر مع بريطانيا ، وشهدت وثائقها باستقلالها ، ورسمت لها خطواتها نحو الجلاء ، فاطمأن بها المصريون على مستقبل بلادهم ، واثقين أن الزمن كفيل بإكمال ما ينقصهم ، وتحقيق ما يجول في أمانيهم . ولكن هذه الحرب قد عاجلت العالم قبل أن يمضي على هذه المعاهدة زمن يكفل أن تسيطر مصر على مصايرها ، وتستكمل قوتها ، وتقف ثابتة على قدميها ؛ واضطرتها حوادث الحرب أن تشهد في أرضها نضالاً قاسياً لم يشهد العالم مثله من قبل في عصر من العصور ؛ فكانت بذلك في موقف لا يشبهه موقف آخر في العالم كله ، لا في هذا الوقت ولا في أي وقت مضى من الأوقات ؛ ولكن كل ذلك لا يغير الحقائق ، ولا ينبغي أن يطمس الحقوق . فمصر مستقلة ، وهي تعتقد في استقلالها ، ومصر قلب الإسلام ، وهي تؤمن بأنها قلب العالم الإسلامي ، ومصر مركز العروبة ، وهي شاعرة بما بينها وبين سائر الأمم العربية من روابط مادية وصلات روحية ؛ وهي ثابتة العقيدة في حقها ، لا تحس يوماً أن ضعف قوتها يستطيع أن ينال من تلك العقيدة ؛ وهي صريحة في إيمانها ، لا تعرف مداجاة ولا خوفاً في المجاهرة بذلك الإيمان . ولقد شهد التاريخ منذ قرون أنها قد تسكن أحياناً ولكن سكونها هذا لا ينسيها وجودها ، وأنها قد تعترف للقوي بقوته ، ولكن ذلك الاعتراف لا يشعرها ذلة ولا يخضع كبرياءها . إن النصر في النيب ، يهبه الله من يشاء ، ولكن شيئاً واحداً يظل في كل الحالات ثابتاً ، ويبقى مع كل الظروف محققاً ، وهو أن مصر مستقلة كريمة وثيقة الإيمان بمستقبلها .

وإن الهدوء الذي يظهره المصريون في هذه الأزمة لأكبر دليل على تقديرها للحوادث التي تمر بها ؛ فهي إن كانت حوادث جليلة ، لا تمس إلا سطحها ؛ وأما قلبها النابض ، وأمانيها الحارة ، وعزتها العميقة ، وإيمانها الثابت في المستقبل ، فلن تبلغ إليها الحوادث ، وإن كانت مما تزعزع غيرها من الشعوب .

« ف »

على هامش الأسبوع :

اثنان وعشرون عاما

بين الثورة والدستور

للدكتور أحمد زكى بك

فهذا ساجو ، أحد الرجلين الكبيرين اللذين انشقا من حكومة الثوار مع أقرانهما المنشقين ؛ عاش شريفا أبيا طاهر الذيل كما تقضى به السمورية على معتنقها أن يعيش ؛ ومات باقراً بطنه بيده ، لما خانه الحظ ، وامتنعت عليه الغاية ، على الأسلوب الذى تقضى به السمورية على معتنقها فى مثل هذه الخيبة أن يموت .

أما الرجل الثانى ، واسمه إتجا كى ، فقد كان القطب الآخر الذى دار عليه محور المعارضة . وكان ساجو من عشيرة ستسوما . وكان إتجا كى من عشيرة توسا . وكانت العشيرتان فى اليابان ذواتى عز وسلطان . فتكونت بساجو فى ستسوما زعامة للمعارضة حربية . وتكونت بإتجا كى فى توسا زعامة للمعارضة مدنية . وبينا تجمع حول ساجو الناضبون المحافظون من السموريين ، تجمع حول إتجا كى الناقمون طلاب الجديد من السموريين . وتجمعت حول إتجا كى فئة أخرى تأثرت به فى صيغ المبادئ وتأثر بها ، تلك فئة الشباب اليابانى الذى كان زار أوربا وأمريكا ، وعاد مفتتنا بأكبار الغرب ، معجبا بمدنية الغرب ، عازيا ما رأى فيه من حضارة وتقدم إلى أساليب الحكم التى كانت له هناك . فلما عاد إلى بلاده طلب لها مثل هذه الأساليب ليكون لها مثل هذه الحضارة والتقدم .

وعلى بعد الغاية التى قصد لها ساجو ورجاله ، من تلك التى طلبها إتجا كى ورجاله ، فقد استغل هؤلاء الأخيرون خصومة أولئك الأولين لحكومة اليابان تكربها فيها وتأليبا عليها . وعند ما بلغ هذا الخصام أوجه ، نشر إتجا كى فى الأمة مقالا اتهم فيه الحكومة إعلانا . فاتهمها بأنها حكومة قِلة ، تعمل بالقليلين للقليلين ، غير حاسبة لجمهور الناس حسابا ، ولا مريدة بهم نفعا ، ولا راجية لهم خيرا . واتهمها بأنها استلبت السلطة استلابا ، لأن حكمها لا يرتكز على قانون أو دستور . واتهمها بأنها تخذق أصوات الناس فلا تريد أن تسمع منهم . واتهمها بأنها إذ تمحو السمورية ، وهى طبقة الأمة الممتازة روحيا وثقافيا ، إنما توحد بينهم وبين جمهور الناس ، فهى تنزل بالأعلين إلى مستوى الأسفلين ، وكان الواجب يقضى برفع الأسفلين ، وهم جمهور الناس ، إلى الأعلين ، وهم السموريون .

ولم تكن الحكومة بالطبع على مثل هذا السواد الذى صبغها به معارضوها . ولم تكن لها نية السوء تلك التى عزاها إليها خصومها . فقد كانت سمورية أصلا وفرعا ، وكان رجالها من أبناء الثورة ، ومن شبابها . ولكنهم اضطلعوا بالحكم ، فزادتهم تبعته اتئادا ، وعلمتهم ما قد يكون بالخطوة السريعة من وبال ، فلم يريدوا أن يدفعوا الأمة إلى الجرى قبل أن تتعلم المشى ، خشية أن تتكفى فتنبطح على وجهها فيدمى جبينها .

ومن المؤرخين من يرى أن الحكومة لم تقصد يوما أن يكون الحكم فى اليابان مثله فى بلاد الغرب ، وأن يكون لليابان برلمان واسع التمثيل ينطق عن ألسنة الطبقات أجمعين على غرار برلمانات الغرب ، وأن الذى أنطقوا به لسان الامبراطور أول الأمر إذ قال : « إن أمور الدولة سيفصل فيها بالنقاش والمناظرة العامة » كان قولا عاما أريد به أن يكون مبهما حتى يفى بحاجات الساعة الحاضرة ، ثم هو يتسع أو يضيق وفقا لحاجات الساعات المستقبلة . وقالوا إن من حاجات تلك الساعة الحاضرة التى كان

وثق بها ، أن طمأن العشائر فى صلاتها ما بينها ، فلم تخش عشيرة بعد هذا التصريح الامبراطورى من أن تنفرد عشيرة أخرى دونها بالسلطان . فالنقاش والمناظرة إنما قصد بهما نقاش ومناظرة بين رؤساء هؤلاء العشائر فى مجلس كان ما كان .

فإن صح هذا من حكومة الثوار — إن صح منها أنها لم تكن تتوجه إلى التمثيل الكامل الشامل فى مجالس الدولة — فما كان المنشقون منها بأكثر توجها إلى هذه الغاية ، ولا كان الذى فهموه من معنى التمثيل بأكثر اكتمالا وأوسع شمولا . على الأقل والأمر فى أوله . ولا أدل على هذا من أن إيتاجاكى نفسه رضى قديما بمجلس تمثيل نصفه من السموريين الحكوميين ، ونصفه الآخر من السموريين غير الحكوميين . إذاً فسائر طبقات الأمة لم يكن لها عنده مكان فى مجلسه الأول القديم . وإذاً فالسموريون ، والسموريون وحدهم ، كانوا مدلول « الأمة » والأمر فى أوله سواء عند الحكوميين وعند المنشقين . وقد تطور هذا المدلول بتطور الحوادث ، فاتسع نطاقه حتى انتهى به الأمر إلى أن شمل الشعب بفلاحيه وصناعه وتجاره وسائر فئاته . ولعل أكبر الفضل فى هذا يرجع إلى تلك الخصومة التى قامت بين الحكومة ومعارضيها ، فإنها كانت كلما اشتدت طلب الجانبان مورد العون على الخصومة ، ولا مورد غير الأمة ، غير طبقات الأمة . فكان كلما تملق جانب طبقة ، اضطر الجانب الآخر إلى مثل هذا التملق وزاده . وانتهى الحال بدخول كل الطبقات فى الحظيرة . فمنى التمثيل عند الثوار جميعاً بدأ محدودا ، وانتهى أوسع حدودا .

بدأت الحكومة تمثيل الأمة فى مجلس جمعته عقب قيام الثورة ، وقبل ما وقع فيها من تصدع . فتألف هذا المجلس من أشراف وسموريين ، ولا غير هؤلاء . ولم يكن لهذا المجلس سلطة تشريعية ، وكل الذى جرى فيه مناقشات بيزنطية قضت عليه بعد جلستين من جلساته .

عندئذ ازدادت الحكومة اقتناعا برأيها ، أنه لابد من تدريب الأمة على أسلوب الحكم بالمجالس . فرأت أن تصنع لها مجلسا يكون أنموذجا لما يجب أن تكون عليه المجالس . فكونت مجلس الحكام . وكان أعضاؤه حكام المقاطعات الرسميين ، فهو أشبه فى مصر بمجلس يتألف من المديرين والمحافظين . فخابت هذه المحاولة أيضاً . لأن هذا المجلس لم تكن له سلطة تشريعية . ولأنه مجلس معين . عينته الحكومة كله ، فلا يمكن أن يكون مجلسا تمثيليا إلا بمقدار ما قد ينقل أعضاؤه إلى الحكومة المركزية آراء الأقوام فى المدن والريف . وحتى فى هذه قد خاب هذا المجلس . فأعضاؤه ، وهم موظفون ، قد كانوا أحرص على إقناع الناس بصواب ما تصنع الحكومة منهم على إقناع الحكومة بما يرى الناس أنه الصواب . وتكون هذا المجلس عام ١٨٧٤ ، وانحل عام ١٨٧٨ .

وأرادت الحكومة أن ترد الجواب على ما وجه إلى مجلس الحكام من نقد ، ولو بعض رد ، فكونت فى عام ١٨٧٥ مجلساً آخر ، أسمته مجلس الشيوخ (السيناتو) ، ولكنها عينت هى أعضاءه . وضمنت أعضاءه ، لا أكثر الناس علما وأثقبهم رأيا فحسب ، بل كذلك قوما ناوأوها ، أو كان فى مقدرتهم أن يناوئوها لو ظلوا خارجه . وكان واجب هذا المجلس أن يدرس القوانين واللوائح قبل إقرارها . وقد نجح فى دراساته ، وأفاد باقتراحاته ، ونفع الحكومة نفعا كبيرا . ولو أنه انفض فى عام ١٨٨٩ ، إلا أن أعضاءه احتفظوا من بعده بما كان لهم من مكانة ، أعانهم فى احتفاظهم بها ما كان فى شخصياتهم من قوة ، فكانوا عون الميكادو كلما أزمت أزمة أو نجمهم حال ، يرجع إليهم فرادى ليستشير ويستنير . وكان آخر هؤلاء الرجال ، الأمير سايونجى ، وقد مات فى عام غير بعيد .

وأنشأت الحكومة فتنة ستسوما فى عام ١٨٧٧ ، وظنت أنها بهذا ستخلد إلى شىء من الراحة والهدوء ،

ولكن راعها في العام التالي أنْ قتل وزير داخليتها ، الرجل الكبير أوكُوبا ، وكان رجلا حمّالا للتبعات في أحرج الأوقات . وكان قد اشتهر بخصومة ساجو ، رجل ستسوما الذي قضت عليه فتنتها . وكان الذي قتل أوكُوبا سموريين ، ولكن من غير ستسوما . ولم يهرب الجناة ، بل تجمّدوا حيث كانوا ، وأعلنوا أنهم إنما فعلوا ما فعلوا احتجاجا على حكومة تأبى أن تُلقِى بزمام الحكم للأمة ، وترفض تمثيل البلاد . وأعلنوا أنهم يرضون حكم القضاء . فإن كان الموت ، فأرخِصْ به ثمنا لو كان فيه لَفْت الحكومة إلى ما عليها للناس من فروض .

وقد حرّك هذا الحادث الحكومة حقا ، وحزّ كثيرا دفعه إلى عمل شيء جديد . وقد قيل إن الذي عملته هذا كانت قد انتوته . فإن صح أن عزمها كان صحّ عليه ، فلا شك أيضاً أن هذا الحادث قد سارع في خُطاها إليه . فإنه لم يمض على حدوثه شهران حتى أنشأت الحكومة مجالس تمثيلية في كل مدينة ومديرية . وجعلت للعضو المنتخب في هذه المجالس نصابا ماليا لا يقل عنه ، عشرة ينّات ضريبةً هو دافعها كل عام . وجعلت لناخبيه نصف هذا النصاب . وجعلت أدنى سن للعضو خمسة وعشرين عاما ، ومدة عضويته أربعة أعوام . وجعلت لهذه المجالس شهراً في العام يجلسون فيه دون سائر الشهور . وكان للحاكم في المديرية أو المحافظ في المدينة أن يقف هذه الجلسات . وكان لوزير الداخلية أن يلغي هذه المجالس . وكان لهذه المجالس أن تصف كيف تُجمَع الضرائب وكيف تُنفَق ، وأن تراجع حساباتها ، وأن تدلي بالذي تراه للوزير . وكان للمدير أو المحافظ حق اقتراح المشروعات ، فإن اقترح المجلس شيئاً منها جاز للمدير أو المحافظ أن يقبله ، وجاز له أن يرفضه .

وعلى كثرة القيود التي تقيدت بها هذه المجالس ، فقد كان إنشاؤها لا شك خطوة واسعة نحو الحكم التمثيلي ؛ فقد تعلم الناس في هذه المجالس فن المناظرة وإدارة الخصومة ، وتعلموا كذلك معنى التبعات ؛ فهي كانت مدارس تخرّج فيها المتخرجون ، فترشحوا للمجالس الكبيرة التي جاءت من بعدها . وقد فرض كثير من هذه المجالس إرادته بحكم شخصيته التي زادت قوة على السنين ، فصدّقوا بذلك أن القانون الضيق كالقفة الضّاط ، لا يدخلها الساعد المفتول حتى تتسع على رغمها .

وقد كان المرجو إذا أنشئت هذه المجالس أن تَفثُر نزعةُ المثقفين من طلب التمثيل الأوسع للبلاد ، ولو إلى حين . ولكن الذي حدث أن هذا الإنشاء إنما شدّ في تلك النزعة ، فكأنما كان إغراءً بشدها . كالخصم يُرخى لك ، فتفهم من هذا الإرخاء ضعفا ، فتشتد عليه وثوبا .

أحمد زكي

نظرة في القمر

إذا كنت تعرف سر الحيا ... ة وتعرف فيها نفوس البشرْ
فأخفِ حديث شقاواتها ... ولا تزعج الساكن المستقر
إذا كان صدقاً فآذيتهم ؟ ... وإن كان كذبا فبئس الخبر
وحدثهم عن سعاداتها ... حديث أخ مشفق لا يضر
فإن كان في الكون ما قد يسيء ... فيه كذلك ما قد يسرّ

* * *

ألم تبصر البدر في عرشه ... وأضواؤه في الدجى تنتشر
يرى في المجاهل أسرارها ... ويدرك ما في الدياجي استتر
وما زال منذ قديم الزما ... ن هناك يطل بوجه أغر
محجوب السماء فيبلو الظلا ... م ويبلو الزمان ويبلو البشر
يُطل على مفجعات الحيا ... ة ولكنه دائما مزدهر
ومحى كل شيء فأخفى السواد ... وأبرز ناصعة للنظر
فلا تحيَ مبتئسا شاكيا ... وكن في حياتك مثل القمر
ولا تبد للناس غير الضيا ... ء إذا ما أحمك نقع البشر

عبد المجيد بن جلون

١ – فارس كِنانة

للأستاذ أحمد أمين بك

كنانة قبيلة عدنانية كثيرة العدد ، كانت تسكن عند مجىء الإسلام أرضاً فسيحة حول مكة ، تمتد من تهامة فى الجنوب الغربى من مكة ، حيث يجاورون قبيلة هذيل ، إلى الشمال الشرقى منها حيث يجاورون قبيلة أسد .

وقد دخلوا فى الإسلام كما دخل غيرهم ، ونبغ منهم نوابغ كثيرون فى الحروب وفى الشعر وفى العلم وسائر مناحى الحياة ، فمنهم الشُّداخ بن عوف الذى كان على مُجَنِّبَة أبى عبيدة بن الجراح يوم « اليَرْمُوك » ، ومنهم نصر بن سَيَّار أمير خراسان فى آخر العهد الأموى ، ثم رافع بن الليث بن نصر بن سيار الخارج على الرشيد والقائد الكبير للمأمون ، ومنهم أبو الأسود الدؤلى الذى ينسب إليه وضع النحو ، ومنهم أبو ذر الغفارى الاشتراكى الصادق الثائر على معاوية وعلى الأغنياء ، ومنهم ربيعة بن مُكَدَّم الملقب فارس العرب ، ومنهم قيس بن ذَرِيح أحد عشاق العرب المشهورين وصاحبته لُبْنَى ، ومنهم عزة صاحبة كُثَيِّر التى قال فيها غزله الرائع المشهور ، ومنهم ابن دَأب الراوية المؤرخ ، ومنهم كثير من المحدِّثين يضيق المقام من ذكرهم .

وعلى الجملة فقد خلفوا لأعقابهم مفاخر يتداولونها ، ومناقب يروونها ، من بطولة وفروسية وإمارة وعلم وأدب .

تفرقت كنانة فى البلدان بعد الإسلام كما فعلت كل القبائل ، فجاء قوم مصر فى أواخر العهد الفاطمى ، ونزل بعضهم أخميم وما حولها ، ونزل بعضهم دمياط وما حولها ، ورحل قوم إلى فلسطين ، ونزل قوم الشام .

* * *

فى شمالى « حماه » وعلى بعد خمسة عشر ميلا منها حصن يقال له حصن « شَيْزَر » وخله التحريف على توالى الأيام فصار يسمى الآن « سيجر » ، يقع على نهر العاصى . وهو حصن كبير ، بُنى على أكمة مرتفعة تتحكم فيما حولها ، حفروا حوله الخنادق ليزيدوا فى مناعته وحمايته ، وأنشئوا مدينة على النهر تتبع الحصن ، وسمى كل ذلك « شيزرا »(١) .

كان هذا الحصن مشهوراً بمناعته وبخطورة موقعه ، كما كان من قديم مركزاً لأعمال البطولة فى الدفاع عنه والاستيلاء عليه ، فالذين يسكنونه لا يعرفون الراحة إلا فترات قصيرة من الزمان ، ينتبهون من نومهم على غارة أو صليل سيوف أو رمى بالمنجنيق ، ألفوا ذلك كما يألفه الساكنون بجوار بركان ثائر ، أو فى منطقة زلزال متتابع .

* * *

فى سنة ٤٧٤ هـ كان قوم من كنانة يسكنون بجوار حصن « شيزر » ، وكان الحصن بيد الروم (البيزنطية) ، استولوا عليه فيما استولوا من بلاد المسلمين ، وتحكموا به فى المواقع التى حوله ، وكان رأس هؤلاء القوم من كنانة رجلا شجاعا مقداما قوى النفس كريماً ، أحبه قومه وأمّروه عليهم إمارة مَلِك محبوب مطاع ، هو أبو الحسن على بن مقلد بن نصير بن منقذ الكنانى ، فأعد عدته فى هدوء ، وسلّح قومه ، وأحكم خططه ، وانتهز الفرصة ، حتى إذا أمكنته أخذ الروم على غرة ، وطوّق القلعة ؛ ورأى الروم أن لا طاقة لهم به وبقومه ، فطلبوا الأمان وسلموه الحصن . وسكنه هو وقومه ، وزادوا فى تحصينه حتى صار أمنع من عقاب الجو أيام أن لم تكن طائرات .

---

(١) انظر كتاب « الاعتبار » ومقدمته القيمة التى وضعها الأستاذ « فيليب حتى » المطبوع فى « برنستون » بالولايات المتحدة .

تلقب أبو الحسن « بسديد الملك » ، وعاش عيشة أشبه ما تكون بعيشة « سيف الدولة الحمدانى » ، شجاع يلذه القتال ، وحوله قومه يربون تربية حربية ، وفى كل حين قتال ، وبين الوقعة والوقعة عيشة بدوية مترفة وحب للشعر وتلذذ لسماعه ، يقصده الشعراء أمثال ابن الخياط وابن سِنَان الخفاجى فيغمرهم بما فى يده من مال ؛ وتحدث له الحوادث الخفيفة فيقول فيها الأشعار الطريفة على نحو ما كان يفعل سيف الدولة . كان يحب مملوكا له فغضب عليه مرة وضربه ثم قال :

أسطو عليه وقلبي لو تمكن من
كفىّ غلهما غيظاً إلى عنق
وأستعير إذا عاقبتُه حَنَقَا
وأين ذل الهوى من عزة الحَنَق

***

كانت قلعة « شيزر » مطمع المحاربين وما أكثرهم ؛ فالعرب من بنى كلاب فى حلب يريدون الاستيلاء عليها ، والاسماعيلية يودون أن يتخذوها مركزا لهم ولدعايتهم ، والروم يطمعون فى استردادها ، والصليبيون يرون أنها باب الشام يريدون أن يرواهنا إليه ، كل ذلك والقلعة بحصونها وخنادقها وفيها بنو منقذ بقلوبهم وشجاعتهم وفنونهم الحربية ، استطاعت أن تصد كل مهاجم وتخيب كل أمل .

***

كان لابد للقلعة وحولها كل هؤلاء الأعداء أن يكون برنامج أهلها كله حربيا ، وسكانها كلهم جنوداً ، فالطفل جندى صغير ، والشيخ جندى كبير ، والبيت مدرسة حربية ، والأم إحدى المعلمات ، والزوجة محرضة الزوج ، والفتاة خاطبة الشجاع ، ومواقع السيوف فى جسوم الرجال شارة المجد ، وويل للجسم السليم ، لا تقبله فتاة ولا تسر به زوجة ، والحياة رخيصة رخيصة ، يخرج الرجل من بيته وأغلب الظن ألا يعود ، ويسير السائر فى الطريق وفى أكثر الأحيان يخرج عليه صليبى يقاتله ، أو اسماعيلى ينازله ، أو كلابى يبادئه . وفى ضواحى الحصن كانت أجمات مليئة بالأسود ما أشد ما تفترس ، وما أكثر ما تنهش ، وفى كل لحظة خبر بقتيل ، ونبأ بغزو ، وإنذار بغارة ، وغارة بلا إنذار ، وحديث القوم فى سمرهم رواية أعمال الأبطال كيف قتل رجل من الحصن عشرة ، وكيف تغلب رجل على أسدين ، وكيف استطاع فلان الصبى أن ينازل صليبيين ويغلبهما ويقتلهما ويأخذ سَلَبهما ، وكيف أن فلانا الشيخ الهرم تقدمت به السن فنصحوه أن يلزم مسجده وينقطع لعبادته ، فلبث فى ذلك يومين ثم أنفت نفسه هذه الحياة الوادعة فأخذ سيفه وقوسه ، ثم خرج يكمن للصليبيين ، حتى إذا وقع فى يده ثلة منهم خرج عليهم يقاتلهم فيقتل ويأسر ويعود مباهيا بعمله مفتخراً بقوته على كبر سنه ، عاتبا على من نصحه بالتزام مسجده — وهذه فلانة كانت تخرج للقتال وتضرب بالسيف ، وفلانة الأخرى لما هاجم العدو الحصن ألبست فتاتها لباس العرس ، وأجلستها على حافة الهضبة من تحتها الوادى العميق ، وقالت إن انتصر الأعداء رميت ابنتى فدق عنقها ولا تقع سبية فى أيدى الأعداء . و « سُبَيكَة » ألم تسمعوا عنه ؟ كان مخنثاً بشيزر يحضر الأعراس ويغنى ويرقص ، ولكن كان إذا وقع القتال يلبس درعا ويأخذ سيفه وترسه ويقول : « بطل التخنث » ويخرج يضرب بسيفه كما يضرب الناس .

هذا برنامج الحصن وهذا سمره وهذه أحداثه ، فلم يكن حصنا ، بل مدرسة تمرن على الحروب ، وتكون نفوس على القتال الشديد ، وحقلا لإنتاج جيل لا يخشى الموت ويعشق الشهادة ، يألف الشجاعة بالممارسة ، ويتعلم القتال بالأسوة ، ويحذق فنون الحرب فى ميادين القتال .

أستغفر الله ، فقد نسيت فى برنامج هذا الحصن مادة

هامة وهى درس الأدب ، ولكن كانوا يدرسونه على نمط غريب أيضا ، كانوا يقولون لأبنائهم إن جدكم وبيعة ابن مكدم كان بطلا كبيراً ، وكان شاعراً كبيراً ، ثم يروون أحداثه وشعره ، ويلزمونهم حفظه ، ثم يذكرون لهم من اشتهر بالفتك فى الجاهلية كثابت بن جابر ، والبرّاض وتأبط شراً ، ثم من اشتهر بالفتك فى الاسلام كالك بن الرّيْب ، وعبد الله بن سُبْرة وعبد الله بن حازم ، ويروون لهم فعالهم ويحفظونهم أقوالهم ، ويعمدون إلى أقوى الشعر وأبعثه على القتال فيلزمونهم حفظه كقول عامر بن الطفيل :

إنى وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهور فى كل موكب
لمَا سودتنى عامرٌ عن كَلالة
أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى
أذاها وأرمى من رماها بمنكبى

وقول خالد بن الوليد : « ما ليلة أقرّ لعينى من ليلة تزف إلىّ فيها عروس إلا ليلة أغدو فيها لقتال عدو » .

إلى كثير من أمثال هذا الأدب الحماسى القوى الذى ينسجم وحياتهم ، ويخدم أغراضهم .

* * *

فى هذا الحصن العجيب ، وهذا الوسط الحِيْنىّ الغريب ، ولد بطلنا « فارس كنانة » أسامة بن منقذ حفيد فاتح الحصن سديد المُلْك أبو الحسن .

رباه أبوه وأمه من صغره تربية الفروسية ، يحبانه ولكن يحبانه شجاعا ، ويرعيانه ولكن يشفقان عليه من الاشفاق ، يدفعانه للمخاطر دفعاً ، ويحرضانه على مواجهة الصعاب واجتهاده فى تذليلها ، مهما تكن العاقبة .

اسمعه — أيها القارىء الكريم — يقص علينا قصة صباه فيقول : ما رأيت والدى — رحمه الله — نهانى من قتال ولا ركوب خطر مع حبه لى . ولقد حضرت يوماً وكان أبى وعمى قد خرجا لقتال الأعداء ، فلحقتهما ، فلما رآنى أبى قال : اتبعهم بمن معك وارموا أنفسكم عليهم . فخرجت ورميت نفسى واستخلصت ما استخلصت من عدوى .

ومرة كنت معه وهو واقف فى قاعة داره وإذا بحية عظيمة قد أخرجت رأسها من الرواق فوقف يبصرها ، فحملت سلما كان فى جانب الدار وصعدت إليها وهو يرانى فلا ينهانى ، وأخرجت سكينا صغيرة من وسطى ووضعتها على رقبة الحية وهى نائمة ، وجعلت أحزها ، فخرجت الحية والتفت على يدى (فلا جزع ولا فزع ولا تكلم) إلى أن قطعت رأسها وألقيتها فى الدار » .

ولم تكن أمه أقل من أبيه فى تربيته وتدريبه ، فلديها السلاح تعطيه للمقاتلة ولا تبخل على ابنها باستعماله .

(يتبع) **أحمد أمين**

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

تصحيحات تاريخية

١ — فيليب على الأبواب :

يستعمل بعض الكتاب هذه الكلمة التاريخية للتحذير من خطر داهم . كتب بعضهم في إحدى المجلات : (كيف لا نهتم بحل مشكلة التموين وفيليب على الأبواب)؟ ثم زاد فقال : (عندنا مائة مشكلة ومشكلة وكل منها فيليب على الأبواب) .

والحقيقة والتاريخ أقول إن حقيقة المثل هي : «هانيبال على الأبواب Hannibal ad portas » ، لا «فيليب على الأبواب» . والأصل أن هانيبال بعد أن غزا أسبانيا ، واجتاز جبال الألب على رأس جيش عرمرم مؤلف من مائة ألف مقاتل ، التقى بالجيش الروماني عند مدينة «كان Cannes » فهزمه وشتت شمله ، ثم وقف عند مدينة «كابو Capoue » ليزحف منها نحو روما . ولما طار الخبر إلى أهالي روما فزعوا ودب الرعب في قلوب حكامها وشعبها ، وكانوا كلما تجادلوا وتنازعوا يقول بعضهم لبعض : كيف يجادل ويخاذل بعضنا بعضاً (وهانيبال على الأبواب) ، فكلمة (هانيبال على الأبواب) هي صيحة تحذير لها معنى يقرب من قول العرب : (حذاريك زيداً) .

٢ — كم وزنه يا هانيبال :

ومن الكلمات التي قيلت على هانيبال أيضاً وذهبت مثلا كلمة وردت في شطر من بيت للشاعر اللاتيني المشهور جوفينال Juvenal (كم وزنه يا هانيبال Expende Hannibalem) ومعناها — كما هو في بطن الشاعر — «كم وزن الرماد الموجود في جسم هذا القائد الحربي الكبير يا ترى ، إذا وزنته لا تجده شيئاً مذكوراً» . يقولونها تدليلا على أنه مهما عظم مجد الانسان في هذه الحياة الدنيا فإن هذا المجد فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام .

٣ — دلندا قرطاجو :

استعمل أحد الخطباء هذه الكلمة بمعنى (بعد خراب البصرة) ، اختلط على الخطيب معنى الكلمتين اللاتينية والعربية . والخلط جاء من تشابه الترجمة الحرفية للكلمتين لأن (دلندا قرطاجو) Delenda Cartago ترجمتها الحرفية (يلزم هدم مدينة قرطاجة) أو بعبارة أخرى (فلتسقط قرطاجة) . وقرطاجة هذه هي مسقط رأس هانيبال . والمثل يشير إلى وجوب الثبات على رأي أو على فكرة أو على مشروع ، والتصميم على تنفيذه بكل ما أوتي الانسان من حول ومن صبر ومن قوة إلى أن يتحقق . كان الخطباء في روما يقولون هذه الكلمة في آخر كل خطبة ليلقوا في روع الشعب واجب التصميم على تحطيم قرطاجة وسحق قوتها العسكرية إلى أن تمحى من الوجود . فالفرق كبير بين معنى (فلتسقط قرطاجة) وبين (بعد خراب البصرة) .

٤ — عرفت كيف تنتصر ولكن . . .

ومن الكلمات المأثورة التي ذهبت مثلا — عن هانيبال أيضا — ما قاله له مهربال Maharbal كبير قواده بعد واقعة «كان» وهي الواقعة التي انتصر فيها على الجيش الروماني ، وفيها شتت شمله ، ولكنه لما لم يستفد من فرصة انتصاره بالزحف على روما رأسا لاحتلالها وإخضاعها ، قال له : (عرفت كيف تنتصر ولكن لم تعرف كيف تستغل هذا النصر) فذهبت مثلا ، والمعنى ظاهر .

٥ — ما هي قرطاجة :

وعلى ذكر هانيبال وقرطاجة نقول إن قرطاجة هذه

هي مسقط رأس هانيبال ، ولد فيها في خلال سنة ٢٤٧ قبل ميلاد المسيح ، وهي واقعة على مسافة أربعة أميال من مدينة تونس الحالية ، وكانت دولة قرطاجة في الزمن الغابر ذات شوكة وحول وطول وسلطان[1] لدرجة أنها أعلنت الحرب على الامبراطورية الرومانيـة التي كانت أعظم امبراطورية في ذلك الزمان ، وقد قهر هانيبال الجيوش الرومانية في مواقع عدة أهمها وقعة «كان» .

ومدينة قرطاجة مشهورة أيضاً بموت لويس التاسع ملك فرنسا ، إذ مات فيها بالطاعون في خلال سنة ١٢٧٠ ميلادية ، وفي سنة ١٨٤١ طلب لويس فيليب ملك فرنسا من الأمير أحمد بك حاكم تونس أن يتنازل له عن قطعة الأرض التي مات فيها لويس التاسع ليبني عليها كنيسـة تخليداً لذكراه ، فقبل الأمير وتم بالفعل بناء الكنيسـة على ربوة برسا في نفس المكان الذي مات فيه لويس التاسع ، ولا تزال الكنيسة قائمة فيها حتى الآن ، وتسمى الربوة الآن ربوة القديس لويس ، وهي تشرف على البحر وتعلوه بثلاث وستين قدما .

ولويس التاسع هذا هو الذي هزمه المصريون في واقعة فارسكور ، ووقع أسيراً في يد الملك المعظم توران شاه الأيوبي في خلال سنة ١٢٥٠ ميلادية ، وسجن في المنصورة وبقي في السجن شهراً كاملا من ٧ أبريل إلى ٧ مايو سنة ١٢٥٠ . وكل من قصد مدينة المنصورة زار الدار التي قيل إنها كانت سجنا لملك فرنسا لويس التاسع .

٦ — قرطاجة وقرطاجنة :

وبعض الكتاب يخلط بين (قرطاجة Carthage) و (قرطاجنة Carthagéne, Cartagena) فقرطاجة مسقط رأس هانيبال كائنة في تونس كما أسلفنا ، ولما خربها الرومان نقلوا ما كان فيها من تحف وآثار إلى روما كما نقلوا الرخام الذي بقي من آثارها إلى مدينة بيزا Pise وبنوا به كاتدرائيتها المشهورة . أما قرطاجنة Cartagena فثغر من ثغور أسبانيا يشرف على البحر الأبيض المتوسط أسسه أسدروبال Asdrubal (أبو هانيبال) وسماه قرطاجنة أي (القرية الحديثة) ويقال إن (قرطا وهي الجزء الأول من كلمة (قرطاجنة) مشتق من كلمة (قرية) والجزء الأخير (جنه) معناه باليونانية (الجديدة) وكانت قرطاجنة إمارة في أيام العرب في العصر الأندلسي الذهبي .

٧ — أين مات هانيبال :


هانيبال

الحديث ذو شجون . فعلى ذكر هانيبال وغزواته نقول إن هذا الرجل الذي دوخ الامبراطورية الرومانية ووصل في غزواته إلى قلب إيطاليا مات منتحراً شريداً طريداً يائساً بائساً بعيداً عن أهله ووطنه . فمن من يعرف أين مات هذا البطل المغوار الذي جعله المؤرخون في مصاف اسكندر الأكبر ويوليوس قيصر . وكان نابليون يعجب به إعجابا كبيراً . مات هـذا البطل في بلدة (كبزة) وتنطق (جبزة) وهي بلدة واقعة على ضفة البوسفور الأسيوية ، على مقربة من أزميد ومن قاضي كوي ومن حيدر باشا

(١) وكان من مستعمراتها جزيرة مالطة وجزيرة سردينيا وجزيرة كورسيكا وجزيرة صقلية وجزائر ماديرا وجزائر كناريا وبعض شواطيء أسبانيا ، وكان لها أسطول ضخم تحسب له الدول ألف حساب ، كما كان لها جيش عرمرم انخرط في سلكه كثير من اليونانيين والفرنساويين والبيليين ، كما جند فيه آلاف من الارقاء .

طفولة عبقري

ذهبت مرة إلى صانع أطر اعتدت غشيان مصنعه لأفتش عن صورة مهجورة لشخصية شهيرة ، فاسترعى بصرى إطار أسود وصورة سوداء ، قد رسمت بالفحم ، تطل من عَلٍ على مدخل المصنع . وكانت الصورة مظلمة عابسة ، قد زمت فيها الشفتان زمة ما منها انفراج ، والشعر فيها منتفش يحيط بالوجه فى دائرة تجسم القنفذ ؛ والعينان عميقتان غير غائرتين تكاد تنفذ منهما بخيالك إلى لانهائية لا تحد ؛ والوجه فى مجموعه لا هو منفر ولا هو جذاب ، لكنه أخاذ محير تقف أمامه ساعات تستمد منه مختلف الأحاسيس والتأثيرات .

حملت الصورة بإطارها إلى بيتى أستضيف فيها العبقرى العظيم لودفيج فان بيتهوفن . وكما كانت تطل من مصنع الأطرى (١) على الداخل إليه ، باتت تطل من صدر مكتبى على كل زائر . ثم إذا ببعض قطع الإطار تزل من مواضعها فتخلف بياضاً ، وببعض سواد الصورة يزداد قتومة مع هذا البياض ، ثم إذا بى يخيل إلى أن كل ما فى الصورة يزداد مع الأيام سواداً ، فقلت لنفسى : مالى وصحبة هذا الفنان الذى يكاد يفرض على باب مكتبى « ممنوع الدخول » . ورددت الصورة إلى صاحبها آسفاً أو غير آسف لا أدرى .

هكذا كان يلوح بيتهوفن فى حياته لأعين الكثيرين : رجلا متجهماً نفوراً يكره الناس ، فهل كان حقاً ذلك الانسان ؟

* * *

ولد لودفيج فان بيتهوفن فى السابع عشر من شهر ديسمبر من سنة سبعين وسبعمائة وألف ميلادية . وكان مولده فى مدينة بون Bonn من مدن الرين من أبوين أحدهما فنان موهوب مرح محبوب ، لكنه متلاف مسراف سكير . أما الأم فكانت ابنة طاه وأرملة تابع ،

(١) صانع الأطر .

ومن اسكودار بجوار سهل اسمه « طاوجان دل » ومعناه « لسان الأرنب » .

بعد أن انكسر هانيبال فى واقعة « زاماه » هاجر من بلاده وسافر إلى سوريا حيث آواه أنطيوكس Antiochus ملك سوريا . ولكن أنطيوكس انقلب عليه وطرده . فسافر إلى جزيرة كريت ومنها رحل إلى أرمينيا ، وفى أثناء مقامه فيها دعاه بروزياس Prusias ملك بثينى Bithynie (وهى الآن مجموعة سنجق بروسه وإيالة قسطمونى وإيالة خدواندكار فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى) ليستعين بخبرته فى الحرب التى دارت بينه وبين أومين Euméne ملك برجام (آسيا الصغرى) . لبى هانيبال دعوته وتولى قيادة جيشه وانتصر على ملك برجام انتصارا دوت له أرجاء الامبراطورية الرومانية . خشيت روما من بزوغ نجمه بعد أفوله ، فأوفدت أحد رجالها ليقتله . عرف هانيبال أن الرومان يأتمرون به ليقتلوه ، فعمل فى داره سبعة مخارج ليهرب منها إذا ما طوق الجند داره . وصل رسول روما واسمه فلامنيوس Flaminius إلى دار هانيبال وضرب عليها حصارا ، ولما هم الجند بالقبض عليه ووجد المنافذ السبعة محوطة بالجند لم ير سبيلا للخلاص — من الأسر ثم العذاب ثم القتل — سوى الانتحار ، فتناول سما زعافا كان يحمله وجرعه ومات . وبموته انتهت حياة هذا البطل الذى سماه مونتسكيو Montesquieu فيلسوف فرنسا الشهير (المارد الجبار فى الزمان القديم) .

وفى عهد السلطان سليمان القانونى شيد وزيره مصطفى باشا مسجدا فى نفس المكان الذى دفن فيه هانيبال .

عزيز خانكى

أسخط جد يتهوفن أن يبنى بها أبوه ؛ لكنها كانت عاقلة مدبرة ، جميلة الخَلْق والخُلُق . وكان جده لأبيه رجلا فناناً محترماً طموحاً ، اتّجر بالنبيذ إلى جانب فنه ، فكانت زوجه تناقله إلى القبو وتلازم الدنان ، حتى غدت سكيرة على الأيام لم ينفع معها إلا الدير ، وقد شب ابنها يوحنا أبو لودفيج على غرارها ، فكانا معاً سبباً لكثير مما دهى الأسرة من شظف العيش وتجهم الحياة .

لم يكن أحد يعلم حين ولد الطفل لودفيج أن ملكا من السماء هبط على مهده بهدية القدر . فلما كانت سنو الطفل الأولى فطن الأب إلى عبقرية الصبي ، فراح يبشر بها ويعلنها للناس : يعلنها إلى أصدقائه وزملائه ليعينوه على تعليم صبيه ، ويعلنها إلى صاحب البيت الذى يسكن فيه ليمهله فى دفع الكراء . . . وقد كان موتسار — ولفجانج أماديوس موتسـار — وهو بعد فى حداثة الأطفال ، أعجوبة بين الصغار والكبار ، يستقبله الأمراء والعظماء أحر استقبال . لكن لودفيج فان بيتهوفن لم يكن موتسار ، وإن كان أبوه وأصدقاء أبيه قد جعلوا منه أعجوبة حين توفروا على تدريبه ، أو بالحرى ترويضه كما يروض الوحش ، وهو بعد فى الرابعة من عمره ، يبدو مع قصر قامته وكأنه فى الثانية ، فقد أغرتهم مخائل نجابته فى الفن ، فأخضعوه لتدريب موسيقى شاق لا يتبع قاعدة أو نظاما . وكان أبوه كلما أحس بأن سيكون لابنه شأن اعتز به ، وأبدى اعتزازه على النحو الآتى :

كان لأبيه صديق على شاكلته هو المغنى بفيفر Pfeiffer اشترك مع يوحنا فى تنشئة الصبى على منوالها المثل المقلوب ؛ فكانا إذا آبا عند منتصف الليل من الحانة أيقظا ابن الرابعة من نومه وأجلساه أو أوقفاه إلى البيانو يعزف عليه كرها حتى الصباح الباكر ؛ وهو بعد لا يصل إلى البيانو إلا واقفا على مقعد . وهكذا لم تقرب عروس الفن صبيها لودفيج إلا خشنة المظهر ، قاسية اليد ، غليظة القلب ؛ فلما تبدل مظهرها باتت تدانيه فى ساعات وحدته حتى يستسلم فى العزف للتصورات ، فيحس مس يدها الرفيق المبارك . وحين كان يسترسل ويتلقى البركة من عروسه كان يتلقى شيئا آخر من أبيه : الصفع ! الصفع الذى يرعد أثناءه أبوه فيقول له : مالك ولهذا ، فما ينبغى لك بعد ، وما زال حينه بعيدا !

وخرج الوالد بغلامه فى الثامنة من عمره إلى كولونيا فَبُرُوتِرْدَام يعرض نبوغه على الجمهور فلم يلق كبير نجاح ، ذلك أن لودفيج كما أسلفنا لم يكن « موتسار » بل كان شيئا آخر من فذاذة أخرى . كان شيئا لم يئن أينُهُ بعد ، ولم يقطع لودفيج إليه طريقه الطويل .

وأسخط أبا لودفيج أن يخيب ابنه ظنه ويزلزل يقينه فى عبقريته ، فأمعن فى إرهاقه ، وأمعن لودفيج فى التبرم بما يلقى والانطواء على نفسه ؛ فى عزوفه وتهيبه وعزلته — تلك الصفات التى تكونت فيه مبكرة وكان لها فى خلقه تأثير حاسم .

وكان أحد الشيوخ يسمع لودفيج فاسترعى انتباهه ، فأوصى به راعيا من رعاة الكنيسة ، فتعلم فيها كيف يصاحب الصلاة على الأرغن وكيف ينغم للترتيل . وكان لودفيج يحب الاستئثار بالافتتاح ، فيسترسل فى العزف على سجيته ، ويسبح فى سماء خياله ، فكان أن حرك بتصوراته أوتار الخشوع والتقوى ، واستأثر بمشاعر المصلين . وقد ترك له الأرغن بدوره كيف شاء فى صلاة الصباح لتتكشف عبقريته فى بيت من بيوت الله ، حيث تخلص النفس ، ويرهف الحس ، ويهيم الروح فى ملكوت الله .

وفطن الأرغنى ريفه Reefe إلى عبقرية الغلام واتجاهاتها ، فتولى إرشاده ووجه جهوده البدعة الوجهة التى ترتضيها . وكان ريفه موسيقيا مفكراً ألمعيا دقيقاً ،

فاهتدى إلى أن نواة الفن إنما هي في التعبير عن حياة النفس . وكان هذا غريبا في موسيقى ذلك الزمان ، لكنه كان ينسجم وعبقرية الصبي بيتهوفن ، إذ به ألفى تحت قدميه الأرض التي قدر أن تكون أرضه ، ووجد الطريق التي قدر أن تقوده إلى دنياه الواسعة المجهولة .

* * *

لم ينعم بيتهوفن في صباه كما نرى بطفولة سعيدة ، ولم يكن الصبا والشباب الزاهي مصدر فتونه ، ولم يعرف خلو البال الذي تتشح به الطفولة الضاحكة . فقد كانت يد أبيه القاسية أثقل عليه من العوز الذي كان جاثما فوق صدر أسرته . وكان يحز في نفسه أن يشجر الخلاف في بيته ، ويؤلم استقامته وصلاحه أن يرى انغماس والده وإدمانه واستهتاره . وكثيرا ما حدث بعد وفاة والدته أن كان أبوه يعود إلى البيت ثملا معربدا والشرطة في أثره أو بسبيل القبض عليه فينتزعه من يدها .

كان لودفيج في الحادية عشرة يكسب قوته ويعول أسرته ، فعرف ناحية الجد في الحياة قبل الأوان ، فكان من ثم إظلام نفسه ، وكان أيضا من ثم نظرته الجدية البالغة الجد إلى الحياة ، واستمساكه بقواعد الأخلاق .

وكان لودفيج قليل العناية بمظهره ، قليل الكلام ، دفين النفس ، لكنه كان مع ذلك يقبس من متع الطبيعة وجلال النظر بعض ما يضيء ظلام نفسه ، ويبهج قلبه الحزين . ولم تكن الطبيعة به رحيمة دائما ، فقد شهد في السابعة فيضان الرين على الزقاق الذي يسكن فيه ، وشهد احتراق قصر بون الذي أتت النار على جناح كامل من مبانيه ، فاهتزت في طفولته أوتار أسى كان لها صداها في أوتار موسيقاه .

وكان للودفيج في العام يوم واحد على الأقل يطلق فيه النفس من قيد الكآبة . كان هذا اليوم يوم عيد ميلاد أمه ، فكانت تقام لها منصة يتوسطها عرش تجلس عليه ، وتصدح لها الموسيقى ويدور الرقص ، ويأكل ويشرب من شاء من الأصدقاء والجيران . فكان هذا اليوم وكأنه العوض للودفيج من شقاء العام ، وكأنه العين التي ينبجس منها الحب المحبوس طيلة الحول .

وقد كان لودفيج يحب أمه حب إعزاز مكبوت ، فما لامها أبدا قيد تصوره ، وهي أبدا ماثلة لعينيه . وقد عاش طفلا في دنياه هو لا دنيا الأطفال ، فصلب حيث تكون الليونة ، ونفر حيث يقبل الطفل على أمه لدنا ناعما ، وكانت الوحدة أمه التي يخفي رأسه في حجرها ، لأنه كان وكأنه يخجل أن يبادل أمه العاطفة .

* * *

وننتقل من هذه الطفولة الرائعة الروعة إلى لودفيج في الثانية والثلاثين ، وبين هاتين المرحلتين تعليم وتعارف وسفر ومقابلات وتجمل وتتلمذ على موتسارت وهايدن من أعلام الفن في ذلك الزمان ومن خالديه في كل أوان . هذه الظروف التي توسطت لودفيج ولما يبلغ العاشرة ولودفيج يتجاوز حدود الثلاثين ، ليس في هذا المقام مقالها ، لكنما ألم بلودفيج في الثانية والثلاثين مايجيب عن السؤال الذي تساءلت في فاتحة المقال : أكان لودفيج فان بيتهوفن رجلا متجهما ، نفوراً ، يكره الناس ، أكان حقا ذلك الإنسان؟

في مدينة هيلجنشتات (Heiligenstadt) حيث ألف بيتهوفن بعض خالداته الموسيقية ؛ في هذه المدينة التي تألم وجاهد وانتصر فيها على علل الجسم وآلام النفس لما أن وهب نفسه للفن ؛ في هذه المدينة التي كان يحلو له أن يجول فيها ، ويجلس تحت شجر جوزها يلتمس الراحة ، ويفكر ثم يبادر إلى الكتابة ، كتب بيتهوفن وصيته المشهورة المنسوبة إلى هذه المدينة فقال في بعض مواضعها يخاطب الناس :

« أيها الناس الذين تحسبون أو تعلنون إنى أعاديكم

أو أنفر منكم أو أكرهكم ، ما أشد ما تظلمونني ! إنكم تجهلون السبب الحق لهذا الذي يبدو لكم ! فقلبي وحسي يفيضان منذ طفولتي بحب الخير ذلك الأحساس الدقيق . فإذا علمتم أني أروح دائما إلى أداء الجليل فلكم أن تتصوروا مبلغ ما أعاني منذ سنوات من حالة ليس منها شفاء ، قد ساءت برأي مدعي الرأي من الأطباء ، فهي من سنة لأخرى تخيب في علاجها الرجاء . لقد أقمت بيني وبين الناس سدا لأعيش عيشة الاعتزال ، أنا الذي ولدت ولي مزاج حار من نار ، وبي تعلق بالمجتمع إذ فيه لي الترويح من هذا الأوار .

« كثيراً ما حاولت أن أخرج من هذه العزلة ، لكنه ما أقسى ما كان يصدني أن أخبر في سمعي الثقيل تلك الخبرة المضاعفة المحزنة ، فهل أقوى أن أقول للناس : ارفعوا أصواتكم ! اصرخوا في أذني ! إني أصم ! هل أقوى أن أصارح الناس بمواطن الضعف في حس من حواسي ينبغي عندي أن يكون أتم مما هو عند الناس ، وقد كان لي يوما أتم مايكون .

« ستعفونني إذا رأيتموني أتجنبكم فليس أحب إلي من الاجتماع بكم . إن شعوري بمصابي ليتضاعف إن كان هذا المصاب سببا لأساءتكم فهمي ، وإن كان لا يجوز لي أن أنشد التسرية في المجتمع البشري ، وفي الحديث الطلي ، وفي أن أسارركم وتسارروني . . .

« يالها من مذلة أن يسمع من إلى جانبي نايا يصدح من بعيد ولا أسمعه أنا ! مثل هذا يكاد يقنطني من رحمة الله ، فأكاد أتخلص من حياتي . لكنه الفن ! الفن وحده هو الذي يستبقيني ، فأني لأرى من المحال أن أودع هذه الدنيا قبل أن أتم ما أنزع إليه . فصبراً ! يجب أن يكون الصبر عزمي الثابت إلى أن يروق العنكبوت الصارم أن يقطع الخيط . وقد يحسن بالصبر الحال ، وقد يسوء ، لكنه قراري وتصميمي .

« إنك يا إلهي تطلع على فؤادي ! إنك تعلمه ، إنك تعرف أنه يكن الحب للناس ويميل إلى الخير . أفيا أيها الناس ! إذا اتفق أن قرأتم هذا يوما فاعلموا أنكم كنتم تظلمونني . . . . إني لأرحب بالموت وأبادر إليه مسروراً ! فإذا جاء قبل أن أتمكن من نشر كل مطوي من مقدوري الفني ، فلتعلموا أنه جاء قبل الأوان ، ولوددت عندئذ أن أستأخره — على أني سوف أكون راضيا . أليس يخلصني من ألم لا آخر له ؟ فأت متى شئت فأني سأخف إلى لقائك ؟ . . . .

وبلغ بالفنان اليأس حتى لتتقطع نفسه فيما يلي حسرات :

« إذاً وداعا ! ويعلم الله إنه لعزيز ! وداعا أيها الأمل الحبيب الذي اصطحبتك رجاء الشفاء ، فقدر لي أن أعطيك . لقد جف عودك وضمر ، كما تذبل أوراق الخريف وتسقط . والشجاعة التي عمرت النفس في آونة [1] الصيف الجميلة . أين هي ؟ لقد زايلت واختفت ! أيتها العناية الربانية دعي نهار السرور الصافي يطلع علي مرة ، فقد طال ما جهلت صدى السرور الحق في نفسي . متى أستشعره في معبد الطبيعة وجمع الناس . متى ؟ — أبداً ؟ إذاً لتكونن القسوة التي لا أحتمل ! » .

لكنه احتمل القسوة فانبعث الظفر من بين الأحزان وأدى الرسالة من أغوار الألم .

محمود الدسوقي

(١) جمع أوان .

على هامش كتاب التصوير عند العرب :

الأصنام عند العرب

فى الجاهلية

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا العام كتاب التصوير عند العرب الذى خلفه المغفور له أحمد تيمور باشا . وقد أتيح لى إتمام هذا الكتاب بدراسات فنية وزيادات وتعليقات ، منها عشرون صفحة فى حكم التصوير فى الاسلام . وتحدثت فى هذا الصدد عن تحريم التصوير عند اليهود وماينسب إلى ذلك من تأثير فى الاسلام ، وعن حكم التصوير فى المسيحية ومذهب الأيكونوكلازم الذى كان أتباعه أشد أعداء الصور والتماثيل ، وشرحت أسباب كراهية التصوير فى الاسلام ومنها النفور من مضاهاة خلق الله ، فالتصوير منسوب إليه تعالى فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية يظهر فيها الفزع من مضاهاة خلق الله . وأشرت إلى أن كراهية التصوير أثر من التقشف والبساطة ، فالتصوير عند الكثيرين — إلى العصر الحاضر — من أنواع النشاط الكمالية . وقد كان الكلام والبلاغة أقرب الفنون إلى العرب ، وزادتهم بساطة الاسلام بعدا عن فنون النحت والتصوير ، ولا سيما أن المسلمين كانوا فى البداية بعيدين عن الترف والمدنية ، وأن الجماعة الاسلامية الأولى انصرفت عن الدنيا « مرضاة لفقراء رعيتهم وكسرا للنفس عن شهواتها ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها » . وعرضت لبعض الأمم السامية عن الصور ، ولما كان للصور عند هذه الأمم من أثر سحرى يلحقها بالطلاسم . ولكن أعظم ما عرضت له فى هذا الصدد حجج القائلين بأن التصوير لم يكن مكروها فى عصر النبي عليه السلام ، وأن هذه الكراهية نشأت بين الفقهاء فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) وأن الأحاديث المنسوبة إليه موضوعة ولا تعبّر إلا عن الرأى السائد بين الفقهاء فى العصر الذى جمع فيه الحديث ودوّن .

وقد فندت هذه الحجج الواحدة بعد الأخرى ، وانتهيت إلى أن التصوير بأنواعه كان مكروها فى عصر النبي وفى فجر الاسلام ، ولعل الفقهاء بالغوا فى التعبير عن هذه الكراهية بتلك الأحاديث المنسوبة إلى النبي والتى تفيد التحريم الصريح ، وذكرت أنى لا أومن بهذا التحريم الصريح ، لأن الأمر ليس فى صميم العقيدة الاسلامية ، ولأن تلك الكراهية كان أساسها فى اعتقادى الرغبة فى إبعاد المسلمين عن عبادة الأصنام والشرك بالله ، وغير معقول أن يقصد بها التحريم المطلق ، ولا سيما بعد أن يبعد عهد المسلمين بالوثنية ويثبت سلطانهم ، ويصبح للتصوير فوائد علمية لا سبيل إلى نكرانها .

* * *

وقد قرأ أستاذ جليل من أساتذة الآثار ردى على الحجج التى أشرت إليها ، بعد أن ترجم إلى لغته ، فاعترض علىّ بحجة جديدة ، وقال إنه يذهب إلى أن التصوير لم يكن محرما فى عصر النبي ، لأن العرب حينئذ لم يعرفوا التماثيل والصور ؛ وإنما أصبحت الفنون التصويرية حراماً حينما اتصل العرب بالروم والفرس وعرفوا ما كان عندهم من صور وتماثيل .

والحق أن هذه حجة ليست جديدة ، وإنما فاتتنى الإشارة إليها فى تعليقاتى على كتاب تيمور باشا ، ولم ينبهنى إليها إلا اعتراض هذا الأستاذ الكبير . فإن الأب لامانس أدلى بها فى المقال الذى كتبه سنة ١٩١٥ فى المجلة الأسيوية عن حكم الفنون التصويرية فى فجر الاسلام (ص ٢٤٠ —

٢٤٣) . فكتب أن خطر التماثيل لم يظهر للنبي ، لأن البيئة التي كان يعيش فيها لم تكن كالبيئة الاغريقية الرومانية التي ازدهر فيها فن النحت ، ولأننا — إذا استثنينا اليمن وبلاد النبط والأقاليم الواقعة على حدود سورية والعراق — رأينا في بلاد العرب عند ظهور الاسلام ديانة فتيشية Fétichisme يعبد أصحابها الأحجار والأشجار ، ولا يصنعون معبوداتهم وإنما يتخذونها مما يعثرون عليه في الطبيعة ، فلا ينحتون صورا لآلهتهم بل يعبدون كتل الأحجار ذات الأشكال المختلفة — وقد يكون بعضها بارزا في الجبل أو متأثرا بعوامل التعرية تأثيرا يكسبه شبهاً ضئيلا بصورة آدمية . ويرى لامانس أننا لا نعثر في بلاد العرب على تمثال صحيح إلا في أطراف شبه الجزيرة حيث اتصل القوم بالأمم الأجنبية وتأثروا بها .

* * *

ولست أنكر أن العرب في الجاهلية كانوا يعبدون الأحجار . « وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة »(١) . وكان بعض هذه الأحجار صخرة مربعة مثل « اللات »(٢) أو لوحا من الحجر الأبيض كذي الخلصة(٣) أو صخرة طويلة مثل « سعد »(٤) أو نتوءًا في الجبل « كأنه تمثال إنسان » مثل « الفلس »(٥) . كما كان العرب في الجاهلية يعبدون بعض البيوت ويعظمونها تعظيمهم الكعبة . ومن هذه البيوت « ريام »(٦) في صنعاء ومثل كعبة بني الحارث بن كعب بنجران(١) وكعبة إياد بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة(٢) وكنيسة القليس في صنعاء(٣) .

ولكني لا أشك أبداً في خطأ القول بأن العرب لم يعرفوا الأصنام على هيئة الإنسان إلا في أطراف شبه الجزيرة . فالحق أن مؤرخي العرب الأقدمين ، وعلى رأسهم ابن الكلبي المتوفى نحو سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ، ذكروا بين الأنصاب التي كانت العرب تعبدها تماثيل على صورة الإنسان ، في الحجاز وفي الكعبة نفسها : منها هبل ، « وكان من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب »(٤) ومنها إساف ونائلة ، وقد زعموا أنهما كانا رجلا وامرأة من جرهم دخلا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وأنيا الفكر ، فمسخا حجرين ووضعهما العرب عند الكعبة ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها(٥) .

وفضلا عن ذلك كله فقد اختلف اللغويون والكتاب في تعريف الأصنام اختلافا يظهر منه أن العرب عرفت التماثيل كما عرفت الأنصاب الطبيعية « فقالوا ما كان من حجارة تعبد فهي الأنصاب ، فاذا كانت تماثيل فهي الأصنام والأوثان ، وقيل المعمول من خشب أو ذهب أو فضة على صورة الانسان فهو الصنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن . . . » الخ(٦) .

ولا يفوتنا الاشارة إلى ما رواه المؤرخون والمحدثون

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٦ (الطبعة الثانية) .
(٢) المرجع نفسه ص ١٦ . (٣) المرجع نفسه ص ٣٤ .
(٤) المرجع نفسه ص ٣٦ — ٣٧ .
(٥) المرجع نفسه ص ٥٩ .
(٦) المرجع نفسه ص ١١ — ١٢ .

(١) المرجع نفسه ص ٤٤ — ٤٥ .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ٤٦ .
(٤) المرجع نفسه ص ٢٨ .
(٥) المرجع نفسه ص ٩ و ٢٩ .
(٦) راجع التصوير عند العرب لتيمور باشا ص ٤٨ و ٤٩ والأصنام لابن الكلبي ص ٣٣ و ٥٣ .

عن وجود ثلاثمائة وستين صنماً في الكعبة يوم فتح مكة . وإذا سلّمنا جدلاً بأن الكعبة لم تكن تسع مثل هذا العدد الكبير من الأصنام ، فلا ريب في أنها كانت تضم أصناماً كثيرة لشتى العشائر العربية . وفي إشارة الكتّاب القدماء إلى هذه الأصنام ما يستنبط منه أنها — أو على الأقل بعضها — كانت على صورة إنسان . ومن ذلك ما ذكر ابن الكلبي (ص ٣١) عن النبي عليه السلام حين دخل الكعبة بعد الفتح « والأصنام منصوبة حول الكعبة فجعل يطعن بسية قوسه في عيونها ووجوهها ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ثم أمر بها فكفئت على وجوهها ثم أخرجت من المسجد فحرقت » .

* * *

وهكذا يبطل عندنا قول الذين يزعمون أن فنون النحت والتصوير لم تكن مكروهة عند النبي وفي فجر الاسلام لأن العرب في الحجاز لم يعرفوا التماثيل إلا بعد أن زاد اتصالهم بجيرانهم من الروم والفرس . فالحق أنهم عرفوا التماثيل في الجاهلية ، بل نسبوا إدخالها في الحجاز إلى « عمرو بن لحى » قدم بها من الشام ونصبها حول الكعبة[1] . ولسنا ننسى أن عرب الحجاز في الجاهلية كانوا حلقة الاتصال بين الشام واليمن وكانت بينهم جاليات يهودية حرّم عليها النحت والتصوير حتى لا تتخذ الصور والتماثيل آلهة من دون الله عز وجل .

زكي محمد حسن

(١) الأصنام لابن الكلبي ص ٨ .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىَّ تبعته وحدى ... ..."

المدرسة المصرية — ألوان من الإغراء — الملاك الأدبى ! — الصديق الصدوق !

المدرسة المصرية :

قرأت فى العدد ٩٢٤ من المصور أن محرراً سأل الدكتور محمد حسين هيكل باشا :

« لماذا اخترتَ لأولادك التربية فى المدارس الأجنبية دون المدارس المصرية ؟ »

فأجاب :

« ألِفَ كثيرون من أصحابى أن يذهبوا ببناتهم إلى المدارس الأجنبية ، حرصاً منهم على الإسراع إلى التطور الذى ننشده جميعاً ، وإنى أشاركهم فى هذا الرأى ؛ ولذلك بعثت بابنتى « عطية » وأختها التى تليها فى السن إلى « الليسيه فرانسيه » فلما أردت أن أبعث أخاهما إلى المدرسة كان صغيرَ السن — لم يَعْدُ السادسة — فآثرتُ أن يكون معهما فى معهد واحد ؛ على أنى كنت معتزماً من أول الأمر أن أبعث به إلى مدارس وزارة المعارف ، وعولت على تنفيذ هذا العزم منذ بدء السنة الدراسية الماضية ، ولكن أصدقاء أعزّ رأيهم أشاروا بإبقائه فى الليسيه حتى يتمكن من اللغة الفرنسية ، وعند ذلك يسهل إلحاقه بمدارسنا المصرية من غير إضرار بمعارفه ؛ وأنا مصمم على تنفيذ هذا العزم فى أول فرصة ملائمة » .

هذا ما أجاب به الدكتور هيكل باشا محررَ المصور ؛ وإن فيه لمجالا للمناقشة فى الشكل والموضوع جميعاً ؛ فقد كان الدكتور هيكل باشا وزيراً للمعارف مرتين ، وهو قبل ذلك أديب من قادة الفكر فى مصر وفى الشرق العربى ؛ فلرأيه وزنٌ واعتبار ؛ ولعله لم يغب عن فطنته أن هذا الحديث الذى تحدّثه أو أملاه على محرر المصور حقيقٌ بأن يُخطِر فى بال كل قارىء سؤالاً : ماذا عمل الدكتور هيكل باشا فى وزارة المعارف — وقد طال بها عهده — لإصلاح المدرسة المصرية وذلك رأيه فيها وفى المدرسة الأجنبية ؟ . . . وماذا يقترح الدكتور هيكل باشا «الأديب» من أوجه الرأى لإصلاح المدرسة المصرية حتى لا تسبقها المدرسة الأجنبية فى باب التنظيم والموازنة ؟ . . .

لقد كان عليه فى ذلك واجبان : واجب الوزير الذى يملك السلطة وواجب الأديب الذى يملك الرأى ؛ فأين كان رأيه ذاك من سلطة الوزير ورأى الأديب ؟ . . .

هذا من ناحية « الشكل » ؛ أما « الموضوع » فله وزنٌ آخر ؛ وليس الدكتور هيكل باشا بدعاً فيما صنع ، ولعل تبعته فى ذلك دون تبعة غيره ؛ فهو على كل حال ليس من أهل الفن فى التربية ، وقد نظر فى تعليم بنيه وبناته نظرةَ « الأب » لا نظرة « المربى » ، وما عليه فى ذلك من بأس ؛ ولكن ما شأن فلان وفلان من كبار الفنيين فى وزارة المعارف وقد آثروا المدارس الأجنبية لتعليم بنيهم وبناتهم ، وهم أهل الاختصاص والنظر ، ومن حقهم أن يروا الرأى فيُستمَع لهم ، وأن يقترحوا التعديل فيجاب مقترَحهم ؟ . . .

أليسوا بذلك كأنما يُعلنون للملأ من المصريين أنهم لا يؤمنون بجدوى التعليم فى المدرسة المصرية ، وهم أعرف الناس بها ؟ . . . ثم أليسوا يعترفون تبعاً لذلك بأن عملهم فى وزارة المعارف لا جدوى منه ولا فائدة فيه بالقياس إلى ما تعمل المدارس الأجنبية ؟ . . . وما نتيجة عمل لا يؤمن به عامله ولا يستيقن فائدته ؟

ثم ماذا يقول الدكتور هيكل باشا ؟

إنه يَنشد فى المدرسة الأجنبية الإسراعَ إلى « التطوّر الذى ننشده جميعاً ! . . . »

أىّ تطوّر ؟ . . . وإلى أى غاية ؟ . . . أتراه يعنى

الإسراعَ إلى « تزجة » الأمة وتزجة أخلاقها على النحو الذي نرى بوا كيره في هذا الطراز الفاسد من شباننا وشوابنا الذين ترجمتهم المدارس الأجنبية ، فلا هم إلى المصريين ولا إلى الأجانب ؟ ...

ألا إنه لون من التطور لا ينشده أحد من الجميع .

أم تراه يعني التطورَ الذي يقدِّم للجيل المقبل نموذجاً من الشبان والشابات تكون منهم القدوة ولهم القيادة ؟ ...

ولكن المدرسة الأجنبية لم تُفلح إلى اليوم في تنشئة مصري أو مصرية تكون منها القدوة والقيادة ؛ لأن أول ما تحرص المدرسة الأجنبية عليه في تعليم المصريين من بنينا وبناتنا هو أن تنتزعهم من بيئتهم وتباعد بينهم وبين أهليهم عقلا وخلقا وعقيدة ، فينشأ الناشىء منهم على السخرية من قومه وعاداتهم والترفّع عن مخالطتهم ؛ فلا قدوة ولا قيادة !

نعم ، إن ثمة أفراداً من خريجي المدارس الأجنبية كانوا نموذجاً حسناً ، وكان لهم أثر وتوجيه ، ولكن هؤلاء لم يَنشئوا كذلك لأن المدرسة الأجنبية أنشأتهم كذلك ؛ ولكن مؤثرات أخرى كانت تعمل في أنفسهم ؛ فأفادوا من المدرسة الأجنبية قوة الشخصية والاعتداد بالنفس وحرية الرأي والعمل ، وكانوا من المؤثرات الخاصة المحيطة بهم في حصانة من الوهن في العقيدة والكفر بالوطن والتنكّر للقومية .

وفي جواب الدكتور هيكل باشا حديث عن الأصدقاء الذين يعتز برأيهم ، وعن تعلم اللغة الفرنسية ، وعن إضرار المدرسة المصرية بمعارف وله ؛ ولكن ذلك كله ليس شيئاً مما يعنيني هنا ؛ فما هي إلا تَعِلّات تعبّر عن حقيقة واحدة ، هي أن المدرسة المصرية في رأي أكثر كبرائنا وأصحاب الرأي منا لا تحقق ولا يتهيأ لها في وضعها الحاضر أن تحقق أمنيتنا ، أو تسمو بنا إلى الهدف الذي نقصد إليه في التربية والتعليم ، وهو رأيٌ حق ، ولكن الأحق منه أن المدرسة الأجنبية في مصر لا تسدّ هذه الخَلّة ، لأنها إنما أُنشئت لتحقّق غاية أخرى هي أخطر أثراً في حياتنا الاجتماعية والعقلية من النقص الذي نحسه في المدرسة المصرية !

ومع ذلك هؤلاء الكبراء الذين يعلّمون بنيهم وبناتهم في المدارس الأجنبية ، لا لأن لهم رأياً في شئون التربية والتعليم ، فإنهم لا رأي لهم في شيء ؛ ولكن لأن في هذه المدارس يتعلم أبناء فلان وفلان من العظماء ، وإنهم ليُحِبُّون أن يُذكروا مع هؤلاء العظماء ؛ ولأن هذه المدارس أغلى أجراً ونفقة من المدارس المصرية ، وإنهم ليؤثرون « الغالي » في الثمن وإن كان أرخص قدراً من التراب ، ليُثبتوا أنهم يملكون المال !

... ومع ذلك هؤلاء ، فما ينبغي أن يساق إليهم الحديث ؛ ولكن العَتْبَ كله يساق إلى هؤلاء الكبراء الذين يملكون الرأي والقياس والموازنة ، ثم لا يعملون شيئاً إلا أن يدّعوا الفاسد على فساده ويُشيحوا بأوجههم عنه ليقبلوا على ما قد يكون أعمق أثراً في الفساد !

ألوان من الإعلام :

١ — في « المصري » العدد ٣٠٠٩ من مقال عنوانه « في قبضة الاحتلال » يصف كاتبه فرنساق أوائل أيام محنتها :

« . . . وكانت ثالثة الأثافي أن تجد حلاقة للسيدات في شارع « نمبتا » يعلن عميلاته بأنه لم تعد لديه صبغة للشعر ! » .

٢ — وفي مجلة . . . مقال عنوانه « زوجات الوزراء بين التحجب والسفور » يحصي كاتبه ويستقصي زوجات الوزراء اللائي يشهدن الحفلات العامة ويُجبن الدعوات المختلطة ويشاطرن الرجال أسباب السمرة في مجامع الأنس والطرب ، واللائي يلزمن بيوتهن ولا يشهدن إلا الدعوات الخاصة ؛ ويمضي الكاتب في الاحصاء والتعداد وتسمية الأزواج والزوجات ، ثم يقول :

«... ومنهن زوجة الأستاذ (فلان)، وهو مسرف في رجعيته لدرجة أن رقم تليفون داره ليس مدرجا في الدفتر!»

٣ — وهذه مجلة ... تنشر مقالاً مصوراً عن «لغة الأقراط»، فالقرط على هيئة كذا معناه «أنا أحب التبديل»، وعلى هيئة كذا معناه «تعال لي!»، وعلى هيئة كذا معناه «أنا مشغولة!» أو «أنا فارغة!».

٤ — وهذه صورة مشهورة منشورة، تراها في كثير من الصحف والمجلات، تمثل فتاة وفتى يتخاصران، وعنوانها «كن عصريا» وتحتها إعلان عن مدرسة لتعليم الرقص المختلط!

وقلما تتصفح جريدة أو مجلة مصرية إلا رأيت لونا من هذه الألوان يوحى وحيه ويحدث حديثه في نفس كل قارىء وقارئة، وإنما قدمتُ ما سبق للتمثيل لا للاستقصاء؛ فما الغرض من كل ذلك وما الدافع إليه؟

١ — إلى أي معنى يرمى هذا الكاتب الذي يقص قصة «ثالثة الأثافي»؟ وما ترجمة حديثه في نفس قارئه وقارئته؟

ألست تكاد تسمع همس قارئته لنفسها وهي تقول: «يا للمصيبة إن أصبحتُ وليس في المدينة حلاق ولا صبغة شعر!»؟

إن هذه العبارة القصيرة لتشير هنا في خبث أن الحلاق، وصبغة الشعر، ووسائل التطرية والزينة — كل ذلك ضرورة لازمة إن لم تجدها كانت المصيبة وثالثة الأثافي!

٢ — وهذا الأستاذ «فلان» المسرف في رجعيته، ماذا تقول له زوجه وقد قرأت حديث المجلة عنها وعنه لأنها لا تغشى المجالس العامة كما يغشاها نساء الوزراء؟

أليس يغريها هذا الكاتب بالتمرد والعصيان وإنشاء «معركة وزارية» بين أربعة جدران؟ وما أثر هذا الحديث في نفس سائر القارئات؟ ...

٣ — وماذا يفعل الفتى العابث حين يرى فتاة في الطريق تلبس قرطاً معناه «تعال لي!» أو «أنا فارغة!» وقد شاعت بعض أنواع هذه «الأقراط اللغوية» في آذان بعض الفتيات؟

٤ — وما سبيل الفتاة التي تريد أن تكون عصرية وقد رأت هذه الصورة لفتى وفتاة مثلها يتخاصران؟

... ولكنني أظلم هؤلاء الكتّاب وهذه الصحف والمجلات لو سمحتُ لنفسي أن أتهم أحداً منهم بسوء القصد؛ إني لأشد غفلة منهم إن طوّعتُ لنفسي أن تظن بهم أنهم يعنون ما يكتبون! ولكنهم حريّون بأن يُفيقوا ...!

قرأت في هذا الأسبوع:

«... زكي مبارك ... لونٌ من ألوان الأدب المعاصر لا بد منه ولا حيلة فيه .. هو الملاكم الأدبي في ثقافتنا الحديثة . والرياضة ... ضرورة من ضرورات الحياة لسلامة الجسم والعقل ...

«... على أنه هو نفسه أول الشاهدين على أن صفارتي قد بحّت من طول ما أهابت به وهو في قفازه السنتريسي يهدر في المجال بين الحبال مغضبا بعض الأعضاء عن قواعد الملاكمة!». الرسالة: ٤٦٩ أحمد حسن الزيات

***

«الصديق الحق هو الذي يدرك بوضوح أن الصداقة تفرض عليه أن يكون سنادك في جميع الأحايين، وأن يؤاخى من آخاك ويعادى من عاداك ولو كنت على ضلال...

«ليس بصديق من لا يراك في جميع أحوالك أشرف الرجال!

«إن مؤاخذة الصديق — ولو بحق — هي أقبح ألوان الظلم والجور والإجحاف!

«إن الإخلاص في محاربة عدوك أشرف من الصدق في محاربة صديقك! ...» الرسالة: ٤٦٩ زكي مبارك — ... ... ؟

«قاف»

في الميزان الجديد :

بجماليـــــون
والأساطير في الأدب

وأخيراً أخذت الأساطير تشق سبيلها إلينا حتى رأينا كاتباً كالدكتور طه حسين بك يكتب في روايته «أديب» : «لقد ماتت فتاتنا أيها الصديق ! ماتت ودفن فيها أو صرف منها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذي كان ينطلق فيها فرحا مرحا هادئاً وادعا مستبشراً يرسل البشر من حوله جميلا ينثر الجمال على جانبيه . مات هــذا الإله الشاب فدفن في مجراه أو طرد هذا الإله الشاب ورُدّ من مجراه ، وفنى في الأراهيمية فأصبح ماءً من الماء ، وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً ، لا يثير في نفوس الناس حزنا ولا فرحا ، ولا تجرى ألسنتهم بالحديث . نسيه الناس ونسى هو الناس بل نسى نفسه أيضا . إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لا حياة لهم إلا إذا أقيمت لهم المعابد وألفوا هم المعابد ، فاذا هدمت معابدهم فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً . فقد هدم معبد هذا الإله الشاب وماتت الفتاة ، فمات هو أو نفى من الأرض وأصبح حديثا كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث»

ولو أنك بحثت عما خلف هذه الفقرة الطويلة من معنى لم تجد غير خبر يلق به مواطن إلى مواطنه ؛ فالأديب الذي نشأ في نفس القرية التي نشأ فيها طه حسين قد عاد إلى بلدته فوجد أن ترعتهم قد ردمت بعد أن كانت تنساب من الأراهيمية إلى القرية ؛ وحزن الأديب لزوالها أو قل حزن طه حسين الذي دل في غير موضع مما كتب على إلفه للأمكنة وإحساسه بها إحساساً مرهفاً ، واحتال الكاتب على شفاء نفسه مما تجد ، فلجأ إلى الأساطير اليونانية التي خلعت صفات الانسان على الأشياء أو صفات الآلهة ، والأمر بعد سيان ، إذ أن آلهة اليونان قد خلقهم هذا الشعب على شاكلة البشر . وعلى نحو ما جعل هوميروس من نهر الاسكامندر في الالياذة إلها يصارع البطل «أخيل» ، نرى طه حسين يجعل من قناة بلدتهم إلها شابا سرعان ما ينسى وينسينا أنه أسطورة أو إله خرافة ، وإذا بالإله شاب إنسى يموت ويدفن في القناة أو على الأصح يفنى بفنائها . وإذا بالكاتب يمزج بين حياة هذا الشاب وحياة من حوله ، وينفث فيه فيضاً من العاطفة أظنه قد بلغ من التأثير في نفس القارىء مبلغا ما كانت الألفاظ مهما رقت بمستطيعة أن تصل إليه بغير هذا التشخيص .

وها نحن نرى اليوم الأستاذ توفيق الحكيم يتناول أسطورة «بجماليون» اليونانية الأصل ليتخذ منها وسيلة لعلاج مشكلة أحسست بعقلي أنها تعنّى الكاتب ، مشكلة الحياة التي لا يجد الفنان سبيلا إلى الصدوف عنها مهما أصاب من نجاح ، وهي أبداً تلاحقنا وتقتضينا حقوقها ؛ إلى هذا فطن اليونان لجرت إحدى أساطيرهم بأنه قد كان في جزيرة كريت فنان بارع عقد عزمه على ألا يتزوج ليوقف حياته على الفن ، أو لأنه قد نفر من مظاهر استهتار النساء كما رآهن بأعياد فينوس إلهة الحب ، تلك الأعياد الصاخبة التي كانت تقام بمدينة «أماتونتوس» على الساحل الجنوبي للجزيرة ، حيث كان معبد تلك الإلهة . وغضبت فينوس من كبريائه فألقت بقلبه حب تمثال عاجي من صنعه اسمه «جالتيه» واشتعلت بحواس الفنان المسكين رغبات الحياة ، فضرع إلى الإلهة أن تنفث الروح بالتمثال . ورق قلب الإلهة لضراعته فاستجابت ، وتزوج بجماليون من جالتيه وكان له منها ولد هو «بافوس» ، مؤسس مدينة «بافوس» مدينة الحب الشهيرة بجزيرة كريت .

وشاء شيطان «الحكيم» أن يحسم جانبي النزاع في نفسه ، فلجأ إلى أسطورة يونانية أخرى هي أسطورة نرسيس أي النرجس ، وذلك أن خيال اليونان رأى النرجس

يسمو دائمًا على شواطئ، الغدران فاخترع له أسطورة: قالوا إن النرجس كان فى الأصل شابا جميلا يعرف أنه جميل، وكان يطيل النظر من مرآة المياه ليتمتع بجماله، فمسخته الآلهة زهرة لا تزال إلى اليوم تنبت على حافة المياه لتطل فى صفحتها. وجاء علماء النفس المحدثون فاتخذوا من معنى هذه الأسطورة اسما لمرض نفسى هو غرام الشخص بنفسه على نحو ما يغرم بفتاة. حتى أصبحت تلك «النرجسية» (Narcissisme) من أبحاث المشتغلين بذلك العلم. ورأى الحكيم أن نرسيس يستطيع أن يرمز إلى تلك النزعة القوية التى تدعوه إلى الحياة وتصرفه من الفن، لحزم أمره واتخذ من نرسيس حارسا لتمثاله. اتخذ من حياته خادما لفنه. وترك الكاتب لنرسيس الحرية فى أن يلهو مع فتاة يونانية عرفت منذ عهد سوفكليس بالحكمة هى «إسمين». وكأنى بالكاتب لا يخشى على نرسيس منها شيئا، وإنما هى ملهاة عرضت نفسها على نرسيس فقبلها، وهى لن تؤدى به إلى الطغيان على بجماليون، لن تنصر الحياة على الفن، وفى هذا ما يحزن، فلإسمين فى النفس قداسة! وكم كنت أود لو التمس الحكيم لنرسيسه فتاة أخرى، فإسمين فى ذكرياتى هى إسمين سوفوكليس، إسمين العزيزة النبيلة، وما إخالها إلا منتقمة لذكراها الخالدة، وقد زجت إلى حيث لا تدرك لوجودها معنى.

ومزج الحكيم بين بجماليون ونرسيس فالشخصيتان هما الفنان نفسه بجانبيه، جانب الحياة التى يجب أن يأخذ منها بنصيب كما يأخذ جميع البشر، وجانب الفن الذى يريد الكاتب أن يوفر عليه كل نشاطه! ومن ثم نرى نرسيس يهرب ذات مرة مع جالاتيه نفسها، ولا تجد إسمين فى ذلك غضاضة قوية، بل ولا يجد بجماليون للغيرة ألما، وذلك لأن إسمين متعة عابرة، ولأن نرسيس هو بجماليون نفسه! فالأمر إذاً لا يعدو انتصار الحياة فى برهة من أيام الكاتب أو الفنان، وهو بعد انتصار لا يضير الفن إذ سار الفن مع الحياة، سارت جالاتيه مع نرسيس.

وهكذا تنقضت حياة بجماليون بين يدى الحكيم، حتى طال تردده بين الحياة والفن، فآنا يفرح ويطمئن إلى جالاتيه المرأة، وآنا يعود فيحن إلى جالاتيه التمثال.

وأما القارئ، فيشهد كل ذلك بعقله، وكأن تلك الشخوص أفكار مجردة هامدة تتحرك لمجرد علاج مشكلة تدور بالعقل، العقل البارد الذى لا يهتز.

وبذا يتضح اتجاهان فى استخدام الأساطير عندنا! فهذا طه حسين يجعل من فتاتهم شابا كان يملأ الدنيا حياة وبهجة، ثم يموت الشاب فتحزن لموته! وهذا توفيق الحكيم يتخذ من بجماليون ونرسيس وإسمين رموزا لعلاج إحدى مشاكل حياة الفنان، مشاكله الجسمية، يعالجها على نحو عقلى معقد مبسط.

ولنتمهل قليلا لنرى ماذا فعل كتابنا بالأساطير وماذا فعل كتاب غيرنا من الشعوب، لنرى بوضوح كل ما يمكن كسبه لو أننا استطعنا أن نحسن استخدام ذلك الجانب الانسانى الرائع من خرافات الأولين يونانيين كانوا أو عربا أو هنودا، ففيها كلها ما يغذى العقل والقلب، ويفتح أمام النشاط الخالق ميادين لا حد لغناها! ونحن اليوم على أبواب تطور خطير فى حياتنا الروحية والفكرية! إذ من كان يظن فى أوائل هذا القرن أن كتابنا سيرون فى إحدى ترع الصعيد إلها شابا أو يشقون شاعرا أو كاتبا من شعرائنا أو كتابنا كالأخطل مثلا أو ابن قتيبة إلى بجماليون ونرسيس إلى فن وحياة يراوغان ويتداخلان! وهذا اتجاه يبشر بالخير خليق بأن يجدد حياتنا، ولكن على شرط أن يكون التجديد قويا جميلا إنسانيا عميقا، وإلا فيا ويلنا إن أخذنا بالقشور والخيال كل تاركين اللباب والمعانى الدقيقة، فنحن عندئذ سنفقد أصالتنا دون أن نستعيض عنها بأصالة أخرى. وإنا لندعو جاهدين إلى تعميق حياتنا والمد من آفاقها، وإنه لمن قصر النظر أو الجهل أن نظن أن تراث أدبنا العربى يكفى

اليوم لينقذى نفوسا تمل وتحس فى قرارة الانسان وفى آيات الطبيعة أو فى الصلة بينهما حقائق جمة لم يصل اليها التفكير العربى إلا مجزأة أو مفككة أو ضائعة فى خلال الألفاظ التى طالما أصبحت فى أدبنا عبثا يقصد لذاته . وإنه لمن قصر النظر أو الجهل أن نرى مضاضة فى أن نأخذ من كبار مفكرى الإنسانية وأدبائها دروسا نشد بها من قدرتنا حتى نستطيع النهوض على أقدامنا والسير مع هؤلاء الرجال جنباً إلى جنب .

وأساس الأخذ من الغير والإثراء به هو الفهم ، الفهم العميق ، وكل فهم صحيح تملك للمفهوم . ألا ترى اللغة نفسها ، لغة جميع الناس ، كيف تصف من يعرض ما فهم بأنه يملكه ، يمتلك موضوعه . واللغة فى هذا لم تعد تسجيل حقيقة إنسانية عميقة . فأنا إذا فهمت نفسى فهما صحيحاً تملكتها وسيطرت عليها ، وأنا إذا فهمت الغير تملكتهم وضربت عليهم نوعا من النفوذ قد يكون حسنا وقد يكون سيئا ، وذلك باستخدام معرفتى لهم فى علاج نفوسهم وقيادتهم إلى ما أريد . بل إن تاريخ الفكر البشرى منذ طفولته إلى اليوم ليس إلا جهاد البشر فى فهم الطبيعة واستنباط قوانينها ، وبفضل هذا الفهم تملكنا كل تلك القوى المادية التى سخرناها لحياتنا .

الفهم إذاً تملك ، ونحن نستطيع أن نتملك كل ما خلف البشر من تراث روحى ، كل ما خلف أساطير كانت أم حقائق ، على ما فى تلك الاصطلاحات من تحكم غير صادق فى أغلب الأحيان ؛ فكم من أساطير يصح أن تسمى حقائق ، وكم من حقائق تكشفت عن أساطير ، والأمر بعد سيان ، فما نريده هو أن نمتلك كل ما تصل إليه عقولنا ، وسنرى عندئذ كيف تنمى هذه الثروة الروحية ، بل إنها ستنمو نموا ذاتيا بما فيها من قوى كامنة ، كالمال يولد بعضه بعضا ما خلصت لنا ملكيته .

هذا التملك هو سر ما وصل إليه الكتاب الأوربيون من خلق جديد استقوا مادته من التراث القديم ؛ فاليونان اتخذوا من الأساطير الشعبية التى كانت شائعة فى القبائل الأندو أوربية الأولى مادة لأجل وأعمق ما خلف البشر من أدب وتفكير ، وخلفهم فى ذلك اللاتين ثم الفرنسيون فى أدبهم الكلاسيكى ، والأمر لا يقف عند الأدب بل يمتد إلى كافة الفنون . وفى متاحف العالم أجمع لوحات لا عداد لها وتماثيل نحتت فى كل الأزمنة وفى مختلف البلاد بوحى من تلك الأساطير .

وموضع العبرة فيما فعل الكتاب الأوربيون هو نفث الحياة فى أساطير الأولين وتقريبها من حياتنا وتسخيرها لفهم الانسان . فها هو برناردشو يكتب « بجماليون » ويبلغ حرصه على الحياة ومشكلة الحياة ألا يتخذ لبطله هدفا تمثالا من العاج أو الرخام ، بل فتاة حية من دم ولحم بائعة زهور خلقها بجماليون من العدم ، وما كانت حياتها شيئاً قبل أن يعثر بها . كانت بائسة لا تعرف من الحياة إلا القليل ، ولم يكن لها غير تلك النبرة الجميلة المؤثرة نبرة كوكنى لندن ، نبرة لهجة الشعب المتواضع ، لهجة باعة الأسواق الشريدين المنبوذين . عثر بجماليون بالفتاة ، ولم يزل بها يلقنها نغمة الطبقة الممتازة ، ويبصرها بطرق حياتهم ، حتى أصبحت متعة للأبصار وبهجة النفوس . وكان بجماليون لا يحب فيها أول الأمر غير كبرياء الخالق ، كبرياء الفنان الذى يحب نفسه فيما يخلق ؛ ولكن نجاح الفتاة وإقبال الرجال عليها لم يلبث أن نفذ إلى غرائز بجماليون كرجل ، فأخذ يحب الفتاة لنفسها . يحبها على غير وعى منه حتى كان يوم أدرك فيه مدى هذا الحب . أى حياة تملأ المسرحية ؟ وأى إنسانية تجرى فى كل نواحيها ؟ وأى تميز للشخصيات ؟ وأى حركة متدفقة فى المواقف والأوضاع وأى وحدة فى البناء ؟!

أين كل هذا من الأفكار المجردة ؟ وأين كل هذا من مشكلة حياة الفنان المبسطة التى لا نكاد نراها إلا فى خطوط

هندسية ومقابلات بين الحياة والفن ، بين المرأة والتمثال ومن حولها شخصيات أشبه ما تكون بقطع الشطرنج أو بعرائس الخشب التي تحركها على مسارح الأطفال خيوط تجتمع كلها إلى يد واحدة ، هي فكرة الفن والحياة وما بينهما من تعارض لا أكاد أفهمه في فن يسمى تحلق الحيـاة . وكيف يخلقها وهو يجهلها ؟! يقول ديراميل لفتاه « لا تنس أن تعيش . عش أولاً . عش بكل قواك ثلاثة أشهر لتكتب ثلاثة أيام ، واكتب ثلاثة أيام تمـلأ ثلاث صفحات » .

وإلى هذا النوع من الأدب الذي تشيع فيه الحيـاة يتجه إيمـاني بحيث لا أطمئن إلى الأدب المجرد ، أدب الفكرة الذي يصدر عنه الأستاذ الحكيم ، فهو أدب سهل .

ثم من السهل أن تتخذ من أشخاص الأساطير رموزاً تحركها للتدليل على فكرة ما ، ومن هذا النوع رواية شيلي عن « بروميثيوس الطليق » ورواية أندريه جيد عن « بروميثيوس غير المحكم الوثاق » ففي كل منهما ملاح لأفكار . عند شلي صراع بين الخير والشر ، وبين الآلهة والانسان ، وعند جيد بين الضمير والجسد ، بين الهيئة الاجتماعية والانسان ، ولكن ثمة أشياء تشفع لشلي وجيد . فشلي شاعر كتب مسرحيته شعراً وفيها من جلال الصور وندرتها وقوتها وجمالها ما يثير الخيال ويلهب النفس ، وجيد مفكر عميق ناقد ، رمزيته إشارات دالة وإيحاء بعيد تلهث في متابعته والذي لا شك فيه أن خلق الشخصيات ونفث الحياة فيها وتركيز طبائع البشر بين حناياها بما تحمل تلك الطبائع من بصائر وآلام وآمال ، أمر أشق وأروع وأجمل وأضمن للخلود من العبث بالأفكار ، وبخاصة إذا كانت أفكاراً مطروقة قريبة المنال .

ما أفقر الفكر المجرد وما أغنى الشخصيـات الحية المتميزة . ما أسهل الفكر المجرد ، وما أشق الشخصيات الحية المتميزة !

وإذا كان الأدب لا ينجح في أن يثير في ولا في أن يرسم أمام خيالي نماذج لي ولك أتعرف فيها على ناحية من حياتي أو اتجاه من اتجاهات نفسي أو موضع من مواضع قوتها أو ضعفها ، فماذا إذاً يستطيع بتناوله إحدى تلك الفِكَر اللقاة كأعراض بمفترق الطرقات ؟

ألا ليت للحكيم قدرة على الانفعال والتأثير . ألا ليت للحكيم قدرة شاعر كشلي على اقتناص الصور وإيقاع الشعر . ألا ليت للحكيم قدرة شمر على نفث الحيـاة والامعان في الواقع . ألا ليت للحكيم قلباً وخيالاً يعدلان عقله القوي .

ولقد كان الحكيم يستطيع وقد عز الانفعال وعز الخيال ، أن يخفف من طغيان التفكير بشيء من « الهيومر » على نحو ما رأينا أحد كتابنا الموهوبين يسمى عصارة قلبه الساخر « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » . وأما الحرص على الخلود والجهر بالرغبة فيه والتصبب عرقاً في الجري وراءه ، فأشبه ما يكون « ببراميل الدانايد » التي لا قاع لها . والخلود كالمرأة الجميلة . الخلود كالحياة لابد من التحفظ معه والبعد عنه وعدم التكالب عليه لنظفر به ؛ وبهذا وحده نستطيع أن نسيطر على ما بأيدينا وأن نقوى على مواجهته في غير ضعف ولا تهافت . والسيطرة قوام الخلود . السيطرة على المادة التي نصوغها .

وبعد فقد كنت أخشى أن تظل مرامي الكاتب مختفية في ضباب الأسطورة وخلف رموزها ، ولذلك حاولت أن أؤدي ما أراه واجبا على كل ناقد ، فاتجه جهدي إلى تقريبها من القراء وربط الشخصيـات بعضها ببعض ، وإيضاح للمعاني التي قد تفلت من القارىء البادي .

ولقد تفضل الأستاذ الحكيم فأهداني كتابه ، فلم أجد رداً للتحية خيراً من أن أقربه لقرائه المعجبين الكثيرين ؛ وأما ما بسطت من رأي يتجه إلى نوع من الأدب يخالف منحى بجماليون فقد كان الايمان رائده .

محمد مندور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ – ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٥ — الثلاثاء ٣٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦١ — ١٤ من يوليه سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

صور النافذة :

العمل العمل !

لقد عرفنا جميعاً عدونا الأكبر وداءنا الأعظم ، عرفنا جميعاً أنه هو هذا الفقر القتال ، الذي يفتك بالجسم والعقل والروح ، والذي يمنع كل تقدم ، ويقف في سبيل كل عظمة ، ويحول دون تحقيق الاستقلال المادي والمعنوي للأمة المصرية ؛ فلم يبق إذاً إلا أن تمتد الأيدي للحصول على الدواء الشافي ، إذا كان في متناولها ، فإذا لم يكن قد صار بعدُ في متناول اليد ، كان لا بد من السعي والبحث حتى نظفر به مهما كلفنا من المشقة . فإن حياة شعبنا متوقفة كل التوقف على الظفر به بأي ثمن .

وقد بينا في مقال سابق أن سبب الفقر هو أن الفلاح بطبيعة عمله مضطر إلى البطالة في كثير من أيام السنة .

فعلينا أن ندبر شيئاً واحداً ، وهو العمل ، وأن ننظم شيئاً واحداً ، وهو العمل . فالعمل هو الذي يحمل إلى المصري المال ، وهو الذي يكسو جسمه ، وهو الذي يداوي أمراضه ، وهو الذي يرتفع بعقله وروحه إلى المستوى الانساني الكريم .

العمل اليوم هو أكبر عوامل الثروة ، وما موارد الطبيعة ذاتها بذات قيمة كبرى ، إذا لم يكملها العمل ، ويجعل منها الثروة الحقيقية . وقد أصبح العمل في هذه

العصور أعظم خطراً مما كان فى العصور الماضية ، لأن الإنسان فى الوقت الحاضر لا يعيش على ما تقدمه الطبيعة مباشرة ، بل يعيش على ما يصنعه هو من موارد الطبيعة .

فليس من الضرورى إذاً أن يكون الانسان مالكاً لمورد طبيعى ، كغابة من شجر الموز ، أو مرعى تقطيه قطعان الماشية ، كما كان الحال فى الماضى ، لأن الحياة قد تطورت وتعقدت حاجاتها ؛ وقد يكون الفرد مالكاً للموارد الطبيعية ، ولكنه لا يستطيع أن يستخرج خيراتها إلا بالعمل . حتى لقد صار المالك والعامل شريكين فى الإنتاج ، لا يستقل أحدهما عن الآخر ، ولا يمتاز عليه بنصيبه فى محصول الثروة ؛ فاذا كان الفرد لا يملك مورداً طبيعياً فليس ذلك عيباً فيه ولا نقصاً ، فانه يملك عمله وهو مورد آخر للثروة لا يقل عن المورد الطبيعى .

وهنا تنهار حجة القائلين بأن أساس الفقر سوء توزيع الثروة ، أو نظام الطبقات ، أو أى سبب آخر من تلك الأسباب التى تساق أحياناً فى حماسة وبغير تدقيق . فان فرصة العمل وحدها كفيلة بأن تحقق للفرد كل ما يلزمه فى حياة طيبة هانئة . بل إننا نذهب إلى أن العمل هو صاحب القسط الأكبر من الثروة فى العصر الحاضر . ولنضرب لذلك مثلاً : سيارة من أوسط السيارات . فان فيها من الحديد والمواد الأخرى مالا يزيد على نصف طن ، ونصف الطن من هذه المواد لا يساوى فى الأحوال العادية أكثر من بضعة جنيهات ، فى حين أن السيارة بعد صنعها تساوى مئات من الجنيهات ؛ فالقيمة الزائدة على ثمن المادة الطبيعية هى قيمة ما بذل فى إعداد السيارة من العمل الفنى واليدوى ، وهو بغير شك الجزء الأكبر من ثمنها .

ومثل هذا يقال فى سائر المصنوعات . بل إن المعادن والمواد الأولية نفسها تحتوى فى ثمنها على نصيب وافر من قيمة العمل الذى بذل فى استخراجها وفى استنباطها من مادة الأرض .

كل هـذه بديهيات نريد أن نخرج منهـا إلى أن العمل فى نفسه ثروة ، وأننا إذا وفرناه للشعب المصرى أمكنه أن يرفع مستواه ، وأن يبلغ ما نرجوه له من الخير المادى والمعنوى .

وهنـاك شعوب كثيرة قد أقامت كل حياتها أو جعلت أكثر مواردها من العمل ، لقلة موارد الطبيعة فى بلادها ، بل إن الدول العظمى نفسها قد أقامت عظمتها على العمل ، حتى صارت موارد الطبيعة عندها فى المحل الثانى بالنسبة لثروتها . فاذا نحن نادينا بأن العمل هو وسيلتنا الكبرى لمداواة ما يشكو منه الشعب المصرى ، لم يكن نداؤنا هذا عجيباً ، بل هو منبعث من مسألة بديهية .

والعالم اليوم مشغول القلب بهموم المستقبل ، مع ما هو فيه من مشاغل الحرب الطاحنة ، لم يمنعه مجهوده المنيف فى النضال الجبار الذى يخوضه من أن يفكر فى المستقبل بعد أن تضع الحرب أوزارها .

وقد عرف المفكرون جميعاً أن شعوب العالم ستكون فى حاجة إلى مداواة جراحها ، وأن الدول جميعاً ستكون فى حاجة إلى التعمير بعد ما أصابها من التدمير ، ولم يجد هؤلاء المفكرون أملاً لعالمهم هذا فى المستقبل إلا بتحقيق فكرة واحدة ، وهى توفير العمل وتوزيعه وتنظيمه والقضاء على البطالة . هكذا ينادى قادتهم كل يوم ، وهذا ما يجتمع ساستهم للاتفاق عليه عبر المحيطات منذ الآن .

فنحن مثل سائر أمم العالم فى أشد الحاجة إلى توفير العمل لشعبنا ، وإلى تنظيمه وتنسيقه ، والقضاء على البطالة قضاء مبرماً ، إذا كنا حقيقة نريد أن تكون لنا فرصة فى الحياة فى العالم المستقبل .

وإنا نحمد الله لأن ساستنا قد أدركوا هذه الحقيقة

مع كل مشاغلهم في عواصف السياسة في هذه الظروف ، إذ قد عبرت لجنة المالية في مجلس نوابنا من الأمنية القومية أوضح تعبير ، فأعدت برنامجاً إصلاحياً اقترحت فيه على الحكومة خطة حكيمة ترمى إلى أهداف ثلاثة :

(الاول) توفير العمل بفتح أبواب الصناعة .

و (الثانى) توجيه الجهود إلى البحث من موارد طبيعية جديدة تفتح أبواب العمل أمام هـذه اللايين المزدحمة على الزراعة في الوادى الضيق .

و (الثالث) هيمنة الحكومة على العمل بحيث تضمن استمراره ونجاح مشروعاته ، بوضع سياسة اقتصادية تكفل حماية المشروعات الناشئة حتى تنمو وتقوى .

ثم أشارت اللجنة بعد ذلك إلى ضرورة تسديد خطى العمل بطرق البحث العلمى الحديث ، بأن يؤلف معهد للأبحاث العلمية ، يكون بمثابة الرائد لفتح الميادين الجديدة للعمل ، وإرشاده إلى أحسن السبل في الانتاج .

ولسنا نشك في أننا إذا استطعنا أن نوجه إرادتنا في هذه الوجهة ، أمكننا أن نظفر بالعنصر الأساسى الذى يتكون منه الدواء الشافى لأمراضنا كلها .

«ف»

كسرة خبز ودموع

يا أمّ كاد الليل أن ينقضى   ولم يعد من نأيه والدى
وهذه الكسرةُ يا ويحها   من صلبة كالحجر الجامدِ
يا أمّ لو أنّ أبى حاضر   لجاء بالطارف والتالدِ

* * *

أماه ! إنى جائع ساغب   وهذه اللقمة مثل الحجرْ
أليس لى عندك من غيرها   فإن ضرسى يا أُمّ انكسر !
يا حسرة الأم التى أعولت   وسح منها دمعها وانهمر

* * *

قالت له : « كُلْها فما عنـــدنا
يا فلذتى شئ سوى كسرتك » !
فقال يا أماه — ما طعمُها   ما هذه الحيرةُ فى نظرتك ؟
يا طولها من ليلةٍ مُرّةٍ   قد بالغت يا أُمّ فى حسرتك !

* * *

تجهّم الطفل ويا حســـرته
يُذيبه الجوع ويَبرى العظامْ !
فقال هاتى لى إذاً قطعةً   أو قطعتىْ ملح تكونا إدامْ !
يساعد الملح على بلعها   عسى أبى يأتى لنا بالطعام !

* * *

وفتّشت فى بيتها لم تجد   الملح فى مسكنها من أثرْ
فاحتالت المرأة — قالت ألم   تسمعْ عن الرب كلاماً صدَرْ
يقول لا تُعطيـــــه ملحاً فما
يجمُلُ بالغلمان — هذا الضرر !

* * *

خذ يا صغيرى عوضاً غيره   من الدقيق الناعم الطيّب !
فقال لا طعمَ له ، إننى   أريد ملحاً ، أو يعود أبى
الملح أشهى جوزى بعضَه   لا تبخلى يا أم لا تغضبى !

* * *

لم تستطع إقناعه فانبرت   دموعُها تترى فيا للدموعْ
وبلّت بالدمع خـــبزَ ابنها
والدمعُ ملح ذو مذاقٍ وجيع !
لكنه استمرأ من أمّهِ   دموعَها — يا ليته لا يجوع

* * *

وازدردَ اللقمةَ — لم يُبقها   وأشبعته مثل أشهى غذاء
ونام لكن لم تنم أمُّه   وواصلت فى الليل حرّ البكاء
لو تستطيع الأم إطعامه   دماءها ما بخلت بالدماء !

(اسكندرية)   حسين المهدى غنام

٢ - فارس كنانة

للأستاذ أحمد أمين بك

هذا أسامة صبياً ، قد وضع لتربيته منهجان : منهج للفروسية ومنهج للعلم والدين .

فأما منهج الفروسية فيتلخص في تعليمه صيد الوحوش ليتعلم منه صيد الأعداء ، وكان الصيد ملهى الأسر الأرستقراطية في ذلك العصر ، في مصر والشام والعراق ، وكان لأسرة أسامة احتفال عظيم به ، وعناية كبرى به ، وإنفاق للأموال الكثيرة في سبيله ، وكان أبوه « مرشد بن علي » وعمه « سلطان » من أشد الناس ولعاً بالصيد ، وغراماً به ، وتفننا فيه .

وكان في ضواحي شيزر متصيَّدان : أحدهما في الجبل جنوبي الحصن يصيدون فيه الحَجَل والأرانب ، والثاني أجمة في الغرب على النهر يصيدون فيها طير الماء والدراج والأرانب والغزلان . ودعاهم ذلك إلى اقتناء حيوانات الصيد وجوارحه من كلاب وبزاة وصقور وفهود ، ورتبت لها أماكنها وخدمها الذين يعنون بها ، ويقومون بتغذيتها وتدريبها وإصلاحها ، فكان أبوه يبعث — حتى إلى القسطنطينية — من يشترى له منها بزاة ، وإذا سمع بشهرة من جارحة من الجوارح جدّ في الحصول عليها أو على نسلها .

كان يخرج صباحاً إلى الصيد من حين إلى حين مع أولاده الأربعة ، ومنهم « أسامة » ، ومعهم مماليكهم وسلاحهم ، ومعهم أربعون فارساً من أخبر الناس بالصيد ، فإذا وصلوا إلى المتصيد أمرهم والد أسامة بالتفرق كل مع جوارحه وحيوانه وغلمانه ، ثم يرسلون الطيور أو الكلاب ، ولا يزالون يومهم في جرى وقفز وصيد يرتبون أمورهم كترتيب الحرب ، ثم يعودون في المساء بصيدهم . وكان لذلك الصيد أثر جيد في أسامة ، فقد عرّفه طبائع الحيوان والطيور وأكسبه علماً واسعاً بحيلها وقتالها وشجاعتها وجبنها وطرق معايشها .

حتى إذا مرن « أسامة » نازل الأسود والضباع ، وكان بالشام إذ ذاك أجمات كثيرة ترتع فيها الأسود ، فكان هو وصحبه إذا سمعوا بأجمة منها طاروا إليها ، يقول في حديثه : إن رجلا جاءه يخبره من أجمة في تل فيها ثلاثة سباع ، فخرج إليها هو وأخوه بهاء الدولة وقوم من صحبه ، فوجدوا لبؤة خلفها أسدان ، فخرجت اللبؤة ، فحمل عليها أخوه فطعنها طعنة قتلها ، وتكسر رمحه فيها ، ثم خرج أحد الأسدين ، فتكاثروا عليه بالرماح حتى قتل ، ثم خرج الثاني ، وكان أشد وأقسى ، وأعظم خلقة ، فحملوا عليه ، وكلما أصابته طعنة هدر ولوّح بذنبه حتى مات .

لقد عرف طبائع الأسود من كثرة منازلتها ، قال : « فوجدت منها الجبان ومنها الشجاع ، وعرفت أنه إذا خرج من موضع فلا بد له من الرجوع إليه ، ولقد رأيت رأس الأسد يحمل إلى بعض دورنا ، فترى السنانير تهرب من تلك الدار ، وترمى نفسها من السطح ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن فلا يقربه الكلاب ولا شيء من الطير . وما أشبه هيبة الأسد على الحيوان بهيبة العُقاب على الطير ؛ فإن العُقاب يبصره الفرّوج الذي ما رأى العقاب قط فيصيح وينهزم . هيبة ألقاها الله في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين » ثم يقول : « وقد قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شاركني في قتلها أحد سوى ما شاركني فيه غيري ، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ؛ فمن ذلك أن الأسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ، ما لم يُجْرح فحينئذ هو الأسد وإذ ذاك يخاف منه » .

ثم خرج من هذا الصيد وقد جرح مراراً وكسرت أضلاعه مراراً ، ولكنه خرج أيضاً فارساً عظيما ، وشجاعا نبيلا .

وكما تعلّم أسامة القتال فى الصيد تعلمه فى الانسان ، كانت غلطة منه ولكن داعيها شريف نبيل . هذا أسامة الصبى واقفاً على باب داره ، فرأى غلاما لوالده يلطم صبيا من خدم الدار ، فجرى الصبى وتعلق بثياب أسامة يحتمى به ، وكان يكفى ذلك أن يكف الغلام احتراما لجوار على عادة العرب ، ولكن الغلام الكبير ما أبه لهذه التقاليد ولا لاحترام قوانين النجدة ، فضرب الصبى وهو محتم بثياب أسامة ، فأخرج أسامة من وسطه سكينا ضربه بها ضربة كانت القاضية .

* * *

وأما المهج العلمى فوالده يحفظه القرآن ، ويأمره بتلاوته حتى فى الطريق وهم خارجون للصيد ، وعلماء كبار يعلمونه الحديث والنحو والأدب . فأبو الحسن الشُّمَيْنِي يعلمه الحديث وابن المنيرة يعلمه الأدب وأبو عبد الله الطُّلَيْطِلي يعلمه النحو ؛ فحفظ القرآن وسمع الحديث ، وتعلم النحو وحفظ آلاف الأبيات من الشعر الجاهلى ، وأخذ هو يكمّل نفسه بما يقرأ من كتب وبما يسمع من العلماء والشعراء رواد مجلس أسرته .

فكان فارساً أديباً وجنديا عالماً ، واستطاع أن ينتفع بخير المنهجين . كان منهج الفروسية قاسيا رفقه العلم والأدب والشعر والدين ، وكان بعض شيوخه العلماء فيهم جبن وخوف ، فأخذ علمهم وترك جبنهم ، هذا أستاذه ابن المنيرة يطلب منه أن يتقلد رمحاً وترساً ويقف فى موضع من طريق الافرنج حتى يروه فلا يجتازوه ، فيأبى ويقول : والله لو وقفتُ لاجتازوه كلهم . فيقال له : إنهم يهابونك لأنهم لا يعرفونك . فيقول : أنا أعرف نفسى . ثم يقرر مبدأ خطيراً إذ يقول : « ما يقاتل عاقل » . فيغضب أسامة من سماعه هذا المبدأ الجبان ويقول : « إنه كان بالعلم أخبر منه بالحرب ، فان العقل هو الذى يحمل على الاقدام على السيوف والرماح أنفة من موقف الجبان » .

ولابن المنيرة فصول أخرى من الجبن قصها أسامة وسخر منها ، فكان ينتفع بعلمه ويهزأ بجبنه .

ولعل برنامج العلماء من هذا التاريخ كان ينقصه أن يعلمهم شيء من الفروسية

* *

اليوم يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ ، كان أسامة فى الخامسة والعشرين من عمره ، واليوم كان أول قتال قاتله ، خرج فيه مع عمه ورجال من قومه ، لحرج عليهم جماعة كبيرة من الصليبيين ، وكان قتال تشيب منه الأطفال . وأخذ الموت يحصد رجال أسامة ، وقد هان عليه الموت ، فهو يقاتل وتحته فرس مثل الطير ، يطعن هذا فيأتى عليه ، ويدور على آخر فيطعنه من ورائه طعنة تنفذ من قدامه ، ويحمى ما استطاع من أصحابه ، فاذا أعيت فرسه ركب أخرى أعدها مملوكه ، حتى انتهت الموقعة ورجع أسامة إلى شيزر مع من بقى سالما .

وفى سكون الليل بعث عم أسامة إليه يطلبه ، فاذا عنده فارس من الصليبيين ، فقال له عمه : « هذا فارس أعجبه اليوم قتالك لجاء يهنئك بموقفك ، ويبدى إعجابه من طعناتك وشجاعتك » ؛ وهذه عادة الفرسان ، يعجب البطل بجمال البطولة ولو صدرت من خصومه ؛ وكان هذا هو الوسام الأول لحياته الحربية الطويلة ، ومن ذلك اليوم شعر بثقته بنفسه واعتماده على ربه وأنشأ يقول :

سَلْ بى كُمَاةَ الوغى فى كل مُعْتَرَكٍ
يضيق بالنفس فيه صدرُ ذى الباس
ينبئك بأنى فى مضايقها
ثبتُ إذا الخوف خفّ الشاهق الراسى

أخوضها كالشهاب انقض يصحبني
عضب كضوء سرى أوضوء مقباس
إذا ضربت به قرنا أنازله
أوجاه[1] من عاتق بمشاه أو آس

وهكذا كانت حياته بعد ، كل يوم غارة منهم يغيرها ، وغارة عليهم يردها ، ويخرج يوما يقاتل العرب ويوما ينازل الفرنج ، ويوما يقاتل فيقتل ، ويوما ينهزم ويجرح . هذا يوم يخرج هو وصديقه «جمعة النميري» يهزمان ثمانية من فرسان الصليبيين ، وهذا يوم يخرجان أيضا فيهزمهما — على حد تعبيره — رويجل صغير الجسم معه قوسه ونشابه ، فيعجبان كيف هزما ثمانية وهزمهما رويجل ! حياة كلها مغامرات وكلها فروسية ، ثم يترجم ما يجيش في صدره ويدور بخاطره إلى شعر قوي جميل :

سأنفق مالي في اكتساب مكارم
أعيش بها بعد الممات مخلدا
وأسمو إلى الهيجاء ، لا أرهب الردى
ولا أختشي عاملا ومهندا
فإن نلت ما أرجو فللمجد نلته
وإن مت خلفت الثناء المؤبدا

تجهلني في الإقدام رأيي معاشر
أراهم إذا فروا من الموت أجهلا
أرجو الفتى عند انقضاء حياته
وإن — فر — من ورد المنية منهلا
إذا أنا هبت الموت في حومة الوغى
فلا وجدت نفسي من الموت موئلا
وإني إذا نازلت كبش كتيبة
فلست أبالي أينا مات أولا

لأرمين بنفسي كل مهلكة تخوفه يتحاماها ذوو الباس
حتى أصادف حتفي فهو أجمل بي
من الخمول — وأستغني عن الناس

هذا أسامة عمره ثلاثون ... أربعون ... أربع وأربعون ، ومعيشته في حصن «شيزر» على نمط واحد : غزو وقتال وصيد ، وتحمل أعباء يتخللها لحظات من الراحة

لقد أجاد في حياته حرب الخصوم ، وشهد في شبابه أيضا حرب العواطف . فأحب وتيمه الحب ، ونعم بالوصال ، وألم للفراق ، وغنى بشعره لحبه ، كما غنى به لحربه :

شكا ألم الفراق الناس قبلي وروع بالنوى حي وميت
وأما مثل ما ضمت ضلوعي فإني ما سمعت ولا رأيت

أحبابنا كيف اللقاء ودونكم
خوض الهامه والفيافي الفيح
أبكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما إنسانها مجروح
وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الغرام تعاوره الريح

فلما بلغ الأربعين وعلا رأسه الشيب صبا عن الحب وفرغ للمجد وقال :

قالوا نهته الأربعون عن الصبا
وأخو المشيب يجور ثمت يهتدي
كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الأقصد
وإذا عددت سني ثم نقصتها
زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

(يتبع) أحمد أمين

استدراك :
ورد في المقال السابق أن «كنانة» التي منها أسامة «عدنانية» والصواب أنها قحطانية كما ذكر ذلك أسامة نفسه .

(1) أوجاه : دفعه ونحاه .

بمناسبة الذكرى السابعة والثلاثين لوفاة الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

فيلسوف الحرية

بقلم الأستاذ عثمان أمين

١ — تمهيد :

يُطلَق لفظ الحرية على معان مختلفة : فنها « الحرية الفيزيقية » أو « البدنية » ، وهى قدرة الانسان على تحريك أعضاء البدن ؛ و « الحرية السيكولوجية » ، وهى قدرته على أن يختار فعلاً ما من بين أفعال كثيرة متساوية من حيث الإمكان ؛ و « الحرية المدنية » وهى مايخوّل المجتمع أفرادَه من حق فى عمل كل ما لا يلحق بالغير ضرراً ؛ و « الحرية السياسية » وهى عبارة عن حق الانسان فى المساهمة والاضطلاع بشئون الدولة ؛ أما « الحرية الدينية » فما هى إلا صورة من صور « الحرية المدنية » ؛ و « الحرية الأخلاقية » عبارة عن استقلال النفس من طغيان الشهوات .

على أن الحرية التى نود أن نتحدث عنها هنا هى « الحرية السيكولوجية » ، ولقد شغلت فى مذاهب الفلسفة مكاناً لا يُستهان به : نجدها أحياناً مجاورةً للحرية الأخلاقية ، كما هو الشأن فى فلسفة ديكارت[1] ونجدها أحياناً أخرى بعيدة عنها ، كما هو الحال عند سبينوزا ، الذى ينكر « الحرية السيكولوجية » ، ولكنه يضع « الحرية الأخلاقية » فوق كل شىء .

والآن ما موقف الشيخ محمد عبده من تلك المشكلة ؟ وماذا يرى من حل لها ؟

(١) عثمان أمين : « ديكارت » . القاهرة ١٩٤٢ .

٢ — موقف محمد عبده من مشكلة الحرية :

أول مايلاحظ أن الفيلسوف المصرى قد أقبل على تلك المسألة بروح تفيض بنفحات من « البراجماتزم » ، ذلك المذهب الفلسفى الذى يقدم العمل على النظر ، والذى ازدهر أوائل هذا القرن بجهود « وليم جيمس » الأمريكانى و « فردينالد كانتج شلر » الانجليزى .[1]

ولقد يُخيل إلى القارىء لمؤلفات الأستاذ الامام ومحاضراته أنه يقرأ صفحات من قلم الفيلسوف « وليم جيمس » .

كتب الشيخ محمد عبده عن المسألة التى نحن بصددها تلك العبارات الموجزة التى تدل بوضوح على ما ذهبنا إليه من طابع تفكيره . « البرجماطيق » : « لقد خاض فيه (أى الجبر والاختيار) الغالون من كل ملة ، خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدأوا . وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا : فنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق ؛ وهو غرور ظاهر . ومنهم من قال بالجبر وصرح به . ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه ؛ وهو هدم للشريعة ، ومحو للتكاليف ، وإبطال لحكم العقل البديهى ، وهو عماد الإيمان »[2]

وهذه الجملة تبين بجلاء موقف الفيلسوف المصرى فى المرحلة الثانية من مراحل نشاطه الفكرى ؛ وهى مرحلة كان معنياً فيها بمسائل الأخلاق أكثر من عنايته بمسائل الميتافيزيقا . ومن أجل ذلك نراه يمر مسرعا على المناقشات القديمة التى كان المتكلمون السلفيون قد أثاروها حول

(١) راجع من ذلك المذهب : يعقوب فام : « البراجماتزم أو مذهب الذرائع » القاهرة ١٩٣٦ ؛ وعثمان أمين : « المذهب الانسانى عند ف . ك . س شلر » وهو بحث بالفرنسية نشر بمجلة كلية الآداب بالمجلد الرابع ، القسم الثانى لسنة ١٩٣٦ (Osman Amine, L'Humanisme de F. C. S. Schiller)

(٢) انظر محمد عبده : رسالة التوحيد . الطبعة الخامسة ص (٦٢)

الكسب والجبر والاختيار ، واختلافهم فى أن الأفعال هل هى لله خاصة أو هى بقدرة الانسان ، تلك النازعات التى كان من شأنها فى تاريخ الاسلام أن شطرت أهل الاعتقاد فرقتين : هما « القدرية » و « الجبرية » .

إن مذهب المتكلمين من الأشعرية قائم فى صميمه على فكرة الضرورة فى الكون . فإذا سلمنا بتلك الضرورة — ونحن مضطرون من حيث الميتافيزيقا إلى التسليم بها — لم يمكن بعد ذلك أن تقوم لمذهب الأخلاق قائمة . قال الفيلسوف « كانت » : لا أخلاقية من غير حرية . وهنا أيضا تبدو أمام نظر « الشيخ محمد عبده » تلك الهوة العميقة التى تفصل بين الأخلاق والميتافيزيقا . ولكنه — كشكل فيلسوف وجماطيق متسق الفكر — قد اختار الأمر الأول ، فانضوى تحت علمَ الأخلاق والعمل ، مصرحا بأن مسائل علم الله وقضائه السابق ، من حيث يتعلقان بأفعال العباد ، هى من « سر القدر » الذى لا تكاد العقول أن تصل إليه .

٣ — تفسير « القضاء والقدر » :

لكن ما معنى « القضاء » الذى طالما تحدث المسلمون عنه ؟ أمعناه الجبر والقهر كما يؤكد لنا البعض ؟

لا . إن « الشيخ محمد عبده » يرى يقيناً خلاف ما يذهبون إليه . وهو فى رأيه متفق مع غير واحد من أقطاب المفكرين فى الاسلام : نراه يفسر « القضاء » بمعنى سبق العلم الإلهى ، ويقول : « إن علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته ، وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا ، وهو خير يثاب عليه ، وإن عملاً آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر » . [1] ثم هو يرى فوق ذلك أن العلم السابق لا يحول دون أن يكون الانسان حراً فى أعماله بوجه ما . قال : « لا شىء من علم الله السابق بمانع للانسان من أن يعمل ، وأن يختار بمقتضى ذلك . وإذا

(١) رسالة التوحيد ص ٧١

كان ما هو فى علم الله السابق يتحقق ضرورةً ، فذلك لأنه مادام قد أحاط الله به فلابد أن يكون متفقاً مع الواقع ، والواقع لا يتبدل » . [1] وإذاً فمن ناحية العقل لا تكون الاحاطة بما سيقع مانعة من الفعل ولا باعثة إليه . [2]

هكذا حاول « الشيخ محمد عبده » أن يوفق بين ما هو صعب التوفيق فى الظاهر . ولقد أراد من هذا كله أن يثبت أن الانســان حر الإرادة ، وأن له كسبا وقدرة على أفعاله .

أما حرية الارادة فدلل عليها بشهادة الوجدان فقال : « كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ، ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ؛ ثم يصدرها بقدرة ما فيه » [3] . ولو لم يكن الأمر كذلك أفكان إجماع الناس ينعقد على نسبة الأفعال إلى أصحابها ؟ « الوجدان يشهد والحس يشاهد أن الذى رفع يده بالسيف وضرب آخر فقتله ، هو الذى ضربه . ويقول الرائى والخبير إن فلاناً قتل فلاناً أو ضربه أو اعتدى عليه . فنسبة الأفعال إلى من صدرت عنه من العباد مما لا يحتاج إلى بحث ولا نظر » [4]

والذين ينكرون أن يكون للانسان حرية ما عليهم إلا أن يفكروا فى معنى الأوامر الإلهية : أفيعقل أن يكون لهذه الأوامر قيمة ما ، إذا لم يكن للانسان الاختيار فى أن يطيعها أو أن يعصيها ؟ بل لقد قامت أحكام الشريعة جميعاً على هذا الأصل : وهو أن الانسان مسئول عما يفعل : « ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه به . إذ لا يعقل

(١) رسالة التوحيد . نفس الموضع . قارن ما كتبه ديكارت فى رسالة إلى الأميرة إليزابت ، يناير سنة ١٦٤٦ (مؤلفات ديكارت طبع آدام وتانرى مجلد ٤ ص ٣٥٢ — ٣٥٤) .

(٢) أنظر حاشية الشيخ محمد عبده على شرح العقائد العضدية ص ١٥٥ .

(٣) رسالة التوحيد ص ٦٥ .

(٤) تفسير سورة العصر . طبعة ثالثة ص ٤٥ .

أن يُطالب شخص بما لا يقدر عليه وأن يكلف بما لا أثر لإرادته فيه »[1] ، وإذاً فالوجدان والاجماع والعقل والشرع كلها متفقة على نسبة أفعال الانسان إليه .

ولكن ليس قصد الشيخ من هذا أن يذهب إلى القول بأن للإنسان حرية مطلقة ، كما قد توهم البعض : فحرية الاختيار لا متناهية عند الله ، ولكنها متناهية عند الانسان . وليرجع كل إنسان إلى تجاربه ، وما قد يقع له من خطوب وأحداث ، عندئذ يتبين أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته[2] : ومما قام عليه الدليل ، بل كاد يصل إلى البداهة أن « جميع الأشياء راجعة إلى الله ، ووجود الممكنات إنما هو نسبتها إليه ، ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتُبِرت مستندة إليه ... ومثل هذا يقال فى عظم قدرة الله ، وأنه إن شاء سلبنا من القدرة والاختيار ما وهبنا ، فهو أمر نشاهده كل يوم : ندبّر شيئاً ، ثم يأتى من الموانع من تحقيقه ما لم يكن فى الحسبان . ونتناول عملاً ، ثم تنقطع قدرتنا عن تتميمه . كل ذلك لا نزاع فيه . وشمول علم الله لما كان ، ولما يكون قام عليه الدليل ، ولا شبهة فيه عند الليبن »[3] . وإذاً فالانسان مضطر من جهة « أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه » ، وهذا هو معنى القضاء ؛ ثم لا بد له من جهة أخرى « أن يقرّ بنسبة عمله إليه » . كما هو بديهى عند أهل النظر السليم .

والحق أننا إذا نظرنا إلى « القضاء » من وجه ما تبدّى لنا ذلك اللفظ اصطلاحاً عربياً خاصاً يدل على ما يسمى فى الفلسفة الحديثة « مبدأ العلية » . ولقد كتب الشيخ محمد عبده من مقال فى « العروة الوثقى » منذ أكثر من نصف قرن ما نصه : « كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان .

(١) تفسير سورة العصر ص ٦٤ .

(٢) رسالة التوحيد ص ٦٦ .

(٣) تفسير سورة العصر ص ٤٦ .

(والانسان) لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وإن لكل منها مدخلاً ظاهراً فيما بعده » . فيتضح إذاً أن كل ظاهرة من ظواهر الكون سببها العلة السابقة عليها « وإرادة الانسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة . وليست الارادة إلا أثراً من آثار الادراك . والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات . فظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره أبله فضلا عن عاقل ، وإن مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة ، إنما هى بيد مدبّر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له »[1] .

وبعد هذه المحاولة الطريفة لتخطيط « مبدأ العلية » أراد الشيخ محمد عبده أن يبيّن فى المقال نفسه أن ارتباط العلل ذلك الارتباط الذى يطلق الفلاسفة عليه اسم « التحديد » أو « التعين » (Déterminisme) هو مبدأ على تقوم عليه العلوم الانسانية المختلفة ، كالتاريخ والاجتماع والسياسة وعلم النفس — فضلا عن العلوم الطبيعية[2] .

على أن هذه ليست أول مرة فى اللغة العربية يستعمل فيها لفظ « القضاء » مرادفاً — فيما يبدو — للفظ « التعيّن » الفلسفى ، ومخالفا بهذا الاعتبار لمعنى « الجبر » الذى يدل على الالزام والقهر وسلب كل حرية . فلقد استعمل الفيلسوف « ابن رشد »[3] من قبلُ لفظَ « القضاء » بالمعنى الذى أراده هنا « الشيخ محمد عبده » .

ولكن الأمر الذى حرص الشيخ المصرى على

(١) العروة الوثقى . الطبعة الثالثة ص ١٢٠ .

(٢) العروة الوثقى ص ١٢١ .

(٣) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة . القاهرة ١٣١٩ هـ ، ص ٨٥ — ٨٦ .

إظهاره فى هـذه المسألة كلها هو أن الاسلام ليس — كما زعم الكثيرون — دين الجبر وإنكار الحرية . فمذهب أهل الحق من المسلمين هو أن الله تعالى ، وإن كان يعلم ما سيحدث من الانسان ، يترك له مع ذلك حرية أفعاله الخاصة . وليس فى ذلك أى تناقض ؛ بل بالعكس إن انسجاما عميقاً يتم بين فعل الانسان وفعل الله : « ولا تخالف بينهما فى الحقيقة . فالله فاعل من حيث العبد فاعل ، والعبد فاعل من حيث الرب فاعل . والوجود فى جميع مراتبه مختار » .(١)

فتبين من هذا أن نظرية « محمد عبـده » فى حرية الأفعال الانسانية تتجاوز نظرية « الكسب » التى قال بها بعض علماء الاسلام ، خصوصا الأشعرى و « الجوينى » و « إمام الحرمين » : ذلك أن « الشيخ عبده » لا يلتمس الحرية — كما يريد جمهور الأشاعرة — فى ذلك الفعل الوهمى ، فعل القدرة الحادثة التى لا أثر لها ، وهى ما يسمونه « كسبا » . . ثم هو لا يلتمس حرية الفعل فى عـدم التعيُّن الناشىء عن غياب العلل الطبيعية . بل بالعكس نجد الحرية عنـد الفيلسوف المصرى عبارة عن تعيُّن الارادة التى ترمى إلى غاية وتختار خير الوسائل لبلوغها .

وبناءً على ذلك صرح الأستاذ الامام بأن واجب كل مسلم هو أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه ، وبأنه يجب عليه مع ذلك أن يقر بأن أعماله منسوبة إليه ، وأن يعمل بما أمره به ويتجنب ما نهاه عنه ، باستعمال تلك الحرية التى يجدها من نفسه . وليس على المسلم بعد هذا أن يبحث فيما وراء ذلك ؛ وقد نهى القرآن والحديث عن الخوض والنزاع فى « القدر » لما فيه من جسيم الخطر . على أن الايمان ليس بحاجة إلى بحث هذه المشكلة الغامضة وإنما التطلع إلى حلها هو « من شَرَه العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار » . وليس فى مقدور العامة أن تنفذ بصائرها إلى أسرار الحرية والقدر : فذلك شأن من شئون القليلين من أهل الولاية والصفاء .

ما أحكم هذه الدعوة التى يوجهها الأستاذ الامام إلى علماء المسلمين ليكفوا عن ذلك المراء الباطل والجدل العقيم الذى استمرت ناره زمانا حول تلك المسألة ! إن مما يستحق التنويه به فى هذا المقام هو أن « الشيخ عبده » قد استطاع بعبقريته الحازم أن يخلص هذه المسألة كلها من المناقشات الطويلة العقيمة التى أثارها المتكلمون عن أفعال الرب وأفعال العباد . وهنا ، مرة أخرى ، قد انبثقت من تعاليم الفيلسوف المصرى تلك الروح البرجماطيقية التى أنقذت فكره ، وعقله من النزعات « المدرسية » الخائبة التى كانت وما فتئت إلى عهده ذات سلطان كبير على النفوس .

(البحث بقية) عثمان أمين

(١) محمد عبده : رسالة الواردات ص ٢٩ .

أخت

وعمت وجهها نحو الدار فى بطء وتثاقل كأنما كانت فى جناز أو أشد وقعاً . وكأنما حيل بينها وبينه . أو كأنما خشيت ما توهمته حقيقة ! أو ليس ما وقع حقيقة ؟ أو ما كان بينها وبين الموت خطوة أو بعضها ؟ أما كان هناك مركبة ترام قد كادت تأتى على ما بقى فيها من حياة ، حتى كان ذلك البائع الجائل فافتداها بعربة كانت هناك .

أجل . كان كل ذلك حقيقة . وهى عينها ما جعلها فى شبه غيبوبة . وجعلها تتهالك وهى تسير فى إعياء ظاهر وجهد كبير ...

ما قد يكون من أمر أخوات تسعات وأم فانية عجوز . بل ما قد يكون من أمر أخ كرست له جل عمرها ، وجعلته أملا لها أن يخلفها على أخواتها ، وأن يعوضها عن فقد أبيها وعما سلف خيراً . . . وما إن تمثلت ذلك حتى انقبض ما بين صدرها فى أسى ولوعة . وحتى وصلت الدار وهى أشد لهفة لترى من أضحوا من نفسها أقرب لنفسها ... ودخلتها . فنفر إليها الصغار فى براءة وجذل يسألونها ما حملته لهم من حلوى ولعب ، فجيبت يدها — على غير عادة — مما أملوا شيئاً . إلا أنهم لم يعدموا تقبيلها فى طهر ، اعترافاً منهم بعطفها وحدبها . فعلوا كل ذلك فى سذاجة وبراءة وصدق . فأما الكبار فتطلعوا إليها فى شفقة ظاهرة وأعينهم عندها معبرة بأصدق آيات الجميل .

أما هى . فقابلت كل ذلك بنفس مرحة طروب ووجه كله إيناس ، وما بدا عليها أى بادرة مما تضطرب به نفسها من لواعج الهم والحسرة . لم يبد عليها من ذلك شىء ، غير فرح أحالت به جوم العابس الصامت إلى بهجة وسرور .

وسردت ما مر بها فانخلعت قلوبهم واستطارت جزعا ... ولكنها لم تزد من ذلك شيئاً ، فهى ليست عادتها . إنما حسبت ذلك قتلا للوقت ونصيحة تنفعهم إذا ساروا يوما فى الطريق . . . وما زالت بهم تتندر مع الكبار وتمازح الصغار ، حتى استحال الحادث فكاهة نسوا معها ما كانوا فيه يفكرون .

وعلمتها الأيام كيف تصمت .

فاذا هجعت للراحة — إن كانت — عزتها الهموم واستكلبت عليها الأفكار . كيف يكون الأمر لو لم يسعفها ذلك البائع الجائل فنجت من موت محقق أكيد ؟ ويعاودها السؤال : ماذا لو حُمّ القضاء وكان ما كان ؟

إنها لتضطرب مما ينتظرهم من مستقبل مظلم مجهول . كيف تتيسر لهم سبل العيش وهى — عندها — موصدة فى وجه كل طارق شريف ... وهى لم تقنط بعد من رحمة الله . فهى مؤمنة بالله وبرحمته كل الإيمان ... ولكنها الأيام ... الأيام علمتها أى أهوال تعترض سبيل الرغيف . وإنها لترضى — لنفسها — بكل صعب من الحياة وقاس ، تتقبله راضية بإسمه على ألا ينال قلامة ظفر الصغار مكروه .

وذكّرها حادث اليوم بنوائب الماضى ... هذا الفقر وهو ينشب أظفاره الحادة السامة فى جسدها وأهلها . يكرههم على ما ليس لهم به تجربة ولم يكن لهم به سابق عهد ، فتصرخ بطونهم مؤذنة ، ويلح عليهم الجوع ثم يلح ، ويقف القدر منهم بعيداً وقد افتر ثغره الأجوف الكريه عن بسمة صفراء ، تنذر بالويل ، وتخفى وراءها كل معانى البؤس والتشريد . . . فانبرت وحدها تفدى الكبار وتحمى الصغار ، وكانت قرباناً على مذبح الأيام .

وتحت فى سبيل الكل ، وسخت فى التضحية ، حتى إنها ما تأوهت يوما مهما افتن الدهر فى تسديد الطعنة . وفى عنقها ، تنظر إلى دمها الغزير ، فلا يتكلم فيها غير قلب يتوجه إلى الله بين الحين والحين ، ليخفف المحنة ، ويزيل

الكرب ، وليعوضها فى أخيها عما أصابها خيراً . .

أجل . أخوها . فمجرد ذكره ومجرد رؤيتها له صباح كل يوم وعند المساء ، كافية لأن تثلج ما أججته فى صدرها الأيام ، وإنها لترى فيه المعزى والسلى ، والتشجيع على مجالدة الخطوب . عاشت لأجله على الأمل ، فتكسرت كل موجات الظروف العاتية على صخرة إرادتها الصلبة ، وارتدت خاسرة فلم تزدها إلا استمساكا واستبسالا .

إنها لتذكر كل ذلك ، إلا أن قلبها مع هذا عامر بالإيمان ، واثق كل الثقة بالله ، لم تغير صروف الدهر من عقيدتها شيئا ، فهى أبداً ثابتة ، وهى أبداً لله معاهدة .

إنها مازالت تعانى من أمر محنتها الكثير ، فمن إراقة ماء الوجه ، إلى بيع النفس وما ملكت يمينها ، إلى كل ما رخص وغلا فى سبيل أمنيتها ، لترى أخاها قد كبر شأنه وتمكن من إعاضتها عما فات . فاستمهدت من أجل ذلك الوعر من كل شىء . وطوت من أجل ذلك الليلة والليالى خاوية البطن ، حتى توفر له مايطعمه ويغذيه ، وتمرت إلا من خلق الثياب لتكسوه وتأويه . وسهرت وسهدت عليه الليالى الطوال حتى ينام ويهدأ ، يشاركها فى ذلك أخوات وأم عجوز ، والكل صابر متصبر مؤمل فى وجه الله الخير الكثير .

حتى هو ، أخوها ، لم يسالمها فيه الزمان . فحاربه وعانده وتنكر له وتجهم ؛ ولكنهم صبروا جميعا وصابروا ، وهى تتقدم القافلة وتقود الركب .

وما كان ليضحك لها الزمن يوماً ، فهو عبوس قطوب ، وهى تذكر له نتفة مما كان يزفها فى عبث بين الحين والحين ، نتفة كادت تودى بما أملته فى غياهب العدم وطوايا النسيان ، ولطف الله بها ومر الحادث كغيره فى سلام ؛ وكم من مثله مئات ومئات ، إلا أنه كان أشدها ألماً وأوقعها نكاية ، ولم تنس — مع هذا — فى نهايته أن تحمد الله .

مرت تلك الخواطر برأسها المتعب ، فما وعت مما حولها شيئاً ، إنها الآن فى بيداء الحياة الواسعة ، تكافح يائسة لتصل إلى واحة واحدة من واحات السلام ، لتحط عصاها وليتولى أخوها البقية الباقية ، فتطلع ببصرها المحدود نحو الأفق ، فإذا بينها وبين الغاية أميال وأميال ، وإذا ما حسبته غاية ما كان أكثر من سراب .

ولقد يمر عليها الليل طوله تفكر فى الغد وتفكر ، تستنبط فى ذلك الحيلة لجلب الطعام . . . ولقد تمر الليلة والليالى وهى تبتهل لله دامعة ، ليدرأ مرضاً حل أو مصيبة نزلت ، ولربما فوجئت وهى على هذا الشأن ، فتناومت حتى لا يشعر أحد بوقر الحال .

فهى قد فرضت تربيتهم عليها فرضاً ، وهنأت — مع الجهد — بذلك ؛ فكانت لهم الأب وكانت لهم الأم ، وكانت لهم كل شىء ، وودت من أعماقها أن تعطيهم أكثر مما تملك ؛ ولكن ما أشأل — مع المرة — ما كانت تملك !

ولربما هان ذلك لو انتصف لها المجتمع ، فلم يشهر بها وينبذها فى تهكم وسخرية واستهزاء . . . .

لكم استندت الأيدى ، واستدرت الرحمة . واهاً لها . . . وخانتها الشجاعة لأعوام ، فاستسلمت للعبرات .

وجاش بنفسها ذكر أبيها . أما لو كان حياً لهنئت وعاشت كأترابها فى سعادة ورخاء . وهى بعد فى مقتبل العمر وربيع الحياة وما عرفت ما مقتبل العمر وربيع الحياة . خلقت شقية .

ما يفرقها عن الجارات والصاحبات . يرفلن فى ظل والديهم فى بحبوحة من العيش ورغد من الحياة . لايهتممن لأكثر من يومهن . وهى وحدها الشقية .

ولربما نظرن إليها فى أنفة كأنما يحذرنها ألا تدنو منهن بحال ، فتملأ كل صدرها الحسرة ، ويشوى قلبها الألم شيئاً . ولا تملك غير التباعد والتنافى عما يأتين .

وعصفت بها الذكرى لأودية الماضى السحيق . يوم

لمحة ثانية إلى أدباء لبنان

للسيدة وداد سكاكيني

أطلع الدكتور بشر فارس قراء « الثقافة » وقارئاتها على بعض وجوه الأدب في لبنان ، فكانت لمحته خاطفة ، وكلمته — كما قال — تنبيهاً يجرى إلى تعريف ، فما فاته الإشارة إلى تبادل الثقافة بين أمم العرب وتناول آثارها الحديثة بالنظر والتمحيص ، وأن على مصر الزعيمة أن تحفل أدب الجيران والإخوان ، فلديهم منه ما يستحق الرعاية والعناية . كانت لمحته مشكورة ولكنها خاطفة ، فما التقطت غير وجوه مشهورة أو موجهة للنور ، فبدا لى أن أتبعها بلمحة ثانية أطلع فيها قراء « الثقافة » على وجوه في أدب لبنان لم يقيض لها الحظ أن يراها صاحب « سوء تفاهم » . وفي لبنان أيها « بول » ذو القلم والبيان وجوه يطالع أزاهير أدب منثورة معطاراً ، أو منظومة طاقات وربا ، تختلف أشكالا وتتفاوت ألواناً ، بينها البراعم والأكاميم ، وفيها الزنبق والنسرين ، وفيها الورد والريحان .

فالمفتى الإمام الشيخ مصطفى الغلاييني قاضى القضاة : سلخ ميعة العمر وأبلى قشيب الشباب في تأريخ الأدب وتثقيف العقول وتأليف الكتب ؛ وهو شاعر مطبوع ، في شعره الجزل صورة البعث الجديد في بيروت بعد إعلان الحرية .

وكرم ملحم كرم باعث القصة الحديثة على رصيف لبنان ، ينطوى اليوم على نفسه فيودع القراطيس المسودات نقدات وروايات ؛ ولقد كان لأشهر خلت هو والكاتب عمر أبو النصر أكثر أدباء لبنان إنتاجا ونشراً ، وإنه لإنتاج قيم يرفل بالذوق والطرافة ؛ ولهذه القصة موهبة فنية وبراعة في الأداء ، تجدها في رواياته المطبوعة : « صرخة الألم » و « الصدور » و « بونا أنطون » ، ولولا أزمة الطباعة لطلع على الناس في هذه الآونة بمؤلفاته الحديثة « المجنون » و « الزنبق الصريع » و « أف للناس » .

ويخطر على مشارف لبنان وسفوحه أمين نخلة شاعر الرقة والأناقة ، وصاحب « المفكرة الريفية » و « تحت قناطر أرسطو » وهو نسيج وحده في نثره ، مترف جد الترف في نظمه . وكما شغل القضاء الغلاييني عن الأدب كذلك كان دأب المحاماة مع أمين نخلة ، ولولا سوانح منهما كالبوارق في مطاوى السحاب ، لظنهما الناس قد هجرا الفن إلى غير رجعة ووصال .

ويطل على بحر بيروت وجه تعرفه منابر مصر في كرام الشعراء ، هو وجه شبلى ملاط ، شاعر بسط جناحى شعره على لبنان ، كما بسط الأرز في القمم وارف الأفنان .

وعلى شاطئ لبنان التصوليان الأخوان محيي الدين وأنيس ، فالأول خطيب أخطب ، وأديب مدرب ، والثاني مؤرخ محقق ، كتب تاريخه عن العصر الأموى والدولة الأموية على الطريقة العلمية الصحيحة ، فترك دويا في البيئات التي لم تألف هذا الضرب من التاريخ .

وثمة كاتب مؤرخ مشرق الأسلوب هو زكى نقاش

زفت في ثوب الشباب فضحكت واميت . يوم لفتها السعادة بغلائلها الحريرية الزاهية . يوم ...

يوم لم تفكر في الغد .

ومرت يدها الناحلة فوق جبينها المتغضن ، فأسفت لهذا العمر المتصرم . وقد عصفت به الأحداث ، حتى ربما أخطأها الناظر على أنها شارفت الخمسين . وما تعدت عقدها الثاني سنوات . بئست الحياة . كلها شقاء . أو على الأقل لها وحدها شقاء ...

ليتها لم تكن ... وغلبها الضعف فبكت .

واسترق سمعها صوت أخيها قد ارتفع في طلب حاجة . جففت الدمع . وأسرعت تلبي النداء ...

(مجلة الآداب) ياقوت صبرى عبد الحميد

الذى يسجل كبريات الأحداث المعاصرة والنائرة على نبراس الاستقراء والحقيقة .

وفى الحى العلى من « رأس بيروت » عمر فرّوخ ، بنيه فى أبراد الثقافة الرفيعة والخليقة المثلى ، تراه دائباً على الاطلاع المنتج ، والتأليف المحكم فيما يتصل بالأدب والفلسفة ، ومنذ بضع سنين نزع إلى الصحافة فأنشأ مجلة « الأمالى » ذات الثقافة الشاملة ، ولولا هـذه الحرب لا انتظم صدورها .

ولا يمضى موكب هذه الفئة من أهل الفن والأدب دون أن يكون فى طليعتهم يوسف غصوب صاحب « الموسجة الملهبة والقفص المهجور » و « أخلاق ومشاهد » . وهو شاعر طريف النزعة ، فياض الشعور ، غذاء الالهام أفاويقه الرطاب ، وجاد برضية وضاحة الأهداف .

وترحم ربة الشعر علـكة « ايبوقراط » لدى حبيب ثابت ، فترفرف عليه فى خلوات فنه بعشتروت و « أدونيس » . أما « فيدوس » فهى فى جلوة عرس بين يدى كتابه ، « الصحة والجمال » . و « ليالى بغداد » قافلة بغير جمال تسير أبداً بين بادية الشام وأرض الرافدين .

ولست بناسية شيوخاً جهابذة من أبناء عاملة المطلة الربى والقنن على صيداء فى جنوب شامنا ، أشهرهم الصحافى الزعيم الشيخ عارف الزين صاحب مجلة « العرفان » التى أصدرت منذ ثلاثة أعوام عدداً خاصاً عن مصر وله آثار فى تحقيق الأدب وتوجيه الأدباء .

والعالمان الأديبان الشيخ أحمد رضا ، والشيخ سليمان ظاهر علمان فى جبل عامل متساميان كفرعى نجم . وغير هـذا الموكب الحافل مواكب للجيل الطالع ، والسابقين من الكاتبين المشهورين ، أو ممن حرموا الحظ فكانوا مغمورين .

وهل نسيت بنات جنسى اللاتى زها بهن لبنان قبل غيره من البلدان ؟ فبهن الفكرة والأديبة ، والصحفية والفنانة : من هذه الزهرات المخضلات ، ابتهاج قدوره ومنيره سلام الخالدى ، وسلمى صايغ ، وأنس بركات باز ، وجوليا طعمه وحبوبه حداد ، ووداد وسلوى محمصانى ، ونظيرة زين الدين وألفيرا لطُّوف ، وسواهن من فتيات الجيل الجديد ، ولى عودة قريبة إلى حديث مستفيض من أديبات لبنان .

واليوم وقد عاد الأديب المبدع بشر فارس إلى أرض الكنانة ، فى حوزة قلمه الرهيف وبيانه المتنخل أن يختص طائفة من وجوه الأدب فى لبنان بالدراسة العميقة ، والتقصى والتنقير ، وهو ذو الأداء المستقيم على طريقة علمية فردة فى أدبنا الحديث .

وإنى لمذكرة لصاحب « مباحث عربية » على لمحته الخاطفة ، فقد ألمّ بلبنان ، وكانت زورته لبعض أدبائه لماما ، فمتى نرى لمحته عن وجوه الأدب فى سورية ؟

(دمشق) وداد سكاكيني

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

ما لم تنشره الصحف والمجلات ! — النفاق الصامت ! — الأدب الرمزى — الأدباء العصرة ! — من رسائل القراء

ما لم تنشره الصحف والمجلات :

ماذا قرأتُ فى الصحف والمجلات فى هذا الأسبوع ؟

هذه بضع عشرة مجلة ، وبضع عشرة جريدة ، تتحدث حديث كتابها عن الحرب ، والسياسة ، والمال ، والأدب ، والاجتماع ؛ ولكنى لا أكاد أحس فى نفسى أنى قرأت شيئاً أو أفدت جديداً ؛ إن ريح الدم ، وغبار الهدم ، ودخان البارود ، ومجاجة المعركة — تباعد بينى وبين ما أقرأ ، فلا يقدح خاطراً فى فكرى ، ولا يثير عاطفة فى نفسى ، ولا ينبّه غافية فى وجدانى ..

. . . ليت شعرى أذلك كل ما هنالك من حديث الحرب ، والسياسة ، والمال ، والأدب ، والاجتماع ، فى هذا الأسبوع ، أم أنى لم أقرأ كل ما هناك ؟ . . .

نعم ، وما على الكاتب من بأس فيما أحنق وأعلن ، وفيما صرّح وأضمر ، وفيما سفّر وقنّع ؛ فإن الحزن ليفر من أحزانه القاهرة فى الابتسامة العابسة وفى الضحكة اليائسة ، ويبقى حزنُ الحزن وإن لم تعبّر عنه الابتسامات والضحكات !

ولكن ، ماذا أنا قائلٌ اليوم ؟

ألاَ ما أحرى أن يكون تعليق اليوم على ما لم تنشره الصحف والمجلات ، فإن فيه مجالاً للنقد والتوجيه والفكاهة أكثر مما نشرته الصحف والمجلات !!

النفاق الصامت !

وإن للنفاق ألواناً ؛ فمنه الدمعة البارقة والابتسامة الخالبة ، ومنه الكلمة تُقال لمنى وتصيب معنى ، ومنه الصمت . . . .

وكما يكون « كتمان الشهادة » فى الشرع لوناً من « شهادة الزور » فكذلك يكون « كتمان الرأى » ، وإنه لأخطر ألوان النفاق !

وإن « الزّهْرة » تحت عين الشمس الباصرة لبريقاً يوهم البياضَ وإنه لأسود ؛ فهذا « نفاق النور » !

وإن الظامئ فى بيداء التّيه ليترقرق له من أحلامه نهرٌ يجرى وإنه السراب ؛ فهذا « نفاق النظر » !

وإن الصديق ليقول لصديقه ما يعرف ويستمع إليه وما به أن يعرف ؛ فهذا « نفاق الحب » !

وإن الفتى العفّ ليغلبه « الحبُّ » على إرادته ، فيُسهره ويضنيه ، ويُخيّل له فى أحلامه ، ويعدُ له فى أوهامه ، فليس الحب عنده إلا روحا لروح ، وقلباً يخفق لقلب ، وجسما من النور يعانق جسما من النور ؛ وهذا « نفاق الغريزة » !

... فهل ترانا نحيا حياتنا من كل أولئك إلا فى ألوان من النفاق ؟ ... بلى ، ولكن أخطر ألوانه هو الصمت وكتمان الرأى ؛ إنه يشبه الحفرة فى طريق السائر العجلان يغطيها العشب ؛ إنها ليست حفرة ولكنها شَرَك !

أيها السائر العجلان تحسّس موضع خطاك !

الأدب الرمزى :

وحكى علماء الأدب أن « المَثَل » وأخواته من الحكاية والأقصوصة والقصة والرواية والتمثيل — إنما تزدهر وتتنوع فى آداب الأمم حين تكون هذه الأمم من ظروفها السياسية بحيث لا تملك حرية الفكر ولا حرية

التعبير؛ لأن المثل والحكاية – بأحد معنييهما – هما لونٌ من الرمز والإيماء والتعريض إلى الحقيقة التى لا يجْمُل – أو لا يُمكن – التصريح بها!

... فهل تكون الرمزية فى الأدب – على هذا الاعتبار – لوناً من ألوان النفاق فى الأدب؟

أقول هذا وتحت عينىّ فصولٌ مكتوبة لم أقرأ مثلَها لكتّابها قبل اليوم، ولا أعرفها من مذهبهم فى الأدب ولا إلى مذهبها قصدوا!

وهل قرأتَ كلمات الدكتور زكى مبارك من «الينبوع» المدنى الصافى الذى حاول «بعض الناس» أن يطمروه فى الرمال ويسدّوه بأكياس «الاسمنت» فى ظلام الليل، فأبى عليهم أن ينالوا منه، وما زال إلى اليوم يتدفق ويجرى!

... ومن «المنافق الجبل» الذى يشبه شجرة الصفصاف، ومن «الخطاب الذى احترق بسعير الانفاس»...؟

إن التنبيه إلى هذا اللون فى إنشائنا الحديث يوضّح بعض الفِكَر الغامضة فى بعض ما عبَرَ تحت عين القارئ فى هذه الأيام فى بعض الصحف والمجلات.

الأدباء العشرة!

ولقيتُ الأستاذ توفيق الحكيم – وما لقيتُه منذ بعيد – فضحك وقال: أراك تقصد إلى أن تورّطنى فى معركة جديدة؟

قلت: ماذا تعنى؟

قال: هذه المسابقة التى تريد أن أكون من أعضاء «هيئة الحكم» فيها!

قلت: ولكنك أنت الذى أراد؛ ألم تقُل فى بعض حديثك «نحن العشرة» فسبقتَ الحكم والحكمة، وفرضتَ نفسك عضواً فى «هيئة الحكم»؟

وعاد توفيق الحكيم يضحك، وقال: «نحن العشرة»! يا خبير! ألا تريد أن تنسى هذه الكلمة بعد؟ ومع ذلك فأنا لم أقصد تحديد العدد؛ إنه عددٌ لا مفهوم له كما يقول الفقهاء، إنما قصدت أن الأدباء «الذين ينتجون بانتظام» لا يزيدون على العشرة؛ وليس حتماً أن يكون هؤلاء «الذين ينتجون بانتظام» هم خيرة أدباء مصر!

قلت: فإن هنا ذكرتَ نفسك فيهم، كأنما تريد أن تذكّر من ينسىَ أن لك بضعة وعشرين كتاباً فى السوق يتتابع حديث القراء عنها، لا يكادون يفرغون من كتاب حتى تخرج لهم بكتاب؟

قال: أتعنى هذا ...؟ وسكتَ!

قلت: بل إننى لا أعنيه، ولكنى أريد أن أعرف: لماذا تأبى أن تكون عضواً فى «هيئة الحكم» لاختيار «أدبائنا العشرة» ودعْ عنك كل مافات؟

قال: إنك يا صاحبى لم تُحسن توجيه سؤالك إلى القراء؛ فليس القارئُ هو الذى يملك الحكم «الفنّى» العادل على الأدباء؛ وإنما ذلك حكم الخاصّة؛ إن الاحتكام إلى الجماهير فى تقدير قيم الأدباء من الناحية الفنية أمر مشكوك فيه، وما خلَد الخالدون من أهل الفنون إلا فى موازين الخاصة وأحكامهم؛ وكان يَجمل لو سألتَ قارئك: من هم الأدباء العشرة الأحبُّ إليك؟ فإن ذلك أشبه باختصاص الجمهور من القراء؛ إن من حق كل قارئٍ أن يحبَّ وأن يكره، ولكن ليس إليه حكم التاريخ!

قلت: اتفقنا ياصديقى؛ فما قصدتُ أن أطلب إلى القارئ حكم التاريخ، ولكنْ حكمَه هو وهواه.

قال: ولكننا لم نتفق بعد؛ فما أريد أن أشترك فى قضية قد تجرّ علىَّ عداوات جديدة، وقد عاهدتُ نفسى والناس على الصمت عن أشخاص الأدباء، مهما يحدث من أمر...

وأوى توفيق الحكيم إلى « بُرجه » وخلّفني أنتظر حكم القارئ، وحدي !

من رسائل القراء :

بدأت رسائل القراء ترد إليّ بجواب الاستفتاء ، ولست أريد أن أستبق الحكم ، ولكن كلمات تستحق التنويه في بعض الرسائل بدا لي أن أقدمها للقراء :

١ — ففي رسالة « محمود محمد حسن : البلينا » :

« ... تتجنى على الأستاذ الحكيم لأنه قرر أن رجال الأدب الحق في مصر عشرة ، وهذا القول الذي أراك تستنكره قد سبقه إليه الأستاذ الزيات في إحدى مقالاته الافتتاحية من مجلة الرسالة ...

« وهو يعني بالطبع شيوخ الأدب الذين رسخت طريقتهم ومكانتهم في نفوس قرائهم ، والذين سلخوا في خدمتهم للأدب حوالى ربع قرن بعزم الأسلوب ، والذين يقاس النبوغ وتُنسب القيم في الأدب إليهم ... ويثبت أدبهم على النقد ومَرّ الزمن .

« ... ما رأيك — لاقدر الله — لو أن مصر فقدت هؤلاء الأدباء العشرة (المذكورين) ، فهل تظل النهضة نهضة ويبقى الأدب أدبا ؟ »

٢ — ومن رسالة « أحمد الشرباصي : البجلات » :

« إن الحركة الأدبية في مصر الحديثة لايقدّم زادها عشرة نفر فحسب ، بل هناك عشرات وعشرات يعملون في مختلف الميادين ، ويجاهدون بكتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم لاشعال تلك الجذوة الروحية الفكرية التي جعلت مصر بحق زعيمة الأمم العربية جمعاء ؛ ولذلك يعسر على الانسان أن يختار عشرة أسماء ... ولكننا حين نميل إلى جهة التفضيل والتقديم من حيث الدءوب على الانتاج ومواصلة الكتابة والتأليف يستطيع المرء أن يذكر عشرة أسماء لعشرة أدباء معاصرين مشهورين ...

« على أنه من حقك أن تسأل الأستاذ توفيق الحكيم قبل أن تسأل القراء عن هؤلاء الأدباء العشرة البارزين الدائبين على الانتاج ، فانه صاحب هذه الدعوة الجريئة ... وإن كنا نعلم أن هذا العمل سيجرّ عليه من المتاعب أثقالا فوق أثقاله التي يصرخ منها ! »

٣ — ومن رسالة « الآنسة ف شاكر : الزمالك » :

« ... لقد ظننت أن كلام الأستاذ توفيق جد لا مزاح فيه ، فاستفتيت قراءك ، وكان يلزم أن تستفتيه هو لتعرف أن كلامه لم يكن مقصوداً على هذا الوجه ، لأنك لو سألته لظهر لك بوضوح أنه لا يعرف من هم التسعة الآخرون من الأدباء ، لأنه لا يعرف إلا واحداً فقط من العشرة ، هو توفيق الحكيم ! وأظن أنه لم يقصد بقوله « نحن العشرة » إلا تثبيت هذا المعنى والتنويه بشخصه ، وهو معذور في ذلك ، لأن كل المقصود من مقالته في الرسالة — كما هو مفهوم واضح — هو البحث من « الواحة المورقة في صحراء حياته المحرقة » ، والزوجة الصالحة التي تنجب له الأولاد البررة النابهين ... وإرضاءً لرغبته هذه ليس عندي مانع من أن يكون أدباء مصر البارزون الدائبون على الانتاج هم أحد عشر لا عشرة ... ... ؟ »

« قاف »

حكم في القضية ن ٦٧٨ عسكرية الفيوم سنة ١٩٤١ ضد عبد الحفيظ قنديل من الفيوم بحبسه شهرين شغل وتغريمه ١٠٠٠ قرش لبيعه ذرة بسعر يزيد عن المقرر .

على هامش الأسبوع :

اثنان وعشرون عاما

بين الثورة والدستور

للدكتور أحمد زكي بك

أنشأت الحكومة فى المديريات مجالس ، رجت بها أن تخفف من حدّة معارضيها ، وأن تقلّم من أظفارهم إلى حين ، وإلى أن تنمو بدل الأظفار القديمة أظفار جديدة ، تكون هى قد استفادت من هذا الوقت الثمين لتبلغ بالاصلاح الذى انتوته مبلغا يؤهل البلاد لحرية سياسة أوسع ، ولنصيب من الأشراف على إدارة الدولة أكبر .

ولكن المعارضين لم يرضوا الحدّة المعارضة أن تخف ، وقبضوا أكفهم ، فلم يأذنوا لأظفارهم أن تقلّم . واتجهوا إلى تنظيم الخصومة على الأساليب الحديثة ، فكوّنوا أول حزب فى اليابان . وأسموه حزب الأحرار . وترأسه إتجاكى ، وقد أسموا هذا الرجل روسو اليابان .

وتجمّع حوله كل من آمن بالنضج السياسى للأمة ، وبوجوب إنشاء مجلس تمثيل قوىّ ، أى مجلس نيابىّ ، يختلف كل الاختلاف من تلك المجالس المحلية المقيّدة التى أنشأتها الحكومة تعليلا وتخذيلا . وتجمّع حوله أيضا كل غاضب لمنصب فقده ، أو راجٍ لنفع أمّله . واتخذ الحزب الجديد لنفسه سلاحين : المنابر والصحف . وهاجم الحكومة فى غير هوادة . وكان رأىُ الحكومة فى هذين السلاحين ، أن الأمة لم تنضج بعدُ للحرية تستمتع بها فى مجالس رسمية كمجالس النيابة القومية التى يطلبها الأحرار ، فأولى بها أن تكون غير ناضجة للحرية تستمتع بها على منابر أهلية وفى صحف لا تخضع انتظام ، ولا يحدّ منها قانون . وأخذت تصدر الأوامر لإزالة المنابر والحدّ من الصحف . وأمرت رجال الشرطة فاصطدموا بالمعارضين ، وزاد هذا الصدام روح الأمة إيقاظا ، وشاقها وبهرها وأوقد خيالها ؛ وعلّم من لم يكن يعلم ؛ ونبّه إلى الخصام من لم يكن يدرك أن هناك خصاما ؛ وعرّفهم على أى شيء يختصم المختصمون . والناس أسرع إلى معنى الحرية المطلقة ولو فى مجازفة ، منهم إلى معنى الحرية المحدودة ولو فى تحوّط وحزم . والحرية المحدودة ، ولو مع الحزم ، سهلٌ تسميتها بالرجعية والاستبداد . لهذا كان للمعارضة من هذا الصدام كسبٌ كبير .

وفى عام ١٨٨١ وقع حادث من صنع القدر ، كسّر إباءَ الحكومة ، وخوّل خصومها ما لم يكونوا نالوه إلا على هواها ، وهو هوى طويل الدلال متمنّع سوّاف .

فى جُزُر اليابان الأربع جزيرة عليا اسمها هكادواه ، وقد كانت فى الجزر اليابانية الجزيرةَ الواحدةَ المنقوصة العمار ، القليلة السكان . فكان من سياسة الحكومة استعمارُها ، وتشجيعُ أهل الجنوب على النزوح إليها . فكونت لجنة للإشراف على هذا الاستعمار . وفى سبيل استعمارها أنفقت اللجنة من مال الدولة شيئا كثيرا . وبعد سنوات عدّة تراءى للجنة أن تجتمع لتنظر فى أمر هذه الجزيرة من جديد . وبعد النظر والمداولة ، رأت اللجنة أن تنصح الحكومة بأن تنقل أمر استعمار الجزيرة إلى شركة أهلية ، وبأن تبيع لهذه الشركة كل متاعها بهذه الجزيرة ، وقدّرت لهذا المتاع ثمنا ألوفاً من الينّات (الينّ نصف ريال) ، وكان قد كلّف الحكومة من الينّات عشرة من الملايين . وما تلك الشركة الأهلية ، ومن أعضاؤها ؟ هم هم أعضاء اللجنة الحكومية التى قامت على استعمار الجزيرة عشر سنوات !!

انشقت الحكومة عندئذ على نفسها ، وخرج منها

أوكوما ، وزير ماليتها لسنوات غير قليلة ، وخرج معه الكثير من نصرائه . وكان رجلا خبيراً بالمال ، قديراً على جذب الرجال . وأراد لهذه الفضيحة نشراً ، وأرادها في مجال السياسة استغلالا . فجمع أعيان العاصمة . فلما احتشدوا ، ألقى تلك القنبلة في جمعهم ، فكان لها دوىّ عظيم . وخرج الدوىّ إلى الناس في شدته وعنفه ، فقاموا على مظاهر السلطان من الحكومة ، على رجال الشرطة ، يكسرون سلاحهم ويحرقون بيوتهم . ولم يمض على هذا الحال يوم وليلة حتى كانت الحكومة في القصر الملكي تخفف الداء عن منشور امبراطوري يذاع في الناس ، وفيه يعد الأمبراطورُ الأمةَ ببرلمان قوىّ ينعقد في عام ١٨٩٠ .

كان هذا في عام ١٨٨١ . والبرلمان الموعود في عام ١٨٩٠ . أي بعد تسع سنوات كاملة . أي أن الحكومة لم تخضع كل الخضوع ، وأنها بقيت تؤمن بالتريث وسير الوئيد الواثق .

وألف أوكوما بعد قنبلته هذه حزباً جديداً أسماه حزب التقدم ، وهو ثاني أحزاب اليابان . وجعل غايته وصرخته « الدستور » و « الحكومة الدستورية » . وعلى وحدة الغاية بين حزب التقدم هـذا ، وحزب الأحرار الذي سبقه ، لم يندمج الحزبان .

ومضت المعارضة بحزبيها تُهيء للبرلمان الموعود ، فالنضال الموعود ، وذلك بتكريه الناخبين في الحكومة وأعوانها . ومضت الحكومة تُهيء لهذا العهد الجديد بكل ما استطاعت من قوة ، وتستكمل ما بدأته من إصلاح .

ونقول تستكمل ما بدأته من إصلاح ، لأن حكومة الثوار كانت أخذت في الإصلاح منذ كانت الثورة ، فلم تعقها خصومة سياسية عن متابعة ما هو أنفع وأبقى على البلاد . واتجهت عطالبها في الإصلاح نحو الغرب . فقد علمت أن المدنيات لا تُخترع وإنما تُقتبس ؛ وأن الاختراع ، لو هي شاءت المدنية اختراعا ، فما يكون هذا في جيل ولا جيلين ، وهي بين مُحبة من الأمم لا تضمن بينهم البقاء على أرجلها الخشبية القديمة المتقدة والمقعدين ؛ وأن القديم ، على كراهتها تطليقه ، لا يُغني التمسك بأكثره من الذل المخوف شيئاً ؛ وأن هذا القديم قد كان يوماً ما جديداً ؛ وأن الجديد الذي يكون ، على خشية الإنسان إياه واستيحاشه منه ، سيأنس به الناس على مر الأيام ، وسيتقدم بانطواء السنين ، فيكسبه ذلك ألفة القديم وعزة القديم وحرمة القديم . عرفت الحكومة ذلك فاتجهت إلى الغرب تغرف من رِفاعه غرفا . ولم تشأ أن تختص بقصاع أمة دون قصاع أخرى . أو أحرى بنا أن نقول ، لم تشأ أن تختص بها قصاعُ أمة دون قصاع أخرى . فرأت أن تأخذ من هذه وتلك ليتقسم الدَّين ، فيتخاذل عنها الدائنون . وكذلك لكي تتجود البضاعة وتشترى في السوق التي تريد .

فإلى الانجليز اتجهت في بناء السكك الحديدية وإقامة المواصلات التلغرافية ، وتنظيم البحرية وإقامة المنارات . وكانت السكة الحديدية التي بين توكيو ويوكوهاما أولى سكك اليابان بناءً ، فتحوها في عام ١٨٧٢ ، وأشرف على بنائها مهندسون بريطانيون . وإلى الفرنسيين اتجهت في صياغة قوانينها وتدريب جيشها على فنون القتال وحِيَل الحروب . وإلى الألمان اتجهت لتدريس الطب ، وتأليف قانون للتجارة ، وتخريج نظام الحكم المحلىّ في أجزاء الدولة ، وأخيراً لتدريب ضباطها . وإلى الأمريكان اتجهت لتنظيم البريد وتحسين الزراعة واستثمار غير المستعمَر من الأرض . وإلى الطليان عهدت بتعليم الفنون .

واقتبس اليابانىّ كل هذا طوعا ، وأقبل عليه رغبةً وشغفاً ، فاستوعب منه في عشرات السنين ، ما لا يستوعبه الغافلون المتلهون من بعض الأمم إلا في قرون . ولبس اليابانىّ لكل حال من تلك لَبُوسها فحيثما كان في العمل ،

في جيش أو بحر أو مصنع ، لبس لباس عمله الذي ألفه الأوروبيون . فمن بذلة إلى منطقة إلى قبعة . فاذا أوى في المساء إلى بيته ، عاد فلبس الواسع المريح من الثياب ، وافترش الأرض على الوسادة والحصير ، وجال ببصره بالزركش الجميل من حوائط اليابان وستائرها ، وهي من الورق المنقوش . ففي النهار أرضى منطق الساعة الحاضرة وعقله ، وفي الليل أشبع عاطفة الساعة الماضية وقلبه .

واعتزمت الحكومة تنويل الأمة الدستور ، فضاعفت قواها في سبيل الاصلاح ، حتى لحسب حاسب أنها إنما فعلت ذلك مسارعة في تلك الخطى قبل أن يعوقها عهد الدستور . ففي دائرة الحقوق أعادت سن قانون العقوبات والقانون المدني ، وسنتهما على الأنموذج الغربي ، وأدخلت في متناول القانون أموراً شتى لم يكن يتناولها من قبل . وفي دائرة المال أنشأت بنكاً مركزيا للدولة ، وجعلت له فروعا بلغت أطراف البلاد . وفي المواصلات مدّدت سككها ، وأطالت طرقها ، ورسمت مشروعات هائلة لتحسين موانيها واستغلال أنهارها ، وشفعت الرسم بالتنفيذ . ووضعت الأساس لأسطول تجاري عظيم . والحكم ، محليا أو مركزيا ، غيّرته حتى كاد أن يكون التغيير قلبا . والادارة الحكومية أنشأتها نشأة جديدة ، فأوجدت الوزارات ، وأوجدت المصالح . وأوجدت منصب رئيس الوزراء ، وجعلته على غرار منصب الاستشارية في الدولة الألمانية . والوظائف جعلت نوالها بالامتحان العام . وأرسلت البعثات جزافا إلى أوربا وأمريكا ، ولكن بعد أن تمّت دراسات أعضائها في اليابان . وكانت بعثات دخل في حسابها تزويد المصانع والمتاجر ، لا تزويد المكاتب والمدارس وحدها .

واستعدادا لتأليف البرلمان من مجلسين ، مجلس نواب ومجلس شيوخ ، أصدرت الحكومة تعريفاً للأشراف والنبلاء والأعيان ، وجعلتهم مراتب خمساً ، على غرار المعروف في أوربا . فكانت : الأمير (وهم غير أمراء الدم ، أمراء الأسرة الامبراطورية) فالمركيز فالكونت فالفيكونت فالبارون . وأرسلت المركيز إيتو — وكان أول وزرائها ، ورب الخطط الكبرى فيما اختطته اليابان من جديد — أرسلته إلى أوربا وأمريكا يدرس نظم حكمهما ، ويقارن بين دساتيرهما . وعاد فكتب بقلمه الدستور الجديد .

وبينما كانت الحكومة تعمل كل هذا بيمينها ، كانت تدافع المعارضين بشمالها ، وكانوا بلغوا من الحدة والشدة مبلغاً عظيما . وكان في ألسنة الوزراء عقدة ، فلم يكونوا من أصحاب البيان . فغلبتهم المعارضة على أمرهم حتى كاد الزمام أن يُفلت من أيديهم . وانتشر الفزع في العاصمة انتشاراً . فعمدت الحكومة إلى الشرطة فزادت سلطتها ، وإلى الصحف فألجمتها ، حتى صارت الصحف تستأجر المحررين المسئولين ، لا من أرباب الأقلام ، ولكن من طلاب السجون .

وأخيراً ، وبشقّ الأنفس ، بلغت الحكومة بالحكم وبالدولة إلى عام ١٨٩٠ ، عام الدستور .

وفي اليوم الحادي عشر من فبراير عام تسع وثمانين وثمانمائة وألف ، في الذكرى التاسعة والأربعين والخمسمائة والألفين لتأسيس الامبراطورية اليابانية ، ازدحم القصر الملكي بأشراف الدولة وأعيانها يستمعون إلى سليل آلهتهم يذيع الدستور في خطاب توجّه به إلى كبير وزرائه . وفي خارج القصر كانت تقصف المدافع كالرعد . وتعطلت الأعمال في هذا اليوم ، وكان للناس منه عيد كبير . وأضيئت الأنوار في طول البلاد وعرضها ، في كثرة واتساع ، فابيض سواد الليل .

وأصبح الصباح فاستقبل اليابانيون غدهم ، بقلوب واسعة ، وأبصار ممدودة .

أحمد زكي

ضيف الشياطين

بنى الإنس إما غبتُ لا تسألوا عنى
فإنى أقضّى الليلَ فى وطن الجنّ
سَريتُ إليهم رابط الجأشِ مُنشِداً
وقد خيّمتْ سحبُ الظلام على الكون
فأبصرتهم حول اللظى قد تحلّقوا
وراحوا يَعُبّون السُّلافَ من الدّنّ
تلاوى بمجمر النار ... ترقص بينهم
عذارى كرقص النور فوق رُبى « عدن »
فقلتُ سلاماً أمة الجن ... إنّنى
أرى فى مغانيكم ظِلالا من الأمن
فقالوا سلامٌ يا فتى الإنس لا ترُعْ
فإنك فينا أن تُقيمَ على غَبْن
أتحيا غريبَ الروح فى الناس حائراً
كألحان راعٍ فى قطيع من الضّأنِ؟
هل اقترفتْ شمس النهـــار جريمةً
فزُجَّ بها قاضى السّموات فى سجن؟
وقهقـــــه منهم ماردٌ ثم صاحَ بى:
رويدكَ لا تَخلط يقينك بالظنّ
ألستَ — على الروض الذى عصفتْ به
رياح النوى بالأمس — مُغرَوْرِقَ الجفن؟
بلى ... إن صوتَ البوم يا آل « عبقرٍ »
نذيرُ خراب ما تَردّدَ فى الدّجْنِ!

° ° °

وجنّيّـــــةٍ شمطاء تُعول فى الدُّجى
لموت فتـــاها وهوَ فى زَبَق السّنّ
أمقتولةَ الأجفان لو أنصف الردى
لما كان ذو حُسْنٍ يُشيَّعُ للدفن!

° ° °

وسالتُ عن سر الحيـــــاة فأطرقوا
جميعاً ولم أسمع سوى قولهم: فَنّ ...
فيا صرخة الأقدار دوّى ... فإننى ...
سأفنى، ولا يَفنى دويُّك فى أُذْنى
ويا رَبَوات المجـــد ... إنى لمشرِف
عليكِ وإن خارت قُوايَ من الأيْنِ
ويا ظلماتِ النفس ... سوفَ تلوحُ فى
سمائى نجومُ السّـــعدِ مشبوبةَ اللّون
ويا خطرةَ الشّـــبابِ ... قلبى يقول لى
ستَنْهلّ ذِكراها كغادية المُزْن
شكوتُ فقالوا قد شكا ألمَ الجـــوى
ونُحتُ فقالوا ناح من حُرقةِ البين
وصلّيتُ للحسن الذى سلب النُّهى!
كما صلّتِ العشّـــــاقُ قبلى للحسن
وما وقفتى « بالنيـــل » إلا تَعِلّةٌ ...
أبثُّ إليه ما ألاقى من الحزن!
دعونى ألعبْ بالحصى عنـــد شطّه
كما لعبت فيـــه العواصفُ بالسُّفْنِ
دعونى أسبحْ فى خيــــالى باحثاً
عن الأمل النائى. ولا تسخروا منى
دعونى أحلُمْ بالســــعادة فى الهوى
وإن لم تقع يوما على طيفها عينى!
دعونى أمرح كالفراشـــــة فى الربى
تَنقّلُ من غصن رطيب إلى غُصن

فى المكتبة العربية :

١ — الحب الضائع — للدكتور طه حسين بك

هـذا العنوان لقصة أستاذنا الدكتور طه ، يضع القارئ فى حيرة ، فى القصة أكثر من حب واحد يضيع ، حب الزوجة وحب الحبيبة !

وتقع حوادث هذه القصة فى أعقاب الحرب الماضية ، وهى ترسم إلى جانب أحداث القصة صورة واضحة لحال الأسر بعد الحرب ، الأسر المنكوبة التى تحصى ما تفتقد خلال الحرب فى الوقت الذى تحيى الدول نخار الحروب بين مرة وحلوة .

أما الأسر فماذا تحيى ؟ تحيى الذكريات المرة لأعز ما تملك من أبناء قد حصدتهم الحروب . تحيى هـذه الذكريات فى كل ما ترى ، وما تسمع ، وما تشهد . ولا تزيد الأيام هذه الذكريات إلا ألما ومرارة .

ويشاء الدكتور طه أن تكون هذه القصة على سياق قصته السابقة (دعاء الكروان) ؛ فتسوق بطلتها «مادلين» قصة حياتها فى حديث مشوق إلى مذكراتها ، ويستمع القارئ إلى هذه القصة وهى تروى ، ويأخذه الحديث حتى يصل إلى نهايتها وهو مأخوذ بالأسلوب الرائع لحدث بارع ...

شدوتُ بلحن الحب بين رُبوعِكم
فلم تدركوا مَعْنًى لحبى ولا لحنى !
تقولونَ إنَّ الفنَّ شرٌ نقائصى
وأكبرُ آثامى ... فيا ضيعةَ الفنّ ...
سلام على دنيـــا الأغاريد والمنى
وإن كانَ لا يُجدى السلامُ ولا يُغنى

(أسيوط) محمد على مخلوف

ومادلين هى الفتاة الوحيدة لأسرة فرنسية فقدت اثنين من أبنائها فى الحرب ، وبقى لها اثنان هما مادلين وأخوها .

وتتزوج مادلين بشاب تلقاه فى بيت عمتها ، فتنجب ولا تكاد تُرزق طفلا حتى تنشغل به قليلا عن زوجها ، ويجد الزوج متنفسا ليبادل صديقة للأسرة — هى لورنس أرملة واحد من ضحايا الحرب — غراما عنيفا قويا لا تجدى معه مقاومة الضمير ، فهو لا يلبث أن يغلب العاشقين على أمرهما ، وتكتشف الزوجة التعسة الأمر عفواً ، فتشقى بما عرفت ، وترثى أول الأمر للعاشقين ، ثم لا تلبث أن تسخط ، ثم لا تلبث أن تنهدم حياتها بعد أن تكتب لصديقتها لورنس رسالة دامية فيها العتاب العنيف والرثاء الرقيق ، وذلك الاستسلام المستضعف الذى لا تملك غيره المرأة العاشقة .

ولندع أستاذنا الدكتور طه يقص علينا ختام القصة فيقول : « وأصبح الناس ذات يوم وقد قرأوا فى صحف الاقليم نعى سيدتين أهدت كل واحدة منهما إلى الموت ، أو أهدت نفسها إلى الموت . وجعل الناس فى المدينة إذا لقى بعضهم بعضا يلحون بهذا النبأ ، ويقول بعضهم لبعض : يا عجبا ، كأنما كانتا على ميعاد » .

وهاتان السيدتان هما الزوجة المحبة والأرملة العاشقة ، هما مادلين الزوجة ، ولورنس الصديقة . ضاع حب كلتيهما ، فهى قصة الحب الضائع فى صورتين من صوره .

وما هـذا التلخيص بمغن القارئ ، فهو إجمال الهيكل الذى تقوم عليه القصة ؛ وفى القصة غير هذا الهيكل البناء القوى المتين ، فيها الألوان وفيها مواد البناء ، وفيهـا الصور المختلفة ، وكلها تثبت ما تتسع له اللغة والأسلوب من وسائل أداء الأدب الحديث ، وما يمكنهما أن يؤديا من أغراض توفرت فى الأدب الأوربى . وإنما أردت أن أشير إلى الناحية التى اختارها الدكتور طه فى

قصته ، فقد ساق القصة في جو فرنسي ، وهي قصة المجتمع في كل بلد ، وقد لمس فيها داء يتسلل إلى الأسر في كثير من الأحيان ! فمادلين قد تكون أي زوجة ، وهي من غير شك كل زوجة تشغلها شئون الحياة والولد ! ولورنس هي واحدة من النساء اللواتي تنتزع الأقدار هناءهن ، وتخلقهن سحباً تلوح في حياة الأسر ، قد تعبث أحياناً بصفائها دون أن تدري ، أو قد تدري ، ولكنها لا تملك رد ما تسوقه على يديها الأقدار ! فهي كما يقول عنها الدكتور : « تلقى من قوة الإرادة وضعف الغريزة أشد العذاب » ، ولكنها مع ذلك ، هي دائماً التي تقود المأساة إلى حياة الأسر الهادئة الوادعة .

مثل لورنس كثير ، ومثل مادلين كثير ، والقصة إذاً صورة من صور المجتمع ، وإن كان الدكتور لم يجعل موضوعها مكان الأولوية من الحديث ؛ ومثلها في ذلك مثل ما تلاها من قصص قصيرة ، هي فيما أعرف أول قصص يعرضه الدكتور في كتاب ، وقد تكون لنا عودة إلى هذه القصص على حدة ، على اعتبارها لوناً من ألوان الأدب القصصي ، يمثل ناحية واتجاهاً في الأدب القصصي .

٢ — قال الراوي :

« أنت تكره هذا وتفر منه ، وكثيراً ما يخيل إلينا أن الموضوع يدفعك إلى التأنق لأن طبيعته تقتضي هذا التأنق ، ولكنك تأبى عليه هذا الذي يريدك عليه ، ويكون بينك وبينه صراع يحس الفنيون عنفه .... »

يصور الدكتور طه حسين بك بهذا الرأي ، الذي يورده في مقدمته لكتاب الأستاذ محمود تيمور الجديد « قال الراوي » ، الاتجاه الجديد في أدب تيمور . فالذين قرأوا لتيمور مجموعات قصصه الأولى ، وأحسوا ما فيها من سهولة وبساطة ، يلمسون حقاً ذلك الصراع الذي يتحدث عنه الدكتور طه فيما صدر عن تيمور من قصص خلال الأعوام الأخيرة .

ذلك الصراع الذي يفرضه النضج الفني والأدبي ، حين يتمكن الفنان من مواد عمله ، وتصبح ريشته طوع بنانه ، فينصرف جهده إلى المحسنات ، ويعنى بالتفاصيل متفرقة ، بعد أن كانت غاية جهده أن يبرز الوحدة مجتمعة ، هو طابع قصص تيمور الجديد ؛ فنحن نجد عنده الآن شخصيات كشخصيات قصصه القديمة ، ونجد عنده مواضيع منتزعة من صميم الحياة ، كمواضيع قصصه القديمة أيضاً .

ولكننا مع ذلك نحس الفرق واضحاً بين عم متولي مثلاً في مجموعة « قال الراوي » وبين « الشيخ عفا الله » التي صدرت منذ ستة أعوام ، كما نحس الفرق واضحاً بين قصته « المودة » من مجموعة « قال الراوي » وبين قصته « اليتيمة » التي صدرت مع قصته الشيخ عفا الله في مجموعة واحدة .

ذلك الفرق بين صورة « الشيخ عفا الله » و « عم متولي » أن الأولى صورة رسمتها يد فنان بذل وقته في إخراج الصورة ، وأن الثانية رسمتها يد فنان رسم الصورة في وقت أقل من سابقه ثم تفرغ للصقل .. القسمات الواضحة في الصور الجديدة ، اليد التي كفت عن الاهتزاز ، وأخذت تتأنق في رسم الخطوط ، وفي انتقاء الألوان ، وفي تهيئة الجو .

كذلك في مواضيع تيمور نلمس هذا الفرق ، فمع أن الحياة ظلت هي المورد ، فإن ريشته أضحت ذات أثر في إبراز هذه الحياة ، وفي إبرازها أكثر صقلاً .

الشيء الثاني الذي يلحظه القارئ لمجموعة الأستاذ تيمور الجديدة أنها تحوي ثمانية عشر قصة ليس بينها قصة غرام عنيف واحدة ... أو حتى شبه عنيف .

هل سر ذلك أن هذه القصص كما يقول الأستاذ تيمور « للنشء والأسرة » ؟

أم أن السر هو نفس السبب : أن تيمور قد وصل

إلى مرحلة من النضج جعلته يرى من صور الحياة ألواناً أكثر عمقاً من ألوان الحب والهوى ... ؟

الذى نعرفه أن تيمور واقعى فى قصصه ، وأن نزعته الساخرة فى كتابته هى أثر من أثر طابعه الواقعى ، وليس العكس . وإنما كانت قصص تيمور الوجدانية التى نشرت قبل اليوم محاولات تجرى مع طابع العصر ؛ وهو اليوم ، حين أضحت القصة لوناً ممتزجاً به من ألوان الأدب وفناً قائماً ، يستغنى عن هذه المحاولات .. ويرى الحياة كلها مواضيع صالحة للفن .

هذه الظاهرة نلمحها اليوم فى اتجاه غالبية القصصيين ؛ وإنما نجدها عند تيمور أكثر وضوحاً لأنه لم يكن وجدانيا فى يوم من الأيام ، فهى إذاً أكثر صدقاً عنده ؛ ولعل ذلك هو السر فى أن شخصياته ومواضيعه أكثر حرارة وصدقاً من كثير مما تفيض به سوق القصة القصيرة فى هذه الأيام .

صبرى زهنى

بين الطويل والكامل

حضرة الأستاذ الفضال رئيس تحرير الثقافة الغراء .

تحية طيبة وبعد ، جاء بالعدد رقم ١٨٤ فى المقال الممتع (فارس كنانة) للأستاذ أحمد أمين بك ثلاثة أبيات من الشعر الحماسى لعامر بن الطفيل ، وهذه الأبيات من « البحر الطويل » . غير أن الشطر الأول من البيت الأول (إنى وإن كنت ابن سيد عامر) جاء من « البحر الكامل » ، وأغلب ظنى أن أصل البيت هكذا :

(وإنى وإن كنت ابن سيد عامر ... الخ)

أى بزيادة حرف الواو فى أوله ، فيتغير الشطر من الكامل إلى الطويل ، وبذلك يستقيم وزن الأبيات .

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام ؟

سيد أحمد

(الثقافة) : إذا رجع الأستاذ الفاضل إلى علم العروض وجد أن علماءه يقررون أن من العلل التى يجوز دخولها فى الشعر علة سموها « الخَرْم » وعرّفوه بأنه « إسقاط أول الوتد المجموع فى صدر المصراع الأول من البيت » . فهو إنما يكون فى صدر المصراع الأولّ ، ويمتنع فى الحشو . وبحر الطويل من البحور التى يدخلها « الخرم » ، فيجوز إسقاط الحرف الأول من « فعولن » التى هى صدر المصراع الأول من « الطويل » ، كقول الشاعر :

قد كنت أعلو الحب حيناً فلم يزل
بِيَ النقض والإبرام حتى علانيا

وكالبيت الذى أشار إليه الأستاذ .

وإذاً يكون (إنى وإن كنت ابن سيد عامر) جارياً على الميزان الصحيح لبحر « الطويل » وليس بلازم أن نتكلف زيادة حرف فى أوله ، وخاصة إذا كان قد روى بدون هذا الحرف .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

- ٣٠ فى مصر والسودان
- ٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
- ٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
- ٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA.

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٩٩٦٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٦ — الثلاثاء ٧ من رجب سنة ١٣٦١ — ٢١ من يوليه سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

من النافذة :

إلى الصناعات الريفية ! !

من العلامات التى تبعث الأمل القوى فى النفس ، أن الاهتمام بالناحية الاجتماعية قد صار عاماً ، فلا يخلو يوم من صيحة بالإصلاح من ناحية أو من أخرى ؛ سمعنا فى الأسبوع المنصرم صيحة من لجنة المالية بمجلس النواب . وأخرى من لجنة مجلس الشيوخ ؛ ولا تزال الصحف تطلع كل يوم بالمباحث المختلفة التى تعالج هذا الموضوع الحيوى من وجهات النظر المتعددة .

ولم يقتصر الأمر على الصحف العربية ، بل شاركتها الصحف الأوربية المحلية ، فكتبت جريدة الاجبشيان غازت سلسلة مقالات من الإصلاح الاجتماعى ، وخصت ببحثها مدينة الاسكندرية ، ولكنها فى بحثها تناولت المبادئ العامة التى يمكن أن تنطبق على حال البلاد كلها . وهو بحث قيم ، يسرنا كل السرور أنه يوافق وجهة النظر المصرية كل الموافقة .

وقد أجمعت الآراء كلها على أن التعطل هو علة العلل ، وكانت نظرة الاجبشيان غازت فى هذا الأمر نظرة موفقة ، جمعت أساس الداء كله فى كلمة ، إذ قالت ما معناه : إن مشكلة انخفاض مستوى الحياة فى المدن متصلة كل الاتصال بمشكلة انخفاض مستوى الحياة فى الريف ، فعلى من أراد العلاج أن يتجه إلى الريف ، ليعلى مستوى الحياة فيه أولا .

فالآراء إذاً كلها متفقة على أن الإصلاح لا بد أن يبدأ فى القرى وفى الريف ، قبل أن يمكن مداواة الأمراض التى يشكو منها المجتمع فى المدن الكبرى .

فإن الفلاح الذى لا يجد سبيل الحياة ممهداً فى قريته ، يطمع فى أن يجد ذلك السبيل الممهد فى المدينة ، فيتزاحم المهاجرون من الريف فى المدينة ، ويؤدى هذا إلى انحطاط الأجور ، لكثرة الأيدى الطامعة فى العمل ؛ وتنشأ من هذا أحياء مزدحمة بهؤلاء المساكين ، تكون مباءة للأمراض والعلل الجسمية والخلقية والاجتماعية .

وليس ما نقوله الفلاح بالأمر المستغرب ، بل هو ملموس مشاهد بين ظهرانينا كل يوم ، عندما تقع أبصارنا على جماعات من أهل الريف ، من أهل الوجه البحرى أو الوجه القبلى ، وقد اجتمع كل ثلاثة منهم أو أربعة على عربة نقل يدوية تحمل كلٌّ رأس مالهم ، فى بضاعة من الشمام أو البطيخ أو الفجل ، وهى بضاعة لا تزيد قيمتها على قروش معدودة .

هذه الجماعات تدخل العجب إلى النفس ، إذ كيف يتصور الانسان أن يربح هؤلاء جميعا من رأس مالهم الضعيف ما يقيم أودهم وأود عيالهم ؟ وهناك الأقوياء من شبان الريف الذين يجوبون أنحاء المدن الكبرى ، يحملون السلع الصغيرة ، مثل مواسى الحلاقة و (السميط) والجبن ، مع أنهم يليقون لعمل آخر أجدى عليهم وعلى المجتمع ، يتناسب مع شبابهم وقوة أبدانهم .

هؤلاء جميعاً متعطلون حقيقة ، وإن كانوا يعملون ؛ وكان الأجدر بهم أن يبقوا فى ريفهم ، وأن ينتجوا ويكونوا أسعد حالاً وأكثر اطمئناناً وأسلم عاقبة فى أنفسهم وفى مجتمعهم .

ولكن كيف يمكن أن يحمل هؤلاء على البقاء فى الريف ، وهم لم يخرجوا منه لشهوة الاقامة فى المدن مع ما فيها من مشقة وتكاليف ؟

إن الأمر كله خاضع لنظام طبيعى اقتصادى لا يمكن أن يفيد فيه النصح أو الإجبار . فلا سبيل إلى إبقاء هؤلاء فى ريفهم إلا إذا جذبهم العمل والربح فى هذا الريف .

وقد تحدثنا فى كلمة سابقة عن العمل ، وأنه هو الدواء الوحيد لمشكلاتنا الاجتماعية ، ولكن ذلك العمل لا يمكن أن يكون الزراعة ، فإن الزراعة قائمة تسير فى مجراها الطبيعى ، ولم يعترِ سيرها اضطراب طارىء ؛ ولكنها بحكم الطبيعة تدعو إلى أن يتعطل الفلاح فى مواسم ويعمل فى أخرى ، وهذا من طبعه أن يقلل ربح الفلاح ، ويحمله على المغامرة بارتياد المدن . فالعمل الذى يداوى هذه الحال هو العمل الصناعى وحده .

يقول قوم : إن بلادنا زراعية ، وليس لها أن تكون صناعية ، لأن وسائل الصناعة لا تتوافر فيها ، فإذا نحن حاولنا إخراج البلاد من الدائرة التى أعدتها لها الطبيعة كان ذلك اعتسافاً غير اقتصادى .

وهذا كلام فيه بعض الحق ، وإن كان هذا ليس الحق كله . نعم لا تستطيع بلادنا اليوم أن تكون صناعية بالمعنى المعروف فى الأقطار الصناعية الكبرى ، ولا تطمع فى أن تنافسها الآن فى منتجاتها . والمستقبل كفيل بأن يظهر استعداد مصر للصناعة بالمعنى الأوسع إذا ما تهيأت لها الوسائل التى تمكنها من ذلك .

ولكن هناك من الصناعات ما لا يتعارض مع طبيعة مصر الزراعية ، بل إن تلك الصناعات التى نقصدها متممة لجهود الزراعة ، وبغيرها تكون الزراعة غير منتجة إنتاجا صحيحاً . فهناك الصناعات الزراعية التى تتوقف على المواد الأولية الناشئة من المحصولات ، وهى تنشأ دائما فى كل الأقطار الزراعية ، وتقوم دائما على المواد الاقليمية .

فالبلاد التى تنتج الفاكهة لا بد أن تنشأ فيها إلى جانب الزراعة صناعات حفظ الفواكه وتجفيفها وعمل المربيات وأمثالها .

والبلاد التى تنتج الألبان تنشأ فيها صناعة الجبن والزبد ؛ وصناعة الألبان هى خلاصة الانتاج الزراعى ، ولها الفضل فى أنها انتشلت بلاداً زراعية من وهدة

الافلاس الاقتصادى ورفعتها إلى مقام سام بين الدول المنتجة ، كما حدث فى بلاد الدانمرك مثلا .

والبلاد التى تنتج الصوف تنشأ فيها صناعات الأصواف المنزلية ، كعمل السجاد وأمثاله ، والأقمشة الصوفية اليدوية

وهذه الصناعات الزراعية تكون غالباً منزلية أو محلية ؛ أى أنها كثيراً ما تكون نتيجة لجهود أهل القرى أنفسهم ، بعد أن ينظموا جهودهم متعاونين فى الجمعيات التعاونية المختلفة الأنواع . والأمر كله متوقف على شيئين :

(الأول) تنظيم الجهود بتأليف الجمعيات التعاونية ، والاهتداء إلى طرق الإنتاج الصناعى الذى يناسب البيئة التى تنشأ فيها الصناعات .

(الثانى) توجيه الصناعة إلى خير الوسائل ، بأن تنشئ الحكومة هيئة فنية علمية ، يكون عملها الإشراف على عمل المنشآت الصناعية الصغيرة ، وإدخال كل ما يمكن إدخاله من وسائل التحسين على طرق إنتاجها . ومساعدتها بالمال على أن تستحضر ما يلزم لها من الأدوات والآلات ، وعلى الحكومة فوق ذلك أن تمد المعارض التى تعرض فيها منتجات الصناعة ، وتنظم توزيع تلك المنتجات ، وتحميها من المنافسة فى أول أمرها ، وغير ذلك مما لا يستطيع أحد أن يقوم به سوى الدولة .

هذه الصناعات هى التى تكفل للفلاح أن يجد العمل الذى يجدى عليه وهو مقيم فى ربعه ، وهى التى ترتفع بأجور عامة الفلاحين ، وتمدهم بالعمل فى المواسم التى لا تكون فيها الزراعة محتاجة إليهم .

وكثير من هذه الصناعات يسهل على الأفراد أن يجيدوها فى منازلهم ، كعمل السجاد ، ونسج الصوف والقطن ، وتربية الحرير ، واستخراج عسل النحل ؛ كما أن كثيراً منها يسهل على الجماعات الصغيرة أن تقوم به ، كعمل الألبان والمربيات ، وتجفيف الفاكهة ، وغزل القطن والصوف .

والحقيقة أن أكبر ما يعوق إنفاذ مثل هذه المشروعات سببان : الأول هو قلة رأس المال أو انعدامه والثانى عدم التوجيه الفنى السليم ؛ ولكن الدولة تستطيع أن تقوم بواجبها فى إزالة هذين العائقين .

ولا ينبغى أن تقف أية تضحية فى سبيل مثل هذا الإصلاح ؛ وأملنا معقود بوزارتى التجارة والصناعة ، والشئون الاجتماعية ، إذ أنهما تستطيعان بذل الكثير من الخير فى هذه السبيل .

«ف»

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	فى مصر والسودان
لستة أشهر	٢٥	الطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

٣ - فارس كنانة

للأستاذ أحمد أمين بك

اشتهر الأمير أسامة ودوّى اسمه في الشام ومصر والعراق ، عرفه أهل الحصن بالنجدة والشجاعة والكرم ، وعرفه الصليبيون فارساً نبيلا يسير على أدق تقاليد الفروسية ، وعرفه العالم الإسلامي بطلاً يدافع عن الإسلام ويفتك بالصليبيين . ولكن . . .

كان أمير الحصن عمه « سلطان » أيضاً بطلاً فارساً ، حنا على أسامة وعلّمه البطولة والفروسية ، وكانت تعجبه مخايله ، وكلما أتى عملاً جليلاً أو فعلاً نبيلاً اهتز له فرحاً ، وفي نفسه أن أسامة وليّ عهده ، وحامي الحصن من بعده ، وكل قومه يرشحونه لذلك — كان هذا كله يوم كان عمه عقيماً لم يولد له ، فأما وقد رزق ابنه محمداً ، وشب ولقب بناصر الدين ، فقد تحوّل هذا الحب إلى غيرة ، وأصبح كالمرأة تغار من ضرتها ، فأعمال أسامة النبيلة تزعجه ، وفعاله تقض مضجعه . ويأتي أسامة يوماً برأس أسد قتله ، ويظن أن هذا يبهج عمه ، ويقول في سذاجة : « إني أخاطر بنفسي لأتقرب إلى قلب عمي » . فتقول له جدته الخبيرة المجربة : « لا والله ، ما يقربك هذا منه ، ولكنه يزيده منك بعداً ووحشة » .

ويتقرب قرناء السوء فيعظمون من شأن محمد ، ويصغرون من شأن أسامة ، ويختلقون ما لم يكن ، ويشعلون نيران العداوة ، فيوسوسون لأسامة بما يزيد غيظه ، ويوسوسون « السلطان » بما يحرج صدره ، وتفسّر الأقوال والأفعال تفسيراً مزعجاً يزيد النار اشتعالاً ، ويتحزب قوم « السلطان » جهراً ، ويتحزب آخرون لأسامة سراً ، وتصبح معيشة أسامة في الحصن لا تطاق ، فيفكر في الرحيل ، ويقول :

نافقتُ دهري فوجهي ضاحك جَذِل
طلْق وقلبي مُكْتَئِبٌ باكِ
وراحةُ القلبِ في الشكوى ، ولذَّتُها
— لو أمكنتْ — لا تساوي ذِلّةَ الشاكي

....

لئن غضَّ دهري من جماحيَ أو ثنى
عِنانِي أو زلّت بأخمصيَ النعل
تظاهر قوم بالشَّمَاتِ جهالةً
وكم إحْنَةٍ في الصدر أبرزها الجهل
وهل أنا إلا السيفُ فُلّلَ حدُّه
فيراعُ الأعادي ثم أرهفه الصقلُ

....

وما أشكو تلوُّنَ أهلِ وُدّي
ولو أجْدَتْ شكِيَّتُهم شكوْتُ
مللتُ عتابهم ويئستُ منهم
فما أرجوهمُ فيمن رجوتُ
إذا أدْمَتْ قوارِضُهُمْ فؤادي
كظمْتُ على أذاهم وانطويتُ
ورحتُ عليهم طَلْقَ المحيا | كأني ما سمعتُ ولا رأيتُ
تجنَّوا لي ذنوباً ما جَنَتْها | يداي ولا أمرتُ ولا نهيتُ
ولا والله ما أضمرتُ غدراً | كما قد أظهروه ولا نويتُ
ويومُ الحشرِ موعدنا وتبدو | صحيفةُ ما جَنَوه ، وما جنيتُ

إلى أين ؟

إلى دمشق ، فأميرها يطلبه ويلح عليه في الحبِّ .

* * *

كانت الشام والجزيرة في ذلك العهد مبعثرة ، لا تؤلف وحدة ، فلكل بلد كبير عليه أمير مستقل يجبي أمواله ، ويدافع عنه رجاله ؛ ففي دمشق أمير ، وفي حلب أمير ، وفي حمص وحماة أمير ، وهكذا .

وكانت العلاقة بين هؤلاء الأمراء علاقة عداء غالباً ، يتخاصمون ويتقاتلون . والصليبيون يجمعون أمرهم ، ويفسون الإحن بينهم . وتقوم الكنيسة بفض النزاع وتدعو إلى الوئام ، وتطلب من أمم الغرب من فرنسيين وألمان وانجليز أن يتحدوا ويتعاونوا لإنقاذ بيت المقدس من يد المسلمين ، وتبذل الجهد للتوفيق بين روما والقسطنطينية ، على شدة ما كان بينهما من نزاع وخصام ؛ فتنجح الدعوة ويتصادق الخصمان ، وتتجمع الجموع هاجمة على الشرق تنتزع من المسلمين بلدة بعد بلدة ، والمسلمون يقاتلون بلداناً لا كتلة واحدة ؛ وقد يثور النزاع بين أمير مسلم وأمير مسلم ، فيستنجد هذا بالصليبيين ، ويستنجد هذا بهم أيضاً ، فينصرون هذا وذاك ، لأن في إضعاف كلٍّ على أى حال تحقيقاً لغرضهم ونيلا لمقصدهم ؛ فكانت البلاد الاسلامية تنتظر زعيماً غيوراً قوياً يضم هذه الامارات تحت سلطانه ، ويؤلف منها وحدة متماسكة ، وقد وجدته أولاً في عماد الدين زنكى ، ثم في ابنه نور الدين محمود بن زنكى ، ثم في تلميذ نور الدين صلاح الدين الأيوبى .

* * *

كان أمير دمشق وقت أن دخلها أسامة شهاب الدين محمود بن بورى بن طغتكين ووزيره معين الدين أنر ، وكلاهما يحب أسامة — وخاصة الوزير — ويفرح بإقامته بينهم لفروسيته ونجدته وغنائه في الحروب ؛ فكان بطل دمشق كما كان بطل شيزر ، يخرج الصيد مع الأمير ، ويقاتل أعداءه ؛ ويرى الناس فيه أنه خير محارب في جند دمشق ، وألمع درة في تاج الأمير ؛ وتتوثق الصلة بينه وبين الوزير معين الدين ، ويعيش على هذه الحال سبع سنوات ؛ ثم ينقلب الناس على معين الدين ، وتسوء حاله ، ويذهب عزه ، ويتأثر مركز أسامة بمركز صديقه ، فتنهب داره ويسرق سلاحه ، ويقر الوزير بالعجز من مساعدته ، وينصحه بمغادرة دمشق .

فإذاً — إلى مصر ، فهى تعرفه كما تعرفه دمشق .

* * *

هذه مصر في أواخر العهد الفاطمى ، وقد تمزقت فيها أداة الحكم ؛ فالخليفة مسلوب الأمر ، له الاسم ولوزيره الحكم ، والأمراء يتقاتلون على الوزارة ، فمن غلب نالها وألبسه الخليفة خلعتها ، فإذا غُلب عُزل وخلع الخليفة خلعته على الغالب ؛ والجنود سودانيون منقسمون أحزاباً ، وعرب متفرقون شيعاً ، وأتراك ومغاربة تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . والخلفاء — وقد سُلبوا الحكم — فرغوا للذات وتدبير المؤامرات ، فإذا كرهوا وزيراً دبروا المؤامرات لقتله أو خلعه . والأمراء إذا طمعوا في الوزارة وأعيتهم جنودهم انتصروا بغيرهم ؛ فهذا يكاتب الفرنج يستنصرهم ، وهذا يكاتب أمراء الشام يستصرخهم ، والخليفة يقتل ابنه لأنه استوزر فاستبد بأبيه ، وابن الوزير يحرّض على قتل أبيه ويحتل الوزارة من بعده — والأمر فوضى والناس في كرب .

ما لأسامة وهذه الفتن وهذه الدسائس وهذا الجو السام ، وقد خلق لا يستنشق إلاّ الهواء النقى على ظهر فرسه في صيد أو غزو ، وقد تخلق بأخلاق الفروسية من شهامة ونبل ؟ ولكنها الأقدار تحكم على الوردة أن تُرمى في مستودع الأقذار — على أنه لم يكن بعيداً من الدسائس كل البعد ؛ فقد شاهدها في بلاط عمه « سلطان » ، وشاهدها في بلاط أمير دمشق ووزيره ، ولكنها كلها صورة مصغرة لما سيلقاه في مصر ، في البلاط الفاطمى

* * *

دخل « أسامة » مصر سنة ٥٣٩ هـ وقد نيّف على الخمسين ، في خلافة الحافظ لدين الله الفاطمى ، ولم يكن أسامة بالمغمور ولا المجهول ، فاستقبله الخليفة وأنزله منزلاً كريماً ، وأغدق عليه من نعمه المتواصلة ، وقد

بهرت أسامة فخفخة القصور وزينتها ، وذهبها وفنها وصورها وتماثيلها ، وحراسها ورسومها ، مما لم ير مثيله في دنياه ، ولا حلم به في منامه ؛ ولكن تبين له بعدُ أنها صورة جميلة ولا روح ، ومظهر أنيق ولا حياة ، ومتحف آثار يدل على مجد قديم ورثه نسل ذليل .

وأضفى على أسامة شيء من ذلك الزخرف ، فعاش في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، وهي دار — كما يقول — في غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها وآلاتها من النحاس ؛ ورفل في الحرير ، وتبحبح في النعيم .

لقد أراد « الحافظ » أن يتخذ منه فارساً بطلاً ، يستعين به في أزماته ، ويستخدمه في مهماته ؛ ولكن هل اطمأنت نفس أسامة إلى هذا الوضع ؟ وهل أخلدت إلى النعيم ، ووجدت راحتها في الراحة ؟ لا ، لا . لقد مثل نفس الدور الذي مثلته من قبل ميسون بنت بحدل الكلبية البدوية لما تزوجها معاوية ونقلها من بادية كلب إلى قصور دمشق ، وقد أفزعها النعيم فصرخت :

لبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه   أحبُّ إليَّ من قصر مُنيف
ولُبسُ عباءة وتقرَّ عيني   أحبُّ إليَّ من لُبس الشُّفوف

. . .

وأصوات الرياح بكل فج   أحبُّ إليَّ من نقر الدفوف

. . .

خشونة عيشتي في البدو أشهى   إلى نفسي من العيش الطريف

كذلك صرخ أسامة فقال :

انظرْ إلى تَصرُّفِ دهرى كيف عوَّدني
بعد المشيب سوى عاداتيَ الأُوَلِ
قد كنت مستعرَ حربٍ كلما خمدتْ
أذكيتُها باقتداح البيض في القُلَلِ
همِّي منازلة الأقران أحسبهم
فرائسي ، فهمُ مني على وَجَلِ
أمضي على الهول من ليل ، وأهجمُ من
سيل ، وأقدمُ في الهيجاء من أجَلِ
فصرتُ كالغادة المكسال مَضجعُها
على الحشايا ، وراء السجف والكِلَلِ
قد كدت أعفن من طول الثواء كما
يَصدى المهنَّد طولُ اللُّبث في الخللِ
أروح بعد دروع الحرب في حُلَلٍ
من الدبيقي ، فبؤساً لي وللحُلَلِ
وما الرفاهة من رأيي ولا أرَبي
ولا التنعم من شأني ولا شُغُلي
ولستُ أرضى بلوغ المجد في رَفَهٍ
ولا العُلى دون حَطْمِ البيض والأَسَلِ

ولكنه أقام على مضض ، يشقى في النعيم ، إذ كان من طبعه أن ينعم في الجحيم .

فها هو مقرب إلى الخليفة الحافظ ، تفتح له أبواب القصر إذا حضر ، ويُفتقد إذا غاب ، ويركب الفرس بسرج من ذهب ، وما كان لأحد أن يركب أيام الحافظ بسرج من ذهب غيره .

ومع هذا فلا ينسى فروسيته ، فقد كان للحافظ جوارح كثيرة من البُزاة والصقور والشواهين البحرية ، وكان عليها رجال يخرجون بها للصيد في كل أسبوع مرتين ، فكان أسامة يخرج معهم ، فيصيدون طيور الماء وطيور البر ونوعاً من البقر وحشياً كان يسمى بقر بني إسرائيل أصغر من البقر وأشد منه عدواً ؛ وفرس البحر ، وكان في النيل كثيراً ؛ ويحدثنا أنها مثل البقرة الصغيرة ، وعيناها صغيرتان ، لها أنياب طوال في فكها الأسفل ، صياحها مثل صياح الخنازير .

مات الحافظ وخلفه ابنه الظافر وعمره سبع عشرة سنة ، فزاد الأمر سوءاً ، وتنازع الأمراء على الوزارة ، وكثرت الدسائس ، واضطر أسامة أن يدخل في المعترك ويغمس يده في الفاسد .

(يتبع)   أحمد أمين

الشعراء المغمورون

هذه طبقة من الشعراء تقابل طبقة « الفحول » ، ذهبوا فى غمار الحياة ، فخفتت أصواتهم ، ونصلت ألوانهم ، وبلى تاريخهم . وكأنما استبد الشعراء الفحول بحظ الشعر كله ، إذ مضوا فى سماء المجد صُعُداً ، فسمت إليهم أبصار الناس ، وأطالوا التحديق فيهم ، والتأمل فى قسماتهم ، والتعجب من محاسنهم . وقد فتنهم منهم أنهم يحيون فى معارج الأفلاك ، لا فى مدارج الأقدام ، فانصرفوا عمن يعيشون حولهم من الشعراء ، يقتحمونهم بأبصارهم ، وقلما يقفون عليهم .

وليس كل هؤلاء « الفحول » قد أصعدتهم فى السماء عبقريتهم ، ورفعتهم عن مستوى الناس قوتهم ؛ ففيهم العبقرى الذى يشتمل ضميره بلهيب العبقرية ، فهو يأبى أن يسكن إلى ما يسكن الناس إليه ، أو يقر فيما يقرون فيه ، أو يقنع بما يقنعون به .

وفيهم المشعوذ الذى يحتال الحيل ، ويصطنع الخوارق ، ويسحر أعين الناس ويسترهبهم ، فسلكوه مع العباقرة فى نمط ، وجعلوا يصعدون فيه أبصارهم ، وقد أخذهم الهول ، كما كان أصحاب مسيلمة ينظرون إلى « ملك الوحى » الهابط عليه ، ويستمعون إلى حفيف أجنحته ، وما هو إلا رق وكاغد وراية شادن .

ومنهم دون ذلك : رجل لم ترفعه من الناس عبقريته ، ولم ترتق به فى السماء خدعه ومخاريقه ، وإنما هى ملابسات الحياة العجيبة ، سخرت له من ذوى السلطان وأصحاب البسطة والقدرة — ممن يشرفون على دهماء الناس من عل ، أو يستشرفهم الناس من أسفل — من جذبه نحوه ، ورفعه إليه ، وبوأه مكانه ؛ فأصبح الناس وإذا بهم يبصرونه معه ، ويرونه قرينه فى عليائه . وما أبعد الناس عن التفريق بين منازل المجد المختلفة من دنيوية وأدبية .

ثم ما أقل النقاد البصراء الذين لا تستهويهم الخدع ، ولا تفتنهم الشبه ، ولا تذلهم الأضاليل الشائعة ، ولا تعرف قلوبهم الشهوات القاسرة ، والأهواء القاهرة ، وما تزخر به الدنيا من أسباب الزيغ والفتنة . ثم ما أقل أثر هؤلاء الأقلين فى الجو الأدبى ، وما أضعفهم فى بسط آرائهم ، وفرض أحكامهم على العامة وأشباه العامة .

ذلك هو شأن « الفحول » الذين استولوا على الحياة الأدبية ، وصرفوا الأقلام والألسنة والأذواق والعقول لحسابهم . وكذلك الأمر فى الشعراء المغمورين ، فليسوا سواءً فى سبب غمارتهم وعلة خمولهم .

فمنهم من كان حقيقاً أن يعد من « الفحول » لو أن الأمور استقامت على الطريقة . ولكن بعض ملابسات الحياة الظاهرة والخفية هى التى أخملته ووضعته عن مرتبته . لا نقص فى حقيقته ، ولا ضعف فى طبيعته ، ولا تخلف فى شاعريته . والملابسات الظاهرة كثيرة فى الحياة الأدبية ، بعيدة الأثر فيها . وأكثر منها هذه الملابسات الخفية أو العلل الباطنة ، كما يقول الجاحظ ، تعجز عن إدراكها ومعرفة كنهها ، فندعوها بالحظ ، وما أكثر ما يلعب هذا الحظ دوره ، فى أقدار الناس ومنازلهم ، فيخمل الرفيع ، ويطير بمن هو دونه ! وما أكثر ما يعبث بالآثار الأدبية عبث المتحكم المستهتر الماجن ؛ « فكم من بيت شعر قد سار ، وأجود منه فى بطون الدفاتر ، لا تزيده الأيام إلا خمولا ، كما لا تزيد الذى دونه إلا شهرة ورفعة ، وكم من مثل قد طار به الحظ حتى عرفته الإماء ، ورواه الصبيان والنساء » كما يقول شيخنا أبو عثمان .

والجاحظ يقدر هذا الوجه من وجوه الحكم الأدبى تقديراً كبيراً ، فلا يزال يقرره بأسلوبه الفياض ، ويكرر مظاهره المختلفة ، ويورد الأمثلة الكثيرة له . وكأنما أراد — من جهة أخرى — أن ينتصف لهؤلاء « المغمورين »

الذين طمرتهم تلك «الملل الباطنة». فآلى أن يكشفهم، ويأخذ بنصيبه في التعريف بهم، وإذاعة أحاديثهم وآثارهم، فجاءت كتبه تفيض بذكرهم، وتزخر بأشعارهم، وهذه ظاهرة بيّنة عنده، وربما كان هذا من بعض أسبابها.

وكان أبو تمام — الشاعر المثقف العالم — ممن عنى بهؤلاء الشعراء «المغمورين» تخصهم بأكثر من مجموعة من اختياراته التي يذكرها الآمدي في كتابه «الموازنة»، ثم كان من حسن الحظ أن يكون أشهر اختياراته وأبقاها على الدهر ذلك الاختيار الذي «تلقط فيه أشياء من أشعار المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين» كما يصف الآمدي ديوان الحماسة له. وهذا الديوان، بهذا الوصف، من الدلائل القاطعة على أن خمول الشاعر لا يتصل بشاعريته، ولا يرجع إلى ضعته

فهذه طائفة من الشعراء المغمورين، عدت عليهم بعض الأسباب الخارجية، فأخرتهم وأخملتهم.

وهناك طائفة أخرى، لم تظلمها الأقدار، ولم يعبث بها الحظ، ولم تخضع في خمولها لملابسات الحياة: الظاهر منها أو الباطن، وإنما أخملتها طبيعتها، ووقفت بها حقيقتها، فقد فاتتها عبقرية الشعر، وإن لم يفتها الشعر في إطلاقه، فلها الطبع والإلهام، وعندها انسجام اللفظ وحلاوة العبارة، وهي تنزل من العباقرة في الكيان الشعري، منزلة الطبقة الوسطى من السراة في البناء الاجتماعي، فلها من ذلك الوجه قيمتها، وإن صرفتنا عنها كبرياؤنا، فما نكاد نعبأ بها، أو نوليها شيئاً من العناية في دراساتنا، كأنما نخشى على أنفسنا أن يعدينا خمولها، أو ينال منا ما غض منها، أو ينقص من ألمعيتنا وقيمة دراساتنا أن نجعلهم موضوع أبحاثنا. وما أعجبها ارستقراطية في العلم، تبعث على السخرية!

وهذه الطائفة من المغمورين كانت — كسابقتها — موضع عناية المتقدمين: عنى الجاحظ بها، ونوه بكثير من أفرادها، وإن كان شعرهم لا يتفع بالعبقرية، كما عنى بها كثير غير أبي عثمان. وليس من غرضنا هنا أن نستقصي أو نبالغ في بيان الجهود الأدبية التي خص بها هؤلاء الشعراء. غير أنه لا يفوتنا أن نذكر من بينها كتاباً من أمتع الكتب الأدبية، وربما كان هذا الوجه فيه مما يخفى على كثير من الناس. ذلك هو كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي، قسم أخبار الشعراء. وقد نص هو على ذلك الوجه في آخره إذ يقول: «قد جئت بأكثر أشعار هؤلاء، إذ كانوا شعراء ظرافاً كتاباً لا يعرفهم الناس، ومن عرفهم لا يعرف أخبارهم... وإنما أستقصي أشعار من لا يعرفون وأخبارهم».

وهناك ناحية أخرى في التأليف كان لها أثر كبير في التنويه بهؤلاء المغمورين أو التعريف بهم. تلك هي ناحية الحديث، وتراجم رجاله، فقد كانت عناية المحدثين بهذا النمط من التأليف عناية شديدة، وكان استقصاؤهم في تراجم الرجال وذكر أخبارهم وأحوالهم وآثارهم استقصاءً عجيباً، وكان تتبعهم لهؤلاء الرجال تتبعاً دقيقاً، فما يفوتهم منهم أحد، حتى من لم يشتهر بالحديث، ولم تبلغ روايته أكثر من حديث واحد أو عدد قليل من الأحاديث، ثم كان كثير من هؤلاء شعراء، يقولون الشعر وقد يحسنونه، فظفروا من ذلك بعناية المحدثين، وأتيح لهم منهم — بذلك — طائفة كريمة ساهمت — على غير قصد — في إنصافهم والتعريف بهم.

وفوق ذلك كان لاتجاه المحدثين هذا أثر غير مباشر، فقد تأثر بهذا الأسلوب غيرهم في شتى نواحي العلم، فتنوعت بذلك كتب الطبقات، وسارت على سنة المحدثين ومناهجهم، فعنيت جميعاً باستيعاب الأشخاص، واستيفاء الأخبار؛ وبذلك أتيح لهؤلاء «المغمورين» من الشعراء كثير من النافذ، يطلون على التاريخ منها، ويدعون الباحثين إلى دراستهم من خلالها

وتلك دعوة يجدر بنا أن نلبيها، لا رغبة فى الانصاف، ولا استجابة لنزعة الجمع والاستيعاب، كما كان أكثر الشأن فى ذلك عند المتقدمين؛ فقد تغيرت الأهداف، وتبدلت الحوافز، وتجددت المناهج، وأصبح من غايات الدراسة الأدبية تبين الحياة الاجتماعية، وتعرف التيارات النفسية السائدة فيها، وهذه غاية يبلغ بنا اليها هؤلاء الشعراء المغمورون على أحسن وجه وأيسر سبيل، إذا أتيحت لنا وسائل دراستهم.

ذلك هو الحافز الجديد الذى يحفزنا إلى درس هؤلاء المغمورين، وينهنه من كبريائنا الفارغة السخيفة.

أرأيت إلى هذه الطبقة الوسطى فى بناء الجماعة؟ أليست هى التى تمثل الشعب وتبين مثله ونزعاته وعواطفه وأهواءه، فى حين لا يمثل السراة إلا أنفسهم، ولا يكشفون إلا عن ذواتهم؟ كذلك الأمر فى الشعراء. فالمغمورون منهم هم الذين يصورون بيئاتهم، ويمثلون عواطف شعوبهم وجماعاتهم، ويبينون مثلهم وغاياتهم، فى حين لا يصور الفحول إلا شخصياتهم، ولا يصدرون إلا من عبقرياتهم، أو عبقريات أسلافهم.

ذلك أن الشاعر «الفحل» يعيش فى باطنه، وفى بيئته الأدبية التى اصطنعها لنفسه، أكثر مما يعيش فى البيئة العامة. أما الشاعر «المغمور» فيعيش فى بيئته، مندمجا فيها، مستغرقا فى صورها وأحاسيسها، يستقبلها بشاعريته، ويرددها فى طوايا شعره قوية بينة، ذلك هو الغالب على هؤلاء وأولئك.

وبذلك كان شعر هؤلاء «المغمورين» هو الذى تصدق عليه تلك العبارة التى شاعت بين النقاد فى القرن التاسع عشر، وبنى عليها كثير من مذاهب النقد الأدبى، وهى أن الأدب صورة المجتمع وتعبيره، فهو وحده الذى يصور جماعته ويعبر عن ميولها وأهوائها. فأما الفحول والعباقرة فما أبعد شعرهم عن ذلك.

فهذا الاتجاه الجديد فى الدراسات الأدبية لا يغض به شعر الفحول، ولا يغض فيه أدب العباقرة، إنما يكفل لنا هؤلاء الشعراء «المغمورون» الذين تقتحمهم بأبصارنا، وتغمرهم بكبريائنا. فلنتجه نحوهم، ولنعدل من نظرتنا إليهم، ولنأخذهم بهذا الاعتبار التاريخى، كما نأخذ الشعراء «الفحول» بالاعتبار الفنى.

محمد طه الحاجرى

المسلمون فى أنحاء العالم

(٤) فى قازان

مركز الثقافة الاسلامية فى الروسيا

إن مدينة قازان جديرة بالزيارة فإن لم يمكن لشيء آخر إلا لأنك ترى فيها جمال الشرق قد اختلط بجمال الغرب، أكثر منه فى أى جهة أخرى فى أوربا، ولأنك ترى بين أبنيتها الفاخرة الحديثة مآذن الجوامع ذات الروعة والجمال.

ولنتكلم الآن عن الناحية الثقافية المدنية، وعلاقتها بالثقافة الأسلامية خلال العصور والأجيال فنقول:

قازان هى عاصمة إحدى الجمهوريات السوفيتية المستقلة، وأعنى بها جمهورية المغول، التى يكون المغول نصف سكانها، وهم فى الأصل منحدرون من أتراك بلغاريا، الذين كان يحكمهم أتراك آسيا الصغرى، ومن المغول الذين غزوا الروسيا فى القرن الثالث عشر. وكانت قازان جزءاً من دولة المغول، كما كانت عاصمة خانية، أسسها محمد ألغ فى سنة ١٤٣٨ ثم احتلها (إيفان المرعب) فى سنة ١٥٥٢. وبدأت نهضة المغول تبدو إلى الوجود، نتيجة التغيير الذى حدث فى السياسة الروسية، فى نهاية القرن الثامن عشر، إذ أعيدت امتيازات أشراف المغول فى سنة ١٧٨٤، واعترفت الحكومة الروسية رسمياً بحق المسلمين فى إقامة شعائر دينهم فى سنة ١٧٨٨، ومنح المسلمون استقلالاً دينياً ذاتياً تحت إشراف لجنة اورنبرج (Orenburg) الأسلامية، التى يرأسها مفت. وأسست فى سنة ١٧٩٩، مطبعة شرقية، تبعها بعد ذلك إنشاء جامعة قازان فى سنة ١٨٠٤.

وفى وسط القرن التاسع عشر أدرك المغول أن الوسيلة الوحيدة للبقاء، هى أن يكيفوا أنفسهم حسب الظروف الجديدة، وأن يأخذوا من الروس علومهم. وكانت جامعة قازان هى مركز حركة محاكاة الغرب، حيث تعاون علماء الروس المستشرقون، أمثال رادلوف (Radloff) وجوتوالد (Gottwald) مع المصلحين المسلمين وأشهر المفكرين من المسلمين الذين كانوا ينادون بالأصلاح فى ذلك الوقت رجلان: أحدهما يسمى شهاب الدين المرجانى، والآخر حسين فيظ خان.

وفى السنة التى سبقت الحرب العظمى الماضية، أنشئت مدارس مغولية فى جميع مناطق قازان، وقرغيزستان وأوزبكستان، وفى آسيا الوسطى على العموم. وبهذا تغيرت الميول الثقافية التى كانت شائعة فى أوائل القرن التاسع عشر. وقد حدث تغير ظاهر فى الصحافة، فبعد أن لم يكن لدى مغول قازان شىء من الصحف مطلقاً إلى سنة ١٩٠٥، وكانوا يعتمدون على الصحف التركية، أخذوا ينشرون صحفاً ومجلات خاصة بهم، وظهر بين مغول منطقة قازان فى هذا العهد، أدب مغولى حل محل كل من اللهجتين التركية القديمة والتركية المغولية الموحدة، التى حاول (Gasprinski) نشرها بين مسلمى روسيا دون جدوى. وقد كان لقازان نصيب فى تطور الثقافة العامة فى الاتحاد السوفيتى، ولكنها احتفظت بمكانتها كمركز عظيم للثقافة الاسلامية. وتتركز حركة الثقافة المغولية فى الجامعة. وأوجه النشاط العديدة التى تستحق الذكر كثرة نشر المؤلفات المغولية لكبار المؤلفين المغول، أمثال (المرجانى، وفيظ خان) وغيرهما، ثم شرح النقوش التركية الأورخانية. كما انتشرت قراءة مؤلفات رادلوف (Radloff) انتشاراً واسعاً. وفى سنة ١٩٢٦ افتتح معهد للثقافة المغولية، وأنشىء عدد من الصحف والمطابع. واللغة الرسمية هناك هى اللغة المغولية.

وقد نشرت مطبعة جامعة قازان التى أنشئت فى سنة ١٩٠١ عدداً من الكتب الأسلامية مثل (ترجمة القرآن الشريف، إلى اللغتين المغولية والروسية)، وترجمة كتاب (مصداق الأخبار) وكتاب (حل المشكلات فى كيفية تكوين العالم)، ومؤلفات أبى الفداء، وجداول الفرق، والبردة، وكثير من دواوين الشعر وكتب الأدب العربى. هذا بالأضافة إلى ترجمة الكتب إلى اللغة المغولية، وترجمة عدد كبير من الكتب إلى اللغة الروسية، كترجمة تاريخ تيمور، فى خمسة مجلدات، وكتاب (روضة الصفاء)، كما نشرت أيضاً عدداً من المؤلفات القيمة، فى الدراسات الأسلامية مثل رسالة فى تحريم الخمر فى الأسلام، بقلم كاتوف (Katenof) أحد علماء الروس، وغيرها من المؤلفات التى تبحث فى الحديث والفقه

(٥) المسلمون فى الصين

يبلغ عدد المسلمين فى الصين حوالى خمسة ملايين، يعيش معظمهم فى المقاطعات التى تعيش أرضها رخاء وخصباً، ويدين أغلبهم بالمذهب الشافعى. ويحافظ المسلمون هناك على أداء شعائرهم الدينية. ولهم بضع مئات من المساجد حطم الكثير منها اليابانيون بقنابلهم، ولهم أيضاً مئات المدارس، وفى مقدمتها مدرسة دار العلوم.



مسلمون صينيون

وعلى الرغم من أن اللغة الانكليزية هي أولى اللغات الأجنبية المفضلة عند الصينيين ، فإن اللغة العربية أخذت في العهد الأخير تشق طريقها بينهم .

وقد وعاد مسلمو الصين صاتهم بمصر منذ عشرات الأعوام عند ما بعثوا إليها بعثة مؤلفة من حوالى ثلاثين طالبا ، اجتاز أكثرهم مراحل الدراسة فى الأزهر الشريف . وقد عرف أولئك الطلبة باسم (بعثة فؤاد الأول الصينية) لما كان للمغفور له الملك فؤاد من فضل كبير فى إيفاد هذه البعثة . هذا إلى ما تفضل جلالته رحمه الله بإهدائه من مئات الكتب العربية النفيسة إلى مسلمي الصين التى جمعوها فى دار خاصة فى (شنغهاى) .

ولما جلا الصينيون من (شنغهاى) نقلوا تلك الكتب الثمينة معهم وحمدوا الله على أن نيران قنابل اليابانيين لم تدمر هذه الكتب فيما دمرت .

والمسلمون الصينيون مكانة ملحوظة بين مواطنيهم ، فهم يشغلون مختلف المراكز ، ومنهم مثلا أحد القواد الحربيين الذى يأخذ القائد العام بمشورتهم . ومسلمو الصين يؤازرون الزعيم (القائد كاى شك) ويجلونه . وهم يعملون لرفع شأن وطنهم ويدعون لقضية الصين أينما حلوا ، ويتجلى ذلك واضحا عندما يجتمعون فى موسم الحج بالآلاف المؤلفة من المسلمين الذين يحضرون من مختلف أنحاء البلاد الاسلامية لقضاء هذه الفريضة المقدسة ، فيكون لدعوتهم وقع عظيم فى قلوب إخوانهم المسلمين .

ومسلمات الصين جديرات بكل تقدير وإعجاب ، لما أظهرنه من الصبر والاحتمال ، ولما يحاربن به ويلات الحرب من شجاعة وثبات ، أعادا إلى أذهاننا ما تحلت به المسلمة من صفات الشجاعة والحزم ، فى الحروب التى سجلها التاريخ الاسلامى بمداد الفخر والاعجاب .

ويثق مسلمو الصين بعدالة قضيتهم . لذلك هم يدافعون عن بلادهم ضد ظلم اليابانيين بكل عزم ومضاء ، واثقين من الانتصار على قوى الشر والقضاء عليها .

(٦) المسلمون فى الولايات المتحدة وممتلكاتها

لا يعرف إلا القليل أنه يوجد عدد عظيم من المسلمين يعيشون فى الولايات المتحدة وممتلكاتها ، ويتمتعون بحريتهم الدينية الكاملة تحت ظل العلم الأمريكى . ويمكن أن نقسم المسلمين الذين يستوطنون الولايات المتحدة إلى ثلاثة أقسام :

(١) المهاجرون الذين ولدوا فى الأصل من شتى بلاد الشرق وأحضروا معهم أسرهم ، ثم استوطنوا البلاد ، واحترفوا الزراعة أو الصناعة أو التجارة عدة سنين إلى أن حصلوا على الرعوية الأمريكية

(٢) الأمريكيون الذين اعتنقوا الاسلام .

(٣) المسلمون الذين اكتسبوا رعويتهم الأمريكية بالميلاد كسكان جزر فى سولو ومندناو من جزائر الفلبين . وهم ثمرة التزاوج بين سكان هاتين الجزيرتين الأصليين ، وبين عرب الملايو ، وعلى هذا فالدم العربى يجرى فى عروقهم .



بعض أهالى جزيرة (سولو Sulu) بملابسهم الوطنية الجميلة

وإلى جانب هؤلاء ، يوجد عدد لا بأس به من الشرقيين المسلمين الذين استوطنوا المدن الأمريكية العظمى كنيويورك وشيكاغو وبوسطن والمدن الواقعة على طول ساحل كاليفورنيا ، وعدد المسلمين فى الولايات المتحدة ذاتها لا يربو على الثلاثين ألفا ، يضاف إليهم مسلمو جزائر الفليبين الأمريكية ، الذين يبلغ عددهم حسب آخر إحصاء ٤٣٢٩٧ نسمة . والمسلمون الأمريكيون على أحسن حال من الوجهة الروحية والثقافية والاقتصادية ، لأنهم يتمتعون بالحرية الكاملة التى يتمتع بها جميع الأمريكان الآخرين . وهناك بعض الأفغان القادمين من شمال الهند ، عندهم من المزارع النضرة على طول ساحل المحيط الهادئ . أما العرب فيشتغلون بالتجارة وأحوالهم رائجة

وبجانب ما يتمتع به المسلمون فى الولايات المتحدة من الرقى الاجتماعى ، نرى حياتهم الدينية والثقافية ، راقية أيضا رقيا عظيما . فلهم مثلا مركز دينى فى بروكلين بنيويورك ، وهو بناء حسن التركيب مكون من ثلاث طبقات ، تشرف على إدارته الجمعية الاسلامية البريطانية . وللعرب سوريا وفلسطين مركز ثقافى بنيويورك كما أن لهم مطبعة خاصة لنشر كتبهم وبعض الصحف العربية . وتوجد مكتبة عربية كبيرة فى نيويورك تبيع من نسخ القرآن فى كل عام ما يتراوح عدده بين مائتين وثلاثة نسخة . وليس هناك أى قيود على تعاليم الاسلام والتبشير به .

ومما هو جدير بالذكر أن عددا من المصريين المسلمين المجدودين ، رحلوا إلى أمريكا بعد الحرب الماضية ، ولم تحل سنة ١٩٣٣ ، حتى كانوا قد أنشأوا ستة مراكز للوعظ والتبشير بالاسلام . وهذه

المراكز موجودة فى (شيكاغو وبتسبرج وسنسناتى وانديانوبوليس ودترويت وكانساس) . وقد بلغ عدد من اعتنق الاسلام من الأمريكان ثمانية آلاف شخص .

وعلى الرغم من أهمية العنصر الاسلامى فى الأقاليم الأمريكية نفسها ، فان السواد الأعظم من الرعايا الأمريكان المسلمين ، يعيشون خارج الولايات المتحدة ، وهم كما ذكرنا آنفا سكان جزيرتى سولو وميندناو من جزائر الفليبين .

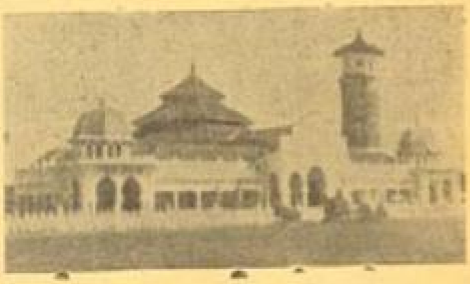
ومسلمو هاتين الجزيرتين هم عرب أيضا ، يجرى الدم العربى فى عروقهم ، لأن الاسلام قد انتقل إليهم مع من نزح إلى هاتين الجزيرتين من عرب الملايو وسومطرا وجاوه ، ويكاد يكون فى كل شارع جامع خاص به ، كما يصعب عليك أن تجد هناك قرية خالية من مسجد أو جامع .

وقانونهم مكتوب باللغة العربية ، وهذا الأصل العربى هو المرجع الأخير الذى يحتكم إليه القضاة إذا ما اختلفت التأويلات والتفسيرات .

(٧) المسلمون فى هولندا وجزائر الهند الشرقية الهولندية

تضم ممتلكات هولندا فى جزائر الهند الشرقية جزائر عديدة متنوعة ، تبلغ مساحتها ستمائة وثلاثة وثمانين ألف ميل مربع ، وبعبارة أوضح ، نقول إن مجموع مساحة جزائر الهند الشرقية الهولندية يعادل فى الواقع نصف مساحة أوربا ، إذا استثنينا الروسيا .

ويبلغ عدد سكان هذه البقاع الشاسعة سبعين مليونا ، منهم أربعون مليونا يقطنون جزيرة جاوه التى تعادل مساحتها مساحة انكلترا ، كما تتساوى الجزيرتان على التقريب فى عدد السكان ، ولكن فى حين أننا نجد سكان انجلترا يقطنون فى سوادهم المدن العظمى ، نجد سكان جزيرة جاوه متفرقين ، منبثين فى وجه الجزيرة طولا وعرضا ، وجدير بالذكر أن السكان موزعون بشكل متساو متناسق إلى درجة أنه من الأمور المعروفة الثابتة ، أن المرء يكاد لا يجد نفسه فى أى مكان من جاوه بعيداً عن الناس سمعا أو بصراً .



جامع سباه (سرابايا Surabaya) بجزيرة جاوه

وتبلغ نسبة عدد المسلمين خمسة وتسعين فى المائة من مجموع سكان تلك الجزر . فهم يقدرون إذاً بنحو سبع عدد المسلمين فى مختلف أنحاء العالم .



بعض صغار الطلاب يحفظون القرآن الكريم فى أحد كتاتيب جزيرة جاوه

(٨) مسلمو كارديف (فى انجلترا)

يقيم فى كارديف مايربو على ألفى مسلم ، ينعمون برغد العيش فى حرية تامة ، ويقومون بمختلف الأعمال . فمنهم التجار والصناع ، ومنهم أصحاب الفنادق الصغيرة ، ومنهم عدد كبير من البحارة الذين يجوبون البحار ويعودون إلى مقرهم بين حين وآخر ، فيقضون عطلتهم بين أهلهم وعشيرتهم . وفى أثناء عطلتهم تدفع لهم شركات الملاحة البريطانية مرتبا شهريا قدره أربعة عشر جنيها ، وعشرون جنيها أثناء العمل — أى عندما يستأنفون رحلاتهم فى البحر .

وأغلب مسلمى كارديف من اليمنيين ، ومنهم عدد كبير من الهنود والعدنيين والصوماليين وغيرهم من مختلف البلاد العربية ، وتجمع بينهم أواصر الود والمحبة . وشعارهم جميعاً الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وهم فى أحسن ما يكون من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . هذا إلى جانب اهتمامهم بأداء فرائض الدين الحنيف وإقامة شعائره فى مختلف المناسبات .

ولمدينة كارديف من الجوامع الكبيرة ، كالتى فى لندن و (ووكنج) وغيرها اتخذ المسلمون هناك زاوية لهم يؤدون فيها صلاة الجماعة وفريضة الجمعة . وقد دمر الألمان تلك الزاوية بقنابلهم أثناء غاراتهم الجوية على انكلترا ، فكان لذلك أعمق الأثر فى نفوس المسلمين بانكلترا ، وفى نفوس إخوانهم فى مختلف البلاد الاسلامية . ولكن الحكومة البريطانية قامت على الفور بتقديم المساعدة المالية

لالقاء زاوية أخرى . وعند ما تم ذلك ، استأنف مسلمو كارديف أداء صلاتهم في زاويتهم الجديدة .

ولمسلمي كارديف جمعية إسلامية ناهضة تستمد ماليتها من التبرعات . والاشتراكات الشهرية ، وهي ما يعادل عشرة قروش لشكل شهر . وتنفق الجمعية على إقامة الحفلات الدينية وعلى دفن الموتى من الفقراء . كما تدفع مرتبات الامام وغيره ممن يشرفون على شئون الجمعية والزاوية .



بعض المصلين يغادرون الزاوية

ومما يجدر ذكره أن مسلمي كارديف يحافظون على تقاليدهم الشرقية العريقة . فقد ذهبت مرة لزيارة صديق لي هناك ، فرأيته بملابسه العربية الجميلة ، وما إن رآني حتى رحب بي بما هو معهود عن الشرقيين من إكرام الضيف . وفي منزله رأيت غرفتين للاستقبال إحداهما مفروشة على الطراز الانكليزي والأخرى على الطراز العربي . وما إن دخلت هذه الأخيرة ، حتى انشرح صدري لرؤية الآيات القرآنية تزين جدران الغرفة . وقد فرشت هذه الغرفة بكل ما هو شرقي جذاب . وتقل من سقفها ثريا نحاسية جميلة الصنع .



يهتم سكان كارديف cardiff المسلمين من العرب بأداء فرائض الدين الحنيف . وإقامة الشعائر الدينية في المناسبات المختلفة . ولا يقتصر ذلك الاهتمام على الرجال بل هو يشمل السيدات أيضا . ويرى فوق هذا الكلام بعض السيدات وأمامهن طفلان حاملان لوحة جميلة ، مما يزين بها العرب جدران منازلهم .

وما هي إلا لحظات بعد أن جلست على إحدى الأرائك العربية ، حتى أحضر صديقي صينية نحاسية بديعة النقش وعليها فناجين القهوة وإبريقها النحاسي . وكانت الرائحة المتصاعدة من المبخرة تعطر جو الغرفة حتى كدت أشعر أني انتقلت بغتة إلى أحد البيوت العربية في جدة .

(ملخصة عن مجلة المستمع العربي)

رجاء

ترجو إدارة مجلة الثقافة من حضرات المشتركين الذين لم يسددوا حتى الآن قيمة اشتراكاتهم عن النصف الثاني من هذا العام أن يبادروا بتسديده ، حتى لا تضطر إلى إيقاف إرسالها لحضراتهم

إنه في يوم السبت ٢٥ يوليه سنة ١٩٤٢ من الساعة الثامنة أفرنكي صباحا بناحية الصالحية والمزارق مركز فاقوس والأيام التالية إذا لزم الحال

سيباع علنا الأشياء الموضحة بمحضر الحجز بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩١٠ و ٢ يونيه سنة ١٩٤٢ نفاذاً لعقد المحرر بقلم العقود الرسمية بمحكمة مصر المختلطة وعقد التحويل الصادر بشأنه ضد حضرة صالح بك عبدالرؤوف العوف من أعيان الصالحية مركز فاقوس شرقية وفاء لمبلغ ١٢٦٠ جنيه مصري و ٦٣٠ مليم بخلاف الفوائد ورسم التنفيذ ورسم الاجراءات

وهذا البيع كطلب الأستاذ أميل رمال المحامي بمصر فعلى راغب الشراء الحضور

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ... ... "

دعوة ! — قادة وقدوة ! —
أزياء ! — أعراض وأمراض

دعوة !

تناول البريدَ من يد ساعيه وراح يفضّ غلافه . . . هذه بطاقة دعوة ، ومضى يقرؤها :

« يتشرف فلان والسيدة حرمه بدعوتكم والسيدة حرمكم إلى الحفلة الساهرة بمنزله فى مساء . . . » .

فلان وحرمه ؟ نعم ، إنه يعرفه ويعرفها ، وطالما رآهما جنبا إلى جنب وذراعاً إلى ذراع فى كثير من الحفلات العامة والخاصة التى تفرض عليه مكانته الاجتماعية أن يغشاها راضياً أو كارهاً ، وطالما جلس إليهما معاً ، وإلى كلٍ منهما على انفراد ، يتحدث ويتحدثان فيما يقتضيه المقام وما لا يقتضيه ؛ وطالما تتبّع وقع خطاهما على بلاط البهو الفسيح راقصين فى الحلبة صدراً لصدر ، أو صدرين لصدرين . . . . . .

. . . نعم ، وإن من حقهما أن يدعُواه فيجيب أو يعتذر ؛ ولكن ما شأن زوجه فى هذه الدعوة المختلطة ؟ إنها لم تشهد قطّ « حفلة ساهرة » فى غير دارها أو دُور ذوى قرابتها ، وإنه ليأبى عليها ؛ إن له رأياً فى هذه الحفلات العامة يأبى عليه أن يصحب زوجه إليها ؛ فكيف يجيب ؟

أترى صديقه ذاك يوجّه الدعوة إليه وإلى زوجه ليقتضيه الدَّين على شريعة « السّنّ بالسن والعين بالعين والزوجة بالزوجة » . . ؟ ولكنه لم يطلب إليه يوماً أن يكشف له زوجتهُ ، وإنما « تبرّع » هو بها فى مجالس صحابته وغير صحابته ، فكيف يرى « التبرّع » « دَيْناً » يحق له السداد ؟

وفكّر وقدّر ، واسترسل فيما فكّر وقدّر ؛ ولكنه لم يعرف كيف يجيب !

وراح فيما بينه وبين نفسه يلتمس المعاذير لطائفةٍ من خاصته كانوا على مثل رأيه فيما ينبغى للمرأة من التصوّن والكرامة ، ثم لم يلبثوا أن أسلموا أنفسهم للتيار ... فى مثل هذا المأزق كان أول التحوّل ؛ ها هو ذاك يوشك أن يُسلم نفسه . . . !

. . . وكانت إلى جانبه زوجه وفى يدها صحيفةٌ من صحف الأسبوع ، ورنّى ببصره إليها فى حيرة ثم فاء إلى نفسه . ماذا تقرأ زوجُه الساعة ؟ . . . وماذا فى مثل هذه الصحف إلا صور الحفلات الساهرة وأخبارها ونوادر أصحابها ؟ . . . هل هى إلا « دعوة » أخرى لم يجئ بها « ساعى البريد » ولكن جاء بها « بيّاع الجرائد » ؟ وكم سيدة تملك أن ترفض هذه « الدعوة » إلى مثل هذه الحفلات الساهرة . . . الساحرة ؟ . . .

وأوشك أن يقتنع بما كان يلتمس من المعاذير لبعض صحابته ؛ هذه حال الناس جميعاً فى هذا البلد ؛ ولكن ... وثارت نفسه . . . لا لا ؛ إنه يأبى ؛ إنه ليس مثل الناس ؛ إن له رأيه وإرادته . . .

ولكن ... أيجيب الدعوة وحده ؟ ... ولا هذه ؛ إن زوجهُ لأعلى مكاناً ، وأرفع منزلة ، فما يليق أن ينزل بها وبنفسه إلى حيث يتيح لداعيه أن يسأله : وأين زوجك ...؟

... وكتب إلى داعيه يعتذر ، ولم يفتعل العذر ، لأنه كان مؤمناً بما فعل ؛ وقرأ داعيه معذرته فابتسم . . . ثم طأطأ رأسه !

ليتنى أدرى ما قال داعيه لنفسه وهو مطأطئ الرأس يعُدُّ ثقوبَ الرباط فى نعليه وزوجُه هناك تراقص فتاها ؟ .. ولكننى أدرى !

قادة وقدوة !

أتدرى يا فتى ؟ أتدرين يا فتاة ؟ ... لقد قالتها امرأةٌ

منذ أسابيع : « إن لى فى تحلّل الأخلاق فى البلدة أسوة ! » .

إنها معذرة امرأة ، ولكن فى الرجال من يعتذر عنها ، وإنهم لرجال !

ومن أين لها ولهم أن يعرفوا أن الأخلاق فى البلد منحلّة إلاّ من هذه الصور وتلك الفضائح التى تنشرها كثير من صحف الأسبوع ؟

وماذا تنشر صحف الأسبوع ؟

إنها لا تنشر صورة عم مبروك البقّال فى حى زين العابدين ، ولا نوادر حسين الجزار فى حى الذبح ، ولا طرائف حياة أسرة المعلم نافع فى حى بولاق ؛ ولكنها صور ونوادر وطرائف هذه الطائفة التى تعرف وأعرف من أسمائها وألقابها ومكانها فى الشعب من أهل القدوة والقيادة . . . . . .

هذه صورة بنت فلان باشا فى « وثبة رياضية رشيقة على حافة حمام السباحة » تُريك كل شىء منها ولا تُريك وجهها . . .

وهذه أخت السيد فلان ، تتوسط حلقة من أصدقاء أخيها تُراشفهم كئوس الأنس والترفيه . . .

وهذه ليس لها أب ولا زوج ولا أخ ، ولكنها صديقة كل ذى جاه ومال ، وإن لها سبباً إلى كل (بنك) ونسباً فى كل وزارة ؛ فهذه صورتها بين أصدقائها وصديقاتها . . . وهذه أخبارها ونوادرها . .

وهذا الباشا ، وهذا البك ، وهذا السيد ، وهؤلاء المترفّهون من أهل الجاه والرياسة فى المال والسياسة — هذه منازلهم ، وهؤلاء بنوهم وبناتهم ، فى شرفة السّباق ، وفى نادى الجزيرة ، وفى بهو الاستقبال ، وفى المطبخ ، وفى غرفة النوم ، وفى الحمّام أيضاً . . . . . .

وأين تكون القدوة وهذه هى القيادة ؟

لماذا لا يستترون إن كانوا لا يجدون سبيل الخلاص من هذه البليّة ؟ . . . أم تراهم لا يعرفون مكانهم من نفوس الناس إلا أن يظهروا لهم فى هذه البلية ؟ . . .

وتسميهم الصحف والمجلات « الطبقة الراقية » لتقدّم من أخبارهم ونوادرهم معذرةً تلتمسها (امرأةٌ) غلبها هواها على الدين والمروءة وحقّ الزوج والولد !

أزياء !

وقالت فتاة لفتاة : أقرأتِ يا أختاه ؟

قالت : ماذا . . . ؟

قالت : « كاتب محترم » يقترح على وزارة الشؤون الاجتماعية أن تحدّد للنساء زىّ الصيف وزىّ الشتاء ، وأن تفرض علينا أنواعَ الثياب وألوانها وأطوالها . . .

فضحكت الأخرى وقالت : وتزوّد كل رجل من رجال البوليس إلى جانب العصا والصفّارة بمتر أو مسطرة يقيس بها ثياب المارات من تحت إلى فوق ، ومن فوق إلى تحت ؛ فما تغنيه « النظرةُ » حينئذ فى تنفيذ القانون !...

قالت أختها : ويستعين بمن شاء من « أهل الفن » فى كل سبيلٍ مطروق على تحديد « اللون » و « النوع » حين يُشتَبَه له ، فإن لكل عارةٍ لوناً ونوعاً ، وفى كل مذاقٍ طعماً . . . . . .

فقاطعتها الأخرى : يالك من ساخرة ! وأين المذاق والطعم من ألوان الثياب وأنواعها وأطوالها ؟ أتعنين . . .

ومرّ بهما فتى يلبس « الشورت » وقد بدت الساق والركبة وصرّح صدرُه عن معناه ؛ واسترسلت الفتاة تقول : أعنى . . . . . .

ولكنها لم تكن تعرف ما تعنيه على وجه الدقة لولا أن نبّهها منظرُ ذلك الفتى العابر إلى معنى فيه ، فكأنما أذكرها من نسيان ؛ فعادت تقول : أعنى . . . أعنى لماذا يحاول الرجال دائماً أن يفرضوا سلطانهم علينا فيما لا يتصل منهم بسبب ؟ أيكون من حقنا — نحن النساء — قياساً

على « منطق الرجال » أن تختار لهم أنواع ما يلبسون من الثياب وألوانها وأطوالها ؟ . . .

... وقبل أن تجيب الفتاة أختها كان محرّر « المصوّر » يستمع إلى حديثهما ، فما إن سمع هذا السؤال حتى طار به إلى طائفة من قارئاته يستفتيهن ! واقتنص موضوعاً من « الشارع » نقل به معركة « الأزياء » من ميدان إلى ميدان . . .

وكانت « لجنة الاقتراحات » فى مجلس النواب تدرس اقتراح « النائب المحترم » لأزياء السيدات ومدى الانتفاع به ووسائل تنفيذه ! وكان « مجلس النائبات » فى مجلة المصوّر يقرر قراره بإجماع ستة آراء من « الجنس الناعم يحبذن ارتداء الرجال للشورت والقميص المفتوح » .

وقطعت جهيزة قول كل خطيب ! !

ومضى يومان ، ونشرت مجلة الاثنين فى العدد ٤٢٢ :

« يُخشى أن تتطوّر موضة الشورت تطوّراً خطيراً ! فقد دخلت إحدى السيدات المصريات فى نادٍ معروف وقد ارتدت بنطلوناً قصيراً (شورت) أسوة بالرجال ! وقد قوبلت هذه الموضة الجديدة ، بالهزء والزراية والاستخفاف ! ! » .

والبقية تأتى ....

أعراض وأمراض !

نمت متعباً وصحوت متعباً ، وحاولت أن أزايل فراشى فما أطقت ! وتناولت « الأهرام » أتخفف بقراءته من بعض ما أحس من الضجر وثقل النفس ! واسترعانى عنوان « المرض الجديد ووسائل علاجه » للدكتور كامل يعذرب . . وقرأت :

« وتنحصر أعراض هذا المرض بالإيجاز فيما يأتى : الدوخة ، واضطراب البصر ، وظلمة العينين ، وزيادة ضربات القلب ، والهبوط فى الدورة الدموية ، والشعور بضيق وعُسر فى التنفس ، واحتقان فى الدماغ ، وصداع ، وآلام ، و ، و ، و . . . » .

وتصبّب العرق من جبينى ! ماذا ؟ لكأنما يشخّص هذا الطبيب دائى ! إنى لأحس كل ذلك فى جسمى وفى نفسى وأعصابى ! وإنه لمرض خطير على ما يصف واصفُه !

هأنذا أتحسس أطرافى ، وأعد نبضى ، وأختبر قوة نظرى بالتحديق ، وقوة سمعى بالصمت ! فأحس دواراً فى الرأس ، وسرعة فى النبض ، وضيقاً فى الصدر ، وبهراً فى التنفس ! فلولا أن الفراش يُمسكنى لهويتُ مغمياً علىّ ! ونادتنى ابنتى فنظرت ، وكأنى لم أر ، وكأنى لم أسمع ! وقلت أحدّث نفسى : لكِ الله يا ابنتى ولأخويك بعد أمك وأبيك ! !

وفررت من دارى لأشكو همّى إلى أول مَنْ ألقاه من صحابتى ، فإذا هو يسبقنى إلى الشكوى من مثل ما بى ، وابتسمتُ ابتسامة الحزين أحاول أن أسرى عنه ، فإذا دائى يعاودنى ! ونظر فى يدى ونظرت فى يده ، فإذا « الأهرام » فى يدى وفى يده ! وقلت له أحاول أن أخدعه وأخدع نفسى : « إن المرض هنا يا صديق — فى هذه الورقات — لا فى رأسك وصدرك ! » ، فابتسم ولم يجب ، ومشينا صامتين ! ولقينا صديق ، وأردف التحية بالشكوى ! وابتسمتُ وابتسم صاحبى ، وخفّ بعض ما بى ، وأحسست نشاطاً يدبّ فى أعصابى ، ومشينا ! ولم ألق صديقاً فى ذلك اليوم إلا شكا إلىّ أو همّ أن يشكو ! وبرئت من دائى قبيل المساء ، وأصبحت نشيطاً معافى . . . .

وسألنى صاحبى فى الغداة : كيف أصبحت ؟

قلت : أوه ! لا تذكّرنى يا صديق ، إن بعض المرض يخفّ بالنسيان !

قال : نعم ، وإن بعض الأصحاء لمرضون من حديث بعض الأطباء ! !

« قاف »

من هنا وهناك :

عند ما تتطاحن العقول

كان قضاءً عجيباً ذلك الذى جعل اختراعا واحداً يتحكم فى مصير أمم العالم فيرفع بعضها ويذل بعضها لمدة من الزمن تقرب من ربع قرن . عجيب حقا هذا القضاء الذى أوحى بشعاع ضئيل خافت فى جو معتم بضباب اليأس ملىء بالعواصف والزوابع ، فأصاب عقلا نيّرا وتفكيرا مرتبا سرعان ما استغله استغلالا حسنا ، فتبدد الضباب ، وانقشع الظلام ، وهدأت العواصف والزوابع ، ثم .. انقلب اليأس إلى رجاء ، وتحولت الهزيمة إلى انتصار . تلك صفحة لا تنسى من تاريخ الحرب الماضية تغلب فيها الحق على الباطل وانتصر العدل على الظلم .

* * *

يقول المؤرخ الانجليزى « فرود » فى حديثه عن سيادة انجلترا فى البحار : « جردها من أسطولها التجارى ومن الأسطول الذى يحرسه ، تتلاشى امبراطوريتها ، وتتساقط مستعمراتها كأوراق شجرة ذابلة ، وتغدو مرة أخرى جزيرة لا أهمية لها فى بحر الشمال » . وكان طبيعيا أن تفطن ألمانيا لهذه الحقيقة وتؤمن بها ، فتعمل على تقطيع شرايين الأمبراطورية البريطانية بقطع مواصلاتها الحيوية ؛ فاتخذت من فتك الغواصات فى الحرب الماضية عمادها الأول ، وعلقت عليه معظم آمالها لاحراز نصر سريع باهر . وكادت تفلح ... لولا مساعدة أمريكا وفرنسا ، ولولا ظهور اختراع فتاك أنقذ بريطانيا فى الوقت المناسب .

نعم ، إن ألمانيا كادت — بفضل غواصاتها — تنتصر فى منتصف عام ١٩١٧ .

ربما قيل إنه أمر مبالغ فيه ، وربما كذّبه فريق من المتحيزين لانجلترا أو لحلفائها ، ولكن هناك وثائق رسمية تدعم ما أقول . وها كم الاثبات .

فى اليوم السادس والعشرين من شهر أبريل ١٩١٧ أرسل الأميرال جيليكو Jellicoe (وكان فى ذلك الوقت القائد الأعلى للقوات البحرية الإنجليزية) تلغرافا لاسلكيا إلى واشنجطون يقول فيه ما نصه :

« ... ومن الواجب عليكم أن تبينوا للدوائر الأمريكية العليا مركزنا الحرج الدقيق فى المحيطات . فقد ذهبت إلى قاع البحار فى الأسبوع المنصرم خمس وخمسون من بواخرنا كانت تزيد حمولتها على مائة وثمانين ألف طن . إن المتوسط الشهرى لخسارتنا لا ينقص . بل على عكس ذلك فإنه فى ازدياد دائم . أرجو أن تضعوا المسألة الحربية نصب أعينكم وأن تعيروها اهتمامكم الأول . فمركزنا الخطير يحتاج إلى مساعدة منكم سريعة فعالة . وتوجد لدينا وسائل حربية جديدة لا يمكن استخدامها قبل شهر يوليو القادم . وإلى أن يحين هذا الوقت أسعفونا بكل قواكم ... »

وكل بلاغ يحتمل الكذب والصدق . ولكن أمراً خطيراً كهذا لا يمكن أن يكون مختلقا ، ولا يمكن أن يتطرق نحوه شىء من الشك مهما كان ضعيفا .

وهناك رسالة ثانية أهم من هذه كانت أشد وقعا لدى أمريكا وحكومتها ، وأثارت موجة من العطف الشديد نحو الانجليز . هذه الرسالة أرسلها المستر بيج Ms.Page ، وكان يشغل منصب الوزير المفوض للولايات المتحدة فى لندن ، وقد بعثها فى اليوم التالى للرسالة اللاسلكية التى كان أرسلها جيليكو إلى واشنجطون ، وها هى الترجمة الحرفية لرسالة بيج :

رسالة سرية جداً إلى سكرتير الدولة ورئيسها

بالولايات المتحدة — أمريكا

« إن نجاح الغواصات الألمانية فى ازدياد مستمر ،

ويسبب في هذه البلاد قلقاً شديداً . ولقد علمت من مصدر رسمي موثوق به أنه فيما بين يومي ١٥ ، ٢٢ من شهر أبريل قد أغرقت ثمان وثمانون باخرة إنجليزية وفرنسية ومحايدة ، ويربو مجموع حمولتها على ٢٣٧٠٠٥ من الأطنان ، فإذا استمرت الأحوال بهذه الكيفية وعلى هذا المنوال إلى الخريف صارت البحار خالية تماما من بواخر الدول المتحالفة المتحاربة . إن خسارتهم تربو على مليون من الأطنان في الشهر الواحد ، وهي — كما ترون — خسارة فادحة . ولقد اتصلت أمس برئيس مجلس الوزراء وبباقي أعضاء الحكومة الإنجليزية فرداً فرداً ، فعلمت أن الكمية الغذائية للشعب الذي البريطاني في أنحاء الجزر لن تكفي لمدة شهرين ابتداءً من هذا التاريخ . وفي اعتقادي أن الزمن الذي نجتازه هو أحرج وأخطر زمن للحلفاء . ولا يسعني والحالة كما بينت إلا الإلحاح الشديد في طلب معونة بلادنا الغنية . ونحن في انتظار ثلاثين مدمرة أو أكثر لمكافحة خطر غواصات الأعداء المتزايد ... »

هاتان الرسالتان على ما فيهما من خطورة ورغم ما تحتويان من أسرار دولية كانتا تظهران حرج الموقف ودقته . فقد نجحت الغواصات الألمانية في منع وصول المؤن والأقوات إلى الجزر البريطانية ، فباتت في شبه مجاعة تهدد كيانها وتهدم من أركانها .

والحق يقال أن الألمان في هذا الوقت كانوا يسيطرون على الموقف في البحار ، وكانوا — كما قلت سالفا — في طريقهم إلى النصر . ولم تمض بضعة أيام على هاتين الرسالتين حتى وصلت إلى واشنجطون رسالة ثالثة من الأميرال الأمريكي وليم سمز William Sowden Sims القائد الأعلى للقوات البحرية في أوربا يقول :

« تسير الحالة من سيء إلى أسوأ . فبعد أن كانت دقيقة في الأيام الماضية أضحت الآن حرجة ، ولم تعد فائدة من كتمان الحقيقة المرة : أن العدو في طريقه إلى النجاح ! ولا نشك مطلقا أن الفوز سيتحول من كفتهم إلى كفتنا إذا ما أسرعتم في إرسال قوات بحرية أمريكية لمساعدتنا . أما الآن وفي الوقت الحاضر فإننا نخسر الحرب » .

إن خطابا كهذا من قائد من أعظم قواد البحرية له ولا ريب خطورته . ومن غيره كان أعلم بأسرار البحرية وأدرى بتطوراتها ؟ . . . وتتبعت الولايات المتحدة تلك الحرب القائمة بقلوب واجفة . فقد كانت تناصر إنجلترا لا لمتانة القربى بينهما ، أو لاتحاد لغتهما وتجانس ثقافتهما ، أو لتشابه نمط الحكم فيهما فحسب ، بل تتبعتها خوفاً على كيانها وحفظاً على مستقبلها واستقلالها ، إذا قدر لألمانيا النصر ، وكتب لها الفوز .

ولما وردت تلك الرسائل الثلاث تجلى شعور عطف الحكومة نحو أصدقائها ، ونشطت الدعاية في إبراز هذا الشعور حتى عمت البلاد ، وسرعان ما تأثر به الشعب وأظهر رغبته في خوض غمار الحرب . وكادت الأمنية تتحقق لولا وقوف « وودرو ولسن » رئيس الولايات المتحدة في سبيل تحقيقها ، فحال رغم ميوله وتمنياته بين الشعب وبين الحلفاء في تضامهم ، لا لشيء سوى نفوره من الحرب وخشيته من عواقبها وصوناً لأمريكا من ويلاتها .

وتصام ولسن من رغبات رعيته ، ولم يسمح لها بأن تشتط أو أهوائها . وعندئذ وصلته رسالة رابعة كان مصدرها مستر سمز ، وكانت الأخيرة من هذا النوع .

قال : « لقد فرغت الآن من إصدار أمر إلى جميع بواخرنا — نظراً لظروفنا الحاضرة — بخفض سرعتها إلى الخمسين . إن كميات الزيت لدينا أخذت تتناقص »

والرسالة حاشية من جملة واحدة مختصرة في كلماتها رهيبة في معناها : « إن ألمانيا تنتصر » .

ورغم ذلك فإن ألمانيا — كما نعلم — لم تنتصر ، لأنه كان في جيش الحلفاء رجال ذوو شجاعة لا حد لها يفضلون الموت على الهزيمة والاستعباد ...

مصر والســـــودان

فى أوائل عهد الاحتلال

كتاب جديد ألفه الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى

فى التعريف بالكتاب يقول المؤلف بمطلع المقدمة : « يشتمل هذا الكتاب على تاريخ مصر القومى مدى عشر سنوات، من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ ، وهى السنوات الأولى للاحتلال » . وقد قسم مؤلفه هذا اثنى عشر قسما أو فصلا أردفها بفصل ثالث عشر أفرده للوثائق التاريخية الهامة المرتبطة بالكتاب .

والكتاب من مؤلفه لا يستغرب ، فهو حلقة من سلسلة تاريخ الحركة القومية المصرية الذى اضطلع الرجل بعبئه الرهق ، وهو مظهر للروح الذى نعرف من الرجل ، والذى ينتظم بقية حلقات هذه السلسلة الذهبية ، بل ينتظم كذلك مؤلفاته الثلاثة الخارجة من هذه السلسلة كما تنبئ عنوأناتها وهى : « حقوق الشعب » و « الجمعيات الوطنية » و « نقابات التعاون الزراعية » ؛ فليس الروح الغالب على هذا الكتاب الجديد إلا روح الدفاع العلمى التاريخى ، المستند فى الوقت عينه إلى عاطفة صادقة ، عن حقوق الشعب المصرى فى شئونه الداخلية والخارجية ، وعن مصالحه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، دفاعا مؤتلفاً بالتوجيه الاصلاحى المؤثر .

وليس فى مقدورى أن ألخص الكتاب ، ولا أن أحصى المواضع التى أثارتنى إثارةً خاصة لهذا السبب أو ذاك ، ولكنى أحاول الوقوف عند بعض المواضع وقفاتٍ لن تنجو من عيوب العجلة .

— ١ —

تزدحم صفحات الكتاب بمعلومات تاريخية فى الدرجة الأولى من الأهمية علمياً ووطنياً أو وطنياً وعلمياً ، ومع ذلك فانى أسجل على نفسى الجهل بكثير منها ، ولو كان شركائى فى هذا الجهل قلائل لهان الخطب ، ولكنه مع الأسف الشديد غير هيّن ، فقد آن إذاً أن نخص برامجنا التعليمية خصاً عتيداً ، وآن إذاً أن نزيد عنايتنا فى معاهدنا بالتاريخ القومى الحديث .

إنى أختار هذه الأمثال أسردها سرداً :

١ — « يرجع إنشاء المحاكم الأهلية إلى عهد وزارة شريف باشا الثالثة ، قبل الاحتلال ، فنى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، صدر القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهى تتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى الحالى ، ومنها ... إنشاء محكمة ابتدائية فى كل من مصر والاسكندرية ، وفى كل مديرية من الوجه البحرى والقبلى وفى السودان وباقى ملحقات الحكومة المصرية ، وإنشاء محاكم جزئية ... ومحكمتين استئنافيتين بمصر وأسيوط ومحكمة نقض وإبرام بالقاهرة ... ، ومنها عدم جواز عزل قضاة المحاكم ، إنما يكون للحكومة حق استبدال من ترى فيه عدم اللياقة والاستعداد فى أثناء السنوات الثلاث

لم تنتصر لأنه كان فى الجيش جنود ذوو عزائم جبارة لا يهابون الموت فى سبيل إعلاء كلمة الوطن والحق ... لم تنتصر لأن كل رجل وكل جندى كان صورة مصغرة « لجوفر » و « كامبل » و « دوف » ...

وأخيراً انهزمت ألمانيا بجيوشها الجرارة ، لأن القضاء أوحى بفكرة عظيمة إلى أحد العلماء ، فاستغلها وأظهرها فى صورة سلاح كان هو القاضى على الغواصات ، فأرسل معظمها إلى حيث لا رجعة لها . فتطهرت البحار من بعدها ، وزالت عقبات نقل البضائع والمهمات والجنود .

تلك الفكرة الغريبة ، وذلك الاختراع العجيب يتمثلان فى « المركب حرف ق » Q—Boat وهو عنوان الموضوع الآتى إن شاء الله .

محمد أحمد أمين

الأول من تاريخ تعيينه ، وعدم نقل القضاة من محكمة إلى أخرى إلا برضاهم وبمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية بناء على طلب وزير الحقانية وبعد أخذ رأى محكمة النقض والابرام » . (ص ٥٧ و ٥٨) .

ب — « كان التعليم إلى سنة ١٨٨٢ مجانياً فى أقسامه الثلاثة : الابتدائى والثانوى والعالى ، وكانت العلوم تدرس باللغة العربية إلا فى مدرسة الحقوق . » (ص ٢٠٣ و ٢٠٤) .

ج — اشتهر موقف شريف باشا الوطنى ، ولكن قليلاً منا من يذكر نص استقالته ، ويعنى بالناحية الدستورية الرائعة فى قوله : « ولا يخفى أن هذه المقترحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ التى نص فيها على أن الخديوى يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار ، فبناء على ذلك نضطر هنا إلى أن نطلب من مقامكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية » (ص ١٢٥ و ١٢٦) .

د — كان وزير الداخلية فى وزارة نوبار التى خلفت وزارة شريف باشا ، رجلاً يسمى محمد باشا ثابت ؛ وكان وكيله رجلاً يسمى كليفورد لويد ، فاستقال الأول غير محتمل غطرسة الثانى وعدم اعتداده بسلطة الوزير ، وقال فى كتاب استقالته : « إنى قبلت الانتظام فى هيئة الحكومة تحت رئاسة دولتكم ، على أمل أن أقوم بخدمة وطنى العزيز الذى نشأت فيه وربيت ، ولكنى بالنظر للأسباب التى أوضحتها شفاهاً لدولتكم رأيت أن آمالى قد خيبت وأن ليس فى الإمكان تحقيقها ، لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، وفضلا من ذلك علمت من قرائن الأحوال ، أن ليس فى وسعى المحافظة على شرف المصلحة فيما بعد . » (ص ١٧٨) .

هـ — وهذا الوكيل نفسه يذيع عنه أنه يعذب المسجونين فى سجونهم ؛ ويحاول النائب العام مستر مكسويل تحقيق هذه الاشاعة ، فيمنع بأمر هذا الوكيل من دخول السجن (ص ١٧٩) .

و — النزاع الدبلوماسى الفرنسى — المصرى بسبب إغلاق الصحيفة الفرنسية المسماة (البوسفور اجيبسيان) ص ١٨٤ — ١٨٦ .

ز — ميثاق النزاهة الذى أمضاه سفراء انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجر والروسيا وإيطاليا (ص ٢٤٥)

ح — الإشادة ببطولة الأبطال من أمثال عبد القادر باشا حلمى ومحمد بك توفيق (ص ١٢٧ ثم ١٣٧) .

— ٢ —

ويمضى المؤلف فى كتابه فتحس بتوجيهاته الوطنية والاجتماعية والاقتصادية العلمية ، دون أن يحاول هو الضرب على هذه النغمات ، لأن إشارته قوية على إيجازها ، أو لأن الحادثة المروية هى فى ذاتها أقوى من أن تفتقر إلى كلام . وهنا أيضاً أسرد الأمثال :

ا — يقول المؤلف فى تصوير الوطنية وعلاقتها بالفضائل :

« وهبط مستوى الوطنية فى النفوس هبوطاً كبيراً ظهر أثره على مدى السنين ، وتحللت الأخلاق والفضائل ، ففسدت النفوس ، والتوت الضمائر ، وفشا الجبن والنفاق ، والذل والرياء ، وعمت النفعية والأنانية ، وتضاءل الخير ، وقل البر والعطف والإحسان ، ونقص الوفاء والإخلاص ، وانعدمت الكرامة والمروءة ، ولا غرابة فى هذه النتائج ، فالنفوس إذا فقدت الوطنية ، فقدت معها الأخلاق الكريمة ، لأن الوطنية ، إلى جانب الدين ، منبع الأخلاق والفضائل » (ص ١٩٨) .

ب — ينوه المؤلف فى مرارة بانتشار الربا « انتشاراً

ذريعاً » ثم يقول : « وساعد على ذيوعه ما فطر عليه معظم الطبقات من قصر النظر ، وعدم تقدير العواقب ، وحب الظهور والإسراف ؛ ووجد المرابون من هذا الضعف ، ومن النظم والقوانين ، ورعاية المحاكم المختلطة ، ما جعلهم يتغلغلون في مختلف الأوساط ، في العواصم والبنادر الخ » (ص ٢١٥) .

ثم يومىء في الصفحة التالية إلى حديث للأمير حسين كامل من الفلاح ، قال فيه : « وهو لكي يسد حاجات زراعته في مواعيدها مضطر دائما إلى الاستدانة بالربا الفاحش » .

وهذا الالتفات مفهوم جيداً من مؤلف « نقابات التعاون الزراعية » وصديق المرحوم الأستاذ عمر بك لطفي .

جـ — يقول المؤلف في شرح أسباب الثورة المهدية : « لقد كانوا — يريد حكام السودان — خليطاً من الترك والشراكسة أو المصريين ، وكانوا كلهم سواء في إرهاق الأهلين ؛ هـذه حقيقة قد نشعر بالمرارة إذ نقررها ، ولكنها الحقيقة الواقعة التي لا يجوز أن نتجاهلها ، بل علينا أن نعترف بها ، وأن نستخلص العبرة منها ، فلو أن كل موظف مصري يشعر بأن عليه واجباً قوميا لمنصبه وبلاده ، ويؤدي هذا الواجب بأمانة واستقامة ، لكان ذلك من عوامل عظمة مصر وسعادتها » (ص ٩٨) .

— ٣ —

ومن فضائل الكتاب امتلاؤه بشذرات النصوص الهامة خلال بحوثه ، فضلا من الوثائق الكاملة التي أفرد لها الفصل الأخير . ولقد سلفت إشارة إلى نص استقالة شريف باشا ، ونص استقالة محمد باشا ثابت ، فلأضف على سبيل التمثيل نص إقالة الخديوي توفيق لوزارة نوبار باشا (ص ١٨٧) ونص الخطبة الافتتاحية لأول جمعية عامة لقضاة محكمة الاستئناف ، تلك الخطبة التي ألقاها رئيسها إسماعيل باشا يسري ، وسجل فيها هـذه الكلمة أو الحكمة : « سادتي : لا تحسبن الظلم منحصراً في أخذ المال من يد مالكه بغير حق ، بل يعم من لم يستخلصه من يد الظالم ، ويرده للمستحق ؛ فالتعاون على إقامة الحق من أعظم الواجبات ، وإنصاف المظلوم من الظالم من ألزم الحقوق ، قد اجتمعنا لشروع عما نيط بنا من هذا العمل الجسيم ، فعلينا أن نتعاضد على إنجازه على الوجه المستقيم » (ص ٦٦) .

— ٤ —

وإذا جاز لي أن أختم كلمي بإبداء بعض ملاحظات فإني أسجل ما يأتي راجياً أن أكون أنا الذي فاتني بعض الأمر تخيل إلي أن ثمة ما يستوجبها :

ا — تناول المؤلف الكلام في فصل شائق عن « النتائج العامة للاحتلال الأجنبي » — الفصل ١٢ من ص ١٩٧ — ٢١٦ .

ولست أدري لماذا خلا الفصل المذكور من الكلام عن أثر الاحتلال في القضاء . إن الكتاب يعرض المحاكم الأهلية بالفصل الرابع ، ولكنه لم يتناول العلاقة بين الاحتلال والقضاء بوجه عام وفي مختلف جهاته ، ولا نجد شيئاً يتصل بهذا الأمر إلا قول المؤلف (ص ١٩١) :

« وفي عهد رياض باشا صدر المرسوم الخديوي بتعيين مستر جون سكوت مستشاراً قضائيا لوزارة الحقانية ، وكانت مهمته السيطرة على وزارة الحقانية ، وزيد عدد المستشارين الانجليز في محكمة الاستئناف الأهلية . »

وهنا نلمس فراغاً آخر ، فقد كان من الخير أن يتولى المؤلف بتحقيقه الدقيق ، بيان مؤهلات وكفايات ومزايا أولئك المستشارين والقضاة الانجليز واحداً واحداً ، لنعرف البواعث التي كانت تسيطر على اختيارهم ، ومدى الاعتبار

السياسى من جهة والاعتبار الشخصى المحلى من جهة أخرى فى تلوين ذلك الاختيار . لقد كان من أولئك القضاة الانجليز رجال متميزون بالعلم والعدل والنظام مثل بوند وهالتون ، ولكن هل كانوا جميعاً كذلك ؟ إن كثيراً من أسمائهم ما زال حقلا بكراً للبحوث ، فقد قيلت الأقوال فى سبب تعيين « دابراوفلو » وقيلت الأقوال فى مدى كفاية « ويلمور » الذى عزى إليه وضع تقرير طلب فيه إحلال اللغة العامية مكان العربية ، وظلت أسماء أخرى مجهولة الصفات مثل « الستون » و « ساتو » ، فهل تظفر هذه المسألة فى عمومها أولاً ، ثم فى أفرادها ثانياً باهتمام مؤرخنا الكبير ؟ لنشكونَنَّ إذاً تحية أخرى إلى جوار التحية المباركة التى توجّه بها فى مطلع الفصل الرابع إلى القضاء الأهلى

ب — عرض المؤلف فى المقدمة (ص ٤) لمجلس شورى القوانين ، فقال إنه « بقى فى السنوات العشر الأولى للاحتلال خاضعاً مستسلماً ، وظل موقفه طوال هذه السنوات سلبياً محضاً ، ولم تبدُ منه ظواهر تدل على الحياة والوجود ، واقتصر عمله على النظر فى المشروعات التى كانت الحكومة تعرضها عليه ، وإبداء مقترحات لا تحفل الحكومة بها ، ولم يكن له أى أثر فى تطور الحوادث ، وتعاقبت الأحداث الجسام ، دون أن يسمَع له صوت ، أو يحرك ساكنا للدفاع عن حقوق البلاد ، وكان أعضاؤه يعدون أنفسهم موظفين لدى الحكومة ، ليس لهم أن يحاسبوها أو يراقبوها ، فيما تفعل وتقرر ، وبقى المجلس خلال هذه المدة لا عمل له ولا وجود ، وكذلك شأن الجمعية العمومية » .

ولولا عبارة « فى السنوات العشر الأولى » لاستشكلت على المؤلف عما جاء فى ص ٢٠٤ من كتابه عينه ، وهو جزء من تقرير لجنة المراقبة بالمجلس المذكور ، فإن العبارات المنقولة تنبىء بتفكير وحيوية وعناية فى البحث ، والتفات حسن إلى المصلحة العامة . وأنا أقتبس من تلك المقتبسات ما يأتى : « إن نشر التعليم قد تقهقر تقهقراً كليا عما كان عليه قبل ذلك ، ويحسن بنا أن نقول : إن القابضين على زمام نظارة المعارف العمومية وإدارتها ، قد سعوا بكل اجتهاد إلى طرق تقليل التعليم وسدّ أبوابه بكل حيلة فى وجوه الأمة الخ » .

نعم ؛ ولكن هذا التقرير قدم فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ أى فى السنة الثانية عشرة ، تخرجت العشر السنون الأولى !

نعم ؛ ولولا هذا التحفظ أيضا لأشرتُ إلى الفضل التشريعى للمجلس المذكور فى تعديل قانون العقوبات سنة ١٩٠٤ ، فإن حسن التفاته قد أنتج تعديلات هامة يتصل بعضها بالمصلحة العامة ، فهو — مثلا — الذى طلب إضافة فقرة إلى مادة القذف ، تقرر أن « الطعن فى أعمال موظف عام أو شخص ذى صفة نيابية عامة ، أو مكلف بخدمة عامة ، لا يدخل تحت حكم هذه المادة إذا حصل بسلامة نية ، وكان لا يتعدى أعمال الوظيفة أو النيابة أو الخدمة العامة ، وبشرط إثبات حقيقة كل فعل أسند إليه » .

ومع ذلك فإن علينا أن نذكر « السلطات » الضيقة التى لم يخول القانون النظامى غيرها لمجلس الشورى وللجمعية العمومية ؛ إننا نقرأ هذا القانون النظامى فى فصل الوثائق من الكتاب ، فنحس التضييق الخانق ، ونتردد كثيراً فى أن نتابع المؤلف فى انتقاداته للأشخاص المكبّلين قبل أن ننتقد البنيان الذى كبّلوا فيه . ولست أدرى أيكفى لانصافهم إجراء الموازنات ؟ إن الأستاذ المؤلف أقدر منى على تقرير الحكم ، فهل هو مستعد لتعديل حكمه القاسى ؟

ج — ونحن فى مقام محاكمة وعدالة ، لا يكون غريباً أن نقفز من إنصاف الهيئات إلى إنصاف الفرد ؛

لقد أنصف المؤرخ رياضاً باشا حين أورد ما له وما عليه : لقد آخذه بقبوله تعيين مستشار قضائي لوزارة الحقانية وغير ذلك ؛ ولكنه لم ينس أن يسجل له إلغاء العونة وإلغاء « قومسيونات الأشقياء » والاتفاق مع الدول على خفض فائدة الدين العام (ص ١٩٠ — ١٩٣) ، فهل نجد قريباً من هذا الروح حين الكلام عن خلف رياض ، نعني مصطفى باشا فهمي ؟ يكفي أن نقول إن القارئ يحس وهو يتلو ما أورده المؤلف بشأن هذا الوزير بعد الكلام عن وزارة نوبار باشا أنه — أي مصطفى فهمي — كان أسوأ بكثير من نوبار ، في حين أنا نتقهقر قليلا من الصفحات ، فنرى المؤلف يقول إن نوبار كان « الوزير الوحيد الذي قبل تشكيل الوزارة عقب استقالة شريف باشا التاريخية » (ص ١٨٨) . ومعنى هذا أن مصطفى فهمي لم يقبل ما قبله نوبار ، وهو لم يشارك نوبار في الحكم إلا بعد تأليف وزارته بثلاثة أعوام حين استقال البطل عبد القادر باشا حلمي من وزارتي الحربية والداخلية ، تخلفه فيهما مصطفى باشا فهمي . وإذا كان المؤلف قد أحصى لوزارة رياض باشا مآثر كثيرة ، فلا ننس أن مصطفى فهمي كان أحد أعضائها ، منذ تأليفها إلى استقالتها .

وبعد فإني لست مديناً لأستاذي الرافعي باشا بهذه المعلومات الثمينة فحسب ، ولكني مدين له أيضاً بهذه المتعة العقلية والروحية التي ظفرت بها وأنا أقرأ كتابه والتي سأظفر بها كلما أعدت قراءته .

عبده حسن الزيات

المحامي

من غربة الروح :

غريب !!

شعر عبد الرحمن الخميسي

هات السُّلاف وزدنى   من أدمع الكرم زدنى
فى الاغتراب شُجُونٌ   والخمر تذهب حزنى
أنا الغريبُ وشأنى   فى الكون أسوأ شأن
ليس الوجودُ مقرّى   وليس فى الناس خِدْنى
ما عُدْتُ أسمعُ إلا   صوت الهزار المُغنى
فوق الغصون الهوانى   يرقص غصناً لغصن
وقت الصباح الموشّى   بالنور بستانَ فنى
هات السلاف وزدنى   من أدمع الكرم زدنى

إن دوّت الريح ليلا   مثل الرعود بأذنى
وقهقه الجو برقا   خلال صفحة دجن
يبدُ الظلامُ جميلا   فى عين كلِّ مغنٍّ
هات السلاف وزدنى   من أدمع الكرم زدنى

كل الطبيعة سكرى   فاملأ من الخمر دنّى
واترك لعمرك شعرى   ينبع زلالا لكونى
ينساب فكرى سيولا   رقراقة ذات حسن
وأنغمُ الشعر سحراً   ما كان يطرق ذهنى
هات السلاف وزدنى   من أدمع الكرم زدنى

أغنية الصباح

تنفّس الفجرُ يا حبيبى   مُعطّرَ النّسمِ والوشاحِ
وراحتْ الطيرُ فى الكثيبِ   تذيعُ أغرودةَ الصّباحِ
وزيّن النّورُ فى الرّوابى   مراشفَ الزّهرِ والغصون
وأذهبَ الحسْنُ كلَّ ما بى   من التباريح والشجون

دُنيا من السّحرِ والجمالِ   يا طيبَها لو خطرْتَ فيها
ترفُّ منكَ المنى حيالى   وخفقةُ القلب ترتجيها

يا فتنةَ الرُّوحِ والضّميرِ   تعالَ نخطرْ على الوهاد
نَعُبُّ من خمرةِ السّرورِ   ما يطفىء الشوق فى الفؤاد

غيمة

تخف إلى صدر السماء غيمة
رمادية الأصابع من كف راهب
تشق عباب الجو حيرى كأنها
سفينة وهم فى خواطر كاتب
يناديها فجرٌ نَدِىٌّ منور   ويطلقها فى أرجوان المواكب
وترضعها مسفوحها الشمسُ وقتا
تريق دماها فوق هام المغارب
وترقبُ دمع البدر فى كلِّ ليلةٍ
لتسبح فى نهر من النور ذائب

عبد الرحمن الخميسى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكردانى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٧ — الثلاثاء ١٤ من رجب سنة ١٣٦١ — ٢٨ من يوليه سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

أمريكا فى الحرب

للدكتور محمد عوض محمد

كان من نعم الله على أمريكا أن يفصلها من سائر العالم محيطان عظيمان بَعُدا بينها وبين ما يكتسح سطح الأرض من شرور وأهوال، وما يراق فيه من دماء، وما تفنى فيه من أرواح. واطمأن سكانها إلى ما وفرته الطبيعة من أسباب الأمن والهدوء، فعشقوا السلم وحياة السلم، واتخذوا من نعيم الحياة فنا جميلا، بالغوا فى إتقانه وأسرفوا فى التمسك بأهدابه. وخافوا أن ينبههم من لذة التفاؤل هذه حادث أو داعية متشائم، فبادروا بقطع كل علاقة سياسية تربطهم بالعالم، وأقبل دعاتهم يملأون الجو بأن أمريكا فى خير، وأن من المستحيل أن تمتد إليها يد العدوان. وقد كانت الصحف الأمريكية تفد إلينا حتى الربع الأخير من العام الماضى، وقبيل العدوان اليابانى، مملوءة بما يسكن الخواطر، ويملأ النفوس أمنا واطمئنانا.

واليوم يصل إلينا البريد الأمريكى ممتلئا بالحرب وأنبائها وما تثيره من مشاكل خطيرة لا بد للنهوض بها من مجهود جبار لم يعرف العالم له نظيراً. ونريد فى هذا المقال أن نعرض لطائفة من المقالات التى تصف أمريكا، وهى تضطلع بعبء الحرب. لكى نستنبط منها صورة تلك الأمة العظيمة، وهى تواجه للمرة الأولى فى تاريخها عدواناً قوياً عنيفاً.

كان أول أثر ظهر على الشعب الأمريكى بعد العدوان اليابانى، هو الدهشة. وسرعان ما زالت الدهشة، وحل محلها الغضب، ثم العمل على دفع العدوان، والتأهب للقتال.

ولكن ما يكتبه كثير من الأمريكيين يشعرنا أن روح التفاؤل القديمة لا تزال تعطل الإنتاج الحربى،

وتقف عائقاً دون بذل أكبر مجهود تستطيعه أكبر وأغنى دولة فى العالم . وقد انتشرت فى أمريكا فى مارس الماضى مقالة لصحفى عظيم عنوانها « استيقظى أمريكا » يقول فيها : « لا تزال الأمة فى حاجة شديدة لأن تنتبه إلى الخطر الداهم ، وما ينطوى عليه من شرور . إنها فى حاجة لأن تدرك أننا إلى اليوم قد هزمنا شر هزيمة ؛ فى حاجة لأن تدرك أن الولايات المتحدة قد تخسر هذه الحرب ، وتقاسى مثل ما قاست فرنسا ، وأن هذه النتيجة المحتملة ، قد تصبح مرجحة ، إذا لم يتغير التيار الذى تسير فيه البلاد اليوم . فالأمة فى أشد الحاجة لأن تتخلص مرة واحدة من ذلك الشعور المخدر بأن أمريكا وإن خسرت الحرب أولاً ، فإنها لا شك ستنتصر أخيراً » .

وهكذا يمضى الكاتب فى توجيه النقد اللاذع لكل هيئة أو جماعة يبدو فى نشاطها أقل قصور عن المستوى الأعلى الذى لا بد من بلوغه لتعويض ما مضى من إهمال وإغفال . ويذهب كثير من الكتاب هذا المذهب فى النقد الجرىء اللاذع . ولكن هذا المقال وأمثاله إن دل على شىء ، فإنه لا يدل على تقصير شديد فى الانتاج والمجهود الحربى ، بل يدل على أن روح الطموح والجد عند الأمريكيين قد بلغت من العنف بحيث لا يمكن أن يرضيها إلا أن تطالب الزيادة الدائمة والتفوق المستمر .

ولا بد فى بلاد تدين بحرية الرأى — حتى فى أحرج الأوقات — أن تظهر فيها أمثال هذه الصيحات . ولكن هنالك مقالات أخرى تصف المجهود الضخم الذى يبذله الشعب الأمريكى فى الانتاج الحربى ، والتضحيات العظيمة التى يبذلها عامة الناس فى أمة اعتادت عيش الراحة والاطمئنان . فقد حرم على كثير من الناس ركوب السيارات بسبب قلة المطاط . وذلك فى بلد تعد فيه السيارات من الضروريات لا من الكماليات . وأخذ الناس يركبون أقدامهم أو الدراجات عن رضى وارتياح .

وأخذت مصانع السيارات تعمل للحرب وحدها وتضاعف إنتاجها ، وأنشئت مصانع جديدة فيما يشبه لمح البصر . وأصبحت مدينة «ديترويت» التى كانت منصرفة فيما مضى لانتاج السيارات وحدها ، قادرة على إنتاج المدافع ، ومحركات الطائرات .

ولعل أكبر مشكلة فى الانتاج تعانيها الولايات المتحدة اليوم ، هى مشكلة المطاط ، فان هذه الدولة — الغنية ، بل المفرطة الغنى ، فى المواد الزراعية والمعدنية ، كانت دائماً فى حاجة إلى المطاط يأتيها من أرض غير أرضها ، وكان سبعة وتسعون فى المائة مما تستهلكه من المطاط يأتيها من جزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو وجزيرة سيلان ، وهى أقطار أصبحت اليوم كلها — ما عدا جزيرة سيلان — واقعة تحت سلطان اليابان . وقد كانت أمريكا مدركة منذ زمن ليس بالقصير أن واردها من المطاط قد ينقطع عنها . ولكنها لم تعمل شيئاً لعلاج هذه الحالة إلا فى أواخر عام ١٩٤٠ ؛ وأنشئت شركة تحت رعاية الحكومة لشراء وتخزين المطاط ، ولم تلبث أن أخذت تكدس من هذه المادة مقادير عظيمة حتى بلغ المخزون منه نحو ثلاثة أرباع مليون طن . وهو مقدار ليس بالكبير إذا ذكرنا أن الولايات المتحدة تستهلك فى زمن السلم نحو ٦٠٠٠٠٠ طن من المطاط الجديد سنويا . وبالاقتصاد الشديد قد يخفض هذا القدر إلى نحو نصف مليون طن بسبب تخصيص السلعة للأغراض الحربية دون سواها .

إن ألمانيا قد حرمت وسائل استيراد المطاط منذ أول الحرب . ولكن ألمانيا قد ادخرت مقادير هائلة من المطاط إلى جانب ما تنتجه من المطاط الصناعى ، الذى خصصت له منذ زمن طويل عددا كبيرا من مصانعها .

والولايات المتحدة إذا استطاعت الاقتصاد باغفال حاجة المدنيين من مجمل السيارات ، فانها فى الوقت نفسه قد ازداد استهلاكها بسبب حاجة الحرب . والسيارة

الحربية البسيطة تتطلب من المطاط الخام عشرة أمثال ما تحتاجه سيارة للمدنيين . وليست عجلات السيارات بالأمر الوحيد الذي يستخدم فيه المطاط . بل هنالك مئات الأشياء الضرورية لحاجة الحرب ، والمدنيين ، ولا بد فيها من استخدام المطاط . ولهذا لا بد للولايات المتحدة من تدبير خاص لتدارك حاجتها من المطاط .

وسيلان هي المكان الوحيد الذي لا يزال مطاطه في متناول الحلفاء . ولكن إنتاج الجزيرة لا يزيد على مائة ألف طن ، والطريق إليها محفوف بالأخطار . إذاً لا بد من التماس وسائل جديدة . ومن أهم هذه الوسائل : استخدام المطاط القديم المتخلف من العجلات المستهلكة . وهذا المورد قد يصل إلى نحو نصف مليون طن ، بعد أن كان في زمن السلم لا يتجاوز مائتي ألف طن . وهذا المطاط « المستحدث » قد يفي بكثير من الأغراض بعد خلطه بالمطاط الجديد .

وهنالك مزارع للمطاط في البرازيل وفي ليبريا ، ولكن إنتاجها قليل . والمطاط الوحشي (غير المزروع) الذي يجيء من البرازيل لا يؤتي أكثر من خمسين ألف طن . وهنالك خطط عديدة لإنشاء مزارع واسعة للمطاط في البرازيل ، ولاستخراج المطاط من نباتات أخرى تنمو في المكسيك وكاليفورنيا ، ولكن مثل هذه المشروعات لن تأتي بثمرة عاجلة ، لأن الشجر لا يؤتي غلته من المطاط إلا بعد مضي بضع سنوات . والأمل الوحيد في معالجة هذه المشكلة هو في الحقيقة المطاط الصناعي ، رغم تكاليفه الباهظة . وقد بذل مجهود منيف بعد أن شهرت اليابان الحرب ، من أجل مضاعفة إنتاج هذه السلعة ، والبرنامج القائم يضمن للولايات المتحدة الوفاء التام بحاجتها الحربية من هذه السلعة ، بعد نفاد المقدار المخزون في الوقت الحاضر .

ومثل هذا الجهد المنيف تعالج الولايات المتحدة ، مشكلة إنشاء السفن . وهي أجل وأضخم مشاكل أمريكا والحلفاء جميعاً . فإن خطر الغواصات والمسافات التي لا بد من قطعها لنقل الجنود والعدة والذخيرة للمحاربين في ميادين بعيدة ، كل هذا جعل الحاجة إلى السفن أكبر مشكلة يعانيها الحلفاء في هذه الحرب . ومع أن المشكلة لم تعالج علاجاً ناجحاً بعد ، ولا يزال إنتاج السفن أقل مما يغرق في عرض البحار ، فإن المصانع الأمريكية الجديدة تبدي نشاطاً يبشر بقرب التغلب على هذه المشكلة . وقد استطاع الصناع الأمريكيون أن يصنعوا سفنهم في نصف الوقت الذي كان محدداً لها . وأمكنهم أن ينشئوا المصانع الجديدة على الشاطئين الهادي والأطلسي في زمن وجيز .

والمجلات الأمريكية مفعمة بوصف مظاهر النشاط المختلفة ، والمجهود المنيف الذي يبذله الكبير والصغير ، والنساء والرجال على السواء . وعلى رأس هذه الآلة الانتاجية إرادة وإدارة رجل واحد ، وهو دونالد نلسن ، الرجل الذي اختاره الرئيس روزفلت لتنفيذ ذلك البرنامج الهائل ، الذي يشتمل على ١٨٥,٠٠٠ طائرة و١٢٠,٠٠٠ دبابة ، وسفن حمولتها ثمانية عشر مليون طن . وهذا الرجل وحده هو الذي يسهر على المصانع ، ويسعفها بما تحتاجه من المواد الأولية ؛ وقد قال في حديث له مع بعض رجال الصحافة : « إني لأرجو أن يكون النقد الذي نتعرض له في المستقبل أن يقال عنا إننا أسرفنا في الانتاج إلى أبعد مما تتطلبه ضرورة الحرب . فبهذا وحده نستطيع أن ننتصر ، ولا بد لنا أن ننتصر » .

* * *

وإلى جانب وصف النشاط الأمريكي الحربي ، قد امتلأت المجلات أيضاً بوصف هزائم القوات الأمريكية في جزر هاواي والفلبين ، وكيف فوجيء سكان جزر هاواي ، وقليل منهم من استيقظ من رقاده في صباح الأحد ٧ ديسمبر الماضي بإغارة الطائرات اليابانية ، فلم يكد الصباح

أن ينتصف حتى دمرت طائرات عديدة ، وأغرقت سفن أو عطلت ، وأحرقت دور ومصانع ، وأزهقت أرواح ثلاثة آلاف من السكان . وفي ساعة واحدة دمر من الأسطول الأمريكي أكثر مما دمر في الحرب الماضية كلها . وفي هذه الساعات الجليلة الخطر ، بذلت الحامية الأمريكية جهوداً جبارة . وأبدت أمثلة رائعة من البسالة والتضحية ، ولكنها جهود لم تحل دون تلك الخسارة الفادحة التي شلت قوة الأسطول الأمريكي في المحيط الهادي .

ومثل هذه الكارثة حدث في الفلبين ، فبينا كانت الطائرات الأمريكية تتأهب للصعود في الجو ، أقبلت الطائرات اليابانية فجأة ، ولم تمض لحظات حتى أصبحت القوات الجوية الأمريكية في الفلبين أثراً صغيراً لما كانت عليه من قبل . وحدث مثل هذا الهجوم الفاجيء على القاعدة البحرية في كافيت ، فعطلت معظم القطع الحربية في الفلبين . ولم يبق مناص من التراجع إلى شبه جزيرة باطان وجزيرة كوريجيدور حيث قاتلت العدو قتالا مجيداً خمسة أشهر ، إلى أن نفد الزاد والأدوية ، وأصيب الجيش بضروب من الحرمان ، لا يمكن الصبر عليها ، وقد انقطع عن المجاهدين كل مدد وعون ، فلم يكن بد من أن يسلم جنود باطان في الثامن من أبريل الماضي .

* * *

وهكذا أثبتت القوات الأمريكية أنها في مقدمة الجنود جرأة وحيلة وجلَداً . ولكن الانتصارات الفجائية اليابانية ، قد عطلت أداة الحرب الأمريكية في المحيط الهادي تعطيلا محسوسا ، وانتزعت من أيدي أمريكا قواعد عظيمة الخطر في جزر الفلبين . وقد ظهر ما لأمثال تلك القواعد من عظيم الخطر ، يوم حاولت القوات اليابانية الاستيلاء على جزيرة ميدواي . فإن هذه الجزيرة الضئيلة التي استطاعت أمريكا أن تحتفظ بها ، قد مكنتها من أن تحرز انتصاراً عظيما على الأسطول الياباني ، وأن ترد الغزاة الفاتحين عن تلك الجزيرة بعد أن فقدوا أربعاً من حاملات الطائرات ، بطائراتها وطائريها ، وعدداً من وحدات الأسطول ذات الشأن .

كذلك استطاعت القوات الأمريكية والاسترالية متحدة أن تحرز نصرا مماثلا في بحر المرجان ، وأن ترد الغزاة عن استراليا فترة من الزمن .

ليس من شك في أن الزمن يعمل لمصلحة الولايات المتحدة ، ولكن هل تمهل الحوادث أمريكا حتى يمضي الزمن الكافي لأن تحشد أساطيلها وجيوشها وتهاجم عدوها في تلك الميادين البعيدة ؟

إن التكهن ضرب من العبث ، واليابان قد هدأت حدة هجماتها ، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن استولت على أقطار فسيحة تجعلها في مركز حربي جغرافي ممتاز . وأمريكا لابد لها أن تجاهد لا لكي تسترد ما فقدت فقط ، بل لكي تعاون وتمد شركاءها من الدول المتحدة ، لأن أي ضعف في ميدان من الميادين ، وأي انتصار باهر لأية قوة من قوات المحور ، في أية بقعة من سطح الأرض ، كل هذا له أثره في زيادة العبء الذي تضطلع به الولايات المتحدة وشعبها .

محمد عوض محمد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	الطلبة وعمال الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

٤ – فارس كنانة

للأستاذ أحمد أمين بك

هذا الخليفة الفاطمي « الحافظ » يموت وله ابنان كبيران ، يعدل عنهما ، ويعهد بالخلافة لأصغر أولاده سناً ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، ويوصي بالوزارة لأمير مغربي اسمه ابن مَصَّال ، ويلقب الخليفة الجديد الصغير بالظافر .

وهذا الظافر فتى ربي تربية ناعمة ، لا يعرف غير اللهو واللعب ، والسكون إلى الجواري وسماع الأغاني ، فأما تدبير الأمور فللوزير ابن مَصَّال .

والخليفة يحب ابن مصال ، ويحب بقاءه ، وولاة الأقاليم كلهم طامع في الوزارة ، فيأبى ابن السَّلاَّر الكردي الأصل ووالي الاسكندرية والبحيرة ، فيجمع جنده وسلاحه ، ويهجم على القاهرة ، ويقتل ابن مَصَّال ، ويتربع في دست الوزارة ، والخليفة مضطر إلى إقراره وهو له كاره .

وفي جند ابن السَّلاَّر ابن زوجته عباس ، رجل مغربي عربي الأصل من تميم ، له ولد جميل اسمه نصر ، من خلان الخليفة الظافر وندمائه ، فيوعز الخليفة إلى نصر وعباس بقتل ابن السلار ليكون عباس في الوزارة مكانه ، ويتم ذلك ، ويقتل ابن السلار ويستوزر عباس ، ثم بعد مدة يسأم الخليفة وزيره الجديد عباساً ، فيوعز إلى ابنه نصر أن يقتل أباه ليحل محله ، ويتردد نصر ثم يطلع أباه على ذلك ، فيتآمران على قتل الخليفة فيقتله نصر ، ويدخل عباس القصر ، فيتهم أخوي الخليفة بقتله ، ويقتلهما ويولي طفلاً صغيراً هو ابن الظافر ويلقبه بالفائز ، وسنه خمس سنين . وتهيج مصر على عباس وابنه ، ويكاتب نساء القصر طلائع بن رُزِّيك الأرمني الأصل ووالي المنية ، ليحضر فينتقم من قاتلي الخليفة ، فيحضر وينتصر ، ويهرب عباس وابنه إلى الشام ، فيقتل عباس في الطريق ، ويقبض على ابنه نصر ، فيرسل إلى القصر فيمثل به ويعلق على باب زويلة .

* * *

هذه صورة سينمائية للأحداث التي حدثت في مصر أثناء إقامة « أسامة » بها . ما موقفه ؟ كيف يتصرف ؟ كيف يستخدم فروسيته والفروسية لا تعرف العمل في الخفاء ؟ الحق أنه موقف مربك للرجل الصريح .

لقد أصبح « أسامة » وله جنود ومماليك وأعوان ، يجلس في مجلس الأمراء للتشاور فيما يعمل ، ويقربه الولاة إليهم ، ويتمناه كل في صفه لنجدته وفنائه .

لقد كان من أنصار القصر يوم كان الحافظ يتولى الخلافة ، لأنه رب نعمته ، ولأنه رجل ؛ ولكنه انحرف من القصر لما رأى من لهو الظافر ولعبه وتهتكه ، وناصر ابن السَّلاَّر ، يحارب في صفه ويقاتل بجانبه ، فكرهه القصر لأنه يناصر عدوه — وكان ابن السلار رجلاً مقداماً شجاعاً يحب رجال العلم ، ولكنه قاس لا يرحم ، يعاقب أكبر عقوبة على أصغر جريمة ، فأحبه أسامة لشجاعته ، وأغضى عن قسوته ، وأمن ابن السلار إليه وأنس به ، وبعثه بمهمة حربية إلى نور الدين محمود بن زنكي ليتفق معه على تكوين جيش لمحاربة الصليبيين في الشام ليخفف ضغطهم على مصر ، وقام أسامة بمهمته وحارب الصليبيين في عسقلان وبيت جبريل ، وظل يقاتل حتى أحس ابن السلار بحرج مركزه في مصر ، فاستدعاه ليكون بجانبه فقعل .

فلما قتل ابن السلار واستوزر عباس وجدنا أسامة بجانبه وبجانب ابنه نصر ، يستشيرانه في أدق الأمور حتى

فيما أوعز به الخليفة إلى نصر أن يقتل أباه ، فينهاه عن ذلك ، ويحذره غضب الله ووخز الضمير ؛ ولا بد أن يكونا قد أطلعاه على قتل الخليفة ، مقابلة المؤامرة بمؤامرة ، ومن هنا اتهمه كثير من المؤرخين باشتراكه في المؤامرة ، وليس ذلك ببعيد عليه ؛ وعذره أن الخليفة الغر هو البادئ بتحريض الابن على أبيه ، فالجزاء من جنس العمل ؛ ولكن عباسا أسرف فقتل الأبرياء من إخوة الظافر ، وهو عمل لا يبرره شيء ، فكان على أسامة أن ينفض يده منه ويقطع صداقته ، ولكنه لم يفعل .

لقد دخل طلائع بن رزيك مصر وكان لأسامة صديقا أيضا ، وكان أسامة يحبه ، وعرض عليه طلائع أن يكون بجانبه وله المشاركة في عزه وجاهه والدنيا مقبلة عليه ؛ ولكن عباسا في أشد أوقاته حرجا يلجأ إليه ويطلب منه أن يصحبه في الخروج من مصر حتى لا يقتاله مقتال ؛ ويحار أسامة بين صديق تقبل عليه الدنيا وصديق تدبر عنه ، والذي تقبل عليه لم يلوث يده بالقتل ، وإنما بنصر المظلوم ، والذي تدبر عنه قد سفك الدماء البريئة ، ولكنه في شدة وقد استنجد به ليحفظ حياته ؛ وأخيرا بعد تردد طويل وشقاء ضمير اعتذر لطلائع الفائز وخرج من مصر مع عباس البائس .

* * *

عشر سنين في مصر هي أسوأ حياته . لقد خلق لقتال الصليبيين ، فقضاها في مصر في قتال بعض المصريين لبعض المصريين ، وخلق للعيشة القاسية ، فعاش في مصر عيشة ناعمة ، وخلق للصراحة فعاش في المؤامرات ، وخلق لا بأبه للمال فأتاه المال في مصر من حيث لا يحتسب ؛ ولكن الله عاقبه على أنه لم يعش كما خلق ، فكان خروجه سلسلة كوارث ؛ يصحب عباسا في الطريق ، ويترك أسرته في حماية طلائع بن رزيك ، فيكاتب القصر وبعض أهل مصر الفرنج والعربان أن يكمنوا لعباس ومن معه في الطريق ، فيخرجون عليهم ، ويقتل عباس ويؤسر نصر ويُرَد إلى مصر مخفوراً ، وينجو أسامة بأعجوبة بعد أن يصاب في رأسه بضربتين بالسيف يفقد بهما وعيه ، وأخيراً جدا يصل إلى دمشق في أسوأ حال .

ثم يصاب في أسرته وماله .

لقد استراح قليلا واسترد قوته وقد نيف على الستين ، ولا يزال جنديا محاربا له قوة الشباب ، فالتحق بجيش نور الدين محمود بن زنكي ، وبذلك عاد إلى موقفه الطبيعي ؛ وكاتبه طلائع يطلب منه أن يعود إلى مصر ، وإذ كان جنديا يحب القتال في الثغور فقد عرض عليه طلائع أن يوليه أسوان ، ويفتح بجنده الحبشة ، وبذلك لا يناله سوء من استيحاش القصر منه ، فاستشار في ذلك نور الدين ، فقال له : « أما كفاك ما لقيت من مصر وفتنها ؟ » .

فاعتذر لطلائع وسأله أن يرسل إليه أسرته بحراً ، ولكن طريق البحر أيضاً في يد الصليبيين ، فحل نور الدين الاشكال ، بأن يكتب إلى « بلدوين الثالث » ملك أورشليم ليمنحه أماناً لأسرة أسامة ، فمنحه الأمان كتابة .

* * *

هذه أسرة أسامة في خمسين نسمة بين رجال ونساء ، ومعهم أموالهم وحليهم وجواهرهم وذهبهم وفضتهم ، وسيوف أسامة وسلاحه ، وقيمتها كلها ثلاثون ألف دينار ، ومعهم أيضا مكتبة أسامة التي اقتناها من خير مخطوطات مصر ، وفيها أربعة آلاف مجلد ، كل ذلك ينزل في مراكب في دمياط ومعهم أمان بلدوين ، حتى إذا وصلوا إلى عكا أرسل « بلدوين » رجاله بالفؤوس يكسرون المراكب ويأخذون ما فيها ؛ ويحتج بعض رجال أسامة بالأمان ، فلا يلتفت إليهم ، ويأخذ كل ما معهم ، ويترك لهم خمسمائة دينار توصلهم إلى بلدهم ؛ ويحمد أسامة الله كثيراً على سلامة أهله

وولده ، ويحز في نفسه قليلا ضياع المال وكثيراً ضياع الكتب ؛ وبذلك يختم فصل من الرواية عنوانه « أسامة في مصر » .

***

ها هو في الرابعة والستين وقد عاد فارسا من فرسان المسلمين ، يقاتل في جيش نور الدين ؛ والأزمان التي عركته في مصر عركت أهله في حصن شيزر ، فقد مات عمه سلطان ، وولي الحصن ابن عمه الذي كان ينافس أسامة .

والسنة سنة ٥٥٢ هجرية ، وقد أزين الحصن لحفل ختان ابن الأمير ، واجتمع في الدور الفسيحة آل ابن منقذ كلهم ، والراقص يرقص والزامر يزمر والطبال يطبل ، والقوم في هرج ومرج ، والسرور بالغ بهم غايته ، وإذا بالأرض تزلزل زلزالا عنيفا ، فيتسابقون إلى باب الدار ، فتزحم فرسُ الأمير ولهم فيقع ، وينسد الباب وتقع الدار على من فيها ويهلك كل أهل أسامة ، ويأتيه الخبر فتنهدّ قواه ثم يستردها بإيمانه ويقول :

لم يترك الدهر لي من بَعْدِ فقدهمُ
قلباً أجشمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات أسعدنا
وعاش للهمّ والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني
عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعاً وما شادوا ، فواعجبا
للخطب أهلك عماراً وعمرانا
هذي قصورهمُ أمست قبورَهمُ
كذاك كانوا بها من قبلُ سكانا

وكذلك خربت أكثر بلاد الشام ، كحماة والمعرة وحمص وكفر طاب ؛ وأخطر ما في الأمر أن الزلزال هدم أسوار البلاد والقلاع ، وانكشفت البلاد للصليبيين ، فقام نور الدين يعيد الأسوار ويقيم القلاع ، ووضع يده على حصن شيزر وعمر أسوارها ودورها وأعادها جديدة .

***

سبعون — خمس وسبعون . . . ثمانون . . . هو في حصن كَيْفَا ، وقد دب إليه الضعف وارتعشت منه اليد :

مع الثمانين عاث الدهر في جَلَدي
وساءني ضعفُ رجْلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي خطُّ مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً
من بعد حَطْم القنا في لبَّة الأسد
وإن مشيتُ وفي كفي العصا ثقُلت
رجْلي كأني أخوض الوحل في الجَلَد
فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمُدَد

***

ألومُ الردى ، كم خضتُه متعرضاً
له وهو عني مُعْرض متجنِّبُ
وكم أخذت مني السيوفُ مآخذاً
جسام ، ولكنّ القضاء مُغَيَّبُ
إلى أن تجاوزتُ الثمانين وانقضت
بلهْنية العيش الذي فيه يُرغبُ
فكروه ما تخشى النفوس من الردى
ألذ وأحلى من حياتي وأطيب

هذا صلاح الدين بطل المسلمين يأتي بالأعاجيب من فعال البطولة ، ويستنزل من الافرنج الحصن بعد الحصن .. آه .. لو كنت شابا .

(يتبع) أحمد أمين

الذاتية والموضوعية في الفن

أخذت بعض المصطلحات الأفرنجية طريقها إلى لغة الكتابة عندنا ، وترك فيها حبل الترجمة على الغارب ، فتنوعت الكلمات المقابلة لها في العربية الحديثة ، وأصبح القارئ أو السامع يتلمس المعنى تلمساً من طريق الحدس أحياناً ، ومن طريق ردّ الأسلوب إلى أصله الأفرنجي أحياناً أخرى .

ومن بين هذه الكلمات كلمتا subjective و objective اللتان عم استعمالها في الدراسات الغربية من فلسفة وأخلاق ونفس ونقد وغيرها ، وصار لهما شبه وجود عالمي بين رجال العلم في أوربا وأمريكا ، ثم شرّقتا في أيامنا الحاضرة ، وفرضتا نفسيهما على أقلامنا فرضا . والكلمتان منسوبتان إلى sudject و object وهاتان من أصل لاتيني ، وقد تنوعت معانيهما بتنوع صيغهما ومواضع استعمالها ، ويطول بنا الأمر لو حاولنا تتبع هذه المعاني هنا . وإذاً فسنقتصر من كل منهما على معنى واحد هو الذي يهمنا في هذا المقال . فمن معاني كلمة subject الذات أو الشخص أو العقل باعتباره قوة مفكرة . ومن معاني object الشيء أو الموضوع الذي يقع عليه إدراك العقل وتفكيره .

من هذين المعنيين اشتقت النسبتان subjective ، ومعناها المنسوب إلى الشخص أو الذات أو العقل المفكر ، و objective ومعناها المنسوب إلى الموضوع أو الشيء الذي يقع عليه التفكير . وإذاً فأحاسيس الشخص وانفعالاته وأطرابه وميوله وأحكامه التي تقوم على اعتبارات داخلية ذاتية تندرج تحت subjective . وأما صفات الشيء أو الموضوع الخارجي ، والآراء التي تقوم على هذه الاعتبارات الخارجية وحدها ، والأحكام التي تبنى على المشاهد الملموس وعلى مقتضيات المنطق ، لا على الذوق والميل الشخصي فإنها تدخل تحت objective .

لعلنا بعد هذا التفصيل اليسير قد حددنا ميدان التخاطب كما يقولون ، واتفقنا — أو كدنا — على المعنى الذي تنصرف إليه أذهاننا حين نقول : « إن أحكام شخص من الأشخاص subjective » ، و « إن إدراك الجمال ومقاييس الفنون في الغالب كذلك » . ثم حين نقول : « كن في تقاشك objective » ، و « أخص مميزات التفكير العلمي أن يكون objective » .

ولعل من اليسير علينا — إذاً — أن نصطلح على كلمة « ذاتي » في مقابل subjective ، و « موضوعي » في مقابل objective . وأن نصرف النظر عما يعترض به بعض الباحثين المعاصرين من أن كلتي ذاتي وموضوعي حافلتان بالغموض والاشتراك في المعنى . فإن الاشتراك موجود في صيغ الكلمتين الأفرنجيتين بدرجة ظاهرة . واللغة في الواقع اصطلاح وتعارف ، فمتى حصلت المواضعة على كلمة ما (على أساس من ذوق اللغة طبعا) ، وصقلها الاستعمال ، وسارت شوطاً في حياتها الجديدة ، فقد حققت الغرض منها ، وأثبتت حقها في الوجود الجديد ، ولم يضرها بعدُ نسبها ، أو تعرج طريقها من قبل . على أنني هنا لا أرى حرجا في تبني الكلمتين الأفرنجيتين ، وصقلهما صقلا عربياً ، وإدخالها في حظيرة الأسرة العربية ، بجانب كلمتينا الأصليتين ، ففي ذلك توسيع لثروة اللغة ، وتقريب للمسافة بين الباحثين في أمهات مسائل العلم ، وظواهر التفكير .

* * *

ليس من غرضنا هنا أن نبحث في الفن وماهيته ومصدره من طبيعة الإنسان ، وصلته بالنواحي الأخرى من الإنتاج العقلي ، فلذلك موضعه ، وربما عدنا إليه في مقام آخر . ولكننا نحاول هنا أن نطرق ناحية « الامتاع

الفنى » – ناحية تذوق الفن وإدراك الجمال فيه . وهى جهة تتصل – كما ترى – بالخلاف الذى ثار بين المفكرين النظريين طوال العصور من الجمال وماهيته ، وهل للجمال صفات أو عناصر موضوعية يمكن أن يراها الأشخاص العاديون ويتفقوا عليها ، أم هو عرضة للأذواق الذاتية ، تختلف الأمم والأفراد فيه حسب أمزجتهم ، وأنظمة ذواتهم الداخلية ! وهذا الخلاف يسلم إلى خلاف آخر فى النقد الفنى : أمن الممكن أن توضع له أصول وقواعد موضوعية ، أم يترك نهبا مباحا للأذواق والميول الذاتية !

هاجم علم النفس الحديث معضلة « الامتاع الفنى » ، وأجرى عليها بعض تجارب مثمرة ، ألقت على طبيعة الجمال وتأثيره فى الناس أنواراً كاشفة . والطريقة التى اتبعها علماء النفس فى هذا تعرف بطريقة « الموازنة الثنائية » . وذلك أن توضع أمامك لونان ، أو زهرتان ، أو صورتان ، أو قصيدتان ، أو قطعتان من الموسيقى ، ويطلب إليك أن تقرر أيها أحب إليك أو أجمل فى نظرك ، وأن تذكر الأسباب التى حملتك على هذا الاختيار . ثم تكرر هذه التجربة مع أفراد كثيرين طبقاً للقواعد الاحصائية المعروفة .

استعملت فى هذه التجارب – أولاً – الألوان البسيطة . ثم استعملت فيها – بعد ذلك – الأنواع الأخرى من الأعمال الفنية حيث الجمال فى أوسع معانيه ، وأكثر صوره تعقيداً . وكان لمعامل علم النفس فى انجلترا السبق فى هذا المضمار [1] .

جاءت النتائج كلها متفقة على أن موقفنا العقلى نحو الشىء الذى نعتبره جميلا موقف فى نهاية التعقيد ، وأن الناس ينقسمون فيه طوائف أربعاً على الأقل :

١ – فقوم يحبون – أو يكرهون – لونا أو صورة ما ، أو قطعة موسيقية ، لا على أساس خصائص موضوعية فى هذه الأشياء ، ولكن على أساس ما تثيره فى عقولهم من طريق تداعى المعانى (والشىء بالشىء يذكر) ، من ذكريات طال عليها العهد ، وأطراب أو شجون غامضة ; فواحد يفضل اللون الأخضر فى صفرة خفيفة « لأنه يذكره أوراق الأشجار فى الخريف » . وثان يحب فاصلا موسيقياً معيناً « لأنه يشبه صوت الطائر الغرد فى الربيع » . وثالث يكره اللون الأحمر القانى « لأنه يذكره حمرة الدم » . وتثير الموسيقى عند بعض هؤلاء ذكرى منظر أو قصة وجدانية ، فاذا سمعوا « المارش الجنازى » (لشوبان) تمثلوا الموكب فسمعوا أولاً رنين الأجراس ، ثم سمعوا وقع أقدام الجنود يتضاءل شيئاً فشيئاً على بعد المسافة .

هذا فيما نسميه الفنون الجميلة ، فأما الأثاث ومنتجات الفن الصناعى فانها تثير عند هذا الفريق أفكاراً تدور حول فائدة الشىء والغرض منه . « فهذا الكرسى أفضل – عند شخص ما – من ذاك ، لأن الجلوس على الأول أكثر إراحة فى نظره » . وهذا اللون آثر عند سيدة ما ، « لأنه يناسبها أو يتفق ولون بشرتها » .

ويظهر أن هذا النوع الربطى (associative type) أغلب بين النساء والأطفال . على أنه غير قليل بين الرجال . ولهذا ذهب بعض العلماء إلى القول بأن حاسة الجمال فينا لا تنبعث إلا من مثل هذه الروابط والملابسات ! وهذا الرأى – على إهماله جوانب أخرى مهمة من الامتاع الفنى – له ما يؤيده ، فلا شك أن كثيرا من النجاح الذى يحرزه الفنان إنما يتوقف على مهارته فى إثارة ذكريات وشئون فى عقول جمهوره ، وفى تنبيه صور وأصداء ومشاعر تتفق وما عنده هو من صور ومشاعر . وأوضح ما يكون هذا فى الأدب [1] .

٢ – وقريب من هؤلاء الربطيين صنف من

(١) راجع فصل ١٥ من How the Mind Works للأستاذ C. Burt .

(١) راجع الفصل الثانى من « قواعد النقد الأدبى » ترجمة الدكتور محمد عوض .

الناس أقل عددا يبنون تفضيلهم للأشياء ، لا على أساس ذكريات وأفكار وجلية — بل على أساس تأثير فيزيولوجي ونفساني خاص تحدثه عندهم . فهم يقولون من اللون الأصفر : « إنه يبهر العين » ومن اللون الأحمر : « إنه يشعر الانسان الحرارة من فرعه إلى قدمه » وهذه النغمة أو تلك الصورة تعجبهم لأنها تمس فيهم غرائز وتهيج عندهم انفعالات معينة ، كانفعالات الأبوة أو الانفعالات الجنسية ، وربما أثارت فيهم الميل إلى الضحك ، أو الاحساس بالخوف أو النزوع إلى المشاركة الوجدانية .

والفن التجارى فى العادة يستغل هذه الناحية استغلالا موفقاً ؛ فمنظر مدينة البندقية فى إعلانات سكة الحديد (فى أوربا) ، ومنظر الكنائس التى كانت تيجانها بالبَرَد على بطاقات عيد الميلاد ، ومنظر الفتيات الناضرات على صناديق الحلوى ، والمناظر السينمائية التى تلصق على الجدران أو تعرض فى الميادين والطرقات ، إنما اختارها أرباب الاعلانات لما تثير من رغبات وجدانية عند الناس .

وقد بنى بعض الباحثين على أساس هذا التنبيه النفسانى نظرية أخرى حديثة تقول إن الفن ليس مرتبطا بالجمال ، وإنما هو مرتبط بالتعبير عن الانفعالات . وهذه كسابقتها حفظت شيئا وغابت عنها أشياء . على أنه ليس هناك من شك فى أن كثيرا مما يسمى فنا لا يعنى بالتعبير عن الاحساس الذوق أو إثارته ، قدر ما يعنى بالتعبير عن الاحساس الغريزى وتنبيهه .

(الكلام بقية) محمد خلف الله

مأساة بلجيكا :

ملك متــــــوج
فى أسر فتاة نازية

يقولون إنه لولا فتاة نازية يسميها البلجيكيون حين يتحدثون عنها بأصوات خافتة مكبوتة « البارونة ب » ، لظلت بلجيكا حتى الآن تحارب فى صف الحرية والديمقراطية كما حاربت فى المرة الماضية . وهذه الفتاة صديقة حميمة للملك ليوبولد وموضع ثقة والدته الملكة اليصابات ؛ وقد أحسن اختيارها للدور الذى تمثله ودربت عليه أحسن تدريب .

وتنتمى هذه الفتاة إلى أسرة شريفة فى ألمانيا ، وجدها الأعلى بسمرك رجل الدم والحديد ، واثنان من إخوتها يعملان فى مصلحة المخابرات الألمانية ، ويشغل ابن عم لها منصباً خطيراً فى وزارة الحرب . ويقال إن ريبنترب هو الذى كشف مواهب هذه الفتاة واختارها للعمل الذى اضطلعت به فيما بعد ؛ فقد رآها لأول مرة تحدث امرأة ألمانية كبيرة عن الفوائد التى عادت على ألمانيا من الاشتراكية الوطنية ، وأعجب الوزير الكبير بقوة حجتها ، ولاحظ ما لها من سلطان قوى على سامعيها ، فقال إن فى مقدورها إذا أحسن توجيهها أن تقوم بعمل نافع للقضية النازية . على أننا لا نظن أن ريبنترب نفسه كان فى ذلك الوقت يتصور خطر الدور الذى مثلته هذه الفتاة الأرستقراطية بعدئذ ، وما كان لها من شأن عظيم فى التاريخ .

وقدم ريبنترب الفتاة للدكتور جبلز ، فأثنى عليها ، وعرض عليها أن تعمل لخدمة الحزب النازى . وسرعان ما عرف أن هذه الفتاة ليست ممن يسعين وراء الشهرة وبهرج الحياة ، وأنها ممن يؤمن بالمبادئ النازية ويناصرن هتلر عن عقيدة ويقين . ولم يمض إلا زمن قليل حتى كانت الفتاة تخطب فى نساء الطبقة الراقية فى ألمانيا ، تحثهن على التبرع لمشروع إعانة الشتاء وغيره من مشروعات البر الألمانية . وكان ذلك بداية جهودها فى خدمة القضية النازية ، ثم أخذ هتلر وأعوانه من مهرة السياسيين يدربونها التنشئة التى تمدها للعب بعقول السياسيين وإخضاعهم لإرادتها ، وتلك وسيلة مألوفة من الوسائل التى يصطنعها النازيون للوصول إلى أغراضهم ؛ فهم يعتقدون أن الحروب لا تكسب دائماً فى ميدان القتال ، وأنه فى وسع الخيانة فى الداخل أن تفيد العدو أكثر مما يفيده النصر الحربى . واجتمع هتلر بالفتاة عدة مرات ، وكادت تأسره بجمالها ، وتسيطر عليه بقوة شخصيتها . ولم يكن بأعف أن يراه الناس فى صحبة الفتاة البارعة الجمال التى اختارها للاضطلاع بواجب خطير فى خارج البلاد .

وكان غيرها من النساء يعملن فى بلجيكا ، ولقيت أعمالهن وأعمال الطابور الخامس بعض النجاح ، وأخذت بعض الأوساط السياسية تميل ميلا ظاهراً إلى جانب الألمان ، ولكن الملك كان أعظم من أن تؤثر فيه الدسائس والمكائد . وكان كل ما تصبو إليه نفسه قبل الحرب أن يسود السلم أوربا ، وأن تتجنب بلاده ويلات الحرب ؛ ولكنه مع ذلك كان شجاعاً قوى الشكيمة لا يلين ، وكان على استعداد لأن يقود جيشه بنفسه ليصد به الألمان إذا اعتدوا على بلاده ، مهما تكن العاقبة . وكان هو ومستشاروه يرقبون بقلق متزايد سحب الحرب التى أخذت تتجمع فى سماء أوربا ، وشرعوا يقوون الحصون القائمة على الحدود الألمانية ، وكانوا لا يزالون يؤمنون بفائدة المعاقل الثابتة ، كما كان يؤمن بها إخوانهم الفرنسيون .

وكان الملك يعتمد على ما وعدته به انجلترا وفرنسا من مساعدة للدفاع عن بلاده إذا اعتدى عليها الألمان ،

كما كان يثق بهذا الوعد أبوه في عام ١٩١٤ . وقد تعلم ليوبولد في انجلترا ، فكان شديد الاعجاب بها وبكل ما هو انجليزي ، كما كان قليل الثقة بالألمان كارهاً للتعاليم النازية .

ثم كانت المأساة الكبرى في حياته ، وهي موت زوجته في حادثة اصطدام سيارة ، وأثرت هذه الفاجعة في نفسه ، وغيرت مجرى حياته ، فأصبح كئيباً مضطرب البال ، بعد أن كان شاباً سعيداً مرحاً منشرح الصدر ، وبدت له الحياة عقيمة لا قيمة لها ولا رجاء فيها ، لأن موت زوجته قد حطم قلبه . وكان على والدته الملكة اليصابات أن توقظه وتنبهه إلى التبعة الملقاة عليه أمام شعبه . وما زالت به حتى أقنعته بأن يمضي بعض الوقت في سويسرا ، وكانت ألعاب الشتاء وقتئذ في عنفوانها ، وكان من أحبها إلى الملك التزحلق على الجليد ، وحاول أن ينسى أحزانه بين الجبال الشاهقة المتوجة بالثلوج الناصعة البياض .

فهل كان من المصادفات المحضة أن تصل البارونة « ب » إلى نفس الفندق الذي نزل فيه الملك في نفس اليوم الذي وصل فيه إليه ؟ وهل كان من المصادفات أيضاً أن يجلس الملك والفتاة الحسناء يتحدثان بعد ثلاث ساعات من وصولها ، وأن يرقص معها في مساء ذلك اليوم نفسه ؟ واجتمع الاثنان مرة أخرى في اليوم التالي ، وذهبا معاً للتزحلق على الجليد ، ورقصا معاً في مساء ذلك اليوم أيضاً ، وبدا الملك في صحبة البارونة سعيداً راضياً ، وكأنه قد نسي أحزانه وعاد إليه مرحه وسروره ، وسمعه أتباعه يضحك لأول مرة بعد شهور من الحزن والكآبة .

وكتب إلى والدته ينبئها بصداقته للفتاة الألمانية الجذابة ، ووصلت من الملكة رسالة غير منتظرة تدعو الفتاة فيها لزيارتها في بروكسل ، فقد كانت الملكة تسلك كل سبيل يمكنها من أن تعيد إلى الملك سروره وبهجته ، وكان أشد ما تخشاه أن يفت الحزن في عضد ابنها ويفقده صوابه ، وكثيراً ما سمعته يؤنب نفسه على موت زوجه ، وكانت ذكريات سفرته المشئومة تعاوده وتنغص عليه حياته .

وانتهت ألعاب الشتاء في سويسرا وأجابت البارونة دعوة الملكة اليصابات ، فجاءت لتقضي بعض الوقت معها في بروكسل ، وقضت في ضيافة الملكة بضعة أسابيع قويت فيها أواصر الصداقة بينها وبين الملك ، وأخذت الدوائر النازية تتحدث سراً عن إمكان زواج ليوبولد بالبارونة ، وكان يسرها بطبيعة الحال أن تظفر الفتاة النازية بهذا الزواج ، ولكن الملك ليوبولد كان قد أقسم أن يظل وفياً لذكرى زوجته ، وكل الشواهد تدل على أنه سيبر بهذا القسم . ولم تدخر الملكة اليصابات جهداً في تقوية روابط الصداقة بين ابنها والبارونة ، وكانت تأبى أن تستمع إلى كلمة سوء تقال عنها ، وتغضب أشد الغضب إذا قيل لها إن البارونة تحركها بواعث غير الصداقة والحب الخالص ، أما أنها من عمال النازيين فهذا ما لا يمكن أن تصدقه بحال من الأحوال ، ومن أقوالها في ذلك : « إن هذه البلاد مدينة لها بالشيء الكثير ، فقد بعثت في الملك حياة جديدة وأعانته على تحمل آلامه والقيام بتبعاته » .

ودعت البارونة ليوبولد ووالدته لزيارة برلين قبل الحرب ، ولكن الملك رفض الدعوة بلباقة وذهب بدل ذلك إلى استراسبرج حيث تملك البارونة قصراً ومزرعة . وكانت الزيارة غير رسمية ، فلم يعرف الشعب البلجيكي نبأها ، ولم تنشر أخبارها في الصحف ، وقضى الملك فيها بضعة أسابيع ، وقبلت البارونة بعد عودتها رجاء الملكة في أن تتخذ لنفسها شقة في بروكسل مجاورة لقصرها ، وعاونها الملك ووالدته في اختيار أثاث مسكنها الجديد ودفعت برلين ثمنه فرحة مستبشرة .

والبارونة « ب » لا تدعو إلى المبادئ النازية صراحة ،

بل تفضل أن تسير إلى غرضها خفية وعلى مهل . ولما أراد الملك ليوبولد أن يقيم سلسلة قوية من الحصون على الحدود الألمانية وحدث البارونة عن عزمه هذا استمعت إليه دون ملل ، ثم سألته : « ولماذا تنفق هذا المال كله لغير فائدة ؟ إن ألمانيا لا تفكر قط فى الاعتداء على بلجيكا . فأجابها الملك فى ألم وحسرة : « وهكذا قيل لنا فى عام ١٩١٤ . فردت عليه بقولها : « لقد تغيرت الظروف ، ولكن ما بالنا نتحدث فى هذه الموضوعات . إن الحرب ضد بلجيكا من رابع المستحيلات . ثم لا تنس أنى ألمانية » .

وشبت الحرب ، ولكنها لم تؤثر فيما بين الملك والبارونة من صداقة ، ولاح أن الملك يعتمد على البارونة اعتماداً يزداد على مر الأيام ، وكان يقابلها سراً فى كل يوم تقريباً ؛ فكانا يجتمعان أحياناً فى قصر والدته وأحياناً فى بيت البارونة نفسها ، وكانت تؤكد له فى كل مرة أن ألمانيا لن تعتدى قط على حياد بلجيكا ، وهو الحياد الذى كان يعمل له الملك جاهداً ، ولم يشك الملك فى صدقها . واقتربت الحرب شيئاً فشيئاً من حدود بلاده ، وأرسل الجند والذخائر إلى الحصون ، وضاعفت البارونة من نشاطها ، فقد كان لابد من أن تطمئن بلجيكا إلى سلامتها وتخدر أعصابها بتخدير أعصاب الملك نفسه . وأعدت العدة للغزو ، وكان من الحكمة ألا تكون ثمة مقاومة ، وكان أفراد الطابور الخامس يقومون بعملهم فى كل مكان فى بلجيكا ينفذون أوامر برلين ؛ ولكن البارونة كان لها عملها الخاص ، وما من شك فى أنها كانت تؤديه على أحسن وجه ، فقد كانت أسرار الدفاع البلجيكى كلها غير خافية على قواد الجيوش الألمانية ، وكانت نقط الضعف فى هذا الدفاع معروفة لهم ؛ ولذلك كانت خطة الغزو دقيقة محكمة ، ولذلك أيضاً نفذت فى سرعة فائقة . وسيرت الجحافل الألمانية فى أثناء الليل ، واعتدى الألمان مرة أخرى على حياد بلجيكا ، وسار الملك ليوبولد على رأس جيشه لصد الغزاة ، ولكنه كان من أول الأمر يحارب حرباً خاسرة ؛

وجاءت الجيوش الإنجليزية متأخرة لتنجد البلجيكيين ، وأخذ الفرنسيون يرتدون لأن فرنسا كانت على وشك الانهيار . فماذا كان يحدث وراء الستار ؟ ولماذا ألقى الملك ليوبولد السلاح فجأة ، وترك جناح الجيش الإنجليزى مكشوفاً ، وعرض هذا الجيش كله لخطر الأسر ؟

لقد ظل الملك شهوراً يتجرع على مهل السم الذى كانت تقدمه له الساحرة الحسناء : « إن مقاومة ألمانيا وجيوشها الظافرة هو عين الانتحار ، وكل أمة تجرؤ على الوقوف فى وجه الغزاة الألمان تحفر قبرها بيدها ، وألمانيا لا تضمر الشر لمن يعاونها ، وتعرض عليهم شروطاً عالية ، وتمنحهم الحرية والسعادة ، وانجلترا وحدها هى التى تقع عليها تبعة تكدير صفو السلام فى أوربا ، انجلترا التى تطامع فى القوة والسلطان ، وترغب فى السيطرة على العالم والقضاء على أمانى الألمان الحقة العادلة . وأين هى انجلترا الآن ؟ لقد هزمت جيوشها فى ميدان القتال وحاولت دون جدوى أن تحمل الفرنسيين على أن يحاربوا من أجلها . فماذا تشاء فيما كانت ترى إليه لم يبق أمامها إلا أن تشق طريقاً للنجاة من الميدان ، ولقد حانت ساعة سقوطها ولن تمضى بضعة أسابيع حتى تخر أمام الألمان ذليلة مهينة ! ! » .

ونظر الملك الشاب الذى لم تحنكه التجارب ، فرأى العالم يتصدع بناؤه من حوله . فالنرويج خضعت للغزاة ، وهولنده قد انهارت ، وفرنسا مزقت شر ممزق ، والجيوش الانجليزية تشق طريقها إلى دنكرك . أليس هذا هو الذى تنبأت به البارونة وحذرته من عاقبته ؟ لقد سرى السم فى نفس الملك وأحدث فيها الأثر المرتجى ، فأيقن أن لا أمل فى صد الجيوش الألمانية الظافرة ، فأوى إلى قصره ، وانتظر شروط الهدنة الألمانية ، وهو الآن يقيم فى هذا القصر سجيناً والألمان فى بلاده يسرحون ويمرحون ، وهتلر وربنتروب وجيلز يفخرون بتضليلهم النجيبة التى يهدت السبيل لانتصارهم السهل السريع .

محمد بدران

من هنا وهناك :

المركب حرف «ك» Q - boat

فى اليوم السابع عشر من شهر يناير سنة ١٩١٧ ، أصدرت القيادة القيصرية تعليمات سرية إلى قواد الغواصات الألمانية ، تلزمهم باتباع خطط جديدة كانت قد وضعتها من قبل لتلائم ظروف الحرب فى البحار وتطوراتها . وكان لُباب الرأى السائد وقتئذ هو محاولة قهر انجلترا وحلفائها عن طريق إغراق بواخرها الحربية والتجارية ، فيزول بذلك الحصار البحرى البريطانى ، وتتحايل ألمانيا بعد ذلك ما وسعها الحيلة على إصدار بضائعها واستيراد ما تحتاج إليه .

وكانت ألمانيا تواجه عداوة روسيا وإيطاليا والصرب ورومانيا ، ولم يكن هناك دول تستطيع الاتجار معها سوى الأقطار السكندناوية وهولاندا وسويسرا . وقد كان فى مقدور هذه الدول أن تمدها بجزء كبير من المواد والمؤن التى كانت تحتاج إليها إذا رفع الحصار وتقطعت شبكته .

وقد ذكرت فى العدد السابق أن عمل الغواصات فى القوافل الانجليزية كان رهيباً خصوصاً بعد التعليمات الجديدة التى أمليت على القواد الألمان ، وأن شبح المجاعة بدأ يهدد الجزر البريطانية تهديداً فعالا خطيراً ، ولولا ظهور ذلك الاختراع الجديد المسمى « بالمركب حرف ك » على يد أحد الضباط الفرنسيين لألقت انجلترا السلاح ، ولخرجت ألمانيا من الحرب الماضية منتصرة .

• • •

وقد انحصرت التعليمات الألمانية الموجهة إلى قواد الغواصات فى خمس نقط صريحة هى :

أولا : يجب على الغواصة التى تعمل تحت لواء القيصر أن تهاجم وهى مختفية تحت سطح الماء البواخر الحربية المسلحة كالمدمرات والطرادات والبوارج وحاملات الطائرات .

ثانياً : يحسن بالغواصات أن تختار الليل لقذف طوربيداتها ، كى لا تكون عرضة للتدمير أو الوقوع فى الفخاخ .

ثالثاً : يتحتم على قائد الغواصة ألا يعطى أمراً باطلاق الطوربيد من مسافة تزيد على مائتى متر من القافلة المعادية حتى يضمن إصابة الهدف .

رابعاً : فى حالة ظهور باخرة تجارية فى حراسة بارجة حربية كبيرة ، يجب على بحارة الغواصة وقائدها أن يوجهوا كل اهتمامهم نحو الباخرة أولاً ، وفى حالة إغراقها تنصرف الجهود من بعدها إلى البارجة .

خامساً : ليكن فى علم كل فرد من أفراد الغواصات أن المؤن التجارية التى يتغذى بها الأعداء ، تفوق فى أهميتها الذخائر والمواد الحربية .

ولم يأت شهر إبريل من هذا العام — أى أنه لم يمض ثلاثة أشهر على صدور تلك الأوامر والتعليمات — حتى كادت البحار تخلو تماماً من البواخر البريطانية ، وانقطعت المؤن تدريجيا وانعدمت الواردات على مر الأيام ...



شكل رقم (١)

ولنتأمل الآن قليلا فى الصورة رقم (١) فانها تظهر بوضوح ما كان لعمل الغواصات الألمانية من تأثير على

التجارة الأنجليزية ، ويلاحظ أن كل نقطة سوداء على هذه الخريطة تبين موضع إغراق باخرة تجارية للحلفاء في الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر ابريل عام ١٩١٧ . وهي خسارة فادحة ، لاريب في ذلك ، تأثر بها الأسطول البريطاني أشد التأثر من ناحية ، وحفز الهمم على تلافيها من ناحية أخرى .

كان لابد إذاً من إيجاد طريقة فعالة تحتاج إلى كثير من الدهاء و « التكتيك » الحربي . . . كان لابد من درس الطريقة الألمانية المتبعة في إغراق البواخر ، ومحاربة الغواصات في نقطة الضعف التي ستظهرها نتيجة البحث والتنقيب .

وهنا ، وفي هذه الأوقات الحرجة العصيبة ، بينما كان اليأس يزحف تدريجيا إلى نفوس قواد الجيش البحري ، ظهر مصباح الأمل يحمله الكابتن جوردون كامبل في رسالة إلى الهيئات الفرنسية يقول فيها :

« كلنا يعلم أن الغواصات وما تحمله من بحارة وضباط ، يعيشون بما يقتنصون من المؤن التي تحملها البواخر التجارية . وقد لاحظنا مراراً وسمعنا كثيراً من بعض الناجين أن الغواصة الألمانية تطفو على سطح الماء إذا ما رأت باخرة تجارية عزلاء ، تسير وحدها في البحار ، لا يحرسها أسطول ولا تحيطها قوة يخاف بأسها .. فبعد أن تقترب الغواصة المعادية من الباخرة تأمرها بالوقوف ، ثم تخيرها بين إغراقها بمن عليها أو الطاعة العمياء لأوامر القائد الألماني . فيفهم البحارة ما يحويه هذا التهديد ، وأن الموت غرقاً ينتظر كل فرد منهم إذا هم حاولوا الفرار أو الدفاع ، وكيف يكون الفرار أو الدفاع وهم يعلمون جيداً أن مدافع الغواصة مصوبة إلى باخرتهم من كل جانب ، وأن طوربيداتها متحفزة للانطلاق عند أول إشارة ؟ إن العدو مسلح أكمل التسليح وأشده ، بينما هم لا يملكون سوى مسدساتهم أو بنادقهم ، إذا كانت لديهم مسدسات أو بنادق .

« لا بد إذاً من التسليم مهما كلفهم الأمر . ولابد من الطاعة مهما قست عليهم الأوامر . فتقف الباخرة ويصعد إليها بعض رجال الغواصة ، ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم من مأكولات ومشروبات وملبوسات ثم يأمرون بحارة الباخرة بتركها إلى زوارق النجاة أو إلى غواصتهم كأسرى حرب . وفي هذه اللحظة فقط تبتدئ مأساة الباخرة . فإن طوربيداً واحداً محكم التصويب كافٍ لإرسالها مشتتة الأجزاء إلى حيث لارجعة لها في عالم الوجود » .

واستطرد جوردون قائلا :

« فإذا كان الأمر كما ذكرت فلم لانحاربهم معتمدين في ذلك على طريقتهم في السلب والنهب ؟ لم لا نرسل إليهم بواخر تجارية ضعيفة عزلاء في ظاهرها ، قوية محصنة في باطنها ؟ سنعتبر كل غواصة للأعداء سمكة كبيرة شرهة أو حوتاً ضخماً جائعا دائم البحث وراء فريسة جديدة . فلنقدم له طعماً على صورة باخرة من بواخرنا . فإذا ماظهر لاقتناصها قابلته المدافع بأشد النيران فتكا وتدميرا »

وبمثل هذا الاقتراح كان المسيو جوردون يرمي جعل كل باخرة فخاً للغواصات ، وبذا يتحايل على قهر العدو بطريقة المكر والدهاء .

إن كل اقتراح — مضراً كان أو نافعاً ، قويا كان أو ضعيفا — يلقى دائما آذانا صاغية من شخص دب في نفسه اليأس ، وهذا ما حدث لاقتراح جوردون . . . فتسلحت البواخر التجارية بكافة أنواع المدافع وقنابل الأعماق ، وكسيت تلك المدافع بأغلفة من الصلب تحجب عن الناظر فوهاتها . ومن طريف ما يقال أن بحارة تلك السفن كانوا يطلقون لحاهم ويرتدون أقذر الثياب وأرثها . فيدل منظرهم على أنهم من أحط الطبقات ، وأن أحدا منهم لا يعرف كيفية إطلاق مدفع . وكانوا يتمايلون

فيما بينهم بألفاظ بذيئة وقحة . والواقع أن هؤلاء الرجال كانوا من ضباط البحرية أحسنهم وأمهرهم ، وأنهم كانوا يمثلون على ظهر باخرتهم كما لو مثل أقدر الممثلين على خشبة المسرح . أما السفينة نفسها فكانت أشد قذارة من راكبيها : فمن صناديق كبيرة توهم بأنها مكدسة بالبضائع ، موزعة بغير نظام أو عناية ، ومن علب وصفائح فارغة تدل على أن بداخلها المأكولات المحفوظة من كافة الأنواع والأصناف . وبالإجمال كان مظهرها غير حقيقتها وظاهرها غير باطنها . وكان عليها أن تسير وحدها في المناطق التي يعرف قائدها أنها مهددة بالغواصات . كان عليها أيضاً أن تبحث عن تلك الحيتان وأن تجري وراءها وتتصيدها ، لا أن تتحاشاها وتفر منها كما كان قبلا ، وعندما تراها إحدى الغواصات فإنها تطفو سريعاً على سطح المياه وتقترب منها بعد أن تكون قد تيقنت من بعيد أنه ليس بها مدافع يخشى أمرها . وهنا يمثل بحارة السفينة دور الهلع والفزع فيتصنعون الاضطراب ويروحون ثم يجيئون كأنهم يبحثون عن منفذ يهربون منه أو ملجأ يحتمون فيه . وتقف الباخرة تبعاً لأمر قائد الغواصة التي تقترب بكل هدوء وهي مطمئنة على نفسها فرحة بغنيمتها

وفي اللحظة المناسبة ، وعندما تكون الغواصة على مرمى المدافع والقنابل ، تتفتح الأغلفة فجأة فتظهر الفوهات دفعة واحدة وتصب نيرانها عليها بكل ما أوتيت من قوة ، بينما يكون الذهول قد عقد ألسنة الأعداء وشل حركتهم من أي عمل عدائي .

وهكذا أخذ عدد الغواصات يقل دون أن تعرف القيادة الألمانية لذلك سبباً من الأسباب ، إلى أن جاء اليوم الذي فيه تطهرت البحار وأمنت المواصلات ، وازدادت على انجلترا الواردات فقويت عزيمتها وانتهى نضالها بالنصر .

محمد أحمد أمين

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

مدرسة مصرية ! — سبع سنابل ! — كتب وشخصيات ! — أزياء ! — فليشهد التاريخ ! !

مدرسة مصرية :

جاءتنى الرسالة الآتية ، تعليقاً على بعض ما كتبت فى العدد ١٨٤ من المدرسة المصرية :

« الواقع أنه ليس فى مصر شىء يصح أن نسميه « المدرسة المصرية » ، لأنه ليس عندنا ما يصح أن نسميه « البيت المصرى » . . .

« نعم ، كان لنا بيت مصرى ، وكانت لنا مدرسة مصرية ، ولكن كان القرن الماضى آخر عهدنا بذلك . . . وكانت المدرسة المصرية تتمثل فى الكتّاب والأزهر الشريف ؛ واليوم ذهب الكتاب ومُسخ الجامع فأصبح جامعة ، وهكذا مُسخت حياتنا كلها . . . .

« . . . إن أصحاب الفكرة قد لا يملكون المال اللازم لتنفيذ فكرتهم ، وأصحاب المال قد لا تكون لديهم فكرة أو قد يخشون على مالهم الضياع فى سبيل تنفيذ فكرة قد يرونها غير مضمونة النجاح . . .

« فهل يمكن وزارة المعارف أن تعين صاحب فكرة — كما تعين المدارس الحرة — على تأسيس مدرسة من نوع جديد لتجربة جديدة ، وتبيح له أن يضع ما شاء من برامج ونظم ؟ . . .

« . . . ولن تكون هذه المنشأة مدرسة بالمعنى المألوف ، بل تكون بيتاً للتعليم ، وبعبارة أخرى : بيتاً ومدرسة فى آن واحد . . . ولن تعنى هذه المدرسة بالكم كما تعنى مدارس الحكومة ، بل ستكون عنايتها بالكيف ، أما الكم فسيكون قابلا للزيادة والنقصان على حسب مقدرة الطالب نفسه . . .

ستكون هذه المدرسة مرحلة انتقال نحو بيت مصرى جديد ، ومدرسة مصرية تلائم هذا البيت . . . ستكون نموذجاً لغيرها فى حسن التوجيه ويسر الانتقال وسرعة التغيير وسهولة التبديل ، وكذا فى العناية بالأخلاق وتقويم التقاليد وصيانة الدين .

« ستعنى هذه المدرسة بتاريخ الطفل وتاريخ أسرته ، وستهتم بحالته الصحية ، وما ورثه من أمراض ، وما ينتابه من أحوال عصبية أو ظروف سيئة . . . . . . ويستطيع الآباء أن يلحقوا أبناءهم — الذكور والاناث — بهذه المدرسة قبل أن يولدوا ؛ فتعنى المدرسة بحالة الأم الصحية والنفسية طول مدة حملها ، وتعنى بها وبطفلها بعد ولادته ، حتى يجئ اليوم الذى يدخل فيه الطفلُ الفصلَ الدرسىّ . . .

« . . . هذا مشروع لو توجّهتْ إليه همة وزارات المعارف والصحة والشئون الاجتماعية ، لاستطعنا أن نقول بعد عشر سنين إن فى مصر مدرسة مصرية . . . ! » .

نصر محمود الإمام — ليسانسيه فى الفلسفة

* * *

هذه رسالة الأديب ملخصةً ، وهو يرسم فيها صورةً هيكليّةً للمدرسة التى يرى الحاجة إليها فى الحال الراهنة ، لتكون خطوة أولى نحو تجديد « البيت المصرى » وتأسيس « المدرسة المصرية » لو توجّهتْ إلى ذلك همة وزراء المعارف والصحة والشئون الاجتماعية . . . وبذلوا مَعونتهم ! . . .

ويعنينى هنا أن أتناول هذه الرسالة بالتعليق ؛ فإن الأديب الطيب « نصر محمود الامام » يعتقد أن من حقه على وزارة المعارف أن تعينه بالمال على تنفيذ فكرته كما تعين المدارس الحرة ، وفاته أن عليه قبل ذلك حقاً

آخر ، هو أن يُقنع وزارة المعارف بصواب رأيه في المدرسة المصرية !

إن كل فرد في وزارة المعارف ليكاد يؤمن — فيما بينه وبين نفسه — أنه ليس في مصر كلها مدرسة مصرية واحدة تُعِدّ تلاميذها إعداداً صحيحاً لما ينتظرهم في غد. هذا رأيي ورأيك ورأيهم ورأيهن ... ، ولكن « الشخصية المعنوية » لوزارة المعارف لا تكاد تجد لها رأياً في ذلك ! ... نعم ، كل من في وزارة المعارف يعلم ، ولكن وزارة المعارف نفسها لا تعلم ! لأنها لا تريد أن تعلم ! وما دامت الكرة تتدحرج في طريقها بقوة الاستمرار فما على وزارة المعارف من بأس إذا هي تركت كل شيء « يسير في مجراه » .

تحدَّث إلى مَن شئت في وزارة المعارف واستمع رأيه في المدرسة المصرية تجدك وإياه على رأيٍ سواء ؛ ثم انظر إلى ما تعمل وزارة المعارف وما تشرع من قوانين ، وما تُعِدّ لتلاميذها من برامج وخطط ! فإذا برامجها وخُططها تُعِدّ تلاميذها لغير ما تريد أن تُعِدّ له التلاميذ!!

وفي قانون التعليم الحر مادة لا تبيح لوزارة المعارف أن تُعين مدرسةً إلا أن تكون سائرة على نهج مدارس الحكومة ونظامها ؛ والويل لصاحب المدرسة الحرة الذي يحاول أن يجعل مدرسته « تجربة » ! أفتحاول أنت ؟ ...

على أن هذه « المادة » قد تكون ضرورة من ضرورات النظام في المدارس الحرة ، وهي ما هي جملةً وآحاداً : لا تستطيع أن تطمئن لإخلاص واحدٍ من أصحابها لفكرة الإصلاح ؛ ولكن أين تجارب وزارة المعارف نفسها وإن لها مئات من المدارس في عشرات من البلاد ؟

ليس يكفي أن تكون في مصر كلها مدرسة نموذجية واحدة ، وأن تكون كل تجارب هذه « المدرسة النموذجية » في الطريقة دون المادة ؛ وإنما ينبغي أن تفسح وزارة المعارف صدرها لكل صاحب رأي في كل منطقة من مناطق التعليم ليجرّب خطةً ويرسم نهجاً لإعداد التلميذ ، غير مقيَّد بقيدٍ من « المنهج العام » ، ولا بنظام من نُظم « الامتحانات العامة » ، ولا بكتاب من الكتب المقررة ، ولا باسم من أسماء العلوم الاصطلاحية ؛ فلعلها واجدة في ذلك نتيجةً تطمئنُّ إليها وتفتح لها باباً إلى الإصلاح .

إن المدرسة المصرية لم توجَد بعد ! هذا حق ؛ ولكننا لا نريد أن نترجم أخلاقنا ودينَنا وقوميتَنا ، ونقطع صلة الفكر بيننا وبين بنينا وبناتنا ، وإخوتنا وأخواتنا ، بتعليمهم في المدارس الأجنبية ، وهي أجنبية ؛ ولكن كيف السبيل ؟ ...

سبع سنابل

« سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » : هو عنوان حديث نشرته « الأهرام » في يوم ١٧ — ٧ — ١٩٤٢ جاء فيه :

« هل في سنابل القمح سنبلة تُنبت مائة حبة ؟ ... سؤالٌ خطر لصاحب السعادة زكي الابراشي باشا منذ سنوات ، وظل يبحث عن جواب في سنابل القمح التي صادفها فلم يجد السنبلة المنشودة ؛ ولكن كيف هذا والآية الكريمة صريحة لا تقبل تفسيراً ولا تأويلاً ؟ »

وبعد ما نشرت الأهرام حديثاً للابراشي باشا عن محاولات ومباحث ومشاهدات ، قالت :

« وقد علمنا أن سعادته كان قد أعد جائزة مالية لكل من يقدّم للجمعية الزراعية سنبلة قمح تُنبت مائة حبة ، تشجيعاً لزراعة القمح » .

وقرأتُ حديث الأهرام وحديث الباشا فلم أعرف ما تعنيه ولا ما يعنيه ، أهو « رمزٌ » إلى معنًى لا يصرّح عن حقيقة ، أم هو « فنٌ » جديد في أساليب الحديث عن الزراعة ، أم هو « إيحاءٌ » بمعنًى يبدو في غير زيّه ؟...

وعلى أيّ أحواله كان فإنه حديثٌ في غير أوانه ، فلا هو اليوم في « معناه القرآنيّ » موضوع جدال ، ولا هو في « موضعه الزراعيّ » !

ولكن الأهرام تقول : « ... كيف هذا والآية صريحة لا تقبل تفسيراً ولا تأويلا ؟ » فليت شعرى ماذا فهم كاتب هذه العبارة من صريح الآية ؟ ... أتراه فهم أن السبعة سبعة وأن المائة مائة ؟ ... أم تراه يعنى ما يقول حين يتهدّد خادمه بمثل قوله : « قلت لك سبعين مرة ... ... » أتراه يعنى « السبعين » عداً وإحصاءً ؟ ... إنه لم يفهم حينئذ « صريح الآية » ولم يفهم « سر العربية » في العدد والمعدود !

ألا ليت الذين يَعْرِضون لمثل هذه المباحث في أسلوب القرآن يعرفون من سر العربية ما يعينهم على الفهم والإفهام . وإن القرآن بعدُ لأرفع مكاناً من أن يلتمس برهان إعجازه في منجل الحصاد أو مبضع الطبيب أو مخبار العالم ؛ لأن حقائقه أخلدُ على الزمان من كل ما يتهدّى إليه العلماء من « نظريات العلم » بالتجربة والاختبار !

كتب وشخصيات !

منذ أسابيع بدأ الأستاذ سيد قطب حديثاً في الرسالة « على هامش النقد » بعنوان « كتب وشخصيات » عَرَض في مقدمته نهجَه وحدّد طريقَه لدراسة ثلاثة من أدبائنا في أحدث مؤلفاتهم ، هم العقاد في « عبقرية محمد » وتوفيق الحكيم في « بيجماليون » وطه حسين في « دعاء الكروان والحب الضائع » ...

ونشر بعد المقدمة مقالين ، فأبلغَ رأيه في العقاد ، ثم غاب صوته ...

ليت شعرى أكانت موعدة الأستاذ سيد قطب بالحديث من توفيق الحكيم وطه حسين على نية الوفاء أم كانت أمنية ؟ ... ولكن الأستاذ قطب لا يُعجزه الوفاء إذا وَعَد ، وإن له في النقد ماضياً يشهد ... أم هي « الرسالة » ؟ ...

ورآنى صديق أتصفّح عددين من الرسالة باباً باباً وإنى لأسائل نفسى ، فتبسّم وما كان لى أن أتنبه وحدى ؛ واستغنيتُ بما قرأتُ من رسائل القطيعة بين توفيق الحكيم والرسالة ، وبين الرسالة وتوفيق الحكيم — من السؤال والجواب ، لأنى عرفت ...

ولكن بقى حق القارئ بلا وفاء !

قرأت في هذا الأسبوع :

« الوضع عندنا مقلوب ، فالرجال يلبسون الثقيل ، ويغطّون جميع أجزاء جسمهم ولا يظهرون منها إلا وجوههم ، في حين ترتدى السيدات أزياءً تسكشف من ثلاثة أرباع الجسم ؛ وفي رأيي أن الوضع يجب أن يكون معكوساً ، فالرجال أولى بأن يعطوا أجسامهم حرية الحركة والنشاط والاستمتاع بالشمس والهواء ، والسيدات أولى بأن يخففن من زينتهن ولا يكشفن صدورهن وظهورهن وسيقانهن وما فوقها ... ... »

المصور : ٩٣٦ — سعاد راشد

فليشهد التاريخ !!

« ... إن الدنيا لن تسمح لأحد بأن يصبر على الحياة الجامعية عشرين سنة بين القاهرة وباريس كما صبرت ! وبفضل الصبر الجميل صرت أعظم مؤلف في هذا الجيل !!! وليكذبني من شاء إن استطاع ولن يستطيع » ...

« أنا عنوان وطنى في زمانى !!! وقد ذُكِر اسمى بالخير في لغات تزيد على الثلاثين !!! وما عرفنى أحد واستطاع أن ينسانى !!! ... ... »

الصباح : ٨٢٤ — زكى مبارك

... ...

« قاف »

في الميزان الجديد :

أرواح وأشـــباح

الشعر والأساطير

جميل جداً أن نتخذ من الأساطير مادة للشعر ، وقد سبقنا إلى ذلك شعراء كبار ، ولكن على شرط أن ننجح كما نجحوا ، وما يجوز أن نمل تكرار ما قلناه مرة ومرة من وجوب تملك موضوعنا كما تملكوه ، إذ أننا لن نستطيع أن نخلق من أسطورة معروفة قيماً فنية جديدة ما لم نتمثلها حتى تصبح جزءاً من أصالتنا ، ولا أدل على صحة ما نقول من النظر فيما فعل شعراء ثلاثة يختلفون بمناحيهم النفسية اختلاف شنييه وشلي وكيتس .

شنييه شاعر فرنسي ولد لأم أغريقية غذته بالروح اليونانية الخالصة ، فإذا به في سذاجة القدماء ورقتهم ولطف حسهم . تناول هـذا الشاعر أساطير اليونان يقصها في يسر لا يبقى منها غير التأثير العاطفي الذي تحركه وقائع بسيطة يرويها بأسلوب سهل ونغمات سيالة : فهيلاس فتى جميل يذهب إلى النهر يستقي الماء في إناء ، وتلمحه عرائس اليم فيقع في قلبهن ، وما يزلن به إغراءً وسحراً حتى يجتذبنه إلى المياه التي تطويه بأمواجها ، ويختنق الفتى وصوت صديق له يناديه ، ولا من يجيب . وفتاة تارانت جميلة حملتها القلاع إلى زوجها القصى ، وفيها هي فرحة تبتسم للمستقبل وقد نهضت بمقدم السفين ، ترسل بصرها الشرق في آفاق السماء ، إذ هبت عاصفة حملتها إلى اليم ، وعصافير السماء تغرد فيزيدنا تغريدها شجواً ، وهذا كل ما نجده عند شنييه : موسيقى وإحساس .

وأما شلي فعقل يفكر ، ولذا لم يعنه من الأساطير غير معانيها الرمزية ، وهو إلى جانب ذلك شاعر ؛ ولذا نراه يعالج الفكر بأسلوب الشعر ، وصور الشعر ، وموسيقى الشعر ؛ وهذا واضح في روايته عن « بروميتوس » حيث يتخذ من هذه الشخصية الخرافية رمزاً للبشرية التي تثور ضد ظلم الآلهة ، وقد أصبحت الإنسانية عنده خيراً صراحاً ، وأصبحت الآلهة شراً عنيداً . ومن اليقين أنه لولا عبقرية شلي الشعرية ، لجاءت روايته باردة ميتة ككل شعر يصدر عن الفكر المجرد ؟ وإذاً فباستطاعة الشاعر الموهوب أن يجازف بقيثارته في عالم الرموز ، على مشقته وخطره ، ولكن على أن يلون الإحساس الفكرة ، وأن ترفع الصور الشعرية من استوائها البارد .

وكيتس يمثل اتجاهاً ثالثاً ، فهو شاعر الصيغ والأوضاع المجسمة . يرى بعض الأواني التي كانت توضع على قبور الموتى من الأغريق القدماء ، ويتأمل فيما يحلي جوانبها من صور جميلة ، فيتابع ببصره خطوطها ، وكأن بصره الريشة التي خلقتها ، ويصف ما يرى فينفث فيه الحياة ، وإذا به يثير فينا ضروباً من الانفعال الفني فنشاركه إحساسه ، بل نشارك الصور حياتها ؛ وهو يسائل تلك الصـور ويستنطقها بأسرارها .

وها أنا اليوم أنظر في « أرواح وأشباح » للشاعر علي محمود طه ، فأرى صوراً مغرية وحيلا في الطباعة تهش لها العيون ، ثم أفتح الكتاب وآخذ في القراءة فتتعاوى نفسي ويتغير إحساسي . يالله ! أهكذا قدر علينا دائماً أن نسكن إلى نغمات الغريب عنا ، حتى إذا حدثنا أحد أبناء جنسنا نفرت قلوبنا وهم ألصق الناس بنا وأقربهم إلى نفوسنا ، وتروح عزتنا القومية تغرينا بالفرح فيثور فينا ما نشارك فيه البشر قاطبة من صفة الإنسانية التي تهفو إلى الركون إلى كل نغمة صادقة أليفة .

وفيم الإغراب وأجمل الشعر أشده سذاجة ؟ وفيم الزج بسافو وبليتيس وتاييس وتلك أسماء تاريخية أو خرافية لها دلالتها في كل العقول ؟ ومن عجب أن تبحث عن شيء من تلك الدلالة في أقوال كل منهن فلا تجد شيئاً ، وقد لاحظك

الصور التاريخية التى تعرف منهن وأنت تقرأ فتتلف عليك إحساسك وتثير بك الغيظ ! ولكم من مرة تساءل : ولم يا إلهى هذه الأسماء الحبيسة فى حقائقها التقليدية ؟ وبودك أن لو أخذت قلمك ومحوتها من كل النسخ لتحل محلها أى أسماء أخرى بل أرقام إن عزت الأسماء الشعرية . ويبلغ بك الحنق أقصاه عند ما تنظر فى مقدمة القصيدة ؛ فترى الشاعر قد قدم إليك هذه الشخصيات تقرأ كما يعرفها الناس ، وتنظر فى الشعر علك ترى فيه إيضاحاً لحن وعبثاً مع ما عرضه المؤلف عنهن فى المقدمة ، فتحار ويذهب لبك . «فـغو» ليست الشاعرة الحسية التى نعرفها ، وهى فى أقوالها أقرب إلى الهدوء والنظر القلق الذى يلتمس الاعذار ويحاول فهم النفوس منها إلى الشاعرة المسرفة العنيفة «التى كانت تحس برغبات الحياة ، تسيل تحت إهابها رعشة كما رأت من تحب » والتى ألجت «ألسيه» يوماً لسانه عندما حدثها عما يجد فى حضورها من اضطراب . وبليتيس لا تمت إلى شاعرة بير لويس بسبب قريب ولا بعيد ؛ وأين المرأة التى تقبل على الرجال بحواسها الملتهبة من بليتيس شاعرنا التى تثور فيها أحياناً كبرياء النساء ؟ وأحياناً أخرى نرى أن الشاعر قد أسرف فى تغنيه بلذة «اللحم والدم» . ثم متى رأينا تاييس ترقص وتذهب بألباب الرجال ؟

وهرميس — أى خاصية من خواصه لمحها فيها عرض الشاعر ؟ اللهم إلا أن تكون قيادته للأرواح ، ونحن بعد لا ندرى لِمَ جعل منه المؤلف فى مقدمته «المكلف بقيادة الأرواح الأثيمة إلى الجحيم» . والذى يعرفه كافة المثقفين منه ، ومعرفتهم هى الصحيحة ، أنه «قائد الأرواح إلى العالم الآخر» هو البسيكوبومبوس Psychopompos ؛ وهذه اللفظة اليونانية تترجمها القواميس الفرنسية عادة بقولها : « Conductcur des âmes aux enfers » ، ومعنى هذه الجملة هو ما ذكرت ؛ فمصدر خطأ الأستاذ محمود طه هو ترجمته عن الفرنسية فيما أظن ترجمة غير صحيحة ، إذ أن لفظة enfers فى الجمع ليس معناها الجحيم ، بل العالم الآخر إطلاقاً ، وإنما المفرد هو الذى يفيد هذا المعنى ، وحيث فهم الأستاذ من كلمة enfers معنى الجحيم كان من السهل أن يضيف كلمة «الآثمة» للأرواح ليستقيم الكلام . ونحن لا نقف عند هذه الغلطة ، فهى مهما تكن تافهة ، ونحن الآن نتحدث عن محمود طه الشاعر لا محمود طه العالم بالفرنسية ، أو الباحث فى الأساطير ، ومن العدل أن لا نحاسبه إلا عن شعره فهو عبقريته وهو ميدانه .

ومع ذلك فثمة مسألة أخطر ؛ فشاعرنا يريد أن يتخذ من أساطير اليونان مادة لشعره كما يتخذ لشخصياته أسماءً إغريقية ؛ وإذاً فمن حقنا أن نناقشه طريقة فهمه لليونانيات ، وذلك لأنه إذا جاز أن نتساهل فى شىء فإنه لا يمكن أن يكون هذا التساهل فى فهمنا المادة التى نصدر عنها ؛ وفى جملة الشاعر الخاطئة ما يدل على أنه لم يأخذ نفسه بعناء دراسة أساطير اليونان ومعتقداتهم الدينية كما يجب .

وذلك لأن فكرة الإثم والجحيم بل وفكرة المصير بعد الحياة لم تعرفها الديانة الأولمبية ، ولم تظهر فى بلاد اليونان إلا بتأثير المعتقدات الأجنبية التى أتتها من مصر وسوريا وبلاد الشرق الأخرى ؛ وهى لم تتسلل قط إلى ديانة زيس التى ينتمى إليها هرميس ، وإنما ظهرت فى شعائر أنصار أورفيوس وفيثاغورس ثم فى أسرار ألزيس «Eleusis» ؛ وهذا تيار ظل بعيداً عن أساطير اليونان ودياناتهم التقليدية ، وفيه فقط نجد فكرة الإثم ، وفكرة الثواب والعقاب ومصير الأرواح ، وأما هرميس فكان يقود كل الأرواح إلى العالم الآخر المظلم الذى نرى الجميع يرهبونه .

وهذه الملاحظة تقودنا إلى منهج الشاعر عامة وطرق علاجه لموضوعه ؛ ففى كتابه ما يدل على العجلة وعدم الروية ، سواء فى وحدته أو فى تفاصيله ؛ بل وفى صياغته الشعرية ذاتها ؛ وهذا اتجاه يجب أن نقاومه ، ا يجر . . . ر جنوح إلى

الإغراب والغموض والتفكك وما يسببه من إفســاد للنغمات وعلهلة فى الاطراد وضعف فى السبك .

وفى الحق ما هى « أرواح وأشباح » وعلام يدل هذا العنوان الجميل ؟ أهى حقاً أرواح وأشباح ؟ وإذا كانت فكيف نظمها خالقها ؟ أهى ملحمة ؟ أهى قصيدة فلسفية ؟ أهى قصة ؟ أهى ديوان ؟ ونحن بعد لا نحرص على أى لفظة مما ذكرت ؛ فالشاعر أو الكاتب أن يقدم لنا ما يريد ، وعلينا أن ننظر فيه كما هو ، وما يجوز أن يدفعنا كسلنا العقلى إلى التماس « خانة » نضع الكتاب فيها لنستريح ، ولكنى أظن أنه من حقنا أن نناقش وحدة الكتاب .

وأنا أنظر فى أوله فأراه أفلاطونى النزعة ، وهذه بلا ريب أنبل النزعات ، ولقد أوحت إلى أفلاطون بنثر فيه من الشعر ما لم يتوفر للكثير من القصائد . فالشاعر يحدثنا عن صعود النفس إلى مستقرها الأول حيث عالم الخير والحق والجمال ، ويخبرنا بأنها ستعود إلى الأرض فيما يشبه البعث وهناك ستحدثنا عن :

مشاهد شتى وفيها العقول وغابت صواها[1] عن الناظر

وجود حوى الروح قبل الوجود

وماض تمثــل فى حاضر[2]

وهــذا موضوع رائع يبشر بملحمة فلسفية كتلك التى كتبها لوكريس الشاعر اللاتينى مثلا عن « طبـائع الأشياء » ، ومع ذلك من منا لا يحس بالتنافر الواضح بين الوزن والموضوع ؟ ومتى كان « المتقارب » من الفن والجلال والضخامة بل وطول النفس بحيث يتسع لفكرة أفلاطونية ؟ وهلا يذكر الأستاذ محمود طه كما نذكر جميعا كيف أن شعراء خالدين قد فشلوا فى شعر الملاحم ، وكان فساد إحساسهم بالوسيقى من أكبر أسباب هــذا الفشل ؟ وهلا يذكر بنوع خاص « فرنسياد »

الشاعر الفرنسى المبدع « رونسار » وكيف هوت ، وقد أجمع النقـاد على أن استعمال الشاعر للبحر المكون من عشرة مقاطع بدلا من البحر الاسكندرى (١٢ مقطعاً) الذى يلائم الملاحم كان من أسباب هذا الفشل . بل ألم يفطن ابن العميد إلى وجوب اختيار الوزن والقافية اللذين يلائمان موضوع الشعر ؟ « المتقارب » أهزل وأنحف وأخف من أن يحتوى فكرة فلسفية . إن فيه ما يترك فى النفس فراغاً ويشعرها بأن الموضوع قد ضمر وضاع جلاله .

ولقد رأيت لتلك الظاهرة شبيهاً عند العقاد فى قصيدته « ترجمة شيطان » :

صاغه الرحمن ذو الفضل العميم

فـى الظلمـاء فى قاع سقر

وهى قصيدة طويلة يقص فيها الشاعر حكاية ضافية عن الشيطان وسقوطه فيما يشبه « الملحمة » . وأنا لا أدرى كيف اختـار « الرمل » لموضوع كهذا !

ولكنى أسارع فأقرر أن محمود طه شاعر رغم كل شىء ، وما عليك إلا أن تنظر فى أسلوبه فترى أن الصيغ النثرية فى شعره كقوله : « وتنعلق بالمثل السائر » أو « سيسلكه الفن فيمن سلك » ، « يبقى صداها إذا ما هلك » . و « فلا كان بعث ولا قُدّرا » ، أو « وآخرة العاشق المنتحر » ، أو « فأحييتُ شيئاً كـكل الرجال وأحييتِ شيئاً كـكل النساء » ، وأمثال ذلك قليل بالنسبة لأسلوب العقاد الذى لا أرى فيه إلا القليل من الشعر .

ومن غريب الأمر أن يقع محمود طه فى نفس السخف الذى وقع فيه العقاد ! فالعقاد يدعونا فى أول قصيدته إلى أن نخف مهرولين « لنسمع أعاجيب الدبر » ، وكذلك يفعل محمود طه ، فيختم مقدمته بقوله :

هو البعث فاستمعوا واقرأوا

حديث السماء عن الشـاعر !

(١) الصوى أحجار توضع كعلامات فى الطرق .
(٢) أنا أذكر دائما خير الأبيات فى نظرى .

فيا للعجب ! متى اهتم الشعراء إلى هذه الدرجة بأن يستمع إليهم أحد أو لا يستمع ؟ أليس فى ذلك ما يضحك ؟ وفى الحق أنها لظاهرة عجيبة ! فالذى عرفناه ورأيناه عند الشعراء القدماء ، لا المحدثين ، هو أن يتجه الشاعر أو الروائى إلى القراء ، بل على الأصح إلى الشاهدين فى المسرح ، ليكسب انتباههم وعطفهم عليه ، وهذا عند ما كانت تقام مسابقات بين الشعراء ؛ وأضيف إلى ذلك أن هذه العادة لم تكن معروفة إلا فى الكوميديا ؛ فأنت تجد « بلوتس » Plautus اللاتينى مثلا يتجه فى البرولوج إلى الحاضرين ويخاطبهم ويدعوهم إلى الحكم له ، كما يمهد لنجاح مسرحيته التى يلخص لهم وقائعها ؛ وكذلك كان يفعل شعراء الاغريق القدماء ، فتجد أرستوفانيس يخاطب الجمهور فى الجزء من الكوميديا المسمى « البراباز » Parabasis ، وفى حديثه عادة ما يضحك ويؤدى إلى الأغراض التى ذكرتها .

والآن ماذا يقصد العقاد ومحمود طه بهذين البيتين ؟ إن كانا قد قصدا إلى الاضحاك فقد نجحا ، وذلك من نفسى فقد خيل إلى أنى فى «سامر» أو عند «حاوى» .

وهذا يؤدى بنا إلى مسألة خطيرة ، هى ما يجب أن نعلمه جميعاً من حاجتنا إلى التواضع والاختفاء قليلا ؛ فالقارئ لا يعنيه — فيما أظن — أن يعرف الكثير عن عبقريتنا وتمدحنا بها ، وإعلائنا لشأنها ، وتقديرنا لما يصدر عنها من شعر ، وياويل عبقرية لا تعرف إلا مدح نفسها .

وبعد ، فنحن فى حاجة ماسة إلى أن نحارب عدة عادات سخيفة عندنا . منها أن ينفق الشاعر نصف قصيدته اعتذاراً عن تأبى الشعر عليه . ألا فليسكت إن لم يكن لديه ما يقول . أو شكواه من ضيق الألفاظ عن إحساسه . أو الاشادة بملكته الشعرية وتخليده للناس ولنفسه . وكذلك يفعل الكثير من خطبائنا ، وهذه أخطاء فى الذوق أضخم من أن نحتاج إلى الوقوف عندها .

ولكن ثمة ما هو أخبث من ذلك لأنه أرق وأرهف ؛ فلقد رأينا الأستاذ الحكيم يعالج فى بجماليون مشكلة حياة الفنان ، وها نحن اليوم نرى محمود طه يتحدث أيضاً عن الفنان وعلاقته بالمرأة ، إذاً أن هذا هو جماع «ملحمته» ؟ وتلك ظاهرة مخيفة ، إذ تدل على أن أدباءنا أكثر وعيا بفنهم مما ينبغى ، ومشكلة الفن ليست مشكلة إنسانية عامة .

ثم إنى وإن كنت لا أنكر على الأستاذ محمود طه أنه يجمع فى نظرته إلى الفن والحياة ، بين النظرة الرومانتيكية التى تجعل من الفنان « صدى عابرا وروحا مجنحة الخاطر » وبين النظرة الحسية التى ترى فى فم الحبيبين « شفقين من قبس مستمر » . ويجعل الشاعر يشم فى أنفاس فتاته « رغبة يهتف بها جفنها المنكسر » « وتضج به الشهوة الجائعة » « فيشم رائحة الجسد المحترق » ، على نحو ما كان يفعل بودلير الذى تتلمذ له محمود طه على ما يظهر فى هذا الاتجاه — أقول رغم أنى لا أنكر عليه شيئا من هذا فأنى كنت أرجو أن ينجو بنا من الابتذال ، فمعظم معانيه مطروقة ، والجمل الجميلة التى ذكرتها هى كل ما استطعت التقاطه من أقواله الكثيرة فى هذه الأغراض .

ونحن بعد نستطيع أن نغتفر لمحمود طه ولغيره من الشعراء ابتذال معانيهم ، فالمعانى أشياء تافهة فى الشعر ، ولكن على شرط أن نخلق الصياغة من هذه التوافه قيما فنية ، على نحو ما جعل أبو تمام مثلا من المعنى القريب (معنى نيل الصحراء من جسم البعير) قوة شعرية دافقة رائعة بقوله :

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة
رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

وأمثال ذلك مما يحتاج إلى صبر على الصياغة وقدرة عليها لم يتوفرا دائماً لشاعرنا .

انظر إلى قوله مثلا عن حدق إحدى الحوريات :

«تتوّجان بالنظرة الرائمة» ، ثم تساءل : أين تقع «الروعة» من «الأجيج» ؟ وهل لهذا التنافر من سر غير العجلة ، أو قوله عن الشاعر : «ألم يعبد الحسن في زهرها» ، وما في ورد الحبيبة من ابتذال ذهب بجمال صدر البيت . «ألم يتسم الخلد من عطرها» ، وما هذا الحشو الذي يحرص على ذكر الزهر بعد العطر .

ولقد نحس من حين إلى حين أن الشاعر يصدر عن مذهب أدبي بعينه ، وهذا جميل ، ولكن على أن يصدقنا الذوق ؛ فبودلير مثلا يكثر من الجمع بين المتناقضات كقوله «النور القاتم» وما شاكل ذلك ، ويأتي شاعرنا فيقول :

وأحفر بعد الردى قبره هنـاك على قمة الهاوية
وأغرس في قلبه زهرة من الشر زاوية نامية

ونحن نترك «زهرة من الشر» فقد قالها بودلير ، بل هي عنوان ديوانه . ولكن ما «قمة الهاوية» ؟ وهل لها حقيقة صورة واضحة في خيال الشاعر أم هي صنعة المذهب ؟

ولقد يحدثنا قرلين حديثا سهلا ساذجا مؤثرا صادقا عن بؤسه وقد أخذت تتقاذفه بقاع الأرض «كورقة ميتة» ، ولقد يخبرنا «بانتحاب قيثارة الخريف» في أذنيه فيأتي شاعرنا يقول :

«إذا ما هوت ورقات الخريف
أحس لها وخزات السنان
وقيثـارة الريح ما لحنها
سوى الريح في جفوة أو حنان»

يالله ! ولم هذا التهويل والجرى وراء المعاني المقفـرة البعيدة الخالية من كل صدى إنساني ؟ إن في «ورقة قرلين الميتة» ما يحز في نفسي حزاً لا يستطيعه سنان محمود طه . وفي انتحاب قيثارة الخريف من الأسى ما يعز على جفوة رياح محمود طه وحنانها .

وبعد ، فنحن في حاجة إلى أن نهمس . نحن في حاجة إلى التواضع ، التواضع الانسـاني الأليف القريب إلى النفوس . نحن في حاجة إلى أدب إنساني صادق مخلص ، لأن نفوسنا في ظمأ إليه . ألا فلنعد إلى قلوبنا ولنحملها على أن تقول في بساطة ما تجد وسوف نرى جمال حديثها . ولنتخذ الأساطير مادة لاحساسنا وهيا كل لصورنا الفنية ، ولكن في أمانة وفهم ونزول على معانيها . وأما الطنطنة ، وأما إقحام أنفسنا وعرضها في كل حين على القارئ حتى يمل وينفر ، وأما الحديث عما لا نجيده فلا .

وبعد فعند محمود طه أشياء جميلة حقا ولكنها قليلة . وأنا على تمام الثقة من أنه شاعر موهوب وأنه يستطيع خيرا من هذا ، ولكن على شرط أن يتخلى عن الإغراب وأن ينسى نفسه قليلا . ثم لابد له من القسوة على نفسه وعدم التساهل في الصياغة ؛ فثمة حشو في بعض الأبيات ، وثمة هلهلة ، وثمة محاولات لتضخيم العبارة عن أشياء تافهة . والذي لا شك فيه أن شاعراً يقول :

وهامت على ظمأ روحهـا
وكم ملأوا الـكأس من خمرها

قادر على الشعر الجيد ، فهل نراه فاعلا ؟ ذلك ما نرجوه ليكون شعره حجرا في أدب مصرى يستطيع حقا أن يثبت للأدب الأوربي الذي لابد لنا من مثله ولو قضيت في سبيله أجيال .

محمد مندور

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٨ — الثلاثاء ٢١ من رجب سنة ١٣٦١ — ٤ من أغسطس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــــدد

صوت الثقافة :

لقد آن لنـــــا

لم تشغل هذه الحرب الطاحنة أمم أوربا وأمريكا عن التفكير في أحوالها الداخلية في الوقت الحاضر ، وفيما يأتي من السنوات بعد انتهاء الحرب . وذلك مع أنها تخوض معمعة نضال قاسٍ لم يشهد العالم نضالاً مثله من قبل ، ونرجو للعالم ألا يشهد نضالاً مثله فيما يقبل من العصور . فالأمم تبذل في سبيل النصر جهداً لا يكاد العقل يتصوره ، فتضحي بدمائها سخية ، وتضحي بأموالها سخية ، وهي لا تفكر إلا في شيء واحد ، وهو أن تخرج من القتال موفورة الكرامة ، محتفظة بكل ما هو عزيز عليها من حريات ، ومحافظة على كل ما هو مقدس عندها من تقاليد وآثار ونظم في الحياة .

ولكنها مع كل ذلك المجهود ، ومع خطورة النضال الذي تخوضه ، لم تنس أن تفكر في نظمها الاقتصادية والاجتماعية ، وأن تضع الخطط لتعمير الشامل بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وأن ترسم للحياة المقبلة صورة تتمثل فيها السعادة والانسانية تمثيلا أوضح وأقوى مما كان إلى الآن .

ونحن كذلك هنا في مصر قد شغلتنا الحرب بظروفها وضروراتها ، وكلفتنا جهداً كبيراً في تدبير أمورنا وتوجيه سياستنا ، حتى ليخيل إلى الانسان أن شئون الحرب قد شغلت كل حيز تفكيرنا ، ولم تدع لنا شيئاً سواها نهتم به .

ولكن الواقع يخالف هذا في كثير من الأمور ، فلقد دلت الحوادث المختلفة على أن الذهن المصري لا يختلف عن ذهن أمم العالم الأخرى ؛ فهناك تحت سطح هذا الاهتمام العام بأمور الحرب وظروفها وضروراتها ، يجرى تيار قوى من الاهتمام بشئون الحياة في الوقت الحاضر وفيما بعد الحرب ؛ يظهر ذلك من أحاديث المنتديات الخاصة

ومن أقوال الصحف ، ومن المناقشات التي تدور في مجلسي النواب والشيوخ ، ومن تقارير لجان هذين المجلسين ، ومن قرارات الوزارة بين حين وحين .

فما يدعو إلى عظيم الارتياح أن الناس قد أدركوا أن الحياة المصرية محتاجة إلى الاصلاح في كثير من نواحيها ، وأن ذلك الاصلاح ضروري ، بل هو حيوي إذا نحن أردنا أن يكون لمصر مستقبل بين أمم العالم . لقد علم الناس جميعاً أن الاستقلال السياسي يستلزم أن تدعمه قوة الشعب نفسه ، وأن هذه القوة إنما تستمد من قوة أجسام الأفراد ، ومن ذكاء الأفراد ، ومن عمل الأفراد ، ومن ثروة الأفراد ؛ فالاستقلال السياسي في حاجة إلى مشروعات صحية ، ومشروعات تعليمية ، ومشروعات اقتصادية وصناعية .

وقد ظهرت بواكير هذه المشروعات الاصلاحية ؛ فان المرسوم الذي صدر لتنظيم القرية في الأيام الأخيرة يكفل — إذا ما تحقق — خيراً كثيراً لأهل الريف في رفع مستوى معيشتهم وسلامة أبدانهم ؛ وفي هذا ربح كبير لمجموع الأمة ، لأن أهل الريف هم الكثرة الكبرى من أهل البلاد .

وهناك على الأفق مشروعات أخرى لوزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الدفاع الوطني ووزارة المعارف ، نرجو أن تتم وأن تنفذ ، وأن نجني ثمارها بعد حين .

ولكنا لا نزال نطمع فيما هو أكثر من كل ذلك ، نطمع في أن تكون فكرة الاصلاح والتعمير شاملة غير مقتصرة على جهود بعض الوزارات دون الأخرى ، ولا مقتصرة على بعض نواحي الحياة دون سواها ، نطمع في أن نرسم صورة جديدة لمصر المستقلة يكون فيها كل شيء على ما يحب المصري لبلاده من الكمال ، وأن تقوم على رسم هذه الصورة مجموعة من أبناء مصر الذين تملؤهم الحماسة في سبيل الاصلاح ، ثم توضع بعد ذلك كل مشروعات الاصلاح وتسير جنباً إلى جنب ، وتنفذ شيئاً فشيئاً في نظام متناسق ، فان الاصلاح يساعد بعضه بعضاً ، ويسهل جريان التيار إلى الأمام بتعاون مشروعاته فيما بينها .

ولسنا في حاجة إلى بيان حاجة البلاد إلى هذه الجهود الاصلاحية المتناسقة ، فاننا حيث توجهنا ببصرنا نرى الضرورة الكبرى للاسراع بهذه الجهود .

لقد تبينت الأمة والدولة أن قرى الريف في حاجة إلى الاصلاح ؛ وها هي ذي وزارة الصحة تتقدم مشكورة بمشروعها العظيم الذي نرجو أن يعود على البلاد بأعظم الخير ؛ ولكن إصلاح القرية من الوجهة الصحية لا يمكن أن يسير وحده ، بل لا بد أن يسايره إصلاح وإصلاح من نواح متعددة ، فلا بد مثلاً أن يصلح التعليم في القرية إصلاحاً أساسياً ليساير مشروع إصلاح القرية ، ولا بد أن يبذل جهد عظيم في ترقية الصناعة الريفية والزراعية ، ليكون الشعب أقدر على الانتفاع بنتائج جهود وزارتي الصحة والمعارف .

ولنوجه أبصارنا مثلاً إلى الطرق المؤدية إلى قرى الريف وإلى المدن الصغيرة ، فان هذه الطرق كانت تكفي حاجة البلاد عند ما كانت الدواب هي وسائل الانتقال في القرون الخالية ؛ والأجدر بنا في هذا العصر أن نبذل جهداً عظيما في إصلاح هذه الطرق حتى لا تكون في مصر قرية لا يستطاع الوصول إليها بوسائل الانتقال الحديثة من سيارات كبيرة وسيارات صغيرة .

وهذا الجهد في إنشاء الطرق وتمهيدها يساعد بغير شك في ترقية الحال الصحية والحال الاجتماعية والحال العقلية والحال الاقتصادية ، لأن الحركة هي الوسيلة لقضاء كل الحاجات ، والسرعة في الحركة هي مميزة العصر الحاضر الذي نعيش فيه ، ولا يمكن أن نصل إلى إصلاح قرية إلا إذا كان الوصول إليها متيسراً والانتقال منها سهلا .

لقد آن لنا إذاً أن نضع خطة شاملة للتعمير والاصلاح تتناول كل مرافقنا وكل نواحي حياتنا ، ثم نقوم على تنفيذ هذه الخطة شيئاً فشيئاً حتى تتم جميعها في مدة مرسومة .

ولا شك أن مثل هذا الاصلاح الشامل يكلف البلاد نفقات طائلة يلوح عند أول نظرة أننا لا قبل لنا بها ، ولكن هذا ينبغي ألا يخيفنا ولا يحملنا على التردد ؛ فهناك وسائل كثيرة لتدبير المال الذي يلزم لكل هذا ، وليس المال الذي يبذل في هذا السبيل ضائعاً ، بل إنه سيعود حتماً بفوائد تكون هي مساعدة على الاستمرار وبلوغ الذي المطلوب . وإنا نعتقد أن الضرائب في مصر لم تبلغ بعد قصاراها ولا قريباً من ذلك ، وفي استطاعة مصر أن تجد موارد تكفي لكل ما تحتاج إليه من التعمير إذا اتخذت من الوسائل ما تتخذه البلاد الأخرى في جباية ضرائبها .

بل إننا نبعد وراء هذا المقدار ونقول إننا إذا احتجنا إلى الاستدانة من أجل تحقيق هذه الآمال لم يكن مسلكنا إلا طبيعياً ، فلمثل هذه الأغراض قد استدانت الأمم في كل العصور ، وليس مثل هذه الديون التي تخصص للاصلاح مما ينفر منه الشعب ولا مما يعارض فيه علماء الاقتصاد .

« ف »

٥ - فارس كنانة

للأستاذ أحمد أمين بك

علمت الأحداث «أسامة» أن يؤمن الإيمان كله بالقدَر ، وأى شيء يدعو إلى الإيمان بالقدر كالحرب والصيد ؟ هنا حين تدل كل الظاهر على أنه سيحيا فيموت ، وهنا حين تدل كل الدلائل على أنه يموت فيحيا ؛ وهو نفسه يقف مواقف يرى فيها الموت محققاً ثم ينجو ، ويستهين بمواقف لا يرى فيها شيئاً من الخطورة فيصاب .

وكان له حس دقيق بهذه الأمور ، فهو يراها ويلتفت لها ويَعجب منها ، ويحمله ذلك كله على الإيمان بالقدر خيره وشره .

رمى مرة — وهو صبي — عصفوراً بسهم فلم يصب الرمى ، ثم ارتد السهم فأصاب عصفوراً آخر كان يطل برأسه من عشه — ولم يكن أسامة رآه — فقتله .

وهو وصاحبه مرة يهزمان ثمانية فرسان ، ثم يهزمهما «رُوَيجل» .

ورجل يقتل أسداً ، ثم تقتله عقرب .

و «نَدَى القُشَيرى» الفارس يطعنه فارس صليبى فيقطع شرياناً فى صدره ، ويخرج الرمح من جانبه الآخر — وكل الظن ألا يصل إلى بيته حيًّا ، فيسلم ويصح ، وتلتئم جراحه ، ويبقى سنة إذا نام على ظهره لا يقدر على الجلوس إلا إذا أسنده اثنان ، ثم يزول ما يشكو منه ، ويعود مقاتلاً كما كان .

و «عَنَّاب» البطل المغوار ، الضخم الجسم ، الفخم الصوت ، الذى يفعل الأفاعيل بالأعداء ، ويدور اسمه على كل لسان لشجاعته وفروسيته ، يدخل بيته فيجلس على أريكة عليها غطاء ، ويعتمد فى جلوسه على يده ، فتدخل فيها إبرة ، فوالله لقد كان يئن أنيناً يسمعه من بالحصن لعظم خلقته وجهارة صوته ، ثم يموت ، و «ندى» لا يموت .

ومعلم مكتب فى قرية يعرض له أمر يحمله على الخروج من المكتب ، وبعد مفارقته بقليل تزلزل الأرض ويقع البناء على الأطفال ، فيموتون كلهم وينجو المعلم .

وكان «أسامة» يقاتل الاسماعيلية مرة ، حتى إذا انتهى القتال سمع رجلاً يصيح : «الرجال ، الرجال» ، فبادر هو وصحبه وسألوه عن صياحه ، فأشار إلى اصطبل قديم مظلم ، وقال : أسمع هنا صوت رجال ، فدخلوا فوجدوا رجلين من الاسماعيلية فقتلوهما ، ووجدوا إسماعيلياً ورجلاً آخر من رجالهم يتقاتلان ، فقتلوا الاسماعيلى ، وحملوا صاحبهم إلى المسجد وبه جراحات عظيمة وهو لا يتحرك ولا يتنفس ، ويظن كل من رآه أن قد مات ، ثم أخذ نفسه يتردد ، فخاطوا جراحه فى رقبته وجسمه ، ثم عاد إلى صحته كما كان .

وأصبح «أسامة» يوماً وهو واقف قرب الحصن ، فرأى ثلاثة شخوص مقبلة ، أما اثنان فكالناس ، وأما الثالث بينهما فلم يتبينه ، حتى إذا قرب رأى رجلاً قد ضربه افرنجى بسيفه فى وسط أنفه ، فقطع وجهه إلى أذنيه وقد استرخى نصف وجهه حتى تدلى إلى صدره ، وبين النصفين من وجهه قريب من شبر ، فدخل البلد وخاط الجَرَّاح وجهه وداواه ، والتحم الجرح وشفى ، وسموه ابن عازى «المشطور» من أجل ذلك .

وهو نفسه عبرة العبر فى ذلك ، فكم قاتل أسوداً ثم كادت تقتله ضبع ، وكم أخطأ التقدير تخرج عليه السكين وهو يظنه فى مأمن ، وهو يقاتل على فرس يظهر بعد أنه من أردأ الأفراس ، ولا يظن نفسه تنجو ثم ينجو ، ويخرج عليه العرب والفرنج فى وادى موسى فيقتلون عباساً ومن معه ويسلم هو ، إلى كثير من أمثال ذلك .

كل هذه المناظر وأمثالها أسلمته إلى الإيمان بالقدر إيماناً كإيمان العجائز . والإيمان بالقدر سلاح ذو حدين ،

فأحياناً يدعو إلى التواكل والخمول وترك الأمور تجري كما تشاء، وعدم الإيمان بالربط بين الأسباب والمسببات، وهذا أقبح وجهيه وأنكر حديه، وهو الذي تلجأ إليه النفوس إذا ضعفت والقلوب إذا ماتت، وأحياناً يدعو إلى الشجاعة وركوب الأخطار في غير خوف، والاقدام في غير فزع، «فالأعمار مقدرة، والإقدام لا يقصرها؛ والإحجام لا يمدها»؛ وهذا التفسير الأخير هو الذي كان يعتنقه المسلمون في الصدر الأول من حياتهم، وما كان يعتنقه أبطال المسلمين في كل عصر.

اسمع «أسامة» يقول: «إن ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب». «ولا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر. فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام، وأنا من الأجل في حصن حصين».

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسراً إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره ناراً، وكان خرابها بالنار[1]

***

إن كان «أسامة» في الثمانين لا يصلح لحمل السيف، فيده تستطيع أن تحمل القلم، وإن كان درس الصيد في صباه علمه الفروسية، فدرس الأدب في صباه وفي فترات راحته طول عمره علمه التأليف في الأدب، فهو يكتب من قبيل الثمانين إلى ما بعد التسعين على المطالعة والدرس والتأليف.

يؤلف في الأدب «لباب الآداب» يقسمه إلى أبواب، ويذكر في كل باب ما ورد فيه من القرآن، ثم الحديث، ثم الآثار نثراً ونظماً، منها ما ورد في كتب الأدب الأخرى

(١) ابن طليب مصري عرف بالبخل حتى روى بأنه لا يوقد ناراً في بيته بخلا منه ثم احترقت داره بالنار.

ومنها ما لم يرد، ومنها أحداث حدثت له، وأمور حدثت في زمنه[1]، ويؤلف في نقد الشعر، وفي الشيب والشباب، وفي تاريخ القلاع والحصون، وفي أخبار النساء، وفيمن شهد بدراً من الفريقين الخ.

ويؤلف كتاباً هاماً أشبه بالمذكرات يكتبها العظماء في أحداثهم، وإن لم تكن مرتبة ولا مبوبة ويسميه «الاعتبار»[2].

وهو — فيما وصلنا من تأليفه — واسع الاطلاع، حسن الالتفات، صحيح التقدير، ظريف الروح، حسن الاستخدام لما يحيط به من ظروف.

***

قد صوَّر لنا في كتابه الاعتبار، وقليل في لباب الآداب صورة دقيقة لنظرة المسلمين إلى الصليبيين في عصره، وأوضح لنا كثيراً من قوانين الفروسية عند المسلمين والأفرنج، وهو لا يستحل ذكرهم من غير أن يعقب عليه بخذلهم الله أو لعنهم الله، ومع هذا لا بأس من أن يتخذ من بعضهم أصدقاء، فهو يكره منهم فكرة الصليبية، ويصادق بعضهم لصفاتهم الشخصية.

يعجب لشجاعتهم ويقول: ليس لهم من فضائل الناس سوى الشجاعة، كما يُعجَب بنظرهم إلى الفروسية وتقدير أهلها «فليس عندهم منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم». ويحكي أنه مرة تعدى قوم منهم على قطعان غنم المسلمين، وكان بينهم وبينهم صلح، فشكا «أسامة» من ذلك لملكهم فُلك الخامس Fulk V ملك أورشليم «فاختار الملك ستة من فرسانهم ليحكموا في

(١) نشرت هذا الكتاب مكتبة سركيس بمصر، وعني بنشره وتحقيقه عناية تامة الأستاذ الفاضل الشيخ احمد محمد شاكر، وقد استفدت منه كثيراً.

(٢) نشر هذا الكتاب الأستاذ «درنبورغ» بليدن سنة ١٨٨٤ ثم نشره الأستاذ فيليب حتي بمطبعة جامعة «برنستون» بأمريكا نشرة أصح وأدق وأوفى.

هذه القضية ، خرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا واتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا : قد حكمنا بغرامة ما أتلف من غنمهم . وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر أحد — ولو كان من مقدمي الفرنج — أن يغيره ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم » .

وينقد تنكرد Tancred نقداً مراً لإخلاله بأمان تعهد به ، وبلدوين الثالث لمهاجمته أسرته وسلبها أموالها بعد أن أعطى أماناً كتابياً بألا يتعرض لهم .

ويقص قصصاً كثيرة من أعمال فرسان من الفرنج وفرسان من المسلمين ، كانوا يأتون بالعجائب في حروبهم وبطولتهم وفروسيتهم ؛ ويحكي أن فارساً من الفرنج هزم أربعة من فرسان المسلمين فوبخهم أهل الحصن ولاموهم وفضحوهم وازدروهم ، « فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوباً غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتضوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة » ، إلى كثير من قصص المغامرات التي تستخرج الاعجاب بالفرسان من الجانبين .

وينظر إلى الصليبيين نظرة بدوية عربية ، فينتقدهم في عدم الغيرة على نسائهم ، فيقول : « وليس عندهم شيء من الغيرة ، يكون الرجل يمشي هو وامرأته فيلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغهما من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث وتركها ومضى » . ويروي نوادر أخرى من هذا القبيل .

ويذكر أنهم شديدو العصبية لجنسهم ودينهم ، فقد أسرت فتاة جميلة ، وأدخلت إلى دار والد أسامة ، فأهداها إلى الأمير شهاب الدين صاحب قلعة « جعبر » ، فأعجبته ، وولدت له ولداً سماه « بدران » ، وجعله أبوه ولي عهده ، ومات الوالد ، وتولى بدران البلد ، فنافقت أمه الناس وخرجت إلى « سروج » وهي في يد الفرنج ، وتزوجت بإسكاف من بني جنسها ؛ فكانت هي زوجة الاسكاف وابنها أمير قلعة « جعبر » .

ومنهم من يظهر الاسلام ويصلي ويصوم ، ويتزوج مسلمة ، ثم إذا أمكنته الفرصة فر هو وأولاده وتنصروا بعد الاسلام والعبادة .

ويصف فرحهم بأعيادهم ، وصخبهم في سباقهم .

ويقارن بين الطب عندهم والطب عند المسلمين ، فيقول : إن طب الفرنج منه ما هو سخيف ، فقد رأى فارساً من فرسانهم طلع له دمل في رجله ، فأحضر له طبيب مسلم وطبيب منهم ، فأما الطبيب المسلم فوصف له ما كاد يشفيه ، وأما طبيبهم فقال له : أيهما أحب إليك ، أن تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين ؟ فقال : بل أحيا برجل . فأحضر فارساً وفأساً ، وأمره أن يضرب رجله بالفأس ضربة واحدة يقطعها ، فضربه فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . ومنه ما هو خرافي ، كامرأة أصابها الصداع في رأسها فقال طبيبهم : « إنها امرأة في رأسها شيطان قد عشقها » ، فأخذ موسى وحلق شعرها ، وشق رأسها صليباً ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها . ومع هذا فلهم أطباء مهرة حاذقون ؛ فقد شاهد ملكاً من ملوكهم رمحه حصان في ساقه فتلفت رجله ، وفتحت في أربعة عشر موضعاً وكلما ختم موضع فتح موضع ، ولا تنفع فيه المراهم ، فجاء طبيب افرنجي فأزال تلك المراهم ، وجعل يغسلها بالخل الحاذق حتى برئت ؛ كما شاهد طبيباً آخر يعالج « عقد الخنازير » في مهارة ، ولكن أطباء العرب كانوا أمهر ؛ ومن أجل هذا كان كثيراً ما يبعث الفرنج في طلب أطباء من العرب .

وعلى الجملة فلم يعجبه الفرنج من الناحية الأخلاقية والاجتماعية إلا من ناحية شجاعتهم ؛ وقد أجمل ملاحظاته

فى قوله : « وكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا (يعنى توطنوا) وعاشروا المسلمين » .

فيالله المسلمين : أين كانوا من الفرنج وأين أصبحوا منهم ؟ لشد ما يخطئ من بعد الأمر أمر طبيعة ودم وجنس ! إنما الأمر أمر « تربية » .

وناحية أخرى يستطيعها « أسامة » فى مثل سنه ، وهى أن يعين المسلمين برأيه ويفيدهم بتجاربه ، وهذا لا يقل شأنا من شجاعته وكفاحه .

فالرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

ومع هذا فلا بن هو عضد الدولة أبو الفوارس يشترك فى الحرب مع صلاح الدين ويحيى أسامة حياته الحربية فيه ، فهو قطعة منه وقبس من ناره ، ولحمه هو بالرأى صلاح الدين . فيحدثنا بعض المؤرخين أن صلاح الدين استدعى أسامة من حصن كيفا « وأنزله أرحب منزل ، وأورده أعذب منهل ، وملكه ضيعة من أعمال المعرة — وإذا كان صلاح الدين بدمشق جالسه أسامة وآنسه ، وذاكره فى الأدب ودارسه ، وكان ذا رأى وتجربة ، وحنكة مهذبة ، فهو يستشيره فى نوائبه ، ويستنير برأيه فى غياهبه ، وإذا غاب عنه فى غزواته ، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه فى كشف مهماته وحل مشكلاته »

* * *

خمس وثمانون ... تسعون

« لما توقلت ذروة التسعين وأبلانى مر الأيام والسنين ، صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعضى فى بعض ، حتى أنكرت نفسى ، وتحسرت على أمسى ، وقلت فى وصف حالى :

لما بلغت من الحياة إلى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يبق طول العمر منى منة
ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى
ضعفت قواى وخاننى الثقتان من
بصرى وسمعى حين شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أنى حامل
جبلا وأمشى إن مشيت مقيدا
وأدب فى كفى العصا وعهدتها
فى الحرب تحمل أسمرا ومهندا
وأبيت فى لين المهاد مسهدا
قلقا كأنى افترشت الجلمدا
والمرء ينكس فى الحياة وبينما
بلغ الكمال وتم عاد كما بدا

* * *

فى الحادية والتسعين يؤلف لباب الآداب ، ويؤلف ويؤلف ، ويقول : « ما للعلم غاية يدركها الراغب ، ولا نهاية يقف عندها الطالب ، هو أكثر من أن يحصر ، وأوسع من أن يجمع ، ولولا أن النفس إذا قوليت غلبت ، وإذا زجرت لجت وأبت ، لكان اشتغال من بلغ من السنين ، إحدى وتسعين ، بأعمال البر والثواب ، أجدى عليه من الاشتغال بتأليف كتاب ، بعد ما بلغ الزمان فى وعظه ، بتأثيره فى قواه وسمعه وبصره — لا بلفظه ، وأنذره تغير حاله ، بدنو ارتحاله ، فهو مقيم على وفاز ، ميت فى الحقيقة حى بالمجاز » .

. . . . خمس وتسعون — ست وتسعون .

عجز عن حمل القلم ، كما عجز قبل عن حمل السيف .

* * *

وفى ليلة من ليالى رمضان سنة ٥٨٤ هـ فى دمشق ، والجو خريف والسكون رهيب ، أسلم « أسامة » روحه لخالقه ، وهو يدعو لصلاح الدين بتمام النصر ، ويسأل الله لنفسه الغفران . (تم) أحمد أمين

صور قضائية :

مشكلة اجتماعية

أشخاص القضـــية :[١]

الحاج سالم : فلاح — عمره ٦٠ سنة — يقيم مع أسرته فى قرية من قرى الوجه البحرى .

الحاجة خديجة : زوجة الحاج سالم .

أحمد : أكبر أولاد الحاج سالم — عمره ٣٠ سنة يشتغل فى [ماكينة] طحين يملكها أحد أعيان القرية .

عبد الله : الابن الأصغر — عمره ٢٢ سنة يشتغل بالزراعة مع والده .

حليمة : بنت الحاج سالم — عمرها ١٨ سنة تساعد أمها فى عمل البيت .

جاد الرب : رجل من أهل الصعيد — نزح عن عادة قومه إلى الوجه البحرى التماسا للرزق — وانتهى به المطاف إلى قرية الحاج سالم . فاشتغل فى ماكينة الطحين التى يعمل فيها أحمد . وقد توثقت الصلة بين الزميلين إلى حد جعل أحمد يدعوه إلى الاقامة معه فى منزل أسرته حيث يأكل ويشرب وينام لقاء ٥٠ قرشاً يدفعها كل شهر . واستمر الحال على ذلك نحو ثلاثة أشهر قبل أن يقع الحادث التالى .

الحـــــــادث :

خرج جاد الرب بعد الغروب قاصداً إلى الماكينة (لينقش) حجرها كما اعتاد أن يفعل من حين إلى حين . ولما عرف أحمد وجهته خرج معه ووصل الاثنان إلى الماكينة . وركب جاد الرب حجر الطاحون ، وأخذ فى عمله . وجلس أحمد على مقربة منه ، وكان الحجر يواجه باب الماكينة ، ولا يبعد عنه أكثر من ستة أمتار ، بحيث أن من يقف بهذا الباب يجد الحجر أمامه مباشرة . ولم يكد يمضى على جاد الرب فى مجلسه ذلك أكثر من نصف ساعة حتى فوجئ بطلق نارى أصابه ورماه من فوق الحجر . ولكن تبين أن الطلق كان محشوا بالرش فقط ، وأن ما أصاب الرجل من هذا الرش لم يصبه فى مقتل ، ولذلك تمكن المحقق من استجوابه فوراً ، وسؤاله عمن يتهم فى هذا الحادث لأن البحث لم يكشف عمن أطلق هذا العيار ، ولم يسفر عن الاهتداء إلى أى أثر من آثاره .

أقوال جاد الرب :

وبدأ المصاب كلامه بقوله : إنه غريب فى تلك القرية ، وإنه حديث عهد بها وبأهلها ، وإنه لا يعرف لنفسه عدواً فيها .

ولكنه لم يلبث أن عدل عن هـذه الأقوال جملة واحدة . وقال إنه يتهم الحاج سالم وولديه أحمد وعبد الله بأطلاق هذا العيار . وكان هذا الاتهام مثار الدهشة عند الجميع ، نظراً لما يعرفه الخاصة والعامة من عطف هذه الأسرة عليه وإيوائهم له ، وتكفلهم بشئون معاشه . على أن المحقق لم يفته أن يفطن إلى أن أحمد كان معه فى الماكينة وقت انطلاق العيار من جهة الباب . فلما واجهه بهذه الحقيقة قال إنه يقصر اتهامه على الحاج سالم وولده عبد الله . ولم يشأ أن يزيد على ذلك شيئاً . فاضطر المحقق إلى ضبط الحاج سالم وولده وتوجيه التهمة إليهما لينظر كيف يقولان فيها .

أقوال الحاج سالم :

وقال الحاج سالم : إنه لم يبرح منزله منذ الغروب . وإن جاد الرب نفسه يشهد بأنه تركه هو وزوجته وباقى أفراد أسرته يتناولون طعام العشاء . وإنه ما كاد يفرغ من طعامه حتى دخل عليه الخفير يدعوه إلى الذهاب معه إلى حيث يقوم التحقيق . ولما فرغ المحقق من إثبات هذا الدفاع واجهه بالمصاب . فصدقه هذا فيما قال . وأعلن أنه يتنازل عن اتهامه ، وأنه يحصر التهمة فى ابنه الأصغر عبد الله .

(١) لعل القارئ لا يحتاج إلى من ينبهه إلى أن الأسماء التى تذكر فى مثل هذا المقام ليست هى الأسماء الحقيقية لأصحاب الشأن .

أقوال عبـــد الله :

لم يكن عبد الله فى منزله حين ذهب الخفير يستدعيه للمثول أمام المحقق . فلما استفسر من الحاجة خديجة عن مكانه قالت إنها علمت منه وهو يخرج أنه يقصد إلى الحلاق (ليأخذ له الشمس) لأنه كان يشكو ألماً فى رأسه أصابه بسبب تعرضه للشمس أثناء العمل طول ذلك اليوم . فتوجه الخفير إلى الحلاق . وهناك وجد عبد الله فأخذه من يد الحلاق ، ووضعه بين يدى المحقق . فلما سئل عن التهمة التى يوجهها له المصاب أنكرها وقال إن المصاب ضيفه ، وإنه لا يوجد بينهما ما يدعو إلى إطلاق النار عليه . وإنه لو أراد به سوءاً لما أعجزه ذلك وهو قائم أو نائم إلى جانبه فى منزله — ولم ير المحقق إزاء هـذا الغموض إلا أن يلجأ إلى العمدة لعل عنده ما يلقى بعض الضوء على هذا الحادث الغامض .

أقوال العمــدة :

وقال العمدة إن إشاعة تطن فى آذان أهل القرية مؤداها أن جاد الرب يريد أن يقترن بحليمة ابنة الحاج سالم . وأن حليمة وأمها توافقان على عقد هـذا القران . ولكن الحاج سالم وولديه لا يرغبون فى إتمامه . وإن سبب اعتراضهم هو أن الزوج رجل غريب ليس له موطن مستقر ولا مال له يدفع منه صداق الزوجة . وإن الحاجة خديجة حين رأت أن تدبير هذا الصداق هو الذى يحول دون إتمام الزواج جمعت خمسة جنيهات من مالها الخاص وسلمتها إلى جاد الرب ليقدمها إلى الحاج سالم حتى تنحل العقدة ويتم العقد . فدفع جاد الرب المبلغ إلى الحاج سالم وتم الاتفاق على أن يكتب العقد فى اليوم التالى ، ولـكن وقع الحادث فى نفس المساء الذى دفع فيه الصداق .

وكان من الجـلى أن رواية العمدة ينقصها شىء من الصراحة ، إذ لماذا يكره الرجل وأولاده أن يزوجوا ابنتهم من هـذا العامل الذى قبلوه فى دارهم كأنه واحد منهم ، وذلك على الرغم من تنافر هذا العمل مع تقاليد ريفنا وأهله ؟ ثم لماذا تتكبد الأم صداق ابنتها فتدبره من مالها الخاص ليتم زواج لا يرغب زوجها وأبناؤها فى إتمامه ؟

ولذلك عاد المحقق ليستفسر العمدة عن كل ما عنده من التفصيلات . فلم ير العمدة مفراً من الافضاء بكل ما فى جعبته . وقال : إن المرجفين يزيدون على الاشاعة السابقة أن جاد الرب اتصل بحليمة قبل أن يخطبها إلى أهلها . وأن أسرتها علمت بأمر هذه الصلة فاختلف رأيها فيما ينبغى عمله . وكانت خطة الأم أن يتم الزواج ولو دفعت هى ثمنه . وكانت خطة الأب وولديه أن لا يتم هذا الزواج بأى ثمن . ولـكن الزوجة ما زالت بزوجها حتى أقنعته بأن خطتها هى المثلى وأن إتمام العقد أحجى وأكرم . قال الرجل إلى جانبها ، وبقى الولدان فى صف وحدهما لا يستطيعان أن يسيغا هذا الحل . فإذا ما أصاب جاد الرب أى سوء فلن يكون ذلك إلا بيد أحمد وعبد الله . وما دام أن أحمد كان مع المصاب وقت الحادث فلا بد أن يكون عبد الله هو الذى أطلق النار عليه .

اعتراف عبـد الله :

وجىء بعبد الله مرة أخرى ، وطرحت أمامه كل هذه الظروف . فقال : نعم أنا الذى أطلقت عليه النار لأغسل عار أسرتى بدمه . فإن كان لم يمت فإن حسـابى معه يكون ما زال فى حاجة إلى تصفية . وقال إنه منذ علم بأن أبويه قد اعتزما عقد قران (المجنى عليه) على أخته وهو يتربص به الفرص ، حتى إذا رآه يخرج فى المساء مع أخيه تأبط سلاحه وخرج خلفه ، ولم يستطع أن يضربه فى الطريق خشية أن يخطئه ويصيب أخاه . فلما رآه يجلس على حجر الطاحون كما يستقر الطير على الغصن سنحت له فرصة اصطياده ، فرماه فأصابه وعاد أدراجه يجرى فأتى «الندارة» فى زراعة قمح فى الطريق وقصد إلى الحلاق ليفصده .

ضبط السلاح :

وقام المحقق إلى زراعة القمح التي سماها عبد الله وبث فيها الخفراء، ليبحثوا عن الغدارة، فما لبث أن أقبل بها شيخ الخفراء في يده وهو يقول إنه وجدها في وسط الزراعة ، فشم المحقق فوهتها وأثبت في محضره أنه وجد رائحة البارود ما تزال تنبعث بقوة . وكان المتهم قد وصفها بأنها غدارة يبلغ طولها نحو نصف متر ذات يد من الخشب حمراء اللون . وقد رأى المحقق أن هذه الأوصاف تتفق مع أوصاف الغدارة المضبوطة ، فأثبت ذلك أيضاً في المحضر — وقرر القبض على عبد الله بوصف كونه هو الذي أطلق النار وشرع عامداً في قتل جاد الرب .

مفاجأة :

ورأى المحقق أن يختم محضره بتلك المواجهة التقليدية التي يجمع فيها بين المتهم والمجني عليه ليسمع كل منهما قول الآخر فيه . فما راعه إلا أن يرى المتهم وهو يعدل عدولا تاما عن كل ما اعترف به . ثم يعود إلى إنكار الحادث وعلمه به . فلما ناقشه المحقق في تفصيلات اعترافه قال : إن العمدة هو الذي حرضه على الإدلاء بهذا الاعتراف ليخلي نفسه من تبعة قيام الجناية في قريته دون أن يهتدي فيها إلى ضبط الجاني . ولما سئل عن الغدارة وأوصافها ومكان ضبطها قال إنه لم تكن عنده غدارات وإن شيخ الخفراء هو الذي أوعز إليه بما قاله في شأنها . وكان ذلك بناءً على اتفاق سابق بينه وبين العمدة .

وكان أدعى إلى الدهشة أن يقرر المصاب نفسه بعد أن سار التحقيق كل هذا الشوط الطويل أنه يعدل عن اتهام عبد الله . ويرى أن الحادث لا بد أن يكون قد وقع من يد غير يده .

قرينة لها مغزاها :

ورأى المحقق أن مصباح دبوجين عاد يضطرب في يده . فلم ير بداً من الالتجاء إلى تدبير فيه شيء من القسوة ، ولكنه قد يؤدي إلى شيء من الهداية . فأمر بإحالة حليمة على الطبيب الشرعي لتوقيع الكشف عليها وبيان حالها . فقرر الطبيب أنها مفضاة وأنها حامل في شهرها الثالث .

وقرينة أخرى :

وإزاء هذه النتيجة اطمأن المحقق إلى قضيته وقدمها إلى قاضي الاحالة ، فأحالها على محكمة الجنايات . وكانت الغدارة قد أرسلت أيضا إلى الطبيب الشرعي لفحصها وتقديم تقرير عنها ، فجاء تقريره يقول إنه أخذ « مسحات » من فوهة الغدارة وحللها فلم يسفر تحليلها عن وجود أي أثر للبارود . وكان هذا التقرير من أقوى الدعامات التي استند إليها الدفاع عن المتهم في طلب البراءة ، لأنه يناقض ما أثبته المحقق في محضره من أنه شم بأنفه رائحة البارود في الغدارة عند ضبطها . واتخذ الدفاع من هذه الظاهرة وسيلة للتشكيك في صحة البيانات التي أقام المحقق عليها هيكل الاتهام .

أمام المحكمة :

وحل يوم المحاكمة ونودي على المتهم فحضر وأنكر التهمة ، وأعاد ما سبق له أن قاله أثناء التحقيق من أن اعترافه الذي أثبت على لسانه لم يحصل إلا تحت تحريض العمدة وشيخ الخفراء . وكان يحضر عن المتهم أمام المحكمة محاميان ، فتقاسما الدفاع عنه ، وتكلم الأول على أساس أن الاعتراف المنسوب إلى المتهم اعتراف مشوب غير سليم . ثم تكلم الثاني على أساس التسليم بصحة هذا الاعتراف .

وقال الأول : إن المتهم — عبد الله — لم يقم عليه أي دليل يقطع بإدانته ، قبل أن يدلي هو بذلك الاعتراف المفصل . فلم يشهد أحد بأنه رآه يطلق النار ، ولم يقل أحد بأنه صادفه في طريقه إلى الماكينة قبل وقوع الحادث ، أو في أثناء عودته منها بعد وقوعه . ولم يثبت

في حقه أنه هو المالك للفدارة المضبوطة ، وقد جيء بهذه الفدارة وقت نظر القضية أمام المحكمة فتبين أن يدها ليست حمراء اللون ، ولكنها أميل إلى اللون الأصفر .

وسواء أكانت اليد صفراء أم حمراء ، فقد قرر الطبيب الشرعي أن التحليل أسفر عن عدم وجود أي أثر للبارود فيها ، وهذا قاطع في فساد الاعتراف ، لأن أساسه أن المتهم يقول إن هذه الفدارة هي التي أطلق منها النار على المجني عليه ، فمتى ثبت أنها خلو من كل أثر البارود ، يكون من المقطوع به أنها لم تنطلق ويكون المصاب قد أصيب من غير هذه الفدارة ، ومن غير يد المتهم .

واستهل المحامي الثاني دفاعه بقوله للقضاة : إن القدر قد حكم على هذا المتهم حكماً أقسى من كل ما تستطيعون أن تحكموا به عليه — فيما لو رأيتم إدانته — إنه حكم عليه بالعار والذل وتنكيس الرأس بين أهل بلده مدى الحياة . إن العدالة كما رسمتها قوانيننا هي التي جاءت بالمتهم فأدخلته هذا (القفص) ، ولكن هناك عدالة أخرى هي التي يفهمها المتهم وأمثاله من أهل الريف ، وهي تقضي بأن يخلى هذا القفص ليقف فيه المجني عليه . إن هذا الرجل هو المجرم الحقيقي الذي يستحق القصاص والمحاكمة . إنه ذلك الضيف الغريب الشريد الذي آواه المتهم في بيته ، فكانت طريقته في الاعتراف بهذا الجميل أن يعتدي على كرامة مضيفه — أن ينهش عرضه ويسلب عفاف أخته ، ويترك في جبينه وصمة هذا العار الأبدي ، يعيش بها منكس الرأس ما بقي له من أيام الحياة . لقد دفعت الأم ثمن هذه الجريمة من مالها لتستر عرضها ، وكانت هذه طريقتها في علاج الموقف . ولكن بقيت طريقة المتهم الشاب الذي يريد أن يغسل عار أخته .

اذكروا أننا نحن أبناء من قالوا :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

واحكموا علينا حكماً نفهمه ، حكماً يتفق مع فطرتنا ، ومع تراثنا الذي خلفه لنا آباؤنا من مقاييس الأخلاق ومعايير الشرف والعرض . . . . .

وظل يضرب المحامي على هذه النغمة حتى استنفد كل ما فيها من المعاني ، ثم انتهى إلى القول بأنه لو قدر له يوماً ما — وهو الرجل المثقف الذي درس القانون — أن ينكب بمثل ما نكب به المتهم لما صنع أقل مما صنعه المتهم ، واختتم ذلك واثقاً من أنه لا يرتكب جريمة ، وإنما يصحح خطأ ، ويمحو آثار عمل ذميم ، ويسترد اعتبار عرضه بين مواطنيه .

الحكم :

وخلت المحكمة للمداولة ، ثم أصدرت حكمها ، فإذا هو يقضي . . . بالبراءة . فهل كان ذلك استجابة لدفاع المحامي الأول ، أم تمشياً مع نظرية المحامي الثاني ؟ ومن من الاثنين يا ترى يستطيع أن يقول إنه هو الذي كسب الدعوى ؟

نترك ذلك لتفكير القارئ . . . . . ولأسباب الحكم .

ع . ج

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

العـــــدالة الالهية

في الأصحاح الثالث عشر من سفر أيوب يقول أيوب في رده على أصحابه وتحديه من الذات العلية : « إنه ولو قتلنى أبقى آملا له ، غير أنى أحتج من طرق أمامه » . وهذه الكلمة التى يجتمع فيها الإيمان التام بطائف من الانكار والمروق ، وتمتزج فيها الثقة المطلقة بظل من الشك والارتياب ، تختصر تلك الحجج والبينات التى يقدمها أيوب دفاعا عن نفسه ، وتعززاً لموقفه ، بعد أن حاول كتم بثه ، وقمع عواطفه ، والصبر على ما ابتلاه به الله من فادح الخطب ، ومبرح الألم ، فى ذلك السفر القيم البعيد المغزى المنسوب إليه ، وهو من أروع أسفار العهد القديم ، وأحفلها باللمحات الكاشفة ، والنظرات النافذة ، والخواطر الجريئة ؛ وقد تناول بصراحة قليلة النظر موقف الانسان « مولود المرأة ، قليل الأيام ، كثير الشقاء » من الله « صانع عظائم تفوت البحث وعجائب تفوق العد » والتماس الانسان العدالة ، وبحثه عن الحكمة ، فى حوادث الحياة ، وحقائق الوجود ؛ وهو يصور أبدع تصوير وأدقه وأصدقه الصراع الشديد بين الشكوك التى تساور الانسان من ناحية وجود عدالة إلهية متجلية فى تجارب البشر ، ومصاير الأمم ، والايمان القوى الذى يحاول أن يدرأ عن نفسه غوائل الشكوك ، ويتقى هجماتها ، وتمكنه فى النهاية من مطاردتها وقهرها .

وهذا السفر يكشف عن مرحلة هامة من مراحل تفكير بنى إسرائيل الدينى ، عند ما بدأت الشكوك تتسرب إلى الاعتقاد القائل بأن الرجل الصالح المستقيم ، يلقى فى حياته المثوبة العاجلة ، لاستقامة طرقه ، وسلامة طويته ؛ وأن من يجانب الصلاح ويقترف الآثام يحل به العقاب ، وينال الجزاء الوفاق ؛ فقد لوحظ أن حقائق الحياة اليومية وحوادثها المتواترة المألوفة لا تؤيد هذا الاعتقاد الساذج ، ولا تؤكد أن الشرير يلقى جزاء شره ، وأن الخير يثاب على ما قدمت يداه ، بل قد يغلب على أمره وتجفى عليه استقامته ؛ وقد أخذت هذه المسألة تشغل العقول ، وتقلق النفوس ، وتثير الخواطر ؛ فهل يشكون فى العدالة الالهية ، أو أن هناك فى وقائع الحياة ، وحركات الكون ، عدالة تخفى على العين وتدق عن الفكر ، متوارية فى هذا الظلم البادى ؛ وبذلك تتسع آفاق فكرة العدالة ، وتسمو وتكتسح ما فى طريقها من الاعتراضات التى تنم عن النظر الكليل والفهم القاصر ؛ وكان يزيد الأمر خطورة أن فكرة الحياة الأخرى لم تكن بعد قد استبانت ظلالها واتجهت إليها الأفكار .

وسفر أيوب يتناول هذه المسألة بحذافيرها ، ويقلبها على وجوهها المختلفة ، ويبين معضلاتها فى صورة سافرة ، ومنطق أخاذ ، وبلاغة ساحرة ؛ فأيوب فى هذا السفر النفيس يتحدث عن حنين الروح إلى العدالة ، وظمئها إلى الاطمئنان على إيمانها الصادق ، واستسلامها الكامل ، وثورتها على حقائق الحياة البغيضة وتجاربها المريرة ، وما يثيره فى النفس من ألم فشل الخيرين الصالحين والاتقياء البررة ، وتوفيق الأشرار الفجرة ، وجماعة المنافقين والسلابين والدجالين ؛ بل يحاول أيوب أن يوضح أن السكوت على ذلك ، واحتماله والصبر عليه ، والإحجام عن مواجهته ، ضرب من النفاق والمخادعة وعدم الأمانة ؛ فهو يقول لأصحابه فى حواره معهم فى الأصحاح الثالث عشر : « ذلك كله قد رأته عينى وسمعته أذنى ، وفطنت له ، وما تعلمون فإنى أنا أيضاً أعلمه لا أقصر عنكم فى شىء ؛ لكنى إنما أخاطب القدير ، وأود أن أحاج الله ، أما أنتم فانما تشمّدون بالكذب وطبكم باطل ، من لى بأن تسكتوا فيكون لكم فى ذلك حكمة ، اسمعوا حججى وأصيخوا إلى دعاوى شفتى ، ألارضاء الله تتكلمون بالظلم ، أم لأجله تنطقون بالبهتان ، ألعلكم تحابونه أم عن الله

تخاصمون ؟ أيحمد ذلك يوم يفحصكم أم أنتم تخدعونه كما يخدع إنسان ؟ بل ليوبخنكم على محاباتكم الخفية وليرهبنكم جلاله ويقع عليكم ذعره » .

فيجب إذاً مواجهة المشكل من جميع نواحيه ، والاحاطة بجملته وتفصيله . وقد ظل أيوب خلال الشكوك التي طغت على نفسه ، والآلام التي وفدته ، محتفظاً بيقينه في الله ، واثقا منه ، متكلا عليه ؛ وفي النهاية زكاه الله وأيده لاستقامته التي أنكرها عليه أصحابه لما قرعت مروته الخطوب ، ونزلت به نوازل الشقاء . وواضح أن الفكرة التي يرمي إليها السفر هي أن تلك النكبات المتلاحقة لا ينبغي أن تعصف باليقين ، أو أن تضعف الايمان ، لانها اختبار يصهر معدن الرجل ، ويمحص عوده ، ويخرج منه المؤمن أقوى وأصلب ، وأطهر وأنقى .

ولكي يوضح السفر المظاهر المختلفة ، والجوانب المتعددة لهذا المشكل ، يعرض المسألة في قالب تمثيلي ، وثوب روائي ، فهو يرسم لنا صورة شيخ أو أمير من أمراء البادية جم الثراء ، عظيم الجاه ، ورأس أسرة كبيرة ، وهو رجل موفق في أعماله ، بار بأهله وبالناس ، يجبر كسر الفقراء ويغمرهم بشآبيب كرمه ، وينصحهم في مشكلاتهم ، ويعينهم على احتمال الأعباء ، وهو يخشى الله ، فلا يتداخله العجب ، ولا يمشي في الأرض مرحا ، وكلما أمعن في الخير وجاد بالهبات ، زكت ثروته ، ورغدت عيشته ، وانفسح له بأن يتحدث قليلا عن نفسه[1] : « كنت أنجي البائس المستغيث واليتيم الذي لا معين له ، فتحل عليّ بركة الهالك ، وأجعل قلب الأرملة متهللا ، ألبس العدل فكان كسائي ، وما برح قضائي حلتي وتاجي ، كنت عينا للأعمى ورجلا للأعرج ، وكنت أبا للمساكين أستقصي دعوى من لم أعرفه ، وأحطم أنياب الظالم ، وأنزع فريسته من بين أسنانه .

ولكن هذه الحياة المثمرة المباركة ، والسيرة الصالحة العطرة ، تعدو عليها العوادي ويصيبها من الدهر ريب ، وذلك أن الشيطان يبدو أمام الله ويتحدى صلاح أيوب ، وتدور هذه الحادثة بين الله والشيطان :

الرب : « من أين أقبلت » .

الشيطان : « من الطواف في الأرض والتردد فيها »

الرب : « هل أملت بالك إلى عبدي أيوب فانه ليس له مثيل في الأرض ، إنه رجل سليم مستقيم يتقي الله ويجانب الشر »

الشيطان : « أمجاناً يتقي أيوب الله ؛ ألم تكن سيَّجْتَ حوله وحول بيته وحول كل شيء له من كل جهة ، وقد باركت أعمال يديه فانتشرت أمواله في الأرض ، ولكن ابسط يدك ، والمس جميع ماله فتنظر ألا يجدف عليك في وجهك » .

فيرخص الله للشيطان في أن يختبر أيوب ويبلو عقيدته ، فيفنى تالده وطارفه ، ويرميه بالمرض العضال ، والآلام المضنية ، ولكن أيوب يثبت ويصبر ؛ ولما قالت له امرأته : « جدّف على الله ومت » أجابها : « إنما كلامك كلام إحدى السفيهات . أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر ؟ » ولا يخالجه الشك في الله ، ولكنه على عميق إيمانه ، وراسخ اعتقاده ، في كربة حرجة ، وأزمة شديدة ، وفي حيرة ودهشة من أمر العدالة الالهية . ولما جاءه أخلاؤه لمواساته والتخفيف عنه والتهوين عليه ، ورأوا شدة كآبته ، لم يكلمه أحد منهم بكلمة ؛ وبعد صمت طويل حاول أيوب تنفيس كربته بالتحدث عما أصابه ، فانفجر قائلا : « لا كان نهار ولدت فيه ولا ليل قيل فيه قد حبل برجل ، ليكن ذلك النهار ظلاما ، ولا رعاه الله من فوق ولا أشرق عليه نور ، استبد به الظلمات وظلال الموت ، وليقرّ عليه الغمام ولتروّعه كواسف النهار ، وذلك الليل ليشمله الديجور ولا يحصين بين أيام السنة ولا يدخلن في عداد الشهور ،

(١) الاصحاح ٢٩

ليكن ذلك الليل ثاكلا ولا يسمع فيه ترنم ... لتظلم كواكب غسقه، وليترقب النور فلا يكون ولا ير أجفان الفجر ... لم لم أمت من الرحم؟ هلا فاضت روحي عند خروجي من البطن؟ ما كنت أخشاه قد غشيني، وما فزعت منه قد رهقني، فلا طمأنينة لي ولا قرار ولا راحة، وقد داهمني الاضطراب».

وكبر على أصدقائه أن تنتقض مرائره، ويعي جلده، ويثور بالقضاء ثورته، فأخذوا ينصحونه بإعادة النظر في ماضيه، والاعتراف بالآثام التي استوجبت سخط الله، واستنزلت عقابه، واشتدوا عليه في ذلك، وسلقوه بألسنتهم، وحاولوا أن يفرضوا عليه فرضا فكرة أن كل ما يصيب الانسان من كوارث الدهر إنما سببه أخطاء تورط فيها الانسان، وذنوب ارتكبها، وأن على الانسان أن يلقى الحادثات بنفس راضية مستسلمة، مذعنة للقضاء، مطمئنة إلى عدالته؛ ولكن أيوب لا يقتنع بهذه الحجة ويرفض رفضا قاطعاً هذه الوجهة من وجهات النظر؛ فهو أعرف من غيره بماضيه الناصع الصفحات، وحياته الخالية من الشوائب. وهبه أخطأ مثل سائر أبناء الأرض الفانين فأين عفو الله، وواسع رحمته وفائض جدائه؟ وكيف يلتمس الصفح، ويرجو المغفرة عن آثام لم يقترفها ولم يأته عنها خبر؟ فهو يقول لأصحابه: «علموني وأنا أصمت أنبئوني في أي شيء ضللت، ما أوقع كلمات الحق! لكن في أي شيء ملامتكم».

فينبري له صاحبه بِلْدَدُ الشُوحي ويقول له: «إلى متى أنت تنطق بمثل هذا وأقوال فيك كريح عاصف، ألعل الله يحرّف القضاء، أم القدير يُعوِّج العدل، إن كان بنوك قد خطئوا إليه فقد أسلمهم إلى يد معصيتهم، أما أنت فإن بكّرت إلى الله والتمست رحمة القدير، وكنت زكيا مستقيما فإنه ينتبه إليك ويرد إلى السلام مقر برك».

ولكن أصحابه في واد وهو في واد آخر؛ فهو يأبى أن يكون منافقا تجاه الله، ولا يقبل أن يزيف شعوره، ويزور عواطفه، ويقول كلاما هو غير مقتنع بصحته، وهو يعلم علما ليس بالظن أن الله شديد البأس، وأنه «يزلزل الأرض من أساسها، فترتجف عمدها، يأمر الشمس فلا تشرق، ويختم على الكواكب، هو الباسط السماوات، والسائر على متون البحر، إن سلب فمن ذا يرده أو من يقول له ماذا تفعل» هو يعلم ذلك كله، ولكنه يود الاحتجاج بين يديه، وعرض قضيته عليه «ذلك الذي يسحقني في الزوبعة ويثخنني بالجراح لغير علة»، وليس الله بإنسان مثله حتى يحاوره، ويرد عليه حججه؛ وهو واثق من براءته، ولذا يحرص على أن يستمسك بحقه، ويرفع صوته ليقول: «ليرفع عني عصاه، ولا تروعني مخافته، حينئذ أتكلم ولا أرتاع منه، لأني لا أجد مثل تلك التهم في نفسي».

وأيوب كما يظهر من سيرته رجل إنساني النزعة، واسع العطف، لا يعيش لنفسه وحدها، فهو لا ينظر إلى الرزايا التي أصابته من الناحية الفردية، وإنما يتخذ نفسه مثلا لما يحدث في الدنيا، ويناضل عن قضيته من الوجهة العامة، لأنها قضية البشر جميعاً لا قضية أيوب وحده؛ فالحظوظ في الحياة البشرية غير قائمة على ذلك المبدأ البسيط مبدأ المثوبة والعقاب الذي يحاول أصدقاؤه أن يرغموه على قبوله؛ وكيف يغالط في الحقيقة نفسه وهو يرى الصالحين الأتقياء يظلمون ويقهرون، ويرى الأشرار يتقلبون في الرفاهة وأحوالهم زاكية؟ فالحظوظ ليست مرتبطة بالقيم الأخلاقية والفوارق الأدبية بين الناس، وأحوال الحياة توحي إلى الانسان أن السعادة والشقاء، والآلام والمسرات موزعة في هذه الدنيا توزيعا غير معقول؛ فهو يتساءل: «لماذا يحيا المنافقون ويُشيخون ولماذا يعظم اقتدارهم»، ويصف فوضى الحظوظ فيقول: «هذا يموت في معظم وفره وقد عمته الدعة والطمأنينة،

وذلك يموت في مرارة نفسه ولم يذق طيباً ».

وهكذا تروعه عثرات الحظ ، ومتناقضات الحياة ، ولكنها لا تهز اعتقاده بالله ولا تنال من يقينه ؛ وهذا الاعتقاد المتين يفجّر في نفسه ينابيع الأمل ، والله في رأيه قد تفرد بالحكمة ، وهو يقول في ذلك : « أما الحكمة فأين توجد ، والفطنة أين مقرها ؟ لا يعرف الانسان قيمتها ولا وجود لها في أرض الأحياء ، الغمر قال ليست فيّ ، والبحر قال ليست عندي ... إنها محجوبة عن عيني كل حي ومتوارية عن طير السماء ؛ الهاوية والموت قالا قد بلغ مسامعنا خبرها ، الله يبصر سبلها وهو عالم بمكانها ، لأنه يبلغ بطرفه أقاصي الأرض ، ويحيط بجميع ما تحت السماوات ، وإذا جعل للريح وزناً ، وعاير المياه بمقدار ، وجعل أحكاماً للمطر وسبيلا للصواعق القاصفة ، حينئذ رآها وأخبر بها وأثبتها وسبرها ، وقال للبشر ها إن خشية الرب هي الحكمة واجتناب الشر هو الفطنة [1] ».

وأيوب في أشد أوقات محنته ، وعند ما اشتملت عليه الهموم ، وأرمضته الآلام ، وانثالت إليه الخواطر السود ، وزعزت ثباته ، وهزت بنيانه ، لم يفارقه الإيمان بالله ، وإنما تطلع إلى استيضاح أثر العدالة الالهية ، والعناية الربانية ، في طرائق الحياة وتجارب البشر ؛ ولما أشكل عليه أمرها ، واستبهمت طرقها ، ود من صميم نفسه ، وأعماق وجدانه ، لو أن الله يجعل طرقه وأساليبه قريبة من الأفهام ، بينة للمخلوقات ، حتى يكون إيمانهم بعدالته قائماً على أساس متين ومدعماً بالحجج الواضحة . وفي ختام السفر يجاوب الله أيوب من العاصفة ، ويوبخه على نقص إيمانه ، ويقول له : « إني سائلك فاخبرني ، أين كنت حين أسستُ الأرض ؟ بيّن إن كنت تعلم الحكمة ، ... على أي شيء أقرت قواعدها أم مَن وضع حجر زاويتها ؟ .. أأنت في أيامك أمرت الصبح وعرّفت الفجر موضعه ؟ ... هل اخترقت إلى لجج البحر أم تخطيت في مخادع الغمر ؟ هل انفتحت لك أبواب الموت ، أم عاينت أبواب ظلال الموت ؟ هل أحطت بعرض الأرض ؟ أخبر إن كنت عالماً بذلك ... أأنت تشد عُقَد الثريا ، أم أنت تحل نطاق الجوزاء ؟ ... من وضع الحكمة في الإعصار أم من آتى النوء الفهم ؟ .. أبحكمتك يستقل البازي في الجو ويبسط جناحيه نحو الجنوب ، أم بأمرك يحلق النسر ويجعل وكره في العلاء ؟ هل يخاصم القدير لاغٍ ، ويجيب الله مشتكيه ؟ »

فيجيب أيوب قائلا : « هأنذا ذليل فماذا أجيبك ؟ إني أجعل يدي على فمي » فيسترسل الله في لومه وتعنيفه ويقول له : « أمثلك تنقض قضائي ، أتؤثمني لتبرر نفسك ؟ ألك مثل ذراع الله ، أترعد بمثل صوته ؟ إذاً فتزيَّن بالعظمة والسمو والبس المجد والبهاء ».

ويقر أيوب بعجزه وحسور فهمه فيقول : « إني قد نطقت بما لا أدرك ، بمعجزات تفوقني ولا أعلمها » . ويرفع الله غضبه عن أيوب ، ويتم عليه نعمته ، ويبارك آخرته ، ويغضب على أصحابه لأنهم قد داهنوا في دينهم ، ولم يتكلموا أمامه بحسب الحق كعبده أيوب .

وبيت القصيد في هذا السفر هو أن مسألة الإيمان بالله ليست مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاعتقاد بالعدالة المباشرة ، والمثوبة السريعة ، والعقاب العاجل ، لأن هذه الفكرة مناقضة لحقائق الحياة ، وتجر إلى اتهامات باطلة ، وتستدعي النفاق والمغالطة وتزييف الواقع ، وما يصيبنا من شقاء قد يكون اختباراً ليقيننا ، وقد يطول شقاء الانسان وتمتد محنته ، ولكن واجب الانسان أن يتحمل ويصبر ، ويحتمل الأذى ، قرير العين ، وادع النفس ، لأن الله قوي المراس ، بعيد الحكمة ، وما دام الله قادراً وحكيماً فإن ما قدم الانسان من خير لن يذهب عبثاً .

فأي ضوء يرسله هذا السفر القديم على مشكلات عصرنا الحاضر وموقفنا اليوم ؟ لا ريب أن عصرنا الحاضر عصر نقد وتمحيص ، فكل عقيدة تعرض الآن على محك

(١) الاصحاح ٢٩ من سفر أيوب (الكتاب المقدس طبعة مطبعة اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٩٧) .

البحث ، وكل مفكر أمين يحاول أن يغربل عقائده ، ويفحص محتوياتها ، ويشرّح أجزاءها ، ليرى ويستخلص الجوهر الأصيل ويستبعد القشور والدخيل ؟ وبعض الناس يقفون من مشكلات العصر الحاضر موقف أصحاب أيوب ، ويأبون مواجهة معضلات العصر الحديث ، أو يعرضون لها حلولا لا تلائم جدّتها ولا تتفق مع طبيعتها . وأساس الحياة الروحية الحق هو الاعتقاد بأن نظام العالم نظام يقره العقل وتشرف عليه العناية ، وأن القوى الكونية التي يبدو طرف منها في حياتنا الانسانية وحياة العالم قاطبة قوة حكيمة وخيرة ، وأن وجودنا له غاية كبرى مقدسة ، لو عملنا على تحقيقها دونا من الكمال المنشود ، وإن قصرنا عمت الفوضى وساد الاضطراب .

وما يتطلع إليه الانسان في العصر الحاضر ليس النجوة الشخصية أو العقاب الفردي ، وإنما إنقاذ الانسان من سيطرة الشر ، وانتشاله من مخالب الهلاك والدمار الذي ساقته إليه الأنانية العمياء والمطامع الملتوية ، وتمكينه من توسيع دائرة عطفه ، والسمو بتفكيره ، وأن ينتقل من النظرة الفردية ، والتفكير الطائفي ، والتعصب الطبقي ، وأن يعتبر الأفراد والأمم أعضاء أسرة واحدة ، وأن الخير الأسمى لا يمكن أن تحتكره أمة أو تستأثر به طبقة ، والحياة الانسانية معقدة متراكبة متداخلة الاجزاء متشابكة الفروع ؛ فلا يمكن أن تسمو الانسان من الناحية العقلية أو الفنية ، أو الأخلاقية ، إذا أهملنا الناحية الاقتصادية ؛ وعدم تقدير هذه الناحية جعل الكثير من مجهودات المصلحين ذوي المثالية السامية تذهب أدراج الرياح .

ومعركة تنازع البقاء القائمة في العصر الحاضر تكشف لنا عما تنطوي عليه الحياة من قسوة رهيبة ، وفظاعات منكرة ، وتتمخض عن الكثير من المآسي الروعة التي تلقي ظلالا ضخمة على اليقين والايمان ؛ ولا مفر للانسان من أن يتساءل : كيف ينشأ الخير ، ويتحقق الأمل ، في عالم غاص بالكراهة والأحقاد الثائرة ، والشرور والآثام ، والعسف والارهاق ؟ وما قيمة الحضارة والتقدم إذا كانت الكثرة الساحقة من الناس في بقاع الأرض لا تزال تعاني الجهل والحرمان ، ولا تستمتع بنصيب معقول من خيرات الحضارة ؟ وهذه مشكلات قد يعجز عن الجواب عنها أحكم الحكماء ، وأعمق الفلاسفة . ولقد استجار أيوب في أحلك أوقات محنته بالقوة الالهية ، واعتقد في النهاية أن للعناية الالهية خطة وتدبيراً قد تعجز عقولنا عن إدراكه ، وأن العدالة المطلقة والصلاح الكامل هما المسيطران على العالم ، وأن هناك غاية سامية يعمل الكون على تحقيقها ، ويبدو أثرها في حياتنا المحدودة . والجواب الذي تلقاه أيوب من الله على ما وجهه إليه من ملاحظات ، هو أن يتأمل عظمة الكون وجلاله ، ويجيل الطرف في روائعه وبدائعه ، وهل مثل هذا الخالق العظيم والمدبر القدير لا يوثق بعد ذلك بعدالته ولا يعتمد عليه ؟ ألم يكشف العلم بدائع وغرائب لم يعرفها أيوب ولا عصر أيوب ؟ إنما نشكو وجود الألم في الحياة ، ولكن تطور الحياة ، وحركة التقدم ، وطبيعة التجديد ، تستلزم وجود الألم . وربما كان من الخطأ أن ننكر أن الانسانية برغم الهفوات والجرائم والحروب والويلات تتقدم إلى الامام وترتفع تدريجيا إلى مستوى أرفع من الفكر والأخلاق ، وقد اتسع المثل الأعلى وتهذب ؛ ونفس هذا الاتساع والتهذيب يحفز النفوس ويوجه العزائم ؛ والتبرم بالحياة والملل من الحاضر دافع إلى استكمال النقص واستدراك العيوب . وكل من يشك في عدالة الكون ويتطاول على نظامه وأحكامه يصح أن يوجه إليه قول الأستاذ عبد الرحمن شكري :

أليس الكون أكبر منك شأنا
وأولى بالقداسة والنظام ؟

علي أدهم

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ... ... "

ميراث عالم ! — الإيمان بالفن — رأيه الشخصي ! — شخصية العامل وعمله — المسابقة ... ...

ميراث عالم !

اخترم الموتُ شبابه أنضرَ ما كان عوداً وأفسحَ أملا ! كانت سنُّه بضعاً وثلاثين سنة ، ولكنه خلَّف في العلم تاريخاً كأنما كان جهاده فيه أسبقَ من ميلاده !

وكان طالباً في « الكلية » ، ثم لم يمض على تخرُّجه فيها إلا سنواتٌ في مثل عُمر الصبيّ حتى كان هو المدرِّسَ الملحوظ في الكلية ؛ وفيما بين خروجه منها طالباً وعودته إليها أستاذاً كان دائبَ الرحلة والتنقل من جامعةٍ إلى جامعة يتزوَّد من المعرفة ما وسعه أن يتزوَّد ؛ فلما استقرَّ به المقام في بلده حاطته العيونُ وترامتْ إليه المنى ، وحلَّ حيث أراد أن يحلّ في موضع الإعزاز والكرامة ، ولكنه لم ينم ، وما كان له أن ينام وإن عليه أن ينشئ في العلم تاريخاً لا يتسع لإنشائه ما بقي من أيامه ... وراح يعمل جاهداً لا يكاد يجد فسحةً من وقته ليستريح ؛ وأصدر « كتابه » الأول والأخير ، فكان أولَ كتاب في العربية « في فنّه » ؛ وعرفتْ له « الجامعة » مقدارَه فنشرتْه وبذلتْ له ، وأهدتْ إلى مؤلفه منه أربعين نسخة ... ...

... وجاء « رجال الحسبة » غداة منعاه يحصون تركتَه ؛ فإذا كلُّ تركته ثمانٍ وثلاثون نسخةً من كتابه ؛ فقد أهدى منه نسختين قبل أن يموت !

وتُراثُ الأديبِ في الشرق حزنٌ
لبنيـــــه ، وثروةٌ للرُّواةِ !

ألا ليتني أدري كيف تكون حال بنيّ في غدٍ وقد خلوا أيامٍ على الآلة الحدباء !.. ولكنني أدري !.. وماذا أملك أن أكون غيرَ ما أنا كائنٌ وأسباب العيش هي أسباب الفنون ؟!

الإيمان بالفن :

ماذا تراني أستطيع أن أصنع غير هذه « الصناعة » وإني لمؤمنٌ بأني لذلك خُلقت ؟

وهل تستطيع أن تعمل عملاً فتنجح إلا أن تكون « مؤمناً » بما تعمل ؟ ومن أين لي وهذا فنّي الذي آمنت به ؟

وإن بعض الناس ليعمل العملَ لا يؤمنُ به ؛ فهل تراه يصيب النجاحَ — إن أصابه — في فنّه أو في « فنّ العيش » ؟

وما أريد أن يكون « فنُّ العيش » فنّي ، إلا أن تكون غايةُ الحياة عندي هي هذه الحياة ، وأرذِلْ بها من حياة !

لستُ أعني الخلودَ ولا طيبَ الذكر ؛ ذلك كلُّه وهمٌ من الوهم لا يشيل به ميزانٌ ولا ينزل به ميزان ؛ وإنما مَثلُ الحياة السعيدة عندي ، هو أن أعيش ونفسي على وفاق ، مؤمناً بما قلت ، راضياً بما عملت ؛ وأين السعادة إن لم تكن في طمأنينة الرضا وسلام الإيمان !

رأيه الشخصي :

وسأل محرر « الاثنين » طائفة من شيوخ الكليات بالأزهر رأيهم في (الشورت)

وأجاب فضيلة الأستاذ الشيخ مأمون الشناوي شيخ كلية الشريعة :

« إن كان هذا الزي يستر العورة فلبسه جائز ، وإن كان لا يسترها فهو محرَّمٌ شرعاً ؛ والعورة في

الرجل ما بين الركبة والسرة . . .

« لقد أجبتك من رأيي كرجل دين ، والدين حكمه في هذه المسألة واضح لا شبهة فيه ؛ أما من الوجهات الأخرى ، فذلك ما يُسأل عنه رجالٌ تخصصوا في هذه الشئون من الوجهة المدنية أو الصحية أو الاجتماعية ! »

وأجاب فضيلة الأستاذ الشيخ حروش شيخ كلية اللغة العربية :

« كل لباس يجب أن يستر العورة في الرجل والمرأة ؛ فإذا كان زيّ « الشورت » هذا يستر العورة فإنه من الوجهة الدينية جائز .

« . . . أما رأيي الشخصي فهذه مسألة تحتاج إلى تفكير وعناية ، وأخلق بالباحثين الاجتماعيين أن يلتفتوا إليها حتى يقوم الحكم فيها على أساس ثابت . . . ! »

وإن في جواب الشيخين لشيئاً يدعو إلى العجب ، وإن فيه « تجديداً » وإن كان الناس ينكرون أن يكون بين شيوخ الأزهر (مجدّدون) !

على أن الذي يدعو إلى العجب حقاً هو اتفاق الشيخين على القول . . . « هذا رأي الدين ، أما رأيي الشخصي . . . . . . » أو كما قالا !

رأيهما الشخصي ؟ يا عجبا ! . . . ولهما رأيٌ وللدين رأيٌ ؟ . . . وكيف يكون ذلك وإنهما لشيخان من شيوخ الدين ؟

أتراهما يعنيان أن هذا هو رأي « الوظيفة » لا رأي « الموظف » ؟

أم تراهما يقصدان أن الدين شيء غير الصحة والمدنية وشئون الاجتماع ، فلهما رأيُ الدين ، وللصحة والمدنية والاجتماع آراء ؟

أم إنهما لا يعنيان شيئاً من ذلك ولكن عبارتهما لم تؤدّ إلى قارئها ما يعنيان ؟ ! .

لي ، وإن لمحرّر « الاثنين » مذهباً لا أشك أن الشيخين يعرفانه ؛ فما أراهما إلاّ أرادا أن يقولا له : « لكم دينكم ولي دين » ، وصدق الله العظيم !

شخصية العامل وعمله :

ويذكّرني حديثُ الشيخين و « رأيهما الشخصي » حديثاً آخر يمتّ إليه بسبب ؛ فقد تعوّدنا منذ قريب أن نقول كلما عرضنا للحديث عن شخص من « رجالنا العامّين » وحاولنا الموازنة بين عمله وبعض شئونه الخاصة — تعوّدنا أن نقول معتذرين من بعض سلوكه : « هذه مسائل شخصية » ؛ ففلان « المقامر » لا يحسن أن نعيب عليه أنه مقامر حين نريد أن نناقش مذهبه السياسي ، وفلان « السكّير » لا ينبغي أن نذكر أنه سكّير حين نعرض لرأيه في الأدب ، وفلان البهيميّ في شهواته لا يسوغ أن نلومه على الإسراف في شهواته حين ندرس رأيه في الاقتصاد ؛ وهلم جرّا . . .

وقد لزمتنا هذه الكلمة : كلمة « هذه مسائل شخصية » ، وإنها لتدور على ألسنتنا وتطرق أسماعنا منذ بضع عشرة سنة ، حتى أوشكت أن تكون قاعدة من قواعد الحكم ، وإنها لقاعدة خاطئة لا تقوم على أساس من الصدق ؛ وإننا لنحس اليوم من آثارها شواهد ناطقة فيما يتغير من أحكامنا على بعض رجالنا العامّين بمضي الزمان ، وكان يمكن أن نعرف أخراهم من أولاهم لو أننا ربطنا بين آرائهم وأشخاصهم ، أو بين شئونهم العامة وشئونهم الخاصة . . .

إنك لتكاد تلمح الصلة التامة بين خلق هذا المقامر حول المائدة وبين رأيه السياسي ؛ إن رأيه السياسي لا يمكن أن يكون إلا لوناً من المقامرة ، لأن المقامرة داءٌ من دائه ؛ وإنك لتكاد تحس أخلاق ذلك السكّير

فيا يتخبط رأيه الأدبي من ألوان التناقض كما تتخبطه الحيطان في سكته وهو سكران ؛ وإنك لتوشك أن ترى على بُعد أن يفوتك رأيُ هذا الاقتصادي السرِف في شهواته ، لأن الذي لا يملك أن يضبط أعصابه لا يملك أن يقبض يده !

وما دامت أعمال الانسان جملةً هي مجموع ما تنفعل به « مجموعته العصبية » فلا بدَّ من الموازنة بين شخصية العامل وعمله لتؤدى المقدمات إلى نتائجها وتنتهى إلى غايتها .

مستحيلٌ أن يكون الرجل رجلين : رجلاً في الشارع والبيت ، ورجلاً في الديوان ؛ إن الرجل الذى هنا هو الرجل الذى هناك وإن اختلف الزى والشارة ، لأن النزوع والميل والهوى واحدةٌ هنا وهناك !

... على أن هذه الكلمة الخادعة : كلمة « هذه شئون شخصية » لم يقتصر أثرها على ما يصيب أحكامنا على الرجال من الخطأ ، فقد كان أبعد أثراً في حياتنا الاجتماعية ؛ ذلك أنها وقعت في كل نفس موقع المغفرة التى تسبق الذنب ، فوجد فيها كلُّ ذى هوى رخصةً ليسير على هواه من غير أن يخشى معابة ما دام في « الشئون العامة » على هوى العامة !

وكانت سبباً من أسباب الانحلال في أخلاق هذا الجيل !

من أين جاءتنا هذه الكلمة الخبيثة ؟ ألا لعن الله السياسة ! لشدَّ ما جَنَتْ على أخلاق هذا البلد التعس !

المسابقة :

اجتمع إلىَّ من أجوبة القراء من مسابقة « الأدباء العشرة » بضع وعشرون رسالة ؛ وما بضعٌ وعشرون رسالة من بضعة وعشرين قارئاً ؟ عن أى نتيجة تسفر هذه « الأصوات » القليلة ؟ . . .

على أنى سأنتظر فترة أخرى حتى يأتى بريد العراق ؛ فإما مضيتُ فيما بدأتُ وإما عدلتُ إلى وجهٍ آخر من الحديث عن الأدباء العشرة ؛ معتذراً عما كتب إلىَّ المتسابقون الأدباء . ولن يشقَّ على توفيق الحكيم أن « يصبر » بضعة أسابيع أخرى قبل إعلان « النتيجة » !

« قاف »

في الميزان الجديد :

ســـــوء تفاهم

وفن الأسلوب

لعل دراسة الأساليب أشد أبواب النقد تخلفا في أدبنا الحديث ، ولعل تأثرنا بالأدب الأوربي كان أضعف في هذا الاتجاه من تأثرنا بالتفكير الأوربي . والذي يبدو لي أن هذه الظاهرة كانت من أكبر الأسباب التي عمّت معنى الأدب عندنا وأزكت الاضطراب بمنهجه ؛ وذلك لأن الأدب كما قال لانسون : « هو المؤلفات التي تكتب لكافة المثقفين ، تثير لديهم بفضل خصائص صياغتها صوراً خيالية أو انفعالات شعورية أو إحساسات فنية » فهو إذاً غير التفكير الفلسفي ، وهو غير التاريخ وغير النظريات الأخلاقية أو الاجتماعية أو السياسية . وإذا كان النقاد يجمعون على أن محاورات أفلاطون مثلا أو كتب برجسون أو تاريخ فرنسا لمشليه تدخل في الأدب ، فذلك لأن في « صياغتها ما يثير صوراً خيالية أو انفعالات شعورية أو إحساسات فنية » ؛ وهذه حقيقة هامة يجب أن تستقر في نفوسنا حتى لا يذهب جهد أدبائنا فيما لا أدب فيه ولا ضمان معه للخلود . الأدب صياغة .

والناظر في أدبنا الحديث يجد عدة أنواع من الأساليب : فثمة أسلوب طه حسين الذي يعرفه الجميع . أسلوب سمح تسلم الصفحة منه عند أول قراءة كل ما تملك فلا تشعر بالحاجة إلى أن تعود تستوحيها جديدا ، ولكنك رغم ذلك تحمد للكاتب يسره . أسلوب واضح الموسيقى ، يكشف في سهولة عند أصالته ، فيقلده الكثيرون بوعي منهم أو غير وعي ، ولكنه مع ذلك موسيقي نفس . أسلوب عذب .

« إن السعادة لخير ما يحقق مذهب « أنشتين » في النسبية . فكل شيء في الحياة من لذة وألم نسبي . وليست اللذة والألم يعتمدان على الشيء الخارجي فحسب ، بل هما نتيجة تفاعل بين الشيء الخارجي والنفس ، ويختلف هذا التفاعل اختلافاً كبيراً باختلاف النفوس ، فليس الألم من الحر والبرد يعتمد على درجة الحرارة وحدها ؛ بل إن صح أن يكون الترمومتر مقياسا لحرارة الجو فلا يصح أن يكون مقياسا لألم النفس من الحر ؛ وليس لهذه الحال ترمومتر مشترك يتساوى فيه الناس ، إنما لكل إنسان في الألم من الحر والبرد ترمومتره الخاص ، ولذلك ترى من يموت من الحر ومن يموت من الضحك من الحر » (فيض الخاطر ج ١ ص ٣٤٢ — ٤٣) . تقرأ هذه الأسطر لأحمد أمين فتخرج منها بفكرة : « أن الألم واللذة أمران نسبيان وأنهما نتيجة لتفاعل بين النفس وما يحيط بها » ثم تنظر فإذا الكاتب يعرض لك نفس الفكرة بعدة طرق ويحتال على نقلها إليك بكافة أوجهها ، فتهم بأن تصيح : وما عملي أنا إذاً ولمَ لا يترك لي حظ تنمية فكرته فأشاركه عمله وأجد من لذة الجهد الشخصي ما يغريني بقراءته ؟ لمَ لا يترك فكرته مركزة فتحتفظ بقدرتها على الإيحاء ؟ إننا لا نريد « الفكة » بل نريد « جنيهات صحيحة » ؛ وفي هذا التشبيه على ابتذاله ما يوضح حقيقة هذا الأسلوب ؛ فالجمل بسيطة صغيرة ليس فيها من التماسك أو التداخل ما يجدي في التفكير ، وفي العبارة ذلك « السيل الموسيقي » الذي يميز بين الأساليب تبعا لطبيعته . أسلوب يترك القارىء في موقف سلبي لأن الكاتب لم يترك له شيئاً . أسلوب جزئيات فلا موج فيه . أسلوب واضح ، ونحن في حاجة إلى ظلال وأسرار ولو من حين إلى حين . أسلوب تجاور لا بناء . أسلوب تعليمي .

ثم أسلوب الزيات : « نشأ بين لداته من أطفال القرية كما ينشأ الزنبور بين النحل أو الثعبان بين الحمام ،

فكان لا ينفك ضاربا هذا بعصاً أو قاذفا ذاك بحجر ، أو خاطفا لعبة من بنت أو سارقا شيئاً من بيت ! فلما جاوز حد الطفولة دخل فى خدمة الفجار والجان ، فكان يخدم أولئك فى تدبير الجرائم ويخدم هؤلاء فى إعداد الولائم » (الرسالة عدد ٤٦٤) . شيء أشبه ما يكون بأسلوب « المقامات » وأنا لا أكره المقامات بل أعدها كنزاً ثمينا فى تراثنا الأدبى لم نعرف بعد كيف نتذوقه ؛ ولكن الزيات لم يقصد إلى كتابة « مقامة » بل « مقالة » يصور فيها رجلا لقيه فعلا فى الحياة . فما هذه الصنعة التى تخرج التصوير من الواقع الحى إلى الأدب المصنوع ؟ ومن منا يقرأ جملا كهذه ثم يتصور أو يصل إلى أن يتوهم أن هذا الرجل موجود ؟ ولو أن ذلك كان ممكنا ما سأل القراء الزيات عن حقيقة ذلك الرجل كما رأيناهم يفعلون على صفحات « الرسالة » . وأين هذا من الأسلوب القصصى أو التصويرى الذى يجعلك تتوهم الخيال حقيقة أراد المؤلف أم لم يرد ؟ ولكم من روائى قاضاه الناس لأنهم رأوا أنفسهم فيما صور ! ولكم من روائى يصر قراؤه على أنه هو نفسه بطل روايته رغم احتياله على الواقع وحرصه على تعميته ! بل إن من الروائيين الخياليين من يحتال بعدة طرق حتى يعطيك ما يسمونه بالفرنسية « وهم الحقيقة » L'illusion du réel . فما بال الزيات إذاً يأبى إلا أن يقصد بالصنعة نثبات الواقع ؟ ثم لِمَ كل هذه « السمترية » وفيم اصطناع « البرجل والمسطرة » ؟ ومتى كان الأسلوب هندسة من هذا النوع التخطيطى ؟ أما من نزوة فى شيطان الأدب تكسر هذا الاتساق ؟ أما من نفثة قد تتلف قليلا من هذا الكمال المشى . « زنبور بين النحل أو ثعبان بين الحمام » ، « ضاربا هذا بعصا قاذفا ذاك بحجر » ، « خاطفا لعبة من بنت أو سارقا شيئاً من بيت » ، « فى خدمة الفجار والجان ، يخدم أولئك بتدبير الجرائم وهؤلاء فى إعداد الولائم » . بالله ! ولم لا يخطف لعبة من ولد وهو مجرم كبير ؟ ولم لا يسرق من جامع وذلك أيسر من السرقة من بيت ؟ وهل هو حقيقة لم يخطف إلا من « بنت » ولم لا يسرق إلا من « بيت » ؟ أم هو مجرد أدب وصناعة ؟ وهو يخدم المجرمين بتدبير الجرائم ، ولكن لِمَ لا يخدم الجان بإعداد القاصف ؟ وهل الولجمة أشهى من القصف أم هى ضرورة السجع ؟ أسلوب الزيات مصنوع صنعة محكمة ، صنعة كاملة ؛ ولكن الصنعة تبعدنا عن الحياة ، ولكن الكمال ممل . وهناك فى أساليب كبار الكتاب ما يحسبه البلاغيون والنحويون ضعفا وعيبا ، ولكنه أمارة الأصالة ودليل الطبع . وإذا كان فى جلال أسلوب « شكسبير » أو « فليرى » ما يسمونه كسر البناء (Rupture de syntaxe) فكيف لا يطمئن جهد الزيات حتى يقيم الموازين ويقيس المسافات ؛

وبعد فهذه كلها وغيرها أنواع من الأساليب . وأنا وإن كنت أعتقد أن أياً منها لم يبلغ بعد ما نرجوه فى لغتنا من خلق أساليب تجمع بين الموسيقى والإيحاء والطبيعية ، على أن تكون الموسيقى خفيفة دفينة عميقة لا تحاكى ، وأن يكون الإيحاء عن غنى وتركيز لا عن غموض وعجز عن تملك الفكرة ، وأن تكون الطبيعية نتيجة لجهد طويل وصناعة مستترة وتثقيف محكم ، كالضوء الداخلى يشع دون أن يعشى الأبصار أو كالرجل اللبق يعرف كيف يلقى الناس ويحييهم ويحادثهم فى يسر طال إلفه له حتى أصبح كالطبع المفطور — أقول إنى رغم ذلك مغتبط بوجود هذه الأساليب المختلفة مؤمن بأن أصحابها قد ساهموا وسيساهمون فى تربية أذواق الناشئين ليحققوا ما يمكن أن يكون جيلهم قد عجز عنه ، وما قد يعجز عنه جيلنا نحن أيضاً ، لأننا لا نزال حديثى عهد بفن الأساليب ، ولا بد لنا من أن نتلمذ فى ذلك زمنا ما لكبار كتاب أوربا الذين لم نأخذ عنهم كما قلت سوى التفكير .

وأما الأسلوب الذى لا أستطيع أن أقبله والذى

أرجو أن نحيد عنه فهو الأسلوب الذي يشبه أسلوب بشر فارس في « سوء تفاهم » . وأنا إذ أقول الأسلوب أقصد إلى كل هذا النوع من الأدب ، وهو بعد أسلوب له نظائره في كل الآداب ، ولقد حاربه دائماً خير النقاد والكتاب . هو أسلوب التوبير « تريسوتان Trissotin » في كوميديا موليير « النساء العالمات » أسلوب المتحذلقات في كوميدياه الأخرى « المتحذلقات المضحكات » ، وهو قد يسمو قليلا فيصل إلى أسلوب « ماريفو » المسمى « بالماريفودية » Marivaudage ؛ ولقد يبلغ بأصحابه الغرور أن يسموه « الأسلوب الفني » كما فعل جونكور وأخوه . انظر إلى هذين الأخيرين يقولان في وصف مدام جرفزيه Gervaisais بطلة رواية لهما وهي في مجلس أصدقاء : « هنالك وقد أحست في دلال بالجهد من حمل رشاقة قدها : أكتاف مضناة ورقبة فرعاء ، أخذت تنصت في رفق وبالها شرود ، حتى لكأنه لا ينصت منها غير ابتسامة وجهها ، إلى ذلك الحديث المهشم الذي كانت تتبادله تلك الحلقة الضيقة التي جلست على مقاعد كنبها طنافس صورت عليها فضائل الدين » .

لننظر في القصة الأولى من المجموعة ، وعنوانها « قصة ستكمل » على نحو ما كتب شوبيرت « سمفونية ناقصة ؟ ؟ » . وهي قصة رجل كأنه متسكع مغرور ، يحس أن الكاتب يسلم له بأنه ملك مسيطر على قلوب النساء ؛ وأنه يستطيع بتصنع البرود والقسوة والسفسطة أن يسبي الحسان ، ثم امرأة يشعرنا بأنها ستخضع لهذا الرجل رغم أنفها ، لأنه واسع الحيلة خبير بالفتيات ؛ الرجل في عقلية ما يسمونه بالفرنسية « بالجيجولو » ، والمرأة « عاهرة » ، والقصة تبتدئ بالمرآة تنظر فيها المرأة ؛ وكم في المجموعة كلها من مرايا ؟ وعند بطل القصة « أن روح الرجل مصباح كهربي زره تحت ضغط إصبع المرأة » . و « المصباح الكهربي » و « الزر » أشياء حديثة رأيناها جميعاً ، ولكن ماذا تقول في « البطلة » التي أرسلت خادمها إلى صندوق البريد بأسفل السلم لينظر هل جاءها خطاب من صاحبها العزيز أم لا ، و « هبط الخادم ومعه قلب هبط ثم صعد الخادم واجماً فلم يصعد القلب » أين ذهب ؟ ذلك ما لم يحدثنا عنه المؤلف . أهذا هو أسلوب القصة التي هي « حنية من صدر الحياة تنتزع » كما يقول الكاتب نفسه في أحد أحاديثه ، وقد حرص على أن يصدر كتابه ببعض من قرائه بعد أن « نشرته مجلة المكشوف » البيروتية العدد ٣٣٢ — ٤/١١/١٩٤١ ، ونقلت صفوته « المقتطف » عدد فبراير سنة ١٩٤٢ و « الثقافة » العدد ١٦٢ — ٣/٢/١٩٤٢ ، وفي الفرنسية Le Journal d'Egypte القاهرة : ١٤ — ٣ — ١٩٤٢ . » . ما هذا القلب الذي يهبط ثم يجرؤ أن لا يعود فيصعد ؟ والمؤلف يستطيع بلا ريب أن يحمل بطله على أن يطلب إلى المرأة أن تكون « برقا يلتوي في سماء مُغبرّة » ، وأما أن يلعب بالقلب كرة القدم فهذا ليس أدبا ولا أسلوب أدب .

والقصة الثانية « طبق فول » تبتدئ أيضا بالمرآة . هكذا « كانت المرآة لا يعوزها سوى الصفاء ، وفي الأشياء ما يعوزه الأهم . فيعجب كيف يكون ... إلى أعرف رجالا يفتقر الحين بعد الحين إلى ثقة الأمة » . وأنت تعجب لهذه المهارة السرفة التي تجمع بين صفاء المرآة وثقة الأمة بغير رابطة إلا أن تكون هذه النقط الدقيقة التي وضعها المؤلف بين جملتيه . والمرأة العاشقة توحي إلى المؤلف « بأن الإحساس السخي ولد في زرقة سماء لم يرد وصفها في كتاب ، ثم هبط على جناح التقدمة حتى حمرة الأرض ، فضاع خبره في الأزقة القاتمة والسهول البائرة بين رائق الجشع وقهقهات الاستخفاف » ؛ وهذا لا ريب بؤس بشري يدعو إلى الحزن ، إذ فيه أكبر « استخفاف » بالمعنويات ، فقد كنا نقول « السماء الزرقاء » و « الأرض

السمراء » فأصبحنا اليوم نسمع « زرقة سماء » « وسمرة الأرض » ولم لا ؟ أليس فى ذلك تجديد ؟ أليس فيه تجريد للصفة وإضافة للموصوف ؟ ألم تر له شبيها عند الفحول ؟ أليس هو « الأسلوب الفنى » المرز النال ؟ ومع ذلك يمجه كل ذوق سليم !! ثم إن بطل القصة « يركز أوتاد نهاره فى المطعم وينصب خيمة الليل فى القهوة » أى أنه (بلغتنا) ينفق نهاره فى المطعم وليله فى القهوة . ولقد تكون لليل خيمة وإن كنت أظنها أكبر من أن تحويها قهوة وأرفع من أن تطمئن إلى الصخب ، وأما « أوتاد النهار » فذلك ما لا علم لى به وإن كنت أعلم أن الخيمة هى التى تحتاج إلى أوتاد .

ومؤلفنا لا يكتفى بالإسراف والتكلف والجمع بين ما لا صلة بينه وزج الملاحظات الاجتماعية أو الاخلاقية أو السياسية حيث لا محل لها ، بل يأبى إلا أن يعقب على معظم فقراته مستخرجا العبر النادرة ، فبطلة « طبق فول » تلبس « معطفا منزعجا على كتفها وحذاء له كعب طوله طول أنفها ... التناسب من شرائط الفتنة » . وهكذا ندرك فن الكاتب فى حرصه على التفاصيل وإقامة النسب بين طول كعب الحذاء وطول أنف امرأته المسكينة ، ونحس بسخريته اللطيفة الفنانة تطالعنا من ثنايا تعقيبه الرائع « المزعج » — « التناسب من شرائط الفتنة » . ونظر لطيف افندى إلى المرآة (طبعا !!) « بمؤخر عينه يلومها على عكس وجهه وقد تنبه أن الماء لم يحبه بعد » ومعنى الجملة الأخيرة فيما أظن « أنه لم يكن قد غسل وجهه »

وفى القصة الثالثة « السفينة » يصف المؤلف أثاث حجرة فإذا بها « طنافس لو قصدت بها إلى امريكا الشمالية فبعتها لرجعت وفى قبضتك ما يجذب فريقا من نواب أمة راقية » . فانظر إلى المرور من الوصف إلى هذه الحقائق السياسية الدفينة ، ثم تصور قيمة هذه الطنافس !

أليست غالية جداً ؟ و « أمينة » بطلة القصة تستند إلى « شط » النيل : أمينة « نيل آخر » وبودى أن لو جعلتها « جدولا » ليستريح الكاتب فلا يعود يدهش عند ما يرى سفينة تسير فى النيل ويتساءل : « هل تستأذن الماء فى الجريان أو تعتذر إليه عن شقه ؟ » ، وهذه أشياء ما أشك فى أنها قد فاتت السفينة ، وأملى أن تفوت السفن كلها إلى يوم الدين وأن لا يلاحظ ذلك أحد

ولقد يغلب الكاتب شعوره الانسانى فيشرك القارىء معه : « أيها القارىء الجوعان مع رقة حال . أنت أدرى بفضل الخبز الكثير والماء الكثير » ، فأى رقة وأى ظرف وأى إنسانية وأى فهم لحقائق النفوس ! « والبورش » التى هى شربة خضار روسية « حساء تلتقى فيه ألوان البقول بعد تبعثرها فى الحقل — تلتقى هالكة فى لحد واحد » ، واللحد هو « القِدْر » أو « الصحن » الذى تقدم إليك فيه ، ولكن الصحن البائس أصبح « لحدا » يشعرك بؤس صاحبه وينشر فى الجو تلك الرومانتيكية النادرة المؤثرة .

والمؤلف يرى رجلا جالسا إلى جواره على مقعد بأحد شوارع باريس أمام مسرح ، فيخيل إليه « أن يحمله إلى داخل الاوبرا لأن ذلك يكون أخف محملا على سمعه و — غرَّبانا — فى قلبه » من أن يثقل الرجل فيقص عليه مأساته . ثم يرى فى الاقصر بائع عقود ، « فى عينيه سلم أضواء من الأبيض حتى الأرجوانى ، فكأنما طول تحديقه إلى عقوده وهو يزينها للناس ترك فى مقلتيه بريق الأحجار . إلا أنه بريق كاذب » . فهل رأى أحد بصراً أحدّ من هذا البصر الذى يرى سلم أضواء فى عينى هذا البائع النصاب ؟ وهل نفذ أحد إلى نفسية هؤلاء الباعة نفاذ مؤلفنا الذى ترجم لنا نفاقهم وكذبهم وخداعهم بألوان أعينهم ، وفسر وجود كل تلك الألوان

بها هذا التفسير الرائع ؟ ! .

وأخيراً كم جلس مؤلفنا مع صديقه زكى فى قهوة « تمدت على استقلال الشارع وليس فيها امرأة » ، وذلك لأنه قد وضعت بعض كراسيها على الرصيف ، وهـذا طبعا اعتداء على « استقلال الشارع » . وما نسمع نحن بالاعتداء على الاستقلال حتى نغضب وتثور عزتنا القومية ، وخصوصاً لأنه ليس لهذه القهوة الأمينة ما يشفع لها وقد خلت من النساء .

وبعد فقد قال الأديب الصادق الذوق المرحوم طه ابراهيم فى كتابه القيم « تاريخ النقد عند العرب » فى معرض الحديث عن مذهب أصحاب البديع كأبى تمام ومن نحا نحوه : « إن صاحب البديع يفكر مرتين مرة للفكرة ومرة لتحويرها والتلطف بها حتى أمكن للبديع ، ومن المعلوم أن الصياغة حركة ذهنية عند الكاتب والشاعر ، فان تعقدت هذه الحركة لم يكن لنا أن ننتظر إلا عبارات معقدة وإلا نقصا فاترا ، كلاهم بالاطراد وقف به الحرص على الزخرف ، وحال بينه وبين الجيشان والاسترسال تَلَمّسُ الحسنات ، ولذلك فان التكلف أول ظاهرة فى مثل هذا الشعر » ؛ وهذا الحكم دون ما يستحق أسلوب بشر فارس وأدبه ، وذلك لأنه لا يفكر مرتين فقط بل عشر مرات ، والأصالة ليست فى الإغراب ولا فى تسمية الأشياء بغير أسمائها ، ولا فى تضخيم التوافه ، ولا فى التكلف الثقيل المعيب ، وإنما الأصالة فى النفس وموسيقاها ، الأصالة فى الطبع واسترساله . فهل تراها أدينا خدمة إلى بشر فارس عند ما نقول له هذه الحقائق التى يجب أن يسمعها من رجل مخلص كان يود أن يستمتع بما فى قصصه أمثال « خريف » و « مبروك » من واقعية مؤثرة ، وبما فى « قيثارة مغترب » من جو شعرى نافذ ، وأخيراً بما فى « رجل » من رمزية موحية ، وموضوع هذه القصة جدير بالنظر لما تحمله جميعاً من أن التطلع إلى ما لا قبل لنا به خليق بأن يقتل فينا العنصر الانسانى كما يقتل بعضه بعضا . ثم كنت أود أن أستمتع بكل ذلك وحاولت أن استمتع ، ولكن التكلف أتلف على متعتى . التكلف البادى فى كل شىء حتى فى عناوين القصص وطريقة كتابتها « بخط المؤلف » ووضع « المشتمل » أى الفهرست ، وحتى فى استشهاد الكاتب بنفسه وتقفيته عنوان الكتاب بجملة من روايته « مفترق الطرق » وكتابة عنوان المجموعة باللغتين العربية والفرنسية ، ثم فى الاهداء إلى « من هذبتنى ، فشمرت » ثم فى شرح مذهبه فى القصة نقلا من حديث له أوردنا أسانيده فى أمانة كما أوردها المؤلف نفسه . هذه توافه يجب أن يسمو فوقها الأدب . وأنا لن أمل تكرار ما سبق أن قلته عن وجوب التواضع والاخلاص وصدور الأديب عن طبعه وترك الطنطنة إلى الهمس الصادق ، كما أنى على ثقة من أنه ستظهر عندئذ فى أسلوب بشر فارس تلك الموسيقى التى حطمها التكلف واحتباس النفس والانتقال من المحسوس إلى المعنوى انتقالا مصطنعا ؛ كما ستظهر وحدة النسج ويختفى ما نراه عنده اليوم من تنافر بين الألفاظ البعيدة المهجورة الثقيلة النغمة والألفاظ التافهة المبتذلة التى تشبه العامية .

محمد مندور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٩ | ٥٦٧٦٩

العدد ١٨٩ — الثلاثاء ٢٨ من رجب سنة ١٣٦١ — ١١ من أغسطس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

من النافذة :

مشروعات الاصـــــلاح

فى أيامنا هــــذه

ما تعودنا أن نصفق استحساناً إلا أن يكون للأمر الجليل والموقف النبيل ؛ فإنا ما رأينا شيئاً من ذلك رأينا واجباً علينا أن نجهر بالثناء فى غير تحفظ ، وأن نعلى صوتنا قائلين : « مرحى يا صاحب الموقف النبيل » .

ونحن اليوم نطلع من هذه « النافذة » على حركة مباركة ، تحدثنا عن بعض جوانبها بالشكر فى كلمات سابقة ، وتحدثنا عن بعض جوانب أخرى منها بالنقد ، فطالبنا أن تضع الدولة برنامجاً شاملاً للاصلاح ، ترسم فيه صورة لما ينبغى أن تكون عليه مصر فى مستقبلها ، ثم تتخذ الوسائل التى تؤدى بعد أمد محدود من السنين إلى تحقيق تلك الصورة وإبرازها فى عالم الوجود ، على أن يكون ذلك الأمد المحدود وسطاً بين القصر الذى لا يتسع للإنفاذ الجدى ، وبين الطول الذى يهدد الإصلاح بالنقض ، والهدم على تعاقب السنين وتغير الحكومات .

وجدير بهذا الأمد أن يكون خمسة أعوام ، أو عشرة ، لكى نعرف ما ينبغى لنا أن نبذله من جهد ، وما ينبغى أن نتمه من الإصلاح فى كل عام من أعوامه .

ولكنا مع مطالبتنا برسم هذه الصورة ، وبالعمل على تحقيقها فى أمدها المحدود ، لا نتردد فى أن نشكر ما يبذل من الجهود فى سبيل الإصلاح ، أيًّا كان نوعه ، وأيًّا كان ميدانه ، فإن الإصلاح فى ذاته مشكور ، ومن اليسير أن ينظم ويكون شاملاً ، وعلينا أن نستزيد منه ونشجع عليه ، وننادى بضرورة وضع الخطة التى تجعله متناسقاً قوياً متساندًا .

بالأمس القريب اهتزت أفئدتنا عندما رأينا مشروع إصلاح القرية الذى قدمه الوزير العالم الدكتور عبد الواحد الوكيل ، فحمدنا وطربنا ؛ ولكنا لم نتردد أن نقول إن ذلك الإصلاح لا يمكن أن يؤتى ثماره الناضجة الطيبة

بالحياة إلا إذ صاحبه إصلاح يسايره في مرافق الحياة الأخرى ، كاصلاح التعليم الريفي ، وإصلاح طرق الريف ، وتحسين الصناعة الريفية .

وبالأمس القريب اهتزت قلوبنا مرة ثانية ، وكانت هزة تجمع بين طرب للاصلاح نفسه ، وطرب آخر يفوق كل سرور يحسه من يريد الاصلاح ، فهو طرب تمازجه كبرياء العزة القومية ، وتخالطه صور مختلفة تنبعث من ثنايا التاريخ الماضي ، بعضها واضح وبعضها غامض ، وبعضها قوى الألوان وبعضها حائل من مر السنين ؛ تلك هي الهزة التي شعرنا بها عند ما رأينا وزير الشئون الاجتماعية يعلى صوته بإنصاف اللغة العربية الشريفة ، ويحتم أن تكون اللغة العربية لغة التعامل مع مصالح الحكومة المصرية ، ولغة الكتابة في الدفاتر الخاضعة لرقابة الحكومة المصرية .

حقاً لقد مرّ زمن طويل كانت القلوب تدمى ، والنفوس تتلوى من الذلة كلما تمثل المصرى أن لغته الشريفة غريبة في ميادين الأعمال في بلاده ، وأن حائلاً قوياً يقف بينها وبين عالم الحياة الحقيقية في وطنه ، فان كل ميادين الانتاج الصناعي ، وكل ميادين النشاط التجارى ، كانت محجوبة عن العربية وراء ستار كثيف لا يقدر أحد على أن يستشف ما وراءه ، ولا يجد فيه منفذاً يستطيع أن يلج منه المساهمة في تلك الميادين ، فكانت نفس المصرى تشعر حسرة وذلة ، على حين كانت حياته تشعر بالقيد الثقيل الذى يقيده عن مجاراة أبناء الأمم الأخرى التي جعلت مصر ميداناً لجهودها ، والاستفادة بما في بلاده من نشاط اقتصادى .

كان المصرى محروما من أن يستفيد بجهود الاستثمار التي يستغل فيها بلاده ، وتقتصر الفائدة على من يأتى من وراء البحار . فلما كان وزير الشئون الاجتماعية يتقدم اليوم بمشروعه العظيم ، فإنا نرى واجباً علينا أن نسجل له الشكر مزدوجاً : شكراً عن العربية التي أعاد إليها اعتبارها وأقال عثارها ، وشكراً عن هذه الشبيبة التي تتطلع إلى ميادين العمل ولا تجد الفرصة للولوج فيها ، لقيام عقبة اللغة الأجنبية في وجوههم .

وفى الأمس القريب كذلك سمعنا قصة استرعت آذاننا ، ولا ندرى بعد كيف انتهت ولا ما يؤول إليه أمرها ، وإن كان أغلب ظننا أنها قصة ظاهرة واضحة ، لن يرضى وزير مصرى بأن يسمح لأى اعتبار أن يزلزل يقينه فيها . فقد قيل إن بعض المدارس الأجنبية طلبت أن تعترف الحكومة المصرية بشهاداتها ، ونشرت الصحف اليومية ذلك النبأ وعلقت عليه قائلة إن هناك قانوناً قديماً منذ عام ١٨٩٧ يمنع الاعتراف بالشهادات الأجنبية ، إلا إذا كانت صادرة من مدارس في مواطنها الأصلية .

وليس في البلاد المصرية من يجهل الحكمة في ذلك القانون ، فان الاعتراف بالشهادات التي تصدرها المدارس الأجنبية المقيمة بمصر فيه كل الضياع على نظم تعليمنا الوطنية ، وفيه إفساح لكثير من أبواب النشاط الذى يضر بقوميتنا . ولكن هذا الموضوع دقيق ، وفيه مجال للقول الكثير ؛ فحسبنا اليوم أن نرجو وزارة المعارف أن تحذر ، وأن تتمحص ؛ وسنعود إلى توفيته حقه في كلمة أخرى خاصة به . « ف »

حكمت محكمة المنوفية العسكرية في الجنحة ٧٦٥ سنة ١٩٤٢ بحبس مسلاك عبروال عطا الله بجال بشبين الكوم شهراً بالشغل وإغلاق محله ثلاثة أيام لبيعه أرزاً بسعر أزيد من التسعيرة

قصتان طريفتان

للأستاذ أحمد أمين بك

قرأتُ فى هذا الأسبوع كتابين بالانجليزية ، أحدهما فى « التصوف » لمؤلف هندى ، والثانى فى « المنطق العملى » ، أو كما يسميه صاحبه « فن التفكير » لمؤلف انجليزى .

وتساءلت : ما الذى جمع الشامى على المغربى ، وألّف بين التصوف والمنطق على بعد ما بينهما من منهج ، فهذا يعتمد على مقدمات ونتائج وقياس وبراهين ، وذلك يعتمد على ذوق وإلهام ورياضة وكشف ، هذا لا يؤمن إلا بالعقل ، وذلك لا يؤمن إلا بالنفس ، وكلاهما يكفر بصاحبه ؟

فأقول : إنه قد جمعت بينهما المصادفة البحتة ، فقد كنت أبحث عن كتاب فى مكتبتى ، فعثرت على هذين الكتابين ، فأغرانى موضوعهما بقراءتهما ، ولم أكره هذا الجمع « فالضد يظهر حسنه الضد » ، ولست تتبين فى جلاءٍ سواد الأسود إلا إذا نظرت بجانبه إلى بياض الأبيض ، وخير ما تتذوق حلاوة الحلو إذا تذوقت ملوحة الملح ، وكثيراً ما تعمد الغانية الجميلة إلى أن تظهر جمالها بجانب الوصيفة القبيحة .

على أن هذا الاختيار لم يكن عبثاً ، ولم يكن اعتباطاً ، وإن كان مظهره كذلك ، فالانسان إذا سئم الأرض طار إلى السماء ، وإذا سئم اللذائذ مال إلى الزهد ، وإذا سئم من دنيا الناس عاش فى عالم المثال — ثم إذا هو تعجب من تفكير الناس هرع إلى البحث فى أسباب خطئهم ، وإذا لم تعجبه عقليتهم نشد المثل الأعلى للعقلية ، وإذا رآهم يُجَنّون فى التفكير والتصرف نشد أن يبحث فى نوع جنونهم ، ونقطة الانحراف فى تفكيرهم .

* * *

مالى ولهذا ، فقد كاد ينسينى قصة القصتين .

كان فى كل كتاب قصة لفتت نظرى ، واستخرجت إعجابى .

كلا الكتابين قص قصته من وجهة نظره ، ومن زاوية نفسه ، ولعلهما ترميان إلى غرض واحد ، ومغزى فى التربية واحد ، وإن اختلف العَرَض .

فأما القصة الصوفية فهى أن « بُلاّشاه » ، أحد أولياء « بنجاب » أرسله أبوه — وهو طفل — إلى الكُتّاب ، فكتب له المعلم « ا » و « ب » ، وأمره أن يحفظهما ويكتبهما ، فوقف « بلاشاه » عند الألف ، لا يحسن نطقها ولا كتابتها ، والأطفال الذين دخلوا معه الكتاب ساروا شوطاً بعيداً ، فأتموا حروف الهجاء إلى « الياء » ، وانتقلوا إلى ما بعدها ، وصاحبنا واقف عند الألف لا يتعداها ؛ ومرت أسابيع على هذه الحال ، والموقف لم يتغير ، وأخيراً ضاق به المعلم ذرعاً ، وأخذه وذهب به إلى أبيه وقال : « إن ابنك ناقص العقل ، غير قابل للتعلم ، ولست بمستطيع تعليمه » .

فحاول أبوه أن يعالج هذا النقص ، وعرضه على معلمين آخرين ليتحرك من الألف إلى الباء فما أمكن ، وحزّ هذا فى نفس الطفل ، وأحس أنه حمل ثقيل على والديه ، وأنهما يئسا من نجاحه ، ففرّ إلى غابة وأقام فيها وذهنه مشغول بمظهر الألف ونكبته بها ؛ فأدرك أن الألف تظهر له فى الحشيشة النابتة فى الغابة ، فى جذع الشجرة ، فى كل فرع من فروعها ، فى كل ورقة من أوراقها ، فى الجدول الذى يشق الأرض ، فى جسمه منتصباً ، فى الجبل الضخم يشرف على الوادى ، فى جسم الحيوان ممدوداً ، فى كل شىء ، فليس إلا الألف ، والعالم كله وحدة ، هو ألف أو جملة ألفات ، هو متشابه التركيب ، أو هو واحد التركيب .

أليست الألف فى أصلها نقطة ثم بنيت عليها نقط فكانت الألف ؟ فالعالم كله نقط تكونت منها ألفات ، وهو إذا كتبها فانه عندما يلمس القلم الورقة ترسم نقطة ، ثم بامتداد القلم يكرر النقطة فتكون ألفاً ، ثم تتعدد الأشكال ، وتختلف الأوضاع والأصل واحد ، والجوهر واحد ، وقد يطغى الشكل على الأصل فلا تلتفت إليه النفس البلهاء ؟ ولكن إذا دقق نظره وطهر فكره ، عرف وحدة الأصل ووحدة الخالق ؟ ثم هذا العالم مكوّن من ألفات ، والألف مجموعة نقط ، والنقطة صفر ، والصفر لا شىء . وليست الألفات إلا مظاهر تساوى أصفاراً ، ويختفى وراءها خالقها ، كما يختفى وراء الألف كاتبها ، فلا شىء إلا الخالق ، ولا شىء إلا الله .

فرح الطفل بفهم درس الألف ، وتذكر فضل المعلم عليه لأنه هو الذى علمه ، ولم يكن يفهم فطرده من الكتاب جملة ، فنزل من الغابة إلى المدينة ، وذهب إلى المعلم وقبّل يده ، وقال له : « لقد تعلمت درس الألف وفهمته ، فهل تتفضل وتعلمنى الدرس الذى يليه ؟ » . فضحك المعلم من سخافته ، وأراد أن يمتحنه فسأله أن يقرأ الألف ويكتبها ، فقرأها وكتبها ، وشرح المعلم ما فهم منها ، فدهش المعلم وحار عقله مما سمع ، وقال للطفل : « يا بنى إنك أنت معلمى ، وقد تعلمتُ من حرف الألف ما لم أتعلمه أنا من كل دروسى ، وقد استفدتَ من الألف ما لم يستفده كل أطفال الكتّاب ومعلمهم من الألف ولا من الباء ولا من كل الحروف متفرقة أو مجموعة » .

فأخذ « بلاشاه » يغنى :

[أيها المعلم ! جنبتنى علمك فلستُ فى حاجة إلا إلى الألف . لقد أثقلتَ عقلك بعلمك ، وأثقلت بيتك بكتبك ، وضاعت المعرفة الحقة بين كثرة العلم وكثرة الكتب فجنبنى طريقتك .

أى معلمى ! قد يكون الفرق بين الحق والباطل شعرة ، وقد يُخفى الحقَّ عن الأنظار نسيج مهلهل ، وربما كانت الألف مفتاح الكنز .

قالت لى روحى : إنى راغبة فى المعرفة الحقة فعلمنيها إن استطعت .

قلت : ألف .

قالت : ذلك يكفينى ، فالانسان إذا تفتحت نفسه ، وصدق نظره كفاه حرف واحد .]

* * *

هذه هى القصة الصوفية ، وأما القصة المنطقية فهى أن شاباً قص على سيدة برنامجه فى يومه ، فقال :

« إنى إذا استيقظت صباحاً أذاكر « أجرومية » اللغة البرتغالية فى أثناء حلق ذقنى ، ثم أقرأ ساعة فى اللغة الأسبانية قبل إفطارى ، فاذا أفطرت ترددت بين القراءة والكتابة إلى الغداء » .

واستمر يقص عليها كيف يقضى نهاره وجزءاً من ليله بين قراءة وكتابة وأكل وحديث وألعاب رياضية إلى أن ينام ، وهكذا دواليك .

أنصتت السيدة إلى حديث الشاب حتى أتمه ، وصمتت برهة ثم قالت :

« هذا كله حسن يا صديقى ، ولكن قل لى : متى تفكر ؟ »

وكان صمت ، وكانت حيرة فى الجواب !

* * *

كلتا القصتين ترمى إلى غرض واحد ، وهو التقليل من قيمة القراءة الكثيرة من غير تفكير ، ورفع قيمة التفكير ، ولو فى الدرس القليل .

ما أكثر ما نقرأ ، وما أقل ما نفكر ! وقد رأينا أن التفكير فى الألف أنتج أكثر ألف مرة من حفظ حروف الهجاء كلها وحركاتها من غير تفكير .

لقد دوّنوا عن ديمقريطس الفيلسوف اليونانى أنه

قلع عينيه لئلا يشغله النظر من التفكير ، والقراءة عن التأمل . وحدثونا حديثاً أخف فظاعة من هذا عن « فيثاغورس » أنه كان يقضى ليله فى التفكير العميق فى أحداث يومه . ولسنا نتطلب هذا ولا ذاك ، ولكنا نتطلب تفكيراً يعادل القراءة ، وتأملا يوازن النظر .

القراءة جمع أزهار ، والتفكير تأليف طاقة .

القراءة جمع خرزات ، والتفكير نظمها فى عقد .

بل القراءة جمع أزهار وحشائش ، وضم حجر كريم إلى حجر غير كريم . والتفكير اختيار الصالح واختيار المناسب ، واستبعاد الفاسد واستبعاد غير المناسب .

القراءة ضم عقيم إلى عقيم ، والتفكير قدرة على الاستيلاد حتى من العقيم .

قراءة الكتاب وحفظه زيادة نسخة مطبوعة منه ، والتفكير نفخ الروح فى الصورة ، ورد الحياة إلى الميت .

كثرة القارئين فى الأمة زيادة مكتبة جامعة فيها ، وعقل مفكر واحد باعث الروح ، ونور الظلام ، وحافز الهمم ، وهادى الطريق .

كما أن فى الكتّاب كاتباً مقلداً وكاتباً خالقاً ، كاتباً ناقلا وكاتباً مبتكراً ، كذلك فى القراء قارئ ناقل وقارئ ناقد ، قارئ مستقبل لاقط ، وقارئ مبتكر خالق .

القارئ الخالق هو الذى يقرأ الصفحة أو الجملة فيولدها ، ويشعر أنه تفتحت له منها آفاق للتفكير كأنه يطل منها على العالم ، يدرك وجوه الشبه بين الأفكار ووجوه الخلاف ، يدرك وجوه الفروق الدقيقة بين ما يظنه الناس متشابهاً ، ووجوه الشبه الدقيقة فيما يظنه الناس متخالفاً .

القارئ الصادق يأبى أن يجعل عقله مستودعاً للأشياء المتناقضة ، ثم يتركها كما هى متناقضة ؛ إنما يُعمل فكره ليكوّن مما فى عقله وحدة متجانسة ، بعد أن يطرد منه ما لا ينسجم مع هذه الوحدة ، يصفف أفكاره فى نظام كما يصفف التاجر اللبق سلعته ، ويستبعد منها الزيف كما يستبعده التاجر الأمين .

القارئ الناقد هو الذى إذا قرأ فهم ، فإذا فهم قوّم ، فإذا قوّم احتفظ بالصحيح واستبعد الزائف ، فإذا احتفظ بالصحيح فكر فى العلاقة بينه وبين ما سبق له ادّخاره فى ذهنه ، ثم كوّن من ذلك كله وحدة متجانسة ينظر من خلالها إلى العالم ، ويصدر بها حكمه على الأشياء .

* * *

ما أشقه من عمل ! ولذلك لم يستطعه فى كل أمة إلا الأبطال .

أدرك هذا « بلاشاه » ، وأدرك تبعة المعلومات يحصلها ، وعظم الواجبات للفكرة تحل فى عقله ، فلم يرض أن يحمل عبئاً غير عبء الألف .

وأدركت هذا السيدة فارتاعت من كثرة ما يلتهم صديقها من غير هضم ، وأرشدته فى لطف إلى أن خير ما أكل ما هضم .

ألست معى فى أن القصتين طريفتان ؟ أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر

٣٠ فى مصر والسودان

٢٥ لطلبة ومعلمى الإلزام

٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

مستقبل المدنية

أذاع المستر جود C. E. M. Joad أستاذ الفلسفة وعلم النفس فى كلية بركبك Burkbeck بجامعة لندن أربع محاضرات عن مستقبل المدنية شخص فى المحاضرتين الأوليين ما أصابها من علل وأدواء ، وحاول فى المحاضرتين الأخريين أن يصف لها الدواء . وسنلخص هذه المحاضرات الأربع فى هذا المقال وفى المقال الذى يليه . قال المستر جود :

ماذا أصاب مدنيتنا ، هذه المدنية العجيبة التى ظل آباؤنا طوال القرن التاسع عشر يمجدونها ولا يخالجهم شك فى عظمتها ؟ لقد كان هؤلاء الآباء من قرن من الزمان يؤمنون بما يسمونه « قانون الرقى » الذى يقول إن كل جيل من الناس يرقى على أكتاف الجيل السابق له ، ويسمو عليه فى العقل والثقافة والعلم والصحة والسعادة والثروة ووسائل الراحة . ثم إن هذا الرقى قد تعترضه من حين إلى حين فترات ركود أو انتكاس قصيرة الأمد ، يقف فى أثنائها تياره أو يرتد إلى الوراء ، ولكنه لا يلبث أن يبدأ سيره من جديد . وكان العالم فى نظر أهل تلك الأيام عالما طيبا جميلا جديرا أن يعيش فيه الانسان أرقى خلق الله . هذا ما كانوا يقولونه من قرن واحد ، فانظر الآن ما يقوله المستر إيدن Eden وزير الخارجية البريطانية فى وصف أيامنا هذه قبل أن تشب نار الحرب الحاضرة : « إذا ظلت الأمور سائرة كما تسير اليوم انحط الجنس البشرى وعاد إلى حالته التى كان عليها فى الأزمنة الغابرة ، حين كان يعيش فى الكهوف لا فرق بينه وبين الحيوان المتوحش . ولست أدرى ماذا عسى أن يقول عنا إنسان أطل علينا من أحد الكواكب ورآنا منهمكين فى إعداد وسائل التقتيل والتدمير والبحث عن خير الوسائل التى تعيننا على الوصول إلى هذا الغرض » .

والحق أننا قد بعدنا كل البعد من تفاؤل القرن التاسع عشر ، وأخذت الكثرة الغالبة من المفكرين تؤمن بنظرية الدورة فى الحضارة ، وهى النظرية التى تقول إن المجتمعات تمر خلال دورات أو مراحل محددة واضحة المعالم ، شأنها فى ذلك شأن الأفراد سواء بسواء ؛ فكما أن الأفراد ينتقلون من مرحلة الطفولة إلى الكهولة ، وينتجون خير أعمالهم ، فى كل نموهم الجسمى والعقلى ، ثم يأخذون فى الهرم والانحطاط حتى ينتهى أمرهم بالموت ، كذلك يحدث المجتمعات . وقد شرح أوزولد اشبنجلر Oswald Spengler هذه النظرية شرحا وافيا فى كتابه « اضمحلال الغرب » The Decline of the West ، فقسم حياة المدنيات إلى عدة مراحل أهمها مرحلة الشباب والفتوة ، وفيها تكون العقيدة الدينية حية قوية ، ويرى الناس أن العالم كله يسير على نظام موضوع ويعمل لغرض معين ، وأن الحياة ثمينة جديرة بأن يحتفظ بها الانسان . وتلك مرحلة الحكومة القوية والتوسع الحربى ، وهى أيضا مرحلة الإلهام القوى فى الآداب والفنون . وقد يكون الفن فيها ساذجا خشنا ولكنه مع ذلك قوى فتى ، وفى آخرها تصل الفنون والآداب إلى ذروة مجدها ، وفى وسع الحكومة فى هذه المرحلة أن تكون متسامحة واسعة الصدر بعد أن تثبت دعائمها من عهد طويل ، وتصبح حياة الطبقات الوسطى والعليا فى المجتمع الانسانى راقية منعمة . وينطبق هذا الوصف على أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وعلى رومة فى عهد أغسطس ، وعلى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وعلى انجلترا فى عهد الملكة فكتوريا .

ثم يبدأ بعد ذلك عهد الاضمحلال ، ويكون فى أول أمره خفيا لا يتنبه إليه الناس ، فيختفى عهد الالهام الجياش القوى فى الأدب والفن ، وترى الحكومة التى أصبحت

ديمقراطية من عهد طويل أن لا سبيل لها إلى الاحتفاظ بسلطانها إلا باسترضاء الشعب ليظل هادئاً خاضعاً لها مطيعاً لأمرها ؛ فكانت رومة تسترضيه بالطعام وحفلات الصراع ، وتسترضيه الحكومة الانجليزية اليوم بحفلات كرة القدم وإعانات العجزة والمتعطلين . وفي هذه المرحلة يبدو العالم للكثيرين من الناس نظاماً لا معنى له ولا يسير إلى غاية مقصودة ، ويعتنق العدد الجم من الناس الفلسفة الوحيدة التي يفهمونها في تلك الظروف ، فلسفة « كل واشرب فانك ميت في الغد » ، وهي الفلسفة التي يؤمن بها عدد كبير من الشبان في بلاد الغرب المتمدنة في هذه الأيام . ثم لا تلبث هذه المدنية أن تنهار إذا ما مسها عدو خارجي أو غلبت عليها عوامل الفساد الداخلي الكامن فيها . ثم بعدئذ تبدأ الدورة من جديد . ويقول اشبنجلر إن هذا أو ما يشبهه هو النظام الذي مرت به جميع المدنيات العظيمة ، مدنيات أشور وبابل ومصر واليونان ورومة وإيطاليا في عهد النهضة وفرنسا في القرن الثامن عشر .

وهذه النظرة المتشائمة تؤيدها أدلة كثيرة ، ومن أهمها ما أورده السير فلندرز بترى Flenders Petrie العالم الأثرى الشهير الذى قضى معظم سنى حياته ينقب في رمال العراق وإيران ، وهو يقول في كتاب له نشر أخيراً إنه كشف في خرائب هذه البلاد ما لا يقل عن سبع حضارات مختلفة بلغت كل واحدة منها درجة من الرقي لا تقل كثيراً من حضارة هذه الأيام .

وإذا نحن قلبنا الفكر في نظرية اشبنجلر وأبحاث بترى فلابد أن يواجهنا هذا السؤال ، وهو : « إذا كانت نظرية اشبنجلر صحيحة أليس معنى هذا أن هناك عيباً أساسياً في طبيعة الجنس البشرى يجعل من المستحيل عليه بعد أن يصل إلى مستوى خاص في الحياة أن يحتفظ به ، بل يبدأ عاجلا أو آجلا في الانحدار عنه ؟ وإذا فرض أن هناك حقاً ذلك القانون قانون الفناء والاضمحلال الذى تتأثر به الجماعات كما يتأثر به الأفراد ، فلم نفرض أن مدنيتنا الحاضرة لا ينطبق عليها هذا القانون نفسه ؟ وماذا يمنع أن تكون الحرب الحاضرة بداية نهاية هذه المدنية ؟ .

وإذا صح قانون التطور الذى يقول إن الانسان إذا لم يكيف نفسه حسب العالم الذى يعيش فيه فقد حق عليه الفناء ، فإلى أى حد قد استطعنا أن نكيف أنفسنا للحياة في هذا العالم الجديد الذى خلقه لنا العلم في هذه الأيام ؟ وإلى أى حد كانت محنتنا الحاضرة راجعة إلى عجزنا عن الملاءمة بين أنفسنا وبين ظروف هذا العالم ؟ . لا شك في أن الصفة الغالبة على مدنيتنا الحاضرة هي انعدام الموازنة بين قدرتنا وحكمتنا أو إذا شئت بين سيطرتنا على الوسائل المؤدية إلى الحياة الطيبة النافعة وبين علمنا بكيفية التمتع بهذه الحياة ، أو بتعبير آخر بين العلم من جهة وبين الأخلاق التي تعنى بالحياة الطيبة الصالحة للأفراد ، والسياسة التي تعنى بتوفير الحياة الطيبة للجماعات والأفراد من جهة أخرى . فأما من ناحية القدرة أى القوة التي حبانا بها العلم واستطعنا بها أن نكشف الأسرار الكامنة في الطبيعة ونسخرها لمصلحتنا ، فأما من هذه الناحية فقد سبقنا كل من تقدمنا من الأجيال . وأما من ناحية حكمتنا أى من ناحية علمنا بكيفية استخدام هذه القوى فاننا لم نرق عن كثير من أجدادنا الأسبقين ، بل إننا من بعض الوجوه أحط من الأثينيين الأقدمين .

لقد وهبنا العلم قوى لم يكن يحلم بها أجدادنا السابقون ، ولكننا نستخدمها بعقول الأطفال أو المتوحشين . ولأضرب لذلك المذياع مثلا ، لقد أجهد عشرات بل مئات من العباقرة أنفسهم حتى أوجدوا هذا الجهاز العجيب ، فماذا كانت نتيجة هذه الجهود ؟ لقد استخدم المذياع في إذاعة أحاديث المرح ونتائج سباق الخيل والدعاية الزائفة والاعلانات الكاذبة عن السلع ونحو ذلك . وهاكم مثلا

آخر : تصوروا الجهود الجبارة التي بذلت لاختراع مركب أثقل من الهواء ، ولكنه قادر على أن يسبح في الهواء ، تصوروا ما استخدم لاختراع هذه الآلة العجيبة من علم بقوانين الميكانيكا والكهرباء والاحتراق الداخلي وغيرها . تصوروا ما أظهر هؤلاء الطيارون الأولون الذين خاطروا بأرواحهم وهلكوا بالمئات في تجربة هذه الآلات من آيات البطولة وصدق العزمة والتضحية في سبيل المنفعة العامة .

فما هي الأغراض التي استخدمت فيها الطيارة في الماضي والتي يبدو أنها ستظل تستخدم فيها في المستقبل ؟ إن أهم هذه الأغراض هو إلقاء القنابل التي تمزق الأجسام وتدك المباني وتهلك السكان الآمنين الذين لا يستطيعون أن يتقوا شرها .

هذان مثلان من القوى التي حبانا بها العلم ومن الأغراض التي استخدمنا فيها هذه القوى ، وهناك عشرات أخرى من هذه الأمثلة تذكر فيها السينما الناطقة والأشعة السينية والكهرباء بأنواعها .

كل هذا يؤدي بنا إلى التفكير في قيمة العلم بوجه عام وما أفادته منه مدنيتنا الحاضرة . لقد أفادت الحياة الانسانية من العلم الشيء الكثير ؛ فهو الذي خفف متاعبها وزاد بهجتها ، وهو الذي وهبنا الدفء والضوء والملباس الرخيص والطرق المعبدة ، وأراحنا من كثير من الألم والعناء ، حتى كدنا ننسى سيئاته ونعده خيراً محضاً ؛ ولكن العلم ليس خيراً ولا شراً في ذاته ، وكل ما يفعله أنه يشبع الرغبات البشرية ويزيد الانسان قدرة على تحقيق أغراضه ، فاذا كانت هذه الرغبات والأغراض طيبة بوجه عام ، وإذا كانت تعمل لخير الناس ، كانت هذه القوة التي تأتي من طريق العلم خيراً لا شراً . أما إذا كانت الرغبات والأغراض سيئة شريرة ، تعمل لشقاء الانسان وتعاسته ، فان هذه القوى التي يهبها العلم للانسان تكون شراً من أخبث الشرور .

وما شأن هذه المجتمعات البشرية التي تسميها الدول ؟ وهل هي خيرة أو شريرة ؟ إن الأفراد من الرجال والنساء ليسوا خبيثين كل الخبث أو طيبين كل الطيبة ، بل فيهم الخبيث وفيهم الطيب . أما الدول فيخيل إلينا أن الشر غالب عليها ؛ ونقصد بذلك أن الرغبات التي توحي إليها بأعمالها والأغراض التي تسعى لتحقيقها ترمي بوجه عام إلى تعاسة البشر وشقائهم . إن هذه الرغبات تدفعها إلى قتال غيرها من الدول ، وإلى إذلال الشعوب الضعيفة واستعبادها ، ثم استغلال هذه الشعوب وتسخيرها لمنفعتها ، وكلها رغبات يوحي بها الشره والنهب وحب السلطان ؛ فكأن كل ما فعله العلم أنه اختار نوعاً من الكائنات الحية ، هو النوع البشري الذي تسيره هذه الرغبات ، ثم وهبه من القوة ما لم يكن يحلم به من قبل ، فاستخدمه في أسوأ الأغراض ؛ وكانت النتيجة أن أشرفت مدنيتنا الحاضرة على الانهيار ، لعجزها من السيطرة على القوى التي وضعها العلم تحت تصرفنا . لقد استطعنا أن نسبح في الهواء كما يسبح الطير في السماء ، وكما يسبح السمك في الماء ، ولكننا لم نعرف بعد كيف نسير على الأرض آمنين مطمئنين ؛ وعلة هذا كله هي الهوة السحيقة التي بين قوانا وحكمتنا . لقد وهبنا العلم مفاتيح الحياة الطيبة ، ولكننا عجزنا من استخدامها ، أي أننا سيطرنا على وسائل الحياة الطيبة ، ولكننا جهلنا أغراض هذه الحياة ؛ ومن أجل هذا التفاوت بين قدرتنا وحكمتنا كانت مدنيتنا مدنية عرجاء . ذلك هو الداء الوبيل الذي تشكو منه هذه المدنية ، والذي يعمل على تقويض أركانها ؛ وعلاج هذا الداء ينحصر في العمل على تقليل الفرق بين قدرتنا وحكمتنا ، وسد الثغرة التي بين العلم والأخلاق . أما السبيل إلى ذلك فهو موضوع المحاضرتين الثالثة والرابعة من محاضرات المستر جود اللتين سنلخصهما في مقالنا الآتي إن شاء الله .

محمد بدران

من فلسفة التاريخ :

القوى الخلاقة

فى تاريخ الأمم

حياة الأمم كالنهر العظيم يجرى جريانه وهو فى خير ماجرى ، ولو وقف لاستنقع وأسَن ماؤه واشتد وخمه . فالسكون هو الصيرورة ، وسنة الحياة التطور . على أن الأمم كالنهر أيضا لابدَّ لمجراه من ضفافٍ متينة مكينة سليمة من الأجراف المهيلة ، موطدة التأسيس محكمة الترصيف .

وهذه الضفاف التى تحفظ على النهر كيانه هى بالنسبة إلى الأمم قوة الماضى ، والقوة الخلقية ، والقوى الروحية .

قوة الماضى :

وقوة الماضى من الناحية الطبيعية تصدر عن أحكام الوراثة . فنحن بضعة من آبائنا ، وخصائصنا الخلقية مشتقة منهم حتماً وبغير اختيار منا ، وهى بالضرورة متأثلة شديدة الرسوخ فينا . وقد يخفى أمر هذه الشخصية الموروثة على شخصيتنا المستفادة من البيئة والتربية ، وإن كانت لا تخلو الحال بينهما من مجاذبة ومنازعة . والذى يتغير منا إنما هو الشخصية المستفادة كلما اقتضت ذلك ملاءمة الطوارىء الحادثة . وتبقى من ورائها الشخصية الوراثية صلبة العود مستعصية المكسر . والشخصية الوراثية هى صاحبة الأثر فيما لهذه الأمة أو تلك من تاريخ متصل وسير مطرد على اضطراب الحياة وتعاقب الدهور .

هذه قوة الماضى من ناحيتها الطبيعية . وهى قوة ذاتية تصدر عن نفسها ، ومهما يطل كونها فلا نفقى مادتها . وتقوم إلى جانب قوة الماضى الطبيعية ، قوة الماضى الصناعية ، ونقصد بها ما يكون فى تقوية شعور الأمة عاضيها من تدعيم لوجودها ، وتعميق لحياتها ، ووصل أعراقنا بأعماق الأزل السحيقة ، لنحس إحساس الخالدين فتشرئب نفوسنا إلى آفاق الخلود البعيدة . وشعور المرء بأنه ابن الساعة لاغير ، يجعله لايفكر فى غير الساعة التى هو فيها ، فينكمش فى أنانيته ، وتنقطع الأسباب بينه وبين من حوله انقطاعها عن قبله ومن بعده . ولهذا تعمل الأمم الناهضة على دراسة تاريخها والتنقيب عن ماضيها وتمثيل عهوده وإحياء أشخاصه ، لا تقصد من ورائه أن ترجع بالزمن القهقرى وأن يبقى الحاضر فى الماضى فتركد ريحه ، ويتقيد الحى بأكفان الميت فيفقد روحه ، بل تعمد إلى أن يحس أبناؤها — مع سعة المعرفة وطول الألفة بتاريخهم — أن هؤلاء الأجداد وإن صارت إلى التراب أجسادهم فإن أرواحهم تتردد بين جوانح حفدتهم ، وأنهم ورثة صفاتهم العليا وحملة أمانة هذا المجد التالد . وعندئذ لا يكون الشأن فى الأمة أنها ذلك الجيل من الأحياء — بل الموتى والأحياء والذرارى فى بطون الغيب وحدةً غير متجزئة هى الأمة . ومتى كان الجيل الحاضر فى أمة من الأمم عميق الشعور بالتضامن مع الأجيال الغابرة والقابلة فإنه خليق بأن يأتى بالآيات المعجزات ، من حسن البلاء ، وعلو الهمم واستفراغ الجهد والتحامل على النفس والقاداة بكل نفيس وغال والرضى بالتضحية وبذل المهج .

قوة الخلق :

تأتى بعد قوة الماضى قوة الخُلُق . فالشعوب القوية الخلق هى الغالبة فى كل زمان على الشعوب الضعيفة الخلق ، التى لا تبرم أمراً ، ولا تستمسك بعزم بالغةً ما بلغت من الذكاء وحدة الفؤاد . وسياق التاريخ

كله شواهد صادقة على أن للخلق شأناً أعظم خطراً وأبعد أثراً مما للذكاء في مصاير الأفراد والأمم . فالرومان في التاريخ القديم وهم بعد قليلو الحظ من المدنية والحضارة لم يلقوا كبير مشقة في قهر اليونان وإدخالها تحت طاعتهم ، وهي وقتئذ تفوقهم في الارتياض بالفلسفة والأدب ، ولها عليهم القدم الفارعة في الذكاء والثقافة . والناظر في التاريخ الحديث أيضاً لن يعدم الأمثلة من هذا القبيل .

وبيان ذلك أن الخلق هو المسيِّر لنا والمصرف لأعمالنا . أما العقل فأخص شأنه التفسير والتمييز . ويخطىء من يحكم على خلق الناس من كلامهم ، فالكلام إنما هو مرآة العقل ، وأما الخلق فيستدل عليه بالعمل . وقد يستطاع تهذيب الملكات الذهنية والبلوغ بها إلى كمالها بالتربية ، وأما الطبائع الخلقية فلا تفعل فيها التربية فيما وراء الظاهر .

والعقل هو القائم على دنيا العلوم ، تاريخها تاريخه ، وعنه تصدر المخترعات التي تتبدل بها الناحية المادية من الحضارات . أما في عالم الاجتماع فالكلمة للعاطفة والخلق ومنهما تتولد الثورات والمنازعات ، وما تاريخ الأمم إلا تاريخ هذه الثورات والمنازعات التي قلما يكون الآمر بها والمحرك لها العقل .

ويجب ألا ننسى أن القوة الأدبية التي جرينا اليوم على تسميتها « بالروح المعنوية » للأمة أو للجيش ، والتي نعزو إلى حالها من العلو أو الهبوط انتصار فريق على فريق ، إنما هي قوة العاطفة والخلق مقترنة بفيض من القوى الروحية .

والقوى الروحية :

وهذه القوى أعظم الأثر في حياة الأفراد والجماعات وهي قد تصدر من عقيدة دينية كما تصدر من عقيدة سياسية . ولا شأن فيها للعقل ، بل هي مخالفة للعقل عند سائر الناس من غير أهلها . وثمة أهل الكتاب ليس ينقضي لهم عجبٌ من أن يكون أعلام الفلاسفة الأولين عبدة أوثان ، وأن يسجد بناة أقدم الحضارات لمعبود من الحيوان . وثمة دارسو الحكمة الهندية يقفون موقف الحيرة بين ما فيها من نظر وتجريد وبين هذه الغابة المتأشبة الشجراء من آلهتهم المهولة الخلقة المتعددة الرءوس والأيدي والأرجل وما يلحق بها من أناويه لا آخر لها من المراسيم والمناسك ؛ ومع ذلك جميعه كانت هذه العقائد تقرّ في الضمائر وترسخ في أغوار النفوس ، وكانت بحكم هذا القرار وقوة هذا الرسوخ تتحكم في تصرفاتهم وتملي عليهم أعمالهم وتوجه سيرهم . وما دام ذلك كذلك فلا سبيل لنا إلى نكران قدرة هذه الآلهة المعبودة — وإن تكن باطلة — في تاريخ الأمم وسلطانها على مصايرهم .

ثم إنه قلما تبدلت أمة بدينها ديناً آخر إلا تبدلت حياةً غير حياتها ، واستفتحت عهداً جديداً في تاريخها . وحسبنا أن نذكر قيام الاسلام بين القبائل العربية ، وكيف كان تأليفه بينهم وتوحيده لصفوفهم ودعمه لبنيانهم حتى قهروا أعظم الممالك بقوة الايمان وأقاموا امبراطوريةً عظيمة في الشرق والغرب .

وليس كالعقيدة شيء يملأ شغاف السرائر ، ويملك على الناس حواسهم ، ويذهلهم عن عقولهم ، ويسمو بهم على ما ركِّب في الطباع من الأثرة وحبّ الذات والحرص على الحياة ، حتى ليلقى المؤمنون ما يلقون من تعذيب وتشريد وحرمان ونكال ، وقد طابت عن طيبات العيش نفوسهم وهانت عليهم دنياهم ، بل ارتضوا الشهادة وهم سعداء في سبيل الله .

ومعلوم أن هذه الحالة من قوة العقيدة ، إنما تعمّ والدعوة في إبانها ، والدين قريب عهدٍ بمهابط وحيه ،

والجهاد خالص لوجه ربه .

ثم إنه مع اتفاق الرأى على انقضاء زمن النبوات ، فقد ظهر الاستعداد هنا وهناك لتلقى بعض الدعوات الدينية كالمهدوية فى السودان ، والبابية فى فارس ، والرمونية فى أمريكا ؛ ولهذه الملل المحدثة أنبياؤها وكتبها وشهداؤها .

على أن الإنسان الذى كان فى جاهليته الأولى يسجد للقوى الطبيعية ويتعبد لها ، أصبح اليوم يعتز بأنه سيدها ومسخرها فى خدمته وصاحب السلطان عليها ؛ وكذلك نرى الجماعات التى كانت تحركها القوى الإيمانية بما وراء الطبيعة قد أصبحت اليوم تحركها إلى مصايرها القوى الإيمانية بالمبادىء السياسية .

وبديهى أن القوى الدينية أثبت على الزمن من قوى الإيمان بالعقائد السياسية . إلا أن العقائد السياسية مثل الدينية فى كونها مبعث آمال ، ومجلبة تعصب ، ومثار دعوة وجهاد فى سبيل نشرها . وأشياع العقائد السياسية لا يقلون عن دعاة الدين حمية واندفاعا والناظر فى تاريخ الثورة الفرنسية لا شك يملكه العجب حين يرى الممالك الأوربية القديمة وقد سيرت جحافلها القوية العتيدة على الجمهورية الوليدة التى كان قصاراها من الجند جموعاً مشوشة التنظيم غير كاملة العدة . ومع ذلك انتصروا وكانت لهم الغلبة ، وما ذلك إلا لشدة إيمان جنود الثورة بمبادىء الثورة .

ومما يدخل فى العقائد السياسية إيمان جنس من الأجناس أنه من طراز وحده ، وأنه خير أمة أخرجت للناس ، ومن ثمة يكون له الحق الطبيعى فى الاستعلاء والسيادة على العالمين لخدمة الحضارة وخير الإنسانية أجمعين .

ولقد قرأنا الكثير من الحركات الاشتراكية وشهدنا قيام الثورة البلشفية ، ولا يمكن أن ننسى ما جرى من الخطوب وما سال من الدم الذكى . وها نحن أولاء نشهد اليوم صراع الديموقراطيات والدول الفاشية ، وقد بلغ ضحايا الفريقين حتى الساعة مبلغا يهون إلى جنبه شهداء الديانات جميعا . وإذا ذكرنا أن الديانات تجعل لشهدائها بديلا من هذه الحياة الدنيا الفانية حياةً أخرى باقية كلها نعيم ومتاع مقيم ، فينبغى ألا يغيب عنا أن للجماعات مثل هذا الإيمان بحياة أخرى للإنسانية كلها سعادة وسلام .

خاتمة :

وبعد ، فقد كنا نحب أن تكون القوى الخلاقة فى تاريخ الأمم أقل تحكما وأسلس جانبا . ولكن هيهات ! إنها كالقَدَر فى فن المأساة الأغريقية القديمة ، يقضى قضاءه فتدور الأيام دورتها ، ولا يكون للبشر معدى عنه ولا مندوحة .

عبد الرحمن صدقى

٢ – الذاتية والموضوعية
في تذوق الفن

تحدثنا في المقال الماضي عما كشفت عنه التجربة السيكلوجية من أن فريقاً من الناس يعجبون – أو لا يعجبون – بالعمل الفني لما يثيره في أذهانهم من روابط وذكريات ، وفريقاً آخر يبنون ملاحظاتهم على العمل الفني على أساس ما ينبهه في طباعهم النفسانية من غرائز وانفعالات .

٣ – وهناك صنف ثالث يتكلمون عن الفن كأنما ينسبون لكل ما يرون نوعاً من الشخصية ؛ يقول أحد الأطفال : « ما أكثر ما يبدو هذا الإبريق سعيداً مرحاً ، لكأنه يضحك منك » . وهم يتحدثون عن الألوان كأن لها صفات إنسانية : « فهذا اللون الأرجواني صاحب لعوب » ، « وهذا اللون الأحمر الفاتح حلو رقيق » ؛ وشجرة الصفصاف عند أمثال هذه الطبائع (الرومانتيكية) ليست صفصافاً ، ولكنها « عروس نائحة باكية » ، وإذا نظروا إلى البحر بدا لهم « غضبان هائجاً » ، وإذا تأملوا المنارات تصوروها « سامقة إلى العلا في روعة وجلال » ؛ وهم يغتبطون برؤية طيور الماء طائرة لأنهم يستطيعون أن يحسوا في ذواتهم أحاسيس انقضاضها الرشيق ، أو توازنها الرقيق . والظاهر أن هؤلاء تبدو لهم الأشياء كأنما تتضمن تجربة شخصية يستطيعون هم أن يساهموا فيها بنوع موجب من المشاركة الوجدانية : راقب جماعة من النظارة يشهدون القيام بحركة جسمية صعبة ، يحدقون بأبصارهم نحو (بهلوان) يتأرجح فوق حبل ، أو لاعب بلياردو يرسل الكرة إلى الجيب ، راقب النظارة تجدهم يمسكون بأنفاسهم ويحركون أجسامهم ، كأن كل واحد منهم هو البهلوان نفسه يميل بالعصا ، أو كأنه الكرة المتدحرجة نفسها تمرق نحو الجيب ؛ وإذا عزفت الموسيقى نغمة راقصة اهتزت لها أكتافهم في حركة موحدة متساوقة ؛ وتراهم في دار السينما يقومون بحركة فزعة إذ يرون الشخص الشرير في الرواية ينقض على النجمة الحسناء بسوطه ، أو يجذب أخاها الصغير بحديدة محماة ؛ وتسمعهم بعد الانتهاء يشرحون لك كيف خيل إليهم أنهم نقلوا إلى شريط الخيالة ، وأحسوا آلام الضرب والإحراق فوق جلودهم الرقيقة ؛ وترى بعضهم ، حتى في بسائط الأشياء ، تتكيف نفوسهم بما ينظرون إليه ؛ فالخط المستقيم الرأسي يجعلهم يقفون وقفة مستقيمة ، ومنظر الخط المنحني يجعلهم ينحنون أو يحسون كأنهم على وشك الوقوع ، وشكل الحلزونيات الملتوية يخلق فيهم إحساساً بالضعف والغثيان .

هذه التجربة – التي تزداد عند بعض الناس إلى حد المرض – مقصورة في الغالب على عدد محدود من الأشخاص ، ولكنها – كسابقتيها – قامت على أساسها نظرية في تذوق الفن تسمى في اصطلاح القوم (Empathy) أي « الاتحاد الفني » ومعناه أن تحس نفسك والصورة التي تراها – أو الموسيقى التي تسمعها – شيئاً واحداً .

٤ – الفريق الأخير – وهو أندر الأنواع – يتخذ نحو الأعمال الفنية موقفاً ذهنياً نقدياً ، أكثر منه نفسياً انفعالياً ؛ وكثيراً ما يقف أفراده أمام الأشياء الجميلة في صمت وعجب ، على حين يغرق غيرهم في إظهار الثناء والإعجاب ؛ وإذا آثروا لوناً آثروه على أساس خاصيته باعتباره لوناً ، لا على أساس ما يبعثه من روابط أو يحدثه من آثار ؛ فهم يحبون زرقة اللازورد ، أو حمرة الشقيق ، أو بياض البرد لأن كل أولئك ألوان صافية خالصة . ويبدو في أوضح الأمثلة أن لديهم مقياساً لما ينبغي أن

يكون عليه كل لون ، وأنهم يحكمون على كل صبغة تعرض عليهم تبعاً لانطباقها على ذلك المعيار الضمني أو تقصيرها عنه ، فتسمعهم يقولون : « هذا الأخضر تمازجه صفرة كثيرة تمنع أن يكون حسناً في بابه » ، « وهذا الأحمر مقبول لأنه مُشْبَع . أما الآخر فيكاد يكون أحمر » . وكثيراً ما نراهم في الصور وفي الانتاج الأدبي يتجاوزون الموضوع والعنوان ، ويقصرون همهم على نظام العمل وتأليفه ، وعلى الأصباغ وانسجامها ، والظل والنور ، والتنافر والتآلف ، وما إلى ذلك من نواحي النقد الموضوعي .

هذه – إذاً – أربعة الأنواع التي انجابت عنها التجارب الأولى في تذوق الفن . والثلاثة الأولى منها – كما رأيت – ذاتية بالمعنى الذي حددناه في المقال الأول ، والأخير وحده هو الفريق الموضوعي . ولقد أجريت بعد ذلك تجارب – على مواد أكثر تعقيداً – أظهرت أن هذه الأنواع ليست محددة منفصلة ، وأن كل واحد من هذه الاتجاهات الأربعة موجود في الحقيقة فينا جميعاً ، وإنما تتفاوت حسب مزاجنا ، ونوع ما يعرض علينا ، وحسب العوامل التقليدية التي اشتركت في تكوين ذوقنا ؛ فالفرق – إذاً – فرق درجة لا فرق نوع . وليس هناك من شك في أن تقدم البحث الحديث سيضطرنا في النهاية إلى إعادة تنظيم التقسيم الأصلي في قاعدته وفي تفاصيله . ولكننا نظفر مما عمل من البحوث إلى الآن بنتيجة رئيسية لا ريب فيها ، تلك هي : أن غالبية الناس إذا حكموا – أو طلب إليهم أن يحكموا على جمال شيء ما – فقلما يفكرون في الواقع في جماله مطلقاً ، وأن أحكامهم التي تصدر عنها ليست في الأعم الأغلب موضوعية ولكنها ذاتية ، ويبدو أن عوامل لا حصر لها تؤثر في اختياراتنا الذوقية . وإذا كنا هكذا متأثرين في حياتنا الشعورية بعوامل متنوعة فما أعظم ما تستهدف له أحكامنا من عجز إذا أثرت فينا هذه العوامل تأثيراً لا شعورياً !

لعل الاعتبارات السابقة هي الأسس التي بنى عليها كثير من النقاد وعلماء النفس رأيهم في أن الجمال ذاتي محض ، وأن التفضيل الفني ليس إلا مجرد ثمرة لذوق شخصي خاص يختلف حسب اختلاف الفرد والعصر ؛ فأزياء السنة الماضية تعتبر لَقًى في هذا العام ، ومباني العصور الوسطى تعتبر قذى في عيون بعض المحدثين ، وأدب القرون الماضية جناية على الأدب الحديث . والأمثلة على هذا تتجدد أمامنا كل يوم في صورة ناطقة ، تصادفنا في بحوثنا وأسمارنا ومناقشاتنا ، وما يطلع به علينا كبار النقاد وصغارهم بين حين وآخر . وعلى هذا الرأي – إذاً – نستطيع أن نقول إن كل شيء في الفن نسبي ، فليس هناك شيء حسن أو قبيح ، ولكن التفكير هو الذي يحسّن أو يقبح .

***

ولكن هبْنا اطرحنا الروابط والذكريات جانباً ، ونبذنا الأوهام واللوازم التي تجلب الغموض إلى حاسة الجمال عندنا ؛ هبنا جردنا أنفسنا تماماً من كل انفعال شخصي ومصلحة شخصية ، ونفضنا يدنا من مشاغل الحياة اليومية ومطالبها ، فهل يبقى بعد ذلك أي أساس متين لتفضيل شيء على آخر ؟ هل هناك أي شيء يمكن أن يحكم كل شخص بأنه جميل في ذاته ولذاته ؟ وهل هناك أي شيء يمكن أن يجده كل شخص قبيحاً ، لا فرق بين متمدن أو همجي ، وبالغ أو طفل ، وقديم أو محدث ؟

ذلك سؤال يجيب عليه « برت » أستاذ علم النفس في جامعة لندن بالإيجاب ، مستنداً إلى تجارب أجراها ، ودراسات قام بها ؛ من ذلك أنه جمع مجموعة من خمسين بطاقة مصورة ، انتظمت نسخاً من صور بعض المشاهير الكلاسيكيين ، وصوراً لمصورين ليسوا من الدرجة الأولى ، وهكذا إلى أبسط أنواع البطاقات التي ترسل في عيد الميلاد

والتى استطاع العثور عليها فى «كاكين» الأحياء الفقيرة ؛ وكان محور التجربة أن يسأل عددا كبيراً من الناس ترتيب البطاقات الخمسين على أساس ما بينها من تفاضل .

وقد عرض المجموعة أولاً على فنانين ونقاد معروفين لكى يحصل منهم على معيار الموازنة ، فاحتج معظمهم أول الأمر أن مثل هذا المعيار مستحيل ، فعضو الأكاديمية الملكية يعلن أن الناقد الحديث سيقلب ترتيبه رأساً على عقب ، وكلاهما يؤكد أن محاولة الاتفاق ميئوس منها . ومع ذلك جاء ترتيبهما فى معظم الأحوال متطابقا إلى درجة أدهشت صاحب البحث (إذ بلغ معامل الارتباط فيه ٩ و٠)(١) ، وبدا واضحاً للعيان أن فروق هؤلاء فى ذوقهم وحكمهم — كما ظهر من ترتيبهم الصور — أقل كثيرا مما تصوره خلافاتهم ومناقشاتهم الحادة . و« النتيجة التى يجد الباحث نفسه مسوقا إليها » — كما يقول (برت) — « هى أن هناك شيئاً أساسياً يسيِّر الاختيار العام عند هؤلاء الأشخاص ، بالرغم من أن نظرياتهم ووجهات تفكيرهم الخاصة قد تحدث اختلافات يسيرة فى التفاصيل » . وإذا كانت هذه النتيجة تعارض وآراء كثير من النقاد الحديثين فإنه يمكن تأييدها بالاقتباس من دراسات بعض مشاهير المفكرين .

وقد اختار « برت » للتمثيل لهذه الدراسات فقرة من كتابات (Burke) تحتوى نتيجة رائعة وصل إليها من بحثه فى « الفاخر والجميل » . إن « برك » — بالرغم من اعترافه أن أحكام الخبراء على الجمال تختلف كما تختلف أحكام المفكرين على مسائل الفلسفة أو القضية — يصر على القول بأننا — على العموم — نلاحظ أن الخلاف الموجود بين الناس فى مسائل الذوق أقل من خلافهم على المسائل التى تعتمد على المنطق المجرد . وإن الناس ليتفقون على جودة وصف فى كتابة (فرجيل) أكثر مما يتفقون على صحة نظرية من نظريات « أرسطو » أو بطلانها !

ولقد عرض « برت » صوره الخمسين على الأطفال فى أعمار مختلفة ، فوجد بالطبع أن أثر العوامل غير الأساسية (أى الخارجة عن طبيعة الفن) أوضح وأقوى منه عند النقاد والخبراء ؛ فقد بدأ موضوع الصورة — مثلا — يلعب دوراً غاية فى الأهمية ، ولكن تنوع الموضوعات التى اختارها جعل تأثيرها الخاص يوازن بعضه بعضا ويلغيه ، وتبقى الاعتبارات الفنية . وهنا أيضا جاءت معاملات الارتباط كلها موجبة . وذلك عند علماء الإحصاء له دلالته . وإذاً فيبدو أن هناك عاملا واحدا عاما تقوم عليه الأحكام الفنية عند الجميع ، وإليه يرجع ما بينها من اتفاق وارتباط . وهذا العامل هو محور الاتجاه الموضوعى فى تذوق الفن . ولعلنا نعود إلى بحث هذا العامل فى فرصة أخرى

من هذا نستطيع أن نقول إن هناك إحساسا عاما بالجمال . وقد ثبت من دراسات « برت » أن هذا الإحساس — على رغم العوامل الأخرى — يحدث فينا جميعا أثرا متشابها . وإذاً فليس الجمال متوقفا كل التوقف على المصلحة أو الهوى الشخصى ، ويبدو أن فيلسوف اليوم قد يعود فى النهاية إلى الرأى القديم الذى كان يقول إن الجمال موضوعى ، أو — على الأقل — إن أحكام الجمال يمكن أن تكون تامة الصدق . ويظن « برت » أن عالم النفس لابد صائر إلى هذا الرأى ، فنحن نرى الجمال لأنه هناك ليُرى ، وليس الجمال شيئاً نخترعه أو نتصوره بأنفسنا ، إنه شىء نحسه ونجده ، إنه يقيم فى الموضوع الجميل .

محمد خلف الله

(١) اصطلاح إحصائى يقصد به بيان درجة التلازم أو الاتفاق بين ظاهرتين أو شخصين أو عدد من الأشخاص فى ناحية ما (أى بين كميتين متغيرتين قياسياً) وكلما كان العدد أقرب إلى الواحد الصحيح كان التوافق أكبر . والعكس

في الميزان الجديد :

الشعر المهموس

١ — «أخي» لميخائيل نعيمه

أظن أنه قد حان الحين لنوضح ما نبغي من تلك الألفاظ العامة التي كررناها غير مرة طالبين إلى شعرائنا وكتابنا أن يأخذوا بها إذا أرادوا أن يمسوا نفوسنا ، ونحن إلى اليوم لم نقف عند شيء موقف الرضى ، وفي ذلك بلا ريب ما يدعو إلى التساؤل .

نريد أدباً مهموساً أليفاً إنسانياً ، وها نحن اليوم نعرض نموذجاً له .

الهمس في الشعر ليس معناه الضعف ، فالشاعر القوي هو الذي يهمس فتحس صوته خارجاً من أعماق نفسه في نغمات حارة . ولكنه غير الخطابة التي تغلب على شعرنا فتفسده ، إذ تبعد به عن النفس ، عن الصدق ، عن الدنو من القلوب . الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع في غير جهد ولا إحكام صناعة ، وإنما هو إحساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها مما تجد ، وهذا في الغالب لا يكون من الشاعر عن وعي بما يفعل . وإنما هي غريزته المستنيرة ما تزال به حتى يقع على ما يريد . الهمس ليس معناه قصر الأدب أو الشعر على الشاعر الشخصية ، فالأديب الإنساني يحدثك عن أي شيء يهمس به ، فيثير فؤادك ، ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب .

ودعنا ننظر في «أخي» قصيدة ميخائيل نعيمه ، فعنده سنجد ما نريد ، كنوزاً لا مثيل لها في لغتنا ، كنوزاً تثبت في المقارنة لأروع شعر أوربي .

قصيدة وطنية قومية قيلت في أواخر الحرب الماضية أو بعدها ، فهي إذاً مما نسميه أدب الملابسات الذي كثيراً ما نتناقش في إمكان اعتباره أدباً خالداً أم لا ، وفي فنائه بانقضاء ظروفه أم بقائه بعدها ، بل وفي طبيعة هذا البقاء أهو على نحو ما تبقى الوثائق التاريخية مثيرة في دور المحفوظات أم كأدب دائم الحياة دائم الهز للنفوس .

أخي ! إن ضج بعد الحرب غربيٌّ بأعماله
وقدَّس ذكر من ماتوا وعظَّم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دامٍ
لنبكي حظ موتانا

نفس مرسل وموسيقى متصلة ، فالمقطوعة وحدة تمهد لخاتمتها ، وفي هذا ما يشبع النفس . ألا تراه كيف يمسك بالصورة التي يدعوك إلى مشاركته فيها . إذا ضج الغربي بأعماله وقدس موتاه ، وعظم أبطاله ، فلا تهزج المنتصر ، ولا تشمت بالمنهزم ، لأنه لا فضل لك في هذا ولا ذاك ، وما أنت بشيء ، وأنت أحق بأن تحزن ، وأجدر بأن يخشع قلبك فتركع صامتاً لتبكي موتاك . أي ألفة في الجو ، وأي قوة في إعداده ؟ أي نفاذ وأي صدق ؟

«أخي !» فأنا إذاً شريكك في الإنسانية ، وأنا قريب منه وهو قريب مني ، ومتى قربت استطاع أن يهمس لأخيه سأمه ، وسيشجيني صوته الرفيق القوي الباشر وهو ينقل إلى قوة إحساسه بفضل قدرته على اختيار اللفظ الذي يستنفد الاحساس . «إن ضج غربي بأعماله» والضجيج لفظ بالغ القوة لجرس حروفه وقوة إيحائه وهو يضج «بأعماله» لا «بالمبالغات الكاذبة» . الغربي «يقدس ذكر من ماتوا» وهذه ألفاظ لينة جميلة مؤثرة غنية . فيها قداسة الدين . فيها نبل الوفاء . فيها جلال الموت . مشاعر شتى تجتمع إلى النفس ثروة رائعة . وهو

« يعظم بطش أبطاله » . أى قوة فى تتابع هذه الحروف المطبقة ظاء ثم طاء ثم طاء . أعد هذه الجملة على سمعك ثم أنصت إلى قوتها التى تملأ ذلك كما تملأ أذنى . ثم إن التعظيم غير التحية أو التبجيل ، والبطش غير الشجاعة أو الاقدام . البطش شىء يصعق . وهو يدعونى إلى «ألا أهزج لمن سادوا» والهزج غير الفرح . الهزج غناء ، والسيادة لفظ حبيب إلى النفس . مثل أخى تهفو إليه ، ولهذا فهو يحركها وله فيها أصداء مدوية . « ولا تشمت عن دانا » والشماتة شعور خسيس تركز فى هذا اللفظ لكثرة مروره بنفوسنا جميعاً . لفظ يحمل شحنة من الاحساس . وما أحقرها شماتة تلك التى تستشعرها لمن دان ! ثم ما أحقر أن تشمت من جثة هامدة ! بل مالى أضعف من قوة الشاعر وفى قوله « من دانا » ما يثيرنى فوق ما تثيرنى الجثث والأشلاء ؟ لأن « من دانا » قد ذل والذل أشق على النفس من الموت ، والموت كرامة إذا لم يكن بد من الهوان .

ليس لى إذاً أن أهزج لمن ساد ، أو أن أشمت عن دان ، وإنما على أن أركع مثل الشاعر . مثل أخى الشاعر . صامتاً . بقلب خاشع . دام . لنبكى حظ موتانا . وهذه نغمات دينية ، ونحن بشر تستطيع أقلامنا أو ألسنتنا أو عقولنا أن تهذى كما تشاء ، وأما قلوبنا فؤمنة ، والهفة إلى الله لا تكاد تفارقنا حتى نعود إليها ، وبخاصة إذا قست علينا الحياة أو قسونا نحن على أنفسنا . وها نحن اليوم يقودنا الألم إلى كنف الله . الغربى يقدس ذكر موتاه ويعظم بطش أبطاله ، فمالى أنا أهزج لمن ساد وأشمت عن دان وما أنا بشىء ؟ وإنه لعزيز على كل نفس ألا تكون شيئاً ، وما أخلقنى عندئذ أن ألتمس رحمة ربى أنا وأخى الذى يجمعنى به الألم الانسانى المشترك ذلك الذى لا يعرف وطناً ولا قومية . ونحن سنركع صامتين خاشعة قلوبنا الدامية . أنصت إلى كل هذه الكلمات . أنصت إليها واستشعر جلالها . استشعره بقلبك ثم تصور الصورة ومافيها من جمال التصوف ورهبة الدين ونبل الخشوع الصامت الدامى . سنركع صامتين لأن الله سيعمر قلوبنا وقد خلت إلا منه . صامتين لأن خشوع الموت سيملأنا رهبة . وهو بعد موت قد حرم حتى العزاء . موت يدمى القلوب ويعقد اللسان لأن إخواننا لم يصيبوا مجداً ولا رفعوا الوطن ذكراً . الموت محنة فكيف به إذا لم يخلف عزاء . كيف به إذا لم يرفع من قلب أو يخلد أثراً . تعال إذاً نبك حظ موتانا . حظهم المؤلم التعس الحزين .

هذا هو الشعر الذى لا أعرف كيف أصفه . فيه غنى صادر عما تحمل الألفاظ من إحساسات دقيقة صادقة قريبة من نفوسنا أليفة إليها . إحساسات ركزناها منذ أجيال . عزة الغربى المجاهد الشجاع اليقظ ، ثم ألمنا وقد أصبحنا لا نجد أمامنا سوى الركوع خاشعين والبكاء فى صمت على إخواننا المهدرين . وتتجاور المشاعر المختلفة فتزداد قوة . أو لا ترى كيف أن ضجيج الغربى بأعماله وتقديسه لذكر موتاه ، وتعظيمه لبطش أبطاله قد زاد من حزننا مرارة ؟ وأخيراً فيه الموسيقى . الشعر من «الوافر» ولكنه متصل باتصال الإحساس حتى لا أكاد أرى فيه ذلك الإيقاع rythme الذى يفسد الكثير من موسيقى شعرنا عند ما تستقل الأبيات . موسيقاه مما يسميه الأوربيون ترنيماً melodie ، وفى هذا ما يلائم الحزن المتصل والألم الخشوع :

أخى إن عاد بعد الحرب جندى لأوطانه
وألقى جسمه المنهوك فى أحضان خلانه
فلا تطلب إذا ما عدت للأوطان خلانا
لأن الجوع لم يترك لنا صحباً نناجيهم
سوى أشباح موتانا

وها نحن من جديد ، أنا وأخى ، نشهد الجندى يعود إلى أوطانه ، ومن اقترب يعرف معنى هذه العودة ، فما

بالك إذا كانت عودة تستنقذك من مخالب الموت ؟ والجندى يعود مكللاً بعزة النصر ، فيلقى جسمه « المنهوك » فى « أحضان خلانه » . لست أدرى ما مصدر التأثير فى البيت ، أهو فى هذه الذات الثلاث : « منهوك » ، « أحضان » ، « خلان » التى توحى بالتأسى والرفق والحنان ، أم هو فى إلقاء المنهوك جسمه بين أحضان خلانه ؟ جسم منهوك « يلقى » بين الأحضان . أى صدق فى العبارة ، وأى صدق فى التأثير ؟ ثم أى تجسيم للصورة التى نكاد نراها ؟ وأما نحن فسنعود إلى الحرب منهوكين ، كما يعود كل الجند ، ولكننا لن نلقى خلاناً نتلقانا أحضانهم ، وأنى لنا بهم والجوع لم يترك لنا صحباً نناجيهم سوى أشباح موتانا ؟ يا لله ! أبعد هذا نختلف فى حقيقة الشعر ، ونروح نهذى فى فحولة العبارة وجدة المعانى وإشراق الديباجة ؟ أبعد هذا نتخبط فى معنى الأدب ، فيذهب البعض إلى أنه الحث على مكارم الأخلاق والعدل الاجتماعى وإصلاح النظم ، ويذهب آخرون إلى أنه الأفكار العظيمة والتفكير الكبير والصنعة المدهشة والأسلوب الفنى ! !

أخى ! إن عاد يحرث أرضه الفلاح أو يزرع
ويبنى بعد طول الهجر كوخاً هده المدفع
فقد جفت سواقينا وهد الذل مأوانا
ولم يترك لنا الأعداء غرساً فى أراضينا
سوى أجياف موتانا

أى بساطة فى التصوير ؟ وأى قرب من واقع الحياة تلك التى تمضنى وتمضك : حياة الفلاح الذى يحرث ويزرع بعد أن يبنى « كوخه » من جديد ! وأما نحن فقد « جفت سواقينا » ، عبارة ساذجة ، ولكن كم لها فى النفس من أثر . سواقينا التى ألفناها . سواقينا العزيزة التى خلفها لنا الآباء . ولقد « هد الذل مأوانا » ثلاثة ألفاظ قوية نافذة جبارة ، لا تستطيع أن تستبدل بأى منها غيره دون أن تفسد الشعر وتذهب بقوته ، « هد الذل مأوانا » فهو لم يهدمه والهدم شىء مبتذل . « هد » لفظ موجز مركز موح مصور . وهو قد هد مأوانا ، فلم يهد بيتنا ولا دارنا ولا منزلنا ولا قريتنا بل ولا وطننا . هد مأوانا الذى نحتمى به ونستتر خلف جدرانه آلامنا . ثم ما الذى هد هذا المأوى ؟ إن الحرب لم تهدمه ، وإلا لبنيناه من جديد كما سيبنى فلاح الغرب كوخه . هده الذل . والذل لفظ دال ثقيل ، ثقيل كالصخر . لفظ يفيض بخيف مثير . هد الذل مأوانا ، ولم يترك لنا الأعداء غرساً فى أراضينا غير أجياف موتانا . وما آله من غرس ! تلك الجثث الهامدة ، التى ترقد تحت التراب فى غير مجد ولا عزاء .

أخى ! قد تم ما لو لم نشأه نحن ما تما
وقد عم البلاء ولو أردنا نحن ما عما
فلا تندب فأذن الغير لا تصغى لشكوانا
بل اتبعنى لنحفر خندقاً بالرفش والمعول
نوارى فيه موتانا

ودع عنك ما فى قوله « تم ما لو لم » فهذه أربعة أو خمسة مقاطع متلاحقة منفصلة كثيرة الميات صعبة النطق فى انسجام والكمال لله وحده . ثم انظر فيما دون ذلك « فالبلاء قد عم » ألفاظ قوية تعبر عن إحساس قوى . وما ينبغى لنا أن نندب ، وإلا أضفنا الحق إلى الألم . ومتى أنصتت أذن الغير إلى شكوى الناس ، وبخاصة إذا كان هؤلاء الناس ممن لا ينفعون ولا يضرون ؟ وإذاً فليس لى إلا أن آخذ الرفش والمعول ، وأن أتبع أخى الذى يدعونى فى أسى إلى أن نوارى موتانا . من منا لا يرى هذه الصورة الحزينة ؟ من منا لا يحس بدعوة الأخ لأخيه كى يتبعه وقد سار إلى الجثث الملقاة بالعراء فى خطى متثاقلة ، معوله على كتفه وأخوه من خلفه واجم النفس حزين الفؤاد ؟ والشاعر لا يكتفى بالأموات بل يهتم بغير الأحياء

من هنا وهناك :

اختراع جهنمى

يتساءل المرء إذ يشهد آثار الحرب الماضية ، وبعض آثار الحرب الحاضرة : ترى هل اعترى النفس الانسانية انحراف أو خبال أو ضلال ؟ أم أنها فى حقيقة أمرها قد ركبت من الظلم والقسوة والشر ؟

إنها تظهر لنا كل يوم بل كل ساعة على قطعان من الآدميين لا حصر لهم ولا عدد ، بين قتلى وجرحى وغرقى وتائهين ومشردين ، وعلى آلام جسمانية وأهوال نفسانية وأعمال ملؤها الغدر والخديعة والبغض . . . !

ولا شك لدينا فى أن الاختراعات العلمية فى أيام السلم قد أغدقت الخيرات على الناس ، ويسرت لهم الرغاء المادى بصورة تسمو على ما كان يحلم به الانسان وتناجيه به الأوهام . وقد ساقت إليه من ضروب المتع وألوان المسرات وصنوف اللهو ما لم يكن يطمح إليه ببصره ولا يدنيه الوهم إلى خاطره . ولكن . . . عندما يضرب الناقوس إيذانا بإعلان الحرب بين دولة ودولة ، وعند ما تبتدئ الجيوش الجرارة تحمل أسلحتها وتذهب إلى ميادين القتال تتقدمها الفرق الموسيقية والعبارات الحماسية ، عندئذ تنقلب الأوضاع وتتغير السحن ، فيضحى كل فرد مصدر شر مستطير ، وآلة مكيدة وانتقام ، ووسيلة هدم وتدمير .

وها هى الاختراعات تنهال على المحاربين وغير المحاربين بكافة أنواعها وأحجامها وأشكالها . وها هو المخترع ، وقد رأى أمامه ميدان العمل مفتوحاً ، يجد ويكد ويبدع ويتفنن حتى يخرج إلى الميدان جهازه الجهنمى دقيقا كاملا ، يحمل بين طياته أينما حل الموت والتخريب .

إليهم ، وقد تهيأ الجو وحبست الأنفاس فاذا به فى القمة . وتأتى القصيدة وحدة موسيقية نفسية تنتظم مقطوعات موحدة ما زال بعضها يكمل البعض ، وتنمو بنمو الاحساس المتصاعد إلى الإشباع حتى تستقر نفس الشاعر :

أخى ! من نحن . لا وطن ولا أهـل ولا جار

إذا نمنا ، إذا قمنا ، رداؤنا الخزى والعـار

لقد خمت بنـا الدنيـا كما خمت بموتانا

فهات الرفش واتبعنى لنحفر خندقا آخر

نوارى فيه أحيانا

وهذه هى المقطوعة الأخيرة التى بلغت غاية الألم ! ولكنى لست أدرى هل توحى إلى القارئ بما توحى به إلىّ أم لا ؟ إنى أحس فيها إثارة لهمتى وتحريكا لمعانى العزة فى نفسى . فأنا لا أومن بأن الدنيا قد خمت بنا كما خمت بموتانا ، وأنا أرفض أن أوارَى التراب حيا . إن فى هذه النغمات ما يلهب وطنيتى بل ما يلهب إنسانيتى . وهكذا تنتهى القصيدة إلى هذا الدرس النبيل . والشاعر بعدُ لم يعظ ولم يشد بالوطنية ، ولا دعانى إلى شىء من تلك المعانى الضخمة التى تتشدق بها ، وإنما أشعرنى ببؤسى و « مالى وطن ولا أهل ولا جار » وما أوتدى إن نمت أو قمت غير رداء الخزى والعار . لقد هم الشاعر بأن يدفننى حيا ، فنفرت عزتى وهاجت شجونى . إنى الآن أقوى نفسا وأعز جانبا ، وأحمى شجاعة وإن كنت قد أدركت بؤسى ، بل ربما لأنى قد أدركت مدى ذلك البؤس .

والآن أليس هذا هو الشعر المهموس الذى ندعو إليه ؟ أليس هذا هو الشعر الانسانى الذى نهتز لنغماته . إن بينه وبين الكثير من شعراء مصر فروقا ، وإنه لمن الإجرام أن يرتفع بعد ذلك صوت يحاول أن يتنكر على هؤلاء الشعراء ، نعيمه وإخوانه بالمهجر ، أنهم هم الآن شعراء اللغة العربية ، وأن شعرهم هو الذى سيصيب الخلود .

محمد مندور

ومن الذي كان يخطر بباله أن قلماً من رصاص أقام وأقعد في الحرب الماضية دولة بأسرها لمدة كبيرة من الزمن ؟ ومن الذي يمن في خياله حتى يتصور أن هذا القلم أغرق بانفجاره مئات ومئات من السفن المتحالفة تملؤها الذخيرة والأغذية ؟

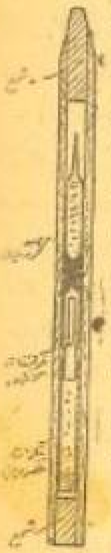
كان جميع ظواهره الخارجية تنم على أنه قلم . . . ولكنه كان — برغم ذلك — قلماً جهنمياً !

* * *

في أوائل عام ١٩١٥ كانت الجيوش الألمانية قد بدأت تتأهب مرة أخرى لتفرض نفسها على الأعداء . وفيما كان الجنود على أهبة الاستعداد ، والقادة قد أتموا تدبير خططهم الحازمة ، إذا بعدو جديد يظهر فجأة في الميدان ، ويمطر الجيوش في الجهتين الشرقية والغربية بوابل من الدمار والهلاك ، بصورة أفزعت القيادة الألمانية العليا وروعتها . ولم يكن هذا العدو الجديد المفاجئ سوى الذخائر الأمريكية التي ابتدأت تتدفق بكميات عظيمة على الحلفاء . وكان أجل ما يخشى من هذه الذخائر هو طريقة صنعها المبتكرة ، والتي لم تكن مألوفة في المصانع الأوربية ، إذ كانت أغلفة القنابل والقذائف مصنوعة من الصلب والفولاذ بدلا من الحديد . وكلما انفجرت تطايرت شظاياها الخشنة المدببة في ألوف من القطع ، وتساقطت في قوة على خنادق الجنود الألمانية فتذيقهم موتاً أليما . . .

وتنبه الحلفاء لأمريكا وفرحوا بالنتائج الأولى فعقدوا الصفقات العظيمة مع مصانعها ، بل شجعوا كثيرا من المصانع الأخرى على أن تنقلب إلى صنع الذخائر ، وتتحول من صنع بضائع السلم إلى أدوات الحرب والدمار . . . وما إن ظهرت أموال الحلفاء في الأسواق الأمريكية ، كالسيل الجارف حتى بدأت المصارف والبيوت المالية تخرج عن ترددها واندفعت تتسابق في إقراض مصانع الأسلحة والذخائر ، وقد طابت لهم جميعاً الأرباح الباهظة التي لم تكن في الحسبان .

كل ذلك والجيش الألماني يحصد ثمار هذه التجارة قتلاً وعطباً ، ويدفع الثمن دماءً وأرواحاً . وكان هذا العدو الجديد مبعثاً للأحزان العميقة في برلين عامة والقيادة العليا خاصة . ولم يكن بالعدو الذي يتنازل في الميدان وجها لوجه ، أو يكتسح خنادقه في عاصفة من الجيوش ، بل كان شبحاً مروعا وقف جاثما إزاء شجاعة الجندي ودهاء قائده . فكان — والأمر كذلك — لا بد من إيجاد حل لعرقلة شحن الذخائر المكدسة على المواني الأمريكية بكافة الوسائل . . . وكانت تلك الظروف وأمثالها هي التي أوحت باختراع القلم الجهنمي .



شكل رقم ١

كان هذا القلم يحتوي على أنبوبتين من الزجاج الرقيق يفصلهما سلك دقيق من البلاتين . وتحتوي الأنبوبة العليا على حمض الكروميك على هيئة ملح مجفف ، أما الثانية فبها مادة سريعة الالتهاب تسمى « فوليمنات الزئبق » كانت تستعمل في معظم « خراطيش » البنادق . ويحيط بالأنبوبة الثانية غرفة صغيرة أخرى تحتوي على خمسة عشر جراما من « بيكرات الصوديوم » وهي مادة شديدة الانفجار . وعندما يراد استعمال القلم تثقب قطعة الشمع العليا بدبوس فتتسرب الرطوبة إلى الداخل وتذيب حمض الكروميك الذي يتفاعل مع قطعة السلك ويختلط بمحتوى الأنبوبة الثانية (انظر شكل ١) فتتولد بذلك حرارة شديدة تكفي لإشعال بيكرات الصوديوم وإحداث اللهب . أما سلك البلاتين الذي يفصل الزجاجتين فهو من السمك والرقة كما يراد . فلو كان سميكا احتاج السائلان إلى طويل وقت حتى يتفاعلا معه ويذيباه ، وهكذا يمكن السيطرة على وقت حدوث اللهب بزيادة السمك أو إقلاله ؛ بل إن التجارب القليلة مكنت من

على أسلاك ذات سماك مختلفة ، ينتهى كل منها إلى إحداث اللهب في وقت معين محدود يتراوح بين بضع دقائق وعدة أيام .

أما اللهب الناشئ ، فهو شديد صامت يخرج من طرف القلم مندفعاً لمسافة تتراوح بين عشرين وثلاثين سنتيمترا ، ويكون مصحوبا بحرارة شديدة تكفي لإزالة جدران القلم نفسه وتخفى بقاياه من العيان !

وما إن اكتمل هذا الاختراع وبرهن على منافعه ، حتى نشطت الجواسيس الألمانية ، فاستطاعوا أن يقيموا مصنعاً صغيراً في أحد الموانئ الأمريكية وسط حركة الملاحة البحرية ، واستطاعوا أيضاً أن يدسوا بواسطة بعض الحمالين الأولنديين هذه الأقلام في معظم البواخر المملوءة بالذخيرة إلى روسيا وانجلترا . وكانت البواخر تحترق تباعا وهى تمخر عباب البحر دون أن يعرف لها سبب ، إذ كانت الحرائق تندلع فجأة من بعض أرجائها ، فسرعان ما تصيب غرف الذخائر وما احتوتها . . . وأخيراً شاءت الأقدار أن ترفع الستار عن سر الحرائق ، فينكشف الأمر وتظهر الحقيقة ، إذ نشرت جريدة « نيويورك تايمز » في أحد الأيام بخط كبير على صفحتها الأمامية خبراً فحواه أن السفينة « كيرك اسوالد » عند ما كانت تنطلق خارج ميناء مرسيليا عثر فيها على أنبوبة صغيرة عجيبة الشكل تشبه قلم الرصاص ، وما إن فحصت حتى تبين أنها قنبلة موقوتة على جانب كبير من الخطورة .

وقد أدرك أولو الشأن على الفور أن هذه القنبلة ما أودعت السفينة إلا عند ما كانت راسية في ميناء نيويورك . وكان الجواسيس قد وضعوا القنبلة في هذه السفينة على أنها ذاهبة إلى شمال روسيا ، ولكن يبدو أن السفينة تلقت أمراً بأن تغير وجهتها وتيمم شطر ثغر مرسيليا الفرنسى . ولما كانت المسافة في هذه الحالة أقصر بكثير من الأولى ، فإنها وصلت سالمة قبل أن تنفجر فيها القنبلة .

وهكذا ابتدأت الرقابة تنشط ، وأخذت أحواض الميناء وأرصفته تموج بجماعات المخبرين ، وقل نشاط الجواسيس من ألمان وإرلنديين .

وها هي الأيام تدور دورتها ثانية ، فتنشر الجرائد من أسبوعين خبراً فحواه أن جواسيس نزلوا من غواصة معادية على بعض الشواطئ الأمريكية يحملون صناديق تحتوى على مواد مفرقعة ، وأخرى محرقة ، ترى هل كانت على طراز تلك الأقلام الجهنمية التى استخدمت في الحرب الماضية ، أم أن العقل البشرى بتقدمه أخرج ما هو أبدع شكلا وأخطر شأناً ؟ . . .

محمد أحمد أمين

تحيـــة

للدكتور الجليل محمد عوض محمد

بمناسبة زواجه السعيد

وَحَيِّ القريضِ ، تكلّمْ ... حيٌّ « الهوى » وترنّمْ
نصرٌ ولا كلُّ نصرٍ ... حِصْنُ العزوبة سلّم
وكان يحسب أنْ لَنْ ... والأمر أمرٌ محتّمْ
الحبُّ ميدان حربٍ ... من عهد آدم مضرّم
ما بين إبرة قلبٍ ... وبين لحظٍ ومبسم
في مثل طرفة عينٍ ... إذا الشكائم مُغرَم
إنْ كان هذا انهزاماً ... يهنيه مَنْ فيه يُهزَم
هو انتصار حياةٍ ... بنجواه من غير توأم
هو انتصار الدراري ... من كل أروع أكرم
مَنْ ضمّ طَرْفَىْ نبوغٍ ... كان المؤمَّل أعظم

صبرى

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىَّ تبعته وحدى ...... "

مصر والعراق — فى المدارس الأجنبية — أزمة الرأى — وأزمة النقد ... ...

مصر والعراق :

من أنباء الأسبوع أن الحكومة العراقية طلبت إلى الحكومة المصرية أن توافق على إعارتها طائفة من كبار الأساتذة المصريين ، لتسند إليهم بعض المناصب التعليمية الكبرى فى القطر الشقيق .

ومن قبل ذلك نشرت الصحف أن مجلس الوزراء أقر اقتراح وزارة المعارف إنشاء مكتب للتعاون الثقافى بين مصر والعراق من عمله إبرام « معاهدة ثقافية » بين البلدين العريقين فى تاريخ الحضارة الاسلامية .

ومن أنباء لبنان أن حكومته تفكر فى الانضمام إلى هذا « الحلف الثقافى » الذى يؤمَّل أن يجمع أبناء العربية على ثقافة مشتركة يتنوَّرون على هَدْيِهَا الهدفَ المشترك فى تجديد الحضارة العربية .

وفى كتاب « مستقبل الثقافة » للدكتور طه حسين بك حديث عن « مدارس مصرية » يأمل أن تُنشأ فى كل حاضرة من حواضر البلاد العربية إلى جانب « المدارس الوطنية » فى تلك البلاد . .

وكل ذلك خيرٌ وفاتحة يُمن ، وإنا لنخطو به خطوة واسعة فى سبيل توثيق الروابط بيننا وبين إخواننا الذين باعدت السياسة بيننا وبينهم زمانا ؛ على أننا مسئولون فى هذه الخطوة أن نلتزم كثيراً من الحرص وغير قليل من الحذر ؛ فإن بلاد العربية اليوم فى فترة دقيقة من فترات « التنبه القومىّ » الذى لم ينته بعدُ إلى معنى « الفكرة العامة » التى تجمع الأخوين على العاطفة إن لم يجتمعا على الرأى ؛ وما زال الشعور بمعنى « القومية المحلية » أغلبَ من الشعور بمعنى « القومية العامة » التى تدعو إلى الايثار وتهوّن التضحية ؛ وفى مثل هذه الحال قد تكون غلطة فرد واحد سبباً إلى نتائج عامة غير محمودة ، لأن هذا الفرد حيث كان هو صورة أمته فى نظر الذين يعيش بينهم ، فغلْطته غلطة أمته ؛ وليس ميسراً لكل إنسان من وسائل الحكم ما يحمله على أن يقول : هذا فرد واحد ، لأنه لا يعرف غير هذا الفرد الواحد ؛ وإذا وقع فى النفس أن هنا أمة ذات مصالح وهناك أمة ، فقد تهيأت الوسيلة لتنمية الشعور بالعصبية المحلية التى تتجسم بها الفوارق وتتباعد الحدود ويتدابر الإخوة ، وكان الأمل أن يجتمعوا على فكرة إلى هدف . .

لذلك كان حريًّا بالقائمين على تدعيم التعاون الثقافى بين مصر والعراق وما بينهما من بلاد العربية أن يستشعروا هذه الحقيقة ، ويجعلوها أصلا من أصول سياستهم لا ينحرفون عنها قيد أنملة .

. . . وقد كان لمصر فى العام المنصرم وقبله مبعوثون من الأساتذة إلى العراق وغيره ؛ فهل روعيت الشرائط التى تحقق ذلك المعنى فى كل هؤلاء المبعوثين ؟ . . .

عنصران رئيسيان لا بد منهما ليتحقق هذا المعنى : حُسن السياسة ، وقوة الشخصية ؛ ونعنى بحسن السياسة أن يكون للشخص الذى يقع عليه الاختيار من قوة الإدراك ما يعينه على أداء وظيفته « الدبلوماسية » ، وهذا هو الشرط الأول ، وقد يكون فيه الغناء عن علم العالم وفهم الأديب وفنّ المعلم . . . وهو ما نعنيه بقوة الشخصية . . .

ونعود فنسأل : هل روعى ذلك فى « كل » من سبق اختيارهم ليكونوا « أمثلةً مصرية » فى الأقطار الشقيقة ؟ . .

. . . ولكن الذى يعنينا هو ما سيكون دون ما كان ؛ فهل أحسَّت وزارة المعارف المصرية أهبتها لذلك ؟

على أن من دون ذلك « تكاليف » ، وإنها لكثيرة ، ولكن لكل محطوبة مهراً ، والخزانة المصرية ما تزال — والحمد لله — عامرة ، وإن لنا هدفاً « غالياً » نسعى إليه ...

ألا وإنه لن يتحقق « حسن الاختيار » وإننا لنسمع من حديث بعض الشبان العائدين من العراق منذ قريب مثل قولهم : لقد فاتني (الدّور) في التعيين ! لقد تخطّاني مَن بعدي إلى (الدرجة) ! لقد أفلتتْ مني فرصة (الترقية) !

إنه حديث صغار ، ولكن الكبار حريُّون بأن يعقلوه !

في المدارس الأجنبية :

ونشرت الصحف أن وزارة المعارف لاحظت أن بعض المدارس الأجنبية في مصر تدرس لتلاميذها كتباً تشتمل على عبارات وموضوعات من شأنها أن تثير أحقاداً دينية ، أو سياسية ؛ وأنها لذلك تحظر على كافة المدارس الأجنبية أن تدرس كتاباً من الكتب قبل أن ترى فيه وزارة المعارف رأيها من هاتين الناحيتين ، وإلا تعرّضتْ لما تفرض الوزارة من إجراءات صارمة ...

وهو قرار جدير بالتنويه والإشادة وإن تأخر عن موعده سنوات وسنوات ؛ وإنه لخطوة نرجو أن تتبعها خطوات في سبيل حياطة « قوميتنا المصرية » ؛ على أنه إلى ذلك يثير في نفسي ملاحظتين حقيقتين بالذكر : أما واحدةٌ فأن في بعض الكتب التي تقررها وزارة المعارف المصرية نفسها لتلاميذ مدارسها ما يستحق مثل هذه الملاحظة ، وقد قدّمتُ مثالاً لذلك في بعض ما كتبتُ في هذا الباب منذ أسابيع [1] وما يزال لديّ أمثلة ؛ فهل لي أن آمل في أن تبدأ وزارة المعارف بنفسها ؟ . .

... وأما الملاحظة الثانية فهي أننا لا يكفينا من وزارة المعارف أن تمنع المدارس الأجنبية من تدريس الكتاب أو الكتب التي « تشتمل على عبارات وموضوعات تثير أحقاداً دينية أو سياسية » ، بل نريدها كذلك أن تمنع كل كتاب يشتمل على عبارات أو موضوعات تُشيد بمذهبٍ أو دينٍ أو إنسان لا تُقرّ الاشادةَ به الديانةُ المصرية أو القومية المصرية ؛ فقد يكون في التنويه بمذهبٍ من المذاهب ، أو دينٍ من الأديان ، أو إنسانٍ من الناس — أثرٌ في عقل الطفل الناشئ ، هو أبعد مدًى وأعظم خطراً من كل العبارات والموضوعات التي من شأنها أن تثير الأحقاد الدينية أو السياسية ؛ فتلك « تثير » وهذه « تخدّر » « والثورة » دفاعٌ ولكن « التخدّر » استسلام !

نعم ، وليس يكفينا ذلك وحده ؛ ولكنا نريد أن نفرض « قوميتنا المصرية » فرضاً على هذه المعاهد الأجنبية ، فنلزمها أن تدرس لتلاميذها كتباً أو موضوعات أو موادَّ تحقق معنى « المصرية » في كل مدرسة تقوم على أرض مصرية !

ليت شعري أتكون هذه هي الخطوة الأولى ؟ ... ولكنها خطوة مشكورة على كل حال !

أزمة الرأي :

سألت ولم أسمع جواباً .....

لماذا صمت « سيد قطب » وقد سبق وعده إلى قراء الرسالة بالحديث عن توفيق الحكيم في « بيجماليون » ، وعن طه حسين في « دعاء الكروان ، والحب الضائع » ؟

ولماذا أغلقت الرسالة بابها وإنها لشريكة الكتاب فيها وعد وإن للقارئ عليها لحقّا ؟

وما أريد أن أصدق أن دعوة توفيق الحكيم إلى « الصفاء بين الأدباء » وما استتبعتْ من « خصام » بينه وبين الرسالة — هي السبب في أن تمتنع الرسالة من نشر كل حديث عن توفيق الحكيم !

ولكني سألت فلم أسمع جواباً ؛ وإني لأسأل اليوم سؤالاً آخر : هل من حق جريدة من الجرائد أو مجلة من

(١) العدد ١٨٣ ص ٢٦

المجـلات أن تمتنع من النشر لأديب « معروف » لأن له رأياً يخالف رأى صاحبها ؟ ...

نعم ، قد يثير ذلك الرأى « فتنة » ، وقد يكون « دعوة إلى غير ما يليق » وقد يكون « صوتاً فى غير أوانه » ، وقد يكون « تهمة تستوجب الكتمان » ؛ فمن حق الجريدة أو المجلة لكل ذلك ، أو لمثل ذلك ، أن تمتنع من النشر ؛ ولكن أيكون من حقها أن تمتنع لأن الرأى يخالف الرأى وحسب ؟ . . .

وثمة سؤال ثالث : أيحق لجريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات ، أن « تبتر » مقالة من المقالات أو مبحثاً من المباحث ، لأديب معروف ، فتنشر بعضه وتطوى بعضه ، لأن لها « هوى » فيما نشرتْ وليس لها مصلحة فيما طوت ؟

نعم ، قد يكون ذلك من حقها لبعض ما سبق ؛ ولكن أيكون من حقها أن تنشر بعضاً وتطوى بعضاً للهوى والمصلحة فحسب ؛ فتنشر « القاعدة » وتطوى « الاستثناء » ، وتحكم على « الموصوف » وتحذف « الوصف الكاشف » ؛ فتلوّن الرأى غيرَ لونه وتحكم على الشىء بغير حقيقته ؟

بين يدىّ الساعة رسالة بتوقيع « محيى الدين النحاس — بيروت » ومعها مقالة يقول إنه بعث بها إلى مجلة من مجلاتنا ، فنشرتْ طرفاً منها ذلق إلى صديق من أصدقائها لو أنها نشرت كل المقال لساءه .... وهو يرجونى أن أعينه على نشر المقال بحاله ... ويسألنى ...

أما المقال فليس لى يدٌ بنشره ، وسأبعث به كاملاً إلى المجلة التى نشرتْ منه وطوت ، ولها فيه ما ترى ؛ وأما سؤاله فهأنذا أسأله ؛ فهل أسمع جواباً ؟

وأزمة النقد :

وما زال الأدب فى مصر يتعثر فى أزمة إلى أزمة إلى أزمات ، لأن طريق الأدب فى مصر لم يتعبَّد بعدُ ، وإن كانت مصر فى الأدب زعيمة !

دعْ عنك ما كَمَّمتْ الحربُ من أفواه ، ودَعْ حُكم « الرقيب » الذى يُحصى علينا كل ما نكتب وما نقول وفى يده « المقصّ » ؛ فهذه أزمة طارئة إلى حين ؛ ولكن لماذا ضعف النقد فى مصر وكان قويا ، وخفتَ صوتُه وكان جهيراً ؟

هذه صفحاتٌ بين يدىّ من جرائد ومجلات كانت تصدر فى مصر منذ بضع عشرة سنة ، مليئة بالنقد ، حافلة بألوان من الجدل ، هادئة حينا وصاخبة أحياناً ؛ فأين صفحاتنا النقدية اليوم من تلك الصفحات التى كانت ؟... لقد كانت شعلة فانطفأت !

لست أنكر أن تلك الشعلة طالما أضرمت حرائق ، ولكنها على أىّ أحوالها كانت خيراً من هذه « البرودة » التى يعيش فيها الأدب اليوم . . .

لماذا . . . ؟ لست أدرى ؛ ولكنى أعلم أن طائفة من كبار أدبائنا قد التزموا منذ بعيدٍ خطةً كأنما كانوا فيها على ميثاق : ألاّ يردّ أديبٌ منهم على ناقد ؛ وبتوالى النقد على بعضهم حتى لا يكاد يترك له أدباً صحيحاً وإنه مع ذلك لساكت ؛ وكانت فى أولها ترفُّعاً عن السفاهة ، فكانت عفة ؛ ثم غدتْ تعالياً على الناقد ، فصارت كبراً ؛ ثم آلت قعوداً عن الدفاع ، فصارت بلادة ؛ ثم ماذا... ؟ أذلك هو السبب أم هنالك أسباب ؟

وكثر المتحدثون عن قواعد النقد ، ولا ناقد ؛ وانفتح الباب للمدّعين والدعاة ؛ وزاد فى أبواب الأدب لون جديد من « رسائل إخوان الصفاء » !

أقرأتَ كلمة الشاعر على محمود طه عن كتاب « الوجه العذراء » لصديقه أحمد الصاوى محمد فى العدد ٤٢٣ من الاثنين ؟

ذلك هو الفن الجديد فى النقد ، وهو اللون الجديد من « رسائل إخوان الصفاء » !

« قاف »

من غربة الروح:

رواية

شعر عبد الرحمن الخميسي

متى فاض روحي واحتوتني المقابر
سيخزي لك التاريخ أني شاعر
ملأت حياتي بالغناء بديعه
فؤادي وتنفيه الجمال المشاعر
وعشت غريباً بين أهلي وموطني
أغرد فوق النبع والعشب زاهر
فللماء والأظلال والطير والسنا
ترانيم قلب ألهمته النواظر
وللفجر والأحلام واليأس والمنى
تسابيح نفس أرهفتها الخواطر
وفي الليل والصحراء .. ضمني مجنح
وفي الرعد والأمطار ، سخطي ثائر
وفي النور والإشراق بشرى ساطع
وحزني نعاب الثكالى السواهر
يثير اعتكار الليل كل كوامني
ويندي ضميري ما تسح المحاجر
وأطرب للأنغام تثلج مهجتي
وتدرك روحي ما تبين المزاهر

* * *

أخاف عدوي غير أني أحبه
وأخشى عثاري والنفوس عواثر
وما أنا بالرعديد حتى أهابه
ولكن بحب الحب صدري عامر
وكنت أذم الناس والشر فيهمو
وتهلك في نعمى القلوب النوادر
فأكره ذاتي إذ تهيج لتشتهي
نوازع حقد في الصدور نوافر
وأشفق ، لا لي بل لشقوة أنفس
يعذبها عيشي وما أنا جائر
فيا ليت ربي لم يجئ بي إلى الورى
لتثقل أتراحي ومالي جرائر

* * *

وإما شدى الفكري أبك لشدوه
وتهمي دموعي لو تئن السرائر
فكل فؤاد لي اتصال بطيه وفي كل حي بالفؤاد مغاور
كأن شقاء الخلق يشكو لهاجسي
مآسي وأشباح الشقاء بوادر
وتزخر عيني بالدموع كأنني
رأيت شريداً أنكرته المقادر
وأطمس قلبي في الشجون تطهراً
من الرجس إن الرجس في الطبع ماكر

* * *

تعالي إلى لحدي إذا الدهر خصني
بأطيب ما تعتد منه المفاخر
ونوحي على المقبور أفنى حياته
يرتل للأطيار وهي سواخر
فما يرقص البوم المراض ترنم
يؤديه صداح من الخلد ساحر
ولا تفقه الأشجار ألحان باغم
يرجع ما يهوى وهن نوافر
وروي تراب الرمس بالدمع والندى
حبيباً أمضته اللحاظ الفواتر

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردلى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٩٠ — الثلاثاء ٦ من شعبان سنة ١٣٦١ — ١٨ من أغسطس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

من النافذة :

مستقبلنا على البحث العلمى

نحن نعيش فى القرن العشرين ، لا بل نعيش فى أواسط القرن العشرين ما فى ذلك من شك . ونريد أن نحيا بين الأمم المتحضرة وأن نجاريهم ، ونماشيهم ونساعدهم ، ونشاركهم فى الانتاج والتجارة والتفكير ، أو بقول آخر نريد أن نساهم بسهمنا فى جهود الحياة مع أمم العالم المتحضر . ونحن اليوم نتابع موقفاً متناهياً فى الدقة ، فقد أخذنا فى أيدينا أعنة الحكم لمصر المستقلة ، وعلينا أن نحقق الحياة الحقيقية لمصر المستقلة ، وسيكون حتما علينا أن نشترك مع أمم العالم فيما بعد الحرب ، لكى نقيم النظام المشترك فى الانتاج والمعاملة والتفكير ، بصفتنا دولة مصر المستقلة ؛ فالحمل الملقى على عواتقنا حمل عظيم ، والمسئولية التى على هذا الجيل الحاضر من المصريين مسئولية عظمى نحو كل الأجيال المقبلة من أبنائنا وحفدتنا ؛ إذ علينا أن نفكر لنا ولهذه الأجيال ، وأن نبتكر الخطط التى تؤدى إلى تحقيق مصلحتنا ومصلحة تلك الأجيال ، وأن نضع الأساس الذى تبنى عليه حضارتنا الحديثة ، لكى نسلمها أمانة فى أعناق ورثتنا من تلك الأجيال ؛ ولكنا إذا أردنا أن نضطلع بهذا العبء العظيم ، وبهذه المسئولية الكبرى وجب علينا أن نتخذ الوسائل التى تتخذها سائر الأمم المتحضرة عندما تريد أن تضع خططها ، وأن تبنى أساس مستقبلها .

نحن كما قدمنا نعيش فى أواسط القرن العشرين الى

يقوم فيها كل تفكير على العلم ويبنى فيها كل تنظيم على العلم، ويستند كل مشروع إلى العلم. فإذا أرادت الدول المتحضرة أن تستعد لنضال حربي كان أول همها أن تتجه إلى العلم لتتخذه أداتها إلى الفوز في النضال؛ وإذا أرادت أن تشرع في عمل صناعي كانت أول خطوة هي استشارة العلم لتعرف أمثل السبل وأسهلها وأقربها إلى الاقتصاد والكمال. وإذا هي عزمت على إصلاح في الانتاج الزراعي أو الصحي أو التعليمي، كان أول همها أن تلجأ إلى العمل والتجربة والبحث، حتى إذا ما أوضح العلم لها الطريق وضعت الخطة المنظمة، ثم سارت في سبيلها نحو تحقيق أغراضها؛ وهي في كل خطوة من خطواتها تستشير العلم وتشجع البحث، وتستفيد بكل كشف جديد في معاهدها ومعاهد زميلاتها من الدول الأخرى، تعطى لمن ثمار ما بلغه البحث عندها، وتأخذ منهن ما آتاه بحثهن من ثمار أخرى.

وإذا نحن ألقينا نظرة بسيطة إلى الأمم العظمى، وجدنا أنها قد أقامت كل عظمتها وقوتها على العلم والبحث، سواء أكان ذلك في ميادين الحرب أم في ميادين الانتاج الاقتصادي. وقد برهنت روسيا على فائدة البحث العلمي برهاناً لا يقبل الجدل، لأنها رسمت لنفسها خططاً متعاقبة كل خطة منها ترمي إلى إنفاذ جانب من جوانب الاصلاح في مدة معينة، وكانت في كل مرة تجعل البحث العلمي أساس خطتها؛ فاستطاعت بذلك أن تنقل روسيا من حالتها التي كانت عليها في أول القرن العشرين إلى حالة أخرى تنافس فيها أعظم الأمم في إنتاجها وتنظيمها؛ وكل ذلك في مرحلة لا تتعدى عشرين سنة.

وقد يخطىء البعض، فيحسب أن النظام الروسي السياسي هو الذي أحدث هذا التغيير الذي تشهد آثاره أمم العالم جميعاً في هذا النضال الحربي العظيم في هذه الأيام. ولكن الحقيقة هي غير ذلك؛ فإن الذي أحدث الانقلاب الهائل في حالة روسيا إنما هو أمر واحد: أنها أقامت خططها جميعاً على العلم، واستفادت في كل خطوة من خطواتها بالبحث العلمي، وعملت على إشاعة البحث بجميع أنواعه وتشجيعه، ومساعدة أصحابه من العلماء والصناع بكل وسيلة من الوسائل الممكنة.

ونحن اليوم واقفون عند مفترق الطرق، فأمامنا طريقان: أحدهما أن نترك الاصلاح والنهضة المأمولة تسير سيرها الطبيعي بغير تدخل أو قيادة من جانب العلم، وعند ذلك ستكون حركة الاصلاح والنهضة معرضة لكل الطوارىء، ومعرضة لأن يعتريها الخمول والفتور، بل معرضة لأكثر من كل ذلك وهو الخطأ؛ فإننا إذا همنا بمشروع غير قائم على أساس متين من البحث العلمي كان مهدداً بأن يفضي بعد قليل إلى الفشل، لأنه لم يكن قائماً على حقائق ثابتة. فالحماسة في الاصلاح وحدها لا تكفي لإنجاح المشروعات، ولا بد إذا أردنا النجاح لها أن نطمئن قبل أن نخطو فيها خطوة واحدة إلى أننا قد ضمنا رأى العلم فيها في أول الأمر، وضمنا أن يسايرها البحث في كل خطواتها، لكي يسددها ويوجهها إلى الوجهة السليمة.

نحن في حاجة إلى هيئة علمية صحيحة تشرف على البحث من جميع نواحيه. تشرف على البحث في مادة الأرض، وفي مادة الهواء، وفي أسرار البحر، وضوء الشمس؛ وتشرف على البحث في أفضل طرق الوقاية من المرض، وطرق العلاج فيه، وفي أفضل طرق تنظيم المدن وبناء الأبنية من الصروح العظيمة إلى الأكواخ الصغيرة، وفي خير الوسائل لتعبيد الطرق وتعميمها، وتوليد الكهرباء حيث يمكن توليدها، وأسهل الطرق لصناعة وأجدر الصناعات بالتشجيع. وتشرف على تجارب في

التعليم لتعرف خير النظم التي يمكن أن تسير عليها المدارس لتحقيق الأغراض التي ترمي إليها ، وفي الاقتصاد لتعرف خير النظم التي تسير عليها في حياتها ومعاملاتها . بل إن علينا أن تشرف على البحث العلمي المحض الذي قد يرى البعض أنه بعيد عن الحياة العملية ، كالبحث في الذرة ومكوناتها ، وفي الضوء وكنه حقيقته ، وفي الرياضيات العليا ، وغير ذلك من الأبحاث النظرية التي قد يظن البعض أنها لا تدخل في نطاق الحياة العملية ، فإن كل بحث ضروري لفائدته العملية إن وجدت ، وإلا فهو ضروري لذاته ، لأنه لا شك يفضي إلى تقدم العلم وتحقيق الاستفادة منه بعد حين .

وواجب علينا بعد أن تنشأ هذه الهيئة العليا أن نعمد إلى تشجيع البحث في هيئات أخرى فرعية كل منها يتجه في اتجاهه الخاص ، ويتفرع بحسب خاصته إلى شعاعات وفروع . وواجب علينا أن نحقق ذلك كله حتى تكون الهيئات العلمية عندنا تعد بالمئات ، ويكون العلماء والباحثون فيها على اختلاف فنونهم يعدون بالألوف . فهذه الهيئات وهؤلاء العلماء هم لواء الأساس الذي نستطيع أن نبني عليه نهضتنا الحقيقية .

ولنرجع إلى الوراء قليلاً لنضرب مثلاً صغيراً ، وهو البحث العلمي الذي قامت به هيئة العلماء في الحملة الفرنسية عند غزوها لمصر . ألم تكن هذه البحوث التي قامت بها تلك الهيئة الصغيرة نواة كل تقدم في مصر في القرن التاسع عشر ؟

هذا مثال صغير نستطيع منه أن ندرك مقدار ما يمكن أن تجنيه البلاد من تنظيم البحث العلمي بأوسع معانيه وتشجيعه وتشجيع أهله بكل وسائل التشجيع . ولذلك ندعو بقوة إلى بذل المال في سخاء على العلم وأهله ، وعلى معامله ومعداته ، حتى يشعر أهل البحث أنهم قد كفوا مؤنة الحياة ، وأنه قد كفل لهم مكان ملحوظ بعناية المجتمع كله ؛ فإذا كان هذا يكلف مصر شيئاً من النفقة ، فليعلم الجميع أن النفقة على العلم والعلماء لا يمكن أن تضيع سدًى ، بل إنها تؤتي ثمارها أضعافاً مضاعفة ، كما تنبت الحبة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .

« ف »

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠ في مصر والسودان
	٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠ في الممالك الخارجية عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

في الهواء الطلق

للأستاذ أحمد أمين بك

كانت جلسة ظريفة على شاطئ النيل ، والنسيم عليل ، بعد نهار يخنقنا بحره ، ويلفحنا بسمومه .

في رفقة منسجمة تتسامر وتتحاور ، وكل شيء حولها هادئ ، نور هادئ ، ونسيم هادئ ، ونيل هادئ ، وحوار هادئ .

وكانوا يختلفون في ثقافتهم ويتحدون في قوة عقلهم وسعة نظرهم ونبل عواطفهم : من مؤرخ صرف عمره في تحقيق الأحداث ، والبحث في تعليلها وأسبابها ونتائجها ، واقتصادي يرى وراء كل شيء ورقة مالية ، أو نقوداً ذهبية وفضية ، حتى ما نسميه نحن بواعث روحية ، وأديب يتفلسف ، أو فيلسوف يتأدب ، له نزعة شعرية وطبيعة صوفية .

أخذ الحديث يجرى على هواه من غير ضابط ، فمرة يسير في اتجاه السلم والحرب ، وتارة في الشرق والغرب ، وأخيراً تركز في أسباب نهضة الأمم وكيف يجرى الزمان في سهولة ويسر ونظام وإذا بحادث فجائي أو أحداث فجائية تغير مجرى الأمة تغيراً خطيراً ، حتى كأنها بعثت بعثاً جديداً ، وحتى يخيل للناظر أن ليس من صلة بين قديمها وحديثها ، ونومها ويقظتها .

قال صاحبنا المؤرخ : تعليل ذلك عندي ما تلده الأمة من عظماء ونوابغ ، والزمان شحيح في ولادتهم ، فقد يمر العصر الطويل وهو عقيم ، ثم يلد عظيماً فيغير وجه التاريخ ، وكأن في يده عصاً سحرية يحوّل بها الحديد ذهباً ، والخمول نشاطاً ، والضعف قوّة ؛ والتاريخ نفسه أكبر شاهد على ذلك ، فما الأمة العربية لولا « محمد » ؟ وما الفتوح الإسلامية وتنظيمها لولا « عمر » ؟ وهكذا تقول في سائر الأمم أمثال الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون وغيرهم . إنهم يأتون فيفرضون قوتهم وروحهم على الأمم فيسيّرونها حسبما رسموا ، ويُملون إرادتهم على أحداث الزمان ، فيتشكل التاريخ وفق أغراضهم ، وتسير الفتوح أو الثقافة أو أشكال الحكومة تبعاً لإرادتهم ، ويتحدد مستقبل أممهم بما نفخوا من روحهم ، ونشروا من تعاليمهم ، وأوحوا من آرائهم . وهؤلاء العظماء النوابغ – عادة – يخلفهم من يؤمن إيماناً تاماً بمبادئهم ، فيسيرون على طريقهم ، ويكملون ما بدءوا به ، وإن كانوا أقل منهم قوة وأضعف أثراً .

هذا هو قانون التاريخ قديماً ، وهو قانونه حديثاً ، فلو أتاح الله لأمم الشرق اليوم نوابغ أقوياء ، لتغير مجرى حياتهم ، وارتفع شأنهم ، والتفت العالم إليهم يسبّح بحمدهم .

* * *

وفجأة كسر هذا الهدوء رجل ضخم الصوت ينادي : « المظهمة يا منجه » ، فالتفت الصحب إليه وأعجبتهم فاكهته ، ونادوا في القهوة فغسلها وثلجها ، وجرى ريق القوم ، وأخذوا ينعمون بأكل شهي إلى الحديث الشهي .

* * *

قال صاحبنا الاقتصادي وهو يتلمظ :

— أظن يا أستاذ أن هذا غير صحيح . أتظن أن هذا العظيم ينزل – على الأمة – في مظلة من السماء ، أو يخرج فجأة من الأرض ؟ إن لخروج العظماء والنابغين قانوناً طبيعياً لا يتخلف ، كقانون الحرارة والبرودة والجاذبية ، وإن كان أكثر تركباً وتعقداً ؛ فالنوابغ نتيجة لا سبب ، هم تعبير الحياة الاجتماعية . العوامل المختلفة تعمل ، والأحداث تتفاعل ، والنفوس تتهيأ ؛ فإذا الأمة تتمخض عن نابغة ؛ فالأحوال الاجتماعية أولاً والنوابغ ثانياً ، وليس العكس . إن الحالة الاجتماعية

إذا تهيأت واستعدت بحثت عمن يقود الحركة وخلعت عليه الزعامة، فإذا اتجهت إلى «س» فعاقته عوائق عن النبوغ اتجهت إلى «ص»، وعلى كل حال فلا بد من نابغة، فإذا لم تهيأ الظروف فلا نابغة؛ وهذا هو تعليل عدم الانتظام في ظهور النوابغ، فيظهر كثيرون في زمن، ولا يظهر أحد في أزمان.

لست أنكر التأثير الكبير للنابغة، ولكنه لا يكون إلا بعد أن تتهيأ الأمة أولاً، ولو فرضنا أن النابغة خلق وجاء لأمة على غير استعداد لتعاليمه لم يفد أية فائدة وذهب كما جاء، إنما يفيد النابغة يوم يجد عقولاً خصبة كانت تنتظر الزعيم فتدخل في دينه وتتجمع حوله، وتكون جنده، يفتح بهم أمته، ثم أمماً مع أمته.

وفرغوا من أكل «الناجو» و«الجته»، وتفرغوا للجو والحديث.

المؤرخ: إن نوابغ الأفراد لا المجتمعات هم الذين يأتون بالأفكار الجديدة الثورية — في الأخلاق، في السياسة، في الفنون، في العلوم؛ ووظيفة المجتمع أنه يعرقل سيرهم أولاً، ويضع العقبات في سبيل تعاليمهم، ويتهمهم بالمروق والزندقة والافساد، ويصب عليهم العذاب ألواناً؛ ومع ذلك تبقى آراؤهم، ويزيدها العذاب قوة، ثم تكتسح الأفكارَ القديمة وتحل محلها، ثم ما كان من الأفكار جديداً ثائراً يصبح قديماً محافظاً. حتى يأتي النابغة فيعيد السيرة، وهكذا دواليك إلى اليوم، وإلى غد، وبعد غد.

فترى — يا أخي — من هذا أن المجتمع ليس سبب النهوض والتغيير، إنما هو عامل القرار والثبات؛ فاذا كان لا بد للمجتمع من قوتين: قوة الدفع وقوة الجذب، فالنوابغ هم الدافعون والمجتمع هو الجاذب، النابغة يحمل الشعل والمجتمع يحاول إطفاءه، وكلما كان النابغة أكثر رقياً وأشد إمعاناً في النظر، كان أكثر بعداً عن قومه، وكانوا له أكثر اضطهاداً، حتى ابتلى بالجنون؛ وبعد اضطراب وعنف وتخريب وضحايا يستقر رأى النابغة، وكثيراً ما يحدث أن يكون ذلك بعد موته أو قتله، ثم تسفر النتيجة عن أن النابغة هو المقترح، ومشخص المرض، وواصف العلاج، والمجتمع أخيراً جداً هو منفذ العلاج.

* * *

وهنا أدار أحدهم عينه في الأفق، فلمح نجماً يلمع لماناً براقاً، فقال: انظروا هذا النجم الصافي اللامع المضيء القوى، ما اسمه؟

— والله لا أدرى، فأنا أجهل الناس بشيئين: أسماء النجوم وأسماء النبات، فلست أعرف من النجوم إلا الشمس والقمر، ولا من النبات إلا النخل والذرة، حتى القطن لا أعرفه إلا إذا «لوّز».

فضحك من الجميع.

* * *

الاقتصادى: إنك لم تردّ على شيء مما قلتُ، فأبة الفرق بيني وبينك أنك عمدت إلى النتائج فأوضحتها، وأنا أعمد إلى الأسباب فأشرحها؛ إنك تبين عمل النابغة، وأنا أبين الأسباب التي تحمل على خلق النابغة؛ وخيرٌ إذا شرحنا الأمور أن نتعمق إلى جذورها، فاذا نحن عمدنا إلى ذلك رأينا أسباب نهوض الأمم وتغيرها أسباباً اقتصادية بحتة.

كل شيء في هذه الحياة يرجع إلى المادة، فهي التي تعكس صورها وأثرها على العقل، فيجب أن تتغير المادة — أولاً — ثم يتبعها العقل في التغير فيكون الرقي أو الانحطاط؛ ولو رجعنا إلى التاريخ — كما تقول — لوجدنا كل الآراء، وكل النظم ترجع في أساسها إلى البيئة التي نشأت فيها والتغيرات التي وضعت لها. لقد كان الانسان الأول يعيش على صيد الحيوان في البر والسمك

فى البحر ، فكانت آراؤه وأفكاره ومعيشته مشتقة من بيئته ، ثم تغيرت البيئة ، فأصبح يعيش على رعى القطعان أو الزراعة ، فتغيرت آراؤه وأنواع معيشته وحاجاته تبعاً لذلك ، ثم تغيرت إلى نظام إقطاعى ، ثم إلى نظام رأسمالى ، فتغيرت كل نظمه وكل آرائه حتى الأخلاقية والسياسية ؛ ويمكن أن نرجع أدق التفاصيل وأعمق الأفكار إلى هذا النوع من البيئة كما درسنا فى الاقتصاد ؛ ولكن مما لاشك فيه كذلك أن أنواع الحياة وتفاصيلها وعواملها أصبحت الآن أكثر تعقداً ، لأن كل النظم القديمة النابعة من البيئات القديمة لم تفقد أثرها وورثنا كثيراً من نتائجها ووحيها . لم يكن فى المجموعة من الناس طبقات يوم كانوا يصيدون ويرعون ، ثم لما أصبحت زراعية تحت الملكية الخاصة ، فكان غنىّ وفقير ، وبدأت الطبقات ، ونشأ عن ذلك مالك وأجير ، أو مالك وعبد ، فوجد نوعان من العلاقة : علاقة الملاك بالبيئة الطبيعية ، وعلاقة الملاك بالعبيد . فنشأ من هذا تغير فى الأفكار لا عدّ لظاهره ، وثورات واضطراب ، ومصلحون ونوابغ يحاولون هذه المشاكل ، وتعقدت هذه العلاقات فى النظام الإقطاعى ، ثم زادت تعقداً فى النظام الرأسمالى ، وما نشاهد من عادات ومن رق ومن اختراع ومن أسواق ، ومن نظريات فى الاقتصاد ، ومن نظم فى التجارة ، ومن مذاهب اشتراكية وفاشية وشيوعية ، ومن نزاع طبقات ، ومن حروب أمم ، كله نتيجة هذه العوامل الاقتصادية ، وإن شئت فقل البيئة الطبيعية .

ثم استمر يقول : وإنى أومن بالجبر على هذا المعنى ، معنى أن نوع الحالة الاقتصادية منتج لا محالة نوع المعيشة الاجتماعية التى يعيشها الشعب ، واختيار الانسان وبواعثه وحرية إرادته كلها تلعب فى دائرة ضيقة ضمن الدائرة الواسعة وهى دائرة الجبر ، كحرية الانسان فى بيت مغلق ؛ والنوابغ الذين ينبغون فى كل عصر مع الاعتراف بقوة أثرهم إنما هم نتيجة هذه الظروف الاقتصادية ؛ وحتى رقى الآداب والعلوم والفنون أو ضعفها ناتج أولاً من الحالة الاقتصادية ، فهى التى تخلق نوابغها ، ثم هؤلاء النوابغ يسيرون حركتها .

وأحداث التاريخ التى أشرت إليها يمكن أن تفسر هذا التفسير الاقتصادي ؛ فحالة العرب الاقتصادية قبيل البعثة كانت مهيئة لنبي ، ولأمر ما كانت بعثة النبي فى مكة ، لا فى غيرها من بقاع جزيرة العرب ، لما كان فيها من الحركة التجارية العظيمة ، فهى مورد التجارة من الخارج ، وهى مصدر الاصدار لسكان الجزيرة فى أيام الحج ، عما كانوا يقيمون من أسواق ، وما كان من أدب فى سوق عكاظ فتابع للسوق التجارى ؛ ولأمر ما كذلك كان أكثر من دخل فى الإسلام أول الأمر من رقيق الحال الذين سماهم صناديد قريش « الفقراء والمستضعفين والأذلة » وأكثر الذين عصوا وعاندوا هم الأثرياء الأغنياء ، كأبى لهب ، وأبى سفيان من الذين خشوا على مركزهم المالى وما يتبعه من جاه ؛ وفى القرآن كثير من النصوص التى عنى فيها بالشؤون التجارية ، كمنّ الله على قريش بتيسير أسباب التجارة « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » ، وتأنيبه الذين « إذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » ، وتحريم الربا ، وحل البيع ، إلى كثير من ذلك ، ثم المطالبة بنزول الأغنياء عن بعض مالهم للفقراء بالزكاة والصدقة ونحوها ؛ كل هذه أمور اقتصادية هيأت الظروف وأنتجت النتائج . ويمكنك على هذا الأساس — وبهذه النظرة الاقتصادية — أن تفسر أحداث التاريخ الإسلامى والثورات ورقى العصور وانحطاطها .

والآن يمكن تطبيق هذا على الشرق والغرب والمستعمِر والمستعمَر ؛ فالاستعمار ليس إلا ظاهرة اقتصادية ، إذ أدى الانقلاب الاقتصادى الذى حدث فى

أوربا فى القرن الثامن عشر إلى التوسع فى الإنتاج الصناعى ، فاحتاجت أوربا إلى امتلاك مستعمرات تحصل منها على المواد الأولية للصناعة ثم تتصرف فيها سلعها ؛ فكانت خيرات الشرق للغرب ، وأصبح الأول ضعيفاً غير ناهض ، لفقره ولسوء حالته الاقتصادية ، والعكس .

فان شئت للشرق رقياً فأغنه ، وابحث عن الطرق التى تمكنه من استغلال بيئته الطبيعية لنفسه ، فإذا هو غنى وإذا هو عالم ، وإذا هو أديب ، وإذا هو مخترع وإذا هو ما شئت .

***

ساد الجمع سكون لم أتبينه ، أهو سكون رضى واقتناع ، أم هو سكون تفكير واستعداد للإقناع !

والتفت أحدهم إلى الأديب المتفلسف أو الفيلسوف المتأدب ، فقال : ما رأيك ؟ لقد أطلت السكوت وصمت وجمعت النظر . وكان طول الجلسة ساهماً حالماً يسمع بنصف نفسه ، ونصفها الآخر فى الجو والهواء والنيل والسماء .

فقال : أما أنا فانى أردد قول الله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ورأيى أن كليكما حكى بعض الحقيقة ؛ فليس عامل التغير النابغة وحده ، ولا الفرد وحده ، ولا البيئة وحدها ؛ وإنما هو « الانسان فى البيئة » والنابغة فى الظروف ؛ وكلا كما أهمل جداً جانب الروح ، مع أن التاريخ كله ليس تاريخ النوابغ ولا تاريخ المال ، وإنما هو تاريخ الروح أيضاً . إن الروح الانسانية تسعى دائماً لغايتها المرسومة لها ، وغايتها الحرية المطلقة ، والظروف الخارجية تضغط عليها ، وهى تحاول دائماً دفع هذا الضغط وكسر الأغلال حتى تصل إلى غايتها .

وأحداث التاريخ سلسلة من الضغط على اختلاف الأشكال ومحاولة النفس تحررها من الضغط والأغلال نحو الطلاقة ، وهى دائماً فى خطوات إلى الأمام نحو تحقيق هذه الغاية .

ومن الخطأ فى نظرى تفسير كل شىء بالمادة وإهمال الروح ، والقول بأن الانسان مسير بمعيته لا بروحه . إن النظر إلى المادة وحدها جعل الغرض المنشود هو القوة المادية بالمال وبالقوة الحربية ، فماذا كانت نتيجة ذلك ؟ نتيجته صراخ الأرض حتى تجب من صراخها السماء ، وتكوين الحرائط عالك ومستعمر ، واستعباد أكثر الانسانية لأقلها ، ولذة الأقلين بألم الأكثرين . إن الأمم ظلت تتسابق فى القوة المادية حتى ضاعت حكمة حكيمها ، وفلسفة فيلسوفها ، وعميت عن الغاية من القوة ، واتخذتها غاية لا وسيلة ، حتى ذهب من الأرض سلمها وجمالها ؛ وفى التاريخ مايرشدنا إلى أن القوة المادية كالقوة العسكرية تنتهى دائماً بتحطيم نفسها . كان كذلك اليونان والرومان ، والقرطاجنيون ، ومن أتى بعدهم إلى اليوم .

إن العالم قوى جسمه وقوى عقله وقوى يده ، وبقى عليه أن يقوى قلبه ؛ ولعل الكوارث الحاضرة تنتهى إلى الالتفات إلى القلب كما التفت إلى إخوته .

وقوة الروح هى التى تغير الأمة وتخلق المادة .

الاقتصادى : ألست ترى أن دعوتك إلى الروحية كدعوة المتصوف إلى الصوفية ؟ وما ظنك بصوفى ينازل جنديا مسلحاً ؟ إن شئت أن تدعو إلى الروح فعمم الدعوة ، ولا تدع إلى وضع السلاح حتى يضعه خصمك ، وإلا أكلت .

الأديب — إن السلاح سيأكل نفسه .

الاقتصادى — إنى أشك .

ونظر أحدهم إلى الساعة فوثب قائلا : هذا آخر موعد لآخر ترام

أحمد أمين

بقايا الفصاح

نشرتُ من أشهر مقالاً في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق اشتمل على ذكر طائفة من بقايا الفصاح ، وأعني بها الألفاظ التي استفاضت في العامّة وأصلها فصيح ، وهي لا تزال تستعمل في دمشق ، مثل قولنا : فشكّت فلانه ، وفلان لبه جاش ، وفلان يمزق مال أبيه ، أو مثل قولنا : اخ وفرتك والمطمطة والمراضة ، وغيرها من الألفاظ التي تعاقبت عليها السنون ، فتباعد فريق من الكتّاب عنها ، فذهب وهمنا إلى أنها عامية ، فهذه الألفاظ وكثير من أخواتها لا تزال شائعة في دمشق ، وأعتقد أن في كل قطر من أقطار العرب طوائف من هذه الألفاظ تجري بها ألسن العامة ؛ وقد كنت رددت ما ذكرته من هذا النمط إلى أصله الفصيح ، وبينت ما له من منزلة رفيعة في الأدب . وفي خلال مطالعتي لبعض أجزاء الأغاني في هـذا الصيف ، اهتديت إلى نمط آخر من بقـايا الفصاح غير النمط الذي نشرته في مجلة المجمع العلمي العربي ، فقد اهتديت إلى جملة من التراكيب التي شاعت في العامّة واستعملها بلغاء الكتّاب في قديم الدهر ، فقد أتى على استعمالها ما ينيف على ألف سنة والحياة لا تزال تملأ جوانبها ، وأنا لا أذكر هذا النوع من الكلام لبلاغته ، وإنما أذكره لشيء آخر غير البلاغة ، أفلا نشتهي في عصرنا هذا أن نعرف اللغة التي كان أهل العصور الماضية يتكلمون بها في مجتمعاتهم ويستخدمونها في كتاباتهم ؟ أفلا نشتهي أن نرى لغتنا متصلاً آخرها بأولهـا ، وأن نعرف الأحوال التي تقلبت فيها على تراخي السنين ؟ والخلاصة أفلا نجد لذّة وحبوراً إذا علمنا أن التركيب الفلاني المتغلغل في يومنا هذا إلى جماهير العامّة أصله فصيح ، أتت عليه أحقاب طويلة وهو لا يزال حيّاً ، لم يذهب بحياته تعاقب أمم شتّى ، ولغات شتّى عليه ، فقد استطاع أن ينجو من تأثير العجمة التي خالطت لغة البلاد ، واستطاع أن يحتفظ بفصاحته وبعربيته على مرّ العصور ، أفلا نجد لذّة وحبوراً إذا علمنا أن هذه اللغة التي نستعملها في أحاديثنا في عصرنا هذا كانت من ألف سنة لغة كتّابنا وشعرائنا ، تفصح عن كثير من أفكارهم وعواطفهم ، فنشارك أولئك الكتاب والشعراء في هذه الأفكار وفي هذه العواطف ؟

إني أورد في مقالي هذا طائفة من تراكيب العامّة الفصيحة الأصـل لأنها حلقة من لغتنا ، فقد يأتي يوم يستطيع فيه العرب أن يصلوا آخر لغتهم بأوّلها ، وأن يعرفوا الأطوار التي تقلبت فيها ، سواء في ذلك لغة العامّة ولغة الخاصّة . فأي لذة أعظم من أن نعرف مثلاً اللغة التي كانوا يتكلمون بها على أيام بني أمية في مجالسهم ؟ فقد روى صاحب الأغاني أن زياداً الأعجم دعا غلاماً له ليرسله في حاجة فأبطأ ، فلما جاءه قال له زياد : منذ لدن داوتك إلى أن قلت لي ما كنت تصنعا ؟ يريد بذلك : منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لبيك ، ماذا كنت تصنع ؟ فهذا طراز من الكلام الذي كانوا يستعملونه في المخاطبات العامّة ؛ وإذا كانت هـذه الألفاظ على رأي أبي الفرج الأصبهاني في نهاية القبح والعجمة ، فصاحبها له كلام في شعره نادر ، ومعان نقية ، وقصائد مختارة ، ولـكن هذه الألفاظ القبيحة لا تخلو من قيمة تأريخية ، ليست يسيرة ، لأنها تدلنا على ضرب من الكلام المتداول في الأحاديث العامة .

من هـذه التراكيب ما عدّل تعديلاً قليلاً في بعض الأحرف . إنّا لا نزال نقول في لغتنا العامة : رجلي ورجلك ، ونحن نقول هذا القول إذا شئنا أن نرسل رجلاً في أمر من الأمور ، أو إذا شئنا أن نخرج هـذا الرجل

من المجلس ؛ فإذا أراد أن يتملّص من الذهاب لخطورة الأمر أو لشيء آخر ، أو إذا أبى الخروج من المجلس وحده قال لمخاطبه : رجلى ورجلك . . . أى لا أخرج وحدى ، ولا أذهب وحدى .

ذكر صاحب الأغانى فى كلامه عن أخبار ابن سريج مع سكينة بنت الحسين عليهما السلام ما يلى : وتقدَّم ابن سريج من الرجل صاحب المنزل ، فقال لأشعب : اخرج من منزل الرجل ، فقال : رجلى مع رجلك ، فخرجا .

فهنا استعملت مع بدلاً من الواو وهو تعديل يسير ، وقد تكون الواو فى هـذا المقام أخف على اللسان من (مع) ، فالمعنى الفصيح القديم مثل المعنى العامى الحديث .

ومن هذه التراكيب ما عدّل تعديلاً يسيراً فى ألفاظه ، فقامت فيها لفظة مقام أختها ؛ فمن قولنا فى أحاديثنا العامّة : فلان حطّ عينه على كذا . . . إنّا نقول هذا القول إذا أردنا أن تصوّر طموح البصر أو امتداد القلب إلى أمر من الأمور المادية أو المعنوية .

تكلّم صاحب الأغانى على حماد عجرد ونسبه ، فمن جملة كلامه ما يلى : قال أبو يعقوب الخزيمى : كنت فى مجلس فيه حمّاد عجرد ومعنا غلام أمرد ، فوضع حمّاد عينه عليه .

فقد استعملت فى هذا المقام مادة (وضع) بدلا من حطّ ، والمادّتان متقاربتان ، وقد تكون حطّ أخفّ من وضع ، فالتركيب الذى تستعمله فى لغتنا العامّة مثل التركيب الفصيح الذى كانوا يستعملونه فى القديم .

ومن هذا النوع الذى لم يفقد شيئاً من قوته وحياته قولنا : قام مثل المجنون ، ونحن نقول هـذا القول إذا أردنا الإفصاح عن قيام رجل غاظه أمر من الأمور ، أو سمع كلاماً فيه غلظة ، أو ما يشبه هذه الحالات .

روى صاحب الأغانى فى كلامه على أشعب وعلى أخباره حكاية أعرابى عبثوا به فى مجلس أبان بن عثمان ، فقال فى جملة كلامه : ثم نهض مثل المجنون ، حتى أخذ رأس بعيره .

فاستعملت فى هذا المقام نهض بدلاً من قام والمادتان متقاربتان فى المعنى .

ومن التراكيب التى عدّلت تعديلا قليلا فى ألفاظها قولنا : بعثت وراءه ، إذا أردنا بذلك دعوة رجل إلينا .

قال صاحب الأغانى فى أخبار ربيعة الرقى : فوقعت الرقعة فى يد صاحبه ، فأوصلها إليه ، من غير علمى ولا أمرى ، فبعث خلفى ، فلما دخلت عليه . . .

فاستعملت (خلفى) بدلا من (ورائى) والمعنى واحد .

ومن هذه التراكيب ما بقى على حاله ، لم يبدّل فى أحرفه ولا فى ألفاظه ، مثل قولنا : مات من الضحك ، إذا أردنا التعبير عن كثرة الضحك .

قال الشريشى فى حكاية ابن المغازلى عند المعتضد ما يلى : ولم يبق ورائى خادم ولا غلام إلاّ وقد ماتوا من الضحك . . . فما أظن أن أحداً يشك فى قوة هذا التعبير : مات من الضحك .

ومن هذا النحو قولنا فى هذا العصر : استر علينا ، الله يستر عليك . . . إنا نقول هذا القول إذا صدر عن أحدنا أمر فيه ريبة ، وقديماً كانوا يقولون القول نفسه ، فقد ذكر صاحب الأغانى فى كلامه على أخبار الحزين ونسبه ما يلى : فلما رآها قال : أقسم بالله ما اجتمعنا إلاّ على ريبة ، فقال له ابن أبى العتيق : استر علينا ، ستر الله عليك !

ومثـل هذا التركيب قولنا : وقعت فى أذنى ، أى الـكلمة .

ففى كلام أبى الفرج الأصبهانى على أشعب وأخباره ما يلى : فقال لهم عثمان : من أغمد سيفه فهو حر ، قال أشعب : فلما وقعت والله فى أذنى كنت أول من أغمد سيفه . . .

وقد يطول ذكر هذه الشواهد فأختمها بحادثين

لأنتقل إلى نمط آخر من بقايا الفصاح دون شيء من التبسط .

لايزال الناس يعوذون بالله من الشيطان الرجيم ، ويلعنونه في كل مقام ، ومع هذا كله فهم لايستغنون من هذا الشيطان في استعمالهم لبعض أنواع البديع ، فهو مادة لبعض تشبيهاتهم واستعاراتهم ، فالعامة لا تزال تقول : فلان شيطان ، وتريد بمثل هذا الكلام الدلالة على فهمه أو على حذقه أو على حسن تصرفه وأشباه هذه الأمور .

وقد جاء في الأغاني في كلام لصاحبه على خبر لبيد في مرثية أخيه ما يلي : وكان هؤلاء الثلاثة رءوس القوم وشياطينهم .

فلا غنى لنا عن الشياطين لا في القديم ولا في الحديث ، إنهم لا يزالون مادة لبياننا .

أما المادة الثانية فهي قولنا : فلان متكلم ، ونحن نريد بذلك تصوير الرجل الذي إذا تصدر كان له بيان رائع في كثير من الأمور .

وفي الأغاني ، في كلام لأبي الفرج على الزرقاء صاحبة ابن رامين ما يلي : وكانت عاقلة ، مقبولة ، متكلمة ، فأعجبه ما رأى منها .

فليس في اللغة لمادة متكلم هذا المعنى الذي جعلوه لها في القديم والحديث ، ففي اللغة يقال : تكلّم فلان إذا تحدث ، ورجل تِكِلّامة وتِكْلام وكَلْمانى وكِلّمانى جيد الكلام فصيحه ، ولكن الرجل المتكلم غلب على الرجل التكلام أو الكلمانى ، فالعامة تذهب إلى سهولة التعبير بطبيعتها .

وإلى جنب هذا الطراز من تراكيب العامة الفصيحة الأصل طراز آخر يدخل في اللغة الشعرية ؛ فالعامة تميل في بعض لغتها إلى البديع وتستعمله من دون علمها ، فمن قول العامة في دمشق : بالوعد يا كمّون ، وهم يقولون هذا القول لرجل غير صادق الوعد .

وقد لجأ إلى هذا التعبير شاعر منقطع النظير ، وأعنى به بشاراً ، فقد قال في هجو حمّاد عجرد :

مواعيد حمّاد سماء مخيلة

تكشف عن رعد ولكن ستبرق

إذا جئته يوماً أحال على غد

كما وعد الكمون ما ليس يصدق

ولكني أرى قول العامة (بالوعد يا كمون) أخف على اللسان من شعر بشار .

ومن هذا النوع قولنا في أحاديثنا العامة : من الدالف إلى تحت المزراب ، ونحن نريد بذلك الانتقال من مصيبة إلى مصيبة أعظم .

ولكن ليس في اللغة لمادة الدالف المعنى الذى تريده العامة ، فهي تريد بالدالف الوكف والقطر ، وأما المزراب فهي فصيحة ، إنها المزراب ، والمزراب هو الميزاب ، قال أبو العتاهية :

أنت مثل الذي يفر من القطر

حذار الندى إلى الميزاب

وهكذا فقد نجد في بعض تراكيب العامة ما انحدر أصله الفصيح من شعراء أمثال بشار وأبي العتاهية ، إلا أني لا أشاء الاسهاب في هذا الباب ، وإنما ذكرت ماذكرت من بقايا الفصاح في مقالي هذا حتى أبين أنه كما استطاعت طائفة من الألفاظ الفصيحة أن تعيش في العامة في عصرنا هذا على الرغم من تعاقب السنين عليها ، فكذلك استطاعت طائفة من التراكيب الفصيحة أن تعيش في هذه العامة ، فهل يأتي علينا حين من الدهر نرى فيه تقارب لغة العامة ولغة الخاصة كما هي الحال في بعض لغات الأفرنجة ؟

(دمشق) شفيق جبرى

٢ - مســتقبل المدنية

حاول المستر جود فى محاضرتيه الأوليين أن يشخص المرض الذى أصاب مدنيتنا فأوصلها إلى حالها التى هى عليها الآن ، وقال إن الداء الذى أصيبت به كامن فى الثغرة التى تفصل قوتنا عن حكمتنا . ذلك أن العلم قد وضع فى أيدينا مفاتيح الحياة الطيبة الراضية ، ولكننا لم نعرف بعدُ كيف نفتح بها أبواب هذه الحياة ، وأن لدينا وسائل الحياة الطيبة ولكننا نجهل أغراضها . ومن أجل ذلك كانت مدنيتنا مدنية عرجاء . ولا تصلح هذه الحال إلا بإزالة مابين قدرتنا وحكمتنا من فوارق ، وسد الثغرة القائمة بين وسائل الحياة وغاياتها وقد عرض المحاضر ثلاثة من أنواع العلاج المقترحة لهذا الداء .

فأما الأول فهو منع هـذه الزيادة المطردة فى قوة الانسان التى يستخدمها فى الشر والدمار ؛ ويقول أصحاب هذا الرأى : إن العلم قد بدل بيئة الإنسان فى المائة والخمسين عاما الأخيرة تبديلاً تاما سريعاً ، عجز الانسان فى خلالها عن هضم ما أدخله على هذه البيئة من تغيرات أساسية ؛ وذلك لأن الخلائق التى حدثت هذه التغيرات حولها لم تتبدل هى الأخرى إلا قليلاً ؛ فنحن لا نملك الآن إلا تلك الطائفة المحدودة من الغرائز التى كان آباؤنا الأقدمون يعيشون بها فى بيئة لاصلة بينها وبين بيئتنا الحاضرة ؛ فعادات الإنسان الاجتماعية قد تطورت كثيراً ، ولكن المادة الإنسانية التى تصدر عنها تلك العادات قد بقيت على حالها لا تكاد تختلف عما كانت عليه فى العصر الحجرى ، ولهذا أصبحت غرائز الانسان لا تتفق مطلقاً مع الحياة التى يحياها فى هذه الأيام .

ويعانى الانسان من جراء ذلك آلاف الاضطرابات العصبية التى يدعى أصحاب التحليل النفسانى أنهم يستطيعون تشخيصها ولكنهم لا يفلحون فى علاجها .

وهذه الاضطرابات قد تصيب الشعوب كما تصيب الأفراد ؛ فعقـل الانسان أشبه بقطعة من المطاط إذا شددتها أكثر مما تطيق أفلت طرفها من يدك وعادت أقصر مما كانت . وهذا سبب من أسباب الحركات التى تقوم من آن إلى آن ضد المدنية الحاضرة ، والتى منها حركات النـازيين والفاشيين ؛ ذلك أن ما ألفنا أن نسميه رقياً يلقى على العقل البشرى عبئاً ثقيلاً ، هو عبء تكييف نفسه تكييفاً مستمراً حسب ظروف الحيـاة الجديدة وأساليبها . وقد يسير هذا الرقى بخطى أسرع مما تستطيع أن تجاريه قدرتنا على هذا التكييف ؛ وعند ذلك لا بد أن يحـدث هذا رجعة واعتراضاً ومقاومة من أولئك الذين يتحملون القرص لسلب هذا الرقى من الذين يستطيعون أن يحسنوا الانتفاع به كالعباقرة والعلماء والكتاب والفنانين وأمثالهم . وإذ كان الناس لا يقدرون على فهم هذا الرقى كله ، وليس فى وسعهم أن يتابعوا ما يفهمونه منه فليس أمامهم إلا أن يقفوا تياره إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

هذا هو ما يدور فى ذهن أولئك الذين يرون أن العالم يتقدم بسرعة لا تستطيع طبيعة الانسان أن تجاريها ، وهذه الحقيقة هى الأساس الذى قامت عليه طائفة من الآراء والعقائد الاجتماعية والسياسية ، كالدعوة إلى المحافظة على التقاليد الصالحة القديمة ، والرجوع إلى أساليب الحيـاة البسيطة ، والحرص على بقاء الجنس ، وتطهير البلاد من الفساد السياسى ومساوئ الحكم الدمقراطى ونحوها من العقائد « فليوقف تقدم العلوم إلى حين ، حتى يستطيع الانسان أن يساير التغيرات التى يؤدى إليها هذا التقدم مادام الانســان عاجزاً عن تكييف نفسه حسب البيئة التى يعيش فيها ، لأن هذه البيئة تتبدل باستمرار » .

ومن الوسائل المقترحة للوصول إلى هذا الغرض أن يمنع نشر نتائج الأبحاث العلمية الطبيعية والكيميائية، وأن توجه بعض الجهود التي تصرف في هذه الأبحاث إلى النظر في طبيعة الجماعات البشرية وجهودها، لنعلم هل تستطيع تلك الجماعات أن تهضم التغيرات التي يأتي بها العلم وتستمد لتلقي المخترعات الجديدة. وليس من قبيل المصادفات أن تكون الطبيعة والكيمياء أكثر العلوم تقدماً، في حين أن علم الاجتماع وعلم النفس لم يكد كلاهما يتخطى مرحلة المشاهدات ويصبح علماً ذا قواعد وأصول. لقد كان تقدم العلوم الطبيعية والكيميائية أمراً لابد منه، لأننا صرفنا جهودنا ووقتنا في دراسة طبيعة المادة، فلم يبق لدينا من الوقت ولا من الجهد ما نصرفه في دراسة طبيعة الانسان؛ ولذلك يجب أن نحد من عدد المخترعات والاكتشافات، وأن نحاول في الوقت نفسه أن نزيد علمنا بطبيعة الانسان، وأن نعرف بنوع خاص إلى أي حد يمكنه أن يتحمل العبء الناشئ من تكييفه حسب بيئته دون أن ينتكس ويرتد.

ذلك اقتراح خلاب جميل الظاهر، ولكنه مستحيل التنفيذ، وتقوم في سبيله اعتراضات ثلاثة: أولها من هم الحكمون الذين سيعهد إليهم السيطرة على المخترعات الجديدة ليجيزوا منها ما يشاءون ويمنعوا ما يشاءون؟ لن يكون هؤلاء هم العلماء بطبيعة الحال، لأن العلماء ينكرون على الناس هذا الحق، ويرفضون أن تكون لهم يد في منع المخترعات والمكتشفات؛ فهم يعملون لغرض واحد، وهو أن يزيدوا علم الانسان، ولا يبالون عما يفعله المجتمع بهذا العلم، فليستخدمه في خيره أو في شره إذا شاء، وليس عليهم إلا أن يكتشفوا وأن يخترعوا، وليكن بعد ذلك ما يكون؛ هذا هو واجبهم أو ما يريدون أن تعتقد أنه واجبهم.

والاعتراض الثاني أن كل رأي يرمي إلى تحريم البحث العلمي الحر أو إلى تحريم نشر نتائج هذا البحث ينطوي على خطر عظيم، لأنه يؤدي إلى الاستبداد ويعود بنا إلى حالة شبيهة بحالة العصور الوسطى من الضغط على الحريات وانتشار الخرافات والتحكم في الآراء والاعتقادات.

والاعتراض الثالث أنه ما من أمة في العالم ترضى أن تخطو وحدها هذه الخطوة الجريئة فتقبل باختيارها أن تصبح في العلم وراء غيرها من الأمم، وأن يسبقها غيرها في صنع الآلات الجديدة والاستحواذ على القوى الجديدة، لأن معنى هـذا القبول أنها ترضى بأن يسبقها غيرها في السيطرة على قوتي التعمير والتدمير في هذا العالم.

وقصارى القول أن هذا الاقتراح لا يمكن العمل به في ظروف العالم الحاضرة ونظامه السياسي الحاضر، ولا يمكن تنفيذه إلا باشراف هيئة عالية، وإنشاء هذه الهيئة معناه أن في وسع أمم العالم أن تتعاون في التفكير والعمل لخير العالم كله ومنع الناس من أن يسيئوا استخدام نتائج الأبحاث العلمية؛ وإذا كان في وسعها أن تجتمع فلتجتمع لإصلاح حال العالم دون أن تحتاج إلى وقف رقي العلم والاختراع.

وهذا يؤدي بنا إلى الاقتراح الثالث وهو تأليف حكومة دولية تشرف على شئون العالم؛ ويتردد هذا الاقتراح الآن على ألسنة الساسة، وقد أشار إليه ميثاق المحيط الأطلنطي. وهناك عدة أشكال مقترحة لهذه الحكومة أيسرها إنشاء حكومة عالمية اتحادية على مثال حكومة الولايات المتحدة الأمريكية؛ ويقول أصحاب هذا الرأي إن العلم قد ربط أجزاء العالم برباط قوي وألف منها وحدة متصلة يتأثر كل منها بما يحدث في الجزء الآخر؛ فاذا أضرب عمال صناعة ما في أمريكا مثلا تأثر بذلك عدد كبير ممن يملكون أسهما في هذه الصناعة من أهل القارات الأخرى؛ وأهم عامل في هذا الارتباط هو تقصير المسافات أو محوها. غير أن أحوال العالم

السياسية لم تجار هذا الارتباط بين أجزائه ، فظل مقسما إلى دول منفصلة تقوم بينها حدود اصطناعية ؛ فالعالم الذى أصبح وحدة متصلة من الناحية الاقتصادية ظل أقساما منفصلة من الناحية السياسية . وعلاج هذا الحال هو العمل على إزالة الحدود المصطنعة بين هذه الأقسام وتأليف دولة اتحادية أيا كان شكل هذا الاتحاد .

سيقال بطبيعة الحال إن الدول حاولت أن تفعل ذلك حين أنشأت عصبة الأمم ولكنها لم تفلح ؛ والجواب أن الدول لم تحاوله لأن العصبة لم تكن حكومة واحدة بل كانت مؤلفة من عدة حكومات لكل منها الحرية الكاملة فى أن تضرب بقرارات الأمم الأخرى عرض الحائط إذا وافق ذلك هواها أو هوى الحاكم الذى يسيطر على شئونها ؛ وكان مثلها كمثل جمعية من الأفراد يسيطر عليها قانون عام ولكن لكل عضو من أعضائها أن يتجاهل هذا القانون ولا يعمل به إذا بدا له ذلك ؛ ومن أجل هذا يدعو أنصار الحركة الاتحادية الجديدة إلى إقامة حكومة عامة واحدة من ورائها قوة تؤيدها ؛ وللوصول إلى هذا الغرض تقسم شئون الدول الداخلة فى الاتحاد إلى قسمين ، يشمل القسم الأول منها ما يهم أفراد كل أمة وحدهم ، كشئون التعليم والتشريع الجنائى والجزائية وإقامة المستشفيات وإنشاء الطرق ونحوها ، وهذه الأمور تبقى كما هى الآن تحت سيطرة الحكومات المحلية . أما القسم الثانى فيشمل الأمور التى تهم الناس عامة ، كالشئون الخارجية والتسليح والنقد والتجارة الخارجية والنقل ، وهذه الأمور يجب أن تنتزع من الدول وتوضع تحت إشراف حكومة الاتحاد التى تختارها الشعوب صاحبة الشأن لتصرف أمورها .

فإذا تحقق هذا الأمل نجا العالم من كثير من الأهوال التى يتردى فيها من آن إلى آن ، وإذا لم يتحقق ظل يتردى فى حرب بعد حرب حتى تتقوض أركان حضارته . ونحن رغم إيماننا بأن إنشاء حكومة من هذا النوع ضرورى لسلامة الحضارة ومنعها من الانهيار ، لا نعتقد أنه يكفى لمنع هذا الانهيار إلى الأبد ، وهو لا يعدو أن يكون جسرا أعد فوق الثغرة التى أشرنا إليها من قبل ، أى الثغرة القائمة بين قوانا العقلية وحكمتنا السياسية ؛ أما دعائم هذا الجسر فستبقى قائمة على غير أساس متين فى أرض رخوة غير مستقرة ، تجعله مزعزعا لا ثبات له . وهذه الأرض الرخوة هى قلب إنسان هذه الأيام وروحه ؛ ذلك بأن المجتمع الإنسانى ليس إلا صورة من النساء والرجال الذين يؤلفونه ، وليس فى وسعك أن تحصل على مجتمع صالح من نساء غير صالحات ورجال غير صالحين ، ولذلك فإن العلاج الأخير للحال التى يشكو منها العالم الآن يجب أن يتجه إلى قلوب الناس وأرواحهم وذلك هو موضوع محاضرة جود الرابعة وموضوع مقالنا الآتى إن شاء الله .

محمد بدران

في الميزان الجديد :

الشعر المهموس

٢ — « يا نفس » لنسيب عريضه

حاولنا في مقال سابق أن ندل على ما في قصيدة ميخائيل نعيمه « أخي » من عناصر إنسانية نعتقد أنها كفيلة بأن تضمن لها الخلود بين الناس كافة رغم ما قيلت فيه من ملابسات خاصة . وها هي قصيدة أخرى لنسيب عريضه نحللها ، لأنها تحرك عدة مسائل لا بد من أن نجلوها بضرب المثل : منها الغموض والوضوح ، ومنها مشكلة العبارة وما يأخذه البعض ظلماً على شعراء المهجر من ملهلة النسج ؛ ثم إن فيها إشارات كثيرة إلى نظريات فلسفية معروفة ، ومع ذلك استطاع الشاعر بقوة إحساسه وروعة صوره أن ينجو بها عن استواء الأفكار المجردة ؛ وأخيراً فيها ما يمكننا من معالجة العناصر الموسيقية في الشعر العربي وكيفية استخدامها .

القصيدة حديث يخاطب به الشاعر نفسه :

يا نفس مالك والأنين؟ تتألمين وتؤلمين ؟ ! !
عذبت قلبي بالحنين وكتمته ما تقصدين

وها نحن منذ المقطوعة الأولى في جو الشعر ، فالنفس تئن . وننظر في السؤال « يا نفس مالك والأنين ؟ » ، فلا ندرى أهو عتاب أم لوم أم شفقة ؛ وهى تتألم وتؤلم على نحو لا نعلمه ، ولكننا نحس بصدق الشاعر ، وهى تعذب القلب بالحنين وتكتمه ما تقصد ، حنين إلى المجهول . ومن عجب أن تكتم النفس ما تجهل ! ثم هل هى غير القلب ؟ هل هى تعارضه ؟ أسئلة لا محل لإلقائها ، وما يجوز أن نبحث لها عن حلول نوضحها ، وإلا ضاع جمال الشعر . حالة نفسية غامضة لا نستطيع إدراكها بعقولنا ، لأنها أعمق من أن تحلل وأخفى من أن تفسر . نفس تشع .

قد نام أرباب الغرام وتدثروا لُحف السلام
وأبيت يا نفس المنام أفأنت وحدك تسهرين!

ثم :

والليل مرّ على سواك أفنا وهام ما دهاك
فيمَ التجرد والعراك ؟ ما سور جسمى بالمتين

وبذا نسير إلى قلب الفكرة الفلسفية التى ترى الجسم سجناً للنفس ، فكرة إغريقية قديمة ، ومع هذا تكسبها الحركة خفة الشعر ، « الليل مر على سواك » تقرير يعقبه « أفنا وهام ما دهاك » استفهام لا نستطيع أن ندرك معناه ، وإن كان فى السؤال الآخر : « فيم التجرد والعراك » ما يشعر بأنه إنكارى . وأخيراً تأتى القافلة « ما سور جسمى بالمتين » منفية مؤكدة فى قوة يقف عندها النفس ويطمئن الميل للموسيقى . وهكذا بالمرور من الخبر إلى الانشاء ، ثم العودة إلى الخبر ، قد استطاع الشاعر أن يحقق تلك الحركة التى تحاكى ما بنفسه من اضطراب .

ونلتفت إلى الموسيقى ، فاذا هى أجمل ما فى القصيدة . وفى الحق أن شعراء المهجر قد جددوا موسيقى الشعر العربى تجديداً يستحق أن نطيل فيه النظر . ونحن الآن إزاء بحر تقليدى (مجزوء الكامل) ، ولكن انظر كيف استخدمه الشاعر ، فالوحدة لم تعد البيت بل المقطوعة (قد نام . . . . . تسهرين) ، وفى كل مقطوعة نجد أربعة أشطر ، الثلاثة الأول يتفق بعضها البعض ، وأما الشطر الرابع الذى نسميه « القافلة » فيتفق القوافل الأخرى ، وعلى هذا النحو تطرد القصيدة . كل وحدة تتكون إذاً من ثمانى تفاعيل تسيل إلى أن توقفها القافلة النونية الساكنة ، ثم تعود فتستأنف سيرها فى المقطوعة التالية إلى أن تقف . . . وكان من دقة إحساس الشاعر

أن وقع على الكامل المتساوى التفاعيل ، وذلك لأن الاضمار (إسكان الثانى المتحرك) ليس فى الحقيقة زحافاً ، وهو لا ينقص شيئاً من كمّ التفعيلة ، وإنما يستبدل مقطعين قصيرين (مُتَفاعلن) بمقطع واحد مغلق (مُتْفاعلن) يبلغ فى الكم مبلغ المقطعين الآخرين ؛ وبهذا لا يتغير فى التفعيلة الزاحفة غير الايقاع بسبب التسكين ، وأما طول التفعيلة فيظل ثابتاً . وإذا ذكرنا أن الاضمار هو الزحاف الكثير الدخول على الكامل ، وأن الطى (حذف الرابع الساكن) لا يكاد يجتمع إلى الاضمار إلا فى التفعيلة الأولى من الشطر الثانى ، وأنه فى تلك الحالة يغلب أن يعوضه الترفيل (زيادة مقطع فى تفعيلة القافية) — إذا ذكرنا كل ذلك أدركنا أن هذا البحر من البحور المتساوية التفاعيل على نحو مطرد لا يكاد يكون فيه شذوذ . والكامل والوافر هما البحران الوحيدان اللذان تنطبق عليهما تلك الصفة ، ولربما كان فى ذلك سبب لتسمية الخليل لهما بهذين الاسمين .

ونضيف أننا لم نعثر بعلى فى القصيدة التى ندرسها الآن ، وإذا صحت ملاحظتنا وضح السر فى إيثاء هذا الوزن بالاطراد ، وكل اطراد يلائم الاضناء والحيرة اللذين يزيدها وضوحاً طول المقطوعة ، وهى لا تقف عنده سكون القافلة إلا لتعود من جديد ، كأمواج البحر التى تتحطم تباعا مرتدة عند صخر الشاطئ ؛ وهذا عاش بناء القصيدة المكونة من فروض متتابعة وموجات نفسية متجددة ؛ وهذه وتلك يطول نفسها ويطّرد ، ثم تخفى ليعود غيرها إلى الظهور . توفيق رائع إلى الملاءمة بين موسيقى الشعر وموسيقى الاحساس ، بين الصياغة ونفس الشاعر . ثم إن الاطراد هنا لا ينتهى إلى الفقر والاملال كما يحدث أحياناً ، فقد عرف الشاعر كيف يتجنبه بالحركة الشعرية ، ثم بتقسيمه لتفاعيله الثمان إلى أربع وحدات ، ثلاث منها تنفصل وتجمع بينها القوافى ، ثم يأتى سكون القافلة فيتصل ويجمع بين وحدات القصيدة كلها .

وننظر فى اللفظ فتعرض لنا مشكلة طالما أثرناها فى مصر . هى أخذنا على شعراء المهجر ما نسميه ضعف العربية فى الأسلوب ، وهذه تهمة يجب أن نقلع عنها ، لأنى كلما أمعنت النظر فى ألفاظهم وتراكيبهم لم أجد لها مثيلا فى شعرنا الحديث ، من حيث الدقة والقدرة على إثارة الاحساس . نعم قد يخطئون فى النحو أو الصرف ، ولكن هذه فى نظرى أشياء تافهة نادرة لها نظائرها عند أكبر الكتاب ، وإلى اليوم لا يزال الفرنسيون يضربون المثل بفلتير فى الخطأ فى الاملاء . وإنما يعيب الأسلوبَ عدمُ التحديد أو العجز عن الايحاء ، وتلك عيوب لا وجود لها فى شعرهم . أما استخدامهم للألفاظ المألوفة فلست أرى فيه موضع ضعف بل قوة ؛ وذلك لأن الألفاظ المألوفة ، ولا أقول المبتذلة ، هى التى تستطيع فى الغالب أن تستنفد إحساس الشاعر ، كما أنها أقدر من الألفاظ المهجورة على دفع مشاعرنا إلى التداعى ، وقد كثر استعمالنا لها فى الحياة ، فتحددت معانيها ، وتلونت بلون نفوسنا ، فحملت شحنة عاطفية . وهذه صفات من أول خصائص الأسلوب الشعرى ، بل أسلوب الأدب بوجه عام . وها نحن نسمع عريضه يقول : «أفما دهاك ما دهاك» ، أو «ما سور جسمى بالتين» ، فندرك «الداهية» التى لها وقع متميز فى نفوسنا ، ونتصور «السور» فى يسر قد لا يستطيعه خيالنا لو استبدلناه بـ «السياج» .

أطلقت نوحك للظلام   إيّاك يسمعك الأنام
فيظن زفرتك النيام   بوق النشور ليوم دين

وهذا بلا ريب إسراف فى الصور ، لا تنكر أنه قلق ، وأن نغماته أقوى من الهمس ، فيه مبالغة تخرجنا من الالفة ، ونحن لا نكاد نتصور كيف يصل نوح النفس إلى أن يكون «بوق النشور ليوم دين» ، ولا نرى

ضرورة لهذا العنف فى التعبير ، ولكن هذا قليل .

يا نفس مالك فى اضطراب   كغريبة بين الذئاب
هلا رجعت إلى الصواب   وبدلت ريبك باليقين ؟
أحمـــامة بين الرياح   قد ساقها القدر المتاح
فابتل بالقطر الجنـــاح   يا نفس ما لك ترجفين

أسئلة متدفقة توحى بما فى نفس الشاعر من حيرة ، وصور جميلة دالة . النفس المضطربة كغريبة بين الذئاب . النفس التى ترجف كحمامة بين الرياح قد بلل القطر جناحها . وفى اختيار الألفاظ ذوق دقيق ودليل واضح على أن الشاعر يرى ما يقول . وهل أدل على تلك الرؤية الشعرية من أن « تضطرب » النفس بين الذئاب بينما هى « ترجف » وسط الرياح وقد بلل القطر جناحها ؟

أو ما لحزنك من براح   حتى ولو أزف الصباح
يا ليت سرك لى مباح   لأعى صدى ما قد تعين

والشاعر لا يحس فى وضوح بغير حزنه ، وأما السر فى ذلك فتراه يتساءل عنه وهو بعد لا يعلم أتعرفه نفسه أم لا . أو لا تراه يقول : « لأعى صدى ما قد تعين » ؟ فهى قد تعى شيئاً ، وهو — إذا أباحت له سرها — لن يستطيع أن يعى منه غير الصدى .

أسبتنك أرواح القتام   فأرتك ما خلف الختام
فطمعت فيما لا يرام   يا نفس كم ذا تطمحين ؟!!

وهنا ندخل فى سلسلة من الفروض الشعرية ، يريد بها الشاعر أن يحاول الفهم ، وهو فى الحق يكاد يكون يائساً منه ، وإنما هو إحساس نفس طموح تطمع فيما لا يرام ، وكأن بها قد استشرفت يوماً أسرار الوجود . ثم كم فى التفاته « يا نفس كم ذا تطمحين ؟!! » من نفاذ يصل إلى القلوب .

أصعدت فى ركب النزوع   حتى وصلت إلى الربوع
فأتاك أمر بالرجـــوع   أعلى هبوطك تأسفين ؟!

وتلك نغمات أفلاطون الشعرية الجميلة يوم حدثنا عن هبوط النفس من عالم المثل الذى لن تستطيع أن تغالب الحنين إليه . ولكم جرت بذلك أنفاس الشعراء منذ « هبطت إليك من المحل الأرفع » إلى « الانسان ملك هوى ، فما يزال يذكر السماء » ، منذ ابن سينا إلى لامرتين .

أم شاقك الذكر القديم   ذكر الحمى قبل السديم
فوقفت فى سجن الأديم   نحو الحمى تتلفتين
أأنست فكراً فى الفضاء   فتبعتـــه فوق الهواء
فنأى وظلت فى الملاء   فرجعت ثكلى تندبين
أسلكت فى قطر الخيال   دربا يقود إلى المحال
فحططت رحلك عند آل   يمتص رى الصـــادرين

فروض لا شك من تصورات العقل ، ومع ذلك تنجيها الصور من البرود ، بل تجعل منها شعراً رائعاً ، فالنفس تراها تطل من سجنها نحو الحمى « متلفتة » فى لهفة ، وهى تحلق فى الهواء كمن يبحث عن مفقود لا يجده ، فتعود حزينة (« ثكلى تندب » مسرفة مبتذلة) وهى تسلك فى عالم الخيال (قطر لفظة نثرية) ، دربا يقود إلى المحال ، ثم تحط رحالها عند سراب « يمتص رى الصادرين » ، وهذه صورة بالغة الجمال والقوة ، فالسراب الذى وصلت إليه لم يكتف بأن أسفر عن خلاء ، بل سلبها ما تملك وامتص ريها ، فصدرت عنه أشد ظمأ منها عند الورود .

فنسيت قصدك والطلاب   ووقفت يذهلك السراب
وهرقت فضلات الوطاب   طمعاً بماء تأملين

استقصاء للصورة واستمرار فيها ، وهو مذهب قديم عند كبار الشعراء ، إذ نراه من أهم خصائص شعر هوميروس الذى يشبه البشر بأوراق الخريف فى إحدى أغانيه ، فيرى فى تساقطها ما يحكى فناءنا ، ثم يتابع التشبيه ، فيذكر نهوض الأجيال بعضها فى أعقاب بعض كما تخلف الأوراق غيرها . . . وهو واضح عند

حضرة رؤوف افندى

تعمد الدكتور أحمد سامى أن يصل إلى الوزارة حوالى الساعة التاسعة ، أو حين ينتهى كثير من الموظفين من تناول الإفطار ، ويأخذون فى تصفح الجرائد ، كى يجد فسحة من الوقت للتحدث فى المسألة التى تشغله وتهمه ، وقصد إلى قلم العلاوات مسترشداً بمن صادفه من السعاة ، واجتاز بابه فى خطى ثقيلة وألقى نظرة شاملة على المكاتب والموظفين ، ثم اقترب من أدنى المكاتب إلى الداخل وحيا الموظف الجالس إليه بلطف وأدب ، وسأله بصوت خفيض : « أين رؤوف افندى عبد القادر من فضلك ؟ » فأومأ الرجل إلى مكتب خال يتوسط المكاتب ورد عليه قائلا : « هذا مكتبه ، وقد اعتذر من التأخير ساعة فتفضل بانتظاره » . فشكره الدكتور وذهب إلى المكتب وجلس على كرسى قريب منه ينتظر صاحبه الذى جاء خصيصاً لمقابلته ، بعد أن تجشم متاعب السفر إليه من الزقازيق مكان عمله ؛ وكانت مسألته على وجه التحقيق علاوة استحقها عند تطبيق الكادر الجديد ، وصرفت إليه شهراً ، ثم أوقف صرفها بحجة أنه تبين بعد ذلك أن شروط استحقاقه لها لم تكن كاملة ، ولم يفكر الدكتور فى معارضة قرار الوزارة ، إلا أن صديقا له — ورؤوف افندى أيضا — ممن يلمون بقواعد العلاوات ، اعتقد أن حرمانه من العلاوة فى غير محله ، فلعب الأمل بقلب الدكتور ، وارتأى أن يكتب للوزارة شكوى خاصة ؛ ولكن الصديق أشار عليه بمقابلة رؤوف أفندى رئيس قلم العلاوات الذى يثق فيه ثقة عمياء ، وقد قال له عنه وهو ما زال يذكره ويستعيده : « رؤوف افندى موظف كفء ، وحجة فى العلاوات وقواعدها ، لا تفوته منها كبيرة ولا صغيرة ، وقد عرض بعمله عهداً طويلا ، وقضى فى الدرجة الثامنة خمسة عشر عاما قبل أن يرقى إلى الدرجة السابعة ، ولدير المستخدمين فيه ثقة عمياء ، فهو مشيره وبده اليمنى على ما بينهما من فارق فى الدرجات ، ولكن ينبغى أن تحسن فهمه لتظفر بصداقته ومعونته ، وإلا انقلب لك عدوا يقيم فى طريقك العراقيل ، ويعقد لك الأمور بالأساليب الحكومية المعروفة ... فاعلم أنه رجل كثير الاعتداد بنفسه ، شديد الغرور ، تياه فخور ، حساس الكرامة إلى حد المرض ، كما يقع لكثيرين ممن يحاربون فى أعماق سرائرهم نقصا أو عجزاً ، وتنقصه مراكز فى تعلمه الأولى ودرجته البسيطة ، ولذلك تجده كثير

بعض شعرائنا كذى الرمة الذى يصف إشعال النار فيستقصى المراحل ويتابع الصور ، وكابن الرومى الذى يضرب المثل بوصفه لصانع الرقاقة ؛ ومع ذلك فثمة مفارقات ، فوصف ذى الرمة لاشعال النار ، ووصف ابن الرومى لدحو الرقاقة حرص على التفاصيل التى تتم اللوحة وتكسبها غنى الواقع . وأما استمرار هوميروس أو استمرار عريضه الآن فهو فى خدمة الفكرة أو الاحساس ، وهذا أسلوب فى الكتابة له جماله ، وهو يعد غير تنمية الأفكار على نحو مجرد ، لأن التجريد فى ذاته إفقار للواقع ، فلا أقل من تركيزه لتحتفظ للأسلوب بشىء من القدرة على الإيحاء .

حتى إذا اشتد الأوام والآل أسفر عن ركام
فبثت رأسك كالنعام فى رمل قلبى محترق

وهكذا تأتى الصور الجميلة الدالة ، ينتزعها الشاعر من معطيات حواسه المباشرة ، فتكسو الفكرة بأغشية الشعر ، وتنشر أمامنا مناظر يدركها الخيال ، بل تهتز لها النفس ؛ فالآل أسفر عن ركام ، والنفس تخبئ رأسها فى رمال القلب كالنعام . وكلنا لا ريب يحس بجمال « رمال القلب » المظلم ومعناها الانسانى العميق .

(يتبع) محمد مندور

الوساوس ، فيوجس من أطباء الوزارة خيفة ويضمر لهم الضغينة ، ويتهمهم بالغرور والعجرفة وسوء الأدب ، ويقول عنهم إنهم يعتقدون خطأ وباطلا أن الموظف الفنى من طينة غير طينة الموظف الكتابى وجبلة غير جبلته ، ولذلك يستبيحون احتقاره والاستعلاء عليه ، وطبيعى أن يسفه هذا الرأى ويقدح فيه ، وكثيراً ما يؤكد أن الموظف الكتابى رجل شهيد مهضوم الحق وأن عمله أشق فى الواقع من عمل الأطباء ... فحاذر أن يستشعر فى حديثك أو مظهرك الكبرياء أو الجفاء ، وأعتقد أنه لا تنقصك اللباقة ولا الحنكة ... على أن الأمر يستوجب أكثر من اللباقة والحنكة ... فرؤوف افندى — على صلفه وكبريائه — مغرم بالتدخين ، ولكنه لا يبتاع السجائر إلا فيما ندر ، وهو فى مواسم العلاوات لا يجد حاجة إلى ابتياعها إطلاقاً ... وغرامه بالحلوى لا يقل عن غرامه بالسجائر ، وإنفاقه عليه دون إنفاقه على السجائر ... هذا غير الحلوان والهدايا . ولأضرب لك مثلا بعصاه وساعته ومعطفه ، فجميعها هدايا تقبلها فى مختلف المناسبات . ولا بأس أن تعلم بأنه أب لستة أطفال أو سبعة ، لتسترشد بذلك فى اختيار الهدايا ، فاذكر هذا وافهمه جيداً .... »

وقد ذكره وفهمه ورتب لاحتمالاته ، ووازن بين ما يحتمل أن يبذله وما عسى أن يربحه ، فوجد أنه الرابح على أى حال ، لأن العلاوة التى يطمع فى استردادها جنيهان ونصف ، وهو مبلغ لا يستهان به ، ولبث ينتظر متصبرا وهو يقول لنفسه : إن مقابلة وزير لا تكلف مريدها هذه الواجبات الأدبية والمادية . ثم تنبه على وقع أقدام ثقيلة آتية من ناحية الباب ، فاتجه ببصره نحو القادم فرأى رجلا فى نحو الأربعين من عمره مفتول الشارب على الطريقة الغليومية ، يرتدى معطفا أسود ثمينا ، ويهز فى عناء عصا غليظة ذات مقبض عاجى ، مقبلا نحو المكتب الذى جلس إلى جانبه فى خطى وئيدة وخيلاء ، مقطب الجبين منتفخ الأوداج ، وقد حيّا الموظفين دون أن يعير أحدهم التفاتة أو تلين أساريره ، فلم يؤخذ الدكتور بمظهره وعلى العكس وجد ابتسامة ساخرة تحاول الإفلات من سريرته إلى شفتيه ، ولكنه تمالك عواطفه ونهض فأنحنى تحية للقادم العظيم ، فألقى عليه هذا نظرة عابرة ، ومضى يخلع معطفه متمهلا ويعلقه بالمشجب كما علق عصاه ، وكأنه لم يره أو يحس له وجودا ، فاستاء الدكتور وأوشك أن يستولى عليه الحنق — ولكنه لم يغفل عن غايته التى ينشدها ، فلم يبد على وجهه أدنى تغيير ، ودس يده فى جيبه فأبرز بطاقة صديقه وقدمها للموظف الخطير ، فتناولها الرجل وهو يلقى عليه نظرة لاح بها شىء من الاهتمام ، كأنما يدرك وجوده لأول مرة ، ثم نظر فى البطاقة وقرأ توصية الصديق فانبسطت أساريره قليلا ومدّ يده للدكتور فتصافحا ، وقال له مشيرا إلى الكرسى : « تفضل يا دكتور بالجلوس » ، فشكر الدكتور وجلس دون أن يلاحظ أن صوت الرجل علا وهو ينطق بلفظ « دكتور » ليملى شخصية ضيفه الموظفين ، ثم جلس رؤوف افندى كذلك وألقى على الموظفين نظرة كأنما ينظر إلى أشياء تمتلكها يمينه ، واستنظر الدكتور حتى ينظر فى الأعمال ، ودعا أحد الموظفين فجاءه يسعى بالأوراق المعدة للعرض ، وجعل الرجل يطالعها على مهل ويبدى ملاحظاته الشفوية ، طورا منتقدا وطورا معنفا ، ثم يوقع عليها بإمضائه ، ويتابع على مكتبه الموظفون فلم يشف واحدا منهم من ملاحظة ينغص بها ، والدكتور يراقبه عن كثب ، لا تفوته حركة من حركاته ولا قول من أقواله ، وقد أيقن بأنه مريض بمرض العظمة وأنه يصلح بغير شك لأن يكون نادرة من نوادر المزاح والعبث . وانتهى الرجل من المراجعة ثم التفت إلى الدكتور وهو يقول : « فرغت لك الآن .. فهات ما عندك يا دكتور » وتعمد الدكتور فى هذه اللحظة أن يبرز علبة السجائر الذهبية وقدم له سيجارا فألقى على

العلبة نظرة خاطفة وتناول السيجار شاكرا ، وتناول الدكتور أخرى ، ثم تكلم في الموضوع الذي جاء من أجله ، فذكر كيف تقررت له العلاوة وكيف حرم منها ، وشرح بإسهاب رأى صديقه في خطأ إجراء الحرمان ، وأصغى إليه رؤوف افندى بانتباه واهتمام يعادلان لذة السيجار النفيسة ، ووجه إليه بعض أسئلة تتعلق بموعد آخر علاوة صرفت إليه وتاريخ دخوله الخدمة ، ثم صمت صمتا عميقا ، وضيق عينيه وجعل يهز رأسه هزات بطيئة تدل على الأناة والتفكير ، والدكتور لا يحول عنه عينيه منتظرا الكلمة الفاصلة ، وقد امحى شعوره بالسخرية ، وحل محله اهتمام جدى مشوب بالقلق ، ونفد صبره فتساءل قائلا : « ماذا ترى يارؤوف بك ؟ » فالتفت رؤوف بك إليه وقد رفع حاجبيه الكثيفين وقال : « يادكتور احمد ... إلى عظم الأمل في أن أرد إليك هذه العلاوة » فلاح الارتياح في وجه الدكتور وقال بسرور : « حقا ؟ ... أريد رأيا قاطعا » فقال رؤوف افندى بثقة : « الأمر يتوقف على كيفية كتابة المذكرة ، وأعدك بأني أدرس حالتك بعناية تامة » فابتسم الدكتور وقال برجاء : « خير البر عاجله » ولكن الرجل أبدى حركة تدل على الأسف وقال : إنى الآن مشغول جدا يادكتور ، ولكني سأفرغ لك غدا أو بعد غد » فأحس الشاب خيبة وقال لنفسه إن الثعلب يطمع في مزيد من الرجاء والجزاء ، فكيف أغزوه ؟ ولكنه لم يبد من شكره فشكره ، وما زال يفكر في حل موفق ؛ وكان رؤوف افندى يهيىء له الفرصة وهو لا يدرى ، كان يفكر في أمر ذى بال يهمه فقال للدكتور : « لا تؤاخذنى يادكتور إذا انتهزت فرصة وجودك لأنتفع بعلمك » ، فقال الدكتور بسرور صادق : « إنى رهن إشارتك » ، فاستطرد الرجل قائلا : « لى ابن في العاشرة ، ورم ما تحت أذنيه منذ يومين وارتفعت حرارته ، فما ترى في ذلك ؟ » وكان الدكتور يتوقع خدمة أخطر من ذلك فسر سرورا مضاعفا وقال للرجل : « يحسن بي أن أفحصه بنفسى يا أستاذ رؤوف ، فدعنى أصحبك إلى البيت بعد انصراف الدواوين » . وشكره الرجل ثم تصافحا ، وغادر الدكتور القلم على أن يعود إليه في الموعد المضروب ...

وفي تمام الساعة الثانية عاد الدكتور إلى الوزارة وغادراها معا ، وكان رؤوف افندى يمشى مشية الخيلاء وفي فمه سيجار من علبة الدكتور الذهبية ، وقد أجمع الدكتور على أمر ، فلما بلغا ميدان الأزهار قال الشاب وكأن الفكرة خطرت له عرضا : يارؤوف بك إنى لم أتناول طعام الغداء بعد ، ولى زمن طويل لم أعرج على الحاتى ، فهلا تفضلت بصحبتى إليه ؟ » فلبث رؤوف افندى كالمتردد لحظة ثم أبرز ساعته ونظر فيها — وهى حركة لامعنى لها البتة — ثم قال مبتسما ولم يكن يبتسم إلا نادرا : « لا يأبى الكرامة إلا لئيم » ومضيا معا إلى الحاتى وجلسا متقابلين وطلب الدكتور رطلين من الكباب ، وفي أثناء تناولهما الطعام جعل رؤوف افندى يأنس إلى صاحبه ويألفه ، وما لبث أن زايله الصلف والجفاء ، فمزق قناع التكلف وانبسطت أساريره ، وبدا إنسانا لطيفا كثير الكلام ، وجعل الدكتور يحادثه ويعجب لأمره ، وقد بدا له أن يسأله عما يحمله على اتخاذ طبيعة غير طبيعته ، ولكنه تردد ثم عدل عما بدا له ، وقال لنفسه ما من شك في أنه يحكم القلم بمظهره الكاذب ، على أن الأمر يبدو هكذا ، فالخيلاء غالبا ما تتخذ قناعا لنقص أو هوان ، ولعلهما اجتمعا معا لرؤوف افندى ، ولكن ما لى أنا ولهذا ؟ فالأحرى بالمثل القائل (إن كان لك عند الكلب حاجة فقل له ياسيدى ..)

وغادرا الحاتى بعد أن امتلآ ، واستقلا الترام إلى السيدة زينب ، وترك الدكتور قياده لرؤوف افندى ، فمضى به من شارع إلى شارع حتى انتهيا إلى عطفة وعبس ، وهى عطفة ضيقة حقيرة تتراكم القاذورات في جوانبها وتغرق مساكنها في البؤس والفقر ، ويسورها التداعى ، فلم

يصدق الدكتور أن هذا الموظف الفخم يقيم في هذه الطلقة البائسة ، ولحظه بطرف عينيه فقرأ في وجهه الارتباك ، فأدرك حرجه وفطن إلى بواعثه ، والتفت الرجل إليه وقال بصوت كالمعتذر : « إنك تشرف دارا ليست قد المقام ، ولكن ماعسى أن يصنع موظف مثلي أبٌ لستة ، منهم واحد في الثانوى واثنان في الابتدائي ؟ ولقد أتى عليّ زمان كنت أقطن في عمارة حسن الفضل بشارع جعفر ، ولكنه الواجب كما ترى ...

فربت الشاب على كتفه وأثنى على همته وقال له : إن الأبوة البارة فضيلة قد لا يحظى بمثلها سكان الزمالك وجاردن ستى ، وبدأ يشعر بعطف نحو الرجل الذي كان يسخر منه ويتهكم به ، ثم دخلا بيتا متداعيا وولجا باب شقة في الدور الأرضى ، وأدخله حجرة إلى يمين الداخل ، استنتج أنها حجرة الاستقبال ، لم ير أثاث منها إلا في أكواخ الفلاحين بقرى الزقازيق ، فرشت بحصير وأثثت بكنبتين متقابلتين ، ولكن الظاهر أنها كانت تستعمل للنوم أحيانا كما استدل على ذلك من تراكم البق في شقوق جدرانها ، فتقززت نفسه ، ولبث متململا ، ولكن لم يطل انتظاره ، فجاء الرجل يقود بيده غلاما متورم الوجه ملتهب الجبين ، واستقبلهما الشاب مبتسما وأجلس الغلام على الكنبة وأقبل عليه يفحصه بعناية ، وأدرك أنه مصاب بالتهاب الغدة النكفية ، فكتب له روشتة الدواء وأوصاه بحجزه عن إخوته لمنع العدوى ، فشكره الرجل وخرج معه يوصله متأخراً عنه في احترام وإجلال ، وأبى إلا أن يرافقه إلى الطريق العام ، وسار إلى جانبه صامتا متفكرا ثم قال بصوت حزين : « يأبى الكدر أن يغفل عني ... وقد حسبت نفسي بالأمس أسعد الناس حين وعدني كبير من رجال المعارف بالسعي لاعفاء ابني من المصروفات المدرسية ، ولكني علمت الآن فقط أن الناظر أبي أن يقبله حتى يؤدي القسط الأول ، وهو لابد من تأديته ولو أعفى فيما بعد من بقية المصروفات » ... وأدرك الدكتور من مضاضة لهجته أنه لا يملك مليما من القسط المطلوب فتمتم قائلا بتأثر : « أعانك الله ياسيدى » ولكنه على تأثره وعطفه أمسك من التبسط في الحديث خشية التورط ، واختلس منه نظرة فطالع في عينيه نظرة متكسرة حائرة وقد أكفهر وجهه ولاح الكدر والغم على جبينه وهمى الحزن على نفسه ، وكأنه تناسى حرصه المعهود فقال بصوت كالأنين : « الأبناء ... الأبناء ... إنهم سعادتنا وشقاؤنا .. لعلك لاتعلم مقدار السعادة التي تمنحها ابتسامة طفل ، ولم تتذوق بعد الموسيقى الالهية المودعة لفظة « بابا » ولكن ما طعم الحياة وطيبها إذا أنّ بهذا اللفظ متألما من ورم وجهه ؟ وما لذة العيش إذا هتف به الآخر شاكيا حرمانه من الدراسة ؟ » وضغط الدكتور على يده ، ولم يجد مايقوله ، فلاذ بالصمت ولم ينبس الرجل بكلمة حتى بلغا الطريق فتصافحا وافترقا . وتمهل الدكتور قليلا وجعل يتتبع الرجل بناظريه ، فرآه يتعثر في خطاه الثقيلة وقد خفض رأسه من الغم والكدر ، ورجع رؤوف افندى إلى بيته وكانت تراءيه فيه الكبرياء فيبدو وديعا متكسرا ويفيض قلبه بالعطف والألم ، وقد توفرت له ذاك اليوم دواعيه لخلع ملابسه واستلقى على الفراش ينشد الراحة بعد طول العناء ، وجهد أن يطرد عن نفسه البلبال ، ولكنه استعصى عليه أن ينعم بالصفاء ، ومضى يحدث نفسه قائلا : « ما الحيلة الآن ؟ ! ... كيف أحصل على القسط الأول وما أملك ثمن الروشتة ؟ ... وهذا محمد مريض يتأذى ، وذاك على محروم من الدراسة .. ورباه لم يبق من أثاثنا ما يستحق أن أعرضه للبيع ، فماذا أنا فاعل ؟ ! » .

وأغمض جفنيه ورأسه ما زال مستعراً بالفكر ، ثم أسنده إلى كفه ، وقد تدلى شاربه المفاجم وتشعث ، ولكنه لم ينشط إلى فتله بالعناية والأناة المعهودتين اللتين يعرفهما عنه موظفو قلم العلاوات ... ... نجيب محفوظ

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

هذا البـاب ... — الرأى العـام — أمة ممزقة ! — الهدف العام — الجبلة المصرية — وصندوق البريد ... !

هذا الباب ....

قال لى صديقى :

« إلى أىّ غرض ترمى من هـذا الباب ؟ ... أراك لم تقتصر على نوع واحد من أنواع الكتابة ؛ فإنك لتكتب حيناً فى الأدب ، وحيناً فى الاجتماع ، وأحياناً فى الدين ، وتارات فى شئون التربية ؛ وإنك لحرىٌّ بأن « تتخصَّص » ؛ إن هذا الجهد المبعثر لن يبلغ بك ؛ ولقد حاولتُ مراتٍ أن أجتمع وإياك على رأى فى كل ما تكتب ، ولكنى أنا أيضاً أريد أن « أتخصَّص » ؛ وحاولت أن أجمع هذا « الخليط » من آرائك إلى باب ، وأردَّه إلى « خصيصة » مشتركة ؛ فلم أجد خصيصة تجتمع فى هذا الشتيت المبعثر إلا الثورة والحنق وروح التشاؤم ...

« ... هوِّن عليك ياصاحبى ، فلستَ ببالغ شيئاً من وراء كل ذلك ؛ إنك لتكاد تؤمن معى أنك فى طريق غير طريق الناس ؛ وخيرٌ لك أن تلزم آثار القافلة أيها « المنبتّ » فى بيدائه ! ! » .

• • •

ياصديقى ! ... أما « التشاؤم » فليس له سبيلٌ إلى نفسى ؛ إنى لأعرف أين أقصد ، وسأبلغ ، وقد بلغتُ أولَ « الدرب » حين حفـزتُك وحفزتُ طائفة من القراء معك على أن يسألوا : « إلى أىّ غرض ترمى من هذا الباب ؟ ... »

إن إلحاح هذا السؤال علىّ من طوائف عدة ، وإلحاح معناه على خواطر سائليه حيناً بعد حين — لدليلٌ على أنى قد بلغتُ مرحلة من مراحل « التنبيه العام » ، وما أحرى هؤلاء السائلين بعدُ أن يصيبوا جوابَ ما سألوا أو يقاربوا ...

وهذا « الشتيت المبعثر » كما تسميه ياصديقى ، وكما يبدو فى عيون كثير من قرائه — إنه « فكرة مجتمعة » إلى هدف موحَّد ، وإنك لحقيقٌ بأن تتنوّره على مبعدة لو أنعمتَ النظر ...

دع عنك هذا « التفريق المصنوع » بين ما تسمّيه الأدب ، والفن ، والخُلق ؛ هذه عناصر ثلاثة لمعنى واحد إذا تركّزت حقيقتُه فى وعْى الأمة فقد تمدّنت ؛

ما الأدب ؟ وما الفن ؟ وما الخلق ؟ وما الدين ؟ وما الاجتماع ؟ وما السياسة ؟ ... أين تؤدّى مؤدّاها مجتمعة أو متفرّقة ؟ وهل الغاية من كل واحد منها على حدة إلا الغايةُ منها مجتمعة ؟ ...

لماذا نسمّى الأشياء بغير أسمائها ؟ ولماذا نحاول أبداً أن « نفصّل » ما ينبغى أن يُجمَل ؟

هذا « التفريع » قبل أن يستقيم الجذع ويَقوى لا ينهض بالشجرة ؛ فلا « أديبَ » بحق إلا أن يكون له ذوقٌ فى الفن ، ومذهب فى الخلق ، ورأىٌ فى الدين ، وطريق فى الاجتماع ؛ ولا « فنّان » إلا أن يكون له نصيب من الأدب ، ومنزعٌ فى الدين ، وسلوك فى الجماعة ؛ ولا « أمة » ... لا أمةَ إلا أن تكون طريقها واضحة المعالم فى الأدب والفن ، وفى الخلق والدين ، وفى الاجتماع والسياسة ؛ وأن يكون لها « هدف » يجتمع عليه « الرأى العام » من بناتها وبنيها ، تجتمع عناصره من الأدب والفن ، ومن الخلق والدين ، ومن السياسة والاجتماع ...

فأين هو « الرأى العام » المجتمع فى هذه الشئون ؟ ... وأين هو « الهدف المشترك » الذى تتنوّره أبصارنا وتتعلق به أمانينا ؟ ...

الرأى العام...

وما بى ثورة ولا حَنَق ، ولا فى قولى مبالغة و غلوٌّ إن زعمتُ أن هذا الوطن ليس له رأى عام ، لا فى الأدب والفن ، ولا فى الخلق والدين ، ولا فى السياسة والاجتماع .

« التخصُّص » ؟ . . . نعم ، ولكنْ بعد إدراك « المبادئ العامة » فى علم « القومية » ، وبعد نضْج « الخصائص المشتركة » التى تتخصَّص هذه القومية ، وبعد اجتماع « العناصر المؤتلفة » التى تتفاعل بها القومية — بعد اجتماع « الرأى العام » على فكرة أوَّلية مشتركة فى الأدب والفن ، وفى الخلق والدين ، وفى السياسة والاجتماع ؛ وهذا الرأى العام لم يتكوَّن بعد ؛ فكل دعوة إلى « التخصُّص » قبلُ هى دعوةٌ إلى التفكك والانحلال ، بل هى « البعثرة والشتات » وإن زعم من يزعم أنها « تركيز واجتماع » !

أين الموازين المحكَمة التى تسوِّى بين أحكامنا — على اختلاف الطوائف والطبقات — فى الفن والأدب ، وفى الدين والخلق ، وفى الاجتماع والسياسة ؟ . . . ليس لنا فى ذلك ميزانٌ محكَم ؛ فهذا الشىء حَسنٌ عند طائفة لأسبابه ، وهو لهذه الأسباب نفسها ذميمٌ كل الذمامة عند طائفة غيرها ، والمادة واحدة والمدلول واحد ؛ وما يشيل عند طائفة يَرْجح عند طائفة ، لأن كل طائفة بميزانها تَزن ؛ وما دام ليس هناك « ميزان عام » محكوكٌ عليه رقمُه وقيمته ، فليس هناك « رأىٌ عامٌ » له اعتباره ومعيارُه !

أمة مترجمة !

وإننا مع ذلك لنشهد معارك طاحنة فى مذاهب الأدب ، وفى مَدارس الفن ، وفى مسالك السياسة ، وفى نظريات الاجتماع . . . أهؤلاء المتطاحنون نفرٌ من الأمة يتحدثون إليها أم يعيشون فى « أبراج » ؟

أفرَّغت الأمة قبلُ من إدراك « المبادئ العامة » فى هذه الشئون واجتمع لها رأى ، أم نحن نقودها فى « متاهات » ليس لها أول يُعرَف ولا آخِر يوصف ؟ . . .

لا ، ولكن طائفة من « السابقين فى الفكر » فى هذه الأمة يعتسفون بها الطريق الذى لم تَختَبرْه ولم تَر رأيَها فيه بعد ؛ وكانوا رجالاً « مترجَمين » يعيشون بأخلاقٍ غير أخلاق أمتهم ؛ ويفكِّرون بعقولٍ غير عقول إخوتهم ، ويحْيَوْن فى جوٍّ ليس منه جوُّ أهليهم ؛ فلما تَمّت « ترجمتُهم » عقلاً ودينًا وخُلقًا حلا لهم أن « يُترجموا » أمتَهم ، ليعيشوا فى مثل بيئتهم ، وأنشئوا يعملون ، ولكنهم بدءوا الترجمة من الفصل الأخير . . .

مَن يدرى ؟ . . . قد تكون ترجمة هذه الأمة إلى أمةٍ فرنسية ، أو إنجليزية ، أو أمريكية — عقلاً ودينًا وخلقًا — قد تكون ترجمتها الى صورة أمةٍ من هذه الأمم إسراعًا بها إلى النهوض والرقىّ ؛ ولكن ينبغى قبلُ أن نعرف « مُعجَم » هذه الأمة ونقيس معناها الى معنانا ؛ فلعله لا يتسع لترجمتها « فكرةً » إن اتسع لها « عبارة » ! . . . ثم يجب أن ندرس « مَتْن الأمتين » قبل الترجمة كما ندرس قبل ترجمة الكلام « متن اللغتين » وأن نبدأ من الألف والباء . . . . . !

الهدف العام :

والأساس الذى يجب أن تقيم عليه البناءَ هنا — كما يقوم أساس الترجمة على متن اللغة — هو تحديد « الهدف العام » للأمة ؛ فقبلَ أن نشرع فى الرأى ينبغى أن نشرع فى تحديد هذا الهدف .

وإنما يحدِّد أهدافَ الأمة أن يكون لها ميزان مضبوط يسوِّى بين أحكامها فى الفن والخلق والسياسة ، فتكون ثمة قواعد عامة تقيس اليها ، فتستحسن وتستقبح على رأىٍ مشترك ؛ وإنما يوجِّهها إلى ذلك

قادتُها وأدباؤها وأهل الرأي فيها ؛ وما لم تجتمع لها هذه « القواعد العامة » التي تضبط موازينها وتسوِّي بين أحكامها فكل أديب وكاتب وفنّان وسياسيّ مسئول أن يتخيَّر مسئوليته لتوجيهها الى الطريق السويّ وتسديد خطاها فيه ؛ لا يقول واحد منهم : « هذا اختصاصي » ولكن يقول : « هذا مذهبي » ، ولا يقتصر على فنّ من فن ؛ لأن مرحلة « التخصص » لم يحن أوانها بعد ؛ وإلى هذا الغرض أرمي . . . .

المجلة المصرية :

وفي مصر مجلات قلتُ عنها في بعض ما سبق من هذا الباب إنها ليس بينها مجلة مصرية واحدة ، واحتججتُ لهذا الذي زعمتُ بما فيها من الخلط والتناقض ، وباختلاف أبوابها على الرأي الواحد ، فتراها تدعو الدعوة وتناقضها ، وتحارب الفكرة وتعمل على ذيوعها ، وتنشر الفساد وتعيب في بعض أبوابها على ناشريه . . . ؛ لأنها لا تعرف لها « هدفاً » تسعى إليه !

هكذا زعمتُ ، وقال قائل : « أفتريد أن تحجر على الرأي ؟ . . . أتريد المجلة باباً واحداً لمعنى واحد ؟ . . . أترى أن يوصد صاحب المجلة بابه دون كل رأي يخالفه ؟ . . . »

ودَقَّ هذا القولُ سمعاً فراح يردّد وراءه : « أفتريد ؟ . . . أفترى ؟ . . . » وكثرت الببغاوات ! . . .

وهو قولٌ خليقٌ بأن يفتن ويجد دعاته أنصاراً ، فإن الحرية كلمةٌ عذبةٌ من طول ما رددتها الأفواه وإن لم تجد لها مذاقاً ولم تحس لها طعماً ؛ ولكن « النظام » قبل « الحرية » ؛ والنظام هنا يتعلق بكيان أمة لأنه يحدد هدف أمة ؛ فلا بدّ من أن يكون لكل مجلة رأي ، ليُعرف لها هدف ، لتكون مجلة فيها صورة من الأمة .

وقد سألت في العدد الماضي سؤالاً : « هل من حق جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات أن تمتنع من النشر لأديب (معروف) لأن له رأياً يخالف رأي صاحبها ؟ » .

نعم ، لا معروف ولا غير معروف ؛ ينبغي أن يكون لكل مجلة رأيها إن كان لها هدفٌ تريد أن تبلغه . على أن « الرأي » غير « الهوى » ، والنغمة التي تتصل بالهدف العام غير النغمة التي تتصل بالذات ؛ فلا أقول إن لكل صاحب مجلة « حريته » ، ولكني أقول له « رأيه » .

وصندوق البريد !

وكم يجني صندوق البريد على كثير من جرائدنا ومجلاتنا ! !

هذا محرر مجلة من كبريات مجلاتنا يقلِّب بريده اليومي ليختار ما ينشر منه ؛ لا بأس عليه في ذلك ، بل إنه واجبٌ من واجبه ؛ ينبغي أن يكون لصندوق البريد بابٌ في محرر المجلة ، ولكن الذي لا ينبغي ، أن يكون محرر المجلة كله من « صندوق البريد » !

لقد قلنا إنه واجب أن يكون لكل مجلة رأي ، وأن يكون لها هدف . وهذا الرأي وذلك الهدف لا يمكن أن يكون لهما قوة الثبات وقوة البلاغ مادام كل محرري المجلة في صندوق البريد !

هذا الذي يكتب إليّ من غيب ، إنه يكتب ما في نفسه لا ما في نفسي ، وقد نتفق وكثيراً ما نختلف ؛ فإذا كان كل معتمدي — أنا المحرر — هو ما يأتيني به صندوق البريد في كل أسبوع فأنا على طريق غير الطريق وإلى هدف غير الهدف وإن خُيِّلَ إليّ أني على نهج سواء ؛ إن ثمة وسائل كثيرة لخداع المحرِّر عن رأيه وإن لم يشعر ، وإنه لخليق أن ينحرف عن قصده وإن بدا لعينيه المصوبتين أنه ماضٍ لوجهه !

وثمة « طابع المجلة » ، وإنه لعنصر عظيم الأثر في بروز « الرأي » وفي تحديد « الهدف » ؛ هذا الطابع لا ثبات له في المجلة التي يختبئ كل محرريها في صندوق البريد ، لأن « ساعي البريد » لا طابع له !

كل مجلة ذات رأي ينبغي أن يكون لها « محررها

الدائم » ، فإذا لم يكن لها « محور دائم » فليس لها « طابع » ، ومن ثمة فلن يكون لها « رأى » ولا « هدف » ! ولعل هذا هو السر فيما نشهد من انحدار بعض مجلاتنا الكبرى إلى الخاتمة وكانت مجلة ذات قراء !

أترى رأيى هذا يغضب طائفة من « ناشئة الكتاب » الذين يتصايحون على أبواب المجلات ؟ . . . ولكنهم يستطيعون أن يبلغوا ما يريدون إن استطاعوا أن يكونوا كتاباً ذوى آراء . . . ولهم أهداف !

« قاف »

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٧٢١ سنة ١٩٤١ بتغريم عيسى أحمد عيسى شيخ بلد بطهره خمسة جنيهات لعرضه للبيع قمح بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية فى القضية رقم ١٧٥٨ سنة ١٩٤١ بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٤٢ بتغريم موسى مصطفى موسى التاجر بجابوس خمسة جنيهات وغلق المحل ثلاثة أيام لرفضه بيع أخشاب بالتسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٧٧٧ سنة ١٩٤١ بتغريم كل من مباركة طه قنديل ووردة السيد وأم حسين حسن ماضى من منشية جنيه لبيعهن غلال وأذرة بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٨٠٨ سنة ١٩٤١ بتغريم زينب عبد الستار سليمان بالزقازيق خمسة جنيهات وغلق المحل ثلاثة أيام لبيعها غاز بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٨٩٦ سنة ١٩٤١ بتغريم خضرة محمد على من الفرقية جنيه لامتناعها عن بيع ذرة بالتسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٩٢٣ سنة ١٩٤١ بتغريم أم الخير إبراهيم جاد من ميت بشار ٥٠ قرشاً لبيعها ذرة بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ١٩٣٢ سنة ١٩٤١ بتغريم جبالة بنى بدر من السعديين جنيه لبيعها قمح بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٤١٩ سنة ١٩٤٢ بحبس عبد السيد حسب الله تاجر بكرسوس شهرين بشغل لبيعه قمح بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٤٢٩ سنة ١٩٤٢ بحبس حسين عبد الحميد الجزار بالتل الكبير ثلاثة أشهر بشغل لبيعه لحوم بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٩٤٦ سنة ١٩٤٢ بتغريم روحية إبراهيم من الوالسة جنيهين لامتناعه عن بيع قمح بالتسعيرة .

حكم فى القضية رقم ٨٠ سنة ١٩٤٢ عسكرية روض الفرج بحبس على أحمد عبد الله خمسة عشر يوما وتغريمه عشرة جنيهات لبيعه ذرة بأزيد من السعر .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٢٠٨٥ سنة ١٩٤٢ بتغريم محمد سعد يوسف من شبرا قمى خمسة جنيهات لبيعه أذرة بأزيد من التسعيرة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٩١ — الثلاثاء ١٣ من شعبان سنة ١٣٦١ — ٢٥ من أغسطس سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

من النافذة :

من وحى سعد العظيم

هذا النجم الطالع الذى يطل على الأرض فوق بساط الحقول الخضراء ، أتراه يأبه هذه الروح التى يحجب الظلام خضرتها اليانعة ؟ وهذا القمر الذى لم يكمل دورته الشهرية ولم يتجهز بعد لأن يغمر الكون بشعاعه الأزرق الرقيق ، ترى كيف ينظر إلى هذه الأرض وما عليها من حيوان ونبات ؟ وكيف يحكم على ما يجرى فوقها من أعمال الإنسان ؟ أم أن هذه الأرض اليانعة تقف فى الفضاء صامتة لا يعيرها الكون لفتة ، ولا يسمع من صوتها نأمة ؟

لقد قيل إن الأبد لا يعرف اللحظة المؤقتة ، وإن الفضاء الذى لا تحده نهاية يأبى أن يأبه للحيز المحدود . وقيل إن الزمن ظاهرة عارضة فى ذهن الإنسان القاصر ، وإن المكان ما هو إلا ظاهرة من ظواهر الإدراك النسبى . وإن كل ذلك يتسرب من الإدراك الأبدى كما تتسرب الرمال من بين أصابع اليد . ولكن هناك شيئاً يبقى وإن زالت العوالم ، ويدوم بعد فناء كل شىء آخر ، وذلك هو الروح الخالد المستمر ، روح الله .

هذه خاطرة خطرت على القلب عند ذكرى سعد العظيم ، بعد أن مرت على وفاته هذه السنون الخمس عشرة ، ونحن نتأمله اليوم من وراء هذه المدة ، فنعجب للصورة الباقية منه ، كيف أصبحت اليوم وقد زادتها تلك السنون روعة ، وكيف لم يذهب تباعد الأيام بما كان يحيط بها من رواء ، بل زادها رواءً وبهاءً وجلالاً !

مضى اليوم خمسة عشر عاماً منذ لحق سعد بالرفيق الأعلى ؛ وكأنما كان سعد لا يزال إلى الأمس القريب يملأ الأرض عظمة وقوة . فإن اسمه لا يزال ملء القلوب والأسماع ، وذكراه لا تزال رطبة على الألسن والأقلام ، يذكره المصريون جميعاً ليرددوا من أقواله عبرة أو ليستعيدوا من سيرته حكمة .

لقد مضت تلك السنون الخمس عشرة بكل ما كان يحيط به من إحن الحياة ، ومن صغائر أحقادها ومنافساتها ، وفى سعد بعدها ، وبقيت قصة سعد وجهاده ، وصورة سعد فى مواقفه ، وفى خطاباته ، وفى سياسته وآرائه ، وفى نضاله وقوة شخصيته ، وفى سعة أفقه وقلبه الإنسانى ، وفى عزيمته الفولاذية وشجاعته التى لا تتزلزل ؛ بقى ذلك كله ماثلا فى سيرة تبقى على الأجيال مع سير سائر العظماء الذين يخلقهم الدهر بين قرن وقرن ، أو فى مطالع آلاف السنين .

ونستطيع نحن اليوم ، على بعد هذه السنوات القليلة ، أن نلقى نظرة على الأحداث الجليلة التى مرت بعصرنا العزيزة ، وأن نلقى نظرة على لداته الذين عاشروه فترة من الزمان ، وتخلفوا بعده حيناً ، أو لحقوا به بعد قليل ، وأن نرى الميدان من بعد كما يراه الطائر المحلق فى أعلى الفضاء ؛ فإذا بنا نرى صور الذين مضوا — سعد وأترابه وخصومه وأصدقائه — وقد صاروا جميعاً مواطنين فى عالم الروح الذى لا تحيا فيه الأحقاد الصغيرة ، ولا المنافسات العارضة ، ولا النزعات الشخصية العابرة ، فيرتد الفكر حافلا بالعبر ، والقلب مليئاً بالشجون .

هذا سعد وهؤلاء خصومه الذين كان النضال بينهم على أعنف ما يكون النضال فى الحياة ، قد مضوا إلى رحمة الله جميعاً بعد أن امتلأت بهم الحياة حيناً ، وعظمت بينهم الخصومة فى سنوات متعاقبة حافلة بالحركة والحياة ، ثم طواهم الموت ، فقضى سعد ومضى خصومه وقد علت

وجوههم بسمة الموت الوديعة ، وبقى المصريون من بعدهم ينظرون فى تراثهم ، ويتأملون فى قصة نضالهم ، ثم انطلقت صيحتهم تملأ الآفاق ليس فيها شذوذ ، وليس فيها خلاف : « لقد كان سعد لسان مصر ، وقائد مصر ، وزعيم مصر » .

كان سعد فى حياته يكافح ليجعل لمصر كلمة واحدة ، وليجعل لمصر كتلة قوية يستطيع أن يجاهد بها لتحقيق آمال مصر الكبرى ؛ ولكن الآراء تختلف ، والوسائل تتعدد ، والقلوب الانسانية ما زالت منذ الأزل تدرك الأمور بأحاسيسها الشخصية ، وما زالت الأبصار الانسانية تفهم ما تراه كما تترجمه لها نظراتها الفردية . ولا مناص من أن يكون بين الناس خلاف فيما يدركون ، ولا مفر من أن يكون بينهم تفاوت فيما يفكرون ؛ ولن يستطيع زعيم فى عصر أن يجد قومه جميعاً فى صف وراءه ، بل لا بد له من أن يجد من ينظرون بغير عينه ، ومن يدركون بغير قلبه ، ولكن الزمان يزيل بمضى السنين تلك الفوارق الفردية ، وتلك العوامل الشخصية ، ويبقى المعنى المجرد بعد حين سليما من المتناوات ، بريئاً من المؤثرات .

فمصر اليوم تحس أعمق الإحساس كيف كان سعد أدق الجميع حساً ، وأقواهم نفساً ، وأبعدهم نظراً ، وأعظمهم شخصية ، وأصلحهم رأياً .

واليوم تجتمع الأحزاب كلها لتكرم ذكراه ، وتتوافد الأفراد خاشعين إلى جدثه لتبارك مثواه ، والجميع يحلونه محله الخالد فى إمامة الزعماء الراحلين .

لم يكن سعد يحيا لزمانه وحده ، بل كان يحيا لزمانه ، وللزمان الذى يليه ، وللأحقاب المتوالية لمئات السنين . وكان هو يحس ذلك من نفسه ، فما كان يستشعر اليأس إذا ضاقت حلقات الكرب ، بل كان دائماً واسع الآمال مضىء النفس بالبشر ، لعلمه أن المبدأ السليم لا بد له أن يبقى ، ولا بد له أن يخرج من كل نضال أقوى مما كان قبل النضال . وكان إذا رأى من أبناء جيله ، أو من لداته من رجال

٣ – مستقبل المدنية

قال المستر جود في محاضرتيه الأوليين إن الداء الذي أصيبت به مدنيتنا ناشئ من الهوة الفاصلة بين قوتنا وحكمتنا ؛ وأشار في محاضرته الثالثة إلى وسيلتين لتخطي هذه الهوة : أولاهما وقف تقدم العلوم الطبيعية التي تزيد من قوة الإنسان ، وتوجيه العناية إلى العلوم النفسية التي تصلح من روحه فيحسن استخدام القوة التي تهبها إياه العلوم . أما الثانية فهي جمع شتات العالم كله ، أو على الأقل القسم المتمدن الراقي منه ، تحت لواء حكومة واحدة ، تنظم جهوده ومصالحه أيا كان نوع هذه الحكومة ، تعاهدية كانت أو حلفاً أو غيرهما من الأنواع التي تقبلها عقول الناس في هذه الأيام والتي يمكن أن تتطور مع الزمن فتبلغ من التماسك درجة لا يتصورها أهل هذا الجيل .

وقال بعد ذلك إن الوسيلة الأولى مستحيلة من الوجهة العملية ، وإن الثانية لا تحسم الداء ، وإن كانت تسكنه إلى حين ، فهي أشبه بجسر يمتد فوق الثغرة ولا يسدها ، دعائمه مزعزعة مادامت تستند إلى قلوب أهل هذه الأيام بحالها التي هي عليها الآن . ثم عرض المحاضر بعد ذلك إلى نوع آخر من العلاج هو في رأيه خير علاج مستطاع ، فقال : إن علينا أن نذهب إلى أبعد مما يستطيع العلم والسياسة أن يصلا إليه ، إن علينا أن نذهب إلى نفوس الناس وأرواحهم لنعالجها حتى تستطيع دعائم هذا الجسر الممتد فوق الثغرة أن تثبت على مر الزمان . ويشرح المستر جود في محاضرته الرابعة هذا العلاج ويفصل القول فيه فيقول :

لاشيء ، في اعتقادي يسد هذه الثغرة التي تفصل قدرتنا من حكمتنا غير إحياء القيم الأخلاقية العليا ، وليس ثمة وسيلة إلى إحياء هذه القيم إلا إحياء العقيدة الدينية في النفوس . فما السبيل إلى هذا الإحياء ؟ ليست معرفة هذه السبيل بالأمر الهين ، ولكنا لا نشك في أن العالم مهيأ له في هذه الأيام ، مستعد للاستجابة للنداء الذي يصدر به استعداداً لم يشاهد مثله من قبل . لقد ظل العالم في الماضي القريب يخشى

السياسة انحرافا عن مقصده النبيل ، أو لمح في ظاهرهم آيات تدل على ما يختلج في نفوسهم من منافسة أو حفيظة ، اتجه إلى شباب الأمة ليلمس في قلوبهم الفتية مواطن العواطف السامية ، فيثيرها ويوجهها ، ويملؤها من قوة نفسه لكي يتخذ منهم عدة لمواصلة جهاده ورفع راية مبادئه الوطنية الخالصة . ذلك لأنه كان شديد الإيمان بمصر ، وبأهل مصر ، ولأنه كان يعلم أن ما يعتري رجال السياسة من انحراف في الأهواء إنما يرجع إلى عوامل عارضة وأن الشباب البريء لم تصبه بعد تلك العوامل العارضة ، فهو شباب مصري ما زال محتفظاً على طبيعته المصرية السليمة . وقد أثمر هذا الرأي ثمرته ، وأصبح سعد بعد موته حياً في مصر ، في قلوب أشربت حبه وامتلأت بالعقيدة التي انبعثت منه .

وكان اتجاه سعد إلى الشباب يدل على أنه كان يخترق بصيرته حجب الغيب ، ويرمي إلى أن يقود بزعامته أجيال المستقبل الذي تحقق فيه كل آماله وتعلو كل مبادئه .

وإذا نقف هنا ، في هذا اليوم ، بعد مضي هذه المدة على وفاة سعد ، فنعرف أننا لا نزال نتجه حيث كان يتجه بنا ، ولا نزال نسمع نداءه ، فيحدث في قلوبنا نفس الصدى الذي كان يحدثه وهو بين ظهرانينا ، بل إننا نتطلع إلى المستقبل ونتصور ما يأتي به الزمان لمصر من جهاد في سبيل المجد ، فنحس أننا لا نزال نتلفت إلى سعد ، ونستمع إلى نداء سعد ، ونحتاج إلى المبادئ الوطنية التي جاهد سعد في سبيل بنائها والمحافظة عليها ، وتوجيهها إلى حيث تفرح الربوة الخضراء التي يرتفع فوقها العلم الأخضر يخفق وعليه الهلال والنجوم الثلاث .

«ف»

جيلا من البشر لا عقيدة لهم ولا شريعة روحية ، وهي ظاهرة لم تكن مألوفة في أغلب العصور الماضية . فقد كان لكل جيل من الخلق في كل عصر من العصور عقيدة وعبادة ، لأن العقيدة والعبادة حاجة من حاجات البشر عامة . وتلك الحاجة نفسها كامنة في نفوسنا نحن أبناء هذه الأيام ، ولكنها حبيسة مكبوتة ، أو إذا شئت أن تستخدم الألفاظ السيكولوجية الشائعة على ألسنة الناس الآن فقل إنها نشطة في اللاشعور أو العقل الباطن . لذلك كان من واجب علماء التحليل النفساني أن يعنوا أكثر مما يعنون الآن بحاجات أبناء هذا الجيل الدينية المكبوتة .

وبسبب اختفاء هذه العقيدة الدينية ، أو بسبب وجودها مكبوتة في عقلنا الباطن ، ينشأ الشبان الآن وليست لهم فلسفة في الحياة أو لهم فلسفة ولكنها الفلسفة التي تلائم وحدها ظروف هذا العالم والتي يندفع إليها بغريزتهم ملايين الشبان ، فلسفة « كل واشرب فإنك ميت في غد » — وأستميح السامعين عذراً إذا أشرت إلى هذه الفلسفة للمرة الثانية — أو أنهم يعبدون آلهة مزيفة كاذبة كإله السرعة مثلا ، فقد ظلت انجلترا وأمريكا وغيرهما من بلاد أوربا قبل الحرب الحاضرة تنشئ جيلا من الشبان يطبقون السماء على الأرض إن استطاعوا ليقتصدوا من وقتهم خمس دقائق ، ثم لا يعرفون قط ماذا يصنعون بهذه الدقائق الخمس بعد أن يقتصدوها .

بدهيّ القول ونافلته أن في أبناء هذا الجيل شعوراً شديداً مكبوتاً بالحاجة إلى العقيدة الدينية ، فإذا لم يوجد مصرف لهذا الميل القوى المكبوت ، أو بعبارة أخرى إذا لم ينتقل هذا الميل من اللاشعور إلى الشعور ، فإنه لابد منتج من الشرور أكثر مما في العالم الآن . والميل المكبوت في الفرد قد يؤدي إلى المرض أو إلى الجنون ، وهو يفعل أكثر من ذلك في المجتمع . ويخيل إلينا أن الشباب في وسط أوربا قد وجد هذا المصرف ، فوجه هذا الميل الديني المكبوت إلى عبادة الدولة أو عبادة الزعيم . ذلك أن الطبيعة لا تطيق الفراغ في عالم الروح كما لا تطيقه في عالم المادة ، وأن بصائر الناس إذا عميت عن رؤية إله السماء اتخذت لها في الأرض بديلا منه ، فعبدت الدولة أو عبدت الزعيم الذي تتمثل فيه الدولة ؛ وليست هذه العبادة إلا مصرفاً للعقيدة الدينية الكامنة في اللاشعور . وما من شك في أن الحالة العقلية التي تسود ألمانيا في هذه الأيام أقرب الحالات إلى النزعة الدينية القوية أو أنها هي النزعة الدينية بعينها في مظهر غير المظهر الديني المألوف . وهل ثمة فرق كبير في المظهر الخارجي بين تضحية الناس بأرواحهم وعقولهم وأبدانهم في سبيل عقيدتهم الدينية في الأزمنة الماضية ، وبين تسليم النازيين عقولهم وأبدانهم وأرواحهم للزعيم ؟ أليس لسان حالهم يقول للزعيم : « استخدمنا كيف تشاء واسلبنا حق معرفة ما تستخدمنا فيه ! إنا على استعداد لأن نلقى الموت من أجلك ، ولكنا نرجو ألا نعرف منك لماذا تسوقنا إلى الموت ! مرنا نقاتل الشيوعية ، ولكن لا تدعنا نعرف ما هي الشيوعية ! وحرم علينا الآداب والفنون التي لا تصلح لنا ، ولكن لا تقل لنا لم كانت غير صالحة أو ماذا فيها غير صالح ! » أليست هذه هي العاطفة الدينية في أقوى درجاتها ؟ إن في هذا كله لشواهد يجب ألا نغفل عنها ، إنه ليشهد بأن شبان ألمانيا الذين حيل بينهم وبين الدين الصحيح لم يطيقوا صبراً على هذا الحرمان فأنشأوا لهم ديناً جديداً هو عبادة الزعيم . وعلى أي شيء آخر يدلنا هذا ؟ إنه ليدل على أن المسرح مهيأ والطريق ممهد للعودة إلى الدين الصحيح حتى تنصرف فيه القوة الكبيرة المتجمعة في اللاشعور ، وإلا وجدت لنفسها مصرفاً آخر قد يطغى هو الآخر على العالم ويغرقه في الآثام والشرور .

وجملة القول أن الثغرة التي وصفتها لا يمكن أن تسد إلا إذا نظر الناس نظرة أخرى إلى الحياة ، وأفصحت هذه النظرة عن نفسها من الوجهة العملية بتقدير جديد للقيم الروحية العليا . وإنا لنرى الآن شواهد قوية على وجود

قلق روحي يختمر في كثير من البلاد ، وهو أظهر ما يكون بين شباب الجامعات ، شأنه في ذلك شأن غيره من أنواع القلق النفسي والاضطراب . وليس يعنينا الآن إلا أن نلاحظ ما طرأ من التبدل على الموضوعات التي تثير اهتمام هؤلاء الشبان . فقد كانت هذه الموضوعات منذ سنين قليلة تدور حول الشئون الاقتصادية ، وكانت الماركسية هي التي تستأثر بمناقشاتهم ، فلم نكن نسمع منهم إلا قولهم : إلى أي حد تستطيع المدنية الحاضرة البقاء في ظل الرأسمالية ؟ وهل في وسع الرأسمالية أن تمنع الحروب ؟ وهل البلاد الرأسمالية سائرة في طريق الشيوعية الروسية ؟ وهل يكتب البقاء للصناعات إذا انتزع منها عامل الربح ؟ هذه الموضوعات وأمثالها هي التي كانت تثير الجدل قبل الحرب الحاضرة ، وكان الشبان يرجون أن يصلوا من وراء بحثها إلى حل المشاكل التي أوجدها الاقتصاد وأوجدتها السياسة ، ويضعوا أساس عالم خير من عالم تلك الأيام .

أما الآن فقد تبدلت هذه الموضوعات ، فلم نعد نسمع إلا قولهم : هل أراد الله هذه الحرب ؟ وإذا كان قد أرادها فهل أرادها للخير ؟ ولماذا أطلق الله قوى الشر التي أغرقت هذا العالم في بحر من الدماء ؟ ولماذا خلق أولئك المجرمين الذين أوقعوا العالم في هذه المأساة ؟ ولماذا يجيز الله هذه الشرور كلها ؟ وهل هي نقمة من الله حلت بنا جزاءً وفاقاً على خطايانا ؟ وهل يرجى بعد الحرب أن تقوم الصناعة على أسس غير الأسس الحاضرة ، فتعمل لسد حاجات الناس جميعاً لا لزيادة ثراء العدد القليل منهم ؟ وهل تتاح الفرصة لخلق مجتمع قائم على الحب والتعاون ، لا على الحقد والمنافسة ؟

تلك هي الأسئلة التي تفصح بها عن نفسها الروح الأخلاقية الكامنة في الجيل الجديد . فإلى أي مدى تستطيع أن تصل بهم هذه الروح التي تختمر فيهم ؟ وهل تتحول هذه الروح إلى بحث ديني حقيقي ؟ ليس من حقي أن أتنبأ ، ولكن من واجبي أن ألفت النظر إلى شيء واحد شديد الصلة بهذا الموضوع ، ذلك هو نظرة الناس في هذه الأيام إلى الشر . فقد نشأ جيلنا نحن الشيوخ ، وهو يعتقد أن الشر نتيجة من نتائج الأحوال السائدة في العالم ، كالفقر وفساد التربية ونحوهما ، واستخلص من ذلك أن الشر يمكن علاجه بالأعمال الاجتماعية والسياسية . فكنا نقول : « امحوا الفقر بالاشتراكية ، وأحسنوا تربية الأطفال تمح البغضاء من نفوس الكبار ، ويصل الإنسان إلى مستوى من الخير يكاد يبلغ حد الكمال . لكن الحرب قد جعلت من المستحيل على الناس أن ينظروا إلى الشر هذه النظرة السهلة ، فهو في نظر شباب هذه الأيام عام متأصل في النفوس لا يمكن القول بأنه من نتاج الظروف ، بل هو إفصاح عن شيء أساسي في طبيعة الناس ، وقد يكون في طبيعة الكون كله . أليست هذه هي نظرة الأديان إلى الشر ؟ وسؤال آخر لا بد أن نسأله ، وهو : هل الكنائس القائمة في هذه الأيام صالحة لاستقبال الروح الجديد ؟ أقول مرة أخرى : ليس من حقي أن أتنبأ ، ولكنني أستطيع أن أقول إني أشك في قدرتها على ذلك . إن معظم الشبان يرون أن الكنائس الحاضرة قد أساءت إلى نفسها بما قدمته وما تقدمه كل يوم من عون لنظام المجتمع القائم الآن ، أي للنظام الذي ألهب نار الحرب ، وكثيراً ما كانت عوناً للأقوياء والأثرياء ، فهي لذلك عاجزة عن استقبال الوحي الجديد . قد أكون مخطئاً في هذا ، ولكن أكبر ظني أني لست مخطئاً في اعتقادي أن الروح الديني الجديد لا بد منطلق من عقاله عما قريب ، وأن انطلاقه يهيء للأديان الكبرى فرصة لم تتح لها طوال المائة عام الأخيرة . فهل في مقدور هذه الأديان أن تنتهز هذه الفرصة السانحة ؟ إن الجواب عن هذا السؤال هو الذي يتوقف عليه إلى حد كبير مستقبل مدنيتنا الحاضرة . فهل يستمع إلى ذلك رجال الدين ؟

محمد بدران

الشعراء النقاد

من الظواهر الجديرة بالملاحظة فى مختلف الآداب العالمية ، قلة عدد الشعراء الذين يعنون بالناحية النقدية من فنهم ، وينصرفون حقبة من حياتهم إلى تدوين آرائهم فى الشعر وطبيعته ، وما يدور على مسائله من خلاف بين الباحثين . وقل أن تظفر من الشعراء القدامى بآراء نقدية إلا فى البيت أو البيتين يسوقها الشاعر ليعترض على مذهب قديم فى صنعة الشعر ، كالذى قاله « أبو نواس » فى سخريته بأصحاب الأطلال والباكين عليها :

قل لمن يبكى على رسم درس واقفا ما ضر لو كان جلس

أو ليعترض على اتجـاه نقدى لا يرضاه ، كما فعل « البحترى » فى قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه

وشعراء الشرق والغرب فى هذا سواء . ويظهر أن انصراف الشعراء عن الاشتغال بفلسفة الفن ووضع النظريات فيه أمر معقول يتمشى وطبائع الأشياء . فالنشاط الفنى فيما نعلم فيض حيوى متدفق يأبى الوقوف حتى يصل إلى غايته من التصوير والإبداع ؛ والنشاط النقدى حركة قائمة على الأناة والروية تمنى — بالضرورة — بتسلسل الفكرة وإحكام حلقاتها ، ولا سيما إذا اتجه الناقد إلى تقرير ما يعتبره « نظرية الأدب » ، فشرح رأيه فى طبيعة الفن وأهـدافه وصلاته بالمبدع من ناحية ، والمتذوق من ناحية أخرى .

ولا شك أن بين النوعين صلة وثيقة ، فكلاهما خالق مبدع ، وكلاهما يمت إلى الذوق بأقوى الأواصر ، وكل شاعر يحوى بين جنبيه ناقداً . ولقد يستطيع الناقد أن يكون فناناً أيضا يؤثر نقده فى نفسك تأثير النص الأدبى الجميل ، ويترك فى ذهنك من الأثر الذوق ما تترك القصيدة الرائعة أو الصورة المحكمة .

ولعـل من أبرز الشعراء النقاد فى الآداب الغربية « وردسورث » و « كولردج » زعيمى الحركة الرومانسية فى الشعر الانجليزى (فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر) ، فقد كانا متعاصرين ، وعاشا حينا متجاورين ، واتصلت بينهما أسباب الود المتين ، وتظاهرا على القيام بتجربة شعرية جديدة يحدثنا عنهـا « كولردج » فيقول ما خلاصته :

« فى خلال السنة الأولى التى كنت ومستر « وردسورث » فيها متجاورين ، كثيرا ما كانت تعرج بنـا الأحاديث على النقطتين الرئيسيتين فى الشعر : قوة إثارة وجدان القارئ بعرض الطبيعة عليه فى ثوبهـا الحقيقى ، وقوة إثارة الإحساس عنده بالطرافة بما يضيفه خاطر الشـاعر إلى الطبيعة من أضواء وألوان . وقد عنَّت لنا (لست أتذكر لأينا) إذ ذاك فكرة ، هى أن نقوم بنظم سلسلة من القصائد من نوعين : أحدهما يقوم على أحداث وأشخاص مما وراء الطبيعة (على الأقل فى بعض نواحيه) ، على أن يكون الهدف إثارة عناية القارئ من طريق التشبيه التخيلى والتمثيل للأحاسيس والانفعالات التى تصاحب تلك الأحداث لو أنها كانت واقعية . والنوع الثانى يقوم على موضوعات منتزعة من الحيـاة العادية حيث الحوادث والأشخاص مما يجده العقل الباحث فى كل قرية ومحلة ، على شريطة أن يكون عقلا ذا روية وحس مرهف ، أو على الأقـل ذا ملاحظة لا تفلت منها تلك الحوادث والأشخاص متى عرضت لها . وبهذا نشأت عندنا فكرة المجموعة التى أسميناها (Lyrical Ballads) والتى اتفقنا على أن تتجه فيها جهودى إلى ناحية ما فوق الطبيعة من أشخاص وحوادث يتصورها الخيال ، على أن أقربها إلى القلوب ، وألبسها ثياب السائغ المألوف ، وأثير من العناية

بها والالتفات إليها ما ينسى القارئ — لحظة ما — عدم اعتقاده في حقيقتها ؛ وعلى أن يكون نصيب « وردسورث » أن يحول المألوف الشائع إلى جذاب غير عادي ، فيتناول أشياء الحياة اليومية وأشخاصها ، ويخلع عليها ثوبا من الجدة والطرافة ، ويثير في النفوس إحساساً بها شبيها بإحساس ما فوق الطبيعة ؛ ذلك بأن يوقظ العقل من غفوة العادة والتقليد ، ويوجه انتباهه إلى ما في الحياة المحيطة به من عجب وجمال . وعلى هذا كتبت بعض قصائدي التي كنت آمل أن أحقق فيها المثل الذي وضعته نصب عيني . ولكن نشاط « وردسورث » كان أكثر توفيقاً ونجاحاً ، فكثرت قصائده كثرة فقد بها التوازن بين نصيبي ونصيبه . نشرت المجموعة سنة ١٧٩٨ ومعها مقدمة قصيرة . وبعد ذلك بسنتين ظهرت الطبعة الثانية وقد أضاف إليها « وردسورث » مقدمة طويلة حاول فيها أن يوسع نطاق الأسلوب الذي التزمه في مقطوعاته ، وأن يدعو إلى تعميم استعماله في الشعر على مختلف ضروبه وأنواعه — رافضا كل ما عدا ذلك من أساليب وتعابير ، لأنها في نظره عقيمة غير صالحة ، ولأنها غير مشتقة من لغة الحياة الحقيقية ؛ وهذه العبارة الأخيرة — لسوء الحظ — مبهمة المعنى غير محدودة الدلالة .

هذه هي التجربة التي اتفق الصديقان الشاعران على القيام بها ، والتي لم تظهر ثمارها حتى أثارت بينهما خلافا على طبيعة الشعر وموضوعاته وأسلوبه ، وهل ينبغي أن يفترق قاموسه من قاموس النثر ، وهل الوزن ضروري فيه ، وما إلى هذه من نواح اهتزت لها دوائر النقد الأدبي ، وستظل لها مكانتها ما بقي الشعر وناقدوه .

***

وسنعنى نحن في هذا المقال بأن نعرض وجهة نظر « وردسورث » فقد كان هو البادئ بالنقاش ، وقد أثار بضع مسائل في صميم « نظرية الأدب » ، وعبر عن آرائه فيها تعبيرا قويا ، ربما خرج به أحيانا عن حد القصد والاعتدال . ويظهر أن هذه الحماسة الزائدة في البحث والجدل مرجعها ما قوبلت به قصائد الشاعر في تجربته الجديدة من إعراض وإهمال . ومؤرخو النقد يجدون في هذا دليلا سيكلوجيا غير مباشر فيما صدر به « وردسورث » مقدمته النقدية من أنه « مستريح للرضا الذي حازته قصائده » !! و « أن هذا الدفاع المنظم إنما هو استجابة لإلحاح بعض الأصدقاء » !!

على أن عناية تاريخ النقد الأدبي بهذا البحث الذي أثاره الشاعر لا ترجع إلى قيمة صاحبه فحسب ، ولكن — أكثر من هذا — إلى قيمة الرد الذي رد به « كولردج » على آراء رفيقه وقسيمه في التجربة . وكولردج يحتل في تاريخ النقد منزلة يقرنها الكثيرون إلى منزلتي « أرسطو » و « لونجينس » ، وهم مجمعون على أن ذهنه كان مهيأ للنقد أكثر من صاحبه ، وعلى أن طريقته فيه جاءت نموذجا في أدب الحوار ، وعلى أنه كان أوسع من مناظره قراءة واطلاعا ، ولا سيما في فلسفة علم الجمال .

شغل « وردسورث » بالنقاش في هذا الموضوع وكتب فيه أكثر من مرة ، مقصراً حينا ومطيلا حينا آخر ، محاولا أن يبث الدعوة لآرائه ، حتى في رسائله الخاصة لصديقاته وأصدقائه الذين يصفهم بأنهم كانوا حريصين — حرصه هو — على نجاح قصائده الجديدة . ولهذا قووا هذه الرغبة في الدفاع عن آرائه « لاعتقادهم أنه إذا انتشرت الآراء التي بنيت عليها هذه القصائد ظهر نوع جديد من الشعر يلذه الناس على الدوام ولا تنقضي متعتهم منه » .

ولكن شاعرنا كان محساً منذ اللحظة الأولى أن الكتابة في هذا الموضوع في دقة ووضوح تستلزم بحثاً تاماً في ذوق الجمهور في عصره في انجلترا ، وفي كون هذا

المتلقي سلباً أو سقماً ؛ وهذا بدوره لا يمكن إلا إذا عرفنا كيف تتفاعل اللغة والعقل الإنساني ، وإلا إذا تتبعنا تاريخ التطور لا في الأدب وحده بل في الجماعة أيضاً ، وإلا إذا درسنا المنابع الحقيقية للشعر في نفس الإنسان ، والسر في تأثر الناس به ، ورجعنا في كل ذلك إلى القوانين الأولى للطبيعة الإنسانية .

والواقع أن الباحث المنصف — على مخالفته « وردسورث » في بعض نتائجه التي ستجيء بعد — لا يستطيع إلا أن يشارك الناقد هذا الاحساس ، فإن كثيراً مما كتب — ولا يزال يكتب — تحت اسم النقد يرسل إرسالا ، ويرى فيه الكلام على عواهنه ، وتلقى فيه الأحكام لا تعرف لها دعامة ، ولا تتبين وراءها مرجعاً ترجع إليه . وعندنا أن البحث في طبيعة الانتاج الفني وخصائص الجمال في مختلف مظاهره ، وفيما بين اللغة والعقل الإنساني من أثر متبادل ، والوصول في ذلك كله — ولو بصفة عامة — إلى فكرة أساسية في الأدب والفن ، أمر لا بد منه لدارس الأدب وناقده ، بل لمنتجه أيضاً ؛ ولو شئنا أن نترجم عن هذا بلغة دراسات العصر الحاضر قلنا إن من ألزم أدوات الدراسة الأدبية النقدية — بجانب ما اصطلح عليه من أدوات تقليدية — قدراً من علم الجمال ، وآخر من علم النفس ، ونصيباً صالحاً من دراسات التاريخ والاجتماع .

اختار « وردسورث » موضوعاً لقصائده التجريبية — كما قلنا — الحياة العادية ، ثم لأمر ما قصر نفسه من هذه الحياة على الجانب المتواضع الخشن — جانب عوام الناس ودهمائهم — لأن أهواء النفوس ومشاعرها تجد في بيئة هذه الحياة أرضاً خصبة تنمو فيها نمواً طبيعياً ، وتبلغ ما قدر لها من نضج وكمال ، وتفصح عن نفسها في لغة سهلة واضحة لا تجد منها شطط أو كتم ، ولأن هذه الأهواء والمشاعر توجد إذ ذاك في حالة من البساطة تمكن الحس المرهف من تأملها في دقة ، والتعبير عنها في قوة وحرارة . هذا إلى أن الناس في تلك الحال أقرب ما يكونون إلى الطبيعة وأشكالها الجميلة . واختار « وردسورث » كذلك أن يعبر عن هذه الحياة العادية بلغتها التي يتكلمها أهلها في معاشهم اليومي ، حيث يتصلون بعناصر الطبيعة اتصالا مباشراً (ومن هذه تشتق أحسن عناصر اللغة) ، وحيث يعيشون بعيدين عن تأثير الغرور الاجتماعي فيبثون عن مشاعرهم وأفكارهم في بساطة لا تنميق فيها ولا تزويق .

مثل هذه اللغة — في نظر صاحبنا — حافلة بالحياة الحقة والشعور الجري، والفلسفة الثابتة . وهي أفضل عنده من تلك القوالب اللغوية الجافة التي يستعملها جمهرة المقلدين من الشعراء ، إذ يقيمون بينهم وبين العواطف الصحيحة الحية حجاباً حاجزاً ، وإذ يجرون على نهج زائف مصطنع من التعبير يؤثرون به في بعض الأذواق تأثيراً زائفاً مصطنعاً . ولئن كان الشعراء القدامى قد استعملوا أنماطاً أنيقة من التعبير ، لقد كانوا يصدرون في ذلك عن فطرة وسليقة ، وكان بين تعبيرهم ومشاعرهم وئام وانسجام ؛ لكن من بعدهم خلف قلدوهم في التعبير دون الشعور ، وأبعدوا ما بين الشعر والحياة الحقيقية للناس .

وإذا أردنا أن نقرب نظرية « وردسورث » في هذه الناحية إلى تفكيرنا الحاضر قلنا إنه لو كان ناقداً معاصراً لآثر أن يكون الشعر عندنا من نوع الزجل الشعبي الذي يتناول الحياة اليومية في لغتها المألوفة ، ولوجد في مقطوعات « البهاء زهير » وسهولته المصرية العذبة تحقيقاً عملياً لنظريته منذ القرن السابع الهجري ، بل لوجد ذلك أيضاً في المجددين من شعراء العصر العباسي الأول ، فيما نزع إليه بعضهم من ثورة على القديم ، وظرافة في اللغة ، ويسر في موضوعات القصيد .

(يتبع) محمد خلف الله

من يوميات محام لم تنشر :

— ١ —

١٨ ديسمبر ١٩٣٩ .

طرأت الفكرة .

ومع ذلك فهي ليست جديدة ، وإنما هي رجع ما انقطع . بدأت أنشر في ... مذكرات محام مبتدىء ، وكانت نيتي أن أتابع السلسلة ، ولكن كم نية انتواها الإنسان وحققها في الفعل ؟ كم أخرج إلى « حيز الوجود » كما يقولون من تصميماته ومشروعاته !

لست أدري أثنتان أم ثلاث من الحلقات ما نشر بالفعل ، ولكنني أدري أن موجة الحياة طغت على المحامي المبتدىء ومذكراته فاكتسحتها اكتساحا ، لم تغرقها ولكنها طرحتها على شاطىء منفرد بعيد ، وطالت بالمبتدىء سفينته وتغيرت بحاره ، وأغلب الظن أنه لم يعد مبتدئا ، فقد أوشك أن يجوز المرحلة التي يعتبره القانون بعدها « ممن زاولوا المهنة أكثر من عشرة أعوام » ، وهو يرى الحادثة بعد الحادثة ، ويشعر بالإحساس بعد الإحساس ، ويفكر في الإصلاح بعد الإصلاح ، ولكنه لا يدون . فقد كان يدون في أشياء أخرى غير خواطره عن المحاماة . كان يدون في المحاماة نفسها هذه المذكرات الضفية ، وكان يدون في القانون تلك المذكرات القاتلة الضائعة ، وكان يدون في القليل مذكراته عن السياسة ، وعن الرجال والحوادث العامة ، حتى ساق الله من سرق هذه المذكرات فاحتسبها إلى جوار ما ضاع من مجهوداته .

ضاعت مذكراته السياسية فاحتسبها وسكت ، ورضي بعد ألم بهذا المصير ، ورأى فيه اتساقا تاما ينتظم مجهوداته ويطمئن إلى الفكرة والشعور .

ولكن شيطان النفس يلاحقه ، فما هي إلا أن يقرأ في مجلة الثقافة صفحة « من مذكرات قاض لم تنشر » لهذا القاضي الفاضل « ع . ج » حتى تعجبه الفكرة وحتى يعود إلى نفسه وإلى ماضيه ، وحتى يعنفها على قصورها عن المثابرة ويسألها : كم من ألوف الصفحات كان يكون في يدها الآن لو هي عنيت بتدوين خواطرها أولا فأولا ؟ والنفس لا تعدم وسيلة للدفاع ، إنها تدفع التهمة لا بالإنكار ، وإنما بتقديم البديل ، بالوفاء بالدين ، إنها تزعم أنها قامت مقام الأوراق ، وأنها قد اختزنت في أغوارها كل ما كان ممكنا أن يودعه المذكرات ، إنها مستعدة أن تعطيه مخزونها كله ، فليقدم إن كان شجاعا ، وليكتب ما وسعته الكتابة ، فإنها تملي وستملي دون أن يحركها الملل . . .

— ٢ —

فبراير ١٩٤٠

أنا عائد الآن من إحدى دوائر جنايات القاهرة .

تلقيت منذ عشرة أيام خطابا من محكمة الاستئناف تخبرني فيه أني قد ندبت عن المتهم الـ .. في قضية سرقة أحراز .. وفي عين التاريخ أرسلت إلى ملف القضية فإذا هو مكون من ١٨٨ صفحة ! ...

أخذت في تلاوة الملف وقد امتزج شعور الامتعاض من هذا التأخر بشعور آخر هو شعور الاعتزاز بهذه المهنة حين تتيح لأهلها فرصة التطوع — التطوع ولو كان جبريا — لمعونة إنسان يكتنفه الضيق ويلم به الحرج ، وهو نائب أو مغيب في سجنه لا يدري من أمر هذا المساعد شيئا ، لم يتصل به ولم ير وجهه ، ومع ذلك فهو يسهر الليل في قراءة هذا الملف ، ويخلو إلى نفسه خلوة الفن النبيل ، يرتب الدفاع ويتكر الحيلة لإخراج هذا الصديق المجهول من ثنايا هذه الشبكة ، أو عيون هذا القفص الذي يسمى قفص الاتهام !

وخلصت من قراءة هذه الأوراق وركزت في نفسي

دفاع المتهم ، حتى إذا اقترب موعد الجلسة وبقى دونها يومان أو ثلاثة ، أقبل علىّ زميل يقول : إنه قد وكل عن هذا المتهم الذى نُدبتُ لدفاعه فأسلمته الملف الذى يأتينى مجاناً لأنى منتدب ، ولكنه لا يعطى للمحامين الموكلين إلا بأجر مرتفع ! .. سلمت زميلى الملف واستكتبته ورقة تسجل هذا وعدت إلى مقعدى أفكر فى هذا التصرف ؟ لقد قرأت اسم هذا الزميل بالذات باعتباره مدافعاً عن هذا المتهم بالذات خلال أدوار التحقيق وأمام قاضى الإحالة ، ولكنه ذكر أمام هذا القاضى أنه موكل فى الإحالة فقط ! وهكذا كان لا بد من ندب محام عن المتهم يترافع أمام جلسة الجنايات ، وكنت أنا المنتدب ! وقد وكّل الزميل فمتى وكّل ؟ ولم تأخر فى طلب الملف إلى اللحظة الأخيرة ؟ أتراها المصادفات فقط ؟ أم هو الترتيب والإحكام لغاية أو غايتين هما الوصول إلى نسخة من ملف الدعوى بغير ثمن ، والاستفادةُ من دراسة محام آخر للقضية دراسةً سجلت خلاصتها على أوراق الملف شأن المحامين جميعاً ؟

لقد تداعت المعانى فى نفسى ، وقلت : إنْ صدقَ أن الغاية الأولى قامت فى نفس المحامى ، أو فى نفس المتهم وذويه ، أكان يليق بى أن أنيلهم ما يبتغون ؟ هذه جناية لأن موضوعها سرقة أموال عامة ، فما أشدّ تهكم الظروف حين تزرع على هامش هذه الجناية فعلاً آخر يشترك معها فى الطبيعة ، ولكنه لا يُطبع بهذا التجريم الرسمى ، هو التحايل على حرمان الخزانة العامة من حق مقرر لها هو ثمن الملف فى غير أحوال الانتداب ! ...

***

... ١٩٤٠/٤/٦

دخلتُ الغرفة التى ينظر فيها مستشار التحضير قضاياه . خلال ملل الانتظار رفعت رأسى أتلى حوائط القاعة . أخذ نظرى اللوحة المعلقة فوق رأس المستشار ؛ ألِفتُ فى مثل هذه اللوحة أن تزدان بالآية الكريمة : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، ولكن هذه الآية كانت غائبة عن لوحة اليوم ، قد أعطى مكانها لآية أخرى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . »

تجديد . . . ما الذى أوحى به ؟

إن الآية الأولى خطاب الله إلى القضاة ، أما الآية الثانية فهى كلمه تتجه إلى الناس . .

أترى الدولة قد جربت عدل الحاكم فوجدته لا يغنى عن عدل المحكوم ؟ أم ترى القضاة ضاقوا بهذا الإلحاح عليهم أن يحكموا بين الناس بالعدل ، وهو واجبهم الذى لا يُتصوَّر منهم الانحراف عنه ، فمن الإيذاء لنفوسهم أن يتكرر تنبيههم إليه ؟

لستُ أعرف صاحب الفكرة لأستهدى على ضوئه بالباعث ، ولكنى قد رضيت عن التغيير أو رضيت بهذه الإضافة : إن القاضى مهما يتحرّ العدل هو بعَرَض أن يخطىء ، وهو لا يستقى الحكم من وجدانه وحده ، وإنما يعتمد على الناس ، يعتمد على أعوان القضاء الذين قد يُضلّونه عن الحق ، ويعتمد على الشهود الذين لا يتحرجون عن الباطل ، وهو فى آخر الأمر ليس إلا بشراً غير معصوم . وعن النبى (ص) أنه قال : « إنى لأقضى بينكم ، ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ؛ فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقضى له قطعة من النار . »

والناس قد غاب الزاجر من نفوسهم إلا قليلا ، وعدلُ القضاء إن وفق القضاء إليه هو عدل يلى ، خير منه عدل النفس مع النفس ومع الناس ، خير منه أن يفى العاقد بالعقد ، فهو كلمته ، هو شرفه ، هو مميزه الإنسانى من سائر الأحياء .

ربطت الآيةُ بين الإيمان والوفاء بالعقود ، جعلتْ

أملُها عند المؤمنين . وإن هذا الأمل ليخيب ، إن هــذا الدعاء ليتلى فى كثير من بيوت الله ويتشقشق به كثير من الألسن ، ولكنه لا يستقر فى القلوب عقيدةً ليظهر فى الحيـاة عملا . . .

« الدين المعاملة » ! ما أشد حاجة النـاس إلى أن يفقهوا معنى هــذه الكلمة ، وأن يكونوا فى حكمها أتقياء متدينين !

— ٤ —

١٩٤٠/٤/٨

عدت من محكمة الوايلى حيث نظرت معارضة الأستاذ . . . ضد وزارة المواصلات . ترافعت ، وبدا من مناقشة القاضى لممثل الوزارة أنه مقتنع بعدالة مطلبنا ، وقد أرجأ النطق بالحكم إلى آخر الجلسة .

سنرى ما يكون .

وقد لاحظت خلال انتظارى دور القضية أن القاضى تجهم لكاتب من الكتبة العموميين وقال له متهكما : « تعال ترافع ! كفاية انتم وخلوا المحامين يقفلوا مكاتبهم » ! كان القاضى بادى الاستياء . ليت هذا الاستياء يحل صدور القضاة جميعاً . وليته يتخذ مظهراً عمليا بتنظيم دخول هذه الطائفة الخطرة فى دور المحاكم . لقد أثبتت بعض القضايا الجنائية أن توثق العلاقات بين الكتبة العموميين وكتبة المحاكم أدى إلى سرقة أوراق قضايا ، وأدى إلى عقاب فريق من هؤلاء وفريق من هؤلاء . ولكن هــذا الشر ما زال مستفيضاً . إن الكاتب العمومى أو كاتب المحامى الذى يكون (أى الكاتب) كاتباً عمومياً ، هما ألصق بأقلام الكتاب وأقلام المحضرين من المحامى ومكتب المحامى مهما يكن فى تحديد الجلسات ، وفى إنجاز الإجراآت : للأول ما يشاء ، وللثانى اللوائح وتعليمات القاضى وأوامر الرياسة وما إلى ذلك من الحواجز والموانع . إن شبح المحامى شبح مكروه ، إن مجرد دخوله قلم الكتاب أو قلم المحضرين يقابل بالازورار ، إنهم يرون فيه رقيباً على ما يعملون . إنهم يرونه أجنبيا يقتحم داراً ليس من أهلها ! . . .

الشُّطار فى مصر

والشُّغار فى مصر

— ٥ —

١٩٤٠/٤/١٤

دخلت قاعة جلسة محكمة عابدين الأهلية . . . وجدت القاضى الحاذق" محتداً فى مناقشة مع زميل يترافع ! لم ألبث أن فهمت ! إن هذا المحامى يترافع ضد زميل له فى قضية أتعاب . . إنه يزعم أن زميله قد استولى بطريق الإكراه الأدبى على جنيه زيادةً عن المقدم ! . . منذا الذى يلوم القاضى ؟ بل منذا الذى لا يشكر القاضى ؟ حين رآه يصيح فى وجه المحامى قائلاً : « أنا أفهم أن المحامى الذى يحضر ضد زميل يكون عنده كلام وجيه يقوله حتى يوجد المبرر لهذا الحضور . » .

لك الشكر يا سيدى القاضى . لقد كنت محامياً ناجحاً كفؤاً ، وإنك قد اقتعدتَ مقعد القضاء بجدارة ، وربما بخسارة ! فلك الحمد من المحاماة على أنك لم تنسها ، وأنك تنتصف لها من نفسها . كثيرون غيرك كانوا محامين فأمسوا قضاة يلقى المحامون منهم عنتاً قد لا يرون مثله من القاضى الذى لم يلبس الروب الأسود . . . ظاهرة عند المتمعنين تفسيرها . . وقد يكون عند زملاء الأمس معاذيرها . . . والتفسير والعذر كلاهما فى حيز علم النفس الذى يسع صدره كل شىء . . . .

أيتها المهنة العجيبة . . . يامهنة المجد والعبودية فى آنٍ واحد . . من فرّ من شرّ أذاك ، لم يسلُ حلو جناك ، ومن أغمض العين عن نارك تسمّرت عينه الأخرى فوق جنتك . . . يحدك بشير الغبطة ، والراحل عنك لا يلبث

أن يعن إليك ويغبط المقيمين فى رحابك . . ومن بعد يبدو رواؤك أبهى مما هو فى الواقع . . . والقاضى تجرح كرامته كلة من مفتش ، بل إنه ليجرحها مجرد دخول المفتش إلى محكمته . . والقاضى تؤذى عاطفته حملة ترد على أقلام زملائه الذين نظروا حكمه المستأنف إليهم ، أو نظروا طلب النقض المعارض . . . فى طبيعة الإنسان التى كبتت الغيظ وطوت الجوانح على النقص الذى أصابه من فوقه ، أن يفرج عن نفسه ، أن يطلق هذا التيار المحبوس من عقاله لينصب فى مجرى أكثر انخفاضاً من مستواه . . ولكن تيار الغضب قد ينطلق انطلاقاً طبيعياً عادلاً ، وقد يصادف أهلاً لا يقومه غيره . . ومالى لا أكون منصفاً ، فأفترض أن من قضاة اليوم زملاء الأمس من يستحق لهيئته إعزازها وإكرامها ؟ وذلك مصدر اشتداده حين يراها أحياناً تمرغ فى الوحل بأيدى بعض أبنائها .

«كيكرو»

من لحم الثعبان غذاء شهى

ومن سمه بلسم شاف

من الغريب أن يجتمع الضدان ، فنجد من السم القاتل دواء شافياً ، على أن يؤخذ بقدر . والسم كلة يهابها السمع ، شأنها فى ذلك شأن كلة ثعبان . فمن منا يرى ثعباناً ولا يهرب منه ؟ وهذا الاسم لو ردد فى حفل فسرعان ما تتفرق أفراده ، وما ذلك إلا لأن الثعبان رمز للسم المتحرك ، يهابه الإنسان كما يهاب الموت . على أن كثيراً من الثعابين لا تحمل بين فكيها سماً قاتلا ، ومثلها الدساس المصرى . ولو عرفنا أن ثلثى ثعابين العالم لا تحمل سماً لأدركنا أنه ليس هناك ما يدعو إلى أن نهاب الثعابين ونخشاها .

ولنفرض أننا بصدد ثعبان سام ، فلماذا نهابه ، أليس من الضرورى أن يكون لكل مخلوق وسيلة للدفاع عن نفسه أو مهاجمة فريسته ؟ فهذا يهاجم فريسته بقوته ، وذاك يهاجمها بسمه ، وهكذا . ولو زار شخص حديقة الحيوان بالجيزة فى وقت غذاء الثعابين لشاهد البيثون ، وهو ثعبان ضخم ، يقدم له الحمام حيًّا طائراً ، فلا يلبث أن يقتنصه ويعصره بين عضلاته القوية ثم يلتهمه ، أما إذا انتقلنا إلى الكوبرا فإنها تهاجم الفأر بعضة تفقده الحياة ، ثم تلتهمه جثة هامدة .

على أن هذه الثعابين ، مع ما عرف عنها من خطر مميت ، قد استفاد العالم منها ، وأصبحت تحفظ فى مزارع خاص ويجنى منها الكثير من الفوائد . ففى أمريكا ثعبان سام يعرف بالثعبان ذى الجرس ، لأن له فى آخر ذيله حراشيف يحتك بعضها بالبعض فيحدث صوتاً خاصاً ، ويربى هذا الثعبان بمقادير كبيرة كما تربى الدواجن ، ويؤخذ كل جزء من أجزاء الثعبان ليستخدم فى غرض خاص ؛ فعضلاته تطهى وتحفظ فى علب ، تباع فى محلات البقالة ، كالسردين واللحم البقرى . أما هيكله العظمى فيقام على حوامل ، ويباع للمتاحف والمعاهد العلمية . وأما أحشاؤه فتحفظ مشرحة فى مخابير خاصة لبيان أجهزة الثعبان من الداخل ، ويستخدم جلده فى عمل الحقائب والأحذية وأدوات الزينة .

وقد ذكرنا أن للثعبان حراشيف ، وقد يعجب القارئ إذا عرف أن هذه الحراشيف تستخدم فى أمريكا كتعويذة من الإنس والجن ، يحرقها الشخص لهذا الغرض . ومهما يكن مصدر هذه الخرافة ، فإن هذا الجزء ينتفع به أيضاً .

أما سم الثعبان فله فائدة فى علاج بعض الأمراض ، وللعلاج بسم الثعبان قصة ترجع إلى طفل فى الثالثة عشر

الأطباء فى علاجه ، فأدخل فى مستشفى ، وكان مرضه يرجع إلى جهازه الدورى وضعف أوعيته الدموية ، إذ يحدث له نزف من شعيراته الدموية ، حيث الجلد الرقيق كغشاء الفم أو الأنف من الداخل ، وبسبب ذلك بقعاً بنفسجية ؛ ووجد أن الطفل يضعف ضعفاً متواصلاً ، وقد انطفأ نور الحياة من وجهه . وبعد فحص الأطباء له عالجوه بحقن الكالسيوم والحديد وغير ذلك من أنواع العلاج المعروفة ، ولكن لم يجده ذلك شيئاً . فرؤى مناقشة الأمر بين جمع من الأطباء . واستقر الرأى أخيراً على حقن الطفل بسم ثعبان . وتردد الكل فى استخدام هذا النوع من العلاج لهذا المرض فى طفل ضعيف . فكيف يتحمل طفل فى الثالثة من عمره سماً زعافاً ؟ ولماذا يتحمل هذا المسكين تجربة قاسية كهذه قد تعجل بوفاته ؟ وهل يوافق الوالدان على أن يتحمل فلذة كبدهما مثل هذه التجربة ؟ ثم إنه يخطو إلى الموت رويداً رويداً ، ولكن أملهم فى نجاته يوماً من الأيام قد باعد بينهم وبين الموافقة على تحمل هذه الصدمة . على أن تألم الطفل المتزايد ، وتهدمه أسبوعاً بعد آخر ، ويأس الجميع من شفائه ، أيقظ فى نفس الوالدين أملاً أنار لهما طريق الخلاص ، فوافقا على أن يتجرعا الكأس على مضض .

وهنا أسرع الأطباء إلى من بيده أحد هذه الزواحف المميتة ، وطلبوا منه شيئاً من سمه . وإنها لجرعة غالية يحتفظ بها الثعبان ، فهى كل ما يملك لبقاء نوعه وحفظ حياته . وليس أخذ السم منه بالأمر الهين ، إذ يحتاج ذلك إلى طريقة خاصة لإمساك الثعبان ، وفتح فمه على مصراعيه ، ثم الضغط على كيس السم بلطف وحذر ، فلا يلبث السم أن يقطر من ناب الثعبان فى غشاء جلدى أعد لذلك . وتدلك غدد الثعبان قليلا قليلا بأصبع خبير ، وبذا يحصل الطبيب على أكبر مقدار من مادة صفراء ، وهى السم القاتل . بعد ذلك أسرع الطبيب بهذا المقدار إلى الطفل وهو بين الموت والحياة ، وحقنه ثلاث نقط لا أكثر ، وانتظر بعد ذلك ليرى الأثر ، وهو أشد ما يكون هلعاً وخوفاً ، ولكنه كان يزداد اطمئناناً بمضى الوقت ؛ وما كان أكثر فرحه عند ما وجد أن الحقن لم يكن له أى أثر ضار بالمريض . وبعد بضعة أيام أعاد الحقن ، فلم يضار الطفل ، واستمر الحال على ذلك فترة تقرب من ثلاثة أسابيع ، ولوحظ ازدياد مقاومة الطفل لحقن السم . وأخيراً بلغ ما يحقن به خمس عشرة نقطة ، ومع أن هذه الجرعة قد تكون كافية لقتل شخص بالغ ، إلا أنها لم يكن لها أى أثر سيء على الطفل . بعد ذلك لوحظ أن الأوعية الدموية ، للطفل تقوت ، وأخذت البقع البنفسجية فى التلاشى . ولم يلبث الطفل أن برىء من مرضه واستقبل الحياة بعد أن كاد يودعها .

ومن الطبيعى أن الأطباء لم يقدموا على هـذه التجربة دون تمحيص سابق . فقد قام العلماء بأبحاث كثيرة فى هذه الناحية . لجربوا أثر السم فى تجلط الدم ، وقد صادفوا نجاحا كبيرا فى هذه التجربة . فعرفوا من بحثهم أن السم يساعد على سرعة تجلط الدم وتقوية أوعيته ، وعلى نور هذا البحث استرشد الأطباء فى إنقاذ هذا الطفل .

ولا غرابة فى ذلك فهناك أدوية سامة كالزرنيخ والزئبق إن أخذت بمقدار يسير كانت شافية ، وإن زيد المقدار كانت جد قاتلة . فالمقدار هو الذى يتحكم .

وقد فحص العلماء أثر السم فى الحيوان ، فوجدوا أن هذا الأثر على نوعين : فإما أن يبيد خلايا الدم ، وإما أن يميت الأعصاب وخلايا الحس . ويسبب هذا النوع الأخير فقدان الحس والوظيفة ، فإذا ما وصل أثره إلى أجهزة التنفس سبب الوفاة للحيوان .

وقد عولج مرض الهيموفيليا بسم الثعبان . والهيموفيليا

مرض وراثي يكون في الدم ، وبسبب عدم حدوث التجلط ، ووجد أن المريض الذي يحتاج إلى زمن يتراوح بين عشرين وخمس وأربعين دقيقة لتكون الجلطة ، لا يحتاج لأكثر من سبع عشرة ثانية إذا عولج بمحلول مخفف من سم ثعبان خاص .

ومرض الهيموفيليا مرض خطير ، ويندر أن يعيش المصاب به إلى سن متقدمة ، إذ يعيش مهدداً طول حياته ، فخلع سن أو جرح بسيط قد يسبب نزفاً مميتاً ، وقد ساعد سم الحية على نجاة كثير من هؤلاء المرضى بإيقاف النزف في الحال .

وقد جرب هذا العلاج في بعض أمراض الكلية التي يصحبها دم في البول ، فأدت التجربة إلى نتائج حسنة . وأخيراً حاولوا علاج الأمهات عند الوضع بهذا السم ، فقسمت الأمهات اللائي على وشك الوضع إلى قسمين : قسم حقن بجرعة من السم ، والقسم الآخر لم يحقن . وقد وجد أن مدة النزف بعد الولادة قصرت إلى حد كبير في حالة الأمهات اللائي حقِنَّ قبل الولادة . كما قل الدم الذي تنزفه الوالدة . ومن الغريب أنه وجد عند تحليل دم الرضيع أنه لا يحمل أثراً للسم ، ولم تعانِ الأم أو رضيعها أي ضرر من هذا الحقن .

وفي الهند حيث يكثر الثعبان الناشر ، وتكثر الوفيات التي يسببها هذا الثعبان الخطر ، أخذ العلماء يوجهون سمه لفائدة المجموعة ؛ ولما كان سمه من النوع المؤثر على الأعصاب ، فقد استخدم لحقن أشخاص مرضى يقاسون ألماً ممضاً . وقد وجد أن هذا الحقن لا يصبح عادة عند المريض كما هو الحال عند استخدام مادة كالمورفين مثلا .

على أن العلاج بسم الثعبان لم يتم بحثه بعد ، ولا بد أن يمضي بعض الوقت قبل أن يعمم ؛ على أن هـذا لن يكون بعيدا ، وخاصة إذا علمنا أن سم النحلة قد استخدم في علاج الروماتيزم ، وأن اهتمام كثير من العلماء بهذه الناحية سيكشف لنا الكثير عن هذا العلاج الغريب .

محمد أحمد يونس

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٣٠ في مصر والسودان

٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام

٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ٦ قرش صاغ

فريد

قصة : بقلم الكاتب اليوغسلافي فلادمير نزيجيك

ولد فلادمير نزيجيك عام ١٨٧٠ في توبوسكو من أعمال كرواتيا وأتم فيها دراسته الابتدائية والثانوية والعالية، ثم قصد فينا للتخصص. ساح كثيراً في أنحاء أوربا، وفي عام ١٨٩٥ أسند إليه منصب حكومي في بوسنيا، ومن ثم انتقل إلى منصب آخر في كرواتيا عام ١٩٠٧، وأصبح بعد عامين مديراً للمسرح الأهلي الكرواتي في زغرب. وقد وضع عدداً من القصص المبتكرة، كما أنه ترجم آثاراً أدبية لمشاهير الكتاب الفرنسيين أمثال ألفونس دوديه وأميل زولا وجول فيرجيه. والقصة التالية تعد من أجود قصصه :

ألا تستطيع أن تتصور بحراً هائلاً من صخور أحيثما تتوجه ببصرك لا تجد ولا ترى غير الصخور؟ الصخور البيضاء والصخور الرمادية الجرداء التي تطاول السماء بارتفاعها. وأعلاها تلك التي تكاد تلامس القبة الزرقاء. وهي التي تسمى بقمة (فيليش) حيث تمتد تحتها بحيرة يكثر فيها الرمل والطين، ولا تجد لطولها من نهاية. هذه البحيرة هي بحيرة (بلاتو).

في وسط هذا المنظر تعرفت على فريد بك، وهو واقف خلف صخرة متربصاً يرقب سقوط البط البري صريعاً على الصخور. سمعت عدة طلقات من بندقيته وأنا على بعد مائتي خطوة منه، وعندما هبط الظلام أبصرته على ضوء قمر وليد وكأنه عملاق هائل يحمل على كتفه مدفعاً ضخماً.

وقد كانت بندقيته في الحقيقة أطول من متر، كما أن فوهتها كانت أغلظ من ذراع طفل، فابتسمت لنفسي أنا الذي أملك بندقية خفيفة من بندقيات لانكستر ذوات الفوهتين. وعندما رأيت (فريداً) يحمل جعبة مليئة بالبط البري رفعت له قبعتي فأصبحنا صديقين حميمين؛ ذلك لأنه من الميسور جداً أن تتعرف على الآخرين وتتصادق معهم بأسرع ما يمكن في مجال الاصطياد وأماكن القنص.

والسبب يعود إلى أن القلب يكون إذ ذاك مغموراً بالعواطف الطائشة، تلك التي تكون مستعدة لتقبل كل جديد. وهذا هو السر في القول بأن الصيد رياضة لا تصلح للأوانس اللائي يحرصن على عفافهن.

كان الوقت خريفاً وصرنا نلتقي تقريباً كل يوم حول بحيرة بلاتو، ولا نكاد ننقطع من رؤية بعضنا إلا لماماً، في ذلك الخريف الذي كانت فيه بلاد الهرزيك وبوسنيا قد تنكبت السلاح وأخذت تعد العدة لإرسال الوجبة الأولى من المقاتلين.

— «إنك لبطل» قال فريد ذلك وأضاف: «لأنك تجسر على أن تجول هنا وحدك».

فضحكت بصوت عال وقلت:

— أهو من البطولة في شيء أن لا يكترث المرء لحياته؟ ماذا يهمني إذا كنت اليوم في الأحياء، وغداً في عالم آخر؟

فأجاب فريد: «حسناً»، ولكني رأيت في عينيه ما جعلني أوقن بأنه لا يؤمن بما يقول، وإنما يتكلم بدافع الحصافة والكياسة.

أخذ الضباط وأصدقاء فريد يستغربون صداقتنا، ذلك لأن فريداً لم يعتد أن يوقر أو يبجل أحداً، لأنه من الهرزيك المتكبرين الذين اعتادوا الحرية التقليدية ونظام الطبقات الارستوقراطي.

وأخيراً أقعدتني واجباتي الكثيرة عن لقاء فريد بك لبضعة أيام، وفي أثناء هذه الفترة قتل الثوار ضابطاً وأربعة من جنودنا في المنطقة التي كنا نعيش فيها، فأرسلت حامية (موستار) ومنها لتبحث عن القاتلين.

وفي ظهيرة يوم حار من أيام أكتوبر، تلك التي تشبه يوماً قائظاً من أيام يوليه، جئت مع رجالي إلى قرية صغيرة بالقرب من (بلاغاج).

وعند ما اقتربت من أول منزل لاحظت عدداً كبيراً

من الجند يقارب كتيبة كاملة ، ولما لمح الكولونيل صاح بسرور :

— لقد ظفرنا بأحدهم ! .

فسررت جداً لذلك ونسيت كل أتعاب النهار .

— هنا سوف ننتقم لرفاقنا .

— ها هو . الآن سيرى بالرصاص وردى قتيلا !

أضاف ذلك الكولونيل وقد كان من أصدقائنا البولنديين الممتلئي الأجسام ذوى الوجوه اللموية الحمراء .

ونظرت إلى حيث أشار فرأيت فريد بك رافعاً بصره إلى السماء .

فصرخت دون إرادة : أممكن هذا ؟ وهل لديكم براهين ؟

فابتسم الكولونيل وقال مشيراً : هناك تجد البراهين ، فرأيت رجلين جالسين على صخرة وقد خفضا رأسيهما ، وأخذا يجيلان بصريهما هنا وهناك فى دوائر وهمية ، وعرفت أنهما اثنان من مستأجرى أراضى فريد بك ، جا آ بالجند إلى قرية الأخير وأخبراهم بأنهما شاهداه بأعينهما يصوب بندقيته إلى أحد الضباط من خلف صخرة فيرديه قتيلاً .

كنت منفعلا ذاهلا ، فلقد كان معروفاً لدىّ العداوة القديمة المتأصلة منذ أجيال بين المستأجرين وأصحاب الأراضى ، ولذلك فقد شككت فى مدعيات هذين الشاهدين ، وبدأت أطرح عليهما الأسئلة آملا أن أجد مايدل على أن الضباط قد أساءوا فهم ماسمعوه منهما ؛ غير أنهما كررا نفس القصة بدون تغيير ، وقبل أن ينجزا القصة تماماً سمعت صوتاً ورائى يزمجر قائلا : « إنكما تكذبان ! » . ولما التفت كان فريد بك لا يزال حيث كان بقامته المستقيمة وعينيه الشاخصتين إلى السماء ويديه المكبلتين .

فضحك منه الشاهدان لأنهما كانا قد أخذا الجائزة مقدماً .

فتقدمت من فريد بك وقلت له : لماذا لا تدافع عن نفسك أيها الرجل ؟ فأجاب دون أن ينظر إلى :

— لأنهم لا يسألوننى ، وإنما يستمعون إلى هذين الوغدين . . .

وبدا لى وهو متكئ على الجدار بقامته المنتصبة الطويلة هادئاً كبطل من الأبطال أو شهيد من الشهداء ، فشعرت بقشعريرة تسرى فى قلبى والتفت ثانية إلى الكولونيل الذى أمر فى هذه الأثناء بانتخاب عدد من الجند ليقوموا بإطلاق النار على فريد بك بغية إعدامه .

— فى أى يوم وفى أى وقت قتل الضابط راتجيج ؟

— يوم أول أمس ، أى الأربعاء ، قبيل الظلام .

— لقد كان فريد بك يوم أول أمس يصطاد معى من الظهر حتى الليل حول بحيرة بلاتو .

— ماذا ؟ هل هذا ممكن ؟ .

صرخ الكولونيل وهو بادى الفشل :

— إن كلمة ضابطى مع ذلك هى ضمان كاف .

— وهذان الشاهدان ؟

— إنهما كلبان كاذبان .

— اذهبوا بهما إلى المشنقة !

حلت وثاق فريد بك ، وكان جسمه يرتعش كورقة فى مهب ريح ، وقد انعقد لسانه فلا يستطيع الكلام .

ولكننا عند ما خلونا بمفردنا ، وأخذنا فى تناول القهوة بعد قليل ، سمعت فريد بك يقول :

— سيدى ، أخى ، إننى مستعد لأن أهبك كل ما ترغب وتريد .

ومنذ ذلك اليوم أصبحنا صديقين حميمين جداً . لقد كان فريد محبوباً عندى منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها ، ولكنى الآن أصبحت غير قادر على الهرب من صورة هذا الإنسان الذى هو مثال للبطولة ، ثم من هذا الروح البسيط ، وفى نفس الوقت الشبح الارستوقراطى ، فسألت نفسى :

— أليس هنـاك على شواطئ، نهر يربطنا من آثار رومانية أخرى سوى القناطر الحجرية ؟ بلى ... هذا الروح المتحلى بالبطولة والكرم !

ما أكثر ما كان فريد يخدمنى ويُعنى بى ، فهو لم يسمح لى بعد الآن أن أحلق ما أعتاد ولا أن أمسك البندقية ، فقد كان يصدع لشكل أمورى بنفسه ! وعندما زرت بيته ذات مرة كان عاجزاً عن إيجاد محل هو من الراحة والارتفاع بدرجة كافية ، فقد أخرج كل ما كان يملك من فُرُش ووسائد ليضعها تحتى ، وأخذ يصب لى القهوة والليموناذة ويقدم لى السيجارة أثر السيجارة ، ولم يكن أمامى الآن بطلا عظيما بل طفلا صغيراً ، ومحباً صادقاً رقيق القلب .

وسمعته يتحسر ويقول : « ليتنى أستطيع أن أرضيك . . . آه لو أعلم ما هو أحب الأشياء وأفضلها إلى نفسك ! »

فمرض لى خاطر جنونى ومؤذٍ ، إذ لاحظت وهو يتناول القهوة من يد خلف الباب شيئاً بان لى كمِّ ، وشعرت كأنى صعقت عندما لمحت عينين واسعتين ساحرتين ، وفى لحظة تبلورت فى خاطرى فكرة فقلت :

— هنا ! فريد ، إنى أطلب شيئاً .

— الآن يا أخى ، ليكن ما يكون فسأناله !

ترددت لحظة وأحسست بالخجل ، ولكن عاطفة المخاطرة كانت أقوى من أى عاطفة سواها فقلت : أرى أنه ليس من الصحيح أن تحجب زوجتك عنى حين تعلم بأنى أخوك ، أريد أن أراها ولو لمرة .

كان فريد يصب لى القهوة من إبريق ، فما إن سمع كلامى هذا حتى جمد فى مكانه ونظر فى عينى بجد وبرود ، وسأل بصوت رخيم غير معتاد :

— أحقاً ترغب فى هذا ؟

فأجبت بشكل فضولى : نعم . إنى أرغب .

فصمت رافعاً يده إلى جبينه ، ودفع طربوشه إلى الوراء حتى لامس عنقه ، ومسح وجهه ورأسه بيده ، ومن ثم انحنى محدقاً فى أرض الغرفة ثم أدار وجهه بغتة ، غير أنى قفزت لأنظره فرأيت دمعتين كبيرتين مسحهما على عجل .

رأيت فى هاتين الدمعتين الكبيرتين كل معانى العذاب العظيم الذى كان يعانيه هذا البطل ، فقلت آسفاً :

— أسألك بالله أن تغفر لى يا فريد ، لأنى لم أعلم بأن طلبى عظيم وصعب إلى هذا الحد . إنى لم أكن لأدرى ذلك . . . صدقنى ! وهنا . . . أقول لك بأنى أمتنع عن رؤيتها بكل تأكيد ، آه ! يا إلهى أمنى فى هذا ! إنى لم أقصد شيئاً ، لقد كنت أداعبك ! .

وبينا كنت أتكلم على هذه الصورة كان فريد يبكى ، ثم هدأ نفسه وقال :

— إن دعابتك هذه كادت تكلف (صديقة) رأسها .

— وكيف ؟ أسألك باسم السماء أن تخبرنى . ماذا كنت تريد أن تفعل ؟

— لقد أنقذت حياتى المرة الثانية . . . فقد صممت على أن لا تراها عين أخرى بعد أن تكون قد رأيتها سوى عين هذا المسدس !

قال ذلك ووضع يده على مسدس جميل أنيابى الصنع مفضض ، ثم تناول يدى ، وقبل أن أستطيع أن أفهم ما يرمى إليه ، ضغط عليها بشفتيه ووضعها على جبينه .

كان هذا شيئاً كثيراً ، لأنى عند ما أنقذت حياته المرة الأولى لم يشكرنى إلا بكلمات ، والآن قبل يدى .

إذ ذاك فهمت — وللمرة الأولى — كلمات هاملت :

« مهما يكن الاستعداد للتضحية عظيما فالقلب لا يستطيع أن يسمح حتى لبـد النسيم أن تداعب وجه حبيبه دون غيرة ! »

ترجمة : صفاء فارصى

بغداد : ب . ع . بدرجة شرف من جامعة لندن

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

(صيب ! — فى غرفة البرلمان ... ...

يالعجب !

فى عدد من صحف الأسبوع « إعلان » من وزارة المعارف عن حاجتها إلى كتاب فى الدين للمدارس الابتدائية فى جزأين : أولهما للسنتين الأولى والثانية ، والآخر للسنتين الثالثة والرابعة ؛ وقد سبّقت بين المؤلفين جائزتين : ثلاثين جنيهاً للجزء الأول ، وخمسين للجزء الثانى ؛ « وعلى كل مؤلف يرغب فى دخول المسابقة أن يتقدم للوزارة فى ميعاد ... ، وأن يدفع مع الطلب الذى يقدمه عن هذه الرغبة رسماً قدره ٣ ٪ من قيمة المكافأة المقررة للكتاب الذى يعتزم تقديمه فى المسابقة ، على ألا يردّ هذا الرسم بحال من الأحوال ! » .

هذه خلاصة الإعلان كما أذاعته وزارة المعارف ، وإنه لإعلان طريف كما قد يراه قارئه ، وإن فيه مجالا لمن يريد أن يتحدث عن حظ التأليف والمؤلفين فى وزارة المعارف ، حديث الجد أو حديث الفكاهة ! .

وحَسْب قارئه من حديث الجد أن يسأل عن الدوافع التى تحمل وزارة المعارف على إنشاء مثل هذه المسابقة للحصول على كتاب فى الدين للمدارس الابتدائية ؟ ... أليس بين رجالها من تستطيع أن تفرض عليه إنشاء هذا الكتاب ؟ ... بلى ولكنها تخشى التهمة بأنها تؤثر رجالها بالجوائز ، وإن بها لحرصاً على سمعتها وسمعة رجالها ؛ ثم من تظنه يُقبل على مثل هذه المسابقة من رجال التأليف ليحصل على ثلاثين جنيهاً أو خمسين ؟ ... وما قيمة كتاب يؤلفه مؤلفه غير مدفوع إليه من نفسه وليس له نيةٌ إليه إلا ثلاثون جنيهاً أو خمسون ؟ ... أم تراها لا تعتدّ الكتاب كتاباً يصلح للتداول بين تلاميذ مدارسها إلا أن يكون من أجل تلاميذها أنشىء ؟ ...

هذه أسئلة من حق كل قارىء أن يسألها ، ومن حق وزارة المعارف أن تصمت فلا تجيب ، فإن للكتب المدرسية فى وزارة المعارف طابعاً يرتفع بها عن جدل الأدباء والمتأدبين ؛ وحَسْب القارىء أن يتناول كتاباً مدرسياً من أخيه أو من ولده ليعرف بأى أسلوب وعلى أى نظام تتألف الكتب المدرسية ، وإنه لأسلوبٌ ليس مثله أسلوب كتاب آخر مما تشتمل عليه المكتبة العربية فى قديمها وحديثها ؛ فليس هناك سبيل لوزارة المعارف إلى اختيار كتابٍ لم يؤلَّف على ما وضعتْ من قواعد وما رسمتْ من حدود ، وليس هناك سبيل للتلميذ أن يستعين على التحصيل فى فرع من فروع المعرفة بكتاب لم تصطلح عليه وزارة المعارف عبارتها الخالدة : « قررته وزارة المعارف العمومية » ! ... ومن ثمة كانت القطيعة بين تلاميذ مدارسنا وبين « القراءة الحرة » ، لأن تلاميذ مدارسنا لم يتعوّدوا أن يقرءوا إلا ما تقدّم لهم وزارة المعارف من كتب على أسلوبها ونظامها ، وكان ما نشكوه من « أزمة القراءة » ! .

ثم أين يكون مصير ثلاثين أو أربعين كتاباً يؤلفها مؤلفوها ليشتركوا بها فى هذا السباق ، ولن تختار منها الوزارة إلا كتاباً واحداً ؟ ... إنها لا تصلح للطباعة بعد ، لأنها لم تؤلف إلا لتلاميذ المدارس ، وتلاميذُ المدارس فى غنى عنها بالكتاب الذى اختارته لهم ؟ أليس ذلك مجهوداً ضائعاً ؛ فمَن ذا يُقبل عليه من أجل الأمل البعيد فى ثلاثين جنيهاً أو خمسين ؟ ...

ألم يئن الأوانُ بعدُ لأن تلغى وزارة المعارف هذه « الكتب المدرسية » جميعاً لتدع للتلميذ ومعلّمه أن يبحثا عن مادتيهما العلمية حيث يجدانها فى أى كتابٍ بالمكتبة العربية ؟ إن ذلك خليق بأن يحمل التلميذ على القراءة ،

ويحمل معطه على الابتكار والمشاركة فى « الإنشاء العلمى » ، ويحمل المؤلفين على التجويد والمنافسة لا كتساب السوق العلمية ؛ وإذا كان فى وزارة المعارف بعد ذلك « فائض » من المال تريد أن تبذله ، فإنها واجدة من تبذل له بحق من المؤلفين اعترافاً بما عمل وتشجيعاً لغيره على أن يعمل ! .

* * *

وفى هذه « المسابقة » إلى ذلك جانبها الفكاهى ...

« على كل مؤلف أن يدفع للوزارة مع الطلب الذى يقدمه عن هذه الرغبة رسماً قدره ٣ ٪ من قيمة المكافأة المقررة ... على ألا يرد هذا الرسم بحال من الأحوال ! » .

عليه أن يدفع للوزارة ٣ ٪ ضريبة غير مردودة ؛ كم مؤلفاً يُنتظر أن يشاركوا فى هذا السباق ؟ ... ثلاثين ؟ أربعين ؟ هذا أقل من القليل لتكون مسابقة جدية فى هذا المضمار ؛ فكم تحصّل الوزارة من هؤلاء الثلاثين ... الأربعين ؟ ...

إنها صفقة رابحة ! ... إنى — أنا الفلس المخروق الجيب — لعلى استعداد أن أسنّ كل أسبوع مثل هذه المسابقة ، وأن أمنح مكافآت وجوائز أكثر مما تمنح وزارة المعارف تشجيعاً للنهضة العلمية وأنا الرابح السعيد ! .

يا نصيب ! ... ما أشبه شيئاً بشىء ! ... إن الورقة الرابحة من أوراق « النصيب » تباع بقرش وتربح عشرين ألفاً ، وإن الكتاب ... ؛ فهل زعمت جمعية من الجمعيات التى تصدر أوراق « النصيب » أنها تفعل ذلك تشجيعاً للنهضة الاقتصادية ؟ ... ولكن وزارة المعارف تزعم ! .

ومن حق كل مشترك فى هذه المسابقة أن يسأل : هل استأذنت وزارة المعارف أختها وزارة الداخلية كما تستأذن الجمعيات المختلفة فى إصدار « يا نصيب » ؟ وهل يحضر « السحب » مندوب من الداخلية ضماناً للعدالة ؟ وهل للشئون الاجتماعية قسط من الدخل تنفقه على الفقراء والمساكين من المؤلفين ؟ ...

... وليس من حق أن أسأل بعد اليوم أو أعترض أو أعيب على كتاب من الكتب المقررة فى وزارة المعارف ... وليس من حق أحد أن يلوم التلميذ الذى يحاول أن يتخلص من كتابه فيبيعه أو يمزقه ؛ فليس لورقة من أوراق « النصيب » بعد موعدها إلا التمزيق ! ! .

فى شرفة البرلمان ...

إنى أعرفه منذ سنين ، وإن لى به صلة ، وأعرف زوجه وولده ... ولا أعرف أحرص على التقاليد منه ؛ إنه هو نفسه صورة من « التقاليد » ! .

إنه لم يجاوز سن الشباب بعد وإن بدا فى عمامته المكوّرة قد شارف سن الشيوخ ، وإن له رأياً وخلقاً وديناً ، وفيه إلى ذلك صرامة وعنفوان ، وإن كنت لا تحس صوته إلا همساً ، ولا تسمع « أمره » إلا فى مثل ضراعة الراجى ، ولا ترى غضبته إلا فى اختلاجة من شفتيه كأنها ابتسامة الخجل ...

واختير نائباً فى البرلمان وصار له صوت وصيت ! .

أما زوجه فسيدة وقور ، أعدّها ترمّله فصارت شيخة شابة ، لا يكشف منها ثوبها إلا ما لا بد أن ينكشف ، ثيابها جميعاً على طراز لا يختلف ولون لا يحول ... وعلى أنها ذات جمال ودلال فإنها أبداً زوج مطيعة وأم برّة .

ولما اختير زوجها نائباً فى البرلمان صار لها أيضاً صوت وصيت ! .

وزارتها نسوة لم يزرنها قبل فاستأذنت فى رد الزيارة وأُذن لها ...

وتبدّت فى عين زوجها أجمل مما كانت وتبدّت لنفسها فى المرآة ؛ وما فى ذلك من بأس ؛ وتعدّدت ثيابها طرزاً وألواناً ، ولم يبخل الرجل ! .

وأجادت فنوناً من الحديث فى موضوعات لم تكن

تعرف قبلُ أين يبدأ الحديث فيها وأين ينتهي ، وصارت امرأةً من نساء الدولة ؛ ولكنها ظلتْ أبداً الزوجَ المطيعةَ والأم البرة ، وإن أسرع بها التطور أكثر مما أسرع برجلها !.

وسألته ذات مساء سؤالا فلم يجب ، ولم تغضب ؛ وأوشك هو أن يغضب يوماً وأن تختلج شفتاه في مثل ابتسامة المعجز ، ولكنه سكت ...

وصحبته مرتين أو ثلاثا إلى حيث لم تكن تأمل قبل أن يصحبها ، فلا لها أن تصحبه كثيراً ... وتغير زيها ولم تتغير طبيعتها ، ولكن « موازين الأشياء » في نفسها صارت غير ما كانت ، ولقيتني سافرةً محلوةً حاسرة الذراعين لأول مرة وإن كنت من ذوي قرابتها ؛ وسمعتُ ضحكتها ، وكان لها في أذني رنين غير ما رنّتْ في أذن زوجها ؛ وقالت لزوجها وقد طال بنا المجلس في فنون من الحديث : أريد أن أشهدك في جلسة من جلسات البرلمان !.

ونظرتُ إلى زوجها وقد حضرتني صورتها في شرفة البرلمان وصورته ، فرأيت شفتيه تختلجان ، ثم ابتسم ابتسامة راضية ؛ وأجابها إلى ما طلبتْ ولكنه لم يحدد موعداً . . .

ومضتْ أيام ، ثم برّ بما وعد ...

وشهدتْ جلسة مساء الاثنين ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٢ . . .

أسمعتَ عما دار من حديث النواب هناك ليلتئذ ؟ . . .

يا ليتك ويا ليتها . . . . . .

وظل « النائب المحترم » صامتاً طول الجلسة ، لأن ما قيل هناك أغناه عن كل كلام ؛ وكانت السيدة في الشرفة تسمع . . .

وجلا النائبُ المحترم « محمد قرني بك » اقتراحه ، وكأنما كان بينه وبين النساء ثأر ، والتهبت في المجلس شرارة فعلقتْ بأطراف كل ثوب . . . . !

وتحسست « السيدةُ المحترمة » ذيلها وهي في الشرفة وضمّتْ أطراف ثوبها إليها ، ثم تلفّتتْ يمنة ويسرة ، وعادت تتابع حديث نواب الأمة وعلى وجهها ألوانٌ مما يصطرع في نفسها من معان . . .

وتحدث النواب المحترمون حديثهم عن أزياء السيدات ، والآداب العامة ، والتقدم الاجتماعي ، والجريمة الشائنة ، والسيدات الأجانب ، وفضائح الشواطئ ، ونعمة الرجال ؛ واجتمعوا على الرأي في تشخيص الداء ، ولكنهم اختلفوا على الطبّ له ؛ ولم يُحس إحساسَ المريض بما وصفوا من أعراض غيرُ شخص واحد ، هو « السيدة المحترمة » التي كانت جالسةً في الشرفة تُتابع حوار النوّاب بعينيها وأذنيها وأنفاسها المبهورة ، وكأنما كانت تشهد المحاكمة في جلسة علنية ليس فيها إلا متهم واحد . . . !

* * *

. . . وعادت بهما السيارة مسرعة بعد انفضاض الجلسة لم ينبس بكلمة ولم تنبس ؛ وسألها وقد استقر بهما المجلس في الدار : كيف رأيتِ ؟ ...

فكأنها لم تسمع ، وأسرعتْ إلى حيث نام أطفالها تسوّي الفراش تحت جنوبهم وتُحكم إغلاق النافذة المفتوحة . . . .

أتراه كان في حاجة إلى أن يسمع جوابها ؟ . . .

« قاف »

في الميزان الجديد :

الشـــعر المهموس

٢ — « يا نفس » لنسيب عريضه

وننتقل إلى فرض آخر يودعه الشاعر صوراً جديدة :

أعشقت مثلك في السماء   أختا تحن إلى اللقاء
فجلست في سجن الرجاء   نحو الأعالي تنظرين

وهنا للأسف نحس الأغراب ونلمس المعاني البعيدة والصور المقتسرة « فالجلوس في سجن الرجاء » ليس من الشعر القريب الحبيب إلى النفس . ولكن لنعدُ عن ذلك إلى ما يليه :

لوحت باليــــد والرداء   لتراك لكن لا رجاء
لم تدر أنك في كســاء   قد حيك من ماء وطين

ونتطر فإذا بالصورة الجميلة المألوفة « لوحت باليد والرداء » تتجسم أمام أبصارنا ، وبذلك نرفع من سقطة البيت السابق وإن كنا لا نلبث أن نقع في سقطة أخرى ، هي ذلك « الكساء الذي يحاك من ماء وطين » فالكساء لا يحاك من ماء وطين . والصور لا تصدق إلا إذا كانت ممكنة في الواقع إن لم تنتزع منه فعلا .

أتحول دونكما حياء   لو كان يلوها الإله
لبكى على بشر براه   رحما يصارعها الجنين

وهذا استمرار لفكرة النفس السجينة التي لو بلا الله أمرها لأخذته بأصحابها الشفقة فبكى ، والنفس في الجسم تصارعه كالجنين في الرحم . معنى بعيد وصورة بعيدة وإن لم تخل من قوة .

يا نفس أنت لك الخلود   ومصير جسمي للحود
سيجيء عيشك فيه دود   فعلام لا ترتقين ؟

والآن ننتهي الأفكار الفلسفية وما جرت الشاعر إليه من صور بعضها قوي موفق وبعضها مقتسر جهد ، وذلك لما في طبيعة شعر الفكرة من مجازفة خطرة لم يسلم منها أحد من الشعراء فيما أعتقد ، حتى ولو كان الشاعر شيلي أو فليري .

ولكننا لا نكاد نصل إلى الإحساس الخالص والصور التي تصاغ للعبارة عنه حتى نرى في نسيب عريضة شاعراً كبيراً .

يا نفس هل لك في النضال   فالجسم أعياه الوصال
حملته ثقل الجبــال   وورثته لا تحفلين

عطش وجوع واشتيــاق   أسف وحزن واحتراق
يا ويح عيشي هل تطاق   نزعات نفس لا تلين

ونمر من الإحساس إلى الصور العاطفية فيبلغ الشاعر قمة المجد .

والقلب وا أسفي عليــه   كالطفــل يبسط لي يديه
هلا مددت يداً إليه   كالأمهات إلى البنين ؟

ها هو الشاعر قد أطلق نفسه وتحركت حياته كلها . ونسيب عريضة من أولئك المجاهدين الذين نزحوا إلى العالم الجديد يجالدون في سبيل الحياة ، وفي قسوة تلك المجالدة ما لا يترك لهم راحة ولا سبيلا إلى الأخذ من لذات الوجود بنصيب . مأساة خليقة بأن تنطقهم بأنبل الشعر ، ونسمعه فإذا هو كخير ما نعرف من شعر رومانتيكي . ونقصد بالرومانتيكي لا شعر أولئك الشعراء الصغار الذين اتخذوا من الرومانتزم مذهبا أدبيا يتصنعون فيه النحيب ، بل كلامهم الذين صدروا عن حالات نفسية صادقة .

ثم أي بساطة مؤثرة في هذه الصورة الجميلة : صورة القلب الذي يبسط يديه كالطفل ، والشاعر الذي يجير نفسه المأخوذة بروعة الجهاد والتحليق في عالم المثل « أن تمد إليه

بدأ "الأمهات إلى البنين" . صورة ساذجة ولكن كم فيها من إنسانية ! كم فيها من جمال ! كم فيها من قرب إلى النفوس !

وتستمر الصورة :

غذيتــــه من الفطـام   وحرمتــــه ذوق الفرام
وصنعت شيخا من غـلام   يحبو على باب السنين

ومن منا لا تهزه هذه الصورة الأخيرة . صورة الغلام الذى جعلت منه النفس القاسية شيخا يحبو على باب السنين ولما يلج أبوابها .

فغدا كحفار القبـــور   يئد العواطف فى الصدور
ويبيت يهتف بالنـــور   يشكو إليك وتشمتين

وهنا يجب أن نقف عند البيت الأول . فالغلام قد أصبح كحفار القبور . وهذا تشبيه يقبض النفس ويهز كيانها والحفار يئد العواطف . يئدها ، وإذاً فهى لا تكاد تموت بل لا تكاد تظهر حتى يسارع بها إلى الدفن حية ، كما كان العرب يئدون بناتهم صغاراً . والعواطف شىء قوى مدمر ، لأنها شهوات القلب المكبوت الذى يهم بالانفجار كما ضاق به الضيق . أليس فى وأد العواطف قوة الشعر ؟ وهو يئدها فى الصدور .

أعمى تطالعه السجون   وجراحه صارت عيون
وبها يرى سبل المنون   فيسير ســـير الظافرين

ولقد يكون فى مطالعة السجون واستحالة الجراح عيونا يسير بها الشاعر فى سبل المنون سير الظافرين — الذين يعتبرون الموت غنيمة — من القوة ما يكاد يمس المبالغة البعيدة أو تكلف الأداء ، ولكننا مع ذلك لا ننفر من الصورة .

حتى إذا اقترب الـــمراد   تعلو رؤاه بالســـواد
فيعود أعمى لا يقـــاد   إلا بعكاز الحنين

وهو رغم إحساسه بالظفر لا يلبث عند ما يصل إلى نهاية الشوط أن يضطرب بصره فتعلو رؤاه بالسواد ، وقد عاوده ضعف البشر فإذا به يقاد بعكاز الحنين ! وهذه حقائق نفسية صادقة رغم ما حولها من ضباب الشعر ، وفى طرق أدائها بساطة جميلة وخاصة فى « عكاز الحنين » يشكو عليه متحســـا سبيله . ونحن إذا جمعنا بين هذه المقطوعة وسابقتها استطعنا أن نفهم إسرافه فى الأولى ، إذ ندرك ما يرمى إليه من إظهار المكابرة التى تموه ما فينا من ضعف .

يتلمس النور البعيـــد   بأنامل الفكر الشريد
ويسيل من فمه النشيد   سيل الدماء من الطعين

فى البيت الأول صورة دالة . صورة الشاعر وهو يتلمس النور البعيد بأنامل الفكر الشريد . تجسيم جميل يتركز فى « الأنامل التى تتلمس » . وفى البيت الثانى يتحدث الشاعر عن نشيده ، ولكنه غير حديث شعرائنا عن قصائدهم الخطابية السقيمة . فالنشيد يسيل من فمه كما تسيل الدماء من الطعين . يسيل لأن الشاعر يتألم ، لا لأنه يريد أن يخلع الخلود على عباد الله ، أو لأن الآلهة قد اختصته بملكة الشعر .

أرأيت بيت العنكبوت   وذبابة فيـــه تموت
رقصت على نغم السكوت   أنا لم يغن الطنين

فكذاك فى شرك الرجاء   قلبى يلذ له الغنـــاء
ماذاك شـــدواً بل رثاء   يبكى به الأمل الدفين

وهنا يحدثنا عما تحسه فى نشيده : صوت الألم . رثاء يبكى به الأمل الدفين . وأخيرا نعود إلى الفكرة فإذا بالروح تصعد .

يا نفس إن تم القضاء   ورجعت أنت إلى السماء
وعلى قميصك من دما   قلبى فماذا تصنعين ؟

نحيت قلبى للوصـــول   وهرعت تنفين الفضول
فإذا دعيت إلى الدخـول   فبأى عين تنظرين ؟

ونعود الصور وقد بعدنا عن حياتنا الأرضية فترفع

من استواء الفكرة كما قلنا « فالدم على قميص النفس » « والعين التي ستنظر بها إذا دعيت إلى الدخول أمام الله » . كل هذه صور قريبة تزيد من روحانية هذه الطاقة الجميلة ، وتقوى من إحساسنا بذلك الصراع العنيف الذي يدور بنفس الشاعر وقد ألقت به الحياة إلى الجهاد المستمر .

والآن قد يتساءل القارىء : لم استطاع شعراء المهجر مالم يستطعه غيرهم ؟ وجوابي هو : لأنهم قد يكونون من بلاد تحرك مناظرها الجبلية من الخيال ما لا تحركه السهول ، ومن جنس [1] يشهد له التاريخ بالنزوع إلى المغامرة والتوثب . ثم إن تجربتهم بأمريكا وكفاحهم من أجل الحياة قد أرهف حسهم وقوى من نفوسهم .

وأخيرا — وهذا هو السبب المهم — لأنهم قوم مثقفون ، قد أمعنوا النظر فى الثقافات الغربية التى لا غنى لنا اليوم عنها ، وعرفوا كيف يستفيدون منها بعد أن هضموها فى لغاتها الأصلية . فهم إذاً ليسوا كأولئك الذين يسرفون فى الغرور عن جهل وكسل ، ظانين أن الأدب فى متناول كل إنسان وأن كل كلام منظوم هو شعر . الثقافة هى التى تشع فى ألفاظ هؤلاء الشعراء ، وإنك لتقرأ الجملة لهم فتحس أن خلفها ثروة من التفكير والإحساس .

محمد مندور

(١) من الفينيقيين

محكمة السنبلاوين الجزئية

إعلان بيع عقار

نشرة ثالثة

فى القضية المدنية رقم ٣٨٩١ ورقم ٤١٩٢ سنة ١٩٣٣

إنه فى يوم الأثنين ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٢ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة

سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه ملك محمد سالم محمد الراس من ناحية أبى قراميط مركز السنبلاوين دقهلية بثمن أساسى قدره ٣٢ ج بعد تنزيل الخمس بخلاف المصاريف وفاء لمبلغ ٧٨٠م ٢٦ج بالنسبة للمدين الأول ومبلغ ٥٩٠ م و ٣ ج بالنسبة للمدين الثانى

وهذا بيان العقار

١ ط ١ ف فدان وقيراط شيوعا فى ٢٠ س ١٣ ط ٣ ف أطيان زراعية كائنة بزمام أبى قراميط مركز السنبلاوين دقهلية على ثلاث قطع القطعة الأولى : ١٢ ط شيوعا فى ٢٠ س ٢١ ط بحوض الشكارة رقم ٢٤ ضمن القطعة رقم ١٩ محدوده من بحرى محمد محمد سالم الراس بطول ٤٧ قصبة وغربى سالم عطا واخوته بطول ٥ قصبة وقبلى سالم عطا واخوته بطول ٤٦ قصبة وشرقى حسين افندى هيكل وفاصل طريق بطول ٩ قصبة

القطعة الثانية : ١١ قيراطا شيوعا فى ٢٣ ط ١ ف بحوض الشكاره رقم ٢٤ ضمن القطعة رقم ٢٤ من بحرى أطيان حسين افندى هيكل وفاصل طريق بطول ١١ قصبة وربع وغربى ملك ورثة محمد محمد الراس بطول ٥٥ قصبة ونصف وقبلى على أحمد عبد النبى بطول ١٢ قصبة ونصف وشرقى الخواجة مترى قسطندى بطول ٥٦ قصبة

القطعة الثالثة : ٢ ط قيراطين شيوعا فى ١٧ ط بحوض الشكاره رقم ٢٤ ضمن القطعة رقم ٢٥ محدودة من بحرى الخواجة مترى قسطندى وبحده طريق بطول ١٣ قصبة ونصف ومن غربى الخواجة مترى قسطندى بطول ١٧ قصبة وشرق ورثة عطيه محمد بالقطعه رقم ٢٦ ، ٢٧ بحوضه بطول ٢١ قصبة ومن قبلى ورثة محمد الراس باقى القطعة رقم ٢٥ بحوضه بطول ١٢ قصبة وثلث

وهذا البيع بناء على طلب الراسى عليه مزاد أحمد من عزبة المحصورة تبع الكاظمة مركز السنبلاوين والأستاذ على افندى طنوس عيسى بالمنصورة المحامى وعلى حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٩٣٤ وسجل بمحكمة المنصورة المختلطة فى ١٥/٥/١٩٣٤ تحت رقم ٥٧٢ جزء ٥٢ فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان المحددين بأعلاه . كاتب البيوع

محكمة شربين الجزئية الأهلية

إعلان بيع عقار

نشرة ثانية

فى القضية المدنية ٢٢٦٧ سنة ١٩٤١

إنه فى يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٢ من الساعة ٨ و ٣٠ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة سيباع بالمزاد العلنى الأطيان الآتية :

ملك عبد اللطيف يوسف زرزوق المقيم بناحية القصبرية مركز شربين

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤١ ومسجل بقلم كتاب محكمة المنصورة الابتدائية الأهلية فى ١٨ منه تحت ٦٩٠ جزء ٧٥ تسجيلات

كطلب الخواجات الياس وأبيرتو شيحاتى التجار بالمنصورة ومحلهما المختار مكتب الأستاذ محمد أفندى الغريب موسى المحامى وفاء لسداد مبلغ وقدره ٧١١ قرش صاغ قيمة المحكوم به والمصاريف والفوائد ٨٪ لغاية ٣١ مايو سنة ١٩٤١ خلاف ما يستجد بثمن أساسى تبتدى عليه المزايدة مبلغ وقدره ٥٠ جنيه مصرى

وهذا بيان العقار

١ف ٨ط ١٢س أطيان زراعية كائنة بزمام ناحية القصبرية مركز شربين غربية بحوض الحصة ١٩ بالقطعة ٣٠ شيوعاً فى ٢ ف و ١٢ ط ٤ س البحرى القطعتين ١٨ و ٢١ بحوضه ملك ورثة عبد الرازق زرزوق وورثة عبد الواحد زرزوق وآخرين وشرقى القطعتين ٢٩ و ٣١ بحوضه ملك عبد اللطيف زرزوق وقبلى قطعة ٣٢ بحوضه ملك ورثة الشيخ مصطفى فرج وفاصل مصرف منافعه وغربى القطعتين ٢٠ و ١٥ بحوضه ملك ورثة محمد زرزوق وآخرين .

فقط ١ ف ٨ ط ١٢ س لا غير .

وكافة الأوراق مودعة بملف الدعوى بقلم الكتاب لمن يريد الاطلاع عليها .

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان سالفى الذكر للمزايدة كاتب البيوع

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٢٧٦٩١

العدد ١٩٢ | الثلاثاء ٢٠ من شعبان سنة ١٣٦١ — ١ من سبتمبر سنة ١٩٤٢ | السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

الحيـــاة الاجتماعية فى مصر

يقصد بالحياة الاجتماعية بحث الحالة الاجتماعية لمجموع السكان دون الاقتصار على فئة معينة ربما كانت لها من ظروفها الخاصة مالية كانت أو أدبية ما يجعلها تتمتع بحياة اجتماعية خاصة .

وعلى ذلك فإذا أردنا أن نستعرض الحياة الاجتماعية في مصر كان من الواجب أن نبدأ بدراسة الظواهر الاجتماعية البارزة التي نشاهدها والتي يكون في دراستها وعلاجها أثر على الحياة الاجتماعية العامة . ثم ندرس حياة الأغلبية الساحقة للسكان ، وهؤلاء هم سكان الريف وأعني بهم المزارعين ، وسكان المدن وأعني بهم المشتغلين بالصناعة والتجارة ، لأن حياتهم الاجتماعية هي الحياة الحقيقية للشعب المصري ، وهي التي تعطي صورة حقيقية عنها ، سواء كانت هذه الصورة تبعث على السرور أو تبعث على الأسى .

أما ما عدا ذلك من الصور فهي صور خلابة ليست من الحقيقة في شيء ، خدعنا بها حقبة طويلة وخلنا أنها تمثل حياة البلد الاجتماعية ونعمنا بهذا الخيال ونسينا الحقيقة فأنسانا الله أنفسنا ، وأصبحنا في حالة اجتماعية غريبة بين الأمم الراقية .

وأهم هذه الظواهر العامة للحياة الاجتماعية في مصر ، هي الفوارق البعيدة المدى التي توجد بين طبقات الشعب بل وبين أفراد الطبقة الواحدة ، يتخذ هذا التفاوت ناحية مادية حيث نرى فقراً مدقعاً بجانب يسار فاحش ، أو ناحية عقلية ، إذ بينا يغمر السواد الأعظم من السكان جهالة مطبقة تواجهه طبقة على حظ كبير من العلم ومن الدرجات الجامعية . وحتى في الحياة الخاصة فإنها تنتقل من حياة بسيطة ضئيلة راكدة ، إلى حياة نشيطة عنيفة متمادية

فى الترف والرفاهية ، ولا يمكن أن تنسق حياة اجتماعية مع وجود هذه الفارقات إذ تتطلب من المصلح الاجتماعى أن يكون فى إصلاحه حكماً عادلا يعمل جهده على إنماء ثروة أهل الثراء مع تغذية موارد المعسرين ، وابتكار المشروعات المنتجة لطائفة المتعطلين مع إيصال المعارف العامة والضرورية لغير المتعلمين ، والترفيه عن الموسرين المترفين مع إيجاد الوسائل للتخفيف عن المعوزين وأشباه المعوزين .

ومن الغريب أن لهذا التفاوت أثره أيضاً فى الإنتاج بأنواعه ، الصناعى والزراعى والتجارى ، ففى مدينة القاهرة نجد منازل النسيج اليدوى التى يشتغل بها العمال على الأنوال فى قاعات ضيقة وبأجور ضئيلة وذات الإنتاج البسيط فى قيمته وكميته ، تجاور مصانع النسيج الكبيرة التى تحاكى مثيلاتها فى مدن أوربا الصناعية ويشرف عليها إخصائيون ، ولا تقل منسوجاتها فى الجودة عن المنسوجات الأجنبية .

وإذا اجتزنا بعض شوارع العاصمة نشاهد نفراً يشتغل بصناعة الحدادة ويزاول مهنته على طريقة عتيقة بالية تكاد لا تصلح أداة للكسب ولا يتفق أداؤها مع أبسط القواعد الصحية ، بينما يوجد على مقربة منهم مصانع كبيرة بها من آلات البرادة والسابك الشىء الكثير مما يصلح لإعداد أدوات ميكانيكية هامة ، بل منها ما أمكن الاستعانة به فى بعض الصناعات الحربية .

أما فى الإنتاج التجارى فيكفينا أن نمد النظر فى وسائل النقل ، وأن نقارن بين وابورات شركات الملاحة النيلية التى تمخر عباب النيل وبين العدد الوفير من المراكب الشراعية التى ما زالت تقوم بقسط وافر فى النقل النيلى .

أما من الإنتاج الزراعى فمظهره مقارنة ذلك الفلاح المصرى العادى الذى يتبع فى الزراعة خطى السلف فيروى أرضه إذا غمرها النيل ، ويحرثها إذا انحسر عنها ، مستعملا سائر الأدوات الزراعية البدائية التى تعاقبت عليها الأجيال .

بينما نجد أن بعض الشركات الزراعية الكبيرة قد خطت خطوات واسعة فى استعمال وسائل الرى والحرث والزراعة وجمع المحصول بطريقة لا تقل عما يتبع فى بعض البلاد الزراعية الراقية .

ومن الإنصاف أن نقرر أن هذا التفاوت بين الأفراد والطبقات ملحوظ فى الحياة الاجتماعية عند غيرنا من البلاد الراقية ، ولكنه يمتاز بأنه قائم على مستوى مادى للمعيشة يكفل لأفراد الشعب حياة تكفل لهم الحصول على الضرورى وما هو أكثر من الضرورى ، ويمتاز أيضاً بأن عامة الشعب تستمتع بقسط وافر من المعارف العامة والثقافة ، تساعد كل طبقة على تفهم الطبقات الأخرى ، وتعمل على تقوية الروابط بين الأفراد وبين المهن وبين الطبقات .

وكذلك الحال فى التفاوت الاقتصادى فى الإنتاج ، فإنه مشاهد فى دول أخر ، إنما يلاحظ فيها أن الوسائل الحديثة للإنتاج أصبحت الغالبة ، وأخذت الوسائل السابقة فى التحول أو فى الانقراض .

أما فى مصر فتعتبر الوسائل المستحدثة مظهراً عارضاً يخشى عليه من الزوال ، فما زال استخدامها يسير بخطى متئدة جداً ، وما زالت الوسائل القديمة أكثر نشاطاً وانتشاراً ، وما زال لها السبق فى أكثر نواحى الإنتاج .

وطبيعى أن لهذه الظاهرة أسباباً عدة ، وأنه قد تعاقبت على وجودها سنين طويلة ، ولكن ربما كان من أهم أسبابها :

أولا — ضعف انتشار التعليم ضعفاً كبيراً ، وبداهة أن ضعف انتشار التعليم يلازمه ضعف فى المعلومات والمعارف الضرورية التى تمكن أفراد الشعب من أن يفهموا جميعاً ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات نحو أنفسهم ونحو غيرهم ونحو بلادهم .

ثانيا — انقضاء فترة طويلة على جمهور السكان وهم طبقة الزراع والعمال دون أن يجدوا تشجيعاً ماديا وأدبيا

يهيئهم لحياة اجتماعية حديثة ويحملهم على أن يأخذوا بقسطهم من وسائل الإنتاج المستحدثة .

فظل جمهور الفلاحين والعمال لا يستسيغون التطور الاجتماعي ، واستمسك الفلاحون بالجمود في كل نواحي الحياة ، ذلك الجمود الذي قد نخطئ إذا حسبناه رضا واعتزازا بأحوالهم ، وإنما يدل فقط على أنهم يجهلون ما عداها من ألوان الحياة .

أما العمال فلإقامتهم في المدن وقربهم من طبقة المستنيرين ، قاموا بمحاولات نحو التطور الاجتماعي ، ولكنها محاولات ترجع إلى مجرد التقليد لما وصل إليهم مشوشا من الدول الأخرى ، أو ترجع إلى من يدفعونهم ويلقنونهم أشياء لم تقو معدتهم بعدُ على هضمها ، وليست لديهم القدرة الكافية على تفهمها .

والعنصر الثاني الذي تمتاز به الحياة الاجتماعية في مصر عدا ما أشرنا إليه من الظواهر البارزة في الشعب المصري ، هو اشتغال الأكثرية الساحقة من المصريين بالزراعة ؛ ويرجع ذلك إلى أن مصر تعتمد اعتماداً كبيراً على الإنتاج الزراعي ، ويرجع ذلك إلى خصب أرضها وإلى سهولة وسائل الري فيها ، وإلى عوامل نفسية تتصل بطبائع أهلها ومألوف عاداتهم التي ورثوهـا فتأصلت فيهم بالوراثة ، وتأقلمت بحكم إقامتهم في إقليم زراعي .

وأخص هذه الطبائع ميلهم في كسبهم ومعاشهم إلى الموارد الثابتة مهما ضؤلت ، وانصرافهم عن المجازفات مهما أتت بفوائد مالية كثيرة ، ونظرتهم إلى الماضي دائما نظرة تقديس ، يحاكون السلف محاكاة تكاد تكون تامة في وسائل إنتاجه — وقلما يعدون الخطة التي رسمت من قبل .

حقيقة منح بعض المصريين حظاً كبيراً من الابتكار والتجديد وحب المجازفة ، فقاموا بأنفسهم أو بمساعدة بعض الأجانب باتخاذ وسائل جديدة في الانتاج ، سواء في ذلك الانتاج الصناعي أو الزراعي أو التجاري ، ولكن هؤلاء قلة والقلة لا يقاس عليها . وإن دراسة الحياة الاجتماعية لعمال الزراعة ذات أهمية في الوقوف على الحياة الاجتماعية العامة ، ويرجع ذلك إلى ما يأتي :

أولا — عمال الزراعة كغيرهم من السكان أداة فعالة في الانتاج القومي للبلاد ، ولسنا في حاجة إلى إيراد الأرقام للتدليل على نصيبهم في الدخل العام .

ثانياً — والزراعة من حيث إنها عمل ما زال يشتغل بهـا أكثر المصريين . إذ دلت الاحصائيات على أن من يشتغلون بالزراعة من المصريين وهم الزارعون بالأجرة وصغار المزارعين ومساعدوهم والزارعون مع ذويهم والزارعون في أرض يملكونهـا والزارعون الذين يشتغلون في أرض يستأجرونها بلغ عددهم ٣٫١٠٠٫٠٤٢ في سنة ١٩٢٧ ، وقد قدر هذا العدد في سنة ١٩٣٧ إلى ٥٫١٥٧٫٥١٢ ؛ وهذا عدد ضخم ولا سيما لو لاحظنا أن عدد جميع أصحاب المهن في مصر بمـا فيهم عمال الزراعة كان ٥٫٨٤٥٫٦٦٧ في سنة ١٩٢٧ ، وكان ٧٫٤٢٠٫٣٥٥ في سنة ١٩٣٧ ، وأننا لم نضف إلى عدد عمال الزراعة طوائف رعاة الأغنام والفعلة والباعة السريحة وغيرهم مع أن هؤلاء في الغالب مزارعون عاطلون اضطروا إلى عملهم الحالي اضطراراً ولم تنقطع صلتهم بالزراعة بعدُ بصفة نهائية .

ثالثاً — أن الحالة المادية للمشتغلين بالزراعة ذات تأثير قوي على المشتغلين بالصناعة ، فلا شك أن سوء الأحوال المعيشية في القرى تحملهم على التطلع إلى المدن ، خصوصا وقد أخذت بعض المدن تشتغل بالصناعة على وضع كبير .

وقد حدث مثل هذا التطلع والهجرة في بلاد أخرى مثل انجلترا عنـد بدء الحركة الصناعية فيها وقبل إدخال الاصلاحات الزراعية التي أعادت الكثيرين ممن هجروا الزراعة إليها ؛ ولهذه الهجرة المحلية خطرها ، إذ أنها تهبط بأجور عمـال الصناعة ، وتغري أصحاب الصناعات على استخدامهم رغم ما في هذا الاستخدام من استهداف لانتاج

يشوبه الجهل وعدم المعرفة .

ويشاهد ذلك عند استعراض أجور العمال ومقارنتها بالنسبة لمن يقومون بأعمال مماثلة ، ولكنهم يختلفون ، فبعضهم من الريف وبعضهم من القاهرة ، ويطرد ذلك بالنسبة للأعمال الفنية ، فإن نسبة عمال الزراعة النازحين إليها يهبط مستوى الأجور فيها ، هذا بالرغم من أن المبدأ الاقتصادى السليم يوجب مراعاة كفاية العامل عند استخدامه قبل مراعاة أجرته .

ويضطر تبعاً لهذه المزاحمة كثير من عمال الصناعة مع اعتزازهم بفنهم وكفايتهم ومحاولتهم المحافظة على مستوى أجورهم ، إلى التسامح والتساهل فيها .

(يتبع) ابراهيم القطريفى

جمال الدين الأفغانى

للأستاذ أحمد أمين بك

يعجبنى أحياناً طريقة القدماء فى ترجمة العظماء ، فيختفى المترجِم ويبرز المترجَم ، ويكتفى بذكر الأحداث التى حدثت للعظيم وتصرفه أمامها ، والكلمات التى فاه بها ، ونحو ذلك ؛ ويترك القارئ يفهم منها ما شاء ، ويستنتج منها ما شاء ، ويقوّم ما شاء ؛ لا يملى شرحه وتفسيره ، ولا يفرض على القارئ فهمه ، ولا يتحكم هو فى رسم الصورة التى يراها ؛ وذلك ما فعل الأصفهانى فى الأغانى ، وياقوت فى معجم الأدباء ، وابن خلكان فى وفيات الأعيان ، وغيرهم من مؤرخى العرب .

وقد قرأتُ فى هذه الأيام ترجمة للسيد جمال الدين من هذا القبيل ، اكتفى فيها المترجم — غالبا — بنقل آراء الأستاذ وأقواله وأحداثه ؛ وجعل ذلك كله يصوّر الأستاذ كما يشاء القارئ[1] ؛ وقد استوقف نظرى بعض أحداث وأقوال أعجبتنى ، أرويها كذلك من غير تعليق :

١ — قال له « المخزومى » يوما : إن بعض الأصدقاء يرغبون فى الحصول على ترجمة الأستاذ ، فقال له : « قل لهم : إن العيان لا يحتاج إلى ترجمان ، قل لهم ما قال فلان عنى (وفلان هذا عدو من أعدائه) إنه « سرسرى » ، أى متشرد أو أفّاق ، وأى نفع لمن يذكر أنى وُلِدتُ سنة ١٢٥٤ وعُمّرتُ أكثر من نصف قرن ، واضطررت لترك بلادى ، وأُكرهت على مبارحة الهند ، وأُجبرت على الابتعاد عن مصر ؟ » .

٢ — ولما جمع المخزومى هذه الوقائع استشار الأستاذ فى اسمها ، فقال : سمها « خاطرات » ؛ فقال المخزومى : إن بعض الأصدقاء نبهنى إلى أن هذه اللفظة غير صحيحة فى اللغة ، والأقرب للصواب أن تسميها « خطرات » أو « خواطر » . فقال : قل « خاطرات » ولا تبال عن فسد لسانهم ولا يَصلحون إلا للأجوف والمهموز ، ولا يحسنون جملة تنفرج لها القلب أو تطرب السمع .

وكتبَ يوما كلمة بعنوان « سياسة بَقَرويّة فى مملكة فرعونية » ، فاعترض عليه فى كلمة بقروية ، فقال : كيف صلح قولهم « ملكوت » و « جبروت » ولا يصح لى أن أقول « بقروت » ؟ ونظير هذا قوله : لا يصح للسماعى والقياسى أن يتبع أحدهما الآخر ، فإذا جاز بالسماعى « أن ينحرف » جاز بالقياسى « أن ينعوج » .

٣ — ولما جاء مصر أعجبه برنامج الماسونية من دعوة إلى « الحرية والإخاء والمساواة » ، فانضم إليها ، وعُرِض عليهم فى المحفل يوما إعانة لأحد الإخوان ، فقال « الأستاذ » : هل الأخ مريض ؟ قالوا : لا . قال : هل

(١) والكتاب هو (خاطرات جمال الدين) لمحمد باشا المخزومى الذى عاشر الشيخ ولازمه مدة إقامته فى الآستانة .

هو صحيح البنية ؟ قالوا : نعم . فقال : « صحة البدن وذل السؤال لا يصح أن يجتمعا لإنسان » .

وحضر مرة اجتماعاً فيها ، فقال أحد الخطباء : « إن الماسونية لا دخل لها في السياسة » ؛ فعجب جمال الدين كل العجب من أن الجمعية التي برنامجها « الحرية والإخاء والمساواة » لا ترفع صوتها لرد الحرية إلى مسلوبها ، وانفصل من الجمعية ، وكوّن محفلاً وحده .

٤ — ولما أخرج من مصر ذهب بعض محبيه إلى السويس يحملون له مقداراً من المال ، عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرضاً . فقال لهم : « أنتم إلى هذا المال أحوج ، والليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب » .

٥ — ولما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة سنة ١٨٩٢ ووصل إليها ، كان في انتظاره الياور السلطاني ، فسأله : أين صناديقك يا حضرة السيد ؟ فقال : ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب . قال الياور : حسناً ! دلني عليها . فقال السيد : صناديق الكتب هنا (وأشار إلى صدره) ، وصناديق الثياب هنا (وأشار إلى جبته) .

وقد قال : « كنت أول عهدي أستصحب جبة ثانية وسراويل ، ولكن لما توالى التنقل صرت أستثقل الجبة الثانية ، فألجأني ذلك إلى أن تخلق فأستبدلها بغيرها .

٦ — وكان يجالس السلطان عبد الحميد كثيراً ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاءً ودهاءً وسياسة ، خصوصاً في تسخير جليسه . . . ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام للملك من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيره وسيرته ، مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير ؛ ولكن يا للأسف عيب الكبير كبير ، والجبن من أكبر عيوبه » .

٧ — وعرض عليه السلطان عبد الحميد منصب مشيخة الإسلام ، فأبى إلا أن يعمل عمل أساسي يتغير به النظام الحاضر ، وقال : « إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب ، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ، ورتبته ما يحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم » .

٨ — وعاش جمال الدين عزباً لم يقترن في حياته بامرأة ، وكان كلما شكا له أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته ، فعرض عليه السلطان يوماً أن يزوجه جارية حسناء من قصر يلدز ، فامتنع السيد من ذلك ، فسئل : هل تؤيد رأي أبي العلاء :

هذا جناه أبي علـ ـيّ وما جنيت على أحد

قال : كلا ، كيف يصح لعاقل أن يعتبر الزواج جناية وبه بقاء النوع واستكمال حكمة العمران ؟ أما أنا فعرفني بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل ، وعجزي عن القيام بأمره دعاني أن أتقي عدم العدل بيقائي عزباً » .

فقال له طبيب يهودي كان من خاصته : فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له : « إن الطبيعة أحكم منك ، فهي تدبر نفسها ، ومن ترك شيئاً عاش بدونه » .

قيل له : إنك تقبل من السلطان عطاءه من المال ، فلم لا تقبل عطاءه من الجواري الحسان ؟

قال : أما المال الذي يعطينيه فإني أجد له — على قدر اجتهادي — أكفاء يقومون بأداء الواجب نحوه ، وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفء لها ، ولست بوليها لأتحرى لها كفؤها .

ثم قال للرسول : « إذا أصر جلالة السلطان وأحب أن يكرهني على هذا الأمر فلا أظن إلا أنه يحب أن يراني في عداد الخصيان » .

٩ — وكان السـيد جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله ، وكان كلما ذكره يقول : « صديق الشيخ » ، وكان السـيد عبد الله نديم فى آخر أيامه يكثر من التردد على منزل جمال الدين ، فقال له يوماً : قد أكثرت من الثناء على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره ، وتنعت غيره بقولك صاحبنا ، أو « فلان من معارفنا » . فتبسم السـيد جمال الدين وقال : « وأنت يا عبد الله صديق ؛ ولـكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديق على الضراء ، وأنت صديق على السراء » ، فسكت النديم .

١٠ — كان جمال الدين يهزأ عبدأ « داروين » الذى يعنون « بتنازع البقاء » ، ويقول : إن المبدأ هو « تنازع الفناء » ، ويقول : إن البقاء الذى ينبغى أن يطلب ولا يعتريه فناء ليس فيه تنازع ولا نزاع ، والتنازع القائم الآن إنما هو على أشياء تفنى ، والمتنزع والمتنازع والمنزوع منه سواء فى المصير إلى الفناء ، فكان الأولى أن يقال : « تنازع الفناء » .

قيل له : وهل يجمع العـالم المتمدن كله على مثل هذا الخطأ ؟

فقال : وما العالم المتمدن ؟ هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شاهقة وقصور مزخرفة ينسج فيها القطن والحرير بأصباغ كيماوية مختلفة ألوانها ، ومعادن ومناجم ، واحتكار تجارات أتت لهم بثروات ، ثم هل غير التفنن فى اختراع المدافع المريعة والمدمرات والقذائف وباقى المخربات القاتلات للإنسان ، تتبارى فيها تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟

لو جمعنا كل تلك المكتسـبات العلمية ، وما فى مدنيات تلك الأمم من خير ، وضاعفناه أضعافاً مضاعفة ووضعناه فى كفة ميزان ، ووضعنا فى الأخرى الحروب وويلاتها ، لـكانت كفة العلوم والمدنية والتمدن هى التى تنحط وتغور ، فالرق والعلم والتمدن على ذلك النحو إن هو إلاّ جهل محض ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش . فالإنسان فى ذلك أحط من الحيوان .

هل سمعت أن ثلثمائة ألف أفعى وقفت تجاهها مثلها وقلبت بينها الأنياب وقاتل بعضها بعضاً ؟ أو هل وقفت الأسود صفوفاً وتناهشت لحوم بعضها وسالت دماؤها ؟ فليس ثمة مدنية ولا علم ، ولـكن جهل وتوحش .

* * *

ثم رويت للسـيد جمال الدين كلمات حكيمة كان يقولها فى مناسباتها .

كان إذا أقسم قال : « وعزة الحق وسر العدل » — الحقائق لا تزول بالأوهام — من سفه الرأى أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط — الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل — لا يؤمن بربوبية القوة إلا شبح الضعف — الأكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء — تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج — من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك — صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس — ألف قول لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً — إسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته — بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة — القبـة الجوفاء لا ترجع إلا الصدى — شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل — الأديب فى الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً — قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام — القوىّ من الشجر لا يعجل بالثمر — (اللغة) العربية وسّعها البدو فى البرارى والقفار ، وضيقـها الحضر فى المدن والأمصار — العلم قد يكون فى الأحداث ولـكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ .

وفى هذا القدر اليوم كفاية .

أحمد أمين

١ - رأى شوبنهاور
فى التاريخ

فى فلسفة شوبنهاور جانب أعتقد أنه لم ينل حظه اللائق من الرعاية والتنويه ، لا من بعض شراح فلسفته وناقديها ، ولا من الكثيرين ممن كتبوا فى فلسفة التاريخ وبحثوا طبيعته ، وحاولوا أن يعرفوا هل التاريخ علم أو فلسفة أو فن أو هو هؤلاء جميعاً ؛ وذلك مع ما لهذا الجانب من جوانب تفكيره من الدلالة على مناحى فلسفته ، وطرائقه ، واتجاه تفكيره ، ونوع تأثيره ؛ وهذا الجانب المهمل هو رأيه فى التاريخ وتقديره لدراسته ، فقد كان أكثر معاصريه من مفكرى الألمان وممثلى فلسفة الرومانتزم ، يحاولون أن يتفهموا حاضرهم عن طريق المنهج التاريخى ، وأن يثبتوا أن حركة التاريخ المتئدة الخطوات ، والتى تلبس أردية الزمان تكشف عن البادئ المضوية التى تتكون منها أسس الحياة الحقيقية ؛ فحقيقة الحياة الشائكة المبهمة ترق صفحتها ، ويشف جوهرها ، وتنجلى عنها سحائب الغموض ، ويبدو بناؤها الداخلى وتكوينها الصميم للعين النافذة والخاطر اللماح الذى يراقب نموها وتدرجها فى مراتب الكمال خلال سير التاريخ وعلى توالى أعصاره وتتابع أدواره ؛ وعندهم أن التاريخ هو دعامة البحوث النظرية وقوام الفلسفة ؛ وكان أكبر ممثل هذه الحركة وقطب رحاها هيجل قريع شوبنهاور فى الفلسفة الألمانية ، وخصمه الذى كان على الدوام هدف نقده وزرايته ، وهو يعتبر التاريخ أسمى ضروب المعرفة ، والتاريخ فى عرفه أسمى من العلوم الطبيعية ، لأن العلم الطبيعى يستطيع أن يرينا الدائرة الأبدية التى تتكرر فيها الظاهر ، فى حين أن التاريخ يكشف لنا من ترقى « المطلق » وتحقيقه فى الزمان ، ومن ثم فإن الدنيا تسفر عن حقيقتها فى التاريخ لا فى العالم الخارجى ؛ وهذا التقدير الرفيع لوظيفة التاريخ كان له تأثير كبير فى تفكير القرن التاسع عشر ومذاهبه ، وكان من أسباب نهوض الدراسة التاريخية الألمانية التى بدأت بالمؤرخ نيبور والمؤرخ سافينيه ، ووصلت إلى أوجها فى المؤرخين المشهورين فون رانك وموسن ؛ وقد تأثرت بفلسفة هيجل إلى حد بعيد الفلسفة المثالية الإيطالية الحديثة ، وبندتو كروتشه أكبر ممثليها يذهب إلى أن الفلسفة والتاريخ شىء واحد .

أما شوبنهاور فقد اعتزل هذه الحركة من بادئ أمرها ، وعمل على مقاومتها وتسفيه آراء القائمين بها ، والفيلسوف فى رأيه عبقرى موهوب ، فما حاجته إلى هذه النظارة من المعلومات التاريخية التى يستعين بها العلماء ، وهو الذى تتكشف لبصيرته الحقائق وتزول عنها الغواشى والحجب ؟ وهذا الذى يسمونه « تقدماً » و « ترقياً » إن هو إلا وهم من الأوهام وضلالة من ضلالات العقول .

ويرى شوبنهاور أننا نستفيد من الشعر ضروباً من المعرفة أصدق وأغزر مما نستفيد من التاريخ ، وأرسطو يقر هذا الرأى .

ويذهب شوبنهاور إلى أن الحقائق فى كل طبقة من طبقات الموجودات وفى حدود كل جنس من الأجناس مما لا يستطاع حصره ، ولا يمكن عده ، لأن عدد الأفراد غير متناه ، وتنوعات فروقها لا تحصى ، وعندما يشرف عليها العقل لأول وهلة يكاد يصيبه الدوار ، ويفقد توازنه ، ومهما بالغ فى التحرى والاستقصاء يتضح له أنه مقضى عليه أن يجهل الكثير ، ثم يتقدم العلم ويتناول تلك الحقائق بالتنظيم والتنسيق ، ويضع متشابهاتها تحت تصورات جنسية ، ثم يقسم الأجناس إلى أنواع ؛ وبذلك تمهد السبيل إلى معرفة العام والخاص ، ويعد الذهن التقصى بالراحة ، ويوحى إليه الطمأنينة ، ثم تجمع

سائر العلوم وتتدانى وتقسم فيما بينها عالم الأشياء الفردية ، وتسمو فوقها جميعاً الفلسفة لأنها أعمها وأوسعها شمولاً ، وهي لذلك أجلها شأناً ، وهي تعلن النتائج التي ذلل لها العلماء العقبات ، وفتحوا موصد الأبواب ؛ ولكن التاريخ يقف وحيداً منفرداً ، ولا ينتظم في سلك هذه العلوم ، لأنه لا يستطيع أن يفخر بمزية من مزاياها ، وليس في وسعه أن يدعي خاصة من خصائصها ، وذلك لأنه تنقصه الصفة الجوهرية للعلم ، وهي القدرة على إخضاع الحقائق لنوع من الترتيب والتنسيق ، والحقائق في التاريخ تتجمع وتتجاور ، ولكن لا يمكن إخضاعها لنظام يعين على استنباط القوانين واستخلاص النتائج ، ولذا لا يوجد منهج منظم للتاريخ كما لسائر العلوم ؛ والتاريخ على هذا الاعتبار ضرب من ضروب المعارف العقلية ، ولكنه ليس علماً ، لأننا لا نستطيع أن نصل فيه إلى الخاص عن طريق العام ، بل يلزم أن نتفهم الخاص مباشرة ، ولذا نراه دالقاً على أرض التجربة ، في حين أن العلوم الحقيقية تعلو فوقها وتسيطر على الخاص ، وذلك على أقل تقدير في داخل حدود معينة ، ويمكن أن يتنبأ فيها بحدوث أشياء لأنها قد حصلت على تصورات شاملة كلية ، وبذلك يحظى الإنسان بنوع من الراحة ، ويطمئن من ناحية ما سيحدث ؛ والعلوم تحدث إلينا على الدوام عن الأنواع لأن لها من التصورات ما يمكنها من ذلك ، ولكن التاريخ يحدثنا أبداً عن الأفراد ، وهو من أجل ذلك علم أفراد ، وهذا تناقض واضح ؛ ويستتبع ذلك أن العلوم تتحدث دائماً عما سيكون ، والتاريخ على نقيض ذلك ، فهو لا يتحدث إلا عما كان مرة واحدة ولم يتكرر بعدها ؛ ولما كان التاريخ لا يتناول إلا الفردي والمعين الخالص الذي هو بطبيعته لا يمكن أن يحصر ولا أن يستوفى ، فهو إذاً يعرف كل شيء معرفة ناقصة غير مستوفاة ؛ وقد يعترض على ذلك بأن في التاريخ وضعاً للخاص تحت سيطرة العام ، لأن العصور والحكومات وما إلى ذلك من التغيرات العامة أو الثورات السياسية ، وبالاختصار كل ما هو في الجداول التاريخية هو العام الذي يخضع له الخاص ، وتسري عليه أحكامه ؛ ولكن هذا الرأي يرتكز على فهم خاطئ لتصور العام ، لأن هذا العام المشار إليه في التاريخ هو مجرد شيء ذاتي ، وقد نشأ عمومه من نقص معرفة الأشياء ، والعجز عن إدراك التفصيلات ، ولم ينشأ عن معرفة موضوعية ، أي أن عمومه ليس قائماً على تصور يضم بين أطرافه طائفة من الحقائق ، وأكثر الأشياء عموماً في التاريخ ، وأوسعها شمولاً ، لا يخرج عن حدود الفردية ، ولا يتسم بغير ميسم الخصوصية ، مثل الحقبة المتطاولة من الزمن أو الحادثة الهامة ؛ وعلاقة الخاص بالعام في التاريخ هي علاقة الجزء بالكل ، وليست علاقة الحالة من الحالات بالقاعدة المطردة والقانون الثابت ؛ وهذا يناقض المألوف في العلوم الحقيقية التي تقدم لنا تصورات لا مجرد وقائع وحقائق فردية ؛ ومن ثم فإن معرفتنا للعام في تلك العلوم تفيدنا معلومات أكيدة عن الخاص الذي تطالعنا صورته بعد ذلك ؛ فنحن إذا عرفنا مثلاً قوانين المثلث عامة أمكننا أن نعرف خواص المثلث الذي يرسم بعد ذلك حيالنا ؛ وليس التاريخ كذلك ، فإن العام فيه ليس عاماً موضوعياً للتصور ، وإنما هو عام ذاتي نستعين به على المعرفة ، وهو يكتسب صفة العموم كلما حقل نصيبه من السطحية والتفاهة ؛ ويمكنني أن أعرف بوجه عام عن حرب الثلاثين سنة أنها كانت حرباً دينية ثارت في القرن السابع عشر ، ولكن هذه المعرفة العامة لا تجعلني قادراً على الإخبار بأي شيء أكثر تحديداً عن سيرها ، ومما يؤكد ذلك ويوضحه أن الخاص في العلوم الحقيقية الجديرة بهذه التسمية هو الذي نستطيع أن نثق به ونتأكد منه ، لأننا نعرفه بالإدراك المباشر الذي تقوم عليه الحقائق العامة وتنتزع منه ، ولذا قد يتسرب إليها

الخطأ ويغشاها الوهم ؛ ولكن الأمر في التاريخ على خلاف ذلك ، فالأكثر عموماً فيه هو الأوفر نصيباً من التأكيد ، مثل العصور المختلفة وتوالي الملوك والثورات والحروب ومعاهدات الصلح ، ولكن الحوادث الخاصة وصلاتها وملابساتها عرضة للشك الذي يزداد قوة كلما ألممنا بتفصيلاتها ، وتعمقنا في الوقوف على أسبابها وأصولها ؛ والتاريخ الخاص أكثر متعة وأقوى جاذبية ، ولكنه في نفس الوقت أقل استحقاقاً للثقة ، وأبعد عن مجال التأكد والتيقن ، بل هو في هذه الحالة يقترب من عالم القصص والرواية ؛ ومن الصعب على الإنسان أن يفهم حوادث حياته الخاصة ويستوعب روابطها المتشعبة ، وعلاقاتها المستخفية ، وذلك لصعوبة تبين الدوافع المختلفة التي تعمل تحت تأثير الصدف والأعراض الخفية والبواعث المستدقة ؛ وما دام غرض التاريخ هو الحادثة الفذة ذات الصفة الخاصة ، فإنه من أجل ذلك نقيض الفلسفة التي تحاول أن تشرف على الأشياء من أشد وجوهها شمولاً ، وغرضها هو العام الذي يظل على الدوام واحداً وكامناً في كل خاص ؛ ولذا فإن الفلسفة ترى في الخاص الناحية العامة ، وتعتبر الفرق في المظاهر فرقاً غير جوهري ؛ والتاريخ يعلمنا أنه في زمن من الأزمان قد وقع شيء ما ، في حين أن الفلسفة تحاول أن تعيننا على أن نبصر أنه في كل الأزمنة كان نفس الشيء ، ويكون وسيكون . والحقيقة أن جوهر الحياة الإنسانية مثل الطبيعة بوجه عام موجود في كل لحظة تاماً غير منقوص ، والإحاطة به واستكناه سره يستلزم التعمق في البحث وشدة الغوص . والتاريخ يحاول أن يستعيض عن العمق بالطول والاتساع ، وعنده أن كل حاضر إنما هو جزء يتمه الماضي غير المحدود ويضاف إليه المستقبل غير المحدود كذلك ؛ ويستبين لنا من خلال ذلك الفرق بين العقل الفلسفي والعقل التاريخي : فالأول يحاول النفوذ إلى الأعماق ، والثاني يحاول التنقل بين عقود الماضي وسلاسل أحداثه ، والتاريخ يرينا من كل النواحي نفس الشيء ، في أزياء مختلفة ، والذي لا يدركه في صورة من الصور قلّ أن يهتدي إلى حقيقته بعد عرض مختلف الصور ؛ وصحائف تواريخ الأمم لا تختلف إلا في الأسماء والعناوين ، ومحتوياتها الجوهرية واحدة في كل زمان ومكان . والفن مادته « الفكرة » ، والعلم مادته « التصور » ، ومادة التاريخ هي الحوادث المتغيرة القلب ، ولذا يبدو أنه غير جدير بأن يبذل فيه مجهود جدي . وربما كان من الخير للعقل الإنساني أن يختار ميداناً لجهاده ما هو أدوم وأبقى . أما محاولة فهم تاريخ العالم من حيث هو كل مستوفي الأجزاء له غاية مقسومة ، وخطة مدبرة ، فإنها محاولة غير مجدية . والواقع أن حياة الفرد وحدها هي الحياة التي لها وحدة واتصال ، ولها معنى ودلالة ، وحوادث حياتنا الداخلية حوادث حقيقية ، لأنها منبعثة عن الإرادة ، والإرادة هي الشيء في نفسه الذي لا حقيقة لغيره ، وفي كل عالم « أصغر » ينطوي العالم « الأكبر » ، وما يرويه لنا التاريخ هو في الواقع حلم الإنسانية الثقيل المختلط المشوش ، ويجمل بالهيجليين الذين يعتبرون فلسفة التاريخ أكبر غاية لدراسة التاريخ أن يرجعوا إلى أفلاطون الذي لا يمل ترديد أن الفلسفة مجالها ما هو ثابت وباق وغير قابل للتجديد ؛ وفلسفة التاريخ الحقة لا توجه التفاتها إلى ما هو في صيرورة دائمة وتغيره طبيعة الأشياء ، وإنما تحصر التفاتها في الكائن الذي لا يتغير ، وترينا أن وراء الاستحالات التي لا تنتهي تكمن الطبيعة الإنسانية التي لا تتغير ، والتي يشبه سلوكها اليوم سلوكها بالأمس وسلوكها في المستقبل ، فهي هي في مختلف الظروف وشتى الأزياء ؛ ومن قرأ هيرودوت بتبصر وإمعان فكأنه قد قرأ تاريخ الإنسانية جميعه .

على أدهم

العقــــار

أيقال عُقّار أم عَقّار ؟

تمهيد :

وقفتُ على نقد لحضرة الأستاذ الشهير ، والأمير الكبير ، مصطفى الشهابي ، في مجلة المجمع العلمي العربي في سنتها ١٧ : ٨٩ ، بعنوان : « كتاب شرح أسماء العَقّار » ، وضبطت فيه الكلمة الأخيرة ضبط قلم بفتح وشدّ كشدّاد ؛ فتعجبت من هذا التقييد ، وظننته من خطإ الطبع . ولما أتممت مطالعة البحث ، تحقّقت أن هذا الشكل كان مقصوداً ، دون الشائع على الألسن ، الذي هو بضمّ فتشديد مفتوح ، أي كرُمّان — ودونك عبارة الناقد الواردة في ص ٩١ من المجلة المذكورة :

« استنكر [الدكتور مكس مايرهوف] لفظة العقار مفتوحة العين ، في معظم المعاجم العربية (ص ٦٢ من المقدمة) ، وأوجب أن تكون بالضمّ . ولا نرى وجهاً لاستنكاره ، لأن العرب عند ما عربوا الألفاظ الأعجمية ، أيّاً كانت أصولها ، لم يتقيدوا بعدم مسها ، بل غيروا بعض حركاتها ، حتى بعض أحرفها . والأمثلة على ذلك لا تعدّ ولا تحصى ... » إلى آخر ما هناك من الكلام .

فقلنا في نفسنا : إن كلاًّ من الأديبين مخطئ في رأيه ؛ فالدكتور عمّم إنكاره العَقّار بالفتح . والأمير حصر كل قوله في أن العرب لم تنطق إلا بالفتح ، ولم تعرف الضم . ولهذا غيّر عنوان الكتاب الذي ذكره الدكتور مايرهوف بالضم الواضح وبحرف ضخم ، على ما ورد في الأصل المنقول عنه ، وما كان يحسن بالأمير تصحيحه في الأول ، بل ذكره كما هو في الأصل ، ثم التعرض لتصحيحه في نقده أو مقاله .

والآن نحاول هنا إظهار منزلة كلّ من هذين الرأيين ، مبينين أن الفصحاء من السلف الصالح نطقوا بالضمّ ، وهو الرأي الأغلبُ الأسدُّ ، ونطق بعضهم بالفتح ، وهو دون الأول مكانة وفصاحة . ونحن ننقل النصوص على ما جاءت في دواوينهم .

٢ — العُقّار ، بالضم

أول معجم دوّن العقار بالضم ، بزنة رُمّان ، كتاب (العَيْن) ، وهو أيضاً أول ديوان لغويّ أُلف في لغتنا الشريفة ؛ وجميع أرباب كتب متون اللغة الذين جاءوا بعده ، ووضعوا تصانيفهم ، عالة عليه . وهذا ما يبدو لكل ذي عينين ، إذا ما عارض نصوصهم بنصوص الليث بن المظفر بن نصر بن سيّار الخراساني ، المتوفى في نحو أواخر المائة الثانية للهجرة ، فإن الذين أتوا بعده نقلوا عبارته نقلاً حرفياً ، وبعض الأحيان مسخوها مسخاً وشوهوها ، من غير أن يصرحوا بسَلْتهم . فقد قال الليث في تركيب (ع ق ر) : « العقاقير : أصولُ الأدوية واحدها عقار ، كرُمّان » انتهى .

وفي « مقدمة الأدب » للزمخشري ، وهو ديوان لغة ، ألفاظهُ عربية ، مشروحة بالفارسية ، وهو مطبوع في ليبسيك سنة ١٨٥١ ، في ص ٥٧ ، س ٣٣ : « وعُقّار — وضبطت مرتين ضبط قلم ، مرة في النص ومرة في الفهرس ، وزان رُمّان . آميزها دارو . خاشاك دارو . العُقّار ، أصول الأدوية ، والجمع عقاقير » انتهى .

وفي ترويح الأرواح ، في تهذيب الصحاح : « والعقاقير : أصول الأدوية . واحدها عُقّار » (وضبطت ضبط قلم ، بضم الأول وتشديد الثاني المفتوح) .

وفي صراح الصحاح (وهو معجم عربي تركي : « العقاقير : داروها . واحدها عُقّار » ، (وضبطت ضبط قلم كرُمّان) .

وفي مختار الصحاح المخطوط ، والمحفوظ في خزانتنا ، (ونسخته بديعة متقنة الخطّ والضبط ، قديمة نفيسة) ، العقاقير : أصول الأدوية ، واحدها عُقّار ، بوزن خُطّاف » انتهى .

وفي النسخة المطبوعة في مصر ، وهي كثيرة الأغلاط

والأوهام : «أصول الأدوية ، واحدها عُقَّار ، بوزن عَطَّار» انتهى . ونظن أن هنا خطأ طبع والصواب كخُطَّاف .

وفي الصحاح المخطوط المصون في خزانتنا : « والعقاقير : أصول الأدوية ، واحدها عُقَّار » وقيدت تقييد قلم كرُنَّار . ولم تضبط في النسخة المطبوعة في مصر ، وهي كمختار الصحاح كثيرة الأوهام والغلط ، وليس في آخر الديوان تصحيحات لما ورد في المتن من المساوئ .

وفي الصحاح المنقول إلى التركية ، بعناية العلامة اللغوي محمد بن مصطفى الوانى ، وكان بيده أحسن نسخة مضبوطة ، والكتاب مطبوع طبعاً متقناً في قسطنطينية ، سنة ١١٤١ : « العقار ، عينك ضمي ، وقافك تشديديله ، عقاقيرك مفردى » (في ص ٤٣٧) — وهذا كلام يدل على أن نص الصحاح كان في جميع النسخ الخطية القديمة بالضم ، فصحفه بعضهم ، أو تصرف فيه تصرفاً ما كان يحسن به أن يأتيه .

وفي بحر الجواهر — وهو معجم طبي ، لصاحبه محمد بن يوسف الطبيب الهروى المتوفى سنة ٩٣٨ للهجرة ، والديوان مطبوع في الهند وإيران — ما نصه : « العقاقير : اسم يقع على جميع الأدوية . واحدها عُقَّار ، كرُنَّار . وقيل : العقار : كل نبت ينبت مما فيه شفاء » انتهى .

وفي ديوان الأدب للفارابي خال الجوهري ، في باب وزن فُعَّال ، المضموم الأول والمشدد الثانى : « والعقار أصول الأدوية ، والجمع عقاقير » انتهى .

ونقف عند هذا الحدّ من ذكر الشواهد ، وإلا فالموضوع بحر لا ساحل له ولا قعر ، بل لا ينضب ماؤه ، فضلاً عن أننا نتعب القارئ على غير جدوى ، لأن أصل هذه النصوص كلام الليث ، وهو أقدمها وأفصحها وأصحها .

(يتبع) (بغداد) **الأب أنستاس ماري الكرملي**

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

كنا ثلاثة أيتام...

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبّل زوجته ، في كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة ، ليست — وهنا العجب — ذات جاه أو ثراء . وجاء يومه المرجوّ وسلمته القابلة لفة لها أنين المجيء ورائحته ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة من الله . . .

فسمّاها نعمات .

لم يفهم أن أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل في الملكوت .. وعاد إلى سؤال ربه في صلاته ، وأطال تضرعه في ركوعه وسجوده .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله . . .

فسمّى بنته الثانية عطيات .

« نعمات » و « عطيات » ، لم تكن أسماء تمثل ما هي المبيح إلى الرضا عن اضطرار ، وأن اصباح اليوم مرتبط بالرجاء في تحقيق الوعد غداً . حرّك الأب الأبتر كل ما في قلبه من شعل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرّر ابتهاله وتذلله . فاستجيب في يوم دعاؤه . واستقر في بطن الأم سرّ الصبي الموعود . حينئذ مات أبي ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته . قد أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده ، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود ، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها في تسلسل الأجيال .

وهكذا ولدتُ يتيما . ومع ذلك لست بغريب عن أبي . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عيني على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار ، أراه يبتسم لي ويكاد يناديني . . .

* * *

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمي . كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت عليّ . سرت وحيداً منفردا خلف النعش ، أما شقيقتاي ، نعمات وعطيات ، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ . رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ويتهودهما من أطراف العيون . في تلك اللحظة استفقت ، وأدركت أني أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان ، نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتي ، ليس لهما غيري . قوّمت من ظهري المنحني ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء والوصية بالصبر والرجولة .

* * *

ثم مرت الأيام ودرج النسيان بأذياله على الماضي وأهله ، وإذا بي في صحبة شقيقتيّ من أهنأ الناس . ثلاثتنا في مقتبل الشباب ورونقه ، في مرحه ورقته ، في جريه وقفزه ، في عطره ونضرته ، تساور طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ بخناقه طفولة هائجة . من حسن الحظ أننا لم نكن في سعة تكفي للإنفاق على ثلاثتنا ، فقدّم الصبي وحجزت البنتان في الدار ، وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها ، وصح لهما عقل غير ملتو يضل في الفضاء ، وطبع غير متكلف . كل منهما تمتّ أمي ، جسما وعقلاً . لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة لم يترك لي صفاؤها مطمعا .. فمن مثلي بين الرجال تحوطه فتاتان — لا فتاة واحدة — بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص ؟ لا تقل ملابسي هندامًا ولا أكلي جودة عن زملائي المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذي أتبينه على وجوههم كل صباح في المكتب . . كانت نفسي قانعة وجسمي سعيدا . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن نُعنى . حلقتنا كاملة : هذه نعمات تلبسها دور الأم الحنون فتلبسه . هي أكثرنا رزانة واتزانا . في يدها

مصروف البيت وتدبير خزينته . وبقيت عطيات « ولوعتنا القلوية » التي من أجلها تحرص — في خفية منها — على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً في سياق حديثها ، وتنتظر إلى أن تحين الفرصة ، فتجد أكبر اللذة في تعب البحث عن طلبتها ، وفي التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن تعثر عليها في تمام مناسبتها ، فتضحك معها لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . في بعض الأحيان أضع رأسي على ركبة عطيات فتعبث بأصابعها الطويلة في شعري ، كأم القرد تفلّي رأسه وتناغيه . . يجانبنا نعمات تقمز إنسامانها الحلوة وهي تخيط لي بعض ملابسي الداخليّة . لو تُركنا لأنفسنا لعشنا سعداء . في هناء يكمل بعضنا بعضاً . ولكن كيف يأتي ذلك وفي الناس إخلاص ومحبة ورغبة في مساعدة الغير وتطوّع لعمل الخير والتحريض عليه ! !

بدأ أقاربي ومعارفي يهمسون لي : « متى تزوج أختيك ؟ لقد آن الأوان ! » ثم في مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح وأنت قابع في داركم القديمة العتيقة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . . أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها » ؟

أخفت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتيّ على غفلة منهما وأسأل نفسي :

— هل هذه عيون طامئة جائعة ؟

خيّل إليّ في بعض الأحيان أن نظرتيهما الناطقة تحرس لحاظ وتشرد في الفضاء ، وأن تحت وشي هذه النظرات الجميلة يختبئ قزم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد الثور ونزق الجدي . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن تخفى عليّ بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتي . فاستبانت لي الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً بيّناً فسيحاً عارياً قوي العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولا بد من التضحية وتحمل الوحدة ، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب . . . رسمت لنفسي برنامجاً وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد حتى شقيقتيّ . لن ألجأ إلى الأقارب ، فهم — كما يقول المثل — عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهي سمسار بين محرة ، أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذاً فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفي موطنه ، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالاً . سأعد الشبكة الماكرة بنفسي ، وألقيها في طريقه بيدي . هذا صيد حلال . وأي شيء أعظم ثواباً عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس إليّ ؟

بعت بعض الحليّ ، وسحبت كل نقودي المودعة بصندوق التوفير ، وأجرت شقة كالحُق — ولكنها غالية عليّ ! — في جاردن سيتي ، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا . عن إذنك يادرب الحجر ! لقد أتى الرق فأعتقنا لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات ، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً . وداعاً . فنحن في دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق . أتنتظرن أن أرثيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضي لم تكفه دموع الخنساء ! تسأليننا البكاء ؟ بل اسألينا النسيان ، والنسيان السريع . . .

ولما دخلت العمارة ، وقام لنا بواب نوبي له وقار القديسين وهيبة الأباطرة ، ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول : « هنا الأنتريه ، وهنا الأوفيس » اطمأن قلبي ، وقلت : قد أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

* * *

عشنا غرباء زمناً ، ثم بدأنا نألف الحيّ وأصواته ، ووجوه سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح

فإذا بي أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجا بدوره . واختوانا المصعد سويا . . . لا أدري لماذا اطمأن قلبي إليه . ابتسامة مني ، وكنت أنا البادئ ، وابتسامة منه ، أوصلت الحديث بيننا ، هو موظف كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو ابن أخ ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به — لشدة دهشتي — يقبل بسهولة . جاء وزوجته سيدة نصَف ، حنّت على أختيّ حنو الأم الرءوم ، ودعتنا لشرب الشاي عندهم وقالت وهي تنصرف :

— عسى أن تكون ابنتي سنيّة قد عادت من الاسكندرية فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمي على وجهي . كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء . وقلت في نفسي : « فلتكن زيارتنا الأولى هي الأخيرة . فلم أجيء هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس فيها رجال » .

وذهبت في الموعد المضروب ، وأنا متحرج ضيق الصدر . . . وجاءت سنية ! أيها الناس ! لا تبخلوا عليّ بكرمكم وطيبتكم . أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلي ، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابي أمامها وحيرتي .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتي ، ما قبله جاهلية معتمة ، وما بعده نور وإشراق . أحدتُها وأسارقها النظر ، وإلا كيف تقوى عيناي العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع في الشمس . . . ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن الناس من الفنون الجميلة . . كأن جسدها نمى فكان ثوبها تحقيق أمنيته . وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد خليلته التي وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . ثوب كم أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والافصاح ، وحياء تغنيك إثاقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة في رأسها تسابقت إليها واصطفت راضية بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك في زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذي رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة لما خُدش جماله . وضحكت فأسمعتني ضحكا تختصر العمر كله ، فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . فم متهم وعيون بريئة . . . لم تهتم بي كثيراً . وما وجهت لي غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عندما انصرفت — وأنا أجرّ رجليّ جراً — كنت شاعراً بعصب من جس دقيق تناول روحي وجسدي بأصابع توهم أنها تمسح وتربت وهي تدس وتنقب . . شعرت أني نُحرِّيت ، وقُلّبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت ، وقيست قامتي ، وسُبرت ، ووُزنتُ وكُيّلتُ — تُحرِّكت وعُضضت بالأسنان ورُنّت على الأرض . . حُركت أوتار روحي واستمع لموسيقاها . . ثم استخرج من مخبئه كتابي الدفين ، فروجعت في النور صفحاته وقرئت سطوره كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة والشفاه مستفهمة . ثم أصدرت حكما لن يكون له نقض أو إبرام إلى آخر حياتها وحياتي .

أيها الناس ! أشفقوا عليّ مرة أخرى ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إني تعبت حقاً ، ولكني مع ذلك وجدت في هذا التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرّني أنها تناولتني بالفحص . كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده تقليبه بين يدي طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . انصرفت وأنا لا أزال أتوك في في لذة مذاقها . . ولما دخلت شقتنا ، حانت مني التفاتة إلى أختيّ فقلت في نفسي — والأسى يملأها — ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويمتلئ الجورب السميك الركة ، لتبدوا شابتين من الريف . . من غد إن شاء الله سأعنى بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما وإلا كان فشل برنامجي المرسوم محققا .

ولكني قد نسيتُ كلَّ شيء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوّغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق . بل وجدت باب الثقة موصداً في وجهي . ألأنهم رأوا العابي يسيل وأنا أحدق في ابنتهم خلسة فرثوا لحالي وأرادوا تجنيبي التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدّي زاد هياجي ، فإذا بي — وأنا المعروف بإتزاني وأدبي — أفقد كل سيطرة على نفسي ، ورأيتني لشدة وعشتي آتي بحركات وتصرفات لا تصدر إلا من أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم فضحكوا مني . تصديت لها في الطريق . ألقيت أمامها رسائلي . تتبعتها كظلها . كل هذا وهي لا تتكرم عليّ بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أني لا أدرى كم من الزمن مرّ عليّ وأنا في هذه الحالة ، قد يكون أسبوعاً ، وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعي وأحسست أن العذاب لو طال لقصفني الألم ودمّر قلبي وقضى عليّ . هجمت عليها ذات يوم وهي سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل . وقلت لها صارخاً :

— ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لي عمل في هذه الدنيا إلا أن أسير في ركب حضرتك ؟ العفو ! الآن أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .

فنظرت إليّ وابتسمت . . . . .

زرت معها معالم القاهرة فكأني سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل فشرحتها لي سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتني جمال معانيها ولفتاتها . في حديقة الحيوان ، التي طالما زرتها فلم أر شيئاً . كلمتني لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة حزينة ، وشكت إليّ وحدتها وآلامها . الفضل لسنية في الراحة الكبرى التي شملت نفسي عندما آخيتهم جميعاً . . من زحف منهم أو طار . أو دبّ على أربع . .

قالت لي ذات يوم :

— ما العمل إذاً ؟ إن بابا يرفض بتاتاً لأنك موظف صغير ، ومرتبك قليل ، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة في جاردن سيتي . .

ولما رأتني مطرق الرأس غماً ، أضافت تقول :

— ولكن ماما في صفي . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب عمات وعطيات للاقامة مع إحدى خالاتي . . .

كلهم قالوا لي إنني ساعة « كَتْب الكتاب » كنت شارد اللب . ثم إذا بي فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة . طلوعها من حرج سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أني — ولا أدرى كيف — انتبهت إذا ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهي تنطبق عليّ ، في المثل القائل :

« راح يصطاد . اصطادوه . . »

يحيى حقى

٢ - الشـــعراء النقاد

عرضنا فى المقال الأول جزءا من دفاع الشاعر « وردسورث » عن مذهبه فى اختيار الحياة الشعبية الخشنة موضوعا لشعره ، واللغة الحقيقية التى يستعملها الناس فى دأبهم اليومى قاموسا لقصائده . ونعرض اليوم بقية هذا الدفاع حيث يتناول صاحبنا التعريف بالشعر وطبيعته ، والشاعر وخصائصه ، ويوازن بين المنظوم والمنثور من حيث اللغة وطرائق التعبير .

يحدثنا الشاعر أنه لم يحاول — إلا قليلا — تجسيد الأفكار المعنوية المجردة وتشخيصها ، فقد كان غرضه أن يقلد جهد استطاعته وأن يستعمل لغة الناس . والتجسيد (أو التشخيص) لا يؤلف جزءا طبيعياً أو منتظما من تلك اللغة . على أنه قد سمح لنفسه أحيانا باستعمال هذه الأفكار المعنوية حيث كانت ضربا من التعبير أوحى به الانفعال الوجدانى إيحاءً طبيعيا . ولكنه رفض كل الرفض أن يتخذ منها حيلة آلية من حيل الأسلوب ، أو لغة رمزية خاصة مما يظنه جماعة الناظمين وقفا عليهم . لقد حرص على أن يدع القارئ فى صحبة اللحم والدم ، وأن يجعل ذلك طريقه إلى إطرافه وإمتاعه . وربما سلك الآخرون منهجا غير هذا ما هو مجادلهم فيه ، فلكل طريقته ، ولكنه يفضل منزعه الخاص . ولن يجد القارئ فى قصائده إلا قليلا مما يسمى القاموس الشعرى ؛ فقد بذل شاعرنا من الجهد فى تحاشيه ما يبذل الآخرون فى تدبيجه . وهذه خطة عمد إليها لسببين : الأول أن يقرب ما استطاع من لغة الناس ، والثانى أن يحقق اللذة التى أخذ على عاتقه إيصالها إلى أذهان الآخرين ؛ وهى لذة تختلف كل الاختلاف مما يظنه بعضهم الهدف المناسب للشعر .

ومن أطرف ما يسجله « وردسورث » من نتائج التأمل الباطنى وصفه طريقته فى النظم إذ يقول : (١) كانت خطتى أن أنظر طويلا إلى الشىء أريد النظم فيه ، وأن أستوحيه هزة من الأحاسيس القوية ، وأن أطيل التفكير العميق فيما علق بنفسى منه ، حتى أستعيد الذكريات التى كانت لى معه ، ثم أدع الفرصة بعد ذلك لشاعريتى تنساب فيضاً اختياريا . ولذلك لن يجد القارئ فى قصائدى كثيراً من زور الوصف وباطله ، وسيجد اللغة التى استعملتها مناسبة للأفكار حسب أهميتها . ولعل من بعض مزايا هذه الخطة أنها صديقة للخاصية التى لا بد من تحققها فى الشعر الجيد وهى « النظر السليم » . ولكنها بالضرورة قد باعدت بينى وبين جزء كبير من صور الكلام وتعابيره مما يحسب ميراثاً مشتركا بين الشعراء .

ويعود « وردسورث » فى مواطن أخرى من كتاباته إلى الإفاضة فى شرح هذه التجربة النفسية شرحاً ينى عليه تعريفه المشهور للشعر . فالشعر — عنده — هو الفيض الاختيارى للأحاسيس القوية وهو ينبع من الانفعال الذى يستعيده الشاعر فى هدوء(٢) ، إذ يطيل الروية فيما خلف عنده الموضوع من انفعال ، حتى يتجدد التأثر به فى نفسه ويختفى الهدوء تدريجا ، وينشأ فى العقل انفعال مشابه للأول

(١) من الطريف والمفيد معا أن يحدثنا شعراؤنا المعاصرون أحيانا بتجاربهم وما يمرون فى أنفسهم أثناء لحظات الفيض الشعرى . وحبذا لو فعل (الثقافة) لو وجهت إليهم الاستفتاء التالى (مثلا) وطلبت منهم الاجابة عليه ، ونشرت (بعد استئذانهم) خلاصة هذه الاجابات :

ا — كيف بدأت حياتك الشعرية ؟ ومن هو مثالك الذى تحتذيه من الشعراء ؟

ب — ما أهم الموضوعات التى تثير قريحتك الشعرية ؟

حـ — ما طريقتك فى نظم القصيدة ؟ وما الجو الذى يحيط بك أثناءه ؟

د — هل لديك تعريف للشعر ترتضيه ؟ وما الذى ينبغى فى نظرك أن يكون هدف الشاعر ؟

(٢) "Poetry is the spontaneous overflow of powerful feelings : it takes its origin from emotion recollected in tranquillity" .

أو قريب منه ، وهنا يبدأ التأليف الشعرى الناجح ، ويستمر فى هذا الجو مصحوباً بحالة من الغبطة العقلية . وعلى الشاعر أن يقلد الطبيعة فى هذا ، وأن ينقل الشاعر إلى القارئ حية سليمة ، محوطة بهالة من اللذة والإمتاع ، وأن يجعل من الوزن والقافية عاملين جديدين يضيفان ثروة إلى النشوة العقلية ، ويخلعان على لغة الناس رواء موسيقيا ، ويلبسان العادى المألوف ثوب الجديد الطريف .

* * *

وبعد فهل فى طبيعة الأشياء أن تختلف لغة الشعر من لغة النثر ؟ ذلك سؤال لا يتردد شاعرنا الناقد فى أن يجيب عليه بالنفى القاطع ، وأن ينصح للقارئ ألا يحذو حذو أولئك النقاد الذين يظفرون بالبيت أو البيتين فى قصيدة ما (يتشابهان والنثر من حيث اللغة رغم انطباقهما على القوانين العروضية الدقيقة) فيأخذهم من نشوة الفرح ما يأخذ الباحث وفق إلى كشف جديد ، وتنفرج شفاههم عن ابتسامة السخرية بذلك الشاعر الجاهل بأصول فنه ! !

إن الجزء الأعظم من لغة أى قصيدة جيدة يجب — فى نظر «وردسورث» — ألا يختلف من لغة النثر الأدبى الجيد إلا من حيث الوزن . ليس هذا فحسب : بل أنت فى الواقع واجد لغة معظم الأجزاء الطريفة من أحسن القصائد هى بعينها لغة النثر إذا كان التأليف جيدا . ومن السهل البرهنة على صدق هذا بالرجوع إلى الآثار الشعرية المشهورة حتى شعر « ملتون » . وهنا يسوق المؤلف مثلا من شعر « جراى » الذى كان معروفاً بتدقيقه فى لغة الشعر ، وضرورة التفرقة بينها وبين لغة النثر . ويحلل هذا المثل ، ثم يلاحظ أن خير أبياته على الإطلاق ما قربت لغته من لغة المنثور . ثم يخلص من كل ذلك إلى أنه ليس هناك — ولا ينبغى أن يكون — أى فارق جوهرى بين لغة النثر ولغة التأليف المنظوم . يقول : « إننا مغرمون بتتبع أوجه الشبه بين الشعر والتصوير ، ونسميهما — لهذا — أختين.

فأنى لنا بأنواع من الصلات الدقيقة تكشف ما بين الكتابتين النثرية والنظمية من روابط وقرابات وثيقة . إنهما تشكلان بنفس الأجهزة وإليها : إن مادتهما التى يصنع منها جسماهما واحدة ، وإن أحوالهما متقاربة ، بل تكاد تكون متحدة لا تفترق حتى فى الدرجة . إن الشعر لا يذرف دموعا كدموع الملائكة ، ولكن دموعاً طبيعية إنسانية ، وإنه لا يستطيع أن يُدِلّ بعصارة أثيرية مقدسة تميز ينابيعه من ينابيع النثر ، فإن الدم الإنسانى يجرى فى عروقهما معا » .

ويكفى فى نظر « ورد سورث » للتفرقة بين الشعر والنطق اليومى الخشن المبتذل أن تختار لغته من بين اللغة التى يتكلمها الناس اختياراً قائما على الذوق والإحساس ، وأن يضاف إلى هذا الاختيار طرافة الوزن[1] وطلاوته — وهذا كل ما يتطلبه العقل السليم . ولا يشك «وردسورث» فى أن الشاعر إذا أحسن اختيار موضعه فإن الفرصة وحدها ، ومنطق النفس وأحوالها ، ستلهمه ضروباً من التعبير يقوم بعضها على الفن البلاغى من مجاز واستعارة قياماً طبيعياً لا تكلف فيه . ولو أن شاعراً حاول أن يضيف من عنده تعابير وصوراً لا تثيرها الأحوال الطبيعية التى يتصدى لوصفها لجاء شعره نابياً عن الجودة فارغاً من التأثير .

ومن الضرورى لفهم فكرة وردسورث أن ننبه هنا إلى ما قاله فى حاشية صغيرة من أنه يجرى على غير رغبته إذ يتبع ما جرت به العادة من استعمال «شعر» مرادفة «النظم» ومقابلة فى القسمة لكلمة « نثر » ، وفى رأيه أن هذا الاستعمال قد أدخل فى النقد الأدبى ما لا حد له من الفوضى .

وخير منه عنده ذلك الاستعمال الفلسفى الذى يجعل الشعر مقابلاً للعلم أو الكتابة التى يقصد فيها إلى تقرير الحقائق (Matter of fact) . فالكلام عنده لا ينقسم إلى

(١) من أضعف النقط فى نظرية وردسورث كلامه عن الوزن واعتباره إياه شيئا تمكن إضافته على الكلام من الخارج . وقد رد عليه صاحبه « كولردج » فى هذا رداً مفحماً .

شعر ونثر ، وإنما ينبغى أن ينقسم إلى شعر وعلم ، ومن الشعر ما هو منظوم وما هو منثور ؟ وللوزن الموسيقى فى النظم لذة طبيعية لا يجحدها إلا مكابر ؟ ولو وصفت العواطف والعادات والصفات وصفاً جيداً مرة فى النثر ومرة فى النظم تقرئ النظم مائة مرة ، حيث لا يقرأ النثر إلا مرة واحدة .

* * *

إن ماتقدم من الملاحظات لا يفى بحاجة «وردسورث» ، فهو حريص على أن ينقل إلى جمهور الناس فكرة كاملة عن رأيه فى الشعر ، وأن يحملهم على قبول هذه الفكرة عن عقيدة واطمئنان . وهو مقتنع أن قبول فكرته ، وتعود الاستمتاع بالشعر الجديد ستكون لها نتائج بعيدة المدى فى النقد الأدبى ، تتغير بها وجهة نظر الناس فى موقفهم من الشعراء ، قدامى ومحدثين ، وفيما يصدر عنهم من ثناء ولوم . فإن الذوق الدقيق فى الشعر — بل فى جميع الفنون — موهبة مكتسبة لا تنتج إلا من طول ممارسة نماذج الأدب وطول التفكير فيها ، ومن لم يبذل الكثير من وقته فى مصاحبة الشعر الجيد وتذوقه ، جاءت أحكامه عليه فجة خاطئة .

لهذا طرح ناقدنا المسألة من أساسها على بساط البحث ، وسأل نفسه : ما الذى تدل عليه كلمة شاعر ؟ وما هى خصائص الشاعر ؟ ومن يخاطب ؟ وما اللذة التى ينتظرها الناس منه ؟

الشاعر إنسان يتكلم إلى الناس ؛ إنسان قد وهب مقداراً أوفر من الحس ، والحماسة ، والحنان ، والمعرفة بالطبيعة الإنسانية ، ووهب نفساً أوسع من غيره من الناس أفقاً ؛ إنسان مغتبط بمشاعره ونزعاته وبما تضمنت روحه من أسرار الحياة ، يلذ أن يفكر فيما فى الوجود من مشاعر ونزعات مشابهة لما عنده ، وأن يخلق هذه خلقاً إذا لم يجدها . وعنده إلى جانب ذلك استعداد لأن يتأثر بالأشياء الغائبة كأنها حاضرة ، ولأن يخطر فى نفسه نوازع قد لا تشابه ما تحدثه الحوادث الحقيقية . لهذا كله كسب استعدادا وقدرة أكبر على التعبير عما يفكر ويحس ، ولا سيما عن المشاعر والأفكار التى تنبعث فيه بلا مؤثرات خارجية مباشرة .

على أنه مهما يكن نصيب الشاعر من هذه الملكة كبيراً فليس هناك من شك فى أن اللغة التى توحيها إليه لا يمكن إلا أن تكون فى الغالب أقل فى حيويتها وصدقها من اللغة التى يتكلمها الناس فى حياتهم الحقيقية تحت تأثير ضغط مشاعرهم . ومن الواضح أنه ما دامت المهمة الأساسية للشاعر تقليد المشاعر ووصفها ، فإن عمله هذا — إلى درجة ما — آلى إذا قيس بالأعمال والآلام الحقيقية الواقعة . لهذا يجتهد الشاعر أن يجعل أحاسيسه قريبة من أولئك الأشخاص الذين يصفهم ؛ لا بل يحاول أن يخيل إلى نفسه أن مشاعره ومشاعر أولئك شىء واحد .

وقد يقول قائل : إذا كان من المسلم به أن الشاعر لا يستطيع أن يجىء فى كل المناسبات بلغة تناسب الأحوال التى يصفها كما تناسبها اللغة الحقيقية ، فمن المستحسن — إذاً — أن يعتبر نفسه فى تلك الأحوال مترجما ، والمترجم لا يتردد فى أن يستبدل بما لا يستطيع نواحى أخرى من الجودة يستطيعها حتى يعوض عن ناحية النقص . ولكن هذه — فى نظر «وردسورث» — لغة العجز والكسل ، لغة من لا يفهمون ما يقولون ، لغة من يعتبرون الشعر مجرد متعة ولذة ناجزة .

يقول أرسطو : «إن الشعر أكثر أنواع الكتابة فلسفة» . ويوافقه «وردسورث» على هذا معتبرا موضوع الشعر الحقيقة — لا الحقيقة الفردية أو المحلية — ولكن الحقيقة العامة الفاعلة . إن الشعر هو صورة الإنسان والطبيعة . والقيد الوحيد الذى يعمل تحته الشاعر هو أن يتيح لذة عاجلة لكائن إنسانى يسمعه ، لا بصفة كونه قانونيا أو طبيبا أو بحاراً أو عالم طبيعة أو فلسفة ، ولكن

بصفة كونه إنساناً . وليس هذا القيد عيباً أو مهانة فى حق الشاعر بل على العكس ، هو اعتراف بجمال الوجود ، وهو عمل غير شاق على من ينظر إلى الدنيا بعين الحب ، وهو احترام تؤديه الخاصية الخطيرة فى الإنسان — وهى اللذة . فالمرء مفطور على أن تقوم حياته على أساس اللذة ، بها يعرف ويحس ويعيش ويتحرك ويشارك غيره فى وجدانه ، ويتأمل الحقائق العامة .

هنا تتجه نظرية « وردسورث » اتجاهاً فلسفياً سيكلوجياً قائماً على مبدأ اللذة ، يصل به إلى أن شعور الشاعر ينشأ فى جو من اللذة ، وهدفه هو عرض الحقيقة عرضاً يورث اللذة — سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . ومعرفة العالم والكيمياوى وغيرهما لذيذة . ولكن معرفة الشاعر تنفذ إلينا كجزء ضرورى من وجودنا ومن ميراثنا الطبيعى الذى لا يمكن فصله منا ؛ على حين أن معرفة العالم معرفة فردية شخصية تصل إلينا فى بطء . فرجل العلم يطلب الحقيقة من بعيد ، ويحبها ويحرص عليها فى وحدته ؛ ولكن الشاعر يغنى أغنيته فيطرب ويطرب معه الناس جميعاً . إن الشعر هو جوهر المعرفة وروحها اللطيف ، وإن الشاعر هو صخرة الدفاع من الطبيعة الإنسانية ، يحمل معه أينما سار تعاطفاً وحباً . وعلى الرغم من فروق الأرض والجو ، ومن فروق اللغة والمولد ، والقوانين والتقاليد ، وعلى الرغم من الأشياء التى تبلى وتذهب من العقل فى سكون ، فإن الشاعر يربط المملكة الإنسانية كلها برباط من الوجدان والمعرفة . وهو يجد موضوعاته فى كل مكان ويجول حيثما وجد جواً من الإحساس يطير فيه بجناحيه . وإذا كانت جهود رجال العلم ستخلق تطوراً جديداً — مباشراً أو غير مباشر — فى ظروفنا وفى التأثرات التى تصل إلينا فإن الشاعر سوف لا يتوانى عن تتبع هذه التطورات ، وسيكون دائماً مستعداً لحمل الإحساس إلى موضوعات العلم نفسه ، فكل ما يكشفه الكيمياوى وعالم النبات وعالم المعادن ، سيكون موضوعات مناسبة لفن الشاعر .

ملخص ما قيل — إذاً — هو أن الشاعر إنما يتميز عن بقية الناس بسرعة تفكيره ، وإحساسه بلا تنبيه عاجل مباشر ، وبقدرة أكبر على التعبير عن الأفكار والأحاسيس . هذه الوجدانات والأفكار هى الوجدانات والأفكار العامة عند الناس ؛ وهى لا شك تتصل بعواطفنا الروحية ، وحسوسنا الحيوانية ، وما يسببها ويثيرها . تتصل بعمليات العناصر وظواهر الوجود المتطور ، بالعاصفة وشعاع الشمس ، بتطورات الفصول ، بالحرارة والبرودة ، بفقد الأصدقاء والأحباب ، بالأذى والعتب والرجاء والخوف والحزن والاعتراف بالجميل . هذه وما شابهها هى الموضوعات والأحاسيس التى يصفها الشاعر ، وهى بعينها أحاسيس بقية الناس وما يهمهم ويعنيهم . إن الشاعر يفكر ويحس بروح الوجدانات الإنسانية ؛ فكيف تختلف لغته — إذاً — اختلافاً كبيراً من لغة بقية الناس الذين يحسون ويشاهدون فى قوة ووضوح ! إن الشعراء لا يكتبون للشعراء فحسب ، ولكن للناس . وإن الشعر هو أول المعرفة الإنسانية ونهايتها . إنه خالد خلود قلب الإنسان .

محمد خلف الله

حكمت محكمة مديرية جرجا العسكرية فى الجنحة ٦١ عسكرية طما سنة ١٩٤١ بتغريم ذكرى غالى فرنسيس مائتى قرش لعرضه للبيع قماشاً بسعر أزيد من المحدد

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ..."

الأدباء العشرة ! — حد الأديب — خداع التاريخ ! — حكم القراء — فى البلاد العربية — أجوبة ... — الأديب الحادى عشر ! . . . . . .

الأدباء العشرة !

حديثى اليوم عن الأدباء العشرة ، ولست أدرى لماذا آثر توفيق الحكيم أن يكونوا عشرة ؟ أذلك سر « العدد » أم سر « المعدود » ؟ . . . وليس ذلك سؤالى وحدى ، فقد سألنيه نصفُ من كتبوا إلىّ من القراء ؛ أما توفيق الحكيم فيقول : لست أعنى العشرة عداً وإحصاءً ، فقد يكونون أقلّ من ذلك أو أكثر ؛ ولكنى عنيت أن الأدباء فى مصر قلة ! . . .

ولكن القارئ أحمد أحمد النحاس بالسالمية لا يرضيه جواب الأستاذ الحكيم ، فيحاول أن يكشف سره ويردّه إلى أسبابه ، وينتهى إلى مقال قديم للأستاذ الحكيم عنوانه «أدباؤنا المعاصرون والمرأة » نشره فى مجلة الثقافة ، ثم عاد فنشره فى كتابه « تحت المصباح الأخضر » وذكر فيه عدة من الأدباء يقاربون العشرة ؛ أهؤلاء يعنى أم هو لا يريد أن يتورّط فى معركة جديدة ؟ . . . وهو « يكره النضال مع الأدباء ولا يكرهه مع النساء » كما يقول القارئ توفيق حسن وصفى بالإسكندرية !

حد الأديب :

ويسألنى القراء : محي الدين القبانى ، وإبراهيم سعد ياسر ، ومحمد الأنور الحلبى ، وتوفيق حسن وصفى ، وفكريه عثمان حسن :

« من هو الأديب الذى عنى ويعنى توفيق الحكيم ؟ » وإنه لسؤال يحق لكل قارئ أن يسأله ، وإن بدا جوابه بمكانٍ من الوضوح لجمهرةٍ من القراء . أما توفيق الحكيم فيعنى « الأدباء البارزين الدائبين على الإنتاج » ، وهو تحديد يستوقف الفكر والنظر ؛ فإن « البروز » و « الدأب على الإنتاج » إن صَلحا أن يكونا من مقوّمات « الشهرة » لا يصلحان أن يكونا من مقوّمات «الأدب» أو من مميزات « الأديب » ؛ ولقد يخلد الأديب بمقالٍ يتيم لا يؤثر عنه غيره ، ويخمل أدباء كان لهم فى الحياة شهرة وصيت !

خداع التاريخ !

ولقد يجوز أحياناً على التاريخ ما يجوز على الناس فى غفلاتهم ، فتخدعه الثرثرة وبريق الشهرة والدعاوى المكررة ، فتطبع فى بعض صفحاته أعلام كان ينبغى أن تطمس وتعفو آثارها ، وتُنسى أعلامٌ وحادثاتٌ جسام ؛ ولكن شأن التاريخ فى ذلك سلبىٌّ لا إيجابى ، فإن له الأمر فى امّحاء ذكر مَن يُغفله من الناس وما يهمله من الحادثات ، ولكنّ ليس له قوة يُثبت بها الباطلَ على الزمان ! . . .

. . . ولكنى لم أخلص بعدُ إلى حدّ الأديب : أهو الكاتب الدائب لوصول الإنتاج ، أم هو المنشئ البليغ النافذ بسحر البيان ، أم هو المفكر المتطلع إلى الحقيقة يكشف من أسرارها وينفذ إلى سرائرها ، أم هو المتخيّل الحالم الذى تتزيّن له الطبيعة فى أرقّ شفوفها فتريه ضوءَ الشمس على جدار الحبيبة أكثر إشراقاً منه على بيوت الناس ، أم هو المصلح الأمل يتصبّاه المثل الأعلى فما ينفكّ داعياً إليه مصوّراً مثاله معبّداً سبيله ؟ . . أهو واحدٌ من هؤلاء ، أم هو كل هؤلاء ؟ . . أم هو « الإحساس المعبّر » فى أى صورة من صور هؤلاء ؟ . .

حكم القراء :

وبين يدىّ الساعة ما اجتمع إلىّ من بريد القراء فى هذا الاستفتاء ، فماذا كان حد الأديب فى رأى جمهرة القراء ؟ . .

أما الأدباء العشرة الذين نالوا أكثر الأصوات فيكاد يجتمع رأى القراء منهم على أربعة، ثم تتوزع الأصوات بين عشرين أو ما يقرب من عشرين — ولا أسمّى أحداً — ! وأستجمع صورة هؤلاء وهؤلاء فى ذاكرتى وأجمع إليهم أسماء أخرى لم تخطر ببال أحد ممن كتب إلىّ وإن لهم لمكاناً بين أدباء الجيل — فيدهشنى ما رأيت ....! وماذا رأيت . . . ؟

١ — إن الأديب — فى رأى جمهرة القراء — هو من يكثر تردد اسمه فى الصحف والمجلات وإن لم يكن له فى الأدب شأن ؛ وليس بأديب من لا يتصل سببه بصحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات الذائعة وإن كان من الأدب بمكان !

٢ — إن ذيوع الصحافة العربية وقوة انتشارها كان على حساب « الكتاب » ، فلكل قارئ تكسبه « مجلة » تخسره « مكتبة » !

٣ — يرتفع قدر « الأديب » فى ميزان قارئه بكثرة ما يُنشر له وقُرب عهد القارئ به ، فأيما كاتب غاب عن قارئه فترة نزل عن مرتبته درجة ؛ فإذا بلغت هذه الفترة شهراً فقد أوى إلى زاوية النسيان ، فإذا بلغت عاماً فليس بمستحق أن يحتفظ بلقب الأديب ؛ فالقاعدة هى « الاستمرار » !

٤ — حكم القراء اليوم أقربُ إلى « التجرُّد » مما كان منذ سنوات ؛ فليس لاختلاف الرأى بين الكاتب وقارئه فى السياسة ، أو فى الأدب ، أو فى الدين — أثرٌ فى الحكم على منزلته الأدبية ، فثمة قراء عدُّوا فيمن « يحبون من الأدباء » طائفةً يعيبون مذاهبهم وينقدون طرائقهم ويسفّهون آراءهم !

فى البلاد العربية :

ولم يشترك فى المسابقة من البلاد العربية إلا بضعة نفر ، ليس بينهم من العراق أحد ، على كثرة عناية إخواننا هناك بآدابنا وأدبائنا . ولم أقدر هذا الشأن قدره حتى جاءنى فى الأسبوع الأخير رسالة من «كامل نور الدين : اللاذقية» يقول فيها :

« . . . إننا نقف من هذه القضية كمتفرجين فقط ، لا يهمنا أربح هذا أم ذاك ، فإن الذين لا يعنيهم شأننا لا يعنينا شأنهم . . .

« إننا نحب أدباء مصر ونعرفهم جميعاً ، ولكن أين هو المصرى الذى يعرف رئيس جمهورية سوريا . . . ؟ »

وإنه ليعيب علينا أننا نغفل ما بيننا وبين البلاد العربية من روابط ، وينكر علينا الإسراف فى الحديث عن أنفسنا دون أن نلتفت إلى حق الأخ والجار ؛ ولقد يكون فى هذا الذى يقول جانبٌ من الحق ، لا كل الحق ؛ فليس من الحرص على معانى الأخوة أن أقول لأخى كلما جدّ أمرٌ بينى وبينه : أنا ... وأنت ... ! إن ذلك خليق أن يبعث فى كل نفس معنى من الأثرة يباعد بين الأخوين ؛ ثم ما ذنبى أنا إذا كان أخى لا يحاول أن يُسمعنى صوته كما أسمعه ؟ من أين لى أن أعرف من شئونه ما لا يريد أن يعرّفنى ؟ . . . هذا بريدى إليه كل صباح وكل مساء فى الصحف والمجلات والكتب ؛ فأين بريده إلىّ ؟ . . . ومع ذلك فليس فى بلادنا مصرى واحد لا يعتزّ بالأخوّة العربية فى القدس ودمشق وبغداد وإن جهل من شئونها ما لا بد أن يعرف ... ولكنه عتب أخ يطمع فى المزيد من الوداد ، فهى تحية كريمة وإن بدت لوناً من الخصام !

وددت لو كان فى طوقى أن يكون الاستفتاء : من هم الأدباء العشرة الأحب إليك فى مصر والبلاد العربية ؟ ... ولكنى خشيتُ التقصير فى حق أدباء العروبة فى القدس ودمشق وبغداد ؛ لأن أدباء العروبة فى القدس ودمشق وبغداد يعيشون فى مثل صوامع النُّسّاك !

ومع ذلك فليس يفوتنى التنويه بما ورد إلىّ فى هذا الاستفتاء من رسائل القراء فى البلاد الشقيقة ؛ إن فيها

— على قلتها — من تحرِّى الدقة وقوة الحكم ما لم أر كثيراً من مثله .

أجوبة :

وفى أجوبة بعض القراء تفصيل حقيق بالتأمل ؛ فلم يكتف كثير منهم بذكر الأسماء ، بل شفعوها بذكر الأسباب التى استندوا إليها فيما حكموا ؛ وإلى القارئ أسوق منها هذه النماذج :

إمام ابراهيم إمام — وزارة الأوقاف :

« العقاد : من أراد أن يقرأ له فليبتعد عن كتابته السياسية وليقرأ له فى الأدب فقط ! »

***

أديب عباسى — شرق الأردن :

« الدكتور أحمد زكى : وسيستغرب القراء ، فالدكتور رجل كيمياء ومعادلات وأنابيب وأمابيق وعناصر وأخلاط ، فأين هو من الأدب ؟ ... ... وأعتقد أن الدكتور زكى أقدر من « أدب » الطلم العربية فى أسلوب كله طلاوة ورشاقة . . . »

« الدكتور زكى مبارك : وهو فى الطليعة بين أدبائنا نشاطاً وحسن إنتاج ، ولكن لا يعجبنى منه اعتداده الصارخ وكثرة إملائه وشكواه الدائمة ! »

***

إبراهيم سعد عامر : "

« طه حسين فى مستقبل الثقافة ، وتوفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف ، وأحمد حسن الزيات فى مقال الزعيم المنتظر ... ... »

***

محمد عثمان الحر — الشبكة :

« إبراهيم عبد القادر المازنى : كاتب عجيب ، ربما تقرأ له عدة مقالات فى يوم واحد ؛ روح الفكاهة فى مقالته تسرق وقت القارئ وتسترق قلبه » .

الأديب الحادى عشر !

من رسالة الآنسة فكرية عثمان حسن — دبلوم معهد التربية :

« . . . دهشت ياسيدى إذ أخذت المسابقة دورها الجدى ، وما كنت أحسب إلا أن كل مصرى يعتبر نفسه أديباً ! . . . »

« . . . كنت أحسب أن الردود التى ستصلك قليلة جداً ، وكأن هذه الأغلبية هى الشخصيات المتواضعة التى تناولت غيرها من الأدباء وفضلتهم عن غيرهم ، وأقنع كل منهم نفسه بأنه الأديب الحادى عشر ! ! »

قلت : ولعله لهذا لم ترد الرسائل التى وردت إلىّ على بضع وعشرين رسالة ! . . . وحسب مصر أن يكون فيها بضعة وثلاثون أديباً ، عشرة منهم فى الصف الأول ، وكل من يليهم فترتيبه فى « الناجحين » الحادى عشر مكرراً .. !

« قاف »

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

***

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠ فى مصر والسودان
	٢٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
لستة أشهر	٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

تعقيبات :

فضـــاء !

[أيتها المشاعر الحائرة ! قد انتهى فنى إلى فضاء ، وتلك حكايتك عن الشاعر الرجيم]

جُزتُ الحيـــاةَ إلى فضاء كابٍ
خَرِبِ الجوانحِ شاسعِ الأسبابِ
ثُكِلَتْ لفرط الصَّحوِ كلُّ مشاعرى
ولهَوْلِ ما صارعتُ من أوصابِ
فعبرتُ نحوكَ يا فضاءُ مشاعرى متجرداً من صورتى وإهابى
متخطياً أســـوارَ إحساسى إلى
ما فى رحابكَ ، لا أبداً بحراب !
جُنَّتْ عليه مخـــاوفٌ ما جازها
بشرٌ لغـــير مهالكٍ وتبابِ
تمتدُّ فيه وحشةٌ مرهوبةٌ قد باعدتْها ضجةُ الأحقابِ
لا همســـةٌ فيه ، ولا تهويمة
لكنْ سكونٌ ضاربُ الأطنابِ
صمتٌ كأنَّ الصمتَ فى بيدائهِ
إعوالُ ريحٍ أو عُـــواءُ ذئابِ
لا هَبَّـــةٌ فيه ، ولا شَبَحٌ ، ولا
صوتٌ ، ولا ذكرٌ من الأحبابِ
لا نفرةٌ فيـــه وليس به ندًى
لكنْ يبابٌ أصـــفرُ الجلبابِ
لا غادةٌ فيـــه ، ولا نورٌ ، ولا
ذرٌّ ، ولا ومضٌ ينـــيرُ شعابى
لكنْ فراغٌ فارغٌ من كلِّ ما
فى هذه الدنيا من الأسلابِ
أبصرتُ فيه نهايتى موصولةً بدموع أترابى وشجو صحابى

وقرأتُ بين سُـــطوره معنى البِلى
فبكيتُ حتى لستُ أعرفُ ما بى !
قد أحـــدقتْ صحراؤهُ بى بغتةً
ففقـــدتُ ذاتى واحتجبتُ شبابى
ونسيتُ روحى وافتقـــدتُ معالمى
فكأننى لا شىء غـــير يباب !!

* * *

كمْ كنتُ أوجسُ خيفةً أنْ ألتقى
بكَ يا فضاءُ على بســـاطِ عذابى
لكننى قذفتْ بنفسى شِـــقوتى
نحـــوَ الذى فى قلبكَ المرتابِ
حرقتْ وجـــدانى ، وقطعتِ المدى
قلبى ، وغصتْ بالردى أكوابى
فنعى الفضـــاءُ إليكَ فى مُتهالكاً
جفتْ معانى النورِ فى أعـــدابى
ولقيتُ فى أحضانكَ الخرسِ التى
ماتتْ لديه مشـــاعرى ورغابى
أنا لا أحسُّ ! ولا أصيخُ ! ولا أرى !
يا ويلنا ماذا إليكَ رمى بى ؟!

. . . .

وإذا بسرٍ منهمرٍ فى أضلعى يبلى مُوانى ، مُوقظاً أعصابى
وإذا بصـــوتٍ فى دمى متموجٍ
كتموجِ الأنســـامِ فى الأعشابِ
خفتْ له روحى كأنَّا أنها مهتْ تحاين رقدةٍ وغيابِ
فعجبتُ كيفَ أفقتُ من غيبوبتى
وتحانَ خـــدرتِ المتونُ لُبابى
وسألتُ : [مَنْ يا صوتُ صاحبكَ الذى
أغراكَ تبرقُ فى الفضاء الكابى ؟!]

فسمعتُهُ متدفقاً فى تشتمى :

[أنا سِرُّكَ الباقى على الأحقابِ
ولقد سَرَتْ فيكَ الحياةُ وإنما
هى نخوةٌ والموتُ فى الأعقابِ
فالشمسُ تجمُلُ فى المغيبِ وتزدهى
بفرائدِ الألوانِ والأثوابِ !
والطيرُ قبلَ الموتِ يَبكى نفسَهُ
غرِدًا يُرَفْرِقُ فوقَ زَهرِ الغابِ
إنَّ الحياةَ لها حُدُودٌ ما ترى أسوارُها مسمومة الأنيابِ
فإذا تخطَّتها النفوسُ ، تمزّقتْ
فوق السياج على رءوس حرابِ
وكذا الأحاسيسُ التى كم دُرْتَ فى
إعصارِها نَهْبًا لكلِّ مُصابِ
حتى إذا حملتكَ صَرْصَرُها إلى
وادٍ تَكَنَّفَهُ الفضاءُ الكابى
ولوَتْ تلتمسُ العزاء ، مُكابداً
ما كابدَتْ دُنياكَ مِنْ أوصابِ
ودفنتَ قلبَكَ فى الخرابِ مُوَدِّعاً
ما فيه من مُستعذَبِ الآرابِ]

. . . .

فصرختُ صرخةَ يائسٍ متمرّدٍ
مُستنجدًا بفُتوّتى وشبابى !
لكنْ طوانى فى فسيحِ ملائه
ذاكَ الفضاءُ ! مُخدّراً أعصابى !
فنسيتُ رُوحى وافتقدتُ معالمى
وكأنّنى لاشىء لغيرِ يبابِ !!

عبد الرحمن الخميسى

اعلان
وزارة المعارف العمومية
ادارة حفظ الآثار العربية

يعاد قبول عطاءات بمقر إدارة حفظ الآثار العربية بشارع الوالدة رقم ١ بقصر الدوباره حتى الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٢ عن أعمال الصيانة والترميم اللازمة للمحال الأثرية بمنطقة القاهرة وضواحيها بعطاء خاص . ثم عن منطقة الأسكندرية ورشيد وفوه بعطاء آخر عن سنة ٤٢ — ١٩٤٣ المالية على مقتضى الشروط العمومية وقائمة الأثمان الأساسية وملحقاتها التى يمكن الاطلاع عليها بمقر الادارة واستلام صورة من نماذج العطاءات الخاصة بها ويجب أن يكون عطاء المنطقة الأولى مصحوبا بتأمين قدره ١٥٠ جنيه وعطاء المنطقة الثانية بتأمين قدره ١٠٠ جنيه

ولمقدمى العطاءات الحق فى حضور جلسة فتح المظاريف بسراى وزارة المعارف فى الساعة ١٢ يوم الاثنين ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٢ والوزارة حرة فى قبول أو رفض أى عطاء دون ابداء الأسباب .

٩٨٤٤

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردامى عابدين – القاهرة – التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٩٧٦٩١

العدد ١٩٣ | الثلاثاء ٢٧ من شعبان سنة ١٣٦١ – ٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٢ | السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

ققفاســـيا

أو بلاد القوقاس

شغلت بلاد ققفاسيا أذهان العالم وأعمدة الصحف في هذه الأيام بسبب ما يدور فيها من معارك طاحنة بين الروس والألمان . وقديما شغلت بلاد قاف أذهان الناس ، فقال عنها صاحب قاموس المحيط إنها « جبل محيط بالأرض أو من زمرد ، وما من بلد إلا وفيه عرق منه ، وعليه ملك إذا أراد الله أن يهلك قوما أمره فحرك (ويد الجبل بالطبع) فخسف بهم » .

ولكنا الآن نعرف أن جبال قاف أو جبال القوقاس ، لا تحيط بالأرض ولا بجزء كبير منها ، بل هى من أقل جبال العالم امتدادا وليست من أعظمها ارتفاعا . وليست هى من الزمرد ولا من غيره من الأحجار الكريمة ، وإن كان فيها من الثروة ما هو أعظم من الزمرد وأنفع منه في الحياة .

وتقع هذه الجبال بين البحر الأسود غربا وبحر الخزر (بحر قزوين) شرقا ، وامتدادها على العموم من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، وتفصل من الوجهة الجغرافية قارتى أوربة وآسية ، وإن كانت البلاد التى على جانبيها تؤلف من الوجهة السياسية دولة واحدة . وتنحدر من جهة الشمال إلى سهول روسيا الفسيحة ، وتتصل من الجنوب بهضاب أرمينية والأناضول وشمال العراق وإيران .

وتختلف جبال أورال الواقعة فى شرق روسيا الأوربية عن جبال القوقاس ، وإن كانت كلتاهما تفصل أوربة عن آسية ، فالأولى جبال وطيئة مستديرة فى أعلاها ، زالت قممها وبرتها عوامل التعرية فصيرتها أقرب إلى التلال منها إلى الجبال ، وليس من الصعب على الإنسان أن يجتازها من شرقيها إلى غربيها ، فهى جبال سهلة التحدر ، ولهذا لم تكن حداً فاصلا واضحاً بين القارتين . أما الثانية فجبال

وعرة ليس فيها من الممرات السهلة إلا ممر واحد يخترقها من الشمال إلى الجنوب ، وهو ممر داريل الضيق الذي تشرف عليه مدينة تفليس .

واشتهرت جبال أورال من قديم الزمان بما فيها من المعادن الثمينة وأهمها الذهب والبلاتين ، ولكن جبال القفقاس قد اشتهرت بمعادنها النافعة وبخاصة البترول والحديد .



وليست هذه الجبال كتلة واحدة متماسكة ، بل تتكون من عدة سلاسل متوازية محصورة بينها وديان طويلة تجرى فيها في فصل الشتاء أنهار جليدية منحدرة من أجزائها العالية . وتكسو سفوحها المطلة على الجنوب غابات عالية وتنمو في وديانها فواكه البحر الأبيض المتوسط وحبوبه ، ويزرع بهذه الوديان القطن والدخان والذرة . والأرض الواقعة إلى شمالها مستوية تتصل بسهول روسيا الفسيحة ، والأجزاء المحيطة ببحر الخزر والممتدة إلى الشمال حتى مدينة استراخان على مصب نهر الفولجا كثيرة المستنقعات الملحة والأراضي القاحلة الجرداء . وشمال القوقاس كثير العواصف شديد البرد ، قليل الزرع ، وتحصد حاصلاته متأخرة ، وفيه مراع واسعة عظيمة . أما جنوبيه فخصب كثير الزرع والحدائق ، وبه عدا ذلك مراع واسعة وخيرات موفورة .

وأهم موارد الثروة في بلاد القوقاس ، منابع الزيت العظيمة التي تعد من أغنى منابع الزيت في العالم كله . ويرى الناظر إلى خريطة أوربة أن بلاد القوقاس والمناطق الواقعة إلى جنوبها في إيران والعراق كلها غنية بهذا الزيت ، فهي منطقة زيتية واسعة متصلة الأجزاء ، وزيتها جيد النوع ، وتستخرج منه كميات هائلة تكرر في البلاد . وينقل معظمها في خطين عظيمين من الأنابيب ، يمتد أحدهما من باكو والباقي على بحر الخزر إلى باطوم على البحر الأسود ، ويمتد الثاني من باطوم إلى تخش قلعة على هذا البحر نفسه ، ثم يتجه شمالاً بغرب حتى يصل إلى رستوف على بحر أزوف (آزاق) ثم إلى شمالها الغربي . ويمر هذا الخط الثاني بعدة بلاد هامة تتكرر ذكرها في الحرب التي تدور رحاها الآن في هذه البلاد ، وهي جرزني وجورجيسك وأرمفير . وهذا الخط هو الذي تنحدر على طوله الجيوش الألمانية في بلاد القوقاس . ويخرج منه عند أرمفير خط أنابيب فرعي يمتد غربا نحو البحر الأسود ويصل إلى كرسنودار . ويسير بمحاذاة أنابيب البترول خطان حديديان رئيسيان تخرج منهما عدة خطوط فرعية إلى الشمال وإلى الجنوب .

ويسكن بلاد القوقاس حوالى اثنى عشر مليونا من الأنفس ، تتكون كثرتهم الغالبة من الروس الصقالبة والتتر والكرج والأرمن والداغستانيين والأتراك والأكراد ، ويكون المسلمون نحو ثلث سكان البلاد ، ومعظم الباقين من النصارى واليهود ، ومن أشهر القبائل القوقاسية قبيلة أباظه .

ووصل العرب إلى جنوبي جبال القوقاس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقد استولى جيش إسلامي بقيادة سراقة بن عمرو على أذربيجان ، وانفصلت منه قوة بقيادة بكر بن عبد الله وعبد الرحمن بن ربيعة ، وقصدت جنوب القفقاس للفتح ، واستمر زحف المسلمين حتى استولوا

على بلاد الأرمن والكرج ، وفتحوا تفليس وأسسوا فيها حكومة عربية ودعوا الناس إلى الإسلام . ودامت حكومة العرب إلى عام ١١٠٠ ميلادية تقريباً ، أى إلى أوائل الحروب الصليبية ، وفى هذه الفترة سرى الإسلام إلى الجهات الشمالية من القوقاس ، أى إلى جنوب بلاد روسيا .

وتنقسم بلاد القوقاس من الوجهة السياسية إلى قسمين : فأما قسمها الشمالى فهو جزء من جمهورية روسيا السفييتية الاشتراكية المتحدة R.S.F.S.R (روسيا الحقيقية) ، أما الجزء الجنوبى فيتكون من ثلاث جمهوريات هى : أرمينية والكرج وأذربيجان ، ويتألف منها « اتحاد جمهوريات ماوراء القوقاس الاشتراكية السفييتية » وهو جزء من الاتحاد السفييتى العام .

فأما جمهورية أرمينية فتقع فى الوسط بين أذربيجان فى الشرق وجمهورية الكرج فى الغرب . وكانت هذه البلاد فى عهدها القديم جزءاً من الدولة العثمانية ؛ ولا يزال قسم من بلاد الأرمن تحت حكم الأتراك فى هذه الأيام ، ضم إليها بمعاهدة عقدت بين الروسيا وأرمينية من جهة ، وتركيا من جهة أخرى . وقد قبلت الروسيا وأرمينية فى هذه المعاهدة أن يبقى إقليم قارص وما جاوره فى حوزة الدولة التركية .

وأرمينية بلاد زراعية تبلغ مساحة أراضيها المزرعة نحو مليون من الأفدنة ، يزرع أقل من نصفها بقليل قطناً . والأرمن ماهرون فى الصناعات اليدوية الدقيقة ، وعاصمة الجمهورية أريفان ويسكنها نحو خمسة وسبعين ألفاً .

وانضمت جمهورية أذربيجان المستقلة إلى الاتحاد السفييتى فى عام ١٩٣١ . ومعظم أهل البلاد من الترك والتتار ، ويشتغل كثيرون منهم بالزراعة والرعى ، غير أن أهم الأعمال هى استخراج البترول وما يتصل به من الصناعات ، ويدار الآلات التى تستخرج هذا الزيت وتكرره بالكهرباء ، وتتصل مراكز استخراجه وتكريره بمدينة باكو عاصمة البلاد الواقعة على بحر الخزر . ومن هذه المدينة تمتد الأنابيب إلى الغرب وإلى الشمال الغربى كما سبق القول ، وينقل بعض هذا الزيت فى السفن البحرية والنهرية فى بحر الخزر ونهر الفلجا ، كما ينقل بعضه بالسكك الحديدية فى قناطيس ضخمة إلى البحر الأسود وإلى داخل البلاد الروسية . وليست مدينة باكو بالمدينة التى تطيب فيها السكنى ، فرائحة البترول تملأ هواءها وتسرى فى أجسام أهلها ، ومناظر معامل التكرير والمضخات الكبرى ليست من المناظر الجميلة التى ترتاح إليها الأعين .

وتقع ثالثة جمهوريات ما وراء القوقاس وهى جمهورية الكرج أو كرجستان أو جورجيا كما يسميها الفرنجة ، إلى غربى أرمينية . وتمتد غربا إلى البحر الأسود ، واسمها مشتق من نهر الكر الذى يخترق البلاد ، وهى أكبر الجمهوريات الثلاث وأكثرها سكانا .

وليس زيت البترول كل ما تنتجه البلاد من الغلات المعدنية ، بل إن فيها من معدن المنجنيز ما يقدر بنحو مائة وخمسين ألف طن ، وفيها من الفحم ما يبلغ ١,٣٠٠ مليون من الأطنان . وتستغل مساقط المياه فيها لتوليد القوة الكهربائية .

وعاصمة البلاد مدينة تفليس ، وهى أيضاً مركز حكومة اتحاد جمهوريات ما وراء القوقاس الثلاث . وتقع هذه المدينة الكبيرة على الخط الحديدى الممتد من باكو إلى بوتى ، وعلى خط أنابيب البترول بين باكو وباطوم ، وهى تقوم على ربوة عالية وعرة ، يشق فى أسفلها أخدود عميق فى الجبال ، وتشرف على أسهل طريق يخترق جبال القوقاس من الشمال إلى الجنوب وهو ممر داريل الشهير .

تلك كلمة موجزة عن طبيعة بلاد القوقاس التى تدور فيها أشد المعارك هولاً فى هذه الأيام .

محمد بدران

الحياة الاجتماعية فى مصر

رابعاً — يبلغ عدد عمال الزراعة فى سنة ١٩٣٧ ٥٫١٥٧٫٥١٢ ومحصول هؤلاء سواء المحصول العملى أو المحصول الأدبى ضعيف .

وبداهة فإن ما يتطلبونه من حاجات المعيشة لهم ولعائلاتهم من المنتجات الصناعية لا يتعدى القليل التافه .

ويلاحظ أن الصناعة خصوصاً فى مصر وهى بلاد حديثة عهد بها ، يجب أن تعول على الأسواق الداخلية — ولا يرجع هذا التعويل إلى ضرورات الحرب وصعوبة التصدير ، إنما يرجع إلى أن الصناعة الناشئة لا يمكن أن تقوى على مزاحمة الصناعات القديمة التى رسخت أقدامها فى الأسواق الدولية .

وقد رأينا أن جمهور المشترين فى السوق المحلية من الزارعين وعمال الزراعة ، وهؤلاء على حال مادية وعلمية ضعيفة ، فلا شك سيكون لهذا كله أثر بالغ على الانتاج الصناعى وعلى المنتجات الصناعية وعلى عمال الصناعة ، وبالتالى على الحياة الاجتماعية لسكان المدن وما إليهم من المشتغلين بالتجارة والصناعة .

بق علينا بعد أن أحطنا بإيجاز بأهمية الدور الذى يقوم به عمال الزراعة وأثرهم على الإنتاج والحياة الاجتماعية ، أن نشير إلى الجهود التى بذلت لتهيئة تطور اجتماعى صالح لهم ، حتى يكون لهذا التطور أثره الصالح على التطور الاجتماعى للبلاد بصفة عامة .

إذا قصدنا بالجهود القوانين والنظم التى وضعت ، فإنما يعنينا فى هذا المقام فقط ما يتصل اتصالا مباشراً بطبقة الزارعين وعمال الزراعة دون غيرهم .

ولا نقصد ما وضع من القوانين والنظم وكان متصلاً بحماية المحصولات الزراعية ، وحماية تصدير بعض المنتجات وما إلى ذلك ، لأن كل هذه الجهود إنما تفيد الزارعين بطريق غير مباشر ، والفائدة المباشرة تعود على الملاك ، ومن الأسف أنه قد صدر من النوع المشار إليه الكثير من التشريعات لوقاية المزروعات من الآفات ، واعتبار بعض البلاد الخارجية مصابة بأمراض نباتية ، ووجوب مراقبة البذور ، إلى غير ذلك .

ولسنا نعرف تشريعاً يتصل مباشرة بالزارعين والفلاحين ، اللهم إلا التشريع الذى لا يبيح الحجز على الأشياء اللازمة لمعيشة الفلاح وأدوات زراعته ، وكذلك التشريع الذى يمنع نزع الملكية لأقل من خمسة أفدنة ، وهذا فى الحقيقة وضع لحماية صغار الملاك .

أما النظم فلعل أبرز النظم الاجتماعية التى وضعت لهم هو نظام التعاون ، ومع ذلك فقد ظل أكثرهم بعيدين عن الاستفادة به ، ويلى هذا نظام المراكز الاجتماعية ، وهو نظام استحدث أخيراً ، ومن البديهى أن آثاره لن تعرف إلا فى السنوات القادمة .

بعد أن فرغنا من تلخيص الحياة الاجتماعية لسكان الريف وتطورها ، سنأتى على استعراض الحياة الاجتماعية لسكان المدن وتطورها . ولا يخفى أن جمهرة سكان المدن هم المشتغلون بالصناعة .

لم يكن للصناعة شأن كبير قبل الحرب العظمى الماضية ، وكانت مقصورة على ورش متناثرة ، اللهم إلا القليل من شركات الاحتكار الكبيرة ، وبعض محالج الأقطان التى انتشرت فى المراكز المعدة لإنتاج القطن .

ولكن بعد أن وضعت الحرب الماضية أوزارها ، رأى بعض رجال الأعمال أهمية وجود بعض الصناعات وما ينتظر لها من الرواج ، ولا سيما إذا قيد أو تعذر الاستيراد ، وقد عاصر ذلك ما حل بالبلاد حينذاك من رواج عام ، كما حدث أن ظهرت الحركة السياسية ونمت ، وبدأ الناس يتذوقون الشىء الكثير من الفوز القومى .

لذلك تقدم فريق من أصحاب الأموال واستفادوا من هذه الظروف مجتمعة وأعدوا الكثير من المصانع ، وكان لهم فضل السبق فى هذا الميدان ، ولكن اذا قيست هذه الخطوات بما خطتها الدول الأخرى فى الميدان الصناعى ، تبين أنها ما زالت خطى محدودة .

وبيان ذلك أن إحصاء سنة ١٩٣٩ دل على أن عدد المصانع جميعها فى أنحاء القطر ٨٨٣٥٩ منها ما لا يستخدم عمالا مطلقاً ٤٥٠٤٠ أى أكثر من النصف وما يشتغل به عامل فأكثر ٢٥٥٨٤ ؛ ومثل هذا فى المتاجر اذ مازالت المصانع والمتاجر تقوم على أكتاف مجهودات فردية .

ولاشك أن ازدهار الحياة الاجتماعية وتطورها فى المدن لا يتم إلا إذا انتشر الإنتاج الكبير ، ولكن رغم ذلك فقد كانت الحياة الاجتماعية لعمال الصناعة أوفر حظاً منها لعمال الزراعة ، إذ يرجع التاريخ التشريعى لتطور عمال الصناعة الاجتماعى الى سنة ١٩٠٩ وذلك باصدار القانون الخاص بعدم تشغيل الأحداث .

ثم أعقب ذلك فترة ركود انتهت بأن شكلت فى سنة ١٩٣١ لجنة للنظر فى إعداد مشاريع قوانين لبعض المسائل العمالية ، وصدر فيها فعلا قانون بتشغيل الأحداث وقانون خاص بتشغيل النساء وتحديد ساعات العمل لبعض الصناعات وقانون بشأن التعويض عن إصابات العمل .

كذلك من ناحية النظم الاجتماعية كان عمال الصناعة أسبق فى الحصول عليها ، إذ عنيت الحكومة بنظر شكاويهم ، وبدأ ذلك بتشكيل لجنة توفيق فى ١٨ اغسطس سنة ١٩١٩ ثم صدور قرار بتشكيل لجان توفيق محلية فى سنة ١٩٢٤ . ثم تأليف مجلس استشارى للنظر فى شئون العمال ، كما أنشئت مصلحة العمل لرعاية الشئون المتعلقة بهم .

وقد أخذ أيضاً بعض المشتغلين بالإصلاح الاجتماعى يعنى باستحداث نظم تعمل على النهوض بالحياة الاجتماعية بالعمال . فقاموا بمساعدة الحكومة بإنشاء مراكز اجتماعية لهم وأندية لأولادهم ، وأخذت تزودهم بالملاذ العامة .

أما العمال أنفسهم فأبرز نواحى النشاط الاجتماعى التى قاموا بها تكوين النقابات . إنما كان هذا النشاط خاضعاً لعوامل خارجية متعددة جعلت حياتها دائما أشبه شىء بالمد والجزر .

وكانت نشأة النقابات ولا زالت تدور حول أغراض بسيطة لا تتصل كثيراً بالحياة الاجتماعية الحديثة ؛ ويرجع ذلك إلى أن أكثرها لم ينظم بعد ، ولم تصل الحالة الحالية إلى درجة تسمح له بمزاولة هذه المسائل الاجتماعية الهامة .

وطبيعى أن إصدار قانون النقابات واعتراف الحكومة بها وإشرافها عليها ، سيعمل على تلافى المساوئ الحالية ، وسيمكن النقابات من تأدية رسالتها ومن المساهمة فى تحسين الحياة الاجتماعية للمشتغلين بالصناعة والتجارة .

ويخلص لنا مما تقدم أن الحياة الاجتماعية فى مصر تمتاز ببعض الظواهر البارزة التى نلمسها فى جميع الأوساط وفى كل الجهات .

وإن فى مقدمة هذه الظواهر الفارقات البعيدة بين طوائف الشعب وبين أفراده ، هذه الفارقات التى تشمل الحياة المادية والحياة الأدبية والحياة العقلية .

ولا بد من العمل على التخفيف من هذا التفاوت ؛ ويوجد أيضاً ظاهرتان هامتان ، وهما : انتشار الجهل والفاقة بين السواد الأعظم من الشعب ، وأثرهما على حياته الاجتماعية واضح ولا يحتاج إلى دليل ، فلا يمكن أن نتصور تطوراً اجتماعياً لا يكون من شأنه أن يعالج هاتين الظاهرتين .

كذلك يخلص لنا أن حياة البلد الاجتماعية الصحيحة هى حياة السواد الأعظم للسكان ، وهؤلاء هم الزراع والعمال ، وأن الإصلاح الذى لا يبدأ بهذه العناصر لا يعد إصلاحا لصميم الحياة الاجتماعية المصرية . وليكن الرائد فى الإصلاح العناية بما كان نفعه عاما وأثره شاملا . وسيقتضى هذا جهودا وفيرة ونشاطاً جما . فربما كان من الخير أن

توجه كل الجهود والنشاط إلى هذه الناحية حيث تعود الفائدة على الأكثرية الساحقة من أفراد البلاد . حتى ولو اضطررنا إلى أن نهادن بعض نواحي النشاط الاجتماعي التي ينحصر أثرها على طائفة أو طوائف من خاصة أفراد الشعب .

فإذا ما اجتزنا هذه المرحلة الأساسية والضرورية من الإصلاح أمكننا أن نطمئن إلى أننا قد وضعنا أساساً سليماً لحياة اجتماعية سليمة . وأمكننا أن نجعل سواد الأمة يشعر بالتطور الاجتماعي وبأثره الأدبي والمادي والعقلي ، وعندئذ يصبح الحكم على أن حياتنا الاجتماعية حياة صالحة حكماً صحيحاً حقيقياً ، لأنه ينطبق على عامة الشعب ولا يقتصر على فئات قليلة امتازت بوفرة العلم أو بوفرة المال ، ولكنها قلة والقلة لا يقاس عليها ، ومن الظلم الفادح أن يكون الحكم عليها حكماً على ما عداها من الأغلبية الساحقة للسكان .

ويجب ألا يقاس التطور الذي ننشده بغيره لدى البلاد الأخرى ، فلكل تطور أسبابه الخاصة ووسائل علاجه التي أعدت له . وعلى أن يكون العمل على تهيئة حياة اجتماعية صالحة للجمهور وهم الزراع والصناع مقترناً بوضع حدود واضحة تبين حقوق الملاك وواجبات الزراع وتحدد التبعات المتبادلة بين أصحاب الأعمال والعمال ، حتى لا يحاول العمال والزراع الانتقاص من سلطة أصحاب الأعمال والملاك ، أو يمنعوا حقهم في الإشراف والتوجيه ، أو يتناسوا فضلهم في الإقدام وفي التضحية بأموالهم وعصارة عقولهم لتنمية الإنتاج القومي ولإيجاد ميادين فسيحة لهم ليكسبوا عيشهم ويزاولوا أعمالهم ؛ كما يذكر أصحاب الأعمال للعمال نشاطهم وقيامهم بواجباتهم فيجزونهم جزاءً وفاقاً ، ويمنحونهم رعاية مادية وأدبية تكفل لهم حياة اجتماعية صالحة .

وليكن همنا عند وضع التشريعات والنظم اختيار ما يلائم أحوالنا ومجانبة الطفرة والانصراف عن الإكثار منها والمبالغة في استحداث نظم متعددة ، لأن التطور الاجتماعي إنما يحدث في البلاد تبعاً لمقتضيات أحوال كل منها واستجابة للضرورات التي أوحت به . وعلى العموم ليكن رائدنا ، كما قال المستر بتلر مدير مكتب العمل الدولي في تقريره الذي رفعه إلى الحكومة المصرية عندما انتدبته لبحث التطور الاجتماعي للعمال في مصر .

« يجب أن نبدأ بوضع أساس عريض وقاعدة ثابتة بدلاً من أن نعنى فقط بإنجاز الهرم بأكمله . »

وما دامت الحياة الاجتماعية تتألف من عناصر متعددة ، والأخذ في تحسينها دفعة واحدة ، إن لم يكن من المحال ، فإنه يتسبب في توزيع الجهود وإضعاف نتائجها ، فلا بد من تقديم الأهم منها على المهم .

ولعل أهم ما يحسن الحياة الاجتماعية في مصر التغلب على الأمية الشائعة بين السكان في أقصر وقت وبأبسط الوسائل ، على أن لا يوضع العبء كله على الحكومة ، إنما تجند في ذلك جميع القوى . فيكلف كل مالك أطيان (عزبة) أن يقضي على الأمية بين مزارعيه ، وكل صاحب مصنع أن يمحو أثرها بين عماله ، ويقوم طلاب المدارس الثانوية والجامعة والأزهر بالمساهمة في ذلك ، على أن تعتبر جهودهم عملاً أساسياً مضافاً إلى برامج نشاطهم المدرسي ، كل في المحيط الذي يتيسر له الإقامة فيه وقضاء العطلة بين سكانه . على أن يصحب مقاومة الأمية العمل على نشر بعض المعارف العامة التي تنمي الإدراك وتوسع مدى التفكير ، على أن يضطلع بهذا الجهد جمعيات تؤلف لهذا الغرض وتتألف من الشباب المتعلم .

ولا شك أن تضافر القوى وتعاون الحكومة وأصحاب الأعمال وجمهور الشباب المتعلم كفيل بتحقيق هذين الغرضين اللذين إذا لم يتم تحقيقهما لا يمكن أن يرجى تحسين الحياة الاجتماعية لعامة المصريين من زراع وعمال ، إذ أنه حتى لو وصلنا إلى تحسين حياتهم الاجتماعية تحسيناً مادياً مع بقاء مستواهم الأدبي منخفضاً لما أفاد ذلك شيئاً .

ويأتي في مقدمة تحسين الحياة الاجتماعية تحسيناً أدبياً العمل على تهيئة نظام صحي ملائم للعمال والزارعين ، سواء في المصانع أو في العزب ، وتيسير معالجتهم ومعالجة عائلاتهم والعناية بتغذيتهم تغذية رخيصة تتوفر فيها العناصر اللازمة للمحافظة على الصحة .

ولا شك أنه قد يكون من المتعذر على الحكومة أن تستقل بجميع هذه الأعباء ، وربما كان التعويل عليها في الانفراد بها مدعاة لتأخير حدوثها إلى الآن ، وإنما يجب أن تتعاون في هذه الجهود الحكومة وأصحاب الأعمال والملاك ، بل وأن يعود العمال والزراع أنفسهم على الاشتراك فيها .

ويلي ذلك العمل على رفع مستوى الحياة الاجتماعية من ناحية ازدياد كسب عامة المصريين من عمال ومزارعين ، ولهذا الاتجاه وسائل قد تقصر عدة أحاديث عن سردها .

وبداهة يجب أن نحتاط إلى الأحوال التي يصبح فيها العمال والزراع غير قادرين على الكسب إما للبطالة أو للمرض أو الهرم . وما دمنا لم نضع من النظم التأمينية والتعاونية ما يكفل مراعاة هذه الحالات ، ولا سيما أن انتشار روح التعاون والتأمين بين هذه الطبقات قد يكون بطيئاً نظراً لضعف مستواهم الأدبي والفكري ، فيجب أن توضع القواعد الثابتة التي توجب على أصحاب الأعمال والملاك والموسرين بل والحكومة أن تفتدي هذه النواحي حتى تضمن لهم الضروري من شئون الحياة إذا ما أقعدتهم البطالة أو المرض أو الشيخوخة عن العمل .

إذا عنينا بهذه الخطوط الرئيسية للحياة الاجتماعية في مصر ، وصلنا إلى رفع مستوى هذين العنصرين من السكان ، وهما يكونان ٨٥٪ من عدد جميع أصحاب المهن المختلفة في مصر . وبذلك يمكن إعداد جمهور الشعب لأن يكونوا مواطنين صالحين ينتقلون من حالة الخمول والركود الرازحين فيها الآن إلى حالة إيجابية نشيطة ، فيصبحون فعالين في حياة البلاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ويترتب على ذلك أن يصير الجمهور عنصراً صالحاً لاستجابة النداء في الشدائد والملمات ، فنجد منه إقبالا على التجنيد ، وإقبالاً على الاشتراك في أعمال المقاومة في وسائل الدفاع المدني ، وميلا إلى المساهمة في المشروعات العامة والتبرعات الخيرية ، واستعدادا لتنفيذ القوانين والتعليمات تنفيذا صحيحا ، فنقضي على كثير من المخازي التي تقع تحت نظرنا من آن لآخر ، والتي تنشأ من الجهل وانعدام الشعور الصادق بالقومية وبالواجب القومي .

وعلى أثر ذلك يقل التباين بين طبقات الشعب المصري ، هذا التباين الذي اتخذ مظاهر متعددة نحسبها أبدا سرنا والذي لا يوجد له نظير في جميع الأمم المتمدنة .

ويؤدي هذا إلى الرغبة في التعاون بين السكان جميعاً ، فتقل الجرائم التي تنبعث عن الظلم وعن الفاقة وعن الكراهية ، وننتقل إلى حالة أقرب إلى الأمن والدعة مما نحن فيه الآن .

وتصبح مهمة أولي الأمر في إدارة شئون الأمة أقل ثقلا وأيسر مما هي الآن . فستحدث من الأنظمة الاجتماعية ما يتمشى مع الرقي الاجتماعي في هذا العصر ، وتجد من الشعب أداة صالحة لفهمها والعمل بها ومعاونة الحكومة على تنفيذها ، بعد أن رأينا أن كثيراً من المشروعات الصالحة ذات الفوائد الصحية المحققة قابلها السواد بالامتعاض ، وبذلك يمكن بذل ما في الطاقة للتخلص منها رغم فائدتها ، كما رأينا حقوقاً اجتماعية كان إيجادها ضروريا لمسايرة العصر لاقت نفوسا لم تكن قد تهيأت بعد لتقبلها وهضمها فأساءت استعمالها .

وسينظر جمهور المصريين عندما يترقى مداركهم وتتيسر سبل العيش لهم إلى القادة والمفكرين ، نظرة ملؤها الطمأنينة والتعاون والثقة ، نظرة الجيش للقائد ، لا نظرة الطير للصائد .

ابراهيم القطريفي

٢- رأى شوبنهاور
فى التاريخ

للأستاذ على أدهم

أوضحت فى المقال السابق رأى شوبنهاور فى التاريخ ، ويتبين منه أن شوبنهاور يرى أن التاريخ باعتباره وسيلة من وسائل فهم الطبيعة الإنسانية أقل قيمة من الشعر ، وأن التاريخ ليس علماً بالمعنى المتعارف ، وأن محاولة بنائه وإيجاد بداية له ووسط ونهاية محاولة ليست بذات قيمة ؛ فهل يجرد شوبنهاور التاريخ من كل فضيلة وينكر عليه أى فائدة ؟ وماذا بقى للتاريخ بعد أن دحره النقد وغشاه من حظيرته العلم ؟ الواقع أن شوبنهاور عاد فترفق بالتاريخ وعز عليه أن يتركه هكذا مُدَفَّعاً مصدودا ، فرد إليه بعض اعتباره ، وأفسح له مجالا يستطيع أن يعيش فيه موفور الكرامة .

وذلك أنه يقرر أن التاريخ للجنس البشرى بمثابة العقل للفرد ؛ فالعقل يرفع الإنسان عن مرتبة البهائم ولا يجعله محصوراً فى الحاضر محدوداً بالمحسوس ، ويمكنه من أن يرسل نظره إلى الماضى الأوسع آفاقا والأبعد إعراقا . والإنسان حلقة فى سلسلة هذا الماضى ومنه نشأ ودرج ، وبتأمله الماضى يستطيع أن يفهم الحاضر فهما مستقيما ، بل يستطيع كذلك أن يستخرج النتائج عن المستقبل . والحيوانات على خلاف ذلك ، فإن معلوماتها مجردة من التفكير ، ولهذا السبب لاتستطيع الخروج عن نطاق الحاضر . والأمة التى تجهل تاريخها تشبه الحيوانات فى رأى شوبنهاور ، لأنها تظل حبيسة فى الحاضر ؛ وما دامت هذه الأمة لاتعرف تاريخها ولا تصل حاضرها بماضيها فهى لا تستطيع أن تفسر الماضى ، ولا أن تفهم نفسها ، وتعجز كذلك عن النظر إلى المستقبل ، فلا تعرف كيف تواجهه ؛ ولا تصير الأمة شاعرة بنفسها عارفة بوجودها إلا بالتاريخ ؛ فالتاريخ هو الوعى العقلى للنوع الإنسانى ، وهو للأمة بمثابة الوعى المدبر المتصل للفرد ؛ وأى ثغرة فى معلوماتنا التاريخية تعد ثلمة فى وعى الإنسان المتذكر ؛ ونحن عندما نقف أمام نصب من تلك الأنصاب التى بقيت بعد كرور أزمنتها وتصرم حضارتها واندثار معناها وخفاء دلالتها مثل الأهرام والمعابد والمقاصير الأثرية ، يلتبس علينا أمرها ، وتذهلنا الحيرة ، ويطير بلبنا التعجب ، ونشبه الرجل ينهض من نومه ويسير وهو فاقد الوعى عندما يستيقظ فى الصباح ويشاهد ما فعله فى يقظته الليلية اللاشعورية . والتاريخ تصبح الإنسانية كلاً مرتبط الأجزاء موصول الأول بالآخر ، وهذه هى القيمة الحقيقية للتاريخ . ومصدر عنايتنا بالتاريخ هو أنه اهتمام ذاتى بالنوع الإنسانى . وكما أن الأفراد فى حاجة إلى اللغات للتفاهم والتخاطب فكذلك الإنسانية فى حاجة إلى الكتابة والتسجيل للتفاهم وتبادل الأفكار بين الماضى والحاضر ، وبهذه الوسيلة يبتدئ وجودها الحقيقى ؛ فالكتابة تحتفظ للإنسانية بوحدة الوعى ، هذه الوحدة التى يحاول الموت على الدوام أن يقضى عليها ويزيل معالمها ؛ وبهذه الكتابة نستطيع أن نستعيد ما طاف برءوس القدماء من أفكار ، ونجد الدواء لرأب صدع الإنسانية التى يحطمها الدهر من الحين إلى الحين ، ويوزع وعيها الكلى على عدد لا يحصى من الأفراد الزائلين ؛ فالتاريخ يناهض قوة الزمن الدائمة الكر والإسراع ، وبين يديه تقر عواصف النسيان وتتراجع أمواجه ، وهو لايستعين على ذلك بالكتابة وحدها وإنما بالآثار الحجرية كذلك ، والذين شادوا الأهرام ، وأقاموا الأعمدة الحجرية ، ونحتوا قبورهم فى الصخور ، وبنوا المعابد والقصور ، واستنفدوا فى ذلك قوة آلاف البشر لمدة سنين ، لم يحصروا نظرهم فى حياتهم الفردية القصيرة التى كانت لا تمتد حتى تمكنهم من رؤية

نهاية البناء . ومن الواضح أن غايتهم الحقيقية كانت محاولة التخاطب مع الأجيال التالية والاتصال بأعقابهم ، وبذلك تتم وحدة الوعى الإنسانى ، وقد كان الهندوس والمصريون القدماء والرومان يتحرون فى مبانيهم أن تبقى آلاف السنين ، لأن حضارتهم السامية كانت تجعل أفقهم واسعاً رحيباً ، وذلك فى حين أن مبانى العصور الوسطى والعصور الحديثة لم يقصد بها فى الأغلب الأعم البقاء الطويل ؛ ومرجع هذا الاعتماد على الكتابة بعد أن عم انتشارها بابتكار فن الطباعة ، ومع ذلك لا نزال نرى فى مبانى العصر الحديث رغبة حافزة فى محاولة الكلام مع الخلف ، وقد أراد المصريون القدماء أن يجمعوا بين المحاولتين ، محاولة التخاطب عن طريق البناء ورفع النصب ومحاولة التخاطب عن طريق الكتابة والتسجيل ، فكانوا يكتبون على الآثار الحجرية الكتابة الهيروغليفية ، بل كانوا يضيفون الرسوم خشية ألا يفهم الهيروغليف .

هذا هو رأى شوبنهاور فى التاريخ ، وتقديره لدراسته ، وهو على ما به من خير وشر جدير بالنقد والمراجعة ، وقد كان شوبنهاور مدفوعاً إلى حد ما بمنطق فلسفته إلى تنقص التاريخ ، وإلى أن يرى فيه مجرد تتابع الوقائع وتوالى الحوادث التى لا تكشف عن خطة مدبرة ولا غاية منشودة ، ومحاولة إرادة الحياة المجنونة العمياء أن تؤكد نفسها عبثاً وباطلاً .

وقد يبدو لأول وهلة أن الفلسفة التى تبحث إرادة الحياة وتحاول إبراز آثارها ومن بينها الإرادة البشرية ، كان من حقها أن توجه العناية إلى فلسفة التاريخ ، لأننا فى التاريخ نتبين طبيعة الحقائق والمثل التى تحاول الإرادة البشرية خلقها وتحقيقها ؛ ولكن التاريخ فى رأى شوبنهاور متصل بحركة الزمن ، وحركة الزمن عند شوبنهاور شىء ذاتى مثل المكان وسائر المقولات .

وشوبنهاور لا يرى فى التاريخ تطوراً ولا تقدماً ، وإنما مجرد انتقالات ، ولو لمح فيه ترقياً وتطوراً لكان فى ذلك ما يسوغ عنده وجود الألم فى الحياة ، لأن كل انتقال فى الحياة من حالة إلى حالة يصحبه عيوب ونقائص برغم ما قد يكون له من فوائد ومزايا ؛ ومنشأ هذه الآلام المتاعب التى تعانيها الإنسانية على الدوام فى الملاءمة بين نفسها وبين الأحوال المستجدة ، وربما كان التشاؤم فى كثير من الحالات علة من العلل التى تلازم عصور الانتقال ، ولكن شوبنهاور رفض أن يواجه هذه الحقيقة . وعصرنا الحاضر مثلا عصر اضطراب وتقلقل ؛ وقد علل العلامة ماكدوجال هذا الاضطراب بتقدم العلوم الطبيعية وتخلف العلوم الاجتماعية ، ومن ثم عجزنا عن الملاءمة بين أنفسنا وبين الأحوال الحديثة التى خلقها التقدم الصناعى والرقى العلمى ؛ ولكن هذا الاضطراب لن يستمر إلى الأبد ، لأن طبيعة الحياة تأبى ذلك وتحاول فى كل مأزق أن تجد لها مخرجاً ، وليس التاريخ هو مجرد مجهود الإرادة الهوجاء ، وإنما هو محاولة تحديد غاية للحياة الإنسانية وتحقيق مثل أعلى منشود . ورأى أرسطو فى تفضيل الشعر على التاريخ الذى يعتز به شوبنهاور ، ويكثر من التلويح به لإرهاب خصومه وإفحامهم ، هو فى الواقع رأى يعجب الإنسان لصدوره عن مفكر عظيم مثل أرسطو المعروف بصدق نظراته فى السياسة والأخلاق ، وربما كان سببه أن التاريخ الذى كان مكتوباً فى عصره كان جافاً مملا أو ما ذهب إليه اشبنجلر من نقص الحاسة التاريخية عند اليونان عامة .

على أدهم

رجاء إلى حضرات الكتاب

ترجو مجلة « الثقافة » من حضرات الكتاب الأفاضل أن يقدروا ظروف تحديد الصفحات ، فيراعوا الايجاز فى الكتابة ، بحيث لا يزيد المقال على ثلاث صفحات .

٣ - الشـــــعراء النقاد

ربما يكون من الخير — بعد أن لخصنا (فى الثقافة ١٩١ ، ١٩٢) أهم النقط التى أثارها الشاعر «وردسورث» — أن نبين وجهة النظر القابلة التى تولى الدفاع عنها صديقه الشاعر «كولردج» . وليس يهمنا هنا أن نقضى بين الطرفين قدر ما يهمنا أن نوجه التفكير إلى مثل هذه المسائل ذات الصبغة العامة فى الأدب ، وأن نضع أمام الذهن العربى الحديث صوراً أخرى من معالجة قضايا الأدب يضمها إلى ما ورثه أسلافه العرب فى كتب النقد والموازنات من مناهج وأساليب ؛ فقديما بحث نقادنا مزايا السهولة والصعوبة فى الشعر ، واختصموا فى الطائيين «أبى تمام والبحترى» أيهما أصح مذهبا وأهدى سبيلا ؛ وقديما تناول مؤلفونا مسألة القاموس الشعرى الخاص فقالوا : (وللشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلة مألوفة ، لا ينبغى للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها ، كما أن الكتاب اصطلحوا على ألفاظ بعينها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها ....) .

ولموضوعنا الحاضر جانب آخر من الطرافة ، ذلك أن ما تضمنه من النقد صادر عن شعراء ، وإنما يعرف الشوق من يكابده . سأل «عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر» «البحترىّ» — وكان بمجلسه يوما : يا أبا عبادة ، أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : أبو نواس ؛ لأنه يتصرف فى كل طريق ، ويبرع فى كل مذهب ، إن شاء جدّ وإن شاء هزل ؛ ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه . فقال له عبيد الله : إن «أحمد بن يحيى ثعلبا» لا يوافقك على هذا ! فقال : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، فإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه . فقال : وريت بك زنادى يا أبا عبادة ، إن حكمك فى عميك أبى نواس ومسلم وافق حكم أبى نواس فى عميه جرير والفرزدق ، فإنه سئل عنهما ففضل جريراً ، فقيل له : إن «أبا عبيدة» لا يوافقك على هذا ! فقال : ليس هذا من علم أبى عبيدة ، فإنما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر .

***

وبعد فقد رأى «كولردج» أن يقدم بين يدى دفاعه بمقدمة يشرح فيها آراءه فى القصيدة والشعر . ومثل هذا الشرح لا بد أن يتبع — كما يقول — المنهج الفلسفى الذى يقوم على دعامتين من التحليل والتركيب ، فلكى تكوّن فكرة واضحة عن حقيقة ما يجب — أولا — أن تفصل أجزاءها القابلة للتمييز — وهذه هى الخطوة العملية فى الفلسفة ، ثم تتبع ذلك بأن تحاول رجع هذه الأجزاء مرة أخرى إلى وحدتها التى توجد عليها . وتلك نتيجة الفلسفة .

إن القصيدة تحتوى نفس العناصر التى يحتويها التأليف النثرى ، وإذاً فليس الفرق بينهما إلا فى كيفية جمع تلك العناصر معا تبعاً لهدف مختلف ، وعلى حسب الفرق فى الهدف يكون الفرق فى التأليف ؛ فمن الممكن مثلا أن تؤلف تأليفاً منظوما يكون الغرض منه مجرد إعانة الذاكرة على حفظ مجموعة من الحقائق أو الملاحظات بنوع من الترتيب السطحى ، وأن تسمى التأليف الناتج قصيدة لمجرد أنه يختلف من النثر بالوزن أو التقفية أو بهما معاً . وفى هذا المعنى — وهو أحط المعانى — نستطيع أن نطلق اسم قصيدة على الضوابط المعروفة (بالانجليزية) لأيام الأشهر ، [ومثلها فى ذلك ضوابط العربية ومتونها] . وبما أن هناك لذة خاصة فى توقع تكرار الأصوات والكميات ، فإن كل تأليف يحتوى هذا العنصر الجذاب يصح — مهما كانت محتوياته — أن يسمى من حيث الشكل السطحى قصيدة ، ولكننا نستطيع أن نميز بين أنواع التأليف بعضها وبعض من حيث الهدف والمحتويات أيضاً : فتارة يكون الهدف

الباشر إيصال الحقائق ، سواء أكانت حقائق قطعية قابلة للبرهان كأعمال العلم ، أم حقائق جرت وسجلت كما في التاريخ . وقد يقترن بتحقيق هـذا الهدف نوع من أسمى أنواع اللذة العقلية ، ولـكن إيصاله ليس الغرض المباشر ؛ وتارة يتجه التأليف إلى إيحاء اللذة ، وينجح في ذلك نجاحا كبيراً ، دون أن يكون موزوناً أو مقفى ، كما في القصة والرواية .

فهل مجرد إضافة الوزن مع القافية أو بدونها يسمح لمثل هذه الكتابات أن تسمى قصائد ؟ إنه لا شيء يحدث لذة دائمة إلا إذا احتوى في نفسه سرّ هذه الخاصة ، وإن تحقيق لذة سامية دائمة لا يجيء من مجرد إضافة الوزن ، وإنما يجيء حيث يكون لكل جزء في العمل الفني نصيبه في بناء اللذة المشتركة ، وحيث تكون الأجزاء متناسقة معا تناسقا يبرر الانتباه الخاص لكل منها ، واللذة المتكررة بتكررها مع النغم الموزون ، بجانب اللذة العامة الحاصلة من تآلفها جميعاً .

وإذاً فمن هذه الاعتبارات يصح أن نصور التعريف التالي للقصيدة ، فنقول : « القصيدة هي ذلك النوع من التأليف الذي يخالف الأعمال العلمية في أنه يتخذ إيصال اللذة — لا تقرير الحقيقة — هدفه المباشر ، والذي يتميز من بقية أنواع الكتابة التي تشترك معه في هذا الهدف بأنه يرمي إلى تحقيق لذة عامة تصدر عنه باعتباره وحدة متماسكة ، وتمشي ونشوات الارتياح الخاصة التي تصدر عن كل جزء من أجزائه » .

فالقصيدة المشروعة — إذاً — هي التي يشد بعض أجزائها بعضاً ويفسره ، كلٌّ يقوم بنصيبه في بناء الهدف العام للتأليف المنظوم ، ويتناسق وإياه . ولقد أجمعت كلمة النقاد الفلسفيين في كل العصور — متفقين في ذلك والحكم العام في الأقطار كافة — على أن شرف هذا الاسم (قصيدة) ينبغي ألا يخلع على نوعين من التأليف ينسبان خطأً إلى القصيدة : أحدهما سلسلة من الأسطر المنظومة أو الأبيات يستقل كل منها بانتباه القارئ جميعه ، وينفصل في السياق حتى يصبح وحدة منفكة ، لا عنصراً منسجما ؛ والثاني تأليف مهلهل يمر عليه القارئ مراً سريعاً ويجمع منه النتيجة العامة ، دون أن ينجذب إلى عناصره المكونة له أو يعطي كلا منها نصيبه من الانتباه . وإذاً يجب أن تكون القصيدة بحيث تحمل القارئ معها إلى الأمام ، لا بمجرد الدافع الآلي للاستطلاع ، ولا بمجرد الرغبة الملحة في الوصول إلى النتيجة النهائية ؛ ولـكن من طريق النشاط البهيج لعقل بلذ ما في الرحلة نفسها من طرائف وآثار ؛ يجب أن تكون حركة القارئ مثل حركة الحية التي اتخذها المصريون رمزاً للقوة الذهنية ، أو مثل حركة انتقال الصوت في الهواء ؛ يجب أن تكون بحيث يقف القارئ عند كل خطوة ، أو يتراجع إلى الوراء قليلاً ، ليجمع من تلك الحركة قوة تحمله مرة ثانية في سيره إلى الأمام .

هذا الإصرار من جانب « كولردج » على تناسق أجزاء القصيدة وارتباط عناصرها معاً رباط لا ينفصم ، يتفق والفكرة المجمع عليها في النقد الغربي عن وحدة العمل الفني . وفي نظري أن هذه النقطة — وكثيراً غيرها من دراسات الفن — لم تبحث إلى الآن — من وجهة النظر العربية — بحثاً شافياً . وقد تنبه لها كتابنا الأقدمون — مثل ابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني — كما تنبه لها بالضرورة نقادنا المحدثون ؛ ولـكنها لا تزال بعد في حاجة إلى بحث شامل ؛ فكثير من المستشرقين — وبعض المستغربين — يتهمون القصيدة العربية بخلوها من صفة الوحدة الفنية ، وهو اتهام ينبغي ألا يترك مسلطا على نواصي الشعر العربي دون جلاء وتحقيق . ولعل لنا — أو لغيرنا — عودة إلى هذا الموضوع .

بعد أن شرح « كولردج » صفات القصيدة الجيدة بقي عليه أن يبحث : ما هو الشعر ؟ وما الشاعر ؟

إن كتابات « أفلاطون » و « تيلور » وأشباههما ، ولغة الكتاب المقدس في بعض فصوله ، تعدّ براهين — لا تقبل الشك — على أن شعراً من أسمى طراز يمكن أن يوجد بلا وزن ولا قافية ، ويمكن أن يوجد حيث الهدف المباشر تقرير الحقيقة لا إعطاء اللذة . وإذاً فإنا معنى خاص أعطيناه للشعر (وسيتحدد معنى الشعر عندما نصور صفات الشاعر الفاضل ، فالسؤالان مرتبطان تمام الارتباط) فإنه يحمل في طيه نتيجة لازمة هي أنه ، في أية قصيدة ذات طول ، لا يمكن — ولا ينبغي — أن تكون كل أجزائها من الطراز الشعري السامي . غير أننا من جهة أخرى ملزمون إلزاماً فنياً أن نجعل من القصيدة وحدة متجانسة ؛ فلا بد لنا — إذاً — من أن نعمد إلى الأجزاء غير الشعرية في القصيدة فنجعلها تلائم الشعر وتنسجم وإياه انسجاما ، وذلك لن يكون إلا باختيار وترتيب مقصود يقوم به الخاطر بتوجيه من الذهن والإرادة ، حتى يتحقق اشتراك العناصر في خاصية لا بد من توفرها في كل ما هو شعري — وإن كانت غير مقصورة على الشعر — وهي إثارة مقدار من الانتباه أو الاهتمام المستمر الموزع توزيعاً متناسباً ، في صورة يقصر دونها النثر حديثاً أو كتابة .

إن الشاعر — في صورته المثالية — يثير النشاط في النفس الإنسانية كافة ، ويخضع ملكاتها بعضها لبعض حسب أهميتها وشرفها ؛ وهو ينفث روحاً من الوحدة تؤلف كلاً إلى كل وتجمعه ؛ وعدته في ذلك تلك القوة التركيبية السحرية التي نطلق عليها اسم الخاطر أو الخيال . هذه القوة — التي يدفعها الفهم والإرادة إلى العمل ، ويتولاها بالتوجيه الحازم المستمر الرفيق — تكشف من نفسها في حفظ التوازن وفي التوفيق بين الكيفيات المتعارضة أو المتباينة ؛ فتجمع المتشابه إلى المختلف ، والمعنوي إلى الذاتي والفكرة إلى الصورة ، والفردي إلى العام ؛ وتؤلف بين الجديد الطريف والقديم المألوف ، بين حالة غير عادية من الانفعال ، ونوع غير عادي من الضبط والنظام ، بين الحكم اليقظ الواثق ، والحماسة المتدفقة العميقة ؛ وهي إذ تمزج الطبيعي والمصنوع وتنسقهما معاً ، لا تزال تخضع الفن للطبيعة ، والطريقة للمادة ، وإعجابنا بالشاعر لتأثرنا الوجداني بالشعر .

هذا — إذاً — مجمل رأي كولردج في القصيدة وفي الشاعر ، وعليه ينبني نقده — الذي سنلخصه بعد — لنظرية صديقه . وقد رأينا قبل كيف أكد « وردسورث » في الشاعر جانب الحساسية ، وتقليد الطبيعة والإنسان ، والقدرة على التعبير عن الأفكار والأحاسيس في لغة تقرب من لغة الناس . وهنا نرى كيف يضع « كولردج » إصبعه على العبقرية الشعرية نفسها تلك التي تعمر عقل الشاعر أولاً وتكيف تصوراته وأفكاره وانفعالاته ، ثم يتجلى سحرها بعدُ في خلق وحدة فنية تبهرُ بمجموعها كما تسرُّ بأجزائها ، وتثير عند القارئ أو السامع انتباها مستمراً متوازناً ، لا تسمو إلى إنتاج مثله لغة النثر في حديثه أو كتابته .

« إن الحكم السليم هو جسد العبقرية الشعرية ، والتخيل لبوسها ، والحركة حياتها ، والخاطر (أو الخيال المتصرف) روحها الذي يحيا في المجموع وفي الأجزاء ، والذي يؤلف من شتيت العناصر نظاما واحداً أنيقاً مبينا » .(*)

(للكلام بقية) **محمد خلف الله**

(*) "Finally, good sense is the body of poetic genius, fancy its drapery, motion its life, and imagination the soul that is everywhere, and in each ; and forms all into one graceful intelligent whole".

كتب وشخصيات

لم أكن أود أن أعرض لهذه القصة المحزنة ، لولا أن عرض لها الأستاذ « قاف » بالثقافة . كنت أشفق من عرض مأساة الضمير الأدبي في الصحف ، ومن تشكيك القراء في هذا الضمير ، ومن تبديد الهالات التي تحيط بصحافة الأدب ، هذه الصحافة التي تخاطب أولئك القراء من فوق منبرها ، وتطلب إليهم أن يثقوا في ضمائرنا ، وأن ينتفعوا بآرائنا الصادرة عن هذا الضمير !

ولكن الأستاذ « قاف » لم يشفق هذا الاشفاق فأشار إليها . إذاً فليسمع القراء تفصيلات القصة :

كنت قد تعاقدت مع قراء « الرسالة » على أن أكتب لهم ثلاثة أبحاث : أولها عن « العقاد » بمناسبة كتابه « عبقرية محمد » والثاني عن « توفيق الحكيم » بمناسبة كتابه « بجماليون » والثالث عن « طه حسين » بمناسبة كتابه « دعاء الكروان والحب الضائع » .

ونشرت الرسالة بحثي عن العقاد . وجاء دور « توفيق » فقضيت معه أسبوعين كاملين درست فيهما جميع ما كتب دراسة دقيقة . وتنتهي هذه الدراسة الشاملة إلى أمر . . .

إن أدبنا الحديث قد نهض نهضته فأصبحت المكتبة العربية تشتمل الآن جميع الأبواب : فيها أدب المقالة والبحث ، وأدب القصة والرواية ، وأدب السيرة والترجمة ، وأدب البحث التاريخي ... ولكن باباً واحداً ينقصها وهو أدب النقد .

لقد وجدت مقالات متفرقة في نقد « الكتب » ، ولكن لم يوجد شيء في نقد « الأدباء » وأعني تقويم كل أديب ووزنه في مجموعة أعماله واستخلاص طبيعته وأسلوبه ووضع مفتاح شخصيته في أيدي قرائه .

ماذا يساوي كبار أدبائنا بالضبط ؟ ماذا يساوي العقاد وطه وتوفيق وهيكل والمازني وسواهم من كبار الأدباء ؟ إنهم مشهورون ، ولكن ما هي طبائعهم ؟ ما هي شخصياتهم ؟ ما طريقتهم ؟ كل ذلك لم يكشف عنه أحد .

وكتبت عن « توفيق » بحثاً مركزاً جد التركيز يكشف عن طبيعته وطريقته وأدواته الفنية . وأومضت في نفسي فرحة كبيرة وقد انتهيت من هذا الفصل فإذا توفيق الحكيم شاخص مجسم بكل ما فيه . وكان ذلك كله فيما يملأ أربع صفحات من الرسالة ، وبعثت به إليها ، وأنا أضمر أن أتناول كل أديب كبير في البلد بمثل هذا الأسلوب !

ولكن وا أسفاه !

لقد وقعت الجفوة في هذه الأثناء بين الرسالة وبين توفيق الحكيم ! ! وأنا غافل عن هذا ، أحسب أن التعاقد الذي بيني وبين القراء كان كذلك بين الرسالة وبينهم . وأحسب أن الأمر ليس أمر توفيق ، بل هو أمر الأدب والضمير الأدبي !

حلم جميل ! ومتى صحت الأحلام ؟

إن الرسالة إذاً لتعلل في الأسبوع الأول بأن المقال وصل متأخراً عن موعده ! أوَ لو كان قد وصل في الميعاد الذي اعتدت إرسال مقالي فيه ؟ أجل !

وإن الرسالة لتعلل في الأسبوع الثاني بأن المقال طويل ! أوَ لو كانت « الرسالة » تنشر — وقد نشرت منذ قليل — مقالات أطول في موضوعات لا ترتفع على هذا الموضوع ؟ أجل !

وما تعودت الرسالة من قبل أن تتعلل على ما يكتبه هذا القلم ، ولكنها الجفوة بينها وبين توفيق الحكيم ! أوَ لو كان حظ توفيق من الكتابة لا يزيد على حظ الأدب ؟ أوَ لو كان توفيق من كتاب الرسالة والرواية الذين قمنا على أكتافهم ؟ أجل !

تلك هي قصة « كتب وشخصيات » أو قصة الضمير الأدبي للصحف التي هي سجلات الأدب العربي !

سيد قطب

العقـــــار

٣ — العَقَّار بالفتح

العَقَّار ، كشدّاد ، بفتح الأول وشد الثانى المفتوح ، وردت فى لسان العرب فى مادة (ع ق ر) قال : « العَقَّار والعِقْير (وضبط الأول ضبط قلم كجَبّار ، وضبط الثانى كَبِكْيت) ، ما يتداوى به من النبات والشجر . قال الأزهرى : العقار الأدوية التى يستمشى بها . قال أبو الهيثم : العقار (وضبطت بالفتح) ، والعقاقر (كذا ، والصواب : والعقاقير) : كل نبت مما فيه شفاء . قال : ولا يسمى شىء من العقاقير فوهاً ، يعنى جميع أفواه الطيب إلا ما يُشمّ وله رائحة . قال الجوهرى : والعقاقير : أصول الأدوية . والعُقَّار (وضبطت كرُمّان) : عشبة ترتفع قدر نصف القامة ، وثمره كالبنادق . . . » .

وفى القاموس للفيروزابادى — وفى كل معجم منقول عنه من المعاجم الحديثة — « العَقَّار ، ككَتَّان : ما يتداوى به من نبات أو أصولها (كذا . ولعل الأصل : أو أصوله) والشجر ، كالعِقْير ، كَبِكْيت ، وبالضم (أى عُقَّار) عشبة ... » .

والمعاجم المنقولة عن القاموس كثيرة ، ولا نود أن نذكر منها شيئاً ، لأنها صور مطابقة للأصل ، ولا فائدة فى الاستشهاد بها ، ولا نذكر أيضاً أقوال المستشرقين ، لأنهم — وإن أمعنوا فى العربية — يغرقون فى نطفة ، فكيف فى بحر عجاج كبحر العربية الفياض الذى لا ينكش ولا يُكَشكَش ! — فنجتزئ إذاً بهذه الإشارة ، تفادياً من إتعاب القراء ، حفظاً لصحتهم وضناً بوقتهم !

٤ — من أين جاءنا العَقَّار ، بالفتح ؟

مرّ بنا أن أقدم نص ورد عند العرب الفصحاء ، هو العُقَّار ، بالضمّ أى كرُمان . أما العَقَّار ، بالفتح كعَطّار ، فمتى نشأ أو وجد فى اللغة ؟ — قلنا نشأ بعد المائة الثانية للهجرة بكثير ؛ وقد يكون فى عهد صاحب لسان العرب ، المتوفى سنة ٧١١ ، أو فى عهد صاحب القاموس ، المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة . — أما كيف جاءنا ؟ فنظن أنه نشأ من قراءة نص القاموس ؛ فقد جاء فى هذا المعجم : « العقار ، ككتان . . . » وأما صاحب اللسان فإنه لم يذكر له وزناً من الألفاظ العدائية الشائعة المعروفة عند الناطقين بالضاد ؛ فظن المؤلف أن فى شهرة الكلمة والنطق بها ما يغنى عن ذكر وزن لها . وهذا كثيراً ما يفعله هو وجماعة من اللغويين . ومن يراجع بعض مواد اللسان والقاموس والصحاح وأساس البلاغة يتحقق الأمر ويلق فيه ما يقنعه .

أما كيفية الانتقال من لغة فُعَّال المضموم إلى لغة فَعَّال المفتوح ، أى من قول عُقَّار إلى قول عَقَّار ، فهو أن الفيروزابادى ذكر الكتان وزناً للعقار ، والكُتّان هنا بالضم والشد ، لا بالفتح والشد ، والكُتّان بالضم اسم دويبة خبيثة الرائحة تلسع الإنسان لسعاً أليماً ، وهى المسماة اليوم فى اليمن وديار مصر (بالبَق) ، فقرأها كثيرون (الكتان) بالفتح ، كشدّاد . فاستشهاد المجد بوزن الكُتّان بالضم ، من الاستشهاد باللفظ الغريب ؛ وكان عليه أن يزنه بالرمان أو الزنار أو التفاح . فهذه الغرابة فى ذكر الميزان حملت القراء على قراءة العقار كشداد أو جبار أو عطار .

والفيروزابادى كثيراً ما يُغرب فى أقواله وأوزانه وشروحه ، حتى فى عنوان معجمه ، ألم يسمه (القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، فيما ذهب من لغة العرب شماطيط) ؟ .

ومن غرائب شروحه أن يعرف المِبْرد ، وهى الآلة المشهورة التى فى أيدى النجارين والحدادين بقوله فى مادة (ب ر د) : « المبرد : السوهان » . وهو لم يشرح لنا

الســوهان فى ديوانه . والـكلمة فارسية معناها الآلة المذكورة ، فـكم من عيب فى قوله هذا ؟ فالعيب الأول أنه فسر معروفاً بمجهول ، والعيب الثانى أنه شرح لفظاً عربياً فصيحاً صحيحاً بأعجمى يحط من قدر العربى ، إذ يفضل الفارسى على العدنانى . والثالث أنه لم يشرح لنا فى ديوانه كله معنى المبرد ، بأى صورة من الصور . فأى منفعة من هذا البحر المحيط أو القاموس المحيط ، وهو لا يحيط بتعريفنا آلة صغيرة هى المبرد ؟ أفهذا قاموس وسيط ، فيا ذهب من لغة العرب مخاطيط ؟ — والعيب الرابع أنه شرح لفظاً خفيفاً بلفظ أثقل من جبل حمرين .

ومن غرائبه أيضاً أنه فسر المحسة بالفرجون . وهذه كلة أرمية أو نبطية . وأول السبح بالبلاس . وهذه فارسية . ولو أردنا أن نورد كل ما جاء من هذا القبيل ، لأحرجنا صدر القارئ كل الإحراج .

وهل نعجب بعد ذلك من أن نراه يستعمل (الـكُتان) بضم وشد وزناً لعقار ؟ — ونضيف الى ذلك أن نسخ القاموس يختلف بعضها عن بعض فى تقييد (الـكتان) فى هذا الموطن . فنها ما تضبطها كشداد ، وهى جميع المطبوعات ، لأن الـكتان اشتهر عند الناس كجبار وشداد . ومنها ما تضبطها كرمان وزنار ، وهى بعض النسخ الخطية وعندنا منها ثلاث . اذ بذلك اهتدينا الى الحقيقة التى تبدو معقدة فى أول نظرة لها ، مع أنها خالية من كل عقدة وعجرة .

٥ — الخلاصة : العُقّار بالضم هى الفصحى ، وأصح اللغات

يظهر مما بسطناه بين يدى القارئ أن أفصح اللغات هى العقار ، بضم الأول وشد الثانى . لأنها أقدم اللغى وأوثقها ، وأثبتها رواية ونصاً صريحاً . وأصحابها : العين والزمخشرى ومحر الجواهر والفارابى . وأمثال هؤلاء الثقات الأثبات الذين ذكرنا تآليفهم ونصوصهم .

وأما العقار بالفتح والشد فرواية ضعيفة ، لـكنها لا تنبذ ، لشهرتها وورودها فى بعض الدواوين .

البطريك والبطريق

والفرق بينهما أصلا واصطلاحا

سأل حضرة الدكتور زكى مبارك فى مجلة الرسالة فى ١٠ : ٧١٥ عن أصل البطرك والبطريق فنقول :

البطرك ، وفيه لغات ، منها : البطريرك والبطريك والفطرك والفطريرك والفطريك ، والذين يستعملونها هم أصحاب اللغة الأرمية (النبطية) ؛ وأما الألفاظ الثلاثة الأولى ، فالناطقون بالضاد ولادة ونشأة ، وكل هذه اللغات الست وهناك غيرها ، واردة فى كتب النصارى ، من أقدمين ومحدثين . والـكلمة واحدة فى الأصل هى البطريرك اليونانية الوضع من Patrikrchés المنحوتة من Patria أى رأس وأصل وبلد و Archia أى أمر وحكم . وقد وردت اللفظة فى التوراة فى الترجمة اليونانية ، قبل ميلاد المسيح ، وأريد بها : رئيس الأسرة أو أكبرها . وبهذا المعنى قالت العرب : الأب الأكبر أو رأس العشيرة .

وأما البطرك أو البطريرك بالمعنى الحديث النصرانى ، فيراد به الرئيس الأكبر فى الدين ، أى الرئيس الذى يكون فوق المطارنة . وكان عدد البطاركة فى صدر النصرانية خمسة ، ثم صار عددهم مع الزمان ثلاثة عشر فى الـكنيسة الـكاثوليكية . والخمسة الأولون هم بطريرك رومة ، أو بطرك الغرب ، ويسمى البابا من باب الاطلاق ، وهو أكبر البطاركة الخمسة ، وله يخضعون إن كانوا متحدين به ، وهم : بطرك انطاكية ، وبطرك الاسكندرية ، وبطرك القدس ، وبطرك القسطنطينية . والأول هو الذى يعين الأربعة الآخرين ، إن كانوا من الـكاثوليك . وإلا فهناك بطاركة غير كاثوليك وطائفتهم هى التى تعينهم . وهؤلاء البطاركة هم : بطرك القبط ، وبطرك الروم ، وبطرك

الأرمن ، وبطرك النساطرة ، وبطرك اليعاقبة ، الذين يسمون أنفسهم سُرياناً خلافاً للتاريخ الموثوق به .

واليوم يبلغ عدد البطاركة الكاثوليك ثلاثة عشر ، ولا حاجة لنا إلى ذكرهم ، فليس المقام مقام دين .

وأما البطريق فمن اللاتينية Patricius ، وهي مشتقة من Pater أي أب ، وهو من الألقاب التي اتخذت في الامبراطورية الرومانية ، وأول من وضعها في تلك الديار ، قسطنطين الملك ؛ ثم أطلقها خلفاؤه على أعاظم أعوانهم في الدولة .

وقد ميز كتاب العرب بين البطريك والبطريق ، ولا سيما المؤرخون منهم ؛ لكن ثم من خلط بينهما ، فلم يتمكنوا من معرفة الفرق بينهما ، لقصور كتب اللغة في شرحهما . والله تعالى الهادي إلى الصواب .

(بغداد) **الأب أنستاس ماري الكرملي**

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

أم معاوية

البنود خافقة والسيوف مشرقة والرماح مشرعة ، وعصَبات المؤمنين ملحة بالتكبير والتهليل ، يتردد صداها بين الحرمين ، وأباطح « بدر » تموج بصناديد قريش وأبطال المسلمين ، فلما التقى الجمعان علا مثار النقع رءوسهم والتمعت فوقها الأسياف كالنجوم الشهاوية ، وسالت الحراب بالدماء المسفوكة ، وهي تمعن في الغزاة الفاتحين طعناً وتنكيلا ، ثم أسفرت معركة « بدر » عن الشهداء والضحايا وفيهم عتبة بن أبي ربيعة من غطاريف قريش وسادتهم ، وفيهم أخوه شيبة وبكره الوليد ، وكانت هند بنت عتبة مع نساء قومها يتممن الهمة ويورثن الحمية والنخوة ، وفيهن فوج مقتحم من الأواسي المسعفات معهن مزاود الماء والطعام ولفائف الجروح والكسور ؛ هنالك أبصرت هند أهلها الأقربين ما بين صريع وطعين ، فهالها الخطب الفادح وآدها المصاب الجسم ، فراح معها زوجها أبو سفيان يوقد الفتنة ويثير الأحقاد ، ويحث قريشاً على الصمود والانتقام ، ثم انصرفت هند وقد جاش الشعر بخاطرها ، وفاض شعورها الحزن في رثاء أبيها وتعداد مناقبه حتى قالت :

لله عينا من رأى ... هلكاً كهلك رجاليَه
يا رب باكٍ لي غداً ... في النائبات وباكيه
قد كنت أحذر ما أرى ... فاليوم حق حذاريه
يا رب قائلة غداً ... يا ويح أم معاويه ... !

ولكن هنداً ما اكتفت بهذا الرثاء ، ولا اشتفت من حزنها بالبكاء ، بل بقيت حرّى الكبد مُلَوَّعة القلب ، وهكذا انهزمت عشيرتها وعادت بقاياهم بالخزي والعار ، فكان في كل بيت من بيوتهم مناحة لقتيل أو عيادة لجريح ، وقد تنتهي المناحات وتلتئم الجراحات وتبقى حزازات النفوس كما هي ، فما اطمأنت لقريش قلوب ولا هدأت نفوس ، ولا ارتفعت رءوس .

ويأتي موسم عكاظ وهو سوق المفاخر والمآثر عند العرب ، كان يكاثر فيه بعضهم بعضاً بالرزايا والخطوب ، فتنشد الأشعار وتعقد مجالس النقد والتفضيل ، ففي عام « بدر » علمت هند بنت عتبة أن الخنساء السلمية تعاظم العرب بمصيبتها ، وأنها ستحضر الموسم وقد سومت هودجها براية ، فقالت هند : أنا أعظم من الخنساء مصيبة ، وأمرت بهودجها فنصب العلم فوقه لتوافي نديدة لها بعكاظ ، وهناك أنشدت العرب مراثيها في أهلها ، فكانوا يتدافعون بالمناكب حولها وهي ترجو أن لا يفوتها مشهد الخنساء ، فلما اقتربت هذه المفجوعة منها سألتها : من أنت يا أخية ؟ قالت : أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ! وقد بلغني أنك تعاظمين العرب بمصيبتك فبم تعاظمينهم ؟ قالت الخنساء : بعمرو بن الشريد وأخويَّ صخر ومعاوية ! وبم

تطاولين أنت ؟ فأجابت هند : بأبي عتبة بن أبي ربيعة وعمي شيبة وأخي الوليد !

فقالت الخنساء :

أبكي أبي عمراً بعين غزيرة قليل إذا نام الخلي هجودها
وصنوي لا أنسى معاوية الذي
له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً ومن ذا مثل صخر إذا غدا
بساهبة الأبطال قباً يقودها
فذلك يا هنـــد الرزية فاعلمي
ونيران حرب حين شب وقودها

وأجابت هند :

أبكي عميد الأبطحين كليهما
وحاميها من كل باغ يريدها
فذا عتبة الخيرات ويحك فاعلمي
وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب
وفي العز منها حين ينمي عديدها

وبقيت نفوس العرب ظمأى إلى الأخذ بالثأر وإدراك الأوتار، حتى عاد سجال الحرب بين الحق والباطل، فتنادت قريش إلى الجبل الأحمر، إلى شعاب «أحد» لقتال المسلمين، فتألب الثائرون وتوالب الموتورون، فأثخنوا الجراح وأسرفوا في سفك الدماء، وأطلت هند بنت عتبة في موكب النساء، وهن يضربن الدفوف ويهتفن بالأبطال، فانفرجت لها ولهن الصفوف، وكن معولات مولولات، ولرجالهن مهددات منشدات :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
مشي القطا البارق المسك في المفارق
والدر في المخانق إن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق
عرس المولى طالق والعار منه لاحق

ثم رددن في هزة وحماسة :

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الديار
ضرباً بكل بتار

فكانت هذه الأهازيج الصارخة أنفذ في قلوبهم وأحرق في نفوسهم من ضرب الحسام، فطفقوا يكرون ويفرون، ويقبلون ويدبرون، حتى كان لهم الغلاب وشفاء حزازات النفوس. أما هند الثائرة الوالهة فقد جالت بينهم ودارت مهتاجة كاللبؤة تتربص الشر بالبطل المغوار حمزة بن عبد المطلب، لأنه هو الذي قتل آلها في غزوة «بدر» فأرسلت إليه وحشياً لكي يقتاله على حين غفلة ؛ وكان حمزة رضي الله عنه من صناديد المسلمين يهد إلى مقاحم النضال، ذياداً عن الدين وحياطة للرسول الأمين، فلما أغرت هند به وحشياً وأوغرت صدره عليه أبلى بلاءً منكراً، ولما مكنت له الخديعة، وواتته الغفلة، رمى حربته الماضية فأصابت مصرع حمزة، واستعجل غيره من الأعداء، فأجهز على القتيل بالطعن الوبيل، حتى همد، وإذ علمت هند وثبت صوب الصريع كالأفعى، فبقرت بطنه واستلت من أحشائه الكبد فلاكتها ثم لفظتها، وأكبت عليه وهو مضرج بدمه فصلمت أذنه وجدعت أنفه، وأقبل من ورائها زوجها أبو سفيان فأمعن رمحه في فم الشهيد حتى هتمه ثم هشمه، وعادت هند إلى قومها بعد أن مثلت بحمزة وقد تشفت نفسها بالثأر، ونقعت غليل كبدها بإدراك الوتر، فقالت تعير الأنصار بهزيمة «بدر» وتعلن شفاء نفسها من الحقد والغيظ في غزوة أحد :

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة من صبر
ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري
شفيت وحشي غليل صدري

فشكر وحشي على عمري   حتى رمّ أعظمي في قبري

أما وحشي هذا فكان عبداً لجبير بن مطعم القرشي ، وقد ضاق بحياة الرق عند مولاه ، فعرض عليه أن يشتري منه حريته بقتل حمزة عم النبي لأنه قتل طعيمة بن عدى عم جبير في غزوة بدر الكبرى ، فرضي وحشي الحبشي بهذا الثمن ، إذ كان أهون عليه من ذل الرق وخنوعه ؛ ولما اشترى حريته فقدها ، إذ أيقن أنه مقتول إن ظفر به أنصار محمد ، فلم يجد مأمناً من خوفه ولا راحة من قلقه حتى تراءى إليه أن الإسلام يعصم دمه وأن محمداً لا يثأر ممن يأتيه مؤمناً بالله ، فيسارع وحشي إلى مجلس النبي نادماً مستغفراً ، فيعفو عنه الرسول ، ولكنه لا يعفو هو عن نفسه ، فيستعين على ندمه وألمه بالخمر لكي ينسى فيشقى . وبعد فلئن استهجنا الفتك والتنكيل من عبد رقيق استباح الدماء من أجل حريته ، فإننا لنفظع جريمة التمثيل بعم النبي صلى الله عليه وسلم من هند بنت عتبة . ولعمري إن هذه الفظاظة المنكرة ليست من شيم المرأة وهي الرقيقة عاطفة وطبعاً ، الوديعة نفساً وشعورا ، ولكنها وحمية الجاهلية ودعوتها وسعير الضغينة والبغضاء . ما استطاعت هند على الثأر كتما ، ولم تصبر على ما أصابها ، لأن الإيمان لم يفض على قلبها برد العزاء وأمل الثواب .

وكانت لقريش في « أحد » صولات ظافرة ، وكان لدعوة الإسلام في هذه الملحمة الحمراء شهداء أبرار أنعم الله عليهم بالخلود ، فلما وضعت هذه الوقيعة أوزارها ، بادر المسلمون إلى الضاحية المصبوغة بحمر الدماء ، المفروشة بجثث الأبطال ، ليلتمسوا هنالك قتلاهم ويتفقدوا جرحاهم ، ووقف رسول الله بجثمان عمه حمزة ، واجماً محزوناً ، وقد جاءت عمته صفية حول أخيها الصريع ، فأوصاها بالصبر والاحتساب ، ثم أمر أن يهدر دم هند جزاء تمثيلها بسيد الشهداء ، وبعد ملاوة من الزمان استراحت هند من الأحزان لخاصمتها الندامة والتوبة ، وشرح الله صدرها للإسلام فجاءت النبي مبايعةً مقنعة قائلة : يا رسول الله ، أحمد الله الذي أظهر الدين لتنفعني رحمتك ، يا محمد قد آمنت بالله وصدقت رسوله . ثم كشفت القناع عن وجهها وقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله : مرحباً بك ياهند ! فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من خبائك . ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من خبائك !

ورجعت هند من لدن محمد إلى بيتها عامرة القلب بالإيمان ، مثقلة العنق بعفو الرسول ورحمة الدين ، إذ علمت أن إسلامها قد يغفر لها ما تقدم من ذنبها . فانطلقت إلى معبودها المصنوع ، إلى صنم كانت في جاهليتها تدعوه فلا يستجيب لها ، فجعلته حطاماً جذاذاً وقالت : كنا منك في غرور . . . ! وفاض في قلب هند ينبوع الإيمان ، فغسل أرجاءه من أوضار الجاهلية ، وأسعد الله المرحلة الأخيرة من عمرها بالإسلام ، حتى ماتت في خلافة عثمان رضي الله عنه .

دمشق   وداد سكاكيني

ما يكون فى الهند

الهند أغنى مستعمرات بريطانيا وأكثرها سكاناً ، وأعظمها أهمية وأجودها صناعة ، إذ تسمى ألمع درة فى التاج البريطانى ، لها مساحة هائلة تقدر بـ ٥ ملايين كيلو متر مربع ونفوسها ٣٥٠ مليون نسمة تقريباً معظمهم بوذيون وهندوس وبراهما ؛ وهناك يوجد أكثر من ٧٠ مليون مسلم ، وكلهم يعيشون على ضفاف نهر السند ... أما الهندوس الذين يعيشون هناك فينقسمون إلى أربعة أقسام :

١ — الكهان : ويكونون محترمين من جميع طبقات الهندوس ، وهم الذين يصدرون الأوامر الدينية .

٢ — طبقة التجار : وهم الذين يشتغلون بجميع تجاراتهم .

٣ — طبقة الأشراف : ويكونون مثل الكهان ومثل التجار تقريباً .

٤ — طبقة الأنجاس : وتكون هذه الطبقة محتقرة ومكروهة من جميع الهندوس ! .. والغريب عنهم أنه إذا وقع ظل أحد منهم على رجل آخر يذهب فى تلك اللحظة مسرعاً إلى النهر لكى يزول منه أثر ظل ذلك الرجل .

الهند شبه جزيرة واقعة على خط مدار السرطان ، وهى شديدة الحر فى الجنوب ومعتدلة فى الوسط والشمال ... وتسقط بها الأمطار الهائلة طول السنة وخاصة فى الصيف ، ويهطل معظمها فى الشمال ؛ ولذلك — تكونت هناك بقاع واسعة خصبة كثيرة الخيرات ... سقط مرة فى الهند مطر لا يتصوره العقل ، فهى أكثر بلاد فى العالم تسقط فيها الأمطار بعد جزيرة جاوة ، ولذلك فقد أنشئوا بيوتاً من رخام صلب جداً وقاية من هذا المطر المرعب .

الهند بلاد غنية بالمزروعات ، فهناك تزرع أعظم الفواكه فى العالم وأكبرها حجما . ويزرع القطن والشاى السيلانى الشهير والتوابل والقنب والأرز وأنواع الحبوب والفواكه .. وفيها غابات عظيمة واسعة هائلة الكبر كغابات راجبور وغابات الأنهار .. ! ومن هذه الغابات تستخرج الأخشاب الجيدة القوية ، وللاقتصاد فى وسائل نقلها يضعونها فى النهر ، فتسير بقوة الماء حتى تصل إلى المكان المعين ؛ ولكن فى تلك الغابات توجد أشد الحيوانات المفترسة ، وأشرسها كالنمور والفيلة والأسود والأفاعى المتنوعة وأشدها الكوبرا ، وأنواع القرود كالشمبانزى والغوريلا والنسناس وأنواع الببغاوات ... الخ .

وإذا أردنا أن نعرف كيف يكون سطح الهند لدهشنا عندما نعلم أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ — سهول نهر السند . وهى من أخصب بقاع الأرض كما ذكرنا .

٢ — هضبة الدكن وهى مكونة من جبال متوسطة الكبر ويقربها هضبات عديدة .

٣ — جبال هملايا : وهذه الجبال أشهر جبال العالم فى الارتفاع ، إذ يبلغ ارتفاعها ٨٨٤٠ متراً ، وتسمى « سقف العالم » لشدة ارتفاعها .

ويقول الهندوس الذين يقطنون هناك إن هذا ليس جبلاً ، بل هو إله الآلهة ! يتخلل هذه الجبال وديان عميقة جداً وهى مليئة كلها بأنواع الأفاعى والثعابين .

الهند شبه جزيرة مثلثة الشكل تقريباً ، فالساحل الشرقى منها يدعى كورمندل والغربى ملبار . وأما مدن الهند فأهمها دلهى ، وهى العاصمة وبومباى وهى أهم ميناء تجارى هناك ، فنفوسها مليون نسمة ، وكلكتا وتقع عند مصب دلتا نهر براهما بوترا ، ومدينة بنارس وسملا وهى تكون عاصمة الهند فى الصيف لأنها مصيف جميل ، ومدينة أحمد آباد والله آباد وحيدر آباد وكراتشى وكيلات وهى عاصمة بلوجستان .

الهارة — انور شوهيط

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىَّ تبعته وحدى ... ..."

عصر المرأة ! — بضاعة مبذولة ! — أسلوب العامة ! مكاهات ومساخر ! — الشكل والموضوع — مصريون وأجانب

عصر المرأة !

أزياء النساء ! ... هذا حديث الأسبوع فى الصحف والمجلات ، وفى النوادى الخاصة والعامة ، وفى البرلمان ... وحديث الصاحى والنائم ، وحديث المتخيّل والحالم ، وحديث الشيخ والغلام ...

وما أحراه أن يكون ... بلى ، وإنه لخليق بأن يكون حديث الجيل ، فإننا لنعيش فى عصر « المرأة » ؛ إنها هى التى تصنع تاريخ هذا الجيل ، لأنها هى أبرز « حوادث » هذا الجيل !

ما المرأة وما الرجل اليوم ؟ ...

إن الطبيعة نفسها — وهى التى فرقتهما جنسين ؛ ذكراً وأنثى — لتكاد تعجز فى هذا العصر عن تحديد خصائص هذين الجنسين ؛ فلا شىء ، لا شىء قط يبيّن بوضوح الحدّ الفاصل بين رجولة الرجل وأنوثة الأنثى ... ...

أيهما الطالب وأيهما المطلوب ! ... أيهما الصائد وأيهما المتصيد ؟ ... أيهما السالب وأيهما الموجب ؟ ... أيهما الحافز وأيهما العامل ؟ ... أيهما الإرادة الموحية من وراء الأستار والحجب وأيهما القوة النافذة ؟ ... ...

... لا أحد ، ولا شىء ؛ كلاهما طالب ومطلوب ، وكلاهما صيد وصائد ، وكلاهما سالب وموجب ؛ والعالم كله يسير فى كهربة هذه الموجة المدمّرة بلا إرادة ، ولا غاية ، إلى ... إلى أين ؟

إنى لأكاد أحسّ « نغمة المرأة » فى كل حديث يتحدثه رجلٌ عن المرأة ؛ فما « هو » هو حين يتحدث عنها ، ولكنها « هى » تملى عليه وتلقنه ما يقول ؛ فما هو رأيه ولا بيانه !

وإنى لأكاد أسمع « صوت الرجل » فى كل مقالة تتحدث بها امرأةٌ عن الرجل ؛ فما « هى » هى بأنوثتها وسحرها وتصوّنها ، ولكنه « هو » بشهواته وأكاذيبه وجراءته ؛ فما هو رأيها ولا بيانها ولا نبضات وجدانها !

لو عقلتْ لقالت غير ما قالت ولو عقل لقال ... ولو تدبّر السامع لوعى !

ومن ذلك كلٌّ ما سمعتُ من حديث الرجال والنساء ، والصحف والمجلات ، فى هذا الأسبوع ، عن أزياء النساء ! ... ...

بضاعة مبذولة !

هذا « مالك محترم » رأى ما رآه الناس وسمع ما يسمعون ، وكان شيخاً عاصر جيلين وعاش حياتين وسمع صوتين فى ماضيه وحاضره ؛ فلم يشقّ عليه أن يميّز صوتاً من صوت وأن يخلّص رأياً من رأى وأن يحس إحساس الرجل فيما رأى وسمع وحسب أنه يستطيع أن يردّ كل شىء إلى أسبابه حين يستطيع أن يعالج أزياء النساء ؛ فاقترح اقتراحه على البرلمان ... ...

من ذا يزعم أن الرجل اليوم « أشهى » المرأة مما كان وكانت ؟ ...

ومن ذى تزعم أن المرأة اليوم « أغلى » فى عين الرجل مما كانت وكان ؟ ...

دعوها تتحدث بلسانها ودَعُوه ؛ إن كل امرأة ليسوءُها أن تسمع جواب الرجل على هذا السؤال وإن كل رجل ليسوءه ... ؛ وإن كانت لتسمع رأيه فى كل نظرة من عينيه .

إنها وإنه كالتاجر الذى كسدتْ سوقه ، فإنه ليحاول أن يعرض على عيون المارة من « عيِّنات البضاعة » ما كان ينبغى أن يصونه ، وإنه ليدعو كلَّ « زبون » إلى أن يشم ويذوق ؛ وماذا يبقى من شهوة الجنس إلى الجنس بعد أن يشمّ الزبونُ ويذوق ؟ ...

ويكثر « العَرضُ » فيتوهم كلُّ زبون أنه مستطيعٌ أن يَحْصُل على حاجته من « البضاعة » أنى يريد ، فيرخصُ ويسوءُ ؛ ويملّ التاجرُ ويخشى « كَسَادَ السوق » فلا يزال يَعرض كل يوم من بضاعته « عيناتٍ » وألواناً تُسيل اللعابَ وما تزال تُسيله حتى تستنفد شهوةَ الجائع فينكفئ إلى بيته شبعانَ ؛ وما تزال « البضاعة » فى السوق « تغازل » المارة حتى يَحُول اللونُ ويتمزق الأديم وما باع أحد ولا اشترى . . . !

أرأيت إلى بعض البزّازين وباعة الثياب يعرضون على أبواب متاجرهم ألواناً من الثياب البراقة يُسمِّحون لكل عابر سبيل أن ينال منها ما ينال عينيه وأن يختبر من متانتها ما يختبر بأصابعه وأن تشرق عليها الشمس وتغرب ؟ ... أرأيت إلى هذه الأثواب وقد حال لونُها تحت الشمس ومزقتها الريح بعد أسابيع أو أيام وما تزال فى موضعها من باب الدكان تنتظر المشترى ... ... ؟

ماذا صارت هذه الأثواب وقد كانت ... ؟ وماذا صارت المرأة وقد ابتذلتْ نفسَها فى السوق ؟ ...

أما الثوب فقد عاد خرقة ، وأما المرأة ...

وقال النائب المحترم فرنى بك : رُدُّوا هذه الأثوابَ إلى صيوانها أن تَخلق وتَبلى وتعود خرقة ...

وأخْفَتِ النعامةُ عينيها تحت جناحها وزعمتْ أنها لا تَرى : وصاحت امرأة بلسان رجل : وَىْ ! ماذا يقول ؟ ... إنها رجعة منكَرة ! ...

وهتف رجل بلسان امرأة : حذارِ يا شيخ ! إنك توشك أن تقطع سمعة المرأة المصرية ؛ إنها ...

أسلوب العلاج !

أأخطأ الشيخ أم أصاب فيما اقترح ؟ . . .

أما « الداء » فلم يشك فيه أحد ؛ وإنه لداءٌ دوىٌّ ؛ وأما العلاج . . .

ليت الذين اعترضوا وسخروا وجعلوا حديث الرجل نادرة الضحك والتندّر والسخرية — فكروا فى الطبِّ لهذا الداء بوسيلةٍ غير ما اقترح المقترح ! ...

لا ، بل ليتهم وقد سمعوا أنّاتِ المريض وأحسوا بعض إحساسه بالألم قد صبروا أنفسَهم ساعة فى الفحص عن أسباب علته ...

ألا إن الداء الأصيل ليس هو هذه الصدور المكشوفة ، وهذه الأذرع العارية ، وهذه السيقان المصقولة ، وهذه النظرات الجائعة ، وهذه الشّفاه المصبَّغة ؛ ليس هذا هو كلَّ الداء ، ولكنه عرض من أعراضه ؛ إنه أعمق جذوراً وأخفى موضعاً من أن تراه العين المجرّدة . . . فإن كان فى « قرص الأسبرين » كفاية لعلاج « التيفويد » فإن فى تحديد أزياء النساء كفاية !

هذه « المسكّنات » الوقتية لن تحسم الداء ، إلا كما يخفف « الأسبرينُ » قليلا من حدة الصداع ، والحمى تنفث نفثاتها المسمومة فى الأعصاب والدم !

فهل فكروا ودبّروا واستقصوا وتتبّعوا العلل إلى

أسبابها قبل أن يعترضوا ويسخروا ؟ ... ولكنهم يحاولون الفرار من الصياد على أسلوب النعامة !

نظاهات ومساخر :

وهـذه المجلات ، وهؤلاء الرجال والسيدات : أين مكانهم من هذه المعركة وقد استفاض عنها حديثهم وحديثهن متندرين ساخرين ؟

هذه مجلة من تلك المجلات « الهازلة » ترسم صورة النائب المقترح بين طائفة من صور النساء في أزياء شتى تستفتيه : أى هذه الأزياء تقترح ؟ . . .

ويستعرض الناظر صورة الشيخ وصورَ النسـاء ، ويستمع إلى ما يقول الشيخ وما يروى صاحبُ خبره ، ثم يتم النظر ويرهف السمع ، فإذا صوتٌ من وراء صوت ، وإذا قولٌ يقال ومعنى يُفْسَهم ؛ وإذا وراء العنوان الجادّ سخرية وإيحاء . . . وتقول كل قارئة لكل قارئ : أكذلك تريدني ؟ ! . . . ومَن قال إنه يريدها حتى تسأله عن « الكيف » ؟ ولكن المجلة الهازلة تريد أن تغالب برهانَ العقل والقلب ببرهان اللحم والدم ، كالمرأة المتبذّلة : تتجرّد من ثيابها على عيني الفتى الزاهد وهي تقول له : لا أظن خلقك يسمح أن تنظر إلىّ ! . . .

إنها تأمره في أسلوب من النهى !

وهذه مجلات أخَر . . .

ومن حق كل كاتب أن يجدّ وأن يعبث ، ولكنْ ليس له أن يتناول موضوعه من جانبٍ واحد وإن له على عيون الناس جوانبه وألوانه ؛ فلماذا قصَرَ هؤلاء حديثهم في هذا الموضوع على الفكاهة ؟ أنظرفًا ؟ أم عجزاً ؟ أم دعايةً إلى غاية ؟ ... أم هو كذلك « أسلوب النعامة » ؟

الشكل والموضوع :

وكثر المعارضون لما اقترح النائب المحترم ، في البرلمان وفي الصحف والمجلات ، وفي الصور الهازلة ، وفي الفكاهات المتنقلة ، فهل اعترض معترضٌ منهم على « الموضوع » ؟

هل سمعتَ إلا من يقول في اعتراضه — وهو كل اعتراضه — : « أهذا أوانه ؟ »

نعم هذا أوانه ، ومادمنا نستطيع أن نفعل شيئاً في هذا « الأوان » فإنه أوانه ؛ ونعَمْ ، ليست هذه مشكلة اليوم ، ولكنها مشكلة من مشاكل اليوم وكلِّ يوم بعده ؛ ونعم ، عندنا أشياء أهم ولكنها لا تشغلنا عن ذلك المهم !

وإذا كنا كلما دعا داعٍ إلى الإصلاح صحنا به : « أهذا أوانه ؟ » فلسنا فاعلين شيئاً ، لا في أوانه ولا في غير أوانه ؛ ولكنه « أسلوب النعامة » !

مصريون وأجانب :

وقال قائل هناك : أفتريدنا أن نطبّق هـذا النظام أيضاً على الأجانب ؟

ولم يكن لهذا السؤال إلا جوابٌ واحد ... ، أفكان ذلك النائب المحترم الذى سأل هذا السؤال يقصد إلى ذلك المعنى الذى فهمه « الأجانب » من السؤال وجوابه ليثورَ ثائرهم فينجح في معارضته !

أجانب ! ... ما هذه الكلمة الجافية التى نسمّيهم بها ويسمّون أنفسهم ؟ ... إن كانوا يصرّون على هذه « التسمية » فإننا حينئذٍ « أجانبُ » منهم وإليهم أجانب ، وليس للأجنبي على الأجنبي حقٌّ يستدعى الرعاية أو يهوّن التضحية !

وثارت ثائرة الصحف الأجنبية وزعمتْ ما زعمتْ ؛ أفكانوا يحسبون أن حقهم علينا أعظم من حق الدين والخلق والقومية ؟ ولكن قائلا منا قد قالها فلا عليهم ؟

« قاف »

مصر والسودان

فى أوائل عهد الاحتلال

شكر وتعقيب :

أما الشكر فأزجيه إلى المحامى الأديب الأستاذ عبده حسن الزيات على مقالته الشائقة التى نشرها فى عدد ٢١ يوليو سنة ١٩٤٢ من (الثقافة) الغراء، وضمنها بحثا ممتعاً عن كتاب (مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال) . أشكره على تقديره للكتاب وصاحبه . كما أشكره على حسن إحاطته بالموضوع ، ودقة نظره فى العموميات والتفاصيل . وهى ميزة أعرفها عنه فى بحوثه ومؤلفاته ومذكراته فى قضاياه .

ولقد تفضل الأستاذ الأديب بإيراد بعض ملاحظات عنت له من قراءة الكتاب ، واستوضحنى رأيى فيها ، أو ردى عليها . ويسرنى أن أساجله النظر فيما أورده منها ، لأن الحقيقة بنت البحث والمناقشة .

ا — لاحظ الاستاذ الأديب أنى لم أستوف الكلام فى الفصل الرابع والثانى عشر عن أثر الاحتلال فى القضاء ، وبيان مؤهلات القضاة والمستشارين الانجليز الذين ولوا القضاء فى مصر واحدا واحدا ، ومدى الاعتبار السياسى من جهة والاعتبار الشخصى الفنى من جهة أخرى فى اختيارهم .

وهى ملاحظة جديرة بالنظر . فإنه يكون بحثاً ممتعاً شائقاً أن أتناول هؤلاء القضاة فرداً فرداً ، وملابسات تعيينهم ، ودراسة شخصياتهم ، وأثرهم فى القضاء . وإن كان معظمهم لا يقع تعيينهم وتوليتهم القضاء فى العشر السنوات الأولى للاحتلال ، وهى موضوع الكتاب . على أنى قد اكتفيت فى هذا الصدد بالعموميات دون التفاصيل ، فذكرت تحبيذ اللورد دفرن فى تقريره إدخال العنصر الأوربى فى المحاكم الأهلية وإسناد وظيفة النائب العام إلى محام انجليزى . وبإيعازه عين فعلا السير بنسون مكسويل نائبا عمومياً فى ٢٤ مارس سنة ١٨٨٣ ، بدلا من اسماعيل يسرى باشا (ص٢٥) . ثم تعيين أول مستشار قضائى بريطانى لوزارة الحقانية وهو مستر جون سكوت فى ١٥ فبراير سنة ١٨٩١ . وكانت مهمته السيطرة على وزارة العدل كما سيطر الانجليز على الوزارات الأخرى ، وزيادة عدد المستشارين الانجليز فى محكمة الاستئناف الأهلية (ص١٩١) ، وبما أوردته فى كتاب (محمد فريد) من تهديد الاحتلال لاستقلال القضاء فى قضية التلغرافات (ص ٣٦) .

ب — وتساءل الناقد الأديب فى لباقة وحسن أسلوب إذا كنت مستعداً لتعديل حكمى على أعضاء مجلس شورى القوانين فى السنوات العشر الأولى للاحتلال ، مشيراً إلى ما بعده قسوة فى الحكم ، إذ قلت عن هذا المجلس إنه بقى فى العشر السنوات الأولى للاحتلال خاضعاً مستسلما ، وإن موقفه فى هذه السنوات كان سلبياً محضاً .

وأرانى معتدلاً فى هذا الحكم ، ومنصفاً أيضاً لمجلس شورى القوانين . فإنه لم يفتنى فى كتاب (مصطفى كامل) أن أقسم أدوار المجلس إلى ثلاثة : الدور الأول دور الخضوع والاستسلام ويبتدئ منذ إنشائه سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٨٩٢ ، ثم الدور الثانى وهو دور اليقظة والحياة من سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩٠٤ . والثالث دور التراجع منذ أبرم الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا (ص ٣٤٧ كتاب مصطفى كامل) . ثم أعقب هذه الأدوار دوران آخران وهما دور التجدد والنشاط ، ويبدأ من ١٩٠٨ حتى ختام ١٩١٠ . ثم دور التراجع من جديد تحت تأثير التهديد (ص ٣٥٠ كتاب محمد فريد) . فلكل دور من هذه الأدوار حكم يختلف عن الأدوار الأخرى ثناءً ونقداً . وأحسب أن هذا هو معنى الإنصاف وسبيله ، وقد أثنيت على المجلس فيما

يستوجب الثناء . وأيد الأستاذ صحة رأيي بذكر الأمثلة على حسن قيام المجلس بواجبه ، إذ كانت كلها تالية لمرحلة (الخضوع والاستسلام) التي تقع في العشر السنوات الأولى للاحتلال .

ومما تجدر ملاحظته أن نظام المجلس الضيق ظل كما هو في أدواره المتعاقبة ، ومع ذلك لم يمنعه من أن يؤدي واجبه في بعض المواطن . وفي هذا دليل كاف على أن ضيق النظام لا يصلح عذراً للمجلس في تقصيره وفي موقفه السلبي .

ح — انتقل الباحث الأديب بعد ذلك من الكلام من إنصاف الهيئات إلى إنصاف الفرد . واختار لملاحظته الكلام من « مصطفى فهمي باشا » . فذكر أني أنصفت رياض باشا إذ أوردت ماله وما عليه فأخذت عليه قبوله تعيين مستشار قضائي بريطاني لوزارة الحقانية . وسجلت له في باب الحسنات إلغاء العونة ، وإلغاء قومسيونات الأشقياء ، وتخفيض فائدة الدين العام . وتساءل : هل يجد قريباً من هذا الروح حين الكلام عن خلف رياض باشا أي مصطفى فهمي باشا . وأشار إلى أن ما ذكرت عن هذا الوزير بعد الكلام عن وزارة نوبار يشعر القارئ أنه أسوأ من نوبار .

وإني مجيب على هذا التساؤل بأني على العكس كتبت عن نوبار بأشد ما كتبت عن مصطفى فهمي . ولا يكفي لهذه الموازنة الاقتصار على نبذة (نظرة في أعمال وزارة نوبار باشا) ص ١٧٧ وما بعدها . بل يحسن الرجوع إلى الفصل التاسع بأكمله (إخلاء السودان ووزارة نوبار) ص ١٢٧ وما بعدها . فإن في هذه الصفحات إبرازاً لجسامة التبعة التي حملها نوبار بإقراره إخلاء السودان وضياع نصف الامبراطورية المصرية .

أما استشهاد الأستاذ الأديب بقولي إن نوبار كان الوزير الوحيد الذي قبل تشكيل الوزارة عقب استقالة شريف باشا التاريخية (ص ١٨٨) وأن هذا معناه أن مصطفى فهمي باشا لم يقبل ما قبله نوبار ، فلا أشاطره هذا الاستنتاج . لأن الوزارة لم تعرض على مصطفى فهمي عقب استقالة شريف . بل عرضت فقط على رياض فأبى قبولها . وأقر شريف باشا على موقفه المشرف . ثم عرضت على نوبار فقبلها على قاعدة إخلاء السودان والإذعان للنصائح الانجليزية (ص ١٢٧) . فلا فضل إذاً لمصطفى فهمي في هذا الصدد .

ولعل الأستاذ الأديب يقتنع بحكمي على مصطفى فهمي باشا وبأني لم أتحامل عليه قط . كما لم أتحامل على أي أحد سواه ، إذا رجع إلى ما كتبته عن وزارته وسياسته وأعماله في كتاب مصطفى كامل . فإن وزارته كانت حقاً أوضح السلطة للاحتلال .

وأخيراً فإني أكرر شكري للأستاذ عبده حسن الزيات على عرضه البديع لآرائه وملاحظاته .

عبد الرحمن الرافعي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر	مـ ٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

مـ
ثمن العدد ١ قرش صاغ

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ١٩٤ — الثلاثاء ٤ من رمضان سنة ١٣٦١ — ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

حديث رمضان :

الحيـــاة الأخرى

للأستاذ أحمد أمين بك

في الناس قديماً وحديثاً ، فيما قبل التاريخ وما بعد التاريخ ، في البدو والحضر ، في الأصقاع المختلفة حيث لم تكن هنالك صلة بين الناس ، ولا تبادل في الأفكار والمشاعر ، في الإنسان الساذج الجاهل ، وفي الإنسان المعقد العالم — في كل أولئك شعور خفي يشبه الإلهام بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى تتحقق فيها العدالة وقد فقدت في الدنيا ، وينال فيها الإنسان جزاء أعماله ونياته ، من غير أن تفسده رشوة قاض ، أو بلاغة محام ، أو تحيز لطبقات أو لشتى الاعتبارات ؛ هو نوع من الإلهام يشبه إلهام النبات في امتصاصه ما ينفعه وتجنب ما يضره ، وإلهام الطير في رحلاته في الوقت المناسب وعودته إلى وطنه في الزمن الملائم ، وإلهام الطفل حين خروجه إلى هذا العالم أن يلتقم ثدي أمه ، وأن يبكي إذا عراه ألم ، وأن يبتسم بعدُ إذا سر ، وأن ينفعل بالرضا والغضب ، ونحو ذلك من شتى العواطف والغرائز .

حتى أكثر الذين ينكرونه بألسنتهم وبمنطقهم يشعرون أن الإيمان باليوم الآخر متغلغل في أعماق نفوسهم ، كامن في خفايا غرائزهم ، لا يلبث أن يظهر إذا اشتدت الشدائد وتحرجت الأمور ووقعت الكوارث ، فتراهم ينكرون عقولهم ويؤمنون بغرائزهم ، ويمحسون أعمالهم ويكفّرون عن كفرهم ويألمون لإنكارهم غرائزهم .

بهذه العقيدة في الحياة الآخرة أصبح عمر الإنسان طويلاً لا حدّ لطوله ، وبهذه العقيدة أضاف إلى حياته المادية المحدودة حياة روحانية غير محدودة ، وبهذه العقيدة شعر أنه أرقى من كل الكائنات المادية ، ومن كل النباتات والحيوانات القصيرة المدى ، وبهذه العقيدة شعر أن نفسه الخالدة أرقى من جسمه الفاني ، وبهذه العقيدة تشكل سلوك الإنسان وعليها أسس حضاراته ؛ فحضارة قدماء المصريين والأشوريين والبابليين ما كانت تكون لولا العقيدة في الآخرة ، وعلى هذه الحضارات بنيت الحضارات

المتابعة على اختلاف أشكالها وألوانها .

أفمع هذا كله يمكن أن يكون هذا الإلهام كاذباً أو خادعاً ؟

لقد جاهر بهذا قوم من كل صنف وكل ملة ، فقديماً قال الشاعر :

حياة ثم موت ثم نشر   حديث خرافة يا أم عمرو

وحكى الله في القرآن عن قوم قالوا : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

وجاء بعض العلماء في العصر الحديث فشايعوهم في أفكارهم ، ونادوا بأن لا شيء إلا المادة ، ولا حياة إلا هذه الحياة ، وأن الفكر والشعور والعواطف نتيجة المادة وحدها وإفرازها ، كما تفرز الكبد الصفراء ، وكما تفرز الكلية البول ؛ والأفكار والإرادة والعواطف من إفراز المخ ، ويتوقف مقدارها ونوعها على مقدار المخ وحجمه وتركيبه ؛ وكل شيء في الحياة مادة أو مظهر من مظاهرها ، ولا شيء يسمى النفس ، فلا معنى لخلودها ، وإنما هو من نسج الخيال . وجاراهم في ذلك بعض علماء النفس ، فأخذوا يحللون الشعور بالحياة الأخرى ، ويرجعونه إلى عناصره الأولية ؛ ورأوا — على طريقتهم — أن هذا يرجع في الإنسان إلى « مركب النقص » ، فلما رأى ضعفه بالنسبة للقوة الطبيعية حوله اخترع ما يكمل نقصه ، فادعى بأنه الخالد وهي فانية ، الحي أبداً وهي مائتة ؛ وأوحى إليه بهذا الخيال — على رأي بعضهم — ما رأى من طير يطير بأجنحته إلى السماء ، ويغيب عن الأنظار ثم يعود إلى عشه كما بدا . قالوا : وإن هذا العالم مملوء بالشرور والكوارث والظلم ، ناقص من كل وجه ، والإنسان طموح بطبعه ، حاول أن يصلح العالم حسب آماله وطموحه ، فأدرك القليل وعجز عن الكثير ؛ فلما أعياه إصلاح الواقع لجأ إلى الخيال ، فتخيل الفلاسفة مدناً مثالية كالمدينة الفاضلة وما سموه « يوتوبيا » ، وتخيل الجمهور عالماً آخر مثالياً هو الجنة ، وهكذا استمروا في قولهم وتعليلهم .

* * *

أما أن العالم مادة فقط فقول لا يستسيغه العقل ؛ فكيف تكون الأفكار والإرادة والعواطف نتيجة للمادة الكثيفة الجامدة ؟ وكيف يكون الفكر الذي يشعر بشخصيته نتيجة لمادة لا تشعر بشخصيتها ؟ وكيف تكون المادة التي ينصب عليها الفكر والشعور هي بعينها الفكرة الشاعرة ؟ وكيف تكون المادة والعقل والفكر شيئاً واحداً وصفاتها مختلفة تمام الاختلاف ؟ بل كيف تكون المادة المادية علة للفكر والعقل غير الماديين ؟ إن القول بأن المادة كل شيء يعجز عجزاً تاماً عن تفسير ظواهر العالم ، فكيف تنشأ الحركة عن المادة ؟ وكيف ينشأ الحس عن الحركة ؟ وإن وجود علاقة بين شيء وشيء كالعلاقة بين المخ والتفكير لا يستلزم العلية ، وإن المخ هو مكان الفكر لا علته .

إن كان ذلك كذلك فلا بد أن يكون هناك شيء وراء المادة ، ووراء الجسم ، وهو الروح .

* * *

ثم إن العلم الحديث أثبت أن المادة لا تعدم ، فكل ذرة في هذا العالم لا تفنى ، ولكن تتحول من حبة الرمل وقطرة الماء إلى أعظم مخلوق ؛ فالشمعة تحترق وتبدد الظلام وتتبدد هي أيضاً ، ولكن الكيمياوي يستطيع أن يثبت أن عناصرها لم تفن وإنما تفرقت في الجو ، وهي موجودة في الهواء ، ولكن في وضع آخر ، تغير شكلها ولكن لم يتغير جوهرها ، وليست مادة الشمعة وحدها لا تفنى ، بل طاقتها وقدرتها على الاحتراق والإضاءة لم تفن كذلك ، بل تغير وضعها وشكلها .

هكذا قرر العلم الحديث ، وهكذا أثبتت التجارب ؛ وعلى ذلك فموت الأجسام ليس إلا تغيراً لحالات الجسم ، وسيبقى

الجسم فى هذا العالم فى أشكال أخرى ؛ فقد تكون تراب جسم قيصر — كما قال شكسبير — طيناً تسد به ثلمة ، أو كما قال عمر الخيام وعاء تعتق فيه الخمر أو نحو ذلك ، ولكن لا فناء .

***

إن كان العالم ليس مادة فقط ، وإن كان العالم مادة وروحا ، وإن كان العلماء يقررون أن المادة لا تفنى ، وأن الطاقة لا تفنى ، فكيف تفنى الروح وهى أصلح من المادة للبقاء ، وتكوينها وصفاتها أنسب للدوام ، وهى أرقى ما تمخض عنه العالم ؟

إن الروح هى التى تمس المادة فتدب فيها الحياة . إنها تحل فى الجسم فيعقل ويفكر ويتذكر ويشعر وتلعب عواطفه ، وتفارقه فيكون مادة جامدة كسائر المواد ؛ فإذا جاء الموت تحلل الجسم وذهب يلعب فى العالم دوره ، فيكون بعضه غذاءً لشجرة ، وسماداً لزرع ، وهواءً يستنشق ، وطيناً تسد به ثلمة ، وجرة لخمر ، وركناً فى بناء ، وتراباً يوطأ بالأقدام ، ومزهراً يعجب الناظرين ، وزهرة يتغزل فيها الأديب ، وطعاماً لدود أو حوت ، وفسفوراً تشعل به الثقافة ، وما شئت من صنوف الخلق مما يجمل ويقبح ويبعث الإعجاب والاشمئزاز والحب والكره ، ويدور مع العالم دورته ويكون جزءاً فى ساقية « جحا » التى تملأ من البحر وتصب فى البحر ؛ وتبقى الروح حية خالدة ، تبقى فيما قدمت من عمل ، وتحيى فيما خلفت من أثر ، وتبقى ربما حامدة لخيرها نادمة على شرها .

ما أتفه الحياة إن لم يكن خلود ! وما أضيق الأمل إن لم يكن غير هذه الحياة ! وما أضيع العدالة إن فقدت فى الدنيا ولم تكن آخرة .

لا . لا . ليس إلهام الإنسان بالحياة الأخرى أكذوبة ، ولا شعوره بها خدعة . إنما هو وحى صادق من طبيعته ، وشعور حق يتغلغل فى غريزته .

أحمد أمين

فتيـــات عاملات

فى مصر

من آثار الحرب :

من الظاهرات التى تبينها القليلون قبل الحرب الحاضرة أن الفتيات المصريات بدأن يدخلن ميدان العمل والحياة الاجتماعية بصورة عملية فعّالة . ولست أقصد بذلك الفتيات فى المدارس من طالبات ومدرسات ، إذ أنهن يدخلن الحياة الاجتماعية مهذبات « متمتعات » يعشن ولا يعملن إلا فى القليل النادر ؛ إنما أنا أقصد الفتيات قليلات الثقافة أو غير المتعلمات قطعاً ، وهن فى الواقع يدخلن الحياة الاجتماعية لا « متمتعات » بل « عاملات » ، لا يقوم على خدمتهن أحد ، بل هن اللواتى يخدمن أنفسهن ويكسبن عيشهن ويعملن بأيديهن فى خدمة أصحاب المشاغل والمصانع والمعامل ومحال النسيج والحياكة . وقد برزت هذه الظاهرة بصورة قوية بعد ابتداء الحرب الحاضرة فى سنة ١٩٣٩ ، واتخذ هذا الظهور نوعا من الشمول والاتساع والفيض ، وخاصة بعد امتداد الحرب وشمولها لجميع بلدان العالم بدخول اليابان الحرب ضد أمريكا والحلفاء ، وما ترتب على ذلك من تعذر النقل فى البحار ، وانقطاع الوارد من المنسوجات التى تصنع فى اليابان ، والتى كانت تغمر أسواق العالم كله من قبل . ولا شك أن هذه الظاهرة تتمثل بجلاء فى المدن أكثر من تمثلها فى الريف ، نظراً لما يتمتع به أهل المدن من حرية نسبية فى السلوك ، ونظراً لازدحام السكان ، ونظراً لأن المصانع والهيئات التى تستخدم هؤلاء الفتيات على نطاق واسع تكثر فى المدن وتقل فى غيرها من البقاع ، ونظراً أيضاً لأن الفقر فى المدينة شديد يصل بسهولة إلى درجة الإدقاع . ولعل هذا هو السبب الأقوى فى تحليل هذه الظاهرة ، فقد ارتفعت الأسعار وتضاعفت نفقات المعيشة ، وقاسى الفقراء من ذلك شر الحرب واختلال الاقتصاد الفردى والاجتماعى .

فى قلب القاهرة :

والواقف فى ميدان محطة القاهرة صباح يوم من أيام العمل الرسمية ، يمكنه بكل سهولة أن يتبين أفواجا من هؤلاء الفتيات يأتين من الأحياء الوطنية كثيرا والجزيرة والقللى وبولاق والفجالة وباب البحر ، ومثل هذا المنظر تماما يراه الواقف فى ميدان الملكة فريدة ، حيث الفتيات العاملات يخرجن من شوارع محمد على وعابدين وعبد العزيز والخليج المصرى . وجميع هذه الأفواج من الفتيات — فرادى وجماعات — تتجه كلها نحو الأحياء التجارية والتى تكثر فيها محال المتاجرة فى الملابس والمنسوجات على جميع أنواعها ، وتكاد هذه المحال تقع جميعها فى دائرة حى الموسكى وما يتفرع عنه من مسالك وشقوق وفروع صغيرة كالأزهر وباب الشعرية وشارع فؤاد الأول . وهذا المنظر يتكرر فى اليوم مرة ما بين السابعة والثامنة صباحا ، ومرة أخرى ما بين السادسة والسابعة بعد الظهر .

فقيرات :

ولو دققت النظر فى هؤلاء الفتيات ، وأرسلت البصر على نواحى هذه الشخصيات المتحركة العاملة ، لتبينت كل ميزات الفقر والفقراء ظاهرة عليهن ظهوراً قوياً . فملابسهن إما سوداء وإما ذات ألوان تقاحى المذوق ، وهى دائماً مصنوعة من القماش الخفيف الرخيص ، مرسلة على أجسامهن بطريقة عادية لا توحى بكثير أو بقليل من الاناقة وحسن الانتقاء ، ولا تغطى هذه الأثواب أردية خارجية تحجب بعض ما تظهر من تفاصيل تلك الأجسام ، يضعن فى أرجلهن أحذية صغيرة تكاد تكون مشققة مفككة ، قد طفئ لمعانها ، وكثيراً ما تكون أرجلهن عارية بلا

جوارب ، حتى ولو كان الشعر فى هذه الأرجل يكاد يظهر معلناً وجوده ، وليس ما يخجل هذه الشعرات القصار الحية فيمنعها من الظهور إلا السمرة الضاربة على أديم تلك الأرجل أو الجوارب الرخيصة المتميزة بسمكها وغلظ الخيوط التى نسجت منها . وكثيراً ما تكون رءوس هؤلاء الفتيات العاملات صغيرة أو ضخمة بدرجة غير مقبولة ، وإن كانت تختفى غالباً تحت ما تكاثف عليها ونبت فى تربتها من شعر أسود قاتم خشن ، وهذا الشعر دائماً يكون معقوصاً لحفظه من تلاعب الأهواء والريح ، وقد ثبت إلى الرأس ومُوِّج من غير قصد بتأثير السلوك التى ربط بها ولم . وفى قليل من الأحيان يضعن على رءوسهن من القبعات والقلانس ما هو مصنوع من التيل الأبيض والأحمر ، وقد حزّمت هذه القبعات أشرطة عريضة من القماش الملون الخفيف . وهن كثيراً ما يحملن بأيديهن حقائب مصنوعة من الجلد الرخيص أو من « القماش » اللين أو حتى من الورق المقمش ، وفى أحيان كثيرة تكتفى العاملة منهن بأن تحمل فى يدها منديلاً مثلث الطيات ومعه ورقة من جريدة « الأهرام » وقد لف فى داخلها بعض الرغيف غذاءً لها تبلغ به فى الظهيرة .

وتتراوح أعمار هؤلاء العاملات الفقيرات بين ١٢ سنة و١٨ سنة . أجسامهن صغيرة القدود رقيقة التكوين ، وفى قوام هؤلاء الفتيات من التعرج ما لا تكاد تتبين معه فى وضوح هل هذا القوام مائل إلى الأمام أم أنه ملتو إلى الخلف . فى حديثهن تحريك لألفاظ شائعة سهلة تتدحرج على ألسنتهن وتنطلق من أفواههن فى عادة وتكرار قبل أن يفكر أو أن تصاحبه الفكرة الخاصة ، أو أن يجرى على أساس اعتبارات غير ما يتداوله الناس فى شئون عيشهم العادية . قد تراهن ضاحكات ، ولكنهن فى أغلب الأحيان متجهمات يرسلن الأحاديث فى سهولة ويسر ، حتى لتكاد تخالهن أجهزة ناطقة تتحدث وتنطق دون بذل خاص ودون إتيان لمجهود فيه عنصر الشخصية أو التميز .

كفاح ومغالبة :

وإذا نظرت فى محاجر عيون هؤلاء العاملات وجدت فى أجفانهن ارتخاءً ينكشف عما أحاط تلك العيون من هالات صغيرة باهتة متغيرة توحى بالعمل والبذل وروح المثابرة ، فهن يعملن ويشتغلن لا بروح الإقبال على العمل الطالب بحقه فى الوجود الحر ، بل بروح من الدفع وشبه الإرغام أو الاضطرار ، وكأن قوة أكبر منهن هى التى تدفعهن إلى العمل ، فلا حيلة لهن إلا بالخضوع والسير والانصياع ... وكيف لا يشعرن هذا الشعور ودور المرأة فى الحياة لا العمل ، بل الزواج والبيت والأولاد ... وليس هناك زوج أو منزل أو أسرة ، إذاً فإلى العمل والشغل والنسيان . ليس هناك مال به يستقر عيشهن فى بيوت الآباء ، بل فقر وحاجة ، إذاً فإلى العمل والكسب لسد هذا العوز ؛ ليس هناك مجال للاستقلال والذاتية ، إذاً فإلى العمل والوجود بين الجماعة ، وفى تيار الكثرة حيث التيار يحمل معه كل من استلق وأسلس القياد .

تطور :

ها هى ذى الفتاة الصغيرة بين أيدينا تخرج إلى الحياة تعمل وتشتغل ، تكد وتكدح ، تبذل المجهود وتعانى آلام التعب والحرمان والشوق والخفاف ؛ ولو كان ذلك كله من أجل قروش قليلة تافهة . . . وها هى ذى الفتاة الصغيرة تخرج إلى العالم ، ولو كان ذلك رغماً عن المبادئ والتقاليد والعادات ؛ إن الفتاة تخرج ولو مرغمة ، فإن دورة الحياة قوية وأمر العيش نافذ ، والحاجة فى كل حين تفتق لا الحيلة فقط ، ولا الذهن وحده ، بل العادة والتقليد والخلق والنفس بكل ما طوته من حرمات وممان .

وخروج الفتاة إلى ميدان العمل اليدوى لهو أقوى رد يمكن أن تقابل به حجج المحافظين ورغباتهم وجهودهم ... إن خروج الفتاة من المنزل إلى المشغل والمتجر والمصنع قد بدأ منذ زمان قريب ، وهو يمتد الآن تحت أبصارنا ، وهو فى المستقبل سيتسع مدى مهما حاولنا أن نصد تياره أو أن نقيم فى وجهه العقبات ؛ بل إن محاولات كهذه لهى من التعامى والتغابى وإنكار الواقع الحادث وما فى هذا الواقع من أوضاع وأساليب وتطور .

ومن السخرية حقاً أنه فى كثير من المجالس والمناظرات العامة ، يكون من بين المتبارين فى الأحاديث فتيات متحررات خارجات من بيوتهن يناقشن القدماء والمحافظين من الرجال ، لا بل ومن الفتيات أمثالهن ...!! هن يعشن بأجسامهن فى العالم الخارجى ، ولكن عقولهن ترسف فى عالم الحريم .! ولو اكتفين بالوقوف أمام العالم فى صمت وسكون لكان فى هذا أبلغ إجابة تفقأ عيون الذين لهم عيون وهم لا يرون !

حكمة :

على أن الواقع أن هذه المناقشات التى تظهر فى أول الأمر عقيمة بلا معنى ، حكمة عميقة هامة ، قل من الباحثين من يدركها أو يلتفت إليها . والحكمة البليغة فى هذه المناقشات أنها إعلان للرأى العام ولهيئة القادة أن البلد مقبل على نوع جديد خطير من التغير ، فليكن هذا الدور واضحاً فى الأذهان بتفاصيله ودواعيه واعتباراته ، ولتكن روح الهدوء والتعقل والحكمة ، وليس الاندفاع والانفجار ، هى رائد المتطورين ، وليكن للقادة فوق كل هذا الفرصة القوية أن يقوموا بالدور الذى هو واجبهم الأول — من الإرشاد والتوجيه الصحيح والرعاية والتقويم .

كلمة ختامية :

إنى كلما نظرت فى عيون هؤلاء الفتيات الصغيرات العاملات ، وكلما لمحت فى جفونهن آثار المغالبة وحمل النفس على العمل والمجهود ، وكلما وقفت أرسل النظر فى أعقابهن عائدات فى المساء إلى منازلهن بعد يوم طويل من العمل المتعب المجهد ، كلما رأيت هذه الصورة أحسست فى أعماق نفسى أن هؤلاء الفتيات هن رواد حركة هامة من حركاتنا الاجتماعية ذات الأثر البعيد فى حياتنا كأمة وشعب ، بينهن ضحايا وشهداء يقاسين الكثير من العنت والتعسف والإرهاق — من المجتمع ، وأصحاب الأعمال ، وأذهانهن ، وعواطفهن ، كفتيات وكأمهات فى المستقبل وبالطبيعة .

إنهن بنات الأمة ، وفتيات الشعب ، وهن فى حاجة إلى من يدافع عنهن فى شدة ويرعاهن فى حنان وقوة ، ويعطف عليهن فى نزاهة وشرف وضمير حى ، وهن فى حاجة فوق كل هذا لا إلى التعرية بل إلى التشجيع ، وإلى الإرشاد والاهتمام ، لا إلى مجرد النظر والبحث أو اللفتة السريعة أو الترك والتغاضى .

إن كثيرات من بنات الأمة سيعملن فى المستقبل على غرار هؤلاء ، ولكن فى صورة أقوى وفى أبعاد أمنع وفى شخصيات أكثر استقلالاً وأكثر إيماناً بضرورة العمل ؛ وكل ما نعمله الآن لمعاونة هذه الطبقة من العاملات إنما نحن نعمله لمعاونة كل فتاة من فتيات الشعب فى كل جيل من الأجيال القادمة .

وليكن لنا بعد ذلك روح الإدراك العملى ، وروح الإصلاح الواقعى ، لا الخيالى ، والتعمل ، والتصلح ، والتهيم ، فها هى ذى أمام المصلحين قضية من أخطر القضايا الاجتماعية تتطلب الكثير من الاهتمام والعطف والرعاية والإرشاد والإصلاح والمعاونة ، وليكن لنا ضمير اجتماعى وضمير عملى ، فإن أحوج ما يتطلبه إصلاح شعبنا فى الحقبة الحالية هو هذه الأنواع من الإدراك والضمائر والشخصيات .

ثابت المصرى

الضـــــرير

كتبها كارل فردريك جوتليب وتسل
Karl Friedrich Gottlieb Wetzel
الكاتب الشاعر الألماني الذي عاش بين قرنين ، القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر : هذا مدبر وهــذا مقبل ! عنا مترف على النهاية ، وذاك لم يكد يهل . مات في الأربعين وكان مع ذلك كثير الأثر ، قوي الموهبة ؛ اشتغل ، فيما اشتغل ، بالتأليف المسرحي فكتب عمرها عرضه : Hermanfried واشتغل بالصحافة ، فحرر صحيفة «ونكتيس مركورز» وكان شاعراً بليغاً .

سألت أمي يوماً وهي تصف لي مطلع الشمس في أحد الجبــال : ما الشمس يا أماه ؟ فأجابت متأثرة : مسكين يا بني ! ما أراك تفهمها أبداً ! فقد ولدت ضريراً ! ومسحت بيدها على جبيني ، وأمرتها على عيني في حنان .

واضطربت — فقد أبهجني وصفها الشمس ؛ وبين الناس وبيني إلام ستار ، فهل أظفر برؤية الشمس مرة ! ! ولنقف بعد ذلك ، فحسبي أن ألم إلمامة بما أجهل عن أمي ، وأتم تفصيلا بما أعرفه جملة —

واشتعلت مخيلتي نشاطاً كبيراً ؛ وجعلت روحي المشوقة تنفض جسمي نفضاً ، تبغي الهرب ، وتطلب الخلاص إلى النور . وكانت هناك الأرض التي يهفو إليها حدسي ، ويهتف هاتفها بي ؛ الأرض الناعمة بعجائب الطبيعة ، الحافلة بآيات الفن ، أرض الأحلام ! . . .

وكانوا يتحدثون كثيراً عن الليل والنهار ، وليس لي من الاثنين ســوى نصيب واحد : نهار أبدي أو ليل أبدي — والأخير ، كما يذهبون ، هو نصيبي !

وجلست في ملء ظلامي ، وذهبت روحي تطوي الدنيا الواسعة العجيبة ، وتعرضها ؛ لكن الضوء مازال يجفوني :

وكنت أصعّد في لولب الحياة ، كما يُصعَّد الموء من حول الصخرة السامقة ، معصوب العينين . لكني كنت أحس لمس الزهرة وو جنتها الحريرية ، وأرتشف من عبيرها الرحيق العطري — غير أني كنت أحلم ، فالزهرة نفسها ، على قولهم لي ، أجمل من عبيرها ، ومن وجنتها الحريرية ، ولاحد لجمالها .

وفي ذات ليلة حلمت حلماً منفرداً عجيباً ، خلت فيه أني أرى النور . وكان النور حقاً ! فلما تنبهت جهدت جهدي في استحضار الرؤيا .

في ذلك الأوان حلقت الموسيقى في سجني المظلم كالروح الحبيب ، وضفرت حــول أوتارها رقيق الزهر ، من خمائل الشعر ، أكاليل .

إنها الأرض المقدسة التي أطأها الآن — إنها أرض الشوق .

وكان الملك الذي يتنقل بين العروسين — عروس الموسيقى وعروس الشعر — ويحملهما إليّ ، فتاة ، أورثتها عذراء السماء اسمها الأرضي .

كانت مريم في مثل سني ؛ وكانت تبهج الغلام الضرير بأغانيها وأنغامها ؛ فنبهت الحب والرجاء من أحلامهما ، فتلفتا لأول مرة من حولهما مشرقين ، وغشيا الحياة متلكين طاهرين .

كانت مريم يتيمة الأبوين . وحين اتخذتها أمي ربيبة عاهدت الله عهداً مغلظاً ، أن تهب السماء إياها ، إن أنا أبصرت . فخف من ذلك الحين شوقي إلى الشمس ، لأنها سوف تسلبني مريم وتحرمني أغانيها .

وكانوا إثر ذلك كثيراً ما يتحدثون عن طبيب ، أملوا من فنه النفع لي — فتنازعني من ثم شعوران : حبي للشمس وحبي لمريم ، وكانا متعادلين ، يستوليان على قلبي قويين

متكاتفين — واقتادونى إلى الطبيب وكادوا عنوة يسوقوننى إليه .

وأمرنى بالهدوء — فعلا صدرى وازداد انبهارى فقد كنت بأبواب الحياة ، وكأنى أولد من جديد — وأحسست إذ ذاك ألما قويا بعينى ، فصرخت . فقد عاودنى حلمى الذاهب . لقد رأيت النور ! أشعة براقة وشرراً خاطفاً يتطاير لناظرى أول — نظرة مجلى فى أغنى كنوز الحياة .

ثم طوانى الليل السابق من جديد ؛ فقد عصبت عيناى ، ولم يسمح لى بدخول الحياة الجديدة إلا هوناً ما ، وقليلا قليلا .

لم أر ما يتخلل محيطى من أمكنة — بل كانوا يروننى بعض الأشياء ، ولا يزيدون ؛ ولم يك بقربى كائن حى فيما خلا الطبيب .

وإذ أمسى فى عينيه قادراً على احتمال العظيم قادنى إلى الليل ، فإذا فوق رأسى صور من الأنجم تتلألأ فى البعيد الذى لا ينال ولا يسبر ، وإذا بى تحت آلاف العوالم المؤتلقة كالنشوى ، أدرك الخالق ولا أنطق باسمه — تنهض أمامى خرائب قديمة من أرض سابقة ، هى الجبال ، معتمة غليظة منقمدة فى جوف الليل ؛ ومن حول أطرافها تتناقص الأضواء فى جو صاف جللته الغيوم . وغابات مستقرة فى الأعماق يسدل عليها الظلام ستاره إلى الأقدام ، وتهز أعاليها الحالكة هزاً خفيفاً . وكان الطبيب إلى جانبى جاداً هادئاً ، وعلى بعد خطوات منا يتحرك شىء كالشبح المقنّع .

فصليت !

وبغتة تبدل المنظر ؛ فوق الجبال تلوح أشباح تصعد إلى السماء ، وفى قلب السماء تنسحب نجوم من خوف الأشباح ، ومن خلق تنكشف مرآة — محيط من النور .

فارتعدت ، فقد خلت الله يقبل على !

وتثاقل على الأرض الضباب وطواها فى رفق ؛ لكن الأطياف التى كانت تصعد إلى السماء كانت تمعن فى الصعود ، والأنجم الزهر لم تلبث أن انطفأت ، فطلعت على أثرها ورود من العسجد من خلف الجبال تلاحقها فى السماء الزرقاء ، وأزهر فى الجو ربيع ، من مس ساحر ، يزداد بهاءً ؛ وزخر لناظرى محيط كامل ، واندلع لهيب إثر لهيب فى فيوض السماء .

وفوق غابة الصنوبر طلعت الشمس الأبدية علماً ملتهباً ، تضىء فى آلاف أشعتها من جديد .

فدفعت عن عينى بيدى ، وخررت صريعاً على الأرض .

وحين استيقظت كان إله الأرض يملأ الفضاء ، وكانت العروس المجلوة قد حسرت قناعها وكشفت عن فتنتها الكبرى لعينى الإله .

فى كل مكان حولى قداسة ؛ الربيع فى الجبال والمروج كالحلم اللذيذ — ونجوم السماء هبطت على الأرض زهوراً تضىء قلب الكلأ ؛ وبحر النور يتفجر على الخليقة من ألف عين وعين ؛ تتصاعد فيه الألوان كالأرواح . كلٌّ يزخر بالحب والحياة — فى الأشجار ثماراً كأكاليل زهراء ، ومن حول التلال والجبال عبير تعبق به الأجواء ؛ وفى الكروم لآلىء تلتهب ؛ وفى الجو أزهار تطير وتتراوح ، بيد أنها فراش ، ومن آلاف الحناجر غناء صاخب هاتف يرتفع بالحمد والثناء . وعين الإله فى محيطه اللانهائى تنظر وتطل من اللؤلؤة المستقرة فى كم الزهرة .

وجرؤت على التفكير فى الأبدى !

وعلى حين غفلة طرق صوت سمعى من خلف — وأزيحت أستار أخرى عن وجه الحياة — فالتفت ورائى عجلا — ولأول مرة ! أشهد أمى دامعة العينين !

أيها الليل ! أيها الليل عد ! فما بت أحتمل كل هذا الضياء وكل هذا الحب !

محمود الدسوقى

أعيان بيت المقدس

فى القرن الثانى عشر الهجرى

الشيخ محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى

(مفتى الشافعية بالديار القدسية)

إلى يسار السالك إلى باب السلسلة وباب السكينة[1] تقع المدرسة البلدية[2] وهى مدفن صاحب الترجمة وبها مقامه وخزانة كتبه . ويزار قبره حتى الآن ويتبرك به ، وهو يطل على المدرسة السلطانية[3] .

ذلك هو شيخ الاسلام وخاتمة الفقهاء بالديار القدسية محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى بلداً القدسى مسكنا الشافعى مذهبا القادرى طريقة[4] ويقول المرادى إنه كان فى أول شبابه يتعاطى كسبا دنيويا . أمّا السيد الحسينى فيقول فى مخطوطته : «بلغنى أنه كان يتعاطى فى مدينة الخليل بيع السيرج . فجاءه فى يوم من الأيام رجل وقال له : «يا محمد ضع لى فى هذا الكوز حصة سيرج» . فأخذه

(١) بابان متحدان منهما يخرج إلى الشارع الأعظم المعروف بخط سيدنا داود ، وهما عمدة أبواب المسجد الأقصى (الأنس الجليل ص ٣٨٣) .

(٢) باب السكينة بجوار باب السلسلة واقفها الأمير منكلى بغا الأحمدى نائب حلب ، توفى ودفن بها فى سنة ٧٨٢ هـ .

(٣) المدرسة السلطانية الأشرفية أسسها الأمير حسن الظاهرى باسم الملك الظاهر خشقدم ، وبعد وفاته سأل الملك الأشرف قايتباى قبولها فقبلها ونسبت إليه ، وقد حضر الملك الأشرف سنة ٨٨٠ هـ إلى القدس فلم تعجبه ، فى سنة ٨٨٤ هـ أرسل من يهدمها ووسعها فأصبحت جوهرة ثالثة . (كذا فى الأنس الجليل صفحة ٣٨٨) .

(٤) ترجمة المرادى فى أعيان القرن الثانى عشر ص (٩٥) كما صدر السيد حسن بن عبد اللطيف الحسينى المفتى بالقدس كتابه «تراجم أهل القدس فى القرن الثانى عشر» بترجمة الشيخ الخليلى . (من نسخة مخطوطة عند كاتب هذا المقال ، وقد ألف هذا الكتاب بناء على طلب المرادى من السيد حسن الحسينى كما جاء فى آخر المخطوطة) .

وملأه وناوله إياه فقال له : «أملاك الله يا محمد ، اذهب إلى مصر» فأخذه الحال حالا وترك الديار وتوجه لمصر والتحق بالجامع الأزهر[1] وتلمذ فى الأزهر على كل من الشيخ أحمد شهاب الدين الشهير بالبنا الدمياطى والشيخ محمد بن داود العاقى والشيخ محمد البقرى المقرى ، فجد واجتهد وبلغ فى العلم النهاية حتى أصبح قطب زمانه فى التدريس والافتاء ، وشاع صيته فى المدن والقرى وبين البدو ، بل صار فى مرتبة الأولياء العظماء الذين يتبرك الناس بهم ويحفظهم حتى اليوم ، وقد أجازه الشيخ عبد الغنى النابلسى[2] الشهير وأطرى مواهبه وأثنى عليه . ونعته «بفخر العلماء الصالحين ومصدر الفضلاء المدرسين كهف الطالبين وعمدة الفقهاء الكاملين فى مراتب اليقين الشيخ الإمام والحبر البحر الهمام علامة البلاد القدسية فهامة الحضرة الأنسية محمد الخليلى القدسى الجليل المعروف نسبه الطاهر وحسبه الظاهر» . كما أخذ الطريق القادرية عن شيخ السجادة بحماه المحمية الولى الهمام الشريف ياسين صاحب النفحات العالية ، وعاد إلى بيت المقدس سنة ١١٠٤ هـ وسكن بها فى المدرسة البلدية[3] .

وأخذ يدرّس فى الحرم القدسى فى الغرفة التى تقع شمال الصخرة المشرفة من جهة الغرب ، ويعظ وعظا يلين القلوب ، ويكثر من المبرات ، فكثر مريدوه وطلابه وأعوانه ، واشتهر بأن دعوته مستجابة ، وأقبلت عليه الدنيا ، وصار يجمع بين

(١) كذا فى المرادى . أما الحسينى فيقول إنه توجه إلى مصر بإشارة شيخيه الشيخ حسن الغزال والشيخ شمس الدين القبيبى وقص الحكاية ذاتها ، ونحن نرجح رواية الحسينى .

(٢) رحل الشيخ عبد الغنى النابلسى رحلته المشهورة من دمشق إلى القدس سنة ١١٠١ هـ وقد طبعت هذه الرحلة فى مصر طبعة مختصرة سنة ١٩٠٢ فى مطبعة الاخلاص (كتاب الحضرة الأنسية والرحلة القدسية) طبعها ديترى أفندى قتولا .

(٣) ظل آل الخليلى يسكنون هذه المدرسة إلى سنة ١٩٢٧ أى حدوث الزلزال فى فلسطين .

العز الحسينى والوجاهة الدنيوية وبعد النفوذ ، وجمع ثروة طائلة وبنى قصرين لخمين فى جوار بيت المقدس واقتنى الأملاك الشاسعة فى القدس ويافا والخليل .

ويقول السيد الحسينى إنه رأى على هامش كتاب «الإصابة فى أسماء الصحابة» كتابة بخط الشيخ يقول فيها : إنه رأى الخضر فى منامه مراراً ، ويرجع الشيخ مقدرته العلمية إلى أنه قال للخضر يوما فى منامه : «أسألك العلم» فحثا له ثلاث حثيات ، فصار يتكلم من العلوم ماشاء . ويقول الشيخ : «إننى توجهت للحج سنة ١١١١ هـ ونهب الحج ونهبت معه ، وكان منى مال ربما بلغ خمسة عشر كيسا وبعض أمانات للناس نحو ألف وستمائة قرش ، فأضمرت أن لو قدرنى الله على سدادها أن أسدها من مالى . فتراءى لى الخضر أبو العباس فى المنام قائلا لى : «رضناك على الناس كلهم ونادينا لك بذلك فى مشارق الأرض ومغاربها» ويقول : «إن الله قد حقق قولى فى الوعدين ، فأما الدين فقد كان عندى حمل بن كنت أرسلته من مصر إلى بيت المقدس ، فكان يساوى ٢٥٠ قرشا ففتحته وأخذت أبيع منه وأسد الأمانات لجمع منى ٦٠٩ قرش . وأما الأمر الثانى فوالله لو رمينا أحداً سهماً فى الشرق أو الغرب لأصابه ومزقه كل ممزق إذا كان من المستحقين . وما تكدر خاطرنا على أحد خالف وأفلح» انتهى بخطه .

واشتهر بين الناس باستجابة دعوته : من ذلك أنه أرسل إلى بعض العرب وقد أخذوا زيتا للشيخ كان محملا على بعير وحمارة يقول لهم : «البعير بالأمير والزيت بصاحب البيت والحمارة بغارة» . فما أصبح الصباح حتى وقع ما وقع بعين ما قال وخلت الديار من الفجار . ومن ذلك أيضا أنه دعا على رجل بالشنق فشنق نفسه بنفسه بأن وضع مخدات تحت قدميه ثم وضع الحبل فى عنقه وأزاح المخدات إلى جهة الخلو فكان حتف أنفه . ومن ذلك أيضا أنه دعا على عرب التعامرة (قبيلة شرقى بيت المقدس) حين آذوه على طريق الخليل ، دعا عليهم بالنار ورجم الحجارة وحرق النار فى بيوتهم فى الليل والنهار ، حتى أتوه واستغفروه ، فعفا عنهم . كذا فى المرادى فى أعيان القرن الثانى عشر ص ٩٥) .

وكان من عادته أن يختم البخارى فى مقام النبى موسى (١) شرقى بيت المقدس ، وله فى المقام غرفتان بناهما ، وله فى ذلك قصة ذكرها المرادى والحسينى ، وهى أنه عندما كان يزور مقام النبى موسى ويقرأ دلائل الخيرات سمع صوتاً يقول له : «عصبة النسب مقدمة على عصبة الولاء» ففهم المراد وهو أنتم منسوبون لمحمد كعصبة نسب لقوله صلى الله عليه وسلم : «أمتى عصبتى» ولغيره كعصبة الولاء .

وقد التقى به الشيخ مصطفى البكرى الصديقى (٢) وتتلمذ عليه مرارا واستمع إلى دروسه فى خلوته (٣) على الصخرة شمالى قبة المعراج كما اجتمع به فى مقام النبى موسى . وقد اجتمع به أيضا فى رحلته الثانية «الخطوة الثانية الانسية للروضة الهادية القدسية» فى حرم على بن عليل (٤) ووصف موكبه قائلا : «بينما كنا نسرح الطرف فى ذلك البر والبحر المحروس ، إذا أعلام وإشارات فى السهل بادية ، وخيول تتجارى فقلنا أسود ضارية ، فجاء الرفاق واصطفوا للفرجة اصطفافا ، فقيل الشيخ محمد الخليلى قدم للزيارة من يافا ، فنزل للقائه الأكثر فرحين بقدومه الأزهر ، واستقبلناه بالجمعية فقال : إنى لما قيل لى فلان هناك أسرعت بالزيارة» .

(١) بنى هذا المقام الذى لا يزال للآن الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨ هـ .

(٢) صاحب (الخمرة الحسية فى الرحلة القدسية) الخ ١١٢٥ هـ (وهى مخطوطة عند كاتب المقال) قام صاحبها بهذه الرحلة بعد عبد الغنى النابلسى بربع قرن تقريبا .

(٣) تعرف بقبة خ خ .

(٤) من نسل عمر بن الخطاب على ساحل ارسوف شمال يافا وبه مقام ومشهد ومنارة ، وله موسم يقام فى كل سنة ، وقد جددت عمارته سنة ٨٨٠ هـ .

وفي سنة ١١٤٣ هـ قام الرحالة مصطفى أسعد اللقيمي الحسني سبط بن غانم المقدسي برحلة من دمياط إلى القدس فدمشق ، وكتب كتابا أسماه « سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس »[1] وقد ذكر الشيخ مصطفى اسم المترجم وأثنى عليه ونزل في قصره في البقعة[2] في جنوبي بيت المقدس وزار معه مقام أبي ثور[3] .

وأطل من قصر الشيخ على الوادي إلى شرق البقعة ، وكان بهذا الوادي قصور وبساتين محاها توالي الأيام وتعاقب السنين فقال الشيخ اللقيمي في ذلك :

قفا بي على الواد المقدس برهة
لأندب أطلالا وهت وقصورا
ولا تعـــذلاني إن بكيت تأسفا
فقد أورثني قبل ذلك سرورا
سقى الله منها معهدا قد تركته
قرأت به للعارفين سطورا

(١) من مخطوط عند كاتب هذا المقال وهي رحلة شائقة تصف فلسطين في أواخر القرن الثاني عشر .

(٢) جاء ذكر هذا القصر في وقفية الشيخ الخليلي المؤرخة في ١١٣٨ هـ والمسجلة في المحكمة الشرعية بالقدس ، وقد هدم هذا القصر في عهد ابراهيم باشا واندثرت أحواله . أما القصر الثاني الذي بناه الشيخ في كرمة باب الساهرة فلا يزال قائما ، وهو الآن قرب عمارة المتحف الفلسطيني الذي تبرع به روكفلر ، وقد بناه سنة ١١٢٣ هـ وكلفه ألف غرش أسدي . وبقربه شجرة حب قريش (صنوبر حلب) زرعها الشيخ ، وهي من أجمل وأعظم أشجار فلسطين . وقد ذكر الشيخ في وقفيته أنه لما رأى اهتمام الأفرنج في بيت المقدس عزم أن يبني هذين القصرين ، وهو ينصح بأن يتبع المسلمون على منواله دفاعا عن بيت المقدس وحتى لا تقع هذه المواقع بيد غير أهلها وأن تحاط المدينة بالقلاع والحصون .

(٣) دير أبي ثور (وتعرف المحلة الآن بدير أبي طور) وهي إلى جانب البقعة من جهة قرية تعرف بدير أبي ثور وهي قرية صغيرة بها دير من بناء الروم يعرف قديما بدير مارقوس ثم عرف بدير أبي ثور نسبة للشيخ أحمد الشهير بأبي ثور وكان صالحا ، وقد وقف الدير عليه وعلى ذريته الملك العزيز أبو الفتح عثمان بن الملك صلاح الدين في سنة ٥٩٤ هـ وبها توفي الشيخ أحمد أبو ثور ودفن بها وقبره موصوف يزار ويتبركون به وله ذرية معروفون وبعضهم مقيم بالقرية المذكورة (كذا في الأنس الجليل ص ٤١٠) .

وقد جاء ذكر المترجم مرة أخرى في رحلة اللقيمي المخطوطة عند زيارته لمقام النبي صموئيل بحمى رامة شمال غرب بيت المقدس[1] ما نصه بالحرف الواحد :

« وقبره أي صموئيل بقرية رامة ظاهر القدس الشريف من جهة الشمال على طريق السالك ، وكان هذا المقام تحت يد اليهود يتعبدون به ويأتون إليه بالنذورات من الحلي والملابس والفرش ويضعونه في المغارة التي فيها قبر النبي صموئيل ثم يحرقون تلك الأمتعة تقربا بزعمهم في هذا المقام إلى أن ظهر أستاذنا ومولانا الشيخ محمد الخليلي بالقدس المحترم . ونفذت كلمته في تلك النواحي وصار أشهر من نار على علم ، فأمده الفيض الإلهي الرباني واستنقذه من أيديهم بخط شريف سلطاني ، وسد باب المغارة وبنى منارة عليه وأقام شعار المسجد ومنع اليهود عنه بالكلية ، فصاروا لا يأتون إليه إلا خفية وهم خائفون ويقفون خارج المسجد وأما دخوله فلا يستطيعون . » انتهى .

ومن مآثر الشيخ الخليلي ما رواه الشيخ اللقيمي في رحلته المخطوطة عند زيارته ليافا مارا بقرية يازور[2] قال الشيخ اللقيمي : « ثم في تالي الأيام وقت الصباح ورد حضرة مولانا الشيخ الخليلي وصحبته جماعة من أهل الصلاح قاصداً مدينة يافا بعزمه الشديد لاتمام عمارة مسجدها الجديد » .

وللشيخ محمد الخليلي وقفية يحسن أن نأتي على وصف مختصر لبعض ما جاء فيها لأهميتها ، ولأنها تعطينا صورة عن

(١) هذه قرية شمال غربي بيت المقدس بها مقام النبي صموئيل ، وبه مسجد ومنارة وهو على جبل منيع كان من المواقع التي دارت حولها معارك عنيفة بين الأتراك والانجليز في أوائل الاحتلال سنة ١٩١٧ . وقد هدمت منارة الجامع من جراء ضرب المدافع وأعيد بناؤها بعد الحرب الكبرى .

(٢) تقع هذه القرية خارج يافا على يمين السالك اليها من القدس ، وقد خرج من هذه القرية الوزير أبو محمد اليازوري وزير المستنصر بالله الفاطمي .

من هنا وهناك :

سمـــوم ...

من ذا الذى لا يتذكر لفافته الأولى ؟ تلك اللفافة التى أشعلها بيد مرتعشة مرتجفة ، فى غفلة من الرقباء ، تحت تأثير غريزة كامنة باطنة هى ، غريزة المعرفة وحب الاستطلاع . لقد رأى الكثيرين من حوله يتسامرون ويتحادثون وبين أصابع كل منهم لفافته ، ينساب منها دخان أزرق يتلوى فوق رءوسهم على تموجات الهواء ، ويصنع هالة كثيفة تصطخب حولها الأحاديث وتتولد منها شتى الموضوعات . لقد رأى الكثيرين يستمتعون بجلسات هادئة فى ليالٍ صافية ، وقد ازدادت متعتهم عند ما أشعل كل منهم سيجارته وأخذ ينفث دخانها فى سحب متتابعة . لقد سمع الكثيرين يتحدثون عن سحر السيجارة وكيف تساعد فى خلق الأفكار النيرة فى الرأس المفكر ، ثم من عملها فى تهدئة الأعصاب المضطربة فى النفس الثائرة .. لقد سمع بأذنه ورأى بعينه ... وها هى ذى الآن غريزة المحاكاة تشترك مع غريزة حب الاستطلاع فى حثه على تقليد رفقائه والتشبه بهم . فتراه يشعل لفافته ويحتال على الاستمتاع بلذتها . ولكنه يرى منذ النفس الأول أموراً لم يكن يتوقعها ، ولم تخطر له على بال . فها هو رأسه يدور وعينه تدمع وتعشى عما حوله . وها هى ذى الأرض تميد تحت قدميه ، فيسعى إلى أول حاجز يستند عليه طلباً للعون والمساعدة . وكلما تمادى فى تدخين لفافته المحترقة ازدادت غشاوة عينيه وعظم دوار رأسه . . . وأخيراً يرى أن محاولته الأولى قد باءت بالفشل . وأنه لا بد من تجربة ثانية فى فرصة أخرى تكون نتيجتها أرفق ولذتها أعظم . فإذا ما عاود الكرة بعد أمد قصير ، أحس أن الدوار الذى ألمّ به فى المرة الأولى قد خفّت حدته ، وأن الغشاوة التى حجبت الأشياء

تلك الشخصية الكبيرة وتذكر لنا شيئاً عن ذلك القرن : فالوقفية عرضها ٤٠ سم وطولها ١٩١ سم وقد كتبت بالخط الرقعى وتاريخها غرة شعبان سنة ١١٣٨ وقد كتبها السيد محمد صنع الله الخالدى نائب القدس فى ذلك الحين .

بعد المقدمة الفقهية فى بيان صحة الوقف ولزومه بادر إلى أحب الأموال إليه وأشرف ما يملك فصدر بها وقفيته ، وأسس خزانة كتب فى بيت المقدس ، وقد ذكر من جملة دوافعه لتأسيس هذه المكتبة أن تكون هذه الكتب ذخيرة ينتفع بها أهلها حتى لا يجرى بها ما جرى على غيرها ، مع أن بيت المقدس يجب على أهله زيادة الاعتناء بأمر الدين والتنافس على تحصيل العلوم والكتب لأنهم فى بلاد مقدسة يتنافس عليها الأفرنج ؛ فنها مصاحف ثمينة وكتب فى الفقه والتفسير والتوحيد والحديث والسيرة والتصوف والأدب والرياضات والتاريخ . واشترط أن لا تباع ولا توهب ولا ترهن ولا تهدى لأحد من الحكام أو الأعيان . وأقام عليها ناظراً وأمر بتجليدها وأن لا تعار الكتب إلا لطلبة العلم المشهورين بالصلاح ، وأن لا تعار إلى من اشتهر بتضييع الكتب وإتلافها ، وأن تبقى هذه الكتب فى المدرسة البلدية ، ثم جاء بعد ذلك على ذكر أوقافه وأملاكه الخ .

ومن مؤلفاته فتاوى كبرى فى مجلدين تعرف بالفتاوى الخليلية ، وصغرى فى مجلد على مذهب الإمام الشريف ابن إدريس ، وبعض رسائل بهية وتحريرات زهية . وقد توفى الشيخ الخليلى سنة ١١٤٧ هـ على رأى المرادى و ١١٤٩ هـ على رأى الحسينى . وقد رثاه تلميذه السيد مصطفى الصديق بقصيدة مطلعها :

أيها اللذات فى حى اللذات قبلى
فلقـــد آنّ لى لدنيا مقبلى

(بيت المقدس) **أحمد سامح الخالدى**

عن نظره قد تلاشت . ولكنه يشعر أن اللذة ما زالت بعيدة عن حسه وأنه لا يستسيغ لفافته طعما . وهكذا تجر اللفافة الأولى لفائف أخرى تنتهي به إلى الإدمان .

وبعد ، فليسمح لي هذا المدمن أن أوجه إليه السؤالين الآتيين : « هل كان يعلم أن من العسير عليه — بل من المستحيل — أن يرجع عما تعوده ؟ وأن الصعوبة في ذلك تزداد على مر الأيام والسنين ؟ » ثم : « هل كان يدرك منذ اللفافة الأولى الضرر الذي سيلحقه من إدمانه ؟ وهل إرادته القوية ، وعزيمته الصادقة ، تضمنان له دوام الامتناع عن التدخين إذا شاء ؟ أم تراه لا بد عائدا إليه مهما أوتي من قوة الإرادة والعزيمة ؟ » .

إن الإجابة على هذه الأسئلة تكاد تكون متشابهة بين معتادي التدخين . فالإنسان بطبيعته معتدٌّ بنفسه ، فخور بخصاله الجيدة يكبرها ويعتمد عليها في وقت يتناسى فيه ضعفه الإنساني . فانظر إليه وهو يقول : « إني أضرب عن التدخين في أول فرصة أختارها » ، وربما أخذه الشك في مقدرته على تنفيذ أقواله فيضيف « ولكن علام الإسراع في التنفيذ وما زلت بصحة جيدة ؟ ومع ذلك فكثيرا ما سمعت أو قرأت أن أغلب المعمرين الذين جاوزوا المائة يدخنون ، بل هم من مدمني التدخين منذ حداثة سنهم . فإذا كان هناك خطر على صحتهم ما عمّروا أو عاشوا كل هذه السنين . »

وهنا يخطر على ذاكرتي حادث فتاة انجليزية كانت لفافتها الأولى سببا في موتها . وتفصيل الخبر أن الجرائد الانجليزية نشرت في أحد أيام عام ١٩٣٧ قصة فتاة من سكان لندن كان جسمها من الضعف بحيث لم يقدر على تحمل مفعول « نيكوتين » اللفافة الأولى فقضت نحبها وما زالت السيجارة تحترق بين أصابعها .

ولمّ السعي وراء أخبار يشوبها الشك وكانا يعلم قصة الدكتور فوكيه الذي كان يرفض معالجة مريض إلا بعد أن يُشفى من مرض التدخين ، زاعما أنه أساس كل مرض ومصدر كل اعتلال . لا ريب أنه كان محقاً في تصرفاته مع مرضاه . فالنيكوتين في خواصه لا يختلف عن المورفين أو الهيروين أو الحشيش . فكلٌّ منها كريه المذاق في مبدئه ، لا لذة له ولا طعم ، ثم يصبح على مرّ الأيام مقبولا ، وأخيراً ينقلب إلى لازمة لا بد منها كالطعام أو الشراب .

ولعلّ من ألطف النوادر التي تدخل في هذا الباب ، نادرة الطبيب الذي قال لمريض حين وجده هزيلا بسبب التدخين : « إن فيك ياصاحبي ثلاث مزايا : فلن يعضك كلب ، ولن يسرق اللص بيتك ، ولن تشيب لحيتك . أما الأولى فلأن التدخين سوف يضني جسمك وينهك قواك فتلتمس العصا لتتوكأ عليها ، فتتحاشاك الكلاب ! وأما الثانية فلأن اللص كلما همّ أن يتسور المنزل وجدك يقظا مشعلاً لفافتك أو مضطجعا تسعل فيتهيب الدخول ويعود من حيث أتى ! وأما الثالثة فلأنك لن تعيش حتى تشيب لحيتك ! !

* * *

إن اللفافة على صغر حجمها تحوي سموماً تفتك بالجسد ولا يكاد يسلم من ضررها جزء من أجزائه . فخلايا الأعصاب تصاب تدريجيا بشلل أو تخدير مميت يعوقها عن القيام بوظائفها . وبذلك تتجمع سموم التبغ في الأنسجة الحيوية حيث يعظم الضرر ويشتد الخطر . وإذا ما حللنا التبغ إلى عناصره الأولية وجدناه يحتوي على مادة شبه قلوية تعرف بالنيكوتين ، وعلى عناصر أخرى نذكر منها حامض الهيدروسيانيك Prussic acid والنشادر وحامض الكبريتيك والبترول . ولا يفوتنا أن نذكر تلك الغازات التي تتولد باحتراق ورق اللفافة وهي تحتوي على نسبة كبيرة من غاز أول أكسيد الكربون .

فانظر إلى تلك المواد والغازات مجتمعة متضافرة للتأثير على الرئة والأعصاب . فبينما نعلم أن عدد دقات القلب هو

الثانى وسبعون دقة فى الدقيقة لدى الشخص السليم ، نرى ذلك العدد يرتفع تحت تأثير التبغ إلى مائة أو مائة وخمسين دقة فى بعض الأحايين . ومن البديهى أنه كلما زاد عدد دقات القلب ، ضعفت الدورة الدموية ، وضعفت معها مقـاومة الجسم لشتى الأمراض . ولا نبالغ فى شىء إذا قلنا إن مرض السل هو نتيجة غير مباشرة للتدخين .

أما من غاز أول أكسيد الكربون فمفعوله ثابت لدى العلماء بتأثيره على كرات الدم الحمراء ووظيفتها فى توزيع الأكسجين لأعضاء الجسم المختلفة . وبجانب هذا وذاك نرى تأثير النيكوتين على القنوات الهضمية وتسببه فى فقد الشهية للطعام ، وهزال الجسم ، وضعف القوى .

وبعد ، فإن أضرار التدخين قل أن تحصى تحت عدد ، والأمراض التى يتعرض لها الجسم بسبب الإدمان متعددة متشعبة . ولكن من الإنصاف أن نقول إن تركيب بنية الإنسان يختلف من شخص إلى آخر . والمرض الذى يفتك بشخص ما ، يتحمله شخص آخر فلا يؤثر عليه تأثيراً مميتاً . وعلى كل ، وسواء كان التأثير مميتاً أو غير مميت ، فإن الجسم تضعف مقاومته للأمراض إذا ما أدمن صاحبه على التدخين .

ولا أستطيع أن أختم هذا الموضوع دون أن أذكر حادثة وقعت لى شخصيا منذ شهر مضى :

كنت أسير ذات يوم مع صديق لى فى أحد شوارع القاهرة . وكان صديقى هذا مولعاً بالتدخين لا تكاد اللفافة تفارق شفتيه ، وبينما نحن نتحدث أقبل علينا شاب وجيه الهيئة ، حسن اللبس نظيفه ، اعترض سيرنا قائلا : « أرجو المعذرة إذا قطعت عليكما الحديث . لقد لاحظت أنى نسيت سهواً حافظة نقودى فى المنزل وأستطيع أن أرجع إليه لأحضرها مشياً على الأقدام ، فهو على مسيرة نصف ساعة من هنا . ولكنى فى أشد الحاجة إلى لفافة أدخنها . فلا تؤاخذانى إذا طلبت من أحدكما لفافة ! . . »

عجيب جداً أمر هذا الشاب الذى سولت له نفسه وجعلته يبسط يده ويستجدى لفافة ممن لا يعرفهم ولا يعرفونه ! أتتحكم العادة فى الإنسان إلى هذا الحد ؟ . . . حد الاستذلال والعبث بالكرامة ؟ . . .

محمد أحمد أمين

حول الشعر المهموس

كان جميلاً من الأستاذ محمد مندور أن يختار قصيدة ميخائيل نعيمه « أخي » ليتخذها مثالاً للشعر المهموس ، وكان جميلاً منه أيضاً هذا التحليل الموفق لمظاهر الفن فيها . وكنا نرجو وقد أراد المضي في تقديم أمثلة أخرى أن يلازمه التوفيق في اختياره ، فيقدم لنا نماذج صالحة لهذا الأدب الرفيع ؛ ولكنه قدم لنا في هذه المرة قصيدة لنسيب عريضه لا تمت إلى الشعر المهموس بسبب ، وراح يصفها بأنها من أروع الشعر ؛ وشتان بين همس مبعثه الشجي وآخر مصدره الضعف ، وفرق بين آهة الحزين وأنات المحتضر .

ومن العجيب أن يتخذ الأستاذ من هذه القصيدة مثالاً لتجديد شعراء المهجر في موسيقى الشعر العربي ، وأن يرى أن مصدر هذا التجديد هو اتخاذ المقطوعة وحدة للقصيدة بدل البيت ، فإن هذا شيء قديم نجده كثيراً في الموشحات ، وقد نظم فيه كثير من شعرائنا المعاصرين ، ولو أردنا أن نقدم الأمثلة لضاق بنا المقام . ولكن هل أصبحت المقطوعة حقاً وحدة هذه القصيدة ؟ إن في آخر كل شطر منها سكوناً بغيضاً يقطع عليك أنفاسك وأنت تريد أن تمدها لتتم المعنى والموسيقى ، فالشاعر لم يدع لك الحرية في أن تلحق شطراً بشطر كما تستطيع أن تفعل في الشعر التقليدي ، فليست الوحدة إذاً هنا من ثماني تفعيلات كما يقول الأستاذ ، وإنما هي من اثنتين اثنتين فحسب .

والأستاذ مفتون بدقة إحساس الشاعر التي هدته إلى مجزوء الكامل ليصوغ فيه قصيدته ، لأنه لا يدخل فيه من الزحاف ما ينقص شيئاً من كم التفعيلة ، وهو لا يرى فرقاً بين (متفاعلن) و (مستفعلن) ، وهذا شيء عجيب ! فإن (مُتَفا) غير (مُسْ تَفْ) ، فتلك درجة واحدة وهذه درجتان وإن تساوى طول المقطعين . وهو يذكر أن الاطراد في الكامل والهزج (يخلط الأستاذ في التسمية بين الهزج والوافر) هو سر الجمال في هذه القصيدة ، لأنه يلائم الإعياء والحيرة . ومن الغريب أن يرى الكاتب في اتساق الموسيقى وسلامتها التامة مظهراً للجمال ، وهو قد عاب أسلوب الأستاذ الزيات بمحافظته الشديدة على الموسيقى وحرصه على المزاوجة التي لا خلل فيها بين أجزاء الكلام ! وكأني به إذاً لا يعجبه إلا نقرات الطبل وإيقاع الزنوج ، لأن أنات السكون فيها الطويل والقصير وفيها الحاد والغليظ ، فهي لا تمثل الإعياء والحيرة ! إن هذا يسوقنا إلى الحديث بوجه عام عن مذهب الأستاذ في موسيقى الشعر وبحور العروض ، فهذه الأوزان كقواعد الضرب على الآلات الموسيقية لا يصح أن نتخذ مقياساً لبراعة الفنان . حقاً أن بعض البحور يلائم بعض الأغراض ، ولكن مجال الاختيار في ذلك ضيق محدود ، وليس من الصعوبة بحيث يتخذ دليلاً على تفاوت العبقريات . على أنه من العسير أن نزعم أن وزناً من أوزان الشعر لا يلائم إلا غرضاً واحداً ، فالشاعر قد يبدأ حزيناً يائساً ، ثم لا يزال الأمل يمشي في قصيدته حتى ينتهي بها مرحة راقصة ؛ والبحر في كل ذلك لا يعجز عن تصوير كل هذه الحالات . وقد يكون اختيار البحر ألزم في الشعر المسرحي لما يتطلبه من إلقاء خاص وتوزيع للكلام في الحوار .

ولكن مجال العبقرية الحق ليس في هذه التفعيلات المحدودة المعروفة ، وإنما هو في الموسيقى الخفية التي تنساب في الشعر فنحسها دون أن نحددها . هي موسيقى من الحروف والألفاظ والعبارات والمعاني أيضاً في كثير من الأحيان ، واستمع إلى قول الشاعر :

محجوبة سمحت صـــوتى فأرّقها
فى آخر الليـــل حتى شفها السهر
تُدنى على جيدها يُمْنَيْ معصفرة
والحلى منهـــا على لبَّاتها خصر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق
فدمعها لطروق الصـــوت منحدرْ
لو خُلَّيَتْ لمشت نحـــوى على قدم
تكاد من رقـــة الممشى تنفطر

ثم استمع بعد ذلك إلى قول البوصيرى :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإنْ تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن تولّيه
إن الهوى ما تولى يُصم أو يصم
وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإنْ هما محضاك النصح فاتهم

فالقطوعتان من البسيط ، ولكن انظر كيف تكاد الأولى تدفعك دفعاً إلى أن تتغنى بها وكيف تحس فيها موسيقى خفية جميلة غير موسيقى الوزن والتفعيلات ، بينما تتعثر الكلمات بين شفتيك عند قراءة القطوعة الثانية . فليس الأمر إذاً أمر بحور وعروض ، وإنما هى روح الشاعر ومقدرته على الملاءمة بين الحروف والكلمات والعبارات والأفكار ، وبراعته فى إيراد المعانى التى تثير النفس وتحملها على استعداد للاحساس بما يصاحب هذه المعانى من موسيقى وإيقاع . ولنمض بعد فى تحليل جزئيات القصيدة لنرى هل وفق الشاعر إلى اختيار الألفاظ والعبارات الموحية الحاملة لشحنة من العاطفة كما يقول الكاتب . فهو يقول فى القطوعة الثالثة : «ما سور جسمى بالتين » وهــذه عبارة أحس الابتذال فيها إحساسا قويا بإضافة السور إلى الجسم ، ولو قال مثلا : « ما جسمى بالسور المتين » لكانت أقل ابتذالاً وأخف موقعاً .

على أننا نختلف مع الاستاذ فى أمر الألفاظ وقدرتهـا على الإيحاء ، ولا شك أن كلمة « سياج » توحى للقارئ بمعانى الانغلاق والقوة أضعاف ما توحى به كلمة « السور » . ولا بد أن نقدر اطلاع الأديب فى هذا المقام حق قدره ، فإن قراءته للنصوص الأدبية تحدد لديه مدلولات الألفاظ وتكسبها إيحاآت ذهنية تفوق بكثير إيحاآت الألفاظ التى يسمعها كل يوم فى حياته العادية . فالكلمات اليومية تكاد فى أغلب الأحيان تفقد قدرتها على الإيحاء ، لكثرة مرورها على الذهن فى غير مناسبة عاطفية أو خيالية . أما الألفاظ فى الأدب فإنها تنتقل إلى القارئ بما يلابسها من عواطف الشاعر وخياله فتستقر فى الذهن ، وإيحاؤها يكاد يكون جزءاً منها .

ويقول الشاعر :

يانفس مالك فى اضطراب كفريسة بين الذئاب
هلا رجعت إلى الصواب وبدلت ريبك باليقين

فانظر كيف صور فى البيت الأول الاضطراب بصورة بالغة القوة والتأثير ، ثم انظر بعد كيف ضعف ضعفا بينا فى البيت الثانى ، فالشطر الأول منه أسلوب منثور يوحى إليك بقولهم « الرجوع إلى الحق فضيلة » . ثم ما محل الصواب هنا وهو إنما يريد الرجوع إلى الأمن والسكينة والسلام ؟ وفى الشطر الثانى غلط لغوى فى « بدلت » وصوابها بالهمز أو التضعيف . ويقول :

أحمامة بين الرياح قد ساقها القدر المتاح
فابتل بالقطر الجناح يانفس مالك ترجفين

والرياح توحى بالزوابع والعواصف ، والقدر المتاح يصور الهلاك والدمار ، والرجفة تبين عن الخوف والفزع ، فأين موقع الشطر الثالث من هذا كله «فابتل بالقطر الجناح » ؟ أهذا كل ما استطاعت أن تصنعه الرياح والقدر المتاح بالطائر

الضعيف ! ثم انظر إلى كلمة القطر كيف تبدو ضعيفة نابية في مكانها ، ولو قال « قد هيض بالوبل الجناح » لوافق ذلك في القوة سائر المقطوعة . ويقول في القطعة التالية :

أو ما لجزيك من براح حتى ولو أزف الصباح

ولا شك أن الركاكة والعامية تبدوان بوضوح في « حتى ولو » . وما باله يقول : « أزف الصباح » وأزف معناها دنا وقرب ، أفما كان الأجدر أن يضع مكانها « طلع » فذلك أدعى لراحة النفس وطمأنينتها ، والنفس المضطربة المنتظرة تكون في أقصى قلقها عند اللحظات الأخيرة من الانتظار .

ولست أدرى ما علاقة الأرواح بالقتام ، وكيف تستطيع هذه الأرواح أن تسبي نفس شاعر من خلال الغبار « أسبتك أرواح القتام » أفما وجد الشاعر لأرواحه ستارا غير التراب المتطاير في غير موجب ولا طائل ؟

ثم تأتى بعد ذلك سلسلة الفروض التى تنتزع من الكاتب إعجاباً لا حد له ، والتى تذكره بنغمات أفلاطون الشعرية الجميلة يوم حدثنا عن هبوط النفس من عالم المثل ، ولكن أيكون مجرد هذه الذكرى باعثا للشعور بالجمال والفن في الشعر ؟ ألأن الشاعر سائل نفسه هل شاقها الرجوع إلى عالم المثل ، فقد أتى بما يستحق عليه الثناء ، كذلك قالوا عن أبي تمام إنه فيلسوف أو درس الفلسفة لأنه وصف الخمر فقال :

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء

وهذا مذهب خاطئ نجل الأستاذ أن يأخذ به ويغض النظر عن صياغة الفكرة وتصويرها . وهذه التصورات العقلية التى يعجب بها الكاتب ليس فيها أثر للعاطفة أو الانفعال ، وكلها فروض قد يعجبك منها خيالها ، ولكنها لن تمس من نفسك ما يثيرها ! على أن الشاعر يضطرب في آخرها وتختلط عليه فكرته فلا يحسن التعبير عنها . فهو يقول إن نفسه قد حطت رحلها عند آل . وهذا معناه أن النفس قد حسبت ذلك الآل غايتها فحطت رحلها عنده ، وإن خيب أملها فيما بعد . فكيف يعود فيقول :

قضيت قصدك والطلاب ووقفت يخذلك السراب

أليس هذا السراب الذى تخيلته ماءً هو غايتها ؟ أليست قد قدرت فيه الرى الذى تنشده فحطت رحالها عنده ؟ فما وجه الذهول في هذا المكان والنفس قد هراقت ما في السقاء لاعتقادها أنها بلغت المورد الروى ؟ ثم يأتى البيت الأخير :

غيبت رأسك كالنعام في رمل قلبي تحفرين

والكاتب ينبهنا إلى جمال « رمال القلب » المحطم ، ولو أنصف لقال المطحون ! وأى قلب هذا الذى يستحيل إلى رمال إلا أن يكون قد قُدَّ من صخور الجبال . وأية صورة مضحكة هذه التى رسمها الشاعر لنفسه ، النعامة وهى تدس رأسها بين رمال قلبه !

وبعد . فهذه جزئيات من القصيدة لا تكاد تصور بعدها عن الروعة والجمال ، وإنما هو يحس إحساساً في موسيقاها ومعانيها وعواطفها . وحسبك أنك لن تخرج منها إلا بمجموعة من الصور صاغها الخيال لا نصيب لها مما وعته قصيدة ميخائيل نعيمة من الحس الشجى البليغ .

(مكتبة الجامعة) **عبد القادر القط**

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لسنة أشهر:
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

رسائل ! — وسائل ... — الكتب المترجمة — وحدة الشخصية ! ... ...

رسائل !

كثرت إلىّ رسائلُ القراء ، يسألوننى الرأىَ أو يعارضوننى ؛ وأحبُّ إلىّ بأن أكون موصول الوداد بالقراء ، وأحبُّ إلىّ بأن أجيب كل سائل ، وأناقش كل معارض ، وأردَّ كل تحية ، وأستغفر لكل خطيئة ؛ وأن يتصل بينى وبين كل قارئ « بريدٌ خاص » إلى هذا « البريد العام » الذى تحمله إليهم « صحيفتى » فى كل أسبوع ...

... أحبُّ إلىّ ولكن ... أين منّى ما أريد وأين منهم ؟ ...

... أتراهم يدرون أين مكانى من الناس وأين مكانهم منى ، وهذه « الحياة الاجتماعية » التى نحيا تفرض علينا ما تفرض من تكاليف وتكبّلنا بما تكبّل من أغلال ؟ ...

... أم تراهم يحسبون أن كل مَن يستطيع أن يقول فهو قائلٌ ، وكل مَن يستطيع أن يكتب فهو كاتبٌ ما يريد أن يقول وأن يكتب ؟ ...

... يا ليت ... ! إذاً لتخفّفتُ من أحمالٍ يضيق بها صدرى وتثقل على كاهلى !

ولكنى إذا لم أستطع أن أقول كل ما أريد أن أقول ، وأن أكتب كل ما أريد أن أكتب — فإنى مستطيعٌ أن آخُذَ نفسى بألا أقول ولا أكتبَ إلا ما أعتقد وأومن أنه الحق ؛ وما يبدى أحمل وزْر هذا « النفاق الصامت » ولكنها ضرورات الزمان وحكم المكان ؛ وإلى الله المعذرة !

فإلى الأصدقاء الذين قد يُغضبهم « صمتى » عن جواب ما سألوا أن يقدروا قبل أن يعذلوا ، ولعل الزمان يسمح يوماً أن نلتقى على رأى جميع !

وسائل ...

وكتب إلىّ صديق فلان يقول :

« ... أنت قد لفتّ نظرى يا صديق إلى مقال نشرته إحدى صحف المساء المحدودة الانتشار عن « المعاهدة والشباب » ، وقد أعجبتَ بالأسلوب ورافقتك الأفكار ، ولم تكن تملك غير ذلك ، لأن العنوان والتوقيع كانا يحملان لقبين علميّين ، فكاتب المقال هو الأستاذ وهو الدكتور كما يحدّث فاوست عن نفسه فى رواية جيته الخالدة ... ...

« ... أنت قد أعجبتَ بهذا كله ، ولكنك سائلى وجه الرأى فى هذه المقالة : ما مناسبتها ؟ وفى الكتابة عن المعاهدة وعن الشباب من أحد أساتذة الجامعة « الشبّان » : ما الدافع إليه ؟ ... ... »

وانتهى صديقى فى رسالته إلى تقرير رأيه وجواب ما سألته ؛ ولستُ مستطيعاً أن أنقل إلى قارئى ما رأى صديقى وما أجاب ، وإنه لصواب الرأى وجواب الصدق ، ولكن شيئاً هنا يُذكّرنى بشىء ...

... يُذكّرنى الحقيقةَ المؤلمة التى أكاد ألمس أسبابها فى كثيرٍ مما أقرأ لبعض أصحاب « العناوين » ... ؛ إنهم قد يكتبون شيئاً جميلاً ، ولكنهم لا يقصدون هذا « الجميل » لذاته ، وإنما يجعلون ذلك وسيلة إلى غاية ! ...

إن الدعوة إلى « البر » جميلة ، ولكنها من « الفقير » لونٌ من ألوان الاستجداء ؛ فكيف تراها إذا كان هذا الداعى لا يدعو دعوته إلا فى الجمع الحاشد من أهل الثراء

والتمغة وعلى صدره « بافطة » وعلى ظهره « بافطة » مكتوب عليهما « فقير إلى الله تعالى . . . ! »

أتراك ياصديق قد يئست ما قصدت إليه أم لا تزال في نفسك بقية ولا يزال لقارئ حق في الزيادة من البيان والإيضاح . . . ؟

ولكن في فمي ماء . . . !

الكتب المدرسية !

كتبت في العدد ١٩١ كلمة من الكتب المدرسية عنوانها « يا نصيب ! » ؛ وليست هذه الكلمة أول ما كتبت عن الكتب المدرسية ، ولن تكون – إن شاء الله – آخر ما أكتب ؛ وأحسبني قد كنت صريحاً كل الصراحة فيما كتبت ، جريئاً كل الجراءة على التقاليد ، حر الرأي فيما عبت وما اقترحت ؛ ولكن صديقاً – لا أعرفه ! – كتب كلمة في البريد الأدبي بالرسالة في العدد ٤٧٩ بإمضاء « سمير » يدعي دعوى ويعارض معارضة ويتهم تهمة ويتنكر في أساليب الجدل أسلوباً . . .

وأنا أزعم أني فيما كتبت بالعدد ١٩١ قد أبنت بوضوح كل ما قصدت إليه ؛ دع عنك ما كان في حديثي من الفكاهة والظرف . . .

لقد تساءلت : أليس بين رجال وزارة المعارف من تستطيع أن تفرض عليه إنشاء مثل هذه الكتب التي تستبق المسابقات من أجلها بين المعلمين ؟ . . . وأجبت فقلت : « بلى ، ولكنها تخشى التهمة بأنها تؤثر رجالها بالجوائز ، وإن بها لحرصاً على سمعتها وسمعة رجالها ! »

فأنا بذلك قد أقررت ما ذهبت إليه وزارة المعارف تنزيهاً لرجالها عن تهمة الاستئثار بجوائز التأليف .

ثم عدت فقررت رأيي في هذه المسابقات وما يمكن أن تنتج من الكتب « المصنوعة » ، وإن لي في « المسابقات » رأياً يعرفه صحابي ويعرفه كثير من قرائي .

ثم عبت « الطابع » الذي تنفرد به الكتب المدرسية ويباعد بينها وبين كل كتاب في المكتبة العربية . .

ثم خلصت من ذلك كله إلى النتيجة التي قصدت إليها ، فدعوت وزارة المعارف إلى إلغاء « الكتب المدرسية جملة ، لندع للتلميذ ومعلمه أن يبحثا عن مادتهما العلمية حيث يجدانها في أي كتاب بالمكتبة العربية ؛ فإن ذلك خليق بأن يحمل التلميذ على القراءة ، ويحمل معلمه على الابتكار والمشاركة في الإنشاء العلمي ، ويحمل المؤلفين على التجويد والمنافسة لا كتساب السوق العلمية . . . »

واقترحت مع ذلك أن يكون للوزارة عين في السوق ؛ فأيما كتاب ألفه مؤلفه وافياً بمادته ، محققاً للغاية منه – أجازته جائزة ، « اعترافاً بما عمل وتشجيعاً لغيره على أن يعمل ! » .

بالله ماذا فهم « سمير » من هذا الذي قلت فحمله على أن يكتب كلمة في الرسالة يزعم أني أرى أن يكون تأليف الكتب المدرسية احتكاراً أو وقفاً أهلياً على جماعة من ذوي الجاه والمنصب ، ويذكرني بكلام قلته له – أو يزعم أني قلته له – من عيوب « احتكار التأليف في وزارة المعارف » . . .

وماذا قلت اليوم غير ما يزعم أني قلته أمس ؟ . . . أين مين مقالي كله الكلمة التي أوحت إليه أني أريد أن يكون التأليف احتكاراً لذوي الجاه والمنصب ؟ . . . أذلك نموذج من « تأليفه » الذي يحب إليه الاشتراك في مسابقات « التأليف » ! .

ويمضي الصديق « المجهول » في احتجاجه لنظام السابقة فيقول : « على أن الوزارة لم تلجأ إليها إلا بعد دراسة وبحوث وعقد لجان واستشارة مجربين . . . »

وهي حجة طريفة كما قد يراها قارئها ، لا ، بل إنها ليست طريفة ؛ إنها تشبه حجة القروي الساذج الذي تكذب خبراً يرويه فيحتج لصدقه بأنه « منشور في

الجرائد » ! وهل تنشر الجرائد إلا الصدق القاطع ؟ ... فقيمَ التكذيب ؟ ... وهل تقرر وزارة المعارف نظاماً إلا بعد دراسة وبحوث ولجان تقطع بفائدته ؟ ... فقيم النقد ؟ .

وزعم « سمير » أنّ تَرْكَ المدارس والمدرسين « أحراراً » في اختيار مايشاءون من الكتب لتلاميذهم ، هو جرعة تُفسد الخلق والعلم . . . لأنّ . . . لأنى قلت ذلك في حديث ينسبه إلىّ ؛ ولعله صَدَقَ فيما نَسَبَ إلىّ ولكنه لم يحقّق ؛ وليس من العدل أن تقول لمن يخطئ فيما يرويه ، أو في فهم ما يرويه : كَذَبْتَ ! ولقد يكون « الصدق » أحياناً غيرَ « الواقع » ، مادام بين المتحدث والسامع من الفوارق العقلية مابين إنسانٍ وإنسان !

والذى أقوله لنفسى ، ولعل قائله له ففهمه على غير وجهه : إن تَدخُّل بعض ذوى الجاه من المؤلفين ، وتسلُّطهم على بعض مرءوسيهم من المعلمين ليحملوا تلامذتهم على كتابٍ دون كتاب — فيه مفسدة للعلم والخُلق . . . !

ففساد العلم والخلق هنا ليس سببه « الحرية » بل سوء استخدام هذه « الحرية » ، بل « ضَعْف الحرية » في العلم الذى نمى وأعمى ، وهذه مسألة أخرى لا تدخل في باب « الكتب المدرسية » .

أترى الصديق « المجهول » قد فَهِم ؟ . . .

ويغمزنى « الصديق المجهول » في آخر كلمه غمزة فيقول : « . . . أما إعجابى فبقدرة الإنسان — وهو الذى حارت البرية فيه — على الدفاع عن رأيين متناقضين : يدلى بأحدهما وهو يعمل في المدارس ، وبالآخر وهو يعمل في الديوان حيث اختيار الأعضاء للجان التأليف ! »

أما « التناقض » فقد بان وجهه ، وأما « اختيار الأعضاء للجان التأليف » فلا سبيل إليه بعدُ إذا كان الرأى هو إلغاء الكتب المدرسية جملة ؛ وإذا انفضّت السوق فلا بائع ولا مشترى ! ... أم تراه لم يفهم هذه أيضاً ؟ ...

. . . ولكني على أىّ حالٍ مسئولٌ أن أرفق بصديق . . . صديق الذى لا أعرفه . . . ! !

وحدة الشخصية !

وكتب « أحمد بدران » في العدد ٤٧٧ من الرسالة ، يقول إن كلمتى في العدد ١٨٨ من الثقافة عن « شخصية العامل وعمله » قد أخطرتْ في باله كلمةً أخرى للأستاذ عبد المنعم خلاف بالعدد ٣٧١ من الرسالة ، وإنها تشبهها روحا ومعنى ؛ ثم يسأل : أهذا من توافق الخواطر ؟

وإنى ليُرضينى عن نفسى تمام الرضا أن أكون وصديق الأستاذ عبد المنعم خلاف على رأىٍ سواءٍ في فكرةٍ تلتقى عندها « الحقيقة المؤمنة » في نفس كل مسلم ؛ والإسلام هو دين « الوحدانية » الخالصة ، وكما يتحقق معنى « الوحدانية » في المعبود يتحقق كذلك في « الشخصية » وفى « الحُكم » ؛ فليس يعترف الإسلامُ بهذه البدعةِ التى يسمّونها « تعدّد الشخصية » ، ولا هو يفصل فى حكمٍ من أحكامه بين شخصية العامل وعمله ؛ وذلك بعضُ قول الله : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ! »

أترانى حين أقول ذلك ، أو يقوله غيرى ، يحق لى وله أن يزعم وأزعم أنها فكرةٌ غير مسبوقة وأنها حقيقة جديدة فكلُّ من يقولها بعدُ هو لاحق لسابق ومقلِّدٌ غير مبتكر ، أو يقال إنها من توارد الخواطر ؟ . . .

إن « الحقائق العامة » كالمرافق العامة ليس فيها ملكية ولا احتكار ، فلكل مرتفقٍ حقُّه ؛ ووحدة الشخصية حقيقةٌ عامة من حقائق الإسلام ينبغى أن يتحقق معناها فى نفس كل مسلم ، ويقوم برهانها فى كل عمل من عمله ؛ فما هى فكرةُ أحد ولكنها فكرة دينٍ أدين له ويدين غيرى !

على أنى لا أذكر أنى قرأت المقالة التى يشير إليها الكاتب ، على شدة احتفالى بما يكتب صديق الأستاذ خلاف ... أو لعلى قد قرأتُها ، فليأذَنْ لى صديق ...!

« قاف »

في الميزان الجديد :

١ - نداء المجهول

والأدب الواقعي

لست أريد أن أتعجل القول عن تيارات أدبنا الحديث ، لأني شديد الحذر من كل تعميم لا يصدر عن استقصاء ، وها أنا أقصر مقالاتي على كتاب واحد لكل مؤلف ، ومع ذلك فإني كلما عاودت النظر في الكتب الأخرى لأدبائنا الذين أتحدث عنهم وجدت أننا لا نبعد كثيراً عن الصواب عندما نحاول استخلاص اتجاه كل منهم من الكتاب الذي ننقده ، بل أظن أنه باستطاعتنا أن نرسم منذ اليوم تخطيطاً عاما لمذاهب أدبائنا مرجئين التفاصيل إلى المقالات التالية أو إلى كتاب نرجو أن نعالج فيه تاريخ أدبنا الحديث منذ نصف قرن لنرى أصوله ومصادره ومدارسه .

وللنظرة الأولى يبدو أن لدينا في القصة : الاتجاه التاريخي الذي ابتدأه جرجي زيدان وجاء فريد أبو حديد فجدد من معناه وحدد من وسائله وأوشك أن يخلقه خلقاً جديداً في «الملك الضليل» و «زنوبيا» ، وتبعه في ذلك شاب ينبعث عنه الأمل هو علي أحمد با كثير كاتب «اخناتون» و «سلامة القس» و «جهاد» التي نالت إحدى جوائز وزارة المعارف ؛ والقصة التحليلية تمثلها «سارة» للعقاد ، ثم أدب الفكرة الذي يصدر عنه توفيق الحكيم ، ومنحى طه حسين الذي يتميز بموسيقاه وتدفق عواطفه ، وأخيرا لدينا الأدب الواقعي الذي برع فيه محمود تيمور .

وهذه بعد اتجاهات عامة لا نزعم أن بينها فواصل قاطعة ، فقد يكون في القصة التاريخية تحليل دقيق ، وقد يكون في أدب الفكرة شخصيات واقعية ؛ وقد يجتمع النفاذ النفسي إلى انبهار الإحساس ، بل قد لا يخلو واقع تيمور من نفثات الشعر ؛ ولكنني رغم ذلك مطمئن إلى هذا التقسيم إن لم يكن بد من التحديد العام . وأنا أرى بعد فيه نفعا ، إذ قد يساعد الكتاب والقراء على التحمس لهذا المذهب أو ذاك والدفاع عنه والاقتتال في سبيله مما يجدد أدبنا ويوضح سبله .

وها أنا اليوم أعرض «نداء المجهول» كنموذج دقيق للأدب الواقعي ، وأنا أقدر أن القارئ قد يصيح بي : رويدك ! لقد ضللت الطريق . فنداء المجهول ليست قصة واقعية ، وكاتبها وإن يكن قد عرف بقصص الواقع فقد تجدد فنه وكتب هذه القصة من نوع جديد . هذه قصة أسرار ، قصة مغامرات . نداء المجهول . فأين هذا من الواقع ؟ ومتى كان المجهول واقعا ؟

وأنا أعرف هذا الاعتراض وقد سبق أن قرأت قصص تيمور الأخرى ، إن لم يكن كلها فمعظمها . ومع ذلك أصر على أن نداء المجهول قصة واقعية وأن محمود تيمور لم يتغير ولم يتجدد ولا تنكر لماضيه . فهو هو هو ، وأسلوب الرجل هو الرجل نفسه . ولننظر في ذلك .

وأول ما يطالعنا من تلك القصة هو أنك لا تستطيع أن تلخصها في جملة ، فهي غير «بجماليون» المبنية على فكرة التعارض بين الفن والحياة وتحريك الشخصيات كرموز لعلاج تلك الفكرة ، وهي غير «دعاء الكروان» التي تجد فيها كل شيء : الشعر في صوت الطائر ، ووصف أخلاق الريف المصري في ليالي الصعدة ، والدراما في قتل هنادي ، والقصص التحليلي في غرام آمنة بالمهندس . وأما وحدة القصة فأوضح ما تكون في موسيقى المؤلف وسحر أسلوبه .

نداء المجهول بهو شجيت به عدة صور ولكنها صور ليست ساكنة فهي تتحرك ملائمة بين حقائقها النفسية وما سيقت إليه من مغامرات . أتريد أن تعرف تلك الصور ، بل أن تعرف أصحابها وتميزهم من بين الناس كافة ؟

دعنا من الراوي فهو المؤلف نفسه ، وما لنا نقسو على الكاتب فنطالبه بأن يخرج عن حياته فيرسم لنفسه صورة لأن مصادفات الحياة قد ساقته إلى أن يكون أحد

أبطال الرواية ، وانظر إلى زملائه : فالشيخ (عاد) صاحب فندق فى لبنان قد « تعود أن يظهر أمامنا بملابسه الشرقية البديعة . القفاطين الوطنية ذات الألوان الزاهية والجُبَب الحريرية الفضفاضة الموشية بالقصب . دائما بالابتسام (؟) يروح فيها ويغدو بمشيته المتزنة الهادئة ووجهه الصبيح مشرق فتخاله سلطانا من سلاطين ألف ليلة . . . » وأنا أعترف مع القارئ أنه لو اتفق لى أن ذهبت إلى لبنان وبحثت عن الشيخ (عاد) بين أصحاب الفنادق ما استطعت أن أميزه لأن الكثيرين منهم يلبسون القفاطين الوطنية ذات الألوان الزاهية والجبب الحريرية الفضفاضة الموشية بالقصب كما يبتسمون بوجوه صبيحة فيشبهون سلاطين ألف ليلة » ومع ذلك فلنغتفر للكاتب إهماله فى عدم تدقيق البصر وتمييزه للشيخ (عاد) بشىء يفرق بينه وبين غيره . ولعل للراوى عذره ، فهو معجب بالشيخ (عاد) لأن الرجل « حلو الحديث ، غاية فى السماحة وكرم الضيافة » . وهو بعد قد دل فى القصة على شجاعة نادرة وروح كامن للتضحية بل والمجازفة النبيلة . وفى هذا ما يدعو الكاتب بلا ريب إلى أن لا يرى فيه غير كل جميل . فى روحه وفى ملابسه . وألفاظ الجمال عامة لا تحديد فيها وهى ليست من الواقعية فى شىء كثير .

لنترك إذاً الشيخ (عاد) فصورته ممحوة المعالم وقسماته الروحية لا نجد لها فى نفوسنا مستقراً من اللحم والدم ، ولكن لننظر إلى نزلاء الفندق الذين اشتركوا فى « الحكاية » . فثمة « رجل سورى مترهل الجسم له رقبة مجعدة ناحلة كرقبة النسر الهرم اسمه « كنعان » يدعى أنه أستاذ للتاريخ فى دار الفنون بـ « استانبول » . . . تراه دائما فى الحديقة حيث يفترش العشب الأخضر ويتوسد حزمة من الهشيم ويمضى يدخن « النارجيله » فى اطمئنان . وهذه صورة بل لوحة لا يمكن أن يخطئها أحد . وهنا لاقينا الرجل بحديقة الفندق أتحسب أننا لا نعرفه للحظتنا ؟ وهل يعد « رقبته المجعدة الناحلة كرقبة النسر الهرم » من أمارة مميزة

هذه قسمة من الواقع ، طوبى لمن يقع على مثلها . ما أحدّها ملاحظة وما أقواها عبارة ! وكنعان « يدعى » أنه أستاذ للتاريخ فى دار الفنون بـ « استانبول » وقد يكون هذا صحيحاً لأن الراوى لم يجزم بشىء ، ونحن أيضا لا نستطيع أن نجزم بشىء ، ولكن كنعان على أى حال أستاذ « فريد » « أصيل » « متفيقه » شخصية تدعو إلى الابتسام ، وقد عالجها المؤلف فى عبث Humour نافذ . ألا تراه يقص علينا كيف أن « حبيبا » الخادم لا يجد حرجا فى أن يأخذ من الأستاذ كنعان صحفه خلسة . ولم لا و « حبيب » يلاحظ أن تلك الصحف تظل فى لفائفها أبد الدهر ، وأن الأستاذ عندما يضيق بها ذرعه يرمها تحت السرير لتكون طعمة الفيران . . . لا شك أن « حبيبا » مصيب عندما يرى أنه أولى بها من الفيران . ولقد يتحدث الراوى مع الشيخ عاد و « مس إيفانس » السيدة الانجليزية التى سيأتى ذكرها عما قريب عن قصر حديث منحوت فى الجبل ، فينحى الأستاذ كنعان فمه عن مبسم النرجيلة ويقول : « كان يجدر بكم أن تسألونى فى هذا الأثر العظيم . إنه من بقايا الرومان ، وعمارته بيزنطية بحتة ، والذى شيده الأمبراطور يونان . . . » فنبتسم لهذا العلم الغزير الذى يجمع بين الرومان والطراز البيزنطى وأمبراطور يونان ، ولا عجب ، فالأستاذ كنعان مثال خالد للعالم المتفيقه المغرور الكسول المضحك ، الأستاذ كنعان هو ما يسمونه بالفرنسية cuistre لوصف مثل هذا الأستاذ الجليل ، وابتسامنا من الأستاذ كنعان لا يلبث أن ينقلب ضحكا صراحا عندما نراه يحدث الراوى عن تلك المنطقة الجبلية :

— إنك لو سألت حصباء هذا الوادى ، واستجوبت صخور ذلك الجبل ، لروت لك ما عانيت من مشقة فى بحثى واستقصائى ، أنت تجهل بلا ريب أنى أعد محاضرة فى طبقات أرض هذه المنطقة وأطوارها فى التاريخ . . .

— بحث ممتع بلا ريب !

— ولكنه متعب يا ولدى ! أتصدق أنى قضيت ليلة

أمس لم يغمض لى جفن ، وأنا مكب على أوراقى وكتبى والقلم لم يبرح يدى لحظة ؟

— كان الله فى العون

— والآن أنا فى حاجة إلى التمدد قليلا فى الحديقة . أليس لأبداننا علينا حق ؟ .

أى سخرية فى هذا الحوار الممتع ؟ وأى صدق فى تصوير هذا الغرور الملتوى ، وذلك التواضع الكاذب ؟ هذا حوار كاتب كبير . وتتصل مهزلة الأستاذ كنعان Tarce الذى يحدثنا الراوى نفسه بأنه عالم كبير . . . إلى غايتها عند ما يتفق الجماعة على السير إلى الجبل لاكتشاف « القصر المسحور » المنحوت فى الصخر ، ويأتى الصباح والقافلة تنتظر الأستاذ كنعان على باب الفندق ، والأستاذ لم يظهر بعد . وقالت « مس إيفانس » : نذهب إليه . . . وقصدنا إلى حجرة « الأستاذ كنعان » ، فراعنا صوت غريب يتجاوب فى أرجائها ، فأنصتنا فإذا به غطيط مزعج يعلو ويهبط فى نغمات ساذجة ، وفى حشرجة سقيمة ! فتقدم « الشيخ عاد » ودق الباب ؛ فلم يجبه إلا الغطيط ، وتابع دقه والنائم على حاله يملأ الجو بصوته الكريه وأنفاسه الجافة . « وأخيراً تقدمتُ (الراوى) تعاون الشيخ فى دق الباب . . . ولكن لا حياة لمن تنادى ! وقالت لى رغبة صادقة فى استطلاع سر هذا الغطيط غير الطبيعى ، فاستأذنت صديقتى وصديقى وجعلت أنظر من ثقب المفتاح ، فإذا بى أرى « الأستاذ كنعان » جالساً على سريره يتميز غيظاً وهو منهمك فى إرسال غطيطه العجيب ، يوهمنا به أنه مستغرق فى نوم عميق . فرفعت رأسى وأشرت إلى « مس إيفانس » أن تنظر ففعلت ، ثم أشارت هى إلى « الشيخ عاد » أن ينظر ففعل . . . وتبادلنا النظرات المصحوبة بالابتسامات ، وتركنا المكان نمشى على أطراف الأصابع » ، ولو أنى رأيتهم فى ذلك اليوم لاستغرقت فى الضحك . هذه لوحة يجمع الخيال بين عناصرها فيضحك . الأستاذ كنعان الذى يتناوم بل ويغط فى نومه خوفاً من صعود جبل يعرف حصباءه ، وهؤلاء الاخوان الذين يرونه من ثقب الباب متربعاً على سريره يتميز غيظاً وهو منهمك فى إرسال غطيطه العجيب ؟ ثم منظرهم وقد تبادلوا النظرات المصحوبة بالابتسامات ، ويتركون المكان على أطراف الأصابع كى لا يوقظوا الأستاذ . أليست هذه صور من واقع الحياة ؟ . إن شخصية الأستاذ كنعان وكل ما كان لها من أحداث أنموذج بشرى صادق ، لو لم تكن فى الرواية غيره لكفى لتعتبر من عيون الأدب الواقعى .

فكيف بنا لو نظرنا إلى تلك الشخصية الأخرى العجيبة ، شخصية « مجاعص » دليل الرحلة إلى القصر ، نراه لأول مرة فى حديقة الفندق ، حيث كان يجلس الراوى مع « مس إيفانس » ، وإذا « بحبيب » الخادم ينبىء بقدومه ، ويُسمح له بالمجىء ، وغاب « حبيب » هنيهة ثم عاد ومعه رجل منبسط القامة ، عريض الجواب ، مكتنز العضلات ، له شارب غليظ كأنه مصنوع من الأبنوس ، ورقبة كأنها الجذع العتيق . . . ينظر إلينا نظرات حادة كأنه زنديــا ! واقترب الرجل من « مس إيفانس » وحياها ، فأحسنت لقاءه ، ثم التفتت نحوى (نحو الراوى) وقالت وهى تتلطف فى بسمتها : أقدم لك دليل الذى أعتمد عليه فى ارتياد هذه المنطقة . . . وحيا الرجل منى وصاحبى فى شىء من التحفظ ، وقال بصوت خشن وهو يفتل شاربه ، أو بالأحرى يداعبه مزهواً : « محسوبك « مجاعص » ابن الجبل . . . أعرف هذه الجهة وغاباتها وطرقاتها كما أعرف أصابع يدى . . . يمكننى — صيفاً وشتاءً — أن أسير فى الليل كما أسير فى النهار ، لا تعوقنى ظلمة ولا رياح ولا لصوص ولا ضوار ولا . . . » ونحن وإن كنا لن نستطيع أن نميزه عند ما نذهب إلى لبنان — إن قدر لنا ذلك — بنفس السهولة التى سنميز بها الأستاذ كنعان ذا الرقبة المجعدة الناحلة كرقبة النسر الهرم ، إلا أننا فيما أظن سننجح فى التعرف إليه ، وخصوصاً إذا ذكرنا أخلاقه ، فهذا المسكين رغم مكابرته الساذجة قد

انتهى بأن أظهر هلعاً واضحاً عندما وصلت الجماعة فى رحلتها فى الجبل إلى مغاور عميقة ، ولعل له العذر فى ذلك فقد تكالبت عليه المحن فانهارت به الصخور مرة وجرح ، ولولا شجاعة (الشيخ عاد) الذى تدلى بالحبل لينقذه من الهاوية التى سقط فيها لمات ، ومع ذلك فقد انتهى به الأمر إلى الموت فى سقطة أخرى فى القصر نفسه ؛ وفى ذلك اليوم لم تجد شجاعة الشيخ عاد شيئاً ، فإنه عندما نزل بالحبل إلى الهاوية التى سقط فيها مجاعص وجده جثة هامدة ، مهشم الرأس ، فعاد به ودفنوه ، وبلت « مس إيفانس » قبره بالورد ، وقد حزنا لموته لأن الراوى نفسه قد حزن هو ورفقاؤه ، إذ عثروا وهم عائدون بمثلتين كالمثلتين كانتا معهم فى الذهاب ، والتين اضطروا إلى التخلى عنهما لضيق المغاوز ، وتأملوا فى البغلتين فوجدوهما محجلتين كبغلتيهم ؛ ولكن أنى لهم أن يجزموا بشىء . وهل كان يستطيع أن يجزم بشىء . كهذا غير المسكين « مجاعص » ؟ وقال الراوى : « صحيح ، هما محجلتان ... ولكن ليس هذا دليلا قاطعاً ... لو كان المرحوم « مجاعص » بيننا لأنقذنا من هذه الحيرة بالخبر اليقين » . بالله ! بهذه الجملة البسيطة ، وبهذه الحادثة الصغيرة استطاع الكاتب أن يحيى ذكرى مجاعص فى نفوسنا ، بل وأن يلونها لوناً عاطفياً بالغ الرقة .

والآن لم يبق فى « البهو » غير حبيب الخادم و « مس إيفانس » ؛ وحبيب خادم ككل الخدم ، وإن كان مغرماً بالقراءة . وهذا نادر حتى بين الأسياد ، وأما « مس إيفانس » فبطلة القصة فيما يظهر ، وإن كنت من نفسى لا أغفل « الأستاذ كنعان » أحداً ، لا لأنه أستاذ فحسب ، بل لأنه « الأستاذ كنعان » الذى سأراه دائماً أمام بصرى ، وسأبتسم ، بل قد أضحك كلما ذكرته .

(يتبع) محمد مندور

فلسفة كارليل على مسرح الحياة

« إن الحب بلا أمانة يحرق العناصر السماوية فى وجودنا ويجعل النفس قاسية قذرة عقيمة ويزيل الجمال الكامن فى عزة النفس والشهامة والقوى الروحية » . هذا هو رأى الفيلسوف كارليل فى الحب المسروق ، الحب الذى وقع فى شراكه رشدى زوج رمزية حين أحب أختها وفية فى فيلم على مسرح الحياة . وقد كان رجلا يصلح المجتمع فأفسد حبه عليه رسالته ، لأن هذا الحب المحرم لم يستطع أن يمضى بالحبيبين إلى غاية سعيدة .

ثم احترقت العناصر السماوية فى وجود هــذا الإنسان بسبب انتحار حبيبته يوم زفافها إلى غيره ، فلم يعد ذلك المصلح الذى يعمل على إسعاد الآخرين ؛ ولم تعد فى دمه عناصر روحية ، وأصبحت نفسه قذرة قاسية تعيش للخمر والنسيان .. نسيان الضحية التى عصر قلبها بحبه المصنوع بلا أمانة .. فهل يستطيع أن ينسى ؟؟ ولقد زال الجمال الذى كان فى نفس الزوج الوفى يوم صرخ فى وجه زوجته بأنه يحب أختها الصغيرة ، وذلت عزة نفسه وعاش فى انحطاط كان وليد الحب بلا أمانة . فهل يقوى بعد ذلك على أن يشمخ بأنفه ويقول للناس إنه يعيش ليصلح أحوالهم ؟؟

هكذا يقدم فيلم « على مسرح الحياة » قصة من صميم الواقع فيها عبرة للأزواج العابثين الذين يرتعون فى أحضان حب ليست فيه أمانة ، فيحطمون حياتهم وحياة زوجاتهم وحياة من يحبون أيضاً . إن حب الزوجة فيه سعادة الزوج والعائلة ، وحب غير الزوجة يضع الزوج فى جهنم يصنعها هو لنفسه وزوجه بيديه لأنه فى هذه الحالة يحب بلا أمانة ، فينقلب وحشاً آدمياً هو رشدى بطل فيلم « على مسرح الحياة » .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ١٩٥	الثلاثاء ١١ من رمضان سنة ١٣٦١ — ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩٤٢	السنة الرابعة

فهرس العدد

٢ — حديث رمضان :

العلم والدين

للأستاذ أحمد أمين بك

مما نلاحظه في تاريخ الإنسان أنه تسوده موجات متعاقبة في عصوره المختلفة وأممه المتعددة ؛ فأحياناً تسوده موجة الشعر كالذي كان عند العرب في عصر الجاهلية ، واليونان في عصر هوميروس ، وأحياناً تسوده موجة الفلسفة كالذي كان عند اليونان في عصر سقراط وأرسطو وأفلاطون ؛ وأحياناً موجة الدين كالذي كان في العالم الإسلامي والعالم الأوربي في القرون الوسطى .

وكان من خصائص القرن التاسع عشر سيادة موجة العلم حتى طغت على كل ما عداها .

وقد كانت هذه الموجات في العصور الماضية موجات محلية لا موجات عالمية ، فكنت ترى أمة يسودها الشعر ، وأخرى تسودها الفلسفة ؛ أما وقد ارتبط العالم الآن رباط محكم ، وانكسرت الحدود ، وكادت تنعدم المسافات فقد أصبحت الموجات عالمية ؛ لذلك لما علت موجة العلم في القرن الماضي في أوربا وضعفت فيها موجة الدين تأثر العالم كله تقريباً بهذه الظاهرة ، وطغت موجة العلم على الشرق والغرب ، وضعف الدين في الشرق والغرب ؛ وربما كان ضعفه في الغرب اجتهاداً وضعفه في الشرق تقليداً ، لأن المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب ، كما يقول ابن خلدون .

وقد ساد العلم وضعف الدين في أوربا إثر حركات

عنيفة قام بها العلماء من القرن السابع عشر ، فوضعوا لأنفسهم منهجاً علمياً أساسه ملاحظة الظواهر وتحليلها تحليلاً عقلياً ، وربط هذه الظواهر بعضها ببعض ، ووضع الفروض فى حلها وامتحانها وتجربتها ، وإبعاد ما تدل التجربة على خطئه ، وإثبات ما تدل التجربة على صحته ، حتى إذا تم الاقتناع به أضيف إلى دائرة المعلومات واتخذ أساساً لبناء غيره عليه وهكذا ؛ وتحرروا فى منهجهم هذا من كل شىء ، إلا الملاحظة والتجربة والبرهان ، فلم يعبئوا بأقوال القدماء كجالينوس وأرسطو ، ولا بما ورد فى الكتب الدينية ، ولا بما قررته الكنيسة ، ولم يسلموا بشىء إلا ما جرب فى « المعمل » ، فأداهم هذا النهج إلى استكشاف آلاف من المسائل استخدموها فى الحياة اليومية وبناء الحضارة الأوربية ، وعرفوا ما لا يحصى من قوانين الطبيعة . ولما كان كل مظاهر الحياة اليومية متأثراً بهذه المستكشفات العلمية ، زاد الناس احتراماً للعلم وتقديراً له وإعجاباً به ، وكان من أثر ذلك شغف الناس بالأرض دون السماء ، وبالعالم المادى لا الروحى ، وبهذه الحياة لا بما بعدها .

وكان أن هاجم العلماء فى بحثهم العلمى مسائل تتصل بالدين من قريب أو من بعيد ؛ فآمن الناس بأقوالهم فيها كما آمنوا بأبحاثهم العلمية الأخرى ، فكان لذلك أثره فى ضعف موجة الدين فى أوربا . ولنقصّ عليك طرفاً منها

فمن أهم ما زلزل الناس تعاليم كوبرنيكس فى النظام الشمسى ، فقد قلب قيمة الأشياء رأساً على عقب ، كان الناس يعتقدون أن الأرض مركز العالم ، وأن الشمس والكواكب تدور حولها ، وأن النجوم خلقت للأرض ، والأرض خلقت للإنسان ، فكل العالم وسيلة ومتعة للإنسان ، فجاءت تعاليم كوبرنيكس فبرهنت على أن الأرض وما عليها ليست إلا هنة حقيرة فى العالم ، وأنها تدور حول الشمس لا أن الشمس تدور حولها ؛ فحطم ذلك من أنانية الإنسان وكسر عظمته ، وقام رجال الدين ينكرون عليه تعاليمه لمعارضتها للنصوص الدينية .

وتلاه « دارون » ، فأكمل القضاء على شعور الإنسان بعظمته ، فدعا إلى تسلسل المخلوقات بعضها من بعض ، وأن ليس الإنسان نوعاً مخلوقاً بذاته ، وأن العالم من جماد ونبات وحيوان وإنسان وحدة مرتبط بعضها ببعض ، ومترقية بعضها من بعض ؛ فتغيرت بذلك النظرة إلى العالم ، والنظرة إلى الإنسان ، وخُلعت على العالم نظرة ميكانيكية يرقى بها الحقير إلى ما فوقه بحكم البيئة وتنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، حتى كأن العالم يصنع نفسه ، وكان لهذه التعاليم أثرها فى اصطدامها بظواهر آيات الكتب المقدسة .

وجاء علماء الجيولوجيا بعد علماء الفلك ، وبعد نظرية دارون ، فأخذوا يبحثون فى بناء الأرض على قاعدة انفصالها من الشمس ، وعلى قاعدة تسلسل الأنواع وما يستلزم ذلك من ملايين السنين فى تكوينها وصلاحيتها للحياة ، وتدرج الأنواع . وجاء بعدهم علماء الحياة ، فجدوا فى البحث عن الحياة وتطورها . وهكذا ، فكان لهذا كله أثر فى الدين ، وعلى الأقل فى ظواهر آياته .

* * *

وكما تقدم البحث فى العلوم الطبيعية على هذا النحو تقدم البحث فى التاريخ ، فاستكشفت الآثار القديمة ، وعرفت أهم لغاتها ، وقرئت نصوصها ، ووضع للتاريخ منهج على نمط منهج العلم ؛ وتوجه بعد ذلك علماء التاريخ ينقدون الوثائق القديمة ، فوصلوا مثلا إلى أن شعر هوميروس ليس شعراً لرجل واحد ولا لعصر واحد ، وإنما هى أشعار لعصور متعاقبة لشعراء متعاقبة ، وبحثوا تاريخ اليونان والرومان والأمم القديمة ، فوصلوا إلى أن بعض ما دوّن عنها أساطير لم تصح ، وبعضها حقائق تصح .

وبنفس هذه الوسائل ، وبنفس هذا المنهج توجهوا إلى « الكتاب المقدس » من توراة وإنجيل يحللونه وينقدونه ، فبحثوا سفر التكوين وبقية الأسفار ، كيف كُتبت ؟ ومتى كُتبت ؟ ونشروا على الناس نتائج أبحاثهم ، ينكرون بعضاً ويؤمنون ببعض ، وينقدون الأسلوب والأحداث ، ويستنتجون عصورها ، إلى آخر ما قاموا به ؛ فكان لذلك رجة عنيفة أيضاً في نفوس الناس ، وخاصة المثقفين .

وزاد الأمر إشكالا والناس انحيازاً إلى العلم موقف رجال الكنيسة ، فقد تمسكوا بنصوص الكتب والشروح والآثار في باطنها وظاهرها ، وجملتها وتفصيلها ، وأنكروا على العلماء نظرياتهم ، واضطهدوهم أيام كانت السلطة في أيديهم ، وحَكّم الناس العقل في موقف رجال العلم ورجال الكنيسة ، فرجحوا جانب العلم ، فطغت موجة العلم على موجة الدين ، ووقف الكثيرون من الدين موقف الإنكار أو عدم الاكتراث أو أداء بعض شعائره كما تؤدى المواضعات الاجتماعية من غير روح ومن غير اعتقاد ، فكان هذا طابع القرن التاسع عشر في أوربا ، ومنها سارت الموجة إلى الشرق وأنحاء العالم ، ظناً منهم أن أوربا تقدمت في الحضارة بتقديس العلم مكان تقديس الدين ، فجاروهم في ذلك .

* * *

ولكن : كان لرجال العلم خطؤهم كما كان لرجال الدين خطؤهم .

فهم قد أفرطوا في الإيمان بقوانين العلم ، مع أن هذه القوانين في تغير مستمر وإن كان بطيئاً ؛ إن القوانين العلمية مبنية على جملة من القضايا تعد حقائق ، ولكن بعض هذه القضايا عرضة لظهور خطئها ، فيخطئ بخطئها القانون المبني عليها ، فاستكشاف قضايا جديدة أو حقائق جديدة قد يلغي قانوناً كان مسلماً به أو يعدله أو يرقيه ، فالعلم في حركة مستمرة وتغير مستمر . ويجب أن يكون العالم واسع النظر ، واسع الصدر لكل ما يستكشف من جديد مستعداً لقبول ما تثبت صحته ، مستعداً لتغيير وجهة نظره وتعديل إيمانه بالحقائق ، وأحياناً يستكشف ما هو أساسي في العلم ، فيكون ثورة على كثير من النظريات والقضايا ، وأحياناً تستكشف حقائق جزئية يترتب عليها تغيرات جزئية — هذا هو تاريخ العلم ، فالإفراط في الإيمان بقضاياه على أنها حقائق أبدية ، غلطة كغلطة رجال الدين في تحجير النصوص .

وأمعن من ذلك في الخطأ أن كثيراً من العلماء اعتقدوا أن المنهج العلمي من ملاحظة وتجربة وبرهان هو المنهج الوحيد لكل شيء ، ولا شيء غيره ، وأن كل شيء في العالم يحل بالعلم ومنهج العلم ، وفاتهم أنهم بمنهجهم العلمي قد اتجهوا اتجاهاً صحيحاً نحو عجلة العالم ، يفحصونها ويجربونها ويمتحنونها ، ولكنهم لم يتجهوا نحو محرك العجلة ، وقد لا يستطيع العلم بمنهجه أن يبحث المحرك ؛ والدقيق النظر الواسع الفكر لا يقف في بحثه عند العجلة ودورانها ، بل يبحث ما وراءها ، لا يقف عند المادة ، ولكن يبحث ما وراء المادة .

إن العلم منهج صحيح للمادة ، ولكن ليس المنهج الصحيح لغير المادة ، هو منهج صحيح من جملة مناهج ، ولكنه ليس المنهج الوحيد الصحيح ، إن جمع المشاهدات وإجراء التجارب عليها والاستقراء والحكم به أحد طرق العقل للوصول إلى الحقيقة ، ولكن وراءه طرق أخرى للوصول إلى الحقيقة أيضاً .

إن شئت فانظر إلى الفنانين من شعراء وموسيقيين ومصورين ، كيف يدركون من العالم ما لا يدرك العقليون ، ثم ينقلون إلينا ذلك الشعور بشعرهم وموسيقاهم

وتصورهم فتهز عقولنا هزة عميقة لا يبلغها قول علمى ، ولا بحث فلسفى ، بل قد أدرك هؤلاء الفنانون من حقائق العالم ما لم يدركه الفلاسفة والعلماء إلا بعد ذلك بأزمان ، وقديما قالوا : إن « الفن إرهاص للفلسفة » .

هذه حقائق واقعة فى العالم لا يمكن إنكارها ، وليس منهجها هو المنهج العلمى المعروف ، فمن الخطأ الإيمان بالمنهج العلمى وحده ، إن منهج هذه الفنون الاعتماد على الإلهام وصفاء النفس وتفتح القلب ، وهو منهج صحيح أيضاً كالمنهج العلمى له دائرته وله مبحاثه التى لا تنكر ، والاقتصار على المنهج العلمى فى فهم العالم كمثل رجلين يتعارج .

على هذا المنهج أيضاً جرى الذين ملأ قلوبهم الشعور الدينى من أنبياء ومتصوفة صادقين فهؤلاء قد أدركوا — بما لهم من إلهام — من حقائق العالم وخالقه ومحركه ما لا يقل شأناً عما أدركه العلماء بمنهجهم ، وأثروا فى تاريخ الإنسان ما لا يقل عما أثره العلم . وإن هذا الإلهام وسيلة صحيحة من وسائل الوصول إلى الحق كما أن التجربة والملاحظة وسيلتان كذلك ، ولكل دائرته ولكل اختصاصه . نعم قد يكون الإلهام فى بعض النفوس خداعا وكذبا ، وقد تصعب التفرقة بين ما هو إلهام وما هو مجرد خيال ، ولكن كل وسيلة من الوسائل حتى الوسائل الحسية قد تفسد فلا توصل إلى الغرض ، وهذا لم يقدح فى الوسائل السليمة ، فكما أن هناك شاعرا صادقا وشاعرا مزيفاً ، وموسيقياً ملهما وموسيقياً مصطنعاً ، كذلك هناك نبى ومتنبئ ، ومتصوف ومجنون .

إنا إذا أردنا أن نصل إلى حقائق العالم ، إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من حقائق العالم ، وجب أن نستخدم كل ما نستطيع من ملكاتنا . وليست ملكات الإنسان مقصورة على القوة العقلية ، فلديه الشعور ولديه الإرادة ، فلم يستخدم القوة العقلية وحدها وهى آلة العلم ولا يستخدم الشعور أيضاً وهو وسيلة أخرى من وسائل المعرفة ؟ وقد أنصف المتصوفة فسموا نتيجة استخدام المنطق « علما » وسموا نتيجة استخدام الشعور والذوق والكشف « معرفة » ، وسموا الأول عالما والثانى عارفا ، وقد دلت التجارب على أن الإنسان فى هذه الحياة — مهما قوى عقله ، ومهما آمن بعلمه — لا يسيّره عقله أو علمه فقط ، وإنما يسيره كذلك شعوره ، وهو يحكم على كل مظاهر الحياة وعلى الأعمال ، ويرسم خطته فى الحياة ، ويحكم على غيره فى تصرفاتهم بمقتضى عقله وشعوره لا بعقله وحده ، وهو فى ذلك ليس مخطئاً ، وإنما هو مسير فى ذلك بحكم طبيعته وفطرته ، ومعنى هذا أن الإنسان يدرك حقائق العالم بعقله وشعوره معاً ، ويستعمل لهذا منهجه وذلك منهجه ولا محيد له من ذلك . وأدرك هذا المعنى قوم من صفوة العلماء ، فسمحوا لعقلهم أن يجول فى دائرة العلم إلى أقصى حد ممكن ، وسمحوا لمشاعرهم ودينهم كذلك أن تجول فى دائرتهما ، واستفادوا من قوة عقلهم وعلمهم فكبحوا من مشاعرهم الجامحة ، ولم يسمحوا لدينهم أن يقيد مجال علمهم ، كما استفادوا من قوة مشاعرهم ، فوسعوا ضيق نظر العلم ، وكسروا من حدة غروره .

ومهما قال علماء النفس فى وحدة القوة النفسية فى الشخص ، فهناك من شئون الحياة ما يتطلب إعمال الإرادة ، ومنها ما يتطلب الشعور ، ومنها ما يتطلب العقل ، ثم هذه الملكات موزعة على الناس توزيعاً عجيباً ، فمنهم قوى الإرادة ضعيف العقل ، ومنهم قوى العقل ضعيف الشعور ، ومنهم ضعيف العقل قوى الشعور ؛ وقديما رمزوا للعقل بالرأس وللشعور بالقلب ، فمن قوى رأسه كان أقرب فى الحياة للمنهج العلمى ، ومن قوى قلبه كان أقرب للمنهج الشعورى والدينى والفنى — وإذا كان فى العالم ما يواجه

كل ملكة من هذه الملكات الثلاث ، فليس من العقل أن نتطلب حقائق العالم بقوة العقل وحده ، ونشلّ سائر الملكات ، وإنما العقل أن نستعمل كل ملكاتنا في إدراك حقائقه ، كلٌّ في اختصاصه ، كما ندرك مظاهره بحواسنا ، كل حاسة في اختصاصها .

فرجال العلم لهم أن يستكشفوا ما شاءوا من مجلة العالم ، ويلاحظوا ويجربوا ويبرهنوا ما شاءوا ؛ ولهم تمام الحرية فيما يبحثون ، والفنانون لهم أن يستكشفوا من جمال العالم ، ويستلهموه ما شاءوا ، وينقلوا من صفاته وجماله وإلهامه ما لا يقل شأناً عن مستكشفات العلماء ، والأنبياء والرسلون والمتصوفة ، يبلغون من إدراك محرك العالم وقيم معنوياته ما يفوق مستكشفات العلم وإلهامات الفن .

***

ولست أرى سبباً جوهرياً يحمل على هذا العراك العنيف بين العلم والدين ، إلاّ تعصب رجال العلم في دعواهم أن علمهم يختص بكل شيء ، يقدر على حل كل عقدة ، وأن ليس وراء العلم مطلب ، ولا غير دائرته دائرة ، وإلا تعصب رجال الدين في عدم إيمان بعضهم بالعلم في دائرته ، وعدم تفرقة بعضهم بين ما هو أساس في الدين وما هو على هامشه ، وجمود بعضهم على أقوال الأقدمين كأنها وحي منزل .

فإن زال كل هذا من الطريق لم يكن صراع ، وإنما كان تعاون ، فالعلم يكمل الدين والدين يكمل العلم ، وكلاهما يكشف عن قسم من حقائق هذا العالم ، وكلاهما غذاء صالح لملكات الإنسان المختلفة المتنوعة ، حتى تتعادل ملكاته كلها وتتوازن وتسير إلى غايتها ؛ فالعلم الحق والدين الحق كلاهما غايته حب الحقيقة ، وإن اختلف منهجاهما ووسائلهما ، وكلاهما يصل بالإنسان إلى كماله ، وإلى فهم ما يحيط به ، هذا في ماديته ، وهذا في روحانيته .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

****

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

العالم بعد الحرب

انقضى العام الثالث على هذه الحرب ولما تدخل بعد في الطور الذي يعتبر بداية النهاية ، ومعنى هذا أنها ستطول وسيخيم الظلام على العالم سنين أخرى لا يعرف متى يكون آخرها ، وستظل المذابح البشرية على عنفها وهولها . وأكثر الناس يقابل هذه المناظر بالوجوم أو يسمع عنها أخباراً متشابهة من غارات وكرات وتقدم وانسحاب ، حتى أصبحت أخبار الحرب جزءاً من حياتنا اليومية . وأكثر الناس لا يفكر فيما وراء تفكيراً بعيداً يكشف له ما وراء كل هذا ؛ وفريق من الناس قد يئس من كل خير ، وظن أنها نهاية العالم التي لا تحتمل تفكيراً وراءها . ولكن بين الغفلة واليأس ومن خلال دخان الحروب وليلها الطويل يجب أن نرسل بفكرنا عبر الأفق ، ونحاول أن نرسم لأنفسنا صورة واضحة للعالم بعد الحرب ، وأن نتخيل حياتنا في الجيل القادم ، وهي لا شك متأثرة بهذه الحوادث ونتيجة لها ، وأن كنا لا بد أن تمتد إلينا آثار هذه الحرب .

ولا يعتبر هذا النوع من التفكير ضرباً من ضروب الخيال ، أو فراراً من الواقع المر إلى دنيا الأحلام الجميلة نتعزى به في هذه المحنة ؛ ولكن ما أقصده بهذا التفكير وهذا التدبر هو أن نتخيل أو ننشئ صورة عامة للحياة القادمة على ضوء الحوادث التي سبقت هذه الحرب وما ستتركه هذه الحرب من آثار اقتصادية وسياسية وروحية ، ولن يكون هذا إلا بفهم حقائق هذه الحرب ودراسة الأسباب التي قامت من أجلها ، والنتائج التي جاءت تبعاً لها ؛ كما أننا لا نغفل صيحات المصلحين وتنبؤات المفكرين الذين حذروا الناس من هذه الحرب قبل وقوعها — ومن هذا نرى أن عنايتنا بدنيا المستقبل تفكير سليم ومنطق للحوادث محتوم

وبعد هذه المقدمة لا بد أن نقول ما هي النظم السياسية التي تعقب انتهاء الحرب ؟ وأول ما نعرض له هو فترة الانتقال بين نهاية القتال وعودة الحياة العالمية إلى سيرها الطبيعي ، وهذه الفترة تعتبر أخطر من أيام القتال ، وتحتاج إلى زعامات عالية رشيدة ، وعلماء من الطراز الأول يقدرون حاجات الأمم بدون اعتبار لجنس خاص أو قبيل من الناس ، وبجانب هؤلاء تحتاج إلى منفذين أكفاء يسرعون في تجديد البيت العالمي المهدم — وفي رأيي أن هذا التنظيم الموقوت سوف يكون عبارة عن نظم اشتراكية عالية ، ولا أقول إنها ستكون اشتراكية ماركسية ؛ فقد طرأت أمور كثيرة في الحياة الاقتصادية للأمم منذ أن كتب كارل ماركس كتابه ، كما أن بعض جوانب الفلسفة الماركسية لا تقبله الشرائع ، لأنها فلسفة مادية بحتة لا تقيم وزناً للقيم الروحية في حياة الجماعات أو الأفراد — وقد تكون هذه الاشتراكية الجديدة مختلفة في مثلها العليا عن الاشتراكية السوفيتية ، ولكن لا يمكننا أن نغفل ما قامت به روسيا في هذا السبيل ، فهي الأمة الوحيدة التي جربت هذا النظام الاشتراكي بحذافيره ، وعلى ذلك فإن هذه التجربة يمكن أن يستفاد منها لتجنب كثير من الأخطاء التي عانتها روسيا الحمراء . كل هذه الأمور يجب أن تدرس الآن وتوضع الخطة مبدئياً حتى يخرج العالم من حالة الفوضى التي تعقب الحرب مباشرة — وسبب هذه الفوضى هو هذه الملايين من البشر التي تسرح من ميادين القتال ، وسيمضي وقت طويل قبل أن تستطيع العودة إلى أعمالها الماضية ، وفي هذه الفترة لا بد أن تجد طعاماً وملبساً ومأوى ؛ وهذه الصناعات الحربية التي ستقف فجأة وتتعطل معها ملايين من الرجال والنساء ؛ أضف إلى ذلك ازدحام طرق المواصلات بالملايين التي تريد أن تعود لأوطانها من أربع جهات المعمورة — إلى غير ذلك من الأسباب

التى تجعل إعادة تنظيم العالم مشكلة هامة ونقطة تحول فى تاريخ الجنس البشرى .

وهنـاك شواهد من التاريخ الحديث نستدل بها على ضرورة النظام الاشتراكى ونجاحه فى أيام الأزمات : فهذه ألمانيا النازية ، وقد جعلت حياة أهلها اشتراكية ، مكنت الجماعة الحاكمة من السيطرة على موارد الأمة وتنظيم العمل ؛ ولكن الدولة فى سيطرتها على الإنتاج والاستهلاك وعلى كل الصناعات والتجارة جعلت لهذه الاشتراكية مثلا أعلى هو إشعال نيران الحروب ، وسموها لذلك اشتراكية وطنية — وبسبب هـذه الحرب أيضاً نجد أن انجلترا قد عدلت فى حياتها الصناعية والاقتصادية والسياسية ، وأشرفت الدولة على كل الموارد ، كما أنها فرضت ضرائب كثيرة يقع معظمها على الأغنياء حتى تستفيد الدولة من الزائد على حاجة الأفراد . ونظام البطاقات وتحديد كميات الاستهلاك فى الطعام والملابس وكل ما يباع ويشترى إن هو إلا نظام اشتراكى لجأت إليه الدولة حتى تكون فى موقف أقوى لمواصلة الحرب . وقد قبل الانجليز هذه الإجراءات ونحوا بحرياتهم فى سبيل الغرض الموحد — ولا يحتاج نجاح هذا العلاج المؤقت إلا إلى استمرار حالة الحرب هذه بضع سنين تسيطر فيها الحكومات على كل شئ . كما كانت أيام الحرب متعاونة مع الدول الأخرى غالبة أو مغلوبة حتى تصل سفينة العالم إلى بر السلامة .

أما إذا لم يتخذ الناس مثل هذه الخطة ، وتركت كل أمة لشأنها لتحل مشاكلها بدون أن يعاونها غيرها فى هذه المرحلة الشاقة ، فإن العالم يصبح مسرحاً للقلاقل السياسية لسوء الأحوال الاقتصادية بسبب ما استغرقته الحرب من مال ورجال وما جرته من خراب ودمار ، والنتيجة المحتومة لذلك هو قيام حكومات دكتاتورية كما حدث فى ألمانيا وإيطاليا عقب الحرب الكونية الماضية ؛ هذا إذا لم تتطور الفوضى إلى حروب أهلية ومنازعات داخلية ، وهذه أشد ضرراً من الحرب العالمية .

وهذا الفرض الأخير هو أسوأ الفروض ولا أظنه يحدث . فلنتصور اذاً أن العالم سار فى الطريق الأول وأخذ بالحياة التعاونية المشتركة فإن نتيجة ذلك إيجاد جماعات إنسانية سليمة البنية تأمن شر الفاقة والعطلة والخوف وما يؤدى إلى إذلال الفرد وانهيار الجماعات ، ويخلق جيل من الناس يعرف لنفسه كرامتها ويعرف لغيره حق التمتع بفرص الحياة . وبعد ذلك ندخل فى المرحلة الأخيرة عندما يكون الجو قد تهيأ للحياة الديمقراطية الصحيحة ، ويعرف الإنسان حقوقه ويستفيد من حرية الكلام والنشر والاعتقاد التى يكون وقتئذ قد عرف كيف يوجهها لخير الجنس البشرى كافة ، ولن ينسى العالم الأهوال التى جرتها عليها أغلاط الماضى ، ولن يتساهل الناس فى هذه الحقوق التى كسبوها بالعناء والدموع والدماء . ويذهب بعض المفكرين إلى أن العالم يسير نحو حكومة موحدة عالمية ، وعلى رأس هذا الفريق المستر ه . ج ويلز . ولكن توجد صعوبات لا يمكن التغلب عليها فى طبيعة تكوين الأمم تجعل نجاح هذا النظام مستحيلا ، وخير من هذا أن تقرر كل دولة نوع الحكومة الذى يلائمها كما جاء فى ميثاق الإطلانطى ، وبعد هـذا ترجع الدول إلى ما يشبه عصبة من الأمم تملك من القوى الأدبية والمادية ومن إعلان العالم بضرورتها ما يجعلها قيما على شئون العالم الخارجية .

(أم درمان) حسوم الطاهر زروق

٤ – الشـــــعراء النقاد

قد يعرض علينا الفنان صورة الحياة الشعبية الخشنة فنطرب لها، ونلذ جمالها؛ نطرب لصورة الراعي يسوق غنمه، أو الصائد ينشر شباكه، أو الفلاحة ترد الماء بجرتها؛ ونطرب للقطعة الشعرية تقص قصة البدوي في خيمته، وقد خرج عليه طارق مُرمل الزاد معنًى بحاجته، في ليلة من جمادى ذات أندية، لا يبصر الكلب من ظلمائها الطُّنُبا؛ ونطرب لقصائد «وردسورث» يصور فيها حياة الزراع في وديان «كمبرلاند» و «وستمورلاند» في انجلترا؛ ونطرب للفصل التمثيلي يعرض علينا مجموعة من عوام الناس في ثيابهم الخلق، وأشخاصهم التي تقتحمها العين، وفي تفكيرهم الساذج وألسنتهم غير المصقولة؛ نطرب لهذا وذاك، ولعل مرجع هذا الطرب — كما يرى «كولردج» واحد من أسباب ثلاثة: (الأول) كون الأشياء المعروضة طبيعية لم تغير من بساطتها يد التهذيب والتثقيف الاجتماعي الراقي، والنفس الإنسانية — كما يظهر بالتجربة — ميالة إلى الإعجاب بما هو طبيعي، بل نزاعة في كثير من أحوالها إلى التجرد من مظاهر العمران والرجوع إلى أحضان الطبيعة. (والثاني) أن روحا رقيقة خفية من معرفة الفنان وموهبته تسري تحت ذلك السطح الظاهري المعرض الطبيعي، فتمتزج به امتزاج الماء بالراح، وتزيده سحراً وتأثيراً. و (الثالث) إحساس بالسمو والرفعة يثيره في نفس القارئ ذلك التقابل المعروض عليه بين ما هو طبيعي خشن، وما هو مصنوع رقيق: كما يطرب أهل الطبقات الراقية إذ يطلعون على تقليد ناجح لآداب الطبقات الدنيا وأحاديثها وكالذي كان يفعله الملوك والأشراف في الزمان الأول إذ يحتفظون في بلاطهم بالمضحكين وذوي الغفلة، بل الحاذقين في ادعائها، والبارعين في تقليد أصناف الناس.

ولكن «وردسورث» اختار الحياة المتواضعة الخشنة مادة لقصائده — لا لسبب من هذه الأسباب الماضية — بل لأن مشاعر القلب الأساسية — كما يقول — تجد في ذلك الميدان أرضا أنسب لنمائها ونضجها، ولأن تأمل هذه الأحاسيس في بساطتها أيسر، والتعبير الشعري عنها يجيء أكثر حياة وقوة. والواقع أن هذا النزوع جزء من ظاهرة أوسع عند «وردسورث» ورفاقه الرومانسيين، هي حب الطبيعة وتشخيصها، والحديث إليها، واستيحاؤها ما تضمنته من آيات وأسرار. ثم هي إلى جانب ذلك جزء من الثورة التي يشنها الجديد على القديم، والتي يسوق إليها مغالاة عصر من العصور في التزام قاموس شعري خاص، وأوزان بعينها لا تقبل الزيادة ولا النقصان، وشطحات شعرية تحلق في الآفاق العليا كأنما تستنكف أن تتخذ من الطبيعة ومظاهرها وأهلها الفطريين موضوعات لها. فصيحة «وردسورث» — إذاً — لم تكن إلا صيحة التمرد والإصلاح، صيحة العدول عن النماذج المحفوظة المتكلفة، والموضوعات الموغلة في آفاق التجريد. و «كولردج» يعرف لصديقه هذا الفضل ويشيد به في نقده في كرم وسخاء. ولكنه يلاحظ أن أطرف قصائد صاحبه، التي كان فيها مؤثرا إلى درجة كبيرة أو صغيرة، لم تستمد أشخاصها من الحياة الخشنة كما يريد أن يفهمها «وردسورث»، وأن العواطف واللغة التي افتُرض أنها نقلت عن عقول أولئك الأشخاص ومحادثاتهم إنما ترجع إلى ظروف وأحوال ليست مرتبطة ارتباطا ضروريا بخشونة العيش وسذاجته. إن أفكار الزراع الرعاة من بعض وديان انجلترا — كما تعرضها تلك القصائد — ربما كانت راجعة إلى أسباب تنتج عنها في العادة نفس النتائج في كل ظروف الحياة في المدن والقرى. و «كولردج» يعتبر من بين هذه الأسباب عاملين رئيسيين:

(الأول) روح الاستقلال التي ترفع الإنسان فوق مستوى العبودية والكد اليومي لمصلحة الآخرين، لا فوق

ضرورة العمل وبساطة الحياة المنزلية المقتصدة . و (الثانى) تلك التربية الدينية القوية غير الطموح ، التى لم يعرف أصحابها من بين الكتب غير الكتاب المقدس ومجموعة الأناشيد الدينية . وما أطرف الملاحظة التى يسوقها أحد الباحثين إذ يقول : « إن الرجل ذا التربية المحدودة ، قد يستطيع — إذا كان ذا شخصية قوية مرهفة — أن يرقى فى نفسه بمداومة القراءة للكتاب المقدس ملكة من البلاغة جذابة مؤثرة لا يستطيعها أولئك المتعلمون الذين تعلق الألسنة المختلفة والعبارات المتكلفة على أسلوبهم فتفسده[1] . »

غير أن الشاعر — كما يفهمه « كولردج » فى رأيه الذى أسلفناه — يتجه إلى أعمق ما فى الحياة العقلية من صور ومشاعر ، ويتقلها نقلا يهز النفس الإنسانية وما حباها الله من قدرات ومواهب . فطبيعى — إذاً — أن تقل ثقة تقدنا بالحياة الخشنة ، وأن يرى فيها عائقا لحياة الشاعر الصحيحة والعقل المفكر . وليست كل حياة خشنة عاملة ناصبة مُيَسِّرة للروح أن تحيا ناجحة سعيدة ، بل لا بد لذلك من ظروف أخرى مساعدة من تربية أو حساسية فطرية ، حتى تستطيع هيئات الطبيعة وتغيراتها وأحداثها أن تكون منبهة لها تنبيها كافيا . فإذا لم تكن هذه كافية للتنبيه والتنشيط تقلص العقل وتحجر ، وأصبح الشخص شهوانيا أنانيا جافيا غليظ القلب .

ولعل معترضا يعترض هنا بأن الريفيين السويسريين وأشباههم من الجبليين يمتازون بروح قوية من النشاط والعمل ، والحرص على التراث والوطن .

وجواب « كولردج » على هذا أن ذلك إنما يرجع إلى نوع خاص من الحياة الزراعية تحت ظروف من الثروة تسمح بتنبيه الحس وتحصيل الآداب الجمهورية الحقيقية . وليس ذلك راجعا إلى الحياة الخشنة على إطلاقها ، أو إلى خلو المعيشة من مظاهر التثقيف ، فإن من الجبليين الغلاظ العقل الجامدى الحس من تكون عندهم الجبال وكل ما فيها من رهبة وجلال مجرد صور للعمى وموسيقى للصم .

يطيل « كولردج » فى هذه النقطة إطالة ظاهرة ويكثر لها من الأمثلة وتحليلها لأنها تمس مبدأ أساسيا عنده فى طبيعة الشعر ، فهو يعتنق — فى إيمان قوى — تلك القاعدة التى وضعها أرسطو من أن الشعر فى جوهره مثالى عام يتحاشى كل العوارض ، وإذا طرق الأمور الفردية من طبقة أو صفة أو مهنة ، فإنما يطرقها ليمثل بها الطائفة العامة ، وأن أشخاص الشعر يجب أن يظهروا دائما فى ثياب من الصفات المشتركة العامة ، لا الفردية الخاصة .

إن لغة الطبقات الدنيا إذا جردت من صفاتها وخشوناتها المحلية — كما فعل « وردسورث » . وأعيد بناؤها لتوافق مقتضيات تأليف الكلام فإنها لن تختلف عن لغة أى رجل آخر ذى ذوق عام ، مهما كان متعلما أو مهذبا ، إلا حيث تكون التصورات التى يرغب الجاهل الجلف فى التعبير عنها أقل عدداً ، وأقل تميزاً ؛ فالشخص الخام — لنقص تطور ملكاته ، ولانحطاط مستوى ثقافته — يتجه نحو التعبير عن الحقائق المنعزلة التى كسبها من تجربته المحدودة أو اعتقاده التقليدى ، على حين أن الرجل المثقف يتجه إلى البحث والتعبير عن روابط الأشياء وأثر الحقائق بعضها فى بعض مما تستنتج منه القوانين العامة ، فإن قيمة الحقائق عند الرجل العاقل إنما هى فى إيصالها إلى القانون العام ؛ وما القانون العام إلا الوجود الحقيقى للأشياء ، والحل الوحيد لمسائلها ، وفى معرفته شرف الإنسانية وقوتها الحقيقية .

ولا يستطيع « كولردج » أن يوافق « وردسورث » فيما زعمه من أن أحسن أجزاء اللغة إنما يشتق من الموضوعات التى يتصل بها عوام الناس وأرباب الحرف والمهن فى حياتهم اليومية . فلكولردج على ذلك جوابان :

(الأول) أنه إذا كان الاتصال بالشىء يستلزم معرفته إلى درجة تجعل من الممكن التأمل فيه تأملا مميزاً ، فإن

معرفة الجلف غير المتعلم بما حوله من الأشياء لا تمده إلا بقاموس من التعبير ضئيل جداً ؛ ذلك لأنه لا تتحدد فى تفكيره إلا الأشياء المألوفة وصفات الأعمال التى تتطلبها حاجاته الجسمية ، أما ما عداها من الطبيعة فيبقى التعبير عنه مقصوراً على عدد قليل من الألفاظ الغامضة المختلطة فى ذهنه .

(الثانى) أن هناك طوائف من العجماوات لها أصوات مميزة تستطيع بها أن تلفت الآخرين إلى مطالبها من طعام ومأوى وأمن ، ومع ذلك نتردد نحن فى أن نسمى مجموعة هذه الأصوات لغة ؛ وإن أحسن أجزاء اللغة الإنسانية إنما يشتق من التأمل فى أعمال العقل الإنسانى نفسه ، وهذا يتألف من استخدام رموز ثابتة — استخداما اختياريا — للتعبير عن الخطوات الداخلية للعقل وعن عمليات الخيال ونتائجه ، وهذه لا يشعر الرجل غير المثقف بالجزء الأكبر منها ، على حين أنك تجد معظم غير المتعلمين فى الجماعة المتمدنة يشاركون فى هذه الألفاظ بالتقليد أو الحفظ لما يسمعونه من معلميهم الدينيين وأولى الزعامة فيهم ؛ ولو تتبعنا تاريخ التعابير التى يستعملها الفلاحون الأوربيون فى حياتهم اليومية لدهش من لم يكن يعلم لكثرة عدد الألفاظ التى كانت — منذ ثلاثة قرون أو أربعة — وقفا على الجامعات والمدارس فى أوربا ، والتى انتقلت فى مبدأ حركة الإصلاح من المدرسة إلى المنبر الدينى ، ثم انتشرت بالتدريج فى الحياة العامة .

إن لغة كل شخص تختلف حسب مقدار معرفته ، ونشاط ملكاته ، وعمق أحاسيسه أو سرعتها ؛ ثم تختلف أيضا حسب الخصائص المشتركة للطائفة التى ينتمى إليها ، وحسب الكلمات والتعابير التى ترد فى الاستعمال العام لبيئته الواسعة ، فأى هذه النواحى يعنى « وردسورث » حينما يصف اللغة التى يستعملها فى شعره بأنها هى اللغة الحقيقية (real) وأنها لغة الحياة الحقيقية ! ذلك غموض تنبه له « كولردج » من مبدأ الأمر ووجد فيه واحدة من الثغر التى ينفذ منها إلى مهاجمة نظرية صاحبه . وعنده أن كلمة (real) هنا لا محل لها ، وأنه يجب أن تأخذ مكانها كلمة أخرى أو تعبير آخر مثل « اللغة العادية » أو « اللسان الشائع » مثلا .

أما القيد الذى أضافه « وردسورث » وهو أنه سيستعمل اللغة الحقيقية للناس « وهم تحت تأثير حالة خاصة من الهزة والتأثر » فذلك لن يقدم الموضوع كثيراً ، إذ أن طبيعة كلمات الشخص الواقع تحت تأثير حالة مثيرة من الفرح أو الحزن أو الغضب . . . إنما تتوقف بالضرورة على ما اختزن عقله من قبل من حقائق عامة وتصورات وأخيلة ، وكلمات تعبر عن هذه ، كيفا وكمًا ، فالانفعال أو التأثر لا يخلق جديدا ولكنه يزيد نشاط الموجود .

وعلى هذا فالشعر — كما يفهمه « كولردج » لن يجد فى مظاهر الحياة الخشنة جوه الذى يحلق فيه ، أو موضوعه الذى يجرى فيه قلمه بالخلق والتصور ؛ وإذا قصصنا حواشى تلك الحياة وهذبنا جوانبها (كما فعل وردسورث) خرجت — إذاً — عن أن تكون حياة خاصة كالذى زعمه . وكثير من مظاهر الحياة التى يصفها « وردسورث » فى قصائده إنما ترجع طرافتها لمظهرى الاستقلال والتدين عند الزراع الانجليز ، وهاتان صفتان مشتركتان لا خاصتان ؛ والشعر أخو الفلسفة يجانب ما هو فردى خاص ، ويتجه إلى ما هو مثالى عام(*) (الكلام بقية)

محمد خلف الله

(*) وردت فى ختام المقال السابق (فى العدد ١٩٣) كلمة Motion نقلا عن أحد المراجع — وهى فى المصادر الأخرى emotion ويقابلها بالعربية « الانفعال » أو « التأثر الوجدانى » وهى أقرب صحة وأنسب لسياق الكلام .

وفى العدد ١٨٢ فى مقال « شخصية زياد بن أبى سفيان » فى السطر الثامن من العمود الثانى صفحة ١٢ (وله وجدان وانفعال) وصوابها : لا وجدان وانفعال .

قصة مصرية

أحلام وحقائق

« مهداة إلى الشباب »

من كان يرى الشابّ «سعد الدين» وهو طالب بكلية ... كان يرى قطعة ناضرة من الغبطة والأمل والعطف ، ونموذجا صحيحا للجدّ والذكاء والإيمان بالمستقبل .

لم يكن « سعد » في عيش خافض دائما ، بل لعلّه في بيئة كان من أقلّ الطلاب راحة وأضألهم مظهراً . لقد كان يسكن بيتاً متواضعاً في حارة ضيقة في بندر الجيزة ، وكان يؤذيه أن تختلس « أمّ صالح » مالكة البيت بعض العسل والفطائر المدهونة التي تأتيه من البلد . وأن تضيع حينا بعد حين قطعاً من ثيابه أو تزعم ضياعها ، وأن يظلّ في بيتها رغمه لعجزه عن استئجار مسكن آخر في حارة أرق . وكان يشقّ عليه ألاّ يتمكّن من اقتناء كلّ كتاب يروقه ، ويطّلع في دور الخيالة على كلّ رواية ناقعة يتحدث عنها المتحدّثون ، وألاّ تكون له محفظة جلدية فاخرة يتأبطها في ردهات الكليّة وقاعاتها كزملائه وزميلاته ، ولكن نفس «سعد» كانت — على هذا كلّه — مشرقة الجوانب دائما ، فالبشر يسطع أبداً في وجهه ، والنكتة الحلوة دائما على لسانه ، والبسمة العذبة في ثغره ، والسماحة الخالصة في عينيه . لقد كانت آمال « سعد » أقوى من آلامه ، وقناعته كانت أكبر من رغباته .

كان « سعد » يعتقد أنّ عهد الطلب كليل السّرى ، فيه التعب ومعاناة الظلام ، وفي أعقابه الرّاحة المرجّاة والصّبح المبين .

ولقد كان الريف خلَع على «سعد» ما يخلعُ على بنيه من البراءة والبساطة والتديّن ، فلمّا غدا « سعد » شابا جامعيًا لم يَعْرَ كثيره من هذه الحلل ، فقلبه هو هو فيض من المحبّة والرحمة للنّاس ، وعينيه لا ترى منهم إلا الجميل السّار ، فالبسمة لا يمكن أن تكون إلا بسمة ، والكلمة الطّيّبة هي بنت القلب الطيب ، والدّنيا أزهار ولا شوك ، والزّمان نفسه يتمثل له إنسانا خيّراً لا يمكن أن يضلّ عنده المستقيم أو يخيب لديه العامل . . .

* * *

كان « سعد » في نادي اتّحاد الكليّة عصر أحد الأيام ، في رهط من إخوانه المبرزين في الدراسة ، يتحدثون طوراً عن الكتب والأساتيذ والامتحانات ، وطوراً يفيضون في سرد أمانيهم الوثيقة وآمالهم الزخرفة ، وطوراً يسبحون في عالم المثل الأعلى التي تخلقها لهم وساوس الأحلام ، فلا يبدو من نبراتهم المرحة وصفحاتهم الآلقة الضاحكة إلاّ مظاهر المتشرفين إلى غاياتهم ، الناظرين إلى مستقبلهم نظرة الإيمان والغبطة والارتياح .

كان لفيف هؤلاء الشبان الطامحين وشيك الإسفار ، فقريباً سيغشون الامتحان النّهائيّ ، الذي بلغوا في الاستعداد له غاية الجهد ونهاية الجلد .. لم يتحرّجوا بطول في المناهج ، ولم يتخاذلوا عن غاية صعبة رسمها الأساتذة . وماذا بعد الامتحان المضمون النتيجة إلاّ أن تزنّ البلاد بأسمائهم في الناجحين بامتياز ، فتأتيهم الوظائف المحترمة منقادة ! !

في هذه السّاعة اللذيذة التي كانت فيها أرواحهم تضوء بالفرح والثقة ، وخيالاتهم تطير كلّ مطار ، دخل عليهم « وحيد شوكت » الطالب المعروف بسيّاراته الفخمة ومظهره الشامخ والذي يُروى عن مباذله الرّوايات . . . دخل عليهم فما إن سمع بعض أقوالهم عما يبذلون للامتحان من جهود ، حتى قال في لهجة واثقة مترفّعة : « كل هذا للامتحان ؟ ! تريدون أن تكونوا الأوائل ! ؟ لا على فبحسبي مجرّد النجاح لأريكم أين أكون وأين تكونون ! »

قول لم تقبله أذهان الشبان إلا في بطء وعلى كره ،

ولكنه على الأغلب هزّ عقولهم وقلوبهم هزاً ، وهوى بهم في عنف من عالمهم النيّر إلى دنيا الناس ، فلقد أجاب أحدهم والانكسار والحفيظة باديان في لثته : « معقول ! البركة في الوالد » ، وما لبث الباقون أن أيّدوه وقد تعقدت في الحال على أساريرهم آلام ! ، وأقبل بعضهم على بعض يتهامسون عن مراكز أبي وحيد وجاهه ، غير شخص واحد شذّ عنهم هو « سعد » ، فقد رفض الفكرة أصلا ، وبقي في عليا، آماله ، يضحك من أمر اللاهي ويأس العاملين ، ويسأل في أسلوب مرح : « يا أولادي ! أسمعتم أنّ راجلا سبق طيّارا ؟ ! »

وانفرط عقدهم عبّ ذلك ، وملء صدورهم انفعالات ! وملء أدمغتهم أفكار .

***

كان « سعد الدين » وهو يشترى البترول مساء ذلك اليوم لمصباحه وموقده ، وحين كان يُعدّ عشاءه ، وحين كان يعالج النوم بعد مجهود دام إلى السّحر ... كان يفكر في كيف ينخدع شاب ناضج كوحيد شوكت المتخلّف طوال سنى دراسته ، ويظنّ أنه سيسبق الكادحين من أقرانه لمجرد كون البركة في أبيه . كيف يغرّ حقّ الجدّين إنسان ؟ إن المنطق الذى درسوه سنين ليقضى بغير هذا ، فمن الجرىء الظّلوم الذى يكسر قواعد هذا المنطق ؟ هذا « سعد » بالذات يقضى الليل والنهار غارقاً في علومه ، وإنّ له في الكلية مجهوداً يبهر الأساتذة بله الطلاب ، وهو حيث حلّ مثابة للأقران يراجعونه فيما يتهمّم عليهم من المسائل ، فهل يضحى يوما هو أو أمثاله خلف صفوف أفراد يقضون العمر غارقين في الملاهي شرقين بالمتع ؟ . . . تلك أفكار ما أبعدها عنده في الخطأ ؟ وما أشد سذاجة إخوانه حين استمعوا لقول « وحيد » وشغلوا به . . . وما قول « وحيد » إلا نزغات شيطان ! !

ونام آخر الأمر مطمئناً يزخر صدره بفيوض الآمال ..

***

وَطَلَعَتْ الصحف يوما بأسماء النّاجحين ، فإذا بسعد كما أمل وأمّل النّاس أول الناجحين بامتياز ...

الآن تؤتى الشجرة التى طال تعهدها أكلها الطيب ، فلتطلب الدواوين « سعدا » ، فهو حرىّ أن ينفعها بكفايته الشبوبة وبعلمه الواسع ! وتهيّأ « سعد » لليوم الموعود الذى فيه تباهى به الدواوين ويباهى بها ، ولبث في قريته يستجم ليتابع الخطى ويحقق الآمال ، ويترقب في سكينة الخطاب المنتظر ، ولم لا يأتيه هذا الخطاب و « التعيين » لا بدّ يجرى بترتيب عادل ونظام مقدور . ولكنّ أياما مرت ولم يأت هذا الخطاب ، فكتب إلى الدواوين ينبهها إلى أولويته ، ولكن شيئا لم يأت ... فثاب إلى العاصمة مستغربا من هذا الإبطاء ، فما راعه إلا أن رأى « التعيينات » قد تمت وليس له فيها اسمه . يا عجبا ! وفي (المعيّنين) « وحيد شوكت » ! وعلى الأبواب الفريق الذى لم يعين خاشعة أبصارهم من الذل ... ضالة خطواتهم من الحيرة ...

كانت مفاجأة مروّعة اضطرب لها قلب سعد بالوجد والكمد ، وامتلأت عندها نفسه الرقيقة باللوعة الحرّاقة ، واستحالت أضواء الحياة في عينيه إلى ظلمات ...

وقال سعد لهذا ولذاك إنه أول الناجحين ، وتحدث في أسى عما بذل من صحته وشبابه وأعصابه ، ولكنه لم يسمع جوابا ...

ووقف على الأبواب مع الواقفين !

***

وانكفأ « سعد » إلى بيت « أم صالح » يستأنف فيه حياته ، ولكن بقلب غير قلبه ، وبنفس غير نفسه . . . فلقد أعطش الظلم حياته ، وقصّت الخيبة من حواف آماله ..

وبذكر « سعد » ما قضى في مكتبة الكلية من أوقات كان يظلم فيها نفسه وبدنه ، وبذكر الصبر الجميل الذى التزمه مدّة حياته المدرسية المرهقة ، ويذكر كيف كان إبانها ملء الكلية قلوبا وعيونا بهمته وجده واستعداده ،

فيشتى على نفسه يقول لها والحسرة تقطع نياط قلبه : « ربما كان أنفع من هذا كله أن يكون أبي مثل «شوكت باشا» أبي «وحيد» ، بل ربما كان أنفع أن أكون محسوباً على مثله » .

ويفكر « سعد » في سلوك طريق العيش غير طريق « الديوان » ، فلا يجد من ثقافته على عمقها ، ولا في ماله وهو في حكم العدم ما يبني له عيشاً . . . يا ويلتا ؟ وكلما قصد إلى رؤساء الدواوين يردد لهم شكاته العادلة من إيثار مؤخرة الناجحين عليه ، قالوا له في لهجة ساخرة : « اشتغل يا بنيّ في العمل الحر ! وهل تسع الوظائف كل الشباب؟! » نعم ! لا تسع . . . ولكنها لا تسع أيضاً المتخلفين في العلم والأخلاق ! ! هكذا كان يقول سعد لنفسه .

ودفعته الحاجة إلى نشدان عمل أهلي ، فكان في قصة إخفاقه وعوزه ما أغرى به المستغلين ، فعرضوا عليه نصف المرتب المفروض لأمثاله في الديوان ، نظير عمل يقتضى من الجهد أضعاف ما يبذل هؤلاء . . .

وعز على «سعد» أن يكون صيد العاجز وطعمة الجشع ، وأن تكون الحياة حديداً عليه ، بينما هي شيء للآخرين واهي الجس . . . فآثر التريث ، وطمع في مجيء الحق . . .

ويقضي «سعد» نهاره في السعي من ديوان إلى ديوان يلقى شواظ الغضب من هذا الكاتب ، ويلذعه العبارات من هذا الرئيس ، ويقاسي من عنت السعاة والحجاب ما يملؤه هواناً ، ويستمع من كذب أكثرهم ، ويرى من عبوسهم ما يشق على نفسه ، وما يكاد يقلب رأيه في الحياة قلباً .

وعند الأصيل ، كان سعد ينطلق إلى أرباض المدينة ، وفي صحبته صديق مظلوم هو الآخر ، يشكوان إلى الله أن لها حاجة تمر بها الأيام وهي كما هي ، وينعيان على الأخلاق ويذكران في أسى مرير ماضيهما بآماله الرسلات ، فإذا مر بهما سرب من الطير ، نظر إليه «سعد» ليرى الطائر الوحيد الذي قضى عليه الحظ أن يتخلف ، والذي يشتاق السرب ولكنه لا يلحقه ! ينظر « سعد » إلى هذا الطائر نظرات المكروب إلى قرينه المكروب ، وكأنما يتمثل فيه مأساته ! !

ويعود هو وصاحبه وفي قلبيهما لهفات ، وفي عينيهما عبرات . . .

* * *

بدت الحياة لسعد عريانة مفضوحة تبعث على الاشمئزاز والنفور . . . بدا أن طرح الكرامة أجدى على المرء من الاستمساك بها ... بدا أن الزلفى لكبير أجدى من الرأي للضمير ... ولكن « سعداً » لا يستطيع فكاكاً من خلقه ومبادئه .. ولكن سعداً وقد عرف الطريق القصيد إلى المورد المنشود لا يطيق الخطو إليه ، ويقف حيران ! ! .

* * *

إن مظهر «سعد» ما برح مظهر الطالب الفقير ، ولقد كان الأمل قبلاً يسيغ له المتاعب التي كان يتجرعها ، فأما اليوم فالآلام آلام . . .

والقرية التي كانت ترقبه موطناً ذا شأن استيأست الآن من مستقبله ، ولم يعد السامرون في بيت العمدة أو دكان الشيخ سالم بقال القرية وإمام مسجدها يذكرونه ذكراهم لابن فلان الذي أضحى مهندساً للزراعة يحرر محاضر المخالفات ، ويأخذ شبان القرية عمالاً في الوزارة ، أو ابن فلان الذي أصبح مساعد نيابة يحبس الناس ويفتش بيوتهم ويلبس الوسام الرهيب ، أو فلان أو فلان ممن سموا إلى كراسي الحكومة المرجوة المخشية ... والطيبون الأوفياء من أهل القرية يلقون « سعداً » فيرددون أنغام الألم له والإشفاق عليه ، فتكون لرحمتهم في نفسه مرارة ! !

والسيدة التي كانت تنصب له الشباك ليكون زوجاً لابنتها عقب تخرجه ، عاد حبل رجائها بالياً حين لم تجده في ديوان يفتخر عطفها ، وزالت محبتها ، وانصرفت عنه إلى شاب مغرور بدا في الأفق ! ! . . .

يا ويح لسعد ! ولقد كان يرجو لأمه السعادة بعد تخرجه فلما تخرج لم تردد أمه إلا همًّا ، ولم تقر عينها ، ولكن عذبها السهد والدمع !

ولقد كان يأمل أن تكون له مكتبة تحقق شغفه العلمي ، فحضرت بطالته بينه وبين أمله .

لقد غدت نفس « سعد » ميداناً تختصم فيه نزعته الأبية ورغبته الحارة في نعمى الحياة ... ولكن « سعداً » الشاب كان لا بد أن يعيش ، فأزمع أمراً . . .

لقد كان الموظفون يسألونه دائماً كلما سألهم عن موضوعه : « واسطتك من ؟ » ولقد لمح في سجل الطلبات خانة عنوانها « اسم الوصي » وفيها تكتب أسماء كبيرة ، وما من أحد من رفاقه الذين عينوا إلا وله واسطة . . . لقد هاله هذا العبث الفاضح ، ولكنه رآه عبثاً تقرر كأنه الجد الذي لا مندوحة عنه ... في صبح أحد الأيام ، كان « سعد » في طريقه إلى بيت « زيد باشا » الذي قيل إنه أكرم الناس على الوزير ، يرد حياضاً طالما عف عنها . . . نعم ! وقد وطن النفس على أن يقول للباشا ما يقول الناس ، وأن يذل في حضرته كما يذلون . . . لقد سلك من قبل الطريق التي يسنها الحق والإباء والشرف ، فكان ذلك سبب شقائه ، فليقهر اليوم نفسه ، فليعذبها ، فليطمن وجدانه ، فليطمس على ضميره ، ثم ليمعن في القسوة ، وليكتم صيحات هذا الضمير الملحة . إنه يحس الموت يشتد عليه ، ولكن . . . ليتجلد . . . وليقبل على الطريق التي تدنيه من الغاية .

ووقف يحترق ويتململ في انتظار « الباشا » ... وبدا « الباشا » بعد لحظات أطول من الدهر ، وبجانبه فتاة لا تنفك تضحك ضحكات ناعمة وتتحرك حركات وقحة ، وفهم « سعد » من همس الناس أنها زوجة موظف يريد الترقية ، فهي تزور الباشا كل يوم مستشفعة به ، فغمرت « سعداً » ريح عاصف من الروع والاشمئزاز والأسف .

ونظر إلى الناس وهم يقبلون يد الباشا في مسكنة ، ويرفعون مطالبهم إليه في ملق وضراعة ، وبألفاظ فيها الدموع والعواطف الزائفة ، والدموع والعواطف الحق ..

و « الباشا » يجيب متثاقلا على كلامهم الكثير المتصدع بقول مقتضب متعال ، فأحس « سعد » من كل ما حوله بالتماثيل تتهدم كبيوت أصابتها القنابل إصابات مباشرة ، ورأى — وقلبه توشك أن تذهب حسرات — أن الفضائل التي لقنها في المدارس شيء بعيد جداً عما تلقن الحياة الناس ، وهم أن يفر بخلقه لولا أن الأمل في نجاح السعي لم يغلبه . . .

واقترب دوره ، فأصلح هندامه كما رأى الناس يفعلون ، وأعد الألفاظ التي سيقولها ، ولكن . . . ما بال رجليه لا تطيعانه ؟ ما باله واهناً كالمريض الذي لزم الفراش سنين ؟ واستطاع أن يدنو من الباشا ، ولكنه لم يعرف كيف يتكلم ، فوقف هنيهة لا يلفظ من قول ، والباشا مشيح عنه ضائق صدره . . .

ويستحضر سعد الألفاظ التي سبق أن أعدها ، ولكنه خرس . . لقد شعر أن ألفاظ الذلة والاستخذاء ككلمات الكفر لا تمكن أن ينطق بها لسانه . لقد عز عليه أن يطمس ماضيه العزيز كله ، وأن ينقلب امرأ ملقاً وضيعاً يحمد الكبار بما ليس فيهم ، ويقول لأحدهم : ياسيدي ! وما هو بسيده ، ويكشف لهم عن أدوائه المستورة وسره المكتوم . . . لم تعنه نظرات « الباشا » المستفسرة المعنتة على النطق ، لقد تذكر ما بعد الاستعلاء على أساليب الناس من شقاء يصيبه ويصيب آله ،، لم ينخدع عن شيء قط ، ولكن ضميره أبى واستعصم ، واستبشع أن تصفعه الدنيا مهما تكن ذات جمال ودل . لقد رأى أنها ستجرح كرامته جراحاً ثقيلة لا يغني فيها مال ولا منزلة . لقد هاله الثمن الباهظ الذي سيدفعه من ذخر غال لم يفرط في ذرة منه . . . لقد انتهى « سعد » حالا إلى رأى حاسم في أمره هو أن يشق الصخر في ظل الكرامة ، ولا يقبل عيشاً لين المهاد في ظل الرياء والنفاق . . . لقد عزم على أن يعمل في أي شيء ، ولو كان التراب ، بنفس عزمته القديمة التي

لا تتحسب لمصاب ، ليخلق من الفقر غنى ، ومن الشقاء دعة ، ومن الضيق فسحة وأملا ، فإن كان التراب وضيعاً فسيرفع هو من شأنه ... إن « سعداً » الآن يستشعر قوة أكبر من الدنيا بأسرها ، وإنه ليلوم نفسه على ما فكر في ورود الشرع المسموم . . .

وصاح الباشا : « ماذا تريد ؟ أسرع . . . فوقتى ثمين . . . » فأجاب « سعد » ، وقد انحلت عقدة لسانه : « لا شيء ! . . »

وولى تواً غير مبصر شيئاً ، ولا سامع شيئاً ، سوى ضميره الذي كان يبتسم له مشجعاً شاكراً فخوراً ، وسوى أصوات من أعماقه خفية حلوة الرنين تناديه : « أنت الكاسب ! »

المنصورة لبيب السعيد

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدى ... ... "

حديث رمضان :

هذا رمضان قد جاء ؛ وإنّ لكل رمضانٍ حديثَه ومسامراته ونجواه ، فما بال « رَمَضانى » صامتاً ليس فيه حديث ولا مسامرة ولا نجوى . . . ولا نور !

أذلك « رمضانى » وحدى أم هو رمضانُ الناس جميعاً فى هذا الحين ؟ . . .

منذ عام كان لى دار غير هذه الدار ، وبلد غير هذا البلد ، وأهلٌ غير هذا الأهل ؛ فأين دارى وبلدى وأهلى ؟ . .

هأنذا أقيم فى هذا المكان منذ رمانى القدر من بَمَشّانه بما رمى ، متفرِّداً بأحزانى على حدود الصحراء : هذه النخلات بإزائى ، وهذه النخلات من ورائى ، وهذه الرمال . . . حتى أَلِفتُ مكانى ؛ ما بال اليوم يعاودنى حنينُ المغترب فيطوى بى الزمانَ والمكان إلى حيث يذكرنى وما نسيت ؟ . . .

أين أنا مما كان ؟ وأين أنا مما سيكون ؟ . . .

وجلستُ وحدى فى الشرفة أتطلع إلى السماء ، وكم لنا فى السماء من غايات ، وكم لنا عندها من ودائع !

فى مثل هذا اليوم منذ عام لم أكن فى مجلسى وحدى ، ولم تكن نظرتى إلى السماء نظرتى وحدى . . . ماذا أرى الساعةَ ومَن ذا يرانى ؟ . . .

لا شيء ، ولا أحد ، غيرى وغير أحزانى !

وأذّن مؤذّن « الراديو » فى المنزل البعيد فخفّ كل صائم إلى مائدته ، وتلفّتُّ بى عمومى فلم أغادر مكانى ؛ ونظرتُ نظرةً إلى وراء فثابتْ إلىّ نفسى ؛ هذه ابنتى الصغيرة تدعونى إلى مائدتى وإلى جانبها أخواها الصغيران : طفلة تستند إلى مهدِ طفلٍ رضيع . هذه أسرتى منذ اليوم ، بل منذ أمسِ الذى كان ...

وحسوتُ حسوةً من دموعى ثم نهضتُ إلى المائدة ! من أجل هؤلاء يجب أن أعيش !!

وخيّم السكون على الدار الصامتة إلا صوتَ أبٍ يضاحك بنيه على المائدة وإلى جانبه مقعدٌ خالٍ . . . !

ومضت ساعة الغروب فى أول يوم من رمضان ، لا حديث ولا مسامرة ولا نجوى . . . ولا نور !

يا ليالىّ فى رمضانٍ فات وفى « رَمَاضِين[1] » قبله ، عليكِ وعليكِ . . . عليكِ أسكب أحزانى دموعاً جافة لا ترطّب وجنة ملتهبة ولا تطفئ . . . !

... ...

نامى يا ابنتى نامى !

ونامى أنتِ أيضاً أيتها الصغيرة ، فقد نامت أختك !

(١) جمع « رمضان » فيما نعترف ؟ إذا لم نجد له جمعاً فيما وقفنا عليه من مأثور العرب .

ونم أنت كأخَيك أيها الطفل السعيد ؛ إن لأبيك الليلة ما يشغله عنك وعن أخَيك . . .

. . . وخلوتُ إلى نفسي ... الليلُ ما زال في أوله ، وإنه لأول ليلٍ في رمضان ، فما بال هذا الصمت يكتنفني حتى كأنه ليس على ظهرها غيري ؟ . . .

هذه البيوت المتناثرة على مَبْعَدة ، ما بالها خافتة الضوء ساكنة الحركة كأنها شأنها شأني ؟

وهذه النخلات المنتصبة في العراء ، ما بالها ساكنة الظلال صامتة الحس كأنما تسمع همسات قلبي . . .

وهذه الشعاعات المنبعثة من شتى جهات المدينة وضواحيها صاعدة إلى السماء ، تلتقي وتفترق ، وتأتلف وتختلف ... لكأني رأيتها قبل الليلة ، وفي مثل هذه الليلة ، ثم تبحث في حواشي الأفق وتتبعها عيناي . . . ؟

إن لي في السماء ضالة أنشدها ؛ فماذا تَنشد هذه الشعاعات ؟ . . . إني أكره أن أراها ؛ إنها تحول بيني وبين ما أريد أن أرى ؛ إنها تضرب ستاراً بيني وبين السماء على حين يُخيَّل أنها تنير حواشي السماء . . . .

وأغمضتُ عينيّ فرأيت ... وحفّ الشجر في الحديقة حفيفاً أعجم ليس له جرس ولا معنى كأن « شيئاً » يتخذ طريقه من خلال الأغصان المتشابكة ، واسترْوَحْتُ عطراً ألِفْتُه منذ سنوات ، وأسكَرَني الشذى فَضرَبَ على عينيّ وأيقظ وجداني . . . . . .

أيها الطيف الذي ألم بالوداد في أول ليلة من ليالي رمضان ... ليتك وليتني ... ليتني وإياك لم يكن لنا في هذه الحياة تاريخ ! . . .

لا ، بل سيخلد هذا التاريخ ، وسيبقى ؛ إني لأضن به على النسيان !!

... ...

ماذا قلتُ ؟ وماذا كان ينبغي أن أقول ؟ . . .

إن للقارئ عليّ حقا ؛ فلماذا أشغله بحديثي عما يعنيه ؟ . . . معذرة إليكم أيها القراء ! . . .

ولكن أليس في هذا الحديث ما يعني أحداً غيري ... ؟

بلى ، أليس فيهم من يعنيه أن يعرف من يكون كاتب هذا الباب ؟ وكيف حياته ؟ وأين هو من نفسه وأين هو من الناس ؟ . . .

بلى ، وإن من حق وأنا أقرأ لهم كل أسبوع عشرات من الصحف والمجلات ، أن أقرأ لهم في أسبوع من الأسابيع « صحيفة » نفسي ؛ فهأنذا في بعض ليالي أيها القراء ! !

وتسحّرت كما يتسحّر الناس ، وضممتُ أطفالي إلى صدري ، ونمت !

. . . واستقبلني بَنِيّ بالتهليل في بُكرة الصباح ، وضحكتُ لهم وضحكوا ، وأسرفتُ لهم في المزاح وأسرفوا في الضحك . ذلك حقهم عليّ بعد ليلةٍ عابسة جافة ليس فيها من شيءٍ رطبٍ غير الدموع !

ورضيتُ من نفسي حين طاب لي أن أصطنع في تحيتهم هذا « النفاق » لأحمل عن قلوبهم الصغيرة بعضَ ما تحس من ألم الوحدة طول النهار ؛ إن « النفاق » ليكون أحياناً فضيلة ، لأن فيه تضحية ؛ ولست أبالي إن رضيتُ لهؤلاء الصغار أن يدركوا أي معنى من معاني الألم يكمن وراء كل ابتسامة تفرج عنها شفتاي ! . .

... ...

... وغَدَوْتُ لأدرك « القطار » إلى عملي وإن جسمي لينوء بما يحمل من أثقال النفس ، واحتططتُ على أول مقعد بجانب النافذة وتمنيت أن أنام . . .

ألا « سيجارة » ! . . . إن بي لشهوةً إلى التدخين بعد هذا الليل الساهر ، ولكني صائم !

وشممت رائحة مدخّن على مقربة ! ... ويلٌ له ! ... أليس يحلو له التدخين إلا في هذا المكان ؟ . . . وأغمضت عينيّ ولم ألتفت . . .

وذكرت أمر « رئيس الوزراء » إلى الموظفين برعاية حرمات هذا الشهر الكريم ، فأثنيتُ خيراً . . . سيحمينا هذا الأمر ساعات من النهار من سوء أدب مثل هذا المدخّن السخيف ، وسيحمل طائفة من الموظفين على « النفاق » ، ولكنه نفاق ظريف !

... وعادت إلى خياشيمي رائحة هذا المدخّن القريب فذممتُ ، أليس يشعر أنه من هذا القطار المزدحم في مكان عام ؟ ... لعله لا يشعر !

ونزلتُ من القطار ونزل ، واتخذتُ طريقي إلى محطة الترام واتخذ طريقه ، ونظرتُ إليه فعرفتُه . . . وكانت « السيجارة » في فمه ، بل في مَبْسَم طوله شبر يعضّ عليه بأسنانه ، وهو في الطريق ، وعيونٌ إليه ناظرة ، وأصابع تشير ، واسمه على أفواه ؟ إنه رجل معروف ! إنه « معلِّم كبير » في وزارة المعارف ، يعرفه كل تلميذ وكل تلميذة في القاهرة ، لأنه يدخل كل مدرسة ، ويقتحم على كل معلِّم حجرته في مدارس القاهرة ؟ إنه فلان . . .

. . . لعله يرى أن من سوء الخلق أن « ينافق » الناس ، فلا عليه أن يُظهر ما كان لا بد أن يخفى . وللأخلاق موازين !

. . . لعله ، ولكنه رجل في مكان القدوة والقيادة ، وإنه لمعلِّم كبير ، وإن عيوناً إليه ناظرة ، وأصابع تشير ، واسمه على أفواه ! !

وجلستُ بإزائه في الترام وكأنْ لم يرني وكأنْ لم أره ؛ فلما صار على بعد خطوات من « الديوان » ألقى « السيجارة » مشتعلة في الطريق وما تزال فيها بقية ؟ ولم يرَ من سوء الخلق أن « ينافق » في الديوان ولم يكن يرى ذلك في الشارع !

وعدت فأثنيت على أمر « رئيس الوزراء » ؛ لا لأن فيه حماية للخُلق ورعاية لحرمات الشهر الكريم ، بل لأن فيه رعايةً لمراءٍ !!

... ...

ماذا قلت وماذا كان ينبغي أن أقول ؟ ...

أتَحَرّيْتَ ذات مساء في ندوة من نوادي رمضان حين كان لرمضان نوادٍ ومسامرات ؟

مِن مثل هذا الشتيت المبعثر كانت أحاديث رمضان : معنى يستتبع معنى ، وحادثة تجر إلى حادثة ، وعند كل قائل ما يقول من العتمة إلى السحر ...

أما في هذا الزمان فليس لرمضان نوادٍ ولا مسامرات ؛ فلنجعل مسامراته مقالاً يُقرأ إن عزّ أن تشهده حديثاً يروى . . . ولا علينا ولا على القارئ من بأس أن يكون ألواناً تختلف ، وشتيتاً غير مؤتلف . ولكل مقام مقال .

« قاف »

الكيمياء وكشف الجرائم

تقدم أحد الأشخاص فى انجلترا إلى المحاكم ذات مرة مدعيا أحقيته فى وراثة ضيعة واسعة ومعززاً ادعاءه بوثائق قديمة لم يكن هناك أى شك فى صحتها مما حمل المحكمة على الاعتقاد بصحة دعواه . ولكن بدا للقضاة فجأة أن يأمروا بتحليل ورق الوثيقة الأصلية التى كان يرجع تاريخها إلى عام ١٧٢٨ فظهر من التحليل أنها مصنوعة من لب لم يكن معروفا قبل عام ١٨٨٠ ، وبذلك انهارت دعوى الرجل ، وبدلا من أن يفوز بالضيعة كان جزاؤه الأشغال الشاقة عقوبة على جريمة التزوير .

هذه الحادثة وكثير مثلها مما يعرض على المحاكم وإدارات البوليس فى جميع أنحاء العالم كل يوم ، تبين أهمية العلم الحديث فى المساعدة على اكتشاف الجرائم ، ولكن المشتغلين بهذه الناحية من العلوم التطبيقية يواجهون دائما لسوء الحظ عقولا لا تقل مهارة وذكاء عن عقولهم ، فكلما اكتشفت طريقة تساعد على كشف نوع معين من الجرائم فإن المجرمين لا يعدمون وسيلة لمعرفة الطريقة الجديدة مادام العلم ميسورا لكل إنسان ، فيعملون على ملافاة ما يؤدى إلى كشف أسرارهم ، وقد يكتشفون طريقة علمية أخرى لطمس الحقيقة .

لذلك نرى فى إدارات البوليس الكبيرة فى العالم ، أنه قد انتهى العهد الذى كان يرجع فيه إلى الطبيب فى كل صغيرة وكبيرة تساعد على اكتشاف الجريمة بطريقة علمية ، فقد أصبحنا فى عصر التخصص نظراً لاتساع هذه العلوم وتشعبها ، ولم يعد الطبيب فى هذه الإدارات الكبيرة كافيا لإبداء رأيه تكبير فى تحليل السموم والأطعمة والمياه والدماء ، وفى تحليل الأتربة والنسيج والورق والحبر والبارود والنقود وما إلى ذلك من العمليات التى من صميم عمل الكيميائى ، ولو أنه فى بعض الأحوال قد يكون من المرغوب فيه أن يتوافر للشخص القائم بمثل هذه العمليات مؤهلات طبية وكيميائية فى آن واحد .

ولعل لفظ الجريمة كثير الارتباط فى أذهاننا بمنظر الدم بسبب إلفته للمواطف عند الانسان ، ولنبدأ لذلك ببيان عمل الكيميائى فى هذه الناحية ، فإن أول ما يود المجرم أو القاتل تحاشيه هو تلوثه بالدماء ، كما أن رجل البوليس أو النيابة يسارع دائما إلى جمع معلومات وافية عن البقع التى توجد على الملابس المضبوطة ، فقد يكون فيها المفتاح الذى يساعده على جلاء الحقيقة ، فأول ما يجب أن يتأكد منه هو ما إذا كانت هذه البقع بقعاً دموية ، وإن كانت كذلك فهل الدم دم إنسان أم دم حيوان آخر ، وإن كانت دم إنسان فهل من المحتمل أن تكون من دم الجانى أو دم المجنى عليه . وطبيعى أن كل هذه المعلومات لها أهميتها فى الوصول إلى النفى أو إلى الإثبات .

وفى الواقع توجد عملية واحدة سريعة يمكن بواسطتها أن يتأكد الكيميائى فى الحال من أن البقعة التى أمامه هى دم ، ولكنه يضطر لأن يجرى أكثر من تجربة واحدة ، قبل أن يقرر أن ما وجد على الملابس أو الخرق المضبوطة من بقع هو دم .

فهو يبدأ عادة بالفحص الميكروسكوبى ليرى إن كانت هناك الخلايا الحمراء التى تعرف بالكريات الحمراء والتى هى إحدى مكونات الدم الهامة والتى تحتوى المادة المعروفة بالهيموجلوبين — وأحيانا يعطى هذا الكشف معلومات هامة عن نوع الحيوان فيمكن مثلا معرفة إن كانت البقعة ناتجة من دم الفرخة أو دم بعض الحيوانات الثديية .

ويلى هذا الفحص الابتدائى القيام بعمليات كيميائية خاصة على مقادير صغيرة جداً من المادة للكشف عن وجود الدم . ويستعمل فيها بعض المواد الكيميائية مثل ماء الأكسوجين والبنزيدين وصبغة Guaiacum . فالبنزيدين مثلا يعطى مع الدم (ولو كانت كمية ضئيلة جداً) لوناً أزرق خاصاً . فإذا لم ينتج هذا اللون الأزرق ثبت أن

البقعة ليست دما ، أما إذا نتج اللون الأزرق فليس هــذا دليلاً على أنها دم ، إذ قد تكون دماً أو شيئاً آخر يعطى مع هذه المادة الكاشفة نفس اللون ، وهنا يجب استعمال طرق كيميائية أخرى على كميات صغيرة من مكونات البقعة يحاول فيها الكيميائى تحويل مادة الهيموجلوبين إلى مادة أخرى تسمى الهيمين Hemin يسهل تمييز بلوراتها تحت الميكروسكوب . وأخيراً يجرى على المادة المكونة للبقعة كشف بواسطة جهاز خاص يسمى الاسبكتروسكوب (منظار الطيف) .

والفكرة الأساسية فى هذا الجهاز فى غاية البساطة . فمن المعلوم لنا أن أشعة الشمس العادية تتركب من موجات ذات أطوال مختلفة تظهر بشكل ألوان الطيف عند مرور ضوء الشمس الأبيض فى منشور من الزجاج ثم خروجها منه واستقبالها على حاجز أبيض فنرى جميع الألوان التى تشاهد فى قوس قزح ، وكل لون من هذه الألوان ينتج من موجة ذات طول خاص — وهناك من المواد ما له القدرة على امتصاص ألوان ذات أطوال موجات خاصة من الضوء عند مروره فيها — فيظهر الطيف وفيه خطوط معتمة فى أماكن الألوان التى امتصت موجاتها — ويعتبر الطيف فى هذه الحالة مميزا لكل من هذه المواد . ويمكن بهذه الطريقة التثبت تماماً من وجود الدم ، وكذا بعض مشتقات المادة الملونة فيه (الهيموجلوبين) بواسطة جهاز الاسكتروسكوب والأطياف التى ينتجها . وهناك طرق أخرى كالتى تستخدم فيها الأشعة فوق البنفسجية للكشف عن الدم بل وعن كثير من العمليات المتصلة بالجرائم نأمل أن نتناولها بالتفصيل فى فرصة أخرى .

الخطوة الثانية بعد ذلك ، هى التحقق من أن الدم دم إنسان حتى لا يذهب كثير من الأبرياء إلى المشنقة بغير وجه حق ، وبقليل من علم الكيمياء الحيوية يمكن تحقيق هذه المسألة . فمنذ حوالى خمسة وثلاثين عاما اكتشف أحد الأساتذة فى جامعة كمبردج أن البروتينات الموجودة فى مصل الدم لكل نوع من أنواع الحيوانات تختلف قليلا بعضها عن بعض . فقد وجد أنه إذا حقن دم حيوان معين كالانسان مثلا فى حيوان آخر كالأرنب ، فإنه يتكون فى دم الأخير مواد خاصة مرسبة يسمونها Precipitins تزداد كميتها بتكرار عملية الحقن ، فلو أخذ المصل من دم هذا الأرنب وأضيف إليه مصل من دم أى إنسان لظهر فى الحال راسب خاص ، وبذلك يمكن تمييز دم الإنسان عن دم كثير من أنواع الحيوانات الأخرى — وفى العمل تكفى بقعة واحدة لاجراء هذا الكشف حتى ولو كان قد مضى عليها بضع سنين ، ولا شك فى أن النتيجة قد تغنى عن كثير من البحث والعناء .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصبح من الممكن فى الوقت الحاضر الحكم بأن البقعة ليست ناتجة عن دم شخص معين أو احتمال انتسابها لدم شخص آخر — ونقول « احتمال » لأنه إلى الآن لم يمكن الجزم بأن البقعة تنتمى إلى دم شخص معين . ولبيان ذلك باختصار نذكر أنه قد لوحظ أن الكريات الحمراء فى دم أحد الناس قد تتجلط إذا خلطت بدم بعض الأشخاص ، ولا تتجلط مع دم أشخاص آخرين — وهناك فئة أخرى من الناس يتجلط دمها إذا خلط بدم أى شخص آخر ، وفئة ثالثة لا يتجلط دمها إطلاقاً بهذا الخلط . وقد فسرت هذه الظاهرة بأن هناك عاملين يطلق عليهما A,B يوجدان معا فى الكريات الحمراء للدم ، وقد يوجد أحدهما فقط وقد يمتنع وجودهما إطلاقا فى كريات دم الشخص . وبالمثل هناك عاملان آخران a,b فى مصل الدم — وفى دم كل شخص يوجد عاملان فقط من هذه العوامل الأربعة ، لا أكثر ولا أقل . كما أنه لا يمكن اجتماع العامل A فى الخلية الحمراء مع العامل a فى المصل وبالمثل لا يمكن اجتماع B مع b وإلا تجلط الدم فى الحال واستحالت الحياة .

لذلك يتضح أن دم أى إنسان لا يمكن إلا أن ينتمى

إلى إحدى المجموعات الأربعة الآتية بترتيبها من اليمين إلى اليسار وهي ab،aB،Ab،AB ومن ذلك نرى أن الكريات الحمراء في دم المجموعة الأولى سوف تتجلط إذا خلطت بمصل من دم أي المجموعات الثلاث الأخرى ، كما يلاحظ أن الكريات الحمراء في المجموعة الأخيرة وهي خالية من أي عامل من عوامل الدم (فما فيها هو ab وهي عوامل للمصل وحده) لا يمكن أن تتجلط بخلطها بأي مصل آخر . أما المجموعتان الثانية والثالثة فكراتهما الحمراء تتجلط مع مصل بعض المجموعات الأخرى ولا تتجلط مع مصل البعض الآخر .

وللحكم على المجموعة التي ينتمي إليها دم شخص معين يمزج قليل من دمه بمصل a ومصل b على التوالي على شريحة من الزجاج ، فقد يحدث التجلط مع كليهما (دلالة على أن الدم ينتمي إلى المجموعة الأولى) . وقد لا يحدث التجلط مع أيهما ، وقد يحدث مع مصل a فقط أو مع مصل b فقط . ويمكن اجراء هذه العملية بسهولة وسرعة فائقتين بواسطة الشخص المتدرب على العمل بها كما يمكن اجراؤها أيضاً على البقع الدموية لمعرفة المجموعة التي تنتمي إليها ثم مضاهاة النتيجة بمجموعة الدم التي ينتمي إليها المجني عليه مثلا ، فإن لم يكونا من مجموعة واحدة انتفى كون البقع المضبوطة من دمه .

ولهذا التقسيم في مجموعات الدم أهمية أخرى ، إذ يجب مراعاته عند اجراء عمليات نقل الدم من شخص إلى شخص آخر ، فإن لم يكونا من مجموعتين متوافقتين حدثت أخطار جسيمة قد تؤدي إلى وفاة الشخص الذي ينقل إليه الدم بسبب حدوث التجلط في شرايينه .

ومن الطريف ملاحظة أنه إذا وجد العاملان A،B في دم أحد الأشخاص فلا بد وأن يكون أبوه أو أمه قد حملاه في دمهما أو دم أحدهما من قبل — ولذلك كثيراً ما يستخدم هذا الدليل في المحاكم لنفي أبوة شخص لطفل معين ، فإذا وجد مثلا أن طفلا يحتوي دمه العامل A وأن أمه لا يوجد في دمها هذا العامل فلا بد إذاً أن يكون دم أبيه محتويا عليه ، فإذا حلل دم الرجل ووجد أنه لا يحتوي على هذا العامل فلا يمكن أن يكون هو أبو الطفل ، أما إذا وجد هذا العامل في دم الرجل فليس في هذا أي دليل على أبوته أمام القاضي .

وقد قرأنا أخيراً في الجرائد اليومية تنازع ثلاثة من النسوة على طفل رضيع كل منهن تدعي أنه ولدها وأن الجهة المختصة قد قررت تحليل دمهن ودم الطفل لعله يمكن إثبات ادعاء بعضهن .

ولنكتف الآن بهذا القدر وموعدنا عدد تال إن شاء الله نذكر فيه بعض النواحي الأخرى التي يستعان فيها بعلم الكيمياء على اكتشاف الجرائم وكيفية ذلك .

يوسف صموئيل المرسى قطب

في الميزان الجديد :

٢ - نداء المجهول
والأدب الواقعي

مس إيفانس سيدة انجليزية قليلة الكلام محبة للعزلة ، أتت إلى لبنان عقب أزمة نفسية أوحت إليها بفلسفة عارضة في الحياة ، زبد نفضه الألم على السطح . «كانت مثلنا تسعى للاستمتاع بتلك الزخارف البراقة حتى تكشف لها المجتمع عن حقيقته وبان لها زيفه وبهتانه ... وتقت بدنيانا هذه فأودعتها أعز ما تملك ، أودعتها قلبها ، ولكنها ردت إليها هذا القلب محطوماً ... فكرهت دنيانا ... كرهتها ! »

حب خاب . مأساة النساء بل والرجال منذ أن وجد الزمن وإلى أن يفنى الزمن ... والنفس إذا حزت فيها الآلام حاولت أن تتعلق بأي شيء ، بالمغامرة مثلاً . وهذا ما كان ؛ « فمس إيفانس » قد سمعت بوجود قصر مسحور في الجبل وقد تسقطت أحاديثه فنزعت إلى السير إليه ، وكأن مجهولاً يناديها منه نداء لاقى صدى بنفسها التي لم يعد يغمرها شيء ، فانسعت لنداء المجهول ، ولا غرابة في ذلك ، فلا بد لكل قلب من شاغل ، إن لم يكن معلوماً فليكن المجهول . وكونت « مس إيفانس » بمحض المصادفة قافلة صغيرة للبحث عن القصر ، أفرادها هم من ذكرت : الشيخ عاد ، وراوي القصة ، ومجاعص ، ثم هي ، وساروا في رحلة شاقة تجدها في القصة ، حتى انتهوا إلى القصر ؛ وهنا قد يقول القارئ : ولكن هذه مغامرة خيالية . أبداً ، فالقصر حقيقة واضحة بناه الشيخ « بشير الصاق » ، وكان رجلا عظيم السلطان على بني قومه تؤازره عشائر شتى ، وكانت له مع الدولة العثمانية مواقف مشهورة . وكان الولاة يرهبون جانبه ويجاملونه ما استطاعوا ، ويضمرون له الشر للإيقاع به عند إمكان الفرصة ، ولكن فطنته وسعة حيلته جعلته يخشى أن يتنكر له الدهر ، فاختار مكاناً في ركن يخفيه الجبل يصعب الاهتداء إليه ، وشيد فيه قصراً محصناً يعتصم به هو ومن معه إذا اضطرهم الأمر إلى الاختفاء . . . « كان ذلك منذ زمن العثمانيين ، وأما الآن فقد آل القصر إلى حفيد الشيخ بشير ، إلى يوسف الصاق . ولقد كان لهذا الأخير قصة مؤثرة ، إذ أنه أحب فتاة وطلبها إلى أبيها ، ولكن الأب رفض وهم بتزويجها إلى رجل آخر ، رغم حب الفتاة ليوسف ، واتفق الشاب مع حبيبته على أن يقتلها ويقتل نفسه ، وفعلاً قتلها في ليلة زفافها ، وأما هو فقد ضعفت يده عن قتل نفسه ؛ ولئن شاع بين الناس أنه قد انتحر فإن هذا لم يكن صحيحاً ، إذ أنه هام على وجهه وما زال يتخبط في بقاع الأرض حتى انتهى بالوصول إلى قصر جده ، وهناك أقام مصدر رعب لكل من يدنو من القصر يهيل عليه الصخور أو ينصب له الشراك حتى شاع وذاع أن القصر مسحور ، وكانت بالقصر حدائق دانية الجنان استطاع أن يحيا فيها يوسف ربع قرن بأكمله .

وصلت القافلة إلى القصر بعد أن نجت من حبائل يوسف بحسن توفيق ، فقد شاء القضاء ألا يصيب خنجره منهم أحداً بينما استطاع « الراوي » أن يصيبه بطلقة نارية من غدارته . وهنا أخذت « مس إيفانس » تعنى بأمر يوسف الجريح ، ويوسف يهذي فيناديها بـ « صفاء » واسماً أنها خطيبته التي كانت تحمل هذا الاسم ، وفي ذلك ما يحرك قلب « مس إيفانس » ويرضي خيالها ، حتى إذا شفي الرجل وثاب إلى رشده ، لم يعد يناديها بهذا الاسم الجميل ، وكأنه قد فطن إلى أنها غير حبيبته التي غادر الأحياء من أجلها . ونحن بعد لا ندري ماذا أحست « مس إيفانس » عندما عرفت تلك الحقيقة ورأت يوسف يناديها بـ « مس إيفانس » فهذه أسرار نضيفها إلى غيرها مما يملأ نفس « مس إيفانس » وإن تكن كلها أسراراً واضحة . هل هي إلا فراغ النفس ؟

فرائقها المؤلم . وأيًّا ما يكون الأمر فقد ضاقت « مس إيفانس » بالبقاء في هذا المكان الوحش ، وأصبحت تقول « إني أسمى هذه الحالة مرضاً اجتماعياً . . . . لكل امرئ في الحياة رسالة يجب أن يؤديها لبنى جنسه . فإذا نكص على عقبيه عد ذلك فراراً من الميدان . . . » وهذا تحول عجيب في فلسفة « مس إيفانس » في الحياة ، ولكن ألم أقل لك إن فلسفتها زبد تقذفه الآلام على السطح ؟

وغادرت القافلة المكان عائدة بعد أن فقدت « مجاعص » ، ولكن مس إيفانس ظلت « تقضي وقتاً غير قصير تطيل النظر إلى الجهة التي يقوم فيها قصر السحور . . . » وفي اليوم الثالث من الرحلة صحا الراوي من منامه واجتمع بـ « الشيخ عاد » لتناول الفطور ، ولكنه لم يجد « مس إيفانس » ، فسأل الشيخ عاد عنها فلم يجبه ... بل اقتصر على ابتسامة « هادئة مديدة » ، فيها معنى الاستسلام والاستخفاف بكل شيء . إلى أين ذهبت ؟ . . . ألم نفهم ؟ لقد استجابت لنداء المجهول الذي كانت تبحث عنه . عادت إلى يوسف إن لم يكن بد من الإفصاح . وأما ما كان من أمرها بعد العودة إليه فذلك ما ليس لنا به علم ، إذ أن الراوي لم يحدثنا عن شيء بعد هذا ، ولى ولك أيها القارئ ، وسيكون للأجيال المتلاحقة بعدنا أن تفكر في مصير « مس إيفانس » التي سحر خيالنا لزمن طويل .

ولعل القارئ يعود فيسائلني : هل « مس إيفانس » هذه من الحياة حقاً . أم هي خيال شاعر ؟ وأنا في الحق لا أكاد أتصور هذه الفتاة العجيبة في وضوح ، لأن الراوي كان أيضاً معجباً بها ؛ بل لقد دامت حبها قلبه فلم يمعن فيها النظر كما لم يمعنه في « الشيخ عاد » وهنا تظهر حقيقة أدبية كبيرة ، تفسر لنا كيف أن الأدب الواقعي أمعن في وصف الشاذ والقبيح المال منه في وصف الجمال . فصفات الجمال كما قلت ألفاظ عامة كلها من نوع الكلمات المبتذلة التي تلوكها ألسن اليافعين واليافعات « فلان زى القمر » « فلان زى البدر » وأمثال ذلك . وهكذا يقول الراوي عن « مس إيفانس » . « وجلست على المقعد متمددة فظهرت معالم جسمها الفاتن . وحدقت في السماء بعينيها الصافيتين الزرقاوين اللتين تكشفان عن عراقة منبت وسلامة قلب » وهذه أوصاف جميلة موحية أجلها عن الابتذال ولكن هل أفادت تحديداً ؟ وهل في لغة الحياة تحديد . كم في العالم من « مفاتن جسمية » وكم فيه من « أعين زرق صافية تكشف عن عراقة منبت وسلامة قلب » . ونحن نلتمس للراوي العذر ، فهذه مشكلة لا حل لها إلا أن نغير لغة البشر . وهو بعد قد تورط في التعلق « بمس إيفانس » حتى لقد أخذته الغيرة من يوسف . وإلى اليوم ما زلت أفكر في الأثر الذي خلفته بنفسه تلك الفاتنة .

نداء المجهول إذاً قصة واقعية . واقعية في تفاصيل موضوعها . واقعية في طريقة قصصها . واقعية بشخصياتها . ولئن أحاط « إيفانس » جو من الشعر فإنه لا يستطيع أن يخفي ما فيها من حقائق نفسية ، فهي شخصية نفسية إن لم تكن شخصية من دم ولحم . نداء المجهول واقعية بأسلوبها وتيمور أسلوب أصيل . أسلوب خطفات دالة موجزة مركزة موحية دقيقة . أتريد أمثلة ؟ أذكر أسماء الأعلام وما فيها من بيان . الشيخ عاد والأستاذ كنعان ثم مجاعص . مجاعص بنوع خاص وما فيه من « جعاصة » تدعونا إلى الابتسام الشفقى .

وأخيراً صفاء ، وإن لم تخل من دهشة لاتفاق اسم « الصافي وصفاء » فقد تم في سهولة مسرفة كنت أود أن لو نجا منها تيمور . ثم أذكر جمله ولوحاته العديدة في القصة : « ورأيت الشمس تنحدر الهوينى في الأفق . وقد أخذ يبتلعها خضم الضباب القاني (وقت الغروب في الجبل) التراءى بأطراف الوديان الزاحف علينا مع طلائع الليل . »

أو لست ترى المنظر أو لست تحس رجف الضباب . أذكر « الرعاة بوجوههم الطويلة المشدودة البشرة » ثم تصور مجاعص وهو يحاول « إخضاع القمة كبيرة حشا بها فمه ، وقارن صورته هذه بصورته أثناء الرحلة « ومر بعد ذلك يومان أيضا وأوشك الزاد أن ينفد على الرغم من تقتيرنا فيما نأكل منه (فيما نأكل منه ، حشو مصنا بحذقه) واعترى « مجاعص » وجوم غريب وغشيته « كآبة صماء » ولم يعد « يسمعنا » مبالغاته السخيفة في وصف شجاعته والأدلال بخبرته ، وتراخى شارباه وانحنت قامته . وكان إذا صادفته في الطريق عقبة كؤود طمح ببصره إلى السماء وصرخ من أعماق قلبه : الله يخرب القصر ويحرق الذي بناه » . ثم هذه اللوحة التي كأنها رسمت بريشة مصور ماهر يعرف كيف يجمع شخصياته ويميز بينها . لوحة أفراد الرحلة الأولية وهم مأوى في الجبل في إحدى الليالي «ثم رأينا المأوى وقد بدأت تغيره أشعة القمر فتنهدت طويلا وطفت بعيني فألفيت « مس إيفانس » منكمشة بجوارى تدور برأسها الدقيق حولها ، وعيناها لا معتان كأنهما تلمع الماسة المصقولة . «والشيخ عاد» ينظر أمامه نظراً كأنها مسترسلا في أحلامه . أما « مجاعص » فقد كوم نفسه وراح في سبات عميق ! » .

وأخيراً دعنا من هفوات الكاتب كقوله عن ترجمة الأستاذ كنعان ليلة كانوا ينصتون إلى المعلومات التي استطاع الشيخ عاد أن يجمعها عن القصر . ولا تستمع إلى دعواه أنه « انبعث لمالتها هدير عال كأنما هي أيضا تطالبه (تطالب الشيخ عاد) أن يروى لنا حكاية هذه الفاجعة (فاجعة يوسف الساقى) !» . فهذا ليس صحيحا وما سمعنا أن ترجمة تهدر مطالبة بقص حكاية . هنا نظن أنه لا ندرى كيف وقع فيه تيمور الدقيق الحس الصادق الذوق . ودعنا من العبارات المحفوظة التي أمقتها لأنه لم يعد لها لون وقد أكلها النحات حتى أصبحت لا تدل إلا على الكسل العقلى الذى يحجم عن البحث عن العبارة الدقيقة ، وذلك أمثال « يقلب له الدهر ظهر المجن » (ص ٤٨) و« ولا حياة لمن تنادى » فهى أيضاً على تفاوت في النسب عبارة بالية .

ثم انظر في كل ما بقي ، تر أسلوبا دقيقا لرجل يعرف أسرار اللغة ويحسن استخدامها . « أصبح عند بعض الناس » خرافة ليس لها وجود وعند « بعض آخرين » مكانا تعمره الشياطين . » وتأمل في قوله بعض الناس . . . وبعض آخرين ، فهو لم يقل « البعض الآخر » حتى لا يفيد تعميا لا يريده . وانس لتيمور حفيد اللغوى تيمور باشا الجمع « أميال » (ص ٥٥) بدلا من « ميول » الدارجة الجميلة ثم تأمل في « الصمت الرازح » (ص ٦٥) و « شحيح البطلين » و « ما عتمت أن تغشى النعاس » (ص ٦٨) و «جسمى يشخب دما» (ص ٨٣) و «خيطين من الصموع يتهاديان على خديه » و « كتلة صفاء المنقوشة في الصخر الأملس تتدفق عليها مياه الينبوع فتدعها تختلج حروفها كأن لها قلبا حيا ينبض (ص ١٣١) « ونار الدفئة تتلاعب على سقف المأوى في أشكال بشعة » وذلك في ليلة هاجت فيها نفس الراوى وتألمت وسمع فيها عواء حسبه صدى « لصوت نفسه العليلة المضطربة » ثم أطل التحديق « بنظرة الشيخ عاد الثابتة » وقد بلغ من ثباتها أن حملت الراوى على أن يصدع بأمر الشيخ رغم ما في أمره من مجازفة خطرة ، ثم الشعلة « التي لاحت (ص ١٣٣) في بقاع البئر كأنها بصيص تقاب » (ص ١٣٦) وأخيرا تصور « اليأس يعشش في نفسى » (ص ١٤٩) . أليست هذه كلها أمارة الدقة عند كاتب يعرف كيف يختار ألفاظه ، ويرسم صوره كما يعرف فن القصة وأصولها . محمود تيمور كاتب واقعى . كاتب ممتاز . إنى لا أكتم محبتى لأدب هذا الكاتب .

محمد مندور

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ١٩٦ — الثلاثاء ١٨ من رمضان سنة ١٣٦١ — ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

٣ — حديث رمضان :

الإيمـــان بالله

للأستاذ أحمد أمين بك

يحكى أن رجلاً ما زال يمعن في الشك حتى وصل به إلى الإلحاد ، فحدَّث يوماً صديقه بما ساوره من شكوك وما كان من نتيجتها من إلحاد .

فقال له صديقه : ما أظنك ملحداً ، لأنى أرى فيك ملامح إيمان .

فأكد له الرجل إلحاده .

وما زال الصديق ينكر ، والرجل يؤكد حتى استفز الملحدَ الغضبُ ، فصرخ قائلاً : «والله العظيم إنى ملحد» :

هذه القصة تمثل ما رُكز في طبيعة الإنسان من إيمان بإله ، مهما انحرف العقل وعلى المنطق ، ولهذا نرى كثيراً من العلماء قد كفرتْ عقولهم وآمنتْ قلوبهم — قد

تختلف صور الإله باختلاف عقلية الأمم ، واختلافها في البداوة والحضارة ، والعلم والجهل ؛ ولكنها كلها تشترك في النزوع الفطرى إلى إله له القوة والسلطان ، وبيده الأمر .

لقد جاءت الثورة الفرنسية فرأت ما فعله رجال الكنيسة من اضطهاد العقل ، وغلول الفكر ، والتدخل فيما ليس من شأنهم ، وإظلام الحياة حولهم ، فثار رجال الثورة عليهم وعلى دينهم ، وأعلنوا أنهم يريدون إلغاء الله . ولكن ماذا كان ؟ هدأت الثورة ، وخمدت النار ، ورجع الناس إلى ربهم ، ولم يُلْغ الله ؛ ولكن ألغيت تعاليم الثورة في هذا الشأن ، لأنها ضد طبيعة الإنسان .

وحاول بعض رجال الثورة فى تركيا إلغاء الدين وإلغاء عبادة الله ، ثم ذهبت دعوتهم مع الريح ، وذهبوا هم وبقى الدين ، وبقى الناس مع الدين .

وجاءت الثورة الروسية أول أمرها داعية إلى إلغاء الله ، وإلغاء الحرية ، وإلغاء فكرة الخلود ؛ ثم ما لبث الدين أن عاد ، تغير شكله وبقى جوهره ، وذهب تركيه وبقيت بساطته . وعلى كل حال فهو الدين ، وهو الله .

***

ولكن ما الذى لفت الإنسان إلى الله ؟

لفته أولاً شعوره ، والشعور جزء هام من تكوينه ، ومصدر صحيح من مصادر معارفه ، وعليه يعتمد فى كثير من شؤون حياته ، فما الصداقة ، وما الأبوة والأمومة ، وما الحب والكره ، وما الإحسان والإنسانية لولا الشعور ، ولو انعدم الشعور لكانت حياتنا جافة لا طعم لها ، بل لم تكن حياة أصلا ، فالشعور بالله جزء مكون لحياتنا كسائر ما ندرك بالشعور .

ثم اهتدى إليه العقل بعد ما اهتدى إليه الشعور .

لقد كان من أهم ما استكشفه الإنسان إدراكه أن العالم وحدة ، وأنه يتبع نظاما فى منتهى الدقة ، يدركه الإنسان لأول وهلة فى تعاقب الليل والنهار ، والصيف والشتاء ، وحركات الشمس والقمر ، ثم كلما ازداد تعمقه فى دراسة الطبيعة ازداد إيماناً بهذا النظام ودقته ، فإذا تبين فى شىء ما فوضى أدرك فيما بعد أن ذلك يعود إلى جهله بقوانينه لا حاجته إلى النظام — وأكثر الناس إيماناً بالنظام فى فرع من فروع العلم علماء ذلك الفرع ، فالفلكيون أشد الناس إيماناً بنظام الكواكب ، وعلماء الحيوان فى الحيوان ، وعلماء النبات فى النبات ، وعلماء وظائف الأعضاء فى وظائف الأعضاء ، وأطباء العيون فى العيون ، وهكذا ، كل يدرك أتم نظام وأدقه فى فرعه ؛ والفيلسوف يدرك ذلك فى العالم كوحدة ، بل يدرك أنه لولا نظام ناحية من نواحى العالم ما كان لها علم . فالعلم معناه جملة من القوانين المنظمة تتعلق بجانب من جوانب الحياة ، كالنبات والحيوان والفلك ، حتى الجسم فى مقاومته المرض يعمل الأعاجيب فى نظامه ، ولولا ذلك ما كان طب — ثم كل جزء من أجزاء العالم مرتبط بأجزائه الأخرى ، يخضع هو وهى لنظام عام كعلاقة الخلية فى الجسم بالجسم كله ؛ فالعالم حروف هجاء ترتبط ألفه بيائه ارتباطاً قريباً ، وألفه بيائه ارتباطاً بعيداً ، وكلها تكون نظاما واحداً ، وتخضع لقوانين واحدة ، حتى إن العالم الدقيق النظر لو تعمق فى دراسة جزء من أجزاء العالم أعانه ذلك على فهم سائر أجزائه لشبه القوانين ووحدة النظام ، وبلغ من دقة نظامه أنه لولا نظامه ما وجد .

وبعد ، فإذا رأينا آلة تسير جزمنا أن وراءها محركا حركها ، وعقلا دبرها ؛ وإذا رأينا إنساناً يعمل ويتحرك ويتصرف جزمنا أن فيه عقلا يدبره ويصرفه ، فإذا فارقه العقل فارقه العمل والتحرك والتصرف ، فكيف يسير هذا العالم وفق هذا النظام الذى رأينا ولا يكون له عقل يصرفه وروح ينظمه ؟

إن الله عقل العالم وروحه ، وهو للعالم كعقلنا فينا ، وقد صدق الأثر : « إن الله خلق آدم على صورته » .

***

أعجب ما فى العالم عقل الإنسان ، ولعل أعجب ما فيه أنه استطاع أن يدرك عجائب العالم ، واستطاع أن يتجاوب مع عقل العالم الذى هو وليده وظله .

نحن بين اثنتين : إما أن نكون — كجزء من العالم — خلواً من العقل والروح والغرض ، والعالم كذلك مادة جامدة لا روح لها ولا مدبر لها ولا غرض لها ، أو أن

تكون لنا روح وعقل وغرض ، وللعالم روح وعقل وغرض ، تتجاوب روحنا مع روحه ، وتتحدد أغراضنا بأغراضه ، والأول الكفر ، والثانى الإيمان ؛ فإن حكمت بعقلك فقد آمنت بعقلك ، وآمنت تبعاً لذلك بعقل العالم ؛ وهو الإيمان .

* * *

وكما أحكم « عقلُ العالم » تدبير العالم ونظامه ، كذلك أشع عليه من جماله ، فالعالم مغمور بالجمال فى صغيره وكبيره ، ودقيقه وجليله ، فى السماء والأرض ، فى النجوم بضيائها ولمعانها ، فى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، فى عظمة البحار ، فى جلال الجبال ، فى شروق الشمس وغروبها ، فى الطير يطير فى السماء ، فى السمك يغوص فى الماء ، فى الحركة والسكون ، فى الأشكال والألوان .

الطبيعة جميلة فى كل جزء من أجزائها ، وأجمل من أجزائها جمال كلها ، فليس الكل يساوى الأجزاء ، فجمال أجزاء الطائرة مفرقة ليس كجمال الطائرة كلها طائرة ، ولا جمال أجزاء الإنسان كجمال الإنسان كُلاً ، إن الطبيعة فى جمالها كـكل تسحر العين ، وتأخذ باللب ، وتملأ القلب روعة ، حتى ليشعر فى وقت صفائه أن هـذا فوق أن يوصف ، والألفاظ أعجز من أن تعبر عنه .

وكما كان أكبر قيمة الإنسان عقله الذى استطاع به أن يدرك عقل العالم وتدبيره ونظامه ، كذلك من أكبر قيمته شعوره الجميل الذى استطاع به أن يدرك جمال العالم ، ويتجاوب معه ، ويأنس به ؛ قد يكون فى بعض أجزاء العالم قبح ، ولكنه قبح لطيف لولاه ما استطعنا أن ندرك جمال الجميل .

إن كان تدبير العالم وإحكام نظامه لا بد أن يصدر من عقل للعالم منظم ، فجماله الذى يشع فيه فى دقة لا بد كذلك أن يصدر عن خالق منسق .

لقد زعم بعض أصحاب مذهب النشوء والارتقاء أن الجمال نشأ عن قانون الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح ، وأن الجمال فى الجنس مِنْحة الطبيعة لإغراء الجنس ، كالأنثى تتبرج للرجل حفظاً للنوع ، فإن كان هذا صحيحاً فما تفسير جمال الجماد وجمال المناظر الطبيعية ؟

* * *

هذا هو الجانب الإيجابى فى الاعتراف بالله ، وهناك الجانب السلبى ، وهو لا يقل عنه قوة وإقناعا .

قد تقدم العلم وتقدم ، واعتز بنفسه وملأه الغرور ، ومع هذا كله لم يستطع أن يفسر إلا السطح وإلا الظاهر ، ما العلة الأولى للخلق ؟ من الذى بعث الحياة فى الخلية الأولى للعالم ؟ كيف تفسر ملايين الحقائق فى عجائب الطبيعة وفى عجائب أنفسنا ؟

إن أقصى ما يصبو إليه العلم أن يعرف نصف الحقائق ، وهو الظاهر والإجابة عن « كيف » ، أما النصف الآخر — وهو أقوم النصفين — وهو باطن الحقائق ، والإجابة عن « ما هى » لا كيف هى ، فعاجز كل العجز عنه لا يستطيع أن ينبس فيه بحرف .

إن من يؤمن بالعلم وحده وينكر ما وراءه ، ومن يؤمن بالقوانين العلمية وينكر ما عداها لا يؤبه بقوله حتى يقول : إنى أستطيع أن أفسر العالم من ألفه إلى يائه ، فأما أن يفسر الآلة ولا يفسر محركها ، ويفسر تطور الحياة وتدرجها ولا يفسر كيف وجدت لأول عهدها بالوجود فضرب من السخف ، أو هو على أحسن تفسير كقول الطفل لا أعلم لأنه يريد أن يتعلم .

إنكار العلة الأولى للعالم وعقل العالم الذى يدبره يلقى على عاتقنا عبئا لا نستطيع حمله .

إن العلم فى حقيقة أمره يزيد عجائبنا ولا يحُلّها ، هذا الفلك بعلمه ودقته وحسابه ورصده وآلاته ماذا صنع ؟

[البقية فى ذيل الصفحة التالية]

٥ - الشعراء النقاد

ذهب «وردسورث» إلى أن لغة النثر لا تختلف — ويجب ألا تختلف — عن لغة النظم؛ ومن ضمن ما استشهد به على هذا أنه قد يجيء في سياق النثر نظام من الكلمات والجمل، إذا نقل بنصه إلى النظم كان حسناً مناسباً؛ وقد يعثر الباحث على عبارات جميلة، وجمل كثيرة الورود في قصائد جيدة، إذا ما نقلت إلى النثر كانت مناسبة وجيدة كذلك.

ولكن «كولردج» عارض صاحبه في هذا وناقش أدلته واحداً واحداً، حتى إذا وصل إلى هذه النقطة ذكره الخطأ المنطقي الذي وقع فيه صاحبه بخطأ الفيلسوف المثالي الذي أراد أن يدلل على صحة مذهبه فأشار إلى الحقيقة الواقعة وهي «أننا ونحن رقود كثيراً ما نعتقد أنفسنا أيقاظاً»، غير أن جاره الرجل البسيط أجابه على الفور: «حسن، ولكن أيحدث ونحن أيقاظ أن نعتقد أنفسنا نياماً؟». ومثل هذا الاعتراض يمكن أن يوجه إلى «وردسورث» فيقال: أليست هناك أحوال من التعبير أو أنظمة من الجمل تكون في مكانها الطبيعي المناسب في تأليف نثري جاد، ولكنها تفقد حسن ائتلافها وتجانسها في الشعر الموزون؟ ثم ألا يحدث أن تكون هناك في لغة القصيدة أنظمة مناسبة من الكلمات والجمل وصور الكلام ذات الجرس والنبرات الخاصة، وهذه بعينها إذا ما نقلت إلى تأليف نثري جاد بدت غريبة نابية؟ مثل هذا من غير شك — كما يقرر «كولردج» — يحدث — بل يجب أن يحدث.

وللتدليل على صحة هذا يثير ناقدنا مسألة الوزن من أساسها ليبحث نشأته وتأثيره، وما يجب أن تكون عليه لغته وتعابيره. يرجع «كولردج» أصل الوزن إلى توازن

أبان أن ملايين النجوم في السماء بالقوة المركزية بقيت في أماكنها أو أتمت دورتها، كما أن قوة الجاذبية في العالم حفظت توازنها ومنعت تصادمها؛ ثم استطاعوا أن يزنوا الشمس والنجوم وبينوا حجمها وسرعتها وبعدها عن الأرض، فزادوا عجباً. ولكن ما الجاذبية وكيف وجدت؟ وما القوة المركزية وكيف نشأت؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وجد؟ أسئلة تخلى عنها الفلكي لما عجز عن حلها — وأبان الجيولوجي لنا من قراءة الصخور كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت، وكم آلاف من السنين مرت عليها في عصرها الجليدي، وكيف غمرت بالماء، وكيف ظهر السطح، وأسباب البراكين والزلازل، وكذلك فعل علماء الحياة في حياة الحيوان، وعلماء النفس في نفس الإنسان؛ ولكن هل شرحوا إلا الظاهر، وهل زادونا إلا عجباً؟ سلهم كلهم بعد السؤال العميق الذي يتطلبه العقل دائماً وهو: من مؤلف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التي شرحتم بعضها وعجزتم عن أكثرها؟ أتأليف ولا مؤلف، ونظام ولا منظم، وإبداع ولا مبدع؟ من أنشأ في هذا العالم الحياة وجعلها تدب فيه؟ ما عقله الذي يدبره.

إن النشوء والارتقاء لا يصلح تفسيراً للمبدع، وإنما يصلح تفسيراً لوحدة العالم ووحدة المصدر، وكلما تكشفت أسرار العالم وتكشفت وحدته، ووحدة تدرجه ووحدة نظامه وتدبيره، كان الإنسان أشد عجباً، وأشد إمعاناً في السؤال؛ وليس يقنعه بعد كشف العلم عن أسرار العالم، وعجزه عن شرحها وتعليلها، إلا أن يهتف من أعماق نفسه: «إنه الله رب العالمين».

أحمد أمين

فى العقل يحدثه المجهود الاختيارى الذى يحـاول أن يأخذ زمام الانفعال ويلطف من حدته ؛ فأول التيار الشعرى — كما أسلفنا — موجة تهز كيان النفس وتحرك موازين وجدانها وأحاسيسها ، وتظم عواطفها ؛ ولـكى تستعيد النفس هدوءها ونظامها ، يتدخل جانب الإرادة والحـكم منها تدخلا واعيا . فينظم هذه الفورات الانفعالية ، ويضع لهـا معالم وحدودا تضبط سيرها ، وتؤدى بها إلى غايتها المنشودة وهى إحداث اللذة العقلية ؛ ومن هذا التوازن بين الحـالتين المتعارضتين ، حالة التأثر الوجدانى وحالة الضبط الإرادى ، ينشأ الوزن الشعرى . وإذا صحت وجهة النظر هذه كان هناك فى شرعة الناقد اعتباران وجيهان ، له أن ينتظر تحققهما فى كل عمل موزون :

(الأول) أنه إذا كانت عناصر الوزن مدينة بوجودهـا لحالة من التأثر ، فإن الوزن نفسه يجب أن يقترن باللغـة المناسبة للتأثر .

(الثانى) أنه إذا كان المجهود الإرادى هو الذى يصور هذه العناصر فى صورة موزونة — قاصداً بذلك إلى التوفيق بين التأثر واللذة العقلية ، فمن الواجب — إذاً — أن تتميز آثار الإرادة فى اللغة الموزونة تميزا نسبيا .

هاتان الناحيتان — ناحية الانفعال الطبيعى والغرض الإرادى — يجب أن تتوافقا وأن تجتمعا ، لا اجتماع جوار فحسب ، ولـكن اجتماع تمازج واتحاد ؛ وهذا الاتحاد إنما يظهر فى تكرار هيئات الـكلام (التى كانت فى الأصل وليدة الانفعال ثم تبنتها الإرادة ونظمت سيرها) تكراراً أكبر مما يرغب ويحتمل لو لم يكن الموقف السيكولوجى على هذه الصورة ؛ أى لو لم يكن المقام مقام وجدان متأثر طامنت من جماحه يد القوة الضابطة ، وأخذت زمامه إلى حيث يبلغ الهدف المطلوب .

هذا الاتحاد لا يستلزم — فحسب — ولـكن يميل إلى أن يحدث من نفسـه استخداما للغة بديعة الصور محركة للذهن أكثر مما تستلزمه حالة أخرى لم يجتمع فيها هذان العنصران . وليس الوقف الشعرى فى حقيقته إلا ميثاقا ضمنيا معقوداً بين الشاعر والقارئ ، يأخذ فيه الشاعر على عاتقه أن يوفر للقارئ نوعا ودرجة خاصين من التأثر اللذيذ ، وينتظر القارئ من الشاعر أن يفى له بذلك الميثاق .

أما من حيث تأثير الوزن فيذهب ناقدنا إلى أنه يميـل إلى زيادة الحيوية والحساسية فى الانتباه والمشاعر العامة ؛ وهو إنما يحدث هذا الأثر بما يهيج — ثم يشبع — من انفعال الاستغراب ، وبما يتابع بين هذه الإثارة من ناحية والإشباع من ناحية أخرى ، فى نوبات صـغيرة لا يكاد الشعور يفطن لها فى لحظة من اللحظات ، ولـكن تأثيرها المتجمع يصبح كبيراً ، مثلها مثل جرعات الشراب خلال محادثة جادة حافلة — تؤثر تأثيراً كبيراً وإن كانت غير ملاحظة — ومتى عملت هذه عملها كان لا بد من تقديم الطعام الصالح والمادة المناسبة للانتباه والأحاسيس الثائرة ، وإلا تمخضت الحالة عن تبرّم وامتعاض ، كمن يقفز فى الظلام من آخر درجة من السلم وقد أعد عضلاته ليقفز من ثلاث أو أربع .

ويلاحظ « كولردج » أن صاحبه لا يفتأ فى كتاباته ينى قيمة الوزن على القدرة التى يؤثر بها خلال اتحاده مع العناصر الأخرى للشعر ، ولـكنه « وردسورث » لا يتعرض للسؤال المهم وهو : « ما هى تلك العناصر التى لا بد أن يتحد بهـا الوزن لـكى يحدث تأثيره فى تحقيق اللذة العقلية ؟ » إنما مثل الوزن فى الأغراض الشعرية مثل الخميرة (وكولردج يعتذر من تفاهة التشبيه) ليس لها فى نفسها كبير قيمة ، ولا لطعمها كبير لذة ، ولـكنها تهب حيوية وروحا للسائل الذى تمزج معه مزجا مناسباً .

إن الوزن منبه للانتباه — كما قلنا — ولـكن ليس

ذلك للذة خفية فيه ، فقد أسلفنا أنه لابد لتوافر هذه اللذة من أفكار وتعابير مناسبة تصحب الوزن ؛ والوضع الصحيح للموضوع هو أن الشاعر إنما يلجأ إلى النظم لأنه سيستعمل لغة تختلف عن لغة النثر ، وإذا لم تكن القصيدة على هـذه الصورة جاء نظمها ضعيفاً ، مهما كانت طرافة الفكر التي يستمدها العقل القلق من حوادثها أو معانيها . إن من يُقلب الموضوع على وجوهه يجد الوزن هو الصورة الطبيعية للشعر ، ويجد الشعر من غير وزن أبتر ناقصاً ؛ وإذا كانت الصلة على هذه الدرجة فكل ما يتحد مع الوزن — مهما كان فى جوهره غير شعرى — يجب أن يكون له اشتراك مع الشعر فى بعض الصفـات . وإذا كان الشعر — كما يقول « وردسورث » — يتضمن على الدوام حالة مثارة من الأحاسيس والملكات (Passion) ، ولعلها هى التى يصفها عمر بن أبى ربيعة فى قصيدته :

تقول وليـدتى لـما رأتنى
طربت وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليوم قد أحدثت شـوقا
وهاج لك الهوى داء دفينا

فإن من المعروف المقرر فى دراسات النفس أن لكل انفعال هزة نفسانية خاصة به ، وإذاً فمن الواجب والطبيعى أن تكون له كذلك صورة خاصة به من التعبير ؛ ولكن حيث توجد تلك الموهبة أو العبقرية التى تؤهل صانع الكلام لأن يتطلع إلى شرف الشعر ، نرى عملية النظم نفسها تتطلب بل تحدث حالة غير عادية من التأثر ، وهـذه بطبيعة الموقف تتطلب وتبرر خلافاً بيّنا فى تعابير اللغة ، كما يحدث — على هيئة أصغر فى الغـالب — فى انفعالات الحب والخوف والغضب والغيرة وما إليها ، « ولقد تسخن العَجَلات وترمى بالشرر من سرعة دورانها » .

إن الجبلة الروحية السامية عند الإنسـان تحفزه على الدوام إلى أن يتطلب الوحدة من طريق الملاءمة والانسجام ، وهذه الفطرة الإنسانية تكشف عن قانون مطرد هو أن أجزاء الشيء الواحد يجب أن يكون سائرها بحيث يوائم العناصر الجوهرية المهمة فيه . وهكذا يجب أن تكون القصيدة فى تعابيرها ووزنها وسائر أجزائها ، يسودها جو من الانسجام والتآلف .

وإذا كان لا بد من الاستشهاد بما جرى عليه العرف بين أحسن الشعراء فى كل الممالك والعصور ، فإن المتتبع لهذا العرف لن يتردد فى أن يقرر أنه قد يكون هناك — بل هو موجود فعلا وينبغى أن يوجد — فرق أساسى بين لغة النثر ولغة التأليف المنظوم . ولقد يكون موضوع القصيدة جيداً طريفاً ولغتها صحيحة رصينة ، وروحها حية نشيطة ، ولكن أسلوبها بالرغم من كل هـذا لا يسلم من اللوم على أساس أنه نثرى ، وإنما ذلك لأن كلاته ونظامها يجدان مكانهما المناسب فى النثر ، ولا ينطبقان وروح التأليف المنظوم .

إن « ورد سورث » ينادى بتحاشى القاموس الشعرى الخاص لأنه — فى رأيه — لا ضابط له ولا قيود تحد من مغالاة الشاعر فيه ، وإذاً يكون القارىء تحت رحمته فيما يخترع خياله من ضروب الصور والأساليب(١) .

ولا كذلك ، عنده الوزن والقافية ، فإنهما يجيئان طبيعة واختيارا ، ولهما مناهج مقررة موحدة ، لا مجال فيها للخروج على النظام المرسوم ، ولا لتحكم الشاعر فى القارىء . ولكن « كولردج » لا يستطيع مع صاحبه صبرا على هذه النقطة فينادى : أشاعر هذا الذى يتكلم عنه شاعر !

(١) لعل هـذه الفقرة تستحضر إلى ذهن القارىء مذهب أبى تمام وأضرابه من شعراء العرب ممن خرجوا على عمود الشعر — كما قيل — وأجهدوا فى طلب المعانى وتكلف تصويرها حتى أبهم شعرهم على القراء والسامعين أحيانا .

لأولى به أن يسمى أحمق أو مجنوناً أو — على أحسن حالاته — دعياً أو واهماً جاهلا ، وهلا تستطيع مثل هذه الأدمغة أن تطلق يد الفوضى كذلك في الوزن والقافية ! وكيف يكون القارئ تحت رحمة أمثال هؤلاء ! وإذا استمر يقرأ هراءهم أفليست الغلطة إذاً غلطته !

إن الهدف الرئيسى للنقد هو أن يقرر مبادئ للكتابة الأدبية أكثر مما يضع قواعد للحكم على ما كتب الآخرون(٢) (وإن كان الفصل بين الناحيتين غير مستطاع) .

ولكن إذا سأل سائل : « على أى القواعد ينظم الشاعر أسلوبه إن لم يتمسك كل التمسك بما يسمع من الناس — فى الأسواق والمجامع والطرقات والمزارع — من ألفاظ وعبارات ؟ » ، أجابه « كولردج » بلا تردد : « على القواعد التى تجرده الجهالة بها أو إهمالها من صفة الشاعرية ، وتعرضه فى صورة الأبله أو المدعى ؛ على قواعد تأليف الكلام والمنطق والسيكولوجيا ، وباختصار — على أساس معرفة الحقائق المادية والروحية المتصلة كل الاتصال بفنه ، والتى يُنظمها النظر السليم بين الناس ، ويستخدمها ويصيرها بالتعود غريزة وطبعاً ، فتصبح ذخيرة ممثلة لآرائهم وخبراتهم ونتائجهم التى وصلوا إليها على توالى الأيام ، وتكتسب بينهم اسم الذوق » .

وعلى أى أساس (لا يضع القارئ تحت رحمة الشاعر ولا الشاعر تحت رحمة نفسه) يستطيع الشاعر أن يميز — مثلا — بين اللغة المناسبة للغضب المكبوت والغضب المطلق السراح ؛ أو بين سورة الغضب وفورة الغيرة ؟

(٢) تحضرنى هنا — وتعجبنى — جملة لكولردج وردت فى سياق محاضراته عن شاكسبير يقول فيها : « إنى أقول للناشئين : إنه يجدر بهم دائماً ألا يحكموا على أى شىء عساوته ، وأن يجعلوا أول محاولاتهم كشف محاسنه » .

أيحصل هذا من طريق التسيح فى مناكب الأرض بحثا عن غضاب الناس وعباراتهم فى الجماعات غير المصقولة لكى يقلد كلامهم ؟ أم يحصله من طريق قوة الخيال التى تتجه إلى ما هو أصيل عام فى الطبيعة الإنسانية ؟ أيحصله من طريق الملاحظة أم من طريق التأمل الذى يفرد لعيون الملاحظة ميدان نظرها ، ويمدها بقوة نفاذة مبصرة ؟ إن « كولردج » لا يشك فى أن قوة الخيال والتأمل وما يقوم عليهما من ملاحظة ، وما يحتويه عقل الشاعر من معرفة بأسرار الطبيعة الإنسانية ، هى مصادر التمييز الصحيح ، ومن طريق هذا التمييز ، وبنفس هذه الوسائل يستطيع الشاعر أن يتعرف نوع التأثر الذى يحدثه التأليف الشعرى ، ويتبين درجته ؛ فهو يعرف من طريق اللقانة فروق الأسلوب التى توحيها عملية الشعر ، ويعرف المزيج المناسب لها من الإرادة الواعية ، وفى أى الأمثلة تنحط ألوان العبارة وصورها إلى مجرد وسائل آلية للزينة وربط الكلام . إن الحقيقة هى لنفسها الضوء والدليل ، وهى تميز بذاتها بين نفسها وبين الزور والبهتان ؛ وكذلك العبقرية الشعرية تميز من طريق غريزتها الأبوية بين أطفالها الحقيقيين وبين الممسوخين والمنسوبين إلى اسمها كذباً ، والمحمولين إلى مهدها حملا ، على يد جنيات الغرور وعرائس العرف الشائع .

إن الشعر لا يقبل أن يُفرض عليه مبدأ خارج عن طبيعته فإن ذلك يحوله إلى فن آلى ؛ وإن قواعد الخيال هى نفسها قُوى النمو والإنتاج ، وليست الشكلات التى تظهر فيها إلا المعالم والظواهر الخارجية للثمرة ؛ وقد يكون من المستطاع أن تجسد صورة خادعة لشكل الثمرة وألوانها السطحية ، ولكن الحوخة الرخامية تبقى أبداً باردة جامدة ، لا يرفعها إلى فمه إلا الطفل الصغير .

محمد خلف الله

الصـــديق المعلّق

كان لى زميل فى أيام الدراسة له ولع عجيب « بالتعليق » على كل ما يمر تحت نظره من الأمور ؛ وليس بدعاً أن يكون للإنسان رأى فى كل ما يسمع وما يرى . ولكن صاحبنا هذا يمتاز من كل من عداه بأنه لا يتحفظ ولا يتحرج فى إبداء آرائه ، فهو يقذف بها كيفما اتفق ، لا يهمه فى ذلك أين تقع ، ولا من تصيب .

أذكر أنى فى تلك الأيام كنت أميل إلى التصوير ، وكنت أقضى كل أوقات فراغى فى الرسم والتلوين ؛ فاجتمع لى من ذلك آخر الأمر عدة لوحات جمعتها فى مجموعة واحدة كانت موضع اعتزازى وعنايتى . وترامى حديث هذه المجموعة إلى سمع صديق هذا ، فبعث إلىّ يوما فى طلبها « ليمتع بها أنظاره » ، كما كتب لى فى رسالته التى حملها إلىّ خادمه ، فأخذتها فى زهو ظاهر وسلمتها إلى الخادم وأوصيته أن يردها إلىّ عقب فراغ سيده من « إمتاع أنظاره بها » — وعلمته كيف يرفعها وكيف يضمها ، وحذرته حتى من الهواء أن يقف فوقها ، ثم شيعته وأنا أجدُّ فى تكرار وصاياى عليه حتى غاب عن ناظرى . ولبثت بعد ذلك أنتظر عودة هذه المجموعة فى قلق ظاهر ، ولكن انتظارى لم يطل ... فقد جاءنى الخادم وهو يحتضن الصور على الطريقة التى لقنته إياها . فاطمأن قلبى ، وتلقفتها من يديه كما تسترد الأم وليدها من يد الضيف الذى حمله ليُقبله ، وبى مثل ما يخامر الأم فى أمثال هذه المواقف من الزهو والمباهاة !

وانصرف الخادم . وبدا لى أن أستعرض لوحاتى مرة أخرى غير الألف مرة التى سبق لى أن استعرضتها فيها ، فما كنت أكشف عن اللوحة الأولى حتى برد الدم فى عروقى ، وأحسست بصفير مخنوق ينبعث من أذنى ؛ ذلك بأنى رأيت فى صدر الصورة سطراً طويلا كتبه بالحبر هذا الصديق « المدود » ! يقول لى فيه :

(أحسنت يا صديق الكريم ، وإنى معجب بحذقك ومبشرك بمستقبل باهر) .

وكانت هذه الصورة لمنظر من مناظر الريف ، تشرق فوقه سماء جميلة زينتها بعض السحب الخفيفة البيضاء ؛ فلوثت كلمات هذا التقريظ المهين سمائى ، واخترقت حروفها سحبى ، ووقعت إمضاء الصديق تحت سرب من الطيور كان فى جانب الصورة فشوهها ، إذ لم يكن يدور فى خلدى أن أرسم هذه الطيور وهى تزرق ! ولكن هكذا أرادها هذا الصديق الكريم — لا غفر الله له — !

وأسرعت إلى بقية الصور أتفقدها ، فإذا (الخاسر) قد طرزها كلها بتعليقاته الثرثارة ، بعد أن اختار لكل تعليق أبرز مكان من الصورة فأفسدها من حيث يدرى ولا يدرى . . .

وشاء الله أن تكون هذه القصة آخر عهدى بالتصوير .. فإنى لم أمسك (الفرشة) بعد ذلك اليوم قط ، وكان كل عزائى أنى خيبت آمال هذا الصديق فى ذلك « المستقبل الباهر » الذى بعث يبشرنى به على صفحات لوحاتى ! !

* * *

وانقضت على ذلك سنون ، خرجنا فيها من مدارسنا وانتظمنا فى سلك الحياة ، ثم شاء الحظ أن يجمع بينى وبين هذا الصديق مرة أخرى ؛ فإذا شهوة التعليق قد استفحلت معه ، وانتقلت أداتها من يده إلى لسانه . فهو لا يرى إنساناً فى الطريق إلا وله ملحوظة عليه ، فهذا السيد يشبه (أم قويق) ، وهذه السيدة تشبه (أبو قردان) ، وهكذا ، فهو يدخل فيما يعنيه وفيما لا يعنيه ؛ بل هو إلى دخول هذا الباب الأخير أدنى وأميل !

* * *

وأذكر أنه صادفنى فى الشهر الماضى فى « قطار الترو » ، فجلس إلى جانبى ، ومر بنا القطار فى طريقه إلى مصر الجديدة بميدان باب الحديد ، فتكاثر الباعة حولنا على

عادتهم في هذا السكان ، وهم أخلاط عجيبة حقاً ، فمن بائع الورد إلى بائع (رباط الحذاء) ، ومن بائع (الشكولاته) إلى بائع (نظارات الشمس والهواء) ، ولست أحصيهم إن حاولت عدهم ، ولكنهم طوائف أشتاتاً والسلام ... وزاد عليهم في ذلك اليوم المشهود أن كان بينهم بائع يحمل فوق رأسه شمامة كبيرة ، ويحمل فوق كفيه شمامتين أخريين ، ثم هو يشد على وسطه حزاما عريضاً ليتخذ منه قاعدة تصلح لحمل (أزرار) أخرى أودعها بين جسمه وجلبابه . ولم تمنع هذه الحمولة الثقيلة صاحبها من أن ينافس غيره من حفاف الباعة في التهافت على نوافذ القطار وأبوابه ، والتعرض لكل صاعد ونازل يعرض عليه بضاعته ، ويغريه بحملها عنه . وكان ذلك مجالا أي مجال تحركت فيه نزوة صديق إلى التعليق ، فأطلق نفسه على سجيتها ، وراح يُعَرِّض بسخافة هذا البائع الذى خيل له وهمه أن رجلا عاقلا يقبل على نفسه أن يشترى شمامة لا تزن أقل من عشرة أرطال ليحملها في هذا الحر المضنى من مدينة إلى مدينة أخرى ، مع أن عشرات الباعة لا يفتأون يطرقون على السكان أبوابهم في «مصر الجديدة» ليعرضوا عليهم شمامهم وقثاءهم وبطيخهم أيضاً .

وكان الهدف صالحاً للتعليق الطويل ، فلم يقنع صاحبنا بهذه الملاحظة العابرة ، ولكنه أخذ يبدى فيها ويعيد ، ثم استرسل من التعريض بالباعة إلى التعريض بالمشترين قائلا : ومن العجيب أنك تجد من الناس من يشجع مثل هذا البائع السخيف على الاستمرار في حماقته بأن يشترى منه ، كأنما هو مقبل على صحراء جرداء ، لا على مدينة عامرة زاخرة ... وظل «يجتر» إلى جانبى هذا المعنى طول الطريق حتى دخلنا ضاحيتنا ...

وكان يجلس تجاهنا في القطار رجل وقور ، لاحظت عليه التبرم بكلام صديق . وقد حاولت مراراً أن أسر إلى صديق بملاحظتى هذه ، ولكن نزوته لم تهيئ لى فرصة الكلام ، كما أن عين جارنا الوقور كانت ترمقنا من حين إلى حين ، فلم أشأ أن أظهره على ما يجول في نفسى ، وهكذا قضيت الطريق كله وأنا في ضيق من هذا المأزق الذى جلست فيه بين جارى وصديق . . . وأخيراً انتهت رحلة الصحراء ووقف بنا القطار في محطته الأولى ، وتهيأ جارنا للنزول ، فتنفست الصعداء ، وحمدت الله على قرب الخلاص من هـذا الحرج الذى ظللت أكابده ما بين «ميدان باب الحديد» و «محطة روكسى» . ولكن ما راعنى وأنا أرقب حركات جارى وهو يهم بالقيام إلا أن أراه ينحنى فوق المقعد الذى كان يجلس فيه ويسحب من تحته بطيخة هائلة من النوع المعروف «بالحمس» قدرت طولها في نفسى إذ ذاك بأنها لا تقل عن ٧٥ سنتيمترا ، فكأنما خرج على أنا وصديق من تحت ذلك المقعد عفريت من الجن شخصت له أبصارنا وأذهلنا عما كنا فيه من الحديث ! فأدركت سر تململ جارنا وقلقه من حديث صديق ، ولست أحاول أن أصف ما استولى على في تلك اللحظة من الارتباك . ولكنى أكتفى بأن أقول إن صديق نفسه بهت لهول المفاجأة ، وظل شاخص البصر مفتوح الفم حتى توارى «الحمس» وصاحبه ، وبلعتهما زحمة الطريق . . .

***

زارنى هذا الصديق منذ أيام ، فوجد على مكتبى كتاب «بيجماليون» الذى أخرجه أخيراً الأستاذ توفيق الحكيم . فرأى أن يستعيره منى ، فلم أضن به عليه . ونسيت أنى كنت آليت ألا أعطى هذا الرجل شيئاً من عندى أبداً بعد الذى صنعه في صورى ، ولم أذكر ذلك إلا عند ما رد إلىّ كتابى ، فإذا بهوامشه تحمل عشرات وعشرات من تعليقاته المعهودة . ولما كان بعض هذه التعليقات مما يستحق النظر ، فإنى أستأذن صديقنا الأستاذ الحكيم في الإشارة إلى بعضها في الكلمة الآتية إن شاء الله .

ح . ج

الحكمة الحزينة

غلب على الكثير من النـاس فى مختلف العهود الاعتقاد بأن بعض الذين أوتوا الحكمة ، ورزقوا البصيرة ، وخبروا الحياة ، أدركوا فى النهاية أن الدنيا متاع الغرور وباطل الأباطيل ، وأنها ليس فيها ما يستحق أن يشغل الخاطر ، ويملأ النفس ، ويأسى عليه القلب ، وأننا بعد الكد والعناء ، وطول المزاولة لا نفيد منها شيئاً ولا نظفر بطائل ، وأن لا أمل فى إصلاح أمورها ، ورتق فتوقها ، لأن — كما يقول الجامعة — « المعوج لا يمكن أن يُقوَّم والنقص لا يمكن أن يُسد » ، فما جدوى تحصيل العلم واقتناء الحكمة إذا كانت الحماقة والسخف هما لحمة الحياة وسداتها ؟ وما قيمة نعيمها الموموق إذا كان يعقب الحسرات ، وخيرها العميم إذا كان مصيره إلى بلى ونفاد ؟ والإنسان هذا السانح القريب ، والطيف الزائر ، سرعان ما يطوى ذكره ، ويذهب خبره مثل سائر السوائم والحشرات .

وليس يغنى عنه رفاهة حسه ، والتماع ذكائه ، وسمو حكمته ، وعميق فلسفته . وهذه الحكمة الحزينة تطالعنا فى آداب الأمم القديمة والحديثة ؛ أحياناً ساذجة بسيطة ، وأحياناً أخرى متدرعة بالمنطق ، متلفعة بالفلسفة ، وقد وجدت معبرين عنها ومتأثرين بها فى متباين العصور ، ولا سيما العصور التى اضطربت فيها العلاقات الإنسانية ، وتفشى الفساد فى الحياة الاجتماعية ، وساءت أحوال الإنسان حتى انهزمت نفسه ، وكلّ عزمه ، واستمكن منه الاعتقاد بأن زوال الحياة والفناء أخف حملا ، وأهون أمراض الصبر على لأواء العيش ، ومعاناة مساوئ الحياة . وتوازن هذه الحكمة بين نقائص الحياة وعيوبها ، وقدرة الإنسان على النهوض والمقاومة والإصلاح ، فترى الأولى كثيرة متعددة ، ضخمة هائلة ، وترى قدرة الإنسان قاصرة محدودة ، هزيلة مستضعفة ، فتدعو إلى رفض الحياة أو ما يشبه الرفض ، وتوصى بالانسحاب من المعركة ، وتؤثر السكون والصمت والعكوف على النفس .

ويعتز أصحاب هذه الحكمة برأيهم فى الحياة ، ويستمسكون بمذهبهم ، ويستعذبون حزنهم ، ويعزونه إلى طبيعة الحياة وحركات الكون ، ويظنون أن مسلكهم المترفع ، واعتزالهم الوديع ، هو الموقف اللائق بالرجل المستنير المصقول الوجدان الذى تجلت عن ناظره غيابات الوهم ، وتبدت له حقائق الأمور ، وأصبح لا تطيش به الأهواء ، ولا تستعبده الشهوات . والذى يسترعى النظر فى تفكير أصحاب هذه الحكمة أنهم يقصرون تفكيرهم على حقائق خاصة ، ويفسرونها تفسيراً ملائماً لمزاجهم ، والحالة النفسية الغالبة عليهم ، ويغضون النظر عن حقائق أخرى لها أهميتها ومكانتها فى الحياة ، مما يدل على أن لمزاجهم الخاص تأثيراً كبيراً فى اختيارهم للحقائق وتوجيه تفكيرهم وتلوين حكمهم ، فالجامعة مثلا يقول : « جميع الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن ، ثم إلى الموضع الذى جرت منه الأنهار إلى هناك تعود لتجرى أيضاً » ، وهذا من الأشياء التى ساءته ، ولكن أى ضير على الإنسان فى كون المياه تجرى إلى البحر وأنه ليس ممتلئاً ، وإنها تعود إلى حيث أتت ؟ وماذا يثير حزننا فى ذلك ؟ وهل الاستقرار خير من الحركة والتنقل ؟ تأثر المزاج واضح فى تفسير هذه الحقيقة .

وسفر الجامعة هو التعبير التقليدى « الكلاسيكى » عن مثل هذه الحكمة والوضع النهائى لها الملائم لكل العصور .

ومؤلف هذا السفر قد طاف بالشك ، ومارس الملل من الحياة ، وضمن هذا السفر القيم اعترافاته وخواطره ، وخلجات نفسه وخلاصة تجاربه ، وقد أجرى الحديث على لسان « الجامعة » ، والمفروض أن الجامعة هو سليمان بن داود ملك أورشليم . ويرى رينان — فى المقدمة البديعة التى قدم بها ترجمته لهذا السفر إلى اللغة الفرنسية — أن

مؤلف السفر أراد أن يظهر خليفة داود على المسرح ، وقد بدا له أن هذا الملك الموصوف بالحكمة ، والذي جمع المجد من أطرافه ، شخصية مناسبة للموضوع الذي أراد تناوله ، وهو إظهار أن كل شيء باطل ؛ فسليمان قد وصل إلى قمة المجد ، وبلغ أقصى ما بلغه إنسان ، واتيح له أكثر من غيره أن يكشف عن تفاهة الحياة ، ويرفع الستار عن خدعة العيش ، ويرى سخافة الآراء التي يقوم عليها المجتمع الإنساني . ويرى رينان أن المؤلف قد اختار سليمان كما اختار أفلاطون بارمنيدس في المحاورة الموسومة باسمه لشرح آراء الإيليين ؛ فالأفكار المعزوة إلى سليمان هي الأفكار المناسبة للصورة التي رسمتها التقاليد لملك أورشليم .

ويردد السفر فكرة أن الحياة باطل الأباطيل وقبض الريح ، وأن تأمل « الدراما » البشرية ينتهي بنا إلى الاعتقاد بأن الحماقة غالبة ، وأنها أكثر مما نقدر ، وهو يستخلص هذه النتيجة من حقائق شتى ، ويصل إليها من طرائق مختلفة . والحياة في نظر مؤلفه سلسلة من الظواهر تتوالى متشابهة في شبه دائرة ، فلا تقدم ولا تجديد لأن الماضي يشبه الحاضر ، والحاضر يشبه المستقبل ، والحاضر بغيض مكروه ، ولم يكن الماضي أصلح منه حالا ، والمستقبل لا يفوقهما ، وكل محاولة لتحسين حالة الإنسان وإقالة عثاره ، والنهوض به ، محاولة فاشلة غير موفقة ، لأن الإنسان محدود في مواهبه ، ولم يؤت من العلم إلا قليلا . والشر الذي نعتقد أنه قد غلب على أمره سرعان ما يعود أقوى شعاراً وأشد استفحالا مما كان قبل هزيمته واندحاره . ويؤكد لنا المؤلف أنه قد مارس كل مهنة ، وعالج كل شيء ، فلم يجد إلا عبثاً وباطلا ، وهو يلخص لنا رأيه في الفصل الأول من السفر فيقول : « أي فائدة للبشر من جميع تعبهم ؟ ما الذي يعانونه تحت الشمس ؟ جيل يمضي وجيل يأتي والأرض قائمة مدى الدهر ، والشمس تشرق والشمس تغرب ، ثم تسرع إلى موضعها الذي طلعت منه ، جميع الأمور تعبي فلا يستطيع الإنسان أن يشرحها ، لا تشبع العين من النظر ولا تمتلىء الأذن من السمع ، ما كان فهو الذي سيكون ، وما صنع فهو الذي سيصنع ، فليس تحت الشمس شيء جديد » . ثم روى لنا جانبا من تجاربه الخاصة التي تدعم هذا المذهب فيقول : « اتخذت أعمالا عظيمة ، بنيت لي بيوتاً وغرست لي كروما ، وأنشأت لي جنات وفراديس وغرست فيها أشجاراً من كل ثمر ، وصنعت لي برك ماء لأسقي بها الحائل النامية الأشجار ، واقتنيت عبيداً وإماء ، وكان بيتي عامراً بالبنين ، ورزقت مواشي كثيرة من البقر والغنم حتى فقت جميع الذين كانوا قبلي بأورشليم ، وجمعت لي فضة وذهباً مع أموال الملوك والأقاليم ، واتخذت لي مغنين ومغنيات وأصناف لذات بني البشر وحليلة وسراري ، فزدت عظمة ونموا على جميع الذين كانوا قبلي بأورشليم ، والحكمة أيضاً لم تبارحني ، وكل ما اشتهته عيناي لم أدعه يفوتهما ، ولا منعت قلبي من الفرح شيئاً بل فرح قلبي بكل تعبي ، ثم التفت إلى جميع أعمالي التي عملت يداي ، وإلى ما عانيت من التعب في عملهما فإذا بالجميع باطل ولا فائدة في شيء تحت الشمس » .

ولا فائدة من الاستمتاع باللذات ، والانغماس في الترف ، والتهالك على النساء ، لأن كل ذلك لا يخلف وراءه غير الحسرات والآلام ؛ والاعتصام بالعقل ، والتعلق بالمعرفة والإقبال على العلم يضني الجسم ، ويتعب الروح ، والإنسان بعد ذلك كله لا يدري شيئاً ، وسيظل كذلك في عمياء من أمره . وحقيقة إن الحكمة تفضل الحماقة لأن « للحكيم عينين في رأسه أما الجاهل فيسير في الظلماء » ، ولكن ما قيمة هذه الحكمة التي لا تجلب خيراً ولا تدفع شراً ؟ والذي يحدث للجاهل يحدث للحكيم « ووا أسفا ! يموت الحكيم كالجاهل » ، وقد تعب وجهد ليرثنا الجهال .

ثم كيف نطمئن ويهدأ بالنا والعدالة في هذه الدنيا موضع الشبهة ومظنة الاتهام ؟ « رأيت أيضاً تحت الشمس

فى موضع العدل جوراً وفى موضع البر نفاقاً » . وقد ترك ذلك كله فى نفس الجامعة — أو مؤلف السفر — أقوى أثر حتى جعله يغبط الموتى والذين لم يوجدوا فهو يقول : « ثم التفت فرأيت جميع المظالم التى تجرى تحت الشمس وإذا بدموع المظلومين وليس لهم من معز وفى أيدى ظالميهم قدرة وهم لا معزى لهم ، فغبطت الأموات الذين درجوا من قبل على الأحياء الذين هم باقون حتى الآن ، وخير من كليهما من لم يوجد حتى الآن لأنه لم ير العمل الشرير الذى يفعل تحت الشمس » .

وأمثال هـذه المظاهر جعلته كاسف البال موجع القلب ، يستطيب الحزن ويؤثره على الابتهاج والاستبشار ويقول : « يوم الموت خير من يوم الولادة ، والدخول إلى بيت النياحة خير من الدخول إلى بيت الوليمة ، والحزن خير من الضحك ، لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب ؛ وقلب الحكماء فى بيت النياحة وقلب الجهال فى بيت الفرح » . والجامعة مثل سائر المتشائمين سيء الرأى فى المرأة وسوء الرأى هنا من الأدلة الواضحة على شدة الكلف بها والعناية بأمرها ، فهو يقول عنها : « جلت بقلبى لأعلم وأبحث لألتمس الحكمة وحقيقة الأمور ، ولأعلم نفاق الجهال وجنون الحمق ، فوجدت أن ما هو أمر من الموت المرأة التى قلبها أحبولة وشبكة ويداها قيود ، من كان صالحاً أمام الله فإنه ينجو منها وأما الخاطىء فيقتنص بها » . على أنه يعود فيمتدح الفرح ويوصى به : « مدحت الفرح لأنه ليس فى يد الإنسان خير تحت الشمس غير أن يأكل ويشرب ويفرح ، فهذا ما يثبت له من تعبه أيام حياته التى منحها الله له تحت الشمس » . وليقنع الإنسان بالمتعة مع المرأة التى أحبها « تمتع جميع أيام حياتك الفانية بالعيش مع المرأة التى أحببتها وأوتيتها تحت الشمس لتقضى أيامك الفانية ، فإن ذلك حظك من الحياة ومن تعبك الذى تعانيه تحت الشمس » . والحكمة عنده خير من القوة ، ولكن مع ذلك فإن « حكمة المسكين مزدراة وكلامه غير مسموع » . وإذا عاش الإنسان وطالت أيامه فهو يوصيه بالحذر واصطناع التقية لكى لا يخلق لنفسه المشكلات ، ويجر عليها المتاعب . والحكمة التى تسيء الظن بالوجود والناس لا يستكثر عليها الحذر والتخوف ، والحرص على الهدوء ، وتجنب الحركة والمجهود ، فهو يوصيك بأن « لا تلعن الملك ولو فى فكرك ، ولا تلعن الغنى ولو فى أخادير مضجعك ، فإن طير السماء ينقل الصوت وذا الجناح يخبر بالكلام » . ويعاوده حبه القديم للحياة وولوعه بالاستمتاع ولكن سرعان ما يبدو له ظل الموت أو شبح الفناء ، فهو يقول : « النور بهيج والعين تلتذ بنظرات الشمس ، ولكن إذا عاش الإنسان سنين كثيرة وفرح فى جميعها فليتذكر أيام الظلمة أنها ستكون كثيرة فإن المستقبل كله باطل ، فأقص الغم عن قلبك وباعد السوء عن جسدك ، فإن الصبا وريعان العمر باطلان . »

وهذه الحكمة المتعبة الحزينة الزاهدة فى الكفاح وبذل المجهود ، والتى ترى كل ما تحت الشمس عبثاً وباطلا لا يستحق العناء ، ولا يستوجب الاهتمام هى حكمة أهل الهدوء والإحساس الرهيف ومحبى السلام والصفاء ، وقد ينقص أصحابها حرارة اليقين والإيمان ، وحماسة التعصب للعقيدة ، ولكنهم قوم كرماء النفوس ، طيبو المخيلة ، قد فل من عزمهم انحطاط العصر وصروف الحياة المحزنة . وهذه الحكمة الحزينة قد توحى الأخيلة الشعرية ، والخواطر الرقيقة ، ولكنها لا تسمو بالحياة ولا تبعث المزية ، لأن الحكمة الفعالة هى الحكمة المتفتحة التى تلهم الأمل وتشيع فى النفس الابتهاج ، وتجعلنا نواجه الحياة والأقدار فى ثقة وأمل واستبشار وتحد إذا استلزم الأمر . والحياة فى العصر الحاضر مليئة بأسباب الخوف والقلق ، فهى تلتمس الحكمة الواثقة الآملة ، والوجدة الخافقة ، التى تطلق النفس من أغلال الخوف ، وتذود عنها أشباح الهم والقلق ، وتعمل على إسعاد البشر ، ومناصرة الخير ، ومقاومة الشر .

علي أدهم

وجه على الحائط

للكاتب الإنجليزي لورد سي

لا أزال أشعر بإخفاق . . . .

وأى إخفاق أشد من الدرس البهكى الذى ألقىَ علينا فى منزل صديقنا « دابنى » ليلة أمس ؟ ولعل العزاء الوحيد هو أن جميع مَن شهدوا هذا الدرس ، قد شعروا مثلى بمرارته . . . . !

لقد بدأ الحديث سهلا واضحاً ، ثم انتهينا إلى الكلام عن خوارق العادة ، عن هذه الأمور التى تحدث عادة بلا أسباب ، أو بأسباب تدقّ عن أفهامنا ، عن هذه الأمور التى لا طائل تحتها أكثر من الطرافة والغرابة . . . وطال الجدل والنّقاش ، وأفضى كلٌّ بما لديه مؤيداً أو منكراً ، فى أسلوب مرسل لا تأثير فيه . . .

وكان فى المجلس رجل قصير القامة ، أبيض الوجه ، قليق النظرات ، لم أكن رأيته من قبل ، ولم أكن أعرف عنه أكثر من أنه حضر إلى مجلسنا مع صديقنا « رودسون وايت » . وكان هذا الزائر الغريب يصغى إلى كل متكلم فى انتباه ، دون أن يساهم معنا فى الحديث . . .

وأراد صديقنا « دابنى » أن يبدد غربته ، وأن يشركه معنا ؛ فالتفت إليه وسأله عما إذا كان لديه ما يساهم به من تجربة أو قصة ذات فكرة غامضة تتعلق بالأمور الخارقة للعادة فيذكرها .

وكأن هذا التصرف من جانب « دابنى » قد راق الرجل ، ففكر لحظة ثم قال :

— ليس لدىّ قصة بكل معانى القصة ، وليس لدىّ كذلك شىء مما يرويه الناس ويتناقلونه كهذه القصص التى سمعتها الليلة . وفى اعتقادى أن الواقع أمتع من الخيال ، وكم فى الحياة الواقعية من قصص تسمو على قدرة الخيال . فإذا اقتنعتم بذلك أمكننى أن أذكر لكم قصة وقعت لى شخصياً ، ثم كان آخر فصل منها فى هذا اليوم . . .

وشاقنا منطق الرجل ، وأظهرنا له اقتناعنا بوجهة نظره ، واستعدادنا لسماع قصته ، فقال :

كنتُ أعيش منذ سنتين ، فى منزل قديم بشارع « أورموند الكبير » على مقربة من « هولبورن » ، وكانت حيطان غرفة النوم مشوهة بفعل الساكن السابق ، كما كانت رطبة تنتشر على حيطانها كثير من بقع الرطوبة التى يخالف لونها لون طلاء الغرفة ، وكانت إحدى هذه البقع تشبه كل الشبه وجه إنسان . . . . !

وقد اعتدت — وأنا مضطجع فى الصباح بين النوم واليقظة والتلكؤ فى القيام — أن أراقب هذا الوجه على الحائط ، حتى أخذت شيئاً فشيئاً أنظر إليه كوجه إنسان حقيق . على أن الشىء الغريب فى ذلك ، هو أن هذه البقع البيضاء التى على الحائط ، كانت تمتد وتتغير أشكالها ، ثم يبقى الوجه على حاله ، كما رأيته للمرة الأولى . . .

وفى تلك الفترة أصبت بحُمّى شديدة ، ولما تماثلت للشفاء منها ، كنت أقضى اليوم بين القراءة والتفكير فى شأن هذا الوجه الذى استحوذ علىّ ، وخاصة بعد أن بدأت أراه شيئاً متميز الملامح والقسمات .

ولا أخفى أنه شغلنى وتسلّط على خواطرى ليلا ونهاراً ؛ وهيهات أن أنسى انحراف أنفه العجيب ، أو جبهته الفريدة فى نوعها . لقد كان فى الحقيقة وجهاً مليئاً بالشخصية القوية ، والمعانى المعبرة ، وجهاً يندر مثله بين آلاف الوجوه !

ثم غادرت الفراش بعد أن استكملت صحتى ، ولكن صورة هذا الوجه لم تبرح خيالى أو تفكيرى ، فاضطررت

أن أجوب الطرقات والشوارع باحثاً عن وجه كهذا الوجه . ربما كان فى ذلك التصرف نوع من العبث الغريب ، ولكن نفسى كانت تحدثنى أن الرجل الذى يحمل هذا الوجه حىٌّ يُرزَق ، وسوف ألتقى به !

قد يسألنى أحدكم : كيف ذلك ؟ ثم لا أجد لدى ما أجيب به أكثر من أن القدر قد ربط بينى وبين صاحب هذا الوجه برباط سحرى عجيب ! وفى سبيل ذلك كنت أختلف كثيراً إلى حيث يحتشد الرجال ، كنت أتردد على المجتمعات السياسية ، وحفلات الكرة ، ومحطات السكك الحديدية ، حيث تتدفق قُطُر الضواحى على لندن بأمواج المسافرين فى الصباح ، ثم تتلقاهم مرة ثانية فى المساء . ومع كل ذلك ذهبت تلك المحاولات أدراج الرياح . بيد أنى عرفت من كثرة تصفح الوجوه ما لم أكن أعرف من قبل ، عرفت كم تتكثر أوجه الخلاف بين وجوه الرجال ، وكم تجتمع هذه الوجوه الكثيرة المختلفة ، تحت أنواع قليلة تعد على أصابع اليدين !

لم تصرفنى تلك المحاولات الفاشلة عن استئناف البحث ، حتى لقد بلغ أمر ذلك بنفسى حد الجنون وإهمال كلّ ما عداه .

ولقد دفعنى هذا الفشل إلى مضاعفة السعى ، فكنت أتصدى للرجال عند منصرفهم من أعمالهم ، وفى أماكن محتشداتهم ، ثم أراقب وجوههم متفرساً فيها ، حتى حسبنى الناس مجنوناً ، وحتى بدأ رجال الشرطة يعرفوننى ويشتبهون فىّ ! ما كنت أنظر إلى النساء . وإنما كان نظرى متجهاً دائماً إلى الرجال ، والرجال فقط . . !

ولم يصل فى قصته إلى هذا الحد حتى مسح بكفه على جبينه العَرق ، ثم عاد لإتمام قصته فقال :

— وأخيراً رأيته ! رأيته فى سيارة عامة تنطلق به شرقاً نحو « بيكادلى » ، ولم أكد أراه حتى جريت مسرعاً بجانب السيارة ، ثم رأيت سيارة خالية مقبلة ، فناديت سائقها ، ووثبت إلى داخلها وأنا ألهث وأصيح به : اتبعْ هذه السيارة التى أمامك . فانطلق السائق وراءها وهى تلوح على مدى البصر ، حتى وصلنا إلى « تشارنج كروس » ، فاندفعت من السيارة إلى الطوار ، فإذا الرجل المنشود مع سيدتين وفتاة صغيرة ، يتهيئون للسفر إلى فرنسا فى قطار الثانية والثلث بعد الظهر . . . وحدثتنى نفسى أن أسرع فأتحدث معه أى حديث ، فلعل أظفر منه ولو بكلمة ، ثم حال دون ذلك وصول أصدقاء آخرين . وانضمامهم إليهم وسيرهم جميعاً إلى القطار . .

أفلتت هذه الفرصة ، فأسرعت واشتريت تذكرة إلى « فولكيستون » مؤملا أن أدركهم على ظهر الباخرة قبل إبحارها ، ولكنه سبقنى فى « فولكيستون » إلى الباخرة هو ومن معه ، ثم اختفى فى غرفة تدل على أن الرجل ذى كبير . . .

وهكذا أخفقت المرة الثانية . . . ! ولكنى صممت أن أحاول مرة ثالثة ، معللا نفسى أنه قد يترك مَن معه ، ويخرج للرياضة ، عندما تتحرك السفينة . ولقد كانت نقودى التى لا تزيد على ثمن التذكرة ذهابا فقط إلى « بولون » كافية لأن تثنينى عن عزمى ، ولكنى مع ذلك جلست أنتظره أمام باب غرفته . . . على أنّ انتظارى لم يطل ، فقد رأيته بعد نصف ساعة يخرج هو والفتاة الصغيرة . ولم يكد يقع نظرى عليه حتى بدأ قلبى يخفق ويتحرك ، وكأنى به يهز الباخرة أكثر من محركها ! لم يكن لدى شك فى أن وجهه هو نفس الوجه الذى يطالعنى دائما فى غرفة نومى ، فالخطوط والملامح والقسمات كلها واحدة ! !

ومما زاد فى حيرتى أنه عندما رآنى وقف برهة ينظر إلىّ ثم مشى ، فشعرت أن الفرصة قد عادت فسنحت ، فإذا

لم أنتهزها الآن فلن أظفر بها بعد اليوم . ودفعتني الرغبة الطفلية الملحة ، وما هي إلا خطوات حتى كنت أمامه أتمتم بهذه الكلمات : — معذرة سيدى ، هل يضايقك أن أسألك إحدى بطاقاتك ؟ إن هناك سبباً قوياً يدفعني إلى التعرف بك . فبدت على الرجل علائم الحيرة من هذه المفاجأة ! كنت متوقعا أن ينكر طلبي ويرفضه ، ولكنه بعد لحظة تفكير ومشاورة نفسية ، أخرج محفظته وناولني بطاقة منها ثم أسرع هو والفتاة . . . ولكن لماذا أعطاني بطاقته بهذه السهولة ؟ لقد كان يبدو لى من موقفه أن الرجل يحسبني معتوها ، فرأى من الحكمة أن يجاريني ويصرف شروري عنه . . !

لا أستطيع أن أعبر لكم عن سعادتي بالبطاقة وقتئذ ، فقد ظننتها مفتاح هذا اللغز المحيّر ؛ لذلك أسرعت إلى مكان منفرد ، ثم وقفت أقرؤها ، ولست أنسى تلك اللحظة ولا ما نالني فيها عند ما قرأت على البطاقة الكلمات الآتية : « مستر أورموند وول » ثم عنوان منزل — لا أذكره — في مدينة بتسبورج الأمريكية ! !

يالله ! ما هذا اللغز العجيب ؟ كيف يتكوّن اسمُ الرجل من كلمتين ؛ أولاهما اسم الشارع الذى أسكن فيه ، وثانيتهما اسم الحائط التى يطالعني عليها الوجه الذى هو وجه هذا الرجل ؟

لا أذكر ما حدث لى إزاء هذه الألغاز التى تكشّف عنها هذا اللغز ، بيد أنى عند ما أفقت إلى نفسى وجدتني فى مستشفى بمدينة « بولون » على حال سيئة لازمتني عدة أسابيع ، وقد عدت من هناك منذ شهر .

وصمت الرجل قليلا ، فنظرنا إليه ، ثم جعل كل منا ينظر إلى صاحبه فى حيرة وانتظار ، فقد فاقت قصة هذا الرجل القصير الشاحب كل ما سمعنا من قصص فى تلك الليلة ... ثم استأنف الرجل حديثه بعد لحظات فقال :

— أجل ، عدت إلى منزلى فى شارع « أورموند الكبير » لأعمل من جديد على معرفة كل ما أقدر عليه من حياة ذلك الأمريكي الذى تدخلت فى حياته على غير علم منه ! لقد كتبت إلى معارفى فى « بتسبورج » وإلى بعض محررى الصحف الأمريكية ، كما عدت فوطدت علاقتى مع أصدقائى الأمريكيين المقيمين فى لندن ، ثم كان كل ما حصلت عليه هو أن هذا الرجل ثرى كبير ، وأنه من أبوين انجليزيين عاشا فى لندن ، ولكن أين ؟ هذا ما لم ألق جوابا عليه !

وتتابعت الأيام حتى صباح أمس ، فكان بدء الفصل الأخير من هذه القصة ! لقد أويت إلى فراشى ليلة أمس متعباً ، ثم صحوت فى الصباح متأخراً ، فرأيت أشعة الشمس تملأ الغرفة ، كان من عادتى أن أنظر كل صباح إلى الحائط الذى يطالعنى عليه الوجه الإنسانى فأراه واضحاً . ولم أكد أنظر إليه هذا الصباح حتى وثبت منزعجا أمسح عينىّ بيدىّ وأحدّق فيه ! لقد كان فى الليلة الماضية واضحاً يكاد ينطق ، أما اليوم فقد قلّ وضوحه حتى بدا كخيال نفسه !!

لم أطق كل تلك الطلاسم والمعميات فخرجت ورأسى دوار ، وبنفسى انقباض . كانت الطبعات الأولى لصحف المساء قد ظهرت ، فلفت نظرى فيها — وأنا أسير — هذا العنوان : « حادثة اصطدام سيارة ثرى أمريكى كبير » — لا شك أنكم رأيتم هذا العنوان أيضاً — فاشتريت الصحيفة ، وأطلعت فى الحال على النبأ فإذا هو :

« كان مستر أورموند وول أغنى أغنياء بتسبورج وجماعة يقومون فى سيارة برحلة من « سيزيا » إلى « بيزا » وفى الطريق اصطدمت السيارة بعربة نقل كبيرة فانقلبت بهم ، وحالة مستر وول خطرة . »

وهكذا زاد هذا النبأ اللغزَ تعقيداً على تعقيد ، فعدت إلى منزلى مشتت الفكر ، خائر القوى ، فاستلقيت على

الفراش ، ورحت أنظر إلى الوجه الذى على الحائط كعادتى . وكم كانت دهشتى حينما رأيته فجأة قد تلاشى واختفى !!

وقد دفعنى ذلك إلى القيام ببعض التحريات عن حادثة « مستر وول » حتى اهتديت إلى أن الوقت الذى فارق فيه الحياة هو الوقت الذى تلاشى فيه الوجه واختفى من مكانه على الحائط !

ثم عاد الرجل إلى صمته الأول فقلنا :

— هذا شىء غريب ! إنه أمر خارق للعادة ولا شك .

فقال الرجل :

— نعم ، إن فى هذه القصة ثلاثة أمور خارقة للعادة . أما أولها فهو : كيف أمكن لبقعة رطبة على حائط فى منزل إنجليزى بلندن أن تتكون وتظهر ملامح رجل نزيل فى أمريكا ، ثم يكون لها اتصال وثيق بحياة الرجل وموته ؟؟ لا شك أن أمام العلم مرحلة من الزمن حتى يستطيع أن يحل هذه المشكلة !

وأما الأمر الثانى فهو كيف يكون لاسم رجل نزيل أية صلة بحائط المنزل الذى ظهرت عليه ملامح وجهه — بعامل خفى — ، وباسم الشارع الذى فيه هذا المنزل ؟ أليس كذلك ؟

فلم يسعنا إلا أن نوافقه .. ثم عدنا للمناقشة من جديد عن الظواهر الخارقة للعادة بحماسة زائدة بعد سماع هذه القصة المثيرة ، واستمر الجدل وطال حتى نهض صاحب القصة وقال : سعدتم مساء .

ولكن حدث عندما اقترب من الباب أن قطع أحد المجتمعين مناقشتنا الصاخبة — وأظنه سياتون — بأن استوقف هذا الرجل وسأله :

— ولكن ما الأمر الثالث الخارق للعادة الذى تشتمل عليه القصة ؟

فقال الرجل وهو يفتح الباب :

— آه ، الأمر الثالث ! لقد نسيت أن أذكره حقاً ! إن الأمر الثالث الخارق للعادة فى هذه القصة ، هو أنى اخترعتها لكم منذ نصف ساعة ! سعدتم مساء مرة ثانية !!

لقد نال منا تهكم الرجل ، وأخذنا بعد أن عدنا إلى شعورنا نتلفت حولنا باحثين عن « رودسون وايت » الذى أحضر معه هذا الثعبان الآدمى لينهش أفئدتنا ، فإذا هو قد اختفى أيضاً . . . !!

عبد العزيز حتى

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

الكيمياء وكشف الجرائم

— ٢ —

كثير من الناس يلذ لهم قراءة القصص البوليسية أو مشاهدة أفلامها السينمائية ، حيث يقوم أبطالها أمثال : شرلوك هولمز ، وشارلى شان وغيرهم ، بإظهار كثير من المهارة والذكاء فى اكتشاف الجريمة . ويلاحظ أن فى مثل هذه الروايات قل أن ينتهى فيها النصر لرجل البوليس السرى بكشف غوامض الجريمة دون أن يلجأ إلى أحدث الطرق العلمية لمعاونته فى مهمته . والواقع أن جميع إدارات البوليس الكبيرة فى العالم لا يمكن أن تخلو الآن من إخصائيين فى هذا النوع من العلم التطبيقى المفيد .

وقد بينا فى العدد السابق كيف أن الطبيب لا يمكنه فى الوقت الحاضر القيام وحده بكل ما يتطلبه البحث والتدقيق فى النقط التى يطلب منه بحثها دون الاعتماد على الكيماوى أو على غيره من الإخصائيين . كما تحدثنا أيضاً عن كثير من طرق الكشف عن الدم وتمييز دم الإنسان من غيره من الحيوان ، وعن مجموعات الدم الأربع عند الإنسان ودلالاتها .

وسنتناول الآن بعض النواحى الأخرى التى يستعان فيها بعلم الكيمياء على اكتشاف الجرائم ؛ ولعل دس السموم للأشخاص من الجرائم الشائعة التى ما زال يلجأ إليها كثير من المجرمين — وقد يكون الطبيب أول شخص يقصد إليه للاستعانة به فى الكشف عن هذه الجنايات ، وهذا أمر طبيعى إذ أن كثيراً من السموم يستعملها الطبيب بكميات مناسبة فى علاج بعض الأمراض ، كما أنه على دراية بتأثيراتها فى الجسم إذا استعملت بكميات كبيرة — ولكن إثبات وجود سم معين بالتحليل فى بعض الحالات وتقدير الكمية التى استعملت منه فى حالات أخرى كل ذلك من صميم عمل الكيماوى ، أو هو على الأقل مشكلة كيماوية لا تحل إلا بالطرق الكيماوية فى العمل .

وعندنا الآن بمصلحة الطب الشرعى بمصر معامل كيماوية مستوفاة تقدم كثيراً من الخدمات الجليلة كل يوم للقضاء والنيابة والبوليس ، ويقوم بالعمل فيها كثير من الإخصائيين فى مختلف النواحى .

وسنكتفى فى هذا الموجز بذكر بعض أنواع السموم الشائعة الاستعمال فى القطر المصرى دون أن نحاول بيان تفاصيل طرق كشفها . فمن السموم الشائعة الاستعمال الزرنيخ الأصفر والأبيض ، وبعض مركبات معدنية أخرى مثل الزئبق والأنتمون والنحاس والرصاص ، وهناك أيضاً كثير من المركبات العضوية كالفينول (حامض الفنيك) وحامض الأساليك والفيرونال veronal والاستركنين والكوكايين ، وبعض سموم نباتية مثل بذور البنج والداتورة وجذور خانق الذئب والأفيون وأوراق البلادونا ، وغير ذلك كثير مما يصعب حصره . ولا يقتصر استعمال هذه السموم ضد الإنسان ، ولكن كثيراً ما تستخدم لقتل الماشية أو الكلاب أو حيوانات الحقل بقصد الكيد والانتقام .

وفى وقت من الأوقات كان الزرنيخ هو أكثر هذه السموم استعمالا ، وما زلنا نسمع عن كثير من الجنايات التى استعمل فيها هذا السم للقتل على رغم أنه من أسهل السموم اكتشافاً ، حتى بعد أن تمضى مدة طويلة على الوفاة ودفن الجثة ، بل إن كمية السم المستعملة يمكن تقديرها بكل دقة مهما صغرت مقاديرها ، ولو كانت أقل من جزء من ألف من الجرام . وليست جميع السموم سهلة الكشف والتقدير كالزرنيخ ، واكتشافها يحتاج إلى علم واسع ودربة وخبرة على هذه العمليات الكيماوية . ولا بد للقائم بها من أن يقدر عظم المسئولية ، ويكون له ضمير حى يحمله على العناية والدقة .

وكثيراً ما يطلب إلى الكيماوى أيضاً بحث الملابس التى تضبط ويشتبه فى أن لها علاقة بالجريمة سواء كانت خاصة بالجانى أو المجنى عليه ، أو المشتبه فيه — وكثيراً ما أدى البحث الكيماوى إلى الكشف عن أسرار غامضة ما كان يحلم رجل البوليس أو النيابة بالوقوف عليها لو لم يلجأ

إلى العلم الحديث لمعاونته — وقد استمعت مرة إلى محاضرة لرئيس القسم الكيماوى بسكوتلاند يارد فى انجلترا ، ألقاها فى جمع أقيم بمناسبة إهدائه مدالية الجمعية الكيماوية فى الجامعة التى كنت أدرس بها ، فقد كان أحد خريجيها النابهين فبيّن كيف استطاع فى حادثة سرقة إحدى الخزائن الحديدية الهامة أن يضع يديه على المتهم ، على الرغم من أنه كان قد أخفى كل آثار الجريمة ، وذلك باستخدام أحدث الطرق المعروفة للصوص ، حتى كادت معالم الجريمة تختفى ويصدر القاضى حكماً بحفظ القضية ، لولا أن أثبت التحليل الكيماوى بالطرق الإسبكترسكوبية الدقيقة وغيرها أن ملابس هذا المتهم من دون ملابس سائر المشبوهين من سارقى الخزائن المشهورين كانت تحمل آثاراً طفيفة من نفس الطلاء الذى كان على الخزانة المسروقة . ولا شك فى أن ملابس المتهم قد تحملت بهذه الآثار البسيطة نتيجة احتكاكه بالخزانة أثناء محاولة فتحها . ولما وصل البوليس إلى هذه النتيجة ضيق الخناق على المتهم فى الأسئلة حتى اعترف بالحادثة كاملة ، والفضل فى ذلك لاشك راجع إلى التحليل الكيماوى.

ومن البديهى أن الأوساخ والبقع العالقة بالملابس لها أهمية فى البحث من مهنة الشخص المجهول ، أو البحث من شخصيته ، فكثيراً ما تكون على ملابس الجزار والنجار والمهندس فى ورشة ميكانيكية ، والشخص الذى يعمل فى معمل كيماوى أو معمل للروائح العطرية ، بقعاً خاصة مميزة .

ثم إن تحليل الأتربة العالقة بالملابس قد يهدى إلى معلومات هامة ، فمثلا يسهل تمييز ملابس عمال الطواحن وعمال المكاتب أو دور الكتب بالأتربة ، ولجمع هذه الأتربة توضع الملابس فى كيس خاص من الورق ثم تضرب بضع دقائق ويجمع التراب المنفصل ويعرض للفحص . وقد يستدل من الأتربة التى توجد على الأحذية أو فى ثنية « البنطلون » عند الرجل على طبيعة الأرض التى سبق له المشى فوقها ، فإذا وجدت جثة شخص ملقاة فى أرض طينية ، وكان نعل الحذاء خالياً من آثار الطين أو عالقاً به آثار أخرى طباشيرية مثلا ، أمكن بذلك الاستدلال على أن الجثة قد نقلت من مكان الجريمة بعد ارتكابها .

وطريقة فحص الأتربة والأوساخ التى على الملابس ليست بالعملية السهلة ، بل تحتاج إلى كثير من الخبرة . ويجرى فى أوروبا منذ بضع سنين أبحاث كثيرة عن فحص الأتربة سوف يكون لنتائجها أهمية كبيرة لخدمة الحقيقة .

ويبدأ فحص الأتربة عادة بالنظر إليها خلال عدسة مكبرة لأخذ فكرة عامة عنها ، ثم تفحص بالمجهر وتفصل بعض مكوناتها عن بعض إن أمكن ، وبعد ذلك تحلل بالطرق الكيماوية أو الإسبكتروسكوبية . وقد يحتوى التراب على مواد عجيبة مثل بعض البكروبات أو بويضات بعض الحشرات ، وأحياناً على ريش أو شعر صغير ، وهذه الأخيرة كثيراً ما تكبر صورها الفوتوغرافية . وقد يحتوى التراب على مواد بسيطة التركيب أو ذات تركيب معقد جداً .

ومن الأمثلة الطريفة التى تدل على مقدار ما يمكن الوصول إليه من فحص ما يعلق بالملابس ، الحادثة الآتية التى يذكرها المستر لوكاس فى كتابه Forensic Chemistry (الكيمياء الشرعية) والتى حدثت حوادثها داخل الحدود المصرية فى أثناء الحرب الماضية . فقد قبض على أحد الأجانب بالقرب من قنال السويس فى حالة مريبة ، فأرسلت « سترته » للفحص الكيماوى والفحص العام ، فجاء فى تقرير المعمل عن نتائج هذا الفحص أن هذا الشخص صاحب « السترة » قد سافر من بتافيا إلى القطر المصرى على باخرة هولندية (إذ أن البواخر الهولندية كانت فى ذلك الوقت هى الوحيدة التى تمر فى القنال وتقف فى بتافيا) ، وأنه قد قفز من الباخرة فى القنال (ويحتمل أن يكون ذلك فى المساء) ، وبعد أن سبح إلى الشاطئ ، وصل إلى كثبان رملية خاصة معروفة على الشاطئ الغربى للقنال .

وقد أمكن الوصول إلى هذه المعلومات القيمة من فحص الأزرار التى على « السترة » فقد وجد عليها اسم أحد الخياطين فى بتافيا ، وأيضاً من معرفة النسب التى تكوت

منها الأملاح التي وجدت على ملابس الرجل ومطابقتها لنسب الأملاح التي في مياه القنـال — ومن فحص دقائق الرمال التي وجدت في ملابسه ومطابقتها لطبيعة الرمال التي على إحدى جهات الشـاطئ. — ومن الطريف أن اعترافات الرجل جاءت مطابقة لكل ما ورد في تقرير المعمل من استنتاجات وتكهنات .

وقصة أخرى حدثت وقائعها في انجلترا في السنوات الأخيرة : وجدت جثة شخص مجهول ملقاة في جهة ما ، وقد حار البوليس في معرفة شخصية القتيل ، فلا بصمات أصابعه كانت معروفة لهم ، ولم توجد أي مميزات خاصة تمكن الاستدلال بها على شخصيته ، كما أنه لم يتقدم أحد لتعرف عليه ، وأخيراً عثر في التجويف الذي بين نعل الحذاء وكعبه على مادة ذات لون قاتم حللت كيماويا فأدى تحليلها إلى الاشتباه في أن هذا الرجل قد مشى حديثاً على أرض غطيت بالإسمنت قبل تمام جفافه ، وبالبحث وجد بقرب مكان الجثة حارة قد أصلحت أرض حاراتها حديثا بإسمنت من نفس النوع ، كما أنه لما فحصت هذه الأرض وجدت عليها آثار أقدام تطابق حذاء القتيل تماما ، ولما عرضت الجثة على صاحب السكان ، لم يقتصر الأمر على أنه تذكر شخصية صاحب الجثة بل تذكر من كان معه ، وأدلى بمعلومات عن شخصين آخرين كانا في صحبة القتيل قبيل العثور على الجثة ، وبذلك فتح أمام البوليس باب جديد للبحث ، وأمكن في النهاية القبض على المجرمين لنيل جزائهما العادل .

وكثيراً ما يؤدي تحليل رماد التبغ الذي ينثر عليه في مكان الجريمة إلى معلومات هامة ، فبالفحص الميكروسكوبي للرماد يمكن معرفة إن كان ناتجا من حرق السجارة أو السيجار أو من التبغ الذي يستعمل في الغليون . والتحليل الكيماوي له يمكن أيضاً الحصول على معلومات وافية عن أصل التبغ ، وهل هو مثلا من النوع التركي أو النوع التركي ، ولبيان ذلك يكفي أن نذكر أن مادة البوتاسيوم توجد في النوع الأول بنسبة ٢,٥٪ وفي النوع الثاني بنسبة ٣٠٪ تقريبا .

ومن الحوادث الهامة التي استخدمت فيها نتيجة هذا التحليل بمصر من عهد ليس بالبعيد ، الحادثة التي حاول فيها البعض الاعتداء على أحد السلاطين ، فقد كان من الأدلة التي رجحت كفة الاتهام ، وجود آثار لفافة من التبغ بالقرب من مكان الاعتداء ، وجد بالتحليل الكيماوي مشابهاً تبغها النوع الذي يستعمله المتهم .

وكثيراً ما تعرض المنسوجات والأقمشة للفحص بواسطة المجهر والتحليل الكيماوي ليؤدي ذلك إلى معلومات قد تفتح بابا جديداً في البحث عن غوامض الجريمة ، فيفحص مثلا عدد الخيوط في البوصة المربعة ، كما يمكن لعين الخبيرة أن تتعرف على نوع الغزل في الحال — ويفحص التركيب الكيماوي للرماد الناتج من حرق جزء من القماش لمعرفة نوعه إن كان من الأقمشة الصوفية أو القطنية أو الصناعية ، أو خليطاً من بعضها ، إذ أن التركيب الكيماوي للرماد الناتج من هذه الأنواع معروف الآن بتفصيل وافٍ .

ومن الأمور التي نلجأ فيها إلى الكيماوي ليقول الكلمة الفاصلة في الموضوع حوادث التزييف والغش والتزوير . فمثلا تفحص العملة التي يشتبه في تزييفها فحصاً دقيقاً لمعرفة العيوب التي لا بد من وجودها في القالب الذي صبت فيه أو ضغطت بواسطته (وأحياناً يمكن بواسطة هذا الفحص معرفة إن كان مصدر التزييف واحداً في قطع العملة المضبوطة) ، ثم ترسل بعد ذلك إلى المعمل الكيماوي لتحليلها ومعرفة نسبة تكوينها .

أما حوادث الغش في الأطعمة وغيرها فكثيرة في كل يوم وبخاصة في هذه الأيام التي تأثر فيها العـالم أجمع بهذه الحرب الضروس ، والتي شجعت أرباحها الطائلة الكثيرين من الجشعين على زيادة ملء جيوبهم وبطونهم ما أمكنهم إلى ذلك سبيل ، ولو عن طريق غش الجماهير

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

صحيفتى !

لم أقرأ شيئاً من الصحف فى هذا الأسبوع ، أو لعلى قرأت ... ؛ فلست أعرف على التحقيق أين الحد الفاصل بين النفى والإثبات فى هذا الباب ، إنى لأتصفح أحياناً عشرات من الصحف ، وعشرات من المقالات ، ثم أطوى صفحاتها وألقيها جانباً وليس فى نفسى منها شىء ، كأنى لم أقرأ شيئاً مما قرأت . أذلك الفراغ فى نفسى أم فى الصحيفة التى أقرأ . . . . ؟!

ومع ذلك فإنى ليخيَّل إلىّ أحياناً أنى قرأت شيئاً ، وما قرأت ! وأن فى نفسى معانى جمة ، وما حصَّلت معنى من كتاب ولا صحيفة ! ويعجبنى أحياناً ما حصَّلتُ من معانٍ لم أقرأها ، وأتمنى لو أنها كانت صفحاتٍ مقروءة حقاً ، لأعود إليها فأقرأها ثانية وثالثة ، فلا يتهيأ لى أن أعود ولا تتهيأ لى . . .

وإنى إلى كل ذلك ليلذنى أحياناً أن أكتب شيئاً فى نفسى ، ثم لا أعرف ماذا أكتب ، وإن نفسى لتفيض بمعان وخواطر تضيق بها صفحات . . . .

ولقد تُلحُّ علىّ الفكرةُ الواحدة حتى ما أملُّ النظرَ فيها والحديثَ عنها وتشقيقَ معانيها باللسان والقلم ؛ ثم تعزُبُ عنى . . .

أذلك حالى وحدى ، أورثتنى إياه الحياةُ الراتبةُ التى أحيا ، والوحدةُ الصامتة التى تضرب على أذنىّ ، والوحشةُ الساكنة فى محراب أيامى . . . ، أم هى حياة الناس جميعاً تتجاذبهم موجاتٌ متعاقبة بين السكون والضجّة ، وبين

والحكومات . على أن من حسن الحظ أن الكيماوى يمكنه أن يكشف عن كثير من جرائمهم ، فيمكنه أن يحكم بدرجة كافية من الدقة على غش الأطعمة مثل اللبن والسمن والدقيق والرغيف الذى ضج الناس من طعمه وشكله فى هذه الأيام . وهناك أيضاً الكثير من حوادث الغش المعروفة لنا جميعاً ، والتى أثار بعضها اهتمام الرأى العام بمصر فترة من الزمن ، كشف عنها الكيماوى فى معمله فساق بذلك أربابها إلى المحاكم العسكرية لمحاكمتهم .

ومن الحوادث الغريبة أيضاً التى كان للتحليل الكيماوى فيها فصل الخطاب ، أن رجلا كان يشتغل فى مصنع لحامض الكبريتيك فى ألمانيا اختفى من الوجود فجأة ، فاعتقدت زوجه فى أنه سقط فى خزان الحامض فذاب كل جسمه واختفى شبحه ، وعلى ذلك طالبت الزوجة شركة التأمين بدفع ما تستحقه ؛ ولكن الشركة عارضت فى ذلك زاعمة أن الرجل لم يمت ، ورجحت أنه قد رحل إلى أمريكا أو إلى أى مكان نائٍ هرباً من مشاكسة زوجه التى كانت تكثر من مضايقته ، ولكن التحليل الكيماوى للحامض الذى فى الخزان أثبت أن نسبة مركبات الفوسفور الموجودة فيه لا يمكن أن يكون مصدرها خامات الحامض ، ولكن يحتمل جداً أن يكون مصدرها كمية فوسفور تعادل الكمية التى توجد عادة فى جسم إنسان بالغ ، وعلى ذلك اعتبرت الزوجة أرملة وحكم لها بدفع مبلغ التأمين .

نكتفى الآن بهذا القدر المختصر ونذكر أنه من حسن الحظ أن تعترف المحاكم الآن بأهمية الأبحاث العلمية الحديثة فى سبيل كشف الجرائم ، ونأمل أن نبين فى عدد تال بعض هذه الأبحاث العلمية المفيدة ، والتى تستخدم فيها أجهزة أخرى خلاف التحليل الكيماوى .

يوسف صموع الدره قطب

الكفاح والرضا ، وبين الطموح والاستسلام ؟

أرأيت إلى عابر السبيل يمدّ خطوه ، ويقصر ، ويسرع ويبطىء ، ويغذّ السير فترة ويستريح فترة ؟ . . . كم منظراً صافح عينيه في طريقه وما رأى ؟ وكم صورة ارتسمت في صفحة أمانيه وما شهدتْها عيناه ؟ . . .

ويلٌ لي وويلٌ لكل عابر سبيل لا يرى من صحيفة الطريق إلا ما يرى من صحيفة نفسه !

... ...

هذه صحيفتي التي قرأتُ في هذا الأسبوع !

صحيفة بلا عنوان ، وإن معانيها لتتزاحم ، وإن صورها لتتشكل في فنون وألوان ، وإن حوادثها لتصطرع في داخل النفس اصطراع الجبابرة بلا رفق ولا أناة !

. . . وخلوت إلى نفسي ذات مساءٍ أحاول أن أجتلي من أسرارها وأعرف خبرها ؛ وتفتحتْ لي منها صفحات فرحتُ أقرأ . . .

أين أنتِ يا نفسُ مما كنتِ ؟ وأين حاضرك من ماضيك ؟ وأين يقع منك خيالُ المستقبل البعيد ؟ . . .

الماضي . . . ؟ وقلّبتُ صفحاتٍ من الكتاب طويتُ بها أعواماً من العُمر في ذمة التاريخ ، وبدتْ لي في المرآة صورة ، إنها صورة شابٍّ كُنْتُه منذ سنين ؛ هذه الابتسامة على شفتيه ، هذا البريق في نظرته ، هذه الأماني تترقرق أضواؤها في جبينه ، هذه الوحدة . . . ؛ إنه وحيدٌ منذ كان ، ولكنه سعيدٌ بوحدته ! . . .

ماذا كنتُ يومئذ وماذا كانت دنياي ؟ وأين كان مني خيالُ المستقبل ؟

يالي من الذكرى ! . . . ليتني أقصرتُ في الأماني ! . . . ولكن طيفاً كان يتخايل ليعينيّ في يقظتي وفي أحلامي يهيء لي سبيل كل ممتنع ؛ وكانت لي أمنية . . . !

كانت مني على مدّ النظر وبيني وبينها أستار وحجب ؛ لم تكن تراني ولم أكن أراها ، ويمضي عامٌ وعام لا نلتقي وجها لوجه ، ولا نهمس شفة لشفة ، ولا يسأل سائلٌ ولا يجيب مجيب ؛ ولكنها مني وأنا منها كأن لنا في كل يوم لقاءً وموعداً . . . . . . وتنفذ روحٌ إلى روح من خلال الأستار والحجب لتؤكد عهداً وأؤكد عهداً ، والأيام تمضي ، والقدر ينسأ الأجل ويمد الميعاد كما آن أوانه ، وأنا على الطريق أتخطى عقبة بعد عقبة بلا وني ولا كلال ، لأن معي على الطريق رفيقاً من أحلامي . . . والمستقبل المرموق يتراءى لعينيّ على مقربة ، يوم تكون وأكون ، ويوم يجمعنا دار ويُظلنا خميلة ، وثمة طفلٌ يدرج إلينا وهو يهتف في ابتسامةٍ راضية : أبي ! أمي !

لم تكن تلقاني ولم أكن ألقاها ؛ ولكن صورة واحدة كانت تتمثل لها خطفا وتتمثل لي . . . وصوتاً واحداً يهتف بها في خلوتها ويهتف بي . . . وكانت وكنتُ في يقينها ويقيني زوجاً لزوج ، أدّخرها لأيامي وتدخرني ، فلم أكن أراها ، ولم تكن تراني . . . !

وكان لنا دار لم يبْنِها بنّاء ، وحديقة لم يغرسها بستاني ، وطفل لم تلده أمه ، وتاريخٌ لم يلده الزمانُ بعد ؛ لأن ذلك كله في أحلامها وفي أحلامي . . . !

وقالت لي ولم تنبس ببنت شفة : كُن كما أريد أن تكون لأفاخر بك لِداتي ! فكنت ! . . . وقلت لها ولم ينطق لساني : كوني كما أريد أن تكوني لأصارع بكِ أيامي ! فكانت !

وكنت وكانت ، ولم أكن أراها ، ولم تكن تراني ؛ لأني كنت أدخرها لأيامي وتدخرني ؛ وقنعتُ وقنعتْ من سعادة الحبين بالانتظار والأمل . . . .

كم عاماً مضى قبل أن يحين ميعاد اللقاء ! . . .

ما كان أطولها سنين شبّ فيهما غلامٌ الليل وأيفع ! يا ليتها امتدتْ فلم نلتق . . . !

وتجسم الحلم الذي طال بضع عشرة سنة فصار حقيقة ، والتقينا . . . !

وقفت هنا وقالت لى . . . . . .

ماذا قلتُ وماذا قالت ؟ . . .

لا لا ، لا أريد أن أذكر ؛ لقد كان ذلك كله وهماً من الوهم ؛ لقد ذهبتْ فلا سبيلَ إليها بَعد ؛ وتبددت الحقيقةُ التى بتُّ أحلم بها بضع عشرة سنة فليس فى يدىَّ منها إلا ذلك الحلم ؛ ولكنه حلمٌ مديد ، مديدٌ إلى آخر الدهر ، لا يقظة منه إلا يقظة الآخرة . . . ألا ليت بعض الحقائق كانت أحلاماً ! !

... ...

سأطوى هذه الصفحات من تاريخ أيامى فلا أذكرها ؛ لستُ أطيق أن أتصوّر أن ذلك الحلم الذى عشت به ما عشت من سابق أيامى قد استيقظ يوماً ثم عاد فأطبق جفنيه ! . . .

سأحاول ما عشتُ أن أخدع نفسى بأن شيئاً مما كان بين قوسَىَّ هذا الحلم البديد قد كان حقيقة ؛ لا لا ؛ إنها قسوة ؛ إنه حلم واحد بدأ يوم بدأ وبيننا أستارٌ وحُجب ، وسيمتدّ ما يمتدّ وبيننا جندلٌ وصفائح ! !

ولكنى لا أستطيع ! لا أستطيع ! . . .

هذه الدار قد بناها البنّاء وإنى لألمس أحجارها ؛ وهذه الحديقة قد غرسها البستانى وإنى لأشم أزهارها ؛ وهذا طفل يهتف وعلى شفتيه ابتسامة راضية : أبى ! فأين . . . أين مَن يسمع ما يهتف به الطفل الضاحك ؟ . . .

... ...

ولكنى لست هنا وحدى ؛ وهذه الدار ليست لى وحدى ؛ وهذه الخميلة ليس مجلسى فيها وحدى ؛ وهذا الطفل لا يناديني وحدى . . . .

إنى لم أتخيل قط فى يقظة ولا حلم أن أكون هنا وحدى ؛ فلستُ وحدى وإن بَدوْتُ كذلك للناس ؛ لست وحدى ومعى صحيفة هذا الماضى !

إنى لأرى هنا شيئاً ، وإنى لأشم هنا عطراً ؛ فإذا ضرب النوم على جفنى فإنى واجدٌ فى المنام تعبيرَ رؤيا اليقظة ! . . . ليست الحقيقة ما تبصره عيناى الساعة ؛ إن الحقيقة ما تبصره عيناى فى الأحلام !

الحقيقة ! . . . الأحلام ؟ . . . أين الحدُّ الفاصل بين شىء وشىء هنا ؟ . . . ما اليقظة وما النوم ؟ . . . ما السر وما الجهر ؟ . . . ما الموت وما الحياة ؟ . . . هل هى إلا أسماء والحقيقة واحدة ؟ . . . ولكن الإنسان لا يدرى ! . . .

... ...

إلى كم يمتدُّ بى هذا الحلم السعيد ؟ . . . إنى لأخشى اليقظة كما استيقظتُ مرة منذ سنوات ، ثم . . . ثم كان ما كان . . .

هذه صحيفة ماضىَّ ، وهذه صحيفة حاضرى ؛ فمن لى بما سيكون ؟ . . .

لستُ أخشى الغيبَ وإنى لموقنٌ بآخرته ، ولكنْ هذا الطفل وهاتين الصغيرتين . . .

بلى ، إنى لأخشى . . . سيكبر هؤلاء الصغار يوماً فيسألوننى ولا أطيق الجواب ؛ لأنى لا أطيق أن أوقظ أحلامى على الحقيقة التى أحاول أن أنسى . . .

آه يا بَنىَّ ! مَن لى بمن يضع فى نفوسكم منذ اليوم ذلك المعنى الذى فى نفسى ، وينقل لكم إحساسى ، ويصوِّر فى عقولكم أحلامى ! . . .

إنكم يا بَنىَّ كلُّ ما بقى فى يدىَّ من حقيقة تلك الحياة التى كانت ؛ فمن لى بمن يجمع قلوبكم على هوى نفسى وظمأ روحى وحنين وجدانى ، إليها . . . !

هأنذا أراكم يا بَنىَّ وها أنتم أولاء ترونى ، وإن أواصر كثيرة تربط بينكم وبينى فتخفق قلوبكم لرآى ويخفق قلبى ؛ ولكن شيئاً عظيماً يا بَنىَّ يُبعد قلبًا من قلب ، هو أنكم لا تعرفون مَن كانت . . . لقد كان لكم أمٌ أيها الصغار !

« قاف »

ديكارت الفيلسوف

[أصدر الأستاذ عثمان أمين كتابا عن ديكارت ، ونكتب هذه الكلمة تقدمة وتعليقا]

سمعت الأستاذ أحمد أمين يخطب فى حفلة الجمعية الفلسفية هذا العام قائلا إنه مدين للفلسفة بتكوينه العقلى ، ولم يكن ذلك الكلام فيض الخاطر ، وإنما هو حقيقة ثابتة . وآية ذلك أن الأستاذ الجليل ترجم منذ زمن طويل كتاب « مبادئ الفلسفة » عن اللغة الانجليزية ، وقد طبع عدة مرات ، ونفدت طبعته عدة مرات . وتطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر كثيراً من الكتب الفلسفية الخالصة ، حتى تكاد توازى فى عددها الكتب الأدبية التى تطبعها اللجنة . وآخر هذه المطبوعات كتاب « المدخل إلى الفلسفة » ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى ، والذى سنعود إلى نقد بعض المصطلحات الفلسفية التى جاءت فيه فى مناسبة أخرى .

ولعل الذين قرءوا كتاب الأدب التوجيهى الذى اشترك فى تأليفه الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين ، يشعرون بهذا الأثر الفلسفى الواضح فى أكثر فصول الكتاب .

لا أريد الإطالة فى ضرب الأمثال ، ولكنى أقرر أن الفضل فى بروز كتابنا وأدبائنا يرجع إلى معرفتهم بالفلسفة .

وما أحوجنا فى مصر إلى الإلمام بالفلسفة ، بل إلى التعمق فيها ، حتى يأتى اليوم الذى تكون لنا فيه فلسفة مصرية ، كما أن هناك فلسفة انجليزية وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية تتميز بها هذه الشعوب ، وتقودها نحو أهداف خاصة ، وتطبعها بطابع معروف .

والفلسفة فى أوسع معانيها هى النظر أو التفكير ، وهى البحث عن العلل البعيدة ، والأسباب الصحيحة ، والمبادئ العامة . وهى تبحث كذلك فى الأهداف الإنسانية التى يقصد إلى الوصول إليها الناس والجماعات والأفراد .

كيف نعيش ، ولماذا نعيش ، وما مصدر الحياة ، وماغاية الحياة ، وماعلة الوجود ؟.. تلك أمثلة من المشكلات التى تعترض كل إنسان ، والتى يفكر فيها ، والقليل من يهتدى إلى سواء السبيل . ولا سبيل لنا إلى حل هذه المشكلات إلا بالاستعانة بآراء من سبقونا فى التفكير العميق فى هذه المسائل ، لنكون على علم بتطور الفكر البشرى . والمعرفة وليدة أفكار السابقين .

ومن أعلام الفلاسفة الذين كان لهم أثر عظيم الشأن فى الفلسفة الحديثة ، وفى توجيه الفكر الإنسانى ، ديكارت . وبلغ من سطوة فكره أن تبعه تلاميذ أخذوا عنه ، وساروا على نهجه ، وعرفوا فى التاريخ بالديكارتيين نسبة إلى زعيمهم ديكارت . ونذكر من هؤلاء التلاميذ اسبينوزا فى هولندا ، ومالبرانش فى فرنسا ، وليبنتز فى ألمانيا . فأنت ترى إذاً أن فلسفة ديكارت ذاعت لا فى فرنسا وحدها بل فى كثير من الشعوب ، ولا غرو فالعلم لا وطن له .

وكتاب الأستاذ عثمان أمين عن ديكارت يسد بطبيعة الحال نقصاً شعر به قراء اللغة العربية ، الذين كثيرا ما سمعوا عنه دون أن يعرفوا من هو ذلك الفيلسوف الذى يلقبونه بأبى الفلسفة الحديثة .

لهذا نجد فى هذا الكتاب نحو خمسين صفحة عن حياته . إنها صفحات طيبة ، لعل المؤلف قصد من الإطالة فيها أن يمزج الأدب بالفلسفة ، وأن يبعد عن القارئ السأم والملل ، قبل أن يدخل به إلى ميدان الفلسفة وشعابها المتعرجة . وليس غريباً أن نجد مثل هذه الإطالة فى تاريخ حياة ديكارت ، لأن آراء الفيلسوف صورة لنفسه ، وظل لشخصيته ، كما أن المؤرخين قد اختلفوا فى تدوين هذا

التاريخ اختلافاً لابد من مناقشته لاستخلاص وجه الحق . وبهذه المناسبة كنا نرغب من المؤلف أن يستخلص رأيه الخاص بعد أن استعرض شيئ ما كتبه الشراح عن ديكارت ، ليخرج القارئ بفكرة تركيبية بعد ذلك التحليل الطويل ، الذي يجرى على أسلوب الفرنسيين في الكتابة . ولا ننس أن الأستاذ عثمان أمين قد تعلم في فرنسا ، فهو متأثر بطريقتهم في التأليف .

وكما أنك لا تخرج برأى صريح عن شخصية ديكارت ، فإنك كذلك لا تخرج بفكرة محدودة عن تأويلات فلسفته . أهى فلسفة طبيعية ، أم رياضية ، أم ميتافيزيقية ، أم دينية ! هذه كلها آراء بسطها المؤلف وناقشها ، ثم تركنا في بيداء التفكير ، ولو أنه يميل إلى تأويل فلسفته كما ذكر في الخاتمة التأويل الديني .

وعندى أن ديكارت إلى جانب هذا كله من أصحاب المناهج ، وأن أثره الذى خلد شأنه ، والذى من أجله تبعه تلاميذ ، وقامت مدرسة ، هو المنهج الديكارتي الذى يمتاز امتيازاً بيناً عن المنهج التجريبي الذى نادى به بيكون في انجلترا وساد فيها بعد ذلك . والثورة التي قامت في الفكر الإنساني كله في العصر الحديث ، منذ القرن السابع عشر حتى الآن ، قامت على الهدم والبناء . أما الهدم فعبارة عن طعنات قاتلة وجهها الفلاسفة إلى الفلسفة القديمة التي بلغت في النفوس منزلة القداسة . وأما البناء فإنه يقوم على الطريقة أو المنهج ، لأنك لا تستطيع أن تبنى جزافاً ، بل على أساس طريقة معينة توصلك إلى المقصود ، وإلا تضل الطريق .

والهدم والبناء في الفكر يتناول ما في عقولنا من آراء بعضها فاسد وبعضها صحيح . وقد تقول : وما شأن المعانى الذهنية ، وأنا أريد حقائق العالم ومظاهر الكون ؟ ونجيب عن ذلك بأن وجود العالم لا يكون إلا في ذهنك ، وكل منا يتصور العالم على نحو معين . فأساس المعرفة كلها هو هذه المعانى الذهنية .

وقد ضرب ديكارت مثالاً مشهوراً في الفلسفة عن الطريقة التي ينبغى أن نميز بها الصحيح من الزائف في الآراء ؛ ذلك هو مثال السلة المملوءة بالتفاح ، فيها الفاسد وفيها الصحيح ؛ فالطريقة لعزل الفاسد واستبقاء الصحيح هي أن نفرغ السلة مما فيها جميعاً ، ثم نختبر بعد ذلك التفاح واحدة واحدة ولا نقبل إلا ما كان سليما . كذلك عقولنا مملوءة بالآراء الصحيحة والفاسدة ، والطريقة لاستبعاد الزائف منها ، هو تفريغ العقل كله من الآراء ، ثم امتحانها بدقة رأياً رأياً .

وبعد ، ما هى الطريقة التي ينبغى أن نتبعها في مصر ، ونحن في مفترق الطرق ، نريد إصلاحا ، وننشد نهضة ، ونفكر في أحوالنا . أهى الطريقة العقلية الرياضية الديكارتية ، أم الطريقة التجريبية ؟

إننا في حاجة قبل ذلك إلى دراسة واسعة للمناهج والعلوم .

أحمد فؤاد الأهوانى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٢٦٩٩

العدد ١٩٧ — الثلاثاء ٢٥ من رمضان سنة ١٣٦١ — ٦ من أكتوبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

٤ — حديث رمضان :

مســــــتقبل الدين

ما أثر هذه الحرب العالمية في الدين؟ ما نوع الموجة التي ستسود العالم بعد الحرب؟ أموجة دين أم موجة إلحاد؟ وهذه المصائب العظمى — التي لم تمر على عالمنا مثلها — ما أثرها في الشعور الإنساني، أتقربه من الله أم تبعده عنه؟

هذه الأسئلة وأمثالها شغلت بعض كبار العقول في أوربا، من رجال دين ورجال اجتماع وعلماء نفس، وأجابوا عنها إجابات مختلفة، وتنبئوا بالمستقبل تنبؤات متناقضة.

فذهب فريق إلى أن العالم ستديّنه أهوال الحرب، لأن أوربا — قائدة العالم — عبدت العلم فأذلها، وقدسته فكانت الويلات نهايتها، قد لا تكون هذه الكوارث آفة العلم، لأن العلم آلة ذات حدّين تستعمل في الخير والشر على السواء، ولكن كان ينفع العلم لو أن الإنسان نمّى شعوره كما نمّى عقله، وأحيا قلبه كما أحيا رأسه، أما أن يُعنى الإنسان بعقله ويترك قلبه، ويستكشف مجاهل العلم ولا يستكشف مجاهل القلب، ويبني حياته اليومية ويؤسس سياسته العامة على العلم وحده دون القلب، ويتقدم في العلم خطوات واسعة حتى ليكون الفرق بين علم اليوم وعلم الأمس شاسعاً، ثم لا يتقدم في قلبه قيد شعرة بل قد يتأخر، فاختلال في التوازن نشأت عنه هذه الكوارث؛ كمن يمرن إحدى عينيه ويهمل الأخرى فتعمى، فقد خلق الإنسان ولا ينتظم حاله إلا بالتوازن، فإذا اختل توازنه شقي.

قالوا: سيدرك الإنسان هذه النتائج كلها وأكثر منها بمحنته في هذه الحروب، وستكشف له عللها وأسبابها، وسيرى أن الدواء في التوازن، فينمّي قلبه وشعوره كما نمى رأسه وعقله، وإذ ذاك يلجأ إلى الدين، فهو غذاء القلب، وسيرى أن عبادة العلم والمادة تكشفت عن مآس مرعبة، وأن عبادة اللذة أفقدت اللذة، فلا ملجأ إلا إلى

الدين ، إلى الله ، إلى رحمته ، إلى عفوه ، إلى أن يسكب الدمع ليغفر له غفلته ، ثم يفتح صفحة جديدة لحياة جديدة .

قال بعضهم : ولكن سوف لا تعود أوربا إلى الدين القديم بكل جملته وتفصيله ، فستُدخل الحرب التعديل على تفاصيل الدين ، كما ستدخله على كل النظم الاجتماعية ، مسترشدة بأخطاء الماضى — سيكون الدين منبعاً لعواطف الإنسانية ، لا خادماً لعواطف الوطنية ، سيُخرج الغرائز الوحشية الطامحة إلى الدم من قلب الإنسان ليُحل محلها السلام العام ، والأخوة العامة ؛ سوف ينكر الدين الجديد الشهوة فى ملك الجار الضعيف ، واغتصاب الأمم غير المسلحة والشعوب الراقية فى السلام — إن الدين فى شكله الحاضر قد فشل لأنه قوّى روح الشر ، وأعان الظالمين على ظلمهم ، وعلى أقل تقدير أفقد رجال الدين قدرتهم على قمع أتباعهم ، حتى أصبحت أوربا كلها مجزرة بشرية ، ثم سرت منها العدوى إلى العالم كله بباعث الكره والبغض وحب الدم وحب الانتقام ؛ ثم تقام الصلوات من كل جانب لنصرة جانبه ، لا لنصرة الإنسانية وفكاكها من أسر الوحشية — إن العالم كله أصبح الآن ركاماً هائجاً ، والإنسان يُحصد حصداً بالملايين ، وكل يشعل النار ، وكل يحوّل ما وصلت إليه رماداً ، وكل يقلب الجمال قبحاً ، وتعاليم الدين الحاضرة عاجزة عن أن تقف عبثهم ، وتصد كيدهم .

إن مستقبل الدين لا لهذه التعاليم ، ولكن لتعاليم أخرى تتفق وروح الدين الأساسية ، تعاليم مؤسسة على الحق ، على أخوة الإنسان للإنسان ، وإن اختلف فى الجنس والدم واللغة والوطن والدين ؛ على انسجام الناس بعضهم وبعض ، وتبادل النافع ودفع الضار ، على عدم التحزب لأى جانب مادى ؛ على عدم استغلال رجال الدين لصالح السياسة والاقتصاد ، على عدم إشاعة الزمن فى بذر الحقود بين الشعوب لما بينهم من خلاف فى الإقليم ، أو فى العقيدة ، أو فى اللغة .

هذا هو الدين الذى سيسود الناس ، وهو الدين الذى ينسجم مع إرادة الله وفعله ، فهو خالق الناس جميعاً ، وهو واهبهم نعمه على اختلاف جنسهم وملتهم وألسنتهم وألوانهم ، مُجرى الهواء يستنشق منه الناس جميعاً ، ومُخرج النبات فى كل أرض يأكل منه الناس جميعاً ، ومُحرك الشمس والقمر والنجوم تبعث ضياءها وحرارتها على الناس جميعاً ، وواهب العقول والشعور والإرادة للناس جميعاً ، فما بال دين الله لا يتبع سنة الله ، فينشر بين الناس جميعاً الأخوة والمحبة والعدل والتعاون والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ؟

* * *

وتوقع متنبئون آخرون من الكتاب عكس ذلك تماماً .

قالوا : إن هذا التخريب فى العالم الذى لا حد له ، والضحايا بالملايين ، والويلات تصب على المحاربين وغير المحاربين ، والأيتام الذين فرّق الموت بينهم وبين آبائهم ، والمصائب التى لا يحصيها عد ، ولا تقف عند شكل دون شكل ، كل هذه ستثير الشكوك فى نفوس الناس فيصرخون من أعماق نفوسهم : « أين رحمة الله ؟ » وأين حبه لخلقه ؟ وأين الحكم العادل الذى يحكم به عباده ؟

ستهز هذه الأسئلة وأمثالها نفوس الناس فينكرون عقلاً مدبراً ، وتقدماً مستمراً ، وحاكماً يوجّه العالم لغاية ، وستبعث فى النفوس الشك الذى ينتهى إلى الإلحاد ، وسيزيدون إمعاناً فى المادية ، وسينصرف الجيل الجديد من الشبان — وقد رأوا هذه المناظر وسمعوا هذه الأقوال — عن أن يلتفتوا إلى بيوت العبادة أو إلى شعائر الدين ، وسيكون شعارهم : « دعنا نأكل ونشرب ، ونلهو ونلعب ، فغداً يطوينا الموت ، ويلفنا الفناء » وفى مثل ذلك يقول طرفة :

ألا أيهذا الزاجرى أحضرَ الوغى
وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

سيقولون : إن كان الله يحب خلقه فأين الحب والوالدان الشيخان العاجزان يفقدان أولادهم في هذه الحرب ، والفتاة الناضرة التي تستقبل الحياة تفقد زوجها ، والأم تفقد عائلها وحولها طفلها الرضيع وأولادها البائسون والأسرات لم تشترك في القتال تنزل عليها المدمرات فتأتي عليها ، فأين الرحمة ؟

وإن كان الله قادراً فلم لم يحبس الأرواح الشريرة في قمقم ؟ ولم لا يحصد أرواح باذري الشر والفساد ومثيري الفتن والحروب ، ويترك من عداهم فتستريح الدنيا ويسعد الناس .

من أجل هذا يتنبئون بكفر صارخ ، وإلحاد شامل .

***

ولكن ما أظن هذه النبوءة صحيحة ، فالإنسان من قديم يرى هذه الكوارث ، وتثور فيه هذه الشكوك ، وهو بعد لم يفقد إيمانه .

كل ما في الأمر أن الإنسان مع ما ناله من رقي في العقل والتفكير والشعور ، سيعدّل نظره إلى الله ، وبدل أن يفقد إيمانه لهذه الاعتراضات يصحح تصوّره لله ، ويتجلى له خطؤه في تصوره القديم .

إن منشأ الغلط في تصور الله على هذا النحو هو تشخيصه ، وإسباغ صفات عليه تشبه صفاتنا ، ونسبة عواطف إليه تشبه عواطفنا : من حب وكره وفرح وحزن ورحمة وانتقام . نعم قد وردت هذه الألفاظ في كتب الأديان ، ولكن ألجأها إلى ذلك قصور لغة الإنسان وعجزها عجزاً تاماً عن أن تصف ما لا يشبه الإنسان ومن ليس كمثله شيء ، فالله ليس مشخصاً ولا هو إنسان ، ولا له عواطف الإنسان ، ولا يحب ويكره بالمعاني التي يشعر بها الإنسان ، فإذا قلنا إنه يسمع ويرى فلسنا نعني أن له حواس كحواسنا ؟ وإذا قلنا يحب ويكره ، ويرحم وينتقم ، فلسنا نريد أنه يعتريه انفعال كانفعالنا ، ولكن هي اللغة العاجزة ، واللغة المحدودة بحدود الإنسان .

إن الله يحكم العالم ويدبره بقوانين عامة واسعة ، لا بأحكام جزئية ضيقة ؛ خلق الخلق وسيّره على قوانين عامة ، فمن اعترضها اكتسحته ؛ وضع هذه القوانين وهو عالم بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، وعالم بدنيانا ودنيا غيرنا ، وعالم بكوكبنا والكواكب الأخرى حولنا ، فمن ضيق النظر أن نطالب الله أن ينظر إلى جزئيتنا في بيتنا ، وإن تعارضت مع القانون الكلي . إن البستاني يقلم أشجاره ويقص حشائشه لأنه ينظر إلى البستان كُلّاً ، ولا اعتراض عليه إذ يضحي بالجزئي للكلي ؛ والأرض مرتبطة بالشمس والقمر ، ونبات الأرض مرتبط بحرارة الشمس ، ونمو الشاة متوقف على نمو النبات ، وحياة الإنسان مرتبطة بحياة النبات والحيوان ، وكل هذه مرتبطة بقوانين عامة ، وهذا ما أدركناه اليوم ، وما لم ندرك أكثر مما أدركنا ؛ أفليس يعدُّ من السخف أن نعترض على حادثة جزئية إذا كانت خاضعة لقانون عام يقرر المصلحة العامة ؟ أفليس من السخف أن نعترض على امتداد قضيب معين من الحديد بالحرارة ، وهناك قانون عام يقضي بتمدد الأجسام كلها بالحرارة ، وهذا القانون العام مرتبط بقوانين أخرى عامة مثله أو أعم منه ؟ فمن ينظر إلى موت ابنه وحده أو قتل أسرة بعينها أو موت ملايين من الناس في حرب من الحروب كمن يعترض على البستاني لتشذيب بستانه ، أو يعترض على تمدد حديدة بالحرارة ، نظرٌ جزئي ضيق يعترض على نظر كلي شامل . فما جيل بالنسبة لأجيال ؟ وما عشرة ملايين بالنسبة لملايين الناس ؟ وما الأرض كلها لسائر العوالم ؟ إن الناظر من سطح الأرض غير الناظر من قمة جبل ، غير الناظر من طيارة . إن النبتة تشكو الدودة وهي تمتصها ، والدودة تشكو العصفور

مكانة الأدب العربى

بين آداب الأمم

القصد من هذا المقال إلقاء نظرات عامة شاملة على الأدب العربى ، لنعرف حدوده وعمله ومكانته بين الآداب ووجهته ؛ فهو مقال يبغى الإحاطة لا التدقيق ، والإجمال لا التفصيل .

والنظر العام هو الذى يبين سير المعارف الإنسانية واتجاهها ، وهو الذى يهديها ويقوّمها . وربما يُعنى الباحثون فى علم بأقسام منه يتقسمونها فيما بينهم ، فلا بد لأعمالهم من باحث يصل بينها ويؤرخ سيرها ، ثم يأتى مؤرخ الحضارة فيصف سير المعارف البشرية على اختلاف فنونها ، ويأتى الفيلسوف فينظر إلى نتائج العلوم المختلفة وانتفاع الإنسان بها ، واستفادة الفكر البشرى منها ، فينظر نظرة عامة فى وجهة البشر واتجاه معارفه ، وهلم جرا . وربما تكون النظرة العامة أجدى على الإنسان وأكثر إدراكا لخطئه وصوابه من نظرات متعددة أطول منها وأدق وأعمق .

وهذه النظرات العامة إذا لزمت فى العلوم ذات القواعد ، فهى فى الآداب ألزم ، لأن الآداب ترجع إلى العاطفة والذوق ، وهما يختلفان بين أمة وأمة ، وجماعة وجماعة ، وفرد وفرد . ويجعلها فى الآداب ألزم كذلك أنّ الآداب إنسانية مصدرها الإنسان وهو منتهاها ، فهو أكثر تسلطاً عليها منه على العلوم الطبيعية — مثلا — التى تسير قوانينها فى الإنسان والجماد سواء ، والتى لا يستطيع الإنسان فيها خلقاً ولا تحويلا ، ولكنه يجتهد للاستفادة من قوانينها ونتائجها .

وقد قيل فى الأدب العربى إنه خلا من النقد العام الذى يحدّد له الغاية ويخط له الطريق ، ويُشغل أهله بالنقدات الجزئية

وهو يلتقمها ، والعصفور يشكو الصقر وهو يلتهمه ، والصقر يشكو الإنسان وهو يصيده ، والإنسان يشكو الموت يصيبه والله من ورائهم محيط ، لأنه أعلم بقوانينه الواسعة الشاملة .

إن الله ليس من صفاته الرحمة فقط ، بل هو أيضاً عادل حكيم منتقم ، له كل هذه الصفات وأكثر منها ، ولكل صفة مظهرها وتصرفاتها ، فمن الخطأ أن نقاس كل المظاهر بالحب وحده ، أو الرحمة وحدها .

إن للعالم غاية دبرها عقله ، فلا بأس بالضحايا مهما كثرت للوصول إلى غايته نزولا على القوانين العامة التى تحكم العالم .

ولعل من قوانينه العامة منح الإنسان حريته فى الإرادة ، والجزاء الطبيعى الذى تنتجه أعماله ، ومسئولية الإنسان عن أخيه الإنسان ، كما تسأل خلية الجسم عن سائر الخلايا — إذن فلا حق من الشكوى ما دام هذا هو القانون العام الذى يتعادل مع قوانين العالم العامة .

* * *

وبعد ، فلماذا لا تكون النبوءة أن هذه الحرب بويلاتها تعمم فى الإنسان هذه الآراء ، فيعدّل من نفسه حسب القوانين العامة التى بثها الله فى العالم حتى يلائم بينه وبينها ، وينسجم معها ، ويشعر بالعقوبة الطبيعية فيتجنب إحداث الجرائم ، ويغير ما بنفسه من غرور بالقوة ، واعتماد على المادة بعد أن تبين الفشل فى الاعتماد عليها ، ويصحح تصوره لله حسبما أشرنا ، فيرى أن الموت إن كان يبعث الحياة فهو خير ، وأن العقوبة إذا أصلحت الجانى فهى رحمة وهى حب .

نحن إلى هذا أميل ، والله بالمستقبل عليم .

* * *

وإلى هنا تنتهى أحاديثنا فى رمضان ، وكل عام والقراء بخير .

أحمد أمين

الضيقة التي ترجع إلى لفظ أو جملة أو بيت أو قصيدة .

من أجل هذا آثرت أن أجعل موضوع هذا المقال « مكانة الأدب العربي بين آداب الأمم » ، أريد بهذا أن ألقى نظرات شاملة على أدبنا أو الجوانب التي تستبين لنا منه ، وأدعو أدباء العربية إلى مثل هذا لنتبين مكان أدبنا بين آداب البشر ، ونصيبه في تثقيف الإنسان ، وقيمته بين الآداب المختلفة .

وقد جعلت البحث قسمين : الأول قياس أدبنا في زمانه ومكانه بالآداب الأخرى وتعرّف الصلات بينه وبينها . والثاني تعرّف موضوعات أدبنا وطرائقه في معالجة الموضوعات ، وتبيّن مزاياه وعيوبه بالقياس إلى الآداب الأخرى ، ثم تعرّف وجهته في العصر الحاضر ، وكيف يجب أن يوجّه .

— ١ —

الأدب العربي أوسع ما نعرف من الآداب مكاناً ، وأطولها زماناً ؛ فأما المكان فهو الجزيرة العربية والعراق والشام ، ومصر والسودان ، وبلاد المغرب كلها ، وما يليها من الصحراء ، والسودان الغربي ، والأندلس ، ولا ننسى بلاد الفرس والترك (إيران وتركستان) ، فقد كانت موطناً للأدب العربي يُنشئه العرب والمستعربون فيها حقباً طويلة ؛ ولا يخالف التاريخ أن نعد بعض أرجاء أفغانستان والهند من مواطن الأدب العربي كذلك — والهند اليوم موطن علماء وأدباء يكتبون بالعربية ، ويجهدون في نشر معارفها .

فما بين زمخشر ، إحدى قرى خوارزم ، بلد الزمخشري ، صاحب الأساس والمفصل ، والمستقصى ، وديوان الأدب ، والمقامات ، إلى بُست ، بلد أبي الفتح الشاعر ، إلى شنتمر وبطليوس بلد الأعلم الشنتمري وابن السيد البطليوسي ، إلى شنقيط غربيّ الصحراء الكبرى الأفريقية ، إلى زيلع في السودان الشرقي — كل هذا موطن للأدب العربيّ في كل عصوره أو بعضها .

وأما الزمان فما بين امرئ القيس إلى يومنا هذا ، خمسة عشر قرناً أو تزيد ، أنشئ فيها الأدب العربيّ بلغة واحدة ونحو واحد ، حتى ليقرأ شعر امرئ القيس لناشئة المدارس اليوم مع شعر المعاصرين من الشعراء ، ولا نعرف في آداب الأمم أدباً اتسعت مواطنه هذا الاتساع ، أو امتد زمانه هذا الامتداد . ونحن حين نبتدئ بامرئ القيس لا نعني نشأة الأدب العربي ، ولكن مبلغ علمنا بتاريخه .

الآداب الأوربية الحديثة كلها تؤرخ بالعصر الذي يسمونه عصر النهوض ، ولا يزيد أطولها عمراً على خمسة قرون ؛ وقد اختلفت اللغة والقواعد اختلافاً ما أثناء هذه القرون القليلة .

والأدب الفارسي نشأ في حضانة الأدب العربي منذ عشرة قرون ؛ والآداب التركية الغربية ، أي العثمانية ، نستطيع أن نؤرخ نشأتها بالقرن الثامن الهجري ؛ والآداب التركية الشرقية ، آداب لغة جغتاى وما يتصل بها ، يمكن أن تؤرخ بالقرن التاسع ، عصر الرجل العظيم ، والشاعر النابغة مير علي شير نوائي ؛ على أن هذا الرجل الذي فتح الطريق لم يخلفه شاعر أو كاتب يُعبّد الطريق التي خطها لأبناء لغته .

والأدب الأردي ، أو الهندستاني — وهو أوسع الآداب الهندية انتشاراً اليوم — أحدث عهداً من الآداب التركية ، وعصر ازدهاره لا يزيد على قرن ونصف .

وعلى قدر اتساع زمان أدبنا ومكانه يعسُر جمعه ونشره ونقده ، فما يزال كثير من تراثنا الأدبية مجهولاً ، وكثير مما عرف لم ينشر ، وكثير مما نُشر لم يرتّب ولم ينقد . فما بين أيدينا من آثار أدبائنا ضئيل بالقياس إلى ما حدثنا عنه الرواة ولم نظفر به ؛ وهذا أبو العلاء المعري عاش في سرّة البلاد العربية وفي عنفوان التاريخ العربي ، ونال من النباهة حظاً موفوراً ، ولا تزال أكثر آثاره مجهولة ،

وهذه مصر لم تنشر، على كثرة ما نشرت، جزءاً من عشرين من الآثار الأدبية المصرية بله الآداب العربية كلها.

أرى أن علمنا بأدبنا وتاريخه قليل، وأن أمامنا سنين من الدرس والجهد قبل أن نبلغ ما نريد من العلم بأدبنا وتاريخه.

— ٢ —

اتصال الأدب العربي بالآداب الأخرى

قوة الحياة في الأحياء تعرف بمقدار ما تؤثر فيما حولها وتتأثر به، وبمقدار دفعها عن نفسها وتسلطها على غيرها. وكمال الإنسان يبين في اتصاله بمن حوله وإفادته واستفادته وأخذه وإعطائه. وكذلكم الآداب تقاس حياتها وقوتها وكمالها بمقدار ما تأخذ من غيرها وتعطي غيرها، ثم بمقدار نقدها وتمييزها بين ما يؤخذ وما يرد، وما يستحسن وما يستقبح، وبمقدار دفعها عن خصائصها وتأثيرها في غيرها.

وقد كان للأدب العربي من القوة والمكانة ما حفظ خصائصه على مر الدهور، ومكّنه من الاستفادة من الآداب الأخرى والتأثير فيها آثاراً مختلفة. ولكن ينبغي أن يقال إن سنن الأدب العربي استحكمت ورسخت منذ العصر الجاهلي، وأن هذا الأدب، كأهله، اعتز بنفسه واعتدّ وزُهي، فكان من قوة السنن ومن الإعجاب ما صدّه أن يأخذ من آداب الأمم وأن يغيّر من سيرته كثيراً. وهذا يصدق على الشعر أكثر من النثر، لأن طرائق الشعر الجاهلي كانت أبين وأرسخ، ولأن الاعتداد به كان أشدّ.

إذا نظرنا إلى تاريخ الأدب العربي في صلاته بالأمم الأخرى خلصنا بهذه النتائج المجملة، في صلاته بالآداب الآتية:

آداب اللغات السامية، والآداب الشرقية القديمة والآداب الإسلامية، والآداب الأوربية القديمة والحديثة.

١ — فأما آداب اللغات السامية فقد أخذت من الأدب العربي كثيراً في قواعدها وأساليبها، فوضع النحو السرياني على نسق النحو العربي، واجتهدت اللغات السامية التي عاشت أيام العصور الإسلامية في مسايرة الأدب العربي على قدر طاقتها، وحسبي أن أنقل هنا كلمة للدكتور إسرائيل ولفنسون الذي كان زميلاً لنا في الجامعة المصرية: «على أن الأدب الإسرائيلي في القرون الوسطى قد انتعش انتعاشاً عظيماً، ونهض نهضة قوية، واتجه اتجاهاً جديداً في ظل الحكم الإسلامي بالأندلس ومصر والعراق. فقد أخذ اليهود في تلك العهود يقلدون العرب في الشعر، فاقتبسوا البحور العربية وصاغوها في قالب عبري ووزن عبري، ثم انطلقوا ينشدون المقاطيع والقصائد حتى أثريت العبرية بهذا النوع من الشعر الجديد، ونبغ فيه كثير من اليهود.

ومن أشهر هؤلاء الشعراء يهودا هالوي، وابن جبيرول، وموسى بن عزرا، وهم من يهود الأندلس.

وكذلك ظهرت أساليب جديدة في النثر العبري الفلسفي والتشريعي، إذ كان قد تأثر بالأساليب العربية، واقتبس اليهود فيه كثيراً من الاصطلاحات والألفاظ العربية.

وقد عرف اليهود للحضارة العربية فضلها عليهم، بعد أن انحطت في الشرق والمغرب، فصانوا كثيراً من المصنفات الفلسفية من الهلاك والضياع، وترجموا منها ما استطاعوا إلى اللغات الإفرنجية، وحافظوا على عدد كثير من الكتب العربية المكتوبة بحروف عبرية».

وقد أطلعت على ديوان لبعض شعراء السريان له مقدمة عربية بيّن كاتبها كيف حاكى الشاعر الأساليب العربية، وجارى الحريري في كثير من صناعاته اللفظية، وأثبت أن السريانية قادرة على مجاراة العربية في كثير من فنونها الأدبية.

ب — الهند

كان بين العرب والهند صلات تجارية قبل الإسلام، وكانت تجارة الهند أيام السبئيين والحميريين تنقل من سواحل الجزيرة الجنوبية إلى البحر الأبيض من الطريق البرية التي تخترق اليمن والحجاز وتمر بمكة. ثم عدل منها إلى الطريق البحرية في البحر الأحمر قبيل الميلاد، وكان لهذا أثر في اضمحلال الدولة السبئية، ولكن بقيت صلات بين الهند

والجزيرة إلى العصر الإسلامي حتى كانت الأُبُلّة في صدر الإسلام تسمى ثغر الهند .

وفتح المسلمون السند سنة ٩١ فزاد الاتصال بين الهند والبلاد العربية ، واستوطن كثير من السند البصرة على مر الزمان ، حتى قال الجاحظ : لا تجد في البصرة صيرفيا إلا وصاحب كيسه سندي . وقد نشأت البلاد العربية علماء من أصل سندي منهم أبو عطاء السندي الشاعر الذي عاش في العصرين الأموي والعباسي ، وابن الأعرابي الإمام اللغوي الكبير . وكذلك انتشر الإسلام في السند وسرت المعارف العربية الإسلامية إليها ، وبنى المسلمون في الهند مدناً عدة .

واستمرت السند إسلامية حتى فتحت الهند منذ القرن الرابع على يد السلطان محمود الغزنوي ، والدول الإسلامية التي نشأت في الهند أو وفدت عليها من الغرب .

ولما استبحرت المعارف الإسلامية أيام العباسيين اطلع علماء المسلمين على معارف الهند ، وترجمت بعض كتبهم في الطب والفلك والرياضة ، وعرف كثير من عقائدهم ودخلت في مجال الجدل بين علماء المسلمين ، وتسرب رأيهم في التناسخ وغيره إلى بعض الفرق الناجمة في العالم الإسلامي .

وذكر علماء العرب الهند في عداد الأمم ذات الحضارة والصناعة والفلسفة . ثم زادت معرفة العرب بالهند وعلومها من بعد على الشاكلة التي نجدها في كتاب المسعودي وأبي الريحان البيروني الذي تعلم اللغة الهندية ودرس عقائدها وعلومها درس الخبير .

ولا ريب أن هذا كان له أثر في المعارف الإسلامية ؛ وبيِّنٌ ما بين معارف أمة وبين أدبها من صلة ، ولكن الذي يعنينا هنا هو أثر الهند في الأدب العربي بمعناه الخاص أعني الشعر والنثر .

وقد وجدنا في كتب العرب ذكر البلاغة الهندية :

روى الجاحظ في البيان والتبيين عن أبي الأشعث معمر قال : قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيي بن خالد أطباء الهند : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة ، فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها . قال أبو الأشعث : فلقيت بهذه الصحيفة التراجمة فإذا فيها : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش الخ .

وقاس التنوخي في نشوار المحاضرة بلاغة الهند ببلاغة العرب وقال : إن بلاغة الهند مسهبة وبلاغة العرب موجزة وضرب مثلاً لهذا .

والحق أن هذه النتف وأمثالها لا تدل على اطلاع العرب على الأدب الهندي اطلاعا يؤثر في الآداب العربية ، ولكن الأثر الذي لا مرية فيه هو أثر كتب القصص والأسمار الهندية في النثر العربي ، ولا سيما القصص وما إليها . وحسبنا كتاب كليلة ودمنة ، وهو هندي الأصل نقل إلينا عن الفهلوية . وقد عد صاحب الفهرست محمد بن إسحاق النديم كتباً كثيرة مما ترجم عن الهند في موضوعات شتى ، منها كتب في الأسمار والخرافات ، وكتب في الأدب مثل كتاب شاناق الهندي ، وكتاب أدب الهند والصين ، وكتاب الجواد والبخيل والاحتجاج بينهما وقضاء ملك الهند في ذلك ؛ وهذه التي قال فيها الجاحظ في البيان والتبيين : إن للهند معاني مدونة ، وكتبا مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ، فهي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة .

كان لهذه الكتب وأمثالها أثر في كتب الأدب والسياسة والأساطير التي زخرت بها اللغة العربية .

وأما أثر الأدب العربي في الآداب الهندية ، فلا أجد أدلة عليه إلا ما نراه في آداب الهند الإسلامية وأعظمها الآداب الأردية ، وسنذكرها حين الكلام على الآداب الإسلامية .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

الشعراء النقاد

نشر زميلنا الأستاذ محمد خلف الله مقالاً بهذا العنوان فى مجلة « الثقافة » (عدد ١٩١) ؛ وقد وجدت فيه آثار واضحة لمنهج عام فى دراسة الأدب ونقده لمسته غير مرة فى أوساطنا الجامعية وغير الجامعية . ولما كنت أخشى أن يصيب حياتنا الأدبية بالعقم ، فإنى أبادر إلى مناقشته .

ولباب هذا المنهج كما نستخلصه من مقدمة المقال هو الدعوة إلى نقد تقريرى يقوم على أسس من علوم الجمال والنفس والتاريخ والاجتماع ، وهذا ما يفعله الآن بعض الأساتذة الذين يظنون أن الأدب يمكن أن يجدد فهمنا له أو دراستنا لنصوصه بإقحام هذه العلوم وغيرها فيه ، وهذا فى الواقع ليس تجديداً ، بل قتلا للأدب وإضلالاً للمتأدبين ، وهو بعد ليس اتجاهاً جديداً ، فقد سمع عنه العرب بلسان قدامة بن جعفر ، وعرفته أوربا فى قرن الفلسفة ، القرن الثامن عشر ، وقد فطن لخطئه معاصرو قدامة واللاحقون له، وفى مقدمة « أدب الكاتب » لابن قتيبة أقوى رد عليه .

ولقد عادت أوربا من ضلالها وأصبحت اليوم تؤمن — عن حق — بأن لكل علم مناهجه ، وأن أى علم لا يمكن أن ينمو إلا إذا كان نموه ذاتياً ومن داخله ، وأنا أعتقد أن الاتجاه الذى يدعو إليه الأستاذ خلف الله محنة ستنزل بالأدب ، لأن معناه الانصراف عن الأدب وتذوق الأدب وفهم الأدب ، والفرار إلى نظريات عامة لا فائدة منها لأحد .

النقد هو فن دراسة النصوص الأدبية ، والتمييز بين الأساليب المختلفة ، وهو لا يمكن أن يكون إلا موضعياً ، فهو إزاء كل بيت من الشعر ، بل إزاء كل لفظة ، يضع الإشكال ويحله . النقد وضع مستمر للمشاكل ، والصعوبة هى فى رؤية هذه المشاكل ، وهى متى وضعت وضح حلها لساعته ، والذى يضع المشاكل الأدبية ليس علم الجمال ولا علم النفس ولا أى علم فى الوجود ، وإنما هو الذوق الأدبى ، وهذا شىء ليس له « مرجع يرجع إليه » .

وأسارع فأقول إن الذوق ليس معناه ذلك الشىء العام المبهم التحكمى ، وإنما هو ملكة إن يكن مردها ، كشكل شىء فى نفوسنا ، إلى أصالة الطبع ، إلا أنها تنمو وتصقل بالمران . وعند ابن سلام الجمحى وعند الآمدى فى ذلك صفحات يجب أن نتدبرها . يقول ابن سلام : « قال قائل لخلف إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك . فقال له : إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته فقال لك الصراف إنه ردىء، هل ينفعك استحسانك له ؟» .

وإذاً فلكى يصبح النقد الذوقى لا بد له من دربة ، وفى هذا يقول ابن سلام أيضاً : « للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم ، والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما يثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا حس ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها . الخ

ويضيف ذلك الناقد العربى الكبير هذه الحقيقة الرائعة : « إن كثرة المدارسة لتعدى على العلم » ، وهذا الكلام الذى قاله ابن سلام منذ قرون هو آخر ما انتهى إليه الأوربيون فى حقيقة النقد الأدبى ، ولنستمع إلى لانسون Lanson عميد النقد الموضوعى فى فرنسا المعاصرة : « وإذا كان النص الأدبى يختلف عن الوثيقة التاريخية بما يثير لدينا من استجابات فنية وعاطفية ، فإنه يكون من الغرابة والتناقض أن ندل على هذا الفارق فى تعريف الأدب ثم لا نحسب له حساباً فى المنهج . لن نعرف قط النبيذ بتحليله تحليلا كيماوياً أو بتقرير الخبراء دون أن نذوقه بأنفسنا ؛ وكذلك الأمر فى الأدب فلا يمكن أن يحل شىء محل « التذوق » ، وإذا كان من النافع لمؤرخ الفن أن يقف أمام « يوم الحساب » أو « حلقة الليل »[1] ولم يكن

(١) لوحتان زيتيتان .

ثمة وصف فى قائمة أو تحليل فنى يستطيع أن يحل محل إحساس العين . فكذلك نحن لا نستطيع أن نطلع إلى تعريف أو تقدير صفات مؤلف أدبى أو قوته ما لم نعرض أنفسنا أولا لتأثيره تعريضاً مباشراً ، تعريضاً ساذجاً » .

أليس هذا ما قاله ابن سلام ! ولقد عاد الآمدى أكبر نقاد العرب وأصدقهم ذوقاً إلى تنبيه هذه الحقائق فى الموازنة وفيها يوضح كيف أنه سيعلل أحكامه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم يرشدنا إلى أنه سيبقى « ما لم يمكن إخراجه إلى التبيان ولا إظهاره إلى الاحتجاج ، وهى علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة ، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته » ، وهو يحكى عن إسحق الموصلى أن المعتصم سأله يوما : أخبرنى عن معرفة النغم وبينها ، فأجاب إسحق : « إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة » ، وفى الأدب أشياء كثيرة شأنها شأن النغم يحيط بها الذوق ولا تؤديها الصفة . ويضيف هذا الناقد المقطع النظير : « ليس فى وسع كل واحد أن يجعلك أيها السائل المتعنت والمسترشد المتعلم فى العلم بصناعته كنفسه ، ولا يجد إلى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومن هو أخص الناس به سبيلا ، ولا يأتيك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة » .

وهنا قد يعترض المعترضون بأن هذا الكلام يفتح الأبواب للتحكم ، والأذواق متباينة ، وما إلى ذلك من الكلام الطويل الذى نعرفه جميعاً ، وقد لا كه علماء الجمال والنفس حتى ملناه ، ولقد يضيفون : وهذا يتنافى مع الروح العلمية التى يجب أن تسود أبحاثنا اليوم . وأنا أترك لكبير الدعاة إلى المذهب العلمى الموضوعى فى النقد مهمة الرد . قال لانسون : « إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمى هى إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا لكى ننظم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشىء الذى نريد معرفته ، فإننا نكون أكثر تمشياً مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثرية Impessionisme فى دراستنا وتنظيم الدور الذى تلعبه فيها ؛ وذلك لأنه لما كان إنكار الحقيقة الواقعة لا يمحوها ، فإن هذا العنصر الشخصى الذى نحاول تنحيته سيتسلل فى خبث إلى أعمالنا ويعمل غير خاضع للقاعدة . وما دامت التأثرية هى المنهج الوحيد الذى يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها ، فلنستخدمه فى ذلك صراحة ، ولكن لنقصره على ذلك فى عزم ، ولنعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحده ، وهذه هى الشروط الأربعة لاستخدامه . ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس ، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة » . وهذا كلام صادق عميق ، فالذوق الذى نقول به ليس ذلك الذوق النظرى الذى يتحدث عنه الفلاسفة ، وإنما هو الذوق الأدبى ، ذلك الذى يرى أن أبا تمام عندما يصف امرأة « بأنها مفطومة الخدين بالورد » قد أتى كما يقول الآمدى « بالحمق أجمعه » . والذوق خير وسائل المعرفة على أن يكون ذوقاً مدرباً ، وأن نأخذه بالمناقشة والتعليل ، حتى بعد أن يتم تكشفه . ولكم من مرة يصدق الذوق ويبطل التعليل ، وهذا عند الآمدى كثير الحدوث . ولكم من مرة يستقيم التعليل ثم يخطئ الذوق ، كما نرى عند ابن قتيبة ، ومع ذلك فالذوق الذى يعتد به هو الذوق المعلل فى حدود الممكن ، وإن كان ثمة أشياء « لا تؤديها الصفة » .

واعتراض آخر قد يراه البعض ، وهو : ينظر فيرى أن الإنسانية قد تقدمت ، وأن كل شىء قد أصبح اليوم خاضعاً لمنهج العلوم الطبيعية الدقيق ، وها هو علم الجمال وعلم النفس وعلم الاجتماع تجرى فيها التجارب والأبحاث ، وتدون النتائج وتستنبط القوانين ؛ فما بالنا لا نستفيد فى دراسة الأدب من كل ذلك ، بل ما لنا لا نجعل من النقد هو الآخر علماً له معادلاته ومبادئه ، وذلك أملا فى إكسابه ثبات المعرفة العلمية وتجنب ما فى تأثرات الذوق من تحكم ، وما فى الأحكام الاعتقادية من مسلمات غير ثابتة . وهنا أيضاً أترك الرد للانسون ، حتى لا يتساءل صديقنا الأستاذ خلف الله مرة أخرى عن المراجع .

يقول لانسون : إن « التجربة قد حكمت بفشل تلك المحاولات » ، ويضيف « واستخدام المعادلات العلمية فى أعمالنا بعيد عن أن يزيد قيمتها العلمية ، وهو على العكس ينقص منها ، إن تلك المعادلات ليست فى الحقيقة إلا سراباً عندما تعبر فى دقة جامحة عن معارف غير دقيقة بطبيعتها ومن ثم تفسدها فلنحذر الأرقام . الرقم لا يمحو القصاص والعالم فى تأثرنا بل يستره ، وكل من له أقل دراية بفن الكتابة يستطيع أن يجد فى اللغة العادية الوسائل التى يوضح بها الفارقات الدقيقة التى بدونها لا نصل فى دراساتنا إلى صواب ، وتلك الفارقات لا تخضع للأرقام » . ويستمر لانسون فى توضيح تلك الفكرة الهامة فى صفحات كنت أرجو أن أنقلها كلها إلى القارئ ، فعنده « أن الاصطلاح العلمى عند ما ننقله فى الأدب لا يلقى غير ضوء كاذب . بل قد يحدث أن يلقى ظلمة [1] . وأسمى فى الروح العلمية موقف أولئك الأدباء الذين لا يدعون بناء أى شىء على أنموذج غيره ، بل يقصرون همهم على رؤية الوقائع الداخلة فى مجال بحثهم ، والعثور على العبارات التى لا تخلف شيئاً خارجاً عنها ولا تضيف إليها إلا أقل ما يمكن . . . والشىء الذى يجب أن نأخذه عن العلم ليس كما قال فردريك رو هذه الوسيلة أو تلك ... بل روحه » .

ويعلق لانسون على أقوال رو فيقول : إن ما نستطيع أن نأخذه عن العلماء هو النزعة إلى استطلاع المعرفة والأمانة العقلية القاسية والصبر الدؤوب ، والخضوع للواقع والاستعصاء على التصديق ، تصديقنا لأنفسنا ، وتصديقنا للغير ، ثم الحاجة المستمرة إلى النقد والمراجعة والتحقيق . وأنا لا أدرى أنعلم ما سنعمله عندئذ أم لا ، ولكنى على ثقة من أننا سنعمل خير تاريخ أدبى ... وإذا فكرنا فى مناهج العلوم يجب أن يكون ذلك لإثارة ضمائرنا أكثر من أن يكون لبناء معارفنا » .

هذه هى أقوال لانسون وهى عندى تفصل فى الخصومة فصلا نهائيا . فالذى نستطيع أن نأخذه عن العلوم سواء فى ذلك العلوم الطبيعية أو العلوم النفسية التى أصبحت اليوم تصطنع مناهج العلوم الطبيعية كما هو معروف — هو روحها ، وأما أن نأخذ عنها مبادئ وآراء وقوانين فهذا خطأ بل كارثة على الأدب ، وكلنا لا ريب يذكر أقوال قدامة عند ما رد الرثاء إلى المدح مع فارق كان ويكون وجعل الهجاء نقيض المدح ، وحصر الصفات التى يمدح بها فى (العقل والشجاعة والعدل والعفة) وما إلى ذلك من سخافات يسمونها فلسفة . وأنا إذ أقاوم بكل قوتى هذا الاتجاه الذى يصدر عنه الأستاذ خلف الله لا أدعو إلى الكسل أو إلى إهمال أبحاث علماء النفس والجمال والاجتماع . فهذه أشياء أسمنا فيها جزءا كبيراً من شبابنا وهى لا ريب تفتح آفاقا للتفكير ، وقد تزيدنا بالإنسان معرفة ، ولكنى أقول إنها غير الأدب ، وإنه لا يجوز أن نظن أننا سنجدد الأدب فى شىء عندما نقحمها فيه . وخير عندى من كل هذا أن تناقش قصيدة شعر أو رواية ، وإنى لمؤمن إيمانا لا يتزعزع بأنه من الأجدى على أستاذ الأدب أن يناقش أمام طلبته أو يعرض على قرائه مناقشة نص أدبى يقف عند تفاصيله ويظهر ما فيه من أن يشرح لهم فى ستين أو فى مئات الصفحات نظريات علم النفس أو علم الجمال ، فهذه لن تكون إدراكا أدبيا ، هذه لن تصقل ذوقا ولن ترهف حساً ، وتلك هى ملكات الأدب التى يجب أن ننميها وأن نتعهدها . يجب أن نحبس أنفسنا فى الأدب وأما الفرار إلى غيره فلا .

وليس أدل على صحة ما أقول به من وجوب قصر المشتغلين بالأدب جهدهم أو على الأقل معظمه على دراسة النصوص الأدبية ذاتها بدلا من محاولة إدخال الفلسفة على

(١) أضرب لذلك مثلا كلمة السيكولوجية التى يستخدمها الأستاذ خلف الله بحيث لا أذكر أن مقالا واحدا من مقالاته قد خلا منها ، وأنا لا أفهم السر فى استخدامه لها عند ما يقول مثلا سيكولوجية الحجاج أو سيكولوجية زياد بن أبيه . إذا ترجم إلى العربية اصطلاحه فيكون « علم نفس الحجاج » و « علم نفس زياد بن أبيه » والحجاج وزياد ليس لهما علم نفس ، وإذا كانت لهما — رحمهما الله — عقلية أو نفسية ، أو إن شئت فقل مع المرحوم طه ابرهيم « دخنية » . أليس فى سيكولوجية ما يلقى ظلمة وإن ألقى ضوءا فضوءا كاذباً !! .

الأدب ، ونضيع وقتنا فى ذلك ، من كلام الأستاذ خلف الله نفسه ، فنظرته إلى النقد كشىء يقوم على الروية ويخالف الخلق الفنى ، وظنه أن الشعراء والكتاب لا يشتغلون بالنقد ولم يشتغلوا به ولا وضعوا نظريات عامة فيه ، وأنه لا بد للناقد من أن يكون لنفسه أولا فكرة أساسية فى الأدب والفن — كل هذا كلام مردود وخطر ، وذلك لأن ما فيه من حقائق تاريخية غير صحيح ، وما فيه من آراء شخصية للزميل الفاضل لا أراه مصيباً فيه .

فأما ملاحظته « عن قلة عدد الشعراء الذى يعنون بالناحية النقدية من فنهم » فهذا غير صحيح فى « مختلف الآداب العالمية » وأنا لا أدرى كيف يقال قول كهذا .

والناظر فى تاريخ الآداب يجد نوعين من النقد : نقد نسميه وصفياً ، ونعنى به نقد النقاد المحترفين الذين درسوا مؤلفات الكتاب والشعراء الآخرين ليستنبطوا حقائقها وليصفوها لغيرهم ، وهذا النقد قد ابتدأه اليونان وبخاصة أرسطو فى كتابيه « الخطابة » و « الشعر » وأنا لا أقول إن أرسطو كان كاتباً أو شاعرا ، ولكن ما الرأى فى « هوراس » الشاعر اللاتينى الشهير . ألم يكتب « فن الشعر » وهى قصيدة طويلة تزيد على الثلثمائة بيت فى فنون الشعر المختلفة وأصول كل فن ومن تميز فيه ؟ وما الرأى فى بوالو الشاعر الفرنسى الشهير أيضاً وقد وضع « فن الشعر » كما فعل هوراس ؟ بل ما بال الأستاذ خلف الله يظن أن « الشعراء القدامى » عند العرب لم يتناولوا النقد إلا فى بيت للبحترى وبيت لأبى نواس ، مع أن لأبى تمام أيضاً بيت يقول فيه « إن الشعر صوب العقل » ، وهذا يحدد مذهبه ، بل دعنا من البحترى وأبى تمام ثم لننظر إلى أبى نواس وفى معظم خمرياته وغزله نقد لمذاهب القدماء . إن الأمر عند أبى نواس ليس أمر بيت من الشعر بل أبيات بل عشرات الأبيات إن لم يكن مئات الأبيات .

ومع هذا نسلم مع الأستاذ أن « الشعراء القدامى » عند العرب فيما عدا أبى نواس لم يفتنوا فى سبيل مذاهبهم الأدبية ، لأن هذه المذاهب لم تكن قد اتضحت بعد ولا تنوعت . ولكن ما الرأى فى شاعر كابن المعتز ، ألم يكتب فى النقد « كتاب البديع » الذى يجمع بين علم البيان وفن النقد ؟ ألم يكتب فى « سرقات الشعراء » ؟ ألم يضع الشعراء فى طبقات فى كتابه « مختصر طبقات الشعراء » ؟ ثم ما الرأى فى أبى العلاء صاحب « ذكرى حبيب » و « عبث الوليد » و « معجز أحمد » ثم « رسالة الغفران » ؟ وهب أن كتب ابن المعتز قد ضاعت ، ولكن أليس لدينا « كتاب البديع » وهب أن كتب أبى العلاء كان يغلب فيها الشرح على النقد وأنها قد ضاعت أيضا ولكن أليس لدينا فى رسالة الغفران نقد من خير ما خلف « الشعراء القدامى » ؟!

ولنترك القدامى لننظر فى المحدثين فى الشرق والغرب وكلنا يعلم أنه منذ القرن السادس عشر أى منذ البعث العلمى كان الشعراء والكتاب هم طليعة النقاد وخير النقاد وقد جمع بين ما نسميه بالنقد الإنشائى وبين النقد الوصفى التى عرفناه فيما سبق . ومن منا لا يذكر شكسبير فى « هملت » وجيته فى « الشعر والحقيقة » وموليير فى « نقد مدرسة النساء » وكورنى فى « مقالاته السبع عن التراجيديا » ، وبودلير فى « الفن الرومانتيكى » وفكتور هيجو فى « مقدمة كرومويل » وشلى فى « الدفاع عن الشعر » ووردزورث فى « مقدمته » ، وفاليرى فى « متفرقاته » ودانتى فى « اللغة العامية » وديهامل فى « دفاع عن الآداب » .

بل إنى لا أعرف أو لا أكاد أعرف كاتبا أو شاعرا لم يكتب ويتحدث فى النقد . وهل يظن الأستاذ خلف الله أن أحداً يستطيع أن يكون شاعراً أو كاتباً مجيداً إلا أن يكون ناقدا ليبدأ بنقد ما يكتبه ووزنه جملة جملة وحرفاً حرفاً ؟ وهلا يرى معى الأستاذ أن كل الفارق بين القدامى والمحدثين هو أن القدامى كانوا ينقدون أنفسهم أو غيرهم دون أن يشعروا بالحاجة إلى كتابة ذلك ، وأن المحدثين ينقدون ثم يدونون لتبصير جمهور القراء بحقائق الأدب . ثم من قال إن « النشاط الفنى فيض حيوى

متعلق بأبي الوقوف حتى يصل إلى غايته من التصوير أو الإبداع ، وإن النشاط النقدي حركة قائمة على الأناة والروية تمضي — بالضرورة — بتسلسل الفكرة وإحكام حلقاتها » . هذا كلام رجله نحن ولم يقل به أحد ، لا من الأدباء ولا من علماء الجمال والنفس أنفسهم . وأما الخلق الفني والنشاط النقدي كلاهما « صناعة كسائر الصناعات » لابد فيها من روية وإمعان وتسلسل وإحكام حلقات . وأما لا أؤمن بشيء اسمه الإلهام والوحي والعبقرية وإنما أعرف « التثقيف وإبداع الصناعة » وتقدما نكتب والجهد وطول المران . وهذه كلها حقائق سبق أن قلتها وسأقولها دائماً لأنها الحق .

« قال أبو عمر الجاحظ . طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فألفيته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فرأيته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات » . فلله در أبي عثمان لقد غاص على سر الشعر واستخرج أدق من الشعر . وفي هذا أنقل ما حدث محمد ابن يوسف الحمادي قال : حضرت مجلس عبيد الله بن طاهر وقد حضره البحتري فقال : يا أبا عبادة ، مسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس .. فقال له عبيد الله : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا فقال : « أيها الأمير . ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه » .

بذا يتحدث الصاحب بن عباد في رسالته عن « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » (ص ٤ ، ٥) ومنه نرى أن القدامى قد فطنوا إلى أن النقد شيء مستقل عن كل علم آخر ، وأن قوامه الذوق ، وأن أقدر الناس عليه هم الشعراء والأدباء .

فما بالنا إذاً نترك كل هذه الحقائق الرائعة التي خلفها لنا أجدادنا ، ثم نروح نحاول بعث مذهب سقيم كمذهب الأصمعي قدامة .

إن مذهب الأستاذ خلف الله ومن يرى رأيه سينتهي بنا إلى قتل الأدب ، والأدب لا يمكن أن نجدده ونوجهه ونحييه إلا بعناصره الداخلية ، عناصره الأدبية البحتة ، وهذا ما يجب علينا جميعاً أن نجاهد في سبيله . إنه لوهم بعيد أن نظن في علم النفس أو في علم الجمال أو غيرهما من العلوم كثير فائدة للأدب . يجب علينا أن نعرف كل تلك الأبحاث ، ولكن على أن نحتفظ بتلك المعرفة لأنفسنا لا نزج بها في الأدب وإلا كنا مفلسين نوهم الغير ببريق كاذب .

ولقد كتب الأستاذ خلف الله نفسه عن « الذاتية والموضوعية في الفن » بالثقافة منذ أعداد ، فإذا أقاد الأدب من ذلك . وأنه لأجدى علينا أن يحلل لنا الأستاذ نصاً تذوقه ونحس في ثنايا تحليله أنه يعرف الذاتية والموضوعية وما إلى ذلك معرفة تغني تحليله من الداخل ، ولكن لا تخفقه ولا تتلفه ولا تخرجه إلى التعليم المدرسي ، وهو لا ريب بأمثال هذا التحليل سينتهي إلى فكرة أساسية عن الأدب ، يستطيع أن يحدثنا بها خلاصة لتجاربه الخاصة ، وعندئذ ستكون أصدق وأعمق من كل ما نستطيع أن تمنحنا علوم النفس والجمال والاجتماع من أفكار أساسية في الأدب .

محمد مندور

على هامش بيجماليون

كان الفن اليونانى فى عصره الذهبى ، قد بلغ مرتبته من الكمال ، ارتفعت به عن مستوى المقارنات . وإن الإنسان ليقف الآن أمام ما خلفه أبطال ذلك العصر ، وهو ينظر ويتأمل ، وتأخذه الدهشة حتى ليحس بأن التمثال الذى أمامه يوشك أن يومئ إليه بنظراته أو يحدثه بشفتيه .

وكان «بيجماليون» واحداً من هؤلاء الأبطال ، ولعله كان سيد هؤلاء الأبطال جميعاً ، وقد خلد ذكره الشاعر Ovid فى أسطورة شهيرة صور لنا فيها هذا الفنان بأن مثله العليا فى الجمال كانت فوق ما تطيق الحياة أن تحتمله . وإنه لذلك اعتزل الناس والجماعات ، وعكف على تماثيله يودع فيها من نفثات روحه ، ويسجل على أجسامها ووجوهها نفحات إلهامه . وقد أسفرت جهوده آخر الأمر عن إخراج ذلك التمثال الرائع المعروف باسم «جالتيه» . ولم يكن هذا التمثال الذى نحته الفنان من العاج كبقية التماثيل التى تختلقها المعاول فى «ستوديوهات» الفنانين . ولكنه كان عصارة فن مثّال ملهم ووحى روحه العالى ، وما كاد يفرغ بيجماليون من عمله وتتجلى أمامه تلك الصورة الرائعة لأكمل امرأة فى العالم حتى ذابت نفسه حسرات ، على أن هذا الجمال كله ليس إلا صنما من العاج لا حياة فيه ولا روح له . وفى ساعة ضعف وعجز أحاط تمثاله بذراعيه ثم أجهش بالبكاء . . . .

وعطفت ڤينوس — إلٰهة الحب والجمال — على هذا الفنان المسكين فحولت التمثال إلى جسم حى ، واستحال العاج الصلب إلى أنسجة رخصة تجرى فيها دماء الحياة الحارة . ولم تلبث أن انفرجت الشفتان القرمزيتان عن نداء خافت حنون يقول :

— بيجماليون !

وهكذا تحقق حلم بيجماليون ، وعاش مع زوجته التى صنعها بيديه فى نعيم وهناء ، وأنجب منها غلاماً سماه Paphos ... وما تزال تقوم فى جزيرة قبرص تلك المدينة العتيقة التى اتخذت اسمها من اسم ذلك الغلام السعيد الذى جاء ثمرة لأغرب قصة غرام رونها الأساطير .

هذه هى قصة بيجماليون كما وضعها أوفيد ، وهى لا ترمى إلى أكثر من إبراز هذا المعنى الظاهر فيها ، وهو أن الفن اليونانى بلغ على يد بيجماليون وأترابه أسمى مراتب الكمال . وأن الفنان قد يستطيع أن يركز فى عمله الفنى من عناصر الجمال ما لا تجود الطبيعة عادة بجمعه كله فى صعيد واحد .

* * *

وشاء الأستاذ توفيق الحكيم أن يعيد كتابة هذه القصة كما يفهمها هو ، والذى يفهمه هو أنه رجل فنان — مثل بيجماليون مثلاً — يخلق أشخاص قصصه خلقاً كاملاً ، حتى إنه بعد أن ينتهى من وضع هذه القصص ليتوهم أن أشخاصها موجودون فعلاً فى هذه الدنيا . ثم يغرق فى هذا التصور حتى ليعقد الأحاديث مع بعض هذه المخلوقات ، ثم ينشر على الناس فى الصحف هذه الأحاديث . . . ولقد خلق توفيق الحكيم — فيمن خلق — براكسا وخلق شهرزاد ، وهما فى الطليعة بين نساء العالمين ، ومع ذلك فإن أخانا توفيقا لا يزال يبحث على ظهر هذه الدنيا الغرور عن نصفه الحلو فلا يجده . وهذا أمر يدعو إلى الثورة ، لقد بكى بيجماليون بين يدى جالتيه فرقت دموعه قلب ڤينوس ، وهذا أخونا يبكى ويستبكى بين يدى كل من أنجب فى قصصه من النساء ... ولكن الدهر الذى أكل أرباب اليونان لم يبق له من يرق قلبه عليه ! والسر فى ذلك أن الأستاذ توفيقا لا يؤمن بالكمال إلا فى عالم الفن ، أما فى عالم الواقع والحياة فهو لا يرى إلا الحماقة والنقص والضعف ، ولذلك فإنه حور قصة أوفيد لتؤدى هذا المعنى الجديد .

انظر إليه كيف جعل بيجماليون يخاطب الآلهه بعد أن أجابوا دعاءه وحولوا تمثاله العاجى إلى جسم حى :

« دعنى أصارح هؤلاء الآلهه بالحقيقة ، لقد صنعت أنا الجمال فأهانوه هم بهذا الحق الذى نفخوه فيه ، كل ما فى

جالاتيا من روعة وبهاء، هو منى أنا، وكل ما فيها من سخف وهراء، هو منكم أنتم يا سكان أولب!» ص ٧٩

فالأستاذ توفيق الآن ثائر على هذا النظام الدنيوى الذى لا يتيح له من مخلوقات الله مثل أولئك اللاتى يخلقهن له خياله وفنه. ولذلك فإنه أعاد كتابة هذه الأسطورة بما يتفق مع تقديره الخاص للمرأة، ولم يطق التسليم ببقاء جاليتيه — الإنسانة — إلى جانب بيجماليون — الفنان — وعلى الرغم من أنه يعلم أن أوفيد زاوج بينهما، وأنشأ بينهما مودة ورحمة، وجعل لهما بنين وحفدة، فإنه جاء فى قصته هو لجعل بيجماليون يعدل من دعائه الأول ويعود فيلتمس إلى الآلهه أن يردوا إليه تمثاله العاجى، ويأخذوا ذلك المخلوق التافة الذى فايشوه به، ثم عاد كما كان، وكما ينبغى لرجل الفن أن يكون — رجلاً أعزب «يحب الجمال ولكنه يزدرى الجميلات» — كما يقول هو على لسان نرسيس ص ١٥٨.

***

والآن. لقد أوشكنا أن ننسى «صديقنا المعلّق» الذى استعار هذه القصة ليقرأها ففهمها هو الآخر على غير ما أرادها أوفيد، وعلى غير ما أرادها توفيق الحكيم. ولم ينتبه فيها إلى غير المعانى التى استجاب لها عقله. فلنعد إليه، ولنبدأ فى تقليب صفحات القصة معه لنرى بعض ما أثبته «على هامشها» من التعليقات...

***

ها هو الأستاذ توفيق يرنا فى بدء قصته أن بيجماليون بعد أن فرغ من صنع جالاتيا صار يدعوها زوجته، ووضعها خلف ستر من الحرير، وأقام عليها حارساً هو غلامه نرسيس لكى يذود عنها الذباب ويمسح عنها الغبار. ونرسيس هذا فتى لقيط، وجده بيجماليون ذات يوم بين مروج الغابة فاتخذه ولداً، وكان وجه نرسيس فتنة فى جماله وحسن قسماته، ولكنه كان فتى ساذجاً عديم الخبرة بالنساء، فعلقته فتاة اسمها إيسمين مازالت به حتى علمته الحب وجعلته يخرج معها إلى الغابة. وكانت تلك الليلة ليلة «عيد فينوس» حيث يجتمع الناس فيرقصون ويلهون، ويتقدم المحبون لآلهتهم بالقرابين، وكانت فينوس قد خرجت فى مركبتها مع أبولون فى جولة أرضية ليجوسا بين رعاياهما كما قد يفعل الملوك والأمراء، فدخلا منزل بيجماليون عقب انصراف نرسيس وإيسمين. ووقعت أعينهما على التمثال فراعهما جماله وفنه، وكان كلام أبولون ينم عن افتخاره بأنه هو الذى ألهم بيجماليون فنه، كما كان كلام فينوس ينم عن غيرتها من كل هذا الجمال الذى أودعه بيجماليون فنه فى تمثاله. وفيما هما يتحاوران فى ذلك إذ أقبل بيجماليون وهو يدعو فينوس — إلهة الحب والجمال — أن تنفخ حرارة الحياة فى زوجته المحبوبة جالاتيا، فرقت فينوس لدعائه، وأودعت الحياة فى جسد التمثال، فتنفست جالاتيا، ودخل عليها زوجها فأدرك ما منحته فينوس.

وكان بين الزوجين قبلات، وكان بينهما حوار من ذلك الكلام الجميل الذى يعرف كيف يصوغه الأستاذ توفيق الحكيم. ويتحدث بيجماليون إلى جالاتيا عن تمثاله الذى أودع فيه كل دمه وذهنه وحياته ونبوغه وقلبه وحسه (ولكنه لا يجسر أن يقول لها إنها هى ذلك التمثال) فيكبر هذا الكلام على نفس جالاتيا التى لا تريد أن يشاركها أحد فى حب زوجها، وترتمى باكية على مقعد مجاور لأن الغيرة صورت لها أن زوجها يحب عليها...

وهنا يتحرك أخونا الآخر الذى لا يعجبه تصرف جالاتيا فيبدأ تعليقاته على الهامش بقوله:

«— ويح النساء! إن هذه المرأة لا ينقض عليها فى الحياة إلا ساعة أو نحوها ثم ها هى تبكى من خلقها ووهبها الحياة! ولكن هكذا هن. وهكذا خلقهن الله — جلت حكمته وصدق رسوله. لقد ورد فى الحديث الشريف قوله:

(... ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء. قيل: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن — قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط!!)

ويسكت زميلنا المعلّق. ويستمر أخونا المؤلف فى

تصوير مشهده ، وهو خير من يعرف أن العذارى يقرضن الثناء ، فيلقى على لسان بيجماليون كلمات يتملق بها زوجته فتصفو له وترضى عنه . وينتهى الفصل الأول من الرواية بجالاتيا وهي تدعو زوجها أن يضمها إلى صدره ، وبأبولون وهو يدعو فينوس إلى الانسحاب من مكمنهما الذى اختبآ فيه عند دخول بيجماليون . إذ يقول أبولون لصاحبته :

« أظن من سلامة الذوق أن نتركهما الآن فى خلوة ! » .

ثم ينسحبان .

* * *

فإذا كنا فى الفصل الثانى فهمنا أن جالاتيا هربت مع نرسيس ، وتركت بيجماليون فى حالة ثورة نفسية عاتية كفر فيها بصنع فينوس معه ، وجعل دعاءه لها هذه المرة أن تعيد إليه جالاتيا تمثالا من العاج . فلقد كانت فى تلك الصورة مثال الكمال ، فلما تدخلت فينوس فى أمرها مسختها « امرأة » حية ، فأصبحت — كبقية النساء — كائنا تافها وامرأة حمقاء تهرب مع فتى أحمق . (ص ٧٩)

ولا يفوت هذا المعنى زميلنا صاحب الهوامش والحواشى فهو يعلق على ذلك بقوله :

(— آه يا مسيو الحكيم . ما أشقانا وإياك بمثل هذه الأفكار ! ألأنت أيضاً لا ترى روح المرأة إلا فى صورة روح المرة الغادرة . وأى حق على جالاتيا إلا أن تخون زوجها وخالقها ومبدعها وموجدها من العدم ؟ ! لقد بدأت أفهم أن « عدو المرأة » لم يسرف فى عداوتها بغير سبب !)

ويشعر أبولون وفينوس بما صارت إليه حال بيجماليون بعد هرب زوجته ، ولا يخفى أبولون غبطته بما أصاب فينوس من الفشل وتشفيه فيها بسبب ما أصاب بيجماليون على يديها من خيبة الأمل ، ذلك لأنه هو الذى كان قد سما بمواهب بيجماليون حتى يسر له صنع تمثاله الخالد ، فجاءت هى ومنحت التمثال روحا ، فهبطت به إلى دنيا الكائنات التافهة الفانية . وتتقدم فينوس إلى أبولون متحدية تطالبه بإصلاح الموقف إن استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولا يتحفظ صديقنا الحكيم فى ضبط العبارات التى تأتى على لسان أبولون إذ يجعله يقول عن فينوس تارة :

— « يالها من ثرثارة »

كما يجعله يقول عن جالاتيا تارة أخرى :

— « يالها من حمقاء كـكل النساء » .

وهنا يثب زميلنا اليقظان إلى هامشه فيثبت فيه العبارة التالية :

(طبعاً يا سيدى توفيق ! خذ حريتك مع نساء رواياتك . وأطلق لسانك فيهن كيف تشاء ! وما دامت الاشارة الثقيلة إلى جنس نسائنا ولو فى مقام الدعابة تؤدى أحيانا إلى التفكير فى رفع قضايا التعويض عليك أمام المحاكم ، فلا أقل من أن تفرج عن نفسك ولو بسب آلهة اليونان . ومن على كل حال أهون عند الله من كوكب الشرق الآنسة س !)

وتسير القصة فى طريقها . ويوفق أبولون فى رد جالاتيا إلى زوجها تائبة مسترضية . ويدور بين الزوجين حديث وعتاب هو فى الذروة العليا من الروعة وحسن السبك ، وعلى أمثال هذه المواقف البارعة تقوم شهرة الأستاذ توفيق الحكيم كبطل من أبطال الحوار فى الأدب الحديث . ولقد عاودت تلاوة هذه الصفحات أكثر من مرة فلم أجد أثراً لتعليقات زميلنا صاحب الهوامش . وأغلب ظنى أن ما انطوت عليه هذه الصفحات من الكلام المسحور قد فتن زميلنا وامتص كل انتباهه ، فألهاه حتى عن هوايته ، وأنساه حتى بعض طبعه !

* * *

ثم ينتقل بنا الأستاذ الحكيم إلى الفصل الثالث فيرينا إيسمين ونرسيس وقد جلسا يتناجيان . ويقفنا على ما فعل الحب بنرسيس ، ذلك الفتى الغر الذى كان كالزهرة المقفلة ، فوقعت فى قلبه نظرات إيسمين كما تتساقط قطرات الندى فى قلب الزهرة فتتفتح لها وريقاتها ويضوع شذاها . ويسلمنا هذا المشهد الجميل إلى مشهد آخر هو روح القصة وغايتها ونقطة الانقلاب فيها . إذ يعود بيجماليون وجالاتيا إلى منزلها بعد أن قضيا لياليهما العسلية فى الغابة وقد ترصد لهما أبولون وفينوس ليشهدا بعض مظاهر سعادتهما ، ولينظرا كما تقول فينوس إلى بسمة الهناء وهى تملأ فمهما . غير أن بيجماليون يدخل كئيبا متثاقلا ، وتدخل

جالاتيا من خلفه فلا يكون بينهما شيء من أفانين الغزل الذي توقعه أبولون وصاحبته . ولكن جالاتيا تنظر إلى المكان فتراه متغبرا قد ملأه التراب فتنصرف إلى المكنسة وتشرع في تنظيفه ، ويكون منظر جالاتيا وفي يدها المكنسة آخر ما يستطيع بيجماليون احتماله من مظاهر هذه الحياة الواقعية التي نزلت به فينوس إلى دركها هو وامرأة أحلامه . فيدخل مع جالاتيا في حوار أليم تفهم هي من خلال عبارته أن زوجها ندم على ما كان ، وأنه يؤثر جالاتيا العاجية التي تركزت فيها كل معاني السمو والكمال على جالاتيا الأخرى — ربة الدار — التي تمسك بيدها المكنسة . . . .

وتريد هي أن تستميل زوجها إلى صفها وتنزل به من سماوات خياله إلى عالم الواقع ، فلا تجد سبيلا لذلك إلا أن تقول له :

— « إن جعت فأخبرني لأهيئ لك الطعام — يخيل إلي أن في مقدوري أن أبدع لك لونا منه لم تذق مثله — إنه من مختلف الخضر . . . منسقة تنسيقا تسر له العين قبل أن يستسيغه الفم . . . . » .

ويتحرك في زميلنا المعلق داؤه لهذا الكلام فأقرأ له على الهامش هذا التعليق الطريف :

(هذا هو (الغزل) ورب الكعبة ! ترى هل أخونا توفيق « صيبة البطاطس » قادت نفسه إلى هذا اللون الذي أوحت به فينوس إلى جالاتيا لتكسب به عطف بيجماليون ؟ هل ذلك عند آلهة سوق الخضار !)

ولا ينقضي هذا المشهد بين جالاتيا ورجلها حتى يكونا قد تفاهما تماما على أن بقاءهما على هذه الحال أصبح من المحال . فكبرياء جالاتيا — المرأة — يأبى عليها أن ترى رجلها يزور عنها ويفضل عليها شيئا آخر حتى لو كان تمثالا من العاج ! وكبرياء بيجماليون — الفنان — يأبى عليه أن يرى عمله الفني الذي كان مقدراً له الخلود ، وقد انتظمه سلك الحياة فأصبح يجوز عليه ما يجوز على كل الأحياء من مظاهر النقص التي لا يلبث أن يسلمه إلى الفناء !

وتكون خاتمة الفصل الثالث أن يخرج بيجماليون إلى المعبد محنقا صائحا : « أيتها الآلهة ! يا فينوس . يا أبولون ردوا إليّ عملي وخذوا عملكم » فيتشاور الربان قليلا ثم ينتهيان إلى سحب الحياة من جالاتيا وردها تمثالا من العاج قائما فوق قاعدته الرخامية كما كان !

* * *

فإذا كنا في الفصل الرابع فهمنا من حديث ترسيس مع بيجماليون أن هذا الأخير قد أصبح لا يطيق البقاء في المنزل ، وأنه أحس بعد غيبة زوجته بوحشة كانت تدفعه دفعاً إلى هجر منزله ولاسيما بالليل ، والذهاب إلى الكوخ الذي قضى فيه مع جالاتيا لياليه السعيدة الأولى ، وأنه أصابه المرض من جراء إسرافه في الخروج ليلا ، وأنه على الرغم من مرضه ما يزال يصر على الخروج ، وترسيس يقف له بالمرصاد مصراً على الحيلولة بينه وبين هذه الحماقة التي يأبى إلا التمسك بها . ولكن بيجماليون ينتصر على غلامه ويخرج إلى الكوخ كعادته كل ليلة ، فيلحق به ترسيس ، ويخلو المكان إلا من التمثال القائم خلف ستره .

فيدخل أبولون وفينوس — يريد أبولون أن يتزود من التمثال بنظرات أخرى ، لأنه يرى فيه جمالا فنيا يفوق كل ما تستطيع الحياة أن تسبغه على الأحياء من الجمال ، وتلاحقه فينوس بقولها : إن صاحب التمثال نفسه لا يرى هذا الرأي ، فإن الحلم الذي يغمره الآن هو شبح زوجته الحية ، فهو منذ فقدها لا يزال هائما على وجهه يلتمس آثارها ويستعيد ذكراها ، معرضاً عن تمثاله غير مكترث له ، وكل شيء فيه ينطق صائحاً : « لقد انهزمت » ! فينهرها أبولون في حدة بقوله : « ألا تكفين عن ذكر الهزيمة والانتصار أيتها المرأة ؟! »

ويرى زميلنا في هذه الحجة ما يتنافى مع بروتوكول السماء فيخط على الهامش هذا التعليق :

(ما هذه اللغة أيتها الآلهة العظام ؟! أغلب ظني لو أن هؤلاء السادة لم يهبطوا على الأولمب ، ونزلوا عندنا في أرض مصر فإنهم لم يكونوا يختارون لقاءهم إلا حي بولاق !)

ولا يلبث ترسيس أن يعود بصاحبه الذي خذله مرضه

فى منتصف الطريق فلم يستطع أن يتابع مسيره إلى الكوخ . ويجلس بيجماليون تجاه تمثاله فلا يجد فى جواره ذلك الأنس الذى فقده بفقد زوجته ، فتضيق عليه الدنيا بما رحبت ، وتطبق عليه همومه ، ويحس الفراغ يملأ حياته فينهزم ، ويضع رأسه بين يديه ويجهش بالبكاء ! وتدرك الرقة قلب فينوس فتقول لصاحبها أبولون : « إنه لشقى تعس ! ألا ترى أن نعمل شيئاً من أجله ؟ » ، فيجيبها أبولون بقوله : « عجباً ! يظهر أن منظر رجل يبكى أمر يحرك قلب كل امرأة ... وإلهة ! »

ويلفت هذا القول زميلنا إلى الهامش فيكتب فيه :

(ما أصدق بعض عباراتك يا هذا الحكيم ! ترى كم تكبت يا ماكر بين أجنبين ! وما كان يدرى سر أمثال هذه الدموع فى أسواق الضحك على الذقون ؟ !)

وتكون هذه آخر (الدمعة) من فم الرميل ، فإن اللعبة لم يبق فيها إلا أن ينهض بيجماليون ببطء ، ويمشى نحو التمثال بخطى ثقيلة فيتأمله لحظة ولكنه يهز رأسه يأساً ، ثم يأتى بالمكنسة فيضعها فى يد التمثال ويعود فيتأمله لحظة أخرى ، ثم ينتزعها فى عنف ويهال بقبضتها الصلب على رأسه تحطيما وتهشيما) فيتركه ركاما ، ولا يلبث بعد ذلك أن يسقط هو أيضاً إلى جانب تمثاله ليسلم أنفاسه الأخيرة ...

وبذلك تنتهى تلك الحركة العاصفة التى هى حياة الفنان — حياة كل فنان — ألم يضع بيجماليون حياته فى الصراع : « صراع مع الفن لاستلام مفتاحه وامتلاك أسلوبه — وصراع مع ملكاته وغرائزه أو القوى الداخلية التى هى نفسه — وصراع مع المصائر والأقدار ، أو القوى الخارجية التى هى الآلهة ؟ ! »

بلى ! لقد فعل !

وهكذا يُروِّح الأستاذ عن نفسه بتصوير حياة الفنان فى مثل هذه الصورة التى يعيش صاحبها فى حيرة دائمة ، يملؤه الغرور بجمال عمله فيتطاول على أربابه ، ثم يدعو فيجاب ، فيندم على الدعوة كما يندم على أنها أجيبت ، فإذا ما ردت دعوته عليه ، وأعيد كل شئ إلى أصله ، زاد ذلك فى تبديد نفسه ، ولم تزده الحالة الجديدة إلا حيرة على حيرته !

نعوذ بالله من نزوات الفن والفنانين ، كما نعوذ به تعالى من همزات الشياطين .

ع . ع

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠ فى مصر والسودان
	٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
ستة أشهر	٤٠ فى البلاد الملحقة بمصر أكثر البريد
	٥٠ فى البلاد الخارجية عن اتحاد البريد

ثمن العــــدد ١ قرش صاغ

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ...... "

شهر الحرمان — رمضانيي — الطفل !.

شهر الحرمان !

قال لي صديق :

« لشدّ ما أسرفتَ على نفسك وعلى قارئك فيما كتبتَ في الأسبوعين السالفين ، وما نثرتَ من آلامك على الناس ؛ أما نفسك فأنت وما تشاء لها ، وأما قارئك ... ؛ لقد كنتَ قاسيا يا صديق إذ لم ترفق به وعصرتَ تعصر عينيه وتبهر قلبه وتثقل على صدره بآلامك ، بآلامك وحدك ! !

« ألأنك تملك صحيفة وقلما و ... وقارئا ؟ ... ولكنك لم تكن منصفاً ؛ فهذه صحيفة كل قارئ لا صحيفتك ، والشهر رمضان ! ! »

ومعذرة إلى صديق ، وإلى قارئ ...

... ولو أني حسبتُ أني بما كتبتُ في الأسبوعين الماضيين بالغٌ كلَّ ذلك من نفس قارئ وصديق لاقتصرتُ ؛ فما تطاوعني نفسي ...

... ولو أني كنتُ أعني الحديثَ عن نفسي لأستدرَّ دمعة مُشفق أو رثاء صديق لتأبَّيتُ على ما أرادت نفسي ؛ وإني ليثقل عليّ — فوق ما تثقل بي أحزاني — أن يدمع لي مُشفق أو يرثى لي صديق ؛ وإني لأعلم أنها آلامي وحدي ، ولي لذتها وحدي ! !

... ولو أني قدرت ساعةً أنْ سيقعُ في وهم واحد من قرائي أني — بما كتبتُ — أحاول أن أسترق حقَّه في « صحيفته » وأزعمها « صحيفتي » لأمسكتُ ؛ فما بي داءُ الحديث عن نفسي وإنه لداء ! !

ولكني حسبتُ حسبة وعنيتُ شيئا وقدَّرتُ قدَراً فكتبتُ ما كتبتُ ... حسبتُ أن من حق كل ذي فنٍّ أن يَصدُق في فنه ، فصَدَقْتُ ؛ وعَنيتُ أن أنقل صورةَ نفسٍ إلى نفسٍ بغير اختراع ولا تزيُّد كما يرسم الفنان في مخطه صورة البحيرة الصافية إلى جانب صورة البركان الثائر ، فرسمتُ ؛ وقدّرت أن يكون في القراء آباء وأزواج ، وأمهات وزوجات ، وبنون وبنات ، فإلى هؤلاء كتبتُ ؛ ليستشعر كلُّ أب وزوج ، وكلُّ أم وزوجة ، أين هو من زوجه وبنيه ، وأين هي من بنيها وزوجها ، وأين البنون والبنات من الآباء والأمهات ؛ وربَّ صورةِ أمٍّ تناغى طفلها كانت هدايةَ زوجٍ ضال ؛ وربَّ صورةِ طفلٍ في حِجر أبيه كانت رشادَ أمٍّ غاوية ! !

وشهر رمضان ؟ ... ما بال شهر رمضانُ يقحم نفسه في حديث الآباء والأمهات ، والأزواج والزوجات ... وفي حديث الآلام والمسرَّات ؟

بلى ، ولعلى أدرى ؛ فما ثارتْ هذه الخواطر الحزينة في نفسي مثلَ ثورتها بي في أول يومٍ من رمضان !

أذلك لأنه شهر الحرمان ؟ فما أحراه إذَنْ أن يكون شهرَ التذكُّر والدموع ! والأسى يبعث الأسى ! ...

وما أعجب صديق الذي ينكر عليّ ما أسرفتُ في الحديث عن آلامي لأن الشهر رمضان !

وهل كان رمضانُ رمضانَ إلا ليكون شهراً في العام نعود فيه إلى أنفسنا ونُخلّص من ضرورات البدن ، ومن قيود المادة ، ومن شهوات الحس ، ونجلو المرآة التي تكاثَفَ عليها الغبار ؟ ...

فهأنذا يا صديق قد جلوت مرآتي ، بدموعي ؛ لأجلو بدموعي مرآتك ومرايا كثيرة ، لأن الشهر رمضان ؛ وما يجلو مرآةَ النفس مثلُ الدموع !

رمضانيي :

وقلت في بعض ما سبق من « حديث رمضان » بالعدد ١٩٥ :

«يا لَيالِيَّ في رمضانٍ ، قلتَ وفي رَمَاضِينَ قبلَه ... ... »

وكأنما قلقتْ كلمة «رماضين» في موضعها من الكلام ورنَّتْ في أذني رنينًا غير مألوف ، لأني لم أقرأها قبلُ فيما تناولتُ من كتب ؛ فكتبتُ في التعليق :

« جمع (رمضان) فيما اخترناه ؛ إذ لم نجد له جمعًا فيما وقفنا عليه من مأثور العرب !! »

قلتُها ولم أتحقق !!

أما إني لم أجد له جمعًا فيما وقفتُ عليه من مأثور العرب ، فذلك حق ، وإن كنت لا أزعم أني قرأتُ من مأثور العرب كل ما كان ينبغي أن أقرأ ؛ ولكن . .

ولقيني صديقٌ كريم فسألني : وكشفتَ في معاجم اللغة ؟ ...

... وتناولتُ أولَ معجم على مكتبي ، فعرفتُ ما لم أعرف منذ سنين ؛ وإذا رمضان أكرمُ على العربية من أن يكون كما زعمتُ ، وإذا له في لغة العرب جُموعٌ وجموع ؛ ولكني لم أتعوَّد قبلُ أن آخذ اللغة من تلك المعاجم العجماء ، فهل يُعفيني ذلك من تبعة هذا التقصير ؟ ...

إنه ليس أيُّ عيبٍ أن يأخذ الكاتب لغته من المعاجم ؛ إنه لا يكتب حينئذٍ الكتابةَ الحيةَ التي ينبض كل حرفٍ فيها بنبضة روحه ويهمس همْسَ قلبه ؛ ولكنه إلى ذلك مسئولٌ أن يلجأ إلى معجمه كلما نابه الشكُّ أو قَسَى بما يريد أن يقول ، ليتزوَّد من اللغة التي يكتب لأهلها كتابةً يريد أن تخلد على التاريخ !

فإلى قرائي ، وإلى صديقي الذي سألني ... أعتذر اعتذار معترف !

الطفل :

هأنذا أعود إلى ما لا يريد صديقي أن أتحدث عنه ، أتراه سيغفر لي هذه المرة أيضًا ؟ . . . ولكني لا أريد أن أشق عليه هذه المرة بحديث لوعتي وآلامي ، والشهر رمضان ؛ ولعله واجدٌ في حديثي اليوم ما يُعفيني من سخطه . .

... ثم إني لا أستطيع أن يكون حديثي غير ما في نفسي ، وما أراه يَرضى لي أن أكون في مرآة الناس شيئًا غير الصورة التي في مرآتي ، وأنا أنا رجل واحد ، في جوفي قلبٌ واحد !

*

وحديثي هذه المرة يتصل بسبب مما عاهدتُ القراء عليه في هذا الباب منذ بدأتُ أكتب وأذيع لي ؛ فلستُ أقرأ لهم من «صحيفتي» ولكنْ مما يقرءون من «صحف» . . .

بين يديَّ الساعةَ طفلي الصغير ؛ لقد بلغ من عمره بضعة أشهر وصار له في الحياة تاريخ ؛ فمن حقه أن يحس أو يبتسم ، ويشير بيدٍ أو بيدين ، ويرضى أو يتمرَّد ، وينظر أو يغضي ؛ لقد صار له كالناس آمالٌ وأحلام و ... وذكريات !

إنه بين يديَّ الساعة ، وإن عينيْه لتبحثان في عينيه من أسئلة وجوابها ، وإنه ليجيبني ، بجيبني بلغته ، لغته هو التي يُحسن أن يتحدث بها إليَّ فيَبلغ ويُبين . . . لكأنه يشعر أن لي عليه حقوقًا لا ينبغي أن يجحدها ، حقوقًا لا يملكها أبٌ غيري ؛ لأني له أبٌ وأمٌّ !!

وسألته سؤالاً لم يُجِبْه وعييت ، وبكى ، وأسلمته إلى المرضع تحاول استرضاءه ، وانصرفتُ لبعض شأني ...

... وخلوتُ إلى كتاب من كتبي لم تتناوله يداي منذ بعيد ؛ إنه كتابٌ قديم لم يؤلِّفه مؤلفه لقراء هذا الزمان ... إن قراء هذا الزمان قلَّما يؤمنون إلا بما يقع تحت أعينهم ، بل قلَّما يؤمنون بما يقع تحت أعينهم وإن كانت كل جارحةٍ منهم تشهد ...

وأخذت أقلِّب الصفحات البالية من هذا الكتاب

العتيق ، « لا يكاد يستوقفني شيء منه ؟ وانتهيتُ إلى بعض صفحاته فقرأت (١) :

وقف عزرائيل يوماً بين يدي ربه ، فسأله الله سبحانه : ألم تأخذك الشفقةُ يوماً بمخلوقٍ أُمِرتَ أن تقبضه ؟ ..

قال : تلك الحكمة يارب ! ... سألتني مرةً أن أقبض امرأة ، فحان أجلها وإنها تمسّ الطريق في مفازة موحشة ليس فيها صوتٌ ولا صدى ، وبين يديها جنينٌ قد وضعته لساعتها لم يفتح عينيه على نور الحياة بعدُ ولم يلقم ثدي أمه ، وليس بينه وبين الأحياء سببٌ إلا هذه الربقةُ النفساء ؛ قد حان أجلها ؛ فداخلني يارب مما رأيتُ رقةٌ ووجدٌ ، وأوشكتُ – وتلك المعصية – أن أعترض ؛ ولكني صدعتُ بأمرك ، وخلّفتُ في الصحراء جنيناً حياً على صدر جسدٍ هامد !!

قال الله سبحانه : ولم تأخذك الرهبةُ يوماً بمخلوق أُمِرتَ أن تقبضه حتى أوشكتَ أن تستصغر قدرك إلى جانب عظمته ؟...

قال : تلك العظمة والجبروت ! ... ذاك يوم سألتني يارب أن أقبض روح مَلِكٍ عظيم ، كان له في عبادك دولة وسلطان ، وأمر ونهي ، وحب وطاعة ؛ فحان أجله وإنه لفي حاشيته وبطانته ، وبين يديه جند وأعوان ، تزدلف النعمةُ إليه ، وتجتمع الآمال عليه ، وتزدحم الوفود ببابه ، وتنعقد الأقدار في ركابه ؛ فداخلني يارب مما أقدمتُ عليه رهبةٌ وخشية ، وأوشكتُ – وتلك الجلالُ – أن أنكص ؛ ولكني صدعتُ بأمرك ؛ وخلّفتُ في مجلس العزّ والمهابة جسداً طريحاً لا يذود عن نفسه بعوضةً ولا هامّةً !!

قال الله سبحانه : فذلك الطفلُ الذي داخلك له من الرقة والوجد ما داخلك حين خلّفته جنيناً ينبض على صدر جسد هامد – هو ذلك الملِكُ الذي داخلك له من الرهبة والخشية ما داخلك حين قبضته في مجلس عزه وسلطانه !!

أين شيءٌ من شيءٍ إلا أن يشاء الله !

تباركتَ يا ربُّ ! ياذا الجلال والإكرام !

ووجدتُ جوابَ ما سألتُ وعيَّ به بياني !

ونظرتُ إلى الطفل بين يدي مرضعه فإذا على شفتيه ابتسامة وفي عينيه بريق ...

أيها الطفل الذي لم ينعم لحظةً بالحنان من صدر أمه !

أين أنتَ مِن غدِك ؟ «ق ف»

(١) روينا هذا الخبر بمعناه دون حروفه ، وليس يعنينا صدقه بمقدار ما يعنينا ما يرمز إليه من الحقيقة التي لا تقبل التأويل : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ؛ إن الله عليم خبير . » صدق الله العظيم !

من سير الرحلات :

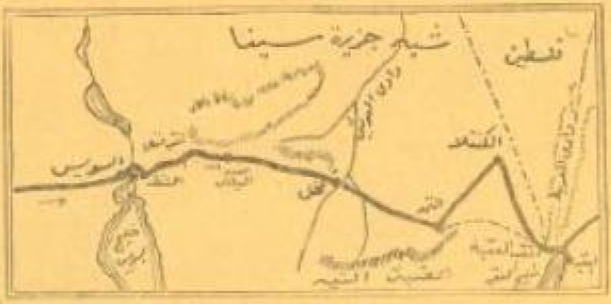
بين القاهرة والعقبة فى طريق الحج القديم

مارس سنة ١٩٣٤

للأستاذ الدمرداش محمد

مقدمة :

من نحو شهرين وقع فى يدى اتفاقاً رسالة صغيرة عنوانها « مشعل المحمل » ، لمؤلفها اللواء محمد صادق باشا ، الذى كان أميناً للصرة فى طلعة الحج سنة ١٢٩٧ هجرية .



والرسالة تحتوى على وصف مطول للطريق الذى سلكه المحمل من القاهرة إلى الحجاز فى تلك السنة ، مع ذكر أسماء القرى والمحطات التى نزل بها فى أثناء السفر ، مع بيانات مختصرة عما شاهده المؤلف فى كل منها . والرسالة فى مجملها مقتضبة ، التزم مؤلفها فى كتابتها الطريقة العسكرية من حيث العناية بوصف القلاع ، وتدوين أطوال الطرق واتجاهاتها ، وساعة القيام وساعة الوصول ، ولم يتعرض إلا قليلا للوصف الجغرافى .

ويقول صادق باشا إن قافلتهم فى الذهاب كانت مؤلفة من ١١٠٣ جملا ، و ٢٤٧ حصاناً و ٤٨٨ بغلا ، و ١٠٠ حمار ، وأنهم قاموا من العباسية يوم الخميس ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٠ ، ووصلوا السويس يوم الأحد ٣ أكتوبر ، ونخلا يوم ٧ أكتوبر ، وسطح العقبة يوم ١٠ أكتوبر ؛ ونزلوا من عقب العقبة يوم ١١ أكتوبر ، ودخلوا قلعة العقبة فى نفس اليوم ، أى أنهم قطعوا المسافة بين العباسية والعقبة فى نحو اثنى عشر يوما .

وفى مارس سنة ١٩٣٤ سافرنا بالسيارات فى نفس الطريق فى رحلة إلى عمان عاصمة شرق الأردن ، ومع أنه كان قد مر على رحلة صادق باشا حوالى خمسين عاما ، فإن معالم الطريق كانت لا تزال كما ذكرها ووصفها ، ولا عجب فى ذلك ، فإن طريق السيارات من مصر إلى السويس ، ومن السويس إلى نخل ، ومن نخل إلى العقبة تتفق فى كثير من أجزائها مع الدرب السلطانى القديم الذى كان يخترق هضبة شبه جزيرة سيناء من الشرق إلى الغرب ، وهذا الدرب كانت تسلكه قوافل التجارة وحملات الغزو بين مصر والحجاز وجنوب فلسطين ، وهو أيضاً طريق المحمل المصرى فى ذهابه إلى مكة وعودته منها زهاء ستة قرون ، وذلك فى المدة ما بين سنتى ١٢٦٧ ، و ١٨٨٥ ، وفى السنة الأخيرة أهمل الطريق البرى واتخذ المحمل طريق البحر إلى جدة فى ولاية الخديو توفيق .

من القاهرة إلى العقبة فى بضعة أيام :

غادرنا القاهرة مساء يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٣٤ ، وبتنا فى نقطة الشط على الشاطئ الشرقى لقناة السويس ، وفى اليوم التالى تابعنا السير فطوينا المسافة بين « الشط » و« نخل » فى خمس ساعات ، قطعنا خلالها منطقة الرمال وارتقينا نقب « متلا » وانحدرنا إلى وادى الحاج ، ثم اعتلينا هضبة سيناء عند جبل صدر الحيطان ؛ ووصلنا « نخلا » قبيل الظهر ، ونزلنا بجوار استراحة مصلحة الحدود .

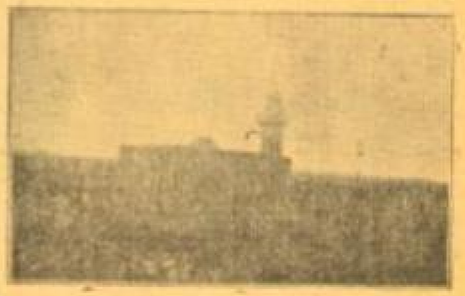
وتقع نخل على حافة وادى العريش أطول وديان سيناء وأشدها خصباً ، وكان لنخل فى العصر القديم أهمية كبيرة نظراً لوقوعها عند ملتقى طرق القوافل ، وبها بئر كبيرة مطوية ماؤها معتدل مقبول .



قرية نخل وقلعتها

وفى العهد العثمانى اتخذت الأتراك نخل عاصمة لسيناء ، وشيدوا فيها قلعة كبيرة لا تزال بقاياها الأثرية قائمة إلى الآن .

وفقدت نخل أهميتها منذ أن تحولت التجارة إلى الطريق البحرى ، كما أنها أقفرت بعد الحرب العالمية الثانية لنزوح السكان والتجار إلى العريش ، العاصمة الجديدة ، ولم يبق بها إلا نقطة بوليس ومسجد خرب ومنازل خالية وبقايا القلعة والبئر وبعض الأفراد من الأهالى . وقد قال لنا أحدهم إنه من سلالة الحامية المغربية التى كانت تقيم فى القلعة أثناء الحكم التركى لتأمين الطريق وحفظ السلام بين السكان .



المسجد فى نخل

ويقول صادق بك فى وصف نخل ما يأتى :

« بعد الغروب بعشر دقائق فى يوم ١٦ أكتوبر وصل الركب إلى قلعة نخل ، وهى قلعة مربعة الشكل مبنية بالحجر النحت ، ذات منازل طول كل ضلع منها ٨٥ متراً ، ما عدا الأبراج التى فى زواياها ، وقطر كل منها ستة أمتار . وهذه القلعة مرتفعة عن سطح الأكمة التى هى عليها بنحو سبعة أمتار ونصف ، والأكمة مرتفعة عن أرض الوادى بخمسة أمتار . وبداخل القلعة حواصل معدة لمهمات الحجاج والمستخدمين وبها محافظ بوزباشى وملازم تحرجى وبلوكباشى وستة وعشرون عسكريا بنظم طرز قديم بمنطقة ، وستة طوبجية ومدفع واحد نحاس طرز قديم برى — وفى أسفل البرج الشرقى البحرى ساقية ماؤها قيسونى عمقها ٢٢ متراً يديرها ثوران فيصل ماؤها إلى خارج القلعة إلى ثلاثة أحواض مبنية معدة للحجاج والقوافل ، أحدها طوله ١٤ متراً فى ٢٨ عمق ثلاثة أمتار خربت من منذ سنتين ، والآخران كل منهما طوله عشرة فى تسعة أحدهما ملآن والآخر يملأ عند رجوع الحاج ، وبجانب هذه الأحواض أحواض صغيرة مستطيلة تملأ لشرب الدواب ، وفى كل عام قبل طلوع الحاج بشهر يبعث الميرى بأربعة أثوار مع لوازم الساقية لإدارتها مدة طلوع ونزول الحجاج ثم ترجع الأثوار إلى مصر مع الحج المصرى .

وبخارج القلعة ساقية خربة وبئر مبنية عمقها ١٦ متراً قليلة البناء — وهناك عشش لسكنى العساكر . وبالقرب من الجهة الشرقية القبلية للقلعة مقام شيخ يسمى الشيخ النخل ، وبجانبه تربة النخل والقلعة . وفى أوان الحج يوجد هناك البطيخ والبلح والتين المجفف واللبن والسمن » . انتهى .

لم نمكث طويلاً بنخل واستأنفنا السير بعد العصر ، ووصلنا بئر الثمد[1] قبيل الغروب وتزودنا من مائه العذب . واتفق عند دخولنا وادى الثمد وصول أسراب كثيرة من طائر أبيض كبير الحجم ، يشبه البجع ، أخذت أفواجه تهبط فى الوادى وهى تصيح بأصوات قبيحة ثم تختفى بين الشجيرات — وهبط واحد منها على سطح إحدى السيارات وبقى جاثماً فوقه حتى تركنا الوادى ؛ والظاهر أنها من الطيور المهاجرة التى تمر بسيناء فى عودتها إلى الأصقاع الشمالية .

ثم وصلنا مفترق الطرق عند نقطة « الكنتلا[2] » بعد العشاء ؛ وكان القمر فى أوج نوره ساطعاً يملأ الصحراء ضياء وبهجة ، فأوقفنا السيارات ، وانطلقت وأحد الرفاق نرتاد الوديان للبحث عن استراحة مصلحة الحدود ، وبعد

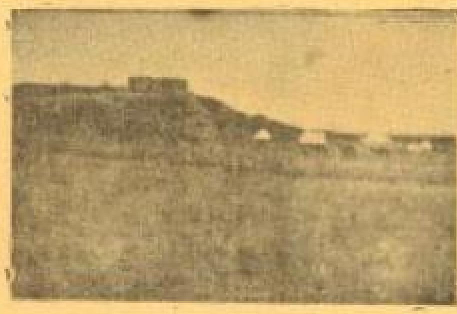


قافلة تستقى من بئر الثمد

(١) الثمد بها مخفر بوليس وبئر ماؤها عذب ، والمخفر مبنى على ربوة فى منعطف الوادى ، وكان طريق الحمل يتجه من ثمد إلى عقبة القلعة مباشرة .

(٢) مشاش الكنتلا : بها مخفر بوليس واستراحة جميلة ، وبئر ماؤها عذب ، وهو البئر الوحيد فى هذه الجهة ، والمخفر والاستراحة مبنيان على ربوة عالية فى وادى الجرافى المشهور .

بحث طويل وجدنا الاستراحة على قمة ربوة عالية مشرفة على واد فسيح ، ولكن كان قد سبقنا فى النزول فيها نفر من ضباط الإنجليز ، فعدنا أدراجنا مبتئسين آسفين لحرماننا من نوم مريح هنى فى تلك الليلة الباردة — وفى العودة ضللنا الطريق السوى ، وأخذنا نتخبط فى الوادى خبط عشواء ، فاقتحمنا حديقة وهدمنا جزءاً من سورها الطينى ، ثم ارتطمنا بحاجز بئر وكادت سيارتنا تسقط فيه ، وهكذا لم نعد لمعسكرنا إلا قبيل منتصف الليل ، فوجدنا الرفاق مستغرقين فى نوم عميق متكدسين هم ومتاعهم فى الخيمة من غير نظام أو ترتيب — ثم قصدنا صندوق الطعام لتناول العشاء فوجدناه فارغاً التهم الرفاق كل ما كان فيه مما أعددناه للعشاء والفطور ، فثارت ثائرتنا وشتمنا ولعنّا ، ولكن أين من يسمع أو يجيب ؟ وقد كان أن قضينا ليلتنا طاوين ، وحاولنا زحزحة الرفاق قليلاً لنحظى بمكان فى الخيمة فلم نفلح ، فارتمينا على الرمل من شدة الإعياء ، وقعدنا فى العراء ، واستسلمنا للنعاس فنمنا حتى قبيل الفجر ، واستيقظنا ونحن نرتجف ونرتعد من طل الليل وشدة القر .



الاستراحة فى حماش الكنتلة

وتابعنا السير فى الصباح ، واخترقنا جبال الحمراء ، ووصلنا نقب العقبة [1] بعد ساعتين ، وجلسنا عند رأس النقب على حافة الهضبة لنستريح ولنمتع النظر بمشهد فريد بديع يجمع بين الجمال والروعة والجلال ، فأمامنا رؤوس الجبال الجرانيتية الحمراء منتصبة كالحراب ، متراصة فى صفوف ، متراجعة نحو الشرق ، ومن ورائها وادى العربة العظيم متحدراً نحو الخليج فى اتساع وانبساط ، ومن خلفه جبال الحجاز وشرق الأردن قائمة كالسد تتضاءل فى الارتفاع نحو الشرق والجنوب حتى تختفى وراء الأفق البعيد . وعن يميننا خليج العقبة مبسوط كشريط أزرق تحت أقدام الجبال ، وعن يسارنا بساط الصحراء تتلاحق على أطرافه رُبّا التلال كالقطار ، ومن تحتنا طريق النزول منقور فى الصخر يتلوى كالثعبان بين القلاع والأخاديد والمهاوى والسفوح مسافة خمسة كيلو مترات ، ونحن فوق الهضبة جلوس على ارتفاع ستمائة وخمسين متراً مأخوذين صامتين ، تغمرنا أشعة الشمس المشرقة وينعشنا نسيم بارد لطيف . ثم نادى العريف بالقيام ، فأخذنا فى النزول إلى الوادى بحذر شديد ، واجتزنا العقبة بسلام ، ووصلنا شاطئ الخليج عند الظهر ، واستقبل الرفاق البحر بالصياح والتهليل ، وسرعان ما تعروا من ملابسهم ، وارتموا فى الماء يسبحون ويستحمون ويخرجون منه ويعودون ، وكرروا هذا وأطالوا وتمادوا ، ولم يتركوا البحر ويستأنفوا السير إلا بعد أن عضهم الجوع .

وعند منحنى الطريق فى مدخل وادى العربة استقبلنا رجال البوليس الفلسطينى فى مخيمهم [1] بالترحيب ، ولم يسمحوا لنا بالمرور إلا بعد أن أطعمونا سمكاً شهياً فاخراً ،

(١) نقب العقبة هو طريق النزول من هضبة سيناء إلى = شاطئ خليج العقبة ، واجتياز هذا النقب فى الطلوع أو النزول مسألة ذات بال ، وقد كان هذا شأنه من قديم الزمان ، وهو يتطلب قيادة حسنة بصيرة ، وفرامل قوية سليمة ، وهدوء أعصاب ، فأى ارتباك ربما يؤدى إلى كارثة عظيمة ، وعند رأس النقب مخفر بوليس .

(١) لحكومة فلسطين مخفر بوليس عند رأس الخليج من جهة الشمال شرق خط الحدود بين مصر وفلسطين .

وسقونا قهوة معطرة من بن يمنى أصيل . ثم تابعنا السير ولقينا صعوبة كبيرة فى قطع وادى العربة لرخاوة الأرض وتوالى كثبان الرمال ، ولم نصل بلدة العقبة [1] إلا عند العصر ، واستقبلنا قائمقامها فى دار المحافظة بحفاوة وتكريم ، وشربنا معه القهوة والشاى مثنى وثلاث بمراسيم خاصة ، وبالغ فى إكرامنا فعافانا من رسوم التأشير على جوازات السفر ، ثم دعانا للعشاء معه فاعتذرنا وشكرنا — وقضينا فى العقبة ليلة سعيدة هنيئة على شاطئ الخليج .

[illegible] محمد

(*) تقع بلدة العقبة فى حدود إمارة شرق الأردن .

المعاهدة والشباب

إن المعاهدة المصرية البريطانية أفادت الشباب المصرى ، لأنها أفهمته أن الجهاد الذى قام به من سنة ١٩١٩ انتهى إلى تحقيق جزء كبير من مطالب مصر . ثم استقرت الحالة بيننا وبين الإنجليز ، ففتح المجال للشبان المصريين لتفهم الحياة المصرية على حقيقتها ، فبدأوا ينافسون فى ميدان الأعمال الحرة ، وأثبتوا بذلك أنهم قادرون على بلوغ ما نصبوا إليه . ثم إن المعاهدة المصرية أتاحت لكثير من المصريين أن يشغلوا المناصب التى كان يشغلها الأجانب فى الحكومة ، فدلت إدارتهم على كفاءة المصريين إذا أتيح لهم العمل . ومن الميادين التى أظهر فيها المصريون كفاءتهم ميدان التعليم فى الجامعة التى كانت فيما مضى فى شكل مدارس يديرها ويعلم فيها أساتذة أجانب ، فأصبح يديرها ويعلم فيها شباب من المصريين ، وما من شك فى أن النتيجة مع المصريين خير بكثير منها عند ما كان التعليم فى يد الأجانب .

إن شعور المصرى باستقلاله ووفرة كرامته يجعل منه شابا صالحاً للكفاح والحياة . ولا شك أن انتشار فكرة التجنيد فى مصر ، سواء اتخذت شكل الجيش العامل ، أو الجيش المرابط ، أو الفرق الحربية التى تقوم بها الجامعة ، كل هذا يبين مدى الروح التى ترتبت على استقرار الحالة بيننا وبين الإنجليز . ومن أجل الظواهر فى ذلك الفرقة التى تكونت فى صيف سنة ١٩٤٠ من أساتذة الجامعة ، والتى ألحقت بالجيش المرابط .

ومما لا شك فيه أن أمامنا أعمالا كبيرة علينا أن نواصل جهادنا لتحقيقها ، وعلينا أن نحافظ بقوتنا على ما كسبنا من حقوق .

(الثقافة) : بمناسبة الاحتفال بالمعاهدة ، طلب الأستاذ عبد المنعم الصاوى المحرر بجريدة الوفد المصرى ، من الدكتور يحيى الخشاب رأيه عن موقف الشباب من المعاهدة فأدلى إليه تلفونيا بحديث علق عليه الأستاذ « قاف » بما وسوس له به صديق . ولما كان هذا التعليق مبنياً على الظن فإن « الثقافة » تعيد نشر الحديث آسفة معتذرة من بعض ما فهم من حديث الأستاذ « قاف » .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

بوزرة : ٩ شارع السكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩١

العدد ١٩٨ — الثلاثاء ٣ من شوال سنة ١٣٦١ — ١٣ من أكتوبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

العلاقات الدولية

لا يظنن القارئ عندما يطلع على هذا العنوان أننا بصدد كتابة مقال سياسي من الأعمال والمساعي الخفية التي تحدد العلاقات السياسية بين الدول ، والتي على أساسها تقوم الصداقة بينها تارة والعداوة تارة أخرى ، فتلك الأعمال والمساعي مما لا يستطاع الكشف عنه بسهولة ، لأنها تعمل معظم عملها وراء الستار ، ولا يظهر منها إلا آثارها ، أما هي فتظل في الغالب محجوبة لا تعرف إلا بعد سنين طوال ، وقد تظل مستورة إلى ما شاء الله . أما الذي سنتكلم عليه في هذا المقال ، فهو ناحية أخرى من العلاقات الدولية أشد عمقاً من الناحية السياسية السالفة الذكر ، ولكنها مع ذلك مما يستطاع الكشف عنه وبحثه ودراسته في وضح النهار من غير أن يحتاج الباحث إلى التنقيب عنه في السجلات السياسية ، أو أن يتتبع من أجله حركات رجال الحكم والسياسة . وتلك الناحية هي سيكولوجية العلاقات السياسية ، أي سيكولوجية السلم والحرب . والآراء التي سنضعها أمام القارئ في هذا المقال وفي المقال الذي يليه مستقاة من كتاب « السلم والحرب » Peace & War للدكتور وليم برون William Brown أحد علماء الأبحاث النفسية ، ومدير معهد علم النفس التجريبي في جامعة أكسفورد The Institute of Experimental Psychology, Oxford University.

وهو يبحث في هذا الكتاب موضوع السلم والحرب من الناحية السيكولوجية ، ويستمد آراءه من خبرته وتجاربه الشخصية ، ويوضح الطريق التي يجب سلوكها لفهم العقل البشري فهماً صحيحاً عند جميع الأمم وفي جميع الظروف .

يقول الدكتور « برون » : إن سيكولوجية العلاقات الدولية أي سيكولوجية السلم والحرب من الموضوعات التي لا يمكن أن تبحث بحثاً وافياً ، إلا على أساس الدراسة العلمية لتكوين العقل البشري وطرق تفكيره . فإذا ما بدأنا هذا البحث بعد تلك الدراسة ، واجهتنا على الفور هذه الأسئلة

الآتية : كيف يمكن أن تشب نار الحرب ؟ وكيف يمكن أن تخوض غمارها الشعوب المتمدينة ؟ وكيف يمكن إقرار السلم بوسائل إيجابية غير الوسائل القديمة ، وهى ترك الأمور تجرى فى أعنتها ، فلا تكون سلماً من النوع الذى يصفه الفيلسوف الإنجليزى هبز Hobbez بأنه «مجرد فترة بين حربين ، لأن الحرب هى النشاط الحقيقى العادى ، والسلم هى الزمن الذى يستريح فيه المتحاربون ويستجمعون قواهم ويزول فيه اعتداؤهم ووهمهم ، ويثوبون فيه قليلا إلى رشدهم ، ثم يخوضون غمار الحرب من جديد . ألست ترى المحاربين يعلنون عادة أنهم متى فرغوا من حربهم هذه لن يعودوا إلى غيرها مرة أخرى ، ثم لا يكون لقولهم هذا من القيمة إلا ما لقول السكير الذى يقسم وهو يرفع الكأس إلى فمه أنه لن يذوق الخمر بعدها أبداً » .

ولا يستطيع علماء النفس حتى الآن أن يدّعوا أنهم وصلوا إلى حل صحيح لمشكلة الحرب والسلم ، وكل ما فى وسعهم أن يفعلوه أن يتبينوا القوى المختلفة التى تعمل لإشعال نار الحرب ، وقد عرفوا أنها قوى كثيرة متعددة .

وأول ما يدور بخلد الرجل العادى من أسباب الحروب هو الأسباب الاقتصادية .

فالناس يذهبون إلى أن نظماً اقتصادية معينة تؤدى حتما إلى قيام الحرب ، لما ينشأ عن هذه النظم من تصادم المصالح الاقتصادية بين الأمم ، تصادما قد يبلغ من الشدة حداً يرى الناس معه ألا مفر من الالتجاء إلى القوة الوحشية لحل مشاكلهم ، وتسوية الخلاف القائم بينهم . تلك نظرية سهلة خلابة ، ولكنها ليست إلا جزءاً من الحقيقة إذ ليست العوامل الاقتصادية إلا سبباً ظاهراً من أسباب الحروب .

ومثلها فى البساطة قول بعض علماء النفس إن الإنسان يتألم إذا هددت مصالحه ، ويثور إذا حيل بينه وبين رغبته فى الحياة ، ويغضب إذا واجهته فى حياته صعاب اقتصادية ليس من السهل أن يتغلب عليها ، فإذا ما جاءه زعيم مهرّج وكشف له عن مصائبه وأسباب شقائه ، ثارت نفسه ، وقد يصبح فى أثناء ثورته شرساً مخاصماً مستعداً للكفاح . تلك نظرة أخرى فى منشأ الحروب ، وهى نظرة سهلة ولكنها سطحية ، مثلها كمثل النظرة الاقتصادية السالفة الذكر ، لأنها تغفل تركيب العقل الإنسانى ولا تأبه به ، وهذا التركيب هو الذى يجب دراسته قبل كل شىء للوقوف على الأسباب الحقة للحرب .

إن العقل الإنسانى قد نما وتكون على مر الدهور ، وتطور مع حالته الأولى البدائية متأثراً بعامل تنازع البقاء ، وهو تنازع حقيقى لا شك فيه ، لأن نظرية الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح بسبب هذا التنازع صحيحة تنطبق على عقل الإنسان كما تنطبق على جسمه ، ففى الأعماق البعيدة من عقولنا عوامل النزاع الشديد من أجل البقاء ، والصراع العنيف بين الإنسان والإنسان ، والأسرة والأسرة ، والأمة والأمة . والغرض الذى يرمى إليه هذا النزاع هو الحصول على الأمن والطمأنينة والمقام والسلطان . ويظهر هذا الصراع فى أشكال مختلفة ، وقد تحول دون ظهوره فى بعض الأحيان ما يتم بين الناس من ضروب التراضى والاتفاق ، ولكنه أحيانا يتطاير شرره فيندلع من هذا الشرر لهيب الحرب .

وقد شبه شبنهور Schopenhauer فى إحدى مقالاته المجتمع البشرى بطائفة من القنافذ آذاها برد الشتاء فعملت على أن تدفئ نفسها بالاقتراب بعضها من بعض ، فلما تقاربت آذى كل منها الآخر بأشواكه ، فعادت كلها إلى الابتعاد وأصابها البرد من جديد ، وما زالت تجرب الوسائل وتقع فى الأغلاط حتى تبينت أن فى مقدورها أن تتباعد مسافة معينة تستطيع فيها أن تدفئ نفسها ولا يؤذى بعضها بعضاً بأشواكه . وتلك فى رأيه حال الإنسان فى المجتمع . فهو يرى أن من الصعب عليه أن ينسجم كل الانسجام مع

غيره من أبناء جنسه ، ولكنه يرى أيضاً أنه إذا سار على هواه وعاش لنفسه « أصبحت حياته بائسة شقية متوحشة قصيرة الأمد » كما يقول هبز Hobbes ، فاضطرته هذه الظروف إلى أن يتعاون بعض التعاون مع بنى جنسه .

وهكذا تبدل العقل الإنسانى إلى حدٍّ ما فى أثناء نموه ، وأصبح من الميسور أن يخفف التعاون بين الناس من حدة التنافس بينهم ، فيقل هذا التنافس كلما زاد ما بينهم من تعاون ، ولكن الإنسان مع ذلك لا يزال يحمل فى أعماق هذا العقل ميولا غريزية إلى أشكال بدائية من الانفعال العقلى ، من نوع الميول التى كانت للأفراد والجماعات فى المراحل الأولى من تطورهم القوى والاجتماعى .

وتظهر هذه الميول واضحة فى أعمال المجرمين ، فإن كثيراً من هذه الأعمال ليست إلا انتكاساً أو رجعة إلى نوع بدائى من انفعال الكائن الحى ، واستجابته للدوافع التى تؤثر فيه . فليس القاتل على الدوام شخصاً فسدت طرق استجابته لظروف حياته ، ولكنه فى الغالب إنسان أصيب بمرض فى جهازه العصبى ، أو انحطاط فى مستواه العقلى ربما يكون قد ورثه من آبائه وأجداده ، ينشأ عنه ضعف فى سيطرته على عقله وأعصابه ، فينفعل فى وقتنا هذا كما كان أسلافه البدائيون ينفعلون فى العهود السابقة فى بيئة يعد فيها هذا النوع من الانفعال عادياً وطبيعياً لا لوم عليهم فيه . فالقاتل مثلا يحتاج إلى ساعة يشاهدها فى يد إنسان ، فيرى أن أقصر الطرق للاستيلاء على هذه الساعة أن يقتل صاحبها ؛ وتتوق نفسه إلى الشواء فيحرق البيت الذى فيه ليشبع هذه الرغبة . وإن كثيراً من هذه الحالات الإجرامية لتستعصى على جميع أنواع العلاج العقابى منها والإصلاحى ، لأن أسبابها ترجع إلى هذه الانفعالات البدائية السالفة الذكر . فهى رجعة بالإنسان إلى الميول الأولى لبنى جنسه أو إلى مرحلة سابقة من مراحل تطوره .

ومعنى هذا أن الإنسان المتمدين — أى الإنسان العاقل Homo Sapiens فى هذه الأيام — تكمن فيه أنواع من الأخلاق تلائم المراحل الأولى من تطوره العقلى ، ولكنها فى الظروف العادية مقيدة غير طليقة تمنعها من الظهور طرق أخرى من الانفعال أرقى منها فى سلم التطور . ويدلنا التحليل النفسانى على أن معظم الناس الذين نرى أنهم أفراد عاديون لا يزالون يحتفظون فى عقلهم الباطن — فى اللاشعور أو المستوى البدائى من عقولهم — بميول لم تكن معيبة قط فى المراحل الأولى من التطور البشرى ، ولكنها من الميول التى لا يسمح لها بأن تسيطر عليهم وتسيرهم فى حالاتهم الراهنة . ومن هذه الميول البدائية الميل إلى حفظ الذات وهو ميل متأصل فينا جميعاً ، ولكنه تسيطر عليه وتحبسه اعتبارات أخرى أرقى منه ؛ وهذا الميل لم يمح من الإنسان ولم يقض عليه ، بل إن بعضه قد وجه فى أثناء تطوره إلى أغراض اجتماعية وثقافية سامية ، ولكن جزءاً كبيراً من هذا الميل القديم لا يزال باقياً فى أحط درجاته البدائية حتى عند أرقى الناس ، فإذا أحاطت بهؤلاء أحوال شديدة الخطر عليهم ، وبخاصة إذا صحب هذه الأحوال جهل بحقيقة ما يحيط بهم ، برزت غريزة حفظ الذات ، وأصبحت ذات قوة هائلة ساحقة تدفع بالإنسان إلى الذعر والحرب ، مما تعافه نفسه وتشمئز منه فيما بعد . ذلك أول ما نذكره من أسباب الحرب .

وينطبق هذا القول على غريزة أخرى ، هى ميل الإنسان إلى إثبات ذاتيته ، أى تأكيد وجوده وتوسيع قواه وزيادة سلطانه . وقد تكبح هذا الميل أيضاً قوى عقلية متأخرة عنه فى النمو ، كخلال التواضع ، ومحاسبة النفس ، ومراعاة حقوق الغير ، والتقيد بالآداب ؛ ولكن ميل الإنسان إلى إثبات ذاتيته يبقى بعضه كامناً فى أعماق العقل البشرى ، حتى إذا واتته الظروف برز قوياً بحالته الأولى أو ما يشبهها ؛ وقد يحدث هذا فى حالة أرقى الخلق المثقفين ، فيكون سبباً آخر من أسباب الحروب .

ومن بين المناسبات الكثيرة التي تستطيع فيها هذه الميول البدائية أن تظهر سافرة لا تخشى منعاً ولا لوماً ، أوقات الحركات الشعبية العامة ، التي يرى فيها الفرد الجماهير من حوله تفكر كما يفكر هو ، فينقص ذلك شعوره بما عليه من تبعة شخصية نقصاً كبيراً . وهو لا يطلق هذه الميول البدائية عن قصد وتعمد ، ولكنها تبقى متحفزة للظهور والسيطرة على الإنسان ، وتكون لها الغلبة على خلاله التمدينية ، فكأنها شحنة كهربية قد انطلقت فجأة في جهاز رقيق ضعيف ، فتغلبت على ما فيه من مقاومة ، وأنارت ما حولها بنور شاحب ضئيل .

وهكذا قد يستولي الرعب على جماعة من الناس فتنتهز أول فرصة تتاح لها ، وتقدم على عمل من الأعمال لا يتناسب بحال ما مع الظروف المحيطة بها ، فتقفز إذا أثيرت كما يقفز النمر المهتاج غير آبهة حتى بسلامتها . وقد يكون في هذه الجماعة التي تحركها دوافع مشتركة وتسير في طريق مضطرب واحد ، رجال لا يجرؤ كل منهم بمفرده أن يسلك هذا الطريق الذي يسلكه مع باقي الجماعة . ولقد كانت هذه الحالة النفسية مما عرف قبل أن تجرى أية بحوث تحليلية في عقل الإنسان ، فقد كان سلوك الجماعات المختلفة في أثناء الثورة الفرنسية ، وما ارتكبته من أعمال تجاوزت فيها حدود العقل والاعتدال ، موضوعاً من موضوعات الدراسات السيكولوجية من زمن بعيد .

وما من شك في أن لاختلال اتصال الجماهير العقلي واضطرابها النفسي أثراً واضحاً في مشكلة الحرب والسلم ، ولكن التحليل العقلي العميق الذي بدأه الأستاذ «سيجموند فرويد Sigmund Freud» في هذه الأيام وسار فيه على أثره غيره من العلماء ، قد دل فوق ذلك على أن القوى العقلية قد تظل تعمل بطريقة لاشعورية ، وإن كان العقل الواعي يقظاً كل اليقظة ، ومسيطراً على الإنسان كل السيطرة في الظاهر . فهذه القوى كلها التي تبرز واضحة في الحركات الجماعية تعمل عملها أيضاً في عقول الأفراد ، وتظهر بأشكال ملتوية ، وقد تكون هناك انفعالات عقلية تراها الكثرة الغالبة من الناس عادية لا غبار عليها ، وملائمة للظروف التي تحدث فيها ، ولكنها إذا حللت تبين أنها ترجع إلى ميول أكثر منها بدائية تستمد منها قوتها ؛ فهي في هذه الحال شبيهة بشخص من أسرة مترفة يستخدم الفراغ الذي وهبته له ثروته الموروثة في القراءة وتثقيف عقله وترقية ذوقه الفني ، مع أن المال الذي مكنه من هذا كله يصل إليه من كدح الكثيرين من أبناء جنسه الذين يعملون طول يومهم ، ويعرضون حياتهم للخطر ليستخرجوا له المعادن من باطن الأرض ، ولا ينالون من الأجر ما يقيم أودهم ويحفظ عليهم حياتهم ؛ أو شبيهة بالحضارة الأثينية القديمة التي بهرت العالم بعظمتها ، ولكنها قامت على أكتاف الرقيق .

على أن القوتين البدائيتين السالفتي الذكر ، قوة حفظ الذات وقوة إثبات الوجود ، لازمتان للإنسان ولا غنى له عن نصيبه منهما . ذلك لأنه إذا لم يكن في وسعنا أن نحافظ على حياتنا فلن يكون في مقدورنا أن نعمل الخير لغيرنا . وقوة إثبات الذات قوة طيبة على العموم ، وإن كان في الإمكان توجيهها بحيث تصبح نقمة شاملة ، فتوجيه هذه القوة أو تلك إذن هو الأمر المهم . والرجل المثقف تثقيفاً حقيقياً يخضع هاتين القوتين الأساسيتين لإرادته ، ويسيطر عليهما ويستخدمهما كما تستخدم المادة الأولية في الصناعة . أما إذا أسيء استخدامهما فقد تؤديان إلى قيام نظم وأنماط من التفكير لا تتفق مطلقاً مع السلام الذي يجب أن يقوم بين الأفراد أو الأمم . والإنسان مسئول عن حسن استخدام هاتين القوتين وأمثالهما ، فإذا أساء استخدامهما فعليه تبعة نتائج هذه الإساءة ، ومن أراد الوسيلة فقد أراد الغاية . وإن نظرة معينة إلى الحياة وتوجيه القوى الداخلية وجهة غير صالحة ليؤديان آخر الأمر إلى نزاع لا يمكن تسويته إلا بالالتجاء إلى القوة .

(يتبع) محمد [illegible]

من ملاحص كتاب «رسوم دار الخلافة» :

الحِيرِيّ بِكُمَّين

السَّدِلّى والسَّدير

تمهيد :

اختص كل قطر من الأقطار العربية بطراز خاص من العمارة . والمعروف أن كثيراً من البلدان تأثرت بما يجاورها من الحضارات السالفة ، فكان الطراز «الطليني» المنتشر في سواحل بحر الروم قد تسرب إلى العراق فتوطن الحيرة : المدينة العربية الجاهلية ، الشهيرة بقصورها التي تردد صداها في الكتب القديمة . والحيرة هذه هي أم الخورنق والسدير وسنداد ؛ فتنة الشعراء والمؤرخين والبلدانيين . وفيها العذيب والصنّبر ، اللذان قال فيهما الشاعر :

ليت شعري متى تخب به الناقة نحو العذيب والصنبر

كما اشتهر فيها من القصور : الأبيض ، والفرس ، والزوراء ، والعدسيين ، وقصر ابن مازن ، والطين ، وقصر بني بقيلة الذى قال فيه بانيه :

لقد بنيتُ للحدثان قصراً   لو انّ المرء تنفعه الحصون
طويل الرأس أقعس مشمخراً   لأنواع الرياح به أنين

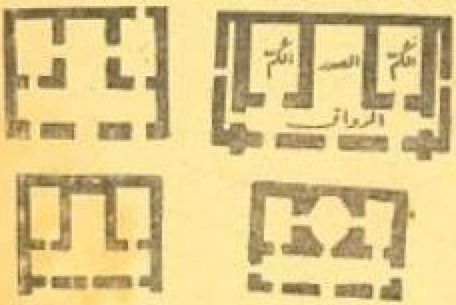
وقصر مقاتل الذي أنشد فيه الشاعر :

كأن لم يكن بالقصر قصر مقاتل
وزوورة ظلّ ناعم وصديق

ومن بين هذه القصور ، قصر السدير الذى شيد على الطراز الطليني السالف الذكر ، وأطلق على هذا الطراز بعد توطنه الحيرة بـ «الحيري والكمين» ؛ نسبة إلى الحيرة ، وإلى ضرب من الثوب المصنوع فيها .

وظهر الإسلام ، فمال الخلفاء إلى العمارة وشغفوا بها ، فشيدوا المدن والقصور ، وكان المعتصم يقول «إن فيها أموراً محمودة ، أولها عمران الأرض التي يحيى بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش . وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم ، جاءني بعد سنة إحدى عشر درهما ، فلا تؤامرني به[1] » .

وتحدثنا التاريخ أن الخليفة العباسي ، المتوكل على الله ، سمع يوما بخبر الطراز الحيري بكمين ، فشغف به وأعجبه ، وشيد غير قصر في سُرّ من رأى على هذا الطراز ، ثم أعقبه خلفاء آخرون بنوا قصورهم في بغداد والشام ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية على هذا الطراز . وسنعرض فيما يلي ما وقفنا عليه من أخبار هذا الطراز من البناء .



أبنية على الطراز الحيري بكمين
(نقلا عن كتاب حفريات سامراء ١ : ٢٦)

١ — ما وَرَدَ في كتب اللغة والأدب والبلدان عن السَّدير والسِّدلّي

(ا) : السَّدِير :

بفتح أوله ، وكسر ثانيه ، ثم ياء مثناة من تحت وآخره راء . هذه التسمية لغير موضع ؛ غير أن أشهرها في التاريخ هو القصر الذى بناه الملك النعمان بن امرئ القيس بن أوس ، أحد المناذرة ، لآل المحرّق أصحاب القصور

(١) مروج الذهب (٧ : ١٠٤ ، طبع باريس) .

الشائعة فى العراق ، وفيهم يقول الأسود بن يعفر النهشلى وهو جاهلى قديم ؛ بعد نكبة الأكاسرة لهم :

ماذا أؤمّلُ بعد آل محرّقٍ   تركوا منازلهم وبعدَ إيادِ
أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وبارقٍ   والقصرِ ذى الشرفات من سنداد[1]

قال ابن قتيبة الدينورى (المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة) :

« السدير : فارسى معرب ، وأصله سادل ، أى قبة فى ثلاث قباب متداخلة ، وهو الذى يسميه الناس (سه دلى) فأعرب »[2]

وكان سبق له أن قال : « السدير سِهْدِلّى : كان له ثلاث شعب »[3]

وذكر ابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) أن « السدير بناء ، وهو بالفارسية (سِهْدِلّى) أى ثلاث شعب وثلاث مداخلات »[4] .

وقد نقل ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) فى مادة السدير ، بعض آراء الأقدمين فى أصل الكلمة ؛ فمن ذلك قوله : « السَّدير : ... وهو معرب وأصله بالفارسية (سه دَلَه) أى فيه قباب مداخلة مثل الجـارى (كذا ، وصوابه الحارى) بكُمَّيْن . . . وقال ابن السكيت : قال الأصمعى : السدير فارسية أصله (سادل)[5] أى قبة فيها ثلاث قباب مداخلة ، وهو الذى تسميه النـاس اليوم (سِدِلّى) فأعربته العرب فقالوا : (سدير) ... قال أبو حاتم : سمعت أبا عبيده يقول هو (السِدِلّى) أى له ثلاثة أبواب ، وهو فارسى معرب . . . . . . »[6]

وقال الخفاجى (المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ) : إن « السَّدِير علم ، قصر معروف ، وقد قيل إنه معرب من الرومية ، وأصله (سه دل) أى فيه ثلاث قباب متداخلة ؛ وهو الذى تسميه اليوم سِدِلّى »[1] .

أما صاحب التاج فقد جمع كلام الأقدمين ، ثم ذهب مذهب أبى عبيدة فى تفسير السِدِلّى ، قال : « ... وسَدِير قصر فى الحيرة من منازل آل المنذر وأبنيتهم ، وهو بالفارسية (سه دلى) أى ثلاث شعب أو ثلاث مداخلات . وفى الصحاح وأصله بالفارسية (سه دله) أى فيه قباب مداخله مثل الحارى بكُمَّيْن . وقال الأصمعى : السَّدير فارسية كان أصله (سه دل) أى قبة فى ثلاث قباب مداخلة وهى التى تسميه اليوم الناس (سِدِلّى) فأعربته العرب فقالوا : (سَدِير) . قلت : وما ذكره من أن (السِدِلّى) بمعنى القباب المتداخلة ، فهو كذلك فى العرف الآن ، وهكذا يكتب فى الصكوك المستعملة ؛ وأما كون أن (السَّدِير) معرّب عنه فمحل تأمل ، لأن الذى يقتضيه اللسان أن يكون معرباً عن (سه دره) أى ذا ثلاثة أبواب[2] ، وهذا أقرب من (سه دل) كما لا يخفى »[3] .

(ب) — السدِلّى

قال فى التاج : « السِّدِلّى كزمكى معرب ، وأصله بالفارسية (سه دله) كأنه ثلاثة بيوت (كالحارى بكمين) كما فى العباب واللسان »[4] .

وقد خامر الخفاجى بعض الشك فى أصل الكلمة ومعناها ، فإنه قال : « سِدِلّى : على فعلى ؛ وقيل (سه دله) قيل : معناه ثلاثة بيوت فى بيت ، ولست على ثقة منه . وأهل مصر تستعمله بمعنى الصفة . قال ابن حجاج :

(١) معجم البلدان (٣ : ٥٠٩ ؛ مادة السدير . طبعة وستنفلد) وشعراء النصرانية قبل الاسلام لشيخو (٤ : ٤٨١) ، والألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير (ص ٨٦) .
(٢) أدب الكاتب (ص ٤٩٦ ؛ المطبعة الرحمانية بمصر) .
(٣) أدب الكاتب (ص ٤٢٢) .
(٤) المخصص (٥ : ١٢٦) .
(٥) فى معجم البلدان ؛ طبعة مصر : « سه دل » .
(٦) معجم البلدان (٣ : ٥٩ — ٦٠) .

(١) شفاء الغليل (ص ١٢٨ ؛ الوهبية) — (ص ١١٢ ؛ الخانجى) .
(٢) هذا وهم من صاحب التاج . والصواب ماص ينا آنفاً .
(٣) تاج العروس (٣ : ٢٦١ ؛ مادة س د ر) .
(٤) تاج العروس (٧ : ٣٧٤ ؛ مادة س د ل) .

ما الخليفة مثـل منـ ـجاك والسدلى والرواق

ومعربه سدير كما فى الجوهرى وغيره ، وفى شعر لابن طباطبا فى الفيل :

أعجب بفيل آنس وحشى مثل السدلى الوثيق الحبكى[1]

٢ — أقوال المتأخرين والمستشرقين فى السَّدير والسدلّى

الظاهر أن كبار المستشرقين لم يفهموا معنى السدلّى ، ومن بينهم « فريتاغ » ، فإنه قال فى تفسيرها بعد أن نقل كلام الجوهرى إلى اللاتينية : لم أجد شيئاً عن « الحارى بكمّين » !

وقال «لين» المستشرق الانجليزى فى «مد القاموس» ما هذا تعريبه . « هو بيت طويل فيه مبهوان فى كل من الجانبين ، يبدو لمشبهما بهيئة ثوب منتفخ فيه كُمّان ضخمان ويطلق هذا اللفظ فى أيامنا هذه على مبهوة واحدة من الجنس المذكور فويق هذا ، تكون أرضها مرتفعة فوق الغرفة الرئيسية بنحو نصف قدم أو يكاد . وهناك فراش ووسائد على جانب من جوانبه الثلاثة أو على كل منها . نقل ذلك فوليوس معتمداً فى شرحه هذا على الصحاح الذى ليس فيه إلا قوله : السدلّى على فعلى معرب وأصله بالفارسية (سه دله) كأنه ثلاثة بيوت فى بيت كالحارى بكمّين» انتهى كلام لين .

فالظاهر من هذا الكلام أن فوليوس لم يفهم كلام فصحاء العرب ، وكذلك لين . أما فرميرسكى فإنه أغفلها ولم يتعرض لها .

وقال دوزى[2] : «سدلة كسدلّى ، وهى تخت طويل محشو يجلس عليه كالسرير ، وله متكأ للظهر » .

فالسدلة ليست مرادفة للسدلّى كما ظن دوزى ، بل

(١) شفاء الغليل (ص ١١٨ ؛ الوهبية — ص ١٠٣ ؛ الخانجى) .

(٢) تكملة المعجمات العربية : (٦٤٢١) .

Dozy : Supplément Aux Dictionnaires Arabes, (Leyde, 1881).

هى معربة من الرومية أى اللاتينية Sedile بالمعنى الذى أشار إليه اللغوى المذكور ومن تابعه[1] .

وقد ذكر السيد أدّى شير كلاً من السَّدير والسدلّى ، فقال فى الأول : « السدير وهو معرب (سَه دِر) ، قال فى البرهان القاطع : (سَه دِر هو قصر الخورنق المشهور الذى بناه السِّنمار ، وقيل له سه در لأنه كان فى داخله ثلاث قبب ؛ فإن در باللغة البهلوية معناها القبة ... »[2] .

وقال فى الثانية : « السدلّى : هو كثلاثة بيوت فى بيت كالحارى بكمين ، مركب من (سَه) أى ثلاثة ، ومن (دِل) أى وسط ، أو من (دِر) أى القبة ؛ أو هو تصحيف السدير »[3] .

وخلاصة هذه الأقوال فى السَّدير والسدلّى ؛ أن كلمة السدير معربة وأصلها بالفارسية «سِه دَله» ومعناها قبة فى ثلاث قباب متداخلة . وعلى مر الأيام جرت الكلمة على ألسن الناس بـ « السدلّى » .

٣ — السدلّى فى دار الخلافة العباسيّة ببغداد

أكثر أخبار السدلى فى دار الخلافة ؛ يلقاها المرء فى أوصاف الاحتفالات القائمة فى هذه الدار . ولعل حفلة الخلع على عَضُد الدولة وتلقيبه بتاج الملّة ، والعهد إليه بولاية الأمور (سنة ٣٦٧ هـ) من أروع الاحتفالات التى أقيمت فى هذه الدّار ، وللسدلى فى هذا الحادث أخبار حسان ، ودونك بعض ما ذكره هلال بن المحسّن الصابئ (المتوفّى سنة ٤٤٨ هـ) بصدد هذا الاحتفال . قال : « وحدثنى على بن عبد العزيز بن حاجب النعمان : أنّ عضد الدّولة راسلَ الطّائع لله عند استقرار ما استقرّ من الخلع عليه وتلقيبه تاج الملّة ، والعهد إليه بولاية الأمور ، وذلك

(١) أخذنا أغلب هذه الفقرة مما كتبه العلامة الأب أنستاس مارى الكرملى فى لغة العرب (٢ [١٩١٢] ص ٥١٦ — ٥١٧) و ٦ (١٩٢٨) ص ٢١٢) .

(٢) الألفاظ الفارسية المعربة (ص ٨٦ — ٨٧) .

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة (ص ٨٨) .

في سنة سبع وستين وثلاثمائة ، وقال : أسأل أن يكون دخول دار السلام(١) راكباً لأتميّز تميّزاً يعرف به موضعي من زيادة التكرمة ، وأن يُحدّ في وجه الخليفة ستارة لئلا يراه أحدٌ قبل مثوله بين يديه . وأراد بهذا ألا يراه الناس وهو يقبّل الأرض ، فوُعد بما سأله ، وعُمل دون الباب الذي يدخل منه قطع بآجر وطين . فلما دخل راكباً لم يمكنه تجاوزه . وكان ترتيب الأمر أن جلس الطائع لله رحمة الله عليه على السرير في صدر السُّدَلي من دار السلام في دَسْت خزّ أسود نسيج بالذهب ، وحوله من خدمه الخواص نحو مائة خادم بالزينة الحسنة ، والأقبية الملوّنة ، والمناطق ، وسيوف الحمائل المحلاة ، وبأيديهم الدبابيس والطبرزينات ، ومن جانبي السرير الخدم الشيوخ الصقالبة الطبيعيّة . . . . وضربت على الأساطين الوسطى ستارة ديباج . . . . ومدّت الحبال في صحن السلام على أعمدتها . . . (٢) »

(١) لا يقصد بـ « دار السلام » هنا مدينة بغداد ، بل أحد قصور دار الخلافة العباسية الذي فيه صحن السلام .

(٢) رسوم دار الخلافة (ص ١٠٩ — ١١١ من المخطوط) وهو كتاب أعددناه للنشر ، بعد أن حققناه وعلقنا عليه ، وألحقنا به فهارس مفصلة ، وملاحق متنوعة . وللقارئ الذي يود بحث أحد تلك الملاحق ، مطالعة ما كتبناه بشأنه في مجلة الرسالة (العدد ٣٦٩ ، ص ٩٧٢ — ٩٨٠) وهناك إشارات متفرقة عنه في : مجلة الثقافة (العدد ٩٨ ؛ ص ٣٩) ، والمقتطف (الجزء الثالث من المجلد الثامن والتسعين ، مارس ١٩٤١ ، ص ٢٤٦) ، ومجلة غرفة تجارة بغداد (العدد الثالث آذار ١٩٤١ ، ص ٢١١) .

ثمّ واصل كلامه بقوله : « ووصل عَضُد الدولة إلى باب السُّدَلي بين السماطَين ، وما يتحرّك أحد مما وراء الحبلَين ، وكان مرجان الخادم واقفاً في الصحن ، وبيده قوس جُلاهق ؛ حتى إنْ طار غُراب أو نعب رماه ومنعه . ولما انتهى عضد الدولة إلى باب السدلي ؛ التفتَ الطائع لله إلى خالص وقالَ له : استدنه ، فصعد عضد الدولة العتبة وقبّلَ الأرض دفعتين في عرض السدلي ، وقال له الطائع ... »(١)

وقال بعد ذلك : « وأعادَ الطائع لله القول في التفويض إليه ، والتعويل عليه . ثمّ التفتَ إلى طريف الخادم ، فقال : يا طريف تُفاضُ عليه الخِلَع ويُتوّج ، فنهضَ عضد الدولة وحُمل إلى الرواق الذي يلي السدلي ، ودخل معه عبد العزيز بن يوسف ... »(٢) .

وقُبيل انتهائه من وصفه لهذا الاحتفال التاريخيّ قال :

« فلمّا أراد عضد الدولة أن ينصرف ، راسل الطائع لله وقال : إنني أتطيّر أنْ أرجعَ على عقبي ، وأسأل أن يتقدّم بفتح هذا الباب لي . وأومأ إلى الباب الدواري النافذ من السدلي إلى الحدائق ، وكان المحدث الذي به ينفتح إلى دجلة ، فأذن في ذلك ... »(٣) .

البحث بقية

ميخائيل عواد

(١) رسوم دار الخلافة (ص ١١٣) .

(٢) رسوم دار الخلافة (ص ١١٤ — ١١٥) .

(٣) رسوم دار الخلافة (ص ١١٦ — ١١٧) .

مكانة الأدب العربى

بين آداب الأمم

حـ — الفارسية القديمة :

١ — ترجمت من الفهلوية ، وهى الفارسية التى كانت شائعة حين ظهور الإسلام ، إلى العربية كتب فى التاريخ والسياسة والأخلاق والحكم ، فكانت مادة لكتّاب العربية وشعرائها .

وكذلك عرفت سير الفرس وخرافاتهم حتى ألفت فيها كتب بالعربية ، مثل كتاب الثعالبى : غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم . واقتبس أدباء العرب منها وأشاروا إليها كما قال أبو تمام مشيراً إلى أسطورة الضحاك وأفريدون :

ما نال ما قد نال فرعون ولا
هامان فى الدنيـــا ولا قارون
بل كان كالضحّاك فى سطواته
بالعالمين وأنت أفريدون

وكما قال أبو نواس مشيراً إلى أسطورة الضحاك ، التى تتضمن أنه أحد ملوك اليمن غزا إيران وملكها ، وإلى قصة أسر قابوس (كيكاوس) فى بلاد حمير (هاماوران) :

وكان منا الضحاك يعبده الخا
بل والجن فى مساربها
وقاظ قابوس فى سلاسلنا
سنين سبعاً وفت لحاسبها

وكما قال بديع الزمان مشيراً إلى أسطورة طهمورث أحد الملوك البيشداديين حين ركب الشيطان وسخّره ، قال فى مدح السلطان محمود الغزنوى :

إذا ما ركب الفيـل لحرب أو لميـدان
رأت عيناك سلطاناً على كاهل شيطان

وقد صرح بهذا شاعر آخر فى قوله :

ياليت مُلك أصبحت له المعـــالى خيما
وراكباً من فيله مســـتطرفاً نقيما
كأنه طهمــــورث لما علا إبليســا

وكذلك كانت رسائل الفرس وعهودهم أثر فى الترسل العربى عرفه أدباؤنا من قبل .

د — وأما آداب الأمم الإسلامية فقد أخذت من معانى الأدب العربى وموضوعاته وألفاظه وأساليبه ، حتى شاركته فى معظم الموضوعات ، وحتى صار العروض العربى وعلوم البلاغة العربية عروض هذه الآداب وبلاغتها .

وكان الأدب الفارسى واسطة بين الأدب العربى والأدب التركى والأدب الأردى أو الهندستانى اللذين طبعا على غراره . فإذا أجملنا القول فى الصلات بين الأدبين العربى والفارسى الإسلامى ، فقد عرّفنا بالصلات بين أدبنا والآداب التركية والأردية كذلك .

نشأ الأدب الفارسى الحديث فى أواخر القرن الثالث الهجرى فى حضانة الأدب العربى محاكيا موضوعاته وصوره ، مكتوبا بخطه ، مملوءا بألفاظه .

وأخذ الفرس أوزان الشعر وقوافيه ، ولم يكن لهم غيره مثالا يحتذونه ، فليس يعرف حتى اليوم شىء عن الشعر الفارسى قبل الإسلام . وتتفق روايات العرب والعجم ممن كتبوا عن الشعر الفارسى أنه محاكاة للشعر العربى . ويروون أن بهرام گور تعلم الشعر من العرب فى الحيرة فنقم عليه الموابذة وما زالوا به حتى كفّ عنه . وحسب الباحث أن يطلع على كتاب فى العروض الفارسى ، ككتاب المعجم فى معايير أشعار العجم لشمس الدين قيس ، ليعلم صدق هذه الدعوى . على أن الفرس لهم تصرف فى الأوزان العربية ، ولهم خصائص فى فنون الشعر لا تنكر ولكنها ليست موضوع بياننا .

وكذلك أخذ أدباء الفرس موضوعات النثر العربى وأساليبه ، ولكن لم ينبغوا فى النثر نبوغهم فى الشعر .

وأخذوا كذلك فن البلاغة العربية موضوعا وألفاظا فبحثوا فى البيان والمعانى والبديع على السنن المعروفة فى الكتب العربية . وحسبك أن تقرأ كتاب حدائق السحر لرشيد الدين الكاتب العمرى المعروف بالوطواط ، وكان كاتباً باللسانين العربى والفارسى .

وعن الفرس أخذ الترك والهند كما أخذوا عن العربية مباشرة . ولا عجب فالأدب العربى كان بعد ، ويبقى أن يعد ، أدب المسلمين كافة .

ولست أرى حاجة بعد هذا الإجمال إلى أن ألخص الأدب التركى أو الأردى بكلمة تبين كيف نشأ ، وتعرف مقدارما أخذا عن الأدب العربى مباشرة أو بوساطة الفارسية .

هـ — اليونان :

سيطرة الفلسفة والعلوم اليونانية على الثقافة العربية منذ نقل المسلمون هذه الفلسفة وتلك العلوم إلى العربية ، أمر لا ريب فيه . ولا جدال أن شيوع الأساليب المنطقية كان ذا أثر بيّن فى الكتب العلمية العربية ، وكان له من وراء هذا أثر فى الأدب ؛ ولكننا لا نبحث هنا عن الأثر العام الذى يكون من اتصال آداب العرب بفلسفة الأمم الأخرى وعلومها ؛ بل بحثنا فى الأدب بالمعنى الخاص وتأثره بموضوعات أدبية منقولة من أمم أخرى ، أو بأساليب فى النظم والنثر تحاكى أساليب آداب هذه الأمم .

ونحن نعلم ما أثر الأدب اليونانى فى الأدب الرومانى موضوعاته وأشكاله ، وكيف أثر هذان الأدبان فى الآداب الأوربية منذ عصر النهضة الذى اطلع فيه أهل أوربا على آداب اليونان والرومان ؛ ولكن العرب لاعتدادهم بآدابهم ، واعتزازهم بدينهم ، لم يحاولوا نقل أشعار اليونان وخطبهم إلى العربية ، ولو أنهم اطلعوا عليها لوجدوا فيها من غرابة موضوعاتها ووثنيتها ما يصدهم عنها . والأمر فى الآداب ليس كالأمر فى العلوم ، الأولى نتاج العواطف والتاريخ والبيئة والدين ، والأخرى نتاج الطبيعة لا تختلف فى أمة عن أخرى ولا فى عقل عن عقل إلا قليلا .

عرف العرب أسماء بعض خطباء اليونان ، وعرفوا اسم هومير الشاعر ، ولكنهم لم يبالوا بأشعارهم وخطبهم .

وقد اطلع العرب على كتابى الشعر والخطابة لأرسطو ولكنهم لم يخرجوهما من كتب الفلسفة إلى الأدب ليحاكوا أفانين الخطابة اليونانية والشعر اليونانى .

لم يؤثر اليونان إذاً فى البيان العربى أثراً يذكر ، ولكنهم أثروا فى علوم البيان . فعلوم البلاغة منذ القرن الثالث يظهر فيها أثر المنطق وأثر تقسيم أرسطو كما نرى فى نقد النثر لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ ، وفيما كتب من بعده فى علوم البلاغة ، لاسيما بعد أن جاوزت مجال الأدب وتحجرت فى القواعد التى نعرفها فى كتابى المفتاح والتلخيص وشروحهما .

وقد أدرك ابن الأثير صاحب المثل السائر الفرق بين اطلاع العرب على تقسيم اليونان لموضوعات الخطابة ، وبين تأثر العرب بها ، وبيّن أن العرب ساروا على سنتهم منذ الجاهلية لا يبالون فى منشآتهم بتلك القواعد والأقسام التى أثرت عن اليونان .

إنما أثر اليونان فى الأدب العربى ، بما ترجم عنهم من حكم وقصص وأساطير ، كالتى نقلت عن الهند والفرس . وقد عقد ابن النديم فصلا لكتب الروم فى الأسمار والتواريخ التى نقلت إلى العربية ، ومنها كتاب تاريخ الروم ، وكتاب أدب الروم ، وكتاب موريانوس فى الأدب ، وكتاب الطوس السائح وملك الروم الخ . وآثار هذه واضحة فى كتب الأدب العربى وفى كثير من معانى الشعراء .

للكلام بقية **عبد الوهاب عزام**

بؤس يضحك

مترجمة عن مارك توين

علمت بالحوادث التالية من كتاب أرسلته إلىّ فتاة تقيم فى قرية سان جوزيه الجميلة ، لم تسبق لى معرفتها أبداً ، وقد أمضت كتابها بـ (ماريا أورليا) فقط ، ومن المحتمل أن يكون الاسم مستعارا ، ولكن ، مهما يكن الأمر ، فالفتاة المسكينة كسيرة القلب بالنحوس التى قاستها ، ومضطربة النفس من نصائح أصدقائها مدعى الإخلاص وأعدائها الخادعين ، ولا تدرى فى أى ناحية تعتمد على نفسها لتقرر التخلص من شباك الصعوبات التى يظهر أنها أحاطتها من كل ناحية . ومن غير أمل فى الارتباك الذى هى فيه فكرت فى الالتجاء إلىّ والتمست منى أن أقودها وأنصحها ، كتبت هذا بلاغة مؤثرة لم تمس منى بكل أسف إلا قلب تمثال أصم ، واسمعوا قصتها الحزينة :

كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، كما قالت لى ، حينما قابلت ، وأحبت بكل ما فى الروح المتعطشة من قوة وحرارة شابا من (نيوجرسى) يدعى وليام سولن ، وتعاهدا على الزواج بعد موافقة الأهل والأصدقاء ، وفى مدة من الزمن ظهر أن حياتهما اختصت وتميزت بمناعة ضد الأحداث ، مع حظ يفوق الحظ العادى للناس . ولكن فى يوم من الأيام تغير وجه الحظ لهم وعكر صفوهم ، فأصيب وليام بمرض الجدرى الخبيث ؛ وحينما تم شفاؤه ووجد الصحة كان وجهه قد تخرق مثل قرص العسل ، وذهب بهاؤه ، واختفى كل ما فيه من جمال إلى الأبد .

فكرت « ماريا » فى فسخ تعهدها ولكن شفقتها على هذا التعس جعلتها ترضى بتأجيل الزواج إلى وقت آخر ، وبهذا تركت للبائس حظاً يستطيع تجربته .

وفى عشية اليوم نفسه الذى وجب أن يتم فيه الزواج بينما كان وليام يتبع طائرة بنظره ، وقع فى حفرة فانكسرت ساقه ، ولزم عند علاجه أن تبتر الساق من فوق الركبة .

حاولت ماريا من جديد فسخ العهد ، ولكن الحب انتصر أيضاً من جديد ، وتأجل الزواج لما بعد الشفاء والنقاهة .

ولكن مصيبة أخرى حلت فوق الخطيب التعس ، فلقد فقد ذراعا من طلقة لم يرها من طلقات المدفع التى يطلق احتفالا بالعيد الوطنى ؛ وبعد ذلك بثلاثة أشهر فقد الذراع الآخر أثناء اشتغاله أمام آلة من آلات الحليج .

تمزق قلب ماريا بهذه اللفات الأخيرة ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من هذا الحزن العميق وهى ترى حبيبها يفارقها قطعة بعد قطعة ، وجزءا بعد جزء . ثم فكرت فى أنه مع هذه الطريقة السريعة فى الهبوط لن يبق شىء بعد ذلك ، وهى لا تدرى كيف توقفه عن ذلك السيل المنحوس ، وفى هذا اليأس المخيف كادت تتأسف أسفا يشبه أسف التاجر الذى يصر على صفقة تزيد خسارته فيها كل يوم ، من أنها لم تقبل وليام أولا قبل أن يقاسى هذا النحس المرعب .

ولكن قلبها ارتفع أخيراً إلى درجة أخرى من التضحية وقررت محاولة قبول حال خطيبها الحزينة مرة أخرى أيضاً . وما قرب يوم الزواج حتى تجمعت السحب فوق هذا الصفاء المختلس ، فأصيب وليام بمرض جلدى فقد على أثره نور إحدى عينيه . فاعتبر كل أهل الفتاة وأصدقائها أنها برهنت على إصرار كريم مفرط تجاوز كل حد معقول ، ولا يستطيع إنسان أن يطلبه منها بحق وعدل ، وتدخلوا فى الأمر طالبين منها أن تفسخ تعهدها . ولكن بعد ما ترددت ماريا قليلا فى عواطفها الشريفة الكريمة قالت : إنها فكرت برزانة فى المسألة فوجدت أنها لم تجد فى وليام ما يوجب اللوم . وإذاً فقد انتصر الحب كعادته ، وأجل تاريخ الزواج أيضاً .

ثم فقد وليام رجله الأخرى .

لقد كان يوما حزيناً حقاً لهذه الفتاة المسكينة وهي ترى الجراح يحمل بخشوع الكيس الذي عرفت استعماله بالتجارب السابقة ، ودهما قلبها بشدة على أن شيئاً من حبيبها قد اختفى ، وشعرت بأن ميدان عواطفها يتضاءل يوما بعد يوم ، ولكنها أجابت مرة أخرى بالسلب على إلحاح كل أهلها وأصدقائها وجددت العهد .

وأخيراً قبل أجل الزواج المحدد بأيام قليلة حلت مصيبة أخرى .

كان الهنود يخطفون في كل عام شابا أمريكيا ، يجزون شعر رأسه ، ثم يطلقون سراحه ، وكان وليام سون هو المنكود الذي حلت به نقمة الهنود في هذا العام . لقد أسرع إلى خطيبته حينا فقد شعر رأسه إلى الأبد ، وفي هذه الساعة المرّة لعن ذلك الحظ الساخر الذي لم يقض على حياته .

وأخيرا ، وماريا جد حائرة في الطريق الذي يجب عليها أن تسلكه ، فهي تحب أيضاً خطيبها ، كما كتبت إليّ ، أو على الأقل تحب هذا الذي بقي منه من كل قلبها ، ولكن عائلتها تعارض بكل ما لديها من قوة في الزواج ، فوليام ليس له ثروة ، ثم هو غير صالح لأي عمل من الأعمال ، وهي ليس لها جهة أخرى لدخل يكفي اثنين من غير عناء ، سألتني : « ماذا يجب أن أفعل ؟ »

ورأيي أن هذه مسألة دقيقة ، مسألة يتحتم على الجواب فيها أن يحكم في مصير امرأة وتقريباً ثلثي رجل . وفي اعتقادي أن في هذا الجواب مسئولية خطيرة يجب اعتبارها بميزان دقيق وتقديرها بكل تعقل ، بكم من المال يُستطاع الوصول إلى إعادة وليام كاملا ؟

لو تستطيع ماريا أن تتحمل المال اللازم بأن تشترى لحبيبها المبتور بدنا ورجلين من الخشب ، وعينا من الزجاج ورأساً مستعارة من الشعر ، ليصير بعد ذلك مقبولا ، ثم تمهله بعد ذلك مدة تسعين يوما — من غير عدة طبعاً ! — وتحاول الزواج به .

إني أعتقد أنها لو فعلت هذا لا تتعرض لخطر شديد بأي شكل كان ، فلو تمخضت غريزة خطيبك النادرة ياماريا عن كسر شيء منه في أي فرصة تسنح فتجربته الأخيرة ستكون يقينا نهائية ، وحينئذ ستكونين مطمئنة ، متزوجة أو غير متزوجة ، أما متزوجة فلأن الأرجل الخشبية والأشياء الأخرى المملوكة للمتوفى تصير من غير نزاع لأرملته ، وأما لو لم يكن هذا آخر جزء حي من زوج شريف بائس حاول طول حياته فعل الأحسن ، ولكنه صادف ضده غرائز شاذة الهدم .

تجربي الحظ ياماريا ، لقد فكرت زمنا طويلا من أجلك ، وقلبت المسألة بحثاً وإمعانا ، ويقيني لو حاول وليام تجربته الأولى بكسره العنق لكان قد تصرف بعقله ، ولكن مادام قد اختار طريقة أخرى وقرر البقاء بقدر الإمكان ، فإني أعتقد ، وأنا على حق ، أننا لا نستطيع لومه لأنه فعل ما أعجبه وراق في نظره . يجب علينا أن نحاول أخذ أحسن الأنصبة من الظروف من غير أن نثور ضده أليس كذلك ؟

عبد الرحمن عبد اللطيف

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

...

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
لستة أشهر	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١ قرش صاغ

أمــــير الـكـهـربا

«فراداى Faraday»

وجه غلادستون إلى فراداى سؤالا يستوضحه فيه عن المباحث التى كان ينفق عليها أوقاته وجهوده . فقال له فراداى : « صبراً يا سيدى فقد تجبى منه الحكومة أموالا طائلة . . » وقد صدقت تنبؤات فراداى ، فإذا بحوثه فى الكهربا وابتكاراته فيها هى الأساس الذى شيد عليه أكثر الصناعات الحديثة . وقد أحصى ما جنته أمريكا من الصناعات القائمة على (اكتشافات فراداى) فإذا هو أُلوف الملايين من الجنيهات .

هناك مئات من الصناعات والمعامل قائمة على مباحث (فراداى) فى الكهربا ، وفى هذه يشتغل ملايين العمال ، ولولاها لما وجدت الثروات الضخمة ، ولما كان الرخاء على ما هو عليه ، فلقد أسفرت نظرياته وآراؤه عن أعمال تبلغ أموالها ملايين لا تحصى .

ظهر (فراداى) فى أواخر القرن الثامن عشر الميلاد فى إنكلترا ، وكان أبوه حداداً . وقد عانى فى أول حياته ضنكا شديداً سيما بعد أن أصيب والده بداء أقعده عن العمل . أما تعليمه فكان عادياً ؛ تلقى مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، وكان كما يقول عن نفسه « يقضى الوقت خارج المدرسة لاهياً فى البيت أو فى الشارع » ، ولم يظهر منه أثناء هذه المدة ما يدل على نبوغ أو مقدرة عقلية فائقة . وفى الثالثة عشرة من عمره استخدمه بائع كتب وصنعته تجليد الكتب . وصادف أن وقع بين يديه كتاب (وط Watt) فى ترقية العقل فقرأه وهو يجلده ، ثم اطلع على كتاب (أحاديث عن الكيمياء) لمسز مارست ، كما قرأ أيضاً أثناء التجليد الفصل المتعلق بالكهربا فى دائرة المعارف البريطانية ، فأثار فيه رغبة الاستزادة والبحث فى حقائق الكهربا .

هذه الرغبة دفعته إلى شراء بعض الآلات البسيطة ليجرب بها بعض التجارب فى بيت أبيه . وهنا أدرك أنه فى حاجة إلى التعليم .

وكيف السبيل إلى ذلك ؟

حضر بعض المحاضرات التى كان يلقيها المستر (تاتم) فى داره حول الفلسفة الطبيعية ، وبمساعدة بعض أصدقائه سمح له بسماع محاضرات السير همفرى دايفى فى المعهد الملكى . وقد دوّن (فراداى) هذه المحاضرات وزينها بالرسوم التى تفسر معانيها ، ثم أرسلها مع كتاب إلى السير (دايفى) يطلب منه أن يساعده فى طلب العلم وخدمته .

رأى فيه السير (دايفى) ذكاء وقابلية يمكن الاستفادة منهما ، فأخذ بيده ومهد له أسباب التقدم . وصادف أن خلا منصب معاون فى المعهد الملكى ، فاستدعاه وعرض عليه المنصب فقبله . وكان عمله ينحصر فى بادئ الأمر فى مساعدة المحاضرين فى إعداد معدات التجارب العلمية المختلفة لقاء أجر زهيد جداً . وهنا بدأت مواهبه تبرز ، ومداركه تتفتح ، وعمل (دايفى) على نموها ، فإذا هو يشتغل سكرتيراً للسير (دايفى) ، وإذا هو عضو فى الجمعية الفلسفية بلندن يحاضر فيها نتائج تجاربه وبحوثه .

كان لهذه المحاضرات وقع كبير عند علماء الإنكليز ، لفتت أنظارهم وأعلت من مقامه عندهم ، فانتخبوه عضواً فى الجمعية الملكية .

ذاعت شهرته العلمية بعد انتخابه هذا ، فانتخبته جمعيات البلدان الأخرى العلمية عضو شرف ومنحته أوسمتها ، وانهالت عليه ألقاب الشرف من مختلف الجامعات والحكومات ، وكافأته الحكومة البريطانية على خدماته الجلى لعلم ، بأن أقطعته معاشاً دائماً ساعده على متابعة تجاربه ومواصلة بحوثه ودراساته إلى أن وافته منيته سنة ١٨٦٧

طلب أحد محرري المجلات من (فاراداي) أن يكتب مقالا عن نشوء المغناطيسية والكهربا ، فأخذ يحضر مقاله ، ورأى أن يعيد التجارب التي سبق له أن أجراها ليتحقق من صحة نظرياته واستنتاجاته ، وقد أوحت إليه تجاربه هذه أن يتشكر وسيلة يستطيع بها جعل القطب المغناطيسي يدور حول السلك المار فيه التيار ، وأخرى يستطيع بها جعل السلك يدور حول القطب المغناطيسي .

ليس من شأننا أن نبحث في طريقته التي جعلت القطب يدور حول السلك أو السلك يدور حول القطب ، ولكن يمكن القول أنه نجح في تجاربه نجاحاً لم يسبق إليه ، نجاحاً نتج عنه فتح جديد لبحوث خطيرة في المغناطيسية الكهربية ، على ضوئها قام العلماء فيما بعد في إجراء تجارب أخرى أدت إلى الوقوف على ما هو أعجب من السحر .

قد يبدو لبعض الناس أن تجارب (فاراداي) ليست من الأهمية بمكان ، وأنها أمور بسيطة لا تستحق عناية الباحثين ولا اهتمام العلماء .

ولكن كيف تكون تجاربه بسيطة لا يؤبه لها ، وعلى أساسها بنيت كل الصناعات الكهربية ، وكانت الدعائم التي قامت عليها تطبيقات كهربية هامة ؟

لم يقف (فاراداي) عند هذا الحد . لقد دفعه حب العلم ودفعته الرغبة في الاستزادة إلى مواصلة البحث في مسائل نتج منها تقدم الكهربا وارتقاؤها .

وضع أمامه هذا السؤال :

لقد أحدثت بوساطة التيار مجالا مغناطيسياً . فلماذا لا أحدث تياراً من المغناطيس ؟ ؟

لجأ إلى المختبر ، وأجرى تجاربه ليجد حلا لهذا السؤال ، وبعد لأي خرج بنتائج باهرة ، إذ أحدث تياراً بتأثير المغناطيس ، وبيّن أن التيار التأثيري يحدث في سلك أو موصل إذا تحرك بالقرب من المغناطيس ، كما أوضح أن القوة الدافعة التأثيرية — وهي التي تنشأ عنها التيارات التأثيرية — تحدث كلما قطع الموصل خطوطاً من خطوط المغناطيسية ، وكلما تغيرت القوة التي تخترق دائرة هذا الموصل . فوضع بذلك القانون المسلم الذي تحدث بمقتضاه التيارات التأثيرية .

على أساس هذه البحوث والتجارب قامت تجارب أخرى أدت إلى كشوف تقدمت بعلم الطبيعة خطوات واسعة ، نتج عنها المحركات والمولدات وما يتفرع عنها من المستنبطات الحديثة كالتلفون ، والتلغراف ، واللاسلكي ، والنور الكهربي ، وألوف من الآلات الصغيرة والكبيرة التي دلت استخدام الكهربا في شؤون الحياة . وقد صدق أحد العلماء حين قال : لولا قوانين التيارات الكهربية التأثيرية التي وضعها (فاراداي) لبقيت أعمال الكهربا سراً غامضاً . فهو بذلك قد جلا كثيراً من غموضها وسهل استخدامها لما يعود على الإنسان بالفائدة والتقدم .

نشر (فاراداي) في سنة ١٨٣٣ بحوثاً جليلة في التحليل الكهربي Electrolysis تدور حول علاقة التيار الكهربي المار في الدائرة الكهربية بمقدار ما يتحلل من المادة أثناء مروره فيها ، ووضع بذلك قوانين التحليل المعروفة (بقوانين فاراداي في التحليل) ، ولا يخفى أنه على أساس هذه القوانين بنيت صناعة التلبيس الكهربي والآراء الكيماوية الجديدة في بناء المادة الكهربية .

وإليه ينسب وضع أكثر الاصطلاحات المستعملة في التحليل ، كالأنود Anode والكاثود Cathode والايون ion والالكتروليت Electrolyte ، وصنع أول آلة دقيقة لقياس الطاقة الكهربية . وبحث في الكهربا المستمدة من الأعمدة الفولتية Voltaic Cells ، وقال إن التيار الذي يأتي منها هو نتيجة لتفاعله الكيماوي ، وعزز هذه الأقوال بتجارب عدة . وله بحوث في موضوعات أخرى استدل منها على أن التأثيرات الكهربية متشابهة وحقيقتها واحدة مهما تنوعت مصادرها وتعددت ،

لقد أجرى (فراداى) بحوثه هذه وتجاربه التي أتينا على نتائجها بإيجاز خلال عشر سنوات . وهي في نظر العلماء تمثل دوراً من أدوار الكشوف التي يندر أن يوفق إلى مثلها شخص واحد . وقد أعقبتها فترة سكون دامت أربع سنين . وفي سنة ١٨٤٥ دخل ميدان العلم العملي ثانية وأضاف مآثر جديدة لا تقل خطورة وأهمية عن مآثره السابقة التي تعد من أمجد الأعمال العلمية الخالدة .

تعرض لموضوعات عويصة في علاقة النور بالكهربا وطبيعة النور المستقطب ومغناطيسية المواد ، وقال بأنه لا بد أن يجيء يوم يثبت فيه أن هناك صلة بين الضوء والاهتزازات الكهربية المغناطيسية في الأثير . وجاء بعده (كلارك مكسويل) وبعد درس وتحليل خرج بمعادلات رياضية أثبت منها أن في الفضاء اضطرابات كهربية مغناطيسية تتصف بصفات الضوء ، أي أن الاضطرابات الناشئة من شرارة كهربية تبدو في مظهر أمواج في الأثير لا نراها ، ولكنها كالأمواج التي تحدث الضوء والحرارة وتسير جميعها بسرعة الضوء ، وقدرها (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية !! ...

لا يخفى أن الرياضيات من أمضى الأسلحة التي يستعملها العلماء ليتمكنوا بها من الوقوف على دقائق العلوم وتطبيقها ، فلولا المعادلات والأرقام لما كانت موتورات ولا محركات ولا تقدم في الصناعات أو الآلات ؛ فمن العلماء فريق اتخذ العلوم الرياضية قاعدة لمذهب علمي ، ثم يحقق هذا المذهب بالتجربة والامتحان والاستقراء ، ومنهم فريق يبدأ بالتجارب من غير أن يقصد تحقيق رأي خاص ، ويخرج منها بنتائج يبوّبها ويستخرج منها أحكاما عامة .

لم يكن (فراداى) من هؤلاء ، ولا من أولئك ، ولكنه كان « ذا نظر نافذ إلى طبيعة الأشياء ، حتى كأن ريشة سحرية كانت تخط على صفحات عقله الآراء المبتكرة ، فيمتحنها في مختبره ببراعة نادرة المثيل ، وفي الغالب كانت تجاربه تمت صحتها . . . »[1] فكشف مكتشفات خطيرة في نواميس الكهربا والمغناطيسية جعلته في المقام الأول بين علماء الطبيعة ، جديراً بلقب أمير علماء الكهربا .

ولم تقتصر بحوثه وتجاربه على الكهربا فحسب ، بل إنه جال في ميدان الكيميا ، وقد نشر أول مقال له في مجلة المعهد الملكي حول (تحليل الكلس الكاوى) ، وقرأ أمام الجمعية الملكية رسالات علمية تبحث في مركبات جديدة من الكلور والكربون ، ومركب آخر من البورون والكربون والهيدروجين ، كان لها وقع عظيم عند العلماء . وأجرى بعض التجارب مع (ستودارت) في بعض أمزجة الصلب لتقسيته وحفظه من الصدأ . واستنبط بمعاونة دايفي مصباح دايفي الذي يستعمله أصحاب المعادن في المناجم . وأجرى تجارب عدة في تسييل الغازات . وكشف البنزين باستقطاره من قطرات الفحم الحجري ، ولا يزال مقدار البنزين الذي استقطره محفوظاً في المتحف البريطاني . ولا يخفى ما لهذا الاكتشاف من أثر في كثير من الصناعات الحديثة .

أظن أني لست بحاجة إلى القول إنه من الصعب الإلمام بمآثره في الكيميا والكهربا في مقال أو مقالين ، ولكن يمكن القول إن (فراداى) من أعظم العلماء العمليين ، ومن الذين تركوا مآثر خالدة لا يزال العالم ينعم بها وبما نتج عنها من تطبيقات هي أساس التقدم العظيم الذي أصاب الصناعة الحديثة .

وعلى ذلك فهو من أكبر أمراء العلم الذين وضعوا الأركان والأسس التي تقوم عليها غرائب الكهربا ومقومات العمران الحديثة .

(نابلس) **قدري حافظ طوقان**

---

(١) اعتمدنا في هذا المقال على مصادر عدة منها : كتاب أساطين العلم الحديث لسروف . علم الطبيعة تقدمه ورقيه لمحقق طلب بك . دائرة المعارف البريطانية . كبار رجال العلم لولسون . تاريخ الفيزياء لكاجوري . أعلام الفلاسفة . . . . الخ .

ذكرى شوقى :

الفخر فى شعره

[وأنا المحتفى بتاريخ مصر من يصن مجده فنفسه صان عرضا] « شوقى »

(١)

نعرف أن شوقى استهل بأرض الكنانة ، واستنشق الحياة من جوها الضاحى ، فمصر وطنه وإن جرى فى عروقه الدم التركى والعربى واليونانى والشركسى ، أحبها وامتزج بروحه حبها ، واستعلن هذا الحب فى مظاهر شتى ، قدمنا طرفا منها فى أبحاث سابقة ، وفى مقال اليوم نعرض ناحية من نخره الوطنى تؤكد أن حبه مصر عقيدة لا زيف ولا مين ولا تقليد . وكيف يتهم فى هذا الحب ولم يصرفه عنه تمجيده الترك ووفاؤه لهم :

يا آل عثمان أبناء العمومة هل
تشكون جرحا ولا نشكو له ألما
نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطنا
ولا سريراً ولا تاجاً ولا علما

ومصر فى رأيه ورأى التاريخ المنصف الوادى المقدس الذى احتلت فيه الحضارة ، وازدهر العلم ، وازدهى الفن ، وفى جامعاتها ومدارسها نبغ العلماء ، ونهل المواطنون والغرباء . فقد كانت الطلبة فى جامعة عين شمس تخرج العالم اليونانى ، ثم كانت جامعة الإسكندرية ومكتبتها منارة العلم ومثابة العلماء ؛ ويحسب مصر من الفخار أن هومر نقل من أقاصيصها وأساطيرها فى إلياذته ، وأن فيثاغورس من تلامذتها ، وهيرودوت واسترابون من زوارها ، وفيها أسس بطليموس نظريته التى تثبت أن الأرض مركز الكون ، وقاس إراتستين رئيس مكتبة الإسكندرية محيط الكرة الأرضية .

على أن الحضارة المصرية أثرت فى الإغريق من طريقين آخرين ، فقد انتقلت إلى جزائر البحر الأبيض ولا سيما جزيرة كريت عن طريق التجارة العظيمة ، وأثبت هذه العلاقة (سليمان) الألمانى و (سير أرثر أفانز) الانجليزى وغيرهما من المنقبين ، ووجدوا آثار تلك الحضارة فى (كنوسس) عاصمة كريت القديمة ؛ ولقد ازدهرت حضارة كريت المصرية فى القرن السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد .

وفى القرن الخامس عشر احتلت مصر كريت وغيرها من جزائر الأرخبيل ، ثم دخلت كريت ومستعمراتها فى حوزة الإغريق ، فتأثروا بحضارتها المصرية .

على أن هذا الاتصال قوى بعد ذلك ، وتنوعت أسبابه حين اتصل الإغريق بمصر اتصالا مباشرا فى القرن السابع قبل الميلاد ، إذ اعتمد إبسماتيك على الجنود المرتزقة منهم ، وشجعهم على استيطان مصر ، وما زال خلفاؤه يعطفون عليهم ويستقدمون منهم حتى امتلأت مصر بهم . وفى عهد أحمس الثانى سنة ٥٦٩ ق . م أسسوا مدينة نوقراطيس الإغريقية فى كل شىء إلا أنها بأرض مصر .

ومن هذين الطريقين ، كريت أولا ، والاتصال المباشر ثانيا ، تأثرت يونان بحضارة مصر ، وتسربت الآراء من هنا إلى هناك ، وحق لكهنة مصر أن يقولوا لفلاسفة اليونان : (إنكم أيها اليونانيون أطفال تهرفون بما لا تعرفون ، ولا تعلمون من أمر الماضى شيئا) .

من حق شوقى إذاً أن يفخر بهذا المجد ، ومن أحق منه أن يردد الفخر فى عشرات من قصائده ؟ فمجدنا القديم متنوع الأفانين ، استبق فى تخليده الشعب والفراعين :

إذا المكارم فى الدنيا أشيد بها
كانت كتاباً وكنا نحن عنوانا

(٢)

فى قصيدته الكبرى (أيها النيل) المهداة إلى الأستاذ مرجليوث يفخر بأن النيل مهد الحضارة ، فى واديه

نبتت ، وعلى عبيره نرعرعت ، وضاع عبيرها فنبه الأمم ، وهذه الآثار الخالدات وصحائف البردى العتيقات نواطق وشواهد ، وإلى مصر وفد العطاش إلى المعرفة فارتووا ، ومنها انبثق منذ أخناتون نور التوحيد ، فكل دين بعده جديد :

أصل الحضارة في صعيدك ثابت
وبناؤها حَسَنٌ عليك مخلّق
وُلِدَتْ فكنتِ المهد ، ثم ترعرعت
فأظلها منك الحقّ المشفق
ملأتْ ديارك حكمة ، مأثورها
في الصخر والبردى الكريم منسّق
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى
يسعى لهن مغرّب ومشرّق
واستحدثت دينا فكان فضائلا
وبناء أخلاق يطول ويشهق
مهد السبيلَ لكل دين بعده
كالملك رُبّاه بأخرى تعتق

(٣)

وفي قصيدته (مصر) التي وجهها إلى الكاتب الانجليزي « هول كين » يطالبه بتصويرها في لغته تصويراً رائعاً رائقاً ، فهي تاريخ الحضارة وسجلها العتيق ، طهر واديها الخصيب بخطرات الرسل كيوسف وموسى وعيسى ، وحلى تاريخها ملوك أحياء الأثر ، كمنا وكسرى والإسكندر وأنطونيو ويوليوس قيصر وعمر :

أيها الكاتب المصوِّر صوِّرْ
مصرَ بالمنظر الأنيق الخليقِ
إنّ مصر رواية الدهر فاقرأ
عبرة الدهر في الكتاب العتيق
ملعبٌ مَثَّلَ القضاء عليه
في صبا الدهر آية (الصدّيق)
واعتلاء (الكليم) آنس ناراً
والتجاء (البتول) في وقت ضيق
ومنايا (منا) (فكسرى) فذى (القر
نين) فالقيصرين (فالفاروق)
دول لم تَبِدْ ولكن توارت
خلف ستر من الزمان رقيقْ

(٤)

وكان تهازا الفرص ينوّه فيهن بمجد مصر وفضلها ، يريد أن يبعث في الشباب النخوة ، ويحيي لهم مثل البطولة ومعالم السبق ، ويستحثهم إلى إعادة ما مضى ، ويريد أيضاً أن يفاخر الأمم بهذا المجد ليعلي شأن مصر ، فلما انعقد هنا المؤتمر الجغرافي حيّاه بقصيدة جعل مطلعها للمؤتمر ، فقفاه بالإشادة بالمجد الفياض ، ثم عاد إلى المؤتمر ، ثم رجع إلى المجد والمفاخر .

ومن لباقته أنه فخر وهو يحيّي المؤتمر الجغرافي بفضل مصر على الجغرافيا الفلكية والإقليمية ، ونوه برحلات المصريين وجوبهم البحار ، في عصور لا كهربا فيها ولا بخار .

تَلْنِ أول دار في الثرى رفعت
للشمس ملكا وللأقمار سلطانا
تفتّنت قبل خلق الفن وانفجرت
علماً على العُصُر الخالي وعرفانا
أبوّة لو سكتنا عن مفاخرهم
تواضعاً نطقت صخراً وصوانا
هم قلبوا كرة الدنيا فما وجدت
أقوى على صولجان الملك أيمانا
وصيروا الدهر هزءاً يسخرون به
حتى ينال لهم بالهدم بنيانا
لم يسلك الأرض قوم قبلهم سبلا
ولا الزواخر أثباجا وشطآنا

تقدم الناس منهم محسنون مضوا
للموت تحت لواء العلم شجعانا
جابوا العباب على عُود وسارية
وأوغلوا فى الفلا كالأسد وحدانا
أزمان لا البر بالوابور منتهبا
ولا البخار لمتن الماء ربانا

وجميل من شوقى أن يعزو إلى مصر الفضل قبل أن يعرف أحد فنا ، وأن يمتدح فراعنتها بالأبد وسعة الملك ، فقد ملكوا الأرض فلم تجد مثل قبضتهم صلابة .

ثم جميل منه أن يعود إلى المؤتمر فيأمره أن يقف وقوف العالم ليناجى العلم مهده ، ويذكر عهده ، أزمان شب وترعرع فى رعاية الكهان والنبيين .

يا موكب العلم قف فى أرض منف به
يناج مهدا ويذكر للصبا شانا
بكى تمائمه طفلا بها وبكى
ملاعبا من ربا الوادى وأحضانا
أرض ترعرع لم يصحب بساحتها
إلا نبيين قد طابوا وكهانا

(٥)

وفى مشروع ٢٨ فبراير يخاطب المغفور له الملك فؤاد بأنه وارث قياصرة النيل الذين غلبوا على بحر الروم ، وحكموا الترك والعرب ؛ ومن أحق من فؤاد بأن يزهى بتاجه المنتسب إلى الشمس المتلألئ بآرادها ؟؟ ومن كفؤاد فى الملوك استوى على عرش لا سنين له ولا مثيل ؟؟

يابن السنى عاليا والعز محتشما
والبأس محتدما والعرف منسكبا
قياصر النيل من آصلاه منفجراً
إلى مطارحه فى اللج منسربا
والقاهرين على (الرومى) . ما تركت
سفينهم لجبا فيه ولا عببا
قد جلّل الترك أحياناً لواؤهم
وما تلفت حتى ظلّل العربا

***

يا ابن الملوك بهذا التاج إن له
فى جوهر الشمس لا فى الماس منتسبا
وله عليهم بعرش غير ذى لِدَة
من عهد خوفو على الماء استوى محبا
لو استطعنا لرُدّا فيه قائمة
ولا تخذنا له أمّ السها عتبا

وفى تكريم سعد زغلول مطلق السجناء وجه الخطاب إلى الشباب بقوله :

إن الذى قسم البلاد حباكو
بلداً كأوطان النجوم مجيدا
قد كان والدنيا لحود كلها للعبقرية والفنون مهودا

وفى تكريم الأستاذ أمين الريحانى الكاتب السورى يقول :

ثم قبّل الأحجار والأيدى التى
أخذت لها عهداً من الآباد
وخذ النبوغ من الكنانة ؛ إنها
مهد الشموس ومسقط الآراد
ما زال يغشى الشرقَ من لمحاتها
فى كل مظلمة شعاعٌ هاد

— ٦ —

وإن الفراعنة ليبرونه فيهتف بهم ، ويشدو بمجدهم ؛ وأى شرف أرفع من أن يعيش أنبياء فى كنفهم ؟ وهم من نسل الشمس أبناء آلهة ؛ ولقد ضنوا بجسومهم أن يمسها التراب أو يمسّها الفناء ، وكان الخلود هدفهم ، فحنوا للخلود :

أين الفراعنةَ الألى استذرَى بهم
عيسى ويوسف والكليم المصعَق

الموردُون النـاس منهلَ حكمةٍ
أفضى إليه الأنبياء ليسـتقوا
الراغبون إلى الضحى آباءهم
فالشمس أصلهمو الوضىء المعرقُ
وكأنما بين البلى وقبورهم
عهدٌ على أن لامساس وموثقُ
بلغوا الحقيقة من حياة علمُها
حجبٌ مكشّفة وسرٌّ مغلق
وتبيّنوا معنى الوجود فلم يَروا
دون الخلود سعادة تتحقق

وفي قصيدة توت عنخ أمون وحضارة عصره يفخر بنسب الفراعنة إلى رع وأمون ، ويمتدح أخلاقهم التي تفردوا بها ، فما تجمّل بها سابق ، ولا تكمل لاحق ؛ وهم كلفون بالإتقان والإجادة والتبريز ، وسَبْق عصرهم والعصور التي بعدعهدهم ، كأنهم حاولوا أن يسبقوا يوم البعث:

يا بن الثواقب من رَعٍ ... وابن الزواهر من أمونْ
نسبٌ عريق في الضحا ... ءِ القبائل والبطون
حب الخلود بنى لكم ... خُلُقاً به تتفردون
لم يأخـذ المتقدمو ... ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى الـ ... إحسان فيما تعملون
لم تتركوه في الجليـل ولا الحقير من الشئون
السبق من عاداتكم ... أترى القيامة تسبقون؟
أنتم أساطين الحضا ... رة والبناة المحسنون
المتقنون وإنمـا ... يجْزَى الخلودَ المتقنون

وفي قصيدة توت عنخ أمون يشيد بالفراعين ومجدهم ، وتعليمهم اليونان والرومان ، ويعجب بخلود آثارهم ، ويقابل بين احتباسهم في القبور محنطين ، وبين حبسهم الملوك الأسورين :

فكانوا الشهبَ حين الأرض ليلٌ
وحين الناس جدٌّ مضللينا
مشتْ بمنارهم في الأرض روما
ومن أنوارهم قبستْ أثينا

ملوك الدهر بالوادي أقاموا ... على (وادي الملوك) محجّبينا
فربٌّ مصفدٍ منهم وكانت ... تساق له الملوك مصفّدينا
تقيد في التراب بغير قيد ... وحل على جوانبه رهينا
تعالى الله كان السحر فيهم ... أليسوا للحجارة منطقينا
غدوا يبنون ما يبقى وراحوا ... وراء الآبدات مخلّدينا
إذا عمدوا لمأثرة أعدوا ... لها الإتقان والخلق المتينا

ويستطرد إلى الخلود ودواعيه ، وإلى الأسى على شباب مصر المعاصر ، ثم يعود إلى التغني بالمجد مخاطباً الشمس :

فناجيهم بعرش كان صنواً ... لعرشك في شبيبته سنينا
وكان العز حليته وكانت ... قواعده الكتائب والسفينا
وتاج من فرائده (ابن سيتي) ... ومن خرزاته خوفو ومينا

— ٧ —

ورمسيس الثاني روعة في خيال شوقي ، يضرب به الأمثال ، ويحن إلى عهده ، ولقد خصه في همزيته الكبرى بأكثر من خمسة وعشرين بيتاً ، صور فيها تطلع العيون إليه وتشوف النفوس الناهضة إلى حكمه ، حتى لقد بايع مجلس الشعب قد بايعه بالملك وهو في صلب أبيه سيتي الأول . وحقق رمسيس الآمال ، ونال أسباب الفخر والجلال ، ففتح وحكم ، وساس فما ظلم ، وشاد وخلّد وعمَّر .

من كرمسيس في الملوك حديثاً ... ولرمسيس الملوكُ فداءُ
بايعته القلوب في صلب سيتي ... يوم أن شاقها إليه الرجاء
جل سيزوستريس عهداً وجلت ... في صباه الآيات والآلاءُ
وسما للعلا فنال مكاناً ... لم ينله الأمثال والنظراء
وجيوش ينهضن بالأرض ملكاً
ولواءٌ من تحته الأحياء
ووجود يساس ، والقول فيه ... ما يقول القضاة والحكماء
وبناء إلى بناء يودّ الخلـ ... ـد لو نال عمره والبقاء
وعلوم تحيي البلاد وبنتا ... ءور فخر البلاد ، والشعراء

إيه سيزوستريس ماذا ينال الـ ... وصف يوماً أو يبلغ الإطراء
كبرت ذاتك العلية أن تمـ ... حى ثناها الألقاب والأسماء
لك آمون والهلال إذ يكـ ... بر والشمس والضحا آباء
ولك الريف والصعيد وكما ... مصر والعرش عالياً والرداء
ولك المنشآت فى كل بحر ... ولك البر أرضه والسماء
ليت لم يُبْلك الزمان ولم يـ ... ل لهذى البلاد فيك رجاء

— ٨ —

ويحتفل بالفتوح ، ويصور موكب الغازى المنتصر تصويراً ذا جلال ورهبة ، فهو مخيلة الدنيا وزينتها ، يقبل فرعون فى موكبه الحافل المنسوق ، فيشرق بين السابطين والقنا والكتائب كالشمس تسفر فى دكنة السحب ، تخشع الأبصار لرؤيته ، وتخشع بصره الشمس أصله وإلهته ، وفى لَحَقِ من ركبه ملوك أسرى أذلة هم ملك يمينه . إن شاء قتل وإن شاء أعتق .

كم موكب تتخايل الدنيا به ... يجلى كما تجلى الهموم ويفسق
فرعون فيه من الكتائب مقبل ... كالسحب قرن الشمس منها مفتق
تعنو لعزته الوجوه ووجهه ... للشمس فى الآفاق عانٍ مطرق
آتٍ من السفر البعيد جنوده ... وأتاه بالفتح السعيد الفيلق
ومشى الملوك مصفدين خدودهم ... نعل لفرعون العظيم ونمرق
مملوكة أعناقهم ليمينه ... يأبى فيضرب أو يمن فيعتق

— ٩ —

ومن مفاخر مصر أن جوانبها عطرت بعبير الرسل إبراهيم وموسى وعيسى ويوسف ، وقبطها تسرو تصاهرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأى فخار يطاول هذا الفخار ؟؟ إن الأمم لتتنازع أحياناً فى العبقرى العظيم فتدعيه كل منها ومن كالرسل سمواً وشرفاً وعظمة وقد اجتباهم الله هداة ، واصطفاهم قادة واختارهم للتبليغ عنه جل جلاله ؟ ؟

وشوقى يهتبل المناسبات لتذكير بذلك وتكريره .

فى خطابه للنيل :

أين الفراعنة الأولى استذرى بهم ... عيسى ويوسف والكليم المصعق
تابوت موسى لا تزال جلالة ... تبدو عليك له وريا تنشق
وجمال يوسف لا يزال لواؤه ... حوليك فى أفق الجلال يرنق
ودموع إخوته رسائل توبة ... مسطورهن بشاطئيك منمق
وصلاة مريم فوق زرعك لم تزل ... يزكو لذكراها النبات ويسمق
وخطا المسيح عليك روحا طاهراً ... بركات ربك والنعيم الغيدق
وودائع (الفاروق) عند شهيده ... ولواؤه وبيانه والمنطق

وفى تحية المؤتمر الجغرافى :

أرض ترعرع لم يصحب بساحتها ... إلا نبيين قد طابوا وكهانا
عيسى بن مريم فيها جر بردته ... وجر فيها العصا موسى بن عمرانا

وفى قصيدة المنتزه حول كبرى :

ملعب مثل القضاء عليه ... فى صبا الدهر آية الصديق
وانحاء الكليم آنس ناراً ... والتجاء البتول فى وقت ضيق

* * *

ذلك من فخر شوقى بطبيعة مصر وملوكها وتاريخها وظروفها ، ردده وأكده ، فليس محاكاة ولا مراءاة ولا بدوة من بدوات الفكر تمر ثم تتوارى ، كما زعم بعض نقاده أو حساده ، ولقد تخير للتنويه بهذا المجد مناسبات حية استلهم فيها قلبه ووطنه فنطق شعراً أو سحراً .

أما فخره بالآثار وتغنيه بها ، وتخليده لها على تخليدها فسنخصه ببحث خاص .

أحمد محمد الحوفى

المدرس بالأميرة فوقية الثانوية

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

العيد ! — موسم الذكرى ! — الرأى الصريح — أسلوب الحرب — ذكريات الزهرة ! — تأبين راحل !

العيد !

اليوم عيد الناس يا صغيرتى فقومى !

قومى فالبسى جديدكِ وافرحى فرحَ الأطفالِ بالعيد ، لتمحيى من « مرآكِ » فى الجديد « منظراً » من فرحة الناس بالعيد !

لقد نَضِبَ فى قلب أبيكِ أيتها الصغيرة كلُّ إحساس بمعانى الفرح والأنس والمسرة ؛ فهو يشتهى من الإحساس بمعانى الفرح فى قلبى منظراً تشهده عيناى ... !

ما لعينيكِ تبحثان هنا وهناك ، كأنما تفتقدين شيئاً من مجالى العيد لا تراه عينان هنا ولا هناك !

انظرى ! هأنذا أبوكِ ، وهذان أخواكِ الصغيران ؛ فماذا تنكرين من عيدك يا صغيرتى ، وماذا ينقص عيدكِ عن أعياد الناس ؟

وأنتِ أيتها الصغرى . . .

الحقى مانهتفين بحديثك الأعجم ، وأرسلى نفسَك وراء عينيك تبحثان فى كل زاوية من زوايا الدار ... ليس من شىء هنـا غير أبيك وأخويك وغير هذا الجديدِ من ثياب العيد !

أنتِ أيضاً تفتقدين شيئاً من مجالى العيد لا تراه عينان هنا ولا هناك ، وأنتِ لم تشهدى إلا عيداً واحداً قبل هذا العيد . . . ؟

ماذا رأيتما فى منامكما الليلة أيتها الصغيرتان فرِدتما إلى الذكرى بعد سُلوان واليوم عيدُ الناس !

وأنتَ يا بنىّ . . .

هاتان عيناكَ تشهدان أولَ عيد ؛ فما لشفتيك تختلجان كأنما تحاولان كلمةً لم يسمعها سامع وليس عليها جواب ؟ ...

ظمآن إلى ثدى لم تلقمه شفتاك ولم تحسّ مذاقه ؟ ...

لهفان إلى صدر لم تستشعر حنانه ساعةً ولا رأيتَ عناقه ؟ ...

لا لا ، قوموا يا بنىّ فالبسوا جديدكم وافرحوا فرحَ الأطفال بالعيد ؛ إنه عيدُ الناس ... وإنه عيدى ... لأنى على موعدٍ مع الحبيب ... هأنذا ذاهبٌ إليه لأستنشىَ على مبعدةٍ من عبير تُرابه وأذرف على ثراه دموعى ! !

موسم الذكرى !

ويلحانى فى وجدى صديق ، وما يدرى ؛ ولست أريد أن يدرى ... ؛ يحسبنى أن أستشعر فى وحدتى لذة الحرمان إن فاتتنى لذةُ الجِدَة !

ياصديقى الشفيق ! لو كنتَ تدرى — وما أريد أن تدرى — لأقصرتَ الملام ؛ دعنى أستمتع لحظاتٍ بلذة آلامى فى موسم الذكرى ؛ إن للذكرى مواسم ، وإن لى منها عيداً كعيد الناس !

تراني قد أطلتُ فى حديثى وتدعونى إلى الصمت ! ...

فمن لى بأن يصمتَ خافقٌ بين جنبىّ إن صمت لسانى ؟ ...

ولا بد أن يصمت يوماً ... ويدعوه داعيه فلا يجيب !

إنى ليخيّل إلىّ أحياناً وأنا أقص قصة هـذا القلب كأنى أكتب تاريخ غدٍ قبل أن يأزف الغد !

... دعونى أقول ... ولكنى لا أريد أن أقول ...

حسْبى حسبى ؛ إنى مازلتُ أحيا الحياةَ التى قدرها بارىءُ هذه النَّسمة ! !

الرأى الصريح !

هأنذا أحاول أن أعود إلى قرائى ، وإلى صحيفتى ، معتذراً عما كان ...

وها هى ذى صحفى ، ومجلاتى ، وكتبى ؛ ما ذا أقرأ فى هذا الأسبوع ؟...

وتناولت بضعة أعداد من «المصوّر» لم تتناولها يداى منذ جاء بها مَن جاء ، وقرأت :

« بعض الأحاديث التى تصدر عن العظماء يعجبنى ، والبعض لا يعجبنى . . .

« فمثلا لا يعجبنى تقارض الثناء بين الخلف والسلف من الوزراء . ألم يظفر واحد فقط من الوزراء السابقين بكلمة نقد واحدة للوزراء اللاحقين . . . غير معقول ، ولكننا هكذا فى مصر نجامل ! » .

وقرأت للمحرر نفسه فى الصفحة المقابلة :

« ولقد نشرت المجلة حلقات من آراء الوزراء السابقين فى الوزراء الحاليين . . . . ولم تعرف مصر أن الوزراء السابقين عاملوا زملاءهم اللاحقين هذه المعاملة الليّنة وأثنوا هذا الثناء ؛ ولا تعنينا وقائع الثناء بقدر ما تعنينا هذه الروح ؛ فهى بلا شك روح قومية وطنية عالية ، تلطّف كثيراً من حدة الحزبية التقليدية ومن شدتها . . . . . . »

روح قومية وطنية عالية ... ولا تعجبه ! والكاتب واحد ، فى عدد واحد ، من صحيفة واحدة . أذلك لون جديد من أدب الحرب ، أم أسلوب جديد فى فن السياسة ، أم شاهد جديد على جواز تعدُّد الرأى بتعدُّد الشخصية ؟...

أسلوب الحرب !

وللحرب أساليب فى الأدب مثل أساليبها فى المعركة ؛

قرأت الخبر التالى فى العدد ٧٥٨ من مجلة روز اليوسف :

« قال لنا فلان باشا : إن هناك مسألة معينة شغلت بعض الدوائر ، ويظهر أنها ستشغلها إلى وقت طويل ... ولما سألناه عن ماهية هذه المسألة قال : إنه شخصياً لا يدرى !! »

أرأيت لو أن كاتباً كتب هذا الكلام فى غير هذه المجلة ، فى غير هذا الزمان — أكان يقرؤه من يقرؤه إلا وهو على يقين أنه هذيانٌ وتخريف وأعراض جنون ؟ ... ولكنه كذلك أسلوب من أساليب الحرب فى الأدب !!

ذكريات أزهرية !

فى العدد ٧٥٧ من روز اليوسف مقال ، أو حديث ، للأستاذ الشيخ أبو العيون ، يقصُّ فيه ذكرى ، ويصف حادثة وقعت فى الأزهر فى سنة ١٨٩٥ ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة .

وخلاصة هذه الحادثة أنه لما تفشَّت « الكوليرا » فى تلك السنة ، وخيفَ أن تأتى على الناس والأزهريون منهم ، أراد محافظ القاهرة فى ذلك الزمان أن يتخذ شيئاً من أساليب الوقاية ، فأمر بتطهير الأزهر والتحجير على المرضى من طلابه ؛ فهاج الأزهريون وثار ثائرهم وتحصنوا بالجامع ، وكانت لهم واقعة كان من خبرها وكان ، وجُرح المحافظ ، وأطلق الرصاص !!

قرأت هذا الحديث وفى أذنى صدًى مما نُشر عن التأهب للاحتفال بالعيد الألفى للأزهر فعجبت !

ألم يجد الشيخ حديثاً يسوقه فى هذه المناسبة غير هذا الحديث ؟ ... وماذا يفيد القارئُ من هذا الحديث إلا أن يقع فى نفسه ما لا بد أن يقع من الحكم على الأزهر بالجمود والثورة على كل ما يراد له أو للناس من أسباب الإصلاح ؟..

أكان الشيخ يقصد إلى هذا المعنى ؟ ولكنه كبير من كبراء الأزهر له في الدعوة إلى الإصلاح تاريخ ... أم هو حديث سمر وفكاهة خانه التوفيق في تخيّر مناسبته ؟

تأبين راحل !

نشرت الصحف منذ قريب نبأ فاجعاً عن احتراق سيارة وراكبها ، بعد منتصف الليل ، في شارع معروف ؛ وكانت حادثة لها حديث ...

وفي هذا الأسبوع قرأت في مجلة الاثنين ما يأتي :

« كان أحد كبار الموظفين يقضي السهرة في نادٍ معروف ، فربح في لعبة « البوكر » ٨٠٠ جنيه . وطلب الموظف الكبير من بواب النادي أن يحضر له سيارة تاكسي ينقلها إلى داره . وحضر التاكسي ، وراح الموظف الكبير يقاوله على أن يوصله إلى داره بالعباسية بخمسة عشر قرشاً ... وبعد مفاوضات رضي السائق أن يحمل الموظف الكبير إلى داره بشرط أن يركب إلى جانب السائق ، وبذلك لا يقبض العداد . وفي الطريق شبت النار في السيارة ، فاحترقت محفظة الكبير واحترق فيها الثمانمائة جنيه ! » .

وقال قارئٌ لقارئٍ : أترى المجلة تنعى ... ؟

قال : بل لا أرى إلا أنها تمعى .... !

وزمّ صاحبه شفتيه مستنكراً أسفاً ... ...

ليت شعري أكان استنكاره وأسفه للحادثة التي كانت أو للحديث الذي قرأ ... !

أسلوب جديد في تأبين الراحلين ؛ وبعض التأبين شماتة !

« فاف »

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ١٩٩ — الثلاثاء ١٠ من شوال سنة ١٣٦١ — ٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــــدد

اسكندر الاسكندرية

للدكتور أحمد زكي بك

ليس تحت الشمس من جديد . فقد يختلف اسم القرن ، وقد يختلف رقم العام ، وقد يقال فيما قبل الميلاد ، وفيما بعد الميلاد ، وقد يقال فيما قبل الهجرة وفيما بعد الهجرة ، وقد يقال فيما بعد الطوفان ، أو فيما قبل الوباء ، ولكن مع كل هذا الاختلاف في دوران الشموس والأقمار ، ومع كل هذا التباعد بين ذاك القديم الأقدم ، وهذا الحديث الأحدث ، ظل الإنسان هو الإنسان ، في أحواله وأعماله ، في مخاوفه وآماله ، في تلك الدوافع النفسانية المبيتة التي تُطلق عزائم الرجال إلى الخير فتعمله ، أو إلى الشر فتُجرمه .

نعم يتغير الظاهر ولكن الباطن ثابت لا يتغير . ويتغير المأكل والملبس والمسكن ، وتتغير الآلة والسلاح ، ولكن الأغراض التي يرمى إليها كفاح العيش وطموح الأنفس واحدة في أصولها ، والسبل التي تُسلك لبلوغ هذه الأغراض ثابتة في جوهرها ثبوت الجبال والوديان التي اكتنفتْ واحتضنتْ مآثر الإنسان ومناشطه قديما وحديثاً ، وثبوت هذا الهواء الذي استنشق منه الإنسان وزفر فيه قديماً وحديثا ، وثبوت الجرائم التي أحسنت إليه وأساءت قديما وحديثاً ، وثبوت الموت وثبوت مداخله إلى أرواح الخلق قديما وحديثا .

فهذا الإسكندر نقرأ عنه ، وقد مضى بيننا وبينه نيف وعشرون قرناً ، فنكاد نحسب أننا نقرأ عن رجل من رجال قرننا ، وبطل شهم أو بطل وغد من أوغاد جيلنا ، سواء في ذلك ما نقرأ عنه رجلاً إنساناً ، أو قائداً محارباً ، أو ملكاً مُدد ما ورثه أبوه الملك من سلطان

وعلّمه أبوه الحكمة ، ولم يرض له معلما دون أرسطو قدراً ، فطلبه فجاء يُكمل أدب الشاب الذي كان أملَ أبيه وأملَ أمته ؛ وقضى في تأديبه نحو أربع السنوات . وقد يحسب الحاسب أن أرسطو لن يخرج من

بين يديه إلا فيلسوف حكيم ؛ ولكن بيضة الديك لا تنقفس إلا عن دجاجة أو ديك ، من أى جنس كان الطير الذى احتضنها . تخرج من أحضان الفيلسوف الأكبر أكبرُ من حمل السيوف من الملوك ، وأسرع من دان له المعروف من دنيا زمانه ، وذلك فى سن صغيرة تبدأ عندها فى العادة حياة الرجال .

كتب أبو الإسكندر إلى أرسطو كتاباً جاء فيه :

«من فيلبس إلى أرسططاليس ، دعاءُ الصحة والعافية . ثم إنى أنبئك أنه وُلد لنا ولد . ولست أشكر الآلهة على ولادته بقدر ما أشكرها على أن ولادته جاءت فى زمانك . وإنى لآمل ، بعد تربيتك إياه وتعليمك ، أن يكون أهلا لإرث مملكتنا العظيمة هذه ، فإنى أرى أن امتناع الخلف خيرٌ من خلفٍ لا يكون وجوده فى هذه الدنيا إلا عقاباً وعذاباً ، وإلا الخزى والعار لآبائه» .

وتولى الفيلسوف الكبير تأديب الصبى فى الثالثة عشرة من عمره ، فكان أكبر ما أفاد منه تلك الفلسفةَ التى تعلّم المرء قيادَ نفسه وزعامة الرجال والأمم . قال الإسكندر فيما قال : «إن لأبى علىّ فضلا ، وإن لأرسطو علىّ فضلا ، وفضل أرسطو فوق فضل أبى ؛ ففضل أبى فى وجودى ، وفضل أرسطو فى تعليمى أن الحياة عمادها الشرف والفضيلة» .

وحبّب أرسطو إلى تلميذه الكتب فكان يطلبها أينما ذهب فى غزواته . ونشر أرسطو كتبه بين الناس ، فكتب إليه الإسكندر يعتب عليه ويقول إنه بنشرها إنما ابتذلَ من وقارها . فردّ عليه الفيلسوف معتذرا يقول : ليس فى نشر هذه الكتب إهدارٌ لحرمتها ، فقد نُشرت على صيغة لا ينتفع بها إلا من كان سبق إلى فهم أصولها بالتعليم .

وكتب إلى أرسطو يطلب إليه أن يبعث له بكتبه فى فن البلاغة والبيان ، وأمره ألا يجعلها ملكا مُشاعا ، لأنه يريد أن يبزّ الخلق ، لا فى علمهم وأدبهم ، ولكن كذلك فى فن خطابهم . ومن هذا كان حُبُّ الإسكندر للموائد الطويلة ، إذ يطول جلوسه إليها فينعم بالحديث عليها ، حيث تتصاول الألسنة وتتقارع العقول .

وكان من أحب الكتب إلى قلبه «هُومِر» ، وقد كان يحسب أن «هومر» وحدَه وصف الحكمة التى بها يؤسَّس الملك ويدوم بقاؤه . وكان إذا نام توسّد وسادته ومن تحتها «هومر» والسيف .

وكتب أرسطو للإسكندر خاصةً كتابا فى فروض المُلك وواجبات الملوك .

على أن الإسكندر ، على ما أفاده من حكيم الإغريق الأكبر ، لم يكن عجينة طيّعة فى يده يشكلها كيف شاء ؛ فقد احتفظ الإسكندر بكل ما فى طبعه من خصال لعبت دورها فى رسم حياته المستقبلة . حتى أنتجةُ العقل لم يكن يتقبّلها الإسكندر كلها تقبلا سهلا إذا هى لم تأتلف مع أسلوب تفكيره ، أو لم تختلط اختلاطا سهلا بمزاجه . مثال هذا أن أرسطو كان يرى أن الإغريق هم وحدهم الناسُ ، ومَن عداهم فبرابرة صعاليك ، وكان عنده الفرق بين الناس والبرابرة كالفرق بين الإنسان والحيوان ، أو كالفرق بين الحىّ والجماد ؛ وعلى هذا بنى تبريرَه للرقيق ، فليس الرقّ عنده ظلم وإجحاف ، وإنما هو نظام من نُظُم الطبيعة لا يطيب العيش إلا به ، ولا يصلح المجتمع إلا عليه . وحاول أرسطو أن يفرض هذا الرأى على الإسكندر فقال له : إنْ غزوتَ الإغريق فهم رعيّتك ، وإن غزوت غيرهم فهم عبيدك . ولكن الإسكندر كان فى هذا ، فى الذى كان من فتوحاته ، أطوعَ إلى قلبه منه إلى رأس الحكيم ، برغم أنها أكبر رأس عرفها العالم فى هذا العصر القديم .

وبقى للإسكندر المقدونىّ طبعُه الذى ورثه عن أبويه خالصا ، وكانا قد جمعا النقيضين ، فجمع منهما من الخُلُق النقائض ؛ فمن أبيه تعلّم الصبر وامتلاك النفس ، ومن أمه

ورث التهور والغضب، وركوب رأسه إلى غايته كائنة ما كانت.

وكان هو وأبوه أكبر من تولى الملك من ملوك مقدونية، ارتفعا بها من خفض، وانخفضت من بعدهما لغير ارتفاعها. وعلى وحدة الغاية بينهما، وعلى وحدة القصة التي كتب الأب في سجل التاريخ فواتحها الأولى، وأتم الابن الكثرة من سائر فصولها، فقد كان بينهما من تباين في الطبع، واختلاف في الوسيلة، ما حدا بالمؤرخ جستين Justin — من مؤرخي الرومان الأقدمين — أن يقارن بين الابن وأبيه. قال:

«كان فيلبس أكثر اغتباطاً بالحروب منه بالأفراح والولائم. وكانت أكثر ثروته ذخائر حرب. وكان أمهر في تحصيل المال منه في استبقائه، ومن أجل هذا كان في فقر مستمر، وفي حاجة دائمة على الرغم من مكاسب الميدان وأسلابه. ولم يكن بطبعه يميل للرحمة، ولكنه أتقى منها كلما تطلب الحال. ولم يكن يرى في التغلب على أعدائه فرقاً بين طريق مستقيم وآخر معوج، ما أديا إلى غاية واحدة. وكان سخي الوعد فيما يعلم أنه لن يفي في أقله. ولم يكن مقياس الصداقة عنده الإخلاص، ولكن ما تجر وراءها من مغانم. وكان من أخطر كفاياته اصطناع الحب عند أكثر الناس بغضاً إلى نفسه، والسعاية بين الأحباب ليتفرقوا في الحين الذي يزيد صلتهم به توثيقاً. وكان طلق الحديث مجاملا فيه، ولكنه كان حديثاً يستر وراءه دائماً خبراً يستطلع، أو خطة تدبر. وكان إذا تكلم، جاداً أو هازلا، أمتع الأفئدة وأمتع العقول. فقد كان في حديثه جمال لم يمنع من سهولة، وسهولة لم تضيع ما فيه من جمال».

«وتولى الإسكندر بعد أبيه، فاختلفت طريقة غزوه للأمم اختلافاً كبيراً؛ فالابن اعتمد على القوة السافرة الصريحة، بينما اعتمد أبوه على المكر والخديعة؛ وأغرم الأب بالحيلة يحبكها وراء ظهر العدو حبكا، وأغرم الابن بالضرب في الوجهة حتى يكون الحكم كله للسيف».

«وكان الأب رائعاً في مشورته وصبره وحلمه، وكانت روعة الابن وفخامته في غضبه. ويغضب الأب فيكظم غيظه، فلا يفضحه وجهه، ثم هو كثيراً ما يقاهر غضبه فيقهره؛ ويغضب الابن فيستشاط فلا يدري كيف يرتد من أواره أو يلطف من نقمته. وكان في كلا الرجلين للخمر شراهة؛ ولكن أثرها اختلف فيهما، فالوالد كان يترك الوليمة مخموراً فيخرج يطلب العدو ليشق عل الحرب فيه، فيكشف عن نفسه ويفتح فيها للعدو ثغرات؛ ويشرب الولد فيشتجر مع إخوانه وخلصائه، فيثور عليهم ثورته على أعداء ألداء. من أجل هذا كان كثيراً ما يعود الأب من الوقائع جريحاً بسيوف أعدائه، بينما يعود الإسكندر من المائدة ملطخاً بدماء أحبائه».

«وحكم فيلبس وحكم معه أصحابه، وحكم الإسكندر وحكم أصحابه؛ وأراد فيلبس في حكمه أن يكون محبوباً، وأراد الإسكندر في حكمه أن يكون مخوفاً؛ وأحب كلاهما المعرفة وشجعا عليها. وبهذه الخلائق وبغيرها مهد الأب لفتح الدنيا، وأتم الإسكندر ما مهد له أبوه».

وعلق الإسكندر الحرب في سن باكرة؛ ففي السادسة عشرة خرج أبوه لحرب، وخلف ابنه في المملكة يحكم مكانه، فحدث في هذه الفترة عند الحدود أن شقت قبيلة عصا الطاعة وظاهرت بالعدوان؛ فما كان من الإسكندر إلا أن خرج إليهم في عسكر يطلب النصر لحسابه هو، ومالبث أن هزمهم، وأسر شيخهم، وأجلاهم عن منازلهم، وأسس مكانها مستعمرة أسماها «إسكندر بوليس»، أي مدينة الإسكندر.

وكان للإسكندر من صغره بصر بأداة الحرب، وبالرجال والخيل.

حكوا أن قوما جاءوا أباه بجواد مختار من مملكة

إنسانية ، وكانت معروفة بأصالة خيلها ، وطلبوا فيه ثمناً كبيراً ؛ واجتمع الملك واجتمعت حاشيته لتجربة الجواد في العراء ، فكان جواداً شَمُوساً عزّ على الروّاض ترويضُه . فيئس منه الملك وقال أخرجوه . فصاح الإسكندر غاضباً : إن جواداً أصيلا سيضيّعه جهل روّاضه . ولم يكن الإسكندر عند ذاك إلا صبيًّا ، فقال له أبوه يؤدّبه : وهل علمتَ أنت في سنّك هذه ما جَهِل الروّاض ؟ فثارت نفسه الشابة ثورتها التي عُرِفت بها في زمانٍ لاحقٍ عند ما اشتدّ عُوده وبلغ مبلغ الرجال . فقال في ثبات لأبيه : نعم . فابتسم الملك ، وابتسمت الحاشية . فقال الملك : أفتقوم إليه أنت ؟ قال : نعم . قال : وما الرهان ؟ قال : ثمنه . وكان الصبي قد لاحظ أن الحصان عندما تَشَمَّس كان ظهره للشمس ، فوقع ظلّه أمامه فارتاع منه . فلما قام إليه أمسك بلجامه ، ثم أدار للشمس وجهه ، فخفّف هذا شيئاً من ثورته . فجرى بيده مترفّقاً على عنقه . وفي لمحة بصرٍ وثب فركبه وهو لا يزال يُرغي . وأبى أن يطيع اللجام ، وأخذ يركُل برجله ويضرب برأسه ، وأراد أن يجمح . فترك له الإسكندر العنان ، وأثبت المهماز في خاصرته ، وطار الحصان والإسكندر يصرخ من فوقه صراخ شيطانٍ جُنّ جنونه . فلما تعب الحصان وأراد أن يهدئ من جريانه ، لم يتركه الإسكندر يفعل ، وظل يزيده همزاً حتى أفرغ جهده ، وبإفراغ جهده أفرغ شُموسه ، وعاد به إلى القوم ، وهم ينظرون ، ذليلا طيّعاً . فلما نزل عنه ، قام إليه أبوه الملك يقبّله والدمع يترقرق في عينيه .

فهذا هو الجواد الشهير ، رأسُ الثور Bucephalus ، الذي صحب الإسكندر من بعد ذلك في غزواته ، وسقط في الهند قتيلا كما يسقط أبطال الحروب .

(لها بقية) أحمد زكي

٢ - فى الهواء الطلق

للأستاذ أحمد أمين بك

أما جلستنا هذه المرة فكانت فى سفينة شراعيَّة عند روض الفرج ، وقد بلغ النيل أوجه فى علوِّه وفخامته وشدة جريانه واحمرار لونه ، وبلغ القمر أوجه فى جماله ونوره ، وامتزج جمال القمر بجمال النيل بجمال الجو بجمال الحديث ، فكان لنا من ذلك متعة فنية ، ومتعة عقلية ، أحببت أن أشرك القراء فيها .

كان ثلاثتنا فى الليلة السابقة هم بعينهم فى هذه الجلسة ، وزاد عليهم صديق رابع عاد من انجلترا حديثاً بعد أن درس الاجتماع والاقتصاد والسياسة ؛ وعاد إلى مصر فتولاه نوع من الكآبة وانقباض الصدر وطول اللسان ، والنقمة على كل شىء يراه ، فلا يعجبه حياة الأسرة ، ولا نظام المجتمعات ، ولا نظام الاقتصاد ، ولا منظر الناس فى الشارع ولا حجاب المرأة ولا سفورها ، ولا أى شىء يقع تحت سمعه وبصره ؛ وهو بجانب ذلك شديد اللوم لاذع النقد .

ذكرنا ونحن فى الطريق المجلات العربية ، فأخذ يشنّع عليها ، ويقذفها بكل نقيصة ، ويتهمها بأن أمثلها يتكلم فى السماء ، ولا يتكلم فى الأرض ، ولا ينير الشعب بما ينبغى أن يعلمه ، ولا يُفهمه موقفه ، ولا يحلّ له مشاكله ، ولا يرسم له خطة سيره ؛ وتمر الأحداث بجانبها وكأنها حدثت فى المريخ . فإن اعتذرنا له بالحرب وملابساتها قال : وهل كانت مجلاتكم قبل الحرب خيراً منها الآن ، وأحسن تقديراً للظروف ، وأصدق معالجة للأمراض الواقعية ؟ وهكذا كلما عرضنا لشىء أوسعه نقداً ، حتى سارت بنا السفينة وحلّت شراعها .

كان هذا النظر يفتح الشهيّة للحديث كما فتحه للأكل ، ولكن لا أدرى السبب فى أن جميع الأصدقاء القدماء تفتحت شهيتهم للصمت دون الكلام ، إلاّ صاحبنا الجديد ، فقد كان ثرثاراً لا يسمح لغيره أن يبدى رأياً أو يتحدث حديثاً ؛ وبذلك انقلب الوضع من سمر نشترك فيه إلى محاضرة يلقيها علينا صاحبنا . لا أدرى من حسن الحظ أو من سوئه أن أحدنا سأله رأيه فى مصير العالم بعد هذه الحرب ، فقال : إن هذا سؤال لا تمكن الإجابة عنه بكلمة ولا بنوع من التنبؤ ، ولا بالحدس والتخمين ؛ إنه لا يمكن فهم المستقبل إلا بفهم الماضى والحاضر ، ولا يمكن شرح النتائج إلا إذا عرفنا الأسباب ، فإذا شئتم حدثتكم بشرط ألا تقاطعونى ، فما أكره ما أكره فى مصر أن المتحدث لا يستطيع أن يتمّ حديثه ، فى كل كلمة ينطق بها يقاطَع ، وقبل أن يتم فكرته يعترض عليه ، وقد يكون الآتى شرحاً للماضى ولكن لا يمكَّن من ذلك ؛ وقد يطول الجدل فى القشور قبل أن يصل المتحدث إلى اللباب . والحق أن المصريين يحتاجون إلى مَن ''يعلمهم فن الصمت كما يعلمون فن الكلام ؛ والحق أن الصمت فن له رسوم ومناهج يطول الحديث عنها ، فهل أحدثكم فى فن الصمت أو تلتزمون الإصغاء فأحدثكم فيما سألتم ؟

وعدناه أن نلتزم الصمت ، لأنه يوافق مزاجنا فى هذه الآونة ، ولأننا صائرون إلى هذه النتيجة شئنا أو أبينا فإن تدفقه لا يسمح بالكلام لغيره .

قال : —

لست أريد أن أرجع بكم فى الحديث إلى الماضى البعيد فإن شأنه يطول ، ولكنى أحدثكم فى الحاضر مشوباً بشىء من الماضى القريب ، وأبنى عليه المستقبل .

فى عصر فكتوريا كان العالم المتمدن يتجه إلى السير على مبدأين هامين : المبدأ الأول الحرية بأوسع معانيها ، ولست أعنى الحرية السياسية وحدها ، بل أعنى أن الحرية أصبحت مزاجاً عقلياً يحاول تطبيقها على كل شىء ؛ حرية فى الشؤون السياسية ، وأن ينال كل فرد نصيبه فى سياسة أمته بطريق التصويت ؛ وحرية اقتصادية بالسير على مذهب

Laissez faire — ولا أدري ماذا تسمونه باللغة العربية — وأعني به حرية الفرد أن يشتري من أرخص سوق ويبيع في أغلى سوق؛ وحرية الضمير؛ وحرية العقل في أن ينميه كما يشاء، ويغذيه بما شاء، ويفك قيوده من الخرافات. والمبدأ الثاني الروح العلمي وعدم تقيده بأي قيد، والبحث الحر الخالص، والإيمان التام بأن العلم هو الذي يجب أن يحكم الحياة ويسيّرها.

وفي ظلال هذين المبدأين نمت الفردية، أعني احترام الفرد وحرية الفرد، وكان كل شيء ينبئ بأن السير في هذا الطريق سيوصل حتما إلى سعادة الأمم ورفاهيتها، وإلى السلام العام وحسن التفاهم بين الشعوب؛ ولكن — مع الأسف — خاب الأمل، وانتجت الحرية الاقتصادية غنى مفرطاً لقليل من الأفراد، وفقرا مدقعاً للأغلبية، وحرية واسعة للأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال، وعطالة ورقا لكثير من العمال، كما أنتجت صراعا حادا على الأسواق؛ وذلك أنتج الحواجز الجمركية، وآل هذا كله حتما إلى الحروب الطاحنة التي شاهدناها في حرب سنة ١٩١٤، والتي امتدت عواملها وبواعثها إلى الحرب الحاضرة.

وانقسمت الأمم إلى معسكرين، معسكر ظل على مبدأ الحرية الفردية ومظهرها الديمقراطية، مع تعديل ذلك بما تستوجبه الظروف، وحامل علمه انجلترا وأمريكا؛ ومعسكر كفر بالفردية وآمن بالجماعية ولم يسمح للفرد بالحرية إلا في حدود مصلحة الجماعة، وحامل هذا العلم روسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية وألمانيا النازية.

وهذا المعسكر الثاني قد وضع نظامه الاقتصادي والسياسي على هذا الأساس، أساس الجماعة لا الفرد، وإن اختلفت مناهج أممه ووسائلهم؛ ففي السياسة أعطيت الهيئة التنفيذية سلطة واسعة جداً، وحُدّت قوة السلطات الأخرى وضيّقت المعارضة الخ؛ ومن الناحية الاقتصادية حلّت النقابات في النظام الفاشيستي محل حرية الأفراد، وتدخلت الحكومات في الأمور الاقتصادية، ورسمت المناهج، ووضعت يدها على كثير من موارد الدولة الخ. وكانت الشيوعية أكثر إمعانا في اضطهاد الفردية ونصرة الجماعية، ووضعت التربية في هذا المعسكر جميعه على أساس استمالة الفرد ليعد نفسه جزءاً من جسم المجموع لا شخصية مستقلة؛ وتبع هذا تضييق حرية الفكر وحرية النقد، بل وأحيانا حرية العلم إذا كانت النتائج العلمية لا تتفق ونظام الدولة.

ومن ناحية أخرى رأينا المعسكر الأول نفسه قد شعر قادته بأن النظام الديمقراطي أيضاً في حاجة إلى تعديل، وخطب عظماؤه في وجوب إصلاحه لمواجهة العالم الجديد، فنظام رأس المال يسبب دائما أزمات حادة وعطالة مخزية؛ فنادوا بأنه يجب أن تتدخل الحكومات الديمقراطية ولو بعض الشيء، لوضع حد لهذه المآسي، وتقييد الحرية نوعا ما لمصلحة المجموع؛ وقالوا إن النظام البرلماني بطيء في تسيير الأمور بطئاً يحتاج إلى علاج، والمطابع والتمثيل والسينما والراديو قد جاوزت حدودها في الحرية، ولا بد من تدخل في وضع حدّ لها مسترشدين بالمصلحة العامة.

***

وإلى هنا توسطنا النيل، وهبّت ريح فضربت الشراع فمالت السفينة ميلا شديدا، ففزعنا وكان أفزعنا صاحبنا الحاضر فصاح، وسكت عن الكلام المباح.

ثم جاوزنا الوسط، وهدأت الريح، واعتدلت السفينة فعادت شهوته للكلام وشهوتنا للاستماع.

وسألناه: فماذا تنتظر بعد؟

لعلكم ترون من هذا كله الصراع العنيف بين الفردية والجماعية، واضطراب العالم بين النزعتين، وشكواه من كبت الحرية العقلية في ظل «الجماعية»، وقلقه من البطء والعطالة في ظل الفردية.

إن العالم — فيما أرى — سيتحرر من خضوعه المطلق للعوامل الاقتصادية، وستكون المسائل المالية عاملا

من جملة عوامل ، لا العامل الوحيد ؛ وسيتعلم من هذه الكوارث إيمانه بنوع من الأخلاقية الأخوية ؛ وسيتبين أن النظرة الاقتصادية وحدها أدت إلى حياة جافة يائسة ، وسيعود إلى التعاليم التي أهملت من أن الإنسان أخو الإنسان ، وسيتجلى له أن التضييق على الحرية العقلية وإخضاع العلم للسياسة تدهور العقل ، وأن دعوى المصلحة العامة لا تغني ما لم يقصد إلى المصلحة العامة في صدق وإخلاص .

أما من ناحية الصراع بين الفردية والجماعية التي حدثتكم عنها ، فإني أرجح أن العالم سيهتدي إلى نوع جديد هو « الفردية في الجماعية » ، وأعني بذلك أن العقول ستبتكر نوعا من النظام يحفظ فيه الفرد شخصيته في حدود مصلحة الجماعة ، وستؤسس التربية والتعاليم والنظم السياسية على تغذية العاطفتين من غير أن تتضاربا وتتعارضا ، وسيكون هذا علاجا لشكل مشاكل العصر الحاضر .

وهذا النظام المرجو لا يتحقق إلا إذا قبله العالم المتمدن كله ، ونفذه في صدق وإخلاص وقوة عقيدة ، وقامت على رعايته قادة الأمم ورجال السياسة ورجال العلم ورجال الدين ، وتلاشت عصبية الأمم ، وعصبية الأجناس ، وعصبية الأحزاب ، وعصبية أصحاب رؤوس الأموال ، وعصبية الطبقات ، وتولى الزعامة رجال واسعو النظر شديدو الإخلاص ، محبو الإنسانية ، جمعوا بين قوة العقل وقوة الشعور ، تسيرهم العقيدة الحقة الخالصة ، لا الرأي العام الحقي المتحزب .

* * *

وتعب الصديق من الحديث الطويل ووفائنا بشرطه ، وتركنا إياه يحاضر من غير مقاطعة ؛ وطلب ماء فشرب ثم سكت .

فسأله أحدنا : وهل تظن — يا دكتور — أن العالم سيصل إلى هذه الغاية بعد هذه الحرب ؟

فقال : إن هذا هو الأمل الوحيد لخلاص العالم ، فإن لم يبلغها في هذه الحرب ، فسيظل في كوارث تتبعها كوارث ، وستزيد الويلات زيادة المتواليات الهندسية تبعاً لتقدم العلم وازدياد المخترعات ، حتى يمل الإنسان فيؤمن بالغاية التي شرحتها .

أما أنها الغاية فلا أشك في ذلك ، وأما أنها الغاية من الحرب الحاضرة فلست أجزم به .

* * *

ومرت بجانبنا سفينة ملئت فرحاً وسروراً ، وبها « جوقة » موسيقية تعزف وتغني ، وبأخذ أهلها الطرب فيتصايحون ويتنادرون ويضحكون .

فأخذ صديقنا يلقي محاضرة أخرى في الموسيقى الشرقية وعيوبها ، وبدأ يقارن بين الموسيقى الشرقية والغربية ، وكاد يتدفق في هذا تدفقه في ذاك .

قال أحدنا : على رسلك — يا دكتور — ! فإن لقدرتنا على الاستماع حداً ، والمتحدث ينبغي أن يوائم بين أحاديثه ، فأين ما كنت فيه من مصير العالم من الموسيقى العربية والغربية ؟ فإن كنت خبيراً بالموسيقى فتجنب « النشاز » .

وضحك الجميع ، وسرت السفينة ، وإلى اللقاء .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لمدة أشهر (مص):
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك المنضمة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

العلاقات الدولية

أو سيكولوجية الحرب

أشرنا في مقالنا السابق إلى بعض الدوافع البدائية التي تؤدي إلى نشوب الحرب، كغريزة حفظ الذات؛ وقلنا كلمة عن سيكولوجية الجماهير؛ واليوم نذكر بعض ما قاله المفكرون عن حكم القانون، وتعبئة اللاشعور، والدعاية.

حكم القانون:

كثيراً ما يقال إن الحرب يمكن القضاء عليها كما قضي على المبارزة بالوسائل التشريعية، وبإعلان صريح بتحريمها. ولكن الذين يقولون هذا القول ينسون أن القانون، وإن كان في آخر الأمر يمثل آراء الكثرة الغالبة من الأفراد، يحتاج إلى قوة للمحافظة عليه. ورجال الشرطة هم الذين يحافظون عليه وينفذونه داخل حدود الدول المختلفة. وكذلك يحتاج القانون الدولي في المرحلة الحاضرة من مراحل الرقي البشري إلى قوة تخضع الدول المختلفة لأحكامه. ويبدو لنا أننا في حاجة إلى هيئة عليا فوق الدول لها قوة كافية تأتمر بأمرها وتستخدمها في تنفيذ أحكام هذا القانون؛ ولكن إنشاء هذه الهيئة لا يدخل مع الأسف الشديد ضمن نطاق السياسة العملية المستطاعة في وقتنا الحاضر، فما من أمة ترضى أن تنزل عن سيادتها العليا لدولة فوق الدول، لأن ذلك يتطلب منها عقلية لا وجود لها الآن على ظهر الأرض. وليس أمام الساسة بعد ذلك إلا إنشاء نظام من الضمان الإجماعي عن طريق هيئة كعصبة الأمم الحاضرة مكبرة.

ولا أمل في نجاح هذا الضمان إلا إذا كان عاماً، فلا بد أن تشمل عصبة الأمم في المستقبل العالم بأجمعه، لأن السلم مسألة يعنى بها العالم كله، وبخاصة بعد أن تقدمت سبل الاتصال هذا التقدم السريع الذي انعدمت به المسافات بين أجزائه المختلفة؛ وبعد أن قويت الروابط الاقتصادية والثقافية بين أمم الأرض قاطبة، فعصبة الأمم الصحيحة يجب أن تمثل الأمم كلها بلا استثناء، فإذا أنشئت على هذا النحو أمكن المحافظة على مبدأ الضمان الإجماعي وكبح جماح ثورات الأمم مهما عظمت. ولكن ظروف العالم الراهنة لا تبشر بإمكان إنشاء هذه العصبة الكاملة، وبقدر بعدها عن الكمال يقل الأمل في قدرتها على تحقيق هذا الغرض الأسمى.

تعبئة اللاشعور:

قد يعجب المرء كيف يستطيع إنسان أوتي قسطاً وافراً من الثقافة وله سلطان على نفسه أن يصل إلى الحالة العقلية التي تدفعه إلى قتل إنسان آخر، وليس بينه وبينه نزاع شخصي؛ نعم إن حماسة الإنسان العلمية قد تدفعه وهو هادئ في معمله أن يبذل جهده في العمل على زيادة قوة الطائرات والأسلحة القتالة على اختلاف أنواعها، وأن ينسى في ذلك الوقت الغاية التي تستخدم فيها هذه الأسلحة فيما بعد. ولكن الذي لا يستطيع العقل أن يدركه بسهولة هو كيف يقدم هذا الإنسان على إطلاق المدفع، ونسف المفرقعات، وإلقاء القنابل، وملء الجو بالغازات السامة والخانقة والمحرقة، وهو يعلم أن عمله هذا سوف يؤدي حتماً إلى تقتيل بني جنسه، وتشويه أجسامهم؟ أو بعبارة أخرى: كيف يقدم إنسان عاقل على الاشتراك في الحرب؟ تلك مسألة سيكولوجية من واجب الناس أن يفكروا فيها؛ نعم قد يوجد في بعض الأمم المحاربة من يأبى أن تكون له يد في الحرب بحال من الأحوال، وقد وجد هؤلاء في الحرب الماضية، وأطلق عليهم اسم «الممتنعين بوحي ضمائرهم». ولكن هؤلاء أفراد قلائل لهم عقول مستقلة قوية تأبى أن تنساق إلى ما تنساق إليه الجماهير، وأن تقبل في سهولة الإيحاء النفساني الذي يوحيه إليها الجو الذي يحيط بها.

أما الكثرة الغالبة من الناس ، فإن تيار الشعور العام يجرفها معه ، وذلك لأن الحقائق التي تعلن للناس في أيام الاضطراب النفسي السابق للحرب ، وفي أثناء الحرب نفسها تهيئ أذهان الأفراد إلى الاعتقاد بأن العقل والضمير كليهما يحتمان عليهم أن يشتركوا فيها ، ويبذلوا فيها أقصى جهودهم ، لا فرق في ذلك بينهم وبين وُلاة الأمور الذين يسيّرون دفة السياسة ويسيطرون على أداة الحرب . أو بعبارة أخرى إن قوة اللاشعور لدى الأفراد تعبأ للحرب كما تعبأ قوة الجيش والأسطول وسلاح الطيران سواء بسواء . ولو كان الناس يدركون حق الإدراك جميع القوى اللاشعورية التي تؤثر فيهم وتدفعهم إلى أن يخوضوا غمار الحرب ، لرأيناهم على الأقل أكثر ترددا مما هم الآن في الإقدام عليها والاشتراك فيها ، ولما رأينا كلا الطرفين المتحاربين يعلن أنه يدافع عن الحق ويطلب إلى الله أن يهيئ له سبيل النصر .

فالقوى اللاشعورية إذن عامل قوي فعال في الحروب ، وهي تظل في الأوقات العادية نائمة مكبوتة تسيطر عليها أغراضنا ومقاصدنا الواعية ، وثقافتنا وإحساسنا بما يجب علينا لغيرنا ، وما يليق بنا ، وما لا يليق ؛ ولكن في وسع هذه القوى إذا أثيرت أن تسيطر على أحكامنا الأخلاقية وتلويها وتفسدها ويحدث هذا في أوقات الحروب وفي أيام الثورات . والزعماء هم الذين يستثيرون هذه القوى ، فالزعيم في تلك الأوقات يمثل لا شعور القوم الذين يقودهم ، وليس هو الذي يرضى مطالبهم الواعية فحسب ، بل هو الذي يرضى هذه المطالب ، ويرضى معها غرائزهم اللاشعورية ، وتلك حقيقة لا يدركها الآن حق الإدراك كثرة المتعلمين المثقفين ، ولا تلقى منهم ما هي جديرة به من العناية .

الدعاية :

والدعاية هي الوسيلة التي تتبع لتعبئة اللاشعور ؛ وليست الدعاية شرا في جميع الأحوال ، فالحرب متى دارت رحاها كان من حق كلا الطرفين المتحاربين أن يلجأ إليها ويستخدمها إلى أقصى حد مستطاع ؛ ولكن الدعاية المرذولة هي الدعاية الباطلة التي يلجأ إليها في أيام السلم ، وقبيل اندلاع لهب الحرب ؛ وأقصد بالدعاية الباطلة الكذب وقلب الحقائق ، مما لا يستطيع معه أكثر الناس علما وثقافة أن يتبين فيه الحق من الباطل ، ولو استطاع الناس في أيام الأزمات التي تسبق الحروب أن يتمسكوا بالصدق بأكمل معانيه ، لقوى الأمل في منعها ، ولكن الكذب ، والاحتيال ، والسفسطة ، جزء لا يتجزأ من فن الحرب .

وإذا كان العمل على التأثير في قوى الإنسان الواعية المدركة بقلب الحقائق عن قصد وتعمد ، وبسوء التوجيه والخداع ، إذا كان هذا كله خطرا ، فأخطر منه الالتجاء إلى القوى اللاشعورية البدائية الكامنة في عقل الإنسان ، كالرغبة في إحراز المكانة والسلطان ، وهي الرغبة التي تلازم على الدوام شعور الإنسان بمكانة أسرته أو طبقته أو بلده ، ذلك الشعور المستمد من رغبته في إثبات ذاته ، وإشعار الناس بوجوده ، وليس أسهل من تشويه هذه الغريزة وإساءة استخدامها وتوجيهها وجهات يصعب على الباحث أن يتبين معها أصلها . ومن أكثر الوسائل نجاحا في إخفاء هذه الغريزة وسترها عن أعيننا إلباسها لباس المبادئ الخلقية السامية كالقول بأن علينا هذا الواجب أو ذاك ، ثم استخدام هذا الشعور بالواجب في تقوية هذه الغريزة حتى إذا أزيح هذا الستار الخارجي ، ستار الواجب الخلقي ، تبينا من تحته الرغبة في السلطان وغريزة حب الذات سافرة صريحة .

ومن الغرائز القوية البدائية الكامنة في اللاشعور ، والتي تعبأ في أيام الحروب غريزة حب الاعتداء ، وهي الغريزة التي تدفع بالجندي إلى قتل عدوه متى رآه ؛ ويقابل هذه الغريزة غريزة أخرى تناقضها ، وهي الرغبة في الصداقة أو الحب ، وهي غريزة أساسية قوية لا يقل في

أثرها من حب الاعتداء . وكثيراً ما تؤدي إلى نتيجة مماثلة لها ، فيكون الاعتداء ناشئاً من الخيبة في السعي إلى الصداقة والحب . فالطفل الصغير يرغب في أن يُحَبّ ، وهو مستعد لأن يُحِب ، فإذا لم يلق هذا الحب من أبويه ، فالغالب أنه ينشأ شخصاً شرساً مشاكساً معتدياً ؛ وهذا نوع من الاعتداء ثانوي غير بدائي ، ينشأ إذا لم يلق صاحبه حباً .

وكثيراً ما يحدث هذا النوع الثاني من الاعتداء بين الأمم بعضها وبعض ؛ فقد ترغب أمة في صداقة أمة أخرى وتفضل أن تكون حليفة لها عن أن تعاديها وتخاصمها ، فإذا ما مدت إليها يدها تطلب هذه الصداقة ثم رفضت طلبها ، خلق فيها هذا الرفض شعوراً قوياً بالاشمئزاز والكراهية شبيهاً بالشعور الذي يحدث في نفس المحب المخفق في حبه . فهناك إذن نوعان من الاعتداء : نوع بدائي يظهر في التقتيل وفي الحروب ، ونوع ثانوي ذو مظاهر خاصة به ، يباعد بين الناس وبين الأمم ، ويؤدي إلى النفور والخصام ؛ وهو أكثر من الأول انتشاراً ، وقد يؤدي إلى نفس النتائج .

ومن الميول البدائية الكامنة في اللاشعور ، والتي تمهد أيضاً للحروب ميل الإنسان إلى التضحية بنفسه ، وهو ميل إذا توثقت الصلة بينه وبين عقيدة الواجب الوطني أصبح منبعاً يفيض منه النشاط والقوة ، وسبباً في إشعال نار الحرب أو النفخ فيها بعد اشتعال نارها ، والدعاية الماكرة تحرك قوة هذا الميل وتلجأ إليه على الدوام .

كل هذه عوامل تثير الحرب وتمدها بالوقود إذا اشتعلت نارها ؛ وهناك عوامل أخرى غيرها لم نشر إليها ؛ وحسبنا هذا بياناً لمقدار العقبات والأخطار التي يجب على من يريد إقرار السلم أن يزيلها من طريقه . ويقال الآن بحق إن نزع السلاح الخلقي — أو التسليح الخلقي كما يفضل البعض أن يسميه — يجب أن يسبق نزع السلاح المادي . ولكن نزع السلاح الخلقي نفسه يجب أن يسبقه معرفة تامة بحقيقة تلك القوى الباطنة التي يجمع العلماء على أنها « بهيمة شريرة » ، وبتلك الميول النفسية التي هي أبعد من القوى السابقة غوراً وأكثر منها بدائية ، والتي ليست في ذاتها خيراً أو شراً ، بل يكون هذا أو ذاك حسبما يوجهها الذين يستطيعون أن يسيروها ويسيطروا عليها .

إن القوى اللاشعورية في الأفراد إذا بقيت مكبوتة لا ترقى إلى مستوى الوعي الذي يدركه العقل ويسيطر عليه ، قد تبرز في صور فاسدة مشوهة هي الأمراض العصبية والعقلية الشديدة الخطر المختلفة الأنواع أو الشذوذ ، والأطوار الغريبة فيمن لا يعترف أكثر الناس بأنهم مصابون بهذه الأمراض العصبية . فإذا ما رفع الكبت الواقع على هذه القوى اللاشعورية بطريق التحليل النفساني ارتقت إلى مستوى العقل الواعي ، وظهرت في صورتها الحقيقية ، وأمكن السمو بها ، أي توجيهها إلى أغراض اجتماعية وثقافية راقية .

والدول شأنها في هذا كشأن الأفراد ، وعلاقة بعضها ببعض تؤثر فيها أعظم الأثر ميول أفرادها اللاشعورية التي تظهر في أعمالهم وإحساساتهم ، دون أن يدركوا مصدرها . وتلك الميول اللاشعورية كميل الإنسان إلى إثبات وجوده ، والاعتداء على غيره ، وحفظ ذاته ، والتضحية بنفسه ، والميل إلى المخاصمة وما إليها هي التي تثور وتشتد ثورتها إذا شبت نار الحرب ، وهي التي تمهد في إبانها . وما من شك في أنها كامنة في الإنسان ، ولكنها غير خامدة في أوقات السلم . وتزيد الدعاية والحوادث التي تقع في العالم هذه الميول قوة ، فتنتج عنها عقد نفسية[1] Complexes تقيم الصعاب في المفاوضات الدولية وتجعل التفاهم المتبادل

(١) هذه الترجمة أفضل في رأينا من لفظ المركبات التي يترجم بها هذا الاصطلاح عادة .

مكانة الأدب العربى

بين آداب الأمم

الآداب الأوربية

لا يمارى الأدباء الخبيرون بتاريخ الآداب الأوربية فى اتصال الأدب العربى بهذه الآداب وتأثيره فيها ، ولكن تختلف آراؤهم فى تقدير هذا التأثير .

كان لتأثير الأدب العربى فى آداب أوربا أطوار ووسائل وصور شتى . ولا يتسع المقام لتفصيل الكلام فى هذا ، فحسبنا هنا إجمال لمسائل يسع تفصيلها مقالات طويلة .

كان هذا التأثير فى العصور الوسطى والحديثة بتسرب الآداب العربية ، شعرها ونثرها ، ولا سيما القصص ، إلى الأوربيين من المواطن العربية المجاورة : الأندلس وجنوبى إيطاليا وصقلية . ثم كان برحلات الأوربيين إلى الشرق ، ثم بدرس أدبائهم من بعد الأدب العربى والآداب الشرقية كلها ، وترجمة ما يختارون منها إلى لغاتهم .

فأما فى العصور الوسطى ، فقد نشأ فى جنوبى فرنسا فى القرن الحادى عشر الميلادى ، (الخامس الهجرى) ضرب من الشعر بدع فى موضوعه وأوزانه ، ليس له أصل فى الآداب الأوربية ؛ ولكنه يشبه كثيراً ضرباً من الشعر الشائع فى الأندلس ، فى أوزانه ويشبه فى موضوعه فناً من الأدب العربى شائعاً فى كل مواطن الأدب العربى وعصوره .

موضوع هذا الشعر الغزل ، الغزل السامى الذى تتجلى فيه النزعات الروحية العالية ، ويرفع مكانة المرأة إلى التقديس أو ما يقاربه ، وهذا لا يلائم مكانة المرأة عند الأوربيين فى العصور الوسطى ، ولا هو موصول بالأدب اليونانى والأدب اللاتينى . إنما يتجلى هذا فى الغزل العربى الذى عرفه الأدب الجاهلى فى غزل النبلاء من شعرائه . وزاد فيه الأدب الإسلامى العواطف التى فاضت بها قلوب الشعراء الغزلين ، أمثال كثيّر ، وجميل ، وابن أبى ربيعة ، والعباس بن الأحنف ، وابن زيدون ، والذى يمزج فيه أحياناً الإباء العربى والحب الخالص فى شعر أمثال : الشريف الرضى ، وأبى فراس الحمدانى ، والأبيوردى ، والمتنبى .

ولا ريب أن الأدب العربى بلغ بهذه العواطف منتهاها ، حتى قدّسها وتناولها بالبيان جماعة من المنتسبين إلى المذاهب الدينية المتشددة ، مثل : ابن داود الظاهرى البغدادى فى « كتاب الزهرة » ، وابن حزم الأندلسى الظاهرى كذلك فى « كتاب طوق الحمامة » .

ومن أجل هذا عمد الصوفية إلى الصور الرائعة العالية فى الغزل العربى حينما أرادوا أن يصوّروا نزوع الروح إلى عالمها ، وحنينها إلى الخالق تعالى ، بل فناءها فيه — وجدوا فى الغزل العربى مشابه مما يشعرون ، وترجماناً لما يدركون .

وأما أوزان هذا الشعر الذى ظهر فجأة فى جنوبى فرنسا ، إقليم بروفانس ، وتغنى بها الشعراء الطوافون

بينهما مستحيلا .

ولا رجاء للعالم فى أن تسرح الدول جيوشها الجرارة وتقلع عن وسائل البطش والتدمير إلا إذا كشف علماء النفس عن جميع الميول اللاشعورية الكامنة فى عقل الإنسان عن طريق التحليل النفسانى ثم سموا بهذه الميول ووجهوها إلى العمل لأغراض راقية من العلم والثقافة ، والعطف على الجيرة وخير الإنسانية ، فيكون ذلك مصرفاً لهذه القوى اللاشعورية التى تنصرف الآن إلى الشر وإلى الحرب والتخريب والتدمير .

محمد عرفان

الذين عرفوا في الأدب الأوربي باسم التروبادور ، فهي مأخوذة من الموشّحات الأندلسية والأزجال ، والزجل أغلب عليها . وإذا قيس ما وصل التاريخ من أزجال ابن قزمان الأندلسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ بأشعار التروبادور تبين أن الثانية مأخوذة من الأولى ؛ وكان أحد شعرائهم : وليم دى بواتييه (William de Poitie) ينظم أحياناً في أوزان ابن قزمان ، وأحياناً في أوزان تقاربها جداً . بل رد بعض الباحثين كلمات من اصطلاحات هذا الشعر إلى كلمات عربية .

وإذا قيل : كيف كان اتصال هؤلاء الشعراء — التروبادور — بالأدب العربي وما كانوا يعرفون العربية ؟ فالجواب أن كثيراً من مسلمي الأندلس كانوا يعرفون اللغة الجليقية ، لغة الإقليم الشمالي الغربي من أسبانيا[1] ، وهي لغة مشتقة من اللاتينية ، وكانوا يتحدثون بها في بيوتهم ، فاستعمل الزجل العربية العامة وهذه الجليقية . وكذلك كان مسيحيو الأندلس بعد أن استعربوا ، صلةً بين الأدب العربي والبلاد التي شمال الأندلس .

ثم استولى الأسبان على الأندلس بعد أن انتشر فيها الأدب العربي ثمانية قرون ، فأفادوا من هذا التراث العظيم ما أفادوا ، وخالطوا قوماً أسمى منهم حضارة وآداباً .

وكما تسرب الأدب العربي إلى أوربا من الأندلس تسرب إليها من جنوبي إيطاليا ، ومن صقلّيّة التي دامت فيها للعرب دولة وازدهرت حضارة أكثر من قرنين ونصف — صقلية بلد الشاعر العظيم ابن حمديس الأزدي المتوفى سنة ٥٢٧ بجزيرة ميورقة ، وهو من مفاخر الأدب العربي . وديوانه أحد كنوزه الباقية على الدهر . وقد استولى عليها النرمانديون والأدب فيها بالغ الذروة التي تمثّل مثل ابن حمديس الذي فارقها في يد الأعداء ، وبكاها كثيراً :

ذكرتُ صقليةً والأسى ... يهيّج للنفس تذكارها
ومنزلةً للتصابي خلت ... وكان بنو الظرف عُمّارها
فإن كنتُ أُخرجتُ من جنة ... فإني أحـــدّثُ أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء ... حسبتُ دموعي أنهارها

ونحن نعرف استعانة ملوك صقلية بعلماء العرب ، ونعلم أن الشريف الإدريسي صنع لأحدهم أول كرة جغرافية . ولا ريب أن الشعر العربي كان ينظم في قصور النورمانديين ملوك صقلية ، وأنه كان في قصر فردريك الثاني مغنيات وراقصات نشأن في بيئة عربية .

وكذلك تسرّب أدب العرب إلى جنوبي إيطاليا فكان الشعر الإيطالي القديم في أوزان الشعر الأندلسي العامي .

ذلكم أثر الأدب العربي في الشعر الأوربي إبّان القرون الوسطى .

وأما تأثير النثر فأوضح وأعمّ . فالإقبال على الفلسفة والعلوم العربية تبعه اهتمام بالقصص الأخلاقية والأساطير وكتب الرحلات وعجائب المخلوقات ، ولم يكن للأوربيين خبرة بالأسفار إلا بمقدار ما يذهبون إلى بيت المقدس . وقد انتشرت القصص المأخوذة من العربية حتى بلغت أسكتلنده وأسكندناوه ، تارة بالرواية الشفوية وأخرى بالترجمة المكتوبة .

ومن الأمثلة أقوال حكيمة جمعها مصري في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) رجل اسمه مبشر بن فاتك وترجمت إلى الأسبانية باسم قطع الذهب ، ثم ترجمت إلى لغات أخرى حتى ترجمت إلى الإنكليزية باسم أمثال الفلاسفة وحكمهم ؛ وكانت أول كتاب طبع في بلاد الإنكليز .

وكتاب كليلة ودمنه ترجم من العربية إلى اللاتينية في القرن الذي نقله فيه ابن المقفع إلى العربية ، ترجمها يهودي متنصر ، ثم ترجم من العربية إلى الأسبانية في القرن

(١) الإقليم الذي استعصى على العرب إخضاعه إخضاعاً تاماً .

السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى). ثم نقل من الترجمة اللاتينية إلى لغات أوربا .

والمقامات العربية حاكاها بعض اليهود الأسبانيين .

وقصص دنتى الشاعر الإيطالى التى تسمى Divina Comedia أى الكوميديا الإلهية ، وقصص قبلها تشبهها ، مستمدة من القصص التى شاعت عن الإسراء والمعراج فى العالم الإسلامى . ونحن نعلم أن أستاذا أسبانيا اسمه آسين بلاسيوس كتب منذ سنين كتاباً اسمه « الإسلام والكوميديا الإلهية » قرن فيه بين نصوص من قصة دنتى ، وروايات إسلامية ، فظهر تشابه عجيب يدل على أثر الروايات الإسلامية فى هذه القصة ، فأثارت العصبية الإيطالية جدالا عنيفاً فى هذا الموضوع لم يوهن الحجج الواضحة التى أتى بها الأستاذ الأسبانى .

ومن قبل دنتى كتب المعرى رسالة الغفران ، وبينها وبين قصة دنتى تشابه . وكتب ابن شهيد قصة التوابع والزوابع وهى تخالف القصتين فى مكان القصص وتشبههما فى الخيال بعض الشبه .

فى العصور الحديثة

وأما العصور الحديثة التى ابتدأت بالعصر الذى يسميه الأوربيون عصر الانبعاث أو النهوض ، فقد أحيت الآداب اليونانية واللاتينية وأولعت بها أول الأمر فقطعت مدد الآداب الشرقية ، ثم اشتدت فيها الحركة الطبيعية (رومانتيك) فصدف الناس عن الآداب القديمة آداب اليونان واللاتين . فاتجهوا إلى الشرق ينقلون قصصه وأسماره ورحلاته ويقتبسون منها ؛ فترجم كتاب ألف ليلة أول القرن الثامن عشر م (١٧٠٤) ، ونشر منذ ذلك الحين أكثر من ثلاثمائة مرة . وقد أغرم الأوربيون بالاقتباس من قصص الشرق حتى أنشئوا ما عرفوا منها ، فاخترع بعضهم قصصاً زاعماً أنها تراجم قصص شرقية . وكذلك ترجم كتاب حى بن يقظان إلى اللاتينية فى القرن السابع عشر ، ثم إلى الانكليزية فى أوائل القرن الثامن عشر . ويظن بعض الباحثين أنه أصل لقصة روبنسن كروزو .

وكان هذا الشرق الذى تمثله قصصهم ، موطناً للعجائب والغرائب ومجالا لطيران الخيال إلى غير نهاية . وكان للقصص الشرقية أثرها فى التمهيد للمذهب الطبيعى (رومانتيك) الذى ظهر فى أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩ . ثم ظهر النقاد الكبار يحاولون أن يبطلوا هذه الخيالات ويعرّفوا بالشرق فى صورة الحقة أو ما يقاربها .

ثم عرف القوم الشرق بالدرس والاطلاع على آدابه فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . بدأ هذه المعرفة وليم جونس الانكليزى ثم تولى الأمر أدباء الألمان وشعراؤهم ، فكان للأدب العربى والأدب الشرقى كله مكانة من العناية والدرس ، ونظم جوته ديوان الشرق ، وهو الديوان الذى قابله الشاعر الهندى العظيم محمد إقبال رحمه الله بديوانه « پيام مشرق » أى رسالة الشرق .

ونظم فكتور هوجو قصائده الشرقيات فى الفرنسية وكذلك فعل بيرون الشاعر الإنكليزى .

هذه خلاصة ما فعل الأدب العربى بالآداب الأوربية فى العصور الوسطى والحديثة . ولا يزال تاريخ الأدب يكشف جوانب تزيدنا معرفة بالصفحات المجهولة من الصلات بين أدبنا وآداب أوربا .

هذا الأدب العربى الذى تمتد مواطنه من الشرق إلى الغرب ، والذى توالى عليه الشعراء والكتاب خمسة عشر قرناً ، والذى اتصل بآداب العالم الكبرى فأعطى وأخذ ، وأثر وتأثر ، ما موضوعاته ، وما طرائقه ، وما قيمته ، وما مزاياه وعيوبه بالقياس إلى الآداب الأخرى ، وما وجهته فى العصر الحاضر وكيف ينبغى أن يوجّه ؟

أرجو أن تكون إجابة هذه الأسئلة موضوع المقال الآتى إن شاء الله تعالى .

(الكلام صلة) **عبد الوهاب عزام**

أدباؤنا فى الحرب

لم تكد هذه الحرب الطاغية تجتاح العالم بأهوالها وغوائلها حتى انتاب أهل الأدب فى كل قطر ذهول وخمول ، ولكنهم سرعان ما استردوا وعيهم وعادوا إلى أقلامهم ودفاترهم ، يودعونها ثمرات الفكر والقريحة ، ويعالجون فيها قضايا المجتمع ومشكلاته ، وليس هذا الذهول عجباً من حملة الأقلام ، فالحرب التى تصب بلاءها على الدنيا تصيب الناس جميعاً بالقلق والحرمان ، وتبتليهم بالخوف والنقصان . فإذا أخرجت منها قوى المادة الجهنمية دولة غانمة تبخترت وجرّت ذيول المجد على الأشلاء والدماء ، ورفعت فوق الأنقاض أقواس النصر ، وعلى الهامات أكاليل الغار . وإن غلبت أمة على أمرها كتب لها الخزى والخسران والعار ، وراحت مطوية الحنايا على حقد أسود مستكن لإدراك الثأر ؛ وفى كلا الحالين يؤمر العمال الساكين بصنع الحديد والبارود ، ويكب العلماء الذين قدّت قلوبهم من أصلاد الصخور على ابتداع المهالك العاجلة التى تضمن الظفر والفلاب . ولكن هنالك فى بقاع من زوايا الأرض ، وإن تعطلت فيها نيجان وتهدمت بلدان ، يظل صوت الأدب مرفوعاً مهما قرقع الحديد ولعلع البارود ؛ لأنه صوت الحق الذى يعلو ولا يعلى عليه ، ولأن مواهب الأدب الخيرة النيرة تثمر فى الأيام السود كما تؤتى أكلها فى المواسم البيض المشرقة بالبركة والصفاء .

إن الأدب يبقى حياً سخياً مابقى الفكر مؤمناً برسالته ، ناشداً حياة أرقى من هذه الحياة وأنقى . وقديماً صرت الآداب الحية والأفكار الحرة بضروب المحن والرزايا ، ولبثت مدى أجيال قابعة فى عصور الظلمات ، ودامت محاكم التحقيق أحقاباً جادة فى مصادرة الأسفار وحرق الكتاب وتشريد المفكرين ، حتى أشرقت عصور العرب ، وازدهرت حضارة الإسلام ، فكان النصر والمجد للأدب ولعباقرته الخالدين . فهم الذين أرّخوا سجل المحن ، وباركوا عهود الحرية بعد غروب الاستبداد .

وهذه الحرب القاتمة التى تطاول على الناس بجبروتها لم تستطع أن تكبت خواطر الفن ومشاعر البيان ، فعلى الرغم منها الأديب الموهوب ، والشاعر الملهم ، والموسيقى المطبوع ، سادرين وراء المثل العليا ، مستيقنين أن الإنسان الجديد بسيارته وطيارته ، بعلومه وحضارته ، هو صنو الإنسان القديم بأظافره وهراوته ، وتكشير أنيابه وعداوته . على أن إكباب هؤلاء الموهوبين على التأليف والتثقيف وعلى المحاضرة والمناظرة فى هذه الحقبة العصيبة لم يخالف الرأى القائل : إن إنشاء الأدب فى أيامنا الحاضرة كالأضاحيك والنوادر فى المناحات والمآتم ، وإن موضوعات الأدب من لغو الكلام وعبثه ، لأننا فى عهد نضال عنيف صخاب ، ضاع فيه كل صوت إلا صوت الحديد والنار . وثمة رأى آخر يزعم أن على الأديب فى زحمة الحرب أن يكتب فى أمور لا تمسها من قريب ولا من بعيد ، وألا يعبأ بأحداثها وخطوبها ، بل عليه أن ينفرد ويتجرد عما يحيط به ، ويتعبد الفن وحده ، وهذا رأى الفئة الغالية ؛ وكلا الرأيين فالألان ، فالأدب ما عاش يوماً منطلق الأجنحة فى عالمه البعيد ، فهو أبداً كطائر قد بسط جناحيه فى أجواز الفضاء ، وهو مهما دوّم وحلق فلا بد له من أن يحط على الأرض . فما من أديب أطلق العنان لأدابه المجردة البعيدة عن واقعه وبيئته ، إلا شعر بالغربة والقطيعة ، وزاده ألماً وهما تجافى القراء عن آثاره ، إذ لا يجدون فيها صدى لحياتهم ، ومجلى لميولهم وآمالهم ، فكيف يسوغ إذن لأديب يطوف صاحبه بين النجوم حالماً بالرفادة والسعادة وأمته تردى أو تشقى ؟ وهل يطيب إنشاد شعر صوفى فى مهرة طائفة ممعنة فى المادة والإلحاد ؟ بل كيف ينطوى

الأديب على نفسه ويعكف على وحدته وهو الذى لا يجود ولا يجيد إلا إذا انغمس فى الحياة ، وعاش فى الناس ولهم ، يدونه بحوادثهم وخصائصهم وأشيائهم ، فيؤدى إليهم رسالة الأدب حافلة بما يغذى عقولهم ويهز مشاعرهم . وقد يُقيّض للأديب أحياناً أن يكون بمعزل عن الناس ، ولكنه فى الأيام الشداد مهما فسد ذوقه ، وتبلد حسه ، فإنه لا يستطيع أن يتوارى وراء أثرته وعزلته ، فيسارع إلى شحذ القلم ومشاركة المهمومين والمحرومين شجونهم ومواجعهم . وها إن ديار الغرب وإن اصطليت بشواظ من نار هذه الحرب فإن أدباءها ما انفكوا عن الكتابة والإذاعة ، وأكثر حكوماتها ما زالت حريصة على فيض العقول وثروة الأفكار ، بارة بحملة الأقلام لئلا يركنوا للخمود والجمود ، حتى إنها فى فورة هذه الكارثة توزع على الجند المجاهدين مع الغذاء والكساء أدوات المذياع وأنواع الكتب والمجلات . وإذا برت الحكومات الرشيدة بالأدباء فى الحرب فلأنها تعلم مفزعها إليهم فى السلم ، فهم الذين يخلدون أمجادها ويؤيدون مساعيها إلى نشر الخيرات والطمأنينة وإقامة العدل والتفاهم بين الناس . فماذا صنع أدباء العرب فى هذه الفترة الغامرة ؟ أحسبهم فى سبات عميق أو فى معزل سحيق ، إلا طائفة منهم ما زالت طويلة الأنفاس وضاءة الأقباس ؛ على أن أكثر هؤلاء الأدباء دأباً على التأليف والنشر هم من أعلام المصريين ، فطه حسين ، وأحمد أمين ، والزيات ، والعقاد ، وتيمور ، والحكيم ، وغيرهم كتبوا ونشروا فى هبة المدامع وهى قريبة منهم ، ولكن أدبهم خلا من صورها وطوابعها ، فلم يتسم إلا بقواقع من ألوانها ، وحجة بعضهم أنهم يذيعون اليوم من منتوجهم ومحصولهم ما يصرّون به الناس ويلهونهم عن أنفسهم لحظات من ليل أو نهار ، ليفسوا أو يتناسوا بعض ما يحيط بهم من قلق ومكروه .

وفى لبنان ما ذوت أزاهير الأدب ، ولا غاضت ينابيع الفنون ، حتى إن وطأة هذا الصراع وإن تكن عنا بعيدة فقد أخرجت بعض كتابنا المنطوين على أنفسهم من خلواتهم الأدبية ، وصوومعاتهم الفكرية ؛ فنزلوا بين الناس وتغلغلوا فيما يسودهم ويقودهم من أفكار وآراء ، لا ليصوروا وقائع الحياة وطبائع هذه الفترة ، بل ليؤدوا رسالة الذود عن كرامة الفكر والروح وكرامة الحياة ، وليندوا بسيطرة الطغيان والعدوان ، ونعم ما فعلوا ! وهكذا سلك أدبهم الحاضر طريقاً وسطاً ، فلم يمس الحرب كما يلتمس منهم ، وإنما مسها فى أطرافها ، وكشف عن أسبابها ، ووجه الجيل الطالع وجهة جديدة فيها خير وهدى .

أما أدباء الشام فمحصولهم فى هذا العهد قليل ، ومنشورهم أقل ، ولولا ومضات من الكهول ووثبات من أيقاظ الشباب لكان الأدب الشامى فى ركود . ولقد يدفع بعض الكتاب الصامتين عن أنفسهم بأشتات المعاذير ، فيعدون المتسائلين أنهم سيكتبون عن الحرب بعد أن تضع أوزارها ، وقد فاتهم أن أعاصير الحرب وزمام الجيوش وقعقعات المدافع ، وأزيز الطائرات ، لا يردها الوهم والخيال ، ولا يعيدها التصور للأذهان حين يرفرف السلام وتطمئن القلوب ، وتضمن الحرية والعدالة للأفراد والشعوب .

إن وحى الحرب لا يكون إلا فى ظلالها الجاحمة اللاهبة ، وعلى شهابها الخاطف وضوئها الشاحب . وأقلام الأدباء والشعراء ينبغى أن تغمس فى الدماء المسفوكة لمطامع الجبارين ، كما تغمس فى المداد ، فيكتب الكاتبون أدباً يستمد وعيه وخواطره من خلال الوقائع والأحداث ، ويسجل الأدباء ما يقع تحت شعورهم من صور الدنيا ، ويجلوا أطوار الحياة فى غنى الناس وفقرهم وجشعهم وبطرهم ، سواء كانت هذه الحرب قريبة منهم أم بعيدة . ولا نريد أن ننقم من أدبائنا الصامتين أو نتشاءم من عزلتهم ، فلا بد أن تهزم الحياة

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ... ... "

رغيف ... العيد ! — سنابل الحبش ! — شعر العتمة ! — الحارة المرجبة ! — أول البطلة ! — ما قرأت وما سمعت !

رغيف ... العيد !

... وكانوا يقولون في هذه الناحية : كعك العيد ! فعادوا يقولون : رغيف العيد !

ومَن ذا يبلغ به الحُمق في هذه السنين العجاف أن يذكر كعك العيد وإنه لفي مَشْغلة من أمر الرغيف ! ...

في هذا الموسم منذ أعوام كانت تفيض الصحف بأخبار كعك العيد وحوادث كعك العيد ! وتتفتق عبقرية الشعر « الناعم » عن القصائد الرنانة في كعك العيد ! وتتفتح أزاهير الفنّ البديع من الأقاصيص الممتعة في كعك العيد ، وينتقل حديث السامرين من نادٍ إلى نادٍ ، ومن « مَضْيفة » إلى مَضْيفة عن كعك العيد .. ! فاليوم لا شعر ولا قصص ، ولا حديث يتناقله السامرون ! وعاد كعك العيد ذكرى في ذمة التاريخ ! وكان فرحةَ الصبي ، و « نعمة » الفقير والغنيّ ، و « حلقة » السمر في كل مؤتمر ونديّ ... ! وغَلَبه على « مكانته » ذلك الرغيف ...

... ذلك الرغيف الذي اقتضتْ عبقرية صُنّاعه في الناس أسبابَ الغنى من صناعته ما اقتضُوا ، فخرج وهو أسود « ناعم » لا تكاد تمسكه من جانب حتى يتهالك من كل جانب ، إنه اليوم وحي الشعراء ، وفن القُصّاص ، وحديث النوادي ... وللأشياء كما للناس أقدار وحظوظ !

... وجلستُ على مائدة الفطور في الأسبوع الأخير من رمضان أنتظر ... كما انتظرت مرةً ومرات في « أزمنة » سلفتْ ! ولكني كنت في هذه المرة أنتظر عودة الخادم من « الفرن » بالرغيف ، لا بكعك العيد ...

... وغابت الخادم عن الدار ساعاتٍ ، وإني لأدعوها فلا تلبّي ! لأنها هناك تنتظر ... تنتظر أن « عجنها » يتاح الدقيق مئونةَ الدار من الطحين للرغيف ، لا للكعك العيد ...

... ومررت على « الفُرن » في الصباح ، فوقفتُ ساعةً أشهد الزحام وتدافُعَ الناس على باب « الفرن » في انتظار نضج الرغيف ، لا في انتظار كعك العيد ...

... وعُدت من زيارة أمي في القرية بقُفّةٍ مُثقلة تجاذبها أيدي الشُّبان في المحطة وتتبعها عيناي من « رصيف » إلى رصيف ! وفيها ما فيها من هدايا القرية إلى المدينة : من الرُّغفان لا من كعك العيد ...

... وتناولت صحف الأسبوع أقرؤها ، فإذا هي جميعاً تكتب في أسلوب واحد عن الرغيف لا عن كعك العيد ..

أيها الرغيف ، لك المجد ! !

سنابل الحبش !

كم مرة سار بي القطار على حقول القمح تميل سنابله وتعتدل فما وقفت ولا جاش وجداني ! ...

وكم عاماً مرّ « عيدُ الحصاد » من شهر مايو فما هتفتُ بذكرى ولا حَيَّيْتُ بتحية ! ...

وكم شهدتُ الفلاحَ على « نَوْرَجِه » يدور به على

الزاهنة ، فيهبطوا ساحها ويتناولوا بالشعر والنثر وصفها وتصويرها في أعمق نواحيها وألصقها بمعايش الناس ومرافقهم . ومهما يكن من الأمر فإن بشائر هذه النهضة الأدبية وبوادر الجيل الصاعد في بلاد العرب تدل على عهد للأدب جديد وسعيد ، وسيشهد الناس بعد هذه الحرب الشاملة أدباً طريفاً غزيراً ، عميق الأغوار ، متراي الآفاق ، أدباً إنسانياً محضاً ، يجل عن النزعات ويعلو على الغايات .

(دمشق) وداد سكاكيني

سنابله فى بيدر القمح فما أحسست معناه ولا أكبرت مشهده !...

وهل مررت على « البذراوى » مرة فى الجرن وهو يذرو التبن عن حباته بمذراته إلا تسخطت وحذرت أن تدمع عيناى ؟...

... فهذا القطار يسير بى على حقوله منذ بضعة أشهر فيستوقفنى وما يقف ؛ فما أراها سنابل على سوق من القش ولكنها سنابل « العيش » !

... وهذا « موسم الحصاد » قد فات منذ أشهر قريبة وإنا لنحسب له ونعد ونسأل منذ اليوم : متى يعود عيده ؟

... وهذه صورة الفلاح على نورجه فى « متحف الفن » ، إنها زينة المعرض ورابحة الجائزة !

... وهذا « البذراوى » ، إنى لنظره اليوم فى قلبى فرحة وفى عينى دمعة ... دمعة تقدير ومحبة ! ...

وإن سؤالا ليتردد فى خاطرى الساعة وما سألتنى إياه نفسى قط : لماذا ... لماذا لا يتغنى شعراؤنا بمواسم الحصاد وإنها لمواسم ؟... لماذا ... لماذا لا نحمل على رأس أعيادنا القومية عيد الحصاد وإنه لعيد ؟... لماذا ، لماذا لا يحتفل فنانونا ومصورونا بمناظر الحصاد والدرس والتذرية وإنها لمناظر ؟ ...

لماذا ... ؟ ولكن لماذا لم تتردد هذه الأسئلة فى خاطرى غير الساعة ؟...

ذلك وحى الرغيف ... !

شعر المعدة !

لشد ما كنت أنكر بينى وبين نفسى أن تكون ثمة صلة بين الشعر والمعدة ، وبين الفن والمائدة ، وبين الكتاب والمائدة ؛ فهذا رد الطبيعة على جهالتى وحمق ...

... وأيقنت بعد التجربة والاختبار أن أبلغ شاعر فى الوجود هو ... هو الرغيف !!

وعاب عائب منذ سنوات كاتبا من كتابنا فلم يجد أبلغ فى السخرية منه من أن ينسبه إلى « أدب المعدة » ، واسترسل الناقد وسكت المنقود ؛ ومضى عام وعام ... وإذا الرغيف يرد الناقد إلى حكمه ، وإذا هو يكتب فى العدد ٤٨٢ من الرسالة يقول :

« أنا أقترح أن يكون عندنا أدب يسمى « أدب المعاش » وهو الأدب الذى يعلم الناس كيف يقتصدون ، وكيف يواجهون مطالب الحياة فى الشباب والشيب بجيوب سليمة من مرض الإفلاس ! »

وأصاب زكى مبارك هذه المرة وقد أخطأ قبلها مرات ؛ وما هو خطأ ولا صوابه ، ولكنها حكمة الرغيف !...

المجاعة العرجاء !

ولسائل أن يسألنى ويعجب : كيف بالله غاب عنك حسن الرغيف وجمال سمحته يوم كان وكان ، فلم تشغف به إلا وقد تناولته أيدى التاجر والطحان والخباز فعاد أشعث أغبر مخلوطا غريب المذاق مختلف اللون كأنه وجه مجدور ...

ولو درى هذا السائل لأجاب ؛ فلولا هذا الأشعث الأغبر الغريب المذاق المختلف اللون كأنه وجه مجدور لما ذكرت ذلك الرغيف الذى كان ... ، ولولا دلال المدل لابتذلته العيون ، وكل مبذول مهين ... ؛ ولولا أن ذهب ما ذهب فأورث لوعة وأعقب حسرة ، لما خشيت أن يذهب هذا الباقى ، فتشبثت به ، فتوسلت إليه ، فسكبت فى أذنيه من سحر الغزل !!

... وكان عند رجل من الأغنياء مائة بنكر قدرها ، فضاعت إلا عشرة ؛ فإنه ليحمد الله ليل نهار أن بقى له ما بقى يسد خلته ويكفيه الحاجة ؛ فإنه ليمسك هذه العشرة على حرص وحذر ، وإنه بها لأغنى منه يوم كان يملك مائة ! ...

والصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يبصره إلا المرضى !

ولأمرٍ ما كان المثل العامي : « جارتك العرجا تغنيك عن سؤال اللئيم ! » أفلا يتمنّى بجارتِه إلا عرجاء ! ...

أول اليقظة !

أذلك خير أم شر ؟ ... أنعمةٌ هى أم نقمة ؟ ...

نحن والبشرية جميعاً من هذه الحرب فى كربٍ وضيق ؟ نعم ، ونحن على ظمأٍ وجوع ؟ نعم ، وإننا لَفى منحدر مائل ... ؟ ولكن ذلك كله خير ونعمة ؟ والمرضُ مناعةٌ من المرض ، فشرُّه خير ؟ والفقر أسلوبٌ من أساليب الجهاد للغِنى ، فهو حصانة من الفقر ؟ والشعور بالكرب والضيق هو لونٌ من السعة ، فهو وقايةٌ من الاختناق ؟ لا جَرَم نحن من ذلك كلّه فى خير ونعمة ، وعلى طريقٍ إلى الغنى والسعادة !!

وما يُحسّ المريضُ آلامَه إلا حين يستيقظ ؟ فإن شكواه ، وتوجّعه لأولُ اليقظة ، وإنهما كذلك لَتباشيرُ الحياة ...

فى دارى طفل رضيع ، لم أره منذ رأيته إلا قطعةً صغيرة من اللحم تتحرك فى لفائف ؛ فما استشعرتُ لحظة منذ كان ، أنه إنسانٌ حىّ ، وما تخيلته مرة فيما يُنتظر من مستقبله شخصاً له يدٌ تبطش ، أو رجلٌ تمشى ، أو لسان يتكلم ... ؟ فإنى لنائمٌ إلى جانبه أمس ، وقد طارت بى أحلامى كل مَطير — إذ سمعتُ صرخةً حية ، ثم اتصل بكاء ؛ فاستيقظت عجلان ، فلم أر الطفل بجانبى ، وجاءت مربيته مهرولة على صوت البكاء الصارخ ، ونظرتُ ونظرتْ ، فإذا الطفلُ أسفل السرير قد مدّ يدين وراح يكافح برجلين وهو يميل يمنةً ويسرةً ، ويتلوّى ويعتدل ، ويجتمع جسمه كالكرة ثم يمتدّ ؛ كأنما يحاول بذلك كله أن ينهض وحده !

وشغلنى النظر إليه عن محاولة إنهاضه ، ورمتنى مربيته بنظرة ثم مالت إليه ... ؟ قلت : دعيه . . . دعينى أنظر إليه وأستشعر من حركاته أنه إنسانٌ حىّ ، إنسانٌ صغير يحاول أن يثبت حيويته ووجوده ! ... وأحسست معناه فى قلبى كما أردتُ أن يكون !

ما قرأتُ وما سمعتُ :

ما ذا قرأتُ فى هذا الأسبوع ؟

هذا الذى كتبت ، هو خلاصة كل ما قرأت !

وماذا فى صحف الأسبوع إلا العيد ، وإلا الرغيف والإدام ، وإلا السكر واللحم ، وإلا الزيت والنفط ، وإلا أخبار التموين وموظفى التموين ، وتدابير الحكومة والشعب من أجل التموين ؟ فهل ترى ترجمة هذا الذى قرأتُ إلا هذا الذى كتبت ؟ . . .

وماذا سمعتُ فى مجالس أسبوع العيد ؟

هذا الذى كتبتُ هو كذلك خلاصة كل ما سمعتُ !

وماذا فى مجالس الناس فى أسبوع العيد إلا هذا الذى كتبت الصحف فى أسبوع العيد : الرغيف والإدام ، والسكر واللحم ، والزيت والنفط ، والتموين وأخبار التموين ، ثم الموظفون ومرتبات الموظفين فى هذا الغلاء . . .

وكانت مجالس السراة والسادة منذ سنين تنزّه أن يكون بعض حديث سُمّارها فى شىء من ذلك ؟ فلم يبق لِسُمّارها اليوم حديثٌ غير ذلك ، واختفى حديث الشعر والأدب والحكمة والفن ؟ وأين الشعر والأدب والحكمة والفن فى هذه الأيام إلا أن تكون من وحى الرغيف ؟ !

هذه مسألة المسائل بين شئون التفكير العليا فى عقل كل ذى عقلٍ اليوم ...

« قاف »

من نصوص كتاب «رسوم دار الخلافة» :

الحيرى بكمين

[تابع المنشور فى العدد الماضى]

٤ — السدلى فى دار المملكة ببغداد

شأن هذه الدار خطير فى ماجريات دولة بنى العباس ، وهى لا تقل شهرة وخطراً من دار الخلافة ، لما كان يجرى فيها من الاحتفالات العظيمة ، والأمور الجليلة ؛ وهى التى سعى بتشييدها على أجمل طراز من سدلها ، وخزائنها وبساتينها، وبركها ، ورواشنها وباقى مرافقها ، بنو بُوَيْه ؛ من معزّها ، وعزّها ، وعضدها ، وصمصامها ، وركنها ، وعمادها ، وبهائها ؛ وَمَن جلس منهم مجلس الملك والإمارة .

وقد شهدت هذه الدار بما فيها سدلها الشهير ، أجمل احتفال جرى فيها ، وكان ذلك فى سنة ٣٧٦هـ ؛ يوم حضور «وَرْد» عظيم الروم . ودعنا نستل خبر هذا الاحتفال التاريخى من شاهد عيان ، هو هلال بن المحسّن الصابئ المولود سنة ٣٥٩ هـ ، فقد شهد هذا الاحتفال فى ريعان شبابه ، إذ كان وهو دون العشرين من عمره يعمل فى ديوان الإنشاء .

قال هلال : «ولقد شاهدتُ فى أيام صمصام الدولة وسنة ست وسبعين وثلثمائة[1] حضور «وَرْد» عظيم الروم فى دار المملكة[1] ؛ وكان انهزم من بين يدى «بَسيل» ، ولجأ إلى عضد الدولة مستنجداً به ، فقبض عليه عيّافارقين ، وحمله إلى بغداد ، فاعتقل إلى أن مات عضد الدولة ، وأقر على الاعتقال إلى آخر أيام صمصام الدولة . ثم سأل فيه زياد بن شهرا كويه صاحب الجيش إذ ذاك بإطلاقه وتسريحه إلى بلده فأطلق وفسح له فى التوجه ، بعد أن شرطت عليه شروط وعقدت معه عقود . وكان شرح الحال فى حضوره : أن فرشت دار المملكة بالفروش العضدية المستعملة لمجالسها ، وعلّقت الستور الديباج على جميع أبواب بيوتها وصحونها وممرّاتها ودهاليزها ؛ وأقيم الديلم من دجلة وإلى حضرة صمصام الدولة على مراتبهم صفين ، بأجمل لباس ، وأبهى عدد ، وسلاح وفى أيديهم وأيدى غلمانهم الزوبينات والتراس والغلمان المماليك والخدم برسمهم وقوف فى طول الرَّوْشن ، بالبزة الجميلة . وجلس صمصام الدولة فى السدلى المذهب ، على سدّة كبيرة ، من تحتها نهرٌ مرصّص يجرى فيه الماء ، وقد وضعت بين يديه الكوانين الذهب فيها قطع العود تتقد وتبخّر . ووافى وَرْد وأخوه وابنه بين السماطين ؛ وعلى وَرْد القباء والمنطقة ، وبين يديه الحجّاب بالسيوف والمناطق المخروزة ؛ وسلّم على صمصام الدولة ... وانصرف من باب غير الباب الذى دخل فيه ...»[2]

(١) ذكر هذه الحادثة غير واحد من المؤرخين ، وقالوا إنها جرت فى سنة ٣٧٥ هـ . انظر : ذيل تجارب الأمم للوزير أبى شجاع (ص ١١١ — ١١٤ ؛ طبعة آمدروز) ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، حوادث سنة ٣٧٥ هـ (٩ : ٣٠ — ٣١ ؛ طبع أوربا — ٩ : ١٦ ؛ بولاق) أما يحيى بن سعيد الأنطاكى (ص ١١٩ — ١٢٠ ؛ طبع باريس) ؛ فقد وافق هلالا الصابئ بأن الافراج عن ورد جرى (فى شعبان) سنة ست وسبعين وثلثمائة .

(١) قال الدكتور مصطفى جواد ؛ العالم بخطط بغداد وآثارها : «أراد بهذه الدار : دار المملكة المعزية البويهية ، وهى غير الدار المعزية التى كانت على شاطئ دجلة فى الموضع المسمى اليوم بـ (الصليخ) وغير دار المملكة السلجوقية التى سميت أيضاً (دار السلطنة) على تاريخها . قال فى مادة (سوق يحيى) من مراصد الاطلاع ما صورته : «سوق يحيى ببغداد بالجانب الشرقى ، كانت بين الرصافة ودار المملكة التى كانت عند جامع السلطان تحت بستان الزاهر على شاطئ دجلة» — ؛ قال : كانت المقبرة الفيصلية الحالية من أرض الرصافة القديمة فما يليها من المواضع المجاورة لمحلة آل البيت القديمة تكون فى موضع سوق يحيى القديمة ، ويكون البلاط الملكى الفيصلى الحالى على شاطئ دجلة من بستان الزاهر وبعده تأتى دار المملكة المعزية البويهية» اهـ .

(٢) رسوم دار الخلافة (ص ١٦ — ١٨) .

٥ – الحارِىّ (أو الحيرى) بكُمَّين

الحارى والحيرى نسبة إلى الحيرة ، يُطلق على نوع من الثياب[١] منسوب إلى المدينة المذكورة . ومنه جاء تسمية هذا البناء بـ « الحيرى بكمين[٢] » . ونسبة الحارى إلى الحيرة نسبة شاذة . ففى التاج أن « النسبة إليها (إلى الحيرة) حِيرِى على القياس ، وتُجمع حارى على غير قياس . . . »[٣] .

قال عمرو بن معدى كَرِب :

كأن الإثْمِد الحارى منها
يُسَفُّ بحيث تَنْحدر الدموع[٤]

وقد أجاد المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) فى وصف هذا البناء أحسن الإجادة . وإليك ما قال : « . . . وأحدث المتوكل فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيرى والكمين والأروقة ، وذلك أن بعض سماره حدثه فى بعض الليالى ، أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بنى نصر أحدث بنياناً فى دار قراره[٥] وهى الحيرة ؛ على صورة

(١) على ذكر الثوب المسمى بالحيرى ، حكى أبو الفرج ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) : (المنتظم ٦ : ٣١٢ طبع حيدر آباد) : « . . . أن أبا بكر بن الانبارى مرض ، فدخل عليه أصحابه يعودونه ؛ فرأوا من انزعاج أبيه وقلقه عليه أمراً عظيما ، فطيبوا نفسه ورجوه العافية . فقال لهم : كيف لا أقلق وأنزعج لعلة من يحفظ جميع ما ترون ، وأشار لهم إلى حيرى مملوءاً كتباً » .

وراجع كتاب « الحيرة » ليوسف رزق الله غنيمة (ص ٨١ وما يليها) .

(٢) كذا هذا قول صاحب تاج العروس فى شرح السطل ؛ والظاهر أن الذى عنى بنشره لم يفهم عبارة المؤلف منذ قوله « كالحارى بكمين » لأن الناشر قال : « قوله كالحارى كذا بخطه » — هنا ؛ وليس هنا محل لقول « كذا » بعد الحارى ، لأن الحارى هو الحيرى أى نسبة إلى الحيرة .

(٣) تاج العروس (٣ : ١٦٥ ؛ مادة ح ى ر) ، وانظر لب اللباب للسيوطى (ص ٨٦ ؛ طبعة فث فى ليدن) .

(٤) معجم البلدان (٢ : ٣٧٥ ؛ مادة الحيرة) .

(٥) يقول متز (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٢ : ١٢٦ ؛ الترجمة العربية) : إن أصل هـذا الطراز من البناء حلبى ، إذ كان الحلبيون قد تأثروا بالحضارة اليونانية المتأخرة .

الحرب وهيئتها لِلَهَجِه بها وميله إليها ، لئلا يغيب عنه ذكرها فى سائر أحواله ؛ فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، والكُمَّان ميمنة وميسرة ، ويكون فى البيتين اللذين هما الكمان من يَقْرب إليه من خواصه ، وفى اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفى الشمال ما احتيج إليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ، فسمى هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيرى[١] والكمين ، إضافة إلى الحيرة ، واتبع الناس المتوكل فى ذلك ائتماماً بفعله واشتهر إلى هذه الغاية »[٢] .

ومن أخبار الحيرى بكمين ما ذكره أبو الفرج ابن الجوزى فى أحداث سنة ٥١٥ هـ التى جرى فيها الخلع على السلطان محمود وعلى أخيه ، وكان الاحتفال « يوم الاثنين رابع عشرين شعبان ؛ جلس المسترشد فى الدار الشاطئية المجاورة المثمنة ، وهى من الدور البديعة التى أنشأها المقتدى وتممها المسترشد ؛ فجلس فى قبة على سدة وعليه الثوب المشمت الأسود ، والعمامة الرصافية ، وعلى كتفه بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين يديه القضيب ؛ وحضر الدار وزيره أبو على بن صدقة ، ورتب الأمور ، وأقام فى كل باب حاجباً ممنطقة ؛ ومعه عشرون غلاماً من الدار ، وانفرد حاجب المخزن ابن طلحة فى مكان ومعه التشريف ، وجلس الوزير فى كُمّ الحارى[٣] ، واستدعى أرباب المناصب . . ثم أمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه ، فحمل إلى صحن البهو ومعه أخوه . . . »[٤]

وانتشر طراز « الحيرى بكُمَّين » فى العراق أيام

(١) « الواو » هنا للمعية .

(٢) مروج الذهب (٧ : ١٩٢ – ١٩٣ ؛ طبع باريس)

(٣) فى الأصل المطبوع « كم الجارى » ؛ وهو تحريف ، والصواب بالحاء المهملة على ما أثبتناه أعلاه .

(٤) المنتظم (٩ : ٢٢٥) .

من هنا وهناك

سفن الهواء فى السلم والحرب

نبذة تاريخية :

كان ديدن الإنسان منذ العصور الخالية ، والغاية التى يصبو إليها من فجر العمران هو درس الطريقة التى يستطيع بها التحليق فى الجو ومجاراة الطيور فى مملكتها . فبعد أن سيطر بعلمه وعقله على العوالم الأرضية ، وازداد حولا فى ميادين الطبيعة ، وكشف كثيرا من أستارها ، وسبر أغوارها وبعد أن حل رموزها ، واستخرج كنوزها ، تطلع ببصره إلى الفضاء الذى يحيط بكونه ، وحاول أن ينتزع من الطيور صولجانها . . . وقد جاء فى الخرافات القديمة أن أرخيتس أحد أبناء ترنتوم استنبط « طيارة تشبه الحمامة فصنعها من الخشب ، ووضع بها آلة تمكنها من الطيران ثم دفعها إلى الحركة بهواء ساخن حق » . ثم جاء العالم الصقلى أرخميدس فكشف عن المبدأ القائل أنه إذا حل جسم من الأجسام محل مقدار من الماء أو الهواء وزنه أكبر من وزن الجسم طفا ذلك الجسم فى الماء أو ارتفع فى الهواء .

وفى منتصف عام ١٧٨٣ شهد التاريخ أول « بلون » يرتفع فى الفضاء عن أرض فرنسا على يد الأخوين مونجولفيه . وكان كروى الشكل ، فارتفع إلى ستة آلاف قدم ، ولبث فى الجو عشر دقائق قطع فى أثنائها ميلين ثم فقد توازنه ، وسقط إلى الأرض . وكانت الجماهير تتبعه أثناء صعوده وهبوطه بأعين تنازعتها الدهشة والإعجاب ، وقلوب ملأها السرور والخوف من غضب السماء ! وقد قيل إن بعض الرهبان الذين شاهدوا التجربة سقطوا على الأرض ساجدين ، طالبين من الله الرحمة والمغفرة لهم ولآل مونجولفيه والفرنسيين أجمعين ! ولما بلغ الأمر إلى سمع الملك لويس السادس عشر وزوجه مارى انطوانيت استدعيا الأخوين إلى بلاط الملك وطلب إليهما أن يعيدا التجربة « ببلون » آخر بعد ما يضعا به سلة فيها خروف وديك وإوزة ؛ ولا أعلم لماذا اختيرت أو لماذا وقع اختيار الملك عليها كى تكون أول من ركب « البلون » . وعلى كل فقد نجحت التجربة وصعد البلون يتهادى مرة ثانية فى الفضاء بين ثغاء الخروف ، وصياح الديك ، وصراخ الإوزة ··· وهتاف الجماهير !

ولكن الإنسان لا يكتفى بمشاهدة « بلون » محلق فى الجو من غير أن يحاول استخدامه لقضاء مآربه فى حرب ونقل وانتقال ... وأدرك الباحثون أن استعماله لا يستطاع إذا لم تستنبط طريقة لامتطائه وتسييره حسب إرادة ممتطيه . فحاول بعضهم أن يعلق به زورقا ، وأن يصنع له

بنى العباس — خاصة فى بغداد وسامراء[1] — وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين ، والأماثل والأعيان ، يغالون فى ترتيبه وتجميله ؛ حتى إن قصر التاج الذى باشر المعتضد بعمارته فى بغداد ، وأتمه ابنه المكتفى ، كان صورة مكبرة للطراز الحيرى ، « فكان وجهه مبنيًّا على خمسة عقود ، كل واحد منها على عشرة أساطين ، والأسطوانة خمسة أذرع[2] » .

وكذلك القصر المعروف بـ « الأخيضر » الذى شيد فى جنوب غربى كربلاء على بعد نحو من خمسة وخمسين كيلو مترا ؛ شيدت بعض أقسامه على الطراز الحيرى بكميّن[3] .

(بغداد) (البحث بقية) **ميخائيل عواد**

(١) البلدان لليعقوبى (ص ٢٦٦ ؛ طبع ليدن) .

(٢) معجم البلدان (١ : ٨٠٩) ، وراجع الحضارة الاسلامية لمز (٢ : ١٧٥ — ١٧٦ ؛ الترجمة العربية) .

(٣) لغة العرب ٢ [١٩١٢] ص ٤٥ — ٥٢ ، ٥١٦ ، وكتاب « الأخيضر » من منشورات مديرية الآثار القديمة فى العراق ، سنة ١٩٣٧ .

شراعاً ومقاذيف تستعمل لتوجيه البلون فى الجهة المرومة . ثم ذهب أحد الفرنسيين ويدعى « مونيه » إلى أن شكل البلون يجب أن يكون بيضيًا حتى يسهل تسييره ، وأن يستبدل بالهواء الساخن الأيدروجين ، حيث إنه أخف من الهواء سبعة أضعاف .

وهكذا أضحى صنع البالونات وإطارتها مدار حديث الباحثين ومحور تفكيرهم ومحط نظرهم ... وفى اليوم السابع من شهر يناير عام ١٧٨٥ وقف المنطاد الأول فى دوفر استعداداً لاجتياز بحر المانش ، وكان الملك قد اقترح على صاحبى المنطاد — مسيو بلانشار الفرنسى والطبيب جفرز الأمريكى — بألا يمتطياه حرصا على حياتهما ، وأن يختار بدلا عنهما مجرمين من السجن ، ممن قد حكم عليهما بالإعدام ، لكنهما فضّلا القيام بالرحلة بأنفسهما ، فإذا ما ماتا عدّ ذلك تضحية فى سبيل العلم والمنفعة العامة . وهكذا صعد المنطاد متجها نحو الشاطئ الفرنسى يحمل أسفله سلة جلس فيها الطائران . ولما صارا فوق البحر وقد ابتعد عنهما الشاطئ الانجليزى وغاب عن نظرهما الجماهير المحتشدة ، رأيا المنطاد آخذا فى الهبوط بصورة أدهشتهما دون أن يعرفا لذلك من سبب . . . وهنا خطر لبلانشار أن يرمى بكل شيء احتوته السلة ، فابتدأ بأكياس الرمل وقذف بها إلى البحر ثم تلتها بعض الحبال والمقاعد وأخيراً . . . تجرد من ثيابه وحث زميله على أن يحذو حذوه . وبذا خف المنطاد ثانية وارتفع ، وظل مرتفعاً حتى وصل إلى فرنسا ، وهبط على مقربة من بولون

تلك صورة سريعة لتاريخ ارتقاء سفن الهواء فى فرنسا . ومن هذه التجارب الأولى استفادت الدول الأخرى ، وأخذت تنافس بعضها بعضا فى دراسة المناطيد وكيفية صنعها . وقد قطعت ألمانيا فى هذا الميدان شوطا كبيراً ، ولعلنا لا زلنا نذكر زيارة المنطاد « جراف زبلن » للقطر المصرى عام ١٩٢٩ فى رحلته حول العالم ، وكان قد قطع من قبل المسافة بين ألمانيا وأمريكا مرتين حاملا على متنه المسافرين وأكياس البريد فاتحا بذلك عصراً جديدا فى تاريخ النقل الجوى . وإنى لأتذكر ، فى هذا المقام ، تلك القصيدة الرائعة التى وضعها الشاعر الإنجليزى تنيسون فى العقد الخامس من القرن الماضى ، والتى تنطوى على نبوءة من أعجب النبوءات الحديثة فى هذا العصر الحافل بالعجائب ، وقد جاء فيها : « وحدقت فى المستقبل إلى مدى ما تستطيعه العين البشرية فشاهدت رؤيا العالم وما تنطوى عليه من العجب العجاب . رأيت الجو حافلا بالتجارة ، رأيت أساطيل الجو ذات الأشرعة السحرية ، وطيارات الشفق القرمزى المثقلة بالبالات النفيسة . وسمعت الصياح يدوى فى السماوات العلى . ثم هبط ندى مروع من أساطيل الأمم الحوائية تتصارع فى كبد السماء ... » .

المنطاد فى الحرب :

وفى الحرب العالمية الماضية أبدت المناطيد الألمانية نشاطا فائقا فى قذف لندن وضواحيها بالقنابل والمفرقعات ، فأشعلت الحرائق ودمرت المنازل ، وبثت الموت والدمار فى الأحياء الآهلة . وكان ضمن شروط الصلح التى أملتها إنجلترا بعد انتصارها فقرة تنص على استيلاء الحلفاء على جميع المناطيد الألمانية عقاباً لألمانيا على عدوانها . وتلى ذلك البند بند آخر يحرم على ألمانيا بناء مناطيد يزيد حجمها على مليون قدم مكعب ، وذلك حرصا على حياة مدنها من حرب مستقبلة .

ثم حدث أن نقضت ألمانيا الشروط فصنعت منطادها المعروف « هندنبرج » الذى احترق فى إحدى رحلاته إلى أمريكا فى ظروف وملابسات اكتنفتها الأسرار وحاطها الغموض .

أما فى الحرب الحاضرة فلم نسمع قليلا أو كثيراً عن

نشاط الناطيد فوق ميادين القتال أو المدن الآمنة . ولعل ذلك يرجع إلى الشوط الكبير الذى قطعته الطائرات فى التحسين والسرعة وقلة النفقات . أما انجلترا فتكاد تكون الدولة الوحيدة بين الأمم المحاربة التى تستخدم الناطيد فى الدفاع السلبى عن مدنها وأهدافها : ففى الليالى الحالكة الظلمة تنساب فى بعض نواحيها عدة مناطيد ملئت بالغازات الخفيفة وتدلت منها إلى الأرض أسلاك من الصلب : فإذا ما جازف أحد الطيارين بالانقضاض على هدف محمى بمثل تلك الناطيد ، اشتبكت طائرته بالحبال ووقعت مهشمة الأجزاء . (انظر شكل ١) .



شكل رقم ١ — المنطاد فى طريقه إلى الجو .
(١) صورة المنطاد وبجانبه مناطيد أخرى .
(٢) أسلاك الفولاذ لاصطياد الطائرات المغيرة .
(٣) أنابيب غاز الهيدروجين .

وقد فطن الألمان لذلك فكانوا يطيرون أثناء الليل على ارتفاع شاهق ، ثم يقذفون بأضواء متناهية تدلت من هابطات ، فإذا ما ظهرت لهم الناطيد انقضوا عليها بمدافعهم حتى تسقط على الأرض محترقة ، فينصبوا بقنابلهم نحو الهدف آمنين . ولا يزال الكثيرون من أولى الشأن بإنجلترا يعارضون فكرة الناطيد الحربية وحبائلها معارضة شديدة ، ويقدمون الحجة والبرهان على أن ضررها يفوق منافعها ، وأن تكاليف الصيد يفوق ثمن الغنيمة ، وأن الدولة تحتمل مسئولية يمكن الاستغناء عنها . ولكن لا تزال بريطانيا — رغم ذلك — تستعملها لحماية أهدافها . ويستطيع المسافرون إلى بعض المناطق العسكرية فى هذه الأيام أن يروا أمثال تلك الناطيد جاثمة على الأرض أثناء النهار ، ومحلقة فى الجو فى الليالى المظلمة ، حامية بذلك مجرى القتال والمنشآت العسكرية من إغارات المعتدين .

محمد أحمد أمين

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٢٦٩

العدد ٢٠٠ | الثلاثاء ١٧ من شوّال سنة ١٣٦١ — ٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٤٢ | السنة الرابعة

فهرس العدد

تحية العيد

إلى صديق ....

وأحبُّ إليَّ أن أناديك بصديق من أن أناديك « يا أخي » أو « حبيبي » ، أو أي لفظ آخر في هذا الباب ؛ فالأخ لا وزن له ما لم يكن أخاً صديقاً ، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق ، وقد أنصف العرب إذ اشتقوه من الصِّدق ، فأي شيء أجمل من الصِّدق في « الصداقة » ؟

كنتُ أستكثر ما يُروى من أن عبد الحميد الكاتب طُلب ليُقتل — في الثورة العباسية — وكان صديقاً لابن المقفع ، ففاجأهما الطلب وهما في بيت واحد ، فسأل : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : « أنا » خوفاً من أن ينال صديقه مكروه ؛ وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى « ابن المقفع » ، فقال : إن لي علامات أعرَفُ بها ويعرفها مَن بعثكم في طلبي ؛ وما زال يقيم الحجج ليدفع الأذى عن صديقه حتى أُخِذ وقُتل . وكنت أستبعد ما يُروى أن هذيلا أصابت دماً في بعض العرب ، فأسر أصحاب الدم رجلين من هذيل متصادقين ، فقالوا لهما : أيكما أشرف فنقتله بصاحبنا ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ابن فلان الحسيب النسيب ، فاقتلوني دون صاحبي ؛ فكلٌّ بذل نفسه للقتل دون صاحبه ؛ فلما عيُوا بأمرهما صفحوا عنهما ، وقالوا : « هذا التصافي لا تصافي المِحْلب »[1] .

فلما صادقتك صدّقت القصتين ، وآمنت أن فقد النفس أهون من فقد الصديق .

إن الحياة فراغ لولا أن تملأها صداقتك ، وهي ظلمة حالكة لولا أن تنيرها مودّتك .

لسنا صديقين لنفعة أرجوها منك أو ترجوها مني ؛ وإنما أصادقك لأنك أنتَ أنتَ ، وما دمتَ أنتَ فأنا صديقك .

إن الصداقة ميّزتك عن غيرك من كل ما في العالم ،

(١) صار هذا مثلا معناه هذه هي الصداقة لا صداقة المنادمة على الشراب .

فكلما كنتَ نفسك كنتُ أقرب إليك وكنتَ أقرب إلى قلبي .

لقد بحثتُ نفسي في النفوس حولها ، فلما وجدتُك عرفتُك وعرفتُ أنك مرآة لها ، صورتك صورتها ، ومزاجك مزاجها ، وطبيعتك طبيعتها ؛ فكأني وإياك روح في جسمين ، أو حقيقة في شكلين .

صادقتك فاستصغرتُ متاعبي ، وهزئتُ بهمومي ، وظهر خير ما في نفسي ، ودبّتْ القوة في إرادتي ، وشعرتُ بالحرارة في همتي ؛ فماذا كنتُ أكون لو لم تكن ؟

إن حزَبَ أمر فذِكرك يحُلُّه ، أو ضعف العزم فصورتك تقوّيه ، أو أظلم الجو فصداقتك تنيره ، أو خيّم البؤس فاستحضارك يكشفه .

قد ساء ظني بالناس ، وأنكرتُ المروءة والإخلاص والوفاء ، وظننتُ أنها ألفاظ وضعتْ لأوهام ، واللغة لم تتحرز من أن تضع أسماء للموجود والمعدوم ، والجائز والمستحيل ، والشيء واللاشيء ؛ فلما عرفتك آمنتُ بك وبالناس وبالألفاظ ودلالتها على معانيها .

ثم كنتُ غريبًا بين أهلي وولدي ، فإذا أنا بك حاضرٌ في غربتي ، مؤتنس في وحشتي ، لأنك في قلبي ، وقلبي معي ما أظن أنه يفارقني ولا بالموت .

لم أصادقك إلا بعد أن عرفتك كما عرفتُ نفسي ؛ فمن عابك سقط من عيني ، ومن انتقصك فإنما ينتقص نفسه ؛ فأذني صماء إلا عن مديحك ، وقلبي لا يتفتح إلا عند الثناء عليك ، وصداقتنا كآنية الذهب ليس يمكن كسرها .

تصادق الناس للمنفعة ، فلما زالت المنفعة زالت الصداقة ، وتصادق الناس لعواطفهم ، فكانت الصداقة تشبُّ وتخمد ، وتتعرض للهجر والعتاب ، والقطيعة والوصال ؛ ولكنا تصادقنا بعد أن رفعنا المنفعة فيما بيننا ، وتصادقنا بقلبنا وعقلنا ، فسمونا عن التقلب وعن العتاب ، ولم أشعر بحاجتي في صداقتك إلى تكلف أو رياء أو تقاليد ومواضعات ، فكلها إقرار بالضعف ، ومحاذرة من الانفصام ، وطمن في الوحدة .

قد كنت أزاول قبلك في مسبعة ضريتْ وحوشها واحتدّت أنيابها ، يتظاهر أهلها بالود ويضمرون العداء ، ويكون مع الراعي ويعيثون مع الذئب ؛ فاليوم نزلت بك في جنة نعيم ، آمنتني صداقتك من خوف ، وطمأنتني من روْع ، وفتحت لي أبوابًا من اللذة والسعادة يعجز عنها اللفظ ولا يحُدُّها وصف — حسبي أن أذكرك فأشعر بشفاء للصدر ، وبرد من حرقة ، وطرد لهم ، وأنس من وحشة ، ومبعث للرجاء ، وتفتح للأمل .

لقد كرهتُ الرق في كل شيء ، كرهتُ رقّ الحيوان وحبسه ، وكرهتُ رقّ الإنسان للإنسان ، والرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ؛ وكرهتُ رقّ الأمم للأمم ، وكرهتُ استرقاق أصحاب رؤوس الأموال للعمال ، والملاك للمزارعين ، واستعباد المال للإنسان ، واستعباد الشهوات للناس ؛ فلما وصلتُ إلى صداقتك رضيت برقي لك عن رضا واختيار ، لأن في رقّي لك رقّك لي ؛ وما أجزله من مغنم !

كم شهدتُ قبلك صداقات ، وفي كل صداقة كنتُ أشعر بلذة ممزوجة بألم ، وأمن مشوب بخوف ؛ كنتُ أخاف تحوّلي أو تحوّل الصديق ، وأخاف أن تتدخل المادة في الصداقة فتفسدها ، وأخاف من الصديق يرى منفعته في العداوة فيفتح صدره لها ، أو تحمله الغيرة على بيع الصداقة فيبيعها ؛ ويزداد شعوري بالخوف والألم كلما رأيت صداقات ما كان يمكن أن تنهار فتنهار ، وإخاء كنتُ أظنه يدوم فلا يدوم ؛ ثم صادقتك فلم أشعر بهذا الألم وهذا الخوف ، بل شعرت بلذة خالصة وأمن صافٍ ، لأني

وجدت فيك نفسي ، فإن لم أشكّ في نفسي لم أشكّ فيك ، وإن وثقت بقلبي وعقلي وثقت بقلبك وعقلك ، ويوم يعرض لصداقتنا عارض بسيط أقضي عليه في لمحة بقلبي أو عقلي ، أو تقضي عليه سريعاً بقلبك أو عقلك ؛ ثم كيف يعرض العارض ولم نتصادق لنفعة ، ولم نتحاب لشهوة ؟ وإنما كنا روحين تعارفا فتآلفا فتوحّدا . وصدق أرسطو إذ سُئل عن الصديق فقال : « هو أنتَ إلا أنه بالشخص غيرُك » .

لم أصادقك للأخذ والعطاء ، فذاك الكرم لا الصداقة ، ولم أصادقك لجلب خير أو دفع ضر ، فتلك النجدة لا الألفة ، إنما صادقتك لتسكن نفسي إلى نفسك ، وتأنس نفسي بنفسك ؛ فتلك هي الصداقة لا أي شيء آخر . بل لم أصادقك لتسكن إليك نفسي ، وإنما سكنتْ نفسي إليك لصداقتك ، وما دامتْ نفسُك نفسَك ونفسي نفسي فقد تمّتْ كل عناصر الصداقة بيني وبينك ، مهما اختلفت الأعراض والأغراض . لقد أعجبني ما قرأتُ مرة من أن رجلا سُئل : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يُطعمني إذا جعت ، ويكسوني إذا عريت ، ويحملني إذا كللت ، ويغفر لي إذا زللت . فقيل له : يرحمك الله ! إنما تمنّيتَ وكيلا لا صديقاً ! أذكرك فتحل روحك في روحي ، وتدب الحياة في نفسي ، فأروى من ظمأ ، وأهتدي من ضلال ، وأجد بك ما لا أجد في الغنى بعد الفقر ، والعافية بعد المرض ، والأمل بعد اليأس .

لقد أعجبني منك أنك لا تُشيد بذكر الصداقة ، وتسمح لي أن أشيد بذكرها ، وأعجبني منك أن من رآنا لا يشعر بما بيننا ؛ وأعجبني منك أنك على عكس الناس يُقبلون مع النعمة ويُدبرون مع النقمة ؛ وأعجبني منك أنك لم تجعل الصداقة في ميزان تزنها كل يوم بما يزيدها أو ينقصها ، ولكنك وزنتها مرة واحدة بميزان الذهب ، فلما اطمأننتَ لميزانك وثقت كل الثقة ، فلم تعرضها للوزن مرة أخرى ؛

وأعجبني منك أن عينك لا لسانك دليل ما في قلبك ؛ وأعجبني منك أنك ترى الواجب عليك ولا ترى الحق لك ، وأنك تعتقد أنك غابن دائماً ولا تعتقد أنك مغبون يوماً . وأعجب ما أرى فيك أنك تنطق بما أعتزم أن أنطق به ، وتريد ما اعتزمتُ أن أريده ، ويجول في نفسك ما يجول في نفسي ، حتى ليخيّل إليّ أنك تحلُم بما أحلُم .

ومن أطرف ما فيك كرهك الدعاية لنفسك ولغيرك ، فلم يعرف فضلك في خلقك وعقلك إلا خاصتك ، تعمل كثيراً ولا تتكلم عما تعمل أبداً ، وتقدر الدعاية تقديراً عكسياً ، فكلما دُعِيَ لشخص أو دعا لنفسه حسبتَ ذلك في ميزانه « بالناقص » ؛ وكثيراً ما سمعتك تتمثل بقول الله تعالى : « فأما الزَّبد فيذهب جفاءً ، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » . وقلتَ لي مرة : « إن أرفع المتجادلين صوتاً أضعفهم حجة ، وأشد الناس تبجحاً بالشجاعة أشدهم خوفاً ، وأكثر المدرسين تهديداً لطلبته أقلهم كفاية ، وأقل الناس شعوراً بكفايته ونزاهته أكثرهم دعاية ؛ كل أولئك ليكملوا « مركّب النقص » في نفوسهم ، ويستروا ضعف باطنهم بقوة ظاهرهم .

أخي بل صديقي :

من أجل هذا ترددت كثيراً في أن أبعث إليك كتابي هذا ، لأني أكرهُ ما تكرهُ المديح ، ولكني أصدُقُكَ أني كتبته لنفسي لا لك ، فقد كانت كتابته فرحة العيد عندي ، وشعرتُ بعد كتابته بفرح الحريص لعقد شراء ضيعة كبيرة لم يكن سُجِّل ثم سُجِّل ؛ فإن آلمك مديحي فلتُسعدك غبطتي .

حفظك الله لي ، فأنت غذاء روحي ، وسراج حياتي ، وأعاد عليك العيد باليُمن والسعادة مراراً .

(حاشية) هل تسمح لي أن أنشر هذا الكتاب بعد حذف اسمك ؟

أحمد أمين

اسكندر الاسكندرية

الإغريق قبل الإسكندر

للدكتور أحمد زكى بك

من خصائص التاريخ أن يومه لا يُفهم إلاّ بأمسه ، وأن غده لا يُستنبَط إلاّ من يومه . فكما أن تاريخ محمد عليه السلام لا يُفهَم إلاّ بالجاهلية ، ونابليون لا يفهم إلا بالثورة الفرنسية ، ومصطفى كامل وسعد إلاّ بالثورة العرابية ، فكذلك تاريخ الإسكندر ، إسكندر الإسكندرية ، لا يُفهَم إلاّ بالذى كان من تاريخ الإغريق قبل زمانه .

فإلى بعض وجوه هذا التاريخ نسوق هذا الحديث ، فى غير إطناب يخرج بنا عن الغاية ، وفى غير إيجاز تنْبهم معه الدوافع التى دفعت بالإسكندر إلى التسلط على بلاد الإغريق ، تسلّطَ الغزاة ولكن فى رِفْق كثير ، ثم خروجِه عن تلك البلاد ينثر الثقافة الإغريقية حيثما ضربت فى الأرض قدماه .

وتاريخ الإغريق إنْ هو إلاّ تاريخ الثقافة الأوربية فى أصولها الأولى ، فى أدب وفى فنّ وفى فلسفة وفى سياسة ، حتى وفى علم ، فكل ثمرات هذه النشاط الإنسانية الكبرى التى نستمتع بلذّتها اليوم ، أو بحنظلها إن شئت ، نَبَتَ أكثرُ جذورها فى شبه تلك الجزيرة التى بأقصى طرف أوربا شرقاً بجنوب ، عند ملتقى القارّتين آسيا وأوربا ، بل عند ملتقى الثلاث ، هاتين وإفريقية . فعند ملتقى هذه القارات الثلاث حطّت حضارات الإنسان القديم ، تتنازع مركزَها القرونُ الأولى ، فحيناً تذهب به يميناً ، وحيناً تذهب به يساراً ، وحيناً قُدّامَ وحيناً خلف ، ولكنها تتأرجح حول هذا الملتقى دائماً . أو هكذا ما عرفنا من التاريخ . أو هكذا هو تاريخ الإنسان الأمسْ اليوم بنا ، سواء منه ما جاء إلينا مشرّقاً أو جاء مغرّباً . فنحن لا ننسى أن حضارة العرب ، فيما عدا الدين واللغة ، جاءت من مصدرين : الفرس والإغريق ، وإن أردتَ تلْثثَ فقلتَ والرومان ؛ فمن هؤلاء اقتبس العرب تفاصيل حكمهم ونُظُم دواوينهم وعلومهم وفلسفتهم ، حتى والقضاء اقتبسوا أقانينه من أقانين الفرس والإغريق . حتى الدين دخلته شيع ونِحَلٌ بعض منابعها من بين الفرات ودجلة ، أو فوق ذلك تشريقاً ، ومنابعها الأخرى من الشمال ، من أثينا وبيزنطة ، أو من وراء النيل ، من الإسكندرية ، وهى إغريقية بناءً ومذاهبَ فنوناً .

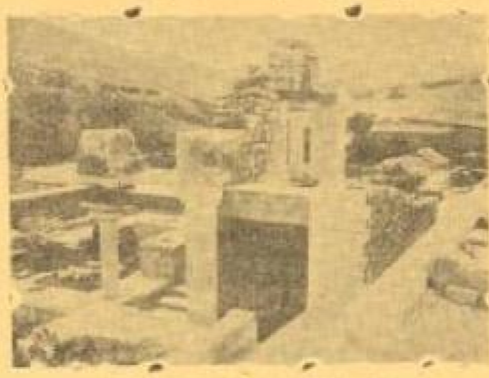
ونحن إن قلنا الرومان فقد قلنا الإغريقَ فى طراز جديد . ونحن إن قلنا الفرس فإنما نعنى الفرس التى سطت على بلاد الإغريق ، ثم سطا عليها الإسكندر باسم الإغريق وباسم الثقافة الإغريقية ، ففعلت تلك الحروب بهما ما تفعل الريح بالحَبّ ، تنفضه من الشجر وتشتّت بذورَه فى بقاع جديدة من الأرض ، ليدوم بها الثمر ، ويشتد بتجديد البيئة النسل ، ويعمّ الرخاء . فمِن عمل الحروب نقلُ الثقافات . ومن عملها كذلك خلط الثقافات . « وأرسلنا الرياح لواقح » ، وكذلك هنّ الحروب .

ولن نتحدث عن أصل الإغريق ولا عما حلّتْ أرضهم فى تلك العصور البائدة من أمم .

فلن نتحدث عما كشفه التنقيب منذ عشرات السنين فى طروادة Troy فى الجانب الآسيوىّ ، ولا فى مِيسينية Mycenae فى بؤرة البلاد الإغريقية فى الجانب الأوربى ، ولا فى إقنوصص Knosses فى جزيرة إقريت[1] Crete

(١) لم نقل إقريطش وإنما ترجنا هذه وسائر الأسماء من الإفرنجية توخياً لتطابق بين الأمم فى دنيا حاضرة لا تعرف بين الأمم حدوداً .

من مدينات عظيمة كأحسن ما كانت المدنيات القديمة ، لها لغات لا تزال معجمة لا تشبه لغة الإغريق في كثير ، ولها دين لا يتصل بدين الإغريق من قريب ، عاصرت الأسر المصرية الأولى ، أو كانت أشد منها قدماً .



قصر في إنقوس وكشف عنه الحفارون

ولن نتحدث عن عصر الإلياذة والأوديسى ، قصيدتى الإغريق وإنجيلهم ، ولا عن صاحبهما الشاعر هومر Homer ، هذا الذى لا نعلم عنه أكثر من أنه صاحب الإلياذة والأوديسى ، فكأنهما أبدعاه ولم يبدعهما ؛ ولن نتحدث عما تضمناه من حوادث لا ندرى أين موقعها من الزمان يقيناً ، ولا أين موقعها من المكان يقيناً ، وهل هما سجل وقائع ، أم خيال شاعر ، أم أخيلة شعراء .

ولن نتحدث عما تتمخض به أقاصيص اليونان عن أصولهم وأصول آلهتهم ، وانحدار ملوكهم من أصلاب آلهتهم ، ولا عن غارات قبائلهم وزوحهم من الشمال إلى تلك البلاد ، ثم تدافعهم فيها وإخراج بعضهم بعضاً ، واختلاف ما كنهم من جراء ذلك .

لن نتحدث عن شىء من هذا القديم البهم ، ولكنا نهبط هبوطاً على القرن الثامن قبل الميلاد أو نحوه ، لنقع على شىء أشبه بالتاريخ منه بالأقصوصة ؛ فنجد بلاد الإغريق وقد استوطنها أقوام لهم أنحاء متباينة ، ولكن جمعتهم لغة واحدة ذات لهجات متقاربة ، ودين واحد ؛ أسموا أنفسهم بالهيلينيين Hellenes ، وأرضهم أرض الإغريق بهيلاس Hellas ؛ واعتزوا جميعاً بأبيهم الأول الذى زعموه هيلين Hellen ، وفى اعتزازهم به اعتزوا بدماء منه جمعت بينهم كانت خير ما فى الأرض من دماء . فهم صفوة الخلق وسائر الناس عكره . وهم شعب الآلهة المختار وسائر الناس برابرة . والبربرى فى لغتهم Barbaroi معناها الأعجمى ، فالبرابرة أعاجم .

وعلى اجتماع الهيلينيين (الإغريق) فى شعب واحد ، فقد احتفظوا فى نطاقه الواسع بالعصبية القبلية الأولى . كالعرب لم تمنعهم عربيتهم من تشاحن القبائل بينهم وتطاحنهم حتى جاء الإسلام يمنع العصبية ، وقليلاً ما منعها . فتميز الإغريق بعضهم عن بعض فى ذلك القرن والقرون التى تلته إلى انطواء أيامهم وزوال مجدهم بغلبة الرومان عليهم فى القرن الثانى قبل الميلاد . تميزوا فى قبائل ثلاث ، أو إن شئت أجناس ثلاث : الجنس الأيولى Aeolians والجنس الأيونى Ionians ، والجنس الدورى Dorians . أما الجنس الأيولى فاحتل شمال تلك الأرض أرض الإغريق ، إتسالية Tessaly وبوطية Boeotia وما حولها . وأما الجنس الأيونى فاحتل القسم الأوسط من تلك الأرض فى شمال برزخ كورنثا ، وأكثره ولاية أتيكا Attica . وأما ما تحت هذا البرزخ ، تلك الشبه الجزيرة ذات الأصابع الثلاث التى تمدها جنوبا فى مياه البحر الأبيض ، فقد احتلها الدوريون . وتسمى شبه الجزيرة هذه بالبيلوبونيس Peloponesus .



بلاد الإغريق

ولعل في هذه الأسماء، لعجمتها استيحاش للقارئ، لهذا نسرع فنقول إن العنصر الأيوني، هو الذي ندعوه نحن باليوناني، وننسبه على كل الأجناس الإغريقية لغلبة ثقافته على كل ثقافاتها، ولشيوع لغته وصيرورتها لغة الكتابة والشعر والعلم والفلسفة. وأثينا عاصمة اليونان الحاضرة هي أثينا أشهر بلاد هذا العنصر في ذلك الزمان. أما العنصر الدُّوري فعنصر لم تكن من خير ميزاته الثقافة، ولكن كانت من صفاته الخشونة والرجولة والحرب يصطنعها اصطناعا. وكان أكبر مدنه المدينة الشهيرة إسبرطة Sparta. ومن شدة عُرام هذا العنصر وقسوته أنه هبط حيث هبط، من شبه الجزيرة التي وصفنا، على قبيل رابع لم نذكره من الإغريق، هم الأكيليين Achaeian، فشتّت منهم من شتت، واستعبد أكثرهم فظلوا إلى الأبد تحت أقدامهم قوماً خانعين.

وكأنما ضاقت أرض الهيلينيين — أو الإغريق كما سماهم الرومان بعد ذلك Graecia (١) وعنهم أخذنا — كأنما ضاقت بهم أرضهم ففاضوا عَبْر البحر إلى جُزُر بحر إيجة الكثيرة فاستعمروها. ثم ذهبوا وراء هذه إلى الأناضول واستعمروا ساحله، فكان لكل عنصر مستعمرات في قُبالته من ذلك الساحل الأسيوي. وأوغل الإغريق في الشمال أيضاً فاستعمروا سواحل الدردنيل وبحر مرمرة، واحتلوا من ساحل البحر الأسود ما احتلوا؛ ومن أشهر مستعمراتهم هناك بزنطة (استانبول اليوم). وفي جنوب الدردنيل استعمروا من سواحل تراقية ومقدونية. وغرّبوا فاستعمروا سواحل إيطالية السفلى وأنشأوا عليها المدن، وانتشرت لغة الإغريق هناك. وعلى الساحل الغربي من إيطالية أسسوا مدناً أشهرها نيوبوليس Neapolis (نابلي Naples اليوم). وصقلية استعمروها وأسسوا المدن فيها، وكان أشهرها سَرَقوسه Syracusa وساحل فرنسا لم يُفْلت من استعمارهم فأسسوا عليه مدينة ماسيليا Massilia (مارسيلية اليوم). وساحل إفريقية كذلك لم ينسوه. ومن هذه المستعمرات ما شب عن الطوق واستقل بمشيئته وانسل عن وجوده، وصار راقياً بعد أن كان مرفوداً.

ولم يكن استعمار الإغريق لما استعمروه من ساحل أوربا أو آسيا أو أفريقيا يشبه في شيء استعمار دول أوربا

(١) هذا اسم القبيلة الإغريقية الأولى التي اتصلت بالرومان.

الحاضرة لما استعمروه من أمم الأرض . فلم يكن بين الإغريق ومن استعمروهم فرقٌ في اللون ، ولا فرقٌ كبير في الثقافة . ولم تختلف الأجواء . فكان استعماراً طبيعياً سهلا ، اندمج داخله في مدخوله ، واختلط الناس فيه وتناسلوا فانبهمت الأصول . وصار السكان واللغة والعادة ، وقد توحدت جميعها ، مُستراداً السكان فيما طلبوه من أسباب العيش والحياة .

وزاد هذه المستعمرات وثوقَ أرض ، وزادها سهولة اختلاط ، أن الكثرة الكبرى منها لم تكن ترتبط بأوطانها الأولى برباط سياسي كما ارتبطت مستعمرات أوربا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بعد الميلاد . بل كل ما كان هنالك بين تلك المستعمرات القديمة وأمهاتها الأولى روابط قلب على بعد ، واتحاد ثقافة . فكان كل اعتمادها إذاً على أنفسها ، وكان ترعرعها في المكان الذي نزلت فيه بمحض إرادتها وجدارتها . ولعل هذا النوع من الاستعمار هو الذي احتفظت به إلى اليوم دماء إغريق مصر ، وهم أكبر جالية أجنبية فيها ، فتراهم أوغلوا في الريف المصري حتى قُراه ، دون ما جيش يحمي ظهورهم ، أو أسطول يُزبد ويُرعد فيبلغ إرادته وإرعاده أقصى الأرض فتعنو له الجباه .

ومع هذا فقد قصر الإغريق استعمارهم في ذلك العهد البعيد على سواحل البحار ، ولم يوغلوا في أرض نزلوا بها إلا بمقدار ما تُوغل نسائم الماء ، حتى جاء الإسكندر فأشبع الإغريق وقومه من هذا التوغل إشباعاً . إلا الجزر فقد استعمروها قبل الإسكندر وأكملوا استعمارها ، لأنها كلها سواحل . ونسيم البحر لا تكاد تُفلت منه بطونها . ومن أمثلة تلك الجزر قبرص ، ورودس ، وصقلية ، وجزر بحر إيجة جميعاً .

وما كان بدعاً أن نشأت هذه المستعمرات الإغريقية مستقلة عن أوطانها التي منها نبتت ، ومن جذوعها تفرّعت . فهذه الأوطان نفسها لم تجمعها وحدةٌ أبداً . فالدولة الإغريقية لم يكن لها وجود في تلك العصور أبداً ؛ إنما كان يوجد الإغريق ، وكانت توجد بلاد الإغريق ، وعلى ثراها دول كثيرة بلغت يوماً أكثر من خمسين ومائة دولة ، أكثرها في حجم المدينة وما يحيطها من ريف ، تتنازع البقاء جميعُها ، وتتنازع السيادة بالحروب ، والقدر يأبى على دولة منها أن تسود فتتزعم فتَلُمّ شمل هذه الدول في أمة واحدة . فصار لكل من هذه الدول العديدة ، إن صح أنها دول ، قانونها ونقدها وأحزابها ، وسياستها ، وكانت تدور في الأكثر على إثارة حرب أو قبول سلام .

وقد لعبت جغرافية البلاد دوراً خطيراً في نشوء هذه الدول الإغريقية المتجاورة الصغيرة ، وفي امتناع اندماجها في وحدة كبيرة .

قال بعض المؤرخين يصف أرض الإغريق :

« إن مظهر هذه الأرض يأبى كل واسع عظيم من المعالي ؛ وهو يرحّب ، حيثما نظرته ، بالدقة أكثر من الفخامة ، وبإجادة الصنعة في الرقعة الصغيرة الواحدة أكثر من إجادتها بتوسيع الرقعة ؛ وساحلها كساحل النرويج بنازع ماضيه جلدته نازعاً أبدياً ؛ فخلجانه تمتد في أرض طويلة رفيعة ، وخليجاته تكشف عن شواطئ منبسطة تسر الناظر ، هي أطرافُ سهولٍ أطرافها الأخرى في أحضان جبال تحتضنها احتضاناً ، فكأنما هي مسارح تتمثل عليها روايات الحياة بين حوائط من خلود . أما رؤوس

هذا الســاحل فتخرج إلى البحر فى جرأة ، وهى طويلة ممتدة أيضاً ، وهى عالية السَّنام ، تنحدر عند البحر انحداراً أشبه بانقضاض النسر يسقط على فريسته سقوط الحجر » .

« وسطح هذه الأرض ، أرض الإغريق ، سطح مُجعّد ، كورقة بسطتها فوق كفك ثم طويت أصابعك عليها . فكأنما أرادت الطبيعة عند تشكيلها أن تجعل منها أكبر سطح فى أقل دائرة . ففيها الجبال الوحشية العالية ، وفيها الوديان الفسيحة الخصبة يُرادف بعضها بعضاً . فوادى أثينا طوله من البحر أربعة عشر ميلا ، ولكن أقصى عرضه لا يزيد على خمسة الأميال . ووادى إسبرطة Sparta مثل ذلك طولا وضيقاً ، ترتفع الجبال من حوله فيبلغ بعضها ثمانية آلاف من الأقدام . وكذلك أرجوس Argos وكذلك غيرها — وديانٌ عزلتها الطبيعة ، بعضها صغير وبعضها كبير ، ولكن فى كل منها كتب الزمان تاريخاً هو بنتاج هذا المكان خاصة . فلكل وادٍ له قصته ، ولكل وادٍ له مؤسساته وعاداته وحياته ، يحياها على ما تقضى به الأرض وتأتى به البحار » .

احمد زكى

نعى « لجنة التأليف والترجمة والنشر » الأستاذ أمين جمال الدين ، مراقب البعثات بوزارة المعارف ؛ وكان عضواً من أعضاء اللجنة العاملين منذ تأسيسها ، يعمل لخدمتها وخدمة الأمة ، فى صدق وإخلاص ووفاء .

تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته .

هزل العرب

مُثلت فى المدينة رواية هزلية على أيام الأمير أبان بن عثمان ، لست أجزم أنها أول رواية من هذا النوع فى أدب العرب ، ولكنى أجزم أن هذه الرواية إنما هى أول الروايات التى شهدتها من هذا النمط فى أدب العرب ؛ موضوعها هزل وعبث ، ولكن من هو الهدف فى هذا العبث ؟ أعرابى من أعراب البادية اتخذوا من طمعه ثلمة تقحموا عليه منها ، فكان العبث به من أجل طمعه موضوع الرواية .

مثلت الرواية فى قصر الأمير أبان بن عثمان ، وأدواتها بسيطة جداً ، ليس فيها شىء من زخرف هذا العصر : جمل وعمامة من خز خَلَق ، وقلنسوة وخفّان خلَقان ، هذا كل ما ازدان به المسرح فى قصر الأمير !

ولما كانت الرواية من روايات الهزل والعبث فقد لزمها أن يكون أبطالها من أهل هذا الفن .

أما الأمير أبان بن عثمان فقد كان على نحو ما ذكره مدوّن هذه الرواية ، وهو صاحب الأغانى[1] ، من أهزل الناس وأعبثهم ، وبلغ من عبثه أنه كان يجىء بالليل إلى منزل رجل فى أعلى المدينة ، له لقب يغضب منه ، فيقول له : أنا فلان بن فلان ، ثم يهتف بلقبه ، فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك !

وأما أشعب فقد ملئت كتب الأدب بنوادره .

وأما الأعرابى فقد كان أشقر ، أزرق أزعر ، غضوبا ، يتلظى كأنه أفعى ، ويتبين الشر فى وجهه ، ما يدنو منه أحد إلا شتمه ونهره .

وأما الرابع وهو ابن زَبْنَج ، راوية ابن هَرْمة ، فلا أعرف شيئاً عن خفة روحه ، ولكن حسبه هذا الاسم وحده ، فإنى لا أشك فى أن هذا الاسم ، ابن زبنج ، ينطوى على شىء من الإضحاك .

هذه مقدمة وجيزة عرفنا بها خلاصة الرواية ، فلنشهد الآن تمثيلها :

الرواية أربعة فصول . ظهر على المسرح فى الفصل الأول الأمير أبان بن عثمان وأشعب والأعرابى وبعض جلساء الأمير . بينا جلساء الأمير فى قصره ذات يوم وأشعب عنده إذ أقبل أعرابى ومعه جمل له ، فاغتنم أشعب فرصة مجىء هذا الأعرابى ولعب به اللعبة الآتية ؛ قال للأمير : هذا والله من البادية ، أدعُه ، فدُعى الأعرابى وقيل له : إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك . فأتاه فسلم عليه ، فسأله أبان عن نسبه فانتسب له ، فقال أبان : حياك الله يا خالى ! حبيب ازداد حباً ، اجلس إنى فى طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان ، فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك والأخفاف ، فالحمد لله الذى جعل ظفرى به من عند من أحبه ، أتبيعه ؟ فقال الأعرابى : نعم أيها الأمير ! فقال أبان : إنى قد بذلت لك به مائة دينار ؛ وكان الجمل يساوى عشرة دنانير . فطمع الأعرابى وسر وانتفخ وبان السرور والطمع فى وجهه . فأقبل أبان على أشعب ثم قال له : ويلك يا أشعب ! إن خالى هذا من أهلك وأقاربك ، ويعنى الأمير بهذا الكلام أن الأعرابى من أهل الطمع مثل أشعب ، فأوسعْ له مما عندك . فقال له أشعب : نعم ، بأبى أنت وزيادة ! فقال أبان للأعرابى : يا خالى إنما زدتك فى الثمن على بصيرة ، وإنما الجمل يساوى ستين ديناراً ، ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا ، وإنى أعطيك به عُروضاً (جمع العَرْض وهو المتاع) تساوى مائة دينار . فزاد طمع الأعرابى ، وقال : قد قبلت أيها الأمير !

هذه نهاية الفصل الأول من الرواية ، وهو فصل محكم ، متقن ؛ فقد مدح الأمير جمل الأعرابى مدحاً زاد

(١) الجزء ١٢ — الصفحة ١٠٢ .

فى طمعه ، والوضوع الطمع ، فإن مدح قامة الجمل ولونه وصدره ووركه وأخفافه فيه أشياء كثيرة من السخرية .

ومن كمال حسن الرواية أن يقوّم الأمير جمل الأعرابى بأكثر من ثمنه . وقد فعل وتم للأمير ما أراد من هذه الزيادة فى التقويم ، فقد بان الطمع والسرور فى وجه الأعرابى ، وانتفاخ الأعرابى وحده كاف للإفصاح عن من هذا الطمع ومن هذا السرور .

ومن كمال حسنها ألا يفرط الأمير فى التجاهل فى تقويم الثمن حتى لا يفتضح الأمر ، فالجمل يساوى ستين ديناراً ، ولكن الأمير بذل له مائة ثقلة النقد ، ولكن ما هو نوع هذه المائة ؟ أهى نقد ؟ كلا ، إنها جملة من عروض تساوى مائة دينار ، وهنا روح الرواية كلها ، فليشهد القارئ الآن أنواع هذه العُروض .

ظهر فى مبدأ الفصل الثانى من الرواية الأمير وأشعب والأعرابى والبطل الرابع ابن زنبّج ، وظهر قسم من العروض .

دنا الأمير من أشعب ووشوشه ، فأخرج أشعب شيئاً مغطى ، فقال له الأمير : أخرج ما جئت به ! فأخرج عمامة من خز خلَق ، تساوى أربعة دراهم . فقال له الأمير : قوّمها يا أشعب ! فنادى أشعب : عمامة الأمير تعرف به ، ويشهد فيها الأعياد والجمع ، ويلق فيها الخلفاء ، خمسون ديناراً . فقال الأمير : ضعها بين يدى الأعرابى ، وقال لابن زنبّج : أثبت قيمتها . فكتب ابن زنبج ذلك . ووضعت العمامة بين يدى الأعرابى ، فكاد هذا المسكين يدخل بعضه فى بعض غيظاً ، ولم يقدر على الكلام .

انتهى الفصل الثانى ولا يقل إتقاناً عن الفصل الأول ، فإن فيه للفاجآت المضحكة .

المفاجأة الأولى ظهور هذه العمامة البالية التى تساوى أربعة دراهم وقوّمت بخمسين ديناراً ، ولا شك فى أن أشعب فى هذا الفصل قد برز فى صورة غير الصورة التى برز فيها فى الفصل الأول ، فإن مناداته : عمامة الأمير تعرف به ويشهد فيها الأعياد والجمع وما شابه ذلك كانت تستلزم شيئاً من حسن الصوت ، وأشعب كان من القراء للقرآن ، وكان حسن الصوت به ، فقد كان يغنى أصواتاً فيجيدها ، ورآه الأصمعى يغنى فكان صوته صوت بلبل ، وله أصوات قد حكيت عنه ، فلا شك فى أنه لعب لعبته هذه أفضل اللعب ، بسبب هذا الصوت الذى رزقه الله إياه ، فقد فخّم فى موضع التفخيم ، ومطمط فى موضع المطمطة ، ونغّم فى مكان النغم ، ورخّم فى محل الترخيم .

والمفاجأة الثانية ظهور عمامة خلَق ، وهذا من كمال الهزل والعبث ، فلو كانت العمامة جديدة ، غير بالية ، لما كان لمنظرها هذا التأثير .

والمفاجأة الثالثة وقفة الأعرابى بين الخيبة والأمل ، فإن دخول بعضه فى بعض غيظاً إنما هو من باب الخيبة ، ولكنه سكت ولم يقدر على الكلام على سبيل الأمل ، لعل فى العروض الآتية شيئاً من التعويض !

فلنشهد العروض الآتية فى الفصل الثالث ، فقد ظهر الأشخاص أنفسهم ، فقال الأمير لأشعب : هات قلنسوتى ! فأخرج أشعب قلنسوة طويلة خلقة ، قد علاها الوسخ والدهن ، وتخرقت ، تساوى نصف درهم . فقال لأشعب : قوّم ! فنادى أشعب : قلنسوة الأمير تعلو هامته ، ويصلى فيها الصلوات الخمس ويجلس للحكم ، ثلاثون ديناراً . فقال الأمير لابن زنبج : أثبت قيمتها . فأثبت ذلك ؛ فوضعت القلنسوة بين يدى الأعرابى ، فتربّد وجهه ، وجحظت عيناه ، وهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل !

يكاد هذا الفصل يشبه الذى قبله ، ولكن فيه بعض الزيادة ، فقد ظهر القسم الثانى من العروض وهو أسوأ حالاً من الأول ؛ فإذا كانت العمامة خلَقاً ، فإن القلنسوة قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت ، وإذا كانت العمامة تساوى أربعة دراهم فإن القلنسوة تساوى نصف درهم ،

فكيف حال الأعرابي المسكين في هذه المرة؟ في المرة الأولى دخل بعضه في بعض غيظاً ؛ أما هذه المرة فإن حالته قد ازدادت سوءاً ، فقد تربّد وجهه وجحظت عيناه وبان الشر في وجهه ، فهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل ، فإنه لم ينقطع أمله بعدُ من المائة دينار ، فلعل الأمير يخرج له بقية العروض فيتحقق أمله !
ظهر الأمير وأشعب والأعرابي وابن زنبج في الفصل الأخير وظهرت بقية العروض ، فما هي هذه البقية ؟ قال الأمير لأشعب : هات ما عندك ! فأخرج خُفَّين خلقين ، قد نقبا وتقشرا وتقعقعا ، فقال لأشعب : قوِّم ! فصاح أشعب بصوته الحسن : خُفّا الأمير ، يطأ بهما الروضة ويطأ بهما منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، أربعون ديناراً . فقال الأمير لأشعب : ضعهما بين يديه . فوضعهما ، ثم قال للأعرابي : اضمم إليك متاعك . وقال لبعض الأعوان : اذهب فخذ الجمل ، وقال لآخر : امض مع الأعرابي فاقبض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع وهو عشرون ديناراً . فوثب الأعرابي فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألو جهداً في شدة الرمي به .

هذا آخر فصل من فصول الرواية ؛ والمفاجأة فيه تكاد تكون أحسن المفاجآت ، فإن الأعرابي لما قيل له إنه بقي في ذمته للأمير من أصل ثمن المتاع عشرون ديناراً ، طار عقله فانقطعت آماله ، فلا يكفيه هذه المرة أن يدخل بعضه في بعض من الغيظ ، وأن يتربد وجهه وتتجحظ عيناه ، وإنما يريد أن يفش خلقه ، فما له إلا حيلة واحدة ، وهي أن يأخذ القماش ويضرب به وجوه القوم ، لا يألو في شدة الرمي به .

ولست أشك في أن حركته هذه قد أضحكت الحضور حتى استلقوا على أقفائهم من الضحك ، ولكن الضرب وحده لم ينقع غلته ، فلا بد للأعرابي من قارصة ينتقم بها من هؤلاء الذين عبثوا به وضحكوا عليه وخيبوا آماله ؛ وهذه القارصة إن لم يؤلم بها أكبر أبطال الرواية فلا تعظم قيمتها . فلينتقص بها الأمير أبان بن عثمان ، وليقل له : أتدري أضحكك الله من أي شيء أموت ؟ قال الأمير : لا ! قال الأعرابي : لم أدرك أباك عثمان فأشترك والله في دمه إذ ولد مثلك !

أما الأمير فلم يمثّل هذه الرواية في قصره إلا ليسمع مثل هذه الخاتمة الحلوة ؛ ولهذا ما كادت كلمة الأعرابي تقع في أذنه حتى مات من الضحك ، وضحك كل من كان معه .

وأما أشعب فقد كان الأعرابي إذا لقيه بعد هذه الرواية يقول له : هلم إليَّ يابن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قوِّم ، فيهرب أشعب منه !

ولست أدري رأي القارئ الكريم في هذه الرواية . أما رأيي فقد آن لنا أن نستخرج أمثال هذه الكنوز المدفونة في كتب أدبنا وأن ننبه على محاسنها !

(دمشق) **شفيق جبري**

محكمة قليوب الأهلية

إعلان بيع عقار في القضية المدنية رقم ١٦٣٢ سنة ١٩٣٨ قليوب

أنه في يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢ من الساعة ٨ أفرنكي صباحاً بسراي المحكمة بقليوب المحطة .

سيباع بطريق المزاد العلني العقار الآتي بيانه بعد ملك ورثة المرحوم الحاج سيد حسن أبو نار وهم فاطمة وحميدة وسلامة أولاد سيد حسن أبو نار وزينب محمد أبو طاحون عن نفسها ووصية على ابنها سيد قاصر المرحوم سيد حسن أبو نار ومقيمين بقليوب البلد مركز قليوب .

وهذا البيع بناء على طلب فاطمة وحميدة بنتي سيد حسن أبو نار ومقيمين بقليوب البلد مركز قليوب ومتخذا عنهما حضرة الأستاذ جورجي الياس المحامي بقرار معافاة .

وبناء على قرار المحكمة الصادر من محكمة قليوب الأهلية بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩ . وهذا بيان العقار .

منزل كائن بقليوب البلد مركز قليوب بحارة المحمودة بشارع جامع خطاب يبلغ مساحته ٤٨ س ، ١٠٧ متر مبني بالطوب الأخضر مكون من دور أرضي وبعض غلات بالدور العلوي ومحدود بحدود أربع الحد البحري شقيقة اسماعيل النبي والغربي درويش رزق والقبلي ورثة أحمد رشيد والشرقي حارة وبها الواجهة والباب .

وعلم المزاد بثمن أساسي قدره ٢٨ جنيه مصري بعد تنقيص الخمس وأوراق الدعوى وشروط البيع مودعة بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها فعلى راغب الشراء الحضور المزايدة .

كاتب البيوع

مكانة الأدب العربى

بين آداب الأمم

* مضى قولنا فى الأدب العربى : مواطنه وعصوره وصلاته بالآداب الأخرى فى الشرق والغرب ، وما أخذ منها وما أعطى ؛ بينا كيف انتشر هذا الأدب ما بين الهند وبحر الظلمات وخوارزم وأواسط أفريقية ، وكيف نشأت فى رعايته الآداب الإسلامية ، وكيف استفاد من الآداب الشرقية القديمة ، وكيف أثر فى الآداب السامية ، ثم كيف اتصل بفلسفة اليونان ومعارفهم ولم يقتبس من أدبهم ، وكذلك بينا ما أثر به فى الآداب الأوربية فى العصور الوسطى والعصور الحديثة .

وفى هذا المقال وما يليه نقول فى الأدب العربى : موضوعاته وأقسامه ومزاياه ونقائصه ، بالقياس إلى آداب الأمم الأخرى ، ونبين كيف وفىّ بمطالب الأمم فى العصر القديم وأين يتجه اليوم وكيف ينبغى أن يوجّه .

— ١ —

أدب أمة من الأمم بيانها عن عواطفها ، وسرورها وحزنها ، ورضاها وسخطها ، وإعجابها واستهجانها ، وآمالها وأمانيها . وحدّه الأوفى أن يكون فى معناه ولفظه فوق ما يحتمله الخطاب المعتاد ، ثم يرتقى درجات فى الإبانة والتصوير إلى حدّ الإعجاز .

وكل ما يحركه البشر صالحٌ أن يكون موضوع أدب إذا اتصلت به العواطف ، فصبغته أو زينته ، أو عظّمته أو حقّرته ، أو عمل فيه الخيال فاخترعه أو صوّره غير ما صورته الحقيقة .

ولا بد للأدب من إدراك بليغ ، وإحساس مرهف ، وإبانة قويّة ؛ وكلما اتسعت معارف الأديب ، اتسع أمامه مجال البيان ، وازدادت قدرته على الإبانة والتصوير ، وتعددت أمامه سبل القول .

فمن أوتى طبعاً ودَرَاكاً مُبيناً وضاقت معارفه فهو ضيّق المجال ، لا يرتقى عن العامة وأشباه العامة إلا قليلاً . ومن أوتى معرفة ولم يُرزَق الطبع المبين المصوِّر فهو عالم ليس له فى الأدب مجال .

— ٢ —

وقد كان العرب قبل الإسلام ، ذوى طباع درّاكة ، وإحساسات مرهفة ، وذوى بيان وألسُن ، فصوروا أبلغ تصوير ما نالته عيونهم ، وأدركته عقولهم ، وأحسّته قلوبهم من مرائى السماء والأرض والنبات والماء والحيوان ومن أخلاق الإنسان وعواطفه وغِيَر الزمان . وكان شعرهم مرآة مصقولة تبين عن معارفهم وعواطفهم أبلغ إبانة .

ثم كان الإسلام ، وحدث للعرب ما حدث من نظام ودولة وانتشار فى الأرض واتصال بالأمم ، فاتسع لهم مجال البيان ، وامتد بهم التفكير والاختراع والترتيب . ولكنهم قد ورثوا أشعاراً رائعة ساحرة ذات سنن راسخة لم تستطع الحضارة والتطور أن يفطمهم عما ورثوا ، ولا أن يصرفهم عما أعجبوا به منذ القديم ، فتصرفوا بين المحاكاة والاختراع ، والتلفت إلى الماضى والأخذ بالحاضر ؛ فكان من تراثهم وكسبهم وتاريخهم ومعايشهم هذا الأدب الكثير الرائع

— ٣ —

وإن من أصعب الأشياء أن يحد الإنسان فنون الأدب ويحصيها إحصاء كمسائل العلوم ، فإن موضوعات الأدب غير محدودة وغير متقاطعة . فربما يتناول الشاعر أو الكاتب أضرباً من البيان مختلفة ، بعضها نفسى وبعضها طبيعى ، فيها الإبانة عما فى سريرته أو وصف ما يراه ، وفيها المدح والذم والغزل وهلم جرا . ومن أجل هذا عسر أو تعذر أن يقسم الأدب إلى فنون تحيط بموضوعاته وصوره ؛ ولكن اجتهد الأدباء فى المقاربة على قدر الطاقة ، قسم أبو تمام مختاراته التى جمعها فى ديوان الحماسة أقساماً عشرة :

الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء .

وهو تقسيم لم ينل حظاً من التحقيق ، ولا سيما فى الأبواب الأخيرة ، فإن السير والنعاس ومذمة النساء يدخلان فى الوصف والهجاء . وباب الأضياف والمديح فيه موضوعان يمكن الفصل بينهما ، وإدخال الكلام على الأضياف فى باب آخر أوسع كالفخر والمدح أو الأدب .

وقسم الناس من بعدُ الشعرَ إلى أبواب منها :

المدح ، والهجاء ، والفخر ، والرثاء ، والغزل ، والأدب ، والزهد ، والشكوى ، والعتاب والاعتذار الخ . وكل هذا ليس تقسيماً حاصراً قائماً على نظر عقلى جامع ، ولكنه تعداد صورى للموضوعات التى يكثر فيها النظم .

ولست أبغى هنا أن أقسم الشعر تقسيماً منطقياً يرد صُوَره المختلفة الكثيرة إلى موضوعات قليلة ، فهذا يشذ بنا عن موضوعنا أو يطيل الكلام إطالة لا تلائم الإجمال الذى تتوخاه مقالات عامة جامعة . ثم موضوعات الشعر متسعة متعددة اتساع الحياة وتعدد عِبَرها ، فما عناؤنا فى ردّها إلى أقسام معدودة مبينة .

— ٤ —

تقسيم الأوربيين للشعر

يروى عن أرسطو أنه قسم الشعر كله إلى مدح وهجاء ، وهذا تقسيم يغلب عليه النظر الفلسفى العميق ، ولا يجدى على الباحثين فى الشعر . وأكثر من هذا ذيوعاً فى تاريخ الآداب الأوربية أنهم يقسمون الشعر اليونانى والشعر الأوربى كله تبعاً إلى ثلاثة أقسام : الشعر الغنائى ، وهو البين من وجدان الإنسان وعواطفه وآلامه وآماله ؛ والشعر القصصى ، وهو الذى يقص فيه الشاعر وقائع حماسية لا يبين فيهـا عن نفسه وعواطفه ، كما فعل هومير فى الإلياذة ، وفرجيل الرومانى فى الأنيادة ؛ والقسم الثالث الشعر التمثيلى ، وهو الذى ينشئه الشاعر حواراً بين متحاورين يحكيهم للناس ممثلون ينتحلون أشخاصهم وأقوالهم وأعمالهم .

وقد سرى هـذا التقسيم إلى الشعر الأوربى لشدة اتصاله بالشعر اليونانى ومحاكاته إياه .

وقد نظر الباحثون من أدباء الغرب والشرق إلى الشعر العربى يلتمسون فيه هذه الأقسام ، فلم يجدوا ملحمة كالإلياذة ، ولا شعراً للتمثيل كشعر أرستوفان وأمثاله ، فقالوا : إن الشعر العربى غنائى كله ليس فيه قصص ولا تمثيل ، وعابوه بهذا واشتدوا فى العيب ، ولسنا فى مقام الدفع عن شعرنا ولا نحن نرتضى لأنفسنا العصبية فى تعرف الحق والاعتراف به . بل نعترف بأن ما فى شعرنا من قصص قصير لا يقاس بما أثر عن اليونان والرومان والهند القدماء والفرس . وقد حاكى الفرس العرب فى أشعارهم ولكنهم بذوهم فى المنظومات الطويلة القصصية والخيالية ، كالشاهنامة ومنظومات نظامى وجامى ، وأن قصة مجنون ليلى وهى عربية خالصة نظمها شعراء الفرس أكثر من مرة فأطالوا وأسهبوا ولم ينظمها شاعر عربى .

وقد نظم ابن عبد ربه غزوات عبد الرحمن الناصر الأموى فى نحو أربعمائة وخمسين بيتاً ، ونظم غيره وقائع تاريخية طويلة كصاحب المنظومة المسماة نظم الجمان ، التى تناول ناظمها تاريخ البشر من لدن آدم وعطف على تاريخ الفرس والروم ، وانتهى إلى تاريخ الخلفاء السلفيين إلى آخر القرن التاسع الهجرى . ولكن هذه المنظومات تعنى بسرد الحوادث لا شرحها ، والإبانة عن مواضع العظمة والعبرة فيها ، ولا تصور الوقائع تصويراً تاماً . فإذا ذكرت واقعة من واقعات الحرب مثلا اكتفت بأن المحاربين ذهبوا إلى مكان كذا وحاصروه وواقعوا العدو فهزموهم ، فأكثر الواقعات لا ينال إلا أبياتاً قليلة . وهذا خلاف ما عرفنا فى الآداب الأخرى من نظم الواقعات .

وابن عبد ربه فى منظومته أقرب ما عرفت من شعرنا إلى ما يُعهد فى اللغات الأخرى من القصص الحماسية : ومن هذا قوله فى غزوات سنة ثمان وثلثمائة (ج ٣ — العقد ص ٢٣٣ ، ٢٤) :

ثم غزا الإمام دار الحـــروب
فكان خطب يا له من خطب
تحاشدت إليه أعلام الكور
ومن له فى الناس ذكر وخطر

إلى أن يقول :

لـا التقوا بجميع الجوزين واجتمعت علائم العلجين

* * *

الشعر العربى لا يجارى الآداب الأخرى فى القصص ، ذلكم لا جدال فيه ، ولكنى لا آبى غلوّ شعرنا من هذا الفن ومن الفن التمثيلى ، فإنى أرى أن ليس طبعيا أن ينظم القصص من أوله إلى آخره ؛ وأرى هذا التقييد يؤدى فى مواضع كثيرة إلى نظم لا شعر فيه ، ولا يكسب الكلام من هذه القيود إلا نغمة مكررة رتيبة تمل السامع والمنشد ، وتصيبهما بما يشبه الدوّار . وأرى أن الأقرب إلى الطبيعة أن تقص الوقائع فى كلام منثور يتخلله الشعر فى المقامات التى تهيج عواطف القاصّ ، والمواقف التى تثير الإعجاب وتستحق الإنشاد .

مهما يختلف الأدباء فى قيمة هذا الضرب من الشعر ، ومهما يغلو المقلدون فى تقديره ، فلست أراه نقصا ذا بال فى شعرنا ؛ بل أوثر القصص المنثور تتخلله الأشعار .

والحق أن شعراءنا عُنوا بالقيمة لا بالكثرة فأتوا بالأبيات الرائعة القليلة فى وصف الوقائع الكبيرة ، على حين أطال غيرهم وأظهروا براعتهم فى التفصيل والإطناب ، واستغنوا بهما من الإبداع .

ربما نجد فى قصيدة لأبى تمام أو المتنبى من أبيات الحماسة البليغة ، والقصص القصيرة الرائعة ما لا نجده فى ألف بيت متوالية فى منظومة طويلة كالشاهنامة . وربما كان فى شعر المتنبى وحده من الأبيات الحماسية القوية ما ليس فى منظومة فيها عشرون ألف بيت .

وقد قال المستشرق براون وهو مؤلف أكبر كتاب فى تاريخ الأدب الفارسى : إن الشاهنامة لا تقاس ساعة بعيون الشعر العربى الجاهلى . فما ظنكم بما أبدع شعراء العرب فى هذا الضرب بعد الجاهلية .

إن كان الشعر العربى لم يعن بالقصص والتمثيل فما قصر فى الإعراب عن عواطف الإنسان وتصوير أدق خطرات النفس ، وأخفى هواجسها ولم يقصر فى وصف ما أحاط بالإنسان من مظاهر الطبيعة وحوادث الزمان .

وهـذا الغزل العربى قد بلغ فى تصوير العواطف الإنسانية الغاية ، وقد أشرت من قبل إلى أن العرب بلغوا بهذا الفن حدّ التقديس ، فكتب فيه أحد الكبار من علماء الدين ، ووجد فيه الصوفية تصويراً لأسمى مدركهم .

ولست أعنى هـذا الغزل السف الماجن الذى أولع به جماعة قصّروا فى الشعر فعمدوا إلى إثارة إحساس الإنسان من السبيل التى لا تكلفهم سمواً فى الشعور ، ولا مقدرة فى التصوير ، ولكنى أقصد الغزل النفسى العالى الذى يسمو بالنفس إلى أسمى نزعاتها حتى يكاد يخلصها من المادة . والشعر العربىّ غنىّ كل الغنى بهذا الفن .

وقد استوفى الشعر العربى ملاهى الإنسان كلها جليلها وحقيرها ، وحلالها وحرامها ، حتى أنتج العرب المسلمون فى وصف الخمر وآثارها وآلاتها ومجالسها ما لم تنتجه أمة من الأمم التى تستحل الخمر . لا أقول هذا إعجاباً بالخمريات فليست منى ولست منها ؛ ولكنها دليل على تناول الشعر العربى كل النزعات الإنسانية وافتنانه فى وصفها .

وما قصر شعراؤنا فى وصف الطبيعة سمائها وأرضها وبحارها وأنهارها ، وأشجارها وأزهارها ، ونباتها وحيوانها ، وما قصروا فى وصف الصناعات والأبنية .

ولهم ضرب من الشعر لا أعرف أن شعراء أمة جاروهم فيه — ضرب يجمع بين وصف الطبيعة والحيوان والإنسان في صور شتى متلفقة ، وهو الفن الذي يسمى الطرديات أي وصف الصيد ، وهو ضرب من الرياضة واللهو والفروسية أولع به العرب منذ عصر الجاهلية ، وأفتنّ فيه الشعراء منذ أبي نواس وابن المعتز والمتنبي إلى شعراء العصور المتأخرة . وذلكم فن يبرز فيه الأدب العربي .

والشعر العربي يسمو إلى ذروة الآداب في الأخلاق ولا سيما الأخلاق القوية ، ولعل هذه أروع صحائفه . فقد تغنى شعراء الجاهلية بالحرية والإباء والشجاعة والسخاء والوفاء ومواساة الفقير ، والحدب على الضعيف حتى قال عروة الصعاليك :

أتهزأ مني أن سمنتَ وأن ترى
بجسمي شحوبَ الحق والحقُّ جاهد
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قَراح الماء والماء بارد

وقال :

دعيني أطوّف في البلاد لعلني
أصيب غنىً فيه لذي الحق محمل
أليس عظيما أن تُلمَّ ملمّة
وليس علينا في الحقوق معوّل
فإن نحن لم نملك دفاعا بحادث
تلم به الأيام فالموت أجمل

وقد ذخر الشعر العربي بهذه المروءة العربية وتلك الفتوّة على مر الزمان . وقلّ أن يباشر أحد خطبا جسيما من حرب أو نازلة بالنفس أو المال ، أو حادثة تمتحن بها الأخلاق ، إلا وجد مددا من الشعر يثبته ويحفزه إلى المعالي ، ويدعوه إلى مكارم الأخلاق . وإن في ديوان الحماسة وحده ، وهو مختارات قليلة مما أنشأ العرب في قرنين ، لوفاء بهذه الدعوى ، وتصديقا لهذا الزعم .

ولا ريب أن في ذخائر الشعر العربي الأخلاقي ما يفي بتأديب أمة وتنشئتها على خير الأخلاق ، وأحسن السير . ولست أعرف ولا أحسب أن لأمة من الأمم مثل هذا الشعر القوي العزيز الكريم السامي .

(الكلام صلة) **عبد الوهاب عزام**

قصة :

تفاحة

كانت يداعبها النسيم فوق شجرتها الوارفة فتمايل عجباً وتيهاً ، ثم تحتجب بين وريقاتها خجلاً من ذلك البستاني الشاب يمر بها كل صباح يشق جدول الماء الصغير في تعرّيه بين شجيرات حديقته الصغيرة .

ويؤوب إذا كان المساء يرقب نموها المطرد فتتوارى ، وهي ما زالت فجة ، خجلا بين وريقاتها الخضراء من عينه الظمأى .

وكان وقت الظهيرة ، واليوم قائظ ، فالتمس البستاني ظلا تحت شجرة التفاح يقيه لفحات الهجير ، وجلس ينشد الراحة من عناء العمل الطويل .

وهب نسيم خفيف داعب وريقات الشجرة الخضراء فبدت التفاحة ناضجة .

وغمرها الضوء بفضح لون وجنتيها القرمزي الفاتن . ودم الحياة ينبثق من كل جزيئاتها الحية . فانبهر الفلاح الصغير ، وطمع في قطف الثمرة ، إلا أنه تريّث حتى يعاوده النشاط ويكون له منها ملطف لحرارة صدره .

وأخذته إغفاءة .

* * *

عَلِيَّة .

وهي تسير الهوينا في مشيتها الثابتة المتئدة ، وشعرها الغزير في تموّجه الفاتن ، ويدها البضة العارية حتى نصفها ، وساقها الممتلئة ... ثم جسدها الناضج في أنوثة مغرية ، وقدٍّ هو كل ما كان يحلم به فيروز ...

نهض فيروز مبكراً ذات صباح وراح يحتسي القهوة في شرفة داره ، وقليلا ما كان يفعل ، فما كان يميل بطبعه أن ينهض إلا قبيل موعده في الديوان . فهو ينفق من الليل أكثره بين الصحاب في النادي أو بين الكتب إن مل يوماً مخالطة الناس ، ويلتذ بساعة الظهيرة ينامها بعد الغداء .

ذلك دين أسلوبه . وما كان يكلف نفسه يوماً عناء ساعة البكور التي كانت أشق ساعات النهار على خادمه ، لما تقتضيه من جهد في إيقاظ سيده الغضوب .

وقف فيروز يرشف من فنجانه القهوة في تمهل ، وجعل يتسلى برؤية بائعات اللبن في بكورهن ، ويعجب كيف يستيقظن مع الفجر لقاء دراهم لا تكاد تفي بضروريات الحياة . . . ولكنها الأيام التي جعلتهن يرضين بما دون ذلك ! بل لعلهن كن في غبطة .

أجل ! هي الأيام التي جعلته كذلك يرضى بغطرسة رئيسه ويتحمل منه ما لا طاقة له بحمله ، وآهاً لهذا الرجل الذي ...

وأخرجته عما كان يحتمل أن يذهب إليه فكره هذه الغادة التي بارحت الدار في مشيتها المتئدة الثابتة ، وشعرها المتموّج الفاتن .

ترى من تكون ؟ وعهده بما كنات البيت فانيات متصابيات . وليست فيهن واحدة لها مثل هذا القد الأهيف المياس ... أساكنة جديدة ؟ لم يخبره بذلك خادمه ، وعهده به ثرثاراً يأتي بالخبر من فمه المسيق . فمن تكون ؟ أضيفة ؟...

وحان الموعد فمضي لعمله ، وشغلته غطرسة الرئيس عمّا كان فيه ... وظل كذلك أياما . حتى كان ذات صباح وهو يهرول خشية فوات الوقت ، وإذا هو يراها هي على سلم البيت تهبط في ثبات بقدّها الفتان .

وتريث رغم حاجته لدقيقة واحدة في مثل هذا الوقت المتأخر ... وكانت «علية» . أهذه هي تلك الفتاة التي كانت منذ سنة لا يعبأ بها إن هبطت السلم أو ارتقته ، أو ذهبت إلى أية جهة شاءت ، ما كان لينظر إليها أو يعيرها أدنى اهتمام . ما بالها اليوم قد انخرطت في هذا الشكل وتلك الهيئة التي باتت تثير نفس فيروز !

حقا إن للأيام لدورة ، وإن لها لشأناً في جودة سبك الأجساد ، وإنها على أبدان النساء أظهر وأبين !!

أعَدَّه عليَّة ، وما كانت عنده منذ حين شيئاً ؟! أهي عينها التي تساكنه داره منذ سنين ! ! وخفض رأسه ومضى حتى لا تظن به - لطول نظرته - الظنون .

وعجب الخادم لسيده الذي أصبح لا يضجره إيقاظ البكور ، وتعوده منذ قريب احتساء القهوة في شرفة الدار كل صباح ، وقلل شيئاً من سهرات المساء . وزاد عجبه لاعتنائه بهندامه ، وإقباله على الخادم يسمع أخبار الحي ، ويتسقط أنباء الدار ، بعد أن كان يعرض عنها ويزجر خادمه الثرثار كلما عرض لها بحديث .

وما كان أحب إلى فيروز أن يصغي بكليته لكل ما كان يأتيه به الخادم ، حتى إذا جاء عرضاً ذكر عليَّة تجاهل وتساءل : من تكون ؟ أهي تلك الجارة التي تسكن في الطابق الأسفل . . . فما شأنها ؟ ويروح يصغي لكل ما كان يقول ، ويكاد يعيه كلمة كلمة ، ويخترع لذلك ، كأنما هي في أثناء الكلام ماثلة أمامه بقدها الرشيق ، ووجهها المشرق ... ثم عينيها ... رباه ! يا خالق هذا الجمال ! يا باعث هذه الفتنة ! زدني أيها الشيطان ، ماذا كانت تقول ؟ أكان أحد بجوارها ؟ أضحكت ساعة قلت لها إن سيدك كان مهتاجاً ثائراً ؟ أتذكرني أمامها كثيراً . . . ويحك ، ويحك ! !

وعجب الخادم ! لكنه لم يلبث أن عرف بخبثه أوجز طريق لقلب سيده ، عرف كيف يلج هذا الباب المغلق ، إذ يحدثه عما رأى وسمع وما لم ير ولم يسمع ! وعرف كيف يقص عليه في خبث كيف عرض في حديثه معها لذكر فيروز ، وكيف وصف فأطنب ! ويح هذا الخادم ! لكأنما أضحى جزءاً من حياة سيده الشاب .

وتعمد فيروز أن يراها على السلم صاعدة أو هابطة ، وفي الطريق ، وعند محطة الترام . كانت هذه اللحظات المختلسة أحب ساعاته إليه ، بل هي أسعد لحظاته . فإنه ما يكاد يمر عليها ويلحظها بطرف عينه حتى يسمع دقات قلبه ، وحتى ما يكاد يقوى على أن يقف على قدميه ، أو يحتويه مكان ، لشدة ما كانت تبعثه هذه النظرة الواحدة في جسمه كله ... ماذا كانت تفعل به هذه النظرة ؟ ذلك ما لم يكن عقله أن يحل فيه بحجه أو يرد عنه بجواب .

أهما عيناها ... أهما هاتان الشفتان القرمزيتان الصارختان لدعوة مبهمة ...؟ أهو هذا الجسد الذي تعبر كل ذرة فيه عن اكتمال الأنوثة ونضرة الشباب ؟ ويحه . . . هذا الجسد ... هذا الجسد ! !

أجل هذا الجسد الذي يهز أعصاب فيروز . هذا التكوين ما انبسط منه وما انطوى . لقد كانت نظرة واحدة إليه ترجه رجاً عنيفاً لا طاقة منه ولا صبر عليه .

كان يقضي ليله كله يحلم ... وكانت عليَّة هي الطيف الزائر في ظلمة الليل ... كانت وحدها عروس لياليه ؟!

أيبوح بها ؟ أرضاء زوجها ؟ أتشعر نحوه بمثل ما يشعر ؟ إنه يكاد يحترق في أتون من الصمت والكتمان ، ولكنه يفضل هذا الصمت وإن كان فيه مَهلكه .

من له بمن يخبرها بما يشعر به ؟ من ...؟ إن البيان ليعجز أن يصف لها خلجة واحدة مما تختلج به نفسه . من له بذلك الرسول الأمين ... أيبعث الخادم ؟ هذا ضرب من الطفولة سخيف ، إن للخادم لآرباً مهما خلصت نيته في تأدية الرسالة ! أيقوى هو أن يفوه لأحد بشيء ، إنه ليعجز حتى عن أن يصارح نفسه . ! إنه ليخشى أن يذكر اسمها إذا جرى يوماً في معرض الحديث ، يخشى أن تخونه قواه فيتهدج صوته ويَنِم عليه ، كم يحبها ... !

فليكن قلبه رسوله ، يكفيه تلك النظرة الساذجة كلما التقى بها في ساعة البكور ، فتظل زاده بقية النهار ، وتجعله يتقبل أوامر الرئيس بنفس راضية تهون معها كل مضايقات العمل حتى ساعة الانصراف ، فإنه ليأمل أن يراها عقب هم النهار .

وزاره يوماً جاره وصديقه الوحيد ، وجلسا يتحدثان . وعرض اسمها ... ووجم فيروز ... ماذا يقول صديقه ؟

إنه ليفترى ويتزيد، أيزعم أن له شأناً معها؟ إن نفسه لتثور، وقلبه يحترق، أيجاهره بالعدوان، أيصرخ في وجهه منذراً؟ أيقتلعه من مجلسه ويقذف به خارج الدار؟ كيف يزعم أن له صلة بأطهر ملاك يعيش بين البشر إلى حين ...!

وتجهم فيروز، فغرته ضيفه. ونهض ليودعه وإنه لأشق مخلوق ... وراح يتذكر ما سمع، لا يبعد أن يفترى الصديق الكذب ليخلو أمامه الطريق.

ما أمرّ الحقيقة إذا انجلت فجأة وأسفرت بعد طول حجاب!!

ثم هذا الخادم اللئيم! إنه يهمس له بين الحين والحين همسات تكاد تهد كيانه، وتصدع أركانه، يؤيدها الدليل من حديث الصديق... أهي إذن الحقيقة؟ وعلية غير ما كان يأمل ويتخيل، وبشيد بنيان الأماني، أهي أخرى غير تلك التي كان يحلم بها الليالي الطوال؟

وعصف به الشك والقلق، ولكنه يحبها ... ولكنها الحقيقة.

وعوّل على أن يضع لهذا حداً. وتحين للكلام فرصة، فما هو إلا أن رآها حتى وجف قلبه وانبهر نفَسه، وضاع كل ما كان قد حضر من فنون الكلام. فتمتم بقول تافه ولفظ مضطرب ... وأطربها هذا اللون الساذج من مغامرات الفتى العاشق، فابتسمت. وحسب فيروز أنه بلغ عندها مبلغا ...

وأنفق بقية يومه يحلم وهو يقظان، ويستعيد صورة تلك اللحظة التي غافل فيها الدهر، فظفر منها بحديث وابتسامة ...

أتراها سمعت وجبات قلبه؟ أخفى عليها هذا الذي يضم صدره ...؟ لقد كان حديث عينيها صدى لهمسات نفسه الظمأى ... وشفتاها. رباه.. إنها دنيا من الجمال والفتنة والإغراء ... وراح يحلم ...

ولكن لقد فاته أن يضرب لها موعداً، أو حتى أن يعرّض لذلك بعبارة لامحة. ولكن لا بأس لا بأس، فما كان الوقت ملائماً. فليتصبر وإن الفرص لآتية ... ليعد لها أزهى ألوان الكلام يرتبه في لبائه حتى لا يرتج عليه وينبهر كشأنه اليوم. كم كانت معه لطيفة متسامحة!!

وحان موعد أوبته فأنجز عمله في سرعة. وكان يومها بهجاً فاضت بهجته على كل ما اتصل بفيروز، حتى وجه رئيسه الجهد.

وجاءه صديقه ساعة الأصيل يبتسم. وقال وهو يرتمي فوق الكرسي في شرفة الدار.. حتى أنت يا فيروز!

وحلق فيروز. وضحك صاحبه وجعل يتكلم ويتكلم. وغاص فيروز في كرسيه وتضاءل حجمه رويداً رويداً. وصاحبه يعيد على سمعه ما قال هو لصاحبته اليوم حرفاً حرفاً؛ إذن فهي الحقيقة؛ إنها ليست له!

ونهض صديقه يقول مواسياً على طريقته في مداعبة فيروز:

— لا تحزن فإنما نحن سواء... وما عرفت هذا إلا من زميل آخر ارتفعت أسهمه في الشركة أكثر مني ومنك...!

* * *

وصحا.. وكانت ساعة الغروب، والشمس تغرب في مجاهل الأفق البعيد ... وتذكر البستاني الثمرة فهمّ إليها يلتمس غذاءه وفاكهته.

وامتدت يده. وسرعان ما ارتدت... كانت التفاحة غير التفاحة ... لقد عبث بلونها القرمزي القانى حر الظهيرة اللافح، وإغراء الضوء الشديد. وذهبت عن نفسه شهوة ما أثارتها التفاحة الناضجة التي كانت ...

فعافتها نفسه ومضى ...

وهو جوعان.

كلية الآداب

ياقوت صبري

من ملامح كتاب «رسوم دار الخلافة» :

الحِــيرِى بكُمَّين

[بقية المنشور في العددين الماضيين]

وكان علي بن أفلح أبو القاسم الكاتب (المتوفى سنة ٥٣٣ هـ) وهو أحد سراة القوم ؛ قد أنشأ داراً ببغداد ، أدخل «الحيرى بكمين» في جملة بنائها . وكان المسترشد بالله خلع عليه ولقبه جمال الملك ، «وأعطاه أربعة آدر في درب الشاكرية ، وكان هو قد اشترى دوراً إلى جانبها ، فهدم الكلّ وأنشأ داراً كبيرة ، وأعطاه الخليفة خمسمائة دينار ، وأطلق له مائة جذع ، ومائتي ألف آجرّة . . . فظهر أنه يكاتب دُبَيْساً ، ... وأمر المسترشد بنقض داره (هذه) ، وكان قد غرم عليها ألف دينار (لعله سقط شيء) . وكان طولها ستين ذراعاً في أربعين ، وقد أجريت بالذهب ، وعملت فيها الصور ... » . وكتب الشعر على أبوابها وشبابيكها وطرزها ، وقد كتب على الحيرى الذى فيها شعر :

وناد كأن جنان الخلود أعارته من حسنها رونقا
وأعطته من حادثات الزما ن ألاّ تلمّ به موثقا
فأضحى يتيه على كلّ ما بنى مغرباً كان أو مشرقا
تظل الوفود به عكفا وتمسى الضيوف له طرقا
بقيت له يا جمال الملو ك والفضل مهما أردت البقا
وساله فيك ريب الزمان ووقيت منه الذى يتقى[1]

٦ — السدلى أو الحيرىّ بكُمّين في سورية ومصر

لم ينحصر طراز «الحيرى بكُمّين» في العراق بل تعدّاه إلى بعض الديار الإسلاميّة الأخرى ، ففي سورية بُني القصر المعروف بـ «المُشَتّى» على هذا الطراز . كما أنه انتشر في مصر ؛ وأكثر ما اتخذ هنالك في قصور الخلفاء والأمراء . فقد نقل المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) بعض أخباره ، قال يصف سماط شهر رمضان وسحور الخليفة ، ويشير إلى السدلى أى الحيرى بكمين : «قال ابن المأمون ، وقد ذكر أسمطة (شهر) رمضان وجلوس الخليفة بعد ذلك في الروشن إلى وقت السحور ، والمقرئون تحته يتلون عشراً ... ولم يزالوا إلى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه ، فحضر بين يدى الخليفة أستاذٌ بما أنعم به عليهم وعلى الفراشين . . . ثم جلسَ الخليفة في السدلى التى كان بها عند الفطور ، وبين يديه المائدة معبأة جميعاً ... وقام الخليفة وجلس بالباذهنج[1] » .

وفي مكان آخر أسهب في وصف هيئة جلوس الخليفة بمجلس الملك ؛ فيما ذكره : «فيسير (الخليفة) من مكان ترجله عن دابته بدهليز العمود إلى مقطع الوزارة وبين يديه أجلاء أهل الإمارة ؛ كل ذلك بقاعة الذهب التى كان يسكنها السلطان بالقصر ، وكان الجلوس قبل ذلك بالإيوان الكبير الذى هو خزائن السلاح في صدره على سرير الملك ، وهو باق في مكانه إلى الآن من هذا المكان إلى آخر أيام المستعلي . ثم إن الآمر نقل الجلوس إلى هذا المكان واسمه مكتوب بأعلى باذهنجه إلى اليوم ، ويكون المجلس المذكور معلقاً فيه ستور الديباج ... وفي صدره المرتبة المؤهّلة لجلوسه في هيئة جليلة على سرير الملك المغشى بالقرقوبي ، فيكون وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه ؛ فإذا تهيأ الجلوس ، استدعى الوزير من المقطع إلى باب المجلس المذكور وهو مغلق وعليه ستر ، فيقف بحذائه وعن يمينه زمام القصر ، وعن يساره زمام بيت المال ؛ فإذا انتصب الخليفة على المرتبة وضع أمين الملك مفلح ... » وخرج من المقطع الذى

---

(١) المنتظم (١٠ : ٨١ — ٨٢) ، وانظر أخبار هذه الدار في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (٨ : ١٠٢ — ١٠٣ ؛ طبع شيكاغو) والبداية والنهاية لابن كثير (١٢ : ٢١٥ — ٢١٦) .

(١) خطط المقريزى (٢ : ٣٨٧ ، مطبعة النيل)

يقال له قود الكُمْ ؛ فإذا الوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء ... ويقف الأمراء في أماكنهم المفردة ، فصاحب الباب واسفهسلار العساكر من جانبي الباب يمنياً ويساراً ، ويليهم من خارجه لاصقاً بعتبته زمام الآمرية والحافظية كذلك ؛ ثم يرتبهم على مقاديرهم ، فكل واحد لا يتعدى مكانه هكذا إلى آخر الرواق ، وهو الإفريز العالي من أرض القاعة ، ويعلوه الساباط على عقود القناطر التي على العهد هناك ؛ ثم أرباب القصب والعماريات يمنة ويسرة ... ويقف مستنداً للصدر الذي يقابل باب المجلس نوّاب الباب والحجّاب[1] .

وبنى ابن طولون قصراً عظيماً بمصر ، وكان وجه القصر « ثلاثة أبواب كأكبر ما يكون من الأبواب ، وكانت متصلة بعضها ببعض ، واحد بجانب الآخر . وكان ابن طولون إذا ركب يخرج معه عسكر متكاثف الخروج على ترتيب حسن بغير زحمة ، ثم يخرج ابن طولون من الباب الأوسط من الأبواب الثلاثة بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس ، وكانت الأبواب المذكورة تفتح كلها في يوم العيد ، أو يوم عرض الجيش ، أو يوم صدقة ، وما عدا هذه الأيام لا تفتح إلا بترتيب في أوقات معروفة[2] » .

الخاتمة

عاش هذا الطراز من البناء عمراً مديداً ، وُلِد في ديار الغرب ، وانتقل إلى ربوع الشرق أيام الجاهليّة ؛ فشبّ فيها ، وازدهر في العصر العبّاسيّ ، وانتقل إلى غير قطر من الأقطار الإسلامية ، وما زال في قيد

(١) خطط المقريزي (٢ : ٢٩٨ — ٢١٩) .
(٢) خطط المقريزي (٢ : ١٠٧) ، ومراجع الحضارة الاسلامية لمتز (٢ : ١٢٦) ؛ وعلى هذا القصر ، وهذه الأبواب الثلاثة العظام ، كان عمله المتوكل العباسي في سامراء من قبل ابن طولون في مصر ، انظر البلدان لليعقوبي (ص ٢٦٦) .

الاستعمال حتى يومنا هذا ؛ إذ أنه يرى في بلاد تونس حيث يُسمى الإيوان المتوسط ، أو الصدر حسب تعبير المسعودي باسم « القبو » كما يُسمّى كلٌّ من الكمّين باسم « المقصورة » ويُسمى الرواق باسم « التركينة »[1] .

كما أنه يشاهد في العراق في كثير من الدور المشيّدة في « قلعة » مدينة كركوك ، والأمر ذاته في أكثر الدور القديمة في مدينة الموصل .

قال الدكتور هرسفلد : « إنّ العرب أجادوا في وصف هذا البناء أحسن الإجادة ، ولقد صدقوا في قولهم إنّ (الحاري بكمين) هو مثال عسكر رومانيّ ذاهب إلى الحرب بجناحين ميمنة وميسرة[2] » .

(بغداد) **ميخائيل عواد**

(١) حفريات سامراء ١٩٣٦ — ١٩٣٩ (١ : ٢٩) ، ولزيادة الاطلاع انظر : (ص ٢٥ — ٢٩) .
(٢) لغة العرب (٢ [١٩١٢] ص ٥١٦ — ٥١٧) .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىَّ تبعته وحدى ... ..."

خصائص شعب ! — المصرى أفندى — الفركات — اللغة العربية ... ...

خصائص شعب !

نحن فى عربة الدرجة الثانية من قطار الضواحى ، فى بُكرة الصباح ، والقطار محتشد ، كل مَقعد لاثنين يشغله ثلاثة ؛ بإزاء ثلاثة ؛ ونحن فى مصر ، فى القاهرة ، فى قلب الحاضرة العربية الأولى بين حواضر الشرق ؛ هأنذا واقف بين عديد من الواقفين ، وعشرات من الجالسين ، وصحيفة الصباح فى يدى ... إنى لأقرأ فى وجوه هؤلاء الرُّكب حديثاً أصدَقَ مما أقرأ فى صحيفتى ؛ شتان بين ما هنا وما هناك ؛ أنظر معى واقرأ وجوه الناس ، ثم اقرأ صحيفتك ... ...

أنحن فى مصر ؟ ... فى حاضرة البلاد العربية ؟ ... وهؤلاء الركب مصريون ؟ ...

نعم ! نعم ! نعم !

تعال نحصيهم عَدًّا ، ونستخبرهم فرداً فرداً ...

هذه ثلاث عمائم : فواحدة بيضاء ، وأخرى سوداء ، وثالثة ... حذارِ ؛ إنها عمامة امرأة ؛ وللنساء فى هذا الزمان عمائم ... تحاجز بين الجبين المصقول والشعر الناعم !

وهذه طرابيش : انظر ، هذا طربوش على حلة ، وهذا طربوش على قباء ؛ وانظر هناك قريباً من الباب : ذاك طربوش على جلباب ، إلى جانب طربوش على قبقاب !

وهاتان قبعتان : فواحدة على رأس مصرى ، وأخرى على ركبتَى أجنبى ...

وهؤلاء نساءٌ وفتيات ؛ مَن تعرف منهن ومن تنكر ؟ ... أهذه الشابة قد عاجت نظراتها فى الكتاب ، أم هذه المتشبِّبة ترَقّبه بابتساماتها من الرُّكاب ؟ ...

وهذه صحف بين أيديهم وأيديهن : أرأيتَ إلى لابس هذا الطربوش ، وصاحب تلك العمامة ، وحامل هذه القبعة ، وهذا العارى الرأس ، وهذه العارمة النظرة ، وتلك المَنقبضة الطرْف ... ماذا يقرءون وما ذا يقرأن ؟ ... صحيفة عربية مطوية ، وصحيفة إفرنجية مبسوطة ...

واستمع إلى حديث هؤلاء ، وأولئك ؛ ماذا يقول القائل وما ذا يسمع السامع ؟ ... مصرى يرطن ، وأجنبى مستعرب !!

... هؤلاء ، وأولئك ياصديقى إخوتك وأخواتك ، إنهم نموذج « الجماعة المصرية » مجتمعة فى عربة قطار ؛ إنك وإياهم على نسبٍ مشتركٍ وإن تعددت الألوان ، وإنهم وإياك على صفة موحَّدة حين يُسأل عن « خصائص المصرى الحديث » وإن لم تتوحد المشارب والأذواق !

وكنتَ تسألنى منذ قريب عن « الصفة المشتركة » التى يمكن أن يجد فيها الفنانُ الصادق صورة كل « مصرى » فيبرزها فى لوحة من فنّه ، ولقد أعيانى جوابُك برهة ؛ فانظر الآن لعلك واجدٌ فى هذا الخليط المحتشد جوابَ ما سألتَ !!

المصرى أفندى !

أرأيتَ إلى تلك الصورة التى اخترعها فنّان مصرىٌ ، أو أوربى ، منذ سنوات ، لتكون نموذجاً يعبر عن صورة كل مصرى ، وسماها « المصرى افندى » ؟ ... لا تصدّق أنها كذلك ؛ إنها صورةٌ مترجمة ، وأحسبها كانت قبل ذلك ذاتَ قيمة ، فلما ترجمها مصوِّرها أبدل بالقبعة الطربوش ليرضى حاجة فى نفسه ، ثم أخطأ مرة أخرى فى ترجمة العنوان ، ولو أصاب لسماه : « مسيو مصرى » !!

أين هذه الصورة من هؤلاء الذين ترى فى عربة القطار ؟ ... أليس مصريا هذا الشيخ وعلى رأسه عمامته ؟ وهذا الغلام وعلى رأسه قبعته ، وهذا القس وعلى رأسه سواده ، وهذا الشاب وعلى رأسه شعره ... ؟

أوليس مصرياً صاحب هذا الجلباب ، ولابس هذا القفطان ، والمتدثر فى هذا المعطف ، و « المتبحبح » فى هذا السروال ... ؟

فمن أين لك أن تقول إن هذه صورة « المصرى أفندى » وليس المصرى « صورة » تعرف أو توصف ؟

لقد رأى ذلك الفنان فى إحدى المجلات الأوربية صورة « العم سام » ، وصورة « السيد جون بول » ، فبات ليلته يحلم ، فلما أصبح عكف على مرسمه يحاول أن يخترع صورة « المصرى أفندى » ؛ فلما أعياه أن يخترع ترجم ...

« المصرى أفندى » ؟ . . . أين هو المصرى أفندى بلحمه ودمه وأعصابه ؟ أين هو فى هندامه وزيه ؟ أين هو بخصائص قومه وفكرة أهله ؟ أين هو ذاتاً وشارة وخلقاً وأمنية وعصبية ! ... أين هو حقيقة قبل أن ترسمه صورة وكل واحد من هؤلاء وأولئك الذين ترى فى عربة القطار يزعم أنه المصرى ... ؟

ارسموه فكرة قبل أن ترسموه صورة ، حددوه صفة قبل أن تتخيلوه رسماً ؛ ثم لينظر بعد ذلك كل مصرى فى مرآة زينته وفى مرآة نفسه يعرف صورة « المصرى أفندى » !

الشركات :

دعنى ، دعنى يا صديق فقد عييت بجواب سؤالك ؛ لست أعرف لهذا الشعب خصائص موحدة أو صفة مشتركة فأجيبك ؛ إنه شعب يعيش بلا غاية ، ويسير بلا هدف . . . !

دعنى وصحيفتى ، إن هاهنا موضوعاً ينبغى أن أقرأه قبل أن يقف القطار فى « المحطة الأخيرة » فتشغلنى عنه أشياء ...

إنهم يتحدثون عن اللغة العربية فى الشركات والمتاجر الأجنبية ؛ أقرأت ؟ . . .

أحب إلى بأن أقرأ وأن أسمع حديثاً عن اللغة العربية فى الشركات والمتاجر الأجنبية ؛ ... لقد شرعوا قانوناً وفرضوا عقوبة ؛ ما أجمل هذا ! إنها لأول اليقظة فيما أرى ، فليس يليق بشعب يعتد بكيانه ويؤمن بنفسه أن يتحدث إليه الأجانب بغير لغته ! . . . أتراهم قد احتجوا بذلك لما شرعوا ؟ . . . نعم ، وما أراهم قد جاوزوا حد القصد والاعتدال ؛ ولكن ماذا قالوا بعد ؟ ...

قالوا : وإنهم بذلك يقصدون أن يفسحوا مجال العمل للشبان المصريين فى الشركات والمتاجر الأجنبية ...

وى ! ... أهذا حديث يقال ؟

ولماذا لا يفرضون هؤلاء الشبان على الشركات والمتاجر ضريبة وطنية ؟ ... أفليس هؤلاء الأجانب يعيشون بنا ، ولنا ؟ . . . أفليس من حقنا أن نقول لهم شاركونا فيما تربحون من أموالنا ؟ ... فماذا . . لماذا لا نقولها صريحة بلا احتيال ولا مداورة ؟

أمن أجل ذلك نفرض اللغة العربية على هذه الشركات والمتاجر ؟ . . . أين شئ من شئ ؟ . . . ذاك واجب وهذا واجب آخر : ذاك حق لغتنا القومية ولها العزة ، وهذا حق الاقتصاد القومى !

ينبغى أن يتحدث الأجانب إلى كل مصرى بلغته ؛ هذا حق ، وينبغى أن يكون لكل مصرى سهمه فيما يربح هؤلاء الأجانب منا ؛ هذا حق آخر ؛ وسواء أكانت الوسيلة إلى هذين الحقين واحدة أم كانت متعددة ، فما ينبغى أن يفوتنا الاعتراف بأن هذا حق وذلك حق مثله !

أفلا يكون لمصرى حق أن يعمل فى شركة أجنبية إلا باسم اللغة العربية ؟ ...

ولكن وا أسفا ! ... إن الشاب المصرى لا يكاد

يشعر أن له هذا الحق وأن عليه ذلك الواجب ؟

استمع إليه واقفاً في متجر أجنبي يتحدث إلى عاملِه أو عاملته ، واستمع إلى أخته « الآنسة المصرية » ؛ إنه وإنها ليتحدثان برقة ، ولطف ، بلغة العامل والعاملة ، يطلبان إليه وإليها زجاجة من عطر الشيراويشي ...

البضاعة مصرية ، والشاري مصري ، وقد يكون العامل مصرياً كذلك ؛ ولكن الشاب والشابة لا يقدران أن لها حقاً ، ولوطنيتهما عليهما حق ! !

اللغة العربية :

ثم أين شبابنا من اللغة العربية وإنهم ليجيدون لغات الأجانب أكثر مما يجيدونها ؟ . . . ليس من نقص فيها أو في وسائل تعلمها ، ولكن من نقص في الوطنية !

أقرأت حديث فكري أباظة في العدد ٩٤٠ من المصور :

« الطفل المصري الراقي يجيد الإنجليزية والفرنسية أكثر مما يجيد العربية ؛ ولم أعرف في انجلترا رجالا يجيدون اللغة الفرنسية ، ولم أعرف في فرنسا رجالا يجيدون اللغة الإنجليزية ، ولم أعرف في ألمانيا رجالا يجيدون لغة غير الألمانية ، ولم أعرف في هذه الدول الكبرى رجالا يجيدون الإنجليزية والفرنسية كما يجيدها الأطفال المصريون الراقون الأرستوقراطيون أبناء الذوات ! ! » .

هذا حق يعرفه كل مصري ولا ينكره على نفسه وأهله ، ويعرفه كل أب في بنيه وبناته ، ويعرفه كل معلم في تلاميذه وتلميذاته ، ويعرفه وزراء المعارف منذ كانت وزارة المعارف !

أين ما نريد مما نعمل ؟

نريد أن تكون لنا كل مقومات الوطنية الصحيحة في لغتنا وعاداتنا وكل مظاهر قوميتنا ، ونعمل فلا يكون عملنا إلا مباعدة بيننا وبين مقومات الوطنية الصحيحة في لغتنا وعاداتنا وكل مظاهر قوميتنا ، ونفرض على الأجانب أن يعترفوا لنا بحق لا نعترف به لأنفسنا !

اسأل تلميذاً في أي مدرسة مصرية : ماذا تخاف من مواد الدراسة في الامتحان ؟ ... تسمع جوابه : اللغة الأجنبية ! ... واسأله : ماذا يرهقك من مواد الدراسة طول العام ؟ ... يجيبك : اللغة الأجنبية !

لماذا ؟ ... ألأننا نريد إعداده لخدمة الأجانب ؟ . . . لا ؛ ألأنه يهيئ نفسه للعمل في السلك السياسي ؟ ... لا ؛ ألأن اللغة العربية ليست لغة العلم ؟ ... لا ... !

فلماذا ؟ ... لأن الذي وضع منهج الدراسة في المدرسة المصرية منذ نصف قرن لم يؤهل ممن علمهم رجلاً واحداً يقول بعد نصف قرن : هذا المنهج لا يلائمني وليس بي إليه حاجة إلا بمقدار !

ولكن في وزارة المعارف اليوم رجالاً حريُّون بأن يقولوها ، وأن يفعلوا ... !

أراني أتحدث اليوم عن التعليم ومناهجه وما يحق لي ؛ ولكن يخيل إليّ أني آمل اليوم أملاً في الإصلاح لم أكن آمله منذ سنين ؛ ولقد يكون أمل الآمل أحياناً داعية إلى الشكوى ، والسخط ، والتذمر ؛ ولكني أوثر أن أنتظر !

« قاف »

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
لستة أشهر	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩٩

العدد ٢٠١ — الثلاثاء ٢٤ من شوال سنة ١٣٦١ — ٣ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

الحرب والســـلم

أثر القوى اللاشعورية في الحرب :

إن دوام احتمال نشوب الحرب في أيامنا الحاضرة من المشاكل التي تتطلب تحليلا سيكولوجيا دقيقاً . ومما لا شك فيه أن القوى العاقلة ليست هي التي توقد نار الحرب أو تبقيها مشتعلة بعد اتقادها ، بل الذي يوقد نارها هو عمل العواطف والغرائز والميول الكامنة في الطبقات السفلى من العقل . ذلك لأن الإنسان قد تطور خلال عصور طويلة لا يحصيها العد من جبلة بدائية ، وقد كان حتماً على هذا الإنسان خلال تاريخه الطويل أن يكافح في سبيل بقائه .

ومن أجل هذا كانت الغريزتان الأساسيتان في جميع الكائنات الحية ، وهي غريزة حفظ الذات وإثبات الوجود ، من الغرائز التي ستبقى في طبيعتنا أجيالا طويلة على الأقل ، إذا لم نقل إننا لن نستطيع أن نتخلص منهما قط ، وهاتان الغريزتان أبعد أثراً وأكثر شيوعاً من الغرائز الخاصة بالجنس البشري .

وإذا وزنت الحرب بميزان العقل حكمت بأنها من الأعمال الجنونية ، وعددت كل من يشتركون فيها مجانين ؛ وأشد ما فيها إيغالا في الجنون أنها تغير من طبيعة أولئك الذين وهبهم الله عقولا فلسفية واسعة فتحملهم على خيانة مبادئهم السامية ، وترجع بهم إلى أشد الأفكار وحشية وأكثرها إيغالا في البدائية . فإذا قامت الحرب رأيت الناس وكأن طبيعتهم قد تغيرت بسحر ساحر .

وقد أثبت مئات من علماء النفس الأطباء بالدليل العلمي القاطع أن اللاشعور أهم أجزاء العقل وأقواها أثراً ، وأن الجزء الواعي من العقل — إذا قيس به — جزء صغير أشبه بصخور متفرقة في بحر واسع الأرجاء . فإذا شئنا أن نفهم حقيقة القوى العقلية التي تحرك الجنس البشري ، وجب علينا أن ندخل في حسابنا البواعث الخفية التي تظهر وتنشط في أحوال وبطرق خاصة ، كالغرائز البدائية السالفة الذكر .

ومن الغرائز القوية التي تستيقظ وتثور بمجرد إعلان الحرب غريزة المخاصمة ؛ وقد تبقى هذه الغريزة مختفية غير ناشطة ، حتى إذا ما تهيأ جو الحرب وعُيّن العدو نشأ على الفور في الكثرة الغالبة من الناس شعور بالكره والمخاصمة لا يستطيع العقل أو التدبير أو الرحمة أن تسيطر عليه ، وإن كان الناس يدركون وقتئذ بعقولهم أن الحال التي هم عليها حال لا يقبلها العقل ؛ ولكن الناس في هذه الظروف لا تسيّرهم عقولهم ، ولو أنها سيّرتهم لأصبحوا جميعاً من دعاة السلم . ولست أقصد بهذا أن دعاة السلم هم خيار الناس ، وأن من عداهم كلهم قتلة أشرار ؛ بل أرى أنه إذا كان لا بد لنا أن نخوض غمار الحرب ليقترب العالم من عهد السلام العام فلنخض غمارها راضين . ولو أنني وثقت ألا سبيل يلجأ إليها غير سبيل الحرب لمنع قيام الحركات الرجعية في العالم ، وارتداد أمة أو قارة بأكملها إلى طرق بدائية في التفكير والعمل وتدهور في الأخلاق ، لو أنني وثقت من ذلك لأعلنت من فوري أن الحرب لا تتنافى مع المنطق السليم ؛ ولكني لا أعتقد بإمكان وجود حالة كهذه تبرر الاندفاع في الحرب وخوض غمارها .

منع الحرب :

فهل في مقدورنا أن نفعل شيئاً لمنع الحرب ؟ إن الذي نستطيع كلنا أن نفعله هو أن نكشف عما في عقولنا من الدوافع التي تدفعنا إلى الحرب ، ثم ننتزعها مما حولها ونعالجها ونقضي عليها القضاء الأخير . وهذه الدوافع كلها كامنة كما قلنا من قبل في اللاشعور ؛ ومهما يكن من شأن اللاشعور في عقل الفرد فهو في الجماعات أعظم شأناً وأشد خطراً . وإذا اندفعت الأمة مجتمعة في عمل من الأعمال فإن القوى اللاشعورية يشتد خطرها حين تظهر وتثير في الأمة أنواعاً من النشاط الخاطئ الضار . ويبلغ هذا الخطر أشده إذا كانت عقلية الجماعة يحركها زعيم مسيطر يخضعها لأمره ويتصرف فيها على هواه . والأمة في أثناء الحرب تبحث لها عن زعيم ، وتضع نفسها تحت أمره ، مهما كلفها ذلك من ثمن ، فإذا لم تجد الزعيم الخيّر الصالح وجدت الزعيم الشرير ، لأنها لا غنى لها عن هذا الزعيم ؛ وهي تتبعه إلى حيث يقودها ، وتثق به كل الثقة ، وهو الذي يفصح عما لا تستطيع هي أن تفصح عنه ، ويعمل بما تبعث فيه هي في كل آن من نشاط جديد وعواطف جديدة .

ولقد كانت إيطاليا وألمانيا في الحقيقة مهيئتين للحرب ، ويسودهما الجو الحربي قبل أن تشتعل نار الحرب بعدة سنين . ولما أمضت ألمانيا معاهدة فرساي لم يكن هذا الإمضاء إنهاءً للحرب بالنسبة لهذه الأمة ، ولم تكن الثورة النازية في عام ١٩٣٣ ، كما لم يكن احتلال منطقة الرور والاستيلاء على النمسا وتشيكوسلوفاكيا وما تبع ذلك من أحداث ، لم يكن هذا كله إلا مراحل في حرب حقيقية ظلت رحاها تدور بعد عام ١٩١٨ .

وقد وصف أفلاطون في كتاب الجمهورية العوامل السيكولوجية التي تعمل لإثارة الحرب ، وعبر عنها كلها بكلمة واحدة جامعة يمكن ترجمتها بلفظ « الطمع ، أو إدعاء الأمة لنفسها أكثر مما يحق لها أن تدعيه » . فإذا قالت الإمبراطورية البريطانية مثلا إنها لا تسمح لأمة أخرى أن تهدد أي جزء من أملاكها ، عد ذلك منها طمعاً وادعاءً لما هو أكثر من حقها . ولو أن الإمبراطورية البريطانية كانت إمبراطورية بالمعنى القديم ، أي لو أنها كانت لها أملاك واسعة خارجية تديرها وتسيطر عليها حكومة مركزية في بريطانيا العظمى ، فلا تنفذ هذه الأملاك أمراً إلا بعد أن ترجع إلى هذه الحكومة المركزية ، لجاز أن يعد امتلاك هذه البلاد والسيطرة على هذا الجزء الكبير من العالم طمعاً من بريطانيا وادعاءً لما هو أكثر من حقها . ولكن قانون وستمنستر قد غيّر نظام

الإمبراطورية من أساسه ، وجعل منها مجموعة من الدول المستقلة المرتبطة برباط التاج ، ولم تعد انجلترا تستفيد من هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف وما يظن أعداؤها أنها تستفيده منها ، وليس لبريطانيا العظمى إشراف ما على سياسة الأملاك المستقلة ؛ ولقد خول هذا القانون لتلك الأملاك الحق فى أن تقرر بنفسها الانفصال عن بقية أجزاء الإمبراطورية . ذلك أمر على أهميته ينساه أعداء الإنجليز .

والنفسية الحربية تتكون من مراحل ثلاث ، تقوم كل منها على أساس المرحلة السابقة لها ، وهى مرحلة ما قبل الحرب ، ومرحلة الحرب ذاتها ، ومرحلة ما بعد الحرب . والمرحلة الأولى غاية فى الأهمية والخطورة ؛ ففيها يعبأ اللاشعور فتظهر المقالات المثيرة فى الصحف ، والأفلام المثيرة على الشاشة البيضاء ، والخطب المثيرة من الزعماء تهيئ الجو الحربى . فإذا نشأت أزمة ثم انقضت بسلام ، رأيت شعور الراحة والاطمئنان العام القائم على أساس العقل والرحمة وقد امتزج به إحساس غامض لاشعورى بالخيبة ، وقد يبلغ من قوته أن يدفع أصحابه إلى الاعتداء ولو على أعز الأصدقاء . وفى هذه المرحلة يجب أن ينشط الراغبون فى السلم لمنع الأمم المتعادية من الانتقال إلى المرحلة الثانية . أما إذا تركت هذه الأمم وشأنها فإنها لا تلبث أن تنتقل من تلقاء نفسها إلى المرحلة الثانية ، مرحلة الحرب ذاتها ، بعد أن يعبأ لها اللاشعور تعبئة قوية ، ويكون وقف الحرب فى هذه المرحلة الثانية صعباً أو مستحيلاً .

والخوف من الأمراض العقلية التى تصيب الأمم كما تصيب الأفراد ، فتدفع الأفراد إلى الاعتداء والأمم إلى الحروب . وهذا المرض يجعل الأمة المصابة به ، أو التى يسيطر عليها زعيم مصاب به ، إلى إساءة الظن بغيرها من الأمم ، وتفسير كل حركة تصدر منها كأنها موجهة إليها بالذات استعداداً للانقضاض عليها .

عصبة الأمم :

أشرنا من قبل إلى عصبة الأمم ، ونقول هنا إن الفكرة التى أوحت بإنشائها فكرة سامية نبيلة ، ستبقى حيّة وتنمو وتثمر فى المستقبل خير الثمار . أما العصبة نفسها فما من شك فى أنها قد أصيبت بضربة قاتلة ، حين أبت أن تقرر منع وصول الزيت إلى إيطاليا ، وهى المرحلة الثانية من مراحل العقوبات الاقتصادية التى أريد فرضها عليها أيام المشكلة الحبشية ؛ وبعد هذه الضربة أخذت العصبة تحتضر على مهل ، حتى لفظت النفس الأخير . ومن الواجب ، متى حان الوقت ، أن نبحث فى أسباب هذا الموت ، وسيقول رجل السياسة فى هذا الموضوع الشىء الكثير ؛ ولكن العالم السيكولوجى يستطيع أيضاً أن يدلى ببعض الآراء فيه . وما من شك فى أن العصبة ستبعث حية ، وأن من أكبر العيوب الأساسية فى دستورها تلك القاعدة التى تجعل الإجماع شرطاً أساسياً لا يمكن لمجلس العصبة بغيره أن يقدم على عمل من الأعمال . ولربما كانت هذه خطة سليمة من الوجهة المنطقية ، ولكنها من الوجهة العملية تخلق المشاكل وتثير المصاعب ، وتمنع من العمل المفيد .

ولقد قلنا من قبل : إن العصبة الجديدة يجب أن تشمل الدول الكبرى جميعها بلا استثناء ، وفيها بلا شك الولايات المتحدة الأمريكية ، وليس ما يمنع من إنشائها فى نصف الكرة الغربى إذا عجزت أوربا عن إنشائها فى نصف الكرة الشرقى . ووجود العصبة تحتمه ظروف العالم وطبيعة البشر ، لأن قوى الطبيعة البشرية لا يُكبح جماحها إلا إذا كان ثمة قوة مسلحة منظمة تؤيد القانون الدولى ؛ فكما أن الدولة فى حاجة إلى قضاء وتشريع وشرطة تنفذ الشرائع وأحكام القضاء ، لأن فيها طائفة من الناس طبعوا على الإجرام ، ولا يحول بينهم وبين ارتكاب أعمال الشر إلا القوة ، فكذلك الدول مجتمعة يجب أن يسودها حكم القانون الدولى الذى يستند إلى قوة تحافظ على هذا

إسكندر الإسكندرية .

فكرة الله
كيف تطورت عند الأمم
للدكتور أحمد زكى بك

ينظر العلماء إلى الأشياء، يفحصونها من هذه الوجهة، ثم من هذه، ثم من تلك، وهكذا حتى لا يكون فيها ما يستأهل الفحص، أو حتى أن تعجز أداة فحصهم عن بلوغ تلك الوجهات. فإن فرغوا من فحصها فى المكان بدأوا فحصها فى الزمان، بدأوا دراسة: كيف هى اليوم من أمس، ثم كيف هى أمس من أمس الأمس، إن كانت مما يتم تغيّره وتبدّله فى اليوم واليومين. أو كيف هى هذا القرن من القرن الذى مضى، فالقرن الذى سبق هذا، إن كانت مما يتم تبدّله وتغيره فى القرون. ويسمّون هذا التغير نشوءاً أو تطوّراً. وقد يعجزون عن دراسة هذا التغير فى الشىء الواحد، لأنهم لا يطاولونه عمراً، فيدرسون فى الزمن الحاضر أشياء، واحدة هى سواسية فى حضورها ولكنها مختلفة فى أعمارها وأدوارها وأطوارها. وقد تكون الأرض قد طوت هذه الأشياء فى طبقاتها كما طوى الزمان قرونه، فينقّبون عنها فى بطن الأرض طبقة طبقة، وكل طبقة هى حياة قرن، فكأنما يكشفون من كتاب من التاريخ بالٍ تآكلت صفحاته واستحال بياضه، ولكن فى تلك الصفحات بقية من أسطر كثيراً ما تؤدى معانى كاملة للعين التى اعتادت أن تقرأ خطّ الأيام والليالى فى الحجر والتراب.

وفكرة الله، وهى ليست من المادة فى شىء، بحثوها بحث الشىء الملموس الموزون. وبحثوها فى الحاضر، فى أجناس من الناس تعيش بأجسامها فى القرن العشرين، ولكنها تعيش بعقولها فى الماضى الجديد والماضى القديم درجاتٍ متفاوتات، فكأنهم الأجيال الإنسانية حُشرت

القانون وتخضع الدول لأحكامه. ولا حاجة بنا إلى القول إن النظام والخضوع للقانون ضروريان لقيام الحياة الصالحة الطيبة فى العالم بوجه عام.

الوقاية فى زمن الحرب :

نختم هذا البحث بكلمة موجزة عن الوقاية فى أيام الحرب، فنقول إن التجارب كلها تدل على أن الصدمات العصبية التى تصيب الجند فى الميدان بسبب ما يلقى عليهم من القنابل، يقل عددها وتقل شدتها كلما ساد الجنود روح النظام؛ وليس المقصود بروح النظام الشدة والقسوة على الجند، بل يقصد به الحزم الشبع بالعطف عليهم، والعناية بأمرهم، وبث روح التضامن واحترام النفس فيهم.

وكذلك يجب أن يعلم القائمون على شئون الوقاية المدنية أن بث روح النظام فى نفوس الشعب أمر لا غنى عنه إذا أريد منع الذعر والاضطراب ومنع الصدمات العصبية التى تصيب المدنيين. ومن الخطأ الكبير السماح لأهل المدن المهددة بالضرب بالقنابل بالجلاء عنها، لأن إخراج عدد كبير من أهل المدينة أو إخراج كل من أصيب باضطراب عصبى منها، يؤثر فى قوة السكان المعنوية بوجه عام. ولهذا يجب أن يبقى أكبر عدد مستطاع من أهلها فى مراكز أعمالهم، وأن تتخذ الوسائل التى تكفى لبث روح الهدوء والاطمئنان فى نفوسهم. ولضمان بقاء الروح المعنوية قوية فى السكان بوجه عام، يجب ألا تبخل الحكومات بأى قدر من المال لإنشاء المخابئ الكافية لهم، وهذا يهدئ من أعصابهم ويقلل من تأثير الصدمات فيهم. وكلما زادت وسائل الوقاية إتقاناً زاد السكان شجاعة وأثر ذلك فى الجنود فى ميدان القتال، لأنهم إذا شعروا بأن من خلفوهم وراءهم فى بيوتهم من نساء وأطفال آمنون على أنفسهم قويت عزيمتهم، وكانوا أقدر على الحرب وأصبر على بلواها.

محمد بدران

معاً فى الحاضر حشراً ؛ أو كأنما هو الكتاب بدت لك صفحاته ، لا متلاحقة على عادة الكتب ، ولكن متجاورة كما تبسط الخرائط بعضها إلى جانب بعض . وبحثوا فكرة الله أيضاً فى الماضى ، فى بطون الأرض ، بالتنقيب من آثار الأمم . ومن حسن حظ المؤرخ أن تلك الأمم جرت على تجسيد أفكارها ، بتصوير الحجر تارة ، وبتزويق الآنية تارة أخرى ، حتى وبالكتابة والنقش أحياناً .

وما أقوى خيال الإنسان الذى يجمع من ذلك المبهم البالى ، وهذا الحاضر الشتيت ، ومن نفسه وهو يفكّر أيضاً ، صورةً لفكرة الله كيف بدأت ، وإلى أى شىء تناهت .

فالتأليه بدأ عند الإنسان لمّا خرج بفكره عن حظيرة نفسه ، وعندما بدأ يرتقى درجات الثقافة الأولى . وبتطوّر إدرا كه تطورت فكرته فى الآلهة أو فى الله حتى صارت إلى ما هى اليوم .

والتأليه عبادة ، والعبادة فى صورها الصغرى إعجاب واحترام ، لهذا عبد الإنسان أولّ ما عبد أشياءَ الكون عظيمتَها وصغيرها ، ومظاهر الطبيعة الكبرى جليلَها وحقيرها ؛ فعَبَد الشمس وعبد القمر ؛ وعبد الجبال وعبد الأنهار ؛ وعبد الآبار وعبد الأشجار ؛ وعبد النور وعبد النار ؛ وعبد الرياح والأمطار ؛ وعبد لهيباً ينفجر من الأرض ، ولهيباً ينقدح فى السماء ؛ وعبد مظاهر القوة باديها وخافيها . ورأى فى هذه الخير فعبدها لخيرها ورجاء نفعها . ورأى فى هذه الشر فعبدها لاتقاء شرها . وعاش فى أحضانها جميعاً ، وهو لا يكاد يعقل مما تفعل أو كيف تفعل شيئاً ، فرأى أن يعيش فى سلام مع الطبيعة ما عاش فى أحضانها .

وليس بدعاً أن يترجّح عند العلماء أن تكون الأرض أول ما عبد الإنسان ، فالأرض منبت الطعام ومصدر الثمرات . وتبينوا أن الشمس مصدر الإخصاب فعبدوا الشمس . وأن السماء تأتى بالماء فعبدوا السماء . ونظروا إلى المرأة يُخصبها الرجل بمائه ، وإلى الأرض تُخصبها السماء بمائها ، فراعهم سرّ هذه الولادة وسرّ هذا الإيلاد ، فقالوا : إن إله الشمس ذكر ، وإن إله الأرض أنثى . وتصوّروا الآلهة كما تصوّروا أنفسهم ، فزاوجوا بينهم ، وأولدوهم بنين وبنات . وكانت الآلهة عديدة فزادوها بذلك عدداً .

وفى رجاء خيرها ، وفى دفع شرها ، ذبحوا الذبائح وقرّبوا القرابين ، وعزّموا العزائم ، وعوّذوا بالرُّقى .

وتفرغ قوم منهم لهذه الناحية الروحية من معاش الناس لما اتسعت دائرتها وتعددت شواغلها ، فكانت طائفةُ الكُهّان ، فقامت تَزيد العبادة تعقيدا وترتيبا ، وتَزيد وسائل التقرّب قدرة على إذكاء روحانية العابدين ، وزيادة غموض فى صفة المعبودين . وبإعطاء الآلهة صفة الرجال والنساء ، أعطوهم أيضاً أحداثاً تجرى للرجال والنساء . فكان لكل إله تاريخ ، ولكلٍّ أحدوثة وأحاديث ، أو أقصوصة وأقاصيص ، صار يعلّمها عند القساوسة يتلقونها الناس . وكان كثير منها شعراً خالصاً ضَمِنَ لها الخلود . مثال ذلك قصة أوزيريس ، ربُّ المغرب من أرض مصر ، وما المغرب عندهم إلى مدائن الأموات . فقد تزوج أوزيريس إزيس ، وكان له منها ولد أسموه حوروس . وكان سيتُ ربُّ الظلام والسواد . فقام بينه وبين أوزيريس شجار قُضِىَ فيه أوزيريس . فحزنت إزيس على زوجها حزناً شديداً ، وخرجت تبحث عن جثة زوجها فوجدتها أخيراً ، ولكن أجزاءَ مزّقها رب الظلام ونثرها فى أرض مصر ففرقها عليها تفريقاً . فعادت تحزن من جديد ، وخرجت تبحث عن جثة زوجها من جديد ، ثم تنتهى القصة بأن يلقى حوروسُ ، ابنها ، ربَّ الظلام فيثأر لأبيه .

ولم تكن الديانات فى أول أمرها تُعنى بخُلُق الناس فى حياتهم ، ولا بمعاملاتهم ، ولا بالسياسة ينتهجها حكام الناس فى إدارة شؤونهم . ولكن رويداً رويداً

دخلت هذه الأمور فيها حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من الدين . ومن الأديان ما بقي عهوداً طويلة قاصراً على صلة الناس بالآلهة ، دون صلة الناس بالناس .

وكان لكل قبيل من الناس آلهة . وكانت الناس في العهود الأولى تعيش جماعات جماعات ، كلها صغير . فلم يكن للأمم وجود ، ولا للشعوب وجود . وكثرت الآلهة كثرة لا تحصى . ثم تطوّروا سياسياً . واندمجت القبائل فاندمجت الآلهة ، واختُصِروها اختصارا . وساعدهم على هذا الاختصار أن الناس كانوا في توجّههم إلى الطبيعة قد وقعوا على قوًى منها واحدة أسموها أسماء عدّة . فكل الذي فعلوه أنْ وحّدوا الآلهة التي توحدت طبائعها . فإن عزّ عليهم هذا زاوجوا بين الآلهة حتى لا يكون لقبيل على قبيل فضل .

ومضى الإنسان يرسم مملكة السماء على ما يرى من مملكة الأرض . وقد صارت شعوبا عظيمة ، وفوق كل شعب ملك واحد وله أعوان . إذاً فهكذا يجب أن تكون مملكة السماء . فاختاروا من أربابهم ربّاً أعظم واحداً هو رب الشعب الواحد ، أما سائر الأرباب فهم له أعوان . فكانت هذه الخطوة الأولى نحو التوحيد . فَمَرْدُوك إله البابليين ، وأشور إله الأشوريين ، وتيشب إله الحيثيين ، ورعْ آمون إله المصريين .

وعند هذا الحد من الترقي إلى معنى الإله الواحد ، كان حسن التعامل بين الناس قد دخل في معنى الدين وصار جزءاً منه لا يتجزأ . كذلك دستور الناس الذي به يُحكَمون دخل في معنى الدين فصار جزءا منه لا يتجزأ . وصار القانون كله لله ، والحكم كله لله . لا الله الواحد القهار الذي هو إله أهل الكتاب ، ولكن إله شعبيّ يحيطه وزراء من آلهة أخرى دونه ، هم أسرته وأقاربه .

ولعل أظهر صورة تتراءى فيها درجات هذا التطوّر الديني واضحة جلية هي تلك التي تركها الزمان مرسومة في مصر في ظلام قبورها وحيطان قصورها وبطون رمالها .

ففيما قبل عصر الأسر كانت الأديان اختلاطاً ، لا فهم بها ولا نظام فيها . ثم تأخذ آلهة المدائن تظهر . ثم يعمل قساوسة عين شمس على تقديم إلههم ، معبود الشمس رَعْ ، حتى يتقدم الآلهةَ ، ومن ورائه ثمانية منهم . ثم تنتقل العاصمة المصرية من عين شمس Heliopolis إلى طيبة . وطيبة لها إلهها آمون هو لها وحدها . إذاً فآمون رعْ ، ورعْ آمون ، وإن اختلف اسماهما . ثم يأتي من بعد ذلك إخناتون ، فيريد أن يوحّد آلهة المُلك فيتخذ الإله آتون ربا واحداً ، ورَمَز له بقرص الشمس تخرج منه أشعة عدة ، تنتهي بأيدٍ عدة ، هي رمز لناشط الإله في جنبات الحياة . ولم يُرد أن يغضب رجال الدين أكثر مما فعل ، فأقر بآلهتهم على أن تكون رموزاً لتلك المناشط نفسها ، وأن يكون الأصل الجوهر ربا واحداً . وأراد إخناتون أن يكون ربّه روحاً بلا جسم ، وفكرةً بلا مادة ؛ وقرّب له القرابين منحوتةً لم تجد عليها صورةً لربه من إنسان أو حيوان .

فهذا هو الشأن في مصر . وهكذا كان الشأن في غير مصر . في بلاد الشرق الأخرى الكبرى التي شاد بها التاريخ وحفظت آثارَها لنا الأيام . فقد كان أولَ الأمر عند السومريين والأكّاديين والبابليين والأشوريين أخلاطٌ من آلهة ، أو معانٍ كأشباه الآلهة ، يختلط حابلها بنابلها ؛ ثم تتجسد الآلهة على القرون فتكون ذكوراً وإناثا هي رموزٌ وشارات لقوى الطبيعة في اختلافها ؛ ثم يتميّز من بين هذه الآلهة إشتار ، « أمّنا الأرض » ، ويتمثل فيها معنى الخَلْق في الطبيعة والناس ، وتتمثل فيها على الزمن معاني الرحمة والغفران والعدل بين الخلائق . ويتألف حول بابل مملكة جامعة قوية متينة ، فيصبح مَرْدُوك إلهُ بابل ، وصاحبُ برجها ، ربَّ الأرباب في المملكة جميعها ، أربابِ الأرض وأرباب السماء . والأشوريون ، تنتهي بهم فكرة الرب في تطورها إلى أشور ، إلى الربّ الواحد الذي

ليس كمثله شيء ، إلى الربّ الذي ليس رب مدينة ، وليس رمزاً لقوة من قوى الطبيعة ، بل هو رب أشورية كلها وكل ما أخضعته من أمم الأرض . والأشوريون أسياد الخلق ، فإلههم سيد الآلهة ، فهو إله الناس أجمعين .

ثم يأتي عهد بني إسرائيل ، ولهم ربهم — يَهْوَه بالعبرانية — وكان ربّاً كردوخ وآشور ، لا فرق بينهما وبينه . وكانوا في تعبّدهم يتوجهون إلى الشمس والسماء . ثم يأتي موسى رسولاً فيحسم الأمر حسماً ، ويقدّم للناس رباً غير الذي عرفوه . فربّ موسى رب الناس أجمعين . وهو ليس رب الأرباب ، فهو الرب الأوحد الذي ليس من ربٍّ سواه . وهو ليس بمادة ، وهو لا يتقمص المادة ليتشكل الأشكال ، بل هو قوة روحانية تملأ الوجود ، وتحكم الوجود . ولأول مرة في المعروف لا المقصوص من التاريخ صار الشرك كفراً . ولأول مرة صارت عبادة الطبيعة قواها ومظاهرها ضلالة . ولأول مرة صارت عبادة الأوثان إثماً وبغياً . وتتابعت الرسل من بعد ذلك تزيد فكرةَ الله هذه الأخيرة ثبوتاً .

وأخيراً جاء العلم الحديث فلم يَدْهش لشيء كدهشته لوحدة هذا الكون التي يراها في كل شيء ، فيراها في مضارب النمل في الأرض ومسارات النجوم في السماء .

ولا يحسبنّ حاسبٌ أن كشف العقل البشري فكرةَ الله كان أيسر من كشف البخار والكهربا . ولا يعيبنّ أحدٌ رجال تلك القرون الأولى بأنهم لم يهتدوا إلى كشف الرب بخطى أسرع ، إلا إذا هو عاب أهل العصر الحجريّ بأنهم لم يكشفوا بخطى أسرع مخابئ الفحم من الأرض وما تضمنه صخر الأرض الأصفر وترابها الأحمر من حديد . وكفى الإنسانَ الأول توفيقاً أنه تدرج إلى معرفة الله بتأليه آثاره ، فما قوى الطبيعة إلا من آثار الله . وهل نحن في هذا العصر الحاضر نعرف من الله أكثر من آثاره ؟ وهل نحن في هذا العصر نعرف من الكهربا أكثر من آثارها ؟ وهل سبيلٌ إلى معرفة الله ، وإلى تقديس الله ، وإلى مزج كينونتنا بكينونة الله ، إلا بالتأمل والإمعان والاستغراق في آيات الله حيثما وجدت من هذا الوجود .

«هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون . يُنبت لكم به الزرعَ والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»

أحمد زكي

مكانة الأدب العربي

بين آداب الأمم

المـــدح

ولا أريد أن أعرض لكل فنون الشعر العربي ولكني أقول إن مما يؤخذ على الشعر العربي أنه شغل بالمدائح قروناً طويلة ، وهي ضرب من الكذب والغلوّ لا يبين عن حقيقة ولا عاطفة . ونحن لا ريب نعترف بهذا ، ولكن ينبغي ألا نغفل عما في المدائح من فنون غير المدح .

قصائد المدح التي نَدرِيها تتضمن فنوناً قيمة غير المدح . فالشاعر يبدأ بالإبانة عن عواطفه وآلامه وآماله ، وهذا ضرب من الشعر الصادق ؛ ثم يذكر كثيراً من وقائع الحرب ، وحوادث السلم التي يمدح من أجلها . وأحسن شعرنا الحماسي تتضمنه قصائد المدح . انظر قصائد أبي تمام والبحتري في مدح الخلفاء والقواد ؛ وقصائد المتنبي في سيف الدولة ، فإن أكثر ما فيها شعر حماسي بليغ رائع الوصف . وانظر قصائد ابن هانئ في المعز لدين الله تجد فيها من وصف الجيوش والأساطيل والحرب في البر والبحر المعجب المطرب .

ثم المدح نفسه إشادة بالفضائل التي يمدح بها الشاعر ، وتبيين للمثل العليا التي تطمح إليها الأمة في رجالها ، وقديماً قال أبو تمام :

ولم أر كالمعروف تُدعى حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغانم
ولا كالعُلا ما لم يُرَ الشعر بينها فكالأرض غفلا ليس فيها معالم
ولولا خلال سنّها الشعر ما دَرى بُناة المعالي كيف تُبنى المكارم
وما هو إلا القول يسري فيغتدى له غُرَر في أوجه ومواسم

وجعل المتنبي الشعر والمجد من واد واحد حين قال في مدح أبي العشائر الحمداني :

شاعر المجد خِدنُه شاعر اللـ ـفظ كلانا ربّ المعاني الدِّقاق

وغالى بعض الشعراء فقال :

وما المجد لولا الشعر إلا معاهد وما الناس إلا أعظم نَخِرات

ولكن النقص الذي نعترف به هو الطريقة التي عالج بها شعراؤنا موضوعاتهم إذا قسناها بطرائق الأوربيين ، فقد وقف شعراؤنا كثيراً عند الظاهر ولم ينفذوا إلى بواطن الأمور إلا قليلا ؛ وصفوا مظاهر الطبيعة دون أن يخلطوا أنفسهم بها ، ويترجموا عن عواطفهم فيها إلى الحد الذي نجده في الشعر الأوربي . وقد شغل كثير من شعرائنا بصور محدودة توارثوها ، فلم يخالف الخلف السلف فيما يقول في المدح أو الهجاء ، أو الغزل إلا قليلا . وشغلوا أكثر قصائدهم بالمدح ، وداروا سنين طويلة حول معان محدودة يصوغونها في صور مختلفة حتى ملّ البائع والمشترى .

ثم نحن حين نقيس شعرنا بالشعر الأوربي ، نقيس ما أبدعه شعراؤنا القدماء بما أنشأه شعراء أوربا في العصور الحديثة بعد أن اجتمعت لهم مواريث الحضارة اليونانية والحضارة العربية ، وزادوا عليها الحضارة الحديثة . وليس من الإنصاف في شيء أن نكلف شعراءنا أن يجاروا هؤلاء على اختلاف البيئة والعصر والثقافة .

وما نحن مستطيعين أن نقيس شعراءنا في عصور ازدهار حضارتنا بمعاصريهم في أوربا ، إذ كانت أوربا مجدبة الحضارة والآداب .

ثم سعة الشعر العربي وتناوله كل شيء من الجليل والسفساف ، وتسجيله الحوادث كبيرها وصغيرها ، وكلف العرب بالنظم وسهولته عليهم وإكثارهم منه ، كل هذا جعل بعض الشعر العربي قليل الحظ من العاطفة القوية أو الخيال ، فخيل إلى الناظرين فيه أن الشعر العربي كله قريب الغور ، قليل الخطر ، وأطلقوا القول غير صادقين .

وانظر كتب التاريخ ، وكتب الحيوان والنبات

والبلدان ، تجد الشعر يتخللها ، لا يذكر المؤلف حدثا أو حيوانا أو بناءا أو بلدا إلا أمده الشعر بأبيات في وصفه .

أوزان الشعر العربي

وأما أوزان الشعر وقوافيه فقد أحكمت منذ الجاهلية ، واستمرت قوية مسيطرة قرونا ؛ ولكن العرب منذ القرن الرابع يسروا لأنفسهم الخروج من ضيق القوافي بما أحدثوا من ضروب التقفية في التوشيح والتربيع والتخميس والازدواج ونحوها . فأبدعوا ضروبا من القافية تيسر لكل ناظم بغيته ، ولم يبق لأحد عذر أن يشكو من ضيق القافية . ولكن جمهرة الشعراء لزمت سنن القوافي الجاهلية اقتداء بأئمة الشعر الذين طبق ذكرهم الآفاق ، وصاروا قدوة الشعراء في كل جيل .

فمن يشك من ضيق القافية العربية فإنما يشكو جهله أو عجزه — جهله بما أحدث الشعراء في القوافي ، أوعجزه عن مجاراة الشعراء حتى في هذه القوافي الميسرة المنوعة .

وقد نظم الفرس والأمم السامية والأمم الإسلامية على القوافي العربية وأطال الفرس والترك والهند ما أطالوا في منظوماتهم ، لم يصدهم ضيق القافية . فماذا يقول المعذرون ؟

ومن أراد أن يجاري أوزان الغربيين وقوافيهم فيتحلل من القوانين المحكمة في أوزاننا وقوافينا فله مندوحة في النثر العربي وهو في سجعه وازدواجه يساوي النظم الأوربي أو يكاد . وليس حتما أن يجعل هؤلاء العجزة المتعللون أنفسهم شعراء . وقد حكي أن رجلا أنشد آخر قصيدة من نظمه قد ارتكب فيها كثيراً من الضرورات . فكان كلما خرج عن اللغة والنحو والصرف سأله السامع ما هذا ؟ فيقول : ضرورة الشعر . فقال له : وما الضرورة التي دعتك إلى قول الشعر ؟

النــــثر

النثر يشارك الشعر أحياناً في موضوعه وخياله ، ولكنه في أصله وأكثر ضروبه قائم على العقل والمنطق ، والإيضاح والتفصيل ، فهو أقرب إلى الحقائق . ومن أجل هذا يؤخذ الناثر بما لا يؤاخذ به الشاعر .

كم قال الشعراء في الخمر والغزل ، وكم قال الكبراء والرؤساء ، بل لم يخل الفقهاء وأهل الدين من النظم في هذين الفنين . ولو أن كاتباً كتب مقالاً يصف محاسن الخمر ويدعو إليها ، أو يتغزل تغزل الشعراء ، لم يغتفر له هذا ، وعدّ قوله دعوة إلى إباحة أو نحلة شنيعة .

وقد افتن كتاب العربية منذ ابن المقفع والجاحظ في ضروب النثر ، وتغلغلوا به في ثنايا الجماعة ، وفصّلوا القول ، وأبانوا عن الخفايا . وشارك الكتابُ منذ القرن الرابع الشعراء في بعض موضوعاتهم . وساهم الكتاب في الحروب الصليبية مساهمة الشعراء أو أعظم ، وعالجوا فنوناً مختلفة من الخطب والرسائل والمقامات والتاريخ والمحاضرة والقصص ؛ فاجتمع لنا من نتائج قرائحهم على مر الزمان ثروة مُغنية في ضروب شتى من النثر ، لا يتسع المقال لتفصيلها . ثم عرض للنثر من قيود الصناعة ما عرض للشعر ، فأودى به أو كاد .

ولا بد من القول هنا في القصص ؛ فقد قلنا ، حين قسنا شعرنا بشعر الأمم الأخرى ، إننا لا يشتد أسفنا لخلوه من القصص المنظوم ، وقلنا إن هذا الضرب من القصص ليس طبيعياً ، وإن النثر أولى به إلا مقامات يُستنجد فيها الشعر . فلننظر ما فعل كتابنا به .

* * *

القصص فنّ قرآني لفت المسلمين إليه ما في القرآن من أخبار الأنبياء ، والأمم الخالية . وكان المسلمون يعمدون إليه في غزواتهم لتحميس المجاهدين .

وكان الخلفاء والأمراء ينصبون القصّاص ليقصّوا للناس في المساجد ، ثم تطور القصص إلى تاريخ ، وإلى خرافات وأسمار شتى .

وقد عالج النثر العربي القصص كثيراً ، فزاد على ما ترجم إلى العربية كقصص ألف ليلة ، قصصاً أخرى كثيرة . وقد عدّ ابن النديم من القصص التي ألفت إلى عهده ، أي المائة الرابعة ، أكثر من مائة وعشرين قصة من قصص العشاق ، كلها عربية بموضوعها وتأليفها . وذكر بعض جامعي هذه القصص من الرواة المعروفين مثل : الشرقيّ بن القطامي ، وهشام الكلبيّ ، وعيسى بن داب ، والهيثم بن عديّ .

ثم عدّ ست عشرة قصة تحت هذا العنوان : عشاق الإنس للجن ، وعشاق الجن للإنس .

وقال ابن النديم أيضاً : إن ابن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء أراد أن يجمع ألف سمر ، فجمع أربعمائة وثمانين ليلة ، كل ليلة سمر تام ، فيه خمسون ورقة وأكثر وأقل ، ثم عاجلته المنية قبل إتمامه . ورأيت أجزاء منه بخط أبي الطيب أخي الشافعي .

هذا ما أثبته ابن النديم مما ألّف إلى القرن الرابع . فما ظنكم بما ألف بعد هذا ؟ ونحن نعرف مما ألف بعد ابن النديم ، قصة عنترة ، وقصص البطال ، والأميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذي يزن ؛ إلى ما كتب باللغة العامية من قصص الهلالية وما يشبهها .

فالأدب العربي غني بالقصص التاريخية والخرافية ، ولكن ينبغي أن نعترف أن هذا الفن لم ينل عناية أدبائنا ، وترك للعامة وأشباه العامة أكثره . فلم يبلغ ما بلغه القصص عند الغربيين بأقلام كبار الكتاب ، أمثال بلزاك ، وكورني ، وراسين ، ولامرتين ، ودكنز ، وجوته ؛ هؤلاء الذين أحكموا القصة وجعلوها وسيلة إلى نقد الجماعة ، وتبيان فضائلها ورذائلها ، وحسنها وقبحها ، حتى خلقوا أبطالا يعيشون في خيال الناس ، ويؤثرون في أعمالهم أثراً بليغاً . وذلكم النقص الذي يحاول كتابنا سدّه في العصر الحاضر .

وبعد ، ففي الأدب العربي ، شعره ونثره ، ميزة أخرى ، هي هذه الكتب الجامعة التي تسجّل من الشعر والخطب والأمثال والرسائل والتاريخ والنوادر والفكاهة ، وتعرض من المجتمع صوراً كثيرة متفرقة ، وتثبت ما وقع في مجالس الخلفاء والأمراء والكبراء والعلماء ، وما يقع بين العامة في الطرق وهلم جراً ، مثل : البيان والتبيين ، والكامل والأمالي ، وعقد الفريد ، وزهر الآداب ، وكتب المحاضرات كمحاضرات الراغب الأصفهاني وفاكهة الخلفاء ، وهي كثيرة في أدبنا . وليس لهذا النوع من الكتب نظير في الآداب الأوربية فيما أعلم . وقد سألت بعض المستشرقين فقال : لا نظير له عندنا .

فالأدب العربي ، شعره ونثره ، وجدّه وهزله ، أدب كامل جامع ، صوّر العواطف والآلام ، والفضائل والرذائل ، ومناظر الطبيعة كلها ، وبدائع الصناعة وأحداث الزمان ؛ ولم يدع جلائل الأمور ولا توافهها ، حتى تناول نوادر الحمقى والمغفلين ، وقصص المجانين ، وشعر اللصوص وحيلهم .

فهو أدب جامع رائع . وإذا قيس أدبنا بالآداب الأخرى فضلها في جوانب وفضلته في أخرى . ولكنه في جملته أوسع وأغنى ما عرف من آداب الأمم ، أو هو من أوسعها وأغناها . فليس لعربي أن يتمنى أن كان له بأدبه القديم أدب أمة من الأمم القديمة .

(للكلام صلة) **عبد الوهاب عزام**

قرر مجلس إدارة لجنة التأليف والترجمة والنشر بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٤٢/١٠/٢٦ زيادة أثمان جميع الكتب بقدر ٢٠٪ من أثمانها الحالية ابتداء من يوم ١٩٤٢/١٠/٢٧ وذلك عدا الكتب التي قررتها وزارة المعارف وأخطرت المدارس بها .

انكار الجميل

روى الكاتب الروسي العظيم إيفان ترجنيف في إحدى قصائده المنثورة، أنه في ذات يوم خطر ببال الكائن الأعلى أن يولم وليمة فاخرة في قصره السماوي، ودعيت الفضائل كلها، ولم يحضر رجال لأن الدعوة كانت مقصورة على السيدات.

حضرت الكثيرات: منهن الصغيرة الشأن، ومنهن العظيمة المكانة. وكانت الفضائل الصغرى أوفر سرورا، وأكثر مرحاً من كبريات الفضائل، وإن كانت مظاهر الانشراح بادية على الجميع. وكن يتحدثن في رقة وبشاشة مما هو حرى بصديقات أقارب أمثالهن. ولاحظ الكائن الأعلى أن بين سيدتين فاتنتين حجاباً من الوحشة، لأنهما لم يتعارفا. فتقدم رب الدار من إحدى السيدتين وأعطاها ذراعه، وسار بها إلى السيدة الأخرى، ثم قال مشيراً إلى الأولى: «الإحسان»، وقال مشيراً إلى الثانية: «عرفان الجميل». فعرت الفضيلتين الدهشة وبهتتا، وعجبت كل منهما من أمر صاحبتها. وكانت تلك المرة هي الأولى لتلاقيهما منذ خلق الدنيا.

وهذه الأسطورة تردد شكوى معروفة، وتعيد في أسلوب خيالي نغمة مألوفة عن كثرة جحود الفضل وقلة عرفان الجميل. وطالما رمى النوع الإنساني بالجحود والكفران، وقرف بالخسة والدناءة، ووصم بالعقوق والغدر. والذين يرسلون هذه الشكوى المرة، ويفتنون في وصف الإنسان بأقبح الأوصاف، لم يحددوا لنا مكانتهم من الإنسانية، فلنا أن نعتبرهم من أبناء هذا النوع الانساني البغيض الذي لم ينقرض بعد!

وهم إذاً جزء من هذه الإنسانية العارية من المحاسن، المجردة من الفضائل، فإذا أحصوا لنا مساوئ الانسانية، ونعوا عليها عيوبها، فكأنهم يتحدثون إلينا ضمنا عن عيوبهم ونقائصهم، وإن كان إدراك هذا والإقرار به يستلزم قدرة فائقة على مواجهة النفس، وتشريح العواطف الكامنة، وتحليل البواعث الدخيلة ليست ميسورة للكثيرين، وبخاصة من إخواننا الذين يدعون العصمة، ويخالون أنفسهم من السمو الأخلاق في أعلى عليين.

وأكثر الناس — كما يرى العلامة النفسي الكبير «وليم ستيكل» في كتابه القيم عن «أعماق الروح» — مولعون بخداع أنفسهم وتضليلها، وحريصون على أن يغضوا الطرف عن عيوبهم ونقائصهم، وهذا من أوضح وجوه الضعف في الإنسان وأظهر نقائصه، فنحن لا نرى أنفسنا أبرع تفكيرا وأوسع حيلة من غيرنا فحسب، وإنما نخال أنفسنا كذلك أحسن مخبرا وأخلص جوهرا من الآخرين. وسرعان ما نتناسى عيوبنا وأخطاءنا ونسقطها من حسابنا، ونلقى دونها الحجب والأسداد، في حين أن محاسننا وفضائلنا ماثلة على الدوام بإزائنا في صورة مكبرة وألوان براقة. وكل إنسان عند نفسه أحكم الحكماء، وأعقل العقلاء وسيد الناس قاطبة؛ وهذا هو السر في تلك الشكوى الذائعة التي لا تنقطع من إخواننا وزملائنا الناكرين للجميل، الجاحدين للمعروف. ونحن نشكو ونسرف في الشكوى لأننا قد نسينا بسهولة جميع المواقف الشائنة التي كنا فيها نحن أنفسنا ناكرين للصنيعة، جاحدين للفضل.

ولكن لماذا كنا كذلك ونحن في نظر أنفسنا أهل للأخلاق العالية والشيم الكريمة والمناقب الحسان؟ وكيف سما إلينا العيب وتراءى إلينا النقصان، وكلنا كنا ندعى قول المتنبي: «ما أبعد العيب والنقصان من خلقي»؟ يعلل ذلك العلامة «ستيكل» تعليلا مقبولا، فهو يعزوه إلى ذلك القانون النفسي الذي يجعلنا على الدوام راغبين في نسيان كل شيء، يوقظ في نفوسنا العواطف الأليمة، والمشاعر الموجعة التي تجرح عزتنا وتنال من كرامتنا.

والشكوى من نكران الجميل شكوى قديمة متأصلة ، واردة فى الأساطير وأخبار الأمم الخالية ، ومذكورة فى الأمثال وطرائف الحكم ؛ وهذه الشكوى الواقعة فى القدم تدل على أن إنكار الجميل ظاهرة نفسية معهودة ، وما دامت متمكنة من النفس كل هذا التمكن ومتفشية فى الناس كل هذا التفشى ، فهى إذاً جديرة بالتفسير والتحليل .

وما دام إنكار الجميل حقيقة نفسية ملحوظة ، ومظهراً معترفاً به ، فعلينا إذاً أن نبحث فى أغوار النفس وهاوياتها السحيقة عن هذه القوى الظلمة العاتية التى تضطرب وتعتمل فى الأعماق ، وتصارع فيها بواعث تقدير الجميل والشعور بالحب والإخلاص للذين أحسنوا إلينا ، وأخذوا بأيدينا ، ونهضوا بنا ، وسددوا خطواتنا ، وشملونا بعطفهم ورعايتهم ، ثم تنجلى المعركة عن غلبة تلك القوى المظلمة وانتصارها التام ، فنتنكر للذين أحسنوا إلينا ، ونتبرم بهم ، ونتناسى كل ما أسلفوا إلينا من أياد ، وما قدموا إلينا من حسنات ، ونجازيهم بالعقوق والكنود .

ومن الواضح المألوف أننا نقدر فى بادىء الأمر كل من يسدى إلينا يداً ، وننطوى له على الحب والاعتراف بالجميل ، ونحاول أن ننهض بشكره ونرد له الجميل مضاعفاً ، ولا يخطر ببالنا أننا سننسى جميله يوماً ما ، ونضيق به ذرعاً ، ويثقل علينا مكانه ؛ ولكن تصاريف الزمن وتقلبات الحوادث سرعان ما تعصف بهذه الرغبة الطيبة وتقضى على هذا الشعور الصالح ؛ ومرور الأيام كفيل بتصويح أزاهير الشكر ، وتجفيف ينابيع الحب والود ؛ وعرفان الجميل الذى يستولى علينا فى بادىء الأمر لا يلبث أن يلح عليه السقم ويدب فيه الضعف حتى يمحى رسمه ، وتزول معالمه ، ويَنصَمّ صداه ، فلا يتردد فى جوانب النفس ، ولا تهيب هواتفه بالإنسان ، وبعد فترة من الزمن يشغل مكانه نكران الجميل ، وتتحول كل العواطف التى صحبت تقدير الجميل إلى أضدادها ونقائضها ، فيحور الحب حقداً وضغينة وكراهة وجفاء ، وتنقلب الصداقة إلى عداء صريح ، ويستحيل المدح والإطراء والحمد والثناء ذماً وتقصيًّا للعيوب ونشراً للمساوئ .

ولكن كيف يتم ذلك ويقع ؟ وأين تكمن هذه التيارات الخفية التى تنقل عواطفنا من النقيض إلى النقيض ؟

تعليل ذلك هيّن ، وقد أشرت إليه فى مستهل المقال . فنحن فى نظر أنفسنا أعقل العقلاء ، وأحسن الناس وأعظمهم كفاية وأوسعهم قدرة ، ونحن لا نعترف بعيب من عيوبنا إلا بعد تردد شديد ، وفى بطء وتثاقل ؛ وإذا اضطررنا إلى أن نشيد بمحاسن الغير والاعتراف بتفوقه فعلنا ذلك فى تحفظ واقتصاد ، لكى نترك لأنفسنا مضطرباً واسعاً تستطيع فيه أنانيتنا أن تتربع على عرشها ، وهذا هو سر كبريائنا الداخلى . وكل إنسان يعتقد أنه فى عالمه الخاص الفذ منقطع النظير ؛ وهذا الشعور بعظمة النفس والمغالاة بقيمتها ، والإكبار لشأنها ، أساس طبيعى للحياة البشرية ، وحيلة دفاعية ، للنفس وركن تكتنف به وتلجأ إليه لتتقى سهام الخطوب ، وبوائق القدر ، وكوارث الدهر ؛ وهو يجعلنا أقدر على احتمال أعباء الحياة ومصاورة الحوادث ، ويعوض لنا إغفال الدنيا لشأننا وعدم اكتراثها بنا ، ويعزينا عن تقصير مجهوداتنا عن مطالبنا ورغباتنا ؛ والمتنبى يقول :

وأتعب خلق الله من بات جاهداً
وقصر عما تشتهى النفس جهده

ونحن كلنا هذا الرجل المتعب المقصرة قدرته عن رغباته ، والذى يسمو به الأمل ويقعد به العجز !

ولعل هذا الشعور بالنفس والإسراف فى تقديرها فى العصور الحديثة أظهر وأعم وأكثر تفشياً ، لأنه كلما قلّ نصيب الإنسان فى توجيه أحوال الدنيا صوّر له وهمه ضخامة مساعيه ، وجلالة خطره ، وعظيم أهميته ؛ وكلما ضُغِطت شخصيته وجارت عليها النظم والأحوال الاقتصادية حلت محلها العظمة الموهومة والمجد المستعار ،

وظن كل إنسان أنه من الأهمية وعظم الشأن بحيث لا يمكن أن يستغنى عنه ؛ ومن ثم يخامره الاعتقاد بأنه ليس مديناً لأى إنسان ، وأنه نجح ووفق بفضل عمله وكدحه وثباته ومثابرته ، وما يبذل من نشاط وما ينفق من جهد ، وأنه نال ما نال بسعيه ودؤوبه . وأكثر الناس لا يعرفون أنهم قد أخذوا أشياء كثيرة قبل أن يعطوا شيئاً ، ولا يطيقون أن يحاسبوا أنفسهم خشية أن يعترفوا بالدَّين لأحد !

والشعور بأننا مدينون للغير ينافر ثقتنا بأنفسنا ؛ لأن هذه الحقيقة غير السارة تنفى عنا أوهام العظمة ، وتبدو هالة المجد الحافة بنا . وليس لنا فى هذا الصراع المحتدم بين العواطف إلا أن نختار أحد شيئين ، إما أن نرفض هذا الشعور بعظمة النفس البالغ فيه ، وإما أن ننسى هذا الجميل الذى طوق عنقنا ، ونخمد ذكراه المؤلمة ونمعن فى إنكاره .

وهناك فريق من صرعى الحظ الذين أوسعهم القدر ضرباً بهراوته ، فهم يشعرون فى كل لحظة بالذلة والمهانة ؛ وأمثال هؤلاء البائسين أصبحوا فى غير حاجة إلى الاستعانة بالدوافع النفسية ليكافحوا فى الحياة ، ويشقوا طريقهم إلى المجد ؛ وقد تغلبت فى نفوسهم حاجات الجسد على مطالب الروح ، والمحسن عندهم من يخلصهم من آلامهم الجسدية ، وهم ليس عندهم مانع من تقدير الجميل والاعتراف بالفضل .

ولكن الذى لم يتنازل عن أطماعه ورغائبه قل أن يكون شاكراً للجميل ، لأن أنانيته تأبى الاعتراف بفضل الغير ، وتأبى لذلك أن تواجه هذه الحقيقة المرة ، حقيقة إنكار الجميل ، فماذا يصنع فى هذا المأزق ؟ لا معدى له عن بحث الأسباب والبواعث والمسوغات التى قامت بنفس المنعم حين هم بتقديم الجميل وإسداء الصنيعة ؛ ومن السهل أن يجد فى ثناياها منفذاً لأنانيته وإرضاء لشهوة من شهوات نفسه . وكل عمل إنسانى بطبيعته يحتمل تفسيرات مختلفة وتأويلات عديدة ، ولذا قل أن يخذله بحثه ، ودافع المحافظة على الذات وإكبار النفس سيعمل على اختيار التفسير الملائم له ، والذى يرفع عن عاتقه أثقال الحمد والشكر المثبطة ؛ وهذه هى المرحلة الأولى فى الانتقال من الاعتراف بالجميل إلى إنكاره . ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، لأنه يستلزم فى العادة انتقال العاطفة إلى نقيضها ، وسرعان ما تتجمع عندنا الأسباب الداعية إلى تحويل العمل الصالح إلى عمل شرير ، ونهتدى إلى عيوب ونقائص فى أخلاق مسدى الجميل ، كانت خافية علينا غائبة عنا ، وتبدو لنا حياته التى كنا نخالها نقية ناصعة موصومة ملطخة ، ولسنا نستريح من ذلك الشعور الثقيل شعور عرفان الجميل إلا إذا فعلنا ذلك ! وهكذا وقد تخلصنا من أوقار الاعتراف بالجميل ، وأصبحنا لا نرى له موجباً ولا داعياً ، يعاودنا كبرياؤنا وعزتنا ، وترفع أنانيتنا رأسها بعد الانحناء والميل والذلة والاستخذاء .

وهذا التفسير « السيكلوجى » لإنكار الجميل يرفع النقاب عن أسرار الكثير من الظاهر التى نشاهدها فى حياتنا اليومية وتجاربنا الشخصية ، مثل تنكر الخدم لسادتهم المتفضلين عليهم ، وتمرد التلاميذ على أساتذتهم وهم مدينون لهم بالتوجيه والقدوة ، وكراهة المرضى للأطباء الذين يعالجونهم ويبذلون الجهد فى تخفيف آلامهم وشفاء أمراضهم ، وتنكر الأمم لقادتها العظماء وأبنائها البررة .

والذى يعتمد على تقدير الناس للجميل ، ويبنى عليه القصور يجهل الطبيعة الإنسانية ولا يعرف نفسه . ونحن فى بعض الأحايين نلتمس الشكر والتقدير لقيامنا بأعمال هى من ألزم واجباتنا ؛ أليس من واجبات الوالد مثلاً أن يعول أبناءه حتى يشتد ساعدهم ويستطيعوا العمل واحتمال التبعة ؟ ومع ذلك فنحن نكثر من تذكير أولادنا بضرورة تقدير هذا الجميل ، ونمن عليهم ، ونبصرهم بواجبات عرفان الفضل ، ألسنا نكسوهم ونطعمهم ونعلمهم ؟ وهذا الإصرار من ناحيتنا على تقدير الجميل يغرى الأولاد بإنكاره وشق

فردينان Ferdinand

قصة لجيته Goethe شاعر الألمان الأكبر وهو غني عن التعريف ، فلا نحاول تقديمه كما اعتدنا أن نفعل مع كل من ننقل عنهم . والقصة من صميم الحياة ، ومن أصدق ما عرضته . والتحول في حوادثها تابع الصدفات ، وليس هذا بعجيب ! لكن العجب أن يكون المرء متوائماً ورزيناً ، سمحاً وشحيحاً ، متعارفاً وعنيفاً معاً . والحقة أن يكون الابن مرآة أبيه وأمه على السواء ، إن كان أبواه هذين النقيضين . وتعرض القصة هذه الصورة عرضاً وافياً يضيق به نطاق الثقافة ؛ فاختصرناها من ثم فيما يلي :

الأولاد أكثر ما يكونون يمتّون من الأب أو الأم في المظهر أو المخبر ، في الجسد أو الروح على السواء . وهم يجمعون أحياناً بين طباع الوالدين جمعاً غامضاً يبعث على الدهشة . ومن هذا القبيل شاب نُدعوه فردينان ؛ فتكوينه يُذكّر بوالديه ، وتتميز روحاهما في روحه . فيه خفة أبيه ومرحه ، وانتهازه متع الساعة التي تعرض له ، واستئثاره بالفرص دون غيره ؛ وفيه تفكير أمه الهادئ ، ورجاحة عقلها ، واستعدادها الطيب للتضحية في سبيل الغير . ومن ثمّ كان المتصلون به كثيراً ما يفسرون سلوكه بأن له نفسين متباينتين .

كان فردينان في صباه فتى محظوظاً ، فوالداه موسران . وكان الوالد إذا أسرف وخرج في لهوه ولباسه عن القصد ، عرفت الأم كيف تحد من إسرافه ، وترد الأمر إلى نصابه ، فيكون التوازن الذي لا مندحة عنه ، والمظهر الذي لا بد منه .

وكان الأولاد في غضون ذلك يكبرون ويتخذون طبع من يبدو لهم في الحياة أوفر حظاً وأكثر متعاً . فاحتذوا من ثم مثال الأب . وإذ ينتهون إلى هذا الرأي مبكرين ، جاوزت رغائبهم الحدود قبل الأوان ، وحملوا البيت ما لا يطيق

عصا الطاعة . ومن الخير أن تقوم الرابطة بين الأب وأولاده على رابطة الحب والولاء لا على رابطة عرفان الجميل وتقدير الصنيعة .

ولكن لا يجب أن نغمط الطبيعة الإنسانية حقها ، وننكر عليها بعض الجوانب الطيبة . فهناك فريق من الناس يسرهم الاعتراف بالجميل وتقدير الفضل ، وهم لا يأنفون من ذلك ولا يترفعون عنه ، وهؤلاء القوم يشعرون أن اعترافهم بالجميل لا يفقدهم كرامتهم ، ولا يحط من مكانتهم ؛ وهؤلاء هم أهل السمو الروحي ، الذين أدركوا تلك الحقيقة الجليلة الخطر ، وهي أن الإنسان ليس وحدة مستقلة ، وأن تقديرنا لأنفسنا تقدير خاطئ ، وقد استطاعوا أن يواجهوا أنفسهم ويروضوها على قبول تلك الحقيقة ، فقضوا على غرورهم ، وطامنوا من جماح كبريائهم ، فلم يعصف بعقولهم جنون العظمة وهوسة التمجد ؛ وأكثر هؤلاء من العباقرة المتازين ، لأن العبقري المعطاء السخي الخاطر لا يرى غضاضة في الاعتراف بالفضل ، وكبار النفوس في الأغلب الأعم متواضعون معتدلون لأنهم يعرفون الكثير عن الطبيعة الإنسانية . والتواضع هو معرفة نواحي النقص وجوانب الضعف في الإنسان ، في حين أن الغرور هو المغالاة بقيمة النفس وتقدير قيمة الإنسان . فتقدير الجميل لون من ألوان تواضع العظيم ، وإنكار الجميل ضرب من ضروب غرور الصغير ، والعبقرية العقلية أو العظمة النفسية ليست من الأشياء المطردة المألوفة ، بل هي لسوء الحظ من الأشياء القليلة النادرة . فلا عجب من الدهشة التي احتوت الفضيلتين ، فضيلة الإحسان وفضيلة عرفان الجميل ، عند التقائهما لأول مرة في الحقل ، الذي روى لنا خبره الروائي الروسي الكبير إيفان ترجنيف .

علي أدهم

ويقع فردينان بحدوه شعور مضيض بأنه دون رفاقه في كثير ، فهو يكره أن يبزه منهم أحد في لباس ، وهو يحب أن تكون حياته مواتية وسلوكه طليقاً . وأبوه المثال الذي يبدو كل يوم لناظره ، فهو يريد أن يتشبه به كي يغترف من متع الحياة على هواه ، ويفوز بتقدير الناس .

وطبيعي أن يشجر بين فردينان وأمه الخلاف حول هذا الطموح ، وأن يأبى فردينان الانتشاح بخليع أبيه نفاية دون الكفاية . ولم يكن فردينان يميل إلى الاقتراض لأنه تعلم من أمه أن يخشاه . لكنه في الوقت الذي بلغ فيه سن التطلع ، واتجهت عاطفته إلى أوتليا الحسناء ، كانت الظروف قد فرضت على الأم ضرورة التقتير ؛ فبدلا من أن ترضي رغبات فردينان لجأت إلى عقل فردينان وقلبه الطيب ، وحبه إياها تستميلها جميعاً على إقناعه فاقتنع ؛ لكنه لمّا يقتنع .

وكيف يوهن من علاقاته ، ويلطف من موداته ، وكل وهن أو تلطيف لا بد مسيء إلى صديق أو رفيق ، وحبه للفتاة ماذا يكون مآله إذا لم يقف عليه وقته وماله ، ولم يعمل على توثيق عراه ؟ أو لم تسلم نفسها طائعة لقيوده ؟ أو لم تؤثره على من عداه ؟

وكانت أوتليا تقيم عند عمة لها ، بعيدة عن أبويها ؛ وكانت في تلك المدينة بهجة المجتمع وزينته ، فلا بد أن يحرص عليها المجتمع . وافتنّ فردينان في توفير المتع لها ، فكان المجتمع أكثر استمتاعاً منها بها . وندع القارئ أن يتصور مبلغ ألم فردينان وهو يرى أمه تدعوه إلى واجبات أخرى غير هذه ، وتأبى أن تأخذ بيده وتعينه على أمره ، وهو إنما يلمس فيه احترام الناس وإعجابهم بسخائه ويُسره .

وكانت ارتيابات بعينها لا تزايل مخيلته إلا متثاقلة فبات الآن أثقل وطأة عليه ، وأكثر ملازمة له . وكانت أفكار بعينها لا تمسه إلا لحظات ، فأضحت اليوم ترهقه ، كما أمست مشاعر بعينها تتوح على صدره ، مريرة لا تطاق .

ولا يقوّي ملاحظة الناس كالتضييق عليهم ، فالنساء أرجح من ثم عقلا من الرجال ، والمرؤوس لا يلتفت إلى أحد التفاته إلى آمره وناهيه .

لذا كان فردينان يرهف أذنيه كلما سمع أن أباه خسر في لعب أو كسب ، فإذا أفرط في نفقة قسا حكمه عليه .

كان يقول : ما بال أبويه لا يحرمان نفسيهما شيئاً ويحرمان أطفالهما إياه وقد جاءتهما الصدفة وحدها بما يملكان ؟ وهل لو كان جده على قيد الحياة أكان يمنعه ويعطي أباه ، أم كان يختصه في وصيته بما يضمن له الهناء ؟ فالصدفة وحدها تحرمه اليوم ما كان خليقاً أن يكون نصيبه !

بهذه السفسطة عن الملك والحق كان فردينان يزجي ساعات سخطه ؛ فإذا أزمه مطلب ، أو عز عليه لهو أو رفقة ، تساءل إلى أي حد ينبغي له أن يطيع قانوناً أو عرفاً لا يقره ، وإلى أي مدى يجوز له أن يحيد عنه ؟!

وقد كان يبلغ من انقباض نفسه في تأملاته هذه أن يتضاءل شعوره باحترام أمه لأنها لم تفرج كربه ، ويتضاعف مقته لأبيه لأنه يقف في طريقه .

ووجد فردينان أن أباه ليس عديم التدبير فحسب ، بل سيّئ السلوك كذلك : فهو يغترف من صندوقه أحياناً دون أن يثبت ما يأخذ ، ثم يعود في اليوم التالي فيرفع عقيرته بأن حساب الصندوق مغلوط ، مضطرب ، لا يستقيم .

وإذ فردينان في هذه النفسية إذا بحادث غريب يقع له فيتيح لسخطه فرصة مثوبة ، ويدفعه إلى إتيان شيء لم يكن ليحس له في نفسه إلا دافعاً مبهماً ضعيفاً .

حدث أن وكل إليه أبوه فحص أوراق في صندوق ثقيل وتنسيقها ؛ فحمل الصندوق إلى مكتب أبيه ، فاختل توازنه بين يديه ، فصدم غطاء المكتب صدمة انفتح لها . وكان من عادة أبيه أن يحفظ نقوده فيه لفافات ، صفت فيها أقراص النضار بعضها فوق بعض بمختلف أنواعه وألوانه . فرأى فردينان رأي العين ما كان يحيل بصره إليه من بعيد

ولا يلقه . فامتدت يده من دون تفكير أو تدبر إلى قرطاس من تلك القراطيس التي تمتد إليها يد أبيه في موضع بعينه ، في اللحظة الهوجاء ، فلا يفت مما يأخذ شيئاً .

وأغلق فرديناند الغطاء ثم عاد يجرب صدم الجانب الذي صدم أول مرة ، فانطلق غطاء المكتب من جديد من فرضته ، فبات فرديناند بهذا وكأن مفتاح المكتب في يده .

وذهب فرديناند يرتشف من مباذله رشفات مترعة ، ورصد نفسه لخدمة فاتنته ؛ وانقلب كل حلو فيه عنفاً بل وحشية ، ولم يكن مع هذا يؤذي أحداً ، لكنه لم يحسن فيه إلى أحد .

والفرصـــة التي تخلق النزوة كالشرارة التي تلهب « البندقية » المحشوة . وكل نزوة نرضيها على حساب الضمير تستهلك الجسد ، فنحن في أجسادنا وحوش ، ونحن لا نقوى على ستر ما افتضح . وفرديناند كلما نافض طبعه ازداد اصطناعه للمعاذير ، ولاح في سلوكه أكثر تهوراً ، وأطلق يداً ، وأوثق بناحية بعينها صلة بل تقيداً .

وكانت أوتليا تشتهي الحلى فأرضى رغباتها من دون أن تعلم هي مصدر هذا الإرضاء . وكان لها عم ترى سرعان ما اتجهت شبهتها إليه ، فظنته صاحب الفضل . وكلما أراد فرديناند أن تتلقى أوتليا من عمها المزعوم هدية عمد إلى مكتب أبيه فاغترف من فيضه . حتى إذا عظمت الهدايا وساورت أوتليا الشكوك ، اعترف لها فرديناند بأنه مهديها وأنه يهديها من جيب أبيه .

واشمأزت أوتليا من صنيع فرديناند ، وأصرت على رد هداياه . فقال لها إنه ليبرحن به الألم إن فعلت ، وأكد لها أنه من دونها لن يعيش ، وأنها نفسه التي بين جنبيه . فتأثرت له ، وكانت تحبه ، فوكدت حبها بالعناق والتقبيل .

وسافرت أوتليا إلى والدتها فأحس فرديناند بالوحشة وعزف عن غشيان المجالس التي كانت تغشاها لأنها باتت من دونها عديمة البهجة ؛ وقلت نفقاته ، فخف تردده على مكتب أبيه وامتداد يده إلى قراطيسه . ولاح كأنما يتغلب فيه عامل الخير ، فجعل يفكر فيما صنع فأدهشه صنيعه ، وعجب لسقطته عن الحق والسلك ، وكيف سولت له نفسه ما لا يجوز . ووضح له شيئاً فشيئاً أن الأمانة والإيمان موضع التقدير في الرجل ، وأن الخير يستحي أن يعبث بالقوانين ولا يستحي الشرير . لكنه ظل يلجأ عند الحاجة القصوى إلى قمطر أبيه يأخذ منه كرهاً ، فيخيل له في كل مرة أن فيه شيئاً يجبذه من شعره ويمسك بخناقه .

وتمثلت له قريضته ، وتبلورت عزيمته ، فقرر أن يكف يده ، وأن يعمل أياه بخلل القفل . فحمل الصندوق بأوراقه الرثة يريد أن يعرضها على أبيه في مكتبته ، واصطنع الاضطراب في نقل الحمل فاصطدم بالمكتب فإذا بغطائه ينطلق كعادته .

وعجب أبوه أن يكون الغطاء بهذه الطواعية ، فأكب كلاهما عليه يفحصه ، فوجدا خطاطيفه قد بليت مع الزمن وتراخت أربطته . فأصلح القفل ؛ ولم يعد ينوي فرديناند ملغى يجد نفقته في هذا الحرز الحريز .

وفكر فرديناند وعاود التفكير ، ورأى أن خير ما يفعل هو أن يرد ما أخذ . وراح يتوخى القصد في نفقاته فاستطاع أن يدخر من مخصصاته . وكان ما أدخر قليلا ، لكنه بات مع حسن السلوك شيئاً كثيراً . وفرق بين آخر ريال تقترضه وأول ريال تقضيه مما أدخرت ، وإنه لفرق عظيم .

وكان لأبيه مصنع بعيد فاعتزم أن يؤسس متجراً على مقربة منه لتصريف منتجاته ، وعهد إلى فرديناند في درس مشروعه ليكل إليه آخر الأمر إدارته ، وليجني هو الثمرة التي يجنيها النبر من شجرته . وزوده أبوه بمبلغ من المال لسفره وإقامته ، فتوخى فرديناند القصد في نفقته ؛ وحسب فرديناند وعاود الحساب فوجد أنه خليق بأن يدخر ثلث مخصصاته إن هو ضيق على نفسه وحد من طلباته ، وأمل أن تعرض الفرصة ليدفع بهذا دينه لأبيه ، فعرضت الفرصة ، والفرصة إلهة لا تكترث لخير أو شر ، فالخير والشر عندها سيان .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ......"

حق الشعب — وحدة العرب — آخرة عاص ! ... ...

من الشعب :

نساء ورجال ، وفتيات وفتيان ، وبنات وصبيان ، وبإزاء ذلك كله سدٌّ من الحرّاس والجند والحُجّاب ، يَدفعون هذا الزحامَ بالأيدى تارة وباللسان ! هذه امرأةٌ تبكى ، وهذا شيخٌ يتوسل ، وهذا بُنَىٌّ ، وهذه بُنَيَّة ؛ كلهم يحاول أن يتخذ طريقاً فى هذا الزحام إلى مكتب الوزير ، أو حجرة الوكيل ، أو مجلس المستشار ...

لو وُصف لى هذا الزحام على باب وزارة التموين لما أنكرتُ ما سمعتُ وإنى لأنكر الساعةَ ما أرى ! هذا مشهدٌ لم أر مثلَه قبلُ ولا بلغ إليه وهمى ؛ فلا أزمة الخبز وقد اشتدَّت حيناً منذ أشهرٍ حتى بات أطفالٌ على الطَّوَى ؛ ولا أزمة البترول وقد اضطرَّت طائفةً من ذوى اليسار والترف إلى أن يطبخوا على « الكانون » فى القصور ؛ ولا أزمة السكَّر وقد حلت إنّ البدراوى باشا على أن يشرب الشاىَ بالعسل ؛ ولا أزمة الرز وقد عاف أطفالى الطعامَ يوما لأن منزلى لم يكن فيه حبة رز ...! ...

... لا أزمة الخبز ، ولا أزمة البترول ، ولا أزمة السكَّر ، ولا أزمة الرز أرَتْنى من بعض مشاهدها مثلَ هذا الزحام ، وإنى لأشهده اليوم فى وزارة المعارف ... ...

هؤلاء آباء وأمهات ، وتلاميذ وتلميذات ، قد جاءوا يسعَون إلى باب الوزير يلتمسون التخفيف عنهم فى هذا الضيق الخانق بإعفائهم من مصروفات التعليم .

واستجاب الوزير للنداء ، ففتح الباب وتدفّقت الجموع ؛ ونفذتْ منحــةُ الوزير ولم تهدأ صرخاتُ

ووجد فردينان المكان أصلح لعمله مما كان يتوقع ، وتمنى أن تدوم إقامته فيه وألا يحوّله أبوه عنه . واشتهى أن تثبت فيه زوجيته ما دام طيف الحبيب لا يبرح فيه خياله . وألفى الفرصة سانحة فيه لاستخدام معارفه ولتجريب مواهبه وتنفيذ قراراته . وكان ما بالمكان يلسما لجراحه ، فكيف تخطر له مبارحته ببال ، وهو إن بارحه فإلى بيت أبيه ، ووخز الضمير يلازمه من ذكرى عمله فيه .

وكان فى المدينه صديق لأسرته : رجل شجاع ، طيب القلب ، عليل ، تقوم على العناية به ابنة أخ ؛ راقه أن ينفذ فردينان فكرة المتجر لأنها كذلك فكرته . وتولى فردينان بإرشاده . وسره أن يلقى هذا الإرشاد صداه فى نفس فردينان ، وأن يستجيب فردينان لوحى أفكاره من قبل أن يعرضها عليه .

وكان هذا الصديق يعيش عيشة البساطة ، لأنه أولا يميل إلى البساطة ولأنه ثانياً رجل مريض . ولم يكن له أولاد ، ولم يكن يؤنس وحشته أحد غير ابنة أخيه هذه التى تخدمه وتطببه ، ومن ثم اعتزم أن يهبها ثروته . وكان يتمنى لها الزوج الجدّ العامل ليتم على يديه ما أمل تحقيقه ، وأقعده عنه علته وظروفه .

فما إن تكشف له جد فردينان حتى توسم فيه الرجل الذى ينشده ، وعظم رجاؤه لما أن لحظ فيه تفانياً فى العمل وتعلقاً بالمكان . ولمح لابنة أخيه عما يجول بخاطره فلم يشتم منها ممانعة . وكانت الفتاة فى ميعة الصبا ، أحسن تأديبها وصح بدنها ، وصلح تكوينها ؛ عودتها العناية بعمها النشاط ، وعلمها القيام على صحته الرحمة ، فلبس أكمل منها زوجة لمن ابتغى الزواج .

(لها بقية) محمود الدسوقى

الشاكين؟ وعاد الزحام، وعاد دفعُ الحرّاس والجند بالأيدى تارةً وباللسان!

وبلغ صوتُ الشاكين حيثُ أرادوا، وتوسّع الناجح فيما منّح وفتّح المصاريع، ولم يخفّ الزحام ولن يخف...

أكلُّ أولئك الآلاف من طلاب «المجانية» ذوو حق فيما طلبوا، وفيما نالوا؟... أكلُّهم عاجز عن دفع عشرةٍ أو عشرين جنيهاً من أجْل تعليم ولده؟... أكلُّهم صادق الدعوى فيما ناله من الغلاء والأزمة وقلّة المورد؟... أليس فيهم جزّار، ولا خبّاز، ولا رزّاز، ولا بزّاز، ولا سُكَّرىّ، ولا فرّميّ أغنته الحربُ من فقر، وأتخمته من جوع؟... أليس في كل أولئك واحد من هؤلاء؟ بلى، وإن فيهم لعشراتٍ من كل مائة، وفيهم الغنىّ والفقير، والوجيه والمنبوذ، والمحتال والمحتاج، والمحتال والمتعثّر في الأعمال؟ ولكنْ ماذا يعنى كل ذلك؟... أليس معناه أن كل أولئك طلابُ علمٍ وراغبو معرفة؟ فحسبهم ذلك عذراً من كل ما ركبوا في سبيل التعليم من الكذب والاحتيال!

ألا إن العلم حقٌّ لكل طالبه، فلا عليه أن يركب إليه كل سبيل ولو كذب واحتال!

إنّ طلبَ العلم فضيلةٌ تمحو كل سيئةٍ في الوسيلة؛ وما دامتْ حكومتُنا لم تؤمن بعدُ كما آمنتْ حكوماتٌ ودُوَل أن العلم كالهواء والماء حقٌّ لكل حيّ، ومرفقٌ مبذولٌ لكل مرتفق، وملكٌ مُشاع لكل مستمتع — ما دامتْ حكومتنا لم تؤمن بعدُ بذلك فلا عتبَ على أحد يؤمن به أن يطلب حقّه منه حيث قدر وكيفما قدر!

وليس على بوّاب وزارة المعارف من بأسٍ إنْ فتح البابَ مصراعيه ونام!

لقد عمل وزير المعارف في هذا العام عملا نرجو أن يكون له ما بعده، فيتوسّع في نسبة ما يمنح من «المجانية» في التعليم العام حتى تبلغ... تبلغ ١٠٠ ٪، وله من الشكر بمقدار ما أدّى من الواجب إن كان في أداء الواجب شكر!

وحدة العرب:

سافر السيد تحسين العسكرى وزير العراق، وسبقه السيد نورى السعيد كبير الوزراء؛ فهل رأيت كيف ودّع الشعبُ وسَراتُه وصحافته وزيرى القطر الشقيق وما خلّفا وراءهما من صدًى يهزج بالثناء والحمد؟

وقد حلّ في مصر قبل تحسين العسكرى ونورى السعيد سفراءُ ووزراء وأضيافٌ عظام؛ ولكنّ أحداً ممن سبق لم تحتفل الصحافة المصرية والصفوة من رجال مصر بمقدمه ووداعه ما احتفلت برجُلَى العراق!

ولم يسافرا حتى خلّفا في نفس كل من رآهما أو اتصل منهما بسببٍ شوقاً إلى لقاءٍ قريب، وحتى حملا طائفةً من سَراتنا وكبرائنا لم يكونوا يعرفون مما وراء الحدود غير فيشى، وإكس لا بان، وساحل الريفيرا — على التفكير في زيارة بغداد والموصل وبلاد هاروت وماروت!

حبذا أن تتبادل الزيارات بين الزعماء والوزراء وقادة الرأى في الأقطار الشقيقة حيناً بعد حين؛ إن زيارة واحدة لتُقرّب شعباً إلى شعبٍ أكثر مما تقرّبه عشر معاهدات وعشرة مواثيق!

إنهم إخوتنا هناك ونحن إخوتهم هنا، وإن وشائج عديدةً لتربط بينهم وبيننا، وإن صوتاً من التاريخ ليهتف بهم وبنا، وإن لغةً وديناً توارثناهما ليجمعان بيننا لساناً وقلباً، ويؤكّدان بيننا مودة وحُبّاً، ويصوّران مفاخر الماضي وأمانيّ الغد لهم ولنا!

ولم يُقم السيد تحسين العسكرى طويلاً في مصر؛ ولكنْ إليه وحده يرجع فضل ما توثّق من روابط الثقافة بين مصر والعراق؛ فبجهده وما بذل بلغ عدد الطلاب العراقيين في مصر ما بلغ، وبجهده ما بلغ عدد المعلمين المصريين في العراق؛ فما كان البعوثَ السياسيّ لحكومته

فى مصر ، ولكنه كان مبعوثَ «الوحدة الثقافية العربية» ؛ ولن يُغفِل له المصريان حقَّ ما بَذَل ، يوم تصير هذه الوحدة الثقافية حقيقةً من حقائق التاريخ تعمل عملَها فى تكوين الوحدة العربية العامة ...

ويوم تُبْرَم «المعاهدة الثقافية» التى شارك فى وضع أساسها بين مصر والعراق ، ثم بينهما وبين سائر بلاد العربية — سيذكر الناس فى مصر والعراق وسائر بلاد العربية ما كان للسيد تحسين العسكرى من جهدٍ فى وضع اللَّبِنة الأولى ...

فإليه فى حِلّه وترحاله تحيةُ المروءة !

آخرة شاعر !

قرأت فى جريدة الأهرام :

«عُيِّن الشاعر المعروف الأستاذ عبد الحميد الديب فى إحدى وظائف القسم الرياضى بوزارة الشئون الاجتماعية» .

وسَرَّنى ما قرأت ؛ فإنى أعرف عبد الحميد الديب وأتذوّق شعره ، وأعرف من حياته ما يسرُّ وما يؤلم ؛ ولكن جمهرةً من أصدقاء «الشاعر البائس» لم يسرَّهم ما سرَّنى ؛ لأن البلبل النَّوّاح سيهجر نادِيَهم إلى غير مَعاد ، وكان نُواحه سلوتَهم وتسريةَ أحزانهم ! ...

أتراهم أصدقاءه أم أصدقاء أنفسهم ؟ ألم يكفِه ويكفِهم ما غنَّى لهم من شعره الباكى سنين لم يَذُق فيها من ألوان الحياة غير البؤس والحرمان ؟ ...

وقالوا : هذه آخرةُ شاعر ؛ فلن نسمع عبد الحميد الديب بعد اليوم مغنّياً بلياليه الشريدة ، مُغْلًى بكأسه المحطّمة ، متحلّبَ اللُّعاب على المائدة الخاوية ، ريّانَ بالسراب !

... وهل كان عبد الحميد الديب شاعراً إلا بلياليه الشريدة ، وكأسه المحطّمة ، ومائدته الخاوية ، والسراب المترقرق لعينيه على الظمأ فى أوهام البيداء ؟

وقالوا : ومَن ذا يستطيع غير عبد الحميد الديب «البائس» أن يصف حجرةً كان هو فيها كلَّ الأثاث ، وليلةً كان هو فيها الفريدَ اليقظان ، ومائدة كان هو إليها الجائعَ المتلهّف ، وكأساً أسكَرَه الأملُ بها وما لمسَتْها شفتاه ، وبدلةً عند الرَّفّاء ، أودعها صاحبُها فوقف الديب عندها يناجيها نجوى المتشوّق ، ويَنْفِس على صاحبها ما ملكت يداه ! ...

أترى عبد الحميد الديب «الموظف» يستطيع أو يقدر على ذلك الذى كان يستطيعه فيجيده عبد الحميد الديب الذى كان ... ؟

وقالوا ... وصدقوا ، فلن يستطيع عبد الحميد الديب بعد اليوم شيئاً من ذلك ولو تكلّفه له ؛ إلا إن تمرّد على ما أرادوا له وهجر الوظيفة ، وهيهات !

ليت شعرى أيعرف القراء جميعاً عبد الحميد الديب كما عرفتُه وكما يعرف نفسه ويعرفه صحابته ؟

إذن لجاز لى أن أسأل كل قارئ الرأىَ فيما صنعتْ وزارة الشئون الاجتماعية : أأخطأتْ أم أصابت ؟ ... فما أملك أن أجيب !

فأما إن كانت وزارة الشئون الاجتماعية قد قصدتْ الاعتراف به أديباً كامل الأداة ، صادق التعبير ، قوىَّ الإحساس بما فى نفسه ، فنَّان الشعور بكل ما يحيط به — فكلُّ ذلك كان عبد الحميد الديب !

وأما إن كانت قصدتْ إسعادَ شقىٍّ ، وراحةَ مجهود ، وتنعيم محروم — فقد بلغتْ وأصابتْ وما جاوزتْ !

وأما إن كانت أرادت تشجيع نابغة ، وإمداد عبقرية ، وتكميل أداة — فما أراها بما فعلتْ قد أسْدَتْ يداً أو بلغتْ غاية !

فأىَّ ذلك أرادتْ لنعرف ما أخطأت وما أصابتْ ؟

أما عبد الحميد الديب الشاعر فهذه آخرتُه ، ولكنه كذلك حظُّه ؛ لقد سلخ الرجل من عمره بضعاً وأربعين

كتب فى الآلات الروحانية والحيلية

١ — توطئة

فى ديار أوربة مستشرق فرنسى شهير ، تفرغ لدراسة الآلات الروحانية والحيلية عند العرب فى سابق العهد ، اسمه كَرّا دى فو Le Baron Carra De Vaux ؛ وقبل أن نبدى رأيَه لمطالع نشرح معنى كل من الروحانية والحيلية .

أما معنى (الآلات الروحانية) فقد قال صاحب كشف الظنون فى تفسيرها : هى آلات سميت كذلك « لارتياح النفس بغرابة هذه الآلات » ؛ ومعنى ذلك أن الروحانية نسبة إلى الروح ، بضم الراء وإسكان الواو نسبة شاذة إليها ؛ وإلا فالقياس هو رُوحىّ . وهذا كان رأى السلف . وأما أن المحدثين يضبطونها بفتح الراء ، فليس بصواب .

أما أن رأى الأقدمين كان بضبط ضم الراء ، فهو لأن الروحانية نسبة إلى الروح ، وهى ترجمة اليونانية Pneuma و Matos ومعناها النَّسَمة والنفَس (بالتحريك) والريح ، والروح (بالضم) . وأول ما وضعت هذه الآلات ووُصفت كان فى اللغة اليونانية ، ومنها نقلت إلى الإرَمِيَّة (السريانية) والفارسية ، ثم إلى العربية ، وربما نقل بعضها مباشرة من اليونانية إلى العربية ، فكأن السلف حاولوا أن يضارعوا أبناء يونان فى التسمية ، أى حاولوا أن يقولوا إن هذه الآلات ذات أرواح ، أو إنها تتنفس من ذاتها — وقد ضبطها بالقلم أيضاً أول من نشر كشف الظنون ، أى العلامة المستشرق الألمانى فلوجل Flügel الشهير ، والضبط بأحرف لاتينية لا تبقى شكاً فيه (١ : ٤٠٠) . وكنا قد نبهنا قبل أكثر من أربعين سنة إلى هذا الغلط وتصحيحه فى مجلة الشرق البيروتية (الشرق : ٣ (١٩٠٠) ص ٦٢٢ و ٦٢٣) .

وأما الآلات الحيلية فنسوبة إلى الحِيَل بكسر ففتح جمع حيلة ويراد بها عند أرباب الصناعة وحاذقيها : « جر الأثقال بالقوة اليسيرة» ؛ (عن الخوارزمى فى مفاتيح العلوم ص ٢٤٦ من طبعة الإفرنج) . وعلم الحيل يعرف عند الإفرنج بالميكانيك Mécanique .

٢ — رأى العرب والمستشرقين

فى كتب الآلات الروحانية والحيلية

قال الشيخ إبراهيم اليازجى فى الضياء : (٢ : ١١٤) وهو من أبناء العرب الذين أولعوا بآثار السلف : « اشتهر سنة يوقّع على قيثارته ما يوقّع من ألحانه ، فتقع دموعه بَسَمات على شفاه الناس ، وتتردد زفراته الموجعة فى الصدور قهقهات وضحكات ؛ وإنه ليبتسم معهم ويقهقه ، ويُعديه مابهم من مَرَح وبِشر ولا يُعديهم ما به ؛ فإذا خلا من الناس وخَلَوا منه عادوا وعلى شفاههم بَسَماته وعاد وفى عينيه دموعه !

أفتبلغ الأثَرَةُ بى وبالناس أن نأسف على خير بناله لأنه يحرمنا لذة كانت تنالنا ؟ فلا كان الشعر ولا الشعراء !

تهانينا إلى عبد الحميد الديب الموظف عما نال من عطف ومودة بعد طول الحرمان ، وعزاءً إلى أصدقاء عبد الحميد الديب الشاعر الذى كان . . . . . .

يرحمه الله ! . . . لقد آن للتاريخ أن يثبت فصلاً فى تاريخ أدب الجيل !

قاف

حاشية : أشكر لأصدقائى الأساتذة : إبراهيم على ، وعبد الفتاح متولى ، وعبد الجواد محمود هلال ، ومَن لا أذكر من قراء هذا البـــاب — جميلَ ما نالنى من برّهم وحسن مودتهم ؛ وأرجو أن أستطيع جزاءهم على ما أحسنوا بى الظن — توفيقاً بوفّقنيه الله فيما أعالج من فنون الحديث فى هذا الباب !

من علمائهم (أى من علماء العرب) أنهم كانوا مقصورين فى غالب أمرهم على علوم اللغة والشرع ، دون التبسط فى العلوم الطبيعية والفنون الصناعية » . وقال البارون كرّا دى فو ، وهو المستشرق الفرنسى الذى نوهنا باسمه فى مستهل هذا المقال ، ما هذا معناه : « فى عالم الأدب والعلم مخطوطات فى مباحث الآلات الروحانية والحيلية ، أصحابها مسلمون . ومخطوطات هذه المباحث نادرة ، بيد أن منها مخطوطين على أقل تقدير ، ووجودهما معروف منذ أمد بعيد ، وهما مهمان : الأول كتاب لبديع الزمان الجزرى ، ومحفوظ فى الآستانة ، ومنه نسخة مخرومة مصونة فى دار كتب باريس ؛ والكتاب الثانى لبنى موسى بن شاكر ، وهذا أقدم من ذلك ، وهو مصون فى خزانة الفاتيكان[1] » . اهـ .

قلنا : وفى كشف الظنون فى آخر الكلام على علم البنكامات ، فى باب الباء ، ما هذا نصه : « الكواكب الدرية والطرق السنية ، فى الآلات الروحانية ، فى بنكامات الماء كلاهما للعلامة تقى الدين الراصد » .

وكنا نتوقع أن نرى شيئاً يزيدنا فائدة فى كتاب (موضوعات العلوم) لطاشكبرى زاده أحمد أفندى ، فلم نجد ؛ ثم تصفحنا كتاب أبجد العلوم لصديق حسن خان فلم نزدد علماً . لكنا وجدنا فى دار الكتب المصرية كتاباً لتقى الدين محمد بن معروف الشامى اسمه (ريحانات الروح ، فى رسم الساعات على مستوى السطوح) ، ومنه نسخة أخرى فى خزانة كتب باريس الوطنية . وللجبرتى كتاب الموازين ، منه نسخة فى خزانة الآباء اليسوعيين فى بيروت . ولا شك فى أن هناك نسخاً خطية مدفونة فى خزائن لم نقف على ما فيها ؛ وفى خزانتنا كتاب خطى فى الآلات الروحانية ؛ ودونك وصفه :

(1) Le Baron Carra De Vaux. Le Livre Des Appareils Pneumatiques (Paris. imprimerie Nationale. 1902 p. 16.)

٣ — وصف مخطوطنا فى الآلات الروحانية وصفاً مجملاً

فى ٥ كانون الأول (يناير) من سنة ١٩٠١ اقتنينا مجموعة خطية بخمسين ذهباً عثمانياً ، لا عنوان لها . وإنما اقتنيناها بهذا الثمن الفاحش لعلمنا بندرة هذه النسخة ، ولظننا أنها النسخة الوحيدة من جنسها ، وألفيناها تحتوى على التصانيف الآتى ذكرها :

١ — القانون المسعودى لأبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى كتب سنة ١٠٩٣ هـ (وقد سمعنا فى آخر سنة ١٩٤١ أنه طبع فى الهند) .

٢ — استيعاب الوجوه الممكنة فى صنعة الاسطرلابات المتحنة . للبيرونى أيضاً . كتب فى سنة ١٠٩٣ هـ أيضاً .

٣ — وصف الإحراق بضوء الشمس المنعكس عن مرآة عن مسافة قريبة ، لأبى الريحان أيضاً ، كتب فى تلك السنة أيضاً (١٠٩٣) .

٤ — كتاب الزايا المحرقة لعطارد بن محمد الحاسب كتب فى السنة المذكورة أيضاً .

٥ — عمل الساعات للآلية التى ترمى بالبنادق ، وفيها ضروب من الحركات . وفيها تصاوير مختلفة بالحبر الأحمر لكنها غير محكمة الرسم كتب سنة ١٠٩٣ .

٦ — كتاب دوائر الدواليب المتحركة من ذواتها ، وفيه دوالى (كذا) عجيبة ، وغير ذلك ، لهرقل اليونانى وفيه تصاوير كثيرة توضح الكلام . وفى آخر الكتاب هذه الكلمة : « تم كتاب هرقل النجار فى الدواليب والحمد لله رب العالمين والصلوة على محمد وآله أجمعين » وهو مكتوب فى السنة المذكورة (١٠٩٣) .

٧ — كتاب الحُقّ القمرى : كتبه محمد على التبريزى الأنصارى .

٨ — فائدة منقولة عن شرح المقاصد — خاتمة هذا بحث شريف تتفرع عليه أحكام كثيرة فى باب القارات

والأحجار ، ومعرفة مقدار كل منها فى الركب مع بقاء التركيب ، وفى عمل الموازين القرسمة .

٩ — أنواع الأدوية ووصفها .

١٠ — فصل من القانون فى أفعال الأدوية المفردة .

١١ — من كتاب ميزان الحكمة للحكيم عبد الرحمن الخازنى ناقل عن أبى سهل القوهى (كذا والأصح الكوهى) ، وابن الهيثم المصرى من رؤس (كذا) المسائل المسلمة عند الكل .

١٢ — كتاب قسطا بن لوقا فى الوزن والكيل فى ثمانية أبواب .

وهذه الكتب الأخيرة خطت فى سنة ١٠٩٣ للهجرة . هذا ما كنت دونته عندى بعد حصولى على الكتاب ، وكنت أحرص عليه كل الحرص ، فوضعته فى صندوق ثم أخفيته عن الأنظار لئلا يسرق .

وفى ٢٦ شباط (فبراير) من سنة ١٩١٧ ، سرقت خزانتنا عند سقوط بغداد ، ونهب كل ما فيها من مطبوعات ومخطوطات ، من شرقية وغربية . وكان عدد ما فى خزانتنا الشرقية (٧٥٣) مخطوطاً ونحو ١١٠٠٠ مطبوع ، تبحث عن الشرق وعما يتعلق به من بعيد أو من قريب . وكانت المجموعة المذكورة من جملة المنهوبات . ثم بعد ذلك وجدتها عند أحد الأدباء فاشتراها لى منه العلامة جميل صدقى الزهاوى — رحمه الله — لأنه هو الذى ذكر لى اسمه ، وكان ساكناً فى محلته . فدفعت المحتفظ بها مائة و ١٥ ربية (أى نحواً من ٨ دنانير) ، وذلك فى ١٠ تموز (يولية) سنة ١٩٣١ . لكنى وجدتها فى أسوء حالة حتى ما كنت أصدق أنها نسختى الأولى ، لأن الرجل نزع منها أوراقاً كثيرة لا أعلم عددها . وكان وضعها تحت سرير من خشب ، فنسيها ، ثم سطت عليها الأرضة وعبثت كل العبث فى نحو ٦٩ صفحة ، بين مأروضة كل الأرض وبعض الأرض . وكانت المجموعة مجلدة بجلد الجُوذر مبطن من الداخل بقوىّ وورق مصبوغ صبغ الزمن . فأكلت الأرضة القسم الأيمن منه وأبقت الجلد ، ولم تمس الجانب الأيسر منه ، ولم تتعرض للجلد .

زد على ذلك أن مقتنيه كان قد قطع بالمقص بعض أطراف الأوراق ، ولاسيما ما كان مختوماً بخاتم خزانتنا . فأصبحت هـذه النسخة النفيسة فى حالة تبكى من يراها ، إذ تحت فريسة حشرة هى الأرضة ، وفريسة وحش بشرى هو محرزها ، وكل منهما فتك بهـا فتكاً يناسب عنصره وميله . وكان كاتبها قد صرف فى تحريرها نحواً من سنة ، إذ بدأ بها فى سنة ١٠٩٣ ، وانتهى منها فى سنة ١٠٩٤ هـ .

وطول المجموعة ١٩ سنتمتراً فى عرض ١٢ ، وفيها رسوم كثيرة من حسابية ، وهندسية ، وفلكية ، وحيلية ، (ميكانيكية) ، وفى كل صفحة ٢٣ سطراً دقيقاً ، أسود الحبر كل السواد . وأما الأرقام ورؤوس الفصول والعناوين فمكتوبة بالحمرة . والأرقام كلها بحروف الهجاء لا بالأرقام الهندية . والخط بين التعليق والنسخ حسن واضح ، إلا أنه يرسم طائفة من الحروف رسماً خاصاً ولا ينقطه ، فيصعب على المطالع قراءة الكلمة ، وإن كانت جلية الرسم . وليس فى المجموعة حواش ، إنما ثم بعض تعليقات ، هى فى أصل المتن . وكأن الكاتب قد فاته ، فانتبه لها بعد إتمام الصفحة ، فأعاد ما فات قلمه فى طرف من الحاشية . وهناك أيضاً أوراق قد ظهر فيهـا فتك الرجل بها فتكاً يدل على لؤمه وخباثة نفسه ، كأنه أحد القرامطة فى العصور الوسطى .

ومن بعد أن وصفنا المجموعة وصفاً مجملاً ، نأتى الآن على وصف الكتاب الذى وضعنا له هذه الكلمة .

٤ — وصف كتابنا فى الآلات الروحانية

وصفاً خاصاً به

يُرى بدء هذا الكتاب فى ص ٢٤٦ من المجموعة والعنوان مكتوب بالأحمر ، وهذا نصه بالتمام : « كتاب دوائر الدواليب المتحركة من ذواتها ، وفيه دوالى (كذا . اى دوال جمع دالية بمعنى ناعورة) عجيبة وغير

ذلك لهرقل[1] اليوناني » . ثم يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين .

الصورة الأولى

« إذا أردنا أن نعمل دايرة (كذا) تدور من ذاتها ، فيصعد الماء ويدير رحاً أو رحوين ، فإنا نتخذ دايرة من أصلب ما يكون من الخشب ، قطرها خمسة أشبار وطول قطرها ثلثة أشبار ...» ونختم هذه الصورة الأولى بقوله : « واجعل لها دنداتجات[2] تدير بها رحاً أو تسق بها الماء بدولابين إن شاء الله تعالى » . ثم يلى تصوير هذه الدائرة وهي حسنة الرسم ، ثم ينتقل إلى وصف الصورة الثانية ، وينتهي كلامه هذا في آخر الصفحة ٢٤٧ ، وفي آخر صفحة ٢٤٨ يرى رسم الدائرة الثانية . وفي صدر ص ٢٤٩ يصف الدائرة الثالثة وصفاً دقيقاً ، وفي جبهة ص ٢٥٠ يرسم لنا رسم تلك الدائرة رسماً بديعاً . وهكذا يسير سيراً شائقاً في وصف كل دائرة مع رسمها . (ورسوم هذا القسم من المجموعة متقنة كل الإتقان) ، وعدد جميع الدوائر الموصوفة مع الدوال سبعة . وأما الأشكال فعددها ثلاثة وعشرون .

ويختم هذا الكتاب بهذه الكلمات : « تمت (كذا) بعونه تعالى في سنة ١٠٩٣ كتبه الفقير محمد على التبريزى الأنصارى . غفر الله له عنه » .

وقد بحثنا في قوائم الكتب المصونة في ديار الشرق والغرب ، فلم نعثر على اسم هذا الكتاب ، فلعله الوحيد الذي سلم من عوادى الزمن . أما اسم المؤلف فلم نره في مصنفات تراجم الرجال . فلعل قول الكاتب : كتبه الفقير محمد على التبريزى الأنصارى » يشير إلى مصنّفه . على أننا لم نصب في ما وصلت إليه مساعينا ، حياً أو أستاذاً يعرف بهذا الاسم ، لكن ليس دليلاً على عدم وجوده في سابق العهد ، لأن الدليل السلبي ليس بقاطع بل ضعيف النتيجة . وعسى أن أحد القراء يفيدنا بما يغنينا عن متابعة البحث ، فله شكرنا الصادق . والله الهادي إلى الصواب .

الأب أنستاس مارى الكرملى

من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية

---

(١) ليس بين الحيليين من يعرف بهرقل ، ولعل الصواب لهرون ، وبالفرنسية Heron صحفها الناسخ .

(٢) الدنداتجات جمع الدنداتج ، وهو السن من أسنان الدائرة « البرخ » ، والكلمة فارسية من دندانه ، بهاء محضة ساكنة في الآخر ومعناها كل بارز يشبه السن ، كسن الدائرة ، وسن المشط وسن المفتاح .

حكمت محكمة الضربية العسكرية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٣٨٣ سنة ١٩٤٢ بتغريم عثمان عبد الرازق صالح من منيا القمح خمسين قرشاً وغلق المحل يوما لامتناعه عن بيع القمح الفائض للحكومة .

حكمت محكمة الضربية العسكرية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٣٨١ سنة ١٩٤٢ بتغريم مريم على التجاوى من التلين خمسين قرشاً لامتناعها عن بيع الأذرة الفائضة عن حاجتها للحكومة .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر	
٣٠	في مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١ قرش صاغ

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٢ يوليه سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٣٠٩ سنة ١٩٤١ بتغريم عبد الحميد محمد البردي الفلاح بالمواسجة جنيها لبيعه أذرة بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٢ يوليه سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٣٣٦ سنة ١٩٤١ بتغريم عبده الغنام الجزار بأبو حماد ثلاثة جنيهات لبيعه لحوما بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٢ يوليه سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٣٣٨ سنة ١٩٤١ بتغريم فاطمة عوض علي من الطاوية جنيها لامتناعها عن بيع أذرة بالتسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ٢٢ يوليه سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ٢٤٩١ سنة ١٩٤٢ بتغريم ستيتة علام فرحات من طحلة بردين حسين قرشا لامتناعها عن بيع أذرة بالتسعيرة .

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ٨ ابريل سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٦٩٣ سنة ١٩٤٢ بتغريم درويش حسين خليفة بالمطارة الصغرى ثلاثة جنيهات لبيعه قمحاً بأزيد من التسعيرة .

حكمت محكمة الفرقية العسكرية بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ٢٤٧٢ سنة ١٩٤٢ بتغريم عبد الله محمد سليم البقال بالزقازيق جنيهين وغلق المحل يومين لبيعه سكرا بأزيد من التسعيرة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٠٢ | الثلاثاء ١ من ذى القعدة سنة ١٣٦١ — ١٠ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ | السنة الرابعة

فهرس العـــــــــدد

الحياة الاجتماعية فى مصر

والبطالة بين العمال والمتعلمين

استعرضنا فى أحاديث سابقة أهم العناصر البارزة فى الحياة الاجتماعية فى مصر ، وأتينا على بعض الوسائل التى تساعد على تحسينها . وفى مقدمة هذه الوسائل رفع المستوى المادى والمستوى الأدبى للطبقة العاملة فى مصر ، وهم الكثرة الساحقة ، سواء فى ذلك من يشتغل فى الزراعة أو فى الصناعة أو فى التجارة ؛ وسواء فى ذلك من يشتغل بيده أو بعقله أو بفنه .

وبداهة أن مستوى الطبقة العاملة يرتكز ارتكازاً كلياً على مزاولتها فعلا للأعمال التى تقوم بها ، إذ أن انقطاع العامل أو المستخدم عن عمله يضيع عليه دخله الذى يحصل عليه قبل انقطاعه فينخفض بذلك مستواه المادى . وكذلك فإن انقطاعه يسلم إلى حالة الركود والخمول التى قد تصل إلى يأس أو إلى تمرد ينشأ عنهما انخفاض فى مستواه الأدبى .

وقد لوحظ أن التعطل عن العمل قد يعرض للعمال كما قد يعرض للمتعلمين . ولظهور كل حالة فى بلد من البلاد أسباب تتصل اتصالا وثيقاً بحالة البلد الاجتماعية والاقتصادية التى تظهر فيها .

لذلك شعرت الدول الأوربية بالبطالة بين العمال من قديم ، نظراً لقدم الصناعة فيها ولوفرة عدد العمال وتنوعهم ، فاضطرت إلى أن تتخذ الوسائل لمكافحتها ؛ وفى مقدمة هذه الوسائل إيجاد نظام « بورصات » العمل ، وقد أخذ هذا النظام ينتشر وفقاً لازدهار الصناعة ونموها حتى شملت جميع المشتغلين بالصناعة وجميع الفنيين .

أما فى مصر فلم تظهر بعد حركة البطالة بين العمال بمظهر واضح ، ويرجع ذلك إلى أن السواد الأعظم من العمال المصريين يشتغلون بالزراعة ، وهم بحكم إقامتهم فى الريف وانخفاض مستوى معيشتهم الذى نشأوا عليه يكتفون فى الغالب بأجور ضئيلة تدفع إليهم على فترات متقطعة .

ويلى هذه الطبقة فى الكثرة عمال البناء والمقاولات والباعة السريحة ، والعمال الذين لا يعرف لهم عمل ثابت . والمورد المادى لهؤلاء فى الغالب ضعيف ، ولكنهم وطنوا أنفسهم للعيش فى حدوده وعلى الانتقال من عمل إلى عمل آخر بسهولة ، إذ أنها جميعاً قلما تحتاج إلى خبرة فنية خاصة .

ويضاف إلى ذلك أنه قلما يقبل العمال فى مصر على تسجيل أسمائهم إذا ما تعطلوا ، ويرجع ذلك إلى خشيتهم من القوانين الموضوعة للتشرد أو إلى ما يجره عليهم من التعرض للاتهام أو للترحيل إلى وطنهم الأصلى .

ويلاحظ أن الصناعة حديثة عهد فى مصر ، وبما أن الصناعة هى التى تخلق البيئة الصناعية وتشجع على إيجاد العمال وخصوصاً العمال الفنيين ، فلذلك لم يصل بعد عدد هؤلاء إلى درجة انتشار البطالة بينهم . وتبعاً لحداثة الصناعة اضطرت الحكومة إلى إيجاد طبقة خاصة من الصناع الفنيين ، وعولت على المدارس الصناعية فى إيجادهم ، وبذلت جهدها فى حمايتهم وتشجيعهم ، حتى إن وزارة المعارف العمومية أرسلت فى ١١ أبريل سنة ١٩٣٦ خطاباً دورياً إلى سائر مصالح الحكومة تحظر عليهم استخدام صناع من غير خريجى مدارسها الصناعية .

ومتخرجو هذه المدارس لم يلبثوا بعد أن عدلت برامج تعليمهم وتغلبت فيها الصبغة العلمية على الصبغة الصناعية أن أصبحوا فيما بعد ضمن طوائف المتعلمين ، فاندمج بحث البطالة بينهم ببحث البطالة بين المتعلمين .

أما المصانع الكبرى فى مصر فقد احتفظت بصناع أجانب ، فكانت أكثر الأعمال التى تقوم بها تستند إلى صناع مهرة من جنسيات أجنبية ، وإن كانت هذه الظاهرة أخذت فى التحول نظراً لتقدم الصناعة فى مصر ولظهور بعض الصناع المهرة الأكفاء من المصريين .

وربما كان هناك سبب عام لتأخر الشعور بوطأة البطالة بين العمال ، وهو أن نهضة العمال الاجتماعية بدأت حديثاً ، ولا يخفى أن نهوضهم الاجتماعى من شأنه أن يرفع مستواهم وأن يشجعهم على إنشاء نقابات منتظمة ، وعلى الإقبال على تسجيل أسماء العمال المتعطلين منهم تسجيلا يجعل من الميسور للحكومة أن تعالج هذه الناحية الاجتماعية .

غير أنه فى السنوات الأخيرة شعرت الدول الأجنبية كما شعرت مصر بوطأة عامل اجتماعى آخر ، وهو ازدياد خريجى الجامعات والمعاهد العليا ؛ فعملت الدول الأجنبية على علاج هذه الحالة . وقد قرر مجلس عصبة الأمم فى سبتمبر سنة ١٩٣٦ بناء على اقتراح المعهد الدولى للتعاون الفكرى ، توجيه الدول حتى التى لم تكن وصلت إلى التمثيل فيه ، ومنها مصر ، إلى إنشاء مكاتب خاصة لمعرفة مدى حاجة ميادين الأعمال المختلفة إلى الشبان المتعلمين وخصوصاً خريجى الجامعات ، وليتمكن أصحاب الأعمال من الوقوف على عدد وأنواع المؤهلات التى يحتاجون إليها فى مزاولة أعمالهم ، حتى تتمشى نظم التعليم من حيث النوع والعدد تبعاً لما تتطلبه ميادين الأعمال فيتوازن العرض والطلب ، ويوجه الشبان إلى المهن التى تفتقر إلى جهودهم وينصرفون إلى غيرها . وتقوم هذه المكاتب لتحقيق الأغراض السابقة بتقديم الشبان إلى أصحاب الأعمال ، وبوضع نظام لتمرين المتخرجين حديثاً لاستكمال ما فاتهم أثناء دراستهم ، حتى إن نظام التمرين فى فرنسا شمل طلاب الفرق النهائية بالجامعات والمعاهد العليا . ثم بتقديم الاقتراحات التى تستخلصها على ضوء ما لديها من إحصائيات وأبحاث .

أما فى مصر فقد بدأت تطرد الزيادة بين المتعلمين ابتداء من عام ١٩٣٠ فاطردت تبعاً لذلك البطالة بينهم .

ويكفى للتدليل على ذلك بملاحظة عدد المتخرجين فى سنة ١٩٣٠ وعدد المتعطلين منهم ، وكذلك عدد الطلاب فى الجامعة والمعاهد العليا حينذاك ، ومقارنة كل رقم من هذه الأرقام بنظيره فى سنة ١٩٣٧ ثم فى هذا العام .

ولكن لا يتبادر إلى الذهن أننا نظراً لهذه الزيادة

المطردة قد وصلنا إلى الكفاية أو الغاية من الشبان المتعلمين ، إذ لا زال الدى بعيداً . فيتبين لنا من مراجعة إحصاء سنة ١٩٣٧ أن عدد من فى التعليم الثانوى والفنى فى مصر ١٠٤ ألف ، وعدد من فى التعليم العالى ١٠ آلاف ، بينما عدد السكان ١٦٫٣٨٠٫٠٠٠ . بينما فى تشيكوسلوفاكيا ١٩٦ ألف ثانوى وفنى و٢٧ ألف عالى ، و١٤٫٧٢٩٫٠٠٠ عدد سكانها . وفى هولندا ٤٥٠ ألف ثانوى وفنى ، و٤٨ ألف عالى ، وعدد السكان ٣٥٫٠٩٠٫٠٠٠ ؛ وعلى ذلك فالبطالة بين المتعلمين فى مصر لا ترجع إلى كثرة مجموع عدد المتعلمين إنما ترجع إلى أسباب أخرى سنأتى عليها فيما بعد .

ولعل أهم الأسباب التى ساعدت على ظهور البطالة يمكن أن تندرج تحت عاملين رئيسيين ، وعلى قدر الدرجة التى يمكن أن نتغلب بها على هذين العاملين نصل إلى تخفيف وطأة البطالة .

وهذان العاملان هما تنظيم استخدام العمال والمتعلمين فى المنشآت الموجودة . والثانى تعزيز هذه المنشآت والعمل على استحداث منشآت أخرى يتوفر على العمل فيها العمال والمتعلمون الحاليون ، ويتوفر على العمل فيها مستقبلا العمال والمتعلمون الذين سيقدمون للعمل فيما بعد .

وفى مقدمة الوسائل التى تساعد على تنظيم استخدام العمال تعميم نظام البطاقات الشخصية ، على أن يكتفى بالأخذ به بين عمال الصناعة والتجارة وهم سكان المدن .

ولا شك أن البطاقة الشخصية ستكون بما فيها من بيانات معتمدة عاملا مساعداً على إيقاف صاحب العمل على أهم ما يعنيه معرفته والاستيثاق منه عن العامل ، سواء التأكد من شخصيته أو محل إقامته أو صناعته أو سنه . كما أن لهذه البطاقة أهميتها الكبرى فى حياة العامل الخاصة ، سواء فى علاقته مع غيره أو فى علاقته مع الجهات الحكومية ، فضلا عما فى هذا الإجراء من شعور العامل بشخصيته واستقلاله وعدم تعويله دائما على الوسطاء والمقاولين ومشايخ الحارات فى كل ما يعرض لديه .

وعلى ذلك أن تضرب الحكومة بيد من حديد على مقاولى توريد العمال ، وأن تراعى فى مقاولاتها ، كما تشير على غيرها من الجهات التى تلجأ إلى مقاولات سواء الجهات الحربية أو المدنية ، مراعاة كل ما من شأنه أن يضمن للعامل أجراً معتدلا ويضمن له الحصول على هذا الأجر ، وكل ما يهيئ للعامل شروطاً معقولة ويضمن له الحصول على هذه الشروط .

وليس من المبالغة فى شىء إذا قلنا إن حوالى ثلث عمال القطر المصرى يشتغلون بنظام المقاولة ، وأكبر دليل على ذلك أنها تشمل جميع الأعمال العامة التى تقوم بها الحكومة أو المجالس البلدية أو المجالس المحلية ، وكذلك جميع الأعمال المتصلة بالأغراض الحربية ، حتى إن عدد العمال الذين يستخدمون فى هذه الأغراض فى مناطق القنال والاسكندرية والقاهرة يصل حوالى ١٢٠ ألف عامل . ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من الشركات تزاول أعمالها على هذا النظام كأعمال النقل البحرى والتفريغ وحلج الأقطان ؛ بل حتى بعض الشركات الأخرى التى لا يحتم عليها نظام العمل فيها أن تسير بالمقاولة أخذت فى اتباعه ، رغبة منها فى التخلى من المسئوليات وإلقائها على كاهل المقاولين .

وقد سبقتنا إنجلترا فى العناية بشئون عمال المقاولات فوضعت تشريعا بذلك . فخليق بنا وأكثر عمالنا أميون أن نضع لهم من القواعد ما يجعلهم آمنين على أجورهم وعلى حقوقهم ، فتقل بذلك شكاوى عديدة يثيرها العمال من تصرف كثيرين من المقاولين الجشعين ، وتجعلهم فى حالة أقرب فيها إلى البطالة والتعطل منهم إلى مزاولة العمل .

وربما كان مما يساعد على هذا الاتجاه العناية بنشر «بورصات» حكومية للعمل فى الجهات التى يكثر فيها الطلب

اسكندر الاسكندرية :

الدين عنـــد الاغريق

للدكتور أحمد زكى بك

لم يجر الإغريق فى دينهم إلا فى السبيل التى جرى فيها سائر الأمم من الأقدمين . فهم تدرّجوا فى معنى الله ، أو الآلهة ، كما تدرج هؤلاء . فهم عبدوا مظاهر القوة من الطبيعة أولا . ثم تفخو الروح فى تلك الظواهر فجعلوا منها آلهة تعمل وتريد ، كما يعمل الإنسان ويريد . وتدرجوا فى صفة هذا الإنسان الرب ، أو هؤلاء الأناسىّ الأرباب ، صعوداً كلما زادوا ثقافة ، حتى بلغوا بصفاتهم ذروة الكمال ، كالذى يفهمه بنو الإنسان من الكمال وذروته .

وكان هذا التدرج مطّرد الخطوات ، واحدَ الميل فى اتجاهه ، فلم يصبه ما أصاب الأمم عند ما جاءتها الرسل تُلغى قديماً وتثبت جديداً . فكان أن اجتمع عند الإغريق فى أوج مجدهم ، فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، مجموعة من الآلهة تمثل فيها أدوار ذلك التدرج من بدئه إلى منتهاه . كالأمم تغيّر من أزيائها القرنَ بعد القرن ، فى تسلسل واطّراد ، وفى تراضٍ عن زىّ قديم وزىّ مستحدَث ، فيجتمع لديها فى القرن الأخير مجموعة من الأزياء تراها تتحرك فى الطريق ، فتحسبها بعض محفوظات المتاحف قد ضاقت بلُبثها الطويل وراء زجاج الصناديق ، فشقّت طريقها إلى المدينة الحيّة لتأنس فيها بصحبة الأحياء .

فلا شك أن الأغريق عبدوا فيما عبدوا الشمس والقمر والنجوم ، وتلك القوى الخفية التى يتمثلها الإنسان فى ظلام الغابة ، وفى أعماق الوادى الضيق السحيق قد أعمتْه المياه الجارية حتى تعثرت فيه ، وفى الجبل الجليل الهائل يصرخ الصارخ فى بطنه فيُجيبه من كل جنب لسانٌ ولسانٌ . ثم كان من بعد هذا التعبّد أن ابتدعوا آلهة تُشرف على مصادر الخير للإنسان وتبارك فيها . ومن أمثلة هذه إله الحراث ، وهو يزيد فى غَلّة الأرض ويرعى الحصاد ؛ وإله الفول وله من اسمه على وظيفته دليل ؛ وإله الطاحن ويقوم على طحن الحب فيباركه ويرعاه .

ولكنّ قوى الطبيعة ليست كل شىء فى حياة الإنسان . ولكن الحرث والزرع ليسا كلَّ مطالبه من هذا الوجود . فهناك الأسرة ، وهناك الجماعة ، وهناك الأخذ والعطاء بين الناس أفراداً ، وهناك الأخذ والعطاء بين الناس جماعات . أى هناك الوجهة الأخلاقية من حياة الشعوب . وهناك الوجهة السياسية فى حكم الشعوب وعلاقة ما بين الشعوب . فمن يرعى الأخلاق ؟ ومن يرسم للناس أنموذجَ المعاملات ؟ ومن يرعى القانون الذى تصنعه الدولة ومن يُسبغ عليه معنى الحُرمة والثبات ؟ ثم نفسُ الإنسان ذاتها من يهديها فى طموحها العقلى إلى استكناه سرّ الكون وفك ألغاز المعانى ؟ ومن يهديها فى طموحها الوجدانى إلى إدراك معنى الجمال فى الكون وإخراجه من مخابئه للناس مصوَّراً فى الحجر تارة ، وفى المداد تارة أخرى ؟ إذاً فلا بد من آلهة أرق من إله الفول وإله

على العمال ، على أن يكون لهذه المكاتب الحكومية الحق المطلق فى الإشراف على تنفيذ الاشتراطات التى يستخدم بمقتضاها هؤلاء العمال ، سواء فى ذلك من يشتغلون عن طريقها أو من يشتغلون عن طريق متعهدى العمال .

وربما كان مما يساعد على ذلك إعادة النظر فى قانون التشرد والعمل ، إلى أن يعاد النظر فيه ، على تنفيذه بروح من التسامح الاجتماعى تتفق والظروف الحالية ، وتخفف من شدة النصوص الواردة به .

(للبحث بقية) ابراهيم القطريفى

الطَّحين . ويبتدع الفكر الإغريقي صنفاً من آلهة جديدة أو هو يغيّر من صفات آلهة قديمة حتى تكون أشبه بالوظائف الجديدة التي اختيرت لها . فتتجمع عند الإغريق مجموعة لا بأس بها من آلهة عظام يسكنونها مكاناً وسطاً بين الأرض والسماء ، على قمة جبل عال أسموه بالأولمبُس ، ارتفع حتى فات السحاب ، ودخل في الهواء الأزرق الأصفى حتى بلغ الأثير . فهذا مكان الآلهة المختار ، بل هو بلاط إلٰهيّ يتربع فيه رب الأرباب ، الرب الأكبر زَيُوس Zeus ، ومن حوله الآلهة الأُلَى هم دونه ، لكل منهم من بلاط عظيمهم مسكنٌ ومُقام . وكان لهؤلاء الآلهة غيرَ هذا البلاط مساكن أخرى من الأرض ، خاصةً ، يرتادونها ، لاسيما مواطن رعايتهم من شئون الإنسان . ولكنّ أولِمْبُس مرجعهم أجمعين ، ففيها يتشاورون ويتسامرون ، وفيها يُولِمون ويَقصِفون .

وليست هذه الآلهة أرواحاً تُدرك أو معاني تُخال ، ولكنها أشباح ذات أرواح . كأشباح الناس وأرواحهم ، وهم حقائق تُحَسّ ، وذوات تُخاطَب ، فهم كالناس إلا أنهم أجمل وأحكم ، ولهم أرواح غير فانية ، وأجسام إلى الأبد باقية .

وأعطت الإغريق آلهتهم من الجمال بمقدار ما فهموا من الجمال ، فكلما زاد حس الإغريق بالجمال زاد حظ الآلهة من الجمال . وأعطوا آلهتهم من الحكمة بمقدار ما فهموا من الحكمة ، فكلما زاد الإغريق حكمةً زادت الآلهة علماً وزادوا فهماً . فكانت الآلهة كصُوَر المرايا ، لا وجود لها ، ولا ثبات لصفاتها ، إلا بمقدار ما تَعكس عليها صورُ الإغريق أنفسهم من صور للعقل وصور للجمال .

من أجل هذا لعب الفن والأدب الإغريقي دوراً كبيراً في دينهم . وقد قالوا إن الدين الإغريقي خلق الفن والأدب عند الإغريقيين ، أو هو أيقظ ما فيهم من جرثومة للأدب وجرثومة للفن ؛ ولكن أصدق من هذا أن نقول إن فن الإغريق وأدبهم هو الذي خلق دينهم ، فالشعراء والفنانون هم خلقوا الآلهة . وشعر الإغريق شعر جميل لا يَخلق إلا الجميل من المعاني ، وفنّهم فنٌ بزّ فنون القدماء جميعاً . فبهذا الفن الجميل والأدب الجميل خلّد الإغريق ما خلقوا من آلهة ، هنّ أوعيةٌ فوارغ ، أفرغوا فيها من ثمرات الذهن ومُتَع القلوب كل شيءٍ عندهم مستطاب .

والإله الأكبر من آلهتهم ، أو إن شئت فالوعاء الأوسع من أوعيتهم ، كان زَيُوس . فهو إلٰه السماء ، وهو إله الهواء ، وكلّ ما اتصل بهذين من الظواهر والأشياء .



زيوس

فهو إله الشُّهُب ، وهو إله الريح والمطر والندى . ولكنّ أبيَه صفاته أنه إله الرعد . وهو كذلك إله الأرض وما تخرج من نبات . وكيف يُنزل المطرَ ولا يَنزل إلى الأرض ليُشرف عليها وهي تجود بالخيرات والثمرات . فهو إذاً إله الزرع والثمر .

ووصلوا « زيوس » بحياتهم الأخلاقية وحياتهم الاجتماعية

فأنكروا على لسانه اليمين الكاذبة ، والعهد المنكوث . وكانوا في أول أمرهم لا يرون في قتل الأنفس إجراماً كبيراً ، إلا أن يكون المقتول ذا رحم قريبة . ثم يستيقظ إحساسهم لفظاعة الجرم وقداسة النفس الإنسانية ، فيصبح زيوسُ حامىَ الأنفس ، وإليه يرجع الجناة في طلب الرحمة والغفران . وكان الإغريق الواحد يتزوّج الإغريقية الواحدة لا يتعداها إلى الاثنتين والثلاث . وهكذا كان زواج زَيوس بهيرا Hera ، واحداً بواحدة . فهي زيجة السماء انعقدت أنموذجاً لزيجات الأرض . وصار زَيوسُ وزوجه في السماء يرعيان كل عقدة تنعقد في الأرض على هذا المثال . وأدركوا معنى الأسرة في بناء الأمة ، فاجتمعت الأسرة عند مذبح زَيوسَ الرب



مذبح زيوس

تتعبّد ، وتدعو راعى الأسرة أن يديم هناءها ويوثّق رباطها . وهو الذى وثّق واجبات الآباء للأبناء ، وواجبات الأبناء للآباء ، وحقوق هؤلاء وهؤلاء . ومن الأُسَر تدرجوا إلى العشائر ، ومن العشائر تدرّجوا إلى المدينة فزعموها أسرة كبيرة تتصل بوشائج القربى ، فصار للمدائن

آباء من الآلهة . والفروع القَبَليّة الكبرى ، وهي تضمن المدائن ، لها هي الأخرى آباء . فزَيوسُ إله الدورّيون ، وأبولّو Apollo إله اليونانيين . ولكنّ زَيوس أبو أبولّو ، فزيوس إذاً أبو الآباء ، فهو « الوالد الأول » وهو « الإله الوالد » ، لا بالمعنى المجازىّ ، بل بالمعنى الجثمانىّ الطبيعى .

وأدخلوا الآلهة في السياسة يحمون أنظمتها ، ويُقرّون قوانينها . وتقدّم الآلهةَ في هذا الإلهُ الأكبر زَيوس ، وابنته أثينةُ ، وابنه أبولّو . وامتاز الأولان بحضورهما مجالس الدولة ، يُوحيان لأعضائها الحكمة ، ويلهمان رجالها صدق الرأى وسواء السبيل .

أما أُبولّو ، ربّ الرياضة ، وربّ الشباب ، ورب الموسيق والأغانى ، فقد لعب في سياسة الإغريق في كل



أبولو

الأزمان دوراً لم يدانيه فيه مُدان . ذلك بأنه كان ربّ الكهانة وعلم الغيب ، وكانت له المَكهنةُ الشهيرة بمدينة دِلفي Delphi يحج لها السوقة والملوك ، يستنطقون الرب في أمورهم ، ويستوحونه ، لا في شئون معاشهم فحسب ، بل كذلك في كل شأن كبير أو صغير يتصل بدينهم أو سياسة دولهم . وحج إلى هذه المكهنة الأغريقيون وغير الإغريقيين . واستوحاها الإسكندر أيضاً وهو المقدوني . وكانت المكهنة في داخل معبد أقاموه لأبولو . وعلى مقربة من المعبد تمثال هائل أقاموه لرب المعبد . ومن حول المعبد والتمثال أقامت دول الإغريق المختلفة معابد صغرى ، لكل دولة معبد يمثلها ، كانت أمثلةً رائعة من البناء ، وكونت باجتماعها وبما تضمنته من تماثيل ورسوم متحفاً رائعاً من متاحف الفنون .

وما كان صوت الرب إلا صوت الكهنة ، ولكنهم كانوا قوماً عالمين بأمور الدنيا وأمور الدين ، فكانوا في أكثر الأمر موفّقين . فإن لم يوفّقوا ، ففي صيغة الكهانة كان إبهام دائم ولُبس يأذن للسامع أن يفسّره على هواه ، ويأذن للكهّان أن يحتَموا فيه عند اعتذار من خطأ وقع الرب فيه .

وعلى تعدّد الآلهة عند الإغريق ، فالتأمل فيها لا يَعدم أن يتبيّن معنى للوحدة يشبه في قليل معنى التوحيد عند بعض أهل الكتاب . فزوس عندهم إله السماء ، وهو كذلك إله الأرض ، وما الدنيا إلا سماء وأرض . وقد تدخل بألوهيّته في حياة الناس ، من معاشية وأخلاقية وسياسية . ثم قد كان إلى جانبه آلهة أخرى تختص بمناطق من مناشط الإنسان ، وتختص بدائرة نفوذ في الأرض وفي السماء . ولكنه كان نفوذاً محليًّا يخضع للمشيئة الأعم الأشمل ، مشيئة الرب الأكل ، زَيوس . حتى أبولو ، فهذا الذي كان يُوحى به في مكهنته على لسان القسس ، لم يكن إلا صوت زَيوسَ الأب ، به تُنقل إرادته وتُحمل إلى الناس مشيئته . وعدا هذا فالأرباب قد اجتمعت في أسرة ، ليس فيهم إلا ابن أو بنت أو أخ أو زوجة . وفي هذا من معنى الوحدة ما فيه . وغير هذا دليلاً ، صورةٌ وجدت على آنية ، بها ثلاثة آلهة ، زيوس



صورة على آنية قديمة عليها ثلاثة آلهة ، إله الآلهة زيوس ، وإلى يمينه إله بطن الأرض هاديس ، وإلى يساره إله البحر بوصيدون .

في أوسطهم ، وهو يتوجّه بالحديث عن يمينه إلى إله الأرض الباطنة ، هاديس Hades . وإلى يساره إله البحر ، بُوصيدون Poseidon . وقد حمل كل منهم شارته الخاصة . ولكنّه حمل معها شارة البرق أيضاً ، شارة الإله الأكبر ، زَيوس . أعني أن الآلهة الثلاثة اندمجوا في الإله الواحد ، أو أن الإله الواحد تفرق على الثلاثة . فالثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة . وهم جميعاً إخوة لأب واحد . وفي كل هذا من اشتقاق المعاني ، باديها وخافيها ، ما فيه .

واختلف دين الإغريق عن سائر الأديان ، وعلى الأخصّ ما جاء بعده من أديان ، بأنه لم يكن دين دعاية وتبشير ، فلم يَدْعُ أحدٌ إلى دخوله أحداً . بل على النقيض من ذلك ، كان لا يُنتظر أن يستأذن على الآلهة ، وأن يدعو الآلهة ، غيرُ كل إغريقي حرّ مختار . فالتعبّد كان ميزة الأحرار .

واختلف دين الإغريق بأن لم يكن له كتب مرقومة ،

ومبادئ محدّدة مسجّلة معلومة، تَفْرق بين حق وباطل، وبين بياض وسواد. وتلك الحكايات الطويلة المريضة عن الأرباب لم يكن فرضاً أن يؤمن بكل ما فيها الناس. إنما كانت أكثر عناية الدين بطقوسه من دعوات وقرابين. فإلى هذا الجانب السلبي من الدين الإغريقي، إلى تلك الميوعة التي لم تسمح لشيء بأن يتجمد فيها انجماد الصخر، يُعزى تبجّس الفكر الإغريقي من تلك الينابيع الثُّـرّ من الفلسفة التي فاضت تحتّماً في القرن السادس والخامس قبل الميلاد. فالفكر الإنساني، بما قد يأتي به من خير ومن شر، أطلق حرّاً، يفحص ما يشاء، ويُنتج ما يشاء، بلا قيود وبلا رقباء. حتى لصار التفكير الحرّ من صفات الآلهة. من أجل هذا لم يقم بين الدين الإغريقي والعلم الإغريقي، مثلُ ذلك الصراع الأحمر الذي قام بين الدين النصراني والعلم النصراني. وعلى تغلغل الدين عند الاغريق في كل مرفق من مرافق الحياة عند الفرد، وفي كل رُكن من أركان الدولة عند الحكومة، فقد ظل إلى آخر أيامه خادماً لا مخدوماً، ومسوداً لا سيداً. والكُهان كانوا من خُدّام الدولة، ومنها يؤجرون.

ولم يَمُدّ إطلاق الفكر، ولم تمد الفلسفة الحرّة على الفكرة الدينية إلا الخير. فقد اقترب الفلاسفة واقترب الشعراء — والشعراء من ذوي الفكر — إلى معنى الوحدة الإلهية ومعنى التوحيد أكثر مما اقترب رجال الدين. فما أكثر أولئك آمنوا بقوة كاملة شاملة، تعم الكون، «هي في كل مكان، وهي في كل زمان». ومنهم من أسماها زَيُوس. ومن هؤلاء أفلاطون. ومن هؤلاء شاعر الإغريق التراجيدي الأكبر، إسكيلوس Aeschylus. قال في إحدى مآسيه: «لقد وَضَعتُ الأشياء كلها في الميزان، فلم أر فيها إلاه. وزَيُوسُ، مهما يكن من مدلوله ومعناه، فإن كان هذا الاسم أحبّ إليه، فلن أدعوه باسم سواه».

أحمد زكي

مكانة الأدب العربى

بين آداب الأمم

الأدب المعاصر

هذا نظرنا فى الأدب العربى القديم — أعنى ما قبل العصر الحاضر — وتقديرنا إياه؛ فما أدبنا فى العصر الحاضر، وما مصادره، وما وجهته، وكيف ينبغى أن يوجّه؟

صُوَر الأدب العربى كلها مستمرة فى عصرنا هذا: أساليبه الحرة وأساليبه المصنّعة، وموضوعاته الجليلة، ومقاصده الحقيرة. فمن عرف آداب البلاد العربية من المحيط الأطلسى إلى هضبة إيران، وجد من لا يزال يحاكى الأدب العربى الركيك المصنّع المقيد الضيّق، ومن يحاكى الأدب العربىّ فى أسمى عصوره، ولكن الاتجاه العام إلى تحرير البيان وتعميمه.

ونحن نريد أن نعرف خصائص السيرة الأدبية الحديثة التى أدّى إليها التحرر من القيود، والسمو إلى المُثُل العليا لا الصور التى أورثها التقليد والعجز.

التقدم الأدبى، أو النهضة الأدبية، أو الأدب الحديث، على اختلاف الأسماء، له مصدران: الأول استمداد الأدب العربى العالى الذى أنتجه العرب فى جاهليتهم وفى عصور مجدهم بعد الإسلام، والخروج على الحدود والقيود التى ضيّقت الأدب وقيّدته فى عصور الضعف والجمود والتصنع.

وكان رائدُ هذه السيرة، شعراء وكتاباً حاولوا أن يرجعوا بالأدب إلى عهوده الزاهرة، فحاكوا القدماء فكانوا مقلدين، ولكن يقلدون الأحرار المجيدين. ثم خلفهم شعراء وكتاب مجتهدون مخترعون؛ واستقام الناس على الطريق.

والمصدر الثانى للأدب العربى العصرى الأدب الأوربى؛ فقد اطلع العرب على ثقافة أوربا منذ أوائل القرن الماضى واستفادوا منها، بجلب المعلمين إلى البلاد العربية، أو بإرسال الطلاب إلى أوربا، أو بالترجمة؛ ويضيق المقام عن تأريخ اتصالنا بالغرب وتأثيره فى معارفنا عامة وآدابنا خاصة.

نشأ فى مفتتح هذا العصر الأدبى جماعة أجادوا الشعر وأحسنوا الإنشاء، على أسلوب أدباء العرب القدماء، مثل الساعاتى والبارودى من الشعراء، والأفغانى ومحمد عبده من الكتاب، فمهدوا الطريق لتابعى الشعراء والكتاب فى مصر والعراق والشام.

ونشأت جماعة نقلت إلى أدبنا طرائق الأدب الغربى وموضوعاته، ولا سيما القصص؛ وكان طلائع هؤلاء فى الشام، ثم اقتدى بهم أدباء مصر والعراق، فترجم كثير من القصص الغربية، وأنشئت قصص أخرى؛ وعالج الشعر كثيراً من الموضوعات الاجتماعية على نسق الشعر الأوربى، وتسرّبت إليه أخيلة ومعان أوربيّة. ومن يطّلع على مجلاتنا ويتأمل فى عناوين القصائد ير فيها كثيراً مما لم يألفه تاريخ أدبنا.

ومن المطلعين على آداب أوربا جماعة لم يؤتوا نصيباً من الأدب العربى، أو لم يحكموا فهمه ولا عرفوا تاريخه، فحاولوا أن يقلدوا شعراء أوربا وكتابها بغير زاد من لغتنا وأدبنا، فكانت محاولاتهم ترجمة لفظية مذبذبة بين العجمة والعروبة، ونقلوا المعانى الأوربية مريضة أو ميتة، فى ألفاظ لا تبين إلا عن مرض المعانى أو موتها. ولا يتسع المقام للبيان، فأَكِلُ القراء إلى علمهم بهذا.

ثم الأدب مضطرب فى هذا العصر مذبذب لم تتضح له الوجهة، ولا استقامت له الطريق، فكيف ينبغى أن يوجّه؟

لنا دعوة إلى أدباء هذا العصر، نعمّ بها كل المتأدبين، ثم نخص بها أئمة الأدب الذين يقتدى بهم الجيل ويسير حيث يسيرون، والذين هم أهل لاحتمال أعباء الإمامة وهداية السبيل، وجديرون بوضع قواعد للأدب وخلق

سنن له . وإنى أجمل هذه الدعوة فى الأمور الآتية :

١ — أن يتزودوا ما استطاعوا من المعارف عامة ، والآداب خاصة . فيجيدوا درس الأدب العربى وتاريخه ، ويطلعوا ، جهد الطاقة ، على آداب الأمم الأخرى الشرقية والغربية ؛ فليعرفوا طَرَفاً مما أبدع الأوربيون فى آدابهم ، ولا ينسوا أن يتوجهوا شطر الشرق أيضاً — ولله الشرق والغرب — ليعرفوا الصفحات المتلألئة فى آداب الفرس والهند والترك وأمم الشرق الأخرى . ولست فى مقام التفصيل ، ولكنى لا أجد مندوحة من الإشادة بالأدب النفسى القلسفى الذى يسمى الأدب الصوفى ، والذى برَّز فيه الفرس وبلغوا فيه الأوج ، وارتقى أثرهم بعض الترك والهند . وقد مزجه بالثقافة العصرية والفلسفة والتاريخ العربى والإسلامى الشاعر العظيم المرحوم محمد إقبال ، فأوصى أدباء العرب أن يقبسوا من هذا الأدب أيضاً .

٢ — والأمر الثانى الذى أدعو إليه أدباء العربية أن يكونوا فى اطلاعهم على الآداب الأجنبية واقتباسهم منها مجتهدين لا مقلدين ، بصيرين بما يؤخذ وما يترك ، معتدين برأيهم ونقدهم ، يقولون هذا جيد وهذا ردىء ، وهذا يصلح لنا وهذا لا يصلح . ولا يكونوا كمن سال بهم سيل الفتنة فلم ينفعوا أممهم ولا نفعوا أحداً من البشر . وكفى ما أفسد التقليد من أمورنا .

٣ — والثالث أن يخرجوا القرّاء العربية من هذه الثقافة الواسعة أدباً عربياً ، فائضاً من شعورهم ، نابعاً من سرائرهم ، كأنما أوحيت إليهم مادته وصورته وحياً ليس لأحد فيه مشاركة ولا إرشاد ؛ كالشهد يسلك له النحل كل سبيل ، ويرشف كل زهرة ، ثم يُعمل فيه لسانه ويده وجناحه ، فإذا هو « شرابٌ مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » .

٤ — والدعوة الرابعة أن يجعل الأدباء مسرح عيونهم ، ومسبح خيالهم ، ومصدر شعرهم سماءنا وأرضنا وبيئتنا وتاريخنا ، وآلامنا وآمالنا . وكم فى هذه المسارح من مواقف للشاعر والناثر ، ومقامات للضاحك والباكى ، والجذل والشاكى . كم فى الماضى والحاضر من مسرح للعقل والقلب ، وكم فى المستقبل من مطمح للفكر والوجدان .

٥ — والخامس أن يقدر أدباؤنا الواجب الذى احتملوه ، ويعرفوا العبء الذى وضعه على كواهلهم الزمان ، ليعلموا أن هذا الجيل قد خُلق فى معترك الخطوب ، وملتقى الأبحر من حوادث الدهر ، وأن عليهم أن يضعوا قواعد أمة ، ويخطّوا تاريخ أجيال ، ويُنشئوا مجد عصور ، وأن عليهم أن يخلقوا المثل العليا ، ويبيّنوا الغايات القصوى ، وينيروا بأشعتهم الراقى إلى هذه المثل ، والسُّبلَ إلى هذه الغايات ، ثم يجعلوا أناشيدهم حُداء هذه القافلة ؛ فكلما ابهمت الغاية أبانوها ، وكلما أظلمت السبيل أناروها ، وكلما نادت بالقافلة الأعباء ، أو بعدت عليها الشقة ، أو نال منها النصب ، أوحوا إليها من الأمل والطموح ، والدأب والصبر ما يكفل أن تشقّ أصعب المسالك إلى أقصى الغايات .

ذلكم يا أدباء العرب نصيبكم من أمانة التاريخ ، وجهاد الحاضر ، وأمل المستقبل ؛ فجنِّبوا كل معنى رخو مترف كسول ، وكل فكرة ماجنة دنيئة ؛ جنبوا هذه النفثات التى تهبط بالشباب الطامحين من قمم الطموح والجهاد إلى حضيض الدعة واللهو والاستكانة . وانفخوا فى أدبكم ضوء النار وحرّها ليسموّ بالنفوس الخامدة ، ويطير بالقلوب الهاجدة إلى سماء الفضيلة ومطامح المجد العُليا .

لا تقولوا : « الفنّ للفن » ، ولا تسوّوا بين النحلة طائرة جاهدة لتعسّل ، وبين الجُعَل يقلِّب بين القاذورات دحروجته ، وإن كان كلاهما عاملاً لفنه . إن جاز أن يكون الفن للفن فى غير نظر إلى الأخلاق والجد ، فى عصر أو فى أمة ، فما يلائم هذا أمتنا هذه ، فى عصرها هذا ، فى أحوالها هذه . فإما أن تحسنوا قيادتها فى معتركها إلى آمالها ، أو تخلّوا الزمام فلستم له أهلا .

عبد الوهاب عزام

في الأدب العربي :

العصا أم القضا ؟

منذ أشهر كنتُ أدرُس حياة « أسامة بن منقذ » ، وكتبتُ عنه مقالات تحت عنوان « فارس كنانة » ، ورأيتُ إذ ذاك أن الأستاذ « فيليب حِتّي » عند نشره كتاب « الاعتبار » عدّد كتبه وقال إن منها كتاباً اسمه « العصا » ، ورأيت أن الأستاذ الفاضل أحمد شاكر عند نشره كتاب « لباب الآداب » عدّد أيضاً كتب أسامة ، وقال إن منها كتاب « القضا » ، وقال إن الأستاذ فيليب حِتّي سمّاه كتاب « العصا » وهو خطأ ، وصوابه « القضا » .

وجرتْ إذ ذاك بين الرأيين ، هل اسم الكتاب « العصا » أو « القضا » ؟ ورجحت أن يكون « العصا » لأنها أنسب لحياة الفارس ، وهو بعيد عن حياة القضاء ، فبعيد أن يؤلّف فيه ؛ وقلتُ : لعل الأستاذ الشيخ شاكراً إذ كان قاضياً وله اتصال وثيق بالقضاء ، وتعوّد نظره قراءة كلمة القضاء ، أكثر من تعوّده العصا رجّح الرأي الأخير ، وخطّأ الأول ، أو لعل له حجة لم يظهرها .

ومرّت الأيام ، ومررتُ على ورّاق في الأسبوع الماضي أبحث فيما عنده من الكتب ، وشريتُ منه ما شريت . وكان عنده كمية من الورق (الدشت) ، — ولا أدرى ماذا يسمى ذلك في اللغة الفصحى — فطلبتها ، فأعطانيها .

واليوم أخذتُ أقلّبُ فيها فوجدتُ أوراقاً شتى من كتب لم أدر ما هي ، ورسائل صغيرة بعضها قيّم جداً ، لعل أحدّث القراء حديثاً آخر عنها . ورأيت كراسة صغيرة كُتبَ عليها « كتاب العصا لأسامة بن منقذ » ؛ ومع الأسف استطعمها الفيران فأكلت أطراف بعض ورقها ؛ وهي تقع في ثلاثين صفحة ، لعل من الطريف أن أصفها للقراء .

لقد وضع الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلاً سمّاه « كتاب العصا » ، وهو يدور على الشعوبية الذين عابوا على العرب اتخاذهم في خطابتهم على القناة والعصا ، وقالوا : « ليس بين الكلام والعصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر ويعترضا الذهن أشبه . . . وحمل العصا بأخلاق الأكرة والرعاة أشبه ، وهو بجفاة الأعراب وعُنْجُهيّة أهل البدو أشكل » الخ . فرد عليهم الجاحظ في كلام كثير واستطراد طويل قولهم ، مبيّناً مزايا العصا ومحاسنها ، مستشهداً بعصا موسى ، وعصا سليمان ، موضّحاً منافع العصا ، وفيم تستخدم ، وم تؤخذ خيارها ؛ وأن العصا للخطيب تأهب للخطبة ، وتهيؤ للإطناب ، فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيدياً أخرى ، وهي أوقع في نفوس السامعين ، وعون للخطيب على الإفاضة ، كالرايات في الحروب والأعلام ، والقلانس للقضاة ، والقناع للرؤساء والعظماء ، وآلات الموسيقى للمغنّي ، وكإشارات المتكلم برأسه ويده ، وتقطيعه ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني ، إلى مثل هذا .

أما رسالة « العصا » لصاحبنا أسامة ، فقد بدأها بسبب تسميتها عصا ، قال : إنما سُمّيت العصا عصاً لصلابتها ، مأخوذ من قولهم : عَصَّ الشيءُ صَلُبَ ، وعَصِيَ الشيءُ وعَسِيَ إذا صلب — والعصا : الجماعة ، يقال شقّ فلان عصا المسلمين ، أي جماعتهم ؛ وفي الحديث : « إيّاك وقتل العصا » ، يريد المفارق الجماعة فيُقتل . الخ .

وأول من خطب على العصا وعلى الراحلة قس بن ساعدة الأيادي ...

والعرب تقول : فلان ممن قُرِعَتْ له العصا ، إذا كان يرجع إلى الصواب ، وينقاد إلى الحق ، ويستقيم عن زيغه إذا نُبِّهَ .

وتقول : فلان صلب العصا ، إذا كان ذا نجدة وحزامة .

وتقول إذا تفرّقت الخُلطاء ، واختلفت آراء العشيرة ومَرِج الأمر : انشقّت العصا .

وتقول للمسافر إذا آب واستقرّت به داره : ألقى عصا التّسيار .

ثم أخذ يروى مختارات من الشعر والنثر ، مما جاء فيه العصا ؛ فالحجاج قال : والله لأعصبنّكم عصب السَّلَمَة ، ولألحونّكم لحو العصا ، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل .

والمتلمّس يقول :

لِذِى الحِلْم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصَا
وما عُلِّم الإنسانُ إلّا ليعلَمَا

وقيس بن ذَرِيح يقول :

إلى الله أشكو نيّةً شَقّتِ العصـا
هى اليوم شَتّى وهى أمس جميعُ
مضى زمنٌ والناس يَسْتَشْفِعُون بى
فهل لى إلى لُبْنَى الغداةَ شفيعُ

والعرب تقول : فلان شقّ العصا إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة .

ومهيار يقول :

يا ، قصرَتْ يدُ الزمانِ شدَّ ما
تَطُولُ فى نَكْبِى وفى نقضِ المِرَرْ
عَصًا شظايًا ومشيبٌ عَنَتٌ
ومنزلٌ نَهْبٌ وأصحابٌ غُدُرْ
وصاحبٌ كالداء إن أبديته
عُوِّرَ وهو قاتل إذا أُسِرْ

ثم يذكر فصلا فى أحداث حدثت تدور حول العصا ، كالذى روى أن قتيبة بن مُسْلم لما تسنّم منبر خراسان سقط القضيب من يده ، فتطيّر الصديق ، وتفاءل العدو ، فقال قتيبة : ليس الأمر كما سرّ العدوّ وساء الصديق ، بل كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى
كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وقصّ قصصاً نجته فيها العصا من الموت ، وهو فى قلعة شيزر ، إلى نحو ذلك ؛ ولعل أطرف فصل فى الرسالة هو الفصل الأخير ، وهو أطولها وموضوعه «عصا الكِبَر» وقد ظهرت على المؤلف عاطفة الحزن والأسف على ما اعتراه فى كِبَرِ سِنّه من ضعف بعد قوة ، وحمل العصا بعد حمل السيف . وقد ألف الرسالة وهو كبير السن ، فأكثر من إيراد الشعر فى هذا المعنى إنشاءً وإنشاداً ؛ فمن ذلك ما رواه قال : أنشدنى العميد أبو الحسن بالموصل سنة ٥٢٦ :

ما زلت أركبُ شاكلاتِ الرَّبْرَبِ
حتى مَشَيْتُ على العصا كالأحدب
أزِيد ثالثةً وأقصرُ عن مدَى
مشىِ اثنتين ؟ لقد أتيتُ بمعجب
والميْتُ لو بلغَتْ سنُوه مدَى
أو قاربَتْ ، أمسَى فريســةَ ثعلب

وأنشدنى القاضى الرشيد أحمد بن الزبير بمصر سنة ٥٣٩ :

تقوّسَ — بعد طول العمر — ظهرى
وداستنى الليالى أىَّ دَوْسِ
فأمشى والعصا تمشى أمامى
كأنّ قوامَها وترٌ لقوسى

ويقول هو نفسه :

حنانَىَ الدهر وأفـ ـنتنى الليالى والغِيَرْ
فصرتُ كالقوس ومنْ عصاى للقوس وَتَرْ
أَهْدِجُ فى مَشْيِى ، وفى خَطْوِى فتورٌ وقِصَرْ

كأنى مقيَّـــدٌ وإنما القيدُ الكِبَر
والعمر مثل الماء فى آخره يأتى الكَدَر

وقال :

أصبح كفّى مالكاً لعصا
من بعد حمل الأسمر الذابل
أمشى بضعف وانحناءٍ على
عصاى مشيَ العائذِ الحائل
كأننى لم أمش يوم الوغى
إلى نِزالِ البطل الباسل
ولم أشقّ الجيشَ لا أختشى
من الرَّدى كالقَدَر النازل
فانظر إلى ما فعل العمر فى
من طوله لم أحظ بالطائل
ياحسرتا إنى غداً ميّتٌ على فراشى ميتة الخامل
هلاّ أتانى الموت يوم الوغى بين القنا والأسَل الناهل

وقال :

حملتْ رِجليَّ فى السَّهل العصا
وأنا فى رجلين حاولتُ الحُزونا
وإذا رِجلِيَّ خانتنى فلا
لَوْمَ عندى للعصا فى أن تخونا

قال : وأنشدنى الأمير السيد شهاب الدين العلوى الحسينى بالموصل سنة ٥٦٥ لبعض المغاربة :

ولى عصاً فى طريق الشَّيب أحمدُها
بها أقدّم فى تأخيرها قدَمى
كأنها وهى فى كفّى أهشّ بها
على ثمانينَ عاماً لا على غنمى
كأننى قوسُ رامٍ وهى لى وَتَرٌ
أرمى عليها رماةَ الشَّيب والهَرَمِ

ولعل فى هذا القدر كفاية فى إثبات أن الكتاب فى « العصا » ، لا فى « القضا » ؛ ولعله يدعو إلى التفكير فى إصلاح الكتابة التى تخلط بين العصا والقضا .

أحمد أمين

فردينان Ferdinand

خلاصة ما تقدم :

فردينان شاب يجمع في نفسه الأضداد ويؤلف فيها بين خلق أبيه وخلق أمه ، فهو طائش رشيد ، متلاف مقتصد ، دفعه الطموح إلى السرقة ، ودفعه الحب إلى المزيد ، لكنه سرعان ما تحمله غيبة الخيبة إلى التفكير ، فالندم ، فالعزم على الإصلاح . ويعهد إليه أبوه في عمل تجارى ظفر به عنه لأنه سوف يعينه على الإصلاح ، وتتهيأ له الظروف المواتية من نصح صديق وقرب فتاة صالحة رضية .

لكن فردينان كان يذكر دواما حنو أوتليا وحبها ؛ فلم يفطن في الفتاة الريفية إلا إلى أنها مدبرة رشيدة ، تصلح أن يتخذها لأوتليا مدبرة بيت ومشيرة . فكان لطيفاً معها يرد على رقتها بأرق منها ، فإذا عرضت مناسبة أثنى عليها وأطرى خلقها . وقد زادته الأيام علماً بها وتقديراً لها ، فضاعف التفاته نحوها ، فما شكت الفتاة وما شك عمها في أن له عندها مأرباً ، فزاداه تلطفاً .

ومضى فردينان في مشروعه التجارى ، وعاونه صديق الأسرة على إنجازه . وأثمر المشروع ، وأفعمت نفس فردينان غبطة بهذا النجاح ؛ وهل أسرّ للنفس من القدرة على الإصلاح ، والنهوض بعض سقوط ، والسمو عن الحضيض . والضال بطل وأهل للثناء إذا اهتدى ؛ والسماء حفية بالأثيم المنيب أكثر من حفاوتها بالمعصوم الذى لم يأثم .

لكن فردينان على الرغم من نباته وإصلاحه لم يسلم من عواقب عمله ، فكان الإعصار الذى ينتظره يتجمع في غيبته ليعصف به عند أوبته .

ولم يكن والد فردينان كما نعلم رجلا دقيقاً فيما يتصل بدخله أو خرجه ؛ فكان يأخذ وكان يردّ من دون حساب ، لكنه كشف في ذات يوم أن قرطاساً بعينه يحتوى نقداً أجنبياً ربحه في الميسر — كشف أن هذا القرطاس ضائع . وتنبه بهذا إلى أن قراطيس أخرى قد كان أقرضها صديقاً ثم استردها ، ليست كذلك موجودة . فثارت شبهته ، وطفق يرمى بها القريب والبعيد ، ويحملها الخدم والأولاد ؛ وراح يهزم في بيته كالرعد ، ويهدر كالبعير .

ولكن زوجته الرشيدة العاقلة نبهته إلى أن ذيوع الخبر لسيئ إلى بيته ويعرضه للأخطار . فليكتمن هذا الأمر ما استطاع فلعلها مهتدية إلى الفاعل قبل أن يعلم الناس .

وكانت عمة أوتليا قريبة ، وقد علمت بما بين فردينان وابنة أخيها ، وعجبت من نفاسة هداياه إليها ، وحدست في علاقتهما ما يوجب القلق ، وظنت فيها الظنون . وإذ كانت ممن يؤثرون اليقين على الشك ، وكانت تتوقع عودة أوتليا في كل لحظة ، وتعلم أن فردينان كذلك وشيك الرجوع ، ذهبت إلى أسرته تسأل هل يوافق أبواه على زواجه من أوتليا وهل بات هو لذا موردا .

فدهشت الأم — أم فردينان — لهذا القدر من الرواية ، فلما حدثتها العمة عن الهدايا أجفلت في نفسها إجفالا شديداً ، لكنها اصطنعت الغبطة بالزواج المعروض ، وطمأنت السيدة من ناحية فردينان ومركزه ، ثم استمهلتها وقتاً للتفكير .

واستصوبت الأم أن تكتم هذا الأمر عن زوجها ؛ وكان كل همها أن تتحقق هل ابتاع فردينان هداياه بالمال المسروق . فقصدت إلى التاجر الذى باع له واستعرضت بعض حليه ، واستفسرت عن الثمن ؛ فلما أخبرها به تظاهرت بأنه غال ، على حين أن ابنها حصل منه على مثله بأرخص من ذلك . فقال التاجر : حقاً كان هذا !

لكن العملة التي اشترى بها أنها كانت عملة نادرة . فوضح الخبر وتحققت الأم الآن أن السارق هو فرديناند .

عاد فرديناند منشرح الصدر بتوقع الإطراء ، وأن يكال له الثناء ، ويترقب أن يعقد الصفقات التي تعوض ما سرق وتمحو ما اقترف .

وأثنى أبوه على تجارته ولكنه لم يكن الثناء المستطاب ، ذلك أن أباه كان ربما شارد الفكر آسفاً على ماله المفقود . وكان يزيد في تبرمه وتشتت فكره أن ديناً عليه استحق الأداء ولم يجد إلى أدائه سبيلا .

وأحزن فرديناند ما وجد في نفسية أبيه وأرهقه فوق إرهاقها شهود فعلته : حيطان المكتبة وأثاثها والمكتب ذاته ، فذهبت بهجته ، كما يذهب الزبد جفاء ، وتبددت آماله ومطامحه هباء . وأحس نفسه التي سمت بتكفيرها تهبط من حالق ، وأنه لم يعد الرجل الطيب الذي ظن أن يكون .

وأراد أن يبرح المكان فأومأت إليه أمه أن ابقى ، وباغتته بقصة الصندوق « صندوق أبيه » وأخذت عليه طريق الإنكار ؛ فاعترف لها جاثياً على ركبتيه ، وأخبرها أنه بسبيل الإصلاح والتكفير ، وأن التوبة خليقة بمحو الجريمة التي اقترفها . وسألته أمه ماذا فعل بكل المال المسروق ، وأذهلها أن يسمع منها أرقاماً لم تدر بخلده ولم تمتد إلى أصلها يده . ولم تنفع مع أمه أيمانه ولم يجده إنكاره ، بل ظلت الأم تعتقد أنه سارق الجميع ، وأن من يسرق الواحدة كفء لأن يسرق الأخرى ؛ وأن التجارة التي زاولها قد تكون من المال المسروق ، وأن أصحاب السوء الذين رافق قد يكونون شركاءه في المال المسروق .

وتوعدته أمه إن لم يعترف بكل شيء ليبوءن بغضبها وغضب أبيه ولتعلمن السلطة أمره . وسائل هو نفسه كيف يقنع أبويه بأنه لم يأخذ كل هذا المال ، ورأى ما قدم لحياته المستقبلة ينهار ، وما رجا من زواجه من أوتليا يخيب .

بيد أن هذا الذي شتت فكره وجرح كبرياءه وأهان حبه لم يكن أبلغ ما آلمه ؛ إنما كابد فرديناند أشد العذاب من رؤية قصده معكوساً ، وعزيمته على الإصلاح منكوراً هذا النكران .

لكن فرديناند سرعان ما تبين أن الخطيئة تقعد للجهود الطيبة بالمرصاد لتحبطها ، وأن اللطخة العالقة يتم عليها الأثر الباهت مهما يعمل لإزالتها ، فخارت عند ذلك قواه وسئم الحياة .

وهوى فرديناند على مقعد بطله من قبل بدموعه ، وناشد فرديناند السماء أن تعينه ، وهو التائب المنيب الحقيق بعطف الأقدار ، والمفرط النادم الطامع في رحمة الله .

واستغرقته صلاته فلم يفطن إلى الباب يفتح وإلى أمه تدخل متهللة وتقبل عليه تقول : « يابني ! إنه ليسرني أن أتبين صدقك واستشعر ندمك . فالذهب الذي افتقده أبوك قد وجده عند صرافه ، والمال الناقص قد تعهدت برده » .

فأدخلت كلمات الأم السكينة على قلب فرديناند ، وبات يؤمن بأن في مقدور المرء أن يريد الخير وأن يتمه ، وأنه عشية الخير وضحيه يكسب المرء عطف ربه وعونه .

وضاعف غبطة فرديناند أن رضي أبوه عن خطبته لأوتليا ورحب بزواجه . وإذ رتفع عن كاهله عبء الجريمة وينطلق من قيودها يأخذ في التفكير في مستقبله ، ويترقب بفارغ الصبر عودة حبيبته .

وإنها لتعود آخر الأمر ، ويهرع إليها ليراها أجمل مما اعتاد أن يراها . وإنه ليترصد الساعة التي يفاتحها بحديث القلب ، ويهتبل الفرصة إذ تحين ليقبل عليها بعطفه ورجائه وأمنيته ، إذا بها متجيبة لا تكترث لقوله بل لعلها كانت تسخر منه ، وتمجن معه ، وتتصوره وإياها في حياتهما المنتظرة من رعاة الأغنام .

ووجم فردينان وارتد إلى نفسه يراجعها وقد جعلت تنضح بالمرارة بعد إذ كانت تذوب حنواً . فاشمأز من مسلكها ، وأحس عاطفته تجمد نحوها ، فجعل يتقصى هناتها ويتلمس أخطاءها . ولم يحتج إلى كثير من البصيرة ليتبين أن ابن عم لها قد جعل يسترعى انتباهها ، وأنه يفوز بقسط كبير من ميولها .

وفقدت أوتليا تأثيرها على فردينان ، وانفك سحرها ، ووضح رياؤها وقدرتها على اصطناع الرقة آونة ، والجفوة أخرى ، وأنها تكون فاتنة حيناً منفرة حيناً ، فاعتزم أن يتخلص منها قليلا قليلا ، واستقر رأيه على قطع الخيط الأخير .

لكن الخيط الأخير على وهيه لم يكن هيناً قطعه ، فقد وجدها وحدها ذات يوم فعاود حنينه إليها ، فذكرها بوعدها ولحظات عمرت بأمانى المستقبل . فتلطفت معه ورقت له ، فأقبل عليها من جديد يكاشفها بمشروعاته لكنه عبثاً تلمس عندها الميل إلى هذه المشروعات والاكتراث لها .

وأحس فردينان أن ليس من خير يرجى فى هذه العلاقة الموصولة المقطوعة . وكان خليقاً أن ينصرف عنها وأن يقطع فيها برأى . بيد أنه انصرف متردداً مزعزعاً ؛ ذلك أنه لم يكن من الهين عليه أن يتحرر من مفاتنها وهى كثيرة . وكان شىء واحد كافياً لقطع الخيط الأخير الذى لم يكن هيناً قطعه ، ذلك هو الألفة التى نسبها بين أوتليا وابن عمها ، وقد كانت ألفة من النوع الذى لا يطيق غيره إلى جانبه .

لكنه عاد يتردد وكتب إليها يخيرها بين أن تبعه أو تحله من وعده . وكانت قد اختارت !! فردت عليه فى لغة ذات وجهين ، ردت إليه وعده واحتجزت قلبه ، فهى ما تزال مرتبطة به ، طليقة مع ذلك منه .

وعجل فردينان بالعودة إلى مقامه الجديد ، وحزم أمره واتخذ الفتاة التى تصدر فى كل شىء عن سجيتها زوجاً له .

***

لقد عرفت فردينان فى السنوات الأخيرة رب أسرة مهذبة عديدة . وقد قص على قصته وتبينت طابعها القوى فى نفسه ، ويدهشنى منه أشياء وأشياء . فهو يعف عن الشىء حيناً لا صبر عليه من تناوله ، وكان فى هذه العفة حريصاً على الفضيلة فى ذاتها ، لا تأثراً من شىء يغاير هذه الفضيلة . كذلك رأيته يعوّد أولاده على أن يكفوا أحياناً عما يغرى بالإقبال . وقد أخذته مرة بأمر لم يرقنى بادى الرأى ، فقد حرم غلاما صغيراً من أطفاله من تناول لون من أحب ألوان الطعام إلى الغلام . ولشد ما أدهشنى ألا يتمعض الغلام لهذا الحرمان ، وأن يظل محتفظاً بابتهاجه . وكذلك كان إخوته الكبار كثيراً ما يحرمون بفاكهة مشتهاة من الكرم ، فلا تمتد أيديهم إليها ، ثم هم مع ذلك يسمح لهم بكل شىء ، فاليت يضج بعبثهم وجدهم ويزخر بحماقتهم ورشدهم .

كان فردينان يلوح وكأنما لا يكترث لشىء من عمل أولاده ، وكان يطلق لهم الحرية لا تعرف كابحاً ولا زماما . ثم إذا به فجأة يروم أن يسير كل شىء فى مثل دقة الساعة ، فإذا بساعات الأولاد مضبوطة كلها فى اليوم التالى ، يتلقى كل منهم أمره مما ينبنى عليه فى فراغه وشغله ، فلا يتخلف منهم أحد عن واجب وكل إليه أداؤه .

كان فردينان يقضى الساعات الطوال فى تبرير هذا اللون الغريب من التربية . وكان فى صفوة أقواله يزعم أن على المرء أن يفرض على نفسه القناعة وعلى غيره الطاعة ، لا ليكونا ديدنه على الدوام ، بل ليستطيع ضبط النفس وضبط الغير فى الحين المناسب ومتى شاء .

محمود الدسوقى

خطاب لشوقي بك

[الأستاذ محمد كامل سليم بك ، له في الأدبين العربي والإنجليزي مكانة ممتازة ؛ وهذا هو الذي جعل الزعيم سعد زغلول يختاره سكرتيره الخاص .

وقد عثرت لمرثيه — فيما عثرت — على : نداء للأمة أيام المطالبة بالاستقلال ؛ ولولا الحرب ولهيبها لنشرت هذا النداء .

كما عثرت على خطاب من المرحوم « شوقي بك » « للأستاذ كامل سليم » ، عقب وفاة المرحوم « سعد بك زغلول » ؛ ولعل في نشره ذكرى لأمير الشعراء ، وإثارة للأستاذ ، لعله يخرج عن صمته] .

« عبد الرحمن »

أغسطس سنة ١٩٢٣

عزيزي كامل :

بينا القلب في ذكراك ، والروح مشغولة بك ، والخاطر يسأل عن أمرك ، إذ أتحفني البريد بكتابك ، فوقع في القلب ، وامتزج بالروح ، وملأ الخاطر . ووالله لولم تكتب لما اتهمك هذا الثالوث ، الذي خلقه الله ألوفاً وفياً ، يعلم أين يضع المودة ، ويعرف كيف يحفظها .

كان قلبي مع قلوبكم فيما دهاها من مصرع سعيد ، ولعلك يا كامل لاتعلم أنه كان من رواة شعري ، وكان من قلبي في مثل منزلتك ، لأدبه وخفة ظله ولطف خلاله . ومن عجب الأقدار ، أني لقيته هو وعلى الشمسي في مصر وهما يتأهبان للسفر ، رفيقين لايخطر لهما الموت الفرق على بال ، فكان في تلك الليلة أنق ما كان بي ، وأحسن ماعهدته بشراً وبشاشة ؛ ثم سافر وسافرت . فبينا أنا في القطار الذي يوشك أن ينتقل من مرسيليا إلى باريس ، وأنا مطلٌ من النافذة ، إذا على الشمسي قد حضر ، وكان بالمحطة في بعض الشؤون ، فحياني ثم نعى لي رفيقه بالأمس ، وأنبأني أنه آيب به حقيبة في رحاله ، وكنزاً في صندوقه ، قد عهد إليه أن يردها إلى تراب الوطن . شجاني النبأ وهاجتني روعته ، فجيء الدهر فارتجلت القوافي

من بجاءاته وخطف ارتجاله

فرثيت سعيداً بقافية هذا البيت منها وفي أولها أقول :

آل زغلول حسبكم من عزاء ... سنة الموت في النبي وآله
حل الرزء منكم في سعيد ... بلد شيخكم أبو أحباله

ويدخل في ذلك ، حقيبة في رحاله ، عند تصوير العظمة وتمثيل العبرة وشرح واقعة الحال .

ولم يبق إلا أن اختار الجريدة التي تنشر رثائي في سعيد . وإذ كنت على أهبة العودة إلى مصر في أغسطس هذا ، وسطه أو أخرياته ، فإن رأيتَ أن أبعث بها إليك لترسلها إلى الأهرام فعلت . وعلى كل حال فإني أحب أن أعرف الباخرة التي عقدتم العزم على السفر عليها ، لعلى آخذها أيضاً أنا وحسين ، وأنت تعلم أنه يحبك كما أحبك ، وهو بجانبي وأنا أكتب هذا يقبل وجنتيك ، ولولا شعرك الفاحم لقلت يقبل يديك .

(شوقي)

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

من هنا وهناك:

سؤال

يسألني الأديب « جمال سالم » عن المقصود « بالكامونلاج » Camouflage في الحروب الحديثة ، وعما إذا كان يدرس للجنود والضباط في المعاهد الحربية كعلم له أساتذته وقوانينه ، ومن له قواعده وأساليبه .

والواقع أن كلمة « كاموفلاج » (وهي فرنسية الأصل) أصبحت لها في حروبنا هذه معنى خاصاً ، وأدرجت بين مفردات اللغات الأوربية جميعها . وقد أريد بها فن يمتاز من باقي الفنون الحربية الأخرى بسعة مجاله ، وتعدد صفاته . وقد بني هذا الفن على طريقة التقليد ، وفيها يحاكي الإنسان الطبيعة ومخلوقاتها ، ويقتبس منها بعض الأحكام التي أبدعتها لصون كيانها ؛ فهناك ألوف مؤلفة من الحيوانات ترعى وتعيش في الخلاء ، وملايين من الحشرات تدب على الأرض ، وكلها أو معظمها عزل لا سلاح لها سوى ما وهبها الله من هذا الفن ، فن الاستتار عن أعين أعدائها حرصاً على حياتها ، وحفظاً لبقائها .

راعت الطبيعة الصغير قبل الكبير ، والحقير قبل العظيم ، ولم تهمل من شأن مخلوقاتها شيئاً ؛ فوهبت كل حيوان وكل حشرة غطاءه الخاص ، ليكون له حجاباً يخفيه عن الأنظار ، ويلائم الوسط الذي يحيا فيه والمكان الذي يرتزق منه . فالدب القطبي مثلا لونه أبيض ناصع كلون الثلج المحيط به ، والضفادع وما شابهها من الحيوانات تأخذ لون الرمل أو المزارع التي تحيا فيها ، وقديماً قال العرب : « ما أشبه حجل[1] الجبال بألوان صخورها » ؛ فمن هذه الحيوانات درس العلماء فن الاستتار ، درسوه على يد الطبيعة ، وازدادوا علماً من أحكامها وقوانينها ، ثم أتوا إلى ميادين العمل ومعهم ذخيرة ثمينة من العلوم الخاصة بالمملكة الحيوانية ، ثم طبقوها فجاءت بنتائج حسنة وبشرت بنجاح باهر .

إن « الكاموفلاج » ، أو فن الاستتار ، عكس السراب على خط مستقيم ؛ فالسراب يخدع الإنسان برؤية أشياء لا وجود لها في عالم الحقيقة ، أما « الكاموفلاج » فيرمي إلى إخفاء الأشياء التي لها وجود وتعميتها عن العين البشرية أو العين الفوتوغرافية . وهو في ذلك يستخدم طرقاً صناعية وأساليب فنية تكفي لإيهام الشاهد بأنه يرى أشياء تختلف عن واقع الأمر فينخدع فيها ، أو يرى مناظر على غير حقيقتها فيغتر بها . فمن الملاحظات التي لا بد أننا لاحظناها في هذه الحرب ارتداء الجنود والضباط اللباس ذي اللون « الكاكي » وقد اتخذوه ذريعة للاستتار في حرب الصحراء ، لأنه أقرب إلى لون الرمال والأتربة التي تنبعث منها . أما في الأجزاء الشمالية حيث الميادين الثلجية فقد ارتدت الجيوش الألمانية في حروبها مع فنلندا وروسيا ألواناً سنجابية أو بيضاء ، فكانت ملائمة للتنكر ومساعدة لهم على التخفي وسط حقول الجليد . أما السيارات وسائر مهمات القتال ولا سيما بطاريات المدافع فقد دهنت بالألوان المناسبة وفقاً لطبيعة الأرض ولونها ؛ فكانت تمر عليها الطائرات الاستكشافية فلا تستطيع تمييزها .

ومن الطرق المضللة التي جاءت بأحسن النتائج طريقة دهن « اللوريات » وقطر السكك الحديدية وما إليها بخطوط معرجة من الطلاء تشبه الأمواج في شكلها ، وذلك لستر حدود الأشياء المرسومة هي عليها . وكانت السفن تخص بهذا الضرب من ضروب التعمية الحربية ، والغرض من ذلك إطاشة مقذوفات الغواصات التي قد تهاجمها في طريقها ، لا مجرد الاستتار عن الأنظار فقط

وفي البقاع التي تكثر فيها الأشجار والمزروعات تستعمل الأغصان والأوراق لستر مواقع الجنود والمدافع

(١) الحجل : طائر في حجم الحمام .

والأنوار الكاشفة . وقد ظهر فى الشكل رقم (١) جندى وقد غطت الأعشاب ملابسه وقبعته وبندقيته ، بينما تراه قد ارتدى معطفاً يشبه فى لونه لون المحيط الذى يعيش ويناضل فيه . وإنى أعتقد أن تلك البدعة من الاستتار أخذت عن الطريقة التى تتبعها الزرافة عند ما يهاجمها عدو تخشى بأسه وتخاف بطشه . وكثيراً ما ساعدتها تلك الطريقة على الإفلات من براثن الأعداء ، فإن تشعر الزرافة أن خطراً قد أحدق بها ، وأن لاسبيل لها إلى الفرار إلا وثبت إلى جذع شجرة ذات أفرع طويلة كستها أوراق متتابعة الأشكال والألوان ، ووقفت بجانبها محتبسة الأنفاس تنتظر مصيرها ؛ وهنا فقط ، وفى تلك اللحظة يظهر جلياً عطف الطبيعة — تلك الأم الرؤوم — على مخلوقاتها . فإن جلد الزرافة ، وما عليه من بقع مختلفة الألوان يشبه فى مجموعته جزءاً من الشجرة التى تحيط بها ، فتتداخل الألوان بعضها فى بعض حتى ليصعب على عدوّ ماكر أوتى من الخبث قسطاً وافراً ، أن يميز بين لون الحيوان ولون الجلد .



شكل رقم (١)

كذلك حالة الجندى المستتر بأغصان الأشجار ، والمنشور صورته فى الشكل رقم (١) ، فإن دوريات الأعداء الاستكشافية ، والطائرات المغيرة لن تتبينه مهما تقيت أو دققت فى البحث عنه ، لأنه يكاد يكون جزءاً لا يتجزأ مما حوله . ومن طريف ما يقال فى هذا الباب أن أبحاثاً كثيرة جرت فى السنين العشر الأخيرة بقصد اختراع قواعد فنية تقوم على أسس علمية صحيحة لأجل إخفاء السفينة الحربية أو التجارية عن أعين الأعداء ، بحيث تبدو ذات هيئة ورسم مطموسين ؛ بل لكى تظهر وكأنها تسير فى اتجاه مخالف لسيرها الحقيق . والطريقة فى ذلك هو رسم أشكال هندسية وتعاريج على جوانبها وسطحها ، فإذا ما انعكس عليها ضوء النهار أو أنوار الكشافات الليلية ، خُدع بصر الأعداء وبدا لأعينهم ونظاراتهم أن السفينة على وشك تغيير مجراها ، فيسدد الطوربيد إليها على هذا الأساس فيطيش سهمه ولا يصيب إلا الأمواج . وإذا ما دخلنا فى بعض التفاصيل الفنية وتعمقنا فى بعض النقط استطعنا أن نعلل كثيراً من المظاهر الأخرى التى تقوم على فكرة التعمية . فقاذفة القنابل مثلا — التى تعمل عادة فى الليل — تدهن بألوان قاتمة وأصباغ حالكة لكى تضعف انكسار ضوء المصابيح الكاشفة إذا ما سلطت عليها . أما الطائرات الاستكشافية التى غالباً ما يكون عملها فى وضح النهار فتكون ذات ألوان زاهية يختلط فيها لون السحب وألوان الفضاء الخ .

وإنى لا أعتقد أن الدول التى تخوض غمار الحرب الحالية الآن تعتمد على الخدع والغش أكثر من اعتمادها على الذخيرة والأسلحة . فقد أصبحت الحرب فى هذه الأيام حرب أفكار وبدع تتطاحن فيها عقول المفكرين والمخترعين ، لا حرب أظافر يفوز فيها العدد والعتاد . فإذا ما أرادت دولة نصراً حازماً وجب عليها أن تناضل وتنازل عدوها بنفس سلاحه .

وهذا ما حدث فى أواخر العام الماضى ، أيام كانت لندن وسائر الجزر البريطانية تحت رحمة القنابل التى كانت تلقى عليها بحساب وبغير حساب . فمن بين الملاحظات التى لاحظتها انجلترا أثناء تلك الغارات أن بعض قاذفات القنابل الألمانية كانت تصوب قنابلها على الأهداف

العسكرية من ارتفاع شاهق فلا تخطئها ، وكأن كل قنبلة تعلم مكانها بين الأهداف فتنفجر فيه وتشتت أرجاءه

والعجيب في الأمر أن قاذفة القنابل كانت من نوع جديد لم يسبق استخدامه في الحروب قبلا . فقد سقطت ذات مرة طائرة في إحدى ضواحي لندن وكانت خالية من الركاب ، ولم يلاحظ هبوط جنود منها « بالبراشوت » قبل ارتطامها بالأرض أو بعده . وقد حيّر هذا الأمر أولي الشأن ، وباتوا يفكرون في خطورته تفكيراً جديا . وأخيراً استطاعوا أن يحلوا المشكلة ويتبينوا سببها ، بل واستطاعوا أن يحاربوا أعداءهم بنفس سلاحهم وأن يتفوقوا عليهم . فقد كانت ألمانيا تستخدم على الشواطئ الأوربية القريبة من الجزر البريطانية محطات لاسلكية ترسل أشعة ذات أمواج مختلفة ، وكانت الطائرة تسير في أثر أحد هذه الأشعة من تلقاء نفسها ، وعند ما يتقابل شعاعان يتأثر جهاز حساس داخل الطائرة وينفتح خزان القنابل فتسقط تباعاً بكل قوتها نحو الأرض . أما نقطة التقاء الشعاعين اللاسلكيين فمحسوب حسابها بكل دقة ومعروفة للألمان ، وتكون فوق معسكر يراد ضربه أو خزان يراد نسفه . ولما علمت انجلترا بالخبر وقتلته فحصاً وبحثاً ، أخذت تستعمل نفس الطريقة لإسقاط الطائرات اللاسلكية وتعميتها عن الهدف المنشود ؛ فكانت تستخدم في أنحاء أرضها محطات ذات أمواج تطابق أمواج محطات ألمانيا وتصوّبها نحو الطائرة فتحار أيها تتبع وأيها تتجنب ، وأخيراً ينفتح خزانها عند تلاقي شعاعين فتسقط القنابل تباعاً حيثما أرادت انجلترا ، ويكون مكان سقوطها بعيداً عن الأهداف ، وسط الحقول والمزارع . وقد نجحت فكرة التعمية وجاءت بنتائج شجعت انجلترا على المضي في طريقها ، فجعلت شعاع رجوع الطائرة ينحرف نحو البحر ويبتعد عن القارة الأوربية حيث قواعد هبوطها ، فتسلك الطائرة طريقا غير طريقها إلى أن ينتهي وقودها أو يضعف تأثير أمواج الأشعة ، وفي كلتا الحالتين يكون مصيرها واحداً وهو السقوط إلى أعماق البحر .

* * *

وبعد ، فإن طرق « الكاموفلاج » — كما أسلفت في أول المقال — كثيرة متشعبة ذات قوانين ثابتة بعضها عرف والآخر لا يزال تحت البحث والتمحيص .

وفي البلاد الأوربية معاهد فتحت خاصة لدرس هذا الفن وعمل الأبحاث المتعلقة تحت إشراف أساتذة ذوي خبرة واسعة بفني الهندسة والطبيعة . وهذه المعاهد تقوم بواجب آخر ألا وهو إحاطة كل رجل في الجيش علماً بأصول الكاموفلاج ، فإذا ما تخرج ضابط من أحد تلك المعاهد أسرع في تعليم فصيلته ما أتقنه ، وبهذه الكيفية تعم الفائدة وترجع على وطنه النفعة .

محمد أحمد أمين

حكم في القضية ١٥٩ عسكرية الدرب الأحمر سنة ١٩٤٢ بحبس كل من حافظ عمران وأحمد محمد علي شهراً بالشغل لبيعهما خبزاً بأزيد من السعر .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ..."

البائس المتجمل ! — أيها الناقمون ... — فريضة الزكاة — إعلان ! ... ...

البائس المتجمل !

جاءتنى أمس الرسالة الآتية ، وما هى بحروفها ولكنها هى بمعانيها :

« ... ياصديق ! وما يحق لى أن أناديك بها ، فلعله مما يؤذيك أن يزعم « بائس » مثلى أنه لك صديق ؛ ولكنك صديق غضبتَ أم رضيتَ ... .

« ... ولقد أنصفتَ والله فيما كتبتَ عن « آخرة الشاعر » عبد الحميد الديب ، ولكنك لم تنصف نفسك ولا والله ما أنصفتنى ... لقد أخذتنى العبرةُ مما كتبتَ عنه ووصفتَ من حاله ومن خبره وما آل إليه ... ولقد تمنيتُ وحقك أن يكون كل ذلك لى ، وإنى لأهلُه ، بل لعلنى أكثر أهليةً له ، لولا أنى أتجمّل فلا يعرف أحدٌ من شأنى ما يعرف الناس عن عبد الحميد الديب !...

« شىء واحدٌ يعزه عنى وقد سَبَق به إلى ما نال من برّ ومودة ، هو أنه كان شكّاءً بكّاءً لا يكاد يجلس إلى أحد ممن يعرف أولا يعرف حتى يقصّ عليه من خبره ويشكو ، ويبكى ، ويُنشد من شعره ؛ فعرفه الناسُ وأنكرونى ، وعرفتَه ، وعرفتنى لولا أنى كنت أتجمّل فكشفتُ لك جانباً من حياتى وطويتُ على جانب ، حتى ظننتَ وظننى الناس من السعداء ، وإن البؤس ليعضّ على قلبى ، وإن كاد مرات ليحملنى على أن أحسد عبد الحميد الديب على ما كان « ينعم » به من عطف الأصدقاء ومبرّتهم ...

« إن كلنك لتوشك أن تحملنى على أن أهتك حياتى وأتبذّل ، أنْ كانت هذه هى الوسيلة !

« ... ولست وحدى فيما أصف به نفسى ، فإن فى مصر عشراتٍ من الشعراء والكتاب وذوى المواهب العالية أشقى عيشا مما كان عبد الحميد الديب ولكنْ وراء ستار من التجمُّل ، وإنك لتعرفهم ولكنك لا تعرف منهم أحدا ... أقول ذلك قياساً على نفسى ... فإن كنتَ تزعم أن الحكومة قد أنصفتْ عبد الحميد الديب حين رتّبتْ له « وظيفة » فلقد ظلمتْ من قبلُ عشراتٍ وعشرات يتراءون على عيون الناس سعداءَ وبهم ما بهم من الظمأ والجوع والحرمان ، وإن منهم لَمَنْ علك المجدَ والجاهَ والشهرة ولا علك ثمن الرغيف ... !

« لا تتهمنى ، إننا نعيش فى أمة تجحد الجميل ! أنت لا تنكر ذلك وليست شواهده بعيدةً عنك ، ولعلك أنتَ أيضاً تتجمّل ... ومعذرة إليك ! ... ...

« رأيتُ وجهك يحمرّ ، ولكنى على ثقة من أنك لا تغضب ؛ إنك لتعترف معى ببعض ما قلتُ وإن كان لا ينبغى أن يُذكَرَ ... لستُ أعنى كلّ ما قد يُفهم من عبارتى ، لخذ منها ما تشاء ، ودَعْ ؛ إنى لأحس أحياناً أنى ملهَم ، وذلك بعض مزايا الصوم ... إنى صائم منذ يومين لأن أولادى يجب أن يفطروا ... ... وعلى فكرة ، أريد أن أخبرك أن لى زوجة وأولاداً ، وهذا شىء آخر يمتاز به عنى عبد الحميد الديب ؛ فإنه رجلٌ خفيف الظهر كما قد تعلم ... !

« قلتُ إنى أُلْهَمُ أحياناً ؛ فصدّقْ هذا ، ومن الإلهام ما حدثتُك عن غيرى فى بعض ما سبق وإن لم يشكُ إلىَّ أحد ... إنى أستطيع أن أصف بعضَ ما فى نفسك الساعةَ وإنك لبعيدٌ عنى فلا يكذّبنى حدسى ! ... ...

« ولم تنصف حين زعمتَ أنهم فعلوا ذلك بعبد الحميد الديب تكريماً لأدبه؛ لا والله!... لا والله!... فما لهم في الأدب أرَب ولا له عندهم كرامة، ولكنها أثارةٌ من أريحيّة « عصر النعمان »، وإنّ عبد الحميد الديب لظريف النادمة حلوُ السامر؛ بهذا وحده نال ما نال لا بالشعر والأدب، وإنه بهما رجلٌ من الطريق لا بالمنادمة والسَّمَر!!

« لو كان بالشعر والأدب ما فعلوا لأنصفوا فلاناً وفلاناً وإنّ لهما في الأدب لَقَدْراً وخَطَراً، ولكنهم لم يفعلوا. ضَع الشيءَ في موضعه وقُلها كما قلتها صريحة، ولا تذكر لي أسماءً بإزاء ما ذكرتُ لك من أسماء، تحاول أن تبرهن لي بها على تكريم الحكومة للأدب والأدباء، وإن أبيْتَ إلا أن تذكر لي تلك الأسماء التي أعرف أنها تجول بخاطرك الساعةَ فاعلم أن عندي ما أقول: إن ثمة آحاداً يتأهلون بالشعر والأدب ما نالوا من تكريم الحكومة وحفاوتها، ولكنهم بغير الشعر نالوا ما نالوا! أتريد أن أعرّفك أم إنك تعرف؟... آمِنْ بما قلتُ لك وأنصفْني من نفسك وأنصِف الأدب!

« ... لماذا كتبتُ إليك هذه الرسالة؟... لقد نسيتُ من طولها لماذا بدأتها!... أكلُّ هذه الخواطر كانت في نفسي حين تناولتُ قلمي؟... ومع ذلك فأنا أحس كأني لم أقل شيئاً مما في نفسي؛ إن في رأسي الساعةَ من ازدحام الخواطر مثلَ هزيج النحل في خليّته... آه، لقد تذكّرتُ: إنما أردتُ بهذه الرسالة أن أسألك: أتُشير عليَّ أن أهتك حجابي فأكشف لك عن حالي لتنصفني الحكومةُ كما أنصفتْ عبد الحميد الديب إن كانت هذه هي الوسيلة، أم أطوي صدري على ما به وإن نالني ما نالني من الضر والألم؟...

« تسألني عن اسمي؟... لا، فلن أهتك حجابي حتى تشير عليّ؛ وسأعرف رضاك أو غضبك مما تنشر في « الثقافة » هذا الأسبوع ».

(البائس المتجمل)

* * *

ألاَ إنه إذا كان بعضُ الواضح ليَتَّخفَى من شدة وضوحه حتى ما يَبِينُ وجهُه فهذا الذي نشرتُ على القراء هو لونٌ منه!

ومعذرة إلى الصديق البائس إن خرجتُ من مسألته بالصمت عن « لا » و « نَعَم »؛ فما أملك أن أشير عليه ولا أرضى أن أنكر حقه فيما يزعم لنفسه، وذلك حسبي من الرأي وللقراء ما يرون!

أيها النائمون؟

أيها النــائمون تحت اللحافِ
وهَنيئاً إليهمُ غــيرُ خافِ
لكمُ النومُ، والسهادُ علينا
في حيــاةٍ قليلة الإنصافِ
وبما تحكمون — والله — نرضى
غــير حكم بالنقل للأريافِ
والســلام الكثير منا إليكم
والتحياتُ كلُّها « والعَوَافي »!

... وهذه أبياتٌ قرأتها في هذا الأسبوع من رسالة بعث بها من الريف موظفٌ إلى رؤسائه في القاهرة يعتب ويشكو ويحيّي.

وهي شكوى فيها طرافة، وفيها فكاهة، وفيها احتجاجٌ، وفيها أدب؛ فلولا ما تدلُّ عليه من ضعف الهمة ورخاوة النفس لكانت حريّةً بالإجابة؛ على أنها نموذج طيب من الشعر الفكاهي رأيتُ ألا يفوتَ القارئَ حظُّه منه؛ ولعلها بسبيل من رسالة صديقنا « البائس

للتجمل » ؛ فكلاهما يشكو حظه وما يناله من قلة الإنصاف ؛ وإني لأخشى وقد بلغتني هاتان الرسالتان في وقت معاً من مكانين متباعدين أن تكون الروح التي أملتهما تنبع من معين واحد ، هي روح التذمر والسخط التي تسيطر على أكثر شبابنا اليوم ، لا من عجز ناقم ، ولكن من تطمع فاتهم أن يبلغوه ؛ ولقد يكون في بعض الرجاء أحياناً شقوة الراجي ، ولقد ينال الآملَ من « هَمِّ الأمل » ما لا يناله من مرارة اليأس ! ...

رأيت أمس رؤيا رجعت بي سنين من الماضي ، فرأيتني حيث كنتُ ذات يوم في حقيقتي وفي أملي ، وكأنما اجتمع لي من الزمان طرفاه ، فقبستُ أجمل ما فات من ماضيَّ وأسعدَ ما كنت آمُلُ في غدي ، وسعدتُ بما لم تجتمع لي سعادتُه يوماً ولا يتأتى له أن يكون ... ثم صحوت ...

وكنتُ قبل أن أنام — وقبل أن أرى — راضي النفس مطمئن القلب قانعاً ؛ فلما صحوتُ من حلمي رحت أفتقد نفسي فما وجدتُها ، وإذا رمل، في ملحٌ ومرارة ؛ وخلّفت لحظاتُ السعادة الحالمة التي مرّت بي ساعاتٍ من الضجر والألم والتذكر لم يمرّ بي مثلُها منذ بضعة أشهر ؛ ثم ثاب إليّ عقلي ...

ليت الذي كتب الحرمانَ على الأشقياء في الحياة قد حرمهم مَذاقةَ الأمل ؛ إنه في فم المحروم لأشدُّ مرارةً من الحرمان نفسه !!

فريضة الزكاة !

قرأت في جريدة الأهرام أن وزارة الشئون الاجتماعية قد فرغتْ من إعداد مشروع « ضريبة » الزكاة ، وأن من قواعدها المقررة ألا يُطالَب بها غيرُ المسلمين ... ...

ولم يدهشني ما قرأت وإن كان كثيرون ليدهشون له ؛ فإنما الخطأ في العبارة لا في التشريع ؛ ومصدره أن يسموها « ضريبة » ، والضريبة جبايةٌ عامة يفرضها الشارع على حد المساواة بين الناس لا يُعفَى منها حالٌ ولا مقيم ، كلٌّ على مقداره لا على مذهبه ودينه ؛ واعتبارُ هذه الزكاة المفروضة ضريبةً هو الوهم وهو الخطأ وهو سوء التعبير ؛ وإنما هي « فريضة على المسلم للمسلم » فمن هنا كان التخصيص في جبايتها واشتراطُ الإسلام . . .

فإن كانت هذه عبارةَ الجريدة فقد أخطأ الراوي ، وإن كانت عبارةَ الشارع فقد أخطأ الشرعَ وأساء .

على أنها وهي « الزكاة » تخترجها للمسلم وحده ؛ فليس لغير المسلم منها حقٌّ وليس له مطالبةٌ بنصيبٍ منها ؛ أفقصدتْ إلى ذلك وزارة الشئون الاجتماعية فيما شرعتْ أم لم تقصد ؟

إن كانت فقد تناولت الأمرَ من طرفيه ، وإلا فإن لسائلٍ أن يسأل وإن علينا أن نجيب ؛ وإن هذا الخبر حينئذٍ ليدعو إلى الدهش وإلى التساؤل .

وإن في مصر لغير المسلمين مكاناً ، وإن لهم رعايةً وحقاً ، فهل استُفتُوا فأفتَوا وسُئلوا فأجابوا ؟

إني لأعتقد أن غير المسلمين في مصر أهل المسارعة إلى هذا البر الإنساني العام ، فإن لهم من إدراك معناه السامي ما يُسرع بهم ويهزّ أريحيتهم إليه ؛ وإن لأقباط مصر وَرَلانها الأجاب لأياديَ مشهورة في رعاية كثير من المؤسسات الإسلامية القائمة ؛ فهذا من هذا ، وسبيل البر واحدة !

أعرف فتياناً وفتيات من غير المسلمين في مصر يصومون رمضان مع المسلمين ، وقال لي فتى منهم : إني لأجد في الصوم لذة ورياضةً وصفاءً في نفسي ؛ وما رأيتني أكثر إشراقاً في عقلي وأسرع استجابةً إلى الشعر والعاطفة في قلبي مما رأيتني وأنا صائم !

وقالت لي فتاة : وإني لأجد الصحة والعافية على الجوع

أكثر مما أجدها على الشبع ... ثم استضحكتْ وقالت : أوراق رشيقة ؟ ... فذلك لأنى قريبة العهد برمضان !

ذلك قولها وإنه « الصيام » والحرمان من الجوع ! فكيف يقولون وإن « الزكاة » لشريعة الإنسانية التى تفرضها على كل كاسبٍ لكل بائس أو محروم !!

اعلان !

وقرأت فى جريدة الأهرام حديثاً عن توفيق الحكيم وروايته « رصاصة فى القلب » التى يخرجها الموسيقار محمد عبد الوهاب ؛ ثم طويتُ الجريدة ؛ ولكن صاحبى الذى يلاقى أحياناً لم يدَعنى وما انصرفتُ إليه ، فسألنى : أقرأت ؟ ...

قلت : ماذا ؟

فبسط الأهرام ومضى يقرأ :

« إن توفيق الحكيم أحد الكتاب الثلاثة الأوائل فى مصر ؛ وليس يُعرف موضعُه على التحديد من صاحبيه ، ولكنه ... ... الخ » .

قلت : حسبى ، لقد قرأته .

قال : ماذا يعنى ؟ وكيف صار العشرة ثلاثة ولم يمض طويلُ زَمَن ؟ ومَن صاحباه اللذان يَعنى ؟ وأين ترى موضعه منهما على التحديد ؟ و .. ...

قلت : أوّه ! إنك تغيظنى ، أوْ لا فإنك لا تفهم ! إنه ليس مقالا أدبياً يستحق المناقشة ؛ إنه إعلان من هوليوود ...

لقد ربحت السيما توفيق الحكيم !

(فاف)

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩١

العدد ٢٠٣ — الثلاثاء ٨ من ذي القعدة سنة ١٣٦١ — ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــدد

الحياة الاجتماعية في مصر

البطالة بين العمال والمتعلمين

ذكرنا فيما سبق تنظيم استخدام العمال ، ونذكر فيما يلي شيئاً عن تنظيم استخدام المتعلمين ، وما ينشأ عن هذا التنظيم من تحسين لتخفيف البطالة بينهم .

ذكرنا أن العدد الكلي لمجموع المتعلمين في مصر ليس سبباً في أزمة المتعلمين المتعطلين ، إنما ما يجب مراعاته في هذا الصدد هو أن يقترن الإقبال على التعليم بالتوازن بين العرض والطلب ، طبقاً لكل ناحية من نواحي العمل على حدتها . فالعرض يقل عن الطلب بين متخرجي كلية الهندسة بالأقسام الميكانيكية والكهربا ؛ ويكاد يتقدم العرض بين خريجي الصيدلة وبعض أقسام كلية العلوم ، إذ أن المتخرجين منهم لا يكادون يسدون حاجة الوظائف الحكومية ، بينما يزيد العرض على الطلب بين خريجي كليات الحقوق والآداب والزراعة والتجارة ؛ ويظهر بصورة واضحة بين الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية ويضطرون إلى التوقف عن مواصلة دراستهم . ومن الإنصاف ما دمنا نتكلم عن تنظيم استخدام المتعلمين أن نشير إلى ما يسبق هذا الاستخدام ، وهو وجوب استكمال إعداد جمهور المتعلمين إلى مزاولة العمل سواء في الحكومة أو في المنشآت الحرة .

وقد سبق أن أحالت وزارة المالية في ٢٤ مارس سنة ١٩٣٨ إلى وزارة المعارف العمومية مذكرة قدمتها إليها ضمنتها الملاحظات التي استخلصتها من بعض أرباب الأعمال عن الشبان المتعلمين المصريين ؛ وفي مقدمة هذه الملاحظات أن الكثيرين من المتعلمين المصريين لا يجيدون

إحدى اللغات الأجنبية أو الكتابة على الآلة الكاتبة أو الاختزال بإحدى اللغات الأجنبية .

كما أوصى بعض رجال الأعمال أن يهتم خريجو المعاهد التجارية بالمحاسبة الصناعية والجداول الإحصائية ؛ وأن يهتم خريجو الزراعة بالصناعات الزراعية والمحاسبة الزراعية ؛ وأن يعنى خريجو الفنون والصناعات بالرياضة والرسم والتمرين على وضع التصميات باللغة الأجنبية ، ووجوب أن يشتغل جميع المتخرجين من المعاهد الفنية التمرين العملى عقب دراستهم .

كما أن الحرب الحالية استلزمت العناية بنوعين من التعليم الصناعى ، أولاً : الصناعات التى تتصل بالحرب مباشرة ، والنوع الثانى : الصناعات التى كنا نعول على استيرادها واضطررنا إلى إنتاجها محليا .

* * *

ومن الإنصاف أن نقرر أن كثيراً من الأسباب التى سبق الإشارة إليها لا يشترط أن تعالجه البرامج الدراسية ، لأن الاتجاه فى تزويد الشبان بهذه المعلومات بعد تخرجهم ينتقل إلى المتخرجين أنفسهم ، وإلى مجهودهم الشخصى وخصوصا إذا أقبل ذوو الثقافة العالية من المصريين على إنشاء معاهد ليلية فنية غير حكومية ، أوقامت نوادى المتخرجين وجمعياتهم والإخصائيين من أعضاء هذه الجمعيات بتزويد الأعضاء جميعاً بما يحتاجون إليه من معلومات فنية . إذا ما فرغنا من المرحلة التى تسبق استخدام المتعلمين وجب علينا بعد ذلك أن نواجه النواحى التى يتجه إليها هؤلاء المتعلمون عند ولوجهم باب الحياة العملية .

لا تخرج هذه النواحى عن ثلاث وظائف — الحكومة — والقيام بأعمال حرة خاصة — ثم الاشتغال فى المنشآت والشركات — ولا ندرى أمِنْ حسن الحظ أم من سوء الحظ أن كانت وظائف الحكومة هى الهدف الأول للشبان المتعلمين ، ويرجع ذلك إلى أن الحكومة فى مصر فضلا عن أنها مهيمنة على الإدارة وتصريف شئون البلاد فهى إلى حد ما منشأة زراعية وصناعية وتجارية فى كثير من الأحيان .

فمثلا تشرف الحكومة على مصلحة الأملاك الأميرية وعلى قسم البساتين ، وعلى المزارع النموذجية ، وعلى الأراضى الشاسعة التابعة لوزارة الأوقاف ، هذا عن الزراعة — وتشرف أيضا على المطبعة الأميرية والترسانة والورش الأميرية ، بل وتضم مصانع نموذجية ، هذا عن الصناعة — والحكومة تشرف على أكبر هيئة شبه تجارية وصناعية وهى مصلحة السكة الحديد والتلغرافات والتليفونات ، كما تشرف أيضا على البورصة وأسواق الغلال وأسواق الخضر ، هذا عن التجارة — ويضاف إلى ذلك اضطلاعها بالتعليم ابتداء من رياض الأطفال إلى التعليم الجامعى ، واضطلاعها بالناحية الصحية من العيادات الخارجية إلى المستشفيات الكبرى .

وأكثر هذه الأعمال تضطلع بها فى البلاد الأخرى إما شركات وإما جمعيات وإما مجالس إقليمية . وهذا عدا الأعباء التى تستجد تبعا لتطور الحالة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية فى البلاد .

* * *

فإذن لا مفر لمن يريد أن يبحث وسائل الاستخدام أمام الشبان المصريين من أن يعمل حسابا للوظائف الحكومية — ووظائف الحكومة منافس خطر للأعمال الحرة . فيجب كى نساعد على الاشتغال بالأعمال الحرة أن توجد التوازن والتناسق بين هذين الاتجاهين ، وما دمنا عاجزين عن أن نضطر أصحاب الأعمال إلى مجاراة الحكومة فى نظمها وطرائق الاستخدام والترقية فيها ، فالحكمة تقضى بأن تجتهد فى أن تكون من المرونة حتى تقرب ما بين وظائف

الحكومة ووظائف الشركات ، ولو أدى ذلك إلى إنشاء، أو تعديل بعض النظم واللوائح ؛ لأنه بغير هذا الإجراء ستستمر الكثرة الساحقة من المتخرجين متطلعة إلى وظائف الحكومة مفضلة لها عما عداها ، وستوقف جهودها على انتهاز الفرص مهما طال الأمد للالتحاق بها ، فنهم وهم القلة من يقضى وطره ، ومنهم وهم الأغلبية العظمى من ينتظر .

* * *

ومن الغريب أن هذا الوضع قد شعرت به الحكومة من قديم ، وكان الدافع لها حينذاك هو الرغبة فى وضع نظام مستقر ثابت للاستخدام والترقية . فقد وجدت أثناء بحثى فى هذا الموضوع ، عندما تقدمت بمذكرة فى سنة ١٩٣٧ إلى اللجنة التى تشكلت فى وزارة المالية لوضع لائحة استخدام ، أن مجلس الوزراء كان قد شكل لجنة فى سنة ١٩١٧ لإعداد هذه اللائحة . واطلعت على تقرير مسهب للمستشار المالى الانجليزى عن مشروع تفصيلى لكيفية استخدام الموظفين فى الحكومة .

والطريقة المثلى أن يكون الامتحان هو الوسيلة الوحيدة للتوظف فيما عدا الوظائف التى تتطلب استعداداً خاصاً ، وأن يكون هذا الامتحان معدا فى مواعيد سنوية ، ويكون عقب صدور الميزانية والوقوف على الوظائف التى تتطلبها حاجة الدولة فى العام الجديد ؛ وعلى أن يخصص كل فريق من حملة الشهادات لنوع من الوظائف يجتاز امتحاناً خاصاً به ويتناسب مع مؤهلاته والوظائف المراد شغلها ، حتى تنعدم المنافسة غير المشروعة بين حملة الشهادات العليا والمتوسطة ، وحتى لاينعدم التناسق الواجب الأخذ به بين مؤهلات من يقومون بوظائف متجانسة ، وحتى تتحدد الأهداف فى وظائف الحكومة أمام حملة الشهادات ، ولا يخبطون فى الحصول عليها خبط عشواء ، ولا يسيرون فى البحث عنها على غير هدى ، فتتعدد أمامهم المسالك ويصبحون كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . وبذلك يقل الضغط على التوظف فى الحكومة فى غير الميعاد المحدد ، ولغير الوظائف المطلوبة ، وبغير الوسيلة الوحيدة المقررة .

كذلك مما يتصل بهذا تنظيم الترقية فى وظائف الحكومة . حقيقة إن حسن سير العمل يحتم فى بعض الحالات مكافأة المجدين ؛ وعلى هذا تسير المنشآت الحرة والشركات . إنما يجب أن يتم هذا فى حدود نسبة عددية لموظفى كل هيئة تقرر فى نظامها ترقية من يراد ترقيتهم لكفاياتهم دون مراعاة القواعد الموضوعة . أما من عدوا هذه النسبة فيطبق عليهم جميعاً قواعد الترقية المعمول بها ، على أن يعنى عناية كبرى بجهود الموظف وتقارير رؤسائه المباشرين ، والأعمال البارزة التى قام بها ، وأن يكون ذلك كله محفوظاً فى « ملفه » ، وأن تكون كل هذه الأسباب مجتمعة هى المرجع الأول والأخير فى ترقيته ، وبذلك تشيع الطمأنينة والثقة فى النفوس ، وتتوحد السبل بين طلاب الوظائف الحكومية وغير الحكومية .

* * *

وقد أشرنا فيما سبق أن العناية بهذا الموضوع بدأت منذ أكثر من ربع قرن ، ولكن ربما كان الدافع إليها حينذاك الرغبة فى تحسين الأداة الحكومية فقط ؛ إنما فى هذه السنوات الأخيرة وجد عامل هام آخر وهو العامل الاجتماعى . وقد أوضحنا مدى تأثير نظم التوظف فى الحكومة على التوظف فى المنشآت والشركات وعلى البطالة بين المتعلمين ، بل وعلى الحياة الاجتماعية بصفة عامة .

الناحية الثانية ، عدا وظائف الحكومة ، هى أن يشتغل الشبان المتعلمون بأنفسهم فى أعمال حرة فردية خاصة على أن تبذل لهم المعونة والإرشاد ، وهذا اتجاه لا يخلو من الفائدة ؛ غير أن الاستعداد دل على أن الاشتغال على هذا الوجه فى مصر قاصر على الحقوقيين إذا ما زاولوا مهنة

العامة ، وعلى بعض خريجى الزراعة المتوسطة ؛ ويجرى ذلك فى أوربا أيضاً ، إذ أن من يتخرج من الكليات والمعاهد لا يقوم بنفسه بالاشتغال فى الأعمال الحرة لحسابه الخاص بعد التخرج مباشرة ، بل يلحق بشركة تجارية أو صناعية حيث يشتغل فيها بعض الوقت ؛ ففيها يكتسب المران والخبرة العملية ، وفيها ينتقل إذا واتاه الحظ إلى ميدان الأعمال الحرة لحسابه الخاص .

على ذلك فأمثل الطرق ، بعد أن تأخذ الحكومة كفايتها بالقواعد الثابتة الموضوعة ، أن يوجّه الشبانُ المتعلمون إلى الاشتغال لدى أصحاب الأعمال والشركات الصناعية والزراعية والتجارية .

وعدد المنشآت الحرة لا يحتاج إلى بيان ، وكذلك ضخامة رؤوس أموالها التى تستخدم فى هذه البلاد أشهر من أن تذكر — غير أن هذه المنشآت لعوامل تاريخية دأبت على الاستفادة بمجهود أبناء الجاليات الأجنبية فى البلاد ، ويرجع ذلك إلى أنها بدأت عملها فى وقت لم يكن قد انتشر التعليم وتنوعت مناهجه فى مصر ، ويرجع أيضاً إلى أن البيئة والاندفاع الطبيعى الفطرى يحتم على أصحاب الأعمال ومديريها فى تلك الأيام الاطمئنان والالتجاء إلى معونة وخدمات من يتصل بهم .

ولكن بعد أن كثر عدد الشبان المتعلمين ، وبعد أن أعدت البرامج المتنوعة ، ولا زال يستحدث منها ما يتمشى مع حاجة الحياة العملية ، وبعد أن أخذ كثير من المصريين يندمجون فى هذه المؤسسات ، إما شركاء ، وإما فى الإدارة وإما موظفين ، وعرف كثير من رجال الأعمال الأجانب إمكان تعاونهم معهم وإمكان التعويل عليهم ، أصبح للمسألة وجه آخر جديد .

(البحث بقية) ابراهيم القطريفى

رد على خطـــاب

[كنتُ أرسلتُ إلى صديق ... « تحية العيد » أبثُّ فيها صداقتي له ، فردّ عليّ بالخطاب الآتي :

صديق :

سرّني خطابك ، وكان فرحةَ العيد عندي كما كان فرحة العيد عندك — لم أسرّ لمدحي ، فأنا أعلمُ من عيوب نفسي ما لم تعلم ؛ ولكنها الصداقة ترى كل شيء من الصديق حسناً . إنما سرّني أن كتابك يشيعُ منه الحب ، وأنتَ تعلم أني لا أقدر شيئاً في الوجود تقديري للحب .

لشد ما يخطئُ الناس فيفهمون أن الحب ليس إلا الحبُّ الجنسي ، ويفوتهم أن وراء هذا أنواعاً من الحب يخطئها العدّ .

هناك حب العامل عمله وفناؤه فيه ، وهو سر نجاحه ، وفقدانه سر فشله .

وهناك حب العالِم علمه ، وقد رأيتُ ورأيتَ علماء لا يلذّهم شيء في الحياة إلا بحثهم وكتبهم ، يفضّلون ذلك على كل متعة من متع الحياة من ملك ومال وجاه ، ويوم يظفر بنتيجة لبحثه فذلك يعدل عنده الدنيا وما فيها ؛ وقد قرأتَ وقرأتُ أمثلة لذلك عديدة من علماء الشرق والغرب .

وهناك حب الفضيلة وكره الرذيلة ، وكلما ازداد هذا عند إنسان كان أقربَ إلى الخير ، وأبعدَ عن الشر .

وهناك حب المواطن لوطنه وأمته ، فيبذل في ذلك ماله وحياته .

وهناك حب الصوفية لله فيفنَون فيه ، ويشعّ حبهم له على كل شيء من خلقه ، حتى يروا الله في الخَلْق والخَلْقَ في الله .

كل شيء في الحياة بارد ما لم يحرّه الحب ، وكل شيء مظلم ما لم يُضئه الحب ، وكل شيء تافه لا لذة فيه ما لم يشيعْ فيه الحب ؛ وصدق من قال : « الحياة الحب ، والحب الحياة » .

ومقياس حياة الإنسان مقدار حبه ، فيومَ ينتهي حبه تنتهي حياته .

وما الفرق بين الإنسان والآلة إلا الحب .

كل الناس يُحِب ، ولكن هناك حب أرستقراطي وحب شعبي ؛ الأرستقراطية تسمو بالحب ، فلا تحب إلا الرفيع أين المعاني والسامي من المُثُل ؛ إنها بطبعها تستصفي ما حولها وما يحدث لها وما تَلِدُ من أفكارها وما تشتق من مبادئها فتتعشّقه ، ثم تحب مَن يشاكلها في حبها — وليست أرستقراطية الحب مولداً ولا مالاً ولا جاهاً ؛ ولكنها نزعة يهبها الله لمن يشاء من خلقه ، تفيء فتتلقّى الوحي من الطبيعة فتحبها ، وتخاطبها الطهارةُ فتجيبها ، وتنظر إلى كل شيء ولو كان وضيعاً ، فتولّد منه معاني سامية نبيلة تأنس بها ، وتقرأ الحقيقة في كل شيء فتُجِلُّها .

إن أردت السمو بأحد فخذ بيده ليصل إلى الحب الأرستقراطي ، وإن أردت الرقيّ بأمة فبثّ هذا الحب فيما بينها وأكثر منه ما استطعت ، وهيّئ له من الأسباب ما قدرت حتى يشمه السائح في جوها كما يرى خصائص الأمة في مناظرها .

أخشى أن أكون قد قاربتُ الصوفية في نزعتها وشَطْحها فمعذرة ، وكل ما أريد أن أقول إني أحببت كتابك لحبك في كتابك .

* * *

أراني هذه الأيام محباً للعزلة ، بعد أن كنتُ — كما تعلم — محبًّا للاجتماع ، ولا أدري السبب ، فأنا غارق — في رفق — في زرقة السماء وخضرة النبات ، شاعر بسعادتي في مغازلة الطبيعة وآسيها ، وعداني بستاني فشعرت أن نفسي زهرة من زهرات الله ، إنما تتفتح وتتفتح إذا أطلقت لها الحرية التامة لتنال حظها من الشمس والهواء ؛ وعداني الأفق اللامحدود فأحببتُ حباً غير محدود . رأيتني أكره الحزب وأحب الأمة ، وأكره الوطنية وأحب الإنسانية ، وأحب خلق الله لله ؛ وجعلتُ

لنفسي وهي في حدود الحضَر كيف كانت تجسِّم الظل ثم تشقَّ به ، وتخلق الهمَّ من العدم وتألم له ، فإن شئتَ السلامة فتحرر من الحدود والقيود ؛ ورأيتُ سبب همي في الحضر التهاب الشعور وطغيان الحياة الشعورية ، فأطيلُ التفكير في نفسي وفيما حولي ؛ أمّا هنا — في الريف — فأنا أسعد حالاً ، لتبخر كمية كبيرة من شعوري ، وحلول الحياة اللاشعورية محلَّها ، ولعل ذلك من عدوى ما حولي من بذور ونبات وحيوان وطبيعة ، فكأن طفلاً يسكن في نفسي في مرحه وأمله وانسجامه مع جوّه ، وغروره بقدرته ولا شعوره . ولهذا لا صبر لي على قراءة إلا قراءة الطبيعة ، ولا كلام في السياسة إلا سياسة الكون في سَيره ، فإن كان ولا بد فشعر يمازج شعوري ، أو آية من القرآن تندّى قلبي ؛ ولست أقرأ كما يقرأ الناس ، ولكن أكتفي ببيتين أو ثلاثة ، وآية أو آيتين فيمتلئ جوى بها ، وتتفتح نفسي لها ، فلا أزال أردّدها الفينة بعد الفينة طول اليوم ، وفي كل مرة أشعر لها بطعم جديد ومعنى جديد . وبالأمس كانت آية : « الله نور السموات والأرض » ملء نفسي وقلبي وترداد لساني ؛ واليوم كانت آية : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » محياي وغذائي ؛ وأحياناً — ولا أدري — تدمع عيني من قراءة الآية أو الشعر فأذكر قول ذي الرمة :

لعل انحدار الدمع يُعقب راحة
من الوجد أو يَشفي شجيّ البلابل

وأخشى أن تعُدّ هذا مني مظهر ضعف أو آية ألم ، ولكني أصدُقك أني أقوى بها ما لم أقو بغيرها ، وأن الدمعة تغسل عيني فأنظر بها ما لم ينظر الناس ، وأشعر أني حيّ بين موتى ، وصاحٍ بين سَكارى .

لقد أحسستُ بعدها أن المدينة بحدودها وقيودها وضغطها كوّنت عقلي تكويناً فاسداً ، وشغلتني بحساب درهم يأتي ودرهم يُصرف ، ونظرية تقرر ونظرية تهدم ، وحكومة تتولى وحكومة تُولَّى ، ونظام يوضع ونظام يُلغى ؛ حتى لقد هزَلت نفسي من هذه السفاسف ، ومات قلبي من عقد القيود ؛ فالآن أريد أن أميت نفسي المقيّدة وأخلق نفسي الحرة ، وأحطم أبواب سجني وأطير إلى السماء ، وأكنس أفكاري القديمة وأتحرر من موضوعاتها ، وأضع أسساً جديدة للتفكير فيما يحقق نفسي ، وأكسّر أصنام الناس لأعبد ما ليس بصنم ولا وثن .

لقد كنتُ بغير جناح إذ لم يكن جو ، فلما كان الجو كان الجناح .

ولا تحسبني بذلك أريد أن أحيا حياة شعرية لا عمل وراءها ، أو أن أعيش في حُلم خياليّ لذيذ ؛ بل أراني على العكس من ذلك ، أريد أن أعمل وَفق حسّي — لقد أحببت الفكرة لا الشخص ، وأحببت المعنى لا المبنى ، فشعرت أن كل أرض بلدي ، وكل إنسان أخي ، وكل باطل عدوّي ، وكل حق صديق ؛ وآمنت أن نفسي ليست لي ، إنما هي قوة في العالم لها رسالة ، ورسالتها إزهاق الباطل ، ونصرة الحق ، ومحاربة البؤس ، والأخذ بيد المظلوم ، وكسر الحدود التي تمنع أن يصل ذو الحق إلى حقه ؛ فحبي الشائع دفعني إلى العمل الشائع ، وتجرّدي من الشخصية حملني على أن أؤيّد المعنى أو أحارب المعنى ؛ وشعرت بالكل فوهبت حياتي للكل — وإذ ذاك أحسست أن قلبي كمجرى الماء الغزير لا يقف أمامه العود ولا يعوقه القذى ، وأحسست أني لا أقوّم الأشخاص بعلمهم أو مالهم ، ولكني أقوّمهم بروحهم ، فالمثل الأعلى عندي ليس أرسطو ولا قارون ولكنه النبيّ ؛ وأحسست أني أرى في المعاني كالعدل والرحمة والصدق جمالاً يجذبني أكثر من جمال الصورة والزهرة ، وللظلم والقسوة والرياء قبحاً ينفرني أكثر من القردة والمرأة الشوهاء .

قد كنتُ — وأنا في المدينة — مَغيظاً من مفاسد الأمة ، مُحنَقاً من جنون العالم ؛ واليوم — وأنا في الريف — قد تحوّل غيظي رحمة ، وحنقي شفقة ، فأشفق

على الأمة لمصائبها ، وعلى الإنسانية لرزاياها ؛ وأكثر ما يحملني على الرحمة لها أنها في شقاء وتظنها في سعادة ، وفي محنة وتحسبها في نعمة ، ورحمتي لم تسلبني رفقتي في العمل كما لم يسلبني الغيظ ، ولكن عملي مع الرحمة إنقاذ ، ومع الغيظ تأديب .

ما أظلم علماء التربية ، يهتمون بتربية العقل والجسم والخُلق ، ولا يُعيرون التفاتاً للروح ، كأن الإنسان آلة صماء ، والخُلق الذي يهتمون به هو الخُلق التجاري من صدق ونظام واقتصاد ، وتربية الروح وراء ذلك ؛ فالروح هي الوزن في الشعر ، والتناغم في الغناء ، والانسجام بين آلات الموسيقى ، والعلاقة بين أصابع الفنان وأزرار البيان ؛ وشقاء الإنسان في شخصه وفي أمته وفي عالمه ، من ضعف روحه ، واختلال التوازن بين روحه ومادته ، وعدم الانسجام بين أجزاء العالم ، وعدم وحدتها وليس يوحدها إلا توحيد روحها .

إن ضعف الروح جعل من يحب نفسه يكره غيره ، ومن يحب أمته يحارب غيرها ، ومن يحب جنسه يحتقر غير جنسه ، ولو قويت الروح لعممت حبها ولأحبت المبدأ والمثل ، فكان ثَمّ وفاق لا خلاف ، وسلم لا حرب

* * *

بعد غدٍ عيد ميلادي الحادي والخمسون ، وهو أول عيد أقضيه في الريف ، ولكني أريد أن أعده عيدي الأول ، فقد تشابهت نفسي في الأعوام الماضية ، فليست متكررة إلا في حساب العدد ، أما نفسي الجديدة فلم تتكرر بعد . شتان بين نفس مقيّدة ونفس طليق ، بين نفس مستعبدة ونفس مستقلة ، بين نفس مقلدة ونفس مجتهدة . ليخيل إليّ بعد الرياضة النفسية التي ارتضتها أن لا صلة بين نفسي القديمة ونفسي الجديدة ؛ ولذلك سأصر على أن أعُدّ عيدي الآتي هو العيد الأول .

قد كنت في الأعياد الماضية أستقبل الناس ، وفي هذا العيد سأستقبل نفسي ؛ وقد كنت أصافح إخواني وأسامر صحبي وأتقبل هداياهم وتهانيهم ، وفي هذا العيد سأتناغم مع الأزهار ، وسأفتح نفسي ليمتزج بدمي ضوء الشمس ، وأحتفل بافتتاح عقلي لتلقي الحقيقة مجردة من خيالات الناس وأوهامهم ، وسأشرب نخب الطبيعة وجمالها والحرية ومتعتها ، وسأغني للشمس وطلوعها ، والشمس وغروبها ، والنجوم ولمعانها ، والماء وصفائها ، والفراشة وطيرانها ، والزهرة وتفتحها ، والثمرة ونضجها ، حتى أملأ الجو مَرَحاً وغناء ؛ وسأدعو آخر الأمر للإنسانية أن يفُكّ الله أغلالها ، ويجنبها شقاءها ، ويبعث الحب في قلوبها ، فيكون هذا أول عيد لي من نوعه .

أخي بل صديقي :

لعلك تعجب أني لم أرد على كلامك في الصداقة برأيي في الصداقة ؛ ولكني أعتذر لك ، فرأيي غيرُ رأيك .

رأيي أن الكلام المباشر في الصداقة لا يقوّيها ، إنما يقوّيها العمل على مناهجها الحقة من غير حديث فيها .

ورأيي أن خير لذة يستمتع بها الإنسان من شيء ، أن يتناسى لذته منه ويفنى فيه ؛ ألا ترى الشطرنج لو ذكرت دائماً أنك تلعبه ، وأنك تتلذذ بلعبه لضاعت لذته ، وإنما تصل من لذته إلى الغاية إذا أنت نسيت الشطرنج ، ونسيت نفسك ونسيت لعبك ، وفنيت فيه ! وكذلك الأمر في الكتاب تقرؤه ، والموضوع تبحثه ، والسينما تشهده ، والتمثيل تراه .

وعلى هذا القياس أنا أفنى في صداقتي ولا أذكرها ، وأرتشفها ولا أتحدث عنها . ولهذا كتبت لك حول الصداقة ، لا في الصداقة .

ومع هذا أشكرك على خطابك ، فربما دعا إليه داعٍ لم أتبينه ، وهو — في رأيي — خطأ خير من صواب والسلام ؟

(حاشية) أحلك من نشر كتابك ونشر كتابي إن شئت ، مع حفظ اسمي كما وعدت ؟

(طليق الأسر)

أحمد أمين

صور قضائية

على طريقة الرهائن ...

من المجرمين فى مصر من يتبع فى انتقامه نظام « الرهائن » الألمانى — فيما يروى الرواة — إذ يقوم عامل من عمال إحدى المدن الفرنسية مثلا بقتل جندى ألمانى يظفر به منفرداً فى الطريق ، فيكون جزاء هذا العمل عند السلطة الألمانية أن تقبض على أول مائة رجل فرنسى يصادفونهم فى الطريق ، ثم يجعلونهم عشرة عشرة . ويكلفون كل عشرة منهم بحفر خندق يتسع لأجسامهم ثم يأمرونهم بالوقوف فى هذا الخندق ، ويطلقون عليهم النار ثم يهيلون عليهم التراب ، فتعود الأرض سيرتها الأولى — وكان الله يحب المحسنين !

* * *

وهذا الابتكار الحديث ، قد اهتدى إليه منذ زمان بعيد بعض المجرمين فى هذه البلاد ؛ هدتهم إليه نظرتهم الإجرامية السلمية ! .. فقد روت الصحف المصرية منذ عهد قريب أنه حوكم أمام محكمة جنايات مصر صياد من السويس كانت له أخت ساء سلوكها . وترامى إلى سمعه شىء من أخبارها ، فحاول أن يثأر لشرفه بقتلها . ولكنه لم يوفق فى محاولته ، ولم تتهيأ له الفرص المواتية لتنفيذها . وكان لأخته هذه طفل صغير . فعمد إليه يوماً وأدخله الحمام ثم ذبحه ذبحاً . واطمأنت نفسه إلى أنه قام بالواجب عليه ، وأن شرفه قد تطهر بدماء هذا الطفل البرىء ....

وأنت ترى فى الطريقتين أن الآثم الحقيق يبقى بمنجاة من الانتقام ، وأن الشر إنما يقع على أرواح بريئة أخرى لا ناقة لها فى الأمر ولا جمل !

* * *

وقد أذكرتنى حادثة هذا الصياد ، صياداً آخر من أهل السويس أيضاً كانت له قصة شبيهة بهذه القصة ، من ناحية أن الجانى فى كل منهما قد انحرف به ميله إلى الانتقام فأصاب بجنايته شخصاً آخر غير الذى هو أحق بانتقامه .

وخلاصة قصة هذا الصياد الثانى أنه كانت له جارة منذ الصبا ، فوقع بينه وبينها ما يقع عادة بين كل « بول » وكل « فرجينى » توقعها الظروف فى دائرة نفوذه الغرامى . وتعاهد الصبيان كالمعتاد . وأقسم بعضهما لبعض بالصفا والوفا وباقى تلك الأيمان الشعرية غير المغلظة بأنهما سيحفظان الود ويقيمان على العهد . . . ثم تقدمت بهما الأيام . ونشأ الفتى صياداً كبقية أهله . وبلغ السن التى عندها ترى أمهات هذه البلاد أن الفرصة قد سنحت لشىء من الطبل والزمر ، فيتخذن من نمو أبنائهن مناسبة لهذا الفرح المنشود ، ويسعين إلى تزويجهن ، فيقع هذا الحدث الأعظم لا لسبب إلا لإدخال السرور أسبوعا أو بعض أسبوع — وفى معظم الحالات يوماً أو بعض يوم — على نفس أم عجوز أو إخوة محرومات . . . وهكذا تم زواج صاحبنا الصياد ....

ولكن لم تكن عروسه « فرجينيا.. » . فلقد كانت هذه ابنة الجارة التى لا تحبها أمه ، والتى كثيراً ما تشاحنت معها إخوته ، ولذلك لم يكن من الممكن أن تقبلها الأسرة لتقيم بينهم وتكون فرداً من أفرادهم ...

وإنما كانت عروسه ابنة عمه التى اختارها له أبوه ، واشتركت فى الرضاء بها أمه . وأقام الفتى مع زوجته المفروضة عليه بضعة أعوام ، كان البحر والصيد أكبر عونان له على حمل همومها ، وغسل أوضارها . وكان من عادة زوجته بين الفينة والفينة أن تقصد إلى منزل أهلها فتقضى بينهم سحابة يوم من تلك الأيام الكثيرة التى اعتاد

زوجها أن يقضيها فى البحر . فخرجت على عادتها فى اليوم الموعود ، وتركت طفلتها فى البيت لأنها لم تكن تعتزم أن تغيب إلا سويعات . وتصادف أن عاد الزوج بعد خروجها فلم يجدها ، وعرف من ابنته أنها سيطول غيابها وقتاً ما . فحدثته نفسه بدعوة جارته لقضاء ساعة معه . ولم يحفل بالطفلة لأنها كانت دون سن التمييز — أو هكذا قدر هو فى نفسه — ولم تبخل عليه جارته بهذه الزيارة ، وهى التى ظلت السنين الطوال تصوره لنفسها على أنه هو رجلها المرتجى ... وانقضت الساعة التى طالما حسب الفتيان أنها ستكون عشرة الدهر وزمالة العمر . وانصرف الشاب لشأنه وعادت الضيفة إلى دارها . وبقيت الطفلة فى لهوها وعبثها حتى عادت أمها ...

ولكن رائحة الغريبة التى دخلت الدار ، كانت ما تزال عالقة بجدرانها . وللنساء حاسة شم فى مثل هـذا المقام هى من منح الطبيعة التى زودت الهرة بأنفها لتحبش ، وزودت العنزة بقرنيها لتدفع عن نفسها ما قد يلم بها من الأذى . وراب الزوجة أن بعض محتويات الدار لم تكن فى الموضع الذى خلفتها فيه ، وأن شيئاً يشعرها بأن يداً غريبة عبثت ببعض حاجاتها ، وأن قدماً أجنبية قد خطت فوق أرض قاعتها .....

فأخذت طفلتها على ركبتيها . ولاطفتها وقبلتها ، وسألتها عن أبيها فعلمت منها أنه عاد بعد خروجها ...... ثم جعلت تحادث الصغيرة وتستدرجها ، حتى انكشف لها ما لم يكن قدر له أن ينكشف . ووقفت الزوجة على تفصيلات الزيارة . ولمحت فى حديث طفلتها شبح الجارة ؛ فما زالت بها من سؤال إلى سؤال ، ومن بيان إلى بيان ، حتى أصبح ظنها يقيناً ، وحتى ثبت عندها أن زوجهـا خانها مع جارتها .

فرصدته وانتظرت مقدمه . وعاجلته من حيث لم يحتسب ، فسقط فى يده ، ولم يعرف كيف يعتذر . ورأى نفسه صريع ضربة قاضية منذ بداية الجولة الأولى . فبادر إلى إعلان توبته وإنابته . وكان اعترافه الصريح نكبة على نفسه وعلى زوجته ، فإن الزوجة ليأكلها الشك ولكنها مع ذلك ترجو أن يكذبها الواقع ، وتنهشها الغيرة ولكنها مع ذلك تلتمس النجاة فى المكابرة . . .

ولم يُجْدِ فى الموقف ما كان ينفع فى مثله من تلاوم الزوجين . . . أو تشاتمهما . . . أو تضاربهما أيضا لو أن فى الضرب شفاء من الظنون ؟

وتنمشت الزوجة ، وأقسمت لا تقيم مع زوجها . . .

وانكمش الفتى وأقسم ليقدمن لزوجته كفارة ترضيها وتنسيها هذه الزلة . . . وكأنما الصدمة التى أصابت الزوجة ترنحت فى صوان أذنيها فلم تعد تستمع لاستغفار زوجها . ولم تفهم شيئا من وعوده ، وأصرت على الفرقة ، فكان لها ما أرادت . وكانت الفضيحة التى حاول الفتى أن يتقيهـا بكل ما أوتى من جهد وفكر . فذهبت جهوده فى ذلك أدراج الرياح . . .

* * *

ودارت الأيام دورتها فإذا الفتى يرى جارته وقد طارت من دنياه إلى الأبد بعد الذى لوث به سمعتها ، وإذا هو يرى زوجته — وابنة عمه — وقد باتت هى وأهلها عدوا له بعد إذ كانت له ظهراً ووقاء — كل ذلك بسبب تلك الطفلة الخبيثة التى خيبت ظنه ، وهتكت سره ، وفضحت أمره ، وشوهت حياته . . . فأبغضها ... ولم يطق بعد ذلك اليوم أن يراها .

وعاش الفتى أياماً سوداء انطوى فيها على نفسه . وظلته كآبة قاتلة ، وضاقت الدنيا فى وجهه . فإن المصيبة تلم بالإنسان فيفزع منها إلى أهله أو إلى أهل بيته . فما بالك بمن ألمت به النازلة فأصابته فى أهله وأهل بيته .

وتركته فريداً شريداً يحقد عليه من كان يرجو عنده العطف إذا حاق به مثل هذا البلاء . . .

***

واقبل يوما فى طريقه إلى البحر ، وهو يرجو أن يجد فيه شفاء من هذه الحياة التى ثقلت أعباؤها عليه حتى خيل إليه أنه لم يعد يطيقها . ولكن الأقدار الساخرة هيأت له أن يصادف طفلته فى هذا الطريق . فانتشت نفسه لرؤيتها وأحس كأن يدا من السماء مسحت على ما جثم فوق صدره من الأحزان فمحته وطهرته . وأخذ بيد الطفلة وداعبها ولاعبها . ثم احتملها على ذراعه وسار وهو يحادثها ويستمع إليها ، ويسألها عما لا عهد لمن فى مثل سنها بمثله . فكان يدهشه منها دقة فهمها وحسن جوابها . وكان يعض على شفتيه من الندم لما فرّط فى كنف كل هذه المواهب من قبل . وأخيراً وجد أنه قد أوغل فى سيره وأنه أصبح على مسيرة ساعات من البلدة . وأنه ليس فى ذلك المكان الذى بلغه إلا «صندل» بعيد مما تشد إليه زوارق الصيادين قبيل خروجهم إلى البحر أو عند عودتهم منه . وكان الوقت ظهرا . ولم يكن عند الصندل أحد ، فقصد إليه وجلس على حافته . ثم أخذ ابنته بين يديه فدلاها فى البحر ، ودفعها براحتيه فوق رأسها لتغوص . . . ! ولكن لم تمض لحظات حتى رأى الصغيرة تطفو على سطح الماء وهى تشهق وتضرب الماء بيديها . وعيناها إلى عينيه تلتمس منه النجدة وتبسط له ذراعيها القصيرتين . فد إليها راحتيه مرة أخرى وجذبها نحو «الصندل» ، حتى إذا ما اقتربت منه وملكتها يداه دفعها بقوة مثل تلك الدفعة الأولى فتوارت تحت صفحة الماء . وما زال بها كلما طالعته بوجهها ردها إلى قرار اليم حتى ذهبت ولم تعد . . .

ثم قام من مجلسه راضيا لا يسأل بعد ذلك إن كان المجتمع سيأخذه بدم ابنته ما دام قد فجع أمها فيها ، وتركها بثأرها ، وتركها تعانى حسرات فقدها كما خلفته هذه الأم ليعانى حسرات دهر طويل فى هفوة لحظة ، وطيش ساعة !

***

والسؤال الذى لا يزال يرف فى رأس الإنسان كلما اعترضته جريمة من هذا النوع هو :

هل من الممكن أن يكون الجانى متمتعاً بقواه العقلية العادية وهو يقارف مثل هذه الجريمة أم أنه لا بد أن يكون قد وقع تحت تأثير خاطر جنونى سلبه سلامة تفكيره ، وركز عقله فى فكرة واحدة طغت قوتها على كل ما عداها من نواحى التفكير ، فأصبح لا يحيا إلا فى جوها ، ولا يعيش إلا لها ، ولا يعمل إلا على تحقيقها ؟

وهل فى مثل هذه الحالة يصح أن يسأل المرء عن عمله كما يسأل العقلاء ، أم أن جزاء هذه الطبقة من المجرمين يحتاج إلى نظر جديد ؟

اللهم ألهم المصلحين صواب الرأى !

ع . ج

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

المدينة فى الاسلام

إن العرب قبل الإسـلام غلبت عليهم البداوة فى جزرتهم . فكانت حياتهم أساسها التنقل انتجاعا للمرعى ، وعمادها بيت يسهل تركه ، وخيام تضرب فى المكان أياماً ثم تحمل إلى غيره ، وما أحسن ما وصف رحيلهم الحارث بن حلّزة إذ قال :

أجمعوا أمرهم عشـاء فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل خلال ذاك رُغاء

فإذا اطمأنت جماعة منهم إلى ماء لاينضب له معين ، فى قلب القفار الشاسعة ، وأرض تنبت الحب والنخيل ، وتغذو الإبل والشياه ، أقامت الجماعة فيه إقامة مازج بداوتها شىء من الحضارة ، ورافق الرعى بعض الصناعة ، واستقر القوم فى قرية أو بلد . وهذه واحات نجد تقوم شاهداً على ما كانت عليه تلك البلاد قبل الإسلام .

وقد تقع إحدى هذه الواحات فى طريق قافلة تحمل المتاجر من صقع إلى آخر ، فينشد رجالها مأوى فى الواحة ومطعماً ، ويألف التجار النزول فيها والاستقرار ، ثم يتخذونها سوقاً يتبادلون فيهـا السلع مع غيرهم ، بدل أن يقطعوا جميعهم المسافات البعيدة ، فيصبح المكان مدينة كبيرة كما كانت مكة قبل الإسلام ، فقد جعلها موقعها على طريق القوافل بين الشام واليمن سوقاً ومتجراً يهرع إليه البائع والشارى فيصيب كل طرفاً وتحفا ، ويحمل إلى أهله وبلده من غلات الأقاليم النائية ما عز وغلا . بل إن أهل مكة أنفسهم أصبحوا يحملون المتاجر التى كانوا ينقلونها من اليمن والشام . فمع أن مكة كانت فى واد غير ذى زرع ، فقد كان لها من تجارتها مصدر ثروة كبيرة ، وكان سكانها أصحاب رحلة الشـتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ؛ وقد ذكر ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشـتاء والصيف ، فليعبدوا ربَّ هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . ونحن نلمح آثار هذه النعمة فيهم فى وصف قوافل التجار التى كانت تنتقل بين مكة ودمشق وصنعاء ، فما كان أشبهها بحملات تجارية كبيرة يقوم على حمايتها جيش من الأحباش المأجورين لذلك . ومايحمى جيش إلا قافلة عظيمة الغنى ، كبيرة المتجر .

إلى هذين اللونين من الحياة العربية قبل الإسلام — لون البداوة المحضة ، والحياة التجارية المتمركزة حول السوق — يمكن أن نضيف حيـاة متحضرة على خير ما عرف العالم القديم . حياة أساسها استغلال الأرض فى الزراعة ، وجمع الماء خلف السدود لإروائها وتوسيع مدى عمل الإنسان فيها ، واستثمار سفوح الجبال فى زراعة الفواكه ، بل والتنقيب عن الثروة المعدنية فى باطن الأرض . كل هذه الأعمال عنوان حياة حضرية قوامها سكنى المدن وتجمع الناس والتعاون بينهم ، وتنظيم العمل ، وتبادل المنافع والمرافق . وهذه صنعاء ومأرب وغيرهما من مدن اليمن تشهد بأن أهل تلك البلاد كانوا يعيشون فى المدينة والقرية ، لا فى الخيام وبيوت الشعر . وهذا سد مأرب هو كما قال فيه الشاعر :

رخام بنته لهم حمير ... إذا جاء مواره لم يرم

فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماؤهم إذ قسم

وكانت للعرب قبل الإسلام مدن أخرى فى مشارف الشام والعراق . كانت لهم البتراء وبصرى وتدمر والحيرة . مدن قامت حيث مرت طرق القوافل ، فكانت مراكز للتجارة ، وكانت فضلا عن ذلك مراكز للمدنية . فثمة الشوارع الجميلة والأعمدة البديعة النقوش والمبانى الفخمة . وهذه المدن التجارية اعتمدت حياتها على مرور التاجرين منها ، فلما انقطع سبيلهم لسبب من الأسباب ، أفل نجم المدينة ، وخربت ، ولم يبق منها أو من بعضها على

الأول ، إلا الأطلال التي تشير إلى أيام الثروة والرغد .

هذه نظرة عامة إلى ألوان الحياة من حيث تجمع الناس في بلاد العرب قبل الإسلام . فلما نزل الإسلام بين العرب وغير حياتهم هذا التغيير الذي نعرفه ، والذي حملهم من قفار بلاد العرب إلى سهول الهند وجبال طوروس وشواطئ البحر المتوسط ، وسواحل المحيط الأطلسي ، كان طبيعياً أن يتغير لون حياتهم ، ونظام معيشتهم ، وطرق توزع السكان . فقد احتلوا بلاداً كانت للحياة الزراعية فيها قبلهم دولة ، وفتحوا أقطاراً كانت تجارتها راسخة القدم ، ونزلوا أصقاعاً نمت صناعتها على غير الزمن ، وكانت المدن فيها معروفة مأهولة ، وحياة المدينة عماد تنظيمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

انتقل العرب إلى محيطهم الجديد ، ونقلوا معهم مثلهم العليا الجديدة التي جاء بها الإسلام ، والتهم الحية الناجحة التي نزل بها القرآن ، ونشاطهم وحيويتهم وعواطفهم ، ومزجوا ذلك بأدب الفرس وعلم اليونان وإدارة الرومان ، فخرج للعالم من كل ذلك المدنية الإسلامية العربية التي انتشرت بدورها من المدن التي عمرها العرب .

وهذه المدن التي ازدهرت في العصور العربية المختلفة كان بعضها مما بنته الأقوام السابقة ، فسكنه العرب وأصلحوه إن كان قد أهمل أو تهدم ؛ وبعضها مما أنشأه العرب من جديد ، وهذا هو النوع الذي أريد أن أتحدث عنه . وأنا واثق من أن المجال لا يتسع لهذا البحث كله ، ولذلك فإني أنوى أن أعرض للأمر من نواحيه العامة .

جاء بناء المدن واختطاط المنازل في الدولة الإسلامية أمراً طبيعياً بعد احتلال البلاد وفتح الأقطار ، فما كان لهم وهم بدو بعيدون عن حياة الترف والدعة ، أن يفكروا في المدن والأمصار . فلما اضطروا إلى إدارة البلاد المفتوحة ، وعرفوا منازع الحضارة عمروا المدن ، وكانوا كلما أمعنوا في الفتح والاستقرار انتشرت مدنهم واتسعت . وقد خضعت المدن التي أنشأتها الدول لأغراض سياسية خاصة لقاعدة الخراب مع زوال الدولة ، أما المدن التي قامت على أسس صحيحة من حيث الموقع والمناخ فقد عمرت طويلا ، ولا يزال الكثير منها قائماً إلى الآن كالبصرة وعيذاب وبغداد والقاهرة .

وكانت أقدم المدن التي أنشأها العرب البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط . ونحن إذا استعرضنا هذه المدن وجدنا أن أصلها مراكز للجند ؛ فقد كانت البصرة معسكراً للجند قبل بنائها مدينة بنحو ثلاث سنوات ، ثم اختطت المدينة لتكون مركزاً للجند وللإدارة جنوب العراق المفتوح ، وأصبحت البصرة والأبلة فيما بعد مركزاً تجارياً لمنطقة شط العرب . وبعد القادسية أمر عمر سعد بن أبي وقاص باتخاذ معسكر للجند في أواسط العراق فأقيم المعسكر سنتين ثم بنيت الكوفة في موضعه ، بناها سعد بأمر عمر . ولما فتح العرب مصر واحتلوا الإسكندرية أراد عمرو بن العاص أن يتخذها عاصمة لمصر ، فكتب إلى عمر ، فلما عرف الخليفة أن النيل إذا امتلأ يفصل بينه وبين المسلمين ، منع عمرو من اتخاذها عاصمة ، وأمر أن تكون الفسطاط عاصمة مصر ، فكان ذلك أصل هذه المدينة . وكذلك فتح عقبة بن نافع شمال أفريقية ، واحتاج إلى مركز للعمليات الحربية ، ودار للتموين والسلاح لمهاجمة البلاد الباقية ، فبنى القيروان بالقرب من تونس الحالية . ولما ولى الحجاج إدارة العراق ، وهدأ ثورته على الأمويين ، أراد أن يتخذ له مركزاً لإدارته ومقراً لجنده بحيث يكون بين البصرة والكوفة ، وبحيث يبقى جنده الشامي بمعزل عن جند العراق وأهله ، فبنى «واسط» بين المدينتين المذكورتين واتخذها مقراً لعسكره .

وبناء المدينة للدفاع والإدارة والفتح أمر طبيعي لأن الدفاع عنها أسهل من الدفاع عن المعسكر المكشوف في حالة قيام ثورة . وقد عرض ابن خلدون لذلك إذ قال « إن

القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا إلى الاستيلاء على الأمصار . . . لدفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين . . . فيعتصم (صاحب الأمر) في المصر ويغالبهم . ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة . والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد ، ولا عظيم شوكة » .

وينطبق هذا القول بشكل خاص على نوع من المدن عني العرب به في العصرين الأموي والعباسي بشكل خاص ، ذلك أنهم لما لم يتمكنوا من التغلب على الدولة البزنطية واضطروا إلى الوقوف في جبال طوروس وأرمينية ، عمروا مدناً كثيرة كانوا يسمونها الثغور أو العواصم ، كانت أكبرها ملطيه . وقد كانت الغاية من هذه أن يقيم فيها الجند في فصل الشتاء ، حتى إذا بدت طلائع الصيف قاموا منها بحملات عسكرية ضد البزنطيين ؛ وهذه بقيت معسكرات . والحق أن العرب لم ينشئوا هنا مدناً جديدة ، لكنهم عمروا بلاداً كان الدهر قد أخنى عليها بكلكله فتهدمت وعفت آثارها .

ومما يلفت النظر في حياة المدينة في العالم الإسلامي أن كل دولة قامت اتخذت لها عاصمة جديدة . فقد كانت المدينة عاصمة النبي الكريم وعاصمة خلفائه الراشدين حتى انتقل علىّ إلى الكوفة . فلما قامت دولة الأمويين اتخذت دمشق عاصمة لها . ودمشق أقدم من الأمويين ، لكن دمشق العربية أموية المولد والنشأة ، وهو الأمر الذي حافظت عليه دمشق إلى يوم الناس هذا . أما العباسيون فلم يتخذوا مدينة قديمة عاصمة ، وإنما أنشأ المنصور بغداد لتكون عاصمة للفكرة الجديدة والخلافة الجديدة والملك الجديد . فكانت بغداد في اختيار مكانها وتخطيطها وسكانها ممثلة للحركة التي عرفها العالم الإسلامي على أيدي العباسيين . ومثل عمل العباسيين في العراق ، عمل الفاطميين في مصر ؛ فقد كانت القيروان عاصمتهم حتى فتح جوهر مصر وبنى القاهرة عاصمة الدولة الجديدة . ونحن لا ننكر أن المدينة الجديدة أقيمت على مقربة من عواصم مصر الإسلامية السابقة كالفسطاط والعسكر والقطائع ، لكن بناء القاهرة كان إعلاناً للناس بأن عهداً جديداً قد انبثق فجره في مصر . وهكذا كانت كل من بغداد والقاهرة حصناً للدولة التي قامت بإنشائها ورمزاً لسياستها .

على أن إنشاء المدن ، وانتقال الناس إليها ، واستقرارهم فيها ، وعنايتهم بالصناعة والتجارة ، أمر طبيعي متصل بنوازع الحضارة ، ونمو الملك واتساعه . فكلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر الأمن في ربوعها ، وتقارب الناس في مصالحهم وتعاونوا في سبيل الجماعة ، كان نشوء المدن أمراً ضروريا . وعندها يتحتم على أولياء الأمر أن يتعهدوا هذه الحركة ويوجهوها توجيهاً صالحاً يحول دون اضطراب الأمور فيها . وقد انتبه الأمراء والخلفاء إلى ذلك ، فعنى سيف الدولة بالمدن في مملكته على نحو ما حدث في بنائه عينتاب ، واهتم الأمويون بقرطبة ، ووجه بنو الأحمر عنايتهم إلى غرناطة . كما عنى الخلفاء ببناء المدن التي كانت الغاية منها النعمة والسرور ، مثل سرّ من رأى (سامراء) والمتوكلية والزهراء ، والزاهرة . وهذه أشبه شيء بالحدائق الغناء ، والقصور الفسيحة التي تبنى في العالم المتمدن اليوم . وكان إنشاء هذه المدن في عصر تمت فيه ثروة العالم الإسلامي ، وبلغت حضارته الأوج ، فأصبحت مدنه مدارس يتعلم فيها العالم المعروف عندئذ .

(للبحث بقية) نقولا زيادة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/١٦ في القضية ٢٨٤٠ سنة ١٩٤٢ بتغريم سيد أحمد عثمان موسى من التلين ثلاثة جنيهات لامتناعه من بيع الذرة الفائضة عن حاجة الحكومة

حكمت محكمة الشرقية العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/١٦ في القضية ٢٧٣٧ سنة ١٩٤٢ بتغريم مرزوق عمر حسب الله من التلين جنيهين لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته الحكومة

الأب انستاس الكرملي والأستاذ محمد مندور

لا يهمنا نحن القراء موضوع هذا الجدال العنيف بين الأب أنستاس الكرملي والأستاذ محمد مندور . ولا يهمنا أن نعرف من منهما تغلب على خصمه .

ولكن الذي نحب أن نشير إليه هنا هو أسلوب الأب أنستاس الكرملي في جداله .

يظهر لنا أن الأب الجليل يعتمد في جداله على أسلوبين : الأول : أسلوب الأب الروحي مع رعيته .

الأب الروحي إذا قال كلمة فعلى رعيته أن تتلقاها بالإذعان كأنها منزلة من السماء . وإذا بلغت الفحة من أحد أن يعترض فجزاؤه أن يفصل من الكنيسة أو أن يقدم كفارة .

ألم يقل الأب الجليل للأستاذ مندور :

« نرجو منك ألا تعود إلى مثل هذا ، وأن تعوض عنه عما يغفر لك سيئاتك هذه » ، كأن الأستاذ مندوراً من رعية الأب الجليل وكأن الأب الجليل منه أبو اعترافه ...

الثاني : الأسلوب السفسطائي ، أي أنه لا يهمه في جداله الوصول إلى الحقيقة والخضوع لها أكانت في جانبه أم كانت في جانب خصمه ، ولكن الذي يهمه قبل كل شيء هو أن يغلب خصمه .

موضوع الجدال تحقيق كلمة . فما باله يحاول تحقير خصمه والتهكم به فلا يذكره إلا قال :

« الأستاذ مندور المدرس بكلية الآداب في مصر »

ومعنى ذلك إما أن هذا الأستاذ لا شيء ، فكيف يشغل هذا المركز العالي ، وإما أنه شيء ، ولكنه بالنسبة إلى الأب الجليل لا شيء ، فكيف يتجرأ على انتقاده . وليسمح لي أن أقول إن كلامه لا يخلو مما يشبه أن يكون وقيعة في الأستاذ مندور عند طلابه ورؤسائه .

اسمعه يقول :

« كنا نود أن يرأف الأستاذ مندور بأجداده العرب . أهذا هو إكرامك للعرب أجدادك وأنت تنشئ تلاميذ عرباً ؟! كيف تتمكن بعد ذلك من تعليمهم احترام أسلافهم ؟ نلتمس من حضرتك أن تكرم بني مصر الإكرام اللائق بهم » .

إذا لم يكن هذا وقيعة فماذا يكون ؟ !

فأنت ترى أنه تدرج في جداله من تحقيق كلمة إلى تحقير خصمه ، إلى ما يشبه الوقيعة فيه .

سيدي الأب أنستاس الكرملي ..

نحن القراء نحترم علمك ، ونعجب بسعة اطلاعك ، ووفرة جلدك على التنقيب . ولكننا لسنا نكتمك — والعفو من شيم الكرام — أننا لا نحب أسلوبك .

(القدس) (...)

الشـــيال

المرحوم « أحمد الشيال » شاب تخرج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في العام الماضي ، ثم عمل كموظف بسكرتيرية كلية العلوم لعدة أشهر ، ووافاه يوم ٢١ أكتوبر قضاؤه المحتوم . فهو إذن لم يكن موظفاً كبيراً ، ولا وزيراً خطيراً ، بل ولا عالماً منقطع النظير ، ولكنه كان إنساناً أحزنني موته . وهناك شيء يهتز له دائماً قلبي هو الخُلق ولقد كان « الشيال » شاباً شهماً صادقاً حيياً عزيز النفس . لقد كانت فيه أريحية الرجولة .

لم أعرفه إلا من زمن قريب ، ولكني كنت دائماً أهش لقياه . هناك نفوس جبلة ، و « الشيال » أحد تلك النفوس — ألا سقت رحمة الله قبره !!

لقد وقفت وفاة هذا الشاب الكريم تيار حياتي ، وكأني أفقت من سكرة . فيم الضجيج وفيم الطموح وها هي الحياة تدبر ؟! أيها الراحل النبيل : لقد كنت أعزك حياً ، وها أنا أقف لأحييك ميتاً ، ضارعاً إلى الله أن يطيب ثراك ويفسح لك من ضيق قبرك ، وأن يجعل من حزني عليك شفيعاً إلى محبته . سنذكرك دائماً بالخير ، وسندعو الله ما ذكرناك أن يبسط عليك الرحمة !!

محمد مندور

بعض مناهج الدراسة الأدبية

يقول « سبيرمان » العالم الإنجليزي المشهور ، في كتابه « علم النفس خلال العصور » : (هنــا لك حقيقة لعــل الجمهور غير الخبير لا يدركها دائما ، هي أن العلم في العادة يشمل شيئا مهما جدا بجانب موضوعه ، ذلك هو طريقته — أو طرقه — التي يعالج بها هذا الموضوع) . ويظهر أن بعض الخبيرين أيضا ينسون هذه الحقيقة أو يتجاهلونها في كثير من الأحيان ، بل يبدو أن بعض المتصلين بالدراسات العلمية والجامعية في هذه الأيام لم يصل إلى علمهم أن هناك فرعا من فروع الدراسات المنظمة ، يطلق عليه الآن اسم « علم مناهج البحث » ، وأن هــذا الفرع يدرس الصفات التي لا بد أن تتحقق في طرائق البحث حتى تسمى مناهج علمية ، وحتى يصح أن تبنى عليها نتائج لها قيمتها العلمية ؛ ثم يبحث في الخصائص التي إذا اجتمعت لطائفة من الدراسات المنظمة المترابطة أمكن أن تسمى علما ؛ ويبحث في تنوع طرائق البحث — رغم اتفاقها في الأساسيات — حسب تنوع موضوعاتها من رياضية وتاريخية وغيرها .

وتجاهل هــذه الحقيقة أو نسيانها هو الذي يدفع الكثيرين إلى أن ينكروا على بعض العلوم صفة « العلمية » ، ففريق من المثقفين يرفضون الاعتراف — مثلا — بعلم النفس ، وآخرون ينكرون أن يكون التاريخ علما ، وجماعة يحلو لهم أن يعيبوا نظرية من النظريات بأنها فلسفة ! ولعل عددا لا يستهان به من المشتغلين بدراسات الطبيعة والكيمياء والأحياء في مصر يبتسمون ابتسامة الساخر إذا سمعوا بعض الإخصائيين في الدراسات الأدبية يقولون « علم الأدب » أو « علم تاريخ الأدب » ، أو « علم النقد الأدبي » ، فهذه في نظر علماء الكونيات لا تعدو أن تكون مجرد إنشاء ، يدلي فيه كل من شاء بدلوه غير متقيد بطريقة منظمة ولا منهج معروف . وأعرف عالماً من كبار علمائنا المشهورين إذا اشترك في وضع أسئلة الامتحانات العامة ، قصر همه على الجزء الخاص بالرياضة والعلوم ، فأما شعب الآداب فلا تستحق عنده تدقيقا ولا وقوفا طويلا ! ومن أعجب العجب أن يكون بعض باحثي الأدب أنفسهم عونا على انتشار هذه الفكرة بما يذيعون وينشرون من أن دراسة الأدب ونقده يجب أن تقوم على الذوق المحض ، وأن تنأى كل النأي عن العلم وطرائقه . فكل محاولة لتحديد طرائق الدراسة الأدبية ومصطلحاتها عندهم جناية على الأدب ، وكل دعوة إلى توسيع ثقافة الناقد ودارس الأدب بالاطلاع على نتائج الدراسات الإنسانية الأخرى من نفس وجمال واجتماع تعتبر عندهم إلحاما للعلم في الأدب ، وخطرا على الإنتاج الأدبي الحر لابد لهم من أن ينتدبوا لمحاربته وتحذير الناس منه . وليتهم يقفون عند هذا بل يندفعون إلى حد الإزراء بجهود رجال البيان العربي في مختلف عصوره ، ذلك لأن أولئك الرجال حاولوا أن يبحثوا النواحي العامة من الأدب بحثا نظريا ؛ وأن يتناولوا صفات الجمال فيه من وجهاتها العامة ، بجانب ما يفيضون فيه من نقد عملي ؛ وأن يتوسعوا — مثلا — في منــاقشة التشبيه والاستعارة وما إليهما على أساس ما تحدثه هذه الأنواع البيانية في النفس من تأثير وارتياح . والويل لمن يغفل فيذكر أمام هؤلاء الجنابذة المصريين اسم قدامة (الأعجمي !) في نقد الشعر ، أو اسم عبــد القاهر (الجرجاني) في أسرار البلاغة !

هذه الطائفة من باحثي اليوم بعض المدرفيا يكتبون ، فهم يقرأون في بعض كتب النقد العربي أن فهم الشعر عماده الذوق ، وقد يقرأون نظرية ما من نظريات النقد الغربي الحديث — وما أكثرها ! — تنادي بالاعتماد على الذوق في فهم الفن ؛ وقد يطالعون فيما يطالعون أن بعض كبار الفلاسفة — وما أكثر اختلافهم ! — يرفعون

الذوق والغريزة فوق مقام الذهن والذكاء . وقد يتفق أن يكون هؤلاء أنفسهم من أصحاب الطبائع الانفعالية الرهفة التي يؤثر فيها الفن تأثيراً عاجلاً فتندفع إلى تسجيل أحاسيسها منه في نقد قائم على الذوق والفطرة ، وهذا اللون من النقد في العادة يعجبنا كما يعجبنا الفن الجميل ، وقد يجذبنا أحياناً من طريق استفزازه لما فيه من أقوال جريئة ، وأقضية خارجة على الإجماع ، وهي حيلة ناجحة كثيراً ما يلجأ إليها الناشئون من النقاد ، ولكن تقدم في الغالب لا يشبع فينا حاسة الإنصاف والحكم الصحيح .

لهؤلاء ، كما ترى سيكلوجية خاصة يختلفون فيها من صنف آخر مقابل لهم يمتاز بالأناة والروية ، والصبر على تفهم الحقيقة ، والنظر إلى الموضوع الواحد من وجهاته المختلفة ، والتسامح مع الخصوم ، لاحتمال أن يكون رأيه خطأ ؛ ورأى الخصوم صواباً . وإذا صح أن يقسم الناس أنماطاً وأصنافاً على حسب صفة معينة تقوى في بعضهم وتضعف في الآخرين ، فلنا أن نقول إن هذين الصنفين موجودان بين الناس على درجات متفاوتة ؛ وهناك بجوار هذين آخرون وسط بين هؤلاء وأولئك . وهذه الفروق في العادة تجد منافذها في النازع العملية لأصحابها ؛ فالذوقيون يتجهون ناحية الفن وإنتاجه ، والمعنيون ناحية العلم وبحثه ، والآخذون بطرف من الخصلتين إلى النواحي التي تجمع الاثنين كالنقد ، وكالبحث في الأدب والفن بحثاً علمياً منظماً . وإذا اتجه كل إلى ما يناسبه عاشت جمهورية الفكر في سلام ، ولكن الذوقيين بطبعهم عجلون لا يستطيعون صبراً على الخلاف والمناقشة ، فالصبر يناقض طبائعهم ، وكثير من جاذبية حياتهم قائم على ذلك الغموض الصوفي الذي يحيط بما يسمونه ذوقاً ؛ ومن أظهر صفاتهم الثورة على معظم المؤلفين من قدامى ومحدثين ، والاندفاع إلى تقرير الأحكام دون مقدمات معروفة ، والنفور من تحديد ما يتكلمون فيه ، وعدم التقيد بمنهج واضح يمكن على أساسه أن يناقشهم مناظرهم ، أو يصل وإياهم إلى كلمة سواء . أما المعنيون فهم مضطرون — أرادوا أو لم يريدوا — إلى الوقوف عند الحقائق ومحاولة تفهمها ، واصطناع طرق الدراسة لكشف مجاهلها ، والوصول فيها إلى قوانين عامة . وقد ظلوا دهراً يبحثون الحقائق الخاصة بنفس الإنسان — من سجية وعاطفة وغريزة وذكاء وذوق ومزاج وخلق — بحثاً نظرياً حتى جاء العصر الحاضر بدراساته التجريبية ، فاصطنعوا المنهج التجريبي في دراسة الإنسان ، وراحوا يطبقون البحث العلمي — حتى على حاسة الجمال عنده — ووصلوا بذلك إلى نتائج في سيكلوجية الفن وأربابه جذبت أنظار الأدباء والنقاد والباحثين في مختلف الشعوب .

والواقع أن بعض المتحمسين للذوق المجرد يجرون في تفكيرهم على قاعدة « ويل للمصلين » . فكل من درس كتب النقد العربي في أزهى عصوره يعلم كيف ذهب مؤلفوها — في منهجهم العلمي وفي بحوثهم النظرية — إلى أن عماد دراسة الأدب ونقده إنما هو الذوق والمعرفة ، أو إن شئت فقل الذوق المستنير ، الذي يستمد من ثقافته العامة ملهماً روحياً يعينه على أن يستمتع بجمال الفن ويتعمق أسراره ؛ ثم يستمد من معارفه المنظمة وذهنه المنطقي ميزاناً يزن به ما يقول إذا نصب نفسه للنقد والتحليل . وهذا المعنى هو الذي قصدنا إلى تصويره في عرضنا لآراء الشعراء النقاد من الإنجليز (في الثقافة) ؛ وهو المعنى الذي عبر عنه « الدكتور عبد الوهاب عزام » في إحدى مقالاته عن مكانة الأدب العربي بين آداب الأمم (الثقافة عدد ٢٠٠) إذ يقول : (ولا بد للأديب من إدراك بليغ ، وإحساس مرهف ، وإبانة قوية ، وكلما اتسعت معارف الأديب اتسع أمامه مجال البيان ، وازدادت قدرته على الإبانة والتصوير ، وتعددت أمامه سبل القول ، فمن أوتي طبعاً دراكاً مبيناً وضاقت معارفه فهو ضيق المجال ، لا يرتقي عن العامة

وأشباه العامة إلا قليلا ، ومن أوتى معرفة ولم يُرزق الطبع اللين المصوّر فهو عالم ليس له في الأدب مجال) . وما قيل هنا في الأديب يقال مؤكداً عن ناقد الأدب ، فهو شخص لا يتذوق فحسب ، ولا يستمتع بالجمال فحسب ، ولا يشارك في تجربة الفنان فحسب ، ولكنه يزن ويحلل ويحكم ويميز الجيد من الردىء ، ويحاول أن يوصل هذه الأحكام إلى أكبر جمهور ممكن من المثقفين . فمن حق البحث والإنصاف عليه أن تكون له فكرة (أو فلسفة) في الأدب وطبيعته وجماله ومنابعه من الشخصية الإنسانية ومسالكه إلى النفوس ، وأن تكون هذه الفكرة واضحة التطبيق في نقده الفنى . وبعبارة أخرى يجب أن يفهم « أن دولة الأدب (كما يقول أبركرومبي في كتابه « قواعد النقد الأدبى » — ترجمة دكتور محمد عوض) تحتلها ملكات ثلاث : الأولى ملكة الإنتاج ، والثانية ملكة التذوق ، والثالثة ملكة النقد ؛ وأهم ما تمتاز به ملكة النقد أنها يمكن أن تكتسب — مع أنه من الجائز أن يكون النقد أحياناً غريزياً — فالناقد عادة يكون مدركا للخطة التى يتبعها في نقده ، وهذه الخطة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لأن ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص ، ومن الممكن دراستها وتطبيقها في دقة وعناية ... » ويقول : « بدأ النقد — كجزء من النشاط الأدبى — حينما انتقل الناس من التفضيل المبهم إلى الاختيار الذى يمكن تبريره بشكل معقول ، أو بعبارة أخرى حينما تسنى للناس الرجوع إلى قواعد عقلية ... ولكن هل هناك فائدة من الرجوع إلى مثل تلك القواعد ؟ أجل ، فائدة ذلك أن يكون حكمنا مبنيا على العقل ، وأياً كان الموضوع الذى يفكر فيه الإنسان ، فإن هناك أناسا يصرون على أن يكون تفكيرهم بالغا أقصى حدود الدقة والجلاء ، وهنالك فائدة للنقد أوضح من هذه ، وهى أنه يمكّن الرجل الذى رزق مقدرة على الإنتاج الأدبى من أن يستخدم مقدرته هذه بذكاء ، وأن يستغلها على أحسن وجه وأكمله . وكذلك الرجل الذى رزق المقدرة على تذوق الأدب فإن استمتاعه يصبح مبنيا على أساس من الفهم وحسن التخير ... » . والمتتبعون لكتابات « أبركرومبي » — وقد كان أستاذ الأدب الانجليزى في لندن وأكسفورد — وحاضر في القاهرة منذ سنوات — يعلمون كيف يقسم هذا العالم ميدان النقد إلى ناحيتين : الناحية الأولى ما يسميه « نظرية الأدب » ، وفى هذه ينظر الباحث تلك النظرة العامة الشاملة إلى الأدب والخصائص المشتركة بين أنواعه ، والوظيفة التى يؤديها ... ومن هذه المباحث والأجوبة عليها تتألف قواعد منظمة نستطيع أن نعبر بها عن مبلغ فهمنا لطبيعة الأدب ، وهى قواعد مشتقة من الأدب نفسه وليست مفروضة عليه فرضاً . والناحية الثانية هى ما يسميه النقد بالمعنى الخاص ، وفيها يشغل الباحث بالقطعة الأدبية وصفاتها وأسلوبها بمعناه الواسع — أعنى ما يشمل اللغة والإجادة الفنية والنزعة والروح واختيار الموضوع . وهاتان الناحيتان ممتزجتان بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، فنظرية الأدب لا بد لها من الرجوع دائما إلى صلب الأدب ؛ ولا بد للنقد الخاص من أن يعتمد على شيء أقوى وأمتن من مجرد أثر تحدثه في النفس ميول شخصية أو طوارئ عاطفية .

فالفكرة التى اتجهت مقالاتنا في « الثقافة » إلى إبرازها هى توسيع ثقافة الأديب والناقد وطالب الأدب من طريق الاطلاع على نتائج الدراسات الإنسانية الأخرى — بعد ممارسة الأدب وتذوق روائع آثاره طبعاً — ثم رفع البحوث الأدبية إلى مستوى منظم واضح المعالم تتلاقى فيه عقول الباحثين وأذواقهم . وهذا منهج سلكه باحثون سابقون ومعاصرون ، نطبقه نحن لطلابنا في قاعات الدرس ، ونعرضه عليهم ليفهموه وينقدوه ويطبقوه إذا شاءوا . وعلى ضوء هذه الفكرة الأساسية يمكننا أن نتبين وجه الحق فيما ينادى به بعض النقاد اليوم من تقريب

المواقع الحربية والبحرية

نحن الآن فى إحدى البوارج الحربية، وسوف ننتقل بك فى أماكنها المختلفة، لنعرف كيف تلقى القذائف منها بانتظام، حتى تصيب أهدافها المطلوبة. والآن لنبدأ بأعلى غرفة فى البارجة، وهى غرفة القيادة، فإنك تشاهد بها بعض الضباط البحريين يرقبون بالمراقب (التلسكوبات) ما يحيط بالبارجة لدائرة مدى نصف قطرها ١٢ ميلا. فإذا لمحوا إحدى سفن العدو يسرعون فى تقدير المسافة والسرعة، ويحسبون سرعة الريح واتجاهه، ويرسلون بإشارة «تلفونية» كل هذه المعلومات إلى غرفة الخطط.

ولننتقل الآن إلى غرفة الخطط، حيث تسجل جميع البيانات التى تصل من غرفة القيادة، فيقدر رجالها المرمى الحقيقى للقذائف وحولتها، ويرسلون إشارات بذلك إلى الأبراج أو الحصون الموجودة بالبارجة.

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى أحد هذه الحصون فهناك يتسلم أحد رجالها من غرفة الخطط المدى الصحيح ومقدار حمولة الطلقات، ويسرع فى توجيه المدافع فى اتجاه الهدف المطلوب حيث سفن العدو.

ويوجد أسفل كل حصن مخزن خاص يكون مهمة رجاله شحن القذائف المطلوبة وإرسالها إلى الحصن بمصعد خاص.

وإذا ما تم شحن جميع المدافع يبلغ ذلك بإشارة كهربية باستخدام «لمبة» خاصة تضاء بغرفة المراقبة، ويتلقى ضابط المراقبة بالغرفة العليا الإشارات المختلفة من الأبراج المتعددة.

والآن تأتى لحظة رهيبة؛ فعند ما يتلقى الضابط بغرفة المراقبة هذه الإشارات، التى معناها أن جميع المدافع معدة ومشحونة بالقذائف، وأنها مصوبة وجهة سفينة العدو، فإنه يدير مفتاحا خاصاً، فتطلق القذائف كلها دفعة واحدة، وتهتز البارجة هزة عنيفة من مقدمتها لمؤخرتها، وتنطلق هذه القذائف كوميض البرق مدفوعة بقوة، مصحوبة بصوت هائل، محاطة بسحابة كثيفة من الدخان، وتطير هذه الأطنان فى الجو كأنها أوابل من الحمم.

تتم هذه العملية كلها بسرعة فى لمحات زمنية قصيرة، بل إن هذه القذائف تصيب الأهداف إذا كانت على بعد اثنى عشر ميلا فى نحو العشرين ثانية.

ولا تنتهى مهمة ضباط المراقبة عند ذلك، بل إنهم يرقبون مدى إصابة القذائف التى أطلقت، فيسجلون ذلك؛ وإذا احتاج الأمر لعمل تصحيحات عملت فوراً وبلغت إلى غرفة الخطط، ويستمر شحن المدافع وإطلاق القذائف.

وتجهز البوارج بحيث يمكن إلقاء أكثر من مقذوف واحد فى الطلقة الواحـدة، فيطلق مثلا اثنا عشر مقذوفاً فى المرة الواحدة، ويتوالى إطلاق هذه الأطنان الثقيلة باستمرار.

ومن الهام الملقاة على عاتق ضباط المراقبة أنهم يرقبون سير هذه القذائف حتى تهبط، فإذا هبطت فى الماء لوحظ ارتفاع الماء لعلو كبير كأنه فوارات، فتظهر لضابط المراقبة

المسافة بين الدراسات السيكلوجية والجمالية من جهة، وبين الدراسات النقدية من جهة أخرى، أو ما يفضل بعضهم أن يسميه «سيكلوجية الأدب». وهو موضوع لنا فيه رأى تمهيدى قد نلخصه بعد. وسنحاول أن نعرض بعض نماذج من التأليف العربى قديمه وحديثه، فى البلاغة والنقد يتبين منها أن الذوق والمعرفة فى دراسات الأدب صنوان لا يفترقان، وأن مثل من يعارض إحدى الطريقتين بالأخرى كمثل من يريد إرغام الرجل اليمنى على مسابقة اليسرى.

(للكلام بقية) محمد خلف الله

كأنها خط أبيض ، فيحسب وهو فى مكانه مقدار بعد هذا الخط من قاعدة الهدف الذى يبغى إصابته ، ويرجع إلى رسوم بيانية معه تساعده على تصحيح مقدار خطئه فى مدى القذف ؛ ويمكنه فى الوقت نفسه ملاحظة ما إذا كانت الإصابة يمين أو يسار الهدف ، فيقدر الميل الضرورى للقنابل التى تلقى فى المرة التالية .

وفى حالة ما إذا كانت المسافة كبيرة بين السفن المتحاربة ، كعشرين ميلا مثلا ، فإنه يصعب على ضباط المراقبة مشاهدة إصابة الأهداف ، وعليهم أن يعتمدوا فى هذه الحالة على خدمة الطائرات التى عليها أن تغامر وتطير فوق سفن العدو ، حيث ترسل لاسلكياً ملاحظاتها عن مدى إصابة القذائف وما يلزم من تعديل أو تغيير ، حتى تكون الإصابات مسددة تماما ، وتكون الطائرة معرضة بطبيعة الحال لوابل من قذائف المدافع المضادة للطائرات .

وإذا كانت الطائرة من راميات القنابل ، فإن على قائدها أن يراقب من طائرته المرتفعة ويقدر اتجاه وسرعة الهدف الذى تحته مع حساب ارتفاع طائرته بالضبط ؛ ومن هذه التقديرات يسمح لقذائفه أن تهبط من طائرته لتصيب هدفها ؛ وإذا صادفه سوء الحظ وكان على السفينة المعادية بطارية أو بطاريتان من المدافع المضادة للطائرات ، والتى تصوب قذائفها نحوه ، فإن مهمته تصبح شاقة عسيرة ليركز اتجاه قنابله على السفينة . وفى مثل هذه الأحوال لا تكون تقديراته محققة ، وتكون إصابته للهدف ، وعلى مقدار مهارته فى الإفلات من القذائف المصوبة نحوه .

وهناك قذائف الطوربيد التى تطلقها المدمرات ، ويقدر فيها ضابط القيادة سرعة واتجاه هدفه ، ويحرر وصول الطوربيدات لتتقابل مع خط سير الهدف الذى يصوب نحوه ؛ غير أن مهمته شاقة أيضاً ، فهو يقوم بهذا التقدير وسط وابل كثيف من سحب الدخان الناتج من قذائف العدو وقنابله التى يمطرها عليه .

وهناك الغواصات ، وهى تلعب دوراً خطيراً فى الحروب ، والغواصة هى السفينة الوحيدة التى لا صديق لها فى البحر زمن الحرب ، فالسفن المعادية لها أو غير المعادية تصيبها بقنابلها بلا توان قبل أن تصيبها بضرر من قذائفها المهلكة .

ومهمة قائد الغواصة مهمة حرجة ، فهو إذا اقترب من هدفه الذى يقصده يتحرك ببطء ، ويحذر خشية الطائرات التى قد ترقب حركته تحت الماء ، فإذا تبينتها انقضت عليها الطائرة بمجرد لمحها ، وأمطرتها بشحنات محملة بأقوى ما يمكن من مفرقعات .

فإذا أمكن للغواصة أن تتفادى هذه الضربات القوية ، فإنها ترحف نحو ضحيتها المطلوبة ، وبنظرة خاطفة فى « البيرسكوب » من قائد الغواصة يقدر اتجاه وبعد سفينة العدو ، بينما يكون هناك شخص آخر يقدر سرعة السفينة التى تسير بها ، ويرقب قائد الغواصة إصابة التوربيدات ، ليعدل فى الإصابة التالية إذا احتاج الأمر ، وحتى تنتهى مهمته بسرعة ليختفى تحت سطح الماء بعيداً عن الوابل الذى تلقيه عليه الطائرات ، والذى إذا أصاب الغواصة أودى بها فى أعماق المحيط .

* * *

هذه لمحة خاطفة تعطينا فكرة مبسطة عما يحدث فى المواقع الحربية البحرية التى تلمس أخبارها فى الصحف اليومية ، دون أن نحس بهول ما يصادف القائمين بها من أخطار وموت محقق .

السيد محمود زكى

حكمت محكمة الدرب الأحمر العسكرية بتاريخ ٢/٩/١٩٤٢ فى القضية ٣٢٩٤ سنة ١٩٤٢ بتغريم جرجس روفائيل الزارع بكفر سلامه إبراهيم خمسة جنيهات لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة

لمكتبة الإسكندرية :

الألعاب الأولمبية

في عكاظ الإغريقية

للدكتور أحمد زكي بك

في عام ١٨٩٤ ، نادى البارون بير دي كوبرتين Pierre de Coubertin ، وهو رجل فرنسي ، بإحياء الألعاب الأولمبية . وفي سبيل هذا النداء أرسل منشورات إلى كل هيئة ذات بال تشرف على الألعاب البدنية في الأمم ذوات الخطر . وقال فيما قاله : « وقبل كل شيء علينا أن نحتفظ في هذه الألعاب بصفات النبل والفتوة التي ميزتها فيما مضى ، حتى تظل تلعب دوراً في تربية الشعوب اليوم كذلك الدور الكبير الذي لعبته بنجاح رائع في ذلك العصر الإغريقي القديم . »

وكان أول اجتماع بُعثت فيه هذه الألعاب في عاصمة اليونان — أثينا . وكان هذا بعد الدعوة بسنتين اثنتين ، أي عام ١٨٩٦ . وكانت الألعاب تُعقد في العهد الإغريقي كل أربع سنوات . فهكذا فعلوا عند إحيائها ؛ فكان انعقادها الثاني عام ١٩٠٠ ، وكان في باريس . وكان اجتماعها الثالث عام ١٩٠٤ ، في مدينة سانت لويس بالولايات المتحدة . وقد عانت تلك الاجتماعات الثلاثة الأولى نقصاً في التجهيز أو سوءاً في التنظيم أو قلة في تمثيل الأمم . حتى إذا جاء عام ١٩٠٤ انعقدت هذه الألعاب في لندن ، فكان لها فيها أولُ نجاح لفتَ الأممَ إليها . وفي عام ١٩١٢ انعقدت الألعاب في استكهلم عاصمة السويد . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فقطعتها . ثم جاءت السلم من بعد ذلك . فكانت الدول في تخاذل ما مع بعد الحرب وخَوَره . ثم أعيدت في عام ١٩٢٤ . ثم قطعتها الخصومات والحرب الحاضرة .

وليس من غرضنا التعريف بالألعاب الحاضرة ، فليس من حيّ لم يسمع بها ، وليس من حيّ لم يقرأ في الصحف وصفها — حيّ النفس لا حيّ الجسم — وليس من مصري ذي ثقافة يجهل أن مصر مُثلت فيها . ولكن غرضنا الحاضر هو التعريف بها في عهد الإغريق — هو التعريف بذلك الأصل القديم الذي يستعيد الحاضر صُوَرَه . .

وقد قلنا إن دعوة البارون الفرنسي لأوربا لإحياء هذه الألعاب كانت عام ١٨٩٤ . وهذه الألعاب ألغاها في الإغريق امبراطور الرومان النصراني ثيودوسيوس الأكبر Theodosius عام ٣٩٤ بعد الميلاد ، وكانت بلاد الإغريق عند ذاك ولاية رومانية . فدعوة البارون جاءت بعد ألف ونصف ألف من السنين من ذكرى هذا الإلغاء ، وجاءت لا شك في هذا التاريخ تعمّداً .

فلنرجعْ بأنفسنا القهقرى تلك الخمسة عشر قرناً لنرى هذه الألعاب عند الإغريق ، ما كان شأنها ، وما كان خطرها ؟ ولكن هذه الألعاب دامت في انتظام غير مقطوع عندهم اثنى عشر قرناً ، بل وراء ذلك قروناً . فلنرجعْ بأنفسنا كلّ هذه القرون لنعلم أن الإنسان اليوم في حداثته المُدُنّية ، لا يزال يستوحي ذلك القديم الأقدم فيما يتصل بجسمه وروحه . وتلك الألعاب كانت في ظاهرها أمسّ بالجسم . وكانت في باطنها أمسّ بالروح . ولم تكن عندهم لهواً ولعباً ، فقد كان رباطها بالدين وثيقاً . وكانت ، على قِدَمها ، من التمام بحيث لم يجد الأحدثون جديداً ذا خطر يضيفونه إلى ذلك القديم يستندون به ثمرة أو يستكملون به نقصاً .

لقد كان الأغريق في البعيد الأبعد من التاريخ ، في تلك الحِقَب التي تغوص بقدمها الحبي في مجهوله ، وبقدمها اليسرى في معلومه ، كانوا يجتمعون كما تجتمع الأقوام لقضاء حاجة الإنسان الاجتماعي في مَفرحةٍ أو مَحزنةٍ أو مَسلاة . فكانوا يجتمعون فيتبارَوْن في الشعر ، ويتبارون في الغناء .

وكانت تلك العصور عصور حرب دائمة ، فكان مما يتبارون فيه مظاهر الفتوة من الإنسان . واشتق الخيال الإغريق من تلك المظاهر تلك الرياضات البدنية من سباق الراجل ، وسباق الراكب ، ومصارعة وملاكمة ، إلى أكثر تلك المباريات التي نألفها اليوم وتألفها كل دولة مدنية من دول العصر الحاضر . ومن غريب أمرهم أنهم كانوا يقيمون ألعاب الفتوة هذه عند احتفالهم بموتاهم من ذوى الخطر ومن الملوك . أو هم كانوا يكرسونها لإله من آلهتهم ، أو بطل من أبطالهم ، والبطولة عندهم خطوة يخطوها الخالد من الناس نحو القدسية والخلود . ومن هذا ندرك عمق الجد في هذه الألعاب . وجمعوا بين تلك المباراة في الفتوة ، وتلك التي كانوا يعقدونها للشعر والغناء ، فأمَّ الأغريقُ تلك المجامعَ من كل صوب . وبلغت أربعةٌ من تلك المجامع مرتبة الشيوع الكامل ، فصارت أهلية تقصدها الشعوب الإغريقية في البلد الأم وفي المستعمرات . وبرزت منها وزنها جميعاً تلك الألعاب التي انعقدت مجامعها في بلدة أولمبيا في الجانب الغربي من شبه الجزيرة الإغريقية ، في جنوب برزخ كورنثه ، غير بعيد من اسبرطة عاصمة الدوريين .



بلاد الإغريق السفلى

وكانت حروب الدوريين في نزوحهم إلى الجنوب قد قلبت نظم الحياة ، وأشاعت في الناس القلق ، وجعلت العيش صراعاً دائماً ، والأمنَ حلماً قديماً . وقطعت تلك الحروب ألعاب أولمبيا زماناً طويلاً . ثم كان في هذا الاختلاط أن تولى أميرٌ عرش إليس ، اسمه إيفيتوس Iphitus . ولم يكن رجلاً ذا حرب ، وكان جناحاً للسلم . فلما رأى من حال قومه وغير قومه ما رأى ، من صراع غير نافع ، إلا أن يكون الهلاك تماما ، خطر له أن يتعرف مشيئة الآلهة في ذلك . فجمع قومه الإليين وأفضى لهم برغبة نفسه ، فأجمع أمرهم على إيفاد وفد من كبرائهم إلى معبد أبولو ، بمدينة دلفي ، قدس الإغريق أجمعين ، وإلى كاهنة هذا المعبد يلقون بهذا السؤال : إن غضب الآلهة قد حلَّ بالشعوب الإغريقية حتى أوشكت الحرب أن تفنيها ، فهل من سبيل إلى استرضاء الآلهة ؟ وخرج الوفد في احتفال ضخم حتى بعثه الإغريق قاصيهم ودانيهم . فجاء الجواب من لسان الرب ، وهو لسان الكاهنة كما قدمنا ، هكذا : « إن الألعاب الأولمبية كانت لتمجيد الإله الأكبر زيوس . وقد وقفتم أيها الإغريق تلك المحافل القدسية فحل بكم غضب الله ، فهي لا بد أن تعود لترضى . فإن هي عادت ، صارت الحرب أثناءها حراما على كل دولة ومدينة تشترك فيها » . وذاع جواب الرب في الإغريق وشاع . ولبى هذا الدعاء أمير إليس أولَ من لبى ، وأمر بالهدنة أن تكون في قومه فكانت . ولكن الدول والمدائن الإغريقية الأخرى ساءها أن يكون لإليس هذه الزعامة ، ولم يقووا على عصيان صوت الله ، فلم يكن لهم من سبيل إلا أن يتشككوا فيه . فاعتزموا أن يبعثوا وفداً إلى إلى الكاهنة من عندهم يستنطق الرب من جديد . وكان الكهان قوما ذوى حكمة وذوى سلامة . فجاء لسان الرب يؤكد ما فات فيقول : «على الشعوب الإغريقية أن تأتمر في هذا بأمر الإليين ،

وتستهدى بهديهم ، فى استرجاع ماضى عاداتهم وشريعة أسلافهم » .

بهذا تحرّج أمير إليس فى استعادة تلك الألعاب . فقضى بأن يُقام للإله الأكبر حفل كبير فى معبده من أوليا مرة كل أربع سنوات . وأن يُؤذَن لكل الإغريق بالشركة فيه ، وأن تدرج فيه الولائم ، وتقرَّب القرابين . وأن تُلعب الألعاب فى تمجيد الرب . وبما أن الحرب تمنع الإغريق أفراداً أو شعوباً من حضور هذا المشهد الأسمى ، إذاً وجبت الحرب أن تكون حراماً فى كل أرض إغريقية ، زماناً من قبل انعقاده ، وزماناً من بعده ، فمن استباح حرمة تلك الأيام فعليه لعنة الله الأكبر « زوس » ، صاحب المشهد



أوليا كما كانت فى عهد الإغريق ،
وفى أوسطها معبد الرب الأكبر زيوس .

وحاميه . وقضى أمير إليس ، إعلاناً لمشيئة الرب ، أن يكون قومه الإليسيّين قوّاماً على تلك القرابين والألعاب ، وأن يكونوا قساوسة المعبد ما طال الزمان . وقد حفظ الإغريق لهم تلك السكانة قروناً . وقضى أمير إليس ، إعلاناً لمشيئة الرب أيضاً ، أن تكون إليس نفسها حرماً لا يُباح فيه قتال ، فإن غزاها غازٍ ، صار على الإغريق فرضاً أن يغزوا غازيها ، وقد احترم الإغريق هذا الحرم أيضاً ، فلم يُقم فى إليس للدفاع عنها قلاع .

ويظهر أن هذه الألعاب ، الألعاب الأولمبية ، استكملت شأنها عام ٧٧٦ قبل الميلاد ، ففيه ، هذا العام ، كان أول سجل لسكل من أحرز سبقاً فيها . ورجل اليوم يقرأ تلك السجلات فيعجب لسكل هذه الدقة وهذه العناية . واتخذ الإغريق من هذا العام تاريخاً ، يؤرخون به على الأخص آدابهم . وأسموا فترة الأربع السنوات « بالأولمبياد » Olympiad . فقالوا الأولمبياد الأول والعاشر والمئوى ، إلى نحو التسمين بعد الثلاثمائة . وطاولت هذه الألعاب الزمن أكثر مما طاوله استقلالُ الإغريق ، فعاشت من بعد ضياعه فى أحضان الرومان أكثر من خمسة قرون من الزمان .

وهكذا ارتفعت تلك القرية الصغيرة ، قرية أوليا ، إلى أن صارت مجتمع الدول الإغريقية ، ومحجّهم ، كل أربعة أعوام . فكان فيها معبدهم ، وكانت فيها ألعابهم ، وأنشدت فيها أشعارهم ، وغنّى مغنوهم ، ورقص رُقّاصهم ، وتحاور وتشاور ساستهم ، وعقد الصفقات تجارهم ، وكل هذا فى شهر حرام لا يستبيح حرمانه إلا الجاحدون . ولم يكن للإغريق عاصمة تجمعهم ، لكثرة عواصمهم بكثرة دولهم ، ولم تكن تزيد كثيراً عن مدائن ، فاتخذوا من أوليا لهم عاصمة دينية اجتماعية أدبية لما عزّتهم العاصمة السياسية .

(لها بقية) **أحمد زكي**

الفقـــــــــير ...

ما بالُه والأسى قسراً يُساورُهُ
والبؤسُ ، والهمُّ ، والبلوى تزاجرُهُ
جاءتْ بعسكرِها الأيامُ صاخبةً
عليه ، إذ عزَّ بين النّاسِ ناصرُهُ
فراحَ يرزحُ في عبءٍ ينوءُ به
شكاتُه ترسلُ الشكوى خواطرُهُ
قدْ ألجمتْ فمَه البأساءُ إذ طرقتْ
بقارعِ الألمِ الدامي تحاورُهُ !
يُمسي على مَضَضٍ ، يُضحي على تعبٍ
فالبردُ زاجرُهُ ، والجوعُ قاهرُهُ

* * *

وكمْ يتيمٍ ظلامُ الليلِ من حَنَقٍ
على نضـــارتِه سُدَّتْ بوادرُهُ
ملوعـــةُ اليُتمِ شبّتْ نارُها ضرماً
عليه ، والذلُّ قد هبّت أعاصرُهُ
فباتَ يرتقبُ الجـــوزاءَ ناظرُه
مُسهَّداً ، ويُبنّي قصورَ الوهمِ خاطرُهُ

* * *

وكمْ من النّاسِ مَنْ يَحتزُّ مِن جشعٍ
خُبزَ الفقيرِ ، ولا يَثنيه زاجرُهُ !
خمرُ الأنانيّةِ الشوهاءِ قد ذهبتْ
بعقلِهِ ، فــإذا ماتتْ مشاعرُهُ !
و « الاحتكارُ » مَشى فيه إلى أمدٍ
يرتدُّ ، وهوَ كليلُ الطرفِ ، ناظرُهُ
يمسي بأتراحـــه قرّتْ نواظرُه
و « ابن السبيل » أمسى ندى محاجرُهُ

* * *

مهلاً أخا المالِ ، إن المـالَ خالدُه
فانٍ ، وما المرءُ إلا الموتَ آخِرُه
ما قيمةُ المـالِ إنْ لم تنتفع شرفاً
به ومجداً لسانُ الدهرِ ذاكرُهُ ؟!

* * *

يا مَنْ يرومُ فخاراً غيرَ مندثرٍ
كُنْ « حاتماً » فَفؤادُ الحمدِ شاكرُه

(الكاظمية — بغداد) **علي جليل الوردي**

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢ في القضية ٢٣١٧ سنة ١٩٤٢ بتغريم السيد عطوة من أبي طواله أربعة جنيهات لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢ في القضية ٢٣١٦ سنة ١٩٤٢ بتغريم عبد العزيز عطية من الفنة ثلاثة جنيهات لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢ في القضية ٢٣١١ سنة ١٩٤٢ بتغريم السيد عطوة بدران من التلين عشرة جنيهات لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢ في القضية ٢٣٠٦ سنة ١٩٤٢ بتغريم محمود محمد مكي من أبي طواله ثلاثة جنيهات لامتناعه عن تقديم الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢ في القضية ٢٢٩٦ سنة ١٩٤٢ بتغريم أبو زرع طنطاوي فلاح بالصالحية البحرية جنيهين لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/١٦ في القضية ٢٨٤١ سنة ١٩٤٢ بتغريم مهدي علي الباجوري من التلين ثلاثة جنيهات لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/١٦ في القضية ٢٧٣٨ سنة ١٩٤٢ بتغريم أحمد رمضان الفسري من التلين جنيهين لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

■ حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ١٩٤٢/٩/٩ في القضية ١٣٠١ سنة ١٩٤٢ بتغريم محمد عبد الهادي من التلين ٧٥٠ قرشا لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٠٤ — الثلاثاء ١٤ من ذى القعدة سنة ١٣٦١ — ٢٤ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العدد

الحياة الاجتماعية فى مصر

البطالة بين العمال والمتعلمين

قامت جهود متوالية معروفة لتسهيل إلحاق الشبان المصريين بالمنشآت الحرة ، إنما يجب أن يضاف إلى هذه الجهود بعض المسائل الآتية :

أن تقوم الحكومة ممثلة فى مصلحة العمل فى الإشراف على الأجانب الذين يزاولون مهنهم فى القطر المصرى ، فتحتم على كل أجنبى يريد أن يزاول مهنته فى مصر أن يأخذ موافقة منها بمزاولة هذه المهنة .

ورغم ظروفنا الخاصة التى أشرنا إليها ، فلسنا فى هذا إلا مقلدين لما يحدث فى غيرنا من الدول . وربما كان لهذا الإجراء ، فوق تلافى المزاحمة غير المشروعة ، فضل الوقوف على جميع الأعمال التى يزاولها الأجانب فى مصر ، ولهذا فائدته فى الأمن العام وفى غير الأمن العام . بل لو كان هذا الإجراء حاصلا فى مستهل هذه الحرب عند ما اضطر أن يشترك فيها أكثر الشبان الأجانب ، سواء من كانوا فى صفوف الحلفاء أو الأعداء ، لأمكن تلافى ما حدث من اضطراب وتعطيل فى بعض المصانع ، ولأمكن اتخاذ العدة لذلك ولأمثاله قبل وقوعه ؛ إذ أن بعض المصانع شعر بفراغ كبير ، وكاد بعضها أن يوقف أعماله لولا أن أعيد إليه بعض عماله الفنيين من الأجانب ، أو اشتغل لديه بعض الشبان المصريين .

والإجراء الثانى أن يوضع تشريع يقرر أحكاما عامة شاملة لاستخدام المصريين فى المنشآت الحرة ويقوم على المبادئ الآتية :

يعمم تطبيقه على جميع أصحاب الأعمال ، سواء كانوا

أفراداً أو شركات ، وأياً كان نوع العمل الذي يقومون به .

وهذا رأي شعرت به الحكومة من قديم منذ أن صدر قرار مجلس الوزراء في سنة ١٩٢٧ الخاص بتحديد ٢٥ ٪ من المصريين في وظائف الشركات — إذ جاء في مذكرة رفعت من سعادة رئيس لجنة قضايا الحكومة إلى معالي وزير المالية في صدد وضع القرار سالف الذكر :

« لمَ يوقف عند هذا الحد ، ولم لا تفتح في وجوه المصريين سبل الاستخدام كافة ، فلا تكون منحصرة فيما يجد من الشركات المصرية ، بل تمتد إلى ما كان موجوداً منها وإلى الشركات الأجنبية التي تتخذ من مصر ميداناً لاستخدام أموالها كلها أو بعضها ، ولا تكون منحصرة فيما يجد من الشركات المصرية ، وطبعاً تعطى الشركات الموجودة مهلة طويلة لا تقل عن عشر سنوات لتسوية حالها إذا كان شرط الاستخدام يقتضي تغييراً في نظام العمل ، ويقتضي التعويض للموظفين الحاليين حين يخرجون أو التعويض عليهم بحسب الأحوال . »

هذا هو الرأي في سنة ١٩٢٧ ، فلو أخذنا بأسوأ الفروض ، كما جاء في هذه المذكرة ، وانتظرنا على بعض الشركات عشر سنوات ، ووضعنا التشريع المقترح لجاءت سنة ١٩٣٧ وقد وصلنا إلى ما يحقق استخدام المصريين في المؤسسات كافة ، أجنبية ومصرية ، قديمة وجديدة .

والمبدأ الثاني الذي بني عليه التشريع ، أن يكون الحد الأدنى لاستخدام المتعلمين ٧٥٪ في العدد وفي مجموع المرتبات ، ولاستخدام العمال ٩٠٪ للعدد و٨٠٪ لمجموع المرتبات ؛ ثم وضع أحكام خاصة لأصحاب الأعمال الذين يقومون بعملهم الآن ويستخدمون مصريين بنسبة أقل من النسبة المشار إليها ، على أن تعطى لهم مهلة لا تتجاوز خمس سنوات مع مراعاة قيود وشروط خاصة . على أن ينص بوجوب المساواة بين جميع المستخدمين والعمال المصريين والأجانب في عقود الأعمال وفي نظام العمل .

بذلك تتوثق الصلات وتزداد التعاون بين الحكومة وبين أصحاب الأعمال ، ويعطى أصحاب الأعمال الفرصة لإظهار حسن نيتهم ، وذلك إذا ما تجاوزوا النسبة الواردة في هذا المشروع استجابة للتطور الاجتماعي في البلاد .

والخطوة الأخيرة التي تساعد المصريين على الاشتغال بالمنشآت الأجنبية ، هي التوسع في استعمال اللغة العربية — وقد كان صدور القانون الذي يؤيد ذلك من أبرز الأعمال التي يسجلها التاريخ الاجتماعي والقومي لهذه الوزارة ، وقد أجمعت البلاد صحافة وشعباً على أنه خير ما أخرج للناس في الدورة الماضية .

وعلى ذلك فلا زلنا نطمع في المزيد ، ونرجو بجانب تحقيق السيادة القومية وصيانة الدستور من هذه الناحية أن يتحقق في المستقبل حماية الجمهور بالنسبة للمحررات التي تكون من طبيعتها معدة للعرض عليه ، مهما كان نوعها وأياً كانت طريقة عرضها والغرض من ذلك العرض .

وليس هنا مقام تفصيل ذلك ، وقد ذكرته موضحاً في مشروع القانون والمذكرة التفسيرية اللذين قدمتهما إلى الوزارة سنة ١٩٤٠ مرفقين بمشروع قانون ومذكرة بنظام استخدام المصريين في المؤسسات الحرة .

ذكرت أن البطالة بين المتعلمين والعمال لها ناحيتان : إحداهما تنظيم استخدام العمال والمتعلمين ، وقد فصلناها فيما سبق ؛ والثانية تشجيع المنشآت الموجودة حالياً ثم العمل على إيجاد أو تشجيع إيجاد ميادين جديدة يلتحق فيها العمال والمتعلمون . أما عن تشجيع المنشآت الحالية فيكون بوسائل متعددة ، أهمها مساعدتها في استيراد ما تحتاج إليه ، وتسهيل حصولها على الخامات المحلية اللازمة لقيامها بعملها ، والعمل على سرعة تقديم الخدمات التي تتطلبها الصناعة من الحكومة ، وكذلك العمل على المحافظة على التوازن بين أصحاب الأعمال والعمال ، حتى يستتب النظام في المصانع والمؤسسات ، ويتقدم الإنتاج وتتسع دائرته .

ست النســــاء(١)

كان على قُطر من أقطار الهند سلطان عظيم الشأن ، له الجنود والبُنود ، والقوة والسلطان ، والعز والجاه .

وكان عادلاً فى رعيته ، يُحسن سياستهم ، وتدبير أمورهم ؛ ويحب العدل ، ويمقت الظلم ، ويعرف مَداخل الأمور ومخارجها ، ولكنه مظلم الروح ، مادىّ النزعة ، فاسد العقيدة ؛ يعبد الأصنام ، ويقدم لها القربان ، ولا يؤمن بثواب ولا عقاب ، ولا بخلود روح ، ولا بمملكة نفس ، وإنما الدنيا الحاضر ، واللذة المال والجاه ، والنعيم صنوف الترف .

وكان له وزير روحىّ ، يهزأ بالأصنام ويحتقرها ، ويؤمن بالروح ومبادئها ، ويقر بالجزاء الأوفى ، ويعتقد أن السعادة فى رضا الضمير ، والعمل الصالح ، وسمو النفس عن السفاسف ، وأن للروح مملكة فيها النعيم والشقاء ، وأن نعيمها خير أنواع النعيم ، وشقاءها شر أنواع الشقاء .

ولكنه لا يجرؤ على مكاشفة السلطان بذلك لشدته وجبروته ، ولأن قلبه مُغلق لا ينفتح لمثل هذه المعانى ؛ وكان يرثى لحاله كلما رآه يسجد للصنم ، ويُسرف فى الترف ، ويظن أن المجد فى النفوذ والجاه ، والتغلب على ما جاوره من أقطار ؛ ويتحين الفرصة لنصحه وتفتيح قلبه ، ودعوته إلى روحانيته ، ولكن هذه الفرصة لا تسنح ، والسلطان يتمادى فى تفاخره ، وخُيلائه وزهوه ، وعزته وأنفته ، ورياسته واستطالته ؛ ويُمعن فى الخطة التى رسمها له آباؤه ، ويخضع لعرف زمانه وإلفه .

وأخيراً حدثت المعجزة : طلب السلطان من الوزير فى ليلة أن يخرجا متنكرين لتفقد أمور الرعية ، كيف يعيشون ، ويشقون أو يسعدون ؛ فطافا ما طافا ، ورأيا ما سرّهما أحياناً وساءهما أحياناً ، حتى وصلا إلى ظاهر المدينة ، فرأيا — على بعد — بصيصاً من نور ، فقصداه فرأيا عجباً .

(١) أصل هذه القصة فى كتاب «إخوان الصفاء» ، وليس لى فيها إلا صياغتها بأسلوب العصر .

أما عن استحداث ميادين أخرى فقد تأتى هذه الميادين من ناحية الحكومة بقيامها بأعمال عمرانية تفيد البلاد وتشتغل فيها الأيدى العاطلة ، أو بالتشجيع على استغلال الأراضى البور ، أو استحداث صناعات ومتاجر متعددة .

وهذه كلها أبحاث أجدر بها رجال الأعمال ورجال الاقتصاد ، وربما لو وكلت إلى هيئة عليا علمية وفنية تمثل فيها عناصر المال والاقتصاد والعلم والفن ، لأمكن إعداد برامج تكفل للعمال والمتعلمين أعمالا تبعدهم عن البطالة وتقيهم شرها ، وتجنب البلاد ويلاتها ، وتعود على الحياة الاجتماعية بأطيب الآثار وأحسنها .

ولكن لن نبادر إلى الذهن أن معرفة أسباب البطالة وطرق علاجها والأخذ بهذه الطرق كاف للقضاء عليها قضاءً تاماً ، إذ أنها ظاهرة اجتماعية تتجدد بتجدد الحياة الاجتماعية فى كل أمة وفى كل مكان ، ولا يمكن استئصالها نهائياً . لذلك كان من الضرورى أن نعنى فى الوقت نفسه عند ما ندرس الأسباب التى تقى الأمة البطالة بالعوامل والوسائل التى تخفف من وقعها إذا ما حدثت .

وفى مقدمة هذه الأدوية اتباع نظام التأمين الاجتماعى الذى يساهم فيه أصحاب الأعمال والعمال والحكومة ، وكذلك حث العمال أنفسهم أفراداً وجماعات ونقابات على التعود على إيجاد صناديق للادخار ، وعلى تكوين جماعات تعاونية ، على أن يراعى فى ذلك العناية بالتعطل الذى يعجز عن العمل ، أو الذى لا يعجز عنه ولكن يعوزه الحصول عليه ، وبذا يتم لنا الجمع بين وسائل الوقاية والعلاج لهذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة .

ابراهيم القطريفى

لقد تخفَّيا فلم يشعر بهما أحد ، وتخيَّرا مكاناً يريان منه كل شيء ، ولا يراهما أحد .

رأيا دمنة قذرة مُنتنة الرائحة ، بجانبها مأوى كأنه مغارة ، فرشت فيه ثياب مهلهلة ، تنبعث منه أبخرة متعفّنة ، بجنبه سراج من خرقة بالية غمست في زيت كأنه دُردي ، وفيه جَرة لا يعرف لونها من قذرها ، وسَلة من خُوص فيها كِسَر جافة ، وعيدان من بَقل وكرات — وفي داخله رجل وامرأة . أما الرجل فمشوه الخِلقة ، يلبس ثوباً مرقّعاً ويجلس على ثوب مثله ، وعلى رأسه شملة ممزقة ، وعلى فخذه قصبة شدّ عليها عُود ، وهو ينقر عليها نقراً غير متزن ولا منسجم ، ويغنّي بشيء يشبه الشعر وليس بشعر ، يتغزل فيه بصاحبته وجمالها ، وفتنتها وسحر عيونها ، وورد خدودها ، ولطف قوامها ، وأنها أجمل من رأت عينه ، وأنها فتنة الدنيا ونعيم الحياة .

وأما المرأة فشوهاء مقوّسة ، لا ترى عينها من قذاها ، ولا تعرف لون ثيابها من ألوان رقعها ؛ قد أمسكت بيدها غربالاً بالياً ، وشدّت عليه جلداً غير مدبوغ ، واتخذت من ذلك دُفاً تابع به نغمات صاحبها ، وتناغم عليه نقرات عُوده ، فإذا انتشيا قاما ورقصا ، فإذا أعيا دورهما حيّاها بطاقة من بقل ، وردّت تحيته بطاقة من كرات ، وهي في كل ذلك تدعوه بسيّد الرجال ، وهو يدعوها بست النساء :

هو — والله ما رأيت مثل جمالك .

هي — ولا والله ما رأيت مثل حُسنك .

هما — ما أجزلها نعمة ، أدامها الله علينا !

* * *

وقف السلطان والوزير مبهوتين من هذا المنظر ، متعجبين مما فيه هذان الصعلوكان من فرح وسرور ، ولذة وحبور .

السلطان — في حياتي ما رأيتُ مثل هذا ، وما أظنني في عز سلطاني — ونعيم ملكي ، وأيام شبابي ، ومجالس لهوي مع وفرة أسبابي ، وتمكني من الوصول إلى كل ما أشتهي — قد بلغ مني السرور مبلغ هذين الحقيرين .

وأظن أنهما على تلك الحال كل ليلة ، فما الذي يتعبهما ؟ هل يتعبهما تأرق أطراف المملكة ، أو شَغَب الجند وطلبهم الأرزاق وضيق الدخل ، أو النظر في المظالم ، أو مشاكل الخاصة ومشاكل العامة ، أو تدبير المال ، أو محاسبة العمال على أعمالهم وأموالهم ، أو النظر في شكاوى الناس وتدبيرها ، أو ما يجدّ كل يوم من مسائل معقّدة ، داخلية وخارجية ، أو بريد يَرِد أو بريد يصدُر ؟ لا شيء من ذلك . قد قطعا عنهما أسباب الهم ، فانقطع عنهما الهم !

لقد غاظني — أيها الوزير — منهما غرورهما ، كيف يعدّان بؤسهما نعيماً ، وشقاءهما سعادة ، ونقمتهما نعمة ، وقبحهما جمالاً ، وغربالهما دُفاً ، وخشبتهما عُوداً ، وبقلهما وكراتهما زهراً ، ثم يسألان من الله أن يديم عليهما نعمته !

لأنتقمن منهما انتقاماً يسلبهما نعمتهما ، وينغص عليهما عيشهما .

الوزير — وماذا تنوي أن تعمل يا مولاي العظيم ؟

السلطان — أريد أن أشقيهما بالنعيم ، وأعاقبهما بالترف ، وأبعث فيهما السخط بالرضا ، وأذيقهما ألم الفقدان بلذة الوجدان ؛ إنهما لم يريا الجمال فسعدا بالقبح ، ولم يسمعا الموسيقى فطربا من الغربال ، ولم يأكلا المُرَقّق فاستطعما الكِسرة .

سأعذبهما عذاباً لم يعذبه أحد ، وسأستخرج منهما غرورهما بالخيال فأشهدهما الحقيقة ، وسأنزع منهما الأوهام فأريهما الواقع ، وسأقص جناحيهما اللذين يطيران به إلى السماء ليلتصقا بالأرض .

سآخذ هذين المغرورين فأدخلهما قصري ، وألبسهما من ثيابي ، وأطعمهما من أكلي ، وأشهدهما مجالسي ، وأبسط لهما من سطوتي ، وأسبغ عليهما جاهاً من جاهي ؛ وسأشعرهما بلذة حياة كحياتي ، وسأرى المرأة كيف يكون جمال الرجال ، وأرى الرجل كيف يكون جمال النساء ؛ وسأقيمهما في ذلك كله أياماً حتى يتعوداه ويألفاه ويتطلباه ، ثم أردهما إلى حالهما ، فما يهنآن بعيش ، ولا يشعران بنعيم .

الوزير — أخشى — يا سلطاني العظيم — أن تكون في لذائذنا وسرورنا ، واغتباطنا بجاهنا ، واستمتاعنا بصنوف شهواتنا ، وفرحنا بما حولنا ، مغرورين غرور هذين المسكينين ! وأن يكون فيمن حولنا من رأوا لذتنا فاحتقروها ، وضحكوا من غرورنا كما ضحكنا من غرورهما ، واستصغروا الموائد الفخمة تُمَدّ ، والجواري الجميلات تخطر ، والملابس الترفة تعرض ، والموسيقى الراقية تصدح ، والجنود والبنود والأعلام تحمل شارتنا ، وتأتمر بأمرنا ، والذهب والجواهر تسيل سيلا ، والتحف والخيرات تنهال انهيالا ؛ وتنظر إلى ذلك كله نظرنا لمأوى الصعلوكين ونعيم المسكينين .

السلطان — شامخاً غاضباً مستكبرا — وهل تعلم على وجه الأرض مملكة أعز من مملكتنا ، أو سلطاناً أوسع من سلطاننا ، أو بلداً أكثر نعماً من بلادنا ، أو نعيما وترفاً أبهى من نعيمنا وترفنا ؟

الوزير — لا — يا سلطاني العظيم — ولكن هناك قوم ليس لهم مملكة في الأرض ، ولكن لهم مملكة في السماء ، ليسوا في مكان واحد ، ولكنهم أفذاذ متفرقون في العالم كله ؛ عشقوا الحق فاحتقروا الباطل ، واعتقدوا وراء هذا العالم الظاهر كمالاً مطلقاً تتشوق الروح إليه وتسمو للاتحاد به . ودلهم النظر على أن كل إنسان يطلب بطبعه سعادته ، ولكنهم رأوا اللذائذ الحسية عُرضة للزوال ، وهي تفقد قيمتها بتكرارها ، وتحمل في طياتها منغصاتها ، والإفراط فيها يضعفها ، وهي — مهما عظمت — تصعد وتهبط ، وتجيء وتذهب ؛ وهي تعتمد على الإحساس ، والإحساس قلّب ، وما دامت تعتمد على الحس فهي تعتمد على الخارج ، والخارج مهما كان في يدنا فليس ملكنا ، وإنما هو كالريش في مهب الريح — من أجل هذا بحث هؤلاء الحكماء عن سعادتهم في داخل أنفسهم ، ورأوا أن الجاه والعز والسلطان لا تساوي شيئاً في جانب أن يجد الإنسان نفسه ؛ وأن الأكل الشهي ، والملبس الأنيق ، وصنوف اللهو والترف ، تسقط قيمتها إذا وزنت برضا النفس ، وراحة الضمير ، وسمو الفكر ، ومعرفة الحق ؛ تلك فانية وهذه خالدة ، وتلك تجرى عليها أحكام السلع من بيع وشراء ، وسرقة واغتصاب ؛ أما هذه فجلّت عن أن تمتهن في مبادلة ، أو أن تنالها يد بسوء ، أو يعتريها الفناء ولا بالموت .

تعشّقوا الفضيلة وهاموا بها ، وكانت لذتهم الأولى ، اغتنَوا أو افتقروا ، نُعّموا أو عذبوا ؛ فهم في فقرهم يسعدون وفي عذابهم ينعمون !

أهمّ ما يشغلهم أن يعرفوا نفوسهم ، وقد تطلّبت منهم تلك المعرفة أن يعرفوا أبدانهم وعقولهم وروحهم ، وعلاقة نفسهم ببدنهم ، وعلاقة العالم بنفسهم . وفي ضوء هذا حدّدوا مطالبهم في الحياة ، ووسائل طلبهم ، وما يأتون وما يذرون ، وقفهم ذلك النظر على عالم من المعارف لا تحصى ، ولذائذ روحية لا تحد .

وكان نهاية بحثهم وتفكيرهم الإيمان بإله فوق المادة هو خالق هذا العالم ، وقد استدلّوا بوحدة العالم — مهما اختلفت مظاهره السطحية — على وحدة خالقه ، واتصلت نفوسهم به فاتخذهم أمناء وحيه ، وسفراء بينه وبين خلقه .

فلما وصلوا إلى ذلك احتقروا الأصنام ، ورأوا أن عبادتها — يا سلطاني العظيم — لا تليق إلا بالسُّذَّج ومن لا عقل لهم ، فأعرضوا عنها ، وعبدوا إلههم الذي دلهم عليه تفكيرهم ، ووجدوا لذتهم الحقة في تفكيرهم في إلههم وفي أنفسهم ، وفي العمل وَفق ما اعتقدوا من حق ، وما آمنوا من مبادئ .

وهؤلاء القوم إزاء اللذات الحسية ، وأعراض الحياة الدنيا من عز وجاه وسلطان ، صنفان مختلفان تبعاً لاختلاف مزاجهم ؛ فأما قوم فأعرضوا عن هذه اللذائذ جملة ، فلا الأكل يستهويهم ، ولا النساء تستهويهم ، ولا أي شيء من متع الحياة يغريهم ، ولا يهمهم إلا أن يعيشوا في أنفسهم لأنفسهم ، وليس هؤلاء خير الطائفتين ؛ وأما الآخرون فرأوا أن لا بأس من لذائذ الحياة بقدر ، ولا بأس من عز وجاه وسلطان يستخدم في تحقيق العدل وحمل الناس على الخير ، وهؤلاء نظرهم أصح ، والخير على أيديهم أتم ، وهم أصلح للحياة ، وأصلح للقيادة ، وهم أسعد من الأولين إذ يستمتعون بجمال العالم ، وبالخير يجرى على يدهم ، وبشعورهم أنهم قوة في توجيه العالم وإسعاده .

أولئك — يا سلطاني العظيم — ينظرون إلى اقتصارنا على اللذائذ الحسية نظرنا إلى لذائذ هذين السكينين ، ويرثون لحالنا رثاءنا لحالها ، ويجدون الفرق بيننا وبينهم أبعد من الفرق بيننا وبينهما ، ولا يودون يوماً أن ينزلوا إلى درجتنا ، وأن يكون حظهم حظنا ، ويحمدون الله على ما أوتوا ، ويسألونه السمو إلى الدرجات العلا .

السلطان — متى عرفتَ هذا المذهب واعتقدت هذا الرأى ؟

الوزير — من زمن طويل .

السلطان — فما الذى منعك أن تذاكرنى به في حينه مع طول صحبتك ، ومظاهر إخلاصك ؟

الوزير — والله ما تركت الحديث عنه ضنًّا بك ، ولا سوء ظن بمقدرتك وقوة ذهنك ؛ ولكني علمت أن الحديث في هذا الشأن لا يتأتى إلا عند مواتاة الفرصة وانشراح الصدر ؛ وأيقنت أن الأمر خطير ، فالنفس مولعة بما ألِفت ، حريصة على ما ورثت ، ولا تعدِل عنه إلا بعزم قوى ، ونيّة خالصة ، وجهاد طويل ، وهمة عالية في تعرف الحق واعتناقه ؛ فلما سنحت الفرصة ، ورأيت كل شيء حولنا صالحاً لمحادثتك ، ونفسك مستعدة لذا كرتك ، أفضيت بالأمر إليك ، واجيا الله توفيقك .

السلطان — ما أعجب كلامك ، ولست أذكر أن قد ورد على سمعي مثله — إنه ليفتح آفاقاً للفكر ، ومجالا للنظر . لقد آمنت بمبادئك في جملتها ، ولكن تفاصيلها تحتاج إلى منهج يُرسم ، وخطط تُعَدّ ، تدرسها من غير أن نتأثر بإلف ، ونبحثها من غير تقيد بتقليد ، حتى نصل إلى النهاية ونبلغ الغاية .

أحمد أمين

من وحى الحرب :

أتندثر الحضارة ؟

أتندثر الحضارة ؟ وَيْح نفسى !
كأنَّ الأرض بركانٌ وثارا
تلطِّخها الدماء بكلِّ إثم وتصليها أداة الحرب نارا
أيا ربِّى حنانك كيف ترضى ؟
لهذا الجيل بؤساً وانهيارا ؟
عبيــــدُك فى أنين واحتراق
وصرعى الظلم فى الدنيا حَيارَى
حضارتنا التى علت نميا أتصبح فى جبين الدهر عارا ؟

(شبرا . مصر) **نظير اسكندر**

تورا نشـــــاه

وميتته المعقـــــدة

مقـــدمة :

تورانشاه هو ثامن ملوك الدولة الأيوبية ... كان السلطان صلاح الدين أول ملوك هذه الأسرة وكان الملك المعظم تورانشاه آخرهم .

وكانت مدة حكم صلاح الدين فى مصر ٢٤ سنة ، أما مدة حكم تورانشاه فكانت واحداً وسبعين يوماً .

ولقد توفى صلاح الدين بدمشق عقب مرض لم تطل مدته ولكنه ألزمه الفراش نحو أحد عشر يوماً ، فلما أصبح فى اليوم الثانى عشر (الأربعاء ٢٢ صفر سنة ٥٨٩ ﻫ) صلى الصبح ومات عقب الصلاة — أما تورانشاه فإنه فى يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ٦٤٨ ﻫ تناول طعامه وشرابه كالمعتاد مع حاشيته وأصحابه ووسط غلمانه وندمائه فى المشرب الخاص الذى كان أعده لأمثال هــذه المجالس على ضفة النيل بفارسكور . ثم قام عن جلسائه وقصد إلى قصره ليستريح . فهجم عليه أحد المماليك[1] بسيف مشهور فضربه به ضربة عظيمة واحدة رفع لها الملك راحتيه كى يتقيها وليغطى بهما وجهه ، فأصاب السيف أصابعه ولم يصب منه مقتلا . وتخاذل المملوك إزاء فشل ضربته فخانته أعصابه وسقط السيف من يده ولاذ بالفرار ... ...

ولكن تورانشاه لم ينج من الموت فى ذلك اليوم العصيب ، فإنه لقى حتفه بعد ذلك بلحظات . وكانت ميتته معقدة لم ير لها التاريخ مثيلا ...

فأنك إن قلت إنه مات بالحريق لم يعد قولك الصواب ، فإن قتلته أحرقوا البرج الخشبى الذى كان يعتصم منهم فيه .

وإن قلت إنه مات غريقاً صدقت ، فإنه مات وهو يسبح فى نهر النيل فراراً من هؤلاء الأعداء .

وإن قلت إنه مات مضروباً بالسهام كنت تقرر الواقع فإن المماليك أو الأمراء الذين وقفوا له على الشاطئ أمطروه تحت وابل من سهامهم .

وإن قلت إنه مات بالسيف صدقت ، فإن من رمى نفسه فى النهر خلفه أعمل فيه السيف حين أدركه فتقطع جسمه تحت أسيافهم إربا إربا .

ونحن فى هذه الكلمة نحاول أن نأتى على ملابسات هذه الميتة المركبة ، ونمهد لوقوعها بوصف ما سبقها من الحوادث ... ...

صفحة من تاريخ الحروب الصليبية :

كان على فرنسا فى أيام الملك الصالح بن الكامل — والد غياث الدين تورانشاه — ملك يقال له لويس التاسع . وكان هذا الملك مصابا بمرض عضال حار فى علاجه أمهر أطباء زمانه ، فلما فشل فيه الطب عاد به أهله إلى الشعوذة ؛ فأوقدوا الشموع وأحرقوا البخور وتقربوا إلى القديسين بكل أنواع القرابين ، فلم يجدهم شيء من ذلك نفعا ، فعادوا إلى رحاب الله الفسيحة فى الكنائس والمعابد يقيمون الصلاة ويكثرون من الدعاء ، عسى الله أن يستجيب لهم فيشفى مريضهم . ولكن طالت الصلوات ، وترددت الدعوات ، والمريض لا يزال تحت أرديته وأغطيته مشلول اللسان ، مفلوج الجسد لا يقدر من أمره على شيء .

وكان بيت المقدس فى ذلك العهد فى يد المسلمين بعد أن استخلصه صلاح الدين من أيدى الفرنج ؛ وكان الصلح الذى تم بين صلاح الدين وكبار الصليبيين فى سنة ٥٨٨ ﻫ . قد فتح بيت المقدس لمن شاء من أهل الملتين ليدخله الجميع إخوانا متصافين متحابين . ولكن بقى المتعصبون من المسيحيين يحسون الحرج كل الحرج فى أن يشاركهم المسلمون فى بيت يرون أنهم وحدهم أصحاب الحق المطلق فى القيام عليه ، والاستئثار به . وكانت الأمنية التى ما تزال تختلج فى جوانح هؤلاء القوم هى أن تتهيأ لهم الظروف لطرد المسلمين من ذلك البلد المقدس . وكان الملك لويس قد أشربت نفسه هذا التعصب الحاد ضد المسلمين ، لكثرة من كان يحيطه من قساوسة ذلك العهد ، الذين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم من الكفرة الأنجاس . فنذر لله فى محنته أن لو أخذ الله بيده ، ومسح عليه بيد العافية فنهض مرة أخرى على قدميه وأمسك السيف بيمينه ، ليطهرن بيته من الأيدى القذرة التى لوثته ؛ وليعملن على إجلاء المسلمين من مهبط وحيه ومنبت دينه المسيحى .

والعقيدة قوة — والأمل حياة — والإيحاء شفاء ...

---

(١) هو بيبرس البندقدارى الذى صار إليه ملك مصر فيما بعد .

وهكذا هيأ الله لعبده التاسع من «لويس» فرنسا أن ينجو من مرضه وأن ينهض من كبوته ، وأن يعود مرة أخرى آدميا كبقية الآدميين يسعى على قدميه ويضرب بهما في الأرض وهو مختال فخور ...

وكان أول ما وفى به الملك من نذره أن أرسل إلى البابا يستأذنه في القيام إلى القدس . وما كاد يصله الإذن منه حتى أعد الحملة الصليبية السابعة . وأقام أمه على عرش فرنسا بدلا منه . ثم أبحر في مائتي سفينة ومعه أقاربه وزوجته فوصلوا قبرص في بضعة أسابيع ، وهناك قضوا شهور الشتاء في إعداد العدة لحملته . ولما حان وقت العمل نشر أشرعته موليا وجهه نحو مصر ، وهي في ذلك الوقت قلعة الإسلام وحصن المسلمين .

الملك الصالح :

وكانت مصر في تلك الأيام تحت سلطة الملك الصالح ابن الكامل الأيوبي : وكان الملك الصالح رجلا وقوراً ، قليل الكلام ، كثير العمل ، يهابه كل من رآه . وكان من توفيق الله له أنه وقع على جارية تركية حسناء ذكية العقل ذات فراسة وتدبير ، فاتخذها لنفسه خليلة ، فولدت له غلاما سماه «خليلا» ، تزوجها وأشركها معه في الحكم ، فكان إذا سافر إلى الشام أو ما جاورها لإخماد الفتن التي كانت تضطرم بها تلك البلاد في عهده خلفها على عرشه في مصر ، وأقامها مقام نفسه ، فكانت تحسن الخلافة ، وتسوس الناس سياسة حسنة حتى أحبها الجميع واحترموها — تلك شجر الدر التي أصبحت بعد الدولة الأيوبية ملكة على مصر ، والتي ما زالت يذكر لها التاريخ أنها أول امرأة في الإسلام تقلدت الملك وجلست مجلس السلاطين ...

الحملة الصليبية السابعة :

كان الملك الصالح في الشام حين أقلعت سفن لويس التاسع من قبرص . وكان قد كسر شوكة العصاة وقمعهم وأصاب مقاتلهم ، وتأهب للعودة إلى بلاده ، والرجوع إلى بيته وزوجته . ولكنه بدت عليه أعراض داء عضال منعته من الحركة والانتقال ، فقد ضربه ناسور في مكان حساس من جسمه ، فألقاه طريحاً في فراشه . وتعذر شفاؤه ، فبقي يعالج سكرات دائه حتى جاءه رسول شجر الدر يخطره بحملة الصليبيين التي تحركت من قبرص متجهة إلى مصر . فرمى بنفسه على هودج وطلب إلى رجاله أن يحملوه إلى مصر ، فبلغ المنصورة بعد سفر أيام قاسى خلالها أشد المتاعب وأعظم الآلام .

وكانت دمياط محط أنظار الصليبيين ، فبدأ بها الملك الصالح ، فحصنها وأودع فيها من الجنود والذخائر ما اطمأنت إليه نفسه . فلما أقبلت عليها جيوش الصليبيين ورأوا مناعتها أشفقوا منها ، وأرسل لويس إلى الملك الصالح رسالته المشهورة يحاول أن يوقع بها الرعب في قلبه . وهي ترينا لوناً قديماً من ألوان حرب الأعصاب ، ولذلك نرى إثباتها هنا لطرافتها في هذا الباب . قال كاتبها — شاه الله حيث كان — :

« أما بعد ، فإنه لا يخفى عليك أني أمين الأمة العيسوية كما أنه لا يخفى علي أنك أمين الأمة المحمدية . وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار . وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت النصح إلى النهاية . فلو حلفت لي بكل الأيمان ، وأدخلت على الأقساء والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا إليك ، وقاتلك في أعز البقاع عليك الخ » .

فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح ، وقد اشتد به المرض بكى واسترجع ، ثم طلب إلى من معه أن يكتبوا الجواب . فتقدم القاضي بهاء الدين زهير بالرد التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصلواته على سيدنا محمد

رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك . فهنالك تسيء الظنون «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» . فإذا قرأت كتابي هذا فتكون فيه على أول سورة النحل : «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» ، وتكون على آخر سورة (ص) : «ولتعلمن نبأه بعد حين» ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين : «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين» .

وبعد تبادل هذه الخطابات «الدرعية» ، لم يبق إلا الهجوم . فأمر لويس جنوده بالنزول إلى البر في مكان قريب من دمياط . وتقدمهم وكيل البابا يحمل صليباً كبيراً ومن ورائه لويس يخفق اللواء المقدس فوق رأسه . وفي اليوم التالي وقع أول تصادم بين الفريقين . ولم يكد يرخي الليل سدوله حتى تخاذل قائد المدينة ، ووقع في نفسه أنه سوف يحيق به وبرجاله وعيد لويس التاسع وتهديده فتخلى عن واجبه ، وترك المدينة بمن فيها وما فيها ، وتعلق بأذيال الفرار . وتبعه عرب بني كنانة الذين عهد إليهم الملك الصالح بالدفاع عن هذا الثغر . وخرج الأهالي خلفهم لا يلوون على شيء ، وقد خلفوا وراءهم ما ظلوا يكدسونه في ديارهم الشهور الطوال . وخلا وجه المدينة للصليبيين ، فدخلوها آمنين واستولوا على ما فيها غنيمة باردة . وكانت قاصمة تبشر بالخراب المحيط ، لولا قوة قلب الملك الصالح وثقته بنفسه ، على الرغم من ضعف جسمه وما كان يعانيه من ويلات مرضه . فإنه جمع أمره ، وأعاد صفوف جيشه ، وكانت عنده فرقة خاصة من مماليكه المختارين أضافها في هذه الأزمة إلى بقية جنوده . وألقى بالجميع في وجه الصليبيين . ولكنه لم يعش ليرى نتيجة حزمه ، فإن المنية اختطفته من الميدان والناس أحوج ما يكونون إلى رأيه وحكمته . وبقيت شجر الدر وحدها لتواجه هذا الخطر المحقق الذي لم يكن تهديده قاصراً على شخصها ولا على بلادها فحسب ، بل كان يشمل أقطار العالم الإسلامي جميعه .

تورانشـــاه :

وكان غياث الدين تورانشاه — ابن الملك الصالح — يومئذ في الشام حيث تركه أبوه قبل عودته إلى مصر ، فبدأت شجر الدر بأن أخفت خبر موت الملك الصالح عن الناس . وكانت تذيع كل يوم إلى الجيش أوامر الملك مبصومة بخاتمه ومكتوبة بخط شبيه بخطه . ثم جمعت الأمراء والأعيان وأبلغتهم أن الملك الصالح يأمرهم بمبايعة ابنه غياث الدين ، فبايعوه . وكانت قد أنفذت الرسل سراً لاستدعاء الأمير من سوريا فأقبل مسرعاً . وكان الصليبيون قد بلغوا المنصورة وأوشكوا أن يدخلوها لولا مماليك الملك الصالح ، الذين وقفوا في وجه أعدائهم مستميتين في الدفاع حتى خارت قوى الفريقين ، وأصبحا في حال من الإعياء لا تمكن واحداً منهما من أن ينقض على غريمه فيضربه الضربة القاضية ...

وفي هذه الظروف الحرجة وصل غياث الدين وجنوده فاشتد به عزم المسلمين وهاجموا أعداءهم في البر والبحر ، وأوقعوا فيهم الهزيمة ، واستولوا على سفنهم التي كانت في النيل . فانقطعت مواصلات الصليبيين بين دمياط والمنصورة وارتد جنودهم عن القتال هاربين ، فتعقبهم المسلمون وركبوا أقفيتهم ، وقتلوا منهم من قتلوا ، وأسروا عشرات الألوف . ووصل لويس في أثناء فراره إلى تل صغير فاعتصم برأسه هو ومن معه من رجال حرسه ، وتنبه إليه المسلمون فأحاطوا به وحاصروه ، فلم ير الملك بداً من التسليم . فأخذوه إلى المنصورة في قيد من حديد .

النهاية التاريخية :

وأسكر هذا النصر توران شاه ، فانسحب بعد المعركة إلى مكان قريب من فارسكور ، وجمع رجاله وغلمانه الذين أحضرهم معه من الشام ، فأسكنهم قصراً خشبياً شيده لهم على ضفة النيل ، ورفع إلى جانب القصر برجاً خشبياً عالياً خصصه لنفسه ولممارسته لذاته . وانغمس في عيشة داعرة ونسي الصليبيين وشئونهم . وكان يكره المماليك ويستكثر اشتراكهم في شئون الدولة . وأحس زعماء المماليك بأنه يريد بهم شراً فأوجسوا منه . وكان هو لا ينفك يذكرهم في مجالسه بكل سوء ، ولا يستنكف أن يجاهرهم بعدوانه . فجلس ذات ليلة للشراب في وسط ندمائه والشموع موقدة أمامه ترفع رؤوسها المتضنضنة ، فزين له الشراب أن يستل سيفه ويهوى على هذه الشموع تقتيلا وتحطيما وهو يقول : «هكذا أفعل بالبحرية[1]» ! ويسمى كل واحد منهم باسمه .

وذاعت هذه القصة ، وانتقلت إلى أسماع المماليك ، فلم يستطيعوا عليها صبراً . وسنحت لهم فرصة الانتقام حين دب الخلاف بين توران شاه وشجر الدر على أموال الملك الصالح وجواهره ؛ إذ أرسل الملك المعظم يطلبها لنفسه ، فلم تجبه زوجة أبيه إلى طلبه ، فأغلظ لها وهددها ، فداخلها منه خوف كثير . وكانت زعماء المماليك تعرفهم به فثاروا عليه . وتقدم به أحدهم على ما أوردناه في صدر هذه الكلمة ، فضربه بسيفه ولكنه لم يقض عليه . وعاد الملك إلى رجاله وهو يصيح : «من جرحني ؟» — قالوا : «الحشيشة» — يريدون أن الذي جرحه أحد الحشيشيين الباطنية — فقال : «لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية !» واستدعى المزين ليداوي يده . فقال البحرية بعضهم لبعض : «تمموه وإلا أبادكم !» . فدخلوا عليه بالسيوف وهرول هو نحو البرج يريد أن يحتمي فيه والمماليك من خلفه يطلبونه . ولكنه أغلق الباب من دونهم ، وصعد إلى قمة البرج يلتمس النجاة هناك ، وخصومه يقفون من حوله كما تحيط الكلاب بالهرة إذ تعتصم برؤوس الشجر .

وضاقت الدائرة على توران شاه واشتد الخناق فصاح بالمماليك يطلب الأمان فلم يجد من يعطف عليه في محنته . ولم ير حوله إلا كل مبرق مرعد وإلا كل مرغ مزبد . فتوسل وتضرع ، ولم يكن جواب ذلك عندهم إلا أن طلبوا إليه تسليم نفسه أو يعملوا على إحراق البرج وهو فيه . ونظر توران شاه فإذا بجموع المماليك قد تكاثرت وأصبحت تموج بهم ساحة القصر ، فرأى النار دون ما يمكن أن تصيبه به هذه الجموع لو أنه سلم نفسه لها . فتركهم يشعلون النار في البرج ، وظل ينتظر المعجزة السماوية التي تكشف عنه هذا البلاء العظيم حتى أحدقت به ألسنة اللهب أخيراً وأخذت تنوشه من كل جانب . فألقى بنفسه في النهر فرمى الناس بأنفسهم خلفه وفي أيديهم سيوفهم المشهورة ، ووقف الباقون على الشاطئ ، يسددون سهامهم نحوه ، وهو لا يزال يلتمس النجاة من كل هذه النكبات التي تطلبه من فوقه ومن تحته . فلما بدأ مطاردوه ينالونه بأطراف سيوفهم صار يناديهم بقوله :

— «دعوني أخرج من مصر . إني لم أظلمكم إلى هذا الحد لتعذبوني كل هذا العذاب» !

ولكن أحداً لم يستمع لهذا النداء . وما زالوا به حتى قطعوه بالسيوف وتركوه على جانب النهر أشلاء متناثرة حيث بقيت رمته ثلاثة أيام لا يتجاسر أحد على دفنها حتى انتفخت وتهتكت . . .

* * *

ويقف الإنسان أمام هذه النهاية الرهيبة ليتساءل ماذا جنى توران شاه في حياته ليستحق هذه الميتة الشنيعة ؟ أتكون هي سنة الله مع كل من لا يرعى حرماته ويتخذ إلهه هواه ؟

(١) البحرية : هم المماليك الذين كانوا يقيمون في جزيرة الروضة في ذلك العهد . وكان النيل يسمى عند هذه الجزيرة بالبحر لعظم اتساعه .

من سير الرحلات :

بين العقبة وعمان

في طريق سيدنا موسى إلى أرض الميعاد

مقدمة

« بعد أن مكث سيدنا موسى وقومه أربعين سنة بشبه جزيرة سيناء حاول الدخول إلى فلسطين أرض الميعاد — من الجهة الجنوبية عن طريق وادي العربة — ولكنه اصطدم بمقاومة شديدة من ملك أدوم فتراجع جنوبا إلى أيلة (العقبة) ، وفي أثناء تراجعه مات أخوه هارون ودفن في جبل هور (جبل هارون) . ومن العقبة حاول سيدنا موسى الوصول إلى فلسطين من الجهة الشرقية عن طريق شرق الأردن ، فسار من أيلة إلى وادي اليتم إلى معان ، ومنها سار شمالا متوخيا عدم الاشتباك بملوك أدوم أو مؤاب أو عمون . ثم دارت بينه وبين الأموريين معركة في مكان يدعى جهاز بالقرب من بلدة صويلح شمال غربي عمان ، وانتصر فيها . ثم سار غربا إلى شاطئ نهر الأردن وعبره إلى أرض مؤاب ولكنه مات قبل أن يصل إلى فلسطين محط آماله وآمال قومه » .

ومدينة أيلة التي على خرائبها قامت بلدة العقبة ، هي مدينة قديمة العهد جدا ، وقد ورد ذكرها كثيرا في التوراة فقد جاء في سفر الملوك الأول في الكلام عن الملك سليمان الحكيم سنة ١٠١٥ — ٩٧٥ قبل الميلاد ما يأتي : « وعمل الملك سليمان سفنا في عصيون جابر التي بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم » — وأما بلدة العقبة الحالية فإنها مدينة العهد وبها الآن نحو مائة منزل وسكانها نحو ٣٥٠ نفسا معظمهم من متخلفي العساكر الذين كانت ترسلهم مصر لحماية القلعة . وأما القلعة فهي من المباني التي أقامها السلطان قانصوه الغوري سنة ١٥٠١ — ١٥١٦ م ، ثم رممها السلطان مراد الثالث العثماني سنة ١٥٧٤ .

وقال المقريزي في خططه : « ذكر ابن حبيب أن أول وادي أيلة ، وأيلة مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة ، سميت أيلة بنت مدين بن إبراهيم » .

وقال الأميرالاي صادق باشا[1] في وصف العقبة عند مروره بها سنة ١٨٨٠ م ما يأتي : « وسكان هذه البقعة يبلغون مائة شخص ويأتي إليها العربان في موسم الحج للتجارة بالفواكه مثل الخوخ والرمان والعنب من معان ، وأما البلحة والخضروات فتزرع بها — وهناك نخل ومياه عذبة ، ويحفرون حفائر بجانب البحر المالح فتنبع منها مياه أعذب من ماء البئر التي في القلعة » .



(١) صادق باشا كان أمينا للصرة في حملة المحمل في تلك السنة .

أم تكون هذه طريقة الجمع في الاختصاص من كل من يؤتى الملك فلا يحسن سياسته ؟

أم هي عبرة الدهر يسوقها بها بنيه كيف تكون عاقبة الطغيان . وإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ؟

أم هي صيحة فيمن لم يعوا بعد قول القائل :

وليس كثيراً ألف خل وصاحب
وإن عدواً واحداً لكثير ؟

• • •

في الحق إن الإنسان لجدير أن يرد هذا المورد في آية واحدة من كل هؤلاء ، فما بالك بمن وفقه الشيطان إلى الجمع بينها كلها ؟

نسأل الله أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه .

ع . ج

ومما قاله في وصف القلعة: «وهي قلعة مبنية بالحجر النحت على ثلاثة متر من الشاطئ، طولها ٦٣ مترا، وعرضها ٦٣ مترا، وحوشها طوله ٤٥ مترا، فيه بئر معين عذب عمق ٢٠ مترا، ومسجد صغير للصلاة، وحواصل للذخائر. وفي القلعة محافظ يوزباشي جهادي طوبجي وأربعة مدافع، وبها ٣٣ عسكريا بيادة، وسبعة طوبجية وبجوارها بيوت صغيرة وعشش. وهي آخر قلاع الخليج». وفي إبريل سنة ١٩٣٣ مررنا بالعقبة في رحلتنا إلى عمان سائرين في نفس الطريق الذي سلكه سيدنا موسى إلى أرض الميعاد، فاخترقنا وادي اليتم إلى معان، ومن معان إلى عمان على حافة الصحراء مسافة ٤٠٠ كيلو متر.

من العقبة إلى عمان — أبريل سنة ١٩٣٣:

لقد تلكأنا طويلا في القيام من العقبة، فدفؤها وحسن موقعها على الخليج أغريا الرفاق بالمراوغة والإبطاء طلبا للراحة والاستمتاع بالدفء، خصوصا بعد الذي عانوه في الليلة السابقة من البرد القارس في «نخل». ومرّ الظهر وأوشك أن يحل العصر، ولا يزال الرفاق متفرقين شراذم هنا وهناك؛ ففريق في القلعة القديمة يلهى بتصوير خرائبها؛ وفريق في الميناء يلعب في الماء ويعبث بقوارب الصيادين؛ وفريق في القرية يتسكع في الأزقة يلهو بمعاكسة الأطفال والجري وراء الخراف وخطف الجزر وأطباق الحلوى من أيدي الباعة المساكين.



منظر العقبة بالقرب من الميناء

لقد كان سلوك الرفاق في العقبة، وكلهم من الكبار، ضربا من عبث الصغار. إنهم لمعذورون، لقد كانوا يؤملون أن يجدوا في العقبة بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة في جبال سيناء بعض ما اعتادوه في المدن من أسباب الترفيه، ولكن خاب أملهم؛ فالعقبة بلد صغير فقير ليس فيه مطعم ولا «قهوة» ولا شيء غير البحر والرمل والنخيل وبعض البساتين.

ولم نكد نجمع الشمل ونركب السيارات ونستعد للرحيل حتى فوجئنا بتمرد السائقين، فوقف نور البربري ليخطب فيهم بجاري عادته في كل مناسبة وغير مناسبة. وبعد أن حمد الله وأثنى على نبيه الكريم قال: تذكروا أيها الإخوان أن الطريق إلى (معان) يخترق جبال الحجاز وسنلتقي في الوديان بجنود ابن السعود؛ وسيسألوننا ونجيب، ولن يتركونا من غير حساب، وسيكون الحساب عسيرا والعقاب شديدا. إن ذنوبكم كثيرة وقائمة سوابقكم طويلة، فويل لكم من سيوف ابن السعود، فهل فيكم من يرغب في أن يعود إلى بيته من هذه الرحلة وهو أكتع وأعرج وأعمى ومجدوع الأنف؟ فأجابوا جميعا بالنفي. ثم التفت إلينا وقال: أيها السادة ألا ترون أن نختصر الطريق ونعود من هنا سالمين. فما معان والعقبة ونخل إلا كلها سواء — رمل وزلط وجبال — فاتقوا الله فينا، وحسبنا ما شربناه من «المقلب» في سيناء.



في العقبة أمام باب القلعة

تحرج الموقف بعد هذا الكلام وتعقد . والعنف في مثل هذه الحالة لا ينفع ، واللين كذلك لا ينفع ، والكلام المقول كغير المقول لا يحدي . وقد علمتنا التجارب أن نتذرع عند الأزمات بالصبر ونعالج الجروح بالتريث والحيلة ، ونداوى العصيان بقلة الاكتراث ، ونستعين بالنكتة ولين الكلام على تلطيف الحدة وصرف الشر عن النفوس .

وبينا نحن مجتمعون نحاول الوصول إلى حل ، والسائقون جلوس على الشاطئ في انتظار النتيجة ، إذ بنا نسمع صراخاً مروعاً بدوّى عالياً في الفضاء ، وإذا بالسائقين يتفرقون مذعورين ويهرعون إلى السيارات ، وإذا بنا نتابعهم فنركب السيارات كذلك ، وإذا بالسيارات تندفع إلى الأمام في الطريق المرسوم الذي يؤدي إلى معان .



في كورة تصطلي

جرى كل ذلك في لحظات ولم نتبين السر فيما حدث ، فلزمنا الصمت وتحاشينا الكلام . وكما تعكر الجو فجأة من غير سابق إنذار صفا كذلك فجأة على غير انتظار . وسرعان ما هدأت النفوس وزالت حالة التوتر ، ونسينا ما ساورنا من أسباب الغضب ، وعدنا إلى ما كنا فيه من صفاء وحبور . وفي الطريق قص علينا حسن السوداني سائق سيارتنا ما حصل على الشاطئ ، فقال : إنه بينا نور ينكش بيده في شق خرج من الشق أبو جلمبو كبير وارتمى على صدره وتعلق بطيات ملابسه ، ثم اندس بين جسمه وقميصه ، فارتاع المسكين وصرخ ، وأخذ يقفز في الهواء ويدور على نفسه ويلطم جسمه بكلتا يديه كالمجنون ، ولولا نحن رعب شديد ، فجرينا من غير وعي . مسكين نور إنه بارع في الكلام ولكنه رعيب يخاف من ظله . يا سيدي : « الحق أن سيوف ابن السعود ولا كلابات أبو جلمبو » .

دخلنا وادي اليتم[1] وقت الأصيل ، ثم أقبل الليل وأظلم الوادي ، وعصفت الريح ، واشتد البرد ، وبدت الجبال قاتمة موحشة ؛ وكان طريقنا في مسالك الوادي صعباً مجهداً ، ولم نصل (كورة)[2] إلا قبيل منتصف الليل — فنصبنا خيامنا على سفح الجبل أمام مخفر البوليس ، ولم يتسع لنا الوقت لطهي الخروف الذي كنا قد أعددناه في العقبة لعشائنا ، فعلقناه في الهواء الطلق لفطور الصباح وأوينا إلى الخيام . وعبثاً حاولنا النوم فالجوع والتعب والبرد وصلابة الأرض من تحتنا حالت دون ذلك — وقمنا في الصباح نبحث عن الخروف فإذا بالذئاب قد سطت عليه أثناء الليل وهربت به إلى الجبال .



في عقر كورة

غادرنا كورة بعد الفجر ، وارتقينا جبال الشراة عند الضحى ، وبدت مناظر الجبال والقمم والوديان من رأس النقب عظيمة بديعة — وقبيل الظهر ظهرت معان بمنازلها

(١) وادي اليتم أو وادي اثم أحد روافد وادي العربة .

(٢) كورة أو قورة : مخفر بوليس وسط الجبال على طريق القوافل بين العقبة ومعان ، وبجواره آثار رومانية عبارة عن حوض ماء وطاية ، وكذلك بئر ماء .

البيضاء على حدود الصحراء ، وسط بقعة جرداء لا نخيل حولها ولا زرع .



الشارع الرئيسى فى معان

كانت معان لا تزال فى بهجة العيد يموج شارعها الكبير بالناس من حضر وأعراب من جميع الأعمار رائحين غادين ، فرحين مستبشرين ، مرتدين حللا رائقة جميلة من الشاهى الشامى ، والحرير الدمشقى ، والعباءات الأردنية الحمراء ، وعلى رءوسهم العقال الأسود والقصب ، والكوفيات من الحرير الزاهى ، بيضاء وحمراء وخضراء وصفراء .

كان سوق المدينة معطلا بسبب العيد ، فدخلتنا حيرة شديدة لنفاد مؤونتنا من بنزين وطعام ؛ وجلسنا على «قهوة» وأدرك «القهوجى» حيرتنا فتطوع مختاراً لقضاء حاجتنا من البنزين . وإذ عرف مصريتنا خرج وعاد ومعه رهط من أعيان المدينة ، أقبلوا علينا مرحبين مسلمين . ودعانا الأستاذ الفخرانى[1] لتناول الغداء بمنزله وألح فى ذلك وصمم . والتقينا هناك بجماعة كبيرة من وجهاء المدينة ؛ وفى وسط مجالى الحفاوة والإكرام دار الحديث عن علاقات المودة والإخاء التى تربط القطرين الشقيقين مصر وشرق الأردن من قديم الزمان .

(١) الأستاذ الفخرانى من أعيان التجار بمعان وأصله من مصر من بلدة أبى النرس بالجيزة .

طريق سيدنا موسى بين معان وعمان يقع على هامش بادية الشام فى صحراء جرداء قليلة العمران ، يتغطى سطحها بالكلأ القليل فى موسم الأمطار .

والطريق طويلة تقطعها السيارات فى سبع ساعات ، وتسير فى كثير من أجزائها موازية السكة الحديدية الحجازية ، التى لا تزال سليمة متينة تروح عليها القطارات وتغدو بين عمان ومعان ثلاث مرات فى الأسبوع ، ناقلة الركاب وحاصلات البلاد بين شمال شرق الأردن وجنوبيه .



أمام مكتب البريد فى معان

وصلنا محطة القطرانى بعد الغروب بقليل ، ثم حاد بنا الطريق نحو الغرب ، وأخذنا نرتق منطقة الجبال وسط زوبعة هوجاء ، والتجأنا إلى قرية مادبا القديمة ، وهى على الطريق إلى عمان ، واحتمينا بها . وبعد العشاء هدأت العاصفة فاستأنفنا السير ، ووصلنا عمان قبيل منتصف الليل ، ونزلنا بها بفندق فيلادلفيا[1] الجديدة .

الدمرداش محمد

(١) فيلادلفيا هو الاسم الذى عرفت به مدينة عمان فى العهد الرومانى .

حكم فى القضية ١٢٨ سنة ١٩٤٢ ، الخليفة ، بحبس لبيبة عبد حسن ثلاثة شهور مع إيقاف التنفيذ ، وحبس إسماعيل عبد العال أربعة شهور بالشغل ، وتغريم يوسف رضوان حسنين جنيهاً ليعلم جزاً أزيد من السعر .

الألعاب الأولمبية

فى عُكاظ الإغريقية

للدكتور أحمد زكى بك

وبدأت الألعاب الأولمبية عند استكمال البدر الأول بعد الانقلاب الصيفى ، أى بعد استواء الليل والنهار طولا فى الحادى والعشرين من يونيو ، أى فى عزّ الصيف . والصيف فى تلك العصور القديمة هو الصيف فى هذه العصور الحديثة ، أعنى أنه فى أوربا فصل الشمس وفصل الحروب معاً . فالألعاب الأولمبية كانت تأتى والحرب الدائمة بين الإغريق قائمة ، فتفرض على دولهم شهرَ الحرام ، فتضع الحرب أوزارها وتسكن السيوف حيناً فى أغمادها . ولعل من أجل هذا أن الإغريق ، لما أنشأوا نُسَخاً ثلاثاً أخرى كبرى من تلك الألعاب الأولمبية ، تنعقد على نمطها كل أربع سنين ، جعلوها تتوالى فى سنوات متعاقبة ، حتى يكون فى كل سنة منها شهرٌ حرام ، فتكون الأشهر الحرُمُ فى كل السنين . وجعلوا لكل من هذه الألعاب ربًّا يحميها ، توكيدا للطاعة وحقنا للدماء .

وشغلت الألعاب الأولمبية النصف الأول من هذا الشهر الحرام . وملأوا النصف الثانى بالتعبّد ، فضحّوا الأضاحى وسيّروا المواكب للمعابد . واتخذوا من قدسية هذا الشهر فرصة لعقد الأحلاف بين طوائفهم وشعوبهم ، فاذا تحالفت طائفتان أعلنتا حِلْفهما فى تلك المجامع حتى تكون عليه شهودٌ لا عدّ لها ، ثم هما نقشا صيغته على عمود من حجر ليكون شاهد صدق فى الغد إذا عزّت الأشهاد ، وقد يصدق الحجر الميت وتكذب الأحياء .

ويحضر المتنافسون فى الألعاب إلى أولمبيا قبل هذا الشهر الحرام بأشهر ، ليتسع لهم الزمن للتدرّب . وكان لهم مكان خاص للتدريب سمّوه الجمناسيوم Gymnasium . وهو تدرّب لا غَناء عنه للاعب . ويحضر أيضاً قضاة الألعاب زمانا قبل الموعد المضروب ، وهم ثمانية ، يقيمون فى خيام بيض ثمان ، يُختارون من عشائر الأيليّين الثمان . والأيليون قُريش الإغريق .

وتمر الأشهر وتقترب الأيام الموعودة ، فيؤذّن المؤذنون فى جَنَبات البلاد بأن هدنة الله جاءت ، والأمن الحرام حلّ ، والحربَ كائنةً ما كانت لا بد واقفة ، وأنْ اتّخذوا وجهتكم أيها الإغريق نحو الأرض الحرام من أولمبيا . وتزيد الأيام الموعودة اقترابا فترى الطرقات قد ازدحمت بالقبائل تأتى من كل فج ، وهى تنحدر إلى تلك البقعة الخضراء من ذلك السهل الواسع فى غرب البلاد . وعلى اختلاط تلك الجموع لا تعدم أن تتبيّن العين فيهم رُسلَ الدول الإغريقية فى عرباتهم الرسمية ، عليهم حُلَل وظائفهم ، وإلى جانبهم الأضاحى والقرابين .

ويطلع فجر اليوم الأول من تلك الأيام فيذهب المتبارون قبل كل شىء إلى حيث القضاة ، وفى حضرتهم يقيمون الدليل ويأتون بالبيّنات على صفاء دمائهم الإغريقية ، فلم يكن يُقبَل لدخول تلك الألعاب إلا كل إغريقى عريق . ثم هم يُشهدون الأشهاد على بياض صحيفتهم الدينية ، وصحيفتهم المدنية ، وأنهم بريئون من الآثم عند الله والناس . وتُضحَّى الأضاحى أمام القضاة فيضع المتبارون أيديهم عليها ، ويؤدون الشهادة من فوق الدم الجارى بأنهم قضوا عشرة أشهر كاملة غير مقطوعة يتدربون فى الجمناسيوم ، ويأخذون عهداً على أنفسهم أنهم فى الألعاب القدسية التى ستكون لن يخدعوا أو يَختلوا . ثم هم يسيرون إلى الملعب ، ويسمونه إستاديوم Stadium ، وفيه يخلعون ثيابهم حتى جلودهم ، فيكونون عرايا كما نزلوا من بطون أمهاتهم . ولم يكن يُؤذَن للنساء بدخول الملعب أبداً ، فمن دخلته منهن حق عليها الموت .

ويقف المتبارون على الخط الذى منه يبدأ السباق ، وعندئذ

ينادى المنادى فى الناس أن يتحدّوا فى المتسابقين أى لاعب فسد دماً أو ساء خلقاً ، فإن صمتوا نفخ فى البوق فبدأ السباق . وهكذا ينتقلون من سباق إلى سباق ، ومن مباراة إلى مباراة ، يوماً بعد يوم ، حتى تتم الأيام وتفرغ الألعاب .

وكان من أخطر مباراتهم سباق الجرى ، قصيره وطويله . وتفننوا فيه ، فكان منه أن يتسابق المتسابقون فى دروعهم الكاملة وهى من حديد .



أحد المتسابقين

ومن مباراتهم النط ، وقد يزيد المتبارى اندفاعه فيه بأثقال من حديد يضعها فى يديه ، ثم يديرها بساعديه ، ليقذف بها إلى الأمام ويقذف جسمه معها ، فيبلغ بالنط طولا على الأرض لا يبلغه بدون أثقال .

ومن مباراتهم المصارعة ، وهى كمصارعة اليوم ، إلا أن الفتى المصارع كان يدهن جسمه بالزيت ثم ينثر عليه الرمل . وكانت غاية كل مصارع أن يلصق أخاه بالأرض فإن فعل ذلك ثلاثاً كانت له الغلبة . ولم يكن له ، كما هى الحال اليوم ، أن يذهب بالصراع وراء ذلك ، فيستمر المتصارعان فيه وهما على الأرض طريحان .

ومن مباراتهم الملاكمة ، ولم تكن تختلف كثيراً عما نعلم منها ، إلا أنهم كانوا على الأرجح يلكمون الوجه من جوانبه . ولم يكن يباح القتل فى الملاكمة إلا أن يكون غير مقصود ، فمن أثقل على خصمه حتى افترسه كان جزاؤه الطرد والعقاب الشديد .

ومن مباراتهم رمى الأقراص الثقيلة والقذف بالحراب .



رامى القرص

ومن مباراتهم سباق الخيل ، وسباق العجلات تجرها الجياد . وكان لها مكان خاص يسمى الهيپودرومس Hippodromos ، ومعناها مجرى الخيل . وكانت حظيرة طولها نحو من ٣٠٠ متر فى أكثر من مائة عرضاً . يقسمها على طولها جسر من التراب ، يفصل رائح الخيل وغاديها . وكانت العجلات تجرها الجياد المتسقة

مثل ودباع . وقد يُستعاض عن الجياد بالبغال ، وكلٌ فى حياة الناس نافع . ولم يكن يدخل هذه المباراة إلا الأثرياء لفداحة نفقاتها عند السباق وقبله ، ثم من بعده . فكانت رِهانَ الملوك والأقطاب ، يحضرونه أو هم يُنيبون فيه عنهم النوّاب .

وكانت جائزة الفائز تاجا من ورق الزيتون ، يرفعه القاضى من فوق منضدة من ذهب وعاج ، فيضعه على رأس الفائز ، ويضع فى يده سَعَفة من نخيل . وينادى المنادى فى الناس ، فيعلن اسمه واسم آبائه واسم دولته . ويأخذ مكانه فى الموكب وهو يسير إلى معبد زيوس ، فينثر أحبابه عند قدمه الأزهار ويغنّون فى تمجيده الأغانى ، ويُنقَش اسمه فى سجلّ الإغريق . فإذا هو عاد إلى بلاده بدأ التكريمُ من جديد . وكان الأثينيون يمنحون أبطالهم حصانة وراحة ، وطعاما بالمجان فى مَضْيَفة الدولة طول الحياة . وكان الأسبرطيون يمنحون أبطالهم مواضع الشرف من القتال . ثم يأتى دور الشعراء فيخلّدونهم فى الشعر . ثم يأتى دور المثّالين فيخلدونهم فى الحجَر .

وعند المثّالين نقف مهلة . وقفها لنقول إن تلك الملاعب كانت مصدر الوحى فى النحاتة عند الإغريق ، بل هى أصل النحاتة وأصل هذا الفن الجميل عندهم . فالمثّال اليوم إذا شاقه الفن جاء بأنموذج من بنى الناس ، ذكرٍ أو أنثى ، وفى معزل عن أعين الرقباء عرّاه ، وظل ينقل منه عاريا معظم ما يرى من جمال . وما هكذا كان الحال عند الإغريق . فما كانت تنقصهم النماذج فى تلك الملاعب واللاعبون فيها دائما عراة . عراة فى استحمامهم ، عراة فى تدريبهم ، عراة عند السباق والجموع محتشدة . فما كان على الفنان إلا أن يرتاد تلك الملاعب فى مواسمها ، وفيها يرى أحسن صور الإغريق فى شباب وقوة ، وهو لا يراها رؤية الحجَر ، بل يراها فى حركتها ، وفى سكونها ، وفى اتخاذها وفى تصلّبها ، وفى تطاولها وتقاصرها ، ويراها وهى قائمة وقاعدة ومستلقية . فيرى فيها مظاهر الحسن فيقتنصه ، ويرى فيها مظاهر القبح فيتّقيه ، وقليلا ما وجده فى تلك الحاشد ، فالشباب والفتوّة إذا اجتمعا فى خَلْق الله لا ينتج منهما إلا الجميل .

من أجل هذا كان أولُ صور الإغريق فى الحجر صُوَرَ الذكور العارية . وقد ظلّت هكذا خير صورهم حتى فى أوج الفن وازدهاره عندهم بين القرن الخامس والرابع قبل الميلاد . فنيهم الحجرىّ هذا كان فنا رياضيا بدنيا .

وقد يمجّ الذوق الحاضر رؤية تلك الصور الماضية لعُرْيها عريا كاملا تاما . ولكنّ ذوق ذلك الزمان كان غير ذوق اليوم . فما كان ذلك الذوق يرى فى العرى معرّة أو يرى فيه افتضاحا ، إلا أن يكون العرى فى عارية . فالنساء مثّلوهنّ فى الحجر ولكن فى ثياب ، وبرعوا فى تمثيل الثياب وتصوير طياتها وثنْيِها وانسجامها تمثيلا



سيدة أثينية منحوتة فى حجر على قبر

رائعا . وذلك أن النساء كُنَّ في عزلة في ذلك الزمان ، فلم يكنَّ يغشين تلك الملاعب . ولم تكن امرأة محترمة تظهر في حمّام عام . وبقي اكتساء النساء في الحجر حتى جاء المثّال إبراكستليس Praxiteles في القرن الرابع قبل الميلاد ، فخرق العرف ، وصوّر امرأة عارية ، هي الآلهة أفروديت Aphrodite ، بنت الإله الأكبر زيوس ،



أفروديت ، وهي غير المذكورة في المقال ، وعريها غير كامل

فضرب للإغريق مثالا للجمال الأنثوي أشجاهم إشجاء نسُوا معه أن عُرْي النساء مما لا يُحْتمل إعلانه هذا الإعلان وإشاعته في طبقات الناس وهم مشارب مختلفة وأخلاقٌ متباينة . ومن بعد هذه صار عري النساء في الحجر عادة .

ومن عجيب أمر الإغريق أنهم مجّدوا الجسم الإنساني تمجيداً لم ينازعهم فيه من الأمم القديمة والحديثة منازع .

إن الجمال في عصرنا الحاضر جمال طبيعة ، جمال جبال ووديان ، وجمال سماء وماء ، وجمال شمس غاربة وقمر مشرق . وهو جمال الشجر والزهر ، والفَراش والطير . ثم هو عندئذ ، ولكن من بعد ذلك ، إلى جمال الحيوان ، فيجد الجمالَ في الكلب والخيل . فإن وصل إلى الجمال الإنساني تركّز في الوجه واليدين . وما هكذا كان الجمال عند الإغريق . لقد كان جمالا في نظرنا مقلوباً . فبؤرة الجمال عندهم جسم الإنسان — ساقاه وفخذاه وساعداه ؛ وجذعه وعضله في تقبّضه وانبساطه . ثم يأتي من بعد كل هذا الوجه . ثم يأتي من بعد كل هذا جمال الحيوان والنبات والأرض . فجسم الإنسان أولٌ وتلك ثوان .

قال أفلاطون في جمال الأشياء : « إن الجمال في الطبيعة الجامدة جمال مبهم لا يَنُمّ علمُنا بدقائقه ، فإذا صوّره مصوّر لم نستطع أن نمتحنه عن قرب ، أو ننقده عن خبرة فنرضى عندئذ بصورة منه مبهمة . أما إذا صور المصور أبداننا ، أدركنا سريعاً مواضع الخطأ في تصويره . فلكثرة ما رأينا هذه الأبدان ، ولكثرة ما تأملناها ، صرنا نُقادا قُساةً لمن لا يحسن هذا التصوير إحساناً كاملا . »

وأين كَثُرَتْ رؤيتهم إياها ؟ وأين كثر تأملهم إياها ؟ في الإستاديوم ، معرض الفتوة في الفتيان ، ومهبط الوحي للفنّان .

أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٣٠	في مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

حق الأديب — دفاع عن الحرية —
قلب المرأة — أسعد زوجين ! ... ...

من الأديب !

... وهذه رسالة أخرى جاءنى بها البريد اليوم ، يقول كاتبها :

« قرأت كلمتيك « آخرة شاعر » ، و « اليائس المتجمل »(1) ؛ فعجبت لك وعجبت لنفسى ...

« إن هذه الحادثة التى أحدثتها وزارة الشئون الاجتماعية ليست شيئاً غير عادىّ ولم تكن تستحق منك هذا الالتفات ... رجل كان فى الطريق فكفلت له الحكومة رزقاً ، لعمل أو لغير عمل ، لصفة فيه أو لغير صفة ؛ ما ذا فى ذلك مما يدعو إلى العجب والتأمل وإنه لشىء يحدث مثله كل يوم فى كل ديوان وفى كل وزارة ؟ ... ولكن الذى يدعونى إلى العجب حقاً هو أن تتناول الموضوع من هذا الجانب وله جوانب أخرى أولى بالالتفات والعناية ...

« لقد زعمت وزعم صديقك « اليائس المتجمل » أن الحكومة إنما صنعت ذلك قياماً بحق أديب بائس ينبغى أن يتكفل له الرزق ... أذلك حق فيما تزعم ... من أين لك هذا وأين شاهده ؟ ... إنما كان يقتضيك هذا المقام أن تسأل نفسك بديئاً : أتعترف مصر — حكومة وشعباً — لأديبٍ فيها بحق ؟ فإذا وقفت من الجواب فقل ...

« ألا إنك لتعلم علم اليقين — وإن شبّه لك غيره — أين مكانة الأدباء — بأدبهم — فى مصر ؛ وما يليق أن أصرح ؟ ... أتستطيع أن تذكر لنفسك برهاناً واحداً يؤيد ما ذهب إليه وهمك فى هذا الشأن ؟ ... ستذكر لى هذه الحادثة الفريدة ؛ ولكنها لا تصلح برهاناً ؛ إنها بالعطف الإنسانى أشبه ؛ ولقد عرّ بى فى الطريق جائع عريان فأحسن إليه ببعض ما أملك شفقة به ؛ أفتسمّى ذلك « رعاية أدبية » إن ظهر لك فى غد أن هذا الجائع العريان ينظم الشعر ؟ ... فهذا برهانك ! ...

«أتستطيع ؟ ... أعندك علم عن أديبٍ واحد رتّبت له الحكومة « معاشاً استثنائياً » وذكرت فى أسباب ذلك أدبه وما أنشأ ؟ ...

« أعندك علم عن أديبٍ واحد همّ بعمل أدبىّ لا تتسع له أسبابه فأمدّته الحكومة بالمال ليتمّ ما بدأ من عمل ؟ ...

«أعندك علم عن موظف واحد كان من أسباب ترقيته فى وظيفته أنه أديب منشئ وأن له آثاراً نامية فى الأدب ؟

« أعندك علم عن واحد من هؤلاء ، أو واحدٍ من أمثال هؤلاء ، يقوم به برهانك على اعتراف مصر بحق الأديب ؟ ...

«أما أنا فعندى شواهد أخرى : عندى علم عن الأديب الذى بغته الموت فى عمله وهو موظف بالحكومة وله أولاد عشرة ، فقاصّت الحكومة عليه فى « المعاش » وخلّفت لهم الفقر ؛ فلولا أن الله سترهم ببعض ما تيسّر من أسباب الرزق لتعرّوا وجاعوا ...

« وعندى علم عن الشاعر اللامع الذى أنشأ ديواناً من الشعر الحديث فرأت وزارة المعارف أن تشترى منه بضع مئات تقديراً لفنّه ، ولكن وزارة المالية ردّتها عما رأت وكتبت إليها تقول : « إن الشعر من الأشياء الكمالية فى العصر الحديث ! » ... فباع الشاعر ديوانه فى ميزان الورّاقين ليسدّ دينه !

« وعندى علم عن الأديب العالم الذى اخترمه الموت

(1) انظر العددين ٢٠١ — ٢٠٢ .

فى شبابه ، فلما أحصيت تركته التى خلّف لابنته لم ترد على بضع وثلاثين نسخة من كتاب ألّفه الحكومة وطبعته الجامعة وكان كل نصيبه منه أربعين نسخة اعترافاً بفضله ... !

« وعندى علم عن الموظف الأديب الذى خُيّل إليه أنه مستطيعٌ أن يستشفع بأدبه إلى الترقية لأن رئيسه من أهل الأدب ، ولكن رئيسه الأديب ردّه عما كان يأمل بالقولة المأثورة حين قال له : « خلّ عنك ، لقد مات المويلحى جوعان » !

« وعندى علم من المذكرة التى كتبها رئيس إلى رئيسه الأعلى يقول فيها عن بعض مرءوسيه : إن فلاناً وفلاناً يتساويان فى الأقدمية ، وفى المؤهلات الدراسية ؛ ولكن فلاناً منهما أحق بالترقية من « الآخر » ، لأن هذا « الآخر » يراسل بعض الصحف والمجلات و « يشغل وقته » بالإنشاء والكتابة !!

« عندى علمٌ هذا وغيره فماذا عندك من العلم تبرهن به على اعتراف الحكومة بحق الأديب ؟ ...

« أهذه الحادثة وحدها ؟ ... إن لك عندى « هبة » عظيمة يوم يسبّل الله لى ، تقبضها بحق طيبة قلبك لا بحق الأدب !! إنك تحسن الظن كثيراً يا صديقى وتسرف فى التأويل !! . »

(...)

* * *

وما ظننتُ يوم كتبتُ كلمتى عن « آخرة الشاعر » عبد الحميد الديب أنى سأقرأ كل ذلك ، فلعله من « نحس » ذلك الشاعر البائس أن يثير أمرٌ من أمره كل هذا الجدال ، ولعله وقد عاش ما عاش من عمره يطرب الناس بالأنين وموجعات القلب — يشهد الفصل الأخير من مأساة نحسه وبؤسه مما يقدّم للأصدقاء من لحمه يمضغونه ليتصقوا به من الجوع والغربة ، ويناله ما ناله من رشاش القول وغبار الجدل ليكون فى « آخرته » باباً إلى سعادة الأهل لبعض الناس وإن الريح لتلفحه من هذا الباب وتُقذى عينيه بالغبار ؛ وكذلك كان فى « أولاه » وفى حياته جميعاً !

على أن هذه الرسالة حقيقة بالتأمّل والاعتبار ، لا من حيثما أكثر كاتبها من أسباب التبرّم والشكوى ، ولكن من حيث الدعوى ؛ فماذا يريد الأديبُ لنفسه بحق الأدب أن يكون ؟ ... هل يكتب الكاتب وينظم الناظم ويؤلف المؤلف ليبلغ حقاً لم يبلغه بأسبابه ، أو ليؤدّى رسالة ويبلغ غاية من الفن والشعر والأدب ؟

إنى لأخشى وقد كثر ما قال القائلون فى هذا الباب أن يقع فى وهم بعض المتأدبين أن الأدب « مَكْسَبَة » أو « مَكْسَبة » ، وأنه ليس على الكاتب أو الناظم إلا أن يكتب أو ينظم و ... وعدّ بديه المسألة !!

نعم ، للأديب حقّه ؛ ولكن عليه واجبه كذلك لفنّه وللحياة جميعاً ؛ وليس أديباً من يزعم لنفسه أن الأدب هو التماس أسباب الرزق بالكتابة والشعر ، وبالدعوى والشكوى !

هل لى — وإنى لمؤمن ببعض ما قال الكاتب — أن أحلّه وطائفةً معه تَبِعَة تقصير الحكومة فيما يزعم من حقوق الأدب والأدباء ؟ ... نعم ، فلو بلغ الأديبُ بفنّه مبلغاً يحمل الناسَ على الإيمان بالأدب ، وتقديره فى أنفسهم ، واعتبار أثره فيما يُصدرون من عمل ، وتوجيهه فيما يعالجون من مشاكل العيش ومطالب الوجدان — لو بلغ الأديبُ بفنه هذا المبلغ فى أذواق الناس وفى عواطفهم وفى شئونهم الحية — لعرف أين موضعه وأين حقّه ؛ ألا إنما الأديبُ بقوة أثره ، فما لم يؤثّر الأثر القوى فما له حق وليس له أن يطلب أو يشكو ويتبرم !!

دفاع عن الحرية !

... ولكن لماذا ... لماذا يلوم ذلك اللائم ويزرى على الشعب والحكومة ألا يعترفا بحق الأديب فى مصر وإن الأدباء أنفسهم لينكر بعضهم على بعض أن يُصيب أحدٌ

منهم حظاً من النبوغ ، أو نصيباً من الجاه ، أو لوناً من الرفاهية . . . ؟

صديق « فلان » أديب كبير له فى بلاغة القول شأن وخطر ، وقد قرأتُ له أمس مقالاً فى الدفاع عن البلاغة تناول فيه طائفةً من الكتاب لم يُسَمِّهم بأسمائهم واتخذ منهم فى دفاعه عن البلاغة مقدماتٍ ونتائج . . .

. . . وحمل حملةً على الأدباء من « أرباب المناصب » !

ليت شعرى ماذا كان يعنى بهذه الحملة ؟ . . . إنه رجل « حر » فلا عليه أن يحمل على « أرباب المناصب » من الأدباء ؛ أتراه يعنى أن ينكر على الأدباء أن يكونوا أرباب مناصب ، أم ينكر على أرباب المناصب أن يكونوا أدباء ؟

يُخيَّل إلىَّ أن أحد هذين المعنيين واضحُ القصد فى مقاله ، ولكن القضيّة بشقّيها يُعوزها الدليل ؛ فأما إن كان يريد الأولى فإنه لينكر على الأديب أن يكون له حق فى منصب أو جاه أو رياسة ، وما أراه إلى ذلك يقصد ؛ وأما إن كانت الثانية فإنه لينكر على صاحب المنصب أن يعالج شئون الكتابة أو يعمل نقله ، وإنه بذلك ليُحجِّر الواسع ويقيِّد المطلق ويتجاوز « حق الأديب » !

المنصب عيشٌ والأدب فنٌّ ، وما على أحدٍ من بأسٍ أن يعمل لدنياه ويعمل لفنّه فى وقتٍ معاً ؛ إنما العيب كلُّ العيب أن تصرفه أسبابُ العيش عن فنه ، أو يقف الفنُّ بينه وبين الناس أسباب العيش فى أمة لا تعترف للأديب بحق الحياة !

لا ، ليست هذه هى القضية وليس هذا هو وجه الرأى ؛ لقد كان الوجه — فى دفاعه عن البلاغة — أن يَعرض لحق الأديب فيذكر أين موضعه من الناس فى هذا البلد قبل أن يعترض وينكر ويقرر ؛ إن موضع الأديب من الناس ليحدِّدُ مكانته فى الأدب ومنزلته فى الفن وحقّه فى حرية الرأى والعبارة ؛ ومن أين له أن يقول فيُحسن لتتحدَّد مكانته فى الأدب ومنزلته فى الفن وحقه فى حرية الرأى والعبارة إلا أن يعرف أين موضعه من دنيا الناس ، وأين منه أسباب العيش بين الناس ؟

نعم ، إن التطفل على الأدب ظاهر الأثر فى بلاغة القول لهذا الجيل ، ولكن هذه قضيةٌ غير قضية « أرباب المناصب » ؛ وإقحامها فى هذا الباب خليق بأن يوهمَ معنى غيرَ مقصود ، ولعله يحمل على « سلب الموجود » من حق الأدباء لا من ردِّ السَّليب !

والشاهد والمثل فى تمهيد القواعد وتحديد الحدود غيرُ القضية العامة !

قلب المرأة !

أقرأتَ هذا الاستفتاء وجوابه ؟

لقد سألتْ « آخر ساعة » الدكتور زكى مبارك فيمن سألتْ من أصدقائها : « كيف تستولى على قلب المرأة ؟ » .

والدكتور زكى مبارك رجل قد سَلَخَ جِدَّ الشباب وما زال أحبَّ شىء إليه أن يشتهر بالحب والغزل ، فإنه ليحلو له أن يُقحم الحديث عن مغامراته و « لياليه » فى كل حديث ؛ فكيف وقد سألته « آخر ساعة » وطلبتْ إليه أن يجيب ؟ . . .

وأجاب زكى مبارك :

« الصلة بين الرجل والمرأة لا تحتاج إلى قصائد ولا مغازلات . . . وإنما هى سيطرة من الرجل على المرأة . . . سيطرة وجدانية وروحية و . . . « وجسدانية » لا تحتاج إلى مقدمات أو تمهيدات ! !

« . . . وأنا أصنع بفريستى ما يصنع الثعبان : أخدرها بالنظرة ثم ألتهمها ، مع الفرق بينى وبين ما يصنع الثعبان ؛ فهو يميت فريسته وأنا أبعث فيها الحياة . . . . »

بالله ماذا حمل « آخر ساعة » على هذا السؤال إلا أن تسمع هذا الجواب من زكى مبارك فتجعله نادرة وفكاهة وسخرية !

أهذه رسالة الصحافة وفنُّ الأدب ؟ . . . متىنا يعنيه هذا السؤالُ وجوابُه ، إلا أن يكون تطوُّعاً من المجلة

نوســــة

أو شطر من العمر

نوسة فتاة صحبتني اثني عشر عاماً ، تحتل مكان الطفل الحبيب ، وتشغل فراغه من نفسي وزمني ، وتحقق من الود والثقة والصحابة كفاء ما أمنحها من العطف والعناية والملاءمة ثم ماتت بين يدي ...

أغمضي عينيكِ قد آن الأوانْ
ودعيني نُهبة الشجن
وأمني دنياكِ في آتي الزمانْ
ودعيني لُعبة الزمن !

هـذه كفّي وقد مرّت عليك
في حنان وارتياع وولوع
لم تحسّيها ولم ينبض لديك
قلبيَ النابض من بين الضلوع

لإضحاك طائفة من القراء أو إسعاد طائفة من القراء ؟ . .

أسعد زوجين !

وما رأيت أسخف من هـذا السؤال إلا سؤالاً آخر وجّهته المجلة إلى قارئاتها : «من هما أسعد زوجين في مصر؟»

لو أنها أرادت أن تعرفهما صفة لكان لها ، ولكنها تسأل القارئات أن يسمّين كل زوج وزوجه ..

وماذا يعنينا من فلان وفلانة ؟ وأي شيء يكون لو كانا سعيدين أو شقيّين من أشقياء الأرض ؟ ... أهو فن من الإعلان ، أو فنٌّ من السخرية بالقراء ؟ ...

ومع ذلك فقد كان جواب المجيبات عن هـذا السؤال أدنى إلى الحياء وكرامة العقل مما أجاب المجيبُ هنـاك ، وأبى أكثرهن أن يذكرن أسماء !

وددتُ لو أني لم أقرأ أكثر ما قرأتُ في هذا الأسبوع !

« قاف »

هـذه الكف التي كم دلّلتكِ
وشدتك اليوم أطباقَ الثرى
أيُّ حاليْها تُرى أحنى عليك ؟
ليتني أدري . ومن فينا درَى ؟

ذلك الصوت الذي ترتقبين
قد دعاكِ اليوم من خلف الحجاب
قد دعاك . إنما لا تسمعين
أُسـدل الستر وقد عيّ الجواب

أنا يا « نوسةُ » والعهد قريب
موحشُ النفس شجيٌّ المغيب
موضع الصاحب والطفل الحبيب
قد خلا في ذلك القلب الغريب

موضع الشطر الذي قد عشتِ فيه
من حياتي موضعاً للحدب
ما مضى من دونه أو ما يليه
غربةٌ تقسو على مغترب

إنني أبكيك يا ظلّ الشباب
إنني أبكيك يا طيف البنين
رُفقةٌ طالت على خير اصطحاب
لك عطفي ولي الودُّ المكين

لم يكن ودٌّ بطون وطعـــام
إنما ود اصطحـــاب ووفاء
طالما أثرت إن غبتُ الصيام
أو تلوذين بصمت وانزواء

فإذا عدتُ فوثبٌ ومواء ناطق بالشـوق أو بالفرح

وألاعيب وعَبْث والتـــــواء
وتثنٍّ ناطق بالمرح !

***

طالما ناديتنى عذب النــــــداء
فى وداع حين أمضى أو لقاء
فى صباح حين أصحو أو مســاء
بوثوق واعتـــــــداد وذكاء !
طالما أحسست أنى لك وحدك
لا تطيقين شريكا أو شبيهـــــاً
طالما وطأت فى حجرى مهدك
فعلة الطفلة فى حضن أبيهـا

***

كنت لى كلك فى هذى الحياة
أين من ألقاه فيها لى كله ؟
كل من ألقى له فيهــــا هواه
وله آماله فيها وشــــغله !

***

قد خلا حضنى وكفى وذراعى
قد خلا قلبى من هذا المتاع
منذ دعا الموتُ فأصغيت لداع
من دعاه لم يعقب لوداع

***

أنا يا « توسه » أمضى والليالى
وخواء الموت يغشى عالمَى
رسمك الشاخص يبدو كالخيال[(1)]
أو كحلم فى ضمير الحـــــالم

***

وخيالاتك فى كل مكان
شاخصات تتراءى للعـــــيان
تصحب العمر على خطو الزمان
ها هنا كنت وقد كان وكان

***

هذه أنت إلى حضنى أويتِ
هــــــذه أنت أمامى قد ربضت
هذه أنت على صدرى وثبتِ
لهف نفسى ! أين أنت . أين أنتِ ؟
ها هو الصحن فأين الوثبات ؟
هذه كفى فأين اللمسات ؟
ها هو الأكل فأين الهمهمات ؟
أين أين ؟ كل ما قد كان فات !

***

أين قطاتك فى الحرز الأمين ؟
من دنا منها عليه تقذفين
غير أنى لى وحدى تأمنين
وإذا متُّ بى تستنجدين !

***

سكت الصوت وقد كان غناء !
سكن الوثب وقد كان مضاء
وامتلاء البيت قد أمسى خواء
كل من فيه قد اســـتاق عياء

***

ها هنا كنت ؟ أما هــذا ضلال ؟
وتهاويلُ خمارٍ أو خبـــــال ؟
لم يكن شئٌ ولم يطرأْ زوال !
كل ما كان خيالٌ فى خيال !

***

ضلة للناس فى آمالهــــا
والمنايا راصداتٌ بالوصــــيد
زُمَر تمضى إلى آجالهــا
والذى يحيا يرجّى فى الخلود !

حلوان سيد قطب

---

(١) لها صورة شمسية بدت بعد موتها كالخيال ، بينا أطيافها الخيالية تشخص كالحقيقة !

محكمة بنها الجزئية الأهلية

إعلان بيع فى القضية المدنية رقم ٢٢٢٣ سنة ١٩٤١

نشرة أولى

إنه فى يوم الأربعاء الموافق ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٢ من الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة بمدينة بنها سيباع بطريق المزاد العمومى العقار الآتى بيانه ملك سيده بنت السيد بن الصافورى عن نفسها وبصفتها وصية على ولديها القاصر يحيى بن على بن عثمان نائب القبة بالشدية ببنها البلوية بشارع شحوت بحارة أحمد نفاذاً لحكم نزع الملكية الصادر من محكمة بنها الجزئية الأهلية بتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٢ ومسجل بتاريخ ١٩٤٢/٩/١٢ بمحكمة مصر الابتدائية الأهلية رقم ١١٢٥ سنة ١٩٤٢ السجلات القاضى بنزع ملكية العقار المذكور وفاء لمبلغ ١٩٥٣ قرش صاغ وما يستجد خلاف المصاريف ويباع بثمن أساسى قدره ٢٠ ج . م عشرون جنيها مصريا بالشروط المبينة بالقضية لمن يريد الاطلاع عليها

وهذا البيع بناء على طلب ستهم بنت عبد العال بن عرابى القبة بالشدية ومقيمة ببنها البلوية بشارع ابن الحجاج بمنزل الحاج عبد الحميد مبروك المقاول ومحلها المختار ببنها بمكتب حضرة الأستاذ فخرى عفيف الحصرى المحامى .

وهذا بيان العقار المحكوم ببيعه :

اسم المركز	اسم الناحية	المسطح	رقم القطعة	اسم الشارع
بنها	تفتر بنها	٦١ مترا مربع	٤	حارة أحمد

وصف الحدود

البحرى منزل ٦ ملك نفيسه مبارك محمد بحارة أحمد ، والشرقى حارة أحمد ، والقبلى ٢ على حارة أحمد و ٢٠ على شارع ابن الحجاج باسم خديجة بنت مصطفى أغا على ، والغربى ٢٧ على شارع مدرسة البنات باسم عبده عريب .

٦١ مترا مربعا فقط الحلة واحد وستون مترا مربعا عبارة عن منزل واحد لاغير . فعلى راغب الشراء الحضور للمزايدة .

كاتب البيوع

حكم فى القضية ٢٥٧٤ سنة ١٩٤٢ عسكرية بنى سويف بتغريم أمين حسن بسطى بقال بالواسطى خمسين جنيها لبيعه زيتا وكبريتا بأكثر من التسعيرة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩١

العدد ٢٠٥ — الثلاثاء ٢١ من ذى القعدة سنة ١٣٦١ — ١ من ديسمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

فى إفريقيـــة الشمالية

للدكتور محمد عوض محمد

حينما اشتعلت نار هذه الحرب الضروس، ظل البحر المتوسط فترة من الزمن فى مأمن من غوائلها، وبقيت إفريقية الشمالية بمعزل عن القتال. هذه الحال انقلبت فجأة حين قررت حكومة إيطاليا فى شهر يونيو سنة ١٩٤٠ أن تخوض الحرب إلى جنب حليفتها، بعد أن رأت الهزيمة التامة التى مُنيت بها الجيوش الفرنسية، وخيل لها أن النصر الكامل يوشك أن يعقد لواؤه لألمانيا، وأنها يخلق بها أن تقف إلى جنب حليفتها لكى تساهم فى اقتسام الغنائم.

هنالك أصبحت إفريقية الشمالية ما بين عشية وضحاها ميداناً واسعاً فسيحاً من ميادين القتال، وحلت الحرب بويلاتها وفظائعها، حيث كان الهدوء شاملاً، والسلام سائداً. وأخذت تلك النار التى اشتعلت فى صيف عام ١٩٤٠ تزداد التهاباً وانتشاراً، حتى رأيناها فى الأسابيع الثلاثة الأخيرة تعم إفريقية الشمالية كلها، بعد أن كانت مقصورة على ليبيا، فى أقاليم كلها صحراء أو شبيهة بالصحراء.

لقد كان ميدان ليبيا هذا ميداناً عجيباً غريباً، وليس له فى غرابته وشذوذه ومتناقضاته نظير بين الميادين. فهو عبارة عن أرض بلقع قفر — إذا استثنينا مواضع قليلة ذات ماء وزرع — ولا بد للحرب فى مثل هذا الميدان أن يُجلب للجيوش المحتشدة جميع ما يلزمها من ذخيرة وعتاد، ووقود وقوت. والماء نفسه لا بد أن يحمل وينقل ويوزع بتدبير وتقتير.

هذا الميدان الواسع المترامى الأطراف، الذى ليس له

بين الميادين خطير فى فقره وجدبه ، يبدو لأول وهلة أحقر من أن يتنازع من أجله ، وأن تسفك له دماء أفراد بله الكتائب والجيوش ، إلى أن نعم النظر فيه قليلا ، فإذا هو من أجل الميادين وأعظمها خطراً رغم فقره وحقارته ، وما تعانيه الجنود فيه من ضروب العذاب والحرمان . ذلك أن من وراء هذا الميدان مصر والشرق الأوسط ، والسيطرة على البحر المتوسط كله ، وإمكان الهجوم على الهند والقوقاز ، وأخذ روسيا من الخلف ، والاستيلاء على بترول العراق وإيران . . . وفى شهر يوليو الماضى ، كان هذا كله يبدو غير مستحيل التحقيق ؛ واليوم تنقلب الكفة مرة أخرى ، وتجلو جيوش المحور من صحراء مصر وعن برقة ، وترتد نحو طرابلس ؛ واليوم يكبر الميدان الإفريقى بحيث يشمل إفريقية الشمالية كلها .

فى خلال العامين ونصف العام ، منذ أن دخلت إيطاليا الحرب ، قد تقلبت الحظوظ فى هذا الميدان العجيب ، وتعاقب فيه المد والجزر ، والتقدم والتراجع مراراً ، وساعد على هذا أن الأرض جلها صحراء ، وأن العبرة باكتساب المعارك لا اكتساب الأراضى ، وبقهر العدو ، لا بالاستيلاء على مساحات لا تسمن ولا تغنى من جوع . لهذا كان كل فريق يفضل التراجع ، وإخلاء الميدان لكي يعود إليه مرة أخرى ، بعدد جديد وعدة جديدة . وكثيراً ما كان التراجع لفائدة الجيش المرتد ، لأنه يسبب للخصم زيادة فى مشاكل تموينه ، ويطيل خطوط مواصلاته . ويوشك ألا يكون فى تاريخ الحروب كلها حرب كهذه الحرب ، تعددت أطوارها ، وطال فيها التقدم والتراجع ، والكر والفر ، والنصر والهزيمة ، دون أن يؤدى شيء من هذا إلى نتيجة حاسمة .

***

بدأت الحرب فى الميدان الليبى عام ١٩٤٠ هادئة ؛ ولم يكن فى الميدان سوى بريطانيا فى الشرق ، ولم تكن بعد قد أكملت استعدادها للحرب ، وإيطاليا فى الشرق وقد مضى عليها زمن طويل وهى تحشد جيوشها الجرارة فى طرابلس وبرقة . ولكن لأمر ما لم تبادر الجيوش الإيطالية بالهجوم ، وسارت فى زحفها ببطء شديد ، واتبعت الخطة نفسها فى الميدان الحبشى ، فاكتفت بأن تقدمت وراء الحدود الليبية حتى وصلت إلى سيدى برانى فى سبتمبر من ذلك العام ، ثم لم تحاول التقدم بعد ذلك ، حتى جاء الشتاء ، واستطاع الجنود البريطانية أن تهاجم الإيطاليين ، فلم تزل تدفعهم نحو الغرب حتى أجلتهم عن ليبيا وبرقة ، بعد أن أسرت منهم فرقاً عديدة ، وردت البقية الباقية منهم إلى طرابلس . وانتهت بذلك المرحلة الأولى من الحرب بهزيمة الجنود الإيطالية وتقدم البريطانيين حتى العقيلة .

وفى هذه الحالة لم تجد الحكومة الإيطالية بداً من أن تطلب معاونة حليفتها القوى ألمانيا ، فاستعانت بها على محاربة اليونان فى البلقان ، ومحاربة البريطانيين فى ليبيا ؛ وبهذا بدأت المرحلة الثانية من هذه الحرب . وأخص ما تمتاز به اشتراك الألمان فى هذا الميدان الصحراوى ، وتقليد الزعامة فيه لقائد من خيرة قواد ألمانيا وأكثرهم همة وجداً وبراعة .

وقد اضطرت القيادة البريطانية فى الشرق الأوسط أن ترسل صفوة جنودها إلى البلقان لمساعدة اليونان فى محنتهم حين اقترب زحف الألمان على بلادهم ، وبذلك أضعف الجيش البريطانى فى برقة ونقص عدده . فلما تقدمت قوى المحور بقيادة ضابط من الألمان فى أبريل وزحفت على برقة اضطرت الجيوش البريطانية إلى التراجع نحو الشرق حتى بلغوا حدود مصر . ولولا أنهم استطاعوا أن يحتفظوا بطبرق لكان من الجائز أن يكون تقهقرهم إلى أبعد من حدود مصر . وبهذا انتهت المرحلة الثانية من الحرب الليبية .

بعد ذلك أخذ كل غريم يستعد لملاقاة غريمه ، وانقضى الصيف كله والخريف فى التأهب والاستعداد .

وابتدأت الزحفة الثالثة في شهر نوفمبر عام ١٩٤١ بهجوم عام من القوات البريطانية ، ودارت في خلال الشهرين التاليين معارك عنيفة سفكت فيها دماء كثيرة ، وانتهى الأمر بتراجع جنود المحور إلى حدود طرابلس مرة أخرى ؛ ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا بعد أن حصلوا على حاجاتهم من الإمداد والعتاد ، وأخذوا يتقدمون شرقاً في أوائل عام ١٩٤٢، ولم يزالوا يتقدمون حتى استردوا معظم برقة وبلغوا بلدة الغزالة وهي في منتصف المسافة بين طبرق ودرنة . . .
وهنالك وقف الجيشان وجها لوجه ؛ وانتشرت قوات الفريقين وراء خط يمتد من الغزالة على البحر إلى بير حكيم على حافة الصحراء . ولكن لم يحاول أحد الفريقين أن يزحف على قوات الفريق الآخر ... وانقضى الشتاء وأقبل الربيع ، وأخذت الحرارة تشتد في الصحراء، واطمأن الكثير إلى أن الهدوء النسبي سيسود هذا الميدان إلى الشتاء التالي على الأقل .

ولكن حرب الصحراء أبت إلا أن تخرج على كل نظام وكل قانون . وفي شهر مايو الماضي بدأت الزحفة الرابعة بهجوم قوات المحور هجوما شديداً عنيفاً ؛ وقد استعدت له القيادة الألمانية أروع استعداد ، بأن هاجمت في الأشهر السابقة جزيرة مالطة هجمات قاسية فظيعة ، بحيث استحال على هذه الجزيرة أن تؤدي وظيفتها الأولى ، ألا وهي مهاجمة قوافل المحور التي تنقل المؤونة والذخيرة والعتاد الحربي إلى برقة . لهذا استطاع الألمان وحلفاؤهم أن يدخلوا الزحفة الرابعة وهم أقوى عدة مما كانوا في أي وقت من الأوقات . ودارت المعارك التي لا تزال ذكراها عالقة بأذهاننا ، والتي انتهت بفقد الحلفاء درعهم من الدبابات ، وبتخليهم عن طبرق ومرسى مطروح ، وتراجعهم إلى العلمين على بعد مائة وعشرين كيلو متراً من الإسكندرية . وقد حدث هذا في آخر شهر يونيو الماضي ؛ وقد استطاع البريطانيون بفضل قواتهم الجوية أن يحولوا دون تقدم جيوش المحور إلى أبعد من هذا الموضع .

وانقضت أشهر الصيف وشطر من الخريف ، وكلا الفريقين يعد العدة للزحف التالي ، وأحرز البريطانيون فضل السبق ، فلم ينتظروا حتى يحل الشتاء ، بل بدأوا الزحفة الخامسة بهذه الحرب في أكتوبر الماضي ، زحف عنيف ؛ وبعد معارك دامية ، تراجعت قوات المحور بسرعة هائلة ، تاركة عدداً عظيما من الأسرى ، ومضحية بعدد كبير من جنودها وذخيرتها وعتادها . ولعل هذا الارتداد أسرع ، والهزيمة فيه أجل وأعظم مما حدث في هذا الميدان ، على كثرة ما حدث به من الهزائم والتقهقر ...

واليوم تقف الجنود البريطانية على أبواب طرابلس للمرة الثالثة ، بعد أن قطعت في تقدمها السريع زهاء ألف من الكيلو مترات . وطالت خطوط تموينها واتسعت الشقة بين ميدان القتال وبين الأقطار التي تمون القوات المحاربة . ويتساءل الناس اليوم : هل تمضي الجنود البريطانية في تقدمها السريع حتى تخرج جنود المحور من طرابلس كما أجلتها من برقة ؟ أم تتريث قليلا لكي تجمع قواتها ، وتعد العدة قبل أن تجازف بالتقدم مئات الأميال التي لا تزال تفصل بينها وبين طرابلس ؟ ولئن تريثت وتمهلت قبل الإقدام ، فهل تستطيع القوات الألمانية في هذه الفترة أن تأتي بما هي في حاجة شديدة إليه من الإمدادات ثم تعاود الكرة كما سبق لها أن فعلت في الشتاء الماضي ؟

إن حرب الصحراء هذه طالما أخلفت الظنون ؛ وتبدلت فيها الأوضاع بسرعة لم تكن تخطر لأحد ببال . فمن العبث محاولة التكهن وسبق الحوادث . غير أن هنالك أموراً جديدة تجعل الموقف اليوم في ليبيا مخالفاً لما كان عليه في العامين الماضيين .

فأما الأمر الأول فهو أن جنود المحور قد منيت هذه المرة بخسارة فادحة لم يمنوا بمثلها من قبل ؛ وقد فقدوا كل

دبابتهم إلا بضع عشرة قطعة . وليس من السهل تعويضهم عما فقدوه في حرب قوامها الآلات .

والأمر الثاني أن من الواضح أن مقدرة الحلفاء على مهاجمة قوافل التموين وإمدادات المحور قد زادت كثيرا عما كانت عليه في الشتاء الماضي ، ولا بد من بذل مجهود مضاعف لتموين الجنود الألمانية في طرابلس وتعويضها عما فقدته .

والأمر الثالث — وهو أجل شأنا وأبعد خطرا — أن الميدان الإفريقي قد اتسع وانضخم ، حينما أقبلت الجيوش الأمريكية والبريطانية بعدتها وعديدها ، في الأيام الأولى من شهر نوفمبر الماضي ، واحتلت بضع موانئ في مراكش والجزائر ؛ وبعد مقاومة قصيرة سلمت القوات الفرنسية ، ولم تكتف بالتسليم ، بل أبدت استعدادها للتعاون مع القوات الغازية في محاربة جنود المحور وإجلائها من إفريقية .

وقد رد الألمان على هذه الحركة الجريئة بأن احتلوا سائر فرنسا ، ثم بادروا بإرسال جيش إلى تونس ، تحمله الطائرات أحيانا والسفن أحيانا . وليس بالأمر العسير جداً على سفن المحور أن تقطع المسافة القصيرة بين صقلية وبنزرت في جنح الظلام ؛ وبذلك قد بات لهم جيش لا يستهان بأمره في الشقة الصغيرة الواقعة في الشمال الشرقي من تونس .

ولم يكتف الألمان بهذا ، بل لقد اضطروا لأن يرسلوا عدة كتائب من طرابلس نفسها ، لكي تحتل الطرف الجنوبي من تونس في منطقة قابس وصفاقس . وهكذا نرى كيف اتصل الميدان الإفريقي كله ، وبات كل جزء منه شديد الارتباط بسائره . واضطر الألمان رغم حاجتهم الشديدة في طرابلس إلى أن يسعفوا إقليما مثل تونس ، فيرسلوا إليه عدة وجنداً هم في أشد الحاجة إليها لوقف تقدم الحلفاء في الشرق .

وبهذا أصبحت قوات المحور بين شقي المقراض . تزحف عليها الجيوش البريطانية من الشرق ، والجنود الأمريكية والبريطانية والفرنسية من الغرب ؛ وقوات الحلفاء تفوقها كثيراً ؛ ولا شك في أنها في موقف لا تحسد عليه .

إن هذه الحالة تخلق ظروفاً جديدة ، وتجعل مركز المحور في طرابلس هذه المرة أشد حرجاً وضيقاً مما كان في أي وقت مضى . ولقد كان من السهل على قوات المحور أن « تصفى » موقفها في إفريقية الشمالية كلها ، وأن تتراجع إلى إيطاليا وصقلية . ولكن ليس من السهل على القيادة الألمانية أن تضحى مرة واحدة بالغايات والمرامى البعيدة التي كانت ترمى إليها بزحفها في ليبيا ؛ ولا بد لها أن تبذل جهداً شديداً جديدا ، لعل الزمن والحظ أن يجنباها الهزيمة في هذا الميدان العجيب ، الذي طالما انقلبت فيه الأوضاع ، واختلفت الخطوط . وفي الحق لا بد للمحور من حظ باهر جدا لكي يخلصه من المأزق الذي يعاني شدته اليوم في إفريقية الشمالية .

محمد عوض محمد

التفكير العلمي الحديث (١)

لاشك في أن علم هذه الأيام أعظم من علم الأيام الماضية، على الرغم من أننا لم نكتشف عن كل ما كان يعلمه آباؤنا وأجدادنا الأقدمون. إلا أن العلم قد صادفته من غير شك فترات ركود في بعض أجزاء العالم، أو في معظم أجزائه، ظل فيها واقفاً عند الحد الذي بلغه قبل ذلك الركود، ولم يتقدم عنه كثيراً أو قليلا، ولم ترد جهود الناس العلمية في هذه الفترات على دراسة ما كان يعلمه الأقدمون؛ وأصابته كذلك فترات انتكاس ارتد فيها إلى الوراء، وامتزج فيها العلم بالخرافة، ثم غلبت الخرافة على العلم، فطمست معالمه كما حدث في العصور الوسطى في أوربا، وكما حدث في البلاد العربية بعد نهضتها في زمن العباسيين.

لكن هذه الفترات، فترات الركود والانتكاس، لم تكن دائمة، بل كانت مجرد عقبات في سبيل تيار العلم الجارف لم تعقه إلا إلى حين، ثم طغى عليها فاكتسحها أمامه وسار في طريقه لا يلوى على شيء.

لكن علم هذه الأيام رغم تفوقه على علم الأيام الماضية، أو إن شئت فقل بسبب تفوقه على علم الأيام الماضية، أكثر منه تواضعاً وأكثر اعترافاً بعجزه، ذلك أن العلماء كلما زاد علمهم بالكون وأسراره، زاد أيضاً علمهم بما في الكون من أسرار لم يدركوها بعد. على أن هذا ليس رأيا جديداً، فقد طالما كرر العلماء في الماضي هذا القول نفسه، وذكروا أنهم كلما زادوا علماً زاد علمهم بجهلهم، فليس الإقرار بالعجز إذن هو الشيء الجديد، وليس هو كل ما يمتاز به التفكير العلمي الحديث. أما الجديد فهو أن العلم في هذه الأيام لا يميل إلى إصدار الأحكام القاطعة، وبخاصة في بعض المسائل الصعبة التي قد تبقى دائماً بعيدة عن متناول العقل البشري، وفي ذلك يقول السير جيمس جينز في كتابه « الكون الغامض » : « إننا مهما أكبرنا من شأن ما وصلنا إليه فإننا لا نستطيع أن ندعي أننا قد تبينا أكثر من بريق ضئيل، وقد لا يكون هذا البريق كله إلا وهماً وخداعاً، لأننا لم نستطع أن نلمح منه شيئاً إلا بعد أن أجهدنا عيوننا في التطلع إليه. وبذلك لا يكون أهم ما تريد أن نقرره أن لدى علم اليوم أحكاماً يصدرها، بل يجب أن يكون ما نقرره أن من واجب العلم أن يمتنع عن إصدار الأحكام — ذلك أن نهر المعرفة كثيراً ما يلتوي على نفسه. »

ومعنى هذا أن القوانين العلمية التي بنيت على أساس قوي من التجارب والمشاهدات، أو استنبطها العقل على أساس المنطق السليم، قابلة للتغيير والتبديل إذا جاءت التجارب والمشاهدات أو جاء الاستدلال المنطقي فيما بعد بما ينقضها أو يعدل من أساسها. ويقول العلماء في هذه الأيام إن التفكير العلمي إذا قال غير هذا وأصر على أنه قد وصل في شيء ما إلى الحقيقة الكاملة، فامتنع عن قبول ما يعدل من أحكامه أو ينقضها من أساسها في بعض الأحيان، ناقض نفسه بنفسه، وكان خائنا للمبادئ العلمية الصحيحة التي قام على أساسها.

وكم من قوانين وأحكام علمية كان يؤمن بها العلماء في الأزمان القريبة، ويقدسونها تقديس الآيات المنزلة، ولا يقبلون فيها جدلا أو طعناً، كم من قوانين وأحكام من هذا القبيل قد تصدع أساسها، أو على الأقل بدأ الشك يتطرق إليها؛ بل إن البديهيات البسيطة التي ظلت مئات السنين يقبلها العقل دون حاجة إلى تفكير كبديهيات

---

(١) كثير من الأفكار الواردة في هذا المقال مستمد من كتاب «الكون الغامض» The Mysterious Universe. تأليف السير جيمس جينز، وهو الكتاب الذي ترجمه لإدارة الترجمة بوزارة المعارف الأستاذ عبد الحميد حمدي مرسي، وكيل هذه الإدارة

إقليدس الهندسية قد أصبحت هي الأخرى عرضة للشك في هذه الأيام.

ومن القوانين التي استمسك بها العلماء زمناً طويلا وفسروا بها تركيب الكون ونظامه، والتاريخ وحوادثه، قانون السببية، ذلك القانون الذي كان له شأن عظيم في التفكير القديم، والذي نقرأ عنه الشيء الكثير في كتب فلاسفة العرب؛ فالعلة والمعلول، والسبب والمسبب، ألفاظ يتردد ذكرها في هذه الكتب على الدوام.

وعاد هذا القانون إلى الظهور وأعجب به العلماء، وملك عليهم عقولهم، في القرن السابع عشر الميلادي، فقالوا إن كل شيء في الوجود ناتج من ظروف سبقته قد حتمت وجوده، وإن هذه الظروف قد حتمتها هي الأخرى ظروف سابقة، وكان لابد من حدوثها كما حدثت؛ وهكذا دواليك. والنتيجة المنطقية لهذه العقيدة أن مجرى الحوادث كله قد حددته الحالة التي فطر العالم عليها في أول لحظة من تاريخه، أي أن عملية الخلق لم تتناول خلق الكون لحسب بل رسمت له أيضاً كل تاريخه في المستقبل.

ونشأ من هذه العقيدة ذلك الرأي الذي بلغ غايته في النصف الثاني من أواخر القرن التاسع عشر، وهو الذي يرمي إلى تفسير الكون المادي كله، بل وغير المادي أيضاً، على أنه آلة محكمة؛ وكانوا إذا عجزوا عن تطبيق هذا المبدأ على ناحية من نواحي الكون غير المادي أرجعوا عجزهم إلى نقص في علمهم بالقوانين الآلية، وقالوا إنهم إذا ضاعفوا جهودهم ظهرت الطبيعة غير الحية في نهاية الأمر سافرة عن آلة كاملة دقيقة في عملها.

ولما تبين العلماء أن الخلايا الحية تتكون أيضاً من نفس الذرات الكيماوية التي تتكون منها المادة غير الحية، بدأوا يظنون أن ذرات أجسامنا وعقولنا خاضعة أيضاً لقوانين السببية، وأن كل ما تعمله عقولنا هو أن تستجيب بدقة للمؤثرات التي تستقبلها من الخارج، وبذلك لم يكن ثمة مجال للاختيار ولا للإرادة الحرة؛ أي أن علماء القرن التاسع عشر كانوا يؤمنون بمذهب الجبرية، كما كان بعض الفلاسفة العرب يؤمنون به في الأيام الماضية.

ثم بدأت هذه العقيدة — عقيدة السببية والآلية في الكون الجامد والحي — تتزعزع حين أصبح من الميسور إجراء التجارب على جزيئات دقيقة جداً من المادة، فقد تبين العلماء أن هذه الجزيئات الدقيقة لا تسلك مسلكاً آلياً، وأن بين سلوك القطع المادية الكبيرة وسلوك الجزيئات البسيطة الدقيقة ما بين سلوك الجماعة وسلوك أفرادها من بون شاسع. ثم أثبت العلم أيضاً أن ظواهر معينة كالإشعاع والجاذبية قد هزأت بكل ما بذل من محاولات لتفسيرها تفسيراً محضاً آلياً.

وأيد هذا إنشتين صاحب نظرية النسبية التي زعزعت أساس كثير من القوانين العلمية القديمة، ومنها قانون الجذب نفسه. ومن ذلك الحين أخذ قانون السببية يفقد قيمته، وظهر في الوجود قانون آخر يعرف بقانون الاحتمالات. لقد كان قانون السببية يقرر تقرير الواثق أن الطبيعة لا تستطيع إلا أن تسلك طريقاً واحداً هو الطريق الذي رسم لها من قبل، تسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته في تسلسل مستمر بين علة ومعلول، فالحالة ا لا بد أن يتبعها المعلول ب. أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله هو أن الحالة ا قد تتبعها الحالة ب أو ج أو د أو غيرها من الحالات الأخرى التي لا يحصيها العد، وفي وسعه أيضاً أن يقول أي هذه الحالات أكثر احتمالاً من الأخرى، وأن يحدد درجة احتمالها بعضها بالنسبة إلى بعض؛ ولكنه لا يستطيع أن ينبئ من يقين أي الحالات تتبع الأخرى حتماً، لأن ذلك في رأيه موكول إلى الأقدار مهما تكن حقيقة تلك الأقدار. ذلك هو ما يعرف عند العلماء

بقانون الاحتمالات .

غير أن العلم الحديث أمين كل الأمانة لمبادئه ، فهو لا يحب أن يجزم بشيء حتى بعدم قدرته على الجزم ، أى أنه لا يستطيع أن يقول إن قانون الاحتمالات هو القانون الذى تسير عليه الطبيعة ؛ فقد يجد العلماء بعد أن يتقدم العلم أن قانون الاحتمالات نفسه ، أى أن الشذوذ الظاهرى فى أمور الطبيعة وعدم سيرها على قاعدة واحدة معروفة ، ليس إلا نتيجة لازمة لعمل قانون العلة والمعلول ، وأن هناك عوامل خفية لم ندركها بعد هى التى تجعل النتائج الواحدة غير مرتبطة دائماً بالأسباب الواحدة ؛ أى أن التجاء علم الطبيعة الحديث إلى الأخذ بقانون الاحتمالات ليس إلا ستاراً يغطى به جهله بحقيقة النظام الذى تسير عليه الطبيعة ، كما يتحدث الناس عما يرجى لجواد من الكسب والخسارة فى سباق ، ويعللون رأيهم هذا بما عرفوه من هذا الجواد ، ولكنهم قد لا يعلمون أن ساقه مكسورة ، أو أن صاحبه قد أعده بطريقة خفية للكسب فى هذا السباق .

وهناك عدد من علماء الطبيعة — ولكنه عدد آخذ فى التناقص بسرعة كبيرة — يتوقع أن قانون السببية الصارم سيستعيد فى آخر الأمر ما كان له من المكانة فى العالم الطبيعى . لكن الاتجاه الحديث فى تقدم العلم لا يقوى من كزهم فى ذلك ، ولهذا فإن السببية الصارمة ليس لها الآن مكان فى صورة الكون التى يرسمها علم الطبيعة الحديث . وقد نتج من هذا أن صار فى هذه الصورة ، أكثر مما كان فى صورة الكون الآلية التى كان يقول بها العلماء قبل هذه الأيام ، متسع للحياة والشعور والإرادة الحرة والقدرة على تغيير الكون إلى حد ما بوجودنا فيه .

محمد بدران

المعرفة والنقـــــد

رد الأستاذ خلف الله على مقالى الذى دعوت فيه إلى تنحية العلم عن الأدب ونقده ، وذلك تحت عنوان « بعض مناهج الدراسة الأدبية » ، واحتاط فلم يذكر اسمى وهذا ما أشكره من أجله . والأستاذ خلف الله رجل لبق ، ولقد كان من حقى أن ألزم الصمت ، ولكنى مع ذلك أعود إلى إيضاح رأيى لا رغبة فى محاجة الأستاذ — فذلك أمر ثانوى — ولكن لأن للمسألة المثارة لها عندى أهمية بالغة وهى خليقة بأن تجدد حياتنا الروحية ومناهج دراستنا تجديدا تاما ، وتسير بنا إلى اللحاق بمن سبقنا من الشعوب .

من السهل أن نُدافع عن المعرفة فهى شىء نبيل ، نبيل حتى لا يحتاج إلى دفاع ، ومن السهل أن نرى فى الذوق الأدبى شيئاً غامضاً أقرب إلى التصوف منه إلى الضوء . وأسهل من كل ذلك أن نستشهد بآراء « آر كرومبى » لندل على وجود ملكة إنتاج ، وملكة تذوق ، وملكة نقد ، فهذه كلها أشياء نعرفها وهى ليست موضع المناقشة . والذى أريد أن أثبته هو : هل هناك مجال لجعل النقد علما ؟ وهل ذلك ممكن باستعانتنا بعلوم النفس والجمال والاجتماع ؟

النقد ، كما قلت ويقول كل النقاد ، هو فن دراسة النصوص وتمييز الأساليب ؛ وهذا الفن يستعين بضروب من المعارف ، ولكنه لا يستخدمها ليحاول أن يضع بفضلها قوانين عامة للأدب ، ثم يأتى فيطبق تلك القوانين على النص الذى أمامه ، فما تمشى مع تلك القوانين كان جيدا ، وما خرج عنها كان رديئاً . والعلم كما نعرف هو اكتشاف القوانين التى تفسر الظواهر الخاصة بكل جانب من جوانب الحياة والوجود ، فهل الأدب أحد تلك الجوانب ؟

والجواب على هذا السؤال يتطلب أن نميز بين عدة أشياء ، فهناك ما سماه مفكرو القرن التاسع عشر « علم الأدب » ، وهناك ما سماه بول ڤاليرى فى القرن العشرين خلق الأدب ترجمة للفظة Poëtique بمعناها الاشتقاق . هذا من جهة ومن الجهة الأخرى لدينا تاريخ الأدب ونقد الأدب .

فأما عن علم الأدب فإجماع الأدباء اليوم أنه قد فشل ، وكلنا يعلم نظرية « تين » فى ذلك ؛ فقد أراد ذلك الناقد الفيلسوف أن يضع للأدب قوانين يفسره بها ، ورد تلك القوانين إلى الزمان والمكان والبيئة ، وطبق قوانينه على الأدب الإنجليزى . وعب جميع ذوى النظر السليم ضد هذا العلم الذى لا يستقيم ، وإنك لتقرأ فى كتب المدارس بفرنسا ردوداً على تلك المحاولة لا تستطيع دفعها ؛ والزمان والمكان والبيئة لا يمكن أن تفسر لنا التفاوت الكبير بين پيير كورنى وأخيه توما كورنى وأندريه شينية وأخيه مارى جوزيه شينيه ، فهؤلاء إخوة اتحدوا فى الزمان والمكان والبيئة ، ثم اختلفوا فى كل ما عدا ذلك ، ومنهم من طبق مجده الآفاق كپيير كورنى وأندريه شينيه ، ومنهم من لا نذكره اليوم إلا لتاريخ كتوما كورنى ومارى جوزيه شينيه . ثم كيف نعلل فى أدبنا تفاوت أبى تمام والبحترى أو الفرزدق وجرير ، بل كيف نفسر فى الأدب أصالة كل كاتب ، مع أن الأصالة بتعريفها ذاته شىء لا يرد إلى غيره ، وهى مجموعة من الخصائص التى تتميز بها روح عن روح . وأنا على ثقة من أن كل علوم الأرض لن تفسر ذلك الشىء الدفين الذى يميز روحى عن روح غيرى ، والعبرة بعد ليست باتحاد الزمان والمكان والبيئة ، بل بطرق استجابة كل نفس لهذه المؤثرات ، وتلك الطرق أصيلة فى النفوس الأصيلة .

وخلق الأدب أو الإنتاج الأدبى هو الآخر لا يمكن أن يفسره علم النفس ، لا القائم منه على الملاحظة الداخلية ولا الذى يدرس فى المعامل ، وذلك لأن علم النفس لا يسعى إلا إلى إدراك القوانين النفسية العامة التى قد تفسر

حياة الأفراد العاديين إذا صح أن هؤلاء يتشابهون ، والذين يخلقون الأدب كما قلت نفوس أصيلة لكل نفس منها حقائقها ، فكيف نريد أن نطبق عليهم قوانين علم النفس العامة التي أشك أكبر الشك في صحتها بالنسبة للعاديين من الناس ؟ نعم إن هناك محاولات قد عملت في علم النفس الفردى (Differentielle) وهذه تتناول بالدرس حياة الأفراد في حدود ما تتميز به تلك الحيوات ؛ ولكن هبنا أقمنا تلك الفروق فأنى لنا بنسبها والوجود كله مجموعة من النسب ؟ أليس الأجدى وتلك حالتنا أن ندرس طرق إنتاج كل جانب في نفسه ، واقفين عند خصائصه هو مع حرصنا الشديد من كل تعميم مخل . وأما عن محاولة ڤالبرى فالذى لاحظه كل من استمع لمحاضراته بالكوليج دى فرانس هو أن نفسه الخاصة هي التي كانت موضع تحليله وإن ساق الحديث على نحو عام ، فهو عند ما يتحدث عن خلق الصور واقتناص الفنان لتلك الصور قبل أن تأخذ دلالتها العقلية يتضح أنه إنما يفسر أسرار شعره هو ، وإذن فحتى في هذه المعضلة لا مجال لتعميمات العلم !!

في تاريخ الأدب والنقد الأدبي .

وفى الحق أن التاريخ الأدبى بالمعنى المعروف اليوم فيه جانب كبير من التجوز الذى تضطرنا إليه ضرورة التعليم ، والناظر في طرق تاريخ الآداب المختلفة يجد أنها لا تكاد تعدو ثلاثة أنواع : (١) تاريخ لفنون الأدب Genres Litteraires ، أو كما نقول في الأدب العربى مثلا أغراض الشعر ؛ فنتناول في الفن الغربى فن الملاحم نؤرخ له أو فن القصة أو الدراما ، وفى الشعر العربى نتتبع تاريخ المدح أو الرثاء وهكذا . (٢) تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية (Les courants) كدراستنا لتيار شعر اللذة الحسية عند أناكريون ورونسار ومن نحا نحوهما ، أو الغزل العذرى عند بترارك ؛ ولاميف ، أو عند العرجى وعمر بن أبى ربيعة ، وعند جميل وقيس بن ذريح . (٣) تاريخ لعصور الذوق (Les époques du goût) فندرس عصر الإنتاج الكلاسيكى في أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد مثلا ، أو ندرس عصر الصنعة أيام البطالسة بالإسكندرية . ندرس مذهب التثقيف عند أوس بن حجر وزهير والحطيئة وكعب ، أو مذهب البديع عند مسلم وبشار وأبى نواس وأبى تمام .

وكل هذه الأنواع إنما نجعلها وحدات لاضطرارنا إلى الاعتماد على الكليات في إدراك ذلك الفيض الذى يكون تراث البشرية الروحى ، ولكننا عند ما ندقق النظر نجد مفارقات لا حصر لها في داخل كل نوع ؛ فرثاء أصحاب المراثى الذين أفردهم ناقدنا العظيم ابن سلام الجمحى بباب خاص ، وجعل متمم بن نويرة على رأسهم غير رثاء البحترى وأبى تمام مثلا ، ذلك لوعة وهذا مدح ؛ وشعر أناكريون اليونانى غير شعر رونسار الفرنسى ، ولو اتفقا في التغنى بالملذات ، ذلك يونانى يحب الحياة حتى ليكاد ينهبها نهبا ، وهذا فرنسى من رجال النهضة يقلد القدماء ويود أن لو أصاب الخلود مثلهم ؛ وأين صفاء البحر الأبيض من ضباب اللوار . ثم من يقول بأن إباء جميل وقوة نفسه يشبه رقة ابن ذريح وتولهه ؟ وكذلك الأمر في عصور الذوق ، فأوس وزهير يغايران الحطيئة في لون النفس . هذان ذوا أنفة وترفع والحطيئة هجاء لم يبق حتى على نفسه . ثم هل بي حاجة لأن أقرر أن مسلماً غير بشار ، وأن بشاراً غير أبي نواس ، وأن أبا تمام يغاير الجميع ؟ أين استهتار بشار وأبي نواس مثلا من فقر حياة أبي تمام ؟ بل أين فن هذين من تقليد شيخ البديعيين الذى لم يعد في كل شعره « الرقص في السلاسل » ، أعني التقيد بمعانى القدماء ومحاولة تجديد صياغتها .

وإذن فالصواب هو أن هناك رجالا ، كما قال موررياس على فراش موته ، وكل ما يعدو الرجال إلى التعميم مجازفة لا يشفع لها إلا الضرورات اللازمة لحياتنا العقلية . وإذا صح هذا فأى علم وأى قوانين عامة يريد أن يصل إليها الأستاذ خلف الله ؟

لم يبق أمام زميلنا باب مفتوح غير النقد الأدبي . وهـذا ما نريد أن ننظر الآن في إمكان إخضاعه لقوانين عامة .

والواقع أنه في النقد قد قامت محاولات لجعله علماً ، وكل تلك المحاولات يمكن أن نلخصها في اثنتين :

(١) الأولى تلك التي ابتدأها أرسطو والتي ازدهرت في أدب عصر النهضة ، وهو الأدب المعروف بالكلاسيكي ، وأساس تلك المحاولة هو استقراء ما درج عليه عرف الأدباء في كل فن من فنون الأدب ، وجعل ذلك العرف قوانين ومحاولة إخضاع الإنتاج الأدبي لها ، وأسهل مثل لذلك هو الوحدات الثلاث في الدراما : أعني وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة الموضوع ، ووجوب توفرها في كل دراما . ومن الثابت أنه لم يخضع لتلك القوانين حتى في الأدب الكلاسيكي إلا المقلدون من الأدباء ، وذلك لأنها عكاز الأعمى ، وأما كبارهم فقد مزقت عبقرياتهم كل عرف وكل قانون . نجد الوحدات مثلا أوضح عند رادون منها عند راسين أو كورني ، ويا ويل أدب يحده شيء غير الحياة .

(٢) والمحاولة الثانية هي التي أحاربها اليوم بكل قواى ، وهي في الحق من مخلفات الماضي ، من مخلفات القرن التاسع عشر في أوربا ، ومن مخلفات « الأعجمي » قدامة في الأدب العربي ، وأعني بها تطبيق القوانين التي اهتدت إليها العلوم الأخرى على الأدب ونقد الأدب ، وهنا لا بد لي من تفصيل القول .

وأنا أبدأ بما حدث في أوربا لكي أنتهي منه في أسطر لأفرغ إلى أدبنا ، فهو مادة حياتنا وهو أولى بأن نوفر عليه جهدنا لتوجيهه الوجهة الصحيحة المنتجة .

كلنا يعلم قيام مذهب التطور في أواخر القرن التاسع عشر بأوربا بفضل أبحاث لا مارك وداروين ، وكلنا يذكر أن سبنسر قد نقل قوانين التطور من مجال العضويات إلى مجال الروحيات فطبقه على الأخلاق والاجتماع وعلم النفس وما إليها . وشاءت الأقدار أن ينفق ناقد فرنسي عظيم هو برونتيير حياته في تطبيق ذلك المذهب على الأدب ، فكتب سلسلة كتب بعنوان « تطور فنون الأدب » أخذ يحتال فيها لكي يثبت أن الأدب هو الآخر كالكائنات العضوية ، فكما تطور القرد فأصبح إنساناً كذلك من الواجب أن يكون الأدب قد تطور فاستحال فن من فنونه إلى فن آخر ؛ ونظر فوجد الشعراء الرومانتيكيين يتحدثون في شعرهم عن الموت والحياة والبقاء والفناء وعن الروح والله ، وعن عظمة الإنسان وبؤسه في داخل الطبيعة وبالقياس إليها ، وتذكر أن رجال الدين كانوا في القرن السابع عشر يتخذون نفس تلك الموضوعات مادة لوعظهم في خطبهم الدينية (Sermons) فقال : « إن الوعظ الديني قد تطور فأصبح شعراً غنائياً في القرن التاسع عشر » ، وهذا القول فيه من الحق ما كان يعرفه كافة المثقفين من تشابه موضوعات الوعظ الديني والشعر الغنائي الرومانتيكي . ولكن روح المذهب (Système) ورغبة هـذا المفكر الكبير في أن يصوغ تلك الحقائق صياغة تماشي القوانين العضوية ، وحرصه على أن يكون التطبيق عاما شاملا أفسد الكثير من أحكامه ، وذهب بجانب كبير من قيمة مؤلفاته ، التي أصبحنا ننظر إليها اليوم كوثائق تاريخية أكثر منها ككتب في تاريخ الأدب ونقد الأدب . وما لنا نذهب بعيداً وها أنا أجد لفظة « سيكولوجية » ترد في مقال الأستاذ خلف الله عدة مرات ، وفي كل مرة لا تعدو أن تعبر عن أشياء معروفة قريبة بلفظة ضخمة تزلزل بعقل المواطن ، وأنا لا أعرف ما هي « سيكولوجية الأدب » مثلا ، وكأن تلك اللفظة قد أخذت غموضاً في نفس الكاتب ، بل تعمية أخشى منها على نفسي وعلى غيري . بل لقد بلغ الأمر أن أصبحت لي أنا نفسي سيكولوجية فيها تصوف واندفاع وثائرية ، وكل تلك حقائق قد تكون صحيحة — وما أبرئ نفسي — ولكن أصبح أيضاً أنني أدخل في نوع محدود من أنواع الأجناس البشرية ، وأن لي « خانة » يمكن أن أوضع فيها ! في الحق أن هذا كله شرف لا أدعيه .

محاولة إخضاع العلم على الأدب إذن قد فشلت ، وكان هذا من حسن حظ الأدب الذي هو أدق وأرهف وأعمق وأغنى من أن تخطط له طرقه . الأدب شيء غير دقيق بطبيعته ، ومحاولة أخذه بالمعادلات جناية عليه . الأدب مفارقات ، ونقد الأدب وضع مستمر لمشاكل الجزئية ، فقد يكون جماله في تنكير اسم أو نظم جملة أو كبت إحساس أو خلق صورة أو التأليف بين العناصر الموسيقية في اللغة . وقد يخلو من كثير من العناصر التي نعددها كالخيال والعاطفة وما إليها ، ومع ذلك يروقنا لصياغته أو سذاجته .

والأمر في أدبنا العربي أشد خطورة ، لأن الأوربيين لم يجمدوا على الخطأ كما جمدنا ، والذي لاشك فيه أن مناهج كل علم أو فن تصدر عن طبيعة ذلك العلم أو الفن ، فعند ما نريد درس الأدب العربي يجب أن نكون من الفطنة بحيث لا نحاول أن نطبق عليه آراء الأوربيين وقد صاغوها لآداب غير أدبنا . فعلم الأدب مثلا كما عرفناه سابقا بأنه محاولة تفسير الظواهر الأدبية ليس له دائما مجال في أدبنا ، لأنك إذا وجدت علاقة ما بين حياة بعض من شعرائنا مثلا وشعرهم كما هو الحال في أبي نواس والمتنبي وأبي العلاء ، وكما كانت الحال في الأدب الجاهلي والأدب الأموي ، فإنك لن تجد شيئا من ذلك عند الشعراء المقلدين الذين نسميهم بالكلاسيكيين الجدد أمثال البحتري وأبي تمام مثلا . وكذلك نظرية الإنتاج الأدبي قد يكون لها محل عند الشعراء الأوائل الذين اهتدوا بأنفسهم إلى تشبيه الرسم الدارس بالوشم في ظاهر اليد وأمثال ذلك ، وأما من تلاهم فلم يعدوا التقليد ، وإنك عندئذ أن تبحث في انتقال القيم الفنية المروفة وما أدخلوا عليها من تغيير . وكذلك الحال عند ما نحاول تأريخ الأدب العربي ، ففنونه وتياراته وعصوره غير متميزة ، وهم أنفسهم لم يفصلوا القول إلا في مذهب واحد هو مذهب البديع ، فهذا وحده هو الذي يشبه مدارس الأدب في أوربا ، وأما ما دون ذلك فمقاربات أشاروا إليها إشارات عابرة ؛ وحاول بعض نقادنا المحدثين أن يجعلها مدارس كما فعل الدكتور طه حسين في مدرسة زهير والحطيئة ، ولكنها بعد محاولة لا أدري مبلغ ما فيها من جمع ومنع .

وإذن فالذي يبقى لدينا من دراسة القدماء للأدب العربي هو ما نسميه بالنقد الفني ، ونعني به ذلك الذي ينظر في النصوص ويحكم فيها من حيث الجودة الفنية وعدمها ، وهذا النقد حظ التفسير فيه ، ومن ثم حظ ما يسميه الأستاذ خلف الله بالعلم ، ضعيف ؛ وهذا أمر طبيعي أملته حقائق الأدب العربي ذاته ، وكل محاولة لتجريح هذا الاتجاه واتهامه بأنه غير علمي محاولة ظالمة مخطئة .

وليس بصحيح أن النقد الفني عند العرب لم يصبح منهجيا ، ولدينا غير الخواطر المنثورة في كتاب الأغاني وغيره كتب نقد منهجي مفصل لا أظن أن الأوربيين قد وضعوا في آدابهم خيراً منها ، مع ملاحظة الفارق بين طبيعة أدبنا وآدابهم ، وخير مثل لتلك الكتب هو « الموازنة » و « الوساطة » ففي أولها يتناول الآمدي البحتري وأبا تمام بالدرس التفصيلي والمقارنة المستقصاة وفق منهج وضحته في كتاب أرجو أن يقرأه الناس قريبا ، وفي ثانيهما فعل عبد العزيز الجرجاني كذلك في دراسته للمتنبي .

ولكن إلى جانب هذا النقد المنهجي الرائع قامت محاولة قدامة التي يريد الأستاذ خلف الله أن يجدد محنتها اليوم ، وموضع الخطر عند قدامة وعند العسكري الذي يعتبر استمراراً لمذهب ذلك الأعجمي السقيم الذوق هو اعتماد نقده على التقاسيم والشكل والتعليم والتحكم ؛ ومن منا لا يذكر تعريفه للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى الذي يدل على معنى ، ليخرج غير الكلام وغير الموزون وغير المقفى وغير ذي المعنى وما إلى ذلك من حماقات ؛ ومن منا لا يذكر رده الرثاء والفخر إلى المدح وحصره لمعاني تلك الأغراض ومناهجها ، وتحكمه في أن يكون المدح بأشياء ولا يكون بأشياء ، ثم ماذا فعل في تقسيمه لأوجه البديع غير الخلط حتى في الاصطلاحات ، ورفضه أن يسمى المطابق مطابقا كما سماه ابن المعتز وتسميته له بالتكافؤ ، ثم تعريفه

المدينة في الاسلام

(بقية المنشور في العدد ٢٠٣)

والمدن العربية التي أنشئت في صدر الإسلام تعين موقعها بنسبة القائمة منها . فقد كان عمر يعنى بصحة جنده ويحب ألا يحول بينه وبينهم ماء ، وعلى هذا الأساس بنيت البصرة والكوفة والفسطاط . وقد روى المؤرخون أن نفراً من جند العراق وفد على عمر ، فرأى اصفراراً في وجوههم ، ولما عرف أن الهواء الفاسد هو السبب أمر أن يفتش عن مكان نقي الهواء يتخذ معسكراً لهم ، فاتخذ معسكر الكوفة ، ثم بنيت المدينة التي تحمل الاسم نفسه بعد ذلك بمدة قصيرة .

ونحن إذ نروي رغبة عمر في ألا يفصل بينه وبين المسلمين ماء ، نود أن نلاحظ أن كل المدن التي نشأت في صدر الإسلام في العراق كانت غربي الفرات أو دجلة ، مثل الكوفة والبصرة وواسط . ونعتقد أن ثمة أمرين يفسران هذه الخطة ؛ أما الأول فالناحية الصحية وهي التعرض لهواء الصحراء الجاف ، وهو الذي يغلب على تلك الأماكن ، فلو كانت المدن شرقي النهر كان هواؤها رطبا ؛ أما الثاني فهو هذه الطبيعة البدوية التي كانت ترشد الفاتحين والقراد والقواد في ذلك العصر ، وهو أن يكونوا على آخر حجر من الصحراء وأول مدر من العراق ، وهذا الأمر على بساطته ، يسهل على البدوي أن ينتقل من خيمته إلى المدينة ، وبذلك تبقى المدينة على اتصال بالأمم التي يأتي منها ، الحين بعد الحين ، مدد جديد من العنصر النشيط . فكانت المدينة هناك ، كما يقول ابن خلدون ، لها ضواح من البادية فيها مادة يفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها . وبذلك تعمر المدينة حتى بعد انقراض الدولة التي أنشأتها .

أما تخطيط المدينة في الإسلام فلم يكن له قواعد موحدة ، ذلك أن إنشاءها كان يتأثر بالمدن الموجودة في ذلك الصقع نفسه ؛ فالبصرة مثلا كانت مقسمة خمسة أقسام تسمى بالأخماس ، نزلت في كل خمس منها قبيلة ، وجعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعا وهو المربد ، وجعلوا عرض كل زقاق سبع أذرع ، وجعلوا وسط كل خمس رحبة فسيحة مربطا للخيول ؛ وبنيت بيوتها بالقصب أولا ثم خيف الحريق فبنيت باللبن . وأمر الكوفة يشبه أمر البصرة .

المماطلة بأنها فاحش الاستعارة وما إلى ذلك من خلط . ثم هبه قسم الأوجه بل هبه مهد السبيل للعسكري ليصل بها إلى خمسة وثلاثين وجها ، فماذا أفدنا من ذلك ؟ وماذا يفيد طلبتنا اليوم من لصق بطاقات على طرق الأداء كما يلصق التجار على بضائعهم . أهذا نقد ؟ أهو بلاغة ؟ أهو أدب ؟ هذا لا شيء . هذا إضلال للمتأدبين وإفقار للذوق وإماتة للحاسة الفنية في النفوس . لقد قلت وأكرر أن كتب قدامة وكتاب أبي هلال مستطيرة الشرور ، ومن الواجب أن نلفت الأنظار إلى أنه لا يجب أن ينظر إليها المتعلمون إلا كوثائق تاريخية تبين لنا ماضينا ، وأما أن نعتبرها كتب نقد فلا ، وكفى طغيانها على كتب المتأخرين حتى يومنا هذا ، فلقد كانت في ذلك محنتنا ، ومن واجبنا أن ندافع عن حياتنا التي يغذيها الأدب الصحيح .

وأما عبد القاهر الجرجاني فقد قلت للأستاذ خلف الله شفويا إني لا أعدل بكتاب « دلائل الإعجاز » كتابا آخر ، وأما « أسرار البلاغة » فمرتبته في نظري دون الدلائل بكثير . الدلائل تشتمل على نظرية في اللغة وتطبق تلك النظرية ، وأما أسرار البلاغة فأقرب إلى الفلسفة النظرية منها إلى النقد الأدبي ، ولكن تفصيل ذلك موضوع المقال الآتي . وكفى أن وصلنا الآن إلى رد أنجاء العلم عن الأدب ، وسوف نرى في مذهب عبد القاهر جانبا كبيراً من المعرفة التي يجب أن تتوفر للناقد ، وهي بعد ليست معرفة نظرية بل معرفة لغوية وفنية تكتسب بالمرانة ، وبدراسة علوم اللغة لا بدراسة المنطق والسيكلوجية والجمال وما إليها .

محمد مندور

وقد مر بنا ذكر القاعدة التي من أجلها بنى عقبة بن نافع القيروان ، وكانت طريقته أن اختط بها المسجد ، ثم دار الإمارة ، ثم بيوت الجند . وبناء المسجد أمر أساسي في كل بلد بناه المسلمون .

وتمثل بناء بغداد والقاهرة درجة خاصة من العناية الفنية التي سمحت بها الأحوال الخاصة التي أحاطت بهاتين المدينتين . أما بغداد فقد عني المنصور بنفسه بأمرها . كانت مستديرة يبلغ قطرها نحواً من ثلاثة آلاف متر إذا اعتبر سورها الخارجي حداً لها ؛ وقد اختطت بالرماد أولا ، إذ وضعت كتل من القطن مغموسة بالنفط على الأرض وأحرقت ، ثم حفر الخندق الدائري . وقسمت أربعة أقسام متساوية ، وجعلت للمدينة أربعة أبواب يبعد الواحد منها عن الآخر ربع دائرة تماماً . وليس من شك في أن هذه الخطة كانت أمراً جديداً في الإسلام ، ويعزو بعض المؤرخين هذه الفكرة إلى تأثر المنصور بفن البناء الفارسي . وكان المسجد والقصور في مركز المدينة . وقد استقدم المنصور المهندسين ومهرة العمال من أقطار العالم العربي ، وعمل في بناء بغداد مائة ألف من العمال ، وتم بناؤها سنة ١٤٥ هـ .

أما القاهرة فقد وضع جوهر أساسها في الليلة التي دخل فيها الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ — ١٧ تموز ٩٦٩) بنى جوهر قصر الخليفة وأقام حوله السور ، ثم اختطت القبائل التي كانت مع جوهر خططاً وحارات حول هذه المنطقة . وجاء بناء الأزهر متأخراً عن بناء القاهرة قليلاً ، ذلك أن جوهراً رأى ألا يفاجئ المصريين بتغيير في مذهبهم السنّي ، فاكتفى بمساجدهم حتى استوثق من قوة جند الخليفة الفاطمي فبنى الأزهر ، وبدأ بنشر الدعوة الشيعية .

ولسنا نريد أن نعرض في هذا الحديث القصير إلى المدن التي اختطها الخلفاء والملوك والأمراء للترف والبذخ والسرور ، والتي قامت وقد بلغت الدول الإسلامية غاية في الثراء واتساع الرقعة والنعيم الحضري ، فقد كان طبيعياً أن تبلغ من الجمال والأناقة ما بلغته الزهراء وغرناطة .

على أنه يتعين علينا أن نلقي نظرة عجلى إلى السكان الذين نزلوا هذه المدن عند إنشائها ، ذلك لأن هذه المسألة كبيرة الأهمية في توضيح الكثير من نواحي النشاط الفكري والعقلي والسياسي ، بل ومن نواحي الخصومات التي عرفت عن كثير من المدن العربية الإسلامية في عصورها المختلفة . ونحن نرى أن الكوفة والبصرة والفسطاط قد سكنها أول الأمر الجند الذين عسكروا فيها ، ومن انضم إليهم من قبائلهم ؛ فكانت البصرة يسكنها الأزد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية أي بطون قريش ؛ ونزل الفسطاط بنو يشكر وبنو الأزرق وغيرهم ، ولما نزل أهل برقة القاهرة اختطوا حارة البرقية ؛ وكان سكان واسط العراق جند الحجّاج الشامي ، لكن هذا الحال لم يدم فسرعان ما هبط البصرة أتراك نقلوا إليها من بلاد ما وراء النهر ، كما نقل منهم جماعة إلى واسط . ونحن نعرف أن سياسة نقل السكان كانت مما يلجأ إليه في سبيل القضاء على الفتنة ، كما حدث بمراجعة لبنان الذين نقل الأمويون بعضهم إلى العراق ، ولا بد أن مدن العراق الجديدة نالها منهم نصيب ؛ وقد كان سكان سامراء بادئ ذي بدء أتراكاً هم جند المعتصم وحرسه .

وأكثر ما يكون اختلاط الناس في المدن التجارية . فالبصرة والقيروان مثلا اختلط فيهما السكان بحكم الموقع التجاري ، وإن كان الاختلاط أكثر في الأولى منه في الثانية بسبب قربها من البلاد المختلفة الأجناس . وتمثل نمو البصرة نمو المدينة الإسلامية العربية التجارية ، فقد بلغ عدد سكانها سنة خمسين للهجرة ، أي بعد بنائها بجيل واحد ، ثلثمائة ألف . واتسعت عمارتها في أيام الأمويين حتى بلغت مساحتها وضواحيها ستة وثلاثين ميلا مربعاً . ثم زادت ثروتها في أيام العباسيين لاجتماع التجار فيها ، وكانت تجارتها تمتد إلى الهند والصين وأقصى المغرب والحبشة . وقد قال ابن حوقل في وصف متنزهاتها : «وهي موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الأنيقة ، والميادين

العجيبة ، والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من المتطرقين ، منحدرين ومصعدين » . واشتهر أهل البصرة بالأسفار التجارية إلى كل الجهات ، حتى ضرب المثل بهم فقيل : (أبعد الناس نجعة في الكسب بصرى وخوزى . ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الأقصى (في الغرب) فلا بد أن يرى فيها بصريا أو خوزيا) .

والفسطاط ، وهي اليوم آثار دارسة ، كانت إلى قبل بناء القاهرة عظيمة متسعة ، إذ لم تلبث بعد أيام عمرو بن العاص حتى أصبح فيها عشرون من الخطط ، ثم اتسعت حتى بلغ طولها على ضفاف النيل ثلاثة أميال . وقد قال فيها الشريف العقيلي :

أحن إلى الفسطاط شوقاً وإنني
لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها
وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها
ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ولسنا نقصد أن نتابع نمو المدن الإسلامية في عصورها المختلفة ، فهذا أمر تضيق عنه الكتب بله الحديث المقتضب . ولعل فيما أشرنا إليه الكفاية .

والمدينة تمثل في حياة الدولة العربية المبكرة دوراً كبير الأثر من الناحية القومية . فقد كانت عصبية عرب الجاهلية قبلية محضة ، فلما جاء الإسلام صارت حياتهم أساسها الدين ومُثله . واهتم الأمويون بالعصبية العربية القومية ، وبتعريب الإدارة ، وكانت اللغة العربية قد انتشرت في كثير من الأصقاع خصوصاً المدن التي بناها العرب . ولما عمر العرب المدن وسكنوها حلت عصبية المدينة مكان عصبية القبيلة ، حتى إننا نرى أبناء القبيلة الواحدة في البصرة يقاتلون إخوانهم من نفس القبيلة في الكوفة .

ففي واقعة الجمل كانت الحرب بين البصرة والكوفة ؛ فلما نشب القتال تصدرت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر إلى مضر ، وربيعة إلى ربيعة . وكذلك في واقعة صفين ، وهي بين أهل الشام وعلى رأسهم معاوية وبين أهل العراق وقائدهم علىّ ، فلما التحم القتال استحث علىّ من معه من القبائل على إخوانهم في معسكر عدوه ؛ فقال للأزد : « اكفونا الأزد » .

على أنه لما عنى الأمويون بالدولة العربية على أساس عروبة اللغة والنسب والفكر والأدب والشعر ، أصبحت المدن مراكز لهذه الحركة القومية التي لم يكتب لها عمر طويل ، لأن الدولة الأموية قضت سريعاً . أما في زمن العباسيين فقد أصبحت العواصم والمدن الكبرى مركزاً للتعريب الفكري والعقلي والعلمي .

والمدينة العربية ، شأن كل مدينة في العالم القديم والحديث ، كانت مركز الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية ، فيها قامت المدارس ونشأت الجامعات وعقدت مجالس الأدب والمناظرة ؛ وفي هذه الحلقات المختلفة نضجت الحياة العقلية الإسلامية العربية ، وأتت ثمرها . ومن هذه المدن في العراق وسوريا ومصر وصقلية والأندلس انتشرت الآراء والأفكار التي نقلت أوربا من عقلية القرون الوسطى إلى النهضة الحديثة . هذه هي الخدمة التي قدمتها المدينة العربية ، وهي شبيهة عما قامت به المدينة اليونانية والرومانية للتمدن .

والفرق بين أثر الحضارة اليونانية والرومانية وأثر الحضارة الإسلامية في بلادنا ، هو أن هذه الحضارة كانت وسيلتها اللغة العربية التي انتشرت في المدينة والريف ، ولذلك تركت لنا وحدة روحية قومية لا سبيل إلى التغلب عليها .

القدس **نقولا زياده**

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

صحيفة الشحاذين ! — أسلوب الشيطان ! — أدب وعلم ! — معارك ! ... ...

صحيفة الشحاذين !

قرأت فى العدد ٢٢٩ من « الشعلة » حديثاً طريفاً نشرته بعنوان : « ملك الشحاذين فى أمريكا . . . » ، فسمَّتْ ، ووصفتْ ، وذكرتْ طرائف ممتعة ؛ ولستُ أحسبه شيئاً من صنع الخيال وإن كان به أشبه ؛ على أن أجمل ما راقنى من هذا الحديث هو ما ذكرته المجلةُ عن « جريدة الشحاذين » التى كان يصدرها يومية « ملكُ الشحاذين فى أمريكا» ؛ قال :

«... كانت توزع على كل شحاذ فى المدينة ... وتعنى بنشر كل ما تقرؤه تحت عنوان « البقاء لله » — « عقد قران » : أى أخبار الوفيات والحفلات ؛ كما كانت ترصد حركات رجال الأعمال الخيرية حتى يستطيع المتسوّل أن يستجدى دون أن يضيع وقته عبثاً !!

« أما ما تنشره فى صفحاتها الأولى بالعناوين الضخمة فلا يعدو خبر زيارة محسن كبير للمدينة ! !

« وهى تعنى عناية خاصة بنشر مواعيد امتحان الطلبة والطالبات وأمكنة الجامعات والمدارس ؛ لأن الطلبة كما يقول « ملك الشحاذين » لا يفهمون ما يقرءونه عن الإحسان وفوائده إلا فى أيام الامتحانات . . . ... ! »

قلت : وهذه جريدة ذات هدف ، تعرف أين تقصد وماذا ينبغى أن تقدّم لقارئها ، وإنها بهذا النهج المرسوم لأنموذج ومثال ؛ فأى جرائدنا ومجلاتنا تعرف الهدف الذى تقصد إليه وترى عن كل باب من أبواب القول فيها إلى غرض ؟

لا ، بل لعلى لو رُحتُ أحاول الموازنة بين هذا النهج المرسوم « لجريدة الشحاذين » وبين أكثر ما تنشر جرائدنا ومجلاتنا لتُشبّه إلىّ أنها جميعاً جرائد شحاذين ! !

ماذا تنشر أكثر جرائدنا ومجلاتنا غير ما تقرأ فيها تحت عناوين : البقاء لله ، عقد قران ، تنقلات ذوى الجاه والرياسة ، مواعيد المقابلات والزيارات ، حفلات البر والإحسان والترفيه و ... والعربدة !!

لو أن لى معرفة شخصية بكاتب هذا الحديث فى « الشعلة » لوجدت فى نفسى من وسائل الحكم ما يحملنى على سوء الظن — أو حسن الظن — بقصده ، فأزعم أنه أنشأ هذا الحديث للسخرية بأكثر ما ينشر من جرائد ومجلات ، على طريقة الرمز والإيماء ... ولكنى لا أزعمها .

أسلوب الشيطان !

قالت الفتاة وعيناها فى عينىْ فتاها ويدها إلى يده : ابعد عنّى ! ... فلم يزده ذلك إلا قرباً ، ولم يزدها إلا رضا ! ...

... ذلك أسلوب بعض النساء فى الحديث إلى الرجال : يأمرن فى أسلوب من النهى ، ليكون أبلغَ فى التشويق وأسرع إلى الإجابة ؛ وهو أسلوب الشيطان نفسه فى الحديث إلى بعض النفوس ، علّمه الشيطانُ المرأة أو هى علّمته إياه ... ...

... وبعض الدّعاة إلى الفضيلة والأخلاق فى مصر يدْعون إليهما ويتداعوْن على أسلوب المرأة أو أسلوب الشيطان ؛ فما أراهم يبلغون إلا أن يكونوا دعاةً إلى الإثم والرذيلة !

ذلك القاص الذى كتب فى آخر ساعة منذ أسابيع يصف الإثم والخطيئة فى أزهى ألوانهما بين المخدع الوطئ ،

والنور الأحمر ليخلص من وصفه الفاضح إلى تصوير العقاب والعاقبة — ماذا ترك بقصته من الأثر فى نفس قارئه وعلى أى نحو كى تحمله ؟ ... أكانت قصته دعوة إلى الطهر والعفاف أو مستحبا يرفق إلى الخنا والفاحشة ؟ . . .

وذلك الشيخ الجليل الذى تحدث منذ أشهر إلى إحدى مجلاتنا المصورة عن أثر الحرب فى « بلاج » الإسكندرية فراح يصف ما كان ثمة قبل الحرب على الرمال وخلف جدران الشاش وبين مصطخب الموج فى أسلوب يشوق ويغرى ويبعث اللهفة والحنين ، لينتهى من حديثه بالشكر لله على ما كان للحرب من أثر فى تطهير الشواطئ من مخازٍ وعيوب — ماذا بقى من حديث الشيخ الجليل فى نفس قارئه بعد الفراغ منه ؟... آللهفة والحنين على تلك « المباهج » التى كانت أم الشكر لله وطلب المغفرة ... ؟

وذلك « اللحوس » الذى يكتب فى المصور ليوجه ويرشد ويعظ ، فينصح للسيدات أن يحرصن على عدم الاحتفاظ بما يكتبن من مذكرات وما يصل إليهن من رسائل قد تقع تحت عين « الزوج » يوما فيثور حين يعرف ويكون ويكون ... بماذا ينصح هذا « اللحوس » وبماذا يأمر ؟ ... أترى أمره ونصيحته إلى الزوجات دعوة إلى الفضيلة المطلقة أو دعوة إلى التستر واستغفال الأزواج ؟

أقرأت قصة « عند ما يفتح الزوج بابه !! » للشاعر صالح جودت فى مجلة الساعة ١٢ ؟

إنه يحذر الأزواج وينذر ؛ فهل رأيته فى تحذيره وإنذاره ، ثم فيما يصف فى ثنايا قصته من مواقف الطيش والهوى — هل رأيته فى قصته وفى حديثه إلا كما تتخيل شابا عارى الجسد مكشوف السرة وعلى رأسه عمامة وبين يديه امرأة .... ؟

وماذا تغنى اللحية والعمامة وإن الشيطان ليصطنع أحيانا لحية وعمامة ليتهيأ له أن يخطب خطبته المؤثرة على منبر مسجد كبير ! ...

أدب . . . وعلم !

وقرأت فى العدد ٩٤٥ من المصور :

« أعجبتنى جدا فكرة حفلة القضاء التى اجتمع فى شبه مؤتمر عام ، وأعجبتنى الخطب لأنها تجافت وتفادت المسائل الحزبية والداخلية ، وإن لم تعجبنى فى أسلوبها ؛ لأنه كان أسلوب الجاحظ ، وعبد الحميد الكاتب ، والحريرى ؛ كانت خطب أدب لا خطب فقه وقضاء وقانون وعلم ... ... »

وللكاتب رأيه فيما يعجبه وما لا يعجبه ؛ فله ذوقه وحكمه ؛ ولكن هذه الأسماء الكبيرة التى تمثلها من أدبائنا القدامى لها حقها ومكانتها ، ووضعها فى هذا الموضع للاستدلال على عدم إعجابه لا يحفظ لهؤلاء الأعلام مكانتهم فى الأدب ولا يحفظ لهذا الكاتب عند قارئه مكانة من العلم ؛ ولعله لم يقصد إلى معنى خاص فى هؤلاء الخالدين من أدبائنا ، وما أراه يحسن الجواب لو سئل أيهم الكاتب وأيهم الخطيب وأيهم العالم ، ولكنها أسماء سمعها !!

وقد درج كثير من « كتاب الجرائد » على ذكر هذه الأسماء ، وأشباهها فى مثل هذا المقام ، وليس واحد منهم أعرف بها من غيره ، وليس منهم واحد يعرف أين موضع أديب واحد من هؤلاء الخالدين فى الدليل والشاهد فى القضية التى يستدل لها ؛ وقد نشأ من كثرة تردد هذه الأسماء فى حديث بعض « كتاب الجرائد » أن اقترنت هذه الأسماء فى أذهان بعض الناشئين من القراء بمعان ليست فيها ؛ فهى عند أكثرهم مضحكة وسخرية وعنوان فكاهة ؛ وهى جريمة على العلم وعلى حقوق أهله اجترمها بعض هؤلاء الصحافيين !

وأذكر أنى قرأت حديثا منذ بضعة أشهر لشيخ كبير من علمائنا جاء فيه ذكر « ابن حنبل » فى مثل هذا الموضع من حديث هؤلاء السادة المترفعين على العلم ، فساءنى ما قرأت للشيخ الكبير ، لأنه أعرف بموضع الإمام أحمد

ابن حنبل وعظمة نفسه وقوة أَيْده ومكانته من التاريخ في علمه وأدبه وقوة عقله ؛ فما كان يليق به أن ينزل به إلى مثل ذلك الوضع من حديث العامة وأشباه العامة .

إن تلاميذنا في المدارس ليعرفون هذه الأسماء قبل أن يتعلموها في المدرسة ، ولكنهم لا يعرفونها إلا على الصورة التي تصرفهم عن العناية بها حين يجيء أوان دراستها ؛ وهذه هي الجناية !

وثمة معنى آخر في هذا الحديث ؛ فإنه ليخيّل إليّ أن ذلك الكاتب لا يعرف « حدّ الأدب » فيما يقول القائل وفيما يخطب الخطيب ، وأحسبه يظن أن العلم والأدب لا يلتقيان ألبتة ، وكأني به يدعو إلى العامية والتبذل في القول والإسفاف في العبارة ليكون الخطيب معجباً بليغاً ؛ وهي دعوة عجيبة ... !

... أم تراه لم يُحسن النقد ، فهو يعني أن يعيب على الخطيب أن يتأنق ويتوقّ ويصطنع المحسّنات ويُغفل المعنى ؟ ... ولكن عبارته العجفاء لا تكاد تؤدّي إلى هذا المعنى إلا بعيداً من بعيد ؛ وما أعجب أن يتصدى لنقد الكلام مَن لا يُحسن الكلامَ ولا يبين ! !

معارك !

من أشهر معارك الأسبوع المعركة التي ثارت بين عبد الوهاب وأم كلثوم في سبيل إنشاء « نقابة الموسيقيين » !

والعجبُ ما شئتَ أن تعجب « لمعركة » تنشب بين رجال الموسيقى ولسانها من أجل تكوين « رابطة » !

والموسيقى هي فن السلام والحب ، ولكنها قد صارت بين أم كلثوم وعبد الوهاب فنّ الخصام والحرب ؛ وضاعت في ضجيج المعركة أنغامُ الهوى والشباب والأمل المنشود .

وقال عبد الوهاب : لست أريد شيئاً لنفسي ، ولكنها نقابة الموسيقيين فلا ينبغي أن يكون من أعضائها موظفون ، كما تألفت نقابة الصحافة ...

***

ونقابة الصحافة ليس من أعضائها موظفون ، ولكن فيها أيضاً معارك ؛ ورجال الصحافة هم قادة الرأي ، ولكنك لا تكاد تجد اثنين في نقابة الصحافة يجتمعان على رأي ! ...

ويكاد عبد الوهاب ينجح فيما يدعو إليه فلا يكون في نقابة الموسيقى أعضاء موظفون ، كما خرج من نقابة الصحافة طه حسين ، وأحمد أمين ، وخلاف ، وأحمد زكي ، وعشرات من كبار الأدباء والكتاب لهم في الصحافة والأدب ماضٍ وجهاد منذ سنين وسنين قبل أن ينشأ في الأدب والصحافة كل هذه الطائفة من الصحافيين !

ليت شعري أكل دعوة إلى « التآلف » تُنشئ في هذا البلد « معركة » ؟ فما أحرى أن يتقاطع كل زميلين في فن أو حرفة فلا يلتقيا ؛ فإن ذلك التقاطع بينهما أدنى إلى السلام والوئام !

« قاف »

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

قصة مصرية :

ألوان . . .

كان قطار الليل يشق طريقه المظلم إلى الصعيد ...

وكانت هذه المرة الأولى التي يستقل فيها الدكتور فؤاد هذا القطار في طريقه إلى مقر عمله الجديد .

لقد عاش طول حياته في العاصمة ، وكان طبيبا بإحدى مستشفياتها ، وأخيراً ... وبعد نزاع حاد مع رئيسه ، نقل إلى إحدى المستشفيات الصغيرة بأعالي الصعيد .

وكان يمكنه أن يستقيل ويكتفي بإيراد عيادته التي تدر عليه الكثير . . . وقد فكر في ذلك حتى أضناه الفكر ، فليس من السهل على رجل ألف حياة العاصمة أن يجد نفسه فجأة في جو لم يألفه ، وحياة خشنة جافة هزيلة لم يعتدها .

لكن تياراً أقوى كان يدفعه في اتجاه آخر ؛ لم يكن قد أفاق بعد من صدمة هائلة أذهلته عن كل شيء ، وأنسته كل الاعتبارات ؛ كان يود أن يهرب من المكان الذي كان مسرحاً لمأساته الدامية لأنه يذكره بها ويشكأ جراحه كلما قاربت الالتئام ... لقد فكر وفكر ، وأخيراً فضل أن يهرب من أشباح الماضي التي كانت تلاحقه في عناد ، وتعذب قلبه ، وتغمره في ليل أبدي لا فجر له ...

ولم يكن الدكتور فؤاد من أولئك الأطباء الذين تتركز كل حياتهم في مهنتهم فيحشون أدمغتهم بالمعلومات الطبية التي يطبقونها تطبيقاً أعمى ، بينما يشاركون في الوقت نفسه رجل الشارع في ثقافته وأخلاقه وكل غرائزه . كان الدكتور فؤاد شخصية ممتازة ، رقيق العاطفة مرهف الأعصاب ، ولوعا بالأدب والموسيقى ، ظامئاً إلى الحياة الدسمة الغنية بمختلف العواطف والإحساسات .

وبعد سنوات طويلة من الحنين والانتظار ظن أنه قد عثر على ضالته وحقق أمله ، فاندفع وراء الخيال وراح ينسج الأحلام ، ويكيف حياته كلها تكييفاً جديداً ، على هدى الكوكب الجديد الذي غمر حياته بالنور ...

وبعد عامين كاملين عرف أنه مخدوع ... وأن الشيطان كان يسرق القربان الذي يتقرب به إلى « كيوبيد » في في معبد الحب ، واستحالت حياته إلى بحر من الدموع ، وكره العاصمة الكبيرة والحياة فيها . ولما فوجئ بخبر نقله لم يحزن كما يفعل الموظفون ، بل تلقى الخبر بحبور ، وحمل كتبه وموسيقاه ليهرب من الحياة البراقة الزائفة ، وليخلو إلى نفسه علّه يستطيع أن يلهمها العزاء والسلوان . إنه سيحقق حلما جميلا طالما تمنى تحقيقه : حياة الطبيعة الساذجة الجميلة ، والمساحات الشاسعة الخضراء التي قرأ كثيراً عن سحرها وجمالها ، وما توحيه إلى النفس من صفاء ، والناس السذج البسطاء الذين لم يعطوا شرور المدن الكبيرة وآثامها . إن حياة المدن تفرض نفسها على الإنسان وتستعبده وتخنق فيه حياة العاطفة والروح . . . وحياة العاطفة والروح هي كل ما ينشده الطبيب الحزين . . إنه يأمل أن يجد في صدر الطبيعة ما لم يعثر عليه في صدر المرأة .

***

وتمكن فؤاد من أن يروض نفسه على حياة الريف وبساطتها ، ووجد في بساطة الحياة فيه الراحة التي يجدها الملاح بعد عاصفة هوجاء هددته بالفناء ! كان في الصباح يؤدي عمله الرتيب في هدوء ، وفي الأمسية يخرج للرياضة بين المزارع الخضراء ، وعنده بعد ذلك كتبه وموسيقاه . ولكنه كان شديد الانقباض عن الناس زاهداً في الحديث معهم وحتى في رؤيتهم . . . !

لقد وجد فؤاد العزاء ... إن الذي يعيش مثله بين المرضى ويرى الإنسانية تتألم وتتعذب بهذا القدر ، ويشاهد كل يوم شبح الموت يلهو بالأرواح ، لا بد أن يعلم كيف يزن مسرات الحياة وفواجعها ، ويميز صحيحها من باطلها ...

إن أوجاع الحياة تملمه تفاهة الحياة التي نجهد أنفسنا في سبيلها حتى الجنون! نفني السنين تلو السنين في المتاعب والدموع.. حتى يحل الخريف وتذبل أوراق العمر، عندئذ نبحث عن ثمرة جهودنا وعنائنا فلا نجد شيئاً! وتهب علينا ريح باردة تهمس في آذاننا أن الكل باطل. حينئذ، وحينئذ فقط، ندرك.... ونشيح بوجوهنا عن الحياة.

تلك هي الفلسفة الحزينة التي استخلصها فؤاد من استعراضه لأوصاب الناس وأمراضهم..

ومرت شهور وهو منهمك في عمله وعقله هو همومه وأفكاره القاتمة التي كان يطاردها فتغيب عنه حيناً ثم تعاوده في عنف وقسوة...

وفي صباح أحد الأيام كان جالساً كعادته إلى مكتبه يطالع صحف الصباح...

وفجأة... دخلت امرأة، وكان من عادته أن يطلب من أولئك الذين يقتحمون عليه خلوته أن ينتظروا بفناء المستشفى حتى يحين موعد العمل، ولكنه نظر إليها... وسكت، ثم سألها في صوت وادع عما تطلب، بينما كانت عيناه تلتهمانها التهاما...!.

كانت ترتدي ملاءة حريرية تحتها جلباب باهت اللون وفي إحدى يديها قارورة فارغة، وفي الأخرى «تذكرة أمراض باطنية».

وأسبلت جفونها واصطبغ وجهها بلون الدم، وتلعثمت، ودعاها برفق أن تقترب... وتخبره عن مرضها، وتناول منها التذكرة وقرأ البيانات المدونة عليها فعرف أن اسمها «نعيمة» وعمرها سبعة عشر عاما.

واقتربت، وأخذت تقص عليه أعراض مرضها بصوت ناعم حالم.. بينما كان هو يتأملها في نشوة سعيدة كأنه يتأمل أُرْأَفْنِياً حالماً! كان في مشيتها فتور خيل كأن رأسها قد حُمّل أكثر مما يتسع من الأحلام، وفي عينيها ذلك الحنين الناعس الذي تشعه عيون الفتيات عند ما تطرق قلوبهن تلك الإحساسات الحلوة الآسرة التي لا يدركن كنهها! وكانت نظراتها كطيور تائهة تبحث عن وكرها في عيون أليف حنون يقتنص الأحلام الهائمة في السماء ويرقيها في أذنيها بصوته الحلو الرقيق...!

كانت تشكو ورما بسيطاً في أصابعها وساقيها. وتناول يدها في كفه وأخذ يتأملها، واهتزت يده اهتزازا خفيفا وهو يضغط على أصابعها ليعرف طبيعة الورم، ثم فحصها فحصاً دقيقاً، وطلب منها أن تمتنع عن تناول بعض المأكولات، وزودها بنصائح وأعطاها ما يلزمها من دواء وبعضاً من «الجلسرين» في زجاجة من عنده، وانصرفت.

أين كان هذا الكنز مختفيا؟ لقد مضى عليه ما يقرب من خمسة أشهر في هذا المستشفى، ولكنه لم يرها إلا اليوم! لِمَ لم تحضر قبل الآن؟ لقد جاءت ثم ذهبت كأنها الحلم السعيد في هدأة الليل! ما أسعد تلك اللحظات التي قضاها وهو يتأمل هذا الوجه السماوي الجميل! كان جمالها من نوع نبيل يوحي بالعبادة أكثر مما يوحي بالحب، وعيناها عسليتان يشعان وداعة وطهراً، وبشرتها خمرية يعلوها تاج كثيف من الشعر الذهبي، وكانت نحيفة وهو يكره الجسم المكتنز الذي يوحي دائما بالرغبات... كما أنها أطول من رأى من فتيات القرية!!

ثم ابتسم وهو يقول لنفسه: «ألأنها جميلة تهتم بها أكثر من بقية المرضى؟؟ قد تكون الدميمة المشوهة الخلقة أكثر احتياجا إلى العطف والرعاية». ولكنه هرب من الإجابة عن سؤاله، وأشعل سيجاراً وأخذ يغني بصوت خافت؛ وود لو أمكنه أن يرقص أيضاً...

وفي الأسبوع التالي عادت نعيمة مرة أخرى، وكانت هذه المرة أكثر اعتناء بهندامها وتصفيف شعرها. وترددت كثيراً قبل أن تتقدم نحوه.. أما هو فكان يرقب خجلها وترددها في سرور.

وأخيراً جمعت شجاعتها وذهبت إليه.. ولاحظ وهو يحدثها أن أسنانها أكثر بياضاً مما كانت عند ما رآها في الأسبوع الماضي. وأخذ يلقي عليها عشرات الأسئلة حتى

تطول وقفتها أمامه ، ثم فحصها مرة أخرى وأعطاها دواء جديدا وزودها بعشرات النصائح ...

وبدأت تألفه ، واعتادت التردد على المستشفى مرة كل أسبوع على الأقل ، وكانت تلتمس مختلف المعاذير للذهاب إلى المستشفى .. وكان هو ينتظر حضورها في نوع من القلق . وسرعان ما تعرف بأبيها ووثق صلاته به وغمره بكل عطفه ، الأمر الذى أثار دهشة الرجل وجعله يتساءل عما يرمى إليه الطبيب من وراء كل هذا الاحتفاء !

وأحس فؤاد أن جراحه القديمة تبرأ بسرعة ... ما أسعده بهذه الطفلة البريئة الساذجة ! إنه لا يطلب أكثر من أن يراها لترد إليه من جديد إيمانه بالحياة ، وتزيح من قلبه الظلام المتراكم الكثيف . لقد غمرها بكل ما فى قلبه الأبيض من حنان ... ذلك الحنان الذى كان يعذبه لعدم عثوره على من يغدقه عليه ! ولا شك فى أن هذه القروية الساذجة ، الطاهرة القلب أجدر الناس به ...

وعندما يمنح الطبيب قلبه للمريض تلهم العناية الإلهية يده وتحدث المعجزات ...

وكانت نعيمة تبدو أكثر نضرة وشبابا فى كل مرة تذهب فيها إلى المستشفى . وكان هو يتأمل احمرار خديها فى فرح وهى تتقدم نحوه والخجل يكاد يقيد قدميها بالأرض . آه ! لو كان شاعراً لنظم أروع قصائده فى هذه اللحظة التى يراها فيها وهى مقبلة عليه فى خطوات موسيقية هادئة ...

إن الغيوم الداكنة المتراكمة فى سماء روحه تتبدد تحت أشعة بسماتها الصافية ، ونظراتها الحلوة تطرد من رأسه كل الأفكار السوداء التى قضى أشهراً وهو يجتهد فى إقناع نفسه بها ، وتعلمه من جديد نفاسة الحياة وجمالها .

وعاد يأنس بالناس وينبسط معهم ويجد فى حديثهم الساذج التافه كثيرا من الغبطة والسرور .

وفى إحدى المرات لمح على صدرها « قلباً » صغيراً من الفضة ، فسألها أن تعطيه له فنزعته من صدرها وقدمته إليه .. ونزع هو من أصبعه خاتماً ذهبياً وقدمه إليها ...

وترددت كثيرا قبل أن تأخذه منه . وفى مرة أخرى طلب منها صورتها فاعترفت له فى كثير من الخجل أنها لم تقف طول حياتها أمام آلة التصوير . وصورها بنفسه فى عدة أوضاع . وسألته مرة عن عائلته ، ولماذا يعيش وحيدا ؟ لماذا لا يحضر أمه أو إحدى أخواته لتؤنسه وتسهر على راحته ؟! واقتسم وعرف أنها لم تعد تقنع بهذه اللحظات العابرة التى تقضيها معه .

وكان يصله من العاصمة بين حين وآخر مالا يتيسر وجوده فى الريف من الفاكهة والحلوى ، فكان لا يطيب له تناول شىء منها إلا إذا أهدى بعضها لصديقته . وكان ينتهز فرصة وجود أبيها معه ويعطيه من كل ما كان يرد إليه .

وسارت الأيام فى طريقها والعلاقة بينهما تزداد قوة وعمقا ، ولم تعد نعيمة تخجل منه أو تهيبه ! كانت تعترف له الآن بكل شىء ، وتشكو إليه ضيقها بالحياة فى هذه القرية الصغيرة . إنها لا تخرج إلا للحضور إلى المستشفى ، والقدوم إلى المستشفى هو « يوم العيد » عندها .. وكان يلمح أحياناً على وجهها آثار الحزن والألم فيسألها عن سبب أشجانها ، ويلمح الدموع تجول فى عينيها وهى تعترف له أنها كثيرا ما توصد على نفسها باب غرفتها وتظل تبكى وتبكى دون أن تدرك لذلك سبباً .. وأدرك هو أن قلبها يعذبها ...

وابتدأ يحاسب نفسه ويسألها عن النتيجة !

لقد نبه فى قلبها الشوق ، وأشعل فيه الحب دون أن يبادلها كلمة واحدة تعبر عن عاطفته ! لقد فتنه جمالها وطيبة قلبها ، فهل يربط مصيره بمصيرها ؟ لقد سهر الليالى وهو يفكر فى هذا الأمر ، ولكنه اقتنع أخيرا أن بينهما من الفروق ما يجعل الحياة الدائمة معها مستحيلة ؛ إنها القروية الساذجة التى لم تنل من العلم شيئا ، وقد تهلك عند ما ينزعها من تربتها ليزرعها فى تربة أخرى ...!

كان يفكر فى النهاية ويتألم ؛ إنه سيحطم بيديه القلب الذى بدد وحشته وأنساه آلامه وهز أوتار قلبه هزات

رائعة !! لقد غمرها بحنانه لأنها الزهرة الوحيدة في تربة لا تنبت إلا الحشائش ، وأحبها كما يحب صورة جميلة أو لحناً رائعاً ...

ولكن ماذا يفعل ؟! إنها ليست له . هذه الجوهرة النفيسة ما زالت « خاماً » ، وفي حاجة إلى كثير من الصقل والتهذيب ؟ إنه سعيد بها ، لأنه يراها لحظات كل أسبوع ، ولكن الحياة الدائمة بينهما قد تكون مثال التعاسة والشقاء ... وقد حاول مرات أن يفهمها حقيقة العلاقة بينهما ، ولكن عطفه عليها كان يمنعه من أن يصدمها هذه الصدمة الهائلة ...

كانت هذه الأفكار تصطرع في رأسه ، بينما كان أهل القرية يتهامسون بأن طبيبهم سيتزوج من نعيمة ، وخاصة بعد أن زار منزلها مرة ليعود أخاها المريض ، وشوهد جالساً مع أبيها عدة مرات . وكان فؤاد معروفاً بينهم جميعاً بالطيبة والرقة ودماثة الخلق ؛ فلم يجرؤ أحد على الشك في براءة العلاقة بينه وبين نعيمة .

... وسارت الأيام في طريقها وهو موزع القلب بين حبه لها وإشفاقه عليها من عاقبة هذا الحب .

وكان قد مضى عليه ما يقرب من عام في القرية عندما صدر قرار نقله إلى المنصورة !

وشعر بالحزن لفراقها ولكن . . . للقدر أحكامه وسخرياته ...

وجاءت والدموع في عينيها وسألته : «ألن تعود ؟!» وقال لها وهو يكاد يبكي : « الله يفعل ما يشاء يا نعيمة ، من يدري ماذا سيحدث غداً » !! ونظرت إليه نظرة حادة قلقة ، وأحس أن أجابته لم تعد إليها طمأنينتها ، ولكنه لم يجد ما يقوله .. وبعد أيام سافر إلى مقر عمله الجديد .

كانت تفكر فيه وتجلس طويلا أمام نافذتها المطلة على الطريق البعيد المؤدي إلى محطة السكة الحديد ، وتقول لنفسها وهي تبتسم : «سيعود من هذا الطريق ، وسأراه وأعرفه قبل أن يراه أحد» ...!

وتقدم ابن عمها لطلب يدها فرفضت ...

أما حبيبها فكثيراً ما كان يفكر فيها ويشعر بالشوق إليها ، ولا تكاد تمر ليلة دون أن يضع صورها أمامه ، ويطيل التأمل فيها ، ويسأل نفسه : «ترى من سيتزوجها ؟ ليس بين أهل قريتها من هو جدير بها !! » ثم يرفع وجهه نحو السماء ، ويسأل الله أن يمنحها الرجل الذي يستطيع أن يوفر لها السعادة والهناء ...

نصري عطا الله سوسى

المدخل إلى الفلسفة

تأليف أزفولد كولبه

وترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي

يقع هذا الكتاب الذى ظهر بإشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر فى أكثر من أربعمائة صفحة من القطع الكبير . والكتاب حجة فى اللغة الأجنبية ، وقد ترجمه الدكتور عفيفى من الترجمة الإنجليزية حيث كان الأصل بالألمانية ، وهـذا الكتاب يسد فراغاً عظيماً فى الثقافة العربية ، ونحن فى حاجة إلى أكثر من مؤلف ينقل إلى لغتنا لاستكمال ما نشعر به من نقص .

وهناك طرق عدة تعالج بها المسألة الفلسفية ، منها طريقة كولبه ، وهى استعراض المسائل لا التاريخ ، مع قليل أو كثير من النقد ؛ وهى طريقة لا بأس بها ، بل ينصح بها كثير من العلماء ، لأنها تبرز الفكرة فى وضوح وجلاء .

وإنا نشكر الدكتور أبو العلا عفيفى على المجهود الكبير الذى بذله فى ترجمة هذا المؤلف . والذين يعالجون الترجمة ، يقررون أن التأليف أسهل مشقة من النقل ، لأن التأليف يترك صاحبه حراً طليقاً من القيود ، والحرية شرط الإنتاج ، ومبعث اللذة الضرورية لاستمرار العمل . وكثيراً ما يقف المترجم عاجزاً أمام تراكيب أجنبية يعسر نقلها إلى العربية ، وكثيراً ما يبحث الليالى الطويلة عن معنى كلمة .

وقد قرأنا الترجمة فوجدنا الأسلوب واضحاً ، والعبارة سليمة ، والنقل أميناً . وقد ذكر المترجم مع الاعتذار أن فى الكتاب شيئاً من « تركيز وتعقيد وغموض » مرجعه إلى صعوبة الفلسفة ، وتعقيد الأصل . ونحن على العكس من ذلك نرى أن الترجمة بسيطة لا تعقيد فيها ، واضحة خالية من الغموض . وقد قرأت الكتاب كما أقرأ قصة ، ولعل هذا يرجع إلى إلمامى السابق بالفلسفة .

ونقول بعد ذلك إن مما يزيد فى قيمة الكتاب ، القاموس الفلسفى الوارد فى آخره ، أو كما سماه المترجم « ثبت بالمصطلحات » لأننا فى مصر فى أشد الحاجة إلى هـذه المعاجم التى تفتح أبواب العلم لطلابه فى اللغات الأجنبية .

وإذا علمت أن الحكومة قد أنشأت المجمع اللغوى لوضع المصطلحات العربية الصحيحة المرادفة لمثيلاتها فى اللغات الأجنبية ، وأن الحكومة تكلف نفسها اعتماداً مالياً كبيراً ترصده على هذا المجمع اللغوى ، تبين لك مقدار ما للمصطلحات من أهمية .

ولنا بعض اعتراضات على ترجمة بعض المصطلحات ، وهذا لا يغمط بحال ما تقديرنا للمترجم ، ولعله يكون على صواب . وإنا نثبت هذه الألفاظ ونذكر الترجمة التى نرى أنها أليق .

١ — Abstract (ذهنى)

الذهنى نسبة إلى الذهن ، والذهن هنا يقصد به العقل ، نستطيع أن نقول ذهنى أو عقلى ، أى نسبة إلى عملية عقلية . واللفظ الإنجليزى يدور على العملية العقلية المعروفة « بالتجريد » والترجمة الصحيحة « مجرد » . أما ذهنى فإنه يصلح على المجرد من العمليات العقلية جميعها ؛ فالإحساسات ، والمدركات الحسية ، والصور ، والخيال ، والأوهام ، والذكريات ، وغير ذلك من الظواهر العقلية أو النفسية ، يطلق عليها ذهنى . ولا نستطيع أن نقول فى استرجاع ذكرى مضت إنها مجردة ، ولو أننا نقول إنها ذهنية . وهـذه اللفظة الأخيرة هى التى يعبر عنها فى الانجليزية بقولهم (Mental)

٢ — Animal Psychology (سيكولوجيا الحيوان)

لم يذكر المترجم ترجمة هذا الاصطلاح ، وإنما وضعه كما هو في الأجنبية . مع أنه في مكان آخر ذكر « علم النفس التجريبي » ، وفي موضع آخر « علم النفس الاختباري أو التجريبي » وذلك لما يرادفهما في الانجليزية ؛ على أن المترجم قد ترجم سيكولوجيا بعلم النفس . ولكنه عاد فقال سيكولوجيا الشعوب ، وسيكولوجيا الشكات ، وسيكولوجيا الفيد . وليس ما يمنع من النسبة إلى علم النفس ، فنقول علم النفس الحيواني ، والشعبي ، والفردي وهلم جرا . وليس ما يمنع أيضاً أن نتجاوز قليلا فنقول نفسية الحيوان ، ونفسية الشعوب ، ونفسية الفرد ، وبذلك نستغني عن اللفظة الأجنبية .

٣ — Arts of Gesticulation (الفنون التصويرية)

الأصح أن نقول الفنون التعبيرية ، نسبة إلى التعبير ، أو الفنون الإيمائية نسبة إلى إيماء ؛ ذلك لأن لفظ Gest لغة هو التعبير أو الإيماء .

٤ — Coherent (ملتئم) .

تتركب هذه اللفظة من مقطعين Co بمعنى مع ، و haerere بمعنى يلصق . وهذا هو أصل الكلمة في اللاتينية . وفي العربية نقول متماسك أفضل من ملتئم . ويطلق هذا المعنى على الأفكار المتماسكة أي التي بينها ارتباط وثيق . ولفظ التلاؤم يؤدي المعنى أيضا ، ولكنه ليس في قوة التماسك .

(للكلام بقية)

أحمد فؤاد الأهواني



ديوان الشبيبي بمناسبة صدوره :

قصائده وروائعه

مرّ في الروض عرفها فاحتست منـ
ـه زهور طيوبها وورودُه
نغمات تعلّم الطير منها فصداها ما لحّن الغرّيد
صبتها الغصون تكبيرة الفجـ
ـر فهذا ركوعها والسجود
أو حجتها الرياض أغنية العر
س فماست من الغصون القدود
كل أملود سرحة منثنٍ يطّبيه على الهوى أملود
عطرات تنسّمت بشذاها وبداها من الزمان برود
كلما شنّفت بلحنٍ نديٍّ أذن الدهر قال: هذا الخلود
جنّ والفجرُ ، فالضياء عمـودا
ن ، عمود منها ومنهُ عمود
فجيوش الظلام منهزمات تعبر الأفق قائد ومقود
سامها أن ترى السيوف المواضي
صدئاتٍ تضجّ منها الغمود
أمة الفتح والجهاد تعاني
ما يعاني من الخنوع الطريد
وكأن الجمود حلّ ذراها
وترى الموت حيث حلّ الجمود .
وانطوى الفتح لا يُرى منه إلا
ساعدٌ يشتكي القيود وجيد
والصحارى قد هوّمت واستنامت
تستفزّ السيوف وهي هجود
صرخةُ الحق جلجلت فإذا الظلـ
ـم قيام من هولها وقعود
جاهرت لا تخاف تنكيل يوم
عصّ فيه المجاهرين الحديدُ

* * *

جلجلي في السماء والأرض فالعيـ
ـش جهاد مثابر وجهود
وابعثي الشعر لا عليكِ ستبقيـ
ـه لفظ هذي الرُّبى وتلك النجود
أنتِ جيلان من حسان القوافي
فقديم مستملح وجديد
وقديم له جديد طريف وجديد له قديم تليد

بغداد : الكرامة الشرقية عبد الحميد الراضي

رباعيات

الحياة

كأنّ تصاوير الحياة « خيالة »
عليها من الغيب الحقّ « ستارُ »
تكشّفُ للمجدود عن ألق الضحى
فنار . ودنياه ضحىً ونهار
وأسفر للمكدود عن حالك الدجى
غبار ، ودنياه دجى وسرار
فواضحي ! بالجد هذا منعّمٌ .
ووا أسفي ! بالكد ذاك يحار !!!

علي سرور

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٠٦ — الثلاثاء ٢٨ من ذي القعدة سنة ١٣٦١ — ٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

مرحلة التحـــول

للأستاذ محمد عبد الله عنان

حينما بدأ الألمان هجومهم الثاني الكبير على روسيا في أوائل الصيف الماضي ، كانت الأمم المتحدة من الناحية العسكرية في موقف لا يدعو إلى الغبطة ، فقد كانت اليابان بعد انتصاراتها المتوالية في المحيط الهادي تقف على أبواب الهند واستراليا ، وكانت قوات روميل المدرعة بعد انتصارها على الجيش الثامن وزحفها السريع في الصحراء الغربية تقف على أبواب مصر ؛ ولم يتردد بعض النقدة العسكريين يومئذ في التنبؤ بأغرب الاحتمالات . فتحدث بعضهم عن احتمال اكتساح الألمان للقوقاز خلال الصيف والزحف جنوباً إلى آبار الزيت العراقية ، أو غزوهم لتركيا وزحفهم إلى سوريا وفلسطين ، في الوقت الذي يجتاح فيه جيش روميل مصر ؛ أو اتجاه الألمان بعد اختراق القوقاز شرقاً إلى إيران ، في الوقت الذي تجتاح فيه الجيوش اليابانية الهند غرباً لملاقاتهم ، إلى غير ذلك . وكانت هذه الفروض والتكهنات المغرقة تبدو يومئذ في نظر البعض ممكنة معقولة ؛ وكان موقف الأمم المتحدة على العموم يدعو إلى كثير من التوجس من تطورات المستقبل .

وجاءت النتائج التي أسفر عنها الهجوم الألماني في روسيا في البداية تؤيد هذا التوجس ؛ فقد اندفع الألمان بسرعة من خاركوف نحو منحنى الدون ، ثم إلى الفولجا ؛ وانحدروا في الجنوب من روستوف جنوباً إلى ما وراء نوفوروسسك ، كما توغلوا في قلب القوقاز ، واضطر الروس

فى الساحتين إلى التراجع والتخلى عن مساحات كبيرة ومواقع هامة ؛ واستمرت شدة الهجوم الألمانى حتى أواخر أغسطس حينما أشرف الألمان على ستالينجراد الواقعة على الضفة الغربية من منحنى نهر الفولجا ، وكان فقد هذه المدينة الهامة يعتبر ضربة شديدة للروس ، إذ يعرضهم لقطع مواصلاتهم الحيوية عبر الفولجا بين الشمال والجنوب ، ويشطر جيوشهم إلى شطرين ، ويعرضهم إلى كثير من الصعاب الخطيرة ، ويعرقل جهود الحلفاء لتموينهم بالعتاد من الجنوب من طريق إيران وبحر قزوين ؛ وكان هذا ما يرمى إليه الألمان فى الواقع باستيلائهم على مدينة ستالين ، واستطاع الألمان فعلا أن ينفذوا إلى المدينة وأن يستولوا على بعض أحيائها ، ولاح للناس جميعاً أن مصيرها محتوم ، وأن سقوطها مسألة أيام .

ولكن الصيحة ارتفعت قوية فى الجيش الدافع بوجوب إنقاذ ستالينجراد ، وإنقاذ روسيا مما يهددها من الأخطار بفقدها . وما لبثت المعجزة أن حدثت ، كما حدثت فى مثل هذا الوقت من العام الماضى ، حينما استطاع الروس إنقاذ موسكو فى آخر لحظة وفى الوقت الذى اعتقد الألمان فيه أن العاصمة الروسية أصبحت فى قبضة يدهم . وشهدنا فى ساحة ستالينجراد أعجب وأروع المناظر التى وقعت فى هذه الحرب : شهدنا الجيش الألمانى العتيد يهاجم المدينة الباسلة أياما فأسابيع متوالية ، ويطوقها من الغرب تطويقاً تاما ، ويسلط عليها أدواته المدمرة من الأرض والسماء بعنف لم يسمع به ، ويرسل إليها صفوة قواته الاحتياطية فوجا بعد فوج ، والروس يصمدون لهذه القوى الجبارة كما تصمد الجبال الرواسى ، تشد أزرهم الأمداد المتواصلة من ضفة النهر الشرقية ، وينازعون الغزاة كل شبر من الأرض ، ويقلبون كل حى وكل شارع وكل منزل فى المدينة إلى ساحة حرب محلية . وهكذا استمر هذا النضال المدهش منذ سبتمبر ، وعجزت جيوش الريخ الظافرة التى اجتاحت فرنسا فى أسبوعين ، والتى كانت تتقدم فى العام الماضى فى قلب روسيا على جبهة طولها ألفا ميل ، عن الاستيلاء على مدينة واحدة ، وانتهى هجومها الصيفى بالفشل سواء فى الساحة الوسطى أو فى القوقاز .

— ٢ —

ولا ريب أن معارك ستالينجراد كانت نقطة تحول خطير فى سير الحرب ؛ فقد أضاع الألمان فى خوضها وقتاً ثميناً حتى دخل الشتاء ؛ وأصيبوا خلالها بخسائر فادحة ، فضلا عما أحدثته من صدع خطير لسمعتهم العسكرية ، وما أحدثته فى نفسية الشعب الألمانى من المرارة وخيبة الأمل .

وقد استطاعت بريطانيا وأمريكا خلال هذه الفسحة الثمينة من الوقت أن تدبرا ضربتهما الجريئة المزدوجة فى شمال إفريقية ؛ فقام الجيش الثامن بهجومه الموفق فى منطقة العلمين وأنزل بقوات روميل هزيمة شديدة ، ورد الغزاة للمرة الثالثة إلى أعماق برقة ، وأنقذت مصر بذلك من خطر الغزو المروع الذى لبث محلقاً على رأسها منذ أواخر يونيه الماضى .

وقامت القوات الأمريكية والإنكليزية فى نفس الوقت باحتلال شمال إفريقية الفرنسى ، واستطاعت بسرعة مدهشة أن تسيطر على شواطئ مراكش الغربية ، وشاطئ الجزائر كله ، وأن تحتل جميع الثغور والنقط العسكرية فى تلك المنطقة ، وانتهى الأمر بأن انضمت السلطات والقوات الفرنسية فى شمال إفريقية وفى غربها إلى الجيوش المتحدة تعمل معها فى تفاهم تام .

وهكذا استحال حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى إلى ساحة قتال جديدة ، بعد أن كان النضال مقتصراً على حوضه الشرقى . ونحن نعرف ما اتخذته القيادة

الألمانية من خطوات سريعة لمواجهة هذا الموقف الجديد ؛ فقد سارعت إلى احتلال باقي فرنسا ، واستطاعت أن تسبق الحلفاء إلى احتلال ثغرى بنزرت وتونس ، وأن تحشد في هذا الركن قوة ذات شأن . كما بادرت باحتلال ثغر قابس وجنوبي شرق تونس ؛ بيد أنها منيت بالفشل في محاولتها الاستيلاء على الأسطول الفرنسي الراسي في طولون ، ولو أتيح للألمان أن يضموا يدهم على هذا الأسطول الضخم لنشأت حالة خطيرة بالنسبة للحلفاء في غربي البحر الأبيض المتوسط .

— ٣ —

ومن الواضح بعد هذه التطورات كلها أن مرحلة التفوق الألماني في الحرب قد انتهت ، وأنه قد وجدت بين الفريقين المتحاربين على الأقل حالة توازن بين القوى والفرص لم تتح للحلفاء من قبل .

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن كفة الحلفاء قد أخذت بدورها ترجح كفة المحور ؛ وإذا كان الوقت لم يحن بعد للتحدث عن فرص النصر النهائي بالنسبة لهذا الفريق أو ذاك ، فإن هناك كثيراً من الدلائل المشجعة بالنسبة لموقف الحلفاء ؛ ويمكن أن نلخص هذه الدلائل فيما يلي :

أولا — في الميدان الروسي ، حيث خبت قوة الهجوم الألماني بشكل ظاهر ، وبدأ هجوم الشتاء الروسي مبكرا وبشدة يلوح معها أن الجيوش الروسية قد توفق هذه المرة إلى إحراز نتائج هامة . وقد جنى الروس بالفعل ثمار هجومهم الأول ، فاستطاعوا تحطيم حصار ستالينجراد وتطويق الجيش الألماني المحاصر لها ، والاستيلاء على عدة مدن هامة في منحنى نهر الدون ؛ وأحرزوا عدة انتصارات في الساحة الوسطى .

ثانياً — في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ ففي هذا الميدان الهام الذي تطورت فيه الحوادث بسرعة ، يعاني الألمان مصاعب جمة سواء في لوبيا حيث يشدد الجيش الثامن الضغط على قوات روميل ؛ أو في تونس حيث تدور الآن بين الفريقين معارك عنيفة ؛ ومن المحقق أن القوات الإنكليزية الزاحفة على تونس وبنزرت ستلقى من الألمان مقاومة شديدة ، ولكن المزايا التي تتمتع بها القوات المتحالفة من حيث التموين والمواصلات والقواعد الجوية تجعلهم في مركز أفضل من مركز الألمان . ومتى استطاع الحلفاء تحقيق مشروعهم في القضاء على مقاومة الألمان في شمال إفريقية ، فإنهم يحرزون بسيطرتهم على حوض البحر الأبيض الجنوبي مزايا عسكرية وبحرية في منتهى الأهمية ؛ ويصبحون في مركز يستطيعون منه تهديد إيطاليا تهديداً خطيراً .

ثالثاً — أن التطورات الفجائية التي وقعت في إفريقية أرغمت الألمان على حشد وحدات جديدة من قواتهم البرية والجوية في جهات من حوض البحر الأبيض المتوسط ، كانت من قبل تعتبر في مأمن من هجوم الحلفاء ، مثل اليونان وإيطاليا وصقلية وسردانية وتونس وفرنسا غير المحتلة ؛ وبذلك اضطرت ألمانيا إلى توزيع جانب من قواتها في الوقت الذي يشتد فيه هجوم الروس على الجيوش الألمانية في سائر الميادين ؛ ومن شأن هذا التوزيع أن يضعف من مقدرة الألمان الهجومية والدفاعية معاً .

رابعاً — أن موقف الحلفاء في المحيط الهادي قد تحسن تحسناً ظاهراً ، بعد استردادهم لمعظم جزر سليمان ، وتفوقهم البحري والبري على اليابانيين في منطقة غنيا الجديدة ، وإبعادهم بذلك خطر الغزو عن استراليا وزيلندة الجديدة .

فهذه العوامل والظروف كلها تحمل على الاعتقاد بأن الأمم المتحدة — أعني بريطانيا العظمى وحلفائها — قد أصبحت

اليوم في مراكز أفضل بكثير مما كانت عليه قبل التطورات الأخيرة في إفريقية وروسيا . وليس من شك في أن ألمانيا ما زالت تتحكم في قوى وموارد هائلة ، ومن الخطأ أن نعتقد أنها تسير إلى الهزيمة بخطى سريعة ؛ ولكن ليس من شك أيضاً في أن ألمانيا تواجه الآن ظروفاً واحتمالات عصيبة لم يسبق أن واجهتها من قبل . فهناك فضلاً عن تفاقم الظروف العسكرية ، احتمال انهيار إيطاليا فجأة وانسلاخها عن المحور ، وهو احتمال يلوح اليوم قوياً في الأفق ؛ وهناك احتمال وقوع تصدع في الجبهة الداخلية في ألمانيا ذاتها ، متى حدثت هزائم عسكرية أخرى في روسيا أو غيرها .

وفي اعتقادنا أن حوادث الأسابيع القلائل المقبلة في إفريقية وروسيا سوف تزيد موقف الفريقين المتحاربين وضوحاً من حيث التعادل أو التفوق في القوى والمقدرة على الهجوم أو الدفاع ؛ ومن الواضح أن مصاير الحرب تتوقف على تطور المعارك في هاتين الساحتين .

محمد عبد الله عنان

رجعة :

سنابل القمح

سنابلُ القمح ماجَتْ   كما تموج البحارْ
هبَّ النسيمُ عليها   أعنده أخبارْ ؟
كما تميل الغواني   مالتْ فما لي اصطبارْ !
قدْ ذكّرتني حبيبي   فهزّني التذكارْ !
فقل لها لا تميلي   ففي الجوانح نارْ
هل للسنابل قلبٌ   أم أنها لا تغارْ ؟
سنابلُ القمح تبدو   كأنهنَّ نضارْ

* * *

جنْبَ الغدير وقفنا   فغنّت الأطيارْ
وأرغُنُ الشدْوِ غنّى   وغرّدَ المزمارْ
والأورق المتراخي   يقوده التيّارْ
إلى ديار حبيبي   يجري ! فأين القرارْ ؟
بالشطّ في الظل يرسو   فتعبق الأزهارْ
ويَنتشِي بالقلاقي   فتخشعَ الأبصارْ !!!

* * *

سنابلَ القمح ماذا   أهزّكِ التذكارْ ؟!!
أم قد جفاكِ حبيبٌ   فهاجَكِ استعبارْ ؟!
أهاجكِ الشوق مثلي   أمْ ذلكِ الإعصارْ ؟!
على أديمكِ موْجٌ   أفي قراركِ نارْ ؟
تَوفِي عليكِ قريباً   بقفكِ المنشار !!!
وكلّ شيء سيفنَى   فلترحم الأقدارْ !

محمد السنوسي مطر

بقايا الفصاح

للأستاذ شفيق جبرى

أرجع إلى موضوع تصديت له فى هذه المجلة من زمن غير بعيد[1] وقد ذكرتنى إياه زيارة زرتها من شهور للجامعة العبرية فى القدس . فقد زرت المكتبة فى هذه الجامعة ، فأرانى بعض أساتيذها عملا من أجل الأعمال ، فقد هيأوا فى القسم الشرقى من هذه الجامعة دفاتر دونوا فيها ألفاظ اللغة العربية على حسب تأريخها . إنك تطلب مثلا أن تعرف متى استعملت لفظة الثوب ، ومن هو أول من استعملها ، فتطالع الدفتر المختص بلفظة الثوب ، فتجد أنها استعملت فى العصر الجاهلى ، استعملها فلان وفلان ، ثم استعملت فى العصر الإسلامى ، استعملها فلان وفلان ، ثم استعملت فى العصر الأموى ، استعملها فلان وفلان ، إلى آخر عصور استعمالها .

وعلى هذا النحو من الترتيب نستطيع أن نعرف أطوار لغتنا المعرفة المتكاملة ، فمتى تم هذا العمل الدقيق فإنا نستطيع أن نعرف أطوار الألفاظ ، ميلادها ونشأتها وموتها أو بقاءها . كيف كان معنى لفظة من اللفظات فى أول ميلادها ؟ وهل حافظت على أصل معناها فى خلال نشأتها ؟ وهل ماتت هذه اللفظة أم عاشت ؟ وفى أى عصر كان موتها أو بقاؤها ؟ ثم نستطيع أن نعرف أطوار المعانى التى تقلبت فيها اللفظة ؛ فنستطيع أن نعرف أن أصل معنى الكفر فى اللغة كذا وكذا ... ثم جاء الإسلام فتحولت هذه اللفظة عن أصل معناها ودخلت فى معنى آخر جعله لها الإسلام ؛ ثم نستطيع أن نعرف أن اللفظة الفلانية لم تكن فى الجاهلية ولا فى الإسلام ولا فى عصر بنى أمية وإنما ولدت فى عصر بنى العباس ، وعاشت مع العباسيين ، ثم ذهبت دولتهم فذهبت هذه اللفظة بذهابها .

ولو شئت أن أفصل فوائد هذا الباب لامتد بى نفس الكلام ، ولست أعرف فى اللغة بحثاً جمع من اللذة ما جمعه نظير هذا البحث . فمتى استطعنا أن ندون ميلاد الألفاظ ونشأتها وموتها أو بقاءها فى كتاب أو فى كتب فإنا نستطيع أن نشهد ميلاد فكر العرب وشعورهم وعاطفتهم ، كما نستطيع أن نشهد الأطوار التى دخل فيها هذا الفكر وهذا الشعور وهذه العاطفة .

بعد هذه المقدمة الوجيزة أدخل فى موضوع مقالى ، وهو جزء من أجزاء معرفة أطوار اللغة ، وقد كنت أتيت فى مقام متقدم على ذكر طائفة من التراكيب الفصيحة التى استعملت من ألف سنة ولا تزال فى عصرنا هذا شائعة فى العامة فى دمشق . وأذكر الآن فى مقالى هذا ما اهتديت إليه حديثاً من نظائر هذه التراكيب ، وقد يكون عملى لا شيء إلى جنب العمل الذى أشرت إليه فى صدر هذا المقال ؛ ولكن إذا تفرغ كل واحد منا لجمع ما يعثر عليه فى لغة العامة من مفردات أو تراكيب أصلها فصيح ، ثم استطاع أن يردها إلى أصلها ، فإنى أعتقد أننا بعد جملة من هذه الأعمال يتيسر للقائمين على معرفة أطوار اللغة سبيلهم ، ويخفف عنهم بعض العناء .

وقد تكون لغة التراكيب الفصيحة الشائعة فى العامة لغة شعرية ، فهى لا تخلو من باب من أبواب البديع ، كالاستعارة أو الكناية أو التشبيه أو غير ذلك ، مما يدل على أن العامة تميل إلى اللغة الشعرية ، أى إلى الصور فى ألفاظها ، من غير أن تشعر بذلك ، وقد تكون هذه التراكيب خالية من أبواب البديع ، فهى مستعملة على حقائقها ليس فيها شيء من المجاز .

من قول العامة فى دمشق : «عينك عليه» وهم يريدون

بذلك الاستعطاف على رجل من الرجال ؛ وقد يقولون : عينك عليه ، وهم يريدون مراقبة الرجل .

وفى نشوار المحاضرة للقاضى التنوخى : ثم دخل وعينى عليه ، فضرب يده إلى قبر فى القبة ليحفر ... فمعنى عينى عليه فى هذا المقام المراقبة لا الاستعطاف ، وهو من المعانى التى تستعملها العامة .

ومن قولهم : « كأنى أحكى مع الحيطان » ، أى أن الذى أحدثه لا يصغى إلىّ أو لا يفهم ما أقول ؛ والتشبيه بالحيطان فى هذا الوضع من أبلغ التشبيهات .

وقد ذكر صاحب الأغانى فى كلامه على أخبار حنين الحيرى ونسبه حكاية طريفة حكاها حنين فى أثناء خروجه إلى حمص والتماسه الكسب بها ، فقد قال حنين وهو يصف أهل حمص : « فابتدأت فى هنات أبى عبّاد معبد ، فكأنما غنّيت للحيطان ، لا فكهوا لغنائى ولا سروا به . »

ومن التراكيب الفصيحة الشائعة فى العامة : « اغسل يدك منه » ، وهم يريدون بذلك قطع الأمل من فلان أو من أمر من الأمور .

أتى أبو دلامة العباس بن محمد فى عشر الأضحى يتنجزها فقال العباس : « يا أبا دلامة ! أليس قد مات ابنك ؟ قال : بلى ! قال : اقصوه دينارين . قال : أصلح الله الأمير ، لا تفعل ، فإنه ترك علىّ ولدين ! فأبى إلا أن ينقصه . فخرج أبو دلامة وهو يقول :

أخطاك ما كنت ترجوه وتأمله
فاغسل يديك من العباس باليأس
واغسل يديك بأشنان فأنقهما
مما تؤمل من معروف عباس

هذه الحكاية نجدها فى الأغانى فى كلام صاحبه على أخبار أبى دلامة ونسبه .

ومن قول العامة فى دمشق : « لا يجمعنا سقف » ، وهم يريدون بذلك غاية التباعد والتقاطع ، وقد ورد فى شعر عمر ابن أبى ربيعة هذا التركيب نفسه :

ليشهد الرحمن لا يجمعنا
سقف بيت رجباً بعد رجب

إلا أن قول العامة أوجز وأخف ، فقد استغنوا عن كل حشو .

ومن قولهم : « الله لا يخليني إذا خليته يمشى على الأرض » فإذا وقع بين الرجلين شىء من النزاع ، وعزم أحدهما على قتل الآخر قال هذا القول ، وهو غاية فى التهديد .

وفى كلام ابن هشام على إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ...

فاللفظ والمعنى فى التركيبين الفصيح والعامى واحد لا تباعد بينهما .

ومن التراكيب الفصيحة الشائعة فى العامة قولهم : « انتظر حتى تهدأ الرِّجْل » وهم يريدون بذلك خفّة الازدحام

وقد ورد فى الأغانى فى كلام صاحبه على عدى بن زيد ونسبه وقصته ومقتله ما يلى : وقال لعدى : ائتنى الليلة إذا هدأت الرجل لتعلم حالى ...

إلا أن العامة تستعمل الرجل بكسر الراء معتقدة أنها ضد اليد ، وأظن أن الرجل فى هذا التركيب الفصيح جمع الراجل وهو غير الفارس ، وعلى هذا تفتح الراء ولا تكسر ، فالمعنى حتى يهدأ الناس الماشون على أقدامهم أى حتى تخف الرجة .

ومن قولهم فى دمشق : « شفت الهلال على وجهه » وهم لا يريدون بهذا القول شيئاً من الغزل ، وإنما يريد قائل هذا القول : أول شىء رأيته عند طلوع الهلال وجه فلان .

فمن قول عبد الله بن محمد الأمين فى المعتصد :

رأيت الهلال على وجهكا
فما زلت أدعو إلهى لكا

فالمعنيان فى التركيبين واحد ، إلا أن العامة استعملت مادة : شاف ، وفى اللغة : شفته ، معناها : جلوته .

ومن التراكيب الفصيحة قولهم : « هجم الشتاء » وهم يريدون بذلك مفاجأته للناس .

وقد ورد فى الأغانى فى حكاية حكاها أبو الفرج عن إسحق بن إبراهيم ما يلى : فلما أصبحتُ ، أرسل إلىّ أبى ، فقال : يا بنى ، هذا الشتاء قد هجم عليك ، وأنت تحتاج فيه إلى معونة ...

ومن هذه التراكيب قولهم : « كل كلام وله جواب » .

قال جميل :

وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله
لكل كلام يا بثين جواب

وتقول العامة فى دمشق : « مر على رأسه شىء كثير » ، وهم يريدون بذلك تصوير الرجل المجرب ، المحنك ، الذى مارس الأيام ومارسته .

وقد جاء فى الأغانى فى كلام أبى الفرج على هلال ونسبه ما يلى : وعمر هلال بن أسعر عمراً طويلا ، ومات بعد بلايا عظام مرت على رأسه ...

لا يتسع المجال فى هذا المقال لذكر أكثر مما ذكرت من التراكيب الفصيحة الشائعة فى العامة فى دمشق ، فهل نستطيع أن نعرف جملة من أمثال هذه التراكيب الشائعة فى العامة فى مصر ؟

(دمشق) شفيق جبرى

بعض مناهج الدراسة الأدبية

— ٢ —

من أطرف القصص وأكثرها إمتاعاً قصة تطور النقد الأدبي خلال العصور ، فمنذ أن نشأ الأدب نشأ معه التذوق الذي لم يلبث أن أصبح نقداً ، ثم نما الأدب ونقده معاً يؤثر كل واحد منهما في صاحبه ، ويستمد منه مظاهر القوة أو الضعف ، والحياة أو الجمود . ولعل أول أساس اعتمد عليه النقد هو تتبع صفات الآثار الأدبية التي اشتهرت بين الجماعات ، فلهجوا بها واستجادوها وأكبروا أصحابها ؛ ثم تطلع الذهن الإنساني — طوعاً لفطرته التي فطر عليها — إلى تحليل هذه الصفات وجمعها تحت أصول وقواعد عامة . وإذ تيسرت له طائفة من تلك الأصول واطمأن إليها ، أخذ يطبقها مرة أخرى على ما تبدعه قرائح الأدباء من كتاب وشعراء . وكلما اصطبغت ثقافته أو معارفه أو حياته أو فلسفته بصبغة خاصة تلون معها اتجاهه في النقد ؛ فهو مرة « كلاسيكي » تقليدي يرى البراعة جريان الكلام على منهج القدماء ، وآناً ابتداعي عاطفي يعجبه من البيان ما تغنى بجمال الطبيعة ونوازع النفوس . وقد تلقاه حيناً معجباً بصياغة المعاني العميقة والكشف عن الدفين منها ، وحيناً تلقاه يعشق السهولة وسلاسة الكلام أنى وجدها ، وربما استهوته الألفاظ وزخرفها عصراً من العصور ، ثم جذبته المعاني وأسرارها في العصر الذي يليه . ولقد يأتي عليه حين من الدهر وجل همه الأثر الأدبي في نواحي تصويره ولغته وعباراته ؛ ثم يتغير اتجاه معارفه حيناً آخر ، فيتغير هدف نقده ، فيدرس الأثر الأدبي في صلته بمنشئه ، أو تكيفه ببيئته ، أو تأثيره في جمهوره ، أو تصويره لنواحي الاجتماع في عصره . وربما وجدت خليطاً من هذه النزعات المختلفة معاً في عصر واحد ، وفي بلد واحد ، يتنازع ويحترب ، وكلٌّ يدعي وصلا بليلى !

هذا التباين في مناهج الدراسة الأدبية ، والتنوع في مذاهبها ، قد يضايق الباحث المتعجل ، حتى ليفقد صبر صاحبنا على هذه الفوضى الضاربة بأطنابها على ميدان النقد — كما يظن — فيبحث عن أيسر المخارج وأبعدها من الجهد والمشقة ، فلا يلبث أن يتعلق بأذيال مذهب من هذه المذاهب يعتنقه ، ويشرع قلمه للدفاع عنه ، ويشن على كل ما خالفه حرباً خاطفة !

ولكن الباحث الحق يجد لكل نزعة من هذه النزعات مكانها في التفكير الإنساني خلال العصور ؛ فالطبيعة الإنسانية متنوعة النواحي والنوازع ، وهي عرضة لأن تختلف فيها آثار العوامل المختلفة ، واتجاهات الحضارة بوجه عام . لهذا كان من واجب دارس الأدب ألا يتعجل في تكوين فلسفة خاصة في فهم الأدب تسد عليه مسالك التفكير ، وتصرفه عما قد يكون في الاتجاهات الأخرى من هدى وصواب ؛ بل يجمل به — بعد طول العكوف على دراسة الآثار الأدبية طبعاً — أن يوسع أفق ثقافته بدراسة مذاهب كبار النقاد ، لا في أدبه فحسب ، بل في بعض الآداب الأخرى أيضاً ، وأن يصطنع في دراسته الروية والأناة ، ويقاوم ما قد يكون عنده من نزوع إلى سرعة القضاء ، وإلقاء الأحكام دون حساب

هكذا يجب أن يكون شأن طالب العلم يدرس التجديد كما يدرس المحافظة ، ويعنى بالحركات الرجعية كما يعنى بالثورية ، ويدرس الناقد المتأثر بالفلسفة أو الدين أو التاريخ كما يدرس الناقد الذوقي أو الفني أو السيكولوجي ... الخ . وليس له من أداء هذا الواجب بد ، ما دام قد اتخذ العلم هدفه والحقيقة رائدة . ولكن عليه واجباً آخر لنفسه ، إذا آنس في طبيعته استعداداً للنقد ، وأراد أن ينمي هذا الاستعداد حتى يؤتي ثمرته ؛ ذلك الواجب هو التزود بنصيب

صالح من المعارف الإنسانية التي تمس الأدب من قرب ، ولا سيما إذا بلغت تلك المعارف درجة ظاهرة من التنظيم والتحديد ترفعها إلى صف العلوم ؛ ولا شك أن اتساع ثقافة الناقد يكشف له منابع جديدة من أسرار الفن ، ويعده بمفاتيح أخرى لكنوز الجمال ؛ وأظهر ما يكون ذلك في عصر كعصرنا الحاضر بلغ فيه التخصص العلمي درجة واضحة ، وعكفت فيه طوائف الباحثين على النواحي المختلفة من حياة الإنسان تلاحظها وتدرسها ، بل تجرى عليها ضروب التجاريب . وقد أشار إلى هذا المعنى الكاتب الإنجليزي (إليوت) في مقاله « التجربة في النقد » ، إذ بين اتساع النواحي التي يطرقها الناقد الأدبي الآن ، وضرورة إلمامه بفروع من الدراسات تمس جوانب النقد وتعالج بعض معضلاته ؛ يقول : « والناقد الحديث — إلى جانب إلمامه بالتصورات الجارية التي يشاركه فيها المتعلمون وأنصاف المتعلمين — يضم معرفة ما بمجموعة من العلوم ، وهو يعرفها لا ليؤدى عملها ، ولكن ليتعاون وإياها ، وليعرف حدود ميدانه » . وقد ضرب الكاتب لهذا أمثلة من الناقدين الأوربيين المشهورين من أمثال « أرنولد » و « سانت بوف » ، وبيّن كيف كانوا مثالاً لهذه الثقافة الجامعة ، ثم نقل عن بعضهم رأيه في أننا « إذا استثنينا من النقد الأدبي كل ما لم يكن أدبياً محضاً لم يبق هناك شيء يتحدث عنه إلا القليل ، لا بل لا يبقى هناك حتى التذوق الأدبي ، وهذا يصدق على فهمنا المؤلفين القدماء ، ولكنه يصدق أكثر على فهمنا المؤلفين المحدثين . إن هذا الاتساع في الميدان قد فرضه المؤلف الحديث على الناقد الحديث ، وإن هناك مؤلفين لن نستطيع أن نكتب عنهم نقداً أدبياً صرفاً ، وإذا فعلنا كان ذلك شيئاً ناقصاً كل النقص .

***

وبعد فلعل هناك إجماعاً — أو شبه إجماع — على أن الهدف الأول للناقد الأدبي هو تعرف مواطن الجمال في الأدب ، وتبين خصائصه الفنية ، وستجيء الشواهد على هذا فيما سنعرضه من نماذج الدراسة الأدبية في القديم والحديث ، ولكننا سنكتفي هنا بإشارات عابرة إلى نواح جمالية فنية في بعض المؤلفات النقدية المعروفة ؛ ارجع إلى الفصول التي عقدها « الباقلاني » في « كيفية الوقوف على إعجاز القرآن » ، تجده في تحليله لبعض شعر امرئ القيس والبحتري يستعمل من قاموس الجمال ألفاظاً وتراكيب أصبحت ميراثاً مشتركاً بين نقاد الأدب العربي في عصوره المختلفة ؛ استمع إليه إذ يتكلم عن لامية « البحتري » :

أهلاً بذلكم الخيال المقبل فعَلَ الذي نهواه أم لم يفعل
برقٌ سرى من بطن وَجْرةَ فاهتدت بسَناه أعناقُ الركاب الضُّلَّل

فيعترض على البيت الأول من ناحيته الذوقية ، ولكنه يصف البيت الثاني بأنه « عظيم الموقع في البهجة ، بديع المأخذ حسن الرواء ، أنيق المنظر والمسمع ، يملأ القلب والفهم ، ويفرح الخاطر ، وتسرى بشاشته في العروق ، وكان البحتري يسمى نحو هذه الأبيات عروق الذهب » . ثم انظر إلى « عبد القاهر » في « أسرار البلاغة » إذ يطرق ناحية البناء الفني فيقول : « ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها الاغتراب ، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين ، وأملأ بالزين ، منها إذا أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر » ؛ وإذ يقول في حساسية الذوق : « وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحى طبع الشعر وخفىّ حركته التي هي كالخلس ، وكمسرى النفس في النفس » . ثم أصغ إلى طه حسين في حديث الأربعاء إذ يدلي برأيه في موضوع

الوحدة الفنية فى القصيدة العربية فيقول : « وما سمعت من خصوم الشعر القديم حديثهم عن وحدة القصيدة عند المحدثين وتفككها عند القدماء، إلا ضحكت وأغرقت فى الضحك ، والعجيب أن تنشأ الأساطير فى العصر الحديث ، وأن تنمو ويعظم أمرها وتسيطر على العقول ، مع أن عهد الأساطير قد انقضى ، وأصبح العقل الحديث أذكى وأرق وأدنى إلى الحذر والفطنة من أن يذعن لها أو ينخدع بها . وتفكك القصيدة العربية ، واقتصار وحدتها على الوزن والقافية دون المعنى أسطورة يا سيدى من هذه الأساطير التى أنشأها الافتتان بالأدب الأوربى الحديث ، والقصور عن تذوق الأدب العربى القديم ... ولست أريد أن أجهد فى التدليل على أن الشعر العربى القديم كثيره من الشعر قد استوفى حظه من هذه الوحدة المعنوية ، وجاءت القصيدة من قصائده ملتئمة الأجزاء ، قد نسقت أحسن تنسيق وأجله ، وأشده ملاءمة للموسيقى ، التى تجمع بين جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية ... » ؛ ثم خذ مثلا آخر من العقاد فى كتابه عن ابن الرومى إذ يقول : « غير أن المزية التى لا غنى عنها والتى لا يكون الشاعر شاعراً إلا بنصيب منها هى مزية واحدة ، أو هى مزية نستطيع أن نسميها باسم واحد : وتلك هى الطبيعة الفنية » .

ألست معى فى أن من أول ما يجب أن يتزوده الناقد أن يكوّن فكرة واضحة عن الجمال ما هو ، وما صفاته وعناصره ؛ وهل هو موضوعى تمكن مشاهدته وقياسه والاتفاق عليه ، أم هو ذاتى يختلف حسب مزاج سامعه أو رائيه ؟ ثم ما الرشاقة والطلاوة والرونق والانسجام وإشراق الديباجة وما إليها ! أليس من ألزم ما يلزم للناقد أن يكوّن فكرة واضحة عن الفن ما هو ، وما أنواع النشاط التى تدخل تحته ، وما وحدة العمل الفنى ؟ ثم ما الطبيعة الفنية ، وما الفن الجميل ، وما منابعه من طبيعة الإنسان ، وما وظيفته فى الحياة ! أهى أن يزيد مقدار اللذة والسعادة فيها ، أم هى أن يبحث عن الجمال ويعرضه عرضاً جميلا ، أم أن له وظيفة أسمى من عرض الجمال أو إنتاج اللذة ، وأن عليه دوراً يلعبه فى تهذيب بنى الإنسان ، وتقوية عاطفة الأخوة الإنسانية ؛ أم أن غايته تصوير الأشياء تصويراً مثالياً متخيلا كما يحبها الفنان أن تكون ؟

تلك وأشباهها أسئلة من واد من المعرفة خاص — هو وادى الذوق أو الجمال — له رجاله الذين تخصصوا فيه ، وله دراساته النظرية والتجريبية . ولست أدرى كيف يجرؤ ناقد لم يواجه هذه الأسئلة مواجهة جادة ، ولم يكوّن لنفسه فيها رأياً يرضاه ويستطيع تبريره ، على أن يلبس بين الناس مسوح الحكم ، ويهجم على الآثار الأدبية فيقضى على هذا بالجمال ، وعلى ذاك بضده ، ويفضل شاعراً على شاعر وأديباً على أديب !

« للكلام بقية » **محمد خلف الله**

الحياة صــــادقة !

[إلى الأساتذة الأجلاء الذين شهدوا ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر في مساء الخميس ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٤٢]

هل تافه وحقير هذا العالم المادي الذي نراه ونعيش بمنطقه وقوانينه الطبيعية بأجسامنا العجيبة حتى لا نحتكم إليه بل نرفض أحكامه ونفر للخلاص منه ونبحث عما وراءه من عالم الغيوب ؟

هل يئسنا من صدق علم الأجسام وكمائه وقوانينه فينبغي ألا نعتمد عليه في بناء نظرياتنا عن الحياة وعن الله ، وفي الملاءمة بين ما فيه وما في أفكارنا وأحلامنا من عالم الجمال والمثل العليا ؟

هل قليل أن يفعل الإنسان في الأرض ما فعل ، ويفهم ما أفهمه في عالم المادة والحركة والقوة والفن ، حتى لا تتضح بعض الغايات العليا من خلق الإنسان ووضعه في الأرض ، وحتى يحتقر الحياة المادية بعض المفكرين ويضيقوا بها ذرعاً ، ويحاولوا الفرار من وجهها ويسفهوا الأحكام التي انتزعها العقل منها ، ويبحثوا عن غيرها قبل إتمام البحث عن آياتها وشئونها هي أولاً ، وقبل الفراغ من فهم اتجاهاتها الكلية على الأقل ؟

إذاً لماذا كان إخراجهم إلى الأرض في قوالب هذه الأجسام التي أعدت إعداداً خاصاً لتلقي تأثيرات المواد والقوى والانفعال بها والفعل فيها واستخلاص الأحكام العامة منها ؟

ولماذا لم يخرجنا واهب الحياة إخراجاً غير هذا الإخراج بهذه الأجسام ما دامت لا تكفي في البحث عن صفاته واليقين به ، وإدراك بعض ما أراد أن ندركه مما عنده ، حتى يلجأ بعض الناس إلى الانسلاخ من الأجسام بكبت نوازعها الحسية وتعطيل شهواتها الغريزية ؟

ثم ماذا يريدون أن يدركوا من الله بعد صفاته التي أدركوها من آثار صنعه في الطبيعة ؟

أيريدون أن يروه أو يلمسوه أو يعرفوا كنه تكوينه ؟ ذاك ضلال عقلي مبين قبل أن يكون ضلالاً دينياً مبيناً ... لأن العقل الذي استفادوه من الطبيعة يحكم بأن المحدود لا يجوز أن يستوعب غير المحدود . ولأن الدين المأثور نهاهم عن هذا الطلب حين قال : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » ، « لا تدركه الأبصار » « إن الله احتجب من الأنظار ، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه » .

ثم لماذا لا يوجهون تفكيرهم إلى المصنوعات وأسرارها حتى يفرغوا منها فيبحثوا عن غيرها مما استتر واستكن ؟ هل يكتفون بإلقاء نظرات خاطفة على سطوح الأشياء وأشكالها ثم يسأمون النظر إليها ويطلبون رؤية غيرها ؟ هل يستعجلون نهاية الدنيا بينما لم يدرك أكثرهم منها مشاهد مكانهم الذي ولدوا فيه ؟ وهل يكفي ليقال : إنك رأيت الحياة وذقتها أن ترى بلدك وحده أو وطنك وحده أو جنسك وحده أو قارتك وحدها ، كما يفعل الذين يرسلون خواطر السأم والسخط على الحياة لأنهم لم يسيروا في الأرض ويشاهدوا معروضات الله من ناسها وحيوانها وجبالها وأنهارها وبحارها وصحاريها وأجوائها ، بل حبسوا أنفسهم في الأديرة والتكايا والزوايا حتى ركدت الحياة في قلوبهم فعفنت وامتلأت بالخواطر السوداء والأذواق المريضة ، وحتى تراءت الدنيا على رحبها في نظرهم ضيقة محدودة مملة لا تأتي إليهم بجديد يثير تطلعهم وانتباههم وتعجبهم ، ويطرد خواطرهم السوداء الدائرة حول مطلب واحد لن ينالوه ما داموا في ذلك القفص المادي ، الذي وضعوا فيه ليعرفوه بالذات قبل غيره ، وليتدرجوا من معرفته إلى معرفة ما وراءه .

إن الله فنان بديع ، ما أخرج إلى الحياة زهرة جميلة

أو شوكة قيثة، أو أصباغ شفق، أو نغمة عشق، أو تنفس صباح، أو سجوة مساء، أو ضحوة نهار، أو وهج ظهيرة، أو طفل أصيل، أو رقرقة غدير، أو شموخ جبل، أو عباب بحر، أو اختلاف أجناس الإنسان والحيوان والنبات، إلا وقد أراد أن نقلّب فيها حواسنا وأفكارنا وأن نأخذ منها أذواقنا، ونهيج بها أطرابنا وأشواقنا، وندرك منها أسراره فيها وأسرارنا!

فمن أغلق حواسه وأفكاره عنها فقد استحق سخط ذلك الصانع البديع الغيور على ما صنع، الحريص على ألا تضيع غاياته من مصنوعاته.

فما أبر أولئك الذين نسميهم «ماديين» حين يقصر أحدهم حياته كلها على دراسة حشرة واحدة أو خصائص معدن واحد أو ظاهرة طبيعية واحدة، ثم يرفع نتائج بحثه إلى واهب الحياة وإلى الإنسانية فيضيف إلى ثروة علمها أو مهارة عملها شيئاً يوسع مداركها، أو يخفف مشقاتها في الأرض التي اختارها الله داراً لها!

* * *

ليس من المعقول أن يكون الإنسان مخلوقاً ليستمر بعيداً عن طريق الكلام والأوراد والأذكار وحدها، على أسلوب الصوفية المنقطعين والرهبان والفلاسفة القوليين، بدون أن يعمل في الأرض أعمالاً تظهر أسراراً من أسرار التكوين والعمران والتنويع في العالم المادى الزاخر بالمواد الخامة التي تنتظر الصنعة وتطيع إرادة الإنسان.

وكل المطلوب في الفلسفة النظرية هو علم العقائد الفطرية البسيطة، وعلم أصول الأخلاق واستنتاجها من تفاعل الأفراد والأمم في المجتمع، وتسجيل النتائج بالأسلوب العلمي كما يحصل في نتائج أبحاث الظواهر الطبيعية والكيماوية وإقامة هيكل المجتمعات على أسسها.

وما عدا ذلك من المجهود البشرى يجب أن يبذل في العمليات والكشوف الطبيعية والاختراعات ووسائل الترفيه عن ذلك الإنسان المجاهد — الفنون الجميلة — بالقدر اللازم الذى يزيل عنه عنت الجهاد.

والاحتكام إلى الطبيعة هنا يرشدنا إلى النسب التي يجب أن تكون في حياتنا من هذه الثلاث.

والاحتكام إلى آثار الاتجاه الصناعى والعملى في حياة الإنسانية الحالية يكفى لأن يزيل من أفكارنا ظلال المأثورات الفاسدة، التي تقيد القوة العملية في حياة الإنسان وتجعله يدخل الحياة ويخرج منها وكل تاريخه في الأرض حفظ كلام وصنع كلام ... بينما الطبيعة حوله عمل وصمت ...

* * *

لو كان ظاهر الحياة لا يكفى لليقين بالله لكان من المحتوم أن يخلق الله للناس حاسة سادسة أو وسيلة أخرى غير العقل حتى تقوم حجته على الجاحدين والمنكرين. وإن الأديان حين أرادت أن تبصر الضالين وتهديهم إليه لم تعتمد على غير توجيه أنظارهم إلى ما خلق الله من شيء.

فالقرآن وهو أعظم كتاب خدم البيان الدينى وقدم أجمل صورة بارعة لعظمة الله لم يتعرض لوصفه بأ كثر مما يستمد من الطبيعة وفيها الإنسان!

والعقل البشرى معذور حين لا يستطيع أن يصف الله بأ كثر مما ينتزعه من الطبيعة، لأن العقل ذاته مرآة لا ينطبع فيها شيء من غير الطبيعة. فإذا تخيل صفات الله صورة كاملة من صفاته الإنسانية الناقصة فقد فعل ما لا طاقة له بغيره.

* وإذا أدام النظر في الطبيعة وانتزع منها أحكاما جازمة تليق أن تكون من مقاصد الله فلا يكلف وهو في الأرض أ كثر من ذلك.

أما أن يحاول أن يصل إلى صفات لله وأحكام غير ما توحيه الطبيعة إلى العقل، فذلك شأن يكون ضلالا إذا لم

يكن صاحبه معتقداً أن ما في الطبيعة يكفي . ويكون تضييعاً للغرض المودع في الطبيعة من أسرار يجب أن يعلمها قبل مفارقة الأرض . وإن سراً طبيعياً واحداً يهتدي إليه فينتفع به الناس في تسخير قوة أو تخفيف ألم أو تقليل مشقة ، أو اختزال مسافة ، لأنفع ألف مرة ومرة للنفس وللإنسانية وللدين من خفقة روحية يلتذ بها ناسك واحد نتيجة موجة خفية تنساح إليه من عالم الغيب .

إن حـدود الدين هي حدود العلم الطبيعي لو وقف الناس عند توجيهها للنفع الخاص والعام . وإننا لا نعرف الله بأكثر من البحث عن أسراره التي خبأها لنا في هذا الكون المادي .

ومالنا لا نستغني هذه الحياة المادية التي نحياها الآن ؟ إنها أكبر برهان على أن الاتجاه الطبيعي لحياة الإنسان إنما هو في الكدح والكشف عن الأسرار المادية ، أسرار التكوين وأسرار التخريب لعمر الحياة بالأولى وبدهس العقبات بالثانية .

إننا جعلنا جميع القوى والمواد تخدمنا وتسهل حياتنا وتجعلنا محوطين بجو من الأمان والراحة ما كان يخطر ببال السابقين إلا في عالم الأحلام والخرافات !

أما النساك والمتصوفة المنقطعون فإن وصلوا إلى سر مما وراء الطبيعة يريح نفوسهم فهم لا يستطيعون نقله إلى الأرض ونفع الناس به إلا بقول شعري يعبر عما يشعرون به وحـدهم .

فميراثهم رموز ، وجهودهم لا نفع فيها للإنسانية الكادحة المجهودة التي تبتغي تخفيف آلامها وتقليل مشقاتها ومحاربة أمراضها حتى ترضى عن الحياة فترضى تبعاً لذلك عن واهب الحياة ، فتعبده عبادة الرضا والشعور بالسعادة والبهجة في هذه الدار التي أخرجت إليها من غير اختيار منهـا واستشارة لها .

وإنما ينقص الإنسانية الآن لتشعر بالسعادة والسلام أن تذكر الله عند كل علم وعمل ولذة ومع كل ألم ، وألا تتعدى حدوده التي وضعها في كل شيء بين خيره وشره وفي كل شيء خير وشر .

وإن نظرة واحدة عميقة إلى الحياة لكفيلة أن توحي إلى كل منصف متزن أن وجهة الحياة هي الخير والرحمة والبر ، فإن خير الحياة أكثر من شرها الطبيعي . وإنما يضاعف الشر وينميه ويلقي على الأرض القتام والظلام والآلام في أنظار الناس إنما هو شر الإنسان الذي مبعثه العصبية والأنانية والشهوة الجامحة العارمة .

فالحياة من يد الله ربيئة صحيحة صادقة مسالمة تسبق بالرحمة وتسبغ البر والحب ، وليس فيها من الألم إلا ما يستتبعه الفناء والصيرورة والتوقيت والانتقال من حال إلى حال ، حتى الموت فإنه لدى النظر العميق ما هو إلا تمهيد لانتقال من حال إلى حال !

وعلى ذلك فالألم الذي يجعـل أكثر المتصوفين والرهبان يفرون من الحياة ، إنما هو من اعتداء الإنسان وظلمه وبغيه على نفسه وعلى عوامل الحياة ومصادرها .

وإننا لننفع الحياة والدين والاجتماع أعظم النفع إذا ما توصلنا إلى التقليل من أسباب الألم ؛ وإننا حين نخففه لنطمع ألا ينقطع عن الحياة المادية وحياة الاجتماع أي أحد ، بل نطمع أن يرجع إليها الفارون منها ويتعشقها الساخطون عليها ، ويشتغل بها من يحتقرها .

كلا ! لم يخرجنا رب الحياة إليها لنقول له : مشاهد هذه الدار لا تكفي اليقين بك وإدراك حقائق الوجود ، إن دارك هذه دار مآس وآلام ! أسرع بإخراجنا منها .. كان في الإمكان أبدع مما كان ... هاهي بعثتك مردودة عليك لا نريد . لا نريد !

وإذا كان لصرعى الظلم والمرض والجهل والفقر في

الماضي أن يتسخطوا ويتبرموا ، ويفروا من الحياة ويتركوا ميراثاً كبيراً من أقوال السخط والتشاؤم ، لأنهم كانوا يعيشون بين ضرورات العجز والجهل والقصور عن رؤية وجهات الحياة ، وعن امتلاك بعض نواحي الطبيعة .. فإنه لا عذر اليوم لمن يسخط على آلام الحياة وهو يملك تقليل أسبابها ... وأولى بالساخطين والفارين أن يجمعوا أمرهم على الجهاد في سبيل تقليل الآلام والظلم جهاداً صادقاً مكتمل الأدوات والوسائل صحيح الأهداف !

إنهم إن فعلوا يكن لهم شرف الانتساب إلى جنود الله الذين يوسعون دائرة الحب والرحمة ، ويسددون عوامل التكوين والإنشاء ، والتعمير والتجميل التي تريد دار الله هذه جمالا على جمال .

عبد المنعم محمد خلاف

الحُكم عند الاغريق

الأرستقراطية والديمقراطية ألفاظ معانيها إغريقية

للدكتور أحمد زكي بك

جرى العلم على أن يبحث عما يطلب علمه ، في الطبيعة أولا ، فيختار للظاهرة التي يبحثها مواقعها من الأرض . وهو لا يستطيع أن يتخير مواقعها على هواه ، ولكنه يتخير مما يجد منها . وهو لا يستطيع أن يتخير ظروف هذه الظاهرة ولا ملابساتها ، فهو يقبل رضاءً أو كرهاً ما يَلْقَى من هذه الظواهر والملابسات . وهو لا يستطيع أن يسيطر ، أو حتى أن يؤثر في السبيل التي تأخذها هذه الظواهر ، ولا في المجرى الذي تنحدر فيه إلى غاياتها ، وإنما هو يقبع عند هذا المنحدر فيصف انحداره وتلوّيه ، ثم سرعةَ جريان الحوادث فيه . ثم هو ينتقل سريعاً إلى نهاية المنحدَر ، إلى غايات تلك الظاهرات ، فيصف ما يرى ، شاء أو لم يشأ ، وأحبه أم كرهه . ثم هو يأخذ بربط العلة بمعلولها ، وردّ النتائج إلى أسبابها ، فيشتق من ذلك بعض اشتقاق .

ولكن ربط العلة بمعلولها ، وردّ النتائج إلى أسبابها ، لا يؤمن فيه الزلل إلا إذا بقيت العلل واحدة ، وبقيت الأسباب جامدة . فلا بد للوثوق — على قدر ما يُحتمل للفكر الإنساني من وثوق — من تغيير العلل ورصد التغيّر الحادثِ عن ذلك في المعلولات . لا بد للاطمئنان من تحوير الأسباب وتدويرها لمعرفة ما يكون في النتائج من تدوير وتحوير . فالذي يثبت من النتائج يكون أكثر ارتباطاً بالذي يثبت من الأسباب . كذلك الذي يتغير من النتائج يكون أقرب انتساباً إلى الذي يتغير من الأسباب . ولانتهاج هذا الأسلوب من البحث لا بد أن ينتقل العلم إلى المعامل ليصطنع الظواهرَ فيها ، لا على الحال التي توجد عليها في الطبيعة ، ولكن على الحال التي يريدها العالم منها ، وبالعلل التي يصفها لها ، لتؤدي إلى غايات مختلفة هي ولائد تلك العلل .

فهذا في العلم الطبيعي . أما في العلم الإنسانيّ ، في علم السياسة وعلم الاجتماع وأضرابهما ، يعتمد الباحث أكثر اعتماده على ما يجد من ذلك عفواً في المجتمع ، فيرصد الظواهر كما رآها ، ويصف الأسباب التي تبين له ، ويرقم النتائج التي لا دخل له في عللها . فهو في ذلك أشبه بالباحث الطبيعي إذ ينظر في ظواهر الكون في العراء بعيداً عن جدران المعامل . كلاهما لا يستطيع السيطرة على موضوع بحثه ، وكلاهما ليس له سبيل إلى الدخول في تفصيله وترتيب أجزائه ، وتقديم هذا وتأخير ذلك ، أو الإبطاء في هذا والإسراع في ذلك ، فهو إما أن يأخذه جملةً أو يتركه جملة . وتأتي النتائج فيكون وثوق الباحث بها ، واطمئنان المنطق إليها ، بمقدار ما استبان من عللها . وهي علل أخلاطٌ لا يكاد يستبين الناظر مرابطها بتلك النتائج .

وليس العلم الإنسانيّ ، علمُ السياسة وعلم الاجتماع وأضرابهما ، كالعلم الطبيعي يسهل إدخاله في المعامل ليسيطر المرء على علله وأسبابه وملابساته ، وليعتبر فيها على مشتهاه . ومن أجل هذا بقي هذا العلم الإنساني ظنّاً ، وبقي وجه المنطق فيه مستراباً ، وصار لأهل السياسة وأهل الاجتماع مذاهب لا سبيل إلى نصرتها إلا اللسان الذرب الخادع ، أو السيف القاطع .

ومن تلك المواضيع الإنسانية التي لا تدخل المعمل ، ولا تلين للمنطق ، موضوع الحكم في الأمم . فهي حكم الأمم لا مندوحة لنا عن الإصغاء للتاريخ ، وإلى ما يصف من ذلك — إلى ما يصف من حوادث سابقة وحوادث لاحقة يخالها الظن نتائج لتلك السابقة . وقد تكون كذلك وقد لا تكون . ويجرى الحكم في تلك الأمم الذاهبة على أسلوب راتب جيلاً بعد جيل ، فيأتي بالخير حيناً ، ويأتي بالشر حيناً ، والذهن الإنساني حائر في مصادر الخير ومصادر الشر وعلاقة كل هذا بأسلوب الحكم الكائن . ولم يكن هذا ، في أكثر الأمم الذاهبة ، أسلوباً له ذاتية ثابتة يتميز بها ، ويسمى باسمها ، بل كان أسلوباً مرتجلاً يتغير بتغير الحاكم ، فهو لا قواعد له إلا قاعدة الحاكم ، والحاكم في أكثر الأمر لا قاعدة له إلا هواه .

ولكن الطبيعة المادية كثيراً ما تخرج من عادتها فتهيئ لعالم المادة سلسلة من الظواهر متقاربة المكان ، متقاربة الزمان ، متشابهة الجوهر ، متباينة الوضع ، تمثل له في مجموعها تلك الأوضاع المختلفة التي كان يهوى أن يصطنعها في معمله اصطناعاً . فعندئذ يستطيع أن يدرسها دراسة أقرب إلى الصواب ، في وثوق واطمئنان .

وكذلك الحوادث الإنسانية كثيراً ما تخرج عن عاداتها فتهيئ للباحث في شئون الإنسان سلسلة من تلك الظواهر ، متقاربة الزمان ، متقاربة المكان ، مختلفة الأوضاع ، يستطيع أن يأمن فيها الفكر المثار بمقدار ما يرجو الفكر الإنساني أن يأمنه في أمر لا يوزن بميزان ولا يُكال بمكيال .

ومن أروع الأمثلة لخروج الحوادث البشرية عن طبيعتها ما حدث في أرض الإغريق في بضعة قرون ، جرت فيها تجارب في الحكم من كل طراز ، وجرت كلها في الزمن الواحد في أمكنة متعددة من البلاد ، واستمرت تلك التجارب في تبدل وتغير في هذا العدد العديد من البقاع نحواً من ستة قرون ، تأتي بنتائج مختلفة باختلاف مقدماتها ، متباينة بتباين عللها ، فكأنما كانت معملاً سياسياً ذا مائة غرفة أو تزيد ، تُجرى كلها تجاربَ واحدة في قضية واحدة هي قضية الحكم ، تحت ظروف متباينة ، يقوم تباينها شرطاً لصدق الحكم وعوناً على إصابة التعليل .

وحديث ذلك أن الإغريق كما سبق أن وصفنا لم يكونوا دولة واحدة ، بل دُوَلاً عدّة ، بلغت في وقت ما نحواً من مائة وخمسين دولة ، عاشت في وديان تلك الأرض الجبلية ذات النجاد العالية والوهاد المنخفضة ، حتى كاد أن يكون لكل واد دولة تسكنه . والجبال من حولها تزيد استقلالها مناعة ، وتعطى للدولة ما تعطى حوائط البيت للأسرة ، من معنى الاختصاص ، ومن معنى الحرَم الذي لا يجوز اقتحامه ، ومن معنى الذود عن مداخل هذا البيت إذا طمع فيه طامع أو جار عليه جار .

وزاد هذه الدول استمساكاً بمغنى بيوتها من تلك الجبال أن أرض الإغريق ليست كثيرة الخيرات ، فتلك الجبال من حجر جيرى صلد لا يكاد يُنبت النبت ، أو يُخصب الزرع ، والخصب كله في وديانها ، وهو ليس بالخصب الكثير ، فهو لا يكاد يقوم بأود سكانه إن كثروا .

لهذا كان استمساك هذه الدول بأوطانها استمساكا بطعامها، كمارى القارة لا ماء فيها، لا تمنع أخوّةٌ بينهم أن يستقل كلٌّ بزاده ومائه، وأن يستمسك بهما استمساكه بالحياة. لهذا لم تكن تزيد مساحات هذه الدول على بضع مئات من الأميال. وقد اتسعت مساحة أثينا Athens على غير العادة فبلغت ألف ميل. وإلى جانبها كورنثا Corinth بخمسين وثلاثمائة ميل. وإفليوس Phlius بسبعين ميلا فقط.

ولم يكن تعدد هذه الدول نتيجة الأرض وطبيعتها فحسب، فقد كان هذا أيضاً من طبيعة الناس، إلا أن تكون طبيعة الناس من طبيعة أرضهم، وهي جبلية. فالأرض البسيطة الخضراء لا توحي من المعاني إلا معنى الاستسلام. والأرض البسيطة الصفراء الصحراء لا توحي بمعنى من المعاني لأنه لا يطلبها طالب، إلا أن توحيَ بمعنى السلب في الأخضر والهرب بالأسلاب في القحل الأصفر. أما الأرض الجبلية فتوحي أول ما توحي بمعنى الاعتصام، يُعتصم به في قنتها كما يعتصم العُقاب. لهذا كان الاستقلال عند الإغريق وحيَ الطبيعة، حاطته كل دولة بذمار من غيرة أبي تأبى أن ينشق لتسيح الدول بعضها على بعض فيكوّن منها دولة أغريقية واحدة كبرى تغالب الزمن بمثل المجد الذي نولته الدولَ العظيمة الأخرى. فهي في هذا كقطرات الزئبق على المنضدة، استدارت واشتد عناؤها، وكما لامست بعود بينها لتندمج في قطرة واحدة لم يزدها العود إلا انقساما.

وحمل الإغريقُ حبَّ الاستقلال هذا إلى مستعمراتهم تلك التي نزحوا إليها عَبْرَ البحر لما ضاقت بهم موارد العيش في بلادهم. فقد كانت الدولة الأمُّ تُشخص من أبنائها نفراً يستعمرون، فإن هم عبروا البحر أمدتهم بكل ما تستطيع، حتى بالحرب إن لزم حرب. فإن استقروا وعمرت مدائنهم لم يحفظوا للدولة الأمّ إلا الذكرى الطيبة، ولم يرتبطوا بها إلا برباط العاطفة، واستقلوا عنها استقلال القطة عن قطيطاتها وقد مضى زمن الرضاع. وقد يخطر للدول الأمهات أن تملي إرادتها على وليداتها المستعمرات، فلا يكون من تلك المستعمرات إلا أن ينقلب عطفها خصومة، وصداقتها عداء، فهي تغار على استقلالها أن يضيع أكثر من غيرتها على وشائج القربى أن تنقطع. حدث هذا في كورنثا وقد أرادت أن تنشئ إمبراطورية مستعمرة، فزادت روابطها بمستعمراتها وثوقا. حتى إذا انقلبت إرادتها إملاء، فسدت العلائق، ثم انقطعت الروابط، ثم صار العداء صريحاً. وضاع حُلم كورنثا العظيمُ في استعمار إمبراطوري ضخم. وتلك ظاهرة قلما تحدث في شعب. فالشعوب تجنح دائماً إلى التوسع والتمدد تحت علَم واحد خفّاق تحميه من حوله مئات الألوف من السيوف. فالمجد عندها مجد مساحة في الأرض تضمها، ومجد أعداد كثيرة من الأجناس تسخرها. والمجد عند الإغريق في تلك الدويلات الصغيرة وتفاصلها.

من أجل هذا تركز المجهود الإغريقي السياسي داخل تلك الدويلات، وتركز المجهود الحربي للمدينة عند نطاقها، فوق ما أشرف عليها من جبال وما حاطها عند سواحلها من بحار.

وبتركز المجهود السياسي داخل هذه الدويلات، وأهلها من حب الاستقلال حيث وضعنا، جرى الحكم على كل أسلوب عرفته الأمم حديثُها والقديم. وجرى ابتداعاً واختراعاً، فلم تكن أمة أحسَّ بوجودها السياسي، وأوعى لحقها المدنيّ، من الأمة الإغريقية متفرّقةً على تلك الدويلات المتصادقة المتعادية. فكان الحكم في هذه الدويلات تارة ملكيا، وتارة أرستقراطيا، وتارة أوليجرشيا، وتارة استبداديا دكتاتوريا، وتارة دمقراطيا.

ظل قدرنا تلك الدويلات بمائة دولة — وقد كانت أحياناً تزيد على المائة — وقدرنا أساليب الحكم هذه بخمسة صنوف ، لكان معنى هذا أن الشعب الإغريقي أجرى خمسمائة تجربة في أنظمة الحكم ، في قرون دون أصابع اليدين عددا . فإن كان أحد جديرا بإصدار حكم على هذه النظم ، فالإغريق أجدر الشعوب بذلك . وأجدر من نطق بلسان الإغريق لا شك كتابها السياسيون ، وفلاسفتها المثقفون .

قالوا وكتبوا وعلموا أن نظم الحكم الثلاثة ، حكم الواحد ، وحكم القليل ، وحكم الكثير ، كلها سواء ، يجوز عليها الخير ، ويجوز عليها الشر . وهي للخير ما جرى الحكم في ظلها لخير الدولة ، لخير الأفراد جميعا والفئات والطوائف جميعا . وهي للشر ما جرى الحكم في ظلها لخير فرد أو أفراد أو فئة أو فئات بعينها .

فهذه خلاصة ما وجدوا فيما ابتدعوه ، ثم ارتضوه أو قاسوه ، من أنظمة الحكم في ذلك الزمان الغابر . وقد ترى رأيهم أو لا تراه . ومهما يكن من الأمر فهو وليد تجربة واحدة تعددت وتنوعت تعدداً وتنوعا يأذن لها ببعض صفة التجربة العلمية . فلها حرمة تلك التجارب ، ولنتائجها بعض الصواب الذي يرتجى لهذه التجارب . ثم إنها تجربة في زمان غير زماننا ، وفي أرض غير أرضنا ، وفي أوعية غير أوعيتنا . ولكن هل تختلف التجربة باختلاف الزمن واختلاف الوعاء ؟ وهل تختلف الطبيعة البشرية بين قرون وقرون ؟

من يدري ؟

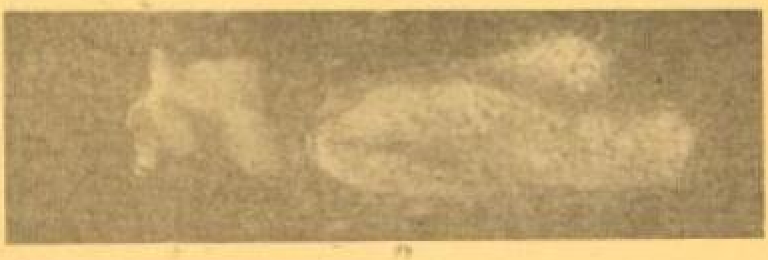
(لها بقية) **أحمد زكي**

الدفاع والهجوم

بين أحياء الغردقة

الحياة صراع ، والبقاء للأصلح . فمن أوتى وسيلة تساعده على التغلب على غيره ، عدواً كان أو فريسة ، كتب له البقاء ، ومن عدم هذه الوسيلة كتب له الفناء . وإن من يجول بين أحياء الغردقة ، يرى هذه الحقيقة ماثلة فى كل خطوة يخطوها . فالدفاع الميكانيكى يظهر بوضوح فى حيوان كالسرطان البحرى الذى يباع فى الأسواق ؛ فترى له زائدتين أماميتين كبر حجمهما من بقية الزوائد ، كما زودتا بزوائد حادة يستخدمها الحيوان للقبض على فريسته ، وتمزيقها قبل بلعهـا ، كما يستخدمهما للدفاع عن نفسه .

وأذكر أنه كان بين أحياء الحوض الشاطئ بمعامل الغردقة أحد هذه الحيوانات ، ولما حاولت مطاردته ومضايقته انقض على يدى وبادرنى بعضة لا أنساها ، وشغلنى تخليص يدى منه عن ملاحظة الدم الذى سال من أثر العضة .



ومن الغريب أن يترك الحيوان جزءاً من جسمه ليلهو به مهاجمه ، وهى وسيلة للدفاع نجدها فى القشريات مثل أبى جلمبو والجمبرى . فإن هذه الحيوانات إذا هوجمت تركت جزءاً من زوائدها لتلهى به المهاجم عن متابعتها ، ولما كانت هذه الحيوانات تغير غطاءها الخارجى الذى يحميها فإنها تجدد الجزء المفقود بعد الذى نسميه علمياً بالانسلاخ .

ونجد هذه الظاهرة ممثلة فى طيار البحر ، وهو حيوان يكثر بين أحياء الغردقة ، ويختلف حجمه من سنتيمترين إلى قدم ، وهذا الحيوان إذا هوجم ، قدم أحشاءه لمهاجمه ليتغذى بها ، بينما ينجو طيار البحر بنفسه ليجدد أحشاءه .

ومن أمثلة الحيوانات التى تجدد جزءها المفقود نجوم البحر ، وهى حيوانات تشبه النجمة فى شكلها ، لها خمس أذرع فى الغالب ، وقد تزيد على ذلك فى بعض الأحيـان . فإذا فقد نجم البحر إحدى أذرعه ، بادر بتكوين ذراع أخرى ؛ وأغرب من ذلك أن الذراع المقطوعة إذا تركت فى بيئة مناسبة ، نما عليها أربعة نتوءات تكون أربع أذرع أخرى ، وبذلك نحصل على حيوان كامل ، فكأنها وسيلة للتكاثر كما أنها وسيلة للدفاع .

ومن الحيوانات ما يحفر لنفسه حفراً فى الصخور الصلبة ، ومن هذه الحيوانات بعض أنواع الإسفنج ، والديدان ، والرخويات (مثل القواقع والمحارات) والقشريات (مثل الجمبرى وأبو جلمبو) . والإسفنج كما نعرف حيوان ليس له جزء صلب يعينه على الحفر فى الصخر ، ولذا يفرز مادة كيماوية تذيب الصخر فتفسح له الطريق للتعمق فيه ، ومن الديدان البحرية ما يحفر لنفسه نفقاً وسط الصخور ،

وتبق داخلها فى مأمن من كل مهاجم ؛ ولهـذه الديدان زوائد حادة تساعدها على الحفر . وكثيراً ما نجد أنواعاً من المرجان ، مثل المرجان المخى ، أصيبت بهذه الديدان وقد ظهرت الإصابة وكأنها بثور فى جسم المرجان . ومن المحتمل أن هذه الديدان تستعين بمواد كيماوية لإذابة هيكل المرجان الجيرى ، وذلك علاوة على زوائدها الحادة .

ومن يبحث فى الماء قرب شواطىء الغردقة يجد صخوراً تغمرها المياه ، ويجد بها كثيراً من المحارات ذات المصراعين وقد تعمقت فى الصخر ، ولا يظهر منها إلا جزء بسيط . وفى بعض الأحيان يستحيل نزع المحار إلا إذا كسرت الصخرة ، ومثال ذلك بلح البحر . وبلح البحر



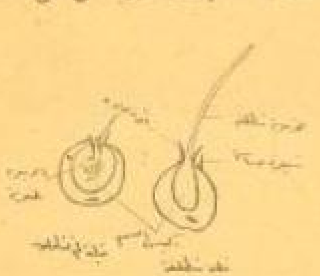
بلح البحر

من الرخويات المعروفة فى المياه المصرية فى البحر الأبيض والأحمر ، وقد سمى كذلك لأنه يشبه البلح لوناً وشكلا وحجماً . ويرجع لونه لوجود مادة قرنية سميكة تترسب على سطح المحارة ؛ وهذه المحارة رقيقة هشة ، ولذلك يسهل افتراس الحيوان إذا بعد عن الصخرة . وبلح البحر لا يوجد إلا فى الصخور الجيرية ، ويحفر الحيوان هذه الصخور بمادة حمضية تفرزها غدد خاصة توجد فى الجزء الرخو من الحيوان تحت المحارة مباشرة ، وهى تذيب الصخر الجيرى فقط ، ولا تؤثر على المحارة مع أنها كلسية التركيب ، والسبب فى ذلك أنها محاطة بطبقة قرنية تقيها أثر الحمض .

ولبلح البحر قصة تاريخية جيولوجية ؛ فبالقرب من مدينة نابلى نجد معبد سيرابيس ، به أعمدة ترتفع قليلا عن مستوى ماء البحر ، وعلى هذه الأعمدة نجد حفر البلح البحر . والذى حدث أن المعبد أنشئ على أرض تعلو الماء ، ثم هبطت فغطاها الماء ، وحفر بلح البحر حفراً فى أعمدة المعبد الكلسية ، ثم ارتفعت الأرض ثانية فظهرت الحفر على الأعمدة ، فكأن بلح البحر قد ساعدنا على تعقب حقيقة جيولوجية .

ومن الطبيعى أن هذه الحيوانات التى تحفر فى الصخور لا تأخذ منها غذاء ، ولكنها تستفيد منها كنخبأ يقيها غارات الحيوانات المختلفة وفتكها . ولا يتعمق الحيوان فى الصخر كثيراً ، بل يكون الحفر سطحياً حتى يتصل الحيوان بالماء مباشرة ليقتنص منه غذاءه الذى يتكون عادة من أحياء ميكروسكوبية نباتية كانت أو حيوانية .

وقد زود الحيوان بغدد لاسعة تنفث سماً فى الفريسة ، ويشاهد ذلك فى حيوان الأنيمون والمرجان . فنى حيوان الأنيمون ذى الشكل الجميل الرائع ، يتكون الجسم من زوائد كثيرة كالأصابع تحيط بالفم ، وهذه الزوائد مزودة بأجهزة لاسعة تتكون من كيس يحوى بداخله أنبوبة ملتوية وفيه مادة سامة ، ويوجد أعلاه شعيرة دقيقة حساسة ، ونجد عند أول الأنبوبة من أعلى ثلاث زوائد



حادة ؛ فإذا مرت فريسة ولمست الشعيرة الحساسة انطلق الخيط الحلزوني . ولما كانت الزوائد الحادة هي أول ما يظهر من الأنبوبة الحلزونية عند انطلاقها فإنها تحدث جرحا في الحيوان ، وبعد ذلك تصب الأنبوبة السم في الجرح فتخدر الحيوان وتشله .

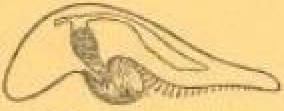
وهذه الحيوانات رغم جمال شكلها ، فإنها تفترس الأسماك الصغيرة بمساعدة خلاياها اللاسعة ؛ ومن الغريب أن بعض أنواعها المسمى الأنيمون ، يعيش دائماً رفقة نوع خاص من السمك ، ومهما اقترب من الأنيمون فإنه لا يمسه بسوء ، أما إذا اقترب نوع آخر من السمك أيضاً بادر الأنيمون بلسعه . ومن الطريف أن السمك الصديق يدفع بالفريسة قرب الأنيمون حتى يسهل عليه تخديرها . وبعد أن يلتهمها الأنيمون يقذف بفضلاتها فيتغذى عليها السمك الصديق .

ومن الحيوانات ذات الجهاز اللاسع ، قناديل البحر وهذه تلتهم أسماكا تكبرها إذ تشلها أولا ثم تلتهمها جثة هامدة لا حراك بها .

وهناك حيوانات تظهر ملاءمة كبيرة للدفاع والهجوم ، وتكثر بين أحياء الغردقة ، وهذه هي قنافذ البحر (الرتزا) ونجوم البحر ، وتسمى هذه الحيوانات في مجموعها الحيوانات الشوكية لما لها من زوائد شوكية كلسية تنتشر على جسمها من الخارج .

وللحيوانات الشوكية هيكل كلسي يحمي أجزاءها الرخوة داخله ، ويظهر على هذا الهيكل من الخارج زوائد كما ذكرنا . وفي قنفذ البحر نجد بعض هذه الزوائد تكون متفرعة ، وتكون ملقطا حاداً يستخدمه الحيوان لوخز مهاجمه ، وتحدث الوخز آلاماً للإنسان ، لأن الحيوان ينفث مادة سامة ، وربما عرف ذلك من أولع بأكل بطارخ الرتزا .

أما نجم البحر فإنه حيوان بطيء الحركة إلى حد كبير ، وقد يعجب الإنسان إذا ما شاهده يتحرك ، وقد يزيد عجبه حين يراه يأكل . هذا الحيوان يتغذى على حيوانات رخوة كالجندوفلي ، ولأن هذه الحيوانات تحكم غلق مصراعيها مما يصعب فتحهما ، فإن نجم البحر يحيط المحارة بأذرعه ، ثم يرسل زوائد رفيعة بين المصراعين ويحاول فصلهما عن بعضهما ، ومن الطبيعي أنه لا يمكن فتحهما بسهولة ، ولكن مداومة نجم البحر على محاولة فتح المصراعين يؤدي إلى ضعف المحارة واستسلامها ، فلا تلبث أن تنفتح ، وعند ذلك يخرج نجم البحر معدته لتلتهم المحتويات الرخوة وترجع إلى مكانها تاركة فريستها صدفة فارغة .



ومن وسائل الدفاع التي تنتشر كثيراً بين الأحياء المائية وتظهر بوضوح بين أحياء الغردقة ، أن الحيوان يتشكل ببيئته ، فنجد مثلا بعض أنواع السرطان البحري المسمى بالسرطان الصخري لونه كالصخور التي يعيش بينها فلا يمكن تمييزه إلا إذا تحرك . وقد يبدو على ظهر الحيوان طحالب مائية تتفرع قليلا ، ولشد ما يدهشك أن ترى طحلبا يتحرك ، وإذا بك أمام سرطان يجري بما عليه النبات .

وهكذا اختلفت وسائل الدفاع والهجوم ولكنها كلها تؤدي بالكائن إلى مصارعة غيره حتى يبقى على نوعه .

محمد أحمد بنونة

المدخل إلى الفلسفة

تأليف أزفولد كولبه

وترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي

(بقية المنشور فى العدد ٢٠٥)

٥ — Concept (تصـور) Conception —

تصور : معنى

جاء فى القـاموس الفلسـفى للسيو لالاند عن هذا الاصطلاح ما يأتى :

L'idée en tant qu' abstraite et generale

أى المعنى المجرد العـام . وبذلك اشترط شرطين فى المعنى أن يكون مجرداً وأن يكون عاماً . وهذا ينطبق على الكلى دون الجزئى ، وعلى المعقول دون المحسوس .

والترجمة التى نراها لهـذه الكلمة هى « المعنى الكلى » . وقد يقترح أحدهم أن تكون « الكلى » فقط دون أن يسبقها لفظ المعنى ، فنقول إن لفظ الكلى يرادفه فى الأجنبية Univevsel . والكليات خمسة : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العـام ، كما هو معروف فى المنطق .

وقد جرت عادة المشتغلين بالفلسفة فى مصر أن يترجموا الاصطلاح الموجود أمامنا بالتصور ، وقد رأيت هذه الترجمة فى كتاب الأستاذ عثمان أمين عن ديكارت ، مع أن ديكارت لم يستعمل هذا الاصطلاح فى معنى تصور .

والأصل فى هـذا الاستعمال راجع إلى المنطق القديم ، فقـد جرى العرب على تقسيم المنطق إلى باب التصورات والتصديقات .

جاء فى شرح الرسالة الشمسية : « كل مفهوم وهو الحاصل فى العقل إما جزئى أو كلى ، لأنه إما أن يكون نفس تصـوره مانعاً من وقوع الشركة فيه ، أى من اشتراكه بين كثيرين ، وصدقه عليها ، أو لا يكون ، فإن منع نفس تصوره عن الشركة فهو الجزئى كهذا الإنسان »

فالتصـور إذاً يشمل البحث فى الجزئى كما يشمل البحث الكلى . ولكن الاصطلاح الحديث كما قدمنا فى الترجمة عن القاموس الفلسفى يقصر هـذا المعنى على المجرد العام فلا يشمل الجزئى . وقد أضاف المسيو لالاند مؤلف القاموس الفلسفى أن هـذا الاصطلاح ظل جارى الاستعمال بالمعنى القديم حتى مدرسة بوت رويال فى القرن السابع عشر ، ثم أخذ المعنى يضيق بعد ذلك ولا يستعمل إلا على الرأى الحديث .

٦ — Consciousness — الشعور (العقل)

الترجمة بالشعور صحيحة ، ولا ندرى لماذا وضع المعرب لفظ العقل بين قوسين إلى جانبها . هل يريد القول بأن الاصطلاح الأجنبى قد ينصرف فى بعض الأحيان إلى معنى العقل ؟

الحقيقة أن هناك خواطر نفسية تجرى فى العقل ، قد يشعر بها الإنسان ، وقد لا يشعر ، فهناك فرق بين الخاطر الذهنى من مدركات وذكريات وخيالات ، وبين الشعور بهذه الخواطر .

وبعض العلماء — وهم قليلون — يوحدون بين الشعور وبين الإدراك أو المعرفة . على هذا الأساس تستقيم الترجمة بالشعور وبالإدراك ، ولكن القول بالعقل يكون بعيداً عن الأصل .

فالعقل هو الذى يدرك ويشعر .

٧ — Consistent (خال من التناقض) .

ليست هناك حاجة لوضع ألفاظ ثلاثة فى ترجمة معنى واحد . وما وجه الحاجة لترجمة الشىء بما يقابله دون ذكر الأصل فيه .

وما يخلو من التناقض فهو منطق أو معقول أو متماسك وهذه كلها ألفاظ تؤدي المعنى المطلوب .

٨ — Disharmony (نشاز)

نشاز لفظة عامية ، ولا بأس من استعمالها إذا انعدم نظيرها في اللغة العربية . والصحيح أن نقول تنافر . والأصل في نشاز من النشز وهو المرتفع من الأرض ، ويطلقها الموسيقيون المحدثون على النغم الخارج على باقي النغمات فلا يؤدي إلى الانسجام والائتلاف ، وهــذا هو التنافر ، ويكون في كل شيء جبل به عيب كالموسيقى والرسم والشعر وهلم جراً .

٩ — Dogmatic (يقيني)

نميل إلى ترجمة هذا الاصطلاح بـ « اعتقادي » لأننا نحتفظ بلفظ يقيني لمعان أخرى . على الأخص وقد سبق أن ترجم الدكتور عفيفي لفظة Certain بيقيني وCertainty باليقين . وإذن فما هو الفرق بين المعنيين وهما في الأجنبية مختلفان .

أما Dogma فهي الاعتقاد أو العقيدة « وهي الرأي الفلسفي السائد في إحدى المدارس ، أو المذهب الذي تفرضه الكنيسة على أتباعها . وقد ساد هــذا المعنى منذ ظهور المسيحية » ، كما جاء في القاموس الفلسفي للأستاذ لالاند .

والأصل في معنى المذهب الاعتقادي « كل فلسفة تثبت بعض الحقائق ، وبذلك تتنافى مع مذهب الشك » .

وقد اتخذ هذا اللفظ معنى جديداً عند « كانت » الفيلسوف . فالاعتقاد يقابل النقد .

١٠ — Experience (التجربة)

جرت عادة الكتاب في مصر أن يطلقوا على هــذه اللفظة الأجنبية الخبرة ، محتفظين بلفظ التجربة لمعنى آخر . هذا ولو أن التجربة تعتبر صحيحة أيضاً .

١١ — Experiment (الاختبار)

التجربة أو التجريب هو الاصطلاح الذي يطلق عادة على هذا اللفظ ، ويقصدون منه التجربة العلمية التي يجريها العلماء في معامل الطبيعة والكيمياء وعلوم الحيــاة . وقد وضع جون ستيوارت مل خمس قواعد للتجريب ، هي : الاتفاق ، والاختلاف ، والاتفاق والاختلاف ، والتغير النسبي والبواقي كما هو معروف في المنطق .

أما الاختبار فلا تصح هنا ، وهي ترادف Test ، مثل الاختبارات المدرسية المعروفة في مصر بالامتحان .

وعلى هذا الأساس نصحح المصطلحات الأخرى المنسوبة للاختبار على رأي المترجم ، فبدلا من طريقة الاختبار Experimental Method نقول طريقة التجريب وبدلا من علم النفس الاختبـاري Experimental Psychology نقول علم النفس التجريبي نسبة إلى التجريب .

أحمد فؤاد الأهواني

محكمة مأمورية المنشاة القضائية الأهلية

إعلان بيع عقار في القضية المدنية ١٤٣ سنة ١٩٣٧ المنشاة

إنه في يوم الاثنين ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ الساعة ٨ أفرنكي صباحا بسراي المأمورية بناء على طلب وزارة الأوقاف العمومية الناظرة الشرعية على وقف الزيني إسماعيل الخندي ومحلها المختار قلم قضايا مأمورية أوقاف أسيوط وعلى حكم نزع الملكية الصادر في هذه القضية بتاريخ ١٩٤٠/١/١٠ ومسجل بمحكمة سوهاج الأهلية في ١٩٤٠/١/٢٤ ن ١١٢ سنة ١٩٤٠

سيباع بطريق المزاد العلني الجبري العقار السكاني بزمام المنشاة ملك علي عثمان محمد الحول من المنشاة وفاء لمبلغ ٤٩ جنيه و١٢٦ مليم خلاف ما يستجد بثمن أساسي قدره ٢٠ جنيه و٤٨٠ مليم يبيع بنقص الخمس . وهذا بيان العقار :

٦٢س ٣٧متر بشارع الحول تبع حسب خريطة المساحة عباس ببلبلو بحوض داير الناحية ن ٤٨ قطعة ن ٩ الحد البحري شارع الحول وبه الواجهة والباب بطول ٤متر و٤٠سم والقبلي محمد عثمان الحول بطول ٧متر و٩٥سم والغربي الحاج عبد العال أبو حبيب بطول ٤متر و٢٠سم والشرقي بعضه عبد العظيم محمد حسنين الخبي وبعضه محمد عثمان الحول بطول ٩ متر و٨٥سم .

٣٢متر و٦٢سم فقط سبعة وثلاثون مترا مربعا واثنان وستون سنتيمترا لا غير . وشروط البيع وحكم نزع الملكية وباقي الأوراق مودعة بدوسيه القضية بقلم الكتاب بالمأمورية للاطلاع لمن يريد الاطلاع عليها .

على راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان المبينين .

كاتب البيوع

توهم الفيلسوف

ارفعى روحى المقيد بالترب (*) إلى عالم نبيل السمات
وانقذينى من الظلام الذى عم
(*) هول الشكوك فى الظلمات
وخذينى إلى الهداية إنى غارق يا حياة فى الترهات!
وانزعى قيدى المغلف بالشـــوك
(*) فقد بت سادرا فى شكاتى
أطلقينى أذيب روحى فى الوهم
(*) لعل الأوهام تسعد ذاتى
بعد ماضاقت الحقيقة بالقوم (*) وهم الرياء أفق الحياة
أيها الوهم أين أنت فإنى قد تمردت واحتقرت صفاتى
فيك أنسى الهموم أو أتناسى لدغات الضمير فى الشهوات
فيك أستطيع أن أفر من الدمع
(*) ومن لوعتى ومن حرقاتى
ولعلى استطعت نســيان ما يأ
تى فكيف الخلاص من ذكرياتى
قد توهمت أنى قاهر الليل (*) وأهـــواله بنور إيمانى
وتوهمت أنى قاتل الرجس (*) بقدس الدعاء من صلواتى
وتوهمت أنى لا أبالى بدوى الإعصار والصرخات
وتوهمت أنى قاهر السحر (*) بذيب القلوب بالحدقات
وتوهمت أنى فى حيـــاتى
صاحب الأمر كله من حياتى!
وتوهمت ليته كان حقاً ما توهمت فى دجى غفواتى
غير أن اليقين عاد وحطمت لمحات اليقين من نظراتى!!

○ ○ ○

أيها الوهم ليتنى كنت حياً أنا ميت الشعور والوجدان
تتراءى الحيــــاة حولى ولكن
عن سناها الحبيب قلبى طوانى
لم يعد فيه من معانى وجودى
غير صوت البلى من الخفقان
فيه من حيرة الحقيقة نار آه من حيرتى ومن نيرانى
أيها الوهم أين أنت فإنى قد تمردت واحتقرت كيانى
خذ بروحى إلى حقيقة روحى فلعل أفر من أحزانى
آه لو صح ما توهم قلبى من دبيب الحياة فى أغصانى
وتوهمت أننى فى سماء خُلصت من حقارة الإنسان
وتوهمت أنى فيلســوف لم تشككه فتنة الشيطان
وتوهمت أنى فى زمانى قد ترفعت عن شرور زمانى
وتوهمت أننى صرت طيفاً
فوق سر المكان بل والزمان!!
وتوهمت أنى بسمة السعد (*) بثغر العذاب والأحزان
وتوهمت ليته كان حقاً ما توهمت من طيوف الأمانى
غير أن اليقين عاد وشبت لدغات اليقين كالبركان

حسين محمود البشبيشى



أهــــواك

أهواكَ رمزاً للخلودِ يفيضُ في روحي وقلبي
أهواكَ سرّاً غامضاً قد فاضَ من قدسٍ وغيبِ
قد أبدعتكَ يدُ الإله مُبرّأ من كل عيبِ
الأرضُ قد تَمِلَتْ وتاهتْ إذ خطرتَ بكل عجبِ
ذنبي — ولستُ أرى له سبباً — قل لي أي ذنبِ؟
أأعيش عبداً في الهوى ما بين أوهامي وحبي
دعني فلستُ أرى الغرام مذلة أبداً ورِقّ
وأحبُّ شيء في الهوى أن أستهينَ بكل صعبِ
وأدوسَ قلبي في الهوى حتى أعيش بغير قلبِ

محمد مصطفى الماحي

الحقيقة

وفتّشتُ عن معنى الحقيقة جاهـدًا
لعــلِّي إلى معنى الحقيقة أهتدِي
سعيتُ فما أعقبتُ إلا وقد بكى
عليّ الأمسُ يوماً ثم بشّر بالغدِ
وجاء غدِي يروي عن الغـد بَعْدَه
أراجيفَ ضلّت عن مناي ومقصدي
دواليكَ ، أيامٌ تروح وتغتـدي
وما يهتدي إلا إلى الشك مهتدي

علي سرور

محكمة بنا الجزئية الأهلية

إعلان بيع عقار

إنه في يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٢ الساعة ٨ أفرنكي صباحاً، تنفيذاً لأمر في القضية المدنية رقم ٢٠٥٩ سنة ١٩٤٢ بنا بجلسة المزايدات المزمع انعقادها علناً بسراي المحكمة

سيجري إشهار مزاد وبيع العقارات الآتي بيانها بعد المملوكة إلى بكري ميهوب عبد الواحد من طشاي مالو مركز باويتها كالآتي :

٧٠ متراً و٧٩ سنتي عبارة عن منزل كائن بزمام ناحية طنشاي مالو مركز بنا مديرية بني سويف بحوض داير الناحية قسم ثاني مبني بالطوب الأخضر كامل المشتملات الحد البحري شارع وفيه الباب وطوله ٨ متر والحد الشرقي ورثة إسماعيل عبد الجواد وطوله ٨ متر ٧٠ سنتي والحد القبلي ورثة محمد عبد الواحد وبعضه محمود أحمد رجب بطول ٩ متر والحد الغربي فراغ سيد شرقاوي وطوله ٨ متر .

٧٠ متراً و٧٩ سنتي فقط سبعون متراً وتسعة وسبعون سنتيمتراً مربعاً . وبناء على تنبيه نزع الملكية المعلن قانوناً بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤١ ومسجل بمحكمة بني سويف الأهلية بتاريخ ١/٢١ سنة ١٩٤٢ ن ١٩٦ سنة ١٩٤٢ وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٠/٢٧ سنة ١٩٤٢ ومسجل بمحكمة بني سويف الأهلية بتاريخ ١١/١ سنة ١٩٤٢ ن ١٩٤٣/٤ . وهذا البيع بطلب الست خضرة بنت رجب خليفة من طشاي مالو ومحلها المختار بمكتب الأستاذ كامل أحمد بدوي المحامي بنا وفاء لمبلغ ٢٦٧٣ صاغ وثمن أساسي قدره ٣٥ جنيهاً مصرياً تبتدئ عليه المزايدة .

وجميع الأوراق وشروط البيع مودعة بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها . كاتب البيوع

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك عن سنة أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في البلاد العربية ضمن اتحاد البريد
٥٠ في البلاد الخارجية عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ٦ قرش صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٠٧ | الثلاثاء ٧ من ذى الحجة سنة ١٣٦١ — ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٤٢ | السنة الرابعة

فهرس العدد

إيطاليا فى إفريقيا الشمالية

للدكتور محمد عوض محمد

فى ميادين الاستعمار والتوسع الخارجى ، دخلت كل من ألمانيا وإيطاليا متأخرتين ، فإن كليهما لم يستكمل تكوينه السياسى إلا فى النصف الأخير من القرن الماضى ؛ ولكن ألمانيا تكونت على أثر انتصار ساحق هزمت فيه دولة من أكبر دول أوربا ؛ وكان لها من قبل ماض مجيد فى الحرب والسياسة ، بفضل ما كان لمملكة بروسيا من من القوة الحربية والاقتصادية .. ولهذا فإن ألمانيا فازت فى الميدان الاستعمارى بممتلكات واسعة فى غرب إفريقية وشرقها ، وفى المحيط الهادى .

أما إيطاليا فكانت مجرد تعبير جغرافى عن إقليم من الأقاليم ، ينقصه الوجود السياسى بجميع مظاهره ، إلى أن أتيح لها أن تتكون وأن تتحد ما بين عام ١٨٦٠ و١٨٧٠ . ولم تكد المملكة الإيطالية تظهر فى الوجود حتى أخذت تطمع إلى أن تصبح فى عداد الدول الكبرى ، وأن تكون لها ممتلكات ومستعمرات . ولم تلبث أن أخذت تبذل جهوداً عنيفة لكى تستولى على أقطار جديدة . وبدأت ترسم الخطة لسياسة استعمارية واسعة النطاق . كل هذا وإيطاليا بعد فى حاجة لأن تقوى وحدتها ، وأن يكون لها أسطول تجارى وحربى ، وجيش قوى ، واقتصاد قوى وثروة قوية تساعد فى التوسع واستغلال المستعمرات .

ورغم هذه العوائق ، مضت الحكومات الإيطالية فى برامجها الاستعمارى ، وهى تؤمل أن تنهض بالعبئين فى آن واحد ، وأن تخطو خطوات واسعة فى السياستين الداخلية والاستعمارية .

وهكذا دخلت إيطاليا ميدان التوسع فى أول الربع الأخير من القرن الماضى ؛ وكان أول ثمرة تطلعت إلى اقتطافها قطر تونس فى إفريقية الشمالية . فقد رأت حكومتها أن هذا القطر قريب جداً من إيطاليا ، وأن صقلية لا تبعد

من رأس بون (فى تونس) بأكثر من مائة ميل ، وليس فى دول أوربا دولة تعادل إيطاليا فى قربها من تونس . وليس هناك دولة لها تلك الصلات التاريخية المتينة بأرض تونس يوم كانت روما تسيطر على إفريقية الشمالية كلها . وفوق هذا كله فإن هناك عدداً عظيما يتزايد على مدى السنين من الرعايا الإيطاليين ، قد هاجروا إلى تونس ، وأخذوا يعملون فيها فى مختلف الحرف والصناعات .

وهذه الاعتبارات جميعاً — بمقتضى المنطق الاستعمارى — تجعل إيطاليا أحق الدول بأن تتطلع إلى السيطرة على تونس ولكن شاءت الصدفة أن تكون هنالك دولة أخرى أعرق وأقوى من إيطاليا ، قد بسطت نفوذها من قبل على الجزائر ، ورأت أنها بحكم الجوار ، وبمقتضى الحق الذى يعبر عنه فى الشريعة باسم الشفعة ، أولى بالسيادة على تونس ، ولم تكن إيطاليا قادرة فى ذلك الوقت (عام ١٨٨٠) على تأييد حقها بالمدفع والنار ، فاضطرت إلى الإذعان ، ورأت الحماية الفرنسية تعلن على تونس ، فقبلت على مضض ، ورضيت بأن تترك مصالح رعاياها الكثيرين فى تونس ترعاها الدولة الحامية بقدر الإمكان .

ولم يكن نجاح إيطاليا فى إفريقية الشرقية عظيما إلى درجة تنسيها صدمتها فى إفريقية الشمالية . فقد تركت لتستولى على بلاد السومال على المحيط الهندى ، وبلاد الإرتريا على البحر الأحمر ، وكلاهما قطر تغلب عليه الطبيعة الصحراوية ، ولا تستطيع الدولة صاحبة السيادة أن تجد فيه ميداناً للنشاط السياسى والاقتصادى الذى يحقق ما تطمح إليه من المكان السامى بين الدول الكبرى . وزاد فى إحساس إيطاليا بالنقص ، تلك الصدمة الأليمة التى لقيتها فى معركة عدوة فى أول مارس عام ١٨٩٦ حين احتملت هزيمة أليمة على أيدى جيش منليك الثانى ملك الحبش .

فلم تكن إيطاليا بحكم هذه الظروف فى مركز يحملها على الرضا ؛ وعادت تتطلع مرة أخرى إلى شمال إفريقية ، فلم تجد بين أقطاره ما تستطيع أن تطمع فى امتلاكه سوى إقليمين : طرابلس وبرقة ، والأراضى الواقعة إلى الجنوب منهما . كانت هذه الأقطار خاضعة خضوعاً ضعيفاً للدولة العثمانية ، صاحبة السيادة الاسمية فيها . ولم تكن إيطاليا تخشى جانب حكومة الآستانة ، بل كانت تخشى معارضة دول أوربا الغربية والوسطى . وكانت أكثر الدول معارضة هى فرنسا ؛ ولكن لم تلبث هذه أن رضيت بإطلاق يد إيطاليا فى طرابلس ، فى مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش . وأخذت إيطاليا بعد ذلك تتحين الفرص ، وتعد العدة منذ أوائل القرن العشرين . وأخيراً فى السابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية ، وشرعت فى محاولتها الطويلة للاستيلاء على برقة وطرابلس وإخضاع القبائل العربية ، التى تحتل هذين القطرين الواسعين .

والآن لننظر فى هذا الإقليم العظيم الذى أرادت إيطاليا أن يكون لها بمثابة تعويض عما « خسرته » باستيلاء فرنسا على تونس ، وبإطلاق يدها فى مراكش .

تبلغ مساحة ليبيا التى سمح لإيطاليا بامتلاكها نحو تسعمائة ألف من الأميال وهى من غير شك مساحة واسعة جدا . ولكن هذا الإقليم المترامى الأطراف ، والذى يحتل من شواطئ البحر الأبيض مسافة تزيد على الألف ميل ، لا يقدر عدد سكانه بأكثر من مليون من الأنفس فى ذلك الوقت . ولم يكن هنالك سوى مساحة صغيرة فى إقليم برقة ، وأخرى أصغر منها فى طرابلس تعيش فيها جماعات مستقرة تشتغل بالزراعة ، وتعيش فى أوطان صالحة للعمران . وإذا قدرنا هذه المساحة بالعشر ، فلا يزال هنالك تسعة أعشار ليبيا الإيطالية عبارة عن صحراء مجدبة تتخللها واحات قليلة ، يفصل كل واحة وما بعدها فضاء قفر لا تقع العين فيه إلا على صخور جرداء ، أو رمال قاحلة ،

أو قافلة من الإبل تسعى بين مدن الساحل والأقطار الداخلية . ومع ذلك فقد بذلت إيطاليا دماء أبنائها وثروة طائلة وزمناً طويلاً من أجل بسط نفوذها على هذه الأقاليم الصحراوية . وكأنما إيطاليا قد قدر لها أن تختص من دون الدول الاستعمارية بامتلاك الصحارى ، وما كفاها الصومال والأرترية ، حتى رأت أن تضيف إليهما طرابلس وبرقة والأقطار الواقعة وراءها .

وقد أدركت تركيا فى سنة ١٩١١ أن خير وسيلة تدافع بها عن طرابلس وبرقة أن تهيب بسكان البلاد أنفسهم أن ينهضوا لمقاومة الغزو بكل ما أوتوه من قوة وبأس ، وبذلت جهدها فى إمدادهم بما يحتاجونه من العدة والسلاح . وقد نجحت هذه الخطة نجاحاً كبيراً . فبالرغم من أن تركيا نفسها اضطرت لأن تتنازل لإيطاليا عن حقوقها فى طرابلس وبرقة ، فى معاهدة عقدت « بأوشى » على بحيرة جنيفا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ ؛ فإن سكان طرابلس استمروا فى مقاومتهم زمناً طويلاً ، وجعلوا من المستحيل على القوات الإيطالية أن تحتل سوى مساحة محدودة من السواحل ، وحالوا دون توغل قواتها فى الداخل . وعبثاً حاولت الحكومة الإيطالية فى عامى ١٩١٩ و ١٩٢٣ أن تمنى القبائل العربية بالوعود الطيبة ، وأن تبذل لها المال لتلقى السلاح ، فإن المقاومة دامت زمناً طويلاً ، ولم تنجح إيطاليا فى بسط نفوذها على هذه الأقطار الواسعة التى أعطتها الدول حق امتلاكها واحتلالها .

وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن جاءت النهضة الفاشية بزعامة موسولينى ، وبدأ عهد نشاط جديد فى إيطاليا نفسها ، زادت به مواردها الاقتصادية ، وتقدمت فى الناحية الحربية بخطوات سريعة . ولم يكن بد من أن تشمل النهضة الجديدة الميدان الاستعمارى ، فاضطرت الحكومة لأن تجند جيشاً قوياً وأن تبعث به إلى ليبيا ، ولم تزل هذه القوات تجاهد بضع سنين أخرى حتى تم لها بسط النفوذ الإيطالى على القطرين برقة وطرابلس ، وشرعت الحكومة فى تمهيد الطرق ، وبناء الحصون ، وتنمية موارد البلاد الضئيلة ، وشجعت مهاجرة الإيطاليين إلى الأقاليم الصالحة فى برقة وطرابلس .

واستطاعت إيطاليا بعد الحرب الكبرى أن تحصل على تعديل جوهرى لحدود ليبيا فى الشرق والغرب والجنوب ؛ فحصلت من مصر على واحات جغبوب وجالو وكفرة ، وحصلت من فرنسا على غدامس وغات ومساحات واسعة إلى الجنوب الغربى . وهكذا اتسعت رقعة ليبيا بما يزيد على ثلث المساحة الأصلية .

كانت هذه الإضافات والزيادات بمثابة مكافأة لإيطاليا على المجهود الذى بذلته باشتراكها مع الحلفاء فى الحرب عام ١٩١٥ . ولكن من البديهى أن هذه المكافأة لم تكن مما يبعث على الرضا خصوصاً فى عهد النهضة الجديدة ، التى لم تلبث أن قوت مركزها المادى والأدبى فى أوربا ، وأصبح نفوذها غير قليل بين الحكومات الأوربية المختلفة ، ولهذا لم يكن بد من أن تسعى مرة أخرى سعيها فى الميدان الاستعمارى ، وأن تتطلع مرة أخرى إلى شرق إفريقية وشمالها ...

وفى شمال إفريقية تقع ليبيا ما بين مصر شرقاً ، وتونس غرباً . ولم يكن بد من أن تسعى إيطاليا فى تقوية شؤونها وروابطها الثقافية والاقتصادية فى كلا القطرين . فأما مصر فإن فيها من رعايا إيطاليا نحو ثمانين ألفاً من الأنفس ، أكثرهم ممن ولد فى القطر المصرى . وكان يعيش فى البيئة المصرية كجزء منها ألفه المصريون واعتادوه على قاعدة : « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » . وقد حاولت إيطاليا أن تخطب ود المصريين فى مختلف الظروف ، وأهمها من غير شك موقفها فى مسألة إلغاء صندوق الدين والامتيازات الأجنبية . ولا شك فى أن إيطاليا استطاعت فى السنين السابقة للحرب أن تقوى علاقاتها الثقافية والتجارية مع المملكة المصرية ، وأن تخطو فى هذا السبيل خطى واسعة .

أما من الوجهة السياسية فإذا كانت لإيطاليا مطامع

خاصة بالأراضي المصرية فإن هذا لم يظهر منه بصفة رسمية، سوى محاولتها — قبيل الحرب الحاضرة، وبعد فتح الحبشة — أن يكون لها نفوذ أكبر في إدارة القناة والإشراف عليها. ولذلك صرح زعيم إيطاليا أن لدولته أغراضا استعمارية ترمي إليها، وأن هذه الأغراض لها أسماء ثلاثة: ألا وهي: جيبوتي، والسويس، وتونس. ولا شك في أن إيطاليا كانت ترمي إلى تحقيق هذه الأغراض من غير الاشتباك في قتال؛ وأما وقد دخلت الحرب الحاضرة فإن هذه المطامع قد اتسعت وزادت، ولم يكن بد من أن تكبر بازدياد المجهود الجديد.

وكان لإيطاليا في تونس مصالح كبيرة لعلها أكبر كثيراً مما لها في مصر. فعندما استولت فرنسا على تونس في عام ١٨٨١ كانت الجالية الإيطالية تفوق الجالية الفرنسية فيها. ولم تصل فرنسا إلى مركز التساوي إلا في عام ١٩٣١ بعد احتلالها القطر بخمسين عاما. ورعايا إيطاليا في تونس يبلغون اليوم نحو مائة ألف من الأنفس. وذلك في بلاد سكانها لا يكادون يتجاوزون المليونين.

فالجالية الإيطالية إذن أقلية لا يستهان بها، ويزيد في خطرها نشاطها الاقتصادي العظيم. وأنها تتمتع بنظام الامتيازات المتخلف من العهد العثماني، وكانت معاهدها ومنشآتها ومدارسها متمتعة بنوع من الاستقلال حفظ لها كيانها ووحدتها. وقد أخذت حكومة روما الناشئة تحرص أشد الحرص على رعاية هذه الحقوق، وكانت فرنسا ترغب بالطبع في إدماج الجالية الإيطالية في السكان، بحيث تشملها الحماية الفرنسية والجنسية التونسية، لكيلا تدع الباب مفتوحا أمام التدخل الإيطالي في هذا الركن الخطير من إفريقية الشمالية؛ ولهذا وغيره من الأسباب توترت العلاقات بين فرنسا وإيطاليا عقب الحرب الكبرى، وزاد في موجدة إيطاليا أنها لم تحصل من تعديل الحدود بين تونس وطرابلس إلا على مساحة صغيرة جدا دون التي كانت تطمع فيه بكثير.

وقد ظلت علاقة باريس وروما في توتر شديد، إلى أن ظهر النظام النازي في ألمانيا، وبرزت ألمانيا بقوة حربية جديدة في عام ١٩٣٤، واستطاعت أن تقف موقف التحدي في سياستها الخارجية، وأن تتدخل في شئون النمسا، التي كانت إيطاليا حريصة على تأييدها وتقويتها.

هذه النهضة الألمانية أثرت في إيطاليا تأثيراً شديدا، فلقد كانت من قبل تنظر إلى النهضة النازية بأنها خطب يسير لا ينطوي على خطر أو إضرار بمصالحها. فلما شاهدت استفحاله وبروزه في عام ١٩٣٤، أخذت حكومة إيطاليا تفكر جديا في أن تصفي علاقاتها مع فرنسا، وأن تسوي المشاكل التي كانت ثائرة حول تونس وغيرها من الأقطار.

وقد تم هذا كله في روما بين زعيم إيطاليا ووزير خارجية فرنسا في يناير عام ١٩٣٥. فاتفق الطرفان على أن تعدل الحدود بين طرابلس وتونس تعديلا طفيفا لمصلحة إيطاليا. وتم الاتفاق بينهما على نظام تدريجي فيما يتعلق بالجالية الإيطالية في تونس. وبمقتضى هذا الاتفاق يكون الأطفال المولودون قبل عام ١٩٤٥ من أبوين إيطاليين متمتعين بالجنسية الإيطالية، والمولودون بين ١٩٤٥ و ١٩٦٥ يكون لهم الحرية في الاختيار بين الجنسية الإيطالية والتونسية؛ ومن بعد عام ١٩٦٥ يكونون خاضعين لقانون البلاد، أي تكون لهم جنسية جميع المولودين في تونس، وهي الجنسية التونسية.

وكذلك طبق مبدأ التدرج هذا على المدارس والمعاهد الإيطالية، وعلى أصحاب الحرف الراقية، كالأطباء ومن على شاكلتهم من رعايا إيطاليا.

وقد قبلت إيطاليا هذه التسوية عن طيبة خاطر، رغم تشددها السابق، وإصرارها على أن يظل رعاياها في تونس دائما وفي جميع الأزمنة متمتعين بثقافتهم وجنسيتهم الأصلية

(البقية على صفحة ٢٤)

فى الهـــــواء الطلق

كانت رحلتنا هذه المرة رحلة شتاء ، فى الصحراء ، والصحراء جمالها الساحر ، سكون عميق يهدئ الأعصاب ، وصفاء جو ينعش النفس ، وأنس بالطبيعة كما خلقت ، فليس يقع النظر فيها على عمل من أعمال الإنسان ، فلا زرع ولا بناء ، ولا جند ولا حكومة ، كل شىء فيها من عمل الله وحده من غير تدخل أحد ؛ جو فسيح طليق تتجاوب فيه الرياح ، فلا يحبسها بناء ، وشمس تسطع فلا يقيدها قيد ، وللهواء والشمس طعم ولون ورائحة غير ما لها فى الحضر . يشعر الإنسان فيها بقربه من الطبيعة وقربه من ربه ، ويشعر بالدعة من عيشته الحضرية فى جو مصطنع كل ما فيه وليد التكلف والرياء والنفاق .

وأمعنا فى طريق السويس حتى وصلنا إلى منتصف الطريق ، فعرجنا يسرة ، وبعدنا عن مسير الناس فى غدوهم ورواحهم ، ثم تخيرنا مكاناً نستطيع فيه أن نستدفئ بالشمس إذا شئنا ، ونتمتع بالظل إن أردنا .

وكنتُ فى رفقة من المقلين المتفلسفين ، يحلو لهم الحديث فى الفلسفة فى كل شىء ، فهم قادرون على أن يخلقوا من الحبة قبة ، ويؤلفوا من الهنة كتاباً ؛ وهم بطبيعتهم وثقافتهم يفلسفون كل ما يقع تحت سمعهم وبصرهم ، ويستخرجون منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت . ولذلك أعددت نفسى لرؤية منظر « جامعة فى الصحراء » ، أو إعادة ذكرى مذهب المشائين ؛ ولكنى ما استطعت أن أقرر وجهة الحديث ولا موضوعه ، وإن كنت توقعت أن يكون بطلا الحديث رجلين ، أحدهما تفلسف فى مصر ، ثم أتم فلسفته فى فرنسا ، وقرأ كثيراً حتى كاد يلتهم الكتب ، ولا يأتى حديث عن كتاب إلا وصفه لك فى إفاضة ، وشرح نوع فلسفته وقول نقدته ، وهو — كما يقول العرب فيه — علمه أكبر من عقله ، ولنسمه على عادة النحويين زيد ؛ والآخر متفلسف فى مصر فقط ، لم يقرأ كما قرأ الأول ، ولكنه فكر طويلا فى قراءته القليلة ، فكان عقله أكبر من علمه ، ولنسمه بعمرو . وهما فى حديثهما دائماً كالضرتين ، لا يقول أحدهما رأياً إلا نقضه الآخر ، ولا يذهب أحدهما ناحية إلا ذهب الآخر الأخرى ؛ يُدل زيد بعلمه الواسع ، ويدل عمرو بنقده اللاذع ، ويفخر الأول بغذائه الشامل ، ويفخر الآخر بهضمه الكامل . ولكن رجوت أن صحو الجو والقصد إلى الراحة يجعلان من خلافهما وفاقاً ، ومن فلسفتهما شعراً ، ولكن خاب ظنى ، فما بالطبع لا يتخلف ، ويموت الزامر وإصبعه تلعب .

• • •

بدأ الحديث بالتغزل فى الصحراء وجمالها ، والجو وصفائه ، ولست فعمقت ، فقارنت بين جمال الريف وجمال الصحراء ، وجمال الزرع وجمال الرمل ، وجمال البساطة وجمال التركب ، وجمال الخلقة وجمال الصنعة ، ففتحت من حيث لا أدرى باباً من الجدل لا ينتهى ، وكان هذا كل نصيبى من الحديث ، ثم استطار الشر بينهما .

زيد — أتظن — يا أستاذ — أن هناك فى الخارج شيئاً اسمه جمال ؟ إنما نحن بأنفسنا نخلق الجمال ، إن الأمر فى الجمال ليس كالأمر فى « الترمومتر » المعلق على الحائط يريك درجة حرارة الحجرة من غير أن يكون لنا دخل فى ذلك ، بل هو « كالترمومتر » نقيس به حرارتنا ، فهو لا يبين شيئاً ما لم نضعه تحت لساننا ؛ إنه ليس كحاصل الجمع وحاصل الضرب ، هو كذلك فى الخارج أخطأنا أم أصبنا ، بل هو كالشىء تذوقه فتستحليه ، ويذوقه الآخر فيستمره ، والأكل تستطعمه أنت ويستقبحه

غيرك ، وكلا الحكمين صحيح . إن الصورة الفنية المزعومة لا قيمة لها في ذاتها ، وإنما ذوقنا هو الذي يضفي جمالها ، ولذلك إذا لم يكن ذوق يستجملها لم تكن جميلة . والجمال مقصور على من له ذوق يذوق جمال الصورة ، وإن شعر امرىء القيس وأبي نواس والمتنبي وشوقي ليس له قيمة ذاتية ، إنما جماله لمن مرّن ذوقه على نحو خاص حتى صار يتذوّق جماله ، فإذا لم يكن الذوق لم يكن الجمال ؛ فليس جمال الشيء صفة خارجية كوزنه مثلاً ، وإنما هو ذوق فينا ، ولذلك لا يختلف الناس في زنة الشيء ، ولكنهم يختلفون جد الاختلاف في جماله .

إن العلم الآن لا يؤمن إلا بالمنظور والمسموع ، لا كما كان العهد في القرون الوسطى يؤمنون بالتخيّل والموهوم . وعلم النفس الحديث أبان أن الحكم على الأشياء — ومنها الحكم بالجمال والقبح — ناتج من عوامل كثيرة لاشعورية ؛ فالذوق قد يستهجن قطعة موسيقية ويكره — دائماً — أن يسمعها ، فإذا حللت ذلك تحليلاً دقيقاً رأيت أنها لا ترجع إلى القطعة نفسها ، ولكنها سُمعت لأول مرة في ظروف سيئة للشخص أوحت إلى عقله الباطن كراهية هذه القطعة ، فظل يكرهها دائماً ، والقطعة الموسيقية نفسها لا دخل لها في ذلك . وكذلك ترى من الناس من يكره اللون الأصفر أو الأزرق لأسباب خاصة حدثت له ، وقد ينساها ويبقى أثرها في نفسه ؛ أما اللون نفسه فلا شأن له بالكراهية أو الاستحسان .

كل هذا وأكثر منه كشفه العلم ، فأصبح من يقول بالقيمة الذاتية للجمال طرازاً قديماً .

* * *

هنا احمرّ وجه صاحبنا « عمرو » من لفحة الهواء والشمس — أولاً — ومن كلام زيد ثانياً ؛ وقال : هذا قول هراء يحملكم عليه إعجابكم دائماً بما في الكتب ، وهيامكم دائماً بالجديد وإن لم يُبْنَ على أساس صحيح .

لو صح قولكم لم يكن لصورة فضل على صورة ، ولا لشعر فضل على شعر ، ولا لجمال امرأة فضل على أخرى ، وكان كل ذلك يرجع إلى الذوق الشخصي فقط ، ولكان شعر أبي نواس والمتنبي وشوقي كشعر أحقر شاعر ، كل ما هنالك من فرق أن هذا يستحسنه ذوق ، وذاك يستحسنه آخر ؛ ولَمَا كان هناك معنى لقولنا شعر عظيم وشعر حقير ، وصورة رائعة وصورة قبيحة ، إلا أن يكون تعبيراً فقط عن شعور القائل ؛ ولو كان هذا كافياً لحكمنا على الصورة الجميلة أو الشعر الجميل بعدد الأصوات ، بقطع النظر عن ذوق راق وذوق غير راق ، وذوق الفنيين وغير الفنيين ، وهذا ما لا يسلم به عاقل . أما على رأيي فالأمر واضح ، وهو أن هناك ذوقاً راقياً وذوقاً غير راق ، ومعنى الذوق الراقي أن صاحبه يدرك في الشيء المرئي أو المسموع صفات ذاتية فيه لا يدركها الذوق غير الراقي . وعلى أننا لم نقل إن جمال الشيء وقبحه كوزن الشيء محل وفاق ، ولكنه محل خلاف ، وسبب الخلاف بين الناس الاختلاف في الذوق ، ومعنى الاختلاف في الذوق أن بعض الأذواق قادر على إدراك صفات الجمال والقبح في الشيء ، وبعضها غير قادر . وإني أومن بأن الذوق يختلف باختلاف زمان الشخص ومكانه ، وبمقدار المدنية التي يعيش فيها وبمقدار ثقافته ، وبمقدار مزاجه وسنه ، وبنوع وراثته ، ولكن ليس معنى هذا أن حكمي بالجمال والقبح يقتصر على حالتي النفسية والعقلية ، وأن ليس هناك صفات خارجية في الشيء المحكوم عليه .

ما الذي دعاك — يا أخي — إلى أن تخرج معنا إلى الصحراء تتحسس جمالها إن لم يكن هناك إلا الذوق ؟ لقد كان يكفيك ذوقك في بيتك ، وفي أي منظر يقع

عليه حسك — ولماذا قصر ذوقنا على إدراك الجمال فى أشياء خاصة كالموسيقى والشعر والتصوير والطبيعة ، ولم يتعدها إلى غيرها ؟ أليس ذلك لأن فيها صفات خاصة إذا توفرت فى الشىء كان جميلا ، وإن لم تتوفر كان قبيحا .

* * *

ومُدّت مائدة الصحراء ، ففرشت صحف الجرائد ، وأثقلت بالصحاف ، من دجاج ولحم وبطاطس ، ثم موز وبرتقال .

وأخذ صاحبنا « عمرو » يلذع صاحبنا « زيداً » بنوادره ، فيقول : « ما أشهى اللحم » ، ولكنه يا أخى ليس شهياً فى ذاته ، فإذا حوّرت ذوقك وجدت الفول النابت أشهى ، والجبن بالفجل ألذ ، وليس فى حمرة البرتقالة واستدارتها جمال ، إنما هو ذوقك ، ولو أن ذوقك استجمل حجراً مدوّراً وفضله على البرتقالة فى جمالها لم يكن ثمة محل للجدل ! ويتبع كل لذعة منه بضحكة تستخرج ضحكنا .

وانتهينا من الأكل ، ورجوت أن ينتهى الحديث ، وحاولت ذلك فعلا ، ولكنى فشلت ! فصاحبنا عمرو عنيد ، يلجّ فى الخصومة حتى يريد أن يُدخل مناظره فى جُحْر ، فأثار مسألة أعقد وأدق ، إذ سأل : هل رأيك فى الأخلاق والحق كرأيك فى الجمال ، شىء نسبى ليس إلا ، أولهما وجود ذاتى خارجى ؟ وهل العقل الذى لا يؤمن إلا بالمنظور والمسموع يؤمن بشىء خارجى اسمه العدل والظلم ، أو الحق والباطل ؟ وما رأيك فى أقوال القرون الوسطى فى ذلك ؟

زيد — اهزأ بى ما شئت ، وهرّج ما أردت ، فليس يزيدنى ذلك إلا تمسكاً برأيى ، والشأن فى الفضيلة والرذيلة والحق والباطل عندى كالشأن فى الجمال والقبح . إن الإنسان أول ما واجه الأعمال الصادرة من أمثاله ، رأى أن بعض الأعمال — التى تصدر عن الناس — تسرّه وتدخل عليه اللذة فرضيها وسمّاها فضيلة أو ما يرادف ذلك ، ورأى بعض الأعمال تؤلمه فسماها رذيلة أو ما يرادفها ، ثم أتت الأجيال بعد ذلك فنظرت إليها كأنها أشياء خارجية لها قيم ذاتية ، فقدستها أو احتقرتها .

فكل فضيلة أو رذيلة ترجع إلى إحساسنا باللذة والألم ، فالصدق والكذب ، والعدل والظلم ، والشجاعة والجبن ، كل هذه رضيناها لأنها سببت لنا لذة أو ألماً ، ثم نظرنا إليها كأنها أشياء مجردة تُطلب لذاتها ، أو تتجنب لذاتها ، كشأن البخيل طلب المال أولا لأنه وجده محققاً لأغراضه ، موفياً للذاته ، ثم بمرور الزمن والاعتياد والإلف طلب المال لذاته . ولما ارتقى الإنسان واتسع أفقه أصبح يقيس اللذة والألم بمقياس الأمة والمجموع ، لا بمقياس شخصه . إنما هى على كل حال ترجع إلى شعورنا وشعور الناس باللذة والألم ، وهذا الشعور فينا وليس خارجا عنا ، وعواطفنا ومنافعنا هى التى تملى علينا الحكم بالخير والشر ، فالسعادة هى الغاية الأخيرة لا الفضيلة ، وإنما الفضيلة وسيلة للسعادة . وحكمنا على الناس كذلك ، فنحن نحكم على الإنسان أنه طيب لأنه يسعدنا ويسعد مجتمعنا ، والعكس . وهذا أيضاً هو ما تتجه إليه النظريات الحديثة فى الأخلاق وعلم النفس والاجتماع ، وهذا هو العلة فى تغيّر تقويم الأخلاق باختلاف العصور والأوضاع وتغير ترتيبها فى الأهمية ، وذلك باختلاف الناس لا باختلاف الأشياء ؛ والعمل الواحد قد يكون خيراً فى موقف ، وهو نفسه قد يكون شراً فى موقف آخر ، تبعاً لأثره فى نفوس الناس ومشاعرهم باللذة والألم ، ولو كان هناك شىء خارجى اسمه الحق أو الفضيلة لم يتغير الحكم عليه !

عمرو — كلامى معك فى الحق والخلق ككلامى معك فى الجمال ، وردّى عليك ردى عليك . إن الحق

والباطل والخير والشر معان مجردة لها وجود ذاتى ، بقطع النظر عن نتائجها ؛ ويجب أن يطلب الحق لذاته بقطع النظر عما ينتج من لذة ، ويتجنب الباطل لذاته لا لألمه ؛ شأن الخير شأن الحق ، شأن الصدق ، شأن حكاية الواقع . فإذا قلت إن قنبلة سقطت فى مكان كذا ولم تنفجر ، فهذه حقيقة حدثت فى الوجود بقطع النظر عن نتائجها ؛ علم الناس بها أو لم يعلموا ، شعروا بها أو لم يشعروا ؛ وشعورنا وعدم شعورنا لا دخل له فى الموضوع ، وهذا إن وافق الواقع فهو صدق ، وإذا أخبرت به فضيلة كائنا ما كان أثر الخبر فى نفوسنا . قد يؤلم بعضَ الناس الصدقُ وقد يلذّ بعض الناس ، ولكن هذه أعراض لا شأن لها بالموضوع فى حد ذاته ؛ ومَثَلك إذا تلذذت أو تألمت كمثل «الترمومتر» فى الحجرة الذى ذكرته ، قد يدل على درجة حرارة عشرين ، ولكن قد تكون قد شربت مرّة أو جريت شوطاً فتشعر أن درجة الحرارة فى الحجرة لا يقل عن أربعين ، وقد تأخذك رعدة فترى أن درجة الحرارة يجب أن تكون صفراً ، وشعورك هذا أو ذاك لا يغير الواقع وهو أن درجة الحرارة عشرون .

ولو كان الأمر يرجع إلى الشعور بأثر العمل فقط ، ولم يكن هناك حق فى ذاته ما احتقر الباطل ولا فُضّل الفاضل ، ولكان الأمر فى الحق والخير أمر الذى يذوق الشىء فيستطعمه أو يستهجنه ، وفى ذلك خراب العالم ، وضياع الإنسانية ، بل على رأيك لم يكن فرق بين محق ومبطل ، وفاضل وسافل ، فكل يحكم على الشىء حسب شعوره ومقياسه ، وهل هذا هو ما يقوله عل نفسكم ؟

الحق — يا أخى — أن هذا ضرب من السفسطة فى أسلوب حديث ، ويجب أن يحارب هذا الاتجاه كما حارب سقراط وأفلاطون وأرسطو السوفسطائية القديمة .

إن نظركم هذا جعل الحق والفضيلة سلعة تجارية يحسب ثمنها باللذة والألم ، فتشترى أو تباع حسب السوق ، ولعل هنا أكبر نقطة سوداء فى مدنيتكم الحديثة ، ولإصلاحها يجب أن تكون هناك مُثُل عليا من حقائق وفضائل لها قِيَم ذاتية .

إن مثل رأيى ورأيك كمثل العالم فى معمله ، والتاجر فى تجارته ، إن العالم الحق يبحث عن الحقيقة فى ذاتها كائنة ما كانت ، وسواء عنده الشىء الصغير والشىء الكبير ، وسواء عنده فى بحثه الذهب والرصاص ، فيأتى التاجر بعد فيستغل نتيجة بحث العالم لاستعمال الآلات والسلع وفق ما وصل إليه العلم ، ويقلبه إلى تجارة فيها كل الأخلاق التجارية .

فكذلك نحن وأنتم . نحن نبحث عن الحق حيث كان ، وفى أى حال كان ، ثم تفسدون علينا حقنا باتخاذه متجراً بالبهلوانات السياسية ، والشعوذة الأخلاقية ، وحساب الخُلُق باللذة والألم كما يحسب التاجر بضاعته بالدينار والدرهم . إن الحق لا يتعدد ولا يتغير بالاعتبارات الشخصية كالمادة أمام العالم ، إنما تتغير السلع فى الأسواق فى نظر التاجر .

فى نظرى أن الصحراء هذه لها قيمة ذاتية ، وجمالها له قيمة ذاتية ، سواء كان مزاجك مما يلذه هذا الجمال أو لا يلذه ، ويقوّمه أو لا يقومه ، فإن قوّمه فمزاجك صحيح وجمال الصحراء حق ، وإن لم يقوّمه فمزاجك غير صحيح وجمال الصحراء حق ، أليس هذا هو الحق يا أيها السيد « زيد » ؟!

* * *

وآذنت الشمس بالغروب ، وبدأ الجو يبرد ، وحرارة الشمس تضعف ، وأخذنا نستعد للعودة ، ورأسى يكاد يتصدع ، وأضاع علىّ الصديقان لذة الصحراء وجمالها ، فآليت من يومئذ ألا أخرج إلى الصحراء ، مع فلاسفة بل شعراء . وإلى اللقاء .

أحمد أمين

اللقاء

*

– أرأيته بعد ؟ ... ... ألم يكتب إليك ؟

وشع من عينيها ذلك البريق الغريب وهى تشيح عنه بوجهها ناظرة إلى لا شىء ! !

ثم استطردت ...

– لقد انتظرته بالأمس طويلا ... فلم يعد .

ومضت لوجهها وما تزال تسأل ... متى يعود ؟

ونكس الفتى رأسه يخفى دمعة ترقرقت فى عينه ... متى يعود على ؟ أيقول لها أين ذهب ؟ أيجرؤ فيدلها على مثواه الهادئ فى أرباض المدينة ينزله إلى غير رجعة . ... ولكنه لم يملك إلا أن ينكس رأسه حتى لا يرى أم صديقه فى تلك الحالة الأليمة هائمة على وجهها تسأل الناس متى يعود ؟

متى يعود وحيدها على وقد خلفها منذ شهر مضى . منذ تلك الليلة الهائلة التى عرف فيها السر ... ذلك السر الذى لم يحتمله غير ليلة واحدة ، ثم مضى به إلى ذلك السكان القريب النائى فى غرب المدينة ... وتوارى سره معه إلى الأبد !

لم يبق من يعرف هذا السر بعده غير اثنين : أمه هائمة على وجهها فى ثيابها الخلقة ، وشعرها الأشعث ، وقدمها العارية ، وهى تسأل الناس : متى يعود ؟ ... وهذا الصديق المطوى على نفسه ألما لا يقوى على أن يبوح ولا أن يصمت ، وإنه ليراها صبيحة كل يوم وهى تقف بأبواب المدارس تسأل الطلبة وصغار التلاميذ سؤالها الواحد : متى يعود ؟ فينفرون منها خوفا ويستديرونها ، فما تجد إلا أن تحتمى بجدار قائم ثم تجهش باكية !

لم تكن تملك إلا سؤالا واحداً على اختلاف صوره : أين على ... ومتى يعود ؟ أهو فى حالة طيبة ؟ ومن جاءه بالطعام ؟ وهل كان راضياً عنه ؟ ومن غسل ملابسه ؟ وهل نفدت نقوده ؟ فإنها لتعرف أن ما كان معه لم يكن يكفيه .

اللهم ارحمها مما عانت فى شقوتها مما لا يصمد له الرجال ! لقد تقلبت فى المحنة طويلا بين ضغط الحاجة وذل المسألة حتى جرفها تيار الحياة بعنف ، وأرغمها على ما سلكت من سبيل ، لتضمن لولدها العيش فى عالم غير ذلك الذى تعيش فيه . عالم فيه الفضيلة والشرف وبياض الجبين ! أو كذلك شبه لها ! !

وما كان لها من أمل إلا أن تجعله كذلك يشعر ، وعلى هذا ينشأ ... إنه رجلها الذى تدخره لتتقى به ريب الزمان . تلك كانت أمنيتها الوحيدة ؛ أفتفقده الساعة وقد احتملت من أجله ما لا يغمض لها من تذكره جفن ساعة من ساعات الوحدة والألم ؟! أيفارقها فلا تعرف له مأوى ... أيصبر عنها ويطاوعه قلبه على أن عنهها الناس على هذه الصورة ... على على . ألها أحد غيره تناديه ؟ وإنها لتناجيه حيث كانت وأين كانت : هل أغضبتك يوما يا على ؟ ارجع واطلب ما تشاء من ترضيه ! هل رددتك يوما عن أمنية ؟ ارجع ، فإنى لمدخرة لك مفاجأة سارة فى نهاية الأسبوع ، شأنى معك كل أسبوع !

وتؤوب وقد انتصف الليل لتقف بباب حجرته تنصحه بأن ينام مشفقة أن ينال منه السهر ، فما يجيبها إلا الصمت ؛ فترتمى تنشج على عتبة الحجرة حتى الصباح ...

وتهب مبكرة توقظ صديقه الفتى من بيته المجاور وتسأله هل أمضى على عنده الليل . وهل ذهب إلى مدرسته دون أن يطعم شيئاً ... ولا يقوى الفتى على الجواب ، ولا على النظر ، ولا يحتمل ما توجهه إليهن الجارات من نظرات التشفى والحقد ، وقد كانت تفخر عليهن يوما بابنها الواحد !

وما كان ليقوى أن يسمع مناجاتها فى لهفة وتأثر صورة ولدها المعلقة فى بهو الدار ! تلك الصورة التى تفيض حياة وبهجة وأملا ... من كان يصدق أن هذه المرأة المريبة كانت تطوى بين جنباتها نفساً تحمل خلاصة آلام البشر فى واحد؟ تلك الصورة التى كانت مبعث الأمل ونشوة الجذل ومحط

الرجاء ! إنها اليوم تثوى حيث لا أمل ولا بهجة ولا خلان ولا أصدقاء . . . حيث لا يخشى أن يخفض الذل رأسه بين هؤلاء . لقد اتقى كل ما كان يخشاه بتلك البقعة غرب المدينة لا رجعة له منها إلا أن يشاء الله . وكان طريقه إليها أوجز مما تعود الناس . فما هي إلا جرعة واحدة انتقل بها إلى تلك الدار الهادئة القريبة النائية ؛ ومضى يحمل سر تلك الليلة الهائلة التي كانت . . . .

كان ذلك بعد منتصف الليل ، وقد رجع بعد مذاكرة دروس الغد في دار صديقه إبراهيم . وكان متعبا . وأبى عليه صديقه أن يبارح الدار ، وألحف ، ولكن عليا أبى ، وأشفق على أمه أن تقلق لغيبته . . . ومضى على متمهلا ، ثم دخل الدار في غير جلبة حتى لا يوقظ فيه أحدا ؛ وتلك كانت عادته كلما طال به السهر عند جاره الصديق . وكانت غرفة أمه مضاءة على غير عادة ، وفيها همس ! وفتح بابها في حركة آلية ، وهو في طريقه إلى غرفته لا يكاد يعي ما يفعل ، وفي نفس الحركة الآلية أغلق كما فتح الباب ! وانسل في هدوء راجعا . . ماذا رأى ؟ ذلك سره الذي مضى به إلى مثواه في غرب المدينة .

ماذا رأى حتى اختصر الطريق وهو بعد في ريعان الشباب . . إنه لا يعرف له أبا ولا مصدر رزق إلا ما تحدثه أمه من حديثها عن تلك الضيعة التي خلفها لها أبوه ، وهو لا يعرف من أمرها شيئا . فإذا حان موعد رسومه المدرسية أو حل إيجار الدار غابت أمه يوما ثم عادت ومعها مال . . . أين تلك الضيعة ، وما غلتها ؟

ذلك سؤال لم يظفر عنه بجواب ، فما كان يسمع من أمه إلا أن تقول له مشفقة :

— دع عنك هذا . وعليك بالكتاب حتى يغنيني الله بك

وكثيراً ما كان يمضي به الليل وهو شاخص ببصره نحو الفضاء المجهول يبحث عن شيء يكاد يلمسه ويخشى أن يلتقي به في مكان . شيء كان يخشاه . . . وكثيراً ما كان ينظر لعين أمه فترتد عيناها وعيناه كليلة محسورة ، وكأن كل منهما يخشى أن تعبر عيناه عن شيء يحاول كتمانه ، من القلق . . . . والشك .

كان بينهما ستار من الضباب يتكاثف حينا ويرق ، ولكنه ستار . . . . .

حتى كانت تلك الليلة . . . هل عرف عليّ كيف كان يعيش ؟ هل وضحت له الحقيقة التي ظلت أمه تخفيها عنه زمانا . ألا ضيعة ولا إيجار ولا غلة ؟ أهذه هي الحقيقة ! أكان الناس يعرفون ذلك عنه ويخفونه كما تخفيه أمه ؟ أكان يمشي بين الناس ولا يعرف من يكون ، ومن أي سبيل يعيش ؟ أو يعرف إبراهيم هذه الحقيقة كذلك ، وكان هذا سرّ نظراته المبهمة إليه حينا بعد حين ؟

ما أغباه ! أليس من الجائز أن يكون إبراهيم على علم بما كان في تلك الليلة فكان إلحافه عليه في البقاء عنده . . . ولكن ماذا رأى ؟ ذلك سره الذي مضى به وحيدا يدفنه في تلك البقعة غرب المدينة .

وتفقدته أمه ولكنه كان قد مضى .

وسألت عنه إبراهيم . فصمت . فأقبلت عليه ترجوه ؛ وحسبت أنه لم يصمت إلا وفاءً بوعد لصديقه . وخيل إليها أن في استطاعته الكلام ، فألحت على رأسه ، وعلى يديه ، فما ازداد إلا صمتا وإلا إطراقا . فانقلبت تهزه في عنف : أين ذهب . أين ذهب ؟

وخفض إبراهيم رأسه وهو يطوي بين يديه تلك الورقة التي كانت آخر عهده بصديقه الراحل . ورقة كانت جزءا مذابا من نفس صديقه التعس يودعه فيها الوداع الأخير . كانت على قصرها آلم ما تنفس عنه صدر إنسان : فما وصلته إلا وعليّ قد توسد مرقده الأخير ! ! وهذه أمه تهزه في عنف وتسترحمه يائسة ، ثم تتركه لتهيم على وجهها وفي عينيها ذلك البريق الغريب .

وانطلقت من وقتها تسأل الناس . شهر كامل وهي على حال واحدة ؛ وربما أخطأها النظر مرة فطوقت بذراعيها أحد الفتيان تضمه في لهفة وجزع تحسبه ولدها المفقود !

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليَّ تبعته وحدى ... ... "

لا مركزية — بيوت الطلبة — بين الطفة وعمان ... ...

لا مركزية !

قالوا : لا مركزية فى التعليم ، فما ينبغى أن « تتركز » السلطة جميعاً فى يد وزارة المعارف ، فتدير المدارس جميعاً على نظام واحد ، وفنٍّ واحد ، وإن حاجات المناطق لتختلف ، وإن ألوان التعليم لتتعدد ، وإن لكل معلم فنّه ، ولكل فن نظامه !

قلنا : هذا حق ، فاصنعى صنيعكِ يا وزارة المعارف لنرى ... ...

وصنعتْ وزارة المعارف صنيعها ، فقبضتْ قبضةً من كبار رجالها فنثرتهم فى الأقاليم ، وقالت : كونوا رؤساء ، وكونوا مديرين ، وكونوا إرادةً مستقلةً فى الفن والإدارة ، وكونوا مراكزَ علمية فى كل مركز ، وكونوا سلطة إدارية فى كل إقليم ... ؛ فماذا كانوا ... ؟

قالوا : وتفرق الرؤساء فى المناطق ، وزعم واحدٌ منهم لنفسه أن من حقه أن يجدد ويبتكر ، فابتدع نظاما ووضع خطة ورسم منهجاً ، وكتب إلى الوزارة يسألها الرأىَ فأجابتْ ، وكان جوابها صريحاً قاطعاً : « ليس لك أن تبتدع فى النظام والخطة والمنهج ؛ ذلك حق الوزير والوكيل والمراقب العام ! »

وانهار ركنٌ من أركان « اللامركزية » فى الفن ، وظل التلميذ فى مدرسة « أسوان » يَدرُس على مثل نظام زميله فى مدرسة « رأس التين » !

وقال رئيسٌ آخر لنفسه : لا بأس ، فليكن للوزارة ما تريد فى النظام والخطة والمنهج ، ولا عَلَيَّ أن أنظر فى غير ذلك من شئون الإدارة وطرائق العمل ؛ إن ذلك جدير بأن يحقق غرضا عظيما من أغراض « اللامركزية » ؛ والسلطان درجات ...

... وكتب إلى مرءوسيه يأمر وينهى ، ويقترح ويمنع ، ويمنّى ويُوعد ؛ وحان ميعاد الجزاء والمثوبة ، فلما همَّ بما وعد كتبتْ إليه الوزارة تقول : ولا هذا ؛ إنما أنت عينٌ لا يد ، فليس لك أن تمنح أو تمنع ، فإنما ذلك إلينا ، وما عليك إلا أن ترى وتصف ، ثم تنفذ ما يأمر به الديوان !

وانهـار ركن من أركان « اللامركزية » فى الإدارة كذلك ، وظل « الديوان الصغير » فى طنطا صورة من « الديوان الصغير » فى أسيوط ، لو حلَّ واحد هنا محلَّ واحدٍ هناك لما اختلفتْ طريقته فى العمل بين هنا وهناك !

ورأى « ناظر مدرسةٍ » ما يتعرض له التلاميذ الغرباءُ فى مدرسته من سوء العيش واختلال الحياة ، فرأى رأيا ينقذهم به من التعرض لفساد العيش والخلق ، فلم يملك من

وتنال ما تنال من هزء الناس وسخرية المارة ؛ وربما إشفاق المشفقين ... كانت تقف ساعة البكور من كل صباح إلى دور المدارس ترقب الصبية وصغار التلاميذ وهم يحملون الكتب ، وتروح تنظر إليهم بعينيها التائهتين ؛ وربما ربتت يدها المرتعشة على أقرب تلميذ عربها ، فيولى منها نافراً . ويخلفها تنهمر من عينيها الدموع !

***

وكانت ليلة من ليالى الشتاء مضى أكثرها ، وعلى ضوء مصباح خافت راحت تحملق فى صورة ابنها المعلقة ، وهى مستلقية فوق سريره تتنفس فى ضعف كشبح محطم فى شبه إغماءة ولا تزايل عينها الصورة . ثم حركت رأسهـا قليلا حيث كان إبراهيم واجماً لا يتكلم وتمتمت :

— عرفت أين ذهب .. أتانى البارحة ليلا .. سألقاه .

أجل ... سألقاه ! (كلية الآداب) **ياقوت صبرى**

وسائل التنفيذ إلا أن يكتب إلى « مراقب المنطقة » ، وكتب مراقب المنطقة إلى « المراقب العام » فى الديوان ، وكتب المراقب العام إلى « وكيل الوزارة » ، وكتب وكيل الوزارة إلى « الوزير » ...

... ورأى الوزيرُ رأيه فكتب به — غير وانٍ ولا متريّث — إلى الوكيل ، وكتب الوكيل إلى المراقب العام ، وكتب المراقب العام إلى مراقب المنطقة ، وكتب مراقب المنطقة إلى ناظر المدرسة ؛ فما بلغه الكتابُ إلا والعامُ الدراسيُّ فى أخرياته والطلابُ الغرباء على أهبة الرحيل إلى أهليهم ...

وآل نظام اللامركزية إلى أن يكون « محطاتٍ » يقف بها ساعى البريد من مرحلة إلى مرحلة ؛ وظلت السلطة الفنية والعلمية والإدارية « متركزةً » فى يد الوزير والوكيل والمراقب العام على بُعد المسافة وطول الشقة ووعثاء الطريق .....!

أمِن أجل ذلك أُنشئ نظام « اللامركزية » فى وزارة المعارف ... أم هى أسماء على أضداد ؟ ...

وبلغت « التجربة » غايتها وآذنت بالإخفاق ، فأقرّ وزيرُ المعارف قراره وألغى منطقةً أو منطقتين ، ولعل باقى المناطق سائرة على الأثر ، فينتهى هذا النظام !

***

جميلٌ من وزارة المعارف أن تفكر فى إلغاء هذا النظام ، فليس من حقه أن يبقى بعدُ وما تحققت به فائدةٌ ولا أتى بنتيجة ؛ ولكن من الخطأ أن يتوهم متوهِّم أن هذا النظام هو « اللامركزية » ...

إنما يتحقق معنى « اللامركزية » ويؤتى ثمرته يوم يستقل كل رئيس فى منطقته بالفن والمنهج والإدارة ، ويستقل كل ناظر فى مدرسته بالرياسة والسياسة والتوجيه ، ويستقل كل معلم بين تلاميذه فى الكتاب والخطة والطريقة ، ويستقل كل تلميذ فى درسه بوسائله ومراجعه وطريقته فى التحصيل والتجربة !

اللامركزية هى الاستقلال والإرادة العاملة النافذة ؛ فهى عبث وضلال حين يفرض كل معلم على كل تلميذ كتاباً بعينه فى مادته لا يأذن له أن يستبدل به غيره ؛ وهى عبث وضلال حين يفرض المفتشون جيماً على كل معلم طريقةً بعينها فى تدريسه لا يسمحون له أن يتجاوزها ؛ وهى عبث وضلال حين لا يملك ناظر المدرسة أن يمنح « المجانية » من يشاء من تلاميذه النابهين ويحرمها غيره من الكُسالى والمتبلدين ؛ وهى عبث وضلال حين لا يملك « مراقب المنطقة » أن يرقّى مدرِّساً أحسنَ أو يخفض مدرساً أساء ؛ وهى عبث وضلال حين يقوم فى وهم أحد من القائمين عليها أن معنى اللامركزية هو تقسيم هذه « المناطق » وإنشاء هذه « المحطات » ليقف بها « سعاة البريد » !

ويسألنى سائل : وتضمن لى أن تجد بين رجال التعليم عدداً تسمح لهم كفايتهم وإيمانهم بفنهم وبأنفسهم أن يحملوا تبعة هذا الاستقلال ليقوم نظام « اللامركزية » على ما تريد ؟ ...

ويمنعنى الحياءُ أن أجيب ... ...

بيوت الطلبة !

ذكرتُ فى هذه الأيام ما كان من شأنى وأنا طالبٌ فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة ؛ كنتُ يومئذ فتىً فى باكر الشباب لم أفارق أهلى قبلُ ولم يفارقونى ؛ فلما حان موعد رحيلى عنهم إلى القاهرة لأتمّ ما بدأتُ من العلم وأتزوّد للغد ، دمعت عيناى ... ولكنى كنتُ فرحاً ، لأنى كنت مقبلاً على حياة جديدة ، وحسبُك بها من حياة ، وبما يتراءى من أخيلتها وأوهامها لفتىً فى الثامنة عشرة لم يذق قبلُ لذة « الاستقلال » ولم يحمل تبعته !

وبهرتنى أنوار المدينة — وكانت يومئذ ذات أنوار — فمضيتُ أتنقل فى مراتعها وأستنشى شذاها ، يوماً ويوماً وأياماً ، فلم أشعر بالوحدة ومرارة الاغتراب إلا بعد أسابيع ...

وأويتُ إلى ركنى وحيداً أدبّر أمرى وأتفقّد ما معى وأحصى حاجاتى ، واستطعتُ بعد لأىٍ ما أن أوازن بين

الدَّخْل والصرفِ من غير أن أثقل على أهلي بطلب علاوة ، ولكنْ على حساب أيامي وساعات دَرْسِي . . . وعلى حساب أعصابي !

أين أتناول فطوري ؟ ... هذا أمر صعب التدبير ، وما أيسر على طالبٍ غريبٍ أن يغدو على مدرسته بلا فطور ؛ إن احتمال الجوع ساعاتٍ أخفُّ عليه من الجلوس إلى الطعام وحيداً بين أربعة جدران ، ومن الغُدُوّ على مطعمٍ عامّ في بكرة النهار !

وأين أتناول عشائي ؟ .. وهذا أيضاً أمر صعب التدبير ؛ فإن نفسي لتهفو إلى لون من الطعام إلبي في هذا المطعم ، ولا يحسن صنعَه ذلك المطعم ، وقد تناولته ذاتَ مساء في ذلك المطعم فغثيتْ نفسي ليلةً بحالها وعِفْتُ الطعام يومين !

وقد تقذَّرتْ ثيابي ، فمن يغسلها ويكويها ويُعِدُّها لي نظيفةً أنيقةً على المشجب في الحمّام ؟ ... وهذا أصعب الجميع ؛ فإنه لأهْوَنُ عليَّ أن أشترى ثياباً جديدة فألبسها بشوكها من أن أفكر في الغاسلة والمكوَاة !

. . . وهذا فراشي ، وهذه حجرتي ، وهذا متاعي ، وتلك حقيبتي ، وهؤلاء الضيوف من أصدقائي ، وأولئك الجارات والجيران ... ...

يا لها مَشَاكل !

وضقتُ بالمدرسة ، وبالبيت ، وبالحياة ، ولم يمض عليَّ في القاهرة إلا شهر وبعض شهر ؛ ولكني تجملتُ بالصبر ...

. . . . واتخذتُ زميلاً ، واصطنعنا خادماً يسقينا ويطعمنا ويمهد لنا الفراش ؛ ومضى أسبوع ، أو أسابيع ، وأوشكتُ أن أسيء الظن بزميلي وأوشك . . . حين افتقدت ثيابي ذات يوم وافتقد بعضَ ثيابه ؛ وزعم الخادم أنها طارت من « الغسيل » فوق سطح الدار ؛ وبالطريقة نفسها « طارت » من جيبي ومن جيب زميلي نقود ...

وطردْنا الخادم اللص لنصطنع خادمةً عجوزاً ، فما أقامت بيننا إلا أياماً ثم ودّعناها بسلام ، خشيةَ أن ينالنا ما نال صديقاً لنا كانت تخدمه قبلنا فلم تتركه إلا متهما بريبة !

... إني لأذكر اليوم تلك السنين التي مرّتْ بي في القاهرة منذ بضع عشرة سنة فأسأل نفسي : أكذلك يعيش كل طالبٍ غريب أم هي كانت حياتي وحدي ؟ ...

وإني لأذكر إلى ذلك أصدقاء أعرفهم عرفاني بنفسي وأذكر ما كانوا يصفون لي من حياتهم ، ما يسر منها وما يسوء ؛ وأعرف لهم حادثاتٍ هي جزء من تاريخهم يوم كانوا ، وهي ألوان من حياتهم إلى اليوم وإلى الغد ، لأنهم كذلك تلوّنوا منذ كانوا ... ...

ذكرتُ ذلك كله في هذه الأيام وقد قرأتُ ما نشرت الصحف في هذا الأسبوع عن بيوت الطلبة في القاهرة وفي الإسكندرية وفي قنا ، فتمنّيتُ أمنية ... ...

ليست هذه مهمة وزارة الشئون الاجتماعية وحدها ، ولكنها مهمة وزارة المعارف قبل ؛ إن وزارة المعارف لا تصنع شيئاً إن كان كل ما تصنعه للطالب هو ما تصنعه في المدرسة ؛ إن عليها أن تعرف كيف يعيش كل طالب ، وكيف يأكل ، وكيف ينام ، وكيف يقضي وقت فراغه !

لن يصنع العلمُ شيئاً للتلميذ إذا فسدت نفسه بسوء العشرة ، أو ساءت صحته بسوء التغذية ، أو فسد ميزانه العصبي بسوء التصرف في أوقات فراغه !

ومن أين للتلميذ أن يتقن عمله وإنه لمشغول الفكر والقلب بأشياء لا تتصل بدرسه وعمله ؟

وددتُ لو كان حقا ما سمعت ؛ إذاً لرأيتُ كثيراً من تلاميذنا في حياة اجتماعية تبنيهم بناءً جديداً للغد المأمول ، وتعدّهم إعداداً صحيحا للمستقبل المنتظر ... ولكنها أمنية .. !

بين العقبة وعمان !

بين العقبة وعمان مواقع أقدام النبيين من عهد موسى ، ومعالم آثار البطولة منذ رحلة بني يعقوب ، وجندِ سليمان ، وغُزاة الرومان ، وقادة العرب .. ؛ وإن لها ذكراً في التوراة والإنجيل والقرآن ؛ فكم رجلاً في مصر جشّم نفسه أن يراها وإنها من مصر في مشرق الشمس كل صباح ؟ ...

سؤالٌ سألتُه نفسي وقد قرأتُ ما كتب الأستاذ الدمرداش محمد في العدد ٢٠٤ من الثقافة عن رحلته إليها منذ سنين؛ وإني لأعيد السؤال ثانيةً وفي نفسي معانٍ شتّى: فما أعرف بلداً كمصر يقذفه اليمُّ كل يوم بألوف من الغرباء يجوسون خلاله أو يتخذونه طريقاً في رحلاتهم إلى الشرق والغرب فلا تحرّكُ الغيرةُ واحداً من أهله أو تدفعه إلى شيء من الرحلة في طلب العلم أو طلب المتاع! ... فلولا طائفةٌ من الرُّوّاد لم يشغلهم ما يحملون من تبعات الحياة عن الحماس ووسائل الكشف والرحلة كلما انفسح لهم الوقت، لما عرف مصري أين هو من جيرته وأهله في الشرق القريب.

والرحلة معرفة ولذة ورياضة للنفس والجسد؛ وإن سطراً تخطه الريح السافية على صفحة الرمل في الصحراء لأبقى أثراً في العقل والقلب والخلق من كل ما يسطر العلماء في الكتب والموسوعات!

لو كانت وزارة المعارف تعلم! ... بلى، إنها لتعلم؛ فماذا عليها لو جعلتْ في مناهج التعليم دروساً يتلقاها التلاميذ عن الطبيعة في رحلات مفروضة على كل تلميذ مرةً أو مرتين في العام؟

لماذا لا نحاول أن نستفيد من هذه العطلة الطويلة التي يفرضها الجوُّ على التلميذ المصري ونعمّ مضرّتَها برحلةٍ مفروضةٍ عليه يُفيد منها ما لا يُفيد طول العام من المعلم والكتاب والنظام المدرسيّ الصارم؟

ومن ذاق لذة الرحلة مرةً فقد أَمِن الضلال والمتاهة على طول الحياة!

«قاف»

إدارة البلديات — كهرباء

تقبل العطاءات بمجلس ملوى المحلي لغاية ظهر يوم ٩ يناير سنة ١٩٤٣ عن توريد عدادات كهربائية وتطلب الشروط من المجلس نظير ١٠٠ مليم ٣٣

الصديق أبو بكر

ظفرت المكتبة العربية بكتاب جديد في التاريخ الإسلامي أخرجه الدكتور محمد حسين هيكل باشا.

وهيكل باشا في غنى عن التنويه بواسع علمه، ورفيع أدبه. وكتابه الجديد ليس إلا حلقة من سلسلة آثاره الإسلامية الأدبية التي بدأها «بحياة محمد» و«في منزل الوحي» أتبعها اليوم بكتاب في حياة أهم بناة الدولة الإسلامية بعد الرسول أبي بكر الصديق. وقد وفق في هذا الكتاب كما وفق في سابقيه. تحليل دقيق لشخصية الترجم، وعرض جذاب للأحداث في عصره، ونظرات اجتماعية صادقة لتيارات السياسة الإسلامية في هذا العصر البعيد، في أسلوبه الرائع الشيق، ومنطقه القوى السليم.

ولا نريد بهذه الكلمة إلا تنويها عاجلا بهذا الأثر الأدبي الجديد. وسنعود إليه بعد في تفصيل أوفى، ودراسة أوسع.

عتاب

من الأستاذ أحمد الزين إلى بعض أصدقائه

لا أكتمك – أيها الصديق – ما رابنى فى هذه الأيام منك ؛ مما حمله إلىّ بعض الثقات عنك ، وما تمثله فى أفق مودتك من نذر توعد بالقطيعة ، وبروق تنذر بالفرقة ، وغيوم رقيقة متفرقة أخشى أن تتصل وتتكاثف فتحجب شمس مودتك عنى ، ورياح متراخية الهبوب أخشى أن تشتد وتتعاقب ، فتجتث شجرة الإخلاص من قلبى .

إزاء ذلك لم يسعنى إلا أن أبعث إليك بهذه الأبيات أشافه بها نفسك التى أحسب أنه لا يزال فيها – كما عهدت – بقية من ود ، وأثر من وفاء ، لا خشية من مستقبلك فى مساءتى ، بل أسفاً على ماضيك فى مودتى ، وحرصاً على ما بقى لك فى نفسى من حسن الظن بك ؛ وجميل المعتقد فيك ؛ وإن الأيام التى أودعت قلبينا أشرف ودائعها ، وأقدس أماناتها ، من أخوة كريمة ، ومودة قديمة ، لأكرم علينا من أن نضيع أماناتها بالأوهام ، ونخون ودائعها بالظنون ؛ ونبذل مصونها للوشاية ؛ فنصم أخلاقنا بوصمة الجحود ونكث العهود ، ونتهم نظرتنا فيما مضى بالقصور ، وعقليتنا بسوء الاختيار ، ونلحق بكفايتنا معرة العجز عن احتمال أعباء الوفاء .

ولولا أنى أعلم أن من الصفح ما يكون ذما ، ومن الإغضاء ما يكون زراية على الصديق وتحقيراً لشأنه ، لآثرت أن ألزم ما هو أشبه بى ، وأشكل بخلقى من قلة الاحتفال وعدم المبالاة .

وبعد ، فإن أشكى ما تشكى به الأفئدة المخلصة ، والقلوب النقية ، أن تصاب بما يزعزع ثقتها فيمن توليه إخلاصها وتصفيه مودتها ؛ فأردت بهذه الأبيات أن أرد إلى الثبات ظنى ؛ وأعرفك مكانى منك ومكانك منى .

يا لمجالب توليني مجاهرة
بالشر من كنت محض الخير أوليه

يجزي أوداءه ضيقاً وموجدة
ماذا ادخرت لمن عاداك تجزيه

من كنت أستاف طيباً من مودته
أصبحت من فرط ما يؤذى أداريه

ومن رجوت لدفع البغى مدرأة
أصبحت فى درئه عنى أرجيه

من لا يراميك تنحى بالسهام له
ومن رماك فصحيح لا تراميه ؟

دعوت للبغى من لا يستجيب له
تيهاً وخلق على الباقين ذو تيه

كن كيف شئت فلى خلق أوده
طالت ذراه على من راح يبغيه

أحمد الزين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

الحكم عند الاغريق

الأرستقراطية والديمقراطية ألفاظ منابتها إغريقية

للدكتور أحمد زكي بك

كان نظام الحكم في الإغريق ، أول ما كان ، فيما وصل إلينا علمه من التاريخ ، نظاما ملكيا .

فالعصور الهومرية الأولى كانت عصور حرب دائمة ، ينتظم فيها المجتمع الإغريقي ، وعلاقاتُ الناس بالناس ، والبيت بالبيت ، والمحكوم بالحاكم ، بما يتفق وضرورات الحرب القائمة . وكانت المجموعة السياسية الواحدة — والإغريق مجموعاتٌ عدة — تتألف من أسر ترتبط بروابط الدماء . وكان لهذه الأسر الكبيرة العديدة أشياخ ، وكان على رأس هؤلاء الأشياخ شيخ أكبر يدين له الكل بالطاعة . وكانت تلك المجموعات السياسية مجموعات متنقلة متشيّعة لا اتحاد لها ، فكانت عيشتهم أشبه بأعراب البوادي وإن لم يكونوا في بادية . وكانت أشياخهم كأشياخ الأفخاذ والبطون من القبيلة . وكان شيخهم الأكبر كشيخ القبيلة ، ولكنهم أسموه ملكا ، وأسموا من دان من الأشياخ كذلك ملوكا . فالملك في الإغريق من أول مرة كان ملكا فوق ملوك سواسية ، وقرنا فاق أقرانا .

وكان الملك في تلك العصور الأولى قائد حرب ، وقسيس معبد ، وقاضي أحكام . ففيه ، وفيه وحده ، تركزت كل هذه الواجبات المدنية . ففي الحرب كان يقود الجند إلى الأعداء ، وكان في الطليعة من صفوفهم . وعلى شجاعته في الحرب ، ومكانته في الجند ، بني مجده ، وثبت عرشه . وفي المعبد كان الرسول المشفع بين الناس والآلهة . وكان على الأرجح لكل مجموعة من تلك المجموعات السياسية ، وإن شئت قلت الدويلات ، إله في السماء تختص به ، كما لها ملك في الأرض يختص بها . وكان الملك على الأرض خليفة الإله في السماء . ومن هذا المعنى زاد للملك عرشه توطدا .

وفي ساحة القضاء جلس الملك للناس مجلسا عاما ، فاختصموا إليه فيما يختصم بنو الناس فيه ، مما تتخالف فيه طبائعهم وتتشاجر مصالحهم ؛ فقام فيهم قيامَ الوالد يصلح بين بنيه ، يُغرَض فيه أن يمزج العدل بالرحمة ، ويأخذ الأمور بملابساتها وينظر ما يكون لحكمه من أثر في خير المجتمع الأسروي كله ، فقد كان مجتمعا أبويا ، وإن شئت استخدمت اللفظة الإغريقية فقلت مجتمعا بطريقيا . ولم يكن للملك سُنة في الأحكام يجري عليها ، ولا قوانين ملقنة أو مكتوبة يرد قضاءه إليها ، ولكن كان له ما هو أفضل من ذلك وأهدى : عصمةٌ يستمدها من الآلهة ، تمنع من الزلل ، وتؤمن من العثار . قال هومر : « زيوسُ أعطى الأحكام وأعطى الصولجان » .

وكان الملك ذا إرادة مُطلقة ، ولكن كان إطلاقها نظريا لحسب . فما كان لمجتمع كهذا ، يحيطه الخطر من كل جانب ، وفي كل زمان ، أن يأذن بإطلاق إرادة واحدة فيه . نعم إن الخطر يدعو إلى التوحيد ، والأمن في الحرب يكون في القيادة التي لا يعرفها الخلاف ، ولكنه توحيدٌ كان لا بد من دعمه بالمشورة ، ومده بالرضاء العام . فكان إلى جانب الملك مجلس عضويه مجلس « الأشياخ الحكماء » . وكان للملك أن يستشيره ، وكان له ألا يستشيره . ولكن الحقائق والوقائع اضطرته إلى استشارته حتى صار هذا عرفا ؛ والعرف كالقانون قوة عند الأحزميين . وكأنما الجمهور لم يرضه حتى هذا المجلس أن ينوب عنه . وكان مجلسا ثابتا أعضاؤه ، لأنهم في الأغلب كانوا رؤساء الأسر الأشياخ ، فطلبوا رضاء الناس — وكلهم من حمى الدولة بسيفه ، واشترى حريتها بدمه — بجمعية عامة يحضرها الناس إطلاقا ، وفيها يُتلى عليهم ما استقر الرأي عليه بين الملك والأشياخ في الخطير من الأمور . وكان لهم أن يجيبوا عما

يُعرض عليهم إثباتاً أو نفياً ، أن يجيبوا بنعم أو لا . وما كان لهم أن يناقشوا فيه أبداً .

حدث مرة في جزيرة إيثيكا أن عرض أولو الأمر على جمعية عامة كهذه رأياً أرتآه الملك والأشياخ ، فقام ثرسيتس يريد الكلام والحِجاج . فما كان من أوديسيوس الملك أن ضربه على رأسه بصولجانه ليسكته . فسمَّى بعض المؤرخين هذا المدقوق على رأسه بأول دمقراطى . ولا أدرى ، ألسانه الوثّاب كان هذا ، أم رأسه المشجوج .

وانقضى هذا العهد ، وبدأ عهد جديد ، هو عهد النزحات الكبرى التي نزحها الإغريق غزواً إلى الجنوب ، إلى شبه الجزيرة السفلى التي سموها البلوبونيس . فأحدثت في المجتمعات الإغريقية قلاقل كبرى ، ولكنها لم تمس الملكية من قريب أو بعيد . فكان على الملكية أن تعيش وتمتد أعمارها ، حتى تتأسس في ظلها ، وفي أكنافها ورعايتها ، تلك المدائن الإغريقية الكبرى التي انجمدت عليها جغرافية الإغريق التي عرفنا فيما جاء بعد ذلك من أحداث .

وجعلوا المدائن على الأكثر في سفوح الجبال أو من حولها . وعلى رأس الجبل بنوا قلعة الدولة ، أو الدويلة ، وتضمنت بيت الملك ومعبد الرب (كالأكروبول بأثينا) . ومن حول القلعة بنى الخاصة بيوتهم ليكونوا على مقربة من دار الملك والحكومة . ومن دون هذه بنى سائر الناس دورهم . ومن حول كل هذا أقاموا أسوار المدينة . ومن وراء الأسوار وفي الوديان ذهب الناس لفلاحة الأرض واستنبات الطعام . فإن عدا عليهم عادٍ ، فأطل من وراء الحدود بقرونه ، أسرعوا بالنساء والأطفال إلى رأس الجبل ، إلى مثل مَعقِل السموأل ، إلى المدينة وأسوارها ؛ ثم خرجوا في لباس الجند يحصدون من بعد حصد الأرض حصد الرؤوس .

وكان في هذا الاستقرار النسبي ، استقرار المدائن ، ضياع الملكية الإغريقية ، وضاعت لغير رجوع .

ومن أسباب ضياعها ما كان من هذا النزوح ، فالملكية التي تغيّر ديارها تفقد فيما تخلّف وراءها بعض أسباب القوة التي ألفتها ، وتلك المنازل الحصينة التي اعتادتها . وهي بخروجها عن قديمها تخرج مع سائر الأمة إلى حظ مجهول لا يتكشّف عمّا يُرضي إلا عن حول الملك من أعوان . والملك المطلق في سكنه إلى المعلوم أقل حاجة إلى العون منه عند ارتياده المجهول ، ثم عند ما يؤسس ملكه من جديد بعد ذلك في أرض غريبة ، وفي أجواء ومخاطر جديدة .

ومن أسباب ضياع الملكية ترك حالٍ أكثرها حرب إلى حال أكثرها سلم . ففي الحرب مشغلة للناس عن مناهضة الملك . وفي الحرب امتحانٌ الملك في بأس وشجاعة يشترى بهما المجد الحربيّ وقد كان عند ذلك دِعامة السلطان .

ومن أسباب ضياع الملكية المطلقة تركّز حياة الناس في المدينة ، وألفة الناس للملك الفرْدِ ذي السلطة الواحد . وبحضور الألفة ذهبت المهابة . وبقرب شخص الملك من الجماهير اضمحل إعجابهم به ، لاسيما وقد قل حمل الملك للسيف .

وبتركز الحياة في المدينة تعددت مطالب الحياة ، فلم يعد فردٌ واحد بقادر على استجابتها . فنشأ عن كل هذا أن أخذت واجبات الملك تتوزع على الأشياخ ، حتى صاروا هم والملك سواءً فيما اطلعوا به من أعمال ، إلا اسماً حفظوه له ، مطاوعةً للعرف وحرمة للماضي .

ثم منعوا الملكية أن تكون وراثية ، فصار الملك يُنتخب ليكون ملكاً طول حياته . ثم قصروا الملك على سنين ، ثم قصروه على عام واحد ، حتى صار الملك لا شيء إلا موظفاً أكبر في الدولة ، حتى فاته من صفات الموظف استقراره ودوامه . وحدث هذا تدرجاً ، فكان تطوراً بطيئاً ، لم تبرأ كم سرعته فتصبح اصطداما . فلم تثر له

عاطفة ، ولم تنضب له عادة مألوفة .

وكان لا يعتزل ملكٌ إلاّ كان له مكان في مجلس « الأشياخ الحكماء » ، فصار عضواً من أعضائه . فانتقلت خير كفايات الدولة إلى مجلس الأشياخ ، وصار الثبوت والدوام لهذا المجلس ، وصار الحكم له ، وصار الملك المؤقت طوع أمره ، فإليه مرجعه بعد عام . فكان حكماً جديداً أشبه بالحكم الأرستقراطي ، وهي لفظة معناها حكم الأحسن ، أو حكم خيار الناس ، أو الحكم بالأحسن أو بخيار الناس . وكانوا عندئذ خيار الأسر ، وأثرياء القوم . وكان معيارُ الثراء ما يملك الرجل من أرض

كان هذا الحال في القرن الثامن قبل الميلاد .

وبدأ حكمُ خيار الناس ، أو الأشراف بلمة المعصر ، بالخير . فقد اختصوا بسياسة الدولة دون سواهم ، ولكنهم كذلك أدركوا إدراك صدق ما يعني هذا من واجبات ، واضطلعوا بما طلع لهم في سبيله من مسئوليات . وجعلوا الحكومة مرافق تُعنى بمرافق الناس . والقضاء جعلوا الأحكام فيه على غرار ثابت . وجعلوا من الأحكام قواعد درجوا عليها حتى صارت قوانين محفوظة ، كانت خزائنها صدور الأشراف .

ولكنّ حكماً تختص به أقلية لا يمكن أن يدوم على من ، ولو بدأ خيّراً . ذلك لأن الأقليات ، ولو خيّرة ، حل جراثيم فنائها في طيّاتها . فالمختص بالحكم ، إن عدل لنفسه وللناس ، وجد في الحكم اللذة والمتعة والأمر المطاع ، ووجد كذلك كدّ الواجبات ومرارة المسئوليات . والنفس الإنسانية تأخذ من اللذة طوعاً وطبعاً ، ولا تأخذ من الكدّ المرّ إلا كرهاً وتطبعاً . وما أوشك أن يبقى الطبيع ، وما أوشك أن يذهب التطبيع ، فيصبح الحكم في الأقليات مطالب متع ولذات . وتُنسى الواجبات ويُستخف بالمسئوليات ، فينقلب الحكم الأرستقراطيّ ، حكم خيار الناس ، إلى حكم أُلِجَرْشيّ Oligarchy ، حكم قِلّةٍ من الناس . والحكم الأستقراطيّ حكمُ قِلّة ، وكذلك الحكم الأُلِجَرْشيّ حكم قلة . ولكن الإغريق عنوا بهذا الاسم الأخير قِلّةً تعمل لذواتها ومصالحها وإن ضاعت مصالح الناس ، قلّةً خلاّبة جائرة ، تحلب البقرة وتنسى أن تعلفها ، فإن هي أعلفت أعطت أسوأ الأعلاف .

وحكم القلّة يأتيه السوء من داخله ، فعصابة السوء لا هادي لها من ضمير . وما ضاع الضمير إلا صار الحكم انتهاباً . فليحمل كل فرد في العصبة ما استطاع من أسلاب . وتتصادم المطامع ، ويدب الشقاق ، وفي الشقاق الضعف والفناء .

ثم إن حكم القلّة لا يعدم أن يترك خارج الحظيرة أقواماً ذوي خطر وسلطان ، تؤهلهم أخطارهم لدخول تلك الحلْقة . فيصبح هؤلاء المحرومون مع الزمن مصدر شغب وعنت .

فكل هذا حدث في بلاد الإغريق ، فانقلبت الأرستقراطيات الخيّرة ، إلى ألجرشيات جائرة ، آذنَ جَوْرُها بزوالها .

ومما آذن بزوالها تغير الزمن نفسه ، وتغير حال الناس بتغيّره .

فمن تغيّرات الزمن ما كان في صناعة الحرب . فقد كانت الحرب بادئ الأمر على ظهور الخيل ، والإغريق في الشمال حيث الأرض أكثر انبساطاً . وكان صاحب الخيل صاحب سعة . وكان الفرسان قِلّةً هم صفوة الناس ، وهم أرستقراطية القوم ورجال الحكم فيهم . فلما نزح الإغريق إلى الجنوب حيث الأرض أوعر ، وطلوع الجبال أشق ، تشبثوا بالخيل زماناً ، ثم أدركوا أن الحافر لم يُخلق للجبل ، وأن المحارب أقدر على طلوع الوعر راجلاً منه على ظهر جواده . فصارت الفرسان رجالاً . وبزوال الجياد دخل الجيشَ سوادُ الناس ، وبدخولهم لم يعد لحكم القلة الجائرة رجاء في طويل بقاء .

ومن تغيرات الزمن ما كان من خروج الإغريق عن بلادهم واستعمارهم شواطئ آسيا وأوربا . ففي هذه المستعمرات أثرى الكثير من طبقات الشعب الدنيا . ونشطت المستعمرات التجارة ، لا بين مستعمرات الإغريق والأصول من بلادهم ، بل كذلك بينهم وبين سائر الأمم . والتجارة مصدر للثراء قديم . فكان أن تكونت في العالم الإغريقي فئات جديدة لها قوة المال الكثير ، وليس لها قوة المولد الأصيل ، فكانت بطبيعتها مناهضة للذي كان في دول الإغريق من حكومات قلة كل عمادها أنسابها .

وحاولت حكومات تلك القلات ، لما أحست بدواوين الحكم تهتز جدرانها وترتج سقوفها ، وتهم بالسجود عمدها ، حاولت درء السوء المنذر بالذي لا يتناسب مع خطره . فأما توسع مكاناً بين أعضائها للمحرومين من أهل البيوتات الأخرى . وأما يتبدلون شرط الثراء ، كائناً أصله ما كان ، بشرط النسب إجازة لدخول الحكم . وأما يجعلون لدخوله نصاباً من مال لا يشترك في الحكم من يقل ريعه عنه . ثم هم يرفعون هذا النصاب في دولة حتى لا يكاد يدخل الحكم من الرجال جديد ، إلا أن يحل رجل عصامي ذو مال مكتسب مكان رجل ذي نسب . أو هم يخفضون هذا النصاب في دولة خفضاً كبيراً فتشترك كثرة ذات بال من الشعب في تبعات الحكم . على أنهم وجدوا أن هذا النوع الأخير خير ما أنتجت تلك التجارب من ثمرات ؛ فالنصاب المنخفض من المال فتح الأبواب للسواد من أواسط الناس ، فصار الحكم بهم شيئاً وسطاً ، ليس فيه فساد الترف من نشب أو نسب ، ولا إجرام الحرمان في عوز وجهالة .

ولكن ما نفع الدواء يجيء والجسم قد تمزقت أحشاؤه ، وتحللت أعضاؤه ، واختلطت وظائفه . لقد كان الحكم في هذه الدويلات الإغريقية بلغ من السوء مبلغاً تعطلت فيه الحريات ، وارتبكت الاقتصاديات ، ولبس الموت ثوب الجوع يستأذن به إلى أنفس الخلق . فلم يكن من الثورات بد ، وما أرخص شيء حياة كل رخاص جوع . فقامت الثورة في الدولة بعد الدولة . فانقضى بهذا في نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد عهد الأرستقراطية ، أو إن شئت فالأرلجرشية ، ودخل عهد الدكتاتورية . وفي الدكتاتورية الاستبدادية مخلص إذا عزت الخلاص على ذوى الرأى في الكرب الشداد .

(ما تبعة هنا في المقال القادم) . أحمد زكي

محكمة بندر المنصورة الأهلية

إعلان بيع لمرة أولى

في قضية البيع رقم ٣٧٠ سنة ١٩٤٢

إنه في يوم الأربعاء ١٣ يناير سنة ١٩٤٣ الساعة ٨٫٣٠ أفرنكي صباحاً بسراى المحكمة بغرفة الإيداعات — سيباع بالمزاد العلني العقار الآتي بيانه بعد :

منزل كائن ببندر المنصورة مديرية الدقهلية بقسم رابع البحار بشارع الزعيمى نمرة ٩٥ ملك نمرة ٥ مكلفه ٢٤ ج وتبلغ مساحته ٦٢٫٥٥ متراً ومحدود بحدود أربع الحد البحرى عزبزة فضل الله بطول ١١ متر والشرقى أمينة مصطفى بطول ٥٫٣٠ متر والقبلي حمينة السيد بطول ١٠٫٦٠ متر والغربي شارع إبراهيم الزعيمى الباب بطول ٥ متر وهذا المنزل مكون من دور واحد . على أودتين وفسحة فضاء ومحاط بحائط بالطوب الأحمر ووارد . الساخة المحلية

وهذا البيع بناء على طلب أنيسة ميخائيل بحيث بشارع الزعيمى الحسينية بالمنصورة ضد جرجس داود نصر الله بشارع الزعيمى الحسينية بالمنصورة وفاء لمبلغ ٣٤ جنيها و ٤٠٠ مليم وملحقاته من مصاريف وفوائد تستجد بثمن أساسى قدره ستون جنيها

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة في القضية نمرة ٣٧ سنة ١٩٤٢ بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ومسجل بمحكمة المنصورة الابتدائية الأهلية بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٢ تحت نمرة ٦٦٩ جزء ٧٩

وجميع الأوراق بملف الدعوى بقلم الكتاب لمن يريد الاطلاع عليها فعلى راغب الشراء الحضور في الزمان والمكان المحددين بعاليه

كاتب البيوع

مسرحية «سهـــاد»

أدب تيمور أدب ممتاز ، نخاله ، نحن أبناء هذا الجيل ، مقوِّماً جوهرياً في حياتنا الروحية . فإنا قد وجدنا فيه ، لأول مرة ، صورة حية كأقوى وأزخر ما تكون الحياة ، وإن اتسم بهدوء ناصع لا ضجة فيه ولا إزراق ؛ فما هذا الهدوء إلا أثراً للتوازن الناشيء عن فرط التوتر والخصب والغليان ، كهدوء التمثال اليوناني ؛ وسرت إلى أنفاسنا منه نسمةُ الواقع المؤثر في النفس أكثر من الخيال ، الواقع الحي الذي سرعان ما يستحيل إلى تجربة روحية تهتز من مغالبها النفس لشدة قربه إليها ، ودقة إفصاحه عما ينبعث فيها من عواطف وأحساس ، الواقع الذي كشف لنا فنه عما فيه من روح أسيانة تدرَّت كلَّ ما يخترعه الخيال . وكم في الواقع من سحر وروعة تفوق ما عسى أن يأتي به كلُّ خيال !

أدب رأيناه ، لأول مرة ، قد خلا من بهرج الصنعة الزائف ، فجاء النمطَ العالي من الفن الرفيع ؛ فهو البساطة بعينها ، البساطة المقدسة التي تبلغ حد السذاجة التي أشاد بها شيلر ، وعني بها الانسجام السامي مع جمال الطبيعة البسيط . صورٌ مألوفة ، وألفاظٌ معتادة ؛ ولكن كم يستخرج لنا منها تيمور قوى كامنة ، تُبعث في النفس كذكريات أليفة لماضٍ قد تناسيناه من زمان طويل ، وخُيِّل إلينا أنه ذهب ، بينا لا يزال حياً قوياً في اللاشعور ، أي في كياننا الروحي المحقق !

أدب روائي بطبعه : سواء اتخذ صورة القصة ، أو شكل المسرحية . فهو عرض مسرود لشخصيات جذابة تستهوي النفوس ، نظراً لما في أوصافها وقسماتها من واقعية وألفة ؛ ليس فيه أفعال صاخبة مركزة حول شخصية تأتلف كل الأحداث حولها وتنبع منها ، كما هي الحال في المسرحية بالمعنى الدقيق ؛ وإنما به لمحات سريعة ، ولكنها دقيقة عميقة ، لعواطف قوية بقدر ما هي ساذجة . والشاهد الصادق على ما نقول مسرحيته الأخيرة « سهاد » (أو اللحن التائه : مسرحية عربية بالفصحى في ثلاثة فصول . طبع الحلبي . القاهرة سنة ١٩٤٢) .

« فسهاد » مسرحية وجدانية غنائية من نوع ما خلفه لنا ألفرد دي موسيه : نوع خلا من الصنعة المسرحية الدقيقة بالمعنى المحدود ، ولكن فيه عرضاً لشخصيات حبيبة إلى القلوب ؛ ولكنه يُحرك فينا عواطف تنفذ في يسر إلى الأعماق ، لأنها انبعثت عن نفس في انسجام مع الطبيعة الإنسانية الصافية ؛ أو على غرار ما فعله جرهَرْت هَوبْتمن ، الشاعر المسرحي الألماني المعاصر ، في مسرحية « صراع هنيلة » : فيه فصول غنائية شعرية ، وكنت أقول صوفية .

فها هي ذي « سهاد » الأميرة العربية التي توفي عنها زوجها في ميعة العمر : فتاة حالمة لم تُفق من حُلمها — ولا أحسبها ستفيق منه — حالمة كهذا البدر الساهم الراقد على رمال الصحراء التي أحبتها سهاد حباً صادراً عن صلة الدم التي تربط بينها وبين الصحراء ، فلم يَعُد في وسعها أن تغادرها إلى المدينة ، مدينة بغداد التي تستهوي نفوس المتحضرين المتأصلين ، أمثال « مجاهد » ، الذين اباعوا بنفوسهم البيئة الصافية نقوداً مزيفة ، بل فاسدة ملتوية جشعة ، تنفر من الحياة ، أعني الخداع والنفاق والمناورات ، هنا صراع بين المدينة ، المدينة التي أصبحت عالمية بعد أن انبسط ظل الخلافة على رقعة من الأرض شاسعة الأرجاء ، ولهذا فإني أظن أن تاريخ حوادث هذه المسرحية يمكن أن يحصر في القرن الثالث الهجري ، ولو أن المؤلف لا يحدد لمسرحيته زمناً . نقول إن هنا صراعاً بين المدينة العالمية التي زودت ندامها الجديد كي تجتذب إليها الترس فتطبعها

بطابعها ، وبين البادية ، أى بين الروح الحضارية الجديدة وبين الروح البدوية العربية السليمة الفطرة . ويبدو أن هذه الروح الأخيرة قد انتصرت فى المسرحية ، وإن كانت هزمت فى واقع التاريخ : فسهاد تأبى أن تنتقل إلى بغداد على الرغم من نداءات الخليفة المتكررة ؛ ومجاهد الذى باع نفسه الطاهرة ، يندم فى النهاية مرّ الندم على تلك الصفقة الخاسرة — وأقول الصفقة بلغة التجارة ، لأن المدينة قد استهواه فيها الثراء والجاه المقوّم بالمال ، وما كان شراؤه لنفسه الجديدة إلا صفقة تجارية عقدها أو عقدتها له المدينة العالية ، مدينة بغداد ؛ وسيف الدين الخراسانى ، الذى أفسدته المدينة لدرجة لا يرجى له بعدها صلاح ، قد أخفق ومنى بالخيبة الشنيعة حين تقدم لخطبة سهاد ملوحاً بثرائه ونفوذه . والفضل فى هذا الانتصار لسهاد وحدها : فهى التى أنكرت على مجاهد ، ذلك الطائر الغرد الذى كانت ألحان صفارته تردد دائماً فى قلبها ، وتجد فيها عنواناً على حبيبها الذى تنشده ، ومثلها الأعلى فى الرجل الذى تسمى مرة ثانية للزواج به ، نفسه الجديدة التى استعارها من روح المدينة ؛ وكان لا يزال به بقية من نفسه القوية الطاهرة ، بقية كانت ، ويا للأسف ، مذكرة له بما أضاعه ، ولم تكن قوية قوة تقهر بها نفسه الجديدة ؛ فخر صريعاً لحياته لحقيقة نفسه ، يندم ولات ساعة مندم ! وسهاد أيضاً هى التى رفضت يد سيف الدين ، وقد ظنها واحدة من أولئك النسوة أو الفتيات الفاطنات اللائى ممن تغريهن أو تذهب بلبهن ، الثروةُ أو الجاهُ أو المنصبُ العريض ؛ ولكنه يجد نفسه أمام فتاة (ونقول فتاة ، وإن كانت أرملة ، لأن روحها لا زالت شابة فتية) طاهرة النفس لم تتلوث بعد بأدران المدينة ولم تخضع لسحر إغرائها .

شخصية فاتنة إذن ، سهادُ هاتيك . روحها روح شعرية خيالية ، فلا تطرب إلا لغناء البلبل ، فتغادر المائدة والقوم جلوس حولها ، المائدة التى تدل بصخبها وعربدتها على روح المدينة المتأصلة ، لكى تستمع إلى غنائه فى الساعة التى اعتادت سماعه فيها كل ليلة . حركة بسيطة ساذجة ، ولكن كم تحمل من معان عميقة رائعة ! وهكذا فن تيمور ، وهكذا كل فن مُوحٍ رفيع : لمحات ولمح وإشارات ، كلها مشحونة بالمعانى الكبيرة . ونفس سهاد لم تعد تسكن إلا لسحر الطبيعة البسيطة فى الصحراء العربية الفاتنة . فلا يكاد سيف الدين يقول : « ما أطيب الليل » ، حتى تندفع سهاد « فى نشوة » (وكم فى هذا الوصف من تعبير !) قائلة : « حقاً ما أطيب الليل ... سكونه الوديع ... سره الساحر ... غموضه الجذاب ... أحلامه العِذاب ! » (ص٦٧) . ولِمَ لا تطرب لليل ، وإن بينها وبين الليل وشائج موصولة ، كما تقول ؛ وإن روحها الشعرية هائمة فى الخيال ؟! وهنا نجد حواراً رائعاً ، وفق فيه تيمور كل التوفيق ، بين روحها الشعرية وبين روح مجاهد ، الواقعية العملية ، روح رجل الأفعال والأعمال . هنا صراع بين روح الفنان وروح رجل الأعمال . بين الحياة كما نحلم بها ، وبين الحياة الواقعية القاسية الجبارة ؛ الأولى تمثلها سهاد ، والثانية يمثلها مجاهد . وكلاهما لا يفهم الآخر ؛ وسيظل عدم إمكان التفاهم بين كلا الروحين أبد الدهر ، فهذا صراع أبدى بين قطبين متناقضين تحملهما الحياة ؛ داخل نفسها ، ولا سبيل مطلقاً إلى التوفيق بينهما . وفى الحركة البسيطة التى أشرنا إليها ، حركة مغادرتها المائدة وضيوفها جلوس إليها ، تمثل فى روعة هائلة هذا الصراع الأبدى . فزياد يدهش من حركة سهاد هذه ، ومجاهد يؤمن على كلامه قائلا : حقاً شأنها عجيب ! ويتضاحك هازئاً حينما تعود معتذرة من غيابها بأنها ألفت أن تحضر البلبل بساعة كل ليلة . حركة من جانبها ، وتضاحك من جانب مجاهد ، أى فن فى هذه الإشارات البسيطة ! بإشارة أو لمحة يصف تيمور شخصية بأكملها . وهل يمكن أن توصف شخصية أبية ، عربية سهاد ، ومن مجوز فى

الستين من عمرها ، بأدق مما فعل تيمور حين جعلها تقتحم على سهاد ومجاهد ذلك الحوار الرائع بين الفنان ورجل الأعمال ، و « تتثاءب في شكل بشع » ؟ إن في هذا التثاؤب البشع لأدق تصوير لشخصية أميمة ، تلك المرأة المسنة المحنكة التي وضعت نفسها موضع الأم لسهاد ، فراحت تنصب الشباك لمن تحسبهم — بفطرة الأمومة المدربة — أهلاً للزواج بها . وفي حركاتها الفجائية العصبية بعض الشيء ؛ وفي فضولها المقتحم ، النافع أحياناً في إعطاء الحركة والتنوع للحوار ؛ في هذا كله دقة في تصوير الواقع تكشف عن براعة نادرة قلما نعثر عليها عند الفنانين المصريين المعاصرين . والواقع أن براعة تيمور في تصوير الشخصيات بدقة في لمحات وإشارات بسيطة ، لا نكاد نجد لها مثيلاً إلا عند كبار الفنانين الأوربيين . وهي ناحية نريد أن نبرزها في تيمور وأن نهنئه من أجلها أحر التهنئة .

وشخصية مجاهد شخصية مزدوجة ؛ ولا نقصد بالازدواج هنا الازدواج في آن واحد ، بل نقصد أن له شخصيتين متتاليتين في الزمان . الأول شخصية الشاعر الفنان الذي سحر سهاد بأنغامه الرائعة التي كان يبعث من مزماره في جنح الليل ، وقد تسلل إلى حديقتها لا تراه . وكان يبدو لها إذن ذلك الطور « طيفاً علوياً من عالم الأحلام ، ونغمة عذبة يتوضح فيها الفن والجمال » (ص ١٠٦) . ولكنه باع روحه للساحر ؛ لأي ساحر ؟ لا يحدثنا المؤلف من هو هذا الساحر ؛ وليس من العسير أن نكشف من هو : إنه المدينة بما فيها من رواء وزخرف ، وما تغري به من سلطان وجاه ، وما تلوح به من ثراء ويسار . وهذه هي الوحوش التي يقول لنا تيمور إنها أكلت روح ذلك الفنان الذي هامت به ، أي روح «مجاهد» الأول . وهنا نشير إلى الرمزية التي يعمد إليها تيمور كثيراً في قصصه ؛ وهي رمزية بارعة حبيبة إلى النفس ، لأنها لا تغرق في التلميح والإلغاز ؛ ولا يقصد بها إلى التعمية ؛ وإنما يريد بها أن يعطي صوراً حية عيانية تكشف في تيمور عن فنان من الطراز الأول في طريقة الأداء .

ويصور لنا المؤلف هذا الانقلاب الذي حدث في شخصية مجاهد في قول سهاد « في حسرة » (ونود أن ننبه دائماً إلى هذه الإشارات البسيطة) ، حين حاول مجاهد عبثاً أن يقول لها إنه لا زال ذلك الفنان الذي خلب لبها وأحبته ، نقول إن المؤلف يصور لنا ذلك في قول سهاد : « الفنان الفقير باع روحه السامية الصافية ، واشترى بها رخيص الجاه ! » (ص ١٠٥) وقد حسب مجاهد أنه بهذا الجاه سيشتري حبها — على عادة فتيات المدينة — ؛ ولكنه أخطأ ، لأنه كان هنا أمام امرأة لم تلوثها المدينة بعد ، فصاحت حين سمعت منه هذا القول : « يا للخسران ! » كلمة قاسية عبرت بها عن كل ما تحمله نفسها من نبل وطهارة ، قاسية على مجاهد الجديد الذي أنكرته هي من أعماق قلبها ، والذي شعر حينئذ بهول ما ارتكبه من خطيئة حين باع روحه الشاعرة الفنانة واشترى بها روحاً مادية عملية ، لم تعد تفهم الحب ولا العواطف النبيلة ، بل أصبح كل شيء لديها تجارة أو طمعاً في الجاه والسلطان . وهي ، أي شخصية مجاهد ، من أجل هذا مؤثرة إلى أقصى حد ؛ نشعر نحوها بالعطف والرثاء ، ولا نخلو أيضاً من إعجاب بما بقي فيها من شهامة ورجولة ، لعلها أن تكون الآثار الباقية من نفسه الشاعرة النبيلة ، إذ لا يتصور أن تكون هذه قد ذهبت إلى غير رجعة ولم تترك أثراً .

وهذا التناقض في شخصيته هو الذي يعطي هذه المسرحية طابعها الدرامي ، وكنت أقول التراجيدي . ففيه تقوم العقدة ، وعند اكتشافه تبلغ أوجها المسرحي .

ولقد يحار الإنسان بعض الحيرة فى تحديد البطل الحقيقى فيها ، أهو مجاهد أم سهاد ؟ وإن كان عنوان المسرحية يغرينا على ترجيح سهاد . أما الشخصيات الأخرى فبعضها لا يثير العطف كسيف الدين ، الذى يكاد المرء أن ينفر منه نفوراً ؛ وبعضها يثير الهزل الصاخب كهذين القزمين أقيش وقرطبش ، اللذين يكفى مجرد اسميهما لإثارة التهريج ؛ والبعض الثالث رشيق حتى الابتسام مثل أمينة ، مربية سهاد . وتيمور بارع فى الفكاهة الرشيقة التى تثير ابتسامة فيها عطف رقيق .

تلك مسرحية تيمور الجديدة فى ملامحها العامة . وإذا كان لدى شىء أقوله بعد هذا التحليل ، فذلك أن أهيب به أن يعنى بالمسرح كثيراً ، وبالقصة أكثر ؛ وأن يزيد من وصف المناظر الطبيعية والملامح الخارجية للأشخاص ، حتى يبدوا أكثر حياة وأظهر هيئة وقواما ؛ وأن يتفضل فيتقبل منا إكليل الإعجاب .

عبد الرحمن بدوى

إيطاليا فى إفريقيا الشمالية

(بقية المنشور على صفحة ٤)

كأنهم لا يزالون فى أوطانهم الأصلية . ولا شك فى أن موقف إيطاليا هـذا كان ينطوى فى ذلك الوقت على شىء كثير من التساهل ؛ ويعزى هـذا إلى أن وزير خارجية فرنسا الذى تم هذا الاتفاق على يديه وهو المسيو لافال قد أوعز إلى إيطاليا فى أثناء المفاوضات بإطلاق يدها فى الحبشة وأملها أيضاً ببعض التأييد . وبالرغم من إنكار المسيو لافال لهذا فيما بعد ، فإن مسلكه فى عصبة الأمم وقت الغزو الإيطالى للحبشة يؤيد هذه النظرية كل التأييد .

على أن الحوادث أثبتت أن قبول إيطاليا لهذا الاتفاق لم يكن إلا قبولا مؤقتاً أملته الظروف التى أثارت مخاوفها من نحو ألمانيا . ولكن هذه المخاوف قد تبددت فيما بعد ؛ ووقفت ألمانيا فى أمر الحبشة موقف الحياد التام . وعرفت لها إيطاليا هذا الجميل ، ثم اشتركت الدولتان فى الحرب الأسبانية الوطنية . وتأسس محور برلين روما فى خريف عام ١٩٣٧ . ولم تلبث إيطاليا أن أخذت تتحدث عن أغراضها مرة أخرى فى إفريقية الشمالية . وازداد صوتها ارتفاعا وقوة بعد تأسيس المحور . وحاولت فرنسا مراراً ؛ الحرب الحاضرة أن تصل إلى تفاهم جديد خاص بتونس ولكنها لم تفلح ، وكان من البديهى أنها لم تعد ترضى رضيت به من قبل . وعندما دخلت الحرب الحاضرة فى يونيه سنة ١٩٤٠ لم يكن من المعقول فى حالة انتصار المحور أن ترضى إيطاليا بأقل من الاستيلاء على تونس كلها .

هذه خلاصة موجزة لما ينبغى فى لغة السياسة المصالح الإيطالية فى إفريقية الشمالية ، أوردناه هنا بمناسبة الحوادث التى أخذت تدور فى تونس ، وقد باتت اليوم ملتقى الأنظار من جميع الأقطار .

محمد عوض محمد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكردانى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٣٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٠٨ — الثلاثاء ١٤ من ذى الحجة سنة ١٣٦١ — ٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــــدد

الزراعة فى روسيا

للأستاذ محمد مصطفى الغراوى

يتعجب الكثيرون من صلابة الروسيين فى كفاحهم الحالى ضد النازيين ، ومما يعانون من الصعوبات العديدة التى تعترض سبيلها من جراء الحرب . إن إحدى تلك الصعوبات بلا شك هى مشكلة الزراعة فى روسيا .

ينبغى لدولة تقاسى ويلات تلك الحرب الشعواء ألا تقصر اهتمامها على إنتاج أسلحتها فقط ، بل تنظر إلى أهمية إنتاجها الزراعى أيضا . قد رأينا جميع الدول التى تحت سيطرة النازيين كيف تقاسى أزمات إنتاجها الزراعى وكيف ينزع من الفلاح حصاده الضئيل . أما روسيا فقد ابتدأت الاهتمام فى حل مشكلاتها الزراعية خلال العشرين عاما الماضية حيث كانت أولى الدول التى رأت أهمية نظام توزيع الزراعة فى جميع أنحاء البلاد ، واستغلال الأراضى البور بقدر المستطاع ، وجعلت لكل منطقة حقولها بخضرواتها وزبدها وألبانها وماشيتها وغلالها حتى تستطيع (كل منطقة) أن تستقل بقدر إمكانها فى محاصيلها الزراعية .

لا شك أن روسيا قد خسرت فى الوقت الحالى من أراضيها جزءا لا يستهان به من الوجهة الجغرافية ، ولكن لم تزل هناك مساحات لا حد لها تموّن الشعب السوفياتى من حيث لوازمه الزراعية . استغلت روسيا جزءا متسعاً من أراضيها الصحراوية التى تتجاوز سبع مساحتها ،

وما علينا إلا أن نلقي نظرة على دولة التركمان إحدى دول الاتحاد السوفياتي التي تقع شرق بحر قزوين ؛ تلك المنطقة مثلا كانت تُسكن منذ ٢٠ عاما بالقبائل الرحالة ، فأصبحت اليوم بفضل مجهود سكانها مجزءة إلى حقول مثمرة بعد أن حقق المهندسون والجغرافيون السوفياتيون مشروع تحويل مجرى نهر الأموداريا لأغراض الري ، فقد تحول مجرى ذلك النهر عن طريق صميم قلب الصحراء ، وبذلك أتى معه بالأشجار والحقول والخضراوات ، وأنشئت على ضفتيه بلاد بأكملها حيث استقرت فيها نهائيا الجماعات التي كانت في الماضي رحالة يتمتعون بكافة حقوق البلدان المتمدنة . أما في شمال سيبيريا وخاصة في منطقة شبه جزيرة كولا ، وعلى شواطئ المحيط المتجمد التي لم تكن منذ عشرين عاما إلا أراضي متروكة طوعا للعواصف الثلجية ، أصبحت تنتج اليوم وتورد إلى البلاد الصناعية المجاورة كميات وافرة من الخضروات . وفي منطقة مرمانسك استطاع الخبراء السوفياتيون زرع وتربية نوع جديد من غلة القمح ، وخلال فصل الصيف القصير حيث تستغل أشعة الشمس في تلك المنطقة لإنتاج أنواع جيدة منه .

كانت تستخدم روسيا منذ عشرين عاما الأساليب المتأخرة لاستغلال أرضها . استعملت في الماضي أداة الزراعة الأولية كالمحراث الخشبي وغيره ؛ وكان محصولها الزراعي بطبيعة الحال ضئيلا جدا . أما اليوم فتطورت تلك الأساليب واستعملت أحدث الآلات الزراعية . اليوم تستخدم روسيا مئات الآلاف من المحاريث والجرارات الميكانيكية وآلات الحصد وجميع ما تستلزمه الزراعة الحديثة ، وحتى الطائرات التي ترتفع فوق الحقول كالنسور الجبارة كي تبذر مساحات تتجاوز مئات الأفدنة في وقت يسير جدا . أما المزارع النموذجية فأسست الحكومة السوفياتية مئات منها كي ترشد الفلاحين عن كيفية الزراعة ، وأكثر من عشرين ألف معمل ومحطات اختبارية تشغل آلاف العلماء والإخصائيين الزراعيين .

قام الشعب السوفياتي لأول مرة خلال العشرين عاما الماضية بتحقيق أكبر مشروع زراعي عرفه البشر ، والذي كلل بالنجاح ، وهو تأسيس المزارع التعاونية المشتركة المعروفة باسم الكلكوز . ابتدئ بإنشاء تلك المزارع في سنة ١٩١٨ ، ثم انتشرت في أنحاء البلاد حتى قدرت بالآلاف في سنة ١٩٣٠ ، وتجاوزت في عام ١٩٣٩ مائتين وخمسين ألفا ؛ وهذا خلاف أربعة الآلاف مزرعة التي تديرها الحكومة السوفياتية ، تتعاون أعضاء كل مزرعة في إنتاج كميات وافرة من أجود المحاصيل الزراعية من أقطان وقمح ، خلاف اللحوم والألبان والزبد والزيوت الصناعية الخ . . . وقد وردت الحكومة السوفياتية لتلك المزارع أكثر من نصف مليون من المحاريث الميكانيكية وستون ألف آلة حصد ، ومجموع آخر من الآلات الزراعية الحديثة المختلفة ، وهذا خلاف السماد والبذور المتنوعة .

يشترك في إدارة تلك المزارع الإخصائيون الزراعيون والمهندسون والعمال الماهرون ، والبيطريون الذين تخصصوا في المعاهد والكليات الزراعية والصناعية التي أنشئت . وأصبحت اليوم كل مزرعة كمدينة صغيرة بها مدارسها ومكاتبها العمومية ونواديها ومستشفياتها ودار السينما ومحطات الإذاعة .

قد وضعت روسيا برنامجا زراعيا هاما ، وأخذت على عاتقها تعليم الفلاح كي يدرك معنى الزراعة العلمية . ويرشد رجال العلم آلاف الفلاحين لتشجيع روح التجديد والبحث . وهذا هو سر نجاح بلاد الروسيين التي تطورت وأصبحت ضمن أحدث الأمم الزراعية في العالم .

محمد مصطفى الغراوي
بكالوريوس زراعة

فى العيـــــد

أدب الابتهال

هذا العيد الأضحى موسم الابتهال — ابتهال الحجاج فى حجهم ، وفى طوافهم وسعيهم ، ووقوفهم بعرفة ، وابتهال المسلمين عامة فى صلاة العيد ، وعقب كل صلاة فى أيامه وقد لفتنى هذا إلى نوع من الأدب راق جداً فى الأدب العربى ، ولكن لم يلتفت إليه مؤرخو الأدب ، أحببت عرض نماذج منه لتتبين قوته وروحانيته وبلاغته .

والابتهال فى اللغة التضرع ، والاجتهاد فى الدعاء ، والإخلاص لله فيه ؛ ومن ثم استمد روحانيته وقوته من موقف المبتهل حيث يتحرر من شؤون الحياة الدنيا وأعراضها ومشاكلها ومشاغلها ، ويتفرغ إلى ربه ويناجيه ، ويسمو عن المادة وحقارتها ؛ فكان بذلك أدب روح لا أدب مادة . وقد صدر هذا الأدب فى العصور المختلفة من عصر النبى (ص) إلى اليوم ، كلما شعر الإنسان بعجزه لجأ إلى ربه ؛ وهو موضع دراسات طريفة فى تطوره ونواحيه .

فمن ابتهالات النبى (ص) اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ومنها :

اللهم اهدنى لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، وقنى سيئ الأعمال وسيئ الأخلاق ، لا يقى سيئها إلا أنت .

ومنها :

اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعثى[1] وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء .

ومنها :

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا .

ومنها :

اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع .

ومن ابتهالات علىّ بن أبى طالب .

اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك[2] ، تشاهدهم فى سرائرهم ، وتطلع عليهم فى ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ، ومصادرها عن قضائك . اللهم إن فههت عن مسألتى أو عميت عن طلبتى ، فدلنى على مصالحى وخذ بقلبى إلى مراشدى ، فليس ذلك بنكر من هداياتك ، ولا بدع من كفاياتك . اللهم احملنى على عفوك ، ولا تحملنى على عدلك .

ووقفت لأبى حيان التوحيدى على جملة ابتهالات فى الغاية من الجودة والحسن والقوة أقتطف منها ما يمثلها .

فمنها :

(١) تلم بها شعثى : تجمع بها متفرق أمرى .

(٢) أى أشد النصراء حضوراً بما يكفى المعتمدين عليه .

« اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكُّل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الذل إلا في طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ؛ وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي والشكر على نعمتك شِعاري ودثاري ، والنظرَ إلى ملكوتك دأبي ودَيْدني ، والانقياد لك شأني وشُغلي ، والخوفَ منك أمْني وإيماني ، واللياذَ بذكرك بهجتي وسروري » .

ومنها :

« اللهم إليك أرفع عُجَري وبُجَري[1] ، وبك أستعين في عُسْري ويسري ، وإياك أدعو رَغَبا ورهَبا ، فإنك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ، وصرف الدهر ، وتلوّن الصديق ، وانْقِسَة الثقة ، وقُنوط القلب وضعف المُنّة ، وسوء الجزع ؛ فَقِني اللهم ذلك كلَّه ، واجمع من أمري شمله ، والظِم من شأني شتيته ، واحرُسْني عند الغِنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من الحسرة ، وعند الراحة من الفُسولة[2] ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان . وأسألك أن تجعل صدري خِزانة توحيدك ، ولساني مفتاح تمجيدك ، وجوارحي خدم طاعتك ، فإنه لا عز إلا في الذل لك ، ولا غنًى إلا في الفقر إليك ، ولا راحة إلا في الرضا بقَسْمك ، ولا عيش إلا في جوار المقربين عندك » .

ومنها :

اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا ، وغِلَّ صدورنا ، وفتنة أنفسنا ، وطموح أبصارنا ، وزَمَّت ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، ولحش نَجاجنا ، وقبح دَعْوانا ، وتَزَوُّقَ ظاهرنا ، وتمزُّقَ باطننا — اللهم فارحمنا وارأف بنا ، واقبل الميسور منا ، فإنا أهل عقوبة وأنت أهل مغفرة ، وأنت بما وصفت به نفسك أحقُّ منا بما وصفنا به أنفسنا — ومن قبل ذلك وبعده ؛ فأطِبْ عيشنا بنعمتك ، وأرح أرواحنا من كدّ الأمل في خَلْقِك ، وخذ بأزِمَّتنا إلى بابك ، وأذقنا حلاوة قربك ، واكشف عن سرائرنا سواترَ حُجُبك ، ووكِّل بنا الحَفَظة ، وارزقنا اليقظة حتى لا نقترف سيئة ، ولا نفارق حسنة ، إنك قائم على كل نفس بما كسبت ، وأنت بما نُخفي وما نعلن خبير بصير .

ومنها :

اللهم أنت الظاهر الذي لا يَجْحدك جاحد إلا زايلَتْهُ الطُّمأنينة ، وأسلمه اليأس ، وأوحشه القنوط ، وتردَّد بين رجاء قد نأى عنه التوفيق ، وأمل قد حُفَّت به الخيبة ، وسرٍّ قد أطافَ به الشقاء ، وعلانيةٍ قد ألقى عليها البلاء ؛ عقله عقلٌ طائر ، ولبه لب حائر ، وحكمه حكمٌ جائر ، لا يروم قراراً إلا أزعج عنه ، ولا يستفتح باباً إلا أُرْتِجَ دونه ، ولا يقتبس مَرَاماً إلا أُجْبِج عليه ؛ عثرته موصولة بالعثرة ، وحسرته مقرونة إلى حسرة ؛ إن سمع زَيَّف ، وإن قال حَرَّف ، وإن قضى جَزَّف ، وإن احتجَّ زخرف ؛ ولو فاء إلى الحق لوجده ظليلاً ظليلا ، وأصاب تحته مثوًى ومقيلا . . . وأنت الذي ملك يَدل عليك الأسماعَ والأبصار ، وحكمتك تُعجِّب منك الألباب والأسرار . لك السلطان والملكة ، وبيدك النجاة والهلكة ، فإليك المفر ومنك المقر ، ومنك صنوف الإحسان والبر — أسألك بأصح سرٍّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة ، وأتمّ إخلاص ، وأشرف همة ، وأفضل نيّة ، وأطهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تَصُدَّ

(١) العجر والبجر : العيوب والأحزان وما أبدي وما أخفي .
(٢) الفسولة : ضعف المروءة .

عن كل ما يَصُدُّ عنك ، وتصلنى بكل ما يصل بك ، وتحبّب إلىّ كل ما يحبّب إليك ، فإنك الأول والثانى ، والمشار إليه فى جميع المعانى ، لا إله إلا أنت .

ومنها :

اللهم إنى أسألك جِدًّا مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عريًّا من الرياء ، وقولاً موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى رَوح بال ، وسكونَ نفس موصولاً بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدةً من مرض شبهة ؛ حتى تكون غايتى فى هذه الدنيا موصولةً بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتى عندك محمودةً بالأفضل فالأفضل . حياة طيبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلّغ إليه . اللهم لا تخيّبْ رجاءً هو منوط بك ، ولا تُصْفِرْ كفًّا هى ممدودة إليك ، ولا تعذّب عينًا فتحتها بنعمتك ، ولا تذل نفسًا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلاً هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تُخرِسْ لسانًا عوّدته الثناء عليك ؛ فكما كنت أوّلاً بالتفضل فكن آخراً بالإحسان ، الناصية بيدك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقع منك ، والصير على كل حال إليك ؛ أَلبِسْنى فى هذه الحياة البائدة ثوب العصمة ، وحَلِّنى فى تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، إنك على ذلك قدير .

ومنها :

اللهم أعِذْنا من جشع الفقر ، وريبة المنافق ، وتحليج[1] المعاند ، وطيشة المتحول ، وفترة الكسلان ، وحيلة المستبد ، وفتور العقل ، وحيرة المتخرج ، وحسرة المخوج ، وقلة المدهول ، وحُرقة الثكول ، ورقبة الخائف وطمأنينة المغرور ، وغفلة المغرور ، واكفنا

(١) التحليج : المكابرة .

مؤنة أخٍ يَرْصُد مسكوناً إليه ، وعَكَرُ موثوق به ، وبَخِيس[1] معتمداً عليه — وغلّبْ إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان ، واحرسنا من أنفسنا فإنها ينابيع الشهوة ومفاتيح البلوى ، وأرنا من قدرتك ما يحفظ علينا هيبتك ، وأوضح لنا من حكمتك ما يقلبنا فى ملكوتك ، وأشِعْ فى صدورنا من نورك ما يتجلى به حقائق توحيدك — والْطُفْ بيننا وبين الحق ، وقرّبنا من معادن الصدق ، واعصمنا من بوائق الخَلْق — اللهم إنك بدأت الصنع وأنت أهله ، فعد بالتوفيق فإنك أهله .

ومنها :

اللهم إنى أسأل لساناً سمحاً بالصدق ، وصدراً قد ملئ من الحق ، اللهم أشكو إليك تلهفى على ما يفوتنى من الدنيا وأنى فى طاعة الهوى ، جاهلا بحقك ، ساهيا عن واجبك اللهم إليك المفر من دار منهومها لا يشبع ، وحائمها لا ينقع[2] ، وطالبها لا يَربَع[3] ، وواجدها لا يقنع — اللهم انقلنا عن مواطن العجز ، مرتقيا بنا إلى شُرُفات العز ، فقد استحوذ الشيطان ، وخَبُثت النفس وسامت العادة ، وكثر الصادفون عنك ، وقلّ الداعون إليك ، وكلّ الراعون لأمرك ، وفُقد الواقفون عند حدودك ، وخلَتْ ديار الحق من سكانها ، وبيع دينك بيع الخَلَق[4] ، واستُهزئ بناشر مجدك ، وأُقصى المتوسل بك ؛ اللهم فأعد نضارة دينك ، وأفض بين خلقك بركات إحسانك ، واقمع ذوى الاعتراض عليك ، واهتك أستار الهاتكين لستر دينك — اللهم إنى أسألك أن تخصنى بإلهام أقتبس الحق منه ، وتوفيق يصحبنى وأصحبه ،

(١) بخس : يكذب .

(٢) حائمها لا ينقع : شاربها لا يروى .

(٣) لا يقف ولا ينتظر .

(٤) الثوب البالى .

ولطف لا يغيب عني ولا أغيب عنه ، حتى أقول لوجهك وأسكت — إذا سكتُّ — بإذنك ، وأبين إذا أبنت بحجتك ، وأعبُد إذا عبدت مخلصا لك ، وإذا مت أموت منتقلا إليك . اللهم فلا تكلني إلى غيرك ، ولا تؤيسني من فضلك .

ومنها :

اللهم قيض لنا فرجا من عندك ، وأَعِدْ لنا مَخْلصا إليك ، فإنا قد تعبنا بخلْقك ، وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقرب منا إلى مجانبتهم في موافقتك ، لأنه لا طاقة لنا بعداوتهم ، ولا حيلة لنا في شفائهم .

اللهم تولنا فيما وليتنا حتى لا نتولّى عنك ، وآمِنّا مما خوفتنا حتى نقر معك ، وأوسعنا رحمتك حتى نطمئن إلى ما وعدتنا ، وفرّق بيننا وبين الغيل حتى لا نعامل به خلقك ، وأغننا بك حتى لا نفتقر إلى عبادك ، فإنك إذا يسرت أمراً تيسر ، ومهما بلوتنا فلا تبتلنا بهجرك ، ولا تجرّعنا مرارة سخطك ، قد اعترفنا بربوبيتك عبوديةً لك فعرفنا حقيقتها بالعفو عنا ، والإقبال علينا ، والرفق بنا يا رحيم .

* * *

هذا قليل من كثير مما في الأدب العربي من هذا الباب ، وهي كما ترى تتدفق قوة وتفيض روحانية وتسمو سمو ، إلى رصانة بلاغية ، وموسيقى دينية . فلو عني بها مؤرخو الأدب كما عنوا بالأدب المادي من الغزل ، والمديح ، والفخر ، والهجاء ، لظهر الأدب العربي بصورته الكاملة من مادة وعقل ، وشهوة وروح ! ولعلي أعود بعدُ إلى هذا الموضوع .

أحمد أمين

بين تاليران ونابليون

فى الفترة الممتدة من أواخر القرن الثامن إلى أوائل القرن التاسع عشر تعرضت فرنسا لتقلبات جمة ، وتداولت الحكم فيها حكومات مختلفة الشيات ، متباينة المقاصد ، منها الملوكية المتيدة على الطراز القديم ، ومنها الحكومات الثورية الوشيكة الأجل السريعة الدثور ، ثم حكومة الدير كتوار ، وحكومة القنصلية ، والإمبراطورية النابليونية ، ثم عودة البوربون وحكم لوى فيليب ، وكانت هذه التغيرات المتتابعة لا تخلو فى أغلب الأوقات من العنف والشدة . وفى خلال هذه الفترة الحافلة بالتقلبات ، والمليئة بالأحداث الجسيمة ، والخطوب الجليلة ، كان يظهر على الدوام رجل بارز الشخصية ، ملحوظ المكانة ، عظيم الخطر ، وهذا الرجل هو السياسى الفرنسى الشهير تاليران ؛ والرجل الذى استطاع أن يلعب مثل هذا الدور ويرفع رأسه فى أثناء هذه الموجات المتتابعة لا بد أنه كان رجلا قوى الشخصية ، موفور الحظ من الدهاء ، وسعة الحيلة ، والقدرة الفائقة على التقلب حسب الظروف والملابسات ، مع الذكاء الخارق والكفاية التامة التى جعلت الحكومات المختلفة الألوان تستعين به وتعتد برأيه .

والواقع أن هذا الرجل كان أعجوبة من أعاجيب الدهر ، ولغزاً من ألغاز التاريخ والسياسة ، فلا تزال تختلف الآراء وتتعارض الأحكام والتقديرات فى تفسير أعمال هذا « الأبى الهول » . فهو مثلا فى رأى المؤرخ الإنجليزى المستر دف كوبر « وطنى صادق الوطنية ، وسياسى راجح العقل » ، والبحاثة الألمانى الهر بلى (Blei) لا ينكر عليه كفايته السياسية ولا يجحد حكمته ، ولكنه يرى « أنه لم يمزج نفسه بوطنه وإنما مزج وطنه بنفسه » ، والكونت دى سنت أولير يرى فيه « نهازاً للفرص بارعا ، توجهه فى ذلك مصلحته الخاصة » ، أما السير جون ماريوت فيرى أن شهرته تزداد سمواً كلما أمعنا النظر وأطلنا البحث فى حياته العامة ، أما حياته الخاصة فإنها تتطلب منا التسامح والغفران . ويسلم دف كوبر بأن الرجل كان يخون سادته ، وينصب لهم الحبائل والأشراك ، ولكنه يعتقد أنه كان فى أعماق نفسه مخلصاً لغرض أسمى من أغراض هؤلاء السادة ، وأبقى من النظم المتقلبة ، والحكومات الزائلة ؛ وهذا الغرض الأسمى هو مصلحة فرنسا ذاتها ؛ بل إنه كان يرمى إلى غاية أكبر وأجل من مصلحة فرنسا وهى المثل الأعلى لتحقيق السلام ونشر أعلامه فى ربوع أوربا . وقد بنى دف كوبر دراسته القيمة لحياة تاليران على أساس هذا التصور ، وحلل أعماله ومواقفه فى ضوء هذه النظرية .

وقد ولد تاليران سنة ١٧٥٤ فى أسرة من أعرق الأسر الفرنسية . وحدثت له فى طفولته حادثة أصيب من جرائها بالعرج ، ونحى من ميراث الأسرة وأوثر عليه أخوه الأصغر ؛ واضطر إلى أن ينشد المستقبل فى الكنيسة ، ولم يكن بطبيعته صالحاً لذلك لأنه كان حر الفكر ، فولتيرى النزعة ، مخلوع العنان فى طلب المتعة والتحلل من قيود العرف وأوضاع المجتمع ، ولكن القرن الثامن عشر كان يألف مثل هذا التناقض ولا يرى فيه كبير بأس . ونبه شأنه بين رجال الكنيسة ، ثم خاض غمرات السياسة وخالط الثائرين ، وظهرت مواهبه فى الحياة العامة ؛ وكان معروفا فى المجتمعات الخاصة بسرعة الخاطر ، وحديثه المستعذب ، وسمته الأرستقراطى ، وتدلهه فى هوى خليلاته الكثيرات ، وعشيقاته الفاتنات ؛ وكان مع ما عرف عنه من تقلب يحفظ عهدهن ، ويرعى ذمامهن ، حتى بعد أن يذهب جمالهن وتودعهن بهجته ورواؤه .

ولما بدأ عهد الإرهاب فى فرنسا اضطر إلى الهجرة لانحداره من أسرة أرستقراطية ، وذلك برغم صداقته لدانتون وعلاقته بزعماء الثورة . وزار انجلترا والولايات

المتحدة ، ثم عاد إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ حيث عين وزيرا للخارجية فى حكومة الديركتوار . وسرعان ما لحظت عينه القائد الشاب نابليون بونابرت ، وقد أدرك بفطنته النافذة وبداهته الموفقة أن هذا الشاب هو رجل الساعة ، وبطل الموقف ، فعاون على إحداث الانقلاب الذى مكن نابليون من القنصلية ، وحفظ له نابليون هذه اليد فاستبقاه وزيراً للخارجية فى عهد القنصلية وفى عهد الإمبراطورية .

وكان هو الوحيد بين رجال نابليون الذى يستطيع أن يقف لهذا المارد الكورسيكى ، ويطاوله ويقتحم حومته لتجاربه الناضجة ، وبصره بأعقاب الأمور ، وعراقة الأسرة التى ينتمى إليها ، ومكانته العالية فى نفوس أقيال أوربا العاهلة ، وأمرائها الأرواع ، وساستها الأفذاذ ، وسائر رجالها الأعلام . وكان نابليون يشعر بحاجته إليه لمعرفته الواسعة بالتقاليد المرعية ، ومستلزمات السياسات الدولية ، مع الكياسة فى تصريف الأمور ، واللباقة فى حل المشكلات . قال عنه نابليون : «فيه الكثير من الصفات اللازمة لمباشرة المفاوضات ، فعنده تجربة رجل الدنيا ، وله دراية بالبلاط الأوربية ، وعنده الذكاء والألمعية ، وشىء آخر أكثر منها وهو ذلك الحيا الذى لا يتحسر قناعه ولا نم على شىء أساريره ، ثم الاسم العظيم الذى يحمله » . ونلمح من ذلك أن إعجاب نابليون به كان من قبيل إعجاب النقيض بنقيضه ؛ فقد كان نابليون محتدم المزاج نارى الطبع ، بنقيضه هدوء تاليران الذى لا يروّع سربه ، ولا تهيل الحوادث من جانبه واقتداره على ضبط نفسه .

وكان نابليون فى طالعة أمره يركن إليه ، ويثق به ، وهو يمحضه النصح ، ويصارحه الرأى ، دون أن يتخشع له أو أن يتضاءل أمامه ، وقد حرّض نابليون على ملاينة البريطانيين ونصح له بأن يصالحهم ، وأن يعمل على تصفية الجو بينه وبينهم ، وذلك لتوطيد السلام واستتباب الأمن والطمأنينة ؛ ولكن نابليون أعماه النصر ، وطار بلبه حب الحرب وغره إخلاص القواد حوله ، وتفانيهم فى طاعته ، فركب رأسه ، واندفع فى الطريق الذى ازدلف به إلى الهاوية السحيقة . وكان تاليران يرى أن سلامة أوربا ومصلحة فرنسا أجل شأناً من الولاء لنابليون ، ولما بدأ منذ سنة ١٨٠٧ يأتمر بسيده ، ويعمل على تقويض ملكه ، وهدم دولته ، وأصبح عينا للقيصر الإسكندر الأول عاهل الروس يوافيه بأخبار سيده ، ويفضى إليه بأسراره واتجاهاته ؛ وأحس نابليون خيانته ، وعرف دخل سريرته فتركه فى منصبه ولم يبادر إلى عزله وإقالته . ولكن لماذا لم يعزله نابليون ليأمن دسائسه ويتقى خطره ؟ ومن الحكم المأثورة عن مكيافلى قوله : « إن الأمير إما أن يسحق ويهلك ، وإما أن يحتضن ويقرب ، أما أنصاف الحلول فإنها ضارة به » . ولم يدرك نابليون ذلك على ما يظهر إلا فى أيامه الأخيرة فى فونتينبلو حيث قال : « إنه كان يلزم إعدام هذا الخائن — تاليران — شنقاً أو رمياً بالرصاص» ولعل نابليون كان يرى الاحتفاظ به لفرط حاجته إليه مع حكمه عليه « بأنه دساس ، وأنه لا أخلاق له ، وأنه موفور الحظ من الذكاء ، وأنه خير وزرائه » .

وكان نابليون شديد الاعتداد بنفسه ، والثقة بقوته ، فهو يعتقد أنه بمأمن من دسائس تاليران ، وأنه يستطيع سحقه حينما يشاء ؛ وقد أخطأ نابليون فهم طبيعة هذا الرجل ، فقد حاول سحقه وإخضاعه لمشيئته فى ذلك المشهد التاريخى المأثور ، والحادث الذى لم يستطع تاليران أن يغتفره ، وهو حادث يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٠٩ ؛ وذلك أن نابليون كان فى أسبانيا يحاول الإجهاز عليها ، وإتمام غزوته ، فنمى إليه أن تاليران وفوشيه وزير الداخلية قد تهادنا واتفقا ، وأن فوشيه شوهد فى منزل تاليران ، وأنه تلقاه بالترحاب وأقبل عليه ، وخلا به طويلا ، وتسارا على مرأى من الحاضرين ، مما أثار الدهشة وأطلق الأقاويل والإشاعات ، فهمّ ذلك الخبر

نابليون وعناه وأقض مضجعه .

تاليران يضع يده في يد فوشيه ويتزاوران ويتشاوران ، خطب جليل وواقعة سوداء ! فغادر نابليون أسبانيا مسرعاً وعاد إلى باريز ووصل قصر « التويلرى » يوم ٢٣ يناير ؛ وبعد ذلك بأيام قلائل عقد اجتماعاً دعا إليه أعيان الدولة والوزراء وبينهم تاليران وفوشيه ، وبدأ نابليون حديثه بملاحظات عامة أبان فيها أنه ليس من حق رجال دولته أن يروا رأياً غير رأيه ، وأن الشك في آرائه نوع من الخيانة ، وأن مخالفته هي الجريمة بعينها ، ثم انبرى على تاليران بالشتائم الجارحة ، والسباب المقذع ، واستمر مدة تقارب نصف الساعة وهو لا يترك نقيصة من النقائص إلا قذفه بها ، ولا جريمة من الجرائم إلا رماه بارتكابها ، فهو لص وجبان وخائن ، وأنه لم يخلص في أداء واجب واحد من واجباته ، وأنه خدع كل من عمل معهم ، وأنه لا يؤمن بالله ، وأنه لا يحجم عن بيع أبيه ، وألقى عليه تبعة قتل دوق دانيان ، وحرب الجزيرة ؛ وساءه ما يبديه من عدم الاكتراث وأغاظه فعيّره بعرجه وخيانة زوجته ، ثم هز قبضة يده كأنه كان يهم بضربه وقال له : « إن في وسعي أن أحطمك كما أحطم الزجاجة ، وإني على مثل ذلك لقادر ، ولكنني أحتقرك الاحتقار كله ، فلا أكلف نفسي هذا التعب » . كل ذلك وتاليران متكئ على منضدة صغيرة إلى جانب الموقد ساكن الطير ، ثابت الجأش ، كأنما كان المقصود بهذا السيل المنهمر من الشتائم غيره من الناس . وهال ذلك الحاضرين فقد سلك الإمبراطور سلوكا غير لائق ، وتناسى وقاره . وانفرط المجلس في عقب ذلك ، والتعليق الوحيد الذي قاله تاليران لأحد الذين كانوا حاضرين وهو يظلع في خروجه من رواق القصر : « مما يؤسف له أن يكون مثل هذا الرجل العظيم هكذا سيء النشأة » ، وفي المساء روى الخبر لصديقته مدام دي لافال ، فأومضت عينها ببريق الغضب وهي تصغى إليه ؛ ثم قالت له في النهاية وهي مغيظة محنقة : « لقد أصغيت لذلك كله ولم تحاول أن تعلوه بكرسي أو تقذفه بشيء آخر ؟ » فأجابها تاليران غير عابئ : « لقد فكرت في ذلك ولكني كنت أكثر كسلا من أن أحاوله » . وظل تاليران بعد ذلك على سابق اتصاله بنابليون ولم ير ما يدعو إلى مقاطعته ومباعدته !

وفي مؤتمر فينا تجلت مواهبه واستطاع أن يرفع رأس فرنسا المغلوبة على أمرها ، وأرغم بدهائه وحسن مدخله الوزير الإنجليزي كاسلرى على أن يضمه إلى صفه في جانب النمسا ليكونوا جميعهم جبهة في وجه مطامع روسيا وبروسيا .

ولم ينس تاليران إهانة نابليون له ، ولم يغتفرها له . ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل قد عمل على إسقاط نابليون انتقاما لشخصه ، وشفاء لحزازته ، لا لمصلحة فرنسا وأوربا كما أدعى بعد ذلك . وقد ظل تاليران يمقت نابليون أشد المقت ؛ وقد روى عنه الحديث الآتي جان جبريل إينارد في مذكراته عن مؤتمر فينا .

قال تاليران : « إني لأذكر باشمئزاز مؤتمر ارفرت حيث اجتمعت الصواهل تتنظر في ذلة وضراعة تقديم فروض الطاعة للرجل الذي لم يترك فرصة تمر دون أن يتعمدهم بالإهانة . وقد كان بونابرت شديد الشعور بقوته المنيعة ، ولكنه لم يكن عظيم النفس ، فكلما أفرط إنسان في الخضوع له تخطى إليه بالإساءة ، وغالى في امتهانه ، وفضلا عن ذلك كان الجبن من صفاته الأخلاقية الواضحة ، وكان جبانا في كل مظهر من مظاهر طبيعته » .

فأظهرنا دهشتنا البالغة عند تكراره ذلك القول ، فأصر تاليران على رأيه وقال :

« نعم ياسادة لقد أظهر جبناً في كل موقف » .

فقال له المسيو دفرنوا (D'Ivuernois) على أي حال فإن شهرته على نقيض ذلك » .

فقال تاليران : « لأن أحداً لم يعرفه معرفتي به ، وفي

وسعى أن أقدم لك ما تشاء من البيانات ؛ فمن أمثلة ذلك أنه كتب إلىّ خطابًا فى المساء قبل موقعة أوسترلتز ينم على الخور وتمكن الضعف منه ، وفى الصباح بعد انتهاء المعركة كتب إلى خطابًا غامضًا ملتبسًا ، وأثناء القتال فى « جروس اسبرن » اختبأ خلف سرحة وطاش صوابه ؛ وعند ما خانه الحظ فقد همته ومضاءه . وهذا الرجل الذى كانت ثقته بنفسه فى أيام الرخاء لا تحد ، كان عند ما يعبس له الحظ يستجدى كل إنسان النصيحة ، ولا يترفع عن مشاورة صغار الضباط وسواس الخيل » .

قال تاليران ذلك بمرارة وغيظ ، فألقيت إليه بهذه الملاحظة : « إذا صح أن نابليون كان جبانًا ، فكيف اتفق أنه كان ولوعًا بركوب الأخطار ، والتعرض لمغليات الأمور ، وكان على الدوام مشغول البال بإثارة حروب جديدة » ؟

فتحاشى تاليران الإجابة عن هذا السؤال وأخذ فى ناحية أخرى فقال : « كان جبنه يظهر فى كل شىء ، فعلى المائدة كان لا يشرب الماء من الكأس القريبة منه ويعمد إلى تناول الكأس الموضوعة فى مؤخرة المائدة » .

فقال المسيو بكتيه : « ولكنه فى باريز كان يسير منفردًا أو مصحوبًا بحاشية قليلة » .

فقال تاليران : « لا تصدقوا ذلك » .

فقلت له : « ولكنى أتذكر يا صاحب السعادة أنى لقيته وحده مع ديروك » .

« يحتمل أنه كان يدور فى خلده أنه لا يستطيع أحد معرفته ؛ ولقد بلغ منه الجبن أنه كان عندما يسافر يبالغ فى الحيطة ضد القتل . ولقد سافرت معه فى نفس العربة وكانت غاصة بالفرش مبطنة بالورق ليكون ذلك كله وقاية له من القنابل . »

فقال بكتيه : « ما تقررونه سعادتكم يزيد الأمر غرابة لأن نابليون وفق فى إقناع الجميع بشجاعته » .

« لقد استطاع ذلك لأنه لم يوجد إنسان أمهر منه فى التمثيل ، فهو عاش مخادعًا فى الصميم ، وأعظم مواهبه هى عبقريته فى التدليس والغش ، ولقد عزا نجاحه فى الدنيا إلى دهائه قبل كل شىء ، وكل شخصيته تنم على ذلك ، وعند ما تمشى يحرك جسمه المتبجح ويهزه هزًا ، وله بنية الأفعى ومكرها . »

وبينا هو يقول ذلك هب واقفًا وحاول بجسمه المترهل وساقيه المتهدلتين المقوضتين أن يقلد مشية نابليون .

فسأله المسيو دعرنوا : « إذا لم يكن نابليون شجاعًا فكيف اتفق أنه أحرز الشهرة بين جنوده ؟ » .

« لقد حل المكر محل الشجاعة ، وكانت له قدرة فائقة على الاستفادة من الحوادث التافهة ، واستجاشة حماسة رجاله بها ؛ وقد حدث أنه لما عاد من المفاوضات التى انتهت بمعاهدة كامبوفورو أقامت الحكومة حفلة عرض عسكرية تكريمًا له ، فلما دخل ساحة قصر لكسمبرج فى غرة الظهر تظاهر بالتفزع وزعم أنه رأى نجمة يتلألأ نورها فوق القصر حيث يجلس ، ووفق فى إقناع حاشيته إلى حد أن كثيرًا من الحاضرين ومنهم المسيو هوزيف — وهو رجل أثق به ثقة كبرى — قالوا أيضًا إنهم أبصروها ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك ! أثناء موقعة أوسترلتز زعم نابليون أنه رأى نفس النجمة التى أبصرها تتلألأ من قبل فوق ساحة قصر لكسمبرج ، فتوهم كثير من الضباط أنهم رأوها وشعروا بأنهم واثقون من الفوز ! ونابليون كان يستطيع أن يتقن الغش ويحسن الحيلة ولكنه لم يكن شجاعًا البتة . »

فقلت : « إذا لم يكن شجاعًا فكيف حدث أن مجرد شهرته أثرت فى الجيش النمساوى حتى خارت عزائمهم وحدائه عند ما ذاع خبر انضمامه إلى جنده ؟ »

فلم يحاول تاليران تفسير ذلك ، وقال : « هذه حقيقة لا أستطيع إنكارها ، ففى سنة ١٨٠٩ كان تحت قيادة ستاديون جيش من أحسن جيوش الدنيا وكان تام الأهبة ،

الجمعيات العلمية

فى انكلترا

تمتاز إنكلترا بما يسودها من نشاط فكرى يقوم على أساس من النظام والدقة والإتقان . وبفضل هذا النشاط المنظم نمت العلوم وازدهرت الفنون ، ونشأت جمعيات وهيئات تعمل على رعاية هذا النمو وتمهد ذلك الازدهار ، ورفع شأن الباحثين وتشجيع الإنتاج والابتكار ، فتفتحت المدارك ، وأثمرت المواهب ، وجادت القرائح ؛ فإذا نحن أمام رشح عبقريات نتج عنه تقدم عجيب فى العلوم والفلسفة والاختراع والاكتشاف . وكان من آثار هذه الجمعيات أن مهدت إلى بروز المزايا النفسية والعقلية عند كثيرين من الذين كان لهم الفضل الأكبر فى إقامة دعائم الحضارة والعمران .

منسق الفيالق ، متحفزاً للهجوم ، ولم يكن مع نابليون جيش ، لجأ إلى وجخرج وهو يكاد يكون منفرداً ، فاستطارت شهرته جنان الباقرين وفتت فى عضد المساوين ، وكان من جراء ذلك أن انهزموا هزيمة منكرة » .

وهكذا ناقض تاليران نفسه بدون أن يعلم وبدون أن يلاحظ هذه الحقيقة ، لأنه كيف يستطيع إنسان مجرد من الشجاعة أن يقاوم بشهرته وسلامته ضد قوات أكثر منه عدداً ويناجزها القتال ويستطيع لها فى معركة ؟

وظل تاليران يردد بقية حياته التى امتدت إلى سنة ١٨٣٨ أن ما كان حكيما فى سياسة نابليون وخططه فهو من وحيه وتفكيره ، وما كان خطأ وتهوراً فهو من عند نابليون نفسه . ولكن أكثر المؤرخين لم يتفقوا على تصويب هذا الرأى ، لأن تاليران نفسه لم يكن مثالا يحتذى فى صدق الحديث ورواية الأخبار .

على أدهم

بدأ اهتمام الناس بالبحوث العلمية فى القرن السابع عشر الميلاد ، حين طلع فرنسيس با كون وديكارت ببحوثهما على الناس .

كتب با كون فى الأسلوب العلمى ، وفى أن الحقائق العلمية لا تثبت إلا بالتجربة والبرهان ، ووضع قواعد اعتبرها أصولا ليسير عليها الباحثون فى بحوثهم العلمية ، وذاعت هذه الكتابات وانتشرت فى مختلف الأنحاء ؛ ورأى فيها المتعلمون تطورا خطيرا مهد الطريق التى يجب على الباحث مراعاتها والسير بموجبها ، وبذلك تلاشت الصعوبات التى كانت تعترض الباحثين والمفكرين عند عرض ما يجول بخواطرهم وأفكارهم . أما ديكارت فقد وضع كتباً دفعت إلى الاهتمام بالبحث العلمى ، وقضت على طريقة اعتبار القائل قبل القول ؛ فصحة القول لا تكون بإسنادها إلى عالم أو إلى إمام من أئمة العلم أو الفن ، بل بمقدار ما ينطوى عليه من حقيقة وإخلاص للحق .

فى هذا الجو اتسعت عناية الناس بالعلم والأدب والفن ، وسرت فى بعضهم روح البحث والدرس ، فقامت جماعات تعمل على إنشاء جمعيات غايتها الكشف عن الحقيقة فى مختلف الميادين ، ورعاية القائمين والمشتغلين بذلك ؛ ونمت العلوم الرياضية والطبيعية نمواً أدى إلى الارتقاء العجيب الذى أصاب الاختراع والاكتشاف ؛ وازدهرت علوم الطب والكيمياء ، وما يتفرع عليها ازدهاراً نجمت عنه تطورات هامة فى شتى نواحى الحياة الاجتماعية والصحية والمادية ؛ وفوق ذلك نفذ نظر الإنسان إلى بعض أسرار الكون مشرفاً على ما هو أعجب من السحر وأغرب من بنات الخيال . وفى منتصف القرن السابع عشر للميلاد كان كثيرون من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية والفلسفية يجتمعون للمداولة والدرس ، وقد أسسوا جمعية غايتها

توسيع نطاق البحث العلمي ، والعمل على ترقية العلوم والفنون . وفي سنة ١٦٦٠ طلب هؤلاء من الملك شارلس الثاني تثبيت جمعيتهم ومعاضدتها ، وكان لهم ما أرادوا من تثبيت الجمعية التي عرفت من ذلك الحين باسم « الجمعية الملكية » .

وسارت الجمعية في طريق التقدم تحيطها رعاية الملك ورجال الحكم ، فأسدت أجل الخدمات إلى البلاد ، وقامت بنصيب هام في المساهمة في خدمة المدنية .

كانت الجمعية توالي اجتماعاتها حيث تلقى المحاضرات وتتلى الرسائل العلمية المختلفة ؛ وكان من أهم الأعمال التي قامت بها الجمعية في بادئ الأمر قضاؤها على السحر والشعوذة ، فقد نجت البلاد الإنكليزية من بدعة قتل من يتهم بالسحر ، وبحثت في أمرهم وما يصدر عنهم من آراء وأفكار ، واستطاعت بفضل محاضراتها أن تزعزع عقائد الناس بالسحر والشعوذة ، ووضعت حداً للخرافات التي كانت شائعة ومنتشرة .

وتناوب مسند الرئاسة في هذه الجمعية كثير من فحول العلماء ، وكبار الفلاسفة ، وكان لبعضهم الفضل الأكبر في تحقيق بعض غاياتها ؛ فوجه روبرت بويل ، مثلا ، جهوده إلى رفع مستوى الجمعية وخدمة أغراضها ، وتمكن من تهيئة جو علمي ساعد على إظهار المواهب والخصائص التي لم تكن لتظهر لولا الجمعية وذاك الجو الذي هيأه فيها بويل . وبرز نيوتن وغيره من الحكماء ، وعرض على الجمعية بعض تجاربه وبحوثه ، فانتخب عضواً تقديراً لنبوغه وآثاره ؛ وفي أوائل القرن الثامن عشر للميلاد انتخب رئيساً ، وبقي في الرئاسة أربعاً وعشرين سنة ، إلى أن وافته المنية ؛ وقد قام خلال هذه المدة بخدمات ثمينة لم تعرف الجمعية عالماً غيره أنجز مثلها ، فكانت رئاسته موضع فخر أبدي . وهب نفسه وجهوده للعلم ، فكشف الجاذبية ونواميسها ، ووضع أساس التكامل والتفاضل ، وتقدم بالضوء خطوات واسعة مما جعله من أعظم العلماء العالميين في تاريخ تقدم الفكر .

وفي سنة (١٦٨٥) طلبت الجمعية من الملك أن يبني مرصداً للرصد والملاحة ، فأجاب طلبها ، وعهد إليها بالإشراف عليه . ولا يخفى ما أسداه (وريدية) هذا المرصد من الخدمات الجليلة إلى علم الفلك وشؤون الملاحة .

في ظل هذه الجمعية نشأ علماء كثيرون اشتهروا ببحوثهم ونتاجهم في ميادين الطبيعة والرياضة والفلسفة والفلك والطب ، أمثال : رمفرد ، وهمفري داڤي ، وهرشل ، ويتع ودالتن ، وفاراداي ، وبروستر وغيرهم . وفي سنة (١٨٢٥) أنشأ الملك جورج الرابع وسامين من الذهب للجمعية الملكية لتنعم بهما على الجديرين من رجال العلم والفكر ، فمنحت أحدهما لدالتن الكيماوي لاستنباطه الرأي الجوهري المعروف الآن بالعربية باسم المذهب الذري . وفي سنة (١٨٣٩) كتب دارون الشهير رسالة وصف فيها الحوادث البركانية ، فانتخبته الجمعية عضواً فيها ، ثم منحته الوسام الملكي عام ١٨٥٣ على كتابه في جزائر المرجان ، كما منحته وساماً آخر على كتابه في أصل الأنواع .

ومن هنا تتبين فضل الجمعية الكبير في شحذ الهمم وتشجيع الإنتاج والاشتغال بالعلوم . ولا يخفى أن هذا من أهم العوامل التي تقدمت بالعلم والحضارة هذا التقدم الذي نلمحه في مختلف النواحي العمرانية .

وهناك جمعيات غير هذه نشأت في إنكلترا لرعاية العلم وتشجيع البحث في شتى العلوم : الرياضية والطبيعية والفلكية والطبية والفلسفية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية وغيرها .

وينتسب إلى هذه الجمعيات العلماء والمثقفون والمتعلمون من الذين يعنون بهذه الفروع ويعملون على التوسع فيها ، واستجلاء الغامض في موضوعاتها ، وكشف الحقيقة في مختلف بحوثها .

وقد أضاف بعض هؤلاء إضافات هامة إلى تراث الإنسانية العلمى ، كما ساهم غيرهم فى خدمة الحضارة .

لولا هؤلاء وأمثالهم فى الأقطار الأخرى لما تقدمت العلوم الطبيعية والهندسية والرياضية هذا التقدم ، الذى نتج عنه تطورات خطيرة فى الصناعة والملاحة والتجارة .

لقد أسدت الجمعية الرياضية (مثلا) أجل الخدمات إلى الرياضيات ، فمهدت للمشتغلين فيها ، وشجعت الابتكار والإنتاج ، فظهر من بين أعضائها من استعمل الرياضيات فى العلوم الطبيعية ، واستغل المعادلات والأرقام للاستفادة عمليا من النواميس والقوانين التى تسيطر على الكون ومحتوياته ؛ وقد نتج عن هذا الجمع وذلك الاستغلال أروع تقدم أصاب الحضارة الصناعية . وما يقال عن هذه الجمعية الرياضية يقال عن الجمعيات الأخرى التى أنشئت لرعاية العلوم والفنون كالفلك والطب والجغرافيا والكيمياء والجراحة والتاريخ والموسيقى والنحت والفلسفة والاقتصاد .

فى هذه الجمعيات ترعرع العلم ونما الفن وازدهر ، ومن هذه الجمعيات خرجت أكثر المخترعات والمكتشفات التى مكنت الإنسان من السيطرة على بعض عناصر الطبيعة واستغلالها لمنافعه ، ولما يعود عليه بالتقدم والرفاه .

وفى الوسع القول إن للجمعيات العلمية فى إنكلترا الفضل الأكبر فيما أحرزه الإنكليز من شهرة علمية ، وفيما أسداه علماؤهم من خدمات جليلة فى ميادين العلوم والفنون ، وما أحدثه المخترعون والمكتشفون من تغييرات خطيرة فى الحضارة الصناعية فى هذا العصر .

(يتبع) قدرى حافظ طوقان

نماذج بشرية :

فيليسيتيه Félicité

فيليستيه بطلة لقصة صغيرة للروائي الفرنسي الكبير فلوبير عنوانها «قلب ساذج» . كتبها المؤلف سنة ١٨٧٧ ، ونشرها مع قصتين أخريين بعنوان « ثلاث قصص » .

في عنوان القصة وفي اسم البطلة ما يشخص هذا الأنموذج للؤثر . ولو أنك طلبت إليّ أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حق لما وجدت خيرا من « أم السعد » ، فإنا نحس في هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته .

فيليستيه خادمة من خدم الريف ؛ عقل محدود ، وقلب رحب . وعن هذه المفارقة ينبع نبل حياتها المتواضعة الحزينة ، فلقد تراها تأتي من أعمال البطولة ما يتحدث به الناس كافة إلاهو ؛ وذلك لأنها لا تدري ما البطولة ، بل ولا تفكر فيما تأتي . مثلها مثل كلب أمين ، لأن الأمانة من طبعه ، يقاتل دون سيده ولقد تمسه الأذى ويعود من المعركة لا يذكر إلا ما به من جراح يحبها أله . ولقد تنزل بها المحن فتألم حتى لتطرح نفسها على الأرض صارخة معولة ، ولكنه ألم غفل لا أثر فيه لذكيات العقل الذي ما زال يلوك يلوا حتى يحمل من التوافه جلائل الأمور . فيليستيه مثل حي للملايين البشر الذين لم تفسد الحياة العقلية طبائعهم فتركتها كما هي بما تحمل من عظمة وبؤس ، وإنك لتستعرض حياتها فلا تقع على فكرة ولا تقف عند رأي ، وإنما هي سلسلة من الوقائع لا تخاف بنفس خادمتنا المسكينة غير الإحساس ، وأما التفكير في معنى تلك الوقائع فذلك ما لا تعرفه . فيليستيه تحيا الحياة دون أن تفكر فيها ، ولكم تذكر في حياتها بقول المسيحية : « الني نفسك كي لا تعوق موسيقاها » .

كان وجهها نحيلا وصوتها حاداً . في الخامسة والعشرين كانت تلوح في الأربعين ، وعند ما وصلت إلى الخمسين لم تعد تنم عن أي سن . كنت تراها صامتة دائماً ، منصوبة القد متزنة الحركات فتحسبها امرأة من خشب تعمل بحركة آلية . في كل فصول السنة كانت تلبس منديلا هنديا تشجبه بدبوس إلى ظهرها ، و « بيريه » تخفي شعرها ، وجوارب رمادية ، ثم « جونلة » حمراء ، وفوق قميصها « مريلة » كمريلات المستشفى .

ولقد كانت لها حكاية غرام كغيرها من النساء . كان أبوها بناء قتل في سقطة من « السقالة » ، ثم ماتت أمها وتشتت أخواتها ، فآواها رجل في عزبته واستخدمها صغيرة في حراسة البقر بالحقل ، حيث كانت ترتعد من البرد تحت أسمالها ، وتشرب الماء من البرك مطروحة على بطنها ، ثم تضرب لأوهى الأسباب ؛ وأخيراً طردت لسرقة فرنك ونصف لم تكن هي سارقته . والتحقت بعزبة أخرى عملت فيها كحارس « لحوشة » الدجاج ، ولكن زملاءها أخذوا يحسدونها لأنها أعجبت أسيادها .

وفي مساء أحد أيام أغسطس (وهي عندئذ في الثامنة عشرة) قادها زملاؤها إلى عيد كولفيل ، وإذا بلها يطير لضوضاء لاعبي القيثارة والأضواء المثبتة في الأشجار ، ولألوان الملابس الزاهية ؛ لمدنتلا والصلبان الذهبية وتلك الكتلة البشرية التي تقفز راقصة دفعة واحدة . هنالك انتحت في تواضع ركنا ، وإذا بشاب ثري الظهر يدخن البيبة وهو متكئ بمرفقيه على عجل عربة صغيرة يأتي يدعوها إلى الرقص ، ثم يقدم لها كوبا من عصير التفاح المخمر ، وفنجانا من القهوة ، وقطعة من الفطير ، ويشتري لها « كوفية » ، وكأنه أحس رقة نفسها ففرض عليها أن يصطحبها إلى منزلها . ولكنه أثناء الطريق طرحها بوحشية على حافة حقل من الشوفان ، فتملكها الرعب وأخذت تصيح وإذا بالفتى يغادرها مسرعا .

وفي مساء آخر وهي في طريق « بومون » أرادت أن

تسبق عربة محملة بالشوفان كانت تسير أمامها فى بطء ؛ وبينما هى تمر ملامسة عجلات العربة إذ لمحت « تيودور » الذى تقدم نحوها فى مظهر هادئ طالبا إليها أن تغتفر ما كان ، لأن الخطأ لم يكن منه وإنما من الشراب . فلم تعرف بم تجيب وإن أحست رغبة قوية فى الهرب . ولفوره أخذ يتحدث عن المحصول وعن أعيان الناحية ، لأن أباه كان قد ترك كوتفيل وذهب إلى عزبة « الأيكو » وبذلك أصبحا جيرانا . أجابت : آه ! وأضاف أنهم يرجون منه أن يستقر وإن لم يكن هو فى عجلة ، وكان يفضل أن ينتظر حتى يعثر بامرأة على هواه ؛ فطأطأت رأسها . وسألها : هل تفكر فى الزواج فابتسمت قائلة : إنه ليس من الخير السخرية من الناس . كلا ! أقسم لك . وبذراعه الأيسر طوق خصرها فسارت مستندة إلى ضمته وتباطأت خطاهما . لقد كانت الريح رخوة والنجوم تلمع ، وحمل الشوفان الضخم يترنح أمامهما على العربة ، والخيل الأربعة تجر أرجلها مثيرة التراب ، وعرجت الخيل إلى اليمين دون أن تؤمر ، وقبلها مرة أخرى ثم اختفت فى الظلال .

فى الأسبوع التالى حصل منها تيودور على موعد والتقيا بأقصى « الحوش » خلف حائط تحت شجرة منعزلة . إنها لم تكن فى سذاجة الآنسات ، إذ كانت الحيوانات قد علمتها ، ولكن العقل وغريزة الشرف منعاها من أن تسقط . وكان فى مقاومتها ما هيج حب تيودور حتى اضطر لكى يرضى ذلك الحب أو ... لسذاجته أن يعرض عليها الزواج ، فترددت أن تصدقه ، ولكنه أقسم أغلظ الأيمان . وبعد أيام اعترف لها بشىء معرقل ، ذلك أن أهله كانوا فى العام الماضى قد اشتروا له رجلا يذهب بدلا منه إلى الجندية ولكنه لا يأمن أن يطلب من يوم إلى آخر ، وكان فى هذه الفكرة ما يخيفه . ورأت فيليسيته فى هذا الجبن مظهراً من مظاهر الرقة نحوها ، فزادت رقتها نحوه . وأفلتت فى الليل لتأتى الموعد وإذا بتيودور يعذبها بقلقه وإلحاحه ؛ وأخيراً أعلن أنه سيذهب بنفسه إلى مقر العمدة ليسأل عن الإجراءات ويأتيها بالأخبار يوم الأحد المقبل بين الساعة الحادية عشرة والظهر . وعندما حانت تلك الساعة أسرعت فيليسيته نحو حبيبها ، ولكنها وجدت مكانه أحد أصدقائه ؛ وأخبرها ذلك الصديق أنها لن ترى تيودور بعد اليوم ، لأنه كى يأمن التجنيد قد تزوج بامرأة عجوز عظيمة الثراء هى مدام « ليهوسيه » من قرية « توك » .

لقد كان ألمها ألما مضطربا لا نظام فيه . ألقت نفسها على الأرض وأطلقت صيحاتها ، ونادت الله الرحيم ، وأنّت وحيدة فى الحقل طول الليل ، حتى إذا طلعت الشمس عادت إلى العزبة وأعلنت رغبتها فى الرحيل . وبعد شهر أخذت حسابها ، ثم لفت كل متاعها فى منديل وذهبت إلى « بون لفك » .

هنالك أمام الفندق سألت إحدى نساء الأعيان . امرأة فى ثوب الحداد اتفق أن كانت تبحث عن طباخة ، ولم يكن يلوح على الفتاة أنها تعرف شيئاً ، ولكن مظهر الاستعداد الطيب والتسامح فى أجرها كان باديا عليها ، حتى إن مدام أوبان انتهت بأن قالت لها سآخذك عندى ؛ وبعد ربع ساعة كانت فيليسيته عند مدام أوبان .

هذا ما كان . نقلته عن فلوبير دون أن أنقص منه شيئاً أو أزيد شيئاً ، وباستطاعة القارئ أن يثق بأقوال ذلك الرجل الذى يعرف حياة فيليسيته معرفة صادقة ، بل ويعرف نجوى نفسها ، وإن لم يفصح عن تلك المعرفة ، لأنه يفضل أن يكتفى بأن يقص حوادث حياتها على نحو أدل من كل تحليل .

قال : ومكثت فيليسيته نصف قرن عند مدام أوبان ، وكانت نساء أعيان بون لفك يحسدنها من أجل تلك الخادمة التى كانت تطبخ وتنظف المنزل وتخيط وتغسل وتكوى ، كما كانت تعرف كيف تلجم الحصان وتضرب الزبد و« تزغط » الطيور ، كل هذا مقابل مائة فرنك فى العام ،

وفوق ذلك كانت وفية لسيدتها مع أنها لم تكن سيدة طيبة .

كانت تستيقظ منذ الفجر حتى لا تفوتها الصلاة فى الكنيسة ، وكانت تعمل حتى المساء دون انقطاع ، حتى إذا انتهى العشاء ، وأعادت الأطباق المغسولة إلى مواضعها ، دفنت الخشب تحت الرماد داخل المدفأة ونامت أمامها وسبحتها بيدها . ثم إنها فى مساومة الباعة لم يكن أحد أشد منها عناداً ، وأما عن النظافة فقد كان بريق أوانيها مصدر يأس للخادمات الأخريات . ولحرصها على الاقتصاد كانت تأكل فى بطء ، وتلم بأصابعها فتات الخبز الذى يتساقط على المائدة ، ذلك الخبز السميك الذى كان يصنع لها خاصة ، كل رغيف اثنا عشر رطلا تأكل منه عشرين يوما كاملة .

أما مدام أوبان فكانت أيما ، إذ أنها تزوجت صغيرة بشاب جميل رزقت منه بولدهو بول وبنت هى فرجينيا ، ثم مات زوجها فعاشت الأيم بعده عشرات السنين وذكرى ذلك الزوج تحلق فوق كل شىء ! فالصالون مسجى بالحداد وقد أغلقته إلى الأبد ، والبيان متروك بالصالة ومن فوقه أنضدة من صناديق الورق ، وصورة « المرحوم » بالحائط يشرف على الجميع . وكان مجلسها باستمرار فوق كرسى من القش وضعته أمام المدفأة التى كنت ترى على جانبيها مقعدين آخرين من القماش لا يغادران موضعهما ، وفى المنزل كله رائحة تشبه العفونة تقطر حزناً .

وتتابعت السنون والأيام متشابهة إلا أن تكون أيام الأعياد . وكانت مدام أوبان لا تؤرخ تلك السنين إلا بحوادث حياتها الداخلية التافهة ! فى عام كذا أحضرت عاملا أعاد طلاء الصالة ، وفى عام كذا سقط جزء من سقف الحوش فكاد يقتل رجلا ، وبعد ذلك بسنين ماتت إحدى صديقاتها أو انتقل أحد معارفها إلى بلدة أخرى .

ومع ذلك فقد حدث حوادث أعظم من كل ذلك خطراً . فنى ذات يوم قصدت مدام أوبان وابنها وبنتها ومعها فيليستيه إلى إحدى عزبتها ، وكان اليوم كثير الضباب ، وإذا بثور هائج يغير عليهم ، ولولا خادمتهم الشجاعة لافترسهم ! وذلك أنها أخذت تتناول قطع الطمى والأعشاب تلقيها فى وجه الثور متراجعة بظهرها حتى شغلته إلى أن تمكن أسيادها من النجاة ، وأخيراً وصلت إلى سياج والثور يطاردها ، وبحسن توفيق تسلقت بين قضبان السياج فلم تصبها قرون الثور الذى أوشك أن يقد بطنها . وبهذا اليوم تحادث جميع الناس ، وأما هى فلم يخطر ببالها أنها قد أتت عملا نبيلا . وكان من أثر الخوف الذى نزل بهم جميعاً أن مرضت فرجينيا بأعصابها ، ولم يزل الداء يلح عليها حتى ماتت . فكان حزن فيليستيه لموتها لا يقل عن حزن أمها ، وذلك لأنها كانت لا تزال تذكر تلك الأيام التى كانت تحمل فيها فرجينيا وبول على ظهرها كأنها حصان . ولئن كانت تلك الخادمة المسكينة قد وجدت شيئاً من العزاء ، فإن ذلك لم يكن إلا فى الخصلة التى أخذتها من شعر الميتة واحتفظت بها فى صدرها .

وتكالبت المحن على فيليستيه ، إذ أنها لم تكن تهتدى إلى مكان إحدى أخواتها وتتعرف إلى ابن أختها فكتور الذى كان يافعاً جميلا حين سافر المسكين فى رحلة بحرية مع السفينة التى كان يعمل بها كبحار ، وكان سفراً مشئوماً ، إذ لم يعد منه . ولكم سألت فيليستيه عن تلك الجزر النائية التى قصد إليها ، ولقد أروها فعلا جزيرة هافانا ، ولكنها لم تقنع بذلك بل ودت أن لو أروها على الخريطة المنزل الذى سيسكنه فكتور عند وصوله !! ولكم كان حزنها مراً عندما علمت بوفاته .

وكانت فيليستيه صادقة الإيمان بالدين إيماناً ساذجا ! كم من مرة ذهبت لتعترف بخطاياها ، والله يعلم أنها كانت خطايا هينة لا يحمر لها وجه عذراء . وأخذ خيالها الفطرى يرى مظاهر الله فى كل شىء . كانت تستمع إلى القسيس يتحدث عن الله فتود أن لو تصورت شخصه ، ولكنها

لا تصل إلى ما تريد ، فهو أحياناً طائر وأحياناً قبس من النار ، وأحياناً نسمة من الريح . ومن بدريها لعله الضوء الذى يهفو فى الليل على حافة الغدران أو الريح الذى يسوق السحب ، ولعل صوته هو الذى يتردد فى النواقيس نغمات منسجمة . بل لقد أحبت كل حمل بسبب الحمل المقدس ، وكل حمامة بسبب روح القدس .

وكان لروح القدس فى نفسها أثر عجيب ، ولذلك حكاية تستحق أن تروى .

يحدثنا المؤلف أن إحدى صديقات مدام أوبان أهدت إليها ببغاء ، ولم تدر السيدة ماذا تفعل بذلك الطائر ، فتركته لفيليستيه التى تعلقت به تعلقاً شديداً ، وكأنه قد أصبح وعاء لما فى قلبها من حب لم تعد تجد له هدفاً . وبعلاقة ساذجة جمعت بين محبتها لله ومحبتها لذلك الطائر . ولم لا ! أليس فيه ما يشبه الحمامة رمز الروح المقدسة ، وازداد إحساسها هذا نجماً عند ما مات الببغاء ، وحنطته محتفظة به فى حجرتها ، حتى انتهى بها الأمر أن أصبحت تعبد الله جاثية أمام الطائر .

وماتت مدام أوبان ، فتساءلت فيليستيه ، كيف يجوز أن تموت سيدتها قبلها . وكان بول قد تزوج ، فأتت زوجته لتأخذ من الأثاث ما يصلح للبيع ، ولكم كان حزن فيليستيه عميقاً عند ما رأت زوجة الابن تنثر ملابس فرجينيا التى احتفظت بها مدام أوبان فى (الدولاب) كآثار مقدسة . وكانت الخادمة المسكينة قد ترفق بها القضاء ، فأصابها الصمم وفقدت بصرها فلم تسمع ولم تر شيئاً مما قيل أو فعل ، إلا القليل الذى أدركته بالحدس . وكانت سيدتها قد وقفت عليها معاشاً صغيراً استطاعت أن تقتات به أياما قليلة ، إلى أن وافاها أجلها ، وكان ذلك فى يوم عيد دينى ، فلم تحزن فيليستيه لمغادرة الحياة قدر حزنها لعدم استطاعتها المشاركة فى ذلك العيد الذى طالما فرحت بقدومه .

هذه حياة فيليستيه . حياة حزينة مؤثرة ، حياة محبة وإيثار ؛ لقد أحبت بول وفرجينيا طفلين ، ولم يكن يحز فى قلبها شيء ، مثل حظر مدام أوبان عليها أن تقبلهما فى كل حين ؛ ومن قبل أحبت تيودور وحسبت أنها ستتزوج كغيرها من الفتيات فخانها تيودور وخانتها الأيام ؛ ومن بعد فرحت بفكتور فمات فكتور وبنفسها حسرة ، إذ لم تستطع أن ترى منزله على الخريطة بتلك الجزر النائية التى أبحر إليها . ولكنها قد وجدت فى محبتها لله عزاء عن كل الحزن ، وما عليها إلا أن ترى الله فى طائر أو فى مظاهر الوجود ، والله بعد روح بكل مكان وبكل نفس . ومن بدرينا لعل فى هذا التجسيم الساذج مصدر قوة لإيمانها ، ومن يدرينا لعل الله قد تقبلها قبولا حسنا ، وقد كانت حياتها كلها حياة محبة وإخلاص وبطولة صامتة . بطولة عظيمة لأنها كانت تجهل نفسها .

محمد مندور

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	٣٠	فى مصر والسودان
	٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
لستة أشهر	٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

حب فى المصيف

صيف ١٩٣٥ . . . . لم أنس هذا التاريخ لأن إقامتى الصيفية فى أوربا فى ذلك العام لم تزد على اثنتين وسبعين ساعة ، وكان المفروض أنها تستغرق على الأقل شهرين ... أبحرت على الباخرة النيل قاصدا نابولى فى هذه المرة لأنى لم أكن رأيتها من قبل ، وطالما شوقنى إليها الكتاب والشعراء من إنجليز وفرنسيين وألمان .... أليس هناك أيضا مثلا إنجليزيا يقول : شاهد نابولى ثم اعتزل العالم ...

وصلنا نابولى فأول ما استرعى نظرى بركانها الشهير « فيزوف » ، وكان منظره رائعاً رغم ضحاياه العديدة خلال العصور . . . حقاً . . . إن كل جميل فتاك ! . . . . كان هناك فى انتظارنا عند الميناء قطار اتصال للعواصم الأوربية ، ولكنى لم أركبه ، إذ رأيتُ أن أقضى بضعة أيام فى نابولى لمشاهدة محاسنها وآثارها ، وذلك قبل أن أستأنف رحلتى إلى داخل أوربا . حقا إن لنابولى ضواحى فتانة الغاية ، كذلك بها آثار رومانية فخمة مثل « بومبى » التى خربها زلزال ٧٩ ، وقد كانت فى صدر الدولة الرومانية مصيفاً جميلاً للسراة والعظماء ...

ولكن أجمل شىء فى نابولى بشرة فتياتها الخمرية ، وهى التى كانت سبباً فى أن مصيفى فى أوربا لم تدم فى تلك السنة أكثر من اثنتين وسبعين ساعة . وإليك ما حدث :

كنتُ أتناول طعام الغداء فى أحد فنادقها فى اليوم الثانى من قدومى ، وكانت بجوارى أسرة عرفت أنها من أهل المنطقة من لون بشرة أفرادها ولهجتهم ، وكانت بينهم فتاة فاتنة استولى على مشاعرى حسنها ، إذ كان جمالها جديرا بريشة رفائيل . . . عرفتُ من حديث القوم أنهم مسافرون غداً إلى الإسكندرية على نفس الباخرة « النيل » التى أقلتنى البارحة ، عرفت ذلك لأنهم كانوا يتحدثون فى صوت عال كما هى عادتنا نحن جميعا شعوب البحر الأبيض ؛ فما كان منى إلا أن ذهبت من فورى إلى مكتب « كوك » للسياحة ، حيث أخذت تذكرة إياب إلى مصر ؛ فتعجب موظف الشركة المختص لهذا التصرف ، لأنى كنت رجوته فى الصباح أن يهيئ لى برامج رحلة إلى أوربا الوسطى ، فقلت للرجل على سبيل الاعتذار حتى لا يظن بعقلى الظنون : إنه وردتنى برقية تدعونى إلى العودة إلى مصر فوراً . . . . وفى صباح اليوم التالى حملت حقيبتى إلى الباخرة ، وبعد أن أفرغتها فى « الكابين » صعدت إلى الجسر كى أشاهد الركاب وهم يصعدون إليها تباعا ، وقد كانوا قليلين ، إذ متى الذى يصيف فى مصر من أهالى أوربا ؟ ... وكم سررت حينما شاهدت الأسرة المذكورة تصعد بدورها الباخرة وبينها فتاة أحلامى . على أنه حينما دوّى صفير الباخرة مؤذناً بالرحيل ، رأيت الفتاة وحدها تقبّل أفراد الأسرة واحداً واحداً ، فزاد سرورى إذ قلت : ها هى فتاتى تسافر بمفردها ، فيسهل لى بذلك أمر التعرف بها ! ولكن كم كانت خيبة أملى شديدة حينما رأيت أنها هى التى تغادر الباخرة ، والذين كانوا مسافرين إلى مصر هم باقى أفراد الأسرة غير المرغوب فيهم ..

وحينما عدت إلى مصر ، وسألنى الأهل والأصحاب فى دهشة مشروعة ، عن سبب عودتى الفجائىّ ، قلت : إنى مرضت فى الطريق ، فآثرت العودة إلى الوطن ، حيث تتوافر أسباب العناية . ولو كنت أخبرتهم بالحقيقة ، لبعثوا بى توًّا إلى المستشفى المعهود ...

صبرى شوقى

محمد بن دنيال

قبل أن نعرض للحديث عن هذه الشخصية العظيمة فى تاريخ الأدب العربى المصرى ، يجب علينا أن نلقى نظرة عامة على هذا الفن الذى نبغ فيه المترجم له ، أعنى (خيال الظل) .

يرجح المتصدرون لدراسة هذا الضرب من الأدب العربى المصرى من المستشرقين الألمان وعلى رأسهم (جورج يعقوب) ، أن الوطن الأصلى لهذا الفن هو بلاد الهند ، وأن أقدم نصوص عرضت له هى تلك التى تسمى فى الأدب السنسكريتى (تيره جاثا) ، أى أغانى الراهبات ، فقد جاء ضمنها حوار لطيف بين إحدى الراهبات البوذيات وبين شخص يراودها عن نفسها ، وفى هذا الحوار يرد ذكر هذا النوع من التمثيل ، فالراهبة تقول له : (إنك تندفع أيها الأعمى وتتكالب على لا شىء ، إنك تتهالك على شجرة ذهبية رأيتها فى حلم جميل ، إنك تجلس مع جموع الناس الفقيرة لمشاهدة خيال الظل) . ويذكر عالم فلكى هندى يسمى (أورباها ميهرا) عاش فى القرن السادس الميلادى فى كتابه (ركة سميتا) أن كسوفاً سيقع للشمس ، وأن هذا الكسوف سيسبب خسائر كبيرة لطبقات مختلفة من الناس ، منهم أصحاب (خيال الظل) . وفى غير الهند وسيلان يستطيع العلماء تتبع انتشار هذا الفن فى جزائر جاوه وسيام ، وفى الصين ؛ ويرجح هؤلاء الإخصائيون أنه عن طريق الصينيين جاء هذا الفن إلى العالم الإسلامى .

وذلك أن المؤرخ الفارسى رشيد الدين المتوفى عام ١٣٨٨ م يقول فى كتابه (جامع التواريخ) المحفوظ ضمن مخطوطات دار الكتب فى مدينة (ميونخ) ، وتحت رقم ٢٠٧ عند ما عرض للحديث عن حاشية ابن جنكيزخان ، أن لاعبين صينيين جاءوا وكانوا يلعبون خلف ستارة ألعاباً عجيبة ، وكان من بين الشخوص شخص يمثل رجلاً ذا لحية بيضاء على رأسه عمامة شد فى ذيل حصان ، فسأل ابن جنكيزخان من يمثل هذا الشخص ؟ فقيل له : أحد الثوار من المسلمين وهو يجلبه الجنود على هذه الصورة من المدن ؛ فأمر بوقف اللعب ، وطلب إحضار بعض الحلى من الخزانة كما أمر أيضاً بإحضار الكأس المطعم بالأحجار الكريمة ، والذى يستطيع الشخص شراءه من بغداد أو بخارى ، كذلك الخيول العربية وبعض حلى العرب وجواهرهم الثمينة ، وبعض أدوات الزينة الفاخرة ، كما أمر بإحضار ما يقابلها من المصنوعات الصينية الفنية . فلما أحضرت الأخيرة وقارنها بالعربية ظهر الفرق الشاسع ، ثم قال : أفقر عربى يملك الكثيرين من المماليك الصينيين ، بينما لا يملك أحد كبار موظفى الصين أسيراً مسلماً واحداً ، وقد يكون هذا لحكمة شاءها الله أراد بها أن يختبر مرتبة الشعوب . كما قدرت فدية المسلم لجنكيز خان بأربعين قطعة من الذهب ، بينما فدية الصينى إذن طويلة (حمار) . فكيف يستطيع إنسان رغم هذه الأدلة أن يحتقر الشعوب الإسلامية ! وبعد ذلك عفا عنهم على ألا يعودوا لمثل هذا العمل ثانياً . فمن هذه القصة التى يرويها صاحب جامع التواريخ يستشهد العلماء على العلاقة الكائنة بين الفنين الصينى والإسلامى من ناحية ، وعلى انتقال (خيال الظل) إلى المسلمين من ناحية أخرى .

ولعل أقدم إشارة فى الأدب العربى إلى هذا الفن ، حسب رواية صاحب كتاب فوات الوفيات ، الجزء الأول ص ٣٤٨ ، طبع بولاق عام ١٢٨٣ هـ ، هى تلك التى جاءت فى الأبيات الثلاثة المنسوبة لوجيه الدين ضياء بن عبد الكريم الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، والتى ذكرها الأبشيهى فى المستطرف باب (فى ذكر الدنيا وأحوالها ، وتقلبها بأهلها ، والزهد فيها) ؛ وقد شبهها بعضهم (بخيال الظل) فقال :

رأيت (خيال الظل) أعظم عبرة
لمن كان في علم الحقائق راقي
شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها
لبعض وأشكالاً بغير وفاق
تجيء وتمضي بابة بعد بابة
وتفنى جميعاً والمحرك باقي

ولم يقتصر ذكر هذا الفن المسرحي على (فوات الوفيات) و (المستطرف) ، بل هناك كثير من المصادر العربية ، خاصة تلك التي عنيت بمصر ، تاريخها وأدبها ، كابن إياس والمقريزي ، التي تحدثت عنه حديثاً فياضاً ، ولا سيما بعد أن أصبح هذا الفن حرفة مصرية . فابن إياس يذكر في تاريخه أنه في عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م .) رسم (جقمق) السلطان بحرق شخوص (خيال الظل) جميعها . وفي موضع آخر يقول ابن إياس : (أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان بالمقياس أحضر في بعض الليالي (خيال الظل) فلما جلس للفرجة قيل إن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باي لما شنق عليها وقطع به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم على المخايل في تلك الليلة بثمانين ديناراً ، وخلع عليه قفطاناً مخملا بالذهب ، وقال له : (إذا سافرنا إلى استنبول فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك) . ويرجح أن هذا هو أول عهد الأتراك (بخيال الظل) ، كما أن ذلك العصر كان فاتحة دخول هذا الفن في أوربا عن طريق تونس ، إيطاليا ، ألمانيا ، فرنسا .

من كلام ابن إياس يفهم أن هذا الفن أصبح في مصر حرفة ، وأصبح في استطاعة (الخيال) أن يعبر به عن الأحداث التاريخية ، لكن ليس معنى هذا أن عهد المسرح المصري به يرجع إلى ذلك العهد ، فلدينا بعض المسرحيات المصرية التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي مثل : (لعب حرب السودان) ، و (لعب حرب العجم) ، و (لعب المركب) و (لعب الدير) ، وأخرى وضعت في القرن الثالث عشر وهي تعتبر أحسن ما كتب في هذا الفن ، أعني في الأدب العربي المصري المسرحي ، وهي (طيف الخيال) ، و (عجيب وغريب) ، و (متيم) ؛ وكلها من وضع الأديب المسرحي الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن دنيال بن عبد الله الخزاعي الموصلي المتوفى سنة عشر (أو إحدى عشرة) وسبعمائة هـ (١٣١١ م .) وكان طبيباً مصرياً للعيون ، وشاعراً من أهم الشعراء الذين عرفتهم الكنانة في ذلك العصر ؛ ومن شعره في حرفته :

يا سائلي عن حرفتي في الورى وضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

أما مسرحياته فكلها هزلية وهي من مخلفات العصور الوسطى ، وقد وضعها أيام الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م .) ويرجح أنها ألفت مباشرة بعد عام ١٢٦٧ م كما يتضح لنا ذلك من مقدمة المسرحية الأولى المعروفة (بطيف الخيال) . أما اللغة التي استخدمها ابن دنيال في تواليفه هذه فهي الشعر والنثر المسجع . ومن حسن الحظ أن المواضيع التي تناولها يتفق معظمها والأحداث التي يعرضها لنا أحد مؤرخي ذلك العصر كابن إياس أو المقريزي . ففي (طيف الخيال) نجد المؤلف يعرض لعصره فيصوره لنا في المقدمة تصويراً يتفق مع ما ذكره ابن إياس عندما عرض للحديث عن سنة خمس وستين وستمائة ؛ فابن دنيال يقول : (لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية سقى الله من سحب الإنعام عهدها ، وأعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة ، وهزم أمر السلطان جيش الشيطان ، وتولى الحوان والي القاهرة إهراق الخمور وإحراق الحشيش ، وتبديد الزور ، واستتاب العلوق والمواطى ، وحجر البغاة والخواطى ، وشاعت بذلك الأخبار ووقع الإنكار ، واختفى المسطول في الدار ، وقد آذى الخلاعة نابة الأذية ، وسلب ابن الكازروني

وفي رقبته نبادية[١] . فدعاني بعض أصدقائي إلى محله ، وأراني من عياله وأهله ، واعتذر إلي عن تقصيره في الإكرام ، إذ لم يأتني بمدام ، وقال قد غلب على ظني أن أبا مرة (الشيطان) قد مات وعد من الرفات ، فقم بنا نبكيه ونصف الحالة ونرثيه ، فابتدأت وقلت في معنى هذه الواقعة التي وقعت :

مات يا قوم شيخنا إبليس ... وخلا منه ربعه المأنوس
ونماني حدسي به إذ توفي ... ولعمري ممساه محدوس
هو لم يكن كما قلت ميتاً ... لم يشير لأمره ناموس

ومن ثم نرى الشاعر يستمر في تصوير إبليس وما حل بأنصاره وأعوانه من الخمارين والحشاشين ، ثم ينتقل إلى الخليعين والخليعات ، فيقول :

وفتى قائل لقد هان عندي
بعد هذا في شربها التجريس
كم خليع يقول ذا اليوم يوم
مثل ما قيل قمطرير عبوس
وقضيب ونرجس وسعاد
بأكيات وزينب وعروس
ذي تنادي حريفها لوداع
لا عناق لا ضم لا تبويس

وهكذا نرى الأفق يتسع أمام الشاعر ، فيحلق فيه ، ويسجل لنا حياة اللهو والفجور في تلك العصور تصويراً دقيقاً رائعاً ، ثم يختم قصيدته بقوله :

ارحلوا هذه بلاد عفاف ... وسعود الخلاع فيها نحوس
من لنا بعد ذلك الشيخ إلف ... وسمير ومؤنس وأنيس
لا ترى فتى ضاحك السـن وكل ... يبدو له تعبيس

وحدث آخر من الأحداث التاريخية التي وقعت أيام الظاهر بيبرس ، ونجد صداها عند ابن دنيال هو وصول الإمام أبي العباس أحمد بن الخليفة الظاهر العباسي من بغداد واحتفاء السلطان به كما هو مدون في المقريزي ، الجزء الرابع ص ٩٤ وما بعدها ، طبع المليجي ؛ فقد تناول شاعرنا هذا الموضوع وخلعه على شخصية من شخصيات مسرحيته ، أسماها (الأمير وصال) يقدمها للنظارة بعد مرثيته لأبي مرة . فطيف الخيال ينادي : «يا أمير وصال» . فيدخل جندي عليه شربوش ، (يروي المقريزي أنه يشبه تاجاً مثلث الأضلاع ويلبس دون عمامة) ؛ ويقدم نفسه كالأمير وصال ويتحدث عن نفسه وخصاله ؛ فهو كالأفعى ، ويلوط أكثر من أبي نواس ، ويصفع أقلاماً أكثر من الخباز ، ويفترس أكثر من النار ، ويشرب أكثر من الرمل ؛ وأنه أظهر من كوكب ، وأدور من لولب ؛ فيمدحه طيف الخيال ويقول له ما معناه : من يترك من الآثار مثل ما تركت لن يموت أبداً . ثم يلتفت الأمير وصال بعد أن مدح الأيام الخالية ، وخاطب طيف الخيال ، مكلفاً إياه إحضار كاتب سره (التاج بابوج) ، فيظهر (التاج بابوج) ، ويقبل يد الأمير ، فيكلفه إحضار مكتوب خاص ؛ فينادي (التاج بابوج) : سركيس ! احضر حافظة الورق وحافظة النقود ؛ فيحضرها العبد ، فيقرأ (بابوج) : بأمر طيف الخيال تقليداً وفيه يعين (وصال الحبة) ملكا على الخابين ، وعقد ملكه فيشمل خرائب وأكوام مصر العتيقة ، والأهرام وما جاورها من تلال ومقابر .. وبعد ذلك يقول طيف الخيال : يا شيخ بابوج ! أين نسخة من القصيدة التي وضعها الشاعر (صر بعر)[١] فيخرجها التاج بابوج من عيبة وينشدها ؛ فنجد أن الأمير وصال يريد الزواج ، فيستدعي قوادة

(١) وفي صلبه يقول ابن دنيال :
لقد كان حد السكر من قبل صلبه
خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي
ألا تب فإن الحد قد جاوز الحدا

(١) هو والد الشاعر — صر در — الذي توفي في القرن الخامس الهجري وقد هجاه الباضي ببيتين هما :
لئن لقب الناس قدما أباك ... وسموه من شحه «صر بعر»
فإنك تنثر ما «صره» ... عقوقاً له وتسميه شعرا

معروفة تسمى (أم رشيد) ، فتخبره عن فتاة ، ويرضى بها ، فيحضر العاقد (المأذون) ويقرأ خطبة النكاح ، ويتم العقد ، ويتضح بعد ذلك أن الأمير صار فقيراً ، (مال المال ، وحال الحال ، وذهب الذهب ، وفضت الفضة ، وسلب السلب) ؛ وفي ليلة الزفاف تبين للأمير قبح العروس فغضب وهاج ، وحد الدبوس ، وضرب الماشطة ، والعروس ، وهدد زوج أم رشيد (الشيخ علق) بالضرب ثم يلتفت طيف الخيال إلى الشيخ علق ويقول : إننا نحتاج إلى الطبيب (يقطينوس) لأنه في رأينا لا يقل عن جالينوس . ثم يتكلم الأمير وصال مع طيف الخيال ، ويخبره أنه لم يبق إلا السفر للحجاز ، لكي يغسل ذنوبه بماء زمزم ، ويزور مقام إبراهيم ، وروضة محمد ، فيختفيا من المسرح .

وبذلك تنتهي الرواية أو البابة بلغة ذلك العصر . لكن قبل أن أختم الحديث عن هذه الرواية وانتقل إلى الاثنتين الأخريين اللتين وضعهما ابن دنيال أيضاً ، أقرر أنه من حسن حظ العالم أن يملك منها ما لا يقل عن ثلاث مخطوطات في مصر واستنبول والأسكوريال . فهذه المسرحيات تشهد حقاً للشاعر بالعبقرية ووفرة الثروة اللغوية ، إلى جانب تبريزه في فني العرض والتمثيل . فابن دنيال يضع أغاني مسرحياته وألحانها ، ويفرض على الحركة للشخوص طريقة العرض وكيفية الأداء . في مقدمته لرواية (طيف الخيال) نراه بعد البسملة يحدثنا عن الوافد إليه في هذا التأليف فيقول : (كتبت إليّ أيها الأستاذ البديع ، والماجن الخليع ، لازال سترك رفيعاً ، وحجابك منيعاً ، تذكر أن (خيال الظل) قد مجته الأسماع ونبت عنه لتكراره الطباع ؛ وسألتني أن أصنف لك من هذا النمط ، ما يكون بديعاً من أشخاص السقط ، فصدني الحياء فيما رمته مني ، أن ترويه عني ، ولكن رأيت عجزي من هذا المرام ، يوهمك أني قاصر عن هذا الاهتمام ، واهن الفكرة ، عاجز الفطرة عن غزارة الينبوع ، وإجابة الخاطر المطبوع ؛ فجلت في ميدان خلاعتي ، وأجبت سؤالك لساعتي ، وصنفت لك من بابات المجون والأدب العالي لا الدون ، ما إذا رحت شخوصه ، وبوبت مقصوصه ، وخلوت بالجمع ، وجلوت الستارة بالشمع ، رأيت بديع المثال يفوق بالحقيقة ذلك الخيال ، فإذا دعيت إلى مجلس السرور ، فاخرج طيف الخيال مكان الفور ، «فتحات مستديرة في الستارة» ، واستبد بالنشيد ، وغن في رأس هذا القصيد) ، وبعد أن ذكر المؤلف النشيد نراه ينتقل إلى (الريس) ، فيقول له : (فإذا فرغ الريس من هذا الإنشاد ، يشرع فيما بنى وشاد ، ثم ينادي : يا طيف الخيال ، يا كامل الاعتدال ؛ فيخرج شخص أحدب ، وينقض كالبازي الأشهب ، فيسلم سلام القادم ، ويقف مطرقاً كالواجم ، فيرد الريس عليه السلام ، ويتلقاه بهذا المدح قبل الكلام) .

وهنا نرى ابن دنيال يتمدح بالأحدب والحدبان ، ويتغنى بهم وبخصالهم ، وهو يجمع في هذه القصيدة بين الهزل والجد ، فمنها قوله :

أم هل يزين الفتى إلا ردفه
حسناً فكيف بمن له ردفان
والعود أحدب وهو ألهى مطرب
ولقد سمعت بنغمة العيدان
وكذا سفين البحر لولا حدبة
في ظهره لم يقو للطوفان
ومدبر الأكبير يدعى أحدبا
في علمه والقسط بالميزان
وإذا اكتسى الإنسان قبل تخللا
بالمدح قامت حدبة الإنسان

وبعد أن يفرغ الريس من هذا النشيد ، يأخذ في عرض شخوصه .

فؤاد حسنين

المعرفة والنقد

سيدى الأستاذ الجليل رئيس تحرير مجلة « الثقافة » :

تحية وبعد : فقد سرنى أن يتناول صديق وزميلى الأستاذ مندور موضوع « مناهج الدراسة الأدبية » من وجهة نظر تخالف — قليلا — الوجهة التى أحاول عرضها فى بعض ما أكتب . وأنا ممن يدينون بأن الحقيقة بنت البحث ؛ وأنه على قدر عناية الباحثين بعرض آرائهم وتحديد مناهجهم فى التفكير يكون حظهم من الوضوح والإفادة . ورجائى أن تظل « الثقافة » على خطتها فى تشجيع هذا الضرب من النقاش ، كما أرجو أن يستمر الصديق فى عرض آرائه ؛ وأن يفصل بعض نواحى النقد « المنهجى » الرائع الذى خلفه لنا أسلافنا فى النقد والبلاغة العربية ؛ وهذا شرف أحمل له وأرجو أن يكون لى نصيب فيه . ويكفينى الآن أن الصديق قد خرج فى مقاله الثانى (ثقافة ٢٠٥) عن الدائرة الضيقة التى حبس فيها الدراسة الأدبية فى مقاله الأول (ثقافة ١٩٧) ، وأنه رأى من الضرورى أن يستعرض طائفة من الجهود العلمية التى بذلها التفكير البشرى المنظم — منذ عهد « أرسطو » على الأقل — فى محاولة إقامة الدراسات الأدبية — على اختلاف أنواعها — على أساس من التفكير الواضح الدقيق، وأنه بنى إعجابه « بعبد القاهر » فى « دلائل الإعجاز » على أساس أن « الدلائل » (تشتمل على نظرية فى اللغة وتطبق تلك النظرية) . ولعل الصديق فى مقاله المقبل الذى وعد به يصل فى « أسرار البلاغة » إلى مثل ما وصل إليه فى « الدلائل » ، وسيجد بعض النقط التى أثارها مبحوثة فى المقالين اللذين بعثت بهما إلى « الثقافة » قبل اطلاعى على مقاله الأخير .

محمد خلف الله

رثاء كنارى

أين لحن الربيع أين الغناء
أين رقص فى وكرك المحبوبِ
سكتت نغمة وغاب صفاء
وهنا الموت بالكنار الطروب

***

أين قيثارك الصغير يحيّى
بالنشيد الوديع حفل الحياة
فى الصباح الرطيب أو فى المشى
يتغنى بأعذب النغمات

***

العصافير فى الحديقة تصدح
والأزاهير باسمات الثغور
كل ما فى الحياة يلهو ويمرح
وأنا والكنار خلف الستور

***

يا أبا الشدو لم معى تتغنّى
قبّح الصمت والحياة بديعه
مهرجان الربيع بالقرب منّا
لم نحى الجمال يا ابن الطبيعه

***

ضجعة الموت خيبت كل قصد
ويد اليأس قطعت أوتارك
ماذا أنت بعض ريش وجلد
وجيوش النمال تملأ دارك

***

ومعنى الصوت وانتهى كل لحن
غير لحن على المدى مروىّ
هو صوت الكنار يغمر أذنى
بغناء من السماء شجى

***

هو سر الكنار من أزمان
حمله عصفورة تتجدد
فانشدوه فى كل عصرٍ وآن
إن صوت الكنار وحى مخلّد

محمد طاهر الجبلاوى

حكمت محكمة الدوبة العسكرية فى الجنحة رقم ١٣٦٣ سنة ١٩٤٢ بحبس محمد حسن الزاز من كفر فيشا والصادرة ليبه ذرة بسعر يزيد عن التسعيرة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٠٩ — الثلاثاء ٢١ من ذى الحجة سنة ١٣٦١ — ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٢ — السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

الميــــــدان التونسى

امتد لهيب الحرب حتى شمل قطراً عربياً كان ينعم ببعض الأمن والهدوء . واليوم أصبحت أطرافه الشمالية ميداناً للقتال ، وتوشك الأطراف الجنوبية أن تصطلى بأوار الحرب أيضاً . لقد كانت مراكش والجزائر أسعد حظاً من تونس . فقد دار القتال فيهما حول بعض الموانى أياماً قلائل ، ثم صدر الأمر إلى القوات الفرنسية بأن تلق السلاح ، وأن تهادن الغزاة ، بل وأن تنضم إلى صفوفهم فلم تمض أيام حتى كانت مراكش والجزائر أقطاراً محتلة احتلالا عسكرياً ، ولكنها لم تصبح ميادين قتال . ولقد يصيبها من الشر ما يصيب الأقطار المحتلة أو المحايدة أحياناً من غارات جوية ، سيصيب معظمها الموانى والمدن القريبة من تونس مثل بونة وقسطنطين وباجة والجزائر . ولكن بعض الشر على كل حال أهون من بعض . وفرق كبير بين أن تتعرض بلدان محدودة لغارات متقطعة ، وبين أن تصبح البلاد ميداناً للحرب ، وما يصاحبها من التخريب والتدمير الذى يأتيها من البر والبحر والجو ..

وقد عجب الناس — يوم علموا بالزحف الأمريكى الهائل الذى كان من نتائجه أن احتلت الجزائر ومراكش فى بضعة أيام — كيف فات البريطانيين والأمريكيين أن يبادروا باحتلال تونس ما دامت هى ذلك القطر العظيم الخطر ، ذو الموقع الحربى الممتاز ، الذى يمكن منه وحده مدافعة قوات المحور ثم مهاجمتها .

وليس فى هذا كله موضع للعجب ، فإن ذلك الموقع الحربى الخطير نفسه ، يجعل من المستحيل أن تنال تونس تلك السهولة التى تم بها الزحف على مراكش والجزائر . فصقلية ، حيث المطارات وأوكار الغواصات ، على بعد مائة

ميل من سواحل تونس ؛ وسردينيا لا تبعد عنها بأكثر من مائة وخمسين ميلا ، وجزيرة بنتلاريا المحصنة على بعد سبعين ميلا ؛ وهذه كلها جزر إيطالية ، وبعضها أكبر جزر البحر المتوسط كله . فإذا أضفنا إلى هذه جزيرة كريت التي تحتلها قوات المحور أيضاً ، أدركنا أن منطقة البحر الأبيض المتوسط هنا ، لم تكن بالمكان الأمين ، الذي تستطيع أن تقترب منه تلك القوافل البحرية الضخمة التي حملت الجنود البريطانيين والأمريكيين إلى بلاد المغرب

إن هذه القوافل جاءت بطبيعة الحال من الغرب ، من المحيط الأطلسي ، ولم يكن بد من أن تبادر باحتلال أقرب الموانئ منها ، وهي موانئ المغرب الأقصى . وكلما توغلت تلك السفن نحو الشرق ازدادت قرباً من منطقة الخطر ، ومع هذا فقد استطاعت بعض القوافل أن تصل إلى وهران والجزائر وباجة .

وهكذا لم يكن بد من أن يؤجل الزحف إلى تونس حتى يكمل احتلال مراكش والجزائر كلها ، وإلى أن يتم نقل الجنود وإعداد المطارات والمستودعات على حدود الجزائر وتونس ؛ وهذا كله استغرق بضعة أسابيع . ولم تقف ألمانيا أو حليفتها موقف المنتظر ، بل بادرت بإرسال جيش لاحتلال السواحل الفرنسية وموانئها . وقد استطاع بالتدريج أن يحتل الأقطار الداخلية أيضاً في عدة جهات .

ومع أن نقل الجنود واختراق مجاز صقلية ليس بالشيء السهل الهين ، فإنه أيضاً ليس بالأمر الشاق . إذا ذكرت أن صقلية لا تبعد أكثر من مائة ميل من سواحل تونس ، وأن من الممكن أن تقطع السفن هذه المسافة مستترة بظلام ليل الشتاء الطويل ، واحتمال نجاتها من الهجوم في مثل هذه الحال معادل لإمكان إصابتها بطوربيد من غواصة أو مدمرة أو طائرة . وهكذا استطاع الألمان أن يحشدوا



جيشاً كبيراً ، لعله يشتمل على وحدات من أقوى وأمهر ما في الجيش الألماني كله . ولم يبق مناص من أن ينشأ في شمال تونس ميدان جديد للحرب .

لقد اخترقت جيوش الدول المتحدة حدود تونس منذ نحو شهر ، في عدة مواضع ، ولا شك في أن جميع جهات القطر التونسي على جانب عظيم من الخطر ؛ ولكن أخطرها وأهمها بلا ريب هو الإقليم الشمالي ، حيث المدن العامرة والعمران ، وحيث عاصمة البلاد تونس ، والميناء الحربي العظيم بنزرت ، وحيث وادي نهر مجردا الآهل بالسكان ، الذي يعد محور الحياة في هذا الإقليم الشمالي من تونس .

والحرب في هذا الميدان الشمالي تختلف اختلافاً كبيراً عما ألفناه في الميدان الليبي ، فهناك الأرض صحراء أو شبيهة بالصحراء . ولا يضير الجيوش شيئاً أن تمعن في الكر أو في الفر وأن تتراجع عشرات بل مئات الأميال ، وطبيعة الأرض الصحراوية تمكن الجيوش من أن تدفع دباباتها وعجلاتها في طرق غير معبدة ولا مطروقة . والحال في الميدان التونسي بخلاف ذلك ؛ فالأرض من الطين ، والمطر غزير في فصل الشتاء ، ولا تستطيع المركبات والدبابات أن تجتاز سوى الطرق الممهدة ، وإلا ألقت نفسها في وحل يشق السير فيه . وقد تقدمت القوات الأمريكية البريطانية أول الأمر بسرعة حتى احتلت ماطورة ، وهي واقعة جنوب بنزرت بنحو أربعين ميلا ؛ ولكنها لم تلبث أن أخلتها ، لكي تحتل الجهات المرتفعة الواقعة غربها . وتقدمت في الوقت نفسه تلك الجيوش في سهل ماجردا ، حتى احتلت طبوربه ، الواقعة على نهر ماجردا إلى قرب تونس بنحو عشرين ميلا . ولكن تعديل خط القتال اقتضى التراجع نحو الجنوب على طول نهر ماجردا إلى بلدة مجاز الباب على بعد عشرين ميلا أخرى من طبوربه . ولا شك أن هذا الوضع الجديد أصلح للهجوم وللدفاع بالنسبة للقوات البريطانية والأمريكية ، لأن مجاز الباب كما يدل اسمها تقع في واد متوسط تحميه من الجانبين تلال متوسطة الارتفاع .

وهكذا نرى جبهة القتال في تونس قد أخذت تتكون ، ورغم قلة الأنباء ، نستطيع أن نتصور أنها تشتمل على طرف شمالي وجهته بنزرت ، ووسط وجهته تونس ، وجنوبي لم يتم تكوينه بعد ، وربما كانت وجهته القيروان وسوسة .

والميدان الأوسط هو فيما يبدو أهم جزء في الجبهة التونسية ، وربما برزت أنباؤه وسمت على سائر الأنباء . والأرض في هذا الميدان سهلة تحيط بها بعض التلال في الجنوب على جوانب نهر ماجردا ، ثم تأخذ السهول في الاتساع ، وتختفي التلال إلا القليل . وينتهي نهر ماجردا إلى الطرف الشمالي من خليج تونس ، ذلك الإقليم العريق الذكر ، الذي كان دائماً محور الحياة في القطر التونسي كله . والذي كانت قرطاجنة تسيطر منه على بلاد المغرب والبحر المتوسط الغربي بضع قرون .



أما مدينة تونس فإنها ليست واقعة على الخليج مباشرة ، بل بينها وبينه بحيرة عرضها عشرة أميال ؛ وهي بهذا تتجنب ما تعرضت له قرطاجنة من الغارات البحرية .

ومع هذا فإن قناة قد شقت في وسط البحيرة ، لكي تصل شاطئ المدينة بالبحر العميق ، وبذلك صار من الممكن للسفن المتوسطة الحجم أن تصل إلى أرصفة تونس ، وهذه البحيرة كان يطلق عليها في العهد العربي اسم

بحيرة رادس ، وميناؤها مرسى رادس . ولعل مرسى رادس هذا هو الذى ندعوه اليوم "حولت" . ولا يزال هذا الرفأ تستخدمه السفن الكبيرة إلى اليوم ، وهو بمثابة الميناء الخارجى لتونس.

ولا شك فى أن إقليم تونس أهم نواحى القطر كلها لعمرانه ، وسهولة اتصاله بسائر أجزاء القطر ، ولموقعه الممتاز بالنسبة إلى مضيق صقلية . وإذا استطاعت القوات الأمريكية والبريطانية أن تستولى عليه أمكنها أن تعزل قوات المحور فى الجهات الجنوبية ، وأن تبسط نفوذها على شبه الجزيرة الواقع شرق خليج تونس ، ومن التى تنتهى رأس بون المشرف على مضيق صقلية .



أما الطرف الشمالى من الجبهة الجنوبية ، فإن وجهته ميناء بنزرت ؛ وهو ذلك الرفأ الطبيعى العجيب ، الذى يوشك أن يضارع تونس أو يبزها ، لولا موقعه المتطرف نحو الشمال . ولميناء بنزرت بحيرة ، كما لتونس بحيرة ، ولكن هذا التشابه سطحى صرف ؛ فإن بحيرة تونس ضحلة ، وبحيرة بنزرت عميقة واسعة ، تستطيع أن تأوى إليها السفن الكبيرة . ومدينة تونس تحمل البحيرة فيما بينها وبين البحر ، أما بنزرت فإنها تقع على البحر مباشرة ، كأنها تحمى الطريق إلى البحيرة ، ولذلك فإنها الميناء الذى كونته الطبيعة ليكون ميناء حربياً بحرياً تأوى إليه الأساطيل ، فتجد فى داخل اليابس بعيداً عن البحر وأخطاره مساحة واسعة من ماء البحر تأوى إليها ؛ والوصول إلى هذا الرفأ الداخلى الآمن بواسطة قناة طبيعية ضيقة يسهل الدفاع عنها .

وليس فى البحر الأبيض المتوسط كله ظروف طبيعية عجيبة كونت ميناء طبيعيا داخلا فى اليابس كما هى الحال فى ميناء بنزرت ، التى أصبحت أهم ميناء حربى فى بلاد المغرب . ومن أجل حيازتها أو الدفاع عنها لا بد أن تبذل جهود شاقة عنيفة فى هذا الطرف الشمالى من الجبهة التونسية.

أما الطرف الجنوبى للجبهة فإنه لا يزال فى دور التكوين ، ونظراً لبعده عن قواعد الفريقين لم تحتشد فيه بعد جيوش كبيرة . وقوات المحور تحتل السواحل كلها فيما يبدو ، ولكن ليس لها فيها وحدات كبيرة . أما الدول المتحدة فقد احتلت الحدود الغربية وأخذت تتقدم نحو الشرق ، فى طريق يمتد من تبسة إلى القيروان وسوسة ، ولكن ليس لدينا أنباء موثوق بها تستطيع أن تقرر بوجيها مدى تقدم أحد الفريقين .

وهنالك من يظن أن الميدان التونسى الجنوبى سيتصل قريباً بالميدان الطرابلسى ؛ وذلك لأن الزحف على

الحكم عند الاغريق

الدكتاتورية من بعد الأرستقراطية

للدكتور أحمد زكي بك

تجرى آلة العيش في الأُسَر، في العادة الجارية، على التوافق والتراضي. وليس معنى هذا أن أفراد الأسرة الواحدة يرضون الشيء الواحد. وليس معناه أنهم يعزفون معا، ويطيبهم، من الشيء الواحد. فهذا في طبيعة الأشياء غير ممكن، ولا هو جائز، وليس فيه نفع الحياة. ولكن معناه أن هناك أخذا وعطاءً، وأن عملية الرضاء الواحدة تتضمن رضى واسترضاء، وأن الحب خليق بين الرجل وزوجه، وبين الزوجين وبنيهم، وبين البنين والبنات، وبين هؤلاء جميعاً وما قد تتضمن الأسرة من أخوال وأعمام، أو خالات وعمّات، هذا الحب خليق ليقوم من آلة العيش مقام الزيت، وأجزاؤها من حديد خشين الجسّ، صُلب الملمس، لا يمكن أن تدور عجلة منه على عجلة ألا احتزّت وتطاير منها الشرر، وفسدت، وفسدت الآلة بفسادها.

ولكن كثيرا ما يذهب من الأسر حبّها، ويجف من الآلة زيتها، فيدبُّ الشقاق بين أفرادها، فتصبح سياستهم سياسة الفرد الأوحد، أخذاً بلا عطاء، ورضى ولا استرضاء، وتصبح الحياة شكاساً وعناداً، وتتّجه كلٌّ وجهته غير حاسب حسابا لوجهات أعضاء الشركة الآخرين. وإذن تفسد الأسرة وينحل رباطها. وعندئذ يقول الناس: وا أسفاه، لو كان في هذه الأسرة رجل..!

والناس تعنى بهذا ليت في هذه الأسرة رجل بيمينه سوط، رجلٌ مستبد، رجل ذو شدة وبأس، يزأر الزأرة فترتعد لها فرائص العائشين. رجل تقوم عزيمته الواحدة مكانَ تلك العزائم المتفككة التي تأبى على عجلات الأسرة الواحدة أن تسير في الوجهة الواحدة. رجل تقوم وَحدة غرضه مكان توحّد الأغراض التي تفرّقت، وتَستبوِر الشعاعات التي تبعثرت. رجل تقوم إشارته الصادرة مكان تلك الشُّورَى العائرة الحائرة.

بلاد المغرب، وضرورة المبادرة بإرسال جميع الإمدادات التي في متناول المحور إلى تونس، قد جعل من الصعب إمداد القوات المحورية في طرابلس بما تحتاجه من العتاد والذخيرة لمواجهة الجيش الثامن. وهذا الفريق يرى أن جيش المحور قد يفضل أن يخلي طرابلس كلها، وأن يعتصم بالإقليم الجنوبي من تونس. وعلى فرض صحة هذا التنبؤ، فإن هذه الحال ستؤدي إلى فتح ميدان جديد في أقصى الطرف الجنوبي من بلاد تونس. وهنالك موقع حربي ملائم لمقاومة الجيوش الزاحفة من طرابلس، وهو مدينة قابس، الواقعة في الطرف الجنوبي من الخليج المسمى باسمها.

إن تونس الجنوبية تختلف كثيرا عن تونس الشمالية، ففي الجنوب يغلب الجفاف ويقل المطر، وتكثر القيافي والرمال الصحراوية. ولكن قابس نفسها تختلف عن هذا كل الاختلاف، لأنها عبارة عن واحة عظيمة على ساحل البحر، ذات نخل كثير وزروع ناضرة، ومياه غزيرة، وهي تحتل مجازا ضيقا ما بين البحر من جهة وشط الجريد من جهة أخرى؛ وهذا الشط تغطيه طبقات من الملح تحتها مياه وطين، ولا يصلح لأن تجتازه الجيوش الحديثة؛ فهي خير مكان تستطيع منه قوة صغيرة أن تدافع جيشا أكبر منها.

ولكن مثل هذا التطور سيستغرق من غير شك زمنا طويلا.. وسيكون له على كل حال أهمية ثانوية إذا سارت الحوادث في الشمال بقوة وسرعة.

محمد عوض محمد

هكذا يقول الناس ، وبهذا تجرى ألسنة الحمْقى .

وهذا الذى يستبيحه الناس فى أمر الأسَر ، تستبيحه الحوادث فى أمر الأمم .

فالأمم لا يختل نظامها ، ويفسد حكمها وتُنقذ بالتداعى أصول الحياة منها ، حتى يجيئها رجل بيمينه سوط ، فيتقلب فيها الحكم استبدادا . وقد يجىء هذا الاستبداد من الخارج ، وقد يجىء هذا الاستبداد من الداخل ، وهو فى كلتا حالتَيْه يتضمن قوة تستعيد النظام الذى انقطع ، وتسترد حبّاته التى انفرطت ، وتعيد المسئوليات إلى أرباب لا جديرين بها جدارة ولو عاجلة . والناس إن لم تحب الاستبداد يأتى بعد الخلل ، فهى على الأقل لا تكرهه . وجمهور الناس قلّما يُعنى بنظريات الحكم والأمعدة فارغة من طعام ، والأنفس ذليلة من عوز ، وللجوع ذلّة تنزل بالسواد من الناس إلى ذلة البهائم ، فلا يكون للرجل حرمة إلا حرمة الكلب يتمسح من أجل عظمة ، أو حرمة القط يموء وراءك من أجل هَناةٍ من فُتات مائدة .

على هذا النحو دخل حكم الاستبداد دويلات الإغريق من بعد حكم الأرستقراطية . وتعاورَها دولةً بعد دولة ، فيما بين منتصف القرن السابع من الميلاد إلى منتصف القرن الذى تلاه .

فالأرستقراطيات القائمة كان كلما أحست زمام الحكم يُفلت منها ، تشبثت به تشبث الغريق بالحياة . وفعلت لإصلاح الخلل ما استطاعت ، ولكن ما إصلاح خلل عمّ الظواهرَ دون البواطن . ما إصلاح خلل والأثَرة قائمة ، وزيدة الحياة عند قوم وتحيضها عند آخرين . ما إصلاح خلل وقد انقلب السادة وهم ذوو المال سادة مرابين ، حذقوا فنون المال فأطلقوا عليهم يستغل جهل الجاهلين ، يُغرُون بوفيرهم عند الأعطاء ، ولا يُغرون بالصبر إذا ما تأخر الوفاء . والفلاح الفقير لا تنتج أرضه مع الدَّين إلا فقرا . وزاد الحالَ سوءا سَفَهُ السفهاء من الأشراف ، فكلما لم يكفهم ما أصابوا الناس به فى أرزاقهم ، جاءوا يذيقونهم مرارة الحياة فى نفوسهم . فقتلوا بالناس من غضب تمثيلا . والأشراف أنفسهم دب فيهم الشقاق بدبيب الطامع ، فانقسموا على أنفسهم شيعاً ، حتى لكان منهم من شايع الناس ليثأر من شيعته ، وليعمل عند الجمهور لقده .

ولكن الجمهور الإغريقى كان قد ألف الصبر على الذلّ زمانا فلم يعد به طاقة للنهوض . وهاب الحكمَ والحكّام ، حتى لهاب أن يدخل قصور الحكم وقد خلت من جبابرتها . فدخلها رجال رأوا فى أنفسهم القدرة التى أعوزت أمة . وبدأ بهذا عهد المستبدين .

وكان المستبدّ أحيانا رجلا تختاره الأحزاب جميعاً ، لينجو بالدولة من خراب محيق . يقلّدونه الأمر جميعاً ، ويعطونه الثقة جميعها . ولكنه كان فى أكثر الأحيان رجلا تقدم للزعامة ، فلما لفت أنظار الأشراف إليه ، فاختصوه بالخصومة ، حاط نفسه بالخفراء من الجمهور يدفعون عن حياته . ويزيد عدد هؤلاء الخفراء على الأيام ، فإذا به وبهم يقتحمون معقل الدولة ، وإذا مقاليد الأمور تقع فى أيديهم بين عشية وضحاها . وقد كان المستبد فى أحيان أخرى يدخل إلى الحكم من أبواب أخرى غير هذه ، ويكون رجلا غير هؤلاء . وما دام أن الأبواب تهيأت لأن تنفتح ، ولو بقليل عنف ، فهى لم تعدم بين الرجال ذوى الآمال من يفتحها بركزة من رجل ، أو بدفعة من كتف عريضة .

ومعنى الاستبداد كما قدمنا معنى كريه . وقد كان كريها عند فلاسفة الإغريق ، وقد جاءوا بعد عهد الاستبداد هذا ببضعة أجيال . فنظرية الحكم عند هؤلاء الفلاسفة أن المجتمع نظام يضمن للناس طيب الحياة ، ويضمن لهم العيش الحرّ رخاء الفرد ورخاء المجتمع على السواء . فالحكومة التى تكون ، إنما تكون لنفع المحكومين لا لنفع الحاكمين . والمستبد إنما يريد الحكم

لنفع نفسه . والقانون ينظّم ما بين أفراد المجتمع من علائق ، والمستبد فوق القانون فهو خارج على القانون . فهو خارج من نطاق القانون . فليس له إذن حماية القانون .

ولكن مهما يكن من رأى هؤلاء الفلاسفة ، فحياة المجتمع وسط بين طرفين ، ونزاع بين نقيضين : حرية مطلقة أشبه بالفوضى ، بل هي الفوضى ، أو تقييد مطلق هو الاستبداد ، أو هو هذه الدكتاتورية العسكرية التي قال فيها الفلاسفة ما قالوا . والحكم المثالىّ هو شيء بين هذا وهذا . والحكم إذا بلغ النهاية الأخرى ، حيث الخلل والفوضى ، صار كالشمس إذا بلغت المغرب ، لا يمكن أن تعود إلى وسط السماء حتى تُشرق من جديد . والإشراق فى إعادة النظام وإعادة القانون ، مهما كلّف هذا من ضياع حرية سياسية فى ظل دكتاتورية لا يمكن أن تدوم إلا بمقدار ما يشفع نفعها فى بقائها .

وقد شفع حال الإغريق الذى كان فى ذلك الزمان لقيام دكتاتورياتهم ، وشفع لبقائها زماناً . فلما أرادت أن تعيش فوق أعمارها ، جاءها الموت من أنفسها ، كما يجيء الأجسامَ الحية فى شيخوختها ، وحسبُكَ بالشيخوخة مرضاً قاتلا .

فعهد الاستبداد ، عهد الدكتاتورية ، كان عهداً لازماً فى تطور دول الإغريق . وكان عهداً ذا منافع أيضاً .

فالدكتاتور ، يأتى من بعد الفوضى ، يكون من أول مقاصده حتماً إزالة هذه الفوضى بإزالة أسبابها . وأسبابها التى كانت فى عهد تلك الدويلات الإغريقية وجودُ تلك الأرستقراطية التى تدهورت بالحكم من المعنى الذى يُستمد من لفظة الأرستقراطية ، وهو الحكم بالأحسن ، إلى المعنى الأدنى ، معنى الأوليجرشية ، أى الحكم بالأقل ، أى بالعصبة القليلة من الناس ، لخير هذه العصبة ولو فيه إضاعة النـاس . فالدكتاتوريات أزالت أول ما أزالت تلك الأرستقراطيات الجاثمة على صدور هذا الشعب ، فأخذ الهواء يدخل إلى رئتٍ كادت تختنق .

والدكتاتوريات ردّت سلطة القانون ، إلا فيما جاها وبما هى فيه من سلطان مغتصَب . وسلطة القانون ، ولو غير كاملة خير من لا سلطة أبداً . والدكتاتوريات من بعد استقرار أمرها ، واستتباب أمنها ، لا يمكن أن تعيش إلا إذا داهنت الجمهور ، واسترضته ، ويسّرت له الرزق من بعد ضيق . وقد فعلت كثير من هذه الدكتاتوريات ذلك بخلق العمل للمتعطلين . وكان هذا العمل بالطبع من النوع الذى يتفق مع أغراض الدكتاتورية الأخرى ، ولو كان به منافع أخرى .

فكان هذا العمل فى أكثر الأحيان تشييدَ العظيم من البانى فى العواصم الكبرى ، وعظَم البانى من عظم السلطان ؛ والأسقف العالية ، والعمد الفارعة ، من علوّ الهمة وطول الباع ؛ وهو فوق هذا يدغدغ العزة القومية فى نفس الشعب ، ويحيى فيه شيئاً من الكبرياء التى عزّته زماناً ؛ وهو فوق كل هـذا يملأ أوقات الألوف من تلك الشعوب الذائقية بما يَشغل ويُلهى ، ويملؤها طويلا ، ويملأ بطونهم من بعد جوع .

فإن قصّرت هذه الأعمال عما قُصِد بها ، وبقى بالنـاس فضل ، أخرجوا من مدائنهم غصباً إلى الريف ، حيث يجدون فى فلاحة الأرض العمل والطعام .

وقد تضيق بالدكتاتور الحيل رغم هـذا ، فلا يجد ما يشغل كل الناس به عن نفسه فى داخل الحدود ، فيطلب المخلص وراء تلك الحدود ، بإحياء مطامع شعبه فى الشعوب الأخرى . والوطنية عاطفة رخيصة يشتريها الدكتاتور من العامة بغير ثمن كبير ، ويحرّكها فيها بتحرّك قصير ، فإذا بها تتأجج فى الناس حتى لا يكون لفأمهم قعود إلا بعد بلوغ الغاية . والغاية الحرب . وفى الوطنية المتأججة ، وفى الحرب العاصفة ، ينسى الناس ذلّ الدكتاتورية ، ورقّهم للإرادة الفردية ، وتمحوها تلك الاجتراواحَ التى تنفتح فيه النفس الإنسانية فى جو الحرية . وغيرَ هـذا فالحرب فيها الهُلك . والدكتاتور فى الحرب يفقد من أعدائه ومن أصدقائه على السواء ، وكلٌّ غنم . فالعدوّ

للدكتاتور عدوٌّ حاضر ظاهر، والصديق عدوٌّ محتمَل. والصداقة في السياسة قليلة بين ذوي الخطوط المتساوية، فما بالها بين رجل أوحد، وبين جماعة تضرب له شتى الألحان كلما صعد إلى هذا المكان المختار أو هبط، وكلُّ صاحب لحن يتخيّل في أعماق نفسه الخبيئة، تلك التي لا تصل إليها الأعين ولا تنالها النمائم، يتخيّل لنفسه تلك المشية المأمولة على نغم هذه الألحان، للصعود إلى نفس هذا المكان.

ومن منافع تلك الدكتاتوريات الإغريقية، أن الدكتاتور كان رجلا فردا، لم يتقيد بقانون، ولم تربطه ميزانية، فاستطاع بما اجتمع في يده من مال، وحرية تصرف فيه، أن يتجه إلى تشجيع تلك النواحي الدنية التي قلما يأبه بها السواد من العامة، لا سيما عامة تلك الأزمان.

ومن تلك النواحي، ناحية الفن، من شعر وتصوير وبناء. فعهد الدكتاتورية الإغريقية كان عهدا لإحياء الفن لا يُنكر، بل لعله كان أول عهد ترعرعت فيه الفنون. وترعرعت بما أسبغه أرباب الإرادة الواحدة على رجال الفنون من جود وحماية. وقد يقال إن هذا لم يكن إلا من غرور الملك. فإن يكن، فأنعم بالغرور تنبثق من ورائه تلك الشعاعات الربّانية التي تخرج من لسان شاعر، أو ريشة راسم، أو منحت حجّار.

ومن منافع الدكتاتورية، بل لعلها النفعة الكبرى إن صح أن للدكتاتوريات منافع، أنها كسرت شِرّة الأشراف وغير الأشراف، فوحّدت بين الشعب، وسوّت بين الطبقات، وأصبح الناس في الرق سواء. وبذلك مهّدت لعصر الديموقراطيات في الإغريق. فقد كان لا بد لشروق الديمقراطية من هذه التسوية ولو في رقّ. في هذه التسوية كُسر رؤوس الأرستقراطية، وفرطحة النائي من قرون الأقلية الأُلجرشية، فإذا صحا الناس من بعد ذلك، صحوا على أطوال متساوية. ولم يكن ذُرور الشمس ببعيد.

والدكتاتوريات لم تعمّر طويلا، وما كان لها أن تعمّر طويلا، على رغم تساندها بل وتحالفها في دولة ودولة. ذلك أن الدكتاتوريين الأولين كانوا رجالا ذوي بأس وشدة، وكان لهم بصر بقيادة الناس، وكان لهم حضرة تفرض الإذعان على الحاضرين. فلما ذهبوا لم يخلفهم خلف لهم تلك البأس وتلك البصيرة. فقد نشأ أبناؤهم وأخلافهم في حجر الدعة وفي ملابسة النعمة. فكان لهم حب الجمال وأناقة الفن. ولكن العروش لا تُحمى بالجمال، ولا تقام والأوضاع شاذّة على رؤوس القنابين. والناس تتربص الخلاص من الرق كائنا نوع هذا الرق ما كان. فبدأت القلاقل، ودبّ الخوف إلى الحاكم الفرد. وشر شيء على حاكم مطلق أن يدخل قلبه خوف. فعندئذ تحوطه هواجسه، وتكثر جواسيسه، ويزيد على الحكم المأجور اعتمادُه، ويدفع عن نفسه بالسيف يُطيحه في الظلام فيصيب به أعناقا يريدها، وأعناقا لا يريدها. ويصبح الحكم لمنزع، وحكم النزع مصيره إلى النهاية تأتي غير منظورة. كالرجل المسلول، قد تطول أيامه، وتبدو معالم الصحة في عينه وبضعه، ولكنه ينطفئ فجأة كما ينطفئ السراج.

فهكذا ذهب كثير من تلك الدكتاتوريات، بالثورة بعد الثورة. وأعانت أسبرطةُ، دولةُ الإغريق الكبرى، تلك الدويلات على التخلّص من بلائها، وذلك خوفا على نفسها هي من عدوى ذلك البلاء، ولكن كذلك لتصطنع من تلك الدويلات صنائع من بعد هذا.

فلما صَحَتْ تلك الشعوب، صحتْ وبيدها أكثر زمام أمرها. وبذلك انتهى عهد الدكتاتورية، أو عهد الثُوراشيين كما أسماهم الإغريق — ومنها لفظة Tyrant الإنجليزية وأخواتها في اللغات الأوروبية — كما انتهى من قبل عهد الملكية، فالأرستقراطية، فالألجرشية، وتمهّد السبيل لدخول عهد الديمقراطية.

أحمد زكي

٢ – محمد بن دنيال

عجيب وغريب(١)

قلنا في حديثنا السابق عن (خيال الظل) وتاريخه أن ابن دنيال يعتبر من أشهر الشخصيات التي غذت هذا الفن بالنتاج المقلى أيام الظاهر بيبرس ، فقد وضع في القرن الثالث عشر الميلادي ثلاث مسرحيات تعتبر أحسن ما خلفه لنا ذلك العصر في هذا الضرب من الأدب المصري المسرحي ؛ وأول هذه المسرحيات هي القطعة أو البابة المسماة « طيف الخيال » ، وقد تحدثنا عنها لقراء « الثقافة » في عدد سابق ؛ والثانية هي بابة « عجيب وغريب » ، وسيرى القارئ أن المؤلف سلك في وضعها مسلكا عجيباً في عالم التأليف ، وغريباً في هذا النوع من التصنيف ، فهو لا يكتب مسرحية متصلة الأبواب ، بل يهجم على الحياة المصرية الشعبية في ذلك العصر ويصورها لنا تصويراً فريداً في نوعه أقرب إلى الصور الناطقة منه إلى أي شيء آخر ، فيسدي بذلك خدمات جليلة للمؤرخ والأديب ؛ للمؤرخ لأنه يبرز له ناحية من نواحي حياة الشعب قلما يقع نظره عليها في الكتب التاريخية ، وقد تكون هذه الناحية مصدراً من أجل المصادر لفهم حياة الأمة فهماً لا غبار عليه ؛ وللأديب الذي يقرأ على لسان أشخاص من عامة الشعب اللغة الدارجة والمعاني المتداولة في أسلوب عربي رصين . فابن دنيال تناول كل تلك المعاني الشعبية وعبر عنها بألفاظ مقدودة مفصلة تنم عن غزارة مادته اللغوية وثروته الأدبية . وقد تناول في « عجيب وغريب » وصف الحياة المصرية في الأسواق ، فقدم لنا أشخاصاً يمثل كل شخص منهم جالية من الجاليات التي استوطنت مصر ، أو حرفة من الحرف ، أو مهنة من المهن ، فيعرض لنا سبعة وعشرين شخصاً ، منهم : غريب الساساني ، وعجيب الواعظ ، وحويش الحاوي ، وعسيلة الماجيني ، ونباتة المشاب ، ومقدام الآسي صاحب المباضع واللواسي ، وحسّون الموزون ، وشمعون الشمبذ ، وهلال النجم ، وعواده الشرماط ، وشبل السبّاع ، ومبارك الفيّال ، وأبو العجب ، والصانعة ، وأبو القطط ، وزغبر الكلبي ، وناتو السوداني . وتتبين رأي ابن دنيال وغايته من بابته هذه من مقدمته ، إذ يقول : « قد أجبت سؤالك أيها الأستاذ الظريف والناجي اللطيف ثانية ، لكي لا تظن عجزي في الأدب متوانية ، وأتيتك بغريب وألحقتك بعجيب ، وهذه البابة تتضمن أحوال الغرباء والمحتالين من الأدباء الآخذين بذلك الشان ، المتكلمين بلغة الشيخ ساسان ، فتى دعيت إلى مجلس الإيناس ، فابدأ عند جلاء الستارة بمدح من حضر من الناس وغنِّ بإتقان في عراق » ، ثم ينشد نشيداً مرحباً بالحضور ، يخرج بعده شخص ويقول : « أين تلك الأيام وطيبها ، وحسن تلك الأوقات وأعاجيبها ؛ فرحم الله شيخنا ساسان ، فلقد كان إنساناً من كل إنسان ، قدوة الأدباء ، وأنيس الغرباء ، فجمع الله كل محب بسكنه ، ورد كل غريب إلى وطنه » . وينشد بعد ذلك قصيدة يصور لنا فيها أخلاق الساسانيين وعاداتهم تصويراً صادقاً جميلا ؛ فهو بعد أن يشير إلى ماضيهم الزاهر بقوله :

أين زماني الذي تقضى … وأين جاهي وأين مالي
وأين خزي وطيلساني … وأين قيلي وأين قالي
وأين عيشي وأين طيشي … وأين حسني وحسن حالي

يصف فسقهم وفجورهم ، ومجالسهم وحاناتهم ، فهم كما يقول :

قد درسوا الفسق من قديم … فكم لهم فيه من جدال
ونحن في مجلس بديع … جل عن الوصف والمثال

(١) لا صلة لها بالقصة المتداولة بين الشعب .

فالدف دقدق ددق ددقدق والزمر تلل تلل تلال
والجنك تنق تنق تنتق تصاحبه ربة الحجال

وبعد أن فرغ ابن دنيال من هذه القصيدة عرض لفقرهم وتسولهم ، وذلك لأنه (لما لم يبق من يستمطر وابله ، ولا من يرجى نائله ، رأينا الحيلة عليهم ، ولا الحاجة إليهم ؛ فتركنا العمل وملنا إلى الراحة والكسل ، واعتدنا بتدبير الحيل . . . فطوراً أدعى معرفة الكيميا ، وآونة عمل السيميا ، ووقتاً بالعزايم والتعوير ، ووقتاً أكتب على الشقف لذهاب ماء البير . . . » . ثم ينشد بعد ذلك قصيدة يخرج بعدها عجيب الدين الواعظ ، ويقول : يا عشر الطلب القرنين والنير ؛ فيحضر المنبر ويرقاه ، ويستفتح بعد البسملة بما يقرأه ويقول : ... سيروا في البلاد ، وانصبوا الشباك على العباد ، فالغريب مرحوم ، والمرء يسعى والرزق مقسوم ، واعلموا أنتم وفقكم الله أن التفلس بجمع الدينار ، والصدقة بالحبة هينة على ذوى الأقدار ، وكسرة التفيف بنت الرغيف ، والرقع شعار الصالحين ، والتغرب من عادات السايحين ، واركبوا قوارب الإلحاح ، والبسوا دروع الوجوه الوقاح ، وتعاموا مبصرين ، وتطارشوا سامعين ، وتعارجوا فالسبق لذى العرج ، وتخارسوا فإن الخرس لسان الفرج ، وركبوا على جلودكم الجلود المسلوخة ، واشربوا نقيع التبن لتصبح وجوهكم مصفرة وبطونكم منفوخة ، واخترقوا الصفوف في الجوامع ، ولجوا على الأخشان بالطلب في الشوارع ، ولتكن أخر ملابسكم الأسمال ، وأكبر همكم جمع المال ، وصيروا بهاتين تأمنوا الإفلاس والدّين ، فصحة العين بإنسانها ، وصحة الإنسان بالعين . وبعد ذلك ينشد نشيداً ويختم حديثه بنثر مسجع ، وينصرف فيظهر حويش الحاوى ، فيعرض ثعابينه وأفاعيها ، وخواص كل واحدة منها ، وبعد أن يفرغ من ذلك يرفع حق الترياق على يديه ، ويفتحه ويشير إليه ، ويتحدث عنه وعن تركيبه ؛ ثم ينصرف ويخرج عسيلة المعاجيني ، ويرفع على يده حقاً من الأحقاق ، وينشد في عراق :

يا مَنْ يذوق لتجريب معاجيني
وَمَنْ يسلواه في سر يناجيني
عنـــدى ذخائر أصناف مجربة
خبأتها في مصونات الأحاجين

ثم يقول : أين هو صاحب الحضة في معدته ، والحصى في كليته ؛ أين الحبس عن حلاله و ... وبعد أن يعرض لسائر الأمراض وما أعده لها من معاجين يختم حديثه بقوله : « فاغتنموا رحمكم الله هذه المنافع بثمن تمرة أو خيارة مُرّة ، واقبلوها منى بهتّنا قبل أن تقولوا كان هُنا » . ثم ينصرف ويدخل نباتة العشاب ، فيعرض ما عنده ، فهو خليفة (ديسقوريدس) ، وسبط ابن البيطار العارف بالأصول والفروع ، والأوراق والأزهار ، فيعرض ما عنده من أصول وبزور ، وصموغ وعصارات وزهور ، عرض العالم النباتى والطبيب الفنى ، فما من حشيشة في الأرض نابتة إلا ولها في الجسد علة نابتة ؛ وبعد أن يفرغ من الحديث عن هذا الملاح النباتى يتحدث عن نبت (الندغورة) ذات الفوائد المشهورة ، فالحبة تقلب البغضاء محبة ، وقيمة الذرة منها درة ؛ أين الذى جفاه معشوقه ، أو غضب مولاه أو صديقه ، دلوا علىّ من غضب السلطان عليه ، أو تخبطه الشيطان ، أرشدوا إلىّ من ضعفت قواه . . . وبعد أن يعدد كل فوائد النبات والأعشاب يودع الحضور بشعر جميل في الحشائش وفوائدها ؛ ثم ينصرف فيخرج عواد الشرماط الذى يضرب الرآة ، وينظر في المندل ، ويشير إلى الكف ، ويكتب التعاويذ ؛ وينشد شعراً يصف به فائدة العزائم والرقى ، والتمائم والأحراز :

ومن فضله أن العدو إذا بدا
لحـــامله أمسى به متأخرا

يلوح عظيما فى النفوس معظما

عزيزاً مهيباً فى النفوس موقرا

وذات نزيف بالدماء رأت به

عياناً وقد فاضت من الدم أبحرا

وأرملة عطل من الزوج قد غدا

به أمرها للخاطبين ميسرا

وبعد أن يفرغ من شعره يقول : اعلموا رحمكم الله أن أسماء الله تعالى دروع وليس معها نزوع ، فيخرج شخص صغير من أولاده ويسقط كالمصروع ، فيتجاهل عنه والصبي قد أزبد وتغرغرت عيناه بالدموع ، فيقول له الريس محيى : هذا وقت تمائمك ورقاك وعزائمك ، فيقول : أجل ، ويدنو منه ويقول : الوحا الوحا ، العجل العجل ، ويحمل حرزاً من تلك الحروز بيمينه ، ويضعه للصبي فوق جبينه ، ويقول : أقسمت عليكم معاشر الجن والشياطين ، والأبالسة المتمردين من جنود الشيخ أبي مرة اللعين ، إن كنتم من اليهود الناقضين للعهود ، فبأهيا شراهيا (فى العبرية أهيا أشراهيا : رمز إلى الله) ، وإن كنتم من النصارى فبالذى ركب الحمار ، وشد الزنار ، وعمل من الطين كهيئة الأطيار ، ونفخ فيه فطار ؛ وإن كنتم مجوساً فبالنار والنور ، والظل والحرور ؛ وإن كنتم مسلمين فبحق الكتاب المبين ، وبفضل بركات طه ويس ؛ أجيبوا عزائمى ، واخضعوا لتمائمى ، لا بسماء تظلكم ، ولا أرض تقلكم ، بالذى أمر البرق لمع ، والنجم طلع ، أى هذا الجان اللابس هذا الإنسان أخرج من الأعلة وادخل هذه المكحلة ؛ فيعطس الصبي ويقول : يا حكيم ، دخل كله وما بقى إلا أقله ، فيزجره « فيتوج مينظرون » ، ويعى من حضر من الزبون ، ويقول : سد رأس المكحلة بشمعة وادفنها فى هذه البقعة ، فيفيق الصبي ويقعد ويترنم :

جمال وجهى يسبى بحسنه كل جنس

بحسن خلق وخلق ولطف ودى وأنسى

قد صرت أدى حبيباً لكل جنى وأنسى

وينصرف فيخرج شبل السباع ومعه الأسد والأتباع ، فيتحدث من فنه حديثاً لا يقل روعة وجمالا عن أحاديث السابقين ، ثم ينصرف ، ويخرج مبارك الفيال ويقول :

انظر إلى الفيل فى تهويل خلقته

واعجب لإتقان صنع الخالق البارى

كقبة بنيت عمداً على عمد

وقيرت ظاهراً بالزفت والقار

بل كالسفينة فى يم قد انقلبت

وقد رمى ظهرها رام بيتار

تخال من ورق القلقاس قد نبتت

أذناه حين تراه غاديا سارى

ثم يولى الفيل مطرقا لنفسه بتلك الزلومة ، والصبيان يصيحون من خلفه : حالومة ، زلومة ؛ وتظهر بعد ذلك الصائغة بالشارط والكاسات ، وترفع صوتها وتقول : الصائغة يا بنات ؛ وتأخذ فى إنشاد نشيد تعدد فيها أعمالها وشهرتها ، وغرام الرجال والبنات بها ، ثم تنصرف ؛ فيتقدم أبو القطط والفار فى السفط ، ويشير إلى هرة ؛ ثم بعد أن ينشد نشيداً يقول : اصعد يا نمير إلى الطارة ، واحذر أن تعض فارة ، واخرج له أنت يا سمور الذنب ، واتبعه أنت يا سنان الأشهب ، وخذ أنت الفروة الحمرا ، وأنت الفروة الصفرا ؛ وأنت يا سمان القيط ، والحقه باستجاب فى الحيط ، وقف أنت يا طليق على ظهره ، وعضه يا أبا الجرذان فى ظهره ؛ فتمتثل الحيوانات ما أمر. ثم يقول : من جاد علينا بالإيثار لا ابتلاه الله بأذى الفار . وينصرف ، فيأتى زعيم الكلبى وأصحابه ، وجراه وكلابه ،

ويقعد وينشد :

تعلمت أخلاق هذى الكلاب
ومن لى بأمثـــالها فى صحابى
وفاء وصــــبر وحفظ الذمام
وذب عن الخيل عند الضراب
وتسهر إن نمت فى قفـــرة
وتحرسنى من ضوارى الذئاب
كلاب ولكنها فضلت على بعض قوم مشوا بالثياب

ثم بعد حديث طويل ينصرف ويأتى غيره . ولعل من أحسن شخصيات ابن دنيال التى عرضها هى شخصية (ناتو) السودانى ، إذ نرى شخصاً يظهر بدبدابه وطرطوره وقرانبه ، ويهز الزاريق ، ويكر مقبلا فى الطريق ومدبرا ويبلق عينيه ، ويفتح بأصابعه شدقيه ، ويهملج كالبغل ، ويرقص ويغنى على إيقاع الطبل ، وينشد :

ناتو ناتو ناتو يا ناتو ناتو
غزلان الســودان لولا الصبيان غيره ما ماتوا
ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو
دعنا نتمزر نكرع ونسكر يا مهتار عنبر فى كيدى هاتوا
ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو
لولا ذى الأمزار مع ثمان القار ما أصبح مختار يهوى ستاته
ناتو يا ناتو يا ناتو ناتو
سمرا محبوبه حمرا كالطوبه من خلا النوبه يا ماذا فاتوا

ثم يوالى الإنشاد ، فيذكر الطبطاب ، والضرب بالقادوس ، وغناء جاموس ؛ وبعد أن يفرغ ينصرف . ويأخذ ابن دنيال فى عرض باقى شخصياته عرضاً وفق فيها توفيقاً عظيما .

وقبل أن نختم الحديث عن بابة « عجيب وغريب » ، يجب أن نشير إلى أن ابن دنيال أطلق على شخصياته التى عرضها أسماء تتفق ومهنهم ، فعجيب من عجيب الدين الواعظ ، وكان من مشاهير الوعاظ فى ذلك العصر ، وغريب لفظ استعمل فى غير معناه ، فأطلق على الفرس كما نطلق نحن الآن لفظ (حلب) على الغجر ، أو كما تستعمل لفظ (ومك) فى غير ما وضع له . كما أطلق المؤلف أيضاً اسم نباتة على المشاب ، وهلال على المنجم ، وشبل على السباع ، وميمون على القراد ، الخ . ولم يكتف بهذا العرض الجميل لأصحاب تلك الحرف ، بل نراه يجمع كل لغة الأسواق ويقابلها بلغة العلماء فى قصيدة تربو على الأربعين بيتاً ، جاء فيها :

ولكنى رأيت العلم زيناً فعدت إلى المدارس والجدال
وتمت فصرت فى الفقهاء أقضى
وأفتى فى الحرام وفى الحلال
ونظم الشعر صرت به فريداً وطلت به على السبع الطوال
وقطعت العروض بفاعلات بأوتاد وأسباب ثقال
وعلم النحو فيه النصب فنى على من كان ذا جاه ومال
وطببت الأنام فكم أناس قتلتهم بقبض واسهال

وبعد أن تحدث عن طبه وفلسفته ، رجع فقال :

وعدت إلى القفا ورب وعظ ومقرى على الرمم البوالى
وألقيت الحياء وراء ظهرى ولم يخطر ببالى أن أبالى

دكتور فؤاد حسنين

بعض مناهج الدراسة الأدبية

— ٣ —

إن خير زاد يتزوده دارس الأدب وناقده — بعد الثقافة الضرورية فى نصوص الأدب شعره ونثره وقصصه، وبعد الإلمام بالفروع المعروفة عندنا فى مناهج الأدب — قدر صالح من دراسات علم الجمال نظرية وتجريبية، وقدر من الثقافة الفنية التى يشترك فيها الأدب والصور والموسيقى والتمثال. ولكن علم الذوق فى عصرنا الحاضر أصبح جزءا من دراسة أوسع طبعت بطابعها القرن الذى نعيش فيه، هى دراسة السلوك الإنسانى فى نواحيه العقلية: أى دراسة المواهب الفطرية والمكتسبة فى الإنسان؛ دراسة العناصر التى تتألف منها شخصيته من غرائز وانفعالات وعواطف وإرادة ومزاج وذهن وذكاء وتفكير؛ دراسة الأصناف الإنسانية العامة التى ينتمى إليها هذا الفرد أو ذاك؛ دراسة العقل الواعى والعقل الباطن وأثر كل منهما فى الحياة والفكر والفن والدين والاجتماع؛ دراسة الإنتاج الفكرى وصلته بمنشئه، ثم مسالكه إلى قلوب دارسيه ومتذوقيه. وبعبارة أخصر أصبح علم الجمال جزءا من علم أوسع هو علم النفس، الذى شهدت الخمسون سنة الأخيرة نهضة شاملة فى طرق دراسته ونتائجه وميادين تطبيقه؛ والذى تناوله الباحثون من وجهات نظرهم المختلفة كل يستمد من معينه زادا لصناعته وثقافته: فهذا مربٍّ وذاك طبيب، وهذا مُشرع وذاك سياسى، وهذا شاعر وذاك روائى، وأصبحنا نرى مئات المؤلفات تؤلف من سيكلوجية الفن والدين والسياسة والحرب والجنس والأدب . . . ورأينا النقاد — على الخصوص — وقد فتحت لهم دراسات الإنسان أبوابا ومنافذ إلى فهم شعره ورواياته وإنتاجه، فراحوا ينادون بضرورة الانتفاع بالدراسات السيكلوجية فى فهم الفن والأدب؛ وهم فى ذلك بين قاصد وغال: فناد ينادى بضرورة بناء النقد على قوانين السيكلوجيا؛ وآخر يستعمل الطرق السيكلوجية فى دراسة التأثير الأدبى فى نفوس الجمهور؛ وثالث يحذر من تحويل النقد إلى دراسات نفسانية، ويكتفى من علم النفس بأن يحدد له ما يستعمله من تصورات كالطبع والذوق والذكاء والإيحاء، وبأن يجلى له أثر العقل واعيه وباطنه فى إنتاج الأدباء.

كل ناحية من هذه النواحى التى ذكرتها عنوان لدراسات ومؤلفات مشهورة فى أوربا وأمريكا، يعرفها لا المتخصصون فحسب ولكن جمهرة المثقفين هناك، ويلعب الراديو والصحف والمؤتمرات والمحاضرات العامة دورا كبيرا فى نشر هذه الثقافة السيكلوجية عندهم، وكما يقولون: «لا شىء ينجح مثل النجاح»، فقد جاءت النتائج العملية لهذه البحوث فى مختلف نواحيها مشجعة على تثبيت أقدامها وجذب الناس إليها. ويكفى أن نذكر هنا على سبيل المثال بعض الأسماء البارزة فى دراسات سيكلوجية الفن والأدب: فقد ألف «سبيرمان» — فيما ألف — كتابه «العقل المبدع» تناول فيه الأسس السيكلوجية للإبداع الفنى، وحلل بعض الآثار الفنية من وجهاتها النفسانية. وكتب «يونج» — فيما كتب — «الأصناف السيكلوجية» و «سيكلوجية العقل الباطن» و «الإنسان الحديث فى بحثه عن روح»، وقد حدد فى الكتاب الأول خصائص الصنفين اللذين يسميهما المنطوى والمنبسط (أو داخلى الاتجاه وخارجى الاتجاه) من الناس، وما يصدر عن كل منهما عادة من فلسفة أو علم أو فن أو شعر؛ وتناول فى الثانى عناصر العقل الباطن ومسالكه والرمزية وضروبها وما يتصل بكل ذلك من الوشائج الأسرية والشعائر الدينية والمنتجات الأدبية؛ وعقد فى الثالث فصلا طريفا عن «علم النفس والأدب» حدد فيه نوع الصلة بين الناحيتين وطبقها فى

بعض دراساته لأعمال « جوته » وغيره . وحاضر « برت » وآخرون على الراديو فى « كيف يعمل العقل » فتناولوا — فيما تناولوا — سيكلوجية الفن وطرائق التأثير الأدبى . ونشر « برت » وتلاميذه بحوثاً فى التذوق الأدبى وتطوره عند تلاميذ المدارس ، وصلاته بالمواهب الأخرى كالذكاء . ونشر الكثيرون بحوثاً تطبيقية تحليلية ، من أمثال « هربرت ريد » الذى يقول فى مقدمة إحدى مقالاته : « لقد كان العلم والفن دائماً طريقتين مستقلتين فى كشف الحقيقة وعرضها ؛ ولكن كلما نما فرع جديد من فروع العلم يكون موضوعه العقل نشأ موقف جديد . فإن العالم لا يستطيع أن يستمر طويلا فى كشف مجاهل هذه المملكة حتى يحتك بتلك المنتجات التى يخرجها العقل الإنسانى ، والتى نسميها أعمال الفن ، وحتى يضطر إلى أن يجد مكاناً لتلك المنتجات ، فعلم النفس الآن يحتك مباشرة بميدان النقد الأدبى بمباحثه ويقتبس أسلابه ، ولقد كان رأيى دائماً أن واجب النقد الأدبى فى هذه الحالة أن يقتص لنفسه ، وأن يلتقط من علم النفس أمضى أسلحته ، وبهذا اقترفت شيئاً فشيئاً من نوع سيكلوجى من النقد الأدبى ، لأننى تأكدت أن علم النفس — ولا سيما التحليل النفسى — يستطيع أن يعدنا بشروح لكثير من المعضلات الخاصة بشخصية الشاعر ومنهج الشعر وتذوق القصيدة » . ثم يقول : « أنا أعتقد أن النقد يجب أن يعنى لا بالعمل الفنى فى نفسه فحسب ، ولكن بعملية الكتابة ، وبالحالة العقلية عند الكاتب إذ ينزل عليه الإلهام ، ومعنى هذا أن النقد يجب أن يعنى — لا بالعمل الفنى المنجز فحسب — ولكن بالعامل أيضاً ... وإذا اتفقنا على هذا فلست أدرى كيف يستطيع الناقد أن يتحاشى الاعتماد على علم النفس العام » .

* * *

ولكن الدراسات النفسانية فى مصر لا تزال فى مهدها ، والمتخصصون فيها من ذوى المؤهلات العلمية لا يزيدون على أصابع اليدين عداً ، وجهودهم فيها موزعة بين تخريج المدرسين وبين الترجمة والنقل ، وقليل منهم من حاول القيام بدراسات مصرية الصبغة ؛ ولا تزال كليتا الآداب فى القاهرة والإسكندرية تعتبران دراسات السيكلوجيا متممة للفلسفة وتابعة لها ؛ ولا تزال كلية العلوم تعتبر السيكلوجية فلسفة لا تستأهل أن يتخصص فيها طالب العلم لتخصصه فى البيولوجيا أو غيرها من الدراسات . وكثير من الناس فى مصر إذا سمعوا اسم علم النفس تبادر إلى أذهانهم مذهب « فرويد » فى التحليل النفسى وما يتناول من الكلام على الجنس ، أو مذهب « سبيرمان » فى مقاييس الذكاء ، ومحاولته أن يقيس ما لا يمكن قياسه ! وأن يبنى على أساس هذا القياس نتائج عملية فى التعليم والتوجيه المهنى .

فالناس — إذاً — معذورون إذا نظروا إلى هذا العلم بعين الريبة ، والمحافظون من النقاد الناشئين معذورون إذا رأوا فى إدخال هذا العلم فى ميدان الأدب عبئاً جديداً يثقل كاهل النقد ، بعد أن أثقلته — فى نظرهم — تقسيمات « قدامة » ، وتحليلات « عبد القاهر » ، وتدقيقات « السكاكى » ، وتفريعات من جاء بعدهم ! وربما عيل صبرهم فنادوا : دعونا من علمكم ونظرياتكم والذاتى والموضوعى وخذوا فى الأدب فتذوقوا نصوصه وانقدوه . ولهم أحياناً منطق مسل حقاً ، فهم يرفضون الاستعانة بعلم النفس فى فهمهم للأدب ، ولكنهم لا يسمعون ناقداً يتناول ناحية سيكلوجية حتى تثور ثائرتهم لرأى يقوله هو عن دراسة وتحقيق ، ويرفضونه هم على أساس الإلف والعقيدة . وإذا كتبوا فى الأدب استعملوا ما شاء لهم الخيال من تصورات سيكلوجية دون ضبط أو تحديد أو رجوع إلى مصادر علم النفس . فهم فى الواقع نافرون من فرعهم إلى قدمهم فى

السيكلوجيا ولكنهم لا يعلمون . مثلهم كمثل «جوردان» الذي ظل يتكلم النثر أربعين سنة ولا يدرى !

غير أن الدراسات العربية فى كلية الآداب بالقاهرة وقفت من هذا الاتجاه الحديث الموقف الخليق بالإنصاف العلمى ، فأفسحت له مكانا فى دراساتها لطلبة الشهادات العليا ، وعهدت — فى سنة ١٩٣٨ — إلى الأستاذ أحمد بك أمين — ومعه كاتب هذا المقال — بإنشاء دراسة لطلبة الماجستير عنوانها «صلة علم النفس بالأدب» ، وأظهر الدكتور طه حسين بك — وكان عميد الكلية — رغبته فى أن يتتبع جهود هذه الدراسة ويقف على ما تصل إليه من نتائج . وقد بدأنا الدراسة إذ ذاك بعرض مجمل لعلم النفس الحديث ، وبينا مواطن الاتصال بينه وبين الأدب ، وحددنا بعض النواحى التى يمكن أن تؤتى فيها هذه الدراسة ثمارا طيبة : فمنها رسم صورة للشخصية الإنسانية ومنابع الإنتاج الفنى فيها ، ومنها بحث مقدار الصلة بين شخصية الأديب ومظاهر أدبه ، ومنها سيكلوجية التأثير الأدبى فى النفوس ، ومنها العقل الباطن وأثره فى الإنتاج الروائى على الخصوص ، ومنها الكشف عن الثروة السيكلوجية التى خلفها مؤلفو الأدب العربى ومتصوفة الإسلام ، وهكذا مما تتكشف عنه نتائج الدراسة بعد . والحق أن الكلية بهذا عبرت تعبيرا عمليا عن اتجاه حقيقى موجود فى الإنتاج الأدبى فى مصر وفى دراساتها النقدية . والمتتبع المؤلفات التى وجه بها (طه حسين) حركة النقد فى مصر ، ولا سيما «حديث الأربعاء» و «مع المتنبى» ، والمجهود الخصب الجبار الذى بذله (أحمد أمين) فى «فجر الإسلام» و «ضحى الإسلام» ، والدراسات التى قام بها (العقاد) عن «ابن الرومى» و «شعراء مصر وبيئاتهم» ، والمقالات التى نشرها (أمين الخولى) عن «البلاغة وعلم النفس» ، ولغير هؤلاء من أدبائنا ونقادنا المحدثين — يدرك تغلغل النواحى السيكلوجية فى دراسات الأدب العربى قديمه وحديثه ، بل ضرورتها لها . وفى رأينا أنه يجدر بطلاب الأدب العربى أن يتبينوا جهود أساتذتهم وتقادمهم فى هذه النواحى ، وأن يجعلوا هذه الجهود موضع دراسة وتحقيق ، ويتخذوا من بعضها موضوعات لرسائلهم وبحوثهم ، شأن إخوانهم فى الجامعات الأوربية الراقية ، وفى هذا مظهر من مظاهر البر بأساتذتهم ، واطراد لسير الحركة العلمية إلى الأمام .

وفى عزمى إن شاء الله أن أعرض من بعض هذه الاتجاهات المعاصرة نماذج للدراسات الحديثة فى الأدب ، فأصور النهج العملى لبعض مشاهير كتابنا فى نقدهم ودراستهم للأدب ، وما وراء ذلك النهج العملى من أساس نظرى ، وما يعتمد عليه ذلك النهج — غير الأدب — من دراسات وما يستخدمه من تصورات هى الآن أجزاء أساسية فى بناء دراسات الجمال أو النفس أو الاجتماع أو غيرها من العلوم .

محمد خلف الله

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

****

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	فى مصر والسودان
٢٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

حكمت محكمة الموقوفة العسكرية فى الجنحة رقم ١٠٤٧ سنة ١٩٤٢ بحبس السيد محمد الحريرى من شوف مركز بلا ثلاثة شهور مع الشغل وغرامة عشر جنيهات والمصادرة لبيعه ذرة بسعر يزيد عن التسعيرة .

تحضير الأرواح

يتردد الحديث فى الأوساط المصرية عن تحضير الأرواح ، والأفكار المتعلقة بهذا الموضوع وصلت الشرق عن طريق الغرب بعد ما حيرت العقول وشغلت الأذهان . والروحيون لهذه الأفكار مذاهب مختلفة : مذهب دجال يصطنع طرقاً خاصة لإحداث حركات وأصوات غريبة ، يحقق بها غاية تجارية ؛ ومذهب آخر يقف عند الظواهر الواقعية دون تدخل منه ، بل احتاط فى المشاهدة ودقق الملاحظة وكانت غايته البحث والمعرفة . ويوجد من بين الذاهبين هذا المذهب من استعجل الحوادث وذهب يعلل تعليلا ميتافيزيقيا — دينيا ، وأرجع تلك الظواهر إلى تأثير الأرواح ، واستغل عقائد دينية مثل عقيدة الأديان السماوية فى خلود الروح ؛ فهو يجعل من هذه العقيدة أكبر دعامة لإقامة مذهبه ، بل فإنه يذهب إلى أبعد من هذا إذ هو يزعم أنه يستدل بتحضير الأرواح على خلود الروح ؛ وهنا يظهر شىء من التلاعب فى المنهج ، إذ يقلب هذا المذهب الوسيلة غاية . وأما الطائفة الأخيرة التى لا تزال تواصل جهودا جبارة فى الملاحظة والتجربة وتحتاط فى تعليلها كل الاحتياط ، والتى لا تخطو خطوة إلا حسب ما يقره المنهج العلمى فهى طائفة علماء النفس ، ونرجئ الكلام عنها بعد عرض سريع لظواهر الوسطاء . ولن أتعرض إلى مسألة الأرواح ولن أحاول التصريح فى شأنها ومصيرها بشىء إذ ليست من أمرى .

يرجع مؤرخو ظواهر الوسطاء أول مشاهدة لهذه الظواهر إلى آنستين أمريكيتين تدعيان فكس (Misses Fox) وذلك حوالى سنة ١٨٤٨ ، ويقول البعض إن فرنسيا سبقهما إلى ذلك . غير أن الملاحظة قديمة ، وكانت تؤول تأويلات مختلفة ، ولم توجه إليها العناية الكافية كما هو الشأن مع كل الظواهر الطبيعية التى لم تكن عرفت بعد أهميتها واطراد قوانينها .

فهناك أمر واقع وهو أنه فى إمكان بعض الجمادات أن تتحرك حركات تبدو ذاتية تلقائية ، أى دون أن تتصل حركتها بحركة أخرى تكون سببا لها . وبذلك عرفت أولا هذه الظاهرة فى الكتب الكثيرة التى ألفت فيها تحت عنوان المنضدات الدائرة tables tournantes ، والغريب أن هذه الحركات ليست حركات مبهمة بل هى حركات منتظمة تحاول أن تؤدى معنى ، وقد تثيرها أسئلة بعض الأشخاص حتى لا يشك أحد فى أنها تجيب عن الأسئلة . وأمكن للمعنيين بهذه الظاهرة أن يهذبوها ، وجعلوا الحركة تنحصر فى خشبة صغيرة تدور حول أحرف وتشير إلى بعضها ؛ وإذا جمعنا هذا البعض تكونت منها كلمات وجمل لها معان معينة تهم بعض الحاضرين — ولوحظ أيضاً أن هذه الحركات لا تتم إلا بحضور أشخاص معينين هم الذين نطلق عليهم كلمة الوسطاء جمع وسيط (Médium) وأثبت الإحصاء ودلت المشاهدة ألا يمكن لكل الناس أن يكونوا وسطاء ، وهؤلاء أنفسهم تتفاوت قدرتهم فى التأثير على الأشياء عن بعد ، ومنهم من يستعمل القلم ليكتب من غير إرادته أشياء لا عهد له بها ، وقد ينطق الوسيط بكلام لا يعرفه هو وإنما يعرفه بعض الحاضرين ، ويستغرب هذا إذ يراه يصدر من غيره ، ولهذا يختار بعض « المصريين » وسطاءهم من عمال أميين عمدا حتى تزيد الغرابة ويزيد الإحراج .

كل هذا واقع وملاحظ ، ويمكن لأى شخص توفرت فيه شروط معينة أن يصادفه فى الحياة . غير أن موقف الناس الخاصة منهم والعامة اختلف اختلافا شديدا أمام هذه الظواهر — فقد ذهب الأمريكيون حسب مذهبهم المعتاد واعتنوا بالناحية العملية ، واستعمل البعض هذه الظواهر

الغريبة كوسيلة للرزق، كما كان شأن الظواهر الكهربائية عند أول ملاحظتها، وأدخل الأمريكيون على تلك الظواهر الطبيعية تحسينات فنية، واستطاعوا إحداث ظواهر اصطناعية ظهر ما يماثلها في فلم «العاشق الخفي» الذي عرض قريبا في سينما رويال.

واتجه البعض الآخر في كل أنحاء العالم، وخصوصاً في فرنسا إلى محاولة التعليل. واستغل الفرصة بعض الفلاسفة لتدعيم مذهبه الفلسفي، فأقبل بعض الروحيين على هذه الظواهر يشيدون عليها كل مذهبهم في وجود الروح وخلودها، وسهل لهم Allen-Kardec المهمة إذ جمع ما «نزل» على وسطاء مختلفين في كتاب واحد أسماه «كتاب الأرواح» Le Livre des esprits شرح فيه حقيقة الأرواح وطرق تحضيرها وإثبات خلودها وعلاقاتها بالأحياء.[1] Pierre-Janet وتكونت في أوربا وأمريكا جرائد ومجلات أطالت الكلام في هذا الموضوع وسارت تشرح «كتاب الأرواح».

وأما العلم الحديث مع كل احترامه للخدمات الكبيرة التي قدمها له هؤلاء المؤيدون لظواهر الوسطاء، لا يوافق على طريقة فهمهم لها.

ومهما كان أمر الأرواح فالظواهر المذكورة تتعلق بالإنسان، وهناك علم معترف به يدرس كل ما يتعلق بالإنسان، ولا يمكن لأحد أن يشك في تقدم هذا العلم ونضوجه وخدماته للإنسانية.

فعلم النفس كعلم له منهج علمي محدد لا يسمح بهذه القفزة السريعة بعد مشاهدة ظواهر الوسطاء الغريبة، ولا يسمح لنا أن نستعجل استعجال بعض الفلاسفة في الاستنتاج والتعليل. ولعلم النفس تجارب بسيطة وإن كانت هي الأخرى غريبة تبدو من نوع ظواهر الوسطاء. — لقد أثبتت التجارب الكثيرة أنه يمكن لشخصين بينهما صداقة وثيقة أن يختارا شيئاً واحداً إذا وجه كل منهما فكره نحو الآخر في وقت واحد، وهذا ما يسمى بـ Telépathie.

وهناك أيضاً تجربة أخرى ثابتة وهي ظاهرة قراءة الأفكار، فقد يمكن لبعض الأشخاص أن يعرفوا بالتقريب آراء شخص آخر يتصل به عن طريق اليد مثلا، هذا فيما يتعلق بتأثير أشخاص على أشخاص آخر تأثيراً لا يشعر به الإنسان وخارج عن الإرادة؛ ونجد تجربة De Chevreuil التي يمكن لأي شخص أن يقوم بها بأن يمسك الشخص خيطاً علق في طرفه الآخر ثقلا بسيطاً فيستطيع ماسك الخيط أن يحرك الثقل في أي اتجاه يأمره به ويوحى به إليه دون أن يحرك يده ولا أن يحس بأية حركة. وهناك تجارب عديدة في هذا النوع تثبت أنه يمكن لشخص أن يؤثر على بعض الأشخاص بمجرد الحضور بجواره أو باتصاله به. وهذا ما يحصل في الغالب في مسألة الأسئلة التي توجه إلى الوسيط، فالشخص الذي وضع السؤال يفكر في الجواب أو يوجه على الأقل الوسيط إلى ناحية تشغل فكر السائل، وأضف إلى هذا أن الوسيط لا يجيب عن كل الأسئلة، ويعتذر «المحضر» قائلا: «إن الوسيط قد تعب». ويعترف المحضرون أن طريقة الكلام في الاتصال «بالأرواح» أصعب طريقة، وأنها تحتاج إلى شروط كثيرة واستعداد كبير ووسيط معين، قلما يمكن العثور على أمثاله. وأسهل طريقة هي تحريك الأشياء، مثل كوب ماء، أو خشبة تدور لتشير إلى أحرف، وفي هذه الظاهرة نجد تجربة De Chevreuil مع تجربة قراءة الأفكار؛ فالوسيط يتقبل من الشخص العادي أفكاره عن طريق التأثر المغناطيسي الثابت في كل الحيوانات، ثم يؤثر بدوره على الأشياء تأثيرا معينا يوافق ما يجول في خاطر الشخص العادي المتصل بالأشياء بواسطة الوسيط (ولهذا احتفظنا بكلمة وسيط التي قصدوا بها أولا

(1) Pierre Janet : automatisme psychologique p 383

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

أدباء الرفوف ! — تقاليد
أدبيـة ! — رجال ! ...

أدباء الرفوف !

دفع إلىّ صديق الشاعر الأستاذ ... ... أمس الرسالة الآتية :

« عزيزى ...

« لعلك طالعتَ فى آخر عـدد من الرسالة امتداد معركة لفظية شب أوارها بين رهط من الكتاب على أحدث الطرق « الاستراتيجية » فى حرب الفناء العالمى التى امتد خرابها وفزعها إلى كل كائن فى الأرض فى هذه الأيام ... تلك المعركة التى بدأت بين أنستاس الكرملى ومحمد مندور فى ميدان « عثرت به وعثرت عليه » ، ذلك الميدان الفكرى الرائع الذى استفزّت حماسة الحرب فيه بطولة محمود شاكر وعبد الرحمن بدوى وتلميذه زكريا إبراهيم ... فخاضوا غمارها كارّين فارّين ، كأنما خُيل لهم أن اللغة العربية على شفا جُرفٍ هار ، فهبوا يتقدمون الصفوف لشرف إنقاذها من الهلاك ... اللهم حوالينا ولا علينا ... أهذا هو أثر الرّجّة العالمية فى الفكر العربى ؟

« أهذا هو التجديد فى طرائق البحث لإحياء العربية ودعم كيانها ؟

« أهذا هو البعث الجديد الذى ننشده للشرق على يد كتابه وأدبائه ؟

« يتصارع القوم ويجأرون بهذا اللجاج الأجوف حول « عثرتُ به أو عليه » فى أحرج ساعات الدنيا العقلية وأشدها ظمأ إلى أقلام عانية جديدة جريئة تهدف إلى المثل العليا وخدمة الفكر الإنسانى الصحيح !

« يا صديق ... كن كعهدى بك فى هذه المأساة ، وأبن للناس ، أبن لهذا الشعب المظلوم كيف تنهار الرفوف لتساقط عليه كلاماً تبرأ منه اللغة العربية ؛ فما آساها ولا شلّ خطاها بجانب اللغات العالمية وآدابها إلا هؤلاء الكسالى الذين يتلفتون دائما إلى الوراء ... وأحرَى بهم أن يظلوا صامتين على رفوفهم الجامدة حتى يتحرك بهم أو يتسامح الزمان ! »

* * *

الوسطاء بين الأحياء والأرواح) .

ويجب أن نعرف أن علماء النفس لاحظوا أن انحصار هذه الظواهر على الوسطاء راجع إلى حالتهم النفسية ، فهم فى الغالب مصابون أو مهددون بمرض الهستيرية أو أى ضعف فى الأعصاب واضطرابها . ولذلك قد نجد أفراد عائلة يشتركون فى هذه الميزة لاشتراكهم فى المرض . وهذه الخاصة وحدها تجعلهم يتأثرون بسهولة بأفكار الغير وحركاتهم ويؤثرون بدورهم بسهولة فى الأشياء الخارجية . وقد يستبعد بعض الناس آراء علم النفس ، ولكن لا يجوز أن ننسى أن التعليل الميتافيزيقى أبعد إذا تخلينا عن أفكارنا السابقة ، وتعليل علم النفس هو بداية بحث يظل مفتوحا للبحاث والمجربين ، وستذهب لاشك هذه الغرابة بعد مدة ستقضيها فى البحث .

والمهم هو أن يعرف القراء أن ما سموه عن تعليل ظواهر الوسطاء التى تنسب إلى الأرواح ليقفل باب البحث يقابلها تعليل آخر علمى يتجه بهذه الظواهر إلى أسرار فى النفس البشرية الحية ، ويحاول أن يكشف عن هذه الأسرار . ولا يهم العلم أن يصرح بجهله الوقت أمام مظاهر اقتصر على وصفها وإحصائها ، وكل فلسفة تسبق العلم زائلة لا محالة ؛ وسيفضح علم النفس سر « تحضير الأرواح » وسيعقب على ذلك التعليل اللذيذ بتعليل مفيد

أبو مدين الشافعى

وأطربتني من كتاب صديق الشاعر عنوانه الذي اختاره في رأس رسالته « أدباء الرفوف » ؛ فإن فيه دلالة منه عليه ، وهو سبيل مما اشتهر في شعره الذائع من « المضافات » العجيبة مثل قوله « تباريح اليهود » ، و«مرتعش الجنداد» و « ندم الرماد » ... إلى مضافات ومضافات يزخر بها شعره !

وإن في كتابه لثورة تتأجج وطيباً يتسعر ؛ على أنه قد قصر نقده على « الشكل » دون « الموضوع » ، فهو يعيب على هؤلاء الكاتبين أن يشغلهم الحديث في تصويب كلمة مثل هذه الشغلة وإن حرب الفناء العالمي تمتد خرابها وفزعها إلى كل كائن في الأرض ... ! فلعله لو قرأ موضوع الحديث لأقام علماً ووجد معتذراً ...

أم تراه يعني أن يكون الكتاب جميعاً طرازاً واحداً في فن واحد ، فلا شعر إلا مثل ما يكتبه ويرضى عنه ولا موضوع لحديث في الأدب إلا الموضوع الواحد الذي يفرضه هو على الأدباء ؟ ...

أم إن اللغة عنده من الهوان بحيث لا يحتمل بأديب أن يحمل الدفاع عنها فناً من فنه إلا أن يكون من «أدباء الرفوف» ، واللغة هي صلة الماضي بالحاضر وسبيل الخلود لكل إنتاج في الأدب يستحق الخلود ؟ ...

أم ماذا تراه يعني ؟ ...

بلى ، نحن في «أحرج ساعات الدنية العقلية وأشدها ظمأ إلى أقلام عاتية جديدة جريئة تهدف إلى المثل العليا وخدمة الفكر الإنساني الصحيحة » ؛ فأين منه – وإنه لشاعر – ما كان ينبغي أن يقول ؟ ...

أذلك قوله :

أوّاه إن ولى هواك وجاء يصرخ لي هواك !
ومددت كفي للسلام فصافحتك على حشاي !
وذهبت ملهوفاً إليك فلم أجد إلا خطاي !
وبقية مما وعى طير « الجزيرة » من بكاي ...

... أذلك قوله « في أحرج ساعات الدنية العقلية وأشدها ظمأ إلى أقلام عاتية تهدف إلى المثل العليا » ...

لست أعيب عليه ما قال ، فلعله من أجمل ما طربت له من الشعر الحديث ، ولكني أريد أن أحاسبه على قاعدته وقانونه ، فحسب ...

لا ، لست أراه يعني شيئاً من ذلك ، وما أراه في علمه وأدبه أهلا لأن يتنكر لفن اللغة أو ينزل به دون منزلته ، وما أحسبها إلا عدوى أعدته فقال ، وكان حقيقاً ألا يقول !

تقاليد أدبية :

وقرأت للدكتور زكي مبارك في العدد ٤٩٢ من الرسالة وقد تعرض لشيء من الموازنة بين حافظ وشوقي :

« لو أن أحاديث حافظ دونت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك شوقي من الثروة الشعرية ، ولكان من الممكن أن يعد من أقطاب التاريخ الأدبي في هذا الباب ؛ ولكن هذا الزمن لا تسمح تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء في أمثال هذه الشئون ... »

وفي المقال لمحات فنية تدل على أن الدكتور زكي مبارك قد يصيب في النقد ...

ولكن هذه « التقاليد الأدبية » من قلدها ؟ ...

من حرم على الأدباء أن يدونوا أمثال هذه الأحاديث فحرم التاريخ الأدبي في هذا الجيل أصدق عناصره وأدق أحكامه ؟

ماذا يبقى من شعر الشاعر وأدب الكاتب إذا جردته من حادثته ونفيته عن ملابساته ؟ ... لا شيء إلا نظم أو كلام لا يتميز فيه أثر الطبع من أثر الصنعة ، فلا تهتز له نفس ولا تختلج له عاطفة !

دع عنك ما يلهمه الشاعر أو الكاتب من التعبير عن بعض الحقائق الإنسانية الثابتة ؛ فذلك باق أثره بقاء الإنسانية ، لأنه تعبير الإنسانية عن نفسها بلسان الشاعر

أو الكاتب على اختلاف الزمان والناس ؛ ولكن ما شأن الشاعر أو الكاتب في بعض أحاسيسه العابرة إذا اختلف الزمان وأغفل التاريخ ذكر الناسية والحادثة !

إن التاريخ الأدبي لشعراء هذا الجيل وأعيان كتابه ليوشك أن يفلت من أيدينا فلا تبقى منه بقية للدارس في غد إن صح أن « التقاليد الأدبية » في هذا الزمن لا تتسع لإثبات أخبار أدباء هذا الجيل وحوادثهم وأيامهم ؛ وإننا لنبالغ في التوقّر أحياناً بقدر ما نبالغ في الإسفاف ، ونبالغ في النفاق بقدر ما نبالغ في الأثرة والتزيّد في أقدار أنفسنا بالباطل ؛ وبين التوقر المصنوع والإسفاف الرذل يضيع حق العلم والأدب والتاريخ !

وددت ألا يكون ذلك من تقاليدنا الأدبية ، أو مما نسميه « تقاليد أدبية » ؛ إنه غفلة وتقصير وتواكل ؛ وما أحرى أن ننتبه بعد إلى تدارك ما فات قبل أن تطوى صفحة التاريخ !

رجال !

وقرأت في العدد ٧٦٧ من روز اليوسف حديثاً لسيدة من طائفة من رجالنا الذين تجاوزوا سن الشباب ولم يتزوجوا ، فسمّت ووصفت وحكت وقالت . « إنهم لا يصلحون للزواج ! » ، وبيّنت أسبابها ...

... فأما فلان ... ، وأما فلان ... ، وأما فلان فمظلوم في هذه الدنيا « فإنه يعشق المرأة الأسبور ، سيدة المجتمعات ، يعشق المرأة التي ترقص ، وتشرب ، وتحب ؛ ورغم ذلك فأفكاره رجعية إلى حد كبير ؛ إنه يعيش بأفكار عائلات الصعيد التي اعتاد الرجل فيها ألا يرى من المرأة شيئاً ... ...

« إنه لا يصلح للزواج لسبب واحد ، هو أنه لن يجد الفتاة التي توافقه ، فلو تزوج من القاهرة لطلّقها تاني يوم ، لأنه سيغار عليها إلى حد الجنون ؛ ولو تزوج من الصعيد لطلقها تاني يوم أيضا ، لأنه سيملّها إلى حد الجنون ... ! »

قلت : كم شاباً ورجلا في مصر اليوم حالُه حالُ ذلك الفتى الشيخ الذي وصفت السيدة من خبره ؟ ... إنه ليس رجلا واحداً ، ولا عشرة ، ولا مائة ؛ إنهم مئات الألوف من الشبان المصريين يحسون في أنفسهم هذا الإحساس على مقادير متفاوتة في القوة والضعف ؛ إنه داء المصريين جميعاً الذين ابتلاهم نظام المجتمع الحديث بهذا البلاء ، فأيقظ شهواتهم وأطلقهم كـكلاب الصيد في الفلاة العارية ؛ إنهم يشعرون في أنفسهم أن كل صيد حلالٌ لهم في هذه الفلاة فهيهات أن يقتصروا على فريسة واحدة !

إن كل فتى في المجتمع الحديث ليطمح إلى مثل أعلى للزوجة لا يتمثل صورته إلا واحدة من هذه الصور الفاتنة التي تتوزع نظراته في كل طريق وكل ناد ؛ لقد ذاق وعرف واستطعم ، فليست ترضيه واحدة دون هؤلاء اللائي يرى ؛ ولكنه إلى ذلك يريدها له وحده ، ومن أين له أن يؤمن بأن واحدة من هؤلاء يرضيها أن تكون له وحده ؟ ... إنه ليسيء الظنّ من طول ما اختبر ، فلا عليه أن يتوزعه الشكُّ والقلقُ والحيرة !

إنه ليحسن أن يختار ، وأن يميز الجمال بأسبابه وألوانه وخصائصه ؛ لقد أكسبه المجتمعُ الجديدُ هذه الخبرة ؛ ولكن هذا المجتمع لم يجرّده من نخوته بعد ، لأن في أعراقه دماً من أبيه لم يتلوث ...

إنه مسكين ! ... مظلوم في هذه الدنيا ! ... لقد ظلمه نظامُ هذا المجتمع ، وظلم به أخته ! ! «قاف»

مسابقة السنة التوجيهية

نماذج بشرية :

ابراهيم الكاتب

يقول المازني — ويعز عليَّ أن أظن به الكذب ، وبعض الظن إثم — « ولست أحتاج أن أقول إني لست بإبراهيم الذي تصفه الرواية ، وإن هذا المخلوق ما كان قط ، ولا فتح عينيه على الحياة إلا في روايتي ... ثم إني لست أرضى أن أكونه ، فما تعجبني سيرته ولا مزاجه ، ولا التفاتات ذهنه ، وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته ، فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها ، ولو كان صديقاً لجفوته ونبوت به . ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال ، وأنا أتلقاها بغير احتفال ، وهو يعبس للدنيا ، وأنا أنثر لها من أعذب ابتساماتي ، وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعي — كالعرق . وهو مغرى بالتفلسف ، وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق الرثية ، وهو وعر متكبر ، وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد ، وأنا ريض سلس ، وهو نفور ، وأنا عطوف ، وفي نفسه مرارة ، وأنا مغتبط بالحياة ، راض عنها ، قانع بها ؛ وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ، ضيق الصدر ، وأنا لا أرى في الإمكان أبدع مما كان ، ولست مثله أومن بالتثليث في الحب أو الكره ، ولم أمرض قط بالبنيمونيا الخ . الخ ... فليس بيننا كما ترى من تشابه ، سوى أن كلينا قصير فمي ، وأنا أزيد عليه أني أمشي بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجي المعافى » . (المقدمة)

وأنا بعد أعرف « إبراهيم الكاتب » ، وأما « إبراهيم المازني » فلا . إلا أن يكون حدس لا يغني عن اليقين . وإن يكن ثمة أمر يبلبل أفكاري ، فهو ذلك التعارض القوي بين مزاج الرجلين ، ونظرتهما إلى الحياة . إبراهيم الكاتب رجل يحتفل بالحياة ويعبس للدنيا ، وهو مغرى بالتفلسف ، نفور وعر ، متكبر عنيد ، في نفسه مرارة ، وهو قليل التسامح ضيق الصدر ، لأنه كأنما يريد أن يخلق الدنيا على هواه ، وهو أخيراً قد استطاع أن يحب ثلاث نساء يتردد بينهن كالورقة الذابلة تتقاذفها الرياح ... وأما إبراهيم المازني فرجل يتلقى الحياة بغير احتفال ، وينثر لها من أعذب ابتساماته ، ويحس السرور يقطر من أطراف أصابعه كالعرق ، وهو يعد المتفلسفين مرزوئين يستحقون الرثية ، وهو سمح متواضع ، ريض سلس ، عطوف مغتبط بالحياة ، راض عنها قانع بها ، لا يرى في الإمكان أبدع مما كان . ثم هو فيما يظهر لا يؤمن إلا بإله واحد ووطن واحد وحب واحد كما يقولون . لقد ذهب المازني بكل الصفات الطيبة ، وأما صنيه فالويل له . ومن عجب أن تنظر فترى في قسمات إبراهيم الكاتب ما يذكرك بقسمات إبراهيم المازني عند ما أصاب الأخير شيء من هرم النفس ، فتتساءل : أو لم يتبادل الرجلان يوماً شيئاً من خصائصهما ؟ أو لم يحتفل بالحياة ، ويعبس للدنيا ، ويتفلسف في نفور وكبر وعناد ومرارة ، حتى مل وكاد يستريح إلى اليأس ، فإذا به يتلقى الحياة بغير احتفال ، وينثر لها من أعذب ابتساماته وقد أخذ زي المتفلسفين ؟ ذلك ما أكاد أجزم به ، ولي عليه أدلة كثيرة أكتفي بأقواها ، وهو ذلك السرور الذي يقطر من أطراف أصابعه كالعرق . سرور ملح ؛ ابتسامة مرة ؛ يطل وراءه أبدع العوالم ، لأنه لا رجاء في إعادة خلقه ؛ نفس ألفت حتى اليأس ، واستغرقت في الحياة حتى مجتها ؛ ومن كان هذا شأنه لا أحسبه يصير رماداً كله . فتش تجد تحت الرماد ناراً .

وفي الحق أن إبراهيم المازني رجل أثر ، فهو يريد أن يسلب إبراهيم الكاتب الكثير من صفاته ليدعيها . إبراهيم الكاتب نفس واسعة ؛ انفسحت حتى احتوت الأضداد . ولو أنك سألتني أن أصف لك ذلك الرجل العجيب لما استطعت خيراً من أن أجمع مميزات الإبراهيمين قائلا : هذا

هو إبراهيم الكاتب . ولا غرابة فكما أن الرجل استمرار للطفل ، وإن تغيرت القسمات ، كذلك استمرت مرارة أحد الرجلين في ابتسامة الآخر حتى أصبح سروره عرفاً . ولقد كان في المرارة شعر كما نرى في الابتسامة سخرية ، وما مات الشعر وأن نازعته السخرية سحره . إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازني مزيج جميل من الشعر والسخرية ، وتلكما صفتان يرد إليهما بحق جودة ديهامل سر نبوغ الكتاب ، مؤكداً أنه إذا أخل الرجل منهما فقد خلا من كل شيء ، وإلا فقد اجتمعت له مميزات الأديب الحق .

اجتماع السخرية إلى الشعر سر من أسرار الحياة ، يكاد إبراهيم الكاتب يفض لنا غلافه . وأنا بعد لا أستطيع أن أتتبع تاريخ تلك الظاهرة في حياة رجلنا ، لأني لا أعرف قصته ، وإنما أعرف منها مرحلة قصيرة تذكرني بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمات الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك في أزمتها وفقاً لطباعها ، ونحن بعد لا نعرف ماضي تلك الطباع ولا سر نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها العارضة . وإذن فقد كانت لإبراهيم الكاتب دراما صيغت قصة .

ونحن بعد نعلم أن إبراهيم الكاتب كانت له زوجة ماتت مخلفة له ولداً ، وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بماري ممرضته التي يخشى استمرار علاقته بها ، فيسافر إلى الريف عند أقاربه ، حيث يجد بنت خالته شوشو الفتاة الجميلة الحية ، وأختها صبيحة العاثرة الحظ ، التي ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأحد أقاربها ، وأخيراً نجية الأخت الكبيرة زوجة الشيخ علي صاحب العزبة التي نزل بها ، وكان إبراهيم قد نشأ صغيراً مع بنات خالته ، ولكم داعب شوشو وهي طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شبا كأخوين ، وانقطع عنها سنين طويلة ، وها هو يعود اليوم فيجدها فتاة تغري الأبصار والقلوب .

وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه ، وحاول هو أن يقاوم ذلك الحب فلم يستطع ، وود أن يتزوجها ، ولكن نجية لم تكن لتقبل أن تتزوج شوشو قبل صبيحة الأكبر منها سناً ، وأصرت على أن تكون صبيحة لإبراهيم ، وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ علي الرجل الحكيم المتزن أن ينتهي من حماقة زوجته فلم يصل إلى شيء ، وجرحت كبرياء إبراهيم إذ رفضت نجية أن « تعطيه » شوشو ، ولو « دفع لها وزنها ذهباً » . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مغامرة مع ليلى إحدى النساء الحديثات ، وإن كانت في الحق امرأة لا تخلو من نبل وأصالة ، ومرض إبراهيم بالأقصر ، وعاده الشيخ علي والدكتور محمود ، وشفي وغادرته ليلى ، وعاد هو إلى القاهرة ، وقد علمنا أن شوشو قد تزوجت من الدكتور محمود بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بإبراهيم الذي لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئاً .

هذا كل ما نعلمه من حياة إبراهيم الكاتب ، ومع ذلك فباستطاعتنا أن نلتقط قسماته التي تجعل منه أنموذجاً بشرياً لا شك في صدقه ، وذلك لأن تلك الأزمة النفسية كانت كالمحك الذي يكشف في الرغام من تجاذيبه التي تكونت خلال السنين

لقد استجاب طبع إبراهيم الكاتب لعدة أحداث ، ولهذا الطبع خصائصه التي كيفت تلك الاستجابات ، وأما الملابسات التي أخذ فيها الطبع لونه النهائي فلا علم لنا بها ، وإن كنا نلمحه في أول أزمته مريضاً ، ونراه في آخرها مريضاً . ومن بديهنا لعله غذى ألمه أو رفه عنه أثناء مرضه بذلك الشعر الجميل المتشائم ، شعر الكتاب المقدس . ألا نراه يستهل قصته بإحدى آياته : « كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن ... » ، بل ويستهل كل فصل من فصولها : « وكان مساء ... » ، « وكان صباح يوماً واحداً » ، « إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان ... » ، « ارجعي ، ارجعي ،

يا شوليت ، ارجعى ! ارجعى فننتظر إليك » ، « أيتها الجالسة فى الجنات . الأصحاب يسمعون صوتك فأسمعينى » ... الخ الخ ، مما يفوح حزناً رقيقاً كم شمت به عبقريات منذ ذاتى إلى مالتن وقبى . لقد أشربت نفس إبراهيم الكاتب حكمة الكتاب المقدس التى تجنح إلى التشاؤم ، والإعراض عن الحياة ، بل واحتقارها حتى أصبح يرى الكثير مما نتعلق به باطلا ، و « قبض الريح » ؛ ألا تراه يسخر من جهد حياته ذاته فيحسبه « حصاد الهشيم » . ولا يفوتك منه تلك الفلسفة ، فالحياة كالمرأة الجميلة كلما أعرضنا عنها اشتعلت وراءنا طلبا ، وإن فى إعراضنا لفتنة ، وإن فى استهانتنا الظاهرة لحرصا لصيقا بالقلب . انظر إلى نفس إبراهيم الكاتب تناجيه : « ولكنك عبد الحياة . عبدها الباكى الشاكى بفنائه الذى لا يعجب الأحرار الطلقاء ، وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك ، وحاولت أن تتلهى فى سجنك . لا بأس . أرسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعاً ثم ! تغن ، وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ، واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود . وغالط نفسك ، وقل إن الجمال وحى ، وإن الحب لا أدرى ماذا أيضاً ! ولكن ألا تسمح لى أن أسألك : ما وحى الأزاهير التى يذكى أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رقاقة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس . تغن يا عبد الأيام وألعوبة الليالى . » (ص ١٨٨) . أو لا ترى فى تلك النجوى صراع روح تود لو استقلت بذاتها فتحاول أن ترفض الحياة ومغريات الحياة ، فلا تستطيع روح تهفو إلى أن يكون شعرها أغنية داخلية لا تستمد وحيها من أحد ، ولا من شىء ، كالزهر يرسل عطره ، والشجر يؤتى ثماره ، والينبوع يصدح خريره . وأنى لها بذلك ؟؟ وهى لم تر الحياة إلا سجينة .

ولقد بلا إبراهيم الحياة وعضته بأنيابها العصل ، حتى أصبح يحذرها فى يقظة مستمرة ، فتراه لا يستجيب لندائها أو يحفل به . ماتت زوجته فلاحقته ذكراها سنين طويلة حتى أضنته ، وفى معاودة الذكرى وإلحاحها ما يحزن .

وثمة خواطر جرى بها لسان الشيخ على فأدهشتنى لأنها بإبراهيم أليق ، وفى لفتات ذهنه أدخل ! قال : « متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له فى عمره ، وأن ما بقى من رحلته فى هذه الدنيا أشبه بأن يكون وجودا منه بأن يكون حياة — استمراراً ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه الحياة الأولى كما يجرى النازل من الترام خطوات إلى جانبه ... عرف المرء أن أذنه التى كانت تملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك النغمة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح يخفق بلا احتفال ، ولا يخرج من دقه عن الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بها ، ونحرص عليها ، تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها . . . وتتعرى زهراتها من أوراقها ، وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وههنا » . (ص ١٦٤) هذه هواجس ما أظنها تخطر لرجل كالشيخ على ببال ، وذلك لأنه — فيما أعلم — يحيا الحياة ولا يفكر فيها ، وإنما هى فلسفة إبراهيم التى لا أدرى سر نسبتها إلى الشيخ على ؛ ومنها لوعة تحدثنا بأن سخرية إبراهيم وجفاءه الإرادى تعمية تنشرها الروح بحركة آلية لتخفى ما فيها من حزن ومرارة . ولكم من مرة تسقط نجوى إبراهيم القلبية فإذا هى : « إن السعادة لا تجىء فى الحياة بأن يمد المرء يده ، بل بأن يمدها إلى الثمار ليجنيها » (ص ٢٨٦) . ولكن ألم أقل إن تحت الرماد ناراً ، وإن فى تضاعيف السخرية شعراً ! !

إبراهيم الكاتب نفس لا تزال تعرف الحماسة وتستشعر الشهوات . نفس حارة وإن بللتها المرارة فسخرت ! وكأنى بها تحن إلى أن تتعلق بشىء ، يملأ ما بها من فراغ يزيد هوته ما انساقت إليه من إعراض عن الحياة . نفس تود أن لو استغرقها شعور قوى . وهذا ما نلمحه فى تعلقه بمارى وشوشو وليلى ، على تفاوت فى النوع والنسب .

نطق بحارى وقد أضعف المرض من صلابة نفسه ، فسكن إلى رقتها وآخى الحزن بينهما ، وكلاهما لا يزال يذكر شريك حياتة الراحل . ثم انعقد قلبه بحب شوشو ، وقد سحره منها تفتح قلبها البكر كما تتفتح الزهرة لندى الصباح وكأن في جرأة ليلى وقوة عصبها ونضوج أنوثتها ما جذبه وأوشك أن يعزيه عن شوشو بعض العزاء ، أو على الأقل أن يلهيه عن بعض ألمه . وإبراهيم كما قلت نفس غنية كثيرة الحنايا .

إبراهيم الكاتب أنموذج بشرى لذلك النوع من الناس الذين يطول تفكيرهم في أنفسهم وفي الحياة ، ثم لا يهتدون إلى فهم وتفسيره ، فينتهي بهم الأمر إلى التجرد من أنفسهم ومن الحياة يضعونهما أمامهم ليحدقوا فيهما بنظرة ساخرة مؤثرة ، وإن لم يعدموا أن تثور بهم من حين إلى حين موجة تألم من القاع ، فإذا بهم يرتدون وإذا الابتسامة تقطر مرارة ، وإذا بالسرور يتساقط من أطراف أساريرهم كالعرق البارد .

إبراهيم الكاتب شاعر ، ولكم من مرة تتحرر نفسه من قيودها ، فترى ما حوله من جمال الطبيعة بفطن لدقائقها ، « وكأن مما وهبه من أصابع جن رسل الحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلماء ، فتتفرع عن نجوم السماء ويرتد الحظ مما يدنيها كليلا حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تتنقل العين في أجوازها الرحبة ، فلا تقطع منها سوى ريد هالة من ريد أشد هولا » .

والآن ترى أصحيح ما زعمه المازني عندما قال عن إبراهيم الكاتب « ليس بيننا من شائبه سوى أن كلينا قصير في . . وأنا أزيد عليه أني أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجي العاقل » ! » . وأنا بعد لا أدرى أن أزمة إبراهيم الكاتب قد انتقلت لإبراهيم المازني ، فهذا لا يعنيني ولكنني أحس وشائج روحية بين الرجلين . أولا ترى أن لنفسيهما لونا وأن لحياتهما فلسفة ؟ كم تهزني روحهما الطليقة النافذة ! ؟

محمد مندور

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢١٠ — الثلاثاء ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٣٦١ — ٥ من يناير سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

الثقافة فى عامها الخامس

باسم الله نستقبل العام الجديد . وباسم الله تستقبل « الثقافة » فى عامها الخامس .

نستقبل العام الجديد والعالم لما يُفق من نوبة جنونه ، فقد عوّدنا من عهد آدم أن يجن جنوناً متقطعاً بعقل ، ولكنه اليوم أجن ! لم يخرب كما خرب هذه المرة ، ولم يشمل البيت كله كما أشمله هذه النوبة ، هو فى عقله يعمر ويشيد ، ويجمّل ويصلح ، فإذا جن خرب ما عمّر ، وهدم ما بنى ، وشوّه ما جمّل ، وأفسد ما أصلح . ولئن استمر طويلا فى جنونه — لا قدر الله — فهى الطامة الكبرى والكارثة العظمى . لقد ضاق مستشفى المجاذيب بأهله فاتسع حتى حوى العالم ، وعم جنونه حتى شمل البحر ، والأرض والسماء ، والأسود والأصفر والأبيض ؛ ونسى أهله العقل حتى ألِفوا الجنون ، فكلّ يوم جديد تفكير فى تخريب جديد ، والسيئة تستتبع السيئة ، والشر يبعث الشر . والمصيبة العظمى أن هذا الجنون ضعف تفكيره وقويت إرادته ، فهو لا يبحث عن الشفاء لمرضه ، ولكن يحدد أنيابه لفتكه ، ويستجن من يشير عليه بالهدوء ، ويستعقل من يحمسه للهياج ! وفى الأمثال القديمة أن رجلا جن فبعثوا إليه بأعقل رجل ليهديه ، فباء بالخيبة ، ثم بعثوا إليه بمجنون مثله يرشده ، فأفلح المجنون حيث فشل العاقل . فلعل العالم الآن ينتظر مجنوناً يشفيه من جنونه ، بعد أن عجز العقل عن شفائه .

أربع سنوات تشتعل النار ولا من يفكر فى

إطلاقها ! والسيف مسلول فى يد من يحصد الأرواح حصداً ولا من يأخذ السلاح من يده ! والأقوات تلقى فى البحر ومن يلقونها يموتون جوعاً ! والبيوت تهدم ومن يهدمونها يبيتون فى العراء ! ومن عاش صنع بيده ما يهلكه ، واخترع ما يبرع فى قتاله . فلو منحت البهائم لساناً ناطقاً لحمدت الله أن لم يخلقها ناساً .

ما حال العالم اليوم ؟

لقد أحجمت فيه الملائكة وانطلقت الشياطين ، وغاضت الرحمة وفاضت القسوة ، ومات الحب وحيي الكره ، وانقلبت القيم رأساً على عقب ؛ فإذا الخير شر والشر خير ، وتقوضت دعائم البيت فسقط على من فيه ؛ فلا دين يزع ، ولا ضمير يردع ، ولا حكومة تشعر بالتبعة الإنسانية ، وركب الناس نظرياتهم الحديثة فأوصلتهم إلى القبر .

كل السياسة تتجه إلى المال ، وكل الحياة تقصد إلى المال ؛ فإذا الغنى شقى بالتفكير فى استغلال الفقير ، ووسائل احتفاظه بثروته من عين البائس المحروم ؛ وإذا الفقير مملوء بالحقد على الغنى لجشعه واستغلاله ، وإذا الغنى والفقير معاً آلات ميكانيكية صرفة ، ووحدات اقتصادية بحتة ؛ لا روح ولا نفس ولا سماحة ؛ لا شيء عندهم أعز من جيوبهم ، ولا مطمع للفقير إلا سد عوزه ، ولا للغنى إلا انغماسه فى ترفه ؛ فحيوان يشكو الجوع ، وحيوان يشكو التخمة ، وكلهم فى البؤس سواء .

هذا فى الأفراد والجماعات ، أما الأمم فظلت تنفخ فى كير الوطنية حتى تأججت ، وتنفث سم الخصومة حتى استحكمت ، وتبنى تربيتها ونظمها على الأنانية القومية ، والعصبية الجنسية ، وإقواء الدين والعلم والتاريخ لخدمة هذا الغرض ، وجمع المال بالتضييق على الشعوب وبذله فى التسلح ليفرغ هذه الغاية ، وإثارة الغرائز الوحشية لعبادة القوة المادية ؛ فلما تجمع هذا البارود كله انتظر عود ثقاب ، فانفجر ودك الأرض دكاً ، ونسف أهلها نسفاً .

أتظن أن عاقلاً يصنع ذلك بنفسه ؟

وقد يكون للعام الذى نودعه ميزة ليست لسواه ، فقد استطاع أن يبلغ بالجنون غاية ليس بعدها غاية ، ويصل فى تخبطه إلى النهاية ، وليس بعد الزيادة إلا النقصان ، ولا بعد تمام الجنون إلا البدء فى العقل .

فما لا أشك فيه أن العام الذى نستقبله سيكون — على الأقل — أقل جنوناً ، إن لم يكن أحكم عقلاً ، وسيشعر فيه العالم بالبهر من طول الشوط ، فيأخذ فى الرجوع إلى العقل بعد أن طال تعبه من الجنون ؛ وسيعجب من جنونه كيف حدث ، ومن دنياه كيف أفسد ، ومن صرعاه كيف صرع ؛ وسيفكر طويلاً فى أسباب جنونه وكيف يتقيها ، وقادة جنونه وكيف ينتقم منهم ؛ وسيحول أسباب الجنون إلى أسباب عقل حسب استطاعته ، وسيصغى طويلاً إلى أطباء العقل لعل عندهم ما يشفى مرضه ويأمن عوده ؛ فإن لم يفلح فى الشفاء التام فلا أقل من أن يفلح فى تأجيل النوبة ؛ وسيحاط جهده أيام العقل ليكون مطولاً أيام الجنون . فإن نجح العالم الجديد فى هذا كله فله الفخر ، وإلا فسيكون له — على الأقل — فخر أنه سجل خط الرجوع إلى العقل .

ومما يخفف نقمتنا على جنون العالم أنه يجد بعد إفاقته جداً يعوض جنونه ، ويكدح كدحاً بعيد بناءه على خير مما هدم . فلعله هذه المرة وقد أفسد كثيراً أن يصلح كثيراً ، وأن يألم لما حدث فى غير وعيه ، فيحترس لذلك أيام وعيه ؛ فلا بأس على الفلاح أن يحرق هشيمه إذا استعد لربيعه ، وأن يحرث أرضه ليجدد زرعه .

لقد مات العام المنصرم وماتت معه أحداثه ، وماتت معه الملايين من البشر ، ومات معه ما خلفه الموت من

الكتبي ، وماتت معه آلاف المنشآت في البر والبحر كالأعلام ، ودفنت معه غفلة الناس وسخافتهم وشهواتهم وأثرتهم ؛ ولم يبق من ذلك إلا ذكريات تمر قليلاً قليلاً ، حتى يذهب أثرها كما ذهبت أعيانها ، ولا يبق إلا العبرة من الماضي لصلاح المستقبل ، والدرس القاسي في الفشل نتعلم منه النجاح .

* * *

وتستقبل « الثقافة » عامها الخامس ، وقد جاءها الحرب بعد أشهر من ولادتها ، فساهمت في الجهاد ، وشاركت في حمل العبء . لم تستطع أن تنمو نموها الطبيعي ، وتتعدد في نوعها ، بل حدّت الحرب من حجمها كما حدّت من أفكارها ، وقلّلت من غذائها ، وزاد في الضغط على جوها أن المصانع التي كانت تصنع الورق لغذاء الأرواح ، انقلبت تصنع المواد للفتك بالأرواح ، والسفن التي كانت تحمله فتنشره على العالم بنقش فيه علمه وعواطفه وفنه ، صدّت عنه ، وأفسحت صدرها للسلاح توزعه للحصد والفتك ، والخراب والتدمير ، مرددة قول أبي تمام : « السيف أصدق أنباء من الكتب » ، وهو قولٌ جائر وخيالٌ شاعر ، فأين السلاح القادم من الكتاب الباقي ، وأين بطش اليد من بناء العقل .

وجمهرة العقول والمشاعر التي كانت تنتج أدباً سامياً أصبحت تنتج أدباً سياسياً ؛ وجمهور القراء شغلهم أعلمهم وماطمهم ومشاكلهم ، ففكروا كثيراً في قوتهم ومستقبل حياتهم ، وقليلاً في عقولهم وغذاء أرواحهم . وفرضت ظروف الحرب وأحكمت حدود كل قطر ، ووقفت منافذه ، وحصنت مسالكه ، فأصبح اتصال كل قطر بالعالم حوله عسيراً في تبادل النتاج العقلي والفكري والعاطفي .

وكل كلمة لا بد أن توزن وزناً دقيقاً في قولها وفي سماعها ، وكل فكرة لا بد أن ينظر في نتائجها واحتمالاتها ؛ وكل نظرة لا بد أن تقدر بظروفها ومناسباتها وملابساتها . والآداب والفنون من الأشياء الحساسة ذات الشعور المرهف ، هي زهرة جميلة لا تنمو إلا في بيئتها الصالحة ، ولا تزهر إلا في الهواء الطلق ، ورائحة البارود تخنقها ، وصوت المدافع يؤذيها ، وضغط الجو يذبلها .

في كل هذا ، وفي أكثر من هذا ، تجاهد الصحف والمجلات ، وكلما جدّت تعبت ، وكلما فهمت رسالتها شعرت بتبعاتها ، وكلما أدركت واجبها كان جهادها أشق ، وموقفها أدق ؛ وصدق الأثر « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

عدد ممتاز للهجرة

تصدر « الثقافة » العدد القادم خاصاً بالهجرة . وسيكون في ٣٢ صفحة وثمنه ١٥ مليما .

وبعد ، فنحمد الله على البقاء ، وإن لم يكن نماء ، ونغتبط إذ نرى الكتّاب والقراء يلتفون حول المجلة في مثل هذه الظروف ، يمدونها بآرائهم وبحوثهم ونتاج تفكيرهم ومشاعرهم ، ويشجعونها بالإقبال عليها ، ويعدّونها لوناً ضرورياً في حياتهم ، ونمطاً لا بد منه في إذاعتهم واستماعهم .

ولعل العام الجديد يحقق ما لم يحقق به سوابقه ، فيعيد على الناس حريتهم وأمنهم ، فتغمد السيوف ، وتجرى الأقلام ، وتفك القيود ، وتنطلق الأفكار ، ويعود للناس أمنهم وطمأنينتهم ، ويعود للأدباء غناؤهم وشدوهم . إن شاء الله .

أحمد أمين

بلاغة الصدق

للأستاذ شفيق جبرى

بقى فى نفسى بعد سفرة من سفراتى إلى العراق أثر بيت من الشعر لم يمحه شىء على الرغم من الصور الكثيرة التى مرت على هذه النفس . كنا ثلاثة فى سيارة ذاهبين فى نزهة من بغداد إلى الحلّة ، وكان أحدنا ، وهو بغدادى المولد ، كثير المحفوظ ، فكان ينشدنا على الطريق ما يحفظه من الشعر ، وصوته الحسن يزيد فى محاسن الشعر الذى ينشده . ولما طوت بنا السيارة الفلوات والصحارى أفرغ هذا الصديق فى مسامعنا قصيدة لدعبل ، منها هذا البيت :

بنات زيادٍ فى القصـور مصونة
وبنت رسـول الله فى الفلوات

من ذلك اليوم بقى بيت دعبل فى ذهنى . إنى لم أر القصور التى صانوا فيها بنات زياد ، ولكنى رأيت الفلوات التى شتتوا فيها بنت رسول الله ، وقد يجوز أنى فى طريق من بغداد إلى مكة مررت بالفلوات نفسها التى أشار إليهـا دعبل فى شعره .

فقد عرفت كآبة هذه الصحارى وعرفت كثيراً من متاعبها ، ولماذا بقى فى ذهنى بيت دعبل ، على أنى حفظت من الشعر شيئاً كثيراً ، ولكن السنين محت هذا المحفوظ إلا أقله . فليس فى بيت دعبل تشبيه حسن من التشبيهات وما أظن أن فيه أى باب من أبواب البديع ، على قلة نصيبى من معرفة هذه الأبواب على التفصيل ؛ وكيف كان الأمر فليس فيه صورة شعرية من هذه الصور التى تعودنا أن تسكرنا رنات ألفاظها . ولئن لم يكن بيت دعبل أبلغ بيت قالته العرب ، فإنه فى أبلغ الشعر ، إنه خالد فى اللغة العربية خلود هذه الفجيعة الحمراء التى فاضت فيها دماء طاهرة ، وسكبت فيها دموع نقية ، وأمس بها لجبهة الحسين . لم تأته البلاغة من محاسن التشبيهات والكنايات والاستعارات ، فهو مجرد من هذا كله ؛ ولم تأته البلاغة من ألفاظه الجزلة الفخمة ، فلست أعرف ألفاظاً أسهل من ألفاظه ؛ ولم تأته البلاغة من دقة معانيه ، فلست أعرف معانى أظهر من معانيه ؛ ولكن البلاغة أتته من وجه آخر ، فقد أتته من صدق المعنى الذى صوّره ، من عظمة هذا المعنى ، من بساطته ، وأظن أنا لا نرى البساطة فى الحياة إلا رأينا العظمة فى ظلالها .

لست فى مقام المؤرخ ، فلا أعرض لأمر معاوية وعلىّ ولا أتعرض لمقتل الحسين عليه السلام ، كل هذا أتركه للتأريخ ، فإن موضوعى : بلاغة الصدق ، فبيت دعبل بليغ لأنه صادق . إن هذه الدماء التى سفكت فى الفلوات ، وهى دماء المسلمين ، قادرة على أن تفجر دموع العيون من دون أن تحتاج إلى شىء من زخرفة الكلام ، فأى قلب لا يحزن عليها ، وأى عين لا تدمع لها ، سواء أكان هذا القلب هواه فى عبيد الله بن زياد أم كان هواه فى الحسين ؟ ! أى قلب لا يذوب لشتات الحسين وأطفاله فى الفلوات ؟ ! إن بيت دعبل ، على بساطة معانيه ، وعلى سهولة ألفاظه خليق بأن يستثير أرق النفوس ، وألطف القلوب . فالبلاغة الكاذبة قد تعمل عملها فى النفوس ، ولكن هذا العمل لا يلبث أن يزول أثره ، لأن هذا النمط من البلاغة يُلبس الأمور لباساً لا يناسبها ، فلا يلبث تنافر الأمور ولباسها أن تظهر مفاتحه للعيون ؛ أما البلاغة الصادقة فإنها إذا عملت فى القلوب عملاً دام عملها السنين كلها ، لا بل الدهر كله ، لأن اللباس الذى تخلعه على الأمور إنما هو اللباس اللائق بهذه الأمور ، تستحسنه العيون فى كل حين فليس للنفس عنه نبوة . لم يحتج دعبل فى بيته إلى بلاغة ، لأن الفجيعة التى قيل فيها دونها كل البلاغات ،

فعظمة معانيها ألقت على ألفاظ البيت عظمة مثلها ، فتناسبت بساطة الصور وعظمة المعاني الصادقة ، فخلد البيت وخلد هذا الخلود !

وفي كتب أدبنا أمور كثيرة من هذا الشكل : كان سيف الدولة يميل إلى أبي العباس النامي ميلا شديداً ، إلى أن اتصل المتنبي بسيف الدولة ، فمال عن النامي إليه ، فغاظ ذلك أبا العباس ؛ فلما كان ذات يوم خلا بسيف الدولة وعاتبه وقال : الأمير ، لمَ فضّل على ابن عبدان السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلجّ وألح عليه وطالبه بالجواب ، فقال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر
وقد أغذّ إليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضباً .

فبيت المتنبي على ما أعتقد خال من أي تشبيه حسن ومن أية استعارة حسنة ، فلماذا استحسنه سيف الدولة ؟ أظن أنه لم يبلغ من نفسه هذا المبلغ إلا لأنه صادق البلاغة لا كاذبها ؛ فسيف الدولة عظيم في بطولته ، عظيم في أعماله فلا تحتاج عظمته إلى بلاغة كاذبة ، وهذه العظمة هي التي صبغت بيت المتنبي بهذا الصباغ البهيج حتى وقع من سيف الدولة هذا الموقع ، وهو ليس بقصير الباع في معرفة البلاغة وأساليبها ، ولكن عظمته زهّدته عن حب كل بلاغة كاذبة ، وحببت إليه كل بلاغة صادقة ، حببت إليه البساطة ، والبساطة أخت العظمة !

غير أني لم أكتب هذا المقال لأقرر فصلا من فصول البلاغة ، فلست من فرسان هذا الميدان ، وإنما موضوعي : بلاغة الصدق . وكما تكون هذه البلاغة في الأقوال فقد تكون في الأعمال ، وربما كانت بلاغة الصدق في العمل أجل من بلاغة الصدق في القول !

قرأت أخبار الرئيس « سالازار » مصلح البرتغال . لقد كان هذا الرئيس أستاذ الحقوق في جامعة « كويمبرة » ثم كان نائباً وهو ابن أربعين سنة ، وترك مجلس النواب من أول جلسة ، ثم كان وزير المالية سنة ١٩٢٨ واشترط في وزارته شروطاً ، منها مراقبة النفقات بمجامعها ، ومنها أن الوزير كائناً ما كان لا يجوز له أن يجمع أمراً من الأمور إلا بعد أن يوافقه « سالازار » عليه ، وقد وضّح في بلاغ من بلاغاته المبادئ الأساسية التي بنى عليها سياسته في إصلاح الحياة المالية والحياة الاقتصادية في الأمة ، وأعرب عن حاجته إلى ثقة الشعب المطلقة به ، على أن تكون هذه الثقة مملوءة هدوءاً وصفاء ، وبيّن أنه لا يميل في نفسه إلى الحكم ، وأنه لم يرض به إلا من أجل مصلحة البلاد ، فإذا شا كسوه في خلال قيامه بالواجب فإنه يتخلى عن الحكم ويعود إلى منبر التدريس .

إني أرى في الكلمات الأخيرة أصدق صورة من صور بلاغة الصدق في العمل ، لم يمل هذا المصلح إلى ما مال إليه نظراؤه في سفك الدماء وتخريب البلاد ، ولم يحتج في بلاغه إلى ما يحتاج إليه غيره في تزويق وتنميق ؛ فقد رأى أن البساطة في العمل منتهى البلاغة فيه ، وهذه البساطة ناشئة عن الصدق ، فاستحق « سالازار » مما لم يستحق منه غيره لأنه صادق في عمله ، فإذا صدعت البلاد بما يأمر استخرج مكنونه في خدمتها ، وإذا عاسروه ألقى مقاليد الرياسة وعاد إلى التدريس . لقد تم الإصلاح على يديه دون أن يحتاج إلى البطش ، تم هذا الإصلاح بفضل طرائقه المستقيمة الواضحة . وقد قيل إن رئاسته كانت أشرف الرئاسات وأحذقها في أوربا ، وكانت في الوقت نفسه أحزمها .

إني لا أشك في صحة هذا الكلام ، لأن الرجل الذي تلقى إليه مقاليد الأمور فيوطّن النفس على صدق الخدمة ،

فإذا صابقوه عاد من نفسه إلى صناعته الشريفة وهى التدريس من دون محاولة من المحاولات ، ومن دون دسّة من الدسات ، إنما هو رجل صادق فى العمل ، وبلاغة صدقه فى العمل أغنته عن كل بلاغة كاذبة فى القول .

وسواء أكانت البلاغة ناشئة عن الصدق فى القول أم الصدق فى العمل ، إنها والبساطة صنوان . فقد رأينا مقدار بساطة بيت دعيل وبيت النفى ، وشهدنا مبلغ بساطة الرئيس « سالازار » فى قوله وفى عمله . وقد قدر لى من تسع سنين أن أزور عواصم كثيرة فى أوربا ، وإذا رجعت إلى خواطرى التى دونتها فى رحلتى إلى « لندن » فإنى أجد فيها ما يلى :

كل شىء فى « لندن » بسيط حتى هذا الفندق الذى نزلت فيه ، وحتى هؤلاء الفتيات النظيفات اللواتى يخدمن فيه ، وحتى هذه المآكل ، ولكن بساطة هذا الفندق وهؤلاء الخدم وهذه المآكل لا تخلو من مظاهر العظمة !

ومن جملة هذه الخواطر أيضا :

كل شىء فى « لندن » عظيم ، حتى مبانيها ، إنك لا تجد فى هذه المبانى العظيمة التى تريدها فى زيادة الزينة أو فى زيادة الرونق ، أو فى زيادة الفخامة ، ولكنك تجد فيها البساطة وهى مادة عظمتها !

إنى لا أريد التبسط فى هذا الوصف ، فها أنا أطوى الدفاتر التى دونت فيها أمثال هذه الخواطر وأعود إلى موضوعى ، لا بل أختم موضوعى بهذه الكلمات : إنا لا نكون بلغاء فى أقوالنا وفى أعمالنا إلا إذا كنا صادقين فى هذه الأقوال وفى هذه الأعمال ، وقد يستغنى صدقنا عن كل بهرج ، ولكنه لا يستغنى عن شىء من البساطة ، فعلى قدر بساطتنا فى القول وفى العمل وفى الحياة نفسها تكون عظمتنا !

(دمشق) شفيق جبرى

٣ – محمد بن دنيال

المتيم

وهذه هي البابة الثالثة من بابات ابن دنيال التي عرضنا للحديث عنها في عددين سابقين من أعداد « الثقافة » ، تكلمنا في أولها عن (طيف الخيال) ، وفي ثانيهما عن (عجيب وغريب) ، كما ذكرنا شيئاً عن نشأة هذا الفن ، أعني (خيال الظل) ، وحياة ابن دنيال ومؤلفاته .

ونحن إذ نعرض اليوم للقراء البابة الثالثة نضع بين أيديهم مسرحية تختلف في موضوعها عن البابتين السابقتين اختلافاً عجيباً ، وإن اتفقت معهما في الأسلوب والهزل .

فمن جهة الموضوع فهنا نقرأ شيئاً عن الحب وحيل المحبين ، لكنه حب ليس من ذلك النوع الذي نجده عند مجنون ليلى ، وقيس لُبنى ، وكُثَيِّر عَزّة ، وجميل بثينة ، ومُرقّش أسماء ، وكثيرين وكثيرات ممن تزدحم بهم كتب الأدب العربي ؛ بل حب نواسي . وشعر ابن دنيال ليس أيضاً من نوع الشعر الذي نقرؤه للغزلين من شعراء العربية كابن أُذَيْنة ، وابن أبي ربيعة ، وابن ذَرِيح ، وقيس بن الحطيم ، وسويد بن أبي كاهل ، والعَرْجي ؛ بل شعر قصد منه إلى جانب التمثيل والغناء اللهو والمرح ، فهو شعر غنائي تمثيلي هزلي ، ووضع لمسرح خاص ، وهو مسرح (خيال الظل) المصري ، وصيغ في أوزان خاصة يتفق تقطيعها وألحان المسرحية الموسيقية . ثم لا يفوتنا أن ابن دنيال ألَّفَ هذه القطع في مصر ، وعرضت على المصريين ، لذلك عني في شعرها ونثرها بأن يكونا مصريين . وحيل (المتيم) ليست كتلك التي نقرؤها في المؤلفات التي أفردت للحب وأهله ، وحيلهم ونوادرهم ، بل هي حيل مصرية ؛ فنرى مثلا نقار الديكة ، وتناطح الخراف ، وما إلى الديكة والخراف من طيور وحيوانات كانت وما زالت إلى اليوم موضع لهو ورياضة بعض المصريين في كثير من القرى والأرياف . وقد أشار المؤلف إلى ذلك في مقدمته التي يقول فيها بعد البسملة : قد أجبت أيها الأستاذ المفلح ، والمطبوع المترجم ، سؤالك الثالث ، وخضت معك خوض الحارث ، وارتجلت لك هذه البابة ، كرما بالإجابة ، وهي بابة المتيم والضائع اليتيم ، وضمنتها طرفاً من أحوال المحبين ، وطرفاً من الغزل الذي هو السحر المبين ، وطرفاً من الملاعيب ، وطرفاً من المجون الذي ما عيب ، فإذا ما ذهبت إلى صدر من صدور الزمان فاجل الستارة وغن في أصبهان :

قل لسادات الزمان لا برحتم في أمان
وبقيتم في نعيم ماتبقى الهرمان

ثم يأخذ ابن دنيال بعد ذلك في عرض شخوصه ، فيخرج شخص هيجه الغرام ، فيبكي بانتحاب ، وينشد متأوهاً نشيداً يصف فيه حاله ، وما انتابه من سقم وأرق ، جاء فيه :

أهل الغرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
موتوا تعيشوا في الهوى وتغرقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم نحن سواه أو دعوا
صب سماء دموعه من صبها لا تقلع
لم يبق إلا أضلع من سقمه تتقعقع
وادي العقيق بجفنه والدمع منه ينبع

ثم يقول : واه واه ! وا حباه ، وا قلباه ، المتيم سكين ذبح بغير سكين ، من أرسل ناظره أتعب خاطره ... والعاشق كل شيء يذكره ، لمعان البرق يؤرقه وهبوب الريح يقلقه ، وإذا دنا الليل منه ، يهرب النوم عنه . ثم ينوح ويعدّد في رهاوي ويقول :

هكذا كل أخي وجد يكون أم أنا وحدي لي هذا الجنون
من معيني ومعيني أدمع وعيون الصب في الصب معين

وبعد أن يفرغ من نواحه يقول : أيها السادة ،

مسيئم بالسعادة ، ولا بليم بمشق متدلل ، وإفلاس عاشق متعلل ، عبدكم النيم الهائم فى الشائع اليليم ، الذى فتن الألباب ، وعلق على الألاح الباب ، ذو القوام الأهيف ، والخصر الخطف ، والطرف الأدعج الأوطف ؛ (وطف الرجل كثر شعر حاجبيه وعينيه) ، والردف المردف ، والجبين الأبلج ، والثغر الفلج ، الذى خده الورد وعذاره البنفسج ، الكامل الأوصاف ، القليل الإنصاف . . . ثم ينشد موشحاً ردفه بقوله : إنه هو الوصلى لا يدق إلا أبواب الكبار . فيخرج شخص دميم ، ويقول غلامكم القديم ، ويضرط من فمه بصفير ، ويتبع تصفيقه بتنخير ، ويقول : يا متيم خانك الاعتقاد ، وتبدلت بالياسمين شوك القتاد ، ومرضت مرضاك لمترض ، وتداويت بمهترض ، (المرض الحصف الذى يظهر على الجلد) . . . وبعد ذلك ينشد شعراً فى محاسن الصغير على الكبير ، ثم فى الختام يقول : ألا يزدرد الإنسان الصغير ولا يزدرد الكبير ؟

فيقول له المتيم : فض الله فاك ، ولا سلمك ولا كفاك ... أين الهلال من قمر الأبدار ، وأين الرمان من الجلنار ، وهل يفضل البلح على التمر ، أو الحصرم بلذة الخمر ؟ ... وبعد ذلك يظهر خادم المعشوق ، واسمه (بابا يرم) ومعه رسالة إلى المتيم ، وكان قد سبق أن مدح (بابا يرم) المتيم لدى المعشوق ؛ فبين له خصاله الجيدة ، وولوع الحيوانات التى لديه ، وحبه للرياضة ؛ ففرح المعشوق وكتب للمتيم بذلك ؛ فسر المتيم سروراً عظيماً ، ورقص فرحاً ، وأحضر الخمر والكاس ، وغنى حتى جلب المعشوق ، فغنيا بالتناوب .

وفى الدور الختامى يغنى المتيم ديكه (أبو العرف صباح) :

ما لى إلا ديكى أبا العرف صباح

الفاره(١) فى الديوك نقراً وصياح

قد مد إلى النقـــار عنقاً وجناح

فاقبله وما عليك فى ذاك جناح

(١) فره الرجل : حذق ومهر ونشط وخف .

فيقول المتيم : لا تذكر ديكك صباح ، حتى ترى القيم صباح ، الذى ما قاومه فى الديوك أحد ، وهو لعلك بيضة البلد :

ديكى من الجنود حذار من بأسه الشديد

إن كان منقاره فطار(١) فإن كفيه من حديد

كأنما عرفه عقيق يرى على ورده الخدود

له إذا هاجه نقار من خصمه وثبة الأسود

وهنا يعرض المؤلف للنظارة منظراً من أجمل مناظر البابة ، إذ يصور لنا نقار الديكة ، وكيف كان يجرى ، فتحط الرهون على يد الحكم (زيبون) ، ويخرج ديك اليتيم ، ويتلوه ديك المتيم ، فينشد المتيم ويقول :

أهلا وسهلا بطلعة الديك كأنه عروة الصعاليك

أتى بتاج كأنه ملك بين دجاج مثل المماليك

بطيلسان مثل الحرير مع التبر على منكبيه محبوك

رأيته إذ يسير من ذنب كأنه الصالح بن رزيك(٢)

ويل لديك أتى يناقره وهم فى حربه بتحريك

فإنه يستبيح من دمه ما لم يكن مثله بمسفوك

فيقف الحكم بينهما بعصاه ، فيتقرانه فى قفاه ، فيأخذ نفسه بالأهبة ، ثم يبتدئ قبل كلامه بالخطبة ويقول :

الحمد لله فالق الإصباح ، وملهم الديك تقسيم الزمان بالصياح ، الذى توجه بتاج من عقيق ، وبرقعه ببرقع من الشقيق ، وألبسه الطيلسان الدبج ، وأقامه فى صورة الملك المتوج ، وخصه بالكرم والإيثار ، وفضله بذلك على جميع

(١) سيف فطار ، أى فيه تشقق ولا يقطع .

(٢) طلائع بن رزيك ، هو أبو الغارات الملقب الملك الصالح وزير مصر ... ولما مات الفائز وولى العاضد مكانه استمر الصالح على وزارته ، وزادت حرمته ، وتزوج العاضد ابنته ، فاغتر بطول السلامة ؛ وكان العاضد تحت قبضته وفى أسره ، فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة فى قتله ، فاتفق مع قوم من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعى ، وتقرر ذلك بينهم ... وجرحوه ، وحمل إلى داره مجروحاً ودمه يسيل ، وأقام بعض يوم ، ومات يوم الاثنين ١٩ رمضان عام ٥٥٦ هـ . (راجع ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٩) .

الأطيار ، وميزه بالذب عن الحريم ، ومقاومة القريم ، والصلاة والسلام والتحية والإكرام على سيد المرسلين ، ورسول رب العالمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد : فإن مكافحة الأقران ، لا تختص بنوع من الحيوان ، وأحسن ما تفرج عليه السوقة والملوك ، مناقرة الديوك ، لأنه مناصلة ومناضلة ، ومقاومة ومنازلة ، وهذان الديكان قد وقفا للاصطلام (صلمه قطعه وقيل قطع أذنه وأنفه من أصلهما) وأصرا على الإقدام ، فمن هرب من النقار والتجأ إلى الفرار وجب على العاقلة ما تقرر ، وليس بعار إذا عاد المغلوب وتكور باسم الله عليك يا صياح ، وأعيذك بالله يا صباح ... ثم يناقر الحَكَمُ بينهما على ذلك المثال وعادة الخيال ، فيستفق ديك اليتيم من النقار ويزوى بالهزيمة والفرار ؛ وهنا يصيح اليتيم ويقول : ديكي والله ما انهزم ، ولا على الفرار عزم ، وإنما حضر الوقت المعلوم للأذان ، فانصرف من اللعب إلى تسبيح الملك الديان ، وهذه عادة هذا الديك المبارك في إحجامه ، وإقباله وإقدامه ، ولئن هرب ديكي من صباح فدونك كبشي النطاح ، وكل لاعب يعرف كبشي الذي كأنه الأسد الوحشي ، يكاد ينطح ناطح البروج ، ويهدم بقرنيه سد ياجوج وماجوج ؛ فيعلن الحكم ذلك ، فيقبل التيم ويقول إن خروفه من البشمور[1] ، واسمه (وحشي) ، أما خروف اليتيم فاسمه (أبو الشين) . ومن ثم نرى أمَّ اليتيم تظهر وفي يدها مبخرة ، فتبخر خروف ابنها ، وتتحدث عنه وعن صوفه ، وعن وفاة زوجها . ويأتي بعدها الحَكَمُ فيلقي كلمة تشبه تلك التي ألقاها عند نقار الديكين ؛ ويحدث أن يُهزم خروفُ اليتيم ، ويولي الأدبار ، فيغني كل من اليتيم والتيم موالا يعقبه حديث لليتيم عن ثوره وبطشه ، وعن عنايته هو به ، ومن ثم يأخذ في تعداد محاسن الحديقة التي يقيم فيها هذا الثور ، فينبرى له التيم مفاخرا بثوره ، فيحضر الثوران ويقوم الحَكَمُ (زيهون) ويلقي خطبة من ذلك النوع الذي قرأناه له في الديكة ؛ لكن هذه المرة تدور الدائرة على التيم إذ ينهزم ثوره ويولي ، فيتألم التيم وينشد نشيداً يتحدث فيه عن ذي القرنين وما جرى له ، وبعد أن يفرغ من كلامه ينادي : يا ريس عليّ .... إني أريد أن أصنع من لحمه خوانا للإخوان ، فيستدعي الجزار (تماشير) والكبابجي (أبو جمران) ، فتقام الوليمة ويؤتى بالخمر والبخور والعود والند . لكن يلاحظ أن اليتيم لا يظهر ، بل نرى على المسرح شخوصا أخرى يمثل كل شخص منها رذيلة من الرذائل ، فنرى المخنث والطفيلي ، ويدور كلام بين الأخير وبين التيم ينتهي بطلب التيم التوبة ، ثم يلتفت إلى القبلة ويموت ، فينقل إلى حيث يغسل ويكفن ويدفن ، وبذلك تنتهي البابة الثالثة من بابات ابن دنيال .

فؤاد حسنين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

****

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠	في مصر والسودان
٢٥	لطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١ قرش صاغ

(١) البشمور بالضم كورة بمصر قرب دمياط وفيها قرى وريف وغياض ، وفيها كباش ليس في الدنيا مثلها عظما وحسنا ، وعظم أليا ، وذلك أن الكبش لا يستطيع حمل أليته ، فيعمل له عجلة تحمل عليها أليته ، وتشد تلك العجلة بحبل إلى عنقه (ياقوت مادة بشمور) .

من يوميات محام قد نشر :

[هدية متواضعة خجلة إلى الأستاذين «ج . ج» و «كيكرو» ...]

المعادى فى ظهر الجمعة ٥/٤/١٩٤٠ .

قدمتَ «المعادى» تستجمّ ، ولكنك تأبطت مذكراتك ... أى استجمام ؟ ومع ذلك فإنك لو تركتها ما كنتَ إلا مخادعا ! ...

ليست العبرة بهذه الأوراق التى تبثها لواعجك وتفرّج فى معارجها ضيق نفسك ، إنما العبرة بهذه النفس ، فإن استطعتَ أن تخلفها وراءك فلا ضير أن تخلف معها مذكراتك ! . . .

إنها خواطر محزونة كثيرة ، وإن قديمها ليتجدد على الدوام ! إنه التناسخ المعنوى فى نفسك ! إنك تموت ولكن خواطرك تحيا ، وستحيا وتَسْتَحْيِي . . بل لهذا الشقى أو هؤلاء الأشقياء الذين سيفيدون منك وتتناسخ فيهم بعد عمر تعس قصير . . . .

النيل جميل ، الشجر بديع ، المشرب شعرىّ رائع ، الأهرام تبدو من هنا فى عظمة الجَسَد الحادب المعطوف ، وهى حين تراها عن كثب تظهر قاسية متجهمة متجردة من الحياة ، متبرمة بالأحياء . .

ولكن نفسك هى النقطة السوداء وسط هذه الدساعة كلها . . .

إنك كنتَ مُلهَماً يوم أجبتَ بـ «الصوص» شعار ، إن نجوى «شارل فون مور» خليقة بك الآن :

حين كنتُ صبياً كانت رغبتى العزيزة أن أعيش كالشمس ثم أموت مثلها ، وكانت رغبة طفل ... اللذ أتى علىّ حين ما كان ليَنقَمْضَ فيه جفنى إن أنا نسيت صلاة المساء . . . أجل ، يا أصدقائى ، إن هذه الدنيا لبديعة للغاية ، وإن هذه الأرض لبهيجة كل البهجة . . . وإنى لقبيحٌ كل القبح فى هذه الدنيا المليحة ، إنى شيطان يمشى فوق هذه الأرض الرحبة . . .

طهارتى ! ... أعيدوا إلىّ طهارتى ! ... إن كل كائن حىّ قد ولّى يمرح فى أشعة الشمس الوهاجة ، فلماذا يقضى علىّ وحدى بأن أستنشق لفحات الجحيم خلال أفراح النعيم ؟ إن كل شىء سعيدٌ ، إن كل شىء قد أدمجه روح السلام فى حُبٍّ أخوىّ ! إن العالم كله أسرة واحدة لها أب واحد فى السماء ، ولكنه ليس أبى ! ... أنا وحدى طريد العدالة ! ... أنا وحدى منبوذ من صفوف البارّين ! ... إن اسم الطفل الحلو لا يصلح لى ! ... لقد حُرِمتُ إلى الأبد نظرة حبيبتى الروحية ، وحُرِمتُ إلى الأبد عناق الصديق ، وأصبحتُ محوطاً بالقتلة ، يكتنفنى لحيح الأساود ، وتشدّنى إلى الرذيلة قيود من حديد ، متعثراً فى طريقها المؤدى إلى حفرة البوار ! ... إنى «أبادون» ملك المسارية أعوى بين الورود الزهرة فى دنيا السرور» . ! . هـ

أزهو ؟ لقد سئمتْ هذه المذكرات زهوَك ...

أتشكو ؟ لقد زهدتْ هذه الأوراق شكواك ...

أتلهو ؟ هذلك المنظرُ المضحك الذى يدعو إلى الإشفاق ، ذلك الزنجى قد ألبسوه أحمرَ الرداء ! ...

ولكن الطبيعة جميلة ، إن الطبيعة قد تعودت أن تبهر ولا تبهر ، وإن نفسك الصغيرة ليست هى التى تسجل الاستثناء من هذه القاعدة ! ...

إن النسيم رخو ، وإن النخيل مخلوق سمح النفس مرسَل السجية ، منطلق الظاهر والباطن ، عطوف يتبادل العطف ، فى ميله وتدانيه حلاوة الود ، وفى تهامسه صفاء الحديث ، وفى تلاصقه جمال التعاون ! ...

كانت لك فى طفولتك نخلة ينسبها أبوك إياك ، كانت طويلة القامة منسرحة العود ، وكنت إذ ذاك طويل القامة

مشرح العود ؟ كنت تسمع حدب الأم تتملّى ولدها المنصرف إلى مدرسته ، وتهمس كأنها تخاطب نفسها وتشكر ربها : « ما أجمل عوده ، إنه سارح كالنخيل ! ... »

— فى عقلك الباطن قد استقر حب النخيل ، وفى عقلك الباطن قد اقترن انطلاق البدن بانطلاق السريرة ، وفى إعجابك « بسعد » كان لقامة البطل شأنٌ ملحوظ ...

أحببتَ نفسك قديماً يوم كانت جديرة بالحب ، كنت تعطيها وتعطيك ، كنت تعمل فتلقى الجزاء فوق ما تستحق ، كنت ترى النجاح يحابيك ، وترى نخلتك آخذة فى التصعيد منطلقة فى الفضاء ، — أفعجيبٌ إذن أن تنقلب على نفسك وقد انقلبت عليك ؟ أفعجيبٌ إذن أن تبادلها بغضاً ببغض وازدراء بازدراء ؟ أفعجيبٌ إذن أن تتنكر لهذا الترهل ، أن تنفر من هذا التضخم ؟ أن تنعى هذه النخلة التى ماتت ولكن الأرض تركها على الحافة تحمل أوراقاً جافة سوداء ، لا تموت فيها ولا تحيا ؟

آن ، قد آن ! .. فإما خراب جريح كبير عليه أن يرتقب الإجهاز والنعش ، وإما شيء من هذا الطائر الخالد الذى إنما يموت لينشر من حطامه ورماده ، ويبقى ليخلد من جديد ! ...

* * *

ولكن المحاماة ليست هذا الشعر الفث المشوه ، فما هذا الإسراف فى التخليط ؟ إنك قد جلت معك يوميات محام لا جرابَ شاعر سقيم .

ولكن قليلا من التنقيب يكشف سرك ... إنك لتقف الحائر بين الشهوة والمبدأ ، الحائر بين الرغبة الجامحة فى مسايرة الحياة وبين القوة التى تربطك بآراء وتعاليم قاسية تجذبك عن النجاح فى الحياة ! .. إنك آسف على ماضيك ، برمٌ بحاضرك ، مؤمل فى مستقبلك ، يائس من مستقبلك ، فيك الجرأة وفيك الجبن ، فيك الريف وفيك الحضر ، فيك النخلة الحلوة المنطلقة والخروعة المرة المعقدة المتدلية ! ...

إنك بهذا الحديث ترمز إلى ما اختزن صدرك وضاقت به حتى مذكراتك ...

إنك تريد ، فيما تريد ، أن تشير إلى ما كان من قدوم بعض الناس عليك ، منذ أيام قصار ، يقولون إن لهم فى بنك التسليف العقارى شأناً وإنهم يريدون أن تصحبهم إلى البنك من أجله ! .. إنك قد فهمت فصارحتهم أنك محام لا يعمل إلا عمل المحاماة ، فإن كانوا يلتمسون فيك غير المحامى فليريحوا أنفسهم ولينصرفوا لسواك ! ... كانوا يحسبون قولك طريقة من طرق الترغيب والإغلاء ، فكرروا وأعادوا ، وزعموا أن الأمر قد سُوِّىَ بينهم وبين البنك فعلا ، فلا سعى ولا إقناع ، وإنما هى رغبةٌ فى الاطمئنان بوجود محام حين يُكتب العقد ويُسجّل الاتفاق ! ... كنت تفهمهم فقلت لهم : أعطونى رقم ملفكم ، فإذا كان الصباح فأستفسر لأقف من الأمر على جليته ، وأعرف مدى الصدق فى حديثكم ، وأعرف هل فى الأمر ما يعمله محام كمحام ؛ فقالوا : نذهب معاً ؛ قلتُ : كلا ؛ قالوا وهم يضمون أيديهم على جيوبهم : ألا يلزم شيء الآن ؟ قلت : أتعاب ؟ قالوا نعم ؛ قلت : كلا لأنى لم أقبل بعدُ أن أصنع شيئاً ؛ قالوا : إذن نزورك فى مساء الغد لنعرف رأيك ؛ قلت نعم بعد أن أكون قد خبرت الأمر ! ... وانصرفوا ، وكان الصباح فلم تحملنى قدماى إلى البنك لمجرد الاستفسار ! .. قاومت فى نفسى شهوتها إلى العمل ، وإلى المال ، وإلى النجاح ، وكنت أفكر فى حرجة موقفى حين يزورنى القوم فى المساء ، فلا أستطيع أن أكذب ولا أستطيع أن أفسر عدولى عن إنجاز ما وعدت ... ولكن القوم كانوا أحصف مما ظننت ، وأعرف بمآربهم مما قدّرت ... إنهم لم يحضروا فى موعدهم ؛ فإن

الحنابلة قد يكونون قلائل فى هذا البلد ، ولكنك لست الحامى الوحيد فيه ! ....

* * *

إنك لتغلق فى وجه نفسك الأبواب التى تفتح لك بغير سعيك ! .. ومع ذلك فأنت تشكو ... هذا ابنُ آدم الذى إنْ يبلغْ الرزقُ فاه ولَّى قفاه ! ..

ولكن أى رزق ؟ أى طعام تزدرده غير مطمئن إلى مصدره ؟ إننا لا نطعم الخضراوات إلا وقد استوثقنا من نقائها وقتلنا جراثيمها بالماء المغلى والخل ، وبهذا السائل الأحمر الذى يسمى البرمنجانات ، فكيف نأكل من طعام نشتبه فى نقاوة مصدره ونرتاب فى طهارة نعمته ؟

ومع ذلك فإنك لا تسلم من الاتهام ، وأُقسم إن قوماً ليقولون : مُكرهٌ لا بطل ، وقِصَرُ ذيل لا ترفّع نفس ، وإن قوماً آخرين ليخطون خطوة أوسع فيسمعونَ من المغرضين المزورين اتهامك بالتلاعب من أجل مال قليل حقير ! . . .

أى جمال يحتمل هذا القبح ؟ أى فضاء لا تضيق فيه هذه النفس ؟ أى طبيعة تتسق وهذا الطبع ؟

مسكين ...

« قارئون »



على هامش الحرب :

١ – الأساطيل البحرية

للأستاذ السيد محمود زكي

سبق أن كتبنا في مقال سابق شيئاً عن أعمال الطائرات وأنواعها المختلفة في الحرب الحالية ، وأوضحنا ما سيكون لسلاح الجو من أثر فعّال حاسم في نتائج هذه الحرب .

ولقد أصبحت أعمال وحركات الأساطيل وثيقة الارتباط بأعمال الطائرات ، التي مهدت عمل الأساطيل باتساع الرقعة التي يمكن للطائرة أن تبسط الرؤية عليها ، وتكشفها وتمسحها في وقت قصير ما كان لسفن الأسطول أن تدركه إلا في ساعات طوال ، فالطائرة يمكنها في جو معتدل لخفة حركتها وسرعة طيرانها أن تكشف في نصف ساعة مساحة كبيرة من سطح البحر تعادل ما تمسحه خمس مدمرات مجتمعة معاً في يوم واحد .

كما أن الطائرات قيدت حركات الأساطيل ، فبعد أن كانت سفنه تحاول تجنب ما يصيبها من قنابل السفن والغواصات العادية ، أصبحت تخشى ما تستهدف له من أخطار القذائف التي تمطرها عليها الطائرات من الجو . ولنقصر حديثنا في هذا المقال عن بعض أعمال الأساطيل البحرية لنلم بشيء من حركاتها في الحرب .

فالمواقع البحرية الحربية التي نطالعها خلال الأخبار اليومية هي أقرب شبهاً بلعبة الشطرنج ، فالبوارج والسفن الحربية الموزعة فوق سطح المياه هي قطع الشطرنج ، ورجال الأميرالية هم اللاعبون الذين يحركون هذه القطع وفق الخطط المرسومة .

وعلى الأميرال ، أي قائد المعركة ، تفهّم كل حركات خصمه في كل لحظة ، وليس ذلك لحماية بوارجه وسفنه فحسب ، بل ليقدر الخطوة التالية التي عليه أن ينفذها ، إما لتحسين مركزه ، أو لإيقاع الخسارة بقطع العدو ومنعه من إصابة أهدافه .

ويجد لاعب الشطرنج متسعاً من الوقت للتفكير في وضع خطط دفاعه وهجومه ، ولكن أميرال الأسطول عليه أن يفكر بسرعة في كل لحظة ، وأن ينفذ أفكاره بسرعة أيضاً .

وتتسع الرقعة التي تتحرك فيها قطع الأسطول — من الجانبين — أثناء المعركة لدرجة كبيرة ، فتكون القطع متباعدة لحد يصعب رؤيتها بسهولة ، ولكن على الأميرال أن يقود المعركة وهو مدرك تماماً مكان كل قطعة وخط سيرها وتحركها ، كما أن عليه أن يدرك أماكن قطع خصمه ، وإن كان هذا يتعذر عملياً ، إلا أن ذلك يعطيه صورة واضحة عن سير المعركة .

ويساعد الأميرال على ذلك لوحة كبيرة موجودة في غرفة خططه ، مبين عليها أماكن واتجاهات وسرعة كل قطعة من أسطوله .

ومن هذه الغرفة يصدر الأميرال أوامره التي يتوقف عليها سير ونتيجة المعركة ، كما أنه يتلقى كل ما يرد له من أخبار ، مهما كانت صغيرة ، من أي قطعة من بوارجه أو مدرعاته أو مدمراته أو طائراته الاستكشافية .

وتوجد هيئة مدربة من الضباط البحريين مهمتها اقتراح الخطة التي يجب اتباعها فوراً وفق المعلومات التي تصلهم كل دقيقة .

ويقف الضباط والرجال البحريون الموجودون في كل قطعة من الأسطول على ما يجري حولهم من المعركة على الجزء المخصص لهم في رقعة اللعب ، وعليهم أن ينفذوا بدون أي تمهل ما يصدر إليهم من أوامر من ضابط القيادة فهو وحده لديه معلومات عن سير المعركة عامة بتفاصيلها .

ويختلف مركز ضابط القيادة في وحدة الأسطول عنه

فى الجيش ؛ فى الحالة الأولى يكون مركزه فى قلب منطقة القتال التى يتعرض فيها هو ورجاله لأشد الأخطار ، بينما يكون مركز زميله فى القيادة فى الجيش خلف الصفوف المقاتلة يصدر أوامره ليحركها الوجهة التى يراها .

وتصدر الأوامر الخاصة بإطلاق النيران ، وكذا كل المناورات من غرفة الخطط . ويتلخص عمل الأميرال فى أنه يحاول أن يتصيد كل قطعة من قطع خصمه لتكون تحت رحمة نيرانه ، فإذا فشل فى ذلك أمكن لبعض قطع العدو أن تفلت وتسدد إصاباتها نحوه .

وتزيد فى صعوبة مهمة ضابط القيادة فى أى سفينة حربية أنه يتلقى باستمرار فى كل لحظة أوامر من غرفة القيادة العامة بتغيير موضعه أو مكانه ، وأن عليه أن يكون سريع التنفيذ .

* * *

ويتكون الأسطول من أنواع مختلفة من السفن الحربية ، ولكل منها واجبات خاصة تؤديها ، ويتوقف مكان أى سفينة فى تحركها على نوع العمل الذى تقوم به .

فالمدرعات « Cruisers » هى عيون — أى كشافات — الأسطول المتحرك ، فهى تنتشر فى المقدمة لتكشف الطريق ، وتجمع كل ما يمكن من المعلومات عن سفن العدو ، كما أنها تحاول فى الوقت نفسه منع مدرعات العدو من التسلل لجمع معلومات عن قطع الأسطول .

وللمدرعات مهمة أخرى هى أنها تتعقب سفن العدو حين تبغى الارتداد دون قتال ، وتساعد على أداء وظيفتها هذه أنها سريعة الحركة .

وقد تسبح الغواصات بين المدرعات والبوارج لتتصدى لأى قطعة من سفن العدو إذا حاولت الإفلات من كشافات الأسطول

وتتخذ البوارج «Battleships» لنفسها مكانا فى وسط رقعة اللعب ، أما المدمرات فإنها تحيط بالبوارج لتكون كستار واق لها عند ما تطلق الأخيرة قذائفها .

كما أن المدمرات «Destroyers» وظيفة مواجهة هجمات غواصات العدو ، وأن تبث طوربيداتها الموجهة نحو مدمرات العدو .

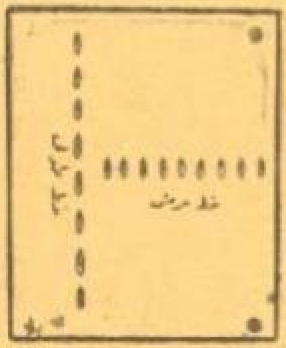
وعند ما تقترب بوارج الجانبين المتحاربين من مدى قذائف كل منهما تنسحب المدمرات حتى لا تكون هدفا للإصابة بقذائف المدافع الثقيلة .

من هذا يتبين موضع كل قطعة من سفن الأسطول على رقعة اللعب قبل بدء القتال .

* * *

وتوجد تشكيلات متنوعة وعديدة لتحرك سفن الأسطول ، ويعتبر الكثير منها سرا من أسرار الأميرالية البحرية ، ويتوقف مهارة ونجاح ضابط القيادة فى استخدام التشكيلة المناسبة فى اللحظة المناسبة ، وغالبا ما يستغرق التغيير من تشكيلة لأخرى وقتا لا يزيد على العشرين دقيقة .

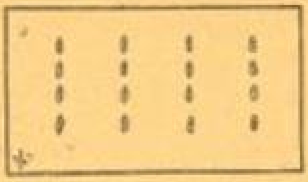
وتسير السفن الحربية عادة إما على شكل خط طولى ، أى الواحدة فى إثر الأخرى ، وفى هذا الوضع تكون القطع معرضة لخطر الغواصات ، وإما أن تسير على شكل



خط عرضى ، أى الواحدة بجوار الأخرى ، وفى هذا الوضع يقل عدد المدافع التى يمكن تصويبها نحو سفن العدو .

وغالباً ما تتخير قطع الأسطول عند سير معركة ما

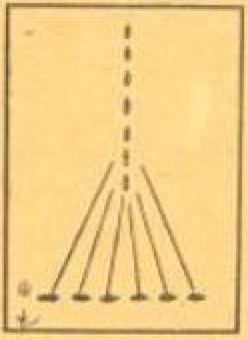
تشكيلة تجمع بين الوضعين ، فتقلل بذلك ما أمكن من أهداف النواسفات ، حيث يكون كل صف منها ستاراً



الجمع بين الجبهي العرضي والطولي

يحمى الذى يليه ، كما أنه يمكنها بسهولة وسرعة تغيير وضعها للوضع الطولى استعداداً للقتال .

ومن أهم الأغراض التي يبغي تحقيقها ضابط القيادة أن يقوم بمناورات تساعده على تسديد كل قذائف سفنه فى وقت واحد ، بينما يتخذ من سفن العدو القريبة منه ستاراً يحفظه من قذائف باقى هذه السفن ، وبهذا يمكنه أن يعطل عدداً من قطع العدو ، حتى من قبل بدء المعركة .



تركيز النيران على سفينة العدو مع اتخاذها تشكيل الرتل

ومن الرسم يتبين معنى ذلك ، فالسفن المطلقة يمكنها تركيز قذائفها بشدة على سفن العدو الأمامية غير المطلقة ،

أما العدد الباقى منها فيتفرغ له فيما بعد ، وتبقى هذه السفن غير المطلقة فى وضع يعطلها من تصويب قذائفها .

وعند ما يظهر لأميرال الأسطول أن المعركة ليست فى مصلحته يحاول فى الحال سحب أسطوله ، ويقوم بعملية بث الألغام فى طريق البوارج الطاردة ، بل يمكن أن يسدد نحوها طوربيداته ، وعادة ما يكون إصابة الطوربيد محققة حينما يطلق تجاه سفينة تقترب منه فى مساره ، بخلاف ما لو أطلق نحو السفينة وهى تتباعد عنه .

ويتوقف — على أى حال — نجاح أميرال البحرية على سرعته فى إرسال الأوامر لكل وحدة من وحداته ، ويعتمد فى إصدار أوامره على طرق التخاطب بالإشارة المختلفة ليبقى على صلة دائمة بإرجة القيادة قبل وخلال المعركة .

وقد يظن أن اختراع التلغراف اللاسلكى أمكن به الاستعاضة عن طريقة التخاطب بالسيمافور ، ولكن فى زمن الحروب لا تقل أهمية استخدام طريقة السيمافور عن التلغراف اللاسلكى إن لم يكن أهم منها ، فالأجهزة نفسها والهوائى تكون عرضة للإصابة بقنابل العدو ، كما أنه يمكن إحداث اضطرابات صوتية تعطل سبيل التفاهم .

ورغمـا من أن إرسال الرسائل يكون عن طريق « الشيفرة » بمصطلحات سرية ، فإن هذا يهدى العدو إلى معرفة مكان السفينة التي تصدر هذه الرسائل .

وقد سبق أن ذكرنا أن المدمرات الحربية تتخذ لنفسها مكانا بين المدرعات المتقدمة وبين القطع الكبيرة ، فهى تؤدى وظيفتين : الأولى أنها تقف كستار واقٍ للقطع الكبيرة ؛ والثانية أنها تلتقى التشكيلات المختلفة للرسائل البصرية عن طريق السيمافور وتنقلها إلى القطع الكبيرة .

وعندما تكون المسافات كبيرة بين بعض القطع وبعضها تستعمل إشارات ضوئية للتخاطب بواسطة فتحات تسد وتفتح لتحدث ومضات ضوئية ، وتبلغ بارجة القيادة عادة

السيد إميل يتململ

يطالع السيد إميل صحيفة الصباح في أثناء تناوله طعام الفطور، بينما أخذت زوجه تفرغ له القهوة الساخنة في الفنجان، أما أولاده — وهما بنتان — فالصغرى قد أقلتها سيارة المدرسة، والكبرى وهي فتاة في ريعان الصبا ما زالت نائمة، بل لا شأن لها غير ذلك، لأن أمها تدللها إلى أقصى حد ...

السيد إميل يشغل وظيفة رئيس قلم في أحد المصارف فأهم شيء لديه في الجريدة مكان الصفحة المالية، ثم إن ثروته المتواضعة عبارة عن أسهم وسندات حصل عليها بأثمان رابحة بفضل رؤسائه الذين يمدونه بنصائحهم تخلصاً من إلحاحه ...

قال السيد إميل لزوجه — هل تعلمين يا ماري أن السيد جاك مدير المصرف ينصحني بشراء أسهم الدلتا لأنها سوف تصعد في نظره كثيراً؟ أجابت الزوجة — ولكنك إذا اشتريتها لا تستطيع الاصطياف بالإسكندرية هذا العام، وأنت تعلم مقدار تعلق «إرما» بذلك، و«رري» تبدو شاحبة متعبة فهي لا شك في حاجة إلى تغيير المناخ ...

إزاء هذه الاعتراضات اضطر السيد إميل أن يعدل عن شراء الأسهم متململا، لأنه في قرارة نفسه لم يكن مقتنعاً بها. وبعد أيام سافروا إلى الإسكندرية ...

إليك السيد إميل وأسرته يتناولون الطعام بالفندق! السيد إميل يبدو متململا لأن الطعام غير شهي ولكنه مع ذلك مضطر إلى أكله، لأنه دفع ثمنه من تلك النقود التي كان محتفظا بها لشراء أسهم الدلتا ... وهو متململ لأن الأسهم المذكورة أخذت في الصعود كما تنبأ بذلك السيد جاك، وهو متململ أيضا لأن رري مضربة عن الطعام، والأم تنهرها تارة وتحايلها طوراً كي تأكل، على أن رري مع الأسف جد عنيدة ... فما كان من الأم إلا أن استبدلت طبقها بطبق رري ... بعد أن قضت على ما في طبقها هي ... فعلت ذلك الأم كي تدخل السرور على روح زوجها الشحيحة ... وأنت إرما من تصرف أمها، فهي فتاة ذات ميول أرستقراطية، وهي أيضا ملول لأن الفندق خلو من الشبان ... ولكن مزاج إرما اعتدل في اليوم التالي لأنها تعرفت في الشاطئ، بشاب جميل وجيه أوصلها بعد الحمام إلى الفندق في سيارة فخمة ذات مقعدين ... بل إرما الآن مسرورة كل السرور لأن الفتى الجميل الوجيه قد تعلق بها، يقابلها كل يوم في الحمام ثم يتنزهان بعد ذلك هنا وهناك، ثم يوصلها في النهاية إلى فندقها في سيارته الفخمة، وقد أخبرت إرما أمها بذلك فسرت الأم لأن مثل هذه العلاقة قد تتحول إلى خطبة لو عرفت الفتاة كيف تتصرف ...

وحدثت الأم زوجها في ذلك كي تزيل الوجوم الذي يبدو على وجهه، لأن السيد إميل زاد تململا في الأيام الأخيرة من أجل اطراد الصعود في أسهم الدلتا .. وقد أحسنت الأم صنعاً لأن السيد إميل كف فعلا من التململ، فإن زواج بنته من فتى مثله تعويض كبير له من عدم شرائه الأسهم، ثم إنه يود التخلص من رؤية إرما في البيت لأنها

تطلبها لبقية السفن عن طريق التخاطب بالأعلام.

وعندما تقترب المدرعات التي تسير في المقدمة من سفن العدو يبلغ ذلك فوراً بإشارات لاسلكية، في حين يتعذر على سفن العدو استخدام اللاسلكي حتى لا يكون ذلك سبباً في تحديد مواقعه.

ومهمة رجال اللاسلكي بكل قطعة من قطع الأسطول استقبال وإرسال مئات التقارير والتعليمات المتداولة بين السفن وبعضها، كما أنها تحاول التقاط الرسائل اللاسلكية المنبعثة من سفن العدو.

(له بقية) السيد محمود زكي

تحية الشعر

من الأستاذ أحمد الزين

إلى صديقه الأستاذ أنطون الجميّل بك

« بمناسبة الإنعام عليه بوسام جديد »

لستُ أغلو إن قلتُ قد زادَ مجدا
كلُّ مجدٍ إلى (الجميّل) يُهدَى
إيهِ يا مُسْدِياً إلى الشمس نوراً
في ضحاها ماذا إلى الشمس يُسدَى
أيها العبقريّ أفقُكَ أعلى
رُمْ كما شئتَ بالمواهبِ مجــدا
كلُّ مجــدٍ له مَدًى غيرَ مجدٍ
عبقريّين جلَّ عن أن يُحدّا
يا لِصَــــدْرٍ رَحْبٍ تجمّعَ فيه
كلُّ معنًى من الســـموِّ استبدّا
شعَّ منـــه نورُ المواهبِ حتّى
راحَ نورُ الوسامِ يبذلُ جهدا
فيه قد جاوزَ الوســـامُ وساماً
بزّه في العُـــلا سموّاً وخلدا
كمْ (لِبنان) من أيادٍ على النا
دِ تؤودُ القريضَ شكراً وحمدا

أحمد الزين

تضايقه بدلها ودلالها وعدم قيامها بأي عبء في الخدمة المنزلية ... .

ولكن مرت الأيام والفتى لا يطلب يد إرما ؛ فقلقت الأم وأشارت على الفتاة أن تفاتح الشاب في هذا الموضوع ، فعملت بنصيحة أمها وسألت صديقها عن أمر خطبتهما التي يعوزها لا تستطيع مقابلته بعد ذلك . فقال : إن ما تطلبينه مني يا عزيزتي إرما هو أحب شيء إلى قلبي ، ولكني مع الأسف لا أستطيع أن أتزوج لأني معدم ... فصاحت الفتاة في ذهول — ولكن كيف ذلك ؟ ... كيف تملك إذن هذه السيارة الفخمة ؟ ...

قال — إني استعرتها من صديق ...

قالت — ولم لم تخبرني بذلك من قبل ؟ ..

قال — لأنك لم تسأليني هذا ...

مسكين السيد إميل سوف يعود إلى تملقه حينا يلم بأطراف هذا الحديث ...

محمود شوقي

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

عام ! — عواطف مترجمة !
أربع سنوات ! ... ...

عام !

هأنذا راجع لساعتى من زَورةٍ فى جنح الليل لم أشهد مثلَها منذ عام ، وإن صدَى ما سمعتُ من حديث السامرين ليلاحق خُطاى وأنا أطوى الفلاة عجلانَ إلى مثوَى أطفالى على حدود العمران ، وإنه لحديث ، وإنه لخليقٌ بأن يتردد صداه طويلاً فى نفسى ، أياماً وليالى ؛ فما سهلٌ أن يغيب عنى ما سمعتُ من حديث السامرين الليلة ... ...

لكأنى غريبٌ فى هذه الجماعة وإنهم لأهلى ؛ هذا نسيبى فلان ، وهذه زوجه ، وهؤلاء بَنوه وبناته ، ولكنْ مَن يكون هذا الفتى الذى يحاول أن يستأثر بالحديث ليفرض رأيه ، ومن تكون هذه الفتاة التى تناكه فى المجلس وتشايعه فى الرأى وتُباريه فى العبث والدعابة ؟ ... لكأنى أعرفه ، وكأنى أعرفها ، ولكنى لم أرهما قبل اليوم جنباً لجنب وابتسامةً لابتسامة ، ولم أرهما قبلُ فى هذه الدار وإنهما لقريبان من أهل الدار ... ...

وكان لأهل هذه الدار قبل اليوم حفاظ وتقاليد ، وكان لهم فى صلاتهم بالناس قانونٌ صارم ؛ ما بالهم قد أنشدّهم وباءُ الجماعة فنسوا التقاليد وعدّلوا القانون ، حتى لأكاد أنكر منهم كلّ ما أرى وأسمع وما بَعُد عهدى بهم أكثر من عام ؟ ...

... منذ عامٍ واحدٍ — لم يتم تمامه بعد — هجرتُ مجالسَ الناس فلم أغشَ داراً غير دارى ، ولم أسْمُر مع أحدٍ غير أطفالى ، ولم أتبادل حديثاً من حديث الناس مع أحدٍ غير زملائى فى الديوان ، وجيرانى فى الرأى ، وأصدقائى فى المكتبة ... ؛ فليت شعرى كيف يُباعد عامٌ واحد لم يتمّ تمامه بعد ، بينى وبين أهلى فى الرأى والفكرة ، وفى الاجتماع والوطنية ، وفى الإيمان والعقيدة ؛ وكيف تغيّر الميزان فشالت كفة ورجحت كفة وما نقص الموزون ولا تغيّر قانونُ الجاذبية ؟ ...

أتخلّفاً منى عن الركْبِ المُصْعِد أم ثباتاً والركْبُ ينحدر إلى بطن الوادى ؟ ... إنه عامٌ واحد ، ولكنْ العام كثير على من بيبت يُحصى الليالىَ ساعاتٍ ودقائق ولحظات ...

إنه عام واحد ، ولكنْ ما أشبه أمره بالمسألة الحسابية المشهورة : « كان الفرق بين عمر أبٍ وابنه ثلاثين عاماً ؛ فكم يكون الفرق بين عمريهما بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ ؟ »

قال الأب : الفرق ثلاثون سنةً لم تتغير .

وقال الابن : الفرق ستون ...

وصدق الابن ، وكذب الحاسب الأريب !!

يا ليتنى لو كان ينفع « ليتنى » !

عواطف مترجمة !

بين يدى الساعةَ قصيدة الشاعر المبدع على محمود طه « ليلة عيد الميلاد » ؛ هأنذا أقرأ منها فى جريدة الأهرام :

اسمعى أيتها الروحُ ! أفى الكون غناءُ ؟
وانظرى ... هل فى نواحى الأرض بالليل ضياء ؟
لا تُراعى إن يكن قصّر عنك البُشَراءُ
فالنواقيس التى حيّتْكِ أشجاها القضاءُ
الشَّجى رجّعُ صداها والأسى والبُرَحاءُ
والتراتيلُ من البِيعة نوحٌ وبكاءُ !
ردَّدتْهن الثَّكالَى واليتامَى الشهداءُ !

وا حزنَا ! ... لكأنى أحسّ لوعة الشاعر فى كل

بيت من قصيدته العامرة بالشعر والعاطفة ، وإنى لأقرؤها وأستعيدها نشوان مرة ومرة ، فما يزيدنى ذلك إلا إحساساً بما يضطرم فى نفسه من اللهفة والحنين على ما كان منذ سنين من مباهج العيد ... وأى عيد ؟ ... عيد الميلاد ! ... ومالنا وعيد الميلاد ومباهج عيد الميلاد ؟ ... أذلك عيدنا أم عيدهم ؟ ... وأين من حياتنا الاجتماعية تلك المباهج التى كانوا يصطنعون منذ أعوام فى عيد الميلاد ؟ ... بل أين هى من حياة المسيح نفسه ومن مذهبه ودينه ؟ ...

لست أنكر على الشاعر على طه عاطفته وفنه ولحنه الساحر ، ولكنى أنكر أن يكون فى هذه القصيدة شاعراً مصرياً ؛ إن للمصرى عيداً غير عيد الميلاد ، وإنه فى — هذه السنين — لحقيق أن يلهمه شعراً وفناً ولحناً وحكمة لو أنه أحس إحساس المصرى بعيده أو كان له فى نفسه قدسية العيد ووحيه وذكرياته ...

بلى إنه لشاعر ، ولكنه يغنى على قيثارته لغير أهله ؛ أليس عجيباً أن يحرك سقوط باريس عاطفة الشاعر على طه لقصيدة من أروع الشعر ولا تهز نفسه هزة خفيفة لبعض ما أصاب إخوته وأهله من غارات البرابرة على الإسكندرية والإسماعيلية والسويس ؟

ألم يأن للملاح التائه أن يعود إلى مرفئه ليتعرف أهله ووطنه !!

... ويختم الشاعر قصيدته الرائعة بقوله يخاطب المسيح عليه السلام :

يا قوياً لم يهن يوماً عليه الضعفاءُ
وضعيفاً واسمه يتضرع منه الأقوياءُ
وأنا المسلم لا يجحد عندى الأنبياءُ
أنت فى القرآن حب وجمال وتقاءُ
عجب قد شك المثلى وفى القول عزاءُ !
ألهذا العالم الشرير قد ضاع الفداءُ !!

رقدية ... ! ماذا يعنى ... ؟ أتراه لم يعرف بعد « وهو المسلم » رأى الدين فى عقيدة « الفداء » والخطيئة وعاقبة المسيح ؟ ...

بلى إنه لشاعر ... ولكنه يغنى على غير قيثارته ، لغير أهله ؛ وما كان أحراه أن يكون ! ...

* * *

وددت لو كان فى كل حادثة مصرية شاعرها ، كالذى سمعته يقول يوم نكبة الإسكندرية بالغارات :

... بكى الثغر حتى سرى دمعه مع الريح رؤيا لهيب ودم
إذا أذن الفجر فى أفقه يؤذن عزريل فوق الأكم
فتهوى قصور لها فى السماء جبين على النجم عال أشم
وتهوى قبور على أرضها تكاد من الهول تبكى الرمم
ألا من لسارين تحت الدجى يسفون من كل بؤس وهم
لهم سيرة راح تروى الأسى أساها بدمع كثيب الديم
ديارهم أقسمت لا ترى قبرة الخراب لها بالقسم !
فلما تهاوت على أسها ودك الثرى صرحها المنهدم
مشى الموت أعمى ضرير العصا يتقل فى كل عمر قدم
تسوح بكفيه زمارة إذا نام زمارها لم تنم !!
إذا ولولت فى ظلام الضفاف أصاب البلى من صداها صمم
فلا صرخة الطفل تلوى خطاه ولو ذاب فيها حشا كل أم !

ذلك الشاعر محمود حسن إسماعيل !

لست أوازن بين شعر وشعر ، ولا بين شاعر وشاعر ؛ فلعلى لو أردت هذه الموازنة أن أجد سبيلاً إلى القول غير ذلك ؛ ولكنى أردت أن أنبه إلى ظاهرة من ظواهر الأدب الحديث لعلها بسبيل مما ذكرته قبل فى هذا الباب من « الأخلاق المترجمة » ، وأسميها هنا : العواطف المترجمة ، لأنها لا تترجم عن إحساسنا فى ذات أنفسنا ، بقدر ما تترجم عن تسلط عواطف بعض المتأمرين وذوى

السلطان على ذات أنفسنا وخداعهم إياها عن حقيقة إحساسنا المجرّد!

ومعذرة إلى الصديق الشاعر على محمود طه، فما ينقص إعجابي بفنه أن أخالفه في فكرته، وما أعتب عليه إلا وهو عندي مرجوٌّ لذا!

أربع سيقان!

ولعل قد أثقلتُ بالتطويل على القراء من حديث الجد في موسم الأعياد؛ فهذه فكاهة ترفِّه عنهم:

في فصلٍ مصوَّرٍ بالعدد ٤٤٤ من مجلة الاثنين عنوانه «طلاب الكلية الحربية يستقبلون عائلاتهم» — قرأت:

«في الماضي لم يكن يباح للسيدات والآنسات الحضور في هذه الزيارة — تعني زيارة أهل الطلاب لهم في الكلية — كان مبدأ اختلاط الجنسين يسير بأسلوب السلحفاة...

«ولكن الدنيا تغيرت في هذه الأيام، ونهضت مبادئ قاسم أمين على أربع سيقان... ... ...»

والمحرر — قطعاً — لم يكن يعني بقوله «أربع سيقان» غير المبالغة بأسلوبه وعلى طريقته، ولكنها جاءت في موضعها من الحديث ومن الصور التي تكتنفها من يمين وشمال كأنما يعنيها للسخرية والتندّر!

ألم يسعفه بيانه في الحديث عن مبادئ قاسم أمين إلا أن يجعلها ناهضة على أربع سيقان؟... فما هي إذن مبادئ إنسانية تمشي على رجلين...

أم تراه يعني هذه السيقان الأربع التي تتزاحم في كل حلبة رقص زوجين، وتتشابك في كل خيلاء زهوة اثنين اثنين، وتتعابث تحت كل خوان في وليمة «مختلطة» رجلين ورجلين، وتتلامس في كل مقعد مشترك بالترام أو المسرح ساقين وساقين... ... ...

ما أبدعها سخرية لو أن المحرر كان يعني؛ فما بقي من مبادئ قاسم أمين في ذهن كل فتًى وفتاة إلا صورة مرسومة ناهضة على أربع سيقان!... ...

ولكن المحرر لم يكن يعني، فغلبه على ما كان يقصد ما استقر في واعيته من منظر الساق بالساق، ولكل أديب أثرٌ من «فنه» في عبارته، وحدُّ البلاغة عند الإسكاف أن يطابق الكلام مقتضى الحال «حذوَ النعل بالنعل!»

«قاف»



حاليًا بنجاح منقطع النظير

https://t.me/megallat أرشيف الشارخ oldbookz@gmail.com

شعـــــاب قلب

مجموعة قصص فى التحليل النفسى لمؤلفها الأستاذ حبيب الزحلاوى ، طبعت بمطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ، فى ٢٢٠ صفحة من القطع الصغير

عرض ونقـــد

بقلم الأستاذ صديق شيبوب

للأستاذ حبيب الزحلاوى مزايا خاصة انطبع بطابعها ، وكاد أن يتفرد بها بين أدبائنا الذين يعالجون الأبحاث الأدبية عامة ، والنقد خاصة . فقد عرفناه فى خلال هذه الأبحاث ، صريحاً فى إبداء رأيه ، متمرداً فى جرأة على البيئات الأدبية المختلفة ، متألماً للحالة التى وصلت إليها هذه البيئات ، ذا حماس لرأيه ، وهو حماس يبدو فى خلال المعانى التى يتناولها الكاتب والأسلوب الذى يتداوله قلمه .

ظهرت هذه المميزات القائمة على الصراحة والتمرد والحماس والألم ، فى أدب الأستاذ الزحلاوى حين كان يكتب فى أصول الأدب البحت ، والنقد الأدبى الحر ؛ وقد برزت تماماً فى كتابه « أدباء معاصرون » .

فإذا انتقل بقلمه من مجال النقد والأدب ، إلى ميدان الحياة والقصة ، نجد أن ما نشره فى مجموعة «شعاب قلب» يحمل طابع هذه الخصال كلها .

والقصة من الوسائل التى يتوسل بها الكاتب لوصف الحياة . ويقول الأستاذ الزحلاوى إنها «خير وسيلة للتعبير عن الخلجات الإنسانية ، وأرحب مجالاً للذهن الخصب ، وأبرع حيلة يحتال بها الكاتب صاحب الرسالة .....» وهو يعرف فى نفسه الصراحة التى ذكرناها حين يقول إنه «ليس فى وسع كل أديب أن يكون صادقاً فى تقرير الواقع ، جريئاً فى القول الحق ، غير موارب ولا مراء ، لأن هذه المحامد إنما هى خلائق طبيعية ، وأن العنصر الكذب منها قليل .... » ؛ بل هو يذهب إلى أبعد من هذا فيزعم « أن الرياء فى القصة إنما هو خيانة للأدب لا تقل شناعتها عن شناعة جنيع المرأة المتهالكة على الخيانة » .

تناول إذن الأستاذ حبيب الزحلاوى الحياة فى صراحة الجرىء ، فوصف غرائز الإنسان ، وخلجات نفسه ، وتوغل فى الكثير مما لاحظ من أثر الغرائز ، وما حلل من خلجات النفس ، إلى الصميم من الروح البشرية ، فإذا به متمرد على بعض الأوضاع الاجتماعية ، ثائر على ملابسات الحياة ، متبرم بالكثير من التقاليد .

ونلاحظ هنا أنه فى المقدمة التى كتبها لهذه المجموعة من القصص ، متمرد على النقد الذى جعل للقصة مذاهب واستحدث « قيوداً وحدوداً وأوزاناً وضوابط وقواعد للتمييز بين أسلوب وأسلوب » ، فهو يقرر أنه يعرف هذه « المستحدثات الطريفة الظريفة ولكنه لا يأخذ ، وقد لا يأبه بها ، لأن فن بناء القصة لا يقوم على دعائم هذه المدارس إلا عند الكتاب الجامدين الذين لا يعرفون إلا اتباع من سبقهم وسلوك مسلكهم على التقليد والقياس » .

ولا أريد أن أنصف النقد والنقاد من الأستاذ الزحلاوى ، فهو يعرف أن تلك المذاهب التى ذكرها «الرومانتيكية والكلاسيكية ، والواقعية وما وراءها ، والرمزية والإنسانية وإلى آخر ما هنالك . . . » ، كل هذه المذاهب لم يخلقها النقد ولم يأخذ بها إلا بعد أن ابتدعها أصحابها وفرضوها عليه ، مبينين مبادئها ، شارحين لأصولها ؛ وهل لى أن أكرر ما قلته من قبل ، وهو أن هذه المذاهب لا حدود فاصلة بينها ، وأن بعضها يدخل فى البعض الآخر ويأخذ منه ، وأن قيمة القصة ، كغيرها من الإنتاج الفنى والأدبى ، تقوم على المذهب الذى يذهب إليه .

يقول الأستاذ حبيب الزحلاوى إنه لم يتقيد بهذه

المذاهب التي يعرفها ، وأنه سلك في كتابته قصصه « مسلك الشرح والتبسيط ، وتعمد التشويق والترغيب ، ورمى عن قصد إلى عدم التقيد » فما ذنب الناقد إذا حكم بعد مطالعة مجموعة قصصه بأنها تمت بأكثر من صلة إلى مذهب الواقعية المشوبة ببعض الوجدانية ، وهو المذهب الذي يعد « فلوبير » أبرع ممثل له ، وتعد قصصه ، وخاصة « مدام بوفاري » خير مثال يدل عليه .

وهناك ظاهرة أود أن أشير إليها مداعبة للصديق الأستاذ الزحلاوي وهي : أنه بينا يظهر في كتابه « أدباء معاصرون » ناقماً على المقدمات التي يقدم بها الأدباء لكتب أصدقائهم وساخطاً على كاتبيها ، نجده في مجموعة قصصه « شباب قلب » ينشر في صدرها مقدمة بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد ، وتحية بقلم الأستاذ نقولا الحداد . وبهذه المناسبة نود أن نشير إلى أن مقدمة الأستاذ العقاد لم تتناول المجموعة بما هي خليقة به من الدرس والوصف ، وكنا نود لو أنه توسع في دراسته بطريقة شاملة . ولعل الأستاذ العقاد شاء أن يكتفي بتعريفنا بشخصية المؤلف وما توافر فيها من المزايا التي تؤهله ليكون قصصياً بارعاً ، سواء « في مساعيه الخارجية أو تجاربه النفسية » .

فقد عرف الأستاذ الزحلاوي « الجهاد في سبيل الوطن كما عرف الجهاد في سبيل العمل ، وعرس بالناس كما عرس بنفسه ، واختبر حياة الأسرة وملابساتها كما اختبر حياة المجتمع الشرقي وملابساته ، وزار مع هذا بلاداً غير بلاده الشرقية ، فسنحت له فرص شتى للمقابلة والموازنة والاستفادة من هنا وهناك » . ثم أشار إلى أسلوبه في كتابة القصة ورأى أنه كفل لقرائه المزيتين اللازمتين في كتابة القصة ، وهما « صدق الرواية عن الحياة ، وحسن التمثيل لما رواه » .

أما الأستاذ نقولا الحداد فقد خص قصة « فلسفة الشيخوخة » بإعجابه ، لأنه رأى فيها أبدع نموذج لوصف « الشخصية المتهتكة » ، وهي قصة قوية حقاً ، ولكني أفضل عليها قصة « غريب » ، ولعل هذه الأخيرة ، خير أقاصيص مجموعة « شباب قلب » وأروعها معنى ومبنى .

إنها قصة فتى انحدر من دمشق إلى القاهرة فشعر بأنه غريب بين هؤلاء الناس الذين نزل بين ظهرانيهم ، وهو يجهلهم وهم يجهلونه ، ومرت السنون واندمج بوسطه الجديد حتى لقي سيدة لمح فيها ميلاً إليه ، فطارحها الهوى ، فقابلته بالرضى ، وتواعدا على أن يلتقيا في الريف ليتما حبهما ، وهو يصبر على بعد الموعد كما شاءت ، وهو بعد ذلك حين جاءت ملبية نداء الغريزة والقلب ، لاحظ بعض تردد لعل مصدره حرص على الوفاء لابنها الصغير ، وحفظ للأمانة الزوجية ، وإيثار لكرامتها أمام نفسها ، فلم يحاول أن يسهل لها سبيل الشهوة وأن يدفع بها إلى إرضائها كما يفعل غيره من شبان اليوم ، فهو آثر أن تحتفظ بكرامتها أمام نفسها ، وهو يعرف أنها تحبه ، ولكنه « يربأ بالحب من أن يكون مجرد مادة » ، لذلك لم يلبث أن أمر سائق السيارة بالعودة ، بعد أن علم من صاحبته « أن في وسع الإنسان أن يعيش بالروح أكثر مما يعيش بالجسد ، وأن الحب الكبير قد يستطيع أن ينتصر ، لا على المادة فقط ، بل على الزمن أيضاً » .

كان من قبل غريباً بشخصه بين أناس يجهلهم ويجهلونه ، ثم صار غريباً بروحه في عصر تسيطر عليه المادة ، ويسارع أهله إلى إرضاء غرائزهم غير مبالين بعواقبها .

فقصة « غريب » سمو فوق الغرائز ، وانتصار عليها ، وهي من هذه الناحية ، كشعاع يثير الإنسانية في ديجور مهاوي الغريزة التي تتردى فيها .

أما أقصوصة « فلسفة الشيخوخة » فقد وصف فيها غريزتين كانتا ولا تزالان أصيلتين في نفس الإنسان ، وهما

حب المال ، والجنس . وفيها تصوير صادق للحياة التي تبدأ في فقر وتنتهي إلى ثروة ، وصاحبها مسرف في صباه في جمع المال ، مسرف في شيخوخته في انتهاب اللذات .

وقد تناول في أقصوصة « إشاعة طلاق » التجديد الذي يطلبه الفنان في حياته ليغذي به فنه وإنتاجه ، فأحاط به من شتى جوانبه وبيّن خطره على حياة الأسرة .

ونلمح في أقصوصة « الأخوان » تأييداً لمبادئ « الفرودية » من حيث العقل غير الداعي .

ولأقصوصة « مع الريح » ميزة اجتماعية خاصة لأنها تمثل الجيل الجديد ، من الجنس اللطيف ، بعد أن سفرت المرأة ونالت قسطاً وافراً من حرية لم تتعودها من قبل ؛ وهذا الانتقال المفاجئ ولّد جيلا جديداً ، قلقاً مضطرباً في انفعالاته وأحاسيسه ، وغرائزه . ويقول الأستاذ الزحلاوي على لسان بطلة الأقصوصة بعد أن تردت في أكثر من هاوية : « قدر لي أن أكون كبش الضحية لجيل كامل من بنات جنسي ، لم يقو على النكوص على الأعقاب والرجوع إلى عادات جيل الأمهات وتقاليد الآباء ، وليس في وسعه الإسراع فيبلغ إلى الحد الذي يصل إليه ويستقر فيه الجيل الذي يليه ، فكان لا محيص أن يكون جيلنا الذي مثلته بطياشتي ، ونزواتي ، وسقوطي ، ضحية الطفرة وتياراتها الجارفة » .

ولن أحاول أن أطوف بأقاصيص المجموعة كلها ، وإنما أريد أن أشير إلى قصة « عين زكية » التي أشار فيها المؤلف من بعيد إلى غريزة نسائية شاذة ظهرت في الآخر أنها مدار الأقصوصة ، والذي آخذه عليها أن زكية هي التي حسنت لصاحبتها الزواج ودفعت بها إليه ، ثم أبته على نفسها ؛ ولعلها كانت تحملها على كراهية الزواج لو أن حبها صادق .

ويستطيع القارئ أن يأخذ على المؤلف ، أنه في أكثر الأحيان ، وفي غير قصة « تجريب » لم ينظر إلى الحياة إلا من خلال الغرائز ؛ وأنه في أقصوصة « الآباء البيض » مثلا لم ينظر إلى حياة الرهبان ورسالتهم في الحياة إلا من ناحية واحدة ، ولكن هذا القارئ ، يمحض الكاتب الأديب الأستاذ الزحلاوي الإعجاب الخالص لصراحته في تمثيل الحياة ، وإخلاصه في إبداء آرائه ، إلى تمرس بفن القصة ، وقدرة على حسن البناء والتأليف ، وبراعة في الأسلوب ؛ ويستطيع المطالع كذلك أن يتبين بين سطور قصصه ، تلك الصفات التي قلنا إن الأستاذ الزحلاوي يتميز بها .

ولا شك أن مجموعة أقاصيص « شباب قلب » تحمل المطالع على التفكير في شؤون الحياة بما تحمله من عواطف وغرائز ، وتشوقه على المضي في مطالعتها ، بما تقدمه من ضروب التشويق في الأسلوب ، فهي حرية بالإقبال ، ومؤلفها الأستاذ حبيب الزحلاوي جدير بالتقدير والثناء .

(اسكندرية) صديق شيبوب

حكمت محكمة الغربية العسكرية بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٢ في القضية رقم ١٨١٢ سنة ١٩٤١ بتغريم عباس السيد النجار البقال بكفر معوض ثلاثة جنيهات وغلق المحل يومين لبيعه فولا بأزيد من التسعيرة .

آهـــــة تثور

تطوف بى الآلام ثائرة تترى
محطمة قلبا ، ممزقة صـــــدرا
تحـارب آمالى وتحطم خاطرى
وتقذف فى الأحشـاء من هولها جمرا
وما أنا بالشاكى ولا أنا بالذى
تزعزعه الأيام أو يرهب الدهرا
مشيت على هول الأسى غير عابئ
ولست أبالى الخطب قد حل والضرا
صمدت لأحـداث الزمان بعزمة
لدى دائم الأرزاء، ما وهنت حيرى
وما ضرنى أن ينكر الناس فطنتى
وتعبس أيامى وترمقنى شزرا
فما ضحكت للحر يوما ولا رأى
أخو النبل إلا الضيم والظلم والغدرا
سأصبر حتى يمحى ليل محنتى
وأرقب خلف الداجيات له فجرا

الاسكندرية **مصطفى على عبد الرحمن**

حكم فى القضية ٢٣٦٤ سنة ١٩٤٢ عسكرية بنى سويف بتغريم عبد اللطيف عبد الفتاح محمد جزار بالشطور خمسين جنيها لبيعه لحما بأكثر من التسعيرة .

حكمت محكمة الدرب الأحمر العسكرية بتاريخ ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٢٤٩٢ سنة ١٩٤٢ بتغريم محمد إسماعيل حسن التاجر بالسبطة جنيهين لبيعه ذرة بأزيد من التسعيرة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢١١ — الثلاثاء ٦ من المحرم سنة ١٣٦٢ — ١٢ من يناير سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

مصير العالم الاسلامى بعد الحرب

لم يكن بد — وقد شملت هذه الحرب كوكب الأرض كله ، بحره وبره وجوه — أن يصل لهيبها إلى العالم الإسلامى ، وأن تعانى أقطاره المختلفة ويلاتها بدرجات تختلف عنفا وشدة من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر . وليس من السهل أن نذكر اسم بلد إسلامى واحد قد سلم من شرها السلامة كلها .

لقد ثارت هذه الحرب أول الأمر لسبب عجيب ، وهو النزاع على دنزج والممر البولونى ما بين بولنده وألمانيا . ولكن هذا السبب المباشر لم يكن إلا الشرارة التى أوقدت نارا قد أعد لها الحطب الكثير ، والوقود المتراكم أكداسا فوق أكداس . والعالم الإسلامى بعيد كل البعد عن نشأة هذه الحرب ، ومبادئها الأولى ، وأسبابها المباشرة . بل لعله بعيد كل البعد أيضا عن أسبابها غير المباشرة . فشتان بين بولنده والشرق الأقصى ، وما أبعد الصيحة بين دنزج وبلاد الملايو !

سهم أصاب وراميه بذى سلم
من بالعراق ؛ لقد أبعدت مرماكا...

وعلى سطح الأرض ثلاث دول فى برلين وروما وطوكيو ، قضت السنين تعد للحرب عدتها الجهنمية ، ولا تخفى تلهفها لأن تشب لظاها ، لكى تحقق آمالا أملتها ورغبات اشتهتها . وفى المعسكر الآخر دول رقدت على جوانب البركان ، وأنساها طول الأمن ويسار العيش ، عهود الرعب والفزع ، وظنت أنها من المنعة والمجد بحيث لا يجرؤ عليها أحد ، ولا تمتد إليها يد بسوء . ومعسكر الطغاة يتدجج بالسلاح على مسمع من الديمقراطية وبصرها . فلم يكن بد من أن ينفجر البركان ، وأن يحرق لظاه شعوبا كانت آمنة وادعة . وقد اصطلى العالم الإسلامى بأوار حرب لم يكن له فيها ناقة ولا جمل ، ولم تكن له يد فى أسبابها القريبة أو البعيدة :

لم أكن من جناتها علم الله وإنى بحرها اليوم صال

ولكن العالم الإسلامى كله تقريبا ، لم يقف من هذا النزاع الهائل موقف العابث غير المكترث ، والتى اختارت معظم البلاد الإسلامية موقف الحياد فى نزاع لم تكن لها يد فى إثارته ، فإنها من غير شك لم تكن محايدة بعقولها وقلوبها . لقد كانت بين الدول الإسلامية

والديمقراطية مشاكل واختلافات ، بعضها قد بت فيه بما يرضي الطرفين ، وبعضها لا يزال رهين الحل . ولكن البلاد الإسلامية ، مهما كانت نقط الاختلاف بينها وبين الدول الديمقراطية جسيمة ، ومهما كان الوصول إلى حل يرضي الفريقان عسيراً ، فإن المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الدول الاستبدادية ، هي مما لا يمكن لبلد إسلامي أن يستسيغه . ولقد نادى زعيم من زعمائهم في يوم من الأيام بأنه حامي حمى الإسلام ، فلم يغر هذا النداء بين المسلمين هناك ، ولم يدخل إلى قلوبهم أمنا ولا اطمئنانا ، بل أشفقوا أن يكونوا قد ظن بهم الضعف وتفرق الكلمة والعجز ، بحيث أصبحوا في حاجة إلى مثل هذه الحماية . ومن الواضح البديهي أن المسلمين لن يأتيهم النصر إلا من أنفسهم ، ولن يكونوا في حمى إلا حماهم ، ولن يذود عنهم الأذى إلا جهدهم وأعمالهم . واليوم وسط هذه البوائق التي تجتاح العالم ، يكون أخرق الخرق وأحمق الحمق أن نقعد محدقين في هذه الحوادث الجسام ، منتظرين العقد المعقدة لكي تنحل من تلقاء نفسها ، وأن يأتينا الخير محمولا على الراح دون أن نسعى إليه أو نقتحم إليه السبل . وفي الأيام العصيبة التي نجتازها اليوم تتوالى الحوادث ، وتتبدل الأوضاع والأشكال بسرعة عجيبة . ولقد يبهرنا وقعها ، وسرعتها ، عن التفكير في عواقبها ومصيرنا من بعدها . فإذا جاءت الخاتمة فجأة ألفينا أنفسنا حائرين موزعي الرأي ، عاجزين عن أن ندلي بحل المشاكل المعقدة التي تعانيها ، أو أن نوجه شئون بلادنا الوجهة التي تضمن للشعوب الإسلامية نصيبا من الأمن والكرامة .

فإذا تحدثنا اليوم عن مصير العالم الإسلامي بعد الحرب ، فإننا لا نريد بهذا أن ندلي بنبوءة ، أو أن نتكهن بما ستكون عليه الأقطار الإسلامية بعد أن تضع أوزارها ؛ وإنما نريد أن نشير إلى الضرورة الملحة لأن ينتبه قادة كل شعب من الشعوب الإسلامية إلى ضرورة المبادرة بالتفكير في شئون شعبهم ؛ وأن يرسموا الخطة منذ الآن لبرنامج إصلاحي واسع مديد يبلغ به شعبهم ما يطمح إليه من العزة والرفاهية .

وإذا كان هنالك نبوءة نستطيع أن ندلي بها دون أن نخشى أن تكذبها الحوادث ، فهي أن الشعب الذي يقصر في إعداد نفسه منذ الآن ، والذي يهمل التفكير وقت الحرب في مصيره وقت السلم ، فستداهمه الحوادث ، وهو في حال قصور وعجز وقلة إدراك لمصالحه العاجلة والآجلة ، فيفقد زمام قيادة نفسه ، ولا بد أن يتولاها عنه غيره .

ولقد يقال : إن هذا الكلام صحيح في كل وقت ، وينطبق على زمن السلم والحرب على السواء . ورداً على هذا يكفي أن نشير إلى الجهود الكبيرة التي تبذل في أمريكا وبريطانيا للتفكير أثناء الحرب في مشروعات ستنفذ وقت السلم . ولاظهار الحجة في هذا يجمل بنا أن نذكر :

أولا : أن حرباً كالتي تدور الآن تمثل عهداً تتطور فيه الأحداث بسرعة كبيرة تشبه الثورة . فالتقلبات التي كانت تستغرق أعواماً ، قد لا تستغرق أشهراً أو أياماً . اذكر كيف عرض المستر تشرشل على فرنسا في اتحاد الدولتين ، وجعلهما دولة واحدة في صيف عام ١٩٤٠ ولم يقبل عرضه ؛ وكيف رضيت حكومة بريطانيا أن تعير أو تؤجر للولايات المتحدة قواعد للطائرات والسفن في الممتلكات البريطانية ، وبذلك ارتبطت دولتان عظيمتان برباط وثيق من التعاون ، هيهات أن يضعف أو يهن ؛ وكيف مدت بريطانيا يدها إلى الهند بمشروع يضمن لهذا القطر الكبير حقا واضحاً في توجيه مصيره وتحقيق أمانيه . فهذه الأمثلة تظهر بوضوح كيف تعجل أحداث الحرب تطورات ثورية لم يكن من السهل التفكير فيها ، أو الدعاية لها وقت السلم العادي . ومثل هذا يقال أيضا في دعاية المحور لإنشاء نظام جديد ، أياكان هذا النظام .

ثانيا : في حرب هائلة كالتي تدور اليوم يطلب إلى الشعوب جماعات وأفراداً أن تبذل تضحيات جسيمة في النفس والمال ، وأن يحتملوا ضروباً من الذل والضيق ،

وألواناً من المكاره والحرمان ، وأن يقبلوا عن رضى أنواعا من التعسف والاستبداد التي لا بد منه ، وأن تضيق عليهم حريتهم وهي أعز شيء جاهدوا القرون الطوال لنيله والتنعم به ، فيضحوا بكل هذا عن رغبة ورضى ، ويبدون من ضروب الجلد والصبر ما يعد من معجزات النفس البشرية .

ولكل من هذه الشعوب أماني وآمال ومشروعات للإصلاح كانت تمشي وقت السلم بخطوات بطيئة ، وتلقى من القادة وأولي الأمر ألواناً من المعارضة وضروبا من التعنت ، يقف بها أحياناً عن التقدم . وليس بمعقول أن هؤلاء القادة ، بعد أن طلبوا من شعوبهم كل هذه التضحيات ، فبذلتها عن رضى ورغبة ، أن يقيموا العقبات وقت السلم في سبيل تلك المطالب والرغائب .

ثالثاً : في هذه الحرب التي شملت كوكب الأرض كله لم يكن من الممكن أن تحترم حرمة الأراضي المستقلة في البلاد المحايدة ، فدخلت الجيوش المحاربة عنوة أقطاراً لم تكن لها يد في هذه الحرب ، وفرضت على الشعوب المحايدة التي تسكنها ألوان من الشدة ، وضروب من التضحيات المختلفة . ولا بد من التسليم بأن هذه الأعمال من الضرورات التي لم يكن عنها مندوحة . وقد أدرك روسيا هذا الأمر منذ بداية النزوح ، فبادرت باحتلال دول البلطيق في الشمال وإقليم بسارابيا في الجنوب ؛ وأسرفت ألمانيا في اتخاذ هذه الخطة بالإغارة على دانمارقه ونرويج ، ثم على بلجيكا وهولنده عام ١٩٤٠ ، ثم مضت في خطتها هذه باحتلال البلقان في ربيع ١٩٤١ . واضطرت الدول الديمقراطية أيضاً لأن تنهج هذا النهج باحتلال إيران وسوريا ، والإغارة الأخيرة على بلاد المغرب ، وبالاستكثار من جيوشها في أقطار إسلامية عديدة ، وما يتبع هذا كله من ضروب الضيق والتضحيات التي طلب إلى الشعوب المحايدة أن تتحملها فقبلتها راضية مختارة . وقد أدرك قادتها أن الحرب العالمية تخلق ظروفاً شاذة ، وتتناول شئونا تهم العالم كله ، فلا ينبغي وقت الحرب أن يصر أحد على التمسك الشديد بالحقوق المحلية الصرفة ، مهما كانت مقدسة وطبيعية .

ولكن قبول هذه التضحيات يفرض على قادة هذه الشعوب أن يعدوا العدة لتحقيق أمانيها ، ويجب ألا يهملوا في رسم خطة واضحة مستكملة جميع أركانها وتفاصيلها الدقيقة منذ الآن ، وإلا اضطروا — وليست لديهم مثل تلك الخطة — أن يقبلوا ما يرسم لهم ويفرض عليهم .

رابعاً : وأخيراً لا بد لنا أن نذكر أن حرباً عالمية هائلة كالتي تدور اليوم تتطلب إنفاق آلاف الملايين ، والإقدام على أعمال في منتهى الجرأة والسرعة المدهشة في الإجراءات التي تتخذ ، وكل هذا ينشأ عنه ما يسمى « عقلية الحرب » ... وكثير من صفات هذه العقلية يظل قائماً بعد انتهاء الحروب فيتعاود القادة كما يعتاد الناس أن يبت في الأمور بسرعة ، وأن تقرر مشروعات تنطوي على الجرأة النادرة ، وأن تنفق في سبيل ذلك الأموال الضخمة . فإذا كانت هنالك مشاريع مدروسة ، وخطط مرسومة ، أمكن تنفيذها من غير تردد ، ولم تقف العوائق المالية حاجزاً يحول دون التنفيذ ... وإنما الخطر كل الخطر في مثل هذه الحال ، الإقدام على أعمال لم ينضج التفكير فيها ولم يتناولها البحث الدقيق . ومن المعروف أن الحرب إذا داهمت شعباً لم يستعد لها عانى من الكوارث الشداد كل ويل وعذاب . ولكن الذي لم يفهمه الكثير إلى اليوم أن الأمم يجب أن تتأهب للسلم كما تتأهب للحرب . وإهمال الاستعداد في كلا الحالين يعقب ويلات للفريق المهمل ، ويعطل التقدم أجيالا .

وهكذا نرى في وضوح أن الحرب العالمية فترة تقلبات ثورية في حياة الشعوب وكيانها ، ومرحلة من مراحل التطور السريع . والدول الإسلامية لا تستطيع أن تقضي هذه الفترة في جمود سلبي ، وعجز عن انتهاز الفرص ، وقلة إدراك لما تجيش به صدور أفرادها من أمان ورغبات .

ولقد يعترض معترض بأن الشعوب الإسلامية التي لم تخض غمار الحرب لا ينبغي لها أن تطالب بنصيب من ثمرات النصر . وهذا القول إنما يكون صحيحاً إذا كانت الشعوب الإسلامية تطالب بحصة من أسلاب القتال وغنائم المنتصرين . فأما والأمم الإسلامية إنما تطالب بحقها الطبيعي

فى الحرية والحياة ، وبأن تساهم فى الحياة الدولية المنظمة ، التى لا بد من إنشائها بعد نهاية الحرب ، فإن مطالبها هذه منطبقة على أبسط قواعد العدل والإنصاف .

وهنالك ناحيتان من التفكير أو ثلاث لا بد لقادة الشعوب الإسلامية أن يعالجوها بالبحث الدقيق ، وأن يصلوا فى كل منها إلى خطة واضحة ورأى صريح .

أولها ، المسائل الخاصة بكل قطر من الأقطار الإسلامية على حدة ، فإن لكل بلد إسلامى مشاكله الخاصة التى لا بد أن تحتل المكان الأول من تفكير القادة ؛ والنجاح فى هذا الأمر الأول هو الأساس الذى يبنى عليه كل شىء . والهدف الطبيعى لكل شعب إسلامى أن ينال نصيبه من الحرية والاستقلال ، وأن توفر لجميع الطبقات أسباب المعيشة الرغدة والتقدم المطرد ؛ فإذا كانت هنالك عقبات دون هذا الهدف سواء أكان ذلك فى علاقة ذلك القطر بحكومته الخاصة أو بحكومة أجنبية ، فلا بد من المبادرة بعلاج تلك العلاقات والوصول بها إلى حل يرضاه الجميع . ومن العبث أن يقال إن الدول الكبرى تقيم عراقيل فى سبيل الشعوب الصغيرة ، فقد بات واضحاً لكل مفكر فى كل قطر أن الاستعمار القديم مقضى عليه بالزوال ، وأن هنالك صيحات قوية تنادى بأخوة الشعوب والأمم ، ولا بد للشعوب الإسلامية أن تستغل هذه القوى التى تعمل للخير وأن تتصل بها وتتعاقد معها .

ولا بد لنيل الشعوب الإسلامية أمانيها من أن توحد كلمتها ، وأن يتضامن قادتها . وأكبر الخطر أن نواجه العالم برأى موزع ، وقيادة أوهنها الانقسام ، وكيد بعضها لبعض . ومن السخف البين أن ننتظر من العالم أن يكون أرأف بنا من أنفسنا ، وأن يرحم من لا يعرفون كيف يرحمون أنفسهم .

الأمر الثانى الذى لا بد لقادة المسلمين أن يفكروا فيه هو التعاون الوثيق بين الأمم الإسلامية والروابط التى تربطها بعضها ببعض . ومن الإسراف أن نتوهم أن من الممكن إيجاد اتحاد سياسى يضم جميع الأمم الإسلامية . وأولى بنا أن نستبعد جميع الاحتمالات الوهمية التى تستنفد جهود الباحثين دون أن توصلنا إلى نتيجة ؛ وإنما السهل الميسور إنشاء تعاون تفاق اقتصادى بين الشعوب الإسلامية ، وأن ينظم هذا التعاون تنظيماً واضحاً .

والشعوب الإسلامية بينها عطف ومودة لا سبيل إلى إنكارهما ، ولكن مثل هذا العطف فى حاجة إلى التنظيم أيضاً بحيث يستطيع العالم الإسلامى كله أن يحس الألم الذى يصيب فرداً من أفراد أسرة الشعوب الإسلامية ، وأن يبذل جهداً مشتركاً فى إزالة ذلك الألم . وإذا أنشئ بعد الحرب نظام دولى يضم جميع الشعوب ، فلا يمنع هذا من أن تكون الشعوب الإسلامية أسرة قوية فى داخل هذه الجمعية الكبرى .

فإذا استحر بين الدول الإسلامية خلاف — كما قد يحدث بين الإخوة وأبناء العمومة — فلا بد أن يشتمل نظام التعاون بينها على وسيلة لحل هذا الخلاف فى داخل الأسرة الإسلامية ، دون أن يلتجأ إلى عصبة الدول الكبرى .

والأمر الثالث والأخير ، الذى لا بد أن يتناوله التفكير والتدبير ، هو ذلك النظام العالمى الجديد الذى لا بد من إنشائه لكى يضمن العالم به حياة السلم بين الشعوب ومعاقبة كل من يعكر صفاءه ، وحسم كل نزاع يخشى أن يستفحل ويؤدى إلى كارثة كالتى نعانيها اليوم . ولقد شقيت جميع الأقطار الإسلامية بويلات هذه الحرب كما شقى بها غيرها ، فمن واجب قادة الدول الإسلامية أن يكون لهم نصيب فى إنشاء وبناء النظام الجديد الذى لا بد من إقامته لضمان قسط معقول من الهدوء والاطمئنان لسكان هذا الكوكب المسكين .

هذه هى الأمور الثلاثة التى لا بد لقادة العالم الإسلامى أن يضطلعوا بها ، وأن يؤدوا الأمانة عن شعوبهم بجد وإخلاص وإنكار للذات . فإذا لم يوفقوا فى هذا ، فإن مصير العالم الإسلامى بعد الحرب سيتقرر بواسطة أناس من غير أهله ، ويكون من الظلم أن يلام هؤلاء الناس إذا أهملوا مصلحة من مصالحه ، أو نسوا أمنية من أمانيه . والذين يهملون تنظيم منزلهم واضطروا غيرهم لأن يتولى هذا الأمر عنهم ، فلا ينبغى لهم أن يلوموا إلا أنفسهم .

محمد عوض محمد

محمد ربّ بيت

فكرة باطلة سادت أفكار بعض الناس فى معنى « الرسالة » ، تخلع بعضهم عليها أحياناً بعض أوصاف الألوهية ، وأحياناً بعض أوصاف الرهبانية ، من مبدأ البعثة إلى اليوم . وكان النبى (ص) يحارب هذه الفكرة كما يحارب الإلحاد ، ويعلن ويكرر فى كل مناسبة أنه « بشرٌ رسول » لا « مَلَكٌ رسول » .

من مبدأ البعثة اجتمعت صناديد قريش بمكة ، فقالوا لمحمد : « لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ، ولا أقل مالا ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، ويبسطْ لنا بلادنا ، وليفجرْ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فإن لم تفعل فسل ربك أن يبعث مَلَكاً يصدقك بما تقول وراجعنا عنك ، ولتسأله فيجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا ، فإن لم تفعل فاتخذ إلى السماء سُلّماً ترقى فيه وتأتى معك بنسخة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول » .

فقال محمد : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ؟!

لقد أخطئوا إذ نسوا أنه بشر لا يقدر على الإتيان بهذه الأشياء ، ولا يستطيع اقتراحها لما فيها من التعنت والتحكم ، وليس للرسول أن يتحكم على الله فيطلب منه خرق قوانينه التى أدار عليها ملكه .

وخطأ آخر مثله وقع فيه بعض المسلمين ، إذ خلعوا عليه بعض أوصاف الرهبانية ، فقد روى فى الحديث أن بعضهم كان يسأل عائشة ماذا كان يفعل رسول الله فى بيته ، ظانين تبتله ؛ فكانت تجيبهم أنه يفعل فى بيته ما يفعله الرجل الكريم بأهله . « وسألها رجل : ما كان يصنع رسول الله فى أهله ؟ قالت : كان فى مَهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » .

وجاء ثلاثة نفر إلى بيوت أزواج النبى ، فقال أحدهم إنى أصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال ثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ؛ ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

لقد كان محمد إنساناً يأكل ويشرب ، ويمشى فى الأسواق ، ويتاجر ويتزوج ؛ وكان رسولا عرف الله ودعا إليه ، اختارته العناية الإلـهية ليكون سفيراً بين الله وخلقه ، فله جانبه الإنسانى ، فهو يضرب فى الأرض ، يسعى ويكد ، وتتوارد عليه العواطف الإنسانية ، وله جانب روحانى يتصل فيه بربه ، ويتلقى رسالته ويبلغها خلقه ، يحيا كما يحيا الناس ، ويجرى عليه حكم الموت كما يجرى على الناس ، ويتصل بالله كما يتصل الرُّسل ، ويؤدى رسالته كما يؤدى الرسل ؛ فمن زعم أنه فوق قوانين البشر فقد أخطأ ، ومن جحد رسالته فقد أخطأ .

وهو فى أداء رسالته أمين معصوم ، وهو فى إنسانيته يفعل ما يفعل الرجل الكامل ، يتطلب معالى الأمور ، ويترفع عن سفسافها ، وينشد المثل الأعلى ، ويتجمل بالمروءة ، ويشعر بعظم التبعة ، وتطهرُ نفسه فلا يتصنع ، ويفعل فى السر ما يفعله فى العلانية ، وعلوّه الشعور بأن الله خالقه ، وأن الله يراه ، وأن الله يأمره وينهاه ، فيأتى ما يأتى من الخير ، ويذر ما يذر من الشر ، لا رغبة ولا رهبة ، ولكن حباً فى الله ، ومن أحب أطاع —

فكان المثلَ الأعلى للناس في جانبه الإنساني ، وجانبه الروحاني ، في معاملته ، وفي بيته ، وفي دعوته ، وفي عبادته ، وفي تضحيته ، وفي إخلاصه .

***

لقد كان لمحمد (ص) بيت في مكة قبل الهجرة ، وبيت في المدينة بعد الهجرة ، والبيتان مختلفان في مظاهرهما .

فني مكة ظل من غير زواج إلى الخامسة والعشرين ، وهي سن متأخرة بالنسبة لحالة العرب الاجتماعية إذ ذاك ، ولكن دعا إلى هذا التأخير فقره ، وما الفقر بعيب ؛ فلما أتيح له الزواج تزوج ، وكان الزواج مؤسساً على أساس صحيح ، من معرفة الزوج للزوجة في خُلُقها وخَلْقها ونسبها ، وكانت الزوجة تعرف زوجها كذلك ، فأحرِ أن يكون هذا الزواج موفقاً . لقد عرفت خديجة محمداً في تجارتها ، وكانت تبعث بالرجال يتاجرون لها بالمال في الشام كما يفعل أغنياء قريش ، فبعثت محمداً في ذلك فعرفها وعرفته بعد أن سمعت به وسمع بها ، وخبر كلٌّ حال الآخر عن قرب ؛ ثم كان أن عرضت عليه أن يتزوجها بعد أن خطبها كثير من رجال قريش فأبت عليهم ، ولعلها قرأت فيهم الطمع في مالها ، ورأت فيه التعفف عن مالها ، كما كانت من أولئك النساء الفاضلات اللاتي يقرأن المعاني في الرجل أكثر مما يقرأن المادة والمظاهر .

« فأرسلت إليه نفيسة بنت أمية » دسيساً إليه ، فقالت له : ما يمنعك أن تتزوج ؟ قال : ما في يدي شيء . قالت : فإن كُفيتَ ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ؟ قال : فمن ؟ قالت : خديجة ؛ فأجاب .

كانت خديجة امرأة مكتملة ، في الأربعين من عمرها ، من قريش أمّاً وأباً ، تزوجت في شبابها رجلاً من خيار بني تميم اسمه أبو هالة ، فولدت منه ابنين هما هند وهالة ، ثم مات عنها ، فتزوجها قرشي اسمه عتيق بن عابد ، فولدت له بنتاً اسمها هند ، ثم مات عنها كذلك ، وقد عاش الثلاثة ، ولعل مالها جاءها من قِبَل زوجيها فكانت ذات مال وذات تجارة في حياة أبيها .

ثم تزوجت محمداً في الخامسة والعشرين من عمره .

***

في بيت ، في حي التجار بمكة ، كانت تسكن هذه الأسرة ، خديجة وأولادها الثلاثة ومحمد ، وصبي صغير كانت اشتدت الأزمة بأبيه ، فرجاه أهله أن يأخذوا عنه بعض أولاده يعينونه في تربيتهم ، فأخذ محمد أحدهم ، وكان هذا الصبي علىّ بن أبي طالب ، كما كان يسكنه مولى لهم هو زيد بن حارثة ؛ فتعادل البيت بصبيانها وصبيه ، وتعادل الكسب بمالها وعمله ، وظل هذا البيت سعيداً خمسة وعشرين عاما ، يتبادل فيه الزوجان الحب والألفة والتعاون ، فلم نسمع مرة بخلاف ولا مشادة ولا غضب ؛ رزقت منه بأولاد لم يعش منهم إلا بنات أربع ، ربين في هذا الوسط الوادع السعيد . وقد اعتاد العرب في هذا الزمن أن يعددوا زوجاتهم ، وخاصة في سني شبابهم ، ولم يعدوه عيباً ، ولا تعده النساء كذلك ، ولكن محمداً لم يفعل هذا حبا في خديجة وحرصاً على رضاها ؛ ولأنه يشعر أنه مهيأ لأمر عظيم يتطلب التقلل من مشاغل الدنيا .

كان يشغله التفكير في أمر قومه وضلالهم في عباداتهم وفساد نظامهم ، وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن ما عليه قومه ضلال لا شك فيه ، وما يعبدونه باطل لا محالة ، ولكن ما هو الحق ؟

وكانت تبدو عليه نزعة دينية حائرة تتلمس الحق وتصبو إليه ، وكان بيت خديجة كل ذلك فتفهمه وتشجعه وتعينه ، ولقد شوهدا ومعهما علىّ في الكعبة يعبدون الله على نحو خاص غير ما تفعله قريش . كان هذا يملك عليه نفسه ، فكانت خديجة له أكبر عون ، فلما جيئت

إليه العزلة ، ورأى أن يُمضى فى عزلته الليالى فى غار حِراء، كانت هى التى تُعدّ له زاده ، وتفهم نفسه ، وتعينه على عزمته . ولمـا جاءه الوحى لأول مرة ، يرجع إلى خديجة يرجف فؤاده ، كانت هى التى دثّرته وأذهبت روعه ، وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان رجلاً متنصراً عالماً بالأديان ، فطمأنه أنه الوحى ، فكانت أول إنسان آمن برسالته وصدّقه فى قوله ، لأنها رأت منه ما لم يره أحد ؛ رأته فى بيته على فطرته وسجيته ، فلم تقع منه على كذبة ، ولم تقف منه على رياء ، ولا يعرف أحد أحداً كما يعرفه أهل بيته ، فهناك المظهر الحقيق والإنسان على سجيته . ورأت مقدمات الوحى خطوة خطوة ، فسهل إيمانها بالنتيجة — ولا تسـل عن عظمة هذا الموقف يوم يتجلى لمعظم الحق فيجد فى الوجود إنسـاناً يجانبه يؤيده ويثبته .

ثم لما أعلن الدعوة لقومه ولقى منهم شر أنواع العنت ؛ كانت هى التى تخفف بحديثها وأسلوبها كربه ، وتؤنس وحشته . قال ابن إسحق : « كان (ص) لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة ، إذا رجع تثبته وتخفف عنه وتصدقه ، وتهوّن عليه أمر الناس » ، وكان من فضل الله أن كانت بجانبه العشر السنين الأولى من الدعوة وهى أشق السنوات عناء وجهاداً وكفاحاً .

لذلك لم يكنّ محمد (ص) من الحب والوفاء والتقدير والإعظام لأحد ما أكنه لزوجته خديجة ! فلما قالت له عائشة قد رزقك الله خيراً منها ، قال : « لا والله ما رزقنى الله خيراً منها ، آمنت بى حين كفر بى الناس ، وصدقتنى حين كذبنى الناس ، وأعطتنى مالها حين حرمنى الناس » .

ولمـا توفيت فى الخامسة والستين من عمرها فى العام الذى توفى فيه عمه أبو طالب سمى العام « عام الحزن » ، وكان شديد الحنين إليها والذكرى لها ، فكان من حين إلى حين يبعث بعض الهدايا إلى صديقاتها ، إحياء لذكرها . ودخلت عليه مرة — وهو بالمدينة — أختها هالة ، وكان رسول الله نائماً ، فلما سمع صوتها انتبه من نومه لفوره وقال . هالة هالة هالة ! ترحيباً بها ، وهياماً بذكر أختها ، وإعظاماً لأحب الناس إليه .

* * *

أما فى المدينة فقد كان لبيت محمد (ص) شأن آخر ، اقتضاه موقفه فى الدعوة وتأييدها بالمصاهرة والنسب ، وطبيعة الحالة الاجتماعية فى عصره ، وظروف كثيرة — ليس هـذا موضع ذكرها — إلى أن يعدد زوجاته ؛ هذه عائشة بنت صاحبه أبى بكر ، وهذه حفصة بنت صاحبه عمر ، وهذه أم حبيبة بنت أبى سفيان زعيم قريش ، وهذه صفيّة بنت حُيي بن أخطب سيدة قومها من يهود بنى النّضير ، وهذه زينب بنت جحش مطلقة مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ؛ وعلى الجملة فكن خمس قرشيات وأربع عربيات من غير قريش ، بين هلالية وخزامية وأسدية وواحدة من بنى إسرائيل . فكان سبب الزواج أحياناً تأليف قوم ، أو توثيق رابطة ، أو تشريعاً جديداً يخالف ما كان عليه العرب ، أو عطفاً على أيِّم مات عنها زوجها فى جهاد فى الإسلام .

وكان النساء فى المدينة غير النسـاء فى مكة ، فهن فى مكة مضغوط عليهن ، مستسلمات لأزواجهن ، من العار أن يرددن لهم قولاً ، بحكم بأس رجال قريش وشدتهم وسطوتهم ، وعلى العكس من ذلك نساء المدينة ، فلهن قسط وافر من الحرية ، يراجعن أزواجهن ، ولهن رأى يسمع ، ومطالب تجاب ، واستتبع هذا شيئاً آخر وهو غلبة الجد الدائم على رجال قريش ونسائهم ، وحب الفرح والمرح فى نساء المدينة ورجالها ؛ فنى الحديث أن عمر بن الخطاب قال : « كنا معشر قريش قوماً نغلب النسـاء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا

تعلمن من نسائهم » ؛ وفيه : أن عائشة زفت امرأةً إلى رجل من الأنصار فقال النبي : أما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو . وتحليل ذلك من الوجهة الاجتماعية يطول .

أفرد رسول الله لكل زوجة بيتاً ، ومع هذا فالعواطف الطبيعية للنساء لا يمكن محوها ، ولا من الخير زوالها ، والإنسان إنسان مهما كان ، كل منهن كان يحرص أن يكون له من رسول الله أكبر نصيب في حبه ، وكل تغار إن شعرت بعطف أكبر على ضرائها ، وكل يحاسب على النظرة والابتسامة ، ولكل نوع من المزايا تدل بها ؛ وأخيراً انقسمن إلى حزبين : حزب فيه عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وصفية وسودة ، وحزب فيه أم سلمة وزينب وميمونة وأم حبيبة بنت أبي سفيان وجويرية .

ثم مشكلة أخرى طبيعية ، فعائشة أحب زوجة إلى رسول الله لمزاياها ، وفاطمة بنته من خديجة ، وطبيعي ما يكون بين البنت ماتت أمها وتزوج أبوها غيرها وبين زوجة أبيها ، ويزيد ذلك في نفس الزوجة الجديدة أنها لم تلد ، والبنت تزوجت وولدت ، والرسول يحب زوجه ويحب بنته ويحب أولاد بنته .

هذه كلها مشاكل مستعصية ، ما كان يمكن التغلب عليها والمعيشة الهادئة معها ، لولا حكمة من الرسول فوق كل حكمة ، وكان من نعم الله حدوث هذه المشاكل وظهورها فقد استوجبت من التشريع الإسلامي قدراً كبيراً . وكان هؤلاء الزوجات — وخاصة عائشة — مدارس يتلقى فيها الصحابة والتابعون علمهم عنهن « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » فيروون الأحاديث في مختلف الموضوعات من علمهن ، ويحكين لهم ما شاهدن وما سمعن ، وما تصرف فيه الرسول من مشاكل وأحداث أمام أعينهن ، وأدبه فيما بينهن ، حتى قيل إن ربع الأحكام الشرعية مأخوذ من عائشة ، وروى لها في كتب الصحاح ألفان ومائتا حديث ؛ قال لها عروة يوماً : يا أمتاه ! لا أعجب من فقهك أقول زوجة رسول الله ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر ، وكان من أعلم الناس بذلك ، ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو وأين هو ؟ قالت : أي عُرَيّة ! إن رسول الله كثرت أسقامه عند آخر عمره ، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات فكنت أعالجها ، فمن ثَمّ .

عدل بينهن في المعاملة على أدق وجه ، واعتذر من عدم العدل بينهن في الحب فإنه لا يملكه وقال : « اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » ؛ وكان إذا صلى العصر زار نساءه جميعاً وتحدث لكل منهن ، ثم بات في بيت من لها الليلة وأحياناً يجتمعن في بيتها ، وإذا خرج إلى سفر أقرع بينهن فأيتهن خرج سهمها خرج بها

إلى أسلوب في المعاملة ظريف ، ونمط في المعاشرة لطيف ، يلعب الأحابيش فتحب عائشة أن ترى لعبهم فتستند على منكب النبي فلا يسأم حتى تسأم ؛ ويسابقها فتسبقه ، حتى إذا سمنت سابقها فسبقها ، فقال هذه بتلك ؛ ويقول : « إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله » . وكان اليوم يوم عيد فدخل أبو بكر على عائشة فوجد عندها جاريتين تضربان بالدف ، فانتهرهما أبو بكر ، فقال رسول الله : دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

ويحب الأطفال ويقبلهم ويلاعبهم ويجلسهم في حجره . ويأتي أعرابي بدوي فيقول يا رسول الله أتقبّل الصبيان ؟ والله ما نقبلهم ؛ فيقول رسول الله ما أملك أن الله نزع من قلبك الرحمة .

• • •

أزمة كانت تستيقظ من حين لآخر فوضع لها حداً حاسماً . كان رسولاً وكان مثلاً للناس ، وفهم رسالته حق الفهم ؛ أن يبلغ عن الله رسالته ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى الخير ويحذر من الشر ، وليست رسالته أن يجمع ثروة أو يؤسس لنفسه ملكاً ، ولا يتأتى أن

يؤدى رسالته على أكمل وجه حتى يزهد فى المال وعرض الحياة . ولو التفت إلى المال لم يطع هذه الطاعة ، ولا أجيب هذه الإجابة ، ولالتفت الأتباع إلى المال ، ولم يأبهوا للدعوة ، ولفات على الناس درس التضحية ، ولذلت نفوس الفقراء واضطغنوها فى أنفسهم ، وما أكثرهم ، ولعز الأغنياء فى الدين بمالهم لا بتقواهم ! إذن فليتخل عن كل مظاهر الدنيا والترف فى العيش ، وليعش عيشة أبسط رجل . وكذلك كان ، فلم يمل جوفه شبعاً ، ويبيت بعض الليالى طاوياً ، ويمر الشهر ما يستوقد أهله ناراً ، يعيشون على التمر والماء ، ولا يرون الرغيف المرقق ولا الشاة السميط ، ويموت ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير ، ويأتيه مال مرة من الغزو فيقسمه ألف بعير على أربعة أنفس ، ويسوق مائة بدنة فينحرها ويطعمها المساكين ولم يدخر لأهله شيئاً ، فكان فقره إيثاراً لا عوزاً .

لو كان الشأن شأن نفسه فقط لهان الأمر ، عظيم يضحى لربه ولدعوته فيجد من سعادة التضحية أضعاف ما يجد الشحيح بماله وترفه ، ولكن ما شأن زوجاته ولم يلقن فى السمو سموه ، ولا يفهمن المثل فهمه ، ولا يشعرن بالنعمة شعوره — ها هن أولاء يطلبن شيئاً من السعة فى العيش ، وشيئاً من النعيم الذى ينعم به حتى صغار المسلمين ، وهو يردهن رداً جميلاً ، فلما كثر الطلب واشتد اللجاج كان الموقف الحاسم « يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن[1] وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » ؛ فبدأ يخير النساء بين الطلاق والعيشة التى تتفق ودعوته ، وبدأ بعائشة فاختارت ربها ورسوله ، وكذلك فعل سائر نسائه ، وحسم الأمر ، ووطن أنفسهن على الصبر ، وكان لهن فى رسول الله أسوة .

وتوفى رسول الله ، وظل نساؤه أمهات المؤمنين ، يرجعون إليهن فى المشاكل ، ويستفتونهن فيما دق من مسائل ، يأخذ عنهن مؤرخو السيرة تاريخهم ، والمحدثون حديثهم ، والفقهاء فقههم ؛ هذه عائشة يروى عنها عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى وابن عباس ، ومن التابعين سعيد بن المسيب ، وعلقمة بن قيس ، وآخرون كثيرون ؛ وقد عمرت حتى بلغت السادسة والستين ، وتوفيت فى عهد معاوية بعد أن كانت مرجع الناس فى الفتيا وخاصة فى أدق المسائل الزوجية مما استفادت من رسول الله . وكذلك كانت حفصة بنت عمر رويت عنها الأحاديث الكثيرة وإن لم تبلغ مبلغ عائشة ، وكان يروى عنها أهل بيتها كأخيها عبد الله وابنه حمزة وزوجته صفية ، وعمرت إلى أن بلغت الستين ، وماتت كذلك فى خلافة معاوية . وعمرت أم سلمة إلى أن بلغت الرابعة والثمانين ، وكانت آخر أمهات المؤمنين موتاً ، وهكذا . فكان حول كل منهن تلاميذ من أهلها وأقاربها وغيرهم يروون عنهن ، ويأخذون عنهن آراءهن فيما حدث من الفتن العظام بعد مقتل عثمان . ولم ينسين أبداً درس الزهد وبساطة العيش وبذل المال كما علمهن رسول الله ، فقد فرض لهن الفرض العظيم بعد الفتوح فكن يتصدقن به ولا يدخرن منه ؛ هذه عائشة أتاها مائة ألف درهم ففرقتها فى يومها وكانت صائمة ولم تتذكر أن تشترى لحماً بدرهم تفطر عليه ؛ وهذه زينب بنت جحش كانت مع ما يأتيها من عطائها صناع اليدين تصنع بيدها وتخيط ، وتتصدق بكل ذلك فى سبيل الله ، ووصفتها عائشة ضرتها فقالت : « لم تكن امرأة خيراً منها فى الدين ، وأتقى لله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى تتصدق به وتقربها إلى الله » .

صلوات الله عليه وعليهن أجمعين .

أحمد أمين

(١) أمتعكن : أعطكن متعة الطلاق .

طارق بن زياد

فاتح الأندلس

يتخذ طارق بن زياد مكانته بين عظماء الفاتحين المسلمين ، ولكنه يمتاز عنهم جميعاً بجدة الميدان وطرافته ؛ فبينما تمت فتوح الخلافة كلها فى القرن الأول للهجرة ، فى المشرق وإفريقية ، وفى أراضى الدولتين الفارسية والرومانية ، إذا بطارق يدفع الفتح الإسلامى إلى ميدان جديد وقارة جديدة ، وإذا به ينحدر من المشرق إلى غربى أوربا ، وينازل أمة جديدة لم يسبق للمسلمين أن نازلوها من قبل ، هى أمة القوط . وإذا كان موسى ابن نصير هو صاحب الفضل الأول فى تنظيم مشروع هذا الفتح العظيم ، فإن طارقاً هو صاحب الفضل الأول فى تنفيذه ونجاحه ، وكلاهما يشاطر مجد هذه الصفحة الخالدة التى خطها الإسلام مدى قرون فى تاريخ اسبانيا .

وتحدثنا الرواية كثيراً عن طارق الفاتح ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على أصل طارق وحياته الأولى ، فنراه لأول مرة فى حوادث فتح إفريقية ، حاكما لطنجة ، آخر معقل افتتحه المسلمون فى المغرب الأقصى ؛ وكان موسى ابن نصير يومئذ والياً لإفريقية ، ولى شئونها فى سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) ، فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وشغل حيناً بإخماد الثورات المحلية ، وتوطيد سلطة الخلافة فى هضاب المغرب الأقصى ، وانتهى بافتتاح طنجة ، واختار لولايتها جندياً ظهر ببراعته فى الحروب المغربية ، هو طارق ابن زياد الليثى .

ولا تحدثنا الرواية قبل ذلك بشىء عن فاتح الأندلس ، بل إنها لتختلف فى أصله ونسبته ؛ فقيل هو فارسى من همدان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه من سبى البربر ، وقيل أخيراً إنه بربرى من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية ؛ وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب بإيراد نسبة طارق مفصلة[1] ، ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربى إسلامى فى نسبته ؛ ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهى إلى نفزة ، وهى القبيلة التى ينتمى إليها .

كان طارق إذاً حاكما لطنجة فى سنة تسعين أو إحدى وتسعين من الهجرة ، فى الوقت الذى تم فيه فتح المغرب الأقصى على يد موسى بن نصير والى إفريقية ؛ وكان فى اختياره لذلك المنصب تنويه بعزمه وشدة بأسه ، إذ كانت منطقة طنجة يومئذ أخطر مناطق المغرب وأشدها اضطرابا ؛ ولم يكن ينقص الفتح الإفريقى ، سوى ثغر سبتة المنيع الواقع مقابل طنجة ، فى الطرف الشرقى للسان المغربى ؛ وكانت سبتة يومئذ تابعة لمملكة اسبانيا القوطية ، وكان حاكمها الكونت يوليان قد استطاع أن يحميها من الغزو ، وأن يرد الفاتحين عن أسوارها ولكن كانت ثمة حوادث خطيرة تجرى يومئذ فى اسبانيا ؛ وكان ملكها رودريك أو لذريق قد انتزع العرش لنفسه من سلفه الملك ويتزا ، وانقسمت الأمة القوطية بذلك إلى حزبين خصيمين ، يحاول كل منهما القضاء على الآخر ، وكانت اسبانيا تضطرم من جراء ذلك بمختلف الفتن والدسائس . وكان الكونت يوليان من أنصار الحزب المعارض يعمل معه لإسقاط المغتصب ، وإذا صحت الرواية فقد كان يعمل أيضاً بدافع الانتقام الشخصى . وذلك أن لذريق — فيما يقال — اغتصب ابنته الحسناء فلورندا ، وكان قد أرسلها إلى بلاط طليطلة لتربى هنالك بين بنات الأمراء والأكابر . وكانت هذه الحوادث تجرى فى الوقت الذى اقترب فيه العرب من أسوار سبتة ؛ ففكر الكونت

(١) راجع البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، (ج ٢ ، ص ٦) .

ورجال حزبه في الاستعانة بأولئك الفاتحين الأقوياء على تنفيذ مشروعهم في إسقاط لذريق ؛ واتصل الكونت يموسى بن نصير ، وعرض عليه مشروعه في غزو اسبانيا ؛ وأدرك موسى أهمية المشروع وخطورته ، وتعهد بتنفيذه بعد أن حصل على موافقة حكومة دمشق .

***

وبدأ موسى بأن جهز حملة استكشافية صغيرة من خمسمائة مقاتل بقيادة طريف بن مالك ، فعبرت البحر من سبتة في سفن قدمها يوليان إلى البقعة المقابلة ، وذلك في رمضان سنة ٩١ هـ (يوليه سنة ٧١٠ م) ، وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء ، وأصابت كثيراً من الغنائم ، وعادت سالمة ، لتقص على موسى ما شهدت من خصب الجزيرة وغناها .

وعندئذ اعتزم موسى أمره ، وفي شهر رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل ٧١١ م) جهز جيشاً من العرب والبربر من سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد . وعبر طارق البحر بجيشه تباعاً في سفن يوليان ، ونزل بالبقعة التي ما زالت تحمل اسمه حتى اليوم ، أعني جبل طارق ، وزحف على ولاية الجزيرة واستولى عليها . وكان لذريق ملك القوط ، يشتغل يومئذ بمحاربة الخارجين عليه في الشمال ، فارتد مسرعاً إلى الجنوب حينما وقف على النبأ الخطير ، وحشد جميع قواته ، وسار إلى لقاء المسلمين ؛ وكتب طارق إلى موسى يستنجد به لما بلغه من وفرة جيش القوط ، فأمده بخمسة آلاف مقاتل ، وبلغ جيش المسلمين بذلك اثنى عشر ألفاً .

ووقع اللقاء الشهير بين الجيشين في سهل شريش ، شمالي مدينة شذونة ، على ضفاف نهر وادى لكة ، وذلك في أواخر شهر رمضان سنة ٩٢ هـ (يوليه ٧١١ م) ؛ وكان القوط في نحو مائة ألف مقاتل ؛ ولكن هذا الحشد الضخم كانت تمزقه عوامل التفرق والخيانة . فلم تمض أربعة أيام على بدء القتال ، حتى دارت الدائرة على القوط ، وقتل ملكهم لذريق ، وتم النصر للمسلمين ، وحقق طارق بذلك للخلافة فتحاً من أعظم فتوحاتها .

— ٣ —

وتحيط الرواية الإسلامية ظفر طارق في سهل شريش بطائفة من التفاصيل الشائقة ، فتقول لنا أولا إن طارقاً خطب جنده قبيل الوقعة ، وألقى فيهم خطبته الشهيرة التي ما زال يحفظها الطلاب كنموذج من نماذج النثر المختار ، والتي يفتتحها بقوله :

« أيها الناس ؛ أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... »

ثم يحث فيها جنده على القتال ، والاستشهاد في سبيل الله ، ويرغبهم في ثمار النصر ، ويحذرهم من عواقب التخاذل والتفرق . وتنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر قوى في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم ، ودفعهم إلى طريق الظفر .

على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فإن معظم المؤرخين المسلمين ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية المتقدمة ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين .

وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الوقعة ، فنحن نعرف أن كثيرا من قادة الغزوات الإسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان ؛ ولكن في لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعباراتها ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقاً في الإسلام والعروبة . والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

وتشير الرواية في هذا الوطن إلى واقعة أخرى جديرة بالتأمل ، وهي واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا في ثوب التاريخ الحق . تلك هي واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الإفريقي إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف مما تقدم أن الكونت يوليان هو الذي قدم السفن التي ركبها العرب في بعثهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف ابن مالك ، ثم في حملتهم الثانية بقيادة طارق ؛ تقول الرواية إن طارقا ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسي حتى أمر بإحراق السفن ، وذلك لكي يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير في التخاذل أو الارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الإسلامية التي تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئا عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا في موطن واحد ؛ فقد ذكر الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي «نزهة المشتاق» عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أن طارقا أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس[1] . وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسي ؛ وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال إن في الخطاب المنسوب إلى طارق ، ما يؤيد هذه الرواية ، فطارق يستهله بقوله : «أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » وفي ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقي ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التي حملته إلى اسبانيا . ولكنا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقا ألقى في جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لأقوال طارق في أن السفن كانت ملكا للكونت يوليان ، وفي أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة في جميع الأوقات .

ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسي عن واقعة إحراق السفن ليست من الأمور المستحيلة ؛ وهي عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس . على أنها تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دونت لأول مرة في القرن الخامس الهجري ، أعني بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون ولم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى .

* * *

وتابع طارق ظفره ، وتوغل مسرعاً في هضاب الأندلس ، واستولى تباعاً على معظم قواعدها حتى وصل إلى ناصية الشمال . وهنا تلقى أوامر موسى بوقف الفتح وكتب إليه موسى منذراً متوعداً ألا يتقدم حتى يلحق به . فما الباعث على هذا التصرف ؟ قد يكون حذر القائد المجرب وتخوفه من أن ينكب المسلمون في هاتيك الدروب المجهولة ، وقد تكون غيرة الرئيس مما أحرز المرؤوس من مجد سريع . وعلى أي حال فقد عبر موسى البحر في جيش قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل ، واستولى تباعاً على ما بقي من قواعد الأندلس ، والتقى القائدان على مقربة من طليطلة ، وعاد التفاهم بينهما بعد فترة قصيرة من الكدر ، وبعد أن كاد موسى ينكل برجله وقائده ؛ واتجه الفاتحان كل إلى طريقه ليتم غزواته وفتوحه ، فاخترق موسى جبال البرينية ، ونفذ إلى مملكة الفرنج ، وسار طارق إلى ناصية جليقية ، ليجهز فيها على فلول القوط .

وبينا هما كذلك ، إذ وصلتهما أوامر الوليد بن عبد الملك بالعودة إلى دمشق . ونحن نعرف ماذا كان من أمر موسى في هذا العود ، وكيف نكبه سليمان بن عبد الملك خليفة الوليد ثم عفا عنه ؛ ولكن ماذا كان مصير طارق ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت ، وكل ما هنالك

(١) نزهة المشتاق (طبع رومة) ص ١٧٨ .

أنها تشير إلى ما كان من نية سليمان فى تعيينه والياً للأندلس مكان موسى ، وكيف عدل عن نيته حينما وقف من مغيث الرومى ، وهو أحد القادة الذين اشتركوا مع طارق فى الفتح ، على ما كان يتمتع به طارق فى الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ ، وذلك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك القطر النائى من أقطار الخلافة [1] . وقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ، ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما ، وكان لوقيعته ومساعيه ضدهما أكبر الأثر فى استدعائهما إلى دمشق . وإذا كانت هذه الرواية لا تلقى ضوءاً كافياً على مصير طارق ، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق مثل المصير المحزن الذى لقيه موسى ، وأنه بالعكس قد استقبل فى بلاط دمشق استقبالاً حسناً ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته ، بدليل أنه فكر فى تعيينه والياً للقطر الذى ساهم فى افتتاحه بأعظم قسط .

ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشىء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفى ، بل تسدل على نهايته حجاباً من الصمت المطبق .

* * *

أما عن صفات طارق وخلاله فليس فى وسعنا إزاء هذا الغموض الذى يحيط بسيرته ، إلا أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة ، التى ظهرت بوضوح فى حروب المغرب وفتح الأندلس ، وهو بهذه الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين .

محمد عبد الله عنان

(١) راجع نفح الطيب (مصر) ج ٢ ص ٥٥

الاستعمار في الإسلام

أساس الحياة في الإسلام أن المُلك لله ، وأن الحكم لله لا لأحد من خلقه ، وأن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، فلا يصح لمسلم أن يطلبها لذاتها ، ولا أن يعصى الله فيها بظلم نفسه أو بظلم غيره . فالاستعمار بمعناه المعروف باطل من أساسه في نظر الإسلام ، لأنه إخضاع للناس لغير الله ، فرداً كان أو أمة ، وتناحر وتقاتل في سبيل المال والتجارة والدنيا ، لا في سبيل الله ، وحكم للناس بالقوانين الوضعية لا بقوانين الله ودين الله .

والحاكم الإسلامي ، أى الذى يحكم بالإسلام وللإسلام فرد من الناس ، ليس له فضل عليهم إلا بتقوى الله ، فهو يحكمهم باسم الله ، لأنه من أبصرهم بدين الله ، وأقدرهم على التزام حدود الله في نفسه ، وعلى تنفيذها في غيره . وهذا وحده كاف للحيلولة بينه وبين استعباد خلق الله بالظلم والهضم والإذلال .

والحاكم الإسلامي له الطاعة على الناس ما أطاع الله ، فإذا عصاه فلا طاعة له على الناس فيما عصى الله فيه ؛ أى أن الناس في حكومة الإسلام في حل من عصيان الإمام الحاكم فيما يخالف الدين ، لأنهم مأمورون ألا يطيعوا غير الله ، وهم إنما أمروا بطاعة الحاكم لأنه القوّام على تنفيذ الدين وأحكامه في نفسه وأهله ، وفي غيرهم من الناس وهذا أقصى حدود تحرير النفس البشرية من كل سلطان غير سلطان الله .

ولا خوف من أن يؤدى هذا المبدأ الإسلامي إلى الفوضى ، لأن حدود الإسلام ومعالمه معروفة بينة بالكتاب والسنة . والحكم بمخالفة الحاكم للكتاب والسنة في أمر من الأمور ليس إلى فرد ، ولكن إلى أهل الحل والعقد من المسلمين . وأهل الحل والعقد ليسوا في الإسلام أكثر الناس مالاً ، ولكن أكثرهم علماً وأتقاهم وأطوعهم لله .

فالحكومة الإسلامية هى إقامة لدين الله في الأرض ، قانونها كتاب الله وسنة رسوله ، ولا قيمة فيها لما خالفهما من آراء الناس ، وقوانين الناس ، مهما عظمت أو عظموا في رأى العين .

ومن هنا يتضح أن الاستعمار بالمعنى المعروف ليس موجوداً في الإسلام ، وإن وجد في تاريخ المسلمين ، لأن الغرض من حكم الغير في الإسلام هو إقامة حكم الله في أرض الله التى يسكنها ذلك الغير ، فإذا تعهد ذلك الغير بأن يقيم حكم الله في أرضه تُرك وشأنه في بلاده ما دام قائماً بذلك التنفيذ . وهو لن يقوم به طبعاً إلا إذا سلم لله ودخل في الإسلام ؛ وهذا بعض السر في أن الدعوة إلى الإسلام كانت تسبق القتال دائماً في الحروب الإسلامية في العصر الأول . فإذا أسلم العدو ترك وشأنه في دياره لا يدخلها جيش المسلمين ليقيم فيها ، أو ليحكمها ، لأن تلك الديار بإسلام أهلها تكون قد دخلت في الوطن الإسلامي العام ، وفي الأخوة الإسلامية العامة التى غايتها إقامة دين الله في الأرض ، والتى شعارها إسلام الوجه والقلب لله . والأمثلة على هذا في تاريخ الفتوح الإسلامية الأولى كثيرة ، وليرجع إلى ابن الأثير في تاريخ فتح فارس في موقعة القادسية من شاء .

والعمل الذى جرى عليه المسلمون في الفتوح مبنى على عمل الرسول صلى الله عليه وسلم حين كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، فإن كتبه صلى الله وسلم عليه ناطقة بأن الملك أو الأمير المخاطب إذا أسلم أقر على ملكه أو إمارته ، وإن لم يسلم فعليه إثم رعيته . وهذا واضح في أن إسلامه الذى دعى إليه ليس المقصود منه إسلام شخصه فقط ، ولكن العمل بالإسلام في الناس ، ولن يتم هذا طبعاً حتى يسلموا . فإقامة دين الله في الأرض بين قوم

تستلزم اعتراف هؤلاء القوم بدين الله ، ودخولهم فيه ، وعندئذ تسلم لهم أرضهم وديارهم كما كانوا قبل الإسلام ، لم يتغير فيها إلا قانونها وطريقة الحكم فيها ، فهو تغيير لمصلحة الناس أفراداً وجماعة ، إذ شتان بين حكم الفرد أو الجماعة بالعقل أو بالهوى أو بالمصلحة الوقتية ، وبين حكم الله طبق سننه سبحانه ، التى فطر عليها الخلق ، المتمثلة فيما أنزل سبحانه فى الإسلام من أحكام .

أما إذا لم يدخل الناس فى الإسلام كما دخل ملكهم أو أميرهم الذى أقره الإسلام عليهم ، ولم يخرجوا على الملك أو الأمير من أجل ذلك فإنه يحكمهم بدين الله ، ويكونون هم فى ذمة الإسلام لا يظلمون ولا يهضمون ، أحراراً فى خاصة دينهم وعبادتهم ، إلا أن يكونوا وثنيين ، فإن الإسلام لا يقر الوثنية بحال ، لأنها منتهى الضلال عن الله .

أما ما زاد على الاعتقاد والعبادة الخاصة من أمور المعاملة ، فالحكم فيها لله طبق شريعة الإسلام ، أى طبق ما يعامل المسلمون به أنفسهم ، على أن يؤدوا مبلغاً صغيراً يطيقونه فى غير إرهاق لهم ، يفرض على كل فرد منهم مقابل حمايته وحماية بلاده وحماية عرضه وماله من كل من يريد الاعتداء عليه . وعلى المسلمين أجمعين ، حكومة وأفراداً ، أن يحموه من ذلك كما يحمون أنفسهم ، ويبذلون فى سبيل ذلك ما يبذلون لأنفسهم ، لأنه فى ذمة الله وذمة الإسلام وذمة المسلمين ، ومن أجل ذلك سمّى ذمياً .

فلقب الذمى لقب تشريف وتأمين ، لا لقب تعيير وتحقير ، إذ لو كان المراد منه التحقير ما كان حكمه فى الإسلام أن « له ما لنا وعليه ما علينا » ، أى التسوية التامة بينه وبين المسلمين ؟ ودفعه الجزية — كما يسمى ذلك المبلغ القليل الذى يدفعه — لا ينقض تلك التسوية ، لأنه دفع فى مقابل : هو يدفع المال القليل ، والمسلم يدفع عنه ولو يبذل نفسه ، من غير أن يتكلف الذمى ، غير المسلم ، فى سبيل الدفاع شيئاً .

وهذا أمر فى التشريع الإسلامى عجيب ، وفرق بين الاستعمارين الإسلامى والأوربى عظيم . لأن الإسلام يحتم على المسلم أن يدافع عن الذمى ويحميه ولو يبذل نفسه من غير أن يتعرض الذمى لخطر أو القتال ، ومن غير أن يرزأ إلا ذلك القليل من المال . وشتان بين هذا وبين ما يفعله الغرب من تجنيد أهل المستعمرات وتعريضهم للأخطار وحملهم على القتال دفاعاً عن حاكميهم ومستعمرى بلادهم .

فالاستعمار الأوربى يضحى بالقادرين من أهل مستعمراته دفاعاً عن نفسه ، وليبقى أهل المستعمرات خاضعين له ؛ فهو يظلمهم ويرغمهم على بذل نفوسهم فى سبيل دوام ظلمهم ، وهذا منتهى الظلم المبين . أما الاستعمار الإسلامى — إنما صح أن يسمى الحكم بين الناس بدين الله استعماراً — فيسوى بين المحكومين والحاكمين فى الحقوق والواجبات ، لا يعرضهم لخطر ولا لقتال ، ولكن يدفع عنهم الأخطار مقابل قليل من المال يأخذه منهم كل عام ، يستعد به لذلك الدفاع عنهم ، وليستعين به أيضاً على إقامة حدود الله بينهم ، وأن ينشر بينهم العدل والرحمة طبق دين الله .

والمهم فى كل ذلك هو أن الإسلام يوجب على المسلم أن يحكم نفسه وغيره بدين الله لله . فهو حين يخضع الذمى لله إنما يسوى بين الذمى وبين نفسه فى ذلك ، لأن الناس كلهم حاكمين ومحكومين ، يجب أن يكونوا خاضعين لله ، لأنهم عباده وخلقه ، يعيشون فى أرضه ؛ فأقل ما ينبغى لله عليهم أن ينفذ فيهم حكمه ، فإن لم يطيعوه ويسلموا له بقلوبهم ، وهم عباده ، فلا أقل من أن يحملوا ولو كرهاً على أن يطيعوه فى ظاهرهم لمصلحتهم هم ، ولاستتباب السلام والأمن والصلاح والعدل فى الأرض .

وهذا هو السر فى أمر الله بقتال من لم يخضع لحكمه سبحانه فى آية التوبة : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون

دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فالغرض من قتالهم حتى يعطوا الجزية هو إقامة دين الله ، وحكمه بينهم ، وتحريم ما حرم الله فيهم ، لا إذلالهم لذاتهم ولا لأخذ أموالهم لتنفق فيما تمليه الشهوات . فالغرض الأول والآخر فى الحكومة الإسلامية هو إقامة حكم الله فى الأرض لصلاح الأرض وصلاح الناس ؛ فإذا لم يخضعوا لحكم الله قوتلوا حتى يصغروا ويخضعوا لله ، وهذا هو عين ما يفعله المسلم بأخيه المسلم إذا لم يخضع لحكم الله ، كما هو ظاهر آية الحجرات : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

فالغاية العليا فى الإسلام وحكومته هى إقامة حكم الله فى الأرض بين المسلمين وبين غير المسلمين على السواء . فإذا دخل أهل أرض ما فى الإسلام قنع الإسلام منهم بأن يقيموه بينهم ، وتركوا وشأنهم فى بلادهم ، لا يزاحمهم فيها أحد ولا يرزؤهم أحد شيئاً ، فإن لم يقيموه قوتلوا على إقامته حتى يفيئوا إلى أمر الله ؛ أما إذا لم يسلموا فالإسلام لا يرضى منهم إلا بإقامة حكم الله فيهم . ولما كانوا لا يستطيعون أن يقيموه وهم كفارٌ به ، أقامه المسلمون فيهم . فإذا رضوا بذلك سوّى بينهم وبين المسلمين فى كل شىء ، وأخذ منهم الجزية ، ودفع عنهم من غير أن يعرضهم لخطر فى سبيل ذلك ، وكلف المسلم أن يدفع عنهم ولو بنفسه ، وأن يحميهم وأعراضهم مما يحمى منه نفسه وعرضه . أما إذا لم يرضوا بذلك ، فإن المسلمين يقاتلونهم حتى يرضوا ، وحتى يكون الحكم فى بلاد الله لله .

وفى الحرب كما فى السلم لايخرج المسلم عما شرع الله له فى القتال ، فإن خرج فهو آثم . وآداب القتال فى سبيل الله معروفة مشروحة فى كتب الدين ، منها ألا يقاتل المسلم إلا من قاتله ؛ ومنها أن يدعو العدو إلى الله قبل القتال ؛ ومنها ألا يقتل طفل ، ولا امرأة ، ولا شيخ ، ولا غلام ؛ ومنها ألا يؤخذ برىء بجريرة مذنب ، وألا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ومنها أن يوفى المسلمون بعهودهم التى يعطونها ، وأن يوفوا بالعهد الذى يصدر من أحدهم ، فإذا أمّن أحدهم قوماً أو أحداً ، كان على بقية المسلمين أن يوفوا بذلك ، ولا يخفروا أخاهم المسلم فى ذمته : « المسلمون تتكافأ دماؤهم يجير أدناهم على أعلاهم ، وهم يد على من سواهم » .

فمدار الحكم فى هذه المسألة كلها هو : هل الإسلام دين الله أنزله على محمد رسوله ؟ إذا كان كذلك — وإنه لكذلك — لم يكن هناك استعمار إسلامى ، ولكن استعمار إلهى ، أى إقامة لحكم الله فى الأرض ، وتسوية فى ذلك بين الناس أجمعين ، حاكمهم ومحكومهم . وفى ذلك صلاح الناس ، لا صلاح لهم إلا به ، وفيه تحررهم من كل سلطان غير سلطان الله .

محمد أحمد الغمراوى

ديوان الزكاة

« واستجدَّ ديوانًا للزكاة ، وصرفها للفقراء والمساكين وأرباب البيوت » . المقريزى (كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٥١٠ ، تحت الطبع) .

قرأت هذه العبارة فيما قرأت ، بالجزء الثانى من كتاب السلوك للمقريزى ، ضمن أخبار الأمير تَنْكِـز ، وهو الأمير الذى كان نائب السلطنة المملوكية بالشام ، معظم عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وكان ذلك الجزء من كتاب السلوك مخطوطا ، فمررت بهذه العبارة وعبرتها عَبْرًا غير كريم ؛ فلما جاءنى مطبوعة ، وقد زالت عنها تلك الغشاوة التى يعرفها قراء الكتب المخطوطة ، ألفيتها تشتمل على خبر يوجب الالتفات ، ويتطلب التحقيق . ذلك أنى كنت أظن قضية مسلّمة أن الدولة الإسلامية لما دوّنت الدواوين ، واستعانت فى ذلك بما وجدته فى فتوحاتها من أنظمة الدولتين الفارسية والبيزنطية ، قد جعلتْ للزكاة ديوانا ، يضبط جمعها من أرباب الأموال ، ويهيمن على صرفها « للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل[1] » ، وأن ذلك الديوان كان لا بد موجودا بالدولة الإسلامية فى مختلف العصور ، حتى عصر الدولتين المملوكيتين الأولى والثانية بمصر والشام على الأقل ، وأن ليس فى اهتمام أمير كالأمير تنكز بأمر الزكاة ما يدعو إلى دهشة أو انتباه .

غير أنى لم أجد ديوانا بذلك الاسم بين الدواوين التى نشأت بالدولة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجرى ، وهى — كما هو معروف — ديوان الجيش ، وديوان النفقات ، وديوان بيت المال ، وديوان المصادَرين ، وديوان الرسائل ، وديوان البريد ، وديوان التوقيع ، وديوان الخاتم ، وديوان القَبْض ، وديوان الجَهْبَذَة ، وديوان البِرّ والصدقات ، وغيرها من الدواوين الفرعية[1] .

وربما تبادر للباحث أن فى الاسم الأخير من هذه الأسماء ، وهو « ديوان البر والصدقات » ، كل ما ينشد فى أصل ديوان الزكاة ؛ لولا أنه يتضح من المرجعين اللذين انفردا بالإشارة إلى هذا الديوان ، أنه لم تكن ثمت علاقة بينه وبين الزكاة ومؤديها ومستحقيها . فمن ابن طباطبا أنه لما ولى على بن عيسى الوزارة ، فى عهد الخليفة المقتدر العباسى ، « فشت صدقاته ومبراته ، ووقف وقوفا كثيرة من ضياع السلطان ، وأفرد لها ديوانا سماه ديوان البِرّ ، جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين[2] » ؛ وهذا الديوان هو الذى أورده ابن مسكويه باسم ديوان البر والصدقات[3] . وليس فيما عدا هذا من المراجع الأصلية المعروفة لى أية إشارة — مباشرة أو غير مباشرة — أو أى وصف أو تعريف لهذا الديوان العباسى الأصل .

وعلى هذا يتعين البحث فى ميدان غير الميدان السابق للوصول إلى أصل ديوان الزكاة ونشأته والتعريف به ، وليس ذلك بالأمر العسير أو البعيد ، إذ يوجد بكتاب المواعظ والاعتبار ، وهو الكتاب المعروف باسم كتاب الخطط المقريزية ، عبارات يفهم منها أن السلطان صلاح الدين الأيوبى هو الذى أنشأ ديوان الزكاة ، ومن هذه العبارات أن صلاح الدين كان أول من جبى الزكاة بمصر ، وأنه أمر بتفريقها ، سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) ، « على

(١) سورة التوبة ، آية ٥٩ .

(١) راجع (Mez : Die Renaissance Des Islams) ، وهو الكتاب الذى ترجمه إلى العربية محمد أبو ريدة ، تحت عنوان الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ، ص ١٢٤ — ١٣١ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٣٦ ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩٣٨) .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٥ ، ص ٢٥٧ . (Gibb Memorial Series, Vol. VII, 5) .

الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين ، بعد أن رفع إلى بيت المال السهام الأربعة ، وهي سهام العاملين والمؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله وفي الرقاب[1] » . وكان ذلك عقيب إعلان انتهاء الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي من مصر ببضعة أشهر فقط ، ويظهر أن صلاح الدين أراد بصنيعه هذا أن يشعر الناس بأن مذهب السنة قد عاد إلى مصر بالعدل والشرع ، والخير والتقوى والنفع العميم .

ومنذئذ نشأ بمصر ديوان الزكاة ، وقام عليه موظف كبير اسمه متولي الزكاة ، ومعه موظف ثان اسمه شادّ الزكاة ، عدا فئة من الكتاب اسمهم الأعوان . وكان الأسعد بن مماتي صاحب كتاب قوانين الدواوين ممن تولوا الوظيفة الأولى ، كما كان الطواشي قراقوش المشهور — أو قراقوش غيره — ممن تولوا الوظيفة الثانية سنة ، ٥٨٨ هـ (١١٩٢م) ، وذلك في حياة السلطان صلاح الدين[2] .

غير أنه يظهر مما يلي أن لفظ الزكاة قد تطور معناه ومدلوله في مصر منذ ذلك الوقت ، بحيث صار يطلق على كثير مما لم يكن من الزكاة في شيء كثير ، ففي عهد صلاح الدين نفسه فرضت الزكاة على « البضائع » والمسافرين من الحجاج وغيرهم ، ولما كان أعوان ديوان الزكاة يخرجون كل سنة إلى منية ابن خصيب (المنيا) وأخميم وقوص ، وهي المحطات النهرية للطريق التجاري الأعظم في مصر في العصور الوسطى ، فيفحصون هناك عن أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم ، « فيبحثون عن جميع ما معهم ، ويدخلون أيديهم في أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال ، ويحلّفون الجميع بالأيمان الحرجة على ما بأيديهم وما عندهم ، غير ما وجدوه . وتقوم طائفة من مَرَدة هذه الأعوان ، وبأيديهم المسالّ الطوال ذوات الأنصبة ، فيصعدون إلى المراكب ، ويجسّون عسالهم جميع ما فيها من الأحمال والغرائر ، مخافة أن يكون فيها شيء من بضاعة أو مال . فيبالغون في البحث والاستقصاء ، بحيث يقبح ويستشنع فعلهم ، ويقف الحجاج بين يدي هؤلاء الأعوان مواقف خزي ومهانة ، لما يصدر منهم عند تفتيش أوساطهم وغرائر أزوادهم ، ويحل بهم من العسف وسوء المعاملة ما لا يوصف[1] » .

ولقد نال الرحالة ابن جبير الأندلسي من هذه المعاملة السوء ما أنطقه بالشكوى في عبارات مريرة حادة الأسلوب ، في أكثر من موضع من كتابه المعروف ، وهو الكتاب الذي دون به حوادث حجه سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣م) ، وكان ذلك في حياة السلطان صلاح الدين . ومن هذه العبارات[2] قول ابن جبير إن تفتيش المسافرين والحجاج كان « رسم الزكاة ، دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها » ، وأنه لم ينج من ذلك التفتيش فئات « الفقراء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه » . وفي كتاب المواعظ للمقريزي ما يزكي بعض هذين الاتهامين على الأقل ، إذ ورد به أنه لما رجع شمس الدين محمد بن عثمن الشاعر إلى مصر من بلاد اليمن ، وكان صاحبها الملك طغتكين أخا صلاح الدين قد أجزل صلته وأغناه ، « قبض أرباب ديوان الزكاة بمصر على ما قدم به من المتجر ، وطالبوه بزكاة ما معه » . ومن ذلك كله يتضح أن الزكاة كانت تؤخذ في

(١) انظر المقريزي (المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ١٠٨) ، والمقريزي أيضاً (كتاب السلوك — نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٤٤ — ٤٥) .

(٢) انظر المقريزي (المواعظ والاعتبار ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ١٠٨) .

(١) المقريزي (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٩) . انظر أيضاً ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار — Wright ، ص ٥٥ — ٥٦) .

(٢) ابن جبير : نفس المرجع ، ص ٣٩ — ٤٠ ، ٥٥ — ٥٦ ، ٦٢ — ٦٤ .

أوائل العصر الأيوبي في مصر ممن لم تجب عليه زكاة شرعاً ، بل لدينا أيضاً ما يدل على أن المجتمع من الأموال من هذه الزكاة كان « لا يُتصرَّف فيه ، بل يكون في صندوق مودعاً المهمات » التي يُؤمر بها متولى الزكاة[1] .

وإذاً لم يكن عجباً أن تصبح هذه الزكاة ، ودواوينها وموظفوها ، منبع مضايقات لأنواع كثيرة من الناس بمصر في العهد الأيوبي ، وأن يقوم السلطان عثمان بن صلاح الدين (٥٨٩ — ٥٩٥ هـ ، ١١٩٣ — ١١٩٨ م) بإصلاح جدّى في تلك الجهة ، وذلك بأن أمر بتفويض أمر الزكاة « إلى أرباب الأموال ، ومن وَجَبَ عليه حقٌّ وحَمَله إلى ديوان الزكاة قُبِل منه ، ومَنْ لم يَحْمِل لا يتعرض إليه » . غير أن ذلك الإصلاح النبيل لم يأت بثمرة ألبتة ، إذ بخل الأغنياء بزكاة أموالهم حتى تضرَّر الفقراء والمساكين ، وأخذ السعاة في الإلحاح على السلطان عثمان بوجوب إعادة القديم إلى قدمه ، وبينوا له استعدادهم لولاية الزكاة بطريق الضمان ، كما حدث سابقاً فيما يظهر ، وتعهدوا له بدفع المال المقدر لها في ميزانية الدولة مقدماً أو على دفعات ؛ فخضع السلطان عثمان لضغط الإلحاح ، وضمنت الزكاة بمال معلوم ، و« عاد الأمر فيها إلى ما كان عليه من العسف والجور[2] » .

ويظهر أن هذه الحالة ظلت قائمة بمصر إلى زمن السلطان الكامل محمد بن العادل (٦١٥ — ٦٣٥ هـ ، ١٢١٨ — ١٢٣٨ م) ، إذ ليس فيما لدينا من المراجع سوى إشارة واحدة إلى تنظيم هذا السلطان لشؤون الزكاة ، وذلك عند ما أخرج من زكاة الأموال التي كانت تجبى

(١) المقريزى (كتاب المواعظ والاعتبار — بولاق ، ج ١ ، ص ١٠٨) ، وكذلك ابن خلكان (وفيات الأعيان — De Sacy ، ص ٨٨ ، ١٨٠ ، ٤٨٤) ، حيث توجد إشارات مختصرة بصدد هذا الشاعر المجهول .

(٢) المقريزى (كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

من الناس سهمى الفقراء والمساكين ، وأمر بصرفهما في مصارفهما الشرعية ، ورتّب من جملةهذين السهمين معاليم (مرتبات ثابتة) للفقهاء والصلحاء وأهل الخير تجرى عليهم . وقد استحسن المعاصرون منه هذا الصنيع[1] ، ويظهر أنهم سمّوا ما خصّصه السلطان الكامل من زكاة الأموال لهذه الأغراض باسم « مال السهمين » ، وأن تلك التسمية لصقت بهذا النوع من الزكاة مدة عصر المماليك[2] .

ثم تطوّر استعمال لفظ الزكاة من بعد ذلك تطوّراً مالياً ، وجرى المصطلح باستخدامه في دواوين الدولتين المملوكيتين للدلالة على أنواع من الضرائب المستحدثة والمكوس . ففي عهد السلطان قُطز (٦٥٧ — ٦٥٨ هـ ، ١٢٥٩ — ١٢٦٠ م) فُرضت على الأملاك ضريبة سميت باسم « زكاة الأملاك » ، وقد فرضها هذا السلطان وغيرها من الضرائب للحصول على المال اللازم للتجهز لدفع جيوش هولاكو المغولى عن الحدود المصرية . ويظهر أن هذه الضريبة لم تكن الوحيدة التي انفردت باتخاذ لفظ الزكاة صفة لها ، إذ المعروف أن السلطان قلاوون (٦٧٩ — ٦٨٩ هـ ، ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) أبطل في أوائل حكمه ضريبة اسمها « زكاة الدولة » ، أو « زكاة الدولة » ، وقد ورد في تعريفها أنها عبارة عما « كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبداً وإن عدم منه ، وإذا مات يؤخذ من ورثته[3] » .

هذا وقد وصف القلقشندى أحوال الزكاة في عصره ، أي القرن الثامن الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، بالآتي : « والذى عليه العمل في زماننا بالديار المصرية أن أرباب

(١) المقريزى (كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٩) .
(٢) المقريزى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٩) .
(٣) المقريزى (المواعظ والاعتبار — بولاق ، ج ١ ، ص ١٠٦) ، والمقريزى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٦٤) .

الزكوات المؤدّين لها يفرّقونها بأنفسهم ، ولم يبق بها ما يؤخذ على صورة الزكاة إلا شيئين : أحدهما ما يؤخذ من التجار وغيرهم على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب أو فضة ، فإنهم يأخذون على كل مائتى درهم خمسة دراهم ، ثم إذا اشترى بها شيئاً وخرج به وعاد بنظير المبلغ الأول لا يؤخذ منه شيء عليه حتى يجاوز سنة ، إلا أنهم انتقصوا سنة ذلك فجعلوها عشرة أشهر ، وخصّصوه بما إذا لم يزد فى المدة المذكورة على أربع مرار ، فإن زاد عليها استأنفوا له المدة ؛ ثم إنه إذا كان بالبلد متجر لأحد من تجار الكارم من بهار ونحوه ، وحال عليه الحول بالبلد ، أخذوا عليه الزكاة أيضاً ؛ ويجرى ذلك جميعه مجرى سائر متحصل الإسكندرية فى المباشرة وغيرها ؛ والثانى ما يؤخذ من العداد من مواشى أهل برقة ، من الغنم والإبل عند وصولهم إلى عمل البحيرة بسبب المرعى ، وفى الغالب يُقطع لبعض الأمراء ، ويخرج قصادهم لأخذه[1] » ، وكان يطلق عليه اسم « زكاة العداد[2] » .

ثم إنه يوجد بالقلقشندى أيضاً تعريف واضح لوظيفة شادّ الزكاة بدمشق ، ونصه أن « موضوعها التحدث فى متجر الكارم[3] ونحوه » ، ومن هذا التعريف وحده يتضح أن لفظ الزكاة قد اقتصر معناه فى عصر سلاطين المماليك بمصر والشام على جزء فقط من مدلوله الواسع . بل يوجد بالمقريزى ما ينص على أن الزكاة قد صارت تعتبر فى عصره ، أى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، من الأموال الهلالية والمكوس المستحدثة ، مثل مكس المواريث والثغور والمتجر السلطانى ، وغيرها من المكوس التى يجمعها لفظ الحقوق والمعاملات فى مصطلح ذلك العصر . كما يوجد بالمقريزى أيضاً خان اسمه خان الزكاة ، وكان هذا الخان فندقاً للمسافرين والتجار فقط ، فيما يظهر[1] .

أما بعد فأرجو أن يعلم القارئ أنى قد كشفت بهذه السطور عن جميع ما يجمعنى من حقائق وفروض بصدد ديوان الزكاة ، وأن من تلك الحقائق ما أوردته نصوصاً خالصة ، ورأيت أن أوردها بحالها ؛ ويقينى أن فى كتابات العلماء المعنيين بالتاريخ المصرى كثيراً غيرها من الحقائق والأفكار — والنصوص أيضاً — مما يساعد على تجلية هذا الموضوع الكبير إلى حدّ أوفى وأحمد وأقرب للتمام .

محمد مصطفى زيادة

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، القسم الأول ، ص ٤٦١ — ٤٦٢ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج١ ، ص١٠٧ ، ٣٧٥ ،

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ لطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

أربع صفحات متتابعات

من سيرة رسول الله

— ١ —

هذا يوم العشرين من رمضان سنة سبع من الهجرة ، وقد أخذت مكة صولة الجيش الإسلامي ، ودهمها جند التوحيد من أعلاها وأسفلها ؛ خالد بن الوليد قائد الميمنة يدخل من الليط أسفل مكة يقود جموعاً من غفار وأسلم ومزينة وغيرها ، والزبير بن العوام قائد الميسرة يدخل من كُدى أعلى مكة ، وأبو عبيدة بن الجراح في صف من المسلمين يدخل من أذاخر بين يدى رسول الله .

وقريش وألفافها حائرة ، منها من أُعِدّ للقتال ، ومنها من يدعو إلى السلم ، ومنهم من تردّدت به الشجاعة بين القتال والاستسلام ، فناوش قليلا ثم سكن .

ورسول الله على راحلته مطأطئاً رأسه كأنه ساجد على الرحل تواضعاً وشكراً ، قد غض بصره عن هذا الجيش الكثيف ، وهذا الجند المطيع ، وهذه السطوة المهيبة لينفتح على الحق الذى يدعو إليه ، والعدل الذى يقوم به ، والسلام الذى يبغيه ، والألفة التى يريدها .

هذه هى القرية التى أخرجت الرسول وصحبه قبل ثمانى سنين ، التى هاجر منها رسول الله وصاحبه يلوذان بالغار ليختفيا من الأبصار ، القرية التى أبت على المسلمين الإقامة فيها والخروج منها ، القرية التى آذت محمداً فى دينه ونفسه وصحبه عشر سنين ؛ ثم أتبعته العداوة والحرب حيثما كان ؛ وهذه قريش التى سخرت بمحمد ودينه ، وآذت أصحابه ، وعذبت المستضعفين منهم ، وألجأتهم أن يهاجروا إلى الحبشة ثم إلى يثرب ، ثم حاربتهم فى بدر وأحد ، وألبت عليهم القبائل فى غزوة الأحزاب ، فأحاطت بالمدينة تبغى استئصال المسلمين ، ثم ردت المسلمين عن دخول مكة معتمرين عام الحديبية .

ليس فى هذه البقعة جبل ولا شِعب ولا واد ولا طريق إلا شهد بطش الباطل الكثير بالحق القليل ، والشرك العاتى بالتوحيد الناشئ ، واستهزاء الجهلة الجفاة بالحكماء البررة ، وضوضاء اللغو تطغى على ترتيل القرآن ، وأصوات السخرية تحبط تكبير الصلاة .

واليوم قد أخذت سَورة الحق تهاوِيلَ الباطل ، وزلزل الجبابرة سطوة المستضعفين ، وخرّت الأصنام بكلمة التوحيد . إنه ليوم جزاء وانتقام وقصاص لمن يريد ، وقد قال سعد بن عبادة وهو يحمل راية من رايات المسلمين داخلا إلى مكة : «اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحُرْمة» .

كلا ! كلا ! إن محمداً لا ينتقم لنفسه ، ولا يقتص لأصحابه ؛ ولكنه رسول توحيد ، وداعية ألفة وسلام ... فقد لقى الجهل بالحلم ، والذنب بالعفو ، والإساءة بالإحسان والبغضاء بالمودة .

رسول الله قائم بباب الكعبة يخطب ليعلّم هذه الجاهلية شرائع الدين ومكارم الأخلاق ، ويحطم فى نفوسها أصنام الجهل والهوى والعصبية ، كما أزال عن الكعبة هذه الأصنام المحطمة الذليلة ؛ يقول :

« يا معشر قريش ، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب »

ويقول : يا معشر قريش ، ويا أهل مكة ! ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فيقولون : خيراً ... أخ كريم وابن أخ كريم ؛ فيقول : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

— ٢ —

قبائل هوازن وثقيف تراع لفتح مكة ، وتخشى أن تمتد إليها سلطان الإسلام . فتخرج بقضها وقضيضها عامدة لحرب الرسول ، وتجتمع بوادى حنين بين مكة والطائف ، وتأتى الأنباء رسول الله فيخرج من مكة بعد دخولها بخمسة

عشر يوماً، ويسير المسلمون للقاء العدو قبل أن يحيط بهم. عشرة آلاف أتوا مع الرســول إلى مكة وألفان من أهل مكة، يسيرون للقاء هوازن وثقيف! ها هو ذا وادى حنين تنحط إليه الجيوش فى الغَلَس معتدّة بكثرتها، مغترّة بقوتها، والعدو كامن فى أنحاء الوادى، وأحشاء الظلام. يفجأ هذا الحشد العظيم فيضطرب ويموج بعضه فى بعض، ويأخذ التيار من أراد الهزيمة ومن لم يردها.

وظن الذين لا يعرفون ثبات الإيمان حين يطغى به الكفر، وحِلَك اليقين حين يحيط به الشك، وعزة الحق حين يثور به الباطل، ظن هؤلاء أنها هزيمة طوت فتح مكة وما قبل فتح مكة من جهاد المسلمين؛ وحسبوها حرباً تأكل حرباً، وغفلوا عما وراء الحروب من عقائد وأخلاق.

زُلزل المسلمون زلزالاً شديداً ولكن القطب لم يزل من مكانه. ثبت رسول الله ونادى العباس أصحاب بيعة الرضوان فانثالوا إليه بين الجموع كما ينساب الماء القليل بين الصخور والرصف.

وخلق ثبات الإيمان واليقين والحق من هــذا التفرق اجتماعاً، ومن هذا الاضطراب قراراً، ومن هذا الفرّ كرّاً، فأخرج من هذه الهزيمة نصراً مؤزراً.

لم يَرُع رسول الله هذا الفزع، ولم تأخذه هــذه الظواهر الثائرة، ولكن ثبت ثبات الإيمان، ورسخ رسوخ الحق. وكان فى المأزق الشديد يوم حنين كما كان فى الموكب العظيم يوم الفتح، واثقاً بالله متوكلا عليه، تجيش النفوس وهو مطمئن، وتموج الجموع وهو ساكن. بوقار عظمة لا يبهرها نصر ولا هزيمة، ويقين لا يفجؤه أمن ولا فزع، ووقار لا تستفزه رغبة ولا رهبة.

— ٣ —

واجتمع المسلمون بالجِعْرانة، ماء بين الطائف ومكة، ومعهم من سبى هوازن وإبلها وشائها ألوف كثيرة.

وجاء وفد هوازن يسأل الرسول الكريم، أن يردّ عليهم أولادهم ونساءهم. وقال رجل من بنى سعد، قوم حليمة مرضعة الرسول: «يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كنّ يكفلنك».

ولو شاء الرسول لجزى هوازن بما صنعوا؛ وإنهم لأهل للجزاء، ولكنه لقى جهلهم بحلمه، وجرمهم بصفحه كما فعل بأهل مكة؛ قال: «أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا»؛ فلما اجتمع الناس للصلاة جاء الوفد فتكلموا بما علمهم الرسول؛ فقال: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم. وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله؛ وقال الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله؛ وأبى الأقرع ابن حابس زعيم تميم، وعيينة بن حصن زعيم فزارة، والعباس بن مرداس زعيم سليم أن يتركوا غنائمهم؛ فوعدهم الرسول أن يعوضهم عنها حتى رضوا، ورجعت هوازن بأبنائها ونسائها.

— ٤ —

وقسم الرسول الغنائم على أصحابها، وزاد فأجزل العطية لجماعة من رؤساء العرب قرشيين وغير قرشيين ليتألف قلوبهم؛ ولم يعط أحداً من الأنصار، فعجب الأنصار، وتكلموا فيما بينهم. وجاء سعد بن عبادة سيد الخزرج، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفئ، الذى أصبت، قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شئ.

— فأين أنت من ذلك يا سعد؟!

— يا رسول الله ما أنا إلا من قومى.

— فاجمع لى قومك فى الحظيرة.

اجتمع الأنصار فى الحظيرة وهم عماد هــذا الإسلام وجنده، اجتمعوا عاتبين على قائدهم العظيم، يرون أنه آثر

شاعر الرســـــول

لعل « حسان بن ثابت الأنصاري » قد انفرد من بين شعراء التاريخ بأنه كان اللسان الشاعر المبين لدعوة دينية شاملة ، يذبه مؤسسها للذود عنها ومن أعراض أنصارها ، فنافح عنها ما شاء الله أن ينافح ، وخلّد مواقفها في غرر شعره ، وخلع عليه صاحبها من التكريم ما تنقطع دونه أعناق النظراء : نصب له منبرا في مسجده يلقي من فوقه شعره ، ودعا له أن يؤيده روح القدس ، ووهب له « سيرين » أخت مارية القبطية ، ووعده الجنة جزاء إجابته عن الرسول .

ومن العجيب أن هذا الشاعر ذا الأثر الكبير في حياة الإسلام ، لم ينل من مؤرخي الأدب العربي ما هو جدير به من الدرس والتحقيق ؛ فلا تزال أخباره وأشعاره خليطا من الروايات ، وقد حُمل عليه — كما يقول « ابن سلام » — ما لم يحمل على أحد ، ووضعت عليه أشعار كثيرة لا تليق به . وإنك لتفتش في كتب الأدب فلا تعثر على صورة — ولو غامضة — لشباب « حسان » ورجولته ، وما كان له من إنتاج شعري في الستين سنة الأولى من حياته قبل أن يصل حبله بحبل الإسلام . ولكنهم يذكرون أنه كان أشعر أهل المدر ، أو بعبارة أدق — أن المدينة كانت أشعر القرى العربية ، وكان شعراؤها الفحول خمسة (حسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت) ، وكان أشعر هؤلاء حسان . وهم يذكرون إلى جانب هذا أنه كانت له رحلات وراء الحجاز ، وكانت له صبوات ومجالس شراب ، رافقه في بعضها « الأعشى » ؛ وكانت له مواقف في مدح « بني جفنة الغسانيين » ملوك الشام ، والنعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وقابل فيها « النابغة » و « علقمة » . وتكاد

عليهم جماعة من رؤساء العرب ليس لهم في الإسلام سابقة ولا في نصرته بلاء . فليت شعري ماذا يقول هذا القائد الكريم ، وكيف يرضى خلّص جنوده العاتبين !

استمع :

— يا معشر الأنصار ! ما قالة بلغتني عنكم ، وموجِدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ !

— بلى ! لله ولرسوله المن والفضل .

— ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟

— وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

— أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ثم لصدّقتم : « أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك » ... وجدتم في أنفسكم ، يا معشر الأنصار ، في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم !! أفلا ترضون ، يا معشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ؛ ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ...

اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار !

قال الأنصار ، والدموع تبل لحاهم ، وقد غسلت كلمات الرسول عتبهم ، وأيقظت قلوبهم ، وزادتهم حباً للرسول وطاعة ، وأصابوا فيها ما يحقر كل ما أخذ الناس من مال ، وما يأخذون ؛ قالوا والدموع تبل لحاهم :

رضينا برسول الله قسماً وحظاً ...

عبد الوهاب عزام

كتب الأدب تجمع على أن لاميته المشهورة فى ملوك الغسانيين من أحسن ما قيل فى المدح ، ولا تزال أبياتها التالية — فى رصانتها وسهولة مأخذها — تروق الذوق وتعجبه .

لله در عصابة نادمتهم
يوماً بجلق فى الزمان الأول
يمشون فى الحلل المضاعف نسجها
مشى الجمال إلى الجمال البزّل
يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل
يسقون من ورد البريص عليهمو
بردى يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول

ويظهر أن « حسان » كان واثقاً من الجودة الفنية لهذه الأبيات ، فالرواية تذهب إلى أنه جاء إلى « النابغة » فوجد « الخنساء » حين قامت من عنده ، فأنشده الأبيات السالفة ، فقال له النابغة : « إنك لشاعر ، وإن أخت بنى سليم لبكاءة » . والواقع أن صلة حسان بالغساسنة راجحة الصحة من الوجهة التاريخية ، فالروايات عليها متضافرة ؛ وقد ظل هؤلاء حتى بعد الإسلام يحفظون لشاعر المدينة حسن صنيعه فى مدحهم ، ويبعثون إليه بالهدايا مع من يظفرون به من أهل الحجاز . وبعض شعر حسان فى الإسلام يشير إلى هذه الرحلة إشارات واضحة . وإذاً فلمؤرخ الأدب أن يرجح صحة ما روى من شعر حسان فى آل جفنة ، وأن يتخذ من هذا الشعر على قلته دليلا يهتدى به فى دراسته .

ولعل من شعر هذه الرحلة داليته الخفيفة الروح ، الفنية النزع ، التى يقول فيها :

انظر خليلى بباب جلق : هل
تؤنس دون البلقاء من أحد ؟
جمال « شعثاء » قد هبطن من الم
حبس بين الكثبان فالسند
يحملن حوّاً حور المدامع فى الر
يط وبيض الوجوه كالبرد
من دون بُصرى وخلفها جبل الث
لج عليه السحاب كالقدد

وفيها :

تقول شعثاء لو تفيق من الكأ
س لألفيت مثرى العدد
أشهى حديث الندمان فى فلق الصب
ح وصوت المسامر الغرد

ويظهر أن هذه الأبيات كانت من ضمن ما غُنّى به من شعره ؛ « فالمبرد » يذكر أن حياً من الأنصار أقاموا وليمة ، فحضر الناس وجاء « حسان » ، وقد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن يقوده ... فلما جىء بالطعام أخذت قينتان تغنيان بشعر حسان : « انظر خليلى ... » ، فبكى حسان ، إذ ذكر بهذا الشعر ما كان فيه من صحة البصر والشباب .

على أن المنقب فى كتب السيرة والرواية والتاريخ الإسلامى ، لا يظفر كذلك بصورة واضحة للمراحل الأولى من اتصال « حسان » بالرسول ، ولا بتأريخ دقيق لبدء إسلامه . ويظهر أن صاحب « الأغانى » قد وقف هذا الموقف الحائر نفسه ، ثم لجأ إلى رواية مأثورة عن حسان ، يحاول أن يستنتج منها حكما عن سنه وقت إسلامه .

يقول حسان : « إنى لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان إذا بيهودى بيثرب يصرخ ذات غداة : يا معشر يهود ! فلما اجتمعوا إليه قالوا : ويلك ! مالك ؟ قال : طلع

نجم أحمد ، الذي يولد به ، في هذه الليلة . قال : ثم أدركه اليهودى ولم يؤمن به » . قال أبو الفرج : « فهذا يدل على مدة عمره فى الجاهلية ، لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولد النبي (ص) وله يومئذ ثمان سنين ، والنبي بعث وله أربعون سنة ، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، فقدم المدينة ولحسان يومئذ على ما ذكر ستون أو إحدى وستون سنة ، وحينئذ أسلم » . وقد اعتمد الباحثون على أمثال هـذه الرواية ، فجعلوا تاريخ ميلاده على التقريب حوالى سنة ٥٦٣ ميلادية وكتب التاريخ تذكر أنه عمّر حتى قارب مائة وعشرين سنة ، وأنه مات فى زمن « معاوية » .

وليس فى كتب السيرة تعرّض لذكر « حسان » عند الكلام على بيعتى العقبة ؛ وهم لا يذكرونه فيمن شهد بدراً أو غيرها ، وإن ذكروا أخويه « أوسا » و « أبا شيخ » (أو هما أخوه وابن أخيه) ؛ ولـكنهم يذكرون له شعراً فى هـذه الموقعة وفى معظم المواقف والشئون التى حدثت للإسلام فى أيام الرسول وصحابته .

ومن المحتمل أن يكون صدر « حسان » قد انشرح للإسلام — إن لم يكن قد أسلم فعلا — بعد أن سمع من رجال العقبة ما سمع عن الرسـول ودعوته . ومن المحتمل أيضاً أن يكون إسلامه قد حدث بعد وصول الرسول إلى المدينة ونزوله فى دار بنى النجار ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار . والمروى أنه صلى الله عليه وسلم آخى — فيما آخى — بين « عثمان بن عفان » و « أوس بن ثابت » أخى حسان . ولعـل فى الرواية المتخيلة التى يذكرها صاحب « الروض الأنف » ما يؤيد فـكرة تبكير حسان بالإسلام ؛ فقد ذكروا أن « أسماء بنت أبى بكر » حق عليها وعلى من معها أمر رسول الله ، ولم يدروا أين توجه ورفيقه ، حتى أتى رجل من الجن يسمعون صوته ولا يرونه ، فر على مكة والناس يتبعونه وهو ينشد أبياتاً أولها :

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلا خيمتى أم معبد

ويروون أن « حسان » لما بلغه شعر الجنى فى مكة قال يجيبه :

لقـد خاب قوم غاب عنهم نبيهم
وقد سر من يسرى إليهم ويغتدى

وفيهـا :

لقد نزلت منه على أهل « يثرب »
ركاب هـدى حلت عليهم بأسعد

نبى يرى ما لا يرى الناس حوله
ويتلو كتاب الله فى كل مشهد

وابن هشام روى شعر حسان فيما روى عن موقعة بدر ولـكنه لا يشكك فيه كما شكك فى الشعر المنسوب إلى حمزة ، وعلى ، وغيرهما . ومن أبرز قصائد حسان فى هذه الواقعة وأشبهها به قصيدته التى يعارض بها ميمية « ابن الزبعرى » ، والتى يقول فيها : (وهو أحد المائة الصوت المختارة فى الأغانى) .

تبلت فؤادك فى المنام خريدة ... تشفى الضجيع ببارد بسام
كالمسك تخلطه بماء سحابة ... أو عاتق كدم الذبيح مدام

ومما يعده ابن هشام أحسن ما قيل فى « أحد » قصيدة حسان التى أولها :

منع النـوم بالعشاء الهموم ... وخيال إذا تغور النجوم

وفيها يفتخر بموقفه عند ملك الحيرة (وكان يتصل به أحياناً) وبكونه فى الذؤابة من عشيرته :

وسطت نسبتى الذوائب فيهم ... كل دار فيها أب لى عظيم
رب حـلم أضاعه عدم المـا ... ل وجهل غطى عليه النعيم

ويذكر ابن هشام أن حسان قال هذه القصيدة ليلا فدعا قومه فقال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح فلا ترووها عنى .

على أن أشهر مواقف حسان فى التمكين للإسلام ،

موقفه يوم وفد « تميم » (في السنة التاسعة من الهجرة) إذ أرسل الرسول في طلبه ، ونصب له منبراً في مسجده ، وأمره أن يجيب شاعر القوم ، فقال في ذلك عينيته الخالدة :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهمو
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة
إن الخلائق فاعلم شرها البدع

وفيها :

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع

أهدى لهم مدحتي قلب يؤازره
فيما أحب لسان حائك صَنَع

وقد كان لهذه القصيدة أثرها في اعتراف « تميم » بأن « محمداً » مؤتى له . والحق أن حسان كان آية من الآيات التي أيد الله بها رسوله ؛ فقد كان المشركون أهل لسن وفخر وهجاء ، وقد حاربوا الرسول بهذا السلاح ، فكان لا بد له أن يُعِدّ لهم شاعراً سليط اللسان قوى البيان سريع المعارضة . وقد كان لمسكر المسلمين شعراؤه ، ولا بد أن يكون الكثير منهم قد تطلع لهذا الشرف السامي . ولكن الرسول ثاقب نظره ندب حسان لهذا الثغر من ثغور الدعوة ؛ فحسان أنصاري ، والأنصار قد نصروا رسول الله بسيوفهم ، فهم أجدر أن ينصروه بألسنتهم ؛ وهو من بني النجار ذؤابة الخزرج ، وهو شاعر ناضج معروف المكانة ، ذو شعر لو مزج بالبحر مزجه ، ولسان لو شاء فرى به المزاد . وقد كمّل رسول الله ناحية النقص في عُدّته الهجائية ، فعهد إلى أبي بكر أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ؛ وظهر أثر هذا التعهد في شعر حسان ظهوراً لم يخف على فطانة قريش ، فقالت — إذ أنشدت شعر حسان — : « إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة » . وقد سر النبي لهذا التوفيق الذي أصابه شاعره ، فكان يستنشده ويطيل الاستماع إليه ثم يقول : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » ؛ وروى أنه قال : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ؛ وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ؛ وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى » .

فمن الطبيعي — إذاً — أن تكون لحسان قصائد رائعة في المواقف والأحداث التي مرت بالإسلام ، والتي عنى القرآن بتسجيل بعضها والإشارة إليه في مثل سور الأنفال وبراءة والنور والفتح والحجرات . ومثل هذا السند الديني الوثيق جدير أن يعين مؤرخ الأدب على تصفية الثروة الشعرية التي خلفها حسان ومعاصروه ، وجدير أن يضمن للمقياس الفني القائم على دراسة النصوص وتحقيق الأساليب قسطاً كبيراً من النجاح العلمي . وربما كان من حق الباحث الأدبي أن يفترض — على سبيل التمهيد — صحة أهم قصائد حسان التي قالها في بدر ، وأحد ، ويوم الفتح ، وعام الوفود ، ومراثيه التي بكى فيها الرسول وأبا بكر وعمر وعثمان ، ومدائحه في بعض من حفظوا عهد الرسول فيه كالزبير بن العوام .

أما كيف كان حسان في هيئته ، وماذا كانت مقومات شخصيته ، فتلك مسألة حظها من الوضوح أقل من حظ سابقتها ! وكل ما هنالك أن بعض الصحابة — فيما روى الأغاني — يقول : رأيت حسان بن ثابت وله ناصية قد سدلها بين عينيه . وبعضهم يذكر أن حسان كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ، ولا يخضب سائر لحيته ، فقال له ابنه عبد الرحمن : لم تفعل هذا ؟ فقال : لأكون كأني أسد والغ في دم !

ولعل لهذه الرواية — إن صحت — صلة بسيكلوجية

حسان . فالمروى أنه لم يشهد مع رسول الله (ص) مشهداً ، لأن حسان — كما يقول ابن قتيبة — كان جباناً . وهناك روايات تشير إلى هذا الجبن ، من أطرفها : أنه كان يوم الخندق مع النساء والصبيان في حصنه « فارع » ، وقد مر خارج الحصن رجل من يهود ، فطلبت « صفية بنت عبد المطلب » إلى حسان أن ينزل إليه فيقتله ، حتى لا يدل يهود على عورات من في الحصن — والرسول وأصحابه مشغولون عنهم — فقال لها حسان : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ! واضطرت صفية أن تحتجز وتأخذ عموداً وتنزل إلى اليهودي فتضربه حتى تقتله ، ثم عادت فقالت : يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل . فقال لها : مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب . وأطرف من هذه تلك الرواية الأخرى التي تذكر أنه كان له وتد في آخر الأطم ، فإذا حمل أصحاب رسول الله على المشركين حمل هو على الوتد فضربه بالسيف ، وإذا أقبل المشركون انحاز عن الوتد كأنه يقاتل قرنا ، يتشبه بهم ، كأنه يرى أنه مجاهد حين جبن . ويذكرون أن الرسول سمع حسان ينشد :

لقد غدوت أمام القوم منتطقا
بصارم مثل لون الملح قطاع
يحفز عني نجاد السيف سابغة
فضفاضة مثل لون النهي بالقاع

فضحك الرسول (ص) ، فظن حسان أنه ضحك من صفته نفسه مع جبنه !

وهذه صفة تحتاج في الواقع إلى تحقيق ، ومن الغريب أن أحداً من خصومه على كثرتهم لم يعيره بها ، وكان حقها أن تكون أولى القذائف ضد شاعر ينفي بلاء المسلمين في الحروب ويعير خصمه من المشركين بأنه :

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

على أنها إن صحت فلن تنقص مكانة حسان في تاريخ الإسلام من شيء ، فقد كان بيانه أمضى على أعداء الإسلام من السيف ، ولم تكن حاجة الدعوة الجديدة في بلاد العرب إلى اللسان بأقل من حاجتها إلى السنان . وليس مثل شاعر النبي في ذلك الوقت إلا كمثل وزير لنشر الدعوة في أيامنا الحاضرة لا يضيره أن يكون أعرج أو مكفوف البصر أو جباناً هيابة في الأزمات . ومن يدري فلعل الجبن هنا من أسباب حدة اللسان وسلاطته وحسن بلائه في الهجاء !

وقد عرف الرسول وآل بيته وأصحابه هذه المكانة لحسان ؛ فكرموه طول حياته ، واحتملوا أخطاءه ، وغفرت له عائشة خوضه في حديث الإفك ، وتركه عمر ابن الخطاب ينشد شعره في مسجد الرسول بعد أن حاول صرفه عن ذلك ، وكان يرجع إليه في أحكامه على شعراء الهجاء من مثل النجاشي والحطيئة . وأثنى ابن عباس على مواقفه في نصرة الرسول ؛ وحض الزبير بن العوام جماعة المسلمين على أن يأذنوا لما يسمعون من شعر « ابن الفريعة » وألا يشتغلوا عنه ، « فلقد كان يعرض لرسول الله (ص) فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ، ولا يشتغل عنه بشيء » .

ألا إن حياة حسان لحلقة من تاريخ الإسلام لا بد من تحقيقها ، وذكرى من ذكريات الهجرة لا بد من إحيائها ، وإن شعره وشعر رفاقه وخصومه أيام النبي لناحية في الأدب العربي يجدر أن تفرد بالدرس والبحث . وإذا كان مما وجه عناية باحثي الأدب إلى زهير بن أبي سلمى اتصال الشعر حقبة ما في بيته وبنيه ، فإن آل حسان — كما يقول المبرد — أعرق قوم في الشعر ، « إذ يعتدون ستة في نسق كلهم شاعر ، وهم سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت بن المنذر بن حرام » . ولقد فضل حسان الشعراء بثلاث — كما يقول أبو عبيدة — كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي (ص) في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام .

البحث بقية محمد خلف الله

حديث له مناسبة :

خـــــرافة معمرة !

قالت أمي تحدثني حديث المساء، وإن لها في كل مساء أقضيه عندها حديثاً تُحدثُنيه عن أبيها الذي كان — رحمه الله — ولستُ أشك أن أباها كان رجلاً كبعض ما تصف، ولكنه تاريخٌ بعيد...

... قالت : « وكان له جاه ومال وفيه أريحية ومروءة، وعلى أنه قد مات ولم يخلع رداء الشباب، فقد كانت له حكمة الشيوخ وجلال الرأي وهيبة النظر، وكان المال في خزائنه يوزن ولا يُعد، ذهباً ذهباً وفضةً فضةً ونحاساً أحمر؛ فلما مات ... » .

وعلمتُ أني سينتهي حديثُها وقد بدأت، فقد خلّفها أبوها طفلة وكان له سمعةٌ بالغنى، فما كادت تشبّ وتطرح عن كتفيها ولاية الأوصياء حتى كان مالُ أبيها ذكرى بعيدة لا تنالها يدُ الحاسب؛ ومن ذلك كان حديثها الذي لا تكاد تذكر أوله حتى تَعرف آخرتَه... على أني في هذه الليلة كنت مشوقاً إلى بقية حديثها وإني لأعرفه؛ فقد كان بي في هذه الليلة حاجة إلى حُلم سعيد يمتعني ببعض ما أفتقد في يقظتي من الغِنَى والجِدَة؛ ولذةُ الوهم في بعض أوان الحرمان أمتع من سعادة الواقع ...!

ونمت، ورأيتُني على فرسٍ أشهب كالذي كان يركبه جدّي ... ومن يميني وشمالي بساتين فيها من كل فاكهة وزهرٍ عَطِر؛ ودعاني داعي « الأمير » إلى لقائه، فلما مَثَلتُ بين يديه تحفّى بي وبسط لي وجهه ومجلسه، وتبسّط معنا في الحديث، ولقيتُ في مجلسه رجالاً من التاريخ لهم سلطانٌ وجاه وأمرٌ من أمر السادة؛ وعرفتُ أين مكاني من هذا الناس ... ...

وصحوتُ وفي نفسي من أثر ذلك الحلم السعيد لهفةٌ وحنين، كأن لم يكن حُلماً تمثّل في غفوة ساعة، بل صفحةً من الحياة الواقعة طواها الزمن وخلّفها في الأعصاب ذكرى ماثلة! ...

ورثيتُ لنفسي حين لم أستطع أن أمسك زمامها، وحمدتُ الله بعدُ حين أفقتُ من ذلك الكابوس وثابت نفسي من وادي الأحلام! ...

* * *

... وذكرتُ أن عليّ واجباً أن أكتب اليوم هذا الفصل لهذا العدد، ولم أكن اخترتُ موضوعه بعد؛ وخلوتُ إلى كتابي أذاكره الرأي فيما أكتب لهذه الذكرى المجيدة، فانفتحت لي صفحاته عن أعجب قصة قرأتُ في حياتي ... يا لها خرافة! ...

خرافة معمّرة اصطنعها عقلٌ مريض على لسان شيخ خرف، فذاعت في الناس ذيوعَ الحادثة البِكر، وتقاذفتها الأفواه من واد إلى واد بين شاطئي المحيطين، من شرق الدنيا إلى غربها، وتزيّد فيها الرواة ما تزيدوا يقصّون قصتها في سامر بعد سامر حتى ملأتْ سمع الدنيا وشغلت الناس؛ ثم تناقلتها الكتبُ صحيفة عن صحيفة تنتقل بها في العصور والأجيال كأنها تاريخٌ من التاريخ ...

خرافة، ولكن لها من سيماء خالقها منظرَ الحق الذي لا يُنكَر، لأن بعض عناصرها إنسانٌ حيّ، شيخٌ معمّر يزعم أنه يروي عن رؤية ويخبر عن بيّنة، وإن له هو نفسه منظرَ الخرافة، كأنه حلم من الأحلام أو أسطورة من الأساطير، ولكنه يُستمَع ويُرى، فما يشك أحد في صدق وجوده؛ فما أيسر أن تصدق الخرافة كلها وهذا جزءٌ منها إنسانٌ حيٌّ يتحدث ... ...

هو شيخ معمّر ذاع نبؤه في بعض بلاد الهند في منتصف القرن السابع للهجرة، زعم أنه من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لقيه مرتين، قبل البعثة وبعدها، على بُعد العهد وتوالي القرون!

أما اسمه فهو « رطن بن عبد الله الهندي ثم التبرندي

ابن ساهوك بن جندريو »[1] ؛ ويصفه مَن رآه : « رأيت أسنانه مثل أسنان الخنثى دقاقا ، ولحيته مثل الشوك وفيها شعر أكثره بياض ، وقد سقط حاجباه على وجنتيه رفعهما بكلاب ... ورأيت طول قعدته ثلاثة أذرع ... وكان يجلس فى زنبيل مملوء بالقطن ، والشيخ فى وسط القطن ، والزنبيل معلق فى بعض أغصان شجرة كبيرة ببكرة يصعد بها الزنبيل وينزل ، وصوت الشيخ كطنين النحل ، وكلامه بالفارسية ... » .

وأما خبره ، فهذا ما يقول عن نفسه على ما يروى رُواته عن مشافهة وعيان ، قال :

« سافرت مع أبي وأنا شاب من هذه البلاد إلى الحجاز فى تجارة — منذ ستمائة سنة ! — فلما بلغنا بعض أودية مكة وكان المطر قد ملأ الأودية — رأيت غلاماً أسمر مليح الوجه حسن الشمائل وهو يرعى إبلا فى تلك الأودية ، وقد حال السيل بينه وبين إبله ، وهو يخشى من خوض الماء لقوة السيل ، فعلمت حاله ، فأتيت إليه وحملته وخضت السيل إلى عند إبله من غير معرفة سابقة ، فلما وضعته عند إبله نظر إلى وقال بالعربية : بارك الله فى عمرك ! ثلاثاً ، فتركته ومضيت إلى حال سبيلى ، إلى أن دخلنا مكة ، وقضينا ما أتينا له من أمر التجارة وعدنا إلى الوطن . . .

قال : « فلما تطاولت المدة على ذلك وعلمنا من الركبان أن رجلا هاشميا ظهر بمكة وادعى أنه رسول الله إلى كافة العالم — فلما أن سمعنا ذلك من السُّفار اشتقت إلى أن أراه ، فتجهزت فى تجارة وسافرت إلى أن دخلت مكة ، فسألت عن الرجل الموصوف فدُلّونى على موضعه ، فأتيت إلى منزله فاستأذنت عليه فأذن لى ، فدخلت عليه فوجدته جالساً فى وسط المنزل والأنوار تتلألأ فى وجهه وقد استنارت محاسنه وتغيرت صفاته التى كنت أعهدها فى السفرة الأولى ، فلم أعرفه ؛ فلما سلمت عليه نظر إلىّ وتبسم وعرفنى وقال : وعليك السلام ، أُدْنُ منى ، وكان بين يديه طبق فيه رطب وحوله جماعة من أصحابه يعظمونه ويبجلونه ، فتوقفت لهيبته ، فقال : أُدْنُ منى وكُلْ ، الموافقة من المروءة ، والمنافقة من الزندقة ؛ فتقدمت وجلست وأكلت معهم من الرطب ، وصار يناولنى الرطب بيده المباركة ، إلى أن ناولنى ست رطبات سوى ما أكلتُ بيدى ؛ ثم نظر إلىّ وتبسم ، وقال : ألم تعرفنى ؟ قلت كأنى ، غير أنى ما أتحقق ! فقال : ألم تحملنى فى عام كذا وجاوزتَ بى السيلَ حين حال السيلُ بينى وبين إبلى ! فعرفتُه بالعلامة ، وقلت له : بلى يا صبيح الوجه ! فقال لى : امدد يدك ، فمددت يدى اليمنى إليه ، فصافحنى ... وقال لى عند خروجى من عنده : بارك الله فى عمرك ! ثلاثاً أخرى ، فودعتُه وأنا مستبشر بلقائه وبالإسلام ، فاستجاب الله دعاء نبيه وبارك فى عمرى بكل دعوة مائة سنة ، وها عمرى الآن ستمائة سنة وزيادة ... »

هذا مجمل خبر الشيخ كما نقله رُواته عنه ، يختلف حرفاً أو يزيد حرفاً على اختلاف الرواة ؛ وقد لقيه فى أوائل المائة السابعة ومنتصفها جماعةٌ من نَقَلة الأخبار لا أراهم يجتمعون على الكذب ، منهم الشامى ، والمصرى ، والمغربى الأندلسى ؛ ومنهم مَن قصد إليه الرحلةَ من بعيد لينقل خبره عن عيان وحِسّ ؛ ويحكون أن جميع من بما كنونه فى ضيعته كلهم من أولاده وأولاد أولاده ، ليس بينهم غريب ؛ وليس عجيباً أن يكون أهل البلدة جميعاً على كثرتهم أبناءَ رجل واحد وحَفدتَه إن صحّ فى نواميس الطبيعة أن رجلا من بنى آدم يطوى حيًّا سبعة قرون من عمر الزمان !

ولهذا الشيخ رواية وحديث ينقله عنه طائفةٌ عن طائفة ، وقد ذكره صلاح الدين الصفدى فى تذكرته وأكّد وجوده ولم ينكر خبره ؛ وليس كل ذلك باطلا فيما أرى وإن كان الحق أقل ما فيه ، ولست أتناول هذه القصة ، فى هذه الناحية ، لأثبت أو أنفى وحَسْب ؛ فإن من الهين على كل قارئ تمييز حقها من باطلها ؛ فليس من صواب الرأى إنكار وجود هذا الشيخ وقد رآه مَن رأى

(١) اعتمدنا فيما روينا من خبر هذا الشيخ على ما رواه الحافظ ابن حجر فى « الإصابة » فى القسم الرابع من باب الراء ؛ ولحديث الشيخ صلة تجول ...

وحدَّث عنه مَن حدَّث ، ولكنَّ الباطل المنكَر ما زعمه ذلك الشيخ الخرِف ! على أن هذا الذى زعمه ليس فيه من قوة الشُّبهة ما يحمل على تناوله بالجد ، ولم يكن يقتضى هـذا الجهدَ الذى بذله معاصروه والقريبون من عصره لتكذيب ما رواه عن نفسه على ما حكاه الحافظ ابن حجر ، فإن أُكذوبته واهيةُ البناء منذ أولها ...

... وما أراه كما قال الذهبى : « شيخاً ضالاً أسس لنفسه بيتاً فى جهنم بكذبه على النبى ، أو شيطاناً تبدّى فى صورة بشر ... » إن أمره لأهْوَنَ من ذلك ! ولعله كان صادقَ السريرة فيما روى عن نفسه من كذبٍ وزور !

إنه — فيما أراه — شيخٌ من المتصوِّفة قد جاوز المائة الأولى ولم يَعْدُ الثانية ، أو لعله عداها فما يستحيل ذلك على بشر ، وأحسبه كان فى أوليته كثير التعلّق بسيرة النبى موصولَ العهد بِسُنَّته ، وكان إلى ذلك فتًى واسعَ التخيُّل ، شاعريَّ النزعة ، مشبوب الهوى ، وَحدانىَّ الحب ، أُلوفَ الطبع ، مطوىَّ القلب على فكرة واحدة لا تبرحه ! ولقد يكون عجيباً ممن يجمع لنكل هذه الصفات أن يعمِّر ! فإن طاقة الجسد البشرى لا تحتمل طويلاً إلحاح هـذه المعانى الضيقة على إحساس الكائن الحى ، ككُرة المطاط : تحتمل ما تحتمل من نفخ النافخ إلى حد ، ثم تنفجر وتتمزق ولا تُمسك من الريح ولا نفخةً نافخ ! ولكن هذه الكرة قد تصير شيئاً آخر غير كرة المطاط ولا يضيق فراغُها المحدود بمثل حجم الكرة الأرضية من الهواء — إذا وجدت فى بعض جوانبها ثقباً صغيراً تُرسل منه ما يزيد على طاقتها من ضغط الريح ونفخ النافخ ! وكذلك كان هذا الشيخ ، وكان الثقب فى عقله ... فعُمِّر ما عمِّر ومات الجزء الحىّ من إنسانيته بخرف ، وعادت أشـواقه الصوفيةُ أمانىَّ ، وتمثلت أمانيه أحلاماً ، وتجسَّدت أحلامه فى عقله المريض على صورة من الحقيقة خيِّلت له ما خيِّلت ، فاصطنع هذه الخرافة الطريفة ، وكان وجوده هو نفسه خرافةً أخرى معمَّرة !

ورأى — إلى هذا — أن أول ذلك كان منه يوم نظر حواليه فلم يجد أحداً من جيله يذكِّره ما كان من ماضيه ، ثم لم يجد أحداً ممن يعرف أوليَّته ومنشأه ، ثم أحاط به ما يحيط بكل شيخ قد انقرض جيله وجيلٌ من بعده : طوائفُ من المحدِّثين يستنبئونه أنباء الماضى ويتقصَّون منه آثار التاريخ ، وأخذه ذلك من وحشته أنساً فاستراح إليه ، وكان رجلاً موصوفاً بالصلاح والعبادة ، فجرَّه حديثٌ إلى حديث ، واختلطت فى واعيته ذكرياتُه بأمانيه البعيدة ، ورأى نفسه ذات يوم يقص هذه القصة الطريفة فوجد من يُصدِّقه ، فكذب على نفسه كذبة أشعبية[1] ، ولم يدر منذ اليوم ما يقول ولا ما يُحكى عنه ...

... ما ذا من الفرق بين خيال المتخيِّل ورؤية الرائى إلا وعىُ الواعى وقوةُ ضبطه ؟ فإذا اختلطت فى وعيه منابعُ الإحساس والمعرفة ، واختلَّ فى ميزانه قانون الضبط والإرادة — فما ثمةَ حقيقةٌ ولا خيال ، ولا صدق ولا كذب ، ولكنه شىء له فى عقل قائله معنى وفى ذهن سامعه معنى غيرُه ، وكذلك نختلف فى حياتنا العادية أو نأتلف فى الحكم على كل ما يصدر عنا من أعمال !

* * *

خشيتُ والله أن يخدعنى الحلم الذى رأيتُ أمس عن حقيقة نفسى فيخيَّلَ إلىَّ ... لا ، بل ليته كان من قوة الأثر بحيث يخدعنى أبداً عن حقيقة نفسى ، فأعيش به من توهُّم السعادة بعيداً عن حقيقة حياتى التى أعيش ! !

« قاف »

---

(١) قالوا : كان أشعب طماعاً ، وكان يكذب ، فيحكى أنه كذب مرة على جماعة من الصبيان فقال : اذهبوا إلى دار فلان فإن بها وليمة ! ...

فلما انصرفوا الأمر ورأى جموعهم فى الطريق إلى دار فلان ، تبعهم يلتمس نصيبه من الوليمة !

فهذا هو ما نسميه « الكذب الأشعبى » : يبلغ من نفس الكاذب أن يصدق ما افتراه بلسانه !

الصديق أبو بكر
و
عبقرية عمر

نهضة مباركة أن يتجه كبار أدبائنا إلى عظماء الإسلام يحللون شخصياتهم ، ويجلون نواحي عظمتهم ، ويعرضون أعمالهم المجيدة عرضاً جديداً جذاباً يستهوى القارئ إلى مداومة القراءة ، ويبعث في نفسه رغبة التأسي ، ويشعره بأن له من قومه من يفتخر بعظمتهم ويعتز بالانتساب إليهم .

كذلك فعل الدكتور محمد حسين هيكل فيما كتبه من « حياة محمد » و « في منزل الوحي » و « الصديق أبي بكر » وكذلك فعل الأستاذ العقاد في كتابيه « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » .

وكان جميلا منهما هذا التحول بعد أن كتب الأول في « جان جاك روسو » وما إليه ، وكتب الثاني في « جوته » وما إليه ؛ فالنفس أكثر ولوعاً برجال قومها ومعرفة سر عظمتهم ومناحي عبقريتهم ، تشعر بأن الحديث عنهم حديث عنها ، والكلام في نبوغهم إعزاز لها وبعث لحياتها .

والأمم في نهضتها أحوج ما تكون إلى عرض النماذج ، وتقديم المثل — ولأن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم وأدبائهم من يشيد بعظمائهم ويستقصي نواحي مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحياناً أن يتزيدوا في نواحي هذه العظمة ، ويعملوا الخيال في تبرير العيب وتكميل النقص تحميساً للنفس ، وإثارة لطلب الكمال . أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا سدود وحواجز حالت بين شباننا وجمهورنا والاستفادة منهم ، ذلك أن مؤرخينا القدماء وأدباءنا الأسلاف أدوا ما يجب عليهم لزمانهم ، فعرضوا التاريخ عرضاً يتفق وذوقهم وأسلوبهم ، ولكل عصر أسلوبه وذوقه . فلما وصلنا إلى عصرنا رأينا ثروتهم التي خلفوها لنا لا ينتفع بها إلا الخاصة ، ومن صبر طويلا على ممارسة صعابها وحل مشكلاتها ، فكان لا بد لنا من أدباء ومؤرخين ذوي عينين ، عين تدرك القديم وتفهم أسراره وخفاياه ، وعين تدرك روح العصر وحاجة أهله إلى تقديم هذه الثروة في أسلوب يتعشقه ، وعرض يستسيغه ، ولغة يفهمها ، وتحليل يتذوقه .

وهذا ما فعله أديبانا جزاهما الله خيراً .

ولعل هذه الحركة تستمر وتستمر حتى لا يكون عظيم في الإسلام إلا وله كتاب أو كتب تحلل شخصه ، وتظهر مجده ، وتحيي حياته ، وتصدر حكمها فيما له وعليه .

من أجل هذا نستقبل هذين الكتابين بالسرور والإعجاب لتحقيقهما هذه الفكرة من جهة ، ولقيمتهما التاريخية والأدبية من جهة أخرى .

كلا المؤلفين أديب وسياسي وصحفي ، وبهذه الصفات الثلاث تتجلى مظاهر الكتابين ، فثقافتهما السياسية ، وممارستهما للسياسة عملاً جعلتهما يدركان إدراكاً صحيحاً مواقف من يترجمان له في حروبه ومناوراته السياسية ، وتحليل موقفه ، ووجهة نظره ، والتعرض لوجهة نظر خصومه ، والوقوف موقف الحكم بينهما ، ومناقشة المسألة مناقشة برلمانية ؛ ومرانهما الصحفي جعل أسلوبهما يجري في تدفق ، وقلمهما يسير في يسر ، وهما يبسطان المسألة بسطاً سهلا جذاباً يلذ القارئ وينسيه نفسه ؛ وأدبهما جعلهما يكملان من خيالهما ما أغفله التاريخ ، ويدركان تمام الإدراك نقص حلقات السلسلة ، فيسمحان لأنفسهما بخلقها مستأنسين بمنطق الحوادث . وشيء آخر هام في عملهما الأدبي ، وهو مهارتهما في تحويل التاريخ إلى شبه قصص له لذته ومتعته وسحره .

في كل هذا يتفق المؤلفان ، ولكنهما اختلفا بعدُ في طرق معالجة ما يعرضان له ؛ فالدكتور هيكل تتلون طريقته في كثير من الأحيان بلون المؤرخ ، فيعرض للروايات المختلفة في الموضوع ، وما حكاه المؤرخون من الأنظار المختلفة ،

كما فعل في بيعة على لأبي بكر ، وكما فعل في حروب الردة ، ويدعوه ذلك إلى الإسهاب في بعض التفاصيل ؛ أما الأستاذ العقاد فينحو غير هذا النحو ، يدرس الروايات المختلفة في السر ، ويدرسها لنفسه لا للقارئ ، ويطمئن في نفسه إلى رأى ، ثم يستعمل قلمه في هذا الرأى يعرضه ويحليه ويحتج له ، ولا يشرك القارئ معه في دراسته ، ولا في استعراض التفاصيل ، شأنه شأن الأديب ، ينظر إلى المنظر من طيارة ويصوّره أيضاً من طيارة ؛ والدكتور هيكل ينظر إليه من أرضه في أرضه فيلمسه ويجسه ، ويدور حوله وينقد فيه ليراه في أوضاعه المختلفة .

إن أخذ شيء على الدكتور هيكل في هذا الباب فهو أنه أحياناً يستعرض الروايات المختلفة ، ثم لا يناقشها ليظهر ضعف بعض وصحة بعض حسبما تدل عليه البينات وظروف الأحوال ، كما فعل عند الكلام في بيعة على لأبي بكر ، عرض الأقوال المختلفة ولم يبد فيها رأياً ، وكان يستحسن أن يكون ، وعرض بعض الروايات في حروب الردة ، ثم قال : «وسواء صح هذا أو لم يصح» إلى مثل ذلك . والحق أنه أحياناً أخرى يقف موقف القاضي فيناقش ويرجح ويحكم . وإن أخذ على طريقة الأستاذ العقاد شيء فهو أنه يفرض رأيه على القارئ لأنه لم يعرض غيره ، ولأنه درس المقدمات لنفسه وفي نفسه ولم يعرض على القارئ إلا نتائجه .

لون «هيكل» كتابه بلون العلم ، فهو يصف الشجرة جذورها وساقها وأغصانها وزهرتها ؛ وصبغ «العقاد» كتابه بصبغة الفنان لا يرى من شجرة الورد الجميلة إلا وردتها الجميلة . ولهذا ذكر «هيكل» صاحبه لأن هذا عمل المؤرخ ، ولم يثبتها العقاد لأنه عمل الأديب .

فهيكل يساير أبا بكر من أبويه وصباه وإسلامه ، ويتتبع حياته خطوة خطوة في بيعته ، وأعماله في خلافته عملا عملا إلى مرضه ووفاته .

والعقاد يرى في «عمر» أعلاما بارزة يتخيرها ويركز عليها كلامه ، ويطلق فيها قلمه ، ويحللها ويجليها ، ولا يتركها حتى يصفى حسابه معها ، فلا تهمه تفاصيل فتوح عمر ، ولكن يهمه نظرة عامة في عمر والدولة الإسلامية ، وهكذا . ولكل شيخ طريقته ، ولكل طريقة مزاياها .

قد يكون في كل من الكتابين هفوات قليلة جرى بها القلم سهواً ؛ ففي كتاب — الصديق أبي بكر — مثلا ص ١٩ « أن زيد بن ثابت مولى رسول الله الذي اشترته خديجة » ، وهو سهو ظاهر ، فزيد بن ثابت أنصاري خزرجي لم يجر عليه رق ، كتب الوحي لرسول الله ، ومولى رسول الله هو زيد بن حارثة الذي كان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت آية « ادعوهم لآبائهم » .

وفي كتاب « عبقرية عمر » ص ٢١٩ أن الأنصار يقولون إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة ... ، ولأنهم جميعاً من قريش » ؛ والأنصار أوس وخزرج ، وكلاهما من أصل يمني وليسوا قرشيين ولا مضريين[1] ، وهي فلتات يعثرة القلم أشبه .

بقيت مسألة هامة كثيراً ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهي أن العظيم مهما عظم له خطآت ، وإلا ما كان إنساناً ، والعصمة لله وحده ، فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك في تفصيل ، فيذكر كل ماله ويشيد بذكره ، ويذكر خطآته وينقدها ، ويعلم بذلك درساً في نواحي مجده ، ودرساً آخر في مواضع خطئه ؛ أو واجبه فقط تجلية نواحي العظمة ، والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ ؟ أما أنا فأرى أن الرأى الأول أوجب ، متأسياً بأبي بكر وعمر أنفسهما ، والمؤلفان الفاضلان إلى الرأى الثاني أميل .

وعلى الجملة ، فالكتابان يعدان باباً طريفاً في الأدب العربي . نرجو أن يظل مفتوحاً للمؤلفين ، ولمن يسير على نهجهما ، حتى ينال كل عظيم في الإسلام حظه ، ويعرف قومه مجده .

أ . أمين

(١) سبقني إلى التنبيه على هذا كاتب فاضل في مجلة الرسالة .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين مصر —

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٥ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢١٢ الثلاثاء ١٣ من المحرم سنة ١٣٦٢ — ١٩ من يناير سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

على هامش الحرب :

٢ – الأساطيـــل البحرية

للأستاذ السيد محمود زكى

ومن المهام الملقاة على عواتق الأسطول أيضا حماية القوافل التجارية ، ويتوقف عدد المدمرات أو البوارج البحرية التى تحرس قافلة ما على عدد البواخر التى تتولى حراستها . وتتلقى عادة هـذه البواخر التعليمات الخاصة بإبحارها من ميناء معين بمفردها فى موعد خاص ، ثم تتلاقى مع البوارج الحربية المكلفة بحراستهـا . وغالبا ما تسير البواخر التجارية الواحدة فى إثر الأخرى على شكل صفوف متوازية ، وتحدد سرعة القافلة بسرعة أقل باخرة فيها .

وعندما يحل الليل يتحتم عدم إنارة أى أضواء بالمرة ، بل يحاكم أى شخص يشعل سيجارة فوق ظهر أى سفينة .

ويجب على ربان كل سفينة السير بالسرعة المحددة له بالضبط منعاً من حدوث أى تصادم ، وبخاصة فى الليل لشدة الإظلام التام ، فإذا زادت سرعة أى سفينة عن القدر لها كانت عرضة للتصادم مع السفينة التى أمامها ، وإذا نقصت من سرعتها المحددة لسيرها صدمت بمؤخرتها السفينة التى تسير فى إثرها .

وتخصص بعض الضباط ، سواء على السفن الحربية أو التجارية ، المراقبة ، وهى عمل شاق ؛ ويجب أن تكون لدى دائرة نصف قطرها نصف ميل من مقدمة أو مؤخرة السفينة ، أو لبعض مئات من الياردات على جانبيها .

ويكلف الركاب فى بعض البواخر التى تنقل المسافرين

بمهمة المراقبة بنظام دورى ، وقد اشترك بالفعل فى مهمة المراقبة بعض المصريين الذين حضروا من إنجلترا عن طريق جنوب إفريقيا .

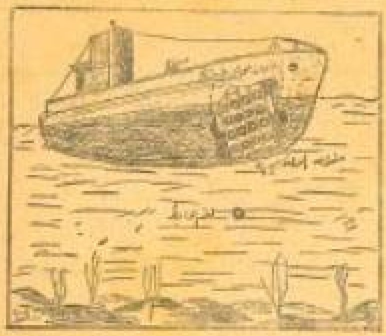
وتوجه المراقبة بصفة خاصة نحو الغواصات المعادية ، التى تزحف عادة نحو القافلة على بصيص نور الفجر الضعيف ، حتى تتلمس صيدها مختفية عن المدمرات ؛ وإذا حدث ولم تكن المراقبة دقيقة ، وتمكنت إحدى الغواصات من التسلل بين القافلة ، فإنها تصيب بطوربيد منها هدفها ، وفى هذه الحالة تطلق السفينة التى أصيبت صفارة إنذار قوية علامة على أنها دمرت ، فتنتشر بعيداً سفن القافلة ، وتتسابق المدمرات نحو مركز الإصابة لتحيط به على شكل دائرة ، محاولة اقتناص الغواصة لنسفها بالكثير مما تسقط من ألغام الأعماق ؛ ولا يكتفى بهذه الألغام التى تلقى على مساحات واسعة لضمان إصابة الغواصة ، بل إن رجال المدفعية يكونون على استعداد لإطلاق مدافعهم عند مشاهدة أى أثر يدل على مكان الغواصة وهى تتحرك تحت سطح الماء ، فإذا وقعت الفريسة فيا نصب حولها من شراك كان بها ، وإلا فإن القافلة تستأنف سيرها ، وتترك مهمة البحث عن الغواصة ومطاردتها لبعض الطائرات .

وأخطر ما تتعرض له القوافل هو من فعال الغواصات ، أما هجمات الطائرات فهى نادرة ، وذلك لما تلقاه من إصابات كثيرة من المدافع المضادة التى تكون دائماً على استعداد لتكييل طلقات مستمرة نحو الطائرات المهاجمة .

وكما أن الأساطيل أو القوافل تتعرض لخطر الألغام المبثوثة فى جوف المياه ، والتى تبقى مثبتة ساكنة فى مكانها ، إلى أن تصيد فريستها وتنسفها بوسائل مختلفة ، سيأتى ذكرها مختصراً فيا بعد .

وتستخدم الألغام عادة لغرضين ، الأول : هو حماية المياه الإقليمية والموانئ ؛ والثانى تعطيل حركة سفن الأعداء فى مداخل موانيه ، فتصبح الملاحة خطرة باختراق هذه المناطق .

وتبث الألغام فى المناطق المحددة لها بسفن أو غواصات



طريقة انتشار الألغام تحت سطح الماء بواسطة إحدى غواصات بث الألغام

أو طائرات خاصة لذلك . ولما كان حجم الألغام كبيراً ضخماً ، لما تحويه من هواء يكفى لطفوها قريباً من سطح الماء ، بالإضافة إلى ما يوجد بها من شحنات مفرقعة قوية ، فإن طائرات بث الألغام لا يمكنها أن تحمل أكثر من لغمين ممغطيسين فى وقت واحد ، على أن تقترب الطائرة من سطح الماء ، وتسقط الواحد بعد الآخر وإلا فإنها تلقى باللغم ، ويكون به « براشوت » يفتح آليا عند اقتراب اللغم من سطح الماء .

ولضمان سلامة السفن أو الغواصات التى تبث الألغام من الألغام نفسها ، يوجد عادة لكل لغم مثبت غاطس يصحب اللغم إلى قاع البحر ، ويعمل كهلب السفينة ، وعند ما يسقط اللغم مع الغاطس للقاع يطفو بمفرده إلى أن يصل قريباً من سطح الماء للارتفاع المحدد له ، ويضبط ذلك السلك السميك الملفوف والموجود بالغاطس

ويوجد لأغلب الألغام نتوءات بارزة من السطح العلوى ، وتتصل بمفجر ، فإذا اصطدمت سفينة بأحد هذه

النتوءات انفجر اللغم ونسفت السفينة في الحال .

أما في حالة الألغام المغنطسة ، فإنها تنفجر دون ملامسة السفينة . ولفهم طريقة ذلك يجب أن نفهم شيئاً عن المغناطيسية الأرضية ؛ فمن المعروف أن الصلب الذي تصنع منه السفن يكتسب شحنة من المغناطيسية الدائمة تختلف وفقاً للمكان والوضع الذي تبنى فيه السفينة .

فإذا مرت سفينة بالقرب من أحد الألغام المغنطسة المتصل بمفجره إبرة مغناطيسية ، تهتز الإبرة من أثر الشحنة المغناطيسية التي بالسفينة ، وتميل اللغم متجهاً ناحية السفينة ، ويكون لهذه الهزة أثر في قفل دائرة كهربيّة ينفجر منها اللغم .

ولقد بدأ الألمان باستخدام هذا النوع من الألغام في الحرب الحالية ، وكانت مفاجأة غريبة ، غير أن العلم لا يقف مكتوفاً أمام مشكلة تواجهه ؛ فقد التقط أحد هذه الألغام بالقرب من جزء من شواطئ انجلترا ، وعكف على فحصه ودراسة تفاصيل تركيبه رجال من مصلحة الألغام التجريبية بانجلترا ، وتوصلوا بعد عمل متواصل إلى معرفة سر صنعه ، وأمكن بذلك التوصل إلى طريق علمي للتخلص من ضرره ؛ ويتلخص ذلك في تفريغ شحنة المغناطيسية التي تحملها الباخرة ، بأن يعلق سلك سميك مشحون بشحنة كهربيّة حول الباخرة ، ليمنع من تأثير المغناطيسية على الإبرة الموجودة باللغم .

وتقدم الألمان بمفاجأة أخرى أخيرة ، وهي أنهم يستخدمون ألغاما صوتية ؛ وتتلخص نظريتها في أنه يوجد للغم الواحد منها بوق حساس ، يلتقط أصوات المحركات بالباخرة فيهتز لها ، وتحدث ذبذبات تختلف باختلاف قرب أو بعد محرك الباخرة منه ، ويترتب على ذلك اتصال آلي في جهاز اللغم فيحدث الانفجار .

وتطهر المناطق التي يوجد بها ألغام ، ضماناً لسلامة القوافل أو سفن الأسطول ، بواسطة سفن خاصة هي كاسحات الألغام . وهناك طريقتان لاكتساح الألغام :



في المياه الضحلة يثبت سلك بين سفينتين من كاسحات الألغام ، ويتحرك تحت سطح الماء في اتجاه سير السفينتين ، فإذا صادف مسلكه لغماً معلقاً بسلك قطعه ، وترتب على ذلك ارتفاع اللغم وطفوه على سطح الماء ، فيدمر برصاص البنادق أو مدافع الماكينة .

أما الطريقة الثانية فيقوم بتنفيذها باخرة واحدة بمفردها ، وطريقة ذلك أن يثبت السلك الكاسح بطرف السفينة بطريقة تبعد حركته عن السفينة الكاسحة نفسها ، ويزود هذا السلك بجرارة حادة قاطعة تقطع كل ما يصادفها من سلوك الألغام المثبتة كما هو واضح في الطرف الأيسر للرسم أعلاه .

وعندما تعمل كاسحات الألغام ترفع فوق ساريتها ثلاث كور لونها أسود ، محذرة بذلك باقي السفن لتبتعد من الأخطار المحيطة بها ، كما أن رجالها يرتدون ملابس الإنقاذ باستمرار وقت عملهم .

* * *

وأخيراً يتوقف نجاح أي سفينة حربية أو تجارية ، أيا

كان نوعها ، على مهارة ضابط القيادة أو مساعديه الذين يتولون شئون الملاحة في تعرف المكان الحقيقي الذي تسير فيه السفينة ؛ وعلى ضابط القيادة أن يتفادى المناطق الوعرة الخطرة ، سواء أكانت طبيعية كالصخور أو الرمال ، أم غير طبيعية كالألغام ؛ ويساعده على تعرف الأماكن التي يجتازها وكذا تحديد موقعه بالضبط أحدث الوسائل من آلات الملاحة ، فهناك البوصلة البحرية «Gyroscopic Compass» التي لا تتأثر بمغناطيسية السفينة ، وهناك أجهزة لالتقاط الأصوات لقياس الأعماق ، وهناك آلة السدس وغيرها .

وقد يظن لأول وهلة من الناحية النظرية أن الاعتماد على تطبيق هذه الآلات يجعل الملاحة أمراً يسيراً ، ولكن الحسابات التي تجمع منها تكون مليئة بالأخطاء العجيبة .

فقد يهب ريح قوى أو تؤثر تيارات الماء غير الثابتة على السفينة فتنحرف عن طريقها ويجد الربان نفسه في نقطة غير التي يقصدها نتيجة اعتماده على البوصلة وحدها .

وأضبط الطرق التي يتبعها لتحديد مكانه بالضبط هو أن يتخير نقطتين ثابتتين على الأرض من النقط المعروفة أو المميزة والمبينة بالخرائط التي عنده ، وإذا تعذر ذلك يلجأ إلى الشمس أو أحد النجوم المعروفة ، وفي الحالة الأولى يجعل السفينة رأساً لزاوية ضلعاها ينتهيان بالنقطتين الثابتتين ؛ وفي المرة الثانية يجعل الضلع الأول للزاوية ينتهي بالشمس أو النجم ، والضلع الثاني مع سطح البحر ، ويساعده في قياس الزاوية آلة السدس . وبذلك يمكن للربان تحديد موضع السفينة بالضبط .

***

ويحسن أن نعود الماضي قبل أن نختم هذا المقال ؛ ففن الحرب يتطور وينتفع بكل المخترعات العلمية لأقصى حد ممكن ؛ ولما كان أساس الحرب السرعة ، فقد تطورت أساليبها ؛ فقد كانت المواقع البحرية تدار بالمراكب الشراعية ، وكان قائد المركة مقيداً ويخضع في تنفيذ خططه لعوامل الريح ، ولكن ، استخدم البخار في إدارة الأساطيل البحرية فزادت سرعة السفن الحربية ، فبعد سرعة ٤٠ ميلاً في اليوم — وهو متوسط سرعة المراكب الشراعية — زادت السرعة إلى ٤٠ ميلاً في الساعة ؛ كما زادت حمولتها ، فبعد أن كانت لا تعدو الألف طن (وهى أكبر حمولة لأكبر بارجة في الحرب الاسبانية الانجليزية) ، أصبحت آلافا مؤلفة (٤٢٠٠٠ طن للطراد) ، وهذه الأطنان الثقيلة تضم أثقالا كبيرة من القذائف .

وزالت دولة الفحم وأزاحه البترول عن عرشه ، واكتشف المحرك ذو الاحتراق الداخلي ، وآلات الديزل ؛ وكلها أدوات تحقق جنون السرعة التي ينشدها الإنسان ، ولا نعلم ماذا سيكون نصيب العالم منها .

السيد محمود زكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٢٠ للطلبة ومعلمي الإلزام
٤٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

فى الطـــــريق

مررت أمس فى الشارع فرأيت « عسكرىّ المرور » يرفع يده أو يصفر ، فيقف كل من فى جانب ، ويتحرك من فى جانب ، ولا من يجرؤ على مخالفته ، كأن فى يده عصا سحرية ترغم على الطاعة .

الموتوسيكلات يطيعون ، وسائقو السيارات بما يحملون من بكوات وباشاوات ، وآنسات وسيدات يطيعون ، والمارة على أرجلهم يطيعون ، فما كل هذه العظمة ؟

ليت هذا السحر كان فى لسان المعلم ، يأمر وينهى تلاميذه فيطيعون ، فإنى أرثى لحالهم يأمرون فيعصون ، وينهون فيعصون ، وهم وتلاميذهم فى نزاع دائم ، وحرب مستمرة ، ويذهب المعلم آخر النهار كأنه ضرب مائة سوط من كثرة الحاكة والمخاصمة .

وليت هذا السحر كان للمصلحين ، فقد بح صوتهم ولم يسمع نداؤهم ، فطالما قالوا للأغنياء تبرعوا للفقراء فلم يتبرعوا ، وللكسالى جدوا فلم يجدوا ، وللحكام اعدلوا فلم يعدلوا ، وذهبت أقوالهم فى الصحف والمجلات والكتب والخطب أدراج الرياح ، ولو منحت أقلامهم وألسنتهم قوة « عسكرىّ المرور » لصلحت الأمور فى لحظة ، وتقدمت الأمة ألف خطوة فى لمحة .

وليت هذا السحر كان للآباء والأمهات فى البيوت ، فإنا نجد الأسرة نارًا متقدة ، ونزاعًا حاميًا ، يأمر الأب فيعصى الابن ، وتنهى الأم فتخالف البنت ، فلو كانت لهم سلطة فى البيت كسلطة « عسكرىّ المرور » لشملت البيتَ السعادة ولفته الطمأنينة والهدوء .

وليت للحكومة هذا السحر تصدر أوامرها فلا يُتلاعب فيها ، وتصدر التعليمات فى التموين وغير التموين فلا يُتحايل فى العمل بها ، كما لا يستطيع أن يتلاعب المارة بأوامر « عسكرىّ المرور » .

الحق أن هذا السحر حيّرنى فى تعليله !

أشخصية « عسكرىّ المرور » ؟ كلا ! فهناك منهم من هم ضعاف الشخصية ونسمع لقولهم كأقوياء الشخصية سواء بسواء ، حتى لو استعضت عن هذا العسكرى بقطعة زجاج ملونة حمراء وخضراء وراءها مصباح عادى لكان لها هذا السحر .

أم لأن وراء العسكرى قوة القانون ؟ وهذا أيضًا غير صحيح ، فقوة القانون وراء كل الأوامر التى تصدرها الحكومة ، ومع ذلك تخالف سرًا وجهرًا ، ويُتحايل على الهرب من أوامرها ونواهيها حيلا لا تحصى .

قلت ربما كان السبب أن تنفيذه تحت سمع الجمهور وبصره ، فمخالفته مخالفة صريحة وراءها العقوبة الحتمية السريعة ؛ ثم وجدت أيضًا أن هذا لا يكفى ، فالجمهور بحمد الله ليس له من القوة ما يخيف ، وليس له من الغيرة على تنفيذ القوانين ما يُخجل من مخالفتها .

وأخيرًا حرت فى بيان السبب فتركته للقراء .

انتقل ذهنى بعد ذلك — بحكم تداعى المعانى — إلى مسألة متصلة بها ، وهى هل الأوامر والنواهى تختلف قوة وضعفًا ؟ ولماذا واللغة واحدة والفعل فعل أمر ، ولا لا الناهية ، والنحويون لم يفرقوا بين أمر وأمر ، ونهى ونهى ، ففعل الأمر مبنى دائمًا ، وفعل النهى مجزوم أبدًا ، ومع هذا نرى دنيا الواقع تخالف دنيا النحو .

فهناك أمر عسكرىّ المرور ، وهو فى القمة من الحتم والجزم وقوة التنفيذ .

وهناك أمر الطبيب ونهيه للمريض بأن يأكل كذا ويمتنع عن كذا ، وهى أوامر ونواه قوية ، ولكنها

لا تبلغ قوة الأول ، فكثيراً ما يهزأ بها المريض ولا يعيرها اهتماماً ، ومع ذلك فلها قوتها على قدر رغبة المريض في الصحة وإعجابه بالطبيب .

وهناك أوامر الواعظين في المساجد والمجتمعات العامة ، وما أشبهها !

وهناك أوامر المعلمين لتلاميذهم بأن يلتفتوا إلى الدرس ، ويؤدوا الواجبات في منازلهم في حينها ، وهي أوامر حالها كحال أوامر الوعاظ .

وهنـاك أوامر « العسكري » حين يجاوز المرور إلى البائعين والبائعات ، وحينئذ يفقد سلطانه ، وتصبح أوامره أضيع من أوامر المعلمين .

وهناك أوامر التسعيرة في تحديد أثمان السكر والورق ، وما إلى السكر والورق ، ولا أستطيع أن أقول فيها شيئاً .

وإذا كانت الأوامر تختلف هذا الاختلاف ، فواجب علم النحو الحديث أن يقسّم فعل الأمر إلى أقسام متعددة ، ففعل أمر بوليسي ، وفعل أمر تعليمي ، وفعل أمر تموين الخ ، لأن لكل عصر نحوَه وتصريفه .

* * *

وانتقلت بعد ذلك من فعل الأمر في علم النحو إلى فعل الأمر في علم النفس ، فعلم يأمر فيطاع ، ومعلم يأمر فيُعصَى ، والأمران متشابهان ، والتلاميذ واحدة حتى قد يكونون في فصل واحد ؛ وواعظ يأمر فيُبكي ، وآخر يأمر فيُستهزأ به ، وقد يكون كلامهما دائراً على معنى واحد ؛ وأب يأمر فيطاع ، وأب يأمر فيعصى .

وخرجت من ذلك إلى أن فعل الأمر وحده لا يكفي في التنفيذ ، وإنما يحمل على التنفيذ أمران ممتزجان أتم الامتزاج ، فعل الأمر ونفسية الآمر ، فإذا كانت نفسية قوية وَجَدَتْ السامع تتخاذل نفسه أمام الأمر ، وأحس أنه أمام قوة كهربائية هائلة ، فاضطر إلى تنفيذ فعل الأمر رغم أنفه ؛ وإذا كان فعل الأمر صادراً من نفسية ضعيفة ، أوعز إلى السامع العصيان أو الاستخفاف — ذلك أن النفس الإنسانية مولعة بحب الأمر ، لأنه مظهر السلطة ؛ حتى الأطفال في ألعابهم يسرهم أن يمثلوا في بيوتهم مع الخدم أو نحوهم موقف المعلم أو الأب في أمره ونهيه ؛ والنفس الإنسانية أيضاً مولعة بالعصيان ، لأنه إذا كان الأمر والنهي مظهر السلطة والشخصية ، فالطاعة والامتثال مظهر ضياع الشخصية ؛ لذلك كانت النفس أميل إلى العصيان ما لم تشعر بقوة الآمر وسلطان الناهي . وفعل الأمر والنهي في ذاته لا قيمة له ، فهو لفظ سائل ، ينتهي بمجرد النطق ؛ وإنما الأثر الحقيقي أثر النفس ، فهي التي تضيّق على المأمور الخناق حتى تلزمه بالتنفيذ .

وشيء آخر ، وهو أن المأمورين والمنهيّين عندهم حاسة عجيبة يدركون بها تمام الإدراك حال الآمر والناهي من صدق أو تهريج ، ومن حرارة قلب أو برودة نفس ، ومن إخلاص أو نفاق ، فإن شعروا بالصدق والحرارة والإخلاص خضعوا ، لأن ذلك كله قوة ملزمة ، وإن شعروا بالتهريج والنفاق تمرّدوا ، لأن ذلك ضعف يستتر بالقوة ، فإذا تغلغلوا وراء الستار أدركوا حقيقة الضعف .

* * *

ثم انتبهت من تفكيري ، فإذا أنا جاوزت عسكريَّ المرور بمراحل ، وسلكت قصدي من غير وعي ، فقلت : كم يجني فعل الأمر .

أحمد أمين

صور قضائية

القاضي وضميره

يتحدث الناس عن مهنة القضاء ، ويقولون إنها من أسعد المهن ، لأن الإنسان يعمل فيها بوحي ضميره وحده ، ولأنه لا سلطان على القاضي فيما يصدره من الأحكام إلا سلطان هذا الضمير . وذلك على عكس كثير من المهن الأخرى التي تحد من حرية أهلها إرادة الرؤساء وتوجيهاتهم . فيكون المرءوس رأي يقتنع به ، ولكنه لا يستطيع أن ينفذه ، لأن لرئيسه رأياً آخر لا بد أن ينحى أمامه رأيه الشخصي . وهذا حق ، ولكنه ليس كل الحق ؛ فإن للمسألة جانباً آخر قل أن يلتفت إليه أحد ، وهو في كثير من الأحيان يسوي بين القاضي وغيره في حمل أغلال المهنة . وذلك أن القانون بالقياس إلى القاضي هو بمنزلة الرئيس بالقياس إلى المرءوس . وكثيراً ما يصطدم ضمير القاضي بحكم القانون ....

وهل في الأسرة القضائية كلها من هم أكبر من مستشاري محكمة النقض ؟ ومع ذلك فليس ببعيد ذلك الحكم المشهور الذي أصدرته تلك المحكمة ، وسجل فيه رئيسها أنه يحكم بما لا يرتاح إليه ضميره — وكانت القضية قضية شاب من الأهالي أطلق النار على كبير من رجال الإدارة فقتله . وبرزت الحادثة للناس في هذه الصورة البسيطة على أنها دليل مخيف على سقوط هيبة الحكومة ، وعلى استهانة الجمهور برجالها . وتنادى الناس فيما بينهم أن لا بد من حكم رادع يضع الأمور في نصابها . وامتلأ الجو بشبه ثورة على الجاني . ومهما تكن نزاهة القاضي ومهما يكن حياده ، فإنه ولا شك يتأثر ولو من حيث لا يدري بمثل هذه الدفعة التي يندفع فيها الرأي العام صواباً حيناً وخطأً أحياناً ؛ ومن أجل ذلك يحرمون على الصحف أن تتناول بالتعليق أو الشرح موضوع أية قضية ما تزال معلقة بين يدي القضاء .

ومهما يكن من الأمر في هذه القضية التي نحن بصددها ، فإن الحكم صدر فيها بالإعدام . فرفع المتهم نقضاً عن هذا الحكم . ومحكمة النقض ليست هيئة تستأنف أمامها الأحكام فتتدخل في تقدير الوقائع ويكون لها رأي في موضوع القضية قد يخالف رأي المحكمة التي أصدرت الحكم المطعون فيه فتكسر هذا الحكم وتقضي هي في الموضوع بما تريد ، ولكنها هيئة كل عملها أن تشرف على تطبيق القانون ؛ فإن كانت محكمة من المحاكم قد رأت رأياً في قضية مطروحة أمامها ، وكان مرجع هذا الرأي تقديرها الخاص ، ثم طبقت القانون تطبيقاً سليماً وأصدرت حكمها بما رأته ، ثم طعن صاحب الشأن في هذا الحكم رفعه إلى محكمة النقض لإعادة النظر فيه ، فراجعت محكمة النقض ملف القضية ، ثم خالفت المحكمة الأولى في تقديرها ، ولكنها لم تجد على عمل تلك المحكمة عند تطبيقها لأحكام القانون أي مطعن ، لم تملك محكمة النقض أن تمس هذا الحكم وتعين عليها أن ترفض الطعن فيه .

وهذا هو الذي حدث في قضيتنا التي نتكلم عنها ، فإن محكمة النقض عند ما اطلعت على ملفها رأت أن المتهم كان قد وقع فريسة اضطهاد شنيع من رجل الإدارة المجني عليه ؛ وأنه حين ارتكب جريمته كان تحت تأثير الغضب لكرامته المهدرة وعزته المجروحة ، وأن كل من كان له حس لا بد أن يتأثر لما أصاب هذا التعس المنكود ، وأن مثل الحالة التي كان يعانيها المتهم من شأنها أن تستدر العطف وتستوجب الرحمة ؛ ولكن ماذا تستطيع أن تفعل محكمة النقض أمام هذا كله أو أمام شيء منه ... لقد نظرت محكمة الجنايات في الدعوى فرأت أن التهمة

ثابتة ، وأن حكم القانون فيها هو الإعدام ، فقضت بالعقوبة التي نص عليها القانون . ووقفت محكمة النقض أمام هذا الحكم موقف الحيرة لأنه صدر في حدود ما رسمه القانون ، ولأن ما تنكره هي فيه خارج عن حدود سلطتها ؛ فلم تملك أكثر من أن ترفع زفرة أو زفرتين في « حيثيات » حكمها ، ثم انتهت فيه إلى القول بأنها ترفض الطعن ولكن ... ... « على مضض ! » .

***

ومثل هذا « المضض » تعانيه أحياناً نفس المحاكم الابتدائية التي لها السلطة المطلقة في التقدير ، والتي لا يقيدها ما يقيد محكمة النقض من حدود . فقد يصدر عن أحد الناس عمل من الأعمال التي تقع تحت طائلة العقاب بحكم القانون ، ولكن القاضي يرى بعد دراسته لملابسات القضية ما يجعل ضميره ينفر من الرضوخ لحكم القانون ، وتوقيع العقوبة التي تنص عليها أحكامه ؛ فإذا انحنى القاضي في أمثال هذه المواقف أمام النص ثقل ضميره بهموم لا قبل له بحملها ؛ كما أنه إذا استسلم لوجدانه خرج على النصوص التي لم يعقد مجلسه إلا لتطبيقها . ولعلي مهما أطلت في شرح هذا الحديث لا أصل بحقائقه إلى ذهن القارئ بقدر ما أستطيع أن أصل لو التمست لذلك مثلا أضربه له .. وهناك مثل مشهور وقع لبعض كبار قضاتنا ، وهم يضربونه للاستشهاد به في بيان ما يستطيع أن يفعله القاضي الذي لا يستتوق أمام النصوص ، والذي يفضل أن يضحي بسلامة النص على أن يضحي بسلامة الشخص . ولست أرى بأساً من الاستفتاح بهذا المثل لأستطرد من بعده في كلمة أخرى إن شاء الله إلى أمثلة أخرى من تجاربي الخاصة .

***

حدث في مديرية أسيوط ، منذ أكثر من عشرين عاماً ، أن فتى من أسرة معروفة علق ابنة عمه وأراد أن يتزوجها ، ولكن العم توفر لديه من الاعتبارات ما جعله يعارض في إتمام هذا الزواج . ولم يطق الفتى هذا الرفض — ولعل الفتاة كانت تشاركه في هذا الإحساس — فجعل يلتمس وجوه الحيلة للتغلب على ما أثير في وجهه من الاعتراضات ولتذليل ما وضع في طريقه من العقبات . ولكنه لم يوفق في شيء من ذلك ، فغلبه اليأس ، واضطرب تفكيره ، وساء تدبيره ، واعتزم أمراً ...

وخلا بابنة عمه بعد ذلك خلوة افتضها فيها بأصبعه كرهاً ، ظناً منه أنه بهذا العمل يكره عمه على قبول فكرة الزواج ، إذ تقضي تقاليد تلك الجهات من بلادنا أن الفتاة المفضوحة على مثل هذه الصورة — أو غيرها — قل أن توفق إلى من يرضى بها ، أو من تسمح له نفسه بأن يتقدم في طلب يدها ...

وذهب العم في سورة غضبه فأبلغ النيابة . وجرى التحقيق في الحادث على أنه « هتك عرض بالقوة » واعترف الفتى بما اقترف ، فلم تر النيابة بداً من تقديمه بهذه التهمة إلى القضاء . والعقوبة التي ينص عليها القانون في هذه الجريمة هي الأشغال الشاقة . وعكفت المحكمة على القضية فدرستها وسمعت أقوال الشهود فيها ، وكأنما عز عليها أن يذهب الفتى ضحية هذا التصرف الطائش الذي صدر عنه وهو تحت أسوأ المؤثرات ؛ وبدا لها من مناقشة الوالدين أنهما تورطا في وضع الحادث بين يدي القضاء ، ووجدت المحكمة ريح الندم في كل ما يصدر عنهما من أقوال .

ولكن القانون واقف للفريقين بالمرصاد ، فلا أصحاب الدعوى يستطيعون سحبها من بين يدي المحكمة بعد أن تعلق بها حق المجتمع — أو هكذا يقول المشرعون — ولا المحكمة تستطيع — والمتهم معترف بجريمته — أن تقضي ببراءته . وزاد في حرج الموقف أنه لم يكن قد صدر بعد ذلك القانون الرحيم الذي يبيح اليوم للقاضي أن يحكم

بإيقاف تنفيذ أية عقوبة يقضي بها ، سواء أكانت الغرامة أم الحبس ، وسواء أكان الحبس لمدة تقل عن السنة أم تزيد عليها . ورأى القضاة أن بين أيديهم متهماً يريد « القانون » أن يتخطفه منهم ، و « ضميرهم » يهيب بهم أن يعملوا على حمايته وإنقاذه .

وحار القضاة كيف يفعلون ! أيقضون بالبراءة ؟ إن الحكم بها في مثل هذه الظروف فيه تجاهل للوقائع الثابتة باعتراف المتهم نفسه ، وتعطيل لنصوص القانون الصريحة ... أيقضون بالإدانة ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يقضون على مستقبل شاب من أسرة كريمة لا زال في مستهل حياته ، ويتكبون فيه أسرته ! ولن تنجو أسرة العم نفسها من رشاش هذا الحكم . وهذان هما شقا الرحى — أو « ذراعا الكماشة » إن يحلو له اليوم هذا التعبير — اللذان يجد القاضي نفسه محصوراً بينهما في كثير من قضاياه . فالناس يتعثرون في لجاج الحياة ، ويتورطون في مخاضها كيفما يشاءون ، ثم ينظرون إلى القاضي ليقيل عثراتهم وينتشلهم من ورطاتهم ، وليس الأمر بينهم وبينه على كل حال مثل ما بين الطير والبستاني الذي ينصب شراكه لما يسرق منها الحبل من ثماره المحرمة ؛ ولكنه مثل ما بين الجندي الجريح وطبيب الميدان ، فقد يكون الجندي من معسكر الأعداء ، ولكنه حين يقع في يد الطبيب لا يرى فيه إلا مريضاً يستحق العناية والتمريض !

وجاءت النجدة أخيراً من طريق السلك الشخصي لرئيس الهيئة . فقد كان قاضياً جريئاً ينظر إلى النصوص على أنها أدوات وضعها الشرع تحت تصرفه لاستخدامها في الكيل والميزان ، لا كما ينظر إليها بعض القضاة حين يرونها حدوداً جامدة لا حيلة فيها ، لأنها تفرض نفسها عليهم فرض السيد على عبده . وبدا له أن يصدم النصوص نفسها بالأمر الواقع ، فعرض على العم أن يقبل زواج فتاته من ابن أخيه ، فهتف الرجل جذلا لو كان إلى تحقيق ذلك من سبيل ! فأمر الرئيس فوراً بتأجيل القضية ثلاثة أيام تم فيها مراسم الزواج . وكان قد رسم في نفسه — وبالاتفاق مع زملائه — تلك الخطة التي اعتزم تنفيذها بعد إتمام الزواج . . . . .

كان الفتى يبلغ من العمر حوالي ثماني عشرة سنة . وكان سنه بادياً على جسمه النامي ، ينادي به شاربه وعذاره ، وتنم عنه قسمات وجهه . ولكن القانون خول القاضي أن يقوم بتقدير سن المتهم الذي لا يكون عمره ثابتاً في شهادة ميلاد رسمية . وعاد الفتى بعد الأيام الثلاثة ، وعرف الرئيس منه ومن أهله أن الزواج قد تم ؛ فتأمل وجهه ملياً ثم نظر إلى الكاتب قائلا :

— اكتب أن المحكمة تقدر سن المتهم بأربع عشرة سنة ! !

وعلى هذا الأساس فرض القاضي عقوبته ..... فإن القانون يفرق بين الأحداث والبالغين في تقدير العقاب . فهو يجعل بين عقوبات الأحداث التوبيخ ؛ والتسليم للوالدين ؛ والإرسال إلى الإصلاحيات ؛ وكان فيما مضى يسمح أيضاً « بالتأديب الجسماني » بضرب الحدث عدة ضربات بعصا رفيعة على ظهره . فاستحسن القاضي أن تكون هديته للعريس الجديد « علقة » بتلك العصا ، تذكره كلما أحس ألمها أنه إنما كان طفلا في فعلته التي فعلها ، وأنه من أجل ذلك لا يستحق إلا أن يؤدب كما تؤدب الأطفال . . . . .

وهكذا نزل القاضي بسن المتهم فنزل بالعقوبة من الأشغال الشاقة إلى التأديب الجسماني . . .

وعلى هذه الصورة الجيدة انتهى ذلك الحادث الذي كان خليقاً أن ينتهي بفاجعة تهد كيان أسرتين ، لو لم يتح لنظر القضية هذا القاضي الكيس الذي أبى أن يكون عبد القانون ، والذي استطاع أن يريح ضميره ولو على حساب النصوص .

م . ج

آلات الساعة عند العرب

تثبت الآلاف العديدة من النقوش التي عثر عليها في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، في شرقها وفي غربها، أن مدنية عريقة وثقافة قديمة وحضارة زاهية سادت ذلك الصقع من أصقاع العالم، فطبعت عقلية سكانه الساميين منذ تلك العصور الغابرة بطابعها الخاص، الذي جعل من شعب الجزيرة شعب الله، ومن سكانها أهل الكتاب.

ولا شك في أن الفضل في كشف القناع عن تلك الصفحة الذهبية من صفحات تاريخ الجزيرة العربية، يرجع إلى الهمة التي بذلها المستشرقون، وساهم فيها الألمان بنصيب وافر في سبيل الوصول إلى تلك النقوش وحل طلاسمها، وفك رموزها، ومعرفة كنهها وإدراك قيمتها، حتى أصبح الاطلاع على مؤلفات هؤلاء المستشرقين لزاما على كل متصدر لدراسة أي مظهر من مظاهر تلك الحضارة الغابرة، وفرضاً على كل باحث يريد أن يعيد النظر فيما تركه السلفون الأولون، وغير السلفين من عجم وعرب جاهليين. ففي المراجع الغربية وخاصة الألمانية نقرأ أبحاث المستشرقين المعتمدة على نتائج بحوثهم العلمية التي كللت أعمالها بالنجاح، فبعثت ما في القبور، وحصلت ما في السطور. وفيها نرى أن العرب البابليين الذين هاجروا من جنوب الجزيرة العربية واستوطنوا أرض العراق حوالى الألف الثالث قبل الميلاد، وأسسوا هناك ملكا، وغرسوا ثقافة، عرفوا الزمن والتقويم، والرياضيات والطبيعيات، وغيرها من سائر أنواع العلوم والفنون. ولعل السر في نبوغهم في العلوم والرياضيات خاصة راجع إلى طبيعة بلادهم الزراعية، إلى جانب ما عرف عن العربي من حدة في الذكاء، وسرعة في البديهة. فأرض النهرين كانت في حاجة إلى تنظيم في الري والصرف، حتى إن شريعة حورابي، ذلك الملك العربي، اختصت الزراعة بنصيب وافر من العناية، فمنحتها أكثر من ثلاثين مادة.

وتقول الوثائق الحديثة التي عثر عليها رجال اللغات السامية: إن العرب البابليين كانوا يحسبون بالأيام، وكان اليوم يبتدئ بغروب الشمس أو منتصف الليل أو طلوع الصبح حسب العصور المختلفة. وكانوا يقسمون اليوم أيضاً ستة أقسام، ثلاثة خاصة بالليل ومثلها بالنهار، ومن ثم قسموا الستة إلى اثني عشر قسما، وأخيراً إلى ثلثمائة وستين، قياسا على تقسيمهم للسنة إلى اثني عشر شهراً وثلثمائة وستين يوما. وكانوا يقيسون الأجزاء الصغيرة لليوم بواسطة آلتين إحداهما شمسية، والأخرى مائية. ويذكر هيرودوتس أن اليونان أخذوا الآلة الشمسية لقياس الساعات عن العرب البابليين[1].

وتحدثنا النقوش المسمارية أيضاً أن آلة القياس المائية كانت تتكون من قدحين، لكل منهما فوهة ضيقة، وكان يملأ أحدهما بالماء، وعند ظهور نجم ما توضع فوهة القدح المملوء ماء على فوهة القدح الفارغ، فيتقطر الماء، وتستمر عملية التقطير حتى ظهور النجم عينه في اليوم التالي، فتؤخذ كمية الماء المقطرة وتقسم إلى اثني عشر جزءاً. وبذلك يستطاع تحديد الزمن من كمية الماء المقطرة، كما يستطاع في نفس الوقت إيجاد الصلة بين الثقل والزمن.

ولم يكن هذا النوع من آلات الساعات هو الوحيد المعروف في بعض أجزاء الجزيرة، والذي أخذ ينتقل من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى عصر، حتى انتهى إلى آلات الساعات الحديثة؛ بل استخدم العربي غير هاتين الآلتين

---

(١) راجع: بابل وأشور المؤلف برونو ميسنر جـ ٢ ص ٣٩٥ و ٤٠١ و ٤١٥ هيدلبرج ١٩٢٥.

Bruno Meissner: Babylonien und Assyrien, Heidelberg 1925.

آلات أخرى متنوعة ، كما سخر الحيوان والنبات وبعض مظاهر الطبيعة لهذه الغاية . فالجاحظ يحدثنا فى الصحيفة السابعة بعد الثالثة من الجزء الثانى من كتاب الحيوان : (وإنما يوالى الديك بين صياحه قبيل الفجر ثم مع الفجر إلى أن ينبسط النهار ، وفيما بين الفجر وامتداد النهار لا يحتاج الناس إلى استدلال لأن بصوت الديك . ولهذا (الديكة) فى الأسحار أيضاً بالليل الصيحة والصيحتان ؛ وكذلك الحمار ، على أن الحمار أبعد صوتاً وأجدر على أن ينبه كل نائم لحاجة إن كانت له ، وما رأينا صاحب سحور يستعمله . ولو كنا وعقلاؤنا يستعملون بالنهار الاسطرلابات وبالليل التنكبات ، ولهم بالنهار سوى الاسطرلابات خطوط وظل[1] يعرفون به ما مضى من النهار وما بقى ، ورأيناهم يتفقدون المطالع والمجارى ؛ ورأينا أصحاب البساتين كل من كان يقرب الرياض يعرفون ذلك بريح الأزهار ؛ ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير وبكورها وغدوها وأصواتها .. والراعى يعرف ذلك فى بكور الإبل وفى حنينها ، وغير ذلك من أمرها . وللحمام أوقات صياح ودعاء مع الصبح ، وقبيل ذلك على نسق واحد ، ولكن الناس إنما ذكروا ذلك فى الديك والحمار لامتداد أصواتهما ، وهديل الحمام ودعاؤه لا يجوز بعيداً) .

ومن حسن الحظ أن يد الفناء لم تمتد إلى كل ما تركه العرب من مؤلفات حول هذه الآلات التى عنوا بها ووصفوها وصفاً دقيقاً ، كما عرض لها بعض الشعراء فسجلوها لنا فى أشعارهم ؛ ومن هؤلاء الشعراء أبو الفتح محمود بن الحسين الرملى المعروف بكشاجم[2] ، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، ووصف الاسطرلاب فقال :

(١) يعنى آلة الساعة الشمسية .

(٢) يروى أن الشاعر سئل عن لفظ « كشاجم » ، فقال : الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم .

ومستدير كجرم البدر مسطوح
عن رائق حسن الأشكال مصفوح
ملء البنان وقد وافت صفائحه
على الأقاليم فى أقطارها الفيح
كأنها السبعة الأفلاك محدقة
بالماء والنار والأرضين والريح
ينسيك من طالع الأبراج هيئته
بالشمس طوراً وطوراً بالمصابيح
وإن مضت ساعة أو بعض ثانية
عرفت ذلك بعلم منه مشروح
لا يستقل بما فيه بمعرفة
إلا الحصيف اللطيف الحس والروح
حتى ترى الغيب منه وهو منغلق الـ
أبواب عمن سواه جد مفتوح

أما التنكب فعبارة عن شمعة توضع فى كفة من النحاس وتترك تحترق حتى تسجل آلة الساعات الرملية مرور ساعة زمنية ، فتقاس المسافة التى احترقت بواسطة فرجار ، وتقسم الشمعة إلى اثنى عشر قسما ، يستغرق احتراق كل قسم منها ساعة . وفيما بعد تفنن العربى فى صناعة تلك الآلات الشمعية ، فوضع كرة من الرصاص أو من الصفر زنتها خمسة دراهم عند نهاية كل قسم من أقسام الشمعة ، فإذا ما ذاب ذلك الجزء ، ووصلت النار إلى الكرة سقطت فى الكفة محدثة صوتاً .

وغير تلك الآلات التى ذكرها الجاحظ نقرأ فى مفاتيح العلوم للخوارزمى أنواعاً كثيرة ، أسرد منها صندوق الساعات ، والمكحلة ، واللوح ، والرخامة ، ودبة الساعات ، والربع ، والطرجهارة[1] ؛ وكانت الأخيرة أكثرها انتشاراً ، ووصفها شاعرنا النجم كشاجم فقال :

(١) كلمة فارسية أصلها (تركهار) بمعنى صحن .

روح من الماء في جسم من الصفر
مـؤلف بلطيف الحس والنـظر
مستعبر لم يفض عن إلفه وطن
ولم يبت قط من ضغن على حـذر
له على الظهر أجفان محجرة
ومقـــــلة دمعها يجرى على قدر
تجتثـــــا له حركات في أساطه
كأنها حركات الماء في الشـــجر
وفي أعاليه حسبان مفصـــــلة
للناظرين بلا ذهن ولا فكر
إذا بكى دار في أحشـــــائه فلك
خاف الســـير وإن لم يبك لم يدر
مخبر عن مواقيت يخـــبرنا
عنهـا فيوجـد منها صادق الخبر
تقضي به الخمس في وقت الوجوب وإن
غطى على الشمس ستر الغيم والمطر
وإن سهرت لأصـــــحاب تؤرقني
عرفت مقـــــدار ما ألقى من السهر
محدد كل ميقات تخبره ذوو التخير للأسفار والخطر
ومخرج لك بالأجـــــــزاء ألطفها
من النهـــــار وقوس الليل والسحر
نتيجة العلم والتفكير صـــــــورته
يا حبذا بدع الأفكار في الصـــــور

ومن علماء المسلمين من أفرد لهذه الآلات وتركيبها المؤلفات الخاصة ، كما يحدثنا صاحب كشف الظنون ، إذ يذكر هذه الآلات في أبواب مختلفة : كتاب علم آلات الساعات ، أو علم البنكامات[٢] ، أو علم الآلات الروحانية ،

(١) جمع بنكام فارسـية أصلها (بنكان) ، وهي التي أصبحت في العربية أيضاً (فنجان) ، بمعنى صحن خاصة التي في قعره ثقب صغير .

وهو في الباب الأول يقول : (علم آلات الساعات من الصناديق والصوارب وأمثال ذلك ونفعه بَيِّن ، وفيه عجلات عظيمة ، هذا حاصل ما ذكره أبو الخير في فروع الهيئة ...) ويعني بالبنكامات (الصور والأشكال الموضوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية[١]) ، فإذاً هو علم يعرف به كيفية اتخاذ آلات يقدر بها الزمان ؛ وموضوعه حركات مخصوصة في أجسام مخصوصة تقضي بقطع مسافات مخصوصة ؛ وغايته معرفة أوقات الصلوات وغيرها من غير ملاحظة حركات الكواكب ، وكذلك معرفة الأوقات المفروضة للقيام في الليل إما للتهجد أو للنظر في تدابير الدول ....

وانقسمت البنكامات إلى الرملية ، وليس فيها كثير طائل ، وإلى بنكامات الماء ، وهي أصناف ولا طائل فيها أيضاً ، وإلى بنكامات دورية معمولة بالدواليب يدير بعضها بعضا . وهذا العلم من زياداتي على مفتاح السعادة ، فإن ما ذكره صاحبه من أنه علم آلات الساعة ليس كما ينبغي ، فتأمل ؛ ومن الكتب المصنفة فيه : الكواكب الدرية ، والطرق السنية في الآلات الروحانية في بنكامات الماء ، كلاهما للعلامة تقي الدين الراصد ، وكتاب بديع الزمان في الآلات الروحانية) .

أما تسمية هذا العلم بعلم الآلات الروحانية فيعللها حاجي خليفة بقوله : (لارتياح النفس بغرائب هذه الآلات).

وتقي الدين الراصد الذي يشير إليه صاحب كشف الظنون هو تقي الدين أبو بكر محمد بن معروف الراصد الدمشقي ، وقد ولد بدمشق عام ٩٣٢ هـ ، وتوفي بإستنبول عام

(١) الساعة المستوية هي جزء من الأربعة والعشرين ساعة التي ينقسم إليها اليوم ، أما الساعة الزمنية أو المعوجة فهي إحدى الاثنى عشرة ساعة التي ينقسم إليها النهار أو الليل على حدة ، وهي تختلف طولا وقصرا حسب فصول السنة ، فهي تطول في نهار الصيف وليل الشتاء ، وتقصر في ليل الصيف ونهار الشتاء .

٩٩٣ هـ ، وقد ترك فى هذا العام كتابا توجد منه نسخة فى باريس عنوانها (الكواكب الدرية فى وضع البنكامات الدورية)[١] ، وقد وضعه مؤلفه إبان إقامته فى استنبول فى عصر السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) الذى أمر بنقله إلى التركية . ويفهم من مقدمة هذا الكتاب أن المؤلف كان عالما بفنه واسع الاطلاع ، فقد درس آلات الساعات الشمسية نظريا وعمليا ، كما أتقن هندسة الأشكال والخطوط والعلاقة بينهما ، ولم يكتف بذلك بل قرأ رسائل (ثيودوسيوس) و (أوقليدس) و (أرشميدس) ، كما ألم بمختلف آلات الساعات التى كانت منتشرة فى العالم الإسلامى ، خاصة الدورية المعمولة بالدواليب التى يدير بعضها بعضاً (البنكامات الدورية) . ومما عاونه على وضع كتابه هذا وظيفته التى كان يشغلها كأمين لدار مخطوطات صاحب الدولة والمجد الوزير الأكبر على باشا باستنبول ؛ فقد كانت هذه الدار تحتوى على عدد كبير جدا من مختلف آلات الساعات التى عنى بها وبدراستها . وقد عرض فى مقدمته أيضاً لبحث لغوى لفظ (بنكام) ، فقال إنه الفارسى (بنكان) وهو يدل كما يقول صاحب الصحاح ، فى الأصل على قدح آلة الساعة الرملية ، ومن ثم عممه العرب وأطلقوه على سائر الآلات الزمنية . أما الفيروزبادى فيرجع البنكامة إلى مادة — بنك —[٢] . وبعد أن سرد المؤلف أنواع العلوم التى يجب الإلمام بها لدراسة هذا العلم عرض لآلات الساعة فقسمها إلى ثلاثة أقسام : رملية ، ومائية ، ودورية .

أما الشخصية الثانية التى ندين لها بشىء كثير فى معرفة آلات الساعات عند المسلمين من ناحية ، وفى دراسة تاريخ وتطور هذا العلم من ناحية أخرى ، فهى شخصية بديع الزمان ، التى أشار إليها صاحب كشف الظنون أيضاً . وبديع الزمان هذا الذى تحتفظ دور الكتب الغربية بعدد وافر من نسخ كتابه (الآلات الروحانية) هو أبو العز ابن إسماعيل بن الرزاز الجزرى (نسبة إلى الجزيرة) ، وقد خدم الأسرة الأرتقية فى ديار بكر خمسة وعشرين عاما (٥٧٧ — ٦٠٢ هـ) . وكان آخر من خدمهم من ملوك هذه الأسرة الملك الصالح ناصر الدين أبى الفتح محمود بن محمد بن قره ارسلان بن داود بن سقمان بن أرتق (٥٩٧ — ٦١٩ هـ) ، وهو الذى رغب إلى الجزرى أن يضع له كتابا فى آلات الساعات ، فألف له (كتاب فى معرفة الحيل الهندسية) ، أو كما جاء فى المخطوطة المحفوظة بأكسفورد (كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل) .

ويروى حاجى خليفة أن المؤلف جعل كتابه ستة أنواع : (١) فى الساعات . (٢) فى الأوانى العجيبة . (٣) فى الآلات الزامرة . (٤) فى آلات إخراج الماء من المواضع العميقة . (٥) فى الأباريق والطشت . (٦) فى بعض الصور والأشكال . ويقول الجزرى فى مقدمة كتابه إنه تناول الحديث عن ستين شكلا وصفها وصفاً دقيقاً جداً ، قلما نعثر على مثله فى مؤلف آخر . فهو يتحدث أولا عن الساعات المائية ، فبعد أن يصف لنا منظرها الخارجى يعرض للأجزاء التى تتكون منها ، ومن البروج الاثنى عشر وتوزيعها على شكل نصف دائرة ، ثم يعرض لرأى (أرشميدس) ويناقشه ويتكلم بعد ذلك عن طريقة تركيب هذا النوع من الآلات لمعرفة الساعات . ومن ثم يعرض لسائر الآلات المختلفة فيصفها ويصف أجزاءها وتركيبها ، ومن تلك الأنواع آلة النوبة ، وآلة الطرجهارة ، والفيل ، والكاس ، والطاوس ، والسباك والقرد .

وغير تلك الآلات التى أشرت إليها ، توجد آلة أخرى اخترعها مصرى يسمى ابن يونس ، وتعرف بالثريا ؛ وقد جاء وصفها فى مخطوطة بمدرسة القديس يوسف ببيروت ، وهو كما يلى : (تتخذ اثنى عشر قنديلا من التى تعمل فى القرافات ، وهى التى يسميها المصريون الزلاقات ، ويوضع فى أنبوب كل واحد منها فتيلة من القطن وزنها حبة ونصف

(١) وغير نسخة باريس توجد أخرى فى أكسفورد .

(٢) البنك بالضم أصل الشىء أو خالصه والساعة من الليل . والبنك أن تخرج الجاريتان كل من حيها فتخبر كل صاحبتها بأخبار أهلها . والذى فيكم صاحبنا : نخشيها .

ملفوفة على سحارة على الرسم ، ويوضع فيه من الماء ما يحتاج إليه ، ثم من الزيت الصافي العذب مقدار الوزن الذي يقتضيه الوقت من السنة على ما تضمنه الجدول . ومعلوم أنه ينبغي أن يوضع في القنديل الأول الوزن المذكور فقط ، وفي الثاني الذي يطفأ في آخر الساعة الثانية ضعف ذلك ، وفي الثالث ثلاثة أمثاله ، وهكذا إلى آخرها حتى يكون في القنديل الثاني عشر في الاستواءين (يعني الاعتدالين الربيعي والخريفي) ثلاثين درهما ، وفي أطول الليل ٣٦ درهما ، وفي أقصر الليل ٢٤ درهما . وهذا جدول الأوزان) .

وإن كنت قد عرضت في مقال اليوم لآلات الساعات عند المسلمين ، وبينت الجهود الذي صرفوه في سبيل خلق هذا العلم وتعهده حتى بلغوا به ما بلغوا إبان حضارة الإسلام ، إلا أني أحب أن ألفت نظر القارئ خاصة إلى العناية التي وجهها ملوك المسلمين وأمراؤهم إلى تلك الآلات حتى أقاموها في المساجد ودور العلم والميادين العامة . فابن بطوطة ، وابن جبير ، وبنيامين الطليطلي ، ورضوان الساعاتي ، يحدثوننا فيما تركوه من مؤلفات عن ساعة مسجد دمشق وعظمتها ، وأن الحكومة اهتمت بها حتى أنها عينت لها أبا الفضل بن عبد الكريم المهندس ، مهندسا خاصا للإشراف عليها والعناية بها . وقد ظلت هذه الساعة قائمة حتى التهمتها النار عام ٥٦٤ هـ . وغير ساعة دمشق نجد أخرى في بغداد ، وفي أنطاكية ، وفي تلمسان بالجزائر ، وفي مالطه . أما في اسبانيا فنجد أبا القاسم عباس بن فرناس يصنع آلة خاصة تعرف بالمنقالة .

دكتور فؤاد حسنين



من أعيان بيت المقدس

في القرن الثاني عشر (١)

الشيخ محمد التافلاتي (٢) المالكي الحنفي

(١١٣٥ هـ ؟ ١١٩٢ هـ)

هو الشيخ محمد بن محمد بن أبي الطيب الشهير بالتافلاتي ولد في المغرب الأقصى ، وحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين على طريقة الإمام ابن الداني (٣) . ترجمه المرادي في كتابه سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٤) وأفرد له خمس صفحات ونعته « بمفتي القدس الشريف ، علامة العصر الفائق على أقرانه من كبير وصغير ، وله الفضل الباهر . وكان في الأدب الفرد الكامل ، له الشعر الحسن مع البداهة في ذلك وسرعة نظمه ، وذكاؤه يشق دياجير المشكلات » . وذكره أيضا السيد حسن الحسيني في مخطوطته أعيان القدس في القرن الثاني عشر (٥) . كما ترجمه السيد محمد الخالدي سبط الخيري الرملي الفاروقي (١) ، ولقبه « بسيدنا ومولانا علامة الزمان وحيد العصر والأوان الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ محمد الطيب الشهير بالتافلاتي مفتي القدس » .

كان والده متوسطا في العلم ، فلم يكتف الفتى بما حصل على شيوخه في المغرب ، وكان قد قرأ عليهم الأجرومية وحفظ السنوسية ؛ فعزم على الرحيل من بلاده متجشما الأخطار ، قاطعا البر والبحار ، وهو لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره . وسلك طريق البر الشاق فوصل طرابلس الغرب ، ومنها ركب البحر إلى مصر ، فالتحق بالجامع الأزهر وطلب العلم سنتين وثمانية أشهر . واشتاق بعد ذلك لوالدته وحن لرؤيتها ، فركب البحر ثانية . وما كادت السفينة تشق به عباب البحر حتى طلع عليها قرصان الإفرنج فأسروها وأسروا الشيخ معها ، وقادوه إلى مالطة فمكث في الأسر سنتين ، ولم يكن على روايته قد بلغ التاسعة عشرة من السنين عند مبارحته مالطة .

ولقد كانت مالطة إحدى مراكز فرسان الاسبتاريين الذين نزحوا إليها سنة ١٥٣٠ م بعد أن طردهم الترك من جزيرة رودس ، وتحصنوا فيها وكانوا يشنون الغارة منها على مراكب المسلمين طيلة القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر المسيحي . ولم يكن الشيخ بالشخصية المهملة فلفت إليه نظر الرهبان ، وكان أحدهم يتقن العربية والمنطق فناظر الشيخ في المسائل اللاهوتية وعجب من ذكائه ، ورتب له مناظرة دامت ثمانية أيام ، تناولت أبحاثا دينية جدلية لا مجال لذكرها هنا . ويقول الشيخ إنه أفحمهم وقهرهم ، « ولما رآني ، أي الراهب صغير السن ، وكان سني إذ ذاك نحو تسع عشرة سنة ، قال لي : تصلح أن تكون ولدا ولدي ، فمن أين جاءتك هذه المعرفة التامة ؟ فقلت له : جميع

(١) هذه صفحات من دراسة يقوم بها الأستاذ أحمد سامح الخالدي عن تاريخ بيت المقدس من الفتح العمري إلى آخر العهد العثماني ، يتناول فيها الحوادث والمعاهد والمؤسسات والرجال ، تنشر منها نماذج يوالي بها الأستاذ مجلة الثقافة مشكوراً .

(٢) نسبة إلى تافلالت مقاطعة في جنوب شرق مراكش ، اشتهرت بجودة تمرها وجلودها ، وهي موطن الأشراف العلويين الذين لا يزالون يحكمون مراكش .

(٣) هو أبو عمر عثمان بن سعيد بن عمر المعروف بابن الداني ولد في قرطبة (٣٧١ هـ) ، ودرس في القيروان والأزهر ، واشتهر بعلوم قراءة القرآن والحديث وله ما يزيد على مائة مؤلف (انظر دائرة المعارف الإسلامية حرف الدال صفحة ٩٩٢) .

(٤) سلك الدرر الجزء الرابع صفحة ١٠٣ يقول السيد محمد الخالدي في مخطوطته : إن الترجمة التي جاءت في المرادي هي بقلم الشيخ التافلاتي وكان قد طلبها منه مفتي دمشق خليل أفندي المرادي ومن رأيه أنها لم تف حق قدره ولم تحتو على بعض فضله .

(٥) لدى كاتب المقال نسخة من هذه المخطوطة القيمة التي تعتبر مصدراً لسلك الدرر .

(١) من مخطوطة فيها ترجمة الشيخ التافلاتي محفوظة في المكتبة الخالدية رقم ٤٣١ .

ما سألتني هو من علوم البداية ، ولو خضت معي في مقام النهاية لأسمعتك ما يصم أذنيك ، وفي هذا القدر كفاية . فترك المناظرة ورجع القهقرى » . (كذا في المرادى) .

ويقول الشيخ إن صيته بعد ذلك شاع في مالطة بين الرهبان والكبراء ، فصار إذا مر في السوق احترمه الناس وقاموا له . وتخلص بعد ذلك من الأسر وركب البحر إلى الإسكندرية ومنها للقاهرة ؛ ثم أخذ يتنقل في العالم الإسلامي ، فسافر إلى الحجاز مراراً[1] ، ودخل اليمن وعمان والبحرين . ويقول الحسيني إنه قدم بيت المقدس وتزوج فيها سنة ١١٧٢ هـ ، وعاش فيها عشرين عاماً يدرس في المسجد الأقصى ويفتي ، فشاع صيته بين الخاص والعام ، وتولى إفتاء الحنفية مراراً ، وتوفى سنة ١١٩٢ هـ ودفن في مقبرة مأمن الله[2] .

ويصفه الحسيني في مخطوطته بقوله : إنه « لما جاء للقدس لبس ثوب الأبرار الصالحين ، فأكرمه أهلها وبجلوه وعظموه ، فصار يدرس الحديث والتفسير فأحبه الناس وخدموه لتقشفه وتقواه ، حتى إن الوزير المعظم حاكم الشام المرحوم عبد الله باشا الجتدجي[3] لما جاء للقدس أراد الاجتماع به وجدّ في ذلك ، ورجاه أعيان البلد فلم يقبل وامتنع ؛ وأخيراً ذهب الوزير إلى الحرم الشريف داخل الصخرة ، وكان الشيخ يقرأ درسه المعتاد ، وألقى فروة عظيمة بين كتفيه وصرة تحت يديه ، فلم يلتفت الشيخ إليه ولم يتحرك من مكانه . وكان يفر من الحكام وهم يرجون تقبيل أقدامه ، ويقفون على بابه فلا يجتمع بهم ولا يلتفت إليهم ، فزاد مقامه بين الناس وصار الجميع يكرمونه ويهابونه ، بل أصبحوا ينظرون إليه كولى كبير . وظل كذلك مدة سنتين إلى أن جاء الوزير محمد باشا الشليك[1] فكان الشيخ أول من استقبله ورجاه في مسألة جزئية من حطام الدنيا ، وأخذ يقابل القضاة والحكام ، وأصبح حنفياً بعد أن كان مالكياً ، وطلب مناصب الدنيا فنفر منه الناس وتباعد عنه محبوه ، وسقطت منزلته العالية » .

ويضيف الحسيني أن الشيخ ذهب بعد ذلك للآستانة مطالباً بإفتاء الحنفية فتوجهت عليه وعزل مراراً منها[2] .

ويقول الخالدى في مخطوطته إنه لما وصل الشيخ للروم ورد عليه من بعض مشاهيره بيت مهمل من النقط ذكره الحيدى في مقاماته ، وأن هذا البيت يقرأ بالعربية والفارسية فتهم معناه باللغة الثانية ، ولم يدرك معناه في اللغة العربية وأن البيت من البحر الوافر ، فألف الشيخ رسالة في حل مبناه سماها (النفحة الناموسية في بيت مهمل يقرأ بالعربية

---

(١) درس في الروضة المشرفة في المدينة سنة ١١٥٥ هـ (مخطوطة محمد الخالدى) .

(٢) هي من أشهر مقابر الإسلام ذكرها مجير الدين (صفحة ٤١٣) تعرف الآن بماملا ، ويقال إن أصلها زيتون الملة . تقع لجهة الغرب من بيت المقدس ، فيها قبور الشهاب بن أرسلان ، وأبي عبد الله القرشي ، وابن الهائم ، وضياء الدين الهكارى وغيرهم كثيرون .

(٣) ترجمه المرادى تحت اسم عبد الله باشا الجتجي . وقال إنه من جرمك من أعمال ديار بكر ولد سنة ١١١٥ هـ . وولى منصب طرابلس ثم حلب ١١٧٢ ، ثم عم البلاد الجوخ فعزل من حلب ، فولى دمشق وحج وعزل من دمشق ، ثم ولى ديار بكر وتوفى فيها ١١٧٤ . ويقول المرادى إنه حصل وهو بدمشق سنة ١١٧٣ يوم الثلاثاء في ربيع الأول قبيل الفجر زلزلة اتصلت بالقدس وغزة وصيدا وصفد وجميع بلاد ساحل الشام وحمص وحماه وشيزر وحصن الأكراد وأنطاكية وحلب ، واستمرت إلى ليلة الاثنين ٦ ربيع الثاني مرتين أو ثلاثة كل أسبوع . وخرب غالب دمشق وأنطاكية وصيدا وقلعة البرج وحصنه وانهدم الرواق الشمالي في مسجد بني أمية بدمشق وقبته العظمى والمنارة الشرقية ، وانهدم سوق باب البريد وغالب = دمشق ومساجدها . وقيل انتهاء السنة انتشر الطاعون وعم قراها . فصرت أغلب مساجدها من وصايا الأموات ، وعمر جامع دمشق والقلعة والتكية السلطانية بأموال الدولة العثمانية .

وقد جاء ذكره أيضاً في كتاب تاريخ الدولة العثمانية (عمر) صفحة ٣٣٢ (ج ٨) .

(١) كان في سنة ١١٧٢ رئيساً لأرزاق قوافل الحجاج ، ثم أميراً للحاج ، واسمه الكامل (الجرده حي جليك محمد باشا) أنظر عمر تاريخ الدولة العثمانية صفحة ٣٢٨ (ج ٨) .

(٢) تولى الإفتاء سنة ١١٩٠ وكان شيخ الإسلام إذ ذاك محمد أسعد أفندي نجل عبد الله أفندي الشهير بالإيراني ، فأرسل له قصيدة أرخها بقوله :

(أسعد العالمين فرد عزيز أسعد الله أسعد الأكوان)

ونحن نرجح أن هذه المرة ليست الأولى التي تولى فيها الافتاء .

والفارسية)، ثم اختصر الرسالة فطار صيت الرسالتين في مدينة قروق حتى بلغت شيخ الإسلام. وكانتا سبباً لأخذه الفتوى[1] بلا توقف. فرجع للقدس متوجا بتاج الفتوى الحنفية، وأنه عزل مراراً؛ ولكن الدولة العلية نصرته. ويقول الخالدى إن أهل القدس كتبوا بحقه مرة فرة فلم تصغ إليهم الدولة.

ثم يعدد تآليفه ويقول إنه ألف «نظام مختصر السنوسي في ليلة» وسنه إذ ذاك سبع عشرة سنة. وإن الشيخ سعيد السمان الدمشقي[2] ترجمه من جملة أدباء العصر لما وقف على أبياته في معارضة قصيدة عنترة (ولقد ذكرتك).

ثم يصفه بأنه «له لطف محاضرة وحافظة حسنة، وقد لبس حلل الأخلاق المستحسنة، يقابل السيئة بالحسنة. وأن أهل بلده فوقوا له السهام مراراً فعاملهم بقوله تعالى: «ادفع بالتي هي أحسن» سراً وجهاراً، وأنهم عكفوا عليه بعد ذلك عكوف الطير وهو فيهم كالأب الرحيم دأبه التفاؤل، وما منهم إلا من ورد منهله أو صدر، وصفا ورده من الكدر.

وللشيخ أكثر من ثمانين تأليف[3] بين منظوم ومنثور، وكتب ورسائل. وله نظم نقتطف منه ما يأتي:

قفا بربوع العامرية إنني كلفت بها من حين عهد التجمل
ولوذا بها ثم انشقا طيب عرفها وقصا حديثاً للأسيف المعلل

وله أيضاً:

إن لاح برق الغور أو هب الصبا
أو صاح ورق بالأراك تصدح
أو رنم الحادى الركب مهيماً
فدموع جفني كالسحائب تسفح
مالي وللواشي العذول وفي الحشا
يوم النوى نار الصبابة تسرح

وله في مسألة فقهية:

وفي حبر عليه القلب وقف ليسكنه ويتبع المزار
فقلت له أجره لنا زماناً فقال الوقف عندي لا يعار

وله تخميس لقصيدة كعب بن زهير.

ومن مؤلفاته ما هو محفوظ الآن في الخزانة الخالدية بالقدس منها:

(١) رسالة شجرة النعمان في منهج النعمان.
(٢) هداية الأصول في نظم مختصر المنار في الأصول بخط المؤلف
(٣) حسن الاستقصا لما صح وثبت في المسجد الأقصى
(٤) الفتح المنوى في المولد النبوى ألفها سنة ١١٧٣ الخ.
(٥) تحفة الجدين بنصرة خير الدين.
(٦) الإسعاد شرح تخميس بانت سعاد.
(٧) غاية الإرشاد في أحاديث البلاد.
(٨) تهذيب المقالة في ما ورد في الفصد والحجامة.
(٩) بلوغ مقامات الصفا بمعراج النبي المصطفى.
(١٠) حبور المهيمن بالكلام على اسم المهيمن.
(١١) الأقلام المجملة في هواتف أسرار البسملة.
(١٢) حسن البيان في مدلول القرآن.
(١٣) الصلح بين المجتهدين في كلام رب العالمين.
(١٤) تحذير أعلام البشر من أحاديث عكا وعينها المسماة بعين البقر.
(١٥) قطع اللسان لمن حرم القهوة والدخان.
(١٦) القول المقدس في شأن صخرة بيت المقدس.
(١٧) إسعاف ذوى الوفا بمولد النبي المصطفى.

ومع تضارب الرأى فيه بين الحسيني والخالدي فإن الشيخ التافلاتي من الشخصيات التي لعبت دوراً هاماً في القرن الثاني عشر في بيت المقدس، وكانت خصبة الإنتاج بالنسبة إلى ذلك العصر الذي انحط فيه مستوى الأدب والكتابة.

(بيت المقدس) أحمد سامح الخالدي

---

(١) تولى السيد حسن عبد اللطيف الحسيني منصب الإفتاء بعد صاحب الترجمة.

(٢) ترجمه الزاوي صفحة ١٤١. ألف كتابا أسماه «الروض النافح فيما ورد على الفتح من المدائح». وأراد تأليف كتاب يترجم به شعراء عصره وجمع آثارهم وأرخ البلاد بعد ذلك وأراد أن يجعله كالنفحة للمحبي والريحانة للخفاجي والسلافة للمسكي فلم يتم له ذلك.

(٣) كذا في الخالدي وعددها في المطوطة.

الاسلام والمعترك الأبدى

بين الخير والشر

القرآن ينزل المعترك الأبدى بين الخير والشر فى الأرض منزلة الاعتبار والاعتراف به ، ويدعو معتنق مبادئه ألا يهملوا النظر إلى هذا العراك وما وراءه من نتائج ، وأن يحملوا أنفسهم على الأخذ بأسباب الأهبة للانخراط فى سلك المحاربين فى صفوف الخير حرباً لا هوادة فيها ولا تخاذل ، ولا غفلة عن أن الشر إذا وجد سبيلا إلى السيطرة على الخير فلن يرحمه ولن يتركه للحياة .

إنهما ضدان أبديان ، أحدهما مبصر ذو رحمة ، والثانى أعمى ذو بطش شديد ... هما قانونان طبيعيان لهما ما لقوانين الطبيعة المادية من صرامة وآثار ؛ ولكن مجالها النفس ذات العالم الشائع الذى لا حدود بين أمواجه إلا ما يقيمه الفكر من حدود اليقظة والإدراك ، وإلا ما تقيمه الدولة الرشيدة من وسائل التربية والتنبيه .

وكما أن الناس يخشون أن يمدوا أيديهم إلى منبع كهربى خوف الصعق والاحتراق ... كذلك يجب أن يخشوا أن يمدوا نفوسهم وأخلاقهم إلى منابع الشر خوف الصعق والاحتراق والضياع بين قوى الكون العمياء ، التى ليس فيها إلا بصيرة واحدة هى منطقة « الضمير » الذى هو قبس من روح خالق الوجود !

* * *

ليس فى القرآن صوفية بلهاء تمتحى عندها الحدود بين الخير والشر وتختلط معالمها ، وإنما فيه رحابة هى عفو القادرين وسماحة المربين الذين يعطون الطفولة البشرية حقها من فرص الانضباط الذاتى ... وفيه سماحة الرعاة الذين يتركون القطيع يرتع فى باحة الحدود المرسومة ، ويغفرون له التقدم الاجتماعى الذى لا يضير الأسس الأصيلة للحياة ..

ولكنهم مع ذلك يقظون غاية اليقظة للحدود ، لا يدعون فيها ثغرة ينحدر منها أعداء الاجتماع : من قوى الشر والإثم والجريمة والجهالة التى تتخطف النفوس البريئة كما تتخطف الذئاب والثعالب الحملان الوديعة والأطفال الرضيعة ، فى غفلة من الحراس .

القرآن يعتبر الشر كتيار غاشم يهجم دائماً ولا يرتد ، فهو يواجهه فى أغلب آياته ممثلا فى أشخاص الفجار والجناة على الحياة ، الذين هم ثمرات معطوبة من ثمرات الإنسانية ، تنقل العطب والفساد والعفن إلى سائر نبات الحقل الإنسانى ، فيجب تطبيبها أولاً وإعطاؤها فرص العلاج والشفاء ، فإن صحت كان فى صحتها نماء وبركات وزيادة فى المحصول الإنسانى الصالح ، وإن لم تصح كان من الواجب إهدارها وبترها ، وحسم دائها أن يتسرب إلى الثمرات الصحاح التى فيها رجاء الحياة وتقدم خطواتها فى طريق النمو والارتقاء !

* * *

هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا الدين صورة من التسامح والتسامى المطلق على دواعى هذا المعترك ، إنهم لم يفقهوا الحياة ولم يفقهوا الدين : لم يفقهوا الحياة لأنها ما زالت ولن تزال تكذبهم وتأخذ الناس إلى غير ما يتوهم هؤلاء ، لأن المعترك يزيد على الأيام حدة وشدة وتعقداً وإيغالاً فى ساحات الصراع والصدام والمنافسة والمغالبة ... وهؤلاء يظنون فيه أنهم نساء ضعاف أو حملان وديعة تثغو بين الذئاب ، فتمزق أنياب الذئاب حناجرها !

ومعركة الحياة هذه لها عذرها الواضح فى انطلاقها الآن بدون قيود الأديان ، لأن أغلب الأديان السائدة تدعوها إلى غير ما فى طبيعتها ... وقد صارت حياة قوية السلطان ، بالغة الحجج والآثار ، واصلة إلى أعماق النفوس تنتزع حججها من دماء الناس التى تغلى فى العروق ، وشهواتهم التى تحتدم فى الأبدان ، ومن روابط الشبكة القوية التى تربطهم بالأرض ربطاً وثيقاً .

فكيف تضحى الإنسانية بكل هذه الدوافع القاهرة ونعماها ، وتنحاز إلى تلك الأصوات الخافتة التي وقف أصحابها على شاطئ اللجة يقولون للغرقى والسابحين : ما لكم هكذا تغرقون ... ! سيروا على الماء بالأقدام !... واعبروا المحيط بدون ابتلال ...

لا ! لا بد من نزولكم أيها الدعاة إلى اللجة تصارعون أمواجها ، وتحسون ثقل أعبائها ، وتقاسون عذاب الخبط فيها بالأيدي والأرجل ، ويصيبكم البهر والإعياء من شهيق وزفير متلاحقين ، لتنجوا هؤلاء الغرقى بأيديكم وبسفن الإنقاذ وأطواق النجاة العملية ، بدل أن تحاولوا نجاتهم بالكلام ومد الأيدي إليهم من الشاطئ البعيد . . .

وقد كان أكثر الذين حملوا الإسلام الأول تجاراً وسياسيين وفرساناً تمرسوا بأسباب الحياة وعركوها اختباراً وابتلاء ، ولم يكونوا بمعزلة عن النقل العام للعرب والأمم المجاورة لها ، ولم يكونوا عجزة أو معتوهين أو أذلاء وذوي عاهات ضاقت بهم سبل العيش فجاءوا يحترفون الدين للارتزاق بحكاية قضاياه ومسائله ، بل حملوه إلى الدنيا حمل جهاد به في كل سبيل من سبل الحياة العملية المادية ، ونزلوا بكلماته إلى الأسواق والحقول والمصانع والجيوش ، كما درسوها في المعاهد والمساجد .

* * *

يجب أن يشعر الذين يؤمنون بالمثل العليا أنهم مضطرون إلى مواجهة الحياة الحالية بالوضع الآتي :

أن يكافحوا عوامل الشر والفساد بوجوه كالحة كوجوه أهل الشر والفساد ، ويجاهدوها بمنطق الخديعة والقسوة وإدراك الموقف ، ولا يَنْسَيْنون اللاهيةَ والغفلةَ عن مقتضيات الحال ..

وأن يحتضنوا بيدهم الأخرى المثل العليا ، وينمّوها في مناطق نموها المأمونة ، ويخلوا إليها يحدثونها ويكرمون أهلها ويصطنعون معهم منطق السمو والكمال والرحمة والاغتفار ومراعاة مقتضيات الحال كذلك .

أي أنهم يكونون كمن يضم ابنه بيد رفيقة لينة ، ويكافح عدواً يهاجمه ويهاجم ابنه بيد أخرى قاسية باطشة ، فلا بد له أن يكون يقظ الفؤاد لما يقوم به من عمل مزدوج متناقض . وهذا الازدواج في الشخصية ، الذي تحتاجه البيئة في عصور الانتقال والاضطراب ، يكلف أصحابه ثمناً غالياً من التمزق والتضييع ومشقة السير بخطوتين في طريقين في آن واحد ! إلا أنه موقف لا بد منه لكل نفس آمنت بالحق في زمن الكفر به ، واشتدت قواها للدفاع عنه ، وتريد في الوقت ذاته ألا تضيع في معركة الحياة الماشية في أمم لا تدرك أحابيلها وخداعها الحقيقيين ، ولا ترحمهم ولا تبالي بهم في أي واد هلكوا وهلكت ذريتهم من الجوع والحرمان !

* * *

لقد جابهت نفس رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، العالم الوثني والكتابي بروح سامية رحبة حسنة الظن في أوائل عهدها بالدعوة ، وحسبت أن الحق الواضح عندها لا بد أن يكون واضحاً لديهم فيسرعوا إليه ولا يكلفوها عناء في قبوله ، فكانت تفيض بالسلام والكرم مع أعدائه وأعداء الحق .

ولكنه بعد ثلاثة عشر عاما تبين أن الشر عنصر عريق خالد له جنوده وسدنته وكهان يعيشون به ويدافعون عنه ، كما يعيش هو للخير والحق ويفنى لهما ويدافع عنهما .

وقد مكث تلك الثلاث عشرة سنة يدعو بالحسنى ، ويقلب الحجج على كل وجه ، ويتحمل من الأذى ما كان يجب أن يفتح العيون وينبه الأذهان إلى أن رجلا يتحمل مثل ما تحمله جدير أن يكون موضع الاعتبار والتفكير والاقتناع بصدق دعوته والقفو على آثاره .

ولكن دولة الباطل وسدنتها وكهانها دولة فطنة تنظر بعيدا . وقد علمت من أول يوم أن ما يدعو إليه محمد هو

الحق عدو مصالحها الدنيوية ، فإن هي أطاعته فقدت عزها وعرشها وكل ما لها من جاه وسلطان ؛ فأعلنت العصيان من أول ساعة ، وقال قائلها أبو لهب : « تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ » « خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب » .

ومكثت أمواج دعوة الحق تتكسر على صخرة الباطل الصماء ، ولا تنال منها إلا حصى صغاراً .

عندئذ استيقظ الحق الأعزل لنفسه وعوامل ضعفه ، ورأى الله لرسوله أن العمر يذهب سدى مع مخاطبة هذه الصخرة الصماء ، فليلتمس سبباً غير الكلام لتحطيمها ودفعها من طريق دعوته ، ولدفع أذى الباطل عن الحق وأهله .

فاستيقظى إذاً يا عوامل التدمير للقوة والغضب بعد أن طال نومك !

وليكن الحق المسلح والسياسة الهاجمة والسباق الدنيوى بيننا وبين قريش .

ولتكن حرب لا للغزو ولا لتحطيم حرمات الحياة ، وإنما لصيانة حرمات الحياة وحفظ عوامل نموها نقية قوية .

وليكن التدمير والهدم بجوار البراءة والطهارة والصراحة ، ليكون لدولة الإيمان حارس على كل باب يمكن أن يدخل منه الأعداء المتربصون ، الذين إن يظهروا عليه لا يرقبوا فيه حرمة ولا ذمة .

وكان ما كان من استجابة الحياة كلها لدعوة الحق المسلح ، والعدل المجنح ، بعد أن رآها الناس في منظر عجيب تجتمع عليه أنظار عباد الجمال وعبيد العصا ..

* * *

فهل للمسلمين أن يفقهوا أن المثل الأعلى الإسلامى نزل في أرض حرة بين قوم أحرار أقوياء ، يتصلون بالطبيعة اتصالا مباشراً ، ليكون كملا وراء قواعد العقل الكامل وآمال القلب الكامل الذى يحس الحياة في الطبيعة إحساساً سليما عميقاً رحباً ، فكان مجال الكمال الاجتماعى والفكرى والتعبدى فيه أوسع مجال تتقطع فيه أنفاس الحكماء والأصفياء والمشرعين والمصلحين الاجتماعيين ؟!

عبد المنعم معروف

بعد عام ...

ولدى !

في مثل هذا اليوم منذ عام كان مولد طفل ، وإنه ولدي ...

ها هو ذا بين يديّ الساعة ، لم يزد على ما كان يوم رأيته لأول مرة ، إلا بضعة أرطال من اللحم ، وبضع شعاعات من لمح العين ، وطائفة من الخواطر والذكريات تهمس بين نفسه ونفسي ، وتصطرع بين نظرة منه ونظرة مني ... ...

في مثل هذا اليوم منذ عام تلقيته لأول مرة من يدي حاضنته ، صامتين لم أبس ولم تبس ، مطرقين لم أسأل ولم تجب ... ...

وخلوت إليه أحاول أن أستنبئه فلم ينبئني ، وأدنيت وجهاً من وجه أحاول أن ألمس أنفاسه فلم يلمسني ، وشددت يدي عليه أحاول أن أبكيه ليفتح عينيه فلم يبك ولم يفتح عينيه ... أكان يدري أن الصورة التي ضم عليها أجفانه لن تتراءى له بعد فأمسكها أن تفلت وأغمض عينيه ! ... يا ليته ... ! ولكنه لم يرها ، وأحسبها لم تره كذلك ، فقد نفخت فيه آخر أنفاسها وذهبت مغمضة العينين إلى غير معاد ، وخرج إلى الدنيا بلا أم ؛ ما حاجته بعد إلى أن ينظر ويرى ؟ ..

... تعال إليّ يا ولدي ! إني أنا أبوك وأمك منذ الساعة إن كان لكل طفل في الحياة أب وأم !

ووضعته بيدي في مهده الأول ، وجثوت إلى جانبه أبكي بلا دموع ، وكانت الريح تعصف ، والدار خالية إلا من طفل جائع ، وأب سقيم ، وذكرى أم !!

كذلك كانت حفلة استقباله منذ عام ، واليوم عيد مولده !!

* *

وليد بلا أم ، كالمسيح : خرج إلى الدنيا بلا أب ، ولكن المسيح وجد ثدياً يدر ، وصدراً يحنو ، وقلباً لا تشغله الذكريات من خفقات الحنان والحب ! ...

... وسمعته يبكي لأول مرة ، وفتح عينيه ثم أغمضهما وشدد قبضتيه على صدغيه ؛ أكان يأمل أن يرى شخصاً غير من رأى «اختصر النظرة» ؟ ... فهيهات هيهات ! لقد ذهبت «تلك» فلن تعود !

وترادفت عليه المراضع من «أمهات السوق» ، ووجد الدر ولم يجد الصدر فعاف الرضاعة ؛ وبكى ، بلا صوت ولا دموع ؛ وذوى ، ولا حان ولا عاطف ؛ ولزم الصمت أسابيع ، لا يبكي ولا يتملل ، إلا نظرة خرساء ليس لها همس ، ومجاجة ليس لها معنى ، وبلهاء ليس لها حس ولا عاطفة !

ليس هذا الذي أراه طفلا من بني آدم ، إن هو فيما يبدو لعيني إلا صورة مصغرة من «إنسان صناعي» خلقه كيميائي بارع يتحدى القدرة البارئة ، فخرج من «مصنعه» جسم إنسان في حركة آلة ، ثم لا شيء بعد من إنسانية الإنسان أو من طبيعة الكائن الحي !

* * *

واجتمع بعد شتات ما بقي من أشلاء الأسرة المحطمة ، وسمت الصغيرتان حول مهاد أخيهما ، واحدة تدرج ، وواحدة تحبو ؛ وسألت كبراهما : من هذا يا أبي ؟ ... وعييت بالجواب !

لقد مضت أسابيع منذ كان ما كان ، ولكني لم أحاول يوماً أن أسأل نفسي : من هذا الذي أرى ؟ ...

أذلك ولدي الذي لبثت سنوات وسنوات أهتف به في يقظتي وفي أحلامي وأسأل : «أين أنتم يا أحبائي ؟»[1] .

... ولكني لم أتخيل قط في يقظة أو في منام أن يكون ذلك الذي كان ؛ بلى إنه ولدي ، ولكن أين

(١) انظر فهرس الموضوعات في المجلد الرابع من مجلة الرسالة.

مني مكانه ولا أم؟ ... وهل يرى الأب ولده أول ما يراه إلا في عيني أمه؟ فأين مني ...؟ وهل تكون سعادة الآباء بالأبناء إلا أن تتمثل صورتها في مرآة أربع أعين؟ ..

أذلك ولدي؟ نعم! ... فأين صورته في نفسي؟ وأين صورته في مرآة قلبي؟

أتراه لكذلك؟ ... فمتى يهمس في أذني بأماني غده، ويلاحيني في تخيل مستقبله، ويشاركني في النظرة إليه، ويباريني في العطف عليه، ويذكرني كلما نسيت أن لي ولداً وأني أبوه؟ ...

ما ذا من الفرق بين أبوة الأب وإنسانية الإنسان في العطف والمحبة؟ ... أيزعم أحد أنه يدري؟ ...

هنا رجل وطفل، وهناك رجل وطفله، كلا الرجلين عطوف محب حسن الرعية لمن ولي أمره؛ فما أشبه شيئاً من أحدهما بشيء من صاحبه، ولكن أحدهما أب والآخر إنسان؛ فما أبعد الفرق بين عطف وعطف وبين محبة ومحبة وإن تساوى الأثر والنتيجة في رأي العين!

إن ثمة شيئاً عظيماً يفرق بين معنى ومعنى وبين صورة وصورة، شيئاً يحسه القلب ولا تراه العين، وإن فيه لمفتاح السر الأعظم المغلق عليه قلب كل رجل وامرأة لا يفتحه شيء غيره، وإن فيه لمفتاح السر الأعظم الذي انطوت عليه حكمة الزواج!

... وإني مع ذلك ليخيل إلي بإزاء هذا الطفل أني رجل غير أبيه؛ بلى، إن له علي حقاً، وإني لأحمل همه وأرعاه رعية كل ذي ولد لولده، ولكن، آه! مالي وإياه لا نلتقي في نظرة إلا ارتد بصري إلى الماضي في لهفة وحنين وارتد بصره، ولا يخطر في نفسي مرة إلا دافعته خواطري المتزاحمة فأبعدته عني؟ .. أهي وحشة اليأس أم ومضة السر الذي كان مغلقاً فانفتح بابه على الموماة والسراب!

ليتني أدري! ولكنه ولدي!

إنه أخوك يا ابنتي فكوني له أما صغيرة!

* * *

وشب الطفل على يدي واستدار العام، هذا عيد مولده وإنه يوم الحداد!

وكما تلقيته من يدي حاضنته أول يوم والريح تنوح والجو عاصف — تناولته اليوم بين يدي وفي قلبي مثل رفيف العاصفة من لوعة الذكرى!

آه يا بني! انظر إلي طويلاً، إني أنا أبوك!

مالك تحول عينيك إلى بعيد كأنما تنتظر مقدم أحد يتلقاك بين يديه مهنئاً بالعيد؟ إن الذي تنتظره يا بني لن يعود! ... أم ترى عينيك الصافيتين تريان ما لا أرى وتكشفان لك عما وراء الغيب فأنت ناعم بما هنالك ونحن في الحرمان؟

اضحك واملأ الدنيا حولك زيطاً وصرخاً، أو لا فابك واملأها صراخاً وبكاء؛ ما أنت إلا أنت: طفل بلا أم في عيد مولده الأول؛ فالتمس لنفسك ما شئت من أسباب المسرة أو أسباب السآمة؛ لقد اقترنت في حياتك ذكرى بذكرى؛ فاحتفل بعيد الحياة أو بذكرى الموت، ما شئت منهما، ولكن لا تسألني شيئاً، لقد مات في نفس أبيك منذ ذلك اليوم القريب كل معاني السرور والألم فما له فرحة بعد ولا ترحة ولا هو يملك من أسبابهما شيئاً!

اضحك أو ابك فإنما الحياة هذان ولا شيء غير هذين، وإنها بهذين لخدعة وأضحوكة ساخرة وحبالة صائد!

لا تحترس من شيء، ولا تخش شيئاً ولا تؤمل في شيء؛ فإنما الاحتراس والخشية والأمل، كل ذلك أضاحيك يسخر بها القدر من الإنسان الحي حين يتوهم أن له في الحياة إرادة!

الاحتراس والخشية والأمل؛ الماضي والحاضر والمنتظر؛ العدة والوسيلة والغاية: كل هذه أسماء، معناها

الناسُ بلا مُسمَّى ، ليعيشوا على التوهُّم حيناً ثم يموتوا ، وما بشيء من ذلك كانت حياتهم ولا كان الموت ، ولكنْ بالقدر المقدور منذ الأزل في صفحة الغيب !

... أتُراك وَعَيتَ هذا الكلام يا بنيَّ أو لم تَعِه ؟ ولكني لا أُريد لك أن تَعِيه ، فإنما هو حديثي إلى نفسي ، وإن أمامك الحياة تخذ منها ما شئتَ ودَعْ ، وكُن أنت كما تُريد لنفسك .

وددت لو كان حديثي إليك يا بني في هذه المناسبة غير هذا الحديث ؛ وقد كنتُ زوَّرْتُ لك في نفسي كلاماً غير هذا منذ سنين ، فأين هو مني الساعة ؟ . . . ولكن أين أنا من نفسي الساعة !

•••

... وكنتُ يوم رأيتُك يا بنيَّ في أحلامي منذ سنين — قد رأيتُ لك صورةً غير هذه التي أرى ، وكانتْ من خداع المنى ، فاليوم تتراءى لي هذه الصورة وقد غاب نصفُها في التراب فتُجدِّدُ لي ذكرى ، وما أطيق أن أُحدثك ، ولكن صفحات غير هذه الصفحات ستُعرِّفك كيف كان أبوك لك وأنت ما تزال بعدُ أُمنيةً تختلج في صدر فتًى وفتاة ضَرَبت التقاليدُ بينهما الحجابَ بضعة عشر عاماً قبل أن يلتقيا ، ثم ما كادا يلتقيان حتى افترقا إلى غير لقاء !

ذاك أمك وأبوك ؛ فإذا قُدِّر لك يوماً في الحياة أن تجد بعد حرمان فاحرص على الاستمتاع بما وجدتَ وأشعِر نفسك لذته قبل أن تفقد أسبابه ، ودع الغد لله يحكم فيه بما هو مقدور في لوح الغيب ؛ إن الجِدَّة بعد الحرمان أذان لمن يعي بأن وراءها الحرمانَ الأبديَّ الذي لا ينتهي !

•••

لقد حدثتُك طويلاً يا بني ولم أقل شيئاً ؛ وما أريد أن أطوي عنك في هذه المناسبة من خبري شيئاً ؛ ولكن أمراً ذا بال يحبسني عن الكلام ...

إني على موعدة غالية ، إني ذاهبٌ الساعةَ إلى ذلك الشق القريب النائي . . . لأحدِّثها حديثاً من حديثي ، وأحسبها تنتظر ، ولعلي أعود ... .«فاف»

محكمة بنى مزار الجزئية الأهلية

اعلان بيع عقار فى قضية البيع رقم ١٤٥٨ سنة ١٩٣٠

إنه فى يوم الثلاثاء ٩ فبراير سنة ١٩٤٣ الساعة ٨ صباحا بأودة المزايدات بسراى المحكمة .

سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد المملوك إلى خليل عباد غانم الذى توفى أثناء سير الدعوى وحل محله ورثته وهو سالم خليل عباد غانم مقيم بجريب ناحية صباحه مركز بنى مزار مديرية المنيا هذا بيانه :

٥٢٥ متر مربع بحوض الطوب رقم ٣٩ قطعة رقم ٤ عبارة عن منزل مبنى دور واحد بالحجر بزمام ناحية بنى سامط الحد البحرى الحكومة من ٤ بحوضه وطوله ٥٠ر١٤ متر والحد الشرقى الحكومة من ٤ بحوضه وطوله ٣٦ مترا والحد القبلى من ٤ بحوضه ٥٠ر١٤ والغربى الحكومة من ٤ بحوضه وطوله ٣٦ مترا .

٥٢٥ متر مربع الجملة فقط خمسمائة وخمسة وعشرون مترا مربعاً لا غير .

وهذا البيع كطلب مصلحة الأملاك الأميرية المتخذة قسم قضايا وزارة المالية بشارع الدواوين بالقاهرة نفاذا لحكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩٣٦ ومسجل بمحكمة المنيا الابتدائية الأهلية فى ١٩٣٦/٩/٢٨ رقم ١٩٩ ويكون البيع قسما واحدا بثمن أساسى قدره ٣ ج و ٤٢٤ م بعد نقص الخمس بجلسة ١٩٤٢/١٢/٢٢ وذلك لمبلغ ٩ ج و ٥١٨ م بخلاف ما استجد ويستجد من المصاريف .

فعلى كل من له رغبة فى المشترى عليه الحضور فى اليوم والساعة والمحل الموضحين عاليه للمزايدة فيه وشروط البيع وحكم نزع الملكية مودعان بقلم الكتاب لاطلاع من يرغب .

كاتب البيوع

محكمة مأمورية حلوان القضائية

إعلان بيع عقار

نشرة بيع فى القضية المدنية رقم ٣٦٨ سنة ١٩٤٢

إنه فى يوم الاثنين ١٥ فبراير سنة ١٩٤٣ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بسراى المحكمة .

سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد ملك محمد أفندى ابراهيم على الطوخى الساكن بالمنزل رقم ٣٤ بشارع الهدى حارة البركة قسم شبرا بمصر .

وبناء على حكم نزع الملكية الصادر بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٢ ومسجل بمحكمة مصر الأهلية فى ١٩٤٢/١٢/١٣ رقم ٩٤٥٧ وفاء لسداد مبلغ ١٦٩ ج ٨٤٠ م بثمن أساسى قدره ١٥٠ ج . مائة وخمسون جنيها مصريا والشروط مودعة بدوسيه الدعوى

بيان العقار

٢٤ ط أربعة وعشرون قيراطا كامل أرض وبناء المنزل الكائن بمصرة حلوان القائم على القطعة رقم ٢٦٧ بحوض الحطة رقم ٢ بزمام المعصرة مركز ومديرية الجيزة المحدود بحدود أربع كالآتى :

الحد البحرى باقى القطعة ٢٦٨ بحوضه بطول ٦٠و١٦ مترا والحد الشرقى القطعة ٢٦٦ و ٢٦٥ بحوضه ملك ...... أحمد بطول ٤٠و١٤ مترا والحد القبلى طريق فاصل حوضين بطول ٥٠و١٦ مترا والحد الغربى حارة بطول ٨٠و١٦ مترا وجملة مساحة هذا المنزل ٨٥و٢٦٩ مترا مربعا حسب طلب المساحة رقم ٢٥١٤ سنة ١٩٤٠ . وهذا البيع كطلب على فهمى طه أفندى الساكن بشارع باب البحر رقم ٨٩ قسم باب الشعرية بمصر .

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان المحددين عاليه وكافة الأوراق مودعة بدوسيه القضية بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها .

كاتب البيوع

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٩/٥٦٧٦٩٩

العدد ٢١٣ — الثلاثاء ٢٠ من المحرم سنة ١٣٦٢ — ٢٦ من يناير سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

لا جديد فى الميـــدان الشرقى

تدور الحرب فى الشرق الأقصى ، وفى الغرب الأقصى . قد أحاطت العالم القديم من أطرافه ، واستعر لظاها فى جوانبه ، والعالم كله يمدها بالوقود ، ويتلفح فى ضرامها . ولكن الميادين اليوم تحتل الأطراف دون القلب والوسط ... وفى الميادين الغربية تدور الحرب بسرعة ، وتتقدم الجيوش أو تتراجع فى غير هوادة ، ولا تمضى أيام حتى تتبدل الوقائع ، وتنتقل المعارك إلى الأمام أو إلى الوراء . وفى الميدان الروسى تسمع من يوم إلى يوم نبأ جديد : جيوش تحاصر ، ومدن مهدمة تسترد ، وأنهار تعبر ، ولننجراد يفك حصارها بعد عام ونصف ، وسهول أوكرانيا والقوقاز بحر يتساقط عليه الثلج والجليد ، والسكر والفر . والملايين من الجند تقضى الشتاء القارس فى معارك لا تقل هولا وشدة عن معارك الصيف .

وفى إفريقية الشمالية ميدان أضيق مدى من الميدان الروسى ، ولكنه قد لا يقل عنه خطراً . وقد انقسم هذا الميدان شطرين فى تونس وطرابلس ، وثبت الألمان فى الأول ، وتراجعوا فى الثانية ، وليس ببعيد أن يتحد الميدانان عما قريب ، فيصبحا ميداناً واحداً .

وهكذا نرى الميادين الغربية تموج بالجيوش الجرارة ، وتتبدل كل يوم صورة بصورة ، فإذا قارنا بينها وبين ميادين الشرق الأقصى خيل لنا أن الحرب هناك تحبو كالسلحفاة ، ولا تكاد الصور والأشكال أن ينالها تحول أو تبدل ، بحيث باتت أنباؤها لا تحتل من صحفنا سوى ركن ضيق وسطور قلائل ، وبحيث يكاد المرء أن يصفها كل يوم بأن « لا جديد فى الميدان الشرقى » . فهل هذا لأننا — لبعد الشقة وجهلنا بتلك الأقطار النائية —

لا تستطيع أن تدرك أهمية « وادى الكنار » ؛ وأن الاستيلاء على بورما وجاوة حدث جليل وفوز مبين ؟

إن الأمر الذى يدعونا لأن نتوهم أن « لا جديد فى الشرق الأقصى » هو أننا نقارن بين اليوم والأمس ، وما يدور من المعارك فى هذا الشتاء والشتاء الماضى ، ونقيس أحداث حرب اليوم بما كان يجرى فى العهد الأول من الغزو اليابانى ، فيخيل إلينا أن الميدان الشرقى يغشاه الركود . .

ففى مثل هذا الوقت من العام الماضى كان الزحف اليابانى يتقدم بخطى واسعة ، وينتقل من فتح إلى فتح ، ومن نصر إلى نصر بسرعة باهرة ، جعلت من الصعب على المرء أن يتتبع تلك الأحداث التى كانت تتوالى من غير بطء أو هوادة ، وكأنما تجرى بإحكام ودقة كأنها آلة تتحرك كل أداة فيها بحركات قد رسمت لها من قبل ، وقدرت تقديراً دقيقاً ، بحيث تحدث فى الوقت المقرر وفى اللحظة المقررة ، لا يعتريها وهن ولا يعتورها اختلال . وبالرغم من أن اليابان لم تنجح فى الاستيلاء على الفلبين مرة واحدة ، فإنها منذ أول لحظة استطاعت أن تعطل الأسطول الأمريكى فى المحيط الهادى ، وأن تعطل قوات الطيران بضربات غادرة مفاجئة ، ولكنها من غير شك ناجحة موفقة ؛ فأحرزت السيادة فى الجو والبحر ما بين عشية وضحاها ، وأصبحت السيادة فى البر أمراً رهيناً بالوقت الذى تستطيع فيه الجيوش أن تتحرك وتحتل ؛ ولم يكن ذلك بالوقت الطويل . فلم تمض أشهر ثلاثة حتى استولت اليابان على جزر الهند الشرقية كلها ، وعلى بلاد الملايو وبورما ، ووقفت على أبواب الهند من جهة وأبواب أستراليا من جهة أخرى ؛ ثم أدركها موسم الأمطار فى الهند ، فتوقفت الحرب هناك فترة من الزمن . ولم يكن بد من التمهل قليلا على أبواب أستراليا ريثما تعد العدة لغزو هذه الجزيرة الضخمة ، بل القارة التى تبعد عن اليابان بنحو أربعة آلاف من الأميال .

لم تكن تلك الانتصارات اليابانية الهائلة راجعة إلى خطة المفاجأة وحدها ، أو إلى أن بريطانيا كانت فى شغل بحربها فى الميدان الغربى عن إعداد العدة اللازمة للدفاع عن بورما وبلاد الملايو ، أو إلى أن أمريكا لم تحشد القوات الكافية للدفاع عن الفلبين . لا شك أن لكل هذه الأمور أهميته فى نجاح اليابان ؛ ولكن تلك الفتوح السريعة كان يرجع الفضل فيها قبل كل شىء إلى الاستعداد الطويل ، ورسم الخطط المحكمة قبل المعركة بسنين ، وتدريب الجيوش اليابانية تدريباً دقيقاً على حرب الغابات والمستنقعات فى أقطار مثل جزيرة هينان وفرموزا تشابه تماماً فى ظروفها وطبيعة أرضها الأقطار التى تقرر غزوها .

وأدرك قادة اليابان أن العائق الأكبر فى نجاح خططهم هو المسافات البعيدة التى تفصل بين بلاد اليابان والأقطار التى تريد غزوها ، فتغلبوا على هذه الصعوبة باحتلال الهند الصينية الفرنسية ، وتحويلها إلى ميدان لحشد الجيوش . وأعدوا من السفن الحاملة للطائرات عدداً ضخماً يتكافأ مع الخطة الواسعة التى رسمت ، وأنشأوا أنواعاً جديدة من السفن يحمل كل منها عدداً كبيراً من الزوارق لنقل الجنود من أجل مهاجمة الشواطئ والنزول إلى البر ، سواء كانت المياه الساحلية ضحلة أو عميقة . . . ولم يترك قادة اليابان صغيرة ولا كبيرة إلا حسبوا لها حسابها ، وأعدوا لها عدتها ، بحيث استطاعوا فى المرحلة الأولى من غزوهم أن يحققوا نجاحاً هائلا بحرب خاطفة بهرت العقول ، وأثارت الدهشة فى النفوس . ولكن ميداناً رقعته الكرة الأرضية كلها ، لم تستطع حتى تلك الحرب الخاطفة الباهرة أن تفرغ منه تماماً ، وأن تقهر العدو قهراً تاماً . وقد وصلت الحرب الخاطفة فى الربيع الماضى إلى المدى الذى استطاعت

أن تبلغه ، والذى لم يكن من الممكن للقوى البشرية أن تبلغه أكثر مما بلغ . ولم يكن بد من أن يهدأ القتال نوعا ما ، وأن يقف الزحف اليابانى فترة من الزمن ريثما تعد العدة لمتابعته فى شتاء هذا العام .

وقد دارت الأرض دورتها ، وحال الحول على الزحف اليابانى الباهر الفاجئ .. وتطلع الناس إلى الميدان الشرقى ينتظرون ما أعدته تلك الجيوش الظافرة من خطة جديدة وفتح جديد ، وما تبذله من جهود لغزو أستراليا والهند ؟ فإذا نحن نرى تلك الجيوش التى لم تكن تعرف إلا الهجوم تقف موقف الدفاع ، ولا تحاول إلا الاحتفاظ بما فى أيديها دون التفكير فى فتح جديد . ولئن كانت اليابان راغبة عن أستراليا ، لا تطمع فى الاستيلاء عليها ، فليس بمعقول أن تكون راغبة عن الهند ، وقد ربضت جيوشها على أبوابها ، والهند مستودع مال ورجال ، وثروة عظيمة لا يعقل أن تعف عنها نفس اليابان بعد أن قطعت هذه المراحل الطويلة من أجل الوصول إليها .

لا بد أن تكون هنالك أسباب خففت من غلواء الخطط اليابانية ، وألزمتها أن تأخذ بأسباب التريث والحيطة وأن تعد العدة لحرب طويلة الأمد ، بعد أن أيقنت أن عهد الغزو الخاطف قد انتهى . وأيا كانت تلك الأسباب ، فإن هذه الخطط الجديدة لا تعدو أن تكون متأثرة بالظروف والاعتبارات الآتية :

الأمر الأول أن مر الزمن كان دائما لمصلحة أعداء اليابان عامة ، ولمصالح أمريكا بوجه خاص ؛ فقد كانت الولايات المتحدة تعمل للحرب فى شىء كثير من التؤدة والرزانة على طريقة الدول الديمقراطية ؛ إلى أن نبهتها نكبة برل هاربر بعنف ، فأخذت تبنى الأساطيل وتنشئ الجيوش الجرارة فى سرعة هائلة لم تعرف حتى أمريكا لها نظيرا . أخذ الشعب الأمريكى يعمل بيد واحدة وعقل واحد ، وليس أمامه سوى هدف واحد ، قد كرست له كل الجهود ، وانصرف إليه كل نشاط . وقد استطاعت اليابان بزحفها الخاطف أن تعطل أداة الحرب الأمريكية أو تضعفها فى المحيط الهادى ، ولكنها لم تستطع أن تقضى عليها ، ولم تقدر أن تمس الولايات المتحدة نفسها بأذى كبير . وقد استولت اليابان فى فتوحها على موارد كبيرة للقصدير والبترول ؛ ولكن الولايات المتحدة أغنى بلاد العالم فى البترول ، وفى وسعها أن تحصل على كفايتها من القصدير . واستولت اليابان على أعظم أقاليم العالم إنتاجا للمطاط ؛ ولكن الولايات المتحدة قد ادخرت مقدارا كبيرا من هذه المادة يكفيها فترة من الزمن ريثما يتاح لها أن تنشئ المصانع الجديدة لإنتاج المطاط الصناعى ...

وقد توقفت القوات اليابانية فى غينيا الجديدة — على أبواب أستراليا — ولم تستطع التقدم بعد ذلك ، فأعطيت أمريكا الوقت الكافى لحشد جيوشها البرية والبحرية والجوية فى أستراليا ، وتنظمت القيادة المشتركة ووضعت الخطط لمقاومة الزحف اليابانى .. والحرب الخاطفة خطة لا بأس بها إذا كانت تصل إلى غايتها كاملة غير منقوصة ؛ وإذا كانت تستطيع قهر عدوها قهرا تاما لا يستطيع أمامه إلا التسليم . ولكن الزحف اليابانى كان سريعا جدا وشمل مساحات هائلة وبحارا واسعة ، ولم يكن بد من أن يستنفد الجهود الأولى ، وأن يمضى وقت غير قليل ، قبل أن يتاح للجيوش اليابانية أن تستأنف مرة أخرى زحفها السريع . وهذه الفترة قد استغلها أعداؤها أتم استغلال بحيث استطاعت أن تضع فى الميدان قوات لا تقل عن القوات اليابانية عدة وعددا .

والأمر الثانى الذى لا بد أن عاق التقدم اليابانى هو أن هذا الزحف الواسع السريع — رغم نجاحه ، ورغم قلة استعداد الدول الديمقراطية — لم يتم دون أن يكلف اليابان ثمنا غاليا فى الرجال المدربين والعدة الحربية ، التى لم يكن من السهل تجديدها وحشدها فى تلك الميادين البعيدة .

فإن المقاومة الطويلة فى الفلبين ، وجزر الهند الشرقية ، وحرب التراجع التى قامت بها الجيوش البريطانية فى الملايو وبرما ، قد قضت على شطر غير قليل من العدة اليابانية التى اقتضى جمعها وإنشاؤها السنين الطوال . وهنا لا بد لنا أن نذكر أن براعة اليابان كانت دائما تظهر فى جمع العدة اللازمة للحرب وتكديسها ، وإخفاء ما لديها من الموارد الحربية بحيث يكاد العالم الخارجى ألا يعرف عنها إلا القليل ، وهى دائما أكبر وأضخم مما يتوهمه أكثر الناس تشاؤما . ولكن الجمع والتكديس شىء ، والإنشاء والتجديد شىء آخر . وبعد المرحلة الأولى من الحرب اليابانية انتهى دور الجمع والتكديس ؛ وجاءت فترة الإنشاء والتجديد . ولليابان قوة صناعية هائلة تضارع قوة أى دولة - وقد استولت فى غزوها الجديد على أقطار غنية بالبترول وبعض المعادن ؛ ولكن لا تزال اليوم كما كانت بالأمس تفتقر إلى مادة خطيرة من المواد التى لا يمكن الاستغناء عنها ، وهى الحديد . فقد كانت اليابان تستورد الشطر الأكبر مما تحتاجه مصانعها من الحديد من العالم الخارجى ، وقد حيل بينها اليوم وبين تلك الموارد . وعلى افتراض أنها لا بد أن ادخرت من هذه السلعة الثمينة مقادير عظيمة ، فإن من الواجب أن تنفقها بتدبير وتقتير شديد . وإذا كان المعول فى النصر النهائى فى هذا العراك فى الشرق الأقصى على مقدرة الدول المحاربة على تجديد عدتها ، فإن اليابان فى مركز أقل ملاءمة لمثل هذا التجديد من خصومها .

والأمر الثالث الذى يدعو القيادة اليابانية أن تسلك خطة الحذر أنها من غير شك قد منيت بخسارة فادحة فى قواتها البحرية والجوية فى بعض المعارك التى دارت رحاها فى المحيط الهادى . ففى شهر مايو الماضى أخذت اليابان تحشد السفن الحربية وحاملات الطائرات والجيوش فى الجزر القريبة من أستراليا ، فتصدت لهذه القوات سفينتان من حاملات الطائرات الأمريكية ؛ فاستطاعت فى معركة بحر كورال أن تغرق ثلاثا من حاملات الطائرات اليابانية ، ونحو عشرين قطعة حربية أخرى ؛ ثم دارت بعد ذلك بقليل معركة أخرى حول جزيرة مدواى ، ومنيت فيها الأساطيل اليابانية بخسائر فادحة فى السفن بمختلف أنواعها ، وفى الطائرات ورجال الطيران ؛ وفى كلا الحالين كانت خسائر الولايات المتحدة قليلة . ودارت معارك بحرية أخرى أقل من هاتين خطراً ، ولكنها فى مجموعها قد كبدت اليابان خسائر ليس من السهل تعويضها ؛ وأصبحت متابعة الزحف السريع والتقدم الخاطف بعد هذه الخسائر ضرباً من المحال .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل تجاوزه إلى اتخاذ القوات الأمريكية والأسترالية خطة الهجوم بعد أن التزموا فى الفترة الأولى خطة الدفاع والتراجع ؛ وهذا الهجوم تناول إقليمين : الأول جزر سليمان ؛ والثانى جزيرة غينا الجديدة . وجزيرة وادى الكنال هى أهم جزر سليمان وأقربها إلى الجنوب (أى من جهة أستراليا) ، وتمتاز بأنها تشتمل على قواعد للطيران . وقد استطاعت الأساطيل الأمريكية الأسترالية أن تستولى على هذه الجزيرة ، وأن ترسخ أقدامهم فيها ؛ وقد بذل اليابانيون جهوداً جبارة لاستردادها وإجلاء أعدائهم عنها ، فلم يفوزوا ببغيتهم ، وكبدتهم هذه المحاولات خسائر أخرى فى السفن والرجال والطائرات . وفى ميدان غينا الجديدة ، وهى الجزيرة الكبرى الملاصقة لأستراليا من جهة الشمال ، والتى وقف الزحف اليابانى عندها فى الربيع الماضى ، لزمت الجيوش اليابانية خطة الدفاع أيضاً ؛ وأخذت تتراجع أمام القوات المتحدة ، وهى تدافع عن كل شبر من الأرض .

إن هذه الصورة التى ترسمها حوادث الشرق الأقصى اليوم بعيدة كل البعد ، ومباينة كل التباين لما عهدناه فى الزحف اليابانى فى الشتاء الماضى . ومع أننا لا نستطيع أن

(البقية على صفحة ٢٤)

في بواعث الإجرام ...

بحث الأستاذ صاحب « صور قضائية » في مقاله المنشور في العدد (٣٠٢) من الثقافة تحت عنوان « على طريقة الرهائن ... » في نوع غريب من الإجرام يبقى معه الآثم الحقيقي ، كما قال ، بنجاة من الانتقام ، وإن الشر إنما يقع على أرواح بريئة أخرى لا ناقة لها في الأمر ولا جمل . ثم تساءل الأستاذ في خاتمة مقاله عن أولئك المجرمين ، هل هم يتمتعون بسائر قواهم العقلية ؟ أم أنهم يقترفون جرائمهم تحت تأثير عامل جنوني ؟ كما تساءل عن مدى مسؤوليتهم عن جرائمهم ؟!

والحقيقة هي أن أكثر المجرمين الذين هم من هذا النوع مرضى ؛ مرضى في نفوسهم أو في أعصابهم أو في قواهم الفكرية ، ولا يمكننا تعيين مدى مسؤوليتهم عن الجرائم التي اقترفوها إلا بعد دراسة خاصة لشخص كل منهم من ناحيته الفيزيولوجية أولا ، ومن ناحية ظروفه التي كان يعيش فيها ثانياً ، ودراسة تتناول بها البواعث السيكلوجية التي دفعته لارتكاب جريمته ، مستعينين في ذلك بأحدث النظريات العلمية في هذا الموضوع ، وهي نظريات علم الإجرام .

أصف الآن بإيجاز جريمة غريبة من الطراز الأول ، وقعت قبل بضعة أشهر في دمشق ، فاهتزت لهولها ربوع الشام ، وكان لسخط الرأي العام من جرائها أثر عظيم في سرعة النظر فيها أمام القضاء ، والبت في مصير مقترفها ؛ وهي على وحشيتها تؤلف وسطاً حياً لتطبيق نظريات علم الإجرام ، ومعرفة مدى صحتها بدراسة هذا المجرم وظروفه المختلفة ، وتحليل بواعث الإجرام عنده وأسبابها .

* * *

رجل تخطى العقد الثالث من عمره ، كان يعيش مع زوجته ، التي أحبها منذ اقترن بها قبل أربعة عشر عاما ، عيشة هنيئة هادئة ، وقد رزق منها ثلاثة أولاد بلغ أكبرهم من العمر اثني عشر عاما ، واجتاز الثاني السابعة من عمره ، ولم يتجاوز صغيرهم الثالثة من سني حياته ؛ وكان ميلاد هذا الأخير فاتحة عهد جديد في هذه الأسرة ، إذ تبدل نعيمها جحيما ، والحب فيها شقاقاً وخلافاً : أهملت الزوجة أولادها وزوجها ، وترك الرجل بيته ليجد في المخدر راحة لنفسه ، فطرد من عمله ، وانكب على الحشيشة لا يجد بتركها لذة ولا سروراً ، حتى ألقي القبض عليه بجرم تعاطي المخدرات . ولفظ القاضي الحكم بسجنه مع رفاقه ، فهرعت الزوجة لتتخلص من هذا الزوج السجين ؛ وحكم القاضي بالتفريق رغم ممانعة الزوج ورفضه الطلاق . ولم يخرج الرجل من سجنه حتى بلغه خبر خطبة زوجته من رجل آخر تحبه ، فحاول إقناعها بالعدول عن زواجها من غيره فأبت . أعلن لها حبه الشديد فأظهرت له كل البغض والكراهية ، هددها بالانتقام ، فأجابته وعلى شفتيها ابتسامة صفراء أن افعل ما أنت قادر عليه .

فكر الرجل طويلا في كيفية الانتقام ممن يحبها وتبغضه ، من التي يريد بقاءها زوجة له وتريد غيره بعلا لها ، فإذا به يخبرها أنه قرر السفر البعيد ، ويطلب إليها إرسال ولدها الصغير ليودعه ، فأرسلته ليتام ليلة عند أبيه رغم تعلقها الشديد به .

أخذ الولد الصغير يلعب جذلا مع أخويه ، بعد غياب عنهما ليس بقصير ؛ فلما جن الليل آوى ثلاثتهم إلى فراش واحد كعادتهم ، واستلقى الأب على فراشه بالقرب منهم ، فلأ النوم جفونهم والأب لم تغمض له عين . وفي هدأة من الليل انتبه أوسط الأولاد من نومه وأخرجته من الغرفة آلام الزحار ، فلحق به أبوه وانقض عليه انقضاض وحش على فريسة مليئة . لقد ظن المسكين أن أباه يريد صفعه لإزعاجه من خروجه في الليل ، فخبأ وجهه بين يديه ؛ غير أن الأب كم فم ابنه بيسراه ، بعد أن ألقاه على الأرض ،

وأجرى سكينا كان يحملها بيمناه على عنقه حتى ذبحه دون أية مقاومة تذكر ؛ ثم مشى هادئاً نحو فراش الآخرين فألفاهما في نوم عميق ، وما كاد يمسك الصغير حتى انتبه خائفا وأخذ يستنجد بأبيه لينقذه ممن يخيفه ، ولكن السكين أجهزت عليه دون أن يظهر على حاملها أي تردد أو فتور ؛ ثم التفت نحو ولده الأكبر فرآه مسترسلا في نومه فهبط عليه وذبحه ذبح النعاج المستضعفة ، ثم حمل جثة قتيله الأول ووضعها في مكانها من الفراش ، وولى هاربا مستخفياً حتى قبض عليه رجال الأمن عند ما سولت له نفسه زيارة داره لرؤية ما صنعت يداه .

حوكم هذا الرجل فاعترف بكل شيء غير نادم . لقد دمعت عيناه عند ما كان يصف للقضاة كيفية ذبحه أولاده الثلاثة ، ولكن أمارات السرور من نجاحه في انتقامه كانت تبدو عليه ، فإن زوجته التي أحبت أولادها وكرهت زوجها أصبحت الآن بفقد أولادها كلهم على يد من أبغضته ، وقلبت نعيم حياته بؤساً وشقاء . ذلك الذي هزأت به واستخفت بانتقامه قائلة له : اعمل غاية ما أنت مستطيع عمله !

لفظ القاضي الحكم على القاتل فاستقبله برباطة جأش منقطعة النظير . سئل عن آخر ما يقوله فأجاب : لقد ظلمت نفسي وأنتم ظلمتموني !

● ● ●

لقد نفذ حكم الإعدام في هذا المجرم دون أن يستفاد من تحليل شخصيته تحليلا نفسيا دقيقاً ، ودون رد بواعث إجرامه إلى مسبباتها الحقيقية ليمكن تعيين مسؤوليته تعييناً دقيقا ؛ ولم يبق أمام من تعنيهم مثل هذه الأمور سوى مصنف الأوراق التي سطرت عليها اعترافاته أمام القضاة وعند رجال الأمن ! على أن في هذه الأوراق مادة كبيرة جزيلة الفائدة في التحليل النفسي ، سأتناولها بدراسة عميقة في فرصة آتية .

إن مجرما يرتكب جريمة ، مثل هذه الجريمة الغريبة ، لم يكن ساعة ارتكابها ، ولا شك ، إنساناً يملك جميع قواه العقلية ، لا بل إنه دون الحيوانات منزلة وعاطفة أبوية ، إنه مريض دون أي ريب . أما مركز الخلل عنده ونوعه ودواؤه فهذه أمور لا يمكن البت فيها قبل تحليل دقيق لجميع العوامل التي أحاطت به حتى ساعة ارتكابه الجريمة .

إن أول هذه العوامل شخص المجرم ، وهذا يشمل جسمه وعقله ونفسه وأعصابه ؛ ثم ثانيها بيته ، وهذا عامل مهم أيضا ويشمل أسرته وعمله ورفقاءه ؛ وفوق كل هذا لابد من ملاحظة الحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كان المجرم عليها ، مع أخذ علاقة المجني عليهم بالنسبة لأحد هذه العوامل أو مرتسماتها في اللاشعور بعين الاعتبار .

إن الجريمة كثيراً ما تكون وليدة عوامل عديدة مكبوتة في اللاشعور تنفجر على شكل عمل يحرمه القانون ، قد يصيب مسببها الأصلي ، وقد يأخذ شكل انتقام منه غير مباشر ، وقد يكون انتقاما من المجتمع أو من الجنس البشري بأسره ؛ كما قد يكون مجرد عمل يقوم به الشخص ضد حيوان أو جماد إرضاءً لنفسه ، وتخفيفاً للضغط الموجود في العقل الباطن ، دون أن يشكل عمله هذا أي مظهر جرمي خطير .

إن الجرائم التي من هذا النوع إذا لم ندرسها دراسة عميقة ، ونرجعها إلى بواعثها ، واكتفينا بمظهرها الذي يعاقب عليه القانون ، نكون قد ابتعدنا عن إعطاء الأشياء قيمها الحقيقية ، ونكون قد حملنا المجرم مسؤولية أكثر مما يوجب العدل أن يحمله ، وبهذا نقضي عليه بعقوبة كثيراً ما يكون غير مستحق لها ؛ وأي ظلم أشد من هذا ! وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات ، فالأحرى ألا نقضي بها على من في مسؤوليته شك ، أو هو غير أهل لتحمل أية مسؤولية مطلقا !

إن النظريات العلمية الحديثة في بواعث الإجرام وعوامله ، يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ، وتعطى مكانتها اللائقة بمقدار صحتها ، من قبل المشرعين والقضاة ، إتماما لواجبهم في إظهار الحق وتأييد العدل .

(دمشق) محمد عدنان الخطيب

المعرفة والنقد :

نظرية عبد القاهر الجرجاني

— ١ —

يخيل إلى أنه لا سبيل إلى الوقوف عند الكليات في مناقشة منهج الدراسة في الأدب ، فها هو صديقنا الأستاذ خلف الله يرى أن ما أدعو إليه جاهداً لا يختلف إلا قليلا عما يقول ، وأنا لا ريب يسرني أن أكون على وفاق تام مع الصديق ، بل ومع كافة البشر ؛ ولكنى أخشى أن يكون الخلاف أعمق مما يظن ، وإن كان ثمة ما يخفف عن نفسي فهو أننا نقتتل لغاية شريفة .

والذي أدعو إليه هو استقلال الأدب عن غيره من مظاهر نشاطنا الروحي : استقلاله بموضوعه وبمناهجه ؛ ولي في استقلال الفلسفة التي كانت تشمل قديماً كل أنواع المعرفة أسوة حسنة . وأما ما يدعو إليه الصديق فذلك ما لا علم لي به لأنه هو نفسه لم يستقر بعد على تحديده ، وكم أود لو واجهنا الصديق برأي متميز يناهض به رأيي ، إذن لاهتزت جوانحي فرحا ، ولقلت ها نحن قد نضجت ملكاتنا فأصبحت لنا اتجاهات نؤيدها ويؤيدها معنا من يرى الأشياء كما نراها ، وبهذا تكون لنا مدارس أدبية كما كانت لغيرنا من الشعوب .

يريد الأستاذ خلف الله أن يأخذ الأدب من كل شيء بطرف : علم نفس وجمال واجتماع ؛ وأنا أعوذ بالله أن أكون عدوا للمعرفة ، ولو أن أديبا أخبرني أنه يدرس الفلك لشجعته على المضي في دراسته ، لأن المعرفة — أي معرفة — إن لم تنفع كما يقولون ، فلن تضر ما حجزناها عن الأدب . وموضع الخطر هو أن نقحم على دراستنا معارف أقل ما فيها من إضلال هو صرفنا عن أن نركز نظرنا في الأدب كفن لغوى ، واهمين أننا نجدده إذ نتناوله بمبادئ علوم أخرى . وأما النظريات اللغوية ، وأما علوم اللغة ومناهج اللغة ، فذلك موضع دراستنا الذي نعتز به ونرى فيمن يستطيعه على نحو ما استطاعه عبد القاهر كنزاً ثميناً . المنهج الذي أدعو إليه هو المنهج الفقهي — منهج فقه اللغة — وسوف نرى ذلك المنهج يبتدئ بالنظر اللغوى لينتهي إلى التذوق الأدبي الذي لا شك متحكم في كل ما يمت إلى الأدب بصلة ، وذلك أردنا أو لم نرد .

ولنتخذ في إيضاح ما نريد سبيل البواقي ، فندل بضرب المثل على ما ليس من منهجنا ، ولتكن أمثلتنا من بين المسائل النفسية التي عالجها صديقنا وغيره من النقاد المصريين ، ولنكتف بمثلين : دراسة شخصية الحجاج التي نشرها الأستاذ خلف الله بالثقافة ؛ ومسألة التصغير عند المتنبي كما نشرها الأستاذ العقاد في « المطالعات » .

درس الأستاذ خلف الله خطب الحجاج فوجده رجلا ورعا قوى الإيمان من جهة ، قاسيا صلبا من الجهة الأخرى ، وذكر أن في علم الأمراض النفسية شيئاً اسمه « ازدواج الشخصية » ، بل وفطن إلى أن هذه الحقيقة العلمية قد استخدمت في الأدب نفسه ، فكتب أحد الروائيين الإنجليز قصة بعنوان « دكتور جيكل آند مستر هيد[1] » وفيها يصور المؤلف رجلا يعمل بالنهار كطبيب شريف رفيق ، وفي الليل ينقلب شريراً مجرما . وما دام الحجاج قد جمع إلى التقوى الصرامة فهو إذن مزدوج الشخصية ، وهو — في رأي الأستاذ — مثل قديم « لدكتور جيكل آند مستر هيد » ؛ وهذا مثل لتطبيق مبادئ علم النفس على الأدب ،

(١) « دكتور جيكل آند مستر هيد » هكذا كتب الأستاذ خلف الله في الثقافة ، وأنا بعد لا أدرى لماذا لم يترجم حرف العطف (آند And) بالواو فيقول : « دكتور جيكل ومستر هيد » وأنا قد أفهم على مضض إصراره في استخدام لفظة « سيكلوجية » وأما (آند) بدلا من واو العطف فذلك ما لا قبل لي به .

مثل ما لا أرى فيه إغراء النفس وإفساد الفكرة لحقائق النفوس ، وهو بعد لا يقل إسرافا وخطرا وخطأ عن محاولة برونتيير تطبيق مبدأ التطور على الأدب كما رأينا فى المقال السابق . الحجاج أقوى شخصية من الازدواج ؛ الحجاج نفس مؤمنة تتعصب لما تؤمن به والتعصب قسوة ؛ نفس قوية بوحشيتها .

فنظر الأستاذ فوجد الحجاج يقول : « إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها ... وإنى ... وإنى ... » ، وتذكر أن فى علم نفس الأطفال مرحلة تسمى « التركيز الإنى » (ego-centrisme) وهى تلك التى يرد فيها الأطفال كل شىء إلى أنفسهم ، كأن العالم الخارجى امتداد لذواتهم ، وكأنهم جزء لا ينفصل من ذلك العالم حتى يتم لهم إدراك انفصال أجسامهم عن غيرها وتميزها عما سواها . وها هو الحجاج يكثر من استعمال ضمير المتكلم ، وإذن فلا بد أنه ولوع بذاته ، مركز للعالم فى إنيته ؛ وهذا مثل ثان لطغيان علم النفس على الأدب . وأنا بعد لا أرى فى هذا إنية ما ، وإنما هى حماسة قلب تلتمس من طرق الأداء ما يشفيها ؛ ذلك ما يحدثنى به المنهج الفقهى — المنهج الطبيعى المستقيم .

وكذلك يفعل الأستاذ العقاد ، فهو بلا ريب يعلم ونعلم معه أن المتنبى كان رجلا معتزاً بنفسه ، وهو قد لاحظ أن المتنبى يكثر من استعمال التصغير ، فما عليه إلا أن يقيم علاقة نفسية بين الظاهرتين فيعلل تصغير المتنبى بتكبره . وهذا أيضا من طغيان النفسيات على الأدب ، والنفسيات فى ذاتها ليست شرا ، وإنما الشر يأتى من طريقة استخدامها وبخاصة فى عصرنا الحالى ، حيث يريد أصحابها أن يعطوها صفة العلم بما يستتبع ذلك من تعميم قوانين لا يمكن أن تنطبق على الأدب ، الذى هو كما قلت وسأقول دائما مفارقات دقيقة تحتاج فى إدراكها إلى ما يسميه بسكال Pascal لطافة الحس (esprit de finesse) أكثر من احتياجها إلى التفكير الهندسى (esprit de geometrie)

ولننظر عن قرب فى رأى الأستاذ العقاد ، وذلك لأنه يبدو لأول وهلة ظاهر الوجاهة ، والمتنبى لا نزاع فى أنه متكبر ، كما لا نزاع فى أنه قد هجا « الشويعر » و « كويفير » و « الخويدم » و « الأحيمق » بل و « أهيل عصره » . والتصغير فى رأى النحاة كثيرا ما يكون للتحقير ، وإذن فالمتنبى يريد بالتصغير أن يحقر خصومه ، وهو يحقرهم لأنه متكبر ؛ وهنا يتسلل الخطأ إلى التفكير النفسانى ، وذلك لأنى لا أظن أن التصغير فى شعر المتنبى كان لتكبره ، وإنما هو أداة من أدوات الهجاء يعرفها كافة شعراء هذا الفن فى الأدب العربى وفى غيره من الآداب . أداة لصيقة بفن أدبى بذاته لا وليدة لطبيعة نفسية عند من يستخدمها ، وليست هناك رابطة تلازم بين التكبر والتصغير ، حتى ولا فى شعر المتنبى نفسه ، وهو قد استخدمه للتعظيم ، قال :

أحاد أم سداس فى أحاد ... لييلتنا المنوطة بالتنادى

ومعنى الشطر الأول أن الليلة كانت طويلة حتى خيل للشاعر أنها لم تكن ليلة واحدة بل سبعا ، وإذا كان هذا طولها فكيف يصغرها فيقول : « لييلتنا » ؟ ولقد سئل المتنبى نفسه فى ذلك فقال (الوساطة — طبعة صبيح ص ٣٤٩) : هذا تصغير التعظيم ، والعرب تفعله كثيراً ، قال لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفر منها الأنامل

أراد لطف مدخلها فصغرها . وقال الأنصارى : أنا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك ؛ فصغر وهو يريد التعظيم . وقال آخر :

باسم أسقاك البُرَيق الوامض ... والديم الغادية الفضافض

وإذن فالمتنبى قد استخدم التصغير فى غير التحقير ، بل

استخدمه فى ضده . ومن هذا نرى أن العلاقة بين التكبير والتصغير غير مطردة حتى يستقيم التفسير بغرض إمكان ذلك . وفى الحق أن التصغير لا يفيد التحقير والتعظيم والتمليح وما إليها فحسب بل يفيد ألوانا لا حصر لها من العواطف . وإنه لمن الخطأ أن نأتى بتفكيرنا الهندسى فنعمم على غير احتياط ، ونحن لسوء الحظ لم نعد نحس اللغة العربية الفصحى ، وهذا يقودنا إلى أخطاء كثيرة لا يمكن أن يعصمنا منها أى نحو أو بلاغة . ولنفكر جيداً فى الإحساسات المختلفة التى يثيرها فى أنفسنا تصغيرنا العامى فى قولنا مثلا « حتة ولد » و « حتة لتة ولد » ، ولنتصور الملابسات العديدة التى يقول فيها شعبنا أمثال تلك الجمل ، لندرك الفارقات الدقيقة التى أشرت إليها . هناك وسائل كثيرة تحتال بها اللغات على تلوين أفكارنا ذلك التلوين الذى لا تحمله ولا يمكن أن تحمله مفردات اللغة ، وإنما تلحقه بها بفضل التنغيم فى الكلام ، وبحيل بلاغية فى الكتابة ، والتصغير إحدى تلك الحيل . ذلك ما يحدثنى به المنهج الفقهى ، وأما منهج العلم النفسى فيرى أن تصغير المتنبى كان لتكبيره .

هذه الأمثلة أسوقها للتدليل على النتائج البعيدة التى تترتب على استخدام مناهج العلوم الأخرى ، أو مبادئها فى دراسة الأدب . الأدب فن لغوى كما قلت ، فمنهجه هو المنهج الفقهى الفنى كما فهمه عبد القاهر الجرجانى وطبقه فى « دلائل الإعجاز » . والآن ما هو ذلك المنهج ؟ .

(البحث بقية)

محمد مندور

لعب التمساح

عرضنا في مقالات سابقة لمحمد بن دنيال المؤلف المسرحي المصري ، الذي عاش في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما بسطنا لقراء «الثقافة» مسرحياته التي وضعها خاصة لخيال الظل ، وقد توخينا في ذلك البسط إظهار الناحية الأدبية للقارئ ، ليرى صورة من صور الحياة المصرية ، والتفكير المصري ، أو بمعنى آخر فناً من فنون الأدب العربي المصري في ذلك العصر . واليوم أعرض مسرحية أخرى من نتاج القرن السابع عشر ؛ ومن وضع ثلاثة من المؤلفين ، وهم : الشيخ سعود ، والشيخ على النحلة ، وداود المناوي ، وتسمى (لعب التمساح) . أما الفضل في تعريف العالم الحديث بهذه المسرحية فيرجع إلى العلامة المحقق المستشرق الألماني أستاذي (بول كاله) ، فقد حضر عام ١٩٠٦ إلى مصر باحثاً عن بعض المخطوطات والشخوص التي تتصل بخيال الظل ، ولا سيما فهو ثالث اثنين عرفهما العالم العربي كرسا حياتهما لهذا النوع من الأدب العربي ، أولهما (جورج يعقوب) الذي كان يدير معهد اللغات الشرقية بجامعة (كيل) ، وثانيهما مدير معهد جامعة (بون) على شفاف الرين . وشاء الله أن يوفق (كاله) في حضوره إلى مصر ، فعثر عام ١٩٠٩ مع شخص يدعى (درويش القصاص) على مخطوطة عنوانها (ديوان كدس[1] من كلام الشيخ سعود والشيخ على النحلة وداود العطار) ، كما وجد رزمة من المخطوطات في المنزلة تكمل هذه المخطوطة ، وجمع أكثر من ثمانين شخصاً من شخوص خيال الظل التي ترجع إلى عصر المماليك .

(١) الكدس والكداس هو ما يجمع من الطعام في البيدر وقيل الكدس والبيدر والعرمة والصبرة واحد . وقيل الكدس جماعة الطعام وكذلك ما يجمع من دراهم وغيرها (أقرب الموارد) .

وتبدأ هذه المسرحية بظهور شخص على المسرح يسمى الحارق ، فيلقي ما يسمى بلغة القرن السابع عشر (رهانة) وهي :

تأملوا يا أهل النظر ما قلت في هذا الخيال
من المعاني الرائقه مع حسن ترتيب المقال

بيت :

خيالنا هذا المليح على الخلايق ينجلي
ومن يجي بعدي يروم بصنع مثاله يبتلي
بالكمد والقهر الشديد وبالغصص قلبه ملي
ويرجع خايب ذليل في خزي زايد مع نكال
والحاضرين يتمسخروا عليه نساهم والرجال

وبعد أن يفرغ الحارق من هذه البرهانة التي تقع في أحد عشر بيتاً يدخل رجل فلاح يسمى (زرقاش) ، ويأخذ في إلقاء النشيد الذي مطلعه :

يا لطيف الصنع يا مولى الموالي
يا كثير الجود بفضلك تعف عني
حسن ظني فيك أن تغفر ذنوبي
يا إلهي لا تخيب فيك ظني

فيقاطعه الحارق ، وبعد أن يناقشه مناقشة قصيرة يعود الفلاح زرقاش إلى الإنشاد ، فيقول :

يا إلهي أرض إسلامي شراقي
ما يكون الحال وانا خايف الفضايح
لا أزرع لي خير ولا قدمت تقوى
واقلب فدان صلاحي بالقبايح
كل ما اقلب في سواقي العدل وازرع
يتحصد قلبي يزودني جرايح
والفلاحة فيها وانت السامح
إن باب عفوك لمصباني رجى
حسن ظني ... ...

ومن هذا النشيد يتبين أن الزرقاش والحارق من

قرية واحدة ، فتنشأ بين الاثنين صداقة ، ومن ثم يذهب الاثنان إلى النيل لصيد السمك ، وهناك يطرح الزرقاش الغابة فى الماء ، فتخرج سمكة كبيرة ، وتجذب الغابة بقوة يكاد معها يغرق الزرقاش ، لولا مسارعة الحازق إلى إنقاذه . وبعد نجاته يخاطب الحازق قائلا : اسكت يا أخى ! السمك بتاع البحر ده قوى ، خد منى الغاب وكفاك على وشى .

الحازق : لا ! أشوف لك مم يعلمك الصنعة .

الزرقاش : اعمل معروف يا مقدم شوف لى مم يعلمنى .

الحازق : طيب خليك واقف وأنا أجيب لك واحد يعلمك الصيد . فينادى الحازق ويقول : يا حج منصور ، يا شيخ العاش .

منصور : مين ده اللى يناده ؟

الحازق : تعالى ، جبت لك ولد تعلمه الصيد .

منصور : حاضر يا ابنى .

ثم يخرج الحاج منصور وخلفه الزرقاش ، ويقول شيخ العاش :

يا زرقاش ماذا أصابك لما

واقف تخبط فى دياجى الأسحار

هو حد مات لك افتكرته والا

تقشير[1] أصابك جنب شط الأنهار

زرقاش :

يا عم يا شيخ العاش اسمع لى

يا من عطيت بين أهل فنك رفعه

قال لى دليل حيث تعلق بالى

بغية الصيد واشتغال الصنعة ...

وبعد محاورة زجلية لطيفة بين شيخ العاش والزرقاش يقول الأخير :

يا عم ساهل دا الكلام وحياتك

دا الوقت أفى لك بلبليق[1] سكر

يكون على الطار صنعته والزمار

وكل داخل إلى حمنا يسكر

من نغمة السكاه وضربه يسمى

اسكندرانى فى الضروبات يذكر

وكل خال إلى جا حداه أو خايل

خايل عليه وانباع برخص الأسعار

ثم بعد ذلك ينتهى هذا الزجل ككثير من أزجال ذلك العصر بدور فى مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويختم بدور الاستشهاد ، وفيه يذكر اسم المؤلف . ويأخذ الزرقاش بعد ذلك فى غناء البليق المكون من تسعة أدوار ، ومطلعه :

يا زرقاش يا ابن الأخيار	مالك محتار
والدمع من عينك هدار	شبه الأمطار

وبعد الفراغ من الغناء ينصرف مع شيخ العاش الحاج منصور إلى النيل للصيد . وهنا يسود السكوت ، ويخيم الصمت ، وبعد برهة يسمع صوت الاثنين وهما على شاطئ النيل يتأهبان للصيد ، وينشدان الأناشيد ؛ وبعد الفراغ من الغناء يلقى الزرقاش الغابة فى النيل حسب إرشادات شيخ العاش ، فيخرج تمساح ويلتهم الزرقاش إلا رأسه ، فتظل مطلة من فم التمساح ؛ وفى هذه المحفلة تظهر على المسرح شخصية جديدة ، ألا وهى شخصية الزخم ، وهو المضحك ، فينشد الفلاح زرقاش نشيداً تائهاً فى الجمال ، أقتطف منه :

قفوا انظروا فلاح	مكسور ذليل منهان
جوا حنك تمساح	من سالف الأزمان

(١) التقشير الرجل عرى من ثيابه .

(١) بليق فرس سباق كان يسبق جياد الخيل وكان مع ذلك يخاب فضرب به المثل (يجرى بليق ويدم) مثل يضرب لمن يذم مع إحسانه .

دور :

يا من رماك دهرك   فى فم دا التمساح
قول لى على أمرك   وما دهاك يا صاح
لما بقيت لهفان   والسر منك باح
والسر منك باح   وانت بقيت لهفان
والدمع من عينك   يجرى دما طوفان

دور :

طول مدتى صياد   يا من سأل عنى
فى صيدهم معتاد   لما بقى فنى
جيته وانا فرحان   ناويه يطمنى
ناويه يطمنى   جيته وانا فرحان
فتباطيق وامسيت   باكى وحيى حان

وبعد أن يفرغ الفلاح من شكواه ، يتقدم الرخم وينشد :

مطلع :

قبل الكلام أمدح نبينا الهادى   من أنطق الله له الحجارة بإصباح
والضب جاسلم عليه فى الوادى   وأما الجمل من عظم ما به قد باح

رخم :

يا أيها الفلاح فاذا صابك   لما بقيت فى فم تمساح كاسر
دعوة فقير ولا دعاء من مظلوم   ولا مرابط كان بسره خاطر

وبعد أن يفرغ الرخم من دوره يعقب عليه الفلاح بدور آخر . وهكذا نجد أنفسنا أمام نقاش شعرى فى غاية الجمال والقوة ، ثم يأخذ الاثنان فى غناء بليق ينادى بعده الرخم على امرأة الفلاح ، فتخرج مسرعة ومعها ابنها ، ويحدث أن يدخل فى نفس الوقت شيخ الماش ، فيهم المرأة وابنها ويطردهما ؛ ويمر شخص أسود ويغنى :

يا عينى لا تنامى   لا يجيك الحرامى
يسرق وابيت الوسيه   يضربوك خمسانه

فيخاطبه شيخ الماش : يا بربرى ، يا بربرى ! وهنا يسكت البربرى ويظل صامتاً ؛ فيناديه شيخ الماش مرة أخرى : يا بو سمرة ، يا حج إدريس ؛ فيلتفت إليه البربرى قائلا : خبر إيه ؟ إنت ما يحطش شوية ملح فى عينك وتقول يا حج كاشف ؟! وبعد حديث طويل بينهما يعرض عليه شيخ الماش مبلغاً فى سبيل إخراج الفلاح من فم التمساح ، فيقبل البربرى ؛ وفى هذا الأثناء يمر رجل مغربى يسمى الحاج قدور منشداً :

قف أخبرك فى دى زمان القبائح
ومن عدم الإنصاف قل الناصح
وانا مغربى رمّال بنجتى سارح
سبحان من يستر جميع الفضائح

وبعد أن يفرغ من إنشاده ، يعرض عليه شيخ الماش مبلغاً من المال إذا تمكن بسحره من إنقاذ الفلاح من التمساح ، فيقوم بين البربرى والمغربى شجار عنيف ، يشترك فيه فيما بعد عدد عديد من البرابرة والمغاربة . وأخيراً يتفق المتشاجرون على حل ، وهو أن يدفع كل فريق للآخر مبلغاً من المال إذا عجز عن إنقاذ الفلاح ؛ فيتقدم البربرى كاشف نحو الفلاح يريد إخراجه ، وخلف كاشف يقوم بربرى آخر يدعى عثمان ماسكا بكاشف ؛ ويتفق الاثنان فيما بينهما على أن يتكلما لغة سرية (سيم) ، حتى لا يفهم التمساح قصدهما . أما هذه اللغة السرية فتلخص فى لفظين : (أرز) و (عدس) ، أما لفظ (أرز) فمعناه أن يدفع عثمان ، بينما لفظ (عدس) يعنى (يسحب) . وبعد ذلك يتقدم كاشف ويمسك رأس الفلاح ويصدر الأمر (عدس رز ، عدس رز) ، وأخيراً يصيح : (عدس عدس) ، فينادى عثمان : (رز رز) ، ويدفع كاشف فى فم التمساح مع الفلاح ؛ فيستولى الخوف على عثمان ، وينادى مغربيين يتمكنان من إنقاذ الفلاح وكاشف بإطلاق بخور وتلاوة عزيمة . وعقب ذلك يحملان التمساح على رأسيهما ويسيران به على المسرح ينشدان نشيداً ختامياً .

دكتور فؤاد حسنين

الفن عند تولستوى

أولع تولستوى فى أدوار حياته المختلفة بضروب متنوعة من المعرفة، ولكنه كان دائماً شغوفاً بالفن، فاشتغل به سنوات عدة، وأولاه عناية كبيرة من بحثه وفكره، وظل خمسة عشر عاماً — كما يقول — يقرأ وينقب فيما كتب رجال الفن والأدب فى تعريف «الفن». وأخيراً — بعد الدرس والتمحيص — استطاع أن يدلى لنا برأيه فى كتابه القيم «ما هو الفن؟»، وهو خير مؤلفاته الفلسفية من حيث الترتيب وسلامة التفكير. وقد ضمّن الكتاب نظرية عامة عن الفن، قد يوافقه عليها القارئ وقد لا يوافقه، ولكنها على كل حال نظرية لها أهميتها، وبخاصة إذا ذكرنا أن مؤلفها كان قصاصاً شهيراً وكاتباً مسرحياً كبيراً، وله بالموسيقى وكل ضروب الفن ولع شديد.

يقول تولستوى: إنك لو تناولت صحيفة يومية عادية ألفيتها مليئة بأخبار المسارح وحفلات الرقص والغناء؛ وما أكثر ما تنشر الصحف من مقالات فى وصف معارض الفن والأعمال الفنية المستحدثة؛ ولعرض القصائد والمقالات الأدبية ونقد الكتب الجديدة والقصص والروايات مكان فى الصحيفة فسيح. وتنفق الدولة أموالا طائلة لإعانة الفرق التمثيلية وما إليها، وإنها لتجمع هذه الأموال مما تفرضه من ضرائب على الفقراء والمساكين. وفى المدن الكبرى جميعاً معارض للصور يزورها أفراد الشعب ويكتب عنها النقاد وهواة الفن؛ وفيها كذلك مبان ضخمة فخمة — هى فى ذاتها آيات فنية عظيمة — خصصت للمتاحف الأثرية ومدارس الفنون والمسارح والملاهى. وفى كل أمة متحضرة مئات الألوف من العمال — نجارين وبنائين ورسامين وطباعين وحائكين وصانعى ملابس وغيرهم — ينفقون حياتهم كلها فى عمل شاق متواصل لتلبية مطالب الفن.

فالفن فى الواقع يستغرق جانباً كبيراً من نشاط الناس، وهو منبث فى حياة الفرد منذ الصغر حين يسمع وهو ما يزال فى المهد أناشيد الطفولة؛ وهو منتشر فى كل مكان، تلمسه فى بناء المنزل الذى تسكن، وفى رسم الرداء الذى ترتدى، وفى الأثاث والآنية، وتنسيق الموائد، وتنظيم المواكب العامة والحفلات الشعبية.

وكم من الناس من يخصص حياته كلها منذ الطفولة لتعلم الرقص أو الموسيقى أو التصوير، وإن لديه من الذكاء ما كان يمكنه من أداء عمل آخر مفيد، ولكنه يكرس العمر للفن، وتضيق به الحياة فى كل ناحية سوى ناحية واحدة — هى الناحية الفنية. بل إن من الناس من يلاقى العذاب صنوفاً وقت التمرين والتدريب، ولا يتقاضى سوى أجر يسير على عمل مضن كبير.

إن القارئ لا يكاد يتصور الجهد الذى يبذل فى سبيل إخراج حفلة راقصة، أو معرض لألعاب الحيوان (سيرك) أو رواية غنائية، أو صورة فنية، أو حفلة موسيقية، أو كتاب مطبوع. لا بد للفنان من حشد كبير من العمال يساعده فى إخراج عمله الفنى، بل ويعاونه فى كثير من الأحيان على أن يحيا حياة فيها كثير من البذخ والترف.

أفلا يحق لنا بعد هذا كله أن نتساءل: ولم كل هذا الجهد؟ وما هو هذا الفن الذى تبذل من أجله كل هذه التضحيات؟

يقول الرجل من عامة الناس إنه لسؤال سخيف، الفن هو المعمار والنحت والتصوير والموسيقى والشعر بكل صوره. وقد يقول هو ضرب من ضروب النشاط يخرج لنا شيئاً جميلا تستمتع العين بمرآه أو الأذن بسمعه؛ وهو تعريف ناقص لا يؤدى إلى غرض، لأنه يتركنا فى حيرة متسائلين: وما الجمال؟

وهنالك تعاريف أخرى، منها أن الفن نشاط ذهنى يوجد حتى فى مملكة الحيوان، وينشأ عن الرغبة الجنسية ورافقه

إحساس لذيذ ؛ ومنها أن الفن هو التعبير بالخطوط والألوان والحركات والأصوات والكلمات عن العواطف التي يحس بها الإنسان ؛ ومنها أنه عمل يستمتع به الفنان وهو يؤديه والرائي وهو يشاهده . وكلها تعاريف ناقصة غير ناجحة يفندها تولستوى واحداً بعد الآخر ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى بسط رأيه في الموضوع .

يقول تولستوى : إن الفن يقوم على أساس حقيقة نفسية بسيطة ، وهى أن الإنسان حين يستقبل عن طريق السمع أو النظر تعبير شخص آخر عن عاطفته يحس بنفس الشعور الذي أحس به الشخص المعبّر : يضحك الرجل من شيء يسره فيضحك معه السامعون ؛ وتبكى المرأة فتستذرف دموع الآخرين ؛ ويثور المرء فتثور نفوس الشاهدين ؛ ويعبر الرجل بالحركات والأصوات عن شجاعته أو عزمه أو حزنه أو هدوء طبعه فتنتقل هذه الحالة النفسية إلى غيره من الناس ؛ ويتألم الرجل ويعبر عن ألمه بالأنين والحركات فينتقل ألمه إلى الآخرين ؛ ويفصح الرجل عن إعجابه أو حبه أو خوفه فيثير في السامعين إحساساً كإحساسه .

العمل الفني يقوم على أساس هـذه القاعدة ، وهى مقدرة الإنسان على مشاركة غيره الوجدان . فإذا تمت هذه المشاركة الوجدانية في التو والحين ، أي إذا تثاءب عمرو فتثاءب زيد ، أو ضحك أو بكى فأضحك أو أبكى ، أو تألم فآلم ، لم تكن عملا فنيا لأنها تمت بغير قصد ، وإنما شرط العمل الفني القصد والإرادة .

من أجل هذا كان الفن عند تولستوى ضرباً من ضروب النشاط الذهني ، به يستطيع الفنان أن ينقل إلى غيره — وهو عامد — لوناً من ألوان الشعور التي مارسها .

فإذا خرج للنزهة صبي صغير وأقبل عليه ذئب مفترس فزع الصبي لمرآه وفر منه وهرع إلى بيته ، وأخذ يقص على أبويه ما فعل الذئب عند الهجوم ، وروى لهما كيف مال برأسه وبدت الوحشية في عينيه ، وكيف حاول هو الفرار منه فتعثر وهو يركض ، ثم استرد توازنه وصعد فوق سور متداعٍ ، وكان بنجاته من خطر الموت سعيداً . . . . . .

إذا استطاع الصبي أن يروى هذه القصة بحيث ينقل مشاعره إلى أبويه فيحسان بما أحس ، فهو في قصته راوٍ فنان ، وهو كذلك راوٍ فنان إذا روى هذه القصة دون أن يرى بعينيه ذئباً ، وإنما يتصور ما يحس إذا التقى به ويمثل هذا الحس ويؤلف من بنات خياله قصة يشاركه فيهـا أبواه الشعور حين يرويها .

وثمة مثال آخر : في غرفة غاصة بالناس ، رجالا ونساء ، اخترق الصفوف رجل مقدام فوطأ في سيره قدم سيدة كريمة ، فصاحت السيدة من شدة الألم ، وانتقل شعورها إلى شعور السامعين ؛ هذه الصيحة ليست عملا فنيا ، لأن السيدة عبّرت عن شعورها في اللحظة التي أحست فيها بالألم غير عامدة وعلى غير وعى منها . ثم عاد الرجل يتجول في الغرفة ، ومر بالسيدة ولم يطأ هذه المرة قدمها ، بيد أنه عنّ لها أن تزعم أنه فعل ذلك ؛ ولكي تدفع الحاضرين إلى مشاركتها الشعور بالألم الموهوم صاحت ولوّحت بيديها فأثارت فيهم حساً شبيهاً بالحس الذي تزعمه ، هذه السيدة في عملها هذا فنانة بارعة ، لأنها استطاعت بالصوت والحركة أن تنقل شعورها إلى غيرها .

فالشرط الأول إذن من شروط العمل الفني انتقال الشعور عمداً من الفنان إلى السامع أو القارئ أو الشاهد .

تخيل جماعة من الناس احتشدت في مكان واحد ، ليست بين أفرادها عداوة ، لكل منهم شعوره الخاص وفكره الخاص ، إن نفوسهم تظل متنافرة حتى تُلقى عليهم قصة ، أو تمثل أمامهم رواية ، أو تعرض أمام أنظارهم صورة ، أو يستمعون إلى قطعة من الموسيقى ؛ حينئذ يتحدون جميعاً وكأن تياراً كهربياً سرى في كل النفوس ، وتحل محل العزلة النفسية التي كان يحس بها كل منهم الوحدة والحب المتبادل . ويسر كل منهم لأن الآخرين يحسون بما يحس ، ويغتبط بالوحدة التي تربطه لا بأولئك الحاضرين وحدهم ، وإنما بكل الأحياء في عصره الذين يشاركونه الشعور ،

بل ويحس بسرور عجيب لأن اتحاده بغيره يمتد إلى ما وراء الموت ويربطه بأبناء الأجيال الماضية الذين أثارت فيهم هذه القطعة الفنية التي يشهدها أو يسمعها نفس الشعور الذي يحس به ، ويبتهج حين يمتد خياله إلى المستقبل فيشعر بوحدة نفسية بينه وبين أبنائه الذين لا يشك في أنهم سوف يشاطرونه الحس والشعور . وليس من الضروري أن يكون هذا الشعور المشترك ذا أهمية دينية أو اجتماعية أو سياسية .

ولكن لكي تتم هذه الوحدة الشعورية لا بد للقطعة الفنية من « صورة » خاصة لها شروطها الفنية ، هذه « الصورة » هي الشرط الثاني الذي لا بد أن يتوفر في العمل الفني . ففي الموسيقى مثلا ينبغي أن تتكامل للقطعة شروط ثلاثة لكي تؤدي عملها الفني ، وتلك هي : قدرة الصوت ، ودرجة ارتفاعه ، والوقت الذي يستغرقه . فلا تكون الموسيقى فنا ولا توحد بين شعور السامعين إلا إذا بلغ ارتفاع الصوت حده المناسب ، فلا تكون أكثر علوا ولا أشد انخفاضا مما ينبغي ؛ وحين تمتد النغمة إلى الوقت المرغوب فلا تطول هنيهة ولا تقصر هنيهة ؛ وحين يكون الصوت في المستوى المطلوب من حيث قوته فلا يشتد ولا يضعف . إن أقل انحراف في درجة ارتفاع الصوت ، وأقل طول أو قصر في الزمن ، وأقل زيادة في قوة الصوت أو ضعفه ، تتلف قيمة القطعة وتوهن من أثرها في الشعور . ومن ثم ترى أن أثر القطعة الشعوري لا يتم إلا إذا اهتدى العازف إلى تلك الحدود الدقيقة الضرورية للكمال .

وكذلك الحال في الفنون الأخرى جميعاً . ففي التصوير : إذا خف اللون أو أظلم قليلا ، وإذا انحرف المنظر قيد أنملة يمنة أو يسرة ؛ وفي الفن المسرحي : إذا رفع الممثل صوته درجة أو خفض منه درجة ، أو أسرع أو أبطأ في الإلقاء قليلا ؛ وفي الشعر : إذا حذفت كلمة واحدة ، أو اشتد التأكيد والمبالغة في غير موجب ..... إذا كان هذا أو ذاك في التصوير أو في التمثيل أو في الشعر فقد العمل الفني أثره في الشعور أو ضعف .

ومن المستحيل أن تعلم الناس الاهتداء إلى هذه الفروق الدقيقة ، إنما هي تدرك بالشعور لا بالتعلم . إنك لا تستطيع بالتعليم أن تخلق راقصة بارعة أو مغنيا عذب الصوت ، أو مصوراً يختار من بين ألوف الخطوط خطاً واحداً هو وحده الصحيح ، أو الشاعر يهتدي إلى انتقاء الألفاظ التي هي وحدها تؤدي المعنى وتناسب المقام . كل هذا يُدرك بالشعور ؛ ولذا فالمدارس قد تعلم ما يلزم لإخراج شيء يشبه الفن ولكنها لا تعلم الفن ذاته .

إذا لم تكن « صورة » العمل الفني دقيقة فلا يمكن لقصة أو أغنية أو نغمة أو صورة أو تمثال أو رقصة أو ما إليها من آيات الفن أن تحمل شعور منشئها للسامعين أو الشاهدين ؛ فعلى « الصورة » يتوقف الحكم على شيء أهو فن أو غير فن .

والشرط الثالث هو أن يكون الشعور المنبعث من العمل الفني نافعاً للناس غير ضارٍّ بهم ، لأن الفن لا بد أن يتصل بالحياة ، ولا بد للفنان أن يعمل لمصلحة الإنسانية ، ولا يقضي عمره — كما يقول تولستوي — لمجرد المهارة في التواء ساقيه أو لسانه أو أصابعه . أمثال هؤلاء الفنانين يعيشون وحدهم في عالم غير عالمنا الذي نضطرب فيه .

والشرط الرابع للفن أهميته ؛ إذ لو كان الفن عملا من أعمال المهارة فحسب لكان كلعب النرد أو الكرة أو الشطرنج ، ولكنه أهم من ذلك بكثير ، لأنه يترك أثراً قوياً في مشاعر الإنسان ، ومشاعر المرء لها أثرها في تفكيره وعقيدته وجميع نواحي حياته أثر بليغ ؛ ولقد صدق فلتشر حين قال : « إذا أتيح لإنسان أن يؤلف للأمة أغانيها (وكانت الأغاني في عهد فلتشر تقوم مقام الموسيقى والشعر والفنون جميعا) فإنه لا يأبه بعد هذا من ذا تختار الأمة ليسن لها القوانين » وهذا حق ؛ لأن واضع القانون كالعجينة المرنة في يد الفنان .

ولهذا كان الفن — وينبغي أن يكون — معادلاً للعلوم في أهميته لتقدم المدنية وارتقاء الإنسان .

زكي نجيب محمود

فى مكتب الحيـــاة ...

قالت « الحياة » ، وقد رأته يدخل عليها لأول مرة بعد طول الامتناع والتأبّى :

— أتدرى لماذا استدعيتك الآن ؟

فقال « هو » ولم تُخِفْهُ رهبةُ المكان وصاحبته :

— من يدرى ؟ لعلك لم تكتفى أو تشتفى ! لعلك لديك فسحة من الوقت أردت أن تُزجيها فى العبث ببعض من تطاردينهم .. !

فامتعضت الحياة من هذه الجرأة ، وهمّت أن تدفع به إلى غير قرار ، ولكنها عادت فكظمت غيظها ، ثم قالت فى شىء من الحدة :

— قل أيها الشقى ، لماذا استدعيتك الآن ؟

— أتسألين لماذا ؟ ومَن لى بإدراكها ، أألتاكِ وأحاجيك ؟ وماذا يهمنى أن أستدعى إليك أو لا أستدعى ؟ لقد ساءت العلائق بيننا من زمن بعيد ، واستوى لدى خيرُكِ وشركِ ، حربُكِ وسلمكِ ، نعيمُكِ وجحيمكِ ! فافعلى الآن ما شئتِ ، ومَثّلى بى ما أردتِ ، فلن تسيئى إلىّ بأكثر مما أسأت ! !

وأدركت الحياة أنهما مُقضيان إلى اصطدام ، فسترت غيظها وامتعاضها بابتسامة تهيأت بعدها للكلام ، ولم تكد تفعل حتى ثار ثائره ، واعترضها بيده صائحاً :

— تبسمين ؟؟ أنت أيتها العجوز التى لا يدرى أعمقُ أهل الأرض كم عمرها تبسمين ؟ ولمن هذه البسمة ؟ ألى تبسمين ؟ حسن ! فمن أنا فى جنودك أو بين ملكوتك ؟ ولكن تذكرى أن هذا الهباء الجالسَ أمامك شىء له شأنه وخطره . انظرى من النافذة التى على يسارك ، ثم قولى : ماذا ترين ؟ أهذه هى الحضارة الزاهرة التى أفنيتِ ملايين السنين فى خلقها وتطورها ؟ ثم أهذه الأشلاء الشائرة المتراكمة بعضُ من أنجبتِهم وتحسّرتِ بهم فضائك ؟

إن حلمك الذهبى الذى قد بدده هذا الهباء الجالسُ أمامك . أجل ، بدده هو وأمثاله بما يملكون من قوى غير منظورة ! على أن ما أحدثنا فى دنياك مما تشاهدين ، ليس إلا نوعاً من الانتقام لأنفسنا .. تستطيعين أن تخدعى أو تُرهى السُّذّج الأغرار بمثل هذه الابتسامات ... أما أنا ...

وهنا أحس كأن الهواء قد تغير ، وكأنما قد تخلله قوى تخيف وترهب ، فكاد يصرخ من الفزع ، ولكنه عاد فتماسك وتشجع ! وابتسمت الحياة مرة ثانية ، وأعرضت عنه قليلا تصرّف بعض الشئون ، ثم أقبلت عليه تسأله :

— أما أنت ... فماذا ؟

وأدركه الوجل من هذا التغير الغريب ، وشعر لأول مرة بالخوف ، فهدأ من ثورته ، وخفض من صوته ، ثم قال فى أسلوب مهذب :

— أما أنا فرهنُ مشيئتك . إنها نزوات الشباب ، ودفعات الجهل ، وأوهام الغرور . ألستُ ابنك وأنت أمى ؟ إذن فسامحينى . فما أحوج الابن الضال إلى العفو والمسامحة ! وضحكت الحياة فى هذه المرة ضحكة كلها غناء وشعر . . . فسرى هذا الغناء الشعرى إلى نفسه المضطربة فرده هادئاً وادعاً . وكأن الحياة توسمت فيه الخضوع والانقياد ، فعادت تسأله :

— وبعد ... أتدرى لماذا استدعيتك الآن ؟

— بل أدرى يا أماه . لقد شجاك ضلال أحد أبنائك ، وساءك أن يعمل على تقويض دعائم الأمن فى مُلك أحكمته منذ ملايين السنين . أردتِ أن تُشعرينى أنى منك قريب غير بعيد ، وأنْ ليس بينى وبينك حجاب ، وأن حنانك يشملنى ، وعنايتك تلحظنى مهما تشابكت المسالك ! أليس كذلك يا أماه ؟

ولم ترق تلك العبارات لدى الحيـاة ، فأظهرت امتعاضها ، ونظرت إليه فى ازدراء ، ثم قالت فى أسف :

— ما أقبح رياءكم بنى الإنسان ! وما أمهركم فى صناعة التضليل ! أحمقاء أنتم فتسفهون !! وأبرق لكم فتجبنون !! ما ثمرة العقل والعلم والامتياز إذا لم تثمر صراحة صريحة ؟ وهل من سبب لازورارك منى ، وثورتك علىّ ؟ الآن يجب أن يمحق كل ما بيننا ، كى أفرغ من شكاياتك التى كادت تفسد علىّ عملى ... !

وأطرق « هو » خجلان أسفاً ، وشعر بالخزى من نفسه ، حينما أدرك أن الحياة قد فطنت إلى مراوغته ، ولم يجد بداً من أن يفضى إليها بوجه آخر من المشكلة ، فقال :

— إنك منى يا أماه جد قاسية ! كلما فارت بين حظى وحظ غيرى منك انتهيت إلى نوع من الأسى أليم ..! ماذا أفدت منك حتى الآن ؟ الذكاء ؟ النبوغ ؟ الفن ؟ يا لها من سيئات أحاسب عليها ! هاأنذا أحترق فمن يبصر ؟! وأغنى فمن يسمع ؟!

لماذا لا أكون كبعض المحظوظين من أبنائك ؟ لماذا يبهلون وتظلما ؟ ويتقدمون وتخاف ؟ ويحلقون وتحبو ؟ سهروا العمر فى تجميلك ، وقضوه هم فى تشويهك ، ثم أقبلت عليهم وأعرضت عنا . . .

الأنبياء هم الذين يطيقون أن يحملوا ذلك فقد وعدوا الجنة وسموا أنبياء ، أما نحن فبأى حق نطيق ولسنا بالأنبياء الموعودين ؟ ألحكمة هذا التفاوت ، وذاك الشذوذ ؟

وتربث لحظة يستجمع فيها وعيه وخواطره ، وخيل إليه أنه موفق ، وأن فى وسعه أن يحرج الحياة أكثر من ذلك ، فاندفع يتم ما بدأ ، ولكن سرعان ما اعترضته فى ثورة الأنثى الغضوب :

— ويحك أيها المتمرد الصغير ! أكنت تطمع أن تشترى بالمعرفة خبزا ؟ ألا ما أسفك ! على أنى أتهمك بالافتراء مرة ثانية !

وصدمته الكلمة ، فصاح فى لهجة المفاجأة :

— الافتراء ... ؟

— أجـل ، فليس ما تقرر به إلا نوعاً من المناورة والافتراء ! لقد كنت راضياً قبل اليوم بكل ما تشكو منه الآن ، وآية ذلك أنك لم تثر عليه أو تعترض . فماذا تندد به اليوم ؟ الحق أن المشكلة شىء غير هـذا ... إنها المرأة التى تعرفها ! أليس كذلك ؟

— المرأة التى أعرفها ؟ ويحك ! من تقصدين ؟

— تلك التى وضعتها فى طريقك ثم رفضتها .. ذلك الحلم الذى استغرق كل أيامك ولياليك .. ذلك الشجى اللذيذ ، والضنى الذى استنزف دموع قلبك .... !!

ولم يكد يسمع تلك الكلمات حتى انفجر كالمحموم :

— كفى كفى ! أمبالغة فى الكيد إلى هذا الحد ؟ أحين نسيت دورك فى تلك المأساة تعودين فتجددين حنق عليك ؟ إنى أكن خسرت لأنت أشد خسرانا ... أين الأغانى ؟ أين الصلوات ؟ أين الفرح الطاغى ؟ أين كل هذه المعانى المجنحة التى كنت أبثها فى جوك ، فتلطف من حدة عملك هذا ؟ الذى تمارسينه من قديم الأزل ؟ كل ذلك خسرته فى سبيل العشق ! أحين نسيت أو أوشكت تذكرين بكلمة العذاب ؟

ولم ترد الحياة أن يسترسل حرصا على الوقت فاعترضته قائلة :

— أنسيت أم تناسيت ؟

فصاح بها :

— وهبينى تناسيت ، فماذا تنكئين الجرح ؟ ألا تعلمين أن التناسى قد يفضى إلى النسيان ؟

— أجل . قد يفضى ... ولكن عند غيركم . أما أنتم يا من تجسمون الخيال .. يا من تحنطون الزمان والمكان ، والأشخاص والحركات ، والأصوات والذكريات ، وتقهرونها على أن تعيشوا فيها أو تعيش

فيكم ، فهيهات أن ترقوا إلى مرتبة النسيان !!

وما راع الحياة إلا دموعٌ تفصح عن صفاء عنصره وطهارة قلبه ، فشق عليها أمره ، وشعرت فى أعماقها بالندم إذ لست موضع أحزانه ، فراحت تلاطفه :

— ليتك تفكر — حين تفكر فى هذا الموضوع — بعقلك لا بقلبك ..

فاستحثها إلى النتيجة بقوله :

— إذن ... ؟

— إذن لأدركتَ أنى لستُ بطائلة لك ...

— بل أنتِ — واغفرى لى — جدُّ طائلة يا أماه !

— أوَ تزعم ؟

— بل أعتقد ...

وأحست الحياة مدى تأثره ، فأشفقت عليه ، وخاطبته بلهجة كلها حنان وعطف :

— بنىّ .. لا تسرفْ فى اتهام أمك إلى هذا الحد . لا تصورها هكذا فى صورة المناهض لآمالك . وبك ماذا تدرى عمن غرستْ فى نفسك بذور التمرد ؟!

كل ما أدريه أنها كانت لى مصدر إشراق وحياة ، ينبوع فرح وإلهام ..

— أجل ، وأدرى أنا أن الحب كان يمشيك فتزعمها هبة السماء ؛ وأن الوهم كان يستبد بك فتنسبها إلى الآلهة . !

أكانت من الآلهة حقاً ؟

— أجل كانت كذلك عندى ...

— وعندى أنها غير ذلك .. كل ما هنالك أنك تعكس عليها بعض معانيك ، وتخلع عليها من محاسنك ومواهبك فتبدو شيئاً فريداً ... إنك تحلم بها ولا تراها ..

— أحلم بها ؟

— نعم ، ويوم تراها تعيش وتأكل مثلك ، وتثور وتغضب مثلك ، وتنجب أطفالا مثل بنات حواء ... يوم تراها كذلك ستموت فى خاطرك ، وتموت أنت معها ..!!

ونالت هذه الكلمات منه ، فاضطرب فى مجلسه ، ثم قال فى حزن :

— ويحك يا أماه ... أقتلا وتمثيلا ؟

— لا قتل ولا تمثيل . ذلك هو الحق . طلبت الموت وأردتُ لك الحياة .

— ولكنْ ألن تعود إلىّ مرة ثانية يا أماه ؟

— كلا ، لن تعود يا بنىّ ..!

— ولن أعود أرى عينيها ، وأسمع صوتها ؟

— أجل لن ترى ، ولن تسمع !

— آه . ولكنى أحبها . لن أطيق الحياة بدونها .. ولأنْ تموت مما خيرٌ من هذا العذاب ...

— لن تعود إليك جسداً ثانياً ، إنما تعود وتبقى على الدوام بجانبك ، فكرة تهمس إليك بأرق الألحان ، وأعذب الأناشيد ، فكرة تستمد منها مجاز الخالدين .

— ولكنى أفضّل الفناء فيها أومعها على هذا الخلود ..

— أيها الشقى : ليس لك أن تختار ...

وأيقظته هذه الجملة على أمر كريه كان يجهله فوجم ، وكأن الحياة قد ضاقت ذرعا به ، فلم تحفل بوجومه ، واستأنفت حديثها :

— هب أنك تكلفنى المستحيل حين تأمل أنْ أحقق لك كل شيء ... كم من آلاف الميول والرغبات ، تود لو أحققها لك فى ثانية ؟ وكم من آلاف الميول والرغبات المتعارضة المتناسخة ، تود لو أحققها لك فى الثانية الأخرى ؟ لماذا ضربتَ آلاف الميول والرغبات المتعارضة المتناسخة هذه فى آلاف الثوانى والدقائق ، والساعات والأيام ، والأسابيع والأشهر التى يحتويها عمرك ، فماذا يكون الحال إذن ؟ ثم ماذا يكون الحال إذا ضربت ملايين هاتيك الميول والرغبات المتعارضة المتناسخة لدى الشخص الواحد فى ملايين البشر ؟ ألا ترى أن الأمر يكون جدُّ خطير ، وأن مسئوليتى تبدو جدُّ معقدة ؟

ثم لدى شيء أحب أن أورثك به .. أتظن أن لي مطلقَ الحرية في المنع والإعطاء ، كلا ، يا بني ! ما أنا إلا مثلكم !! وكم من مرة تناسيت وتدخلت من أجلكم ، ثم قيل لي : مكانك ، فليس ذلك من واجبك !!

ولم يطق «هو» هذه الفاجعة فصاح كمن به مَسٌّ :

— ماذا تريدين أن تقولي يا أماه ؟ أأنتِ عاجزة مثلنا ؟

— أجل ، وإن عجزي لركبٌ مهين !!

وهاله ما سمع ، وآلمه معرفته أكثر من أي ألم آخر . . . ثم سمع ساعة الزمن تدق دقات كثيرة كأنما توحي إليه بالانصراف ، فقال وهو ينهض :

— شكراً لك أيتها الحياة .

— ستُخفي خبرَ هـذه المقابلة ، وما كان فيها من حديث إذن ؟

— أجل ، ليسلم للناس اعتقادُهم فيك .

— وأنت ... ؟ !

— لقد دخلت شاكاً ثم خرجت ...

وقبل أن يتم جملته ، رأى نفسه خارج البـاب .. !

أما الحياة فلم تكدْ تنفرد حتى زفرت زفرة قوية ، ثم همست إلى نفسها :

— ويلي من الإنسان !! أزوي الحقيقة عنه فيثور ، ثم أصارحه فيدرك عجزي ..!!

***

ورأى الناس «هو» يسير على غير ما عهدوا . رأوه كثيرَ الوجـوم ، دائمَ الإطراق ، رأوه يميل إلى العزلة والانفراد ، ثم رأوه يتحاشى الإلمام بكل شيء ...

وقال الذين تَسَرَّبت إليهم أخبـارُ استدعائه إلى مكتب الحياة :

لقد — أنذرَتْه الحياة ..

وقال آخرون من هذا الفريق :

— بل اصطنعته وجعلته تابعاً لهـا .. وإلا فلماذا قد عقلَ لسانَه عنها ؟

وقال الذين استُدعُوا إلى مكتب الحياة من قبله :

لقد عرف الحقيقة مثلنا ، فانهارت بقيةُ آماله ، فلاذَ إلى عالم الصمت والنسيان ... !

أما «هو» فقد ماتت ثورته ، وانطفأ وجومه ، وطاف به طائف من الوجوم الكئيب ، ولم يَعُدْ قلبه يخفق بأشواق الإنسانية وأحلامها ، وكلما همَّ يحلق جذبته الحقيقة إلى التراب فيصيح في أعماقه :

— ما أقسى الحياة ! دخلت عليها بالفن — وهو ما كان قد بقي لي — ثم خرجت بدونه !!

ما عملي الآن ؟ ولماذا ولمن أعيش ؟

أسئلة أظل أرددها ، ومن أعلم من الحياة يستطيع أن يُجيب ... ؟!

عبد العزيز عتيق

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

عسكرى المرور ! — ضمير القاضى — فى النقد ... ...

عسكرى المرور !

يتساءل الأستاذ أحمد أمين بك فى العدد الماضى من « الثقافة » عن سر القوة فى عسكرى المرور فى الميادين العامة ؟ كيف يطيع الناس أمره وإشارته طاعة لا يجد مثلها المعلمون من تلاميذهم ، ولا الآباء والأمهات من أبنائهم وبناتهم ، ولا المصلحون من قومهم ؟ ويسأل : أذلك لشخصية عسكرى المرور ، أم لأن وراءه قوة القانون ، أم لأن تنفيذه تحت سمع الجمهور وبصره ، أم لماذا ... ؟

وما لشىء من ذلك كانت طاعة الناس لأمر عسكرى المرور وإشارته ، وما كان له من قوة فى ذاته أو من ورائه تفرض له على الناس طاعةً راضيةً أو ساخطة ، وما أراه هو نفسَه يشعر أن له أمراً حين يأمر أو نهياً حين ينهى فيطيعه الناس على الحالين راضين أو ساخطين ، ولو أنه كان يحس إحساس الآمر الناهى ، الطامع فيما يأمر وينهى ، لتلبّسه طبيعةُ الإنسان الحى فتغطرس وتجبّر واصطنع الأمرَ والنهى لغير وقته وأوانه ، إدلالاً بقوته وإيغالاً فى بسط سلطانه ، وإن بعضهم ليفعلها حين يخيّل إليه . .

. . . بل ما أراه يأمر وينهى كما يوهم ظاهرُ قوله وإشارته ، وإنما يؤمَر به ويُنهَى ، شأنه فى ذلك شأنُ المصباح الأحمر على حافة هاوية !

وما أرى خضوعَ الناس بأمره وإشارته طاعةً كما يوهم ظاهرُ حركاتهم وسكناتهم ، وإنما هو التوقّى والحذر ومخافةُ المهلكة ؛ فقد جُبلت البشريةُ على العصيان والتمرد ومحاولة الاستعلاء بالإرادة الفردية المطلقة ، وما تطيع حين تطيع إلا ما تأمر به النفسُ فى باطنها ، فإنْ وافق هذا « الأمرُ الباطن » أمراً فى الخارج كان ما تسمّيه الطاعة ، وإلا فالعصيانُ الظاهر ، أو العصيانُ المتربّصُ فى مظهرٍ من مظاهر الرضا والطاعة ، وإنما هما لونٌ آخر من « طاعة النفس » اسمُه العصيان !

وعلى أعين الناس فى كل يوم حادثةٌ أو حوادث من مصارع المُشاة تحت عجلات السيارات ومراكب الترام ، فكيف بهم وإنهم ليحرصون على الحياة ، ولكل نفس من داخلها « أمرٌ » يَصدر عما يسميه علماء الغرائز « غريزة النوع » أو « حب البقاء » ، فلهذه الغريزة طاعتهم لا لصفارة عسكرى المرور وإشارته !

فلو أن كل معلم ، وكل أب ، وكل مصلح ، حَرَصَ على أن يعرف ما فى نفس تلميذه ، أو ولده ، أو صاحبه ، قبل أن يتوجه إليه بأمره ونهيه — لعرف أين يصيب منه موضع الإقناع ويظفر بطاعته ، طاعةَ النفس لا طاعة الجوارح ؛ فإنما الغرائز فى كل نفس زوجان : آمرة وناهية ، وقلما يلتفت امرؤ إلى ما فى داخله من عراك الغرائز وصراع الرغبات ، وإنما يلتفت إلى ذلك المعلم الناجح ، والأب المربى والمصلح الموفق ، فيقصد كل منهم فى درسه وأمره وموعظته إلى حيث يوافق غريزةً من غرائز الخير فى النفس فيوقظها وينفخ فيها الحياة ويسلّحها بأسلحته لتثبت على المقاومة ، ثم يأمر أمره أو ينهى ، فهنا يجد الطاعةَ الراضيةَ المطمئنة ، لأنها طاعة النفس للنفس حين يوافق الأمرُ فى الخارج « أمرَ الباطن » الذى هو أمر الغريزة المسيطرة الغالبة !

ومن هنا يكون اختلاف أثر المعلم والأب والمصلح فى التلاميذ والأبناء والناس ، فيطاع بعضُهم ويُعصَى

بعضٌ والأمور واحدٌ والأمر واحد !

ألا إن الناس لا يطيعون عسكرى المرور ولا يصدعون بأمره ، ولعلهم لا يلقُون بأعينهم ولا بآذانهم إليه ، وإنما يطيعون « دافع الحياة » .

ضمير القاضى !

وقرأت مقالة القاضى الفاضل الأستاذ ح . ج عن « القاضى وضميره » فى العدد نفسه من الثقافة ، فأذكرنى حديثُه حديثاً ؛ وقد كان لى فى الأسبوع الماضى قضية فى المحكمة ، وأنا رجل قد سلختُ من العمر بضعاً وثلاثين سنة ولم أدخل المحكمةَ قط إلا مسوقاً إليها بدعوى ، وما أنا والله أهلٌ لذلك ولكن الناس له أهل ، بل لعلى أهلُه ، فإن الناس لا يتجرءون فى الدعوى إلا على مَن لا يُحسن أن يدخل المحكمة مدّعيا .... ، ومن ذلك كنتُ أنا الخاسرَ أبداً فى كل ما يُقاضينى به الناس !

ودخلتُ المحكمة يصحبنى محامٍ ، وإنما صحبتُه لأستوثق من صدق دفاعه عن حق ، ولأشهد لوناً من حياة الناس حُبِّب إلىّ أن أشهده ؛ واتخذتُ مقعدى بين طائفة من المحامين يُعدُّون عُدتهم للدفاع أو للدعوى ، وألقيتُ إليهم سمعى أتسقّط حديثهم ومحاوراتهم وما دبّروا ؛ وكانوا إلى العبث والمجانة أقرب منهم إلى الوقار والجدّ ، ولم أجد حرجاً فيما سقط إلىّ من حديثهم ، إذ كانوا يجهرون به وأنا إلى جانبهم ، بل لعلهم لم يسترسلوا فيما أخذوا فيه إلا لأنى بينهم أسمع وأتتبع الحديث فى عجب خُيّل إليهم أنه الإعجاب !

وشغلنى ما سمعتُ وما اجتمع لى من الرأى عن النظر فى عواقب قضيتى ، ونُوديتُ فلم أكد أسمع ، وسألنى القاضى فلم أكد أجيب ، وقال محامى المدّعى ، وأجاب محامٍ ، وحكم القاضى حُكمه ، وقرمتُ بضعة جنيهات كانت هى كل ما مرّ فى ذلك اليوم ! !

وخرج محامٍ وصديق زمّ شفتيه أسفاً ، وسألنى فى الطريق : كيف رأيت ؟

قلت : لقد أفدتُ فى هذا اليوم علما !

قال : وخسرتَ مالا !

قلت : ولكنى الرابحُ بما حصّلتُ من معرفة !

وصمتنا برهة ، ثم عاد يسألنى : كيف رأيت ؟

قلت : أريد أن أعرف قبلُ يا صديقى ، من أى طوائف المحامين أنت ؟ لقد عرفتُك قبل اليوم صديقاً وأريد أن أعرفك اليوم محامياً ينتسب إلى حرفته !

قال : ماذا تعنى ؟

قلت : لقد عرفتُ اليوم من المحامين أربعة ، لم يكونوا جميعاً فى الجلسة ولكنى عرفتهم وأريد أن أعرف مكانك بينهم ....

... عرفتُ محاميا يؤمن بالحق ، ومحامياً يؤمن بالقانون ، ومحامياً يؤمن بالمهنة ، والمحامىَ الرابع ....

فالأول الذى يؤمن بالحق ويستيقنه فى قضيته ويتطوع للدفاع عنه وإن لم يملك من الأسباب الظاهرة ما يؤيده ، وإن كان القانون لا يظاهره ، وإن كان يعرف يقيناً أين وسائلُه من وسائل خصمه ، وأين رأى المحكمة من رأيه ؛ فهذا محام ! ...

والثانى الذى يؤمن بالقانون ويُحسن تطبيقه حرفاً حرفاً ومادة مادة ، فيتكلف القضية ويتهيأ فيها للدفاع أو للدعوى على أساس موادّ القانون ، لا يعنيه أين يكون الحق ما دامت الأسباب الظاهرة تؤيده ، و « مواد » القانون تظاهره ، والميزان الذى نصبته الحكومة للعدالة يرجح بقضيته ؛ فماله فى قضايا الناس ميزانٌ غيره ؛ وهذا محام يختلف إيمانه بمعنى العدالة على اختلاف القوانين ، ويتراوح بين الإيمان والكفر على قياس ما تثبت القوانين أو تتغير ! ...

والثالث الذى يؤمن بمهنته ، ويعرف أن منطوقها ومفهومها أن « يحامى » ، وأن « يدافع » ، وأن يلتمس أسباب الغلبة بكل حيل ، وأن يعد لكسب القضية كل وسيلة ، وأن يلزم نفسه الإيمان بما لم يكن يؤمن ، وأن ينكر ما قد يكون عنده حقاً إن كان ذلك يؤدى إلى غاية ، وأن يتنكر للقانون ويسفّه منطقه إن بلغ به ذلك مبلغه ؛ وبالجملة : أن يعد نفسه فى دعواه أو فى دفاعه ليكون هو نفسه برهان قضيته ولا برهان لقضيته شىء غيره ؛ فهذا المحامى الثالث !

وأما الرابع ... ...

قال محامىّ وصديق : وأما الرابع فإنى أعرفه وإن اجتهد ألا يُعرف ، على أنه يوشك أن ينقرض بين هذه الطائفة الكريمة ، ولكن قل لى : لماذا تحدثنى هذا الحديث الساعة ؟ أتريد أن تطيّب نفسى على ما سبّبت من خسارتى قضيتك ؟

قلت : لا ، ولكنه علم حصّلته أحببت ألا يفوتك شىء منه !

قال : أفرأيت هذا فى المحامين وحدهم وأنتم معشر الكتاب ... ...

قلت : مه ، أتريد أن تجعلها قضية ؟ ...

وضحك وضحكت ، وعدت أسأل نفسى : أىّ أولى بالاعتبار والتقدير : الحق أم القانون ؟ وأجابنى مجيب : بل ضمير القاضى !

وحيّا الله القاضى الفاضل الأستاذ ح . ج ، فلولا حديثه الممتع ما ذكرت هذا الحديث ولا خطر لى بعد فى بال .

ووددت لو كانت أحاديثه دروساً تلقى على طلاب القانون فى كلية الحقوق ، إذن لعرفت أين مكان « المحكمة المصرية » من نفوس المتقاضين جميعاً بعد جيل !

فى النقد :

وسألنى سائل : أقرأت مقالة الأستاذ أ . أمين فى العدد ٣٦١ من الثقافة عن كتابى « الصديق أبى بكر » و « عبقرية عمر » ؟ فأين رأيك من رأيه ؟

قلت : ولكنى لم أكتب رأيى ولا أحسب أحداً يعرفه ، فكيف قلت ؟

قال : ولهذا سألتك ؛ فأنت فى هذا المكان منذ عام كامل قد وعدت قراءك وعداً أن تتناول فى باب الصحافة والأدب كل ما تخرجه المطبعة العربية مما يستحق العرض والتعليق ، وما أراك وفيت بشىء مما وعدت إلا هذه النفثات التى تتحرّ بها من تشاء وتعفو ؛ فأين أنت وقد مضى عام ؟ ...

... أليس قبيحاً أن يظهر فى السوق كتابان مثل «الصديق أبو بكر» و «عبقرية عمر» إلى كثير من أمثالها فلا يعرض لها كاتب برأى إلا كلمات عابرة فى صحيفتين أو ثلاث ، وإنها جميعاً لتشبه أن يكون الدافع عليها مكانة المؤلفين من الأدب والسياسة والاجتماع لا مكانة الكتابين وإنهما لكتابان ؟ ...

... ليس يكفى لمكانة هذين الكتابين العظيمين أن يكون كل ما يستحق القراءة مما كتب عنهما كلمة يكتبها الأستاذ أ . أمين ، وإنى لأحسبه قد أجاد وأنصف ؛ ولكن الكتابين لم يزالا يطلبان حقهما على الأدباء من القراء وعلى المنصفين من النقدة ؛ وأحسبك بما وعدت قبل مسئولاً عن كثير من هذا التقصير !!

وصديق محق فيما ادّعى ، وإنى لأذكر ما وعدت قرائى فى هذا الباب منذ عام وما نعيت على الكتّاب والنقدة فبالى الأسف ، على أنى كنت على النية والقدر يتربص بى ، فما كنت أمضى فيما أخذت نفسى

به حتى وجدتني لُقىً على الطريق لا يمدّ أحدٌ إليه يداً ، فجمعتُ ما كان شهيًّا إليّ وانصرفتُ عن نفسي وعن الناس !

وإني لأعلم – كما كنتُ أعلم قبلُ – أين يقع النقد الصادق من نفوس الكُتّاب والمؤلفين في مصر ، وإنه ليُنشئ عداوات ويورث بغضا ، وما أنا في حياتي الراهنة بالرجل الجَلْد على احتمال شيء من ذلك ولا بي طاقة عليه ، وما لي نافذة أسترْوِح منها نسيمَ الأُنس والمحبة غير هذا الباب ؛ فمن أين لي إذا ثار الغبار وانعقدت عجاجته فسدَّت هذه النافذة ؟

على أني قد رأيتُ – وما صنعتُ جليلا – كيف عاداني كثير ممن كنتُ أحب لأن كلمات تناولهم من بعيد أو من قريب في بعض ما كتبتُ من هذا الباب ؛ وما أريد أن أُحصي أحداً ؛ فكيف لو وفيتُ بكل ما وعدت !

أنت معجب يا صديقي بكلمة الأستاذ أ . أمين عن كتابي هيكل والعقاد ، وإني لمعجب ؛ فهل نضم صوتاً إلى صوت لنطلب إليه أن يجعل النقد بابَه في هذه المجلة ؟ .

لقد فسدتْ موازين الناس في هذا الباب فليس يصلحها إلا إمامٌ كبير علتْ الرأيِ والجاه والكياسة ولا تناله التهمة ولا تنال منه ؛ وإني لأراه بكل ذلك يصلح أن يكون ... ... !

« قاف »



لا جديد فى الميدان الشرقى

(بقية المنشور على الصفحة الأولى)

نتصور أن زحف الجيوش المتحدة سيمضى فى طريقه نحو الشمال مستردًا بعض ما فقدته فى الشتاء الماضى ، فإنه على كل حال استطاع أن يقف الزحف اليابانى ، وأن يرده إلى الوراء قليلا . وإذا انتقلنا من الميدان الجزرى فى المحيط الهادى إلى الميدان القارى فى الهند ، فإننا هنالك نرى الفريقين يواجه كل منهما الآخر دون أن يقدم على زحف واسع النطاق . وإذا كانت مثل هذه الخطة مفهومة ومقبولة من جيش الهند ، فإنها غريبة غير مألوفة من جيش الدولة التى اكتسحت جزيرة الملايو ، وبورما ؛ واستولت على سنغافوره وجزر الهند الشرقية فى تلك المدة الوجيزة . والوقت الحاضر هو أكثر الأوقات ملاءمة للزحف على الهند ، فإذا لم تتحرك الجيوش اليابانية زحف جديد فى الأشهر الثلاثة القادمة ، أدركها موسم الأمطار مرة أخرى ، وأعطيت الفرصة للجيش الهندى بأن يزداد استعدادا .

ولقد كان كثير من الناس يتوقعون أن تغير اليابان على سيبريا ، وتفتح هناك ميدانا جديدا تحارب فيه عدوها اللدود روسيا ، وتساعد به حليفتها الجديدة ألمانيا ، فإذا اليابان لا تفعل شيئا من هذا ؛ بل تكتفى حتى فى الصين بحرب بطيئة ، مع أن فرصة اشتغال روسيا بحربها مع ألمانيا فرصة لا يمكن أن تعوض .

وهكذا اجتمعت ظروف واعتبارات عديدة اضطرت معها قوات اليابان لأن تخفف من غلواء زحفها ، وأن تستبدل بالزحف الخاطف خطة أكثر هدوءا واستقرارا . وأصبحنا بالقياس إلى الشتاء الماضى نتوهم ألا جديد فى الميدان الشرقى .

محمد عوض محمد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٣٠ فى مصر والسودان

٢٥ لطلبة ومعلمى الإلزام

٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١ قرش صاغ

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى بعابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢١٤ — الثلاثاء ٢٧ من المحرم سنة ١٣٦٢ — ٢ من فبراير سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

شـــــبابنا مع القوات البريطانية

ما إن أعلنت الحرب بين دول المحور ودول الحلفاء ، حتى تنبه الطرفان المتحاربان إلى الشرق الأوسط ، وخاصة موطن القلب منه ، أى الميدان المصرى ، سواء فى صحرائه الشرقية حيث قنال السويس أو فى صحرائه الليبية الغربية . وقد أخذت أهمية هذا الميدان تظهر بجلاء ، كلما دخلت الحرب فى دور جديد : أولا بتسليم فرنسا وما نشأ عن ذلك من تغير موقف الحلفاء فى إفريقيا الغربية ، وفى تونس والجزائر ومراكش ، وفى سوريا ؛ ثم بدخول إيطاليا الحرب وما تبعه من احتلال أراضى البلقان وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ؛ ثم باشتراك اليابان فى الحرب وما نتج عنه من أحداث بالغة كزيادة الأخطار البحرية ، ودخول أمريكا الحرب ، والاستيلاء على أهم المواقع الحربية كهونج كونج وسنغافوره وإكياب ، فضلا عن الاستيلاء على عدد من أغنى جزر العالم فى بحار الهند الشرقية — وأخيراً بلغت هذه الأخطار ذروتها بالهجوم الألمانى فى كل من القوقاز والصحراء الغربية . كل هذه الظروف دعت الحلفاء أن يهتموا بميدان الشرق الأوسط اهتماما كبيراً ؛ لذلك حشدوا فيه الجيوش الضخمة وأقاموا المنشآت العديدة ، وتحصنوا فى أهم مراكزه . وهذه الجهود الحربية كلها تحتاج بالضرورة إلى جهود أخرى مدنية تؤيدها وتجعل حدوثها واستمرارها سهلا ميسوراً ؛ وهذا ظاهر فى كثرة عدد المدنيين الذين يعملون مع القوات البريطانية ، سواء كانوا من الوسطاء أو من العمال والصناع أو من الموظفين . والملاحظ أن عدداً كبيراً

من شبابنا المصرى المتعلم قد التحق بهذه الأعمال المدنية يشتغل مع القوات البريطانية فى داخل المدن والضواحى ، وفى المناطق الحربية والصحارى ، وحيث أقيمت المخازن والبضائع وما إليها من المنشآت التى تعمل بجد فى مجهود الحرب .

كان من آثار هذا الرواج وكثرة الأعمال أن شباناً مصريين أخذوا يتركون مواطنهم الأصلية التى نشأوا فيها ويهاجرون إلى مناطق أخرى بعيدة عنها ، سعياً وراء الرزق والكسب والعمل ، تشجعهم على هذه الهجرة حالة التبطل التى كانوا يقاسون منها ، وحسن الأجور والمكافآت التى تدفعها السلطات الحربية والهيئات المتصلة بها . ولا شك أن هذه الهجرة وهذا الكسب سيتركان فى حياة الشبان وأذهانهم أثراً لا يمحى من صورة قائمة واختبار عملى أخرجهم من رهبة الهجرة والسفر ، وأراهم قوة المال ، ومتعهم بلذة الحرية والاعتماد على النفس ، وعلمهم معنى الارتقاء والعيش فى مستوى معيشة أرقى ، ووضعهم فى مدخل الطريق الطبيعى المؤدى إلى هذا المستوى ، ذلك هو طريق العمل والكسب والسعى وراء الرزق .

فى هذه البيئات التى يعمل فيها أولئك الشبان يحتاج الترقى فى المركز وزيادة الهبات والمرتبات والأجور لا إلى مجرد الحصول على شهادات رسمية ، أو مجرد مضى المدة كما هو الحال فى دواوين الحكومة ، بل إنه يعتمد اعتماداً كلياً على شخصية العامل ، ومقدرته على إتقان العمل ، ودرايته بشئونه وتفصيلاته الدائمة التجدد ، وعلى حسن تصريفه للأمور ؛ وهذه كلها أنواع من المطالب تحتاج لتحقيقها إلى روح الكفاح واليقظة والنشاط . ولا شك أن اختباراً كهذا سيحيي فى نفوس هؤلاء الشبان روح الدأب ، وسيعطيهم فكرة قوية واضحة عن أسلوب النجاح فى الحياة العملية ، الأسلوب الذى لا يعتمد إلا على العمل والمحاولة والتدريب .

نعرض كثيراً فى مصر للأحاديث الخاصة بالأهل والزواج ، والأسرة والحياة المنزلية . ولا شك أن أحاديثنا فى كثير من الأحايين لا تكون ذات أثر كبير ما دام الذين يعرضون لها لم يشعروا بها وبأضدادها ، ولم يروا أحوالاً مخالفة لها ، مما يجعل أحاديثهم فيها برود وفتور . ولكن هؤلاء الشبان الذين يعملون الآن مع القوات البريطانية بعيدين عن بيوت آبائهم ، ينامون فى مناطق صحراوية وداخل خيم ، فكأنهم رحّل فى سفرة بعيدة ، لا يجدون فى الوسط الذى هم فيه إلا رجولة وخشونة وعسكرية ، لا يأكلون إلا أطعمة محفوظة ، ولا يشربون إلا مياها حارة كثيراً ما تعكرها الرمال الناعمة ... شباب هذه أحواله الحاضرة لا بد وأنه فى المستقبل سيقدر تمام التقدير كثيراً من المزايا التى يمكن له أن يحصل عليها ويتمتع بها ، إذا ما ابتعد عن حياة العزوبة وأقبل على حياة الزواج والمنزل ، فى احترام الآباء والأمهات والزوجات ، وتبسط مع الإخوة والأخوات والأبناء ، وتمضية أوقات الفراغ فى مجتمع صغير هادئ تسوده روح التعاون والإخلاص واللطف والنعومة . وشباب خبر الخشونة وخبر اللطف ، خبر المعيشة فى الصحراء ثم خبرها فى بيت مرتب ومنزل حسن التأثيث ، لا شك أن شباباً كهذا ستكون لحياة الأسرة فى ذهنه وفى قلبه صورة جميلة مشوقة يحبها ويسعى لتحقيقها ، والدفاع عن حرمتها ، والمناداة بمطالبها ، والتمتع بها فى أحسن أوضاعها وأحوالها .

ويجب أن نعترف بأن طبقات الجنود والمحاربين تسودها فى بعض الظروف والفترات أحوال ربما نفر منها الذوق السليم والخلق الرضى ؛ والغريزات فى هذه الظروف تكون كثيرة قوية معتمدة فى ذلك على الغرائز البهيمية المتحررة . ومعروف أن الأخطار التى تتعرض لها حياة الفرد فى مناطق العمليات الحربية أو المناطق القريبة منها تكاد تشعرنا أن تلك النفس من قياد الفضائل والإرادة

وضبط الذات ... وهذه الرذائل التي يتعرض لها الجنود ومن معهم تنحصر في الخمر والخلس وبعض أنواع من الخيانة والجبن والضعف ؛ فإذا أمكن المحاربين ومن معهم أن يحمل كل منهم معه إلى الميدان فضائله وإرادته متحصنا بالظروف التي تقابله ، مدرباً ذاته مروّضاً لها ، عاملا في كل حين على ضبطها وحسن توجيهها ، إذا أمكن أن يمر الفرد بسلام في هذا الاختبار فلا شك أنه سيعود بعد فترة الحرب بشخصية شديدة المراس ، قوية التكوين ، متماسكة العناصر ، تفيض قوة وبهاء وشهامة . وهذا الشباب المصري الذي يعمل الآن مع القوات البريطانية ، يشاركها الرود في هذا الاختبار العسير ، ثم يخرج من هذا الصراع منتصراً على ذاته وعلى روح الجماعة إذا ما حادت بها المسالك وتعوجت ؛ هذا الشباب لا بد وأن سيكون له في مستقبل حياته وظروفه شخصية قوية ، وأخلاق متينة ، وثروة من المعاني السامية تمكنه بها أن يشق طريقه في المجتمع حيًّا لا يعرف للضعف معنى ولا للرذيلة طعما .

قوات الحلفاء الموجودة في مصر ، والتي يعمل معها هؤلاء الشبان ، تضم أشتاتاً من الجنسيات وأنواعاً من الطبقات والثقافات : بريطانية ، وأمريكية ، وأسترالية ، ونيوزيلندية ، وهندية ... وإذ تتوثق العلاقات بين هؤلاء المحاربين وبين شباننا العاملين معهم لا بد وأن سيعرف الشبان أشياء كثيرة عن ثقافات وشخصيات وبلاد ونفسيات مختلفة متباينة ؛ ومع أن هذه المعرفة في حد ذاتها تعتبر نوعاً من الهجرة أو السياحة السلبية ، إلا أن أهم النتائج التي ستترتب عليها هي أن الشباب المصري سيلمس في وضوح ودقة إحدى الحقائق الخالدة التي طالما أفسد عليه نسيانها حقائق كثيرة غيرها — تلك الحقيقة هي أن النفس الإنسانية واحدة ، سواء كانت هذه النفس رجل إنجليزي أو هندي أو أمريكي أو مصري ، وليس وصف هذه النفوس بالجنسيات إلا من باب التعبير عن أنواع من الثقافات والحضارات والمواطن ، ولكن النفس واحدة ، ولا فرق بين إنسان وإنسان . ومعرفة هذه الحقيقة وممارستها فعلا مع هؤلاء الأجانب ستنزع من أذهان الشباب ونفوسهم « وهم الأجنبي » بكل ما هو مترتب على هذا الوهم من آثار سيئة : كالتقدير الخيالي لكل ما هو أجنبي ، وعدم الثقة بالنفس والأهل ، والبعد عن تقدير المواطنين حق قدرهم ، والاتكاء دائما على مجرد الثقافة والأفكار لا على المعاني الخالدة التي تغمر كل روح وكل نفس وكل شخصية إنسانية .

وكثير من المعاني الطلقة التي تتردد صداها في أرواح الشعب ونفوس أفراده لا تعتمد في وجودها وحيويتها إلا على أساس من رموز ومناظر بعضها مادي ، وبعضها الآخر معنوي ، ومن هذه المعاني معنى القومية . فلا يمكن أن يشعر مواطن بالحب نحو وطنه وبني قومه مدافعاً عنهم بقلبه وعقله وجسده ، إلا إذا عرف من هذا الوطن صورته الواضحة وميزاته الحقيقية الملموسة ، واختلط بطبقاته ، ومارس الحياة وشئون العيش في هيئاته ومجتمعاته ومختلف بيئاته . وهذه الأوضاع وأمثالها هي التي يمارسها الآن

اشتدت أزمة الورق ، فندر وجوده وارتفع سعره ؛ ووجدت « الثقافة » نفسها بين أمرين : أن تتوقف عن الصدور ، أو تزيد في سعرها لتغطية بعض خسارتها ؛ فآثرت الخطة الثانية . وسيكون ثمنها ابتداء من العدد القادم ١٥ مليما ، ورفع الاشتراك تبعاً لذلك إلى ٤٥ قرشاً عن كل نصف سنة ؛ وستظل الحال كذلك حتى يأذن الله بانفراج هذه الأزمة .

الشباب العامل مع القوات البريطانية . والجزء الأكبر من هذا الشباب متعلم مهذب ، بعضه قرأ في الأدب وله ملكات أدبية ، فلا شك أن هذه الفئة من هواة الأدب ستعود بعد الحرب تجتر المناظر والأحوال الجديدة التي رأتها في بقاع نائية من بلادنا ، وستفتن في التعبير عنها وتحميلها وتوشيتها ، وسيكون لنا من وراء هذا كله أدب قوي ، وفن قوي ، وروح قومية ، وشعور نحو مصر تفيض به قلوبهم فيشملنا ويثير فينا العاطفة والوجدان نحو مصر والمصريين ، فيتجدد بذلك شعورنا القوي ، وتنهض أرواحنا من خمولها مرة أخرى تدفع عنها ما ران عليها من تراخ وفردية ومادية .

وكل شاب مثقف من العاملين مع القوات البريطانية سيعرف عن قرب الكثير من نواحي المدنية الحديثة ، فأساليب الإنتاج الكبير التي قرأ عنها في كتب الاقتصاد والتنظيم الواسع للمئات والآلاف من العمال والقوات والأعمال والمجهود الحربي وما يتطلبه من بذل وجهد وتضحيات وأموال ورجال ، والحرب وما تعنيه من جهود في الميدان وفي المصانع وراء خطوط القتال ... هذه كلها جوانب من المدنية الحديثة يعرض لها الشباب المثقف ، ويراها أمامه في الواقع وعلى نطاق واسع ، تنتظمه في تيارها القوي وعجلتها الهائلة الضخمة ... هذه الحياة وهذه المدنية الإنسانية ، لا شك أن سيكون لها أصداء في نفوس العاملين وعقلياتهم ، ومدى نظراتهم في شئون العالم وأحواله ؛ وأمثال هذه النظرات الشاملة هي التي توسع أمام الفرد آفاق التفكير والشعور ، وتعطيه فكرة قوية واضحة عن معاني المدنية الحاضرة والتنظيم الصناعي ... وكون هذه الأشياء صادرة عن المجهود البشري الإنساني ، يثير في حياة المرء واتجاهاته النفسية أنواعاً جديدة من النظر هي التي تجدد الحياة ، وتنهض بالنفوس ، وتخرج أصحابها من نطاقات فكرية محدودة ضيقة إلى ميادين وفسحات ما كان لها أن تدخلها لولا هذه الظروف الحاضرة .. ميادين يرى فيها الإنسان كيف تتحد طاقته ومؤهلاته وسلطاته ، فتشمل الجماعات البشرية والمادة مصورة في مخترعات وأدوات يعجب لها كل صاحب نفس حرة أو بدائية .

إن الكسب الذي يحصل عليه هؤلاء الشبان سيشعرهم بحقهم في الحياة والتمتع ؛ وإن تعرضهم لأخطار الموت والأذى سيثير فيهم أقوى نوازع الوجود وأعمقها ؛ وإن عيشهم بعيداً عن البيئة التي نشأوا فيها سيعيد صياغة الكثير من عاداتهم العيشية وتقاليدهم النفسية وأساليبهم في الإدراك والتصرف ، بحيث تنتقل شخصية الفرد منهم شيئاً فشيئاً من حالة الكتم والصمت إلى حالة من الحياة تفيض حيوية وقوة وحرية . هذه الحرية والجرأة التي تشمل هؤلاء الشبان ستخلق منهم شخصيات ذات طابع خاص لم نعتده في مصر كثيراً ؛ وستكون الميزة الأولى لهذه الشخصيات هي ميزة الإقبال على الحياة والعمل والكفاح والتمتع في حرية وقوة واستقلال وثقة بالنفس وتفتح ذهني بعيد المدى .

وبعد ؛ فهذه النتائج التي حاولنا أن نرسم لها صورة سريعة المعالم ، كلها نتائج حية سنلمسها بعد أن تستقر الظروف الحاضرة ، وتنتهي الحرب ويعود كل شاب إلى الحياة المدنية المعتادة ؛ ولكنها نتائج يجب ألا تنسينا أشياء أخرى أشد منها أهمية وأوجب في ضرورة اعتبارها .

سيعود هذا الشباب بعد الحرب إلى أحضان المدن والبنادر والمراكز بشخصياته الجديدة ، ورغباته القوية في الإقبال على الحياة والعمل والتمتع ؛ وسيعود إلينا هذا الشباب بأساليبه الجديدة ونظراته التي لم نعتدها كثيراً ، وسيحاول أن يعيش مختطاً لنفسه أنواعاً من السلوك ربما سببت لنا متاعب ومفاجآت . وأول ما سيصدمنا من هذا

الشباب هو مطالبته بالعمل – ومع أن الشباب المصري ، المتعلم ، المتعطل ، قد سبق له قبل الحرب في السنوات ما بين ١٩٣٤ و ١٩٣٩ أن طالب الحكومة والهيئات بخلق أعمال له ، إلا أن مطالبة الشباب بالعمل في السنوات التي تأتي بعد الحرب ستكون مطالبة على أسلوب آخر يمتاز بالقوة والصراحة والجرأة . وإذا كانت مشكلة الشباب المتعطل قد أثارت قبل الحرب الحاضرة أحاديث كثيرة ، إلا أن هذه المشكلة بالذات ستثير بعد انتهاء الحرب لا الأحاديث بل الأحداث الخطيرة والحركات الاجتماعية بعيدة المدى ، مصطبغة هذه الحركات بعناصر الخشونة والعنف .

فعلى الحكومة وقادة الرأي وعلماء الاجتماع والاقتصاد أن يشغلوا أنفسهم من اليوم في رسم الحدود لتبسيط هذه المشكلة والتخفيف من حدتها ، والاستعداد لمواجهتها بالحلول الحكيمة .

وإذا كان لنا أن ننبه الهيئات الاجتماعية والسلطات العامة إلى ضرورة التأهب لمقابلة مشكلة من مشكلات ما بعد الحرب ، فإن لنا أيضاً – إن لم يكن من الواجب علينا – أن ننبه لا الهيئات فقط ، بل الأفراد ممن يهمهم الأمر – ونقصد بهؤلاء الأفراد الشبان الذين يعملون الآن مع القوات البريطانية .

يتقاضى كل شاب من هؤلاء الشبان مرتباً شهرياً يبلغ في المتوسط عشرة من الجنيهات ، ولا شك أنه لن توجد الوظائف الأهلية أو الحكومية التي تتسع لجميع هؤلاء الشبان الذين سيسرحون من وظائفهم الحالية بعد انتهاء الحرب ، ومعنى ذلك أن عدداً كبيراً منهم سيعود متعطلا لا يجد عملا ولا يكسب أجراً ، فينخفض بذلك دخله الشهري من عشرة جنيهات إلى لا شيء ؛ فإذا لم يكن الشباب قد استعد من الآن لمقابلة موقف كهذا ، فإنه سيقاسي من ذلك شروراً كثيرة . ومع أن التكاليف المعيشية لهؤلاء الشبان في الوقت الحاضر تستنفد قدراً كبيراً من دخلهم ، إلا أننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأنه في إمكان كل منهم أن يدبر شئونه من الآن مستعداً لمقابلة صعوبات ما بعد الحرب ؛ والطريق الممكن الآن هو طريق الادخار .

إنه واجب على كل شاب أن يدخر جزءاً طيباً من دخله الحالي ، حتى إذا ما انتهت الحرب يصبح وقد وجد بين يديه رأس المال الذي يساعده طوال فترة البطالة التي تنقضي بين ترك الخدمة مع الجيش والالتحاق بعمل مدني من الأعمال المعتادة ؛ بحيث إذا لم يتمكن أي شاب منهم من الحصول على عمل ما ، فستبقى أمامه حينئذ فرصة أن يكسب عيشه باستغلال رأس المال الذي سبق أن ادخره . وهذا الاستغلال ممكن ميسور ، فإن عشرات من الأعمال والمشروعات الحرة الصغيرة تزدحم بها الأسواق ومجالات الحياة الحرة ؛ وفي هذا المجال الحر يمكن للشاب أن يرتفع في مدارج التقدم والنجاح ، مستخدما في ذلك لا أمواله التي ادخرها وحدها ، بل ومزاياه الشخصية التي خلقتها فيه ظروف الحرب – وليس هناك ما هو أكثر كسباً ، وأثمر استغلالا ، وأفسح مستقبلا ، وألذ إمتاعا من أن يتمكن الفرد من استغلال ملكاته الشخصية ، والانتفاع بها في تقدمه ونجاحه في الحياة العملية .

ثابت المصري

تراجم المعاصرين

كتب إليّ الفاضل « معتصم الجاعوني » من القدس يقول : إنه تكونت لجنة علمية في كلية روضة المعارف ، ومن أهم أغراضها أن تستعين رجال مصر في إرشاد الناشئين إلى الأخذ من أدب المتقدمين وعلمهم ، وما يجب أن يكون أساس ثقافتهم من كتبهم ، والإرشاد إلى إنتاج المتأخرين المعاصرين ، وما يجب أن يقرأ من كتبهم في شتى فروع العلم ، ليعرف الناشئون كيف يكوّن العالم أو الأديب نفسه خارج نطاق المناهج المدرسية .

ثم يقول بعد كلام في هذا المعنى :

« وهنا مسألة تهمكم ، وهي مسألة تراجم العلماء والأدباء المعاصرين ، فإن فريقاً من الناس أخذ يتشوّه من سيرتهم ، ويخطئ في ترجمتهم ؛ فهلا يقوم العلماء والأدباء الذين يطلعون على الناس الفينة بعد الفينة بكتبهم ومقالاتهم ، فيضعون تراجم لأنفسهم ، لئلا يكون لأحد عليهم تقوّل أو تزيد !!

وقد خطرت هذه الفكرة للجامعة الأمريكية في مصر ، فطلبت من بعض المفكرين أن يقول كل منهم في الأسباب التي ألهمته الأدب ؛ وأذكر أني حضرت سلسلة محاضرات في القاعة الصغيرة في الجامعة الأمريكية في هذا المعنى الخ » .

ولنترك الموضوع الأول من خطاب الكاتب الفاضل على أهميته ، ولنعرض بكلمة للموضوع الثاني ، وهو تراجم المعاصرين .

والحق أن كتّابنا ومؤرخينا مقصّرون في هذا الموضوع كل التقصير ، وأن متقدمينا عُنوا بهذا كل العناية ، فبذلوا كل جهدهم في حفظ آثار سلفهم ومعاصريهم ، ولا نعلم أدباً كثرت فيه كتب التراجم ما كثرت في الأدب العربي — هذا يضع في علماء بلد كحلب وغرناطة ؛ وهذا يضع في علماء العالم الإسلامي في قرن كالدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، « والضوء اللامع في أعيان القرن السابع » ؛ وهذا يضع في المغنين ، وفي الأطباء ، وفي الشعراء ... الخ .

وهذا الخطيب البغدادي يضع أربعة عشر مجلداً في علماء بغداد ؛ وهذا الصفدي يكتب المجلدات الكثيرة ويسميه الوافي بالوفيات ؛ وغيرهم كثيرون لا يحصَون عدداً .

وظل كل جيل يحمل الراية ممن قبله ، ويكمل الكتاب الذي سبقه بتراجم رجال عصره ، فيؤلف ابن شاكر « فوات الوفيات في إكمال وفيات الأعيان » ؛ ويؤلف كثير من العلماء الذيول على الكتب المشهورة . وظل العلماء يسيرون على هذا المنوال إلى العصور المتأخرة ، فنجد الجبرتي يؤلف في تاريخه لعلماء عصره وشعرائه وأدبائه وملوكه وأمرائه ؛ وكذلك يفعل الشوكاني اليمني في كتابه « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ؛ وقد وصل فيه في التراجم إلى ما قبل سنة ١٢٥٠ هـ ، وهي سنة وفاته .

وخطرت الفكرة المرحوم تيمور باشا ، فبدأ يضع التراجم في أعيان عصره ، وإن لم يستوف الرجال والتراجم .

فإذا نحن وصلنا إلى عصرنا رأينا تقصير رجالنا في هذا واضحاً كل الوضوح ، معيباً كل العيب . فالأحداث التاريخية لم تؤرّخ التأريخ الشافي الكافي ، ورجالنا لم يترجموا الترجمة الوافية .

وآية ذلك أن رجال العصر الماضي ، وهو أقرب العصور إلينا ، تغمض سيرتهم ، ويعفّي عليها النسيان أكثر من العصور المعرقة في القدم — هل نعثر على ترجمة وافية للشيخ الخضري ، والشيخ محمد المهدي ، وفينا من تتلمذ لهم ، وأخذ عنهم ؟ أم هل نعثر على ترجمة واسعة للشيخ حسن الطويل ، والشيخ حسين المرصفي ، وهما من أعلام النهضة الحديثة ؟ وأين التراجم الوافية للرجل الظريف الذي ملأ مصر فكاهة وأدباً ، وهو الشيخ علي الليثي ، والرجل اللطيف الفكر الذي عمر مصر بالرجل الخفيف الروح ،

وهو عثمان جلال ، والقانونى البارع الذى حذق فى صياغة الشريعة الإسلامية صياغة المواد القانونية ، وهو محمد باشا قدرى ، وغيرهم وغيرهم ؟ وهل نعثر على ترجمة وافية للأميرة نازلى وصالونها الذى كان مبعث حركة أدبية وسياسية تغذّى جيلها ، وكان يغشاه سعد زغلول ، والشيخ محمد عبده ، وغيرهما من رجالات مصر ؟

وبالأمس دفن إبراهيم الهلباوى بك ، وكنت تستمع إلى أحاديثه الطلية ، فتدرك أنه يحمل بين صدره تاريخ جيل لم يدوّن فى كتاب ، فهل منا من عُنى بأن يلازمه ، ويكتب ما يرويه فى دقة ونظام ، فيحفظ آثار أمة فى عصر ؟

وبين رجالنا اليوم من نسأل الله أن يطيل أعمارهم ، وهم يعرفون من تاريخ الجيل الماضى والحاضر ما لا تعرفه الكتب المدونة : أمثال عبد العزيز باشا فهمى ، وأحمد لطفى السيد باشا ، والسيد محمد البيلاوى ، وغيرهم ، فهل عُنينا بالاتصال بهم وتدوين ما عندهم ؟

لقد كان آباؤنا — رحمهم الله — يرحلون على الإبل والحمير والبغال الأيام الطويلة والأشهر العديدة فى نقل حديث واحد أو حديثين ، وكلمات لغوية وأبيات من الشعر ؛ فما بالنا لا نرحل فى سيارة لمقابلة رجالنا والأخذ عنهم ؟ وما بالنا نجهل كل الجهل علماء الشام والعراق والحجاز والسودان ، وقد انعدمت المسافات وربطت كلها بالقطارات والسلكى واللاسلكى ؟

وما نقوله فى مصر نقوله عن رجال الشام والعراق والحجاز واليمن ، وكل العالم العربى ؛ فهل يلتفتون إلى هذا ويدفع شبابهم العارَ عن جيلهم بتدوين ما بقى فى صدور رجالهم ، والسعى فى تسجيل ما عُرف عن آبائهم ؟

إن لم يكن يكفى فعل أسلافنا ليكون مثالاً يحتذَى ، فهذا فعل الأمم المتمدنة الحديثة ، لديهم الكتب المتعددة على مثال Who is Who تترجم للأحياء ذوى الشهرة فى كل ناحية من نواحى الحياة ، كالعلم والأدب والسياسة ؛ وتعدّله كل سنة بما يطرأ على حياتهم من تغير ؛ يستطيع أن يرجع إليه الباحث أو الناقد أو المسترشد فى لحظة ؛ ولهم إلى ذلك عناية بجمع كل آثار العالم أو الأديب ، والعناية بها ودرسها حتى ما يتعلق بحياته العائلية ، أو أموره الشخصية ، ليكون كل ذلك أمام القارئ كأنه صورة ناطقة .

رحم الله أحمد شفيق باشا ، فقد كان آخر من رأيناهم يعنون بهذا الباب عناية فائقة ، فقد خصص آخر حياته لجمع مذكراته السياسية والشخصية والاجتماعية ؛ وقد قال فيه شوقى فى عيده السبعينى :

أنت يا أحمـــد فى مصر خيرُ فى الأوانى
أنت قرّبت لنا أمس وما كان بدانِ
قد نسينــــاه وما مرَّ به من حدَثانِ
لم تردنا كل يوم غير آثار رحسانِ

وأدركته الشيخوخة وهو يجدّ ويكتب ويطبع ؛ ثم كُفّ بصره ، فظل يعمل ويستعين بغيره ، يبيض له ويطبع له ، ويستعين بسمعه ليعوّض به عن بصره ، حتى أدركته الوفاة وهو بين الحابر والأقلام ؛ ويقول فى إهداء كتابه :

« أقدم هـذه المذكرات لأشهد أبناء الجيل الحاضر صفحة من أعمال الجيل الغابر ، فى غير تزييف ولا التواء ، وما أخشى غير الله ، وهو حسبى » .

يهيب بنا الكاتب الفاضل أن نفتح باباً فى « الثقافة » ننشر فيه تراجم الأدباء المعاصرين أمثال : هيكل ، وطه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، والزيات ، وتيمور ، وتوفيق الحكيم ، وعنان ، وأمثالهم من العلماء والأدباء فى مصر والشام والعراق ؛ يكتبها الأديب أو العالم نفسه عن نفسه ؛ أو يكتبها عنهم من صاحبهم ولازمهم ، وعرف عنهم بواطنهم وظواهرهم ، حتى يكون ذلك ذخيرة لأهل عصرهم وللأجيال بعدهم .

ونحن يسرنا هذا الاقتراح ونرحب به ، ونفتح صدر « الثقافة » له ، فهل نجد من يلبّى ؟

أحمد أمين

عبرة من شعاع الشمس

عدت من أسبوع من قرية من قرى دمشق ، ألفتها من عشرين سنة ، كنت أفزع إليها من شدة الحر الصيف كله ، وهأنذا أذوق فيها قليلا من شدة البرد في بعض الشتاء ؛ ولئن كان المتنبي يرى أن سرج سابح أعز مكان في الدنى ، وأن الكتاب خير جليس في الزمان ، فكنت أرى في هذه القرية أن أعز مكان إنما هو صخرة صغيرة كنت أجلس عليها في طائفة من النهار ، فأتملى محاسن الطبيعة من حولي ، وأن خير جليس إنما هو الطبيعة نفسها . لقد حاولت أن أعيش قليلا في الطبيعة راغباً من العيشة في الكتب ، ولكني عاجز عن وصف العبر التي أملتها عليّ هذه الطبيعة ؛ وأجل هذه العبر في رأيي البساطة ، فكنت أشاهد البساطة في كل طرفة عين :

كنت أشاهدها في هذا الشعاع الممتد إليّ وأنا جالس على صخرتي ، وفي هذا العشب المنبسط تحت قدمي ، وفي هذا الماء الجاري على مقربة مني . كانت عيني تقع على هذه المشاهد كلها ، فتنعم ببساطتها ؛ ولكن أصحيحة هذه البساطة ؟ أفلا نرى إذا حللنا أجزاء هذه المشاهد ، ورددناها إلى أصولها ، أن بساطتها إنما هي أمر ظاهر ؟! فهذا الشعاع الممتد إلينا لا نرى إلا ضياءه ولا صفاءه ، فيبهرنا هذا الضياء الصافي البسيط في ظاهره ، ولكنا إذا حللنا الشعاع وفككنا أجزاءه ، ورأينا ألوانه السبعة التي اتحدت أتم اتحاد ، وتضامت أكمل تضام ، حتى ألفت منها الشعاع وركب تركيباً محكماً بحيث لا نرى منه إلا ضياءه ، علمنا أن الشعاع غير بسيط ، وأن حسنه جاءه من كمال تناسق أجزائه ، ومن كمال اتحاد ألوانه ، فلا جزء في غير محله ، ولا قسم زائد فيه أو ناقص ؛ وهكذا الأمر في الطبيعة : في مائها وهوائها وعشبها ونظائر هذه الأشياء كلها ، فكل جزء من هذه المشاهد مركب من أجزاء ، ولكن هذه الأجزاء تضامت ، فنشأت محاسنها من تضامها ، فخيل إلينا أنها بسيطة !

إلا أني لم أكتب هذا المقال لأقرر فصلا من فصول الطبيعيات ، فلست من علمائها ، وإنما كتبته لأبين العبرة التي نستنبطها معاشر الأدباء من بساطة الطبيعة الظاهرة ، وسواء أكنا نمارس صناعة الشعر أم كنا نمارس صناعة النثر فإنا لا نمهر في الصناعتين إلا إذا جعلنا الطبيعة مثالا لا نحيد عنه .

لنرجع الآن إلى الكتب ، ولنعش في هذه الكتب قليلا بعد أن عشنا في الطبيعة قليلا . إني أبدأ بكتاب الله عزّ وجلّ ، ماذا أرى في آياته البينات ؟ أستغفر الله ، إني لأعجز عن تفصيل سحر هذه الآيات في مقال مثل هذا المقال ، ولكني ماذا أرى من بساطة البيان في كتاب الله ؟ لقد تعودنا أن ننظر إلى ما اشتمل عليه من دقائق أمور اللغة أو النحو أو البديع أو غير ذلك ، وأظن أننا قليلا ما نذوق ما اشتمل عليه من بساطة التعبير ، في مفرداته وفي جمله ؛ على أن الإعجاز كل الإعجاز في هذه البساطة . فقد نقرأ مثلا في سورة يوسف عليه السلام قوله تعالى : « وأخاف أن يأكله الذئب » ، فهل تستوقفنا لفظة يأكله ؟ هل ننظر في بساطة هذه اللفظة ؟ فلو رجعنا إلى اللغة وفتشنا عن مرادف ليأكله لوجدنا في اللغة ألفاظاً كثيرة على هذا المعنى ، ولكن كتاب الله عزّ وجلّ لم ينتخب إلا أبسط هذه الألفاظ .

ومثل هذه اللفظة قوله تعالى في السورة نفسها : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب » ، أفنجد في مفردات اللغة بحذافيرها لفظة أبسط من « يرتع ويلعب » ؟!

وكما نبهر ببساطة المفردات ، فقد نبهر ببساطة الجمل . ماذا نجد في سورة طه ؟ إنا نجد قوله تعالى : « رب اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني » ؛ أفتحتوي العربية على تراكيب أبسط من هذه التراكيب !

ومن هذا النمط قوله تعالى في سورة آل عمران :

« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » !

ليس غرضي في هذه الاستشهادات القصص في ذكر بساطة البيان في القرآن ، وإنما غرضي الذي أتوخاه أن نعلم أن الطبيعة كما تشتمل على مشاهد بسيطة في ظاهرها ، جاءها الحسن من بساطتها ، كذلك كتاب الله عزّ وجلّ يشتمل على مفردات وجمل بسيطة جاءها الإعجاز من بساطتها ؛ ومَثَل هذه المفردات وهذه الجمل كمثل شعاع الشمس ، فكما أنا لا نرى من هذا الشعاع إلا ضياءه الصافي ، فكذلك لا نرى من مفردات كتاب الله وجمله إلا رونقها الصافي ، ولكنا إذا حللنا أجزاء هذه المفردات وهذه الجمل ، ورددناها إلى أصولها ، عرفنا حسن التنسيق فيها وحسن الاقتصاد في أجزائها ، كما نعرف حسن تنسيق الألوان في شعاع الشمس ؛ فقد يبهر هذا البيان ببساطته ، ولكنا لا ندرك تعذر الوصول إلى مثل هذه البساطة إلا إذا فصلنا أجزاء هذا البيان ، فحينئذ نشعر بأنه ليس من الهين أن يقول كل واحد منا : وأخاف أن يأكله الذئب ، أو أن يقول : أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ، أو أن يقول : رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني ؛ إلى غير ذلك من الآيات البينات . فهذا البيان على نحو ما قلت إنما هو بيان بسيط في ظاهره ، ولكنه مركّب في باطنه ؛ غير أن هذا التركيب لا يظهر أثره للعين ، وهنا روعته ، فلا تجد فيه لفظة زائدة أو لفظة ناقصة ، ولا تجد فيه جملة في غير موضعها ، كما لا تجد في شعاع الشمس لوناً في غير مكانه !

ولو دققنا في كلام بلغاء الشعراء والكُتّاب أمثال البحترى والجاحظ وابن المقفع ومن هم في طبقتهم ، لوجدنا أن البساطة إنما هي سرّ خلود هؤلاء الشعراء والكتاب . إنا نعرف كثيراً من كتاب العرب وشعرائهم في القديم لجأوا إلى طرافة التعبير وإلى جدة الأسلوب ، ولكن الكلام الذي لا قيمة له إلا حذاقة صاحبه في بيانه سرعان ما يهرم فيشيخ فيموت ؛ فالبيان البسيط إنما هو الذي خلق الخلود .

من هذا البيان قول البحترى في قصيدة من قصائده :

صاحبُ الحملة التي نقض الزحـ
فَ تحمل الصفوف فوق الصفوف
يتخطى الرّدى فيملأ صدر الـ
ـسيف من جانب الخميس الكثيف
حيث لا يهتدى الجبانُ إلى الله
(م) رّ ، وحيث النفوس نهب الحتوف
في لفيف من المنايا عزّة
ن غداة الهيجاء كلّ لفيف
ومقام بين الأسنة ضنك
يهشم من القلى مرصوف
مدّ ليلاً على الكماة ، فما يـ
ـشون فيه إلا بضوء السيوف

لا ينبغى لنا أن نحفل من هذه القطعة ، فما في ألفاظها لفظ رائع ، فجملة هذه الألفاظ بسيطة في ظاهرها ، فإن كلمات : الحملة ، والزحف ، والصفوف ، والسيف ، والجبان ، والفرّ ، والنفوس ، وأخواتها التي اختارها البحترى ، إنما هي كلمات أليفة . ولكن من أين جاء خلود البحترى في هذا الشعر ؟ لقد جاءه من تنسيق هذه الألفاظ ومن الاقتصاد فيها ، بحيث لا نرى لفظاً في غير موضعه ، حتى نشأ عن هذا التنسيق شعر كأنه جسم حي ، له حركاته وله إشاراته ، قد تناسبت أعضاؤه وتناسقت أجزاؤه ، حتى إذا وقعت العين عليه قال صاحبها : ما أسهل خلق هذا الجسم ! ولكنه إذا حاول أن يخلق جسما مثله ، فقد يلهث كثيراً ثم يعرق كثيراً ، ثم يلهث فيستلقى على ظهره من قبل أن يعرف كيف يبدأ وكيف ينتهى !

هكذا يكون البيان البسيط ! ولكن السرّ كل السر في معرفة حقائق البساطة ؛ على أن الطبيعة علمتنا حقائقها فلا نحتاج إلى زيادة في التوضيح . لنرجع مرة ثانية إلى شعاع الشمس ، ولنلبث في النظر إلى اتحاد ألوانه ، فكما جاء حسن الشعاع من هذا الاتحاد ، فكذلك يجيء حسن البيان من التنسيق والترتيب ، وهذه هي البساطة !

(دمشق) شكيب جبري

من الأدب التركي :

هدية العيـــد

للكاتب التركي ياسى صفا

لم يبق على العيد إلا يومان ، هكذا حدث عليّ الصغير نفسه حين خرج في الصباح الباكر حاملا على كتفه صندوقه الخشبي الصغير ، الذي به أدوات مسح الأحذية ، وعلى إفريز مقبرة السلطان محمود جلس على الأرض ، في انتظار عميل ...

كان الصبي في تمام الثانية عشرة من عمره ؛ ومنذ عام مضى وهو يمتهن هذه الحرفة التي تدر عليه مبلغاً يسيراً يدفع عنه غائلة الجوع ، فهو يربح بين ثلاثين قرشاً وأربعين في اليوم[1] .

أما اليوم فيجب أن يربح أكثر قليلا ؛ لأنه بعد يومين سيحل العيد ، ومتى حل العيد وجب على الصبي أن يحمل لأمه المريضة هدية يفرح بها عنها ، وينفس بعض ما بها ، وهو يفكر كثيراً في أمه المسكينة ، ويود مخلصاً لو قدم لها شيئاً ، حتى ولو اضطر لعدم شراء ثوب جديد يلبسه ، وهل يلبس ماسح الأحذية جديداً في العيد ؟!

بل يجب عليه أن يكدح ويكد لكي يحصل على القوت ، وحرام عليه ركوب الأراجيح ، ورؤية الألعاب ، ودخول المسارح وما إليها من أدوات اللهو البرىء ، والتسلية المباحة .

والصغار يذهبون إلى ذوى قرباهم ، فيقبلون أيديهم ، وبذلك يحصلون على منديل حريرى ؛ أما هو فليس له قريب طيب !!

ثم ، لقد بقى على العيد يوم وبعض يوم ، وبلا شك سيزداد عدد الماسحين لأحذيتهم ، وبذلك سيرتفع ربحه ، وبذلك يتسنى له أن يبتاع لأمه المسكينة المريضة هدية طيبة . لشد ما يتوجع لهذه المسكينة ويتألم لها !!

جلس على الصغير حتى الظهر أمام مقبرة السلطان محمود ، ولم يحضر إليه في هذه الأثناء إلا اثنان ، دفع إليه أحدهما مائة بارة ونقده الآخر خمسة قروش .

وحين قام المؤذن يعلن صلاة الظهر ، اقترب منه شرطى بدين ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، تبدو عليه ملامح القوة والشراسة ؛ وبمقدمة حذائه الضخم دفع صندوق الأحذية ، ثم صاح بالصبي :

— قم من هنا !

اندهش الصغير ، فمنذ الصباح الباكر لم يربح غير سبعة قروش ونصف ، وإذا انتقل من هذا المكان فماذا يفعل ؟! وإذا ذهب إلى حى السلطان أحمد فسوف يجد مزاحمة شديدة هنالك ، لوفرة عدد الصبية أمثاله الذين يحترفون مثل حرفته الرخيصة ؛ ومكانه الحالى جيد ، فهو من أكثر الأماكن ازدحاماً وأعظم الجهات حركة ...

وإذا ذهب وترك مكانه ، وطرق جهة أخرى فسوف يلاحقه الشرطة في كل مكان بالطرد . بهذا حدث نفسه . وانتبه لصوت الشرطى وهو ينتهره بعنف وشدة ، ويصيح فيه :

— أقول لك قم !

تحرك الصبي قليلا ، وإن كان في صميم نفسه لا يود أن يتحرك قيد شعرة من مكانه ، لعل الشرطى البدين يتركه وشأنه ، وينصرف إلى جهة أخرى . وأخذ كسباً للوقت يجمع أدواته من فرشاة وعلب وغيرها في أناة وهدوء . وهو يصطنع الأناة ، ويطيل فيها ما أمكنه . ثم إنه تصنع القيام . وغضب الشرطى ، وانتفخت أوداجه وتراجع إلى الوراء خطوة واحدة ، ثم رفع قدمه الغليظة في الهواء ، وبقوة وعنف صوبها إلى الصندوق الخشبي

(١) العملة هنا بالقروش التركية

الصغير ، فاندفع الصندوق كالسهم ، وارتطم بحائط القبرة وتناثرت منه الأدوات ، وراحت كل فرشاة فى ناحية ، وتحطمت الزجاجات ، وتفرقت العلب !...

وقام الصغير من مكانه وهو ينظر نحو صندوقه بأسى وحزن ، ولم ينطق بحرف . إن صندوقه تحطم ، وزجاجاته انكسرت ، وأدواته انتثرت ، ونقوده طارت ! فهو لن يستطيع اليوم ولا بعد اليوم أن يربح بارة واحدة ، ولن يعطيه أحد ثمن الخبز ، ولن يستطيع أن يحمل لأمه هدية العيد ...

وانصرف الشرطي البدين بخطى وئيدة ثقيلة ...

وأخذ عدد من الأطفال يضحكون لحالة الصبي ، وهم يسخرون منه ، وينالون منه بالهذر والصياح ...

فذهب على إلى الحائط ، وأسند رأسه إليه ، وبكا بكى يوم مات أبوه ، انخرط فى بكاء أليم بصوت عال ، وهو يغمض عينيه ، ويفتح فمه ، ويشهق .

وكلما وقع نظر المارة عليه أوسعوا الخطا ، وهم يحاولون الابتعاد عنه ومشاهدة بكائه الأليم .

غير أن امرأة مسنة ، ذات ملابس نظيفة ، أخذت تسير فى هدوء نحو الصبي ، وكانت قد رأت هذا المشهد أثناء وقوفها فى انتظار الترام . وقالت :

— يا بنى ، اجمع صندوقك ومحتوياته ، وتعال معى .

فرفع الصبي رأسه الصغير ، ونظر إليها من وراء أهدابه المبللة بالدموع ، وقال فى نفسه : ما أجمل وجه هذه السيدة ! إن عينيها بهما أثر دموع ، وصوتها مرتجف مؤثر ! وأخذ صدرها يعلو وينخفض أثناء حديثها ثم كررت قائلة :

— هيا يا بنى وتعال معى ...

فانحنى الصبي يجمع ما تشتت من أدواته ، وهو يجفف دموعه بأكمام ثوبه .. فجمع ما يصلح ، وترك ما فسد .

ثم سارا نحو باززيد . وبعد أن سارا عدة خطوات سألته السيدة :

— أين تقيم يا بنى ؟

— فى القاسم .

— ألك أم ؟

— نعم .

— وأبوك ... ؟

— لا .

— هل تكسب أمك من عمل ؟

لم يجب الصبي ، وذكر ما حصل له من الشرطي البدين ، وأوشك أن يبكى من جديد حين سألته السيدة :

— أجبنى يا بنى ، أتذهب أمك لعمل ؟

— كلا ... لما مات والدى فى الحرب أثناء العام الماضى مرضت أمى ، وجاءها المرض فى رجليها فأقعدها ، فهى الآن مقعدة لا تستطيع عملا . وتنهد من أعماق قلبه ...

نظرت السيدة الطيبة إلى على نظرة طويلة ، فيها شيء من الحنان والشفقة . وفهم الصبي من نظرتها الحانية أنها تود لو ضمته إلى صدرها الحنون ، فالأطفال سريعو الحساسية ...

وكانا قد وصلا إلى باب السوق ، حين أخذت المرأة تلقى عليه الأسئلة من جديد :

— لو لم يفعل بك الشرطي ما فعل فكم كنت تقدر ربحك اليوم ؟

— لا أدرى ، وإن كان الربح سيزيد بمناسبة العيد ، وفى الأيام العادية أربح نحو ثلاثين قرشاً أو أربعين ... وربما ربحت اليوم أو يزيد ..

— وإذا ربحت فماذا كنت فاعلا بربحك ؟

— كنت سأشترى لأمى هدية العيد .

— أية هدية ؟

فلم يجب الصبي ، حتى اضطرت السيدة أن تعيد عليه السؤال عدة مرات . أية هدية ؟

ولكنها لم تحظ بجواب ، فقد خجل الصبي من التحدث عما كان يود شراءه لأمه .

ومشيا حتى قال يزيد ، وهي تلح عليه لتعرف ماهية الهدية التي يودها لأمه ، ولكن ذهب إلحاحها عبثاً ، وراح تمها هباءً .

وكانا يسيران على الإفريز اليسارى ، وبغتة وقف الصبي أمام واجهة زجاجية لحانوت كبير ، وأشار بأصبعه الصغيرة نحو « عكاز » وقال :

— كنت أود شراء هذا ، وبهذا تستطيع أمي أن تسير في راحة أثناء العيد ، وتستطيع أن تخرج إلى الحديقة لتستنشق الهواء .

وهز الصبي رأسه بأسى وحسرة ، وقال :

— إنه غالٍ جدا ، كنت كل يوم أمرّ من هنا ، وأقف هنا هنيهة ، أنظر من وراء الواجهة الزجاجية بحسرة ألمة ؛ وذات مرة سألت صاحب الحانوت عن الثمن ، فأجابني إنه مائتا قرش .

وأمسكت المرأة الصبي من ذراعه ، ودفعته نحو الحانوت . . .

وبعد لحظات خرجا ، وتحت إبط الصبي ربطة كبيرة ؛ وكان السرور والغبطة باديين على وجهه ، وعلى فمه ابتسامة كبيرة ، وعيناه تفيضان بالدمع من فرط سروره .

إن المرأة الطيبة اشترت له هدية لأمه ، كما أنها نقدته مائة وخمسين قرشاً ثمن صندوق آخر .

وودع كل منهما الآخر ، وانصرف إلى سبيله . وبينما كان الصبي يبتسم ، كانت السيدة تبكي

(القاهرة) ابرهيم أحمد أدهم

ابتداء من أول فبراير سنة ١٩٤٣



المعرفة والفكر :

نظرية عبد القاهر الجرجانى

— ٢ —

منهج عبد القاهر يستند إلى نظرية فى اللغة ، أرى فيها ويرى معى كل من يمعن النظر أنها تماشى ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء . ونقطة البدء نجدها فى آخر « دلائل الإعجاز » ، حيث يقرر المؤلف ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات (Système des rapports) وعلى هذا الأساس العام بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوى الفنى . قال : « إن الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها فى أنفسها ، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد . وهذا علم شريف وأصل عظيم . والدليل على ذلك أنا إن زعمنا أن الألفاظ التى هى أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها فى أنفسها لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل فى استحالته ، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التى وضعوها لها لتعرفها بها ، حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا فعل ويفعل لما كنا نعرف الخبر فى نفسه ومن أصله ؛ ولو لم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنا نجهل معانيها ، فلا نعقل نفيا ولا نهيا ولا استفهاما ولا استثناء ؛ وكيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم . فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم . ولأن المواضعة كالإشارة ، فكما أنك إذا قلت : خذ ذاك ، لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه فى نفسه ، ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التى تراها وتبصرها ؛ كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له . ومن هذا الذى يشك أنا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلا من أساميها ؟ لو كان ذلك مساغا فى العقل لكان ينبغى إذا قيل زيد أن تعرف المسمى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته أو ذكر لك بصفة . . . وإذ قد عرفت هذه الجملة فاعلم أن معانى الكلام كلها معان لا تتصور إلا فيما بين شيئين ، والأصل والأول هو الخبر ، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته فى الجميع . ومن الثابت فى العقول والقائم فى النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه ؛ ومن ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعل من غير أن تريد إسناده إلى شىء ، وكنت إذا قلت — اضرب — لم تستطع أن تريد منه معنى فى نفسك من غير أن تريد الخبر به عن شىء مظهر أو مقدر ؛ وكان لفظك به إذا أنت لم ترد ذلك وصوت تصوته سواء . »

من هذا النص نستنتج نتيجتين بالغتى الأهمية :

(١) أن الألفاظ لم توضع كما أنها لا تستعمل لتعين الأشياء المتعينة بذواتها ، وهذه هى نظرية الرمزية فى اللغة التى أوضح المفكر الألمانى wundt[(١)] حدودها ؛ وذلك لأنه لدينا عن طريق تجاربنا المباشرة أو تجارب الغير ، صورة ذهنية لكل شىء ، ولكل حدث ، وإنما نضع ألفاظ اللغة ونستعملها لنحرك هذه الصورة الذهنية الكامنة ، فعند ما نقول : « رجل » لا يمكن أن يثير هذا اللفظ فى نفوسنا شيئا ما لم يكن فى ذهننا صورة الرجل ، اللفظ رمز لها ومحرك.

(٢) ونحن لا نستخدم ذلك اللفظ لنحرك الصورة الذهنية تحريكا نريده لذاته ، وإلا كنا عابثين ، وإنما نفعل ذلك لأننا نعتزم أن نخبر عن « الرجل » بشىء ما ، وهنا يلحق الجرجانى بأكبر مدرسة حديثة فى تحليل اللغة ، أعنى مدرسة العالم السويسرى الثبت رأس علم اللسان الحديث فردناند دى سوسير (F. de Saussure)[(٢)] ، ثم اللغوى الفرنسى

---

(١) مؤرخ عاش فى كتابه الضخم (١٠ أجزاء) عن « نفسية الشعوب » .

(٢) راجع دروسه التى نشرها تلاميذه بعد موته بعنوان : « دروس فى علم اللسان العام » . ولعل هذا الكتاب أحق ما كتب فى ذلك العلم وأهمه وأصحه .

Cours de linguistique générale 3ème édition. Paris-Payot 1931.

الذائع الصيت أنتوان مييه (A. Meillet) ؛ ولقد كتب هذا العالم الأخير فصلا[١] هاما عن منهج الدراسة في علم اللسان ، وفيه يردّ اللغة إلى عنصرين : (أ) مفردات (ب) عوامل الصيغة (Morphèmes) . والمفردات معروفة وهى كلفظة « رجل » ، وأما عوامل الصيغة فيقصد بها إما ترتيب الكلمة فى الجملة ، وإما مقطع صوتى كالتنوين فى « رجل » ، وإما إداة نحوية كالألف واللام فى « الرجل » . فهذه العوامل هى التى تعطى اللفظة دلالتها التى نقصد إليها عند نطقنا بالكلمة ، وذلك لأننا — كما يقول الجرجانى — لا ننطق بلفظة ما إلا لكى نخبر بها أو عنها بشىء ، ومن ثم فنحن ننطق بها مضافا إليها حتما عوامل الصيغة من ترتيب أو مقاطع صوتية خاصة ، فالرفع لإفادة الأسناد ، والألف واللام للتعريف ، والابتداء لكذا أو كذا . ونحن بعد لا نكتفى بلفظ واحد إلا أن يكون جوابا لسؤال أو اعتمادا على كلام سابق أو ملابسة راهنة ، وإنما نقول « رجل » ، ثم نخبر عنه فنضيف « جاء » مثلا ، ومن ثم تكون مفردات اللغة لا قيمة لها فى ذاتها ، لأنها لا تكتسب دلالتها المقصودة إلا بفضل عوامل الصيغة .

وإذن فمفردات اللغة ليست إلا رموزاً لصور ذهنية محصلة من قبل ، وهى لا تستخدم لذاتها بل لتقيم بفضل عوامل الصيغة التى نضيفها إليها طائفة من العلاقات بين الأشياء أو بين الأشياء والأحداث . وهنا ننتهى إلى ما أجملناه فى قولنا : اللغة مجموعة من العلاقات لا مجموعة من الألفاظ .

عن هذا « العلم الشريف والأصل العظيم » ، فرّع الجرجانى كل آرائه ، وجماعها مسألتان : الأولى : إنكاره لما رآه الجاحظ من أهمية فصاحة الألفاظ باعتبار تلك الفصاحة صفة فى اللفظ ذاته ؛ ثم ثورته على مذهب العسكرى الذى يرد جودة الكلام إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل . الثانية : تعليقه جودة الكلام بخصائص فى النظم : « واعلم أنه ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت ..... هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صوابا ، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية أو فضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معانى النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه . »

وأما مخالفته للجاحظ فباستطاعتنا أن نقره عليها ، إذا ذكرنا أن الجاحظ وغير الجاحظ من أدباء العرب ونقادهم لم يصفوا فصاحة اللفظ ولا عنوا فيها إلا بالصفات السلبية : كالخلو من التعقيد والتنافر وما إلى ذلك . والبحث الحديث قد أصبح اليوم يرى للألفاظ قيمة ذاتية إيجابية من حيث ما يوحى به جرس حروفها من إحساس يبرز المعنى المعبر عنه . ومن غريب الأمر أن النحاة وعلماء اللغة قد فطنوا إلى أن بعضا من ألفاظ اللغة كانت أسماء أو أفعال أصوات ، كما أن منهم من اهتدى بالاستقراء إلى حقائق لغوية تكاد تكون صحيحة ؛ وأضرب لذلك مثلا ما ذكره الزمخشرى فى الكشاف عند ما قرر أن كل أفعال اللغة العربية التى تبتدئ بنون وفاء تفيد المضى والنفاذ ، كقولنا نفد ونفذ ونفز ونفق ونفض ... الخ ، ومع ذلك فإنهم لم يستخدموا تلك الحقائق

(١) هو أحد فصول مجموعة من المقالات الطويلة كتبها علماء مختلفون كل فى مادته ، ونشرت فى مجلدين عند ألكان Alcain بعنوان « مناهج العلوم » De la methode dans les Sciences ، وقد كلفت وزارة معارفنا طائفة من زملائنا الأساتذة ترجمته ، وكان فصل « مييه » من بين الفصول التى كلفت أنا بها وأنا أرجو أن تستطيع الوزارة نشره عما قريب .

فى نقد الأدب ليوضحوا على أساس لغوى ما يهتدى إليه الشعراء والكتاب بغرائزهم الصادقة ، عندما يؤثرون لفظا على لفظ وفقا للمعنى الذى يريدون العبارة عنه . ولقد كتب الأوربيون كتبا فى إيضاح أسرار الشعراء والكتاب اللغوية ، فتراهم [1] يحصـون أنواع الأحرف الصائتة (voyelles) والأحرف الصامتة (consonnes) فى البيت الجيد من الشعر ، ويقيمون بينها نسباً يستخرجون بفضلها ما يسمونه «بالانسجام الصوتى» (Harmonie Vocalique) الذى ينتج عن توزيع الأحرف الصـائتة ، ثم «انسجام المحاكاة» (harmonie imitative) الذى ندركه فى مطابقة الإحساس الذى يخلفه فى النفس وقع الأحرف الصامتة المختلفة بالإحساس الذى لدينا عن الشىء الذى تتحدث عنه على نحو ما توحى السينات المتتابعة مثلا بصفير الريح . ولكن هذه كلها أبحاث حديثة ليس لنا أن نتطلب مثلها من نقادنا القدماء .

والجرجانى أشد إصابة فى نقده لآراء العسكرى السقيمة ، فهو يرى «أن فى كلام المتأخرين كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن يثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها» . (أسرار البلاغة ص ٦) وهو يلاحظ «أنك لا تجد تجنيساً مقبولا ، ولا سجعاً حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه ، وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ولا تجـد عنه حولا . ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصـد من المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ، أو ما هو لحسن ملاءمته — وأن كان مطلوبا — بهذه المنزلة وفى هذه الصورة» .

وأما نظرية النظم عند الجرجانى فنظرية كبيرة هامة . وعنده أن دراسة النظم — نظم الكلام — لا تقف عند أمر الصحة بل تعدوه إلى تعليل الجودة ؛ وبعبارة أخرى يمزج الجرجانى «النحو» بما سماه البلاغيون فيما بعد «علم المعانى» ، وله فى ذلك حكمة بالغة تقتضينا أن نترك الكلام عن تلك النظرية الخطيرة إلى المقال التالى .

محمد مندور

(١) راجع مثلا كتاب موريس جرامون (M. Grammont) عن «الشعر الفرنسى . طرق أدائه وانسجامه» .
le vers Francais, ses moyens et eppression, Son harmonie Paris 1917.
وهو خير ما كتب النقاد العلماء فى العصر الحديث .

إنســـــان

في لمحة عابرة من طفولة بيتهوفن Beethoven ، حاولنا في عدد سابق من أعداد «الثقافة» أن نرسم له صورة من وحي صورة له . وكم للعبقرى من صور ، وكم بين هـذه الصور من فروق ، فإن ريشة مهما رشقت ، وفرشاة مهما دقت في يد صاحبها وصنعت ، ليستعصي عليها اللمح في هذه الشخصية كل الاستعصاء ، لأن صاحبهـا لا يستقر في مكان ، ولا يطاوع جهد الفنان . وكثير مما رسم له الرسامون لم يكن عن الطبيعة بقدر ما كان من وحي الطبيعة ؛ وكثير مما طابق الحقيقة أو داناها عن شخص بيتهوفن قد كان جله من وحي المخيلة الواعية وصنع الخيال .

كانت قامة بيتهوفن أميل إلى القصر ، فـكأنما قد انضغط بعضه في بعض . وكان له رأس ، أي رأس ! رأس غضنفر ضخم منفوش الشعر قد تمت له به معرفة الأسد .

وكان قاتم لون الوجه ، طلق الجبين ، جليله ؛ قد انتثرت في وجهه آثار الجدرى فزادته تقطيباً على تقطيبه . وكان له أنف دميم قد ركبه الله فيه ليظهر جمـال الجبين المسجم والذقن ذى العزم والفم الـكريم .

وكانت له عينان قلقتان مظلمتان ، حسب صاحبهما أن يفكر أو يحدث لينبع منهما بريق خاطف .

وكان إذا ابتسم — وقلّ أن ابتسم — ألفيت مثل شعاع الشمس يخترق الجهام .

***

بهذا الوجه أقبل بيتهوفن على الدنيا وأدبر عنها ، فـكانت الدنيا دائماً جادة في أثره ، وكان أبداً في شغل عنها بفنه ونفسه .

وبهذا الوجه عرف الدنيا متجهمة في بيته ، متجملة في بيوت الناس ، فاجتمع له فيها ما قل أن اجتمع لفنان غيره من عطف وعون ، وتشجيع وتثقيف .

نشأ بيتهوفن يرى نفسه في بيوت النبلاء مختلطا بهم ، مؤهلين به ، آخذاً عنهم ، معلماً أبناءهم . وقد كان الأمراء منهم أحفياء به يُنقِّرُونه ، وأصحابه من صفوة العظماء يلوذون به يبجلونه . يتهافت عليه من المجتمع كل ذي شأن يعلي من شأنه ، ويعمل على خلوده ، ويقدم إليه أكثر مما يأخذ منه ، لولا أن في الأستاذ لا يقدر ، وأن نفسه التي تجيل فيه لا تقوّم بنفيس .

وقد اجتمعت له أباطرة أوربا وملوكها في صعيد واحد ، واستمعت له في فينا في حفلة «المؤتمر» وغيبة الـكورسيكي(١) فأكبرته وأعظمته .

واستفاضت شهرته ، وجاوزت حدود بلاده ، وهو بعد شاب ؛ وتجاذبته العواصم وتراحمت عليه تريد أن يكون لها دون فينا ، فلا تستأثر دونها بشخصه .

وقد كان في بيته موضع عناية الناس ، فـكم أرسل الود والحب والفن عبر شعاع إلى قلبه الـكبير ! وكان في شبابه على مقربة دائماً من عرائس الفن وشيخ الرماة كيوبيد الطفل فيرميه ويصميه .

***

فلو أن السعادة تقتنى بهذا لـكانت من قسمته ؛ لـكن الطبيعة أبدعته على غرار فريد ؛ فهو من ناحية نفسه في ثورة ، ومن ناحية الناس في ثورة ؛ وليـكن حوله من سلام الله طبيعة كاملة ، ومن إرادة الناس طيبة شاملة ، فإنه لا بد خالق في هذه الطبيعة عجزه الدائم ، وفي قلوب الناس ظنهم السيء ؛ وإنه لا بد مباعد بينه وبينهم بقدر ما بينهم وبينه من تباين وهو كبير ، ومن تشابه وهو نادر جد قليل .

كان بيتهوفن عليلا ؛ فهو على همته وعزمته ، وشدة

(١) نابليون في إلبا

أسره وجهمة قسره ، سريع التألم كثير المعاناة .

وكان يقدس حريته ولا يتصرف إلا على هواه ، ولو أخطأ العرف والتقاليد واللياقة .

وكان خشن الدعابة ، فليس بشيء عنده أن يغضب الناس أو يرضوا ما دام يريد أن يتفكه بهم . وكان حساسا شديد الحساسية ، لا يطيق التلميح بله التصريح ، ولا يحفل للحساسية في غيره .

وقد كان الأشراف أول من احتضنوه وأكرموه ، وأفاضوا فنه على الناس بحراً زاخراً ، وكان يتعمد حيالهم موقفاً خشناً ، ولو لم تمس كرامته ! ذلك لأنه كان يخشى فحسب أن تهدر هذه الكرامة ، وأن يبدو للعظماء غير عظيم .

ارتحل بيتهوفن عن بون Bonn مسقط رأسه في السابعة عشرة من عمره إلى فينا ممجدته ومذيعة فضله ، فوجد فيها الخالد موتسار Mozart ، فكان بدء التصادم بين معلم بلغ الذروة ومعلم ناشئ يصعّد في الجبل بخطا الجبار . وقد كان موتسار الأوزة الشادية في عهد دائل وعصر زائل ، وكان بيتهوفن يستقبل عهداً جديداً وعصراً مقبلا مجيداً .

وافترقا ، أول ما افترقا ، هـذا يشيع أباه إلى مقره الأخير ، وذاك إلى أمه يودعها الوداع الأخير .

وحمل بيتهوفن بعد موت أمه تبعات جساما في القيام بأود أسرته ، ووقفت له عجوز الهم بالرصاد ، تسلبه كل ابتسامة يجود بها الزمان .

وارتحـل بيتهوفن إلى فينا للمرة الثانية في الثانية والعشرين من عمره ، فألفى فيها جمهرة الفنانين يتزعمهم هايدن ، فتتلمذ لهم ولم يأخذ في الغالب عنهم . وكان معهم التلميذ الآبي لا يحترم إلا إرادته ، ولا يوقر إلا فنه ، ولا يدين لعبقرية سوى عبقريته . فكيف كان ذلك ؟ وكيف نبا بيتهوفن الشاب في أيدي الأفذاذ ، وأخطأ جلهم فيه الحساب ؟ .

لم يكن ما هي بيتهوفن له وسمي وراءه يتشـدد عند هؤلاء ، بل كان مدرسة وحده ومعبود أجيال . وصفه الشاعر وابستباخ Weissenbach الجراح الذى أجرى مبضعه في تلافيف شخصيته ، ودق منتهى الدقة في تشريح أنسجته فقال :

كان خلقه كموهبته جليلا كل الجلال ، فلم أصادف في الحياة نفسا طفلة بهذه القوة وهذا القسر . يجد في نفسه كل طيب وكل جميل ، وتبعثه على ذلك فطرة تسمو على كل تهذيب . يثور ويألم ويبكي إذا دنس بالفكر أو القول أو العمل ما يحبه ويجله . وينقم أبداً على الدنيا الخسيسة ويتشيع للحق ، حتى ليتجهم أبد الدهر لمن يتبين فيه الشر .

لا شيء في هذا العالم يستطيع أن يغويه ، وليكن سمواً في الحياة أو جاهاً ورتبة ومقاما . وهو في حساسيته الرفيعة وعبقريته الفنية الدافقة يلق الهناء كما يلق الشقاء . ليس المال عنده إلا قيمة الضرورة ، فهو لا يعرف أبداً ما يعوزه ولا ما ينبغي أن ينفقه . وعلى أن طبعه كان يحذره من العالم ويعزف به عنه ، فقد كثر ما أوقعته سذاجته في أحابيل الشر . وقد قدر له أن يخبر المرّ ويذوقه ، لكن نفسه ظلت بعيدة عن مزاولات الحياة ، قليلة الخبرة بها ، حتى ليبتسم للمكر كالطفل وذهنه منه خال .

لقد كان بيتهوفن عفاً ، نقياً لم يقارف الفحشاء ، وقد كان رأيه في الفضيلة يستخشن لأنه لم يطلب عبقريته عند معلم الرقص ولم يبذلها على أبواب العظماء .

كان بيتهوفن يطلب الفضاء الطلق والسعة والانتشار ، وألا يصده صاد ، أو يحرجه ضيق . فليس أي مكان مهما رحب بالسعة التي يطلبها ، والعلو الذى يتطلع إليه ، والعرض الذى يشتهيه .

كان يريد العزلة لا الجوار ؛ وألا يجاور غير السماء . وكان يريد منظراً لا نهائيا ينفذ في قلب الطبيعة الساجية الناجية ، منظراً في الريف النائي يطل عليه من نوافذه ،

فتطالعه غاباته وجباله ووديانه ، وتجرى من تحتها أنهاره ، يساير منها السحب الحثيثة فى الآفاق البعيدة فتحوم فوقها أفكاره كطيور العاصفة ، فيخلق ما شاء الخلق ، ويستدير فى تحليقه حدود الأرض .

وقد كان مع هذا الانسجام الباطنى مضطرب الظاهر ، يعيش مع الفوضى تحت سقف واحد : فكتبه ومجلداته (ونوتاته) فى كل ركن وطرف لا يجتمعها نظام ؛ وعلى معزفه أوراق مرقشة وألحان تغط فى النوم بحاجة إلى التمام . وهنا وهناك مسودة تطلب التصحيح ، وفضلات عشاء الأمس وقنانى نبيذ ؛ وعلى النافذة قرص كامل من الخبز وإلى جواره أطلال دارسة من لحم الخنزير ؛ وعلى الأرض رسائل تتناول معاملاته ، وبين أشتاتها أخرى من أصدقاء أوفياء ؛ وإلى جانب المعزف مكتب زرى يحمل آثار الحيرة المقلوبة ومجرى المداد المهراق فى جوف البيان ؛ وعلى المكتب نصف دستة من أقلام البوص تنتظر من يقشرها ويبريها ؛ وفوق كرسيه القش ملابسه تغطيه وترامل عليه فضلات الطعام .

أما الغبار ففى كل مكان ؛ غبار وعَثر فى أرض الغرفة مليئة بالماء من مخلفات صبيب الأستاذ على جسمه كل صباح .

والصمم ! الصمم الذى وقر فى أذنيه قبيل الثلاثين ولازمه بقية العمر . الصمم الذى حرمه أنبل حواس للوسيق فى الإمتاع والاستمتاع ، فتركه يغوص فى نفسه إلى أعماق ما لها قرار ، وينطلق من أعماقه وكأنما يتطاير منه شرر النفس المستعرة أيما استعار ؛ ألم يكن نصيبه الأوفى فى الحياة ، وصنع القدر فى مجالده الجبار ؟

لقد كان بيتهوفن يشد النفس إلى صخرة عزلته ويكابد العذاب ، وكان عذاب النفس ينهش كبده فى قسوة الرخمة ونهم العقاب .

كان بيتهوفن مسلوب العزاء ، فبيانه ، أداته التى كانت تناجيه بأروع الألحان ، باتت خرساء ، وأضحت من صممه هى الأخرى صماء .

وقد كان إذا لقى أخاه فى الإنسانية فابتسم له ، أوّل الابتسام وأساء التأويل ، وإذا تحدث إليه محدث أساء فهمه ، وذهب يتظنن ويفرض المستحيل .

كان يسير فى الطرقات هيبة كالحة ، وجهامة مجسدة تتنكر للموهوم ، فإذا بدا له أنه الواهم وأنه الظالم لم يتردد فى الاعتذار والاستغفار واسترضاء المظلوم .

* * *

وبعد ، فإن هذه البشرية المتفجرة تنغمر من يقربها بأصدق المشاعر ؛ وهذه الشخصية المتنكرة تطالع المستطلع بأغرب الأحاسيس . وقد تعددت جوانبها ، فهى تزحم أفق الفكر وتعقل الفكر . وقد قبسنا من ومضاتها قبساً ما نحسبه يفى كل الثناء ؛ فلعلنا نكتب فى القريب عن بيتهوفن الفنان ، فنحاول أن نجلوه بعض الجلاء .

محمود الدسوقى

أبو حيان التوحيـــــدى

وإخوان الصفاء

كان أبو حيان التوحيدى يحترف الوراقة لرقة حاله ، وقد مكنته تلك الحرفة من مخالطة طائفة من المفكرين فى عصره ومعرفة ما استكن من آرائهم ، وحتى من زعمائهم ، وممن ورق لهم فعرفهم حق المعرفة زيد بن رفاعة ، ومن أجل ذلك طلب إليه الوزير ابن سعدان أن يحدثه من حديثه فأنبأه بأنه ذكى بليغ متبصر فى الآراء والديانات ، متصرف فى كل فن : إما بالشدو الموهم ، وإما بالتبحر المفهم ، وإما بالتناهى المفحم ؛ وأنه قد صادف بالبصرة جماعة وضعوا بينهم مذهباً ، قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ؛ ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة والشريعة فقد حصل الكمال . وصنفوا خمسين رسالة وسموها رسائل إخوان الصفاء ، وقذفوها للناس ، وادعوا أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله . فقال له الوزير : هل رأيت هذه الرسائل ؟ فقال أبو حيان : « قد رأيت جملة منها ، وهى مبثوثة من كل فن نتفاً بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات ؛ وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . وحملت عدة منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقى وعرضتها عليه ونظر فيها أياما واختبرها طويلا ؛ ثم ردها علىّ وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا ؛ ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ؛ ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة فى الشريعة ، وأن يضموا الشريعة للفلسفة . وهذا مرام دونه حدد ؛ وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدّ أنيابا ، وأحضر أسبابا ، وأعظم أقدارا ، وأرفع أخطاراً ، وأوسع قوى ، وأوثق عرا ، فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ؛ وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة ، وألقاب موحشة ، وعواقب مخزية ، وأوزار مثقلة . هذه هى حقيقة إخوان الصفاء ، كما صورها أبو حيان ، وهذا رأيه فى أغراضهم ومقاصدهم ، فهل يعقل بعد هذا أن يقال إن أبا حيان كان منهم أو من أنصارهم ؟ ولكن الدكتور زكى مبارك يقول فى كتاب النثر الفنى (٢/١٤٣) : « إن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفاء ، ولكنه كان يتستر اتقاء لسخط الجمهور ، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات صريحة كقوله : الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء ، والأنبياء يطببون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، فأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا . فبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف ... » . وهذا الكلام الذى نقله الدكتور وأدعى أن التوحيدى أنطق به بعض الأشخاص لينصر به إخوان الصفاء ، كلام مقطوع الصلة عما قبله وما بعده ، فلا يصح الاستشهاد به إلا على طريقة ولا تقربوا الصلاة ... على أنه ليس لأبى حيان وإنما هو رأى رواه وروى نقداً قويا له فى حوار طويل جرى بين الحريرى وبين المقدسى أحد إخوان الصفاء . روى أبو حيان أن الوزير قال له : أفما سمعت شيئاً من هذا المقدسى ؟ فقال : بلى ! هيجه الحريرى يوما فاندفع فقال : الشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء الخ . فقال له الحريرى : أما قولك طب المرضى وطب الأصحاء وما نسقت عليه كلامك فمثل لا يبر به غيرك ومن كان فى مشكل ، لأن الطبيب عندنا الحاذق فى طبه هو الذى يجمع بين الأمرين ، أعنى أنه يبرئ المريض من مرضه ويحفظ على الصحيح صحته ؛ فأما أن يكون ههنا طبيبان يعالج أحدهما الصحيح

والآخر يعالج المريض ، فهذا ما لم نعهده نحن ولا أنت ، وهو شيء خارج عن العادة ، فتلك مردودة عليك ، وتشنيعك فاضح لك ، وكل أحد يعلم أن التدبير في حفظ الصحة ودفع المرض — وإن كان بينهما فرق — واحد ، فالطب يجمعها والطبيب الواحد يقوم بهما وبشرائطهما . وإني أظن أن حسك كليل وعقلك عليل . ما بالنا لا نرى الواحد منكم يقوم بأركان الدين ، ويتقيد بالكتاب والسنة ، ويراعي معالم الفريضة ووظائف النافلة . هذا والله الجهل المبين والخرق المشين . هيهات لقد أسرتم الحسو في الارتقاء ، ودللتم على قسوتكم وضعف متنكم . . . وأردتم أن تقيموا ما وضعه الله ، وتضعوا ما رفعه الله ، والله لا يغالب ، بل هو غالب على أمره فعال لما يريد . فانبهر المقدسي عما سمع ، وكاد يتفرى إهابه من الغيظ والعجز وقلة الحيلة » . والمحاورة طويلة جداً يجدر بالقارئ أن يرجع إليها في الجزء الثاني من الإمتاع والمؤانسة فإن فيها لذة وثقافة وإمتاعا .

وبعد فهل فيما نقلته عن التوحيدي ما يصح أن يستنتج منه أنه كان من أنصار إخوان الصفاء ؟ ولكن الدكتور مع كل هذا ، أو برغم هذا ، استنتج أنه كان من أنصارهم ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فرجح أن يكون من مؤلفيها حيث يقول : « ولا نعرف أسماء مؤلفيها بالضبط ، ولكن يرجح أن التوحيدي كان بينهم » ؛ ولم يحدثنا الدكتور عن تلك المرجحات حتى نعرف هل تبدت له بعد بحث وروية وتفكير ، أم أنه تابع بعض المستشرقين دون مناقشة أو مراجعة . ولا يصعب علينا أن نحكم بأنه كان من المقلدين ، فقد نقل في كتاب الأخلاق عند الغزالي ص ٧٣ أن : « الكونت دجلارزا ذكر أن أحد إخوان الصفاء وهو أبو حيان التوحيدي كان يقول : إن الشريعة لم تكن كاملة بل فيها غلطات وجب إصلاحها بواسطة الفلسفة » . وكلاهما مخطئ في عد التوحيدي من جماعة إخوان الصفاء ، مخطئ في نسبة كلام غيره إليه ، متعسف في أن يحمل عليه آراء خاطئة لا علاقة للتوحيدي بها إلا أنه رواها وروى نقدها بعقبها على طريقته التي اختطها لنفسه في تسجيل آراء معاصريه أنى كان موقعها من الحق ومن غشه . ولولا أنه تعرض لتحبير أمثال هذه الأحاديث والمسامرات لكان ذلك كله مغموراً في غمار ما جهل ، وفائتا في عرض ما فات . وقد أحس أبو حيان بما تثيره طريقته تلك من مشاكل ومصاعب ، وفكر فيها تفكيراً طويلاً ، وعالج أمرها في بعض ما كتب بما عهد فيه من صدق اللهجة ، وصراحة الرأي . كتب في حديث له يقول : « والله ما شرعت في تحبير هذا الكلام ، وإيراد هذه الوجوه إلا شغفا بالعلم ، ولولا كلف النفس به ، ومحبتها للفائدة لكان الإضراب عنها أذهب من المرض ، وأصون للقدر ، وأبعد من استدعاء اللائمة . ولكني تعرضت له على علم مني بقلة السلامة ، على أن من أثنى علي يحمده ، وكثر لي من ثابه ، وجعل صوابي خطأ ، وخطئي فيه عارا احتملت وصبرت وتغافلت وعذرت ؛ وإذا كنت في جميع ذلك راوية عن أعلام عصري وسادة زماني ، فأنا أفدي عرضهم بعرضي ، وأقي أنفسهم بنفسي ، وأناضل دونهم بلساني وقلمي ونظمي ونثري . ولست ألتمس أحداً على هذا الحديث إلا بعد أن يرسم بقلمه في هذا الفن عشر أوراق يسلم فيها كل السلامة ، ويتبرأ فيها من كل ، فإنه وهذا ما لا يتطاول له كل أحد ، ولا يظفر به كل إنسان ، والطعن بالقول سهل من بعيد ، والعتب خفيف على لسان كل عائب ، والتعقب مركز في كل وقت ، على أن الحسناء لا تعدم ذاما ، كما أن الحسنة لا تعدم ملاما » .

السيد أحمد صقر

كتاب

الصديق أبو بكر

وأى مهرب يلتمسه الصدر الضيق خير من مصاحبته الأديب صاحب الفكرة والأسلوب بين دفتي كتاب يبعد به عن صغائر الحياة وأدرانها وضجيجها وهمومها ؟ إن الأديب هو الشيء الذى يستحق الالتفات ويستوجب التقدير من بين كل هذه (الأشياء) التي تسميها المجتمع ، وإن تفكير الأديب هو وحده (القوة) التي لا يصدر عن الإنسانية دافع غيرها ، يدفعها نحو ذلك الأفق الأعلى الذى لولاه لما وجدت الأبصار مرمى تطمئن إليه ، ولولاه لساد هذا الوجود ظلام تتخبط فيه عيون البشر وهى عمياء .

هذه خواطر امتلأ بها القلب بعد أن فرغت من قراءة كتاب (الصديق أبو بكر) تأليف الأستاذ الأديب الدكتور محمد حسين هيكل ، وحسبي له هذا النعت وهذا اللقب المجرد ، فهو عندى خير من كل نعت لحق به فى الحياة ؛ وهو ، بلا شك ، عنده خير من تلك النعوت البراقة العابرة التى تزول ولا تترك من ورائها بطاقة ذات رواء .

فإن هيكلا الأديب يأبى أن تثبت عليه صفة أخرى تغلب عليه غير صفة الأدب . فهو قد ضرب بسهم فى نضال السياسة ، وهو اليوم رئيس حزب سياسى ، وهو قد كان بالأمس وزيراً يلبس ما يلبس رجال السياسة من تكاليف الحياة الاجتماعية ، ويأخذ مكانه فى ميدان المداورة والمناضلة ، ويأخذ نفسه بالمداجاة حيناً وبالصراع حيناً ؛ ولكنه مع كل ذلك يأبى إلا أن يبقى هيكلا الأديب ، ويذكر الناس بحقيقته بين حين وحين بتلك المؤلفات الرائعة التى يتحف بها الأدب العربى والتاريخ العربى .

وهل يستطيع إلا الأديب أن يقول ما قاله هيكل فى الفصل الختامى من سيرة الصديق ؟ قال : « ترتفع الصيحة للحرية والعدل والإخاء ، فيلقى الناس بكل سمعهم للمنادى بها ، ويبذلون حياتهم فداء لها ، وتدوى آلات الدمار لنصرتها ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، توقع الناس أن تظلهم المبادئ التى قاتلوا فى سبيلها ؛ لكن ما تحقق من هذه المبادئ لم يزد يوماً على طيف تتبدى وراءه حقيقة نحيفة ، هى على تعاقبها مبهمة غير واضحة المعالم » . وقال فى موضع آخر :

« والناس يرون الحق فيبهرهم لألاؤه ، ويعشون دون استجلائه فى جلال كماله ، لأن الضمير الإنسانى لا يزال فى طفولته ، والنفس الإنسانية لا يزال جوهرها العلوى يختلط بعوامل النقص التى تغشى عليه وتفسد حكمه » .

وهذه بغير شك أقوال يقولها الأديب ، وهو خال إلى نفسه كاتماً ، هو ينفس بها عن قلب اشتد عليه ضغط الحياة القاسية التى اضطر ذلك الأديب إلى خوض غمارها المضطربة .

لقد قال أحد الفضلاء فى مقال له عن هذا الكتاب « الصديق أبو بكر » : إنه من الخير أن يكتب رجال السياسة فى سير التاريخ ، فإنهم أقدر على فهم مواقف الرجال فى زعازع الحياة . ولكنا نرى أن الذى يستطيع فهم تلك المواقف ، إنما هو الأديب الذى بين جنبي رجل السياسة ، وهو فى ذلك يناضل نضالا عنيفاً مع الغشاوة التى تغشى قلبه الذكى من أثر تلك الحياة السياسية .

ولقد كان أثلج للصدر وأمتع للأدب والعلم ، لو كان هيكل أديبا ولم يكن شيئا آخر غير الأديب !

جلا هيكل عصر الصديق ، وصوّر من حوادثه صورة لا أظن أن أحداً استطاع أن يصور مثلها من قبله ! فهو قد تتبع العصر منذ أوله ، وما زال به حتى أتم له صورة بديعة ذات ألوان باهرة ، وأبرز كل ملامحها ، وأتى

النور على تفاصيلها ، حتى لم يبق فيها موضع للغموض ... فهذه هي أمة العرب في الجاهلية ، وهـذه هي في صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه هي في يوم وفاة الرسول ، وهذه هي في معمعة النضال فيما بينها وبين نفسها ، ثم هذه هي في نضالها مع دولتي الروم والفرس . فنحن نتتبع في السيرة صورة كتائبها وقوادها وخطط أمرائها في سيرهم وفي تفكيرهم ؛ ونرى كل ذلك في وضوح ودقة لا تدعان النظر يضل عن شيء في لحظة واحدة .

وقد تتبع مؤلف السيرة قبائل العرب في مواطنها ، فوصفها وصفاً دقيقاً يجعل القارئ يستشف ما يختلج في نفوسها من العواطف ، ويرى البواعث من وراء الوقائع ، ويكتنه الأسباب من وراء الحوادث . ثم وصف دولتي الفرس والروم وما كان بينهما وصفاً يظهر كيف كان الفتح العربي لبلاد هاتين الدولتين نتيجة محتومة ، وكيف كان ذلك الفتح نهاية لا بد للتاريخ أن يفضي إليها ؛ ولا شك أنه قد لقي في تصوير هـذه الصور الواضحة عناء شديداً ، وجهداً لا يستطيع الصبر عليه إلا أولو العزم . وحسبنا هنا أن نشير إلى موضع واحد من المواضع الكثيرة ، التي تدل على مقدار ما عانى المؤلف من المشقة حتى انتهى إلى إبراز هذه الصور في مثل هذا الوضوح .

فقد وصف سير الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس والشام ، واستطاع بالمقارنة والمناقشة أن يرسم خططها ، ويصف حركاتها وتنقلها في مواطن القتال واحداً بعد آخر ، في وضوح وسهولة لا يمكن أن يدرك منهما القارئ أنه قد عانى شيئاً من المشقة في سبيل استجلاء الحقائق وإماطة الغموض والاضطراب عنها .

مع أن غزوات العرب في بلاد فارس والشام يحيط بها الغموض والاضطراب في كل كتب التاريخ ، سواء منها العربي والأوربي ، إذ اختلفت فيها الروايات اختلافاً يجعل ملتمس الحقيقة من بينها كالسائر في ظلمة الليل الحالك سواده .

ولا أظن أن كثيراً من قراء هذه السيرة يقفون طويلاً عندما يقرأونها ليحمدوا المؤلف هذا المجهود الصادق في تصويره وإيضاحه ، لأني أكبر الظن أن سهولة مأخذ الكتاب ينسيهم ما بذل من عناء في سبيل تحقيق هذه السهولة .

هذا مثل واحد من أمثلة ما مهد المؤلف من العقبات في سرد سيرة الصديق أبي بكر ، وهو واحد من أمثلة عدة لا يتسع المقام لبيان تفصيلها جميعاً ، فذلك يحتاج إلى تتبع السيرة في كل موقف من مواقفها ، وكل شخصية من شخصياتها .

وقد أفاض الأديب هيكل من خياله على الأشخاص فأحيا صورهم حياة يكاد القارئ يسمع تردد أنفاسها . فهذا سيدنا خالد بن الوليد يتحرك ويقاتل ، ويقابل الصديق والعدو ، ويخطر في عمامته العبقرية ، وقد غرز السهام فيها ونظر شزراً إلى سيدنا عمر بن الخطاب نظرة المنتصر المتحدي .

ثم هذا هو ينقلب من قسوة الحرب إلى وداعة الحياة المنزلية حيناً مع عروسه التي اتخذها عقب النصر . وهذه هي أشخاص العصر واحداً بعد واحد تتحرك مليئة بالحياة وقد كشف لنا المؤلف عن نبضات قلوب كل منها ، وعن نجوى ضمائرها إذا هي تجادلت .

فالحق أن سيرة الصديق أبي بكر فتح في كتابة التاريخ الإسلامي ، قد أضاف به المؤلف الجليل ثروة قيمة إلى المكتبة العربية .

وبعد ، فإذا كان ولا بد لكل من نظر في كتاب أن يجد عليه شيئاً يلاحظه ويود لو كان المؤلف حقق فيه وجهة نظره ، فإنا كنا نود لو زادنا الكتاب من تصوير شخص البطل المحبوب صاحب السيرة !

حقاً لقد جلا المؤلف مواقفه العظمى ، وبين مواطن

عظمته فى تلك المواقف . ولكن الشخص نفسه ، ذلك الرجل (المعروق الأسيف) القوى الشكيمة على ضعف جسمه ، لم يكن شخصه موضع حديث طويل كنا نحب أن نتمتع به أكبر متعة وأطولها .

وأمر آخر كنا نود لو أن المؤلف الفاضل حققه فى بحثه القيم ؛ ذلك أنه كان أحيانا يورد الروايات المختلفة ثم يترك الأمر بغير أن يقطع فيه برأى ، كأنما أراد أن يلقى عبء الحكم على القارئ وحده . فعل ذلك فى بعض المواضع . نذكر منها : بيعة على لأبى بكر رضى الله عنهما ومناقشة حدوثها والامتناع عنها .

وقد كان أولى به لو ناقش الآراء والروايات واجتهد فيها وأدلى برأيه قاطعا بما شاء ، ولا عليه إذا هو خالف آراء غيره من الكتاب أو وافقها ؛ فإن واجب المؤلف أن يطلع على الناس بالرأى الذى أداه إليه اجتهاده ، ولا يبالى كيف يلقى الناس ذلك الرأى ما دام قد خلص إليه عن منطقه وبحثه .

وبعد ، فلسنا نريد أن نقف عند وصف أسلوب الكتاب طويلا ، فهو من السهل الممتنع الذى يجمع بين الوضوح والحلاوة والسلاسة والروعة . ولكنا لا نملك إلا أن نقف لحظات عند بعض عبارات كان المؤلف يكثر من ذكرها مثل (لا جرم) وفيها شبهة أنه يقصد منها (لا عجب أو لا غرو) ، مع أن ذلك حرف يدل على التأكيد والجزم . ثم هو يورد بعض ألفاظ بلغت من السهولة مبلغاً فيه شيء من الإفراط . ولعل رغبة المؤلف الفاضل فى سهولة العبارة قد مالت به أحيانا إلى هذا النحو من القول البالغ فى السهولة ، بإيراد ما اعتاد الناس أن يكتبوه أو يقرأوه .

وأمر آخر ، وهو أن الكتاب فى مجموعه يوحى بأن فيه شيئا من المبالغة فى الأسلوب عند ما تأخذ الحماسة الدينية مأخذها من المؤلف المؤمن ، فقد تكررت عبارات الحماسة الإسلامية تكراراً يحملنا أحياناً على ألا نملك أنفسنا من أن نود لو كانت تلك العبارات أقل حرارة وتكراراً ؛ فإن المؤرخ المؤمن غير مطالب بأن يكون شيئاً غير المؤرخ الذى يزن ويقارن ويناقش ويبدى وجه الرأى الذى يهتدى إليه ، والروح وحده بعد ذلك هو الذى يتولى عنه نشر ما يشاء من الدعاية . وقد نوه بعض الأفاضل إلى بعض أخطاء مطبعية ليس على المؤلف فيها بأس ، إلا أن يكون فى إيرادها تنبيه له ليتلافاها فى الطبعات المقبلة ، فإن الكتاب يكتب لليوم وللغد ، وينبغى أن يكون مصفى من كل ما يؤخذ عليه .

وبعد ، فإنا بعد هذا الذى نراه فى الكتاب من وجوه النقد ، نرى واجباً علينا أن نقول فى غير مواربة : إن سيرة الصديق قطعة فنية فى أدبنا ، وإنها مؤلف تاريخى موفق كل التوفيق ، وإن المؤلف الأديب الكبير قد أهدى بها إلى الأمة العربية تحفة تستحق كل الشكر والإعجاب . ولا شك فى أنه قد سهل للقراء ورود منابع صافية كانوا لا يستطيعون ورودها فيما تخلف لهم من كتب التاريخ القديمة ، وتحمل عنهم مشقة عظمى حتى قدمها لهم سائغة طيبة حلوة .

محمد فريد أبو حديد

حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ٨ يوليه سنة ١٩٤٢ فى القضية ٢٦٧٩ سنة ١٩٤٢ بحبس محمد مصطفى علام الفلاح بالتبين أسبوعين بشغل لامتناعه عن بيع الذرة الفائضة عن حاجته للحكومة .

حكمت محكمة الفرقة العسكرية بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٩٤٢ فى القضية رقم ٢٧٢ سنة ١٩٤٢ بحبس فريد سيد أحمد الجزار بالأخيوة أسبوعين بشغل وتغريمه ٣ ج وإغلاق المحل ثلاثة أيام لبيعه لحوما بأزيد من التسعيرة .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
....
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٣٠ فى مصر والسودان
٢٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٤٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٥٠ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١ قرش صاغ

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين مصر —

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢١٥ — الثلاثاء ٤ من صفر سنة ١٣٦٢ — ٩ من فبراير سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

الجمهورية التركية

وموقفها من الحرب

في صباح الثلاثاء الماضي طالع الناس ، في غير قليل من الدهشة ، نبأ اجتماع خطير بين طائفة من قادة الشعب البريطاني والتركي ، في مدينة أطنه ، بالقرب من الحدود السورية القديمة ، أي في ركن قصي من أركان الجمهورية التركية ، روعي في اختياره من غير شك أن يكون قريبا بالنسبة لممثلي بريطانيا من جهة ، ومن جهة أخرى أن يكون بعيدا عن مراكز الفضول والتجسس في العواصم والمواني الغربية . وقد عقد الاجتماع في قطار من قطارات السكة الحديدية ، ولعله نفس القطار الذي أقل أحد الفريقين . فإن بلدة أطنه واقعة على الخط الحديدي الكبير الذي كان يدعى ، بل لعله لا يزال يدعى سكة حديد بغداد ؛ والقطارات تصل مباشرة من حلب أو من أنقرة إلى هذه النقطة التي التقى فيها الطرفان واجتمعا فترة من الزمن .

إن البلاغ الرسمي الذي صدر في صباح الثلاثاء الماضي لا يشتمل على قرارات خارقة للمألوف . وإذا استمسكنا بحرفية تلك القرارات ، فإننا لن نرى فيها شيئا يستحق أن يعد فصلا جديدا من فصول الحوادث الهائلة التي تجري في العالم منذ بداية الحرب الحاضرة . وقد طلب رئيس الحكومة البريطانية ألا نمعن في التفسير والتأويل ، أو أن نسرف في القراءة بين السطور ، أو أن نحاول أن نقرأ في ألفاظ ذلك البلاغ الرسمي شيئا سوى الجمل

والعبارات التي اشتمل عليها ، والمدلولات التي تدل عليها دون سواها . ورئيس الحكومة البريطانية على حق في أن يطلب هذا إلينا ؛ فقد ولع الناس بالتكهن وفرض الفروض البعيدة التي لا تستند إلا على مقدمات سهلة يسيرة . ولهذا فإن العقل يقضي أن نكتفي بسرد ما حدث دون أن نحاول الإسراف في تفسير عبارة أو جملة ، أو أن نحملها من المعاني ما لا تستطيع أن تحمله .

وأول شيء يلفت النظر في قرارات أطنه أنها مجرد توكيد لما قد حدث من قبل . فقد سبق لرئيس الولايات المتحدة أن أعلن أن الجمهورية التركية من الأقطار التي يطبق عليها قانون الإعارة والتأجير ، ومعنى هذا أن الحكومة الأمريكية تعد الدفاع عن حدود تركيا أمراً لازماً للدفاع عن الولايات المتحدة نفسها ؛ فاجتماع أطنه يعد من هذه الناحية بمثابة محاولة تنظيم الخطط التي ينفذ به هذا التعهد الصريح الذي تعهدت به حكومة الولايات المتحدة الأمريكية .

والقرارات التي اتخذت كان من الجائز أن تعقد المفاوضات بشأنها بين السفير البريطاني وبين الحكومة التركية ، وأن يكتفى بالتمثيل السياسي العادي بين الدولتين في عقد هذا الاتفاق ؛ ولو تم الأمر على هذه الصورة لما أثارت تلك القرارات ضجة ، ولا ظن أحد أن في جو الحوادث أمراً جديداً .

فالعنصر الطريف في حوادث الأسبوع الماضي ، أن رئيس وزارة بريطانيا ، الذي يحمل اليوم أعباء كثيرة يكفي بعضها لأن يشغله ويستغرق كل وقته ، رأى من الضروري أن ينتقل بنفسه إلى تركيا ، ومع رئيس أركان حربه ، وقائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط ، والقائد العام لجيشي إيران والعراق ، وغيرهم من رجال الحرب ورجال السياسة . وكذلك كان الفريق التركي مشتملا على رئيس الحكومة وقادة الحرب وكبار الساسة ؛ وكان رئيس الجمهورية نفسه ، وزعيم الشعب التركي عصمت إينونو يرقب الحادثات عن كثب ، ولئن لم يشترك فيها رسميا ، فقد اجتمع بالزعيم البريطاني غير مرة أثناء المناقشات التي دارت .

فالظاهرة الأولى التي تلفت النظر في محادثات أطنه هي الشخصيات الكبيرة التي اشتركت فيها . والأمر الثاني ، الذي لا بد من ملاحظته ، هو إعلان الاجتماع للعالم كله . ولقد كان من الجائز أن يعقد مثل هذا الاجتماع الخطير ، وأن يحاط بسياج متين من التكتم الشديد بحيث يبقى السر به مقصوراً على الدوائر المحدودة التي اشتركت فيه ، ولا يعرف العالم الخارجي من أمره سوى إشاعات ، لا تستند إلى نبأ أو بلاغ رسمي . ولكن المتفاوضين تعمدوا أن ينبئوا العالم بما حدث أو ببعض ما حدث ، مما يدل على أن لهم رغبة صادقة في أن يعلم الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، أن اجتماعا هاما ، تدل جميع ظروفه وأحواله على أنه اجتماع تاريخي خطير ، قد حدث في أواخر شهر يناير وأول شهر فبراير من هذا العام .

ويطالع الناس بعد ذلك نص البلاغ الرسمي عن هذه الحادثات التي جرت بين أقطاب الدولتين ، فيرون أنه يشتمل على أمرين أو ثلاثة ، أولها : توكيد روابط الصداقة بين الجمهورية التركية وبريطانيا ؛ والثاني : العمل على مساعدة تركيا في المحافظة على « سلامتها الدفاعية » ؛ والثالث يختص بمشاكل ما بعد الحرب . ولا شك أن هذا الجزء الأخير يدل على أن تركيا تعنى عناية شديدة بأن تكون التسوية النهائية بعد أن تضع الحرب أوزارها ، متفقة مع سلامتها وأمنها من أي عدوان في المستقبل .

هذه هي الأمور الثلاثة التي اشتمل عليها نص البلاغ

الرسمى من ذلك الاجتماع التاريخى الخطير . ولعل هذه الأمور لا تؤدى معنى عظيما يتفق مع خطر الاجتماع ، إذا نظرنا إليها نظرة محدودة ؛ ولكنها قد تبدو ذات معنى أوسع وأكثر وضوحا إذا نظرنا إليها فى ضوء الحوادث التاريخية الحديثة التى شغلت الجمهورية التركية فترة من الزمان .

إن الجمهورية التركية فى كيانها وحدودها الحاضرة وليدة الجهود الجبار الذى بذله الشعب التركى بعد الحرب الكبرى ، التى دارت من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ . فى تلك الحرب كانت إيطاليا حليفة بريطانيا ، وتركيا فى صف ألمانيا ، وقد أصاب الدولة العثمانية ما أصاب ألمانيا وحلفاءها ، ففقدوا الحرب ، وأمليت عليهم معاهدات للصلح قاسية ؛ وكان ما أصاب الدولة العثمانية أقسى وأنكى مما أصاب أية دولة أخرى . فلم يكتف الحلفاء بسلخ الولايات غير التركية عن الدولة العثمانية ، بل قضوا بتمزيق بلاد الأناضول ، وهى الوطن التركى الصميم ، فقسموه بمقتضى اتفاق «سفر» إلى أقسام خمسة : جزء فى شمال سوريا خاضع للنفوذ الفرنسى ، وآخر حول أزمير روعى فيه أن يصبح ميداناً لنفوذ اليونان ، ومنطقة ضيقة حول مضايق البسفور والدردنيل تكون ذات نظام دولى ، والقسم الرابع ويشتمل على الجزء الأعظم من أناضول الغربية والجنوبية ، وقد جعل ميداناً للنفوذ الإيطالى ، ويبقى بعد ذلك الربع الشمالى التاخم للبحر الأسود ، أريد به أن يترك للدولة التركية الجديدة .

كان لايطاليا فى هذا التقسيم نصيب الأسد ، وقد نالت فوق هذا جزيرة ردوس وجزيرة كاستلاريزا الملاصقتين لسواحل الأناضول ؛ كما احتفظت بجزر الدوديكانيز التى احتلتها منذ عام ١٩١٢ .

قام الشعب التركى بعد ذلك بجهاده المنيف ، فطرد اليونان من الأناضول ، واضطرت القوات البريطانية إلى التخلى عن المضايق ، وعقدت فرنسا اتفاقا خاصا لتسوية الحدود بين الحكومة الوطنية التركية وسوريا . وعقدت بعد ذلك معاهدة لوزان صيف عام ١٩٢٣ ، واعترف للجمهورية التركية باستقلالها التام ، وألغيت الامتيازات الأجنبية ، وردت إليها جميع الأقطار التركية الخالصة ، وسويت العلاقات بين تركيا واليونان باتفاق مبادلة السكان.

وانصرفت تركيا بعد ذلك إلى إصلاح شئونها الداخلية من جهة ، وتحسين علاقاتها مع كل دولة أجنبية من جهة أخرى ...

وأصبحت تركيا الحديثة دولة جمهورية عاصمتها أنقرة فى صميم الوطن التركى فى الأناضول ، ولكن لها أرضا أخرى فى جزيرة البلقان تشتمل على مدن تركية عظيمة مثل أدرنة على حدود بلغاريا ، واستانبول على مضيق البسفور . ولا شك فى أن هذا الوقع فرض على الجمهورية الجديدة أن تعنى بعلاقاتها فى البلقان بوجه خاص ، فوق عنايتها بتحسين علاقاتها الخارجية بوجه عام .

وقد استطاعت تركيا بسياستها الخارجية الحكيمة أن تنمى علاقة الصداقة وحسن الجوار بينها وبين جارتيها فى البلقان ، بلغاريا واليونان ، فحل التفاهم محل التخاصم ، وأصبح الوئام سائدا بين الطرفين . ولعل تركيا أن تكون الدولة البلقانية الوحيدة التى ليس بينها وبين جيرانها خصام على الحدود السياسية ؛ ولهذا استطاعت أن تقوم بعمل جليل فى سبيل إيجاد تفاهم بين دول البلقان ، لولا أن الخصومات المتأصلة بين دوله لم تكلل هذه المساعى بالنجاح .

ورأت بريطانيا أن مصالحها الخاصة ومصالح السلم فى أوربا عامة باتت مضمونة بفضل وجود دولة تركية قوية فى هذا الجزء الخطير من العالم ، فكانت الصلات بين الدولتين فى تحسن دائم منذ تأسيس الجمهورية التركية إلى وقتنا هذا . وقد انضمت الجمهورية التركية إلى عصبة الأمم وهذا من غير شك قد زادها قربا من الدول الديمقراطية .

وخرجت من العصبة كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان .

وقد كانت الصلات بين الجمهورية التركية منذ نشأتها وبين حكومة روسيا ، صلات طيبة . وهذه الحالة كانت سائدة بوجه خاص فى الوقت الذى كانت حكومة روسيا غير معترف بها من كثير من الدول الغربية .

أما إيطاليا فإن الصلات بينها وبين تركيا لم تتحسن كثيراً فى العهد الفاشى . وقد كانت خطب زعيمها تشتمل أحياناً على إشارات إلى التوسع الإيطالى فى الشرق ، اضطرت الحكومة التركية مرة على الأقل أن تحتج عليها بصفة رسمية . وهنالك أسباب ملموسة تجعل الجمهورية التركية توجس خيفة من روما ورجالها ، فإن ذكرى تقسيم الأناضول بحيث يوضع الشطر الأكبر من الوطن التركى تحت نفوذ إيطاليا ، أمر ليس من السهل لأحد أن ينساه ، ووجود إيطاليا فى جزر الدوديكانيز ، وفى جزيرتى رودس وكاستلاريزا ، على مرمى حجر من سواحل الأناضول ، شىء لا يمكن أن تطمئن إليه النفوس .

وقد حاولت ألمانيا النازية أن تستميل الجمهورية التركية بمختلف الوسائل ، حتى لقد أعلن رجالها أن الترك شعب آرى ، وأن ألمانيا النازية قد اقتفت فى نهضتها المثال الذى ضربته تركيا من قبل . غير أن تأسيس المحور ، والحلف بين إيطاليا وألمانيا ، جعل من المستحيل على تركيا أن تطمئن إلى صداقة دولة تربطها بإيطاليا كل هذه الصلات المتينة .

وهنالك سبب آخر جعل من المستحيل على تركيا أن تقترب من ألمانيا ، وهو أن دول المحور قد اتخذت من روسيا موقف العداء الصريح ، وأنشأت ميثاقاً ضد الشيوعية ، وتركيا لا تزال تذكر الخدمات الصادقة التى أدتها إليها روسيا فى وقت لم يكن لتركيا بين الدول صديق سواها .

وهكذا نرى من الطبيعى أن تركيا ، حين رأت أوربا تنقسم إلى معسكرين متعادين ، وتظهر بوضوح مظاهر هذا العداء فى الأعوام السابقة للحرب مباشرة ، لم تجد بداً من أن تميل إلى المعسكر الديمقراطى . وكان هناك خلاف حول سنجق الأسكندرونة ، وقد سوى هذا الخلاف فى أول الحرب الحاضرة مباشرة بضم هذا السنجق إلى الجمهورية التركية ، وبعقد محالفة المساعدة المتبادلة بين تركيا وفرنسا وبريطانيا ؛ ولم يعقد مثل هذه المحالفة بين تركيا ودول المحور . وهذا دليل صريح على أن تركيا إذا التزمت خطة الحياد فى الحرب ، فإنه سيكون حياداً مشرباً بالعطف الشديد على قضية الدول الديمقراطية ، واستعداد لمساعدتها مساعدة لا نعرف مداها على وجه التحقيق .



وقد خرجت فرنسا بعد ذلك من الحرب ، وتأسست حكومة فيشى . وأغارت إيطاليا فى خريف سنة ١٩٤٠ على بلاد اليونان ، ولم يكن بين تركيا واليونان محالفة مساعدة مشتركة ، فظلت تركيا ملتزمة خطة الحياد .

وفى ربيع عام ١٩٤١ هاجمت ألمـانيا بلاد البلقان لإنقاذ الجيوش الإيطالية من جهة ، ومن أجل التوسع الخاضعة لنفوذه من جهة أخرى ، واستطاعت أن تحتل البلاد اليونانية وأن تصبح جيوشها على أبواب تركيا . ولا شك أن رجال السياسة فى تركيا كانوا يخشون فى ذلك الوقت أن يصل أذى الحرب إلى ديارهم وأوطانهم ؟

ولكن ألمانيا التى كانت تنوى القيام بحربها الهائلة على روسيا ، لم تشأ أن تجازف بالإغارة على تركيا ، واكتفت بأن عقدت ميثاق « عدم اعتداء » بينهـا وبين تركيا فى شهر يونيو سنة ١٩٤١ .

وبالرغم من أن مثل هذا الميثاق لا تتعارض نصوصه الحرفية مع المحالفة المعقودة بين بريطانيا وتركيا فى أول الحرب ، فليس من الغلو أن يقال إنه أضعف من شأن تلك المحالفة قليلا . ولم يكن بد من أن تنتهز بريطانيا أول فرصة لتعزز صلاتها بالجمهورية التركية ، وأن ترجو تركيا أن تأتى تلك الفرصة لكى تقوى روابطها بالدول الديمقراطية . فلقد أصبحت دول المحور على أبواب تركيا ، وفوق احتلال الإيطاليين لرودس أصبحت جيوشهم التى تحتل جزر ساموس وخيوس ومدلى ، تهدد سـواحل الأناضول تهديداً شديداً ؛ وجيوشهم على الضفة اليمنى من نهر مرتزا تهدد الولايات التركية فى البلقان . وقد أصبحت بلغاريا أو حكومتها قابلة لتأثير دول المحور ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن عما قد تقوم به جيوشها لو أن دول المحور أرادت أن تسلك نحو الجمهورية التركية مسلك الجور والعدوان .

إذا ذكرنا تطورات الحوادث وتعاقبها على هـذه الصورة ، أدركنا أن كلا الفريقين ، تركيا والدول المتحدة ، فى حاجة إلى إحياء المحالفة السابقة ، وأن كليهما ينال فائدة كبيرة من تعزيز الدفاع عن تركيا ، ومن إحيـاء روابط الصداقة بين الطرفين . وهذه الضرورة الملحة هى التى قضت بأن يتم هذا الاتفاق الجديد بتلك الصورة الرائعة التى لفتت الأنظار .

محمد عوض محمد

عـــذاب !

تجمدتْ أدمعهُ فى عينيـه كالندى جمده برد الشتاء!
وترامت حوله الدنيا كما تترامى البيد فى عين الظماء!
بعد ما ذابت مناه حلوةً ذوبان النور فى قلب المساء
باعدته رحمة الله ، وما تتوخاهُ قوانينُ السماء
وسَطتْ حَرَّى على إحسـاسه
لوعةُ المحرومِ من ظلّ الهناء
وَدَّ لو يبكى ولـكنْ حَبَسَتْ
دمعه عنه سـدودُ الكبرياء
فاستقرّتْ نفسُـه تهيدةً
لو طواها ، حرّقتْهُ البُرَحاء
مادتْ الدنيا به وانفجرتْ حوله فيها براكينُ العناء
وارتمى فوق الـثرى يأساً وفى
قلبه السكينُ ، سكينُ القضاء

عبد الرحمن الخميسى

من قصص تولستوي :

حاجة المرء من الأرض

كان « باهوم » فلاحا ساذجا ، يعيش — على فقره — عيشة هادئة مطمئنة ، لا يعرف من زخرف الدنيا وزينتها كثيراً ولا قليلا . ولبث كذلك إلى أن سمع ذات مرة أخت زوجه — وهي من أهل المدينة — تتيه عليه بحياة المدينة الزاخرة التي تحياها مع زوجها ، غارقة في ضروب وألوان من المتع والمسرات .

حينئذ خطر لباهوم أنه لو وسع قليلا من رقعة الأرض التي يملك ، إذن لتوفر له المال وبات سعيداً . ولمح الشيطان هذا الخاطر يدور بخلده فسر به وفرح ، وعرف موطن الضعف في هذا الرجل ، وأخذ من ذلك الحين يبسط له في الأرض ويؤرق بها جنبيه ، وهو بهذا الصيد الجديد الذي أوقعه في الفخ جد سعيد .

وأخذ « باهوم » يقتر على نفسه وعياله ، ويرهق أبناءه بالعمل كي يزيد أجرهم ، وباع ما لديه من ماشية ، واستدان من جيرانه ؛ واستطاع بعد هذا الجهد الجهيد أن يشتري قطعة من الأرض في قريته .

وجنى من الأرض آخر العام محصولا وافراً ، باعه وسدد من ثمنه أكثر الدين ، فكثر حساده من أقرانه ، وشرعوا يدبرون له المكائد ؛ فحيناً يطلقون ماشيتهم على أرضه تأكل الزرع ، وحيناً يتربصون غيبته ويقطعون الأشجار . فطرق أبواب المحاكم ، ولم يستطع تقديم الدليل الوافي ، فلم ينصفه القضاة ، فاتهمهم بالرشوة . . . وهكذا كثر أعداء « باهوم » ، وهدده بعضهم بإشعال النار في بيته إذا لم يرجع عن شكاته وقضاياه .

وتعسر عليه العيش في قريته . وهداه رجل من أهل القرية إلى قطعة أرض في بلد آخر يؤجرها صاحبها بثمن زهيد ؛ فباع « باهوم » كل ما يملك في قريته ، وهجر مسقط رأسه ، واستطاب المقام في البلد الجديد . ولكنه سرعان ما سئم التبعية لمالك آخر ، وعاوده الحنين إلى امتلاك الأرض . وسمع بأرض بعيدة تعرف بأرض « بشكير » يبيعها أهلها بثمن بخس ، ويكفي المشتري أن يقدم الهدايا لشيوخ القبيلة وزعمائها لكي يظفر بما يريد .

فتأهب « باهوم » للرحيل ، وخلف من ورائه زوجه وبنيه ، واستصحب خادمه ، واشترى كمية من الشاي والنبيذ والقماش يقدمها هدايا لزعماء « بشكير » كما نصح له صاحبه . وأتم رحلته بعد مشقة وعناء ، وبلغ الأرض الموعودة ؛ وإذا بأهل « بشكير » قوم من الرعاة ، جهال كسالى ، يعيشون في الخيام ، ويطلقون الماشية والخيول في الحقول ترعى فتدر عليهم الخير الوفير . ووزع « باهوم » على زعمائهم الهدايا ، وخص شيخهم الأكبر بالقسط الأوفر منها . ثم عرض عليهم مطلبه ، وسألهم عن الثمن الذي يفرضون ؛ فأجابه الشيخ إنهم يبيعون الأرض بمائة دينار عن كل « يوم » . ولم يفهم « باهوم » ما أراد الشيخ ، واستوضحه كيف يبيعون الأرض باليوم ؟ فأجابه الشيخ : إنهم لا يعرفون حساب أهل المدن ، وإنما هم يقيسون الأرض بمقدار ما يستطيع المرء أن يسير في اليوم الواحد . وطريقتهم في بيع الأراضي أن يسير المشتري على قدميه من مشرق الشمس حول الأرض التي تروق لعينيه ، وله أن يوسع من دائرتها ما وسعه الجهد ، على أن يعود مع مغيب الشمس إلى المكان الذي بدأ منه السير ؛ فإذا هبطت الشمس تحت الأفق وأقبل الظلام قبل أن يعود المشتري ، كان عليه أن يدفع الثمن دون أن يملك الأرض .

وقبل « باهوم » هذا الشرط ، وعقد العزم على أن يبدأ مسيره صبيحة اليوم التالي . ثم أوى إلى فراشه ، وأخذت تلعب برأسه الأماني والآمال . وصور له الوهم أنه

يستطيع أن يقطع خمسين ميلا على قدميه ، فاليوم صائف طويل ، وأنه سوف يصبح من كبار المالكين ، فيحق له أن يزهو على أهل قريته ويتكبر . ولكن كيف يصرف الأمر في هذه الضيعة الكبيرة ؟ سيزرع منها جانباً ، ويؤجر جانباً آخر ، ويترك جانباً للرعي ، وسوف يشترى الماشية ويستخدم العمال لإصلاح الأرض .

ولعبت برأسه الأحلام ، ولم يذق طعم الكرى إلا قبيل الفجر بقليل . وفي الساعة التي ألمّ فيها النعاس بجفنيه رأى في نومه رجلا خارج خيمته ، وسمع الرجل يقهقه قهقهة عالية ، فحسبه شيخ القبيلة يضحك منه ويسخر ، فاقترب منه يسأله ، وما إن دنا منه حتى تبينه ، فإذا به ذلك الفلاح الذى هداه إلى أرض « بشكير » هذه ؛ ثم حدق ببصره في الرجل فأسفر وجهه عن ذلك الصاحب القروى القديم ، الذى نصح له من قبل أن يخرج من قريته ليستأجر تلك الأرض التي خلف بها زوجه وبنيه ؛ ثم حلق في الرجل وتفرسه فانقلب إلى شيطان مارد له حوافر وقرون ، وهو يضحك من رجل ملقى أمامه عارى القدمين ، ولا يتستر إلا بقطعة يسيرة من القماش ؛ فاقترب « باهوم » من هذا الرجل المستلقى فإذا به جثة هامدة ، وتبين الجثة فإذا بها جثته هو نفسه .

وحينئذ نهض من نومه مذعوراً ، واستولى عليه شيء من الاضطراب والفزع ، ولكنه اقتنع أخيرا أن ما رأى في نومه إن هو إلا أضغاث أحلام .

وانفلق الفجر عن نور خافت أخذ يبدد ظلام الليل الدامس ، فهب « باهوم » مسرعا ، وأيقظ خادمه ، وصاح بأهل « بشكير » أن يهبوا من نومهم كي يشهدوا أنه يبدأ السير مع مشرق الشمس . ولشد ما كان يخشى أن يفقد مسير دقيقة من النهار . وقدم له مضيفوه طعاما يتبلغ به ، فأبى أن يتناوله حرصاً على الوقت من الضياع .

وارتقى « باهوم » وخادمه وشيخ القبيلة ونفر من أهلها قمة تل مرتفع يبدأ منه السير ؛ ومد الشيخ ذراعه مشيرا إلى الأرض ، وقال له : « ها هي ذى أمامك اضرب فيها ما شئت ، وخذ منها ما يروق لك ، وعد إلينا في المساء » . وتألقت عينا « باهوم » جذلا وفرحا ، وتهلل وجهه سرورا وبشرا ، وخلع معطفه الثقيل ، وشد نطاقه إلى خصره كي لا يشق عليه السير . وحمل معه زادا يسيرا وماء قليلا . وشد رباط حذائه ، ورفع إلى كتفه فأساً يشق بها الأرض كلما سار ساعة ، كي يبين الحدود للأرض التي سوف يدفع عنها الثمن . وشخص ببصره يمنة ويسرة ، وتردد برهة من الزمن في أى اتجاه يسير ، فكل بقعة جميلة ، وكل مكان يبهر العين . وأخيرا قر رأيه أن يسير شرقاً تيمناً بالشمس المشرقة . وما إن بزغت الشمس وأرسلت أول سهم من سهام النور حتى انطلق « باهوم » وهبط في بطن الوادى ، وكلما سار ساعة ضرب الأرض بفأسه ، ووضع قليلا من العشب علامة على بلوغه هذا المكان .

وارتفعت الشمس فوق الأفق ، وفكر في تناول شيء من الطعام ؛ ولكنه كان يخشى تبديد الوقت ، والوقت من ذهب ، فاستأنف السير على الطوى . واشتد القيظ وتصبب منه العرق ، وابتل لباسه والتصق بجسمه ، ففك أربطته ونطاقه ، وخلع حذاءه ، وشعر بشيء من الخفة ، وتابع السير ينظر يمنة ، فإذا بالأرض جميلة خصيبة فيسير في هذا الاتجاه ، ثم ينظر يسرة فتغريه الأرض المنبسطة ، فيغير وجهة السير ؛ وهكذا كلما سار شوطا زادت الأرض في عينيه رونقاً وجمالا ، وطمع في امتلاك كل ما امتد إليه البصر .

ولما انتصف النهار التفت وراءه فبدا له أهل بشكير على بعد صغاراً كالنمال فوق الجبل . فاطمأن قليلا وعرف أنه لم يضل الطريق بعد . وفكر في العودة ولكنه كان جائعاً صادياً منهوك القوى ؛ فجلس قليلا وأكل وشرب ،

وخشى أن تأخذه بعد الطعام سنة من النوم تفوت عليه قطعة من الأرض ، وآثر السعادة المرقوبة على الراحة الموقوتة . هذه رقعة من الأرض تصلح لزراعة القمح ، وتلك أخرى تصلح للكتان ، فلا يصح أن يفقد هذه أو تلك . وأخيراً كبح جماح مطامعه قليلا ، وشرع يسلك طريق العودة قبل أن تغيب الشمس ويفقد كل ما امتلك .

ولكن السير بعد هذا الجهد المتواصل كان عسيراً شاقاً . وقد لفحته الشمس بحرارتها وتورمت قدماه وخارت قواه . وكم كان يتوق إلى شيء من الراحة ، ولكن كيف له هذا ولا بد أن يبلغ قمة التل قبل غروب الشمس . وحينئذ أحس بالندم على طول السير ولات ساعة مندم ! وتمنى لو أنه اكتفى باليسير من الأرض وعاد وهو مالك لقواه ! وكاد يقعده الإعياء ، ولكن لا بد من بلوغ التل مهما كان العناء . وألقى عن كاهله كل ما تبقى لديه من زاد وماء ، ونزع عن جسمه كل ما كان يتستر به من رداء ، اللهم إلا خرقة يسيرة يستر بها سوءته . واتخذ من الفأس عكازة يتوكأ عليها وسار إلى الأمام .

ورفع بصره نحو الشمس فإذا بها تقترب نحو الأفق وقد أخذ نورها في الشحوب ، فتحطمت نفسه حسرات على ما فعل ، وجف ريقه ، وتقطعت أنفاسه ، وأسرعت دقات قلبه ، وخشى «باهوم» أن يموت من شدة الإعياء .

ولكنه — رغم شبح الموت الماثل أمام ناظريه — لم يكف عن السير . وأجهد نفسه جهد المستطاع ، وأبصر القوم فوق التل ، وسمع نداءهم وصياحهم يهيبون أن يقطع الشوط الأخير ويبلغ المراد . غير أن التعب قد بلغ منه الآن مبلغه ، ولم يعد له في الحياة أمل . لقد أصبح بحق للسير مالكا لرقعة كبيرة من الأرض ، ولكن هل يمد الله له في الأجل حتى يستمتع بثمرة الجهد ؟!

وتوارى عن النظر جزء من قرص الشمس ، ثم اختفت كلها تحت الأفق ، فهل ضاع الأمل ؟ لا ! إن الشمس قد غابت عن ناظريه لأنه في المنخفض ، ولكنها ما تزال بادية لأهل بشكير فوق الجبل . فاستجمع كل ما بقى له من رمق الحياة ، وصعد الجبل . وأخيراً بلغ القمة مع غروب الشمس . فصاح به الشيخ ضاحكا « بارك الله فيك من مجاهد ! إنك الآن مالك لرقعة كبيرة من الأرض »

ولكن الدم أخذ يتدفق من أنفه ومن فيه ، وعجز عن الانتصاب على قدميه ، وخر إلى الأرض صريعا . وتذكر الحلم الذي رآه في نومه قبيل الفجر فأدرك مغزاه ، ثم لفظ النفس الأخير . وبهت أهل بشكير لمرآه . وتقدم إليه خادمه واستل من جانبه الفأس وحفر له قبراً فوق الجبل رقد فيه رقدته الأخيرة . وكان كل ما يحتاج باهوم الآن من الأرض ست أقدام تواريه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه !!

محمود محمود

من منبر الشرق :

— ١ —

أفلاطون عند العرب

[يسر « الثقافة » أن تنشر سلسلة أحاديث في الفلسفة الإسلامية والأدب العربي للأستاذ « كراوس » المستشرق المعروف ، والحاضر في جامعة فؤاد الأول ؛ يطلعنا فيها على بعض جوانب المستشرقين في بحثهم ودقة عنايتهم في الأدب العربي بمعناه الواسع . وقد وعد « الثقافة » أن يوافيها ببحث طريف كل أسبوع في موضوع من الموضوعات الهامة التي عني بها المستشرقون وتهم الباحثين ، فله الشكر] .

عزيزي :

ليس من قصدي أن أقص عليك في هذه الأحدثة قصة تاريخ تأثير المذهب الأفلاطوني — أو المذاهب الأفلاطونية — في المذاهب الإسلامية ، لا لأن مثل هذا الموضوع كان يحتاج إلى تأليف كتاب أو كتب فحسب ، بل لأني مقتنع أنه موضوع لا يمكن اليوم تناوله فضلا عن استيعابه ، إذ كانت أكثر المواد المحتاج إليها فيه مدفونة في خزائن الكتب ، ومبعثرة في ثنايا الدفاتر . وإنما أقصد أن أحدثك عن تلك الحجارة التي تمكن الباحث في المستقبل من إكمال بنائه الأنيق . فلا تنتظر مما أقوله معاني فلسفية عميقة ترتفع بالقلوب ، وتطير بالعقول إلى عوالم المُثُل العليا ، بل تسمع معلومات جافة ، وأسماء كتب ومترجمين ، وحديثاً فنياً في طرق ترجمة كتب القدماء وما إليه ، ليست غايته إلا تنبيهك إلى قيمة المهمة ، وتعريفك بكنوز الماضي .

نشأت فكرة نشر الكتب العربية المترجمة من أصول يونانية لأفلاطون أو المنسوبة إلى أفلاطون في خلدي أنا وجماعة من أصدقائي منذ نحو عشر سنين ، وقد نقبنا عن مخطوطات وجمعناها ورتبناها حتى ظهر منها مشروع واضح حاز موافقة معهد واربورج (Warburg) في لندن الذي من شأنه البحث عن تأثير الفكر اليوناني في القرون الوسطى وفي النهضة الأوربية ، كما حاز موافقة المجمع العلمي البريطاني ، وقد ابتدأنا فعلا بتنفيذ هذا المشروع عن طريق الطبع والنشر ، وسيظهر المجلد الأول من سلسلة « أفلاطون عند العرب » عن قريب إن شاء الله .

اتضح أثناء البحث أنه للأسف لم يصل إلينا شيء كثير مما ترجمه العرب من كتب أفلاطون نفسها ، كما لم يصل إلينا شيء كثير مما شرحه فلاسفة العرب من محاورات أفلاطون ؛ وليس في أيدينا إلا تلخيصات مركزة لمعاني كتب أفلاطون ، لخصها اليونان أنفسهم أو مفكرو الإسلام ، وملتقطات من آراء أفلاطون وما إلى ذلك . على أنه لو جمع كل ما وصل إلينا من آثار أفلاطونية باللغة العربية لجاز الألف من الصفحات المطبوعة في القطع الربع .

وهاك برنامج مشروعنا ، الذي لولا أن حالت الحرب بين القائمين به وبين سهولة الاتصال لكان قد تم منه جانب كبير . ستشمل السلسلة الأجزاء الآتية تقريبا :

١ — ترجمات أفلاطون وسقراط الواردة في الكتب العربية مع البحث عن مصادرها ، وجمع ما عرفه العرب من كتب أفلاطون المترجمة أو غير المترجمة .

٢ — تلخيص جالينوس الطبيب اليوناني لكتاب طيماوس لأفلاطون ولغيره من كتب أفلاطون بترجمة حنين بن إسحق أو بعض أعضاء مدرسته . وهو الكتاب الذي أحدثك عنه فيما بعد .

٣ — تلخيص لكتاب النواميس لأبي نصر الفارابي ، ويظهر من هذا الكتاب التأثير العميق الذي كان لفلسفة أفلاطون السياسية على تفكير « المعلم الثاني » .

٤ — تلخيص ابن رشد لكتاب السياسة لأفلاطون وهو وإن ضاع أصله العربي فإنه قد يوجد منه مخطوطات عديدة باللغتين العبرية واللاتينية . ومن المعروف أن ابن رشد فى شروحه لكتب أرسطو استثنى من تلخيص كتاب السياسات المدنية لأرسطو بوضعه كتاب السياسة لأفلاطون مكانه ، مما يدلنا على ما كان لفلسفة أفلاطون السياسية من أثر بعيد فى الإسلام . ولعل الفرصة تتاح لى فى يوم ما فأحدثك عن هذا الموضوع الشيّق .

٥ — مختارات من أقوال أفلاطون وردت فى عدة مجاميع مخطوطة ؛ وجمع ما ورد فى سائر الكتب من «نقول» أفلاطون من كتاب فَيدُن وفَيدرُس وطيماوس وغيره من كتبه .

٦ — كتاب الفارابى فى معانى كتب أفلاطون وترتيبها ، وهو متصل برسالته فى معانى كتب أرسطو وترتيبها .

٧ — كتاب الفارابى فى الجمع ما بين رأيى الحكيمين أرسطاطاليس وأفلاطون ، وهى تلك الرسالة اللطيفة التى مع صغرها لم يقف الباحثون على غور سرها إلى الآن ، وإن لها لسرا يا عزيزى ...

٨ — رسالة الكندى فى السبب الذى له نسبت القدماء الأشكال الخمسة إلى الاستقصّات ، وهى رسالة فيما يسمى عادة الأجرام الأفلاطونية .

٩ — رسالة تضعيف المذبح لولاه لطق المقتول ، وهى رسالة فى العلم الرياضى عند أفلاطون ، وقد نشرت أخيرا فى استانبول .

١٠ — رسائل فلسفية أخرى منسوبة إلى أفلاطون وإن لم تكن له ، مثل : كتاب السياسة لأفلاطون الذى يرد بين مؤلفات أحمد بن يوسف الكاتب المصرى المشهور بابن الداية ؛ ورسالة فى تأديب الصبيان ، وغيرها .

١١ — كتب فى علم الكيمياء وفى علم الطلسمات منسوبة إلى أفلاطون عند العرب ، مثل : كتاب مصححات أفلاطون لجابر بن حيان ، وكتاب الروابيع الذى شرحه ثابت بن قرة الحرانى ، وكتاب جواهر الألواح وخافية أفلاطون ، وأخرى غيرها .

لا أكلمك اليوم إلا عن تلخيص كتاب طيماوس أو جوامع كتاب طيماوس فى العلم الطبيعى ، الذى ورد ذكره تحت رقم ٢ ، إذ كان هو الكتاب الذى قد تم طبعه أو كاد ، والذى سيظهر عن قريب .

ليس هذا الكتاب قائما بنفسه ؛ بل هو مقالة واحدة أو فصل واحد من «جوامع» جالينوس لجميع كتب أفلاطون ، قامت بمثابة مقدمة إلى قراءة محاورات أفلاطون على النمط الذى يؤلفه علماء العصر من تلخيصات معانى كتب أفلاطون مثل Shorey و Teried länder وغيرهما .

وبالأسف لم يصل إلينا إلا هذا الفصل ، أعنى جوامع كتاب طيماوس وقطعا ضئيلة من تلخيص جالينوس لكتاب السياسة ، مع أن قدماء العرب قد عرفوا ترجمة الجزء الأوفر من «جوامع» جالينوس . فاقرأ ما قاله حنين ابن اسحق فى رسالته «إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه» ، تلك الرسالة التى نشرها المرحوم برجشتراسر (ص ٥٠):

«ووجدت من هذا الفن من الكتب كتابا آخر فيه أربع مقالات من ثمانى مقالات لجالينوس ، فيها جوامع كتب أفلاطون ، فى المقالة الأولى منها جوامع خمسة كتب من كتب أفلاطون ، وهى كتاب أقراطلس فى الأسماء ، وكتاب سوفسطيس فى القسمة ، وكتاب بوليطيقوس فى المدبر ، وكتاب برمنيذس فى الصور ، وكتاب أوثيذيمس ؛ وفى المقالة الثانية جوامع أربع مقالات من كتاب أفلاطون فى السياسة ، وفى المقالة الثالثة جوامع الست المقالات الباقية من كتاب السياسة وجوامع الكتاب المعروف بطيماوس فى العلم الطبيعى ،

وفى المقالة الرابعة جمل معانى الاثنتى عشرة مقالة فى السير لأفلاطون . وقد ترجمت الثلاث المقالات الأول لأبى جعفر محمد بن موسى إلى العربية » . وأضاف تلميذ لحنين بعد وفاته : « ترجم عيسى ذلك كله فأصلح حنين جوامع كتاب السياسة » .

والواقع أن حنين بن إسحق ترجم تلخيص كتاب طيماوس إلى اللغة السريانية فقط ، وترجمه تلميذه عيسى ابن يحيى إلى العربية من غير أن يستطيع أن يرجع إلى الأصل اليونانى ، إذ كان لا يعرف اليونانية ؛ ويظهر هذا من بعض أماكن الكتاب التى غلط فيها مترجمها العربى ، والتى لا يمكن أن تفسر إلا بأنه لم يفهم النص السريانى الصحيح الذى كان أمامه . ولكن دعنا من الدخول فى التفاصيل اللغوية ومقابلة الترجمة العربية بالأصل اليونانى ، إذ كانت هذه مسائل لا يهمك الخوض فيها ، وستقرؤها إن شئت عند ظهور الكتاب . وسأكتفى هنا بمثل واحد يريك ما أقصد إليه :

يذكر صاحب الكتاب محاورات أفلاطون عدة مرات أثناء تلخيصه ، مسميا إياها بالعربية « رياضيات » لا « محاورات » أو « محادثات » (Dialogues) كما كنا ننتظر ؛ والواقع أن الكلمة اليونانية Dialogos كان قد ترجمها حنين إلى السريانية بكلمة « دوراشى » التى معناها الأول « رياضيات » (Gimnasia) ومعناها الثانى مناقشات ، فقد غلط المترجم العربى عند ما أخذ الكلمة السريانية بمعناها الأول دون الثانى ؛ ولو أنه كان قد رجع إلى اليونانية لتحدد له المعنى الصحيح .

ورغم ما حال بين اليونانية والعربية من الترجمة السريانية المتوسطة بينهما فإن الكتاب ظهر فى أسلوب عربى متين ، انبسط عليه رونق تلك « المدونة » التى تشهد بها لحنين بن إسحق ومدرسته من تذوقها من بلغاء عصره . ولولا ضيق المكان لأوردت لك بعض منتخبات بليغة من تلك الترجمة تريك فن المترجم ، مع ما تريك من دقة تحليل المعانى الأفلاطونية التى وفق لها جالينوس فى كتابه اليونانى ، ولست أشك أنك لقلت معى عند قراءتها إن النص العربى الذى فى أيدينا مرآة صادقة لمصدره اليونانى الذى ضاع أثره ؛ ولعلك وافقت أبا الريحان البيرونى الذى وصف مجهود المترجمين من العرب قائلا : « وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت ، وحلت فى الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة » .

هذا ، وقد قلت لك إن كتاب جالينوس قد ضاع أصله اليونانى ، كما ضاع سائر كتبه الفلسفية غير الطبية . وسيشكر المفتنون بالدراسات اليونانية هؤلاء المترجمين الذين بذلوا مجهودا مأثورا فى نقل الثقافة اليونانية إلى معاصريهم وإلى من بعدهم . وسيقدر علماء الحضارة اليونانية اكتشاف هذا الأثر اليونانى الجديد حق قدره ، عندما يظهر لهم أنه يمثل طورا غير معروف إلى الآن من أطوار تاريخ المذهب الأفلاطونى المتوسط فى عصر قياصرة الرومان .

باول كراوس

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥ ق مصر والسودان
	٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠ ق للممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥ ق للممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـدد ١٥ مليما

الخطيب البغدادى (١)

للأدباء حظ من الشهرة يلازمهم فى حياتهم ويخلدهم بعد وفاتهم ، فلا ينفك الناس من التنويه بشأنهم والعناية بأقوالهم وتتبع لآثارهم ، يجدون فى ذلك المتعة ، ويحرصون منه على الفكاهة . ولقد كان لأدباء العرب الأقدمين المكان الأول فى النشأة الحديثة لتاريخ الفكر العربى ؛ أقبل العلماء المعاصرون على البحث عنهم ، وتتابعت الكتب فى ذكر آثارهم ، ووصف أخلاقهم ، وبسط حياتهم ، حتى خيل لبعض المتعلمين أن الفكر العربى إنما هو أثر من آثار الشعراء والكتاب ، أمدوه بما أبدعه قوادهم وأذكاه ، وأننا إن تعدينا حلقة أدباء العربية ألفينا كتباً صفراء شحنت بما يرهق العقل ويثقل السمع ويغشى البصر ، طال عليها العهد حتى هرمت .

لقد أخطأوا والله الفهم ، فالأدب العربى مدين لغير الأدباء بما هو مدين به لهؤلاء ، أما الفكر العربى فهو وليد العلم أكثر مما هو وليد الأدب . ولئن كان فى البحث عن الأدباء طرافة ترهف الحس وتغذى الخيال وتثير العاطفة ، فلعلماء العرب والإسلام شأن يسمو بالنفس ، ويعلو بالفكر ويوحى بالقوة . وما هو إلا أن ينفض غبار الكتب الصفر ويرفع منها تكرار الروايات وتداخل الآراء حتى يتجلى لابن العصر جميل أثرها ، ويسفر للنظر حسن معناها .

وإنى لن ألتمس دليلاً على قولى فى البحث من أعظم علماء العرب أنوه بشأنه فأقنع به المتصلب برأيه ، بل إنى مختار واحداً من عدة ، ومثلاً من أمثال ، وعلماً من علماء . لقد آثرت البحث عن رجل يستن بهدى من سبقه ، ويسير على خطا من قبله ، لايدعى عظمة ، ولا ينتسب إلى عنجهية ؛ إنما هو عالم انطلقت روحه فى ميدان المعرفة تتغذى وتعيش بها ، فلا تكترث بمجد إلا ما أورثته ، ولذة إلا ما أسعفت بها . حياته جميلة حيث هى هادئة ، وثيرة العواطف حيث هى رضية . رجل عقد الآمال فى حياته ، وسما بالجد ، وقوى بالإخلاص ، فلا ثورة ترمى به فى بركان من العواطف الصاخبة ، ومنحدر من التهور ، ومنعرج من المغامرة . كان هدفه العمل ، وغايته الفائدة .

أما عصره فلا يعلو قدراً عليه ، لم يكن خير العصور وأفضلها ، بل تبوأ بين الذروة والانخفاض ، فلم يدرك سوابقه من أيام الحضارة السامية ، ولكنه بز لواحقه ، ثم كاد يختم حلقة الحسن ، هو القرن الخامس الهجرى ، أنى وقد تقلصت قوة الخلافة العباسية ، وظهر سلطان السلاجقة يأمون العراق حماة له : يدفعون عنه يد التشيعين وسيطرة الفاطميين والصراع ناشب بين حماة العقل والحاكة ، وأهل النقل والتقليد ، وجميعهم يناضلون متحمسين ، والعلم بينهم فى حيرة والصراع دائر حوله والكرة عليه . كل ذلك فى بغداد عاصمة الإسلام ومقر الخلافة .

حياته ونشأته :

أما الرجل فأبو بكر أحمد بن على بن ثابت بن مهدى ، يرجع أصله إلى عشيرة عربية من أعمال الكوفة ؛ وكان والده أحد حفاظ القرآن ، تولى الإمامة والخطابة فى درزيجان ، وهى قرية كبيرة جنوبى غربى بغداد .

وولد أبو بكر فى غزية بالحجاز يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ؛ ونشأ فى حجر أبيه ، فيبث فيه هذا روح العلم والتقى ، ويهذبه بالقرآن ، ويعظه موعظته للناس فى أيام الجمعة والعيدين . ثم يسلمه إلى هلال الطيبى ليعلمه القراءة والكتابة ، فيتأدب به ؛ ولعله يظهر نباهة وفطنة ، فيطمع والده إلى إخراجه عالماً . ويبلغ الغلام إحدى عشرة سنة ، فيحضه أبوه على سماع الحديث ، فيهرع الغلام فى الحرم

(١) عنوان محاضرة ألقيت فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وهى ملخص موجز منتقل من كتاب أعددنا وضعه ولم ينشر بعد .

سنة ٤٠٣ إلى جامع المنصور ببغداد ، ويقعد مع الشيوخ والطلاب فى حلقة ابن رَزْقويه البزاز ، فيكتب عنه مجلساً واحداً . ولا عجب أن رأيناه لا يعيد الكرة إلى الدرس ، فهو لا يفهم مما يملى عليه الأستاذ إلا نتفاً لا ترغبه ، إنما العجب أنه تابع المجلس إلى آخره !

على أنه لا يفتر طويلا ، فإن هجر كتابة الحديث ثلاث سنوات ، فهو لا ينفك يتردد على مجالس كبار الفقهاء ؛ ثم نراه يعود إلى مجلس أستاذه الأول ، وقد بلغ من العمر أربعة عشر عاما ، ثم ينتقل بين أساتذة الفقه ، فيقف عند أبى الطيب الطبرى فقيه الشافعية فى عصره .

ويبدو لنا أنه درج فى طريق الفقهاء ، وأن من حضر وهو غلام مجالس التحديث سئمها ورغب عنها إلى الفقه ، ولكنه يخطئنا فى ظننا ، فهو لا يزال يختلف إلى حلقات الحديث ؛ حتى يأتى يوم يزن فيه الكفتين ، فإذا بكفة الحديث ترجح كفة الفقه ، وإذا بالخطيب يقر العزم على أن يصبح محدثاً ، فيعمد إلى أسلوب المحدثين فى جمع الحديث على المشايخ ، ألا وهو الرحلة ؛ فيسافر عام ٤١٢ إلى البصرة ، ويسمع مشايخها . حتى إذا قفل راجعاً إلى بغداد ظهر فضله فى مجالس التحديث ، وتفرد ببعض ما جمعه رواية من الحديث ؛ فافتقر أستاذه أبو القاسم الأزهرى إلى الاستشهاد به فى تصنيفه ، فسأله أن يقرأ عليه ، فجلس مجلس المحدث وقرأ على شيخه ما أراد .

وكذلك تألق نجمه ، وصار الناس يقتبسون من علمه ، ورأى والده ثمار قصده فملئت نفسه فرحا ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد توفاه الله يوم الأحد المنتصف من شوال من السنة نفسها . ومشى الخطيب فى نعش والده من يومه هذا إلى مقبرة باب حرب ، حيث واراه التراب ، وبكى لفقده .

وختمت سنة ٤١٢ ، وأبو بكر يتيم الأب ، مكسور النفس ؛ ولكنه محدث له علمه ، وشاب له مستقبله ، ورجل له عزمه .

ولا يمل من جمع روايات مشايخ بغداد حتى يستنفدها جميعاً ؛ فإذا رمى إلى غيرها استشار أستاذه البرقانى ، فأشار عليه بالرحلة إلى نيسابور ، وجهزه برسالة إلى الحافظ أبى نعيم ، يقول فى فصل منها ، يصف الخطيب والدرجة التى بلغها فى طلبه الحديث ، ويوصى به قائلا :

« وقد رحل إلى ما عندك عمداً متعمداً أخونا أبو بكر أحمد بن على بن ثابت أيده الله ، وهو بحمد الله ممن له سابقة فى هذا الشأن حسنة ، وقدم ثابتة ، وفهم به حسن ، وقد رحل فيه وفى طلبه ، وحصل له منه مالم يحصل لكثير من أمثاله الطالبين له ؛ وسيظهر لك منه عند الاجتماع من ذلك مع التورع والتحفظ وصحة التحصيل ما يحسن لديك موقعه ، وتجمل عندك منزلته ؛ وأنا أرجو إن صحت منه لديك هذه الصفة أن تلين له جانبك ، وأن تتوفر له ، وتحتمل منه ما عساه أن يورده من تثقيل فى الاستكثار ، أو زيادة فى الاصطبار ؛ فقديماً حمل السلف عن الخلف ما ربما ثقل ، وتوفروا على المستحق منهم بالتخصيص والتقديم والتفضيل ما لم ينله الكل منهم » .

ويسير الخطيب بهذه الرسالة الجليلة الرائعة ، ولما يبلغ الثالثة والعشرين من العمر ، فيدخل الرى وخراسان ونيسابور وأصبهان وهمذان والدينور ، فيحظى بأمنيته ، ولا يعود إلا بعد أن يتلقف علم من يرى .

ها هو ذا فى بغداد سنة ٤١٩ ، يُسمع شيخه البرقانى بعض ما يرويه ، ويذاكره بالأحاديث ، فيكتبها عنه شيخه ويقول فى دروسه : حدثنا أبو بكر ، وهذا حاضر يسمع ؛ فلا جرم أن تلك السنة كانت مطلع المجد فى حياة الخطيب ، وأصبح فيها محدثا يأخذ عنه الأكابر ، ويذكر اسمه فى مجالس التحدث .

صورة بمزاياه وطبعه

ومنذ تلك السنة يبدو الخطيب بشخصيته ، يحافظ على صفاتها ، ويأخذ نفسه بالانطباع على ما عودها عليه ، وألفها بها . فلنحاول تصور أبي بكر بظاهر هيئته ، وكامن طباعه ، ومنطلق ميوله .

وأول ذلك أنه كان في درجة الكمال خلقاً وهيئة ومنظراً ، يشعر من يقترب منه بهيبة ارتسمت على محياه ، ووقار تجسم في حركاته ، وانطبع في سكناته ؛ ومن تأمل لباسه شعر بعنايته به وإتقانه له ، فقد كانت الثياب تستهويه حتى جمع منها عدداً جما كان يتجمل به . وعنايته هذه تنم عن طبعه وحظه من الإتقان ؛ وهي عناية قلما اتصف بها العلماء ، إهمالاً منهم لها ، وانتهاءً كأنها لا لذة بعده ولا فائدة مثله ، ألا وهو العلم . أما الخطيب لحريص على أن يبدو بأحسن هيئة ، وأن يؤثر عنه خير الصور ، حتى إنه كان يجيد خطه ، فيرسم حروفه واضحة ، لا ينقصها حقها من التنقيط ، بل من الشكل والضبط حين يبدو إشكال أو يعرض التباس . وأين هذا من رغبة العالم في سرعة النقل للفراغ من سأمه ، والعناية بما هو أهم منه ! أما الخطيب فيروض نفسه على الإحسان في كل شيء ، وها هو ذا يعتاد على حسن القراءة ، وجودة الإعراب ، فيقوى عليهما دون أن تفوته سرعة القراءة ؛ بل ضرب به المثل في ذلك .

ذلك وصفه في مظاهره يبني بها الإتقان ما استطاع إليه سبيلا . أما طباعه في علاقاته بالناس ، فهو يتجنب الاضطراب ، ويركن إلى السكينة ، ولا تهمه السياسة في شيء ، ولا يتقرب إلى ذوي المناصب بالمديح ، وتأبى عليه نفسه أن يتصل بهم ، إلا من طريق العلم ؛ حتى إذا اتصل بهم حافظ على رزانته ووقاره .

ومن كان هذا شأنه مع ذوي السلطان ، فلا عجب إن كان ذلك أمره مع الدنيا ، فهو لا يقيم لها وزناً ، إلا فيما يصيبه منها من علم وأدب ؛ أما إذا عمدت إلى استدراجه وجعله مطية لأهلها ، فهو يستعصي عليها . وهذا علوي يدخل عليه ذوي كمه دنانير ، فقال فلان — وذكر بعض المحتشمين من أهل صور — يسلم عليك ، ويقول : هذا تصرفه في بعض مهماتك . فقطب وجهه ، وقال : لا حاجة لي فيه ، فقال العلوي : فتصرفه إلى بعض أصحابك ، قال : قل له يصرفه إلى من يريد ؛ فقال : كأنك تستقله ، ونفض كمه على سجادة الخطيب ، وطرح الدنانير فقال : هذه ثلاثمائة دينار . فقام الخطيب محمر الوجه ، وأخذ سجادته ونفض الدنانير وخرج من المسجد . قال الفضل بن أبي ليلى راوي القصة : فما أنسى عز خروجه ، وذل ذلك العلوي ، وهو قاعد يلتقط الدنانير من شقوق الحصير ويجمعها » .

وليس ذلك معنى أنه كان متزهداً متقشفاً . لا ! لقد جمع مقداراً من المال ، ولكنه كان يأبى أن يكون عبداً له ، يضيع كبرياءه به : كان ينظر إلى المال نظر المحتاج إلى ما لا بد منه ، الراغب عنه حين يعرض شرف بذله . قص الخطيب التبريزي اللغوي المشهور قال : كنت أقرأ على الخطيب بحلقته بالجامع كتب الأدب المسموعة له ، وكنت أسكن منارة الجامع ؛ فصعد إلي وقال : أحببت أن أزورك في بيتك ، فتحدثنا ساعة ؛ ثم أخرج ورقة وقال : الهدية مستحبة ، اشتر بهذا أقلاماً ، ونهض ، فإذا هي خمسة دنانير مصرية ؛ ثم إنه صعد مرة أخرى ووضع نحواً من ذلك » .

ألا إن الخطيب يعرف الحياة بصورتها الحقيقية ، فلا يأبه لزخارفها ولا يتعلق بها . قال :

لا تغبطن أخا الدنيا بزخرفها
ولا بلذة وقت عجلت فرحا
فالدهر أسرع شيء في تقلبه
وفعله بين للخلق قد وضحا
كم شارب عسلا فيه منيته
وكم تقلد سيفاً من به ذبحا

ثقافة العرب فى الأندلس

المعروف أن الأندلسيين أخذوا من أهل الشرق ثقافتهم وعلومهم ؛ ولكن هناك فرقاً بين الثقافتين ، فقد اتصل العباسيون بالفرس ومن جاورهم ، وامتد سلطانهم فى بلاد الشرق من أقاصى الصين والهند وتركستان وخوراسان إلى سواحل البحر المتوسط وجزره ، ودخل أهل هذه البلاد فى الإسلام . واستعان خلفاء بنى العباس بالفرس فى إزالة دولة بنى أمية ، فأصبح الأمر والنهى لأبناء الأكاسرة ، وصاروا قادة الفكر وأصحاب الأمر والنهى . وكان منهم العلماء والأدباء والوزراء والشعراء والكتاب ، وجاءوا بتراث آبائهم العقلى والاجتماعى ، فبذروه فى المملكة الإسلامية وفى عقول العرب ومن انتمى إليهم ؛ وساعدوا الخلفاء فى نشر ثقافة اليونان بالعمل على نقل كتبهم الطبية والفلسفية ؛ كما عملوا على نقل علوم بعض الأمم الأخرى إلى لغة العرب . واجتمع فى بغداد العلماء والأدباء من كل أمة وصنف ، وكل مذهب ونحلة ، حتى كانت قاعدة بنى العباس كأنها مدينة دولية ، أو جامعة لجميع الأمم ؛ فانتشرت الثقافة الفارسية واليونانية ، واصطبغت العقول بهذه الصبغة الأجنبية . وكان بجانب هذه الثقافة العلمية ثقافة أخرى عربية إسلامية سبقت تلك الثقافة الأجنبية ، قام بنشرها والعناية بها علماء اللغة والدين من العرب والعجم ، وامتزجت هذه الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية ، فكانت هناك حياة علمية هى خليط من أدب العرب وعلومهم ودينهم وأحكام شريعتهم ؛ وأدب الفرس وعلوم اليونان والسريان وغيرهم .

وقد تولد من هذه الثقافة مذاهب أدبية واجتماعية وسياسية وفلسفية ، حتى سرى ذلك إلى الدين وأصوله ، فأحدث هذا كله فى الحياة العقلية الإسلامية حركة جديدة ونوعا من التخبط والاضطراب فى العقائد والسياسة وقيادة العقول ، وكانت الصبغة الأجنبية أظهر من الصبغة العربية فى كثير من ذلك

أما فى الأندلس فكانت الحال على غير ذلك : فقد فتح العرب بلاد الأندلس وكانوا هم قواد الجيوش وأمراء البلاد وأصحاب الأمر والنهى . وقد أرادوا أن يؤسسوا لهم دولة عربية خالصة من كل شائبة أجنبية ، لينافسوا دولة العرب الفارسية فى بغداد ، وملك بنى العباس الذين دمروا ملك بنى أمية فى ربوع الشام ، ونكلوا بخلفائهم وأبنائهم أشد تنكيل . وكان فى نفوس عرب الأندلس حفيظة من الأجانب الذين أحلوا الروح الفارسى محل الروح العربى فى كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية .

لهذا أراد حكام الأندلس من العرب ، وبخاصة بنو أمية ، أن يكون ملكهم هناك عربياً خالصاً ، وأن تكون ثقافتهم عربية إسلامية ، فتعصبوا لأصلهم العربى ،

فلا عجب إذا هى لم تغره ، ولم تأت على تعففه . يضاف إلى ذلك أنه كان متورعاً ، وكان يختم القرآن كل يوم خلال سفره .

ويكبر أهل العصر مزاياه ، فيقول أبو غالب شجاع الذهلى : إنه لم يدرك مثله ؛ ويقول أبو على الكروانى : ما رأيت مثله ، ولا أظنه رأى مثل نفسه . ويعرف هو هذا ، ولكن التكبر والخيلاء لا يجدان منه منالاً ، فهو متواضع فى نفسه ؛ وهو إذا سأله أحدهم قائلا : أنت الحافظ أبو بكر ؟ أجاب بلهجة التابع ، الذى لا يدع مجالا لنسبة ما نسب إليه ، يقول : انتهى الحفظ إلى الدارقطنى ، أنا أحمد بن على الخطيب .

تلك صورة مجملة ، إن دلتنا على شئ ، فهى إنما تبدى لنا شخصية العالم بميوله ونظره إلى العالم ، وعفة نفسه وسمو روحه . وإذا أردنا إجمال وصفه قلنا مع السمعانى إنه كان فى درجة الكمال والرتبة العليا خلقاً وخلقاً ، وهيئة ومنظراً .

(بقية) يوسف العش

ولغتهم العربية ، وثقافتهم الإسلامية ، وعملوا على تحقيق ذلك ؛ ولم يحفلوا بادئ الأمر بما كان بالبلاد التي فتحوها وملكوها من ثقافة لاتينية أو غيرها ، ولا بنقل شيء منها إلى لغتهم .

وكان الذين يرحلون منهم إلى بلاد الشرق في طلب العلم يأخذون عن علماء الدين واللغة لا غير ، كما كانوا يستقدمون من بغداد وغيرها جماعة من أئمة الفقهاء وأهل الأدب : كأبي على القالي الذي استقدمه عبد الرحمن الناصر لتربية ابنه الحكم وتعليمه ، ولقد ألف القالي لعبد الرحمن هذا كتابه الأمالي ؛ وكأبي الفرج الأصفهاني الذي طلب إليه عبد الرحمن نشر كتابه الأغاني بالأندلس قبل نشره في بغداد ، ووهبه على ذلك مالا عظيما قيل إنه مقدار ألف دينار ؛ وكيحيي بن يحيي الليثي الفقيه الشهير الذي رحل إلى مكة وأخذ الفقه عن الإمام مالك وروى عنه الموطأ .

فإذا كان أهـل الأندلس يجارون المشارقة في العلوم والمعارف ، ويأخذون عنهم كل شيء ، فقد كانت تلك المجاراة مقصورة على علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية بادئ الأمر . لهذا نجبت ثقافة الأندلسيين عربية إسلامية إلى أواخر القرن الرابع الهجري أو نحو ذلك ، فكانت علوم اللغة والشريعة أساسا لثقافتهم كما كانت أساسا لثقافة العالم الإسلامي في كل بلد كان للمسلمين فيه أثر علمي أو عقلي ؛ وكان ذلك أشبه بالثقافة اللاتينية المنتشرة الآن في بلاد فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وبعض حكومات أمريكا الجنوبية التي سكانها من أصل لاتيني ، بل وفي بلاد الروسيا وأمم الصقالبة لاحتكاكهم بالفرنسيين وأخذهم عنهم الآداب والفنون . كذلك كان العالم الإسلامي متأثرا بعلوم اللغة العربية وعلوم الدين ، فظهر ذلك في الحياة العقلية والقومية للأمم التي دخلت الإسلام ، كالفرس والترك وأمم البربر ، وأصبحت عقولهم وأخيلتهم عربية ، وأساليب التفكير لديهم عربية إسلامية . وهذه أمة الفرس لم تظهر سطوتها الأدبية إلا بعد أن أسلم الفرس وتأدبوا بلغة العرب ، وعطروا عقولهم الآرية بعبير التفكير السامي والثقافة العربيـة . فإن الشاهنامة التي هي أعظم أثر أدبي في لغة الفرس – على ما نعلم – نظمت في القرن الرابع الهجري ، نظمها أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ، وأتمها أبو القاسم المنصور الفردوسي المتوفى سنة ٤١١ هـ .

فالثقافة العربية الدينية كانت أساسا للتفكير الإسلامي في بلاد الأندلس إلى القرن الرابع كما قلنا . ولكن عرب الأندلس رغم ذلك كانوا كجميع الأمم الناهضة تتطلع إلى معرفة الحياة العقلية والعلمية للأمم الأخرى ، حتى تجاريهم في ذلك أو تفوقهم إذا كان لابد من هذا ؛ فرغم تمسكهم وتشيعهم بالثقافة العربية الإسلامية الخالصة وتعصبهم لها كان من بينهم جماعة من علماء الطب النابغين وعلماء الرياضـة والفلك ، الذين ذاع أمرهم في جميع الأصقاع وانتشرت مؤلفاتهم في كل بلد ، وكانوا مع ذلك شعراء وكتابا وعلماء في اللغة والأدب والفقه والشريعة ، لم يغفلوا ثقافتهم اللغوية والشرعية ، نذكر منهم الحفيد محمد بن أبي مروان بن زهر الطبيب (كان حافظا للقرآن ، وسمع الحديث واشتغل بعلم الأدب والعربية ، ولم يكن في زمانه أعلم منه بمعرفة اللغة . ويوصف بأنه أكمل صناعة الطب والأدب ، وعانى عمل الشعر وأجاد فيه ، وله موشحات مشهورة يغني بها ، وهي من أجود ما قيل في ذلك ، وكان ملازما للأمور الشرعية ... ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب)[1] .

وكان أبو بكر محمد بن يحيي بن الصائغ المعروف بابن باجة أستاذ ابن رشد (في العلوم الحكمية علامة وقته وواحد زمانه ... وكان متميزا في العربية والأدب حافظا للقرآن ، وكان مع ذلك بارعا في علوم الموسيقى ، وله كتاب في هذا الفن ، قالوا عنه إنه في الغرب بمنزلة أبي بكر الفارابي في

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعه جـ ٢ ص ٦٨ .

الشرق . وإليه تنسب الألحان المطربة فى الأندلس التى عليها الاعتماد)[1] .

أما الفلسفة واشتغالهم بها فقد كانوا فى أول أمرهم هناك أقل عناية بها من أهل الشرق ، لأنهم كما روى المؤرخون لم يكونوا من أهل الجدل الديني ، إذ كان جمهورهم من أهل السنة ، كما ذكر ابن حزم فقال : (أما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقل لذلك معرفتهم فى هذا الباب ، فهى على كل حال غير غريبة عنهم) . ومع هذا لم تخل مكاتبهم من كتب الفلسفة ، ولا جهل علماؤهم دراستها ، ولا سيما فى القرن الرابع ، منذ عنى الحكم ابن الناصر بجمع الكتب واقتناء النفيس منها ؛ كما قال ابن أبي أصيبعة .. « فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمن الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالمشرق ونقل من كتب الأوائل وغيرها فنضر الله وجهه »[2] .

وقد قال رينان الفيلسوف الفرنسي فى كتابه عن ابن رشد ما معناه : لقد شعر العرب زمن الحكم بن عبد الرحمن وقبله بقليل بالحاجة إلى تحرير فكرهم من الأفكار القديمة ؛ وربما كان ذلك ناشئاً من اتصالهم باليهود أو المسلمين فى الأندلس ، أو من تأثير البيئة الجديدة التى كانوا يعيشون فيها ، وساعدهم الحكم على ذلك بما نشره من الكتب التى جمعها فى مكتبته المشتملة على كثير من الفنون الأدبية وأنواعها ، حتى كانت آدابهم هناك أروع الآداب فى القرون الوسطى . وقد ساعد على ذلك هذا التسامح الديني الذى ذاع فى تلك الأصقاع الممتازة ؛ فكان المسلم والمسيحى واليهودى كل منهم يتكلم لغة واحدة ، ويتغنى بشعر واحد ، ويدرس علوما واحدة ، فزالت جميع العقبات التى كانت تفصل بعض تلك الأمم عن بعض ؛ بل كانت كل هذه تتكاتف على نشر هذه الثقافة . وكان يجتمع بمسجد قرطبة ، مركز العلوم والفنون إذ ذاك ، آلاف من الطلاب يدرسون كل ضروب العلم والأدب » .

وقد كان الحكم نفسه ميالا إلى الاشتغال بالعلوم والقراءة والدرس وكثرة المطالعة ، وكانت له تعليقات وشروح على هوامش الكتب فى مكتبته يكتبها بخطه ، وقد عنى بها عناية عظيمة ، كما هو معروف بجمع تلك الكتب فى مكتبته الشهيرة . وقد قالوا إن الحكم هذا كان من أكبر الوسائل فى هدم ميول المقلدين وأصحاب الجمود ، ولم يظهر أثر ذلك فى اسبانيا وحدها ، بل ظهر فى أوربا المسيحية ، كما قال الفيلسوف رينان ؛ فكان لهذا أثر عظيم فى تاريخ الحضارة الأوربية .

ولكن هذه الحركة العلمية لم تلبث أكثر من قرنين حينما استولى البرابرة على بلاد الأندلس فى أوائل القرن السادس .

على أن دراسة الفلسفة كان لها أعداء كثيرون ، كانوا يعملون على هدمها لما كان فى نفوسهم من جهل أو تعصب ؛ قال ابن أبي أصيبعة فى ترجمة أبي بكر محمد بن الصائغ (توفى سنة ٥٣٣) « وإنما انتهى النظر فى هذه العلوم بهذا الحبر ومالك بن وهب الاشبيلي . فإنهما كانا متعاصرين ، غير أن مالكا لم يفد عنه إلا القليل النزر ، وأضرب الرجل النظر ظاهرا فى هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات فى دمه بسببها » . ج ٢ ص ٦٣ .

وكان أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى المهندس الرياضى أول من جلب معه من الشرق رسائل إخوان الصفاء (توفى بسرقسطه سنة ٤٥٨) . وأكثر الأطباء والمنجمين فى الأندلس كانوا فلاسفة ، ولكن تعصب بعض الأمراء ، وعامة العلماء على الفلسفة والفلاسفة جعل المشتغلين بهذا العلم يخفون اشتغالهم تجنبا لما عسى أن يلحق بهم من الأذى ، حتى لقد كان كبار الفلاسفة يتنكرون

(١) نفح الطيب ج٢ ص ١٣٧ وطبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٨ .
(٢) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٨ .

مؤلفاتهم . قالوا : « وأما كتب الفلسفة فإنها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي . وله تصانيف جمعها لما رأى انحراف المنصور بن عبد المؤمن عن هـذا العلم وسجنه بسببها ؛ وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور على هـذا العلم بأشبيلية ، وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره فلذلك تخفى تصانيفه » نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٢ .

« وبلغ من كراهية المنصور لهذا العلم أنه أمر أن تجمع كتب الفلسفة من المكاتب وأن تحرق ، وأنه قصد ألا يترك شيئا من كتب المنطق والحكمة باقيا في بلاده ، وأباد كثيرا منها بإحراقها بالنار ، وشدد في ألا يبقى أحد يشتغل بشيء منها ، وأنه إذا وجد أحد ينظر بهذا العلم أو وجد شيء من الكتب المصنفة فيه فإنه يلحقه ضرر عظيم » طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٩ .

على أن بعض الأمراء في ذلك الزمن كان له ميل عظيم للعلم والفلسفة ، كأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) الذي اشتهر بحبه للعلم والاشتغال به ، وبجمع الكتب . وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير حتى قال عنه ابن رشد : إنه هو الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطاطاليس .

من هنا يمكن معرفة الفرق بين ميول المسلمين العلمية والعقلية في الأندلس وفي بلاد الشرق ، وبين نوع التفكير هنا وهناك ، ويمكن التمييز بين الثقافتين وأيهما أقرب إلى حرية الفكر ونضجه ؛ ولا سيما إذا وازنا بين خلفاء بني العباس في بغداد وملوك الأندلس من المسلمين ، إذاً لعلمنا بأن الاشتغال بالعلوم العربية والدينية في بلاد الأندلس كانت وجهة جمهرة العلماء والمثقفين هناك ، وأن الاشتغال بالفلسفة كان من صفات خواص المفكرين ، وأن أثر الفلسفة لم يظهر في الأدب الأندلسي ظهوره في أدب أهل الشرق .

أحمد ضيف



النســـــيان وأهميته

فى الحياة النفسية

إذا طلبنا من شخص أن يذكر لنا عشرة أسماء بعد بضع دقائق من سماعها فإنه يذكر البعض من هذه الأسماء ويضيع منه البعض الآخر — ولكنه من النادر أن يأتى بما يذكره فى الترتيب الأصلى — وبعد ساعة نشاهد أن عدداً من الأسماء ينقص ، وأن الترتيب المتذكر يبعد شيئاً فشيئاً عن الترتيب الأصلى ، وفى هذه الحال نشاهد أن التردد يطول ، ويبدأ المجرَّب عليه يبذل مجهودا للتذكر ؛ وإذا سألناه بعد بضعة أيام فإنا نصل إلى النسيان العميق لمعظم الكلمات ، ولن يذكر إلا القليل . فنستخرج من هـذه التجربة أولا أن للزمان دخلا كبيرا فى إحداث النسيان ، ونشاهد أيضا أن الكلمات المنسية أو المتأخرة فى التذكر هى التى لا توحى للشخص بأى عاطفة ، ولا أى فكرة مهمة ، وأن الكلمات التى تلفت نظره هى التى ترسخ وتثبت وتقاوم الزمان . ولا بد من أن نراعى أيضاً حالة الشخص وقت التجربة ، فنشاهد غالبا أنه لا يذكر شيئا إذا أجريت عليه التجربة فى وقت انفعال أو أثناء شرود الذهن وضعف الانتباه ، ولكن هذا لا يحدث النسيان ، وإنما يمنع الاحتفاظ والتسجيل — ومن العبث أن نطالب الذاكرة بما لم تسجله ؛ فلا نستطيع بعد ذلك أن نتكلم عن النسيان ، كما أننا لا نرانا فقدنا شيئا لم نملكه من قبل .

غير أنا لا ننكر أن الإنسان يتذكر أشياء بسهولة وأخرى بصعوبة ، مع أنا عرفناها فى نفس الوقت ؛ فذلك راجع بدون شك إلى أن ما يتصل بالإنسان ويثير فيه عاطفة ، أو أنه يصادف قبولا فى ذهنه ، فإنه يثبت . فأغلب الأشعار والحكم التى تحفظ لأول مرة هى التى تكون فى الغالب مميزة عن عواطف أو أفكار تلائم الشخص ، لأنها عبرت عما كان يشغل ذهنه أو قلبه من أفكار وعواطف ، وهـذا مما يجعلنا نشك فى رأى « دولا كروا » De La croix القائل : « إن الفكر يفقد الذكريات عن الطريقة التى اتبعها فى الحصول عليها »(١)

فلا بأس من أن فقدان الذاكرة يتبع طريقة معينة ، وذلك لأنه مصحوب بتغير فى المراكز ؛ لكن النسيان الذى يرجع إلى عامل الزمان وتابع للحالات النفسية خاصة ، ولا يرجع إلى شىء من الجسم والمراكز حسب هذا الفهم للنسيان ، فهو فى الغالب لا يخضع إلى أى نظام معين ؛ فكل الذى نقوله هو أنه يسير من الخفة إلى العمق ماراً بالتردد . ويخيل إلينا حسب هذا الفهم أن الزمان عامل كبير فى النسيان ، وكذلك التعلق بالكلمات وما تثيره مدلولاتها فى النفس .

وهكذا يمكننا أن نشرح النسيان مستقلا عن الشعور ، ولكنا فى هذه الحال نعطى أهمية كبرى للعامل الزمانى الذى يعوق الذاكرة عن الاسترجاع والتحديد . وهـذه الطريقة فى فهم النسيان لا تعطى للجسم أى دخل فى عملية النسيان ، بل لا يدخل إلا فهمنا السابق للذاكرة وتأثير الزمان على وظائفها ، خصوصا الاسترجاع والتحديد . وهذا الفهم للنسيان لا يحاول أن يبين لنا أهمية النسيان فى الحياة النفسية ، كما حاول ذلك المذهب الثانى الذى أقام فهم النسيان على أساس حياة الشعور .

وبهذا نستطيع أن نفرق مبدئيا بين نوعين من النسيان : نسيان كما فهمناه إلى الآن ، وهو الذى أحدثه الزمان غير صحيح كما اعتقده De La croix(٢) فى كلامه عن النسيان : « يجب أن نعتبر الزمن » . وأما التجارب التى تؤكد تعمق النسيان مع مرور الزمان ، فإنها تنقل عن نقطة مهمة وهى الحالات الشعورية الجديدة التى تمر

(1) Georges Dumas: N. T. de Psychologie. p 354 T.V
(2) G. Dumas T.V P. 351.

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ... ... "

الأمومة الصغيرة ! — بلاد ! ...

الأمومة الصغيرة !

... وأسفر الصبح ، فهممت أن أزايل مجلسي على حافة السرير ، وألقيتُ نظرةً على الصغيرة الراقدة ثم تسحّبتُ لا أكاد أحدث صوتاً ولا حركة ؛ وأحسّت الفتاةُ خلاءَ موضعي ففتحتْ عينيها وهتفتْ : إلى أين يا أبت ؟ ...

وتلبّثتُ هنيهة لا أجيب ، فقد كنتُ أحسبها نائمة حين اخترتُ لها ولي أن أتركها ساعةً أو ساعات لتستريح بعد ليلة طويلة ساهرة ، وأذهبَ لبعض شأني ؛ ولكن الصغيرة لم تكن نائمة ، وإنما أغمضتْ عينيها لحظةً من إعياء السهر والحمّى !

. . . وعدتُ إلى حيث كنت ، أعانيها وأبسم لها وأمسح بكفي على رأسها ويديها ، وثابتْ نفسُها إلى السكون والرضا فلم تعاود سؤالها !

ودق جرس الساعة دقاته السبع ، ودخلت الخادمُ تحمل إليها جرعة الدواء ؛ ونهضتُ ثانيةً ، وتعلّقتْ نظرتُها بي لحظةً ثم كفّتْ ، فكأنما همّتْ أن تسألني ثانيةً : إلى أين ؟ ولكنها كانت تدري ، فقد سمعتْ دقات الساعة !

وخرجتُ غدوّاً إلى ميعادي ... ثم عدتُ ، وكانت تنتظرني في فراشها ، ومدتْ إليّ عينيها متشوّقة وعلى شفتيها ابتسامة ، وسألتْ : أين كنتَ ؟ وكانت أيضاً تدري !

ومدت يدها إلى جيبي كعادتها في كل معاد ، وخرجتْ يدُها فارغةً إلا من تذكرة الترام ، ولم تغضب ، ولم تعتب ؛ فلعلها كانت تعرف أنه لم يكن لي في مثل هذا اليوم أن أقف على دكاكين الباعة وإن بي شوقاً إلى أن أراها فوجدتْ لي معذرة !

وأسندتْ رأسها إلى راحتي ونامتْ ، وترددتْ أنفاسها هادئةً كنسمات الفجر فأغفيتُ إلى جانبها وأنا في ثياب العمل ؛ وصحوت ، فإذا راحتها الصغيرة تسند رأسي وعيناها تنظران إليّ في مثل حنان الأم ومحبة الزوج ، وابتسمتُ لها فابتسمتْ ، ثم قالت : يا أبت ... ! وسكتتْ لحظة ؛ قلت : ماذا يا ابنتي ؟ ... قالت : لم تسأل عن أخويّ ؛ إن « أحمد » لم يرضع اليوم ، و « نانا » قد خالفت الخادمَ إلى الحديقة والبردُ قارس !

وأذكرتني الطفلةُ الصغيرة ما نسيتُ من واجب الأب ، فنهضتُ إلى الغرفة الثانية لأشهد عراك الرضيع وأخته ، ثم عدتُ وأنا أحمل على ذراعي وأقود في يدي !

لله أنتِ أيتها الطفلة الراقدة في فراش الضنى ، إنكِ الأمومة الصغيرة لهذين الطفلين وقد فقدا الأم ، وإن فيك العزاءَ لهذا الشاب المكتهل قبل الكهولة ، فعيشي لنا ، عيشي لأخويك وأبيك !

بالشخص ، والتي لا يمكن التخلي عنها ولا إيقافها ، لأن الإنسان يشعر دائماً ؛ وعبر عن ذلك ديكارت بقوله : « الإنسان يفكر دائماً » . وإذا استطعنا أن نمنع عن شخص تجدد الحالات الشعورية الجديدة ، فلا شك أنه لا ينسى ما عرفه ، ولكن يفقد الشعور بالزمان والشعور بالوجود معاً ، وهذا ما لا يمكن الحصول عليه حتى في حالة النوم ، فالحالات الشعورية تمر بدون انقطاع ، والإنسان ينسى دائماً ...

(يتبع) أبو مدين الشافعي

بلاء !

احتجبت مجلة « الرسالة » عن نصف قرائها منذ أسبوعين ، فلم ينادِ بها الباعةُ في الميادين ، وكان لهم في النداء بها صباح الاثنين من كل أسبوع جرْسٌ ونغم !

وسألتُ بائعَ صحفٍ فلم يجبني ، وافتقدتها في أيدي مَن أعرف من قرائها فلم أعثر بها ، وأحسستُ ألمَ الحرمان من لذة عقلية لم أفقد نشوتها منذ عشر سنين !

أين الرسالة ؟ وأين الزيات ، والعقاد ، وزكي مبارك ؟ وأين فلانٌ وفلانٌ من قادة الرأي وأصحاب الفكر والبيان ؟ ... لشد ما يؤلمني أن يغيب أولئك عني في يوم طمعتُ أن أطالعهم فيه !

وعثرتُ بالرسالة اتفاقاً في يد صديق ، ومددتُ إليها يدي غير مستأذن ، وقرأت :

« هذا العدد لا يقع إلا في أيدي المشتركين ، أما سائر القراء والمتعهدين في مصر وفي غير مصر فعذرنا لحضراتهم أننا لم نجد في وزارة التموين ولا في السوق ورقاً للرسالة بأي وسيلة ، وقد وعدتنا الوزارة أن هذا العسر لن يطول ، ... والله وحده المسئول أن يرفع عن الصحافة والأدب هذا البلاء ! »

وا أسفا ! أمِن أجل ذلك ؟ أتحتجب في مصر بعد عشر سنين مجلةٌ كانت مشكاةَ الفن الرفيع وسجل الأدب الحديث وديوان العرب المشترك — لأنها لا تجد في سوق الشعب ولا في سوق الحكومة كفايتها من الورق ؟

يا للبلاء أن تعيش بيننا عشرات من المجلات الهازلة فلو شاء أصحابها أن يطبعوها على « ورق البنك » لفعلوا وتحتجب الرسالة لأنها لا تجد « ورق الطبع » !

ومصر زعيمة الشرق العربي وراعيةُ آدابه ومدرسة طلابه — كما يزعم مَن زعم — فهل ينهض بحجتها في الزعامة ورعاية الأدب وأستاذية العلم أن تحتجب فيها مجلة هي إحدى اثنتين ليس لهما ثالثة في السفارة الأدبية بين مصرَ والشرق العربي ؟

لو لم يكن في مصر مجلات غير الرسالة وأختها لقلنا بلاءٌ مقدور ؛ ولكن البلية التي ليس فيها عزاء أن المطبعة المصرية ما تزال تقذفنا كل يوم بالرذل والساقط والداعر من المجلات السوقية ، لم ينقص لها عدد ولم يحتجب منها ما كانت فضيلته أن يحتجب !

بِمَ ذاك ؟ أمِن أن مصر زعيمة الشرق العربي وراعية آدابه ومدرسة طلابه ، أم مِن أن الحوادث العامة تريد أن تبرهن أن مصر — حكومةً وشعباً — لا تكاد تعترف للأدب الرفيع بحق من الرعاية ؟

لو أن مدرسة ابتدائية تضم مائة تلميذ أوشكت أن تُغلق لضيق إيرادها لأمدَّتها وزارة المعارف بالمال والمعلمين ، وبالكتب والأدوات ، لتُعينها على البقاء ؛ فهذه جامعةٌ عظمى تخرَّج فيها عشرات الألوف من أبناء الشرق العربي وما تزال ذات قدرة على التخريج ونشر الحكمة والآداب ، فكيف تُترك لتنهار ؟

وزعم أن وزارة التموين لا تملك أن تمدَّها بالورق لتعيش ، فكيف لم تقاسمها المجلاتُ التي تطبع عشرات الآلاف ما تختزن من الورق إن كانت هذه المجلات تؤمن بالفن والأدب الرفيع ؟

وزعم أن « منافسة أهل الحرفة » غلَبتْ جانبَ الأثرة عند هؤلاء « الزملاء » ، فكيف يسمح الشعبُ الطامح إلى الزعامة في الأدب والأستاذية في العلم ... ؟

وزعم أنه لا الشعب ، ولا وزارة التموين ، ولا الزملاء من أهل الحرفة — يملكون « ما يحفظ الرمق » من الورق ، فكيف يغيب عن فطنة حكومة الشعب ما يكون من أثر ذلك في ذاتية الشعب وفي قيمته الأدبية فلا تدبر له الوسائل ولا تُعد العدة ؟

قصـــــة مرعبة

للشاعر الانجليزي توماس هود

١٧٩٩ – ١٨٤٥

حدثني صديق مهنته الصعود في المناطيد لقاء مايجمعه من النظارة من أجر . قال :

— إن أعجب ما حدث لي هو أنني اتفقت ذات يوم مع رجل اسمه « ماڤور » ليصعد معي في المنطاد من حديقة « ڤو كسهول » لقاء أجر معلوم ، فلما حان الموعد أقعد الخوفُ الرجل حتى أيقنت أنه لن يحضر ، وتملل المتفرجون ونفد صبرهم ، فعزمت على أن أرتقي المنطاد وحدي . وفيما أنا أهم بقطع آخر حبلٍ يصلني بالأرض ، إذ دافع رجل من النظارة من حوله من الناس وزعم صوتي ، ثم عرض أن يصعد معي ليساعدني بدل « ماڤور » ، وأصرّ الرجل على قوله وألح ، فلم أر بداً من أخذه معي بعد أن أخذت عليه عهداً بأن يمتثل لأمري في كل ما أطلبه منه . فقبل وقفز بنشاط وسرعة إلى السلة معي .

ارتقى المنطاد وعلا قمم الشجر ، ونظرت إلى رفيقي فإذا به هادئ ساكن مطمئن النفس ، على غير ما كنت أرتقب من إنسان يصعد في الهواء لأول مرة . والحقيقة أني كنت أوقن أن صعود المنطاد الفجائي ، وصياح المتفرجين وتصفيقهم وتهليلهم ، ثم مخاطر الرحلة الحقيقي منها والوهمي ، كنت أوقن أن كل هذا يؤثر بعض الأثر في أعصاب رجل حديث الخبرة بالهواء . ولكن الرجل جلس رابط الجأش ، كما لو كان في مقعد في إحدى غرف منزله . فسألته مراراً إن كانت قد سبقت له خبرة بالطيران ، فأنكر وأقسم إن هذه كانت أول مرة طار فيها .

ومن غريب أمره أنني كنت كلما رميت بأثقال المنطاد ليعلو به في السماء زاد فرحه وابتهاجه ، بل إنه كان

ألا إن الخـطب ليس خطب الرسالة ، ولا خطب قراء الرسالة في مصر والشرق العربي ، ولكنه خطر يُطل بقرنه من وراء الغد ؛ فإذا كانت الرسالة قد احتجبت عن قرائها اليوم فإن مجلات وصحفاً أخرى تقاوم في يأس وإنها لتوشك أن تتبعها ، وإن « المطبعة المصرية » لتوشك أن تفقد مكانها من « أسواق الشرق » . وإن الكتاب والمؤلفين في مصر ليوشكون أن يحطموا أقلامهم وإن منهم لمَن لا يجد عيشه إلا من الكتابة والتأليف !

فلتنظر الحكومة في هذا الشأن من ناحية أثره في « الاقتصاد القومي » إن لم يطب لها أن تنظر إليه من ناحية أثره في « سمعة مصر العلمية » !

أوْ لا فلتنظر إليه من ناحية الأثر السياسي ، وليس يغيب من فطنة ساستنا وإنهم لن الشعب مقدار ما يتأثر الرأي العام من صمت الصحافة في هذه الأحداث العالمية المتجددة كل يوم ؛ ماذا يكون لو غدا الناس ذات صباح أو راحوا ذات مساء فلم يجدوا صحيفةً يقرءونها ويطالعون فيها الجديد من أنباء العالم ؟ إنهم ليستمعون يومئذٍ إلى كل إرجافة ، ويصدقون كل إشاعة ، ويتزيّدون في كل خبر ، ويبالغون في كل رواية ؛ فلا « الرقيب العام » ، ولا رجال الأمن العام ، ولا شيء يحدُّ من سلطة هذه « الصحافة الشفوية » التي تتردد بين المجالس ، وتنتقل من سامر لسامر !

ألا ليتني أبلغ مسمعاً فإني لأتوجس شرا ... !

لقد يسَّرت الحكومةُ الخبز على طالبيه ، فهل حسبتْ سطوة الجوع أبلغ أثراً في الشعب من ذلك ؟

ألا إن الحكومة لتستطيع ، وإنها تملك أسباباً كثيرة ؛ فاملها أن تعالج مشكلة الورق بما عالجتْ مشكلة الرغيف ، بل بما عالجتْ مشكلة السماد ! !

«قاف»

يشجعني أحياناً على التخلص من الأثقال قبل أن يحين الوقت لرميها .

وحملتنا الريح شمالا بشرق ، وكان اليوم مشرقاً صافياً ، فنظرنا إلى الأرض نتبع أنظارنا بجاهلها من الهواء ، وأخذت أبين لرفيق ما علا المنطاد فوقه من أحياء العاصمة وضواحيها .

واستمع رفيق لحديثي بلذة وهدوء ، فشرحت له مجرى سير المنطاد وكيف أن الريح تدفعنا في اتجاه «هو كستون» فما إن ذكرت اسم ذلك الحي ، حتى بدت على وجهه علامات القلق والانزعاج ، فسكت شارد الفكر برهة ثم سألني في لهفة قائلا :

— أمن التيسر أن يرانا الناس من الأرض ونحن على هذا الارتفاع ؟

وأكدت له استحالة ذلك ، ولكنه تمادى في قلقه وانزعاجه ، وردد السؤال لنفسه ، وأجاب عليه بصوت خافت !

— أجل ، إنهم لايروننا ! أرجو كل الرجاء أن أحداً لايراني ؟

ثم أخذ يرجوني بين كل جملة وجملة أن ألقي بما تبقى في المنطاد من أثقال .

وبدا لي عندئذ أن رغبته في اصطحابي كانت نزوة عارضة ندم عليها ، وأنه كان يخاف أن أحداً من أفراد أسرته قد يعلم برحلته ؛ واستنتجت أن أهله لابد مقيمون في هوكستون . فسألته عن ذلك وأقرني على سؤالي ، ثم توسل إلى توسلا بلغ حدة العنف ، ملحًّا أن ألقي بما تبقى في المنطاد من أكياس الرمل .

وأبنت له تعذر إجابة مطلبه ، وأبديت أننا بلغنا علواً لانؤمن بعده مغبة الارتفاع ؛ ثم ذكرت أن الريح تيمم بنا إلى البحر . ولكن رفيق أصم أذنه ، وتجاهل حديثي وتفسيري ، بل وأصر على أن نعلو بالمنطاد فوق ماعلونا . فلما أبيت أن ألقي بالأثقال الباقية وقف الرجل وسط السلة وخلع سترته وقميصه ، وحل عقدة رباط رقبته وألقي بذلك كله في الهواء مهللا :

— هورا ... هورا ، لقد خف بنا الثقل ، إنها تعلو فلا بد من المزيد !

ثم إنه ألقي بقبعته بعد ذلك ، وجلس يفك رباط حذائه .

وصرخت به مؤنبا :

— إنك تهذي أيها الأحمق ، فإن إنساناً على الأرض لا يمكن أن يرانا حتى ولا خلال مجهر .

وأجاب هو :

— إنك تخدع نفسك بهذه الترهات ، إن لمراقبي مايلز حدة عيون البواشق .

قلت في ذهول :

— مراقبي ماذا ؟ .

قال :

— مراقبي مستشفى المجاذيب في مايلز ، ألا تعرفها ؟

ووضح اللغز الرعب في ذهني ، وأدركت أنني معلق في سلة تبعد عن الأرض فوق الميل مع رجل مجنون !! واستولى الرعب على حواسي زمناً سلبني فيه كل فكر وإرادة ، وزادت من هول الموقف صور مخيفة مرت بعد ذلك بخيالي ، فتصورت ما يمكن أن يحدث كنتيجة لنزوات رجل فاقد الرشد ، وتصورت عراكا داميا بيننا يهوي بنا من السلة إلى موت محقق . وبين هذه الصور المرعبة كنت استمع لرفيق المجنون وهو يصيح :—

— إلى أعلى .. إلى أعلى ! لابد من المزيد .

وكنت أراه وهو يخلع ملابسه ويلقي بها في الهواء

حتى لم يبق عليه منها شيء .

وألهمني الله الصمت فجلست مرتعد الفرائص خشية أن تبدو مني كلمة أو إشارة لا تحمد عقباها ، فسمعته في صمتي يقول :

— مازال أمامنا عشرة آلاف ميل نقطعها .

رأيت جسده العاري ووجهه المزبد يتجه نحوي وهو يتمتم لنفسه :

— إنها لا تعلو فلابد من المزيد ! لا بد أن يلقى أحدنا بالآخر إلى الأرض .

والحق أنه لو أنني كنت وقعت بين قوم من الهمج ، أو بين وحوش في غابة منعزلة عن بني آدم ، لما كنت أشعر بما شعرت به عندئذ من رعب ؛ فقد رأيت المتوه يهرول في السلة ملقيا إلى الأرض بأكياس الرمل ، وبكل ما له ثقل ذات اليمين وذات الشمال . وارتفع بنا المنطاد إلى علو مخيف شاهق ما كنت أتصوره ، دع عنك تحققه .

وضؤلت الأرض تحتي ، واخترق بنا المنطاد السحب فعلوناها ، واختفت الأرض عن أعيننا فأيقنت أن صلتنا بالأرض قد انقطعت إلى الأبد .

ورغم كل هذا فقد عاد المتوه يتململ ويحث السلة على الصعود . ثم إنه نظر إليّ فجأة وقال :

— ألك زوج وأولاد ؟

فدفعتني سليقة حب الحياة إلى الكذب ، وأجبته إني متزوج ، وإنه تعالى رزقني من فضله أربعة عشر طفلا صغارا لا عائل لهم في الدنيا سواي .

فأجاب المتوه بنظرة وضحكة شيطانيتين جمد لهما الدم في عروق ، ثم زمجر :

— أما أنا فعندي ثلثمائة زوجة ، وخمسة آلاف طفل لولا حظ الثقيل لكنت ألعب بينهم الآن في منزلي !

والشفق الغريزي في أن أطيل حياتي سألته :

— وأين تقطن أسرتك ؟

فأجاب المتوه :

— في القمر ، وبمشيئة الله سوف ألحقهم بمجرد أن أتخلص من وزنك الثقيل .

ولم أسمع بعد ذلك ولم أر شيئا ، ولكنني شعرت بأظافره منشبة في عنق .

م . م

محكمة أتحون الجزئية الأهلية

اعلان بيع في القضية رقم ٢١٦٤ سنة ١٩٣٥

إنه في يوم الأحد ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٣ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بسراي المحكمة .

سيباع هذا الأطيان الآتي بيانها المملوكة إلى ورثة المرحوم أحمد محمد عطوط وهم إبراهيم سليمان قابيل بصفته وصيا المخصومة على القصر زكي وجابر وسعيد أولاد المرحوم أحمد محمد عطوط من سافية المتقدي والمحكوم بنزع ملكية هذا العقار في وجه الورثة المذكورين من هذه المحكمة بتاريخ أول يونيه سنة ١٩٣٦ وسجل هذا الحكم بمحكمة شبين الكوم الأهلية بتاريخ ١٩٣٦/٦/٩ رقم ٢٥٨ جزء ثاني وفاء لمبلغ ٢١ج و٦٠٠م بثمن أساسي قدره ١٠٠ ج مصرى .

وهذا بيان العقار

٢٢ ط مشاعا في ١س ١ط ٤ف بزمام بيواش منكر متوف بحوض شاكر رقم ١٧ قطعة رقم ٤ البحري مسقة خصوصية ماصلة وشاكر باشا والشرقي مسقة خصوصية ماصلة والسيد محمد الدلف والقبلي عبد الرحمن عطوط والغربي طريق خصوصي ماصلة .

١٧ س ٢٠ ط أطيان بزمام سافية المتقدي بحوض الدماسة رقم ٣ قطعة رقم ٤٢ البحري محمد محمد عطوط والشرقي طريق خصوصي ماصلة والقبلي إمام محمد عطوط والغربي مسقة خصوصية ماصلة .

١٣ س ٣ ط بزمام الناحية بحوض الربيعة الوسطانية رقم ٤ قطعة رقم ٥٢ البحري عبد الرحمن عطوط والشرقي ميخائيل عبد الملك والقبلي مبروكة محمد عطوط والغربي الموقة جسر نهر النيل فرع رشيد .

٦ س ٢ ط بزمام الناحية بحوض الربيعة الوسطانية رقم ٤ قطعة رقم ٥٤ البحري مبروكة محمد عطوط والشرقي وقف محمد عطوط والقبلي إمام محمد عطوط والغربي الموقة جسر نهر النيل فرع رشيد .

١٥ط بزمام الناحية بحوض الغربية رقم ١٣ قطعة رقم ١٥٦ البحري حضرة محمد عطوط والشرقي ترعة مصرف عموى والقبلي ورثة عليوه والغربي محمد شحاته نافع .

وهذا البيع كطلب الست لبيبه حسن أبو حسين من سافية المتقدي مركز أتحون ومحلها المختار مكتب حضرة الأستاذ إبراهيم نجم الدين الطاهر .

وجميع الأوراق مودعة بدوسيه الدعوى لمن يريد الاطلاع عليها ، فعلى راغب الشراء الحضور .

كاتب البيوع

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٣٩٩٢ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٢١٦ — الثلاثاء ١١ من صفر سنة ١٣٦٢ — ١٦ من فبراير سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

أثر الفرد في الحيـــاة الاجتماعية

استعرضنا في الأحاديث السابقة تطور الحياة الاجتماعية ، وأهم الظواهر البارزة فيها ، وأتينا على الفارقات الشاسعة بين طبقات الشعب وما تعرض له الأغلبية الساحقة من السكان ، وهم جمهور ، الزراع ، والمشتغلون بالصناعة والتجارة ، المتعطلون منهم أو العمال سواء من الناحية المادية أو من الناحية العقلية ، وسواء إذا مارسوا أعمالهم أو إذا ما اضطرتهم ظروف الحياة إلى البطالة .

وقد خلص لنا أن هناك وسائل كثيرة تتعدد بتعدد نواحي الحياة الاجتماعية تساعد على تحسينها ورفع شأنها .

وفي مقدمة هذه الوسائل ما تبذله الحكومة ، سواء بالعمل على استحداث نظم جديدة ، أو وضع تشريعات اجتماعية .

ولكن هناك وسائل فعالة أبعد أثراً وأعم نفعاً وهي المحاولات التي يقوم بها أفراد الشعب في سبيل الإصلاح الاجتماعي .

لأن الحياة الاجتماعية للأفراد هي في تدرجها الحياة الفردية للفرد ، ثم الحياة العائلية للأسرة ، ثم الحياة الطائفية لأي جماعة من الجماعات ، أو هيئة من الهيئات ، وأخيراً تتألف من كل هذا ، الحياة الاجتماعية العامة لجميع أفراد الشعب .

فإذا جاز لنا أن نصور جهود الدولة ، وجهود الأفراد إزاء الحياة الاجتماعية فلنتصور أن مجموع هذه الجهود تكوّن شكلاً هرمياً مثلث الأضلاع قاعدته

الأعمال التي يقوم بهـا الأفراد ، ويقوم بها المواطنون جميعاً ، وفي نهايته الأعمال التي تؤديها الدولة ، إذ أنها تتوج سائر الجهود .

ولا نعني في هـذا المقام مايبذله الأفراد وينظرون من وراء ذلك إلى منفعة ذاتية خاصة ، ويكتفيهم إرضاء أنفسهم وإشباع رغباتهم ، ولا يحفلون بأثر جهودهم في غيرهم ، أو بحكم مواطنيهم عليهـا ، فأمثال هذه الجهود ذات الطابع الأناني لايمكن بحال أن تؤدي إلى حياة اجتماعية صالحة ؛ وطبعا يتطلب هذا أن يتأصل في نفوس الأفراد اعتقاد جازم بأن لكل منهم أثراً بالغاً في حياة الجماعة ، وأن ما يقوم به من الأعمـال يعود على نفســه أولا ولكن يعود على غيره أخيراً ، وأن هذا هو المقياس المحقق له بين مواطنيه .

ويستوي في هذا الأغنياء والفقراء ، والعمال وأصحاب الأعمال ، والزارعون وأصحاب الأملاك ، على اختلاف فقط في القدر الذي يستطيع كل منهم بذله تبعاً لقدرته واستعداده وظروفه ، وسيترتب على هذا الإدراك ألا نجد بين الجماعة هؤلاء الأفراد المتواكلين الذين يستهينون بأنفسهم ، ويشعرون بضآلة شأنهم فيعيشون في هذه الحياة الدنيا ، ويبارحونها وكأنهم لم يروها .

كذلك سيتوارى فريق من الأفراد يصور له ثراؤه أو جاهه أنه في عزلة من مواطنيه ، همه من حياته مطامع يصل إليها ، ومآرب يحصل عليها ، تتطلب الحياة الاجتماعية إذن أن يشعر كل فرد بأن عليه للمجتمع ديناً يجب أن يؤديه ، وحساباً يجب أن يقدمه .

فقد حبا الله عباده بنعم متعددة ، وخص بعضهم بالمال ، وبعضهم بالعلم ، وبعضهم بالجاه ، وآثر بعضهم على بعض بهذه الهبات ، فما على كل ذي نعمة ألا أن يزكي منها ، ويتنزل عن جزء منها ، إذ أن للمال زكاة ، وللعلم زكاة ، وللجاه زكاة .

لقد استتبع تطور الحياة الاجتماعية وجود طوائف من الناس قست عليهم ظروف الحياة ، وتركتهم بين طفل مشرد ، أو عاجز عن العمل ، أو مريض لا يعرف طريقه إلى العلاج .

ولقد قامت الحكومة وقادة الرأي بإعداد النظم والمنشآت التي تكفل إيواء المشردين ، وإعانة العاجزين وعلاج المرضى ، فأسست الجمعيات الخيرية ، والملاجئ والمستوصفات ، وصناديق الإعانة ، ومكاتب المساعدات ، ولكن ما الذي يضمن لهذه المنشآت الازدهار والانتشار ، وما الذي يساعدها على أن تؤدي مهمتها على أتم وجه وأنفعه ؟

لا شك أن المال هو الدعامة لكل ماتقدم ، ولاسيما وقد أصبحت أعمال البر ضرورة اجتماعية يتعدى أثرها إلى سائر المجتمع ، إذ أنه قد انقضى العهـد الذي كان يقصد فيه بالإحسان المباهاة والمفاخرة ، ولا يرمي الكريم إلا إلى أن يشيد بذكره المحسَن إليه ، وأن يسد بكرمه حاجة عارضة ، وصارت أعمال البر والاحسان هي الأعمال المنظمة المستقرة ذات الأثر العميم المستقر .

وهذه لا تكفي أن يغذيها أريحية فردية عارضة ، أو نفحة من جواد لا يعود إليها مرة أخرى ، إذ أن الجهات المنظمة من أعمال البر الاجتماعي لاتقوم إلا على إحسان منظم يشترك فيه أكثر عدد ممكن من الأفراد كل على قدر طاقته ، يساهمون في المؤسسات المتعددة ويتعاونون في تغذية صناديق الإعانة ، ومكاتب المساعدات الاجتماعية ، ويتسابقون إلى الأسواق والحفلات الخيرية ، فيصبح حب الخير عادة متأصلة في نفوسهم ، وإيتاء المعروف والإحسان عملاً يقومون به لوجه الله ، ولصالح المجتمع .

هذا أثر الفرد في المجتمع ، إذا كان لديه فضلة من المـال .

أما أثره فى الحياة الاجتماعية ، إذا كان على شىء من العلم ، فلا يقل شأناً عن أثره السابق ، وإن للعلم زكاة كزكاة المال تماما ، إذ أن من واجب المتعلم أن يكون نافعا بعلمه ، وأن يرد بعضه إلى البيئة التى تثقفها

وتجب زكاة العلم على المتعلمين جميعاً ، سواء فى ذلك العامل المتعلم ، أو طالب المعاهد الدينية ، أو طالب المعاهد العليا ، أو حملة الشهادات المدرسية على اختلاف درجاتها وأنواعها .

كل هؤلاء عليهم أن يشعروا أن المجتمع حقاً فيما يعلمون ، وأنه ينتظر منهم أن يؤدوا إليه هذا الحق على أى صورة من الصور التى يستلزمها النشاط الاجتماعى .

ومن حسن الحظ أن الوسائل التى تساعد على تحسين الحياة الاجتماعية ، وتحتاج إلى جهود الأفراد المتعلمين لا تقع تحت حصر .

قد يكون من الممكن أن تحصر الحكومة جهودها التى تزاولها لتحسين الحياة الاجتماعية ، لأن هذه الجهود محدودة بميزانية معينة وبعدد معين من موظفى الدولة .

أما نواحى النشاط الاجتماعى العامة ، فلا تحد ، إذ أنها تسع الأفراد جميعاً ما دامت بين جوانحهم نفوس تشعر بالواجب عليها نحو المجتمع .

من اليسور أن توضع نظم ، وأن تسن قوانين لإنشاء النقابات بين العمال ، أو لإيجاد نظام التعاون ، أو لتشجيع إفتتاح معاهد لمحو الأمية ، أو للدراسات الاجتماعية ؛ ولكن ليس من اليسور أن تتغلغل هذه النظم فى نفوس الشعب ، وأن تتسرب مبادئها إلى عقائد أفراده ، إلا إذا وطن المتعلمون من الأفراد أنفسهم على الاستفادة من هذه الجهود الرسمية ، والتوسع فى استخدامها ، والقياس عليها ، بل واستحداث أكثر منها .

على أن يقوم كل فرد بما يتيسر له فى هذا الواجب القومى ، حسبة لوجه الله ، ولوجه الوطن ، شأنه فى ذلك شأن المدين الذى قام بعد ، دين عليه لدائنيه ، فلا يرجو من هذا الوفاء جزاء ولا شكورا .

إذ إن الخدمات الاجتماعية بطبيعتها ، وبالقياس إلى ما حدث فى الدول التى انتشرت فيها لا تنهض إلا على أكتاف جنود مجهولين يؤثرون العمل الصامت ، ولا يتطلبون من وراء جهودهم إلا نجاح رسالتهم .

لذلك أطلق عليهم جيش الخلاص ، لأنهم يعملون على تخليص مواطنيهم من البؤس إلى السعادة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن التفكك والانحلال إلى التآزر والتعاون ، ومن الضلال إلى الهدى ، ولا يتطلب هذا الجيش إلى سلاحا واحداً ، هو الإيمان الصادق بخدمة المجتمع والتفانى فى الوصول إلى هذا الغرض .

فلو اتخذ المتعلمون فى مصر هذا السلاح ، على اختلاف بيئاتهم وأنواعهم ، عمالا وطلبة ، وحائزين على مؤهلات دينية أو مدنية ، وهم لا يقلون عن مليونى فرد ، وجردوا أنفسهم لمحاربة الأمية ، ولمحاربة البدع والعادات السيئة ، والدعاية للتعاون وللجمعيات القومية النافعة ، وللمشروعات الصالحة ؛ واتخذوا من منتدياتهم تكنات يعدون فيها عدتهم ، ومن محافلهم ومهرجاناتهم مواقع حاسمة يقضون فيها على ما فى هذا المجتمع من شرور وآثام ، لنالت الحياة الاجتماعية على سواعدهم فى سنوات ما لم تنله على هذا السير الوئيد البطىء فى أجيال .

أما صاحب الجاه من الأفراد فزكاته أن يسبغ شيئاً من جاهه العريض على نواحى النشاط الاجتماعى التى يهيئه استعداده أو هوايته لها . وألا يقعد به جاهه عن الدخول فى ميدان الخدمة الاجتماعية العامة ، وألا يكفيه من جاهه ما يستمتع به فى عمله الرسمى ، أو ما يشعر به فى المحافل والمجتمعات من الصدارة والتكريم .

وما أحوج المؤسسات الاجتماعية والمشروعات القومية إلى مكانة ذوى الجاه حتى تكسبها ثقة وتحمل الناس على

خطرات فى اللغة

(١) لاحظت أن اللغة تؤدى معانيها فى دقة وإحكام فى مواد العلوم ، كالرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، ومصطلحاتها مضبوطة قل أن يعتريها غموض أو إبهام وقريب من ذلك التاريخ ، فاللغة قادرة على أداء معانيه وحمل رسالته أداء حسناً ، وإن لم تبلغ فى ذلك مبلغ العلم ، فإذا نحن جاوزنا ذلك إلى الفلسفة والأدب رأينا اللغة مسكينة عاجزة عن أداء المعانى فى وضوح وضبط وإحكام حتى المصطلحات ، من الصعب تعريفها وضبطها ، فما أصعب أن نعرّف « الوجود » و « الحقيقة » ، و « ما وراء الطبيعة » ، وما إلى ذلك ، وما أصعب ما تعرّف « الشعر » و « الأدب » و « الخيال » ونحوها ، وكذلك فى فروع الفلسفة والأدب ، فمن الصعب تعريف « الجمال والجليل » ، و « الفضيلة والرذيلة » ، و « الزمان والمكان » و « العدل والحرية » ؛ ومن العسير تعريف « القصة والرواية والمثل » ؛ وما أكثر ما يقع الناس فى الجدل والحِجاج ، لأن كلاً يتكلم وفى ذهنه معنى للشىء غير ما عند الآخر ، ولو اتفقوا على التحديد لاتفقوا على النتائج ولا أنسى حادثة رويت لى وهو أنه من زمان أرادت حكومة العراق التعاقد مع الحكومة المصرية بالمراسلة والمطالبات ، فكان الاتفاق مستحيلاً لأن كلتا الحكومتين كان لها معنى خاص فى مصطلحاتها لا تفهمه الأخرى ، ولم يتم الاتفاق حتى تمت الشافهة والاتفاق على معانى المصطلحات ، وسمعت محاضرة لفاضل عراق فى التربية ، فثار جدل حول الموضوع تبين أن سببه الاختلاف فى المصطلحات ، فهم يطلقون اسم « المدارس الداخلية » على غير ما نطلق ، ويسمون « الفصل » ما نسميه نحن بالسنة ، ويسمون الترفيعات ما نسميه نحن بالترقيات ، ويسمون « مدارس الحضانة » ما نسميه نحن برياض الأطفال ؛ وهكذا.

(٢) من أسباب وقوع الناس فى الخطأ اللغوى عدم دقتهم فى الاستنتاج ؛ فهناك عقول تستنتج من الجملة أكثر مما يلزم ، وهناك عقول تستنتج منها أقل مما يلزم ، وكلاهما خطأ — إذا قلتُ : إن « الغول مرعب » فاستنتجتَ منه أنى أقول : إن الغول موجود ، فقد أخطأتَ ، واستنتجت أكثر مما يلزم ؛ لأن الخيال قد يرعب ، والوهم قد يرعب ، ولو لم يكن الشىء موجوداً ، وإذا حدثتك عن فرس بأنه أشهب ، فاستنتجت أنى أقول إنه موجود ، كان استنتاجك صحيحاً ؛ ومن الناس من لا يفرق بين القضيتين — وليس الأمر مقصوراً على الجمل بل دلالة الألفاظ على المعانى تختلف جد الاختلاف بين

الإقبال عليها وعلى الأخذ بها .

بذلك يصون ذوو الجاه جاههم ، فكما يضاعف الله للمتصدقين أموالهم فيرد إليهم الحسنة عشرة أمثالها ، كذلك ذوو الجاه ، إذا ما منحوا شيئاً من جاههم للخدمة الاجتماعية العامة مكن الله لذكرهم ، وأبق اسمهم ، وجعل خير أمسهم على أيديهم .

والفرد صاحب الجاه أثر آخر فى الحياة الاجتماعية ، بجانب الأثر الذى يحدثه من مساهمته فى النشاط الاجتماعى ، وذلك إذا ما كان يتخذ من نفسه مثلا صالحاً لمواطنيه ، ينأى بنفسه عن مواطن الزلل ، ويقربها إلى مواطن الكمال ، يطابق بين أقواله وأفعاله ، ولا يقوم بدعوة خيرة إلا ويكون هو البادئ بها ، فيصبح له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

هذه هى آثار الفرد فى الحياة الاجتماعية إذا ساهم فيها بماله ، أو بعمله ، أو بجاهه ، قد أجملناها ؛ وربما عدنا إلى تفصيل ما أجملناه .

ابراهيم العطريفى

الأشخاص بحسب مدنيتهم وثقافتهم وعقليتهم ، فإذا قلت ، « كرسى » لم يكن معناه عند الفلاح القروى كمعناه عند المدنى المتحضر ، وكذلك الشأن فى كلمة « بيت » ، و « دولاب » ، و « سرير » ، وإذا قلت : « علم الحساب » فمفهومها عند الصانع المتعلم تعلماً بسيطاً ليس كالمعنى الذى يفهمه العالم بالرياضيات ، وهكذا ، وهذا ما يجعل الناس إذا اختلفت مدنياتهم وعقلياتهم وثقافتهم لا يتفاهمون تفاهماً صحيحاً . ومن أسباب ذلك عدم دلالة الألفاظ على معان واحدة فى الرءوس المختلفة ، ولا تصدق أن معاجم اللغة تستطيع أن تشرح دلالة الألفاظ شرحاً تاماً صحيحاً ، فلكل كلمة هالة غير معناها الأصلى يعجز المعجم عن شرحها ، فدنيا الأطفال التى تعين على شرح الألفاظ غير دنيا الرجال ، ودنيا الفلاح غير دنيا المتمدن ، ودنيا الجاهل غير دنيا العالم ، وكل يفسر الألفاظ حسب دنياه .

(٣) يتصل بهذا أن كل لفظ من ألفاظ اللغة يوحى بأشياء تختلف باختلاف الأشخاص حسب بيئتهم وتجاربهم فى الحياة وغير ذلك ، فكلمة أبيض توحى إلى الفلاح باللبن ، وقد توحى إلى الطفل بالسكر ، وقد توحى إلى سكان البلاد الباردة بالثلج ، وكلمة « وزير » توحى إلى الشرقيين بمعان غير ما توحى به عند الغربيين ، وكلمة « العيد » توحى إلى الأطفال بمعنى الثياب الجديدة والأراجيح ، وعند أطفال آخرين بالهدايا تهدى إليهم ، وعند الرجال بالزيارات والتهنئات الخ ؛ وكلمة « البرلمان » و « نظام الحكم » توحى بمعان مختلفة فى الأفراد المختلفة والأمم المختلفة ، وهذا سبب آخر من أسباب الاختلاف بين الناس فى الإفهام والفهم ، فوحى الألفاظ عند الناس يختلف اختلافاً كبيراً .

بل قد يكون اللفظ يوحى بمعنى عند الناس فى عصر لارتباطه بحادثة أو نادرة ، فإذا نسيت الحادث انقطع وحى اللفظ ، فقد حين كانت كلمة « تعديل الأساس » و « ردم البرك » ، و « الحكم الصالح » تستثير منا الضحك لإيحائها بمعان خاصة فى ظروف خاصة ، فلما زال الإيحاء زال التأثير — ولذلك أعتقد أنا فقدنا كثيراً من كتب الجاحظ وقطع الأدب الاجتماعى ، لأن بعض ألفاظها وجملها كانت توحى بمعان معروفة ، فلما تقادم الزمن جهلت فبطل سحرها — إن شئت فاقرأ رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، وهى تدور حول السخرية من « أحمد بن عبد الوهاب » تشعر بغموض فى بعض الجمل والإشارات وسبب غموضها أنها كانت إشارات إلى أشياء مفهومة فى زمنها ، ثم انقطع وحيها فغمض معناها .

(٤) ما وظيفة اللغة ؟ يخطئ من يظن أن اللغة تؤدى غرضاً واحداً ، وهو نقل المعنى من ذهن إلى ذهن ؛ فلها أغراض أخرى كثيرة قد يصعب حصرها ، وقد يبعد إدراكها ، فمن أعجب أغراضها أحياناً أنها تستعمل لتخدير الأعصاب ، كتمزيمات السحرة مثل ألفاظ « شمهورش » ، و « جلجلوت » ، ونحو ذلك ، فهى لا تؤدى معنى ، ولكن تخدر الأعصاب بغرابتها وتأليف حروفها ، ولذلك لا يصح أن نحاول كثيراً فهم سجع الكهان فهماً تاماً ، فهى لم يقصد منها الإفهام التام بقدر ما قصد منها التخدير ، والمعانى المطولة ، وأحياناً يقصد بالألفاظ مجرد ما توحيه من نغمات موسيقية لها أثرها النفسى كأثر الموسيقى — ولذلك لم تكن تخلو الأدعية الدينية إذا تليت فى المعابد بلغة أجنبية من أثر قد يكون بالغاً ، لأن الألفاظ توحى بمعان سحرية موسيقية ، وإن لم تفهم معانيها الأصلية ؛ وهذه لغة الإنسان الأول كانت صيحات متشابهة اللفظ ، ولكنها أحياناً تدل على الخوف وأحياناً على الغضب ، وأحياناً على طلب النجدة ، وأحياناً على التحذير من خطر وإنما تختلف دلالتها باختلاف موسيقاها

وكذلك كان الشعر في أول أمره ، غامض المعنى ، دالا بالموسيقى — فليس نقل المعنى من ذهن إلى ذهن هو الغرض الوحيد ، إلا في الكتب التعليمية في العلوم ، والحوادث المحلية في الجرائد ، وجدول الضرب ، وقانون اللوغاريتم ، ونحو ذلك ، مما ليس فيه اتصال ما بين المؤلف وعواطف القارئ .

(٥) للغة أساليب مختلفة في أداء المعنى الواحد ؛ فهناك دلالة تصريحية ، وهناك دلالة تضمينية ، فإذا أراد أحد أن يقترض منك ، فقلت له : « لا أقرضك » فهذه دلالة تصريحية ، وإذا قلت له : « ليس عندي نقود » أو « إني مدين » أو « قد كنت فكرت أن أطلب منك ما تطلب مني » ، فهذه كلها تدل على عدم الإقراض بطريق التضمين — واللغة ترقى من طريق الدلالة التضمينية أكثر مما ترقى من طريق الدلالة التصريحية ، وكلما ارتقى ذوق الفرد أو الأمة شعر أن ما يناسبه هو التلميح لا التصريح ، والدلالة الضمنية لا الدلالة التصريحية — وهذا من أهم الفروق بين لغة العلم ولغة الأدب ، فلغة العلم أقرب ما تكون إلى الدلالة التصريحية ، ولغة الأدب تسودها الدلالة التضمينية — لغة المعادلات الجبرية وشرح النظريات الهندسية ، وقوانين الطبيعة والكيميا لغة تصريحية ، ولغة الشعر لغة تضمينية ، والمجازات والاستعارات والتشبيهات والكنايات كلها دلالات تضمينية .

وقد دل البحث النفسي على أن استمالة النفس من طريق الدلالات التضمينية أقوى وأفعل من الدلالة التصريحية ، ولذلك كانت الدلالة التضمينية لغة الخطباء والأدباء والشعراء والوعاظ ورجال السياسة ورجال الدين ، فالقصص ذات المغزى ، والعبرة بأخبار الأولين ، والأساطير الرمزية كأساطير اليونان ، وتحريك الوطنية بالشواهد والأمثال ، وتحميس الأمة للمشروعات الاقتصادية والاجتماعية ، ونداء المصلحين ؛ كل هذه تعتمد على الدلالة التضمينية أكثر مما تعتمد على الدلالة التصريحية لهذا السبب النفسي ، وهو أن النفس أكثر استمالة من هذا الطريق ، والسبب في هذا على ما يظهر أن الأوامر والنواهي الصريحة تُشعر المأمور والمنهي بالضعة ، ولذلك كان أقسى أنواع الزجر الأمر الصريح ، « امش ، واخرج ، واذهب » ، مصحوبة بالنغمة التي تدل على تعالي الآمر ، أما في الدلالة التضمينية فقد سمح المتكلم للمخاطب باستعمال عقله في الاستنتاج وفهم الأمر من طريق خفي ، فإذا هو استنتج الأمر فكأنما هو الآمر لنفسه ، وهو إذا أمر نفسه لم تكن هناك غضاضة عليه ، وهذا يوضح لنا ما العلاقة القوية بين اللغة والتفكير والخيال والإرادة .

ونكتفي اليوم بهذا القدر من الخطرات اللغوية ، وسنتبعها بمثلها إن شاء الله .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
***
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
قرش
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

من منبر الشرق :

— ١ —

أحسن ما قرأت :

من حديث حنين بن إسحق

لعلك يا عزيزى تذكر ذلك الباب الأسبوعى اللطيف الذى كان يتحفنا فيه على صفحات « الثقافة » الأستاذ الزاوية أحمد الزين بمنتجات من عيون الشعر العربى بعنوان « أحسن ما قرأت » . وكم شوقتنى هذه المختارات الرائعة فى كثير من الأحوال إلى الاستزادة من آثار شعراء العرب ، ولولاها لما كنت أهتم كثيراً بالاتصال بهم .

جال فى قلبى أن أعاود طرق هذا الباب فى « الثقافة » غير مقتصر هذه المرة على الشعر فحسب ، إذ كنت قد اقتنعت منذ حين بأن فى الآداب العربية من النثر الرصين ما هو أجل وأروع من شعر الشعراء .

وعند ما وصلنى خطابك الذى قلت فيه أن أقص علىّ شيئاً عن هذا المترجم العظيم ، أعنى حنين بن إسحق ، وعن تلك « العذوبة » التى وصف بها أسلوبه ، على ما أشرت إليه فى رسالتك السابقة .

وقلت : إن جهد المترجمين من مدرسة حنين بن إسحق لإحياء تراث القدماء فى رونق العربية المبين يدعونا نحن أبناء القرن العشرين إلى أن نقفو أثرهم ، ونتمثل بمثالهم ، إذ كنا اليوم — فى عصر نهضة العربية — أمام نفس المسائل التى أعنى القوم أنفسهم فى سبيلها ، ونجحوا فى حلها ، فقد وجدوا فى تمرين العربية الخالد مادة كافية للتعبير عن جميع ما دعا إليه العصر من المصطلح العلمى والفلسفى ، مترجمين اللفظ اليونانى بمستوه العربى الذى هو مرآته الصادقة ، حتى أصبحت اللغة العربية البدوية الآبدة أداة ثقافية لا تخذل من يستعين بها فى أى فن من الفنون ، وساوت — أو فاقت — أختها اللاتينية ، لغة الغرب الثقافية فى القرون الوسطى .

وقلت : أما نحن اليوم فنجهد عين جهدهم ، ونكافح مثل كفاحهم للتعبير عن الثقافة الحديثة باللغة العربية ، ولكن ما أبعدنا عنهم حظا وتوفيقا !

عرفنى شخصية الرجل ، وعلمنى مناهجه فى البحث ، ودستوره فى النقل ، لعلنا نستفيد منه فى حل المشكلات التى رتبك فيها .

عندئذ عزمت على أن أورد لك نخباً مما قرأته من حديث هذا الرجل ، عساك أن تستحسنها وتقول معى إنه كان ، لا ناقلا نشطا فحسب ، بل أديباً ضليعاً أيضاً ؛ وعساك أن تتكفل أنت — بعد وقوفك على هذه النصوص — بالتعمق فى البحث عن أسرار جاذبية حنين وفنه فى الترجمة ، حتى تجعله موضوعا لبحث جدى ، بعد أن تدرس شيئاً من اليونانية والسريانية والجاحظية على السواء ، إذ لا بد من جمع تلك الأطراف الثلاثة لمن يقصد إلى الكشف عن غور هذا الرجل .

أوردت لك فى مقالى السابق قطعة من رسالته إلى علىّ بن يحيى المنجم فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس الطبيب اليونانى ، وهذه الرسالة المشحونة بالمعالم الدقيقة كأنها تقرر موضوعى صادق عما عمله حنين بن إسحق وتلامذته — إسحق بن حنين ، وحبيش وعيسى بن يحيى وغيرهم — فى ترجمة كتب الطب اليونانى إلى اللغة العربية وبرنامج لما بقى من العمل حتى تخرج كل الكتب اليونانية فى هذا الفن إلى العربية ؛ وهاك فصلا آخر من تلك الرسالة(١) يدلك على ما بذل حنين من الجهد فى الحصول

(١) طبعة Bergstraesser ليزيج ١٩٢٥ ، ص ٤٧ .

على مخطوطات يونانية ، وفى مقابلتها وتصحيحها ، يقول حنين عن كتاب « البرهان » لجالينوس[١] :

« ولم يقع إلى هذه الغاية فى يد أحد من أهل دهرنا لكتاب البرهان نسخة تامة باليونانية ، على أن جبريل[٢] قد كان عنى بطلبه عناية شديدة ، وطلبتُه أنا غاية الطلب ، وجلت فى طلبه بلاد الجزيرة والشام كلها ومصر ، إلى أن بلغتُ الاسكندرية ، فلم أجد منه شيئاً إلا بدمشق نحواً من نصفه ؛ إلا أنها مقالات غير متوالية ولا تامة ، وقد كان جبريل أيضاً وجد منه مقالات ليست كلها المقالات التى وَجَدْتُ بأعيانها ؛ وترجم له أيوب[٣] ما وجد . وأما أنا فلم تطب نفسى إلا باستكمال قراءتها ، لما هى عليه من النقصان والاختلال ، وللطمع وتشوق النفس إلى وجود تمام هذا الكتاب ؛ ثم إنى ترجمت ما وجدت إلى السريانية ، وهو جزء يسير من المقالة الثانية وأكثر المقالة الثالثة ، ونحو نصف المقالة الرابعة من أولها ، والمقالة التاسعة خلا شيئاً من أولها فإنه سقط ، وأما سائر المقالات الأُخَر فوجدتُ إلى آخر الكتاب ، خلا المقالة الخامسة عشرة فإن فى آخرها نقصاناً » .

وليس دليل أوضح على أمانة حنين إزاء النصوص القديمة مما تقرأه من تعليقات على هامش ترجمته لكتاب جالينوس « فى الأسماء الطبية »[٤] الذى يقول فيه : « إن جالينوس من بعد ما قال هذا القول أتبعه بنَسْخ كلام

(١) هو كتاب من كتب جالينوس الفلسفية فى علم المنطق ومناهج البحث العلمى ، احتوى على ١٥ مقالة ضاعت جميعاً فى الأصل اليونانى ، ويخرج من رسالة حنين أنه عثر على جزء كبير منه وترجمه إلى العربية ؛ ولعل ترجمة حنين هذه مخطوطة بعد فى بعض المكاتب .

(٢) أى جبريل بن بختيشوع طبيب الواثق والمتوكل .

(٣) الرهاوى : من المترجمين المعروفين فى عصر المأمون .

(٤) نشره مايرهوف — شاخت ، برلين ١٩٣١ ، ص ١٧ — ١٨ .

أرسطوفانس[١] ، إلا أن النسخة اليونانية التى منها ترجمت هذا الكتاب إلى السريانى كان فيها من الخطأ والسقط مقدار لم يكن يمكننى معه أن أخلّص معانيها ، لولا أنى قد ألفتُ وتعودت فهم كلام جالينوس اليونانية وعرفت جل كمانيه من كتبه الأخرى ، فأما كلام أرسطوفانس فإنى لم آلفه ولم أتعوده ، فلهذا السبب لم يسهل علىّ تخليصه وتركته . . . ورأيت أن لا أشغل نفسى به وأن أتخطاه إلى ما هو أنفع منه » .

ولكن لا تظن أن الرجل يكتب دائماً بمثل هذا الأسلوب البسيط الذى لا يعنيه فيه إلا تقرير الحقائق فحسب ، بل كثيراً ما يرتفع أسلوبه إلى مستوى نحس معه أنه كان قد تلمذ على الجاحظ الذى عاصره ، فاسمع إلى ما يقوله فى مناقب سقراط الحكيم[٢] : « سقراطيس أبو الفلاسفة القدماء ، وهو حكيم الحكماء ، من عنده وردت الفلسفة ، وعنه صدرت الحكمة ، له الأمثال السائرة ، والفوائد الناصرة ؛ كلامه فى القلوب كنسيم الرياح عند المحبوب ، وكالراحة للمكروب ، وأثره فى العقول والخواطر ، كأثر الماء فى الهواجر » . أيمكن أن يعبّر بكلمات أوضح عن شعور من يرتفع مع أفلاطون كمرشد إلى ميادين الفكر المطلق ؟ ولا ينقص هذا الأسلوب عن الجاحظية إلاّ ما يظهر فى هذه من مزج الهزل بالجد .

ولكن هناك أروع من هذا وأكثر تحريكا لأوتار القلب . ولو استطعت لأوردت لك تلك الرسالة التى ألفها فى نُصرته وبراءته من تهم حاسديه ، وأرجوك أن تقرأها بتمامها ، كما أرجو أن تقرأ سائر ما سرده عن ابن أبى أصيبعة

(١) Aristophanes كاتب المسرحية الهزل اليونانى المشهور ، عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(٢) من تلخيص كتاب صوان الحكمة المنسوب لأبى سليمان المنطقى السجستانى ، مخطوطة استانبول (داماد زاده ١٤٠٨) .

فى ترجمته[1] :

« إنه لحقنى من أعــدائى ومضطهدىّ الـكافرين بنعمتى الجاحدين لحقّ الظالمين لى المتعدين علىّ من المحن والمصائب والشرور ما منعنى من النوم وأسهر عينى وشغلنى عن مهماتى . وكل ذلك من الحسد لى على علمى وما وهبه الله عز وجل لى من علوّ الرتبة على أهل زمانى . وأكثر أولئك أهلى وأقربائى فإنهم أول شرورى وابتداء محنى ، ثم من بعدهم الذين علمتهم وقرأت إليهم علوم الفاضل جالينوس فكافأونى عوض المحاسن مساوئ بحسب ما أوجبته طباعهم وبلغوا بى إلى أقبح ما يكون من إذاعة أوحش الأخبار وكتمان جليل الأسرار .... وكيف لا أنتقص ويكثر حاسدىّ ويكثر ثلبى فى مجالس ذوى المراتب ، ويُبذَل فى قتلى الأموال ، ويعز من شتمنى ويهان من أكرمنى ! كل ذلك بغير جرم لى إلى واحد منهم ولا جناية ، لكنهم لما رأونى فوقهم وعاليا عليهم بالعلم والعمل ونقلى إليهم العلوم الفاخرة من اللغات التى لا يحسنونها ، ولا يهتدون إليها ، ولا يعرفون شيئا منها فى نهاية ما يكون من حسن العبارة والفصاحة ، ولا نقص فيها ولا زلل ، ولا ميل لأحد من الملل ، ولا استغلاق ولا لحن باعتبار أصحاب البلاغة من العرب الذين يقومون بمعرفة وجوه النحو والغريب ولا يعثرون على سيئة ولا شكلة ، ولا معنى لكن بأعذب ما يكون من اللفظ وأقربه إلى الفهم ، يسمعه من ليس صناعته الطب ولا يعرف شيئا من طرقات الفلسفة ، ولا ينتحل ديانة النصرانية وكل الملل ، فيستحسنه ويعرف قدره حتى إنهم قد يتغرّسون على ما كان من الذى أنقل الأموال الكثيرة إذ كانوا يفضلون هذا النقل على نقل كل من قبل . وأيضا فأقول ولا أخطئ ، إن سائر أهل الأدب وإن اختلفت مللهم ، محبون لى مائلون إلىّ مكرمون لى يأخذون ما أفيدهم بشكر ويجازونى بكل ما يصلون إليه من الجميل ، فأما هؤلاء الأطباء النصارى الذين أكثرهم تعلموا بين يدىّ ، ونشأوا قدامى هم الذين يرومون سفك دمى على أنهم لابد لهم منى . فمرة يقولون من هو حنين ؟ إنما هو ناقل لهذه الكتب ! ليأخذ على نقله الأجرة كما يأخذ الصناع الأجرة على صناعتهم ... فهو خادم لأدواتنا وليس هو عاملا بها . ما له والكلام فى صناعة الطب ، ولم يحكم فى عللها وأمراضها ، وإنما قصدُه فى ذلك التشبه بنا ليقال حنين الطبيب[1] ولا يقال حنين الناقل . والأجود له لو أنه لزم صناعته وأمسك عن ذكر صناعتنا .... فكنت كلما سمعت شيئا من هذا ضاق صدرى وهممت أن أقتل نفسى من الغيظ والزرد . فإن الحسد لم يزل بين الناس على قديم الأيام ، حتى إن من يعتقد الديانة قد يعلم أن أول حاسد كان فى الأرض قابيل فى قتله لأخيه هابيل . . . »

كم وَدِدتُ أن أشرح لك ظروف حياة حنين الغريبة وما لاقاه من المِحَن ومصادرة كتبه ، والحبس والجَلد وصبره على كل هذا صبرا كاد يفوق طاقة البشر ، كان الباعث إليه إيمانه الوطيد بأن عليه أن يخدم معاصريه ومن بعده وينشر بينهم ثقافة الأولين .

باول كراوس

(1) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ١ ، ص ١٩١ وما بعدها .

(1) دكتور حنين ! أتذكر ما لاقاه بستور (Pasteur) من خصومه الأطباء ؟

منهج فقه اللغة:

١ - النظم عند الجرجانى

منهج فقه اللغة الذى ندعو إليه ، عارضين آراء الجرجانى كمثل ، لا يتنكر لمعرفة النفس البشرية لأنه يفرق بين تلك المعرفة وقوانين علم النفس ، كما لا يتنكر لروح العلم ، وإن أقصى قوانين العلم .

مثل من يدعون أن قوانين علم النفس تبصرنا بحقيقة النفس الإنسانية ، كمثل من زعم أنه يستطيع أن يفهم دور شطرنج يلعب أمامه ، لأنه قد تعلم القواعد التى تتحرك بموجبها كل قطعة من قطعه ، مع أن علمه لا يعدو الحكم على موافقة حركات القطع للقواعد أو عدم موافقتها ؛ وأما لماذا تتحرك ، وإلى أى غاية تسعى ، وكيف ينظم اللاعب الماهر خططه ويتصرف فى قطعه ، فذلك ما لن يدركه صاحبنا ولو وعى القواعد عن ظهر قلب . ذلك وللشطرنج قواعد آلية ، لأنها مواضعة بحتة ، وأما النفس البشرية فلا أرى بل ولا أحس فيها جبراً إلا أن يضعه البعض فيها . وهم لا يخطئون فى ذلك فحسب ، بل يأثمون ولقد فرغ الباحثون فى حقيقة المعرفة بوجه عام من القطنة ، إلى أن قوانين المادة ذاتها شرطية لا تولد آثارها إلا إذا توفرت ملابسات لا يمكن استقصاؤها ، وتلك الآثار تتغير بتغير الملابسات ، وكبار الرياضيين[1] أنفسهم يجزمون بأننا لا نستطيع ، وما أظننا نستطيع فى المستقبل القريب ، أن ندرك بفضل القوانين العلمية حقائق الأشياء بله النفوس . نعم إننا قد استطعنا أن نستغل العالم المادى بفضل معارفنا العلمية التى تدرك الأشياء فى ظواهرها وآثارها الخارجية ، ولكن هذه ليست المعرفة التامة الداخلية ، وأنا لا أريد أن أنزلق إلى سفسطة ما وراء الطبيعة العقيمة ، ولكنى أنظر أمامى الآن فأرى ورقة بيضاء تحدث فى نفسى أثراً ما ، كما تحدث فى نفس جارى أثراً آخر ، ونحن الاثنان نتفق بلا ريب على تمييز ذلك اللون تمييزاً يجعلنا نرمز له باللفظ اللغوى « أبيض » ، فنتفاهم ، ولكن من لى بمعرفة أثره النفسى عند ذلك الجار ، والنفوس عوالم مغلق بعضها دون بعض . وهل المعرفة الحقيقية فى مردها النهائى إلا ما تطبعه الأشياء فى النفوس من آثار ، وكيف أدرك تلك الآثار وهى لا ريب مكيفة فى كل نفس بملابسات لا حصر لها ، وأنى لى باستقصاء كل ما تثيره فى النفوس من تداع . أنا لا أنجح فى التفاهم مع جارى إلا استناداً إلى التقسيم ، فتمييز الأبيض لأنه يختلف عن الأسود أو الأحمر ، ولكن أهذه معرفة حقة ؟ أفيها إدراك لحقائق الأشياء ؟ إدراك لآثارها المتميزة بالنفس ؟ فإن لم تكن أو لا ترون أن الذين يريدون فهم النفس البشرية بفضل نظريات السيكولوجيا إنما يريدون تشريح فراشة « بسكينة بصل » .

وأنا لا أجهل أنه قد يصاح بى : ولكن هناك التحليل العلمى الذى رد الألوان إلى عناصرها . وأدرك هذا الاعتراض الذى لا يرهبنى فى شىء ، لأنى وإن كنت أجل رجال العلم ، وأعتز بنتائج أبحاثهم التى مكنتنا من الحياة وردت عنا الكثير من الآلام ، إلا أنى أنكر الإنكار كله أن يستطيع أن يحل محل نفسى فى ادراك حقائق الأشياء . من منا يستطيع أن يزعم أن فى مقدوره أن يعرف طعم شراب لم يذقه بمعرفة عناصره الكيماوية ونسبها ؟ من منا يجرؤ أن يدعى أنه يعرف حيواناً لم يره قط بدراسة خلاياه تحت المجهر ؟ من منا يصل إلى تصور جمال لوحة زيتية بقراءة وصف لها فى دليل أحد المتاحف ؟ من منا يتوهم أنه سيفهم نفسه بغير نفسه ؟ أى قوانين وأى

(1) راجع مثلا كتاب الرياضى الفيلسوف الشهير هنرى بوانكاريه « قيمة العلم » La valeur de la science الذى قرأناه قبل كتابة هذا المقال .

أبحاث ستبصرني بآلامي وأحلامي ؟!

معرفة النفس البشرية غير قوانين علم النفس ونظريات السيكولوجيا ، وذلك بفرض أننا نحسن فهم تلك القوانين والنظريات ، ونقف بها عند ما تستطيعه ، فما بالكم بهذا الوباء الذي تفشى بيننا في السنين الأخيرة ، فأخذنا نرى كتابنا وناقدينا يظنون تلك النظريات أثوابا تصلح لكل نفس ، فإن ضاقت فلتمزق ، وإن اتسعت فلتنسحب . هناك وسيلة سهلة لإدراك الشخصية الروائية أو النموذج البشري ، هي أن نتلقاه بقلوبنا كما خلقه أصحابه بقلوبهم ، وأن نتحد به اتحادا شعريا ، وهذا لا يتطلب إلا هبة من الله . هبة الإحساس ترهفه تجارب الحياة ويمده خيال قوي يعيننا على أن نحيا حياة غيرنا وكأننا أصحاب تلك الحياة ، وأما ما دون ذلك من علم ومعرفة فمكملات لن تسد نقصاً جوهرياً . ومتى جعلت المعرفة من الأبله سقراطا ؟ !

نحن بحاجة إلى الأمانة العقلية . إلى الخضوع لموضوع دراستنا . إلى انتزاع الحق من جوف الأشياء . وما نحاربه هو إملاء النظريات على الواقع . هو إتلاف الحقائق بالعلم الباطل . هو مداراة فقرنا الروحي بمصطلحات العلم الخاوية هو ظننا أن المعرفة الحقة إدراك للظواهر التي يكتفي بها العلم في عالم المادة ، ونحن نرفضها في عالم الروح . إنما نحارب قسر الفكرة . نحارب ادعاء العلم . نحارب التبجح بالمعرفة التي لا تغني . لنعرف كل شيء ، على أن نكون قادرين على هضم ما نعرف . ولتشع المعرفة في كل ما نقول أو نكتب ، ولكن ليكن الإشعاع من الداخل . ليكن إشعاعا لطيفاً رقيقاً خفياً ، كذلك الذي ينساب إلى قلوبنا في جوف الليل من محبة الله .

ذلك عن النفس وعلم النفس ، والأمر كذلك في روح العلم وقوانين العلم ، فأنا كما أثور على إقحام قوانين علم النفس الميكانيكية على الأدب ، بينما أدعو إلى الصدور عن معرفة حقيقية بالنفس البشرية ، وأدين ما نعمل ، حتى لا تتهم بأننا كجوردان الذي ظل يتكلم النثر عشرات السنين دون أن يفطن لما يفعل . أقول إني على نفس النحو أدعو جاهدا إلى الأخذ في الأدب بروح العلم ، وأما اصطناع قوانينه فلا .

روح العلم غير قوانين العلم . روح العلم ليس إلا ما ذكرت ، وأكرر : أمانة عقلية ، وخضوع للموضوع وتأبٍّ على التصديق ، وتنحية للأهواء ؛ ثم استقصاء للتفاصيل ، وقصر من الأحكام ، وتدعيم للاحساس بنظرات العقل ، واتخاذ الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة بتحديده وتمييزه ، ومراجعته وتعليله ما أمكن التعليل . روح العلم موقف تقفه النفس من الناس والأشياء وأما العلم فمجموعة من القوانين التي تفسر عادة عالم المادة . تفسر مظاهره . فلنأخذ بروح العلم لأنها روح خلقية نبيلة ، وأما محاولة تطبيق قوانين العلم على الأدب ، فقد رأينا مثلا دالا على خطئها عندما عرضنا لما فعله برونتيير ووضحنا ما أشار إليه من ضلال . الأدب مفارقات . الأدب كالنفس البشرية حفنة من الماء لن تحيز ذراته .

المنهج الفقهي إذن يتضمن روح العلم ويمتاز بالنفاذ إلى حقائق النفوس ، ولكن هذا ليس ما يميزه عن غيره من المناهج ، فروح العلم وفهم النفوس حقيقتان مستقرتان في كل نشاط عقلي منتج ، حتى إننا لا نرى فيهما شيئاً يخصصهما أو يمكن أن يخصصهما بالمنهج الأدبي . المنهج الفقهي يستمد حقيقته من مادة درسه وهي الأدب ، ولقد قلنا في مقال سابق إن كل منهج لا يُنتزع من موضوعه مستمداً مبادئه من ذلك الموضوع ذاته لا يمكن أن يستقيم والأدب لا ريب فن لغوي . وتلك حقيقة يجب أن نوضحها لنقدرها .

قالوا : إن الأدب ملكة في النفس . طبع مفطور . فالشاعر يغني كما يغرد الطائر . ولكن هذا أعجم وذاك مبين . والطائر دوافعه ، وما أظن الطبع خالقاً شيئاً بذاته .

أو لا ترى مع ابن قتيبة أنه لا بد للشاعر مهما كان طبعه قنيا من مثير « وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ويستصعب ريضه » وأن له « دواع تحث البطئ وتبعث المتكلف » بل هبه واكه الدافع ، أتحسب أن الشعر جمرات من الإحساس . الجمرات تحرق ، والإحساس العنيف يعقد اللسان . وإنما يكون الشعر عند ما يسكن العنف وتهدأ حدقة العين ، فتستطيع الإبصار . عندئذ تستغل الإرادة ما بقى فى النفس ، ويبدأ الشاعر فى الجهد الذى لا يستقيم شعر بدونه . الشعر صناعة جيدها ما أحكم حتى اختفى . الشعر طبع ودافع وإرادة وجهد وصناعة .

ونحن بعد لا نستطيع دائماً كل ما نريد ، ونحن بعد لا نصل دائماً بجهدنا إلى الكمال ، وموضع المشقة فى الأدب ليس إلا فى القدرة على إخضاع الفكرة أو الإحساس للفظ . قال ديهامل : « كم من مرة أستمع إلى رجال أو نساء يتحدثون وسط الجموع فى عربة قطار ، أو أتنا وجبة طعام ، فتحدثنى نفسى كل مرة : ها قد وقعت على صفة نفسية ، أو تسقطت علاقة ، أو لمحت دافعا خفيا ! ولكنى عاجز عن أن أصوغ ما اكتشفت ألفاظاً . ربما أستطيع فيما بعد أن أصور ما أحسست به ، أما الآن فلا . وأنا أعلم أنى إن لم أصب التوفيق فسيأتى من بعدى غيرى يفيد من تجاربنا وتساعده عبقريته فينجح فى العبارة عما لحناه » .

إخضاع الفكرة ، أو الإحساس للفظ هو ما يميز الأدب عن غيره من الفنون . الأدب طريقة من طرق العبارة عن النفس . يعبر باللفظ كما يعبر المصور بالألوان ، والناحت بالأوضاع . ومن ثم وجب أن يكون منهجه منهجاً لغويا ، وأنا أعرف ما يثيره هذا اللفظ فى بعض النفوس من مخاوف ، فمن الناس من يظن أننا سنعود به إلى الدراسة اللفظية التى أفسدت الأدب وسلبته روحه ، ولكن هـذا خوف ظالم ، لأن اللغة مستودع كل تراثنا الروحى ، ومن الثابت أننا لا نملك من أفكارنا وأحاسيسنا إلا ما نستطيع إيداعه اللفظ الذى يوضح الفكرة ويميز الإحساس ، وهذه النظرية الصحيحة هى موضع اعتزازنا بتفكير عبد القاهر .

ينكر عبد القاهر كما رأينا كل مزية فى اللفظ ، وهو فى ذلك يناقض آراء الجاحظ فى الفصاحة ، ولكن هـذا فى الحق إنكار مسرف لانقره ، ونحن لا ندعى لرجالنا العصمة ، ولا نضرب دائماً بعصاه ، والذى لاشك فيه أن لجرس الألفاظ كما قلنا وقع إيحائى كثيرا ما يعين الكاتب أو الشاعر على استنفاد[1] إحساسه وذلك على أن يسلم من التكلف والصنعة المقسرة . ويثور الجرجانى كذلك على محسنات العسكرى اللفظية وهنا نؤيده مؤمنين بما يقول ، وعنده « أن المزية تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موضع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض » بل « ليس من فضل إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذى تريد ، والغرض الذى تؤم . » ولكنه لا يريد بذلك إلى الأسلوب المسطح الذى لا نتوء فيه ، وكتاباته تشعرك بأنه قد فطن إلى أن الأسلوب الفنى الجيد هو ذلك الذى يصدر عن صاحبه ، وقد سكنت الفكرة وسكن الاحساس إلى طرق ادائهما ، حقيقية كانت أو مجازية ، سكوناً طبيعيا ، حتى لنحس بأن الفكرة أو الإحساس قد ولدا مجسمين فى العبارة ، فلا ندرى أفطن الكاتب إلى الصورة أولا ، أم إلى موضوعها . أخلق الموضوع الصورة أم خلقت الصورة

(١) خذ لذلك مثلا قول الدكتور أبو شادى :

موتى لنا يا آلهى أسنا موتى   ويحدش لنا حظ محروم وموعود

ثم ردد الشطر الأول عدة مرات تشعر لا ريب براحة فى الصدر ، وكأنك كل مرة تطلق زفرة تشق النفس ، ثم تساءل عن مصدر ذلك فانك لن تجده إلا فى توفيق الشاعر بغريزته الصادقة إلى اختيار الذات بدلا من السواكن التى كانت تستطيع أن تؤدى نفس الوظيفة فى الوزن .

الوفر بمعنى الثلج

كتب الأستاذ المحقق حبيب زيات نبذة بعنوان « الوَفْر بمعنى الثلج[1] » ، في جملة مباحث خزانته الشرقية ، التي تضم من الخرائد الفرائد ما هو جدير بالعناية والدرس .

وقد ذكر الأستاذ زيات ثلاثة نصوص بصدد هذا البحث ، إثنان من كتاب مطبوع لابن الفوطي ، وهو « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » ، (بغداد ١٣٥١ ﻫ) ، وثالثها من مخطوط في باريس ، وهو « ذيل تاريخ بغداد » لابن الدبيثي .

وقد وقفنا أثناء مطالعاتنا على أخبار أخرى في هذا الموضوع ، عنينا بها لما فيها من الفائدة التاريخية من جهة ، وإلى أن لفظة « الوَفْر » بمعنى الثلج لم تَرِد في المعجمات العربية التي بأيدينا ، فهي إذن من المستدركات عليها .

وقد جمعنا ذلك إلى ما دوّنه من قبلنا الأستاذ حبيب زيات ، ورتبنا الشكل على ما يستوجب سياق التاريخ .

قال أبو الفرج بن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ للهجرة) أنه في سنة ٥١٥ ﻫ « وقعت أمطار عظيمة ، ودامت واتصلت بجميع العراق ، وأهلكت ما على رؤوس النخل وفي الشجر من الأرطاب والأعناب والفواكه ، وما كان في الصحارى من الغلات . فلما كان انتصاف الليل من ليلة السبت وهي ليلة الحادى والعشرين من كانون الثاني ، سقط الثلج ببغداد ودام سقوطه إلى وقت سقوطه من الغد الظهر ، فامتلأت به الشوارع والدروب ، وقام نحو ذراع ، وعمل منه الأحداث صور السباع والفيلة . وعمّ سقوطه من بين تكريت إلى البطيحة ، ونزل على الحاجّ بالكوفة . وقد ذكرنا في كتابنا هذا (المنتظم) أن الثلج وقع في سنين كثيرة في أيام الرشيد والمقتدر والمعتمد والطائع والمطيع والقادر والقائم ، وما سمع بمثل هذا في الواقع هذه السنة ، فإنه بقي خمسة عشر يوما ما ذاب ، وهلك شجر الأترج والنارنج والليمون ، ولم تهلك البقول والخضر ، ولم يعهد سقوط الثلج بالبصرة إلا في هذه السنة .

أنبأنا أبو عبد الله بن الحرّاني ، قال : لما نزل الوفر ببغداد في سنة خمس عشرة (وخمسمائة) ، قال بعض شعراء الوقت :

يا صُدور الزمان ليس بوَفْرٍ   ما رأيناه في نواحي العراق

[1] المشرق (٣٧) (١٩٣٩) ص ٤٥١ .

الموضوع . الكاتب الكبير يدرك ما في نفسه مكسوا مجسما . يدركه ملفوظا ، يستشعر الفكر والإحساس مرتبطا بعوالم أخرى ، وإذا بالمجاز جزء من الإحساس والفكرة ، ومن ثم لم يكن هناك محل لأن تخشى اللفظية وتلك لا تكون إلا عند من يدركون مواضيع قولهم إدراكا مجرداً من صورها ، ثم يحتالون لوضعها في صور تظل منفصلة عنها ، مصطنعة الالصاق ، ومن هذا النوع الكثير من المحسنات اللفظية الفضوحة . ولهذا نقول إن الصناعة الحقة هي تلك التي تحكم حتى تختفى .

لا خوف إذن من أن يعود بنا عبد القاهر إلى اللفظية ، وما يجوز أن يرهبنا هذا الخوف فنتخلى عن المنهج الطبيعي في دراسة الأدب ، وما دمنا قد فطنا إلى الدور الذي يلعبه اللفظ في خلق مادة الأدب ذاتها ، فمن واجبنا أن نأخذ في بحثنا بالمنهج اللغوي ، ونحن بذلك نجمع بين عناصر الأدب الإنسانية وعناصره اللغوية ، لأن هذه مستودع تلك ، مستودع ثمين لا يقل قدرا عما أودع فيه ويفضله — في النهاية — تميز الأدب عن كل ما عداه .

ليست العبرة إذن عند عبد القاهر باللفظ في ذاته وإنما هي بالنظم .

(يتبع)   محمد مندور

إنما تمّ ظلـكم سائر الخلـــق فشابت ذوائب الآفاق[١]

وقد أخبرنا ياقوت الحموى باسم الشاعر الذى أنشد هذين البيتين ، قال : هو هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادى المعروف بالبديع الأسطرلابىّ المتوفى ببغداد فى سنة ٥٣٤ هـ .

وأضاف ياقوت بعد ذلك قوله : « الوَفْر : الثلج بلغة أهل العراق ، قال (البديع الأسطرلابى) : ذلك فى عام نزل فيه ببغداد ثلج كثير »[٢] .

ثم ذكر ابن الجوزى فى حوادث سنة ٥٥٣ هـ ، أن الخليفة المقتفى بالله « خرج فى (شهر) رجب ، وأحضر قويدان وخلع عليه ، وأضاف إليه عسكراً كثيرا ، ونفذ به إلى بلاد البقش ، وأقطعه البلاد والقلاع ، ثم وصل الخبر بأن قويدان قد انضاف إلى سنقر الهمذانى واتفق معه ، فبعث الخليفة مملوكا يقال له قيماز العادى فى جماعة يطلبونهما ، فهربا ثم انضافا إلى ملك شاه ، فأدركهم الجوع والوَفْر[٣] فهلك أكثرهم ... »[٤] .

وبعد عشر سنوات من هذا الحادث ، أى فى سنة ٥٦٣ هـ ، نزل الوفر ببغداد . قال أبو الفرج : «.. وخرج التشرينان بغير مطر ، وكثر الموت . وفى صبيحة الاثنين وقع وفر إلى أن طبق الأرض إلى قريب نصف الليل »[٥] .

وذكر فى حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، أن « فى صبيحة الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى ، أصبحت الدنيا شديدة البرد ، وسقط الوفر على الناس نهاراً إلى وقت الظهر إلا

(١) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم (٩ : ٢٢٦ — ٢٢٧ طبع حيدر آباد) . وقد نقل هذه الرواية كل من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ١٠ : ٤٢٠ — ٤٢١ طبعة تربرغ — ١٠ : ٢٢٧ بولاق) ، وسبط ابن الجوزى (مرآة الزمان ٨ : ٦٠ طبع شيكاغو)

(٢) معجم الأدباء (٧ : ٢٤٢ طبعة مرجليوث) .

(٣) وضع مصحح المنتظم المستشرق كرنكو ، فى الحاشية لفظة (كذا) ، دلالة على أنه لم يعرف هذه الكلمة .

(٤) المنتظم (١٠ : ١٨١) .

(٥) المنتظم (١٠ : ٢٢٢) .

أنه كان خفيفاً »[١] .

وروى ابن الدبيثى (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ) فى ترجمته محيى الدين الشهرزورى[٢] قال : « من شعره ما أنشدنى أبو الفتح محمد بن على بن المبارك البغدادى ، قال : أنشدنى نفسه ونحن جلوس بداره وكان الوفر ينزل :

ولما شاب رأس الدهر غيظا
لما قاساه من فقد الكرام
أقام يميط عنه الشيب غيظا وينثر ما أماط على الأنام[٣]

أما ابن الفوطى (المتوفى سنة ٧٢٣ هـ) ، فقد روى فى حوادث سنة ٦٦٧ هـ أنه « سقط ببغداد وفر كثير كان سمكه فى السطوح دون الشبر »[٤] .

وقال فى « سنة ٦٧٤ هـ وقع ببغداد وفر كثير علا على الأرض مقدار شبر »[٥] .

يظهر من هذا كله أن لفظة « الوفر » بمعنى الثلج عراقية قديمة ، عرفها أهل العراق منذ أيام الدولة العباسية وقد جاءتهم من جيرانهم الفرس لأنها مأخوذة « من (بَرْفْ) الفارسية ، ويلفظها بعضهم (ورف) ، وبالقلب (وفر) »[٦] .

وقد ورد فى معجم (فُلَّرس) الفارسى اللاتينى فى مادة (ب ر ف) : « برف : وبالعربية ثلج » ؛ ثم قال : « برف آب : ماء مثلج »[٧] .

(١) المنتظم (١٠ : ٢٣٧) .

(٢) هو أبو حامد محمد ابن القاضى كمال الدين الملقب محيى الدين المتوفى سنة ٥٨٦ هـ) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان (١ : ٦٧٥ — ٦٠٦ طبعة بولاق سنة ١٢٧٥ هـ) ، وشذرات الذهب (٤ : ٢٨٧) .

(٣) ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد (مخطوط باريس رقم ٥٩٢١ ، ص ١٢٥) .

(٤) الحوادث الجامعة (ص ٣٦٢) .

(٥) الحوادث الجامعة (ص ٣٨٤) .

(٦) الساعد : وهو معجم الأب أنستاس مارى الكرملى (مخطوط) .

(٧) Vullers : lexicon Persico-latinum. T. 223.

والثلج بالكردية (بَفِر) ؛ وقد جاءتهـا أيضا من الفارسية . قال صاحب المعجم الكردى العربى : «بفر لغة فى برف وهو الثلج»[1] .

نختم كلتنا هذه بأغنية شعبية يرددها أهالى جنوبى العراق ، وفيها اشارة جلية إلى «الوفر» ؛ فهم يقولون[2] :

سُنُونَكْ بيضْ مثل الوَفُرْ[3] بِيِنْ
دِوَالِيكْ بكَلبى وَفُرْ[4] بِيِنْ
لوْ أنْ جِنْحَانْ عندى وفُرْ[5] بِيِنْ
لَجِيكْ بِسَاعةِ الشَّطورى عَلَىّ

* * *

طيف الخيال

طالعت فى هـذه المجلة[6] البحث الطريف الممتع للدكتور فؤاد حسنين ، بعنوان «محمد بن دنيال» مؤلف كتاب «طيف الخيال» ، فرأيت أن أعقب على ما ورد فى عبارته التالية :

«ولعلّ أقدم إشارة فى الأدب العربى إلى هـذا الفن (أى فن خيال الظل) ، حسب رواية صاحب كتاب فوات الوفيات ، الجزء الأول ص ٢٤٨ ، طبع بولاق عام ١٢٨٣هـ ، هى تلك التى جاءت فى الأبيات الثلاثة المنســوبة لوجيه الدين ضياء بن عبد الكريم الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، والتى ذكرها الأبشيهى فى المستطرف باب (فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلّبها بأهلها ، والزهد فيها) ؛ وقد شبهها بعضهم (بخيال الظل) فقال :

رأيتُ (خيال الظل) أعظم عبرة
لمن كان فى علم الحقائق راقى
شخوصاً وأصواتاً يخالف بعضها
لبعضٍ وأشكالاً بغير وفاق
تجيء وتمضى بابة بعد بابةٍ
وتفنى جميعاً والمحرك باقى[1]» انتهى

قلنا : إن القرن الثالث عشر الميلادى ، يقابله القرن السادس للهجرة ، أى من سنة ٥٩٨ إلى ٧٠٠ هـ ، وهى التى عاش خلالها وجيه الدين المذكور[2] الذى قيلَ فى أبياته الثلاثة المنقولة أعلاه ، إنها أقدم ما ورد فى طيف الخيال .

وكنا قد وقفنا على خبر فى طيف الخيال ، أقدم من ذلك بنحو من أربعمائة سنة ، إذ انه يرتقى الى أواسط المائة الثالثة للهجرة ، وذلك فيما ورد فى «الديارات» للشابشتى ، وهو كتاب فرغنا من تحقيقه والتعليق عليه تمهيداً لنشره . وإليك عبارته :

«وقال دِعْبِل (لعبادة المخنّث) يوماً : والله لأهجوَنّك . قال : والله لئن فعلتَ ، لأخرجنّ أمّك فى الخيال !»[3]

وقـد أورد الحصرى القيروانى فى «ذيل زهر الآداب»[4] هذه الرواية باختلاف يسير عما نقلناه عن الشابشتى .

ومن المعروف أن وفاة الشاعر دِعْبِل كانت فى سنة ٢٤٦ هـ ، ووفاة رفيقه عبادة كانت فى حـدود سنة ٢٥٠ هـ .

وثمة ملاحظة طفيفة نقولها فى تسمية صاحب كتاب

(١) الهدية الحميدية فى اللغة الكردية لضيائى (استانبول سنة ١٣١٠ هـ ص ٤٨ و ٥٣) .
(٢) هذا اللون من الأغانى يطلق عليه فى العراق «أبوذية» .
(٣) الوفر هنا يعنى الثلج .
(٤) وفر هنا يعنى أدبر .
(٥) وفر هنا مخففة من أفر أى طير .
(٦) الثقافة ، العدد ٢٠٨ ، ص ١٩ — ٢٢ .

(١) الصفحة ١٩ — ٢٠ .
(٢) ترجمه ابن شاكر الكتبي فى فوات الوفيات (١ : ١٩٤ بولاق ١٢٩٩ هـ) دون أن يذكر سنة وفاته .
(٣) من مخطوط برلين ، الورقة ٨١ ب .
(٤) ص ١٣٢ من طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣ .

تيودور نولدكه

٢ مارس ١٨٣٦ — ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠



لن أنسى ذكريات يوم وفاته فقد كنت طالبا بجامعة ميونخ، وكنت حديث عهد بألمانيا وجامعاتها؛ وشاء الله أن أرى وأسمع نعي هذا المستشرق العظيم في معهد من أكبر معاهد تلك البلاد، ومن عالم من أكبر رجالات ألمانيا الذين كرسوا حياتهم في سبيل الشرق والشرقيين ونولدكه، لم يكن غريباً عليّ، وأنا الذي شغفت بدراسة الشرق العربي، لغاته، وآدابه، حضاراته وأديانه، قديمها وحديثها، فكان لزاما عليّ أن أتعرف إلى آثار هذا العلامة كلما أتيحت لي فرصة. وقد عرفته، وقبل أن أرحل إلى بلاده. عرفته في مصر لا من طريق المصادر الألمانية؛ فقد كنت أجهل حينذاك تلك اللغة، بل عن طريق مصدرين انجليزين عظيمين، وهما دائرة المعارف البريطانية، ودائرة معارف الكتاب المقدس؛ وذلك لأن المستشرقين الانجليز أسندوا إليه تحرير معظم المواد المتصلة بالشرق والشرقيين في المرجعين السابقين.

في ذلك اليوم دخل (هومل) العالم المتواضع والشيخ الذي نيف على السبعين قاعة البحث عابساً مضطربا، لقد كان اليوم عبوساً قمطريرا، وما كاد يصل إلى مقعده حتى صاح صيحة الحزين الكئيب: مات نولدكه. واستطرد في الحديث عنه ورثائه.

مات زعيم المستشرقين الذي وإن كان في العالم القديم يذكر، ففي الجديد لا ينكر. مات نولدكه الذي رفع لواء الاستشراق عاليا وظل رافعه زهاء نصف قرن، مات ذلك العالم الذي كان أمماً في فرد وأجيالا في شخص. نولدكه هو ذلك المستشرق الذي خلق علوما لم تكن معروفة من قبل، وهجم على أعوص المشكلات فجلاها لنا ووضع أيدينا على حقيقتها، فهو لم يمت إلا بعد أن ترك للعالم أربعة وعشرين سفراً، وأكثر من سبعمائة بحث في الشرق، لغاته وآدابه، تاريخه ودياناته.

وهنا ليس بمستغرب على شخصية لها استعداد نولدكه، وأتيحت لها الفرصة أن تتلمذ على أمثال (هينرش الفلد) مؤسس دراسة العروض العربي، وأستاذ المعهد القديم واللغات السامية و(دلمان) مؤسس الحبشية، و(فليشر) عالم العربية، والمدارس الفارسية والتركية و(لاجارد) ناشر الكثير من المخطوطات العربية والسريانية والعبرية، وما إليها، وهو اللغوي القدير وعالم الترجمة السبعينية، و(فلهوزن) العبقري صاحب العهدين القديم والجديد،

« طيف الخيال » فقد ورد اسمه في المقال المذكور « محمد بن دنيال »، بينما أن المراجع التي ساقت ترجمته (١) أجمعت على تسميته « محمد بن دانيال » بإثبات الألف بعد الدال في لفظة دانيال.

ومما كان يحسن النص عليه في هذا المقام، أن المستشرق جورج يعقوب (Georg Uacob)، المتوفى سنة ١٩٣٧ نشر سنة ١٩١٠ في بلدة أرلنجن من أعمال ألمانية، جانبا من كتاب طيف الخيال لابن دانيال.

(بغداد) **كوركيس عواد**

(١) نذكر منها: فوات الوفيات (٢: ١٩٠ — ١٩١) والسلوك للمقريزي (٢: ٩٥ بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة) والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٣: ٤٣٤ — ٤٣٦) ومنهل الأولياء ومشرب الأصفياء في سادات الموصل الحدباء لمحمد أمين العمري (مخطوط عندنا، ص ٩٢ — ٩٤) والبدر الطالع للشوكاني (٢: ١٧١).

وبطل الشعر العربي القديم ، والديانة الجاهلية ، والتاريخين العربي والإسرائيلي .

أما نولدكه فهو مؤسس بحث القرآن واللغتين التدمرية والسريانية ، وهو أول من عنوا بالسريانية الحديثة والنقوش السامية ومقارنة لغاتها المختلفة إلى جانب عنايته بآدابها وقصصها . كان نولدكه يجيد سائر اللغات السامية ماعدا البابلية الأشورية واللهجات العربية الجنوبية . وكان يجيد الآرامية إجادة ميزته على سائر معاصريه من المستشرقين في سائر أنحاء العالم ، ونشر في التدمرية (جنوب بلاد العراق) عام ١٨٧٥ كتاباً قيماً في قواعدها كما ألف المرة الثانية عام ١٨٩٨ كتاباً في السريانية الحديثة في بلاد كردستان ، واهتم بالسامرية والنبطية والتدمرية وما إليها من اللهجات السامية . أما اللغة العربية فكما أنها هي محور الأسرة السامية الحامية كذلك كانت محور دراسات نولدكه ، فقد نشر عام ١٨٥٦ كتاباً عن السور في القرآن الكريم ، وأصلها وتركيبها ، وكان قد كتبه في مسابقة أعلنتها جامعة (جوتنجن) فنال الجائزة الأولى ، واعتبر كتابه رسالة منح بمقتضاها إجازة الدكتوراه . وفي عام ١٨٦٠ أعلنت الاكاديمية الفرنسية عن مسابقة علمية في بحث حول القرآن الكريم فاشترك ذلك المستشرق الألماني الذي كان عمره في ذلك الوقت أربعا وعشرين سنة في تلك المسابقة ، ونال جائزتها ، وعلى هذا البحث تعتمد سائر البحوث الحديثة التي تدور حول القرآن وتاريخه ، وبعد ذلك وجه نولدكه عنايته واهتمامه إلى الشعر الجاهلي ، فترجم كثيراً منه إلى الألمانية كما نشر المعلقات الخمس ، ومن ثم انصرف إلى النحو العربي ، فعرضه عرضاً تاريخياً جيلاً . ولم تلهه العربية الفصحى عن العناية باللهجات العربية الحديثة والقصص وكتب التاريخ ، كالطبري مثلا الذي ترجم منه إلى الألمانية الجزء الخاص بتاريخ الفرس والعرب أيام الساسانيين .

ولد (تيودور) في ٢ مارس سنة ١٨٣٦ بمدينة (هربورج) من أسرة ألمانية قديمة تقطن شمال غربي ألمانيا ، وكان أبوه ناظرا لمدرسة البلدة ، ومن ثم رقي فأصبح عام ١٨٤٩ ناظرا لمدرسة (لنجن) الثانوية على الحدود الهولندية . ولما بلغ (تيودور) من العمر خمسة عشرة عاما أصيب بمرض عاقه عن الذهاب الى المدرسة نحو ربع عام فشغل نفسه في تلك الفترة بدراسة اللغة العبرية دراسة خاصة أعفي بسببها من دراستها بالمدرسة[1] وفي عام ١٨٥٣ سافر الى جامعة (جوتنجن) لحببت إليه شخصية الاستاذ (هينريش اقالد) دراسة اللغات السامية فأقبل عليها وأجادها ، كما اهتم أيضا بدراسة السنسكريتية والتركية والفارسية الحديثة . وبعد أن أدى امتحانه عام ١٨٥٦ سافر إلى (ليبزج) حيث كان يحاضر في ذلك الوقت العلامة (فليشر) وبعد فترة تركها إلى (فينا) لدراسة المخطوطات الشرقية المحفوظة بها ، وهناك التقى بشيخ مستشرق النمسا (فون همر رجشتال) وبعد أن أنجز مهمته رحل إلى (ليدن) عام ١٨٥٧ حيث التقى بمستشرقها (ميخائيل يان دمجويه) وصرف زمنا في دراسة المخطوطات الشرقية بها . وفي عام ١٨٥٨ عاد إلى برلين عن طريق (جوتا) بعد أن حقق الرغبة التي من أجلها قام بهذه الرحلة العلمية ألا وهي جمع مصادره لكتابة مؤلفه الشهير (تاريخ القرآن) . وفي برلين عين نولدكه في مكتبتها ، إلا أنه سرعان ما غادرها عند ما أحس أن مدير الدار يريد أن يحد من حريته . وفي (كيل) وفي فيتته جامعتها وهو في الثامنة والعشرين من عمره أستاذاً مساعداً بها خلفا للعلامة (دلمان) . ولم تمض على تعيينه أربعة أعوام حتى أصبح استاذاً . لكن نشاطه في تلك الجامعة لم يدم

(١) اللغة العبرية تدرس في مدارس ألمانيا الثانوية التي تعنى باللغات القديمة

طويلا وذلك أن الحرب السبعينية التي قامت بين ألمانيا وفرنسا (١٨٧٠) انتهت لصالح ألمانيا فانتزعته حكومته من جامعة (كيل) وعينته في جامعة جديدة هي جامعة (ستراسبورج) لينهض مع زملائه الشبان بالثقافة الألمانية في إقليم (الزاس لورين) وقد ظل تاريخ هذه الجامعة مقرونا باسم نولدكه من ١٨٧٢ — ١٩٢٠ . وهكذا نرى القدر يلعب دورا هاما في تاريخ حياة هذا المستشرق العظيم ، فالحرب السبعينية عينته في استراسبورج ، والحرب الأوربية الماضية أخرجته منها وإن كان تركه لتلك الجامعة كان بمحض اختياره ، وذلك لأن نفسه الحرة الأبية رفضت أن تعيش في أرض يرفرف عليها علم غير علم بلاده

عاد نولدكه عام ١٩٢٠ إلى ألمانيا واختار مدينة (كارلسروه) مستقرا له لكي يكون إلى جوار ابنه الذي كان يعيش هناك ، وقد اتخذ نولدكه بيته دارا لشيخوخته وبقي بها حتى وفاته . عاد من استراسبورج بعد أن صرف فيها ربيع حياته وأهدى إلى العالم أحسن مؤلفاته فإلى تلك الفترة ترجع كتبه في اللغات السامية وتاريخ الفرس وآدابهم والفساسنة وقصة الاسكندر وملحمة الإيرانيين القومية وقصة أحيقار وغيرها . وقد اعترف العالم بمجهوده فتسابقت الحكومات الأجنبية وأكاديمياتها العلمية إلى منحه درجاتها العلمية وألقاب الشرف إلا أن نولدكه لم يكن يعتز إلا بلقبين منها منحتهما له الحكومة الألمانية أولهما لأنه أنقذ طفلا كاد يغرق ، وثانيهما لفضله على العلوم والفنون .

والآن بعد أن فرغت من عرض حياة نولدكه ومؤلفاته أحب أن أضع بين يدي القارىء صورة تبين سر عظمة هذا العالم وقوته وهذه الصورة ليست من عمل ريشتي أو من وحي خيالي بل هي حقيقة مسجلة في مقدمة الطبعة الثانية من الجزء الأول من كتابه في (تاريخ القرآن) الذي نشره (فريدريش شوالي) فقد أرسل ناشر ذلك الكتاب إلى نولدكه عام ١٨٩٨ خطاب يرغب فيه إليه أن يعيد نشر ذلك الكتاب أو يقترح عليه عالما آخر يراه أهلا للقيام بهذه المهمة ، فأجابه نولدكه (... فرفضت أنا لأسباب عديدة وذلك لأنه لم يكن في استطاعتي أن أعيد نشر هذا الكتاب في ثوبه الجديد الذي قد يرضيني لذلك اقترحت على الناشر بعد تفكير لم يستغرق زمنا طويلا تلميذي وصديقي البروفسور (شوالي) الذي أظهر ارتياحه واستعداده لتأدية هذه الرسالة . فقد جعل من هذا الكتاب الذي ألفته منذ نصف قرن سفرا يتفق إلى حد ما مع المقتضيات العلمية الحديثة . أقول إلى حد ما وذلك لأن آثار تهور الشباب لا يمكن محوها كلها إلا بإعادة تأليف كتاب جديد . وكثير من المسائل التي كنت أعتقد قليلا أو كثيرا صحتها ، تبين لي فيما بعد أنها غير مؤكدة ! .....)

دكتور فؤاد حسنين

حكم في الجنحة رقم ٦٨ عسكرية شبرا سنة ١٩٤٢ بحبس كامل محمد عرابي لمدة ثلاثة شهور مع الشغل وتغريمه مائة جنيه وغلق محله لمدة ثمانية أيام لبيعه لحم كندوز بأزيد من السعر المحدد .

حكم في القضية ٤٨٢ سنة ١٩٤٢ حلوان ضد عبد الحكيم أحمد حسين وفتحية عبد الحكيم أحمد وسنية تادرس بتغريم الأول شهرين وتغريم الثانية ٥٠٠ قرش وتغريم الثالثة ٥٠٠ قرش ونشر الحكم في جريدتين وتعليقه وإغلاق المحل يومين لبيعهم خبزا بأزيد من السعر .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدى ... ... "

فى مهرجان العلم

أرأيت كيف يجتمع شعبٌ بأسره قلبا وعاطفةً على فكرة ، وتحتشد أمةٌ بأجيالها ساعيةً إلى غاية ، وتلتقى أمانىُّ جيل من التاريخ فى رجل ، وتتراحم خطواتُ عصر من الناس على طريق ، وتتلاقى أشعة النظرات المتباعدة المبعثرة حول منظر ... ؟

لقد شهدت ذلك كله بعينىّ فى موكب الفاروق ، فى مهرجان العلم ؛ وكان يوماً من التاريخ !

***

... ودعانى مَن دعا لأشارك — بما علىّ من حق — فى مهرجان العلم بالإسكندرية ؛ واستيقظتْ الذكرياتُ الراقدة فى أعصابى وفى دمى ...

الإسكندرية ! يالى من نفسى ! هذه المدينة التى كانت وكنتُ بها ... لقد فارقتُها منذ أربعين شهرا بلا وداعٍ ولا موعدةٍ ، وخلّفتُ بها ما خلفتُ من ذكريات ... كيف أعود إليها وحدى ... !

... هذه المدينة التى كانت وكان مَغْنَاىَ بها فى كل مَصيف ، وكانت وكان لى فيها شعر وموسيقى ، وكانت وكانت لى فيها قصة تتجدد كل عام على أعين الناس بشخوصها ومناظرها ، وكانت وكنتُ لا أعرف لى فيها ماضياً آسَى عليه ، ولا مستقبلاً أرنو إليه ، ولا شيئا من معنى الزمان إلا الحاضرَ الذى كان فعاد اليوم ذكرى تبعث الحنين وتورّث الشوق حين لا أملَ فى لقاء مَشُوق ؛ وكانت وكنت بها فصرتُ اليوم نصفاً فى التراب ونصفاً يدبّ على الأرض لا يكاد يحمل نفسَه من ثقل ما يحمل فى نفسه ... هذه المدينة التى كانت لى يوم كنت ... كيف أعود إليها وحدى ... !

***

... وهبطتُ إليها مع الليل ، وقال لى رائدى : هذه هى الإسكندرية !

أين ؟ ... إنى لا أكاد أرى ، ولا أكاد أسمع ، ولا أكاد أشم ؛ أهذا الاسكندرية ؟ فأين من هذا الظلام الأسحم ؟ وأين من هذا الصمت المطبق ؟ وأين من هذه الريح الفارغة من عطر الهوى والشباب ؟ ... حتى البحر كأنما أخذتْه إغفاءةٌ فكأنه بعد المدِّ همسٌ ولا حِس ، وكأنما ذابت الإسكندرية فى هذا الظلام فلم يبق منها فى عين من يدبّ على أرضها إلا خيالُ التخيّل وذكرياتُ الشوق !!

أين ؟ ... وإلى أين ... ؟ ووقفتُ برهةً أتحسس الظلام بعينىّ حتى كأنّى قد رأيت ، فمضيتُ فى الطريق ...

... ولكن دَعِينى ، دَعِينى أيتها الذكريات ، إلامَ تمضين بى إلى حيث لم أقصد ، ولن أبلغ ؟ دعينى ساعةً لحاضرى ، أُشْعِرينى أنى هنا ، فى الاسكندرية ؛ سيمضى كل شئ إلى غايته ، لا بدَّ لا بد ، حتى خيال التخيّل سيعود ذكرى ، فسيّان حقيقةُ الواقع وأوهامُ التمنّى ، كل ذلك سيرتدّ إلى الماضى يوماً ، سيئول جزءاً من التاريخ ، تاريخ الحياة أو تاريخ المُنَى ؛ ولكنْ ما أنتِ فى غد ؟ حدّثينى من غدك حديثاً قبل أن يصير هذا الغد « أمساً » لا تناله عينُ اليقظان ولا الحالم ؛ إن فى غد موكب الفاروق فى مهرجان العلم ... ...

***

... ورأيتُ كيف أشرق الصبح على الاسكندرية فذاب الظلام إلا بقيةً تغوص فى البحر عند الأفق

البعيد ، وتَقَمَّصَت المدينةُ عن نفسها مع الصبح ذكريات الهول والفزع والموت والدمار ، وطوتْ ما كان من ماضيها القريب وما يُطبِق عليها من أوهامه مع كل مساء ، وأقبلتْ تُمسى ...

وأقبلتْ أُمسى مع الأحياء ، وقد طويتُ ما كان من ذكرياتى فى ورقات ...

إنى اليوم هنا ، وهـذه الاسكندرية ، إسكندريةٌ جديدة غير ما كانت ؛ إنها تتأهب اليوم لاستقبال المليك وتتهيأ لموكبه العظيم فى مهرجان العلم !

لله أنتِ أيتها المدينة الخالدة ، إنكِ كبعض حسان الأساطير : لا تهرمين أبداً ، وإن لك كل يوم شباباً يتجدد ، ولا تزال يتجدد ، ولا تزالين كل يوم فى شبابك الجديد فتنةً وزينة وآيةَ حُسن !

مُنذ كم وأنتِ هنا ، جاثمةً على سيف البحر كحسناء راقدة تستحمّ فى ضوء الشمس الساطع ؟ ...

منذ مئات السنين ، بل منذ الآلاف ، وأنتِ أنتِ ، لا ينفد حسنُكِ ولا يَحُول ؛ لأنكِ شبابٌ يتجدد ، كبعض حسان الأساطير !

***

اليوم موعد المهرجان !

ورأيتُ كيف اصطفّت وفود الشعب وفداً وفداً ، وكيف تَمَيَّلُ أمواجه من كل حَدَب فوجاً فوجاً ، وكيف التقى وجوه العلم وعظماء الساسة صفاً صفاً ، وأقبل الملك يخطر فى حاشيته بين صفّين من شِيبٍ وشباب ؛ هنا طلاب الجامعتين وهنـا الأساتذة ، وهناك الشعب المحتشد وراء السياج يموج بعضُه فى بعض ، تستعلى عاطفته على قواعد النظام ، ويستعلن حبُّه فى الحشد اللجب وفى ازدحام الأقدام !

وأقبل يسعى ...

من ذلك الساعى العظيمُ ولِمَن مَسْعاه ؟

إنه أكرم ساعٍ إلى أعظم مَسْعًى !

إنه المليك يَسعى إلى الجامعة ، إلى سُدّة العلم ومَثابة الحكمة !

ما أحكمَه معنًى لو عَقَل الشباب !

ما أبلغه رمزاً لو عَبَّر الفن !

ما أعظمها حادثةً لو أنصف التاريخ !

المُلك ، السلطان ، الأمر النافذ ، الحكومة القاضية ، الجاه الساطع ، الشباب الطامح ، المحبة الآسرة : كل أولئك هنا ، فى هذا المكان ، حيث يخطو المليك خطوه الميمون فى ساحة الجامعة !

مَتَى يُحسن أن يترجم الشباب من معنى كل أولئك ليبلغ من أنفسهم ويَبلغَ بهم ؟

مَتى يقولُ فيُحسن ويُبين ليعرفَ منهم من لم يعرف بعدُ أين مكانةُ العلم ومكان الجامعة ؟

ومَتى يصف التاريخ فيصدق ، ليتحدث التاريخُ للأخلاف مِن بعدُ عن يد الفاروق على العلم ومكانه من أهله ؟

***

واقتعد المليكُ العرشَ تلتقى عنده النظرات وتحتشد الأماق ؛ ووقف الوزير بين يديه يخطب :

« مولاى !

« ... وقد شاءت الأقدار السعيدة أن يكون حظ الاسكندرية إنشاءً وإحياءً على يد ملكين عظيمين وهما فى مقتبل الشباب ؛ فقد أنشأها الاسكندر الأكبر وهو فى سن الرابعة والعشرين ، وأحياها فاروق الأول وهو فى الثانية والعشرين ... »

« ... كان الملوك الأقدمون يتباهون فى إكرام العلماء واختصاصهم بالمودة والعطاء ... فانظر يامولاى

تحيــــة العرش

رَدِّدى يا مصرُ صــداحَ الأغانى
وأغاريدَ الهنــــاء
وارقصى للتــاجِ أنغامَ التهانى
وابعثى لحنَ الولاء
وانسجى للعرش من دُرِّ الزمانِ
تاجَ عزٍّ وبهــاء
واستهلى اليومَ عيــداً وارتقى عهداً سعيدا
يومَ ميلادِ المليك

عطِّرى يا زهرةَ الوادى حِمَاكِ
بأريجٍ من شذاه
وانثرى يا شمسَ وادينا سناكِ
مستمداً من سناه
وابلغى يا أمتى أوجَ علاكِ
وارشفى كأس الحياة
شيِّدى صرحاً جديداً وابتدى عهداً مجيدا
يوم ميلاد المليك

ها هى الأمة من حولك تشــدو
بأمانٍ للمليـــك
يغمرُ النيلَ على كفيك سعدُ
حقق الآمالَ فيكْ
ودماء الشعبِ من وحيكَ تغدو
فى قلوبٍ تفتــديك
تملأ الدنيا نشــيدا وترى فى الأفق عيدا
يومَ ميلاد المليك

عبد المسيح جرجس
(كلية الآداب)

كم من العلماء يعيشون فى ظلكم الظليل وينعمون بعطفكم الجميل ! »

ووقف مدير الجامعة يخطب :

« ... وها أنت ذا — يا مولاى — تتفضل فتقبل هدية الجامعة ، ثم تتفضل فتسعى إليها لتتلقى منها هديتها ؛ إكباراً لشأنها ، وإعلاءً لقدرها ، وإذناً لها بأن تمنح من درجات العلم والفخر ما تشاء لمن تشاء ... »

ووقف المليك ليلبس ما تُلبسه الجامعة من ثيابها ، ويتقبل ما تُهدى إليه من درجاتها ، فلو رأيتَ لرأيتَ « تواضعَ المُلك » فى أعظم رفعة ، و « ديمقراطية العلم » فى أرفع منزلة ؛ ولرأيتَ ما يصف التاريخُ فى غد للأجيال بعد الأجيال فلا يسأل سائلٌ بعد : ما العلم ؟ وما الجاه ؟ وما السلطان والرياسة ؟ ... إنَّ كل أولئك إلا رمزٌ لمعنًى واحد ، هو الجلال فيما رأيت من هيبة المُلك وجاه العلم فى عظمة منظر الفاروق وهو يسعى إلى الجامعة ، ثم وهو يتقبل درجتها ويلبس ثيابها !

ما أحكمه معنى لو عَقَل الشباب !
وما أبلغه رمزاً لو عبَّر الفنّ !
وما أعظمها حادثةً لو أنصف التاريخ !
وما أبهاه منظراً وأبلغه أثراً لو وعاه كل ساع إلى الجامعة من شباب الوادى !

« قاف »

من قصص الريف — أقصوصة ريفية

زينب

«إلى قصاص الدو ، ومصور البادية ، وباعث الحياة فى الروح الخامدة ؛ إلى الأستاذ النابغة «محمد فريد أبو حديد» أهدى هذه الأقصوصة الريفية» .

على ضفة الجدول الشادى ، وفى ظل النخلة الباسقة التى يهزها النسيم ، فتساقط الرطب الذى يذهب ببعضه ماء الجدول ، ويصيب من بعضه بعض الطير ، جلست زينب ؛ تلك الفتاة القروية الحسناء متكئة على جرتها تستمع فى شغف إلى حديث ابراهيم ؛ إلى حديث الحب ، إلى حديث الشباب فى ربيع الحياة :

الحياة الحب ، والحب الحياء

هو من سرحتها سر النواء
وعلى محرابها مرت يداه
لجرت ماء وظلا وجنى

جلست زينب تستمع إلى ابراهيم فيحدثها بحديث قلبه ويستمع إليها إبراهيم فتحدثه بحديث قلبها ، حتى دنت الشمس من الغروب ، وعاد الفلاحون من كل صوب عاشيتهم إلى القرية يغنون ، وعادت الطير من كل ناحية تهزج إلى المشاش ، ونظرت زينب فلم تجد رجلا فى حقل يعمل عملا ، ولا فتاة على ماء تملأ جرة ، فثابت إلى نفسها وقامت متثاقلة إلى جرتها ، فشمرت عن ساقيها ونزلت بها إلى الماء مذعورة تتلفت ، وطفق إبراهيم ينظر فى لهفة إلى ساقيها العاريتين الجميلتين يلثمهما الموج ، وإلى جرتها يقهقه فيها الماء ، وحانت منها التفاتة ، فاشتبك النظران ، وخجل الحبيبان وأغمضت الجفون .

ووثبت زينب فى خفة الغزال إلى الشاطئ ، وسحبت جرتها من الماء ، ورفعتها بمعاونة فتاها إلى رأسها ، وسوتها على حويتها ، وبدت بها وهى تنظر إلى الرطب المتساقط من النخلة فى الجدول يتقاذفه الموج ، وعلى الشاطئ يتخاصم عليه الطير كحورية على شاطئ الكوثر ، وظلت كذلك برهة كانت فيها فتنة كل من رآها ، ثم نظرت إلى فتاها نظرة ساحرة ، زلزلت قلبه ، وزلزلت الأرض تحت قدميه ، ثم ولت عنه تتهادى بجرتها فى طريق القرية بين الأشجار التى يصدح من فوق أغصانها الطير .

ظل الفتى المفتون فى ظل النخلة الحبيبة إلى الفتاة الجميلة فى الطريق حتى توارت عنه ، فعاد ينظر إلى النخلة ، وإلى الزلال العذب تحت النخلة ، ظل ينظر مبهورا يناجيه الحب فى كل مايرى ويسمع ، حتى سحبت الشمس الغاربة فى رفق آخر أذيالها عن الوادى ، ولف الكون سكون شامل لا يقطعه إلا أنين ساقية يحمل الريح بكاها ، أو حفيف شجرة يقطع القلب أساها ، فكل بصره ، واضطربت المناظر أمام عينيه فعاد ينظر إلى النخلة التى جرى فى ظلها حديث الهوى فأشجى الطبيعة ووله الطير .

ظل الفتى المفتون فى ظل النخلة الحبيبة ساهما يستروح نسمات المساء ، ويستمع إلى مناجاة الطير حتى سجا الليل وأطبق الظلام ، فثاب إلى نفسه وودع نخلته وعاد إلى القرية ؛ القرية التى عادت إليها زينب ؛ زينب حبيبته ، فهل هو ملاقيها هناك ؟ ذاك شيء لايدريه ؛ ولكن الذى يدريه ، أن أمامه أهوال ليل طويل ؛ فهل أمام حبيبته مثل أهوال هذا الليل الطويل ؟ ذاك شيء ولا شك فيه ؛ ألم تكن تبادله النجوى منذ حين ؛ ألم تكن تستمع فيحدثها ويستمع إليها فتحدثه ؟ ألم تجمعهما الحب فى خلوة فينسيا كل جليل فى الحياة إلا هذا الحب ؟

لا بد لكل من الفتى والفتاة من سهر طويل يخلو

فيه إلى نفسه فيستعيد ما مرّ في النخلة من أحاديث ، ولا بد لكل منهما أن يمرّ على مخيلته ما مرّ عليه في ظل النخلة من صور ، ولا بد لكل منهما بعد هذا السهر أن ينال حظا من النوم ، ومن يدرى لعلهما يريان في نومهما أنهما جالسان إلى النخلة ؟ ومن يدرى لعلّ النخلة تقترب منهما حينا وتبتعد عنهما حينا آخر ؟ ومن يدرى لعلهما يظلان في هذا الحلم ، وفي غير هذا الحلم حتى يصحوا على أصوات الطير في الفجر ، فتهزهما هزا ، وتدفعهما دفعا حيث يتسابقان خفافا إلى النخلة التي في ظلها الفتيان يتلاقيان .

ظلت النخلة ملتقى الحبيبين ؛ يتلاقيان عندها في شغف ، ويفترقان عندها في لوعة حتى كان أصيل من الآصال ، فإذا بزينب آتية من القرية في بعض لداتها من فتيات الريف يحملن جرارهن ساعيات في طلب الماء ، وهن يتحدثن في شئون الحقل والدار ، والأسرة والوطن مرحات لهن ضحكات عالية يتردد صداها في الفضاء ، حتى بلغن أول ماء فلن إليه ، إلا زينب ، فقد أبت أن تملأ منه جرتها ، وقالت لرفيقاتها وهى تواصل سيرها منفردة : الماء جميل عند النخلة ، وأشارت إلى باسقة يداعبها الريح على ماء بعيد .

ظلت زينب تتهادى بجرتها في طريقها إلى الورد المحبوب في ظل النخلة الحبيبة حتى أدركتها ريح هوجاء تتقلب في الفضاء ، وتطعن في أحشاء الشجر ، فجعلت تعبث بثوبها الفضفاض فتجذبه حينا وتلصقه ببدنها حينا آخر فتبدو مفاتن جسمها الجميل : قد معتدل طويل في غير إفراط ، ممتلىء في غير ترهل ، قد رسم الجمال كما شاء خطوطه وصور أعضاءه ، يشرف على هذا القد من فوق رقبة طويلة ساحرة النحر وجه جميل ، به عينان ساحرتان ، قد جعلهما الله في هذا الوجه لعباده فتنة يضل بهما من يشاء ، ينبعث من هاتين العينين لغة لا يفقهها غير الملهمين من أهل الأدب ، والمتيمين من أهل الحب .

ظلت زينب تسير وهى تتعثر بأذيالها وسط هذه العاصفة الهوجاء ، التي تزمجر من حولها حتى وصلت إلى المكان المحبوب ، حيث كان فتاها ورفيق صباها وحده في ظل النخلة التي تتمايل كالشارب النشوان ، ينتظر على أحر من الجمر فتاته ورفيقة صباه ، فهلت عليه فجأة من جانب كثيب أهيل تتلفت تلفت الظبى المذعور ، فخفق فؤاده خفقانا شديداً ، وعيت ساقاه عن حمل جسمه ، فجلس وجلست إليه حبيبته يشملهما صمت شعرى رهيب ، هو أبلغ كلام في لغة الوجدان .

وبينما هما في صمتهما الشعرى الرهيب يستمعان إلى أنين النخلة وعويل الريح إذ سقطت عليهما ثمرة فتذوقها الفتى فإذا هى مرة فلفظها ، وتذوقتها الفتاة فإذا هى مرة فلفظتها أيضا ، وعاد الفتى والفتاة إلى صمتهما الأول ، تخاطب عينا كل منهما عيني الآخر ، وفجأة انتصبت زينب واقفة تستروح ريح النخلة وتنظر إلى الوادى وإلى الشمس الغاربة ، ثم إلى حبيبها وتبكى ، وينظر الفتى إلى حبيبته الباكية فيرى الجمال في أروع صورة فيبكى بكاء مرا من بكاء حبيبته التي امتنعت أن تخبره عن سببه .

حدقت الفتاة طويلا في وجه الفتى بعينين مخضلتين بالدمع ، ثم ولت عنه تتهادى بالجرة إلى القرية ، تاركة إياه في جوار النخلة ؛ النخلة التي شب في ظلها القدس أسمى ما في الوجود من معانى الخلود ؛ النخلة التي شاهدت قصة هواه ؛ النخلة التي سمعت حديثه ونجواه ؛ ظل الفتى في ظل نخلته الحبيبة يستمع إلى لغة الحب من حناجر الطير ، ويتنسم ريح الحب من شجرات الحقل حتى أظلم الليل ، فعاد إلى القرية ولم يدر ما خبأ له القدر في الغيب .

فى أمسية حزينة من أمسيات الصيف سمعت من بيت زينب ضجة يتخللها غناء صبية وزغردة نساء . ما الخبر قالوا : زينب بنت عمران تزف إلى أحمد بن سعد ؟ زينب تزف إلى غير حبيبها ؟ ! زينب تزف إلى غير إبراهيم ؟ ! يا للفجيعة ! يا لسخرية القدر ! يا لشقاء الحياة ! ! فيم إذن كانت كل هذه الأحاديث ؟ ما أقساك أيها القدر ! ما أتعسكم أيها الناس !

طنبدى — منوفية **شفيق أحمد معروف**

محكمة البليا الجزئية الأهلية

اعلان بيع عقار فى القضية المدنية رقم ٢١٢٧ سنة ١٩٣٨

لمرة أولى

انه فى يوم السبت ١٣ مارس سنة ١٩٤٢ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بأودة المزايدات بسراى المحكمة .

سيصير الشروع فى بيع العقار الآتى بيانه ملك ورثة محمد عثمان عبد أبو ستيت فى نجع المراغوه تبع بحوع بردبس وهم سيف الملوك وعابدين وأمين أولاد عثمان أبو ستيت والست زينب على عبد أبو ستيت والست حليلة عثمان عبد أبو ستيت زوجتى المرحوم محمد عثمان أبو ستيت والست رومه عثمان عبد أبو ستيت من نجوع بردبس والصادر عنه نزع الملكية بموجب الحكم الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٦/١١سنة ١٩٣٨ والمسجل بمحكمة سوهاج الأهلية فى ٢٧–١١–١٩٣٨ رقم ١٣٦ سنة ٩٣٩ وفاء لمبلغ ٨٢١م ٣٦ج بخلاف ما يستجد من المصاريف . وهاك بيان العقار

١ س شيوعا فى ٧ س كائنة بزمام نجوع بردبس مركز البليا بحوض أبو عبد رقم ٨ بالقطعة رقم ٩ أ كلها ورقم ٧ الحد البحرى ورثة عثمان ابراهيم الغليظ رقم ٧ بطول ٣٦٧ متر والشرقى جسر ترعة أبو ستيت بحوى رقم ٢٢ بطول ٧١ متر والقبلى لبيب زمانيوس سويحة والسيد محمد حساب رقم ١٠ بطول ٣٨٤ متر والغربى رشوان ورضوان ولبى رمضان رقم ٨ بحوضه بطول ٥٠ س ٨٠٠ متر .

وسيباع العقار قسما واحدا ويفتح مزاده على مبلغ ٤٨ ج .

وهذا البيع بناء على طلب مديرية جرجا .

فعلى من له رغبة فى الشراء الحضور فى الزمان والمكان المبينين أعلاه وجميع الأوراق مودعه بدوسيه الدعوى بقلم الكتاب لمن يريد الاطلاع عليها .

كاتب البيوع

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين مصر —

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرجاني عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ٢١٧ — الثلاثاء ١٨ من صفر سنة ١٣٦٢ — ٢٣ من فبراير سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

الميـــــدان الروسى
بين المـــــد والجزر

يتألف الميدان الروسى من سهل عظيم واسع ، أطرافه الشمالية مشرفة على البحر القطبى ، وأطرافه الجنوبية تمتد إلى البحر الأسود وجبال القوقاز ، وبين الطرفين مسافة لا تقل عن ثلاثة آلاف من الكيلو مترات ، وليس فى هذه المساحة كلها جبال أو مرتفعات عالية ، بل أرض سهلة واطئة ، يتخللها قليل من الكثبان والتلال . فهو إذن ميدان خال من العقبات الجبلية خلوا تاما ، اللهم إلا فى أطرافه الجنوبية .

ولكن ليس معنى هذا أنه ميدان سهل ، أو أنه خال من كل صعوبة ، بل هنالك صعوبات ، لانستطيع أن نصدق أنها كانت مجهولة لقيادة محكمة دقيقة ، مثل قيادة الحكومة الألمانية ، وهى كما نعرف مزودة بجيش هائل من الخبراء فى كل علم وفن ، ولم تكن تقدم على عمل جليل ، إلا بعد أن يوزن بميزان دقيق ؛ ولقد شاهدنا هذه الدقة البالغة ، فى الإغارة على نروج ودنمارك فى ابريل عام ١٩٤٠ ، وعلى بلجيكا وهولندا وفرنسا فى مايو من ذلك العام ، وفى الاغارة على البلقان فى ربيع العام التالى ؛ وكانت كل خطة محكمة مدبرة أدق تدبير ، وموقوتة بالموعد اللازم ، وكانت دائما تكفل بالنجاح التام وبعقد للجيش الألمانى لواء النصر فى زمن وجيز لايتجاوز الأسابيع . . . . كانت جميعا حروبا خاطفة من الطراز الذى برع فيه الألمان ، وأحكموا خططه وأعدوا له عدته ، وأتقنوه إتقانا باهرا . وكانت الجيوش العظيمة تتحرك بدقة تنم عن مران محكم طويل ، جعلها بمثابة الآلات

التي تحركها يد القائد ، فتندفع في الطريق التي رسمت لها تماما ، ولا تحيد عنها قيد الشعرة ، ولا تلبث أن تتم دورتها وتبلغ المرمى الذي وجهت إليه . بمثل هذا الإتقان الشديد غزيت بولنده ، وداغاركه ونروج ، وهولنده وبلجيكا وفرنسا ، ويوجوسلافيا واليونان ؛ وبمثل هذه السرعة كانت قوات رومل تزحف وتنتصر كما فعلت في ابريل سنة ١٩٤١ ، وفي يونيو من العام التالي .

ولكن هذه الآلة المحكمة الدقيقة ، لم تعمل في روسيا بدقتها المعهودة ، وبدلا من أن تتم دورتها في أسابيع أو أشهر ، نراها اليوم وقد مضى عليها عام وثمانية أشهر ، وهي لا تزداد إلا بعدا من الغرض الذي تطلبه ، والنصر الذي تنشده .

إن أولى الصعوبات في الميدان الروسي سعته الهائلة التي تقدر بآلاف الكيلومترات ، فقد كانت الانتصارات النازية من قبل مقصورة على ميادين صغيرة جدا إذا قيست إلى هذا الميدان المظيم ؛ ولا يمكن أن يقال إن القيادة الألمانية لم تكن تفطن لهذه الحقيقة الأولية ، وهي التي تعمدت أن تزيد هذا الميدان اتساعا ، بأن اقحمت معها فنلنده في هذه الحرب ، فوسعت الميدان بنحو الثلث ، وهذه السعة الهائلة تتطلب جيوشاً جرارة . فنحن اليوم لسنا في عهد نابليون الذي أغار على روسيا بستمائة ألف من الجند ، وكان مع هذا يدعو جيشه بالجيش الأعظم ، وكان يقوده في ميدان محدود ؛ أما اليوم فإن الميدان يتناول كل قطعة من الأرض تقع بين بلاد الفريقين المتحاربين ، وأقل تقصير في نقطة واحدة من هذا الميدان العظيم ، قد تعود على الجيش كله ، في الميدان كله ، بالوبال والهزيمة الساحقة .

وقد تعمدت ألمانيا أن تجعل الميدان الروسي ميدانا واسعا عظيما ، ولا شك أنها كانت تدرك أن هذا يستلزم قوات وجيوشاً عظيمة في كل جزء من أجزائه .

والصعوبة الثانيـة في الميدان الروسي ، هي عمقه العظيم وبعد غوره ، فإن غزو البلقان كان ينتهي إلى البحر المتوسط ، وغزو دول غربي أوربا كان يفضي إلى المحيط الأطلسي ، وبحر الشمال ، وغزو بولنده انتهى بتقسيمها بين ألمانيا وروسيا ، وبينهما في ذلك الوقت معاهدة صداقة و « عدم اعتداء » ؛ أما في روسيا ، فإن الميدان عميق بعيد الغور ، ولا بد من قطع ألف كيلومتر قبل الوصول إلى موسكو ، وعلى فرض بلوغها والاستيلاء عليها ، يظل وراء موسكو آلاف أخرى من الكيلومترات ، وبين حدود بولنده وأرض القوقاز ذات البترول الغزير مسافة ألفين من الكيلومترات .

ولكن هذه المسافات البعيدة ، قد تهون إذا كانت الجيوش التي تقابل الغزاة قليلة العدد ضعيفة العدة . وهذه هي الصعوبة الثالثة التي لم تقدرها القيادة الألمانية قدرها . وفي هذا الأمر بوجه خاص كان الميدان الروسي يختلف كل الاختلاف عن كل ميدان آخر غزاه الألمان . فقد كانت الدول التي أغارت عليها ألمانيا ضعيفة جداً بالقياس إليها ، وكانت ألمانيا تعرف هذا الضعف معرفة تامة . وكانت تقدم على كل عمل حربي وهي واثقة من نصر باهر سريع . وهي من غير شك أقدمت على حرب روسيا وهي تظن أنها ستغزو أمة ليست بأحسن عدة ولا استعداداً من الدول التي تغلبت عليها من قبل . وقد اعترف أحد قادتها في الشهر الماضي بأن روسيا قد ارتكبت أكبر خديعة في التاريخ لإخفاء قوتها الحقيقية ، وذلك بأن سمحت لفنلنده بأن تنال انتصارات سهلة رخيصة على الجيش الروسي في شتاء عام ١٩٤٠ ، فأوهمت الناس أن الجيش الروسي قوة غير ذات خطر ، وأنه لن يستطيع الثبات أمام قوة حديثة بارعة العدة عظيمة العدد كقوة الجيش الألماني المظفر .

وسواء أكانت الحرب الفلندية خديعة أم لم تكن ، فإن العبارة التي فاه بها القائد تنطوي على فكرة عجيبة ،

وهي أن من الشروط الأساسية لإشهار الحرب أن يكون العدو ضعيفاً والنصر محققاً . فالحروب في عصر هذه الحضارة العظيمة التي نعيش في ظلها ، لا تشهر من أجل حق يطالب ، أو أذى يدفع ، أو شرف يثأر له ؛ بل لأن هنالك أرضاً عظيمة أو غير عظيمة ، لا يستطيع أصحابها الدفاع عنها .

ومع ذلك فقد ذكرت أسباب رسمية للإغارة على روسيا ، لم يذكر فيها بترول القوقاز ولا قمح أكرانيا ، بل أعلنت القيادة الألمانية في صيف عام ١٩٤١ أنها تغزو روسيا لأسباب كثيرة ، أهمها أن روسيا — وبينها وبين ألمانيا معاهدة صداقة وعدم اعتداء — لم تكتف بالحصول على نصف بولنده ، بل بسطت نفوذها على دول البحر البلطي ، ثم استولت على بسارابيا ، وعضدت يوجوسلافيا سراً في مقاومتها لألمانيا . وأخيراً ولعله أهم الأسباب — أن ألمانيا لا تستطيع أن تشرع في غزو بريطانيا ، حتى تؤمن ظهرها بالتغلب على روسيا ؛ ولهذا اتخذت موقف الدفاع في الغرب ، والهجوم في الشرق .

هذه هي الأسباب الرسمية للحملة الروسية ؛ وليس بينها كلمة واحدة عن السبب الذي ذكره مارشال جورنج في نهاية الشهر الماضي ، وهو أن ألمانيا كانت تظن أن محاربة روسيا ستنتهي بفوز حاسم وسريع . ومع هذا فإن ألمانيا لم تدخر وسعاً منذ بدء الحكم النازي ، في إعلان روسيا بأن مثل هذه الحرب خطب لا مفر منه ، وأن النازية شعارها العداء الصريح للدولة الروسية . وكان زعيم ألمانيا لا يترك لحظة تمضي دون أن يعلن للعالم أجمع عداء أمته لروسيا ، وحاول جهده أن يكسب في هذا العداء أعواناً وأنصاراً في كل قطر من الأقطار . وألف الميثاق الشهير ضد الشيوعية ، وقوام هذا الميثاق دولة إيطاليا واليابان وألمانيا .

وبرغم هذا كله فإن ألمانيا مدت يدها بمعاهدة الصداقة وعدم الاعتداء ، وتم التحالف بين الخصمين اللدودين في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ . وتظاهر كل من الطرفين بأن ليس بينهما شيء يدعو إلى الخصام .

ومضت ألمانيا بعد ذلك في حربها مع بولنده وبريطانيا وفرنسا . ومضت روسيا في استعدادها لليوم العصيب الذي لم يكن بد من أن يحل بها قريباً أو بعيداً . وفي ٢٠ يونيو سنة ١٩٤١ هجمت الجيوش الألمانية على أرض روسيا وبدأت زحفها الهائل ، بعد أن تزودت بعدد من الأنصار والحلفاء من الدول الصغيرة ، مثل رومانيا وهنجاريا وفنلنده .

لقد بدأت ألمانيا غزوها في نفس الوقت الذي بدأ فيه نابليون زحفه الشهير في عام ١٨١٢ ، وقد أجمع المؤرخون على أن نابليون قد بدأ زحفه متأخراً بالنسبة إلى موسم الحرب في ميدان كالميدان الروسي . وقد تأخرت ألمانيا أيضاً في زحفها ، لأن جيشها كان مشغولاً من قبل بالمراحل الأخيرة



من حملة البلقان ، فبدأ غزوه متأخراً . وقد دلت قلة استعداد الجيوش الألمانية لحرب الشتاء، أنها كانت ترجو أن يتم لها الفوز قبل أن يحل الشتاء .

وأخذت الجيوش الألمانية تتقدم بسرعة فى اتجاهات ثلاثة : أولها تفضى إلى كيف وأكرانيا ، ومن ورائهما القوقاز ؛ والثانية تتجه رأساً إلى العاصمة فى موسكو ؛ والثالثة وجهتها العاصمة الشمالية فى لننجراد . ومضت الجيوش الألمانية نحو هذه الأهداف الثلاثة ، وهى تتقدم باطراد ، ولكنها لم تحرز انتصارات سهلة رخيصة ، كالتى ألفها الجيش الألمانى واعتادها ؛ وحسبنا أن نذكر أن الجيوش النازية وقفت أمام عقبة واحدة ، وهى سمولنسك بضعة أسابيع قبل أن تتمكن من اجتيازها والتغلب عليها . وفى نهاية الصيف ، فى الأيام الأولى من شهر أكتوبر ، كانت الجيوش الألمانية قد اقتربت جدا من أهدافها الثلاثة ، ولكنها لم تصل إليها ، فوقفت على أبواب القوقاز بالاستيلاء على رستوف ، وتوقفت أمام موسكو على بعد خمسين أو ستين كيلومتراً منها . وأحاطت بلننجراد ولكنها لم تستول عليها ... وجاء الشتاء مبكرا ، كما قالت لنا القيادة الألمانية مراراً ، وبدأ الجزر ، بعد أن بلغ المد أقصى مداه ، وتراجع الألمان أمام هجمات الجيش الروسى فى الشتاء الأول ، فجلوا عن رستوف ، وتراجعت جيوشهم مسافات كبيرة ، ولكنها لم تصب بخسارة فادحة فى الرجال أو فى العدة .

ثم بدأت الحملة الثانية مبكرة فى شهر مايو الماضى ؛ ورسمت لها القيادة الألمانية خطة جديدة ، فركزت كل قواها الهجومية فى ميدان واحد دون سواه ، وهو الميدان الجنوبى الذى يوصل إلى القوقاز ، ومن وراء القوقاز إلى إيران والعراق ، فى طريق يستحق أن يدعى طريق البترول ؛ ركزت ألمانيا جل جهودها فى هذا الميدان ، وبغيتها منه أن تضرب عدة عصافير بحجر واحد ؛ وبلغت فيه إلى مدى بعيد ، واتجه الهجوم فى طريقين ، أحدهما نحو الشرق ، وهو الذى بلغ ستالينجراد ، والآخر نحو الجنوب فى صميم بلاد القوقاز الشمالية ، واستطاعت الجيوش الألمانية أن تصل إلى آبار البترول فى مايكوب ، وأن تستولى على إقليم نهر كوبان ، وأن تتعمق فى السفوح الشمالية لجبال القوقاز . وكان الشتاء رفيقا بالجيوش الألمانية هذا العام ، فبدأ متأخرا ، ورغم هذا لم تستطع ألمانيا أن تتم استيلاءها على ستالينجراد ، وبدأ الهجوم الروسى فى هذا الشتاء الثانى ، قبل أن يحقق الهجوم الألمانى جميع أغراضه .

وقد كان الروس أكثر توفيقا فى هذا الشتاء ، فاستطاعوا أن يقضوا على جيش ألمانى كامل فى ستالينجراد وهو من خيرة الجيوش الألمانية ، وأكثرها مراسا وأحسنها عدة ، ولم تبادر ألمانيا بالتراجع عن ستالينجراد ، وإخلاء القوقاز ، لأنها من غير شك لم تكن تحسب أن الهجوم الروسى سيكون قويا عنيفا بالدرجة التى ظهر بها . وفوق هذا فمن الجائز أن بقاء الجيش السادس فى ستالينجراد كان ضروريا للقيادة الألمانية ، لكى يؤخر تقدم جيوش السوفيت ؛ ورغم هذا فقد مضت القوات الروسية فى زحفها بسرعة غير معهودة ، فاستطاعت أن تواصل تقدمها تاركة أمر ستالينجراد للزمن ، وتقدمت فى القوقاز حتى وصلت إلى شواطئ البحر الأسود ، وقطعت على الجيش الألمانى فيه خط الرجعة ، بحيث لم يبق أمامه وسيلة للخروج من القوقاز إلا عن طريق بوغاز كرش إلى جزيرة القرم .

وقد أحس الألمان فداحة الخطب ، وأعلنوا حدادهم على الجيش السادس ، وبدلوا قليلا من خططهم الحربية ،

(البقية على صفحة ٢٣)

صور قضائية :

مآزق ... !

كان أهل العصور القديمة ينظرون إلى الجريمة على أنها أثر من آثار إرادة الإنسان الحرة ، ولذلك كانوا يحملون الجانى كل نتائج جريمته ، ويلقون عليه كل تبعاتها ، فاتسمت عقوباتهم بالصرامة والقسوة ؛ حتى لقد كان القانون يكتفى بتقرير الحد الأدنى للعقوبة ، ويترك للقاضى أن يرتفع بها إلى حيث يشاء ؛ وكان الميل إلى الانتقام من الجانى يملى على القاضى حكمه فى كثير من الأحيان .

ثم تدرج المجتمع بالجريمة وعقابها لجعل يقيس العقوبة بمقياس الضرر الذى أصاب المجتمع من جرائها ، ولم يعد يحاسب الجانى على نيته كما كان يصنع فيما مضى ، بل اكتفى بأن ينزل به من العقاب ما يتكافأ مع فعلته المادية التى اقترفها ؛ ولكنه سوّى أيضاً بين المجرمين فى العقوبة ، فمن ارتكب جريمة نال عقابها بصرف النظر عن ظروفه الخاصة ، فالصغير أمام القانون كالكبير ، والبالغ عنده كالقاصر ؛ وتخفف المشرع من فكرة الانتقام من الجانى ، وزعم أنه حين ينزل به العقوبة لا يريد إلا أن يردعه ، ويوفر العبرة لغيره ممن تحدثهم أنفسهم بمقارفة الجرائم .

ثم خطا المجتمع خطوة أخرى ، فخرج من ذلك النظام الآلى الذى سبق وضعه لقياس الجريمة وتقدير العقاب ، واعترف بمبدأ الظروف المخففة ، وأعطى القاضى سلطة تقديرها ، وأخرج القُصَّر وذوى العاهات العقلية من زمرة المسئولين عن أعمالهم الجنائية .

ثم جاء لمبروزو صاحب نظرية (الارتداد الوراثى) التى تقول بأن النزعات الإجرامية يمكن إرجاعها إلى ارتداد الإنسان وانتكاسه إلى نماذج وحشية بدائية ، وأن سبب الجريمة يرجع إلى ظواهر جسمانية فى شخص المجرم نفسه ، وأن المجرم ما هو إلا شخص لم يشمله التطور البشرى كما شمل غيره . . فهو صورة بيولوجية متلكئة من الإنسان الهمجى الأول ؛ ولذلك حاول لمبروزو أن يضع قائمة بأوصاف جسدية قال إنها متى توفرت فى شخص بعينه كان ذلك دليلا على أنه من المجرمين . ولسنا نرى حاجة إلى إثبات هذه الأوصاف هنا حتى لا نزيد فى وساوس القراء فى هذه الأيام البيضاء ! . ومع ذلك فإن النظريات الحديثة فى علم الإجرام لا تؤيد ما ذهب إليه لمبروزو فى نظريته .

وجاء من بعد لمبروزو علماء آخرون لم يكتفوا بالنظر إلى السمات « الأنثروبولوجية » فى جسم المجرم لمعرفته والتمييز بينه وبين أفراد المجتمع ، بل وسعوا أفق بحثهم حتى شمل كل العوامل الخارجية الأخرى ؛ فهم لم يروا الجريمة من نتائج شخصية المجرم وحدها ، ومن نتائج ما اتسم به جسده من سمات ، ولكنهم رأوها وليدة ما يحيط بالإنسان من العوامل الخارجية .

فالمحيط الجغرافى ، والمناخ ، ودرجة الحرارة ، وخصوبة الأرض ، هى من العوامل التى لها أثرها فى تكوين المجرم . والظروف السياسية والاقتصادية ، والإنتاج الصناعى والزراعى ، وكثافة السكان ، وظروف الهجرة ، كل أولئك أيضا له شأنه فى السلوك الإجرامى ؛ بل لقد ذهب بعضهم إلى أن ضغط الهواء وتشبع الجو بالرطوبة مما يؤثر أيضا فى هذا السلوك . وانتهوا إلى القول بأن الإنسان لا « يولد » مجرما كما أراد لمبروزو أن يصوره ، ولكنه « يُجعل » مجرما تحكم هذه العوامل المحيطة به .

وتعاقبت النظريات ، وظلت البحوث تهيم على وجوهها في هذه الميادين المختلفة المتشعبة حتى ظهر سيجموند فرويد — وهو منشئ المدرسة الحديثة في البحوث النفسية — وقد فسر الجريمة بأنها سلوك شاذ ؛ ثم فسر هذا السلوك الشاذ بأنه أثر من آثار « عقدة » مكبوتة في « اللاشعور » ، وقال إن « التحليل النفسي » يساعد على معالجة الأمراض التي تنجم عنها . ولست أرى الآن أن أسترسل في الكلام عن هذا « اللاشعور » وعن « العقد » وعن « التحليل النفسي » ؛ وأنا أرجو أن أجعلها موضوعا لكلمة قريبة إن شاء الله . وإنما الذي حدا بي إلى هذا الاسترسال الطويل هو أن أصل بالقارئ إلى حقيقة « الجريمة » ، ومبلغ فهم الأجيال المتعاقبة لها ، ومدى جهدهم في الوصول إلى حل لمشكلاتها ؛ وذلك لكي يفهم عني ماسأقصه عليه من الأمثال التي كنت وعدته بها في مقالي السابق ، الذي نشرته بعنوان « القاضي وضميره » . فإن كثيراً من الناس مازالون يحيطون نظام المحاكمات الحالية بهالة من التقديس تصدهم عن التفكير في حقيقة نفعه ، ومدى جدواه ، وتجعلهم يعتقدون خطأ أن الجريمة والعقاب هي من مزدوجات هذا الكون ، كقولهم « السماء والأرض » ، و « الرجل والمرأة » ، و « الليل والنهار » ، في حين أن هذا « العقاب » الذي ألحق بـ ... « الجريمة » ما هو إلا ابتكار عتيق من مبتكرات القرون الأولى ، التي آن لها أن تهذب ، وأن تساير النظريات العلمية الحديثة . وتقول هذه النظريات الحديثة إن المجرم إنما هو نتاج وراثته البيولوجية ، وإن جريمته هي وليدة ما مر به من تجارب منذ طفولته الأولى حتى الساعة التي قارف فيها جريمته . فمن شاء أن يبحث عن الحقيقة في أمر مجرم من المجرمين فليس سبيل ذلك « محاضر التحقيق » و « رجال المباحث » و « أعضاء النيابة » ، ولكن سبيله « تحليل نفسه » ودراسة ماضيه ، والوقوف على عُقَده . ومن شاء بعد ذلك إصلاح هذا المجرم فليس سبيله إلى ذلك المحاكم والسجون ، ولكن سبيله الطبيب العقلي ، وعالم النفس ، والإخصائي الاجتماعي ؛ فقد بدأ العلم يحطم أصنام التقاليد التي تسود أنظمة المحاكمات والإجراءات الحالية . ولسوف يأتي ذلك اليوم الذي يلتفت الناس فيه خلفهم فيرون آباءهم وهم يحاولون معالجة الجريمة بمعاقبة المجرم فيحسون بما نحس نحن به اليوم ، حين ندير أعيننا في صفحات الماضي فنرى آلات التعذيب ، وتلك القوانين التي كانت تعاقب الفرس بالإعدام إذا رفست طفلا فقضت عليه ... !

* * *

هذه مقدمة أعترف بأنها جاوزت الحد في طولها ، وأشعر أني أثقلت بها على القارئ في بحث قد لا يعنيه أن يحمل أثقاله ، وهو إنما يقرأ هذه الكلمات ليجد فيها ما اعتاد أن يجده من صور لا تخلو من تسلية أو من عظة ، فهأنا أعود إليه بما يريد ، وأعتذر إليه عما فرط . . .

* * *

تقدم إلى المحكمة ذات مرة « موظف » تهمته أنه سرق ساعة زميل له . وكانت ظروفه أنه يعيش مع زميله هذا في منزل واحد ، فهو يؤاكله ويشاربه ، ويزامله في عمله وفي راحته . وكان الزميلان يقيمان في مدينة السويس . وكان صاحبنا — المتهم — يتردد على القاهرة من حين إلى حين لقضاء يوم أو بعض يوم ؛ فزين له الشيطان ذات يوم أن يستولي على ساعة زميله الذهبية التي طالما بهرته ، وأن يدسها في جيبه ثم يسافر إلى القاهرة . وفطن صاحب الساعة إلى فقدها حين التمسها عقب خروج صاحبه فلم يجدها ، فقام من فوره إلى البوليس وأبلغه ما فعل زميله ؛ فأثبت البوليس أوصاف الزميل ، وما عليه من ملابس ، ثم بعث بإشارة تليفونية إلى محطة « كوبري الليمون » لترقب وصول القطار ،

وضبط المتهم والساعة المسروقة . ولم يكد يصل صاحبنا إلى محطة كوبرى الليمون عقب ذلك بقليل حتى وجد فى استقباله موكباً مشرفاً من رجال البوليس لولا أنهم جاءوا للقبض عليه ، والذهاب به إلى القسم ... وهناك أخرج الساعة من جيبه ، واعترف بأنه أخذها من غير علم صاحبها ولا إذنه ...

والقضية فى وضعها هذا آية من آيات بساطة الظهر ، أفليس المتهم قد ضبط « متلبساً بجريمته » ، ومعه الساعة التى سرقها ، ثم هو قد اعترف فعلا بما جنت يداه ؟ ! بلى ، إنه لكذلك ! فلم يبق إذن إلا ما فرضه القانون من عقاب ...

ولكن دون ذلك وتلين العقول ...

فهذا رجل له مكانته ، وأمامه مستقبله ، وخلفه أسرته .. إن لم يكن أبناؤه وبناته فأمه وأبوه . وأين تكون الشبهات التى تدرأ بها الحدود إن لم تكن فى مثل هذا المقام ؟!

وجرى بين القاضى والمتهم الحوار الآتى :

س — هل لو كنت استأذنت صديقك فى استعارة الساعة كان قد أباها عليك ؟

ج — أغلب ظنى أنه لم يكن يرفض .

س — فلماذا لم تفعل ؟

ج — لقد تركته نائما ، وخرجت لأدرك القطار .

س — ألم يخطر ببالك أن تترك له كلمة يعرف منها ما حدث ؟

وهنا توقف المتهم لحظة لمع خلالها باب الخلاص ينفرج أمامه ، فاقتحمه قائلا :

ج — أذكر أنى كلفت صاحبا لنا صادفته فى المحطة أن يبلغ صديق أنى أخذت ساعته .

س — هل تستطيع أن تأتى بصاحبك هذا فى الجلسة القادمة ليدلى بشهادته ؟

ج — لو أجلت المحكمة القضية لأتيت به .

وتأجلت القضية . وجاء المتهم بشاهده . وقرر الشاهد أنه حقيقة قابل « المتهم » فى المحطة ، وأنه حمله هذه الرسالة إلى صاحبه . ولكنه نسى أن يبلغها إليه .

وعند ذلك تقدم « المجنى عليه » وقرر أنه هو أيضاً يعتقد أن زميله لم يأخذ الساعة إلا على سبيل العارية ، وأنه يرى أنه كان متسرعا فى تبليغ البوليس ؛ وأنه على كل حال قد استرد ساعته ولم يعد له ما يشتكى منه .

واستدارت القضية فى يد القاضى ، وانتهت إلى حيث أرادها أن تنتهى إليه ، وانتفت المسئولية ، واتضحت البراءة ، فصدر بها حكم المحكمة .

* * *

إن هذا المثال لا يخلو من شوائب ، ولست أحبذ مسلك القاضى فيه كل التحبيذ ، إذا أنا أخذت معاييرى من الأوضاع الحالية القائمة . ولكنه هو لا بد أن تكون له فلسفته ، وربما كان من الأوفق أن نستمع قليلا لمنطقه لنحكم له أو عليه . فهو يقول إننا لو سلمنا جدلا بأن مصلحة المجتمع هى فى تعقب الجناة وإنزال العقاب بهم حسبما فرضه القانون ، فأين مصلحة المجتمع أو أى فرد منه فى القضاء على مثل هذا الموظف ؟ إن عقوبة السارق لا يمكن أن تكون إلا الحبس . وحكم الموظف السارق أنه يفصل من عمله قبل أن يدخل السجن ، وأنه بعد خروجه من السجن لا يعود إلى هذا العمل ، وقل أن تتاح له فرصة العمل الشريف مرة أخرى ، إذ يرى نفسه وقد دمغته أيام السجن بطابع « أرباب السوابق » فأصبح من المنبوذين . أفكل هذه الويلات تنصب على من يهفو هفوة تكون فيها النظرة الشزراء لتقويم معوجها ! إن قبول هذه النتيجة والعمل على هذا الأساس انتكاس اجتماعى يجب

أن يتبرأ منه كل مجتمع يحترم نفسه . . . وهكذا يتمهد أمامنا السبيل لعرض الشكل الآخر الذي أعددناه لهذه الكلمة .

* * *

أصيبت « راهبة » ممن يمارسن التدريس في إحدى مدارس الراهبات بمرض دعا إلى نقلها لأحد المستشفيات العامة ؛ وهناك طالت إقامتها حتى لقد نشأت بينها وبين خدم المستشفى وزَّلائه صداقات جعلتها تستشعر أنها تقيم في منزلها الخاص بين أهلها وعشرائها . وكان نظام المستشفى يقضي بأن يلبس المرضى من ملابسه الخاصة ؛ وكانت ملابسه هذه من السذاجة والخشونة بحيث تعافها نفوس الرجال بله أجسام النساء . ولاحظت السيدة « الراهبة » أن أغطية الفُرُش تمتاز بنعومتها وطراوتها والتماعها ، فسوّلت لها نفسها أن تتخذ من هذه الأغطية قميصاً أو قميصين تنام فيهما . وأمكنتها الفرصة من صنع القميصين فصنعتهما ، واستغلت نفسها بهما وهي تخفيهما من أعين عمال المستشفى . ولكنها لم تلبث أن انكشف أمرها ، وضبط القميصان في حوزتها ، وعرف المستشفى قماشه ، ووضع يده على من استولى عليه بغير حق . و« البِرى » لا يعرف الصناعة ، و« الأوانى » و« المنشورات » و« النصوص » هي الأصنام المعبودة في هذه الهيا كل المقدسة . والمرونة قد تحمل على محمل التواطؤ — وهي مع التسامح الشديد لا تنزل في التقدير عن مرتبة الإهمال والتفريط .

فقام « التمرجي » بواجبه ، وبلغ « المعاون » ، وقام المعاون بتبليغ « الطبيب صاحب النوبة » ؛ وأبلغ الطبيب الرئيس ؛ وأمر الرئيس بإبلاغ الأمر إلى البوليس . وانتهت القضية أخيراً إلى يد القاضي . . . .

وحل موعد المحاكمة . وجيء بالراهبة في مسوحها السوداء ، ومن حول وجهها ذلك الخمار الأبيض الناصع ، ونظر إليها القاضي فلم ير فيها ذلك الشبح المخوف الذي يخشاه المجتمع على سلامة نفسه ، ونظر إلى السجن الذي ينتظرها ، فلم ير فيه ذلك المكان اللائق بمن جعل شعاره الخروج من الدنيا وزخرفها ، والفناء في الله وتضحية النفس في سبيل راحة الغير .

وكان أول ما صدم تفكير القاضي عند النظر في هذه القضية أنه هو « القاضي » الوحيد فيها ! فإن الشرع رسم حدود العقوبة في أمثال هذا المقام وانصرف .

ووضع المستشفى نظامه على هذا الأساس الإداري واطمأن .

واستجابت الراهبة لنزوة كان عليها أن تقاومها فلم تفعل .

وضبط العمال الحادث فقاموا بتبليغه إلى « جهات الاختصاص » ونفضوا منه أيديهم .

وبقي القاضي أخيراً ليرى القانون مصلتاً فوق رأسه ، وليشهد المتهم ماثلا أمامه ، وليقوم بواجبه في تطبيق الأول على الثاني . . . ولكن هيهات !

إن مثل هذا العمل الآلي لا يمكن أن يكون من عمل القضاء ، وإن القاضي الذي لا يرى واجبه إلا في هذه الصورة الهندسية يجب عليه أن يقوم من مقامه ؛ وإن محنة المجتمع في مثله العليا ، وأفراده المحترمين ، لأخطر ألف مرة من محنته في فقد كيسين من أكياس هذا المستشفى ، الذي لم ينشأ إلا للترفيه عن المرضى وتنفيس كربة المكروبين منهم . . . . . .

ولم يكن بد من حكم البراءة ، فنطقت به المحكمة ، وأخذت في نسج « أسبابها » على المنوال الذي ترتضيه نظم العدل الحالية ، في انتظار ما يأتي به الله من فرج قريب ، يعطي أمثال هذه الحالات ما تستحقه من العلاج ، ويجنب القاضي ما يعترض عمله من أمثال هذه « المآزق »

م . ع

بين شيوخ الأدباء
وشباب الأدباء

تلقيت الخطاب الآتى من الأديب صاحب الإمضاء :

سيدى الأستاذ الجليل ...

أهديكم تحياتى الشائقة ، وبعد ، فقد طالعت مقالكم القيم المنشور « بالثقافة » بالعدد ٢١٤ تعليقاً على رسالة كاتب فاضل من القدس ، أهاب بكم أن تفتحوا باباً تنشر فيه تراجم الأدباء المعاصرين . ولقد فتحت « الثقافة » هذا الباب منذ عام ، ثم أسرعت فأغلقته بعد ما نشرت مقالات لى بعنوان « أدباء الطليعة » ، ثم أهملت ما أرسل إليها إهمالا أثار أدباء الشباب ممن سيكونون فى يوم غير بعيد فى طليعة الصف الأول فى الأدب المصرى .

ولقد حفزنى إلى دراسة الأدب المصرى وتاريخ نشأته منذ الفتح الإسلامى حافز شخصى عن عقيدة ثابتة بولاية هذا الأدب على الثقافة العربية ، فهو أدب مطبوع بطابع وتفكير البحر الأبيض ، وقديماً تولت ثقافة البحر الأبيض قيادة الثقافة . ولقد طفت بالآداب العربية من مراكش غرباً إلى أقاصى حلب شمالا وتشريقاً ، وإلى جنوب اليمن ، وإلى ما وراء بغداد ، فوجدت الأدب المصرى أدباً مقروءاً له أثره واحترامه ، بل إن فى هذه الأقطار الشقيقة لأدباء يقرءون لكتاب مصريين قد لا نعلم عنهم شيئاً .

ولقد أردت بما حاولت فى العام الماضى من نشر ودراسة أدباء الطليعة المعاصرين إبراز جهدهم ، وتشجيعهم وإثبات فضلهم فى الثقافة المصرية ؛ ولكن ما أصاب أدباء الطليعة من إهمال أدباء الشيوخ جعلهم يفكرون فى مصير الأدب المصرى بعد الحرب . عند ما تلتقى تيارات التفكير المختلفة ، وعند ما تتهافت التآليف فى مناحى العلوم والآداب الجديدة بعد هذه الحرب إلى مصر ملتقى الثقافات المختلفة . إن رسالة أدباء الطليعة ستبعث بعثاً جديداً عند ما تضع هذه الحرب أوزارها ، وستؤدى رسالة أمينة فى منهاج جديد لأدب حى ، يستطيع أن يواجه اتجاهات التفكير العالمى فى إيمان وقوة ؛ وهو بعدُ سيحتفظ بمكانه فى ثقافة الأمم العربية جميعاً .

لقد رحبت « الثقافة » بنشر تراجم المعاصرين أمثال هيكل ، وطه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، والزيات من شيوخ الأدب ؛ فهل هى مرحبة بنشر تراجم المعاصرين أمثال إبراهيم المصرى ، وطاهر لاشين ، ويوسف جوهر ، وطليمات ، وعفيفى ، وعبد الغنى ، وتيمور ، وناجى ، والصيرفى ، وغيرهم وغيرهم كثير ؟

إن أدباء الطليعة يناشدون شيوخ الأدب أن يعاونوهم فى أداء رسالتهم أداء صحيحاً ، وألا يحجبوهم عن المسرح ، وإلا شقوا لأنفسهم الطريق ، واشتجرت بين الشباب والشيوخ خصومة أدبية ليس ينبغى أن تقوم فى حياتنا الأدبية الآن !

أرجو أن يسع حلم أساتذتنا هذه الآمال ، وأن يرحبوا بها ، ويعملوا على إيجاد هذا الجو الطيب لإبراز أدباء جدد ، حتى لا تقفر الحياة الأدبية فى مصر من الخلق والتجديد والابتكار .

وتقبل يا سيدى الأستاذ عظيم إجلالى واحترامى .

المخلص

محمود المنجورى

* * *

وفى الحق أن هذه تهمة قديمة ، تهمة الشباب أن

الشيوخ يحجبونهم من الظهور على المسرح ، ويحطمونهم حطهم ، ويضعون العراقيل في سبيلهم ، وأن هناك خصومة حادة وحرباً مستطيرة بين الشيوخ والشباب .

ومع احترامي للكاتب الفاضل وأمثاله من أدباء الشباب ، لا أرى الخصومة إلا من جانب واحد ، هو جانب الشباب ، أما الشيوخ فلا يخاصمون ولا يحجبون من المسرح ، ولا يسدّون الطريق أمام الشباب ؛ ولكن الشباب يخلقون الخصومة خلقاً ، ويتوهمونها توهما .

هذه « الثقافة » التي لي شرف الإشراف عليها تنشر ما يحسن في نظرها مما يرسل إليها من شيوخ وشبان على السواء ، وتردّ ما لم تستحسنه من الشيوخ والشبان على السواء ، وتنقد وتقرظ كتب الشيوخ كما تنقد وتقرظ كتب الشباب ، فإذا هي قصرت في النقد والتقريظ قصرت فيهما جميعاً .

كل ما في الأمر أن الشبان يرون إقبال الجمهور على مقالات الشيوخ وكتبهم أكثر من إقبالهم على مقالات الشبان وكتبهم ، فيحز ذلك في نفوسهم ، وليس ذلك ذنب الشيوخ ولا ذنب الشبان ، ولكن الناس ألفوا في كل زمان ومكان أن يتأثروا بالأسماء بجانب تأثرهم بالقيَم . وقد كان شيوخ الأدب شباناً ، فجدوا وأنتجوا حتى حملوا قومهم على الاعتراف بهم ، فأقبلوا على قراءتهم ؛ وهم من جانبهم لم يخلدوا إلى الراحة ، وأحسوا أن وراءهم عقولا وأذواقاً تتطلب الغذاء ، فجدّوا في تقديمه .

والتاريخ يعيد نفسه ، فما على شبان الأدباء إلا أن يسلكوا سبيل مَن قبلهم ، فإذا الطريق ممهدة لهم ؛ فإن أحسوا أن الشيوخ يقفون في سبيلهم فليكسروهم ، وليكسبوا الرأى العام منهم ، وهم — بحمد الله — أقوى سواعد وأصلح للنضال ، وليغلبوهم في إنتاجهم وجودة إخراجهم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

وازنوا — أيها الشباب — بين ما ينتجه الشيوخ على ضعف صحتهم وكثرة أعبائهم ، وما ينتجه الشباب مع قوتهم وقلة أعبائهم ، تروا أن الشيوخ أكثر نتاجا وأكثر تجويدا .

إن كان الشيوخ يحاربونكم في مجلاتهم فأين مجلاتكم ؟ وإن كانوا يحاربونكم في الأسواق فأين كفاحكم ؟

أتصور أن الشباب — وقد غضبوا — ينشئون بجانب « الثقافة » و « الرسالة » عشرات من « الثقافة » و « الرسالة » ، وأتصور أن الشبان لم يعجبهم نتاج الشيوخ أن ينقدوه حتى يهدموه ثم يقيموا على أنقاضه جديدهم ؛ أما ولم يفعلوا فالذنب ذنبهم .

ليس الأدب فقط أدباً حالما ، يحب الأديب فيذوب في حبه في قصيدة أو ديوان ، ولا أن يتخيل قصة غرام فيخرجها في كتاب ، فهذا — من غير شك — ضرب من الأدب ، ولكنه ليس كل الأدب ؛ فمسرح الأدب هو مسرح الحياة ، وفي مسرح الحياة الشقاء الاجتماعي ، وكيف يعالج من ناحية الأدب ؛ وحياة الفقراء وكيف تمرض ؛ والتراث القديم وكيف يفهم ؛ والأغاني والأناشيد وكيف تصلح ؛ إلى كثير من أمثال ذلك . ولا يؤدي الشباب رسالته حتى يقض مضجعه الهم في سبيل تحقيق غرض من هذه الأغراض ؛ أما أن يكون الأدب على هامش الحياة ، فالجزاء الوفاق أن يكون أدب الهامش هامش الأدب .

ثقوا — أيها الشباب — أن الشيوخ يسرهم كل السرور نضج أدبكم ؛ يسرهم ذلك لأنفسهم ، فإن الأدب إذا حيي بالشباب حيي الشيوخ بحياة أدبهم أيضاً ، وأحسوا أنهم في مملكة حية لا في واحة حولها قفر ؛ ويسرهم طمأنينتهم بوجود أعقابهم الذين يحملون الراية عنهم يوم يدركهم الفناء ؛ ويسرهم أن يروا في الشباب

حرارة تبعث الحياة أكثر مما يمشون ، وتوقظ الهمم أكثر مما يوقظون ؛ ويسرهم أن يروا الشباب الجديد يدرك مقتضيات زمانه ومطالبه ، وفضائله ونقائصه أكثر مما يدركون ، ويصلحون لمستقبل أيامهم أكثر مما يصلحون ، فإن لم يكن ذلك فليتَّهِم الشباب نفسه قبل أن يلوم شيوخه !!

أحب أن أصارحكم أيها الشباب أني آخذ عليكم في نتاجكم أموراً ، أهمها تقليدكم للأدب الغربي في شكله وموضوعه تقليداً يبعده عن ذوق الجمهور العربي ، فمَثَلكم مثل من يغني قطعة موسيقية أوربية على مسامع شرقية ، فقد تكون راقية جدا ، ولكن لا يألفها ولا يقدِّرها السامعون الشرقيون ، وخير لكم أن تفعلوا ما يفعله كبار الموسيقيين الناجحين ، فيطعِّموا الموسيقى العربية بموسيقى غربية ، حتى يستدرجوهم إلى ما يألفون ؛ وقد استتبع ذلك منكم أن تكون ثقافتكم الأجنبية أوسع من ثقافتكم العربية ، مع ما في الثقافة العربية أيضاً من منابع قوة في الأسلوب والموضوع ، ثم الإسراع في الإنتاج من غير تجويد ، كأن الأدب يقدر بالكمية لا بالكيفية ، وبعدد الكتب لا بقيمتها .

أخشى — أيها الشباب — أن أكون فيما قلت صريحاً أكثر مما يجب ، خارجا عن حدود الأدب ؛ ولكن ثقوا أن مبعثه حب نجاحكم لا الحط من قيمتكم ؛ وأمر آخر أحب أن أقوله هو غضبكم الشديد من النقد ، وأنتم والشيوخ في ذلك سواء . وكنت أتوقع وقد ربتم تربية أوربية أدبية أن تكونوا أوسع صدرا في تقبل النقد والعمل بخيره — وقد لمست في « الثقافة » غضبكم الحاد من نقد يوجه إليكم ، ومقال لم ينشر مع بيان الأسباب ، ونحو ذلك .

فأرجو أن تكونوا في ذلك خيراً من شيوخكم ، تقدِّرون فتقابلون النقد بالروح الرياضي الذي ألفتموه في ألعابكم الرياضية .

ولا يفوتني هنا أن أعترف بأن بعض ما أخرجتموه لا ينطبق عليه ما قلت ، فهو في غاية السمو ، ولا أحب أن أحصي أو أمثل .

و « الثقافة » عند ظن الكاتب الفاضل ، فهي تفتح صدرها لتراجم أدباء الشباب ، كما تفتح صدرها لأدباء الشيوخ ، على شرط أن تكون التراجم في الجانبين مدروسة في عناية ، لا مجرد مدح وتقريظ وملق .

وأشكر لك أيها الكاتب الفاضل أن هيأت لي فرصة الكلام في هذا الموضوع الحي ؛ وأعدك بأني سأكون واسع الصدر في نقد الشباب لي ، كما أرجو أن يكون الشباب واسع الصدر في نقدي لهم . والسلام .

احمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

احمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٤٥ في مصر والسودان

٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام

٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

فنان

كان بيتهوفن فناناً فى عصر زخر بالفنانين ، وجباراً فى معترك الجبابرة المصاميين . لكن أى فنان ! وأى جبار كان ! من شاء أن يلتمسه فوق هذه الأرض فلن يجده ، فقد جل عما كان فى زمانه فوق هذه الأرض ؛ كذلك لم يكن بينه وبين هذه الأرض من صلة إلا صلة الطاهر بالطاهر ، وصلة الطين بالطين . لكنه فرق بين طين وطين ، فقد خلق بيتهوفن من طينة لا تنسجم مع طينة البشر ، ومع معظم ما ركب فى الإنسان إن صح أن معظم ما ركب فيه من عناصر الشر .

موسيقى بيتهوفن هى لسانه والجنان . كان فى حماسته يرسل النغمة إلى كل ناحية ، ثم يتبعها ويتعقبها ويسترجعها فى لهفة ؛ ثم إذا هى تولى وتختفى فى غمرة من الانفعالات المختلفة ، فلا يزال وراءها حتى يقتنصها من جديد ، فى شغف جديد ؛ فلا يتخلى بعدئذ عنها ، بل يضاعفها فى فرح دائم ، ويموّجها تمويجاً شاملا ، ويظفر منها بالفكرة الموسيقية الأولى ، ويبنى عليها السيمفونى .

هكذا قال بيتهوفن أو زعموا أنه قال ؛ فإذا ما سوّاها معزوفة كاملة كانت « سبيل الحواس إلى الحياة الروحية ، والمدخل الروحى الوحيد إلى دنيا من العلم أسمى من عوالمه . والموسيقى تحيط بالإنسان ، ويعجز الإنسان عن أن يحيط بها . »

رأته بتينا برنتانو Bettina Brentano الكاتبة الرومانتية الشهيرة وصديقة جوته ، ورأت هذا الذهن الجبار يقود فرقته ، فلم تر « لأمبراطور أو ملك مثل شعور بيتهوفن بسلطانه ، ومثل جماع القوة الصادرة عنه ؛ فقد كان يقف راسخ التصميم ، تطالع كل معزوفته فى حركاته وملامحه ، فلا سبيل لخطأ إلى شىء من تأليفه ، ولا لسوء الفهم ، فكل شىء يؤدّى بفضل حضور ذهنه العجيب أكمل أداء . »

وجلس جوته فى نهار عيد من أعياد ميلاده وحده فى ركن مظلم من قاعة فى بيته ، جلس يستمع قبل الظهر إلى فنان يعزف له على البيان قطعاً مما لحن الملحنون العظام ، عصرا عصرا ، فلما جاء دور بيتهوفن أبى أن يسمع له شيئا ، فاستكبرها الفنان ولم يحفل معارضته ، وعزف له القطعة الأولى من سيمفونى C-moll فأثرت فيه تأثيراً بالغاً . وفرغ الفنان من العزف ، ونهضا إلى المائدة ، وجوته لايفتأ من تأثره يقول : « هذا عظيم جدا ! هذا مذهل حقا ! ألا إنه ليعرونى الخوف من أن ينهدّ علىّ البيت دكا ! »

فما هى هذه الموسيقى الرائعة الروعة التى عرا الخوف منها شيخ الشعراء الهادئ الرصين ؟ وما هى العوامل التى خلقتها ، وقررتها ، وكانت علما عليها ؟ وكيف كانت هذه الموسيقى فى مبدئها هنيئة حنونا ؟ فعاصفة متدفقة ، فلهبة ، فجلوة ، مجردة ، أثيرية ، زاهدة ؟! وكيف هى أحيانا جهمة ، مرعبة ، فكأنها فولاذ بل فولاذاً ، وكأنها شيطان يجالد الشيطان ؟!

نفس بيتهوفن ! فنفسه هى هذا كله ؛ وموسيقاه كلها تعبير عما دار فى نفسه ، ومرآة لما اختلج فى صدره واعتلج وجاش . وقد عرف بيتهوفن الحب ، وكان يستلهم مصدرين فياضين هما الشقاء والسهاد ، وكان بهذا نقيا تقيا ؛ عزف عن مشاكل العشق ، فموسيقاه تتنفس فى الحب سموا خلقيا ، وتبث حبنا علويا .

كان حبه طاهراً ، هيابا ، مكبوتا ؛ وكان مكبتا مشبوبا ؛ وكان نجما هاديا ونبعا متفجرا . و« السّناتا القمرية » ، التى لحنها فى فتوته ، تمثال لهذا الحب ، وقصة لهذه النفس حالمة مترسلة حزينة ؛ مرقية متبددة متفعلة ،

متقصدة ؛ تشيع فيها كآبة لا تعرف العزاء ولا يواتيها الرجاء .

كانت نفسه تشتجر بشعورين نحو امرأتين ، إحداهما صنيعة الفن ، والأخرى من صنع الله ؛ وانتصرت العروس الملهمة ، وانتصرت الحبيبة الخالدة ، فعاهدته على الوفاء والبقاء ، فلم تتزوج بل وهبت نفسها للسماء ، واندمج العروسان في شخص واحد ، لأنه لا مناص منهما في فنه متحدتين متفانيتين .

وقد كان بيتهوفن إلى قبيل الثلاثين ، وقبيل الصمم ، تشع من موسيقاه هناءة المرح البرىء على قتام الحياة ، فلما جاوز الثلاثين ، واستبد به الصمم ، ضرب حول هذا المرح نطاقا ، وصفى الحساب مع ماضيه ، وانطلق إلى أجواء نائية تريد أن تكشف ، وانفرد بمأساته يجالد من أجلها القدر وكاد أن يكفر ؛ لكنه خرج من جلاده ثابت الجنان ، قوى الإيمان ، عجيد البيان . ومن كان يعيش على هدى الفضيلة لا يجالد القدر عبثاً ، ولو باء في نظر الناس بالخسران .

فقد حانت الساعة التي أدرك فيها العلم أن في هذا التصرف الذي جرى به القدر ولم يجد له معنى — أن في هذا التصرف معنى أسمى مما ظن ، فإنه يتوجه به وجهة أخرى ، وتتحول به المأساة تحولا جديداً ؛ فما عاله لمنة يضحى بركة ، وما يذل فيه وضحى وتألم يبيت بهذا البذل أعلى وأعظم . وقد كان ساخطاً يتحدى الأقدار ، وكانت نفسه حالكة كالحة ، فتجنب واحتجب ، لكنه أكل في العزلة وهنيئه ، وشق الطريق إلى أعوص الفلسفات ، واهتدى إلى رحمة الله .

يريد هذا كله أن يكون موسيقى تتفجر بها نفسه ، فقد كان « القدر يطرق الباب ... » وكان العلم يستأذن على الموت حين كتب وصيته هيلجنشتات في الثانية والثلاثين . كان الدق المتواصل ، والمقريب النازل بأذنيه ، والتصدع الملم بنفسه ، والروح التي اعتصرتها المأساة ، ثم فضل الله الذي أتاه بالرضى والاستسلام ، لا تنى جميعها عن شغله ، لأنها تريد أن تدخل دنيا الأنغام ، بعد إذ ضاقت بها دنيا الآلام ، فكانت أغنية الحياة الكاملة التي سمع جوبتيه مطالعها في السيمفونية الخامسة فمراء الخوف ، وخال البيت يندك عليه دكا .

واتجه بعد ذلك إلى ربه وملاذه فوجد الفرج في الدين ، وكأنما وجد فيه فيض اللانهاية ، فنهل منه نهلة مما وراء المادة فأغنته كل الغناء في مواصلة البناء ، وأخرج صلاة C-Dier

* * *

وريفيته Pastorale ! نهض لها العلم يوما في نومه ولما تكد السحب الوردية الأولى تظهر في سماء البكور ، نهض وخرج ، وقبل أن يخرج صب الماء على جسمه كعادته صباً ، وجرى الماء على الأرض كأنما فيه هدراً ، وكان يصاحب هذه الضوضاء بقدميه وطئاً ، وبصوته غناء كالعواء . خرج بعد أن أيقظ أهل البيت يحمل رايته : قلمه الرصاص وكراسته ؛ فذهب يصعد بهما ربوة ، ويهبط وادياً ، ويطن كالنحلة نشيطاً ، يدخل نفقاً ، ويركب من الربى أعناقاً ، ويبلغ ذرى ؛ ووراء الناس على هذه الحال فيرون فيه رجلهم المعروف ، في المظهر المألوف وغير المألوف . وقد كان ما نقسه في هذه الجولات على هذا المنوال يؤلف صورة وأشخاصاً في سيمفونيته الريفية أو الباستورال .

لا نحاول أن نصف لك موسيقى « الريفية » فهذا شيء لا يفي فيه الوصف غناء السواح ، ففيها فكاهته الخشنة ، وفيها غرام القرويين بالموسيقى النحاسية ، وفيها نشاز الزمارة وهذر الزمار ، وفيها رقص رقيق على نغمات الفالس لا يلبث أن يتحول إلى وطء شديد للأرض بالأقدام ، وهتاف تنفتق منه الرئتان ؛ والفزع الذي يدب بعد ذلك إلى النفوس من دنو العاصفة ، والعاصفة التي تهب ، والرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، واختلاط الأصوات ، وتخلل الضربات ، وأخذ الضجة في الاستقرار ، والهبوب

فى السكون ، والهدوء فى الشمول ، وإفراخ الروع ، وحلول الصفو ، والتوجه إلى الله بالشكر ، والتأمل فى صنيع الخلاق !!

صورة أخاذة هزازة ، ليس مايسمع فيها محاكاة ظاهرة للأصوات ، بل تصويراً نغمياً ، وفناً فى التعبير عن المشاعر والإحساس بحالات الانبساط والانقباض فى حياة الطبيعة وحياة الريف !

والملهم يحب الطبيعة ويهيأ بها ، وهذا الحب وهذا الهناء يتبديان فى معزوفته ويتجليان .

***

وعجد بيتهوفن البطولة والحرية . قيل له أو تُمح على الأصح إلى أن بونابرت ، وكان إذ ذاك قنصلا ، خليق أن يمجد فى ألحانه ، فصادف الإيحاء هوى فى نفسه ؟ وبونابرت قد سحر جويته فلم لا يسحر بيتهوفن ! وتترك أن يمجد وطنى صميم غازى بلاده ، ومذل شعبه ، فلهذا حديث لاحق عن بواعث الفنان ؟ لكن بيتهوفن يضع سيمفونيته فى سكون الريف ويتوجها باسم بونابرت ويمهرها بتوقيعه .

ويعلن البوق ظهور البطل ، وتعزف الموسيقى عزفاً عاصفاً يعلن عزمه الذى لايهن ، وينشب صراع رهيب يتمثل فى التقزز الهائل المنبعث من ضربات موسيقية قاسية ؟ ثم تخور قوى الجبار فتنتابه التخيلات وتستغرقه التأملات والأحلام ، ثم ينتبه على صوت البوق ويستأنف النضال .

والبطل هنا يموت ، فنرى فى أناشيد الحداد صورته رائعة جليلة ، صاعدة إلى طباق الأبدية ، وتعزف الموسيقى « مارشا » مهيبا وئيدا ، وتقرع الطبول وتلمع الأبواق ، وبدايتك عن كثب ندب ونشيج يتلاشى مع توقيع « المارش » رويداً رويدا ، وتتخلله التنهدات ثم يسود صمت رهيب ، فالأرض الآن خاوية بعد أوبة البطل إلى دار الخلود .

***

يطول بنا الكلام إذا نحن حاولنا أن نتقصى موسيقى بيتهوفن وبضيق المقام ، ولعله من الأنسب أن نجتزىء بهذا القدر ، وأن نختمه بكلمة للشاعر الرومانتى هوفمان ، الذى كتب عن سيمفونى الملهم وموسيقاه ما تعز فيه المداناة :

« تفتح لنا موسيقى بيتهوفن رهبوت الهول والفور ، فتشع على هذا الرهبوت ساطعةً باهرةً ، تكشف عن أطياف هائلة تغدو وتروح ، وتفضح أشباحا مفزعة باطشة ، لكنها لا تذهب بتلك اللوعة المنبعثة من الحنين الفياض الذى تخبو فيه كل لذة مشبوبة صاخبة وتبيد ، وفى هذه اللوعة التى تلهم الحب والرجاء والمسرة ولا تفنيها ، والتى تُفَجِّر الصدور بجماع الأصوات الكاملة المعبرة عن كافة الانفعالات ، فى هذه اللوعة وهذا الألم نعيش على مرأى من الأشباح جد مغتبطين .

إن موسيقى بيتهوفن تحرك الخوف والرعدة والرعب والألم ، وتوقظ ذلك الحنين اللانهائى الذى هو لب الرومانتيك ، فهو بذلك ملحن رومانتى صميم » .

محمود الدسوقى

٢ـ الخطيب البغدادى

وصفه فى ثقافته :

اقترن كماله فى الخَلْق والخُلُق بكماله فى المعرفة والعلم ؛ بل لعله كان محظوظاً فى علمه أكثر من أى شيء آخر . ومن حسن الحظ أننا استطعنا أن نعرف مشايخه وأقرانه ، وأن نحصل على أسماء الكتب التى قرأها عليهم ؛ فنحن نعتمد على ذلك للبحث عن ثقافته فى نشأتها واكتمالها .

ذكرنا فى سيرته جمعه بين الدرس للفقه والحديث . ولعلك تساءلت عن سبب تركه للفقه وأخذه للحديث ، بعد أن كان همه أن يصبح فقيها ؛ والجواب عن ذلك نراه فى محبته للعلم ، واتصافه بأخلاق العالم . والمحدث يحيا حياة العالم ويتصف بمزاجه أكثر من الفقيه ، لأنه يقضى عمره فى علمه بين كتبه وأساتذته وتلامذته . أما الفقيه فعليه أن يختلط بالناس ، فيفهم أخلاقهم وعاداتهم ، ليضع حداً لخصوماتهم

وكذلك تم اتصاله بالحديث رغبة لا إجهاداً . وكفى المرء نجاحاً أن يطلق لمواهبه العنان ، فتسير حيث هى خليقة أن توجهه . على أن أخذه من الفقهاء لم يذهب دون جدوى ، ومنهم خمسة أعلام لزمهم فأخذ منهم حسن الاستنباط ووضع المسائل وإيجاد حلول لها .

وتلقف من غير المحدثين والفقهاء العلوم العربية الإسلامية الأخرى .

أما الكتب التى قرأها فتعدو ما وصل إلينا تسميته منها (٤٧٤) كتاباً بين مصنف ضخم وسفر متوسط وجزء صغير . وأول ما يوحى به النظر فى هذه التسمية أن الخطيب أخذ من كل من العلوم الإسلامية بطرف واسع ، فلم يهمل منها شيئاً ، ولو أنه فضل بعضها على بعض . فهو إذن شارك فى علوم العرب مشاركة هى من صفات الأديب فى ذلك العصر . غير أن المادة التى طغت على غيرها هى التاريخ ، فقد قرأ منها أكثر من ثلث ما حدث به من الكتب . وإذا أمعنا النظر فى كتب التاريخ ألفينا معظمها فى تاريخ المحدثين ونقد رجالهم ؛ ويدلنا ذلك على أنه كان يعد نفسه للتخصص فى تاريخ الحديث . وكذلك نشأ أبو بكر فى علوم العربية ، فعد أديبا ، وقرأ على الفقهاء وعلماء الأصول فقوى استنباطه للمسائل . ثم استهواه علم الحديث ، وراق له أسلوبه فى النقل والضبط ، وأراد التوثق فيه فأقبل على رجاله يتتبع تاريخهم ، فوجد فى نفسه ميلا إلى التاريخ فأمعن فى درسه ، وصار يستقصى كتبه يضيفها إلى رواياته ، ويتتبع آثار من أجاد فيه واشتهر به .

تصنيفه لتاريخ بغداد :

هذه كانت ثقافته عام ٤١٩ ، الذى وقفنا عنده ، وغادرنا سيرته فيه . وتنقطع الأخبار عن حياته حتى سنة ٤٤٤ ، فماذا كان يعمل خلال خمس وعشرين سنة ؟ إن من تجهز بثقافة كثقافته ، وجد كجده ، لا ينعزل لغير سبب ، فهو إنما ينقطع للتصنيف . ولكن أى كتاب يستغرق كل ذلك الأمد ، ويقتضى هذا الانقطاع إن لم يكن تاريخ مدينة بغداد ؟

والحق أن أبا بكر شعر حين طلبه للحديث بفراغ فى تراجم المحدثين : وهو خلوها من تاريخ للرجال الذين أمّوا بغداد ، أو نشأوا بها . وبغداد كانت محط الرحال ومجمع الرجال ؛ وقلما نبه عالم إلا فكر فى الرحلة إليها ، والأخذ من مشايخها . يضاف إلى ذلك أنها مركز الخلافة ، ومقر السلطنة ، ومثابة الحضارة ، ومرجع المسلمين .

أدرك الخطيب أن كثيرين قبله فكروا فيما فكر فيه ، فلم يوفقوا إلى ذلك التاريخ ، لما يقتضى من علم وسعى وانقطاع ، ولكنه عاد فحبب إليه تصنيف ذلك

التاريخ حبه الشديد لبغداد ورغبته فى خدمة شهرتها ؛ وأسعفه فى ذلك جمع طويل على خيرة رجال العصر ، وقراءة لكتب لم تجتمع لغيره ، وهمة لا تعرف الراحة ولا تشعر بالتعب ؛ فانقطع إلى ذلك خمساً وعشرين سنة ، وإذا بتاريخ بغداد يخرج فى حلة قشيبة واضح المرمى ، مستقيم النهج .

يقع تاريخ بغداد فى ستة ومائة جزء ، أو ما يقارب عشرين مجلداً ، طبع منه أربعة عشر مجلداً . ويبتدئ بوصف المدينة ، فيظهر من عظمتها ، ويرتضى المؤلف رواية أخبار غالت فى تعداد مساجدها وحماماتها وسكانها ومساحتها القديمة ؛ فهو مقتنع لحبه لها أنها خير البلدان . ثم ينتقل إلى ترجمة من سكن بغداد ، أو مر بها ، من رجال السياسة والأدب والعلوم الدينية ، ولكنه لا يتوسع إلا حين البحث عن رجال الحديث ، فيتعمد استقصاء ما ورد عنهم . ويغلب نهج المحدثين على أبى بكر ، فلا يدع لنزعاته مجالا للظهور بقول ينسب إليه إنشاؤه ، أو رأى يؤخذ عنه ، اللهم إلا فى نقد الرجال . يصف حوادث التاريخ كما وقعت ، فلا تظهر نفسه خلال أسطرها ، ولا يحسب لشعوره قيمة فيها ، حتى يخيل لمن قرأ التاريخ أن المؤلف لا يفكر ، ولا يسبر غور الأشياء ؛ على أن الأمر خلاف ذلك ، فالمصنف يختفى وراء النصوص ، ينتخب منها ما يبدو له كافى الحجة واسع الشرح ، حتى إذا رتبها وجه فكر القارئ إلى ما يريد ، دون أن يشعره بذلك .

وبعد ، فقد كان أثر تاريخ بغداد عند العلماء قوياً ، اتخذوه أصلا من أصول التاريخ ، يستشهدون به ، ويعتمدون على أقواله ، ويرفعون من منزلته .

أمنية فى الحياة :

وشعر الخطيب بنجاحه فى تاريخه ، فلم يأت على آخر صفحة منه حتى عقد العزم على الحج ليشكر ربه على توفيقه ؛ فخرج من بغداد سنة ٤٤٤ عن طريق الشام . ويدخل مكة ، فيقضى فريضة الحج ، ويتجه إلى زمزم ليشرب منه ثلاث شربات ، ويسأل الله تعالى ثلاث حاجات ، أخذاً بقول رسول الله : ماء زمزم لما شرب له . فالحاجة الأولى : أن يحدث بتاريخ بغداد ببغداد ؛ والثانية : أن يملى الحديث بجامع المنصور ؛ والثالثة : أن يدفن عند قبر بشر الحافى .

تلك هى الحاجات الثلاث التى ملكت على الخطيب نفسه ، فصورت لنا أمنيته فى الحياة ، وإذا به يفكر فى علمه ، ويرغب فى نشره ؛ ولكنه متعلق ببغداد وبحلقاتها وجوامعها ، فلا يتمنى لقراءته لتاريخ بغداد إلا فيها ، ولا يرجو لرواياته فى الحديث أن تتلى إلا فى جامع المنصور منها ، حيث أخذ عن خيرة شيوخه . وحبه لبغداد وجامع المنصور يرمز بطرف خفى إلى حبه للعلم ، فبغداد كانت ميدانه ومسرحه ، يجتمع فيها خيرة أهله فيتبارون بمعارفهم وحفظهم وتصانيفهم ؛ وجامع المنصور منها تجتمع فيه خيرة حلقات الحديث .

أحب الخطيب العلم ، وأحب به بغداد وجامع المنصور منها ، فدعا الله أن يهيئ له بهما قراءة تاريخه وأحاديثه ثم لم ينس حين اتجاهه بالدعاء إلى الله تعالى أنه ميت فابتهل إليه جل وعلا بأن يهيئ له جواراً حسنا بعد وفاته ، حتى إذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامه ، خرج من قبره فوقع نظره على بشر بن الحارث الحافى ، وهو رجل لم تدنس نفسه الدنيا . وفى كل من الحاجات نبل ورق وعفة !

وبلوغه تلك الحاجات حديث ، فلنستمع إلى بعضه : عاد إلى بغداد فعز عليه أن يسفك ماء وجهه عند أقرانه من أصحاب المراتب ليتوسطوا له عند الخليفة بالسماح له

بإملاء الحديث بجامع المنصور ، فإذا به يجد في سوق الوراقين وهو يقلب الكتب ، جزء حديث فيه ذكر لاطلاع الخليفة القائم بأمر الله وسماعه له ، وفتح الله على أبي بكر ، فأخذ الجزء ، ومضى إلى دار الخلافة ، وطلب الإذن في قراءته على الخليفة . فقال الخليفة : إن أبا بكر رجل كثير الحديث ، وليس له في السماع من حاجة ، ولعل له حاجة أراد أن يتوصل إليها بذلك ؛ فسلوه ما حاجته . فسئل فقال : حاجتي أن يؤذن لي أن أملي بجامع المنصور . فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بالإذن له في ذلك . فحضر النقيب إلى جامع المنصور ، واجتمع الناس وأملى الخطيب الحديث ، وتم له ما دعا الله به في ذلك ، دون أن يتخذ واسطة غير العلم ، وأي عار في أن يتخذ المرء أمر شيء عنده شفيعاً ؟!

أثره في العلوم الإسلامية :

وينقطع الخطيب إلى التصنيف بجد متواصل وهمة عالية ورغبة شديدة ؛ وكانت مادة تصانيفه مجهزة ، فقد وضع لنفسه نهجاً في التأليف لم يخطئه : عرف حين جمعه للحديث ودرسه عن المشايخ نواحي النقص في العلوم الإسلامية ، فعزم على سد هذا الخلل ، يبتدئ بما يجب أن يبدأ به ، وهو تاريخ بغداد ، وينتقل إلى ما يتبعه ، وهو أصول علم الحديث وطرق نقله وإيضاح أسماء رجاله .

رأى الخطيب من سبقه من المحدثين قد أوجزوا البحث عن قواعد التحديث ، ووضعوا كتباً مجملة عمموا أحكامها ، واختصروا فصولها وبقيت مسائل عديدة وقع الاختلاف فيها ، وسرى الالتباس والشك إليها ؛ فعرف أن خير خدمة للعلم يؤديها أن يفصل في كتب مفردة ما أوجزوه بكتاب جامع ، فطفق يجمع مواد بحثه منذ كان يدرس ، وحين أنشأ يكتب تاريخ بغداد ؛ ولما عاد من الحج ، عمد إلى إخراج هذه المواد وتصنيفها . والطريقة التي اتبعها استنطاق النصوص أو إيضاح ما ورد فيها ، وتسوية الخلاف الواقع بينها ؛ وذلك بأن يبوبها تبويباً ، هو بحق خير ما وجدناه فيما بلغنا من كتب العرب ، ينبئ عن تعمق وحسن فهم للأشياء ، ثم يورد النصوص بعضها تلو بعض ، تنطق بما وصل إليه المؤلف بعد الجهد والتفكير والعلم الوثيق ؛ يتخلل كل ذلك جمل منه تجلب الفكر إلى ما قد لا يدركه القارئ من النصوص نفسها . على أن المؤلف لا يحب الظهور كثيراً ، وكأنه يريد أن يتم الاستنتاج والاستنباط من النصوص نفسها . وهو يبدأ كتابه بذكر الغاية من تأليفه ؛ ويلخص موضوعه بلغة مليئة بحسن معانيها ، فصيحة بطرافة تراكيبها وحسن اختيار ألفاظها . وإذا انتقل من فصل أفهم القارئ الشوط الذي قطعه ، والمكان الذي وصل إليه ، والطريق الذي يسلكه ، غير أنه مقل في ذلك إقلاله من التحليل والتعليل .

وضع الخطيب أصول علم الحديث بطريقة تشابه أصول علم التاريخ المعاصر ، ووفق في ذلك إلى أبعد حد ، ولعل واضعي أصول التاريخ اليوم لم يفصلوا في بعض الأبواب تفصيله ، ولم يستقصوا استقصاءه ، غير أن كتبه في ذلك مجهولة ، لم تنشر بالطباعة ولم ينوه بها .

وصنف الخطيب في الحجاج عن مذهب الشافعي كتباً أودعها حسن جدله وقوة بحثه ، وكان في مجمل تصانيفه مجوداً أكثر ما يستطيع أن يجود ؛ ذلك إلى كثرة مصنفاته ، فقد بلغت تسعة وسبعين مصنفاً في نحو سبعين مجلداً ، وهذا عدد لا يحظى به إلا من صحت عزيمته وعظم علمه وحسن نهجه .

(البقية) **يوسف العش**

مدير دار الكتب الظاهرية بدمشق

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

الهاربة ! — فن الصمت ! — خرافة التاريخ — تراجم المعاصرين ...

الهاربة !

أقرأت يوماً صفحة « الإعلانات المبوّبة » فى الأهرام ؟

أما أنا فلم أقرأها يوماً ، ومن أين لى الصبرُ والطاقة إن وجدتُ الحاجة ؟ وما حاجة مثلى إليها وما وجدتنى يوماً على وفر من المال ألتمس له مصرفاً ، أو وفر من الزمن أبتغى له مَشغلة ؛ وما تعوّدتُ أن ألتمس أسبابى إلا بأدنى الوسائل وأخفّ المئونة ... ، ولكنى أمس قد قرأتُ صفحة « الإعلانات المبوّبة » فى الأهرام ، قرأتها جميعاً كأنما ألتمس فيها سبباً إلى حاجة ، وما كان لى بها حاجة ، ولا كنتُ على وفر من المال أو وفر من الزمن ! ... وقرأتُ شيئاً جديداً فيه تسلية من السأم ، وفيه أسباب إلى أمل ، وفيه ذكريات وأحلام ، وفيه أقاصيص غامضة مثيرة وإن لم يُكتب منها غيرُ العنوان ... ...

ماذا وراء كل إعلان من هذه الإعلانات المنشورة من أمانىّ ، ومن أحزان ، ومن حوادث ، ومن دلائل نفسية وخلقية واقتصادية ؟ ... وددتُ لو كان وراء كل سطر من سطور هذا الباب قارئٌ يُحصى ويُحسن أن يمد المقدمات لنتائجها ، وردّ المسبّبات إلى أسبابها ؛ إذَنْ لوجد المجال لحديثٍ له ذيول ...

وقرأتُ فيما قرأتُ الإعلان التالى من باب « الإعلانات الشخصية » :

« ابنتى ... « ورد خطابك ، عودى ... طلباتك أجيبت ! » .

وتلبّثتُ رهةً ، وأغمضتُ عينىّ ؛ وسرحتُ فى وادٍ عميق ؛ ابنته ، أو ابنتها ... مَنْ يدرى أين هى الساعة ؟ وما خطبها ؟ وما دعاها إلى الفرار والتخفّى ؟ وما خطابها إلى أبيها ، أو إلى أمها ؟ وما طلباتها ؟ وهل تعود ؟ ...

ولكل سؤالٍ جوابه الواحد ، ولكنْ حين تغيب الحقيقة وراء ستار من الكتمان يكون لكل سؤال ألفُ جواب كلها فى وهم التخيّل صدقٌ وواقعٌ ما دامت فى حدود الإمكان ؛ وكذلك أجابتنى نفسى عن كل ما سألتُ ولم أظفر بجوابٍ واحد !

يا لها قصة ، بل إنها قِصصاً يسرح فيها الخيال ويثوب ؛ ولكنها جميعاً حقائق واقعة ، لأنها جميعاً من حياتنا العامة التى نحيا ، بلا تقاليد ، ولا آداب ، ولا خلق عام يجتمع رأىُ الشعب على فضيلته ورذيلته !

أيريد القارئُ أن أقص عليه قصة هذه الهاربة كما زوّرها لى خيالى ؟ ولكنْ لا ، إن فى نفس كل قارئٍ جوابَ ما سألتُه وسألتْ نفسى ، وإنه يستطيع أن يقص لنفسه قصتها !

لم ينقص هذا الإعلانَ من وسائل الطرافة إلا عبارةٌ واحدة كان ينبغى أن تُزاد فى آخره ، كبعض الإعلانات فى أبواب أخرى ، هى عبارة : « ... ... ومستعد لدفع خلوّ رجل ! » .

ردّ الله غربتك أيتها المسكينة !

فن الصمت !

وقرأتُ فيما قرأتُ من المباحث البرلمانية فى الأسبوع الماضى ، أن مجلس شيوخنا اتخذ قراراً بتحديد حق

العضو في التكلم بنصف ساعة ، لا يسوغ له أن يعدوها في تقرير رأيه ؛ حرصاً على الإيجاز في الزمن ....

وهو قرار له دلالته وأثره ، ومن حق أهل الأدب أن يذكروه حين يذكرون العوامل المؤثرة في أدب الجيل ؛ فإن مجلس الشيوخ ، أو البرلمان بجملته ، هو حلبة الخطباء الأولى في هذا الجيل ، وخطباؤه بما يتناولون من الموضوعات العامة أدنى مكانة إلى الشعب ، ومذهبهم في الخطابة أقرب ما يحتذى ...

وليس تحديد الزمن بنصف ساعة أو أكثر أو أقل ، هو ما يعنينا ؛ وإنما يعنينا ما يكون من أثر هذا التحديد في ألسنة الخطباء والمتكلمين ؛ فإن الكثير الطيب منهم سيحرص منذ اليوم على أن يؤدي كل ما يريد من معنى في تقرير رأي أو معارضة فكرة في زمنه المحدود ، حتى لا يرتج عليه قبل أن يتم بيانه ؛ وسيحمله ذلك على الإيجاز والقصد إلى الهدف من أقرب الطرق إليه ؛ وليس يتأتى ذلك لكل أحد ، ولكنه خليق أن يحمل العاجز على التماس أسبابه ؛ فهذا أثر ذلك التحديد الزمني في ألسنة خطباء الشيوخ ومن يحتذيهم ؛ ومن ثم يكون أثره في الأدب .

ولست أشك أن هذا القرار — من الناحية الموضوعية — قد أغضب واحداً ، أو آحاداً ، كان يحلو لهم أن يقولوا فيكثروا ، وأن تتناقل المطبوعات والناس عنهم ما قالوا فأكثروا ، لأنهم يملكون من أساليب البيان بضاعة ، أو لأنهم لا يملكون .... ولكنهم رابحون بهذا القرار على الحالين : رضوا أم غضبوا ، لأنه سيحملهم على خطة لم يألفوها بعد ولكنها أجدى : سيحملهم على تجويد البيان والإيجاز في العرض والاستدلال إن أطاقوا ، أو يحملهم على الصمت ؛ والصمت في بعض الأحيان أغلى البضاعتين !!

ليت المدارس إذ تعلم تلاميذها « فن الكلام » تعلمهم إلى جانبه « فن الصمت » ، فإنه ليكون أبلغ بياناً في بعض المواقف من كل بيان ؛ ولكنه فن عسير على طالبه وعلى معلمه !!

خرافة التاريخ !

وقرأت في العدد ٥٣ من مجلة « الاثنين » من حديث زيور باشا وقد سأله سائله : لماذا لا تدون مذكراتك ؟ فأجاب :

« إن هناك ذكريات حكم عليها أن تموت مع صاحبها ، ومن بينها ذكريات أحمد زيور ...

« لقد كتب نوبار باشا مذكراته ، وهي على جانب كبير من الخطورة ، ومحفوظة عند أحفاده ... بل ستبقى محفوظة عند أحفاد أحفاده ، لأن أحداً لن يجسر على نشرها ... وذكرياتي لا تقل خطورة عن ذكريات نوبار باشا ؛ ولذلك سأصحبها معي إلى قبري حتى لا أتعب بها أحفادي ! »

والبسامة الساخرة والخفة اللامعة في فكاهة الوزير الشيخ ، وإنه ليعترف من حيث يريد أن ينكر ، فلولا ما يملأ فاه من ماء لقال ! ...

ولو أن سائلاً سأل كل وزير من وزرائنا ورجالنا العاملين هذا السؤال الذي سئله زيور باشا لكان الجواب جوابه وإن لم يصرح به ؛ وما يسكت من يسكت منهم إلا وفي فمه ماء ، أو في فمه دم !

أليس ذلك شاهداً من بينة على نفاق التاريخ يزعزع الإيمان به والركون إليه ، ويؤيد كلمة قالها منذ قريب عبد العزيز فهمي باشا فأنكرها عليه من أنكر حين زعم أن التاريخ خرافة !

إن شواهد كثيرة لتؤكد لي معنى أحذر أن أصرح به ، وإنه ليخيل إلي أن « الكذب » هو الأصل في

طبيعة الإنسان وأن « الصدق » تطبُّع ؛ وليس كل الكذب هو ما يُقال خلافاً للواقع أو خلافاً للمعتقد ؛ فإن هناك « الكذب الصامت » ، وهو السكوت عن ذكر الواقع أو ذكر المعتقد ، وهو أرذل الكذبين !

تراجم المعاصرين :

وبعدُ فلي شيءٌ شيئاً ؛ فقد قرأت منذ أسابيع مقالاً للأستاذ أحمد أمين بك في الثقافة عنوانه « تراجم المعاصرين » يجيب به سائلاً ، أو مقترحاً ، يرى أن يقوم كل عين من أعيان الجيل فيضع لنفسه ترجمة ، « لئلا يكون لأحد عليه تقوُّل أو تزيُّد ! ! »

وقد أجاب الأستاذ أحمد أمين بك سائله ونشر مقترحه وجلاه ، ثم قال :

« ونحن يسرنا هذا الاقتراح ونرحب به ، ونفتح صدر « الثقافة » له ؛ فهل نجد من يلبّي ؟ » .

أما « تراجم المعاصرين » فليس يشك أحد في وجوب العناية بها ، وقد كتبت في ذلك بضع مقالات في هذه المجلة منذ أكثر من عام ، وتناولتها بعد ذلك مرة أو مرات في هذا الباب ؛ وأما الوسيلة ....

ويسأل أحمد أمين بك : هل مَن يلبّي ؟

وإني لأسأل معه : وهل يغني ذلك غناءه لو وجدتَ مَن يلبّي ؟ .

وفي بعض ما قدمتُ جوابُ ما سألتُ ! . . .

على أن في هذا الاقتراح طرافة ، وفيه جدوى ، للأدب الفني الخالص لا للتاريخ ؛ ولستُ أذكر في قديم الأدب شيئاً يعدُّ من هذا اللون إلا ما كتب ابن خلدون عن نفسه ، وإن منه في الأدب الحديث كتاب الأيام ، على اختلاف المذهب بين ابن خلدون والدكتور طه حسين بك فيما كتبا ؛ فلو أنا نظرنا إلى هذين بطائفة أخرى من « تراجم العظماء لأنفسهم » لكان لنا فن جديد في أدب اللغة العربية ؛ ولكن هل نجد من يلبّي ؟ ... ...

ليست الوسيلة إلى هذا أن تعلن « الثقافة » أنها تفتح صدرها ، فإنك لا تجد كثيراً من أدبائنا يؤمن بنفسه إيماناً يحمله على التحدث عن نفسه علانية ، ولو كان لنا وجد الجرأة ؛ وإنما عليها أن تقترح على مَن تشاء أن يكتب عن نفسه ، وأن تحمله بما تملك من الوسائل الأدبية على الإجابة ؛ فإذا أفلحتْ في اجتذاب بضعة نفر فقد أفلحتْ في إحياء فكرة ، وفي إنشاء فن ، وفي تزويد الأدب العربي بجديد ، وفي تقديم شواهد للاستدلال في التاريخ ومقدمات لنتائج ؛ ولعلها أن تبلغ بذلك مبلغاً ؛ فإن لم يربح التاريخ فقد ربح الأدب !

وأحسب « الثقافة » لن تجد على ذلك اعتراضاً يذكر ؛ فإن كثيراً من مجلاتنا الأسبوعية قد خطت خطوة في هذا الشأن وإن لم تقصد إلى هذه الغاية ، بما تقدم لقرائها حيناً بعد حين من أحاديث لبعض سادتنا وكبرائنا عن أشياء من خاصة أنفسهم كان العُرف يأبى عليهم أن يذكروها منذ قريب ، بل ما زال العُرف يُنكر بعضها ويَعيب الحديثَ عنها .

وقد هيَّأتْ لنا التطوراتُ السياسية منذ ربع قرن أن نسمع كثيراً من ساستنا يتحدثون أو يخطبون ، أو يكتبون أحياناً ، عن أشياء مما عملوا أو مما يرجون أن يعملوا ، تكثُّراً بالفضل وتُرَبى إلى الشعب أو إلى التاريخ ؛ فهذا تطوُّر في تقاليدنا يمكن أن يُفيد منه الأدب لو وجدتْ الدعوةُ من يستمع ، وإني لآمُل أن نجد من يستمع فيحسن أن يستمع ويحسن أن يقول .

« قاف »

قضـــــية شهر زاد

سبحان ربي مقسم الحظوظ ، ولا عتاب ولا ملامة . وقد أراد أن يهب لشهر زاد من الحظ ما لم يقسمه لغيرها من خلقه — وله فيما أراد حكمة — وقفت مرة تتحدى الموت عند ملك جبار محنق ، شديد العطش إلى الانتقام وسفك الدماء ، فإذا بها تصير ملكة ، وتقاسم الملك الجبار سلطانه ، وتقيم معه في نعيم مقيم ، تتنقل في قصرها السحري كيف تشاء ، وهي كلما اشتهت شيئاً تحقق لها ، كأنها حورية في جنة النعيم . ثم تنتقل بقصرها السحري إلى جبال (القوج) إذا ما طابت لها الإقامة هناك ، فإذا ملت أو أشبعت متعتها بتلك الجبال عادت بقصرها السحري إلى بغداد ، أو ضربت به في بلاد أخرى تتجه إليها أهواؤها المتقلبة . والناس في كل مصر يتحدثون بأحاديثها ، ويرددون اسمها ، ويتمثلون السعادة والجمال الأسمى في ذاتها .

فهل بلغت امرأة — ولا أقول هل بلغ إنسان — مثل هذه القسمة من الحظ السعيد ؟ هل بلغت (إزيس) مثلا بعض ما بلغته (شهر زاد) من نعمة وشهرة ، ولصوق بقلوب هؤلاء الآدميين ؟

نعم قد عبدت إزيس في أقطار الأرض الفسيحة ، ولكن الناس لم يكونوا يتبتلون إليها في معابدها بمثل الشغف الذي يتجهون به إلى ذكر شهر زاد . ولم يكونوا يقدمون لها الحب الخالص من كل قيد من الرهبة كما يقدمون الحب إلى (شهر زاد) . وقد تقادم العهد على إزيس ، فأصبح اسمها اليوم نكرة إلا عند من لا يزالون يذكرون الأساطير من وراء أذهان مكدودة بثقل دعائر تحت القدماء ، على حين أن شهر زاد بقيت حية في قلوب الملايين من البشر ، منذ أجيال وأجيال ، ولا تزال تلك الملايين في زيادة على تتابع العصور .

حتى الاسم . حتى حروف اسم شهر زاد — يتمثل فيها الحظ السعيد الذي لا يشبهه حظ آخر . فلهذا الاسم جرس عذب له موسيقى سهلة ما أوشكت أن تدخل إلى القلب دخولاً هيناً لا تخالطه عنف ، ولا يعترضه (نشاز) .

ومن آيات حظها السعيد أن الأدباء والفنانين ما زالوا منذ القدم مولعين بوصفها والتغني بقصصها . ولسنا في حاجة لرجوع إلى مئات السنين لندلل على ذلك ، فهو أمر معروف ، وحسبنا أن نذكر أنها اليوم تثير الأدباء ثورة بعد ثورة في أركان كثيرة من العالم ، ولم تخل هذه السنوات الأخيرة من الاهتزاز على اسمها في مصر ، منذ كتب عنها الأستاذ الأديب المبدع توفيق الحكيم قصته المعروفة .

ولشهر زاد هذه خصلة أخرى غير حظها السعيد ، فهي مرنة إلى أبعد حدود المرونة ، تستطيع أن تساير العصور على اختلافها ، وتعيش في البيئات المختلفة كل الاختلاف ، فلا تجد نفسها غريبة في بيئة منها ، بل تكون فيها جميعاً في القمة فائزة بالإعجاب دائماً . فقد عاشت مرة في بغداد عندما كانت ترى القوافل ترد إلى عاصمة الخلفاء ، في قطر طويلة من الإبل ! ثم عاشت مرة أخرى في عصرنا الحديث ! واستقبلت وهي في بغداد ضيفة وفدت عليها من باريس في طائرة قطعت الفضاء بين العاصمتين في ساعات ، كأنها تركب فوق بساط الريح — هكذا أخبرنا عنها القصصي الفرنسي هنري دي رينييه ! ثم عاشت مرة ثالثة في فرنسا ، في إقليم جبال القوج ، وانتقلت إلى هنالك بقصرها كله ، وعاشت كما يعيش المتمدنون من أهل هذا العصر ! وفكرت كما يفكر قادة الرأي فيه — هكذا أخبرنا عنها الأستاذان الأديبان الجليلان طه حسين وتوفيق الحكيم في كتابهما (القصر المسحور) . ثم عاشت مرة رابعة في قصرها السحري في مكان ما في هذه الأرض الفسيحة ، ولم ترد أن تمشي إلى

أحد سرّ مسكنها الجديد الذى تقيم فيه مع زوجها القديم شهريار تقص عليه قصصها الرائع ، وهى غارقة فى نومها — هكذا حدثنا عنها الأديب العظيم طه حسين فى كتابه الجديد (أحلام شهر زاد) .

هذه نبذة من أخبار حياتها ، وليست هى محل التحقيق كل أخبار حياتها العجيبة ، فإنما أنا أتحدث بما سمعت وما بلغ إليه علمى ؛ ولا شك فى أن حياتها تكتم أسراراً لا حد لها لم يصل إليها علمى ، ولا علم الكثيرين من الناس .

وفوق كل هذا قد تعددت أساليب حياتها ، فقد كانت فى بغداد فتاة ساذجة غير شهر زاد التى استقبلت الضيفة الوافدة على متن الطائرة ؛ وكانت فى الرتين غير الفتاة التى عرفها الأستاذ توفيق الحكيم ؛ وهى فى كل هذه الحالات غير المرأة التى عرفها الدكتور طه حسين ؛ وهى مع ذلك الاختلاف تحتفظ بشخصية جذابة كما يقولون ، وفكر عميق ، وحيوية مدهشة .

فلنتحدث قليلا عن شهر زاد الأولى :

كانت فتاة ساذجة ، لها مواهب عبقرية فى فن القصص ، ولا شك أنها كانت فتاة جريئة شديدة الاعتداد بنفسها ، إذ تقدمت إلى شهريار الملك السفاح لكى ترى كيف يكون حظها منه ، مخاطرة برأسها الذى طاحت رؤوس كثيرة قبله على يد شهريار الحنق القاسى .

ثم ما زالت بشهريار تقص عليه حكاياتها العجيبة ، واحدة بعد واحدة ، حتى مضى عليها ألف ليلة وليلة ، فإذا بشهريار ينسى قسوته ووحشيته ، ويمتلئ قلبه إنسانية ورقة وحباً ، ويعيش معها بعد ذلك فى سعادة زوجية وديعة ، ذات ثمرات حلوة من البنين والبنات .

وأما شهر زاد الثانية ، التى قص أخبارها عبقرى ذى رتبيه ، فلنترك الحديث عنها الآن حتى نعود إليها بعد حين ، ولو أن فى هذا إفساداً لترتيب وضع الزمان ، ولسنا فى حاجة إلى الاعتذار عن هذا الإفساد ، فإن شهر زاد لا عبرة عندها بنظام مر الأيام .

جاء الأستاذ توفيق الحكيم ، فقص لنا أخبار شهرزاد وكانت لا تزال فى بغداد . وأحب قبل أن أذكر قصة الحكيم ، أن أمهد بكلمات فى الأثر النفسى الذى يحدثه فى هذا الحكيم ، مؤلف القصة . ولست أقول إن هذا الأثر النفسى يصف حقيقة الرجل ، وأين هى الحقيقة ؟ إنها تلك الصورة الغامضة التى لا وجود لها ، والتى يزعم الناس أنهم يعرفونها فى حين أنهم لا يعرفون إلا ما تراه عيونهم وتسمعه آذانهم ، وتفهمه عقولهم منها .

توفيق الحكيم مِنْ أعجب مَنْ رأيته رجلا ، إنى أعرفه وأطمع فى أن يعدّنى صديقاً ، ولكنى مع ذلك كلما خلوت إلى نفسى وتصورته ، وأعدت لنفسى أقواله وحركته وتصرفه فى أمره ، ازددت منه عجباً . هو رجل جميل الصورة ، أو هو كذلك فى عينى ، فله وجه متناسب الأجزاء ، وله جبهة فسيحة ، وشعر فنى ، أقصد أنه كشعر الفنانين الذين اعتادوا أن يميزوا أنفسهم بغرابة فى قص الأطراف أو ترجيلها ؛ وهو شديد الأناقة ، حلو الصوت ، رقيق الحديث ، مهذب العبارة ، لا تقع الأذن ولا العين منه على ما يفسد شيئاً من المتعة به ، ولكن . . .

ولكن أهذا كله هو القصصى النابغة الذى يغوص على المعانى فيبرزها فى حواره العبقرى إبرازاً معجزاً ؟ أهو الذى يلعب بالأفكار هذا اللعب البهلوانى ، تارة يجعلها غامضة كأنها واضحة ، وتارة يبرزها واضحة كأنها غامضة ، ومرة يسمو بها سمواً رائعاً ، ومرة يفسدها إفساداً مؤلماً ؟ أهو الذى عقّد قصة أهل الكهف أو سهلها وليّنها ؟ أهو الذى أنشر (شهر زاد) فى ثوبها السماوى ، أو الذى هوى بها إلى العار وشوهها ومسخها ؟ أهو الذى ألف براكسا ، وبيجماليون ، وسوى ذلك من المؤلفات التى تملأ أسماؤها جلدة كتبه الجديدة دائماً ؟

إن هذا عجيب ! وإنى أسمعه يتحدث فلا أكاد أجد فيه سوى الجليس المؤنس الصافى النفس ، فإذا ما خلا إلى نفسه وأخذ يكتب صار إنساناً آخر كأنه قد ذاب فى شيطانه ذوباناً فلم يبق منه شىء سوى الشيطان ؟

شىء واحد قد لمحته فيه ، وهو الذى يجعلنى أصدق أن الأستاذ توفيق الحكيم هو مؤلف هذه القصص الرائعة ، وذلك أنى من طول ملاحظتى له قد عرفت أنه امرؤ من أسرع الناس انطواء على نفسه ، وقد شبهته فيما بينى وبين نفسى بالقوقعة ، فهو يخرج من صدفته البراقة إذا عرف أن الفضاء حوله قد خلا من كل ما يخيف . وعند ذلك يأمن فيبرز قرنيه فى حذر شديد فيبصر بهما ما حوله فى بطء ولين ، حتى إذا ما اطمأن كل الاطمئنان ، مد رقبته وأخذ يدب هنا وهناك ، ويلتقط رزقه مما حبت إليه الطبيعة الفنانة — ولست أدرى أنا ما هو — فلو أتيح لأحد أن يراه عند ذلك لرأى دقة تفوق كل دقة ، وإبداعاً فى الخلقة يفوق كل إبداع ، وليناً فى الحركة ، ومهارة فى الصيد ، ولطفاً فى الحس . ولكن هذه القوقعة ما تكاد تحس صوت النسيم فى ثنايا الحشائش الناعمة حتى تعود إلى صدفتها فى مثل لمح البصر ، فإذا هى صدفة براقة يرفعها الطفل فى يده لاعباً ، ويمر بها الفلاح غير مدرك أن هناك قطعة من أبدع آيات الخلق المجيد .

هكذا بدا لى الأستاذ توفيق الحكيم ، وأغلب ظنى أنه لا يكتب هذه القصص الرائعة إلا وهو خارج من صدفته ، إذا اطمأن كل الاطمئنان إلى أن الجو خال من كل رقيب . وأغلب ظنى فوق ذلك أنه لا يكتب قصصه بذلك العقل الذى يتكلم به مع الناس ، أو يناقشهم أو يعاملهم ، بل هو يؤلف بعقل آخر ، وليكن اسمه ما يكون ، فقد يكون اسمه العقل الباطن ، وقد يكون اسمه التجلى والاستغراق ، وقد يكون اسمه الوحى ؛ ولكن شيئاً واحداً محقق عندى ، وهو أنه لا يمكن أن ينتج فنه بهذا العقل الذى يلابسه أو يتخذه فيما بينه وبين الناس .

حسبى هذه الكلمة عن الأستاذ توفيق الحكيم نفسه ، ومنها يدرك القارئ الكريم أنى محب له ، معجب بفنه ؛ وإن كان العجب قد حملنى على الذهاب مع الظن إلى حيث ذهبت فى سر إبداعه .

أما شهر زاد الحكيم نفسها . . . لقد كنت أحب أن أمضى فى الحديث عنها ، ولكن الصباح أوشك أن يدرك ، وما ينبغى أن أخالف سنة شهر زاد

(يتبع) **محمد فريد أبو حديد**

الميدان الروسى بين المد والجزر

(بقية المنشور فى الصفحة الأولى)

فلم يتمسكوا بروستوف وخاركوف كما تشبثوا بستالينجراد . بل بادروا إلى إخلائهما قبل أن تحدق بهما القوات الروسية تماماً . وهكذا يكون الألمان قد تراجعوا فى هذا الشتاء أكثر مما تراجعوا فى الشتاء الماضى . وقد سقطت مدينة خاركوف مع أنها ثبتت للهجوم الروسى السابق ، وبقيت فى أيدى الألمان .

وتقدم الروس فى هذا الشتاء بسرعة عظيمة ، فإن المسافة بين ستالينجراد وخاركوف تبلغ سبعمائة من الكيلو مترات . ولا يزال فى الشتاء الروسى بقية تبلغ فى الميدان الجنوبى نحو شهر من الزمن ، وبعد ذلك يذوب الجليد وتمتلئ الأرض طيناً ومستنقعات ، وتهدأ الحرب فترة ، حتى يحل الصيف الثالث ، ويدخل هذا الميدان فى دورة جديدة .

محمد عوض محمد

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢١٨ | الثلاثاء ٢٥ من صفر سنة ١٣٦٢ — ٢ من مارس سنة ١٩٤٣ | السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

خمس زوجات

للكاتب فاضل

تزوج رجل من رجال الجيل الماضي بسيدة كان هو بحكم حالة ذلك الجيل في مصر أكثر منها علماً . أو بعبارة أدق كان هو بالنسبة لها على شيء من العلم . أما هي فلم يكن لها من هـذا العلم أي نصيب . فعاش معها منغصاً ... إن أراد أن يطالع في كتاب نهرته وعيرته بأنه يهجرها من أجل هذا الهراء الذي يملأ الكتب وهو لا يسمن ولا يغني من جوع . وإن رأى في شأن من شئون معيشتهما رأياً صائباً هيأه له ما حصله من العلم ، رأت هي غيره خطأ بما هيأها له ما هي عليه من الجهل . وعاش الرجل معها ما عاش على هذه الحال . ولم يمنعه ذلك أن ينجب منها أربعة أبناء دأب على رعايتهم ، والعناية بهم ، حتى أنشأهم أحسن تنشئة . وبلغ أكبرهم تلك السن التي يفكر عندها الشبان في الزواج . فرأى أبوه أن يجنبه ويلات الزواج بالجاهلات وتعاون معه في البحث عن فتاة مثقفة تدبر عليه بيته بحسن إدراكها للأمور . وتشد أزره فيما يقبل عليه من الأعمال برجاحة عقلها وسعة علمها . ووفقا بعد طول البحث إلى فتاة جمعت بين العلم والثراء . وتم الزواج ... ...

وسارت الأمور في بداية الحياة الزوجية سيرة تبشر بحسن المستقبل . ولكن ما لبثت مواهب الزوجة أن اتجهت اتجاهاً خاطئاً ، فقد ملأ رأسها الغرور بما حصلت من العلم . وصعر خدها ما تملكه من المال . وبدأت تهزأ زوجها ، وتلمز حماها في كل مناسبة بعقد المقارنات التي

لا تنتهي بين علمها هي وجهل حماتها . وبين يسار أهلها وفقر أهل زوجها . ثم انتهت بأن أصبحت لا تجادل زوجها في أي شأن من شئون المنزل دون أن تذكره بنعمة الله عليه إذ من عليه بمثلها ، وكان من الممكن أن لا يصيب في حياته إلا قدر ما أصاب أبوه من قبله . وظل الحال بينهما على ذلك حتى أصبح أبوه يلوم نفسه على أنه أشار على ولده بالزواج من مثلها أكثر من لومه على أنه هو تزوج بمثل زوجته .

***

وحل أوان زواج ابنه الثاني . ففكر هو وابنه الأول فيما عسى أن يشيرا به ليكفلا لهذا الابن زيجة هنية لم يتمتع بمثلها أبوه ، ولا أخوه من قبل . وأخذا يقلبان وجوه الرأي حتى انتهيا آخر الأمر إلى أن آفة الزواج عند الوالد كانت الجهل . وأن آفته عند الأخ الأكبر كانت الغرور الذي سببه وفرة المال ، وتوفر العلم ، فعزما على أن يختارا للأخ الثاني زوجة من وسط أقل من وسطهما مقاما ، لتكون أسلس قيادا ، وأهدأ طبعاً — ولكن على شرط أن تكون فتاة متعلمة أيضاً — فإن هذا العلم هو الأساس الأول الذي لا يمكن اغفال أمره . والتهاون فيه عند البحث عن الزوجة الصالحة ، وإلا وقع الابن فيما وقع الأب فيه .

ووفقهم الله أخيراً إلى فتاة يتيمة مات عنها أبوها وهي صغيرة فرباها أحد أقاربها مع أولاده ولكنها بحكم يتمها نشأت بين أولاد قريبها نشأة الخادم وسط سادته . ففرح الرجل بما أصابه من التوفيق في إختيار الزوجة الصالحة لابنه الثاني . وعلق على هذه الزيجة آماله في أنه استطاع أخيراً أن يقيم منزلا على أساس متين من الهناء والسعادة . وبدأت الحياة في المنزل الجديد هنية حقاً سعيدة حقاً . ولكن الزوجة الجديدة التي حسبت أنها وضعت حداً لذل اليتم عند ما بدأت حياة الزوجية ما لبثت أن أحست بكل من حولها ينظر إليها نظرة ولي النعمة على مولاه . فغالطت نفسها أول الأمر . . . ثم تغاضت . . . ثم حاولت أن تحتمل . . . . ولكن ذلك كله لم يكن إلا ليزيد نظرات التعالي علوا أو هكذا شبه لها على الأصح — ولم يكن إلا ليزيد أحساسها باليتم حدة . فشكت . . . ثم تمردت . . . . . وبالغت في تفسير النظرات والاشارات والعبارات حتى أصبحت ترى في كل نظرة غمزة . وفي كل عبارة تعريضاً . وكانت هي من جانبها تقابل كل غمزة بثورة . وكل تعريض بثورة . وتلاحقت الفورات والثورات في المنزل حتى أصبح جحيما لا يطاق بفعل هذه الزوجة الجديدة العصبية . الثائرة المتمردة . وحز الألم في نفس الوالد على أنه أراد أن يدعم بيته بزيجتين هنيتين فلم يزد بعمله هذا إلا أنه أضاف المتعوس والمنحوس إلى خائب الرجاء . . . !

***

وجاء دور الابن الثالث فقال الوالد في نفسه لا كان رأيي ولا رأي ولدي الكبيرين إن لم نهتد في هذه المرة إلى الزوجة الصالحة . وتوالت اجتماعاته بولديه . وكثرت مشاوراتهم ومحاوراتهم . وطال تقليبهم لوجوه الرأي وأخيراً أجمعوا أمرهم على أن يختاروا للولد الثالث فتاة . . . متعلمة طبعاً — فإن الوالد فرغ منذ زمان من جعل هذا الشرط أساس كل اختيار — ولكن يضاف إلى علمها أن تكون من أسرة عريقة في الحسب والنسب حتى يضفي هذا الحسب والنسب ظلا من الجاه على نفس الزوجة فتعيش وسطهم معززة مكرمة محترمة مرفوعة الرأس تملأها الثقة بنفسها فتدفع عنها شر التأويل والتفسير والوقوع فيما وقعت فيه زوجة الأخ الثاني . ويجد في حسبها ونسبها سياجا يقيها شر الغرور الذي وقعت فيه زوجة الابن الأول . وكان هذا الولد الثالث أنجب أخوته لحصل على مالم يحصلوا عليه من الأجازات العلمية . وكان حسن الصورة جميل

المقدام رياضي الجسم فهيأت له هذه الظروف مجتمعة أن يحصل على مركز مهم من مراكز الدولة . وكانت هذه المؤهلات جميعها خير شفيع له عند صهره الجديد — الذي كان من أشراف القوم — فقبل أن يعطيه ابنته .

وكانت هذه الإبنة أول الأمر فخورة بزوجها العصامي الممتاز . فصارت الأمور سيراً حسناً . فالوالد محبوب ومحترم لأنه هو الذي أنجب هذا الزوج الممتاز . والأخوة كذلك مقبولون مكرمون لأنهم من رائحة هذا الزوج الممتاز . . . . . ولكن العروس لم تكن تستطيع أن تنسى طول الوقت أنها إنما نزلت درجة عن مستواها الإجتماعي حين قبلت ابن هذه الأسرة بعلا لها . وكان هذا المعنى يلقى ظلا على كافة تصرفاتها وأعمالها فيما يعمل بينها وبين أهل زوجها . ثم فيما بينها وبين زوجها نفسه . وكان الجميع يرون هذا الظل القاتم وتتأذى نفوسهم لرآه ولكنهم يتجاهلون ويتغاضون إلى أن جاء اليوم الذي اختفت فيه المعاني وبرزت الماديات . فالنظرة المتعالية زالت وحلت محلها الكلمة المتطرسة ، والأشارة المتكبرة أفسحت الطريق للعبارة الجافة المهينة . وصبرت الأسرة على مضض . وقبلت أن تقطع ما بينها وبين ولدها لعله إن ابتعد عنهم تحرر من أثقالهم التي كانت تستقر به في مستواهم ، وارتفع هو إلى مستوى زوجته وساد السلام والهناء في المنزل من جديد ؛ ولكن هيهات . . . ! فأن القناع كان قد انكشف والستر كان قد تهتك . فما زال هو في نظر زوجته الأرستقراطية ابن أبيه وأمه الديمقراطيين . وما زالت هي تحس أنها ضحت بأعز ما تملك المرأة وهو المظهر الفخم والوجاهة البادية وذلك من أجل زوج مهما يكن من أمر نبوغه فأنه كان من الممكن أن تجد في طبقتها نابغة مثله يطلبها للزواج . وخيمت على المنزل سحابة قاتمة زادت وحشته . وأصبح الولد الثالث وهو يرى نفسه ضائعاً في وسط الطريق فلا هو احتفظ بأهله ولا هو سعيد بزوجته . وأصمت هذه الطعنة الجديدة قلب الوالد الكبير الذي لم يبق له غير ولده الرابع . فعول على أن لا يفلت زمام الأمور من يده هذه المرة وعلى أن يستفيد من كل تجاربه الماضية وبركز خبرته كلها مع خبرة أولاده الثلاثة الكبار لكي يجيء اختيارهم لزوجة الولد الأصغر إختياراً موفقاً من كل الوجوه .

وقال الوالد : إن شرطي الأول في الزوجة الجديدة أن تكون متعلمة ، فإن محنتي لم يكن لها سبب إلا جهل أمكم .

فاعترضه الولد الأكبر قائلا : إن سر شقائي يا أبي كان في أني تزوجت فتاة متعلمة ، تباهي أني بعلمها ، وتزدهي عليّ بمعرفتها ، ولذلك فإني أقترح لأخي الأصغر زوجة وسطا لا تحسب في العالمات فيشقى بها كما شقيت أنا — ولا في الجاهلات فيشقى بها كما شقيت أنت .

فقال الوالد : وأنا أزيد على ذلك أن لا تكون من الحسب والنسب بحيث يفتنها جاهها ، وأن لا تكون من الثراء بحيث يطغيها مالها ، وأن لا تكون من الهوان بحيث تفسدها ذلتها .

فقال الولدان الثاني والثالث في وقت واحد : نعم الرأي !

وبدا لأول وهلة أن الأسرة اهتدت إلى الرأي الأصوب الذي لا رأي بعده . والذي يعتبر بحق أساس كل هناء ، ومفتاح كل سعادة . وانتشرت العيون وانبثت الأرصاد من أقصى المدينة إلى أقصاها ، حتى جيء بهذه الزوجة النموذجية ، بعد طول البحث وكثرة التنقيب ، فقدموها ثمرة ناضجة لتجارب الأسرة كلها ، إلى ولدهم الأصغر . وكانت هذه الزوجة الجديدة فوق كل تلك الأوصاف جميلة ذكية ، فجاءت هذه الصفات الأضافية إمعاناً من الأقدار في حسن التوفيق . وصار الوالد وأولاده الكبار يستمدون الأنس في بيوتهم من أنس هذا البيت الجديد . وسرى في زيجاتهم الباردة شيء من دفء هذه

الزيجية الحارة . وانقضت الشهور الأولى على خير ما تنقضى الأزمان فى هذه الدنيا .

ولـكن الزوج الجديد ما لبث أن شكا أيضاً . فقـد لاحظ أن زوجته تميل إلى نوم الضحى لأنهـا لا تحب أن تأوى إلى فراشها قبل أن ينتصف الليل . وكان هو فى أول الأمر زاملها ، ويصاحبها إلى دور السينما والملاهى فيقضيان السهرة ثم يعودان هانئين سعيدين . فيستيقظ هو فى الصباح المبكر ليكون فى عمله فى الوقت المحدد له . ويترك زوجته تستمتع بنومة الضحى التى اعتادتها . ولـكن هذا تكرر وتكرر إلى أن أصبح السهر لا يطاق . وبدأ يشعر أن أحب ساعات النوم عنده هى أحب ساعات اللهو عند زوجته . وأن هذا الاختلاف كان ينغص عليه وقته إذا هو وافقها . وينغص عليها وقتها إذا هى وافقته . وكانت هذه واحدة :

وواحدة أخرى أنه عرف فى زوجته الدقة فى إدارة شئون منزلها دقة تامة . وكان هذا الأمر يطربه ، ويسعده فى الأيام الأولى ، لأنه كان فى نظره عنوان الحرص على مصالحه . ولـكنه رأى أن هذه الدقة أصبح من مظاهرها النزاع المستمر مع خدم المنزل . فالطاهى متهم أبداً بالسرقة فى كل ما يشتريه من حاجات المأكل . و «الفراش» متهم أبداً أنه لم يكنس ما كلف بكنسه ، ولم يمسح قط ما نيط به مسحه ، وأنه إن كان فعل شيئاً من ذلك فإنه لم يفعله على وجهه الأكمل فهو كسول خامل ، بليد ، لابد أن أن يخصم كذا من راتبه ، وإن اعترض فلا بد من طرده والإتيان بخادم بدله . وكان ضجيج هـذه المنازعات التى لا تنتهى ينهك أعصاب الزوج ويحطمها ، لأن الزوجة لم تكن تفرق بين الليل والنهار فى مناوشاتها ولا بين أوقات الأكل وأوقات النوم ، فهى ترغى وتزبد فى أية ساعة وفى أية مناسبة . ومن عجب أنها كانت هى التى تهيء دائماً الجو الصالح للنزاع بينها وبين الخدم . ولـكن إذا جد الجد واقتضى الأمر طرد هـذا الخادم أو ذاك ، تخلت هى وانسحبت من الميدان ، ثم طلبت إلى زوجها أن يتولى شتم الخادم أولا أو ضربه إذا اقتضى الحال — ثم طرده ثانياً — ثم البحث عن الخادم الجديد . ثالثاً . . . وكانت هذه واحدة أخرى .

وواحدة ثالثة ، تتفرع من الواحدة السابقة ، هى أنها تتبع طريقة تعتبر نسيج وحدها فى معاملة الباعة . فالخباز مثلا يحضر الخبز فى يوم من الأيام فلا تعطيه ثمنه لأنها مشغولة فى عمل لا تريد تركه . فإذا أصبح فى اليوم التالى قدم ما يطلب إليه تقديمه من الخبز ، فتنقده ورقة مالية لا تساوى ما أخذته من الخبز فى يومين . ولـكنها تزيد عليه أو تنقص عنه قليلا ، ويتعلق بينهما الحساب . ثم يحضر فى اليوم الثالث ، وتجد هى أن ما بقى فى المنزل من خبز أمس لا يسمح بأخذ «الراتب» كله ، فتأخذ بعضه وتدع بعضه ، ولا تدفع الثمن . فإذا جاء اليوم الرابع تعقد الحساب ، وظل الرجل من جانب وهى من الجانب الآخر يتساجلان ويتناقشان ويستشهدان بالخدم . فيختلف هؤلاء فيما بينهم ، فتترك البائع وتنهال عليهم شتماً وتقريعاً على إهمالهم وعدم اهتمامهم بضبط الحساب ومعرفة تفصيلاته!

ولم يكن الأمر قاصراً على «الخباز» ، فإن ما كان يقع معه كان يقع مثله مع بائع اللبن ، ومع مورد الثلج ، ومع البقال ومع كل من تربطه بهذا البيت أية معاملة مالية . وقد يحتدم الجدل ويشتد الخصام ، ويعلو الضجيج ، فيضيق الزوج بكل ذلك ، ويتدخل مكرهاً لفض النزاع ، فإذا كل ما هنالك اختلاف على بضع مليمات ، ما أكثر ما تلقى الزوجة بأمثالها ، وما أكثر منها لأى سائل يستحق أو لا يستحق ممن يمرون فى الطرقات .

***

وتكاثرت هذه « النواقه » التي كانت تشوب حياة الزوجين حتى أوشكت أن تنتهي بهما إلى مثل ما انتهت به حياة بقية الأخوة . وكان الوالد قد بلغ منه كل ما لقيه في حياته من منغصات ، فساءت صحته ، وانهزم جسده ، وأحس بدنو أجله . وعند ذلك تكشفت له الحقيقة ظاهرة سافرة . وهي أنه ضيع عمره في طلب ما لم يكن ليدركه إنسان والتفادي مما لم يكن ليتفادى منه أحد . فجمع أولاده وجعل آخر كلامه لهم قوله :

« الآن فقط يا أبنائي أدركت ما لم يكن ليشق إنسان وهو يدركه فخذوه عني واعرفوه : إن لكل إنسان عيوبه . فمن كان يبتغي الكمال المطلق فلينشده في غير هذه الدنيا . والمثل الأعلى جميل حين نضعه أمام أعيننا لنعمل على بلوغه ونفرح بكل خطوة نخطوها في سبيل إدراكه .. والسعادة مرهونة بمشيئة من جعل شعاره « خذ من الدنيا ما أعطتك » أما من يدخل على الدنيا دخول المصارع يريد أن يأخذ بناصيتها ليضرب بجبهتها الأرض فهو شقي العمر . لأن مثله في الحياة يكون كمثل ناطح الصخر .

ألا وإن كل زيجة شركة . . .

وكل شركة شقاق . . .

فمن أطاق أن يعاشر « شريكا مخالفا » فليفتح بابه للتعب يحوس خلاله ، أو فليدخل على الليث عرينه .

ومن لم يطق فإن الله عنده آجر الصابرين ! »

(＊＊＊)



دنيا الزهاد

من طبيعتنا الانقباض عن هذا الطراز من الأدب : أدب الزهد ، وأظن أن السبب فى انقطاع ولعنا بمثل هذا الباب إنما هو جفاف فصوله ، إنا نحب الألوان والصور والأنغام لأن أعيننا وآذاننا تجد لذتها فيها ، والزهد جاف بطبيعته ، معرّى من هذه المظاهر ، ولكن فلنحتمل قليلاً هذا الجفاف وهذه التعرية ، ولنمش فى دنيا الزهّاد والنسّاك طرفة عين ، إنى لا أبالغ إذا قلت إنا نجد فى هذه الدنيا الحياة بحذافيرها ، فنشهد حلاوة صبرها ومرارة جزعها ، ونتمتع بلذة هدوئها وألم اضطرابها ، ونمتحن عفّة الألسن والقلوب فيها ، ولنرى ما نراه فى حياتنا فى كثير من الأحيان من ظهور الإنسان فى أمور لا يشتمل عليها فى باطنه ، أو من قوله بلسانه ماليس فى قلبه ، ونظائر هذه الأخلاق والطبائع ، ولئن فاتتنا فى فصول الزهد الألوان والصور والأنغام التى تنبسط إليها أعيننا وآذاننا فلا تفوتنا بعض أخلاق تأنس بها قلوبنا وأنفسنا .

فلنسرع إلى هذا العالم العجيب ، عالم الزهّاد ، ولنذق لذة كلامهم وحلاوة مواعظهم ، لا أتعرض فى مقالى هذا للزهد نفسه ، فإنى لا أرى الزهد إلا على نحو ما رآه ابن المبارك الذى قال : أفضل الزهد أخفاه ، هذه حقيقة الزهد ، أمّا الظهور فى مظاهر لا يحتوى عليها الانسان فى باطنه إنما هو محض الرياء .

تابع السياحة فى دنيا الزهّاد ، ماذا ستجد فى آفاقها ؟ مرة تجد فى سيرة النسّاك هدوّ الحياة بأجمعها ، أية حياة أهدأ من البعد عن الحسد ، قال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شىء قط !

ولا يقدر هدوّ بال ابن سيرين حق قدره إلاّ الذى يعرف أخلاق الحسّاد ومرارة المعيشة التى يعيشونها فى سواد ليلهم وبياض نهارهم ، ولقد كشف الجاحظ الغطاء عن هذه المعيشة لما أفاض فى الكلام على تغير لون الحاسد ، وعلى شخوص عينيه وإخفاء سلامه ، وعلى تراكم الهموم على قلبه واستكنان الحزن فى جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره ، وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه وغير هذا كله من دقائق الحسد التى عالجها الجاحظ والتى لا يستطيع أن يعالجها إلا أشباهه من علماء النفس .

إذا عرفنا هذا كله أفلا نقدر هدوّ حياة ابن سيرين حق قدره إذ أنه لم يحسد أحداً على شىء قط !

ومرة نجد فى سيرة هؤلاء الزهّاد والنسّاك حلاوة الصبر ومرارة اليأس ، قال مورق العجلى : لقد سألت الله حاجة منذ أربعين سنة ، ماقضاها ولا يئست منها !

كل واحد منا يعلم فضل الصبر فى هذه الحياة ، فأكثر الذين يخفقون فى أمورهم لم يوطنوا أنفسهم على الصبر ، إنهم يقطعون أملهم فى نجاح حاجاتهم من أول صدمة ، أما الذين تنجح شؤونهم فى الحياة فمعظمهم قد رزقوا جميل الصبر ، يخفقون فلا يتهاونون ، ثم يخفقون فلا يدخل اليأس على قلوبهم ، فلا يزال أملهم قويا حتى يظفروا بحاجاتهم فى الدنيا .

وحيناً نرى فى دنيا الزهّاد حالات نفسية لا يفطن إليها إلا القليل ، إذ نعلم أن الإنسان مفطور على حب ما منع عنه ، قال يونس بن عبيد : لو أمرنا بالجزع لصبرنا !

وحينا نرى فيها أدب ضبط اللسان والبعد عن الغيبة ، فقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان وخاذليه وناصريه فقال : تلك دماء كف الله يدى عنها ، فأنا أحب ألا أغمس لسانى فيها !

ولا يعرف فضل عمر بن عبد العزيز فى هذا المعنى إلا الذى يخالط الناس ويعاشرهم ويعرف كيف تنبسط ألسن الناس فى الناس !

وتارة تنعم النفس فى هذا النوع من الأدب : أدب الزهد ، بضياء الإسلام ونور الإيمان ، فمن قول الحسن : يا ابن آدم ! كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارك ،

وكيف تكون مؤمناً ولم يأمنك الناس !

فما أكثر الذين لم يسلم منهم جيرانهم وأصدقاؤهم وأقاربهم ، وما أكثر الذين لم يأمن الناس شر بوائقهم !

وتارة يسطع في هذا العالم : عالم الزهد ضياء الأخلاق الرفيعة ، قال الحسن يا ابن آدم ! إذا رأيت الناس في الخير ، فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم فيه !

ولا شك في أن الأمة التي لا يتنافس رجالها إلا في الخير إنما هي أمة تكاد تتصل بأول أفق الملائكة

وفي بعض الأوقات يظهر هؤلاء النسّاك والزهّاد في أمور لا يشتملون عليها في بواطنهم ، فقد مرّ طارق صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسري وهو في موكبه بابن شبرمة ، فقال ابن شبرمة : اللهم لي ديني ولهم دنياهم ! فاستعمل ابن شبرمة على القضاء بعد ذلك ، فقال ابنه : أتذكر قولك يوم مرّ طارق في موكبه ! فقال : يا بني ! انهم يجدون مثل أبيك ، ولا يجد أبوك مثلهم ، يا بني ، إن أباك أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم !

وفي الناس ألوف مثل ابن شبرمة ، في الناس كثيرون من ينكرون شيئاً لم يحصلوا عليه ، فاذا حصلوا عليه لم ينكروه ، فابن شبرمة صورة رجال كثيرين في هذا الزمن وفي أي زمن كان ، يسرون غير ما يعلنون ، ويضمرون غير ما يظهرون ، ولكن فضل ابن شبرمة أنه لم يغالط ولم يكابر بعد أكل الحلواء !

وإني لأحب قبل أن أختم هذا المقال أو أقايس بين نظرة الزهاد وبين نظرة الانجليز إلى قيمة الدار المعنوية ، فالذين درسوا الانجليزية يعرفون شأن كلمة « هوم » في هذه اللغة ومعناها : الدار ، فهي مقدسة في الأدب الانجليزي والذين خالطوا الانجليز في بلادهم يعرفون هذه اللفظة ، قال أبو الدرداء : نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره وفرجه !

قد يجوز أن تكون نظرة أبي الدرداء إلى المنزل غير نظرة الانجليز إلى « هوم » ولكن كيف كان الأمر فان فإن النظرتين مجمعتان على تقديس المنزل ، وإذا كان الانجليزي ينعم في منزله بالاستقلال كله ، ثم بالنظر إلى أهله وزوجه وولده ، وإلى فرشه وحديقته ، إذا كان يتمتع بهذه الحياة الهنيئة التي لا يجدها إلا في منزله ، فإن أبا الدرداء ينظر إلى المنزل نظرته إلى شيء مقدس يروض فيه نفسه وبصره ، والسعادة في هذه الرياضة لا تقل من السعادة التي يجدها الانجليزي في منزله !

ولو شئت أن أستقصي في ذكر ما يقف عليه الانسان في دنيا الزهاد من رفعة الأخلاق وهناءة الحياة لفعلت ولكني أردت أن أمسح ذكر هذه الأمور مسحاً دون شيء من الإطناب ، ونحن نرى أن كل فكرة من الفكر التي وردت في كتب الزهد تصلح لأن تكون موضوع رواية أو قصة عند الافرنجة ، غير أن أكثر أدبنا تركيبي وأدبهم تحليلي ، فهم يهجمون على الفكرة فيبسطونها أو يضيقونها ، ثم يحللونها أو يركبونها ، وأكثر رواياتهم قائمة على هذا الشكل من البسط والتوسيع والتحليل ، ولكن أدباءنا في القديم كانوا يحبون الفكرة مجموعة ، ملمومة ، مجردة ، عارية ، وخاصة في الزهد ، فان الفن فيه جاف وقد وضع أسباب هذا الجفاف إمام من أئمة الشعراء في هذا الباب وفي غيره وأعني به أبا العتاهية ، فهو يرى أن الصواب في الزهد أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس ، لأنه ليس من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم مافهموه ، فهذا السبب الذي من أجله نرى دنيا الزهاد مجردة من الأشكال والصور والأنغام ، ولكن فيها في عظمة الحياة وبساطتها مايعوضنا من هذا كله ! —

(دمشق) **شفيق جبري**

من منبر الشرق :

أمس ما قرأت :

من حديث حنين بن إسحق أيضا

وصلني خطابك الذي أعربت فيه عن إعجابك بشخصية حنين بن إسحق ، وعن موافقتك لما قلته عن العرق الجاحظي السارى في هذا الرجل ، مع ما بينت عليه من التفرقة بينهما ، إذ أن الجاحظ في مزجه الجد بالهزل ، وفي تناوله حياة الإنسانية بذلك الهزء ، وبذلك الإغضاء ، وبهذه الحكمة السمحة ، قد فاق حدود المثل العليا التي يتجه إليها رجل من طراز حنين في تفكيره وفي جهده المر ، وفي اقتناعه بأنه يخدم الإنسانية والمستقبل ، وإذ قد وصلنا إلى هذه الغاية فاسمح لي أن أنبهك — استطراداً — إلى فرق آخر أهم من هذا كله ، وهو أن الرجلين ، وإن تعاصرا ، فإن أبا عثمان كان قد جاوز العقد الثامن أو التاسع من عمره ، بينما أن حنيناً — وقد مات في سنة ٢٦٤ كما تذكر — لم يصل أبداً إلى هذه الدرجة من الحنكة والتجربة في هذه الحياة الدنيا . وكذلك لا تنس أن حنيناً قد اختار له حرفة القلم — منذ أول شبابه — واضعاً فيها كل طموحه الذي رفعه إلى ذروة نجاحه . وأما الجاحظ فقد سكت ستين سنة أو أكثر لا نعرف عنه شيئاً ، ولعله عرك أثناءها الإنسانية وجرع مرها وحلوها حتى أصبحت تكاليف الحياة كلها عنده أضحوكة ، وصار لا يعترف بقيمة إلا للاخلاص الصادق الشفاف . ألست ترى معي أن في هذا سراً من أسرار الأدب العربي ؟

هذا ، وإني شاكر لك كل الشكر أنك اكتشفت في بطون الدفاتر نصاً لطيفاً يثبت إثباتاً بارعاً ما ادعاه حنين بن إسحق في رسالته من أن معاصريه « من أصحاب البلاغة من العرب الذين يقومون بمعرفة وجوه النحو والغريب » قد أقروا له بـ « نهاية ما يكون من حسن العبارة والفصاحة » ، وبعدم وقوعه في استغلاق أو لحن . فهذا الثعالبي — أبو منصور — في كتابه خاص الخاص يقول عن حنين بن إسحق « المترجم » : « اتفق له هذه اللفظة الوجيزة الشريفة البديعة التي لم أسمع للبلغاء مثلها في الجمع بين التجنيس والطباق والترصيع ، مع حسن المعنى وجودته وصحته ، وهي : قليل الراح صديق الروح ، وكثيره عدو الجسم » .

ولما قلت وكررت في خطابك أن زدني معرفة بهذا الرجل ، فقد عزمت على أن أسرد لك نخباً أخرى من كلامه ، لا سيما إذ كنت أخاف أنك تولع ولوعاً زائداً بظواهر الأساليب البلاغية ، صارفاً النظر عن مقاصد الرجل الفكرية .

قرأت فيما قبل ما قاله في رسالته إلى على بن يحيى عن ترجمة جوامع كتب أفلاطون لجالينوس ، وعن كتاب البرهان لذلك الطبيب اليوناني أيضاً ؛ وهاأنذا أورد لك ههنا نبذة ثالثة من تلك الرسالة بعينها ، تدلك على دقة الرجل في عمله ، وعلى إحكامه لمناهج النشر للكتب بجمعه المخطوطات اليونانية من جميع الأقطار ، وتحقيقه نص المؤلف بمقابلتها حتى يكون أساساً لترجمة سليمة . اسمع إلى ما يقوله عن كتاب جالينوس في فرق الأطباء[2] بعد أن وصف محتواه بالتفصيل :

. . . وقد كان ترجمه قبلي إلى السرياني رجل يقال له ابن سهدا من أهل الكرخ ، وكان ضعيفاً في الترجمة ، ثم إني ترجمته وأنا حدث من أبناء عشرين سنة أو أكثر قليلا لمتطبب من أهل جندى سابور يقال له شيريشوع بن

---

(١) فصل في لطائف الظرفاء في الغراب وما يتصل به ، ص ٤٢ .

(٢) رسالة في ذكر كتب جالينوس ... ... الخ طبعة برجشتراسر ص ٤ .

قطرب من نسخة يونانية كثيرة الأسقاط ، ثم سألني بعد ذلك وأنا من أبناء أربعين سنة أو نحوها حبيش تلميذي إصلاحه بعد أن كانت قد اجتمعت له عندي عدة نسخ يونانية ، فقابلت تلك بعضها ببعض حتى صحت منها نسخة واحدة ، ثم قابلت بتلك النسخة السرياني وصححته ، وكذلك من عادتي أن أفعل في جميع ما أترجمه ، ثم ترجمته من بعد سنيات إلى العربية لأبي جعفر محمد بن موسى » .

ليس هذا فحسب ، بل إنه سافر في البلاد طلباً للعلم والمخطوطات ، فتراه مرة في الإسكندرية ، وأخرى في دمشق ، وتارة في حران — حران الصابئية التي وجد فيها نسخة من كتاب جالينوس فيما ذكره أفلاطون في كتاب طيماوس من علم الطب — وتارة في قسطنطينية الروم . نعم ، كان شعاره منذ أول شبابه وقبل أن يسافر إليها في بعثة علمية على نفقة المأمون ، أقول كان شعاره الذي هداه طول عمره : « اطلب العلم ولو في الروم » .

ومن الغريب أنه في الوقت الذي وصل فيه حنين إلى القسطنطينية تاركا وراءه بغداد لاستفاضته من طرق التعليم فيها ، ازدهر في تلك المدينة عالم وأديب مثله ، محب لأثينا ولثقافة قدماء اليونان ، أعني البطريرك فوتيوس Photius الذي اجتمع حوله قلوب الشباب الطامحين لرؤية الجمال ، فقد فسر لهم في محافل خاصة آثار اليونان من الفلاسفة والرياضيين والشعراء والبلغاء والمؤرخين ، فغرس بذلك البذور التي أدت في آخر الأمر إلى نهضة الدراسات القديمة في أوربا ، ونتيجة هذه البحوث والتنقيبات والمحاضرات التي ألقاها على سامعيه ، جمع فوتيوس ذلك الكتاب المعروف بمكتبة فوتيوس الذي يحتوي على ثمار قراءاته في الآداب اليونانية ، فكأنه تاريخ تماثل في صيغة فهرس لكتب القدماء شبيه بفهرس ابن النديم الوراق البغدادي ، ومن يعرف ، لعل حنين بن اسحق أثناء إقامته الأولى في القسطنطينية مدة سنتين اتصل بتلك الدوائر الهيلينية التي كان يرأسها فوتيوس ، لا سيما إذ نرى أن فوتيوس هذا ، بعد عشرين سنة أو أكثر اختير من حضرة قيصر الروم لأن يكون رئيساً لسفارة سياسية إلى أمير المؤمنين ، فوصل بغداد وأقام بها مدة ، وتعلم من دون شك أن مدينة السلام قد أصبحت موطناً ملائماً للدراسات اليونانية بفضل حنين ابن اسحق المترجم .

والآن بعد ما سمعت كثيراً مما يحكيه حنين بن اسحق عن نفسه ، وعن أعماله ، وعن منهجه ، وعن المحن التي نالته من أهل زمانه ، فإني أريد أن أسرد لك فصلا لطيفاً لا من كلامه هو ، بل مما قصه ابنه اسحق عن أبيه الذي كان قد أنشأه لا النشأة الأولى فقط ، بل النشأة الثانية ، نشأة التعليم والتثقيف أيضاً . وقد ورد هذا الفصل في كتاب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني تلميذ يحيى بن عدي تلميذ الفارابي ، ذلك السجستاني الذي اشتهر خاصة بما رواه عنه أبو حيان التوحيدي في مقابساته وفي الأمتاع والمؤانسة . أما كتاب صوان الحكمة ، وهو يشمل تراجم مفكري اليونان والإسلام ، فليس منشوراً بعد ، ولذلك أرى من المفيد أن أذكر لك محاورة اسحق بن حنين مع أبيه بنصها كاملة ، لأني أعتقد أن فائدة باب « أحسن ما قرأت » ستزيد عندما تروى فيه لا نصوصاً مطبوعة فقط ، بل نصوصاً أيضاً لا يقف عليها القارئ بسهولة :

... ويُحكى أن اسحاق بن حنين قال لأبيه : ما الذي تشير عليَّ بأن أجعل غرضي معرفته في سني هذه التي أنا فيها بحسب ما أعلم من عنايتك بي وما تعلم من تهيؤ طبيعتي لقبول العلم ، ومن قديم تجربتك لي ومن حرصي على العلم . قال حنين : ما لست إلى شيء أشد ضرورة منك إليه ، إذ كانت ذلك الخاصة التي أصارك الحكيم الأول بمعرفتها وهي التي أنت بها مشارك للباري جل ثناؤه ومنفصل من البهائم . قال اسحق : وما ذاك ؟ قال حنين : الشيء الذي

الفـــــن

عبر أكثر علماء النفس من الفن بأنه هو الوسائل والطرق المنظمة للوصول لغاية ، وتلك الغاية ترمى إلى النفع أو الحقيقة أو الفضيلة أو الجمال .

بينا الفن يحقق أثر الفائدة إذ صادف الجمال فى طريقه فارتبط به أيما ارتباط حتى أصبح يعبر عن الجمال بطريقة محسوسة .

إن جردنا النفوس من المادة وجدناها سواء وقد تنشأ ما نشاهده من البون والتفاوت من وجود حجاب بين النفس والجسم يتفاوت فى الرقة والكثافة .

نجد نفس الفنى متصلة به إذ لا يوجد بينهما غير حجاب شفاف فتراه يشعر بوجدانه وشعوره وعواطفه فيردد عين النغمة التى تصدح بها نفسه ويقرأ ما خفى من دقائق الفن كالإنسجام وقوة التعبير والإتقان والجمال والرشاقة والعواطف والإبداع والابتكار وشخصية المبدع التى امتاز بها فى عمله وبلاغة الوصف كما أنه يسبغ هذه الصفات على ما يجود به خياله أو بنانه .

لا نعد مبالغين إن اعتبرنا المصورين والموسيقيين شعراء لأن المصور يعبر بريشته وألوانه كما يعبر الشاعر بألفاظه وكذلك الموسيقى فإنه يعبر بأنغامه فإن خلت أعمال هؤلاء من صفات الفن التى سردناها تخليق بنا أن نعد الشاعر وزاناً والمصور صباغاً والموسيقى حداداً .

يحسن بنا قبل الخوض فى موضوعنا أن نتكلم عن الجمال إذ هو أساس الفن الذى يرتكز عليه وقضاياه ونظرياته الجمال حقيقة لا تدرك كنهها العقول ولكن نشعر به

نعم أن اليونانى يسميه لوغس (Logos) وأن العرب تسميه فى بعض المواضع نطقاً ، ولذلك يسمى الإنسان من النطق ناطقاً ، ويسميه فى بعض المواضع قولا ، وليس من عادتها أن تشتق من القول اسماً للانسان ، كما من عادة اليونانى أن يسميه لوغس لوغيقس (Logikos) ، ويسمى النظر فى هذا الجزء من الإنسان الذى هو أشرف أجزائه وهو الذى يسميه العرب نظراً منطقياً (Logiké) لوغيقا مشتق من لوغس أى القول . قال اسحق : فإذا كانت الكتب التى فى هذا الفن والواضعون لها كثيرون فارشدنى إلى كتاب وواضع ، منه يجب أن ابتدئ أولا . قال حنين : من كتاب قاطيغورياس[1] الذى للحكيم . قال اسحق : ولم اخترت لى قاطيغورياس أولا ، ولم جعلته الذى للحكيم ؟ قال حنين : أما كتاب قاطيغورياس فلأنه ابتدأ هذا العلم ، وأما الذى للحكيم فإنه ليس غيره موجودا فى هذا الوقت مما يعلم به هذا المعنى المقصود . قال اسحق : أعهنا كتاب آخر فى لواضع آخر فى هذا المعنى لو كان موجوداً لكنت إلى اختياره لى أميل ؟ قال : نعم ، كتاب « أرخوطس » (Archytas) فى هذا المعنى . قال اسحق : ومن أرخوطس هذا ؟ قال حنين : إنسان من شيعة فيثاغورس . قال اسحق : ومن فيثاغورس هذا ، ومن كان ؟ قال حنين : رجل كان هو المبدع لأكثر حكمة اليونانية ، وليس إنما هو فى الزمان قبل الحكيم ، لكن وقبل أفلاطون أيضاً ومنه أخذ هذا العلم ، وليس هذا الفن من النظر فقط ، بل جميع الفنون الباقية ، وكذلك أوقليدس وابلونيوس وارشميدس وبطليموس وسائر المهندسين .

ولست بحاجة إلى أن أعلق على هذا الحوار الذى هو أروع مثل لتعليم الصبيان عند القدماء ؛ فأسئلة اسحق هى أسئلة غلام محب للاستطلاع ، حريص على تعقب كلمات أبيه ، وأما أجوبة حنين ففيها من حنان الأبوة ومن فهم عقلية الصبى ما يحسده عليه كثير من الآباء .

باول كراوس

(١) أى المقولات وهى الكتاب الأول من كتب المنطق لأرسطو .

نفوس هذبتها تربية خيالية تجردت من ميولها المادية فتهلل لمرآه وتصبو إليه وتفتتن بمظاهره الساحرة.

عبر أفلاطون عن الجمال فقال إنه حقيقة ذاتية تفوق الشخص والنوع ونموذج أعلى أسمى بكل ما هو خليق بالإعجاب من المحاسن

ليس الجمال مطابقاً للمقبول والنفع والحقيقة والفضيلة ولكن الصلة بينه وبينها وثيقة العرى.

الجمال غير مطابق للمقبول — لامراء إن الجميل يسرنا ويمتعنا من بين جميع الأشياء فما هو بجميل لأنه مقبول ولكنه مقبول لأنه جميل فالمقبول إذن لا يحرك من نفوسنا غير عاطفة الارتياح إلى الشيء فلا يمتعنا ولا يجذبنا اليه كل الجذب.

الجمال غير مطابق للنفع — إن كان الشيء نافعاً فلا يعد جميلاً، والجمال غني بذاته عن المنفعة لأنه غاية مطلوبة لذاتها إذ نرى الانسان إذا لم يرتبك بحاجياته انصرف إلى الجمال باذلا كل ما استطاعه من الوسائل والحول والحيل ليصل اليه

وقد يكون اللباس جميلا ولكن لا يعوزه النفع إن كان غير جميل.

إن الفلاح الذي ينتظر أن تجود له أرضه بثمراتها الباركة لا يلحظ ميدان سنابل البر داعبتها الصبا فمالت أعناقها وما تلك الحال للزارع إلا دليل وفرة الحصيد.

وأما المتريض في الحقول فإنه يفتتن بمشاهدة تموج البر عند مهب الريح، وقد ازدهى لونه المسجدي من أشعة الشمس فأمسى كأنه يم هائج من ذوب النضار.

إن الفلاح قد أسبل حب النفع على بصره غشاوة كثيفة، فلم يبصر من ذلك الجمال شيئاً، وانصرف إلى تقدير الفائدة.

— إن الجمال غير مطابق للحقيقة — قال (بوالو) لا شيء أجمل من الحقيقة، لأن الحقيقة أول شروط الجمال والمراد بالحقيقة حقيقة الجمال الذي يدركه العقل فيكون المثل مطابقاً للقواعد الطبيعية، وتتجلى الحقيقة في طرق التعبير، وإن كانت الحقيقة من شروط الجمال، فذلك لا يدل على أن كل شيء حق جميل.

وغير خاف أن الحقيقة المجردة ليست بجميلة لأنها تسر العقل وحده لا الخيال والنفس.

إن الهيكل العظمي الإنساني ليس جميلا، وإنما الجمال في حياة الإنسان.

وقال أفلاطون: «الجمال هو بهاء الحقيقة»، أي الحقيقة أفرغت عليها أشكال لحمة أو جذابة.

— الجمال غير مطابق للفضيلة — الفضيلة هي موافقة الأعمال للعقل، وهي فرض واجب إلزامي، ولكن الجمال يخالفها من وجهة الإلزام.

والفضيلة والجمال لفظان يدلان على شيء واحد وهو الكمال، ولكنه منظر من منظرين، لأن الفضيلة هي كمال الخلق، والجمال هو كمال الشكل.

نشاهد في التمثيل روايات تجرح الحياء وتنافي الفضيلة بل تجسم الفجور والقحة والاستهتار، مثل أوليرا دون جوان لموزار، ولكن الجمال الذي أسبغه الفن على هذه الأوليرا من متانة الموضوع، وشجي الموسيقى الفخمة قد فتن النفوس واسترق القلوب وستر منها هذه العيوب فلهجت الألسنة بمحاسنها، وغفرت رذائلها ومساوئها وأصبح شخص دون جوان، وهو مثال الرذيلة محبوباً حتى عند فضليات النساء.

نجد في الشعر أمثلة كثيرة مماثلة، إذ نرى ابليس لما في الفردوس الضائع لملتون، وإن عاب الناس عناده وعقله الثوري، فإنهم معجبون رغماً منهم بعظمته وشجاعته وثباته عند الشدائد والملمات.

— ارتباط الجمال بالرشاقة — الرشاقة ركن من الجمال ، وهى من أسرار السرور والافتتان ، تنشأ من سهولة الحركات والاسترسال والليونة ، ولو فى الأشياء الساكنة الجامدة ، كالتماثيل ، إذ تنحصر فيها الرشاقة فى السهولة الظاهرة فى الحركة الأولى .

وكذلك حالها فى الموسيقى ، إذ تتناول الحركة أيضاً ولكنها فى نفوسنا فتصل إلى فكرنا من تتابع الأصوات والألحان .

وترى الرشاقة فى الزهرة تنحصر فى شكلها ، وقدر الساق ونسبتها والليونة والحركات الظاهرة من تموج الخطوط ، ويشترك شكل التويج فى تكوين الرشاقة ، ولا سيما نضرة ألوانه المندمج بعضها فى بعض .

واختلف علماء النفس فى الجمال ، فاعتبره بعضهم عرضياً والآخرون جوهرياً ، ومن أنصار المذهب الأول « هوتشسون » و « كنت » ، إذ قالا إن الجمال لا يوجد خارجاً عنا فى الطبيعة أو فوقها ، وإنه أمر داخلى يوجده الفكر أو حالة نفسية تشوبها أحسن مما نصفها ، فهو شىء عاطفى باطنى .

واصطلح القائلون بأنه جوهرى ، على أن الجمال موجود خارج الإنسان ، إما بشكل خيالى يفوق الطبيعة والفن ، وإما فى الطبيعة نفسها . وقال بعضهم إن الجمال هو الفن نفسه .

يجمل بنا أن نسرد بعض ملاحظات دقيقة للأعمال الفنية يستعين بها القارئ على فهم دقائق الفن وأسرار الإتقان .

صنع أحد الفنيين الذين نالوا جائزة روما تمثالا يمثل « اورفيه » بعد موت « اوريديس » يجوب الجبال مخترقاً الصخور مترنماً بأغانى هوى ما برح متأججاً فى فؤاده .

فلو تتبعنا « فرجيل » الشاعر اللاتينى لعلمنا أنه يعبر عن شاعر محب ، ذهب الهيام بحجاه وأضله اليأس فخرج هائماً على وجهه لا يدرى أين يضع قدميه ، ولكن الفتى مثل « أورفيه » جالساً يغنى وهو ساكن مطمئن الجنان كمثل ماهر يغنى فى حفلة موسيقية .

وعرض فنى آخر فى أحد معارض باريس تمثالا يمثل قصة « أمور » إله الحب مع ربة الجنون وهى من حكايات « لافونتين » .

يبهر الشاهد لأول وهلة أمام هذا التمثال ، إذ يراه بديع الصنع ، ويلاحظ أنه يدل فيه صنوف الاعتناء ؛ ولكن فاته أمر واحد وهو قراءة « لافونتين » ، وذلك ما كان يستغرق الزمن بضع دقائق ، وقد قص علينا أن إله الحب وربة الجنون تخاصما فى طفولتهما وتشاجرا فضربت الثانية الأول ضربة عنيفة افقدته بصره فقضى الأرباب عليها بأن تقود هذا الطفل الأعمى وتكون له مرشدة ويظهر أن هذا الفنى لم يقرأ تلك القصة بإمعان فصور إله الحب طفلا وربة الجنون فتاة لا تقل عن العشرين ربيعاً ، فكيف لهذه الفتاة الكبيرة أن تبلغ بها تلك الوحشية والقسوة فتعمى صديقها الصغير ، وكيف يسوغ لها أن تقود تلك الضحية وهى متهللة ضاحكة ظافرة ؟

محمد كامل حجاج

٣ـ الخطيب البغدادى

رأيه وعقيدته

شرع أبو بكر فى نشر مصنفاته ، وقراءتها على الناس فأحدثت أثراً وضجة ؛ استقبلها بعض الناس قبولا حسناً وبوؤها خير مكان ، واضطرب بعضهم الآخر ، لما ورد فيها من الرأى الصريح ، الذى عدوه خارجاً عن الصراط المستقيم ، وداعياً إلى البدعة .

كان على الخطيب بحكم اختصاصه بالحديث أن يأخذ بناصر أهله الذين يتقيدون بنصوصه ، فلا يجيزون الخروج عليه حتى ولو ناقض أحكام الرأى ، وكان عليه أن يشجب رأى الأشاعرة ، الذين يعتمدون على العقل فى اثبات وحدة الاله وصفاته ، فماذا فعل ؟ وضع مؤلفا فى شرف أصحاب الحديث ، ذكر فيه سلطانهم ومكانتهم وحسن رأيهم وصواب عقيدتهم ؛ وأضاف الطعن على أهل الرأى لصدوفهم عن النظر فى أحكام القرآن ، وتركهم للحجج باللغة الواضحة البرهان ، وتهكم على أهل الكلام ، الذين يتخذون العقل حجة ، ويريدون أن يخرجوا من حب التقليد ، فيخالفون صريح السنة وبيّن الآيات .

تتبع معايب أهل الرأى والكلام ثم انتهى إلى الأشاعرة ، مع أنهم حملوا لواء التفكر ، والناسجون على منوال أهل الكلام فسبه الحنابلة — وكانوا يومئذ أهل الحديث الضاربين بسيفه — نسبوه إلى الخوض فيما نهى عنه الحديث ، وإلى الخروج عن النهج المستقيم ، وإلى البدعة الباطلة ، فأجابهم بشرح موقفه ، فيقول ما خلاصته : إن الأشعرى لا يخالف عقيدة كبار المحدثين بل يدافع عنها ، ويحمل على مخالفيها ؛ وإذا استعمل العقل للرد عليهم ، فليس فى ذلك أدنى ضير ، فلم يسلك سلف الأئمة سبيل النظر ، وابتعدوا عن التقاليد رداً على أهل الأهواء والبدع ، فليس يجحد إذن كلام الأشعرى إلا أحد رجلين : جاهل ركن إلى التقليد ، وشق عليه سلوك أهل التحقيق ، أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة ، يلبس على الناس عوار مذهبه ، ويعمى عليهم فضائح عقيدته ، يحرم عليهم مناقشتها والجدل فيها .

خروجه إلى الشام ومقامه فيها :

أثار هذا الكلام الحنابلة ، خوفاً من أن يهدأهم ؛ ووجدوا فى كرخ بغداد تحاملا على علمائهم ، فتربصوا بالخطيب الدوائر ، حتى سار بهم الحظ فى حادثة وقعت سنة ٤٥٠ ، ففيها حصلت فتنة البساسيرى وقتل أبو القاسم ابن المسلمة وزير الخليفة ، وكان يحب الخطيب ويجل علمه ؛ واضطربت بغداد ، فسنحت الفرصة للحنابلة ، فصاروا يؤذون الخطيب بشتى الأساليب : كانوا يعطون السقاء قطعة يوم الجمعة ، فكان يقف من بعيد بإزائه ، ويميل رأس القربة ، وبين يديه أجزاء ، فيبتل الجميع فتتلف الأجزاء ، وكانوا يطينون عليه باب داره فى الليل ، فيبقى محبوساً فى بيته حتى يحضر من يزيل الطين .

وخشى تفاقم الحال ، ولا ناصر له ، والسلطان بيد من لا يأمن على نفسه منه ، فيستتر ويخرج من بغداد يوم النصف من صفر سنة إحدى وخمسين ، مصطحباً تصانيفه وكتبه ومحافظه ، ميمماً شطر دمشق ، ناوياً أن يستوطن بها .

ويبلغها سالما ، ويقيم بيت فى جامعها الأموى ؛ ويتخذ لنفسه حلقة كبيرة به ، يجتمع الناس إليه فى بكرة كل يوم ، ويرتفع صوته بالتدريس يدوى فى الجامع ، حتى يسمعه من فى أقصاه .

ويكثر طلابه ، وتتعدد أصحابه ، ويأنس إلى دمشق فيختلف إلى غوطتها الخلابة ، ويؤم بساتينها ، لا لسمر

وإضاعة الوقت ، بل لقراءة كتب الأدب الطريف وصحائف الحكمة الطريفة ، في ظل الأشجار وقرب الأنهار ، مما يشوق النفس إلى الشعر الرائع ، والقول الخلاب ، والحكمة المستطرفة .

ولا يزال على ما وصفنا حتى يحل شهر صفر سنة ٤٥٧ ، وإذا بالنحس يفاجئه ، وسوء الطالع يداهمه ، فيضطر إلى الخروج من دمشق على أسوأ مما خرج عليه من بغداد ، وذلك أنه كان بين الكتب التي سمعها وورد بها دمشق « فضائل الصحابة الأربعة » لأحمد بن حنبل ، و « فضائل العباس » لابن رزقويه . ولعل إنساناً سأله قراءتهما عليه ، أو إنه اتفق له تدريسهما عرضاً ، دون أن ينتبه إلى أن السلطة في دمشق كانت للفاطميين ، وهم خصوم بني العباس ، والناقمون على الخلفاء الثلاثة الراشدين ، الذين سبقوا الإمام علياً . وعرف أمير الجيوش قراءته لهذين الكتابين ، فأمر بالقبض عليه وقتله ، وكان صاحب الشرطة سنياً ، فقصد الخطيب مع جماعة ، ولم يمكنه أن يخالف الأمير ، فأخذه وقال : قد أمرت فيك بكذ وكذا ، ولا أجد لك حيلة إلا أن أعبر بك على دار الشريف ابن أبي الجن العلوي ، فإذا حاذيت الباب اقفز وادخل الدار ، فأرجع إلى الأمير فأخبره بالقصة . فقبل الخطيب رأيه شاكراً ، وسار معه ، وكان الشريف ينزل في دار العقيقي ، حيث تقوم دار الكتب الظاهرية اليوم ، ولا تبعد عن الجامع إلا خطوات ، فسار قليلا ، حتى حاذى الباب ، ودخل دار الشريف ، فأرسل الأمير إلى الشريف أن يبعث به ، وكان هذا قد فكر في حيلة ينجيه بها ، فما وجد إلا أن يأخذ بالتقية ، فيبدي سوء الظن بالخطيب ، فقال : أيها الأمير ، أنت تعرف اعتقادي فيه وفي أمثاله ، وليس في قتله مصلحة ، هذا رجل مشهور بالعراق ، إن قتل قتل به جماعة من الشيعة ، وخربت المشاهد . قال : فما ترى ؟ قال : أرى أن يخرج من بلدك ؛ فأمر بإخراجه .

وانتهت الحادثة ، دون أن يمس الخطيب بأذى ، وكان علمه ومكانته الحيلة إلى خلاصه .

عودته إلى بغداد ووفاته :

وخرج إلى صور ، ثاني بلاد الشام في الحديث بعد دمشق ، وتعرف على عز الدولة الموصوف بالكرم ، وتقرب منه فانتفع به ، ثم هاج به الشوق إلى وطنه ، وكأنه شعر بدنو أجله ، وكان قد أتم السبعين ، فعاد إلى بغداد ، وكان يقف في البلدان التي يمر فيها ، فيحدث من علمه ، ويجادل بفهمه ، حتى دخل بلدته المحبوبة ، وشرع يقرئ فيها تصانيفه .

ولم يمض عليه فيها سنة ، حتى مرض ، فلم يشأ إلا أن يختم حياته بعمل صالح يودعها به ، وكان قد أحضر معه من الشام ثروة من الثياب والذهب ؛ وما كان له عقب ، فكتب إلى القائم بأمر الله : إني إذا مت يكون مالي لبيت المال ، فأذن حتى أفرق مالي على من شئت ، فأذن له بذلك . فعهد إلى أبي الفضل بن خيرون أن يفرق ثروته من الذهب وقدرها مائتا دينار على المحدثين وعلى من يفرق ثروته ، إذا لم يكن عليهم ، فهو رفيقهم وصاحبهم ، عاش عيشتهم ، وأدرك حاجتهم إلى المال ينفقونه في طلب العلم .

وفي غرة ذي الحجة ، أي بعد شهرين من ابتداء مرضه ، اشتد به الحال ، وأيس منه . ثم توفي رابع ساعة من ضحى يوم الاثنين سابع ذي الحجة .

وسعى أصحابه ، ينفذون وصيته ، بأن يدفن إلى جانب بشر الحافي ، ليتم له ما دعا الله به عند زمزم ، فوجدوا قبراً أعده أبو بكر الطريثي الصوفي ؛ وكان يمضي إليه في كل أسبوع مرة ، وينام فيه ، ويقرأ القرآن كله ويدعو ، وذلك منذ عدة سنين ؛ فمضى أصحاب الحديث إليه ، وسألوه أن يدفنوا الخطيب في قبره وأن يؤثره به ، فامتنع

النســـــيان وأهميته

فى الحياة النفسية

— ٢ —

فالفهم الثانى للنسيان الذى لا يعول على ما قيل فى الذاكرة ويرجع الى الشعور يرى أنا لا نستطيع فصل عملية النسيان عن الجسم بتاتاً ، لأن النسيان الراجع إلى عدم الاسترجاع والتجديد ، ما هو إلا انتقال حالات شعورية من بؤرة الشعور إلى ما هو تحت الشعور . إذا كان الانسان يحس بألم مثل ألم الضرس أو الجوع أو العطش فإنه يفقد الإحساس بالألم الخفيف الذى كان يحس به من قبل ، وذلك غير راجع إلى علاقة بين النسيان والجسم ، ولكنه راجع إلى علاقة الشعور بالجسم والظاهرات البيولوجية عامة . فالاحساس عامة هو شعور بتغير فى الوسط الخارجى ، فهو نتيجة صدمة الانفعال الفجائى فلا يمكن لأحد أن يتخلص من هذا الشعور ، وليس الحال كذلك إذا طال هذا الاختلال واستمر فإن الجسم يتعوده شيئاً فشيئاً ، ويحاول إقامة التوازن ويضعف الشعور بالصدمة خصوصاً إذا جاءت حالات شعورية جديدة أقوى من الحالات الشعورية الأولى فإنها تغطيها وتضعفها ، وتعبر عن موقفنا إزاء الشعور الأول بالنسيان ، وما هو إلا انتقال من مقدم الشعور إلى مؤخره أو من الشعور إلى ما تحت الشعور (Subconscient) وهذا ما يحصل لنا عند ما ننسى أحلامنا . فهذه تختلف فى القوة والضعف فالأحلام التى تأتى فى آخر النوم تكون فى الغالب صدى فى الشعور لبعض الحوادث التى أحاطت بنا فى الخارج أو

وقال : موضع قد حفره ، وختمت فيه عدة ختمات ، ولا أمكن أحداً من الدفن فيه . وهذا مما لا يتصور ! فلما رأوا ذلك جاءوا إلى أبى سعد الصوفى صاحب الرباط الذى كان يسكنه الطريثيثى هذا ، وذكروا له ذلك ، فأحضره وقال : أنا لا أقول لك اعطهم القبر ! ولكن أقول لك لو أن بشراً فى الأحياء وأنت إلى جانبه ، فجاء أبو بكر ليقعد دونك ؛ أكان يحسن بك أن تقعد أعلى منه ؟ قال : لا ، بل كنت أقوم وأجلسه مكانى ، قال : فهكذا ينبغى أن يكون الساعة فى حالة الموت ، فإنه أحق به منك ، فطاب قلبه فأذن لهم ، وعاش بعد ذلك أربعاً وثلاثين سنة .

وتأخر بهذا السعى إخراج جنازة الخطيب إلى اليوم الثانى ، فأخرج بكرة الثلاثاء من حجرته ، وعبروا به إلى جامع المنصور فى الجانب الغربى للصلاة عليه . وكان بانتظار جثمانه فى ذلك الجامع القضاة والأشراف والنقباء والشهود والفقهاء ، وأهل العلم والصوفية والمستوزرون والعامة وخلق عظيم ، وتقدم القاضى أبو الحسين بن المهتدى العباسى ، فصلى بالناس ، وكبر عليه أربعاً على باب المقصورة ، ثم حملت جنازته ، وعبرت بالكرخ ، ومعها ذلك الخلق العظيم ، وبين يدى الجنازة جماعة ينادون : هذا الذى كان يذب عن رسول الله ، هذا الذى ينفى الكذب عن رسول الله ، هذا الذى كان يحفظ حديث رسول الله ! ونسوا أن يقولوا :

هذا الذى وضع أصول الحديث ، ونقد رجاله ! هذا الذى كان يفهم روح الإسلام بحسن نظر لا يشوب جماله وسماحته .

(دمشق) **يوسف العش**

مدير دار الكتب الظاهرية

فى الداخل ، والتى استطاعت حواسنا أن تلتقطها فتكون قوية ، وهناك أحلام أخرى قد تأتى أثناء النوم العميق وهذه الأحلام تختلف قوة فى شعورنا بها فعندما نصحو من النوم فان شعورنا الكامل فى اليقظة يمحى الأحلام التى كان شعورنا بهـا ضعيفا فننساها . ويبقى شيئا من بعض الأحلام الأخرى ، فالنسيان كما يبدو فى هـذه الحال هو نتيجة « تدافع » الحالات الشعورية وتزاحمها وسـواء كان فى الأحلام أو فى اليقظة فان الحالات الشعورية التى تنزل إلى ما تحت الشعور ، هى الحالات الشعورية المركبة لا البسيطة .

وليس النسيان شرطا للتذكر فقط كما رأى ريبو بل هو شرط للشعور بالحاضر ، والشعور بالحاضر هو أسـاس الحياة النفسية . وليس الشعور بالحاضر إلا شعورا قويا يستأثر باهتمام الشعور لحدته وقوته فتمحى بذلك كل الحـالات الشعورية الأخرى وتسقط فى عالم النسيان — فالشعور القوى الواضح سميناه شعورا بالحاضر والشعور الأقل وضوحا سميناه شعورا بالماضى وكلما زادت الحالات الشعورية غموضا قلنا إنها زادت « بعدا » فى « الزمان » ، وهـذا الإبهام والغموض أو « البعد فى الزمان » ناتج عن أثر الحالات الجديدة التى تزاحمها وتشغلنا عنها « فتنسينا » إياها — ولهذا إذا رأينا أشياء كثيرة وكانت كلها جديدة بالنسبة إلينا خيل إلينا أن الزمان كان طويلا ، وذلك لأن الحالات الشعورية على كثرتها إليت بسرعة وصارت غامضة ومبهمة لمزاحمة الحالات الشعورية لها التى دفعتها إلى ما تحت الشعور ، فلولا اختفاء بعض الحالات الشعورية الماضية التى تترك شبه فراغ بين الحالات الشعورية الماضية لما كان شعور بالماضى لأنها كانت تبدو متصلة بالحاضر ، وتبدو كأنها جزء منه — ولهذا أرى أنه لولا النسيان لما كان الشعور بالزمان ، والعكس مع عدم تعلق النفس بالشىء المنسى وإهمالها له . ونسيان آخر يحدثه الشعور بالحاضر — فيكون النسيان عبارة عن ذكريات فى سبيل التلاشى والضياع كلما زاحمت الذكريات قربت إلى الضياع ، وهو عبارة عن غياب أشياء فى أوقات خاصة عن بؤرة الشعور ووجودها فى اللاشعور ، وهذا النسيان هو الذى يقول عنه ريبو إنه شرط للذاكرة[1] . فإذا كان الشعور كما يتصوره « ريبو » كشبال صغير ، أو كما يراه برجسون كرأس قمع « فإنه لا يتسع لكل الذكريات فلا بد من أن يختفى بعضهـا ليظهر البعض الآخر — فإنا لا نستطيع تذكر شىء بعد إلا إذا بعدت عن ذهننا كل الأشياء الأخرى التى تعرقها ، فالذاكرة السليمة عاجزة عن استعراض كل الصور ، ولهذا يصرح ريبو بأن النسيان ليس عرض ، ولكنه شرط سلامة الذاكرة وحياتها — وليس النسيان شرط الذاكرة فقط ، ولكنه شرط الشعور بالحاضر ، فنحن نلاحظ أنا نفقد شعورنا بالحاضر كلما تغلب علينا ذكريات ماضية فإنها توقعنا فى أحلام اليقظة وتجعلنا لا نشعر تماما بما يحدث حولنا ، ولهذا نرى أن الذكريات القوية تشغل الإنسان ، فالمصيبة التى تنزل به لا تترك له وقتا للعمل ، ولا تسمح له أن يحيى حياة عادية بل تراه غارقا فى أحلامه يفكر فيما وقع له ، فماذا كان يحدث للانسانية لو لم تسلحها الطبيعة بالنسيان الذى يبعد عنا آثار الماضى ليدفعنا إلى المستقبل عن طريق الحاضر — فيكون النسيان راجعا إلى حالات شعورية خاصة وإذا كان الشعور متصلا بالجسم ، فهل نقول إن للنسيان صلة ببعض الحالات الجسمية ؟

(يتبع) **أبو مدين الشافعى**

(1) Th. Ribot Les malades de la Memoire P.46.

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ... ... "

الصديقة ! — صح ! —
بالبريد المستعجل ! ... ...

الصديقة !

كتبت إحدى مجلات دار الهلال في بعض أعدادها تقول : « في حياة كل عظيم : رجلٌ ، وامرأة ، وكتاب » ؛ وسألت طائفة من أصدقائها من « الرجل ، والمرأة ، والكتاب » الذين أثروا في نشأتهم ووجهوهم في حياتهم ؛ وأجاب من أجاب فمنهم من كنى ومنهم من صرّح ، وكان باباً من القول فيه طرافة وفيه توجيه طيب الأثر في قرائه من الشباب ...

ولم تسأل المجلة فيمن سألت المحررَ « الملحوس » في مجلة المصور ، فلعلها لم تعدّه من « العظماء » فأغفلته ، أو لعلها سألته وأغفلتْ جوابه ؛ ولكنه لا يُغفِل نفسه ، فتطوع في العدد ٩٥٨ من المصور بالجواب في كلمة عنوانها « الصديقة ! » ، قال فيها : « تجد في جميع أنحاء الدنيا آراءً لكبار الرجال ، وعظماء الأقيال ، في المرأة التي لعبت دورها الهام في تاريخ حياتهم ، المرأة التي كان لها الفضل كله أو بعضه في عظمتهم ، ونبوغهم ، ومجدهم ، ونشاطهم ، وما أدوه للإنسانية من خدمات ... يجيبون عن هذا في كل الدنيا بكل صراحة ، ولكن رجالنا وأقطابنا في مصر حين يُسألون عن المرأة التي لعبت هذا الدور يقولون : أمي ... زوجتي ! ... الأم والزوجة فقط ! ... حرام والله حرام ... بجانب الأم والزوجة — لا بد — امرأة أخرى ، شقراء أو سمراء ، طويلة أو قصيرة ، لعبت بعض الدور في تاريخ العظيم ، وفي مجد الكريم الفخيم ؛ وكل شاب منا ، وكل كهل ، لا بد قد عرف في حياته صديقة ... أنا مثلا — برغم أني ملحوس — فإن الحظ لم يضن علي بصديقات ... عرفتُ ... ... وعرفتُ ... ولا أزال أعرف وأستفيد وأختلس مجدي الملحوس وشهرتي الملحوسة من أفكار النساء ، وأحوال النساء ... ، أيتها المجحودات في مصر ، عذراً باسم الكبراء والعظماء ! » ..

هذا بعض كلام « الملحوس » ، ومعذرة إلى القارئ مما نقلتُ إليه منه ، فبغير نفسي فعلت ، وأدع للقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك : ماذا يعني هذا الكاتب الملحوس مما نشر ؟ ... أيعني أن يؤكد لقارئه أنه عظيمٌ من عظماء الرجال وإنْ جهل الناسُ اسمَه ومكانه ؟ أحسبه كنى عن ذلك في بعض ما نقلتُ من حديثه ! أم هو يعني أن يقرر لقرائه قاعدةً يعتقدونها ، حين يزعم أنه لا بد ... لا بد في حياة كل عظيم من امرأة ... امرأةٍ صديقة ، غير زوجته وأمه ؟ ...

فليخترْ كل رجل لنفسه ما يحلو من الوسائل إلى المجد والجاه والعظمة ؛ ولتكن وسيلته إلى ذلك امرأةً من « السوق » أو امرأةً من قصر ؛ فلتكن وسيلته ما شاء لنفسه ، ولكن عليه أن يحفظ على الجيل الجديد عفتَه وإباءه وكرامة نفسه ، فلا يوحي إليه بما يحمل هذا الكلام من معنى خبيث ؛ ماذا يقع في وهم القارئ أو القارئة من وحي كلام « الملحوس » إلا أن يقرر في نفسه وفي نفسها ، أن اصطناع « امرأةٍ من السوق » شيء لا معَابة فيه ، أو هو شيء « لا بدَّ منه » في حياة كل عظيم أو ملتمسٍ سبيله إلى العظمة !

يا لها دعوةً يدعو إليها الطامعين من شباب الجيل ... ومن شاباته !

وفى لغة مسرحية مؤثرة يختم الكاتب عبارته :
« أيتها المجحودات فى مصر ! عُذراً باسم الكبرياء والعطاء ! » ، فما ترجمة هذه العبارة فى وهم كل قارئة من بنات القصور أو من غوانى السوق ؟ ... ولكننى أستحيى أن أصرح ... !

صحفى !

ويَعيب علىّ عائبٌ لا أحبّه لأنى أعرضُ فى هذا الباب لبعض ما تكتبه المجلات الهازلة فى مصر بلا هدف تسعى إليه ولا فكرة تدعو لها ، ولأنى أريد أن يسمو بعض الصحفيين بفكرته وفنه عن العبث والمجانة والإيحاء الخبيث ؛ فليقرأ معى بعض ما قدمتُ من حديث « اللحوس » فى المصور ، ثم ليقرأ بعدُ حديثَ « السندباد البحرى » فى العدد ٤٥٤ من مجلة الاثنين بعنوان « البحث عن زوجة ! » .

هو حديثٌ طريف بين الكاتب وصديق عَزَب يبحث عن زوجة على أسلوب « بطيخة على السكين ! » ويدور الحوار بين الكاتب وصديقه على الوجه الآتى :

— ... ولكن كثيراً ما يعجبك « قلبُ » البطيخة ، فإذا ذقتها لم تجد لها طعما !

— أريد أن أقابل الفتاة ، وأحادثها ، وأتناول معها الطعام ، وأصحبها إلى السينما أو المسرح ؛ فإذا أعجبتنى تزوجتها !

— وإذا لم تعجبك البطيخة ؟

— أعدتُها لها كما هى كاملة !

— ولكن البطيخ يفسد إذا كسرتَه !

— البطيخ كثير . أما معدتى فلا يمكن أن تعوّض !

— لو كنتُ فاكهانيا ما بعتُ بطيخى على السكين !

— ولكنك محق ... والصحفيون يعرفون تجار الفاكهة الذين يبيعون البطيخ المضمون ! ...

والعائب الذى يعيبنى ويُسرف فى العيب علىّ لِمَا أكتبُ عن أسلوب بعض المجلات فى مصر — هو عضو فى نقابة الصحافة ؛ فهل يعرف من وظيفة الصحفيين هذا الذى يكتبه محرر « الاثنين » ؟ ... هل يعرف من وظيفتهم أنهم « يعرفون تجار الفاكهة الذين يبيعون البطيخ المضمون » ... !؟

يالها وظيفة ! ...

لو كنتُ صحافيا لقاضيتُ هذا الكاتب بين يدى « قاضى الآداب العامة » على ما يحاول من « التوسّع فى اختصاصه » على حساب الآداب العامة ! ... ولكنى لست صحافيا ، ولا أريد أن أكونه ، ولو كنتُ لاخلعتُ من وظيفتى ، لأنى لا أحب أن يعرف أحد أن صلةً ما بينى وبين أحد من تجار البطيخ ، أو تجّار الرقيق !

... ولكن الصحافة أرفع من ذلك مكانا ، وأعزّ وأطهر ؛ إنها رسالةٌ وفنٌّ ، وإن عليها لتبعاتٍ لا ينهض بها غيرها من ذوى السلطان ، فهل يعرفها ذلك « العائب المترفّق » ؟ وهل يعرفها « السندباد البحرى » فى مجلة الاثنين أو « اللحوس » فى المصور ؟ وددتُ ولكن ... !

بالبريد المستعجل

زارنى فى « الديوان » صديقٌ كريم يستعيننى على أمر من أموره ، قال : وقد كتبتُ إلى الوزارة فى هذا الشأن منذ أيام ، فلعلها قد انتهت إلى الرأى فيه !

قلت : فإذا انتظرتَ أياما أخرى فإنى أرجو أن أجد وسيلةً إلى إتمامه على عجل !

فضحك صديقى وقال : أياماً أخرى لتجد وسيلةً إلى إتمامه على عجل ؟ ما أسرع خطاك ! إنه سؤالٌ وجوابه ودقيقةٌ من الزمن !

وضحكتُ معه ، أو لعلِّي ضحكتُ منه ومن نظرته ورأيه ؛ أفلا يعرف صديق إلا اليومَ أن سؤالاً وجوابه في أسرع دواوين الحكومة وأنشطها عملاً معناهما في لغة « النظام الحكومي » شهرٌ من العمل ، وأميالٌ من السعي ، وعشراتٌ من الشفعاء لاستعجال الجواب . . . !

وذكرتُ شيئاً بشيء : ذكرتُ أن معلِّماً من معلِّمي وزارة المعارف جاءه نبأ أن الحكومة قررت بعثه إلى إحدى جامعات إنجلترا ، ولم تُسَمِّ له الجامعة التي تقررت بعثته إليها ، فجاء الوزارةَ يسأل ، وقضى يومين يتنقل بين مكاتب الموظفين المختصين يستقصي ويتتبع الأثر « والورق المستعجل » يسبقه من مكتب لمكتب فلا يكاد « يلحقه » ليعرف ؛ فلما بلغ منه السعيُ أشار عليه صديقٌ أن يكتب إلى الجامعات الثلاث في إنجلترا يسألها ، فلعله يعرف منها أسرع مما يعرف من وزارة المعارف في القاهرة ؛ وأحسب صديقه كان يمازحه ويمزح معه بهذه المشورة ، ولكنه فعل ، وجاء الرد من جامعة « إكستر » بالبريد الجوي قبل أن يبلغه الرد من القاهرة !

... وقصصتُ على صديق هذه القصة فعاد يضحك وقال :

وأنا أقص عليك أختها وإن لم تكن من بابها :

كان على الأستاذ عبد العزيز البشري أن يكتب مقالاً لإحدى المجلات الكبرى يبلغها في موعد محدود ، ومضى يومان بعد الموعد ولم يَرِد المقال إلى المجلة ، فتحدث مديرها إليه في المسرة يستعجله به ، فظهر أنه بعث به إليها « بالبريد المستعجل » منذ يومين حرصاً على موعده ، وبين المكانين مسيرة ساعة ، ولكن المقال لم يصل ؛ وعرف الأستاذ البشري ذلك فقال في جد ورزانة :

ولذلك أرسلته بالبريد المستعجل !

وكان المقال منذ يومين في كيس « ساعي البريد » بالمجلة ينتظر إذن رئيس التحرير في المثول بين يديه ليعرض عليه ما جاء به البريد ! . . .

فقلت : أنت يا صديق تعرف هذا ، فهل يدهشك أن أدعوك إلى الانتظار أياماً حتى يلقى كتابك بعد أن يمر في الوزارة على عشرة مكاتب متجاورة وبين كل مكتب والذي يجاوره « ساعي بريد » كهذا الساعي النشيط ؟ !

واقتنع صديق ونهض وقد حسب حسبته ليعرف متى يعود ، فلعل « الأيام » لا تنسيني أمره يوم يعود !

قاف



أنفق ستوديو لاما في سبيل إخراج فيلمه التاريخي الكبير « كليوباترة » نفقات لم يسبق أن أنفق مثلها على فيلم آخر ، وذلك لأن الأستاذ إبراهيم لاما المخرج المعروف يريد أن يكون فيلمه هذا تحفة التحف .

وفي هذه الصورة يظهر جانب من المدينة الفرعونية الكبيرة التي أقيمت في أرض الأستوديو الواسعة ، وتم تصوير بعض مناظر الفيلم فيها .

قضية شهرزاد :

شهرزاد الحكيم

لست أدري لم خلق الله الأدباء . فهل خلقهم لهداية البشر ، أم خلقهم لتحييرهم والعبث بهم . أم لقد خلقهم لأنفسهم لكي يهيموا حيث شاءوا مع فنهم ، لا يعبأون بشيء إلا بهذا الفن الذي يطلقونه على الناس يعبث بهم إذا شاء ، ويسرهم أو يحزنهم ، ويضحكهم أو يبكيهم ، ويسخر منهم أو يزعجهم ، إذا بدا له شيء من هذا أو من ذاك ، كما توحي إليه رغبته المتقلبة ، أو كما يوسوس إليه شيطانه الرشيق .

والناس المساكين من أمثالنا يقرأون لأنهم لا يستطيعون إلا أن يقرأوا ، وهم في مرة يفهمون ، وإذا فهموا فقد يرضون وقد يسخطون ، وهم في مرار أخرى لا يفهمون ، وعند ذلك لا يتهمون في قلة الفهم إلا أنفسهم . إننا لا نستطيع أن نقول للأديب إنك غير مفهوم ، وإلا تعرضنا إلى محكمته العالية ، فإذا به وقد أشار بإصبعه إلينا ساخراً وهو يقول « : هؤلاء الأدميون لا يفهمونني ! » فليس أهون على الناس إذا هم لم يفهموا الأديب من أن يداروا ويغالطوا أنفسهم وأمثالهم من القراء ، فيقولون أحياناً لقد فهمنا ، ويظهرون الأعجاب ، أو يجهرون بالسخط والازدراء ، وقد يلجأون أحياناً إلى الاغراق والتعمق ، لكي يستخرجوا من قول المؤلف الأديب معاني عجيبة ، ومقاصد غريبة يزعمون أنه يقصدها ثم يدقون طاسات البشائر لأنهم قد فازوا بالمعرفة وكشفوا الطلسم ، وأماطوا القناع عن الأسرار العميقة .

ولست أدري بعد هذا كله ما هو واجب الأديب ؟ هل هو أن يكون واضحاً يصور للإنسان الإنسان قائلا : ها هو الإنسان ؟ أم هو أن يصور المعاني البعيدة فيقربها ويوضحها ويقدمها للناس قائلا لهم : « افهموا ما أقول فهذه هي المعاني الغامضة قد قربتها إلى أفهامكم ؟ لست أدري إن كان للأديب واجب مثل هذا يتقيد به أم أنه دون خلق الله لا يستطيع أحد أن يقيده بواجب ؟ مهما يكن من الأمر فإني لا أستطيع أن أهتدي إلى جواب سؤال من هذه الأسئلة ، ولهذا فأنا قانع بأن أدع الأديب في برجه العاجي الذي اتخذه لنفسه لا يسمح لأحد بأن يزعجه فيه ، وأحاول بقدر الاستطاعة أن أداري عجزي بأن أحاول أن أفهم .

لقد قرأت شهرزاد الأستاذ الحكيم مرة فلم أفهمها ، وخرجت من القراءة بما يخرج به القارئ الذي لم يفهم ، فكرهت وسخطت وازدريت . ولم أتكلم . ثم انبعثت نفسي فقرأتها مرة ثانية ومرة ثالثة ، ولكني لم أفهم أيضاً . ما هذا ؟

لقد عرفنا شهرزاد في قصة ألف ليلة وليلة ، فهي ابنة الوزير الذي كان ينصح الملك شهريار وينتقد تصرفه في قتل بنات الرعية ، بعد أن يتمتع بكل منهن ليلة . ولكنه كان لا يستطيع أن يجهر بنقده في وجه الملك الثائر الحنق . وهل كان في استطاعة الوزير أن ينكر ما أصاب الملك المسكين في إيمانه بالنساء ، وأنه قد طعن في قلبه وشرفه منذ رأى زوجته تعانق العبد الوضيع ، وتسلم نفسها إليه ؟

تقدمت شهرزاد ابنة ذلك الوزير متطوعة لكي تحمي بنات الشعب من فتك الملك السفاح . وتردد أبوها في أن يعرضها القتل وهي فلذة كبده ، ولكنها أصرت — وتم لها ما أرادت ، ودخلت وهي واثقة بنفسها إلى الملك ، ثم عمدت إلى الحيلة فأفلحت ، وجعلت تقص عليه من أحاديثها قطعاً ليلة بعد ليلة ، حتى مضت الليالي الألف والحادية بعد الألف . فإذا بها قد غيرت الملك ، وأبدلته شخصاً آخر ، فصار إنساناً عاطفاً يعرف معنى الزوجة والأبناء والرحمة والسعادة . فهذه هي شهرزاد الكريمة القدامة ، الذكية

الطاهرة ، ذات العقل والحكمة والخيال البدع ، وهذا هو الفن الصحيح لايحتاج إلى كد ولاتعمق ، وهذا هو قصصها رائع مختلف الألوان فيه التسلية ، وفيه الموعظة ، لا يفتر ولا يبرد ، ولا يمل .

فما بال الأستاذ الحكيم يأخذ هذه الصورة فيجعل منها شهر زاد جديدة عسيرة على الفهم ، وإن كان أسلوبها هيناً سهلاً ؛ مضطربة غريبة ، وإن كان فيها حلاوة .

تبدأ قصة شهر زاد الحكيم بمنظر فيه حديث عن الملك وتغيره وانصرافه إلى ملاحظة النجوم ، كأنما قد أصابه خبل ثم يعرض الملك ذاهباً إلى بيت ساحر قد حبس آدميا في دن مملوء بدهن السمسم وأبقاه فيه أربعين يوما حتى ذهب لحمه ولم يبق فيه شيء سوى عروقه وعظام رأسه ، فإذا ما مضى عليه الزمن المقدور كان ذلك الآدمي العجيب قادراً على أن يجيب الملك عن أسئلته .

فكرة عجيبة ! وما هو قصدها ؟ ماهو قصد المؤلف من هذه الصورة ؟ إنها ليست من تلك الصور الإنسانية التي يكون جمالها في نفسها وصدقها أو عاطفتها ، فهي إذن صورة رمزية لابد أن يكون لها قصد وإلا فقدت قيمتها . فما هي فكرتها ؟

ثم لايجد الملك جدوى في ذلك الساحر ، ولا في الآدمي الذي حبسه في الدن ، فينصرف حانقاً بعد أن يقتل فتاة مجنونة أسمها زاهدة . ولست أدرى لم قتلها ؟

ثم يصور لنا المؤلف شهر زاد في الفصل الثاني وهي تغرى الوزير قمرا وتستدرجه إلى إعلان حبه لها ، فإذا ما قابلت الملك بعد ذلك كان بينهما حوار أشبه شيء بعراك الديكة أو مصارعة أشخاص (القره جوز) . صراع يختلف فيه الأشخاص بين الرضا السريع والغضب السريع ، والسخرية يعقبها الأعجاب ، والجفاء يعقبه الحب العنيف ، وتظهر فيه شهر زاد وكل مافيها ينطق قائلا : « أنا غامضة فهل تريد أن تعرفني ؟ » في لهجة المباهاة والتظاهر .

ثم يسافر الملك مع وزيره قمر ، فيضرب في بلاد الأرض طالباً أن يعرف — ولكنا لانعرف ماذا يريد أن يعرف ، حتى ييأس ويمل فيعود . ثم يذهب إلى حانة الحشاشين ، يريد فيها أن يهرب من جسمه . ثم لايستطيع فيعود إلى شهر زاد بعد أن يسمع من أقوال جلاد كان في الحانة أن الملكة قد اتخذت عبداً دنيئا قذرا وجعلته عشيقا .

لم كل ذلك ؟ لم أستطع أن أفهم .

فإذا ذهب الملك إلى قصره ورأى العبد أخيراً في حجرة الملكة مختبئاً وراء الستار لم يفعل شيئاً غير أن ينصرف . ولم يعبأ بالوزير (قمر) المسكين الذي قتل نفسه عندما رأى عار شهر زاد ، فلم يستطع أن يقاوم الصدمة التي أصابته من ذلك .

ما كل هذا ؟ ولم يصور الحكيم شهر زاد العزيزة مثل هذه الصورة ؟ وماذا يقصد ؟ لم أستطع أن افهم .

ومع ذلك فقد قرأت شهر زاد مرة رابعة لعلني أستطيع أن أجد فيها ما يمكن أن يزيل عني القلق والاضطراب ، فإني والحق أعترف بأن قلبي امتلأ قلقاً واضطراباً في كل مرة قرأت فيها شهر زاد الحكيم . ولم أعرف سر ذلك القلق . فقد كانت كلماتها تبعثه في نفسي ، وكان حوارها يلاحقني به ، مع أني لم أفهم المقصود منه . حقا إنه لشيء جدير بأسرار ألف ليلة وليلة .

ومن أعجب العجب أنني بعد القراءة الرابعة هبط علي نور جديد ، أو هو وهم جديد ، جعلني أظن أني فهمت شيئاً وألح بي هذا النور حتى ملأني ، فتبدل السخط رضى ، والأنكار إعجابا والقلق سلاما .

ولست أزعم كما قلت في أول هذا الحديث إن المؤلف قد قصد مافهمت ، فإني لا أزال أعجب من هؤلاء الأدباء ومن مقاصدهم ، ولا أزال أنكر أن يكون الأديب

مطلقاً من كل واجب ، فيترك قراءه يكدون أنفسهم ، حتى يستخرجوا شيئاً يظنون أنه يقصده ، كأنما هو موكل بإثارتهم ، والعبث بهم ، وتكليفهم أعظم المشقة وهو ينظر إليهم هادئاً .

بدا لى أخيرا أن الاستاذ الحكيم لم يصور فى شهر زاد امرأة ، ولم يصور فى شهريار رجلاً من بنى الانسان ، ولم يرد بالساحر ساحراً ، ولا بالعبد عبداً ، ولا بالوزير وزيراً . لم يرد من ذلك كله أحد الآدميين ؛ وإنما أراد أن يتخذ من كل هؤلاء رموزاً . وما علينا أن نناقشه هل ينتقل الأديب القصصى إلى عالم الرموز ، أم يترك ذلك العالم للشعراء ؟ لا علينا من ذلك فان الأديب لا يقبل مناقشة ، ولا يحتمل القيود ، ويجد فى هذا الناس كثيراً ممن يصفقون له كلما أبى الخضوع للقيود والحدود والواجبات .

أقول إنى فهمت أن الحكيم أراد أن يرمز بشهرزاد إلى هذه الحياة . هذا المعنى الذى نسميه الحياة . مادة الطين التى تلبسها الحياة وتنعكس عليها صور الحياة ويرى الإنسان فيها صورة نفسه ولا يستطيع أن ينزع نفسه منها أو ينزعها من نفسه . هذه المادة الطينية التى يسعى إليها دائما ويرتبط بها دائما ما دام على هذه الأرض ، والتى يتمثل فيها ما يسميه الناس غنى وفقراً ، وخمولاً وجاهاً ، وذلاً وعزاً ، وضعفاً وقوة وفناء وخلوداً ثم التى يتمثل فيها ما يسمونه حباً ، أراد الحكيم أن يرمز بشهر زاد قاصداً هذه الطبيعة المادية بكل صورها .

وأما شهريار فقد جعله رمز العقل النتبه الذى يريد المعرفة ويزعم أنه يستطيع السمو فوق هذه المادة الطينية . وأما قمر فهو رمز للانسان الذى يعيش فى هذه المادة وهو يغالط نفسه فيها ، وينكر الحقيقة عليها . وأما العبد فهو الذى يعيش فيها وهو قانع بها حريص عليها ، لا يجد معنى فى الحياة غيرها . وهكذا ، وهكذا كل أشخاص

القصة قد اتخذها الأديب — كما بدا لى — رموزاً لا حقائق إنسانية .

فشهر زاد الرمزية غامضة بلا شك . لم يعرف العقل عنها إلا ما تبديه له ، وهى دائمة تبدو له فى صورة نفسه .

قال الوزير قمر لشهرزاد فى خلوتهما :

— هذى ابتسامة ترجع ظنى ، لكنها ابتسامة غامضة لست أدرى أمعناها الاستهزاء أم الرثاء ؟

فقالت شهر زاد : أنت مخطئ .

قال الوزير : ثم هذه النظرة المبهمة — مولاتى — لم لا تأذنين لى فى أن أحبك — أنا أيضاً ؟

ثم قال لها بعد حين — إن عقلى يقصر عن إدراك ما تقولين .

فأجابت شهر زاد متخلصة من سؤاله :

— إن جسدى جميل ، أليس لى جسد جميل ؟

فقال الوزير يغالط نفسه : كلا . كلا .

فقالت شهر زاد : ألا ترى لى جسداً جميلا ؟

فقال الوزير : بلى يامولاتى ولكن .. أتوسل إليك . (ويهم بالانصراف) .

فإذا قال لها الوزير بعد مجادلة متعبة :

— كلا ، ما أنت إلا قلب كبير .

قالت له : إنك ترانى فى مرآة نفسك .

فيقول الوزير : إنى أرى الحقيقة .

فتقول له شهر زاد ساخرة : الحقيقة !

فإذا ماحضر الملك شهريار بدأت مناقشة تشبه المصارعة التى ألمعنا إليها فى أول هذا الحديث ، حتى تقول له شهرزاد :

— ألا تزال بك رغبة فى أن أبوح لك ؟

فيغضب شهريار وقد علم أنها تعبث به . فتقول له بعد حين :

— تريد أن تعرف منى ماذا ؟

شهريار : أنت لا تجهلين ما أريد .

شهرزاد : تريد أن تعرف من أنا ؟

شهريار : نعم .

فتأخذ فى العبث به ، حتى يقول لها :

— أنت امرأة خادعة .

فلا تريد على أن تستمر على عبثها به ، وتقول له أخيراً :

— لماذا ؟ لم لا تريد أن ترى فى امرأة كـكل النساء ؟

ثم تقول : وهل تحسبك لو زال هذا الحجاب تطيق عشرتى لحظة ؟

فيلح عليها شهريار لـكى تكشف له من حقيقتها وهى تداوره وتسخر به ، فيقول شهريار :

— ما أنت إلا عقل عظيم .

شهرزاد : أنت يا شهريار تراك فى مرآة نفسك .

شهريار : إنى أرى الحقيقة

فتقول شهر زاد ساخرة : دائماً الحقيقة ! !

ثم تنصح له أن يذهب لينام كى يستريح . وتأخذ فى مداعبة شعره ، ولا تزال به حتى يغازلها ، ويتوسد حجرها ويطلب منها أن تطوقه بذراعها وتنشده شعراً وتغنيه أغنية ، فتغنيه :

— نم نم نم ، أيها الطفل الذى أتعبه اللعب .

إذن فشهرزاد هذه ليست إحدى من نعرف من النساء ، ولا صورة أخرى من النساء ، بل هى الحياة المادية وهى على هذه الصورة لا تعرف ما تواضع عليه الناس وما امتلأت به صدورهم من العواطف . وكذلك شهريار ليس هو من نعرفه ، وليس رجلا آخر من هؤلاء الرجال .

شهر زاد لاتبالى بحب ، ولا تعرف واجباً فيه . هى تعرض قرا الوزير على حبها ، وهى تسلم نفسها للعبد ، بل تراوده وتدعوه إلى نفسها — فالحياة لا تتعفف على العبد الخسيس إذا هو طلبها ، بل ترتاح إلى طلبه ، لأنها تجد فيه مستقراً لها .

لا تعرف شهر زاد الحكيم عاراً ولا خجلا ، لأنها ليست امرأة من النساء ، وهى غامضة ساخرة متلونة ، يرى كل فرد فيها صورته هو ، ولا يعرف عنها شيئاً .

وشهريار الرمزى يتوزع بين الرغبة فى شهر زاد هذه وبين رغبته الملحة فى المعرفة والسمو . ولكنه أخيراً لا يهتدى الى المعرفة ، ولا يستطيع السمو ، ثم لا يزال يلح فى محاولته حتى ينصرف عن شهر زاد ، ويتركها مع العبد الخسيس .

هذا ما بدا لى ، ولست أدرى هل قصد الأديب الحكيم شيئاً مما تصورت ؟ أم هى محاولة منى لستر عجزى عن الفهم ؟

لا يرى الأديب من بأس إذا هو لم يقصد شيئاً أو قصد شيئاً غير ما نفهم فلبس بهمه الفهم ، فما دام قد بعث فى الناس القلق ، وأثار فى نفوسهم القلق . واستطاع أن يحرك . وليبق هو فى برجه كما يبقى سائر الأدباء والشعراء ، لا يبالون شيئاً مما يصيب الناس من النصب على أيديهم ، فانهم ما خلقوا إلا ليشيعوا القلق والاضطراب ، ماداموا لا يرضون أن تقيدهم الحدود والقيود والواجبات .

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

احمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

مـ

٤٥ فى مصر والسودان

٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام

٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

أنين

تهدمت يا جسمى من الوجد والدوى
وقد ذبت يا قلبى من الحسرات

تداويت من داء بداء ، ولم تزل
تبيت على دنيـا من الجمرات

تمر بك الأيام عابســة الضحى
تهاويلها كالجن فى الفلوات

وجنتك الفيحاء قد جف وردها
ولا من شذى يهفو من الزهرات

أرى نسمات الفجر شوكا يشوكنى
وترنيمة الأطيار بوق شتات

وفى بسمة الأزهار للعين مجتلى
ويا سوء ما ألقى من النظرات !

فمن لى بقلب باسم الثغر ضاحك
تمر به الأيام مبتهجات ؟

تجاربك يا قلبى مخاوف كلها
فما لك بى يا قلب أى صلات

مصطفى الجاويش

فرشوط

محكمة بولاق الجزئية الأهلية

اعلان بيع لمدة أول فى القضية رقم ٥٠٨٩ سنة ١٩٤٢

إنه فى يوم الخميس ٢٥ مارس سنة ١٩٤٣ الساعة ٨ أفرنكى صباحا بجلسة المزادات بسراى محكمة بولاق الجزئية الأهلية الكائن مركزها بشارع إبراهيم باشا قسم عابدين بمصر سيصير بيع العقار الآتى بيانه بعد ملك على على سالم القير بمطلة على إبراهيم نمرة ١ قسم بولاق مصر بثمن الأساسى قدره ١٠ جنيه مصرى وفاء لمبلغ ٨٦٨ قرش صاغ وما يستجد تنفيذا للحكم نمرة ٣٨٤ سنة ١٩٤٢ مدنى بولاق .

وذلك بناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٨ شهر ١ سنة ١٩٤٣ وسجل بمحكمة مصر الأهلية فى ٣٠ يناير سنة ١٩٤٣ نمرة ١٢٧ سنة ١٩٤٣ وهذا البيع بناء على طلب الست مسعده نعيم محمد المقيمة بشارع تل نصر نمرة ٣٩ قسم بولاق مصر

بيان العقار

١٢ ط اثنى عشر قيراطا مشاعا فى كامل انقاض والخشاب المنزل رقم ١ بمطلة على إبراهيم بالترجمان قسم بولاق محافظة مصر ومحدود بحدود أربع البحرى أحمد أحمد محمد بطول ٢٠ر٣ والشرقى لطيفه هادم بحرى بطول من بحرى القبلى شرقى ٠٥ر٣ متر ثم يميل ٩٥ر٥ متر والحد القبلى حارة غير نافذة ٣٠ر٧ متر والغربى عطفة على إبراهيم وبه الوجه والباب ٩ متر ومساحة المنزل جميعه و ٢٠س ٦٧ متر سبعة وستين متر وعشرين دسيم

وجميع الأوراق والشهادات مودعة بدوسيه القضية لمن يرغب الاطلاع عليها

كاتب البيوع

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢١٩ — الثلاثاء ٣٠ من ربيع الأول سنة ١٣٦٢ — ٩ من مارس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

التفكير فى شؤون السلم

للدكتور محمد عوض محمد

منذ نحو ثلاثة أشهر صدر فى لندن كتاب ضخم فى بضع مئات من الصفحات ، يتضمن مقترحات لإصلاح شؤون المجتمع البريطانى فى زمن السلم . وقد سمى هذا الكتاب تقرير بفردج باسم واضعه ، ورئيس الجماعة التى عاونته فى الدرس والبحث حتى اهتدى إلى تلك المقترحات ، بعد أن قضى فى هذه الدراسة بضعة عشر شهراً . والسر وليم بفردج لم يكن من رجال السياسة فى يوم من الأيام ، ولم ينتم إلى حزب من الأحزاب ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من قادة الرأى والفكر فى بريطانيا ، الذين هم دعامة الحكم والإصلاح فى كل عصر ، وفى كل حكومة . تناول دراسته وهو طالب علوما عديدة أخصها الرياضة والفلك والتشريع ، ولكنه اتجه بعد ذلك إلى دراسة المشاكل الاجتماعية ونظم الحكم ، وتقلد مدة طويلة رئاسة مدرسة الاقتصاد ، وهى من أشهر كليات جامعة لندن ، والمعقل الأكبر فى بريطانيا لدراسة العلوم الاجتماعية والسياسية ... ثم انتقل بعد ذلك رئيساً لإحدى الكليات فى أكسفورد . وعندما تولى مستر تشرشل رئاسة الحكومة ، أدرك أن لا بد من المبادرة بالتفكير فى المشاكل التى ستنشأ بعد الحرب ، ووضع خطط البنيان والإصلاح منذ الآن .

واختار المستر تشرشل من بين وزرائه رجلا من قادة حركة العمال فى بريطانيا ، وهو آرثر جرينوود ، وجعله وزيراً من غير وزارة لكى يتفرغ لدراسة مشاكل الإصلاح بعد الحرب ، والتمهيد لها بالدراسة الوافية أثناء الحرب . ووقع

اختيار هذا الوزير على وليم بفردج ليكون معاونه الأكبر في الاضطلاع بهذا الأمر الخطير . وكان ثمرة هذه الجهود تلك المقترحات التي صدرت منذ ثلاثة أشهر تحمل عنواناً متواضعاً ، وهو « تقرير عن التأمين الاجتماعي وخدمات أخرى » . وبالرغم من صدور هذا الكتاب عن ديوان من دواوين الحكومة ، ووزارة من وزاراتها ، فإنه لم يكن ملزما للحكومة ، وإنما وضعته تلك الوزارة لكي يكون أساساً للمناقشة بين ممثلي الأمة وقادة الرأي فيها . ولا شك في أن هذه الوثيقة الهامة قد قوبلت باهتمام كبير ، وأحدثت ضجة عظيمة في جميع الأقطار لا في بريطانيا ؛ وحتى نحن في مصر قد عنينا بأمرها ، وأخذنا نفكر في ترجمتها إلى العربية ، لكي تكون في متناول المفكرين في مصر ، خصوصاً إذا ذكرنا أن صعوبة المواصلات تحول دون الحصول على الأصل الانجليزي .

ولا شك في أن كثيراً من الناس قد عجبوا كيف تصرف حكومة من الحكومات جهداً كبيراً للتفكير فيما يحدث أو لا يحدث بعد الحرب ، وتشغل نفسها بالدراسة ووضع التقارير عن أمور لا تزال بعيدة ، والعدو على الأبواب ، والخطر ماثل قائم ، وهي في حاجة لأن تكرس كل جهد جسدي وعقلي لأمر واحد لا يشغلها عنه شاغل ، وهو الحرب ذاتها . وقد يكون من بين هؤلاء المعترضين من يذهب إلى أبعد من هذا ، فيزعم أن صدور مثل هذا التقرير قد لا يخلو من الخطر لما يحدثه من تحويل للأنظار عن الغرض الأسمى وهو الانتصار في الحرب ، ولما يحدثه أيضاً من انقسام في الرأي حول التقرير ونصوصه ومقترحاته ، في وقت اشتدت فيه الحاجة إلى توحيد الكلمة والجهود . وأمثال هؤلاء المعترضين هم في العادة ممن لم يفهموا بعد مظاهر الحياة الديمقراطية الصحيحة ، فيخيل إليهم أن الاختلاف على أمر معناه الاختلاف على كل أمر .

والحقيقة أن المجهود الحربي الهائل الذي لا بد من بذله مهما جل وعظم ، لا يمنع مطلقاً من التفكير في شؤون السلم ، وفي الشقا كل التي تتولد من هذه الحرب ؛ بل يجوز لنا أن نذهب إلى أبعد من هذا ونقول إن العمل للسلم جزء لا يتجزأ من مجهود الحرب نفسه ، والعمل للسلم يتناول ميدانين عظيمين : الميدان الدولي كما يمثله اتفاق مثل الاتفاق الأطلنطي ، والميدان القومي كما تمثله وثيقة بفردج .

لقد أصبحت الحرب اليوم حرب أمة لا حرب حكومة ، فتطلب جهوداً جبارة ، ونفقات باهظة وتضحيات بالنفس والمال من كل رجل وكل امرأة . والحكومة التي لا ينصرها كل فرد من أفراد أمتها وكل طائفة من طوائف شعبها ، لن تستطيع الوصول إلى النصر مهما جمعت من العدة وكدست من الأسلحة ، ومهما برع قادتها وأمراء جيوشها . وكلا الفريقين المتخاصمين قد اتخذ بأساليبه الخاصة الوسائل التي تمكنه من السيطرة على جماهير الأمة وأفرادها . ففي المعسكر الدكتاتوري قد تولى القادة تعليم أفراد الأمة تمجيد الزعيم وعبادته ، وأن طاعته فرض ولذة ، والتضحية من أجله مجد وسعادة ؛ وفي المعسكر الديمقراطي يهيبون بالفرد أن يعمل ويضحي من أجل مستقبل أسعد وعيشة أرغد ، وعهد سلم يغشاه الأمن والطمأنينة . لهذا كان تقرير بفردج جزءاً لا ينفصل عن المجهود الحربي العظيم الذي تبذله الأمة البريطانية .

وفي أوقات السلم يتمشى الإصلاح الاجتماعي بخطا بطيئة ، ويعتذر عن التقصير فيه بأن النفقات كثيرة ، والضرائب باهظة ، وأن لا بد من التدرج والتطور ، بدلاً من الطفرة والمشروعات الثورية التي لم تختمر تفكيراً ولم تجرب طويلاً . ودعاة الإصلاح في زمن السلم لا يكفون عن دعايتهم وإلحاحهم ، وبذل كل مجهود في

الإبانة عن مواضع العيب فى النظم الاجتماعية ، واستصراخ الحكومات فى المبادرة بالعمل لمساعدة الطبقات المحدودة فى أن تنال حاجتها من التعليم والترفيه المادى .

وفى زمن السلم تلبى الحكومات مثل هذه النداءات بالتدريج وعلى مهل ، وبقدر ما تسمح به الميزانية . ومن الظلم أن يزعم أحد أن حكومة بريطانيا لم تعمل شيئاً لإصلاح شعبها فى زمن السلم ، فإن معالجة المشاكل الاجتماعية قد لقيت عناية عظيمة فى بريطانيا منذ زمن بعيد . ولكن أوان الحرب فرصة لا مناص من أن ينتهزها دعاة الإصلاح ؛ والحكومة التى تنادى رعيتها ببذل كل تضحية فى النفس والمال ، لابد لها أن تُرى هذا الشعب بأنها جادة فى إعداد عهد يتمتع فيه بنصيب وافر من الصحة والرخاء ، والتعليم والترفيه .

والحجة القديمة التى تتذرع بها الحكومات ، وهى ضرورة الاقتصاد ، وأن إرهاق دافعى الضرائب أمر غير مرغوب فيه ، تغدو فى زمن الحرب ، الذى تنفق فيه آلاف الملايين من غير أدنى تردد ، حجة لا تجد من يصغى إليها .

وهنالك اعتبار آخر لعله يخص هذه الحرب أكثر من أى حرب سواها ، وهو أن روسيا صاحبة النظام البلشفى قد اشتركت فيها حليفة للدول الديمقراطية ، والنظام الاجتماعى فى روسيا ليس شيوعياً بالمعنى القديم ، ولكنه على كل حال نظام يكفل لطبقات العمال والزراع نصيباً وافراً من الرخاء . وكان الناس فيما مضى يتقرون من الإشارة إلى أن نظام الحكم فى روسيا نظام صالح ، بل زعم كثير من الناس أن التجربة الروسية فشلت فى تحقيق أغراضها ، وهى الترفيه عن جميع طبقات الأمة . ولسنا الآن فى مكان نستطيع فيه أن نحكم بصلاح الحكم الروسى أو فساده ، ولكن ليس من شك فى أن مقاومة روسيا للغزو الألمانى يحمل على الإعجاب بمجهودها . ومع أن المنطق الصحيح لا يستدعى أن انتصار روسيا على ألمانيا ، حتى على فرض أنه سيكون انتصاراً ساحقاً باهراً ، سيقضى على النظم الرأسمالية وينشر الشيوعية فى دول أخرى غير روسيا ، فإن هذه الفكرة قد وجدت من ينادى بها ؛ وقد تذرع بها الألمان أنفسهم لكى يخوفوا الدول الديمقراطية الخطر البلشفى ، ويوهموهم أن سلامتهم تقتضى مؤازرة ألمانيا النازية فى درء هذا الخطر .

ولكن مع التسليم بأن انتصار روسيا الباهر إذا حدث لن يؤثر تأثيراً كبيراً فى نظم الحكم فى سائر الدول المتحدة ، فإن وجود روسيا إلى جانب الدول الديمقراطية ، وما هو معروف من عطف العمال فى مختلف البلدان على روسيا ، كل هذه من العوامل التى تدفع قادة الدول إلى العمل على رسم خطة واسعة للإصلاح الاجتماعى منذ الآن ، وألا تدخر جهداً ومالاً فى هذا السبيل ، على أن يبدأ تنفيذ هذه الخطة بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ويبدأ عهد السلم الجديد .

وقد اشتهرت بريطانيا من بين جميع الدول بأنها تسلك فى الإصلاح سبيل التطور لا سبيل الطفرة والثورة . وقد نهجت هذا النهج فى النظام الديمقراطى نفسه ، فكانت تنتقل فيه من مرحلة إلى مرحلة أوسع وأعمق ، حتى بلغت به تدريجياً إلى الحالة الراهنة التى يعد فيها نظام الحكم مثالاً يحتذى ، وقدوة لجميع الشعوب التى تنشد النظام النيابى .

كذلك كانت بريطانيا فى الإصلاح الاجتماعى تمشى بخطا وئيدة ، ولكن بتدرج وتمهل ، فلا تقدم على عمل جديد حتى تحس أن هنالك حاجة لمثل ذلك العمل ؛ وحكومتها شديدة الإحساس ، بفضل ما وهبه الشعب من حرية الرأى والتعبير عن كل خلجة تخطر بالقلوب ، وكل فكرة تدب فى الأذهان ، ولهذا استطاعت أن تستل سخيمة

كل حركة تنذر بأن تنقلب إلى ثورة ، بأن تبادر بتنفيذ نصيب عظيم من الإصلاح المنشود فترضى المعتدلين من دعاة الإصلاح ، وتجعل المتطرفين قلة ليست بذات خطر . وسرعان ما يطغى عليها تيار الاعتدال فتهدأ حدتها ، ويقل خطرها .

والذين ينظرون إلى مشروع بفردج اليوم ، كما نفعل نحن فى مصر اليوم ، دون أن يكون لهم علم سابق بتطور الإصلاح الاجتماعى فى بريطانيا فى هذا القرن وحده — بصرف النظر عن العهود السابقة — يخيل إليهم أنه مشروع ثورة ، وأنه يمثل انقلابا عظيما فى النظم الاجتماعية البريطانية . بل لقد خيل لبعض البسطاء فى مصر أننا ما علينا إلا أن نتناول هذا المشروع ونطبقه على مصر ، فتحظى جميع طبقات الأمة المصرية بالنعم التى يكفلها مشروع بفردج للأمة البريطانية . ونحن فى هذا كمن يريد أن يطير قبل أن يتعلم كيف يحبو ، أو كمن يريد للطفل أن يطعم البفتيك قبل أن يتجاوز عهد الرضاعة .

ولأول وهلة يبدو مشروع بفردج انقلابا كبيراً ، لأنه سيكلف الحكومة البريطانية بعد أن يتم تطبيقه فى جميع مراحله فى ظرف عشرين عاما مبلغا من المال يعادل ٨٢٥ مليوناً من الجنيهات سنويا ، أى مقدار ميزانية الحكومة البريطانية كلها قبل الحرب الحاضرة .

ولكن مشروع بفردج لا يمكن أن يفهم إلا إذا أدركنا أنه مرحلة جديدة فى تطور قديم للإصلاح الاجتماعى فى بريطانيا ، وأنه حلقة من سلسلة تمتد إلى قرون مضت منذ قررت الحكومة البريطانية فى عهد الملكة إليصابات فى عام ١٦٠١ أن تعنى بالفقراء المعوزين تماما ، وأن تتولى أمرهم ورعايتهم . ومع أن المساعدات التى سنها قانون الفقر ، كانت حقيرة ، وكان ينفر منها كثير من الفقراء ، فإنها هى من غير شك النواة التى تولد منها فى النهاية مثل هذا المشروع الضخم الذى لفت الأنظار فى هذه الأيام .

فى عام ١٩٠١ كانت الحكومة البريطانية تنفق فى المشروعات الاجتماعية مبلغاً لا يزيد على ٣٦ مليونا من الجنيهات ؛ وقد ارتفع هذا المبلغ فى عام ١٩٢١ إلى نحو ٣٠٦ مليونا ، ثم ارتفع فى عام ١٩٣٨ إلى ٤٥٥ مليونا ؛ فإذا ارتفع بعد ذلك مشروع بفردج بهذا المقدار إلى الضعف ، فإن هذا ليس بالشىء الغريب ، بل إن هذا يتمشى تماماً مع التطور السريع فى الإصلاح الاجتماعى الذى كانت تسير فيه الحكومة البريطانية .

هذا من حيث مقدار المال المخصص للإصلاح . فإذا نظرنا إلى أبواب الخدمات الاجتماعية رأينا أن هذه تطورت تطوراً عظيما فى القرن الحاضر . فكانت هذه الخدمات فى عام ١٩٠١ تشتمل على ثلاثة أبواب فقط : وهى التعليم والمستشفيات وإعانة الفقراء . ولكن هذه الأبواب ازدادت واتسعت حتى أصبحت قبل الحرب الحاضرة تشتمل على هذه الأبواب الثلاثة مضافا إليها : إصلاح المساكن ، ومعاشات الأرامل والأيتام وكبار السن ، والتأمين ضد المرض ، وإعانات العمال العاطلين .

فإذا جاء تقرير بفردج اليوم يقترح نواحى جديدة للتأمين الاجتماعى ، وخدمات جديدة تؤديها الحكومة ، فإن هذا تطور طبيعى ، وهو مألوف فى الاتجاهات الخيرية التى كانت الحكومة البريطانية سائرة فيها منذ بداية القرن الحالى ، والتى ترجع أسسها إلى أوائل القرن السابع عشر .

وعلى ضوء هذا التمهيد نستطيع فى مقال آخر أن ننظر فى مشروع بفردج ، وما يتضمن من الاقتراحات لخدمة المجتمع وطبقاته المختلفة فى بريطانيا .

محمد عوض محمد

٤ - فى الهـــواء الطلق

كانت الرحلة هذه المرة إلى رجل كبير قد طوى مراحل الشباب ، وصحب الأيام الخالية ؛ تقوس ظهره واعوجت قناته من طول ما حمل من أعباء العيش ؛ خبر الحياة حلوها ومرها ، وعرف حياة الفلاح فى حقله ، والموظف فى مناصبه المختلفة ؛ ومكنته ظروفه أن يخالط الأعيان ويدرس أحوالهم ، والطبقة الأرستقراطية ويعرف تقاليدهم وقوانينهم وتَزمّتهم ، ورجال السياسة واتجاهاتهم وأساليب تفكيرهم وتهريجهم ، وشاهد معامع خلافاتهم ، وانغمس فى تيارهم ، ثم نفض يده من كل شؤونهم ؛ وفى طول حياته يجارى الحركة الفكرية والأدبية والفلسفية فى الشرق والغرب ، ويتذوقها وينقدها ، ويدلى بآرائه فيها .

زرته فى ضاحية من ضواحى القــاهرة ضحى ، والجو بارد ، والشمس جميلة تبعث بدفئهــا فتنعش النفس ، وترد الحياة .

تبادلنا التحية ، وتكلمنا فى الجو والبرد ، والسياسة والحرب ؛ ثم قال : هل لك فى مشية خفيفة فى هذه الشمس اللطيفة ؟ فقلت : أنعم بها وأ كرم ، وسحب عصاه .

وبعد قليل كنا فى الهواء الطلق ، والجو الرق ، والسماء الصافية ، والشمس الساطعة ؛ وتنقلنا فى الحديث إلى أن وصلنا إلى العجب من اختلاف الناس فى آرائهم ، وتعدد اتجاهاتهم فى تفكيرهم ، وكيف يلعب بالحق ويخفى وجه الصواب ؛ فحركتُ من الشيخ كامن شجنه ، وعميق فكره ، فقال :

إن الخلاف فى الرأى يرجع — فى نظرى — إلى أسباب كثيرة ، وهو موضوع لطيف ، قرأت فيه بعض كتب إفرنجية ، وجرت فيه تجارب شخصية ، ولا يزال يعلق شىء منها بذهنى الذى أدركته الشيخوخة ، ولعلها قوّسته كما قوست ظهرى ، وشيبته كما شيبت رأسى ، فأصبح يرى الأمور كما يراها الناظر خلال منظاره مقوساً أو محدباً ، ومع ذلك فمن الذى يستطيع أن ينظر إلى العالم مجرداً من منظار ؟ إن كل إنسان ينظر إليه من خلال منظاره الأحمر أو الأصفر أو الأسود أو الأبيض ؛ وللشباب منظاره ، وللشيخ منظاره ؛ وكل إنسان ينظر إلى العالم من خلاله ، ويحول بينه وبين إدراك الحقيقة شهواته أحياناً ، وعواطفه أحياناً ، وكلٌّ يسمّى ما يراه الحق .

وقد استفدت من مطالعاتى فى المنطق أن أحدد موضوعى وأحصر كلامى فى نقطة حتى أستوفيها طاقتى ، سواء فى ذلك إذا أردت أن أفهم أو أردت أن أتحدث ، ورأيت ذلك أجدى وأنفع ؛ وأ كره ما أ كره تشتت الذهن فى الفهم ، وتشقق الحديث فى القول — فى موضوع كهذا نرى أن أسباب الخلاف بين الناس كثيرة بعضها يرجع إلى اللغة ، وبعضها يرجع إلى درجة الثقافة ، وبعضها يرجع إلى اختــلاف الأغراض والشهوات ، وبعضها يرجع إلى اختلاف الأمزجة ، ونحو ذلك . فأحب إذا تحدثت أن أتحدث فى نقطة حتى أستوفيها ، ثم أعطف على غيرها ، ولا أحب أن أتكلم كلمة من هنا وكلمة من هناك ، فاختر ما تحب أن نبدأ به .

قلت : فلنبدأ من آخرها ، فذلك أشهى إلىّ .

قال : — وهو أيضاً أحب إلىّ — .

وكنت ألاحظ أنه يرقب السماء والشمس ، وأخيراً أدركت أنه يخشى أن تحول بينه وبين الشمس سحابة تذهب بدفئها وتعرّضه للبرد والزكام ، فإذا رأى سحابة قدّر البعد بينها وبين الشمس ، وحسب حساب الزمن الذى تقطعها فيه ، فقلت فى نفسى : يالله من الكِبَر ؛ وما أقسى الوقوف على ساحل الحياة !

ثم اطمأن إذ ودع آخر سحابة تسير من الغرب إلى الشرق ، واستمر فى حديثه فقال :

هب أن عقل الناس كلهم وتفكيرهم المنطقى واحد ، فإنهم فى أمزجتهم مختلفون ، والفكر الإنسانى لا يتكون ولا يظهر فى الخارج — بالحديث أو الكتابة — إلا ممزوجا بالمزاج ، ويكاد كل إنسان أن يكون له مزاجه الخاص به ، ويتبع ذلك أن يكون لكل إنسان تفكيره الذى يظهر فى قوله أو فعله أو كتابته ، ولكن — لأجل التقريب فقط — قسم الأستاذ « وليم جيمس » المزاج الإنسانى إلى قسمين هامين ، ويكاد كل إنسان يكون من أحد هذين القسمين : « غليظ العقل » و « رقيق العقل » ، كما تقول : غليظ القلب ، ورقيق القلب ؛ ولكل منهما مظاهر ، فغليظ العقل — عادة — واقعى يؤمن بما يعتمد على التجربة والاختبار والحواس فقط ، مادى ، متشائم ، ملحد ، متعصب ، شره ، شكّاك .

وعلى العكس من ذلك أخوه « رقيق العقل » مثالىّ ، متفائل ، متدين ، حر الفكر ، قانع ، مطمئن إلى عقائده .

وقد يتلون الناس ألواناً مختلفة ، ولكن إذا حلّلت ألوانهم رأيتها ترجع فى النهاية إلى هذين اللونين .

ولهذا نرى أن الناس فيما يختارون من المذاهب الدينية والفلسفية ، بل والسياسية ، وما ينظرون إليه فيما يعرض عليهم فى المسائل اليومية ، ونظراتهم إلى الله وإلى الحياة ، وعواطفهم وميولهم وأخلاقهم متأثرون بما فطروا عليه من أحد هذين المزاجين أكثر من تأثرهم بتفكيرهم المنطقى المجرد .

من أجل هذا كان الوجود كله معروضاً أمام الناس كلهم على السواء ، ولكن كلٌّ يقرؤه بعينه الخاصة ، ويشعر به بشعوره الخاص ، وكل ينجذب إلى أشياء لا ينجذب إليها الآخر ، ولا سبب لهذا إلا عقله الغليظ أو الرقيق ، ومزاجه الطبيعى المفطور عليه .

هذا الشاعر الذى لا يرى فى الحقل إلا جماله ، لا يرى فيه المالىّ إلا غلّته ؛ وهذه جماعة تنظر كلها إلى امرأة واحدة ، ينظر أحدهم إلى جمالها الظاهر من جسمها فيهيم بها ، وينظر الآخر إلى سوء حديثها وقبح معانيها فينفر منها ، ويقوّمها الثالث حسب ثروتها ، وما ينتظر أن تناله من ميراث أبويها فيحبها أو يكرهها ، حسب عقله ، ولا يقوّمها الرابع إلا بمقدار صلاحيتها لأن تكون ربة بيت ، ومربية نسل ، والمرأة المرأة ، وإنما اختلف النظر ، وإنما اختلف النظر باختلاف المزاج ؛ وقديماً قالوا : « كل يغنّى على ليلاه » .

أرأيت الأكل أصنافاً وألواناً ، يستورد كل يوم لحديقة الحيوان من حشائش وبقول ولحوم ، ثم يأكل كل صنف من الطيور والحيوان ما يتفق وطبيعته ؟ !

أو رأيت الأسواق العامة للمأكل والملبس والمشرب ؟ يأتى إليها الناس فيتخيرون ما يشترون ، كل حسب مزاجه ، ويعجب كل كيف اختار غيره غير ما اختاره ، كذلك الشأن فى الآراء السياسية والدينية والاجتماعية والأخلاقية ، إنما يقع عليها الشخص منجذباً بمزاجه لا بمنطقه ، ثم من غفلته يظن أنه حر الإرادة حر الاختيار .

وهنا تعب الشيخ ، فاقترح العودة ، ثم قال :

هذا سياسى من الصنف الغليظ العقل ، قد اتخذ السياسة مغنما ، يختار المذهب الذى يرى أنه يدر الربح عليه أكثر ، ويتخذ السياسة مصعداً يصعد عليه فى ماله وجاهه ونفوذه ، وليست السياسة عنده إلا كسب المال أو انتهاز كسب المال ؛ وهذا سياسى آخر من الصنف الرقيق العقل ، مثالى ، يرى السياسة مغرما ، وهى ليست إلا وسيلة إلى إصلاح قومه قدر جهده ، فهو يضحى لذلك من ماله وزمنه ، خدمة لمبدئه . وليس الفرق بين

الاثنين إلا الفرق بين المزاجين .

وتجد هذين النوعين فى الأمم المختلفة راقيها ومنحطها قد يختلفون فى العَرَض ، ولكنهم يتحدون فى الجوهر .

وكذلك الشأن فى الدين .

وكنا قد وصلنا فى عودتنا إلى حديقة جميلة فى أطراف الضاحية ، فوجدنا مقعداً خشبياً فقعدنا ، فإذا نظرنا عن قرب فالحشائش الخضراء الجميلة ، والنخيل التى تبهر بقوامها اللطيف وغصونها المتهدلة ، فإذا مددنا الطرف فالصحراء وما لا نهاية — وبدأ الشيخ يشكو التعب وكِبَر السن ، فحركته ليتم حديثه ، فقال : إلى أين وصلنا ؟ فقلت : الدين .

قال : نعم ، إن الدين كذلك تابع المزاج ، فمهما حارب العلم الدين ، ومهما دعا الملاحدة إلى الإلحاد ، ومهما قاوموا العقيدة ، فالناس فى كل عصر قسمان : قسم لا يريد أن يؤمن إلا بالحواس وقواعد المنطق الجافة ؛ وقسم يدعوه قلبه إلى الإيمان . ولهؤلاء حجج ولهؤلاء حجج ؛ ولا تظن أن العقل هو الذى يعمل وحده فى تأليف الحجج ، بل إن المزاج هو الذى يوحى إلى العقل بها وتكوينها وتشكيلها . والتصوف والزهد ليس إلا مزاجا ؛ ومهما حاولت أن تجعل من الصوفى ملحداً ، أو من الملحد صوفياً فلن تستطيع ، لأن تغيير المزاج فى حكم المستحيل . فذو المزاج الذى سميناه « رقيقاً » ينظر إلى العالم فيرى فيه أشياء لا تفهم ولا تشرح ، فيهيم بها ، ولا يستطيع أن ينكرها ، فيوليها احترامه وتقديسه ، على حين أن الغليظ المزاج يتخذ من غموضها وعدم فهمها وسيلة لجحدها ، ويحترم كل الاحترام حواسه ومنطقه ، فينكر ما وراءها ، ويصيح : إن الله ، والخلود ، والحياة الأخرى ، والوحى ، وما إلى ذلك لا أحسها ولا أهتدى إليها بالمنطق الصرف ، فأنا أنكرها احتراما لحواسى ومنطقى . ويجادله الأول : ما حواسك وما منطقك ؟ إنك كلما وثقت بها زدت عمى ، وهى ليست إلا وسائل لإدراك التافه من الأمور ، وخدمة الشهوات ، ومن الحق والمنطق الرخيص أن تغمض العين عما لم تدركه حواسك وقواعد منطقك ، وتحل مشاكله بإنكارك السهل ، فيكون مثلك مثل من عجز عن حل مسألة حسابية أو تمارين هندسية ، فأنكر وجودها بدل أن يحاول حلها بأساليب جديدة غير التى جربها — وهكذا ، وهكذا ، يطول النزاع والجدل ، والمسألة فى الواقع مسألة مزاج .

وسعل الشيخ سعلة شديدة ، احمرّ منها وجهه ودمعت عينه ، فرثيت لحاله ؛ ولكن عز على انقطاع حديثه ، فتكلمت كلاما خفيفاً فى غير الموضوع ، حتى عادت إليه نفسه ، واستراح نفسه ، ثم حركته من جديد ، فقلت : ولكن إذا كانت مسألة الدين مسألة مزاج ، فكيف تفسر مَن كفر بعد إيمان ، أو آمن بعد كفر ؟ أتغير مزاجه ، وقد فهمت من قولك استحالة تغييره ؟

فسكت قليلا ثم قال :

إن أخذت بالظواهر فاعتراضك صحيح ، ولكن إن دققت النظر فغير صحيح . إنى أعتقد — مثلا — أن الذين لبوا دعوة النبى فى أول الأمر كانوا من ذوى المزاج الرقيق الذى ينزع إلى الدين ، وكانوا يتديّنون فى جاهليتهم ، فلما جاء الإسلام سهل عليهم التحول من دين غير صحيح إلى دين صحيح ، والنزعة الدينية واحدة ؛ وهناك بعدُ قوم أسلموا رغبة فى مغنم ، أو خوفا من سيف ، أو نحو ذلك ؛ وأنا لا أنظر فى قولى إلى الأشكال ، وإنما أنظر إلى القلوب ، ويعجبنى الحديث : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » ، والحديث : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » . إن الذين يؤمنون إيمانا

تجارباً خارجون من حسابى ، وكذلك الذين يكفرون كفراً تجاربا .

وقد قرأت عن بعض العلماء المحدثين أنهم شغلوا بالعلم وتعمقوا فيه واستسلموا له ، وغمرهم تياره فكفروا بالدين ، ولكن مع هذا كله ظل أمر الدين ساكناً فى أعماق قلوبهم ، ووصف بعضهم أحدهم — ولا أذكر اسمه الآن — فقال : « إنه كفر عقله وآمن قلبه » ، وذلك لأن مزاجه من النوع الرقيق الذى يؤمن رغم أنفه .

والآن أظنك توافقنى على أن كل إنسان يخرج من عقله وقلبه وعواطفه ومزاجه خيوطا خاصة به ، يؤلف منها مقدماته ونتائجه ، ثم يعتقد أنها الحق ، وأنها وحدها الحق ، وأنها منطق صرف ، وأنها عقل بحت ؛ وكذلك يفعل الآخر حسب عقله ومزاجه ، فيكون الخلاف ؛ وكلما كانت هذه الخيوط أكثر اختلافاً فى النوع ، كان المتجادلان أشد خلافا فى الرأى .

وإنى ما أرى — الآن — حتى من الاختلاف فى النزعات السياسية من نازية وشيوعية وديمقراطية يمكن إرجاعه إلى ما ذكرت من اختلاف فى المزاج ، وأعنى اختلاف القادة والمؤسسين لهذه المذاهب ، لا العامة والأتباع ؛ فمزاج الفقراء غير مزاج الأغنياء ، ومزاج الفلاحين والعمال غير مزاج الطبقة الأرستقراطية .

لقد هممت أن أمطره بوابل من الأسئلة : ما قيمة التربية الأخلاقية والدينية والسياسية على مذهبك ؟ كيف يؤسس الإصلاح إذا صحت نظريتك ؟ كيف نقرب التفاهم بين المفكرين إذا اختلفت خيوط نسيجهم ؟ ونحو ذلك من الأسئلة . ولكنه بدأ يسعل ثانية ، فأشفقت عليه وسايرته إلى منزله ، ولكن فى حديث الصحة والمرض ، والأدوية ومنافعها ، لا فى العقل والمزاج .

وودعته بعد أن رجوت له الصحة ومتابعة الحديث ، حتى يتم لى رأيه فى باقى أسباب الخلاف .

أحمد أمين

« دولسينيه »

« دولسينيه » مسرحية لجاستون باتى ، صاحب مسرح مونبرناس ، لاقت نجاحاً عظيما فى آخر موسم مسرحى عرفته باريس . وقد أخذ المؤلف فكرتها من قصة دون كيشوت الخالدة ، فقد رسم دون كيشوت فى خياله فيما رسم لنفسه من عالم البطولة والفروسية أميرة جميلة أحبها ، يستلهمها القوة فيما يقدم عليه من أعمال البطولة الخارقة فى سبيل إحقاق عدل شامل على الأرض ، وكتب إليها خطابات يبثها عواطفه وإجلاله . ولكن سانشو تابعه لا يجاوز بهذه الخطابات حدود القرية كما لم تجاوز فتوح دون كيشوت هذه القرية الصغيرة . ترى ماذا تثير هذه الخطابات بسحرها وبلاغتها لو أنها وقعت فى يد فتاة تعسة ، تعمل فى خان على قارعة الطريق عملا يرهقها ، ولا تعرف من الناس إلا أخشن معاملة ، فأوهمها الناس أنها هى المعنية بها ، وأن هناك بطلا خالداً يحبها ويجلها ؟!

حول هذه الفكرة بنى المؤلف مسرحيته . ويسرنا أن نعلن أن جماعة ناشئة من طلاب كلية الآداب وخريجيها سيقدمون هذه المسرحية على مسرح الأوبرا يوم ١٧ مارس سنة ١٩٤٣ . هذه هى الجماعة التى قدمت مسرحية « الكترا » وتبرعت بدخل الحفلة مساعدة للطلبة اليونان الحاربين ، يوم كان العالم أجمع ينظر إلى اليونان فى إعجاب متحمس وهى تدافع عن أرضها . وهى الجماعة التى اختارت أن تكون حفلتها الثانية عدة مسرحيات روسية تحية لروسيا الباسلة ، وتبرعت بدخل هذه الحفلة لصندوق الطلبة بكلية الآداب . وهى تطمع بحفلتها الثالثة أن تجمع مبلغاً كافيا لإنشاء سرير دائم بمستشفى الهلال الأحمر المصرى .

وقد وفقت الجماعة فى إتقان التمثيل رغم حداثة السن وقلة التجارب ، توفيقا لا يقل إن لم يفق توفيقها فى اختيار الأغراض التى من أجلها تتكلف هذا الجهد .

ويجد قراء الثقافة فى العدد السابع عشر من السنة الأولى الذى صدر فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٩ تلخيصاً وافيا للمسرحية ، قد وافتنا به كاتبة الفاضلة من باريس ، على أثر النجاح العظيم الذى لاقته المسرحية هناك فى آخر موسم بيج شاهدته باريس .

تحية إلى غاندى

الوثنى الذى منه يأخذ المؤمنون ... ...
والضعيف الذى له تخضع الجبابرة ... ...
والفرد الأعزل الذى يحارب إمبراطورية مسلحة ...

نكتب هذه الكلمة فى مستهل الأسبوع الثالث والأخير من صيام غاندى . ولسنا ندرى ماذا تكون عليه الحال عندما تصل هذه الكلمة إلى أيدى القراء . ولكنا نسأل الله — سبحانه وتعالى — أن يكون كدأبه مع عباده المؤمنين ، لطيفاً فيما جرت به المقادير .

وصيام غاندى ظاهرة من الظواهر التى انفرد بها هذا الزعيم العظيم فى معالجة شؤون بلاده الحيوية ؛ فهو صاحب سياسة مستقرة هى سياسة « الحب وعدم العنف » ، أو سياسة « المقاومة السلبية » ؛ وهذه السياسة استنبطها غاندى من تعليمات ديانة الهندوكية ، ولن يستطيع أحد فهم هذه الظاهرة — ظاهرة الصيام — دون أن يلم مبدئياً بمعنى المقاومة السلبية كما رسمها غاندى ، ودون أن يعرف أصول الديانة الهندوكية .

فما هى الديانة الهندوكية ؟ ومن ربها ؟ وما تعليماتها ؟ وما هى الأركان التى تقوم عليها ؟ لقد بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ وإقام الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ؛ وصوم رمضان ؛ وحج البيت من استطاع إليه سبيلا .

أما « الهندوكية » فقد بنيت على الإيمان بالله — والإيمان بكتبه المقدسة التى تقول إن غاية الإنسان فى هذه الدنيا هى الحصول على الكمال ؛ وإن الإنسان لن ينال هذه الدرجة الرفيعة إلا عن طريق « الحب » — « والصدق » — « وضبط النفس » — وإن الله خلق الناس طبقات أربع ، ورسم لكل طبقة حدودها وأعمالها — وإن روح الإنسان تعود إلى هذه الدنيا بعد موته لتتقمص جسداً سواه .

وها نحن أولاء نقول كلمة موجزة فى كل ركن من هذه الأركان ، لنمهد بذلك للكلمة التالية التى سنأتى فيها إن شاء الله على بيان لسياسة « المقاومة السلبية » ، وعلى نظرية غاندى فى صيامه .

***

الإيمان بالله :

يقول غاندى إن هناك قوة خفية لا سبيل إلى تعريفها ، هى التى تتولى تسيير كل شىء فى هذه الدنيا ، وإن هذه القوة لا تدركها الأبصار ، ولكن تدركها القلوب التى فى الصدور .

***

الكتب المقدسة :

ليس للهندوكية كتاب مقدس واحد كما هو الحال عند أصحاب الديانات الأخرى ، ولكن لها عدة كتب تحتوى على تعليماتها ومبادئها وعقائدها ؛ ومن تعليمات هذه الكتب أن الإله يتخذ لنفسه صورة مادية فى فترات متباينة من عمر الإنسانية ، هى الفترات التى تضعف فيها روح هذه الإنسانية أمام قوى الشر التى تغزوها وتذلها . وهو إنما يتخذ هذه الصورة المادية لينصر الخير [1] ، وليسدد خطا الناس من جديد نحو أهداف الكمال ؛ فإن من غايات هذه الديانة أن ترتفع بالذين آمنوا بتعليماتها إلى درجة الكمال . وطريق هذا الكمال ينقسم إلى شعب ثلاث ، أولاها : « أهمسا » — أى الحب — وثانيتها : « ساتيا » — أى

(١) كتاب « حياة غاندى » ، للأديب الفاضل الأستاذ فتحى رضوان المحامى .

الصدق . وثالثها : « براهمشاريا » — أى ضبط النفس .

ومبدأ « الحب » الذى تدعو إليه هذه الديانة ، شعاره مقابلة الإساءة بالإحسان ، ومعالجة الحقد بالعطف ، ومداراة العنف بالعفو والرحمة . والقاعدة الأولى التى يقررها هـذا المبدأ هى أن أكبر الكبائر عند الله « إزهاق الروح » ، — روح أى كائن حى — مهما كانت مرتبة هذا الكائن فى سلم الحياة . فالآدميون فى هذا الشأن سواء مع الحيوان ، بل هم سواء مع الحشرات والهوام . والهندوكية التى تنهى عن قتل النفس البشرية تنهى حتى عن قتل العقرب ، ومن مقتضيات ذلك أن يعيش الناس عيشة نباتية ، لا يأكلون اللحوم لأن اللحم ثمرة « القتل » « والذبح » ، وهو ما ينهى عنه هذا الدين ؛ فإن من ينهى عن قتل الأفاعى أولى به أن ينهى عن قتل الطيور والأنعام لينعم الإنسان بجودة لحومها . ولقد عرف من غاندى أنه كان يجلس ويدع الأفاعى الهندية المخوفة التى اشتهرت بشدة بأسها وقوة أسرها تزحف على سيقانه هادئة دون أن تؤذيه أو يؤذيها .

ويقول غاندى : إن الأمر هين معقول بعيد عن السحر والأشعوذة ، وإنما هو الإحساس الذى يضطرب فى نفس الإنسان ، فإذا فزع واختلج ظهرت آثار فزعه على سيماه ، فترجمها الحيوان بأنها علامات التحفز والرغبة فى الدفاع ، فعرف أنه أمام عدو يجب عليه أن يخشاه ، وتستيقظ فيه غريزة حب البقاء ، وتنشب المعركة التى كان من الممكن تفاديها لو استعصم الإنسان بالهدوء وضبط النفس . . . .

دع الزنبار يطن فى حجرتك ويحوم فى جوها دون أن تقوم لمحاربته ومطاردته ، فإنه لا يلبث أن يدور دورة أو دورتين يقترب فيهما نحوك أو يبتعد ، ثم ينطلق من أول نافذة يلقاها فى أثناء تحومه . ومن جعل هذا شعاره مع جميع أجناس الحيوان أمن شرها ، وعاش معها فى سلام .

هـذا على الأقل ما يقوله غاندى ، أما كاتب هـذه السطور فله تجارب خاصة فى دولة الزنابير تدعوه إلى التردد فى اعتناق المذهب الهندوكى بشأنها .

***

نظام الطبقات :

تقسم الديانة الهندوكية الناس إلى طبقات أربع :

« البراهمة » : وهم أهل العلم والحكمة ، ورجال الدين والفقه .

« والكاشتريا » : وهم الجنود ورجال الأمن والإدارة الذين يتولون شؤون الدفاع . ويضمنون للناس الأمن والسلامة .

« والفشيا » : وهم طبقة الزراع الذين يحرثون الأرض ويستنبتون الحب — وإلى هـذه الطبقة ينتمى غاندى .

وأخيراً « الشادورا » ، وهم طبقة العمال والفعلة . ومن بين أفراد هذه الطبقة طائفة : « الناماشادورا » ، أو طائفة « المنبوذين » الأنجاس الذين يقومون بالأعمال القذرة ؛ وقد أعلن غاندى أنه لا يعترف بأن الهندوكية هى التى أوجدت هذه الطائفة الأخيرة ، وأنه لا يؤمن بصحة النصوص التى تسربت إلى الكتب المقدسة ، عندما تتحدث عن هذه الطائفة أو تصف أفرادها .

والديانة الهندوكية ، لا تكتفى بهذا التقسيم ، ولكنها تضع حدوداً صارمة بين كل طبقة وأختها ، فهى تعتبر كل طبقة وحدة مستقلة لا ينبغى أن تختلط فى شىء بأية طبقة من الطبقات الأخرى ، فالبراهمى لا يجوز له أن يؤاكل الفشيوى ، كما لا يجوز لفرد من أفراد طبقة بعينها أن يتزوج من أفراد أية طبقة من الطبقات الأخرى .

وغاندى يؤمن بهذا النظام ، ويدافع عنه بقوله إنه هو الذى يكفل للناس أن يعيشوا على خير حال ، لأنه ينطوى على مبدأ التخصص ، الذى يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله

لله . وإن البرهمي بحكم مولده ينشأ رجل علم وحكمة ، فيكون أوفق الأمور له مقتضى وراثته وتدريبه أن يقدم للناس الحكمة والمعرفة . أما قيود الكلولة والتزاوج فإنها عنوان على ما وصلت إليه الهندوكية من تربية الناس على أقصى ما يستطيعون من درجات ضبط النفس ، فإن الهندوكي بالتزامه الزواج من دائرة محدودة يمارس رياضة نفسية نادرة المثال .

ولكن غاندى لا يشتط في تفسير النصوص ولا يتعسف في تطبيقها ؛ فعنده أن البرهمي الذي يتعالى بعلمه يسقط ، والذي يمسك عن مؤاكلة الطبقات الدنيا زهواً بنفسه ، واحتقاراً لأهل تلك الطبقات ، لا يفهم الهندوكية على حقيقتها . وليس ما يمنع رجلا من رجال الطبقة الرابعة أن يتعلم الحكمة ، ولكن قيامه بالعمل المخصص لأهل طبقته أفيد وأجدى . ويسترسل غاندى في تفسير دينه على ضوء هذا البيان فيقول : إن « العالم » الذي أساء استغلال علمه ، ولم يقدمه للناس ، ولم يتخذه سلماً ترقى عليه أرواحهم ، وتسمو به نفوسهم نحو الكمال المنشود ، ستحل روحه بعد وفاته في جسد « عامل » يعيش في قيود طبقة العمال ، ليطهر نفسه التي خالطها الكبر وأفسدها الزهو — كما أن « العامل » الذي أشربت نفسه روح الرضا ، وعمل على إتقان عمله ، وهو غير متذمر ولا ساخط ، ستحل روحه بعد وفاته في جسد « عالم » يقوم بهداية الناس إلى ما فيه خيرهم ، وينعم بهذه الدرجة الرفيعة التي يعيش فيها « البراهمة » .

* * *

هذه هي أركان الهندوكية ، أو هذه هي خير أركانها ؛ ولكن بقيت بعد ذلك كلمتان في ركنين آخرين ، رأينا إرجاء التحدث عنهما إلى هذه المرحلة من مقالنا ، لما لهما من مكانة خاصة في بنيان الديانة الهندوكية ، ولما يحتاجان إليه من عناية خاصة عند الخوض فيهما — ذانك هما : الهندوكية والأوثان ، ثم الهندوكية والبقرة !

فأما الأوثان فإنها جزء من هذه الديانة ، وركن من أركان عباداتها ، يحمل الهندوكيون أنصابها في احتفالاتهم الدينية ، ويقيمونها في بيوتهم ، ويتبركون بها في صلواتهم — وعلى قدر ما في هذا العمل من سخف ظاهر نجد أن غاندى الذي وسعت نفسه كل شيء ، قد اتسع صدره لهذه الوثنية أيضاً ؛ وكما هو يدافع عن التعاليم ، ويشرح خطته في معاملة المنابير ، نراه يقول عن الوثنية إنها جزء من نفس الإنسان في كل العصور وفي جميع الأديان ، وإن الناس دائماً يجرون وراء الرموز ؛ وهو يذكر الأحجار التي يلمسها أصحاب الديانات الحديثة تبركا وزلفى ، ويقول إن من بين هذه الأحجار ما أقيمت حوله الحواجز لترد عنه الأيدى التي أوشكت أن تبريه ، ولتدفع عنه الشفاه . على أن غاندى يستدرك فيقول : إن الصور والتماثيل إنما تعيننا فقط في عبادتنا ، وإنه لا يوجد هندوكي واحد يعتبر أن الوثن إله ، وليست الأوثان إلا رموزاً تتفق مع عقلية الجماهير وتمهد لهم سبيل التسامى بالنفس والإيمان بالله . وإذا كانت الموسيقى والتماثيل والصور تقرب الإنسان من هذه الغاية ، فلتسخر هذه الوسائل كلها في خدمة الدين — هذا ما يقوله غاندى ، ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا .

* * *

بقيت بعد ذلك — البقرة ....

وإن لها لحديثاً عجباً . فإن الرواة يروون عنها أنها تقع من نفوس بعض الهندوكيين موضع التقديس ، وأن بعض الهندوكيين يطهر بروثها منزله في الصباح ، وأن الفتيات يتخذن من روثها طلاء يتفنن في نقش جدران بيوتهن به ؛ بل إن من الهندوس من يغسل وجهه ببول

منهج فقه اللغة :

٢ – النظم عند الجرجانى

ليس من همى الآن تلمس المنابع التى استقى منها عبد القاهر آراءه ، ولقد كان بينى وبين الأستاذ كراوس حديث عابر أعلن فيه غبطته بالنصوص التى أوردتها لناقدنا العظيم ، وفيها يرى الأستاذ آثاراً لتأثير أفلاطون على التفكير العربى . وأنا وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بنفى رأيه ، إلا أنى كذلك لا أريد أن أجازف فأدعى أن فى العلاقة التى يراها عبد القاهر بين اللفظ والمعنى ما يماثل علاقة الشىء بالمثال عند أفلاطون مثلا . هذه فى الحق أشياء ممكنة لا تحتاج إلى القول بها إلا إلى جرأة عقلية ومهارة فى التخريج ، أنا أميل إلى الحذر منها ، وليس فى ميدان البحث شىء أشق من التنقيب عن المؤثرات العقلية ولا أخطر ، ولكم ظلم الباحثون رجال الفكر بدعواهم الأخذ من هذا أو ذاك فى غير دليل قاطع ، اللهم إلا أن يحتال الباحث نفسه فيقيم أدلة مصطنعة .

وأهم من البحث عن المنابع فى نظرى محاولة الفهم وبخاصة فيما نحن بصدده الآن ، وإن كان يسعدنى أن يتناول الباحثون كل ما يتصل بعبد القاهر ، لأننا نريد أن يفطن المشرفون على التعليم فى بلادنا إلى أنه إن تكن فى تراثنا العربى كتب تصلح لتربية النشء فهى ليست كتب قدامة بل كتب عبد القاهر ، وأنا مؤمن بأنه من الجرم أن يوضع « نقد النثر » أو « نقد الشعر » بين أيدى الطلبة فى التعليم العام . هذا خطل فى الرأى .

غرضى إذن هو محاولة الفهم ، وليس من شك فى أنه من حقنا اليوم أن نعين عبد القاهر نفسه على استيضاح ما أحسه دون أن يستطيع استبانة معالمه ، وما قرأت كتبه إلا أحسست بشفقة تمازج إعجابى العظيم ! ومثله مثل من

البقر تزكية لنفسه وتطهيرا ! ويفسر أصحاب الديانات الأخرى هذه الظواهر بأن الهندوكية تدعو إلى عبادة البقرة . ولكن غاندى يتصدى لهذا الموضوع ويقول إن ما يسميه الناس تقديس البقرة أو عبادتها لا يستحق أن يسمى إلا باسم « حماية البقرة » . وهذه الحماية ليست إلا وجهاً من وجوه تطبيق القاعدة الهندوكية الأولى ، وهى « الحب » و « عدم القتل » . والبقرة بعد ذلك فى الهند خير رفيق للإنسان ، فهى التى تغذيه بلبنها ، وتحرث له أرضه ، وتجر له عجلاته . والبقرة عند جميع الأمم تمتاز بالحنان ، وبها تضرب الأمثال فى الوداعة والتواضع .

« فحماية البقرة » ليست إلا رمزاً من رموز الهندوكية ، نريد به هذه الديانة أن تعلم أبناءها الإشفاق والعطف ؛ وهذه الخصال لا تدخل النفوس عن طريق النصوص ولا الآيات ، وإنما سبيلها إلى النفوس القدوة ، وممارسة هذه الخصال مع كائن من كائنات الله يستحق هذا الإشفاق والحب . فالهندوكى الذى يعذب إخوانه المنبوذين يكون قد قصر فى فهم أحد أركان دينه حين لم يتعلم من حماية البقرة أن يكون بإخوانه رؤوفاً رحيما . ويسترسل غاندى على عادته فى شرح دينه فيقول : إن إنساناً يذبح البقرة لخير عند الله من إنسان لا يذبحها ولكنه لا يخشى الله ويسىء إلى عبادة .

***

هذه هى كلمتنا عن الهندوكية وعقائدها ، نقدمها تحية خالصة إلى غاندى فى محنة صيامه ، ونرجو أن نكون قد مهدنا بها تمهيداً صالحاً للكلمة التالية التى سنتناول فيها إن شاء الله شرح سياسة « المقاومة السلبية » .

حسن جبرل

يتخبط في شجاعة وسط أمواج متلاطمة . وأكبر ظني أننا ما كنا لنستطيع خيرا مما استطاع لولا أن تقدم الزمن وتراكم جهود العلماء، قد وضعنا في وضع خير من وضعه، ولقد كان من سوء حظ الثقافة العربية أن وقف تفكير عبد القاهر عند منبعه، ولو أن مسالكه هيئت إذن لتدفق ذلك النبع الغزير، ولرأيت لنا اليوم نحواً لا يقف عند الإعراب، بل ولا عند بناء الجملة البسيطة، بل يعدوه إلى دراسة الجملة المركبة، ولرأيت إلى جانب النحو بهذا المعنى الخصب الشامل علماً للأساليب « Stylistique » بمعناه التقليدي(١) عند علماء اللسان في أوربا.

ونقطة البدء التي يجب أن نتمسك بها في فهم بل في إيضاح وتنمية إحساس عبد القاهر اللغوي، هي ما ذكرت في مقال سابق من التفريق بين (١) الألفاظ المفردة و (٢) عوامل الصيغة Morphémes ، فهذه الفكرة البسيطة هي خلاصة ما وصل إليه علم اللسان الحديث في تحليل اللغة وفهمها فهماً صحيحاً، وهي كامنة في آراء عبد القاهر كمون النار في الزند، واستخراجها بعد أمر طبيعي لا قسر فيه؛ ولقد سبق أن أوردنا من كلامه ما يثبت في غير لبس أنه ميز تمييزاً واضحاً بين العنصرين.

والمسألة الهامة التي نريد إيضاحها اليوم هي معنى لفظة « عوامل الصيغة » وكيف نرد تفكير عبد القاهر العام إليها، فنماشي بذلك جهود علماء عصرنا ونسير معهم.

يمكن حصر عوامل الصيغة حصراً جامعاً مانعاً، كما يقول الناطقة في ثلاثة أشياء (١) الترتيب (٢) بعض المقاطع الصوتية (٣) الأدوات النحوية.

قلنا إن وظيفة المفردات في رأي عبد القاهر وفي رأي العلماء المعاصرين لا تعدو تحريك الصور الذهنية التي لدينا عن الأشياء والأحداث، ونحن لا نحرك تلك الصور أو نحركها لدينا غيرنا إلا لنخبر بها أو عنها؛ وهذا الإخبار هو المكون للمعاني التي نريد نقلها أو الإيحاء بها إلى الغير؛ وعوامل الصيغة هي التي تعبر عن تلك المعاني، وعوامل الصيغة هي أدوات النظم التي لم يستطع عبد القاهر أن يحددها على نحو ما نستطيع نحن اليوم.

بفضل عوامل الصيغة إذن نعبر عن المعنى الذي نريده وهنا يحسن بنا أن نشير إلى أن المعنى عند عبد القاهر غيره عند ابن قتيبة. فهذا الأخير يقصر مدلول لفظ « معنى » على الآراء، ثم الحكم الأخلاقية؛ وأما الجرجاني فأوسع من ذلك نظراً، فالمعنى عنده قد يكون إحساسا أو مفارقة لطيفة، كما قد يكون رأيا أو نظرة أخلاقية، ومن ثم كانت دراسته للغة دراسة إنسانية شاملة، وإذا كان النظم عنده يدور مع المعنى فإنه بتحليل ذلك النظم إنما يحلل النفس البشرية بمشكلاتها المتعددة الوحدة، يحللها من حيث تتركز في اللغة، وقد ولدت المعاني المختلفة ونجحت في استخدام أدوات النظم استخداماً يكشف عما تضمر تلك النفس، ويضيء ما غمض فيها إن لم يعثر على المفقود في حناياها.

وإذن فدراسة عبد القاهر للنظم هي دراسة لطرق الأداء، وهذه بطبيعتها دراسة تحليلية يراد منها الفهم، ومع ذلك اتخذ منها عبد القاهر وسيلة لكشف السر في الإعجاز، فكيف استطاع ذلك؟ كيف تؤدي بنا الدراسة التحليلية إلى مقاييس نحكم بها على جودة الكلام؟ كيف نجمع بين دراسة تقف عند الصحة وأخرى تمتد إلى الجودة؟ وبعبارة أخرى كيف نتخذ من علمي النحو والمعاني نهجاً واحداً؟

---

(١) أقول « بمعناه التقليدي » لأن العالم السويسري شارل بالي (Ch. Bally) قد أحدث في الدراسات اللغوية حدثاً خطيراً إذ أعطى لفظة (Stylistique) معنى جديداً، وعنده أن « علم الأساليب » هو الذي يبحث عن الطرق التي تحتال بها اللغة للعبارة عن العناصر العاطفية التي لا تؤديها الألفاظ في استعمالاتها العقلية الأصلية. (راجع كتابه الهام، موسوعة في علم الأسلوب الفرنسي في جزءين، أولهما يبسط النظرية العامة، وثانيهما يطبقها على اللغة الفرنسية.
(Traité de Stylistique Française- 2 vol-

الجواب بسيط ، وهو أن عبد القاهر فى « الدلائل » يصدر عن فكرة جامعة ، هى أن الجودة إنما تكون بدقة الأداء ؛ فأنت تقدم وتؤخر وتستأنف ، وأنت تفصل وتصل ، وأنت تسند وتتخير فى طرق الإسناد ترتيبا ونوع لفظ ، وفقا للفارقات التى تريد العبارة عنها فى المعنى الواحد ، أو حرصاً على تلوين المعنى بأحد الألوان النفسية المتباينة تباين أحاسيسنا ؛ وما أظننا واجدين فى كل ما قال هذا المفكر الكبير غير هذه الحقيقة الكلية ، وذلك طبعاً على فرض اقتصارنا على « الدلائل » ، وأما إذا عدوناها إلى « أسرار البلاغة » ، فإننا سنجد عندئذ نظرة أخرى فى الموازنة بين طرق الأداء الحقيقية منها والمجازية . وأنا لا أريد اليوم أن أحاول التوفيق بين الكتابين ، فتلك مشكلة شاقة لا بد من علاجها منفردة ، وإنما أكتفى بالإشارة إليها وهى كامنة فى التعارض المستقر بين نظريتين . نظرية « الدلائل » التى تسلم بأن طرق الأداء تدور مع المعانى ، فالمفاضلة إنما تكون فى نجاح العبارة عما نريد عبارة دقيقة . والعبارات إنما تتنوع تبعاً للدقائق التى نحرص على أدائها ، ومعنى هذا أن المعنى الواحد — كما قال فلوبير — لا يمكن أن يعبر عنه إلا بعبارة واحدة هى تلك التى يجدها الكاتب الكبير . وأما نظرية « الأسرار » فتقوم على افتراض وجود طريقتين للعبارة : طريق الحقيقة ، وطريق المجاز ؛ وعبد القاهر يقول مع غيره : « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلاً ، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة » . وإذن فهناك طرق مجازية ، وهذه من الواضح أنها لا تفيد بدقائق المعانى تقيد طريق الحقيقة ، وأن ميدانها لا حصر له لقيامها على التداعى النفسى الذى لا يمكن أن نكشف جميع أسراره ؛ وهنا يكون ثمة محل للمفاضلة بين الطرق المجازية المختلفة ، لا بين المجاز والحقيقة فحسب ، وهذا كله ينق ذلك النوع من الخبر — الخبر الصادر عن المعنى — الذى يتخذه عبد القاهر أساساً لدراساته فى الدلائل . وفى الحق أن عبد القاهر لم يبلغ من العمق فى « الأسرار » مابلغه فى « الدلائل » ، ويكفى أن نشير إلى أنه لم يفطن فى تفضيل المجاز على الحقيقة إلا إلى الرأى القريب القائل بأن المجاز يوضح المعنى ويؤكده ، وما شاكل ذلك ؛ حتى إذا تحدث عن « المعنى العقلى » و « المعنى التخييلى » لم يعد التفرقة التى فطن إليها الآمدى وعبد العزيز الجرجانى عند ما ميزا بين « المعنى العام المشترك » و « المعنى الخاص » ، وإن يكن لعبد القاهر فى ذلك فضل فإنما هو فى تدعيم تلك التفرقة تدعيما فلسفياً . ولقد يكون فى هذه الحقائق ما يمهد السبيل لحل الإشكال ؛ ولعلنا محاولون ذلك فى مقال آخر .

لننس إذن « الأسرار » مؤقتا ، ولنساير ناقدنا فى تفكيره ، ولنتفق معه على أن الجودة إنما تكون بدقة الأداء دقة تكسب المعنى فضلا ، أو تشحذه فينفذ ، إن لم تلونه بإحساسنا فيصل إلى القلوب ، ولننظر كيف يستخدم النظم أدواته ليصل إلى ما يريد .

أما « الترتيب » فالذى أحرص على لفت النظر فى صدده هو أن عبد القاهر قد أدرك عند دراسته له حقيقة رائعة ، لا يزال علماء اللسان المشتغلون باللغات ذات الإعراب (Flexionnelles) يجدون فى البحث عنها . ولتوضيح ذلك يحسن أن نشير إلى الفرق البين الموجود بين اللغات ذات الإعراب كاليونانية واللاتينية والألمانية والعربية مثلا ، وبين اللغات التى لا إعراب فيها ، أو التى كانت معربة ثم فقدت إعرابها إلى حد كبير ، كالفرنسية والإيطالية والإنجليزية والعبرية مثلا ؛ فى اللغات الأخيرة يستعيض المتكلم أو الكاتب عن الإعراب بالترتيب ، فيضع الفاعل أولا ، ثم يتبعه الفعل ، وأخيراً يضع المفعول دون أن يستطيع تغيير شىء فى ذلك الترتيب وإلا انقلب المعنى . يقول مثلا Ali beats Mohamed ؛ وأما فى اللغات

الأولى ، فالإعراب يعطينا حرية في الترتيب ، فنقول ضرب علي محمداً ، أو ضرب محمداً علي ، أو محمداً ضربه علي ، أو علي ضرب محمداً وهكذا . ولهذا قال علماء اللغة إن الترتيب حر في اللغات ذات الإعراب ، بينما هو مقيد في اللغات الخالية منه ، حتى زعم نحاة العرب أن الترتيب لا يلزم إلا حيث يغمض الإعراب ، فنقول ضرب عيسى موسى ، إذا كان عيسى هو الضارب ولا خيار لنا في غير ذلك . هذه هي النظرية العامة التقليدية ، وأما عبد القاهر ومعه كبار علماء أوربا اليوم ، فإنهم مع تسليمهم بأن الإعراب يحرر اللغات من الترتيب ، إلا أنهم يرفضون أن يسلموا بأن كبار الكتاب في تلك اللغات لم يعطوا القيمة تلك الحرية ، ولم يستفيدوا منها في دقة الأداء عما يريدون ، وهم بذلك يضيقون من حريتهم ، ولكنه ضيق كله سعة لأنه يشرع من العبارة تبعاً لدقائق المعاني . فالأمر إذن ليس فوضى ولا عبثاً أو تحكماً ، وإنما هو حرية خاضعة للضرورات النفسية التي تشف عنها اللغة وتفصح عن أسرارها ، بل إن عبد القاهر ليقر النحاة على ما يرونه من أن الابتداء قد يكون وظيفة نحوية ، وذلك عند ما تبيح أصول اللغة أن تجعل من لفظين أيهما شئت مبتدأ أو مسنداً إليه في نحو قولنا المنطلق زيد ، فإنك إذا غيرت الترتيب فقلت زيد المنطلق انقلب المسند إليه مسنداً بما يستتبع ذلك من حصر أو تعيين .

الترتيب إذن عند عبد القاهر عامل من عوامل الصيغة من حيث إنه يعين الوظيفة النحوية للفظ تعييناً تستعين به اللغة ويستعين به كبار الكتاب لأداء الفارقات الدقيقة التي يعجز عند أدائها الإعراب . وأنا أترك للقارئ مهمة الرجوع إلى « الدلائل » ليطيل النظر في الأمثلة الدالة التي يسوقها المؤلف ويحللها أدق تحليل ، وأكتفي بأن أشير إلى مثل حديث جميل ، فطن إليه صديقي الأستاذ عبد العزيز عتيق في مقال له عن الدكتور أبي شادي ، إذ قال شاعر الاسكندرية :

وبدا الصغير الجدول الجاري كما تجري الطفولة رقة وحنانا

فقدم الصفة « الصغير » على الموصوف « الجدول » ، ورأى عتيق في ذلك جدة لم يسبق إليها أبو شادي ؛ ولقد اتفق أن سأل الشاعر نفسه عن دافعه إلى ذلك فقال : « قدمت الصفة لأنها عندي أهم من الموصوف » ؛ وإذن فالذي رآه الشاعر من الجدول هو صغره ، والشاعر لا ريب صادق فيما قال ، لأن الشطر الثاني يحمل إلى دليلا من دواعي الصور لا يدفع . الصغر هو الطفولة التي تجري رقة . وهكذا تصبح الحرية مصدراً للثروة اللغوية الناطقة بثروة النفس .

وأما العاملان الآخران : المقاطع الصوتية ، والأدوات النحوية ، فمن الواجب أن نميز بينهما أوضح تمييز ؛ فالمقصود بالمقاطع الصوتية كل ما زاد على الكلمة المفردة فيكسبها دلالتها في النظم ، ومن ثم يدخل فيها حركات الإعراب وحروف الإعراب ، وتغير بنية الكلمة بسبب الإعراب كحذف حرف علة أو حذف واو أو ألف أو ياء . . . الخ ، فهذه كلها مقاطع صوتية تثبت أو تحذف ؛ وأما أدوات النحو فهي كل تلك الكلمات التي لا تدل على حدث أو شيء ، وإنما تضاف إلى تلك الألفاظ لتحددها أو تحدد قصداً للمتحدث عنها ؛ هي ما يسميه الأستاذ برينو Brunot « آلات النحو[1] » Outils Grammaticaux

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتاب العالم الكبير فرديناند برينو F. Bruno الفرنسي « اللغة والتفكير » Le language et la pensée وهو كتاب ضخم (أكثر من ١٠٠٠ صفحة) يعرض فيه المؤلف نظرية جديدة في دراسة اللغة جماعها ألا نبدأ بتقسيم الكلام إلى اسم وفعل ... الخ بل نبدأ بإحصاء الأفكار التي نعبر عنها باللغة ، ثم ندرس طرق العبارة عنها سواء كانت تلك الطرق تتكون من أسماء أو أفعال أو غيرها ، وذلك لأنه يرى أن ما نسميه الآن اسماً قد يعبر عن حدث وما نسميه فعلا قد يعبر عن شيء . وهكذا وفي مقدمة كتابه يتحدث حديثاً ممتعاً عن نظرية « التفريغ » التي بفضلها فقدت كثير من الألفاظ دلالتها الأولى وأصبحت مجرد (آلات نحوية) وذلك كالفعل الشكلية avoir في اللغة الفرنسية الذي أصبح في بعض صيغ الفعل لا يدل على التملك في شيء ، وإنما هو آلة نحوية لتكوين إحدى صيغ الماضي ، وكذلك الأمر في الفعل « كان » مثلا في العربية ، فقد أصبح لا يفيد معنى الوجود في شيء ، وإنما هو مجرد رابطة (copula) بين الموضوع والمحمول ، ولعل هذا التفريغ هو المقصود عند نحاة العرب من معنى « الفعل الناقص » .

تاريخ النحو العبرى

يدين اليهود للكنعانيين بلغتهم العبرية ، وللعرب المخضرمين بتذوق هذه اللغة وآدابها ، والمسلمين بوضع الكتب العلمية فى نحوها وصرفها ؛ وذلك أن العبريين هاجروا من شمال الجزيرة العربية حوالى منتصف الألف الثانى ق . م . إلى فلسطين أو أرض كنعان ، فوجدوا فيها شعباً سامياً راقياً ، يتكلم الكنعانية ويكتب فيها ، فلما استقر بالعبريين المقام أخذوا يتركون لغتهم الأصلية التى جاءوا بها ، والتى كانت عبارة عن لهجة آرامية ، ويستعملون مكانها لغة وطنهم الجديد ، شأنهم فى ذلك شأنهم اليوم فى البلاد التى يأوون إليها ، فهم يتكلمون الإنجليزية فى انجلترا وأمريكا ، والفرنسية فى فرنسا ، والألمانية فى ألمانيا ، وهلم جراً ، لكنهم كانوا فيها يفكرون ويكتبون متأثرين بلغتهم الأصلية ، لذلك اصطلح على تسمية هذه اللغة التى أصبحت خاصة بهم « اللغة العبرية » التى ظلوا يتكلمونها حتى القرن الثانى ق . م . فى ذلك القرن اختفت من الحياة العامة ، ورضيت بالمعابد ، وصارت لغة طبقة خاصة من علماء اليهود ، وأخذت تحل محلها لغات أخرى ، منها السامية ومنها الأجنبية ، وأصبح اليهود فى الشام والعراق يتكلمون لغة تزداد مع مرور الزمن فساداً حتى أصبحت قبيل الإسلام عبارة عن خليط من العبرية والكلدانية واليونانية الدارجة التى لا أدب لها .

لكن حدث فى ذلك الوقت أن أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، وقام بعض يهود الجزيرة العربية وألبوا الناس عليه .

وكان من بين هؤلاء اليهود الذين ناصبوا النبى (ص) العداء ، وأجلوا عن قلب الجزيرة بنو قينقاع وبنو النضير ، ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم ، الذين نشأوا فى الجزيرة العربية نشأة تتفق إلى حد ما والخلق العربى والمثل العربية من حيث الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء ، إلى جانب العناية بالفصاحة والبلاغة وقرض الشعر ، بخلاف إخوانهم فى الشام والعراق الذين كانوا يقاسون آلام الاستعمارين البيزنطى والفارسى . ولا أدل على رقى يهود قلب الجزيرة

وفيها يدخل التعريف بأل والتنكير بحذفها ، كما يدخل إبراز الضمائر والموصولات والإشارات وحروف العطف والقصر وما إلى ذلك .

المقاطع الصوتية إذن لا دلالة لها فى ذاتها ، أى مستقلة عن الكلمة التى تتصل بها ، وأما الأدوات النحوية فلها فى الأصل دلالتها الخاصة ، وهى تضاف إلى الألفاظ فتضيف إليها دلالة جديدة .

ولعبد القاهر فى دراسة هذه العوامل نظرات تطبيقية بالغة الدقة ، وفى تلك النظرات تتركز مقدرة الرجل على الإحساس والذوق والملاحظة ، وهو طبعاً لم يتناول الحديث عنها على هذا النحو المذهبى الذى بسطناه ، ولكنك عندما تقرأ كتابه تستطيع بسهولة أن ترجع كل ملاحظاته إلى هذه العوامل الثلاثة التى تحدثنا عنها ، وعندئذ يصبح من السهل أن تربط تفكيره بالتفكير الأوربى الحديث وتصل به إلى نهايته .

النظم عند الجرجانى إذن هو فيصل الإعجاز ، والنظم يكون بإدخال عوامل الصيغة على المفردات ، ولكن هذه العوامل إن استطعنا حصر أنواعها لا نستطيع استقصاء وحداتها ، فكيف نفاضل بين تلك الوحدات ؟ نفاضل بالذوق ونحكم على كل حالة حكماً خاصاً ، وهذا ما سنراه فى المقال التالى .

محمد مندور

من أن دواوين الأدب العربي حفظت لنا كثيرين من شعرائهم أمثال السموءل بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض وغيرهم، الذين يدل نبوغهم في الشعر على سلامة ذوقهم اللغوي، وتأصل العربية والطباع العربية فيهم، وقد نقلوها إلى إخوانهم في العراق والشام؛ لذلك لم يكد يمضي نصف قرن على فتح المسلمين لتلك البلاد حتى أصبح اليهودي يجيد العربية قراءة وكتابة. ولم يقف أثر المسلمين عند هذا الحد، بل نجدهم يحولون اهتمام اليهود إلى كتابهم المقدس ليجادلوا من يجادلهم من ناحية، وليحافظوا عليه من التغيير والتبديل من ناحية أخرى، فضبطوه بالحركات كما ضبط المسلمون القرآن الكريم. وكانت النتيجة المحتومة لانتشار معرفة اللغة العربية ودراستها، وفهم الكتاب المقدس والعناية به، أن ولد شعر عبري حديث انصرف صاحبه إلى فنون أخرى غير فنون الشعر العربي، التي كانت تتجلى في ذلك العصر في مدح السيف والفروسية والحب، ورثاء المجد الغابر، وهجاء الخصم الذي لا يستطيع الشاعر قتله أو الوصول إليه، بينما يتغنى الشاعر العبري بمديح الله ورثاء الأمة العبرية؛ ومن ثم تغنى فنظم للكنيس كثيراً من الشعر الديني الذي يستخدم في العبادة، ومع مرور الزمن وكثرة تأثر هؤلاء الشعراء بالعرب والعربية، أدخلوا القافية في شعرهم بعد أن كان غير مقفى.

رأينا من هذا العرض الموجز كيف أن اليهود العرب كانوا رسل العقلية العربية والآداب العربية إلى العراق والشام، ورأينا أيضاً كيف أن الإسلام بعث الثقافة العبرية من جديد، بعد أن ماتت واندثرت ولم يتركها تنمو لوحدها، بل أخذ يطعمها بحيوية جديدة، حيوية فتية شابة نلمس أثرها لا في الحضارة اليهودية التي أينعت في أحضان الإسلام في العصور الوسطى فحسب، بل في فلسفة اليهود وآدابهم ولغتهم ونقودهم. فالتاريخ يحدثنا أن اليهود لم يكتبوا كتباً علمية في قواعد لغتهم إلا بعد أن تلمذوا للعرب، وبعد أن نشأوا في مهد الثقافة الإسلامية نشأة مكنتهم من فهم العلوم العربية على اختلاف أنواعها؛ ففي أواخر القرن التاسع والنصف الأول من العاشر الميلادي ظهر (سعديا) (٨٩٢ — ٩٤٢) وهو سعيد بن يوسف الفيومي فيلسوف اليهود في القرن العاشر، فقد تأثر سعديا هذا لا بالعلوم اللغوية العربية فقط، بل بالعلوم الدينية الاسلامية أيضاً، وتشربت روحه بمذهب المعتزلة، حتى إنه استعان به عند معالجته للديانة اليهودية، ويطلق عليه نحوي اليهود، (أبا النحو العبري)؛ فقد وضع مؤلفاً يقع في اثنى عشر كتاباً يسمى (كتب اللغة) وهو يعتبر أول مؤلف منظم في قواعد اللغة العبرية، ويا للأسف ضاع معظمه، وقد عالج فيه الأبجدية وخواص الحروف الحلقية وإبدال الحروف وإدغامها، وتصريف الأفعال، كما عالج الأسماء والحروف، وقد وضع كتباً أخرى بالعربية والعبرية، لسنا في حاجة إلى الإشارة إليها هنا؛ ونكتفي بذكر مؤلفه العظيم (أجرون) أي (معجم لغوي)، فقد قسم فيه الكلمة إلى (أصل) و (زيادة)، أو بمعنى آخر إلى أصل وعلامة إعراب، وقد أورد فيه قائمة تشتمل على تسعين كلمة عبرية وآرامية نادرة الوجود في العهد القديم، فلفت بذلك النظر إلى وجوب العناية بالدراسة المقارنة التي عالجها في نفس الوقت (يهوذا ابن قريش)، الذي ولد في شمال غربي أفريقيا. وغير سعديا ويهوذا نجد أمثال (مناحم بن سروق) اليهودي الأسباني (حوالي عام ٩٦٠)؛ و(دونش بن لبراط) تلميذ سعديا، وقد ولد في مدينة (فاس)، وهو يعتبر أول من قسم الفعل العبري إلى خفيف (مجرد) وثقيل (مزيد)، كما أنه استخدم معلوماته في اللغة العربية وطبقها على العبرية وخاصة العروض، واستعان باللغة العربية لفهم الكتاب المقدس، فقارن بين اللغتين، واستشهد على وجوب العناية باللغات السامية

يذكر قائمة تشتمل على مائة وسبعين كلمة من الكتاب المقدس لن تفهم إلا عن طريق اللغة العربية .

ومن الشخصيات الأخرى التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ النحو العبري (يهودا بن داود) الملقب (حَيّوج) ، فقد اهتم هذا النحوي أولا باللغة العربية اهتماما عظيما يرجع إليه الفضل فيما وصل إليه من نتائج خاصة ، عند ما عرض للأفعال ذات الحروف اللينة أو اللفيفة المقرونة . وقد مهدت مؤلفاته وما كتبه المتقدمون من عرب وعبريين إلى ظهور العلامة أبي الوليد مروان بن جناح في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ؛ وقد عرض مروان هنا إلى ما ألفه (حَيّوج) ونقحه ، كما أنه ألف كتابه المشهور (التنقيح) ، وهو يقع في جزءين ، الأول في القواعد واسمه : (كتاب اللمع) ، والثاني عبارة عن معجم لغوي أسماه : (كتاب الأصول) ، سلك في تأليفه نفس الطريق الذي سلكه نحويو اللغة العربية . ويعتبر كتابه من أحسن الكتب التي وصلتنا في قواعد اللغة العبرية . وإذا استثنينا (مناحم) و (دوناش) ، فكل علماء أسبانيا ألفوا باللغة العربية ، لذلك بقيت مؤلفاتهم غير معروفة لدى يهود أوربا القاطنين خارج البلاد الإسلامية ، حتى ظهرت شخصية (إبراهام بن عزرا) المتوفى عام ١١٦٧ م ، فألف ثمانية كتب باللغة العبرية ، عرف بواسطتها يهود العالم المسيحي مؤلفات أمثال حيوج ومن جاءوا بعده . وإلى جانب ابن عزرا قام يهودي أسباني آخر اسمه (يوسف بن اسحق قمحي) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وخلفه ابناه موسى وداود قمحي ؛ وإن كانا لم يأتيا بجديد فيما كتباه عن النحو العبري ، إلا أنهما يعتبران خير من ظهر في القرن الثالث عشر ، كما أن كتبهما تعتبر أحسن مما ألف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . أما القرن السادس عشر ، فيعتبر الحد الفاصل في تاريخ النحو العبري ، فقد كان ذلك العلم حتى ذلك الحين وقفاً على اليهود لم ينازعهم فيه منازع حتى ظهرت حركة إحياء العلوم في أوربا ، وقربت بين اليهود والمسيحيين ، فأقدم الأخيرون على دراسة اللغة العبرية للعلم والعلم فقط ، ولفهم الكتاب المقدس فهماً علمياً صحيحاً على ضوء حركة الإصلاح الديني التي أخذت تظهر في أوربا في ذلك القرن . وظهرت بوادر هذا الاهتمام في مؤلفات أمثال (يوحنا رويشلين) الذي ألف كتاباً في قواعد اللغة العبرية عام ١٥٠٦ م . وقد ترك هذا الكتاب الذي وضع باللاتينية أثراً بعيداً في الجامعات الألمانية ، فأفسحت لهذه اللغة صدرها ، وأولتها عنايتها . وبعد موت (رويشلين) عام ١٥٢٢ ، ظهر في ألمانيا عالم يهودي يدعى (إليا لفيتا) ، وقد بذل مجهوداً كبيراً في سبيل نشر هذه اللغة حتى توفي عام ١٥٤٩

مضى القرنان السادس عشر والسابع عشر ، ولم يظهر فيهما من المؤلفات ما يستحق الذكر ، بخلاف القرن الثامن عشر الذي ظهر فيه اتجاه جديد ، وهو دراسة اللغة العبرية دراسة مقارنة ؛ وقد حمل لواء تلك النهضة المدرسة الهولندية ، وعلى رأسها (البرت شولتنز) المتوفى عام ١٧٥٠ و (شرودر) الذي فارق الحياة عام ١٧٩٨ . أما العبرية كما تدرس اليوم في الجامعات العالمية ، فإنها تدين في تطورها للمستشرق الألماني (وليم جيزنيوس) (٣ فبراير ١٧٨٦ — ٢٣ أكتوبر ١٨٤٢) ، فقد نشر عام ١٨١٣ كتابه المشهور في قواعدها ، ولا أدل على النجاح الذي صادفه من أن العلماء الألمان أعادوا طبعه تسعاً وعشرين مرة ، وآخر طبعة حاول إخراجها الأستاذ (برجشترسر) عام ١٩١٨ .

وغير هذا العالم المسيحي نجد في ألمانيا أن زعماء هذه المادة مثل (أفالد) و (الهورن) و (شتادة) و (كاله) و (بروكمان) ، كلهم من المسيحيين ، ويعتبر (كاله) زعيم علماء النحو العبري في قرننا هذا .

دكتور فؤاد حسنين

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىَّ تبعته وحدى ... ... "

ضحايا ! — سفراء الفن !

ضحايا !

أقبل « النائب المحترم » على سكرتير الوزير وفى وجهه أمارات الإعياء والجهد ، فما هو إلا أن وجد كرسياً خالياً إلى جانبه حتى انحط عليه . أرأيتَ إلى السائر المجهود فى الفلاة قد آده ما يحمل وناء به فرماه عن كتفيه لا يعنيه إلا أن يتخفف من ثقله ؟ كذلك انحطَّ النائب المحترم على كرسيه ، أو قُل : رمَى نفسه ! ...

... وراحتْ يدُ النائب المحترم تُعبِّث فى جيب معطفه ثم خرجتْ وفيها قبضة من بطاقات وأوراق ورسائل ؛ ومضى النائب يبسط كل أولئك تحت عينيه وهو يخافت بكلماتٍ لا تكاد تسمعها أذن ؛ وأجابه سكرتير الوزير إلى ما طلب ، ونهض يستأذن له فى المقابلة ...

وأخذ الرجل يتهيأ لمقابلة الوزير ويُعد مطالبه ووسائله : هذا الرجاء ، ثم هذه الرسالة ، ثم تلك المطلب ، ثم تلك البطاقة ، ثم ... ألا تنتهى هـذه المطالب ؟ ... واستوقفته رسالة فمضى يقرؤها على رويّة ، إنها طبيبةٌ من « بنات الدائرة » ، وإن لأبيها عليه يداً ، وقد كتبتْ إليه تستعينه على نقلها إلى « مستوصف » القرية ؛ إنها أولى من غيرها بأن تعيش حيث وُلِدتْ ! ...

« بلى ، إنه لحقُّها ! » .

هكذا قال النائب المحترم لنفسه وهو ماضٍ فى ترتيب أوراقه ... ، وظفر برسالة أخرى ، وراح يقرؤها كذلك ؛ إنهـا من صديقه فلان يُعلمه أنه قد تزوّج ... وابتسم النائب ، لقد كان يعنيه أن يعرف ذلك من قبل ، ليقدّم إليه التهنئة فى موعدها ؛ ثم ماذا ؟ ... ثم هو يرجو النائب المحترم بما لَه عليه من حق ، أن يكون شفيعَه إلى الوزير أن يحول دون نقل زوجته من القرية ، « لأن بعض ذوى الأغراض يعملون لإبعادها ! » . هكذا يقول فى رسالته ؛ وابتسم النائب ثانية ، إنه مطلبٌ عادل ، وإنه لسعيدٌ بأن يكون شفيعاً لإجابته ؛ ليس من العدل أن يُفَرِّق بين المرء وزوجه ! ...

... وأذن له الوزيرُ أن يدخل ، فأخذ طريقه إلى الباب وخطا خطوتين ، واعترض طريقَه « ناخب » ، ووقف النائب المحترم برهةً يستمع إلى شكاته ، وضمَّ ورقةً إلى ورقات ، واستأنف سيره إلى غرفة الوزير ...

وقال « الناخب » يحدِّث جاره فى قاعة الانتظار بمكتب الوزير : أليس هذا من توفيق الله ؟ ... لم أكن موقناً أنه هنا ولكنى خمَّنْتُ ، فقد عرفتُ موعد مقابلات الوزير وعرفتُ صلتَه به وحرصَه على لقائه فى كل موعد مقابلة ؛ فقدَّرتُ أنى سأراه هنا الساعة ، وقد لقيتُه !

وابتسم جاره وهو يقول : يا بختك ! ... أما أنا فإنى هنا على موعد محدَّد ، ولكن « النائب » قد أخلف موعده !

وأجابه محدِّثه وما تزال الابتسامة ترفُّ على شفتيه منذ اعترض خُطا « النائب » على باب الوزير : لا بد أنْ سيحضر ، أو لعل أحداً اعترض طريقَه فتأخر !

... وفى الغرفة القريبة كان « النـائب المحترم » فى كرسيه على مقربة من الوزير تمدُّ يده إليه بورقات ، وقد ازدحمتْ على لسانه الأمانىُّ فلم يعبِّر ، فضحك الوزيرُ ضحكةً وهو يقدِّم إليه سيجارة ويتناول الورقات من يده ، ثم نظر فيها نظرة وقال وما يزال يبسم له : ولكنها مطالب عِدة ، فهل يرضيك أن أجيب منها خمسين من مائة .

وبدتْ أمارات الرضـا صريحة على وجه « النائب المحترم » ، وقال وهو يتهيأ للنهوض : « شكراً ، ذاك أملى فى مروءتك ! »

وصَدَقَه الوزيرُ ما وَعَد وأجاب له خمسين من مائة ولم ينظر في مطلب واحد من مطالبه الثلاثة !!

ومضت أسابيع وعاد « النائب المحترم » يسعى : « ماذا صنعتَ لي يا معالي الوزير ؟ » .

وأجاب الوزير وهو يضحك ضحكته ويقدم إليه السيجارة : « لقد أنجزتُ ما وعدتُك ! » .

— « ولكنك لم تنقل فلاناً إلى مستوصف القرية ! » .

— « وأجبتُك إلى ما طلبتَ فلم أنقل فلاناً الآخر من مستوصف القرية ! » .

وكرر النائب عبارته المأثورة : « شكراً ، ذلك أملي في مروءتك ! » .

ولقيه « الناخب المنتظر » بالباب يسأله وفي عينيه القلق : « ماذا صنعتَ لي ؟ » .

وأجابه « النائب المحترم » وفي عينيه الحيرة : « صبرك ، لقد أجابني الوزير إلى نصف ما طلبتُ ولا بد أن يجيب لي ما بقي ! » .

وقال الرجل الذي كان يجالسه في قاعة الانتظار ، يهمس لنفسه : هذا نائب جديرٌ بثقة ناخبيه ؛ أما « النائب » الذي يعِد ويخلف ... !

* * *

حضرتُ طرفاً من هذا الحوار بين النائب ونفسه ، وبينه وبين ناخبيه ، وبينه وبين الوزير ؛ وسمعتُ ما يهمس به آلاف « الناخبين » في قاعات الانتظار بمكاتب الوزراء ، وما يتندَّرون بحكايته في مجالس السمر ، فسألتُ نفسي سؤالاً لم أظفر بجوابه بعد ... ...

... ولم أزل مع ذلك أقرأ في كل أسبوع العبارةَ الآتية في صحيفة من الصحف :

« معالي الوزير يكرر الرجاء لزائريه أن يراعوا المواعيد المحددة لمقابلاته .. .. ، ويعتذر من عدم استطاعته مقابلة أحد منهم في غير هذه المواعيد ! » .

لماذا هذا ؟

أجاب سكرتير الوزير : « ليخلوَ الوزيرُ لعمله فلا يشغله عن واجبه هؤلاء الزائرون ! » .

وأجاب نائب : « ليؤذِنَ الوزيرُ الناسَ باليوم الذي يحتشدون لي فيه بالباب ويأخذون عليَّ كلَّ سبيل فلا أخلُص إلى عمل ولا أخلُد إلى راحة ! » .

وقال ناخب : « ليبيِّن الوزيرُ لكل نائب أن يتوارى عن ناخبيه في اليوم المحدود للمقابلة ويظلَّ في سائر أيام الأسبوع ! » .

وقالت لي نفسي ... ... ولكن الغيب من أمرهم نفسُه !

سفراء العلم !

قلت لصديق فلان وأنا أودِّعه في سَفْرته البعيدة إلى حيث يؤدي واجبه العلمي في القطر الشقيق :

كن مصرياً هناك كما ينبغي أن يكون المصري ، لستَ أنتَ اليومَ فلاناً الذي أعرفه بمحاسنه وعيوبه ، ولكنك هناك عنوانٌ لبلادك ؛ سيقول أبناء عمومتنا هناك حين يستقبلونك : هذا رجلٌ من مصر ! وسيبقى هذا اسمك ما دمت فيهم : « رجلٌ من مصر » ؛ فانظر ما تريد أن يكون عليه « رجل من مصر » في بلد لعل أهله لا يعرفون عن مصر على صلة الجوار ولحمة النسب ووشائج القربى إلا ما عرفوا عن « فلان » الذي كان هناك فعاد وماله محمدة تُذكر ولا مأثرة تُشكر !

إنهم ليتحدثون عنا كثيراً يا صديقي منذ بدأتْ بعثاتنا العلمية إلى بلادهم ، وكانوا من قبلُ يعرفون عنا كثيراً ؛ وكانوا يؤمنون بمصر إيماناً لم يلبثوا أن كفروا به ، فهل تراك مستطيعاً بجهادك ودأبك ودقة مسلكك أن تردهم إلى الإيمان بالأخوة المقدسة بيننا وبينهم ، وأن تحملهم على تقدير « رجل من مصر » ؟

هكذا قلت لصديق وإن القطار ليوشك أن يمضى به إلى حيث لا أهل ولا زوج ولا ولد، وليس إلا هو وعمله!

وقرأتُ الحيرةَ فى عينى صـديق وعضّ على شفته، وكأنما أذكرُه شيئاً لا يعبر عنه لسان، فزوى ما بين عينيه قليلا وصمت، ثم صوّب إلىّ نظرته وهمّ أن يجيب حين صفر القطار وازدحم المودّعون على النافذة...

وجاءتنى منه أمس الرسالة التالية:

«... وحدّثتنى يوم سفرى، فهل كنت تعرف من وراء الغيب ما أنا فيه الساعة؟ لا يذهبنّ بك الفكرُ مذاهبه، فإنما أنا صحيح معافى، وكل ما حولى جميلٌ رائع؛ وكنتُ خليقاً بأن أكون سعيداً بما حولى لولا أن أذكر حديثك فأشعر بما علىّ من تبعات لا قِبَل لى بها!

«أتعرف ما يتهامسون به هنا عنا نحن المصريين؟ لشد ما يؤلمنى أن أقصّ عليك، ومع ذلك فإن لهم عذراً مما يظنون بنا، وليس لنا أن نلوم إلا أنفسنا؛ هذه الدار المتداعية كان يسكنها فلان المصرى، وهـذا المطعم الرخيص كان يتناول فيه طعامه، وفى هذا المشرب العامى كان سامره، ولم يكن مع ذلك يملك فى خزانة كتبه كتاباً واحـداً يصحبه فى رحلته وكان كل علمه إجازة... وفلانٌ هذا قد لا تعرفه أنت وربما لم تسمع باسمه من قبل، ولكنه هنا كان «رجلاً من مصر» كما تريد أن تسميه؛ على أنه لم يكن وحده على ما وصفتُ لك، فقد كانت هذه صفةَ كل «رجل من مصر» هبط هذه البلاد، وأخشى أن تصير هذه أيضاً صفتى فيما يتهامس به الناس...

«لا تستبق الحكم، فما تغيّر خلقى عما تعهد، ولكن من أين لى؟...

«لقد شهدتُ فى الأسبوع الأول من الحفاوة والتكريم ما لم يكن لى فى ظن ولا توهُّم، وما تزال دعوات الداعين تسعى إلىّ، ولكن أذنى قد بدأت تتفتح لهمسات الناس، وما أريد أن يقال عنى ما قيل عن سلفى... لا بد أن ألبّى هذه الدعوات جميعاً، وأن يكون جوابها أحسنَ منها... أفهمتَ أم لم تفهم بعد؟... أتراهم على حق حين يسمون نداء «مرتزقة»، أم أين أجد الوسيلة؟... لى عذرٌ أعرفه وتعرفه؛ فمن أين لهؤلاء الإخوان أن يعرفوه، ومن أين لحكومتنا؟... وهل ترى الحكومةَ تستمع لشكواى إن شكوتُ إلا حسبتنى كما يحسبوننى «مرتزقاً» يلتمس أسبابه؟

«ذلك بعض شأنى اليوم وما أفكر فيه، ولعلك كنت تطمع أن تسمع منى حديثاً غيره فى أول رسالة إليك بعد سفرى؛ ولكنى أذكر حديثَك الساعة وما أوصيتَنى به، وأذكر معه أنك لم تحدثنى هـذا الحديث ولم توصنى هذه الوصية إلا وفى نفسك أثرٌ مما كنا نسمع معاً عن سيرة إخواننا الذين سبقونى إلى هذه البلاد وعادوا، أثرٌ مما كنتَ تُنكر من طباعهم وأُنكر؛ فاليوم أعرف بالتجربة القاسية ما كان عذرهم وأرثى لهم... وأرثى لنفسى؛ فمعذرة إليك!»

* * *

هذه رسالة صديق كما بلغتنى، فياليتنى أملك أن أقول وأن أفعل، ولكن صديق لم يدع لى بعده ما أقوله؛ فلتكن رسالته المنشورة معذرتَه؛ وليس ما يعنينى منها هو شأن صديقى الذى أحرص عليه؛ ولكن الذى يعنينى هو شأن «رجل من مصر»، جعلتْه الحكومة عنواناً لبلاده تتقطع به الأسباب؛ ومصر فى أول الطريق إلى التعاون الثقافى بينها وبين شقيقاتها، فأنى تريد أن تبلغ إن لم تتوفر لمبعوثيها فى تلك البلاد أسبابُ الكرامة، والمال عصب الكرامة؟

إن لمصر فى كل بلد ممثلا سياسياً واحداً، وإنها لتهيئ له كثيراً من أسباب الرفاهية والجاه؛ فهل يغنى ذلك غناءً وممثلوها الثقافيون — وهم أقرب إلى الناس، وأصدق شهادة فى محكمة الرأى العام — لا يجدون سبباً ولا وسيلة؟

ليس هنا موظف ووظيفة، ولكن هنا سمعة مصر التى نحرص عليها ويهون أن نبذل لها ما لا يهون؛ أو نرجئ كل ذلك إلى أوانه!

«قاف»

قضية شهر زاد :

فى القصر المسحور

تكون الصدفة أحياناً سبباً للنتائج الخطيرة . هذا أمر مسلم به قد عرفته الانسانية فى أقدم عصورها كما عرفته فى عصرها الحديث ؛ ويلذ للناس أن يتحدثوا بهذا المعنى ويتفكهوا به أحياناً ، ولهم العذر كله فى ذلك ، فقد تكون للصدفة آثار لو تتبعها العقل بمنطقه لوجد فيها كثيراً من وجوه العجب والفكاهة . قال قوم فى مثل هذا التفكه فى الحديث : إنه لولا أن الصدفة جمعت بين أنطون وكليوبترة لكان تاريخ العالم كله قد اتجه وجهة غير وجهته ، ولما حدثت أمور قد حدثت ، ولاستحال وقوع أمور أخرى قد جرت . ويبالغ بعضهم فى التفكه فيقولون : لو أن الصدفة جعلت أنف كليوبترة أطول قليلا مما كانت لجرت الحوادث فى مجرى غير الذى اتجهت إليه .

ولو شئنا أن نضرب الأمثال على الصدفة وأثرها وما تفتحه الأحاديث عنها من صنوف التندر والفكاهة ، لطال بنا القول وتشعب . وقصارى ما نرمى إليه من كل هذا أن الصدفة قد جمعت يوماً من الأيام بين الأديبين الجليلين الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم فى فصل من فصول الصيف فى إقليم الجبل بفرنسا ، كما يفعل المصريون جميعاً من سادة هذا الناس ؛ وكان لهذه الصدفة من الأثر ما يمكن أن يذهب معه الخيال مذاهب شتى ، فإنهما منذ اجتمعا خلا لهما الجو ، وأتيا بشيء يشبه أن يكون أعجوبة من الأعاجيب الأدبية ، إذ ألفا معا كتاباً أو قصة تحمل اسميهما جنباً إلى جنب ، وهى قصة « القصر المسحور » ، فكانا فيما نعلم أول أديبين أنتجا قصة واحدة فى بيئة واحدة مجتمعين ، وصورا صورة واحدة بريشتين مختلفتين ، ولكنها مع ذلك كانت تحفة منسجمة لا يبصر فيها القارئ موضعاً يظهر فيه نفور فى الفكرة أو اضطراب فى التصوير ، بل يرى فيها قطعة فنية محكمة لا يدرى كيف اتفقت فيها اللكتان ، ولا كيف اطمأن فيها الأسلوبان .

ومهما يكن من الأمر فقد كان هذا وحدث فعلا ، ولا حاجة بنا إلى التماس أسبابه ولا تحليل كنهه ، فإنما هى الصدفة تأتى بالمعجزات ، وعلينا أن نراها ولا نزيد على أن نتعجب . ونحن إذا دققنا النظر لم نجد فى ذلك إلا أمراً يراه أهل المنطق طبيعياً ، فكل ما هو موجود يعتبر فى نظر الناطقة طبيعياً . هذه القصة العجيبة فى خلقها ، كانت بغير شك فى نظرنا من أجمل ما قرأناه فى أدبنا العربى ، فهى خيال منسجم واضح يعبر عن فكرة رائعة ، وينتقل بالقارئ من منظر رائع إلى حديث شهى إلى رأى سديد ، ويسود عليها جميعاً روح وديع من المرح العذب الهادئ ، كأنما تسرى فيها نسائم الجبل فى آصال الصيف . ولكن هذا الفن الرائع ليس هو الذى نقصد إلى التحدث عنه فى هذه الكلمة ، وإنما نريد أن نتحدث عما فى القصة من معان متصلة بالأديبين المؤلفين ، ومعان أخرى متصلة بقضية شهر زاد ، وبالمبادئ التى رسمت فيها للأدباء عامة .

تحدث طه فى هذه القصة عن توفيق وصور له صورة من أحب ما صور به الأديب صاحبه الأديب ، فهذا هو توفيق يملأ الجو حوله مرحا ، وقد يملؤه أحياناً فكاهة ، يطلع أحياناً بخواطره العجيبة يسوقها فى صوت تملؤه حماسة تشبه حماسة الطفولة البريئة ، وينظر إلى العالم وما فيه نظرات ساذجة هى فى حقيقتها عميقة معقدة . وهذا هو طه نرى ابتسامته العاطفة ، ونحس جيشان نفسه بالعطف والمحبة ، وشوقه إلى لقاء صديقه والائتناس به ، وطلب الراحة فى صحبته . حقاً إن توفيقا يستطيع أحياناً أن يكون عنيداً ، وقد يبلغ به العناد أن يحملق بعينيه الواسعتين ، وأن يثبت

رجليه ومضاء في الأرض أو يخبط بها أديمها غاضباً ، وقد يحرن كما يحرن الفرس الأصيل ، وقد يُحَمْحِم أحياناً ، ويرفع صوته مهاجماً ، ولكنه مع كل هذا لا يستطيع أن يثير كراهة ولا عداوة ، بل قد يزيد العطف عليه والحب له من أجل ثورته وعناده ؛ وقد كان هذا على الأقل ما أحسه الدكتور طه نحوه مع كل عناده وجموحه . أليست هذه صورة بديعة يصورها الأديب لصديقه الأديب الذي يحبه في ذات الأدب ، ويجد متعة نفسه في حديثه ومشاركته الجد واللهو ؟ ألا تذهب مثل هذه الصورة بكثير مما آلم نفوسنا من عداوات الأدباء ومشاحناتهم ومهاجاتهم ومنافساتهم ؟ لاشك في أن الأفق الأسمى يستطيع أن يجمع أهل الأدب على المواقف التي تجدر بشرف الأدب والأدباء ....

ولم يكن هذا الوصف البديع هو كل مابعثته المودة بين الأديبين ، فإن القصة كلها مع تنوع صورها ولطف خيالها وبراعة أسلوبها ترمي إلى غاية لا تخفى على قارئ عند أول قراءة لها ، فقد قصد بها طه أن تكون دفاعاً عن صديقه توفيق وانتصاراً له ، وإشادة بفضله في تأليف (شهر زاد) .

كان القراء قد قابلوا قصة (شهر زاد) بكثير من الاضطراب ؛ فلم يستطع الكثيرون منهم أن يقبلوا الشخصية الجديدة التي خلقها لهم توفيق في شهر زاده . وقد كان هذا ما شعرنا به نحن عند قراءتها المرات الثلاث الأول . كانت شهرزاد التي يعرفها الأدباء في ألف ليلة وليلة امرأة ذكية فاضلة ، فيها شجاعة وكرم ، وفيها تقى وحكمة فرأوا الحكيم يمسخها امرأة باردة غامضة لعوباً فاجرة . وكان شهريار الذي يعرفونه ملكاً عسوفاً سفاكاً مخيفاً ثاراً يفهم الناس سر عسفه وثورته ، وقد يعطفون عليه من أجل ذلك كله عطفاً عظيماً ؛ فقد كان من قبل ملكاً عادلاً كريماً وديعاً ، حتى رأى خيانة زوجه فامتلأ قلبه حقداً على النساء جميعاً .

وهل من عجب في أن ينقلب مثله وهو في سلطانه ومجده فيكون ذا سطوة في الانتقام الهائل المائج ؟ ولكن شهريار الذي بعثه الحكيم كان رجلاً خفيفاً متقلباً غير موفق ، يندفع إلى مواطن لا يندفع إليها الملوك ، ويصير أمره إلى أن يكون مثلاً للرجل الساقط النذل الذي لا يعرف كرامة الملوك ولا شرف الرجال . فكان لمن أنكر من القراء كل العذر في أن ينكر ، ولمن كره منهم كل العذر في أن يكره .

ولا شك في أن طه فهم من شهرزاد الحكيم ما فهم سواه من الأدباء ، ثم لاشك في أنه قد تعمق في الفهم فأدرك منها أكثر مما فهمه الكثيرون . لا شك في أنه أدرك ما يمكن أن يكمن تحت شخوصها من رموز ومعان خفية ، ولكنه لم يقف للناس ليقول لهم ما فهم أو يدافع عن صاحبه بإبراز ما يقصده من قصته ، بل ضرب بكل ذلك عرض الأفق ، ووقف إلى جنب صديقه يقول للناس أن ليس لهم أن يؤاخذوا ولا أن ينكروا ، فإن الأديب في رأيه غير مسئول عن شيء إلا أن يطلب السمو والكمال الفني . لقد تكلف طه في سبيل هذا الصديق شيئاً كثيراً ، فإنه نقل شهر زاد من أجله إلى فرنسا وجعلها تقيم في (قصرها المسحور) في جبال (الفوج) ، ثم ما زال بالملكة حتى جعلها ترضى عن توفيق وكانت غاضبة عليه فيمن غضب عليه من أجل تشويهه لصورتها ، ثم حملها بإلحاحه على أن تقبله سميراً لها ، مع أن ذلك الصديق كان عنيداً فلم يرض بذلك الحظ السعيد ، وتحمل في سبيل عناده مشقة عظمى ، وحمّل صديقه طه مشقة مثلها عظمى من أجله . ثم لم يقنع الدكتور بهذا كله ، بل حرك الدنيا وأقامها وأقعدها حتى عقد لصديقه محكمة فذة ، وحشد فيها جمعاً خطيراً من ملوك ووزراء وحاشية وجعل الزمان قاضياً فيها ، وما زال حتى أنطق الزمان بحكمه الذي يقضي ببراءة توفيق من كل جرم ، لأنه أديب مجتهد يسلك السبيل إلى الكمال .

حقاً لقد كان طه صديقاً محباً ، وهو رجل إذا أحب لم يقف شيء في سبيل حبه . ولكن ... ولكنا نحن معشر الناس لم نحب توفيقا بعد مثل ذلك الحب العظيم ، وإن كنا نحبه حقاً ، ولهذا لا نستطيع إلا أن نقول ما يبدو لنا نحن . لقد أنطق طه لسان الزمان قبل أن ينطق ، وليست لنا مثل هذه القدرة على إنطاق الزمان ، فلا نملك إلا أن ننكر إذا أنكرنا ، وأن نناقش إذا لم نفهم ، وأن نقف في الحكم عندما نفهم من معناه ؛ ولا نستطيع فوق ذلك أن نملك أنفسنا من مؤاخذة الأديب غير معتذرين عنه بأنه يقصد إلى الكمال ، فنحن نريد الأديب لأنفسنا ولعقولنا ولحياتنا لا لكي يسيطر علينا ويبني لنفسه ولفنه منقطعاً عنا ؛ فإذا فهمنا منه ما أعجبنا دافعنا عنه بما فهمنا ، وإن فهمنا ما أنكرناه وخففناه على حياتنا ومثلنا نزنا به وحاسبناه أعسر الحساب ، ولم نمكن لسلطه علينا ذلك السلطان المطلق الذي يجعله هناك عالياً فوق متناول حسابنا .

لقد بدا لنا أن الأديب الجليل طه قد قرر مبدأ خطيراً ونصره بسلطانه الأدبي العظيم ، ولعله يكون بذلك مسئولا عن كثير من التحرر أو التحلل الذي يعتز به ناشئة الأدباء في وقتنا هذا ، فإن السعي إلى الكمال الفني معنى يسهل على كل من شاء أن يتخذ منه إلى الخروج عن كل قواعد الأدب الصحيح .

إنه من الحق أن يتجرد الأديب للدفاع عن صديقه ، بأن يبرز معناه ويقول للناس إنه قد خدم علم الأدب والفكر ، وإنه يعمل على السمو بهم إلى آفاق غريبة عنهم ، وإنه يتخذ من الوسائل إلى ذلك ما يوافق فنه ، ويصدر عن وحيه وإن ارتكب في سبيل فنه مشقة وأركب الناس معه المشقة ، وكلفهم كثير العناء في فهمه .

للأديب أن يدافع عن صديقه بمثل هذا ، وقد حاولنا نحن أن نظهر ما ينطوي عليه فن الحكيم في شهرزاد من المعنى العميق ، وما أردنا بذلك إلا أن نؤيده ، وندعو الناس إلى التماس المعنى السامي من تحت مظهر اللفظ الذي يخفيه .

ولكنا لا نستطيع أن نقبل نظرية طه في أن يسلبنا حق مؤاخذة الأديب ، ويجردنا من كل سلطان عليه ، بحجة أنه يقصد إلى الكمال . فليقصد الأديب إلى الكمال الفني ، وليحتفظ بكل حرية في تفكيره وأسلوبه ، ولكنا نحن القراء لسنا حجارة أو حديداً ، بل نحن جمهور الإنسانية لنا ما نعتز به من مثل عليا ، وما نحيا من أجله من معان في الحياة ، ولنا حق في الحرية لا يقل عن حق الأديب في حريته ؛ فلنا أن نعلن إنكارنا إذا أنكرنا ، ولنا أن نجهر بالإعجاب إذا أعجبنا ، وما صوت الزمان إلا صوتنا إذا تجردنا من النزعات السخيفة في أحكامنا على الأدباء .

محمد فريد أبو حديد

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥	في مصر والسودان
	٣٧/٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ — عابدين مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٢٩٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٢٠ الثلاثاء ١٠ من ربيع الأول سنة ١٣٦٢ — ١٦ من مارس سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العدد

٢ – التفكير في شؤون السلم

للدكتور محمد عوض محمد

وضح من مقالنا في العدد السابق أن التفكير في شؤون الشعب ، وفيما يجب أن يعد من وسائل الرخاء والترفيه بعد الحرب أمر تجب معالجته منذ الآن ، وأنه جزء لا ينفصل عن المجهود الحربى نفسه . والحكومة البريطانية على حق في أن تولى هذا الأمر عنايتها منذ الآن ، وأن ترحب بالمجهود العظيم الذى بذله بفردج ومساعدوه في دراسة الحالة الاجتماعية للشعب البريطاني ، وبالثمرة التي أنتجها هذا المجهود ، التي أطلق عليها اسم تقرير بفردج .

إن الهدف الذى ترمى إليه تلك المقترحات هو « تحرير الفرد من الفاقة » ، فلا يدخل في نطاقها مسائل التعليم ، بل هى مقصورة على الوسائل التي يجب اتخاذها بحيث ينال كل فرد من أفراد الشعب البريطاني حاجته من ضرورات الحياة في جميع مراحل العمر : من المهد إلى اللحد ، وفي جميع الأحوال في الصحة والمرض ، وفي أثناء العمل أو العطل .

أما الوسيلة التي توصل إلى هذا الهدف ، فهي « التأمين الاجتماعى » أو الضمان الاجتماعى . ومعنى هذا أن كل فرد من أفراد الأمة يدفع للدولة مبلغاً يسيراً من المال ، لا يتجاوز الأربعة الشلنات وربع الشلن في الأسبوع للرجل البالغ ، (وأقل من هذا للمرأة وللشباب ما بين السادسة عشرة(*) والحادية والعشرين من العمر) وفي مقابل هذا المبلغ (وهو التأمين) تقدم الحكومة للفرد خدمات عديدة ، ومساعدات خاصة ، في مختلف الظروف والطوارئ التي يتعرض لها المرء في الحياة .

(*) في بريطانيا لا يجوز لأحد أن يشتغل بأية مهنة قبل سن السادسة عشرة ، أى قبل إتمام مرحلة التعليم الأولى .

وتستند مقترحات بفردج على أن هنالك مبلغاً من المال لا بد أن يكسبه الفرد لكى يعيش بعيداً عن الفاقة ، وقد قدر هذا المبلغ بنحو ستة وخمسين شلناً فى الأسبوع على أساس أسعار الحاجيات كما قدرها صاحب التقرير . ولكنه يقول إن مسألة الرقم ليست مسألة أساسية ، بل تقبل التعديل حسب الظروف ، بحيث تزيد أو تنقص تبعاً لتكاليف الحياة ، فإذا زادت أو نقصت استتبع هذا زيادة أو نقصاً فى مقدار التأمين الذى يدفعه الفرد .

ومن أهم العناصر الجديدة فى هذه المقترحات أن التأمين إجبارى على جميع السكان ما بين سن السادسة عشرة والستين للنساء ، والخمسة والستين للرجال ، ولا يعفى من دفع التأمين سوى الزوجة التى لا تكتسب أجراً ، ومن أجل هذا كان مقدار التأمين الذى يدفعه الرجال البالغون ، أعلى مما يدفعه النساء المكتسبات . لكى يشمل ذلك التأمين الزوجات ممن لا كسب لهن .

ويدفع التأمين الغنى والفقير على حد سواء . ويستطيع أن يتمتع بفوائده الجميع . فإذا أراد أصحاب اليسار فوائد أكبر ، فما عليهم إلا أن يؤمنوا بمبالغ أخرى فى شركات التأمين ، وتكون معاملاتهم مع الشركات مباشرة من غير تدخل الدولة ، لأن المشروع يُعنى قبل كل شىء بتأمين وضمان الخدمات الضرورية التى لا غنى عنها .

ولا بد من الإشارة إلى أنه إلى جانب التأمين الذى يدفعه العامل فى الصناعات ، وهو أربعة شلنات وثلاثة بنسات ، يدفع صاحب المصنع أو المعمل ثلاثة شلنات وثلاثة بنسات ، وبهذا يكون المبلغ المدفوع عن كل عامل فى الصناعة سبعة شلنات وستة بنسات (نحو ٣٦ قرشاً) فى الأسبوع . وهذا المبلغ يؤديه صاحب المصنع إلى الدولة مباشرة ، بعد أن يستقطع من أجر كل عامل نصيبه من التأمين .

والآن نستطيع أن نتساءل عن الفوائد التى يتمتع بها كل فرد فى مقابل هذا المبلغ الذى يؤديه للدولة باطراد وانتظام : ينطبق على هذا النظام المقترح جميع الشروط والمبادئ الخاصة بالتأمين . فهنالك أشخاص أقوياء الأبدان، غير مرّوحين ، فى ميعة العمر يؤدون التأمين دون أن ينتفعوا من هذا النظام . ولكنهم يؤدون هذا المبلغ «تأميناً» من أزمات الحياة ، فإذا طرأت واحدة أو غير واحدة من هذه الأزمات ، بادرت الدولة بإسعاف أبنائها وبناتها حتى يجتازوا هذه العقبة ، وينجوا من تلك الأزمة .

هذه الأزمات التى يتناولها «مشروع» التأمين الاجتماعى تسع ، نسردها فيما يلى مع مقارنتها بالفوائد القائمة فى الوقت الحاضر .

١ — **العمال العاطلون** : يخول النظام القائم أن يعطى العامل العاطل ٣٦ شلناً فى الأسبوع لمدة ستة أشهر ، وفى أثناء هذه المدة تختبر الدولة حالته المادية وموارده بوسائل يراها العمال تعسفية ، ثم تقرر له بعد ذلك مساعدة تختلف بحسب نتائج هذا الاختبار . والعمال يشكون مر الشكوى من نظام «اختبار الموارد» هذا .

أما المقترحات الجديدة فإنها تقرر للعامل ٥٦ شلناً فى الأسبوع لمدة غير محدودة ، مع إلغاء نظام «اختبار الموارد» . فإذا طالت مدة البطالة كُلِّفَ العامل الالتحاق بمعهد للتدريب الصناعى ، لكى يُوجَّه إلى حرفة جديدة تكون الحاجة إلى الأيدى العاملة فيها أعظم من حرفته القديمة . وهكذا يكون النظام الجديد مشتملاً على ثلاثة عناصر جديدة : وهى رفع الأجر الذى يتناوله العامل المتعطل ، وعدم النظر إلى موارده الخاصة ، وإيجاد نظام لمعالجة مشكلة البطالة نفسها .

٢ — **العجز** : أو الإصابة بعاهة تمنع من الكسب :

إذا أصيب العامل بحادث منعه من العمل فى ظروف خارجة عن ظروف العمل نفسه فإنه يمنح ٥٦ شلنا فى كل أسبوع مدى الحياة ، ومن غير قيد ولا شرط ، وبقطع النظر عن موارده الخاصة . وفى الوقت الحاضر لا يعطى العامل فى مثل هذه الحالة سوى ١٥ شلنا فى الأسبوع لمدة ستة أشهر ، ثم ينقص المبلغ بعد ذلك إلى النصف .

٣ — **العجز** : أو الإصابة بعاهة بسبب العمل الذى يمارسه العامل . فكثير من الصناعات يتعرض أصحابها لأخطار بسبب ظروف العمل نفسه ، والنظام القائم يضطر صاحب العمل نفسه لأن يضطلع بهذا العبء ، بأن يدفع للعامل نصف أجرته على شرط ألا يزيد المبلغ المدفوع على ثلاثين شلنا فى الأسبوع .

أما النظام المقترح فيقضى بأن يعطى العامل ٥٦ شلنا فى الأسبوع لمدة ثلاثة أشهر ، وبعد ذلك يمنح معاشا يعادل ثلثى الأجر بشرط ألا يزيد على ٧٦ شلنا ولا يقل عن ٥٦ شلنا فى الأسبوع .

٤ — **الشيخوخة** : الذين يعجزون عن العمل بسبب تقدم السن قد لقوا عناية من الحكومة البريطانية بدرجة متواضعة عام ١٩٠٨ . فكان كل من يبلغ السبعين تمنحه الدولة معاشا متواضعا قدره خمسة شلنات فى الأسبوع ، ثم زيد المبلغ بعد ذلك حتى بلغ العشرين شلنا ، وخفض السن إلى خمس وستين سنة للرجال وستين عاما للنساء . وذلك سنة ١٩٢٥ .

والمقترحات الجديدة تقر مسألة السن كما هى ، ولكنها ترفع المعاش تدريجيا حتى يبلغ ٤٠ شلنا فى الأسبوع بعد مرحلة الانتقال ، التى قدرت مؤقتا بعشرين عاما .

٥ — **الترمل** : إذا فقدت المرأة زوجها منحت حسب النظام القديم ١٨ شلنا فى الأسبوع مدى الحياة ، أما النظام الحالى فيمنحها ٤٠ شلنا فى الأسبوع لمدة ثلاثة عشر أسبوعا فقط ، على شرط أن تلتحق بمعهد للتدريب ما دامت صحيحة الجسم ، تمهيدا لتوليها عملا منتظما تكتسب منه رزقها .

وقد يظن أن النظام الجديد أقسى على الأرامل من النظام القديم ، ولكنه من غير شك أدنى إلى الإنصاف ، لأن الأرامل المتمتعات بصحة جيدة يستطعن مزاولة مهنة شريفة بدلا من أن تعولهن الدولة مدى الحياة .

٦ — **الأمومة** : لا شك أن الولادة حادث من الحوادث الخطيرة فى حياة الأسرة ، فإن ظروف الولادة نفسها تتطلب نفقات ، والطفل الذى يزيد عدد الأسرة يزيد نفقاتها أيضاً . وقد عالج بفردج هذه الأزمة فى حياة الأسرة علاجا شاملا لجميع نواحيها ، فبينما النظام الحالى يمنح الأم جنيهين إذا كانت لا تكتسب ، وأربعة جنيهات إذا كان لها عمل تكتسب منه أجرا ، فإن النظام الجديد يكفل للأم :

(أولا) أربعة جنيهات إذا كانت لا تكتسب .

(ثانيا) ٣٦ شلنا فى الأسبوع لمدة ١٣ أسبوعا للأم التى تعمل عملا تؤجر عليه . وقد قرر صاحب التقرير أن هذه الأسابيع الثلاثة عشر هى المدة اللازمة قبل الوضع وبعده ، لكى تتمكن الأم بعدها من مزاولة عملها .

(ثالثا) يضيف بفردج إلى هذا كله مساعدة مادية عن كل طفل يولد ، ما عدا الطفل الأول بالطريقة الموضحة فى البند التالى .

وللأم فوق هذا كله حق التمتع بالخدمة الطبية التى ينص عليها المشروع ، وسنذكر ذلك فى البند الأخير .

٧ — **مساعدة الأسرة إذا رزقت أطفالا** : فى الوقت الحاضر لا تمنح الأسرة شيئاً إذا رزقت طفلا أو أكثر .

أما مشروع بفردج فإنه يوصى بأن يدفع لكل أسرة ثمانية شلنات فى كل أسبوع عن كل طفل يولد ، ما عدا الطفل الأول .

وقد استطاع بفردج بهذا الاقتراح أن يصيب عصفورين ويحل مشكلتين . فمن المعلوم أن الأمهات فى بريطانيا يرغبن عن الإكثار فى النسل ، حتى لقد أصبحت هذه الظاهرة مشكلة اجتماعية خطيرة منذرة بنقص مطرد فى السكان . وقد علم بفردج مما لديه من إحصاء دقيق أن كثيراً من الأمهات يرغبن فى الطفل الأول ، فأراد بمشروعه أن يساعد الأسرة لكى تعول عدداً متزايداً من الأطفال من جهة ، وأن يحل مشكلة اجتماعية خطيرة من جهة أخرى .

٨ — **الوفاة** : لقد ترهق الأسرة إرهاقاً شديداً إذا مات فرد من أفرادها ، فليس فى وسع الأسر الفقيرة أن تجد ما تنفقه من أجل الدفن والتشييع ، وما يتبع ذلك من التكاليف . ولهذا يوصى المشروع بأن يدفع للأسرة عند وفاة أحد أفرادها عشرون جنيهاً ، مساعدة لها فى هذه الأزمة .

وهكذا نرى حقاً أن المشروع يتابع معاونة كل فرد من أفراد الأمة من مهده إلى لحده .

٩ — **الخدمة الطبية** : لا بد لنا لكى نفهم مقترحات بفردج عن الخدمة الطبية ، أن نذكر أن النظام الطبى فى بريطانيا يقسم الأطباء قسمين : الأول وهو الأكبر عدداً نستطيع أن نسميه أطباء العموم ؛ وهم الذين يعالجون جميع الأمراض ، ما عدا الأمراض العسيرة والعمليات الجراحية . وهؤلاء أجرهم زهيد لا يتجاوز فى العادة خمسة شلنات . والقسم الثانى هم طائفة الأخصائيين ، وأجرهم عال جداً يبلغ بضعة جنيهات للزيارة الواحدة ، ولا يلجأ إليهم إلا فى المعضلات . وفى بريطانيا اليوم نظام للتأمين الصحى يضمن للمشتركين فيه أن يحصلوا على خدمة الطائفة الأولى مجاناً .

أما مشروع بفردج فيوصى بأن يكون فى متناول كل مريض جميع الخدمات الطبية الممكنة ، بما فى ذلك استشارة الأخصائيين ، والعمليات الجراحية ، والإقامة فى المستشفى بل وفى دور النقاهة أيضاً ، وذلك دون أن يدفع الفرد شيئاً سوى التأمين العام الذى ذكرناه فى أول هذا المقال .

هذه هى الخدمات الجليلة التى يوصى بها مشروع بفردج ، وهى كما نرى لا تعدو أن تكون خطوة أوسع وأشمل فى التطور الاجتماعى الذى كانت بريطانيا سائرة فيه . ولا شك أن هذه المقترحات إذا نفذت تنفى شبح الفاقة من الجزر البريطانية نفياً تاماً ، إذ تضمن لكل فرد الدخل الضرورى فى الأيام العادية ، والمساعدة اللازمة فى وقت الأزمات . وهى تمتاز على النظم الاشتراكية بأنها تترك الباب بعد ذلك مفتوحاً لمن شاء من أفراد الشعب أن يزيد فى دخله بمجهوده الفردى قدر استطاعته ومواهبه . وبهذا تشجع الاجتهاد والنبوغ .

محمد عوض محمد

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

	مليم	
الاشتراك لستة أشهر	٤٥	فى مصر والسودان
	٣٧/٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليماً

شاعر الرسول

٢ – حياته وشعره قبل الاسلام

كان المجمل الذى أوردناه عن « حسان » (فى عدد الهجرة – ٢١١ ثقافة) مجرد تحديد للخطوط الرئيسية فى صورة شاعر الرسول ، قصدنا أن نعود إليه بعد ، فنملأ هيكله ، ونصقل جوانبه ، ونجلوه فى مظهر فنى مقبول . وكانت خطتنا أن نجمع الروايات الخاصة بشعر « حسان » وشخصه ؛ ثم نستوحى التاريخ صورة « المدينة » قبيل البعثة ، وجوها الاجتماعى والثقافى ومركز آل حسان بين قبائلها ؛ ثم نلقى نظرة على الدولتين العربيتين المتحضرتين إذ ذاك فى الشمال ، . « المناذرة » المجاورين للفرس – والغساسنة المجاورين للروم ، فنتبين كيف كانت كل منهما . – ولا سيما الثانية – فى قصورها وملكها ، وأيامها وشعرائها ، وماذا كانت منزلة « حسان » فى ذلك المعترك السياسى الأدبى ؛ ثم نرجع إلى شعر « حسان » الذى نرجح أنه قاله قبل البعثة – إما بإشارات زمانية فيه ، وإما بطبيعة موضوعه – كأن يكون قاله فى حرب الأوس والخزرج – وإما بخلوه خلواً تاماً من الكلام عن الإسلام والرسول ، وملاحاة خصومه ، فنحلل هذا الشعر ونستخرج خصائصه ، ونضع « حسان » فى مكانه من شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام .

مثل هذه الثروة الضئيلة من المعلومات – إذا صُفيت – خلفت لنا أساساً متواضعاً يمكن أن يبنى عليه بحث حياة « حسان » فى الاسلام ، حيث الأخبار عنه أكثر ، وكمية شعره أوفر ، وحيث يتصل شاعرنا اتصالا مباشراً بحوادث سجلها القرآن ، وفصلتها كتب السيرة النبوية .

لقد بلغ « حسان بن ثابت » الستين من عمره قبل أن يسلم ويصبح شاعر « الرسول » ؛ فحياته الفنية – إذاً – ترعرعت وبلغت تمام نضجها ، واستكملت كل مقوماتها وخصائصها فى الجاهلية ، وكانت نشأة « حسان » فى قبيلة « بنى النجار » أو « تيم اللات » التى كانت زعيمة الخزرج ، وزعيمة العرب المدنيين ، هذه الزعامة تتضافر عليها روايات التاريخ ، ويؤيدها الطابع العام لشعر « حسان » ، مما يجعلنا نفترض – مطمئنين – أن الشعور بها كان عاملا كبيراً فى منزعه الشعرى ، بل فى صلته بالرسول ، كما سنبين بعد ذلك . وإنك لتقرأ المشهورات من شعره طوال حياته ، فلا تكاد تظفر بواحدة منها تخلو من الإشارة إلى مجد قبيلته وبلائهم ، ونفوذهم ، يقول :

« فيثرب » تعلم أنّا بها إذ التبس الأمر ميزانها

ويقول :

لنا حاضر فعم وباد كأنه شماريخ رضوى عزة وتكرما
متى ما ترنا من «معدّ» بعصبة
« وغسان » نمنع حوضنا أن يُهدما
بكل فتى عارى الأشاجع لاحه
قراع الكماة يرشح المسك والدما
تسوّد ذا المال القليل إذا بدت
مروءته فينا وإن كان معدما

ويقول :

فنحن الذُّرا من نسل « آدم » والعرا
نربع فينا المجد حتى تأثلا
بنى العزّ بيتاً فاستقر عماده
علينا فأعيى الناس أن يتحولا

ثم يقول :

كنا ملوك الناس قبل « محمد »
فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل .

وليس هناك من شك فى أن شعره فى هذه الناحية أقوى روحاً ، وأروع نسجاً منه فى أى ناحية أخرى . ولقد تراه هنا أقرب ما يكون إلى « الفرزدق » فى طابع تقريبه . ولكنه إذ يفتخر بقومه ومآثرهم يكاد يذكرك « زهير بن أبى سلمى » فى تفصيله لنواحى السيادة ، وفى شموله بمدحه الغنى والفقير ، والصغير والكبير ، والطارف والتليد من ممدوحيه .

هذه الوراثة السامية فى النسب ، قد أعقبتها وراثة زاهية فى الأدب ، فقد كان آباء « حسان » شعراء (ثابت والمنذر وحرام) ، وكان من قومه الخطيب والفيصل وصاحب النفوذ والجاه عند الملوك ، وفيهم يقول (بعد الإسلام) :

إن خالى خطيب « جابية الجو
لان » عند « النعمان » حين يقوم
وأبى فى « سميحة » القائل الفا
صل يوم التفت عليه الخصوم
وأنا الصقر عند باب « ابن سلمى »
يوم « نعمان » فى الكبول مقيم
و « أبى » و « واقد » . أطلقا لى
ثم رحنا وقفلهم محطوم
ووسطت نسبتى الذوائب فيهم
كل دار فيها أب لى عظيم

لندع هذه الناحية جانباً — بعد إذ خلصنا منها بالغرض الذى افترضناه ، والذى سنعود إلى نواحى تطبيقه مرة أخرى — ولنرجع إلى المدينة حيث نشأ « حسان » فى ربوع آبائه « الخزرج » من عرب المدينة . و« الأوس والخزرج » — كما يحدثنا المؤرخون — عرب من الجنوب ، كانوا ذوى ثقافة دينية وثنية ، وكانوا يعبدون « مناة » و« اللات » ؛ هاجروا فيمن هاجر إلى الشمال ، ولعلهم حملوا — فيما حملوا معهم — شيئاً من حضارة الجنوب وتفكيره ؛ وقد نزلوا « يثرب » ، وكونوا هم « واليهود » بها جماعة ثلاثية ، لها حروب ووقائع وأيام ؛ وقد خضع العرب لسلطان اليهود حقبة ، ثم ثاروا واستعانوا بإخوتهم من ملوك الشام (وكانوا مثلهم من الجنوب) فانتزعوا السلطان من اليهود ، وأخضعوهم لنفوذهم .

هذه الحروب بين « الأوس والخزرج » تارة ، وبين هاتين و « يهود » تارة أخرى كان لها أثرها فى تحريك القرائح الشعرية فى ذلك العهد ، وكان « حسان » ممن تأثروا بها ، واستلهموها معانى البطولة والفخر ، ومن الجدير بالملاحظة هنا أن شاعرنا لا يفتخر بلسانه فحسب ، ولكن بسيفه أيضاً . يقول فى قصيدته التى يعدها صاحب « الجمهرة » من « المذهبات » :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما
ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودى

ومن الطريف أن « حسان » فى تلك المرحلة كان يشهد الوقائع والحروب ، وكان له فيها بلاء حسن ، ولعل رواية « الكلبى » تؤيد هذا إذ يقول : « إن حسان رضى الله عنه كان لسنا شجاعا فأصابته علة أحدثت له الجبن فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا يشهده » .

وكانت المدينة فى ذلك الوقت بيئة متحضرة ، موفورة الثروة ، يشتغل كثير من أهلها بالزراعة ، وكانت — كما يذكر « حسان » فى شعره — ذات نخل وآطام وجداول وحدائق ، وكان لوجود اليهود بها أثره فى انتشار القراءة والكتابة والثقافة الدينية ؛ وليس هناك من شك فى أن ذلك كان له أثره فى إمداد « المدنيين » لتلقى رسالة التوحيد ، وفى تهيئة أذهان شعرائهم ومثقفيهم لقبول دعوة الرسول ، والمبادرة إلى نصرته وتأييده ؛ و« حسان » يذكر هذا فى روايته التى أسلفناها عن الأغانى عند

مريم

للأديبة مريم الفلماوي

لقد أعطى الله مريم ماحسدها عليه الناس وحرمها ماحسدت الناس عليه ، لقد أعطاها الله المال وحرمها الجمال . أما المال فقد كان وفيراً لا يكاد يتيسر لغيرها من سا كنات مصر ، وأما الجمال فقد كان معدوما لا تكاد تصدق أن مخلوقة قد حرمه الله منه إلى هذا الحد .

وكبرت مريم حتى وصلت إلى تلك السن التي تطيل الفتاة فيها نظرها في مرآتها ، ولكن مريم قد روعها من مرآتها ما رأت . أيمكن أن يكون هذا الوجه لها ؟ أيمكن أن يوجد مثل هذا الوجه وسط الجمال الذى يسّره لها مالها ؟ هذه غرفتها قد نظمت فيها قطع الفن النادرة أروع نظام وأثاثها فاخر جميل ! إن مرآتها نفسها لها إطار قد تعاون المال والفن على اخراجه . أيمكن لهذا الإطار أن يحيط بهذا الوجه فلا تأذى العين لرآه ؟! وشاعت في عين مريم حرارة الدمعة المنحدرة وتنهدت في حسرة وهى تقول : ربى لماذا ؟ نصف هذا المال بل ربعه بل عشره كان يكفى ؛ ونصف هذا القبح بل ربعه بل عشره كان يكفى ، ولكن لقد أراد الله بمريم هذه أن تكون هى أيضاً آية للعالمين .

واستمرت بها الأعوام وإذا عينها تنفتح لما حولها ، لقد كانت محسودة على مالها لا يعزى حاسديها ولا يرد من نارهم إلا هذا الوجه الدميم الذى يطالعها كلما نسيت نفسها وهمت بالنظر إلى المرآة !!

كانت مريم إذا سارت فى شوارع العاصمة نظر الناس نحوها فى انبهار ، فإذا علق نظرهم بوجهها ازورت وجوههم أما الانبهار فلسيارتها وأما الازورار فمن وجهها ، حتى إذا أحست حرارة الجو وفتحت نافذة سيارتها تطايرت إليها الكلمات وكلها تدور حول العجب من حكمة الله فيها

محاولة تحديد سنه وقت الإسلام .

اجتمع — إذاً — للمدنيين شىء من الخصب ، ولون من الحضارة والعرفة والدين ، وكثر بينهم الشعراء ، وعرفت القرى العربية الأخرى هذه الكثرة للمدينة ، وظل ذلك متوارثاً مذكوراً حتى سجله « ابن سلام » فى « طبقات الشعراء » ، فقد ذكر أنها كانت أشعر القرى العربية ، وكان أشعر شعرائها « حسان » ؛ ثم ذكر فى موطن آخر أن قريشا كانت قليلة الشعر فى الجاهلية ، وعلل لهذا بقلة الحروب بينها . على أن هذه الكثرة فى شعراء المدينة لا يلزم منها أن يكون شعراؤها من النبوغ والعبقرية بحيث يعقد لهم لواء الزعامة بين شعراء العرب ، فالواقع أن أحداً من المدنيين لم يشتهر شهرة امرىء القيس أو النابغة مثلاً ؛ ولم يذهب أحد من المتقدمين إلى أن « حسان » — أو غيره من شعراء المدينة — يجىء فى الصف الأول ؛ اللهم إلا ماذكر أبو عبيدة من أن العرب اجتمعت على أن « حسان » أشعر أهل المدر ؛ ولم ينقل إلينا تاريخ الأدب أن أحداً منهم ولى الحكومة الشعرية فى مجمع من المجامع ، أو اشتهر بناحية فنية خاصة ، كما اشتهر « امرؤ القيس » بكثرة تشبيهاته ، وبما ابتكره من الأساليب ؛ وكما اشتهر « زهير » ورجال مدرسته بتثقيف الشعر وتنقيحه ، وتعهده من الوجهة الفنية الخالصة ؛ فالمسألة — إذاً — مسألة كثرة كمية فى شعر « المدينة » بالنسبة لغيرها من القرى العربية ، وقد يكون مستوى شعرها فى جملته أعلى من مستوى الشعر فى القرى الأخرى ؛ ولكن شاعر المدينة الأول يجىء فى حلبة الفحول مصليا لا مجليا .

للبحث بقية

محمد خلف الله

فتسمعها فى لوعة وتحاول نسيانها فى ألم ثائر حتى هذا المال الذى يخفف عنها بلوتها يراه الناس فى غير موضعه .

وتهافت الخطاب عليها وهى تعلم السر فى تهافتهم وتردهم خائبين . إن الله لم ينس أن يخلق لها حساً مرهفا ونفساً كريمة أبية ليضاعف عذابها . إنه جلت حكمته قد أرادها آية للعالمين . أو كأنما قد أراد أن يرفه بها عن نفوس الفقراء المساكين ، أو كأنما قد أراد أن يثير بها للإنسان ناحية من أمر هذه العلاقة المعقدة بين المال والسعادة . ترى لماذا اختارها هى دون خلقه أجمعين ؟

وتقدمت بها السن وأصبح مما يجرح كبرياءها أن تظل بين أترابها بلا زواج . إنهن يفخرن بزواجهن بل بزواجهن فى سن مبكرة ليتخذن من ذلك دليلا على الجمال . ونظرت حولها فارتد نظرها محزونا كئيبا . إن القلوب جمالا تُعَدّ ملكة جمال إذا قيست إليها . إن بقاءها بلا زواج برهان قاطع بل تذكير دائم بأنها دميمة . لابد لها إذن من الزواج وإن الذين يتقدمون إليها ليرغبون فى مالها ، ولكن أنى لهم أن يعرفوا حقيقتها حتى يقدروها . إن المال كالجمال كلاهما عرض زائل هذا يجذب وذاك يجذب ، وليس لميزان العقل أو الأخلاق ، دخل فى هذا الانجذاب . إنها قبيحة ولكنها ثرية . فلتقدم على الزواج بنفس الإيمان الذى أقدمت به أترابها عليه ، لقد ورثهن أهلهن جمالا ولقد ورثها أهلها مالا ولم يكن لها ولا لهن فضل فيما ورثن ، ومن يدرى ؟ لعل الزوج يقدرها يوماً فتتضاءل قيمة الجمال أمام ماعرف منها ويحبها لنفسها كما يبقى حبه للجميلة بعد زوال جمالها ، كل مافى الأمر أن المال باق إلى آخر أيام حياتها وجمال أترابها يزول بعد أعوام .

وأقدمت على الزواج من شاب فى سنها وحاولت ما استطاعت أن تعوض مافيها من نقص فهيأت له منزلا سعيداً من كل وجه ، ولكنه جاء للمال ، وقد كان محتاجاً إليه ، وظلت حاجته تزداد كلما أمعن فى تلك الحياة التى حببها

منذ كان صبيا يافعا أيام كان مال أبيه يجرى بين يديه كالنهر فلما نضب المعين تزوج مريم ليحفر بها مجرى جديداً لنهره ودرت عليه من مالها أكثر مما كان يقدر واندفع فى لهوه ومرحه وهو يناجى نفسه بأنه الكاسب وإخوانه الخاسرون .

وعرفت مريم أخبار لهوه من أهلها وصاحباتها فكانت توقف سيل هذه الأخبار بلباقة ومهارة ، لا تكذبها فيشتد الجدل حولها ، ولا تصدقها فتفتح تيارات المؤاساة والحسرة وعرف الناس بعد حين أنها لا تريد أن تسمع شيئاً عن سلوك زوجها فكفوا عن إعلامها بما عرفوا . وقليلا قليلا نسجت مريم حول زوجها خيالاً . إن ما قالوه كذب وإنه بدأ يحبها ويقدرها ؛ فها هو ذا يعود للغداء أحيانا ويمكث فى البيت بضع ساعات ويبيت فى الشهر عدة مرات . لقد نجحت فى تفكيرها وبعد عامين سيكون لها وحدها وسيمحو حبه لها كل ما قاست من آلام . ونظرت فى مرآتها .. إن شفاهها ليست غليظة كما كانت تظن وإن عينيها على جحوظهما لها بريق لامع وأن أنفها الأفطس عليه مسحة من الفن يجعل لها أثرا خاصا . إنها ليست شديدة السمرة ، إن أهدابها لطويلة وإن شعرها الأسود أملس وإن وجهها وسط هذا الإطار الجميل إطار مرآتها لم يعد كالنغم الشاذ وسط القطعة الموسيقية الرائعة ، وارتفع صوتها بالغناء حتى صوتها أيضاً قد زالت عنه حشرجته الأولى :

وجاءها الزوج يوماً باقتراح .. إن أموالها وأطيانها لاتدر عليها ما يجب أن تدر من مال ، إنه سيذهب هو نفسه إلى مزارعها ليدير لها العمل فيها وسيكون وقته لذلك قسما بين القاهرة والريف وإن كره أن يفارقها ، وفرحت مريم لعنايته بأمرها ولم تسائل نفسها قط ، ولماذا يريد لها مزيداً من المال وهو فوق ما تحتاج إليه بكثير ، إنه يريد لها الخير كله ولا يريد لأحد أن يستأثر بما هى به أحق : نعم سيغيب عنها أياما وربما أسابيع ولكن ماذا يمنع أن تذهب معه فيعيشان فى عزلة الريف وهناك سيحبها دون شك . وذهب مرة ومرة

وكلما ألحت عليه أن تذهب معه رفض بإباء ، أتذهب وهى الرهفة الناعمة إلى الريف ؟ إن بيتها هناك قد استكمل وسائل الراحة ولكن فيم تقضى يومها ومن أين لريف مصر أن يتيح لجسمها المترف كل ما اعتاده من ترف ؟ لا . إنه لا يريد منها هذه التضحية ، وآمنت مريم بحماسته ورأت فى الاستمرار فى الإلحاح ماقد يغضبه فسكتت .

ومرت الأعوام ومريم فى سعادة لم تكن تحلم بها ، ولكنها اشتاقت إلى الريف وكانت قد زارته مع أبيها أيام صباها بل أيام شبابها الأولى ، وسألت زوجها أن تذهب فلم يعارضها وقد فطن إلى أن الاستمرار فى الرفض قد يوقظ فى نفسها شكا ، إن المزارع مزارعها هى أولا وقبل كل شىء ، وفرحت مريم بالريف وتفتحت نفسها السعيدة له . ودخلت بيتها ملكة مزهوة بما أنعم الله عليها به ، واستقبلت ناظرها وموظفيها كما تستقبل الملكة حاشيتها ، وأحس رجالها أن شيئاً فى نفس مريم قد تغير .. إن تواضعها قد زال وإن حدبها عليهم وسؤالها عن أولادهم قد امحى . إن صوتها نفسه قد تغير ، فقد كان فى حشرجته الأولى حناناً وهو فى حشرجته خشن لاذع . ترى ماذا أصاب سيدتنا مريم ، قال قوم إن حظها الأسود قد زادها ألماً على ألم ، ألم يكفها الله ماهى فيه من قبح حتى ابتلاها بهذا الزوج : آه كم يكرهونه .. لقد زاد فى غلة الأرض ولكن هذه الزيادة من دمائهم وعلى حساب أقواتهم وأقوات نسائهم وأطفالهم . لقد كانت مريم رحيمة شفوقة فلما جاءهم هذا النذل فسدت العلاقة بينهم وبينها ، وبدل أن يدعوا لها كما كانوا يفعلون منذ رأت عينها النور أصبحوا يدعون عليها ، فإن أخذتهم الرأفة بها وتذكروا عهودهم الأولى معها صبوا جام غضبهم على زوجها ، ولكنها اليوم ألقتهم فى حيرة عجيبة لقد تغيرت نفس مريم حقاً .

وفى الصباح خرج الزوج على ظهر حصانه بعد أن ألهب بالسوط ظهر السائس قبل ظهر الحصان ، ودخل ناظر العزبة ليقابل سيدته ، إنه قد قضى الليل كله فى تداول ومشاورة مع الأعوان ؛ وهذا ماقد استقر عليه الرأى .

« سيدتى إنك قد غيرت سيرتك معنا فماذا نقمت منا ؟ »

« إنكم لصوص خائنون والدليل ماقد زاد فى غلة الأرض »

« سيدتى إن الفرق من دمنا وهو على كل حال لن يزيدك ولن يحرمك شيئاً ، إنك لاتنتفعين بشىء من مالك إنه هو الذى يبتز مالك ويمتص دماءنا أتدرين لماذا ؟ » ، أما الريبة فى سلوك زوجها فقد بعدت بينها وبينها الآماد وصوت الرجل فى حماسه وحرارته يدفعها إلى الحرص على الجواب قالت « لماذا ؟ » إنه ياسيدتى ماجاء مرة إلى هنا إلا ليقبض المال إنه لا يعرف من أمر المحاصيل إلا ميعاد استلام ثمنها إنه ينفق أموالك أنت على جميلاته اللاتى يأتين معه فى عزبتك وفى بيتك . . . . . » .

لم تعد مريم تسمع شيئاً وما كادت تفيق حتى صرخت فى وجه ناظرها وطردته فى الحال لا من بيتها ولكن من مزارعها كلها ؛ لقد سخط على مريم الجديدة وحاول أن يعيد مريم الأولى فأضاعهما معا ولم يبق إلا حطامهما . لقد سقط الحجاب فرأت مريم مالم تكن تود أن تراه ، بل ما أتعسها أن تراه ، لقد أصبح من العبث أن تفكر فى شىء يعيد إليها أحلامها ويغشى عينها فلا ترى الحقيقة ، لقد سقطت من قمة الجبل محطمة متهجبة كيف أمكنها الصعود إليها فى يوم من الأيام .

ونظرت مريم فى مرآتها وقد عادت وحيدة فى الحياة إن شفتيها لغليظتان وإن عينيها لجاحظتان وإن أهدابها لقصيرة وإن أنفها لأفطس وإن شعرها لخشن أغبر ، ولم تطق الاستمرار فارتفع صوتها بالبكاء ذا حشرجة تؤذى الآذان .

ربى لماذا اخترت مريم دون خلقك أجمعين لتبرز للانسان ناحية من العلاقة المعقدة بين المال والسعادة ؟ ربى لماذا أعطيت مريم ما حسدها عليه الناس وحرمتها ماحسدت الناس عليه ؟

سرور القطاوي

من وحى المولد النبوى

الشريف

لا اليوم يومك إذ ولدت ولا الغد
يا ليت أنك كل يوم تولد

عاد الظلام كما عهدت ، وهذه   دنيا الجهالة والأذى تتجدد
ماذاق مهلكَه (أبو جهل) ولا   أودى (أبو لهب) وربك يشهد
فى كل أرض منهما متجبر   يأبى الرشاد ، وظالم يتمرد
وعبادة الأصنام قام دعاتها   ملء الممالك ، ما على يدهم يد
فلكل قوم من سفاهة رأيهم   رب يعظَّم ، أو إله يعبد
قم يا (محمد) ما لحقك ناصر   حتى تقوم ، وما لدينك منجد
فرق جنودك غازيا ، وافتح بهم   دنيا الجحود لأمة لا تجحد
تمشى على نور (الكتاب) فتهتدى
وتقيم آداب الحياة فتسعد
جدد لنا (أيام بدر) إنها   أيامنا اللاتى تحب وتحمد
حفظت على الإسلام يانع غرسه   والجاهلية بالقواضب تحصد
غرس نما ، فالأرض من بركاته   تعطى الحياة كريمة وتزود

* * *

قم يا رسول الله ، وانظر : هل ترى
إلا شعوبا غاب عنها الرشد ؟
نامت سيوفك بعد طول سهادها
فاستيقظ الغاوى ، وهب المفسد
عم الفساد ، فلا صلاح يُرتجى   للعالمين ، ولا فلاح ينشد
الأمر فوضى ، والحياة ذميمة   والشر لا يفنى ، ولاهو ينفد
دنيا الهوى ترمى الشعوب من الأذى
ومن العذاب بعاصف لا يركد
انظر إلى أيام (عاد) إذ طغت   و (ثمود) يمضها الزمان الأنكد
أسفى على الإسلام ، هان عرينه   وعدا عليه الفاتك المتأسد
إن الذى جمعت سيوف (محمد)   أمسى بأيدى المسلمين يبدد
ما أوجع الذكرى ، ويا لك لوعة
فى قلب كل موحد تتوقد

* * *

يا مولد النور الذى صدع الدجى   فرأى السبيل الحائرُ المتردد
السبل خافية المعالم ، والهدى   قول يقال ، ومطلب لا يوجد
طال الرجاء ، فهل لنا من موعد ؟
واحسرتاه : متى يحين الموعد ؟
ذهب الزمان ، فمن لنا ببقية   منه تحل بها الأمور وتعقد ؟
الناس بمعوج السبيل مضلَّل   وموفَّق فى العاملين مسدَّد
رب اتخذ للمسلمين سبيلهم   فإليك من جمعهم أنت القصد
فزعوا إليك ، فكن لهم : لا تُقصهم
عن باب رحمتك الذى لا يوصد
من كان يسأل فى الشدائد : من لنا ؟
فالله جل جلاله و (محمد)

أحمد محرم

ذكرى المولد النبوى

زدت شوقاً لجئت أخطب ودا   بك لا تُوليني صدوداً وبعدا
برّح الشوق بى فصرت كنبت الـــورس لوناً وذابل العود قدا
من رآنى يظن عقد شبابى   قد تجاوزته إلى الشيب عقدا
لهف نفسى ولم أزل فى ضحى العمـــر ولما يجاور الشيبُ فوْدا
أمسك الدمع شارد اللب هيما   نَ يزيد الهوى فؤادىَ وقدا
ملك الحسنُ كل قلبى فغنيـــت وكان الغناء شوقاً ووجدا
لست بالشاعر الذى ينظم الشعـــر فيرجو فيه على الدهر خلدا
غير أنى إذا مدحتك بحرى   كل معنى على لسانى شهدا
لو سقينا به حزيناً لكانت   نارُ أحزانه سلاماً وبردا
تحسد الطيور لو سمعن لحناً   من أغانىّ فى الهوى مستمدا
من يشدون مطربات على الدو   ح وإنى على رُبى الفن أشدى
أنا من صاغ صادق الحب شعراً   مزرياً بالجمان والدر عقدا
أنشد الناس ما نظمت فلوصا   دف قلباً أصاب منه السويدا
ويح قلبى لقد قضيت نهارى   مستهاماً وقت ليلىَ مسهدا
لو تمن الأقدارُ يوماً فألقا   ك على بابك الكريم المفدّى
ليتها إذ تمن أسعدت الرو   حَ وحطت لى فى جوارك لحدا
أنا فى عالم الأمانىّ كالطفـــل سعيداً وما يجاوز مهدا

* * *

جئتَ والعالَمُ المضلَّلُ حيرا   نُ فلا يعرف الطريقَ الأسدّا
جئت والناس فى الهلاك كأنّهْـ   ـم قطيعاً بهم يُراح ويُغدى
ويدُ الظلم تستبد فلا عهـــدَ يُراعى ولا حقوقٌ تؤدّى
وعقول تموج حمقاً وجهلاً   ونفوس تهيج بغضاً وحقدا
حسبوا أنها الفضيــــلة لما   وأدوا البنت خشية العار وأدا
وما س تصدّع « البيتُ » منها
وما س هزت من الهول « أُحْدا »
كان للقوة الغشوم سلاحٌ   هو أمضى مضارب الجهل حدّا
يتقى به القـوى ويختـا   ل به من يكون أعزلَ عمدا
كاد يكبو الزمان فى غسق الكف
ر صريعاً لولا ضيــاءٌ تبدّى
سار يهدى كلا إلى الرشد حتى   كان صبحاً تبين الناس رشدا

* * *

كيف طهّرت الأرض من دنس الشر
ك وألبستها من الحق بُردا
كيف أطلعت فى دياجير هذا الـــجهل شمس العلوم نوراً ووقدا
كيف بصرت أعين القوم نوراً   كنّ من حالك الضلالة رُمدا
كيف روضت أنفس الناس فى الخي
ر وكنّ الذئاب أبصرن صيدا
قد وقفت الحياة لله حتى   لم تنم ساعة عن الدين ذوْدا
كنت فى الحق ماضياً تقتل البا   طلَ قتلاً وما ترى لك غمدا
لا تبالى بما تلاقى من الظلـــم ولا تنثنى عزيماً وأيدا
كنت فى ساحة الشدائد كالطو   د رسوخاً بحلولك الصبر وردا
وشديد الإيمان بالله ما تفـــترُ شكراً ولا تباطأُ حمدا
خُلُق كالعبير عذباً وخَلْقٌ
من ورود الربيع أزهى وأندى
باسم يشفى كل جرح ولو كا   ن فؤادين الجوانح صلدا
وحياء لو كان منه قليل   فى وجوه الطغاة لن تستبدا
ووفاء لو حل أرض نفاق   لم يخن فاجر من الناس عهدا
وسخاء لو راح يسقى جديبا   أنبتت أرضه يساراً وسعدا
وذكاء لو صاحب الناس يوماً   بحياة الغباء والجهل أودى
حكم بيَّن الحجّة فصلٌ   لا تحابى فرداً ولا تتحدى
كل خصم يرى قضاءك عدلاً   صاحباً كان أو عدواً ألدا
يحسد البدر فيك وجه الفيافى   وتمنى لو كان فى الأرض خدا
خصك الله بالرسالة إذ كا   ن فبلغتها ولم تأل جهدا
من يكن قصده السبيل إلى الل   ـه فما خاب ما دعا الله قصدا

* * *

جئتهم بالكتاب وحياً وإعجا … زاً فأعجزتهم كهولا ومردا

وهمو قادة البلاغة والشعـ … ـر وأهل الكلام قولا ونقدا

كيف ظنوه من خيالك حتى … ملأوا البيد والحواضر جحدا

لم تكن قبل شاعراً أو خطيباً … يذهل الناس بالأحاديث سردا

حسد ألهب النفوس وأذ كى … شعلة الحقد في القلوب فأردى

وعد الله أن يعزك بالنصـ … ـر وما كان الله يخلف وعدا

إن هذا القرآن يهدى إلى الرشـ … ـد فمن يتبع الهداية يهدى

هو هذا الضياء ينساب في الرو … ح فتزكو وتخضل وتندى

هو هذا النمير يسقى ربى القلـ … ـب فيؤتى به عفافا وزهدا

هو هذا الزمام يمتلك النفـ … ـس ويجرى بها إلى الخير حفدا

هو هذا الدستور يسرى به الكون … وما حاد عنه دينا ومبدا

تتوارى العلوم فيه وتورى … كل يوم منه الحقائق زندا

جاء للأعصر الطوال وهذا الـ … ـعصر والأعصر التي لم تحدد

حاملاً راية السعادة حتى … لا تضل النفوس أو تتردى

حدّ للمرء في الحياة حدوداً … ينتهى عندها ولا يتعدى

من يحد عن سبيله خسر الديـ … ـن جميعا وأشرب العيش نكدا

حرر العقل راسفا في حديد … من قيود الجمود قيداً فقيدا

ودعاه أن يوسع الدين بحثاً … ويطيل التفكير فيه مجدا

ليرى الله في السماء وفي الأر … ض وفي كل ما أفاء وأسدى

إن دينا يخاطب العقل يمحو … كل شك يعده القلب مدا

وبث الإيمان فيه فيهتز (؟) حبوراً ويطمئن ويهدا

حقق العدل والمساواة بين النـ … ـاس طرا أحرارهم والعبيدا

ليس عمر وعلمه أكرم من زيـ … ـد لمال بل فاق في الدين زيدا

نعمة أسبغت علينا من الله … ومن يحصى نعمة الله عدا؟!

يتولى الإنسان من يوم أن يو … لد حتى يوسد الترب لحدا

* * *

كل شعب يسير وفق كتاب الـ … ـله في حكمه لأسعد جدا

لم تجد ثمة شتيتا على القر … ب ولا أرضه وطاء لأعدا

لم تجد بائسا تضور جوعاً … وتخدد الدموع خديه خدا

طاويا يأخذ السماء من البؤ … س غطاء وتاحل الأرض وسدا

وفقيراً قضى الحياة عديماً … وغنيا أعطى قليلا وأكدى

وفؤاداً يذوب حزنا وكمدا … وفؤاداً من جلمد الصخر قدا

كل فرد يعيش فيه سعيداً … راضياً بالحياة أمنا ورغدا

* * *

ما حياة الرسول إلا مثال … يحتذيه الأولى يرومون مجدا

عاش ما عاش واسع الصدر حقاً … لم يكن باغياً ولا مستبدا

قاتل المشركين بالسيف لما … قاتلوه ولم يجد منه بدا

ورآهم عاثوا فساداً وكفرا … وأقاموا لله في الأرض ندا

ما سمعنا أغار يوما على الدو … ر ولا جاوز الميادين حدا

كان يرعى حق الضعيف فما رو … ع (؟) كهلا ولا تخطف ولدا

همه أن يرى الضلال دفيناً … ويرى الناس تعبد الله فردا

أين هذا مما يشيب له الطفـ … ـل ومنه الجبال تنهد هدا

أين هذا مما تكاد له الأر … ض تولى وناقع البحر يصدى

خرست ألسن السلام وراحت … ألسن النار تحصد الناس حصدا

لا لشيء سوى السيادة حتى … صار كل للجاه والمال عبداً

* * *

تكلتك الأيام يا أيها العلـ … ـم فتيا وروعت فيك فقدا

كم حملت الأحزان للناس حتى … لتذوب القلوب حرا وصهدا

أنت أغرقتنا بنورك حتى … قد حسبنا حملت خيراً وسعدا

فإذا أنت حامل كل شر … يدهم الناس أعز لين وجندا

أسد جاع فاستشاط يهمل الـ … جوع غيظا فراح يقصف رعدا

وإذا عينك العذاب وحرب الـ … لام نوم ويمسك الموت إدا

* * *

رب رفقاً بسائر الخلق في الأر … ض ولا تجزنا الجزاء الأشدا

ومر النار أن تكون سلاما … وازجر الدهر أن يبيت كيدا

واملأ الأرض رحمة وحنانا … فترجى القلوب للحب عودا

واعف عن سيئاتنا إنما نطـ … ـمع في عفوك الذى لن يحدا

رشيد بدر أحمد

من منبر الشرق :

تحية الشام إلى مصر

في القرن الرابع عشر قبل الميلاد

رأي جديد في أوزان الشعر العربي

حدث في سنة ١٨٨٧ م أن عُثر أثناء الحفريات الأثرية في تل العمارنة في مصر ، بين آثار عاصمة أمينوفيس الرابع أو إخناتون ، على صندوق يحتوي على بعض مئات ألواح من الطين المطبوخ عليها كتابات بالخط المسماري الأشوري القديم . وعندما حاول العلماء حل رموز تلك الكتابات اتضح أنها تحتوي على الرسائل السياسية التي جرت بين فرعونَيْ مصر أمينوفيس الثالث (١٣٧٠ — ١٣٥٢) وأمينوفيس الرابع (١٤٠٥ — ١٣٧٠) من جهة وبين الممالك العظيمة في الشرق الأدنى إذ ذاك من الجهة الأخرى ، أعني بها مملكة ميتّاني الشامية وأشور وبابل ومملكة الحيثيين في آسيا الصغرى ومملكة قبرص ، كما احتوت على مراسلات البلاط المصري مع مواليهم في مدن الشام وفلسطين (مثل بيروت ودمشق وعسقلان وغزة وأورشليم وصيدا وصور وما إليها) . أما قيمة هذه الوثائق السياسية فيما يتصل بتاريخ العلاقات الدولية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد فخطيرة جداً لا تقدر فضلاً عن أنها محررة باللغة الأشورية التي كانت إذ ذاك لغة « السلك السياسي » أو أداة دبلوماسية تربط الدول بعضها ببعض .

بحث العلماء عن فحوى ألواح العمارنة حتى أنه قد استُوعب أو كاد تفسيرها وتقديرها التاريخي ، على أنه أُهمل تفسيرها اللغوي إلى اليوم أو أُعرض عنه رغم ما في أشورية تلك الألواح من اللحن والغريب الذي يرجع إلى خصائص اللغات الأصلية لدى كاتبِي تلك الرسائل . وقد فات الباحثين خاصة أن تلك المكاتبات الرسمية التي خرجت من دواوين الإنشاء في الشرق الأدنى موزونة جميعاً وأن الثلاثمائة والستين رسالة تقريباً من ألواح تل العمارنة التي تحت أيدينا اليوم تحتوي على أكثر من خمسة عشر ألف بيت شعر باللغة الأشورية (١) .

لن تستغرب — أيها القارىء العربي — أن تكون وثائق سياسية موزونة لأنك تعرف ما كان عليه إنشاء الدواوين الإسلامية من استعمال السجع والمزاوجة والجناس والاستعارات البلاغية قبل أن تستولي عليه في العصر الحاضر أساليب الدبلوماسية الأوربية الساذجة .

ثم اعرف أن النظم الأشوري مع قرابته من النظم العربي يستغني عن القوافي ، أي تكرار مقاطع متشابهة في أواخر الأبيات مشاركاً في هذا الأساليب الشعرية التي نجدها في جميع اللغات القديمة . بل مما يدعو الباحث اللغوي إلى العجب حقاً هو ما عليه العربية من استعمال القوافي في الشعر ، والسجع والاتباع في الخطابة والإنشاء . فقد اكتفى الشعر السامي وغير السامي القديم ببحور الأوزان وبتوالي الأسباب والأوتاد من غير أن يحتاج إلى تقفيـة الأبيات ، كما أنه لم يكن بدٌّ في الإنشاء في تلك اللغات من إظهار الصيغة البلاغية بالتقطيع المحكم عوضاً عن ما نجده في العربية من السجع .

والآن فإنك تفهم أن صناعة الإنشاء باللغة العربية ليست إلا تركة ورثها العرب عمن تقدمهم في الحضارة والثقافة الكتابية من الآراميين أولاً والأشوريين قبلهم ، ويتضح لك ما عليه تاريخ الشرق القديم والحديث من الوحدة العجيبة .

---

(١) راجع مقالنا في مجلة المجمع المصري (Bulletin Inst. Eg.) ج ٢٤ (١٩٤١ — ١٩٤٢) ص ١٢٣ وما يليها .

أما أوزان الشعر الأشورى — وللأشوريين شعر رائع من ملاحم الأبطال والآلهة ومزامير وأدعية وحكم وأمثال — فهى شبيهة بأوزان الشعر العربى حذو القُذَّة بالقذة . فقد نجد فيها مانستطيع أن نطلق عليه اسم البسيط والرجز والهزج والطويل وما إليها من الأوزان «الخليلية» . وأين هذه الحقيقة من قول القائل بأن الأوزان العربية نشأت من حركات سير الإبل أو خَبَب الخيل ، إذ هى سامية الأصل وترجع إلى ما قبل التاريخ . فإن كان هذا شأن الشعر الأشورى فالإنشاء فى تلك اللغة موزون أيضاً ولكن بأبسط الأوزان وأسهلها على أذن السامع .

وسأذكر لك ههنا مثلاً وحيداً من رسائل تل العمارنة ريك مزية الإنشاء الأشورى وقرابته من الأساليب العربية . هى رسالة أرسلها دُوشْرَطَّا ملك ميتانى التى كانت عاصمتها فى نواحى دمشق وامتدت حدودها إلى الموصل وطرسوس إلى ختنه — زوج بنته — أمينوفيس الثالث ملك مصر عندما مرض وهرم وطلب إرسال صنم الإلهة عشتر من هيكلها العامر فى نينوى إلى مصر لأن تشفيه وترد له سعادته . وسأورد لك قطعة صغيرة من أول تلك الرسالة بلغتها الأصلية حتى تحسَّ بنغمة الوزن الأشورى وتحس أيضاً بقرابة لغتها الأشورية من أختها العربية ، لعل تلك النبذة تشوقك إلى الإقدام على دراسة تلك اللغة الشقيقة ، الصعبة فى ظواهر رسومها السهلة عند من يتذوق حقيقة أمرها . وهاك عنوان الخطاب :

عَ(١) — نِمُورِيَّا شَرِّ(٢) مِصْر .
أخِي خَتَانِ شَ(٣) إرَامِ(٤) .

(١) عَ = على .
(٢) = ملك ، (قابل) « سَراة » العربية .
(٣) شَ = ذو ، ذى ، ذا .
(٤) رَأمَ = رَحِمَ = أحبَّ .

وَ شَ رِأَمُّنِي قِبـ — مِ(١) .
أَمَا دُوشْرَطَّا شَرِّ مِيتَانِي .
شَ يِرْأَمُكَ تَحُوكَ .

عَنِي(٢) يَاشِ شُلْمُ ، عَنِي كَاشَ لُو شُلْمُ .
ع — بِيتِيكَ ، عَنِي تَادُوخِيبَه مَارْتِي(٣) .
عَنْ أَشْتِيكَ(٤) شَ تَرْأَمُ لُو شُلْمُ .

***

وأما ترجمة رسالة دوشرطا إلى امينوفيس الثالث الملقب نموريا فسأورد لك نموذجا منها حاكيا فيها أسلوب الأصل ووزنه وعاميته إن كانت فيه عامية . فلا تأخذ علىّ ما أستعمله فى تلك الترجمة من لغة عامية حيناً وإسقاط إعراب أحيانا .

لِنُمُورِيَّا مَلْكِ مِصرَ .
أخي ختاني ذا أحبه .
وذو يحبني رسالة .
يقول دُوشْرَطَّا مَلْكُ مِيتانى .
ألذى يحبك حوك :

أنا سلامٌ لبيتك سلامٌ .
لأهلك لتدوخيبه بنتى .
إمرأتك التى تحب سلامٌ .
لزوجاتك بنيك أمرائك .
لمراكيبك ولأفراسك .
لعساكرك وبلادك ول = .
متاعك جداً جداً سلامٌ .

باول كراوس

(١) قبو = قال ، تكلم .
(٢) = على .
(٣) مَارْت = بنت ، ومادتها « مُهر » .
(٤) أشت = أنى .

من معاهد كتاب الديارات للشابشتي :

الدار المُعِزِّية ببغداد

بقلم كوركيس عواد

١ — تمهيد :

كان من نتائج اتساع رقعة الدولة العباسية ، وامتداد نفوذها إلى أغلب بقاع المعمورة ، أن انهالت الخيرات العميمة إلى بغداد مقر الخلافة ، وتدفقت نحوها ينابيع الثروة ، تلك الثروة الطائلة التي كان ينفق أقلها في تسيير أمور الدولة ، وأغلبها كان يذهب إلى خزائن الخلفاء والأمراء والسلاطين وأعيان الدولة ، ومنهم ينساب إلى التجار والصناع والزراع وغيرهم من أصناف الناس . وكان لهذا المال الوارد إلى رعليّة القوم ، بشتى الوسائل والطرق ، الأثر الواضح في جلب الرخاء إلى تلك الطبقة ، فأقبل كثير من أبنائها إلى حياة البذخ والترف ، وعمدوا إلى الإسراف في العيش ، والانصراف إلى تشييد الدور الحسنة والبالغة في تجميلها وتزيينها بكل ما وُهبوه من ذوق ، وما أوتيه الصناع من حذق ومهارة . فكنت ترى الخلفاء ، ومن دونهم من الأمراء والسلاطين والوزراء وغيرهم من أماثل الناس ، يتنافسون في جعل قصورهم ودورهم آية في الفن ، ويتباهون في إحكام مرافقها ، فتأتي مثالاً في روعة البناء وجمال المنظر .

ولكن شيئاً من هاتيك القصور التي توافرت فيها آثار النعم لم يصل إلينا ، إذ أن يد الإنسان العاتية التي لا تلبث أن تقوض اليوم ما بنته بالأمس ، ومثلها يد الدهر التي من دأبها التخريب والتدمير ، تعاونتا على محقها وجعلها أثراً بعد عين . فلا باقي إلا الله !

ولقد كانت بغداد في إبان عزها ، حافلة بطائفة من القصور الشامخة والدور الفخمة ، ما ظل أمرها أحدوثة الدهر . وقد تبارى الكتاب والمؤرخون والشعراء في وصفها وإطرائها . من ذلك دار معز الدولة البُوَيهي المعروفة بالدار المُعِزِّية التي نحن في سبيل الكلام عليها في هذا البحث .

٢ — من هو معز الدولة ؟

بنو بويه أسرة فارسية عرفت باسم مؤسسها أبي شجاع بويه . ذكر التاريخ من أفرادها نيّفاً وعشرين رجلاً ، اشتهر منهم بوجه خاص «معز الدولة» وابن أخيه «عضد الدولة» . ومعز الدولة — وهو المقصود من كلامنا — هو أبو الحسين أحمد بن أبي شجاع بويه ، ولد في سنة ٣٠٣ للهجرة . كان في صباه امرءاً لا يتميز بشيء عن غيره من أبناء الطبقة العاملة ، فكان يحتطب على رأسه[1] ، مثلما كان أبوه بويه يصيد السمك[2] .

وعرف معز الدولة بالأقطع ، لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى[3] ، قُطعت في بعض حروبه بكرمان .

ثم تقلبت به الأيام من حال إلى أحوال ، فأخذ شأنه وشأن أخويه «ركن الدولة» و«عماد الدولة» يرتفع ويتألق ، فامتلكوا كثيراً من البلدان بنحو ما هو مدون في المظان التاريخية . وما زال معز الدولة في نجاح مطرد إلى أن جاء بغداد «فدخلها متملكاً يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في خلافة المستكفي ، وملكها بلا كلفة»[4] .

أما الخليفة المستكفي ، فقد خُلع من الخلافة وسُمل وتلاشى أمره[5] . وصار الخلفاء العباسيون من بعده ألعوبة

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (٧ : ٣٨ طبعة حيدر آباد) .

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (٣ : ١٨) .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (١ : ٧٨ طبعة بولاق الأولى سنة ١٢٧٥هـ) .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٧٩ .

(٥) قال ابن الجوزي (المنتظم ٦ : ٣٤٢ — ٣٤٣) : =

يد البويهيين ، على ما هو مذكور في أسفار التاريخ .

ودامت إمارة معز الدولة على العراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ويومين[(١)] .

واشتهر معز الدولة ببعض الأعمال العمرانية في العراق فذكر ابن الجوزي أنه « سد فوهة نهر الرُّفيل[(٢)] ، وشق النهروانات[(٣)] ، وعمل المسناة بالسندية[(١)] »[(٢)] . وهذه إصلاحات خطيرة ، كان لها ولا شك أبلغ الأثر في تحسين ري العراق في ذلك الزمان

ومما عرف عنه أنه « أول من أجرى السعاة بين يديه ليبعث بأخباره إلى أخيه ركن الدولة سريعاً إلى شيراز ، وحظي عنده أهل هذه الصناعة ، وكان عنده في بغداد ساعيان ماهران وهما فضل ومرعوش »[(٣)] . ونظراً إلى ما لقيه هذان الرجلان من تقدير الناس وإعجابهم بهما ، فإنهما « فاقا جميعَ السُّعاة ، وكان كل واحدٍ منهما يسير في اليوم نيفاً وأربعين فرسخاً »[(٤)] .

وقد ذهبت المراجع التاريخية كل مذهبٍ في تحليل شخصيَّة معزّ الدولة والحكم على أخلاقه وطباعه ومعاملته الناس . ويُستخلص من ذلك كله إنه إلى جانب ما عُرف

= « وفي يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الآخرة [٣٣٤ هـ] انحدر معز الدولة إلى دار الخلافة ، فسلم على الخليفة ، وقبل الأرض ، وقبل يد المستكفي ، وطرح له كرسي فجلس . ثم تقدم رجلان من الديلم ، فمدا أيديهما إلى المستكفي وطالبا بالرزق . فلما مدا أيديهما ، ظن أنهما يريدان تقبيل يده ، فناولها يده ، فجذباه ، فنكساه من السرير ووضعا عمامته في عنقه وجراه . ونهض معز الدولة واضطرب الناس ، ودخل الديلم إلى دور الحرم . وحمل المستكفي راجلاً إلى دار معز الدولة [هي دار المملكة المعزية الآن بالمخرم . أما الدار المعزية موضوع بحثنا ، فلم تكن قد بنيت] فاعتقل بها ، وخلع من الخلافة ... » .

(١) المنتظم ٧ : ٣٦ ، والوفيات ١ : ٧٩ والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير ١١ : ٢٦٢ ، وتاريخ أبي الفداء ٢ : ١٨٩ طبعة ريسك Reiske سنة ١٧٩٠ م .

(٢) الرفيل ، بالتصغير ، نهر كان يصب في دجلة بغداد عند الجسر . (راجع : معجم البلدان ٤ : ٨٣٩ طبعة وستنفلد) .

(٣) النهروانات ثلاثة : أعلى وأوسط وأسفل . قال ابن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ هـ :

(مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٣ : ٢٥٣ — ٢٥٤ طبعة جوينبل) وهو ممن يعتمد على قوله في هذه الأمور « إن النهروانات » كورة واسعة أسفل من بغداد ، من شرقي تامرا ، منحدراً إلى واسط . فيها عدة بلاد متوسطة منها : إسكاف وجرجرايا والصافية ودير قُنّى وغير ذلك . وهو نهر يأخذ من تامرا ، قد كان على فوهته مسلحة ذات أبواب تسد عند قلة الماء ، وتفتح عند زيادته ترد الماء عليه . ومدنه وقراه باقية إلى الآن ، لكن ليس فيها أحد لانقطاع الماء عنه بسبب خراب المسلحة التي كانت ترد الماء عليه ، حتى لم يبق لها أثر . كان على فوهته قرية كبيرة ومدينة فيها سوق كبير وعالم كثير ، كانت تعرف بالنهروان ، خربت في زماننا وخلا أهلها عنها ، بما كانت تعمل المكاييل الحديد من غزاري العلة ، — ومكاييل البزر وغيرها التي كان يقال بنسبها ، حتى أنه لم يبق بالعراق أحد يعملها . وقد كانت المسلحة بثقت مرات في أيام معز الدولة بن بويه حتى انبثقت في آخر مرة وأهملت بعد ذلك حتى لم يبق لها أثر » . اهـ .

وقد أوضح ياقوت (معجم البلدان ٤ : ٨٤٧) السبب في خراب النهروان بقوله : « . . . وهو الآن خراب ، ومدنه وقراه تلال = رآها الناس بها والجيطان لائمة . وكان سبب خرابها اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضاً في أيام السلجوقية ، إذ كان كل من ملك لا يحفل بالعمارة إذ كان قصده أن يحوصل ويطير ، وكان أيضاً ممر العساكر فجلا عنه أهله واستمر خرابه ، وقد استشعر الملوك أيضاً من تجديد حفر نهره وزعموا أنه ما شرع فيه أحد إلا مات قبل تمامه » .

ثم زاد ياقوت على ما تقدم قوله (معجم البلدان ٤ : ٨٥٠) : وبقي البلد خراباً مدة أربع عشرة سنة حتى فني أهله والقرية والموت إلى أن قيض الله معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه الديلمي فسده بعد أن سد مراراً ، فانقلع ووقع الناس منه في شدة ، فتلافى الله سده بأن التيسير ممن بقي من أهله وتراجعوا إليه » . انتهى

وأحسن من كتب عن النهروان من الباحثين المتأخرين ، العالم الانكليزي فليكس جونس G. Felix Jones في مذكراته (Memoirs) المطبوعة في بمبي سنة ١٨٥٧ م وعنوان بحثه :

Journey For The Purpose of Determining The Tract of The Ancient Nahrwan Canal Undertaken In April 1848 (PP. 33-134).

وجاء من بعده السر وليم ولكوكس Sir W. Willcocks فدرس النهروان مؤيداً بحوث جونس ، وأودع ذلك كتابه :

The Restoration of The Ancient Irrigation Works on The Tigris or The Re-creation of Chaldea (Cairo, 1903).

(١) السندية من قرى بغداد ، على نهر عيسى ، بين بغداد والأنبار (معجم البلدان ٣ : ١٦٨) .

(٢) المنتظم ٧ : ٣٩ .

(٣) البداية والنهاية ١١ : ٢٦٢ .

(٤) تاريخ أبي الفداء ٢ : ٨٨ ، وحاشيته : فضل ومرعوش .

عنه عن ظلم وجَوْر وعسف وأذىً للناس ، كان حازماً سائساً مهيباً[1] حليماً كريماً عاقلاً[2] .

وأصيب معزّ الدولة فى آخر عمره بعلّة الذَّرَب ، فصار لا يثبت فى معدته شئ بالكلية . وتوفى فى السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ستّ وخمسين وثلاثمائة ببغداد ، ودفن فى داره ، ثم نُقل إلى مشهد بُنى له بباب التبن فى مقابر قُرَيش[3] .

وعاش معزّ الدولة ثلاثاً وخمسين سنة ، وخلفه من بعده ابنه بختيار الملقّب بعز الدولة ، وكان دون أبيه سطوة وتدبيراً . وليس من شأننا الكلام عليه فى هذا المقال .

(يتبع)

كوركيس عواد

(١) شذرات الذهب ٣ : ١٨ .
(٢) البداية والنهاية ١١ : ٢٦٢ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٧٩ والبداية والنهاية ١١ : ٢٦٢ .

أدب الشيوخ وأدب الشباب

سيدى الأستاذ الجليل .

تحية وبعد — عندما بعثتُ بكتابى ، الذى تفضلتم فنشرتموه معقبين له بالعدد ٢١٧ من الثقافة ، لم أكن أحسب أنه سيُخرج خصومةً مُستكِنة ، أعلنتها وقلت بأنها دفينة وقديمة ، ولم تتفضل فتحدثنا عن وقائعها وتاريخ قِدَمها .

وفى الحق أن شباب الأدباء أو أدباء الطليعة لا يعرفون هذه الخصومة وإن تعرّفتها إليهم وحدهم ، فهم لا يجدونها فى قلوبهم لشيوخ الأدباء أو لأدباء الشيوخ ؛ لأن شباب الأدباء لا ينكرون أدب الشيوخ ولا يجحدون أثره فى ثقافتهم ، ولهذا يرون من البِرّ بأساتذتهم أن يتحدثوا بفضلهم ، وأن يذكروهم بالخير كما ذكرهم الذاكرون .

إن الخصومة يا سيدى الأستاذ لا تكون إلا حيث يكون الجحود أو الانكار ، وما كان للشباب أن يجحد أو ينكر أدب الشيوخ ، ولكن حز فى نفوس الشباب حقاً أن ينكر أساتذتهم عليهم أدبهم وإنتاجهم ، وأن يعتبروا جيدهم تعبيراً مكشوفاً إن دلّ على شئ ، فإنما يدل على أن الشيوخ قد فقدوا العطف الأدبى على أبنائهم الشباب ، فما كان أجدركم أيها الآباء الأدباء بوصية حسنة من الله كريمة بوصيكم بأبنائكم أن تشفقوا وتعطفوا ، وأن تحبوا وتغتبطوا ولا تُعَيّروا .

لقد أنكرت يا سيدى أدبَ الشباب ، فكان منك الحد منه فى لون واحد من ألوان الأدب وصفته بأنه الأدب الحالم أدب الغرام والهيام ، ثم قلت : « أمّا أن يكون الأدب على هامش الحياة ، فالجزاء الوفاق أن يكون أدب الهامش هامش الأدب » .

وهذه تهمة أُلصِقَت على وجه التعميم بشباب الأدباء ، وإن كانت متصلة بطبيعة حياتهم وآمالهم وخيالهم ، ولكنها على أى حال تهمة مُشَرِّفة باعثة على الخَلْق ، والإيحاء والإيجاد متى أحسن الشباب تدبير عواطفه ، وصرف انفعاله إلى صور جميلة من الخيال والسمو والتسامى بالروح إلى أشرف الغايات . وهذا طَوْرٌ من الأدب يجب أن يكون فى حياة الأديب ، إن خلت منه لغة جمدت أفئدة بنيها ، وتصلبت شرايين حياتها . ومَن غير الشباب يجول هذا المضمار من الأدب ؟ أتريد من الشيوخ أن تتصابى أم تريد من الشباب أن يتصنعوا الحكمة والوقار ؟ إن هذا لن يكون أدباً ، لأن الأدب صورة منتزعة من الحياة ، فهو جميل من الشباب إذا صور الشباب حقاً ، وهو جميل من الشيوخ إذا صور الحكمة والوقار حقاً

فهذا اللون الحالم من الأدب لن يكون على هامش الأدب إذا ما صدر عن قلب الشباب الحائر الضال وراء أنشودته وآماله المتشوقة المتشوّفة وبدا فى صحراء الحياة ، ولكنه يقع من هامش الأدب إذا ما صَدَرَ عن قلب يَحْتَرُّ الماضى ، هرم تركه الربيع يابساً محروماً ! ولهذا قلتُ أفهم كيف تلوم الشباب على أنه صادق التعبير والأداء عن شعوره وحسه ووجدانه . ومع ذلك ، فليس هذا اللون

من الأدب هو وحده جهد أدباء الشباب ، وإنما جهدهم قد بذلوه سخياً منذ عشرين سنة أو يزيد ، عندما تفتحت عيونهم ، فلم يجدوا غير أدب المقامة ثم أدب المقالة ، فلم يرقهم هذا اللون من الأدب فشقوا سبيلا جديداً ، ونهضوا بأعباء القصة والرواية على الرغم من أن ذلك العصر لم يكن متهيئاً لقبول هذا اللون الجديد من الأدب لحرمانه من عناصره الحيوية الفعالة كالمرأة وحرية التعبير ، وصراحة الشعور والأداء ، ولكن شباب الأدباء قد نجحوا فكتبوا القصة وألفوا الرواية ، حتى أصبحت لوناً قائماً في حياة الأدب ، ليس في مصر وحدها ، بل في جميع الأقطار الناطقة بالعربية وليس من الهين اليسير أن ينشيء الأديب قصة أو رواية لأن هذا الإنشاء يحتاج إلى جهود أدبية وفكرية ونفسية لا تطلبها المقامة أو المقالة . وهل من يبني بيتاً من طابق واحد كمن ينشيء ناطحة سحاب أو عمارة أو مدينة ؟

لقد قضى شباب الأدباء على عصر المقامة والمقالة ، وأنشئوا عصر القصة والرواية ، فالقصة صورة منتزعة من الحياة ، بل هي الحياة متحركة دائبة في كتاب . فمن من شيوخ الأدب — غير صاحب الأيام — كتب روايته ، وعاش في روح الشباب المتجدد ، ومن من شيوخ الأدب فعل ما فعله ولم يزاول شؤ الهرم المتهدم الذي يعيش دائماً في روح مريحة لا تشيخ ؟؟

والمسرح يا سيدي الأستاذ هو الآخر ميدان اقتحمه أدب الشباب ، وتركه الشيوخ هزؤاً وسخرية ، ثم عادوا إليه ولكن بعد أن فاتتهم القافلة ، أو بعد أن تركهم القطار فعادوا إلى أدب المقالة يدبجون ويكتبون إنشاء وتنميقاً ، ثم يؤلفون ما يكتبون في كتاب ، كمن يجتر طعاماً مختزناً ، ولهذا ، وفي هذا هم أكثر نتاجاً ، وأكثر تجويداً !

و « السينما » يا سيدي الأستاذ هي الأخرى مجال التأليف لأدباء الشباب ، ولقد أسعفنا « السينما » مجاراة للعصر الجديد ، لئلا تتهم اللغة العربية بالقصور والقعود ، ولأن أدباء الشيوخ لم يرغبوا في هذا اللون الأدبي ، حرصاً على أدب المقالة والفصول — وأما أدب الحياة ، أدب الأيام ، أدب المجتمع أدب البيت والأسرة والشارع والعالم فليترك لهؤلاء المهووسين الذين تغريهم الحياة الجديدة في مباهجها ومباذلها .

فمن من شيوخ الأدب — غير صاحب الأيام — من أسعف الحياة الأدبية الجديدة قصة ومسرحا و « سينما » ، ومن منهم من أمدها بما تطلب من صور شتى منتزعة من صلب الحياة المليئة بالعقد الاجتماعية والاقتصادية والتناقضات في التفكير والتشريع والعواطف والآمال والأطماع ؟ ألم ينهض أدباء الشباب بهذه الأعباء ؟ أليس ينبغي أن تنكر عليهم هذا الجهد المبذول وتعيرهم بأن أدبهم هو أدب حالم وبأنه أدب على هامش الحياة ، ولن يزراء الوفاق أن يكون على هامش الأدب !

ولقد نهض شباب الأدباء بأعباء أدبية شاقة وعسيرة . أليس الذين ينقلون دائرة المعارف الإسلامية هم من طليعة أدباء الشباب ؟ ولقد نهضوا بها قبل أن تكون مجلة الثقافة مع احترامنا لجهدها وإقرارنا بفضلها . وللشباب جهد أدبي آخر نفسه في قاعات المحاكم وفي المرافعات ، فلهم في هذا المجال ما يرتفع على أدب المقالة بياناً وبلاغة وتجويداً . والإذاعة اللاسلكية وما أدخل عليها من حوار وأدب هي الأخرى جهد مشكور لشباب الأدباء دل على دقة ذوق وحسن اختيار وتوفيق .

إن مجال الشباب هو مجال الحياة لأنهم عصبها ومادتها ولأن تفكيرهم وأدبهم إنما هو انفعال دائم لوعيهم وحسهم مع عناصر الحياة التي يعيشون فيها ، فهم الينبوع المتدفق في صحراء هذه الحياة .

إن أدباء الشباب يا سيدي الأستاذ يفهمون الأدب فهماً قد يختلف عن فهم أساتذتهم شيوخ الأدب ؛ فهم يفهمون الأدب على أنه صورة لتفاعل وعي الأديب بحياته الخارجية المشتملة على الجهد في المنزل ، والبيئة والتفكير والعاطفة والعقيدة والعرف متأثرة بالعادات والوراثات

والقوانين والشخصية الحافزة للأديب ذاته — وإن هذا الأدب لن يكون أدباً حياً ، إلا إذا صَوَّرَ هذا التفاعل تصويراً صادقاً حقاً ، وهو لن يكون إلا متى كان الضمير ، فإذا وُجِدَ الضمير وجد الأدب .

وأدباء الشباب يا سيدى الأستاذ لا يفهمون الأدب على وضعه المحدود فى الأثر البيانى وحده ، وإنما الأدب هو أداء فنى أوسع نطاقاً من هذا الأثر الإنشائى ؛ فالفنون جميعاً موسيقى وتصوير وتلحين وغناء ورقص ورمز هى أداء أدبى يصور انفعالات نفسية لوحى الأديب أو الفنان ، وهذا الأداء وإن اختلف فى طريقة الإخراج هو أدب متصل برسالة الشباب فى الحياة .

ولقد أسفت عند ما وجدت سيدى الأستاذ الهادى الكريم يُعَيِّرُ أدباء الشباب فيقول لهم : « إن كان الشيوخ يحاربونكم فى مجلاتهم فأين مجلاتكم ؟ وإن كانوا يحاربونكم فى الأسواق فأين كفاحكم ؟ » غفر الله ولكم ، فمن قال إن الشيوخ يحاربون ، ومن قال إن الأدب تجارة تحمل على الأكتاف يطاف بها فى الأسواق ؟ إن الأدب الرفيع لا يغنيه تقدير العامة ، وإنما هو كالتحف تجله الخاصة وتقتنيه ، وما أرخص هذا الأدب الذى يتخذ تجارة وسلعة أسواق . كل ما فى الأمر أننا لجأنا إليكم ، فأصابنا ما أصابنا منكم ، ثم كنتم كمن يُعَيِّرُ ضيفه فى بيته . ولكن تفكيراً قليلا يعيد إلينا الأمس ، فأدباء الشباب وإن كانوا لم يجتمعوا إلى اليوم فى مَقَامَةٍ واحدة أو حول مجلة معينة ، فهذا لأنهم يؤدون رسالة شائعة للكافة تلبية للحياة ، فجميع المجلات التى تظهر فى مصر هى صحف منشورة للشباب ، فأقلامهم تحررها وتمشيها ، وليس فيها غير الثقافة وحدها هى التى شاءت أن تكون لشيوخ الأدباء ، وأن تحرص على هذا الرداء المرعى الوقور .

إن أمامى طائفة من أسماء المحررين ورؤساء التحرير فى جميع المجلات التى تظهر بمصر ، وإنى لأجد أكثرهم بل جلهم شباب متطلع دائب التفكير والتجديد وليس فيهم غير قليل من الشيوخ الأجلاء ، بل أنى لألاحظ أن المجلات العريقة فى القدم كالمقتطف والهلال قد سايرت العصر فخَصَّصَتْ شباب الأدباء عنصراً مجدداً لحياتها وقوتها ومستقبلها .

ولم يكتف سيدى الأستاذ بهذا التعيير فقال : « إن كل ما فى الأمر أن الشبان يرون إقبال الجمهور على مقالات الشيوخ وكتبهم ، أكثر من إقبالهم على مقالات الشبان وكتبهم ، فيحز ذلك فى نفوسهم » وفى الحق أن الشباب لا يحز فى نفسه أن يرى أدب الشيوخ مقروءاً ، ولكن يحز فى نفسه أن يشعر بأن الشيوخ تضعه منهم موضع الخصومة . ومن عَلَّمَ سيدى الأستاذ أن الجمهور مقبل على مجلته لأن الشيوخ هم الذين يحررونها ؟ فقد يكون إقبال الجمهور راجعاً إلى معنى آخر أو حقيقة أخرى ندركها إذا وجدنا أسماء جديدة طالعة فى صفحات الثقافة ، مبتغية جديد البحث وشيِّق التفكير . وهذه الأسماء هى الأخرى لأدباء الشباب ، ولا أحب أن أسمى أو أمثِّل .

ولقد أخذ سيدى الأستاذ على الشباب تقليده للأدب الغربى وإقباله عليه . وإنى لأضع إصبع الأستاذ على موضع الداء ليعرف الدواء ، ذلك لأن شيوخ الأدب العربى لم يعرفوا كيف يحببون الشباب فى هذا المعين الجميل الفياض بل إنهم بطرائقهم الموروثة ، قد عملوا على تغريبهم من هذا الأدب الحى الخالد ، مع أنه مبعث الوحى والتفكير والخلق والإخراج — فمجلاتنا خالية من هذا الملاح الفنى الرائع الذى يُلهم قلوب الشباب محبة لغتهم ، ويصرفهم إلى عقب آدابها . لهذا انصرف كثير من الشباب عن الأدب الرفيع إلى غيره من الآداب الغربية الرفيعة ، وليس الذنب على الشباب وحدهم ، ولكن التقصير ظاهر إلى من يُرَدُّ .

وهل يأذن سيدى الأستاذ فأخاطبُ شيوخ الأدباء كما خاطب شبابهم ملتمساً بعض ألفاظه فأقول : وازنوا — أيها الشيوخ — بين ما ينتجه الشباب على ضعف جاههم وقلة مواردهم وكثرة أعبائهم وتعقد آمالهم ، وما ينتجه الشيوخ مع قوة سلطانهم وبسطة أرزاقهم واعتزازهم

بأسمائهم وألقابهم ونفوذهم ، تروا أن الشباب أعز نتاجا وأكثر تجويداً ، وتواضعاً .

وبعد — فأنا أرجو أن يثق سيدى الأستاذ بأن لامحل للخصومة بين شباب الأدباء وشيوخ الأدب ، وإنما هو التعاون الفكرى يجب أن يحل محل هذا اللون من المفاخرة . وليس أحب إلى الشباب من أن يجلس دائماً من أساتذته مجلس التلميذ طاعة وبراً واحتراماً .

محمود البحيرى

(الثقافة) : أؤكد للكاتب الفاضل أنى قرأت مقالة فى لذة وسرور ، لا كما قرأ مقالى فى غضب وهياج ، وهذا هو الفرق بين الشباب والشيوخ . وأؤكد له أيضاً أنه يسرنى كل السرور أن يكون ما كتبه صحيحاً ، وأن يكون الشباب قد فتحوا أبواباً من الأدب عجز عنها الشيوخ ، فليس أحب إلىّ من أن ترفع مصر والعالم العربى من رسم مثلها العليا على يد شبابها ، ولو أدى ذلك إلى انهيار شيوخها ، وكم كان بودى أن أفاخر بما فعل الشباب فى المسرح ، وبما أخرجوا من تصوير الحياة الاجتماعية فى الشرق بعد دراسة عميقة ومعرفة تامة بأصول الفن ، وكم كان بودى أن يكون ما أخرجوا على المسرح وعلى الشاشة البيضاء ابتكاراً لا ترجمة واقتباساً ، وكم كنت أتمنى وقد فتحوا باب القصة أن يتقنوه وأن يجودوه ، وألا يكون مهلهلا إلا فى القليل النادر وأن يكونوا وقد نقلوا دائرة المعارف الإسلامية إلى العربية قد أتقنوا دراسة التاريخ الإسلامى ، وبحثوا فيه وألفوا ، وأن يجرى فى عروقهم دم الشباب ، فيعكف فريق منهم على التاريخ الإسلامى والآداب العربية ، فيتبحروا فيهما ويجيدوها ، وأن يروا سوء النهج الذى وضعه شيوخهم ، فيكملوا أنفسهم بأنفسهم كما فعل كثير من هؤلاء الشيوخ ، علموا أنفسهم لغة ، وعلموا أنفسهم تاريخاً إسلامياً وأدباً عربياً ، وكان النهج الذى تعلموا عليه أسوأ من منهجكم ، وخرجوا من مدارسهم أجهل مما خرجتم ، فأنشئوا لأنفسهم مدارس كانوا هم فيها واضعى النهج والأساتذة والطلبة معاً .

ثم — يا أخى — أظنك لم تقرأ مقالى إلا غاضباً ، ولو قرأته ثابتاً هادئاً لما وقعت فيما وقعت فيه من التناقض العجيب فلم أعتب على الشباب أن يكتبوا فى الحب ، وأن يسمعوا لنداء قلبهم الحائر وراء أنشودته المتنقلة رويداً فى صحراء الحياة . ولكنى عتبت عليهم أن يكون ذلك كل همهم ، ودعوت إلى أن تنصب بعض حرارتهم فى مشاكل أممهم ، وأن ينتقلوا أحياناً من صحرائهم إلى ريفهم ومدنهم وألا يعيشوا دائماً فى خيالهم بل يتواضعوا أحياناً ويلمسوا واقعهم ، ولذلك سرنى أنك عدلت عن قولك الأول سريعاً وقلت « إن مجال الشباب هو مجال الحياة لأنهم هم عصبها ومادتها ، وتفكيرهم وأدبهم اتصال مع عناصر الحياة التى يعيشون فيها » .

وتقول إن مجلة الثقافة هى وحدها التى شاءت أن تكون لشيوخ الأدباء ، وأن تحرص على هذا الرداء المرمى الوقور » .

ثم تقول بعد أسطر قليلة إن الجمهور مقبل على هذه المجلة لا لشيوخها ، ولكن لما يكتبه شبانها .

فإذا أنا قارنت بين مقالك الأول ومقالك الثانى رأيت منطقاً غريباً ، فشيوخ الأدب « يحجبون الشباب عن المسرح » فى المقال الأول ويهملون أدبهم ، وفى المقال الثانى يفسحون صدورهم حتى يحتل الشباب كل جريدة وكل مجلة ماعدا الثقافة فى أول المقال الثانى ، وحتى الثقافة فى آخر المقال .

أمنطق هذا ؟ وهل أستمر فى متناقضاتك ؟ هذا باب من أبواب التجويد الذى أدعو الشباب إليه .

وبعد ، فماذا يريد الشباب ؟ أيريد أن يكون مقياس الأدب وما ينشر وما لا ينشر هو السن ؟ وإذن فيجب على كل صاحب جريدة ومجلة أن ينشر للشباب ما يقدم إليه حسن أم ساء ، ويرفض ما يقدمه الشيوخ حسن أم ساء ، وتكون النتيجة أن يكون المقال مصحوبا بشهادة الميلاد أو شهادة مصدق عليها من الطبيب إن فقدت شهادة الميلاد،

وتكون سن الثلاثين فما دونها شهادة الجواز وما فوقها شهادة الحرمان ؟

أو يريدون أن تكون المجلات والجرائد كراسات إنشاء يتعلم فيها الشباب ما يكتب حتى يتم مدة تمرينه ، وقد يكون هذا اقتراحاً في محله لو أن القراء أفسحوا صدورهم وأقبلوا على قراءة موضوعات الإنشاء من غير ملل ، ولم ينصرفوا عن المجلة سريعاً .

أو يريدون أن يكتبوا مايشاءون ويملؤا البلاد حباً مائعاً وغزلا ذائباً وأدباً لاهياً ، فإذا قال لهم الشيوخ جدوا بجانب لهوكم ، واعقلوا بجانب حبكم ، وراقبوا الأخلاق في أدبكم ، قالوا إن الشيوخ يحجبوننا عن المسرح ، وإذا قدموا لهم النصيحة الأبوية الهادئة استخرجوا كل ما في جعبتهم من سباب وتلميح وتعيير ؟

الحق أني قلبت دعوة الشباب على وجوهها فلم أفهمها ، ورأيت ألا يمكن أن يستقيم أمر مجلة جدية إلا إذا كان مقياسها الجودة كائنة لمن كانت ، لشيخ أو لشاب ؛ وإذن ينهار السن وتنهار شهادة الميلاد ويصبح الأمر موقوفاً على التقويم الذاتي لما يكتب . وها نحن تأتينا المقالات من أقطار العالم العربي فلا نعرف قائليها ولا نعرف سنهم فننشر ما جاد منها مغتبطين ، ولا ندري ألشيوخ هي أم لشباب ، وكذلك تفعل — فيما أظن — كل مجلة .

كل ما يمكن أن يكون لقولكم من وجاهة أن الشيوخ إذا أشرفوا على مجلة قد يرفضون مقالا لشاب بمقياس ذوقهم قد ترتضونه أنتم بمقياس ذوقكم ، ولكن كيف تكلفونهم أن يتذوقوا بغير ذوقهم ، وأن يحكموا بغير ضميرهم ؟

فإن أردتم مجلة تعليمية أو مجلة مقياسها ذوق الشباب لا غير ، فقوموا بها أنتم ، تكتبون وتتذوقون وتصححون ، وتزعمون الناس أن يتذوقوا ذوقكم وحدكم .

وإذا تبين أن من الواجب انعدام السن في القياس وبقي مقياس الجودة وحده ، فلا معنى لصيحة شباب وشيوخ ، ولا لدعوة إلى معسكرين ، فدولة الأدب غير مصلحة الصحة ودفتر المواليد ، هي دولة ينعدم فيها مقياس الزمان والمكان ، ولا اعتبار فيها إلا للموضوع وعرضه وفنه .

وأخيراً أحب أن تعلم ويعلم إخوانك الشباب أن ليس المرض الذي رميت إليه فخراً ولا مباهاة ، فويل لمن اعتد بنفسه وباهى بها ، وإنما أردت حث الشباب على الإجادة والجد وبذل الجهد فيما ينتجون .

وإذا أردت الحق فلا الشيوخ أدوا ما عليهم ، ولا الشبان قاموا بواجبهم — وإذا قسنا أعمالنا بأعمال الأدباء في الأمم الحية حزنا معاً ، وأدركنا أننا لم نقم * علينا من تبعات إلا بالقليل التافه الذي يخجل منه الشيوخ والشبان على السواء ، انظر إلى كل باب من أبواب الأدب سواء ما عالجه الشيوخ أو الشباب تر العجب — أين الكتب التي يقرؤها أبناؤنا وبناتنا ، فتثقفهم وتملأ حياتهم متعة وفائدة — دلني على كتاب واحد في اللغة العربية للتاريخ الاسلامي شامل ألف بروح العصر وبما وصل إليه العلم ، ودلني على كتاب واحد واف في الأدب العربي أعرف منه تطوره وتياراته في جميع عصوره — ودلني على معجم لغوي واحد كتب للقرن العشرين ، ودلني على دائرة معارف واحدة يرجع إليها مثقفونا فيما وصلت إليه العلوم والفنون ، ودلني على المسرحية العربية و « السينما » العربية التي إذا شاهدناها اعتززنا بها ؟ — قارن بين الفتى أو الفتاة يتعلم لغة أجنبية في مدرسة أجنبية ، فيضع يده على ثروة لا تقدر ، وفتى أو فتاة لا يعرف إلا اللغة العربية ، وقل لي أين ثروته ، تعال معي نجمع شبابنا وشيوخنا ، ونرم بهم إلى الجحيم بما أهملوا ونحن معهم .

أفيعد هذا الفقر المدقع نسمع صوتاً للمفاخرة بين شيوخ وشبان وليس ما يفخر به ؟ خير لنا أن نتوارى جميعاً من سوء ما نحن فيه ، ونتعاون معاً على سد هذا النقص الفاضح ، ويبذل كل جهده لتكون الأمة أمة والأدب أدباً ، ولتمت هذه النزعة ، ولتكن هذه آخر كلمة للثقافة في هذا الباب .

أحمد أمين

قصة شهر زاد :

شهرزاد دى رينييه

لم يكن الأستاذ الأديب الكبير توفيق الحكيم أول من فطن إلى بعث شهر زاد من مرقدها فى قصة ألف ليلة وليلة ، فقد كان أهل الغرب يعجبون بها ويقصصها منذ مئات من السنين ، وكان اسمها عندهم تحيط به هالة متلألئة من نسج الخيال ، وجعلوها رمزاً لما فى الحياة الشرقية من أسرار غامضة ، ومن نعيم حسى ، ومن جمال جسدى .

ومن بين المؤلفات التى ظهرت تحمل اسمها قصتان قصيرتان من تأليف الشاعر والقصصى الفرنسى هنرى دى رينييه ، وهو الذى ذكره الأديب الجليل الدكتور طه حسين فى قصته (القصر المسحور) .

أورد الدكتور اسم ذلك الشاعر عرضاً فى أول صفحات (القصر المسحور) فكانت هذه إشارة كريمة فيها معنى الإنصاف ومعنى الاعتراف ، وفيها معنى التكريم ، واسنّ بذلك للأدباء سنة نبيلة أن يعترفوا لمن يجب لهم الاعتراف بالفضل من زملائهم ، وكأنى به كذلك يقوم بأداء الواجب عن زميله وصديقه الأستاذ الحكيم الذى ألف شهر زاده بعد ظهور شهرزاد رينييه .

لسنا نريد أن نزعم هنا أن هناك شيئاً من الشبه بين فكرة دى رينييه وفكرة الأستاذ الحكيم ، ولسنا نزعم أنه كان من الواجب الحتم أن يشير الحكيم إلى فضل الشاعر الفرنسى فى أول قصته . بل إننا لا نعرف إذا كان الحكيم قد قرأ قصتى دى رينييه قبل أن يؤلف شهرزاده أو لم يقرأهما ولكننا على أى حال لا ننكر أننا شعرنا بأعظم الارتياح عندما رأينا طه يذكر الشاعر الفرنسى ويترحم عليه بكلمة كريمة .

وإنا نرى من الخير أن نلخص القصتين الفرنسيتين لكى يرى القارئ لنفسه رأياً فيهما ويتبين لنفسه أى سبيل سلك الشاعر الفرنسى فى فنه وأى سبيل اختط لنفسه الحكيم .

أما القصة الأولى من قصتى دى رينييه ، فهى قصة « ترمل شهر زاد » ، وفيها صورة لشهر زاد بعد أن انتهت من قصصها إلى الملك شهريار ، واطمأنت إلى أن ذلك الملك السفاح قد تغير وعدل عن حنقه ، ودخلت إلى قلبه الرحمة الإنسانية . وهاك مجملها :

« قضت شهر زاد ليلة مؤرقة ، وكان اليوم الذى تلاها تثقله الشمس بحرها الموقد الذى كان ينفذ فى الهواء ، ويشيع فيه حتى صارت أنفاسه كما تكون أنفاس اللهيب ، ولم تكن من حيلة تجدى فى تخفيف الهواء . كانت أرق الشفوف فى هذا الحر كأنها تثقل بنوء بحمله الجسم ، وكانت المراوح تداعب بأجنحتها الهواء ، ولكنها لم تغد شيئاً فى تلطيف حر الظلال اللافح . . . .

تجردت شهر زاد من ثيابها لتتخفف من حملها حتى لم يبق عليها إلا ما بقى بالستر ، حتى قلائدها وخواتمها وأساورها قد خلعتها جميعاً ، ثم ذهبت بعد ذلك إلى (جوسق) اختارته فى حدائقها ، وكان جوسقاً عجيباً من البلور تتلاعب حوله فوارات تتدفق المياه ، فتجعل منها له تاجاً ليناً له بريق وتلألؤ ، ولكنها مع كل ما أحاط بها من جمال المنظر وغناء الطير لم تجد هناك ما يزيل عنها ضيق ذلك اليوم وحر أنفاسه .

وزاد ضيقها مما وجدته فى نفسها فوق ذلك كله من أن الملك شهريار لم يستمع فى ذلك اليوم إلى قصتها كما اعتاد أن يستمع إليها ، فقد كان قاراً منصرفاً عنها غائباً فى تأمل ما فى نفسه هو من الأفكار مستغرقاً فيها ، فكان مطرقاً وهى تقص عليه من بدائعها يعبث بلحيته التى لاحت فيها خيوط من الشيب ، وكان فى منظره ما ينم عن هموم مبرحة تعمر قلبه . فلما انتهت شهر زاد من حديثها لم ينتبه ولم يشكرها ولم يطرفها بما اعتاد أن يقدمه إليها فى مثل تلك الساعة من علامات الرضا ، فكان ذلك كله دليلا واضحاً على ما فى صدره من الهموم والشواغل العظمى . وقد تأثرت شهر زاد من ذلك أيما تأثر ، وأحست من إهمال الملك وإطراقه لذعة ألم أصابتها فى عزتها وكرامتها ، وهى من هى فى أعين العالم كله وفى أعين النساء من أهل هذا العالم خاصة . أليست هى التى خلصتهن من فتك الملك وعسفه وبطشه ؟

وكان من أشد ما آلم نفسها من أثر انصراف شهريار عنها أنها عندما انتهت من قصتها لم يلق إليها تلك الأسئلة التى ما فتئ منذ عرفته يلقيها إليها كلما انتهت من قصة يوماً يستوضحها بها عن شخوص حديثها ، وعن حوادث حكايتها . إنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل انصرف إلى نارجيله ، فأثار دخانها وهو لا يزال مطرقاً صامتاً . وبعد حين أتى إليه الوزير (كرندار) .

وكانت شهرزاد تكره هذا كل يعاندها به ويفسد به الملك عليها من نصحه وعطفه . فقد أتى إليه الوزير فى ذلك اليوم وجعل يصف له ضيق الشعب به ، لما نزل به من شدائد بعثها عليه حروبه الشديدة كما بعثها إسرافه واستهتاره ملاذه ، وكانت شهرزاد تكره ذلك الوزير لأنه كان يراقبها ويحيطها بعيونه ، ويبعد عنها كل من قد ترتفع عينه إلى التطلع إليها مع أنها امرأة ، والمرأة تحب أن ترى نفسها موموقة بنظرات تنم عن الإعجاب بحسنها . فقد كان وجه شهريار جامداً لا يبعث فيها مثل تلك اللذة والسرور .

وجعل (كرندار) يحدث شهريار عما يثور فى نفوس شعبه من ألم وغضب واستياء ، وشهرزاد تسمع قوله مع أنه كان يقوله همساً ، فهى ككل النساء مرهفة السمع لا تفوتها كلمة وإن كانت همساً ، وكان شهريار فى أثناء حديث وزيره مطرقاً يعبث بأطراف لحيته حتى انتهى (كرندار) من مساررته ، فخرج الملك معه متكئاً بيده على كتفه بغير أن يلتفت التفاتة إلى شهرزاد ، فقامت هذه محنقة حزينة عائدة إلى مكانها من القصر .

وجاشت الهموم والأفكار فى رأسها ، وهى فى وحدتها وعادت إليها الذكريات البعيدة ولا سيما ذكرى حداثتها وهى لا تزال ابنة ذلك الإسكاف — نعم فقد جعل ذى ريقبيه شهرزاد ابنة إسكاف مع أنها ابنة الوزير الخطير — ذلك الإسكاف الذى كانت له مهارة فى فن الحديث والقصص ، فنقلها من ذلك ما أتى فيها تلك القدرة العجيبة على ابتداع الحوادث ورسم الأشخاص .

واستمرت شهرزاد فى تأملاتها وذكرياتها ، حتى أثقل النوم جفنيها ، وذهبت فى نوم كان قد استعصى عليها ، وخيل إليها وهى فى نومها أنها تسمع صيحة غريبة ، ووقع أقدام فى حدائق القصر وعلى سلالمه . ودارت فى خيالها ظنون ومخاوف ، فهل ثار أهل بغداد بملكهم ؟ أم هى نار قد اندلعت فى جوانب القصر ؟ أم هو زلزال هز أركانه ؟ أم هم الأعداء قد أغاروا فجأة على العاصمة فرجوها رجاً ؟ أم هى بقية من بعض قصصها ، لا تزال تضطرب بها وهى نائمة ؟

لا ، لم يكن هذا ولا ذلك ، ولكنه رجل هناك كان واقفاً حيال سريرها ، قد خلع عمامته ورفع يديه أمامها تقطر دماً ولم يكن شبحاً ولا روحاً ، بل هو رجل قد عرفته بصفرة وجهه وطول أنفه وعينيه اللامعتين . فهو الوزير الأكبر (كرندار) جاء إليها بيدين تقطر منهما الدماء ، لكى يقص عليها نبأ مقتل شهريار ، ثم قص عليها مأساة الملك ، ووصف لها مقتله الذى لم يعرف أحد شيئاً من أسبابه ولا أشخاص مقترفيه ، ثم عرض عليها أن تكون ملكة بعده ، وأن تجعله هو وزيرها إذا شاءت أن تتقى النزوح من بغداد ، أو كانت حريصة على الحياة .

وهكذا صارت شهرزاد ملكة فى بغداد بعد ترملها .

فلما صارت شهرزاد ملكة اعتراها من السأم والضجر ، مثل ما كان يعترى شهريار ، ولم تجد حيلة فى ذلك السأم إلا أن تفعل مثل شهريار فتدعو أصحاب القصص إلى تسليتها على أن تقطع آذان من لا يعجبها قصصه منهم ، فإنها لم تستطع أن تجارى شهريار فى قطع الرؤوس .

وهكذا كان . وازدحمت بغداد لندائها ، وازدحم أهل القصص على أبوابها وكم ثارت فيهم الآمال ، وكم قطعت بعد ذلك منهم الآذان حتى ملت شهرزاد من قطعها ، فعدلت عن سماع القصص ، وجعلت تلتمس التسلية عبثاً من مفاتن حياتها ومباهجها وترفها ، بل لقد فكرت فى بعض الأحيان بالسفر والترحال طلباً لتلك الراحة ، حتى إذا كان يوم وهى جالسة على سطح قصرها المشرف على دجلة والفضاء من ورائه ، جاءتها أنباء قافلة أتت إلى العاصمة ، وفيها رجل يريد أن يتقدم إليها بقصصه كما فعل الآخرون من قبله .

وأخيراً دخل ذلك الرجل إلى حضرتها ، وكان نحيفاً طويلاً قوى البنية ، جميل الهيئة أنيق الملبس يلوح عليه أنه من بيت إمارة ومجد ، وكان يغطى وجهه بقناع كما يفعل النساء . ولما دخل لم يركع عند أقدامها بل وقف أمامها رافع الرأس ، فتأملته الملكة فى تعجب وأسف ، فإنها قد كانت اشترطت عليه أن تقطع رأسه بدل أذنيه إذا هو لم يعجبها قصصه عقاباً له على جرأته .

ولكنها ما لبثت أن أحست أن الوسائد التى تحتها تفوح بعبير رطب ، وأن النجوم تلمع ببريق بديع ، وأن القمر الفضى أسطع نوراً ، وأن خرير النوافير أكثر تناسقاً فى موسيقاه ، وأن الورد قد صار أعطر طيباً ، وإذا بها تنظر إليه صامتة وقلبها خافق ، ثم تنقضى مينتها .

فلما رفعت إليه الطرف بعد ذلك ، كان قد أماط عن وجهه القناع فرأته مثل الفجر جمالاً ، أو مثل السعادة ، ولم ينطق هو بكلمة بل وقف حيالها لما يضع إصبعه على فمه ، ولكنها سمعت من ذلك الفم الصامت ألفاظاً خرساء ، تقص

أعجب القصص — تلك التي يقصها الحب بغير صوت ؟ والتي تحوى كل جمال الموت والحياة . أما القصة الثانية فلها حكاية :

سبق المؤلف هنري دي رينييه أن ألف قصة قصيرة اسمهـا « السعادة الحقيقية » صور فيها امرأة اسمها مدام (جيـّا ندر) قضت فترة من الزمان أيماً لا زوج لها ، وكانت فتنة لمن حولها وأنساً لهم ، ولكنها لم تفتح قلبها يوماً للحب ، حتى رأت شاباً صغيراً أغرمت به غراماً أنساها كل شيء ، وبعدت به إلى إيطاليا لتنعم بالحياة معه ، وأقامت معه في سعادة أنستها كل شيء في الحياة ، وكان فتى جميلاً ، ولكنه كان جميلاً كالنساء ، يميل إلى مثل دلالهن وزينتهن حتى إذا كان يوم من الأيام نظرت حولها فلم تجده ، والتمسته فلم تستطع أن تهتدي إليه — فقد كان اختفى بغير أن يقول كلمة كأن الأرض قد انطوت عليه ، وأخذ معه جواهرها ، وعقداً من اللؤلؤ كان أعز الأشياء عندها بعد هذا الحبيب الشارد . وقد علم فيما بعد أنه قد هرب منها بعد أن مل وسئم وا كتفى . ثم عرف بعض أصحابها مكانه واستردوا منه حليها ، وعرفوا سر هروبه وهو أنه قد اكتفى منها - وقد صور المؤلف هذه المرأة تذهب لزيارة شهر زاد في قصرها العجيب في بغداد ، وهذه هي قصتها هناك .

كانت شهر زاد في جوسقها البلوري العجيب في بغداد وقد عرفناه فيما سلف من قصتها الأولى . وهناك دخلت عليها مدام (جيا ندر) بعد أن قطعت إليها الفاوز في طيارة سريعة . ولما استقر بهما المجلس جرت بينهما محاورة شائقة ، وجعلت كل منهما تقص على الأخرى حديث نفسها وهمومها .

وجرى بينهما حديث الشاب الذي أحبته مدام جيا ندر ثم هرب بجواهرها وعقدها ، وكان ذلك العقد لا يزال يحلي جيد السيدة الزائرة بعد أن استردته من الحبيب الشارد فتأملته شهر زاد وجعلت تعجب به وتفضي إلى السيدة بما في قلبها من مواساة وإعجاب .

قالت السيدة جيا ندر بعض حديثها تخاطب شهر زاد :

« هل تستطيعين يا صديقتي الحكيمة أن تخبريني هل فينا معشر النساء سر يجعلنا في وقت من الأوقات بغيضات إلى من نحب ، فيهجروننا ويخونوننا وينسوننا ؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال غير مرة ... فهل نحن اللاتي يفسدن الحب الذي نثيره أم هم الرجال الذين لا يستطيعون عصيان ما في قلوبهم من حاجة ملحة إلى النكران والخيانة ؟ ... »

فأجابتها شهر زاد بأن قصت عليها نبأ ذلك الحبيب الغريب المقنع الذي وفد عليها في قصرها وقالت لصاحبتها إن طباع الناس واحدة سواء أكانوا في باريس أم في بغداد .

فالرجال يهجرون النساء اللاتي يحببنهم في الشرق كما يفعلون في الغرب . ثم جعلت تقص عليها كيف أحبت ذلك الشاب الغريب حتى كادت تتخذه رباً وكيف أسلمته نفسها وخزائنها وقصرها وحدائقها وكل ما هو عزيز غال عندها . وكيف تفانت في فتنتها بحبه فتجردت له عارية وأبدت له حقيقتها الحية فقد كان سيد جسمها وفكرها معاً . ولكنه ما لبث وا أسفاه حتى خان ومان وغدر وفجر ، فرأته ذات يوم في أحضان سوداء قبيحة كأن لونها الليل البهيم من ليالي الشتاء ... غير أنها لم تفاجئه وهو في جريمته بل لم تطلعه على أنها قد عرفت خيانته .

ولشد ما بكت وتألمت وهي صامتة . ولكنها ويا للعجب لم تلبث إلا أياماً بعد ذلك حتى جاء إليها الشاب الحبيب الغادر يستأذنها في السفر وسار بعيداً فلم تره منذ ذلك اليوم وعاشت من بعده وحيدة تناجي وحشتها في قصرها .

واستمر المؤلف دي رينييه بعد ذلك في وصف ما بين المرأتين من الحديث عن الحب وتحليله وما يقترف فيه الرجال أو النساء . وانتهى وصفه بمنظر لا يملك المرء أن يضحك منه على شدقيه . فقد جعل المرأتين تتحابان وتتغازلان كأنهما تريدان أن تستغنيا بنفسيهما عن الرجال .

هكذا كان هنري رينييه الفرنسي سابقاً إلى شهر زاد في نحو السنة الثلاثين من سني هذا القرن العشرين فألف فيها ورسمها رسماً جديداً يتحدث على لسانها بمعنى من معاني الحب ، ولكنه لم يبعد بشهر زاد عن الأرض ، بل أحياها امرأة من النساء ، لا يجد أحد فيما تقوله غموضاً ولا غرابة ، بل يجدها امرأة طبيعية وإن كانت شاذة بين النساء ، امرأة عجيبة وإن كانت من هذا الطين المعتاد الذي تزدحم به أرجاء العالم ، ولم يجعلها رمزاً لغير هذه الإنسانية المسكينة الضالة التي تحتاج الى أن تفهم وأن تعطف ؟

محمد فريد أبو حديد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — [illegible]

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ٢٢١ الثلاثاء ١٧ من ربيع الأول سنة ١٣٦٢ — ٢٣ من مارس سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

الاصلاح الاجتماعي في مصر

«على ضوء تقرير بيفردج»

أجملت الثقافة في عددها السابق أهم المقترحات التي وردت في تقرير سير وليام بيفردج عن التأمين الاجتماعي في بريطانيا العظمى . وقد يخيل للبعض أن التقرير لا يعدو أن يكون بحثاً خاصاً في علاج ناحية من النواحي الاجتماعية مستمداً من طبيعة البيئة الانجليزية وظروفها ، وأنه لهذا لم يكن ليستحق هذا الاهتمام الكبير الذي قوبل به في مصر وغيرها من البلاد . ولكن الأمر أخطر مما يبدو للنظرة الأولى . فالمشكلة التي عالجها التقرير ليست مشكلة الإنجليز وحدهم ، بل هي مشكلة الإنسانية جمعاء ، وليس بعجيب أن يتلهف الناس لمعرفة ما وصلوا إليه في حلها ، لعل ذلك يكون هادياً لهم في علاجها لديهم ، والآراء الصالحة كالمخترعات النافعة لا تبقى ملكاً لمن فكر فيها أو اخترعها بل تسري بين الناس جميعاً ويعم انتفاعهم بها . وكل حق جديد يكسبه الفرد في أمة من الأمم يصير حقاً مقرراً للأفراد في كل الأمم يسعون لتحقيقه ويعدون الوسيلة لكسبه .

ومشروع بيفردج لا شك يقرر للفرد حقاً جديداً ويدعم مبدأ اجتماعياً جديداً . لقد كانت رعاية الفقراء والضعفاء ، والعجزة والعناية بالشيوخ والأطفال والأيامى عملا إنسانيا دعت إليه الأديان ودعا له المصلحون ، ولكنه ترك للجهود التطوعية التي يقوم بها الأفراد والجماعات مدفوعين بوازع من دينهم أو بعواطف إنسانية رحيمة . ولكن هذه الجهود التطوعية كانت محدودة الأثر ضيقة المدى ، وبتطور المجتمعات وتقدم المدنية رأى كثير من الحكومات من واجبه أن يعين هذه الجماعات ببعض المعونة

لتوسع دائرة جهودها ، ولكن ذلك كله لم يكن كافياً لحل المشكلة ، وخطا بعض الدول فى نصف القرن الأخير خطوات واسعة فى سبيل تعميم المساعدة لكثير من طوائف الشعب المحتاجة ، فى انجلترا التى كانت أول من وضع قانوناً للفقراء فى عهد الملكة اليزابث وضع قانون التعويض العمال سنة ١٨٩٧ وكان هذا القانون فى أول أمره يطبق على عدد محدود من الحرف ثم جعل عاماً يطبق على الحرف جميعاً فى سنة ١٩٠٦ ، وبدأ التأمين الصحى الإجبارى من سنة ١٩١٢ ، وبدأ التأمين ضد التعطل سنة ١٩١٢ فى صناعات قليلة ، ثم صار عاماً فى كل الصناعات سنة ١٩٢٠ . وبدأ قانون المعاشات لكل من بلغ السبعين فى حدود ما يدل عليه البحث عن مقدار دخل الفرد سنة ١٩٠٨ وفى سنة ١٩٢٥ صدر قانون جديد للمعاشات للشيوخ والأرامل واليتامى . وفى سنة ١٩٣٤ عدل قانون تأمين العمال ضد التعطل ووضع على أسس جديدة . وهذا كله إلى نظم كانت توضع من آن لآن لرعاية بعض حالات العجز الخاصة كالعمى وإلى تنظيم أمر العناية بالصحة فى المستشفيات وخارجها والعناية بمصالح الأطفال فى المدارس وقبل الالتحاق بها .

ولكن تقرير بفردج يصل بهذه التنظيمات الاجتماعية التى قامت متفرقة فى أزمان مختلفة وعلى أسس متفاوتة إلى تطورها الطبيعى ، ويقرر بجلاء أن من حق الفرد على وطنه أن يؤمنه من شر الفاقه وأن يكفل له من الرزق ما يقيم أوده فى طفولته وهرمه فى صحته ومرضه وفى عمله وتعطله ويلقى على الحكومة واجبا جديداً تلتزم به لأفراد الأمة عامة ، هو واجب تحريرهم من العوز وتنظيم هذه الحماية وتدبير وسائلها .

لم يعد الأمر مجرد صدقة يتقرب بها المحسنون إلى الله فى تخفيف آلام المحتاجين ، ولم يعد الأمر مواساة للضعفاء يتفضل بها ذوو القلوب الرحيمة والعواطف الإنسانية ، ولكنه أصبح حقاً مقرراً للفرد على أمته يفرضه عليها انتماؤه لجماعتها والتزامه بواجبات المواطن . وهذا هو الحق الجديد الذى أشرنا إليه فى بدء حديثنا والذى أصبح إضافة جديدة لحقوق الإنسان التى قررتها الثورة الفرنسية .

على أن التقرير كما يقرر كاتبه لم يعالج إلا ناحية واحدة من المشاكل الاجتماعية ، ولعلها أضعف النواحى خطراً وأيسرها حلاً وهى ناحية « التحرر من العوز » ، ولكنّ هناك آفات أربعاً أخرى تخترم المجتمع وتفسد حياته وتضعف إنتاجه ، وهذه الآفات الأربع هى : الجهل ، والمرض ، والدنس ، والكسل . وهى جديرة ببحث الباحثين ورسم أدق الخطط لتحرير الشعب من براثنها .

ولا أريد أن أعيد ما ذكره صديقى الدكتور عوض فى بيان النواحى التى جاء بها هذا المشروع ، ولكنى لا أملك أن أشير إلى أمور وقفت عندها وأنا أتصفح هذا التقرير وأحب أن أشرك قراء الثقافة معى فى تدبرها .

لماذا اختار التقرير أن يجعل المشروع مشروع « تأمين » ولم يجعله مشروع إعانة تقدمها الحكومة للأفراد فى حالات العوز . مع أن ما يساهم به الفرد فى هذا التأمين جزء محدود والعبء الأكبر واقع على الحكومة وعلى أرباب الأعمال ؟

لأن هذه كما يقول كاتب التقرير هى رغبة الشعب فى بريطانيا ، وهذه الرغبة تتجلى بشيوع فكرة التأمين لدى أكثر أفراد الشعب سواء أكان التأمين اجباريا أو اختياريا ولأن روح الشعب تنفر من كل معونة تحمل فى طياتها معنى الصدقة والاحسان فهو يريد أن يأخذ مقابل ما يعطى .

وهل أنا بحاجة لبيان دلالة ذلك ، والمعنى الكريم الذى ينطوى تحته ؟

لم يشترك كل فرد فى دفع قسط التأمين مع أنه قد

لا ينتفع به شخصيا إذا عافاه الله فى بدنه ولم يقطع عنه وسيلة رزقه ؟

لأنها ضريبة وطنية عامة سينتفع بها غيره ممن لم يؤت حظه . ولأنه لم يأخذ على الزمن ميثاقا ألا تنتابه تصاريفه ولأنها رمز التضامن الاجتماعى القوى الذى يفيض فيه القادر على أخيه العاجز ويعين الميسور من به عسر . ولأن المجتمع كالجسم إذا مرض منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . على أن القسط الذى يلتزمه الفرد هين لا يؤثر فى مستوى عيشه .

ثم تعال معى أطلعك على سر جديد من أسرار تقدم القوم يتجلى فى هذا التقرير .

لقد أقدم الرجل على بحثه ومن حوله أداة كاملة التنظيم تقدم له المواد التى يحتاجها هذا البحث . لم يبن الرجل آراءه على تقديرات ظنية عليها التصور ، ولكنه يستند إلى إحصاءات دقيقة تنفذ إلى أخص جوانب الحياة .

لم يجد الباحث صعوبة فى معرفة تكاليف الحياة الضرورية للفرد فى الريف والمدن فى مأكله وملبسه ومسكنه وما إليها ، وهو يعرف ما كانت عليه سنة ١٩٣٨ وما زادت إليه سنة ١٩٤٢) وقد يدهش القارىء أن يعلم أنها لم تزد فى انجلترا إلا ٣٠ ٪ ولديه بيانات دقيقة عن عدد أفراد كل أسرة وعن النسب فى مختلف الأسنان . وعن النسب المئوية لأسباب التعطل وعن كثير من النواحى التى تشتغل هيئات الاحصاء فى حصرها وجمع أدق البيانات عنها .

ولست بحاجة لأن أعقب على هذه الناحية الهامة من النواحى التى يحس كل باحث اجتماعى فى مصر بضرورة النهوض بها إذا أريد بناء الاصلاح الاجتماعى عندنا على أسس سليمة .

والآن وقد قدمت للقارىء هذه الخواطر التى قامت برأسى وأنا أتصفح هذا التقرير أنتقل به إلى ما أردته من مقالى وهو ما يفيده الاصلاح الاجتماعى فى مصر منه .

لعل القارىء يحس معى بُعدَ ما بيننا وبين القوم فى ناحية التطور الاجتماعى ، ولقد يشعر أن أمامنا مراحل انتقال طويلة قبل أن نصل إلى المنزلة الرفيعة التى بلغها تنظيمهم الاجتماعى . ولكن ميزة من يجىء متأخراً أن تكون أمامه تجارب سواه وثمرات خبرتهم ، وهو لهذا خليق أن ينتفع بها وأن يكون أسرع خطى فى اجتيازه مدارج التطور .

لقد يبعث التشاؤم لدى طالب الاصلاح الاجتماعى فى مصر أن يجد مشكلة الفقر فيها أشد تعقداً منها فى انجلترا مثلا .

فهناك مجتمع زاخر بالصناعات يشتغل فيها أكثر أبناء البلاد ، وهناك تعمل النساء إلى جانب الرجال ، وهناك موارد غنية تتسع لتعميم نواحى الاصلاح ، وهناك عناية صحية من جانب الأفراد والحكومة ، وهناك مستوى ثقافى يحول دون مقاومة التقدم ويعين على تيسير الإصلاح ، وهناك روح عام يساعد على أداء الواجب والتمسك بالحقوق .

وهنا مجتمع فقير نصفه عاطل لا يعمل ، وهو كَلٌّ على سواه وهن النساء ، والنصف الآخر تخترمه الأمراض المتوطنة وتزيده الجهل سوءاً بما يصده من تقبل الوسائل الحديثة فى رعاية صحته وفى تحسين إنتاجه . والموارد محدودة تكاد تقتصر على الزراعة ، ولا تكاد تكفى لشغل بعض القادرين على العمل . وفى أخلاقنا العامة ضعف يقعد بالقادرين عن مد يد المساعدة للعاجزين ويزين للمحرومين الكسل وابتغاء الكفاف بأدنى الوسائل من تطفل وتحايل وتلصص وتذلل ، وقد تحمل هذه الموازنة بعض المفكرين فى اصلاح حال هذا الشعب على نفض أيديهم من الأمر وترك الأمور للمقادير .

(البقية على الصفحة التالية)

منهج نقد اللغة :

٣ - الذوق عند الجرجانى

يقول الجرجانى « وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها أن تكون فيه ، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها . ثم اعلم أن ليست المزية واجبة لها فى أنفسها ومن حيث هى على الاطلاق ولكن تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض » « وإنما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج إلى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواضعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب . كذلك حال الكاتب والشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى علمت أنها محصول النظم . » .

وهذا ينتهى بنا إلى ما نراه اليوم وما ندعو إليه جاهدين من أن النقد وضع مستمر للمشاكل ، وأن لكل جملة أو بيت مشكلته التى يجب أن نعرف كيف نراها ونضعها ونحكم فيها ، وهذا هو النقد الموضعى الذى نؤمن بفائدته وهو بَعْدُ ليس بالأمر الهين ، لأنه لابد لنا كما يقول روسو من فلسفة كبيرة لنلاحظ ما نراه ، ثم إن الملاحظة لا تكفى بل لا بد من وضع الأشكال ووضعه فيما يحكى المثل الأوروبى حل له ومن ثم حكم فيه .

ولكن سوء الحال أدعى لبذل أقصى الجهود ولامكان لليأس فى مثل هذا الكفاح الشريف الذى سيعيد للوطن قوى مبددة وجهوداً مضيعة ويجعل للحياة لدى كثير من أفراده قيمة جديدة .

لنؤمن أولا أن القوة البشرية أثمن موارد الدولة وأن كل جهد يبذل فى تحسينها يستحق ما يبذل فى سبيله من عناء .

ولنؤمن بأن كرامة الوطن وعزته تقتضى ألا يفقد منه فريق يتضورون جوعاً فى أسمالهم البالية حتى يستنفدوا حياتهم البائسة ببطء دون أن ينعموا بوجودهم أو ينتفع بهم الوطن .

ولنؤمن بأن من حق كل فرد ينتمى لهذه البلاد أن يطمئن على رزقه وأن يتحرر من ربقة العوز ويأمن من الخوف على مستقبله ومستقبل بنيه .

هذا الإيمان ضرورة أولى يتعين أن يشرب به كل قلب . وعلى مبلغ قوة الإيمان بأمر يسهل تحقيقه مهما بدا فى سبيل ذلك من صعاب وعقبات .

إننا بحاجة لأن نحصر مواطن الضعف وأسبابها ، وأن نقدر ما يقتضيه الحال من تدابير للقضاء عليها ، وما يكلفنا ذلك من جهد ومال لتنفيذه . ثم ننظر بعد ذلك فيما بين أيدينا من موارد ووسائل وما نستطيع أن نعمله لزيادة هذه الموارد وتحسين هذه الوسائل . ثم نوازن بين ما هو مطلوب منا وما نستطيعه ونرتب خطتنا التدريجية فى الإصلاح على هذا الأساس .

على أنى أحس أن كل هذا إجمال وتعميم ونحن بحاجة إلى توضيح وتخصيص . ولعلى أوفق لشىء من هذا فى عدد تال .

محمد عبد الواحد خلاف

لابد إذن من الحكم على النظم الذى أمامنا من حيث إنه يجمع بين معان متباينة ، ونحن بعملنا هذا لا نقف عند الألفاظ بل ولا عند الجمل ، وإنما ننظر فى المعنى عند تمامه والفراغ من تأليف عناصره . ننظر فى المعنى منظوماً ومن البين أن الذوق هو الفيصل الأخير فى الحكم على هذه الدقائق ، وإلى هذا فطن الجرجانى بحسه الأدبى الصادق فكتب تلك الصفحة الرائعة التى نوردها كاملة لأهميتها البالغة : قال « اعلم أنك لن ترى عجباً أعجب من الذى عليه الناس فى أمر النظم ، وذلك لأنه ما من أحد له أدنى معرفة إلا وهو يعلم أن ههنا نظماً أحسن من نظم ، ثم تراهم إذا أنت أردت أن تبصرهم ذلك تسدر أعينهم وتضل عنهم أفهامهم وسبب ذلك أنهم أول شىء عدموا العلم به نفسه من حيث حسبوه شيئاً غير توخى معانى النحو وجعلوه يكون فى الألفاظ دون المعانى ، فأنت تلقى الجهد حتى تميلهم عن رأيهم لأنك تعالج مرضاً مزمناً وداء متمكناً ، ثم إذا أنت قدتهم بالخزائم إلى الاعتراف بأن لا معنى له غير توخى معانى النحو ، عرض لهم من بعد خاطر يدهشهم حتى يكادوا يعودون إلى رأس أمرهم ، وذلك أنهم يروننا ندعى المزية والحسن لنظم كلام من غير أن يكون فيه من معانى النحو شىء يتصور أن يتفاضل الناس فى العلم به ويروننا لا نستطيع أن نضع اليد من معانى النحو ووجوهه على شىء نزعم أن من شأن هذا أن يوجب المزية لكل كلام يكون فيه بل يروننا ندعى المزية لكل ما ندعيه له من معانى النحو ووجوهه وفروقه فى موضع دون موضع وفى كلام دون كلام . . . . . . والداء فى هذا ليس بالهين ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفاً والسعى منجحاً ، لأن المزايا التى تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علماً بها حتى يكون مهيئاً لإدراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما فى نفسه إحساساً بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة ومن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شىء منها وشىء ومن إذا أنشدته قول أبى نواس :

ركب تساقوا على الأكوار بينهم
كأس الكرى فانتشى المسقى والساقى
كأن أعناقهم والنوم واضعها
على المناكب لم تعمد بأعناق

أمن لها وأخذته الأريحية عندها . . . . وأنت تقول فى محاجتك على استشهاد القرائح وسبر النفوس وفليها ، وبهذا يعود عبد القاهر إلى النقاد الكبار أمثال ابن سلام والآمدى وعبد العزيز الجرجانى الذين يرون فى الذوق وفى « استشهاد القرائح وسبر النفوس » المرجع النهائى فى كل نقد أدبى صحيح .

والآن قد يتساءل قارئ يقظ من أين يدخل الذوق والذوق لا يكون إلا حيث نسلم للكاتب بحرية فى اختيار طرق العبارة عما يريد ، وعبد القاهر نفسه لا يرى هناك اختياراً ما ، وعنده أن المعنى لابد متحكم فى اللفظ ، والجواب على هذا الاعتراض خليق بأن يزيد النظرية وضوحاً وصاحبها ينكر أن تكون المزية فى اللفظ ، وإذن فهو لا يحكم الذوق فى الموازنة بين ألفاظ ممكنة ، وإنما المزية فى المعنى ، وفى المعنى تكون المفاضلة ، وفى المعنى يكون الاختيار ، والأمر ليس نظماً لألفاظ بل نظماً لمعان ، فنحن نحكم الذوق فى اجتماع بعض المعانى إلى بعض ، ويحتال عبد القاهر ليخضع اللفظ أيضاً للذوق فتأتى عباراته عن المعنى مضمنة لمعنى الملفوظ ، أى المعنى المعبر عنه ، وفى هذا إفراط فى الدقة يكاد يمس المغالطة ، ولكننا فى الحق نستطيع أن نقبل منه هذا الاحتيال إذا نظرنا المسألة نظرة تاريخية ، فذكرنا طغيان اللفظية فى ذلك الحين ومحاربة عبد القاهر لها بكل قواه ، وكلنا لا ريب يذكر ذلك التكلف

الثقيل الذي ظهر عند أنصار البديع في الشعر ثم امتد إلى النثر فائتلف أسلوب الصاحب بن عباد وأبي هلال العسكري وجانباً كبيراً من أسلوب ابن العميد نفسه .

يتحكم الذوق إذن عند الجرجاني في نظم المعاني التي يعبر عنها . خذ لذلك مثلا تطبيقه على أبيات إبراهيم ابن العباس :

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحبٌ
وسُلط أعداء وغاب نصـــير
تكون على الأهواز داري بنجوة
ولـكن مقادير جرت وأمـــور
وإني لأرجو بعـــد هذا محمداً
لأفضل ما يرجى أخو ووزير

« فأنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة ، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو — إذ نبا — على عامله الذي هو — تكون — وأن لم يقل : فلو تكون من الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر ، ثم أن قال . تكون . ولم يقل . كان . ثم أن نكر الدهر ولم يقل — فلو إذ نبا الدهر — ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ما أتى من بعد . ثم أن قال — وأنكر صاحب — ولم يقل — وأنكرت صاحبا — لا ترى في البيتين الأولين شيئاً غير الذي عددته لك يجعله حسنا في النظم وكله من معاني النحو كما ترى » .

وبالإمعان في ملاحظات ناقدنا نجدها ترجع إلى مفارقات في المعاني وألوان النفس هي التي حددت اختيار الشاعر وضمنت له الجودة . جودة العبارة عما في نفسه بدقة ثم تبصرنا بالألوان النفسية لتلك المعاني ، فهو قد قدم الظرف على عامله قدم « إذ نبا » على « تكون » ، وذلك لأنه لم يتمنى أن تكون داره بنجوة على الأهواز إلا عندما نبا دهر ، وفي هذا النبو ما يحز في نفس الشاعر . وكأني به قد سارع إلى نقضه ثم هو قد اختار المضارع[1] ، تكون على الماضي كان ، لأن للمضارع هنا نحس في دلالته معنى الحالة المستمرة المنسحبة من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل ، والشاعر ود عندما نبا الدهر أن لو تكون داره على الأهواز بنجوة . تكون حتى قبل نبو الدهر — تكون وتستمر كذلك لأن الدهر قد أثبت بنبوه تلك المرة أنه قادر على الغدر في كل حين ، ومن الخير أن نقدر ذلك الغدر في كل حين . وإذن فالمفاضلة بين الماضي والمضارع ليست مفاضلة بين ألفاظ بل بين معان ، وعلى الأصح بين حالات نفسية بأكملها . ثم إن شاعرنا قد نكر « دهر » وهو بهذا يفرد الدهر فيجعله دهراً خاصاً به دهراً غدارا لا الدهر دهر الناس كافة . نبا دهر ابتلاه به القضاء المحتوم . وإذا كان تنكير الدهر وهو الشيء الواحد المفرق بوحدته يفيد الأفراد فإن تنكير صاحب وأعداء ونصير يفيد الإطلاق ويشعرنا بضيق الشاعر ، فهو ينكر كل صاحب لما كان من غدر أولئك الصحاب ، وهو يرى أن كل عدو قد سلط وأن كل نصير قد غاب . تنكير التعدد أفاد الإطلاق والأمر في تنكير « مقادير وأمور » يشبه تنكير « الدهر » فهو يخصصهما بالشاعر ويجعلهما وقفاً عليه ، وإذن فنحن أمام معان مختلفة وألوان نفسية متباينة ندرك بعضها بعقولنا ونحس ألطفها بقلوبنا ، وهذا الإحساس هو أساس الذوق عند ناقدنا العظيم .

وتسوق فكرة النظم عبد القاهر إلى تخطي الإعراب والجملة البسيطة إلى الجملة المركبة فيكتب فصلا « في النظم يتحد

---

(1) يسمى هـذا المضارع في نحو اللغات الأوربية « بالمضارع التاريخي Présent historique وقد عرف باستعماله فرجيل شاعر اللاتين في ملحمته الشهيرة « الأيادة » ولهذا المضارع دلالات كثيرة منها مجرد إثبات حدث مطلقا من الزمن ومنها استحضار الماضي حتى لكأنك تراه وفي هذا يرع فرجيل ومنها إفادة الاستمرار والانسجام كما في مثلنا وفي الحق أن استعماله أكثر وأدق من أن تحصر أو تحد والشعراء والكتاب إنما يستعملونه لنقاء احساس في نفوسهم أكثر من العبارة عن معنى بذاته .

في الوضع ويدق في الصنع » قال : « واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك . نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة ، فمن ذلك أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء معاً كقول البحتري :

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى
أصاخت إلى الواشي فلج بها الهجر

ونوع آخر قول كثير :

وأني وتهيامي بعزة بعد ما
تخليت مما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما
تبوأ منها للمقيل اضمحلت

و . . . . . و . . . . . الخ »

ومن البين أن عبد القاهر في هذه اللاحظات قد أحس وجود الجمل المركبة التي تشمل عدة معان بعضها قيود لبعض أو متممات . وليت اللاحقين له ساروا في هذا السبيل ، ولو أنهم فعلوا لاستقام فهمنا لمكنات لغتنا ولعرفنا مثلا الطرق التي لدينا للتعبير عن الأزمنة المطلقة والأزمنة النسبية في الجملة الأصلية وفي الجمل التبعية التي نلقاها في اللغات الأوروبية والتي نحتال فنعبر عنها في لغتنا بكافة الحيل غير واعين بما نفعل .

ومع ذلك فعبد القاهر لم ينظر إلى هذه المركبات إلا من حيث الجودة ، فهو يرى في اجتماع تلك المعاني بعضها إلى بعض إعجازا من الشعراء ، وهو لا يعنى بدراسة نحوها قدر عنايته بنقدها نقداً أدبياً ، ومرد ذلك النقد وفيصله هو الذوق . الذوق الذي يحس ثم تأتي المعرفة فتحلل ما يمكن تحليله ، وقد يصيب التحليل وقد يخطئ ، رغم استقامة الذوق .

والآن نستطيع أن نفهم كيف أن عبد القاهر كما قلنا في أول مقال عنه قد ابتدأ بنظرية فلسفية في اللغة ثم انتهى إلى الذوق الشخصي الذي هو مرجعنا الأخير في دراسة الأدب ، ويجب أن يظل ذلك المرجع ، وإنك لتقرأ كل ما كتبه عن الإسناد وعن التقديم والتأخير وعن الفصل والوصل وتمعن في أمثلته فتجد أحساسه الأدبي سابقا دائما لعقله ومعرفته بحيث يخيل إلينا أن هذا الرجل إنما صدر في آرائه عن خبرة طويلة بنصوص الأدب العربي وقد وهبه الله حسا صادقا أعمله في تلك النصوص ، ثم أطال التفكير في أحساساته فإذا به يهتدي إلى كل تلك الحقائق التي وإن يكن في تفكير اليونان القدماء ما يماشيها كما في علم اللسان الحديث ما يؤيدها ويوضحها فالفضل الأكبر في الوقوع عليها لمواهب عبد القاهر الفطرية ، ونظريته كما قلت ليس لها من القيمة ما لتطبيقاته ، فهنالك يظهر ذوقه العربي السليم ذلك الذوق الذي لا يمكن أن يغني عنه في الأدب شيء ، وما نظرية عبد القاهر في رمزية اللغة ورد المعاني إلى النظم وما منهجه في نقد النصوص نقداً موضعياً إلا مراحل تنتهي به إلى الذوق الذي يدرك الدقائق ويحس « بما تحيط به المعرفة[1] ولا تؤديه الصنعة » .

(انتهى) محمد مندور

(١) هذه الجملة فقط إسقاط الوصل وقد سأل الخليقة أن يصف به الأعلام . ومعنى المعرفة هنا « المعرفة الباطنية » التي نترك لما يسماه الأستاذ أحمد بك أمين (في كتاب الأخلاق) « بالإلقاء » ترجمة للفظة الأوروبية Intuition وعلى تلك الملكة يعتمد الناقد إن كان يملكها وإلا وقف عنده عند الشكل .

لستِ أنتِ

لستِ أنتِ المثلَ الأعلى لوحيي لستِ أنتِ
هو روح من سماء الخلد لم تعلق بنعت
تنقل النفس إلى الفردوس من وقت لوقت
وتنقي الروح من رجس وأضغان ومقت
وتشيع الصفو والتحنان في رفق وخفت
كلا وجهت قلبي للتي لاحت بسمتي
لا تظنيها جمالا بعمايه انفردت
إنها أسمى وأنقى فطرة مما ظننت
إنها وحيي وإلهامي وتغريدي وصمتي
إنها موضع نجواي إلى الله وخبتي
لست أنت ، لست أنت

• • •

كنتِها فيما مضى ثم تساميت وانضحتِ
كنتِها يومَ على الإخلاص والطهر فطرت
ثم أنحيت عليها فتمالت وهبطت
لحقت بالملأ الأعلى وبالأرض التصقت
إنها غيرك في كل مراد فيه جلت
إنها صانت عهودي ووفت لي حين خنت
حفظت ودي ولكن أنت للود أضعت
طهري قلبك تسكن في حماه إنْ أردت
أو دعيها ودعيني حسبنا ما قد صنعت
هي لن تهبط يوماً للثرى مهما بذلت
لست أنت ، لست أنت

• • •

يا فتاتي أين عهد الثغر إذا قلتُ — وقلت ...
يوم شدتْ الأمل النهار في قلبي وشدتِ
كلما أترعت كأساً من أمانيَّ نهلت
وإذا وقعت لحناً من أغاريدي طربت
وإذا أصغيت للنجوى وللحب صدحت
شطت الدار فما حلتُ عن الود وحلت
ما نقضتُ العهد لكن أنت للعهد نقضت
خلتُ فيكِ الغاية المثلى لحبي يوم كنت ...
ثم زال الوهم فاستولت على قلبي وبنت
حيثُ فيه وأحيتهُ ولكن أنت مُتِّ
لست أنت ، لست أنت

علي عبد العظيم

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥	في مصر والسودان
	٣٧/٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
	٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

معانى الألفاظ وقيمها

عرض الأستاذ العلامة أحمد أمين بك على قراء الثقافة [1] الغراء، خطرات ذات شأن فى اللغة، جاء فى فقرة منها قوله « إن دلالة الألفاظ على المعانى تختلف جد الاختلاف بين الأشخاص بحسب مدنيتهم وثقافتهم وعقليتهم ....

وقد ذكرتنى هذه الخطرة فصلاً للأستاذ (Meillet) بيّن فيه « كيف تتبدل معانى الكلمات (Comment les mots chugeut de sens) .

كنت قرأته فى كتاب « اسيرتيه (Essertier) » الأستاذ فى جامعة بواتيه عن « فلاسفة القرن العشرين وعلمائه Philosophes et Savants du XXe Siècle

والحقيقة أن لكل كلمة معانى مختلفات وقيماً متباينات .

وأن لها عند كل طبقة من طبقات الناس معنى وقيمة .

ومن الواضح أنه كلما اتسعت مدنية أمة ، زادت ألفاظها وأعمالها ومشاغلها .

وكلما رقت حضارتها ازداد أهلوها اهتماماً بناحيات من الحياة كانوا غفلوا عنها .

ثم كان لكل طبقة نظر فى تلك الناحية خاص بها .

ذلك لأن العقول والأفهام تختلف وتتباين ؛ فتفكير الزارع ليس كتفكير الجندى ، وتفكير السياسى يباين تفكير المتدين ، وتفكير المدرّس يخالف تفكير الصانع .

ولأن لكل طبقة حاجات وأعمالاً خاصّة بها .

ومن هنا كان اختلاف دلالة الألفاظ عند الناس .

مع أنهم ورثوا جميعاً لغة واحدة ، وكلمات مختلفات .

فكلمة « عمليّة » Operation مثلاً ، تدل عند الأطباء الجرّاحين على الصبر والجَلَد ، وتمزيق المشرط الحادّ اللحم والجِلْدَ ، وسَيلان الدم وضَرَبان الألم .

وهى عند مدرّس الحساب ، أعداد تجمع ، وأعداد تضاعف وتقسم ...

وهى عند الصَّيرفىّ ، رؤوس أموال توضع ، وحسم يؤخذ وربا يُضاف ويُرفع .

فلكل مهنة ، وكل علم ، وكل فن ، يعطى اللفظ الواحد المشترك معنى يوافق حاجاته وبلاغها .

وهذه الألفاظ تنتخب وتدرج على الألسنة إذا وافقت تلك الطبقة أو ذاك العلم .

ويقول الجاحظ فى الحيوان « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة » .

فإذا اشتركت طبقات مختلفات ، أو صناعات متباينات بكلمة واحدة ، وكانت ذات معنى واسع ، فإن معناها يتسع أو يضيق حسب اتساع الصناعة أو ضيقها ، وانتشار الطبقة أو ضمورها .

ويرى الأستاذ « ميّيه Meillet » أن هذا التبدل فى المعنى راجع لوفرة حاجات تلك الطبقة أيضاً أو قلّتها ، ومن ثمّ يضيق معنى الكلمة أو يتسع .

فالفقه لغة العلم بالشىء مطلقاً ، ثم خُصِّصَ عند الفقهاء بعلم معروف . فضاق معناها :

والصلاة الدعاء مطلقاً ، فأصبحت رسوماً وحركات .

فاللفظ ، يتسع معناه إذا خرج من دائرة ضيّقة إلى دائرة أكثر سعة ؛ وهو يضيق ويضمر إذا انتقل من دائرة عريضة إلى دائرة أقل سعة .

ولذا كان معنى « العمليّة » عند الجراح أوسع من معناها عند مدرّس الحساب ، وعند قائد الجيش أوسع منه عند الجرّاح .

(١) فى العدد ذى الرقم (٢١٦) .

وثَمّ أمر آخر .

ذلك أن اختلاف معانى الكلمات ليس منوطاً باختلاف المهن . لأن لكل جماعة ، مهما كان شأنها ، تفكيرا خاصا كما ذكرت ، وتخضع لرسوم خاصّة فى الدائرة التى تعيش فيها ، ولمّا أثر فى هذا التبدّل اختلاف العقليّة ، والثقافة ، والوسط الاجتماعىّ ، والسنّ :

فالنساء والرجال ، والشبان والشيوخ ، والفقراء والأغنياء ، والصغار والكبار ، لكل منهم فهم خاص خاضع لما ذكرنا .

ومن هنا كان لكل كلمة قيمة ، تختلف بين فئة وفئة .

خذ النساء مثلاً ، فإن لهن كلمات خاصّات ليس لها الشأن نفسه عند الرجال .

فلفظ « لبس » أو « زيّن » له عند النساء قيمة وشأن ؛ ذلك لأنه يدلّ على عمل يوجهنّ إليه العناية كلّها . ولهن إليه ميل شديد وهوى .

لأن اللباس زينة المرأة .

والزينة سبيل الإرضاء .

وليس للمرأة عمل سوى الإرضاء ، كما يقول « فينلون » .

وإن المرأة لتجد أندى على قلبها وأحلى ، أن تشتمها ، من أن تقول لها « إن ملابسك غير أنيقة ، وإن حذاءك قبيح » كما يقول « موروا » .

أما عند الرجال ، فليس لهذا اللفظ ، تلك القيمة كلها .

وكلمة « اللهو » لا قيمة لها عند الشاب اللاهى ليلَ نهارَ الرائح فى الأنادات كما يشاء ، ولكن ما أحلاها ، وأرفع قيمتها عند المحروم كل شىء القابع فى داره لا يريم .

وقيمة كلمة « الرغيف » عند الغنى الذى يُحمل إليه فى داره فلا يأكل منه إلا ما رقّ ونضج ، ثم يرمى بباقيه ، ليست كقيمتها عند الفقير الذى يفتش عن قطعة الخبز فلا يجدها إلا بعد الجهد والتعب الشديد .

فالأول ينظر إليه ولا يكاد يحفله .

والثانى ينظر إليه ويكاد يلتهمه ، بل يسرع فى التهامه كله خوفاً أن يطير ...

ويرى الأستاذ « ميّيه Meillet » أن معانى الكلمات قد تختلف بالنسبة لانعزال فئة من الفئات عن الناس ، أو اختلاطها بهم ، وبالنسبة لرجولتها أو أنوثتها ، صلابتها أو ميوعتها ، انطلاقها أو عبوديتها .

فطبيعة الفئة لها أثر كبير فى تبدل معانى الكلم ، لكن هذا التبدّل يتسع ويشتد ، كلما رغبت تلك الفئة فى الاستقلال عن غيرها ، وكلما ازدادت رغبتها فى أن يكون لها كلمات خاصّات بها .

وقد يؤدى هذا إلى النحت ، أو إلى إسقاط بعض الحروف ، وإضافة بعضها ، ثم إلى لغة العوام .

ثم يحدث بكلام العامىّ ، ما حدث بكلام الخاصى ...

وتختلف الكلمات العاميات ، فيفهم القصابون من كلمة ، غير ما يفهمه الفتيان أو الدقاقون .

أما الهيئة الاجتماعية ، فتقاوم هذا وتسعى لتوحيد معانى الكلمات .

***

هذا ما ذكرتنيه خطرات الأستاذ الجليل ؛ ولعلّى أعود فألخص أقوال فلاسفة وعلماء ، فى هذا الموضوع ، إن شاء الله .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

من معارض كتاب الديارات للشابشتي :

٢ - الدار المُعزّية ببغداد

بقلم كوركيس عواد

٣ — لماذا بني هذه الدار ؟

يحدثنا التاريخ ، أنّ معزّ الدولة كان مبتلىً بداءٍ عضال اشتدت عليه وطأته ، وعجز أطباء عصره عن معالجته . ذكر المؤرخ الثبت «مسكويه» في حوادث سنة خمسين وثلاثمائة أنه « اشتدّت علّة معزّ الدولة ، وامتنع عليه البَول ، فاشتدّ جزعه وقلقه ، واستدعى الوزير أبا محمد المهلّبي في الليل والحاجب سبكتكين ، فأصلح بينهما عن وحشة قديمة . وبكى وندب على نفسه على عادة الديلم . فلما كان آخر الليل بال دماً بشدة ، ثمّ تبعه رمل »[١] وخفّ ألمه . فلما كان من الغد ، وهو يوم الخميس لخمس خلون من المحرّم ، سلّم داره وكراعه وغلمانه إلى ابنه «عز الدولة» وفوّض إليه الأمور ، وجمع المهلبيّ الوزيرَ والحاجبَ سبكتكين على الوصية به ، وخرج في عدة يسيرة من غلمانه وخاصته ليمضي إلى الأهواز . وكان سبب ذلك استشعاره أن بغداد هي التي أحدثت له الأسقام ، وهي التي أفسدت عليه صحته ، وتذكر أيام مقامه بالأهواز ، وهي أيام شبابه ووفور قوّته ، وظن أن الأهواز هي التي كانت تجلب له الصحة وأنها توافقه . فوصّى الحاجبَ سبكتكين والوزير المهلبي بابنه «عز الدولة» وبالجيش وغيره ممّا كان في نفسه . وانحدر إلى كلْوَاذَى[٢] . فلما صار بها أشار المهلبي بأن يُقيم ويتأمل أمره ويفكّر فيه ولا يعجل ، فأقام بكلواذى ، وأخذ في تقدير بناء قصر . ثم انتقل إلى الشفيعي[١] وقدر هناك البناء . ثم انتقل إلى قُطْرُبُّل[٢] لأنها أعلى بغداد ، والهواء والماء هناك أصح وأعذب . وعمل على أن يبني من حد قطربّل إلى باب حرب[٣] قصراً . ثم صحا من علته وأبو محمد المهلبي في كل ذلك يعذله ويصرف رأيه لعلمه بكثرة المؤَن والنفقات التي تلزمه ، وبكراهة الجند والحاشية لانزعاجهم من أوطانهم ومألفهم ، ولكراهية تخريب بغداد وانتقال الملك عنها . فلم يزل به حتى صرف رأيه . ولما علم أنه لم يكن من البناء بدّ ، فيجب أن يكون متصلاً ببغداد من أعاليها ، ليكون هواؤه وماؤه أصح وأنظف . . . »[٤]

---

(١) عبارة الكامل لابن الأثير (٨ : ٣٩٧ طبعة تورنبرج) : « امتنع عليه البول ، ثم كان يبول بعد جهد ومشقة دماً ، وتبعه البول والحصا والرمل » .

(٢) ناحية كان بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر في = دجلة جنوباً . قال فيها ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ إنها « الآن خراب ، أثرها باقٍ » ، (معجم البلدان ٤ : ٣٠١) . ولها ذكر كثير في التاريخ والشعر .

(١) الشفيعي موضع فيه بستان ، أسفل بغداد ، بينها وبين المدائن . كان يتزله في عهد العباسيين كبار القوم من أمراء وسلاطين وقوّاد وما يتبعهم من جند . وظل مقصوداً أكثر من مائتي سنة . وتنحصر أخباره التي وقفنا عليها بين سنة ٣٢٩ و ٥٢٩ للهجرة . راجع عنه : أخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الأوراق للصولي (ص ١٤٦ و ٢٠٠ و ٢٢٨ طبعة دن) وذيل تجارب الأمم للوزير أبي شجاع (ص ١٣٢ و ١٣٧ طبعة أمدروز) والمنتظم (٧ : ٨٦) والكامل لابن الأثير (٨ : ٢٧٩ و ٩ : ٣٤ و ١٠ : ١٩٨ و ١١ : ١٥) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٢٨٦ طبعة صالحاني) .

(٢) قرية مندثرة كانت في شمال بغداد ، اشتهرت بخمرها ومتنزّهاتها ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها . قال ياقوت (معجم البلدان ٤ : ١٣٥) : « لقطربّل أخبار ، وفيها أشعار ، يصلح أن تجمع كتاباً في أجلاد ، ومن أخبار الخلفاء والشجّان والشعراء والطّالبين والمقصّرين » . وفي مراصد الاطلاع (٢ : ٤٠٩) ، ما يصحح خطأ ياقوت في تحقيق موقعها . فليُراجَع .

(٣) عرف هذا الباب باسم حرب بن عبد الله البلخي أحد قوّاد أبي جعفر المنصور ، كان يتولى شرطة بغداد ، وولي شرطة الموصل . قُتل سنة ١٤٧ هـ .

(٤) تجارب الأمم لمسكويه (٦ : ١٨٢ — ١٨٣ طبعة =

فهذه بغداد، التي استوخمها «معز الدولة» ونسب إليها مرضه، أبت إلا أن يمكث فيها بتأثير وزيره المهلبي الذي أبدى حكمةً في صرفه عن رأيه في الانتقال إلى الأهواز، وحنكةً في تهيئة فكره إلى تشييد دار، ذاع صيتها في ذلك العهد.

٤ — موقع الدار ؟

اتفقت المراجع الموثوق بصحتها، على أن الدار المعزّية كانت في محلّة الشَّمَّاسِيَّة. فما هي هذه المحلّة؟ وأين كانت؟

قال ياقوت: «الشَّمَّاسِيَّة»، بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم سين مهملة، منسوبة إلى بعض شَمَّاسي النصارى. وهي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، وإليها يُنسب باب الشَّمَّاسية، وفيها كانت دار معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه . . . . وهي أعلى من الرصافة[1] ومحلّة أبي حنيفة[1]».

وقد أوضح ابن عبد الحق عبارة ياقوت الأخيرة بعض الإيضاح بقوله إنها «أعلى من الرصافة ومحلة الخُضَيريّة[2] المجاورة لمشهد الإمام أبي حنيفة ومحلة دار الروم[3]».

كانت الشَّمَّاسيّة بالجانب الشرقي من بغداد. ذكر الشابشتي في كلامه عن «دير درمالس» أنه «في أعلى بغداد، بالجانب الشرقي منها، قريب من الدار التي بناها الديلمي أحمد بن بويه بباب الشماسية. وموقعه أحسن موقع، وهو نَزِهٌ كثير البساتين والأشجار، وبقربه أَجَمَة قَصَب[4]».

وقال في «دير سمالو» إنه «شرق بغداد، بباب الشماسية، على نهر المهدي، وهناك أرحية الماء، وحوله بساتين وأشجار ونخل، والموضع نَزِهٌ حسن العمارة..[5]».

والشماسية قديمة العهد. وأقدم ما انتهى إلينا من أخبارها المدوّنة، يرتقي إلى أواسط المائة الثانية للهجرة. ثم توارت أخبارها حتى سنة ٥٢٠ هـ[6]. فتكون هذه

= أمدروز). فقد تطرّق بعض المؤرخين إلى ما حمله على بنائها، أنظر مثلا: الكامل لابن الأثير (٨ : ١٩٢) والبداية والنهاية (١١ : ٢٣٧) والعِبَر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (٣ : ٤٢٠).

(١) قال ياقوت (معجم البلدان ٢ : ٧٨٣) إنّ المنصور لما بنى مدينة بغداد بالجانب الغربي، أمر ابنه المهدي أن يُعسكر في الجانب الشرقي، وأن يبني له فيه دُوراً، وجعلها معسكراً له. فالتحق بها الناس وعمروها، فصارت مقدار مدينة المنصور. وعمل المهدي بها جامعاً أكبر من جامع المنصور وأحسن. وخربت تلك النواحي كلها، ولم يبق إلا الجامع ويلاصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليها وقوف وفرّاشون برسم الخدمة، ولولا ذلك لخربت. ويلاصقها محلة أبي حنيفة الامام وبها قبره، وهناك محلة وسُوَيق، وتلاصقها دار الروم، ولم يبق شيء غير هذا. وفي هذه الرصافة يقول علي ابن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وكان فراغ المهدي من بناء الرصافة والجامع بها في سنة ١٥٩ هـ وهي السنة الثانية من خلافته».

ثم قال إن بهذه الرصافة «مقابر جماعة الخلفاء من بني العباس وعليها تربة عظيمة بعمارة هائلة النظر عليها هيبة وجلالة إذا رآها = الرائي خشع قلبه، وعليها وقوف وخدم مرتبون للنظر في مصالحها. وبها من الخلفاء: الراضي بن المقتدر وهو في قبة منفردة في ظاهر سور الرصافة وحده. وفي التربة قبر المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمتقي والمستنجد» اهـ.

فالرصافة هذه كانت تحت مشهد الامام أبي حنيفة، والمقبرة الملكية الحالية هي في أرض الرصافة.

(١) معجم البلدان ٣ : ٣١٧ — ٣١٨.

(٢) الخضيرية محلة كانت ببغداد، تنسب إلى خضير مولى صالح صاحب الموصل. وكانت بالجانب الشرقي، فيها كان سوق الجرار (معجم البلدان ٢ : ٤٥٣).

(٣) مراصد الاطلاع ٢ : ١٢٤.

(٤) الديارات للشابشتي (مخطوط. الورقة ١ ب) وهذا الكتاب قد حققناه وأعددناه للنشر.

(٥) الديارات للشابشتي (الورقة ٤ ب).

(٦) فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٧٠ طبعة دي غوية)، وتاريخ اليعقوبي (٢ . ٥٩٧ طبعة هوتسما)، وتاريخ الطبري (في حوادث السنين ١٨٩ — ٢٩٠ هـ. راجع الفهرس في طبعة =

المحلة قد ظلت عامرةً مأهولة بالسكان زهاء الأربعمائة سنة. ثم ضعف شأنها بعد ذلك. وحينما تكلم عليها ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) ثم ابن عبد الحق (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ) لم تكن شيئاً ذا بال بالنسبة إلى ما كانت عليه في سابق عهدها.

وقد اشتهر في محلة الشماسية وفيما جاورها من أنحاء، مواطن عديدة، منها: دير درمالس ودير سمالو، وقد مرّ بنا ذكرهما. ومنها: «شارع الميدان» الذى كان ممتدا من الشماسية إلى سوق الثلاثاء(١). و «سوق العطش». كانت بين باب الشماسية والرصافة(٢). و «سُوَيْقة خالد» منسوبة إلى خالد بن برمك(٣). و «قصر الطين» بناء يحيى بن خالد البرمكى بباب الشماسية(٤).

وذكر ابن النديم في ترجمة سَنْد بن على اليهودى المنجّم المأمونى، أنه بنى الكنيسة التى في ظهر باب الشماسية في حريم دار معز الدولة(٥). وحكى القفطى أن هذا المنجم اتصل بخدمة المأمون. وندبه المأمون إلى

= دى غويه)، وصلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى (حوادث السنين ٢٩١ — ٣٢٠ هـ. راجع الفهرس في طبعة دى غويه)، والأغانى (٥ : ١٦٧ و ١٠ : ١٣٢ طبعة دار الكتب المصرية)، والمنتظم (٦ : ٣١٧)، ومعجم البلدان (٣ : ٤١٦)، والكامل لابن الأثير (في حوادث ١٩٧ — ٥٢٠ هـ. راجع الفهرس في طبعة تورنبرغ).

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣١ — ٢٣٢.

(٢) معجم البلدان ٣ : ١٩٤.

(٣) الوزراء والكتاب للجهشيارى (ص ١٨٩ طبعة البابى الحلبى) ومعجم البلدان ٣ : ٢٠٠.

(٤) الوزراء والكتاب (ص ١٨٩) ومعجم البلدان ٤ : ١٩٤.

(٥) الفهرست لابن النديم (ص ٢٧٥ طبعة فلوجل = ٣٨٣ طبعة مصر).

إصلاح آلات الرصد، وأن يرصد بالشماسية ببغداد، ففعل ذلك وامتحن مواضع الكواكب، ولم يتم الرصد لأجل موت المأمون(١).

إن الموضع الوحيد الذى ما زال قائماً معروفاً في وقتنا من كل ما ذكرنا من مواطن، هو «مشهد (جامع) الإمام أبى حنيفة(٢)» وهو في أسفل الأَعْظَمِيّة إحدى ضواحى بغداد، على بُعد أربعة كيلو مترات من بغداد شمالاً.

والمعروف في وقتنا هذا، أن «الأعظمية» وهى في شمالى بغداد، أرق هواءً وألطف مناخاً من بغداد ذاتها أو ما يليها جنوباً، وهو كذلك كان في الزمان القديم. فقد روى الجوزى أنه في سنة ٣٧٩ هـ «انتقل السلطان شرف الدولة (ابن عضد الدولة البويهى) إلى قصر معز الدولة بباب الشماسية، لأنّ الأطباء أشاروا عليه وزعموا أن الهواء هناك أصح، وكان قد ابتدأ به المرض من سنة ثمان وسبعين من فساد مزاج(٣)».

نستنتج من جميع ما تقدم، أن الشماسية كانت تقوم في أعلى الأعظمية، أى في البقعة المعروفة اليوم باسم «الصُّلَيْخ»، كما أن الدار المعزية كانت بإزاء ذلك على ضفة دجلة اليسرى.

(يتبع) كوركيس عواد

(١) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (ص ٢٠٦ — ٢٠٧ طبعة ليبزك).

(٢) راجع عنه: تاريخ مساجد بغداد وآثارها للسيد محمود شكرى الآلوسى (بغداد ١٣٤٦ هـ، ص ٢٠ — ٢٦)، وبغداد في عهد الخلافة العباسية تأليف لسترنج Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford, 1924, pp.191—194) أو انظر ص ١٩٦ — ١٩٩ من ترجمته العربية للأستاذ بشير فرنسيس، المطبوعة في بغداد سنة ١٩٣٦.

(٣) المنتظم ٧ : ١٤٧.

فتش عن الرجل

تعود أكثر الناس لا سيما الرجال كلما وقع في الدنيا حادث جلل أو خطب فادح أن يقولوا ويرددوا هذا القول «فتش عن المرأة» ، فإذا رأوا قتيلا أو غريقاً أو عرفوا شاباً قد انتحر ، أو بيتاً سرقه اللصوص أو زوجا شريداً هجر بيته وأسرته ليبيت في الحانات أو خصومة قامت واحتدمت ، صرخوا جميعاً بصوت واحد أو دارت بينهم الهمسات والوشوشات بقولهم : فتش عن المرأة ...

هذا القول الغاشم البغيض يردده الشرقيون والغربيون في الويلات والنكبات ، ويجعله الصحفيون عنواناً لبعض الأخبار في صدور الجرائد لما فيه من إغراء وتنبيه ، على أن كثيراً من المتعلمين والمثقفين إذا اطلعوا عليه أو سمعوه حسبوه لحكيم من حكماء الغرب أو نسبوه لنابوليون ، ولو رجعوا إلى ذخائر الأدب عند العرب لوجدوا ثمة شاعراً عربياً مجهولا سبق بطل الفرنسيين إلى ذلك المعنى في بيتيه:

إذا رأيت أموراً ... منها الفؤاد تفتتْ
فتش عليها تجدها ... من النساء تأتت

ولعل قائلهما كان من أعداء المرأة على نحو ما فعل بعض أدباء الغرب وشعراء العرب في الأيام الخالية ، أو على مثال ما يفعل في زماننا توفيق الحكيم الكاتب المصري المشهور بعداوته المصطنعة للمرأة التي لولاها لما أبدع في فنه ، ولما أوحيت إليه أشتات الفكر وأفانين الأدب ، ومثل هذا المعنى كثير في أشعار العرب القدامى والمحدثين ، وقد نظمه أديب من هؤلاء في قوله :

إن حادث يوماً أهمك شأنه ... وجهلته فابحث عن النسوان
إني رأيت الشر إلا قله ... منهن مصدره على الإنسان

ولو غاص أعداء المرأة الألداء أو المتظاهرون بالعداء إلى أعماق الحقيقة والواقع وتجردوا من كل ضغينة وبغضاء ، لما جعلوا المرأة موضع همزهم ولمزهم في كل حين ولأمسوا يرمونها أحيانا بما يصمونها به ظلماً وعدواناً ، وحاشا أن أزعم أن المرأة معصومة من الشر كاملة في سجاياها لا تصدر عنها نقيصة ولا دسيسة ، فأدعي أنها ملاك من الملائكة ، فكم بين النساء من حية رقطاء وداهية شمطاء ، تحوك الفتنة وتنصب بالرزايا ، كامرأة العزيز التي جنت على يوسف ، فلبث في السجن بضع سنين ، وهذه المرأة نفسها لو عصمها العزيز من جمال يوسف ، لكانت في نجوة من هواها الأثيم .

ومن العجب أن تتعالى أصوات الرجال من حماة الشريعة والقانون ، ورعاة الأسر والبيوت في بلاد الشرق والغرب بشكاية النساء ، وتحدر طائفة منهن في مهاوي الزلل والخطيئات ، وهم المسئولون عن خيرهن وشرهن ، غير أنهم يجهلون أو يتجاهلون أنهم كانوا مذ كانت المرأة سبباً في صلاحها أو فسادها ، في سعادتها أو شقاوتها ، ولو استنطقنا الحدثان لسمعنا أن أكثر فجائع الدهر التي حملت المرأة أثقالها ، ودارت بالملامة فيها كان سببها الرجل ، فهاتيك المرأة التي سلكها الزمان في الخبيثات الآثمات ، وهم يرجمها الراجمون لولا حكمة المسيح عليه السلام — من يدرى أنها لولا أحبولة البغى التي أوقعها فيها أحد الرجال ، لكانت إحدى القانتات الطيبات .

ولئن تقهقرنا إلى تخوم الأزل نجد حواء تتهادى في مقاصير الجنات ثم يوسوس لها الشيطان أن تأكل من شجرة الخلد لتحظى بملك لا يبلى ، فإذا بها تطعمه وتغرى آدم بهذا الطعام ، فيكتب الخالق على الخلق حياة الأرض ، ويسقيهم بعد نصب العيش كأس الفناء ، وينطوى البشر جيلا إثر جيل يلومون حواء حين تدهمهم الخطوب والهموم فيقولون لولا حواء ... وقد فاتهم جميعاً أنها لم تكن هي علة الشقاء ، وإنما كان إبليس ، وضميره واسم إشارته في علم النحو يدلان على أنه من طائفة الرجال لا من طائفة النساء ، فهل من العدل أن توصم حواء بأبد الأبد ، ثم ترث بناتها

من بعدها تركة هذا الظلم أبد الأيام والأعوام ، فيقال فى كل حين وفى كل محنة : فتش عن المرأة ؟

ما رأينا فى قديم الدهر وحديثه امرأة اخترعت بندقية أو مدفعاً ، ولا فتاة صنعت مدية أو سهماً ، ففى الدنيا رجال سكبوا الحميم على الآمنين ، وصبوا سوط عذاب على الأبرياء ، لم تبلغ مبلغهم نساء فى الجور والعدوان ، وإن أوزار الحروب وفوادح الخطوب مصدرها ابن آدم لا ابنته ، فهو الذى ابتدع وسائل الدمار ومتالف الحياة ، ومن من الناس لم يبلغه حديث ابنى آدم ، إذ قتل أحدهما الآخر طمعاً وحسداً ؟ فكانت أول يد تلطخت بالدماء هى يد الرجل ! سلوا خبايا المفاسد ، فى مطاويها بقايا هن ضحايا رجال ، لعل الواحدة تقول :

كنت عنده خادماً فسطا وبغى .

وتقول الثانية : أحرجونى فأخرجونى .

وتقول الثالثة : خطفونى وتركونى .

وسلوا محاريب العبادة وصوامع التقديس فى أكنافها عذارى زاهدت ، وكأن بينهن من تقول :

— خان حبى وسحق قلبى .

وتقول الثانية : سلبنى مالى وسيطر على ميراثى .

ألا أيها الرجال اللوامون فتشوا عن أنفسكم قبل أن تفتشوا عن المرأة ، هذه البهارج الغالية والخلاعات الطاغية لمن تلوح وتبدو ؟ وفيم تروح وتغدو ؟ أليست لمرضاة الرجال ؟

كيف ينشدون فى المرأة عصمة وكمالا ، وهم لا يحبون فيها ما يرضى عقولهم دون قلوبهم ، وفيهم من ينهى عما يهوى بها إلى السوء ثم يأخذ بيدها إليه ويدلها عليه ، وفيهم من يؤثر المتبرجة الخليعة على الحصان الرزان ، وفيهم من يستحيى أن يماشى زوجه فى الطريق إذا لم تكن كالدمية فى زينتها .

إنها أبداً مرآة لميول الرجال وأهوائهم الظاهرة والباطنة وكيفما يكونوا يكن ، فهم إذا شاءوا جعلوها ملاكا أو مسخوها شيطاناً ولله در من قال :

فهى شيطان إذا أفسدتها ... وإذا أصلحتها فهى ملك

هى نبع فاشربوا منه سائغاً طهوراً ، ولا تعكروه بالقذى أو ترموه بالحجارة …

هى قيثار فوقعوا على أوتاره الأنغام العذاب التى تهدهد الآلام وتنشر الوئام والسلام .

فتشوا عن المرأة فى تضميد الجروح ومواساة المرضى وإسعاف البائسين .

فتشوا عنها فى أطوار الأمومة الرحيمة ، فهناك أقصى غاية الجود والتفدية ، تسهر لينام أولادكم وتجهد ليستريحوا وتفديهم بالروح مهما أساءوا .

فتشوا عنها وهى منار سعادتكم وحياتكم ومثار عزتكم وحميتكم .

فتشوا عنها فى العزاء والوفاء ، فى الحنان والإحسان .

فتشوا عنها وهى أم الرسل والأنبياء الذين كانوا الهدى لضلال الإنسان .

فتشوا عنها وهى والدة الأطباء والعلماء الذين خففوا مواجع البشر وثقفوا عقولهم ورفهوا دنياهم .

فتشوا عنها وهى منجبة العظماء الذين كتبوا لأممهم سجل الخلود والأمجاد مدى الآباد .

(دمشق) **وداد سكاكينى**

استدراك

وقع خطأ مطبعى فى قصيدة « ذكرى المولد النبوى » بالعدد الأخير « ٢٢٠ » فسقط الشطر الثانى من بيت :

بلسم يشفى كل جرح ولوكا ... ن ... ...

والشطر الأول لشطر ... ن فؤاد بين الجوانح صلدا

وصحة البيتين هكذا :

بلسم يشفى كل جرح ولوكا ... ن يُرى فى الأسى بليغاً عميدا

وحنان لوكان قسم ماكا ... ن فؤاد بين الجوانح صلدا

وظيفة النقد

روى عن وردزوورث الشاعر الإنجليزى الذى عاش فى أوائل القرن التاسع عشر أنه قال « ليست لمقدرة على النقد عندى قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل أحط شأناً من ملكة الخلق والابتكار . ولو أن الوقت الذى يبذل فى نقد الآثار الأدبية ينفق فى الأدب الإنشائى — من أى نوع كان — لكان ذلك خيراً لنا وأجدى . الإنشاء يبين للكاتب مقدرته الحقة ، ولا ينجم عنه من الشر مثلما ينجم عن النقد . إن النقد الباطل أو الذى ينطوى على الحقد والضغينة يفسد عقول القراء ، فى حين أن الإنشاء — مهما قل شأنه — فى النثر أو فى الشعر ، لايعود على قارئه بضر أو أذى » .

ويقول ماثيو آرنلد — وهو من أكبر النقاد الإنجليز فى القرن التاسع عشر — رداً على هذا القول : إننا نكلف الطبيعة الإنسانية كثيراً إذا طلبنا إلى رجل له قدرة خاصة على لون معين من ألوان الأدب أن يحمل نفسه مالا يطيق ، وأن يحاول ماليس فى وسعه ، فينصرف عن النقد إلى الإنشاء ، لأن ذلك فى مصلحة الجماعة التى ينبغى أن تكون فوق مصلحته . ولكن إذا كان النقد باطلا أو منطويا على الحقد والضغينة — كما يقول وردزوورث — فليس منا من يجادل فى أنه خير للأدب وللناس أن لايذاع هذا النقد بين القراء . ولا يجادل أحد كذلك فى أن ملكة النقد أقل شأناً من ملكة الإنشاء . ولكن هل من الحق أن النقد فى ذاته عمل فيه ضرر وأذى ؟ وهل من الحق أنه من الخير لنا أن نبذل الوقت الذى ننفقه فى نقد الآثار الأدبية فى الأدب الإنشائى من أى نوع كان ؟ هل من هل من الحق أنه كان من الخير لنا وجنسن (وهو من أدباء القرن الثامن عشر) لو أنه أخرج لنا مسرحيات من طراز مسرحيته « إيرين » ووفر على نفسه الجهد الذى بذله فى كتابه « حياة الشعراء » ؟ بل إنى أقول هل كان من الخير للأدب لو أن وردزوورث نفسه خصص الوقت الذى صرفه فى كتابة مقدمته النقدية الشهيرة ، وفى نقد الكتاب الآخرين لكتابة عدد آخر من القطوعات الشعرية ؟ لقد كان وردزوورث نفسه ناقداً كبيراً ، وإنا نأسف كثيراً لأنه لم يخصص من وقته للنقد أكثر مما فعل . وكان جديراً من أكبر النقاد ، وإنا لسعداء بالقدر الكبير الذى خلفه لنا من النقد .

لاشك فى أن وردزوورث كان مبالغاً أشد المبالغة فى نظريته ، ولكنه يشككنا فى قيمة النقد ، ويبعث الناقد على التساؤل : مافائدة النقد ؟

ولا مراء فى أن المرء لايجد سعادته إلا فى الخلق والابتكار . ولكننا يجب أن نذكر أنه ليس من الضرورى أن يكون الابتكار فى الادب أو فى الفن ، وإلا لما تمتع بالسعادة غير أفراد قلائل جداً — وأولئك هم الأدباء المنشئون . إنما يستطيع المرء أن يبتكر وأن يبتدع فى فروع أخرى من المعرفة والعمل . وقد يجد فى النقد نفسه مجالا للخلق والابتكار . ويجب أن لايغيب عن الذهن كذلك أن الابتكار فى الأدب أو فى الفن ليس ممكنا فى كل العصور وكل الظروف ، وقد يكون الجهد فيه بغير جدوى ولو بذل هذا الجهد فى التمهيد له وفى جعله ممكنا لكان أجدى . وذلك لأن الذهن المبتكر لايستطيع أن ينتج إلا إذا توفرت له العناصر والمواد الأولية — كالبناء ليس بوسعه أن يشيد البناء بغير الملاط والحجر . هذه المواد الأولية فى ميدان الأدب هى « الأفكار » خير الأفكار الشائعة فى العصر فى كل موضوع يمسه الأدب . ولا خير فى الأنتاج الأدبى المبتكر إذا لم يتعرض لهذه الأفكار ويعالجها . وأقول الأفكار الشائعة ولا أقول الأفكار البعيدة المنال ، لأن العبقرية الأدبية الخالقة لاتتجلى فى كشف الآراء الجديدة . إنما هذا عمل الفيلسوف ؛ وإنما عمل الأديب

التابع أن يتناول الكليات ويعرضها أجزاء مفصلة مدعمة بالمثال — فهو عمل تركيبي ، ولا يتناول الجزئيات ويصل بها إلى الكليات ويكشف الحقائق ، لأن هذا عمل تحليلي ليس منه شأن الأديب . الأديب يستمد الوحي من الجو الفكري السائد ومن الآراء الشائعة ، ثم يعالج هذه الآراء بيد صناع فيخلق منها آثاراً فنية رائعة ويعرضها عرضاً جذاباً يخلب العقول ويجذب الأبصار . وليس الاهتداء إلى هذه الآراء — وهي مواد الأدب الأولية — بالأمر اليسير ، ولهذا كانت عصور الابتكار في تاريخ الأدب نادرة جداً ، وكان هناك كثير من الأدب الرخيص المبتذل الذي ينشئه أحياناً عباقرة الأدب أنفسهم .

لا بد لإنتاج العمل الفني الرائع من قوتين : قوة الرجل المنشىء ، وقوة العصر الذي يعيش فيه . وذلك أن الأديب المنشىء — مهما يكن نابغاً — بحاجة إلى الإلمام بمختلف المعارف . وبحاجة إلى من يقدمها له يتناول منها ماشاء حيثما شاء . وهذه هي وظيفة الناقد في فروع المعرفة المختلفة في الدين والفلسفة والتاريخ والفن والعلوم . الناقد يخلق للأديب بيئة فكرية وجواً من الآراء . وهو يبصر الأشياء على حقيقتها ، ويحكم على الفكرة بالحياة أو بالموت ويحاول أن لاتسود بين الناس غير روائع الآراء . فهو يبشر بالحق ، ويهز كيان الجماعة بقوته فتتمخض الجماعة عن عصر من عصور الإنشاء في الأدب .

ولزيادة الإيضاح نقول إن الشاعر — مثلا — ينبغي أن يعرف الحياة وطبائع الناس قبل أن يعالجها في شعره ، والحياة وطبائع الناس في الأزمنة الحديثة شديدة التعقيد ، ومن ثم كان الشاعر المبدع بحاجة الى الناقد الذي يبرز له الحقيقة ناصعة واضحة ، فيتغنى بها في شعره وينشىء فيها روائع القصيد ، ولعل هذا هو السبب في أن « بيرن » لم يرتفع الى السماء التي كان يحلق فيها « جيته » ، كان لكليهما ذهن قادر على الابتكار والخلق غير أن جيته كان يعيش في جو من الثقافة الصحيحة لم يستنشق ريحه « بيرن » ، فأدرك الشاعر الألماني من حقائق الحياة وطبائع الناس ما لم يدركه زميله الأنجليزي .

هذا الجو المشبع بالثقافة الصحيحة ، والذي يخلقه الناقد ، لم ينتشر في انجلترا في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، فكان الشعر في هذه الفترة - وهو الشعر الرومانتيكي الذي اعتمد على الخيال والعاطفة خلوا من المعرفة الكافية ، فلم يرود ووردزورث ، وكولردج ، وشلي وكيتس ، بالعلم والمعرفة ، انتاجهم ينم عن العبقرية الذهنية ، ولكن لايشف عن سعة الاطلاع ، ولا يحسبن القارىء أن الكتب وحدها هي سبيل تحصيل المعرفة ، فقد كان شلي كثير الادمان على مطالعتها ، وكذلك كان كولردج ، في حين أن بندار وسوفوكل لم يطالعا من الكتب غير القليل ، كما أن نصيب شيكسبير منها كان أقل من القليل . ولكن بلاد اليونان لعهد بندار وسوفوكل ، وانجلترا لعهد شيكسبير ، كانت تتوهج فيها الحياة توهجا ، وكانت الجماعة فيها مشبعة بالرأي الناضج والفكر الصحيح ، وفي هذا غناء للأديب عن الكتب والمطالعة وباعث له على الخلق والانشاء . والشاعر في أثينا في عصر بركليز وفي انجلترا في عصر إلزابث كان يعيش في جو زاهر من الفتوح والتقدم وكان جيته في ألمانيا يحيا في عصر ثقافة ونقد ، ولكن انجلترا في أوائل القرن التاسع عشر لم تشغلها الفتوح ولم تغرها الثقافة فجاء الشعر الرومانتيكي مفتقرا الى النظر العميق وفهم دقائق الوجود ، وهو مايقوم به الناقد ذو البصيرة النافذة ، إذ النقد الصحيح هو الأساس الذي يشيد عليه الأدب البناء .

ولكي يؤتي النقد ثمرة طيبة ينبغي أن يتنزه عن الغرض ، وألا يسف فيهبط إلى الحياة العملية . الناقد يجيل ذهنه في كل موضوع يمسه بغض النظر عما لهذا الموضوع من علاقة بعمل من الأعمال أو من صلة بالسياسة أو بالأفراد . إنما الناقد يستخرج خير ما عرف الانسان وخير ما فكر فيه في أي بلد من البلدان ، ثم ينشر

هذه المعارف القيمة فى أمانة وإخلاص ، ويخلق بها جوا من الآراء الصائبة الجديدة ، ولا يهمه ما يترتب على نشر هذه الآراء من نتائج . وليس للناقد أن يناصر أو يناهض حزبا من الأحزاب أو رأيا من الآراء السياسية أجل إنه لابد لكل حزب أو رأى من ناقد يدفع عنه طعون الأحزاب والآراء الأخرى ، ولكن مثل هذا الناقد لا يؤدى رسالة النقد المقدسة .

الناقد المخلص لنقده يوجه ابصارنا الى الحق والخير والجمال ، ويشعرنا بقصورنا عن ادراك الكمال ، ويدفعنا إلى السير فى سبيله . فى حين أن الناقد المتحزب يعمى بصائرنا لأنه يحاول أن يصور لنا أن الحزب الذى ينتمى إليه ويدفع عنه قد بلغ أوج الكمال . يقول جيته « إن الشوط الذى قطعه الانسان فى طريق التقدم يبدو لنا قصيرا حينما نمد البصر إلى الامام ونرى مقدار ما بقى لنا أن نقطعه » ، والناقد هو الذى يبين لنا معالم الطريق .

وقد يحسب القارىء أن إبعاد النقد عن الحياة العملية يبعده عن الواقع ، ويجعل أثره فى تقدم الانسان بطيئا . وحقا إن النقد قد يكون بطىء الأثر ولكنه محقق النفع والفائدة . إن أكثر الناس لا يرون الأشياء على حقيقتها وكثيرا ما يقنعون بالرأى الناقص والفكرة الخاطئة ، وعلى هذه الآراء الناقصة والافكار الخاطئة يقوم معظم النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى يشكو الناس جورها وعسفها . الحق لا يراه إلا القليل من الناس وهؤلاء هم النقاد المبصرون ، وعليهم وحدهم يتوقف نشر الرأى الصائب وسعادة الانسان . إن الحياة العملية كالرحى سريعة الدوران تجذب اليها المرء دون أن يقف لحظة يتدبر أو يفكر . وانما الناقد هو الذى لاينصاع لهذه الرحى ، وهو بذلك يخدم الرجال العاملين .

الرجل العملى لا يدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء وفى هذه الفروق الدقيقة يكمن الحق والمعرفة الصحيحة وليس من السهل أن تغير وجهة الرجل العملى الذى اعتاد أن ينظر إلى الأمور من ناحية واحدة ، وليس من اليسير أن تبرهن له أنه لا يملك محجة الصواب فعمل الناقد إذن شاق عسير . وينبغى له أن يتحلى بالصبر ، وأن لا يتعجل ثمرة ما يرمى إليه من إصلاح ، ويجب أن يكون واسع الثقافة حتى يميز بين الغث والثمين ، وأن لا ينشر الرأى إلا بعد الدرس والتمحيص وأن لايخشى فى الحق لومة لائم . يقول جويير « إن الجهل فى الامور الخلقية يخفف الجريمة ، ولكنه فى الامور الفكرية جريمة من أكبر الجرائم » ، وقد تغتفر الزلة يقع فيها الكاتب المنشىء ، ولكن الناقد ينبغى له الا يزل أو يخطىء . الكاتب المبتكر كالمتهم قد يثبت القاضى براءته أو جرمه ، فى حين أن الناقد هو القاضى الذى يحكم ، وعليه أن يلزم حدود العدل والانصاف ، وهو عرضة لأن يخطىء الناس فهمه لان عامة الناس تستمد عقائدها من الحياة العملية التى يختلط فيها الخطأ بالصواب ، ولا تحتمل الفكر المجرد ويقول جيته « العمل يسير والتفكير عسير » ، والناقد فى كثير من الاحيان يقف مقاوما فى وجه التيار العملى الذى يسبح فوقه الناس ، والمقاومة كما نعلم عسيرة وبخاصة حين تصطدم مع الدين أو قواعد العلم المقررة .

ونستطيع فى كلمة موجزة أن نقول « إن الناقد رجل يسعى سعياً منزها عن الغرض إلى إدراك خير ماعرف الإنسان وما أنتجت القرائح فى أنحاء العالم أجمع ، ثم يذيع بين الناس نتائج بحثه فيخلق جواً من الآراء الطريفة الصحيحة » . ولم يعرف فى التاريخ أن أمة واحدة عرفت خير إنتاج القرائح البشرية . ولذا كان من واجب الناقد أن يطلع على إنتاج الأمم الأخرى جميعاً .

الناقد يعرف ويحكم ، ويقدم للقراء معرفته مقرونة بحكمه ، ولكنه يجب أن يذكر دائما أن المعرفة أهم من الحكم عليها .

محمود محمود

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى... ... "

مدرسة شوقى — بناتى ! — آداب اجتماعية !

مدرسة شوقى ...

قضيت شطراً من الليل أسمر مع « شوقى » فى ديوانه . لقد ذهب شوقى الشاعر إلى ربه منذ عشر سنين ، ولكن قلبه مازال حياً ينبض بأفراحه وأحزانه ووساوس نفسه فى هذه الصفحات المقروءة التى خلفها من بعده حديثاً يُروَى وخبراً يُؤثَر ؛ لقد كان شوقى شاعر هذه الأمة ، ومازال مكانه — على مرّ السنين — خالياً لم يقتعد ذروته بعدُ شاعرٌ من شعراء الجيل على ما افتنّ الشعراءُ بعده فى مذاهب القول واستحدثوا من فنون الشعر ... ...

... وانتهيت من الديوان عند قصيدته على لسان « الطربة » فى الجزء الأول ، تحدث بأمانيها إلى سعد زغلول وزير المعارف يوم كان ، تطلب إليه أن ينشىء مدرسة لبنيها فى هذه الضاحية ، وكان شوقى يومئذ يسكنها ، وصغاره يطلبون العلم فى مدارس القاهرة ، يُقلّهم إليها القطارُ كل يوم فى الغدوّ والرّواح ؛ وبلغتُ من القصيدة قوله :

بَنِىّ يا سعد كزُغْب القطَا
لا نَقَصَ اللهُ لهم من عِدادْ
إن فاتك النسلُ فأكرمْ بهم
ورُبّ نسلٍ بالندى يُستفادْ
أخشى عليهم من أذى رائح
يجمعهم فى الفجر والعصر غادْ[(١)]
صغيرهُ يسلبنى راحتى
ويمنع الجفنَ لذيذَ الرقادْ !

(١) يعنى القطار .

يعقوب من ذئب بكى مشفقاً
فكيف أنياب الحديدِ الحِداد ؟
فانظر رعاك الله فى حاجهم
فنظرةٌ منك تنيلُ المرادْ ...

وقد استجاب « سعد » لنداء « شوقى » فكانت مدرسة الزيتون ولا تزال ؛ وإنى لأمرّ عليها غادياً ورائحاً وأنظر المئات من أبناء الضاحية غادين إليها أو رائحين عنها يتأبطون كتبهم أو يحملون حقائبهم ، فأذكر شوقى وبنيه والآلافَ من « زُغب القطا » الذين خرّجتهم هذه المدرسة منذ كانت وما تزال تبذل المعونة لتخريج الآلاف من إخوتهم ومن بنيهم ، ومن حَفَدَتهم أيضاً ؛ فهل من هؤلاء جميعاً مَن يذكر شوقى ؟

لقد اقترح البرلمان فى الدورة الماضية تخليد ذكرى شوقى بتمثال يقام له فى « الأوبرا » ؛ أفلم يكن أجدرَ أن يكون الاقتراح تسميةَ هذه المدرسة باسم شوقى ، وأن تكون لها جائزة سنوية باسمه يكتتب لها سكان هذه الضاحية الممتدة من « القبة » إلى « عين شمس » فالمرج ، فالخانكا ، ويُمنحها الفائزُ الأولُ أو الفائزون الأوائل فى اللغة العربية من خريجى المدرسة ؟ ...

وددتُ ولكن ... ...

بناتى !

... ولكنى لم أبدأ هذا الحديث لأكتب من « مدرسة شوقى » أو « جائزة شوقى » ؛ فإن لذلك أواناً آخر لعله أكثر مناسبة ، ولكن منظراً رأيته ذات صباح من الأسبوع الماضى لم أنسه منذ رأيته ، ولا يزال وجه ابنتىّ الصغيرتين يذكرنى إياه كلما هممتُ أن أنسى ...

... كان المطر ينهمر كما تنصبّ الدِّلاء ، فلا تكاد دارٌ فى المدينة أن تعصم مَن فيها من أذى السيل ؛ وكان البرد يلفح الوجوه فما تفرق بين لَسْعته وحرّ النار ؛ وكان

الضحى وما زال ظلُّ الليل على وجه السماء، فلولا حساب الحاسب لجهل الناسُ أيهم فى النهار ...

ووقفت ساعةً أؤامر نفسى قبل أن أجد العزم على الخروج من دارى بالمطرية فى ذلك اليوم العابس ، ثم اقتحمتُ الطريق تحت السيل المنهمر ، ووجّهت وجهى نحو « المحطة » ، ولم يكن ثمة غيرى وغير قليلٍ مثلى يقصدون « الديوان » أو يطلبون العيش ؛ ولكن ما هذا الذى أرى على مبعدة ؟ إنها فتاةٌ لم تَعْدُ الطفولة ، وإنها لتحمل بيديها مظلة وحقيبة وتستند إلى جدار ؛ ما خطبُ هذه المسكينة وما حاجتها ؟ ...

مَهلاً : سميحة ! ما خَرَجَ بك الساعة يا بُنية وكيفَ رضى أبوكِ ؟ ... ونظرتُ إليها وقد ابتلّتْ ميدعتُها حتى ما تمتنع عن صدرها رطوبةَ الماء ، فعرفتُ أين تقصد ؟... إنها فى هذا المكان بين الرياح الأربع فى المطر الدافق تنتظر سيارة المدرسة تحملها إلى « مصر الجديدة » ؛ وأين « المطرية » من مصر الجديدة ؟ ولكن هكذا أرادت وزارة المعارف لبنات هذه الضاحية ، وماذا يصنعن وليس ثمة مدرسة أقرب إليهن من مدرسة العباسية أو مصر الجديدة ؟

قلتُ : فلماذا يا ابنتى لم تلزمى اليوم دارك أو تنتظرى السيارة وراء زجاج النافذة من دار أبيك ؟

قالت الصغيرة الغارقة فى ثيابها : اليومَ « اختبار الفترة » وما أريد أن يفوتنى ، ثم إن سائق السيارة لا يمرّ بدور التلميذات داراً داراً ، وإنما علينا أن ننتظره فى هذه « المحطة » من الطريق العام ؟

قلت : حتى فى هذا اليوم !

وهبّتْ رويحة تسق المطرَ فى وجهى حتى لم أكد أرى ، فاستدرتُ ومضيت بالصغيرة على رغمها إلى دار أبيها والأرض تجاذبنى الخُطا مَشْىَ المقيّد ... !

... لم أنس هذا المنظر منذ رأيته ، ولا يزال وجه ابنتى يذكّرنى إياه كلما هممت أن أنسى ؛ وها أنذا أقرأ الساعةَ أبيات شوقى وما كان أقرُها فآسَفُ أشدَّ الأسف لأن شوقى لم يكن له يومئذ بُنَيّات ؛ إذن لكان للمطرية اليوم « مدرسة بنات » فلا تتجشّم « سميحة » بنتُ صديق ذلك الشوار كل يوم إلى مصر الجديدة ولا تتجشّمه ابنتاى فى غد ! !

ومع ذلك فماذا كانت ضاحية المطرية منذ ثلث قرن يوم أنشأ سعد زغلول مدرسة الزيتون ليتعلم فيها بَنُوها وبَنُو شوقى وماذا هى اليوم ؟ ... إن سكان هذه الضاحية ليبلغون اليوم عشرة أمثال ما كانوا يومئذ أو يزيدون ؛ أفليس من حقهم أن يكتبوا اليوم لنجيب الهلالى يقولون :

« بناتنا يا نجيب ! ... ... » .

وما يزال لشوقى دار فى المطرية تحمل اسمه فى أفواه الشيوخ من السكان ؛ أفليس من الوفاء لذكرى شوقى أن تتخذها داراً لمدرسة حتى يتصل ماضيها فى العلم بحاضرها ويتجدد اسم شوقى فى المطرية على أفواه الشبان والشابات ؟

إن لم يكن ذلك حق بناتنا فى العلم فإنه حق الوفاء !

آراب اجتماعية !

فى جريدةٍ ما من جرائد الأسبوع قرأت « الإعلانين » الآتيين :

« زار معالى وزير ... عشتنق ... حضرة الشيخ فلان ، شقيق الشيخ فلان عضو مجلس مديرية الجيزة ، والشيخ فلان من أعيان أطفيح ! »

* * *

« أقيمت أمس حفلة رائعة ، ابتهاجاً بزفاف الآنسة النبيلة فلانة ، كريمة الوجيه فلان ؛ وشرّف الاحتفال كبار موظفى المديرية ، وأعضاء الشيوخ والنواب ، وقنصل انجلترا ، و ... ؛ وتناول الجميع أفخر الأطعمة وانصرفوا يلهجون بكرم الداعين ! » .

والجريدة — قطعاً — لم تنشر ما نَشرتْ تطوّعاً لوجه الشيخ الريفى وشقيقه ، والوجيه فلان وابنته

الآنسة « النبيلة » ، ولكنه « إعلان مأجور » يساوي كذا من الجنيهات بحساب الأسطر والكلمات يدفعها كاتبه أو طالبه والمتشفع بإذاعته ؛ فأيّ هؤلاء المذكورين « أعلاه » طالبه وكاتبه والمتشفع بإذاعته ؟ وما منفعته وجدواه ؟

... لو كنتُ أنا الوزير المذكور في ذلك الإعلان لامتنعتُ منذ اليوم عن زيارة مريض في داره ، أو في المستشفى ، تصوّنًا وكرامة ؛ ولأنكرتُ أن تكون لي صلة بالشيخ فلان عضو مجلس المديرية ، والشيخ فلان عين الأعيان ؛ حذر أن يكون المقصود من هذا الإعلان الرذل هو اكتساب الجاه والسمعة على حساب المرض ، أو على حساب المجاملة ؛ ومن يدري ؟ لعل قارئًا من ذوي الحاجات أن يقرأه فيتوهّم وهمًا ويحسب حسابًا ويأمل أملًا ... ثم لا تنقضي له حاجة ، أو لعل حاجته أن تنقضي عفوًا بلا شفاعة ولا وسيلة ، ويبقى في نفس الواهم وهمُه وتشيع في السوق قالةُ سُوء ... !!

... ولو كنتُ مدعوًّا في حفلة زفاف تلك الآنسة « النبيلة » لجعلتُ هذا الإعلان سببًا إلى رفض كل دعوة إلى مأدبة من بعد ، ولو كانت لزفاف بنت أخي ، فليس أسمجَ ولا أثقلَ ممن يدعوني إلى طعام ثم يَمُنُّ عليّ في جريدة ذائعة بما قدّم إليّ من « أفخر الأطعمة » مثنيًا على نفسه ، منوّهًا بكرمه وفضيلته !!

ماذا يعرف « الوجيه » فلان ، وشقيق المريض فلان ، من آدابنا الاجتماعية ؟ ... ولكني أريد أن أعرف قبلًا ما هي آدابنا الاجتماعية ؟ ... أي جملة أعمالنا الخاصة والعامة ما يصح أن نسميه آدابًا اجتماعية ؟ ...

... ها أنذا عائد من عملي في « الديوان » منذ لحظات ، لا أكاد أحمل رأسي من فرط الجهد ، وها هي ذي الخادم تعدّ لي الطعام وإني لأستعجلها به مما بي من جوع ؛ ولكن ماذا أسمع ؟ هذا جرس الباب يدق ، وإن رجلًا بالباب ... إنه زائر ضِقْتُ به في الديوان يُتابع خُطاي إلى الدار ينتهز الفراغ والخلوة ...

... قالت له الخادم : سيدي على الطعام !

وقال الزائر : قولي له : لا عليه فلن أشاركه في الطعام وإنما أريد لقاءه !

قالت : فهل تعود بعد ساعة ؟ إن سيدي متعب !

قال : وأنا متعب مثله فما أطيق أن أذهب وأعود !

ثم مضى ليلقاني بالديوان في غد فيتهمني بسوء الأدب !

فهذا رجل يزعم أنه يعرف الآداب الاجتماعية .

وهذا آخر قصد إليّ أمس يطلب شفاعتي لحاجة من حاجاته ، قلت له : يا صديق ، حسبُك أوثقَ صلةً مني بوليّ هذا الأمر !

قال : بلى ، ولكنها حاجة صغيرة فلا أريد أن أسعى إليه من أجلها !

فخجلتُ وانصرفتُ عنه كأنْ لم أسمع ، فنهض مغضبًا وهو يقول : أنت أنانيّ !!

إنه يزعم كصاحبه الأول أنه يعرف الآداب الاجتماعية !

ألم يطّلع القارئ ذات مرة على بطاقة دعوة بالنص الآتي :

« يتشرف فلان بدعوتكم لنزله ... وسيشرّف الاحتفال كثير من ذوي الشخصيات البارزة ! »

أي مدعوّ يحترم نفسه يجيب هذه الدعوة ؟

وهل قرأت مرةً في أخبار الوفيات من بعض الصحف مثلَ الإعلان الآتي :

« فاتنا أن نذكر في نعي فلان باشا أمس أنه قريب زوج أخت فلان الموظف بمصلحة التنظيم ! » .

إن في صفحة الوفيات من بعض الجرائد لصورةً تنطق وحدها بمقدار فهم الناس في هذا البلد لمعنى الآداب الاجتماعية ، وإن فيها وحدها التكذيبَ الصريح لو تهيأ لأحد أن يزعم أن لهذا البلد آدابًا اجتماعية !

« قاف »

قضية شهر زاد :

أحلام شهر زاد

كانت أحلام شهر زاد هي التي حركتنا للكتابة ، وكان جديراً بنا أن نبدأ الكتابة عنها ، فإن العهد قد تقادم على شهرزاد الحكيم ، وعلى قصص دي ريلينيه من قبلها ، وعلى القصر المسحور من بعدها ، ولكن الحديث كما يقولون ذو شجون . وإذا كان علينا أن نعتذر فعذرنا أننا ما كنا نقدر أن نقول كل ما نشاء ، أن نقوله استطراداً من معنى إلى معنى ، وانتقالا من موطن إلى موطن ، لأن الذي يجب أن يتكلم عن أحلام شهرزاد ، لابد أن يعرض لقصص شهرزاد ، فإن الأدب ما هو إلا بناء على بناء ، وطور في الخلق من بعد طور .

فإلى أحلام شهر زاد أخيراً :

كان أسلوب الأستاذ الجليل الدكتور « طه » في هذا الكتاب هو الأسلوب الذي نعرفه لطه . ولا أستطيع أن أصفه بأكثر من أن أصف الأثر النفسي الذي يحدثه فيّ . سألني مرة صديق فاضل عن رأيي فيه ، فقلت بعد تفكير إني كنت منذ دهر أغشى في أوقات الصيف حمام (سان استفانو) بالاسكندرية ، وكنت أرى فيه عواماً ما رأيت مثله في (سلاسة) طريقته . كان يضرب بيده ضرباً هيناً ويضرب بساقيه ضرباً هيناً ، فكأنما هو حوت من تلك الحيتان اللينة التي تنساب في الماء في رشاقة وتتلاعب في نعومة تشبه نعومة الأنغام الموسيقية ، فكان لا يعنيني أن أسأل نفسي عن هدفه ، ولا عن سرعته أو بطئه ، إذ كان أسلوبه يستولي على كل مشاعري استيلاء . وأنا إذا قرأت ما يكتبه « طه » شعرت بمثل ذلك ، فلا أسأل نفسي عن شيء ، ولا أنظر إلى شيء سوى هذه السلاسة الموسيقية التي تغلب على كل مادونها . ولم يتغير رأيي في ذلك الأسلوب عندما قرأت أحلام شهر زاد . فإنه استولى على مشاعري كما كان يفعل دائماً ، واكتفيت منه بما نلت من متعة فائتة . ولم أجد دافعاً يدفعني إلى أن أتكلف من المشقة مثلما تكلفت في فهم سابقتها شهر زاد الحكيم ، لأن جمال الصياغة وموسيقاها كفياني مؤونة مثل هذا التكلف ، ولكني مع ذلك راجعت نفسي وكاوحتها ، فإنه ليس من الإنصاف أن أجهد نفسي لأفهم معنى شهرزاد « الحكيم » ، وألتمس مقصده في شيء من القسر والمشقة على حين لا أسائل نفسي عن مقصد « طه » من كتابه . وأقبلت على الأحلام أقرؤها مرة ثانية ومرة ثالثة وكنت في كل مرة أخرج من القراءة قانعاً بما نلت من متعة ، ولم أحمل نفسي مشقة ولا قسراً في فهم معنى تلك الرموز التي جعلها الدكتور مطية لمعانيه ، كما فعل الحكيم من قبله . بالهؤلاء الأدباء ويا لرموزهم !

إننا نريد أن نفهم وأن نتمتع بما يكتبون ، فما لهم يكلفوننا هذه المشقة في فهم مقاصدهم ؟

لست أدري ما الذي يحمل أديبينا الكبيرين على هذه الطريقة التي تذكرنا بطريقة فلاسفة القدماء في إلغاز من يقرؤهم إذا لم يكن قد بلغ من الفلسفة ما يعينه على تحدي إلغازهم بفهمه الخاص وعلمه الواسع وإدراكه لطرقهم في الرمز والإشارة ؟

لاشك أن هناك معاني واضحة نفهمها من الأحلام ونعجب بها ونقرها . هناك معان لو وضعت بعضها إلى جنب بعض لكانت سلسلة بديعة من الحكم الاجتماعية والسياسية . قالت فاتنة لأبيها ملك الجان « فإن هذه الحرب كما كنت تقول لا تعني رعيتنا ولا رعاياهم من قريب أو بعيد ، وإنما هي شهوة جامحة دفعتهم إلى الشر والكيد » ثم قالت : « وما ينبغي أن نقاصر نحن ويشقى الأبرياء وما ينبغي أن يمس رعيتنا أو رعية أعدائنا سوء » ثم قالت لقائد الجيش تؤنبه على شدة حرصه على الحرب : « من شاء منكم أن يغامر فليغامر بنفسه لا بالأبرياء من جنده . »

ثم تحدثت إلى وزيرها عن الملوك الذين شنوا الحرب طمعاً وطغياناً فقالت : « فإذا مثلوا بين يديك أو بين يدى وكلائك فخيرهم بين الموت وبين أن يشهدوا على أنفسهم بالطغيان وإهدار حقوق الشعوب ... فأيهم اختار الحياة وأشهد على نفسه أنه طاغية مهدر لحق شعبه ، فليخلع نفسه من الملك وليلق إلينا بيده ونحن نسلمه بعد ذلك إلى وطنه يصنع به ما يشاء » .

لا شك أن هذه وأمثالها سلسلة من الحكم الصادقة يسوقها المؤلف فى ثنايا كتابه واضحة ، ولا شك أن فيها مقنعاً لمن أراد مغزى أو قصدا ولم يكتف بما دونها من الأسلوب والموسيقى .

ولكن مع كل ذلك ما هى تلك الرموز الكثيرة ، وماذا يقصد المؤلف منها ؟ ماذا تمثل شهر زاد هنا وماذا يمثل شهريار ومن الذى يختفى وراء رمز طهمان ووراء رمز فاتنه ابنته ؟

لقد أصبحت القصة فى العالم كله مطية الأدب إلى كل دعوة يريدها وكل فلسفة يريد أن يبسطها ، والقصة العربية اليوم ترفع رأسها ناهضة ويتعلق بها هذا الجيل الناشىء من أدباء الشباب ، فهى جديرة بأن يتحدث عنها أهل الأدب بما يخطر لهم .

وسر القصة هو ذلك الخداع الذى يخدعنا به المؤلف حتى نعتقد أنه يصف لنا ما شهد وما عرف ، فلا يزال يسوقنا مع خياله حتى ينتهى بنا أخير إلى أن نرى ما يراه هو وأن نحس ما يحسه وأن نشهد ما يزعم أنه شهده . كل ذلك يفعله المؤلف بغير أن يشعرنا أنه على إرادته أو أنه ينصحنا أو أنه يعلمنا .

فالقصة نوع من الاستهواء ، ولابد أن تقدم لنا ما يؤدى إلى ذلك الاستهواء من إبعاد لعقلنا الواعى واستيلاء على خيالنا . ولا يتم للقصصى ما يريد إلا إذا نجح فى أن نعيش معه فى عالمه الذى يريد أن ينقلنا إليه . ويجعلنا ندرك لغة ذلك العالم ومدلول ألوانه . لا بد له أن يصور لنا ذلك العالم تصويرا يخيله إلينا كالحقيقة ، ولابد أن يمزج وصفه بتعابير العاطفة حتى تغلب العقل الواعى ، وأن يجعل أشخاصه تتحرك حركة لينة طبيعية ، وأن يجعلها تتحدث وتحس وتفكر كما نحس ونفكر حتى نأنس إليها ونحسب أنها بعض من نعرف من الأحياء ، والقصصى لا يستغنى عن أن يصف لنا المنظر الذى حول هؤلاء الأشخاص ، حتى كأننا نراه ونرى من فيه وأن يجمل صور هؤلاء الأشخاص بحيث لا تغيب عنا صفات أجسامهم ولا مظاهرهم ولا خلجات نفوسهم ولا تفوتنا لفتة من لفتاتهم أو لمحة من لمحات التعبير على وجوههم .

كل هذه من ضرورات القصة إذا شئنا أن نسمى الأمور بأسمائها . فهل نجد ذلك كله فى « أحلام شهر زاد » ؟ إننا لمسنا كثيرا من مميزات القصة فى القصر المسحور ولكننا عندما قرأنا الأحلام قرأناها بالعقل الواعى ولم يتخذ فيها المؤلف خطه الخداع التى تميز عالم القصص .

ولكننا نعود إلى أنفسنا فنقول : إنه لا يضير الفكرة أن نقرأها بالعقل الواعى بدلا من أن ندسها إلى النفس فى خداع الخيال . وللأدباء طرقهم التى لا يقبلون فيها جدالا .

ولا ينبغى لنا أن ننتهى من هذه الكلمات بغير أن نعرج على الكلمة القصيرة التى كتبها صديقنا الأستاذ كامل الشناوى فى قضية شهر زاد ، فقد كانت تلك الكلمة مثار هذا الحديث الطويل كله . قال الأستاذ إنه رأى شيئاً من التشابه بين شهرزاد « طه » وبين شهرزاد « الحكيم » ، وإن فى الأحلام ألفاظاً توافق بعض ما جاء على لسان شهرزاد الصاحية ، وقال إن هذا عنده بمثابة وقوع الحافر على الحافر ، وكأننا به يريد أن يقول إن طه قد نقل من توفيق . ولسنا نظن إلا أن صديقنا الأديب قد أراد أن يثير مناقشة تبعث شيئاً من الحرارة فى هذا الجو الفكرى الراكد .

كأننا به يريد أن يبعث تلك المناقشة القديمة من مرقدها ، تلك التى كانت تثور بين حين وحين ، فينقسم لها

الأدباء إلى طوائف وشيع ، كل منها مدافع ومهاجم ، وكل منها مثبت ومنق ومرفع ومنقض ، نقصد تلك المناقشة التي كانوا يثيرونها حول ما يسمونه « السرقة الأدبية » . كان الأدباء يبحثون عن لفظ يشبه لفظاً ، وعن معنى يشبه معنى فتعلو أصواتهم منادين أنها السرقة ، وكانوا عند ذلك يتهمون المعنى واللفظ حسبما تشاء لهم ذخيرتهم الأدبية ، ويجدون في ذلك لذة وتسلية . ولا شك أنهم أتحفوا اللغة العربية بنوع فذ من أنواع الأدب يندر له شبيه في الآداب الأخرى ، ونحن اليوم إذا ألقينا نظرة إلى أدباء العرب في العصور المختلفة لم يخل قلبنا من أثر هذه الصيحات ، حتى لنكاد نتصور أن أدباء العروبة كانوا جميعاً يقترفون هذه الجريمة الشنعاء .

ولقد فكرنا في تفسير هذه (الظاهرة) ، فلم نجد لها إلا سبباً واحداً ، وهو أن أدباءنا كانوا واقعاً ممن أدركتهم الحرفة ، فلم تكن لهم خزائن ولا ضياع ولا قطعان من الإبل ولا البقر ولا الشياه . فكانوا يلجأون إلى المجاز والخيال . فيسمون ما عند أحدهم من لفظ أو معنى بأسماء الأعلاق التي يطمع الناس فيها ويسرقونها ، وهم بذلك إنما يتملقون لكبريائهم ويعوضون أنفسهم عما فاتهم من مادة هذه الحياة . فهل يريد صديقنا الأديب أن يحاول اليوم مثل هذه المحاولة ؟

إننا نخالف الأستاذ النشاوي في أساس الرأي الذي ذهب إليه . فلسنا نرى أن في الأدب شيئاً اسمه سرقة ، بل إن الأدب في أسمى معانيه ما هو إلا لقى قد امتزجت به عناصر مختلفة ليس فيها من جديد يبدعه الأديب سوى فنه وأسلوبه ونظرته وفلسفته .

هل الأديب إلا كالموسيقى أو الفنان الذي لا يمكن أن ينفق في أدبه إلا من الثروة التي تجتمع عنده من أصداء الأدب والفن في العصور الماضية وفي عصره الذي يعيش فيه ؟ لا نظن أن هناك أديباً جديراً بمكانة الأدب لا تنعكس في أدبه آثار الإنسانية وتهتز أوتار نفسه على أصداء معانيها .

ولكن لم نجد كل هذا البعد في المناقشة ؟ ولم نوغل كل هذا الإيغال في تصور المبادئ العامة ؟

هذا هو طه في (أحلام شهر زاد) فماذا فعل ؟

إن موضوعه يختلف كل الاختلاف عن موضوع (شهر زاد) وإن بين أسلوبه وأسلوب توفيق من الفرق مثل ما بين شخصي طه وتوفيق .

فهل اتفاق الأديبين الكبيرين في اتخاذ اسم شهر زاد يعتبر من أحدهما أخذاً من صاحبه ؟

يجب أن نذكر أنها شهر زاد السعيدة التي كتب عنها القدماء والمحدثون ، وكتب عنها أهل الشرق وأهل الغرب ، وكانت مرة والحقوقمرة غامضة ومرة صاحية ومرة حالمة . فهل يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه أو أن يجعلها في سجن حق تأليفه ؟ إن أكبر الظن أنها لم تصل بعد إلى خاتمة حياتها وأن لها في عقول أدباء الأجيال المقبلة بعثاً جديداً فهي ملك مشاع لا يحق لأحد أن ينسبها إلى ملك نفسه .

وقد أورد طه في (أحلام شهر زاد) بعض ألفاظ يعرفها مما نطقت بها شهر زاد الحكيم ، ولنا في ذلك رأي نظن أن الإنصاف يقرنا عليه . لقد كان طه مجاملاً لصديقه عندما أدخل هذه العبارات في قصته ، فإنه بذلك يعترف بالعمل السابق الذي أبدعه صاحبه وكأننا به يتودد إليه بأن يبعث في شهر زاده ملامح من الشخصية التي رسمها ذلك الصديق ، وما أجدر الأديب أن يشعر بالارتياح عندما يرى زميلاً يردد في كتاب له بعض ألفاظ من مؤلفه ، ففي هذا مجاملة وفيه اعتراف وفيه مشاركة في الحديث بين الأدباء .

هذه معان يجدر بنا في هذا العصر أن نجعلها مقاييس لأحكامنا بدلاً من هذه المقاييس التي كانت منذ حين مثاراً للمشاحنة بين الشعراء والكتاب .

(انتهى) محمد فريد أبو حديد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ — عابدين مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٩/٥٦٧٦٩

العدد ٢٢٣ — الثلاثاء ١ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٢ — ٦ من أبريل سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

عِبرة الموت

[مهداة لروح المرحوم الأستاذ البشري]

من قديم والإنسان أمام الموت مرتاع فزع ، ومع أن الموت هو النتيجة الحتمية الطبيعية للحياة ، لم يتقدم الإنسان أي خطوة في سبيل تهوين أمره وتلطيف وقعه ! ومع أنا إذا نظرنا إليه من الناحية الاجتماعية لا من الناحية الفردية ، وجدناه أمراً لا بد منه لحياة الجيل الحاضر والجيل المستقبل ، إذ الأرض يستحيل البقاء عليها والعيش فيها ، إذا لم يكن الموت — مع كل ذلك — فهذا التفكير المعقول لم يخفف الشعور بهول الموت ، وعده المصيبة الكبرى .

أمامه تنهار كل القيم : فالمال والجاه والمنصب والفلاسفة تتضاءل كلها أمامه ، فيستوي واجدها ويستقل شأنها فاقدها .

وفي كل يوم عبر ، فهو لا يرحم شاباً لشبابه ، ولا عظيماً لعظمته ، ولا أباً لحنوه ، ولا صحيحاً لصحته — سواء عنده كل شيء ؛ فلو نظرتْ إليه الأرستقراطية لانقلبت شيوعية .

وكلما كان الميت أعظم ، كانت العبرة به أعظم ؛ ومن أجل ذلك وقف الناس وقفة اتعاظ بموت الجبابرة ، أمثال الإسكندر ، ودارا ، وتيمورلنك ، ونيرون ، ونابليون ؛ إذ رأوا أن جبروتهم انهار أمام الموت كما ينهار السائل الفقير ، والمسكين الحقير ؛ فإذا الدنيا كلها ، والجبروت كله ، والعظمة كلها فقاقيع مسها الهواء فزالت ، وكأن الحياة لعبة في الهواء ، أو كتابة على ماء .

وفي الأدب العربي قصة طريفة ، بعثرت لجمعناها ، ورويت روايات مختلفة فاخترنا خيرها ؛ وهي أن الإسكندر لما مات اجتمع حول جثته جمع من الفلاسفة من تلاميذ أرسطو ، فقال عظيمهم : ليقل كل منكم قولا يكون للخاصة معزيا ، وللعامة واعظا .

فقام أحدهم وضرب بيده على التابوت وقال : أيها النطيق ما أخرسك ، أيها العزيز ما أذلك ،

أيها القانص كيف وقعت موقع الصيد فى الشرك؟ مَن هذا الذى يقنصك؟

وقام ثان فقال :

هذا القوى الذى أصبح اليوم ضعيفاً ، والعزيز الذى أصبح اليوم ذليلا .

وقال ثالث :

قد كانت سيوفك لا تجفّ ، ونقمتك لا تؤْمَنَ ، ومدائنك لا ترام ، وعطاياك لا تبرح ، وضياؤك لا يخبو ؛ فأصبح ضوءك قد خمد ، ونقمتك لا تُخْشى ، وعطاياك لا ترجى ، وسيوفك لا تُنْتَضَى ، ومدائنك لا تُمنع .

وقال رابع :

هذا الذى كان للملوك قاهراً ، أصبح اليوم للسوقة مقهوراً .

وقال خامس :

قد كان صوتك مرهوباً ، وكان مُلْكك غالباً ، فأصبح الصوت قد انقطع ، والملك قد اتضع .

وقال سادس :

كنتَ كحُلْمِ نائم انقضى ، أو كظل غمام انجلى .

وقال سابع :

لئن كنت أمس لا يأمنك أحد ، لقد أصبحت اليوم وما يخافك أحد .

وقال ثامن :

هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت فى ذراعين :

وقال تاسع :

كفى للعامة أسوة بموت الملوك ، وكفى الملوك عظة بموت العامة .

وقال عاشر :

قد حركتَنا الإسكندر بسكونه ، وأنطقَنا بصمته .

وهذه القصة إن شك فيها المؤرخ ، لا يشك فى قيمتها الأديب والمعتبر .

* * *

وفشت هذه القصة وهذه الأقوال فى أوساط الفلاسفة من المسلمين ، فلما مات عضد الدولة البويهى ، وكان ما كان من فخامة ملك وعزة جاه ، وهو الذى لقب بشاهنشاه ، ولى المملكة وقد استولى الخراب عليها فعمّرها ، وانبث فيها اللصوص والمفسدون فأمّنها ، ونظم المخبرين ، فتنده أخبار العالم الإسلامى فى سرعة البرق ، ورتب الجواسيس حتى خاف الرجل امرأته والسيد خادمه ، وهو شديد لا يلين ، وقاس لا يرحم ، ما أكثر من قَتَل وشرّد لسبب يستوجب ولغير سبب ، حتى رووا عنه أنه أولع بجارية شغلته بجمالها وحسن حديثها عن بعض شؤون الملك ، فأغرقها حتى لا يعود لمثلها ، وزهت له الدنيا فاغتر بها ووصف نفسه فى شعره بأنه — مالك الأملاك غلاّب القَدَر — وقصده المتنبى فرأى ملكا كبيراً ، ونعيما عظيما ، وقدرة قادرة ، وسطوة قاهرة ، فصرخ :

وقد رأيتُ الملوك قاطبـــة

وسرتُ حتى رأيتُ مولاها

ومَنْ مَنايامِ براحته يأمرُها فيهم وينهاها

أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الدولـ

ـة فَنَا خُسْرُو شَهَنْشَاها

أساميًا لم تزده معرفةً وإنما لذةً ذكرناها

إلى أن يقول :

وإن له شرقَها ومغربها ونفسُه تستقل دنياها

تجمعت فى فـــؤاده همم ملءُ فؤاد الزمان إحداها

وكان فى ملكه كرمان وفارس وعمان والعراق والموصل وديار بكر وحران ومنبج ، خضعت له وخافت منه واستكانت له ، وفزع منه الصغير والكبير ؛ ثم ماذا ؟

أصابه المرض وهو فى السابعة والأربعين ، فأذل نفسه وأحقر شأنه ، واستدعى له مهرة الأطباء ، فعجزوا عجزه وذلوا ذله ، فأخذ يقول الشعر يبكى نفسه :

فَكَتْ صناديد الرجال فلم أدع
عدوًّا ولم أُمهلْ على ظِنَّةٍ خَلْقا
وأخليت دُورَ المُلك من كل نازلٍ
فشرّدتهم غربًا وبدّدتهم شرقا
فلما بلغتُ النجم عزًّا ورفعـــة
وصارت رقاب الخلق أجمعَ لي رقا
رماني الردى سهمًا فأخمد جمرتي
فها أنذا في حجرتي عاطلا مُلْقَى

ثم جعل يقول : ما أغنى عنى ماليه ، هلك سلطانيه ، إلى أن مات .

استرعى هذا المنظر عقول الناس : بناء شامخ سقط في لحظة ، وقوة هائلة تحطمت في لمحة ، واعتداد بالنفس ذهب مع الريح ، ووقف القدر يسخر ممن زعم أنه غلاّب القدر .

وإذ ذاك ذكر فلاسفة بغداد القصة التي رويت لهم عن موت الإسكندر ، وما قاله تلاميذ أرسطو في العظة به .

وكان أبو سليمان المنطقي رأس الفلاسفة فيها ، وبيته ندوة كل من تفلسف ، يسألونه فيما أبهم عليهم ، ويستفتونه في أعقد المسائل ، فيجيب إجابة تدل على علم واسع وعقل ناضج .

فاجتمع عنده طائفة منهم يوم مات عضد الدولة ، واقترح عليهم أن يقولوا فيه ما قال تلاميذ أرسطو في الإسكندر .

وبدأ أبو سليمان فقال :

لقد وَزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها ، وأعطاها فوق قيمتها ؛ وحسبك أنه طلب الربح فيها فخسر روحه .

وقال ثان :

من استيقظ للدنيا فهذا نومه . ومن حلم بها فهذا انتباهه .

وقال ثالث :

ما رأيت عاقلا في غفلته ، ولا غافلا في عقله مثله ، لقد كان ينقض جانبًا وهو يظن أنه مبرم ، ويغرم وهو يرى أنه غانم .

وقال رابع :

أما إنه لو كان معتبرًا في حياته لما كان عبرة في مماته .

وقال خامس :

الصاعد في درجاتها إلى سفال ، والنازل من درجاتها إلى معال .

وقال سادس :

من جد للدنيا هزلت به ، ومن هزل راغبًا عنها جدت له . انظر إليه كيف انتهى أمره ، ووقع شأنه ، وإني لأظن أن فلانًا الفقير الزاهد الذي مات بالأمس أعز ظهيرًا من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة ، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة .

وقال سابع :

إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم ، وإن ريحًا زعزعت هذا الركن لعصوف .

وقال ثامن :

كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك ، وهلا اتخذت دونه جنة تقيك ؟ ماذا صنعت بأموالك والعبيد ، ورجالك والجنود .... من أين أتيت وكنت شهمًا حازمًا ، وكيف مكنت من نفسك وكنت قويًّا صارمًا ... إن فيك لعبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين .

وعلّق ظريف على الموقفين فقال : إن الفرق بين الكلامين كالفرق بين الملكين .

* * *

إن كان هذا فقيم غرور المغترّ ، وطمع الطامع ، وسطوة الظالم ، وطغيان المستبد ، وخيلاء المعجب ؟

ورحم الله الحسن البصري ، إذ يقول : ما أكثر العِبَر وأقل المعتبر .

أحمد أمين

من معرض كتاب الديارات الشابشتي :

٢ - الدار المُعِزِّيَّة ببغداد

● — بناء الدار وصفتها .

أجمع المؤرخون على أن معز الدولة ، بدأ ببناء داره في سنة ٣٥٠ للهجرة . قال ابن تغرى بردى : إن في هذه السنة « شرع معز الدولة بن بويه في بناء دار هائلة عظيمة ببغداد ، وخرّب لأجلها دوراً وقصوراً ... وألزم الناس ببيع أملاكهم ليُدخلها في البناء » [١] .

ولكنّ في معجم البلدان المطبوع ، غلطاً قد يكون مطبعياً أو تصحيفاً نسخياً ، حيث ذكر سنة البناء ٣٠٥ هـ [٢] . وأول من تنبه لهذا الوهم المستشرق الانكليزي الشهير لسترنج Guy Le Strange المتوفى سنة ١٩٣٣ . بيد أنه لما حاول تصحيحه ، زعم أن السنة الحقيقية هي ٣٤٥ هـ [٣] ، وليس هناك ما يدعم هذا الزعم .

غير أن هذه الدار التي بناها معز الدولة « بناء صرف إليه عنايته ، فعظم المجالس ونظم البناء » [٤] حتى جعل منها داراً « في غاية الحسن والكبر » [٥] ، لم يكن تشييدها ممكناً في سنة واحدة ، بل إن معز الدولة « مات ، وهو يبني فيها ، ولم يسكنها » [٦] . وقد مر بنا أن وفاته كانت سنة ٣٥٦ هـ .

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٣ : ٣٢٧ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) معجم البلدان (٣ : ٣١٨ طبعة وستنفلد ، و ٥ : ٢٩١ طبعة القاهرة) .

(٣) بغداد في عهد الخلافة العباسية (ص ٢٣٣ من الأصل الانكليزي ، أو ص ٢٠٠ حاشية ١ من ترجمته العربية .

(٤) المنتظم ٨ : ٣١ .

(٥) مرآة الجنان لليافعي ٢ : ٣٤٣ وشذرات الذهب ٣ : ٢ .

(٦) البداية والنهاية ١١ : ٢٣٧ .

كان معز الدولة ، قبل أن يبني هذه الدار ، ساكناً في داره الأخرى بسوق الثلاثاء [١] ، وهي هذه الدار التي قرأنا في غير مرجع أن المستكفي الخليفة العباسي ، اعتقل بها في سنة ٣٣٤ هـ [٢] على ما أوردناه في حاشية من هذا المقال .

ويحدثنا مسكويه أن الوزير أبا محمد المهلبي ، بعد أن ألح في حمل معز الدولة على سكنى بغداد « أنزله في البستان المعروف بالصيمرى [٣] ، وهو في أعلى بغداد من الجانب الشرقي ، بقصر فرج [٤] ، وأخذ في هدم ما يليه من العقارات وابتياعها من أهلها إلى حدود بيعة الروم [٥] . وكلف أبا القاسم بن مكرم وأبا القاسم بن جستان المدايني ابتياع العقارات المجاورة له » [٦] .

وهكذا ، فإنه بعد أن ابتاع الأراضي اللازمة له « أصلح ميداناً ، وبنى داراً على دجلة في جوار البيعة ،

(١) قال ياقوت (معجم البلدان ٣ : ١٩٣) إن سوق الثلاثاء « ببغداد ، وفيه اليوم سوق بزّها الأعظم ، وسمي بذلك لأنه كان يقوم عليه سوق لأهل كلواذى وأهل بغداد قبل أن يعمر المنصور بغداد ، في كل شهر مرة يوم الثلاثاء ، فنسب إلى اليوم الذي كانت تقوم فيه السوق » .

(٢) أنظر تفاصيل هذا الحادث في : تجارب الأمم (٦ : ٨٦ — ٨٧) والمنتظم (٦ : ٣٤٢ : ٣٤٣) ، والكامل في التاريخ (٨ : ١٦١) وتاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص ٢٩٠) ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٢٦٤ طبعة الخيرية بالقاهرة) .

(٣) عرفت باسم أبي جعفر الصيمري ، وزير معز الدولة . أنظر نشوار المحاضرة (١ : ٥٤ طبعة مرجليوث) .

(٤) هو فرج بن عمر الرخجي ، كان مملوكاً لحمدونة بنت غضيض أمّ ولد الرشيد على ما ورد في تاريخ بغداد للخطيب (المقدّمة الخطيبية ، طبعة سلمون في باريس ، ص ٤١) . وقد ورد ذكر داره في معجم البلدان (٢ : ٥٢٢) فقال في وصفها إنه « لم يكن على شاطئ دجلة أحكم بناء من داره ، ثم هدمت فيما هدم من منازل ابنه عمر بن فرج لما قبضت » .

(٥) ما في المنتظم (٧ : ٢) : وأخذ في أن يهدم ما يليه من العقار والأبنية إلى حدود البيعة » . ولعله يقصد بها بيعة دار الروم بباب الشمّاسية ، فإن دار الروم كانت محلة للنصارى وفيها كانت لهم بيعة ودير كبير على ما في المآخذ التاريخية المختلفة .

(٦) تجارب الأمم ٦ : ١٨٣ .

ومد المسنّاة ، وبنى الاصطبلات »(١) .

ومن الطبيعى ، أن هذا العمل تطلب من مواد البناء على اختلاف أجناسها الشيء الجسيم ، ما حمل معز الدولة على أن يلتمس هاتيك المواد من مختلف الجهات وبأى وجه كان . ولم يتردد فى أن يهدم ما عمره غيره ، فقد « نقض قصور الخلافة بسُرّ من رأى ، وسور الحبس المعروف بالجديد ، وبنى به داره بالآجر الذى استعمله وطبخه فى الأتاتين »(٢) .

وما ذكره مسكويه بشأن نقض قصور سامراء ، أوضحه غيره بعض الإيضاح . فقد روى ابن الجوزى أنّ معزّ الدولة « نقض المشوق بسرّ من رأى وحمل آجرّه »(٣) . وزاد ابن كثير على ذلك أنه « خرّب أشياء كثيرة من معالم الخلفاء ببغداد فى بنائها . وكان مما خرّب المشوق من سرّ من رأى »(٤) .

وبعد أن استحوذ معزّ الدولة على المواد المطلوبة « وثق البناء ، واختيرت له الآلات والجص والنورة »(٥) ، وبالغ فى الإحكام ، وجلب له البناءون الحذاق المشهورون من جميع البلدان الكبار : من الأهواز والموصل وأصبهان وبلدان الجبل وغيرها »(٦) . « فكان العمل فى ذلك متصلا وكان الصناع فيه متفرّقين »(٧) .

ومن غريب ما جرى أثناء تشييد هذه الدار ، ما حكاه القاضى التنوخى بصدد غضب معز الدولة على وزيره المهلبى ، وإليك روايته ننقلها لطرافتها ولصلتها الوثقى بموضوعنا :

« بعد أن كان (معز الدولة) عمل (على) بناء مدينة لنفسه ، وخرج إلى كلواذى ، ليتخذها هناك ، ثم أراد اتخاذها حيال كلواذى ، ثم رحل إلى قُطْرَبُّل وأراد أن يبنيها عندها ، ثم تقرّر رأيه على بناء دار بباب الشماسية ، حصينة يستغنى بها عن المدينة وتخف عليه نفقتها ، وقدّر لذلك ألوف ألوف دراهم ، وزادت النفقة على التقدير أضعافاً ، وكان يطالب وزيره أبا محمد المهلبى بتوجيه وجوه الأموال لذلك مع قصور الدخل عن الخرج ، فناق منه عبثاً ، ثم كلفه تولى البناء بنفسه وكتّابه ، فكان وهُم يتولون ذلك . فسعى بعض أصحاب معز الدولة إليهم أنهم يشفّقون (أى يقللون) البناء فى السوية ليتعجل بنفقة خفيفة ويسرقون الباقى ، ووقفه على موضع منه كان فيه ساف لبن لم يحكمه ، ومشى عليه بحضرة معز الدولة ، لأنه ركب إليه ، فانقلعت منه لبنة ، فحمى طبعه وكان حديداً جداً سليم الباطن مع ذلك ، وإذا أخرج حدّته وانقضت سورة غضبه تندّم على فعله ، ولكن من يقوم على تلك الحدّة ؟ فأحضر المهلبى ووقفه على ما رآه ، فأخذ يحتج عليه ، فحمى ، وأمر به فبطح وضرب مقارع كثيرة ، ثم قال : اخنقوه ! فجعل فى عنقه حبل ، وأمسكه ركابيون فوق السور ليشيلوه ليختنق . وبلغ الخبر قوّاده الأتراك وخواصّه ، فبادروا إلى تقبيل الأرض بين يديه ومسألته الصفح عنه ، فأنزل وأطلقه . فمضى إلى داره كالميت ، وأظهر قلة حفل بذلك لئلا يشمت أعداؤه ويطمعوا فى صرفه ويقولوا عليه بانكسار إنْ بانَ منه ، ولئلا يبلغ صاحبه أنه مستوحش من ذلك فيستوحش منه ، وكذا كانت عادته أن يشرب فى تلك الليلة النبيذ ويدعو الغناء ويجمع الندماء ليرى قلة الاكتراث بما جرى عليه . فعاد إلى داره وقد قرب السحر ، فدعا بما يأكله ، فأكل وندماؤه معه ، وليس فيه فضل لشدة الألم ، وهو يتجلد ويتحدث . ثم دعا بنبيذ فقالوا له : أيها الوزير ، لو استرحت وطرحت

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

(١) المنتظم ٧ : ٢ .   (٢) تجارب الأمم ٦ : ١٨٣ .
(٣) المنتظم ٧ : ٢ .
(٤) البداية والنهاية ١١ : ٢٣٧ .
(٥) زاد ابن الجوزى فى روايته (المنتظم ٨ : ٣١) « ققلة والاسفيداج » .
(٦) تجارب الأمم ٦ : ١٨٣ .
(٧) نشوار المحاضرة ١ : ٧١ .

النسيان

وأهميته في الحياة النفسية

— ٣ —

ويبدو الزمان كعامل للنسيان في مسألة الترتيب على الخصوص — وندرك بتجارب بسيطة أن الذاكرة لا يمكنها أن تحتفظ بالترتيب الأصلي مهما يكن « الزمان » قصيراً — ويزيد « نسيان » الترتيب كلما زاد الزمان ، وبذلك نسبنا للذاكرة قوة تركيز الحالات الشعورية في الزمان — ولكننا لا نفهم كيف يمكن للذاكرة أن تحدد أي أن توافق بين حالة شعورية والزمان الذي وقعت فيه أو الذي يلائمها ، فكنا نفهم أهمية هذه الوظيفة لو كان الزمان مستقلا عن الحالات الشعورية ، ولكننا نلاحظ أن هذا غير ممكن أو هو على الأقل على غير ما تصوره بعض علماء النفس ، وذلك لأن التحديد نفسه عبارة عن استرجاع حالة شعورية مع الحالات الشعورية المتصلة بها ، أو بالنسبة إلى حالة شعورية قوية اتخذناها مقياساً « للقبل » و« البعد » إن صح هذا التعبير — فالتحديد تمييز بين الحالات الشعورية الماضية ، ونعبر عن ضعف التمييز بالنسيان الزماني — وهناك نوعان من التمييز : تمييز بين الماضي والحاضر ، أي بين الذكريات والواقعيات ، وهذا التمييز يتوقف على قوة الشعور بالحاضر ، وهناك تمييز آخر بين الحالات الشعورية نفسها فيميز بعضها من بعض حسب ترتيبها الأصلي ، وهذا ما سموه تحديدا ، وهو عبارة عن إدراك مكان كل حالة شعورية بالنسبة إلى غيرها ، ومن هنا جاءت فكرة القبل والبعد في الماضي وعني بذلك بعض اللغات وجعل لكل زمان صيغة خاصة في التعبير ونجد نوعين من الماضي : الماضي البسيط Passé simple والماضي المركب Passé composé ، بل إنا نجد نوعاً ثالثاً في بعض الأحيان هو الماضي السابق Passé antérieur فالعجز في التحديد ناشئ من عجز في استرجاع بعض الحالات الشعورية التي نقارن بينها ، فالنسيان الناتج من الزمان غير موجود ، وإنما هو نسيان للحالات الشعورية هو عجز عن الاسترجاع أو على الأقل الضعف في التمييز بين بعض الحالات الشعورية ، فالذاكرة لا تعرف الزمان ، ويكون من الخطأ أن نقول مع « ريبو » الذاكرة هي التحديد في الماضي .

وإذا اعتبرنا نوعين من النسيان وأرجعنا النوع الأول إلى ضعف الاسترجاع والتحديد والثاني إلى تزاحم الحالات الشعورية — فيبدو أنه لا يوجد إلا نوع واحد وهو الثاني وأن النوع الأول ما هو إلا — مظهر من مظاهر النوع الثاني — لقد ذكرنا في تفصيل النوع الأول أن النسيان قد يكون عميقا وقد يكون خفيفا ، ولاحظنا أن هذا التفاوت موجود أيضا في النوع الثاني وهو النسيان ، بمعنى ما تحت الشعور وعوضا من أن نقول مع بعض البحاث إن العامل هو الزمان أو تأثر النفس بالشيء نقول إن ذلك راجع إلى قوة الحالة الشعورية ، فإن كانت قوية فإنها تقاوم الحالات الشعورية فلا تقضى عليها وتظل بارزة قريبة من بؤرة الشعور وإن كانت ضعيفة فإنها تندثر ويكون ما سميناه النسيان العميق . وأهم نقطة اختلف فيها الفهمان للنسيان

نفسك كان أولى من النبيذ ، فليس هذا وقته ، وذمّوا له من هذا . فأخذ يعزّيهم على ما جرى عليه ، ويسلّيهم وتمثّل لي كلامه بهذا البيت :

فإن أمير المؤمنين وفعله
لكالدهر ، لا عار بما صنع الدهر

ثم شرب أقداحاً وقام . أخبرني بذلك من حدثه إياه من ندماء أبي محمد عن مشاهدة »[1] .

(يتبع) كوركيس عواد

---

(١) نشوار المحاضرة ١ : ٧١ — ٧٢ .

أغنية :

ذكرى

إنْ يكنْ قلبيَ عُشّاً   أنتِ في العُشّ هَزارُ
أو يكنْ عيشيَ روضاً   أنتِ في الروضِ الثمارُ
أو تكنْ نفسيَ دُنيا   أنتِ في الدنيا نهارُ

فاملأي بالشدوِ قلبي
وابسمي يا زهرَ حُبّي
واسطعي يا نورَ رِقّي

تهدأ الأشواقُ في صد   رِي وتندى حُرُقاتي
ويذيعُ العطرُ في رو   حي وتغفو حسراتي
وتبيدُ السحبُ السو   داءُ من أفقِ حياتي

* * *

شبَّ في جنبيَّ وجدٌ   لا تذوَّقتِ سعيرَهْ !
إذ تذكرتُ الذي كا   نَ على شطِّ الجزيرَهْ
والأماني يتدلل في الآ   فاقِ للدنيا مسحورَهْ

وأنا أحنو إليـــك
راشفاً من شفتيك
سِرَّ ما أرجو لديك

مرّتْ والعمرُ ربيعٌ   نحوَ وديانِ الخريفِ
تتبعُ الذكرى على رو   حي كالغيمِ الشفيفِ
ثمَّ لا ألقى لها رِيّـ   ـا سوى دمعي الأريفِ !

عبد الرحمن الحجبي

هي مسألة الزمان ، وإذا ذكرنا أن فكرة الزمان تعود إلى مرور الحالات الشعورية أبعدنا كل خلاف في هذه النقطة . فيكون النسيان عبارة عن انحدار الحالات الشعورية إلى ما تحت الشعور مدفوعة بالحالات الشعورية الجديدة كثيرة وقوية ، فنعبر عن ذلك بالنسيان العميق ، فإذا كانت الحالة الشعورية المدفوعة إلى ما تحت الشعور قوية ، فإنها تقاوم النسيان ، وإذا تكاثرت عليها الحالات الشعورية الجديدة فإنها تقاوم النسيان ، وإذا تكاثرت عليها الحالات الشعورية الجديدة فإنها تختفي قليلا ، ويكون بذلك النسيان الخفيف وبُعد الحالات الشعورية عن بؤرة الشعور أو النسيان يجعلنا نتصور الحالات الشعورية بعيدة ، ونطلق على هذا البعد لفظة زمان — فكلما كان الزمان طويلا ، أو كلما كانت الحالات الشعورية التي تفصل البؤرة عن حالة شعورية معينة طويلة كان النسيان عميقاً وكان التمييز بينها وبين غيرها متعذراً ، ونعبر عن ذلك بضعف التحديد .

ولو لم نعتبر النسيان قائماً على تزاحم الحالات اللاشعورية لما ظهرت لنا أهميته الكبرى في الحياة النفسية . فالنسيان أو بُعد الحالات الشعورية عن بؤرة الشعور مؤقتاً شرط ضروري للشعور بالحاضر — فالنسيان عبارة عن استمرار الشعور ، ولولا هذا الاستمرار لما كانت الحياة — ولا ندرك بواسطة الشعور إلا جزءاً يسيراً من نشاط النفس ، وأما الجزء الأكبر فإنه يتم فيما نسميه اللاشعور الذي هو حقيقة تعرفنا أعمال تقوم بها النفس الإنسانية دون أن يكون للانسان أي علم بها ولا أي دخل إرادي . وهكذا يبدو الشعور كعدسة آلة سينمائية تلتقط دائماً شريط الذاكرة ، وتستعرض أحياناً صوراً منه ، بينما يظل الباقي من الصور في عالم النسيان ، أو في عالم اللاشعور ....

أبو مدين الشافعي

حول قصة دون كيشوت

— ١ —

هل تأثر الأدب الإسباني بالأدب العربي في خلال السنين التي أقامها العرب في إسبانيا ؟ وإلى أي مدى كان هـذا التأثر ، وأي الآثار الأدبية الإسبانية خليقة بأن تكون مثالا للعلاقة بين أدب العرب المسلمين وبين أدب الإسبان المسيحيين ؟ كل هذه أسئلة تعني المتصلين بالنقد المقارن . وقد أثيرت جميعها ، لأن الأستاذ الكبير طه حسين بك ألقى محاضرة طريفة عن قصة «دون كيشوت» ومدى تأثرها بأدب العرب . وقد بحث الأستاذ المحاضر بعض الفروض التي دعت المعنيين بالأدب المقارن زيادة البحث فيها . وهي دعوة كريمة فتحت أمام المتأدبين والنقدة آفاقا جديدة للبحث ، ولعلنا نصيب بعض الأغراض التي رمى إليها لو بحثنا وجوها من حيـاة سرفنتيز ووجوها أخرى من قصة « دون كيشوت » حتى ندرك أي علاقة كانت بين الأدب العربي وبين هذه القصة الأوربية .

لابد أن يكون أدباء الإسبان قد تأثروا بالعرب الذين غزوا بلادهم في سنة ٧١١ من التقويم الميلادي ، لأن هؤلاء قد اتخذوا الأندلس موطنا لهم وظلوا سبعة قرون يتنقلون في أنحـاء البلاد . وكانت لهم حضارة هي التي وصلت الحضارات القديمة بالحضارة الحديثة . وليس من شأننا أن نبحث آثارهم في سياسة البلاد ، ولا آثارهم في العمارة وفن البناء ، ولا ما خلفوه من آيات الحضارة في العلم وفي الصناعة وفي الفلسفة ، فإن لمثل هذه البحوث رجالا آخرين ، ولكن الذي نعني به هو أن نتأثر العلاقة بين الأدب العربي والأدب الإسباني ، حتى نخلص من ذلك إلى قصة « دون كيشوت » .

لقد أثبت مؤرخو الأدب أن قصة « المعتمد بن عباد » آخر الحكام المستقلين في أشبيلية (١٠٨٨ — ١٠٩١) كانت من بين القصص التي تناولها شعراء الإسبان في القرون التالية . بل الثابت أن « دون جوان مانول » Don Juan Manuel وهو أحد قصاص القرن الرابع عشر كتب هذه القصة وأضفى عليها خيالا حببها إلى القراء في إسبانيا . ثم لقد أثبت مؤرخو الأدب كذلك أن كثيرا من القصص قد نقلها العرب من الهند وفارس فلقيت جوا صالحا في إسبانيا . وانتشرت بعد ذلك حتى بلغت جنوب فرنسا وما زالت تتقلب في غرب أوربا حتى اتشحت بثيـاب مسيحية أوربية لا يستطيع القارىء العربي أن يتعرفها إلا بجهد . ومن تلك القصص خرافات وحكايات غناها شعراء متنقلون سماهم التاريخ الأدبي Troubadours . بل لقد ذهب كثير من مؤرخي الأدب إلى أن أوزان الشعر العربي نفسها قد أثرت في هذا الضرب من الأدب المتنقل ، لأنهم استطاعوا أن يقارنوا بين أساليب الوزن والتقفية في الشعر العربي وبين الأوزان والقوافي في شعر الجائلين .

ولكن هل نستطيع أن نكتشف قصة واحدة في الأدب العربي هي التي نسجت على منوالها «دون كيشوت» ؟ وهل في الأدب العربي جاهليا كان أو إسلاميا قصة تشبه هذه في موضوعها أو أسلوبها ؟ إن الأسئلة التي أثارتها المحاضرة جديرة بالبحث : فهل تأثر سرفنتيز مؤلف «دون كيشوت» بالأدب العربي وبخاصة حين أقام بالجزائر ؟ فهـذا سؤال أول . وهل كان للتصعلك كما يعرفه العرب أثر في صوغ القصة ؟ وهـذا سؤال ثان . وهل تأثرت القصة بجنون الحب الذي ورثته القصة العربية من مثل حديث مجنون ليلى ؟ وهذا سؤال ثالث . ونحن نحاول في هذا المقال أن ندرس وجوها من حياة سرفنتيز لنجيب عن السؤال الأول . أما السؤالان الآخران فنرجو أن نبحثهما في مقالين آخرين .

ولد ميجل سرفنتيز في سنة ١٥٤٧ ونشأ محبا للكتابة .

وأتيح له أن يزور إيطاليا ولمّا يبلغ العشرين . ولبث فيها أربع سنين حتى سنة ١٥٧٠ حينما دعته المروءة والحاجة إلى أن يلتحق بالجيش الإسباني ويحارب الأتراك في موقعة ليبنتو . وفي ليبنتو فقد ذراعه وانتصرت الحليفات الثلاث : إسبانيا والنمسا والبندقية على القوة البحرية التركية لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية التركية . فكان ذلك إيذانا بعهد جديد لأوربا ، وكان ذلك أيضا مبدأ لشقاء الكاتب الجندي صاحب الذراع المفقودة .

وحاول سرفنتيز الجنـدي أن يتبع « دون جون » قائد الأساطيل المتحالفة ضد الأتراك . وقضى خمس سنين بعد ليبنتو يتقلب من جزيرة في البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة أخرى . فقد اشترك في حملة « دون جون » على تونس ، وتنقل بين سردينيا ولمباردى وبين مسينا ونابلي ، ثم استأذن القائد أن يزور إسبانيا فسمح له . لكنه أسر في طريقه إلى وطنه : أسره « الجزائريون » !

ولنا وقفة عنـد أسره في الجزائر . فهل تأثر هو بهذا الأسر ؟ وهل اختلط بالعرب أو البربر ، وهل استمد منهم أدبا أثر في كتابته عن الفروسية والحب والصعلكة ؟ لم تكن أحوال الجزائر تطوّع له أن يتأثر بالأدب العربي على هذا النحو . فقد كانت الجزائر وكرا من أوكار القرصنة . وكان الذين يعيشون على شاطئها خليطا من اللصوص والقراصنة قذفت بهم بلاد البحر الأبيض ولم يؤلف قلوبهم غير حب النهب والسلب . وكان شاطئ الجزائر كل ما يهم السلمين أو المسيحيين ، لأن شاطئ الجزائر كان ملجأ تربض فيه سفن اللصوص لتغير على سفن التجارة . كان يعيش فيه قرصان من بلاد اليونان ، وآخرون من البندقية ، وكان منهم قوم من آسيـا الصغرى ومن قبرص . كلهم كانوا يعيشون في الجزائر تحت السيادة التركية الرسمية . وهم قوم من المغامرين يأخذون كل سفينة غصبا ، وقد تربصوا للسفينة التي كان عليها سرفنتيز وأغاروا عليها عند مينورقة ، وأسروا كل من فيها واتخذوهم عبيدا . واحتفظوا بسرفنتيز بنوع خاص ، لأنهم حسبوه من علية القوم وحسبوا أن وراءه مغنما ضخما حينما يحاول أو تحـاول بلاده أن تدفع له الفدية .

قيـل إن سرفنتيز كان يحمل فيما يحمله من الأوراق توصية كتبها دون جون لأخيه الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا وتوصية أخرى كتبها نائب الملك في نابلي ، وإنه حين أسر ظهرت التوصيتان ، فظن القرصان أنه رجل من رجال الحكم . ووزع أرناءوط مامي — وكان قبطان هؤلاء القرصان — الأسلاب والأسرى على أتباعه ، فكان سرفنتيز من نصيب واحد منهم اسمه دبلي مامي . وكان دبلي مامي من بين القرصان اليونانيين الذين عاشوا في الجزائر وعلم أي مغنم وقع له . ولأنه كان يظن أن سرفنتيز يستطيع أن يفدي نفسه بمال طائل ، فقد كبّله بالسلاسل والأغلال ، وعامله كما يعامل الذلي الفظ عبده المضطهد المسكين . لكن سرفنتيز تحمّل كل ذلك بصبر لا حد له . ذلك أنه كان جنديا مقداما ، وكان فارسا يؤمن بمبادئ الفروسية في مثلها الأعلى ، وكان يعلم أن على الفارس أن يصبر حيث كانت المحنة ، وكان يستوحي مبادئ الدين المسيحي في حياته الجاهدة . وما لبث أن وجد نفسه في مكان الزعامة بين الأسرى وكانوا يبلغون خمسة وعشرين ألفا . كان يترفق بالضعفاء منهم ويواسي العجزة ويشرك فقراءهم في النزر القليل الذي يقع بين يديه .

ثم إن مولاه دبلي مامي باعه لحاكم الجزائر بألف وخمسمائة كورونا . وكان حاكم الجزائر حسن باشا زعيما من زعماء القرصان ، رمت به البندقية فيمن رمت بهم من ذئاب البحر ، فالتحق بخدمة الأتراك ، وتولى أمر الجزائر أو قل تولى أمر القرصنـة المنظمة في الجزائر . وظل

سرفنتيز فى أسر الوالى يضيق عليه الأحباس ، وسرفنتيز يحاول الهرب . لكنه كان عاثر الجد ، ما يكاد يدرك النجاح حتى يدركه الفشل . حاول الهرب مرتين ، وفشل فى المرتين ؛ وكاد حسن باشا أن يقتله جلداً ، لولا أن شفعت عنده مواهب سرفنتيز . ثم حاول أن يدبر ثورة يقوم بها الأسرى وهم خمسة وعشرون ألفاً كما ذكرت ، واتصل بسكرتير الملك فى إسبانيا ليعاونه ، لكنه فشل أيضاً . وقضى فى الأسر خمس سنين أحس فيها ثقل القيود والأغلال ، لكنه خرج وقد سلمت نفسه ، لأن روحه فوق أنها كانت روح فارس ، فقد كانت روح أديب .

لا تظن أن رجلا يقضى هذه السنوات السود فى سرداب من سراديب حسن باشا البندق الأصل ، رجلا تقطعت الصلة بينه وبين العالم الخارجى ، رجلا عاش عبداً يرسف فى السلاسل ويتراوح فى الأغلال ، لا تظن أن رجلا هذا شأنه كان يستطيع أن يتأثر بالأدب العربى لا فى قليل ولا فى كثير . وأن رجلا مثله كان يعيش فى عالم السجن ما يستريح من عناء إلا إلى عناء ، كان حسبه أن يستعين على شقائه بمبادئ الفروسية الأولى ، ولكن لم يثبت أنه اضطرب فى بيئة العرب فى الجزائر ، وغاية الظن أن بيئة العرب هنالك كانت قد انتقلت إلى ما وراء الشاطئ ، بل لم يثبت أنه خرج من الأسر إلا فى اليوم الذى أشفق عليه بعض التجار المسيحيين فى الجزائر ، فافتدوه بألف من الدوقات ، وهو ما طلبه حسن باشا ، ولبث وقتاً قصيراً فى الجزائر ، وسافر بعد ذلك إلى إسبانيا .

ولا تحسبنّ أن تلك السنين الخمس التى عاشها فى الأسر قد انقضت من غير أن تخلف آثاراً عميقة فى نفس سرفنتيز . لكنها لم تكن آثار الأدب العربى ، ولم تكن آثار البيئة العربية . وإنما كانت آثار الأسر الذى عاناه خلال سنوات السجن . لقد رأى الموت يطل بقرنيه من خلال القيود والأصفاد ؛ لكنه كان صبوراً جلداً ، علمته الحوادث كيف يغالب البؤس ويصارع الألم . ثم خرج من جحيم السجن وقد تطهرت روحه . فخرجت قصة « دون كيشوت » من هذه المحنة النفسية الطويلة ؛ ثم خرج سرفنتيز — وكدت أقول دون كيشوت — وقد زاد إيماناً بمبادئ الفروسية : بمبادئ المروءة والشجاعة والنجدة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحب الإنسانية — كل ذلك فى عصر كان قد فقد إيمانه بهذه المبادئ . فهى قصة الفشل الذى لقيه سرفنتيز ، وهى قصة عصر الانتقال من حياة الفروسية كما عرفها أهل الشمال والجنوب إلى عصر الحروب القومية كما عرفتها انجلترة وإسبانيا وفرنسا .

***

ولعلك قد أدركت معى أن سرفنتيز لم يتأثر بشىء من الأدب العربى فى مُقامه بالجزائر ، بل لعله قد تأثر بمُقامه فى إيطاليا أكثر مما تأثر . وقد أسلفنا أنه استقر فيها خمس سنين ، وأنه تردد بين بلدانها خمس سنين أخرى . أى أنه قضى شبابه الأول بين العشرين والثلاثين فى جو إيطالى . وكانت إيطاليا أسبق بلاد أوربا إلى النهضة : كانت صاحبة اللسان اللاتينى ومقر الكثلكة ، ومهبط الفن والأدب . وقد تأثر سرفنتيز بالآثار الإيطالية التى شهدها . وحينما عاد إلى إسبانيا بعد أسره ألف مسرحيات كتلك التى رآها فى إيطاليا .

وقد كان الكاتب المسرحى الأول فى إسبانيا خلال تلك السنين لوپ دى ڤيجا Lope de Vega . وكان يستأثر بحسن السمعة وذيوع الصيت . فخرج سرفنتيز إلى هذا الميدان ينافس بطله الأول ؛ لكنه لم يبلغ من النجاح ما توقعه ، وكانت حياته المسرحية هى الأخرى قصة من قصص الإخفاق . وقد عانى منها مرارة مثل

شاعر الرسـول

٣ — حياته وشعره قبل الاسلام

ذهبنا فى ختام المقال السابق إلى أن «حسان» يجىء فى حلبة الفحول مصليا لا مجليا ، وهـذا الرأى تؤيده كتب «الطبقات» والروايات الأدبية التى ينقلها «العقد الفريد» «وخزانة الأدب» وغيرهما ؛ فقد روت أن «حسان» وفد على «النعمان بن المنذر» فأذن له بعد أن تركه مدة على الباب ، وأن «حسان» خلا به ، ونادمه وأصاب منه مالا كثيراً ، حتى جاء «النابغة» فدح «النعمان» ببائيته المشهورة ، فاهتز «النعمان» لشعره وأمر له بمائة ناقة من الإبل السود برعائها ؛ قال «حسان» : «فما حسدتُ أحداً قط حسدى له فى شعره وجزيل عطائه» . وذكروا أن «حسان» كان يذهب إلى «النابغة» ليعرض عليه شعره وحتى الروايات التى تشيد بذكر «حسان» تحوى فى طيها إشارات إلى أنه كان دون «النابغة» «وعلقمة الفحل» — مثلا — فى شاعريته ؛ فقد روى أن «حسان» قال : أتيت «جبلة بن الأيهم الغسانى» وقد مدحته ، فأذن لى ، فجلست بين يديه ؛ وعن يمينه رجل له ضفيرتان ، وعن يساره رجل لا أعرفه ، فقال : أتعرف هذين ؟ فقلت : أما هذا فأعرفه . وهو «النابغة الذبيانى» — وأما هذا فلا أعرفه . قال : هو «علقمة بن عَبَدة» ، فإن شئتَ استنشدتهما ، ثم إن شئتَ أن تنشد بعدهما أنشدت . قلت : فذاك . فأنشده «النابغة» :

كلينى لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصب
وليـل أقاسيه بطىء الكواكب

قال : فذهب نصفى . ثم قال «لعلقمة» أنشد . فأنشد :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بُعَيْدَ الشباب عصر حان مشيبُ

فذهب نصفى الآخر . فقال لى : أنت أعلم الآن ، إن شئت سكت ، وإن شئت أنشدت ؛ فتشددت وأنشدت :

تلك التى ذاقها أيام أسره بالجزائر . لقد كتب للمسرح ثم كتب ، وبلغت المسرحيات التى كتبها على الثلاثين ؛ لكنه لم يدرك ذلك الأمل الحلو الذى لعب بخياله ؛ لم يستطع أن يكسب من الكتابة للمسرح مالا يكفيه حاجات العيش ؛ وكان قد تزوج وأصبح رب عائلة ، وكانت له أخت أرمل ، وابنة من خليلة أتت بها ساعة من ساعات الإثم .

وكذلك انكفأ سرفنتيز يحاول الكسب بقلمه بعد أن تحطم سيفه فأدركه العثار ولازمه سوء الطالع . وقضى الأديب المسكين عشرين عاما أخرى من سنة ١٥٨٤ إلى سنة ١٦٠٤ وهو يطلب الكفاف من العيش فلا يجد إلى ذلك سبيلا . تقلب بين مكاتب الحكومة يطلب وظيفة ، فارتد خائبا . وقضى فى إشبيلية بضع سنين وهو مقتر عليه فى الرزق . وكان موكلا بجمع مال الحكومة فاتهم بالاختلاس وخرج من محاكمته وهو مطرود . واضطرت زوجته وأخته وابنته أن يشتغلن بالإبرة كما تشتغل النساء حتى يجدن ما يسد الرمق . ثم لحق به فى سنة ١٦٠٣ وقد انتقل إلى بلد الوليد . ثم ماذا ؟ ثم إنه أخرج «دون كيشوت» فى سنة ١٦٠٤ .

***

لقد عاش سرفنتيز شقيا ومات شقيا . فما أحرانا أن نسعد ذكراه . وقد فسّحت لنا هذه المحاضرة النفيسة سبل القول فى سرفنتيز . ولعلنا نعالج فرصتين أخريين : «الفروسية» ثم «الحب» وآثارها فى قصة «دون كيشوت» ؛ قبل اللقاء !

(المصورة) أحمد خاكى

لله در عصابة .... الخ .

فقال لي : ادنُ — ادنُ ، لعمري ما أنت بدونهما ، ثم أمر لي بثلاثمائة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد ، وقال هذا لك عندنا في كل عام » .

وكان « الحطيئة » ممن يجترئون على « حسان » ، ويحبون أن يغيظوه أحياناً ؛ فقد ذكروا أن « الحطيئة » وقف على « حسان » وهو ينشد من شعره ؛ « فقال له « حسان » — وهو لا يعرفه : كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابي ؟ قال « الحطيئة » : لا أرى به بأساً ! فغضب « حسان » وقال : اسمعوا إلى كلام هذا الأعرابي ، ما كنيتك ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنتَ قط أهون عليّ منك حين كنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : « الحطيئة » . فقال « حسان » : امض بسلام » .

على أن « حسان » كان واثقاً من شاعريته ، مزهوًّا بمقدرته وابتكاره . يقول في إحدى قصائده :

وقافيـــة عجَّتْ بليل رزينة

تلقيت من جو السماء نزولها

يراها الذي ينطق الشعر عنده

ويعجز عن أمثالها أن يقولها

ويقول في أخرى : .

لا أسرق الشـــعراء ما نطقوا

بل لا يوافق شـــعرهم شعري

وقد مرت الإشارة إلى افتخاره بلسانه وسيفه .

لم يكن « حسان » — إذاً — صعلوكاً من صعاليك الشعراء ، ولا مدّاحاً يتعرض للملوك ويستجدي عطاءهم ؛ ولكنه كان شاعراً أرستقراطياً ، صاحب منادمة وشراب ؛ وكانت شاعريته فيض المرح والبيان العرقي . وأغلب الظن أن وفادته على الملوك « الغسانيين » كان مبعثها اعتزازه بصلة القرابة بينه وبينهم ، واعتزازه بما كان يلقى عندهم من جاه وتكرمة ؛ وشعره حافل بهذا المعنى ، والروايات الأدبية تؤيده كذلك : « فأبو عمرو الشيباني » — مثلا — يروي الرواية التي أسلفناها عن اجتماع « حسان » و « النابغة » و « علقمة » في بلاط « جبلة » ، ولكنه يجعل المجلس مجلس « عمرو بن الحارث الأعرج » ، ويذكر على لسانه أنه قال لحسان : « يا ابن الفريعة » ، قد عرفت نسبك في « غسان » ، فارجع ، فإني باعث إليك بصلة سنية ، ولا تحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السَّبُعين أن يفضحاك » ... فالمسألة — إذاً — مسألة فرع من فروع البيت الغساني يقدم على أهله ويمدحهم ؛ ومدحُه إياهم إنما هو جزء من تلك الظاهرة التي أسلفناها ، وهي اعتزازه بقومه ، وتغنية بمجدهم ومآثرهم . وشعره هنا لا يقل جلالا وجمالا عن شعره هناك . ولكنك تلمح في أكثر قصائده في هذه المرحلة روحاً سمحة متحضرة ، وتلمح فيها رقة وعذوبة وإمتاعاً ؛ والكثير منها يحتوي في الغزل والنسيب والخمر قطعاً مرحة راقصة لا في أسلوبها فحسب ، ولكن في موسيقاها .

كان الغسانيون أصحاب دولة متحضرة متصلة بالروم وبالثقافة اليونانية . وكانت قصورهم مسرح اللهو والغناء والقيان والندمان ، وكان شعر « حسان » المظهر الفني لتلك الحضارة الزاهية ، تتغنى به قيانهم ، ويستمع له ملوكهم . وقد حفظوا « لحسان » هذا الصنيع حتى بعد أن جاء الإسلام ، وانقطع هو عن زيارتهم ، وتفرغ قريحته الجديدة في الدفاع عن رسول الله (ص) وعن المسلمين . ولعل من أطرف الروايات المطولة في هذه الناحية تلك التي يرويها « الأغاني » و « العقد » وغيرهما في شأن « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك « غسان » ، وما كان من وفادته على « عمر بن الخطاب » ، وإسلامه ثم تنصره ثانيا في حادثة لطم الفزاري ، وهروبه إلى « هرقل » . وأهم ما في القصة من وجهة موضوعنا الحاضر طلب « جبلة » إلى جواريه أن يطربنه ، وعنده رسول « عمر بن الخطاب » إلى « هرقل » فيندفعن يتغنين

يخفقن بعيدانهن ويقلن :

لله در عصابة نادمتهم .... الخ

فيضحك «جبلة» — حتى تبدو نواجذه ؛ ثم يطلب إليهن أن يبكينه ، فيندفعن بغنين يخفقن بعيدانهن ويقلن :

لِمَن الدار أقفرت بمعان

بين أعلى اليرموك فالخمّان

ذاك مغنى لآل جفنة فى الده

ر محلا لحــادث الأزمان

قد أرانى هناك دهرا مكينا

عند ذى التاج مقعدى ومكانى .. الخ

فيبكى حتى تسيل دموعه على لحيته ، ويذكر لجليسه (رسول عمر) أن قائل هذا الشعر كله «حسان بن ثابت» شاعر الرسول (ص) . ويبعث مع الرجل هدية نفيسة إلى «حسان» ، ويرجع الرسول إلى عمر ، ويخبره الخبر ، فيرسل «عمر» إلى «حسان» ، فيجيء ، وقد كف بصره ، وقائد يقوده فيقول : «إنى لأجد رياح آل جفنة عندكم» . ثم يأخذ الهدية وينصرف ، وهو يقول شعراً فى مدح جبلة ؛ فيعترض عليه أحد ممّن فى المجلس من «مزينة» قائلا : أتذكر ملوكا كفرة أبادهم الله وأفناهم ! فيقول حسان : «والله لولا سوابق قومك مع رسول الله (ص) لطوقتك طوق الحمامة[1]» .

هكذا كانت منزلة «حسان» عند عشيرته من «الغسانيين» ، وهكذا كان وفاؤه لذكراهم ، وحنينه إليهم حتى فى الإسلام . ويظهر أن اختصاصه بهم كان كاختصاص «النابغة بالنعمان بن المنذر اللخمى» ، فلم ترو الروايات أنه زار أحدا من الملوك — غير آل جفنة — اللهم إلا زورة واحدة كانت له إلى «النعمان» . ويظهر أن شاعرنا كان يستعمل النثر أحياناً فى بعض مواقفه بالشام ، فقد ذكروا أنه دخل على «عمرو بن الحارث الجفنى» فقال : «أنعم صباحا أيها الملك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، ووالدى ووالدتى فداؤك ؛ أنى يناوئك «المنذر بن المنذر ابن ماء السماء» ! فوالله لقذالك أحسن من وجهه ، ولأمك أحسن من أبيه ، ولظلك خير من شخصه ، ولصمتك أبلغ من كلامه ، ولشمالك خير من يمينه ...» .

وبعد فهذه الرحلة من حياة «حسان» وشعره فى الجاهلية قد وصلت بنا إلى النقط الرئيسية التالية : أن «حسان» كان عربيا أرستقراطيا ، نشأ فى بيئة ذات سيادة وشعر ؛ وأن فخره بقومه كان عنصراً بارزاً فى شعره ؛ وأن المدينة كانت فى أيامه على درجة من الثروة والمعرفة والشعر ، وكان هو أشعر شعرائها البارزين الحسنة ، ولكنه لم يكن فى الصف الأول من شعراء العرب على العموم ؛ وأنه كان ممتزاً بصلة القرابة بينه وبين ملوك الشام ينادمهم ويمدحهم ويجيد فى هذا المديح ؛ وأن شعره لم يكن فى جملته وليد روية وتثقيف وتنقيح ، لذلك غلبت عليه السهولة ، إلا فى مواطن الفخر فقد كان يفيض رصانة وشدة أسر . وقد كان علينا أن نعالج هنا أسلوبه فى الهجاء ، ولكنا آثرنا أن نطرق هذه الناحية عند كلامنا على شعره فى الإسلام ، فقد كان الهجاء أبرز مظاهره ، وأول أهدافه .

(البحث بقية) محمد خلف الله

(١) راجع — فى هذه الرواية والتى تليها — (العقد الفريد ج ٢ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

من منبر الشرق :

كتاب التنبيه على حدوث التصحيف

حمزة الأصفهاني

لعمري ليس « أحمد فارس الشدياق » أول من نبه على الالتباس الذي وقع لقارئ العربية من جهة تشابه حروفها وتقارب شكلها[1] . فقد كثرت شكوى القدماء من هذا الخلل ، حتى أصبح التصحيف عندهم علماً يؤلَّف فيه ، وموضوعاً طريفاً يحث على تنمية الفطنة وتَزكية الخاطر في حل مشكلاته ومعمَّياته البلاغية . ألم تقف على كتاب التصحيف لأبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري وعلى غيره لأبي الحسن بن عمر الدارقطني ، وكذلك بين المتأخرين على كتاب التطريف في التصحيف لجلال الدين السيوطي ؟ هؤلاء عالجوا الموضوع من جميع النواحي ، موردين ما وقع من التصحيف في القرآن والحديث ، وفي دواوين الشعر وكتب الأدب ، مسفّهين هفوات النحويين والأدباء في هذا المجال ، حتى إنهم لم يستثنوا الجاحظ — مع رفعة قدره عندهم — من الوقوع في خطئه .

ومن القصص الطريفة في التصحيف — مع عدم ورودها في الكتب المذكورة — ما حكاه ابن النديم في الفهرست[2] راوياً عن أبي الحسن بن الراوندي ، وهي حقاً جديرة بهذا الزنديق الأكبر . قال ابن الراوندي : مررت بشيخ جالس وبيده مصحف وهو يقرأ : « ولله ميزاب السموات والأرض » . فقلت : وما يعني ميزاب السموات والأرض ؟ قال : هذا المطر الذي ترى[1] . فقلت : ما يكون التصحيف إلا إذا كان مثلك يقرأ . ما هذا ؟ إنما هو « ميراث السموات والأرض » . فقال اللهم غفراً ، أنا منذ أربعين سنة أقرؤها وهي في مصحف هكذا .

على أنه ليس الأدباء فقط هم الذين اهتموا وحدهم بالتصحيف فتلاعبوا به ، بل نرى رجالا عظاماً في عصور الإسلام الزاهرة عالجوا مشكلته وحاولوا حلها ، فهناك « أبا ريحان البيروني » يشكو في كتابه « الصيدنة » خطر التصحيف في أسماء النبات والعقاقير في العربية وفي سائر اللغات المحررة بحروف عربية ، إذ يقول[2] : « ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة ، هي تشابه صور الحروف المزدوجة فيها واضطرارها في التمايز إلى نقط العجم وعلامات الإعراب التي إذا تُركت استبهم المفهوم منها ، فإذا انضاف إليه إغفال المعارضة وإهمال التصحيح بالمقابلة — وذلك بالفعل عام عند قومنا — تساوى به وجود الكتاب وعدمه ، بل علم ما فيه وجهله . ولولا هذه الآفة لكفى ما في كتب ديوسقوريدس وجالينوس وبولس وأوريباسيوس المنقولة إلى العربية من الأسماء اليونانية ، إلا أنا لا نثق بها ، ولا نأمن التغيير في نسخها »[3] .

وكذلك يروى « أن حنين بن إسحق كان يحتاط فيما ينقله من أسماء الأدوية ، فخرج من الحرف ذي اللبس إلى

---

(١) راجع مقدمة الجاسوس على القاموس .

(٢) في الطبعة من الفهرست التي نشرها العلامة Houtsma في سنة ١٩١٤ وألحقها لاشر الطبعة المصرية للفهرست في آخر نشرته .

(١) نظن أن هذا الشيخ لم يكن جاهلا فقط ، بل كان من غلاة الشيعة أيضاً ، هؤلاء الظرفاء الذين رأوا أن علياً يحل في السحاب ويبعث منه المطر المزني . والمعروف أن ابن الراوندي قد رد عليهم وسفه آراءهم .

(٢) في مقدمة كتاب الصيدنة التي نشرها الدكتور ماكس مايرهوف سنة ١٩٣٢ ، ص ١٤ من النص العربي . وإني لأشترك الآن مع الدكتور مايرهوف في إخراج هذا المصدر البيروني الهام ، بناء على نسخة عربية وحيدة وترجمة فارسية .

(٣) يشبه هذا قول أبي بكر الرازي في كتابه الحاوي ، راجع النص الذي أورده الدكتور داوود چلبي في كتاب مخطوطات الموصل ص ٥٩ .

آخر يضعه مكانه ؛ فمن ذلك أنه كان يكتب (الصعتر) بالصاد ويقول أخاف أن يقرأ (الشعير) فيصير به الدواء داء»[١].

وكذلك أضع إلى ما ورد فى المناظرة التى جرت بين إيليا النصيبينى (الكاتب السريانى الشهور المتوفى سنة ١٠٤٩ م) وبين عامل نصيبين إذ ذاك ، وهى مناظرة باللغة العربية هامة لم تنشر بعد بنصها الكامل[٢] : «قال فكيف الخط السريانى من الخط العربى فى الحسن والصحة والفائدة ؟ قلت الخط السريانى أكثر حسناً وأصح وأكثر فائدة من الخط العربى . قال وكيف ذلك ؟ قلت لأن حروف السريانيين غير منقطة وغير متشابهة وحروف العرب كثيرة التنقيط ومتشابهة كتشابه الباء والتاء والياء والثاء .. وفى كثرة التنقيط كلفة على الكاتب ولبس على القارئ . وتشابه الحروف مشكل ... ومما يدل على أن الذين استخرجوا الخط العربى لم يحكموا الأمر فى تشكيل الحروف ولا فى تسميتها ، هو أنهم سموا أكثر الحروف المتشابهة بأسماء متشابهة فى الخط ، وذلك مثل الباء والتاء والثاء ، فإن هذه الحروف إذا كتبت كانت أشكالها متشابهة ، وإذا كتبت أسماؤها كانت أشكالها أيضاً متشابهة ... وعلى هذا القياس يجرى الأمر فى سائر الحروف المتشابهة ، وهذا التباس ليس يدخل مثله على خط السريانيين »[٣] .

ولكن ليس من قصدى أن أقف عند هذه النصوص الشيقة أو أن أورد مثلها لك ، بل أريد أن أطلعك هنا على

(١) وردت هذه الرواية فى كتاب التنبيه على حدوث التصحيف الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

(٢) ورد هذا النص على حسب مخطوطة محفوظة بالمكتبة الأهلية فى باريس (ورقة ١٤٣ وما يليها) وهو مأخوذ من المجلس السادس من المناظرات والذى عنوانه « فى النحو واللغة والخط والكلام » .

(٣) يظهر أن آراء « إيليا » النصيبينى مشتقة من « كتاب النقط » لحنين بن إسحاق الذى يذكره المؤلف فى ذلك السياق .

كتاب من أهم الكتب فى موضوعنا وإن كان مجهولا بعدُ حتى إن بروكلمان فى ملحقه الجديد[١] لا يعرفه أو يعتبره مفقوداً ، مع أن الكتاب موجود فى نسخ مخطوطة عدة[٢] وهو « كتاب التنبيه على حدوث التصحيف » « لأبى عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهانى » اللغوى والمؤرخ المشهور الذى مات حوالى سنة ٣٦٠ هـ[٣] . ولو قرأت هذا الكتاب لقلت معى إن كل ما ورد فى كتب المتأخرين فى هذا الشأن من سمين القول منقول من كتاب حمزة ، وأن فيه كثيرا أسمن يظهر رونقه للقارئ عند ما يقابله بغث كلام الخلف وبارده .

قال حمزة : « وأما سبب وقوع التصحيف فى كتابة العرب ، فهو أن الذى أبدع صور حروفها لم يضعها على حكمة ولا احتاط لمن يجىء بعده ، وذلك أنه وضع لخمسة أحرف صورة واحدة وهى الباء والتاء والثاء والياء والنون ، وكان وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مباينة للأخرى ، حتى يؤمن عليه التبديل . وقال أرسطاطاليس كل كتابة تشابه صور حروفها فهى على شُرُف[٤] تولّد السهو والغلط والخطأ فيها ، لأن ما فى الخط دليل على ما فى القول وما فى القول دليل على ما فى الفكر ، وما فى الفكر دليل على ما فى ذوات الأشياء[٥] ... وصور حروف الهجاء إنما

(١) ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) نعتمد فى منتخباتنا على نسخة مخطوطة فى المدرسة الفخرية فى طهران ، وقد اطلعنا على صورة شمسية ونسخة منقولة منها أستاذى العلامة محمد عبد الوهاب قزوينى أثناء مقامى فى باريس ، وتوجد نسخة أخرى فى مكتبة البرلمان الإيرانى (مجلس شوراى ملى) ، راجع الفهرست رقم ٢٨٢ ، ولعلها منقولة من الأولى وتوجد نسخة ثالثة أو صورة شمسية فى المرآة البيمورية ؟ ورواية صرت قبل سنين عدة على أيدى الدكتور عبد الوهاب عزام ولعلها فى حوزته .

(٣) راجع ابن خلكان وتاريخ أصفهان لأبى نعيم الأصفهانى .

(٤) كذا فى النسخة ولعله تحريف .

(٥) هذا الرأى الأخير مأخوذ من أول كتاب العبارة (بارى ارمينياس) لأرسطو .

هى علامات تحمل الدلالات ، والعلامات لما كانت أشهر صارت دلالاتها أوضح ، وإذا جاءت الدلالات أوضح كان الشك منها أبعد والفهم إليها أسرع ... فقد بان لمن عقل وأنصف من نفسه أن اعتراض التصحيف فى هذه الكتابة — مع ما جلب إليها من الزيادة فى البيان بالنقط والإعجام — ليس إلا من ضعف الأساس » .

لا يسعنى المجال أن أورد لك هنا ما فى كتاب « حمزة الأصفهانى » من الروايات النفيسة عن الكندى والخليل والشلمغانى والجاحظ وثمامة وعن فلاسفة اليونان ومترجمى العرب ، وما فيه من الآراء القيمة فى فن الكتابة واختلاف خطوط الأمم القديمة ، وتزيين الخط وفلسفة اللغة وما إلى ذلك ، ولعلى أرجع إلى بعض هذه الموضوعات فى إحدى مقالاتى الآتية ، ولكن مما لا بد من ذكره هو ذلك الفصل المهم الذى يدعو فيه حمزة إلى إصلاح الخط العربى حتى يصير معصوماً من خلل التصحيف وقادراً على تسجيل لا حروف العربية فقط ، بل حروف سائر اللغات أيضاً :

« ولو رام إنسان من أهل الزمان أن يضع كتابة سليمة من التصحيف جامعة لكل الحروف التى تشتمل على جميع اللغات[1] لزمه أن يضع أربعين صورة لأربعين حرفاً ، منها ثمانية وعشرون حرفاً ما قد رسم به هجاء العربية التى هى : ا ب ت ث ومنها أربعة أحرف جارية فى العربية على ألسن أهلها ولم يخصها أهلها بصور وهى النون الغنّاء والهمزة والواو والياء الليّنتان . فالنون الغنّاء هى التى تخرج من الغنّة ، وهى مثل نون منذر لأنها ليست من مخرج نون رَسَن ، والهمزة مثل قرأ ووقأ ومثل أول حرف من أحمد لأنها ليست من مخرج ألف حامد ، والواو والياء فى عمود وبعير لأنهما ليستا من مخرج ياء يزيد وزيد وواو واصل وصواب . ومنها ثمانية أحرف لا تقع فى العربية أصلا وإنما تقع فى الفارسية خاصة وفى سائر لغات الأمم عامة وهى (١) الحرف الذى بين الفاء والباء وذلك إذا قلت پا (pā) بمعنى الرجل وإذا قلت پَنير (panīr) بمعنى الجبن ، و (٢) الحرف الذى بين الفاء والباء أيضاً ، وذلك إذا قلت لف (labh) بمعنى الشفة وإذا قلت شف (shabh) بمعنى الليل ، و (٣) الحرف الذى بين الجيم والصاد ، وذلك إذا قلت چراغ (tsherāgh) بمعنى سراج ، وإذا قلت چاشت (tshāsht) بمعنى الغداء ، و (٤) الحرف الذى بين الجيم والزاى ، وذلك إذا قلت واژار (Vājār)[1] بمعنى السوق وإذا قلت هوجستان (Hūjistān) بمعنى خوزستان ، و (٥) الحرف الذى بين الكاف والغين وهو الذى فى أول قولك گاذر (gādhur) لفارسية القصّار وفى أول قولك گچ (gatsh) لفارسية الجص ، و (٦) الحرف الذى بين الخاء والواو فى أول قولك خرشيد (Khwarshēd) لفارسية الشمس وخرم (؟) لفارسية النوم (؟) ، و (٧) الحرف الذى يشبه الواو فى ثانى قولك نو (now) لفارسية الجديد وبو (bō) لفارسية الرائحة ، و (٨) الحرف الذى يشبه الياء فى ثانى قولك سير (sēr) لفارسية الشبعان وفى ثانى قولك شير (shēr) لفارسية الأسد . فهناك أربعون حرفاً تحيط بجميع اللغات . ويخط بكتابتها كل شىء » .

وعند هذا المقام روى حمزة ما سمعه عن أحمد بن الطيب السَّرَخْسى الفيلسوف المعروف ، وعن اختراعه كتابة واضحة

(١) ورد معنى شبيه بهذا فى إحدى رسائل جابر بن حيان الكيميائى ، إذ يقول : « ولو جعل مكان لكل واحد من تلك الأشياء (أى أشباه الحروف) مثال غير المثال المشابه لأمن الناس من تصحيف الكلام والغلط . فهذا مما قصر فيه واضعه وهو ممكن فى الطبيعة والقوة معاً . ولعل خلقاً من الناس يقدرون أن ذلك ممتنع أن يكون » (مختار رسائل جابر بن حيان ، من نشرنا القاهرة ١٩٣٥ ، ص ٩) — وما أبعد هذا الرأى من قول إخوان الصفاء (رسائل ، طبعة بمباى ج ٣ ص ١٤٠ ، وأيضاً ج ٢ ص ٤٠٦) من أن « واضع الخط العربى اقتفى فى وضعه حكمة البارى تعالى » وأن عدد الحروف وصورها جاءا بتوقيف .

(١) أى بازار . ويظهر أن حمزة الأصفهانى يكتب الفارسية برسم أقرب إلى الرسم الفهلوى منه إلى رسم الفارسية الحديثة .

منارة الاسكندرية

للدكتور باهور ألمورايوس لبيب

كان لأسطول بطليموس الأول – الملقب باليونانية (سوتر) وبالعربية (نجى) أى المخلص – السيادة البحرية التامة على البحر الأبيض المتوسط ، فتقدمت المدنية التجارية بالإسكندرية تقدماً عظيما خاصة طول مدة حكمه كوالٍ (٣٢٣ – ٣٠٥ ق . م) أو كملك (٣٠٥ – ٢٨٣ ق . م) وقد بذل جهودا جبارة لضمان تقدم البلاد تجاريا ورفع مستواها أدبيا وعلميا ، فقام بكثير من المشروعات العمرانية الخالدة كبنائه منارة الاسكندرية الشهيرة لهداية السفن على جزيرة (فاروس) عند مدخل الميناء ، وهى تعتبر أول منارة عرفها العالم القديم ، كما أنها أكبر منارة حتى يومنا هذا وهى تعد إحدى عجائب العالم السبع .

وقد جرت عادة بعض المؤرخين إلى نسبة بنائها إلى الملك بطليموس الثانى الملقب (فيلادلفوس) إلا أن الحقيقة العلمية لا تقرهم على هذا الرأى ، فقد ثبت أخيرا أن مشيدها الحقيق هو بطليموس الأول الذى أسند مهمة الأشراف على بنائها للمهندس (اليونانى Sostratus) الذى نشأ فى بلدة (كنيدوس Cnidos) إحدى البلاد اليونانية ثم أتيحت له الفرصة فانضم إلى حاشية بطليموس الأول . وقد ظلت هـذه المنارة قائمة حتى القرن الرابع عشر الميلادى حيث هدمها زلزال شديد عام ١٣٠٧ م . ومن حسن الحظ أننا نجد وصفاً مستفيضا لهـذه المنارة فى مؤلفات كثيرين من المؤلفين المتقدمين أمثال (سترابون) و (يوسيفوس) و (ابن الصائغ) و (ياقوت) كما وصلتنا أيضا صورة لهذه المنارة على بعض قطع من العملة الرومانية التى عثر عليها أخيرا . ومن الأوصاف التى وردت فى تلك الكتب وعلى بعض قطع النقود نستطيع أن نقول إن هذه المنارة كانت مشيدة فى فناء مربع يحيط به سور عظيم من جهاته الأربع وكان خارج هـذا السور رصيف يسير عليه الناس . أما المنارة نفسها فكان ارتفاعها مائة متر وتتكون من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض ، فكانت السفلى مربعة الأضلاع والوسطى مثمنة ، أما الطبقة العليا فكانت مستديرة ويعلوها تمثال رجل من النحاس يحمل مصباحا .

وقد أطلق على هـذه المنارة اسم الجزيرة التى شيدت عليها أعنى (فاروس) فأصبح هذا اللفظ يدل فى اليونانية وكثير من اللغات الهندية الأوربية على معنى (منـار) والذى أصبح فى العربية (فنار) وفى الفرنسية (فار Phare) وفى الانجليزية (فاروس Pharos) .

ويعتبر علماء الآثار هذه المنارة أقدم بناء من هذا النوع عرفه العالم ، وأن هذا البناء أصبح فيما بعد مثالا يحتذى عند بناء جميع منارات العـالم قديما وحديثا بل تحفة فنية من تحف فن العمارة والزخرفة والهندسة التى ترجع إلى ذلك العصر السحيق .

تمكَّن من تسجيل أصوات اللغات جميعاً ، وذلك أنه يقول « حكى لى البوشجان بن عبد المسيح [١] أن أحمد بن الطيب تلميذ الكندى لما احتاج إلى استعمال لغات الأمم من الفرس والسريانيين والروم واليونانيين وضع لنفسه كتابة اخترع لها أربعين صورة مختلفة الأشكال متباينة الهيئات ، فكان لا يتعذر عليه كَتْبُ شىء ولا قراءته ، وهذه صور تلك الحروف الأربعين ... » ، ومما يؤسف له أن ناسخ النسخة المخطوطة حذف رسوم هذه العلامات ، إذ لولاه لاستطاع المحدثون أن يتبعوا طريق السرخسى فى محاولتهم لإصلاح الخط العربى .

باول كراوس

(٢) راجع عن هذا الرجل كتاب تاريخ أصفهان لأبى نعيم ، طبعة ليدن ١٩٣١ ، ج ١ ص ٢٤ .

سيرة صلاح الدين :

— ٢ —

فريســـــة

« فى المقال السابق رأينا نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيركوه يغادران العراق بعد أن قتلا شخصاً فيه ويفران إلى الموصل حيث يرحب بهما عماد الدين زنكى وينتفع بهما فى تأسيس ملكه إلى أن مات هذا الأمير وترك صاحبيه وابنهما صلاح الدين لجين الجيم ولده نور الدين الشهيد ... »

جلس الشهيد يوما يتأمل هذه التركة التى خلفها أبوه ، ويفكر طويلا فى هذا العمل الذى بدأه أبوه ، فإذا التركة مثقلة بعظائم الأمور ، وإذا العمل الذى بدأه أبوه — وهو مطاردة الفرنج من البلاد الإسلامية — محتاج إلى عناء طويل ، وإذا هـذا الأمر الذى أصبح يضطلع به لن يتم حتى يكون هو طرفا هاماً فى سياسة الشرق لذلك الوقت .

وكان الشرق الإسلامى إذ ذاك موزعاً بين خلافتين عظيمتين ، أما الأولى فالخلافة العباسية المستقرة فى العراق ، وأما الثـانية فالخلافة الفاطمية القائمة فى مصر . وبينهما عنصر دخيل هو عنصر الفرنج الذين أتوا إلى الشرق بحجة المحافظة على بيت المقدس .

ونظر الشهيد فى هذا الموقف السياسى الدقيق ، فإذا فى استطاعته أن يسقط الخلافة العباسية من حسابه ، فقد شاخت وبلغت من العمر أرذله ، ولم تعد قادرة على النهوض بعمل ينفع الإسلام ، وإذاً فقد أصبح الأمر محصوراً بين هذه القوى الثلاث : قوته هو بالشـام ، وقوة الفرنج بالقدس ، وقوة الفواطم الشيعيين بمصر .

ثم نظر الشهيد مرة أخرى فى هـذا الموقف السياسى الدقيق ، فإذا مصر كذلك من الضعف بحيث لا تقدر هى الأخرى على الثبات فى ميدان النزاع حول هـذه القضية الكبرى : وهى بقاء الفرنج فى أرض إسلامية .

« وعلى هذا فالخصومة أصبحت فى الواقع بينى وبين الصليب ونجاح أحدنا على الآخر مرهون بنجاحه فى أمر واحد ، هو هنا الظفر بمصر . ! » .

هكذا حدث الرجل نفسه بعد أن أطال التفكير ، ثم أتت الحوادث التاريخية كلهـا شاهدة على صدق هذا التفكير ، بل شاهدة على أنه كان ملهما فى حديثه كأنما قد أوحى إليه به . ومَن كنور الدين الشهيد فى ذكائه ونفاذ بصره وصفاء بصيرته وبعد غوره فى فهم الأمور ؟ إذا كان لابد من جلاء الصليبيين من أرض المسلمين ، فمصر هى التى يجب أن تكون ثمنا للجلاء ، ومصر هى التى يجب أن تكون كبش الفداء ، ومصر هى التى لا مفر لها من أن تقع فريسة الأسد الإسلامى الجاثم لهـا بدمشق ، أو النمر الفرنجى الرابض لها بالقدس !

وإنهما ليرقبان الحوادث الجارية هنـاك بعين كعين الذئب ، وإنهما ليستبقان إلى التدخل فى شـئون مصر تدخلا يراد به الغنم ، وإذا بالحوادث المصرية تدعو الفريقين بسرعة عظيمة إلى هـذا التدخل وتلح عليهم الحاحا عظيما فيه . ذلك أنه قتـل بمصر وزير خطير فثار لمقتله فارسان كبيران يقترن اسماهما عادة بزوال الخلافة المصرية من البلاد ولا يُذكران إلا وتذكر معهما الفتن السياسية التى أدت إلى انهيار هذه الخلافة .

هذان الفارسـان الكبيران هما شاور وضرغام ، ظلا يتصاولان ، وكان من سوء حظ مصر يومئذ أن كلا منهما أخذ يستعين على خصمه مرة بنور الدين وأخرى بالصليبيين . وما أسرع ما غدت مصر ميدانا لهذين الفريقين التوثبين . وكانت الحرب سجالا بينهما إلى أن كتب النصر أخيراً للجانب الذى فيه رجل عرف بشهامته ورباطة جأشه هو أسد الدين شيركوه ومعه فتى لم يزل بعد فى ميعة صباه

ورونق شبابه ، هو « صلاح الدين » ابن أخيه . ثم عاد الرجلان الظافران إلى الشام ، وكانت أنباء النصر قد سبقتهما فى كل مكان . وأحسب لو أن الأثير فى وقتنا هذا تولى نقل هذه الأخبار ما كانت لتصل إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بأسرع مما وصلت إليهم فى ذلك الوقت :

فأما دمشق فقد طربت وأسكر أهلهـا الفوز وراح شعراؤها وأدباؤها ينظمون الشعر الرائع والنثر الفائق فى تهنئة الأبطال وكتـابة البشائر إلى الخليفة وغيره من أمراء الاسلام .

وأما « نور الدين » فقد أصبح وهو على يقين من أن مصر عما قريب ستصبح درة تلمع فى التاج الأتابكى وسركرا علك به جميع ما للفرنج .

وأما «أسد الدين فقد» عاد وبه من الشوق لأخذ مصر ما يربو على كل رغبة فى الفتح تحركت فى صدره من قبل .

وأما الفتى «صلاح الدين» فقد صحب عمه إلى مصر ثم عاد منها وقد آلى على نفسه ألا يعود إليها مرة أخرى . وكيف يعود إليها وقد ذاق فيها من الجوع والعنت والمشقة ما أشرف به على الموت ، وذلك فى الحصار الذى ضربه الصليبيون على الاسكندرية حين تركه عمه فيها وذهب هو للاقتهم بمدينة القاهرة .

وانظر إلى هـذا الفتى الحزين وهو يقص على أبيه وأخوته فى دمشق بعض ما كان يقاسيه فى هذه المحنة التى كادت أن تودى به ، وأخوته من حوله يجدون فى كلامه نغمة اليأس فيشفقون على أخيهم ويوافقونه على رأيه الذى عزم عليه . كل ذلك والأب على مقربة منهم يبسم لابنه اليائس وفى ابتسامته معانى السخرية منه ومن السخط الذى يظهره ، وفيها معانى الرضا عن المحن التى لقيها والثقة بأنها تصهره ، فى اعتقاد هذا الأب أن هذه المحن هى التى تدنى ولده رويداً رويداً من النضج الذى يحبه له .

* * *

ومرت فترة على هذه الحال وإذا الفرنج يغيرون على مصر من جهة بلبيس ، وإذا هم يوقعون فى قلوب المصريين فى هذه المرة أشد ما مرّ بهم فى تاريخهم من الجزع والاضطراب والخوف . وإذا وزيرهم وهو شاور قد أمر بنار عظيمة أضرمت فى مدينة مصر (الفسطاط) لتكون النار حائلا بينه وبين الفرنج القادمين عليه ، ثم لوّح الوزير من وراء ناره بحاله للفرنج يريد أن يطفىء به جذوه هـذه القسوة التى غمرت قلوب القوم . وأما أميرهم وهو الخليفة العاضد — فقد أخذ يبعث بالكتب تلو الكتب إلى بطل المسلمين بالشام ، كما أخذ يضع فى الكتب خصلا من شعور نسائه إمعانا فى الضراعة والاسترحام . فا كتفى الشهيد رداً على كل ذلك بأن بعث إليه بالقائد الذى كان على أحر من الجمر فى انتظار هذا الأمر .

ويأخذ « شيركوه » أهبته لهذا القصـد ، ويحذر « صلاح الدين » أن يأبى إليه الأمر بمرافقته إلى مصر ، ويجهد هذا الفتى فى الوصول إلى عذر يجوز على عمه . وأخيراً لا يجد الفتى بدا من أن يصدع بأمر عمه هذا كارها متثاقلا ، كأنما يساق إلى الموت .

ذلك بأنه ورد على ذهنه العناء والجهد اللذان قاساهما بالاسكندرية فى حصـار الفرنج ، ولم يرد على ذهنه المجد والظفر اللذان كانا ينتظرانه بمصر . وفى ذلك يقول ابن الأثير « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل ...! » .

ليتك إذ تذهب أيها الفتى مع عمك تعلم أنه لن يفعل شيئاً فى هذه المرة أكثر من أنه موصلك إلى باب الجنة التى تنتظرك ؛ وأنكما تدخلانها وتقطفان من ثمارها ، أو يشركك عمك فى الثمرة الأولى وحدها ويترك لك بعدها التلذذ بما فى الجنة كلها من ثمرات .

عبد اللطيف حمزة

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى .... "

أهداف الصحافة المصرية :

هل كنت مبالغاً يوم كتبت فى هذا الباب منذ بضعة أشهر أقول إنه ليس فى مصر « صحيفة مصرية » واحدة — على كثرة ما يصدر بها من الصحف والمجلات — لأنه ليس فى مصر كلها صحيفة مصرية واحدة لها هدف تسعى إليه وغاية تتنوَّرها على بعد ؟ ...

... أما إنى كنت مؤمناً بما أقول ، وإن الحوادث لتزيدنى كل يوم إيماناً به ؛ فمصر الحقيقية لا تزال على بعد بعيد من تلك الصورة الخيالية التى تتراءى للقارئ البعيد من خلال ما يقرأ فى الصحف المصرية ، ولا يزال رأى « السادة » من محررى هذه الصحف على بعد أبعد من رأى الشعب ، ولا يزال « الهدف » الذى يتنوَّره كل صحفى فى مصر أبعدَ من البُعد عما يأمله المصرى لبلاده ، بل عما يأمله ذلك الصحفىُّ نفسه ؛ لأنه « هدف » غير منظور ولا محدود المعالم ، كما يقذف السارى فى ظلام الليل حجراً على مدِّ ذراعه : لا يدرى أين يصيب ويزعم أنه يرمى إلى هدف !!

سألتُ مرة صديقاً من محررى بعض المجلات الأسبوعية وقد قرأتُ له بحثاً طريفاً مصوَّراً سمَّاه « النساء فى خدمة الدولة » أو كما سمَّى — سألته : ماذا تعنى بهذا البحث وإلى أى غاية تهدف ؟ فوجم لحظة ، ثم استضحك وهو يقول : إنه بحث بلا هدف للقارئ ! ... فهذا « هدفه » فيما زعم وإن لم يقصد إليه قبل الرماية ! أو لعل هدفه العام أن يكون هو « اللذة » : لذته أو لذة قارئه ؛ وإنه لهدفٌ كبير يرمى إليه كثيرٌ من كتاب الصحف المصرية !!

... على أنى لست وحدى الذى أزعم أن الصحف المصرية جماء ليس لها هدف تسعى إليه أو غاية تنشدها ؛ فلعل ذلك الاستفتاء الذى توجهتْ به جريدة « البورص » إلى « أعلام الصحافة المصرية » كما تسميهم ، تسأل كلا منهم أن يحدد لنا الهدف الذى تعمل له صحيفته — لعل ذلك الاستفتاء أن يكون تعبيراً عن شعور محرر جريدة البورص بأن الصحافة المصرية ليس لها هدف ؛ أو لعله أراد أن يؤكد هذا الشعور بما ينشر من أجوبة مجيبيه ، ليعرف من لم يعرف بعدُ ويتأيَّد الدليل بالاعتراف ... ...

وأجابه سبعةٌ من « أعلام الصحافة المصرية » ؛ فماذا أجابوا ؟

قال محرر المصرى :

إن هذه الحرب قد غيرت الأوضاع والنظريات السياسية ، ولمصر من ذلك حق تدعو إليه ؛ وإن رءوس الأموال المصرية ينبغى أن تُثمَّر فيما يعود بالنفع على مصر ، فلا تشيل كفتها الاقتصادية فى ميزان الأجانب ؛ وإن الوطنية المصرية لا تعرف التعصب الذى ينال من مصالح وحقوق الأجانب ، ما دام هؤلاء الأجانب يعرفون لمصر حقها ، ويحفظون الكرامة لبنيها .

السياسة ، والاقتصاد ، وحقوق الأجانب . ثم ماذا ؟ لا شىء !

وقال محرر الأهرام :

يجب على الصحافة أن تُعِد مصر لتقوم فى هذا الشرق العربى بالدور الذى يؤهلها له ماضيها المجيد ونهضتها الحديثة ، وأن تعنى باستغلال ثروتها الطبيعية لتحتفظ بتكافؤ الميزان التجارى ... ، وأن تشجع الصناعات الصغيرة وتتخذ الأهبة لتزدهر الصناعات الكبيرة فى غد ... ، وأن يرتفع مستوى الفلاح من حيث الصحة والثقافة والكفاية المادية .

قيادة الشرق العربى ، تنمية الثروة ، ترقية الفلاح . ثم ماذا ؟ لا شىء كذلك !

وقال محرر المقطم :

على مصر أن تمسك بيد شقيقتها اللاتى لا تزال فى الطريق نحو الاستقلال . ثم ماذا ؟ ... ثم قال صبيُّه : وعلىَّ أن أذيع مظالم العمال والموظفين التسبين لأنفس منهم بعضَ ما يجدون .

قيادة الشرق العربى ، ثم التنفيس عن العمال والموظفين بإذاعة أسباب الشكوى . ثم ماذا ؟ لا شىء ، فإن مصر لا تستطيع القيام بتنفيذ مشروع مثل مشروع بفردج !

وقال محرر البلاغ :

يجب أن تتحقق رغبات الشعوب العربية فى التماسك والائتلاف على شكل من أشكال التعاون الحديث فى نطاق الثقافة والاقتصاد والسياسة ، ... وأن تطمئن على ما يمدنها من منابع النيل العليا فى أثيوبيا ، وما يحمى سلامتها من ناحية الصحراء الغربية .

تعاون الشعوب العربيـة ، ثم الاطمئنان على النيل والصحراء . ثم ماذا ؟ ...

وقال محرر آخر ساعة :

إنه يرى تحرير مصر من سيطرة الآراء العتيقـة ، والعناية بتغذية الفلاح ولو بحل الأوقاف كلها ! ثم ماذا ...

وقال محرر المصور :

« إن الصحافة التى بغير هدف صحافة استغلالية بحتة ، تربح مؤقتاً وتموت فى النهاية ! » أما هذا الهدف الذى يسعى إليه فخلاصته : أن تضمن الدول حياد مصر على غرار الحياد السويسرى ، والدعوة إلى تكوين « اتحاد إفريقى » أو « اتحاد عربى » أو « اتحاد شرقى » يجعل من مصر وجاراتها فى الأزمات دولة واحدة ، ثم استقلال مصر الاقتصـادى فى الصناعات الأساسية ، وإعداد جيش مصرى ؛ وهو لا يؤمن كل الإيمان بالنظام البرلمانى لأنه نظام سلحفائى .... ثم ماذا ؟ وماذا ! ؟

وقال محرر الاثنين :

الدعاية لحياة ديموقراطية ، ومحاربة الرجعية والتقاليـد والتعصب الدينى ، وتجديد الأزهر ؛ ثم ...

ثم « الدعوة إلى تحرير المرأة (قلبا) ، فلا يزال الحب فى مصر جريمة يعاقب عليها المجتمع » ؛ ثم ... ؟

ثم مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق السياسية ، وفى الوظائف العامة ، وفى المواريث !

ثم « تمصير » الأجانب أو يعودون من حيث أتوا ، والموازنة بين طبقات الأمة ، ومحاربة الفساد فى الإدارة الحكومية ، والدعوة إلى إنشاء اتحاد شرقى ، لا إسلامى ، على نظام الولايات المتحدة الأمريكية ، وتطهير المجال السياسى من محترفى السياسة ، وتطهير الصحافة من الصحف التى تعيش على الإعانات الحكومية !

ثم ماذا ؟ ... وماذا بعد هذا ؟ ...

* * *

وأنظر فى هذه الآراء المختلفة ، أو المؤتلفة ، ثم أنظر فى الصحف التى يحررها هؤلاء السادة « الأعلام » ، فلا تتميز صورةٌ من صورة .

دع عنك ما قال محرر المصرى ، والأهرام ، والمقطم ، والبلاغ ؛ فما أحسبهم وصفوا غير الهدف الذى يعملون له وتنطق به جرائدهم ، ولكن ذلك ليس هو كل الهدف الذى ينبغى أن يسموا إليه ، فما تحدَّث متحدثُهم إلا عن « جزئيات » من الهدف « الكلِّى » الأعظم الذى ينبغى أن ينتظم عامةَ جهودهم . أتراهم حين قالوا ما قالوا كان يميِّز كل منهم من « أمنية » أم يحدد « هدفا » ؟ وما أبعد الفرق بين الهدف والأمنية ! ... إنى لأعنى أن أكون وأن أكون ... ، وقد أبلغ هـذه الأمنية أو لا أبلغها ، ولكن ليس هـذه « الأمنية » كل نشاطى ومسعاى ، وليست هى كلّ الهدف الذى أعمل له . إن الهـدف فى الخدمات العامة معناه « البرنامج الكلى » الذى ينتهى إلى نهاية تتحقق بها « الأمنيةُ العظمى » أو « الأمنية الأخيرة » ؛ فما هو الهدف العام ، أو الأمنية الأخيرة التى ينتهى إليها

كل نشاط هؤلاء السادة فيما يعملون بجرائدهم ؟ هل أجابوا ؟ لست أدرى ، ولعل هذا السؤال أن يحملهم منذ اليوم على أن يفكروا فى الجواب ! ...

... وتلك المجلات الثلاث : آخر ساعة ، والصور ، والاثنين : أين أهدافهم التى زعموا فيما يكتبون ؟

ماذا يكتب محرر آخر ساعة عن الفلاح ، وعن الأوقاف ؟ وما الآراء العتيقة التى يدعو إلى التحرر من سيطرتها ؟ أتراه يعنى الآراء العتيقة فى السياسة ، أم فى الدين ، أم فى الأدب ، أم فى الاجتماع ؟ وأين آراؤه الجديدة فى كل أولئك ، مما ينشر فى مجلته ؟ وأين تؤدى هذه الآراء ؟ وماهى الصورة التى ينشد مثالها لمصر فى غد : ما هى الصورة المثالية التى يريد أن يبنيها بعد أن يهدم ما يهدم ويأتى على البنيان الباذخ من قواعده ؟ أتراه يتمثل فى خياله صورةً أم هو يرى رَمْىَ السارى فى ظلام الليل على مدّ ذراعه لا يدرى أين يصيب ؟ ...

... ويؤكد محرر المصور « أن الصحافة التى بغير هدف صحافة استغلالية بحتة ، تربح مؤقتا وتموت فى النهاية ! » وهو كلام جميل ، فأين تفسيره من قوله فى بعض إجابته : « والصحف التى تخدم زبائنها إن لم تدعُ لهذا الرأى باقتناع شخصى وجب أن تدعو له بحكم الوفاء والولاء لهم .... » أفترى « هدفه » الحقّ هو ما أجمل فى جوابه من « أمانىّ » يرجوها ، أم هو خدمة « زبائنه » بالدعوة إلى الرأى الذى يرونه هم وإن كان هو يكفر به ؟

وللقارئ أن يسأل : أين من هذه الأهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أجملها فى إجابته ، ما نقرأ فى المصور من أحاديث « اللحوس » ، وما نشاهد فيه من صور العُرى الفاضح ، ومن أخبار الصالونات ، ومن مشاهدات السباق ؛ وبالاختصار : أين من تلك الأهداف ثلاثةُ أرباع ما نقرأ ونشاهد فى المصور مما تتأذى منه النفس والنظر ؟ ولكن محرر المصور يضنّ بالجواب على سائله ؛ فلعل ثلاثة أرباع ما فى المصور هو خدمة « زبائن المصور » لا عن اقتناع شخصى ... ... وذلك هَدَفُه ! !

... ويبلغ حماسة الشباب درجة الغليان بمحرر الاثنين ، حتى ليوشك (الوعاء) من فورة الحماسة أن يندلق ! وإنا لنظلم هذا المحرر الفَتِىّ لو جعلناه فى نسق مع كل أولئك السابقين من محررى الصحف و « أعلام الصحافة » ، وزعمناه مثلهم يعمل فى الصحافة بلا هَدَف ؛ لقد حدّد هَدَفَه فيما أجاب أدقّ تحديدٍ وأصدقَه ؛ وإنه ليقصدُه بكل إخلاص فيما يكتب أو ينشر فى مجلته ؛ ولكن ... ماذا تكون هذه الأمة فى غد لو أن هذا الفَتِىّ المتحمّس قد بلغ الهدف الذى أراد ، فحطم التقاليد ، وقضى على التعصّب ، وحرّر المرأة « قلبيا » وأعطاها السّعَادَةَ والرياسة وكفل لها أن تقول : « شريعتى فى الميراث أعْدَل من شريعة الله ! » ، وأن تنشب أظفارَها فى عنق أبيها لأنه عاب عليها أن تزل زلّةً أتى لها فى كل يوم حبيب تذرف الدمع على بعاده وتتوسل إليه أن يعود ... ؟

ماذا تكون هذه الأمة لو تم لهذا الفتى ما أراد ؟

أفذلك هدفُه الذى يسعى إليه ؟ ... نعم إنه ليسعى إلى غاية ، ولكن فى قعر الهاوية !

ليت شعرى أيدرى الآلاف من قراء هذه المجلة أين « يقودهم » هذا الفتى وإلى أى غاية ؟ وهل يدرى آباؤهم وأمهاتهم ... ؟

* * *

ثم ماذا بعد كل أولئك ؟

أهذه الآراء المؤتلفة ، أو المختلفة ، هى أهداف الصحافة المصرية ؟ ... فلا هى من مصر ولا مصر منها إن كانت كذلك !

هل كنت مبالغاً يوم زعمت أنه ليس فى مصر صحيفة مصرية ، لأنه ليس فى مصر صحيفة لها هدف ؟

أرجو أن يكذّبنى غدى !

قاف

نقد كتاب :

منهج البحث التاريخي

لمؤلفه الدكتور حسن عثمان

تعتبر منـاهج البحث العلمي (Méthodologie) مرادفة لمنطق العـلوم الذي أضافه المحدثون إلى المنطق القديم ، ومهد له رموس الذي اغتاله أحد الشائين عام ١٥٧٢ من جراء حملاته على أرسطو ومنطقه ، ثم بيكون ١٦٢٦ الذي عارض منطق القياس بمنطق الاستقراء الذي يعتبر أهم مبحث في منطق المنـاهج ، فوضع بذلك أساس المنهج التجريبي الحديث الذي انفصل به العلم عن الفلسفة . ثم ديكارت ١٦٥ الذي أقام قواعد المنهج العلمي على أساس رياضي ، وغير هؤلاء ممن نشأت على أيديهم مناهج البحث العلمي العامة في العصر الحديث .

ولم تكن العلوم إلى هذا الوقت قد استقل بعضها عن بعض ، فلما أصابت استقلالها ، وضعت لـكل منها مناهج خاصة بالإضافة إلى اشتراكها جميعا في قواعد المنهج العام ، فاستقلت الدراسات التاريخيـة بمنهج يختلف عن منهج العلوم الرياضية أو الطبيعية . وهـذا مع انفراد كل علم بقواعد خاصة به تلائم طبيعة الموضوع الذي يعالجه . وقد تأخر ظهور التاريخ كعلم يتميز عن مجرد وصف الحوادث الماضية ، لأنه لم يظهر إلا في القرن التاسع ، فتأخر – تبعاً لهذا – وضع منهج لمباحثه .

وكم كنت أحب أن يعرض لبيان هـذا كله صديقي الدكتور حسن عثمان مدرس التاريخ الحديث بجامعة فاروق الأول ليكون تمهيداً لكتابه : منهج البحث التاريخي ، حتى يعرف القارئ نشأة المنـاهج إجمالاً ، وعلاقة بعضها ببعض ، وتطور التفكير في أمرها حتى انتهى إلى وضع المنهج التاريخي الذي يعالجه في كتابه . ولـكن المؤلف قد فاجأ قارئه منـذ بداية البحث بالكلام عن مراحل المنهج التاريخي ، مكتفيا بأن يشير في صفحة ٣٤ إلى أن من واجب الباحث في التاريخ أن يدرس المنطق ..!

وهذا بالإضافة إلى أن للتاريخ فلسفة ، يتخطى بها المؤرخ مجال الجزئيات التي تكاد تقتصر عليها عناية التاريخ بأضيق معانيه ، ويؤول أحداثه باعتبارها كلا واحدا يفهم بالنظر العقلي في حدود الواقع ، وفلسفات التاريخ كثيرة ، يستند كل منها إلى منهج خاص به ، والذي يعرض للبحث في المنهج التـاريخي مطالب بأن يُفَلْسِف موضوعه ، فيعالج هـذه الفلسفات ليكشف عن مناهجها ، ولـكن صديقنا المؤلف قد أجل هذا في كتابه مكتفيا بأن ينص في الصفحة السـالفة الذكر ، على أن من واجب الباحث في التاريخ ، أن يدرس « فلسفة التاريخ » !

ويتطلب منهج البحث التاريخي – فيما يقول المؤلف ص ٢٥٦ – ٢٥٧ – عناية الباحث بالإشارة إلى مصدر كل فـكرة يعرضها ، مع ذكر الصفحة التي وردت فيها و ... الخ ، ومع ذلك فإن الـكثير من الحقائق يرد في كتاب المؤلف غفلا من أي إشارة إلى مصدره (راجع الفصل الأول والسـابع والثامن) وقد يخلو الفصل كله من ذكر مصادر مع تضمنه الإشارة إلى مؤلفين (راجع الفصل العاشر والثالث عشر والرابع عشر) بل قد يشير في صلب الـكلام إلى مصدر ، ولـكنه يهمل ذكر الصفحة التي ورد فيها (راجع صفحة ٩٩ ، ١٤٤) . وليعذرني صديقي المؤلف إن قلت له إن الذي يرسم منهجا يسترشد به أهل العلم في مباحثهم ، من واجبه أن يلتزم العمل بهذا المنهج ، فهذا أدل على اقتناعه بما يقول ، وآكد تأثيراً في نفوس قرائه .

ونلاحظ أن كبـار المؤرخين كتاب أفذاذ ، ولعل حياة آثارهم رهن بالروح الذي يتمشى فيها ، لا الوقائع

التى تحويها ، فإن الوقائع وحدها جثث ميتة ، حياتها مع روح باحثها ووحى خياله الرحب فى حدود الواقع ، وشعوره العميق فى حدود الممكنات وهذا الروح يحتاج إلى ثوب من الألفاظ ، لست أريد أن أحيل التاريخ أدبا ، ولا المؤرخ فنانا ، ولكنى أخشى أن يتجرد التاريخ من روحه فيموت ..! ولعل المؤلف متفق معنا فى هذا ، إذ يشير فى عجالة ملحوظة إلى أن المؤرخ ينبغى أن يكون صاحب إحساس وعاطفة وخيال — مع حرصه على التزام الواقع (ص ٦) ، ويشترط فى العرض التاريخى حسن التعبير واختيار الألفاظ ونحوها (ص ٢٥٣ — ٢٥٤) . ولعل قارئ كتابه يشعر بأن روحه فى بحثه واضح بيِّن المعالم ، ولكنه ليس قلابا . وأسلوبه يمتاز بالبساطة والوضوح ، ولكنه لا يخلو من ركاكة .

ويكرر المؤلف مطالبة أهل البحث التاريخى ، بتحليل الآراء التى تعرض لهم ومناقشتها قبل التسليم بها ، ومع ذلك يكتفى عند إثباته لأهمية التاريخ ، بتعداد ميزاته (ص ٦) مع أن لدراسة التاريخ خصوما لهم مذاهب فى إنكار قيمتها ، باعتبارها عرقلة لطلاقة النشاط الإنسانى الذى ينبغى أن يستقبل الدنيا جديدة على الدوام أبد ، وقد فطن لهذا مؤرخو الفلسفة الذين يعنون بمناقشة آراء خصوم تاريخها — من أمثال ديكارت — والمسرفين فى تقدير تاريخها — من أمثال كوزان حديثا وأصحاب مذهب التلفيق والأفلاطونية الحديثة قديما — ويهتمون بمناقشة هؤلاء قبل أن يأخذوا فى تعداد ميزاتها .

حسبنا هذا من مآخذ الكتاب ، وكلها لا يضير هذا البحث القيم الشائق ، الذى تناول لثانى مرة فى العربية الحديثة دراسة موضوع صادف من اهتمام الغربيين المحدثين أوفر نصيب ، وإن كان بعض مفكرى الإسلام قد وصلوا إلى القليل من قواعده قبل الغربيين ببضعة قرون . وما من شك عندى فى أن مناهج البحث ألزم للمشتغلين بالدراسات العلمية من هذه الدراسات نفسها .

وقد تتبع المؤلف فى بحثه مراحل المنهج التاريخى من شروع الباحث فى اختيار موضوعه ، إلى جميع أصوله ومراجعه ، وإثبات صحتها وتعيين صاحبها ، ومعرفة قواعد تحليلها وتفسيرها ونقدها ، وتنظيم الحقائق التاريخية وحسن عرضها ، مبيناً من خطوات هذه المراحل كلها فى دقة وبساطة وتسلسل منطقى يدعو إلى كل تقدير ، وكثيراً ما كان يستشهد فى أحاديثه عنها بشواهد عرضت له فى مباحثه الخاصة ، ويكشف بها عن دقة فى الملاحظة وسلامة فى المنطق وصدق فى الاستنتاج (راجع مثلا مناقشة للدكتور أسد رستم فى نسبة كتاب إلى واضعه ص ٩٤ — ١٠٣) فلا يضير المؤلف بعد هذا ما أخذناه على بحثه القيم الممتع ، فإن اتفاق الناقد مع الباحث فى شتى وجهات النظر أمر محال ...

ث . الطويل

بجامعة فاروق

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

****

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

صـ

الاشتراك لستة أشهر:

٤٥ فى مصر والسودان

٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام

٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــــدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ — عابدين مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٦ — الثلاثاء ٢٢ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٢ — ٢٧ من أبريل سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

مشروع بفردج الاقتصادى ومستقبل الأمم

إذا تطوعت وكتبت على صفحات « الثقافة » عن مشروع بفردج الاقتصادى ، فذلك لأنى أشعر بما « للثقافة » من باع طويل فى بحث المسائل الاجتماعية وتوجيهها لما فيه خير المجتمع الذى نعيش فيه . وبدلا من أن نرى المشروع تتناوله أقلام السياسيين على غير هدى ، نرى أن « الثقافة » تحدد موضوعاته من واقع التقرير نفسه ، ومن الروح العالية التى اتصف به بفردج وأعضاء لجنته . فقد وضع بفردج الاقتصادى كتباً قيمة عن البطالة وعن كفاية العمال والموظفين ، وعن التأمين الاجتماعى ، وعن مشاكل الصناعات التى ازدحم فيها عدد العاطلين ، كما أن أعضاء لجنته حووا من بينهم من تخصص فى الشئون المالية ، ومنهم من تخصص فى فنون الإنتاج الصناعى والزراعى والتجارى والتأمين والمواصلات ، بل وفيهم من اتصف بكونه المرجع العام فى علم الاقتصاد والاجتماع والإحصاء والتحسينات الاجتماعية .

والمشروع فى نفسه مبدأ اقتصادى يطبق على جميع البلاد طبقاً لظروفها ، وهو يجمع بين توازن حياة الناس الاجتماعية وبين التقدم الفنى الذى دخل على حياة الإنتاج لجعل من المجتمع طبقتين : طبقة العمال وطبقة المموّلين والمنظمين ، فعمل على جمع شملهما بعد أن تفرقت مصالحهما .

وبفردج رجل اقتصادى لا يمت للسياسة بأية صلة ، وهو يعتقد فى التطور لا فى الانقلاب والتدهور ، وجميع كتبه وكتب أعضاء لجنته يدل على علو الكعب فى تحسين حياة المجتمع عن طريق تطبيق المبادئ الاقتصادية على حياة الناس فى شئونهم الاجتماعية ، فيقول كما يقول بيجوه[١] ، وكينز[٢] ، وفيلبس براون[٣] ، وروبنز[٤] ، إن على أهل الصناعة والتجارة ونقابات العمال أن يعلموا المبادئ الاقتصادية ويقتربوا منها حتى تقوم أعمالهم على ضوء القواعد العامة الاقتصادية ، فإذا بحث بفردج ولجنته

(١) راجع بيجوه فى كتابه « للتشغيل والتوازن » .

(٢) راجع كينز فى كتابه « نظرية عامة للتشغيل والنقود » .

(٣) راجع براون فى كتابه « الأساس الاقتصادى لنظام الأسعار » .

(٤) روبنز فى كتابه « الأساس الاقتصادى لتنافس الطبقات » .

تحسين حال المجتمع ، فإنما يسعى فى تحرير الناس من البطالة والفاقة والجهل ومساوىء الإصابات حتى ينال كل فرد ، ذكر وأنثى ، من ضرورات الحياة فى جميع مراحل العمر ، من المهد إلى اللحد ، ما يستحقه من دخل يقوم بأود حياته فى صحته ومرضه ، وفى عمله وتعطله ، فيرى أن التأمين الاجتماعى ضرورة من ضرورات الحياة للغنى والفقير على السواء فى أوقات السلم كما هو فى أوقات الحرب ، وإنك إذا أردت اكتساب الحرب فما عليك إلا أن تعبئ الجهود الحربية للشئون السلمية ومستقبل الحياة فى أوقات السلم ، وأن الحكومة الرشيدة هى التى تجعل من السلم نفس المبادىء التى تؤمن الناس ضد الحرب بجميع أنواعها(١) . وإذا كان التوجيه الحكومى قد دعا إلى تنظيم الجهود لكسب الحرب ، فهذا التوجيه نفسه خير كفيل بكسب سلامة العمال وطبقات الأمة ، وضرورة تعاونها لحسن الإنتاج والتبادل ، فالتوجيه الاقتصادى يجمع بين دفتيه المصالح الفردية وتنظيمها لما فيه الصالح العام بشرط ضرورة تعديل الأساس فى النظام الصناعى للحكومة ولهيئة الموظفين الفنيين بها .

لقد بحث بفردج وهو مدير عام مدرسة الاقتصاد بلندن من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٧ المشروعات الهامة الخاصة بالبطالة والعطل ، كما أنه قد درس وهو رئيس الكلية الجامعة بأكسفورد موضوع الوظائف الفنية فى الصناعات وفى الوظائف الحكومية ، وهو المرجع العام فى تقرير تعيين الوقود على المصانع والأفراد(٢) ، وهو الذى بحث موضوع الجهات المحتشدة بالسكان وقرر أن البطالة ليست من خواص الصناعة ، بل هى من مميزات النظام الاجتماعى العام فى حالته الراهنة ، ولهذا يعتبر مشروعه عن « التأمين الاجتماعى » مشروعا دوليا عاما ، تتقبله جميع الدول على اختلاف مذاهبها السياسية ومشاربها الاجتماعية(٣) .

لقد جمع مشروع بفردج تحمل شركات التأمين فى مصلحة من المصالح ابتغاء تجميع الأموال والفائدة من استثمارها لمصلحة المتعاونين فيها تحت الإشراف الحكومى وتوجيه الدولة العام ، وأعطى المشروع حق العامل للعمل كما يعطى للعاطل حق المعيشة السليمة ، ولكنه يحتم على العاطل أن يعمل كيفما يتراءى للدولة تحديد جهات عمله ، فليس للدولة أن ترى البطالة شائعة فى القرى والمدن دون تنظيم ، وليس لها أن ترى أوقات العمل ضائعة هباء منثورا ، وليس للعامل أن يهاب الحياة العائلية مخافة تدهور مستوى معيشته وعدم التيسير لأفراد عائلته بعد مماته ، بل فى أوقات شيخوخته وبطالته . والدولة الرشيدة هى التى يكثر فيها عدد المنتجين ولا تتفاوت طبقاتهم ، لا أن تسود طبقة سيادة كبرى على جميع الطبقات ، فيقل الدخل العام وينخفض مستوى الإنتاج العام .

ومشروع بفردج يستعرض حالة التأمين الاجتماعى بوجه عام ، ويستجمع جميع المشروعات التى سبقته لتحسين حالة العمال ويسترشد بالقواعد الاقتصادية التى سادت روح أصحاب المشروعات السابقة ، وهو فى تكييفه الحديث يدل على غزارة التمييز بين نفقات المعيشة وبين مستوى العامل الحقيقى المؤسس على كفاية إنتاجيته الحدية ، فيوحد الجهود التى بذلت لتوحيد وجهات النظر الخاصة بالأجور الاجتماعية التى اتبعتها فرنسا ، والأجور الاقتصادية التى سادت روح التشريع البريطانى . وبفردج فى مشروعه يبين إمكان تضافر العمال وتقابلهم من جهة ، وأصحاب العامل فى نطاق مصانعهم من جهة أخرى ، والحكومة من جهة ثالثة فى حدود التحسينات الاجتماعية ، على أن يتعاون الجميع فى إصلاح ما أفسدته مساوىء النظام الفردى الحر الذى بدأ يعيش أكثر من حياته الإنتاجية المناسبة لنهضة عصره ، ولذلك ترى أنه بينما يتضافر العمال وأصحاب المصانع مع الحكومة فى تقديم الأموال اللازمة للتأمين الاجتماعى ، فإن المال اللازم للمشروع فى أى دولة من الدول هو نسبة

(١) راجع جريدة الأجيبسيان ميل عدد ١٧ فبراير سنة ١٩٤٣ ، حيث تشرح الانتقادات على المشروع . (٢) راجع الأجيبسيان ميل عدد ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ . (٣) راجع « الاستعراض الأسبوعية » ، عدد ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٢ .

مئوية من دخل الأمة العام . ويدل الكشف التالى على هذا الاتجاه السليم المنتج القويم .

المساهمة فى التأمين

ينقسم الجمهور إلى أربع فئات رئيسية داخل سن العمل من حيث التأمين الاجتماعى وهم :

١ — الموظفون . ٢ — أصحاب الأعمال والعمال والتجار المشتغلون .

٣ — المتزوجات اللاتى فى سن العمل . ٤ — النساء اللواتى فى سن العمل ولا عمل لهن ، وهذه الفئات الأربع هى التى تتأثر فى الاشتراك فى التأمين الاجتماعى بالطريقة الآتية :

	ذكور		إناث	
	الفرد المؤمن	صاحب العمل	الفرد المؤمن	صاحب العمل
الفئة ا	بنس شلن	بنس شلن	بنس شلن	بنس شلن
من ش ٢١ فما فوق	٣ ٤ أى ٢١ قرشاً	٣ ٣ أى ١٦ قرشاً	٦ ٣ أى ٢١ قرشاً	٦ ٢ أى ١٣ قرشا
« « ١٨ — ٢٠ « «	٩ ٣ أى ١٧ قرشاً	٣ ٣ أى ١٦ قرشاً	— ٣ أى ١٥ قرشاً	— ٢ أى ١٠ قروش
« ١٦ — ١٧	٩ ٢ ١٣ قرشاً	٦ ٢ ١٣ قرشاً	— ٢ عشرة قروش	— ٢ ١٠ قروش
الفئة ب				
من ش ٢١ فما فوق	٣ ٤ ٢١ قرشاً	—	٩ ٣ أى ١٨ قرشاً	—
١٨ — ٢٠	٦ ٣ أى ١٨ قرشاً	—	— ٣ أى ١٥ قرشاً	—
١٦ — ١٧	٦ ٢ ١٣ قرشاً	—	— ٢ أى ١٠ قروش	—
الفئة حـ	—	—	—	—
الفئة د				
من ش ٢١ فما فوق	٩ ٣ أى ١٨ قرشاً	—	— ٣ أى ١٥ قرشاً	—
من ١٨ — ٢٠	٠ ٣ أى ١٥ قرشاً		٦ ٢ أى ١٣ قرشاً	—
من ١٦ — ١٧	٩ ١ أى ٨ قروش		٦ ١ أى ٨ قروش	—

فالمشروع يساير البلاد الزراعية كما يساير البلاد التجارية والصناعية بخطوات مالية مناسبة ، والمشروع يطبق على البلاد المختلفة طبقاً لمقدرة كل منها المالية .

وإذا كان المشروع حتى الآن لم يلاق التشجيع الكفيل ببحث الفنيين فى مصر ، فإنه كان أولى به أن يلاق اهتمام رجال القانون فى بلادنا ، حيث إنهم دائماً المقبلون فى بحث تشريعات العمال والمصانع وأصحاب المزارع والمزارعين ، وإذا كان لرجال التشريع أن يبحثوه على ضوء تجاربهم الفنية بمصر ، فما أولى رجال البرلمان والسياسة بمصر أن يبحثوه على ضوء حكم البيئة التى يعيشون فيها ، والحقيقة أننا نرى أن هناك صعوبة فى فهم هذا المشروع على حقيقة مبادئه إذا ما قامت هيئة حكومية بترجمته ، وذلك لأن الواجب فى تكوين مثل هذه اللجان أن يكون أعضاؤها من مستوى اقتصادى واحد ، وأن يتفهم المترجمون مصطلحاته وروحه قبل البدء بترجمته ، وإلا ضاعت روح تكييف المشروع على أصوله السليمة .

ونورد الكشف التالى لتبيين

معنى التأمين الاجتماعي وعلاقته بحياة العمال من الوجهة الاقتصادية .

ملخص مشروع بفردج

مقدار التأمين لرجل وزوجته وطفلين :

	قبل الحرب		المقترح فى المشروع	
	المبلغ	المدة والظرف	المبلغ	المدة والظرف
البطالة	٣٣ شلنا أى ١٦٥ قرشا فى الأسبوع	٢٥ أسبوعا يليها إعانة بعد البحث فى موارد العامل الأخرى	٥٦ شلنا أى ٢٨٠ قرشا فى الأسبوع	مدة غير محدودة من غير بحث فى موارد العامل فإذا طالت مدة بطالة العامل طلب إليه أن ينتظم فى مركز من مراكز التمرين المعدلة
العاهات الناشئة من غير العمل	١٥ شلنا أى ٧٥ قرشا فى الأسبوع	٢٦ أسبوعا يليها ٧,٥ شلنات أى ٣٨ قرشا فى حالة الإصابات الممتدة عن العمل	٥٦ شلنا أى ٢٨٠ قرشا فى الأسبوع	مدة غير محدودة ومن غير بحث فى موارد العامل الأخرى
الشيخوخة	٢٠ شلنا أى ١٠٠ قرش فى الأسبوع	—	٤٠ شلنا أى ٢٠٠ قرش	فى حالة مد الخدمة تضاف علاوة مقدارها شلنان فى الأسبوع ١٠ قروش
الترمل	١٨ شلنا أى ٩٠ قرشا فى الأسبوع	—	٤٠ شلنا أى ٢٠٠ قرش	خلال الـ ١٣ أسبوعا الأول تحصل الأرملة على ٥٢ شلنا أى ٢٦٠ قرشا فى الأسبوع
الأمومة	جنيه فى الأسبوع	—	جنيه فى الأسبوع	—
الجنائز	صفر	—	٢٠ جنيه	
العاهات الناتجة من العمل	نصف مرتب العامل	—	ثلثا مرتب العامل بشرط أن لا يتجاوز ٧٦ شلنا أى ٣٨٠ قرشا ولا يقل عن ٥٦ شلنا أى ٢٨٠ قرشا	
العلاج الطبى	نفقات الطبيب	—	علاج طبى شامل لجميع أفراد العائلة	—

ونرى أن المشروع وإن كان من عمل أحد علماء الاقتصاد الاسكتلنديين ، فإنه أدق فى مصطلحاته من أن يأتى على يد أى فئة أخرى من علماء الاقتصاد ، فقد امتازت اسكتلنده بإخراج رجال الهندسة والعلوم والاقتصاد بدرجة أعم مما لو جاء على يد علماء الاقتصاد فى الدول الأخرى ، وإذ جاء مثل هذا المشروع لتطبيقه دوليا على بلاد العالم ، فهو أحرى من أن يجىء عن تفكير غيرها من رجال العلم والفن والتوجيه الحكومى العام فى الدول الأخرى .

فالمشروع ذو مبادىء عامة ، يرضى به الاشتراكيون كما يرضى به أنصار المذهب الحر ، ومعتنقو مذهب الاشتراكية الحكومية ، ويكفى أن يكون مصدره أعظم بلاد العالم العريقة فى الديمقراطية ، فإذا أخذنا فى تطبيقه فالله يهدى حكومتنا الرشيدة فى فهمه على حقيقة أمره وما ربك بظلام للعبيد . وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

محمد فهمى لهيطة
الأستاذ بكلية التجارة

كفاح المـــوت

تأليف الدكتور بول دى كروبف

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

الرجل الذى طارد الموت فى فراش الأمهات

ليس بمستطاع أن يحيط المرء إحاطة شاملة كاملة عادلة بكل الأعمال التى قام بها كل الرجال فى كفاح الموت . فهذا فوق قدرة إنسان واحد ، وفوق كفايته . ولقد قرأت فى تاريخ الطب مؤلفات عظيمة مفصلة وسيعة ، فوجدت رجال الطب ذوى الصدارة ، رجال الطب السياسيين ، رجال العلم ذوى الظاهر البارق والباطن الفارغ يحتلون من تلك الكتب فراغا أكثر أو كالذى يحتله رجال الطب الحقيقيون وأهل العلم السبّاقون إلى مغالبة الموت . فكل الذى فعلته ، كل الذى طلبته ، أن أطّلع على هويّة بعض من خيار هؤلاء الرجال ، وأن أتعلم أىّ حظّ ، وأىّ مصادفة ، وأى طبع من شتّى الطباع ، وخُلُق من شتيت الأخلاق أعان كلا من هؤلاء ، على تخطى ما صادف فى سبيله خاصةً من عقبة كأداء .

وسأتحدث أولّ حديث عن « زامل فيس » Semmelweis.

ولا تخجلنّ أيها القارئ من جهلك هذا الاسم . فلقد سألتُ أنا عنه فى العام الماضى عشرة من الأطباء الفُهماء ، فلم أجد من بينهم من يذكر هذا الاسم الهُنغارى الغريب غير واحد ذكره فى غير تظنّن ذِكرَ الواثق من ذاكرته .

عاش هذا الرجل عيشة فيها ما يؤسى له ، ودعنى أقول وفيها ما يؤسف له ، ولكنه مع هذا كان فى محاربى الموت من أجدهم حيلة ، وأصدقهم إبداعا . إنه لم يكن غير طبيب بسيط قامت فى نفسه رغبة مُلحّة أن يجد سبيلا آمنة تسلكها الأم الوالدة لتخلص من الموت بنفسها وما ولدت . وقد وجد هذه السبيل ، ووجدها سنوات قبل ربّ الميكروب « بستور Pasteur » ، وسنوات قبل صاحب « الستر Lister » ، فأثبت بذلك قبلهما أن الموت لا ينبعث دائما فى داخل أجسامنا ، وأنه قد يتلصّص فيدخل إليها من خارجها . ولأول مرة فى التاريخ أثبت أن من أسباب الموت ما يمكن دفعُه ، وأخذُ السبيل عليه ، فلا يدخل إلى أجسامنا أبدا .

لقد أثبت روبرت كوخ Robert koch بعد لأى أن المكروبات يمكن قتلها . ولكنْ قبل كوخ بسنين ابتدع « زامل فيس » حيلة تدفع بها هجوم بعض من تلك الجسيمات الخفيّة . وابتدع تلك الحيلة وهو لا يعلم عن هذه الجسيمات شيئا . ومع كل هذا فلا يزال من مآسى الطب اليوم أن نرى أكثر من سبعة آلاف امرأة أمريكية يمتن فى العام الواحد ، فى غير ضرورة ، من حمى النفساء ، فتلك هى الحمى التى وجد صاحبنا من ذلك الزمن البعيد سبيلا لتوقّيها يكاد يكون كاملا .

لقد مضى خمسة وثمانون عاماً منذ أرانا هذا الهنغارى كيف تقطع الطريق على هذه الميكروبات التى تدخل الدم فتحله حلاً ، هذه المكروبات التى تقتل اليوم أمّا أمريكية من كل ثمانى عشرة يمتن بين الخامسة عشرة والرابعة والأربعين . وليس فينا مَن طلب الموت لهؤلاء . وإذنْ فهى العناية الناقصة والإهمال الآثم ، وإغفالنا ما كشف لنا هذا الهنغارى من ذلك الزمان . وهذا يدعنى أن أتساءل : أحقا نحن فى حاجة إلى زيادة من علم ، أم نحن فى حاجة إلى زيادة من دقّة وزيادة من ذوق دقة فى تطبيق ما نعلمه من علم ؟؟

إن قصة « زامل فيس » ، أو « زامل » اختصارا ، تكشف لنا عن أكثر من وجه يسوءنا نحن الأُلى ندفع الضرائب لنعول بها العلم الطبي ، والفن الطبي ، بوصف أنهما يدفعان عنا الموت ويحفظان لنا الحياة . إن «زامل» طُرد من وظيفته بڤينّا ، عاصمة النمسا ، بسبب أنه اكتشف تلك الطريقة لخلاص الأمهات من الموت ، وتلك وصمة في تاريخ الطب لا تدانيها وصمة في قذارتها . وكل ذنبه أنه كان أمينا فوق ما يجب ، مستقيما فوق ما يلزم ، إذا طلب أمرا ذهب إليه قُدُما في غير التواء أو موارية . وعاد بعد طرده إلى بلده ، إلى بودابست عاصمة المَجَر . وفي هذا البلد أثبت مرارا وتكرارا قدرته على طرد الموت من فراش النُّفَساء . ومع هذا ظل السادة المتغطرسون من أمراء طب النساء يضحكون منه ساخرين ضحكات عاليات رددت أصداؤها في جَنَبات أوربا . وتحت أصداء هذه الضحكات كانت فتيات أمهاتٌ يأخذن سبيلهن إلى الموت ، أينعَ ما يكنّ شبابا ، وأحقَّ ما يكنّ بالحياة وأقدرَ عليها لو عقل العاقلون .

وانتهى «زامل» بأن كتب وثيقته البديعة العظمى ، تلك التي لا يذكرها اليوم أحد . وفي تلك الوثيقة صرخ هذا المجَاري في وجوه أطباء أوربا صرخته الكبرى : «أنْ قفوا هذه الذبحة أيها الذبّاحون» ، وبصرخته هذه بدأت تُرهَف إليه الآذان .

* * *

كان « زامل » منذ شبابه الأول مستقلّ الرأي عنيداً . وعمّده أبوه طفلا ، وسمّاه اسماً غريباً لا يعدَم أن يثير لدى سامعيه من قومه شيئاً من ابتسام . سمّاه « إجناز » . وكان أبوه تاجراً من تجار بودابست ، وفي عام ١٩٣٧ أرسله أبوه إلى ڤيينا Vienna ليتعلم القانون . وذات يوم ، وعلى غير سابق عزم ، وبقصد التفرّج لا غيره ، اصطحبه صديق إلى مشرحة الجامعة ، وكان أستاذٌ يقوم على أنظار الطلبة بعرض تشريحيّ . فكان أثر هذه الزيارة في نفسه أنْ حرّق « زامل » كتب القانون ، وذهب توًّا يسجّل اسمه في الجامعة لدراسة الطب .

كان « زامل » خشن المظهر ، ذا عينين كبيرتين برّاقتين . كان مُنتقاريا قُحًّا ، خفيف الخطو ، كثير المرح ، يفور نشاطاً ويفور حياة . واختصر أصدقاؤه له اسمَه « إجناز » تحبّبا ، فدعوه « نازى » . وكان إذا زأط وفرح وابتهج ، زأط بالقدر ، وعلى الأسلوب الذى لا يعرفه غير أهل ڤيينا . كان شابا من أولئك الشبان الذين إذا رآهم الناس قالوا : إنه لا رجاء فيهم ولا مستقبل لهم . ولكنه خيّب ظنّ الناس فيه عند ما صار له أن يختار فرعا للطب يتخصص فيه ، فلقد اختار أملأ هذه الفروع بالمصائب والمآسى ، اختار فن التوليد . وفي عام ١٨٤٤ عند ما صار طبيباً شابا غيوراً تيّاهاً يحمل إلى جانب اسمه لقب « دكتور في الطب » بدأ في ازدهاء يعين الأمهات على وضع أولادهن ، وذلك في قسم الولادة بالمستشفى العام بعاصمة النمسا . وكان قسما ذا سمعة كريهة .

وفي الشهر الذى انضم فيه إلى هيئة المستشفى ، مات في قسم الولادة ست وثلاثون والدة من ثمان ومائتين . كانت الولادة داء كالأدواء يموت منه الناس . كان خطرها كخطر أسوإ أنواع ذات الرئة (النيمونيا) أو أقل قليلا .

كان « زامل » يعمل في المستشفى بين أساتذة ضخام الاسم عظام السِّنّة ، وبين مساعدين لهم أغرموا بالنطق الضخم والكلمات الكبيرة المسيرة ، وبـ « نعم » يقولونها دائما أبداً للسادة الرؤساء الأجلاء . فظهر « زامل » بينهم في تخلّقه شاذا غريبا . وعدّوا من غرابته ، إنه لم يستطع أن يألف موتَ هؤلاء الفتيات الأمهات ، وأن يعوّد نفسه فتطمئن إلى هذه الموت فلا تعود تذوب وراءهن

حسرات . لقد كان توليدهن بالمجان : كن فتيات فقيرات ، وأكثرهن حلَسْن من طريق لا تباركه الكنيسة . ولكن مع هذا ، ورغم هذا ، ظللن في عين « زامل » نساءً كالنساء آدميات . وملأ الأمل قلبه فأخذ يحاورهن على إلقاء هذه الأحمال وهي ثقيلة عسيرة ، لأنها الأولى لهن . فإذا وضعنها أمتع نفسه وأراحها أن يراهن ، برغم إجهادهن ، قد صعد الدم إلى وجوههن اهتياجا ، وقد أخذن إلى صدورهن تلك الصور الصغيرة الأولى من الحياة ، يحتضنها ، فيجدن في احتضانها لذة الأمومة الأولى .

ويمرّ يومان .... فإذا بحمرة تلك الوجوه ، وكانت من سعادة وغبطة ، تنقلب هنا وهناك في عنبر الستشفى ، إلى حمرة من حمّى مشئومة تثور هائجة في تلك الأجسام .

ويمر ثلاثة أيام .... فيأخذ « زامل » ينتفض كلما سمع أنا يقطع عليها حديثها الحلو الحنون إلى وليدها آهاتٌ من آلام كآلام الوضع ، إلا أنها أكثر في أجسامهن اندفاعا وأبعد غورا . ويأخذ يُطمئنهن : « لا تجزعي يا سيدتي ، فسينتهي كل شيء إلى خير » ، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه الأمل الخائب لم يترك الصديق المؤاسي غير الكذب يقوله عامداً .

وتجفّ حلوقهن ، فيرفعن إليه على قلق أبصارهن . ويطلبن الماء . قليلا من ماء ، قليلا من ماء . ماءً ، ماءً ، دائما أبدا . ويحاول أن يبتسم ليحيي فيهن الأمل . ويجسّ أرساغهن فيجد نبضا سريعا ، يأخذ يزداد سرعة فسرعة ، ثم يأخذ في سرعته يزداد ضعفا فضعفا ، حتى لا يكون إلى عدّه من سبيل .

ويمر أربعة أيام .... فتجد « زامل » قائما يخاتل هؤلاء المسكينات عن مصيرهن ، يضاحكهن ، ويسائلهن عن أحياء ، ولا يدعهن ليخفي جزعه من رؤية بقع قرمزية ، زرقاء ، بنفسجية ، أخذت تبين على أيديهن وأرجلهن .

لشد ما أحزنه أن يرى تلك الوجوه قد شحبت حتى صارت كالشمع بياضا ، ولشدّ ما طيّبه أن يرى تلك الشفاه الباهتة تتمتم له في خفوت : « نعم ، أحسن يا دكتور ، لقد خفّ الألم كثيراً » .

وعندئذ كان يُشيح بوجهه عنهن ، لعلمه أنها خفة ألم تنذر باقتراب الموت .

(يتبع) أحمد زكي

من الدرر :

قالت لي الأوهام . . .

إشرب الكأس فوق الكأ . . . س عزاءً عن هواها !!
واملأ الدنيا أغاريد . . . أمانٍ لسواها . .
إن في دنياك دنيا . . . حطّم الشدوُ جناها
وعطوراً تمسح الكو . . . ن زكيّاً بشذاها !!
وفَراشاً هزَّه الأ . . . من فغنّى بِرُباها
وصباحاً ذاب كالدمـ . . . ـع أسيراً في دجاها
ودموعاً في جفون الـ . . . ـطلّ أذكته يداها
وعذارى من لهيب الشـ . . . ـدو جفّت شفتاها
تاك الأقدار بالزو . . . جِي منع الليل مناها
فتلاشت والصدى يبـ . . . ـكي دموعاً لبكاها !!

هكذا دنياك يا أنا . . . عمّ لا تنسك أساها
كم زهورٍ وعطورٍ !! . . . مات في المهد صباها !!
كم قلوبٍ كفّن الشجـ . . . ـو بكفّيه رؤاها
كم عيونٍ حالماتٍ . . . ذوّب الدمعُ سناها
كم رؤى جفّت على الشط . . . ـط فلم يرو صداها !!
هكذا قالت لي الأو . . . هام بركانا . . آها !!

محمد عبد الفتاح ابراهيم

صور قضائية:

رب احفظنى من أصدقائى!

بينا فى كلمة سابقة ما يعانيه القاضى من عنت القانون وتصوصه، وضربنا لذلك الأمثال، وقد خطر لنا أثناء البحث أن القانون ليس وحده « بيت الداء » فى عمل القاضى، فإن أخلاق الخصوم هى محنة أخرى مما يبتلى به القاضى، وبخاصة ما يكون من تصرفات بعضهم مع بعض أثناء قيام الخصومة. فإن الصادق ينسى صدقه ويعمد إلى الكذب، والصريح يغفل صراحته ويعمد إلى المراوغة. وهكذا تنقلب الفضائل فى قاعة الجلسة إلى نقائضها. ولا يبقى بين يدى القاضى من طبائع الناس إلا منتكسها وممسوخها، ويزداد بذلك عمله تعقيداً فوق تعقيد. فإن الخصومة نزاع على حق، والتقاضى أساسه أن كل خصم يدعى هذا الحق لنفسه. وعملية القاضى هى أن يبحث أين يضع هذا الحق من الخصمين اللذين يتجاذبانه. وإلى هنا قد لا يجد القاضى ما يشكو منه، أو هو خليق أن لا يجد فيه ما يدعو إلى الشكوى. فإن القاضى الذى يشكو من قيام هذا الصراع بين الناس إنما يشكو طبيعة عمله. ولو أن الناس أنصفوا لتعطلت مهنة القضاء. وقديماً قالوا: لو أنصف الناس استراح القاضى — ولكن الذى يحق للقاضى أن يشكوه هو أن ينتقل هذا المسخ الذى يطرأ على أخلاق المتقاضين فيصيب أخلاق أعوانه الذين يتعاونون معه فى البحث عن الحقيقة، وأكثر ما يتجلى ذلك فى الجانب الجنائى من عمل القاضى. فإن النزاع المدنى يتولاه الخصوم أنفسهم من بدايته الى نهايته. أما العمل الجنائى فإنه يبدأ عادة فى يد العمدة ثم ينتقل الى « جاويش » النقطة ثم يصل إلى المأمور، وبعد ذلك يبلغ الأمر إلى النيابة، وليس من النادر أن تتطور الحقيقة وهى تنتقل فى هذه المراحل واحدة بعد واحدة، فلا تصل إلى القاضى إلا بعد أن تكون قد خلقت خلقا جديدا، وتكون اليرقة القذرة قد استحالت إلى فراشة جميلة تبهر بحسن ألوانها الأبصار.

وقد يعجب الإنسان لأول وهلة، ويتساءل لماذا يفكر العمدة مثلا فى تغيير الحقيقة وهو يحرر « بلاغه » عن الحادث، أو لماذا يتجه رجال المباحث ورجال البوليس عموما اتجاها قد لا يتفق مع الواقع؛ والجواب يحتاج إلى شىء من التفصيل. فإنه إذا وقعت جناية قتل مثلا فى قرية من القرى تقدم أهل القتيل إلى العمدة فيلقنوه ما حدث وليس كل العمد عندنا — مع الأسف — من ذوى الاستعداد الإدارى الكافى. فإن منهم من لايزال فى حاجة كبيرة إلى ما يؤهله للقيام بأعبائه الإدارية على الوجه المرضى. وذلك بسبب جهلهم أحياناً، وبسبب عدم تقديرهم لحقائق الأمور أحياناً أخرى.

ونحن إذا افترضنا حسن النية فى العمدة فإنه قد يحرر بلاغه فى عبارة مبهمة غامضة بسبب ثقافته المحدودة — أو المعدومة — فيكون هذا الغموض سببا فى إهمال البلاغ فى كثير من الأحيان — وهو قد يسهو عن ذكر بعض البيانات الجوهرية التى أدلى بها إليه أهل القتيل فيجىء بلاغه عن الحادث قاصرا قصورا معيبا يؤثر فى حسن سير التحقيق. وقد حدث مرة أن قتل خفير إحدى العزب فحرر العمدة « بلاغه » عن الحادث وقال فيه: « إن خفير العزبة مصاب بعيار نارى فى رأسه ». وفهم البوليس على أن الحادث حصل خطأ. إذ لو كان القتل عن عمد لما وجب أن يخلو « البلاغ » من ذكر ذلك مع توجيه الاتهام إلى من تنحصر فيه الشبهة. وفى جناية أخرى تبين أن زوجة القتيل أبلغت العمدة أنها رأت الجناة الذين قتلوا زوجها. ولكن « بلاغ » العمدة جاء خلوا من هذا البيان. فلما سئل فى ذلك اعتذر بأنه ظل ثلاث ساعات يبحث عمن

يكتب له « البلاغ » لأنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، فسها عن ذكر هذه التفصيلات .

على أن مثل هذا السهو أو الخطأ قد لا يقترن دائما بحسن النية . وهنا الطامة الصغرى[1] ، فهناك إحصائيات حافلة بما يستطيع أن يفعله العمدة في التبليغ عن الحوادث إذا ساءت نيته وفسد ضميره ، وقد حدث في إحدى القضايا أن وجد القضاة في ملف الدعاوى « بلاغين » متناقضين ، يحمل كل واحد منهما توقيع العمدة ، وكانت التهمة جناية وضع النار عمدا في أحد المنازل المسكونة . وكان أحد البلاغين يتضمن حصول الحريق بمنزل المجنى عليها عمدا . ويحدد الاتهام وأسبابه . ويثبت حصول العثور على كرة من القماش مغموسة بالبترول وهي ملقاة في وسط المكان الذي اشتعلت فيه النار . بينما يتضمن البلاغ الثاني أن الحريق حصل قضاء وقدرا . وأن سببه في الغالب يرجع إلى ترك عود من الثقاب سهوا بجوار الأحطاب ! . وقد أسفر التحقيق في أمر وجود هذين البلاغين من اعتراف « عامل التليفون » بأنه حرر البلاغ الثاني بحضور العمدة وشيخ الخفراء بعد أن تم الصلح بين المجنى عليها والمتهم . ولما توفيت المجنى عليها في ذلك أنكرت حصول هذا الصلح ، وبيّت أن العمدة كانت له مصلحة في العدول عن بلاغه الأول !

ولعل المثل النموذجي يبين ما يستطيع أن يفعله العمدة عند تحرير « بلاغه » ذلك الذي رواه محمد بك البابلي في كتابه « الاجرام في مصر » وهو يتحدث عن عيوب أعمال الضبط والأبحاث الجنائية إذ قال : إنه حدثت جناية قتل فيها شقي كبير أثناء وجوده في غيطه ، وكان رئيس النقطة غائباً في إجازة قصيرة . فلما عاد وجد أن البحث يسير سيراً حثيثاً في ناحية اتهام شخص معين ، وأن التحقيق قد انتهى بالفعل على أساس ترجيح هذا الاتهام وأمرت النيابة بحبس المتهم ، غير أن الضابط وصلت إليه في ذلك الوقت معلومات جديدة تتضمن أن الجاني الحقيقي شخص آخر غير المقبوض عليه ، وأن عمدة البلدة أراد انتهاز فرصة حدوث الجناية للتخلص من بعض خصومه ، فتمكن بمساعدة شيخ الخفراء من اقناع أهل القتيل بأن يعدلوا عن اتهام الجاني ويتهموا أحد خصوم العمدة ، وقد تم للعمدة ما أراد . فما كان من الضابط إلا أن جد في البحث وهو يتخذ هذا الاتجاه المضاد إلى أن حصل على الأدلة الكافية ، وقد شاء الله أن يكلل جهوده بالنجاح ، فضبطت البندقية التي استعملت في القتل مدفونة في المزارع واعترف أحد الجناة على نفسه وعلى الباقين من زملائه ، وبذلك ظهرت براءة المتهم ناصعة ، وقبضت النيابة على العمدة والشيخ وأحيل الجميع للمحاكمة !

فهذه هي الطامة الصغرى — على حد تعبيرنا السابق — أما « الطامة الكبرى » ، فهي حين يحلو لبعض رجال البوليس أنفسهم أن يقف من التحقيقات مثل موقف هؤلاء العمد . والعيب ليس دائماً عيب رجل البوليس نفسه بقدر ما هو عيب النظام الذي يعمل رجل البوليس مقيداً بتقاليده . ولعل أكبر العار عند رجال البوليس عندنا أن تقع الجناية في دائرة اختصاص أحدهم ثم يعجز عن الاهتداء إلى الجاني والقبض عليه ، وهو في سبيل تفادي هذا العار يأتي بالمدهشات . فقد وقعت مرة جناية قتل عثر فيها على جثة القتيل ملقاة على جانب الطريق الزراعي . وكان رأسها إصابة تبدو كأنها من عيار ناري نظراً لعمق غورها واسوداد حوافها . فما كان من رجل الباحث — وكان من رتبة أمباشي — إلا أن قدم في نهاية اليوم تقريراً ذكر فيه أنه توصل إلى اكتشاف الجاني بواسطة (شاهدة رؤية) ، كانت في محل الحادث وقت ارتكابه . وهي صبية صغيرة قررت أنها شاهدت القاتل

(١) تريد أن نحتفظ بتعبير « الطامة الكبرى » لنستعمله عند الكلام عن تصرفات بعض كبار رجال البوليس .

يطلق النار على القتيل ويفر هارباً . وأنها اعترضت طريق هروبه ، فهددها ببندقيته . غير أنه تبين بعد ذلك من « الصفة التشريحية » أن القتل إنما حدث من آلة حادة كالبلطة ، وأنه لا أثر فى الجثة لعيار نارى على الاطلاق . فلما ووجهت الشاهدة بهذا الدليل ، اضطرت للعدول عن شهادتها ، وقررت أن أمباشى الباحث هو الذى لقنها هذه الشهادة ! !

على أن الباعث الشريف الذى من أجله يركب بعض رجال البوليس كل هذا الشطط ، قد يخفف نوعاً ما من تبعة عملهم . ولكن الذى يؤسف له أن الباعث الذى ينحرف بهم أحياناً عن طريق الحق ، والقيام بالواجب على أحسن الوجوه ، لا يمت دائماً إلى مثل هذه الاعتبارات فهناك خرافة إدارية ما زال يعتنقها بعض مأمورى المراكز مؤداها أن قلة وقوع الحوادث الجنائية فى مركز من المراكز هى الدلالة القاطعة على حسن الإدارة وقوة الهيئة وهم فى سبيل الحصول على هذه النتيجة السطحية لا يألون أى طريق يسلكون لإخفاء معالم الجرائم ، والطمس على آثارها ، أو زحزحتها عن دائرة اختصاصهم والإلقاء بها على عاتق الأقاليم المجاورة لتتخذ بشأنها من الإجراءات ما تشاء .

ومن المضحكات المبكيات تلك القصص التى يرويها الرواة عن ذلك الخفير الذى عثر على جثة قتيل على مقربة من حدود بلدته فتعاون مع زميل له على نقلها عَبْرَ الحدود لتحسب على المركز المجاور . أو ذلك « الجاويش » الذى تقوم نقطته على ترعة من ترع الصعيد حيث ألف الجناة أن يقتلوا ضحاياهم ثم يلقوا بجثثهم فى الترعة مكبلة بالحديد والأحجار . فكانت هذه الجثث إذا انتفخت طفت على سطح الماء وحملها التيار حتى تصطدم بعيون القنطرة التى يعمل صاحبنا بجوارها . فكان كل مهمته

حين يصل إليه مثل هذا « الإيراد » أن يفتح له العيون بالاتفاق مع خفير القنطرة ليحمله التيار مرة أخرى ويعيد توزيعه بالقسط على ما يمر به من بلاد الله الفسيحة فى الجهة البحرية من القنطرة !

ولعل أروع ما وقع لنا من الأمثلة التى تبرز هذا المعنى فى أجلى صورة ذلك المثل الذى يُروى عن أحد مأمورى المراكز من أنه عقد اجتماعا لعمد بلاد مركزه ونبه عليهم فيه أن لا يتعجلوا فى إثبات ما يرد إليهم من بلاغات عن حوادث جنائية فى « دفاتر الأحوال » إلا بعد الاتصال به تليفونياً « لتكييف البلاغ وإعطائه الوصف القانونى الصحيح » وذلك بحجة أن العمدة قد يستعصى عليه فهم ظروف البلاغ أو تطبيق نصوص القانون عليه ، فيخطئ فى وصفه . وكان مقصده الحقيقى أن يحتفظ لنفسه بحرية التصرف فى هذه البلاغات فيمحو منها ما يشاء — ويثبت — وعنده « دفاتر الأحوال » ! —

وإمعانا منه فى التحفظ والاحتياط أصدر تعليمات تقضى على عمال التلفون بالمركز ونقط البوليس بأن لا يسجلوا البلاغات التى تعطى لهم من عمال تلفون البلاد قبل أن يتصلوا به شخصيا للتحقق من أن البلاغ قد أعطى الوصف الدقيق !

وقد حدث على إثر ذلك أن رجلا يتجر بالعسل كان سائراً فى طريق عمومى يحمل معه بضاعته ونقوده . فهاجمه لصوص فى رابعة النهار وسلبوه ما كان معه من النقود بعد أن أوسعوه ضربا وفروا هاربين . ذهب الرجل إلى عمدة أقرب بلدة وأبلغه ما حدث . فأثبت العمدة بلاغه عن هذه الواقعة — التى تعتبر من أخطر أنواع الجنايات — فى دفتر أحوال البلدة . مخالفا بذلك تعليمات المأمور . ثم أبلغ الإشارة إلى نقطة البوليس . فتلقاها عامل التلفون واضطر إلى إثباتها فى دفتر قيد الإشارات الواردة . ثم أبلغها بدوره

من منبر الشرق :

أبو إسحاق النظّام وأيوب الرهاوي

سحرتني منذ حين شخصية النظّام ودعتني إلى التفكير ، وأرغبتني في أن يجعلها بعض الباحثين موضوعاً لبحثه ويصورها لنا بالصورة الحقيقية بها ، لا سيما لما تعوّدته من معاشرة النظام في مؤلفات أبي عثمان الجاحظ تلميذه الأمين وراويته الثقة . أليس عجيباً أن الجاحظ بعد تجربته الفذّة للحياة بمختلف صورها لا يقف عند مظاهر الأشياء دون أن يكشف عما في بطونها من الضعف والباعث على الهزل ، حتى إنه لا يستثني الملائكة والجن من سخريته إنك لا تجد في كتب الجاحظ ذكر شخص واحد لم يُظهر المؤلف في شأنه ضحكته المريضة أو تبسّمه الرفيق — إلا النظام ، ذلك النظام الذي كان الجاحظ صاحبَه قبل أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، حتى اختطفه القَدَرُ في عنفوان شبابه فلم يُفسّه بل تطبّع بعبقريته في كل تفكيره وفي كل غاياته

وفي هـذا لما أغرب حظ النظام من تاريخ الأدب العربي والفكر الإسلامي ؛ ذلك لأنه ليس في أيدينا كتاب له وضاع الأمل من أن نعثر على شيء من تآليفه العديدة ، فإن مصـادرنا جميعاً متأخرة عن زمانه وأكثرها قِطَعٌ أوردها أصحاب المقالات مشوّهةً مشوبة بإلزامات ، الغرض منها تفضيح آراء النظـام لا غير . أما الرواية المباشرة فلا توجد إلا فيما اقتبسه الجاحظ من كلام أستاذه ، وما وقع ذكره في كتب المعتزلة القليلة التي في أيدينا . إذن فعلى الباحث الذي يقصد إلى إبراز شخصية النظام أن يجمع بين تلك الروايات المختلفة ، وأن يدقق في تفتيشه عنها مع قوة التحليل ودقة النقـد والجرأة في الاستقراء وفي حصر النتـائج[1] .

(١) حاول الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريده تحليل آراء النظام في رسالة قيمة له لم تطبع بعد .

إلى عامل تلفون المركز . فرفض هذا أن يثبتها واتصـل بالمأمور في منزله وأبلغه الأمر شفويا .

فلما علم المأمور بأن كلا من عامل تلفون النقطة والبلدة قد أثبتا البلاغ بالفعل أمر كلا منهما بأن ينزع البلاغ من الدفتر نزعاً ويمزقه !

ثم قام المأمور على الفور إلى البلدة حيث حاول تارة بالضرب وطورا بالوعيد أن يحمل المجني عليه على العدول عن ادعاء السرقة زاعماً أنه كاذب مبالغ وأنه لا يعقل أن يحمل تاجر صغير مثله المبلغ المدعى بسرقته .

فلما وجد من الرجل إصراراً على بلاغه اضطر أخيراً لإثبات البلاغ من جديد وإخطار النيابة وكان قد مضى على الحادث حوالي ست ساعات وضاع الوقت الذي كان يجدي في مطاردة الجنـاة وضبطهم . كما أخر زوراً ساعة حصول التبليغ محاولا إخفاء فعلته . إلا أن التحقيق الذي أجرته النيابة بعد ذلك كشف كل هذه التصرفات وأحيل المأمور للمحاكمة !

* * *

هذا طرف من الأمثلة التي بها توضيح معنى الدعاء الذي جعلناه عنواناً لهذه الكلمة فإن « العمدة » « ورجل البوليس » هما خير أصدقاء القاضي متى صلح حالهما . وليس لنا تعليق على ما جاء في هذه الأمثلة إلا أن ندعوا الله مرة أخرى أن يأخذ بيـد النهضة الإدارية الحديثة في بلادنا لكي لا نروي تلك الأقاصيص التي أشرنا إليها هنـا إلا على أنها من آثار عهد انقضى . وإلا على أنهـا من أساطير الأولين !

ح . ج

ومن أهم النتائج لمثل هذا البحث أن النظام — وهو أول مفكري الإسلام وممهِّد الطريق للفلاسفة التالين — أكثر استقلالاً منهم في التفكير . وذلك أن هؤلاء الفلاسفة — أقصد الكندي والفارابي ومن تابعهما — قد خضعوا لما في الكتب المدونة من التراث اليوناني الذي وصل إليهم عن طريق الترجمة ودارت كل جهودهم على التوفيق بين آرائهم وبين ما وجدوه في الكتب مرويا عن أرسطو أو غيره من فلاسفة اليونان . فقد قتل « الحرف » تفكيرهم الحر ولم يجرءوا — وهم تحت عبء تراث عظيم — أن يعبروا عن أفكار لم تكن مودعة في بطون الدفاتر أو مستنبطة منها . أما عصر النظام فلم تكن فيه كتب القدماء مترجمة بعدُ ، حتى تستولي على عقول الناس ، بل كان عصر المناظرات الحية التي دارت بين ذوي الشأن في المجالس ؛ فهذا مصدر من مصادر عبقرية النظام وابتكاره واستقلاله في التفكير .

وأغلب الظن أن كثيراً من آراء النظام لم تكن في أول الأمر آراءً منظمة مستقاة بتأمل منطقي من أصل معين بل كان مصدرها معارضة المخالفين من المسلمين وغير المسلمين الذين ناظرهم أهل الاعتزال في مجالسهم . فإن وجدنا النظام متأثراً بثقافة من الثقافات الأجنبية ، سواءٌ أكانت هندية بتصرية أم يونانية رواقية كما يظنون ، فلم يكن هذا التأثير مباشراً ، بل نشأ من تلك المناظرات التي اضطر النظام فيها إلى تحديد موقفه . إذن فعلينا أن نبحث قبل كل شيء عن خصومه الذين وجَّه ضدهم حججه . ومثل هذا البحث صعب جدا ، إذ كانت أكثر مصادرنا تكتفي بإيراد جُمَل منفصلة من آراء منسوبة إلى النظام لا نعرف صلة بعضها ببعض ، ولا المناسبة التي قيلت فيها . على أنني أعتقد أن مؤلفات النظام فضلا عن تصريحاته الشفهية كانت جميعا ردوداً ومعارضات على خصوم معينين ، كما أنني أرى أن هؤلاء الخصوم الذين يُطلِق عليهم أصحاب المقالات الإسلامية اسم « الدهرية » عادة لم يكونوا فلاسفة صرفاً أو أنصار مدرسة من المدارس الفلسفية ، بل هم أصحاب صناعات مختلفة اصطبغوا في تعاليمهم بصبغة فلسفية ، أعني بهم المنجمين أولا والأطباء ثانيا وأصحاب الكيميا ثالثا ، تلك الطوائف من العلماء الذين كان المجتمع الإسلامي حينئذ في حاجة ماسة إليهم ، وكان لهم ذلك الشأن العظيم في دار الخلافة وفي دور كبار الدولة .

لا يمكنني في هذا المقال أن آتي ببراهين مفصلة على طريقتي هذه ، إذ كان لابد لذلك من أن نقابل بين أقوال متكلمي الإسلام وما ورد في كتب الطب والكيميا والتنجيم من آراء فلسفية ودينية — أولا دينية . غير أني أريد أن أنبهك على فقرة صغيرة وردت في كتاب الحيوان للجاحظ (جزء رقم ١ ص ٦٨ طبعة ساسي) تدلنا على اتصال النظام الوثيق بهؤلاء القوم حتى إنهم تسربوا في أسرته وأصبحوا من أقربائه : قال الجاحظ : « قال لي أبو إسحاق قال لي أبو العباس ، وأبو العباس هذا كان خَتَنَ إبراهيم على أخته ، وكان رجلا يدين بالنجوم ، ولا يُقر بشيء من الحوادث إلا بما يجري على الطباع » . وفي أثناء ذلك الفصل ينسب الجاحظ إلى أبي العباس هذا معارف كيميائية ليس هذا الموقف مناسباً لإيرادها .

هذا وإني أريد أن أكتفي هنا بأن أضرب لك مثلا « شروداً » للاتصال الوثيق الحي الذي كان للنظام بممثلي تلك الفنون والصناعات في عصره ، لاسيما إذا كان هذا المثل يصور لنا علاقات أرباب الكلام بالثقافات الأجنبية وعلاقات الأدب العربي بالأدب السرياني .

وصل إلينا باللغة السريانية مؤلَّف لأيوب الرُّهاوي الذي عاصر النظام ، وكان رئيس الأطباء عند المأمون ، واشتهر بترجماته العديدة لكتب الطب ولكتب جالينوس خاصة

من اليونانية إلى السريانية والعربية أيضاً ، تلك الترجمات التي كانت في غاية من الدقة ، حتى أن حنين بن إسحاق مع صرامته في النقد استحسنها . أما المؤلف الذي أقصد إليه فهو كتاب الذخائر الذي نشره المرحوم منجانا في سنة ١٩٣٥ (١) والذي يجمع فيه الطبيب النسطوري دائرة معارف طبيعية وفلسفية يحتاج إليها الباحث ويتمتع بها المثقف . وعندي أن هذا الكتاب أثر من آثار هؤلاء الخصوم الذين دعوا النظام إلى معارضته وإلى شدة موقفه ، أو بعبارة أصح إن مؤلف كتاب الذخائر أشار إلى النظام أثناء كلامه بعبارات واضحة ورد عليه .

والمعروف من النظام أنه في سياق قوله في «الكمون» وصل إلى نظرية أغرب من تلك الأولى بأن الأعراض التي نعتبرها عارضة في الأجسام — من الحر والبرد واليبس والرطوبة والروائح والطعوم — جواهر أو أجسام تكوّن الجسمَ من غير أن تكون ثمت حاجة إلى هيولى . وستجد هذه النظرية مبسوطة في كتب الكلام ، وقد رأى بعض المستشرقين أن لها علاقة بنظريات شبيهة نجدها عند «أصحاب الرواق» .

هذا ونحن نقرأ في كتاب الذخائر لأيوب الرُّهاوي فصلاً طويلاً في الحواس وكيف اشتُقت الأصوات والأراييح والطعوم والألوان من محسوسات اللمس أي من الحر والبرد واليبس والرطوبة ، وأثناء ذلك الكلام يقول أيوب : «ويخطئ من يقول إن الألوان والأراييح والطعوم والأصوات كلها جواهر غير أعراض كما قال في أيامنا بعض نابتة المتفلسفين ، وقد قامت رئيس تلك البدعة ومُنْشِئَها وردت على مقالته . . . وهو ممن اجتهد في نقد رأي بقراط وجالينوس قائلا ، إن الأجسام لا تُشتق من الأركان الأربعة فقط ، بل من أركان كثيرة أخرى مثل الخفيف والثقيل وما إليهما» . ويتلو هذا رد مفصل على ما ذهب إليه ذلك الحكيم المعاصر من أن الألوان وسائر الأعراض أجسام متداخلة كامنة بعضها في بعض ، كما أن النار كامنة في العود أو الحجر ، مما لا يترك مجالا من الشك في أن «رئيس تلك البدعة» و «المتفلسف المحدث» ليس غير أبي إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام ، وإن كان أيوب لم يسمّه . وذلك أن الآراء المنسوبة إليه توافق آراء النظام كل الموافقة ، كما أن حجج أيوب الموجهة ضدها تتفق في كل التفاصيل مع احتجاجات خصوم النظام واستدلالاتهم الواردة في كتاب الحيوان ، وفي كتب المقالات .

وهناك دليل غير مباشر على صلة النظام بأيوب ، ذلك أنه ورد في بعض مصادرنا لآراء المتكلمين القدماء اصطلاح غريب يستعملونه في مجادلاتهم مع خصومهم ، وهي كلمة «البِلّة» تعني ما يسميه المتأخرون «الرطوبة» . فقد نسب الأشعري إلى «أصحاب الطبائع» الرأي بأن «الإنسان هو الحر والبرد واليُبس والبِلّة اختلط بهذا الضرب من الاختلاط» ، وروى النظام عن «الدهرية» (١) القول بأن «عالما هذا من أربعة أركان حرّ وبرد ويبس وبلّة» ، وأثبت صاحب كتاب الانتصار (٢) أن النظام نفسه كان يستعمل تلك العبارة بعينها . هذا وقد أورد مطهّر بن طاهر المقدسي في كتاب البدء والتاريخ قطعة صغيرة من «كتاب التفسير» لأيوب الرُّهاوي ، يستعمل فيها مؤلفه ذلك المصطلح أيضا وبنفس المعنى ، مما يدلنا أنه كان متداولاً في دوائر الأطباء ، والترجمين الأول واستقاه النظام والمتكلمون منهم .

باول كراوس

(١) A. Mingana, The Book of Treasures by Job of Edessa, Cambridge 1935.

(١) الحيوان ج ٥ ، ص ١٤ .
(٢) ص ٢٤ .

من الأدب الروسى :

الراهبـــــان

للكاتب الروسى فلاديمير سولوفيوف

١٨٥٣ — ١٩٠٠

كانا يعيشان فى كهفين جنباً إلى جنب فى صحراء مصر ، لا يتبادلان من الحديث سوى نداءات كل منهما للآخر باسمه بين كل آونة وأخرى أو حين يرتلان الزبور معاً . وهكذا أيضاً عدة سنوات على هذه الحال . وامتدت شهرة قداستهما فى كل أنحاء مصر والممالك الأخرى . ولكن الشيطان تغلب عليهما بالرغم من كبح جماح شهواتهما ، وهما الناسكان الباركان . فتدخل إلى نفسيهما ، وعصف بهما فى آن واحد ، فدون أن ينبس أحدهما ببنت شفة ، جمعا سلالهما وفرشهما التى صنعاها من الحشائش ، وسعف النخيل وتوجها معاً إلى الإسكندرية . وهناك باعا ما صنعاه ، والثمن الذى حصلا عليه من بيعه قضيا ثلاثة أيام بلياليها ، بهيجة بديعة بين مدمنى الخمر والمجرمين الأشرار .

وما أن فقدا كل ما معهما من نقود حتى عادا إلى كهفيهما فى اليوم الرابع ، كان أحدهما دائم العويل والصراخ ، بينما كان الثانى يسير بجانبه ، ووجهه وضاح كالصباح ، يرتل أناشيده الدينية فى سرور وانشراح ، فصاح الأول قائلا :

« لعنة الله على .. لقد أصبحت الآن رجساً من عمل الشيطان ، لن أتمكن من التكفير عن هذه السيئات التى اقترفتها أبداً .. أبداً .. كل صلواتى وصيامى وترتيلاتى وتسبيحاتى قد ضاعت سدى . ليتنى كنت محطماً طيلة حياتى ، لقد فقدت كل شىء فى لحظة جنون .. يا للخسارة ! ... يا للخسارة ! » .

وكان الراهب الثانى ما زال يصدح بأناشيده فى هدوء وفرح .

فصرخ الأول « ماذا ؟ ... هل أصابك مس من الجنون ؟ » .

فسأله الثانى لماذا ؟

— هلا تندم ؟

— وهل اقترفنا ذنباً أندم من أجله ؟

— وهل نسيت الإسكندرية ؟

— ما لها ؟ حفظ الله تلك المدينة المشهورة المجيدة ، فهو قادر على كل شىء .

— ولكن ماذا فعلنا فى الإسكندرية ؟

— ماذا فعلنا ؟ بعنا سلالنا ، صلينا فى محراب سانت مارك المقدسة ، زرنا عدة كنائس ، تجولنا قليلا فى المدينة تبادلنا الحديث مع ليوتيلا المسيحى الصالح ...

فأطال الراهب النادم النظر إلى زميله فى ذهول وقال :

— وذلك المنزل القذر السمعة الذى قضينا فيه ليلة ...

— حفظنا الله ! ... لقد قضينا وقت الغروب والليل فى جناح الضيافة عند البطريق .

فصرخ الآخر « يا للفضيحة ! لقد أضاع الله رشاده . ومع من جمعنا مجلس الشراب فى ليلة الثلاثاء .. هل لك أن تخبرنى بذلك ؟

— لقد تناولنا الشراب وأكلنا اللحم فى غرفة الطعام بالبطركخانة .. وقد كان يوم الثلاثاء عيد ...

— يا صديق المسكين .. ومن الذى قبلناه ؟

— لقد غمرنا الشرف حين قبلنا رئيس الأساقفة القدس ...

— آه .. لماذا تهزأ بى ؟ هل معنى هذا أن الشيطان سكن نفسك بعد تلك الفاحشة التى أتيناها بالأمس ؟ .. حيث عانقت الأشرار الخطئين ..

— أنا لا أعرف آالشيطان ملكني أم ملكك أنت .. هل تدخل إلى نفسي أنا الذي يشكر هداة الله وإرادته المقدسة ، أنا الذي يمدح الخالق ويرضى بكل ما يقسمه .. أو تدخل إلى نفسك أنت الذي تهذي وتدعى أن مَثَل أبينا وراعينا المقدس سيّئ السمعة ..

فصرخ الراهب النادم « آه . أيها الضال . لعنك الله »

وانقض على زميله يحاول قتله ، ولكنه فشل في ذلك ، وراحت محاولاته سدى ، وتابع الإثنان رحلتهما إلى مأويهما . وكان الراهب النادم يضرب رأسه في الصخر ، ويمزق شعره ، ويتردد صدى صراخه وعويله في الصحراء ؛ بينما كان الثاني يرتل أناشيده في هدوء وسرور . وانطبقت هذه التصورات أمام عيني الراهب النادم في الصباح :

يجب أن أفكر في الأمر تفكيراً عادلا ، لقد اكتسبت قوة هائلة من السماء بسبب تقواي وتقشفي ، ولعل المعجزات والعجائب التي كنت أتمكن من فعلها أخيراً تدل دلالة واضحة على ذلك . ولكن بعد الذي فعلته فقدت كل هذه الميزات ، فقد أخطأت نحو الروح الطاهرة حين تهالكت على الأجسام الداعرة ، وهذه الخطيئة لا يغفرها الله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لقد ألقيت بذرور النقاء السماوي ليطأها الشيطان الذي استلب روحي الطاهرة وغرزها في الحمأة والوحل .. وسيتبعني ويمزقني .

حسن .. حسن .. إذا كنت قد هلكت تماما ، فماذا أنا فاعل في هذه الصحراء ؟

وعاد إلى الإسكندرية وألقى بنفسه في حمأة الدعارة والفجور ، ولما أصبح في ضيق مالي اشترك مع جماعة من الأشرار فقتلوا رجلا موسرا وسرقوا أمواله ، ولكنهم ضبطوا متلبسين بجريمتهم وسيقوا إلى المحكمة ، وقد حكم عليه بالإعدام فمات وهو غير نادم على شيء .

أما زميله القديم فقد تابع حياة العبادة والزهد ونال درجة عظيمة من القداسة حتى اشتهر بفضل تلك العجائب والمعجزات التي كان يأتيها ، فبكلمة من بين شفتيه المباركتين أنجبت امرأة طفلا بعد أن تخطت سن الولادة بسنوات .

وحين مات الرجل الطيب أخيراً ، ازدهر جسده البالي المتغضن بالجمال والشباب ، وأصبح نصف شفاف يملأ الجو بأريج سماوي عبق . وأقيمت صومعة على بقاياه المباركة وذاع اسمه بسرعة غريبة من كنيسة الإسكندرية إلى القسطنطينية ثم إلى كييف وموسكو .

والدرس الذي تلقيه علينا هذه القصة ، كما يقول فارسونوف الذي قصها عليَّ ، أنه ليس هناك خطيئة في هذا العالم سوى خطيئة اليأس ، هل لم يخطئ هذان الناسكان معا ؟ . ولكن أحدهما قضى عليه .. وهو الذي يئس .

حسن فتحي خليل

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥	في مصر والسودان
٣٧/٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

سيرة صلاح الدين :

— ٤ —

مؤامرة

دخل صلاح الدين يوماً على الخليفة العاضد فأكرمه وقربه وأهداه كثيراً من التحف ثم اتصل الحديث بينهما مدة قال فيها الخليفة للوزير «أخبرني أيها الملك الناصر عن نور الدين الشهيد — كيف يحب الجهاد من أجل دينه» ؟ قال صلاح الدين : والله يا مولاي إنه لأستاذنا الذي تعلمنا منه وتشبهنا به ، وهو منا بمكان الوالد لنا ، نؤثره بحبنا ونقدمه على أنفسنا ، لأنه كثير الاهتمام بأمر المسلمين ، وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا الحديث النبوي مسلسلاً بالتبسم ، فطلب منه بعض من قرأوا له الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج» !

قال : العاضد أي خليفة في هذا الرجل ؟ هكذا والله ينبغي أن تكون أخلاق الملك والخلافة ! . قال الوزير صلاح الدين «وضاقت ذات مرة يد هذا الأمير وعجز بيت ماله عن أداء بعض ما لجنده من العطاء ، فقال له أصحابه : يا مولانا إن في بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والقراء والصوفية — فلو استعنت الآن بها لكان أمثل ، «فغضب نور الدين وقال لأصحابه : والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب . ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم فكيف أعطيه غيرهم ؟» فسكتوا . قال العاضد «عجبت أيها الرجل إلى نفسي ، يحدث هذا كله في بلاده ، ووزرائي لا هم لهم إلا جمع المال والتنازع فيما بينهم على الملك والسلطان !» . قال صلاح الدين «يحفظ الله مولاي ويقيه سوء العاقبة» !

ثم إنه خرج من عند الخليفة فلقي بالباب صديقه ومشيره القاضي الفاضل فأخبره بأن شمس الدولة — وهو أخ لصلاح الدين كان أكبر منه سنا — قدم من قبل مولاه نور الدين ليبلغه تحيته وتحية أبيه نجم الدين ويقول له أنهما يطلبان إليه العمل لقطع الخطبة الفاطمية .

وجلس ثلاثتهم يتشاورون في هذا الأمر الذي أتاهم من قبل نور الدين فقال الفاضل لصلاح الدين :

«لا يحسبن مولاي أن الأمر قد مات فوالله إني لأجد لها سموماً ، كما أجد في الجو غيوماً وللقوم آثار نعمة عظيمة غرست في قلوب أهل مصر محبة لن تزول» .

قال صلاح الدين «والذي نفسي ونفس محمد بيده ، لقد صدق القاضي الفاضل ، فما رأيت أكرم من العاضد ، وأشهد لقد غمرنا بفضله ، وأغدق علينا من نعمه ، ولولا الغاية التي نراد منا ، لكنا له من أخلص خلصائه ، وأشد أعوانه وأنصاره ، وحمينا له هذا الملك» .

قال شمس الدولة : «فإنا سمعنا أن أهل مصر رحبوا بكم ، ويسروا هذا الأمر لكم ، حتى زعمنا لأنفسنا بدمشق أنكم لن تجدوا مشقة في قطع الخطبة ، بل زعمنا لأنفسنا بدمشق أن أهل مصر أنفسهم لم يعودوا راغبين في هذا المذهب الذي فرضه عليهم القوم» .

قال الفاضل : «لا يغرن الأمير ذلك ، فإن أهل مصر كغيرهم من سكان كل صقع وقطر ، يقبلون اليد التي لا يستطيعون بترها ، حتى تمكنهم الفرصة من بترها . ثم إن الناس في كل زمان ومكان عبيد المال وعبيد الإحسان . وإني لأرى في القصر حركة ، وأسمع للقوم همساً ، وإذا قامت العاصفة يا سيدي فما عسى أن تصنع ؟ وإذا وقع السابح في الماء فكم عسى أن يسبح ؟ وإنكم الآن في أدق حظكم فاطلبوا أقصاه !» .

قال صلاح الدين : « والله ما ملك البلاد بسيوفنا ولا رماحنا ، ولكن برأى القاضى الفاضل » .

قال شمس الدولة « ما أذكى هذا الرجل وأصدق نظره وأبعد غوره ؟ ولولا الثقة بفضيلة رأيه ما جشمناه ما جشمناه » .

والحق أنه لم يكن يسيراً على صلاح الدين ، أن يزيل من قلوب أهل مصر محبة الفاطميين ، فقد تمكن هؤلاء الفاطميون من إكرام أهل مصر فى وقت لم تستطع فيه الخلافة العباسية فى العراق ، ولا المملكة الأتابكية فى الشام مجاراة الخلافة الفاطمية فى هذا الميدان . من أجل ذلك كان يفر إلى (مدينة المعز) كثيرون من الشعراء والعلماء والفضلاء الذين لم يتيسر لهم الرزق فى (مدينة المنصور) . وكان من الذين فروا إلى مصر يومئذ عالم شاعر ذهب يقول :

سلام على بغداد من كل منزل
وحق لها منى السلام المضاعف
فو الله ما فارقتها عن قلى لها
وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها
ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وأما الشام فلم يكن أسعد حالا من العراق . وحسبك أن ترى شاعراً وصف عهد نور الدين بقوله :

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصى وفيها الجوع والعطش!!

وحقيقة كان الجوع والعطش بالشام والعراق لا يعدلها غير الشبع والرى بمصر ، واقترن ذلك فيها بحكم الفاطميين ، ومن أجله كثر فيها أصدقاؤهم وخلصاؤهم لما نالوه فى الواقع من مالهم وعطائهم . وكان من سياسة هذه الدولة ، أنها لا تفرق فى عطائها بين شيعى وسنى ، حتى لقد وصف كرمها شاعر ليس من مذهبها الدينى فقال :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة
وإن خالفونى فى اعتقاد التشيع

غير أن العناية الإلهية التى والت صلاح الدين كتبت له التغلب على أنصار الفاطميين ممن أضمروا لهم وداً ، عاهدوا أنفسهم من أجله ، على أن يتواصوا فيما بينهم ، ويجمعوا شتاتهم ، ويقوموا بمؤامرات خطيرة تزعج هذا الذى قطع خطبتهم وخطب للخليفة العباسى . ووقع بعض هذه المؤامرات فى حياة العاضد ووقع بعضها بعد وفاته ، فأما ما كان منها فى حياته ، فمؤامرة قام على تدبيرها عبد خصى كان يتحكم فى قصر الخليفة ، وكان يقال له (مؤتمن الخلافة) ، أجمع هو ومن معه على مكاتبة الفرنج ، واتفقوا فيما بينهم على القبض على الأسدية والصلاحية من فرق الجيش الشامى ، حتى إذا خرج السلطان بمن معه لملاقاة الفرنج على الحدود أخذوا من بقى فى القاهرة من جنده وأتوا السلطان من خلفه ، وطعنوا جيشه طعنة ربما قضت عليه .

وتمت مكاتبة المؤتمن للفرنج على هذا النحو ، ثم شاءت الأقدار السمحة فى ذلك الوقت ، أن يأتى رجل من التركمان ظهر أنه كان من جواسيس السلطان — فيعبر البئر البيضاء ، ويرى هناك إنساناً عليه ثياب بالية ، وبيده نعلان جديدان ليس بهما أثر مشى ، فينكرهما الجاسوس ويجىء بهما وبالرجل إلى صلاح الدين ، فيفتقهما ويجد فيهما مكاتبة للفرنج من أهل القصر . ويأخذ السلطان الكتاب ويسأل أن يدلوه على كاتب هذا الخط ، فيدلوه على يهودى من الرهط ، أحضره جند السلطان ليسألوه ، فنطق اليهودى بالشهادة قبل كلامه وأعلن بذلك إسلامه ، ثم أدلى باعترافاته وبأن الذى حمله على ذلك هو مؤتمن الخلافة . وهنا يلتفت السلطان إلى القاضى الفاضل ويقول له : « ما أسرع ، ما صدق ظنك يا عبد الرحيم ، فيم تشير علينا فى هذا » ؟ فيقول الفاضل « أما الرجل اليهودى يامولاى فاعف عنه واقبل إسلامه منه ، وأما المؤامرة فاحفظ سرها ، فهو آمن لك ، وأما العبد الخصى الأسود فلا تظهر أنك تعرف من أمره شيئاً حتى تستعد له » .

ففعل السلطان ذلك وأخفى سر المؤامرة ومضى

(المؤتمن) في تدبيرها حتى كان يوم خرج فيه إلى قصر من قصوره وخلا فيه للذته ، فأنهض إليه السلطان من ساعته من جاءه برقبته ، وثار السودان لقتله ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، وإذا قاموا على وزير قتلوه واستباحوه ، فثار أصحاب السلطان ، واتصلت الحرب بين الفريقين ، فما وجد السودان إلى الخلاص سبيلا ، وأينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، وكان الذي حمل عليهم هذه الحملة الشعواء أخا لصلاح الدين أكبر منه سنا هو (شمس الدولة) ، أبلى في الوقعة البلاء الحسن ، واتفق له فيها حادث عجب ، وهو أن العاضد نفسه كان يراقب الوقعة من منظرة اللؤلؤ ، فأمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشّاب والحجارة ، ففعلوا ، فأمر شمس الدولة جنده بإحراق منظرة العاضد فهمّوا أن يفعلوا ، لولا أن رأوا باب المنظرة قد فتح فجأة وخرج منه الخليفة نفسه وأمر من نادى وقال «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : دونكم العبيدَ الكلاب أخرجوهم من بلادكم .. !» . وكانت السودان مشتدة الأنفس بالعاضد ، لعلمهم أنهم إنما يدافعون عنه ، وأنه راض عن هذه المدافعة . فلما سمعوا ذلك منه فتّ في عضدهم وتخاذلوا يومئذ وولوا الأدبار .

أما الفرنج الذين كاتبهم (المؤتمن) فقد أظهروا الرغبة في المجيء إلى مصر ، لولا أن ردهم عنها نور الدين وشغلهم بالهجوم على الحصون التي كانوا يملكونها ، ربما يتمكن صلاح الدين من القضاء على هذه المؤامرة قبل تمامها ، واستعداء رجالها بقوة الفرنج .

وهكذا كان من خطة (المؤتمن) – كما كان من خطة غيره من أصحاب الفتن – أن يستعينوا بالفرنج يغرون إليهم خفافا قبيل قيامهم بالثورة على السلطان ، ولكن كان من توفيق السلطان أن يتمكن دائما من كشف المؤامرة قبل نضوجها ، وحصر النار في منطقة ضيقة عند نشوبها ، وأن يكون وقودها دائما أصحاب هذه الفتن والثورات ، يصطلون بلظاها ، ثم لا يصيب السلطان نفسه شيء من أذاها ، بل كان من توفيق السلطان إذ ذاك أن منّ الله عليه بخليفه ومولاه نور الدين ، ينقضُّ انقضاض الأسد على حصون الصليبيين فيصرفهم بذلك عن قصد مصر لمساعدة الثائرين بها ضد الدولة الجديدة .

حدث هذا كله في ثورة المؤتمن ، وحدث هذا كله في الثورات التي أعقبت ثورة المؤتمن ، فكان الفرنج يأتون لمساعدة الثائرين من الساحل وصقلية ، وكان الفرنج يبدأون عادة بحصار دمياط ، فيستنجد السلطان بمولاه ليشغل بالهم بالشام ، فما يكاد هذا يتحرك إلى بلادهم ويلقي الذعر في قلوب رعاياهم حتى يعودوا سراعا ويتركوا الثائرين لسيف صلاح الدين يحصدهم ويفنيهم ويقتل كل أمل في إعادة الدولة القديمة .

وهكذا حبطت هذه المؤامرة التي دبرها السودان ، وعاد السلطان بعدها إلى نفسه يوطنها على تحمل هذا الأذى الذي بات ينتظره من أعوان الدولة الفاطمية ؟ وصديقه القاضي الفاضل إلى جانبه دائما يقوي قلبه ويشد أزره ، ويعينه على أمره ، ويجود رأيه ، ويفتح عينيه لكل حركة تحدث في القصر وخارج القصر حتى جاء يوم أتى فيه شاعر من شعراء الفاطميين قال إنّ معه قصيدة يمدح بها الوزير . فأشار الفاضل عليه بالاعتذار عن سماعها وكان من قبل يستمع من هذا الشاعر إلى أمثالها .

وكان هذا الشاعر الأريب متصلا بشمس الدولة بن أيوب يمدحه ويستمنحه ، وفي نفسه حب للدولة القديمة لا ينكره ، بل من أجله رأى أن يتصل بشمس الدولة إذ ذاك كيما يظفر لنفسه بغاية كالغاية التي سمت بالمؤتمن إلى حتفه . ولكن كان القائد الأيوبي عن ذلك كله غافلا ، وبقي أخوه الوزير بهذا كله جاهلا ، فنامت أعينهما عنه ولم تنم عينا القاضي الفاضل ، فما زال بهذا الشاعر حتى كشف عنه بفطنته وحذر السلطان من مكيدته .

عبد اللطيف حمزة

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

شهر زاد :

عدت أمس إلى « أحلام شهر زاد » أقرؤها ثانية ؛ إن شيئاً ما يدعونى إليها وما زال يدعونى منذ قرأتها لأول مرة ، كأن بينى وبينها سبباً . أذلك لأنى أنا أيضاً كان لى « شهر زاد » وكان لى أحلام ؟ ...

ولكن « شهر زادى » لم تكن تحدثنى نائمة ، ولم أكن أستمع إليها وأنا يقظان ؛ فقد كانت هى نفسها الحُلمَ والرؤيا وحديثَ المنى ، وكان بيننا الحجاب المضروب ، فلم تكن تخلص إلىّ إلا طيفاً فى المنام أو خيالاً فى غفوة اليقظة ؛ فلا آن أن نلتقى بعد شتاتٍ وتجمعنا دار ... ...

آه ! ماذا قلت ؟ ... لست أريد أن أذكر ، لست أريد ؛ لقد كان ذلك هو الوهمَ ، وهو الحُلمَ ، وهو الخيال ، فما ؛ التقينا قط ، ولا وقع شىء من ذلك على الحقيقة ألبتة وإن شُبِّه لى ، وما زال الحجاب الذى كان مضروباً علينا بضع عشرة سنة — ما زال يحول بينى وبين أن أرى ، وما زال « النائم اليقظان » يعيش فى الحلم الذى بدأ منذ بعيد ، لم يستيقظ منه بعدُ ولن يستيقظ حتى تدركه « النَّومةُ الكبرى » ، فهيهات أن يجد تعبير رؤياه ! ...

... ولكن ما هذا الذى كان فى حياتى ثم انطوى ؟ أرأيتَ لو أن « حُلماً » يتجسد لدى عينين بَشراً سويا فيعيش كما يعيش الناس حيناً ثم يرتدُّ إلى وادى الكرى كما يتوارى الشعاع أو يختفى الظل — لو أن شيئاً من ذلك يمكن أن يكون مما يقع فى حياة الناس ، لقلت إن هـذا الذى كان فى حياتى ثم انطوى لم يكن إلا « يقظةَ حُلمٍ »

ثم عاد كل شىء إلى طبيعته كأن لم يكن شىء ، وعادت الأمنية التى كانت ذات يوم حقيقةً فاختبأتْ فى أحلامى ، وما زال النائم اليقظان يعيش فى الحلم الذى بدأ منذ بعيد ...

أذلك كل ما كان ؟ ... نعم ، ولكننى أنا أيضاً كان لى « شهر زاد » — على الوهم أو على الحقيقة — وكان لى أحلام ؛ فإن نفسى لتنازعنى أن أعود إلى « أحلام شهرزاد » فأقرأ بعض ما كان من خبرى يوم كنتُ وكانت « يقظة الحلم » ! ...

***

« من أنا ؟ ... أنا مَن تحب أن ترى فى أى ساعة من ساعات النهار ، وفى أى ساعة من ساعات الليل .

« أنا أمك حين تحتاج إلى حنان الأم ، وأنا أختك حين تحتاج إلى مودة الأخت ، وأنا ابنتك حين تحتاج إلى بر البنت ، وأنا زوجك حين تحتاج إلى عطف الزوج ، وأنا خليلتك حين تحتاج إلى مرح الخليلة ؛ أنا كل هـذا ... وماذا أريدُ ؟ ... أريد ما تريده الأم لابنها ، وما تريده الأخت لأخيها ، وما تريده البنت لأبيها ، وما تريده الزوج لزوجها الوفى ، وما تريده العشيقة لعشيقها المفتون ... ! »

هذا حديث شهر زاد فى يقظتها وفى أحلامها ، وإنها هى ؛ أفكان راوية أحلامها يترجم حديثَها إلى صاحبها ، أم يترجم حديثاً فى نفسى ؟ ... إنى لأحس رنين هذا الحديث فى وامقى كأن سمعتُه قبل أن أقرأه ، أم تراها رسالة إلىّ من وراء الغيب تذكّرنى بعض ما كان يوم كنتُ فى « يقظة الحُلم » ؟ ... ولكننى لم أنس قط ! ...

ومضت بى الذكريات تنقلنى من حديث إلى حديث وتتنقّل بى فى فنونٍ وألوانٍ من الحياة التى كنت أحيا فى « يقظة الحلم » ، فى النَّومة الهائمة ، وفى اليقظة النَّشوى ، وفى الحُلم اليقظان ، وعلى ضفاف البحيرة المسحورة ، وفى الزورق السابح فى الضوء والعطر والنَّغم ! ... ...

أذلك حديث شهر زاد وشهريار ، أم هو حديث كل شهر زاد وكل شهريار من الملوك أو من السوقة ، أم هو حديثي وحدي ؟ …

ماذا نقرأ حين نقرأ ؟ وماذا نسمع من حديث الناس حين نستمع إلى حديث الناس ؟ … أنحن نقرأ ما في أنفسنا أم نقرأ ما في الصفحات المكتوبة ، ونسمع حين نسمع همس أمانينا وذكرياتنا أم حديث الناس ولغو الناس ؟ …

إني لأتّهم عينيّ وسمعي ، فقد طالما كذَبتْني عيناي وسمعي ؛ ألم يُشبَّه لي ذات حين من العمر أني كنتُ شيئاً غير مَن أنا اليوم ، ثم عادت الأمنية التي خُيل لي ذات يوم أنها حقيقةٌ فاختبأتْ في أحلامي !!

. . . ولكن هذه بين يديّ وتحت عينيّ صفحاتٌ مقروءة ، أم تُراني أقرأ ما في نفسي ؟ وما هو الأدب الرفيع إن لم يشبَّه لك حين تقرؤه أنك تقرأ ما في نفسك وتتحدث عما تنطوي عليه نفسك ؟

* * *

هذه «شهر زاد» كما صوّرها الدكتور طه حسين بك صورةً من حياته ، وهذه هي كما رأيتُها صورةً من ذكرياتي ؛ فمن تكون «شهر زاد» وماذا تكون في نفس كاتبها وتحت عينيّ قارئها إن لم يكن في حياته أو في ذكرياته «شهر زاد» ؟

«مَن أنتِ ؟ ومَن تكونين ؟»

سؤالٌ واحد سألتْه شهر زاد : سألها إياه توفيق الحكيم ، وسألها إياه طه حسين ؛ وأجابت شهر زاد ، فكيف تأدّى جوابها إلى نفس توفيق الحكيم وإلى نفس طه حسين ؟ … أما أحدهما فزوجٌ وأب ، وأما الآخر . . . من يدري ما الآخَر ؟ هنا «عقدة نفسية» غامضة يخيّل إليّ أن معناها يوشك أن ينكشف وإن أصر توفيق الحكيم على الغموض والإبهام !

ليس الذي بين يديّ الساعة هو قصة شهر زاد وشهريار ، ولكنه فصلٌ من نفس طه حسين الزوج والأب ؛ فهذا يعرف قصة توفيق الحكيم من حديث شهر زاده ؟ …

«من أنتِ ؟ ومن تكونين ؟» .

هذا سؤال كل رجل عن كل امرأة ؛ سؤالُ كلّ شهريار عن كل شهر زاد ؛ لا يختلف باختلاف سائله ، ولا تتغير صورته بتغيُّر الأزمان ، ولكن ما جوابه ؟ …

آه ! هنا يختلف كلُّ رجل من كل رجل في التعبير عن شهر زاد ؛ وما يجيب كل رجل منهم إلا بما في نفسه من حاضره أو من ذكرياته عن شهر زاد ، ما عرف منها وما ذاق وما جرَّب ، وما استمتع أو تبرّم ، وما رضيَ أو سَخِط ؛ فأنت لا تعرف من جوابه شهر زاد ولكنك تعرفه هو ؛ أما هي … أما هي فلم تزل تسمع السؤال إليها : «من أنتِ ؟ ومن تكونين ؟» فلا تجيبُ ولكنها تلهم شهريار الجواب !

أعبَّر عنها المجيبُ حين أجاب أم عبَّر عن نفسه ؟ … وهل يعبِّر المعبِّر منهم عن نفسه إلا وهي قائمة في نفسه ؟

«من أنتِ ؟ ومن تكونين ؟»

سؤالٌ قديمٌ منذ الأزل ، سأله آدمُ حوّاءه ، ومن حق كلّ آدم أن يسأله حوّاءه إلى الأبد ؛ وتجيب حواءُ — أو شهر زاد — كلَّ سائل بما تجيب أو تخفي عنه ؛ فهل يعرف كلٌّ منهم مما أجابته إلا الجانبَ الذي رأى ؟ …

نعم ، وعبَّر توفيق الحكيم عما رأى وعبر طه حسين ؛ فهل عرف توفيق الحكيم شهر زاد كلَّها مما انكشف له عن معناها ؟ وهل عرف طه ؟

ليس الوجهُ أن يقال : هذا السؤال الذي سأله طه حسين شهرزاد قد سألها إياه من قبلُ توفيق الحكيم ، فإنه سؤالُ البشرية كلها منذ كانت ، ولن يزال سؤالَ كلّ

فى الأدب القصصى الحديث

١ — زينات — للأستاذ حسين عفيف

٢ — شعاب قلب — للأستاذ حبيب الزحلاوى

بقلم : محمود تيمور

فرغت قريبا من مطالعة كتابين ، أولهما : زينات أو التكفير ، رواية للأستاذ حسين عفيف المحامى . والآخر : مجموعة قصص عنوانها شعاب قلب للأستاذ حبيب الزحلاوى . ولعل أظهر ما خرجت به من هذين الكتابين أن كلا منهما يعبر عن شخصية صاحبه أوضح تعبير ، بل يكاد يفصح عن أسلوب حياته ، ومناحى تفكيره ، ودخائل نفسيته . وإنها لميزة جديرة بالذكر أن تكون للكاتب شخصية توحى إليه بما يكتب ، وتصدق فى دلالتها عليه ، وتعريفها به .

فأما صديقنا الأستاذ حسين عفيف ، فكتابه هذا يختلف عما سلف من كتبه بأنه رواية تامة المعنى القصصى ، ولكنه مع ذلك يحمل طابع الأستاذ ناصعا وشخصيته مركزة كما هما فى سائر كتبه التى هى أقرب إلى الشعر المنثور منها إلى القصص . وفى حسبانى — وإن لم أكن أعرف الكثير من شئون حياته — أنه صادف حياة ممهدة فيها من الرخاء واللين والدعة . بيد أن سماء هـذه الحياة لم تخل من قتام معترض يظللها بالسوادين حين وحين . فللأستاذ شخصية وديعة محببة ، وأنت إذ تجالسه تلقى نفسك أمام شخص تسوده الأناقة الأصيلة فى كل مظهر من مظاهره : فى الملبس ، وفى الحديث ، وفى التلفت ، حتى فى قسمات الوجه . . . وإنك لتحس مع ذلك روحه العاطفية الصافيـة تعبر عنها عيونه الحالمة . . . . . وما من شىء فيه إلا أشعرك أنك قبالة « شـاعر » بأوفى ما تحمل هذه الكلمة من جميـل المعانى والصور . ومهما يتحدث إليك حديثه المنطق الذى يهيمن عليه العقل الواعى فإنه ليس بقادر أن يكتم عنك نفس الشاعر الجياشة بأسرارها اللطاف !

فإذا رجعت تطالع كتبه ـ لا سيما أحدثها « زينات » ـ وجدت هذه الشخصية مشرقة بخصائصها تتنقل بين صحائف روايته كأنك تتهادى فى خميلة نضرها الربيع ، ثم اعتلال

رجل إلى آخر الدهر ....

... ليس الوجه أن يقال ذلك ، ولكن أن يُقال : ماذا كان جوابها لطه مما كان جوابها لتوفيق الحكيم ؟ فذلك هو الجديد وهو المأمول وهو الرأى ...

وبعدُ فأى هاتين الاثنتين فى كتابَى توفيق وطه هى شهر زاد ؟ وما هى ومن تكون إن كانت شهر زادُ جنساً آخر غير ما فى كتابى طه وتوفيق الحكيم ؟ ...

لا ، لا ؛ ليس هـذا هو السؤال ، فليس إلى معرفة حقيقة شهر زاد من سبيل ؛ وستظل شهر زاد أبدَ الدهر سؤالاً قائماً بلا جواب ؛ لأنها بذلك هى شهرزاد ! ...

• • •

هأنذا قد فرغتُ من « أحـلام شهر زاد » وطويت دفتيها ؛ فما أرانى قد عرفتُ بها شهرزاد وإنى لأعرفها من قبلُ عرفانى لبعض ما فى نفسى ، ولكنى عرفت فصلاً من حياة طه حسين ؛ فهل تكون شهرزاد الحكيم عنوانا لفصل غامض فى تاريخ حياته ؟ ...

لست أريد أن أتقحّم على حياة بعض الناس ، ولكن يخيل إلىّ أنى عرفتُ شيئاً كنت ألتمس أسبابه ؛ وهل حياةُ الأديبِ الحقّ إلا فنُّه ؟

.. ويسترسل بى التوهُّمُ شيئاً بعد شىء حتى لأكاد — مما ظننت — أن أرى لبعض أصدقائى ! !

« فاف »

النسيم ، وخرير الجدول ، وشذا العطر ، وبهجة الزهر . .
وقراء الأستاذ يعرفون له الأناقة فى شتى مؤلفاته ، وربما كانت هذه الرواية آنق ما ألف ، فالعبارات جميعها منتقاة منتخلة ، وتتابع الجمل تشيع فيه موسيقية خلابة ، والمعانى نبع رائق سلسال لا يشوبه كدر . وإنك لتتبين خلال الرواية روح الصوفية التى تجنح دائما إلى الخلاص من عالم الحقائق لتنعم بالمنى فى الأفق الأعلى !

ويبدو لى أن الغيوم التى أسبلت سترها على حياة الأستاذ ، جعلته يكره واقع الحياة ، وبعثته على أن يلتمس الراحة النفسية فى عالم أرحب جانبا ، وأوفر من المتعة والجمال حظا ... وكأنى به يبغى أن ينشىء دنيا من دنياه ، ثم يحاول أن يحملنا نعيش فيها معه ... وما أمتعها دنيا تلك التى يريدنا ذلك الشاعر الفنان على أن نسمو إليها ، ونحلم كما يحلم بها : نتنسل من الكوثر السماوى الصافى ، مغفلين الحياة الواقعة بما تحوى من مرارة وألم !

وقد يؤخذ على الأستاذ بعض الإغراق فى تلك الأحلام ، حتى إننا لنتلفت حوالينا بعد قراءة الرواية ، فنستشعر أننا فى هذه الدنيا غرباء . . . ولكن مرد ذلك إلى أننا نجد الأستاذ يشاء عامدا أن يتسامى بنا ، أن ينقى عن دنيانا صبغتها لبهيما لون السماء !

* * *

وأما الأستاذ حبيب الزحلاوى ، فكتابه حقا « شعاب قلبه » . فإن تعرفت حياته عرفت أنه شخص عرك الأيام ، وذاق الكأسين ، لأن حظه من العيش لم يدع له مسلكا سويا ، فتقلب بين الوهاد والربى ، فكان من أثر هذا أن حن إلى الفلسفة ، وأطال التأمل فيما حوله ، ويخيل إلىّ أن خيبة الأمل أدركته فيمن صادفهم من الناس ، فسدد إلى مجتمعه نظرات نقمة وقساوة ، وطوى جوانحه على توجس وحذر من البيئة التى يخالطها وتخالطه واتقدت فيه غريزة الهجوم صونا للنفس ، ولعل هذا سر ما كان من عنفه فى كتابه الأول ، وثورته فيما نشرته الصحف له من نقد . فهو محفوز إلى الهجوم بعقله الباطن ، ولكنه الهجوم المؤيد بالمنطق وحدة الذكاء ودقة الملاحظة .

وفى الكثير من صحائف « شعاب قلب » آثار المرارة والسخط والتنكر للحياة والناس . ولكنّ فيه إلى جانب ذلك استقرارا وهدوءا وسكينة ، وفيه لمحات إلى الحياة بعين الرضا . وإن هذا ليمثل حياته التى انتهى إليها الآن . فالكتاب فى مجموعه مرآة للطورين المختلفين ، ولا يتعذر على القارئ أن يدرك ما بينهما من تفاوت . فهناك خواطر فلسفية ، ونظرات عميقة ، وأفكار متوثبة . وهناك أيضا أمن وصفاء ، وروح وريحان .

والنظرة الإجمالية لهذه القصص تكشف لنا أن لها طابعا نفسانيا ، فالكاتب معنىّ من الموضوعات بما يتصل بالنفس واستجاباتها للحياة . ولهذا العامل فى التحليل قيمته فى فن القصة ، وقد وفق الكاتب توفيقا محمودا فيما عرض من أزمات نفسية ، وفيما أتبعها من تأملات .

وشخصية الأستاذ تطل أيضا من أسلوبه ومنحى تعبيره ، ففى جمله ميل إلى الصلابة والجد ، وفى عباراته ما يشعر القارئ بأن المؤلف فيلسوف يحمل على كاهله عبء الإفهام والإبلاغ ، فهو يرسل جوامع الكلم ، وينثر نوابغ الحكم ، وهذا ما يشعر به أيضا جليس الأستاذ ، فهو على دماثة خلقه وسهولة نفسه ، يتذوق رزانة الحكماء والشيوخ الذين خلفوا وراءهم الماضى السحيق ، وأحاديثه دائما لا تخلو من الآراء الفلسفية التى تعتلج فى رأسه ، ولذلك تراه فى شخصيات قصصه لا ينفك يسبر غور نفوسهم ويحللها فى منطق مرن لا تخطئه النتيجة الصحيحة غالبا .

وقصارى القول فى منحى الأستاذ القصصى أنه يعنى بالتركيز أكثر من التبسط ، ويهتم بالإفادة أكثر من

من معرض كتاب الديارات للشابشتي :

٣ – الدار المُعِزّية ببغداد

ثانياً : الأساسات

وناهيك ببناء وطيد الأركان ، أن آل الأمر بصاحبه في حفر الأساسات إلى شدة الإيغال في التراب توسيخاً لصرحه وتمكيناً لدعائمه . ذكر الذهبي أن معز الدولة « حفر لها (للدار) الأساس نيفاً وثلاثين ذراعاً »(١) . ومثل ذلك ما نقله اليافعي(٢) وابن العماد الحنبلي(٣) .

وقد زاد مسكويه الأمر وضوحاً بقوله إن معزّ الدولة « نزل سُفْلاً في الأرض لبعض الأساسات ستاً وثلاثين ذراعاً ، ورفعها إلى وجه الأرض بالنورة والآجر إلى أن ارتفع فوق الأرض بأذرع(٤) » . ووافقه ابن تغرى بردى في مقدار عدد الأذرع حين تطرق إلى هذا الموضوع(٥) » .

(١) دول الإسلام ١ (٢) مرآة الجنان ٢ : ٣٤٤
(٣) شذرات الذهب ٣ : ٢ (٤) تجارب الأمم ٦ : ١٨٣ (٥) النجوم الزاهرة ٣ : ٣٤٧

الثلاثية . بيد أننا نأخذ عليه في غير مواربة أنه يلجأ أحياناً إلى الإدماج والاقتضاب . ولهذا خلا معظم قصصه من الحوار الذي هو عامل في الفن القصصي له خطره الأكبر . وفي بعض هذه القصص يشعر القارئ أن المؤلف يحدثه بنفسه ، دون أن يترك من الحوادث ما يغني عن الإخبار والتحدث .

على أن قارئ هذه المجموعة الطيبة يخرج من قراءتها وهو يحس أنه أمتع ذهنه ورفه عن نفسه بما شاهد من صور حية وظواهر نفسية جديرة بالتسجيل والتقدير .

محمود تيمور

ولا يخفى أن هذه الأذرع الستة والثلاثين ، تساوي بمقاييس وقتنا نيفاً وخمسة عشر متراً .

ولا نستطيع القول أنه احتاج إلى النزول في جميع الأساسات إلى مثل هذا العمق ، فإن بعض المرافق الضئيلة كان يكفيها الأساس القليل الغور .

ثالثاً : المسناة

المُسَنّاة ، بضمّ الميم وفتح السين وتشديد النون يليها ألف فهاء منقوطة : هي العَرِم ، أي ما يُبنى بين يدي القصر الواقع على النهر ليرد الماء عنه(١) ، وتجمع على مُسَنَّيات . وهي بالفرنسية Quai وبالإنكليزية Quay . والمسنّاة لفظة معروفة إلى يومنا هذا في العراق ، وهي تلفظ عندهم « مُسَنّايَة » . و « هي مشتقة من سَنَّن يُسَنِّن المخففة بصورة سنّى . ومعنى سنّن : عمل سنّاً أو اتخذ في الماء سناً . والسن عند العراقيين : بناء يتقدم في الماء الكسر صولته وشدته ، واسمه بالفرنسية Epi »(٢) .

ولما كانت الدار المعزية مطلة على دجلة ، كان لابد لها من مسناة تقيها شر طغيان النهر وتمنع عنها تسرب مياهه إلى داخلها . وفي الواقع ، كانت هذه المسناة عظيمة راسخة . ذكر المحسن التنوخي في جملة ما بناه معز الدولة في داره « والمسناة العظيمة التي من حد رقّة(٣) الشماسية إلى بعض الميدان ، وطول ما بناه منها ألف وخمسمائة ذراع . وعرضها نيف وسبعون آجرة كباراً ، سوى

(١) الأب أنستاس ماري الكرملي في نقده كتاب الإمتاع والمؤانسة (الرسالة . العدد ٤٧٣ ، ص ٧٤٥ ب)

(٢) أحمد باشا تيمور : تفسير الألفاظ العباسية في نشوار المحاضرة (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣ [١٩٢٣] ص ٩) ، والأب أنستاس ماري الكرملي : ملاحظات في تفسير الألفاظ العباسية (مجلة المجمع ٣ : ٣٧٦ — ٣٧٧) .

(٣) الرقة ، بفتح أوله وثانيه وتشديده . كل أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء ثم ينضب عنها . ج : الرقاق .

المستاهيجات [1] التى تخرج منها إلى داخلها لتضبطها [2].

وفى بعض المراجع أن عرض هذه المسناة كان مائة آجرة [3]. ولكن هل كانت تلك الآجرات مبنية بوجه مغروز على نحو ما تنضد الكتب على الرفوف اليوم، أم بوجه منبطح ؟

إننا إذا لاحظنا المسنيات القائمة فى بغداد، وحسبنا حساب المياه الجارية وما تفعله من التخريب والتدمير، سلمنا أن تلك الآجرات ينبغى أن تكون قد نُضِّدت أفقياً، أى منبطحة، بحيث يصبح عَرْضها مطلاً على النهر.

فكم كان عرض هذه المسناة يا ترى ؟

يستدل من ملاحظة أنواع الآجر المكتشف فى العراق، أن آجر المائة الرابعة للهجرة، كان مربع الشكل، يبلغ طول ضلع ذى الحجم الكبير منه ٣٥ سنتمتراً، وثخنه بين ٨ و ٩ سنتمترات.

فإذا أخذنا بالرأى القائل إن عدد الآجر سبعون آجرة، بلغ عرض المسناة نحواً من ٢٥ متراً. وإذا اتبعنا رواية من قال إنه مائة آجرة، بلغ عرضها حينذاك نحواً من ٣٥ متراً.

ولا يعزبن عن البال، أن المسنيات حينما تبنى، يُملأ جوفها بالتراب، وتحصّن أقسامها الظاهرة بالآجر.

فهذه المسناة الهائلة العظم، سطت عليها يد الدهر الهدّامة، فقوضتها قطعة بعد قطعة، بحيث لم يبق منها فى زمن ياقوت الحموى [4] إلا آثار !

ولكن يبدو مما قاله ابن الجوزى، إن معز الدولة «لم يعمل من مسناتها (أى مسناة الدار) إلا البعض، لأنه أراد أن يصل المسناة بمسناة دار الصيمرى، فعاجلته المنية» [1].

وأشار ياقوت فى كلامه عن «سوق العطش» المعقدة بين باب الشماسية والرصافة أنها «تتصل بمسناة معز الدولة» [2].

(يتبع) كوركيس عواد

(١) قال تيمور باشا (مجلة المجمع ٣ : ٩) إن المستاهيجات هى «الدعائم التى تبنى بجوار الأسوار لتقويها». وأضاف الأب أنستاس (المجلة المذكورة ٣ : ٢٧٦) أنها «تكون مدورة الشكل كأنها الهاون. والكلمة منحوتة من الفارسية (دسته سنك) عربت بحذف الين والنون وبحث الكلمتين وجعلها كلمة واحدة، ومعناها الهاون».
(٢) نشوار المحاضرة ١ : ٧٠
(٣) مناقب بغداد المنسوب لابن الجوزى (ص ٢٦).
(٤) معجم البلدان ٣ : ٣١٨.

(١) المنتظم ٨ : ٣١. (٢) معجم البلدان ٣ : ١٩٤.

حكم فى القضية رقم ١٣٥ ملوى سنة ٩٤٣ عسكرية ضد بشرى إبراهيم حنا من ترلة عبد المسيح بحبسه ٣ شهور شغل وغرامة ١٠٠ جنيه والمصاريف لبيعه أدرة بأزيد من التسعيرة بجلسة ٢٤/٣/١٩٤٣.

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ — عابدين بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة: ٩ شارع الكردادي عابدين — القاهرة — تليفون رقم: ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٢٨ الثلاثاء ٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ — ١١ من مايو سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العدد

عيد المليك

اهتزت أفئدة أهل الوادي ليوم العيد، والعلم الأخضر يرف مع النسيم عالياً على ذرى القصر. في كل صدر لواء خافق، وعلى كل لسان بيان ناطق، ينادي من الأعماق: (يحيي المليك)!

تطلعت عيون الشعب متعلقة بالعرش والتاج، وفيهما رمز مصر الخالدة، وأمنيتها الباقية، ترى فيهما مجد الوطن المؤثل متوارثاً من طوال الحقب والأجيال، ويتمثل لها فيهما عزه التليد، وشرفه الطارف، قد ضما بينهما عظمة الماضي، وأمل المستقبل، نور على نور، وبهاء على بهاء.

يرى المصريون في كل يوم آية من المكارم يضربها المليك مثلا لفتية الغد، وحافزاً لكهول الأمس واليوم، والشعب الوفي يتسامى إلى المثل الصالح، ممتلئ القلب بالمنى الكريم، والمليك في كل ذلك يشير إلى العلا، ويبعث إلى البر والإحسان، ويرسل من صفاء نفسه ما يصقل به النفوس، ويبقي جواهرها كيما تكون جديرة بميراث مصر النيل.

عاد هذا العيد المجيد والشرق كله يتجه إلى الأمل اللائح من فجر جديد، والعروبة تتنسم الأريحية من المهد السعيد، و«الفاروق» يبدو في هالة هذا الفجر فيزيد الأمل نوراً، ويخلع عليه من سناه لألاء.

ووقف أهل مصر وأهل الشرق في يوم العيد خاشعين، يتجهون إلى الله بقلوب خالصة، يسألونه أن يكلأ المليك ويرعاه، وأن يطلع على العالم فيجلو بوجهه الظُّلَم، ويفيض عليه من روحه القدسي سلاماً؛ حتى يعود العيد وقد تنفس الحب، وساد الرضوان، يحفان بعرش الفاروق. (...)

بولنـــــده

عاد اسم بولنده يتردد على الألسنة كثيراً فى الأيام الأخيرة . وعادت أنباؤها تحتل مكاناً واضحاً بارزاً ، برغم انشغال الخواطر بأنباء الحرب والقتال ، ولم يكن اسم بولنده كثير التردد على الألسنة إلا فى أول الحرب فى سبتمبر عام ١٩٣٩ ، يوم كانت هى الميدان الرئيسى الذى تصطرع فيه الجحافل ، وتندك الحصون والمعاقل .

ولكن ظهور بولنده اليوم فى أنباء الحرب يختلف اختلافاً كثيراً عن ظهورها أول الحرب . فاليوم يبرز اسمها فى الميدان السياسى لا الميدان الحربى ، ويتناول الأمر حكومتها القائمة بمدينة لندن ، لا حكومة بولنده القائمة فى بولنده نفسها — وهى مع الأسف — ليس لها وجود ، بعد أن احتلت الجيوش الألمانية بولنده فى الخريف الأول من الحرب .

أما النبأ الذى لفت أنظار العالم إلى بولنده ، فقد يبدو يسيراً فى مظهره ، ولكنه خطير فى جوهره . فى يوم الأحد ٢٥ من أبريل الماضى ، استدعى وزير روسيا (مولوتوف) سفير بولنده فى موسكو ، وسلمه مذكرة من حكومة السوفيات تعلن فيها قطع أو وقف العلاقات بين روسيا وبولنده . وتشرح فيها الظروف التى اضطرت حكومة روسيا إلى اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة ..

وقد يبدو هذا النبأ يسير الخطر لمن يظن أن قطع العلاقة بين روسيا ، وبين دولة يحتل العدو أرضها ، ليس بالأمر الذى يحدث تغييراً كبيراً فى مجرى هذه الحرب . أو يرجح كفة على كفة ، ولكن لا يلبث أن يبدو لنا عظيم خطره ، إذا فكرنا فى أن هـذا الحادث ينطوى على إضعاف الصلة بين دولتين متحالفتين من الدول المتحدة . وأن بعض هذه الدول قد يميل إلى وجهة النظر الروسية ، ويميل الآخر إلى الناحية البولندية ، فتنظر برأى بعين الارتياح إلى نجاحها فى إيجاد صدع فى جبهة الدول المتحدة . ولا شك أنها قد تغلو فى تفاؤلها ، فتتصور أن هذا الصدع قد يؤثر تأثيراً شديداً فى علاقات هذه الدول ، وبالتالى فى مجرى الحرب نفسها . وليس هنالك ما يحمل على الظن بأن لهذا التفاؤل ما يبرره .

لقد كنا جميعاً نحس منذ أشهر أن العلاقات بين روسيا وحكومة بولنده لا تبعث على الارتياح التام . وكانت الأنباء تتحامى هذا الأمر إشفاقاً من أن يكون الخوض فى هـذا الموضوع مما يزيد الموقف تعقيداً ، فى الوقت الذى يجب أن تنصرف فيه جهود الدول المتحدة إلى الحرب ، والسعى إلى النصر بجميع الوسائل ، وفى أقرب زمن ممكن . فإذا إذا سلمنا — جدلا — بأن بولنده لا تقوم اليوم بنصيب خطير فى ميادين الحرب الحاضرة وأن ليس هنالك كبير بأس على مجرى الحرب فى أن تسوء أو تتحسن علاقاتها ببعض الدول المتحاربة . فإننا — حتى على فرض صحة هذا القول — لا بد لنا أن ننظر إلى الموضوع من وجهة أخرى وهى أن بولنده قد احتملت الصدمة الأولى ، وعانت من الاحتلال الألمانى أكثر مما عانت أية دولة من الدول الأوربية المحتلة . وأن هنالك تلك المبادئ السامية وقوامها الحرية والإنصاف للقوى والضعيف والغالب والمغلوب ، تلك المبادئ التى تحارب من أجلها الدول المتحدة — وبولنده أحق الدول بأن تنال فى ظل هذه المبادئ كل إنصاف وعطف . . . وبعد هذا كله — وفوق هذا كله ، فإن بولنده فى محنة قاسية ؛ ولهذا فهى حقيقة : بأن ينظر إليها بشىء كثير من العطف ، حتى ولو ارتكبت هفوة من الهفوات .

والآن نستطيع أن ننظر فى الظروف التى أحدثت بين الحليفتين ، هذا الجفاء الذى تبذل بريطانيا اليوم جهداً كبيراً لإزالته ولابد لفهم تلك الظروف من إلمامة يسيرة بالشئون التاريخية والجغرافية ، التى تحيط بدولة بولنده الحديثة ...

كانت دولة بولنده قبل الحرب الحاضرة تحتل مساحة من الأرض تبلغ ٣٨٨ ألفا من الكيلو مترات المربعة يعيش فيها أربعة وثلاثون مليوناً من الأنفس . فهى تزيد

على مساحة إيطاليا ، ولكنها تقل عنها في عدد السكان ، وهذه الأرض عبارة عن سهل فسيح يطل من الشمال على البحر البلطي ، ومن الجنوب على جبال الكربات . وليس له حدود واضحة في الشرق والغرب ، بل هو عبارة عن أرض سهلة تصل سهل ألمانيا الشرقي بسهول روسيا الغربية ، دون أن يكون هنالك حد جغرافي واضح بين الإقليم البولندي والأقاليم التي تجاوره شرقاً وغرباً .

في هذا السهل الفسيح انتشر الشعب البولندي على مدى القرون ، كما انتشر الشعب الجرماني في النواحي الغربية ، والشعوب الروسية في النواحي الشرقية منه . وفي العصور الأولى حين كانت المشاكل الجنسية قليلة الخطر ، أو في حكم العدم ، لم يكن هنالك كبير بأس في أن تتجاور الشعوب وتختلط ، ويتوغل بعضها في أرض بعض . ولكن تعاظم الحركة القومية في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين ، جعل من المرغوب فيه جداً أن يكون لكل شعب أرضه المحددة تحديداً جغرافياً صريحاً . لا يشاركه فيها شعب آخر . بحيث يكون هنالك شعب واحد في وطن واحد . ولم يكن من السهل بعد الاختلاط الطويل في السهل الشرقي العظيم ، أن يحدد وطن صريح يعيش فيه الشعب البولندي بمفرده .

وإذا أردنا أن نتصور ما هو الوطن البولندي ، والأساس الجغرافي الذي يقوم عليه . فإن أقصى ما نستطيع أن نقوله إن بولنده عبارة عن الأرض التي يجرى فيها نهر الفستولا ، ذلك الشريان الطبيعي العظيم الذي يجرى من الكربات إلى البحر البلطي ، والذي يتجمع على ضفافه وعلى روافده الشعب البولوني الصميم . وقد شبه بعض الكتاب بولنده بمصر لأن وحدة القطر في كلا الحالين تستند إلى نهر عظيم يعيش الشعب على ضفافه . ولكن القياس مع الفارق الكبير : وهو أن النهر في مصر تحف به الصحراء ، من اليمين ومن الشمال ، وتحدد القطر المصرى تحديداً واضحاً . أما الفستولا فتحيط به سهول خصبة عامرة بالسكان وفيرة المطر ، كثيرة الزرع . ولهذا كان الوطن البولندي مخالطاً للوطن الروسي في الشرق ، وللوطن الجرماني في الغرب .

وقد زاد المشكلة تعقيداً أن الجماعات الجرمانية هاجرت في العصور الوسطى على طول الساحل البلطي ، بحيث احتلت المنطقة التي يصب فيها نهر الفستولا ، عند مدينة دانزج ، فأصبح هنالك وطن جرماني يقوم بين بولنده ، وبين اتصالها بالبحر . وهذا الأمر لم يكن ذا خطر كبير في العهود الأولى ، يوم كانت مدينة دنزج والإقليم المحيط بها في القرن الخامس عشر والسادس عشر ، متحالفة مع بولنده ، ولدولة بولنده في دنزج النفوذ الأكبر . يوم لم يكن هنالك دولة ألمانية قوية تريد أن تضم تحت لوائها كل جرماني أياً كان منزله وموطنه ، سواء أكان هذا الجرماني ممن يعيشون في السهل البولندي أو الروسي أو في بوهيميا ، أو في أرض فرنسا ، أو جبال سويسره . فإن الغلو في تطبيق فكرة القومية قد أحل الخلاف حيث كان يسود الوئام . وخلق مشكلة عسيرة الحل في عدة أقطار . ومنها بولنده . التي كانت بحكم سهولة أرضها مجالا لأن تنتشر فيها الشعوب والعناصر المختلفة ، وأن يختلط بعضها ببعض يوم لم يكن هنالك اعتبارات سياسية أو قومية تحول دون هذا الاختلاط .

لقد أخذت دولة بولنده تظهر في الوجود في آخر القرن العاشر الميلادي . وقد انتشر فيها الدين المسيحي ، ولم تلبث أن تكونت فيها كنيسة بولندية مستقلة ، وتحولت بعد ذلك عن المذهب الارثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي . وقد كبرت دولة بولنده وعظمت شوكتها في القرن الرابع عشر . ولم تزل ذات شوكة قوية في القرون التالية . وقد اتسعت رقعتها اتساعاً شديداً باتحاد الدولتين البولندية والليتوانية في القرن السابع عشر ، بحيث أصبحت أرضاً تمتد من السواحل الشرقية والجنوبية لبحر البلطي إلى حوض نهر الدنيبر ، فكانت تشتمل على الجزء الأكبر من أوكرانيا ، ومن روتينيا (أو روسيا البيضاء) . ولئن كانت ممتلكاتها قد نقصت قليلا بعد ذلك ، فإنها على كل حال ظلت تحتل

مساحة تعادل ضعف مساحة دولة بولنده الجديدة . وهكذا كانت حالها في القرن الثامن عشر ، حين اصطدمت بدولة روسيا القوية في الشرق ، وبدولة بروسيا في الغرب ، ووقفت بولنده بين عدوين عظيمين روسيا القيصرية ، ومملكة بروسيا الخطيرة .



(١) حدود بولنده عام ١٦٤٨ (٢) حدودها عام ١٧٧٢ (٣) الحدود المقترحة في معاهدة فرساي (٤) الحدود المقررة بمعاهدة ريجا عام ١٩٢٠ .

هنالك حدثت تلك الكارثة الكبرى في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، إذ اتفقت روسيا وبروسيا على اقتسام بولنده بالتدريج ، وحدث هذا الاقتسام فعلا على ثلاث دفعات ، أولها في عام ١٧٧٢ ، ثم في عام ١٧٩٣ ، ثم في عام ١٧٩٥ ، وقد اشتركت حكومة النمسا في الدفعتين الأولى والثالثة . وبعد ذلك تلاشى استقلال بولنده ، وقسمت أرضها أجزاء موزعة بين الدول الثلاث .

ولكن لم يكن مما يقبله العقل أن تطفأ جذوة الوطنية البولندية بسهولة ، برغم هذا العدوان العنيف . بل لعلها قد ازدادت اشتعالا بسبب هذا العدوان . وقد أتاح نابليون الأول فرصة عابرة لخلق دولة بولندية . ولكن الفرصة الحقيقية لم تسنح إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، فأنشئت دولة بولنده الحديثة ، وتقررت حدودها الغربية في معاهدة الصلح مع ألمانيا ، وجعلت دنزج مدينة حرة لها نظام حكم دولي ، تشرف عليه عصبة الأمم ، وتركت حدودها الشرقية لكي توضع بالاتفاق بين بولنده وروسيا ، وكانت روسيا البلشفية في حالة من الضعف انهزمت فيها جيوشها أمام الجيوش البولندية ، وتم الصلح بين الفريقين بمعاهدة ريجا عام ١٩٢٠ . وقد قبلت روسيا أن تمتد حدود بولنده شرقا بحيث تشمل مساحات واسعة تسكنها عناصر من روسيا البيضاء في الشمال ، ومن الأوكرانيين في الجنوب . وهكذا ذهبت بولنده بحدودها الشرقية إلى أبعد من الحدود التي أوصت بها معاهدة فرساي نفسها .

ومن السهل أن يوجه المرء انتقادات كثيرة إلى دولة بولنده الناشئة ، ولكن يجب علينا أن نذكر أن الدولة الجديدة قد اصطدمت في أول عهدها بالحياة المستقلة بصعوبات شديدة حقا : أهمها أن بولنده كانت ميدانا للحرب أربع سنين نالها فيها كثير من التخريب ، ونال السكان كثير من التشريد . وأنها في أشد الحاجة لكل مورد اقتصادي أو تجاري يساعدها على النهوض بعد أن فقدت كيانها السياسي زهاء قرن ونصف قرن ، وقادتها جديدو العهد بالحكم ، فمن الجائز أن يرتكبوا هفوات ، ولا يجوز أن ننسى ما يشعر به البولوني من أن أمته كانت يوما ما من أكبر الدول الأوروبية ، وأنه يود لها أن تتبوأ مكانها مرة أخرى بين الدول الكبرى .

وقد تقلبت الحظوظ على بولنده الحديثة ، وسادتها الاضطرابات أعواما طوالا ، حتى استطاع المارشال بلسودسكي أن ينشر الهدوء في ربوعها إلى حد كبير . وقد اتجهت سياسته — وقد رأى أمته بين دولتين كبيرتين يخشى جانب كل منهما — نحو ألمانيا ، وقد كانت معاهدة الصداقة بين الدولتين من أول الأعمال السياسية التي قامت بها ألمانيا النازية .

(البقية على الصفحة رقم ٢٤)

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

الرجل الذي طارد الموت في فراش الأمهات

وصل الحالث : « زامل » طبيب شاب هنغاري ، يعمل في قسم الولادة الأول بمستشفى عام بفينا . و « إكلين » رئيسه وأستاذه ذو رأي في الطب عتيق . والنساء يمتن بكثرة من حمى النفاس في قسم الولادة الأول . والقسم الثاني أقل موتى . والسبب غير معروف . « وزامل » يجاهد في معرفته في غير طائل .

ثم كان أن أقيل « زامل » من وظيفته . وسبب هذا أنه كان بالمستشفى قبل « زامل » مساعد يقال له « إبريت » Breit ، وكان يشغل الوظيفة التي شغلها « زامل » من بعده . فلما عاد إبريت وجب على « زامل » أن يخلي له مكانه وسبب آخر : أن « إبريت » لم يكن كزامل كثير الحسرة على من كُنّ يمتن من النساء ، ولم يكن يحرج « إكلين » بالتساؤل الكثير عنهن . وجد « إكلين » الفرصة سانحة للخلاص من « زامل » فطرده . فقضى صاحبنا الشتاء كله يتعلم الإنجليزية ، ويختط الخُطة للذهاب إلى انجلترا ، وإلى دبلن عاصمة إرلندا ، ليتعرّف السبب الذي من أجله يقل الموتى من حمى النفاس في مستشفياتها . ثم حدث أن « إبريت » فاز بمنصب أستاذية بمدينة توبنجن Tubingen بألمانيا . وعُرض المنصب الخالي على « زامل » فقبله ، وعاد إلى وظيفته مرة أخرى وقد كان المنتظر أن يرفضه حفظا لكرامته . . . . ولكنه لم يرفض .

وقبل أن يشتغل منصبه ذهب إلى مدينة البندقية يتروّح قليلا . ولما عاد إلى استغراقه القديم في العمل وكان يقول إن رحلته إلى البندقية شفت نفسه من سقمها فلم يعد يركبُهُ الهمّ ، لا بسبب ما أصابه في الإقالة من حيف ، ولا للعجز عن الوصول إلى أسباب تلك الحمى .

ولم يكد يكشف عن ساعده للعمل حتى جاءه الخبر بأن صديقه عالم الأمراض الباثولوجي « كولتشكا » Kolletschka قد مات وفرغوا من دفنه توًّا — مات مسمماً دمُه على أثر شكّة طائشة من مشرط ، شكّهُ إياها طالب عند امتحان جثة في قاعة الموتى .

عند امتحان جثة ! !

مهلا . دعني أفكر . نعم نعم . . . . وأسرع « زامل » في طلب التقرير الذي كُتب عن موت صديقه الدكتور . وأخذ التقرير في يده ، وأخذ يقرؤه ، فأخذت ترتعد به أصابعه . نعم نعم . . . إن الأمر كما ظنّ تماما . . . يا للغباوة ، يا للعمى . سمٌّ في الدم . . . دخل جسم « كولتشكا » من سكين في قاعة الموتى . سمّ في الدم . . . ماذا تكون حُمّى النّفاس غير سمّ في الدم ؟ !

ألاَ ما أغباه ! ألا ما أشد ما كان من عماه ! وهو الذي حدّق ألف مرة في بواطن الموتى من النساء ، وهي حمراء ملتهبة . نعم ، نعم . . . . إنهما سيّان . لا شك في هذا .

وتملكتْه الفكرة في لحظة . ولم تكن خطرةً برأس كسائر الخطرات — كانت إحساساً شاملا كاملا غريبا ، بدأ عند أم رأسه وجرى في سلسلة ظهره إلى أدنى قدمه . أعمل الطالب مشرطَه في جثة امرأة ماتت من حمى النّفاس ، ثم طاش المشرط في يده فجرح جسم الطبيب . فمن هذا الجرح دخل السم القاتل .

جُرْح ؟ ! وكيف تأتي الجراح إلى الوالدات من النساء ؟ ! أمر يسير : إن كل امرأة تلد يتجرّح رَحِمها كله من الداخل تجرُّحا .

وسمّ الجثث ، ماذا حمله إلى هذه الجراح بباطن هذه الأرحام ؟ ! أمر يسير أيضا . أمر وضَح له وضوحا جعله يرتعد له ارتعاداً . إنه هو نفسه حامل هذا السم ،

هو وتلاميذه . ألم يذهب هو وهم ، يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، من قاعة الوقى مباشرة إلى مضاجع الأمهات بعنابر المستشفى يفحصونهن . ثم إنهم ذهبوا بعد غسل أيديهم . ولكن ما تلك الرائحة التي علقت بتلك الأيدى من تلك الجثث بقاعة الوقى ، وعلقت بها ساعات بعد خروجهم منها ؟

نعم تلك الرائحة التي فخر في عباءته بها ، وحث في جهله طلبته عليها ، حتى صارت هي والجثث شغله الشاغل وهمه الأول وهم طلبته .

بتلك الرائحة ، بهذا السم على أيديهم ، كانوا يدخلون على النساء ، فيدخلون هذه الأيدى في بواطن النساء ، يفحصونهن . . . .

إنه هو القاتل !

وتراءت له هذه الحقيقة ، وشاعت فيه ، بأسرع مما يستطيع القول وصفه .

والقسم الثانى للولادة من المستشفى ، لماذا كان أرحم على النساء ، وأقل خطرا ؟

لأن من قمن على توليدهن فيه قابلات ، والقابلات لا يفحصن الجثث بقاعة الوقى .

ولماذا كان الموت أسرع إلى الجوارى ، وهن في ريعان شبابهن ، حين يلقين أول أحمالهن ؟!

لأن وضعهن أطول من غيرهن . وبطول الوضع يكثر فحص الطبيب إياهن ، وإدخاله يديه بالسم في بطونهن .

وكان يحدث أن تلقى الجارية حملها قبل الأوان ، حتى في الشارع ، في طريقها إلى المستشفى . فهؤلاء كان الموت أبطأ إليهن . فلماذا ؟

لأن الأطباء لم يجسوهن أبدا .

كان « زامل » رجلا كامل الرجولة ، فلم يحجم من اتهام نفسه لما بان له جرمها . إنه القاتل وكفى .

* * *

اشتعلت هذه الحقيقة في صدره ، واضطرمت ، وتأججت . حتى العذر لم يلتمسه لنفسه ، فلم يقل إنه جرم الجاهل .

ولم يكن أكاديميا فقيها ، ولم يكن فيلسوفا ، فلم يشتغل من هذا السم بكنهه ، فنحا في أمره منحى عمليا ، فأخذ توا يطلب الوسيلة للخلاص منه .

ومر شهران أو دونهما . ويجىء مايو عام ١٨٤٧ ، فنرى « زامل » قد فرغ من فحص جثة بقاعة الوقى . ها هو ذا قائم يغسل يديه بالصابون ، ويغسلهما المرة بعد المرة ، ثم هاهو ذا يغوص بهما في وعاء ملىء بماء الكلور[1] ويغسلهما في هذا الماء ، ثم يغسلهما حتى يخرج الأمر إلى حد السخف . ويغسلهما حتى يكون مسهما زلجا . ويرفعهما أثناء الغسل إلى أنفه يتشممهما مرة بعد مرة . ثم أخيرا يهز رأسه راضيا ، فقد أقنع نفسه أن رائحة الجثة ذهبت من أصابعه فلم يعد لها أى أثر فيها . ويبتسم الطلبة من حوله خلسة ، ولعلهم كانوا يتبادلون النكات همسا . كانت ساعة من ساعات الدهر عظيمة ، تراءت خرقاء بلهاء سخيفة .

ثم هو يقوم على تلاميذه يرقب عن قرب أيديهم وهم يغسلونها ويدعكونها في ماء الكلور دعكا . إنهم الآن لا يبتسمون . إنهم لا يبتسمون وهو ناظر . لقد كان يبرق في عينيه بارق الجد ، كانت تشع من عينيه تلك الشاعة الأولى لكل إيمان جديد بمعتقد جديد . لهذا لم يكن يأذن في هذا الأمر بهوادة أو مزح .

ثم هم من بعد ذلك يذهبون إلى الأمهات في قسم الولادة الأول ، ويأخذون يفحصونهن صفا صفا . والأمهات على أسرتهن رواقد ، في وجوههن ألم الوضع ، وفي أعينهن خوف الحمى ، وحق لهن الخوف .

في إبريل مات من الأمهات الوالدات ثماني عشرة من كل مائة . وجاء مايو ، جاء آخره ، فبدأ « زامل » غسل الأيدى بالكلور ، وجاء يونيو ... فهبطت نسبة الوفيات

(١) الكلور غاز مطهر أصفر اللون أخضره . يذوب في الماء ، وهو واليود أخوان في أسرة واحدة .

إلى اثنتين في المائة ، أو فوقها بقليل . وجاء يوليو ...... فهبطت النسبة إلى واحدة في المائة ، فكانت بذلك أدنى من نسبة الوفيات في قسم الولادة الثاني ، في القسم الذي اشتهر بقلة سوئه . إذن فتلك البسمات الساخرات الكافرات كانت في غير موضعها . فالكلور ، موضوع السخر ، قد غسل فعلا أسباب الموت عن هذه الأيدي .

لو أن هذه التي أكتب أقصوصة ، لاختتمتها عند هذا الختام السعيد كما تختتم الأقاصيص . ولو أن «زامل» لم يكن له غير هؤلاء الأمهات مَشغلة ، لتيسّر له الأمر وهان ؛ فهؤلاء الزوجات الصغيرات الفقيرات ، وهؤلاء الفتيات الأمهات الأخريات المتروكات المخدوعات من غير الزوجات ، كل هؤلاء أصبحن اليوم يستطعن الذهاب إلى هذا القسم من المستشفى بوجوه مستبشرة ، فلم يعدن يسمعن عن هذا القسم أنه مذبحة يذبح فيها الأحياء أحياءً . ولم يكنّ ، هنّ وأزواجهن ، أو إذا لم يكن لهن أزواج فهنّ وآباؤهنّ وأمهاتهن ، لم يكنّ يعنَين أو يبالين كيف دفع «زامل» البلاء عنهن . ولو أنهن خُيّرن لصوّتن جميعاً لرفع مرتبته ، أو لترقيته إلى أستاذية .

فهذا كانت حاله لو لم يكن له مَشغلة غير الأمهات في المستشفى .

ولكن في الحياة الواقعية يوجد إلى جانب هؤلاء الأمهات أساتذة ، ويوجد ما يسمى هيئات العلم الرسمية ، العلم البحت ، العلم الأكاديمي . ويوجد كذلك رفوف ورفوف تملؤها صفوف وصفوف من كتب ضخمة هائلة تُعلّم الأطباء فن توليد النساء . ولم يكن في هذه الأوراق الكثيرة ، ولا بين ألفاظها المستعجمة الكبيرة ، من سبب لحمّى النفاس غير هذا الخرَف الذي يتحدث عن من جوهر جوى سماوي أرضي سبباً لهذه الحمّى . ولم يكن بين سطورها لسوء الطالع سطر يتحدث عن غسل الأيدي بالكلور .

والأمر من هذا أن «زامل» لم يكن بعدُ بلغ الثلاثين من عمره ، ولم يكن إلا مُحدَثاً ، فلم يكن له في العلم باع قديم . نعم إنه اكتشف لأول مرة في التاريخ كيف يتلصّص السم إلى الدم ، ومن أي طريق يدخل الصحيحَ من الأجسام . ولكن «زامل» كان شابا جامح الصبا ، عييّ اللسان ، خطّاءً في النحو ، جهولا لآداب اللياقة في العلم وبين العلماء . وعماء الأساتذة زبّاط بودابست .

قاتل «زامل» أسباب الموت فصرفها عن هؤلاء النسوة بتطهيره الأيدي بطريقة بسيطة معقولة ، بغسلها في محلول كلورور الجير[1] ، بغسلها في محلول مادة يشتريها المشترى من أي مخزن عقاقير ببضعة مليمات . وأثبت لأول مرة في تاريخ البشر إمكان ذلك . وقد كان الأمر هيناً لو كان هذا كل ما أتى . ولكنه بكشفه هذا أساء إلى العلماء الأجلاء . بكشفه هذا ، بإثباته هذا ، بهذه الجرامات القليلة من كلورور الجير قد ضيع محصول ثلاثة قرون من علم مكدّس في كتب الطب ضخمة تتحدث عن أسباب مجهولة ، تلاثين ، لحمى النفاس في لغة طنّانة رنّانة تملأ الأشداق وتضيق بها الحلوق . نعم ، إنه بطريقته البسيطة هذه ، التي نجّا بها كل هؤلاء الأمهات في شهري يونيو ويوليو ، أثبت أن كل هؤلاء الأساتذة الذين لا يغسلون أيديهم بالكلور ، هم وحدهم المسئولون عن هذه الضحايا ، ما كان منها وما يكون . وزاد الأمر حرجا أن «زامل» لم يكن يحسن التأتي في كلامه . ولا المداهنة فيه ، وإنما كان يقول القول صريحا جافا .

أفبعد هذا يستغرب المرء من «إكلين» ، وزملائه أهل العلم الرصين ، أن يختطُّوا الخطة لزامل يطلبون بها دمه .

(يتبع)

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

أحمد زكي

(١) مادة تستحضر بإمرار الكلور ، وهو غاز ، على الجير المطفأ ، فيمتصه . وهذه المادة كالكلور مطهرة ، وتسمى المسحوق القاصر أو المبيض لأنها تذهب بألوان الأشياء .

فى الهواء غير الطلق

دق جرس « التليفون » صباحا :

— آلو . . . .

— صباح الخير . . .

— أمدعوٌّ أنت لحفلة عرس فلان ؟

— نعم .

— وستذهب ؟

— نعم .

— إذن مرّ على فى الساعة الثامنة مساء لنذهب معا .

— مع السرور .

ووضعت السماعة ، وكان الذى يتكلم أستاذنا الفيلسوف الذى حدثتك عنه ، فأحسست شعوراً مزدوجا ، سروراً بألم ، ورضا بغضب .

لقد كنت أؤمل ليلة خفيفة فيها أكل شهى ، ومنظر بهى ، وغناء مطرب ، ونادر فكه ، وراحة من كتب ، وفرار من درس ؛ فإذا كل هذا الأمل يخيب من هذا الحديث القصير ، فقد توقعت درساً فى الفلسفة ، ومحاضرة فى الحكمة ، وإن كنت أجهل موضوع الدرس ومدار البحث ، فصاحبنا مهما تحدث لا يتحدث إلا فلسفة ، ومهما تلقف موضوعا فهو يعمق فيه إلى ما تحت الطبيعة ، أو يعلو فيه إلى ما فوق المادة ، وهو قادر على أن يفلسف كل شىء ، حتى أبعد المسائل عن الفلسفة ، ولكنه فى حديثه خفيف الروح ، حلو النفس ، جيد المحاضرة ، حسن التفنن ؛ وهذا ما خفف علىّ بلواى ، ثم له علىّ حق الأستاذية ، والأبوة العقلية والروحية ، فوطنت نفسى أن أضحى بلذة عينى وسمعى للذة عقلى ، وقدّرت أنى سأنتقل من مكتبة إلى مكتبة ، وسأكون فى فصل من مدرسة ، وإن كان المظهر حفلة عرس وجمال أنس ، وذهبت معه وأمرى إلى الله .

حضارة أم فى دار ، ليلها نهار ، معرضُ فتّان ، وجمال ألوان ، وغيد حسان ، وروائح الجنان ، وموسيقى تصدح بأعذب الألحان ، ووجوه فرحة ، ونفوس مرحة ، وفى كل ركن وكل حجرة منظر خلاب ، من مرح الشباب .

وإذا أنا وشيخى فى هذا الحفل العجب كأننا نشاز فى نَغَم ، أو تعويذة فى سلك درر .

قال شيخى : ما أنصفنا إذ أتينا ، ولو علمت ما جئت ، فأما إذا وجدتُ هذه المناظر فقدت نفسى ، ومع هذا فهنا فى رواية تمثل على مسرح نلهو بمنظرها ولا نشترك فى تمثيلها .

وانتحينا ناحية ، واسترحت واستراح الشيخ من المقابلات والتحيات والحفاوات ، وعادت إليه شهوته للكلام ورغبته فى التفلسف ، فقال :

— أنظر : كل هذا بعض ما تعمله الغريزة الجنسية ، إليها يرجع الفضل فى إعجابنا بالألوان الرائعة والأشكال الجذابة والأصوات الجميلة ، بل إليها يرجع فى نظرى كل فن جميل ، فالحفر والتصوير والموسيقى والشعر والنثر الفنى وأوزان الشعر وأنواع البديع ما كانت تكون لولا الغريزة الجنسية ، وكل ما فى اللغة والأدب من وصف الجمال والقبح ، والغزل والنسيب ، والهجر والوصال ، ولذة الحب وألمه مرده إليها ، بل وإليها يرجع عالم البيت وعلاقاته وشؤونه من زوجية وأبوة وبنوة ، وكل ما يتصل بذلك من ملاذ وآلام ، وما تلعب فيه العواطف من حب وبغض ، ورضا وغضب ، ورحمة وقسوة ، وما شئت من أشكال وألوان .

— وانظر الألاعيب المختلفة أمامك من مرح وضحك ، وحركة وسكون ، وهرج ومرج ، وأناقة فى ملبس ، وتأنق فى حديث ، وموسيقى جميلة ، سارة وحزينة ، وحلى

كل ذلك إلى عوامله الأولية ، أى الغريزة الجنسية .

— بل اخرج من عالمنا هذا الضيق إلى العالم الفسيح ، ومن هوائنا غير الطلق إلى الهواء الطلق تر غناء الطير من هديل الحمام ، إلى سجع القُمْرِىّ ، إلى شَقْشقة العندليب ، إلى قطقطة القطا ، إلى زقزقة العصفور ، إلى نقنقة الدجاجة ، إلى نحو ذلك ؛ إنما تبعث عليه الغريزة الجنسية ؛ وقل مثل هذا فى صهيل الفرس ، وحنين الناقة ، وخوار البقر .

بل خطا أستاذنا « دارون » ومدرسته أكثر من ذلك ، فزعموا أن جمال ألوان الطيور والحيوان إنما منشؤه الغريزة الجنسية والانتخاب الطبيعى ، فتحجيل الفرس وبياض غرته ، وزركشة الطاووس ، ونقش الفراشة ، والنكت البيض والصفر والسود والحمر فى الطائر والحيوان إنما هى تبرُّجٌ للغريزة الجنسية .

قلت : لم يبق إلا أن يقولوا كذلك فى الأزهار وألوانها ، وجمال الورد ، وزرقة البنفسج ، وبياض الياسمين ، وزركشة « البنفسيه » ؟

قال : نعم ، كذلك قالوا ، حتى لو عدمت الغريزة الجنسية لم يبق من الجمال فى العالم شىء .

قلت : وجمال الطبيعة ؟

قال : لم نكن ندرك لها جمالا لو فقدنا هذه الغريزة — ولم يصنع الإنسان أكثر من أنه أخذ ما يفعل النبات والحيوان فرقاه فى شعوره بالجمال وفى شعوره بالواجب ، وفى الحب الزوجى والأبوى ، وفى الغناء ، وفى الرقص ، وفى الزينة والتزين ؛ وقد فعل فى ترقية كل ذلك ما فعله فى الأكل والشرب واللبس من تعقيد وتجميل ، والأساس فى كل ذلك ما عنده وعند كل حى من الغريزة الجنسية .

قلت فى نفسى : سبحان ربى ، أفى مثل هذا الجو تثار مثل هذه المشاكل ؟ وأعمى من هذه اللاحة والوضاءة ، وأحرم من قراءة نسخة الحسن فى الوجوه لأقرأ نسخة من أرسطو ، ومن سمع الألحان لسمع « الكيان »[1] .

ودُعينا إلى سماط نظم فيه كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

قلت لشيخى : ما هذا ؟

قال : كأنه كتاب أنيق ، حسن الديباجة ، محكم الوضع ، متناسق التبويب ، متنوع الأساليب ، قد استوعب الأصول وأحاط بالفروع .

قلت : أرسطو ورب الكعبة .

وصمت الشيخ فلم يتابع حديثه ، وكأنه ضن بالفلسفة أن يسمعها غير أهلها ، أو تقال فى غير محلها ، فحمدت الله إذ استعضت من الأكلة فى فكرة بأكلة فى نظرة ، وحدث ما شئت من جمال وظرف ، وأناقة ولباقة ، وفكاهة حلوة على لقمة حلوة ، وهمسة خافتة تتبعها ضحكة عالية ؛ حتى انتهينا من أكلنا هنيئاً مريئاً ، وعدنا إلى مجلسنا فى ركننا ، وبالمتكلم رغبة فى أن يتكلم أكثر مما بالسامع أن يسمع ، ثم قال . إلى أين وصلنا ؟

قلت : إلى أن كل فن فى الإنسان ، وكل غناء للطيور والحيوان ، وكل رقشة للنبات سببها الغريزة الجنسية .

قال نعم وقد فكرت طويلا فى هذه الغريزة ، وما القصد منها ، فتبين لى أن الطبيعة منحتها بقصد « استمرار الحياة » ، وقد كانت الطبيعة سخية فمنحت منها أكثر من الحاجة إليها ، فرصدت « للاحتياطى » منها أكثر مما يلزم ، ومنحت الإنسان من الحب أكثر مما يقتضيه بقاء النوع واستمرار الحياة ، فصرف جانباً منه فى هذا الغرض الأساسى ، وفاض ما عنده فصرفه فى اللعب بالعواطف ، وممارسة الفن ، وأنفق جزءاً منه فى تربية البنين والبنات ليكمل غرضه فى « استمرار الحياة » ، ويجعله استمرار حياة

---

(١) سمع الكيان : اسم كتاب فى الفلسفة اليونانية نقل إلى العربية .

تأخذ في الرقي والتقدم ، ولما كان حبه أكثر من الحيوان كانت تربيته لنوعه أرقى وأنفع ، فاستطاع أن يرقى ملكاته ، ويرقى مواهبه على مدى الزمان حتى لتشعر بالفرق الكبير بين الإنسان الحاضر والإنسان الماضي ، ولا تشعر بفرق كبير بين القط الحاضر والقط الماضي ، وبذلك امتاز الإنسان بأن ليس الغاية من غريزته الجنسية حفظ نوعه واستمرار حياته فقط ، بل غايته أيضاً ترقية النوع إلى أن يصل إلى درجة الإنسان الكامل — وكل القوانين التي شرعت للزواج والطلاق وحقوق الأسرة ، وعقوبة الزنا ، وما إليه إنما كان الغرض منها حماية هذه الغريزة الجنسية حتى تؤدي غرضها على الوجه الأكمل ، واختلاف هذه الشرائع رقياً وانحطاطاً اختلاف في التوفيق في فهم الغرض الأساسي ووسائله ، أو عدم التوفيق — وقد وجد في الطبيعة من فسدت منه هذه الغريزة الجنسية كما يوجد من فسدت غرائزه الأخرى ، فهناك المعتدل في شهوة الأكل ، ولكن بجانبه النهم ومن لا يشتهي الطعام ، كذلك هنا ، فمن الناس أبو العلاء ، وأبو نواس ، وصريع الغواني ، والإغراء في هذا الباب أقوى ، والحيل فيه أوسع ، لهذا التفت التجار إلى أن يستغلوا هذه الغريزة ويستهووها بشتى الوسائل حتى السينما والتمثيل والصحف والمجلات ، والتفت المشرعون لصد هذا التيار ، ووقف الغريزة عند حدها المشروع ، فكان صراع أين منه الصراع على الأكل والشرب والملبس .

وبينما هذه الناحية من الغريزة الجنسية تشغل رجال الدين والأخلاق والاجتماع إذ كانت هناك ناحية أخرى منها تشغل بعض علماء النفس ، فقد لفت نظرهم تعدد أنواع النساء والرجال ، ولعب الغريزة الجنسية بهم ألعاباً مختلفة ، لماذا يحب هذا الرجل هذه المرأة دون تلك ؟ إن في مجال هذه الألعاب مناظر نفسية مختلفة : هذه امرأة تثير في الرجل خياله ومشاعره وأحلامه ، تجذبه وتضطره أن يتحمل في سبيلها الآلام ، ويتخطى العقبات ، ولها سر مجهول يجعل حبه لا يفنى ولا ينقص مهما تغيرت الظروف .

وهناك امرأة أقل منها شأناً تثير هذا الحب والجاذبية ولكن في إمكان الرجل أن يتغلب عليه بسلطان عقله ، لأن ما تثيره من حب هادئ غير عنيف .

وهناك امرأة تثير في الرجل إعجابه لا من طريق شخصيتها ، بل من طريق ملابساتها ، كذكائها وذوقها ، فالرجل ينظر إليها نظرته إلى الصديق الوائم ، والأخ المنسجم .

وهناك امرأة تلهب شعلة كشعلة القش ما تشتعل حتى تخمد ، وإذا خمدت فالكراهية والاستثقال والنفور ، إلى غير ذلك من أشكال وألوان .

وشأن الرجال في نظر النساء شأن النساء في نظر الرجال ، بل قد تكون امرأة في نظر رجل من الصنف الأول ، وفي نظر آخر من الصنف الرابع وهكذا ، ولذلك يخرج من عشر رجال وعشرة نساء ، أشكال عدة وعلاقات مختلفة — هل درست التوافيق والتباديل في الحساب ؟

قلت : نعم .

قال : هو هذا ، ولبعض علماء النفس في ذلك بحوث تستخرج العجب ، سأقص عليك طرفاً منها في فرصة أخرى ، وأزيد الآن على ما قلته أن كثيراً من أسباب السعادة الزوجية أو الشقاء يرجع إلى هذا السر الخفي ، وبدأ الناس في الانصراف فانصرفنا ، وركبنا عربتنا ، وفي الطريق ظل يتدفق .

أرأيت كيف أن الطبيعة وضعت فينا هذه الغريزة ، وسخت في منحها ، فلعبت بنا هذه الألاعيب في الفن والغزل ، وفي الحياة ومتاعبها ، لقد أخفت عن الإنسان سرها ، وحجبت عنه فهمها ، وسخرته في خدمتها . وهو يظن أنه حر طليق يلعب ألاعيبه باختياره وإرادته ، وهو عبد لغريزته ، لقد ضحكت منه الطبيعة وهو — من غفلته

صور قضائية :

من خيانات الخدم

كانت جلسة اليوم عجيبة حقا !

دخلت غرفتي في الصباح مبكراً فوجدت ملفات القضايا التي ستنظر اليوم موضوعة على مكتبي . فجلست وأخذت أتصفحها واحدة بعد الأخرى ريثما يحل موعد افتتاح الجلسة . وكانت دهشتي تزداد كلما فرغت من قضية وتناولت التي بعدها . . . تطابقٌ في الوقائع عجيب ، كأنما خرجت هذه الملفات من أحد محلات (الفوتوماتون) ولم تخرج من أقسام مدينة القاهرة الأربعة عشر ! . . فكيف اتفق لهذه القضايا أن تجتمع كلها في جلسة واحدة ؟ . .

كانت الجلسة حوالي خمسين قضية وكانت ثلاثون منها أو تزيد قليلا متشابهة الموضوع . ولكنها متنوعة في تفصيلاتها ، كأنما أعدتها يد روائي بارع يرأ بعمله أن تفسده المشاهد المتكررة .

وإني أود أن أورد هنا نماذج من الديباجات التي افتتحت بها هذه المحاضر لعل في إيرادها ما يفتح العيون التي ما تزال تؤثر الإغماض . ولعل فيها ما يثير بعض الشك في نفوس من لم يؤمنوا بعد بأن « سوء الظن عصمة » . . . .

***

١ — حضرت للقسم ساعة تاريخه[١] السيدة — وبلغت بأنها بعد خروج أولادها للمدرسة وانصراف زوجها إلى محل عمله في هذا الصباح خرجت لزيارة جارتها . وتركت خادمها الصغير الذي يبلغ من العمر ١١ سنة في المنزل ليقوم بعمله فيه كالمعتاد . وغابت نحو ساعة من الزمان .

(١) قد يجد القارئ فيما سنثبته هنا بعض الألفاظ غير المألوفة أو غير الصحيحة فليسمح لنا بها محافظة على أن تجيء بصورة طبق الأصل .

يعتقد أنه هو الذي يضحك منها قلت : أما وقد كشفت لعبتها ، فهل ترى رأي أبي العلاء .

تواصل حبل النسل ما بين آدم
وبيني ولم يوصَل بلامِيَ باءُ
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد
بعدوى فما أعدتني الثُّؤَباءُ

قال : لا ، فرأي أبي العلاء قلب للوضع ، وتحريف للجنس ، والإنسان الكامل ليس من يحارب طبيعته ، بل من يرق بطبيعته ، وأرق أنواع الحب حب الوجود ، وحب الله ، لم ينشأ إلا مما أفاضته علينا الطبيعة من حب الجنس .

لقد كان أبو العلاء وأمثاله يرون أن الغريزة الجنسية عائق عن تحرر النفس ، وأنها مانع من موانع رقيها وسموها وأن كمال الإنسان في التخلص منها وأماتتها بكبتها ، وأنها في الإنسان ضرورة محزنة ، وعلى هذا الأساس تأسست نزعة الرهبانية ، ونظم الأديرة ، وخلوات الصوفية ، ولكني أرى غير هذا الرأي ، نعم إن الغريزة الجنسية كم حطمت من أفراد ، بل كم حطمت من أمم ، وجعلت حياتهم ليست إلا حياة بهيمية مزوقة ، وجعلتهم يسخرون كل ملكاتهم الأخرى — من ذكاء وعاطفة وقدرة — لخدمة هذه الغريزة ، ولكني أرى أن من الممكن أن يتسامى الإنسان من طريق وجودها لا من طريق إعدامها ، ومن الممكن تحويلها من مصدر شر للإنسان إلى مصدر خير ، وخير للإنسان أن يمنح نعمة الحب فيعدلها ويلطفها ، ويستخدم ما ينبعث منها من عواطف لخير نفسه وخير إنسانيته ، من أن يحرم الحب ، ولو عاش بعقله .

ومسألة أخرى عظيمة الأهمية في هذا الموضوع وهي أن الإنسان . . .

وهنا وقفت العربة أمام بيت الأستاذ ، فودعته وانصرفت ، ونظرت ، فإذا أنا قد عدت من حفلة العرس بخفي حنين ، ومن الفلسفة بملء اليدين ، فخاسر أنا أم رابح ؟

أحمد أمين

ولما رجعت لم تجد الخادم فاشتبهت فى الأمر . وتفقدت نقودها التى كانت فى « الدولاب » فلم تجدها . وهى تتهم الخادم المذكور بسرقتها — فرأينا سؤالها بالآتى :

س — من أين أحضرتم هذا الغلام ؟

جـ — أحضرته لنا خادم كانت عند جيراننا .

س — وكم سنة له فى خدمتكم ؟

جـ — له حوالى ثلاث سنوات .

س — هل لم تلاحظوا شيئاً على سلوكه قبل اليوم ؟

جـ — بالعكس . كان أميناً جداً . واعتدنا أن نترك له ملابسنا ونقودنا . ولم نلاحظ عليه شيئاً .

س — هل تعرفون مكانه الآن ؟

جـ — لا ... ... الخ ... الخ .

***

٢ — حضر للقسم العسكرى — « مراسلة » حضرة الصاغ — بالجيش المصرى وعرف بأنه يريد التبليغ عن حادثة سرقة وقعت فى المنزل . فسألناه بالآتى :

س — كيف حصلت السرقة التى تريد التبليغ عنها ؟

جـ — كان يوجد عندنا فى المنزل خادم صغير حضر من الريف منذ شهرين . وفى هذا الصباح سلمه حضرة الصاغ ورقة من ذات الثلاثة قروش لشراء علبة سجاير له . فذهب الخادم ولم يعد . وكان منذ ثلاثة أيام ذهب إلى السوق ومعه عشرون قرشا لشراء بعض لوازم المنزل فغاب ساعتين ثم عاد وادعى أن المبلغ وقع منه . فصدقه أهل المنزل لأنه ولد بسيط ولم نشك فى صحة أقواله . فلما غاب اليوم مررت بنفسى على البقال الذى نشترى منه السجاير عادة ، فعلمت بأن الغلام حضر عنده فى الصباح فعلا ، وكان الجنيه فى يده . ولكنه لم يشتر سجاير . وإنما اشترى مقدارا من السكر والصابون والبن . واستعار من المحل « مقطفاً » صغيراً ليضع فيه هذه الأشياء على أن يرده بعد ذلك . ولكنه لم يحضر المنزل ولم يرجع للبقال .

س — وهل تعرفون مكانه الذى ذهب إليه ؟

جـ — هو كان دائما يفكر فى أهله ويرغب فى الرجوع إلى بلده . ويظهر أنه انتهز فرصة وجود هذا المبلغ معه اليوم . واشترى هذه « الزيارة » لكى لا يعود إلى والديه ويده فارغة ... ... الخ ... الخ .

***

٣ — فى ساعة تاريخه حضر للقسم ا . ع . بك « من أرباب » المعاشات وبلغ بأنه اعتاد أن يحفظ نقوده فى درج مكتبه . ويحتفظ بالمفتاح فى جيبه دائما . ولذلك لم يكن يتحرز من إخراج ما يحتاج إليه من هذه النقود أمام خادمه الصغير الدعو — وهو من ناحية — ويبلغ من العمر عشر سنوات . اليوم استيقظ من النوم صباحا فلم يجد الخادم ووجد المفتاح فى درج المكتب ولم يجد النقود . وكانت عبارة عن واحد وثمانين جنيها وكسور منها خمس ورقات من « فئة » العشرة الجنيهات . وأربع من « فئة » الخمسة والأوراق الباقية من ذات الثلاثة قروش .

ولا يعرف نمرها وليست عليها توقيعات خاصة ولا علامات مميزة . وقد سألناه بالآتى :

س — ما اسم الخادم الذى أحضرت من عنده هذا الخادم ؟

جـ — هو حضر لنا عن طريق البواب . وكنت قد أوصيته أن يبحث لنا عن « ربرى » صغير لنقوم بتربيته وتعويده على الخدمة عندنا من صغره .

س — وما اسم هذا البواب ؟

جـ — والله لا أذكر اسمه . وقد خرج من خدمتنا منذ ستة شهور .

س — هل يمكنكم الإرشاد عن مكان هذا البواب أو الخادم ؟

ج — متأسف جداً . وأظن هذا واجب رجال البوليس !؟ . . . . الخ . . الخ .

* * *

٤ — حضرت للقسم فى تاريخه الست — حرم المرحوم — ومعها خادمها الصغير الدعو — وبلغت بأن أولادها الذين فى المدارس ، أخذوا منذ شهر يشتكون من أن كتبهم المدرسية تضيع منهم ، فكانت تنهرهم وتوبخهم وتنسب إليهم الإهمال ، ولما كانوا يؤكدون لها أن هذه الكتب ضاعت من المنزل كانت تنسب ذلك إلى أنهم يريدون التخلص من تهمة إهمالهم ، ولكنها اليوم بحثت عن علبة الكبريت فى المطبخ فلم تجدها . ووجدت سترة هذا الخادم معلقة على مسمار بالحائط . فخطر لها أن تبحث فيها . فلم تجدها أيضاً . ولكنها وجدت مقداراً من « الملبس » . فسألته عن مصدره ، فأجاب أجوبة مضطربة . ثم اعترف لها أخيراً أنه هو الذى كان يسرق كتب سادته الصغار . ويبيعها فى مكتبة مجاورة ، ويشترى بثمنها ما تهفو إليه نفسه من أصناف الحلوى . فرأينا سؤالها بالآتى :

س — هل لم يسرق هذا الخادم شيئاً آخر خلاف الكتب ؟

ج — أنا لم أكن أستأمنه على شىء أبداً لكثرة ما سمعت من حوادث سرقات الخدم . فلم أكن أسمح له بمعرفة المكان الذى أحتفظ فيه بنقودى أو مصاغى . ولا بالمكان الذى أضع فيه مفاتيحى . وحتى المحلات التى أتعامل معها مثل البقال والجزار وغيرهما كنت أتعامل معها بواسطة دفاتر أسلمها لهذا الخادم ، فتدون فيها مشترياتنا وأثمانها دون أن يدخل فى كف الخادم قرش واحد . وذلك حتى لا يتمكن من سرقتنا . . . . ولكن . . . الخ . . الخ .

* * *

٥ — حضرت للقسم فى تاريخه مدام — وبلغت بأنها ذهبت صباح اليوم إلى المطبخ وتركت خادمها الصغيرة فى غرفة النوم لتنظيفها كالمعتاد ، ثم سمعت بائع البرتقال فى الطريق ، فنادت على خادمها لتستوقفه ، وطال نداؤها لها فلما لم تجبها ذهبت إليها فلم تجدها ، ووجدت درج (الشيفونير) الذى تحتفظ بمصوغاتها فيه مكسوراً . ولم تجد شيئاً من هذه المصوغات ، وكانت قيمتها حوالى ١٥٠ جنيهاً مائة وخمسين جنيهاً . فسألناها بالآتى .

س — ما اسم هذه الخادم وما أوصافها ؟

ج — اسمها — وهى فى الثالثة عشرة من عمرها نامية الجسم بيضاء اللون سليمة العينين . . الخ . . الخ .

س — هل كانت عندها رخصة ؟

ج — إن التى أحضرتها لنا هى الدلالة . وقد اعتادت هذه الدلالة أن تحضر إلينا كل يوم جمعة ، وسأسألها عنها عند حضورها .

س — وهل كانت تقبض أجرتها بنفسها أم « كيف » ؟

ج — هذه البنت يتيمة ، وكنت أحتفظ لها بمرتبها عندى ، ولكنها منذ ثلاثة شهور اشترت بمتجمد أجرتها مصاغاً أودعته عند امرأة تبيع الحلوى بطرف الشارع ، وكان لهذه المرأة ولد سمعت أنه يرغب الزواج منها ، وقد اعتادت فى المدة الأخيرة أن تقبض مرتبها وتسلمه لهذه المرأة — وقد قصدت إليها عقب اكتشاف السرقة وسألتها من الخادم ، فأنكرت صلتها بها . واستنكرت توجهى إليها بالسؤال عنها . ولم أستطع التفاهم معها . فحضرت إلى القسم لضبط الخادم ورد المصوغات وتفتيش هذه المرأة ، ووضعها فى الحبس حتى تعترف بالحقيقة . . . . !؟ الخ .

* * *

٦ — حضر الآن الخواجا — ومعه مدامة الخواجا — وبلغا بأنهما استيقظا أمس حوالى الساعة الواحدة والنصف صباحاً على صوت انفجار شديد فى مكان قريب من محل سكنهما ، ونظراً لأنهما لم يسمعا « صفارة الإنذار » فإنهما أرادا أن يستأنفا نومهما ، ولكنهما ما لبثا أن سمعا صوت

« الصفارة » وتتابع أصوات الانفجار ، فقاما فى حالة انزعاج قاصدين إلى المخبأ . وكانت معهما ضيفة تقيم عندهما منذ ليلتين هى أخت السيدة المبلغة ومعها خادمها الصغيرة المدعوة — وكانت السيدة المبلغة تحتفظ بكافة نقودها ومجوهراتها فى حقيبة تضعها تحت سريرها . وكانت كلما حدثت غارة أخذت حقيبتها معها وقصدت إلى المخبأ . وفى نفس الليلة التى حضرت فيها أختها وخادمها كانت حصلت غارة أخرى . وشاهدتها الخادم وهى تأخذ الحقيبة من تحت السرير كما شاهدتها وهى تردها عقب انطلاق « صفارة الأمان » ، ولكن نظراً للاضطراب الذى حصل فى إطلاق الصفارة هذه الليلة ، فإن السيدة لم تأخذ الحقيبة ، وفى الصباح بحثت عنها فلم تجدها ، وهى تتهم الخادم بسرقتها . فرأينا سؤال النائم بالآتى :

س — كيف تمكنت الخادم من السرقة إذا كنتم قصدتم جميعاً إلى المخبأ ؟

ج — الناس الموجودون فى المخبأ يترددون كثيراً على « دورة المياه » وهذه الخادم كانت تصاب بنوبة خوف شديد عند سماع الصفارة ، ولذلك فإنها كانت أكثر الجميع خروجاً من المخبأ .

س — ومتى اكتشفت السرقة ؟

ج — هذا الصباح .

س — وأين هذه الخادم الآن ؟

ج — بعد الغارة عدنا جميعاً إلى أماكننا . واستأنفنا نومنا وكانت الخادم معنا ، ولكنا لما استيقظنا فى الصباح لم نجدها فاتجه نظرى فى الحال إلى الحقيبة . وبحثت عنها فلم أجدها أيضاً .

س — هل يمكن التأكد بأن السرقة حصلت وقت الغارة .

ج — يجوز أن تكون حصلت وقت الغارة . ولكن من الجائز أيضاً أن تكون حصلت بعدها . وعلى العموم نحن لم ننتبه للسرقة إلا بعد طلوع النهار .

س — وأين أختك التى كانت عندها هذه الخادم ؟

ج — أختى كانت حضرت من بنها عندى للعلاج لأن عندها ضعف فى القلب ، فلما عرفت ما حصل من خادمها ، حصلت لها نوبة شديدة نقلت بسببها إلى المستشفى وهى الآن هناك ...

* * *

هذه ستة نماذج من مجموعة القضايا التى طالعتها هذا الصباح . وهى صور مختلفة لأصل واحد ففى كل حالة منها خادم صغير كان موضع الثقة ومحل الاطمئنان . وفى كل حالة منها أيضاً كانت تصاب الأسرة على يدى هذا الخادم الذى كان محل ثقتها واطمئنانها — « ومن مأمنه — دائماً — يؤتى الحذر » !

ونحن نكتفى اليوم بهذه النماذج حتى لا يَمَلُّ القارئ هذا الحديث وموعدنا معه العدد القادم إن شاء الله حيث نأتى على بقيته .

ع . ج .

من منبر الشرق :

المصحف

لا تستغرب أنى أجمل اليـــوم كلمة « المصحف » موضوع حديثى إليك ، وليس قصدى مبحثا لغويا بحتا وتنقيبا عن اشتقاق هذه الـكلمة ، بل أريد أن أطلعك على معان واستعمالات غريبة تعرّض لها هذا اللفظ أثناء تاريخه الإسلامى ، فضلا عما أورده عليك فى هذا الصدد من نصوص جاحظية غير معروفة ، إذا كان لا بد أن نتكلم عن الجاحظ من حين إلى حين .

اتفق المستشرقون المتخصصون فى هـــذا الشأن على أن كلمة « المُصْحَف » أو « المِصحف » ، وربما أيضا « المَصْحَف » على اختلاف رواياتها ليست أصيلة فى اللغة العربية ـ مع ورودها فى إحدى قصائد امرئ القيس[1] ـ بل هى معرّبة من الـكلمة الحبشـية Mashaf دخلت العربية مع اصطلاحات دينيه أخرى « كالحواريين » ، و « المنافق » ، و « المشكاة » ، وما إليها . ودليلهم على هذا أنه لا يوجد فى العربيه فعل ثلاثى من مادة « صحف » يمكن اشتقاق « المصحف » و « الصُّحُف » منه ، بينما نجد اللغة الحبشية تستعمل الفعل « صحف » بمعنى « كتب » والاسم « المصحف » للـكتاب . فإن كان هذا الرأى صحيحا — وأحسب أن بعض القدماء سبقوا المستشرقين إلى إثباته — فلعلنا نرى هنـــا من وراء الستار رسوم حقيقةٍ مّا حول تاريخ فن الـكتابة فى جزيرة العرب القـديمة . فإنه من المعروف أن أكثر الاصطلاحات الـكتابية الأخرى — مثل ألفـاظ الـكتاب والسِّفر والنسخة والزبور ، وكذلك القرطاس والقلم[1] ، فضلاً عن التجليد والتفسير — استعارها العرب من جيرانهم الآراميين ثم السريانيين فى العراق . فـكأن تقابل الـكلمة الحبشية الجنوبية « المصحف » بأخواتها الآرامية الشمالية ، رمزٌ للحضارتين اللتين تبادلتا منذ القدم التأثير فى جزيرة العرب وتثقيفها . ذلك التقابل الذى عنده لنا أيضاً تاريخ الخطوط المختلفة التى كانت متداولة بين العرب على مختلف العصور ، فإنك تعرف أن الخط الحميرى أو المسند كان مستعملاً لغاية القرن الخامس بعد الميلاد على الأقل فى أقصى شمال جزيرة العرب وحتى فى نواحى الشـام ، عندما قام بعض العرب فى شمال الجزيرة بمحاولة تطبيق الخط النبطى الآرامى على لغتهم ، فاستعدّ النهج الـكتابى الذى نشأ فى الشام أو العراق للسيطرة على قلب الجزيرة ، وإخراج النهج الجنوبى منها ...

على أنى لا أثق بالاشتقاقات أكثر مما ينبغى ، فلن أغترّ بالألفاظ دون المعانى . بل من المهم على رأيى أن كلمة المصحف فى جانب معناها العادى الشائع « الذى هو الجمع للصحف المـكتوبة بين الدَّفّتين » ومعناها الخاص بمصحف القرآن ، استعملت فى القرن الثانى والثالث للهجرة اصطلاحا للتعبير عن معنى دقيق .

لقد انتبهت إلى أن الجاحظ يقسم كتابه « الحيوان » سبعة أجزاء يسمى كل جزء منها « مصحفاً » . مثال ذلك ما يقوله عند إنجاز الجزء الثالث « تم المصحف الثالث من كتاب الحيوان ويليه المصحف الرابع » وكذلك « تم هذا المصحف الرابع من كتاب الحيوان ويليه إن شاء الله المصحف الخامس » . كما يقول فى ثنايا كتابه بعد أن أحصى الموضوعات المتنوعة التى تذكر فيه[2] ، « لأنه وإن

(١) أتت حجج بعدى عليها فأصبحت
كخط زبور فى مصاحف رهبان

(١) ويرجع الاثنان الأخيران فى آخر أمرهما إلى اليونانية .
(٢) ج ١ ص ٤٦ من طبعة الساسى .

كان كتابا واحداً ، فإنه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها قام[1] على حدة » .

بعيد من الجاحظ أن يريد باستعماله لفظ المصحف معارضة القرآن أو أن يدعى أن أجزاء كتابه تقابله فى القيمة إذن فلا بد أن تلتمس علة أخرى لهذا الاستعمال الغريب .

لا يتسع لى المكان هنا لأن أدلك على أن بين المقاصد الكثيرة التى يرمى إليها الجاحظ فى تأليفه لكتاب الحيوان هناك مقصد واحد تمثّل فى ذهنه بوضوح ، وإن اختلف التعبير عنه قوةً أو ضعفاً من حين إلى آخر ، وهو أن يكون كتابه المعارضة العربية والتحدّى العربى أيضاً لكتاب الحيوان لأرسطو ، وذلك بأنه ينتصر للعرب ويدافع عنهم ويحتج بأنهم ليسوا برآء من العلم كما يدعى ذلك أنصار العلم اليونانى فى عصره ، بل للعرب علمهم وعلاقاتهم بحياة الحيوان ولعل معارفهم أغنى وأوسع وأقرب إلى الطبيعة والواقع من المعارف المدرسية التى حشا أرسطو كتابه بها .

وإذا بنا نجد كلمة « المصحف » تستعمل فى البيئات العلمية فى عصر الجاحظ ، لا سيا فى بعض الكتب المترجمة عن اليونانية للدلالة على ما يطلق عليه عادة لفظ مقالة أو باب أو ميمَر أو غير ذلك . مثال ذلك ما نقرؤه فى نسخة من كتاب الفلاحة لأناطوليوس (Anatolios) الذى ترجمه « من الرومى إلى العربى ، أوسطاث (Eustathios) الراهب ليحيى بن خالد بن برمك ، فى سنة تسع وسبعين ومائة » . قال المؤلف فى المقدمة « وقد صنفت لك ما وضع (العلماء المتقدمون) صنفاً صنفاً وجمعته كما جمعوا اثنى عشر مصحفاً ، وفرقت ما بين كل مصحف وصاحبه ، لئلا يشكل عليك » ؛ ثم يسمى المترجم ما يتلو من مقالات الكتاب المصحفَ الأولَ والمصحفَ الثانى إلى آخره . وكذلك شاع هذا الاصطلاح فى كثير من كتب الكيميا التى ترجمت منذ القرن الثانى للهجرة ، فأننا نلقى بين عناوينها « المصاحف » المنسوبة إلى هرقل الملك وإلى بليناس فيلسوف طوانه (Apollonius de Tyane) و « مصحف الحياة » لأرس النفس" و « مصحف الجماعة » لأرشلاوس الفيثاغورى وهذا الأخير هو الكتاب الذى اشتهر فى ترجمته اللاتينية باسم (Turba Philosophorum) فى القرون الوسطى .

فظاهر أن كلمة المصحف تستعمل هنا لتعريب الكلمة اليونانية Biblion إذ كان كل كتاب أو Biblos من الكتب اليونانية القديمة انقسم إلى عدة أسفار أو مقالات أو مصاحف أو Biblia . ونستنتج من هذا أن الجاحظ لم يسم كتابه بنفس عنوان كتاب أرسطو فحسب ، وإنما أشار أيضا بتسميته لأجزائه مصاحف — وهى مأخوذة من اصطلاح المترجمين القدماء — إلى أن كتابه معارضة عربية لكتاب الفيلسوف اليونانى .

ولكن لا نحسبنّ أن هذا التفسير الحاسم يستوعب الموضوع من جميع نواحيه وأن « الأحدوثة قد خلصت » كما يقولون . فإن للمسألة جوانب أخرى ليست أقل جاحظية إن صح التعبير .

فى يدى الآن ملازم كتاب للجاحظ هو من أروع ما كتبه هذا الرجل ، أعنى به « كتاب الجِدّ والهزل » الذى أقوم بنشره أنا والأستاذ محمد طه الحاجرى وبنشر غيره من رسائل الجاحظ المجهولة التى ستظهر عن قريب بفضل ما تبذله مطبعة لجنة التأليف من جهود . وفى ثنايا هذا الكتاب يتعرض الجاحظ لما بين المصحف والكاغد من فروق مبيّناً فى أسلوبه الساخر أن لفظ المصحف يقع خاصة على الكتابة فى الجلود بينما يقع لفظ الكاغد على الورق الذى كانت قد اختُرعت صناعته فى بلاد الصين

(١) ترجح أن هذا أو ما يشبهه ما قصد الجاحظ إليه ، أما النص المطبوع ، وكذلك طبعة عبد السلام محمد هارون الجديدة ، فنقرأ فيها : « وكل مصحف أم على حدة » .

ووصل انتشاره غرباً البلاد الإسلامية في عهده ، فأدى انتشار صناعته إلى ثورة لا مثيل لها في ميدان الكتابة وفي تيسير طُرُقها . وهو ينسب هناك إلى خصمة التخيل المتمسك بالقديم الحثّ على الكتابة في الجلود أو المصاحف والإعراض عن الكاغد الصيني أو الخراساني أو القُطني :

«فلما أخذت بقولك ، وصرت إلى مشورتك ، وأكثرت حمد الله على إفادتك من العلم ، وحفظ عنايتك من النقل ، وتقدمتُ في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصناع ، وجعلتها مصحفاً مصحفاً وأجلتها صنفاً صنفاً ، ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ، ولا أنظر فيها وأنا منتصب استظهارا على تعب البدن ، إذا كل واحد من هذه المصاحف قد أعجز يدى بثقل جرمه ، وضيّق صدرى بجفاء حجمه ... وإذا أنا إن نظرت فيها وأنا جالس سَدَرت عينى وتقوّس ظهرى واجتمع الدم في وجهى وأكرهت بصرى على غير جهته ...

فإن بدا لى أن يقابل عينى به العبدُ أو تواجهنى به الأمَة كلفتُ أخرق الناس كفًّا ، وأقلهم وقفا ، وأكثرهم التفاتا ، وأحضرهم نعاساً ، وأقلهم على حال واحدة ثباتاً ... قل لى لِمَ زينت النسْخَ في الجلود ؟ ولِمَ حثثتنى على الأدَم ؟ وأنت تعلم أن الجلود جافية الحجم ثقيلة الوزن إن أصابها الماء بطلت وإن كان يوم لثق استرخت ... ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير ، ولو أراد مثل ذلك من الكاغد القطني لكفاه ما يحمل مع زاده ... إذن فأنت سبب الضرة في اتخاذ الجلود واستبدالها بالكاغد وأنت سبب البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في الحمل إلى المصاحف التى تثقل الأيدى وتحطم الصدور وتقوّس الظهور وتعمى الأبصار . وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذى جمع القرآن دون كل مجلد وألا يروموا جمع شيء من أبواب العلم بين دفتين فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم » .

وإن سألت الآن عن الرابطة بين الاستعمالين لكلمة مصحف اللتين بدلنا الجاحظ عليهما فنظن أنها ليست بعيدة . نرى من القطعة التى أوردناها من « كتاب الجد والهزل» أن الجاحظ — وهو غزير التأليف والإملاء — لا يرضى لا عن الكتابة على الجلود فقط التى يبين آفاتها بما لم يبينه غيره ، بل لا يرضى أيضا عن استعمال لفظ المصحف في غير محله ويقترح إطلاقه على القرآن وحده . وإن سمى مع هذا أجزاء كتابه الحيوان مصاحف فلن يقول قارئ القطعة المشار إليها إن كتاب الحيوان كان في الأصل مكتوبا على الجلود ؛ بل تحدّيه ومعارضته لليونانيات ومترجميها هو الذى جعله يختار هناك كلمة المصحف التى يكرهها والتى يستعملها هؤلاء القوم للتعبير عن أقسام كتبهم . ومن يعرف؟ لعل موقفه الحاسم في هذا الشأن هو الذى اضطرني في آخر الأمر إلى أن ترك مدرسة المترجمين الجُدُد في استعمال كلمة المصحف بمعنى المقالة أو الميمر حتى أصبح هذا المعنى الغريب منسيًّا أو كاد . فبينما ورد استعمالها في ترجمة كتاب الحيوان لأرسطو التى قام بها يحيى بن بطريق في عهد المأمون فإنا لا نجدها في أية ترجمة من التى تولاها حنين بن إسحاق وتلاميذه فيما بعد .

باول كراوس

نـــداء القلب

هو فيلم الربيع والشعر والحب ، وهو فيلم المشكلة الاجتماعية — الوقف — الذى يعرض بدار سينما كوزمو ، لكوكبه مميزة خصوصى بطلة « الوردة البيضاء » ، وإبراهيم حمـــودة بطل « عايدة » و « شهرزاد » ، ومخرجه الفنان العالمى عمر جميعى مخرج « كلينوف » و « يوم القيامة » .

سيرة صلاح الدين :

— ٥ —

ســــــلطان

[وصل صلاح الدين إلى مصر ، واشترك مع عمه شيركوه في رد الفرنج إلى القدس ، ثم اتفقا معا على قتل شاور فقتلاه وتولى شيركوه الوزارة المصرية مكانه ، ثم مات هذا بعد شهرين من توليته ، وسلمت الوزارة لصلاح الدين ، ففاز بها بعد مفاوضات طويلة قام بها الفقيه عيسى الهكارى . ومضى صلاح الدين ينفذ في مصر سياسة الرجل الرزين ، فأفلح فيها بمعونة القاضى الفاضل] .

أيها الغائبون عنى وإن كنـ ـتم لقلبى بذكركم جيرانا
إننى مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا

منذ غاب صلاح الدين عن أهله وإخوته في دمشق ، وهو لا ينفك يذكرهم ، ويجد في نفسه حنيناً إليهم ، وشوقاً إلى رؤيتهم ، وكأن الأحداث التى مرت به ، وكأن الظفر الذى جرى على يديه ، وكأن الحرب الطاحنة التى نجا من شرها ، ولم يزل بعد مهدداً بشرها ، كأن هذه الأمور كلها لم تنسه دمشق والشام ، ولا صرفته عن التفكير في الأهل والإخوان ، فبعث إليهم يستوحشهم بطائفة كثيرة من الكتب التى دلت على لطف حسه ، ورقة قلبه وسعة نفسه من هذه الناحية ، وكان في أكثر هذه الكتب التى كتبها يستعين بالشعر ، فأسعفه الشعر بكل ما كان يريد .

وفى أحد هذه الكتب — بعث صلاح الدين إلى مولاه نور الدين يطلب إليه في رفق ولين أن يرسل إليه أباه وإخوته ، يشد أزر نفسه بهم ، ويعتمد في أموره عليهم ، فلعل الأحداث أن تتغير ، ولعل الأفعى التى ضربت على رأسها منذ حين أن تفيق من سكرتها ، وتنفث السم حولها فتقتل به كل من أرادها بسوء !

وأتت هذه الكتب كذلك نجم الدين ، وكان هـذا الشيخ حزيناً على موت أخيه ، أو حزيناً على الطرف الذى مات فيه أخوه ، فقد مات بمصر أخوه في وقت لم يكد فيه صلاح الدين يتجاوز الثلاثين من العمر ، فهو لا يستطيع النهوض وحده بأمر هذه المهمة الشاقة التى بات ينتظرها منه التاج الأتابكى .

« مولاى — إن ابنى وحيد بالديار المصرية — وهو فيما بين خطرين كبيرين : خطر الشيعة الذين يبغضونه أشد البغض ، وخطر الفرنج الذين أقاموا ببلادهم ربما يجمعون شتاتهم ويعودون لإخراجه من مصر » . بهذا الحديث الهادئ الرزين ، ابتدر الشيخ مولاه نور الدين ، وكأنما كان هذا يفكر في نفس الفكرة التى أفصح عنها الشيخ ، فلم يدعه يتم كلامه حتى قال له : « أجل يا نجم الدين ، لقد كنت الساعة أفكر في استدعائك للسفر إلى مصر ، فعندى أنه قد حان الوقت الذى تخطو فيه الخطوة الحاسمة لقطع الخطبة العلوية لتحلّ مكانها الخطبة العباسية » . ثم سكت الأمير قليلا ومضى بعد برهة يقول :

« ولقد أتانى يا نجم الدين أن ابنك صلاح الدين أبى في أول أمره أن يلى الوزارة بعد عمه ثم قبلها على تهيب لها ، وأنها سلمت له بعد سعى من صديقه الفقيه عيسى الهكارى ، فيا له من فقيه ماهر ، جمع قلوب الجند على صلاح الدين ، وأرضى عنه نفوس الطامعين المنافسين ، وراح يشير عليه كذلك بأن ينفق كل ما جمعه عمه من المال في استرضاء الجند والرعية ، حتى مال إليه الجند وأحبته الرعية .. أما العاضد نفسه فقد بلغنى أنه أصبح ضعيفاً قليل الجند ، بل لم يبق معه أحد من العساكر المصرية بعد ، فذلك يا نجم الدين ما حملنى على يقين من أن الفرصة قد واتت لقطع الخطبة ، وإن كنت عجبت من ولدك منذ مدة ، لأنى بعثت إليه بأمرى هذا ، فاعتذر إلىّ بالخوف من أهل مصر لميلهم إلى صاحب القصر » .

قال نجم الدين « والذى نفس محمد بيده يا مولاى إنك لتقول الحق ، وإنى لأرى الثمرة أينعت وحان قطافها ، وإن

ابنى لهيّابة مسرف فى الحذر ، وإن أراده إلى شىء من الجرأة التى يتطلبها موقفه » .

وأتى الشيخ مصر ، وأخذ يناقش ابنه الرأى ، فتبين له أن ابنه على حق فيما أظهره من الخوف ، وكان القاضى الفاضل حاضراً هذا الحديث فقال لنجم الدين « والفاطميون ياسيدى لهم أنصار كثيرون ، عرفوا ما ننويه فباتوا يأخذون للأمر عدته ، وأخذت كل جماعة منهم تحيك شبا كها ، وتنظم نفسها ، وتعد رجالها ، وكلما ازداد أمرنا قوة ازداد المصريون من جانبهم حيطة ، فالرأى عندى يا مولاى أن أمورنا تؤخذ بالهوينى وإلا فسدت وضاعت ثمرتها » ! عند ذلك انتهى خطاب الفاضل لنجم الدين فأقرّه هنا على رأيه وراح يقنع به نور الدين ، ولكن نور الدين لم يزدد إلا رغبة وإلحاحا واستمساكا بالرأى الذى أمر به . وفى لهجة حازمة لا تسمح بارد قال لصاحبه : « إرجع إلى مصر ثانية لتقطع الخطبة ، ولتأخذ القوم على غرة ، وذلك قبل أن تقوى شوكتهم ، وتدنو خطتهم من النضج الذى تمكنهم من الفوز » وأطرق الرجل قليلا ، ثم رفع رأسه وتابع قوله فى هدير كأنه هدير الجمل فقال : « كأنى بصلاح الدين ، وقد طاب له الحكم ، وأخذ بأبهة الملك ، ورضى لنفسه أن يظل وزيراً سنياً لخليفة شيعى !! فاذهب إليه الآن أيها الرجل لتقول له : إننا لم نحملك على جيوشنا ، ونزودك سيوفنا ، لتصل بها إلى مركز خطير تنسى به مصالح المسلمين ، وقد باتت مصلحتهم فى أن تزول خلافة المصريين وفى أن تصبح مصر ملكا لنور الدين ، وفى أن يستعين بها المسلمون على امتلاك بيت المقدس !

وعبثاً حاول الشيخ أن يهدئ من ثورة الأمير ، وعبثاً حاول أن يقنعه بأنه قد أبعد فى الظن وأسرف فى التقدير ، وعبثاً حاول أن يستأذنه فى تأخير عودته شهراً أو بعض شهر ، وأخيراً وافق مولاه على أن يأخذ أهبته للعودة إلى مصر .

وحصل الشيخ بها ووجد ابنه يراقب أمورها ويفكر فى خير الطرق التى يصل بها إلى تنفيذ سياسة نور الدين ، مسترشدا فى كل ذلك برأى صديقه القاضى الفاضل ، وقد أشار عليه هذا برأى يمتحن به شعور المصريين ، ويعرف به مبلغ استعدادهم لقبول نظام جديد ، فقال له : « ليأذن لى المولى بأن أشير عليه برأى فيما نحن فيه » قال : قل ياعبد الرحيم فأنا والله إلى رأيك أنت أحوج منى إلى سيفى هذا » فقال : « أشير على المولى بأن يبدأ بهذا العمل ، وهو أن يبطل من أذان الشيعة — حىّ على خير العمل — وهى كلمة أضافوها إلى أذانهم تمييزاً لهم عن أهل السنة من أعدائهم فى المذهب الدينى . فإن فعل المولى وأنكر الناس عليه ذلك عرف أن الوقت لم يحن بعد ، وإذا لم ينكروا عليه ذلك علم أن الفرصة قد واتته » .

وعمل الوزير بهذا الرأى فلم يجد الرعية ثارت عليه ، ولا وجد القوم صاحوا به ، فشجعه ذلك على أن يأتى أعمالا أخرى أشار بها الفاضل أيضا :

فمرة يأمر بالقبض على جميع إقطاع العاضد بالبلاد ، ومرة يأمر بالقبض على جند العاضد من السودان ، ومرة يأمر بالقبض على جميع جنوده من الأرمن . كل ذلك والرعية لا تنتقده ، وكبار العلويين فى مصر لا يظهر فيهم من يعارضه . إذ ذاك فقط علم الرجل أنه يستطيع قطع الخطبة وهو آمن على نفسه بعض الشىء .

وجلس صلاح الدين وأبوه عن يمينه والفاضل عن يساره وفكر الثلاثة فى خطة سليمة العواقب ، أخذوا يحسبون فيها حسابا دقيقا لاحتمالاتها المختلفة ، وأخيراً استقر رأيهم على ألا يشترك فى الأمر صلاح الدين بنفسه ، بل يقوم به نجم الدين ومعه جماعة من أمراء جنده ووجوه قومه ، فلينزلوا للصلاة بالجامع الكبير ، وليأت الإمام الذى يخطب يوم الجمعة فليخطب خطبته الأولى فى معنى من معانى الدين ، ثم ليهمل فى خطبته الثانية ذكر العاضد الفاطمى فينتظر وقع ذلك فى نفوس السامعين ، فإذا ثاروا

فليتدخل نجم الدين ، وإذا لم يثوروا فى الجمعة الثانية يضع الخطيب مكان الخليفة العلوى اسم الخليفة العباسى . وأما الغرض من تغيب صلاح الدين فإنه إذا فسد الأمر وثار العلويون فسيعتذر هو للعاضد بأنه لم يكن حاضرا ، وبأنه ليس عن عمل أبيه راضيا ، وبأنه يستطيع أن يأمر أباه بمغادرة الديار المصرية والعودة إلى دمشق .

ثم إن الظروف كلها واتت صلاح الدين وأشار عليه القاضى الفاضل بإمام جرىء من أئمة السلفيين هو الشيخ الخُبوشانى ، فمهدوا إليه بوضع الخطبة وانتهوا بذلك من وضع الخطة ، وانتظروا تنفيذها على هذا الوجه .

وأتى اليوم المشهود ، ولاحظ أهل مصر حركة بالجامع الكبير ، وانتظروا وقوع حادث خطير ، وتهيأت نفوسهم لمرقبه ، حتى صعد الإمام المنبر وأتى الخطبة الأولى ، ثم نهض لخطبته الثانية وحين وصل إلى ذكر العاضد لم يذكره ، ولكنه دعا للأئمة المهديين وللسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ونزل والناس سكوت من الذعر كأن على رؤوسهم الطير ، قد راعهم منظر الجند الذين غصّ بهم الجامع الكبير وأحاطوا بالمنبر يومئذ إحاطة تنذرهم بأن منبرهم إنما ينطق اليوم بكلمة السيف ... !

وسمع العاضد قبل موته بقطع الخطبة فاغتم لذلك ، وقام يدخل إلى حجرته فمن قائل إنه قتل نفسه ، ومن قائل إنه امتص فصّ خاتمه وكان تحته السم فمات به ، ومن قائل إنه عثر وسقط سقطة أقام بعدها متعللا مدة ثم مات . واتصل موته بالملك الناصر صلاح الدين فشق ذلك على نفسه وقال فى لهجة النادم على عمله « لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة » . فقال القاضى الفاضل للسلطان « لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت » !

وهكذا تم وأد الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين ، والعجيب أنه قام على قبرها يومئذ يبكى بكاء الحزين ، ومن يدرى لعل نفسه كانت متألمة حقا لهذا المصرع الذى تم على يديه . ؟

ولكن ما ذنب الرجل فى ذلك — وهذه الخلافة الكدراء كانت من المرض والإعياء بحيث أصبحت لا تصلح للبقاء . « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

وما كادت الخطبة نفسها تتم للعباسيين حتى أمر السلطان وزيره القاضى الفاضل فكتب بها بشارة إلى مولاه نور الدين ، وأمر هذا كاتبه العماد الأصفهانى فأنشأ بها بشارتين : إحداهما عامة تقرأ فى جميع البلاد الإسلامية ، والأخرى خاصة يذهب بها القاضى شرف الدين بن أبى عصرون إلى عاهل الخلافة العباسية . وكان يوماً مشهوداً ، ذلك اليوم الذى ذهب فيه القاضى بالبشارة إلى الخليفة العباسى . فهنالك ازدحم القصر العباسى بوفود المهنئين ، وهنالك ارتفع صوت الشعر مختلطا بأصوات الخطباء والوعاظ والصالحين ، وهنالك مدت موائد الطعام ليصيب منها الناس على اختلاف طبقاتهم ، ويعيدوا بها إلى الأذهان ذكرى خلفائهم ، وانهالت التهنئات على بطل السلفيين بالشام وعلى صلاح الدين بمصر ، وشهد الشعب الإسلامى فى الشرق أيام أعياد عظيمة تقدم العهد بها ، ثم أتت فرأيت لها هزة فرح فى قلوب أصحابها ، ولو تمثلت السُّنة إذ ذاك رجلاً لرآه الناس بطلا لا يبطره الظفر ولا يزعجه الخطر ولكن يقف ليقول :

وقالت لى الأيام إن كنت لاحقــا
بأبناء أيوب فأنت الموفق ! !
همُو رفعوا رأسى وقاموا بدعوتى
جهاراً وطرف الرفض(١) خزيان مطرق !

عبد اللطيف حمزه

(١) الرفض هو التشيع .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

ما بعد الحرب !

أين هذه الحرب من آخرها ؟ وأين نحن مما بعد الحرب ، ومما كان قبل الحرب ؟ ... ماذا كنا ؟ وأين صرنا ؟ وأيان ننتهى ؟ وأين ... ؟

هذه النار المندلعة ، وهذه العجاجة القاتمة ، وهذا الوقود الآدمى المتضرِّم باللهب ، وهذا الحرمان ... ما آخرةُ كل ذلك وأين السبيل إليها ؟ . . . هل مِن بارقة تبرق فى هذه الظلمات ؟ ...

إنى لأكاد أكفر بهذه الآدمية الوالغة فى الدم أن يكون لها غدٌ تؤمن به ، أو هدف تسعى إليه ، أو فكر ينير لها الحالكَ من مجاهل الطريق ؛ ولا أكاد أنظر حين أنظر إلى هذه الآدمية المفترسة إلا كما تنظر قطيعاً من الثيران معصوب الأعين ينتطح على منحدرٍ مائل إلى هاوية ليس لها قرار : يحسب الناطحُ والنطيحُ أنهما على طريق سويةٍ إلى غاية ، والغايةُ قعرُ الهاوية للظافر والمهزوم !

... أفهذا ما وراء النار المندلعة ، والعجاجةِ القاتمة ، والوقودِ الآدمى المتضرِّمِ باللهب ، والحرمانِ الساغب الظامئ العُريان ؟ . . . فلا آخرَ لآخرة هذه الحرب ولا بارقة أمل ...؟

ولكنى مع ذلك أكاد أتهم ظنّى حين أقرأ ما أقرأ فى هذه الأيام من حديث الصحف عما بعد الحرب ؛ أفبعد كلّ هذا بَعد ؟ ... ووددتُ لو يكون ؟ ...

* * *

وماذا تكتب الصحف المصرية عن شئون ما بعد الحرب ؟ . . . . . .

مشروع بيفردج . وماذا ؟

ومستقبل مصر السياسى . وماذا ؟

وحديث الوحدة العربية . ثم ماذا ؟ ...

... أهذا كل ما يعنى هذه الأمة من شئون ما بعد الحرب ؟...

ذلك كل حديث الصحف المصرية من هذه الشئون ؛ فأين هو من حديث الأمم ، ومن نجوى الملى ، ومن تفاعُل كيمياء الزمن ؟ ...

حرية الفرد والجماعة ، وتأمين الحياة لكل حى ، وتقوية الحكم الذاتى ، ومنع العدوان فى المستقبل :

ذلك كل ما يفكر فيه ساسة الأمم من المشتغلين بشئون ما بعد الحرب ، وهو كل ما تتحدث فيه الصحف المصرية حين تزعم أن لها رأياً فى شئون ما بعد الحرب !

وماذا كان الرأى الإنسانى العام قبل هذه الحرب ؟ وماذا كان حديث الأمم قبلُ إلا هذه المسائل الأربع ؟

أفليس لهذه الحرب من أثر فى الرأى الإنسانى العام إلا أن يجتمع ساسةُ الأمم حول مائدة مستديرة يؤامرون أنفسهم فى شئون كانت حديثَ الناس فرادَى فى كل أمة ؟

إنهم إذن لفى غفلة وعمى ، وإنهم لينكرون الأثر والمؤثِّر جميعاً . وإنهم لخليقون بأن يسمُّوا الأشياء بأسمائها فيعترفوا بأنهم يدرسون شئون « ما قبل الحرب » ، أما بعدُ فلا ... !

* * *

حرية الفرد والجماعة ، وتأمين الحياة لكل حى ، وتقوية الحكم الذاتى ، ومنع العدوان :

لقد كان لكل أولئك حديثٌ مضى ، أما اليوم فإنه حق يرتفع عن جدل الفقهاء ، ومناقشات الساسة ، ومساومات الأحزاب ، ومُقاولات زعماء الدول : حقٌّ أثبته الدم المسفوح ، والأشلاء المبعثرة ، والخرائب الدارسة ، والرِّمم المجهولة الأنساب تحت الجدران المنقضّة ، والشظايا

الآدمية المتطايرة على صخور البيد وفى بطون الجليد !!

لا ، ليست هــذه هى مسائل اليوم ؛ لقد أجَدَّت الحربُ على كل فكر جديداً ، وبعثتْ فى كل وجدان نبضاً ، وأخطرتْ فى كل قلب فكرة ، وألهمت كلَّ إنسان معنى ، فهذا الجديدُ على الفكر والوجدان والقلب فى كل إنسان حى : هو مشكلة ما بعد هذه الحرب ؛ فهل عَنَاها مَن عَنَى ؟...

ليست حرية الفرد وتأمين الحياة وتقوية الحكم الذاتى ومنع العدوان — هى مسائلَ اليوم ، فقد تقررت هذه الحقوق للدول حقوقها وسينالهنّها طوعاً أو كرهاً ؛ ولكن مسألة اليوم هى الضمير والوجدان ، هى القلب والروح ، هى الفكر والعقيدة : ما أثر هذه الحرب فى كل أولئك ، وما أثر أولئك كله فى هذه الإنسانية ؟

ليست مشكلة ما بعد هذه الحرب هى القوت ، وهى اللباس ، وهى الصحة ؛ وليست المشكلة كيف نعيش ، وكيف يحكم الحاكم ، وكيف يطيع المحكوم ؛ ولكن المشكلة هى كيف نرد هذه الآدمية الوالغة فى الدم إلى الإيمان بمعنى الإنسانية !

أين مِن معنى الإنسانية اليوم حديثُ الناس ، وهمسُ ضمائرهم ، ونجوى أمانيهم ؛ وكيف تفاعَل الزمنُ بهم ، فتركهم مادةً بلا روح ، وفكراً بلا عقيدة ، وحياةً بلا إيمان ؛ وأين يُذهَب بهم وما يعرفون لهم غداً يستيقنونه ، ولا هدفاً يسعَون إليه ، ولا رائداً يستهدونه فى مجاهل الطريق !!

هذه النار المتدلعة قد أذابتْ من شحمة الرأس فكرةً كانت تعطف كل أخٍ على أخيه فأنكر ودَّه ، وتربط كل ولد إلى أبيه فأنكر نسبه ، وتُدنى كل زوج من زوجه فباعدتْ روحاً من روح ...

... هذه العجاجة القاتمة قد عقدت فوق الرءوس ضبابةً دكناء تحجب السماء عن الأرض فما فيها نجم يلمع لسارٍ فى الليل أو فى النهار ...

... هــذا الوقود الآدمى الذى تلتهمه الآلة الحربية المدمِّرة قد هوَّن الآدمية على كل ولدِ آدم ، فما فى عينٍ دمعةٌ على هالك ، ولا فى قلبٍ عاطفةٌ .

هــذا الحرمان الساغبُ الظمآنُ يتضرَّم سعيراً من الشهوة إلى كل مطعم ومشرب ، وإنه ليوشك أن ينقلب نهماً ناصباً يفترس ويلغ فى الدم ...

هــذه هى الإنسانية اليوم ؛ فهل هى إلا قطيع من الثيران يتطلع معصوب الأعين على منحدر مائل إلى الهاوية ؟...

... وهذا أثر الحرب ومشكلةُ ما بعده ، فهل يُصلح الإنسانيةَ أن يكون كل ما نفكر فيه لها « بعد الحرب » هو الطعامَ والشراب ونظام الحكم وتأمين الحرية ؟ ...

* * *

علام كان يتحارب المتحاربون فى الحرب الماضية وأين بلغوا ؟

لست أعرف ما كانوا يقولون يومئذ ؛ ولكنى مع ذلك أعرف ما انتهتْ إليه الحرب ... انتهتْ إلى هذه الحرب الثانية قبل أن يمضى عشرون عاماً على أختها ؛ فهل كان السبب الحق هو الطعامَ والشراب ونظام الحكم وتأمين الحرية ؟... نعم ، ولكن بمعنى مختلف ؛ لم يكن أحد على جوع يسوِّغ الافتراسَ الوحشى ، ولا على ظمأ يبيح الولوغَ فى الدم ، ولا فى ضيق من ظلم الحكام يدعو إلى العصيان والتمرد ، ولم تكن الحياة رخيصة على الأحياء !.

... نعم ، كان السبب الحق هو الطعامَ والشراب ونظام الحكم وتأمين الحرية ، ولكن بمعنى مختلف ؛ لأن الناس حين وجدوا الطعام والشراب ، وحين طاب لهم — أو أمَّلوا أن يطيب — نظامُ الحكم ، وحين وجدوا الأمان فى ظل الحرية التى يعيشون فيهـا أو يأملون أن يعيشوا — حين وجدوا كل ذلك لم يجدوا فى صدورهم

من معارضى كتاب الديارات للشابشتى :

٤ - الدار المُعِزِّية ببغداد

ونظير ذلك ما رواه ابن الأثير فى حوادث السنة المذكورة : « وفيها نقضت الدار المعزية . وكان معز الدولة ابن بويه بناها وعظمها . . . . وأول من شرع فى تخريبها بهاء الدولة ، فإنه لما عمر داره بسوق الثلاثاء ، نقل إليها أنقاضها . . . . ونقضت الآن وبيعت أنقاضها[1] » .

إن هذه الخاتمة السوداء التى حلت بالدار المعزية كانت موضوع حديث المؤرخين . فإن بعض المصادر القديمة أنبأنا أنه « قد درست هذه الدار من قبل سنة ستمائة ، ولم يبق لها أثر وبقى مكانها دحله تأوى إليها الوحوش ، وبقى شىء من الأساس يعتبر به من رآه[2] » .

وأشار صفى الدين عبد الحق البغدادى ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ إلى أن « أثر هذه الدار باق والصحراء التى فوقها دحله طرفاء[1] »[2] .

فهى عبرة لمن اعتبر ، وما أكثر العبر فى التاريخ ! ولا غرو أن من ابتغى تشييد مجد على أساس من الظلم ، لا يعدم أن يقوم بعض المؤرخين من بعده ويقولوا فيه قالتهم ويصرحوا بما ينم عن كرههم له وشماتتهم به ، كقول ابن كثير فى داره إنه « لا تمت فرحته بها »[3] . وقد سقنا آنفا قول ابن تغرى بردى مما لا حاجة بنا إلى إعادته .

إن الشماسية ، تلك المحلة العامرة الزاهية ، قال فيها ياقوت الحموى بعد أن عملت فيها يد الدهر ودبّ إليها الخراب « ... وبقى المحلة كله صحراء موحشة يتخطف فيها اللصوص ثياب الناس ! »[4] .

ومن طريف ما حكاه ابن الجوزى فى دمار تلك البقعة واستيحاشها ، وزوال بهجتها وبهائها قوله : « ... وقد

(١) الـكامل ٩ : ١٣٦ وروضة الناظر (بهامش الطبعة المصرية من الـكامل ٨ : ١٤٩) .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ : ٣٢٧ — ٣٢٨ ومرآة الجنان ٢ : ٣٤٣ — ٣٤٤ وشذرات الذهب ٣ : ٢ .

(١) فى المطبوع : « فوقها دجله طرفاً » وهو تحريف ، والوجه ما فى أعلاه .

(٢) مراصد الاطلاع ٢ : ١٢٤ .

(٣) البداية والنهاية ١١ : ٢٣٧ .

(٤) معجم البلدان ٣ : ٣١٨ .

رَوْح الإيمان ، ولا فى قلوبهم مسّ الرحمة ، ولا فى أنفسهم تعاطُفَ أبناء الإنسان ؟ فكان الطعام والشراب ونظام الحكم وتأمين الحرية — السببَ الحقَّ لهذه الحرب ؟ أشراً وبَطراً وطَـماعية !

***

ما بعد الحرب ... !

يريدون أن يدرسوا شئون ما بعد الحرب ؟

فَلْيَدَعُوا حديث الطعام والشراب ، والحكم ونظامه ، وخرافة الحرية ؛ فإن ذلك كله يجرى على طبيعته ونظامه منذ خلق الله الأرض ، رَضِىَ الحكام أو سخطوا ! وليأخذوا فى حديثٍ غيره إن كانوا يعرفون لهذه الإنسانية معنى أسمى من معنى الطعام والشراب والسَّوْم فى الكلأ المباح !

يريدون أن يعرفوا ؟

فليسمعوا حديث الناس ، وهَمْس ضمائرهم ، ونجوى أمانيهم ؛ وكيف فعل الزمن بهم — يسمعوا حديثاً غير الطعام والشراب ، وغير نظام الحكم ، وغير تأمين الحرية ؛ وهو حديثٌ له دلالة ، وفيه توجيه ، وبه أثرٌ من هذه النار ، وهذا الدخان ، ومن لون الدم ... أم تراهم قد سمعوا وعرفوا وأحسنوا الفهم والتقدير ولكنهم يريدون حديثاً غيره زُلفى إلى الجياع والظِّماء والمحرومين ...

ربُّ إلى الله من أسمى ، وربٌّ إلى الإنسانية !

« ثاف »

كانت (بغداد) على غاية من الحسن والعمارات . قال هلال[1] « كنت أركب من داري بباب المراتب[2] إلى دار معز الدولة بالشماسية ، في الأسواق بين الظلال والجمال والدروب ، وكذلك بالجانب الغربي ، والدور على دجلة متقابلة ، وبساتينها متناهية ، وأنهارها متشابكة ، وما فيها دار تخلو من الأغاني والأفراح . فسبحان الدائم الذي لا يزول ملكه »[3] .

ومن النصوص الثمينة الدالة على خراب هذه الدار ما رواه ياقوت الحموي ، نقلا عن أبي الفرج الأصبهاني ، قال : « ذكر (أبو الفرج الأصبهاني) في كتاب أدب الغرباء[4] من تأليفه : حدثني صديق قال : قرأت على قصر معز الدولة بالشماسية : يقول فلان بن فلان الهروي : حضرتُ هذا الموضع في سماط معز الدولة ، والدنيا عليه مقبلةٌ ، وهيبة الملك عليه مشتملة ، ثم عدتُ إليه في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة[5] ، فرأيت ما يعتبر به اللبيب ، يعني من الخراب »[6] .

وقد ذكرنا في كلامنا على « السقوف » خبر نقض السقف المذهب الذي كان بهو بيت الأمة ، فلا داعي إلى التكرار . (تم البحث)

كوركيس عواد

---

(١) هو هلال بن المحسن الصابئ المتوفى سنة ٤٤٨ هـ . ويبدو لنا أن الكلام المنقول عنه إنما هو من تأليفه العظيم « أخبار بغداد » الذي أخذته يد الضياع .

(٢) من أجل أبواب دار الخلافة ببغداد وأشرفها ، كانت الدور فيه غالية الأثمان عزيزة الوجود في أيام السلاطين ببغداد ، ثم تضاءل شأنها من بعدهم ، راجع : معجم البلدان ١ : ٤٥١ ومراصد الاطلاع ١ : ١١٣ — ١١٤ .

(٣) مناقب بغداد (ص ٣٣ — ٣٤) .

(٤) هذا من الكتب الضائعة في زماننا .

(٥) قد يبدو هنا تناقض وما نعرفه عن وفاة أبي الفرج الأصبهاني ، فإن كثيراً من المراجع تقول إنها كانت في سنة ٣٥٦ هـ ، وقد أورد ياقوت الحموي هذا النص ليقرر أن سنة وفاة أبي الفرج مختلف فيها .

(٦) معجم الأدباء (٥ : ١٥٠ طبعة مرجليوث = ١٣ : ٩٦ طبعة رفاعي) .

بولنـــــده

(بقية المنشور على صفحة ٤)

ولكن ألمانيا بعد ذلك أعلنت رغبتها في أن تضم دنزج إلى حكمها ، وأن تصل بروسيا الشرقية بالوطن الألماني ، ولم تستطع أن تحصل على هذا بالطرق السلمية أو الشبيهة بالسلمية ، فانقضت على بولنده في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، ولم تلبث جيوشها أن تغلبت تماما على مقاومة القوات البولندية . لم ترد روسيا أن ترى ألمانيا تحتل بولنده الشرقية ، فتقدمت هي أيضاً واحتلت تلك الأقاليم ، التي يسكنها كثير من العناصر الروسية .

وقد وقف جيش بولندي في طريق الزحف الروسي ، ولكنه لم يلبث أن سلم وأسر . وكان يشتمل على نحو عشرة آلاف من الضباط ، وقد رضيت حكومة روسيا ، بعد أن اشتبكت في حربها مع ألمانيا ، أن تسرح الأسرى البولنديين لكي يتألف منهم جيش يحارب إلى جانب الدول المتحدة .

ومنذ بضعة أسابيع أذاع الألمان أن الروس قد أعدموا أحد عشر ألفاً من الضباط البولنديين ، وأن قبورهم بالقرب من سمولنسك قد اكتشفت . ولعل البولنديين قد صدقوا هذه الدعوى ، فساءت العلاقات بينهم وبين روسيا ، ولم يريدوا أن تقوم الحكومة الروسية نفسها بتحقيق هذا النبأ ، بل طلبوا إلى جمعية الصليب الأحمر الدولية أن تتولى تحقيقه .

ولم تلبث جمعية الصليب الأحمر أن أبدت عجزها عن القيام بتحقيق مثل ذلك النبأ ؛ فأعلنت بولنده عدولها عن الالتجاء إلى جمعية الصليب الأحمر .

وفي الوقت نفسه طلبت حكومة روسيا إلى السفير البولوني أن يظل في روسيا ، وبادرت الحكومة البريطانية بالتوسط بين الفريقين ، ليزول ما بينهما من الجفاء . حتى لقد أعلن رئيس وزارة بولنده بمناسبة عيدها القومي : « لقد كان من المبادئ التي تسترشد بها الحكومة البولندية ، والأمة البولندية المحافظة على علاقتها الودية مع روسيا . وسيظل هذا مبدأها » .

محمد عوض محمد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ — بعابدين بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٩ الثلاثاء ١٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ — ١٨ من مايو سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العــــدد

فى حياتنا الفنية :

معرض القـــاهرة سنة ١٩٤٣

لعل من الخير — قبل أن نأخذ فى الكلام عن الصور والمصورين فى معرض هذا العام — أن نكشف عن المعايير التى نصدر عنها فى تقدير الجمال الفنى ، حتى نقف والقراء على قاعدة ، وننظر وإياهم من زاوية واحدة .

وأول هذه المبادئ أن لا نتعصب لمذهب فى التصوير على مذهب ، وأن ندع للفنان أن يختار مدرسته ، بل أهم من ذلك وأوجب — أن نخوله الحق فى التجديد سواء أكان تجديده تكملة لهذا المنحى أو ذاك من مناحى الفن ، أو استطراداً له ، أو توفيقاً بين مختلف المناهج أو خروجاً عليها جميعاً ، وليست ترجى حياة للفن إلا إذا جرى على سنة الحياة ، والحياة لا تعرف الوقفة والجمود .

ثم أمامنا عقبة أخرى : فما برحت الفكرة المتسلطة على رواد المعارض أن المراد من الفن أن يرفع المرآة للطبيعة ، تتراءى فيها وترتسم على صفحتها فى صدق ومطابقة دون فارق ومن غير أدنى اختلاف ، اللهم إلا أن تكون صورة الطبيعة المنعكسة أبهى رونقاً وأزهى إشراقاً فى نظرهم بما يزيد عليها فى صقال المرآة من جلوة ونورانية .

ولقد هان قدر التصوير عند أفلاطون من أجل هذه المحاكاة للطبيعة ، أو — على حد عبارته — هذه المحاكاة لمظهر الطبيعة . ولم يرله — وهذا شأنه — كبير شأن ، ولم يسعه فى سياقه المنطق إلا أن يعده من القشور واللغو . فلا عجب إذا كان الفيلسوف الفنان لم يجد مندوحة من أن يقصى المصورين وسائر أصحاب الفنون الحاكية من جمهوريته النموذجية ومدينته الفاضلة المثالية .

ولو كان التصوير غايته المحاكاة لأغنى عنه التصوير الشمسى ، وبخاصة بعد إدخال التلوين عليه بشتى أصباغه ، وبعد بلوغه أبعد الغايات فى إتقان أدواته وإحكام طرائقه والتفنن فى أوضاعه .

ولكن التصوير بقى وازدهر ، حتى بعد أن نفاه أفلاطون من جمهوريته فى القرن الرابع قبل المسيح ، وحتى بعد اختراع التصوير الشمسى ، والتصوير الشمسى الملون فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين بعد المسيح .

وذلك كله لسبب واحد بسيط ، وهو أن المحاكاة فى الفن ليست أخص خصائصه ، فالصورة قد تكون مطابقة كل المطابقة للأصل ، وهى مع ذلك لا تمت إلى الفن بسبب وقد يكون لبعض الصور قيمة من حيث تسجيل الأشكال وحفظ المشابه ولكنها قيمة تاريخية . فإذا تعدى المصور إثبات الواقع الذى يراه إلى اقتراح الشعور الذى يحسه ، فعندئذ فقط تكون للصورة صفتها الفنية . أى أن الفن مطلبه شعورى قبل كل شىء ، وعلى قدر بلوغ صورة من الصور إلى التأثير العميق بأبسط مادة وأوجز طريق يكون موضعها من الفن الحر الخالص .

وبعد الذى قدمنا من توطئة وتمهيد ، نجتاز مع القارئ المدخل الفخم من سراى الجمعية الزراعية الملكية إلى ردهة العرض الفسيحة الرحاب ، ولكننا لا نكاد ندير الطرف حولنا حتى نجدنا كالمنجذبين بيد خفية قوية إلى ناحية لوحات الفنان محمود بك سعيد . تلك قوته السحرية ! وهى الغالبة فى كل مرة . ومحمود بك سعيد فى هذه المرة قد انتظمت له كل خصائصه ، وتألقت أوابده ، واندمجت نزعات فنه ، وهى على حالها من العنفوان والروعة ، فأخرج لنا فى العاريتين اللتين عرضهما ذخائره كسبيكة الذهب الإبريز مصهورة مجلوة .

وتمثل إحدى الصورتين سمراء مذهبة اللون ، مولية ظهرها ، تجلس القرفصاء على أرض الغرفة ، مستندة الرأس إلى أريكة من حرير لطيف الخضرة . والمرأة مطهمة الخلق ، جزلة الأوصال ، وافية تقاطيع الجسم ، ينطق حقواها ومتانة فخذيها وامتلاء صدرها جميعاً بما أودع فيها من قوة الحياة . فلا يسع الناظر إلى هذا الجسد الممتلئ بالحياة ، المستجيب فى صحة وقوة لدواعيها ، المتهيئ للبذل والتعب فى خدمتها واستدامتها — إلا أن يشعر له بالتمجيد . وشتان بين تمجيد وتمجيد ، فهو هنا ليس تمجيد اللذة ، وأنانية المتعة ، وفساد الشهوة ، ولكنه تمجيد للحياة .

وقد أبدع الفنان فى تكوين الصورة من حيث انحناءة الظهر فى مقابلة التوازى الذى بين المرفقين والركبتين . ثم هذه البؤرة المشعة بالنور الساطع الساخن فى المنديل المعصوب على رأسها تستهوى النواظر ، فلا تبرح محومة عليها كالفراش حول الشمعة المضيئة . ويزيد فى جمال هذه البقعة الساطعة على عصبة رأسها ذلك الخلخال الضخم من الفضة فى رجليها مطفأ اللون رصين المعدن . وأخيراً هذا الفيض على متنها من ضياء لامع يجرى فى قناة ظهرها كأمواه من الذهب السائل .



نادية — للأستاذ محمود بك سعيد

وأما الصورة العارية الثانية ، فهى أقل من الأولى حجماً ولكنها لا تقل عنها قدراً ، وعلى الأخص من أجل هذا المعنى الغامض فى نظرتها المرسلة ، بل فى كيانها الأملس المصقول كله . وهى غارقة فى وهج من النور الذهبى ، ولكن هيهات ينفذ إليها ، فهو أبداً نور خارجى يجعل غموضها بحكم المباينة أبين وأظهر ، ومن ثمة يغرى بالمزيد من تأملها وإمعان النظر فيها . وأكبر الظن أن الذى يطيل

من تأملها ، ويديم إليها النظر لا يلبث أن يرى فيها « جوكندا » مصرية بابتسامتها الخفية الشائعة ، وجلستها الملغزة الرمزية .

وندع الآن هذه وتلك ، إلى صورة الطفولة البريئة اليقظى ممثلة فى « نادية » . وهى وإن كانت « نادية » التى رسمها والدها فى لوحة من لوحاته الرائعة ما زلنا نذكرها منذ عام سنة ١٩٣٣ ، إلا أنها زادت فى مراحل حياتها السعيدة نماءً ووعياً ، كما زاد الوالد فى معارج فنه العظيم تفوقاً وعلواً . ولا شك فى أن التابعين لمعروضات محمود بك سعيد فى معارض القاهرة يجدون بين لوحاته فى كل عام صورة من صور الأشخاص على هذه الصفة التى تشهد أصدق الشهادة وأبلغها على ما اجتمع له من تمكن الصانع من حيث المحاكاة والنقل ، وإلهام الفنان من حيث الإبداع والتعبير .

وننتقل إلى الأستاذ محمد ناجى وهو يؤثر السطحية على التعميق فى صوره تشبها بالتصوير المصرى القديم . وأحب صوره إلينا « العودة إلى النيل الأزرق » التى يمثل فيها عودة هيلاسلاسى نجاشى الحبشة إلى بلاده . وليس يخطئ الناظر إليها هزة الطرب التى سرت فى كل شىء حتى لنتوسمها فى الحيوان النشط والنبات المترعرع ، والصورة فوق ما بها من هذه الحركة الشجية تروق العين بما لها من مسحة زخرفية . على أننا لا نأسى إلى « مقابر طيبة » ، فالناس فيها والحجارة والثياب والأرض جميعاً من مادة واحدة . وهى فى تنسيقها ، ولمسات ألوانها ، وتوزيع شخوصها أشبه بالنقوش والجامات فى الطنافس والسجاجيد الشرقية .

ثم الأستاذ أحمد صبرى صوره فى هذا العرض على غير ما عهدنا منه . فلمساته أوسع سطوحاً ، وأقرب إلى وحدة اللون .

وقبل أن نترك هذا الجانب من الردهة ، نحب أن ننوه بجماعة الرسم بالإسكندرية ، وعلى رأسهم (انجلوبولو) ، وقد عرض صورة واحدة تمثل منظراً طبيعياً . وقد بلغ فيه غاية التعبير مع الاقتصاد الذى ليس بعده اقتصاد فى وسائله . ثم (ساسون) وهو زاهد فى تدرج الألوان .



للأستاذ أحمد صبرى

ولا يركن إلى الظلال فى التجسيم وتكوين السطوح . وإنما يعمد فى تكوينها إلى المداولة بين الألوان الحارة والباردة . كما أنه يذهب مذهب أصحاب التكعيب فى بعض رسومه . وثمة غير هذين آخرون على درجات متفاوتة من النبوغ والإجادة . إلا أننا لا نجد غير مجرد التقليد فى معروضات (بول ريشارد) التى يتأثر فيها طريقة بعض التأثريين المعروفة باسم التنقيط .

ويأتى بعد ذلك جانب الأستاذ يوسف كامل ، ويمثل لنا كعادته حياة صبايا القرية بين حيواناتها الداجنة . وهو يجترئ أحياناً بأيسر التأثير ، ولكنه حين يعتمد الدرس يخرج لنا لوحات جديرة به مثل لوحات « الراعية ومنتظر وفرحة » .

ومن هذه المدرسة (الأستاذ حسنى البنانى) فى الردهة

العليـا ، فإنه موفق ولا شك فى التأثيرات الضوئية على الشخوص والمنازل القديمة ، واستعداده كبير للمناظر المسرحية . ولكنه لم يصبر على الدرس إلا فى صورة واحدة هى « وجه فتاة » .

ويسرنا أن نرقب – فى معرض بعد معرض – ظهور ملكات الأستاذ حسين بيكار ، فهو لا يبرح صاعداً بخطى متزنة ثابتة . وهو يطالعنا فى هـذا المعرض بصورة بديعة لشخصه ، وبصورة « عارية » أبدع ما فيها



الأستاذ حسين بيكار

رأسها حتى كتفيها ، وقد أفاض عليها رقة وشاعرية ، وبخاصة صورة « السيدة ميمى صبرى » برسمها الدمع ، وألوانها المتناسبة ، فترى فيها الريشة الرصينة ، والفنان المخلص الذى لا يحاول الادعاء .

ويضطرنا ضيق المقام المسموح به إلى أن نقف عند هذا الحد دون أن نكمل الدورة ، ودون أن نوفى كل فنان من العارضين حقه . ولكن هذا لا يمنعنا من أن نجمل القول بأن الزائر للمعرض يشعر شعوراً لا يخالجه ريب بأننا فى إبان نهضة ؟

عبد الرحمن صدقى

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

الرجل الذى طارد الموت فى فراش الأمهات

وصل الثالث : « زاملى » طبيب شاب فى القسم الأول لمستشفى عام الولادة فى عاصمة النمسا ، ورئيسه « إسكليين » رجل شيخ ذو رأى عتيق . وحمّى النفاس تفتك بالنساء فتكا ، ولا يجد زاملى رغم محاولاته لها سبباً ، حتى كاد ييس . وأخيراً يقع على السبب . كان يفحص هو وتلاميذه جثث الموتى ، ثم يغسلون أيديهم بالصابون ، ثم ينتقلون إلى فحص الأمهات الحاملات . وتعلق بأيديهم رائحة من الجثث فيفخرون بها لأنها دليل العمل والبحث . ثم يحدث أن يخدش مشرط طالب فى قاعة الجثث فيتلف طبيباً فيموت . عندئذ يتنبه زاملى إلى أن موت الطبيب كموت النساء ، وأن هـذه الرائحة التى حملوها على أيديهم من قاعة الموتى إلى النساء يحملونها إلى أرحامهن ، حلت فى طيِّها الوباء . فيعمد هو وتلاميذه إلى غسل الأيدى بماء الكلور قبل فحص النساء . فتنقص الوفيات نقصاً كبيراً لأول مرة فى التاريخ . فلا يحمد على هذا النجاح من الأطباء ، ومن رئيسه إسكليين غير السخرية والنكر والأذى . والآن اقرأ :

إن كثيراً من مكتشفات اليوم تجد طريقها سريعة إلى الطبع ، فالنشر ، حتى قبل اكتشافها . وعلى هـذا القياس كان المرء أن ينتظر من « زاملى » أن يذيع ما اكتشف فى كل مجلة طبية تصدر فى أوربا . ولكنه لم يفعل . قال : ليس أثقل على نفسى ، ولا أكثر منافضة لطبعى ، من الكتابة كائنة ما كانت .

وقيّض الله له ثلاثة رجال ، ثلاثةَ أساتذة يدفعون عنه ويَشُدّون أزره . وليس منهم من كان طبيباً مولِّداً . كان أحدهم طبيب جلد هو الدكتور هِبْرا Hebra ، وكان الثانى خبيراً فى تشخيص الأمراض هو الدكتور إسكودا Skoda ، وكان ثالثهم الباثولوجىّ الشهير روكيتانسكى Rokitansky ، وبلغوا من شد أزره أنهم حاضروا للعلماء

فى موضوع كشفه ، وقرنوا اسمه باسم الطبيب الأشهر ينار Jenner ، مكتشف التطعيم ضد الجدرى ، تكريماً له وتعظيماً . أما هو فانصرف إلى عمله بقسم الولادة الأول ، يُنقص من نسبة الوفيات فيه شهراً بعد شهر . حتى جاء شهر أكتوبر عام ١٨٤٧ . فى يوم من هذا الشهر كانت أمهات ثلاث عشرة على أسرّتهن فى صف واحد ينتظرن وضع أحمالهن . وكن جميعاً فى مأمن من سم تلك الجثث العفنة فى قاعة الموتى ، لأن « زامل » لم يدع أحداً يدخل إليهن إلا من غسل يديه أيما غسل بماء الكلور . ولكن حدث على غير انتظار أن كل هؤلاء الأمهات الثلاث عشرة ، جاءتهن الحمّى ، إلا الأمّ الأولى فى هذا الصف . ثم ماتت من الاثنتى عشرة إحدى عشرة امرأة . فنهض « زامل » كالبرق وراء السبب يتصيّده .

كانت المرأة الأولى فى هذا الصف مصابة بالسرطان ، وكان يخرج منها صديد لا يكاد يختلف عما كان يُصيب يديه وأيدى تلاميذه من تلك الجثث المتحققة الفاسدة عند الكشف على الموتى . فالذى حدث هنا أنهم فحصوا المرأة الأولى ، ثم ذهبوا تواً يفحصون سائر النسوة فى هذا الصف الواحد دون أن يغسلوا أيديهم إلا بالماء والصابون .

يا للغباوة النادرة ! ولكنه تعلم من هذه الغباوة علماً جديداً : أن حمى النّفاس لا تأتى من جثث الموتى وحدها ، ولكنها تأتى كذلك من الأمراض المعفنة بأجسام الأحياء . وإذن وجب على الأطباء أن يغسلوا أيديهم بماء الكلور كلما انتقلوا من فحص أم إلى فحص أخرى .

وجاء عام ١٨٤٨ ، وجاء آخره . فكم مات فيه عند « زامل » من حمّى النفاس ؟ فى عام ١٨٤٦ مات بهذه الحمّى تسع وخمسون وأربعمائة ٤٥٩ . أما فى هذا العام ، فالعدد الذى لم يستطع أن يرجع من النساء إلى منازله سعيداً مغتبطاً بلغ خمساً وأربعين فحسب . خمساً وأربعين امرأة من ست وخمسين وثلاثمائة وثلاثة آلاف ٣٣٥٦ .

عندئذ أمكنت الفرصة « إكلين » الشيخَ من « زامل » ، وكان امتلأ منه قلبه ، فقام يطلب رأسه ، وفى سبيل ذلك اتصل بصديق له يدعى روساس Rosas . وكان رجلا طُفيلياً حقيراً ، يجرى فى ظل الكُبَراء ، ويستعين بجاههم فى تدبير المكائد ونصب الأشراك . فحمله « إكلين » على تبليغ أولى الأمر وذوى السلطان أن « زامل » لبس شارة الثورة التى قامت عام ١٨٤٨ ، وكانت قسْمة مريشة . فلما طلب « زامل » تجديد عقده عام ١٨٤٩ ، أجابه « إكلين » بأن عيّن فى وظيفته رجلا يدعى براون Brown مهّد لتعيين نفسه بأن أذاع عنها أنه لا يؤمن كل الإيمان بهذه الحذلقة البالغة فى غسل الأيدى . ثم عرض « إكلين » على زامل وظيفة أخرى عمَلُ صاحبها شرحُ الطب للطلاّب على الدُّمى ، على تماثيل للنساء ، لا حركة فيها ولا إحساس . ولمن هذه الوظيفة ؟ لزامل الذى اكتشف قبل كل الرجال كيف ينجو الأمهات من الموت ... فلم يكن بدٌّ أن يترك « زامل » عمله فى عاصمة النمسا ويعود إلى عاصمة المجر ، مسقط رأسه ومُقام أهله . وفى الشهر الذى أقيل فيه مات من حمى النفاس فى قسم الولادة الأول عشرون امرأة . وأغمض « إكلين » على هذا الرقم عينه . وكيف لا يغمضها وهو يسخر من غسل الأيدى بالكلور ، وله الآن مساعد جديد مهاود مطواع .

* * *

ترَكَ « زامل » عمله فى ڤينا ، وذهب إلى بودابست يعمل فى مستشفى القديس رُوكس St Rockus . وكان يعمل فيه بالمجان . وفى اليوم الذى بدأ فيه العمل فى هذا الحجر المهين وجد ستاً من النساء قد ألقين أحمالهن . ومن هذه الست وجد واحدة قد ماتت ، وأخرى فى سبيل الموت ، والأربع الأخريات تكاد تقضى عليهن حمّى النفاس .

فلم يستغرب « زامل » لهذه الحال ، وعرف تواً سببها .

أليس مولّد هؤلاء النسوة هو هو بعينه الجراح الأول بالمستشفى ؟ إذن فلقد جاء هؤلاء النسوة ، وعلى يديه أسباب الموت مما أجرى من عمليات عفنة .

هذه كانت ملاحظات « زامل » — بسيطة ، فظيعة في بساطتها ، تضرب في أسس الأمور ضربا . وأخذ يتشمم في هذا المستشفى كل موبأة يصدر منها الداء ، وتتسمم من جرّائها الدماء . فكان من ذلك أنه في الست السنوات التالية لم يفقد من ألف أمّ دخلت هذا الجحر المخوف غير ثمانية .

كانت هذه النتيجة خيراً وبركة على الاثنين والتسعين والتسعمائة ٩٩٢ من الأمهات اللائى تركن الفراش ولاذهن في صحبة أزواجهن فرحين مستبشرين ، ولكنها لم تكن خيراً وبركة على غير هؤلاء ، لا سيما الأطباء . فإن « زامل » لم يفتأ يستحثهم كل آن ويخطئهم كل حين ، ويشتد في خطابه . والمرضات وتوابعهن ظلّ يضايقهن ويعد الأخطاء في أعمالهن ، والقوابل ناكدهن فأغضبهن ، والطلبة صرخ فيهم ، حتى الأطباء ، وهم حُرمتهم ولهم وقارهم ، لم يسلموا من أمره ونهيه ، فقد كان يلح عليهم ، لا في تطهير أيديهم فحسب ، بل كذلك في تطهير عُددهم ومعاطفهم وأربطتهم ، حتى البياول لم يفته أمرها .

أثّر في نفسه موت هؤلاء النسوة تأثيراً بالغاً همَّه همّا شديداً ، فلم يدع يُطيق في أمرهم زلة كبيرة كانت أو صغيرة .

وتصيّروه أستاذاً في جامعة بودابست فدخل مستشفاها فوجد الحاملات يلدن على أسرّة عتيقة تكاد تهمّ بالسقوط عليها أغطية بالية وأفرشة أطل حشوها ، ووجد حُجرهن تعلوها رائحة كريهة تأتى من مداخن المعامل الكيميائية ، ورائحة أشد كرهاً تأتى من ردهة البلى حيث المراحيض وقاعة الموتى . حتى هنا حبس الموت عن ضحاياه ، ولكن بعد أن كرّه الناس فيه . وكل حيلته النظافة ، والنظافة وحدها . فالنظافة هى كل ما أجراه من تجارب ، فلم يكن لديه وقت للتجارب ، ولم يكن له معوان عليها . لم يكن لديه من أدوات البحث أرنب أو فأر أو أنبوبة اختبار . والميكروبات كانت عند ذاك سرّا من أسرار الوجود .

وظل هذا المنغارى الغريب يعمل في عنابر تلك المستشفيات الحارة ، ويمسح العرق عن جبين زاده الصَّلَع اتساعا ، فكشف عن كل المصادر التى تنتج تلك الحمى ، ولا تزال تقتل أمهاتنا إلى اليوم . كشف عن كل هذه المصادر إلا مصدرين اثنين صغيرين . فلم يكن في وسعه أن يعلم أن من الأطباء ، ولو أصحاء ، من يحمل في جسمه ميكروب الحمى دون أن يدرك حامله عنه شيئا ، وهو كذلك لم يذكر شيئا من خطر الضاجعة والوضع على الأبواب .

وفي عام ١٨٥٦ كشف عن آخر مكشوفاته . ذلك أنه كان قد وصل بمستشفى الجامعة إلى خير حال ، فلم يعد يموت عند الوضع أحد من نسائه ، ثم إذا بالداء يندلع من جديد . فنظر فإذا به يجد النسوة راقدات في فُرُشهن على ملاءات بها آثار قيح وصديد . واستعرف فعلم أن هذه الملاءات كان يرقد عليها قبلهن مرضى ذهبوا إلى رحمة الله ، وأن إدارة المستشفى فعلت هذا اختزالا لنفقات الغسيل .

فصاح « زامل » وصخب . فلم يتحرك أحد لصخبه وصياحه . وكيف يتحرك قوم ليس منهم من بلغ حتى تمسه العاقبة من قريب . عندئذ زاد صياح « زامل » فصار زئيرا قاصفا . فلما أعياه الأمر جمع هذه الملاءات ، وذهب بها — بقذارتها وبما تحمل من أخطار — إلى موظف في الدولة كبير وقور . ذهب بها إلى فون تندلر Von Tandler ودخل بها إلى مكتبه ، وألقى بها تحت أنفه . فاقشعر الرجل المهذّب منها . فكان أن انقطع موت النساء في

المستشفى من جديد .

* * *

بعد ذلك أخذت تتجمع عناصر الثورة فى حنايا صدره وتهمّ بالهبوب . ففى الأحدى عشرة من السنوات الماضية لم يدخل فى دينه الجديد من أساتذة أوروبا غير أستاذين اثنين ، بينما كانت عشرات الألوف من النساء يمتن بالولادة ، وقد صارت داءا . ويحدث أن يشتد أحيانا ما أسموه وباء ، حتى إذا أفزع ، أغلقوا المستشفيات . ثم يحدث أن تكثر حوادث الإجهاض وقتل الولائد أو تركهن على قارعة الطريق ، فتعود السلطات إلى فتح المستشفيات . ومع هذا لم يكتب « زامل » فى الموضوع كلمة علمية واحدة وإنما كتب الكتب الكثيرة إلى الأطباء الأساتذة يشرح لهم ما صنع . وكانت كتبا بسيطة لا أثر للصنعة فيها ، وكان فيها اللفظ الدارج الذى لا يأذن به اللغويون . فكان ردّ هؤلاء الأساتذة على هذه الكتب الإغفال .

وفى فينّا تحكموا منه وأسموه مخبول بودابست . وفى مستشفاها كان خلفه براون Brown يأفك عنه ، ويكذب فى نتائج غسل الأيدى بالكلور ، ويقول إن النساء زادت ضحاياها بالرغم من ذلك .

ضج زامل من كل هذا ، وفرغ صبره . وأخيرا ، فى عام ١٨٦١ ، تراه يخرج إلى العالم الطبى قنبلة تنفجر تحت أنوف أطباء أمراض النساء فى أوروبا . تلك هى المقالة البديعة التى عنوانها «حمّى النفاس ، عللها ، ومفهومها ، والوقاية منها » . وهى خير ما كتب . وقد كانت مقالة فى العلم فريدة فى غموضها واختلاطها وتكرارها وكثرة لغطها ومع هذا فقد كانت فريدة فى صحتها ودقتها وقيمتها التى لا تبلى على الزمان ، وكذلك فى مساسها القريب بقلب الإنسان . وقرأ رؤساء الطب تلك الوثيقة الدامغة ، فذهلوا ، فصمتوا . كانت وثيقة ليس لحججها من جواب .

ورأى « زامل » فى هذا الصمت تعمّد إهانته ، والحطّ من مقدرته . فاختار من هؤلاء الرؤساء رؤوسا خصها بكتب له مفتوحة منشورة يريد أن يقضى بها على أصحابها .

كتب إلى الأستاذ اسكنزونى Sconzoni فى فُرْتِسْبُرج Wurzburg يقول : أشهد الله والناس أنك لذّاح سفّاح .

فلم يجبه هذا الأستاذ بشىء . عندئذ أتى زامل أمرا لا يُغتفر ، أمراً جانبَ فيه الذوق السليم ، وشرٌّ من ذلك أنه خرق به آداب اللياقة بين الأطباء ، وشرٌّ من هذين أنه نشر هذا التهجم الثائر فى مجلة علمية وهدد فيه الأطباء بأنهم إن لم يُنصتوا إليه فسيوجّه خطابه من فوق رؤوسهم إلى جمهور الناس ، إلى من يصابون فى ذواتهم بهذه الرزايا والبلايا :

« أيها الآباء ! يجىء الوضعُ نساءَكم ، فتدعون لتوليدهن الأطباء والقوابل . فهل تدركون ما تفعلون ؟ إنكم تقامرون بحياة نسائكم . أيها الرجال ، إذا أردتم أن لا تترملوا ، وإذا أردتم لأولادكم أن لا ييتموا ، استطعتم ذلك بقرش أو قرشين . اشتروا بهذين القرشين مسحوق كلورور الجير ، وصبوا عليه ماء ، فإذا أتاكم الطبيب أو القابلة فامنعوه وامنعوها أن يمسا نساءكم للفحص حتى يغسلا أيديهما فى هذا الماء ... وامنعوهما أن يمسّاهنّ حتى يكونا قد أطالا هذا الغسل فترلّجت منه أيديهما » .

فكان من أثر هذه الكتابة وأمثالها أن جرت فى الناس دعوة رددتها المجامع والمحافل : « لقد آن لهذه الذبحة أن توقف » .

(يتبع) أحمد زكى

سياسة العرب للناس

أذعت حديثاً من القدس فى أواخر الخريف الماضى موضوعه : النواحى النفسية فى خطب العرب ، قلت فى صدر هذا الحديث : لما تصدّى رجال الأدب للكلام على خطب العرب أشاروا إلى ناحية الفن فى هذه الخطب ، وأغفلوا الإشارة إلى الناحية النفسية فيها ، فقد اشتملت خطب العرب على براهين قاطعة تثبت لنا علم أصحابها بأسرار النفوس ، ووقوفهم على حقائق الطبائع ، واطلاعهم على ما يستثير الجماهير ويسكنهم ، ويغضبهم ويرضيهم ، لقد كان كثير من خطباء العرب ، عمالهم وأمرائهم وخلفائهم علماء النفس قبل أن يكونوا أمراء البيان ، راضوا النفوس قبل أن يروضوا الكلام ، وملكوا أزمّة الناس قبل أن يملكوا أزمة البلاغة ، ويكاد يكون لسعة علمهم ببواطن النفوس الأثر الأبلغ فى نجاح سياستهم فى قديم الدهر .

واليوم أتوسع فى هذا الموضوع ، فإن التوسع فيه يكشف لنا الغطاء عن مبلغ اتصال رجالات العرب بنفوس البشر وفهمهم لدقائقها ، فقد كانوا يخاطبون الناس على مقادير عقولهم ومراتبهم وأخلاقهم وأمزجتهم ، ويتجاهلون فى أماكن التجاهل ، وينخدعون فى مواطن الانخداع ، ويضعون الندى مواضعه والسيوف مواضعها ، على رأى المتنبى .

***

لقد كنت فى أثناء بعض مطالعاتى لكتب التاريخ أو لكتب الأدب أدوّن أموراً صغيرة وأمعن فى النظر فيها ، وقد يظن الإنسان لأول وهلة أنها لا شأن لها ، ولكنها كانت عنوان نجاح سياسة أصحابها .

مرة كانت هذه الأمور تدل على معاملة الناس بحسب طبائعهم وأمزجتهم ، جاء فى الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف ما يلى : « قالت عائشة : دخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج ، ودخل عمر فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء على فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد ، فقال : إن عثمان شديد الحياء ، ولو رآنى على تلك الحال لانقبض عن حاجته وقصر فيها .

قد نمر بخبر مثل هذا الخبر ، فإما أنا لا نحتفل به ، وإما أنا لا نهتدى إلى جلالة قدره فى معرفة عبقرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو عنوان من عناوين هذه العبقرية ، وما أظن أن الذين كتبوا فى سيرة الرسول أهملوا أشباه هذا الخبر ، ولو فعلوا لما كانت كتابتهم كتابة ، فقد كان سيدنا محمد عالما بنفوس جماعته وصحابته ، واقفاً على أسرار أخلاقهم ، محيطاً بغوامض أمزجتهم ، يعلم ما يغضب له فلان من الصحابة رضوان الله عليهم ، وما يرضى به فلان ويعرف ما يستثير فلاناً ، وما يسكن به فلان ، فعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة له ، اللائقة به ، حتى أشربت القلوب محبته ، وانطوت على طاعته ، فلم ينفضّ أحد من حوله ، وهذا منتهى الحذق فى سياسة الناس ، وليس يعلم ما لهذه الأمور النفسية من الشأن فى سياسة الخلق إلا الذين كتب لهم أن يمارسوا هذه السياسة ويعالجوها ، وما أكثر الذين ينفضون من حول زعيم من الزعماء لأنه فظ ، غليظ القلب ، وما أكثر الذين ينضمون إلى رئيس من الرؤساء لأنه رقيق القلب ، لطيف الحس ، ينزل الناس منازلهم ، ويخاطبهم على قدر مراتبهم ، وهذه حكمة يختص الله بها من يشاء ويحرمها من يشاء ، ولهذا الاختصاص ولهذا الحرمان أبلغ الأثر فى التوفيق فى سياسة الناس أو فى الاخفاق فيها .

ومرة تدل هذه الأخبار الصغيرة على تجاهل رجال السياسة وانخداعهم بحسب مقتضى الحال ، فقد جاء فى الأغانى فى كلام صاحبه عن عبد الله بن الزبير الشاعر الكوفى ما يلى :

لما هرب ابن الزبير من عبد الرحمن ابن أم الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره ، فتظلم منه وقال : أحرق لى داراً قد قامت علىَّ بمائة ألف درهم . فقال معاوية ما أعلم بالكوفة داراً أنفق عليها هذا القدر ، فمن يعرف صحة ما ادعيت ؟ قال : هذا المنذر بن الجارود حاضر ويعلم ذلك . فقال معاوية المنذر : ما عندك فى هذا ؟ قال : إنى لم آبه لنفقته على داره وبنائها ، ولكنى لما دخلت الكوفة وأردت الخروج منها أعطانى عشرين ألف درهم وسألنى أن أبتاع له بها ساجاً من البصرة ، ففعلت . فقال معاوية : إن داراً اشتُرىَ لها ساج بعشرين ألف درهم لحقيق أن يكون سائر نفقتها مائة ألف درهم ، وأمر له بها ، فلما خرجا ، أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم : أى الشيخين عندكم أكذب ، والله إنى لأعرف داره ، وما هى إلا خصائص قصب ، ولكنهم يقولون فنسمع ، ويخادعونا فنتخدع ، فجعلوا يعجبون منه !

ليس فى كذب هذين الشيخين : الشاعر عبد الله بن الزبير والمنذر بن الجارود شىء من العجب ، ولا فى فطنة معاوية إلى هذه الكذبة شىء من البراعة ، ولكن البراعة كل البراعة فى استعداد معاوية لسماع الكذب وهو عالم به ، وفى انخداعه وهو شاعر بالخديعة ، حتى ظن الشيخان حذقهما ، وأنهما غشاه ، وهذا أسلوب من أساليب معاوية فى سياسة النـاس ، يعلم بالكذبة فينزلها منزلة الصدق ، ويعلم بالخديعة فيحلها محل النصح ، ولو لم يفعل هذا وأشباهه لما وجد مدخلاً على قلوب الناس وتمكنا فى هذه القلوب ، وليس فى كل وقت يجوز لخليفة مثل معاوية تكذيب اللاجئين إليه ، فقد يضطر فى بعض الأحوال إلى النزول إلى مراتب تفكيرهم وحيلهم ومداخلهم ومخارجهم حتى يتم أنسهم به ، ويكمل اطمئنانهم إليه ، ولولا هذا النزول لاشتدت الوحشة منه ، وهذا مذهب لا يحذقه إلا معاوية أو مثل معاوية ، ولكن من هو مثل معاوية فى سياسة الناس ؟

وحيناً كانت هذه الأخبار الصغيرة تفصح عن مخاطبة الناس على قدر منازلهم حتى لا يشتطوا فى هذه المنازل ، قال الجاحظ : تَزَلّ رجل من أهل العسكر ، فقعدا بين يدى المأمون وشكا إليه مظلمته ، فأشار بيده أن : حسبك ! فقال له بعض من كان يقرب من المأمون : يقول لك أمير المؤمنين : اركب ، فقال المأمون : لا يقال لمثل هذا : اركب، إنما يقال له : انصرف !

هذا الخبر الذى أحببت أن أختم به المقال غاية فى الدلالة على معرفة الناس ، ولا يخطرن ببـال أحد أن فى هذا النحو من كلام المأمون شيئاً من العنجهية ، فمن الناس من لا ينقاد إلا بالشدة ، ومنهم من لا يطيع إلا باللين ، وإذا استعمل رجال السياسة اللين مع الفريق الأول أفسدوا سلطانهم وهدموا بنيانهم ، حتى تطمع العامة فى الاستطالة عليهم والمشاركة لهم فى جلائل أعمالهم ، وإذا استعملوا الشدة مع الفريق الثانى نفروا القلوب وأوحشوا النفوس ، فلا يجدون من حولهم جماعةً يجتمع بهم شملهم ويشتد بهم سلطانهم ، وقد فطن أبو الطيب المتنبىء إلى هذا المعنى فقذف ببيتيه الخالدين : ووضع الندى فى موضع السيف ... فإن إكرام المأمون لمن لا يقدر هذا الإكرام حق قدره قد يحمل على التمرد ، ولقد شاهدنا هذه الأمور بأعيننا ، ورأينا عواقب الذين استعانوا فى سياستهم بالأوباش وأعطوهم فى معاملتهم أكثر من حقوقهم ، فرجل السياسة طراز فى

مخاطبة الخاصة ، وطراز في مخاطبة العامة ، واستعمال واحد منهما في مقام الآخر مفسدة لكل سياسة ، مضيعة لكل سلطان .

* * *

لم يضبط رجال العرب ماضبطوه من الأعمال ولم يذلّلوا ماذللوه من المصاعب إلا لمعرفتهم بهذه الأمور وبظائرها ، حتى كتب لكثير من الخلفاء ، وعمال بني أمية وبني العبّاس نصيب من السياسة الراشدة في إطفاء جمرة الثورات أو في تأليف القلوب أو في الترهيب والترغيب ، لقد أصبح علم النفس في عصرنا هـذا قادراً على حل أشدّ المُعضل إشكالاً ، ولهذا يلجأ إليه في كل يوم رجال الدول ورجال الحروب ورجال الاقتصاد !

(دمشق) **شفيق جبري**

صور قضائية :

في «مسوح الخدم ؟»

كنا في عدد سابق قد أتينا على وصف بعض حوادث الخدم في بيوت مخدوميهم ، واخترنا لذلك ألواناً من الأمثلة ليشترك معنا القارئ في رسم الصورة الحقيقية لنفسية هذه الطائفة التي لا يخلو منها بيت ، والتي لا يخلو بيت أيضاً من حوادثها . فالسيدة التي تعهد ببيتها لخادمها أثناء غيابها خليقة أن تعود فلا تجد الخادم ولا تجد نقودها . . . . .

والسيد الذي يأتمن خادمه على ورقة مالية ذات قيمة عالية حرىٌ أن يطول انتظاره لعودة هذا الخادم إليه . . .

والمخدوم الذي تبلغ به سلامة النية أن يظهر خدمه على مكان نقوده اعتماداً على أنه يحتفظ بالمفاتيح في جيبه ، جدير أن يفتح يوما عينيه فلا يجد غير هذه المفاتيح . . .

والسيدة الحريصة التي يخيل لها وهمها أنها احتاطت لكل طارئ حين منعت النقود أن تصل إلى يد خادمها عن أي طريق لا يحول حرصها دون أن يقوم الخـادم ببيع كتب سادته الصغار ليجد هذه النقود . . . . . .

والسادة الذين يبلغ من سذاجتهم أن ينظروا إلى الفتاة التي بلغت الثانية عشرة من عمرها . على أنها لا تزال طفلة سيفتحون أعينهم يوما على « قصة غرام » بينها وبين أقرب مقربٍ من هؤلاء الأبالسة الذين يملأون الطرقات . وسيكون دورهم في هذه القصة أنهم يقومون « بتمويل » أبطالها من حيث لا يشعرون . . . . . .

وقد أوضحنا هذا كله في كلمتنا السابقة . وبقي عندنا بعد ذلك مثالان بارزان كنا جديرين بأن نفرد لهما كلمة خاصة لما اشتملا عليه من غرائب الملابسات . . . .

* * *

أما المثال الأول فهو ما قصته سيدة كريمة حين ذهبت إلى قسم البوليس لتبلغ أنهـا قصدت يوما ما إلى منزل « الخياطة » التي تعاملها . وبينما هي هناك إذ دق الباب ، فقامت إليه ربة الدار وفتحته فإذا أمامها صبي وسيم يلبس (بدلة) نظيفة فحياها بأدب ثم قال إنه هو الخادم الذي كانت قد أوصت « الخدم » ليبحث عنه . فأفهمته السيدة أنها لم تكلف أحداً بالبحث عن خادم ، وأنها ليست في حاجة إلى خادم لأنها تقوم بخدمة بيتها بنفسها . . . وكان المفروض أن يقف الحديث عند هذا الحد ، وينصرف الغلام إلا أنه ظل واقفاً في خجل ظاهر ، ثم سأل السيدة عمـا إذا كانت لا تعرف أسرة في حاجة إلى خادم . . .

وكانت السيدة « المبلّغة » قد سمعت طرفا من الحديث وكان الفتى قد راقها بأدبه ونظافته ووجاهته . واسترعى انتباهها بغرابة سؤاله . فتقدمت إليه مستفسرة عن أصله وحاله ، وكيف أنه يسعى للخدمة ، وهو على هـذه الصورة

أشبه بتلاميذ المدارس منه بالخدم . فقال الفتى إنه العبد فعلا وإنه من مدينة الإسكندرية . ثم اغرورقت عيناه وهو يروي لها أنه كان وحيد والديه وأنهما ذهبا ضحية الغارة الجوية الأخيرة التي أصابت الإسكندرية ، وأنه وفد إلى القاهرة مع المهاجرين لا يدري إلى أين يذهب ولا كيف يعيش بعد فقد أهله . وأنه لبث في ميدان محطة القاهرة يومين يأكل مما يخرجه أهل البر الذين عطفوا على هؤلاء المنكوبين في محنتهم . ثم رأى أن لابد له من مواجهة الواقع بشيء من الشجاعة . والبحث عن طريقة شريفة يعيش منها . فهداه تفكيره إلى عرض نفسه على البيوت لعل أسرة تأويه في مقابل قيامه بخدمتها . . .

وتقول السيدة إن قلبها رق لحديث هذا التعس . وهزتها الأريحية فتطوعت باصطحابه معها إلى دارها لا ليخدمها ولكن لينضم إلى بقية أولادها ، يعيش بينهم ويذهب معهم إلى المدرسة — وهناك دخلت به على زوجها فأنكره . وسألها عن أمره ؛ فروت له قصته مُدِلّة بحسن صنيعها تباهيه بما اصطنعته معه من السماحة والشهامة . فقال لها : أما كفاك ما عندنا من البنين حتى تضمي أبناء الناس إلى أبنائنا وتحمل عنهم هموم ذراريهم وكان شقاق مما يقع عادة كلما جد على البيت جديد . ولكن الأمر انتهى ببقاء الولد — كما لابد أن ينتهي عادة كل أمر يختلف فيه الرجل مع زوجته . . .

وعرفت السيدة من الغلام أنه كان في السنة الثالثة الابتدائية في مدرسة من مدارس الإسكندرية ، فرأت أن تختبر صدق حديثه . وكان يسكن بجوارها ناظر إحدى المدارس الابتدائية المحترمة فاستزارته . وكانت بين الأسرتين مودة قديمة فحضر من فوره وعرضت عليه الفتى فامتحنه في بعض العلوم المقررة على تلاميذ السنة الثالثة ، فحسن جوابه عنها واسترعى انتباه الناظر ما آنسه في الصبي من الفطانة والبديهة الحاضرة . فتطوع بالمساعدة في قبوله بين تلامذة مدرسته . وحانت صلاة المغرب فقام الفتى وتوضأ وطلب سجادة للصلاة ، فطارت السيدة به فرحا . وأخذت تعير به أولادها الذين لم يكونوا يعرفون من الصلوات إلا صلاة الجمعة يقيمونها في المنزل خلف الراديو بعد أن تستدرجهم إليها إذاعة الصباح وما فيها من أحاديث الأطفال .

* * *

وانقضى المساء ونام أهل البيت ثم قاموا في صباح اليوم التالي على صوت الفتى ، وهو يصلي الصبح فأعدت له السيدة طعامه ، وأرسلته إلى المدرسة بعد أن سلمته قيمة القسط المستحق من مصروفاته ليؤديه إلى الناظر . وقضى الصبي سحابة نهاره خارج المنزل ثم عاد في موعد انصراف المدارس ومعه كراساته وكتبه فأكب عليها يكتب ويحفظ إلى أن حان موعد العشاء ، فشارك رب البيت فيما كان يخصص له من الطيبات وحمد الله وأثنى عليه ثم قام إلى فراشه لينام . .

وفي صباح اليوم التالي استيقظت السيدة على صوته أيضا فدعت له بالفتح والبركات وتقلبت في فراشها مغتبطة . ولعلها نظرت في عيني زوجها لترى إن كان مستيقظا حتى لا يفوتها تنبيهه إلى هذا الملاك الصغير الذي عوض الله صبرها فيه عن عتاب زوجها خيرا . والذي أرسله الله لها ليبارك منزلها بصلاته الطاهرة . ولكنها لم تسمع صلاة ولا تسبيحا . فأنصتت وأرهفت سمعها غير أنها لم تسمع إلا غطيط زوجها وأبنائها ، فقامت على أطراف أصابعها تبحث عن الفتى فاصطدمت بسترة زوجها ملقاة على الأرض وقد خلت من حافظة نقوده التي اعتاد أن يضعها في جيبه الداخلي فنزلت تجري نحو الطريق تلتمس الصبي في جنباته . وقد غمر نفسها من خيبة الأمل في الغلام أضعاف ما غمرها من الحسرة على فقد النقود — وكان عبثا

بطبيعة الحال أن تبحث عن ضالتها على هذه الصورة ، فعادت إلى بيتها ولم تجد أمامها إلا الالتجاء إلى نخوة زوجها . . . ونجدة رجال البوليس !

* * *

وأشعر أن قصة هذا الفتى مما يحب القارئ أن يتابعه ليعرف على أي منظر أسدل الستار أخيرا . . . وها أنا أروي له ما أسفر عنه التحقيق :

اضطلع رجال البوليس الملكي بمهمة البحث عن الغلام بعد أن أخذوا أوصافه . وأشارت بعض الصحف إلى قصته ، على أنها صفحة من كتاب الغرائب في هذه الحياة . ولم تمض أيام حتى كان الفتى قد ألقى شباكه في حي آخر ، يبحث عن فريسة جديدة يخدرها بأقاصيصه المزوقة الملفقة . فما أن استقر في أحد بيوته وعلم بأمره رب الدار حتى فطن إلى حقيقته وأسرع فأبلغ البوليس عنه . فضبطه وعرضه على السيدة الأولى فعرفته واضطر الفتى إزاء انكشاف أمره إلى أن يلقي سلاحه ، ويعترف بحقيقة حاله ، فقال إنه قبل كل شيء ليس من الإسكندرية ولا من أهلها . ولكنه من أهل القاهرة . وإن أبويه لم يصبهما مكروه لا من الغارات ولا من غيرها . وإنهما لا يزالان على قيد الحياة . وإنه كان يقيم معهما في حي .... وكان إلى جانب المدرسة التي يختلف إليها رجل يقف بعربة صغيرة عليها صنوف من الحلوى يحمل كل صنف منها رقما من الأرقام . ولم تكن هذه الحلوى تباع كما تباع السلع في الحوانيت ، ولكن كان إلى جانبها جهاز « الرماية » مما يفتن عقول الصغار . وهذا الجهاز عبارة عن لوحة عليها علامات ملونة ذات أرقام مختلفة تطابق الأرقام التي على الحلوى ، فإذا ضرب اللوحة بيده دارت حول نفسها ، فيأخذ الصبي (بندقية) من الرجل ثم يطلقها على اللوحة وهي تدور فتصيب أحد أرقامها . فيأخذ من الحلوى ما يتفق رقمه مع الرقم الذي أصابه ، وقال الفتى إنه أولع بهذه اللعبة ولعا شديدا . ولم يكن يجد دائما من المال ما يمكنه من ممارستها كلما تاقت نفسه إليها . ولمح الرجل فيه هذه الهواية ، فكان يدعوه إلى اللعب بغير مقابل . فأنس إليه وتعلق به . وصار يقضي أوقات فراغه كلها واقفا إلى جانب عربته . وغمره الرجل بهداياه الصغيرة حتى شل إرادته وجعله ينقاد له في كل ما يطلب إليه عمله ، ثم أخذ يزين له الحصول على المال بطريقة سهلة مأمونة العاقبة . ورسم له خطة دخول المنازل على تلك الصورة التي سبق وصفها ، ويلبس « مسوح الخدم » ليستولي في غفلة من أهلها على كل ما تصل إليه يده من نفائسها ثم ينصرف دون أن يحس به أحد . . . . .

وقال الفتى إنه نجح في مغامرته الأولى ، ولكن نجاحه وقف عند هذا الحد لأنه ضبط وهو في مستهل مغامرته الثانية . وقال إنه سلم ذلك الرجل حافظة النقود التي سرقها من المنزل الأول كما كان قد سلمه المصروفات المدرسية التي قبضها ليؤديها إلى ناظر مدرسته .

* * *

والذي نود أن نلاحظه تعليقا على هذه الواقعة هو أن من وراء الأحداث المجرمين عادة يدا تحركهم ، وترسم لهم الطريق . وأن الضرب على يد واحدة من هذه الأيدي يكون أجدى على المجتمع من مؤسسة كاملة تعد لإيواء هؤلاء الأحداث وتهذيبهم وإصلاحهم ، والبركان الثائر الذي يلقي بحممه على رؤوس من حوله لا ينتهي شره بجمع هذه الحمم التي يقذف بها تباعا ، وإنما يأمن الناس شره إذا غاض معينه وتطهر جوفه . ولعل هذا المعنى يزداد وضوحا في نفس القارئ بعد أن نعرض عليه المثال الآخر الذي وعدنا به في صدر هذه الكلمة ، والذي سنسوقه في الكلمة التالية إن شاء الله »

ع . ج

قاسم أمين الوطني

– ٢ –

لنقف مرة أخرى عند وجه من وجوه الوطنية العامة حتى نتعرف وطنية قاسم أمين من سائر نواحيها ، وقد أسلفنا فقلنا إن قاسم أمين كان مؤمنا بالتقاليد والمثل العليا التى سلمت فى تفكيره والتى رآها تنحدر إلينا فى تاريخنا الدينى والقومى . ولكن لا تحسب أنه لم يثر على التقاليد والعادات التى رآها ضارة بالمجتمع الذى عاش فيه . فالوطنى بعض أحيان يكون من الساخطين . فهو يريد أن يرتفع بقومه إلى حيث يصور له الأمل ويطير به الخيال ، ولكنه يرتد فإذا بقومه تقعد بهم النقائص وإذا بهم يعجزون عن بلوغ ما صوره خياله . لقد تكون ثقافته كاملة وقد يكون أفقه متسعاً ، وقد يدرك من القوة الخفية التى فى أمته ما لا يدرك الآخرون ، فهو يدعو لكنه لا يجد استجابة لدعوته ، وهو يعلم ولكن قليلا من يتعلم . وهو ينقلب بعد ذلك ثائراً ساخطا يدل قومه على نقائصهم ويسخر منها ويهزأ بها يحاول أن يبصرهم بما هم فيه . وكذلك كان قاسم أمين من الوطنيين الساخطين .

لقد ذهب بعض علماء الأخلاق إلى أن السخط أساس أخلاق وأنه دافع قوى نحو العمل . وكذلك كان السخط عند الوطنيين الساخطين دائما . أنت تقرأ الشعر فى مختلف عصوره وعند مختلف الأمم فماذا ترى ؟ ترى أن فريقا كبيرا يهجو قومه ويصور لهم نقائصهم فى صورة بشعة ، وأنت تقرأ الشعر المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فلا تعدم هذا الهجاء الساخط ، بل أنت تقرأ للأستاذ الإمام ولجمال الدين فترى أنهما من الساخطين . كل هؤلاء كانوا يريدون الإصلاح وكان يضيق بهم ألا تستجاب دعوتهم فكانوا يلجأون إلى تصوير النقائص التى يحسون ، كلٌّ بالأسلوب الذى يرى . وكان قاسم أمين من هؤلاء .

ذلك إذن وجه من وجوه الوطنية عند قاسم أمين وهو الوجه الذى طالما أسىء فهمه . فقد حسب قوم أنه حين كان يعدد النقائص التى يراها ، إنما يفعل ذلك لحب النقد لحسب . لكنك إذا تدسست فى الصميم من نفس مثل هذه راعك منها أنها نفس مصلحة جاهدة وأنها ترى من الإصلاح أن تكتب من وجوه النقص ، وهى نفس وهبت حسن البيان فاستطاع صاحبها أن يترصد لهذا النقص فيصف مظاهره . هناك أحاديثه اللاذعة عن الفقر فى مصر ومن نقص التربية وعن الأنانية وحب الوظيفة والتفانى فى سبيل الصالح الشخصى . وهناك أيضا أحاديثه عن العادات المستهجنة فى حفلات الجنائز والزواج ، وهناك كتبه التى رصد فيها وقائع تمثل الرذائل فى الحياة العامة كل هذه كتب منها فى لهجة الساخط الغضوب . ولكنه لم يكتب للسخط فقط ولا للغضب فقط وإنما كتب لوازع وطنى فى نفسه ولحب أصيل للإصلاح .

والساخطون فى كل عصر وفى كل صقع كانوا من زعماء الإصلاح . بل لعلك لا تستطيع أن تذكر مصلحا له وزن فى التاريخ العام إلا كان ساخطا على البيئة التى نشأ فيها . ألم يكن سقراط من الساخطين على النظم الفلسفية والسياسية التى اعتنقتها أثينا ؟ أو لم يلق حتفه لأن أهل أثينا صوروه فى صورة الثائر الذى يحاول أن يفسد الشباب ؟ كذلك كان مرتن لوثر ، وكذلك كان فولتير . بدأوا جميعاً ساخطين ثم انتهوا إلى ما قل أو كثر من الإصلاح الذى ما زلنا نلمس آثاره حتى اليوم .

* * *

ولكن مثل هذه الوطنية كان لا بد لها أن تتصل

بالفكر الأوروبي عن قرب أو عن بعيد . وقد اتصلت فعلا بالفكر الأوروبي لأن قاسم أمين عاش في أوروبا أربع سنين ولأنه قرأ الفلسفة الفرنسية والتاريخ الفرنسي قراءة مهمة . وهو بعد ذلك ينظر إلى أوروبا نظرتين تختلفان كل الاختلاف ولا تكادان تتفقان إلا في أنهما نظرة شخص واحد . أما النظرة الأولى فهي نظرة السخط على أوروبا أو قل نظرة المظلوم إلى ظالمه والنظرة الأخرى نظرة الإعجاب بالفكر الأوروبي وبالحضارة الأوروبية وبالتقدم المادي الذي بلغته أوروبا .

بدت هذه النظرة الأولى جلية في رده على الدوق داركور ، وهناك بدت وطنيته التي أثارتها مطاعن الدوق الفرنسي . ولم تكن وطنيته هذه سياسية إلا بمقدار وإنما كانت وطنية ثقافية . لم يكن ينظر إلى انجلترا حين يدافع عن بلاده وإنما كان ينظر إلى أوروبا بأجمعها . كان يعلم أي افتئات على العدل ، وأي اجحاف وقع على آبائنا وأجدادنا حينما تحجرت الامتيازات الأجنبية فدبت بالفساد في جذور الحياة المصرية . وقد كانت الدول الأوروبية لا ترعى حرمة في سبيل مصالحها الخاصة . وكان القنصل الواحد يحكم شبه مملكة مستقلة لا تحترم قانون الدولة ولا تدفع ضرائبها ولا تقوم بواجباتها . وكان لباريس ولندن وبرلين حق النقض لكل ما تحاول أن تقوم به القاهرة من إصلاحات . ذلك هو بيت الداء الذي لمسه قاسم أمين حين تحدث عن علاقتنا بأوروبا . وهو كما ترى على حق وأفقه الوطني كان متسعاً من أول الأمر ونظرته إلى أوروبا كانت نظرة عامة ارتفعت عن الأهواء السياسية الصاخبة .

تلك إحدى النظرتين اللتين وجههما قاسم أمين إلى أوروبا . أما نظرة الإعجاب فقد كانت شيئاً يختلف عن ذلك كل الاختلاف . كان يعلم أن في البلاد الأوروبية حرية تطوع للرجل أن يكتب ويخطب ويتحدث كيف شاء وكان يعلم أن قوانين الحرية والإخاء والمساواة قد شاعت بين الأفراد والجماعات . وكان يرى أن الغنى أهم ما يميز الجماعة الأوروبية وأن الثروة نفسها قد أتت على الجهل والمرض فكادت تلاشيهما ، بل كان يرى فوق ذلك أن التقدم المادي الذي بلغته أوروبا قد قام على أساس من الخلق المتين وأن الجرأة والإقدام والشجاعة أجزاء متماسكة من هذا الخلق . ثم لقد كان يرى فوق ذلك أن المرأة الأوروبية قد بلغت شأواً بعيداً في سبيل التعليم والحضارة . نعم كان يرى كل ذلك ويعجب به وكان يحاول جهده أن يضرب الأمثال بالأوروبيين والأمريكيين في كل مجال من هؤلاء . وكانت وطنيته نفسها تنقلب إلى شعور بالغيرة وكانت غيرته تدفعه إلى الدعاية لهذه المبادئ الأوروبية التي استقامت له من دراساته المختلفة ومن قراءاته الواسعة البصيرة .

* * *

وأرجو أن تكون قد أدركت معي كيف جمع قاسم أمين بين ثنائيات تحسبها في أول الأمر تناقض وما هي بالتناقض . فقد كان تركيا ومصريا في وقت معاً ؛ وكان يحب المسلمين ويدافع عن عقائدهم ضد الذين خاضوا في دينهم عن جهالة ، وكان في نفس الوقت يكره من المسلمين استكانتهم إلى الرذائل التي انحدرت إليهم وإلى العادات الضارة التي ألفوها . وكان راضياً عن دينه كما يصوره لنفسه ، لكنه كان ساخطاً على هؤلاء الذين اتخذوا من الدين ستاراً لرغائبهم وشهواتهم . فهو يجمع بين أضداد تراها دائماً في حياة كثير من المصلحين . وكل مصلح يصور لنفسه مثلا أعلى يطمئن إليه ويدافع عنه ، لكنه إذا هبط من عليائه خياله إلى الواقع الحسي شعر بآماله المراض وهي تتزايل . وهو إذا واجه أوروبيا دافع عن كيانه الوطني فصور مثله الأعلى لكنه إذا واجه أبناء وطنه أظهر السخط عليهم فصور

لهم حقائق حياتهم كما يراها .

ولا يهولنك أن يكون قاسم أمين ذا شخصية متناقضة كما صورت لك . فقد بحث كثير من النفسيين شخصية الإنسان وانتهى بعضهم إلى أن لكل إنسان أكثر من شخصية واحدة . لست أريد أن أذكرك «بدكتور جيكل ومستر هايد» ولا أية واحدة من هذه القصص التى قرأناها فى العصر الحديث ، لكن الذى ثبت أن لكل إنسان أكثر من محيط واحد يكوّن شخصيته . فإذا هو اختلط بإخوان له كوّن اجتماعه لهم شخصية خاصة به قد تكون مرحة وقد تكون بسيطة يسيرة وإذا هو اضطرب فى زحمة من الأجانب تقمصته شخصية أخرى قد تكون كئيبة حزينة . وكذلك قل عن الفرد بوجه عام فهو ذو شخصية عالية إذا تثقف بثقافة عالية وذو شخصية قومية محدودة إذا اجتمع بأبناء وطنه وذو شخصية عائلية حين يسكن إلى زوجه وبنيه . وهو يؤلف فى حياته الخاصة بين هذه الشخصيات جميعاً فتتناوبه حين يتقلب فى وجوه الحياة .

والشرقيون الذين تثقفوا بثقافة الغرب وعاشروا أهل الغرب ردحا من الزمان والذين أشربوا أصول المدنية الغربية قد امتازوا دائما بأن لهم شخصيتين تكاد تنفردان الواحدة منهما منفصلة عن الأخرى . أما الشخصية الأولى فهى الشخصية الشرقية التى نشأت معهم ؛ وهى الشخصية التى تحتفظ بالتقاليد والعقائد الأولى وهى مستمدة من بيئة الإنسان حين نشأ فى المهد ، أما الشخصية الثانية فهى الشخصية الغربية التى كونتها البيئة المتنوعة الأخرى . الشخصية الأولى هى التى تعاود الإنسان كلما حنّ إلى بلده أو دينه ، والشخصية الثانية هى التى تملك عليه التفكير حينما يريد أن يقتدى بأهل الغرب . والشخصيتان تتعاوران الإنسان فيجدان أزمة حادة أو قل محنة نفسية لا يقدر مداها إلا الذين تمرسوا بها ممن آمنوا بالشرق منبتهم الأول وممن آمنوا بالغرب حين أصبح منابتهم الأخرى . هى أزمة نفسية حادة لأن الشرقى من هؤلاء يحاول دائما أن يوفق بين عقائده التى اختلطت بقلبه وبين ثقافته التى نشّأت عقله . وبين العقل والقلب فجوة قد تتسع بعض أحيان وتتسع حتى لا سبيل إلى التئامها .

كذلك كان قاسم أمين من أولئك الذين ازدوجت شخصيتهم . فهو يضع قدما فى الغرب وقدما أخرى فى الشرق . وهو ينظر بعين إلى أوروبا ويرنو بالعين الأخرى إلى مصر . وهو بعد ذلك حامل ثقافتين حاول أن يلائم بينهما . وهو قد وجد نفسه فى المحنة التى وصفنا . وهو قد أصيب بأزمة نفسية حادة حين أخذ نفسه بالتوفيق بين الشرق وبين الغرب . فلا تعجبن إذا بدت لك شخصيته الشرقية المسلمة فى أحيان وإذا ظهرت لك شخصيته الأوروبية المتفرنجة فى أحيان أخرى . ولا تحسبن أنه متناقض حين يرد على الدوق داركور فيذكر فضائل الإسلام ومصر ، وحين يكتب فى تحرير المرأة فيذكر نقائص المسلمين والمصريين . ولا تلومنه إذا نظر إلى أوروبا فى مرة نظرة هازئة مستصغرة وإذا هو نظر إليها فى مرة أخرى نظرة هادئة مستكبرة . فليس كل هذا إلا نتيجة لتلك الشخصية المزدوجة التى حاولنا أن نبسط الكلام فيها .

* * *

وحسبنا أن نذكر أنه كان وطنيا وأن الوطنية عنده كانت متعددة النواحى . فلم تكن وطنية مدافعة فحسب ولم تكن وطنية معمرة فحسب ولم تكن وطنية ساخطة فحسب بل كانت وطنية معقدة تشمل كل هذه النواحى ؟

(المنصورة) **أحمد فاكى**

خلـــط بين القيم

يقول ديهامل : « إن دليل الصحة هو أن لا يفكر الفرد في جسمه ، فهو يتخذ كل يوم بعض الاحتياطات الأولية ، وبذا تتم عنايته به ، فيأكل ويشرب ويغتسل ويمدو إلى أعماله . فهل تراه من ساعة إلى ساعة ومن دقيقة إلى أخرى يتساءل في لهفة عن حركة بنكرياسه أو غدده الكلوية ؟ أبدا . بل إن هناك مجالا للأمل في أن يجهل حتى اسمها وحتى موضعها من الجسم ، فإذا أحس بمعدته دل ذلك على أن هذه المعدة ليست في حالة جيدة » . وما يصدق على صحة الجسم يصدق على اتزان الهيئة الاجتماعية وسلامة بنائها ، فعند ما نسمع أصواتاً ترتفع من كل جانب تنادينا بأن نضع الأدب في خدمة الحياة الراهنة ومعالجة مشاكلها ، وأن نقف أقلامنا على الحديث عن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ؛ وعند ما نرى جهودنا في بعث تراثنا القديم أو نقل التراث الجديد إلى لغتنا ، عند ما نرى كل محاولاتنا في توسيع أفق الفكر أو إرهاف الحس توصف بأنها « هراء مسخته رغبة المهارة وخلبته صفة البراعة وحب الظهور ، حتى انحط عن بعض ألعاب التسلية ، أو صار وسيلة للكسب ومطية لخدمة الأغراض الخاصة ... الخ » ، مما تفضل فجاد به صاحب مقال « ما بعد المنهج الفقهي » ، عند ما يحدث كل ذلك لا نملك أن نصيح في عزم وقوة بأن الهيئة الاجتماعية التي نعيش بينها مريضة ، وأن من واجبنا وواجب كل من يستطيع شيئاً في هذا السبيل أن يعمل لتشخيص الداء والتماس الدواء .

أما أننا نعيش في هيئة اجتماعية مريضة ، فذلك ما لا يقبل الشك ، وفي وفرة ما يكتب اليوم عن حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية أكبر دليل على ذلك المرض ، وإنه لمن الواجب كما قلت أن نلتمس العلاج ، والآفة الكبرى التي لا بد من تسليط الضوء عليها هي آفة الخلط بين القيم .

في المقالة التي أناقشها الآن خلط بين أشياء لم تفهم ، فالكاتب قد خلط بين الأدب وغيره من مواضيع الكتابة كالسياسة والاجتماع والاقتصاد ، كما خلط بين الأدب ومنهج دراسة الأدب .

خلط الكاتب بين الأدب وغيره من الأبحاث ، ومصدر الخلط في تفكيره إنما أتاه كما أتى غيره ممن نقابلهم وتسمعهم بكل سبيل من معرفته معرفة ناقصة مبتسرة ببعض الجمل التي أذاعها المبسطون بأوربا كعبارة أرنولد عن الأدب بأنه « نقد الحياة » ، وعبارة كارل ماركس عن فلسفة التاريخ « مادية التاريخ » ، أي تحكم نظم الاقتصاد في تطور التاريخ ، ورسم الخطة لذلك التطور ، وأما أن يتمهل كاتبنا في فهم ما يعنيه أرنولد « بنقد الحياة » ، وأما أن يمعن النظر في العوامل الإنسانية غير المادية التي لا تقل أثراً عن النظم الاقتصادية في السيطرة على سير التاريخ ، فذلك ما لا يريده كاتبنا ، ولعله لا يستطيعه .

لقد أصبحت عبارة « نقد الحياة » Criticism of life عند كاتبنا مرادفة « للاهتمام البارز بالحياة وأنباء الحياة » ، « وإدراك ما للنظم الاقتصادية من المؤثرات الأولى في حياة الناس والجماعات روحياً ونفسياً ومعنوياً » . وبذلك يوفق — فيما يظن — بين نظرية أرنولد في الأدب ، ونظرية ماركس في فلسفة التاريخ ، ويكون حتما على الأدب أن يكون همه الأول مثلا الحديث عن الصناعة بمصر وما تبشر به نشأتها من نمو الوعي السياسي عند طبقة العمال ، وعن توزيع الثروة في مصر وطرق إعادة ذلك التوزيع على أساس جديد ، وما شاكل ذلك ، وأما

أن يتحدث الأدب عن حياتنا النفسية ، وأما أن يعد الأدب من آفاق تفكيرنا ، وأما أن يرهف الأدب إحساسنا ، وأما أن نحاول بعث ماضينا ، أو نشر الثقافة الحرة ، فكل هذا هراء وادعاء وحذلقة . لو صح هذا لوجب أن نوفر جهدنا على الصحف الحزبية اليومية تنشر فيها بهذا المذهب أو ذاك .

والداء بعد أعمق من كل ذلك ؛ فهناك خلط مخيف بين الثقافة الحرة والتفكير العملي . هناك عدد من الشبان يظنون أننا لسنا بحاجة إلى الثقافة الحرة ، لأن هذه الثقافة لا يحتاجها إلا المرفهون المتمرون الأغنياء ، وما نحتاجه نحن إنما هو التفكير العملي ، أي التفكير السياسي الذي يتقف بالحلول التي يدعو إليها ، والتي قد ينجح في تخفيفها من فقر البؤساء والمحرومين والمظلومين ؛ وكاتب هذه السطور ليس بغافل عن البؤس والجهل والمرض ، ولا عن فتك تلك الأوبئة بمواطنينا ، ولقد سبق له أن تحدث عن ذلك في « الثقافة » ذاتها بعنوان « بؤسنا المادي » ؛ ولكنه يرفض الخلط بين الأشياء ، ويرى في هذا الخلط جهلا مخيفا يجب أن يحاربه بكل قوته .

مثل من يزعمون أن الثقافة الحرة ترف لا نفع من من ورائه كمثل من يقول لدول المحاربة إن من واجبك أن تغلق جامعاتك ومعاملك لأنك لست في حاجة إلى التفكير الخالص ، بل في حاجة إلى مصانع الذخيرة والمؤن وأمثالها كهذا لا يدل بنصيحته تلك على فهم عميق ، فإن الجامعات والمعامل هي التي تفتح المصانع ، واليوم الذي يتوقف فيه التفكير الخالص عن العمل ، ستتوقف فيه المصانع لأن هذه إنما تطبق التفكير الخالص الذي يبدو للجهلاء بعيد الصلة بالإنتاج المادي .

وكذلك الأمر في الأدب الخالص ، فهو الذي يجد أدواك كاتبنا فيستطيع أن يصف التفكير الحر بأنه « هراء »

وهو الذي يرهف حسه فيجعله يقدر بؤس غيره ، بل هو الذي يحمله على الوعي بما هو فيه من بؤس ، هو ونحن والجميع ، وعندما يقف الأدب عن تقديس الماني الخالدة من خير وجمال لن يستمع أحد لصيحات كاتبنا ولو صاغها قوية قوة كتاب « رأس المال » .

ثم أي فائدة في أن نعيد ما قلناه وقاله غيرنا مئات المرات . في مصر ظلم اجتماعي في توزيع الثروات ، بل في توزيع الحقوق حتى القانوني منها ، وهذا ما يعرفه الصغير والكبير . في مصر إلى جانب الظلم الاجتماعي فقر عام ، لا سبيل إلى علاجه بغير تعزيز الصناعة ، في مصر جهل لن يبدده إلا علم صحيح مغاير لما نراه الآن في معاهدنا الصغير منها والكبير . في مصر مرض لن يقضى عليه مالم تعالج عقلية الأطباء . في مصر أدواء كثيرة نعرفها جميعاً ونعرف طرق علاجها ، ولكن العلاج لن يجدى إلا إذا أمدنا التربية الخلقية لمن يقومون على ذلك العلاج ، وأى نتيجة لكتابتي وكتابة غيرى في كل ذلك . الأمر لا يحتاج إلى كتابة وإنما يحتاج إلى عمل . يحتاج إلى تنظيم أحزاب ، وهذا ليس من شأني كرجل قد قبل أن يقف نفسه — الآن — على نشر الثقافة في حدود قدرته .

واجبي إذن هو أن أقول لكاتب المقال إن نقد الحياة ليس معناه ما ذكرت ، وإنما معناه « فهم الحياة » أي فهم النفس البشرية ، ذلك الفهم الذي يغضبك أن نوفر عليه قلمنا ، وكل ما نكتب ليس له غاية غير هذا الفهم سواء أكان من « خوالج نفسيه أو طرائف لغوية أو موضوعات نموذجية أو آلام وآمال خاصة » ونحن مطمئنون إلى أن جهدنا لن يضيع سدى إذا وصلنا إلى شيء مما نريد .

وأكبر دليل على أن أرنولد لم يقصد من « نقد الحياة » إلى ما ذكرت هو أن الرجل قد أنفق جهدا كبيرا في إقناع معاصريه بضرورة دراسة القدماء وبخاصة الإغريق

مما تستطيع أن تتبينه من « مقدمته » لقصائده ومن « مقالاته فى النقـد » وهو يفعل ذلك لإيمانه بأن القدماء قد فهموا من النفس البشرية جانباً كبيرا ، وأنهم قد صاغوا مافهموا فى مجال لا نعرف أمثل منه فى تهذيب النفـوس .

وأما عمـا تراه من فهاهة التوفر على دراسة الجاحظ وقدامة والعسكرى والجرجانى فأمر عجيب . إن حاولنا بعث تراثنا القديم قال : أمثالك هـذا هراء ، وإن حاولنا نقل التراث الغربى فلم هؤلاء ، قوم مترجون فاذا تريدوننا أن نفعل . أظن أنه الصمت .

هناك شيء يجب أن نقوله وهو أننا اليوم فى مرحلة يجب أن تتوفر فيها كل الجهود على أمرين (١) نشر الـكتب العربية القديمة ودراستها وبعثها (٢) نقل التراث الأوربى عن سبيل الترجمة . ومن الواجب أن يفهم الجميع أن النشر والترجمة هما أشرف عمل وأنبـل نشاط نستطيع التوفر عليه الآن ، بل أقول إنه من الضرورى أن نعرف معنى التواضع والأمانة العقلية وروح العلم الصحيح ، وأن نشرب أنفسنا بالوطنية ، فنعمل مخلصين لمصلحة بلادنا بنشر تراثنا القديم ونقل التراث الغربى كاملين فعندئذ يحق لنا أن نفتخر بعملنا ، وأن نعتز بمجهودنا إذ نكون قد مهدنا لنهضة وطننا نهضة حقيقية لا كتلك التى تخدعك اليوم وما هى إلا بهرج زائف ونصب عقلى .

أى نفع لبلادنا بل لأنفسنا فى أن ندعى التأليف ويكون عملنا هو عدم أمانة فى الترجمة . نترجم ما يسهل علينا فهمه ونهمل ما يشق ثم ننثر حول النص الأوربى شيئاً من هنياتنا الشخصى ، وبعد ذلك ندعى أننا قد ألفنا كتبا . ومن يستطيع فى هذا البلد أن يدرك أصالتك إن كانت لك أصالة وأنت تتكلم عن نصوص ، ومؤلفين ومؤلفات مجهولة من الجميع .

إن كان صاحب المقال حريصا على موضوع أدبى عملى يكتب فيه فيصيب من ورائه المجد فأنا أدل على ذلك الموضوع الذى لا يقل أهمية عن المسائل الاقتصادية ، وذلك هو أن يحمل الحكومة على إنشاء «وزارة للنشر والترجمة» لا تقل ميزانيتها عن ميزانية أكبر وزارة ، وأن يكون عمل تلك الوزارة . نشر الـكتب العربية القديمة ، وترجمة عيون الأدب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والـكيمياء . . . الخ الموجودة الآن بالعالم الغربى . وإنشاء تلك الوزارة خير من فتح عشرين جامعة .

عندئذ سأومن بأن كل مشاكلنا ستحل ، وأن أفراد الشعب سيجدون تلك الحلول ويعلونها على حاكيهم ؟ فإن لم يستطع كاتبنا أن يقوم بحملة كهذه رجوته أن يتركنا ... الأستاذ خلف الله وأنا نقتل رغم صداقتنا الشخصية حول منهج الأدب وحقائق اللغة ، فمن يدريها لعل هذه الهنات الهينات أن تخصب نفسا أو تشق خيالا أو تهذب ذوقا .

محمد مندور

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

	مليم	
الاشتراك لستة أشهر	٤٥	فى مصر والسودان
	٣٧/٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

من أدب البأس :

حظوظ

فاتك الروض ، فشح أو غرد
والهب عاطفة أو فاجمد

لا تقل : ما بالها من أمة
أخطأت فيها رشاد المهتدي

رب شاد رجعت عنه الربا
بأمر السمع بلحن الغيد

ساحر الترنيم مخمور الصدا
فاتن اللحن جميل جيد

أخذت عنه الشوادي فهو في
أمة الطير كريم المحتد

ينظم اللحن بأعناق الربا
نسق الماس صدور الخرد

لم يجد ظلا وماء فمضى
لجنى قفر جديب مجهد

وشقيق النحس من غربانها
فاز بالغض الوريق الأملد

حكمة أقصت عن الدوح ابنه
واصطفته للغراب الأسود

***

وكريم العود من أزهارها
عطلت من حسنه لم يحمد

وبعيد الشوط من أفراسها
قاده العدو كريم أبعد

كلما جمجم هدت قلبه
بأذى الشكم وسوط المعتدي

فخذ الدنيا على علاتها
وتبلد تسترح أو تسعد

على شرف الدين

تحية الشعر

من الأستاذ أحمد الزين الى الأستاذ محمد بدران

« مترجم كتاب قصص شكسبير »

« وكان قد أهداه الأستاذ بدران إلى الأستاذ الزين فأعجب بها وأجاب عنه على أن يحيي المترجم الفاضل بهذه الأبيات » .

بدران يا أبلغ من ترجما
ما أصدق النقل وما أحكما ؟

نقلت شمس الشعر من غربها
فأشرقت في شرقها مثلما

سمت على الأفهام حتى أتى   بيانك العالي لها سلما

أعدتها تشرق من مهدها
فرعا حنت له ربما

والشرق مهد الشعر مهما يقم
في غيره حن إلى المنتمى

بالأفق الشرقي ميلاده
وحل أفق الغرب لما نما

بدران إن ينقل لنا قيما
بعده من إبداعه أقوما

بالقلم الرائع سبحانه   قد علم الإنسان ما علما

أحمد الزين

مسامير الفلك

مجداً لهذه القبة المرفوعة من غير عمد على هيكل العالم، ووهجاً لهذه الخيمة الشاسعة وما حوت مثلها الخيام المشدودة الأطناب على أباطح البيداء !! ويا هولا لبحر الهواء الأزرق تخفق أمواجه في فضاء الأرض نسيماً عليلاً، أو أعاصير هوجاً ! وفي الليل حيث لا تمتد الغمام ولا يسود الضباب، يتراءى على أديم الأرض سجاف غريب أسود تطل من خلاله كوى النور رفافة الومضات، لامحة الألحاظ من دون أجفان، وقد شقت المجرة الكبرى دربها في ذلك الأديم إلى آفاق يتيه فيها الخيال وتضل العقول، ويفكر أبد الدهر أولو العلماء والحكماء، ولعل البشر منذ ارتفعت أعينهم إلى السماء قلبوا الطرف طويلاً في النجوم ومداراتها، فأخذوا بلألائها المتكسرة الأنوار، المتفاوتة الأجرام، وخطف أبصارهم شهابها الثاقب، وقد هوى من أعطاف السماء، ثم استقر في مداها البعيد حتى وقعوا في شرك الحيرة والتفكير، وطفق أذكياؤهم في عصور الوعي والمعرفة، يتداولون الرأي والنظر في مطالع الكواكب ومغاربها، ويرقبون خنسها وسالكها، وسطوع نورها أو شحوبه. فكان العرب وهم فوق صحصحانهم الأملس من اليمن حتى بادية الشام من أحذق الأمم العريقة في معرفة النجوم ومداراتها، فقد رحلوا جمالهم تحت جنح الليل على دلائلها، وسرت قوافلهم تخبط صفحة الرمل بأخفاف الإبل على نور مشاعلها.

لما اجتمع جرول الحطيئة بالزبرقان بن بدر من أمراء العرب في بعض نوى الصحراء، دعا هذا الأمير الكريم ذلك الشاعر الهجّاء إلى زيارته، فدله على أهله ومنازله، وقال له، وكان الوقت ليلاً :

— يا جرول، إستقبل مطلع الشمس، واسأل عن القمر، وامض قليلاً فثمة بيوت قومي !

وهكذا كان الأعرابي يرد المياه بغير هاد، ويطوي البيداء بلا دليل، فإن يك من الضلال قالوا له :

— خذ الشعرى العبور عن يمينك، واتبع سمت الرامح، فإذا طلعت عليك في شمالك نجمة الصبح فأنت على مبارك طي ... فيا للعلم الخارق، أولئك العرب في الجاهلية، لقد كانوا رصدة لنجائم الفلك بدون مرصد ولا منظار ! وقديماً أخذ العرافون والكهان بسحر الليل، واستهوتهم تهاويله، فربطوا مصائر الحظ وما كتب على الجبين بمصابيح السماء، ومن ذلك السحر الأخاذ نشأ علم النجوم عند العرب، فتعلموا منه ما يدلهم على سبيلهم في البر والبحر، وهدوا به إلى مواقيت الفصول والرحلات. وكان هذا العلم كأكثر علوم الإنسان، له جذور غائصة في الأساطير، ثم تناول الغربيون علم الفلك من الشرقيين فأرق أساطيرهم أعيناً ساهرة في مسارب الدراري ونشوء السدائم، وساروا على غرار العرب في تأليف الكتب عنها، ثم فاقوهم في هذا العلم وابتداع مراقبه الحديثة، وفي كشف الغطاء عن مجاهل الكون فأسدوا إلى الثقافة والحضارة فضلاً عظيماً، إذ وسعوا بذلك آفاق التفكير، وأطلعوا من حالكات الظلمات نوراً للعقول، فهم الذين شيدوا المراصد على قمم الجبال تعلوها القلاع، ونصبوا تحت قبابها كل منظار هائل تحسبه المدفع، وطوى علماؤهم أعمارهم في رصد النجوم وخصائصها من غيابة النهار حتى شروق الصباح، فبدا لهم ما ليس في حسبانهم من نجوم لا عديد لها، وفضاء لا يحده خيال، وأن ما علموا من سيرة الكواكب وأبراجها لا يبلغ مثقال ذرة مما لم يحيطوا به علماً، وقد أرونا حقيقة القمر، وكان يحسب قرصاً من فضة فإذا هو كرة كبرى من حجر لا حياة عليها تدور في أجواء الدنيا، وفيها فوهات

را كين خامدة وجبال شامخة كان يقول عنها الشعراء إنها كلف على عارض البدر فراحوا ينسجون حول تلك الوجنات المتلألئة أرق أشعارهم فى الغزل وجعلوا منها لذلك الوجه هالة وما زالوا بجمال القمر يتغزلون ويفنى بشعرهم فيه الفنون ، وبات العشاق المؤرقون يتلهون فى تقطيع أطراف الليل برعى النجوم كما فعل النعمان بن المنذر فى ليالى الشام فى دهرها القديم ، فقد أرقته لوعة من أميمة فقال .

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطىء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذى يرعى النجوم بآيب

ومن قبل هذا الشاعر تطاول الليل على الملك الضليل فظن نجومه قد ربطت بالحبال إلى رواسى الجبال فقال :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

ولو جمعت ما قال شعراء العرب فى النجوم ونجواها لما وجدت لها منتهى ، فقد رآها منهم البصرون فما خلا شعر شاعر من ذكرها وتخيلها العمىُ المكافيف ، فهى طالعة أبداً فى ليلهم الدائم ، وكان المعرى أشهر من وصفها منهم حتى كاد يبذ الناظرين فقال :

وسهيل كوجنة الحب فى اللون
وقلب المحب فى الخفقان

خرجته دماً سيوف الأعادى وبكت رحمة له الشعريان

فويل للإنسان الذى ألهاه الطمع وأضله الغرور ، فلم يتفكر فى خلق السماوات والأرض ! أليس له أن يعود إلى هداه حين يسأل نفسه : كيف وقفت فى الفضاء هذه النجوم ؟ فقد يجيبه من ضميره الجاحد صوت يقول : وقفها الله فأثبتها وحركها فأجراها ، وقد قال فى تنزيله العزيز : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

سبحانك اللهم يا من خلعت على الدجى سربالا أسود فكانت حلاه أزراراً من فضة وجعلت الليل سباتاً والنهار معاشا ، فمن حقك على العقل أن تدله النجوم على توحيدك وتشير إليه بحمدك وتمجيدك ، فأنت وحدك السرمدى الأبدى الذى تعنو له الوجوه وتفىء إلى أمره مهما عتت وتمردت . لقد رمى الإنسان الجبار سلاحه الكليل أمام قدرتك الساحقة ، وألقى آلاته الفانية تحت أسرارك الباقية وهو الذى سيطر على المادة وسخرها لمآربه وتقدم بعلمه ليكشف ماوراء تلك المادة وليجاوز حدود الغيب فباء بالفشل والحيرة وتعايا عليه استطلاع ماوراء السماء .

لقد أفنى عمره الفلكى العظيم « فلاماريون » وهو معلق العينين فى مدارات النجوم حتى قال وهو يجود بنفسه الأخيرة : يعجز المخلوق عن الإحاطة بعلم الخلاق .

هكذا يا إلهى دل عليك العقل وآمن بك القلب ، ولم يستطع الإنسان أن يجتاز الوصيد الأعلى فقد غلقت بابه وشددته بمسامير الفلك .

دمشق **وداد سكاكينى**

حديث الكتب :

١ — حديث السندباد القديم : الدكتور حسين فوزى
٢ — أعاصير مغرب : الأستاذ العقاد
٣ — سليمان الحكيم : الأستاذ توفيق الحكيم
٤ — عود على بدء : الأستاذ المازنى

هذه الكتب الأربعة قرأتها فى الأسابيع الأخيرة ، ولا يظن القارئ أنى رتبتها هنا وفقاً لتاريخ صدورها أو تاريخ قراءتها .

كلا . وإنى لمضطر إلى الاعتراف بذلك . لقد رتبتها وفق مالها من أثر فى نفسى ، ووفق ما لها من قدر عندى كمؤلفات جديرة بالرعاية والاحتفال .

ولأبادر فأقول إن أولها وهو حديث السندباد كتاب عتيد ، عتيد فى حجمه وعدة صفحاته ، عتيد فى مادته ، وما تحتاج من انصراف وتوفر . عتيد بأسلوبه الذى يضطرك — رغم طبيعة مثله من المؤلفات — أن تقرأه دفعة واحدة ، فتستريح من قراءتك المتصلة لفصوله المنتظمة ، لا بتصفح كتاب آخر تلتمس عنده تسلية وجيزة ، وإنما بقراءة فصول من أوله أو آخره أو منتصفه . وهكذا كنت أفعل أنا ، فما تركته حتى أتممته ، وكنت أتسلى ببعضه عن بعضه .

والدكتور حسين فوزى عرفه قراء الأدب إلى اليوم أديباً ، له أسلوب لامع يأتلق كلما انعكس على فكرة أو خاطر أو صورة : وهو فى هذا الكتاب ، وأنا أحس ذلك ، يريد أن يمحو من أذهان القراء ، صورة الأديب فقط ، فلا يلبث إلا أن يضيف إليها صفة العالم ، والعالم الشاب الجرئ الذى لا يقنع بوقار العلماء ، فهو يبحث بحثهم ، ويسلك طرائقهم ولكنه يفترق عن كثير منهم فى أن له شخصية . فى كل ما يعرض له من مواضيع رأى يرغمك فى الاستماع إليه عاملان أساسيان ، حماسة تزخر بالإيمان والاعتداد ، وخبرة وقفتها التجربة الشخصية والامتحان .

وأحب أن أعرفك بالكتاب ، فقد تظن أنه عرض جديد لقصة السندباد وتلك العشر ، لكنه غير ذلك .

إنه تحليل علمى لمحيط الشرق العجيب الذى تعرف العامة منه قصة السندباد ، وتعرف الخاصة من المعنيين بكتب العرب منه تلك الحيوانات الضخمة الهائلة والطيور المسرفة فى القوة والبطش ، والأسماك التى تبتلع السفن والناس ، وتتسلى بابتلاع الحيتان .

كل الفرق بين حسين فوزى وغيره من الخاصة أنه لم يبتسم سخرية ورثاء لعقليات مؤرخى العرب وقصاصيه ، وإنما أخرج من الأساطير الواقع بتحقيق اعتمد فيه على الاستقراء ، والقياس والخيال كذلك ، ثم ذهب إلى العلم يسأله العون وأخرج بعد ذلك الجهد هذا الكتاب وفيه تحقيق للأساطير فى غير تمنت ، وإنما فى حرص بالغ ، فإذا التنين مثلا ، ذلك الحيوان الذى يهدم القرى ، ويكتسح الأشجار ويبلع الدواب والناس ، إذا به ظاهرة جغرافية يؤمن بها العلم لها صورة التنين وآثاره إذا جردت أخباره من مبالغة الكتاب وتهويلهم .

على مثال هذه النزعة من البحث والتعليل يجرى الدكتور حسين فوزى فى إنصاف كتاب العرب فى صور العجائب كما بدت لعيونهم ، وكما تخيلوها ، ونظرة إلى ثبت المراجع ، وإلى ما بذله الدكتور من جهد بين المكتبات العامة سعياً وراء كتاب ، تكشف عن قدر هذا الكتاب كدفاع قيم من قضية الفكر العربى ، تلك القضية التى اصطلح بعض الصحاب على تسميتها « بقضية الكتب الصفراء » .

إن أطرف ما سمعته عن هذا الكتاب هو ما قاله أستاذ أوربى من المستشرقين سأله واحد من أصدقائنا رأيه فى الكتاب فقال :

— من المؤسف حقاً أن لا يصدر هذا الكتاب بلغة أوربية !!!

والحق أن هذا الكتاب يضيف إلى الأبحاث العلمية فى الأساطير بحثاً قد يعد من أمتعها ، ولعلنا لم نعهد فى الأبحاث العربية بحثاً كهذا فى الأساطير ، فللأستاذ الأوربى عذره وإن لم يكن لنا العذر إلى اليوم فى البقاء مكتوفى الأيدى أمام تراثنا من الأساطير .

لقد بذل الدكتور حسين فوزى فى هذا الكتاب جهده فى ناحيتين هامتين : ناحية البحث العلمى واستكماله وناحية الاحتفاظ بإتزان الأسلوب . أسلوب العالم الباحث .

أما الناحية الأولى فتلمس هذا الجهد فى العمل الضخم الذى أضطلع به .

وأما الناحية الثانية فتحس أثر هذا الكفاح بين اتزان العالم وثورة الأديب عند ما تمر بالملمحات الخاطفة الساخرة التى يرسلها فى إثر أمثال القزوينى أو ابن الوردى ، ومن إليهما كما شط بواحد منهم القلم . إنك لتكاد تحس بأن الكاتب يود لو ترك له العنان ليمضى فى السخرية لولا أن يرده أنه فى مقام العالم ، المنطقى ، والصيب أمامه من العلماء سواء . كلاهما باحث عن الحقيقة وكلاهما رائد من روادها .

* * *

أما الكتاب الثانى فهو ديوان شعر للأستاذ العقاد وإنى لأسوق لك منه اسمه وثلاثة أبيات من الشعر لأضع أمامك الصلة بين الاسم والديوان .

أما اسم الديوان فهو أعاصير مغرب ، وأما الأبيات الثلاثة ، فهى ، وقد وضعها الشاعر تحت عنوان « إعفاء » .

أعفيك من حلية الوفاء   إنك أحلى من الوفاء
خونى ! فما أسهل التقصى   عندى وما أسهل الجزاء
وليس بالسهل فى حسابى   فقدك يا زينة النساء

ورحم الله أياما كان يقف العقاد لشوقى بالمرصاد ! أترى لو أن شوقى قال هذه الأبيات ! أكان يشفع له عند العقاد أن يضع لها عنواناً « أعاصير مغرب » ؟ وأن يرفق بهذا العنوان شهادة ميلاد تثبت أنه جاوز سن الستين ؟؟

على أية حال فهى أعاصير مغرب . وهى أعاصير مغرب لم يخل نهاره من إعصار ، فحياة العقاد كلها عواصف ، وكلها عواطف كذلك . ولعل عواطف العقاد لم يشبها فى يوم من الايام إلا ذلك التعقل ، وذلك النظر القلسفى المعنى بالمقدمات والنتائج الذى لازمه حتى عند مغربه العاصف فجعله يعفى فتاته من الوفاء ، ويبيح لها الخيانة ، لأنه ما أسهل التقصى ، وما أسهل الجزاء ... وإنما الصعب هو الفقد ..

ولا ينظر الغزليون هذه النظرة إلا أن كانوا فلاسفة كالأستاذ العقاد ، ولا نقول شيوخا . فالعقاد فى غزله اليوم لا يختلف عن العقاد فى غزله بالأمس ، لا فى « الديوان » ولا فى « وحى الأربعين » ، فهو هو المتغزل الوقور الفيلسوف الهادئ .

ومع ذلك فأنت لا تعدم فى الغزل الهادئ سذاجة وجمالا . بل ولا تعدم فيه أحياناً ثورة ، وإنك لتعجب حين تقرأ فى « أعاصير مغرب » قصيدة العقاد فى « الصدار الذى نسجته » . كيف يواتى الشاعر الرزين هذا المعنى . الساذج الجميل معاً ...

هنا مكان صدارك   هنا هنا فى جوارك

هنا . هنا عند قلبى   يكاد يلمس حبى
وفيه منك دليل   على المودة حسبى

ألم أنل منك فكرة   فى كل شكة إبرة
وكل عقدة خيط   وكل جرة بكرة ؟

ولعلك تذكر مع هذا المعنى الأغنية الشائعة « الوردة دى ريحتك فيها ... الخ !!!

ومع سذاجة المعنى فى القصيدة جمال ، فى الصدار الذى يكاد يلمس الحب بين جنبيه وفى وصف الصدار بالرقيب على الفؤاد و ، و ... ولكنه جمال ساذج .

فإذا رحت تنشد الثورة فى هـذا الغزل الهادئ الرقيق ، فإنك واجدها فى مثل قصيدة « طلاء نفس » . فهى ثورة على كل شىء . على العيون الزرقاء ...

زرقة عينيك لا صفاء .. فيها ولكنه فضاء ، وعلى حمرة الخدين التى لا حياء فيها .. ولكنه اشتهاء .

ولا تلبث الثورة أن تبلغ مداها ، فلا تكون القطيعة وإنما .. تمنى القطيعة .

متى متى ينطوى الكتاب ؟ .. متى فراق بلا لقاء !

وعند ما تصل الثورة إلى اليأس يلتقى شعر الغزل الحار الدافق بشعر الغزل الهادئ ، وتجد عند العقاد ما تجد عند الشعراء الغزليين من ذكريات حزينة هى أجمل ما فى الحب ، دموع الصب على قبر حبه :

قبر الهوى الغالى . وواحسرتاه

قبر الهوى الذاهب فى منتهاه

هل بعد حسين هوى يا حزن !

إنك هنـا تلمس الحب الإنسانى ، الحب فى صورته الصادقة .. صورة الألم ... الشيخ والشاب سواء عند هذه الصورة ، يا لجمال الألم الهادئ والحزن الوديع فى هـذه الصورة أو استمع إلى العقاد وهو يتحدث .

دفنته . ويحك ! هل تستريح ؟

يا خارب القلب عمرت الضريح !

ذاك الثرى المنهال ، ذاك الصفيح

يا ليته ركن الخراب الفسيح

أوليتك الساعة فيه الدفين

وقد تظن أن أعاصير مغرب كلها غزل ، وقد يقوى هذا الظن فى نفسك عند ما تطالع مقدمة الأستاذ العقاد وكلها تدور حول سن الغزل والدفاع عن غزل الشيوخ ، وثمة تلك الفلسفة ، أو التفلسف البديع ، الذى تمتاز به مقدمة العقاد حتى لأعدها بالنسبة لكتبه ، كمقدمات شو بالنسبة لرواياته ، جزء من العمل الأدبى نفسه .

قد تظن ذلك ، ولكن الديوان ليس كله غزل ، إن فيه من شعر المناسبات قدر لا بأس به . قد يأخذ مشاعرنا منه قصيدة رثاء « مى » وهى قطعة من قلب إنسانى تقطر أسى ... ثم غير هـذه القصيدة قصائد أخرى قد تلمس فى كثير منها ما يعرفه الجغرافيون بأنه مناطق الركود فى الإعصار !!

ثم ، وكنت قد نسيت ذلك ، هناك القسم الأول من الديوان ، إنه مقطوعات صغيرة تحوى أفكاراً منظومة ولا أدرى لم لا أحب الفلسفة المنظومة ؟ إنها تذكرنى دائماً بالمدرسة العلمية القديمة التى كانت تقرب العلوم إلى الأفهام بنظمها فى قصائد تسهل على الطلاب فهمها . ولطالما خطر لى هذا السؤال ... ، ترى لو أن أبى العلاء أرسل لزومياته نثراً ؟ ألم يكن ذلك أجدى على الفلسفة الحديثة ؟؟

إن أبيات العقاد الفلسفية فى خلال دواوينه المختلفة تبعث إلى مخيلتى دائماً صورة المخلوقات الخرافية التى تحدثنا عنها الأساطير مخلوق نصفه إنسان ونصفه أسـد ، كل الفارق هنا أننا أمام قلب . قلب نصفه نصف قلب شاعر . ونصفه الآخر نصف عقل فيلسوف ....

لقد فرغت من كتابين وبقى كتابان ، وأحسب أن صفحات هذا العدد لن تتسع لأكثر من هذا . ولن يضير كتاب الحكيم الإمهال فهو صاحب صيت فى القصـة ، وكتاب المازنى بين أيدى الباعة تجهر به صباح مساء .

صدوح زهنى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ — عابدين مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرباس عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٠ الثلاثاء ٢١ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ — ٢٥ من مايو سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العدد

الأنهار والحرب

للدكتور محمد عوض محمد

ظهرت أسماء طائفة من الأنهار وسط أنباء القتال في الأسبوع الماضي . فأضافت عنصراً جديداً ، يختلف عما ألفناه من أنباء الحرب في البر والبحر والجو . ذلك أن القذائف الجهنمية التي كانت ترسل على الجيوش المحتشدة ، والمعاقل الحصينة ، والسفن الجارية ، والمعامل والمنشآت الصناعية ، قد أخذت تتناول الأنهار المتحدرة في أوديتها ، وهي تجري وسط خريرها وهديرها ، متدفقة بين الهضاب ، منسابة بين السهول المطمئنة ، حتى تبلغ مصبها في البحر ، وهكذا كان الهجوم على الأنهار ظاهرة من أحدث ظاهرات هذه الحرب ، واتجاها جديدا فيها . وليس بمستبعد أن تتكرر هذه الظاهرة في الأيام المقبلة ، قبل أن يتخذ الطرف الآخر العدة اللازمة لحماية أنهاره والدفاع عنها .

ولكن الأنهار التي تتعرض لمثل هذا التدمير والتخريب ليست كسائر الأنهار ، بل إنها شيدت وسطها سدود ضخمة ، تعترض مجراها ، بحيث تمنع الماء من أن يجري كما يشاء ، بل تضطره لأن يتراكم وراء تلك السدود ، ولا يزال يتجمع من خلفها حتى تتألف من مجموعه بحيرات عظيمة . كما يجمع الحريص المال فوق المال ويملأ به الخزائن ، فتتألف منه ثروة ضخمة ، ثم يأخذ في الإنفاق منها بتدبير وتقدير .

ومن قبل حدثنا القدماء بسد مأرب في بلاد اليمن ، وكان الماء يختزن من ورائه في بحيرة عظيمة ، تروي الحقول والحدائق ، وتشيع الخير والبركة في المروج والجنان . حتى سلطت على ذلك السد القديم فأرة حمراء الجسد صلعاء

الرأس فأخذت تنحت الصخر وتخربه . ولم تزل به قرضا وعضا ، وتخريقاً وتمزيقا ، حتى أوهنت أركانه وأفسدت بنيانه ، فتدفق ماء الخزان ، وحمل الخراب إلى الربوع العامرة ، والحدائق اليانعة . وهكذا تعلم قادة الحرب الحديثة درساً عظيما من تلك الفأرة القديمة ، ولئن كانوا لم يتلقوا هذا الدرس عنها مباشرة فإنهم على كل حال قد نهجوا نهجها ، واتبعوا سنتها ، وإن كان تدميرهم أسرع وأبلغ أثراً .

وسكان مصر خير من يفهم معنى السدود والخزانات ، ولديهم سد عظيم في أسوان ، يحبس ماء النيل فتتألف منه بحيرة ضيقة مستطيلة تمتد من اسوان شمالا إلى ما بعد وادي حلفا جنوبا ، ويزيد ارتفاع سطحها على مستوى النهر وهو في حالته الطبيعية بنحو ثلاثين أو أربعين متراً . وللمصريين سد آخر جنوب الخرطوم عند جبل الأولياء ، يحبس الماء في بحيرة تمتد إلى الجنوب بنحو أربعين كيلو متراً .

وبناء السدود من أجلّ الأعمال الهندسية وأخطرها . قد انتفعت به أقطار عديدة ، وجنت من ذلك فوائد اقتصادية بعيدة الأثر . ولقد كنا في مصر نشفق — حين نرى خطر الحرب يدنو من ديارنا — أن تتجه يد العدوان إلى سدنا وخزاننا . فتصيب البلاد بويلات ، ترتعد الجنان فرقا ، من مجرد تصورها .

وليست كل السدود والخزانات مماثلة لسد أسوان في ضخامته ، أو في هندسة بنائه ، أو في الوظيفة التي يؤديها للبلد التي أنفقت الملايين في تشييده وإنشائه . فليس في العالم سدود كثيرة تعادل سد أسوان في ضخامته ومتانته ؛ التي تتناسب مع قوة التيار واتساع الوادي ووفرة الماء وسد أسوان تتخلله أبواب عديدة ؛ لايغلق إلا جزء منها بقدر الحاجة . ويختزن الماء من ورائه في زمن الفيضان ، لكي ينتفع به في أوان انخفاض النهر وقلة الماء . فوظيفة خزان أسوان الرئيسية هي الري . ولم ينتفع به إلى اليوم في أي غرض آخر .

أما السدود التي أغارت عليها الطائرات البريطانية في الأسبوع الماضي فمن طراز يختلف اختلافا كثيراً عن سدنا ، ولقد خيل لكثير ممن لم يألفوا من السدود والخزانات سوى ما نعرفه في مصر أن تلك الغارات ستحرم الحقول من الماء اللازم لريها . وأن الزروعات في غرب ألمانيا لن تلبث أن يدركها الذبول والجفاف من قلة الماء . والحقيقة أن الماء المخزون وراء تلك السدود لا ينتفع به في الري في أقطار ترويها السماء بمطرها الوافر في الشتاء والصيف .

هذه السدود التي خربت الطائرات اثنين منها ، هي من طراز واسع الانتشار جدا في الجهات المرتفعة في أوربا ، ويخزن من ورائها الماء في بحيرات ، ذات مستوى عال ، لكي ينحدر منها الماء بقوة عظيمة ، من أجل توليد الكهرباء ولقد تكون القوى الكهربائية المتولدة من سقوط الماء من الضخامة ، بحيث تكفي لتسيير القطارات مئات من الأميال . ولادارة المنشآت الصناعية العظيمة التي لا تبعد عنها كثيرا . ولتزويد المدن بما تحتاجه من الكهرباء للانارة ، وللنقل وللصناعات الصغيرة التي تكثر في المدن .

بل إن المتولد من الكهرباء في بعض الأقطار ومنها ألمانيا ، قد يكون من الكثرة بحيث يفضل عن حاجة القطر نفسه . ويستطيع في هذه الحالة أن يبيع التيار الكهربائي ، وأن يصدره إلى قطر مجاور له .

وسقوط الماء من أيسر وأرخص الوسائل لتوليد الكهرباء ، ولذلك نراه قد حل محل الفحم في كثير من الأقطار . وقد أطلق عليه اسم الفحم الأبيض . وفي كثير من الجهات الجبلية ، مثل ألمانيا الجنوبية ، وسويسره وإيطاليا والنمسا . قد بذلت جهودا جبارة في العشرين عاما الماضية للتوسع في استخدام سقوط الماء ، فاستطاعت تلك

البلاد أن تحصل على القوة اللازمة للصناعة ، ولتسيير القطارات بثمن زهيد مكنها من التقدم السريع فى الميدان الصناعى والتجارى . ولقد كان الفحم الأبيض فى تلك الجهات من أكبر النعم على سكانها ، لأنها فقيرة جدا فى الفحم الحجرى والبترول . ولقد رأت سويسره فى الحرب العالمية الأولى أن سككها الحديدية توشك أن تتعطل بسبب قلة الفحم ؛ واستحالة الحصول على حاجتها منه — فبادرت باستخدام سقوط المياه فى إدارة قطاراتها ، وفى صناعاتها . وباتت منذ ذلك الحين فى غنى عن الفحم الحجرى فى نقلها وصناعاتها .

وربما خطر لنا أن نتساءل لماذا تبنى السدود فى مجرى النهر ، مع أن انحدار الماء نفسه كان لتوليد الكهرباء . وصحيح أن السدود التى تبنى من أجل توليد الكهرباء تكون عادة فى أعالى الأنهار ، وفى الجهات الجبلية ، حيث الانحدار شديد . ولكن الأنهار مهما كانت مياهها وافرة ، فأنها ليست منتظمة الجريان ، وقد يقل المطر ، فيقل الماء فى النهر ، وتتعطل الآلات المولدة للكهرباء بسبب ذلك . لهذا لم يكن بد — لضمان توفير الماء دائما ، ولتصريفه بانتظام واطراد طول السنة — من أن يبنى السد ، فتتكون من ورائه بحيرة عظيمة ، تمد النهر بالماء فى كل حين . وفوق هذا فإن اختزان الماء فى بحيرة يرفع مستوى الماء كثيرا وراء السد ، فيكون سقوط الماء أعظم ، والقوة المتولدة منه أكبر .

وهذه السدود هى فى العادة سدود صماء ، لا تتخللها أبواب تفتح وتغلق ، وقد يرتفع الماء فى الخزان حتى يبلغ سطح السد فينحدر من فوقه إلى النهر . أما المياه التى تستخدم فى توليد الكهرباء ، فإنها عادة تنقل من البحيرة إلى محطات توليد الكهرباء بواسطة أنابيب ضخمة شديدة الانحدار .

ولا تبنى هذه السدود وسط الأنهار العظيمة مثل نهر الرين أو الطونة ، لكيلا تعوق الملاحة . ولقلة انحدار الماء فى الأنهار التى تجرى فى السهول . بل تكون تلك السدود فى الروافد العليا ، والأنهار الصغيرة التى تجرى فى المرتفعات ولهذا فإن الأنهار التى جاء ذكرها فى الأنباء الأخيرة ليست مما تعودنا أن نسمع به .

ورغم قلة ما نعرفه عن الحرب الجوية وفنونها المختلفة ، فإنه يخيل إلينا أن أمثال تلك السدود من الأهداف السهلة . وأن وجود البحيرات المختزن بها الماء تدل عليها ، وعلى الأخص فى ضوء القمر . ويلى البحيرة السد وهو جدار ضخم سمكه بضعة أمتار ، وارتفاعه قليل من جهة البحيرة ، ولكن ارتفاعه عظيم جداً من الناحية السفلى للنهر . فإذا استبان الطيار مكان البحيرة ، اتجه إلى الناحية السفلى للسد ، وأمكنه أن يلقى بقنابله الضخمة على هدف عظيم ليس من الصعب إصابته . ومهما كان بناء السد متينا محكماً ، فإنه لا حول له ولا قوة أمام القذائف الهائلة التى تزن بضعة آلاف من الأرطال . ولقد أثبتت هذه الحرب فيما اثبتته أن أداة الهجوم عند الدول المحاربة أقوى وأشد من أداة الدفاع ، وأن أدوات التخريب أشد وأقسى من وسائل البناء والتشييد .

وقد قامت بريطانيا بغارتها تلك على السدود الألمانية بواسطة تسع عشرة طائرة فقط ، وقد أصابت هدفين عظيمين أولهما السد الشيد على نهر إيدر Eder والثانى الشيد على نهر موهنه Mohne .

فأما نهر إيدر فإنه رافد من روافد نهر ويزر . ومنابعه فى وسط ألمانيا الغربى يجرى من الغرب إلى الشرق ، حتى يصب فى نهر ويزر الذى ينحدر نحو الشمال لكى يصب ماءه فى بحر الشمال . وعلى مصب نهر ويزر تقع مدينة بريمن التى نسمع بها كثيراً فى هذه الحرب ولكن نهر إيدر واقع فى جبال ألمانيا الوسطى . وقد شيد عليه سد عظيم ، يحجز وراءه بحيرة طولها بضعة عشر من الكيلو مترات .

وعلى بعد خمسين كيلو مترا من هذا السد مدينة كاسل التي يبلغ سكانها نصف مليون من الأنفس ، اشتهرت بكثير من الصناعات المعدنية ، والمنسوجات وبالقرب منها مناجم للفحم .

وقد روت الأنباء أن القنابل قد فتحت في سد إيدر ثغرة عرضها سبعون مترا وعمقها ثلاثون . وإذا انشقت مثل هذه الفجوة الهائلة ، فإن الماء المحبوس في البحيرة يندفع بقوة مفظعة ، منتشرا في الوادي الذي تحته ، فيغمر الحقول والدور والمصانع ، وقد يخربها ويدمرها ويكتسحها ، وإذا كان في النهر جسر أو قنطرة تقوضت دعائمها وزعزعت أركانها . فإذا بلغ مدينة عظيمة مثل كاسل ، فإن الويل ينال عددا كبيرا من السكان .

وإذا كان تخريب سد إيدر قد أحدث تلفا كبيرا ، فإن تخريب سد موهن يكون ذا أثر أفظع . لأن حوض نهر الرور من أعظم الأقطار الصناعية في أوروبا ، ومن أشد الأقاليم ازدحاما بالسكان .

وهكذا قد ظهر في هذا النزاع العنيف ضرب جديد من ضروب الحرب . هدفه السدود التي تبنى في الأودية العالية ، والآثار التي تترتب على تخريب تلك السدود من نوعين : أولها ما يحدثه الطوفان المندفع من تدمير للمنشآت وإهلاك للأنفس . بما في ذلك تحطيم محطات توليد الكهرباء نفسها . وهذا هو الأثر العاجل السريع ، الذي يتناول الإقليم المنخفض الذي يحيط بالنهر . إلى مسافة قد لا تتجاوز الخمسين ميلا ، وبعد ذلك تهدأ حدة الطوفان ويكون التدمير أقل فأقل كلما ابتعدنا عن السد .

والنوع الثاني أطول مدى ، وهو تعطيل القوى الكهربائية المترتبة على هذا العمل الهندسي العظيم . فترة من الزمن قد تتجاوز العام ، ريثما يعاد بناء السد ، ثم ملؤه بالماء . ولكن يجب ألا نسرف فنظن أن تعطيل الكهرباء المتولدة من خزان إيدر وموهن أحدهما سيعطل الصناعة في ألمانيا ، فإن هنالك خزانات أخرى للكهرباء . وهنالك الفحم الكثير الذي تستخدمه ألمانيا في توليد القوى الكهربائية .

ولكن هنالك دولة أخرى من دول المحور ، فقيرة في الفحم كل الفقر ، تعتمد على سقوط الماء كل الاعتماد ، في إدارة مصانعها ، وتسيير قاطراتها . تلك هي دولة إيطاليا . وأهم محطات توليد الكهرباء واقعة في أطرافها الشمالية في المنطقة الألبية . على بعد ألف كيلو متر من شمال تونس . ولكن ليس هذا البعد مما تعجز عنه الطائرات البعيدة المدى ولا يزيد كثيرا ، عن المسافة بين بريطانيا ونهر إيدر .

محمد عوض محمد

من الحياة :

على هامش المجتمع

يا ربِّ رزقك في أيدي فراعنةٍ ... مِن كفرهم بك راحُوا يفسقُون به[1]

أموالكم هذه كانت لنا عَرَقًا ... على الجَبِين فَبِينا مِن تصبُّبِهِ

يا مُقلِعين بفُلك التِّيه في نَهَرٍ ... من كَدِّنا هَلْ وقيتُمْ من تقلُّبِه؟[2]

رُبَّانكم غافلٌ عما يُحيطُ به ... مِنَ العواصِفِ مزهُوٌّ بمنصبِهِ

أَرْخُوا القُلُوعَ وأَرْسُوا إلى جبَلٍ ... من النَّدى إنْ رغبتم في العُبُور بِهِ

عبد اللطيف أبو السمح

(١) الفسق : الخروج عن طريق الحق ، ومنه قوله تعالى (فسق عن أمر ربه) .

(٢) الفلك يذكر ويؤنث ومن تأنيثه قوله تعالى (وهي تجري بهم في موج كالجبال) . ومن تذكيرها قوله تعالى (إذ أبق إلى الفلك المشحون) .

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

الرجل الذي طارد الموت في فراش الأمهات

فجيعة أيام أخيرة

وصل القارئ : « زامل » طبيب مجارى اكتشف بعد جهد أن حمى النفاس داء معد ، وأن الطبيب ناقله ، وأن الأطباء عليهم أن لا ينقلوا من نفس امرأة حامل إلى نفس أخرى ، أو من نفس مريض ذي داء معد إلى نفس حامل ، حتى يطهروا أيديهم بماء الكلور . وسخر منه الأطباء واضطهدوه ، فهاجر من فينا إلى مسقط رأسه بودابست . وأتى في بودابست بنتائج باهرة ، ولكن الأطباء أهملوه . فلما ضاق بهم هددهم بمخاطبة جمهور الناس في هذا الأمر من فوق رؤوسهم . والآن اقرأ :

هدَّد « زاملُ » الأطباء بما هدَّد . ثم أخذت الريحُ من بعد تهديده تهُبُّ حيث أرادها ، وأخذت أساتذة أوربا تشترك في الصيحة العامة لوقف الذبائح الجارية .

في هذا الوقت أنقذ « زامل » ما توعَّد الأطباءَ به ، حين لم يكن في الحق إلى ذلك حاجة .. فكان يَلْقَى الخطيبين في الطرقات ، وهو لا يعرفهما ، فينتحى بهما جانباً من الطريق يحدثهما عن ضرورة الغسل بالكلور عند الوضع .

ولاحظت زوجته الشابة ماريةُ عندئذ شيئاً من اختلال في اتزان مشيته . وكان يحضر المآدب فيأكل كالنَّهمان . وكان يثور غاضباً في وجه من ناقضه في الهَنَاة مهما صغرت ، إلا وجه أطفاله الصغار . وكان تسآله الكثير لزوجته عن حاله ، وقد تشكك فيه ، يثير الرحمة ويعطف القلب . كان يسألها : « ماذا دهاني ؟ ماذا أصاب رأسي » ؟

وبأتى صيف عام ١٨٦٥ .... فإذا به يعود إلى فينا ، وإذا مارية إلى جانبه تُعينه في رحلته إليها ، وأصغر أولادها لا يزال عند ثديها . ألا ما كان أجدرها أن تكون عودة المنتصر الفاتح .

كان الأستاذ إشبات Spät أول أستاذ دمغه « زاملُ » دمغاً في أول كتاب له مفتوح . واليوم يخرج هذا الأستاذ يعلن توبته على الملإ ، وفي الورق ، ويقرِّر أن النظافة وحدها — أن طهارة الأيدي وطهارة العُدَد — هي السبيل التي لا سبيل غيرها لدفع حمّى النِّفاس عن الأمهات . ولكنها توبة جاءت متأخرة لم يستمرئ « زامل » سرورها .

وخرج من القطار فأسرعوا به إلى بيت صديقه القديم ، إلى بيت الأستاذ « هبْرا » ، وكان « هبرا » أولَ من واساه في محنته الأولى ، عندما كشف « زامل » لأول مرة أن النساء إنما مِتْنَ من سمٍّ بيديه .

في هذا البيت القديم كان « زامل » ولَّد زوجة صديقه قديماً . ولّدها بنفسه ، وعندما خرج الوليد حمله بين يديه ليُريَه لأمّه وهو يصيح لها ضاحكا ضحكته الرنانة القديمة : إنه غلام .

كان هذا في زمان غَبَر . أما اليوم ... فقد دخل « زامل » هذا البيت بقدم فقدت شيئاً من ثباتها ووثوقها ، وقد جلّله الكبر فتراءى كالشيخ برغم عامه الخامس والأربعين أو نحوه . ولحيته الشعثاء نقَّر فيها الشيب . وعيناه انطمستا فذهب منهما بريق عين الصقر ، والصقر يقظٌ لمّاح .

ورفع بصره فرأى زوجة صديقه « هبرا » . وفي لحظة هبت الذكرى أقاصيها ، فمسحُ محنُه الرهيب ، وصفا بصره ، وضحك لها ضحكته القديمة ، فكانت كشبح الميت أو كطيف الحالم . وصاح لها صيحته الأولى : « إنه غلام ! ألا تذكرين المرة الأولى عندما قلت لك : إنه غلام ؟ » .

ومضى «زامل» دقائق يتحدث في شوق واهتياج إلى «هيبرا» ، ويتحرّق إلى رؤية مَعمله . ثم يعود الستار فينسدل ثقيلًا على عقله ، فلا يرى إلا ظلامًا . فيسرع به «هيبرا» إلى عربة مُغلقة تسوقه إلى مستشفى المجاذيب ، وفي المستشفى يوضع في حجرة ويُغلق فيها من ورائه الباب .

في الثاني عشر ١٢ من أغسطس عام ١٨٦٥ قام الجرّاح الشهير لستر Lister بعمليته الجراحية الشهيرة الأولى التي حمى فيها الجسم الإنساني أن تدخله أسباب الموت . أتدرى متى كان هذا ؟ كان هذا بعد ثمانية عشر عامًا من كشف «زامل» كيف يدخل الموتُ إلى أجسامنا ، ومن بعد كشفه ، بطريقة أجلى وأدق ، كيف نمنعه من دخولها . واليوم كم من الناس من يذكر لستر ؟ وكم منهم من يذكر زامل ؟!

ومات «زامل» في السابع عشر من أغسطس عام ١٨٦٥ . فقد كان جاء إلى مستشفى المجاذيب وبأصبعه شكّةٌ من مِشرط طاش عند آخر عملية أجراها في بودابست . فأتت مسممًا دمُه . مات من ذلك السمّ الذي كشفه . مات من ذلك السمّ القاتل الذي يتلصص إلى أرحام الأمهات . ولم يمهله الموت في هذا المستشفى غير أسبوعين اثنين ، قضاهما حيًا كميت ، فكان موته لطفًا من الله كبيرًا .

وقد أرّخه المؤرخون ، وصوّروه جميعًا ، إلا واحدًا ، في صورة الشهيد الذي قتله الظلم وقتلته الحسرة . فزعموا أن الذي ذهب بعقله إغفال الناس كشفَه ، وسخرية خصومه الأطباء بأمره . وإني آسف أن أقول إن هؤلاء المؤرخين عمدوا في هذه الناحية من تأريخه إلى الشعر والخيال . فالحقيقة الخالية من الشعر ، العارية من الخيال ، تبرز جلية من تقرير الطبيب الذي فحصه بعد موته ، فقد أظهر هذا الفحص أن «زامل» كان به التهابٌ مزمن في سحايا المخ Meningitis ، وضمور في المخ نفسه ، واضمحلال في الحبل الشوكيّ . وهذه الأشياء ليست مما ينتجه الظلم أو يؤدي إليه اضطهاد .

أكّد «زامل» في خاتمة مقاله الشهير الخالد : أن حمّى النفاس لا تأتي أبدًا من «عدوى ذاتية» تحل بالأمهات .

وقال : إن الذي خفّف من حزنه على آلاف الموتى من الأمهات الوالدات تصوّرُه اليومَ السعيد الذي هو لا بد آتٍ في المستقبل القريب حين تضع الأم ولدها وهي آمنة من تطرّق الداء إليها مما حولها .

وكتب : فإذا لم يشأ الله لي أن أرى هذا اليوم بعيني رأسي ، وحاشى الله أن تكون هذه مشيئته ، .....

وكتب : فإذا جاءني الموت ، بيّض ساعاتي الأخيرة فيه ، اعتقادي أن يومًا كهذا لا بد آتٍ ، تأخر الزمن به قليلًا أو كثيرًا .

* * *

خشي زامل أن لا يرى يومًا كاليوم الذي وصف . واستعاذ بالله أن يُحرَم رؤيته فما أعاذه . من أجل هذا وجب عليّ أن أكتب لحياة هذا المغذاري المنكوب خاتمة ، ووجب أن تكون هذه الخاتمة مرّة . إن الذين حرموا «زامل» أن يرى هذا اليوم إنما هم الأطباء .

إن الذي قصّر أعمار هؤلاء النسوة ، ولا يزال يقصّر أعمارنا نحن الناس ، إنما هو إهمال الأطباء كشفَ «زامل» ، وما أتى أخيرًا به من كشوف .

لقد مضى الآن نحو من ثمانين عامًا منذ أمّل «زامل» هذا الأمل الجميل الحزين في انقطاع هذه الحمّى من النفساء من النساء ، ومع هذا نجد اليوم في بلدنا هذا سبعة آلاف أمّ يُقتلن من جراء هذه الحمّى كل عام . نعم يُقتلن ، فإني لا أجد كلمة أصدق منها في التعبير عما هو حادث . ويقتلن لأن أحدًا من الناس أهمل فلم يتبع ما نصح به هذا المغذاري المسن أن يُتّبع لدفع هذا الداء القاتل الذي يسمم الدماء ،

وما تلك النصيحة غير النظافة ، والنظافة وحدها .

ولست أقول هذا لأن زامل قد نُسِي ، ولو أنه قد نسي حقاً ، وبدون شك . فليس من الضروري أن يُذكر « زامل » لتصحّ النساء ويَسْجُونَ ، وإنما الذكر كل الذكر لحيله التي اتبعها في مغالبة الموت ، ومن حيل روَّضها في بساطتها .

ومن حيل تنجح حبا ما أريد بها ، لحق في أمتنا هذه ، حيث هذه الحمى فضيحة في الطب كبرى ، حدث ما لم يكن في الحسبان . حدث أن ٢٥٢١٢ من النساء دخلن مستشفى الولادة بمدينة شيكاجو ، دخلته على أعوام ، فلم تمت منهن بهذه الحمى غير امرأة واحدة .

فهذه أذن نبوءة « زامل » قد تحققت أيّ تحقيق ، وهذه أذن طريقته ، سهلة غاية السهولة ، ممكنة غاية الإمكان .

وعلى يد من تحققت هذه النبوءة ؟ على يد الدكتور « ديلي » de Lee . نعم إن « ديلي » هو الرجل الذي كان له الفضل في نفض التراب عن تلك الحقائق التي اكتشفها « زامل » قديماً ، فتراءت في بساطتها الكاملة الأولى . إن « ديلي » به شيء كثير من جنون النظافة الذي كان يساور ذاك المنغاري الشموس . إن « ديلي » قضى في مهنة الطب خمسة وثلاثين عاماً ، قضى أكثرها في ثمانية مستشفيات كبرى ، فالذي رأته عيناه كثير وشتيت .

وقد رأى حمى النفاس في كل مستشفى عمل فيه ، ثم هو يخرج يتحدث عن الفاجع التي تقع في هذه المستشفيات بعد أن حَسِبَتْ فيها رجلاء . تلك الفاجع التي يهمس بها الأطباء فيما بينهم ، فلا تصلنا نحن أهلَ الشارع ورجالَ الشعب ونساءَه ، همسةٌ منها : في هذا المستشفى ، وهو من الدرجة الأولى ، اندلع الوباء ، فأصابت الحمى عشراً من النساء ، منهن ست في خطر ، وثلاث في سبيل الموت . وفي ذاك المستشفى عشرون إصابة ، ست منها تتنفس آخر أنفاسها . وفي هذا ..... وفي ذاك .... وهلم جرا . كلٌّ في البلاء سواء .

إن هذه الفاجع التي تحدث في الظلام أثارت « ديلي » حتى قال إن عنابر الولادة في المستشفيات العامة مكامن لا تؤتمن على حياة الوالدات . فأي قول أشد سخرية من هذا القول . في المستشفيات العامة لا تؤمن الحياة ! في هذه المستشفيات حيث المعامل مليئة بالأجهزة الثمينة الغالية ، والأدوات اللامعة الرائعة !! في هذه المستشفيات حيث علماء المكروب يؤدون رسالة العلم الصحيح بالكشف عن كل ما يُكتشف عن هذه المخلوقات الدقيقة القاتلة ، عن تلك البذور الصغيرة المنظومة كحبات السُّبح إذ تتلصص إلى أجسام النساء فتُحلّ ماءها من دماء . تلك المكروبات التي لم ير « زامل » شيئاً منها ، ولم يسمع « زامل » شيئاً عنها ، وإنما أتى ما أتى في حربها على جهل بها . ثم في هذه المستشفيات عينها تحتشد البلايين من هذه المكروبات تهيأ للوثوب ، تحت أنوف هؤلاء الأطباء النبلاء ، وهؤلاء البحّاث الأجلاء .

بالطبع لا يستطيع مستشفى من المستشفيات العامة أن لا يصاب بهذه المكروبات . وليس في استطاعة مخلوق أن يمنعها أن تتسرب حيناً لحيناً إلى عنبر الولادة من عنبر الجراحة تارة ، ومن المعمل تارة ، ومن قاعة الموتى تارة أخرى . . . . لا . لا . ليس « زاملُ » قائلَ هذا . إنما هو « ديلي » ، يقوله عام ١٩٢٧ .

ولكنك تردّ على هذا القول فتقول : إذن فما نفع كل هذه الآلات الحديثة والوسائل العجيبة . كان كل ما عند ذاك المنغاري في زمانه الضيق وعاء به ماء به كلور . أما الآن فلدينا مطهِّرات البخار براقة لامعة ، ولدينا صنوف البدع للتطهير ، ولدينا قفازات من مطاط ، ولدينا الواقيات من القناعات ، ولدينا من المطهرات ألوان مختلفات يُرَجِّيها أصحابها في الأسواق فيجنون منها الغنى والثراء . . . .

(يتبع) أحمد زكي

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

– ١ –



حقاً إن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، هذه ألوف الطلبة فى المدارس ، وهذه ألوف المجاورين فى الأزهر ، من منهم سيكون النابغة العظيم ، والزعيم الكبير ، والمصلح الخطير ؟ لا ندرى ، كلهم يتعلمون وأكثرهم يجدّون ، ولكن الحكم بالنبوغ والقيادة والزعامة عسير على المتنبئين ، تقيس بمقاييس الامتحان ثم يظهر خلل حكمك ، فقد يكون أول ناجح فى الامتحان أول فاشل فى الحياة ، وتقيس بمقاييس الذكاء ، فتحكم بأن هذا أذكى من امتحنت ثم يخبو هذا الذكاء شيئاً فشيئاً ، حتى ينعدم أو يكاد ، أو يظل الذكاء حاداً ومع ذلك فلا نبوغ فى الحياة ، وتحكم بالخمول على طالب ، ثم يتطور فيكون قائداً أو زعيما ، إنما عملنا أن نؤرخ النابغ بعد أن ينبغ ، ونعلل نبوغه بأسرته أو أساتذته أو بيئته أو نحو ذلك من أسباب ، ولكن كم من أسرة خير من أسرته لم تنجب ؛ وكم من أساتذة خير من أساتذته لم يلدوا مثله ؟ وكم بيئة أصلح من بيئته لم تنجح فى إعداد شبيه له ، وكم كلها مجموعة لم تعد للحياة نابغة ، فى بيئ شجرتا مانجو ، أما إحداهما فقالوا احفر لها فحفرت ، وأت لها بتربة صالحة فأتيت ، وطعّمها فطعمت ، واختر لها الجهة المناسبة فاخترت وأخرى رميت بذرتها رمياً ، وتركتها المصادفة تركا ، ولم أعن بها أى عناية ، ثم فشلت الأولى حيث نجحت الثانية — إنما تنجح القواعد العامة فى التربية والاقتصاد والزراعة ونحو ذلك فى جمهرة الأشياء وعاديّها ، أما النوابغ فشواذ خرجوا عن القواعد وندّوا عن التعليل .

هذا « رفاعة » من أسرة مثلها كثير ، وهو مجاور فى الأزهر مثله كثير ، وتهيأت له من الظروف ما تهيأ لكثير ولكن لم يجر على يد أحد من الخير لأمته فى ناحيته ما جرى على يده ، ما السر فى ذلك ؟ علمه عند الله .

من أسرة فى طهطا تعتز بشرف نسبها للرسول ، ويعزها الناس لذلك ، عرف كثير من أفرادها بالعلم وتولى القضاء والإفتاء ، وبيتهم منازل الحكام ومورد القصّاد ، والحكومة على نظام ذلك العهد تمدهم بالأراضى يستغلونها ولا يملكونها وبالأرادب الكثيرة من القمح كل عام فى نظير فتحهم بيوتهم للضيوف وذوى الحاجة ، ولكن هذا العطاء لم يكن — كما نقول اليوم — حقاً مكتسباً ، ولكن منحة عارضة تتبع رغبة الوالى وشهوته ، فهو إذا شاء أطلقها ، وإذا شاء منعها — وكان من سوء حظ « رفاعة » أو من حسن حظه ، لا أدرى — أن قبض الوالى يده عما كان يعطى أهله ، فوقعوا فى الفقر واضطر أبوه أن ينزح من البلد ، ومعه رفاعة صبى صغير — ولكن ما لبث والده أن مات فقيراً ، فعاد الصبى إلى طهطا ، ونزل فى أخواله ، وشاء الله

أن يكون فى هؤلاء الأخوال من يعلّمه ويعدّه للأزهر ، فحفظ بعض المتون بعد أن حفظ القرآن ودرس شيئاً من الفقه والنحو ، ثم أرسل إلى الأزهر .

درس فى الأزهر كما يدرس كل مجاور ، وعاش فيه كما يعيش المجاور الفقير ، يقنع بالجراية ويأتدم أكثر الأوقات بالفول ومشتقاته (مدمس ونابت وطعمية وبيصار) ولكنه مع هذا يعتز ببيته ونسبه .

شىء واحد ميزه عن كثير من المجاورين هو اتصاله اتصالا وثيقاً بالشيخ حسن العطار ، وكان هذا رجلا ممتازاً واسع النظر ، خبيراً بالدنيا على قلة الخبيرين بها من علماء الأزهر فى ذلك العصر ، ولم يعجبه طريقة الأزهريين فى الاقتصار على كتب النحو والفقه والتفسير والحديث ، فضم إلى ذلك نظرته فى كتب التاريخ والأدب ، وعُنى عناية كبرى بالأدب الأندلسى يدرسه ويحاكيه ، ويأسف على انحطاط الأدب فى عصره ، ويصف شعراء زمنه بأنهم « اتخذوا الشعر حرفة محترف ، وسلكوا فيه طريق معتسف ، فصرفوا أكثر أشعارهم فى المدح لاستجلاب النسح ، حتى مدحوا أرباب الحرف لجمع الدراهم فى الاسقاط ، وكان منهم من يصنع القطعة من الشعر فى مدح شخص ثم يغيرها فى آخر ، وهكذا حتى يمتدح بها كثيراً من الناس ، وهو لا يزيد على أن يغير الاسم والقافية ، وما أشبهه فى ذلك إلا بمن يفرق أوراق الكدية بين يدى صفوف المصلين يوم الجمعة فى المساجد ، وهكذا كان حال الرجل ، فلا يكاد أحد يتخذ وليمة ، أو ختانا ، أو عرساً ، أو يبنى بناء أو يرزأ بموت محب إلا ويبادره بشىء من الشعر ، قانعاً بالشىء النزر » .

أما الشيخ العطار فجريا على عقيدته لم يحتفظ بشعره فى المديح والهجاء مما قاله اضطرارا ، وربما ألا يحفظ عنه إلا « ما لطف من النسيب وعذب من التشبيب مما قد ولعت به أيام الشباب ، حيث غصن الشبيبة غض والزمن من الشوائب محض ، ولأعين اللاح سهام بالفؤاد راشقة ، وثنى قدود تظل لها أعين الأحبة رامقة .

ذاك وقت قضيت فيه غرامى   من شبابى فى ستره بالظلام
ثم لما بدا الصباح لعينى   من مشيبى ودعته بسلام »

وكان الشيخ حسن العطار قد أداه ظرفه ومعرفته بالدنيا أن اتصل بالفرنسيين حين دخولهم مصر ، ودرّس لبعضهم اللغة العربية ، وأداه اختلاطه بهم أن يقف على كثير من معارفهم الواسعة فبهره ذلك منهم ، ويتعجب مما « وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحررها وتقريبها لطرق الاستفادة » ويقارن بين ذلك وحالة العلم فى الأزهر ويرثى لحال مصر ويتوقع حصول ثورة علمية فيقول « لا بد أن تتغير حال بلادنا ويتجدد لها من المعارف ما ليس فيها » وزيد العطار سعة فى عقله رحلته إلى الشام وإلى الاستانة وقد أقام بهما مدة طويلة وسكن فى اسكودره وتزوج بها ثم عاد إلى مصر .

هذا هو الشيخ العطار الذى صار فيما بعد شيخ الأزهر ، وهذا هو أستاذ الشيخ رفاعة الذى أثر فيه أثراً غير شائع عند الأزهريين إذ ذاك ، من ميل إلى الأدب والاطلاع على الكتب غير المتداولة ، وكان التلميذ المحبوب عند شيخه العطار فى بيته وفى قراءته الخاصة وفى دروسه العامة .

وفى الحق أن الأزهر كان فيه نبع صغير متسلسل يعنى بالتاريخ والأدب ، بجانب ذلك النبع الكبير الذى يعنى بعلوم اللغة والدين فقط ، وكان من هذا النبع الصغير الشيخ الجبرتى المؤرخ الكبير وتلميذه العطار وتلميذه رفاعة .

ظل رفاعة يتلقى دروسه فى الأزهر حتى أتمها وتصدى للتدريس فيه ، ثم عين فى منصب صغير هو واعظ للعسكر ثم حدثت الحادثة الكبرى التى غيرت مجرى حياته ورسمت

طريق نبوغه ، ومكنته من أن يتولى زعامة النهضة وهي بعثته إلى باريس

تولى مصر محمد علي باشا وأراد أن ينهض بمصر في جيشها حتى يساوي جيش تركيا ويفوقه ، ونهوض الجيش يحتاج إلى تعلم الفنون الحربية وإلى الهندسة وإلى الطب وإلى الصناعة ، وأراد أن ينهض بالإدارة في تنظيم مالية الدولة وإدارتها وضبط دخلها وخرجها ، ونهوض الإدارة يحتاج إلى رؤوس تضع النظام وأيد متعلمة تنفذه ، ونظر فرأى أن كل ناحية من نواحي الإصلاح تصطدم بالحاجة إلى العلم والعلماء والمتعلمين

ونظر فرأى أن ليس في البلاد من ذلك إلا الأزهر وملحقاته ، فلم يكن إلا الكتاتيب في القرى والبلدان تحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة على نمط عتيق ، وهذه الكتاتيب تسلم إلى الأزهر ، وقد يكون في بعض المدن كالإسكندرية وطنطا معاهد هي صورة مصغرة من الأزهر ، والأزهر لا يعلم إلا الدين واللغة العربية على نمط القرون الوسطى ، وليس في البلاد كلها مدرسة تعلم الجغرافيا والتاريخ والرياضة والطب والهندسة والزراعة والطبيعة والكيميا . المهندس هو المعمار الذي يتخرج من ممارسته للبناء ، والطبيب هو الذي قرأ شيئاً من تذكرة داود ، ومنهاج الدكان ، ومارس الصناعة مع المجربين ، والرياضي هو من حفظ «سورة القفدان» ، وتعلم على الصراف أو نحو ذلك ، وكل هذه أدوات لا تكفي لبناء نهضة فما الحل ؟

هناك حلول ثلاثة (١) إصلاح الأزهر وهو مركز التعليم والتعلم في البلاد ، وتوسيع اختصاصه ، فتجعل الدراسة الدينية شعبة ، وبجانبها شعبة للرياضيات والطبيعيات ، وشعبة للطب ، وشعبة للهندسة الخ ، وقد يبدو أن هذا الحل هو الحل الطبيعي ، وفيه بناء على مركز التعليم وإصلاحه وتوسيعه ، ولكن دون ذلك أهوال ، فالرأي العام الأزهري لا يرضى عن هذا التغيير ، ويعده إفساداً للأزهر ، وإفساداً للدين ، والرأي العام الشعبي يتبعه ويؤيده ، فيحدث ذلك ثورة في البلاد لا حاجة إليها ، ثم إن هذا الطريق طويل ، فإذا أعدت العدة لهذا التغيير ، وانتظرت النتيجة ، كان لا بد من مرور سنين ، والإصلاح يتطلب السرعة — آه — ما كان أنفع هذا الوجه لو اتسع صدر الأزهر ؛ وعقل الناس .

(٢) والطريقة الثانية أن يترك الأزهر وشأنه ، وتنشأ مدارس مدنية من كتاتيب نظامية ومدارس ابتدائية وتجهيزية وخصوصية كالطب والهندسة ؛ وتقلد فيها المدارس الأوربية ولا يكون لهذه المدارس أية صلة بالأزهر إلا بالمدرسين الذين يؤخذون منه لتعليم الدين واللغة العربية ، وتستعين بالأوربيين من فرنسيين وإيطاليين وإنجليز نأتي بهم ونضع في يدهم قيادة الحركة العلمية والصناعية ، ونجعلهم يمرنون المصريين حتى ينهضوا بالعبء . ولكن عيب هذه الطريقة أن كثيراً ممن نستوردهم من هؤلاء الأوربيين قد لا يخلصون في عملهم ، وقد ينظرون إلى مصلحة أممهم لا مصلحة من يعلمونهم ؛ وقد يضيفون إلى تعليمهم قيامهم بوظيفة التجسس لأممهم ، ثم المصريون المتعلمون على يدهم محال أن يبلغوا مبلغهم ، فكلما طالت السلسلة بعدت عن الأصل .

(٣) وثالث الوجوه أن تنشأ المدارس التي ذكرنا ونأتي بأوربيين يعلمون ، ولكن نجعل هذا ضرورة نتخلص منها في أقرب وقت ، فنبعث البعوث لأوربا في مختلف العلوم والفنون ؛ فيتلقونها من مصادرها ؛ فإذا عادوا حلوا بالتدريج محل الأوربيين ؛ وبذلك نكسب السرعة ونكسب الإصلاح ونتقي خطر تغلغل الأجانب .

وعلى هذا الرأي الأخير استقر الرأي ، فأرسلت أول

من منبر الشرق :

طبيب صلاح الدين

تمتع قراء « الثقافة » بالمقالات الدقيقة التي حلل فيها الأستاذ الأديب عبد اللطيف حمزة شخصية صلاح الدين الأيوبي والحوادث التاريخية والاجتماعية التي وقعت في زمانه . وهأنذا أنوى أن ألحق بهذه المقالات كلمة تعرفك برجل فاضل عاش في ظل صلاح الدين ، لا سيما إذا كان هذا يتيح لنا فرصة للكشف عن صفحة رائعة مجهولة من تاريخ الأدب العربي ، بل الأدب المصري .

وقع في يدي منذ أيام كُتَيِّب أطلعني عليه الدكتور العلامة ماكس مايرهوف ، عنوانه « الرسالة الصلاحية في إحياء الصناعة الصحية » ، ومؤلفه هبة الله بن زين (الدين) بن حسن بن إفرائم بن يعقوب بن إسماعيل ابن جميع (أو جُمَيْع) الإسرائيلي المصري . تحتوى النسخة المخطوطة على ست وأربعين ورقة في الحجم الصغير . ويظهر على ورقها الجرم الضارب إلى صفرة مغبرة خط نسخي متقن يبعث السرور في قلب كل من يحب المخطوطات العربية وطالت معاشرته لها . وعلى ظهر الكتاب تاريخه ، وهو « العشر الأخير من شهر رمضان سنة ست وسبعين وخمس مائة للهجرة » ، ومعناه أن هذه الرسالة المهداة إلى صلاح الدين — كما يظهر من عنوانها — كتبت في عهد المؤلف ؛ ولعلها من خطه .

أما هبة الله هذا ، فقد كان — كما يقول عنه ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء ج ٢ ص ١١٢—١١٥— من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين . « متفنناً في العلوم ، جيد المعرفة بها كثير الاجتهاد في صناعة الطب ، حسن المعالجة جيد التصنيف . كان مولده ومنشأه بفسطاط مصر ، وخدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان رفيع المنزلة عنده ، عالي القدر ، نافذ الأمر . . . وكان له مجلس عام للذين يشتغلون بصناعة الطب ، وله همة

بعثة هامة سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا ، وهم أربعون طالباً ، بعضهم لدراسة الإدارة المدنية ، وبعضهم لدراسة الإدارة الحربية ، ومنهم لدراسة العلوم السياسية ، ومنهم لقوة المياه ، والعلوم الميكانيكية ، والهندسة والمدفعية ، وصب المعادن ، وصنع الأسلحة والكيميا والطب والفلاحة والتاريخ الطبيعي والمعادن .

واختير معهم عضو محافظ ، يذكرهم دائماً بالتقاليد القديمة ويصدهم عن الاندفاع في تيار المدنية ، فيكون إماماً لهم في الصلاة ، وقد رشحه لهذا أستاذه العطار .

وهل فكروا حين عينوه أن يكون عضواً أصيلا يُعَد لشيء ، أو مجرد إمام تابع للرحلة يسد خانة من خاناتها ؟ الظاهر أنهم أرادوه أولا إماماً للبعثة ، وهذا عمله الأساسي ، فإن تم وجاء بشيء فلا بأس وليكن الترجمة ، ولكن أراد الله أن يكون الإمام في الصلاة للبعثة إماماً للحركة العلمية في مصر .

في عصر يوم الجمعة ٨ من شعبان سنة ١٢٤١ — ١٨ من مارس سنة ١٨٢٦ ، كان شاب ملتح معمم سنه خمس وعشرون ، ويقدره من رآه بأربعين ، لأن حياته وحياة أمثاله لم تعرف الشباب ، يظهر عليه الخشوع الديني ، والتواضع وطيبة القلب وخفة الروح ، يسافر مع أعضاء البعثة من مصر إلى الإسكندرية ، ولا تظن أنهم اتخذوا قطار اكسبريس ، فوصلوها بعد ثلاث ساعات ، ولكنهم أخذوا زوارق صغيرة كل جماعة منهم في زورق ، وسارت بهم في النيل أربعة أيام بلياليها حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، إذ لم تكن مصر عرفت « الوابور » بعد .

(يتبع) **أحمد أمين**

عالية ... وكان له نظر فى العربية وتحقيق للألفاظ اللغوية ، وكان لا يقرأ إلا وكتاب الصحاح للجوهرى حاضر بين يديه ، ولا تمر كلمة لغوية لم يعرفها حق المعرفة إلا ويكشفها منه ويعتمد على ما أورده الجوهرى فى ذلك » .

وفضلا عن علمه الواسع ، واطلاعه على كتب القدماء والمحدثين ، اشتهر أيضاً بممارسته الموفقة فى معالجة المرضى ، وبحدسه الصائب فى التجربة العملية .

لا يوجد ذكر الرسالة الصغيرة التى فى أيدينا فى ثبت كتب ابن جميع الذى أورده ابن أبى أصيبعة ، ولعل سبب هذا أنها لا تهتم بموضوع من الموضوعات الطبية الصرفة ، بل موضوعها اجتماعى وأخلاقى — وأدبى إن أردت — وستقول معى عند اطلاعك عليها إنها غير مقيدة زمنها فى أكثر ما تحتويه من نظرات اجتماعية وإصلاحية ، وإنما هى حية « طازجة » كأنها قيلت اليوم . وذلك أن موضوعها الأخطار التى تحيط بحرفة الطب وبأخلاق الطبيب ، فتؤدى إلى انحطاط ما كان يجب أن يكون أسمى حرفة فى سبيل خدمة الإنسانية ، وأنت توافقنى على أن هذه المسألة ليست محصورة بعصر من العصور ، بل هى باقية ما بقيت صناعة الطب .

يحتوى كتيبنا على ثلاثة أبواب أورد لك عناوينها :

الباب الأول « فى تقديم ما ينبغى تقديمه بمقتضى عرض هذه الرسالة » ، وهو فصلان أولهما « فى الإبانة عن شرف الطب وعظم منافعه وشدة الافتقار إليه » ، وثانيهما « فى الدلالة على صعوبة صناعة الطب والإشارة إلى أسباب تعذر حصول الكمال فيها وندرة وجود الفضلاء من أهلها ، واستيلاء النقص والتقصير على جل المتوسمين بها » .

الباب الثانى « فى الإشارة إلى أسباب دثور صناعة الطب ودروسها وانمحاء محاسنها وطموسها » .

الباب الثالث فى الإشارة إلى طريق إحياء صناعة الطب ونشورها وتجديدها بعد دثورها .

لا تحسب أيها القارئ أن فى سجع هذه العناوين دلالة على أسلوب متفق يتكلفه المؤلف فى ثنايا كتابه ؛ والحق يقال إنه ليس فى الكتاب كله سجع واحد — كما كان من عادة أكثر أدباء ذلك العصر — غير هذه العناوين المسجعة ، وإنما أسلوب المؤلف واقعى طبعى ، بمعنى أن اللفظ يقع دائما على المعنى بعينه الذى يقصد الكاتب إلى التمييز عنه ، وأن التناسب بين الاسم والمسمى يظهر من دون تكلف ولا تصنع ، حتى أنك لا تستبعد الرأى أن ابن جميع فى نثره الجذاب كان قد تتلمذ على أبى عثمان الجاحظ شيخ طريقته ...

يتحدث ابن جميع فى الباب الثانى من كتابه عن نشأة الطب عند اليونان وعن أطوار تاريخه منذ بقراط وجالينوس بعده ، وهما اللذان يمثلان فى رأيه ذروة ما وصلت إليه المباحث الطبية عند القدماء ، ويبلغ عندئذ إلى الفترة التى بين الأوائل والعصر الإسلامى ، تلك الفترة التى كان من مميزاتها انحطاط الدراسات الطبية والعلمية عامة . يقول المؤلف : « وظهرت بعد جالينوس فى اليونانيين ملة النصارى وغلبت عليهم لحظرت النظر فى الأمور العقلية فاطّرح ملوكهم العناية بها وأهملوا إعانة طالبها وانصرف الطالبون لها عن ارتكاب المشقة فى طلبها واستطالوا قراءة كتب بقراط وجالينوس فاضطرب واختل أمرها . ثم أتى أرباسيوس (Oribasius) وقد استحكم زهد ملوك النصرانية فى التعلم ، فرأى أن يستميل العوام إليه بطريق التقريب والتسهيل واجتناب التكثير والتطويل لكى لا يتلف ويبيد ، فصنع كنانيش « جمع كُنّاش » قرب فيها الصناعة إليهم وسهل بها تعلمها عليهم ، واحتذى حذوه فى ذلك بولس ومن أتى بعده إلى وقتنا هذا ، فكثرت بذلك كتب الصناعة من الكنانيش والمختصرات والتلخيصات والجوامع ونحوها وانغمست كتب بقراط وجالينوس فيها . وقد كان أوجه الأطباء بالإسكندرية — لما لم يبق لأحد من ملوك النصرانية رغبة فى التعليم . . . واستشعروا خوفا أن تبيد الصناعة ويدثر ما عمله بقراط وجالينوس فيها — سألوا

أولئك الملوك فى إبقاء التعليم بالإسكندرية وأن يكون مايقرأ من الطب عشرين كتابا فقط ستة عشر منها من كتب جالينوس وأربعة من كتب بقراط ، فأجابوهم إلى ذلك ، واتصل التدريس بالإسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز فإن القائم بالتدريس يومئذ أسلم على يديه وصحبه وهو أمير قبل إفضاء الخلافة إليه . فلما أفضت إليه الخلافة انتقل التدريس إلى أنطاكية وحران[1] وغيرهما وانتعش التعليم إلى أن ولى المأمون عبد الله بن هارون الرشيد الخلافة فأحياه وأنماه وقرب الفضلاء . ولولاه لكان الطب وغيره من سائر علوم القدماء قد دثرت ودرست كما درست الآن من بلاد اليونان التى كانت أخص البلاد بها . . . . »

وبعد أن ذكر ابن جميع كتب جالينوس الستة عشر التى اتفق برنامج تعليم الطب عند المتأخرين عليها يستطرد قائلا : « ولم يقتصروا على تعليم هذه الكتب لا لأنهم رأوا أنها كافية فى استكمال صناعة الطب ولا أنها مشتملة على كل ما يضطر إليه الطبيب فى التصدى لمباشرة المرضى ، كما قد ظن كثير من جهال الأطباء وغيرهم ، بل لتكون هذه الكتب مشوقة لقارئها إن كان ذا طبع جيد وهمة متنبهة بل هو مضطر إذا فهم ما فيها إلى قراءة ما سواها بل إلى استتمام الصناعة واستكمالها . . . إن من أتى بعد الإسكندريين من المحدثين الذين وضعوا الكنانيش ونحوها أكثرهم توهموا أن يستغنى بما وضعوه منها عن كتب القدماء ، ومنهم من صرح بذلك كالذى سمى كتابه « كامل الصناعة الطبية » والذى سمى كتابه « المُغْنى » أو « الكافى » وهم فى هذه التسميات كالذى سمى الغراب أبا البيضاء واللديغ السليم ، فغلطوا بذلك أكثر الناس واقتصروا عليها وأضربوا صفحا عن كتب القدماء لما فى طباعهم من الميل إلى الأسهل والهرب من الأطول . واستمر هذا الغلط بهم إلى أن هجرت كتب بقراط وسميت جوامعها بأسمائها وجهل الفرق بينها وبينها . »

أما ما يدعو المؤلف إليه بعد أن عدد أسباب دثور صناعة الطب من إهمال الملوك العناية بها وتخلف أكثر الطالبين لها ورغبتهم فى التكسب لا فى التطبب والإعراض عن دراسة المصادر الأصلية بأكملها ومباشرة العمل والتجربة فى معالجة المرضى — فإنه أشياء ، منها أن لا تمارس حرفة الطب وتعليمها إلا رجال فضلاء محنكون حذاق فى أعمالها ، ثم تخريج طالبى الطب وتدريبهم فى مزاولة المرضى بين أيديهم ، « وأجود ما يكون ذلك وأفضله فى البيمارستانات ، لأنها مجامع الأطباء والمرضى ، وفيها تحصل المتعلمين الرياضة التامة فى أعمال هذه الصناعة بين الأساتذة الحذاق فيها » كما يجب أن يتخير منهم من لهم بالفطرة عقول جيدة وأذهان مسددة وطبائع تميل إلى الخير وتأبى الشر وحرص على الفضيلة وصبر على المشقة فى طلبها وانصراف عن الاشتغال بالملذات العائقة عنها . ويجب أن يكون امتحان الطبيب فى الحذق والحنكة والدربة فى أعمال الطب أمس وأشد مما هو فى وسع اطلاعه على الكتب المدونة فقط مع استمرار الاستفادة مما جمعته أجيال متتابعة من تجارب وممارسات . فإن « بقراط » يقول « العمر قصير والصناعة طويلة » يعنى أن عمر الإنسان قصير بالقياس إلى صناعة الطب ، « وإنما أدرك ما أدرك إلى هذه الغاية منها ألوف من الرجال فى ألوف من السنين بأن أخذ كل متأخر منهم ما استنبطه وأدركه مَن تقدَّمه فهذبه وفرعه وتطرق منه إلى ما لا يتفق له إدراكه وزاد عليه ما استنبطه هو نفسه إلى أن تمت الصناعة وصار من فهم جميع ما أدركه من تقدمه منهم واتفق فيه أنهم كمن قد عُمِّر جملة أعمارهم واجتهد كل اجتهادهم »

هذه نبذة من كلام هبة الله بن جميع فى رسالته ولعلها تشوقك إلى أكثر فأكثر حتى يدعوك شوقك هذا إلى الرجوع إليها مرة أخرى على صفحات « الثقافة » الغراء .

باول كراوس

[1] راجع الدكتور مايرهوف موضوع انتقال مدرسة الإسكندرية إلى أنطاكية فحران ثم بغداد فى مقالة له ، ترجمها إلى العربية عبد الرحمن بدوى فى كتابه الثقافة اليونانية فى الإسلام ، فليرجع إليه .

كتاب مفتـــــوح

إلى الأستاذ أحمد أمين بك

كان هنا شاعر لم يعرفه النـاس حتى عرفتهم به هدآت الأسحار ، إذ كان يطوف فيها على مرابع حيه ، يغنيها على ربابه أعذب ألحانه ، وأشجى أغانيه ؛ وكان ينادى الليل الراحل بأرق أحانه ، فيلتفت الليل ويقف لحظة يصغى إليه . والفجر يستحثه على الرحيل ، وتنصت إليه قلوب العاشقين ، فإن غنى بـ (ياليل) هاج بها الشجن فأجابت من لوعتها بـ (آه ...) ، ويعرفه القمر ، لأنه كان يسكب فى نوره ألحانه ، فتطفو على وجه النور ، ثم تسيل من رقتها فيه ، وتمزج به امتزاج الخمرة بالماء ، فتشرب فيه أرباب القلوب خمرة نورانية تهيج فى نفوسهم سكر الحب الطاهر ، والعاطفة الخيّرة ... وعرّفتهم به الفجائر المؤمنة ، إذ كان يهتف بها مع الفجر بالنشيد العلوى الذى يوقظ فى نفس الإنسان الذى يسمعه (المَلَك) ، فإذا استيقظ فيه الملك ، خنس (الشيطان) ، واستخذى (السبع) ، فتعرف بنشيده لذة الإيمان ، وما فى الأرض لذة كلذة الإيمـان ... شاعر لم يكن يعرف فضلاً من عروض الأوزان ، ولا سُلَّم الألحان ، ولكنه يعرف كيف يعتصر قلبه بيد الألم ، وكيف يذيب نفسه بلهيب الذكريات ، ثم يجعل من ذلك أشعاره التى يغنيها على ربابه ، فتميل إليه القلوب ، وتحنو عليه ، وتجد عنده الأنس والاطمئنان .

غنى للإيمان وللوطن وللحب ، وأكثر الغنـاء ، ولكن النغمة البارعة التى تجيش بها نفسه ، لم يتحرك بها لسانه ، ولا جرت بها يده على ربابه إلى اليوم ، من أجل هذا كنت تراه إذ تراه ، حائراً مضطرب الجوانح ، زائغ البصر ، كأنما يفتش فى الفضاء عن شئ أضاعه ، يفتش وراء أفق الزمان ، عن الشئ الذى لم يجده فيه ، فهو لا يفتأ ينظر إلى ماضيه يقلبه ، ويجوس خلاله ، علّه يجد فيه ضالّته ، فإذا افتقدها عاد إلى الآتى ، يحاول أن يستشف بعين الأمل ما خلف بابه ، فلا يشف الباب عن شئ ؛ أما الحاضر فلا شأن له به ولا يعنيه أمره .

أعجب به الناس لما عرفوه ، وأحبوه ، ثم ألفوه واطمأنوا إليه ، ثم تعودوا أن يروه ويسمعوه ، فأضعفت العادة شعورهم به ، فكانوا لا يدرون به إن حضر ، ولكنهم يفتقدونه إذا غاب ... ثم أصبحوا لا يعنيهم فقده ، ولا يعز عليهم غيابه .

وطرق الحى (شعراء) ، يضربون على الطبول الكبيرة ، ويصرخون بأغان فارغة مدوية كطبولهم ، لا تدعو إلى فضيلة ، ولا تهز عاطفة ، ولا تمس من النفس موضع الإيمان ، ولكنها تدعو إلى الشهوة ، وتثيرها فى الأعصاب ، لا تعرفهم هدآت الأسحار ، ولا يدرى بهم فتون الفجر ولا شعاع القمر . ولكن تعرفهم أضواء الكهرباء الساطعة فى معابد الشيطان ، وهيا كل الشهوة ، وتعرفهم موائد الخمور ، فى دور الفجور ، خف الناس بهم ، وصفقوا لهم . عند ذلك كسر الشاعر ربابه ، وانسل خارجاً من الحى بسكون ، كما دخل الحى بسكون ، وأم الجبل ليتخذ لنفسه من (الجادة السادسة) ملتجأ ، يعصمه علوه من أن يسمع قرع هذه الطبول ، وعاد كالشيخ الذى صارت أيامه الثلاثة يوماً واحداً ، فطال أمسه حتى محا يومه ، وامتدت ظلاله إلى غده ، فلم يعد يعيش ، وإنما يعيش خياله فى خيالات الماضى ، كالشجرة التى عرّتها لفحات كانون ، فهى تعيش فى ذكرى آذار المنصرم وزهره ، وتموز الماضى وثمره ... ومتى رجعت فى كانون أزهار آذار ؟

أجل ياسيدى ، لقدمات الشاعر ، ودفن فى جبة القاضى ، ولوجاء أمرك إياه بالكتابة للثقافة وفى عاطفته

تلك التوقد ، وفي أعصابه تلك النار ، يوم كانت تتأثل عليه المعاني ، وتجيش بالصور نفسه ، ويتحرك بالبيان لسانه من غير أن يحركه ، حتى لكأنه الجواد الكريم يفلت من الشكال ، وكأن قلمه إذ يجري على القرطاس يسابق اليد التي تجريه ، والفكر الذي يمده ، لوجدته أسرع إلى طاعتك من السيل الدفاع إلى مستقره ، بل أسرع من الطرب إلى نفس الكريم ، والحب إلى قلب الأديب .

يوم كان يعيش في دنيا الناس ، وكأن له دنيا وحده ، يرى فيها ما لا يرون ، ويسمع ما لا يسمعون : يرى في كل مشهد جمالاً ، وفي كل جمال حلماً فاتناً يستغرق فيه مسحوراً ، ويدرك من لذاذاته ومتعه ما لا يعرفه إلا من سمع حديث الجمال ووعاه بأذن قلبه ، وأمضى لياليه حالماً سادراً في أحلامه ، فإذا صحا لم يجد ما يترجم به عن نفسه الا لغة ضيقة قاصرة ، خلقت للتعبير عن حاجات الأرض ، لا لوصف أحلام السماء ، وماذا تصنع لغة لا تعرف للجمال كله على ماله من الصور التي لا تنتهي ، والمعاني التي لا تنفد ، إلا كلمة واحدة هي كلمة (الجمال) ، وأنى لها أن تترجم عن عالم كله حياة وقوة وسحر ؟ وكيف تقنعه وللجمال في عينيه صحائف يقرأ منها كل يوم جديداً ؟ فلكل وجه جمال لا يقاس به غيره ولا يشبهه سواه ، ولكل مقلة جمال ، ولكل بسمة ولفتة ، ولكل رنة صوت ، ولكل ومضة ثغر ، ولكل واد وجبل ، ولكل سهل ونهر ، ولكل مقطوعة من الشعر وكل صورة في التحف ، وكل زهرة في الروض ، ولكل رائحة وكل نغمة . فجمال ريا الياسمين ، وجمال أريج الورد ، وجمال عبق الزنبق ، وجمال رَوْح الفُل ، وجمال السيكاه والرصد ، والحجاز والصبا ، والعود والقانون والناي والكمان ، وجمال القصة المؤثرة ، والحكمة المتخيرة وما شئت وما لم تشأ من أنواع الجمال في الوجود ، كل أولئك ليس له في هذه اللغات البشرية ، إلا لفظ واحد يدل عليه ويشير إليه . . . يا ما أفقر لغات البشر !

وكان تذوق الجمال يهيج في نفسه الأدب ، والأدب هو البث ، فلا تتم له متعة ولا يحلو له نعيم حتى يشرك الناس معه في نعيمه ، وكذلك الأديب يجود على الناس بأعز شيء عليه : بشعوره وعواطفه ، فيفتح لهم نفسه ، ويكشف لهم عن سرائره ، ولا يستأثر دونهم بشيء ، فهم معه في ألمه وسروره ، ويأسه وأمله ، يتلو عليهم نبأ حبه وبغضه ، وحركاته وسكناته ، فيشاركونه حياته ، ثم يقولون : عجباً لهذا الفتى الثرثار الذي لا يفتأ يتحدث عن نفسه ، ولا ينفك مزهواً بها زهو الديك بريشه ، مالئاً الصحائف بأخبارها ، كأن الناس لا هم لهم إلا أن يسمعوا خبرها . . . ما دري القائلون أنهم يتهمون بالأثرة رجلاً هو أول المؤثرين !

وكان ينقل ما يحس به من معاني الخلود إلى لغة الفناء ؛ فلا يبقى منه إلا الأقل الأقل ، ثم يعده للنشر فيضيع أكثر جماله الباقي بين مراعاة آداب المجتمع وقوانين النشر ، وأذواق الناشرين ونزعات القارئين ، ثم ينشر فإذا هو يرضي القراء ، وإذا منه المعجب المطرب ، المقيم المقعد ، ولكنه لا يرضى عنه ، ولا يعجب به ، لعلمه بأن خير ما كتب ، ما لم يعبر عنه بلفظ ، ولم يجر به قلم على قرطاس . . .

وما كان يا سيدي ليفخر أو ليزهى ، وإنه لأعرف الناس بنفسه وعيوبها ، وأدبه ونقائصه ، ولكنك فتحت عليه باباً لذكريات أعياه الليلة سده ، وقد كان قبل اليوم مسدوداً .

وذو الشوق القديم وإن تسلى   مشوق حين يلقى العاشقينا

وإنه لواحد ممن وأد هذا المجتمع ما كان لهم من ملكات . . . كانت له « نفس » فماتت ، أفما يترك ليرثي بالقوم نفسه ؟ يذهب مال الرجل فيبكي ماله . ويحرق بيته فيندب بيته ، وتودي تجارته فيعول على تجارته ، ويهجره حبيبه فيأسى على فقد حبيبه . . . وتموت نفسه ويجف في حلقه لسانه ، فلا يطلق ليبكي نفسه ، وينوح على بيانه ؟

* * *

في أصيل يوم من أيام الخريف من سنة ١٩٢٨ وقف حيال جسر الزمالك في القاهرة ، شاب شارف العشرين من عمره ، كان في السن التي يعيش فيها المرء للهوى والأحلام ، فنظر إلى النيل مرة ، وإلى الفضاء الأرحب مرة ، فذكره الأفق البعيد المتشح بأنوار الغروب بحلته المنسوجة من خيوط الشمس ، بلداً له حبيباً إلى نفسه ، هو أضوأ في عينيه من الأفق الذي توارى وراءه ، وأمّا له وإخوة كانوا هم جمال هذا البلد ، وملاعب الصبا ، ولدات الطفولة ، ذكر دمشق ، وكان له في كل بقعة منها ذكرى هي قطعة من حياته ، وما حياة المرء إلا الذكريات ، ذكر سفح قاسيون الأنيس ، وصخوره الضاحكة تحت الجبروت والربوة منبت الحب ومثوى الأماني ، والغوطة جنة الدنيا وبستان الأرض ، والمزان والشاذروان ، والمزة وكيوان ، فهاج نفسه الشوق وأثارها الحنين ، فنسي مقعده في دار العلوم العليا ، ونسي المطبعة السلفية في شارع الاستئناف التي تشرف فيها بلقاء الأعلام من علماء العصر من أصدقاء خاله الكريم محب الدين : تيمور باشا والرافعي وأحمد أمين وعزام والخضر التونسي والغمراوي ، ونسي جمعية الشبان المسلمين عند دار النيابة ، وولى وجهه شطر المحطة ، فلم تكن إلا ساعات حتى كان هذا الفتى يودع القاهرة التي دنت له فيها الأماني ، وبركب متن الشوق إلى البلد الحبيب ، لم يدر أنه ودع يوم ودع مصر ، مستقبله الأدبي ومجده ، ونبوغه واستعداده ، وفارق الأرض المخصبة الريانة ، يحمل بذوره ، لينثرها على الصخر الصلد ، ويرجو لها النبات . ترك القاهرة ورجع إلى البلد الذي يموت فيه الأديب ، وكان ذلك أول سطر في صفحة شقائه .

هذا الشاب الذي كان يتدفق حياة ، ويتوثب نشاطاً ، والذي كان له في كل ميدان جولة ، وكان في كل معمعة فارسها المعلم ، والذي عمل للأدب وللإصلاح ، وللسياسة وللصحافة ، وللتعليم وللتصنيف ، والذي عرفته العراق وعرفها ، وأحبها وأحبه تلاميذه فيها ، وبقى فيهم من بقي له ويذكر عهده ، وبقي هو وفياً للعراق ذاكراً عهدها ، وكان شأنه في لبنان كشأنه في العراق ، والذي مشى إلى الحجاز ، وكان له في كل بلد أثر في نفوس أصدقائه ، وفي قلوب الآلاف المؤلفة من تلاميذه ، الذين ما انفك يوليهم من نفسه وقلبه حتى لم يبق له نفس ولا قلب ... هذا الفتى أعادته الأيام بعد هذا كله شيخاً ولم يبلغ الأربعين ، ميتاً يمشي مكفناً في جبة وضيقت رحب نفسه حتى أحاطت بها مواد القانون ، وحطمت قلمه فتحطم فهو لا يجري إلا في حيثيات القرارات وصيغ المخالفات ، وصغرت دنياه حتى صارت تحدها جدران المحكمة الأربعة ... فماذا يا سيدي يرجى منه بعد هذا ؟

قضى عليه بلده الذي أحبه ، وفارق من حبه مصر بعد ما بسم له فيها المستقبل عن ثنايا بوارق ، ولو أنه بقي في مصر ، ومصر موطن أسرته الأول ، تعرف للأدب حقه ، وللأديب منزلته ، لكان منه اليوم (شيء) !

على أن مصر إن أردت الحق ، لا تحب إلا أبناءها ولا تبسم إلا لهم . وترى واحد الأدب المصري مائة ، ومائة غيره لا تساوي عندها واحداً . وإلا فخبروني بالله لم يحتفل نقادها بأصغر كتاب يصدر فيها ويشتغلون بالكلام عنه الأيام الطوال . ولا يخطون كلمة ثناء أو نقد للكتاب القيم يصدر في الشام أو في العراق ؟

وماله يعتب على مصر ، وهذا بلده طاشت فيه الموازين وانقطعت الأسلاك ، وتبلبل الرأي ، واختلط الحابل بالنابل ، والتحليات بالعواطل ، حتى أن الصحف لتجمع على مدح الكتاب وتقريظه ، وتهلل للشعر الجديد وتصفق ، وما ثم إلا منكر من القول قد صيروه معروفاً ، أو ثقيل بارد استحبوه ، أو غث متهافت رأوه قوياً بليغاً ، كأن الأدب صار لهواً وعبثاً . وكأن العربية أنحلت عراها ، وانفرط عقدها ، ولم يبق لها هذا (الكتاب) تعتصم به ،

فيحفظ عليها وحدتها ، ويكون بين أولها وآخرها السبب الموصول والحبل المتين ، فقديمها به حديث أبداً نفهمه اليوم ونتذوقه ، وحديثها به قديم ، لو نشر الله العرب الأولين لفهموه وتذوقوه ، وكأن الأديب هو من ينزع عن جسمه جلده ليلبس جلداً مصنوعاً في المعامل التي هي (هناك) ، ومن يود لو خلع رأسه تركّب له رأساً فيه عقل من (هناك) ، والذي يفرّق بالجهات بين الحق والباطل ، فما جاء من حيث تشرق الشمس كان باطلاً كله ، ولو كان الدين والأخلاق والشرف ، وما جاء من حيث تغيب ، فهو حق كله ولو كان الكفر والفسوق والعصيان ... وحتى أن هذا البلد لينكر الأديب الصريح ، الثابت النسب ، الموصول السبب ، ويحفل بكل لصيق دعيّ ... ولكن هل يشكو امرؤ بلده وأهله ؟

بلادي وإن جارت على عزيزة
وأهلي وإن ضنوا على كرام

فلا عليك يا دمشق ما صنعت عن لم يكد يحبك أحد مثلما أحبك ، ولم يصف من جمالك كاتب مثلما وصف ، ولا أشاد بذكرك مثلما أشاد ، وهذي صديقتنا «الرسالة» أخت «الثقافة» شاهدة على ما يقول ، لا يمنّ ويؤذي بالمن ، ولكن يعاتب ويشكو . . .

***

ولئن كتب الله لهذا (الميت) ولادة أخرى والمرء يولد فيه كل يوم رجل جديد ويموت رجل قديم . وأعاده إلى الحياة فليضربن إن شاء الله في سماء الأدب بجناحين مبسوطين . وليطلعن على آفاق لم يرها من قبل ، وليحدثن قراء الثقافة حديثاً هو أحلى من مناجاة الحب ، وحديث القلب ، وإلا يكتب له ذلك فعليه رحمة الله ، وما ضر الناس فقده (شيئاً) ، وهذا اعتذار تضمّنه شكوى ، فانشره ياسيدي مشكوراً ، أو فدعه غير ملوم :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

دمشق (دوما) (ع . . .)

«الثقافة» : أرسلت «الثقافة» إلى الأستاذ الأديب الدمشقي صاحب الامضاء ، ترجوه الخروج عن صمته ، والعودة إلى الكتابة ، وقد عرفت منه كاتباً قديراً ، وأديباً متفنناً ؛ فمن يهجر الكتاب ، وأتاح لنا الفرصة ؟ ولعل هذا يكون سبباً باعثاً للأستاذ أن ينفض عن نفسه ، ويستعين قلمه ، ويمتع القراء بآثاره ويتحرر من الدنيا الضيقة التي يعيش فيها بين القضايا وكتب القانون وحيثيات الأحكام ، إلى الدنيا الواسعة ، دنيا العواطف ، ودنيا الناس ومنازعهم ومشاكلهم وإصلاحهم ؟ فما خلق الأديب وقفاً على مثل هذه الدنيا الضيقة .

والأستاذ يعتب على الصحف والمجلات المصرية و«الثقافة» أنها تقصد بالثناء من نتاج مصر ، ولا تشير إلى الجيد من نتاج الأقطار الأخرى كالشام والعراق ، وقد سمعنا هذه الشكوى مراراً ، وقد يكون فيها شيء من الحق ؛ ولكن أكبر الظن أنه إهمال غير مقصود ، ولعل كتاب الشام والعراق يحملون أيضاً كثيراً من التبعة ؛ فالكتب الشامية والعراقية تظهر بين أظهرهم وهم أعلم الناس بها وبملابساتها وبقيمتها ، فلو كتبوا عنها ونقدوها نقداً فنياً ، وعرفوا بها تعريفاً صحيحاً ، لما تأخرت المجلات المصرية عن نشر مقالاتهم ومشاركتهم في الإشادة بالآثار القيمة منها . و«الثقافة» على الأقل تلتزم هذا وتتعهد به ، وتعتقد أنها بذلك تسد نقصاً واضحاً فيها ، وفي سائر المجلات ، وهو عدم إفراد باب النقد حقه ، سواء أكان النتاج مصرياً أو عراقياً أو شامياً — وفي انتظار مقالات الأستاذ نحييه ونشكره .

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ لطلبة وموظفي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

من سير الرحلات :

إلى دير الأنبا أنطونيوس

ساد مصرَ في القرنين الرابع والخامس للميلاد عصرُ تَقَشُّفٍ ورغب فريقٌ من أهل البلاد في حياة العزلة والتقشف ، فهجروا المدنَ واعتزلوا العالَم وخلَوْا إلى الوحدة للعبادة والتأمل ، فسكنوا الجهات النائيةَ من الصحراء وشيدوا فيها مع الزمن المعابدَ والأديرةَ — ومن أقدم هذه الأديرة بمصر دير الأنبا أنطونيوس . ويقوم هذا الدير في بقعةٍ نائية مجهولةٍ غير مطروقة . في وادى العربة العظيم وسط الصحراء الشرقية . على سفح جبل شامخ . يُرفرف عليه السكونُ . ويحيط به سورٌ طويلٌ عريض . تُطِل من خلفه أشجار السرو والنخيل والزيتون . وأبراجُ الكنائس . وقبابُ الصوامع ووادى العربة يحصُره جبلان عاليان هما الجلالةُ البحريةُ في الشمال والجلالةُ القبليةُ في الجنوب . ويقع في طرفه دلتاه على خليج السويس رأسُ الزعفرانة ، حيث يوجد في الوقت الحاضر فنارُ الزعفرانة المعروف .



وقد قمنا في شهر ديسمبر سنة ١٩٣٢ برحلة إلى الدير .

ولا أدرى الآن وقد انقضى على قيامنا بهذه الرحلة عشرُ سنوات كاملة كيف أمكننا الوصولَ إليه سالمين — كما لا أدرى كذلك لماذا خالفنا نصيحةَ الرجل الطيب الجرب صول الهجانة بنقطة المعصرة في ذلك الوقت ، فقد قال وهو يحذرنا من مَغَبَّةِ هذه المجازفة إنكم لقادمون على رحلة طويلة شاقة ، فالمنطقةُ بين حلوان والدير صحراءُ جرداء ، يغطى سطحَها رمالٌ تغوص فيها عجلاتُ السيارات وترتفع في أرجائها سلاسلُ من جبالٍ وتلالٍ تذهب طولا وعرضاً في جميع الجهات تخترقها وديانٌ وأخاديدُ لا حصر لها ، يضلُ في مسالكها الهجانُ الخبير ، وستعوق تقدمكم كثبانُ الرمال ، ورخاوةُ الأرض في بطون الوديان — والصحراءُ بعد بلدة الكريمات غيرُ ممسوحة ، ومعالمُها غيرُ معروفة ، والطريقُ فيها غيرُ مرسومة فالخرط لا تنفعكم — ووادى العربة نادرُ الماء ، شديدُ الحرارة كثيرُ المنعطفات والحزون ، مجهدٌ للسيارات — والدير تحجبه مشارفُ الجلالة القبلية ويَدِق على النظر البعيد ، فالاهتداء إليه عسير — ونصيحتى إليكم ألا تغامروا بأنفسكم وسياراتكم في هذا التيه العظيم .

قال لنا الصول هذا الكلامَ وأكثرَ منه ، ولكن من الغريب أن يكونَ لتحذيره هذا في نفوسنا نتيجةٌ عكسية ، فبدلا من التقاعس والتروى اندفعنا في إعداد الرحلة بحماس وشوق شديدين ، وكأن وادى العربة — هذا التيه العظيم — قد استهوانا فبتنا دائبين على إتمام الرحلة غير عابئين بنذير أو تحذير .

خرجنا من حلوان والساعةُ نصفُ الليل ، لنشق طريقنا وسط ظلام دامس ، وضباب كثيف كان مُخيّما على أرجاء الوادى ، وكنا خمسة في سيارتين ، وبعدَ قليل وصلنا الطريق الزراعى المؤدى إلى بلدة الصف جنوبى حلوان — وقبيل الفجر وصلنا بلدةَ الكريمات — ثم مال بنا الطريقُ نحو الشرق ودخلنا منطقةَ الرمال ، ثم أخذنا نرتقى هضبةَ القطم — ثم أشرقت الشمسُ وانقشع الضبابُ وانكشفت الصحراءُ — وعند الضحى ظهرت جبالُ الجلالة القبلية في الأفق البعيد ، جهة الجنوب

الفرق — ثم انحدرنا إلى واد عميق .

كان كل شيء حتى الساعة يسير وفق المرام — ولكن لم نكد ندخل الوادي ونتقدم فيه حتى قامت أمامنا العراقيل ، وتوالت المشقات والمتاعب ، وأصبحنا لا نخرج من مأزق إلا لنقع في غيره أشد منه وأصعب — فغرزت منا السيارات عدة مرات ، واحتاج إخراجها في كل مرة إلى مجهود وإضاعة وقت ، وإسراف في البنزين والماء ، ثم دخلنا منطقة من الوهاد والهضاب والنجاد والتلال وكثبان الرمال ، بقينا نضرب فيها طولا وعرضا على غير هدى مدة ساعتين ، وأخيراً انتهينا إلى جرف ضيق تعذر على السيارات المرور فوقه ، فحاولنا الرجوع ، ولكن تعذر ذلك أيضاً ، وكدنا في هذه المحاولة أن نسقط في الهاوية .

كان قد أنهكنا التعب وأضنانا الجهد ، فارتمينا على الأرض بجانب السيارات خائري القوى ، مصدعي الرءوس ، شاحبي الوجوه ، غائري العيون من شدة الإعياء — وكان حال السيارات كحالنا قد أجهدها السير الطويل الشاق أيما إجهاد ، فحديدها ساخن يلتهب ، ومقدمها جاثم يزفر ، وجسمها يرتجف كالمحموم .

أصبح التقدم بعد ذلك مستحيلا — والتراجع كذلك مستحيلا ، واستنفدنا نصف ما كان معنا من البنزين — وضاع معظم الماء في مبردات السيارات — وانتصف النهار ، وأضنانا التعب — ولا ندري أين نحن في هذه القفار والقفار — ونهار الشتاء قصير ومكاننا مجهول — والدير في ثنايا الوادي مستور — والصحراء قاسية ، والحياة غالية ، واليأس قاتل ، ولكن عابر الصحراء كراكب البحر ، متوكل على الله ، ملحوظ برعاية الرحمن ، فتهديه العناية من روعه إذا اضطرب جنانه ، وحاق به الكرب وتلهمه سداد الرأي إذا ما دخلته الحيرة ، واختلط عليه الأمر ، وتقوده في سبيل السلامة إذا ما ضل الطريق ، وانقطع به حبل الرجاء — وتبعث فيه القوة إذا ما خارت عزيمته ، واستولى عليه القنوط .

فلم تكن إلا دقائق معدودات حتى صاح بنا العريف يا رفاق — الحركة بركة ، والقعود خور ، والنكوص هزيمة — فهيا إلى العمل — فتفرقنا في الوديان نبحث ونستكشف ، ثم عدنا بعد ساعة ، وقد انتعش الرجاء ، وانفرج الأمل ، وتوطد العزم على تخليص السيارتين ، ومواصلة السير مهما كلفنا الأمر . كان لا بد لتخليص السيارتين من إدلائهما إلى الوادي إدلاء من ارتفاع خمسين متراً أو يزيد — فجئنا بحبل متين كان معنا . وربطنا طرفيه بمؤخر إحدى السيارتين ، ثم ركبها أمهرنا قيادة ، ودفعنا بها إلى المنحدر على جانب الجبل . فأخذت تترنح ذات اليمين وذات الشمال — ومرة تنزلق . ومرة تنحدر . ومرة تهوى ، ونحن من خلفها متشبثين بالصخر ، ممسكين بالحبل . بعزم شديد . بين جذب وشد مرة نتكفأ على وجوهنا . ومرة ننتصب واقفين . ومرة ننسحب على ظهورنا — ودام الحال هكذا مدة نصف ساعة حتى وصلت السيارة ووصلنا معها إلى قاع الوادي سالمين ، وقد تسلخت أيدينا وسواعدنا وأرجلنا وتمزقت ملابسنا ، وتقرحت أعضاؤنا . ثم عدنا إلى السيارة الأخرى ، ففعلنا بها مثل ما فعلنا بالسيارة الأولى .

شاءت الأقدار بعد هذا الحرج أن تنصلح الأمور ، فنصل مجرى الوادي الكبير من غير كبير عناء : ونعثر على الدرب اتفاقاً . وينكشف لنا الدير فجأة على غير انتظار ، ونهتدي إلى الطريق المؤدي إليه بأسرع مما توقعنا .

وصلنا الدير في الأصيل بعد خمس عشرة ساعة كانت من أشق ساعات العمر وأصعبها فرحين بالسلامة وبالوصول إلى الغاية واستقبلنا عند الباب رجال الدير

بالحفاوة . ثم تقدمونا فى دهليز مكشوف يخترق حديقة الدير وينتهى بأزقة ضيقة متعرجة تقوم على جوانبها أبنيةُ الكنائس والصوامع من عهود مختلفة وأزمنة بعيدة وتفرجنا على كنيسة القديس انطونيوس وهى من أقدم مبانى الدير ، بها نقوشٌ وصورٌ دينيةٌ تعتبر من الناحيتين الدينية والأثرية عظيمة الشأن غالية القيمة — وتفرجنا على الجوسق (الحصن) والقلايات ونبع الماء فى بطن الجبل والمكتبة والحديقة وهى كبيرةٌ غنيةٌ بأشجار الفاكهة وأنواع الخضروات — ثم صعدنا إلى السطح ووقفنا فى شرفة الدير أمامَ قصر الضيوف نرتشف عصير البرتقال — ووقف أمامنا رئيسُ الدير متكئا على السور العتيق ينظر إلينا فى حنو وانعطاف تعلو وجهَه الشاحبَ ابتسامةٌ رقيقة — يحدثنا فى صوت هادئ رزين عن حياة الدير فقال :

أيها الأحباب — وجدنا الحياةَ الدنيا سرابا خادعا فنعيمها زائلٌ ، وحقها باطلٌ ، وجدها لهو ، قويُّها ضعيفٌ ، وعالمُها جاهلٌ ، وغنيُّها فقيرٌ ، رفيعُها وضيعٌ ، ومستكبرُها ذليلٌ ، وعاقلُها أحمقُ ، وحكيمُها أخرقُ ، فاستصغرنا شأنَ هذه الحياة وزهدنا فيها فنبذنا الأهلَ والولد واعتزلنا الناس ، وهجرنا البيتَ والبلد ، وسكنا هذه البريةَ وسط هذه الصحراء نمجد الربَّ ونبتغى رضاه ، فوجدنا فيها النعيمَ والحنانَ ، وراحةَ القلب والاطمئنان .

أيها الأحباب — انظروا إلى الوادى أمامكم أنه عظيمُ الاتساع متسطُ الأرجاء — وإلى الجبل فوقكم إنه شامخ عظيمُ الارتفاع — وإلى الخليج عن يمينكم إن ماءه يتألق كالنضار فى شفق الغروب — وإلى الفضاء حولكم إنه دائمُ الصفاء — وإلى الهواء الذى يهب عليكم إنه عليل يشفى الصدورَ ويبرئ الأسقام .

أيها الأحباب — إن الديرَ ملاذُنا — والسماء أملُنا — والوحدةَ أنيسُنا والطبيعةَ خليلُنا — والترابَ فراشُنا والأرضَ مثوانا .

إننا نعيش هنا أحبابا أصفياء — نكتسى من ثوب واحد ونأكل من رغيف واحد — ونشرب من ماء واحد . والدير مفتوحُ الأبواب لكل لاجئ أو عابر — يعتصم به الإنسانُ إذا طاردته الأقدار — ويسكن إليه إذا ضلت بصيرتُه وطلب الأمان — نعيش هنا فى وئام — ربطنا بهذه البقعة المباركة حنينٌ — فى أرضها أجسامُنا وإليها تعود — ومن سمائها أرواحُنا وإليها تؤوب .

أيها الأحباب — انظروا إلى الينبوع فى الجبل إنه دائمُ الجريان وإلى الحديقة تحتكم إنها دائمة الاخضرار — فى ظل هذه الأشجار نقضى النهار — نفلح البستانَ ونرعى النبات ، ونشهد تفتحَ الأزهار . ثم ذبولَها والازواء — فإذا غابت الشمسُ وأبهم الليلُ — وانتشر الظلامُ واختفت معالمُ الجبال — وساد السكونُ — وأوحش الديرُ — نزلنا إلى الصوامع نقضى فيها الليلَ — نصلى لخالق الوجود — فى استكانة الوحدة ، ورهبة العزلة ، وصفو الخلوة ، وخشوع الإيمان .

أيها الأحباب — هلموا إلى ساحة الخلود ، نسير الهوينا فى موكب الحياة — تظللنا ألويةُ السلام وترمقنا عين الرحمن — نغنى نشيد الشوق — ونعزف ألحانَ الوجد — نهتدى بنور الحبيب — بارئ النسمات — مبدع الكائنات .

ثم تقدَّمْنا وسرْنا خلفَه فى صفوف — مطرق الرؤوس ، يغمُرُنا فيض من مشاعرَ وتأملات — حتى إذا اجتزنا الدِّهليز ، ووصلنا إلى الباب الكبير ودعناه وودعنا — وكما دخلناه خرجنا إلى الوادى الفسيح .

الدمرداش محمد

بين المجلة والقراء :

حول مقال الابتكار

حضرة الأستاذ ...

قرأت بمزيد الإعجاب مقالكم القوى عن الابتكار وأحببت غاية الحب الروح الذى أملته والأفكار التى انتحت بين أسطره وأيدتكم فيما ذهبتم اليه جملة إلا مسألة واحدة رأيت أن حكمكم فيها قد اشتد حتى جار وظلم أناسا غير أهل للظلم ، وهى مسألة الفن فقلتم فيها « وغاية أديبنا أن يقلد ما ابتدعه الأوربى من نوع القصة وموضوع القصة وأسلوب القصة أو من موضوع الشعر وعطله » وقلتم أيضاً « ولو سألنى سائل عن فنان له طريقته المبتكرة التى لم يقلد فيها شرقياً قديماً ولا غربياً حديثاً لقلت له مع الأسف — لا — » . وما أريد قوله — وتخفيني الإشارة فى التحدث إليكم — إن النوع فى الفن شىء ثانوى والفنانون يتحاورون الأنواع والأشكال فى جميع العصور ولباب الفن فى التعبير وما يتصف به من عمق وتحليق وشمول وتحليل وما يتصل بذلك من نقد خالق أو فلسفى . فرب مقلد فى النوع مبتكر فى لباب الفن ، وإنى لأعرف عباقرة كثيرين لم يحدثوا فى فنهم نوعا جديداً وإن برع إبداعهم وابتكارهم على العصور كالمتنبى وأبى العلاء وجيته وشكسبير وغيرهم وغيرهم ، فلماذا لا نعد أمثال العقاد والحكيم من المبتكرين وإن انتمى الأول إلى المدرسة الواقعية التحليلية والثانى إلى المدرسة الرمزية ؟ !

وأخيراً يا أستاذى الأجل إذا كان هذا رأيكم فى الابتكار فلماذا تحد المجلة التى تشرفون عليها يتسع صدرها كل الاتساع لمقالات النقد والتحصيل والتقليد ويضيق كل الضيق بنفحات الابتكار حتى ليتصفحها المتصفح فلا يظفر فيها كل أسبوع بغير أبيات شعرية معدودة ، وكل شهرين بقصة ؟ !

وتقبلوا أيها الأستاذ الفاضل أعطر تحيات المخلص .

حافظ القاهرى

حول مقال النثر المهموس

حضرة المحترم الأستاذ رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء تحية وسلاما : وبعد :

قرأت بإعجاب فى العدد ٢٢٤ من مجلة الثقافة الغراء مقال « النثر المهموس » للأستاذ النابغة المجدد « محمد مندور » تحدث فى أوله عن « ترنيمة سرير نسبها للشاعر « نسيب عريضه » ؛ والحقيقة أنها للشاعر « إلياس فرحات » ، وتحت يدى الآن كتاب « بلاغة العرب فى القرن العشرين » به شذرات مختارة لأدباء المهجر ؛ منسوبة فيه هذه الترنيمة للشاعر « إلياس فرحات » ، وليس للشاعر « نسيب عريضه » .

وللأستاذ الكاتب منى عاطر التحية وأزكى السلام .

عزمى يوسف

استدراك

فى المقال الرابع بعنوان (مؤامرة) من (سيرة صلاح الدين) وقع سهو من السهل على القارئ أن يفطن إليه وهو وصف صلاح الدين (بالسلطان) . والصحيح أن يستبدل هذا الوصف فى جميع المواضع من هذا المقال (بالوزير) أو (الملك الناصر) . كما جاء فى نفس المقال (ويقوموا بمؤامرة خطيرة تزعج هذا الذى قطع خطبتهم الخ) والصحيح (ويقوموا بمؤامرة خطيرة تزعج هذا الذى رغما قطع خطبتهم الخ) .

عبد اللطيف حمزة

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

ذكرى البشرى — والرافعى ! — موت الصحافة ! — الأدب والوظيفة — إهانات الأدباء ! — أدباء الصحافة ! ... ...

ذكرى البشرى !

احتفلت محطة الإذاعة للشرق الأدنى منـذ قريب بذكرى الأربعين لأديبنا الراحل المرحوم عبد العزيز البشرى ؛ فاعجب ما شئت لمصر : تنسى الراحلين من أبنائها ويذكرهم الغرباء ، كأن لم يكن عبد العزيز البشرى من مصر ، ولم يكن لها جهاده ودأبه ، وكأن لم يكن من مجدها مجده ، ومن تاريخها تاريخه !

أعقوقاً وكفراً بالنعمة ، أم جهلا وغفلة ، أم حقداً وإثرة ؟ ... فما يمكن أن يكون إلا لواحد من هذه الثلاثة إغفالُ ذكر البشرى فى مصر وما زال رطباً ثراه !

لقد كان البشرى ريحانة فى كل مجلس ، وزينة فى كل نادٍ ، وبسمة سافرة فى كل سامر ؛ فما يُعرف له عدوٌّ يطلبه بوتر أو يذكره بمعابة ...

... ولا أعرف صحيفة فى مصر لم يكن من كتّابها ، ولا جماعة لم يكن من سُمارها ، ولا منبراً لم تطأه قدمه ؛ فكيف بالله غاب اسمه حين غاب رسمه ، وخفتت صيحته حين اختنق صوتُه ، وقلّ ذاكرُه حين غاب ناظرُه ...

فلم يذكره إلا الغرباءُ الأباعد من وراء البحار ، وما ذكروه إلا مجاملةً لقومه ؛ يحسب هؤلاء الغرباءُ أن قومه يَقْدُرون قدره ويعرفون فضله فيشكرون لهم ... كما يسعى الساعى من بلد إلى بلد نائٍ ليعزّى محزوناً فى ولدٍ من أنجب بنيه ، فلا يكاد يبلغه وعليه غبار السفر حتى يرى الوالدَ المرزوءَ فى مجلس من مجالس الشراب والغناء واللهو ؛ أهو التجلّد للنازلة أم هو الجحود والقسوة وغلظ الطبع ؟ ... ولكنها طبيعة مصر !

والرافعى !

وقرأت فى صباح الاثنين من أسبوع مضى — فى صفحة الوفيات من إحدى الصحف — إعلانا عن احتفال أسرة المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى مساء ذلك اليوم بذكراه السادسة فى منزله بطنطا ... ورقفت أتلفّت ! ...

ذلك أديب آخر كان له صوت وصيت ، ومدرسة وأتباع ، ودعوة إلى الحق مشهورة ، ومذهب فى البيان واضح ؛ لم يمض على منعاه غير ست سنين ؛ فأين مكانه اليوم مما كان ؟ ومَنذا يذكره من أصدقائه وخصومه ؟ ...

لا شىء ، لا شىء مما كان إلا إعلان مأجور فى صحيفة ، وإلا بضعة عشر من بنيه وبناته وإخوته وأخواته ، يجتمعون على ميعاد ويفترقون على غير ميعاد ، فى حجرة من دار فى طنطا لا يكاد يعرف الطريقَ إليها غير بنيه وبناته وإخوته وأخواته ، ولم يمض على منعاه غير ست سنين !

ماذا خلّف البشرى ، وماذا خلّف الرافعى ؟ وأى شىء نالهما على ما بذلا من الجهد والعافية حتى اخترمهما الموت قبل عمر الموت ؟ ... ماذا ... ؟ وأى شىء ... ؟

لست أدرى ، أو لعلنى أدرى وأستحيى أن أجيب !

نعم لقد خلّفا ، خلّفا بنين وبنات ، وثروة للرواة ، ثم ... ثم ماذا أدرى ، أو ما أستحيى أن أقول ... ...

موت الصحافة !

وكان موت البشرى والرافعى لحادثة ، وكذلك كانت ميتة شوقى من قبلهما ؛ وهل يموت الأديب والقلم فى يمينه إلا ليقوم حقُّه بحجته على قومه ؟ ... فأين من اعترف بحق البشرى والرافعى إن كان شوقى غنياً بجاه المال عن طلب حقّه ؟ ...

... أم تراهما اختارا إلى الله هذه الميتة قبل أن يقعد

بهما المرض والزمانة عن الجهاد ، كي لا يشهدا جحود قومهما لحقهما وهما ما زالان بعدُ في الأحياء ؟ ...

... أم تراها موعظة نزلَتْ من السماء على حين بغتة لتذكِّر الناسي والطامع والمغترّ بعيشه ، أن لجامة الموت لا تصيب أكثر ما تصيب إلا المجاهدين الطامحين من أهل الأدب ؛ لأنهم يبذلون من أعمارهم على مقدار مما يخلقون ؛ ويهدم من حياتهم على مقدار مما يبنون ؛ فمن كان جهادُه منهم للجاه ، أو المال ، فليعرف أين سبيله ، ليمضي على نهجه حتى يبغته الموت ، أو يؤثر الحياة إن كان يؤمن بالحياة !

الأدب والوظيفة !

وقد مات الرافعي وهو موظف في الحكومة ، وكذلك مات البشرى ؛ فكان لكل منهما عملٌ بالليل وعملٌ بالنهار ؛ وشتان بين عمل وعمل . وأكثر أهل الأدب في مصر موظفون في الحكومة ؛ ذلك لأن حق الأديب في مصر مضَيَّع ، فليس له رزقٌ مكفولٌ إلا أن يكون له في الحكومة وظيفة ؛ ولا يكاد أديبٌ منهم يجد اعترافاً بحقه — للأدب الخالص والفن الخالص — عند الشعب ، ولا عند الحكومة ؛ فليت شعري أيعرف القراء كم يبذل الأديب الموظف من جهد ليوائم بين عمله للأدب وعمله للوظيفة ؛ بين عمله للفن وعمله للعيش ؟

... على أن منهم من استطاع أن يحدد شخصيته الأدبية ويفرق بينها وبين الشخصية الأخرى ، شخصيةِ الموظف المأمور المطيع الذي يُرَى له الرأيُ لا يراه ، ويراد له ولا يريد ، فهو في وظيفته غير ما هو في فنه ، وهو يملك أن يرى الرأى الأدبي الحر يكتبه أو يذيعه في الناس غير مقيد بما تفرضه عليه الوظيفة الرسمية من حدود ومن قيود ، يحرص على أن تكون شخصيته في ديوان الحكومة غير شخصيته في الكتاب الذي يؤلفه ، والمقالة التي ينشئها ، والخطبة التي يذيعها في الناس ، لا تطغى شخصيةٌ منهما على الأخرى ، ولا يسمح لأحد أن يمزج بينهما ، إلا بمقدار ؛ وهو بهاتين الشخصيتين يحيا حياتين بين صبحه ومسائه ، بينهما من الفرق ما بينَ رجُلين لكل منهما في الحياة مذهبه وطريقُه ؛ على أن تعدُّد الشخصية على هذا النحو يحتاج إلى قوة عصبية كبيرة ، وإنه ليكلِّف من الإرهاق ما لا تحتمله النفس في كل حالاتها ؛ ومع ما يكلِّف الأديبَ الموظف من إرهاق وما يحتاج من قوة فإن الظروف لا تهيئ لكل أحد أن يُحاجِز بين شخصيتيه ؛ فكم يَلقى بعض الأدباء الموظفين من حرج ومن إعنات ، وكم يعرضون لأزمات ، لأن لهم رأياً يرونه للفن ليس مما ينبغي أن يروه في الوظيفة ، ويحلّ عليهم الغضب ؛ لأن الفصل بين هاتين الشخصيتين لا يمكن أن يكون إلا أن يسبقه الاعتراف بحرية الأدب ، وأين نحن اليوم من ذلك ؟ . . .

وقد كان الظنُّ — وحقُّ الأديب الخالص لفنه مضيَّع في مصر — أن يُمنح الأديبُ الموظف شيئاً من الحرية في الفن ، فيبتدع ما يبتدع من صور الأدب ، ويذيع ما يذيع من الرأى ، غير محاسَب على شيء من ذلك ، وأن يُكفَل له « الاستقلال » في شخصيته الأدبية لا يُخلَط بينها وبين شخصيته في الوظيفة ، ليتهيأ له أن يعمل للفن وللعيش جميعا . وماذا على الحكومة لو فرضتْ أن ذلك « الشخص » الذي يكتب ويخطب ويرى الرأى في الفن والأدب هو « شخص آخر » غير ذلك الموظف الذي يعمل لها بالنهار ما تكلِّفه من أعمال الوظيفة ، فلا يُحاسِب أحدٌ « الشخصين » إلا على ما يدخل في اختصاصه ، هنا أو هناك ؟ ...

وقد يكون من حسن حظ الأدب في هذه الحقبة أنّ هذا الرأى له حظٌّ من الاعتبار في بعض دواوين الحكومة دون سائرها ؛ فلعلنا بسبيل الاعتراف بالأدب ومكانته وأثره في هذه الفترة من التاريخ التي تجاهد فيها مصر

مخلصة لتحتفظ بحق الزعامة العقلية بين أمم العربية !

ولا أدع الحديث هنا قبل أنوّه بأديب من أدباء العربية يرنّ صوته في مسمع الشرق ، ذلك هو الأستاذ توفيق الحكيم ؛ فقد ثار على قيد الوظيفة وضاقت نفسه بما يلقى الأديب الموظف من العنت والإرهاق وتبعة الرأى الحر ، فقال : لا علىّ من ذلك ولا عليكم وإنما لى الفنّ وحده ؛ وخرج إلى فضاء الحرية !

ذلك أديب يؤمن بفنه ويستيقن ما سيكون فى غده وفى يديه أسبابه ؛ فأين من يحق أسباق ؟ ...

إعانات الأدباء !

وقد قرأت فيما قرأت من أخبار الصحف فى هذا الأسبوع أن وزارة الشئون الاجتماعية معنية بوضع مشروع لإنشاء صندوق لإعانة الشيوخ وذوى الحاجة من الأدباء والصحفيين القاعدين ... ، وهى نية تستأهل الحمد ولكنها على غير السبيل ؛ ذلك لأن للأدب والصحافة على الدولة حقاً أرفعَ من أن يكون لوناً من ألوان الإحسان والتبرع ؛ فليس الوجه أن يُنشأ صندوق لإعانة العجزة والقاعدين ، ولكن الوجه أن تفرض الدولة على نفسها تهيئة الجو للاحتراف بالأدب لتهيأ للأدباء سبيل الحياة الراضية ، وأن تعرف لهم حقهم ومكانهم وأثرهم ، فإنها إن فعلتْ ذلك لن تجد منهم عاجزاً أو قاعداً يستحق الإحسان والمعونة ...

... ليس الوجه أن تُحسن إليهم ليعيشوا ، ولكن الوجه أن تهيئ لهم الوسائل وتحفظ لهم مكانتهم الاجتماعية ليتخلصوا للفن والإبداع فيه فلا تصرفهم عنه مطالب العيش ولا تجعلهم تجاراً فى سوق تروج فيها الضمائر !

أدباء الدعاية !

وأعود إلى ذكرى البشرى والرافعى ، فأذكر بجانبهما طائفة من الأدباء والمتأدبين يؤمنون بحق أنفسهم أكثر من إيمانهم بحق الأدب ؛ فهم يدْعُون لأنفسهم ويلتمسون أسباب الشهرة بمقارض المدح ، أو بمدح أنفسهم أحياناً ؛ هؤلاء « أدباء الدعاية » : لولا ما يحيطون به أنفسهم من طبل وزمر لم يسمع بهم سامع ولم يذكرهم ذاكر ؛ ولكنهم عرفوا كيف يطفون إلى السطح ويرسب الدر فى الأعماق ؛ ولا أحصى أحداً منهم ، فهم أشهر من أن يُذكروا ...

... وإنى لأسأل : أهم على حق أم على باطل فيما يعملون لأنفسهم ؟ إنى ليخيل إلىّ أن لهم بعض الحق فى ذلك ؛ فهم يعيشون فى أمة لا تذكر إلا من يذكر نفسه ... فهل عليهم تَبِعة إن جاهدوا لأنفسهم ، وشغلتهم « الدعاية » عن التزود فى الفن وتجويد الإنتاج ؟ ...

قال لى المرحوم الرافعى مرة وقد تركتُ الكتابة أسبوعاً : حذار أن تهدم ما بنيتَ ؛ إن هذه الأمة لتنسى كاتبها الأول وتنكر أثره يوم يصمت ، ثم لا تذكره بعدُ إلا يوم يعود !

رحمه الله ! لكأنما كان يتحدث عن مكانه اليوم ؛ أين من يذكره الساعة بعد جهاده الدائب سبعاً وثلاثين سنة ولم يمض على منعاه ست سنين ؟ رحمه الله ! ؟

قاف

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ — عابدين مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣١ — الثلاثاء ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ — ١ من يونيه سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

أهي حرب مبادئ ... ؟

في أواخر عام ١٩٣٨ أخذت الغيوم تتلبد في جو أوربا السياسي ورائحة البارود تنتشر تدريجياً وتأكد الجميع أن أوربا ترقص فوق بركان وأنه لن يلبث طويلاً حتى ينفجر فتنطلق شياطين التدمير والقتل والتخريب من عقالها وتردى العالم في هاوية لا يعلم إلا الله مداها ، وقد حاول رجال السياسة تهدئة هذا البركان أو التخفيف من ثورانه بمجهودات وحلول ومؤتمرات ، ولكن دون جدوى إلى أن كان اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٩٣٩ فاندلعت ألسنة الحرب التي يكتوي العالم بنارها إلى الآن .

وإذا رجعنا بعض السنين لنفس الأسباب التي أدت إلى هذه الكارثة لوجدناها تمت إلى اعتبارات مختلفة وظاهرات سياسية واجتماعية واقتصادية ، فقد يرجع البعض بنا إلى أن أسباب الحرب الحالية تعود إلى النزاع على النمسا أو استقلال تشيكوسلوفاكيا أو على مدينة دانزج ، ولكن هذه لم تكن إلا أسباباً مباشرة أشعلت النار فيما تراكم من مواد قابلة للالتهاب في سابق الأيام . خصوصاً أن الحرب في القرن العشرين بما تتطلبه من مجهود ومال ورجال لا تثار بغرض الحصول على أرباح إقليمية تافهة ولا بدافع الانتقام ولا للثأر لشرف مهدور ، وإنما تقوم بدوافع أعمق غوراً ألا وهي سيطرة العنصر الغالب على العالم وحضارته ثم تطبيق نظرياته الاقتصادية والاجتماعية على أساليب الحياة .

والواقع أنه لم يحدث في التاريخ أن اتفقت المصالح السياسية والنظم الاجتماعية والحاجات الاقتصادية في تضامنها وتفاعلها مثل اتفاقها على إشعال نار هذه الحرب فقسمت الدول إلى معسكرين يختلفان كل الاختلاف في نظرتهما إلى الحياة ونواحيها الثقافية أو الاقتصادية أو نظم الحكم في المجتمعات اختلافاً جعل المعسكرين على طرفي نقيض بحيث أصبح من المستحيل التوفيق بينهما .

يدرك علماء النفس أن فى الإنسان عنصراً فردياً وعنصراً اجتماعياً . يقوم العنصر الأول على أن فى الإنسان عقلا وشعوراً يسيرانه ويهديانه إلى الطريق الذى يراه أما العنصر الاجتماعى فهو يقوم على غرائز التعاون والتنافس والاجتماع فى الإنسان وأن هذه الغرائز هى التى تتحكم فى فى الفرد عندما يضطرب فى مجتمع سواء كان ذلك المجتمع قبيلة أم أمة أم إمبراطورية .

والكفاح بين العنصرين فى الإنسان يمتد إلى أقدم العصور، وقامت أمم على أساس غلبة أحد المذهبين أو الآخر . واستمر المذهب الفردى ومذهب الجماعة فى مد وجزر طوال التاريخ حتى القرن المذهب الفردى بالديموقراطية خلال القرن التاسع عشر وكان سبباً فى كثير من الإصلاحات التى تمت خلال هذا القرن ، لأن مبادئ الثورة الفرنسية أعلنت وجود الفرد ومبادئ الاستقلال الأمريكى أعلنت حقوق الإنسان كما أن المذهب الفردى كان الأساس الذى قامت عليه الحكومة فى انجلترا ، ثم كان مصدراً للحركات القومية والديموقراطية ، ثم الاشتراكية فى القرن التاسع عشر والجزء الذى عشناه من القرن العشرين ، كما كان مذهب الجماعة توحيد ألمانيا وإيطاليا وظهور الدكتاتوريات فيهما والكفاح بين المذهبين هو أحد وجوه الكفاح الحاضر .

والواقع أننا إذا نظرنا إلى معسكر المحور نجده يتكون من الدول الساخطة على حظها فى الحياة الناقمة على المجتمع السياسى الذى تعيش فيه ، إذ أنها دول حديثة التكوين السياسى ، فألمانيا وإيطاليا تكونتا فى عام ١٨٧٠ وكانتا قبل ذلك اصطلاحات جغرافية كما أن اليابان لم تشترك فى الحياة الدولية إلا أخيراً منذ عام ١٨٤٩ ، وقد كان لهذا التكوين المتأخر أو الاشتراك المتأخر نتائج خطيرة إذ أعطى تلك الدول ميزات وحرمها أخرى ، فأما المزايا التى حرمها فهى حرمانها قدماً من الاستعمار إذ تكونت بعد أن انتهت المنافسة الاستعمارية وبعد استقلال الأمريكيين واستقرار انجلترا فى ممتلكاتها وبعد كشف مجاهل إفريقيا وحصول معظم الدول الأوربية حتى الصغيرة منها كهولاندا وبلجيكا والدانمرك والبرتغال على مستعمرات غنية كثيرة السكان فحرمت إذن دول المحور الثلاث السيطرة على الأسواق التى تصرّف فيها منتجاتها كما حرمت السيطرة على موارد المواد الخام اللازمة لصناعاتها .

أما المزايا التى تهيأت لهذه الدول بتكوينها المتأخر فهى أنها وفرت على نفسها مهمة إجراء التجارب التى مرت بها الدول العريقة سواء فى ميدان السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع فأخذت تنقل الأنظمة السائدة فى الدول الأخرى نقلا دون تحريف ونقلت فيما نقلت الصناعات الكبيرة وفنون الزراعة العلمية وزادت عليها بأن تخلصت من العيوب التى كانت تقترن بهذه الفنون فى الدول القديمة كانجلترا وفرنسا ، ولهذا نجحت الصناعة فى ألمانيا وإيطاليا واليابان نجاحا عظيما بذت به أساتذتها القدماء .

ولكن هذه الدول الثلاث التى نجحت فى تدعيم حياتها المادية وجعلها من أرقى أمم الأرض مظهراً لم تعتنق نظم الحكم الديمقراطى ولم تعتقد بأن الأمة مصدر السلطات بل طبقت النظم الدستورية شكلا وفى جوهرها رجعياً فى هذه الدول مجالس نيابية ولكنها اسمية فقط وتعلقت بالاستبداد بأشنع مظاهره ، سواء كان الدكتاتور من الأباطرة أو من رجال الجيش أو أحد زعماء الدولة . كما تبين الرجعية فى نظرة الرجل إلى المرأة ، فالمرأة هناك لم تبلغ بعدُ فى حريتها وحقوقها أختها فى الديمقراطية واستمر التعصب الدينى فى مظاهر أخرى كالتعصب العنصرى آناً والتعصب القومى آناً آخر .

هذا الجمع بين الرقى فى الحضارة المادية والعلوم العملية كالطبيعة والكيمياء والهندسة من جانب والتمسك بالنظم القديمة فى الحكم والاجتماع والسياسة من جانب آخر مكن هذه الدول من تملك قوة عظيمة تعمل فى دقة ونظام عجيبين

ولكنها لم تحكم استعمال القوة التي تملكتها إذ كان ينتاب شعوبها فورة من الشعور الوطني وسخط من وضع الأقدار لها وتملكها الحسد من الدول القديمة وهي في هذا أشبه بعملاق ضخم عظيم القوة والطموح ولكن مبادئه لا تزال مبادئ ما قبل الثورة الفرنسية — لهذا كانت هذه الدول مصدر تهديد مستمر للدول الأعرق منها مدنية واستقراراً.

وإذا رجعنا إلى الماضي القريب لدول المحور أي بعد الحرب العظمى لوجدناها خرجت من النضال العالمي وهي في وضع لا تحسد عليه، فألمانيا جردت من سلاحها ومستعمراتها القليلة، وفازت إيطاليا واليابان بمغانم ضئيلة لا تسمن ولا تغني من جوع.

والآن بعد هذه النظرة الخاطفة التي ألقيناها على دول المحور يحسن بنا أن نلقي نظرة أخرى على دول المعسكر الآخر فنراها تتكون من روسيا وانجلترا وأمريكا والصين وفرنسا وكلها تملك مساحات شاسعة من الأراضي وتتمتع بوفرة من الغنى ثم تبعها بعض الدول الصغيرة التي ألقت بها المقادير في بوتقة النضال وكانت هي الأخرى ترى نظامها في حالتها الحاضرة ولا ترضى عنها بديلا، فهي بلغت من التقدم الاقتصادي حداً رفع من مستوى الحياة فيها للفرد ارتفاعا كبيراً، وكان المستقبل يبسم لها كلما تقدمت طرق الاستغلال العلمي وتكدست فيها الثروات إلى حد لا يتصوره العقل وانضجت فيها النظم الدستورية إذ يتمتع فيها كل فرد بقسط وفير من الحرية، ولم يعد هناك كبير صراع بين السلطات التي احترمت جميعها التقاليد المرعية في الدساتير وعرفت كل حدودها واختصاصها.

وإذا أعدنا النظرة على النظام الاجتماعي في دول المحور رأينا الاشتراكية الوطنية تسود في ألمانيا وإيطاليا ويقترن النظام الاجتماعي في اليابان بنزعة وطنية عسكرية تقرب من الروح البروسية التي تسيطر على ألمانيا، ويحاول موسوليني بعثها في إيطاليا.

ويتلخص نظام الاشتراكية الوطنية في العمل لمجد الدولة، وفي أن الفرد فيها ملك للدولة جسما وروحا وهو يعمل فيها كعجلة في آلة المجتمع الكبرى تعمل أجزاؤها في انسجام للخير المجموع وهي تضحي بالفرد وحريته وحقوقه في سبيل الوطن، وقد اتخذ هذا النظام مظاهر نراها ماثلة في الخضوع للزعيم وتقديسه بما يقرب من العبادة في ألمانيا وهو العبادة ذاتها في اليابان — كما تظهر أيضا في القضاء على حريات الرأي والعقيدة والصحافة والخطابة والراديو والاجتماع فضلا عن السيطرة على اقتصاد الفرد والأمة.

ومما صاحب الاشتراكية الوطنية في تلك الدول تخلصها من بطالة العمال ومحاولتها إيجاد عمل للعاطلين فيها ولكن هذا لم يكن على طريقة اقتصادية كالعمل ووقفت في إعاش الاقتصاد الأمريكي، بل عن طريق أنها أدارت عجلة الإنتاج الحربي وكدست الأسلحة والذخائر للحرب التي كانت تنوي إشعالها وأثارت الحماس العسكري وكونت الجيوش الجرارة وسارت مدة على هذا المنوال حتى أصبحت في حالة من القصور الذاتي بحيث لا يمكنها وقف تلك الآلة. ولهذا عمدت تلك الدول إلى خلق المشاكل الدولية، وكنا نرى الأزمة تلو الأزمة أحدهما في الربيع والأخرى في الخريف إلى أن نفد صبر الدول الديمقراطية وأصبحت إجابة الدكتاتوريات إلى طلباتها تعد هزيمة في ذاتها.

من هنا تبين أن النظام السياسي لدول المحور مقترن بظروف تكوينها الحديث، وفقرها بالنسبة إلى الدول الديمقراطية وسخطها من وضعها في المجتمع الدولي ثم سيادة النظم الاشتراكية الوطنية فيها، وما صاحبها من نعرة عسكرية، وتكدس الأسلحة، كل هذا مجتمعاً أدى إلى التحالف فيما بينها، والعمل على مقاومة الدول الغنية ومحاولة فرض مبادئها وسيطرتها بالقوة على حضارة العالم وتجارته وسياسته.

علي رفاعة الأنصاري

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

– ٢ –

ركب (الشيخ) البحر من الإسكندرية ، وقد خاف من البحر خوفين : خوفا من ركوبه وقد سمع كثيراً عن البحر وأهواله ، وحفظ فى الأزهر :

لا أركب البحر أخشى علىّ منـــه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء والطين فى الماء ذائب

وقرأ فى بعض الكتب قول الشاعر :

فتشتت الأفكارَ ما قاسى الورى
من هول هذا البحر عند ركوبه

وسمع قول العامة فى البحر : « داخله مفقود وخارجه مولود » ، ولكنه استبشر خيراً بأن بدء الرحلة كان عصر يوم الجمعة ، وهو يوم مبارك ، وظل يقرأ : « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها » ، وقرأ بعد ذلك حزب البحر واعتمد على الله واطمأن ، وذكر قول الشاعر :

لمّا ركبنا بحر وكاد مَنْ خاف يَتْلف
على الكريم اعتمدنا حاشاه أن يتخلف

والخوف الثانى من دُوار البحر ، وقد سمع عنه كثيراً ، ولكن شيخه العطار — وقد ركب البحر مراراً — كان قد أوصاه بفائدة مجربة ، وهى أن يتجرع عند ركوبه البحر جرعات كبيرة من ماء الملح ، ففعل .

* * *

أول ما لفت نظر « الشيخ » هذا المركب الفرنساوى ، وطار خياله ، فقارن بين السفينة التى ركبها من القاهرة إلى الإسكندرية ، وهذه السفينة الفرنساوية ؛ أما الأولى فركب فقير ، ولكنه لم يدرك قذارتها إلا لما ركب الثانية ، كان يجلس فيها على الألواح ، وكان يأكل حيث يجلس ، وينام حيث يأكل ، ومن حين لآخر يشعل « النوتى » حطباً فيملأ الجو دخاناً ، ويوقد ناره يطبخ فيها عدسه فى ماعون قد اسود خارجه وازرق داخله ؛ وإذا تم تحلق هو وصحبه حوله وغاصوا بأيديهم فيه ، ثم لعقوا أصابعهم بألسنتهم وحمدوا الله . وكانت موسيقى المركب لا تنقطع ، فصياح لجمع شراع ، وصياح لنشر شراع ، وصياح لتحويل الدفة ، وصياح الغرور من « هويس » ، وأوامر ونواه لا تنتهى ، وشتائم وسباب كذلك لا ينتهى ؛ والمركب غنىّ غنى مفرطا بالحشرات والزواحف من كل لون وشكل ، تعين العابد على إدمانه فى سهره ، وطول تهجده ، وكثرة استغاثته بالله .

هذا مركب النيل فى مصر ، وأما مركب البحر فى الإسكندرية فأمره عجب ، يقول « الشيخ » : « إن أهل المركب — من الفرنساوية — كانوا يحافظون على تنظيفها وإذهاب الوسخ ما أمكن ، حتى أنهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام ، ويكنسونها فى نصف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشممونها رائحة الهواء ، ويزيلون أوخامها » . و « الشيخ » يعجب من هذا كل العجب ، ويثير مشكلة من أصعب المشاكل ، وهى « أن النظافة من الإيمان » ، والفرنساوية نصارى ، « ليس عندهم من الإيمان مثقال ذرة » ، وإخوانهم النصارى من قبطة مصر أهل وخم ووسخ ، فما بال هؤلاء الفرنساوية النصارى نظفاء ، وما بال المؤمنين المسلمين غير نظفاء ؟ هذه أولى المشاكل .

وقد ظل « الشيخ » متأثراً بهذه النظرة طول رحلته ، يعجب من نظافة الفرنساوية فى مراكبهم وفى بيوتهم

وفى ملابسهم وفى شوارعهم ، ويزداد عجباً إذا بلغه أن أهل فرنسا — مع هذا — ليسوا أنظف أهل أوربا ، وأن « أهل الفلمنك (هولنده) أنظف من الفرنساوية ، إذ تجد غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض المتعهد بالتنظيف ، وبيوتهم مجمّلة من خارجها أيضاً ، وشبابيكهم القزاز تغسل دائماً ، بل وحيطانهم الخارجية » .

ويحز فى نفسه أن المصريين ليسوا بذاك فى النظافة ، ويزعم « أن أهل مصر فى قديم الزمان كانوا أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولكن لم يقلدهم ذراريهم » .

وما أظن ذلك ، فالوساخة فى مصر داء قديم ، وهم — مع الأسف — من أقل الأمم عناية بالنظافة ، فى مآكلهم وملابسهم ومساكنهم وشوارعهم ، ولم تبذل الحكومات المتعاقبة أى مجهود جدّى فى حملهم على النظافة حتى تصبح عادة ، ومحل القارة لا يزال الآن كما كان منذ مائة عام فى عهد « الشيخ رفاعة » ، ولا يغرنا كم مائة بيت من الطبقة الأرستقراطية فى المدن يعيشون فى جو نظيف ، فالحكم إنما يجب أن ينظر فيه لسائر الشعب ، وحتى هؤلاء الأرستقراطيون لا يستطيعون أن يعيشوا نظفاء إذا كان من حولهم غير نظيف ، فهم مضطرون لمعاملة خدم يخدمونهم ، وباعة يبيعون لهم ، وركوب ترام أو قطارات يسافرون فيها وهكذا . وكما لا يستطيع بيت أن يعيش نظيفاً فى حارة قذرة ، كذلك لا تستطيع طبقة مهما احتاطت أن تعيش عيشة نظيفة نظافة تامة فى جو قذر — إن الفقر المنتشر والبؤس الشائع يدفعان الأمة إلى إهمال النظافة ، ولكن أهم من ذلك عدم تدخل أولى الأمر فى نظافة الشعب ، وتعويده أن يقوّم النظافة قيمتها الحقة ؛ فمن نعم الله أن تكاليف النظافة رخيصة إذا وجدت نفوساً تأنف القذر .

مما يعجب حقاً حساسية « الشيخ رفاعة » بالنظافة ، وتقومه قيمتها الحقة ، والتفاته الشديد الدائم إلى هذه الناحية — ولو خصصت الأمة نصف ميزانيتها أو أكثر لتأسيس الحياة الاجتماعية فى مصر على أساس النظافة لفعلت .

* * *

هذا « الشيخ رفاعة » فى السفينة الفرنسية « بعمته وجبته وقفطانه » ، يتوضأ ويصلى إماماً ببعض الطلبة المصريين ، ويستظرف الشبان الفرنسيون هذا المنظر ، فيجتمعون لمشاهدته ؛ ويرون فى « الشيخ رفاعة » قسيساً يصلى بالمسلمين ويؤمهم ، فيحترمونه احترام قسيسهم ، ويمنحونه قدراً من إجلالهم ، ويخصونه بمزيد عنايتهم .

ويزيدهم استظرافاً له أنهم يرونه عاكفاً على دراسة اللغة الفرنسية ، بيده أجرومية فرنسية يقرؤها كما يقرأ كتاب الأجرومية فى النحو العربى ، ويحفظ ويمعن فى الحفظ ، وينطق ببعض كلمات تستخرج ضحك الفرنسيين من أعماق صدورهم ، وأصعب شىء على « الشيخ » حرف U الفرنسية ، فهى ثقيلة النطق على لسانه ، فلا هى بالواو التى يعرفها ، ولا هى بالياء التى يألفها ، ولكنها وسط عجيب بين الواو والياء ، يستصعبها فيتجمع لها قبل النطق بها ، وإذا وقع نظره عليها من بعيد وهو يقرأ أدرك علامة الخطر . ولقد أذكرنى ذلك بحكاية ظريفة ، فقد كنت أتبادل مع سيدة إنجليزية جميلة تعلم الإنجليزية والعربية ، وكان لها عينان تشعان الثقة والإخلاص والأمانة ، وكان يصعب عليها النطق بالعين ، فكانت تقول : « إن عينكم هذه تقتلنى » ، فأقول فى نفسى : « وعينكم أيضاً تقتلنى » .

* * *

سارت السفينة بالشيخ أربعة أيام ، والبحر هادئ والجو جميل ، وطمع الشيخ أن تكون رحلته كلها من

هـذا القبيل ، ولكن ما هو إلا أن عصفت الرياح ، واضطربت السفينة ، وأخذتها أمواج كالجبال تعلو إلى أعلى القمة وتهبط فى لحظة إلى أسفل القاع ، ولعبت بنفوس الراكبين لعب الأمواج ، فثارت ثورتها وهاجت هياجها . قال الشيخ : « فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض » .

بعد مرور خمسة عشر يوما ، والبحر يهدأ ويهيج ، والسفينة تسير وتلعب ، والشيخ يصلى ويقرأ الأجرومية الفرنسية ؛ وقفت السفينة على جزيرة صقلية (سيسليا) ، ففرحوا بمنظر الأرض اليابس بعد منظر البحر العابس ، وتذكر الشيخ قول الشاعر :

أزلْ قدمَىْ ظهر الأرض إلى
رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

ولكن أهل صقلية لم يبيحوه ظهر الأرض ، ولم يمكنوه من النزول ، إذ كانوا لا يسمحون بدخول البلد إلا بعد الحجر الصحى خوف الوباء ، ولكن كانوا يسمحون بالتعامل بالبيع والشراء ، على شرط أن النقود التى يأخذها البائعون تغمس فى إناء مملوء بالخل ، حتى لا تنتقل العدوى .

وظلت السفينة خمسة أيام تتزود حاجتها من ماء وفاكهة وخضر .

لقد كان « الشيخ رفاعة » ظريفاً حقاً ، أتدرى ماذا أعجبه من كل ما حوله ؟ صوت النواقيس ورناتها الموسيقية ، وكانت الأيام أيام عيد ، والنواقيس تدق فيدق لها قلب الشيخ . لو غيره سمعها من رجال الدين المتزمتين لاستعاذ بالله من صوتها وحوقل ، وسمع منها صوتاً من أصوات الكفر يقبض صدره ويغم نفسه ، ولكن شيخنا رحب الصدر ، يتعشق الجمال حيث كان فى عفة ودين .

ففى إحدى هذه الليالى الخمس دعا صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ، ممن يعرف فيه الظرف والأدب ، واقترح عليه أن يشتركا فى إنشاء مقامة كمقامة البديع والحريرى ، ولكن ليس موضوعها التكدى ونصب الحيلة لاقتناص مال ، وإنما موضوعها ثلاثة أشياء ، الأول حوار حول أن « الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف » ، والثانى « سكر المحب من عينى محبوبه » ، والثالث « تأثر النفوس بضرب الناقوس » إذا كان من يضربه ظريفاً . هكذا شبا الشيخ وظرف ، وأخذ ينشىء الشعر فى مقامته فى هذه المعانى ، فقال فى المعنى الأول :

أصبو إلى كل ذى جمال
ولستُ من صبوتى أخاف
وليس بى فى الهوى ارتياب
وإنما شيمتى العفاف

وقال فى المعنى الثانى :

قد قلت لما بدا والكاس فى يده
وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبى رَاحة طرفى فى محاسنه
ونشوتى من معانى سحر عينيه

وفى المعنى الثالث يقول :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له :
مَنْ عَلَّم الظبى ضرباً بالنواقيس
وقلت للنفس أى الضرب يؤلمك
ضرب النواقيس أم ضرب النوى — قيسى

ثلاثة وثلاثون يوما قضاها « الشيخ رفاعة » فى البحر بين الإسكندرية ومرسيليا ، منها خمسة أيام وقوفاً فى صقلية ، ويوم فى آنلى ، فكم يمخر الإنسان أثناء قرن واحد فى السرعة ولما يقنع .

(يتبع) أحمد أمين

كفاح المـــــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

الرجل الذي طارد الموت في فراش الأمهات

لا علاج للداء إلا بفضح الأطباء

وصل الثالث : « زامل » طبيب هنغاري . كشف طريقة بسيطة للخلاص بالأمهات من الحمى القاتلة ، هي القاضي بغسل الأيدي والأدوات قبل فحص كل أم قبل الوضع وعنده . وأثبت صدق كشفه عملياً في الألوف من النساء في مستشفاه . ولكنه لاقى الكثير من حسد الأطباء وجحودهم وسخريتهم . وأخيراً أنصت الأطباء إليه . ولكنه كان قد جُنّ . ثم مات في مستشفى المجاذيب .

كان هذا عام ١٨٦٥ . وفي عصرنا الحاضر ، وبعد كشف الميكروبات ، والإجماع والتفنن في الآلات ، لا تزال يموت الألوف من النساء بهذه الحمى . إذن لنسى الأطباء طريقة « زامل » البسيطة الأولى : النظافة والتطهير . أم كانت طريقة غير ناجحة ؟ بل هي طريقة ناجحة في كل العصور ، وفي عصرنا هذا . فهذا الطبيب الأمريكي « ديلي » ، وهو حي يرزق ، يدخل في مستشفاه بمدينة شيكاجو ٢٥٢٦٢ من النساء الحاملات ، فلا يموت منهن غير واحدة . فما علة الموت بهذه الحمى في غير مستشفاه ؟ والآن إقرأ :

جهل « زامل » في زمانه مكروب هذه الحمى . جهل تلك البذور السبحية التي تحل الدم ، فأسماها مادة حيوانية متعفنة . أما نحن فلدينا في زماننا هذا كتب عظيمة بها البحوث البكتيرية الواسعة ، بحوث لو اطلع عليها هذا الرجل البسيط القديم لتجعّد منها جبينه دهشا . . .

العلة في كل مصائبنا أنه ليس فينا « زامل » و « زوامل » يقومون على استخدام كل تلك الأجهزة المعقدة الجليلة ، وكل تلك السوائل الملونة الزاهية المطهرة المزعومة . نعم ليس فينا رجال كزامل ولكن فينا . . . . ولكن دعنا من هذا ، ولنقل فينا « القصور الإنساني » . أو فلنتسمع ما قاله « ديلي » في شرح هذا الحال : قال ليت المطهرات البخارية ذات الضغوط العالية تطهر دائما ما احتوته من أشياء ... ليت المفاصل تغسل في الماء دائما ، وتغلى في الماء دائما ، تلك البطانيات والملاءات ... ليت الممرضات يطهرن أيديهن بين المريض والمريض ... ليت ، وليت ...

واختصارا ، هذا ملخص الأمر : لو أن القائمين على المستشفيات يحزنون للأمهات الذاهبات حزن « زامل » فيحلّون أمرهم في المكان الأوسط من همّهم كما أحل « زامل » ، إذن لانمحت المعاذير ولم يتنصل طبيب من جُرم أتاه . « إن من ينظر إلى هؤلاء الأمهات في أكفانهن تعاف أذنه أن تنصت للمعاذير » . لا ، ليس « زامل » قائلَ هذا . إنما قاله « ديلي » .

فهذا الذي أتى بديلي إلى شيكاجو لينظم مستشفى ولادتها . إنه روح « زامل » القديمة تقمصت من جسمه جسما حديثا . إنه « زامل » قد بُعث بعثا جديدا . إن خبرته المرّة بالضعف الإنساني والقصور الإنساني ، وعلمه بنظامنا الإداري المفصل العظيم المركّب المعقد الذي يأذن بالهرب من التبعات عن طريق الإمضاءات والملفات ، لم يتركا له مخلصا يخلص منه بالأمهات من الموت سوى أن يقترح : أن تُعزل الأمهات عزلاً عن أسباب هذا الموت . أن تعزل مستشفيات الولادة عن سائر المستشفيات .

* * *

ولكن يجب أن نكون عمليين . إن الأمهات اللاتي يحتمين من الموت بدخول هذه المستشفيات الخارقة النظافة ، كمستشفى شيكاجو وأضرابه ، لن يزيد عددهن عن نسبة ضئيلة جدا من عدد الوالدات جميعا .

نعم يجب أن نكون عمليين . فنحن لا نستطيع أن نصبر حتى ينجح « ديلي » وأمثاله في فصل أجنحة الولادة بالمستشفيات فصلا تاما عن سائر أجزائها فلا ينتقل إليها السم العاث بالدماء .

لاشك أن السواد من الأمهات سعيدات بأنهن يلدن في بيوتهن .

لا شك أن سواد الأمهات سعيدات بأنهن من أسَرِهِنّ أطباء نظيفون لا ينتقلون مباشرة إلى أسِرّتهن من بعد دمل أو قرحة أو جرح وبئ أو حلق ملتهب أو جسم محموم . فليس الكثرة العادية من الأطباء من يفعل هذا ، أو على الأقل هم لا يفعلونه إلا بعد تغيير ثيابهم ، وهم لا يفعلونه إلا إذا استخدموا أدوات وأضمدة غاية في الطهر . وكثير منهم لا يفحصون ما في داخل النساء إلا بقفازات مطهرة من المطاط .

ومع هذا يجب أن نكون عمليين . فلا يزال يوجد نفر كبير من الأطباء لم يسمع « زامل » ولا بأسلوبه ، وهم في شغل عن اتباع أسلوبه بكثرة عملهم وضيق زمنهم ، أو لديهم الزمن ولكن لا رغبة فيهم . ومن أجل هؤلاء الأطباء ، وبسببهم ، لا تزال تقتل الحمى زوجة من كل ثماني عشرة بين سن الخامسة عشرة والرابعة والأربعين . فمن أين للآباء أن يستيقنوا أن بيوتهم ستسلم من الداء فتسلم من الموت ؟

هنالك الحل الأمريكي الأعظم ، تلك المقالة المأثورة السخيفة : لا بد أن نربط هذا الأمر بالقانون . ويقول الدكتور دى نورماندى de Normandie ، وهو من بسطن Boston ، في ذلك ، إنه لا بد من تبليغ السلطة عن كل حالة من حمى النفاس ، وأن يكون هذا التبليغ بالقانون حتما ، وإذن نعرف من صاحب الذنب فيها ؟ قول جميل ! ولكن ما نتيجته ؟ إن بالولايات المتحدة ست عشرة ولاية سنّت مثل هذا القانون ، فكم خفّضوا به عدد الوفيات في هذه الولايات ؟ !

إن الآباء والأمهات يستطيعون فيما بينهم أن يكونوا عمليين . يستطعن ويستطيعون أن يشحذوا ألسنتهم في المجالس والمحافل — في نوادي النساء ؛ في نوادي لعب الورق ، لعب الكتشينة ؛ في اجتماعهن على الخياطة ؛ في مجتمعات التبشير . ومن غير أن يكون لأحاديثهم الذائعة شكل رسمي . فنحن بالطبع مستطيعات أن يعرفن من بين بينهن ذهبت إلى المستشفى القلاني فلم تَعُد منه أبداً . وفي هذه الأحاديث العابرة بين واجباتهن على الورق ، أو في الخياطة ، أو بين جهودهن العظيمة الهائلة في ردّ الوثني الضال إلى سبيل الله وهداه ، يستطعن أن يعلمن أي طبيب ذهب إلى أية امرأة ، في منزلها ، ثم غادرها لتغادر من بعده زوجا ذاهب العقل ، وطفلا يبكي فلا يجد أما تستجيب لبكائه .

وهن يستطعن أن يتأكدن من كل خبر يأتيهن ، وأن ينظمن في هذا الصدد أعمالهن ، ولن يكون في هذا شيء يخافه الطبيب النظيف ولا المستشفيات النظيفة . والأطباء آدميون ، والمستشفيات لا بد لها من مرضى . فانظر ما يكون حال هؤلاء ، وهؤلاء من واجبهم إذا تهدّدهم الناس في أرزاقهم وأقواتهم .

على أن للأطباء وسيلة لدفع ما يتهدد أرزاقهم وأقواتهم من هذا ، فعندهم جمعياتهم الإقليمية ، فبالرغم من سوء سياسة هذه الجمعيات ، ومناوراتها الصغيرة الحقيرة ، قد بدأ يظهر فيها شيء من إحساس المجرم بجرمه . مثال ذلك الدكتور ثُرنْتُن C.O. Thornton ، من لبنان ، بكنطكي Kentuchy . فهذا الدكتور قد لا يكون مجاهداً كبيراً في دفع الموت وأسبابه كما كان « زامل » . وقد لا يكون مكتشفاً نابها مثل « دِلي » . ولكنه رجل لديه خطة يدلي بها .

وقد أدلى بهذه الخطة في المجلة الطبية لهذه المقاطعة الإقليمية . فقد كان يستمع في جمعيتها الطبية لتقرير عن ثمان وثلاثمائة ٣٠٨ امرأة متن من حمى النفاس ، وأخذ التقرير يشرح لم متن وكيف متن ، وكان هذا الطبيب طبيباً عاماً يعالج كل الأمراض ، فلم يكن طبيب اختصاص . وقضى في مهنته سبعاً وعشرين سنة ، لم تمت فيها بين يديه امرأة من حمى النفاس . فكتب في هذه المجلة يقول لزملائه الأطباء إنه ودّ أن يجد في هذا التقرير الذي يتحدث عن كيف ماتت هؤلاء النسوة الثماني والثلاثمائة شيئاً واحداً يسيراً : أن يعلم على يد مَن من الأطباء ماتت هؤلاء النساء ،

الضـــمير
وو صايته على الحياة

كل مذاهب البر ، وحدود العدالة ، ومراقى الرحمة ، ومواضعات الفضيلة فى المجتمعات الإنسانية الراقية والمنحطة إنما هى آثار من آثار الضمير الإنسانى الذى هو نبع عميق يستمد من فيوض الله الذى أقام الجبال أوتاداً والضفاف سدوداً للمياه أن تطغى وتملأ الأرض بدون نظام موزون ، وجعل بين المواد والقوى العمياء حدوداً لحفظ الحياة ، وتنسيق الجمال .

وقد جعل للحياة الإنسانية الاجتماعية حدوداً كذلك بحراسة الضمير .

ولئن زعموا أن أصل الإنسان وحشى منحط بغير ضمير ، وأن هذا الضمير تاريخه حديث فى حياته ، وأنه نشأ من ضغط الحوادث المؤلمة عليه ، ومن تفاديه ما ثبت أن به مضرة له بعد ارتضاء حياة الجماعة ... فمن الذى جعل فى أخلاقه تلك القابلية وفى أعصابه تلك المرونة التى تتأثر بتلك الحوادث والأخلاق الضارة والنافعة وهواجس الخير والشر ، حتى لتكاد تلك القابلية تكون ميزانا لا يتغير ولا يتبدل فى جميع الأمم الحية إلا بعض أمم تعيش على هامش الحضارة ؟

فميزة الإنسان على غيره هى هذه القابلية فى أعصابه ، والمرونة فى طبيعته . ولكن مكانه من الأحياء قبل نشوء تلك القابلية فيه ما يكون من الانحطاط والوحشية . فلن يضير النخلة الفارعة المثمرة الجميلة أن يكون أصلها نواة ضئيلة محدودة ، وأن يكون البعد بين جذرها القبيح وتاجها الجميل بعداً بائناً . فإن كل كائن حى أرضى لا بد له من أصل منحط فى الطين ، ثم يبلغ أوج حياته بعد حين .

ويتأكد عندى يوماً بعد يوم أن الإنسان لم يبلغ بعد

إذن لعرفنا أين ندق أول دقة من معول الإصلاح .

وقد يتراءى هذا اقتراحا عنيفاً قاسياً . ولكنه الحل الوحيد لمنع هذا الإهمال الذى يعين عليه تستر هين ، وهروب من التهمة سهل قريب ، فى فضيحة هى فضيحة مهنة بأسرها تقيم أودها نحن رجال الشعب ونساءه بأموالنا لتدفع عنا المرض والموت . وليس فى هذا الاقتراح عنف أشد مما قبله «زامل» على نفسه عند كشفه الأول لما عرف أنه هو قاتل هذه النسوة بما حملت يداه من السم اللعين .

وليس فى هذا الاقتراح قسوة تقارب ما اقترحه رجلنا نحن الأمريكى ، «هُومْز» Oliver Windell Holmes . فهذا الرجل جمع حتى قبل «زامل» جملة من حقائق دلّت على أن حمّى النفاس تُعدى . وقد كان قد درس بعض ملاحظات لاحظها «وَيْت» White الانجليزى و «كولنز» Collins الإرلندى ، وكان كلاهما عرفا للنظافة خطرها ، ولكنهما لم يشتغلا كما اشتغل زامل بتخريج هذا العلم وتطبيقه . فتخريج هذا العلم وتطبيقه كان لزامل ولزامل وحده . ولكن «هومز» كان أشد قسوة من رجلنا العاقل المعتدل الدكتور «تُرنيتُن» . قال «هومز» :

قد يغفر الناس لمن كانوا إلى اليوم سبباً فى هذه التعاسة وهذا الشقاء ، ولكن الوقت قد جاء حين لا بد للناس أن يعتبروا الوباء الذى يقع فى دائرة طبيب ، جرمَ مجرمٍ لا نكبةً لا مناص منها من نكبات الأقدار .

ولكن يجب أن نكون عمليين . إنك لن تستطيع أن تسجن طبيباً لأنه قتل أمّا فى ولادتها . إن الذى تحتاجه الأمهات ليس القوانين ، وليس هو العلم الرفيع ، والبحث المفصّل فى مكروب تلك الحمى ، وإنما الذى تحتاجه طبيباً بسيطاً كـ «ترنيتن» ، ونصيحة كنصيحته - فهو بهذه النصيحة نفذ غير هيّاب إلى لُباب الأمر ، فقارب «زامل» فى صراحته الدامغة وجرأته .

(تلك نهاية هذا الباب)

أحمد زكى

درجة نضجه النهائية ، وأن كل حقبة من حقب التاريخ تظهر جانباً خفياً من طبيعته ، وإن «القطفة» الأخيرة من ثماره لا بد أن تكون هي التي تحمل جميع الأسرار التي أرادها فيه خالق الأنواع ! فمن الإنصاف ألا نحكم عليه حكماً نهائياً قبل أن يبلغ مبلغه الأخير ، وألا نفقد الأمل فيه ما دام طريق ترقيه مفتوحاً أمامه ، وما دامت الطبيعة تفتح صدرها له . أجل . إنه قانون طبيعي لم تتم دورته لينتج نتائجه النهائية . وإن الباكورة الأولى من ثمراته إنما كانت تلك الحساسية الدقيقة التي أطلقنا عليها اسم « الضمير » . وهي حساسية صادقة مرهفة تتأثر بعوامل نمو الحياة ، وتنفتح لها وتركن إليها وتحبها وتحتفي بها وتستكثر منها وتسميها « خيراً » ، وتتأثر بعوامل الضمار والألم والفناء ، وتنقبض منها وتنفر منها وتدفعها وتسميها « شراً » .

ولا شك أن الذي وجه الأنواع كلها إلى طرق حيواتها المختلفة ، لا يجوز أن يكون وجه حياة الإنسان إلى غير طريقها . فغير معقول أن يستثني الإنسان وحده من بين الكائنات الأرضية ويدفعه في طريق خطأ غير طريق حياة قدرها له . فما عهدنا في الطبيعة عبثاً أو استثناء من قواعدها العامة إلى هذا الحد ! وفيمإذا يكون الاستثناء ؟ في الإنسان الابن البكر للأرض !

لا شك إذاً أن الضمير كان هو المجرى الحق لحياة الإنسانية وأنه ميزان حياتها ، وأنه إبرة البوصلة تهديها إلى طريقها المقدر لها ، وتتجه بها إلى قطب الحياة الأعظم !

ومهما يكن من شيء فهل أضر نشوء الضمير حياة الإنسان أو نفعها ؟ هل كان من الممكن أن تنشأ تلك الحياة الاجتماعية السامية المعقدة العظيمة في غير ظلاله ؟ وهل قامت حضارة من الحضارات العظيمة التي أثرت في تقدم الإنسانية بغير سلطانه ؟

وهل من الممكن أن يحل شيء آخر محله في الوصاية على الحضارة والثقافة والحقوق والواجبات ؟ هل تستطيع حضارتنا هذه على قوتها وعظمتها وتعدد أفانينها أن تتحرر من سلطانه وما نشأ في أحضانه من أخلاق ثم تحيا بعد ذلك وتستمر في نمو وازدهار ؟

إن حدود الخير والشر التي ندين بهما وصورهما التي نعرف إنما هي نتائج عملية تمت في خفاء في باطن النفوس الإنسانية ، فعزلت طائفة من الأخلاق والأفعال واعترفت بها ورضيتها وأسمتها « الخير » أو « البر » أو « المعروف » ، وعزلت طائفة أخرى منها أنكرتها وكرهتها وأسمتها « الشر » أو « الإثم » أو « المنكر » ولن تجد أمة ولو كانت متوحشة تنكر بفطرتها أصول الخير والبر التي رضيتها حضارتنا وتتألم منها ولا تستجيب لها ، وترضى أصول الشر وتسر بها وتستجيب لها بفطرتها .

ثم قد تنكر الخير والبر في خارج دائرتها الخاصة وتأبى فعله مع غيرها من الأمم وترى من الخير لذاتها والبر بها أن تفعل الشر مع الأمم الأجنبية عنها ولا تشعر بوحدة الضمير بينها وبين سواها ... ولكن هذا لا يكون إلا في تلك الجماعات الصغيرة التي لا تزال تعيش على هامش الحضارة ، ولا تزال متخلفة عن سير الحياة بالأمم العظيمة . على أن هذه الظاهرة إن وجدت في المتوحشين ، فيخيل إلى أنها سرعان ما تزول منهم إن تنشأ ناشئتهم في أحضان مذاهبنا الخلقية وحضارتنا وثقافتنا . فليس إنكارهم للخير العام طبعاً أصيلا في نفوسهم لا يتخلون عنه . وقد مرت جميع الأمم بذلك الدور حين كانت الفردية طابع الحياة الإنسانية . ثم تحولت الفردية والأنانية إلى غيرية وإيثار في نطاق الأسرة ثم في القبيلة ثم في الجماعة ، ثم في الأمة ثم في الإمبراطوريات واتحاد الولايات . وإذا اطردت النتائج مع مقدماتها ، فستشهد معارك السلام ومعارك هذه الحرب ضميراً عالمياً أوسع وأرهف ، بعد أن وجدت مقدماته من وحدة الثقافة العلمية والفكرية والفنية أو تقاربها في الأمم ، ومن اختزال الأبعاد والمسافات بين بقاع الأرض بحيث صارت أمريكا بعالمها الجديد النائي جارة لهذا العالم القديم ، ومن اهتمام الكثرة الغالبة بقضايا الإنسانية وإحاطتهم بتفصيلات

حيوات الشعوب والأجناس ، ومن اختلاط الناس في نطاق واسع ، واشتباك مصالحهم اشتباكاً ليس منه فكاك .

وإني كلما رأيت تلك « التشكيلة » العجيبة التي حشدتها بريطانيا في جيوشها بمصر من زنوج إفريقية وهنود آسيا وصُفْرها وبيضها ومن جنود أسكتلندا أو إرلندا وكندا وجنوب إفريقية مضافاً إليهم تلك التشكيلة الأمريكية ، وسائر الأحلاف .. أشعر شعوراً سارّاً متفائلاً خصوصاً إذا رأيت الجنود الزنوج والماوري وغيرهم من أفراد الأمم التي تعيش على الفطرة إلى الآن ، يرتدون ملابس الجند الإنجليز والأمريكان ، ويتحدثون حديثهم ، ويخضعون للنظم العسكرية خضوعهم ، ويمهرون مهارتهم في قيادة الطائرات والسيارات وسائر الآلات الدقيقة ، وقد خرجوا من أدغالهم وأكواخهم ومحاريبهم وكهوفهم إلى العالم المتحضر ينظرون ويدركون ما يدرك إخوانهم السابقون في العلم والمدنية ، ويشاركون الرجل الأبيض أهدافه ويحاولون اللحاق به .

وإن عملية الخلط والمزج هذه التي تجريها هذه الظروف بين شعوب الأرض جميعاً هي لا شك من بركات هذه الحرب الكثيرة المحنات ... وما كان لعامل آخر في ظل التدرج والتطور أن يفعلها ما دامت هناك نزعات استعمارية ووصاية جائرة جشعة حائمة من الشعوب السابقة على الشعوب المتخلّفة .

وأحسب أن هؤلاء الجنود الملونين المتخلفة أممهم لن يرضوا بعد عودتهم إلى ديارهم أن يعيشوا عيشتهم قبل الحرب بل لا بد أن يعلو مستواهم ومستوى أمتهم تبعاً لهم . ولا بد كذلك أن يزول منهم كثير من روح سوء الظن وقبح الثقة بغيرهم من الأمم البيضاء بعد مخالطتهم إياهم ، وامتزاج دمائهم في سبيل غاية واحدة .

هذه الإنسانية تتحدث الآن جميعها عن نبأ عظيم واحد : هو الحرب والمثل العليا المرجوة لحياة الناس بعدها ومن قضايا الحق والعدل بعد أن مسها جميعاً طائف من آلام الحرب وفظائعها ، وقبح آثارها . ولا بد أن يتسع ضميرها ويجنح من القومية الضيقة والأنانية القاتمة إلى نزعات إنسانية شاملة سامية يتجرد فيها الحق والعدل من العنعنات والنعرات الجنسية التي طالما قسمته ووزعته ، وخلعت عليه من ضيقها وسفهها ما جعله حقاً لدى قوم وباطلاً لدى آخرين ، وما جعله يوماً شرقياً وآخر غربياً . مما أورث كثيرين من المفكرين شكاً في وجود الحق وريبة في تحقق العدالة بمعناها الجليل الجميل المرسوم في الصحف المأثورة وفي الفكر المثالي .

وإذا تجرد الحق والعدل من النعرات والتعصبات ووضعا في نصابهما المثالي أمام الإنسانية جميعها أبيضها وأسودها وأحمرها وأصفرها . وطبقت آثارهما عليها في حراسة الضمير بدون تحيز وتمييز ، فقد وصلت الإنسانية حينئذ لفردوسها المؤقت المنشود وتفرغت لما يجب أن تتفرغ له وحده ، وهو فتح مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها ، وتسخير قواها لتقليل المشقة وزيادة المنفعة .

غير أن الناس لسوء ظنهم بأنفسهم ولقبح رأيهم في الإنسانية وانعدام أملهم في سمو مستقبلها لا يحاولون أن يأخذوا أحداث هذه الحرب وظواهرها أخذ دراسة وتمعن واتعاظ بعبرها ، بل يحسبونها طبيعة من طبائع الحياة لا يمكن أن تتخلى عنها الإنسانية . ولذلك لا تحتاج لديهم إلى تفكر وتدبر للنجاة من أهوالها بقطع دابر أسبابها .

وسوء ظنهم بأنفسهم وقبح رأيهم في الإنسانية أثران من آثار الماضي الجاهلي الذي كان فيه الضمير الإنساني ضيقاً ، والتفكير البشري محدود الأفق ، والخلق رهين الغرائز المنحطة ، والجهد عاجزاً قاصراً عن إدراك العلوم والأعمال الكثيرة البركات والمخففة للمشقات .

ولذلك تمنيت ولا أزال أتمنى أن نتحرر من التاريخ تحرراً كلياً ، وأن نكون أبناء الحاضر العظيم الذي سما فيه فكرنا وجهدنا ، وانكشفت لنا فيه من الطبيعة أكثر الوجوه التي كانت مستورة غامضة ، وأدركنا أطراف جسم أمنا الأرض ، وأنواع مواليدها من الجماد والحيوان والنبات

إدرا كا بالمقاييس الدقيقة والمعايير العلمية التي وزنت دقائق صنع الله وأبرزتها لنا واضحة جلية .

والواقع أن الدنيا برغم كثرة المتعلمين والمتحضرين فيها لا تزال مجتمعاتها مسيرة بآراء غير آراء المفكرين والعلماء المدركين لحقائق الحياة والباذلين جهودهم لتذليل العقبات وجلب النافع . والذين يمسكون دفة المجتمعات ويديرونها هم الذين كان أمثالهم يسيطرون عليها في القديم . وأكثرهم من السماسرة والدجالين ومحبي الجاه والمناصب والسيادة والخيلاء ، والانتفاع الشخصي واللعب بالشعوب وشفاء الحزازات والأحقاد .

ولا تزال ضمائر الماضي تبث جراثيم الفساد في الحاضر ، وبقي الجديد بأنقاض القديم . وقد تتغير الصور والأشكال ولكن الجوهر باق كما هو . وقد حسب الناس أنهم ما داموا قد لبسوا لبس المتحضرين ومشوا برشاقتهم وحركاتهم ، واصطنعوا أدواتهم في الزينة والرياش وطرق الأحاديث ، فقد تغيرت الدنيا وصاروا في مدنية القرن العشرين ، بينما قلوبهم وغرائزهم على ما كانت عليه قلوب قوم نوح وغرائزهم ...

وينبغي أن نفرق بين الحضارة والثقافة : فالحضارة هي العيشة الجسمية في الحضر ، وهي تكسب الأشخاص رقة ورشاقة وخبرة بمواضعات الناس الاجتماعية وزيهم وحركاتهم . ولكنها لا تكسبهم ثقافة عقلية عميقة تتصل بأصول الحياة والآراء والمذاهب والعقائد والأفكار والأخلاق والمعلومات التي يقوم عليها بناء حياة صحيحة . أما الثقافة فهي العيشة العقلية والقلبية بالمعلومات الحديثة والأفكار والآراء الصالحة . ومع الأسف لا تزال المتحكمون في الشعوب أكثرهم متحضرون غير مثقفين . يدركون صور الحضارة وقشورها ، ولا يدركون جوهرها ولبابها ، ولا يحسون حاجات الزمن . ولا يعيشون في قمة الفكر والعلم بل لا يرونها إذ ليس لديهم أدوات النظر .

فمن أين لهؤلاء الحاكمين أن يسيروا بمن تحت حكمهم من الشعوب إلى أهداف الإنسانية العليا وغاياتها المشتركة ، وأن يفقهوا لغة الحوادث ويسمعوا نداء الزمان ، ويروا تلك الخطوات المطردة التي تخطوها الإنسانية في طريقها إلى غايتها المجهولة ؟ ومن أين لهم أن يقلبوا ضمائر الشعوب الضيقة الأنانية إلى ضمائر إنسانية عالية ؟ تمهد لحياة السلام والاستقرار الدائم ؟

إن الأمل الوحيد هو في المربين الذين يتولون الناشئين في جميع الشعوب . وواجبهم أن يوقظوا ضمير كل ناشئ ، ويوسعوا مجراه حتى يشعر بمعنى الإنسانية الحقيق ، فلا تكون حياته المدنية طلاء ودهانا فوق جلدة قرد وحشي !

وحسب الحياة ما لقيته من كيد هؤلاء الذين لهم مساليخ الآدميين وقلوب القرود ، وما تحملته من أنانيتهم وسفالاتهم التي شوهت وجهها وجعلتها مأساة دامية !

وكل يوم ، بل كل ساعة تصطدم حواس الذين لهم إخلاص الفكر والقلب بما يشوه جمال الحياة ، ويضع تحت الأضراس حجارة قاسية من الغيظ والاضطرام والألم اللاحق لبشاشات النفوس وإيمانها بالعدالة في حياة المجتمع .

وما قذف الإيمان بالإنسانية في قلوبهم ونبههم إلى قيمتها الحقيقية إلا رؤية هذه الطبائع الممسوخة . فما كانت الإنسانية لتشهد المهازل والآلام والجرائم والسفالات التي تزخر بها المجتمعات الفاسدة التي يسيطر عليها من يأخذون الحياة كأخذ السباع والذئاب والكلاب والخنازير . فهم لا يفهمونها إلا على وجه الختل والسطو والجرعه والنباح والعواء ، والتهويش والانحطاط .

ولسنا نحلم بجنة في الأرض كاملة الأوصاف فيها ملائكة من الناس يحكمون .. ولكننا نريد بيئات تدين بمثل عليا على الأقل في الحقوق العامة — ودع عنهم الحقوق الخاصة . .

فإلى الضمير : ذلك المصباح الذي توقده يد الله دائما في ظلمات القوى العمياء التي تعج بها متاهات الحياة وحنايا الصدور ، ولن تستطيع أعتى الأعاصير أن تطفئه أو تخنق شعاعه — إليه يجب الفرار للاعتصام من أمواج هذا الظلام !

عبد المنعم خلاف

حول قصة دون كيشوت

— ٢ —

كتب سرفنتيز قصته « دون كيشوت » في سنة ١٦٠٤ ، ولم يكد يطبعها حتى أدرك أنه أصاب النجاح الأول في حياة الفشل التي عاشها . وقد خرج من بين يديه هذا الكتاب وهو من أقل كتبه ملاءمة لقواعد الفن ومن أكثرها خطأً وخلطاً . لكنه نجح ! فقد قرأه الناس فأعجبوا به إعجاباً شديداً ، وترجم إلى أكثر لغات أوربا الغربية ، وقرأه سراة القوم فضحكوا ، وقرأه الملك فيليب الثاني فقهقه . وليس السبب في كل ذلك إلا أن قصة « دون كيشوت » جاءت في وقت كاد الناس يفقدون فيه إيمانهم بالفروسية كنظام اجتماعي وسياسي ، وكانت الشعوب تتطلع فيه إلى حياة قومية تنسيهم عهد الإقطاع وما كان ينطوي عليه من رق ومن إحن ومن أشجان . كذلك كان هؤلاء الناس قد ضاقوا ذرعاً بقصص الفرسان التي نسجها الكتاب حول شخصيات خيالية ، وأسرفوا كل الإسراف في التندر بها ، وكانت مادة تكسبوا بها ، فأمعنوا في تخيل النوادر والأعاجيب . لذلك خرجت قصة « دون كيشوت » وهي تهزأ بنظام متزايل ، وتسخر بموضوع أدبي كان قد برم به الجمهور : من الكتاب والقراء ، فلقيت هذا النجاح الذي لم يكن يتوقعه سرفنتيز .

لكن وراء القصة عشرة قرون من حياة الفروسية ، ولعلنا لا نستطيع أن ندرك روحها إلا إذا نحن قدرنا فروسية العصور الوسطى . وينبغي قبل كل ذلك أن نفرق بين اثنتين : بين الفروسية كنظام اجتماعي وسياسي ، وبين الفروسية كموضوع من موضوعات الأدب . ينبغي أن نفرق بين فارس الإقطاع الذي كان يحيا حياة الواقع يلتمس الرزق في كنف سيد من سادة الإقطاع ، وبين فارس القصص الذي أصبح شخصية خيالية ، يتغناها الشعراء ، وينسج الرواة حولها القصص ، ويشخصها المسرحيون في مسرحياتهم . فقد يلتقي الاثنان في شخصية واحدة : شخصية أمير أو ملك أو إمبراطور مثل شارلمان لكن البون كان شاسعاً بين فارس الحياة الواقعة وبين فارس الشعر والخيال . وإذن فلنعالج الفروسية في أوربا كنظام سياسي واجتماعي ، ولنبحث أدب الفروسية ونشأتها في القرون العشرة التي تلت القرن السادس بعد الميلاد ، ولنتأثر الصلات بين الفروسية الأولى والفروسية الثانية .

أقبلت أوربا على العصور الوسطى ، وقد قام فيها نظام الإقطاع . وكان هذا النظام يقوم على طبقات مرتبطة بعضها ببعض . قسمت الأرض بين كثير من الأمراء . وكاد يستقل كل أمير برقعة الأرض التي ورثها أو أخذها غصباً . وكان صاحب الإقطاع هذا يتصرف في شؤون الأرض والناس كما يريد ، وله عدد عديد من الأتباع . وكان بين أتباعه فرسان أقسموا أن يدافعوا عن سيدهم ، وأن يبذلوا في سبيله ما يملكون من نفس ونفيس . وقد ظلت أوربا مقسمة بين هؤلاء الأمراء تنشب بينهم المعارك ، وتشتعل بينهم نار الثارات لا يكاد يخمد أوارها ، حتى أتيح لهم أن يلتفوا متحابين تحت راية المسيحية . ذلك أن نشبت الحروب الصليبية بين الغرب وبين الشرق ، فكان على هؤلاء الفرسان أن يشتركوا في هذا الجهاد الديني الذي دعا إليه الباباوات والقسيسون . ثم أصبح من بين ما يؤمن به الفارس أن يحج إلى بيت المقدس ، وأن يقاتل المسلمين هناك ، فإذا استشهد فذاك ، وإلا فقد رجع إلى بلده أو إقطاعه وهو يحمل فوق هامته تاجاً من المجد والشرف والكرامة .

ولكن لقد كانت الفروسية من الناحية الأخرى مثلاً أعلى آمن به المحاربون وغير المحاربين من أهل العصور

الوسطى . وقد كانت مهرباً أو مخرجاً اتخذه الأشراف من حياة الواقع الثقيلة التي عاشوها في هذه العصور . وقد كان الفقراء من الناس والأغنياء منهم على السواء يعيشون في حالة من القلق الدائم : الموت يتخطفهم وهم صغار ، حتى لقد كان يقضي عليهم وما يكادون يبلغون عنفوان الشباب ، والحرب تشتعل لأوهى الأسباب ، والطاعون يحصد الناس حصداً ، والصحة العامة في حالة من الانحطاط لا تقاس بها اليوم صحة البهم والسوائم — فكانت مبادئ الفروسية كمبادئ الدين تنفيساً عن هذه الأشجان التي اعتورت حياة الجماعة . كانت هي النقطة اللامعة وسط ظلام كله ظلام .

ومهما يكن من شيء ، فقد خرجت الفروسية من القرنين التاسع والعاشر وقد أصّلت أصولها ، فقد كانت في مبدإ عصر الإقطاع وسيلة عملية اقتضاها نظام الإقطاع : اقتضاها الدفاع عن كل رقعة من الأرض ، واقتضتها حياة الكفاح بين هذا الأمير وهذا الأمير . أما في القرنين التاسع والعاشر فقد بدأت تتفشّى ، وأصبحت لها مبادئ كان يعنو لها كل من كان فارساً . ثم نشبت الحروب الصليبية ، فما انقضى القرنان الحادي عشر والثاني عشر حتى ثُبّتت هذه المبادئ . وقد لخص لنا مؤرخ الفروسية مبادئها في عشرة أصول ذكرها . أما هذه الأصول فهي أن يؤمن الفارس بالدين المسيحي ، وأن يدافع عن الكنيسة . وأن يحمي الضعيف والملهوف ، وأن يحب وطنه ، وألا يستسلم لعدو ، وأن يكافح الكفرة والمارقين بلا هوادة ولا وهن ؛ وألا يخون مولاه ، وأن يفي بالوعد ولا يقول إلا صدقاً ، وأن يكون جواداً كريماً ، وأن ينصر الحق في كل مكان يحل فيه حتى يزهق الباطل .

تلك مبادئ الفروسية العشرة في أبهى صورها ، لخصها ليون جوتييه Léon Gautier أكبر من أرخ للفروسية . وبعض هذه المبادئ كان يتصل بالدين ، وبعضها الآخر كان يتصل بالخلق ، ولكن لا ريب أن أجلها أثراً كان هو هذه المبادئ الخالدة من حيث حماية الضعيف ، والدفاع عن الوطن ، والوفاء بالوعد ، والصدق والجود والكرم . كانت هي مبادئ المروءة التي ما تزال الإنسانية تنشدها في كل بيئة صغيرة أو كبيرة ، بل هي نفسها المبادئ التي تبينها في حياة العرب الأولين . وكان أن تحلل الفرسان من ولائهم لأمراء الإقطاع ، فأصبحوا أحراراً يدرجون حيث شاءوا . وبعد أن كانوا يقسمون يمين الولاء لسيد الإقطاع ، أصبحوا يتلقون مبادئ الفروسية عن الكنيسة ، أو من كان يمثل الكنيسة . وكان للفارس الناشئ نظام خاص للتربية . فهو في أول نشأته يعيش في بيت أحد الأشراف يتلقى عنه مبادئ الفروسية ، ثم هو إذا بلغ شبابه الأول نُصّب فارساً . وكان لحفلة التنصيب هذه من القيمة مثل ما يكون اليوم للامتحان الأخير في حياة الطالب في وقتنا الحاضر .

ذلك ملخص أوجزناه لك عن الفروسية كنظام اجتماعي وسياسي وديني . لكنّ وراء هذا النظام فيضاً من القصص والأساطير . نقول إن وراء هذا النظام الاجتماعي قصصاً وأساطير تسربلت بالخيال والوهم ، واتخذت أشكالاً من الأدب ، بحيث كانت شعراً يغنى في أحيان ، وكانت ملاحم في أحيان أخرى ، ثم كانت قصصاً يكتبها الكاتبون ويقرؤها القارئون ، بل هي خرجت إلى المسرح فكانت من بعض الأدب التمثيلي ، بل ما زال أدب الفروسية ماثلاً إلى اليوم فيما نقرؤه من شعر ونثر .

فإذا نحن تحدثنا عن أدب الفروسية فلا بد لنا أن نبدأ بحياة القبائل التي أغارت على غرب أوروبا منذ القرن السادس بعد الميلاد . ففي حياة هذه القبائل وغاراتها نستطيع أن نرى مبدأ القصص الخيالية التي انحدرت في تاريخ الأدب الأوربي . ولاشك أن هذه القصص قد كبرت ثم كبرت كلما تقدمت بها السنون ، ولا شك أن النظام

الاجتماعي والسياسي والديني الذي تحدثنا عنه كان يُكبر من شأن هذه القصص ويدفع الناس إلى تصديقها والتمتع بها . فحياة القرون الوسطى كانت بيئة صالحة لتنشئة الأساطير التي تحدرت في العشرة القرون التي تلت القرن السادس بعد الميلاد .

أما أولى هذه القصص فهي « قصة الملك أرْثر » وفرسان المائدة المستديرة . وقد كان الملك أرثر نفسه يمثل قبائل « البريتون » التي صمدت أمام المغيرين من السكسون . وتصور لنا القصة الملك أرثر في صورة البطل المسيحي الذي خاض غمار اثنتي عشرة معركة أمام المغيرين الوثنيين . وخرجت قبائل البريتون من هذا الصراع وقد نُزحت إلى الشمال والغرب وتركت قبائل السكسون في الجنوب والشرق من الجزيرة الكبرى . واستقر البريتون في هضاب ويلز واعتصموا بجبال الشمال . لكنهم لم ينزحوا إلى معاقلهم الجديدة إلا بعد أن صمدوا للمغيرين فحدثت بين هؤلاء وأولئك مواقع بدت فيها الشجاعة والمروءة والنجدة والقوة من الجانبين .

ثم استقرت حياة النضال بين القبائل المعتدية والقبائل المتعدىَ عليها وآذنت حياة الكفاح بسكون ، فإذا قصص الفروسية والحماسة تطفو على كل شيء ، وإذا هي تصبح أدبا يغنيه الشعراء الجائلون . حينما سكنت الحروب بين القبائل المغيرة والقبائل الأصلية طافت أخبارها فأصبحت شائعة بين العامة والخاصة على السواء . ثم اتخذها بعض الشعراء المتنقلين مادة لشعرهم وغنائهم . وقد كان الملك أرثر كما أسلفنا بطل هذه القصص التي تغناها هؤلاء : كان بطل المسيحيين الذين صدوا الوثنيين وكان بطل البريتين الذين كافحوا قبائل السكسون . ثم تعاقبت الأجيال فإذا قصص الملك أرثر وأساطيره تزيد حجما وقيمة ، وإذا هو يخلد في بطون الكتب لأن كل جيل كان يضفى عليه وعلى أعماله خيالا جديداً . ثم إذا فرسانه الاثنا عشر يمتازون عما يمتاز به الفرسان في كل جيل من حب الكفاح في سبيل المبدإ ومن حدب على الضعيف وعطف على المظلوم .

وإذا أنت حاولت أن تتأثر حياة القبائل البربرية الأخرى التي هبطت أوربا في القرن السادس وما يليه راعك منها قصص من مثل تلك التي سلفت لنا عن الملك أرثر ، ثم إذا أنت بحثت شعر الملاحم رأيت أن منشأه هو حياة الكفاح والرحلة هذه التي عاشتها القبائل الأولى قبل أن تتحد وتصبح أمما . ففي حياة كل أمة عصر من عصور البطولة تختلط فيه القبائل إما متحاربة وإما متحابة . وفي عصور البطولة هذه أدوار من الصراع سرت إلى الأدب فقام عليها شعراء يسلكونها في قصائد طويلة . وليست إلياذة هوميروس نفسها إلا نتيجة الكفاح التي عاشتها القبائل قبل أن تسكن المدائن الإغريقية . فقد نزح الدوريون والآخيون إلى شبه جزيرة المورة فنتج من ذلك كفاح شديد هو الذي خلده هوميروس — أو شعراء حيتام هوميروس — في هذه القصيدة الطويلة التي نسميها الإلياذة . ومثل هذا القول ينطبق في كثير أو قليل على ملاحم أهل الشمال النورديين ، بل ينطبق على الشاهنامة فيما كتبه الفردوسي وعلى المعلقات وغيرها من قصائد الجاهلية لولا أن المعلقات تخلو من عناصر الملاحم الأخرى[1] .

ويطول بنا الحديث إذا نحن حاولنا أن نبسط الكلام في القصص والأساطير التي نسجت على غرار « الملك أرثر » فقد أصبحت قصص الملك أرثر وأساطيره نموذجا يحاول الشعراء والكتاب والفنون أن يحتذوه . وكانت حياة الفروسية كما أسلفنا دافعاً لهذه المحاكاة وكانت البيئة صالحة لتقبل كل ما يختلق من الأعاجيب . لذلك لم ينقض القرن الثامن إلا وكانت أساطير أخرى قد نشأت في أدب الفروسية ، لكنها في هذه المرة عن شارلمان بطل الفرنجة .

(١) أنظر في ذلك مقالنا عن « عصور البطولة » العدد ٦١ من الثقافة .

والتاريخ يحدثنا أن شارلمان قد اتصل ببعض الثوار العرب سنة ٧٧٧ وأنه اقتحم جسكونيا إلى جبال البرانس ليلتقى بالخليفة فى سرقسطه . لكنه اضطر أن يعود ليخمد ثورة أخرى قام بها السكسون . على أنه فى عودته لقى أكبر ماحاق به من كوارث الحرب . فقد تألب عليه أهل جسكونيا والتقوا بمؤخرة جيشه فى سهل هنالك . وما زالوا بجنود شارلمان حتى أفنوهم موتاً وتقتيلا . وبرز فى هذه المحنة « رولان » .

وكان يكفى أن يكون هذا مبدأ لأسطورة يحيكها خيال الشعراء الجائلين . وتضخمت القصة حتى بلغ الجيش أضعاف أضعاف ما كان ، وامتدت هذه الحرب القصيرة حتى بلغت من السنين أضعاف ما بلغته فى الواقع من الشهور ، وانقلب سكان جسكونيا فأصبحوا عربا ، وانقلب شارلمان نفسه فطعن فى السن وأصبح شيخاً عتيقاً ، ولم يكن فى الواقع إلا رجلا بلغ السادسة والثلاثين حين حاول أن يغزو سرقسطه . وتقلبت هذه الأسطورة فى الأشكال التى تقلبت فيها أسطورة الملك أرثر ، لكنها كانت أقرب إلى قلوب العامة من الأسطورة الأولى . فمؤرخو الأدب على أن أسطورة الملك أرثر كانت أقرب إلى أدب الخاصة ، أما أغنية رولان وقصص شارلمان فقد كانت أقرب إلى أدب العامة .

أما ثالثة الأساطير التى ينبغى أن نذكرها ، فهى أسطورة « أماديس » ، لأنها تتصل بعصر سرفنتيز أشد الاتصال . ذلك بأن كتاب الإسبان هم الذين انتحلوا هذه القصة . فقد أخذوا أصلها من البرتغال ثم زادوه فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر حتى كان أماديس عندهم مثل ما كان الملك أرثر عند أهل الشمال ومثل ما كان شارلمان عند الفرنجة . على أن كتاب الإسبان الذين كتبوا عن أماديس لم يعنوا بأن يكتبوا عن أسبانيا إلا قليلا . فإنها قصة لا تخلو من اللون الإسبانى بل تنتظر فيها مناظر ويلز وإنجلترة ونورماندى . وقد حاول كتاب الإسبان أن يحاكوا قصص الملك أرثر فى كل ما امتازت به فخرجت « أماديس » وهى تعج بقعقعة النصال والأسنة ، وخرج البطل نفسه وهو نسخة ناقصة من الملك أرثر . ولكن لم يخطر لهم أن يصوروا مناظر إسبانيا ، لأن قصة الملك أرثر كانت قد علقت بخيال الناس وكان الكتاب يريدون أن يرضوا خيال هؤلاء .

الأصل إذن فى هذه القصص والأساطير هو القصة الأولى التى بدأت من القرن السادس ، أما القصص الأخرى فقد جاءت تبعاً لها . وقد اجتمعت هذه الأساطير الثلاث التى أوجزنا لك الحديث عنها فى إسبانيا فى أخريات القرن الخامس عشر وكان لها من الوقع فى النفوس ما حببها إلى الشعراء والكتاب . ففى سنة ١٤٩٢ سقطت غرناطة واتحدت إسبانيا تحت حكم واحد . وانتهى نظام الإقطاع أو كاد واستشرفت الحياة العامة إلى عصر من المجد القومى . لذلك ظل الناس متشوفين إلى هذا العذب من أدب الفروسية . ومضى قرن من الزمان والكتاب يغذون هذا الخيال النهم . وقد ساعد على ذلك أن الأمراء كانوا قد سلبوا السلطة فالتفتوا إلى الأدب يرعونه رعاية سارت به قدماً إلى نهاية القرن الخامس عشر . ثم أتت فترة ضاق فيها الناس بهذا النوع من الأدب وانقلبت الأعاجيب فى نظرهم سخافات ، وهنا يظهر سرفنتيز وتنجح قصة « دون كيشوت » .

ولكن أين يكون أثر العرب فى كل هذا الذى ذكرت؟ لاشك إنه كان للعرب فى إسبانيا أيام من المجد كانوا فيها هم السادة وكان الإسبانيون على آثارهم سائرين . وكان لابد أن يكون بهم مثل مبادئ الفروسية والمروءة التى ذكرنا . ثم لقد أثبت البحث الحديث أن كثيراً من قصص العرب قد دخل هذه الأساطير التى عالجنا بحثها . بل لقد أثبت المؤرخون كذلك أن قصصاً طويلة قد حيكت حول شخصيات عربية . ولكن لكل ذلك حديثاً آخر نرجو أن نزجيه فيما بعد .

أحمد خاكى

سيرة صلاح الدين :

—٦—

شاعر

« لم تسلم الوزارة لصلاح الدين حتى تغلب على مؤامرة عظيمة دبرها ضده رجال القصر الفاطمى ، ثم قطع خطبة العاضد ونودى به سلطاناً على مصر فغاظ ذلك أعداءه ودبروا ضده مؤامرة أعظم من الأولى كان من رجالها هذا الشاعر الذى نتحدث عنه اليوم » .

ذلك الشاعر الذى قَدِمَ يوماً على صلاح الدين يريد أن يمدحه فصدَّه عنه وزيره القاضى الفاضل هو (عُمارة اليمنى) — وهو شاعر ذكى تَرّ به أهل زبيد — من مدن اليمن — فخرج منها إلى مكة حاجاً لا حاجباً ، واستطاع بذكائه أن يتصل هناك بإمام الحرمين فبعث به هذا سفيراً من لدنه إلى الخليفة الفائز بمصر ، ووزيره يومئذ الملك الصالح طلائع بن رزيك . فلما حضر للسلام عليهما بقاعة الذهب أنشدهما أول قصائده وهى قوله :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم
حمداً يقوم بما أولت من النعم
قرَّبْنَ بُعْدَ مزار العز من نظرى
حتى رأيتُ إمامَ العصر من أَمَمِ
فهل دَرَى البيتُ أنى بَعْدَ فُرقته
ما سرتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ !
حيثُ الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُها
بين النقيضين : من عفو ومن نِقَمِ
وللإمامة أنوارٌ مقدَّسة
تجلو البغيضين : من ظلم ومن ظُلَمِ
أقسمتُ بالفائز المعصوم معتقداً
فوزَ النجاة وأجر البر فى القَسَمِ
لقد حَمَى الدينَ والدنيا وأهلَهما
وزيرُهُ الصالحُ الفرّاجُ للغُمَمِ
اللابسُ الفخرَ لم تُنسجْ غلائلُه
إلا يدُ الصانعين : السيفِ والقلمِ

قال عُمارة اليمنى : « وعهدى بالصالح وهو يستعيدها فى النشيد مراراً ، والأساتذة والأمراء والكبراء يذهبون فى الاستحسان كل مذهب . ودفع لى الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بعض الأساتذة قد أخرج لى من عند السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال إلى منزلى ، وأطلقت لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلى ، وتهادتنى الأمراء إلى منازلهم للولائم الخ » ومنذ ذلك اليوم ومدائح الشاعر تتوالى ويضرب فيها الشاعر على نغم فاطمى ، ويعبر عن معان شيعية لا يقدرها حق قدرها إلا من درس الأدب الفاطمى والعقل الشيعى .

ثم مات ابن رزيك فرثاه الشاعر أجمل رثاء وأصدقه ، وأتى بعده شاور فمدحه كذلك بشعر لم ينس فيه الوفاء لسابقه ، ثم سلمت الوزارة لصلاح الدين فحاول الشاعر أن يتصل به وبغيره من أمراء البيت الأيوبى ، وكان يحسب أن أمرهم فى مصر لن يعدو أن يكون كأمر شاور وضرغام وغيرهما من الوزراء العظام . غير أن صلاح الدين — عملاً منه بمشورة صديقه عبد الرحيم — لم يأمن هذا الشاعر اليمنى على ملكه وقومه ، ورأى الشاعر ذلك منه فصدع الحزن قلبه وملأ اليأس نفسه ، ومع ذلك ذهب الشاعر مرة إلى صلاح الدين بقصيدة يهنئه فيها بالوزارة ، وفيها يقول :

ولولا اعتقادى أن مدحك قُربةٌ
أُرَجّى بها نَيْلَ المثوبة والأجر
لما قلتُ شعراً بعد إعفاء خاطرى
وفى سنواتٌ مذ تُبْتُ عن الشعر
فأوصى بِىَ الأيامَ خيراً فإنها
مصرِّفةٌ بالنهى منكَ وبالأمر
وجازِ فى تسهيلُ أذنى عليكمو وملقا كونى بالطلاقة والبشر

وكان سهلاً على الوزير العظيم أن يسهل أذنه للشاعر المحروم ، وأن يلقاه بالطلاقة والبشر كما يلقى غيره من شعراء مصر ، لولا خوض هذا الشاعر في إفساد الدولة الجديدة خوضاً أفقده عطفها ، وقطع عليه كل أمل في تقريب أمرائها . ونظر عُمارة فإذا هو ممعن في رجائه ، والسلطان ممعن في إعراضه وجفائه ، ففكر أخيراً في أن يذهب إليه بقصيدة يراهن بها على حياته ، وفيها أخذ الشاعر المسكين يعدد نعم الفاطميين ، ثم يتجه إلى صلاح الدين فيضرع إليه في ألاّ يقطع عنه إكرامه وعطاءه ، فإنما هو شاعر غريب أتى إلى مصر في طلب الجاه والثروة ، ولا مطمع له غيرهما . فلنسمع إليه في هذه القصيدة التي جعل عنوانها « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » حيث يقول :

أيا أذُنَ الأيام إن قلتُ فاسمعي   لنفثة مصدورٍ وأنّة موجَع
تقاصرَ بي خَطْبُ الزمان ورابه
فقصَّر عن ذَرْعي وقصَّر أذرعي
فيمَّمتُ مصراً أطلبُ الجاه والغنى
فنلتهما في ظل عيش ممنَّع
وزُرْتُ ملوكَ النَّيل إذ زاد نيلُهم
فأحمد مرتادي وأخصب مرتعي
فقُلْ لصلاح الدين والعدل شأنه
من الحَكَمُ المصغي إليّ فأدّعي
سكتُّ فقالت ناطقاتُ ضرورتي
إذا حلقاتُ الباب عُلّقن فاقرع
أضعك أني كما عطِسَ امرؤٌ
بذي شمَمٍ أنفي عطست بأجدع
ظُلامةُ مصدوع الفؤاد فهل له
سبيل إلى جبر الفؤاد المصدَّع
فيا زارع الإسلام في كل تربة
ظفرتَ بأرضٍ تنبت الشكر فازرع !

عجباً لهذا الشاعر المحزون ، كيف يطمع في أن يكرمه صلاح الدين ، وبينه وبين الدولة الزائلة كل هذا الود ؟ إن السياسة لحكماً غير هذا الحكم الذي رضيه الشاعر لنفسه ، وإن القوم لعقلاء يستطيع ألاّ ينخدع بلطف هذا الشاعر ومكره ، ولقد علم هؤلاء القوم أن الشاعر يشترك مع رجال الدولة القديمة في تدبير مؤامرة عظيمة يراد بها إسقاط السلطان ، كما يراد بها إرجاع الجيوش الشامية كلها إلى الشام . وكانت هذه المؤامرة التي اشترك فيها عمارة بعد عامين من حدوث المؤامرة التي اشترك فيها مؤتمن الخلافة . بل كانت كل واحدة منهما في الواقع رداً على حادثة هامة من الحوادث التي أودت بهذه الخلافة . وليس شك في أن أخطر الحوادث التي أزعجت هذه الخلافة حادثتان هامتان هما : حادثة تولي صلاح الدين الوزارة ، وبعدها حدثت مؤامرة المؤتمن ، ثم حادثة إقدام صلاح الدين على قطع خطبة العاضد ، وبعدها دبرت مؤامرة هذا الشاعر الفطن . غير أن هذه المؤامرة الأخيرة كانت أبعد مدى وأوسع نطاقاً وأشد إحكاماً وأغنى رجالاً ، لأنها قامت بعد وفاة العاضد وزوال دولته ووثوب أنصارها وأشياعها يبذلون آخر ما في وسعهم لاسترجاعها ، فإن ظفروا به فذاك ، وإلا فقد أبلوا عند أنفسهم عذراً يطمئنون اليه .

وكان من رجال هذه المؤامرة قاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، وكثيرون من أمراء الجيش المصري ، وكثيرون من حاشية القصر الفاطمي ، ومع هؤلاء جميعاً عمارة اليمني الذي يظهر أنه كان عاملاً خطيراً في تدبيرها تدبيراً محكماً من جميع جوانبه .

وخلاصة الخطة التي وضعت للمؤامرة أن يتواطأ أصحابها مع جماعة من أمراء صلاح الدين كانوا قد استهووهم بالمال حتى أطلعهم هؤلاء على كثير من أسرار السلطان . ثم اتفقوا جميعاً على إسقاط صلاح الدين ، كما اتفقوا فيما بينهم على تعيين الخليفة والوزير ، وعلى تقسيم الأملاك والدور ، وعلى استدعاء الفرنج من صقلية والساحل للاستعانة بهم في الوقت

المناصب . ورأوا يومئذ أن يستعينوا كذلك بفرقة كان لها في القرنين الخامس والسادس ما كان للقرامطة من الخطر على العباسيين في القرن الرابع — وأعني بها فرقة الإسماعيلية . فكر عمارة في كل ذلك ، ثم فكر كذلك — إمعاناً منه في إحكام الخطة التي وضعها لإنجاح المؤامرة — أن يُغري بمُلك اليمن أميراً من أخطر أمراء بني أيوب هو (شمس الدولة) الذي كان صاحب الفضل الأكبر في انتصار عساكر السلطان في وقعة السودان . وقصدُ الشاعر الماكر من وراء ذلك هو أن يبعد هذا الأمير الخطير عن أخيه خوفاً من أن يسدّ مسدّه وتجتمع الكلمة عليه بعده . فانتظم الشاعر في سلك الأمير ، وكان كلما خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وضعف ولاتها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها ، ومن جملة الشعر الذي أغراه به يومئذ قصيدته التي منها :

أمامكَ الفتحُ من شام ومن يمنٍ
فلا تَردَّ رءوس الخيلِ بالّلُجُم
فاخلُق لنفسك مُلكاً لا تضافُ به
إلى سواكَ وأوْرِ النار في العلَمِ
فربَّ أمر يخاف الناسُ غايته
والأمر أهونُ فيه من يدٍ لفم

والغريب أن هذا الأمير خدعه قول شاعره فصدقه ولم يشك في نصيحته . وكان إقطاعه عصر لا يقوم بمروءته ، فدخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن فاتحاً فأذن له السلطان يومئذ لحاجة في نفسه — هي أن يتخلص من مزاحمته لأنه الأخ الأكبر له في مصر ... ثم تشاء الأقدار الصادقة للسلطان أن تنكشف مؤامرة الشاعر وأصحابه ، وأن يكشف عنها القاضي الفاضل بذكائه ، فيحيط السلطان علماً بالمتآمرين ويأتي بهم ويقررهم فيقرون ، فيأخذهم جميعاً ليصلبهم ، ويدع الذين نافقوا عليه من أجناده فلا يتعرض لهم ولا يفهمهم أنه عارف بحالهم ، وذلك لسياسة منه رجع فيها كذلك لرأى الفاضل .

بذلك تم افتضاح المؤامرة ، ثم أعقب ذلك مجيء الفرنج وكان أحدهم — وهو صاحب صقلية — قد بعث بأسطول عظيم إلى الإسكندرية لحمل الأسطول على هذه المدينة حملة صادقة ، وقتل من أهلها يومئذ نحواً من سبعمائة ، ونهض السلطان بعسكره إلى هناك فهجم على الفرنج في خيامهم فلم يسلم من فرسانهم إلا من ألقى بنفسه يومئذ في البحر . . !

وهكذا فلتحبط المؤامرة التي اشتركتَ فيها أيها الشاعر اليمني ، وهكذا فلتَهُن بهوان الدولة التي بذلت في سبيل إرضائك كل شيء ، ثم هكذا فلْتُطِلْ أيها الشاعر قبل موتك في رثائها ، وليكن من ذلك لاميّتك التي يشهد الأدب العربي أنها من أروع القصائد التي قيلت في رثاء الدول ، ومنها قولك :

رميتَ يادهر كفَّ المجـــد بالشلَلِ
وجيدَه بعد حُسْنِ الحَلْي بالعَطَلِ
جَدَعْتَ مارِنَكَ الأقنى فأنفُكَ لا
ينفكُّ ما بين قَرْعِ السنّ والخجل
لهفي ولهفَ بني الآمال قاطبـــةً
على فجيعتهـــا في أكرم الدول
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمـــة
لك الملامة إن قصَّرْتَ في عَذَلي
بالله زرْ ساحةَ القصريْن وابكِ معي
عليهما — لا على صِفِّينَ والجمل ! ! !
وقل لأهليهمـــا والله ما التحمتْ
فيكم قروحي ولا جُرحي بمُندمل
مررتُ بالقصر والأركانُ خالية
من الوفود وكانت قِبلَـــةَ القُبَلِ
فمِلْتُ عنها بوجهي خوفَ منتقد
من الأعادي ووجهُ الود لم يَمِل
أسْبَلْتُ من أسفٍ دمعي غداة خَلَتْ
رحابُكم وغدتْ مهجورة السُّبُل

الإسلام فى الصين

حديث لزعيم الصين السيد (عثمان وو)

رافقت السيد (عثمان وو) الزعيم الصينى الإسلامى وضيف مصر الآن، ما يزيد عن الأسبوع سواء لعمل الصحفية أو لدراسة محلية لشخصية إسلامية كنت أجهلها من قبل ... من أبرز سماته الغيرة على وطنه وعلى سمعة بلاده فهو متحمس لها حتى لا يترك فرصة إلا ويظهر عظمتها سواء فى التمسك بالدين أو فى التقدم والرقى فلا يتباعد ساعة إلا ويتكلم عن عظمتها هناك، وفوق ذلك فهو بحاثة دقيق فى بحثه ... فلا يترك فرصة أو مشهداً أو ظاهرة إلا ويدقق ويبحث ويناقش حتى يقتنع أو يقنع الجميع عما يرى ... وذلك هو سر بقاء الصينيين وبقاء وطنهم رغم طول الجهاد ووحشية النضال ...

وإلى القراء الكرام ترجمة لحديث له اقتضتنى الظروف لأعرضه على إخوانى المصريين عن حالة الإسلام وكيف وصل وحالة التعليم وكيف انتشر هناك.

ما حللت مكاناً أوضمنى مجلس دينياً كان أو اجتماعياً إلا ووجه إلىّ هذا السؤال (ما هو نظام الإسلام عندكم وكيف يقوم المسلمون فى الصين بشعائرهم)، وأصرح لك بأنى أجد فى هذا السؤال كثيراً من الغرابة، فنى اعتقادى، بل فى اعتقاد جميع مسلمى العالم أن الإسلام واحد فى جميع صوره وأغراضه فى جميع البلدان، ويكفى أنه دين عماده التوحيد لا التشكيل والتنويع، وأنت تشهد أن البلد الذى يحاول أن ينفرد بتجديد فى جوهر الإسلام أو فى مظهره ينسلخ عنه ويبرأ منه. وأعيادنا الدينية هناك هى عيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوى ومولد السيدة فاطمة والاحتفال بها يكون بتلاوة القرآن فى المنازل أو الاجتماع فى المساجد مع تكرار تلاوة فاتحة الكتاب وسورة صغيرة من القرآن.

ومع أننا نجهل اللغة العربية ولا نتكلم إلا الصينية فإن

أبكى على ما تراءت من مكارمكم
حالَ الزمانُ عليها وهْىَ لم تَحُلِ

والله ما فاز يومَ الحشر مُبْغِضُكم
ولا نجا من عذاب الله غيرُ وَلِى

ولا رأى جنة الخلد التى خُلِقَتْ
من خانَ عهد الإمام العاضد بن على

أئمتى وهُداتى والذخيرة لى
إذا ارتَهنتُ بما قدمتُ من عملِى

وكأنى بهذه القصيدة الحزينة قد أعادت للناس ذكرى القصائد الشيعية القديمة التى جرت على ألسن الشعراء العلويين الأقدمين، والتى جعلت لأدبهم ذلك اللون القاتم الجميل، لأنه لون كلون الطيف: فيه حمرة الدم، وفيه غبرة اليأس، وفيه صفرة الخوف، وفيه بياض مظلم هو بياض نفس هُضِمَ حقها وآمنت مع ذلك إيماناً صادقاً بأنها لا بد أن تظفر به . . . !

وطبعى أن فشل مؤامرة كالمؤامرة السابقة لا يدع أملا لدعاة الفاطميين فى أن تنجح لهم بعدُ محاولة. ومع ذلك فقد ثار على صلاح الدين رجل من المصريين فى الصعيد واسمه (كنز الدولة) زعم أنه يستطيع أن يعيد الدولة فاطمية علوية، فجمع إليه خلقاً كثيراً من السودان وانتهى خبره إلى السلطان، فجرّد له عسكراً عظيما، وقدّم عليهم أخاه (العادل)، فسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصافّ، فكسرهم وأخذ ثأرهم . . .

ومنذ يومئذ والسلطان الملك الناصر صلاح الدين ينظر فإذا مصر الغنية كلها فى قبضته، وإذا هو يفكر فى أن يستعين بأموالها على بلوغ أمنيته، وما أمنيته هذه إلا أن يسترجع القدس من أيدى الفرنج. ولكن كيف يتيسر له ذلك والطريق إلى القدس غير ممهد؟ أم كيف يتيسر له ذلك والفرنج يقعدون له ولغيره من ملوك المسلمين كل مَرْصَد؟ بل كيف يتيسر له ذلك وصاحبه ومولاه نور الدين بالشام قد خيل إليه وإلى الناس يومئذ أنه بدأ يغار من صلاح الدين، ويظهر كأنه أستاذ محنق أوشكَ أن يحقد على تلميذ له تفوّق عليه.

عبد اللطيف حمزة

لغة العبادة هي اللغة العربية ، فنحن نتعلم منذ الصغر قراءة القرآن ونصلي به ، ويسرني أن أذكر لك أني تعلمت هذه اللغة للعبادة فقط وأنا في السادسة من عمري ، ويرجع دخول الإسلام في بلادنا إلى عام ٣٠ هجرية (٦٥١ ميلادية) وذلك لارتباطنا بالأمم الإسلامية عن طريق التجارة والرحلات ، وهناك رواية أخرى تقول إن الإسلام نشأ في عصر النبي الكريم وذلك بوساطة الرسل والبعوث التي قدمت الصين ، وتعتمد هذه الرواية على الحديث الشريف (أطلبوا العلم ولو في الصين) ويبلغ عدد المسلمين ما يقرب من خمسين مليونا ولا توجد لهم مقاطعات يختصون بها بل ينتشرون في جميع الصين على الإطلاق ، ومسلمو الصين متمسكون بدينهم الحنيف يؤدون فرائضه ويهتدون بهديه ويسترشدون بعبادته ، ولدينا في الصين حوالي ٤٢ ألف مسجد بينها عدد كبير من المساجد الأثرية الجميلة التي يرجع عهدها إلى ١٢٠٠ عام مضت ، وبعضها على طراز عربي وبعضها الآخر على طراز صيني ، وهناك مساجد خاصة للسيدات تؤمهن فيها سيدة مسنة ، وغالبا ما تكون زوجة أحد كبار العلماء .

ولما وصل إلينا القرآن قديما أخذنا في نسخ صور منه باليد ونشرها كما هو متبع في جميع البلدان ، ثم تقدمنا خطوة أخرى فأخذنا نكتبه على الخشب ، ومع أنها طريقة مجهدة فقد كانت إلى ذلك غير مجدية ، لما كان يقع بها من أخطاء وما كان يتبعها من غموض كثير من الأحرف ؛ فما بالك وكتاب الله يحتاج إلى الدقة والعناية الفائقة في كتابته وفي تلاوته ... وهذا النوع من الكتابة على الخشب كان بداية لفن الطباعة عندنا وهو السبب في أن الصين كانت أقدم البلاد التي عرفت فن الطباعة .

وقد جد الصينيون في تفسير القرآن منذ أقدم العصور مسترشدين بما جاء في كتب التفسير القديمة كتفسير الطبري مثلا ثم أخذنا في تفسيره على النمط الحديث على مثال ما فعل الأستاذ الشيخ محمد عبده تمشيا مع الرقي والعلم الحديث ، لأن القرآن كتاب كل زمان وكل مكان يدل على ذلك انتشاره اليوم في كثير من البلدان الأجنبية التي نقلته إلى لغتها كانجلترا مثلا .

أما المرأة المسلمة عندنا فقد جمعت بين روح المرأة العربية وحضارة المرأة الشرقية وكثير من عادات المرأة الأوروبية الحديثة ، وهي مع تمسكها بدينها تشارك الرجل في عمله وتمشي معه كل الاجتماعات فهي لا تعرف الحجاب قط ، شأنها في ذلك شأن المرأة الأوربية وبذلك لا تجد عندنا ما عندكم من مشكلة السفور والحجاب .

ولا يختلف التعليم عندنا عن التعليم في مصر إلا قليلا فالبنت تشارك الفتى في معاهد التعليم منذ الصغر حتى تصل إلى التعليم الجامعي ، فلا يفصل بينهما إلا في مرحلة التعليم الثانوي كما هو الحال الذي شاهدته في مدارسكم وبدأنا أخيرا في اشتراكهما في هذا النوع أيضا من التعليم كما هو الحال في سائر المراحل التعليمية ، وهناك مدارس إسلامية دينية تقوم بغرس الأسس الدينية الصحيحة في نفوس الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم والأركان الإسلامية بطريقة صحيحة ، وينفرد بهذا النوع من المدارس البنون دون البنات إذ يكتفي بما يدرس للبنات في المدارس الابتدائية ، وهذه المدارس تشبه ما سمعنا عنه من المدارس القروية أو الدينية عندكم .

وقد أعجبت حقا بنهضة التعليم في المعاهد المختلفة التي أتاحت لي الظروف زيارتها وأخص إعجابي بعنايتكم بإعداد ربات منازل ملمات بالتدبير المنزلي في معاهد البنات المختلفة وأخص منها المعهد العالي لمعلمات الفنون .

ترجمة يوسف عز الدين

حكم في الجنحة رقم ٤٣٢٧ عسكرية السيدة سنة ١٩٤٢ بتغريم عبد التواب مسعود على خياطة ترزي وأمين حسن يوسف عشرين جنيها والنشر والتعليق والغلق لبيع الأول خبزا بأزيد من السعر المحدد والثاني اشترك معه بالتحريض .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

المعاهد الدينية — أبناء الأزهريين — يقظة الشعور ! ... ...

المعاهد الدينية :

يرى الشيخ المحترم محمد عبد المجيد العبد أن سياسة التوسع فى إنشاء « المعاهد الدينية » لا تقوم على أساس منطق يدعو إلى الاطمئنان والرضا ؛ لأن من شأنها أن تنشىء فى الأمة طبقة ذات حقوق لا يتهيأ للدولة والشعب أن يفيا بها ؛ ولذلك يشير بأن تكتفى الحكومة بمعهد واحد من المعاهد الدينية ، وتحوّل المعاهد الأخرى إلى معاهد صناعية تقوم بحاجة البلاد فيما تدعو إليه الحاجة . . .

وقد أجاب رفعة رئيس الحكومة عن هذا السؤال — أو عن هذا الاقتراح — بما أجاب ، فجلّى رأيه وأوضح برهانه ، وانتهى أمر السائل والمجيب نهايته ، وانطوى الاقتراح . . .

ولست أعرض هنا لشىء مما دار من النقاش حول هذا الموضوع فى مجلس شيوخنا ، ولكن طائفة من الخواطر قد ابتعثها فى نفسى هذا الموضوع بفرض علىّ حقّ العلم وحق التاريخ إن أعرض لها . . .

إن هذه المعاهد الدينية التى عرض لها الشيخ المحترم فى حديثه كانت ولم تزل عنواناً لمصر يدل عليها ويحدد مكانتها بين أمم الإسلام والعربية ؛ لأنها فروع الجامع الأزهر الذى طبع مصر العربية بطابعه منذ كان إلى اليوم ، ولا يزال أثراً باقياً تتغطى ظلاله على ما كان من آثار الفرعونية فى أبى الهول والأهرام ، ومعابد الوثنية فى الأقصر وأسوان !

ذلك هو الأزهر وروافده التى نسميها المعاهد الدينية ؛ فهل غابت هذه الحقيقة عن فطنة الشيخ المحترم حين رأى ما رأى واقترح ما اقترح ؟ . . .

وإنى لأعلم أن جماعة قد أساءوا الظن بالشيخ ورأيه ، ولست أتهمه أو أظن به ، فلعلى وإياه على رأىٍ سواءٍ فى هذه القضية وإن لم يخف علىّ شىءٌ مما قدمتُ من الحديث عن مكانة الأزهر والمعاهد الدينية ؛ بل إنه ليخيل إلىّ أن من واجبى أن أؤيده فيما ذهب إليه كلّه أو بعضه ؛ فهذا الجامع الأزهر لم يُنشأ يوم أُنشىء ليكون معهداً « دينياً » ينفرد بلونه عن معاهد التعليم ، إذ كان العلم كله يوم أنشىء الأزهر هو الدين ؛ ولا أنشىء ليكون مدرسة « مدنية » تُعِدّ طلابها لوظائف الدولة كما يريده بعض القائمين عليه اليوم ؛ وإنما أنشىء على منهج علمىٍّ خاص يوائم حاجات الناس فى شئون الدين وفى شئون الحياة ، طبقاً لمقتضيات عصره ؛ وإنما حياتنا اليوم غير ما كانت الحياة فى ذلك العصر ، وموازيننا العلمية غير ما كانت الموازين ثَمّة ؛ فلم يكن بدٌّ من التوافق بين المتخالفين ؛ فإما أن تعود الأمة إلى مثل ما كانت فى ماضيها ويبقى الأزهر حيث كان ، وإما أن يتجدد الأزهر ؛ أما بقاؤه حيث هو اليوم والأمة حيث هى فشذوذ وخطل وغفلة ... ...

ما الأزهر اليوم وما المعاهد الدينية ؟ أهى معاهد لتخريج « رجال الدين » ؟ إن الإسلام ليُنكر ذلك ؛ فما يعترف الإسلام فى حقيقته بشىء مما يسمى عند غيرنا « رجال الدين » ، وإنما يفرض الإسلامُ على كل مسلم أن يعرف دينه كما يعرف دنياه ، وأن يتزود لآخرته ولعيشه جميعاً ، وألا يتخذ وسيلةً من الأشياء أو وسيلة من الناس بينه وبين خالقه ؛ فأين مكان « رجل الدين » من هذه الحقائق ؟ ..

... أم هى معاهد « مدنية » تُعِد خريجيها لاكتساب العيش والتأهل للحياة المدنية ؟ إنها حينئذ تخضع لقانون

« الإحصاء والحاجة » ، حتى لا تنشىء نوعاً من البطالة يفرض على الشعب والدولة والحياة الاجتماعية فروضاً لا قِبل للوفاء بها !

لقد انتهجنا في حياتنا الدينية نهجاً كان له أثره في معاهد التعليم العام وفي برامجه ، ولست أزعم أن هذا النهج يمضي بنا إلى غاية واضحة ، ولكني أعني أنه شيء واقع لا سبيل إلى إنكاره ؛ فأين مكان الأزهر من الأمة في هذه السبيل ؟ وهل يصلح الأزهر في وضعه الحاضر إلا أن يكون معهداً عالياً للتخصص في المباحث الدينية العليا ، للتفقه ، أو للمهنة ؟ . . .

أما التفقه في الدين فهو فريضة على كل ذي دين ، فليس ينبغي أن يكون ذلك في الأزهر وحده ، وإنما حق الشعب أن ييسَّر له — بل أن يُفرَض عليه — أن يعرف دينه العرفانَ الحق في كل معهد من معاهد التعليم العام ، لا في المعاهد الدينية وحدها . وأما التخصص للمهنة فإنه ينافي التوسع إلا على مقدار الحاجة ودواعي الطلب ؛ ذلك وجه المشكلة فيما أرى ، ولعله وجه المشكلة كذلك فيما رآه ذلك الشيخ المحترم .

أبناء الأزهريين :

وسوقني الحديث من المعاهد الدينية إلى حديث يتصل بسببه ؛ ذلك أن الكبار من شيوخ الأزهر لا يعلِّمون أبناءهم في الأزهر :-

سليم البشري ، وأبو الفضل الجيزاوي ، والظواهري ، والمبان ، والفحام ، والمراغي : أين تعلَّم كل أبناء أولئك السادة وغيرهم من شيوخ الأزهر ؟ في الأزهر والمعاهد الدينية ؟ لا ؛ فلماذا ؟ أتصح هذه حجةً لمن يزعم أن شيوخ الأزهر لا يؤمنون برسالة الأزهر ؟ ... لست أقولها ! إذن فلماذا ؟

أرأيت رجلاً من الناس راضياً بحظه من الحياة رضا الإيمان حتى لو خُيِّر ما اختار إلا عمله ؟ ...

الصانع ، والزارع ، والتاجر ، والفنان ، والمعلم ، والمهندس ، والطبيب ، والضابط . الطفل ، والشاب ، والمكتهل . الفتاة ، والمرأة : سل كل واحد من هؤلاء وأولئك : كيف هو في عمله ، وماذا يختار لو خُيِّر لنفسه أو لولده ؟ سَلْه ، تجده منكراً لحظِّه ، ساخطاً مما يلقاه في حياته ؛ فما أرى ذلك إلا من هنا ؛ فليس شيوخ الأزهر وحدهم هم الذين يتنكَّرون لمهندهم وينكرون أثره ويبتعدون بنيهم عن مثل حالهم ؛ ولكنها طبيعة النفس الإنسانية !

أم تراني لم أُصب الحقيقة كلها ولم أُحسن الدفاع ؟ . .

أقسمتُ لو كان لي اختيار في تنشئة ولدي ألا أجعله معلِّماً ؛ فكم ذقتُ من ألوان الألم في مهنة التعليم ؛ ومع ذلك فما أكثر من يتمنى أن يكون ... !

يقظة الضمير !

في أنباء « الأهرام » أن قرويا من « كفر الشيخ » بعث إليها بضعة وعشرين قرشاً تنفقها في وجه من وجوه البر ، لأنه ركب القطار مرة من القاهرة إلى كفر الشيخ بغير أجرة ، فلم يرض ضميره إلا أن يتبرع بمثل أجرة السفر لوجه من وجوه البر ...

وقد أثنى محرر الأهرام على عمل ذلك القروي ، ودعا إلى إنشاء صندوق سمَّاه « صندوق يقظة الضمير » يتلقى أمثالَ هذه العطايا من كل متحرِّج من إثم أو شبهةٍ في مال تطهيراً لنفسه . وقال : إن أمثال هذا الصندوق في كثير من بلاد أوربا !

ومحرر الأهرام مشكور على ما فكر ، ولا أحسبه ذكر « أوربا » في هذا الشأن إلا ليزيد حجته قوة عند طائفة من القراء ، لا ترى الرأي جديراً بالاعتبار إلا أن يكون من واردات أوربا !

فهأنذا أروى لصديق محرر الأهرام رأى الإسلام فى ذلك ، ولعلى لا أزل به عن قيمته حين أنسبه إلى الإسلام !

قالوا : ومن ارتكب خطيئة أو قارف معصية أو واقع منكراً أو أكل حراماً ثم أراد أن يتطهر ويخرج من ذنبه فله أحكام : فأما إن كان ذنبه يتعلق بحق من حقوق الله فالله قابلٌ توبته ومطهّره من خطيئته وكاتبُه فى الصالحين ؛ وأما إن كان ذنبه يتعلق بحق من حقوق العباد كالسرقة والغصب فلا تُقبل توبتُه إلا أن يَردّ إلى كل ذى حق حقّه غير منقوص ولا مُضَارّ .

قالوا : فإذا كان صاحب هذا الحق بحيث لا يمكن أن يُردّ إليه حقه : كأنْ مات ، أو خفى أثره ، أو كان غير معروف على التحديد ، وَجَب أن يودعه « فى بيت مال المسلمين» لينفَق منه فيما يعود على عامتهم بالخير ، أو يبذله فى وجهٍ من وجوه البر والإحسان ، وإن توبته مع ذلك تظل معلقةً برحمة الله !

قلت : وهذه الأوقاف الكثيرة المحبوسة على وجوه البر هى لون من ألوان التوبة كان يلتمس بها كثير من الواقفين أسبابَ الزلفى إلى الله تحرّجاً من خطيئة أو إثم ؛ فلو أن أحداً راح يحصى هذه الأوقاف ويتتبع حياة واقفيها رأى أكثرهم إن لم يكن كلهم من الأمراء وذوى السلطة الذين أطغتْهم الحياة فترةً ما وزيّنتْ لهم جمع المال بما يملكون من وسائل السلطان ؛ فلما ثابت إليهم نفوسهم وعادوا إلى الحق وإلى خشية الله نزلوا عن بعض ما يملكون وحبسوه على البر والنفع العام لتُقبل توبتُهم حين لم يتهيأ لهم أن يعرفوا على التحديد أصحاب الحق فيما اغتصبوا وسلبوا من المال . ومنهم المتحرّج الورع الذى اشتبه عليه بعضُ أمره وخشى أن يكون فيما أكلَ حرامٌ يقف بينه وبين الله يوم الحساب ، فحبس هذه الحبوس يدرأ بها الشبهات ويتطهر مما قد يكون علق به من حقوق العباد .

وليس ثمة تفسيرٌ إلا ذلك لما قد يبدو من التناقض فى تاريخ بعض عظماء التاريخ حين يقرأ القارئ العجلان أن فلاناً منهم كان ناهباً طامعاً شرهاً سفاكاً يسرق الكعكة من يد اليتيم ، فما دنا أجله بَذَل وتصدّق وحَبَس الأوقاف ورتّب الصدقات الجارية ...

ليس من سبب إلا ذلك وإن بدا لبعض الناظرين فى التاريخ أنه تناقض أو علّلوه بأنه الرغبة فى الشهرة وذيوع الصيت وبقاء الذكرى ...

هى « يقظة الضمير » كما يعرضها الإسلام بواجباتها على كل مسلم ، وكما تشهد آثارها فى التاريخ وفى هذه المنشآت الخيرية الباقية بأسماء أصحابها على مرّ القرون وتتابع الزمان .

أترانى أسأتُ أم أحسنتُ حين رددتُ الحقيقة إلى أهلها وخلعتُ عن رأسها القبعة المستعارة لتبدو فى صورتها الحقة عربيةً مسلمة ؟ !

قاف

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـــدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ — بعابدين بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٢ — الثلاثاء ٥ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٢ — ٨ من يونيه سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

حول قلعـــــة أوربا

للدكتور محمد عوض محمد

اليوم يطالعنا الصيف الرابع من أصياف هذه الحرب. وقد ألفنا أن نرى نيرانها تزداد اشتعالا ، وجمرها يزداد اضطراما ، حين ينجلى الشتاء ، وتطلع بشائر الصيف . فلم يكن الصيف موسماً من مواسم السنة وفصلاً من فصولها ، فحسب ، بل كان دائما ينطوى على فصل هائل من فصول هذه المأساة .

بدأ الصيف الأول — عام ١٩٤٠ — مبكرا ؛ من قبل أن يبدأ الصيف الذى يعرفه الناس . لقد كان أمام الألمان فى ذلك الصيف برنامج حافل بجلائل الأعمال ، يشتمل على أمور عظيمة وأخصها الاستيلاء على اسكندناوه وهولنده وبلجيكا ، وشطر كبير من فرنسا ، وعقد الصلح مع بريطانيا بالرضا والتسليم إن أمكن ، وإلا فالقوة والقهر . وهكذا يتم النصر الكامل لألمانيا قبل أن يحول الحول ، وينعم الشعب الألمانى بالسعادة والرفاهية والسيادة.

إن تحقيق هذا البرنامج فى عام واحد ، وفى تلك السرعة الهائلة ، وبأقل خسارة ممكنة فى الرجال والمال ، هو وحده الذى يبرر إثارة حرب شعواء من أجل دنزج والممر البولونى . وقد تحقق هذا البرنامج ، إلا جزءا واحدا . وبسبب هذا الجزء قد امتدت الحرب صيفاً ثانياً وثالثاً ورابعاً .

وبدأت ألمانيا — وهى بعدُ البادئة أبدا — صيفها الثانى مبكرة أيضا . وبجانبها الآن حليفتها إيطاليا . فلم يكد الربيع أن يطل على جنوب أوربا ، ويكسو أشجارها ورقاً وزهراً ، حتى انقضت ألمانيا — عام ١٩٤١ — على

البلقان فاستولت على يوجسلافيا وبلاد اليونان وألبانيا . وبسطت نفوذها التام على بلاد المجر ورومانيـا وبلغاريا . واستطاعت أن تستولى على سواحل بحر اليونان ، وأن توطد أقدامها فى جزره الكثيرة ومنها جزيرة كريت . ولم يأت شهر يونيو حتى كانت دولتا المحور قد أحرزتا هذا النصر العظيم فى شبه جزيرة البلقان . كما تقدمت قواتهما فى ليبيا حتى بلغت الحدود المصرية .

وقد استطاعت دول الحلفاء أن تحرز انتصاراً صغيرا ، ولكنه خطير ، فى مقابل تلك الانتصارات العظيمة . ذلك أن قواتهم استطاعت أن تجلى جيوش فيشى عن سوريا ولبنان ، وأن تستبق طريق حصناً منيعاً يحول دون توغل دول المحور فى شرق ليبيا .

ولكنّ حادثا آخر قد حدث فى ذلك الصيف ، وهو من غير شك أجل وأعظم من كل حادث آخر ؛ ذلك أن ألمانيا قررت أن تغير على روسيا وأن تزيد أعداءها بما لا يقل عن مائة وستين مليونا من الأنفس . ولعل هذا هو السبب الذى دعا ألمانيا إلى التبكير فى ذلك الصيف ، لكى تجد من الوقت متسعا للاستيلاء على روسيا . وأن تزيل من الوجود هذا الخطر الذى يتهددها من الشرق .

وفى الصيف الثانى — كما فى الأول — حققت ألمانيا البرنامج المرسوم ؛ ماعدا جزءا واحـدا . فإن روسيا لم تتحطم ولم تنهزم ، ولم يكن بد من أن تطول الحرب الروسية عاما ثانيا وثالثا .

وبدأت ألمانيا حربها فى الصيف الثالث مبكرة نوعا ما وإلى جانبها اليوم حليف جديد هو اليابان . وأمامها عدو جديد هو الولايات المتحدة الأمريكية .

إن ذلك الصيف الثالث فى الحرب هو الصيف الماضى عام ١٩٤٢ ، وهو الوقت الذى نذكره نحن سكان مصر فى شىء غير قليل من القلق ، فى ذلك الصيف زحف الألمان ، حتى بلغوا أبواب مصر ، ثم تقدموا حتى صاروا على بعـد ميل من الإسكندرية ، ومن وادى النيل . وكانت إغارات طائراتهم لا تكاد تنقطع . وتهديدهم للقطر المصرى والشرق الأوسط ماثلا للعيان . ولكن شاءت المقادير أن يقفوا عند أبواب وادى النيل ، ولا يتجاوزوها وأن يتحقق برنامجهم الإفريقى كله إلا جزءاً يسيراً .

وفى روسيا وجه الألمان هجومهم مبكرين نحو القوقاز، وركزوا جهودهم كلها فى حاجز ضيق ، لكى يصلوا إلى منابع البترول وإلى الشرق الأوسط من طريق آخر ، فيكون الهجوم الألمانى فى ذلك الصيف الثالث ، مرسوما على حسب التعبير المشهور على صورة رشّق المقراض ، أحد الشقين موجه نحو مصر ، والآخر نحو القوقاز ، لكى يلتقى الشقان فى إيران وسهول دجلة والفرات ... وهذا البرنامج الهائل قد تحقق جله ، ولكن لم يتحقق بعضه ، ولا بد لألمانيا أن تواجه صيفاً رابعاً .

وها نحن أولاء اليوم قد أظلنا الصيف الرابع ، بل لقد انقضى منه شطر غير قليل . وألمانيا لم تبدأه مبكرة ، بل إنها لم تبدأ بعدُ شيئاً . ومن عادة الألمان أن يقضوا الشتاء فى الاستجمام والاستعداد ، وأن يلتزموا فيه خطة الدفاع ، ريثما تحشد الجحافل ، وتعد العدة ، وترسم الخطة ولا بأس عليهم فى أثناء هـذا الوقت أن يخسروا بعض ما كسبوه . فإن استعدادهم للصيف التالى كفيل بتعويض ما فقدوا ، واسترداد ما خسروا .

ولكنهم فى الشتاء الماضى قد عانوا خسائر لا تعوض وفقدوا أرضاً لا يستطيعون استردادها . فقد فقدوا القارة الإفريقية ، وتركوا فى الأسر جيشاً عظيما بعدته وذخيرته ورجاله وقادته . ومكنوا أعداءهم من السيطرة على سواحل بلاد المغرب . والانتفاع بطريق البحر الأبيض المتوسط ، بعد أن كان استخدامه محفوفاً بالأخطار . وفى روسيا فقد الألمان فى الشتاء الماضى القوقاز كله إلا نقطة واحدة ، وفقدوا النصف الشرقى من أوكرانيا . وتراجعوا عن

لستجراد ومن أما كن أخرى فى الميدان الروسى العظيم - وجلاء المحور من تونس يجب ألا يعد جزءاً من حملة الصيف ، بل هو فى الحقيقة خاتمة أعمال الشتاء .

أما الصيف الرابع فلم تبدأ أعماله بعدُ . وقد انقضت منه أسابيع ولم تبدأ ألمانيا شيئاً ، وقد كانت هى البادئة دائماً . فهل معنى هذا أن ألمانيا — المرة الأولى فى هذه الحرب — لم تعد هى البادئة ؟ لا شك فى أن قوات المحور قد عانت فى الشتاء الماضى خسائر لم تعان مثلها من قبل فى أى شتاء أو صيف ؛ ولعل فى هذا الأمر وحده ما يفسر هذا التأخر فى أعمال الصيف .

ويتحدث كثير من الألمان اليوم عن « قلعة أوربا » يصفون الأقطار الواسعة الغنية التى تسيطر عليها ألمانيا بأنها بمثابة قلعة حصينة منيعة ، ليس من السهل أن تنال بسوء .

ووصف أوربا الخاضعة لحكم المحور بأنها قلعة ، يفهم منه أيضاً معنى المحاصرة ، ومعنى الدفاع ؛ فلقد تقطعت الأسباب بين تلك البلاد وبين جميع أنحاء العالم . فى الشرق تواجه هذه القلعة عدواً عنيداً ، قد ثبت أمامها عامين كاملين فى ميدان ضخم واسع يمتد من البحر القطبى إلى البحر الأسـود ، وفى الجنوب يحيط بالحصن خندق واسع عظيم ، تتلاطم أمواجه ، من بحر اليونان إلى حدود أسبانيا ؛ ومن الغرب يمتد الحصن من الرأس الشمالى فى بلاد نروج إلى شواطئ فرنسا الغربية ؛ وهنالك دول مثل أسبانيا فى الغرب وتركيا فى الشرق لا تزال متمسكة بالحياد وهى متصلة بتلك القلعة اتصالا مباشراً ؛ ولكن من ورائها بحار وأقطار تسيطر عليها الدول المتحدة ، فإذا أرادت ألمانيا أن تستورد بواسطة أسبانيا بعض حاجاتها من مواد الحرب ، فإنها ستجد هذا الأمر شاقاً عسيراً .

ولقد أتى على أسبانيا حين من الدهر كان الناس يتوقعون منها أن تنضم إلى دول المحور وأن تجاهر بريطانيا بالعداء . ففى أسبانيا كثير من أنصار المحور ، وحكومتها مدينة لألمانيا وإيطاليا بمساعدتها فى الحرب الأهلية . ولكن غريزة سليمة قد جعلت أسبانيا تتريث ، ورأت الحرب تتقدم ويطول أمدها . وتزداد ويلاتها ، فآثرت الحياد والسلامة . ويوشك حيادها اليوم أن يكون تاما ، خصوصا بعد أن انضمت الولايات المتحدة ، وكثير من دول أمريكا اللاتينية إلى صفوف أعداء المحور . ولا ينتظر أن تخرج أسبانيا عن ذلك الحياد .

أما تركيا ، فمن الواضح أن حيادها مشرب بالعطف على الدول المتحدة ، وقد استطاعت أن تجنى من هذا الحياد مغانم كثيرة . ولن يخرجها عن هذا الحياد سوى إيمانها التام بأن مثل هذا الخروج سيزيد تلك المغانم ، أو يذود عنها شرور تهددها ، ولا ينجيها منها إلا أن تدخل الحرب مع الدول المتحدة .

ومهما يكن من شىء فإن قلعة أوربا قد ضرب عليها حصار كبير واسع النطاق ، ولا يقلل من خطر هذا الحصار أن تكون هنالك دول محايدة مثل سويسره والسويد وأسبانيا والبرتغال وتركيا .

أما أن هذا الحصن منيع لا ينال بسوء ، فلا شك فى أن اقتحامه ليس بالأمر السهل . وأيسر الوسائل للنيل من هذه القلعة ، ومعاقبة المتحصنين بها ، تلك الإغارات العظيمة من الجو ، التى ازدادت عنفا وشدة فى هذا الصيف ، والتى أشاعت الخراب والتدمير فى كثير من المدن الألمانية والإيطالية . وقد عجزت دول المحور أن تقابل هذه الغارات بمثلها . وليس هذا العجز عن تعفف ، وإشفاق على الأرواح البريئة . ولكن الناس رغم هذا يتساءلون : هل يستطيع الهجوم الجوى وحده أن يدك تلك القلعة العظيمة وأن يرغم المدافعين عنها إلى التسليم « من غير قيد ولا شرط » ؟ لقد خاض الكتاب فى هذه المسألة ، وزعم كثير منهم أن الهجوم الجوى أسرع الوسائل وأقلها

لقمة لإنهاء الحرب . ولكنّ هنالك أمرين يجعلان مثل هذا النصر العاجل السهل شيئاً غير قريب الوقوع . أولهما أن الأقطار التي في متناول الطائرات ، حتى البعيدة الذي منها ، لا تزال محدودة . فأن الإقليم الوحيد الذي أمكن إلى الأمد إرهاقه بالغارات الجوية هو حوض نهر الرين ، والإقليم الشمالي الغربي من ألمانيا . وكلاهما من أشد أقطار ألمانيا ازدحاما بالسكان في وقت السلم ، وهو أغناها بمعدن الفحم والحديد ، وبالمنشآت الصناعية العديدة . ولكنّ في ألمانيا وفي الأقطار التي تسيطر عليها جماعات غنية بمعادنها وصناعاتها ولا شك كثيراً من المنشآت قد أقيمت بها حديثاً ، لأنها تتمتع بنوع من الأمن النسبي من الغارات الجوية . وأشهر هذه الأقاليم ، الجزء الأوسط من ألمانيا (سكسونيا) وسيلزيا العليا ، وبوهيميا ، وكذلك بولنده وبلاد المجر الشمالية . فاذا كانت روسيا لا تزال تحارب برغم فقد كثير من أقطارها الغنية فقدا تاما ؛ فليس بمعقول أن تكف ألمانيا عن الحرب لمجرد تدمير مدن الرور والجهات الشمالية الغربية منها ، على فرض أن الغارات كانت من الكثرة والعنف بحيث دمرت تلك الجهات تدميراً تاما .

الأمر الثاني في تلك الغارات الجوية العنيفة أنها تتطلب عدداً هائلا من قاذفات القنابل الضخمة ذات المحركات الأربع ، التي تستطيع أن تقطع ألفين أو أكثر من الأميال . ولدى الدول المتحدة عدد هائل من هذه القاذفات العظيمة ، ولكن جزءا كبيرا منها — لعله يزيد على النصف — لابد من تخصيصه لمحاربة الغواصات ، وحماية قوافل السفن في الذهاب والإياب . ولهذا قد لا يكون من الممكن — على الأقل في هذا الصيف الرابع — أن تتوافر القاذفات بحيث تؤدى وظائفها الثلاث ، وهي : الاشتراك في الحرب في ميادين القتال ، وحماية السفن في البحار ، والغارات الليلية على الموانىء والمنشآت الصناعية .

لو أن الإغارات كانت من العنف والاستمرار ، بحيث أعجزت ألمانيا عن استخراج الفحم من حوض الرور ، لكان في هذا ما يحمل على الظن بأن تلك الغارات ستكون عاملا مقررا في إنهاء الحرب . ولكن ليس من السهل أن نتصور أن هذا الأمر سيتم في هذا الصيف . ومع التسليم بأن الدول المتحدة ستجني فوائد حربية عظيمة من غاراتها على ألمانيا . فإنها لابد أن تلجأ إلى وسائل أخرى لهجوم على تلك القلعة الأوروبيـة هجوما مباشراً . ويحيط بهذه القلعة العظيمة سياج يبلغ عشرات الآلاف من الكيلومترات بعضها يطل على البحر المتوسط وخلجانه وجزره . وبعضها يطل على المحيط الأطلسي وبحاره وجزره . وهنالك الجانب البري لهذه القلعة قد أشرفت عليه جيوش السوفييت وهي تتأهب لحملة الصيف الثالثة ، لقد كانت قوات روسيا البرية تحمل العبء الأكبر في هذه الحرب ، وإليها يرجع كثير من الفضل في أن أتيحت الفرصة لسائر الدول المتحدة للتأهب والاستعداد ، وفي عنق الحلفاء دين لروسيا أن يكافئوها على جلادها وجَلَدها الطويل ، بفتح ميدان جديد . والإغارة من البحر على القلعة الأوروبية ، والخندق البحري بتلك القلعة واسع عظيم ومن العبث أن يتوهم الإنسان أن دول المحور قد تمكنت من أن تحيطه كله بسياج ضخم ، وحصون مانعة ، إن نجاح الدول المتحدة في هذا الغزو رهين بحسن استعدادها ، وباختيار المكان الملائم ، الذي تستطيع طائراتها فيه أن تعطي جيوش الغزو الحماية الجوية الكافية .

محمد عوض محمد

داء السكر، وقصة دوائه

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

صاحب الأنسولين(١) ، رجل يُدعى « بَنْتِنج » Banting .

وهو رجل يشبه «زاميل» في أكثر من وجه واحد . فأول ما يأخذك منه أمانةٌ نادرة في بساطة ، ثم قلة ذات يده وقصور أدواته . فلم يكن له معامل تساوى مئات الألوف من الجنيهات ، ولم تتراكم بين يديه الهبات الكثيرة لشراء الكلاب الكثيرة التي يستعين بها على كشف مكشوفه الخطير . وعدا هذين ، فقد كان هذا الكَنَدىّ ، كذاك الهنغارىّ ، لا يعرف معنى التسليم للصعاب ، ولا الخوف والتردّد وهو يجاهد في تخفيف الآلام عن بنى الإنسان — وهذا بالرغم من علمه أن كبار العلماء في وظائف الأعضاء قد عجزوا عن كشف الأنسولين(١) ، وهذا بالرغم من الإحساس العام لدى كبار الأطباء بأن الكشف عن مثله كشفٌ عن مستحيل .

مات والدى بداء البول السكرىّ . وفاته أن ينجو من الموت بخُطُوات يسيرة . فهو مات بهذا الداء قبل كشف الأنسولين بسنوات قليلة . من أجل هذا لا أذكر « بَنْتِنج » وأذكر دواءه الغريب العجيب حتى تعروني رهبةٌ دخيلة . وأسميه دواء غريبا عجيبا ، لأنه كان في مقدوره أن يَمُدّ في عمر أبى حتى يعيش بداء السكر أكثر مما كان يُرجى له من العيش بدونه . أفليس هذا وحده كافيا أن يضع صاحبنا في الطليعة من رجال اليوم الذين يكافحون الموت دفاعا عن بنى الإنسان ؟

مات والدى بداء السكر عام ١٩١٧ . مات بعد أن صار من الجوع خيالا يُذكّر من بَعيدٍ بذلك الجسم الجزيم الملىء الذى كان له في صباه . مات أربع سنوات قبل أن يبدأ « بنتنج » علاجَ كلابه المريضة بهذا الداء في تلك الغرفة السُّفلية الواطئة تحت سقف ذلك المبنى الطبّى بطورُنطو Toronto ، بكندا ، في ذلك الصيف الحار المشهور صيف عام ١٩٢١ .

أصاب السكر أبى عام ١٩٠٧ ، فما أسرع وما أفظع ما تغيّر به تغيرا كبيرا . إنى أتصوّره اليوم ، كأنما رأيته بالأمس ، في تلك الصبيحة المشئومة التى أدركتُ فيها لأول مرة أن شيئا رهيبا قد أخذ بتلابيبه . كان هذا في يوم شاتٍ باردٍ بليل من أيام فبراير . وكانت الماشى على جانب الطرقات زلجة . ورأيته يمشى في أوسط القرية يجرّ رجليه جرّا . وكان في وجهه لون الرماد ، وكان في عاتقيه خورٌ وارتخاء بعد تماسك واستقامة .

وجرّب والدى كلّ ما خِيل من صنوف الدواء عبثا . فتلك أيام كان فيها علماء الطب يعتقدون استحالةَ وجود دواء كالأنسولين أبدا . ولو أنك اطّلعت عندئذ على الغيب فأنبأت رؤساء الطب وعمداءه تبشّرهم بأن رجلا فلاّحا جاء من وراء المحراث ، وتخرّج حديثا من كلية الطب ، كبنتنج ، سيكون على يديه كشفُ دواءٍ يطيل أعمار المرضى بالسكر العشراتِ من السنوات ، إذاً لضحكوا منك ملءَ أفواههم .

لم يكن والدى غير تاجر بسيط في بلد صغير ، ولكنه كان يَقْدِر العلم حق قدره . ففى تلك الأيام التى كان يموت هو فيها تدرّجا ، ويُسلِم الحياة فيها أقساطا ، كنتُ بلغتُ كلية الطب ودخلت طالبا فيها . فكان لا يفتأ يسألنى ماذا كشف البُحّاث من الأطباء لسدّ ذلك الخرق الذى انتقب بجسمه . هكذا كان يسميه ، خرقا . وكان الدكتور فُستر Foster ، عميد الجامعة ، يصف له أحسن العلاج وأحدثه ، وما كان هذا إلا تنظيما للطعام وتحديدا لنوعه

---

(١) هو دواء داء السكر المعروف اليوم ، ويُعطَى حقنا . ولا نظن بين القرّاء من يجهله .

ومقداره ، فكان يصحّ عليه حيناً ، ثم لايلبث الأسيتون(١) أن يظهر في أنفاسه وتعود رائحته تَنبعث منه فيه . ويضيق بنفسه ، ويأخذ يقول لي : إن كل ما قدَر عليه العلماء في أمره مجاعةٌ بطيئة تُسلِم به إلى الموت ، وهي أنكى من الموت وأقسى .

ولم يكن أبي في ذلك وحده . بل كان من أمثاله الألوف يحفظون حياتهم بالجوع المهلك . وفي عام ١٩١٧ نظرت إلى أبي آخر نظرة وهي يُسلم أنفاسه . وكان بلغ الستين . كان ذلك في يونيو ، في يوم صاح وضاح . والآن ما أغرب الشعور الذي يداخلني عند ما أذكر ذلك اليوم ، وإذ كر تلك البضع عشرة من السنوات التي جاءت من بعده . ففي هذه الفترة من الزمان كشف الطب عن أمرين — سأذكرهما في موضعهما من هذا الكتاب — لو أنهما كُشفا وأبي حيّ ، إذن لأطالا عمره فوق ما كان . فلو أن « بنتنج » كشف أنسولينه وأبي حيّ ، إذن لتولّى هذا الأنسولين داءه ، وزمّ سكّره وخَبطه . والسكر إذا استفحل استنفد مقدرة الجسم على مقاومة الميكروبات . وهكذا فعل السكر بأبي ، فأصابه ميكروب كالعِقد النظيم يحل الدماء . أصابه في حلقه . وسرى سمّ هذا الميكروب ، وكان سمّا عندئذ مجهولا ، في جسم أبي ، وبلغ كُليتيه ، وعاودهما حتى أتلفهما . وستعرف في أواخر هذه القصة ، قصة كفاير الموت ، كيف جاز لوالدي أن يراوغ الموت في هذا ، لو أن مثل ذلك جاء وهو يأكل الطعام .

تَحَلّ وجه أبي ، فبانت عظامه ، وانطبقت أصداغه وصارت صورته كتلك الصورة البالية العتيقة التي أُخذت له في صباه الأول . وغاب عن وعيه في أكثر الأحيان في ذلك الربيع الذي مات فيه . وذات مرة نظر إليّ بغتةً ، وقد صفا ماء عينيه ، وسألني : قل لي يا بول ، أتعرف ما الموت ... ؟

لقد ولّد كلُّ هذا رغبة شديدة في نفسي إلى علم كل ما جرى وراء الستار في تلك الليالي الحارّة في صيف عام ١٩٢١ ، بمدينة طورنطو . مَنْ « بنتنج » هذا الذي أتى في أمر هذا الداء ما حيّر الألباب ؟

* * *

بالطبع لم يكن من عمل « بَنْتِنج » أن يكتشف الأنسولين ، بله أن يجربه في المرضى . فداء السكر داء طب باطني ، و « بنتنج » لم يدّع لنفسه شيئاً غير الجراحة في أيامه الشديدة التي تلت الحرب العالمية الماضية ، حرب عام ١٩١٤ . وكان قد تجمع في تلك السنين علمٌ صادق كثير ، معقّد المعنى طنّان اللفظ ، أحدثه الفسلجيّون Physiologists والكيميائيون الحيويّون Biochemists ، يتحدثون فيه عن السكر كيف يقتل ضحاياه . ولم يكن « بنتنج » يعلم من هذا العلم حرفا ، ولم يخطر في وهمه أن يختص بداء السكر أبدا . ولم يكن به كثيرُ ذكاء ، ولكن كان به كثيرُ عزمٍ وكثيرُ عناد . وكان قد عاد من الميدان الفرنسي وعلى ذراعه أثر عميق من جرح فظيع . وجنت له هذا الجرحَ تلك الحرب . فأرادوا بَتْرَ ذراعه ، وأنذروه بالموت إذا هو لم يفعل . فقال للجراح : سأحتفظ بذراعي وليكنْ بعد ذلك ما يكون . كان ذا عزم وذا عناد .

وعمل بالمستشفى بمدينة طورنطو Toronto طبيبا قطنيا . ثم تراءى له أن يفتح له عيادة خاصة في بلدة صغيرة ، هي بلدة لندن بأنتاريو Ontario . وظل ينتظر في هذه العيادة ثمانية وعشرين يوما حتى جاءه أول مريض ، وبلغ صافي دخله من عيادته في الشهر الأول أربعة دولارات . عندئذ قبل وظيفة مُعيد ، تأخذ نصف وقته ، في مدرسة

(١) مادة طيارة كالكحول ، بل أشد طيارية . ولها رائحة خاصة تعرف بها ، وهي تحضر في الصناعة . وتجدها القارئ في مستحضرات الزينة . فهي بعض السائل الذي يستخدمه نساء هذا العصر في مسح الصبغ الأحمر من فوق أظافرهن استعداداً لصبغها من جديد . وهي مما يفرزه جسم المريض بالسكر عند استفحال دائه .

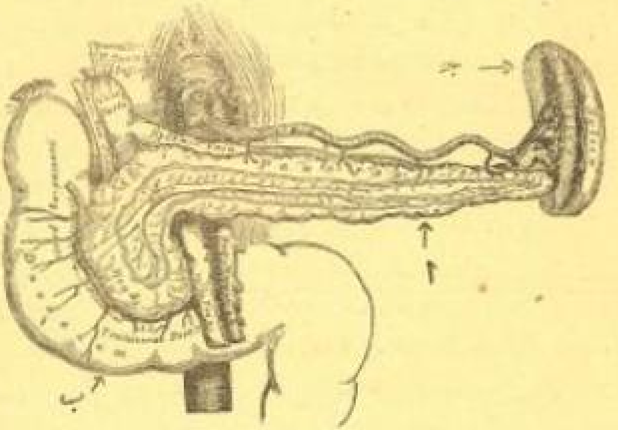
الطب بأنتاريو الغربية . ولم يقبلها لأنه كان له في العلم طموح ، ولكنه قبلها لبأ كل فيشبع .

ومارس عمله الجديد في جدّ وبذمة طاهرة . وكان له من وقته الفسيح ما أعانه على جدّه وطهارة ذمته . فكان يقضى الليلة بعد الليلة ساهراً مكدوداً في مأواه ، وقد تبلىَ أثاثه وتحيلت مفارشه ، يكتب المحاضرة التي سيلقيها على طلبته في الصباح التالي . ثم تجيء تلك الليلة الغريبة الفاصلة الحاسمة من أكتوبر عام ١٩٢٠ ...

في تلك الليلة كان مستغرقاً يتفهم كيف يموت الناس من داء السكر إذا هم فقدوا بنكرياسهم[١] . ويتفهّم هذا في إلحاح غريب كإلحاح الفلاح الذى لم تهذّبه المدنية . وبالطبع كان قد درس قديماً ، في مدرسة الطب ، خطَر هذا البنكرياس في هضم الطعام ، وتعلّم أنه مصنع عظيم تُفرز خطيرة شتيته ، يصبها سائلاً في قناة ، تصبّه في دورها إلى حيث يجرى في أمعاء الجسم الدقّاق[٢] . فإذا دخلها هذا السائل الغريب أتى فيها بكل عجيب . فهو يصنع فيها السكر مضغا ، وهو يَفلق الدهن فلقا ، ثم هو يمزق الزلاليات تمزيقا ، وكل هــذا لتمتص أجسامنا تلك القطع الممضوغة المتفرقة الممزوقة فتنتفع بها .

ثم جلس « بنتنج » في تلك الليلة ، وجلس وحده ، إلا من صحبة أنفه الطويل المتشمّم المتعرّف المتشوّف ، مُكبًا على كتبه ، يتفهّم ما صنع الطبيب الألمانىّ منكوفسكى Minkovski في كلبه ، وكيف صنعه . قطع هذا الباحث بنكرياس هذا الكلب قطعاً نظيفاً ، ثم انتزعه من جوفه ، ثم خاط الكلب المسكين بكل حذر وحساب ، ثم أخذ يرقب ماذا يجرى له من بعد ذلك . فما أسرع ما أصاب الكلبَ الهزال ، وما أسرع ما جاءه الجوع والنهم ! ثم ينتهى به الحال إلى الرقاد من عجز فلا يكون به من قوة إلا بمقدار ما يرفع رأسه لشرب الماء . وهو لا يشرب الماء إلا ليستحيل بولا بالسكر مُثقلا . . . ومات بعد عشرة أيام — مات بداء السكر .

ظن « بنتنج » أن هذا لا شك سيُمتع طلبته ، فاستزاد من هذا العلم ، علم البنكرياس ، وخاض منه في أكمة كثيفة شجراء ، ليطلعهم على ما كشفه البحاثة الألمانى



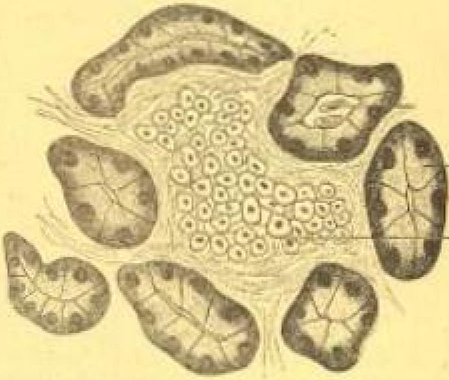
البنكرياس

ا — البنكرياس نفسه وهو يطول إلى اليسار بطول الرسم تقريبا
ب — الاثنى عشرى ويصل المعدة بالأمعاء الدقاق جـ — الطحال

(١) غدّة في البطن ، شكلها يشبه الورقة إذا استطالت ، لهذا تعرف عند الجزارين بورقة البطن . وهي تقع من البطن خلف المعدة وأمام جدار البطن الخلفي ، وتجرى فيه من يسار الرجل إلى يمينه . أ . ز .

(٢) يخرج الطعام من المعدة إلى القناة التي تسمى بالاثنى عشرى قبل وصوله إلى الأمعاء الدقاق . وفي هذا الاثنى عشرى تنفتح القناة التي تأتى بالصفراء من الكبد . وعند هذه الفتحة نفسها تنفتح قناة البنكرياس لتصب إفرازه في الاثنى عشرى أيضا . وتجرى هذه الإفرازات جميعا من الاثنى عشرىّ إلى الأمعاء الدقاق مع الطعام فتتخلل معه فيكون بها انهضامه . أ . ز .

لَنْجِرْ هَنْس Langerhans فى تلك الغدة البنكرياسية العجيبة من خلايا صغيرة متجمّعة متعنقدة تختلف فى حجمها وفى صورتها عن تلك الخلايا الأخرى التى تفرز السائل ذا الخائر التى تهضم الطعام فى الأمعاء . وتوجد هذه المجموعات من الخلايا غير الهاضمات فى الأنسجة القائمة بين الخلايا الهاضمات ، وتظهر وحدها كقطعة الأرض فى البحر ، فسُمّيت بالجزائر ، ولم يكن لهذه الجزائر ، جزائر « لَنْجِرْ هَنْس » ، قناة تصلها بما حولها وتصب فيها إفرازها كما لتلك . إذن فيمَ كانت هذه الجزائر وما عملها ؟



صورة الخلايا الجزائرية بين الخلايا ذات الإفراز الهاضم فى البنكرياس
ا — الخلايا ذات الإفراز الهاضم ب — الخلايا الجزائرية

وأخذ القلم وكتب فى مذكراته التى سيلقى منها فى الصباح درسه على طلبته ، أن هذه الجزر ، أن هذه المجموعات من الخلايا الصغيرة الحقيرة ، هى التى تقينا من داء السكر يقينا . إنك تربط القناة التى تصل البنكرياس بالأمعاء بخيط ، فيمتنع وصول السائل الهاضم من هنا إلى هذه ، فلا تنفذ منه قطرة . ومع هذا لا يصاب الكلب بداء السكر . ولكنْ تجرأ فانزع البنكرياس كله من الجسم وانظر ما يكون . . . . . !

وانتهى عمل تلك الليلة أو كاد . وكان عملا مجهدا مضنيا . ولكن بقى شىء ، لابد أن يضيفه أخيرا إلى محاضرته . لا بد أن يُخبر تلاميذه فى الغد أن البحّاثة الأمريكى « أوبى » Opie فحص عدة بنكرياسات لموتى ماتوا بالسكر ، فوجد أن تلك الجزائر الصغيرة ، جزائر لَنْجِرْ هَنْس ، تراءت لعينه حالتُه مريضة .

أتفرز هـذه الخلايا الجزائرية هرمونا(١) ؟ ربما . أتفرز هذه الخلايا ، وهى صحيحة غير مريضة ، شيئا مجهولا تصبّه مباشرة فى مجارى الدم التى تمر بها ، فيقوم هذا الشىء المجهول بمعاونة أجسامنا على حرق سكرها لتتولد من حرقه طاقتنا وحركتنا ، فلا يعود يتراكم السكر فى دمائنا وبولنا ؟ يجوز . ولكنّ أحدا من الناس لم يَطّلع علينا بقليل أو كثير من هذا الشىء المجهول أبدا .

(يتبع) أحمد زكى

(١) الهرمونات مركبات كيميائية تصنعها فى الجسم غدد غير قنوية ، أى ليس لها قناة تصب فيها إفرازها . وهذه المركبات قليلة المقدار كثيرة المفعول واجبها الموازنة بين وظائف الجسم . لذلك كان منها من يخل بالوظيفة تلك الحين ، فى حين أن لها علياً يخل بها تلك الفعال . ومنها الهرمونات التناسلية الشائعة اليوم فى الأسواق . أ . ز

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

— ٣ —

رؤيتك أمة جديدة تفتح عين لك جديدة ، فالحكم على المسائل الاجتماعية يعتمد أكثر ما يعتمد على المقارنة ، ولا مقارنة إذا اقتصر الإنسان على النظر إلى أمته وشؤونها ، فنشأته فيها واعتياده من صغره رؤية مظاهرها يضعف قوة النقد عنده ، ويعوقه عن إدراك مزاياها وعيوبها ، فإذا هو رأى أمة أو أمما غير أمته ازداد علماً ، وازداد قوة على النقد وكان أقرب إلى صحة الحكم .

ومن أطرف هذا الباب النظرات الأولى للراحل ، فهى تحصر وجوه الخلاف قبل أن يألفها ويعتادها وتكون مادة صالحة له إذا هو قيدها وتعمق دراستها . فكم من الطريف أن نصغى إلى الأوربى الذى يزور مصر لأول مرة ويحدثنا عن أثرها فى نفسه ، كذلك من الطريف أن نسمع مصريا فحا رأى أوربا المرة الأولى وتحدث عما لفت نظره وأثار عواطفه .

فإذا رأينا الشيخ رفاعة الذى نشأ فى صميم الصعيد وشب فى صميم القاهرة وتعلم فى صميم الأزهر يتحدث عن الباريسيين والباريسيات كان بلا شك حديثاً عجباً .

ما الذى أعجبه فى فرنسا وما الذى كرهه ، وما الذى ود أن ينقل من ذلك إلى مصر ، وما الذى حمد الله على أن لم ينقل . ما الذى أحسه عند المقارنة بين مصر وفرنسا ووجوه ضعف مصر وقوتها ؟ أصبح ذهنه مشغولا دائما بكلمات خمس : مصر ، العرب ، الإسلام ، فرنسا ، النصرانية ، يستخدمها فى كل نظراته وأحكامه .

أعجبه من الباريسيين ذكاؤهم ودقة فهمهم وسعة اطلاعهم وميلهم الشديد لمعرفة ما جهلوا وقلة الأميين بينهم ورغبتهم فى الابتكار « فكل صاحب فن يحب أن يبدع فى فنه شيئاً لم يسبق إليه أو يكمل ما ابتدعه غيره » ثم حب الاستطلاع ، فهم يحبون الرحلة يستطلعون فيها الناس والبلاد ، ويحبون الغرباء ليستمعوا منهم أحوال بلادهم وعوائد أهلهم ، ثم حب التجديد ، فهم يكرهون الاستمرار على حال واحد فى الملبس ، فى الملاهى ، فى التفكير ، فى السياسة . وأعجب ما أعجبه منهم حريتهم فى تفكيرهم والتصريح بآرائهم فى حكومتهم والجهر بما يعتقدون فى الدين والعلم والسياسة ، كما أعجبه جداً المنشآت العامة لنفع الفقراء والمرضى من مستشفيات وملاجىء .

وهذه صفات رآها فتمناها لبلاده ، ولكن أين له الحرية التى يتمتع بها أهل باريس لينقد قومه وحكومته ويقول فى صراحة ما يتمنى ؟ إنما هو يلوّح ويلمح .

وعجب جداً من خفتهم وطيشهم ، وشدة انفعالهم ، فسرعان ما ينتقلون من فرح إلى حزن ، ومن حزن إلى فرح ، وقد ترّبى هو تربية وقار وحشمة ، ورأى شيوخه فى الأزهر جادين دائما ، يمشون متئدين وعليهم سيما الرزانة ، ويجلسون كأن على رءوسهم الطير ، ويتحركون بحساب ، ويخطون الخطوة بحساب ، فما هذه الخفة فى الحركة عند الباريسيين ، وكيف يجرى هذا الرجل صاحب المقام الرفيع والمركز الاجتماعى فى الشارع كالأطفال ، ليدرك موعداً أو يلحق عربة ؟ وكيف يفرطون — حتى رجالهم وعجائزهم — فى اللهو واللعب ، ويصرفون أموالهم فى حظوظ نفوسهم ، ويسرفون فى ذلك على أنفسهم غاية السرف ؟ إنهم لخلق عجيب ، ولكنهم مع ذلك أهل جدّ لا يملون العمل ، وسواء فى ذلك غنيهم وفقيرهم .

لم تعجب الشيخ ماديتهم ، فهم بخلاء يحبون المال حباً جماً ، فأين هذا من كرم العرب ؟ وأين هذا من كرم « الصعايدة » ؟ ومن مادية الفرنسيين مواساتهم بأقوالهم وأفعالهم لا بأموالهم ، وهم لا يهبون ولا يعيرون إلا إذا

وثقوا بالمكافأة، ثم هم يحكّمون العقل حيث يحكّم الدين، فهم أسوأ حالا من المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، وهم لا يؤمنون بالمعجزات ولا خوارق العادات، ويؤمنون بالسببية والمسببية إلى أقصى حد. فالأمة ترقى بالعدل وتضعف بالظلم، والعمارة أسباب تنتجها لا محالة، والخراب أسباب تنتجه لا محالة، ويعتقدون — والعياذ بالله — أن عقول حكمائهم أعظم من عقول أنبيائهم، وأكثرهم لا يؤمن بقضاء ولا قدر — لا، لا. هذا كله لا يعجبني.

وشيء آخر لم يعجب الشيخ أبداً، وهو أحوال النساء الباريسيات ... الرجال عندهم عبيد النساء، فأين هذا من الشرق الجميل حيث النساء عبيد الرجال (على أبلمه)، وهؤلاء النساء هفواتهن كثيرة، وقلة عفافهن واضحة، وغيرة الرجال عندهم ضعيفة، وخاصة في الطبقات العليا والسفلى، «وقد جُرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس، دون نساء الأعيان والرعاع، فنساء هاتين المرتبتين تقع عليهن الشبهة» الخ، فأين هذا مما عندنا في الصعيد، حيث الغيرة عند الرجل تبلغ حد الجنون، وويل لمن سُمع عنها قالة سوء أو حامت حولها شبهة.

ولكن — والحق يقال — في الباريسيين فضيلة، وهي عدم تغزلهم في المذكر، «فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس في الجنس، فلا يحسن في اللغة الفرنسية قول الرجل عشقت غلاما، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ، ولذلك إذا ترجم أحدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام إلى وجه آخر، فيقول في ترجمة تلك الجملة عشقت غلامة أو ذاتا ليتخلص من ذلك، فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق، والحق معهم، وذلك أن أحد الجنسين له في غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها إليه، كخاصة المغناطيس في جذب الحديد — مثلا — وكخاصة الكهرباء في جذب الأشياء، ونحو ذلك، فإذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة، وخرج عن الحالة الطبيعية».

هذه بعض نظرات «الشيخ» إلى باريس أول ما نظر، وظلت هذه النظرات ثابتة عنده، لم تتغير إلا قليلا، بل كانت الأيام تزيدها قوة، ولقد أراد يوما أن يستوثق من آرائه هذه فيعرضها ويسمع نقدها، فعرضها على اثنين من أصدقائه الفرنسيين، فأما أحدهما فنقدها بأن الشيخ نظر إلى بعض المسائل متأثراً بأوهام المسلمين، ولعله يشير إلى نقد الشيخ رفاعة لعقيدة الفرنسيين في القضاء والقدر، وإنكار المعجزات، كما نقد نظرته إلى النساء الفرنسيات، وتعميمه الحكم على نساء فرنسا كلها بما شاهده من بعض نساء باريس، وأما الثاني فكان ظريفاً رقيقا، وقال لا يهمني ما حكمت ولكن يهمني ما اعتقدت، فما دمت تكتب ما تعتقد فلا ضرر، وإنما الضرر أن تشايع غيرك ويحملك الحياء والخجل على أن تكتب أو تقول ما لا تعتقد.

* * *

فكرتان تعارضتا في ذهن محمد على باشا ورجاله، ولكل فكرة مزاياها وعيوبها، أمن الخير أن يسكن هؤلاء الطلبة المبعوثون في بيت واحد وعليهم مشرفون، أو يفرقوا في «البانسيونات» الفرنسية؟ مزية الفكرة الأولى أنها أحفظ للطلبة من العبث، وأنها أحرى أن تجعل الطلبة محافظين على عوائدهم المصرية، فإذا رجعوا إلى بلادهم لم يكونوا قد بعدوا عنها كثيراً فيفيدونها بعلمهم، ويندمجون فيها بسلوكهم، وعيبها أن الطلبة المصريين متى اجتمعوا تكلموا بالعربية، فلم يتقدموا في الفرنسية، وضعف علمهم بأحوال الفرنسيين وشؤونهم، مما قد يكون فيه فائدة لأمتهم، ومزية الفكرة الثانية طلاقة ألسنتهم وكثرة استفادتهم وتجاربهم، وعيبها تعرضهم لخطر التهتك، والانغماس في الشهوات، وتطبعهم بطبائع الفرنسيين، وبعدهم بذلك عن أهلهم، وتقليد الفرنسيين في أحاديث السياسة والطعن في الحكومات، مما يسبب

منا كل لمصر فى المستقبل .

حار بين الفكرتين ، فاختار الأول أولا ، فنزل المبعوثون أول الأمر بنا سمى «بيت الأفندية» ، لا يخرجون منه ليلا ولا نهارا إلا يوم الأحد . وإذا خرجوا فبإذن من الضابط للبواب ، ويأتى المعلمون الفرنسيون إلى البيت ليعلموا الطلبة ، كل طائفة متماثلة تدرس معاً ، وتنفق عليهم الأموال عن سعة حتى كان يحدم الفرنسيون من الأغنياء .

ثم لما تجلت عيوب هذه الطريقة وأحسوا عدم تقدم الطلبة فى اللغة والعلم لجئوا إلى الطريقة الثانية ، فوزع الطلبة على «البانسيونات» ، وفرقوا على المدارس ، كلٌّ ما يناسبه ، وأطلق لهم شىء من الحرية ولكن فى نظام دقيق فيخرجون يوم الأحد ، ويوم الخميس بعد الدروس ، وبعض الأيام بعد العشاء ، ولكن لابد أن يعودوا إلى مساكنهم قبل الساعة التاسعة فى الصيف ، والثامنة فى الشتاء ، وفى كل شهر يمتحنون ويكتب تقرير عن كل طالب ، ومقدار ما حصله ومدى تقدمه ، ويكافأ من ظهرت نجابته بهدية من الكتب أو بعض الأدوات المدرسية ، وهم ممنوعون منعاً باتاً أن يدوروا فى الأزقة — وإذا عصى أحدٌ هذه الأوامر حبس وعذب ، وإذا أتى بأفعال غير لائقة أو شهد المعلمون أنه لا يرجى تقدمه أعيد — حالاً — إلى مصر ، والكل فى ذلك سواء لا يستثنى أحد — ومحمد على باشا بنفسه يطلع على التقارير الواردة ، ويتصرف فيها بما يرى ، ويرسل دائما إلى الطلبة يشجع المجدّ ويتذر الكسول ، ويراقب كل صغير وكبير ، وفى آخر كل عام تأتى التقارير الوافية عن كل طالب ، ويُمرّن كل طالب أثناء تعلمه على التأليف أو الترجمة ، ويرسل ذلك لمصر للاطلاع عليه .

* * *

وضعت برامج مختلفة لتعليم كل طالب حسب دراسته الأولى ، والغرض الذى من أجله أرسل ، وكان البرنامج الذى وضع للشيخ رفاعة شاذا غريباً ، لأنه أعد للترجمة من الفرنسية إلى العربية ، وعليه أن يُعَدّ لترجمة الكتب فى العلوم المختلفة ، فى الجغرافيا والتاريخ والطب والهندسة والتعاليم العسكرية ، وهو لا يستطيع الترجمة فى علم من العلوم إلا إذا ثقف فيه ، فيجب أن يثقف هذه الثقافات المختلفة ليستطيع التعريب فيها ، لذلك كان برنامجه الذى ألزم به ما يأتى :

يجب أن يتعلم الفرنسية ، نحوها وصرفها وإملاءها قراءة وكتابة ، وقد استمر فى ذلك ثلاث سنين ، وفى أثناء تلك السنوات يقرأ كتباً معينة فى فلسفة اليونان والتاريخ العام .

وعين له كتاب فى الحساب يقرؤه ويعرف مصطلحاته وكذلك فى الهندسة .

واختير له كتاب واسع فى الجغرافيا التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، قرأه على أستاذ فرنسى .

ويمرن فى كل ذلك على الترجمة من الفرنسية إلى العربية .

ويقرأ كتابا فى المنطق الفرنسى وكتابا فى المعادن وكتبا مختلفة فى الأدب الفرنسى ، فيقرأ لفولتير ، وراسين ، وروسو .

ويقرأ فى السياسة ، والحقوق الطبيعية ، وروح الشرائع لمنتسكيو .

ويقرأ على الأستاذ كتابا فى علم الطبيعة وكتابا فى فن العسكرية .

ويقرأ المجلات العلمية ، والجرائد السياسية اليومية .

وهكذا كُلّف كثيراً ، وقرأ هو لنفسه كثيراً ، وشغف بالكتب السياسية والاجتماعية يقرأ منها كثيراً إذ رآها تفتح أمامه أبوابا واسعة .

وكان مسيو جومار مدير البعثة يحبه ويعطف عليه ، لما رأى من جده ونبوغه ، فأعانه وشجعه وسهل له مصاعبه

ثم استفاد فائدة أخرى كان لها أثر كبير في حياته، ذلك أنه صادف في باريس أيام وجوده بها علمين من أعلام الاستشراق، الأستاذ سلفستر ده ساسي والأستاذ كوزين ده برسيفال، فأما الأول فمدير مدرسة اللغات الشرقية، واسع الاطلاع في اللغة العربية والفارسية، نشر كتبا عربية كثيرة وألف شرح مقامات الحريري المتداول بين أيدينا، والمطبوع في مصر مراراً، وألف في النحو العربي على طريقة جديدة، وألف كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد المطبوع في مصر من غير ذكر لمؤلفه الخ: وكذلك الأستاذ كوزين نشر كثيراً، وترجم من العربية «صقلية تحت حكم المسلمين» الخ. وكلاهما كان بحاثة، صادقهما الشيخ رفاعة واستفاد منهما منهج المستشرقين في البحث، واستفادا منه بعض معارفه في اللغة العربية، فلما عاد إلى مصر قلدهما في بعض شؤونهما كما سيأتي:

كان عليه أن يتم هذا البرنامج كله في خمس سنوات، وما كان يستطيع ذلك لولا همته وصدق عزمه واتكاؤه على نفسه، فقد أفرط في المطالعة بالليل حتى ضعفت عينه اليسرى واحتاج إلى تطبيبها، ونصحه الطبيب ألا يطالع ليلا فأبى، وصرف أكثر مرتبه الخاص في شراء الكتب التي أغرم بها وفي الاستعانة بمعلمين فرنسيين غير الذين رتبتهم له الدولة.

فإذا مل القراءة والدرس، استجم بنوع من الدراسة آخر لا يقل عن القراءة أهمية، وهو دراسة الحالة الاجتماعية في فرنسا، ومدى تقدمها وأسباب نهضتها، ما قوانينها، ما عاداتها، ما تجارتها، ما وسائل اعتناء أهلها بصحتهم، كيف يعطفون على مرضاهم؟ ما حالاتهم الاقتصادية، ما علومهم وفنونهم ونظام التدريس عندهم، ما هي المؤسسات العلمية غير المدارس، كالمكتبات والأكاديميات؟؟؟ حتى الملاهي والتمثيل وصالات الرقص بجميع أنواعها — كل هذا درسه بإمعان، وقيده بالكتابة، واختزنه في ذهنه، وأجاله في عقله على أساس ما يمكن أن يصنع من ذلك في مصر.

وهو في كل ذلك محتفظ بدينه، محتفظ «بجبته وقفطانه» يجول بهما في شوارع باريس على كثرة ما لقى في ذلك من عناء، فكلما مشى لفت الأنظار إليه بغرابة شكله وطرافة زيه، ولا ينسى يوما حكاية طريفة وقعت له فتصرف فيها تصرفا طريفاً مثلها، إذ كان يسير ليلة في زقاق في باريس فمر بحانة لعبت الخمر بمن فيها من رجال ونساء، وصادف مرور الشيخ خروجهم وهم يصيحون «الشراب الشراب» ولاحت التفاتة من أحدهم فرأى الشيخ يسير في «جبته وقفطانه» فصاح به: يا تركي يا تركي، وقبض على ثيابه، فجذبه الشيخ رفاعة بلطف وساقه إلى «بار» كان بالقرب منه، ودخل به وقال لصاحب البار: «من فضلك أعطني بهذا كأساً».

صاحب البار: ليس بيع الرجال في بلادنا، إنما ذلك في بلادكم.

الشيخ رفاعة: وهل هذا رجل؟ وهل من يفعل بنفسه ذلك آدمي؟

وضحك الجميع وانصرف الشيخ.

* * *

في آخر السنوات الخمس عقد للشيخ الامتحان النهائي حضره جمهرة من الأساتذة الفرنسيين، ومعهم مسيو جومار وتقدم لهم الشيخ رفاعة ومعه اثنا عشر كتابا أو رسالة ترجمها من الفرنسية إلى العربية أثناء إقامته ففحصها الممتحنون، ثم قدمت له كتب عربية طلب منه أن يقرأ صفحاتها ويترجمها إلى الفرنسية شفاها وعلى البديهة، وأحضرت كتب مترجمة من العربية إلى الفرنسية فأعطى الفرنسيون الكتب الفرنسية والشيخ رفاعة الكتاب العربي وطلب إليه أن يقرأها في نفسه، وينطق بمثلها في الفرنسية، وقد أعجبوا بتفوقه، ولكن أخذوا عليه أن نطقه الفرنسي لم يصقل الصقل الكافي، وأنه في الترجمة أحيانا يعبر عن الجملة الواحدة الفرنسية بجمل كثيرة عربية، وربما

صور قضائية :

أصابع صغيرة ....

لقد طال حديثي عن الخدم وما يصدر عنهم ، فكتبت في ذلك كلمتين ، ووعدت بهذه الثالثة — على أن تكون الأخيرة — والحديث عن الخدم في الواقع حديث يتجدد لا ينتهي . وقد جعلت همي في الكلمتين السابقتين أن لا أكرر رواية حادثين متشابهين حتى يكون للحديث فائدته المرجوة . وكان تعليقي على الحادث الذي قصصته في الكلمة الماضية أن من وراء الأحداث المجرمين عادة يداً تحركهم وترسم لهم الطريق : والواقع أن الرأي الذي استقر عليه علماء النفس الآن هو أن هؤلاء الأحداث لا تنطوي جوانحهم إلا على نفوس خيرة . وإنما تلتوي مقاصدهم وتنحرف ميولهم تحت تأثير الوسط الذي يعيشون فيه ، وتحت ضغط المؤثرات التي تحيط بهم ، ويكاد يجمع المصلحون النفسانيون الآن على أن الخطوة الأولى في سبيل تقويم الحدث المعوج ينبغي أن تبدأ بانتزاعه من بيئته التي يعيش فيها . وقد شوهد في كثير من الحالات أن الحدث يستقيم أمره في بيئته الجديدة الصالحة ، دون اتخاذ أية إجراءات أخرى في سبيل إصلاحه . وحسبنا اليوم هذه المقدمة نسوقها تمهيداً للقصة التي قلنا إنا سنختم بها هذا الحديث . . .

* * *

دخلت على الضابط المحقق في قسم (. . . .) ذات صباح سيدة وقور ، وأبلغته أنها كانت تضع اثني عشر زوجا من الأساور الذهبية في درج المكتب الذي يذاكر عليه ابنها — وهو طالب في المدرسة — وأنها استيقظت من النوم فوجدت باب الشقة مفتوحا ، ولاحظت أن الدرج مكسور وأن مصاغها قد سرق ، فجرى بينها وبين المحقق الحوار الآتي :

س — اذكري لنا بالتفصيل كيف وقعت السرقة .

ج — هذا المصاغ كنت قد سلمته لابني ليحتفظ به في درج مكتبه نظراً لمرضي وملازمتي لفراشي ، وكان ذلك منذ شهر . وقد علمت منه منذ أيام قليلة أن مفتاح المكتب قد ضاع منه ، فلم أهتم للأمر ، واليوم كشفت هذه السرقة .

س — هل تتجه شبهتك إلى شخص معين ؟

ج — ليس في المنزل غيري أنا وزوجي وأولادي ، وأنا طريحة الفراش منذ شهر ، وزوجي شيخ كبير اعتاد أن يصلي الفجر في المسجد كل صباح ثم يعود فيلازم المنزل لا يبرحه إلا في أوقات الصلاة . ولا يتغيب عن المنزل إلا ريثما يؤدي فريضته في المسجد القريب ، وابني طالب في المدرسة ، حدثت له منذ عامين إصابة في ساقه استوجبت

ترجم الكلمة بجملة فراراً من المصطلحات ، وربما عبّر مجازا فرنسيا بمجاز آخر عربي ، وأنه يراعي روح المعنى أكثر مما يراعي حرفية اللفظ ، ونصحوه أن يراعي ذلك في المستقبل ، وأعلنوا نجاحه في اغتباط وفرح ، وكتبوا تقريراً مفصلاً لمحمد علي باشا يثنون عليه ويبينون مدى نجاحه في كل ما عهد إليه إلا الرسم ، فقد تصلبت أصابعه ولم يرزق الخفة في يده ، ويتنبأون له بمستقبل باهر في خدمة أمته بما يؤلف ويترجم .

إلى هنا كان الشيخ قد أتم مرحلة الاستعداد ، وفارق باريس إلى مصر ليحمل عبئه ويؤدي رسالته ، وفي صدره هوى حبيبتيه مصر وباريس فيقول :

لئن طلقت باريسا ثلاثاً ... فما هذا لغير وصال مصر
فكل منهما عندي عروس ... ولكن مصر ليست بنت كفر

(يتبع) **أحمد أمين**

بترها ، وهو الآن يمشي على رجل من الخشب ، ولي من بعد ابني هذا شابتان لا تذهبان إلى المدرسة ، لأن والدهما أراد أن ينشئهما على طريقة الجيل الماضي ، فهما قعيدتان معي في الدار . وقد عجز تفكيري من الاهتداء إلى كيفية وقوع الحادث . ولذلك فإني لا أتهم أحداً ولا أشتبه في أحد .

س — وما قيمة هذا المصاغ ؟

ج — يساوي حوالي خمسين ومائة جنيه .

س — هل يعرف أحد غيرك موضع هذا المصاغ ؟

ج — لا يوجد عندنا أحد غريب ، وليس في المنزل غيري أنا وزوجي وأولادي ، ونحن الذين نعرف مكان هذا المصاغ ؛ ولذلك فإني لا أتهم أحدا ، ولا أعرف كيف حصلت السرقة .

س — ألم يخبرك ابنك عن آخر مرة رأى فيها هذا المصاغ ؟

ج — ابني — الذي بعهدته هذا المصاغ — لم يخبرني وأنا لم أسأله ....

واضطر المحقق أخيراً إزاء هذا الغموض ، وإزاء ما تتوخاه السيدة من التحفظ في إجاباتها أن يختم التحقيق وأن ينتقل معها لمعاينة مكان الحادث كالمعتاد ...

وأثبت في محضره وصف الدار ومداخلها وغرفها ، وعند ما وصل إلى غرفة الابن قال :

« ويرى الداخل إلى هذه الغرفة مكتباً بسيطاً جدا له ثلاثة أدراج من الخشب الأبيض . وقد ذكرت المجني عليها وابنها أن المصاغ كان بالدرج الأيمن لهذا المكتب البسيط . وشاهدنا أن لسان القفل خرج من بيته بواسطة الجذب لأنه بسيط . ولا يوجد أي أثر لاستعمال العنف في كسر القفل من « طفاشة » أو « أجنة » أو نحوهما . ولم نجد أي أثر يستدل منه على معرفة الفاعل . والمكتب بحالته الراهنة لا يعقل أن توضع فيه قروش لا مصاغ تقدر قيمته بمائة وخمسين جنيها . وعلى فرض وجود المصاغ فيه فيستبعد أن يظن أي إنسان أن مثل هذا المكتب يؤتمن على شيء له أية قيمة نظرا لبساطته . ولأنه موضوع في حجرة ذات باب مفتوح مع أن المنزل به (دواليب) وفيه مواضع أخرى أكثر أماناً من هذا المكتب . ولا يوجد بالمنزل إلا المجني عليها وأولادها . وقد اتضح لنا من التحري أن ابنها الذي كان المصاغ في عهدته مقطوع الرجل حقيقة . وكانت والدته تريد بعد شفائها من مرضها أن تبيع هذا المصاغ وتشتري له بثمنه رجلا من المعدن بدل رجله الخشبية . ولكن والدته لا تتهمه بأخذ الحلي ولا تتهم خلافه . أما وجود الباب مفتوحا في الصباح فلا يدل على دخول شخص غريب ، لأن صاحب المنزل اعتاد الخروج في الفجر للصلاة ولا يمكن أن يتصور شخص غريب عنده ذرة من العقل أن المكتب الذي سرق منه المصاغ يشتمل على شيء له أية قيمة . وقد كلفنا البوليس الملكي بالبحث » .

ونظرا لوجود ابن المجني عليها رأينا سؤاله بالآتي :

س — كيف حصلت هذه السرقة ؟

ج — أنا لا أعرف كيف حصلت . وكل ما في الأمر أن والدتي كان عندها النية أن تشتري لي رجلا من المعدن بدلا من رجلي الخشبية . وسلمتني هذا المصاغ لأحفظه عندي فأودعته في درج مكتبي لأجعله بعيدا عن الأنظار لأن منظر المكتب لا يجعل أحدا يظن أنه يحتوي على شيء ومنذ أسبوع تقريبا ضاع مني مفتاح المكتب فأبلغت والدتي وإخوتي وتركت الدرج على حاله . واليوم فقط في الصباح لاحظت أن لسان القفل مكسور وأن المصاغ قد سرق .

س — وهل تشتبه في أحد ؟

ج — لا .

س — وهل تظن أن إحدى أخواتك هي التي ارتكبت الحادث ظناً منها أنك أنت ستنتفع بهذا المصاغ من دونها ؟

ج — الله أعلم .

س — ألم تلاحظ أن إحدى أخواتك كانت تعترض على والدتك لأنها اختصتك بهذا المصاغ ؟

ج — نعم حصل اعتراض ، ولكن والدتي لم تهتم به .

س — هل تظن أن شخصاً أجنبياً هو الذي ارتكب هذا الحادث ؟

ج — أنا لا أعرف كيف حصلت السرقة ولا من ارتكبها . ولكني أستبعد جداً أن يكون السارق غريباً . لأن الفاعل لم يقرب شيئاً آخر خلاف الدرج فهو لا بد أن يكون على علم بما فيه .

* * *

وهكذا بلغ الأمر بالمحقق — إزاء غموض الحادث — أن يتشكك في بلاغ السيدة فيقرر في « معاينته » أن المكتب الذي تقول إنها أودعت مصاغها فيه لا يعقل أن يؤتمن على « قروش » بله هذه المصوغات الثمينة . ثم يعود فيتهم الجني عليهم أنفسهم إذ يوحي تارة إلى الأم ما يجعلها تتجه بظنونها نحو ابنها — « الذي في عهدته مصاغها » — ويوحي مرة أخرى إلى الابن أن يتهم أخته ، إذ لا بد أن يكون قد حز في نفسها أن أمها تؤثر بمصاغها أخاها من دونها . ولم ينصرف المحقق على كل حال من البيت إلا وقد انصرف في أثره اطمئنان أفراد هذه الأسرة بعضهم لبعض . وبات كل واحد منهم بفضل عبقرية هذا المحقق اللبق ينظر لصاحبه شزراً ولسان حاله يلمزه قائلا : « ويح الخائن ! »

* * *

على أن الحوادث لم تلبث أن تطورت في هذا النزل تطوراً جديداً فإن السيدة قصدت إلى القسم في صباح اليوم التالي مباشرة وفي يدها خادمها الصغير الذي يبلغ من العمر عشر سنوات وبلغت بما يأتي :

— أمس حوالي الساعة التاسعة صباحاً أبلغت القسم بسرقة مصوغات من منزلي ثمنها حوالي مائة وخمسين جنيها ولم أتهم أحداً ولم أشتبه في أحد . واليوم وجدت الكيس الذي كان به المصاغ موضوعاً في محله من درج المكتب وكان بداخله بعض المصاغ المسروق . ولما لم يدخل علينا أمس أي إنسان غريب فأني اشتبهت في هذا الصبي وهو خادمنا الوحيد الذي ليس معنا غيره وسألته وشددت عليه فاعترف لي بالحقيقة وقرر أنه هو الذي سرق المصاغ وأنه فعل ذلك بتحريض شقيق البواب . ولكنه لما شاهد الضابط والعساكر الذين حضروا معه أمس للمعاينة خاف وذهب إلى الرجل الذي سلمه المصاغ واسترد منه ما استطاع استرداده ووضعه في الدرج حيث كان .

س — وما الذي دعاكم للاشتباه في الخادم ؟

ج — لم يدخل البيت أو يخرج منه أحد غيره .

س — ولماذا لم تذكروا لنا أمس شيئاً عن هذا الخادم ،

ج — من كان يظن أن طفلا صغيراً كهذا يجترئ على مثل هذا العمل العظيم !

س — وهل له مدة طويلة في خدمتكم ؟

ج — له حوالي سنة .

س — هل لم يسبق له سرقة شيء آخر قبل هذه المرة ؟

ج — لا .

س — وهل كان يعرف مكان المصاغ ؟

ج — هو ولد صغير وكان بحكم وجوده بيننا يطلع على كل كلامنا وأعمالنا .

وقد انتقل المحقق أخيراً من سؤال السيدة إلى سؤال هذا البطل الصغير الذي تمكن بجرة يد

واحدة من أن يبدد ثروة ، وأن يهدم سعادة أسرة .
فأمضى في شرح تفصيلات ما حدث ، وقال إنه كان يذهب كل يوم إلى السوق ليشترى الخبز اللازم المنزل . وكان الرغيف يباع في وقت ما بستة مليمات . ثم نزل سعره إلى خمسة كما كان . ولم ينتبه أهل المنزل إلى هذا النزول . فكان يستولى هو على الفرق ويودعه عند البواب . وكان لهذا البواب أخ له متجر صغير مجاور المنزل يبيع فيه الحلوى و « الأرواح » . فجعل الفتى يودع المليمات الزائدة كل يوم عند البواب ثم يقصد متى شاء إلى أخيه فيطلب ما شاء من هذه الحلوى . وفي هذا البنك الصغير كان رصيده دائنا دائماً . لأنه كان في كل يوم يودع حوالى عشرين مليما ولا يتقاضى من الحلوى إلا ما يساوى مليمين أو ثلاثة . واجتمع له — أو لعله اجتمع للبواب وأخيه — بعد نحو شهر مبلغ لا بأس به فأطمعهما ذلك في المزيد من هذا المورد السهل . وكان البواب يرى الاكتفاء موقتا بهذا المورد احتفاظاً به واستبقاءً له . ولكن أخوه كان ممن يدينون بمذهب بطل تلك القصة القديمة التي تروى عن دجاجة أنها كانت تضع لصاحبها كل يوم بيضة من الذهب فزين له طمعه أن يضع يده مرة واحدة على كل كنوزها — وكذلك فعل صاحبنا — بائع الحلوى — فإنه ما زال بالفتى يلاطفه ويجانسه ويسأله عن أسرار بيته ومكنوناته حتى عرف منه قصة هذا الصائغ وعلم منه مستقره ومستودعه . فطلب إليه أن يأتيه به على أن يفتح له أبواب « برطماناته » جميعاً ، فيجعل له منها « جراية » لا مقطوعة ولا ممنوعة ، ولا يتأثر جريانها بأسعار الخبز صعوداً أو هبوطاً . فطاش صواب الفتى لهذا العرض السخى ، وفعل في نفسه الأفاعيل هذا الإغراء الفتاك . وقضى ليلته ساهرا يتربص بسيده الكبير أن يقوم لصلاة الفجر . فما أن فتح الباب وخرج منه حتى دلف هو إلى المكتب فجذب درجه واستولى على ما فيه . وطار به إلى صاحب موعده فأودعه عنده . وعاد أدراجه قبل أن ينتبه إليه أحد . ولكنه لم يكن يعلم أن هذه الحركة الهينة اليسيرة يقوم لها البوليس وتتحرك لها النيابة ويمتلئ لها البيت عسكرا وجنودا . وصلصلت في أذنيه وسوسة الحديد . وغشى على عينيه وهم الظلام الذى ينتظره في غياهب السجون فخارت أعصابه . وتفتحت عيناه على ما لم تكونا تريانه من قبل . وبدا له سوء عمله فما كادت تنجاب من المنزل تلك السحابة التي خيمت عليه بدخول رجال البوليس فيه حتى ظل يترقب الفرصة التي تمكنه من الاتصال « بأمين صندوقه » . ونجح بعد الجهد الجاهد في إنقاذ نصف « الأمانة » منه أو نحو نصفها فرده إلى مكانه في نفس الموعد الذى أخذه فيه . ثم لم يقو بعد ذلك على مناقشة سيدته عندما سألته عما صنع . فاعترف لها بكل ما كان . . . . .

* * *

ولعل القارئ يلمس في هذا المثل وما سقناه إليه قبل ذلك من الأمثلة الأخرى أن آفة أهل البيت دائما تكون في تجاهلهم لهؤلاء الخدم الصغار واعتبارهم كماً مهملا ، كأنهم صم بكم عمى فهم لا يشعرون ...

أنظر إلى هذه السيدة كيف أنها وهي تحصى للضابط أفراد المنزل لم يرد على لسانها لهذا الخادم الصغير أى ذكر حتى لقد كان ذلك سببا فيما وقع فيه المسكين من التخبط عند بدء التحقيق ، مع أنها لو كانت ذكرته له ولو ذكرا مجردا عن الاتهام لما مر به كما مرت هي مرور الكرام . لأنه بحكم خبرته وممارسته لأمثال هذه الشئون لا بد أن يعلم أن السوس الصغير هو الذى ينخر الجذوع . وأن البيوت لا تصاب عادة إلا عن طريق هذه « الأصابع الصغيرة » والأيدى القصيرة . وأن المرء مهما كان قليلا بنفسه فإنه كثير . . . . « بإخوانه » ! قاتلهم الله !

ع . ج

من منبر الشرق :

دكاترة . . . .

هل قرأت تلك المسرحية الرائعة التي عنونها برنارد شو Doctors وصف فيها مناهج هؤلاء المتطببين الذين كانت أول حرفهم وآخرها التكسب واغترار الجمهور بمهارتهم في جلب قلوب العامة بل جيوبهم ، مع ما في مقدمة ذلك الكتاب من نداء إصلاحي بليغ ، وسآمة أيضاً من نفوذ هذا النداء إلى آذان من يعنيه . أو حضرت مسرحية جيرودو عن دكتور كنوك في دار التمثيل أو على شريط السينما وشاهدت فيها كيف تحولت دعوة سامية إلى سخرية مرة . وليس هؤلاء وحدهم هم الذين كتبوا على رأيتهم الكفاح المستمر ضد الفرقة والتمويه واتباع الهوى . بل كان هذا موضوع بحث منذ أن تخلص الطب ومعالجة المرضى من لفائف الطفولة وأصبح علماً تحت سماء البلاد اليونانية الحرة ، وسيدوم هذا الكفاح ما بقى علم الطب قائماً وما بقيت النفس الإنسانية (أمارة بالسوء) .

أما بعد فإني أعتذر إليك عن هذه المقدمة (الثقيلة) وهي ليست إلا تكأة أو تمهيداً لعرض ما قاله بعض أجدادك في هـذا الشأن وهم فيه لم ينقصوا بلاغة واقتناعاً ومرارة وسخرية أيضاً عن إخوانهم الغربيين . وحسبك شاهداً أن الجاحظ وجد في هذا الموضوع مجالاً واسعاً لنشاطه ، حتى أنه وضع كتاباً خاصاً في مناقضة الطب وتفضيح الأطباء لعله بالغ فيه إلى حد أن أبا بكر محمد بن زكريا الرازي طبيب الإسلام حسب من الضروري أن يرد عليه[1] . على أن الرازي هو الذي تكفل بالكشف عن قناع المخرقين أكثر من أي واحد من الأطباء ، دعته إلى ذلك تلك الآراء المرذية الحقة أو « طباع الحرية وحقيقة الجوهرية » التي يمتاز بها قبل غيره . وقد تشهد بهذا كثرة مؤلفاته في هذا الموضوع منها مثلا كتابه « في العلة التي بها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء أكثر من العلماء » وكتابه « في العلة التي بها ترك الناس ورعاعهم الطبيب وإن كان حاذقاً » وكتابه « في الأعراض المميلة لقلوب كثير من الناس عن أفاضل الأطباء إلى أخسائهم » .

هذا وقد وعدتك في مقالي السابق أن أروى لك نبذاً من « الرسالة الصلاحية في إحياء الصناعة الصحية » للطبيب المصري هبة الله بن جميع طبيب صلاح الدين الذي عالج هذا الموضوع نفسه بحماسة ودقة شعور وفي عبارات تصل بلاغتها ذروة من الإحكام الأدبي لا يدانيها كثير من الآثار العربية عامة ، حتى أنك تستبعد أن يكون مثل هذا القول صدر من مؤلف مصري عاش في القرن السادس ، ولو وضعت أمامك القطعة التالية مروية عن الجاحظ لما أنكرت روايتها . فاسمع إلى حديثه في مخرقة المخرقين وتمويه المموهين الذي هو على رأى المؤلف من أهم أسباب دثور صناعة الطب ودروسها وانعفاء محاسنها وطموسها » :

« ولما عجز أمثال هؤلاء ، من أهل التقصير في صناعة الطب من التشبه بفضلها والحذق في أعمالها أخلدوا إلى الخدع والتمويهات ، فطائفة تخدع العوام بالتعاظم والتطاول في الملبوس والمركوب والطيب ونحو ذلك ، وطائفة بالتحبب إليهم والتقرب إلى قلوبهم واستمالة نسائهم بما يليق بهم وينفق عندهم ، مثل أدوية الباه والحَبَل والشَّحم والشَّعر والاتفاق مع الحَمَّاميَّات والمواشط والدايات ونحوهن على وصفهم ومدح حسن طبهم ولطفهم ، وطائفة تخدع ذوي اليسار منهم بلزوم أبوابهم ومداخلة خدامهم وملاطفة جلسائهم وأصحابهم حتى إذا تمكنوا من الدخول عليهم وأنسوا بهم كان أول ما يخدعونهم به موافقتهم على شهواتهم ومساعدتهم على أغراضهم وتقريظ أقوالهم وأفعالهم ، ثم

(١) كتاب الرد على الجاحظ في مناقضة الطب . وهو عنوان مذكور في رسالة البيروني في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي التي نشرناها في باريس سنة ١٩٣٦ .

يتوصلون إلى معرفة ما ينقاد إليه كل واحد منهم فيتصيدونه من تلك الوجهة ويستميلونه إليهم لينالوا ما عنده . فإن كان ينقاد إلى النساء يأتون له بباب النساء، وإن كان ينقاد إلى العبيد يأتون له بباب العبيد ، وبالجملة فإن الأغنياء من العوام قد اعتادوا الملق ممن يغشاهم وقصدهم اللذة في كل ما يعملونه ويسمعونه . فهؤلاء يحرصون على معرفة النوع الذي يغلب عليهم من اللذات فيستميلونهم من ذلك الشيء . وظاهر أن هذا هو الوجه الذي تصاد به البهائم . فإذا مرض ذلك الموسر فإن الطبيب الذي قد أنس به من هؤلاء لا يقصد به في تدبيره قصد ما هو أوفق له في اجتلاب الصحة — لأنه لا يعرفه — وإنما يدبره بأوقع التدبيرات من نفسه وألذها عنده ، على أنه لو عرف أوفق تدبير له لما دبره به ، اللهم إلا أن يتفق أن يكون موقعه منه موقع الموافق اللذ لأنه ينزل نفسه منه منزلة العبد التابع المطيع ، إلا أنه من الظاهر أنه يكون عبد سوء ، لأن خدمته له ليست تنفعه بل تضره ، وظاهر أن فضلاء الأطباء لا يرضون بهذه السيرة ، وأن ذوي اليسار من العوام يؤثرون من هذه حاله ويميلون إليه ويقدمونه على غيره ، وإن ظهرت لهم مرتبة عالية سيما إن كان له مع ذلك قدرة على تسمير المجالس بالنوادر والمضحكات وطمع في إخراج الوجوه والحكايات فإنه يكون أحب إليهم وأنفق عندهم . فإذا حصل أحد هؤلاء بهذه الخدع ونحوها على مقصوده في القرب منهم والحظوة عندهم سيما إن اتفق أن يتولى طب مشهور منهم اتفق أن كانت قوته ناهضة مستقلة بمرضه وسوء تدبير طبيبه وغلطه فبرأ على يده ويخلع عليه شاع ذكره وارتفع صيته وعظمت شهرته واستعظم يسير صوابه واختفى عظيم زلله .

والناس من يلق خيراً قائلون له
ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

ولما رأى الراغبون في التكسب بهذه الصناعة أن أهل الجهل والتقصير من المنتحلين لها قد نالوا مقصودهم من الغنى والرتب السنية من غير استحقاق بل بالتمويهات والخدع ونصب الحبائل ، مع ما في طبع أكثر الناس من كراهية العناء والتعب وطلب المقصود بالطريق الأقرب ، مال أكثرهم إلى مثل طريقهم وسلكوا نحو سبيلهم سيما مع إغفال ولاة الأمور تفقّد أحوالهم . ولم يتنزه عن ذلك منهم إلا الآحاد والشواذ وهم الذين أحبوا الصناعة لنفسها وطلبوها للتأدب لا للتكسب بها وقليل ما هم . فدرست بذلك صناعة الطب وامتحت محاسنها وصار الغالب على المتعاطين لها الجهل والتقصير وصار العالم من أهلها إذا اتفق وجوده غريباً ممقوتاً عندهم مقصوداً بالمداوة منهم

وقدر كل امرىء ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء

ومن الظاهر أن أهل هذه الطبقة من الأطباء أضر من الوباء الحاضر وأضر من الذين يقطعون الطريق ويخيفون السبيل لأن الناس يحذرون أولئك ويعدّون له السلاح ويتجنبون طريقهم والقرب منهم ويستسلمون إلى هؤلاء بالمجاهرة » .

... وقال في مكان آخر : « ولم يفهموا أن ذوي اليسار والوجاهة من العامة قد عرض لهم في هذا الباب ضد ما كان ينبغي لهم ، وذلك أنهم يقدمون من المتعاطين لهذه الصناعة من كان ينبغي لهم تأخيره بعينه . وبيان ذلك أنهم لا يميلون من الأطباء إلا لمن أدمن البكور إليهم للسلام عليهم وصرف أكثر نهاره في لزوم أبوابهم واستنفد كل زمانه في لوازم صحبتهم ، وقد كان من الصواب لهم أن يجعلوا هذه الأمور أسباباً لأن تسوء بهم ظنونهم ومانعة من أن يثقوا بهم في تدبير أبدانهم وسياسة صحتهم ، لأن التشاغل بهذه الأسباب من أكبر الموانع وأعظم القواطع عما يضطر إليه الطبيب من مطالعة كتب هذه الصناعة وتذكر ما علم منها واستفادة ما لم يعلم ، والتدرب على مباشرة أعمالها والتفرغ للفكر والروية فيما يحتاج إلى استعمالها فيه من الأمور المعوصة المشكلة التي يتفق له وقوعها فيما يطالعه من الكتب

فلسفة الألقاب

يلاحظ الدارس لعلم الاجتماع في مصر ظاهرة تعدد الألقاب وميلها إلى الكثرة ، فهناك أصحاب العزة والسعادة والمعطوفة والفخامة والفضيلة والعظمة والمجد والنبل والسمو والمعالي والرفعة والعصمة ، ثم أصحاب الجنابات والدول والمقامات والنيافات ، ثم الشيخ الجليل والشريف والزعيم والوجيه والسيد والخواجه والأفندي والبك والباشا ، ثم ألفاظ التمييز الكتابية كحضرة والمهذب والأديب والفاضل وسليلة الشرف وكريمة المجد والعالم العلامة ... الخ مما لو أحصيناه لملأ صفحات .

ومن الواضح أن هذه الألفاظ لا تستعمل في معناها ، فليس صاحب السعادة بأسعد من غيره ، ولا صاحب العزة بأعز من غيره ، ولا صاحب الدولة مالك لها ، ولا هناك في معنى الكلمات ما يدل على أن صاحب المعالي أعلى أو أقل درجة في السلم الاجتماعي من صاحب الفخامة أو صاحب العزة ، إنما الأمر أمر الملق وتقليد .

وقد يستعمل الناس ألقابهم في غير معنى ألفاظها ولكنهم يقصدون بها دائماً التعبير عن شيء ، والمعبر عنه في الحالة التي نحن بصددها هو نوع من إعلام المخاطب بأنه ممتاز عن المتكلم أو العكس ، فإذا كنت كناساً في الطريق وقلت لمخاطبي يا أفندي وقال هو لي يا رجل ، كان هذا اتفاقاً لفظياً بيننا على أنه ممتاز عني .

ومن التيسير ترجمة معظم الألقاب التي اقتبسناها هنا إلى لغة مفهومة تدل على معناها ، وذلك بأن نقول مثلاً إن أفندي = ممتاز بك = ممتاز جداً ، سعادة الباشا = ممتاز جداً جداً ، معالي الباشا = ممتاز جداً جداً جداً ، دولة الباشا = ممتاز جداً جداً جداً جداً .. الخ وقد يبدو لأول وهلة أن من الصعوبة تقدير درجة امتياز صاحب الفضيلة أو صاحبة العصمة في هذا «البروتوكول» الجديد ولكن الصعوبة تتلاشى بعد شيء من التفكير والتحليل ، فإذا كان صاحب الفضيلة شيخ كلية من كليات الأزهر أمكن اعتباره ممتازاً جداً ، وإذا كان مجرد مدرس أمكن اعتباره ممتازاً . وإذا كانت صاحبة العصمة زوجة صاحب معالي اعتبرت ممتازة جداً جداً جداً .. وهكذا . وبعد فما الذي يعدو مجتمع على أن يعد أفراده على تقسيم أقسمهم هذا التقسيم وعلى أن يعد على ذكر درجة الامتياز في الحديث سواء أكان استفهاماً أو طلباً أو إخباراً أو رجاء ؟ ثم ما الذي يحمله يجمع البالغة في تقدير امتياز أحد أفراده ويحرم إغفال ذكر الامتياز ، بل يعتبره وقاحة بل قد يعاقب عليه ؟ حدث مرة أن دخل موظف إلى مكتب رئيسه الأعلى فدار بينهما الحديث التالي الذي ترجمته بأمانة حتى يدرك القارئ معناه .

— هل أحضرت الدوسيه يا « ممتاز » ؟[1]

— نسيته يا « ممتاز جداً » .

— « ممتاز جداً » ؟ ! ودق الرئيس الجرس فحضر سكرتيره مسرعاً فقال له بغضب :

اخصم من هذا الرجل يومين حتى يتعلم كيف يخاطب « الممتازين جداً جداً » .

(١) ليس المقصود هنا التهكم بل الاختصار فالأدق ترجمة (أفندي) إلى « يا من لست ممتازاً جداً جداً مثلي » .

وما يباشره من الأعمال . بل لو ظن ظان أن من كان من العلم والقوة في الطب في منزلة بقراط لو تشاغل بما يتشاغل به هؤلاء ، لنسي ما كان يعلمه سريعاً ، لما أبعد من الصواب . ومن الظاهر أن المتشاغل بالطب بلزوم أبوابهم وطول صحبتهم لا يستحق أن ينسب إلى الفضيلة في الطب ولا أن يقدم على غيره من الأطباء ، بل الذي يستحقه بلزوم أبوابهم أن يقدم على البوابين ، لأنه قد فعل ما ينبغي للبوابين لا للأطباء » .

فهذا وغيره ما قاله ابن جميع المصري في شأن مخرقة المخرقين وتمويه المموهين .

إدوار كرنوس

ولنفس السبب الذى يدعو القارئ، الآن إلى الحكم بأن هذا الأسلوب من الحديث بين الناس سخيف مضحك نحا المجتمع نحو الغموض وتحاشى المعنى المقصود واتخذ من كلمة « أفندى » و« معالى الباشا » وغير ذلك من الألقاب ألفاظاً يستر بها عدم وقار العلاقة بين أفراده .

والأصل فى عدم الوقار هما الخضوع والخوف ، وهنا بيت القصيد . فقد يتخذ المجتمع إحدى الغرائز بعد تنسيقها إلى عادة ثم يرتفع بها إلى مكان القيم الإنسانية ، وهو يفعل ذلك إذا وجد بالتجربة أن هذه الغريزة تساعده فى المحافظة على كيانه وفى إعطائه قسطاً من النجاح واليسر .

والخضوع والخوف مكانهما فى المجتمع غير المريض ، فنى نطاق الجندية مثلا تنسق هذه الغرائز إلى عادات تضعف فى الجندى خوفه من العدو بجعل رؤسائه موضع الخوف ، ولكنها فى المجتمع المريض لا تنسق إلى عادات مفيدة فيكون الخوف غريزيا كشعورك بالرهبة مثلا عند مقابلة موظف ذى مرتب ضخم ، ويكون مفتعلا فيبدو فيمن يصطنعه كنوع من الإسراف فى التأدب فى حضرة ذوى النفوذ .

ثم مما لاشك فيه أن المجتمع المصرى يستغل الخوف والخضوع فى قضاء حاجاته إلى مدى لم يبلغه أى مجتمع آخر ، حتى لقد سُنَّتْنَا المبالغة فى الإطراء والإسراف فى إظهار الذلة وتحاشى تسمية الرذيلة باسمها والفشار وقاحة المركز والمال والجاه ، صنفنا كل هذا إلى نظام خلق يمكن تسميته بآداب اللياقة المصرية .

ومما لاشك فيه أيضا أن آداب اللياقة المصرية هى سبيل ناجح فى قضاء حاجات الفرد الذى لا يشعر بتناقض بينها وبين رجولته وعزة نفسه .

ولا أدل على نجاح آداب اللياقة فى بيئتنا من مقارنة ظاهرة الألقاب فى مصر وفى غيرها من البلدان ، فنى مدى العشرين السنة الأخيرة حرمت أغلبية العالم نظام الألقاب وفى نفس المدة زادت الألقاب عندنا بأكثر من الربع كما نرى من الأمثلة التى ذكرتها هناك ! وهناك ظاهرة غريبة لا أعرفها فى أمة أخرى غير مصر ، فنى بلاد كانجلترة مثلا لا نجد أفراد الشعب تتهادى الألقاب كما نعمل نحن ، إذ لا يخطر على بال مستر جون سميث إذا أراد مداهنة مستر جون سميث آخر أن يقول له « ياسير جون » . ولا « لسير جون » إذا أراد إرضاء « سير جون » آخر أن يقول له « يالورد سميث » أما فى مصر فكل أفندى بك وكل بك سعادة البك وكل امرأة سيدة وكل سيدة « صاحبة عصمة » أو « كريمة » وكل محاولة لحد هذه الألقاب لا تعدو محاولة صاحب الامتياز للاحتفاظ بامتيازه وكل اقتصاد فى استعمالها يعتبره المجتمع وقاحة وخروجا عن آداب اللياقة .

وكما يستغل صاحب اللقب لقبه ليتمتع بلذة الامتياز وبإعجاب الناس حوله وليوفر على نفسه مؤونة القيام بواجبه بأن يخلق حوله سياجا من الخوف وبأن يعتمد على إرهاب الناس ، كذا يستغل صاحب الحاجة لقب صاحب اللقب لنوال مآربه بأن يشعر بالخوف أو يتظاهر به وبأن يبدى الخضوع ويسرف فى الثناء ، وبذلك لا يصبح لحق أو واجب أو عدل مكان فى معاملة الناس بل يترتب نجاح أحد الخصمين على قدرته فى تمثيل دوره ، فإذا زادت رهبة صاحب السلطة على ذلة صاحب الحاجة كسب المثل الأول فإذا أسرف صاحب الحاجة فى خضوعه حتى زاد خوفه على رهبة صاحب السلطة كسب المثل الثانى .

وهكذا نحن قوم صغار فى أمة صغيرة ينقصنا إدراك فهم احترام الغير بأنه لا يعدو احترام النفس ، كما ينقصنا الكثير مما يعتز به الرجل الفاضل من خلق العلم والجمال وتقدير الخير والقيام بالواجب ولذة التدرج من النقص إلى الكمال .

فلما نقصتنا كل هذه استعضنا عنها بالوهم والإعجاب الرخيص ؟

مصطفى مشرفة

إلى الشعراء

أبيات مهداة إلى صديق الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين ، ثم هي بعد ذلك مهداة لكل شاعر .

يامعشرَ الشعـــراء إن نصيحةً
لكمُ النـــداة لدىَّ فاستمعوا لهـا
تَرْكُ (الهجاء) إلى (المديح) ومثلِه
غمطَ القوافيَ حقَّها وأذلَّهـــا
لا تجعلوها كالدجاجـــة ، يَنْتُفها
نَهْبٌ ، وتعيش كى تحصِّل أكلها
تحيا (الدماج) وليس يَمنعُ ضرعَها
نابٌ فتعطيه وتتبع حبـــلها
أما الأســـود فللأظافر خافها
من راح يَظْلم غيرها وأجلَّها
ليتَ المدائحَ فى الأنام تحولتْ
حقاً لقـــرأها هجاءً كلَّها
من كل مُسْتَتِرٍ بغير خلاله
كالروض أخـــفى حيَّةً وأظلَّها
رقطاءُ فى كنف الغصون تسللتْ
تقضى مآربهـــا ، وتفعـــل فعلها
تنساب بين الروض ألينَ ملمساً
من غصنه ، والله يعـــلمُ ختلها
ماذنبُ شادية ترفـــرفُ فوقهُ
حطَّتْ وغنَّتْ فاستباحت قتلها ؟

محمد الأسمر

جماعة نشر الثقافة : بين ماضيها وحاضرها

فى فجر عام ١٩٢٣ تكونت جماعة نشر الثقافة لتقوم بنصيبها فى إعادة ذكرى ذلك التراث المجيد الذى كان للإسكندرية فى القرن الثالث الميلادى حينما كانت مهبطا للثقافة ومناراً للعلم ، وموئلا للفلسفة . وأغراضها تشجيع التأليف والنشر والترجمة وإلقاء المحاضرات والمناظرات ونشر الثقافة العالية بين الطبقات المتعلمة . وتحقيقاً لهذه الأغراض كونت لجاناً تختص كل لجنة بفرع من هذه الفروع — فشجعت المؤلفين من أعضائها وغير أعضائها بإعانات مالية فى حدود مواردها ، متعهدة بنشر أكبر عدد ممكن من الكتب التى يقوم بطبعها أعضاؤها ، مروجة لكتب جماعة التأليف والترجمة والنشر . كما أنشأت معهداً يتلقى فيه الطلاب الدراسات العليا ، أساتذته من بين أعضائها ومناهجه على غرار ما يدرس فى الجامعة من مبادئ علم النفس والطب والقانون والمنطق وتاريخ أدب اللغات العربية والفرنسية . وتطبع هذه المحاضرات وتوزع على الأعضاء بالثمن الذى طبعت به . وألقى الكثير من أعضائها محاضرات ومناظرات كما اشترك كبار رجال الأدب فى مصر معها فى تأدية هذه الرسالة الثقافية . وفى ظل من الثقة والإيمان ترقب الجماعة المستقبل بعين الرجاء . وتأمل فى أن ترى إلى جانبها قلوبا تؤمن برسالتها تشد أزرها وتساعدها على المضى فى سبيلها ، حتى تصل إلى الغاية المنشودة .

مصطفى على عبد الرحمن

حول مقال مسامير الفلك

لفتنى فى مقال الأديبة الفاضلة وداد سكاكينى الذى نشرته الثقافة فى عددها الرقيم ٢٢٩ بعنوان « مسامير الفلك » أنها تمثلت بهذين البيتين :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآيب

و(صححها آئب) . ثم نسبتهما إلى النعمان بن المنذر وذكرت أنه قالها بالشام ، مع أن النعمان بن المنذر كان ملك الحيرة وأن البيتين المشار إليهما هما للنابغة الذبيانى ، قالهما فى قصيدة طويلة مدح بها عمرو بن الحرث الأصغر ملك غسان بالشام عندما فر إليه من وجه المنذر الذى أوعده وتهدده عقب تشبيب النابغة بامرأته « المتجردة » .

فأ كتب إليكم بهذا تصحيحاً لما ورد فى هذا المقال ، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

م . ع

الصحافة والأدب في أسبوع :

"... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي.......".

عبد الحميد الديب ! — الصحافة المصرية — المسائل التوكل ! — قافا مضفا — رسائل الرافعي ... ...

عبد الحميد الديب !

مات عبد الحميد الديب !...

... ونعته « الأهرام » إلى قرائها في صباح الخميس الماضي أكرم منعى وفسحت صدرها لقائلين فيه ؛ فلو كان شيء في هذه الدنيا يبعث الميت من رقدته فينبض قلبه نبضة الفرح والرضا بما لم يكن يأمل أو ينتظر ، لخفق قلب عبد الحميد الديب في مرقده فرحاً ورضاً بما نشرت الأهرام غداة منعاه....!

وظفر الشاعر البائس ميتاً بما لم يظفر ببعضه حياً ؛ وتلقى عارفوه نعيه — وليس في مصر من ينكره — آسفين محزونين ، وجاد كل قائل منهم بمقال يرثيه ويذكر ما كان من إملاقه ومسغبته وعُريه ويُنكر على مصر ما صنعت به ، كأن لم يعرفه قائل منهم إلا يوم منعاه !

وغامت رهبة على وجوه أصحابه غيمة من الهم والأسى ، ثم أخذوا في حديثه وفي خبره فاكهين ؛ وماذا يذكر الذاكر من حديث الديب ومن خبره إلا فكاهاته ونوادره ؟ لقد كان — رحمه الله — فكاهة حزينة في كل مجلس ، وابتسامة عابسة على كل شفة ، ودمعة ضاحكة في كل عين !

لقد عاش ما عاش في الكرب والضيق ، وفي الإملاق والجوع ، وفي العُري والحفا ؛ فهل كان عند الناس في كربه وضيقه ، وفي إملاقه وجوعه ، وفي حفاه وعريه — إلا سبباً إلى أفراحهم ومسراتهم ، ومادة لتسليتهم وسمرهم ؟...

وهل كان منعاه الباكي إلا مبعثاً للذكريات الضاحكة ؟... وتشابه أمره في الناس حياً وميتاً !...

وكان شاعراً ملء نفسه ، فإنه ليستشعر كل معاني الحياة من حوله بكل ما في نفسه من « إحساس الحرمان » فكأنما عزت عليه الحياة مادة لتُمكنه من نفسها إحساساً وفكراً وقوة شعور ؛ وكان من قوة الإحساس بالحياة في نفسه كأنما يملك منها ما لا يملك حي من الأحياء ؛ ومن ذلك كان شعوره المضاعف بما هو فيه من الحرمان ، وإسرافه في الاستمتاع بكل ما يمكنه من لذائذ الحياة ؛ ومن هذا الشعور المضاعف بالحرمان ، وهذا الإسراف الجارف في الاستمتاع بالحياة — كان شعره ، وكان به شاعراً ملء نفسه ، صادق التعبير عن كل ما في نفسه .

وكان على مقدار إيمانه بالحياة كافراً بالناس ؛ فلم يكن يبالي أحداً أو يحذر شيئاً ؛ وأعانه ذلك على صدق الشعور وصدق التعبير ؛ حتى لنكاد نجزم أن ذلك الشاعر هو ذلك الشعر ، اقرأ شعره كله تعرف خبره كله وترى صورته !

ولكن أين شعره ، ومَن منا يستطيع أن يجمعه ، ومن ينشره إن استطاع جمعه ، ومن يبيعه كله إن جرؤ ناشر أن ينشره ؟...

إننا لنتبذل في حياتنا الخاصة تبذلاً ننكر مثله على غيرنا ، بل ننكره على أنفسنا ... ؛ فأين من يستطيع في هذا الجيل أن يخرج على « آداب النفاق » في هذه الجماعة فينشر ديوان عبد الحميد الديب كاملاً لا يستر شيئاً من عوراته أو يكتم شيئاً من مباذله ؟...

لست أدعو إلى شيوع الفاحشة ولكني لا أسوّغ النفاق على التاريخ !

أكان هاتف من وراء الغيب يملي عليّ القول يوم كتبت في هذا المكان منذ بضعة أشهر عن آخرة الشاعر البائس عبد الحميد الديب[1] ؟...

... وعَندَه من حسد يوم التفت إليه وزير الشئون الاجتماعية فرتّب له « وظيفة » ، ولم يَحفل على

(١) الثقافة . العددان : ٢٠١ و٢٠٢

الموت من الحسد يوم تمتّه «الأهرام» إلى قرائها أكرمَ مَنْشَئ ، وقال القائل . أكان يعلم بذلك عبد الحميد الديب؟ .

... فلعل حَسَد الحاسدين عند الله يكون كفارتَه عن معاصيه !

الصحيفة المصرية :

كتب إليّ مَن كتب يقول :

« . وكأنك في جملة ما كتبت من الصحافة المصرية تنكر ما بلغ « الفن الصحفي » في مصر ؛ وإنك بذلك لتجني على الحقيقة وتنكر الشمس في ضوء النهار ... »

وقد بلغت « الصحافة المصرية » من قوة الفن في أمد قصير ما لم تبلغ صحافة في الشرق كله ، بل إن من الصحف المصرية ما يعد نموذجاً فاخراً في الفن يقاس إلى أرقى الصحف في الغرب ويدل على مدى تفوق الصحافة المصرية وسبقها ، فكيف تأتى لك أن تنكر كل هذا ؟ ... »

* * *

وأنا فلستُ أنكر شيئاً من هذا الذي كتبه الكاتب ، ولم أعرض يوم عرضتُ للصحافة من حيث « الفن » ولكن من حيث « الموضوع » ...

... بل ، ليس في مصر صحيفة مصرية من حيث الموضوع ، تصوّر مصر الحاضرة شعبا وفكرا ، وترمى في جهادها المستقبل إلى هدف وغاية ؛ أما في الفن فنَعَم ؛ ولكن ماذا يُجدي فنّ الصحيفة وقد بلغ الغايةَ إن كانت الصحيفة نفسُها تعمل بلا غاية ؟ ... نريد أن نتفق بديئاً على معنى الصحافة ورسالتها : أهي فنٌّ من ترف الحياة ، أم جهادٌ للنفع العام ؟ ... إن كانت الأولى فهي شيء في غير أوانه ، أو في غير موضعه ؛ وإن كانت الثانية فالرأي ما رأيتُ وما قلت ، وليس في مصر صحيفة مصرية ، لأنه ليس في مصر صحيفة تعبّر عن حقيقة مصر الحاضرة وعن أمانيها المستقبلة !

ماذا في هذا من التجني على الحقيقة ؟

ألا ما أشبه هذا الفنّ بالنقش على تابوت الميت : إنه فنٌّ ، ولكنه على تابوت ميت !

أرأيت لو أنك ذهبتَ إلى صيدلي ليجهز لك دواءً لمريض على حافة الموت ، فأغفل شأنَ الدواء وتركيبه وقدّم إليك قارورة ينعكس على زجاجها سبعةُ ألوان الطيف — أكان يغنيك ما في القارورة من جمال الفنّ وغامه عن دواء المريض المشرف على الهلكة ؟ ... ...

وليس في انكاري وجودَ الصحيفة المصرية معنى يحمل على الموازنة بين صحافة في مصر وصحافة في الشرق ؛ فاعلى أحد الجرأة على أن أقول إني لم يخطر لي قطُّ في بال أن يكون في بلد من بلاد الشرق صحيفةٌ أمثل مثالها حين أنكر على الصحافة المصرية ما أنكر ؛ فليس ثمة وجهٌ للمفاضلة والتنظير ، وليس يعيب ذلك بلداً من بلاد الشرق أن أنكر عليها ما أنكر على مصر أختها الكبرى !

وما زلت أقول أيضا : إن مصر لم تزل في حاجة إلى الصحيفة التي تصوّر مثالها وتمثل أمانيها ، وإلى الصحفي الذي يعرف غايته كما يتقن فنّه ، أو أكثر مما يتقن فنه !

العاقل المتوكل !

كتب محرر « المصور » في العدد ٩٧٣ من مقال عنوانه « بُعد النظر » يقول :

« ... ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم قال : « اعقلْها وتوكل ! » ومعنى هذا أنه واجب على كل فرد أن يعمل ويفكر ويدبر ، ثم يتوكل على الله ... »

ويبدو أن الكاتب لم يفهم قول النبي « اعقلْها » وفسّرها تفسير العامة بمعنى « التفكير والتدبير » وليس ذلك خطأً ذا بال ، ولا هو مما يُرجَى أن يُنْعصَم منه مثلُ محرر المصوّر ، ولكنه حديث كريم ، وليس يَعْسُرُ على أحد أن يرجع إليه في مظانّه من كتب السنة ليعرف القصد منه حتى لا يتورط في خطإ أخس ؛ ولهذا الحديث قصة انه لو عرفها لوجد فيها فكاهة ولها مناسبة ... ...

على أني لم أعقّب هنا على هذه الكلمة لأصوّب

خطأ ، وإنما ذكرتُ شيئاً بشيء ؛ ذكرتُ أن ذلك المحرر نفسه كتب منذ بضعة أشهر يعيب خطيباً من وزراء الدولة لم يعجبه أسلوبه « لأنه كان أسلوب الجاحظ وعبد الحميد الكاتب والحريري ... » إلى آخر ما قال يومئذ ...

وذكر هؤلاء الأعلام الخالدين من أدباء العربية في مثل هذا المقام لا يعدو أن يكون نوعاً من « التعالم » — أعني ادعاء العلم — ليوهم قراءه أنه يعرف هؤلاء الأعلام بأساليبهم وخصائصهم الأدبية ، وليس يعنيه في سبيل هذا « التعالم » أن يسيء إلى الحقيقة أو إلى التاريخ ؛ ومن هذا الباب ما جاء في حديثه اليوم من تفسير الحديث الكريم ؛ فما أراه قد جاء به إلا لذلك !

قاعاً صفصفاً ...

وهذا « متعالم » آخر كتب في باب أخبار المسارح من آخر ساعة — العدد ٤٥٢ — يقول :

« في أحد الأيام عاد أحد الموسيقيين إلى منزله فوجده قاعاً صفصفاً كما قال شاعر عربي بارع لا أذكر اسمه ... »

وهذا « المتعالم » الثاني يوهم قارئه أنه يعرف ذلك الشاعر الذي أطربه وصف « القاع الصفصف » ، وأنه قرأ له فيمن قرأ ، وأن له من قوة الإدراك الأدبي ما يبيح له أن يحكم عليه بأنه شاعر « بارع » ؛ فهو « تعالمٌ » يتدرج في ثلاث مراتب ... أو هو جهلٌ مركب من ثلاث طبقات ؛ لأنه جهل ، وكذب ، وسوء أدب ! ... فلم يَرِدْ هذا الوصفُ المعجزُ في كلام عربي غير قوله تعالى في سورة طه : « ويسألونك عن الجبال ، فقل ينسفها ربي نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً » .

فانظر كيف أساء الأدبَ ، وكَذَبَ ، وكشف من جهله ، لغير سبب إلا دعوى العلم على الساكتين من عامة القراء !

ماذا نسمّي ذلك اللون من « فن » الصحافة ؟ أذلك ما عنّاه ذلك الكاتب الذي كتب إليّ يقول ... ماذا قلتُ وماذا قال ... ؟

ليت الذين يعيبون عليّ رأيي في الصحافة المصرية يعرفون عمن يدافعون !

رسائل الرافعي :

في العدد ٥١٦ من الرسالة كلمة للأستاذ محمود أبو رية يقدّم بها لنشر مجموعة من الرسائل كتبها إليه المرحوم مصطفى صادق الرافعي في طائفة من الشئون الأدبية العامة بين سنتي ١٩١٢ — ١٩٢٧ ؛ ولست أتعجّل فأستبقُ الحكم على « موضوع » هذه الرسائل قبل نشرها ، وإنما يعنيني هنا أن أنوّه بهذا العمل ، فإن نشر الرسائل الخاصة بعد موت أصحابها بابٌ جديد في اللغة العربية ، وقد كان جديراً بأن يُفتحَ منذ بعيد ، لولا بعض الترمّت في آدابنا الاجتماعية ؛ ولقد يعترض معترض على مثل ذلك محتجّاً بأن الرسائل الخاصة إنما كتبها كاتبها ليقرأها فردٌ واحد ؛ فلها من الخصوصية معنىً لا يبيح إذاعتها على الناس عامة ؛ وهو اعتراض له وجهٌ من الحق ، ولكن حق العلم والتاريخ أقوى منه وألزم ؛ وليس على التاريخ سِرّ !

ولقد تكون حجة المعترض أن هذه الرسائل — وإن كان كاتبها قد صار ملكاً للتاريخ — قد تحتوي على معلومات وأشياء لها صلة ببعض الأحياء من المعاصرين ، فليس ينبغي التعرض لهؤلاء الأحياء قبل أن يلزمهم حقّ التاريخ — وهي حجة قد يكون لها سناد من آدابنا الاجتماعية ، ولكنه سناد لا يحمل حقها أكبر من حق العلم ، ولأن يُقالَ القولُ في وجه الحي وهو يملك الدفاع والرد ، خير من أن يُرمى به وهو مدرجٌ في أكفانه لا يملك دفعاً ولا رداً ... ، والمرء في خلوته أصدَقُ منه بين الناس ، فلا جَرَم أن يكون — على هذا القياس — في رسائله الخاصة أصدقَ حكماً منه في رسائله العامة ، وأصدق دلالةً على نفسه .

لقد ضيّعنا حقّ التاريخ في كثير مما فرضتْ علينا الآداب الاجتماعية كتمانه ؛ فما أجدر أن نخرج من هذا التوقّر المصنوع شيئاً بعد شيء إن كنا نؤمن بفضيلة الصدق ونحترم التاريخ !.

قاف

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ — بعابدين بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التلفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٣٣ الثلاثاء ١٢ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٢ — ١٥ من يونيه سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

١ — الاصطلاحات الجغرافية

في تعريف الأقسام الإدارية والمدن والقرى وتوابعها في مصر

الأقسام الإدارية من عهد الفتح العربي

كانت مصر من عهد الفتح العربي إلى أوائل عهد الدولة الفاطمية مقسمة من جهة الإدارة إلى ثمانين كورة صغيرة ، أي إلى ثمانين قسما ، وكانت مساحة الكورة في ذلك الوقت تعادل مساحة أراضي المركز بالمديرية في وقتنا الحاضر حيث يوجد الآن ٨٤ مركزاً .

ويستفاد مما ورد في كتاب الديورة والكنائس لأبي صالح الأرمني أن هذا التقسيم قد ألغي في عهد الدولة الفاطمية واستبدل به تقسيم آخر أكبر نقله أبو صالح عن قائمة محررة في سنة ٤٦٩ هـ — ١٠٧٦ م ، ومنها يتبين أن مصر كانت مقسمة في ذلك العهد إلى اثنين وعشرين إقليما أي كورة كبيرة ، منها ثلاث عشرة كورة بالوجه البحري وتسع كور بالوجه القبلي ، وهذا بخلاف ثغور الإسكندرية ورشيد ودمياط .

وفي سنة ٧١٥ هـ — ١٣١٥ م أصدر الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوما بفك زمام القطر المصري باسم الروك الناصري ومرسوما آخر بجعل عدد الكور عشرين إقليما بما فيها الإقليم الجديد هو إقليم القليوبية الذي استجد في تلك المدة على أن يسمى الإقليم عملا .

وفي سنة ٩٣٣ هـ — ١٥٢٧ م أي في أوائل الحكم العثماني فك زمام القطر المصري وغيرت كلمة أعمال باسم ولاية فأصبح في مصر ٢١ ولاية بدلا عن عشرين عملا وفي سنة ١٢٤١ هـ — ١٨٢٦ م أصدر محمد علي باشا الكبير أمراً عالياً بتغيير كلمة ولاية باسم مأمورية ، ولما رأى رحمه الله أن المأمورية أصغر من الولاية أصدر مرسوما آخر في أول محرم

من سنة ١٢٤٩ هـ — ١٨٣٣ م بتغيير كلمة مأمورية باسم مديرية وهو الاسم المعتمد فى التقسيم الإدارى إلى اليوم .

ثم أمر محمد على بتقسيم المديرية إلى أقسام والقسم إلى أخطاط وعين لكل مديرية مديراً ولكل قسم ناظر قسم ولكل خط حاكم خط ، وكانوا يطلقون اسم مركز على ذات البلدة التى فيها ديوان القسم فيقولون قسم ميت غمر ومركزه أى قاعدته ميت غمر .

وفى شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م صدر قرار من المجلس الخصوصى مصدقاً عليه من الخديو إسماعيل بترتيب ضبطيات بمراكز أقسام الوجه البحرى وضبطية عموم بمركز ديوان كل مديرية وأن تطلق كلمة مركز بدلاً من كلمة قسم بأقسام الوجه البحرى واسم مأمور على رئيس كل مركز بدلا عن ناظر قسم ومعاون إدارة بدلا من حاكم خط .

وأما فى الوجه القبلى فاستمرت الأقسام فى المديريات المعروفة باسم قسم إلى أن رأت نظارة الداخلية أن اختصاصات المراكز فى الوجه البحرى هى بذاتها اختصاصات الأقسام فى الوجه القبلى فأصدر ناظر الداخلية منشورا بتاريخ ٣ من ديسمبر سنة ١٨٩٩ باستعمال كلمة مركز بدلا من كلمة قسم فى مديريات الوجه القبلى اعتبارا من أول يناير من سنة ١٨٩٠ أسوة بالوجه البحرى ، ومن تلك السنة توحدت التسمية وألغى اسم قسم وأقسام وحل محلها اسم مركز ومراكز فى جميع المديريات .

وأما المحافظات فهى مقسمة إلى أقسام يرأس كل قسم منها مأمور .

ويتكون القطر المصرى الآن من ١٤ مديرية ، منها ست مديريات بالوجه البحرى تشتمل على ٤٥ مركزاً وثمانى مديريات بالوجه القبلى تشتمل على ٣٩ مركزاً والمجموع ٨٤ مركزاً ، ومن ثمانى محافظات تشتمل على ٣٨ قسما بما فيها أقسام مصلحة الحدود ومركزا الواحات الداخلة والخارجة .

وإنه نظرا لاتساع أغلب المدن الموجود بها عواصم المديريات وكثرة عدد سكانها وأعمالها رأت نظارة الداخلية ضرورة فصل المدن الكبيرة عن المراكز التابعة لها على أن ينشأ بكل مدينة مأمورية قائمة بذاتها يرأسها مأمور باسم مأمور بندر ، وقد أنشئ من أول سنة ١٨٩٠ إلى اليوم خمس مأموريات بعواصم مديريات الوجه البحرى وست مأموريات بعواصم مديريات الوجه القبلى .

هـذا هو بيان التقسيم الإدارى فى مصر والأسماء المصطلح عليها فى تسميته من الفتح العربى إلى اليوم .

تعريف المدن والقرى وتوابعها

جرى العرف فى مصر على إطلاق كلمتى مدينة أو « بندر » على المدن وإطلاق كلمات قرية أو بلدة أو ناحية على القرى وإطلاق كلمات كفر أو عزبة أو نزلة أو نجع على توابع المدن والقرى ، وسنتكلم هنا على كل نوع منها بالتفصيل الآتى :

المدينة :

المدينة من مدن بالمكان أى أقام به جمعه مدن ومدائن ومدن المدائن تمدينا أى مصرها وجعلها متحضرة .

ويطلق اسم مدينة على مجموعة كبيرة من الدور والقصور وغيرها من المبانى القائمة على مساحة واسعة من الأرض تخترقها الشوارع والطرق العامة وتتخللها الميادين والمتنزهات بطريقة منتظمة ويسكنها عدد عظيم من الناس .

وتمتاز المدن عن القرى بعدة عوامل ، منها كثرة عدد السكان ووجود مصلحة التنظيم أو مجلس بلدى أو محلى لتنظيمها وإدارة مرافقها العامة ، وأن يكون مقرراً على مبانيها عوائد أملاك ، وأن يكون أغلب سكانها من المشتغلين بالأعمال الصناعية والتجارية على اختلاف أنواعها ، وأن يكون بها معاهد للعلم ومستشفيات وحمامات وفنادق ، وأن يكون بها نواد وأماكن للرياضة والتسلية والألعاب وبالجملة تكون جامعة لأسباب الحضارة ووسائل المدنية .

وفي مصر يطلقون اسم مدينة على مدن المحافظات وهي القـاهرة والإسكندرية وبور سعيد والإسماعيلية والسويس ودمياط .

البندر :

«البندر» كلمة فارسية معناها «الميناء» وهي المرسى أي مربط السفن ، وتطلق في بلاد فارس على مدن الثغور حيث توجد المواني بالإضافة إلى اسم المدينة المضاف إليها ، فيقال «بندر» عباس «وبندر» شاهبور والجمع بنادر .

وفي مصر يطلقون اسم «بندر» على عواصم المديريات وعلى المشهور من قواعد المراكز ، مثل المحلة الكبرى وكفر الزيات وزفتى وميت غمر والسنبلاوين . ولذلك فإنه لما صدر الأمر العالي في ١٣ من مارس سنة ١٨٨٤ بربط العوائد على الأملاك المبنية بالمدن ورد في المادة الخامسة منه عند ذكر مجالس المراجعة ما يفيد تسمية عواصم المديريات باسم بنادر المديريات ، وأن كل مدينة يربط على مبانيها عوائد أملاك بخلاف مدن المحافظات فإنها تعرف باسم بندر .

ويرجع السبب في إطلاق اسم بندر على عواصم المديريات وعلى المدن الكبيرة في الأقاليم إلى أنه يوجد بها قياسر وأسواق قديمة للتجارة يباع فيها جميع البضائع وأصناف الحاجات اللازمة لسكانها وسكان ما يجاورها من القرى ، وكان على رأس تجار كل مدينة رئيس لهم يعرف باسم شاه بندر التجار كانت وظيفته تقدير أسعار البضائع الواردة من الخارج ، ولذلك فإن كل مدينة في الأقاليم تجلب إليها صادرات من البضائع الأجنبية ، كانت تعرف باسم بندر تمييزاً لها من القرى .

ولما كانت كلمة «بندر» أعجمية ومعناها الثغر ، وهذا لا يتفق مع إطلاقها على مدن الأقاليم التي لا تقع على البحر الملح . فإني أقترح على وزارة الداخلية أن تلغي استعمال هذه الكلمة وتحذفها من أسماء المدن التي ألحقتها بها ؛ فلا يقال مأمور بندر الزقازيق وبندر المنصورة وبندر طنطا والأصوب أن يقال مأمور مدينة الزقازيق ومدينة المنصورة ومدينة طنطا .

القرية وتعريفها في مصر :

القرية هي كل مكان اجتمعت به الأبنية ، واتخذت منازله قراراً للإقامة والجمع قرى بالضم على غير قياس .

والقرية أصغر من المدينة ؛ وهي عبارة من مجموعة بيوت متجاورة يسكنها في مصر أصحاب الأراضي الزراعية ، ومن يقوم من الزراع بخدمتها وفلاحتها .

ويرجع الأصل في إنشاء القرى وتكوينها في مصر إلى الحاجة لوجود مساكن لأصحاب الأراضي الزراعية والزراع الذين يقومون بفلاحة الأرض وزراعتها وجني محصولها في كل منطقة قائمة بذاتها من الأراضي الزراعية ، ولهذا الغرض يكون من الضروري أن يوجد في وسط كل منطقة قرية لسكن زراعها .

وتبدأ القرية مكونة من بيوت قليلة كالكفر ، والعزبة ثم تأخذ في النمو والاتساع ، وكلما كانت الأراضي الزراعية الداخلة في حدود القرية واسعة المساحة خصبة التربة ، كلما كان الإقبال على سكنها عظيما ، وتبعاً لذلك تتسع دائرة مبانيها ، ويكثر عدد سكانها .

وقد دلني البحث على أن عدداً عظيما من قرى مصر الحالية موجود من أيام الفراعنة ، وإن كان بعضها تغيرت أسماؤه ، وانتقلت مساكنه إلى مكان بالقرب من مكانه الأصلي القديم .

إن الأراضي الزراعية موجودة في مصر من أقدم عصور التاريخ ، وكل أرض محتاجة لأيد عاملة لزراعتها ، وكل عامل لابد له من سكن يأوي إليه ، إذن فالقرى موجودة من قديم تتجدد مبانيها بحسب الظروف في كل عصر ، وكل قرية تندثر وتزول مساكنها لأي سبب من أسباب الخراب تقوم قرية أخرى بدلا عنها في ذات الأرض التابعة

للقرية المندرسة ، وتكون علماً عليها ، ووحدة مالية كما كانت سابقتها .

وليس كل مجموعة من البيوت ولو كانت كبيرة ، يطلق عليها في مصر اسم قرية ، بل يسمون قرية أو بلدة أو ناحية لكل مجموعة مسكونة ذات وحدة إدارية من وحدات القرى التي تتكون منها نواحي كل مركز في كل مديرية وأن تكون منفصلة في إدارتها الداخلية عما يجاورها من النواحي الأخرى ، وأن يرأسها عمدة من أهلها ويساعده في تنفيذ أوامر الحكومة وأداء طلباتها عدد من مشايخ البلدة والعزب التابعة لها ويحرسها خفراء نظاميون ولسكانها دفاتر لقيد المواليد والوفيات ودفتر لقيد من لهم حق الانتخاب .

وأن تكون القرية أو البلدة أو الناحية كذلك ذات وحدة عقارية ، ولها زمام خاص أي أن يكون اسمها علماً على منطقة من الأراضي الزراعية معينة الحدود والمساحة ، ولها خريطة ودفتر مساحة ، وأن تكون كذلك ذات وحدة مالية ، أي لها دفتر مكلفة ، وجريدة لتحصيل الأموال .

والقرية والبلدة والناحية أسماء مترادفة في الاصطلاح المصري ، وتؤدي كلها معنى واحد يقصد به كل بلدة ذات وحدة إدارية وعقارية ومالية .

وكل مجموعة من المباني لا تكون وحدة تسمى تابعاً والتابع يسمى عادة كفراً أو عزبة أو نزلة أو نجعاً بحسب عرف الجهة الواقع فيها والجمع توابع .

والزمام كلمة عامية في مصر تطلق على مجموع مساحة أراضي كل قرية أو بلدة أو ناحيـة ، وأراضي كل بلدة تتكون عادة من أطيان الأهالي وأطيان الحكومة وأراضي المنافع العمومية .

البلدة :

البلد محركة والبلدة بفتح فسكون تأتي مذكرة ومؤنثة ، من قولهم بلد بالمكان إذا أقام به والبلد والبلدة كل موضع أو قطعة من الأرض مستحازة عامرة أو غامرة مسكونة أو خالية ، والبلد الأرض مطلقاً ، واستعماله بمعنى القرية عرف طارئ والجمع بلاد وبلدان .

الناحية :

الناحية هي الجهة والجانب والجمع نواح .

والمعروف أن القرية تطلق على ذات مساكنها والبلدة تطلق على مساكن القرية ، وما يتبعها من الأراضي الزراعية وأما الناحية فهي اسم عام يطلق على القرية والبلدة وما يتبعهما من الأراضي الزراعية ، وما فيها من الكفور والعزب وغيرها من التوابع الداخلة في حدود أراضيها من الوجهتين الإدارية والمالية وكلها تؤدي معنى واحداً .

والسبب في استعمال كلمة ناحية بدلا من قرية وبلدة في مصر ، هو أنه عند تكوين وإنشاء بلدة جديدة ، فالمعتاد أن تفصل بعض العزب أو النجوع من إحدى البلاد أو من بلاد متجاورة ذات زمام واسع ، وتضم تلك العزب أو النجوع المنفصلة بعضها إلى بعض ، وتتكون منها ناحية قائمة بذاتها ، إما من الوجهة الإدارية أو من الوجهتين الإدارية والمالية .

ولما كانت الناحية الجديدة مكونة من عزب أو نجوع متفرقة عن بعضها وليس بينها قرية أصلية قديمة ، أصبح من المحتم أن يطلق على مجموع هذه العزب أو النجوع اسم ناحية كذا ، ومن هنا تغلب هذا الاسم في مصر على كلمتي قرية وبلدة لأنه اسم عام كما ذكرنا .

وتسمى الناحية الجديدة ، إما باسم يختارها مثل الفؤادية أو الفاروقية ، وإما أن تنسب إلى أحد أصحاب العزب المكونة لها مثل منشأة رمزي أو البسيونية نسبة إلى بسيوني وإما أن تحتفظ باسم عزبة ، فيقال عزبة إبراهيم أغا أو باسم نجع فيقال نجع حمادى .

(للبحث بقية) محمد رمزي

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

داء السكر، وقصة دوائه

الوحي ينزل في السحر

> وصل الثالث: طبيب جراح ناشئ في كندا يدعى (بنتنج)، يعيش من عيادة صغيرة ومن تدريسه في الجامعة. يحضر دروسه لتلاميذه فيأتي على دراسة غدة البنكرياس، وهي غدة تقع في الجسم من يسار الإنسان إلى يمينه وراء المعدة وتصب قناتها مع القناة الصفراوية في الأمعاء (في الاثنى عشري). وفي هذا البنكرياس نوعان من الخلايا: خلايا كبيرة تفرز عصارتها في قنوات تصب في القناة الكبرى للغدة، وتخرج منها لتصب في الأمعاء فتهضم الطعام بها في الأمعاء. والنوع الثاني خلايا صغيرة توجد في مجموعات متفرقة، كالجزائر، لهذا سميت بالخلايا الجزائرية، أو خلايا لنجرهنس باسم مكتشفها. أما وظيفة هذه الخلايا فغير واضحة لا سيما وأنها لا قناة لها تصب فيها. ويقرأ بنتنج فيعلم أن عالماً نزع بنكرياس كلب فعاش بعد نزعه أياماً، ولكنه أصيب بداء السكر بسبب ذلك. ويقرأ فيعلم أن عالماً آخر فحص بنكرياسات موتى بداء السكر فوجد تلك الخلايا الجزائرية مريضة ضامرة. إذاً فهذه الخلايا الجزائرية صلتها بالداء وثيقة. أتفرز هذه الخلايا إذاً مادة غريبة مجهولة، هرموناً، يساعد في الصحة على حرق السكر في الدم، فيولد لنا الحركة والطاقة، فلا يعود السكر يتراكم في دمائنا وبولنا؟ ربما.
> والآن اقرأ:

هنا «بنتنج» قائمٌ ساهر، في ليلة من ليالي أكتوبر عام ١٩٢٠، يقرأ من عشرات من البحاث كيف قضوا السنوات يبحثون عن تلك المادة العجيبة المجهولة فلا يجدونها. وهذا هو قد فرغ من عمل يوم آخر ونفض منه اليدين أو كاد. وهذا درسه حاضرٌ ينتظر الصباحَ الطالع ليُلقَى على تلاميذه. وهذا داء السكر منتشرٌ في أوربا وأمريكا أيَّ انتشار، عاثٌ بالناس أي عَيْث — ملايين به مرضى، وألوف منه تموت. فمن أطفال يصيبهم الداء بغتة، فيقف نموهم، ويذهب بلحمهم، ثم يأتيهم الموت أفراداً خاوين ناحلين. ومن رجال ونساء، في أول شبابهم، وجديد إهابهم، يجيئهم الداء فتراهم عطاشاً، يشربون الماء ولا يرتوون، وجوعى يأكلون فلا يشبعون، يهبطون إلى خاتمتهم المحتومة، تحمل أبطأ وفي فسحة أوسع — قد أفسح لهم في زمانهم ليشهدوا أجسامهم تذوب فتنحلّ سكراً في ماء، ثم يموتون.

ألا ما أمّل هؤلاء من صاحبنا؟ لا شيء. وكيف يؤملون منه شيئاً، وهو نفسه لم يخطر له في بال أن أملاً كبيراً سيتحقق على يديه، وسيبدأ تحققه في عشرين ساعة . . . . .

نعم. فقد وقر في نفسه في ختام تلك الليلة أن تلك الخلايا الجزائرية هي هي التي تفسد بطريقة خفية فتطيح بأرواح تلك الألوف من الضحايا. وأخذ يُبدئ في هذه الفكرة ويُعيد لتزيد نفسه بها اقتناعاً، ولتزداد في ذهنه وضوحاً، حتى إذا ألقاها على طلبته في الصباح الطالع تراءت لهم مقنعةً والحجة مشرقة .... ولكن هبْ هذا صحيحاً، هبْ أن فساد تلك الخلايا هو سبب تلك البلايا، فكيف يكون إصلاحها؟ كان في مقدور الطب أن يطيل في أعمار المرزوئين من الأطفال الأيامَ والليالي. وكان في مقدوره أن يطيل أعمار الشبان الناشئين، والشابات الناهدات، الأشهرَ قليلةً أو كثيرة. أتعرف بأية طريقة؟ بطريقة الدكتورين جوسلن وآلن Joslin-Allen. أتعرف أيُّ طريقة هذه؟ هي طريقة النزول بالتغذية إلى ما دون الكفاية. هي طريقة لقبوها بهذا الاسم المبهم المؤدب، ولو أنهم أعطوها اسمها الصريح لكان — التجويعَ الذي عاقبته القبر.

* * *

شابَ الليل وفات موعد الرقاد، وكادَ «بنتنج» أن

يهم للنوم . فإذا بنظره يقع على نسخة من مجلة طبية وصلته في ذلك اليوم . واسمها «فن الجراحة والتوليد وعلم أمراض النساء» Surgery, Gynaecology and Obstetrics . فيمد يده متراخية إليها . ويفتحها ويتصفحها وفكره حاضر شارد . وبغتة يحضر ما شرد من فكره ، ويسترد ما أخذ التثاؤب من نشاطه ، فقد وقع بصره على مقال جديد عن داء السكر والبنكرياس . مصادفة غريبة أن يقع بصره على هذا المقال في تلك الليلة . ولكنها الأقدار . ولمن هذا المقال ؟ إنه لرجل يدعى موسى بارون Moses Baron . ومن بارون هذا ؟ ولكن دعنا من هذا ، وصبراً . . . .

ويُكبّ « بنتنج » على تلك الصفحات مستقرة ، فيتوه فيها عن نفسه . وينسى محاضرته ، وينسى تلاميذه ، وينسى عيادته التي أخذت تنتعش انتعاشاً بطيئاً . ينسى كل ذلك ، فكأنه غير كائن ، كأنه لم يكن . فلا وجود إلا لهذه الصفحات . أنظر ، أنظر ! هذا شيء خطير يقوله بارون : يصاب الناس بحصوة في قناتهم الصفراوية ، فتنسد من جراء ذلك قناة بنكرياسهم ، فتحبس بذلك إفرازات البنكرياس الهاضمة فلا تنصب إلى أمعائهم ، وإذا ماتوا ، ونزعت بنكرياسهم وشرحته ، وجدت خلاياه ذات العصارات الهاضمة قد انضمرت وتخاذلت وساءت مظهراً ، أما تلك الخلايا الأخرى ، تلك الخلايا الجزائرية ، خلايا الشجير هنس Langerhans ، فتجدها سليمة كل السلامة .

ويوغل « بنتنج » في هذا المقال إيغالا . ألا ما أغرب هذا وما أعجب ! فهؤلاء المرضى ، أو هؤلاء الموتى ، لم يمسهم داء السكر أبداً . ثم ماذا يقول بارون ؟!

إنه يقول إن الحال هكذا في الكلاب : أربط على قناتها البنكرياسية بخيط لتسدها ، ثم دع الكلاب تعش . ثم عاودها ، وافتح بطونها مرة أخرى ، وانظر ما حدث لبنكرياسها ، تجد خلاياه الهاضمة قد انضمرت ، أما الخلايا الجزائرية فهي في سلامة أي سلامة . والكلاب ليس بها من داء السكر أثر أبداً .

من تلك الساعة ودّع « بنتنج » حياة الطبيب الذي يجاهد للعيش فلا يجده ، وحياة معيد الجامعة الذي ينال عن نصف وقته نصف أجره ، هو أجر الدرس ، أي أجر حقير مهين . وذهب إلى فراشه لينام في الساعة الثانية بعد انتصاف الليل . ولكن فكره يأبى النوم ، فهو كالنحلة حوّام طنّان دنّان . ويظل راقداً . . ويظل فكره جاهداً . ثم جاهداً حتى يصيبه الألم ويصيبه الجهاد في محاولة ما أسماه بعد ذلك : « عَبْر ما بين فكرتين ، كالجبلين يفصلهما واد سحيق » . ويظل يتقلب . ويظل فكره يتقفف الرأى بعد الرأى ، ويتمدد ويتمطط ، كما يفعل إذا هو أراد أن يمسك بشيء يتأرجح على هامش الذكر ، أو أن يسترجع لحناً موسيقياً قديماً لا يكاد يبين في الوعي حتى يختفي .

وأقضه جواب هذا السؤال : أليس من سبيل إلى استخدام تلك الخلايا الجزائرية الصحيحة في بنكرياس كلب رُبطت فسُدّت قناته البنكرياسية حتى انضمرت خلايا هذا البنكرياس الهضمية ؟ أليس من سبيل إلى استخدام تلك الخلايا الصحيحة السليمة لإطالة حياة كلب نُزع بنكرياسه ربما فأشرف على الموت .

وفي الساعة الثانية من تلك الليلة جاءه الوحي ، فألهم جوابَ سؤاله ، فقام من سريره ، وأنار الحجرة فجهرت عينه الناعسة بنورها ، ثم أخذ يخطط هذه الكلمات في كناشته : «أربط قناة الكلب البنكرياسية ربطاً محكما . واصبر ستة أسابيع أو ثمانية حتى تتقلص الخلايا الهاضمة . ثم انزع البنكرياس . ثم استخلص ما بقي فيه » .

ثم نام :

وأصبح الصباح فأدرك في نوره أن المقادير لم تشأ له أن يكون جراحا ، بل باحثا عالما .

• • •

بعد ذلك نرى «بنتنج» في مكتب الأستاذ الشهير، الأستاذ مكلود Macleod، بقسم الفسلجة، أي علم وظائف الأعضاء، بمدرسة الطب بجامعة طورنطو. ويتقدم إلى الأستاذ، ويحاول اللفظ الجليل الذي يؤثره في الأستاذ فيعوزه اللفظ الجليل، ولا يجد في وعيه غير تلك الجمل الثلاث التي خطها في كناشته. ثم كانت جملا ثلاثاً قصيرة، ولكنها حوت فكرة من إلهام، وخطة العمل، نعم العمل، فالكلمات البارعة لم يكن له فيها نصيب.

لقد كان هذا اللقاء مثلا من أمثلة التناقض غريباً. هذا «بنتنج» جراح فلاح من بطن الريف بسيط. وهذا «مكلود» أكبر عالم في أمريكا الشمالية يستطيع أن يحدثك عن ثمة كيف تحرق أجسامنا سكرها فتخرج منه لنا الطاقة والحركة. تناقض تكاد تحس فيه شيئاً من سخافة. وما الذي أعده «بنتنج» لهذا الأستاذ العظيم من حجة؟ إنه جاءه وكل زاده فكرة، كالرجل المخترع يأتيك ليكسب عطفك وعونك على اختراعه وليس في يده حتى النموذج الذي يشرح لك عليه اختراعه.

كان «مكلود» رجلا نابهاً حقاً، وكان إلى جانب هذا رجلا كثير العمل قليل الفراغ، حريصاً على وقته؟ فماذا يريد أن يقول له الدكتور «بنتنج»؟ إلى أى شيء بالذات يرمى؟ وما خطته بالتمام؟

ويبحث «بنتنج» في ذهنه عن مصطلحات علمية.. إنك إذا ربطت القناة البنكرياسية لكلاب فسددتها سداً، انضمرت في البنكرياس خلاياه ذات الإفراز الهاضم ... أما الخلايا الجزائرية فتظل سليمة صحيحة، وعندئذ..

ولكن الأستاذ الكبير أراد أن يعرف من الزائر الصغير: أحقاً قد ثبت في العلم ثبوتاً لا مرية فيه أن تلك الخلايا تضمر بسد تلك القناة. وأراد أن يعرف: ألا يحتاج «بنتنج»، والعلم ليس صناعته، إلى سنوات يتعلم فيها علم البنكرياس، تشريحه ووظائفه. وأراد أن يعرف: كم عملته عن كيمياء السكر في دم الإنسان، وكم علمه عن مظاهر الداء الأكلينيكية.

ويعود إلى «بنتنج» عناده القديم يوم أرادوا بتر ساعده فقال «لا» عل، فيه:

... ما هذا! ألا يفهم الأستاذ ما أقول. إنه قول واضح. إنك تنزع البنكرياس بعد سد قناته فلا تجد فيه من عصارته الهاضمة شيئا. فقد ذهبت العصارة بذهاب خلاياها. أما الخلايا الجزائرية فتجدها حيث هي، وكما كانت سليمة لم يمسها السوء. ومن أين يجيئها السوء. وتلك العصارة الهاضمة قد ذهبت من البنكرياس كله. وإذن تستخرج من تلك الخلايا الجزائرية ذلك السر، ذلك الهرمون، تلك المادة التي تفرزها تلك الخلايا إفرازاً داخلياً ينصب في الدم مباشرة بغير قناة، تلك المادة التي يستعين بها الجسم على حرق سكره. هذا كلام بين واضح كيف لا يفهمه الأستاذ.

ولكن الأستاذ يصر على أن يعرف كيف عرف «بنتنج» أن البنكرياس يفرز إفرازاً داخليا؟ كيف عرف أن البنكرياس ليس لديه وسيلة أخرى غير هذه لمدفع هذا الداء عن الأجسام؟ ألا يجوز أن تكون وسيلته تغيير الدم إذ يمر فيه، كأن يمتص منه مادة سامة هي التي تعيق الدم فلا ينتفع بسكره؟ وإذن لا تكون حاجة إلى فرض وجود تلك المادة المجهولة، هذا السر، هذا الهرمون ...!

وكان «مكلود» قد سجل على نفسه هذا التفسير لداء السكر قبل هذا بفترة وجيزة. سجله في مقال علمي منشور فقام هذا التفسير يصغر من نظرية صاحبنا هذه الأمولة المسلية حتى جعلها سخافة مأفون.

وكان «مكلود» كما قدمنا رجلا مشغولا يعز بوقته أن يضيع سدى، ولكنه صبر على «بنتنج» وعلى بلبلته وفأفأته، وميله عليه بصدره توكيداً لفكرته. وصبر عليه لأنه أبى أن ينخذل.

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

— ٤ —

شتان بين الشيخ راحلا إلى باريس والشيخ عائداً من باريس ، كان معصوب العينين ، فعاد مفتوح العينين ، كان يرى أن مصر أم الدنيا ، فإذا هو يراها ذيل الدنيا ، ولكن يجب العمل لتكون رأسها ، كانت دنياه هى الأزهر وحى الأزهر ، فإذا دنياه الدنيا كلها فى حاضرها وماضيها ومستقبلها ، بما شاهد وبما قرأ من جغرافيا وتاريخ وسياسة واجتماع ، كانت غايته أن يكون عالما ، ومعنى العالم فى نظره أن يتقن النحو والبلاغة والأصول ، فإن تظرف فحفظ شىء من الشعر ، وكان مثله الأعلى الشيخ الفضالى والشيخ القويسنى ، وأن يجلس على مقعد بجوار عمود من أعمدة الأزهر وحوله الطلبة الكثيرون يشرح لهم أغمض الجمل وأعقد التراكيب ، فإذا انتهى أقبل عليه الطلبة يتخاطفون يده لتقبيلها ، فإذا هو يرى فى فرنسا أن كلمة « العالم » المطلق لا مدلول لها ، إنما هناك عالم جغرافيا وعالم تاريخ وهكذا ، وأن شيوخ الأزهر لم يعودوا مثله الأعلى ، فإن علم الأزهر نقطة من بحر العلم ، وطريقة تعليمهم نقطة سوداء فى مناهج التعليم ، وليس مثله الأعلى أن يجلس بجوار عمود ، ولكن مثله الأعلى ورسالته الكبرى أن يغزو الجهل والأمية فى مصر كلها ، وأن يخلق فيها حركة تعليم تقلب أوضاعها وتنير أذهانها ، وتبصرها بالدنيا وتفهمها مَن هم لأنفسهم ومن هم من الأمم الأخرى — وكان يرى الشيوخ يتملقون الولاة والأمراء تملقاً رخيصاً ليستدروا منهم كيس نقود أو خلعة سنية ، فصار يرى أنه لا يستطيع أن يكف عن المدح ، وإلا فسد برنامجه ، فليمدح لمشروع جليل ، ولإنشاء مدرسة ، ولعمل خيرى ، ولرسم الطريق للأمراء ليتوجهوا بأعمالهم نحو الخير العام .

وأخيراً كان يحس من نفسه الضعة إذا جالس والياً أو أميراً أو عظيما ، وكان يحس النقص إذا جلس فى مجلس يُتكلم فيه عن شؤون الدنيا ، فارتفعت نفسه ، فإن فخر بلغة فهو يملك ناصية الفرنسية ، ومن فخر بعلم دنيوى فليس يمكن أن يباريه ، ومن فخر بمعرفة الدنيا وشؤونها فأين هو منه وقد قرأ جغرافية العالم وسياسته ، وجالس أذكى الناس عقولا وأرقاهم مدنية ، وعاش فى أوساط قد لا يبلغها كبير — وهكذا سمت نفسه وشعر بقوته فى غير

ثم يعود الأستاذ فيسأله كيف عرف أن إفراز البنكرياس الهاضم ذو أثر سىء على الخلايا الجزائرية ؟ فإذا لم يكن له أثر سىء ، فإذنْ ما سدُّ القناة وما نفعه ؟

قال « بنتنج » إنه هكذا يُحسّ . وأعاد المرة بعد المرة أنه ليس لديه فى هذا حجة غير إحساسه وكفى به هاديا .

إن « مكلود » ليُحمَد على صبره الطويل على هذا البادئ فى العلم ، يجادل فيه مكابرة كأنه به خبير عليم . ولكنه أخيراً يلقى عليه سؤالا ليس له من جواب : كيف جاز لبنتنج أن يؤمِّل إنجاح أمر خاب من دونه علماء وطائف الأعضاء الخبراء فى هذه المعمورة كلها ؟

ولكنه يُحس أنّ ...

« على كل حال ماذا تريد منى أن أفعله » .

أجاب بنتنج : « كل ما أريده عشرة كلاب ، ورجل يساعدنى ثمانية أسابيع » .

ولن ينسى التاريخُ لمكلود ، ولن ينفكّ يشكر له شكراً جميلا ، أنه أعطى « بنتنج » ما أراد ، وأعطاه منه القدْر الذى أراد ، بلا زيادة أو نقصان .

(يتبع) أحمد زكى

كبر ولا غرور — يرتفع عن بنى قومه ، ولكن يأخذ بيدهم ، ويحس قوته فيصرفها فى نفع أمته ، ويحذق فهم التيارات السياسية فى مصر ، وعقلية الشعب وعقلية الولاة ، فيعرف كيف يتجه بسفينته .

خمس سنوات فى فرنسا جعلت منه إنساناً آخر ، ولكن كم من مئات ومن أُلوف قضوا أعواما وأعواما فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وعادوا نكبة على أوطانهم ، ولم يفيدوها حتى بكف شرورهم عنها ، وصدق الأثر : « الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » . ولو كان لنا فى كل مجموعة من البعثة مبعوث مثل رفاعة لتغير وجه مصر .

* * *

كان من العادات الظريفة التى اندثرت أن يجتمع الجم الغفير من العلماء والأمراء والأغنياء والتجار فى ليلة من ليالى رمضان فى بيت السادات فى « ركة الفيل » ويجلس الشريف الحسيب النسيب شيخ السادات مجلسه الفخم الوقور يمنح الرتب والألقاب لمن شاء من الزوار ، ولكن ليست رتبة « بك » ولا « باشا » ولا نحو ذلك ، إنما هى ألقاب وكُنَى يستمدها من الوحى الصوفى والإلهام اللدنى ، فهذا أبو الأنوار ، وهذا أبو الوفاء ، وهذا أبو البركات ، وهذا أبو الخير ؛ فى ليلة من هذه الليالى الرمضانية كان من الزوار شيخنا الشيخ رفاعة ، فتفرس فيه شيخ السادات ، ونظر إليه بقلبه ، ثم قال له : « اذهب فأنت أبو العزم » ، وكذلك كان ، وكانت كُنْيته موفقة ، فأبرز صفات « الشيخ رفاعة » عزمه .

* * *

عاد الشيخ رفاعة إلى مصر سنة ١٢٤٧هـ ، وقد عرفه محمد على باشا بما كتبه عنه مدير البعثة من تقارير ، وعرفه إبراهيم باشا حين قابله فى الإسكندرية ، لأنه سمع به حين زيارته باريس ، ولأنه كان يعرف أسرته فى طهطا ، وقد عرف ما نكبت به من انتزاع ما فى يدها من أطيان ، وقطع ما يصرف لها من غلال ، فأراد أن يكفر عن ذلك ، فنحه ٣٦ فداناً فى الخانكة (الخانقاه) ، فكان ذلك مبدأ ثروته ونعمته — أرض لطيفة قريبة من القاهرة يستطيع الشيخ أن يديرها ويرفه عن نفسه فيها .

عينه محمد على باشا مترجماً فى مدرسة الطب ، وكانت بأبى زعبل ، وكان ناظرها كلوت بك ، وكانت محاولة أولية لمدرسة الطب أنشئت بجانب المستشفى هناك ، وكان يؤخذ تلاميذها من الكتاب ومن الأزهر ، لا يعرفون لغة ولا يعرفون إلا القراءة والكتابة وقليلا من الحساب الأوّلى ، وكان المدرسون الذين يدرسون الطب إما فرنسيين أو إيطاليين ، فكيف يكون التفاهم بين الطلبة والمدرسين ؟ لا بد من مترجمين يعرفون العربية والفرنسية والإيطالية ، فيلقى الأساتذة الدروس بلغتهم والطلبة سكوت لا يفهمون شيئاً ، فيترجمه المترجمون إلى العربية ، ثم يشرح المترجمون للأساتذة ما ترجموا ليثق الأساتذة من صحة الترجمة ، ثم تمليه المترجمون على الطلبة بالعربية ، ثم يحفظه الطلبة ، ومن أظهر التقدم من الطلبة واستطاع أن يفهم من الأساتذة بعض الشيء ، جعل مشرفاً على الطلبة الضعاف مساعداً للأستاذ والترجم .

وهؤلاء المترجمون أيضاً مشكلة أخرى ، فهم طائفة من السُّوريين أو الأرمن أو نحوهم مثل مسيو رفاييل ومسيو عنحورى ، قد يجيدون اللغة الأجنبية ولا يجيدون العربية ، فاقتضى الأمر أن يؤتى ببعض علماء الأزهر لتصحيح ما يترجمه المترجمون ، وسبّب وجود علماء الأزهر مشكلة ثالثة ، وهى أن التشريح حرام ، وهو يُعمل فى السر ، ويخشى أن يطلع عليه علماء الأزهر فيفضحوا المدرسة ويؤلبوا الرأى العام ، وليس لهذه المشكلة من علاج إلا أن يختار من الأزهر الشيوخ المرنون ، كالشيخ الدسوقى والشيخ العراوى ، ويُوصَوْن ألا يفشوا السر .

هذا هو الوضع المدرسة أيام عين بها «الشيخ رفاعة» مترجماً ، فكان أول مترجم مصرى يجيد العربية والفرنسية وله إلمام بالطب ، وقد عين مرءوساً لمسيو عنحورى ، فلما رأى منه مسيو عنحورى هذه القدرة تخلى له عن مكانه .

وعهد إلى الشيخ رفاعة إلى جانب الترجمة أن يعلم بعض الطلبة الإعداديين اللغة الفرنسية والجغرافيا ، وصدر الأمر بأن يعطى مرتباً على ذلك ١٢٣٣ قرشاً فى الشهر ، مع إضافات كبدل انتقال ونحو ذلك . مرتب ضخم فى ذلك العصر ، فاثنا عشر جنيهاً كانت قدرتها الشرائية أكثر من ستين أو سبعين جنيهاً فى عصرنا ، حتى قبل أن يرخص ورق النقد .

ولهذا نرى الشيخ يتزوج بنت خاله الشيخ محمد الأنصارى ، ويتبحبح فى العيشة ، فيكون له بيت فى «المهمشة» بالقرب من شبرا ، وفيه حديقة لطيفة فيها أثر الذوق الفرنسى ، وفى البيت جوار وعبيد من ملك يمينه ، — فلم يكن أبطل الرق بعد — وفى ذلك أثر الذوق الشرقى .

عمل فى مدرسة الطب ما شاء الله أن يعمل ، وأحس الطلبة روحاً جديداً فى المدرسة ، ورقياً فى لغتهم اقتربوا به من أساتذتهم ، وقرّب إليه بعض خيار الطلبة يشجعهم ويمرنهم ويعدهم للبعثة ، وكان من هؤلاء محمد على باشا البقلى جراح مصر الشهير ، فكان يقبل يد الشيخ كلما رآه ويعد نفسه صنيعة من صنائعه ، فلولاه ما نبغ ، ولولاه ما كان مبعوثاً ، بل أخذ الشيخ فى هذه الفترة يضع الرسائل فى الطب يساعد بها الطلبة ويراجع الكتب العربية القديمة من قانون ابن سينا وتذكرة داود ليضع المصطلحات الطبية .

ولكن لم يلبث بهذه المدرسة إلا نحو سنتين ، ثم صدر الأمر بنقله من مدرسة الطب بأبى زعبل إلى مدرسة «الطوبجية» بطره ، وكان ناظرها رجلاً أسبانياً اسمه «سا كورا» بك ، واسمه فى الأصل «الدون أنطونيو ده سيجورا» عربه الشيخ رفاعة إلى «سا كورا» ، وكان فى الأصل ضابطاً برتبة كولونيل فى المدفعية ، عهد إليه تأسيس هذه المدرسة وتنظيمها لتخريج ضباط للجيش والبحرية يؤخذ طلبتها من المكاتب ويتعلمون بها الفنون العسكرية والحساب والجبر والهندسة ولغة أجنبية .

فعين الشيخ رفاعة ليترجم الكتب العسكرية والرياضية ، بعد أن كان يترجم الكتب الطبية ، وطلب إليه أن يترجم فن إحداث الجراح ، بدل ما كان يترجم فن تضميد الجراح — فليكن — وها هو الشيخ عاكف على ترجمة كتاب فى الهندسة يدرس فى مدرسة «سانسير» بفرنسا ، وها هو يقلب أيضاً الكتب القديمة فى الهندسة يستخرج مصطلحاتها ، وها هى مطبعة بولاق تطبعها وتوزعها على طلبة مدرسة الطوبجية .

ولكن الشيخ لم يعجبه مسيو سا كورا بك ، ولم تحسن العلاقة بينهما . وتأتى سنة ١٢٥٠ هـ فيحدث فى مصر طاعون شنيع ، ويكثر الموتى وتضطرب الأحوال فى القاهرة ، ويغلو السعر حتى تكون كيلة القمح بتسعة قروش ، فيسافر الشيخ بلا إذن إلى بلده طهطا .

مكث فى بلده ستين يوماً ، هل استراح فيها وسكن إلى أهله وأهل بلده بعد غيبة طويلة ؟ هل فكّر فى الطاعون وكثرة الموتى ؟ هل صده عن العمل تضايقه من مسيو سا كورا ؟ لا شىء من ذلك ، ها هو كتاب فى الجغرافيا أعجب بقراءته لما كان فى باريس ، وأعيدت منه طبعة جديدة أدخلت عليه تعديلات جديدة ، وهو كتاب ضخم واسع مؤلفه «ملطبرون» Malte-Brun دنماركى الأصل ، نفى من بلاده فأقام فى باريس ، فعكف على دراسة الجغرافيا طول حياته ، واختصر منها مؤلفاً فى ستة أجزاء ضخام ، أقام فى تأليفه تسعة عشر عاماً ، وفيه أرقى المعلومات وأوسعها عن العالم (فى عصره) لو ترجم إلى العربية لوسع من آفاق أهل العربية وفتح عيونهم للعالم .

في هذه السنين يوما دأب على ترجمة الجزء الأول منه وعاد به في يده وقابل محمد على باشا وقدمه إليه وشرح له قيمته ، فشكره ومنحه منحة ، وأنعم عليه بلقب صاغ ، إذ كانت كل الرتب عسكرية ، فأصبح « الصاغ رفاعة » ، وشكى له من عمله في مدرسة الطوبجية ومن مسيو ساكورا ، وقدم إليه مشروعا لمدرسة الألسن وصف فيه برنامجها وما يصح أن تؤديه لمصر من الخدمة إذا أسست على أساس صحيح ، وأنه هو أنفع لهذا العمل والإشراف عليه ، فكان ذلك ، ونقل من مدرسة الطوبجية إلى مدرسة الألسن يؤسسها وينظمها ويتولى الإشراف عليها . وهنا أعطى القوس باريها وتجلت عظمته ومواهبه .

ما مدرسة الألسن التي خلقها الشيخ رفاعة ، وما الغرض منها ؟؟

لقد عرف الشيخ رفاعة في باريس مدرسة اللغات الشرقية ، أسست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها في كتاباته مدرسة الألسن ، لما ذاع في العربية من اللسان العربي واللسان العجمي ، ولما جرى على ألسنة العامة : « يتكلم بالسبعة ألسن » . ولكن موقف مصر في اللغات غير موقف فرنسا ، فوجب أن تؤسس في مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب موقعها .

لقد نجحت فكرة محمد على باشا في البعثات ، وعاد أعضاؤها يتكلمون الفرنسية ويجيدون ما تخصصوا له من المسائل الفنية ، ولكنهم لا يكفون للنهضة المصرية الواسعة النطاق ، إن مصر محتاجة لمن ينقل لها خير ما وصل إليه العلم الحديث في كل فروعه ، فلا بد من تكوين طائفة كبيرة من الشبان يحذقون العربية ولغة أخرى حية ، وخاصة الفرنسية ، وإلى ذلك يثقفون ثقافة فنية خاصة ، هذا في الرياضة ، وهذا في القانون ، وهذا في الجغرافيا والتاريخ ؛ حتى إذا عهد إليهم ترجمة كتاب كانوا مثقفين بعلمه وبلغته ، وهؤلاء المتخرجون على هذا النحو يستطيعون أن يقوموا بترجمة الكتب في الفروع المختلفة ، ويصح أن يكونوا معلمين في المدارس التجهيزية والخصوصية ، ويصح أن يكونوا موظفين في مصالح الحكومة التي تحتاج إلى من يجيدون لغة إلى لغتهم الأصلية ، فيكونون نواة لنهضة صحيحة — إننا بالبعثة ننقل المصريين إلى أوربا ، وبهذه المدرسة ننقل علم أوربا إلى مصر — الترجمة ، الترجمة ، هي أساس النهضة لمصر ، وهي مبعثها من مرقدها والفاتحة لعيونها ، لقد تقدم العلم الإسلامي بعد وضع أساس النهضة بالترجمة ، فوجب أن تكون نهضتنا الحديثة مؤسسة على الترجمة الحديثة ، ولهذا لقبوا محمد على بالمأمون الثاني .

ثم في هذا العمل — إذا نجح — فائدة أخرى ، وهي إيجاد عدد كبير ممن يحذق اللغات الأجنبية ، فنستطيع بهم أن نستغنى عن كثير من الفرنج الذين يحتلون هذه المناصب ، كما نستريح من مشاكلهم .

فلنأخذ الطلبة من النابهين في المكاتب ، ولندرس لهم خمس سنوات أو ستا اللغات العربية والفرنسية والتركية ، ومبادئ الرياضيات ، والتاريخ والجغرافيا ، ولنختر لهذه الدراسة خير من عندنا من فرنسيين وترك وعلماء أزهر ، ولنخلص النية في تعليم هؤلاء الطلبة ، فعليهم تتوقف النهضة ، وهم معقد الأمل .

هذا هو مشروع مدرسة الألسن كما تصوره الشيخ رفاعة ، وكما صادق عليه محمد على باشا ، وصدر الأمر بإنشائها ، وأعدت عدتها ، وفتحت ، وتولى نظارتها « الشيخ رفاعة » .

(يتبع) **أحمد أمين**

إلى حضرات المشتركين

نرجو إدارة المجلة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا باقي اشتراكاتهم عن سنة ١٩٤٣ التكرم بتسديدها .

على ضوء علم النفس:

شخصية الحطيئة

١ — يتفق الرواة على أشياء في حياة الحطيئة، نستبينها من شخصيته كنسبة الخطوط والألوان، يستعين بها الرسام على إبداع صورته، ولكنها ليست الصورة على كل حال. تلك ظروف من الوراثة والبيئة نجملها هنا، لعظيم أثرها في تكوين شخصيته.

من ذلك أن الحطيئة كان قبيح الخلق، دميما، تتمثل دمامته أكثر ما يكون بقصره المتناهي الذي يقربه من الأرض، وببروز أسنانه العليا بروزاً وفحجاً، ومن هنا اسمه، وفيه معنى الدمامة والقصر. ومن ذلك أنه كان وضيع النسب، أولده أبوه أمة له، ثم أنكره فلم يعترف به. وكان لأبيه امرأة ذهلية أنجبت منه ولدين، فنشأ الحطيئة في هذا الوسط المؤلف من أبيه الذي أنكره، ومن امرأة أبيه التي تمقته، ومن أخويه لأبيه اللذين يزدريانه ويحتقرانه، ومن أمه التي لم تفرغ كثيراً لتربيته، على ما قد يستفاد من خبر تزوجها بعد رجل أولدها ابنين، تأبى التقاليد إلا أن يعتبرا أخوين للحطيئة. ومن ذلك أخيراً هذا التمويه الذي كانت تصطنعه أمه كلما سألها عن نسبه، فهي حيناً تنسبه إلى الأفقم، أخي امرأة أبيه، وهي حيناً تنسبه إلى أوس بن جوية، مولاها.

٢ — حقائق كلها مؤلم. كان على الحطيئة أن يجابهها باكراً، وقبل الناس جميعاً. تتلخص في أنه إنسان محروم من كل شيء: حرمته الطبيعة كثيراً مما جادت به على غيره، فهو ضئيل الجسم قبيح الهيئة، في حين أن غيره من الناس ليسوا جميعاً كذلك، وحرمه والده العطف الأبوي من دون أخويه اللذين من الذهلية، وحرمته أمه التربية الصالحة، تشغل عنه بنفسها، فتتزوج برجل جديد. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى ما هو أقبح، فحرمه العرف إرث أبيه، سواء أكان أوساً أم الأفقم، وحرمه المجتمع عطفه، ليحمله أبداً وزراً اقترفه أبوه، وليرميه بسبة ما كان في طوقه أن يدفعها.

٣ — هذا الحرمان يحسه الحطيئة في بيئة قاسية تضيق بغير الأقوياء من الرجال، وتدير الفضائل كلها على محور من شرف النسب، أورث الحطيئة — بغير شك — آلاما نفسية، حادة، حاول الشاعر أن يكبتها جهده، لتختنق في الظلام، وراء سجف العقل الباطن الصفيقة، ولتتمثل بعد عقدة نفسية انتهت بالشاعر إلى الشعور بنقصه وحقارته بين أناس متفاوتين في مراتب الامتياز. وعندنا أن هذا الشعور بالحقارة، أو النقص، هو «مفتاح» شخصية الحطيئة، وهو الأصل الأول لسيئاته كلها، وقد يكون أصلا لكثير من حسناته، في ميدان الفن أيضا.

٤ — يرى علماء النفس أن الذي يغلب على المصابين بهذا الشعور، في شكله الحاد، أن يتشاءموا على سوء الظن بالحياة والناس، إن لم نقل على النقمة الباطنية على الحياة والناس. فهم سلبيون في كل شيء، مستوحشون، تتجاذب نفوسهم أشتات من العواطف فيها الحسد وفيها الأثرة. ولم يكن الحطيئة في نجوة من ذلك، فقد استشعر في ذات نفسه الكره للناس، لا لشيء إلا لأنهم أفضل منه، ولأن الطبيعة زودتهم مما ضنت عليه ببعضه، ويظهر ذلك في هذا الهجاء الذي اشتهر به، والذي يحفل به ديوانه، والواقع أن الحطيئة لم يكن يهجو طمعاً في مال المهجوين فحسب، ولكنه كان في كثير من الأحيان يهجو إجابة لهذا الشعور بالكراهة للناس، والكراهة للحياة التي تورثه هذه الآلام. بذلك وحده يمكن أن نفسر مثلا هجاءه لأمه في قوله:

جزاك الله شراً من عجوز ... ولقاك العقوق من البنينا
تنحي فاجلسي مني بعيداً ... أراح الله منك العالمينا

أفرِلا إذا استودِعتَ سِرًّا وكانونًا على المتحدِّثينا

حياتُك ما علمتُ حياةُ سوءٍ وموتُك قد يسرُّ الصالحينا

وهجاءه لأبيه وعمّه وخاله في قوله :

لحاكَ اللهُ ثم لحاكَ حقًا أبًا ولحاكَ من عمٍّ وخالِ

فنِعْمَ الشيخُ أنت لدى المخازى

وبئس الشيخ أنت لدى المعالى

جمعتَ اللؤمَ، لاحيّاك ربى وأبوابَ السفاهةِ والضلالِ

٥ — وقد يحمل هذا الشعورُ صاحبَه على التنكر المثل الأخلاقية، والثورة على القيم والمتواضعات الاجتماعية، يتجاوزها في غير حياء، ويتخطاها في غير تحفظ ولا تحرج ؛ كأنما يعتبر أن هذه القيم وتلك المتواضعات إنما وضعها المحدودون من الناس الذين لم تبخل عليهم الطبيعة بكل ما يساعدهم على التحقق بها ! وكأنما يشعر أنه قد حرم ذلك كله، مبرر في الخروج على ما لم يخلق له. وليس من شك في أن كثيراً من هذه الأعراض قد ظهرت على الحطيئة، وتمثلت فيه إلى حد بعيد جداً. فكأنه رأى، وقد حيل بينه وبين خير الدنيا، أن يفرض على الناس «ضريبة» تعوضه من ذلك، فهو يسألهم بالحاف، لا يجد في ذلك غضاضة، وهو يبخل بماله لأنه يشق في جمع هذا المال، ويريق في سبيله ماء وجهه، إن كان في وجهه ماء... وهو يهجو إيذاناً باستحقاق الضريبة... في بعض الأحيان.

٦ — والشاعر بنقصه يسعى في العادة إلى إخفاء هذا النقص عن الناس بأن يتظاهر بعكس ما يحسه في دخيلة نفسه. هذا حسان مثلا، شعر بالنقص من جهة واحدة، هي جهة الجبن، ومع ذلك حاول أن يخفى عن الناس نقصه بكثرة التحدث عن الشجاعة، بل بإيهام الناس وإيهام نفسه أنه شجاع، في بيتين معروفين يذكر الرواة أن النبي عليه الصلاة والسلام ضحك عند سماعهما[1].

كذلك الحطيئة، حاول أن يخدع نفسه، وأن يخدع الناس عن هذا النقص الذى يحسه. فهو على ما رأينا من تنكره للقيم الأخلاقية، يمدح الناس ويهجوهم عن طريق هذه القيم نفسها ؛ وهو يذهب مذهب حسان من التمدح بما ليس فيه، تضليلاً وتمويها. وإذن فلا نعجب إن رأينا الحطيئة، وهو البخيل الذى يطرد أضيافه، ويعد لهم العصا فيما تنص الرواية... يتمدح بكرمه فيقول :

وقد علمتْ هندٌ على النأى أننى

إذا ضيعوا يُسْراً لنعْمَ المكلَّفُ

أرُدُّ إخاضَ البَرْلَ والشمسُ حيةٌ

إلى الحيِّ حتى يوسِعَ المتضيِّفُ

ولا نعجب أيضاً إن رأيناه، وهو المادى التفكير، القليل الحظ من الدين، يقول هذه الأبيات التى قد يستغرب الناس صدورها عنه :

ولستُ أرى السعادةَ جمْعَ مالٍ

ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ

وتقوى الله خيرُ الزاد ذُخراً

وعند الله للأتقى مزيدُ

وما لا بُدَّ أن يأتى قريبٌ ولكنَّ الذى يمضى بعيدُ

٧ — وأخيراً يعمل الشاعر بنقصه، في الغالب، على أن يعوِّض من هذا النقص باستهداف الكمال من ناحية ثانية يعرف أنه يمتاز فيها، بالفطرة، عن غيره من الناس. فهو يستكشف نفسه جيداً، ليقع على هذه الميزة التى يتمدها في «عملية التعويض»، حتى إذا اكتشفها، عمد إليها بالتنمية والتجويد. إلى أن يُوفى منها على الغاية. وعندنا أن لهذا النقص الذى كان يحسه الحطيئة أثره البعيد في شعره، التقع المحكك، وهى ناحية من القول واسعة، قد نعرض لها في مقال تالٍ.

منير البعلبكي
أستاذ الأدب العربي بالكلية الوطنية العلمية بدمشق

(١) أما البيتان فهما قوله، رضي الله تعالى عنه :

لقد غدوت أمام القوم منتطقاً بصارم مثل لون الملح قطاع

تحفز عنى نجاد السيف سابغة فضفاضة مثل لون النهى بالقاع

قصة:

غـــنى

جلس متولى أفندى إلى مكتبه المتواضع يقرأ ما صنعه منذ حين ... فابتسم راضياً . فإن القصة لتبدو وكأنها فن وبلاغة . وفكرة ناجحة مشرقة ... وإنه ليعيد قراءتها فيتأمل ويستبشر حتى ليكاد يطمئن لقيمتها ربحاً مباركاً بين يديه .

ونهض فمضى إلى رئيس تحرير المجلة التى يأمل أن ينشر فيها القصة . . ومضى خفيفاً تملؤه الأمل حتى دار المجلة فاستأذن . فاحتجز . وكأنما صدم لوقفته بعد أن كان تملؤه الفرح . غير أنه مالبث حتى تلطف من أمر نفسه ، فالرئيس مشغول . فليأت من الغد أكثر بكوراً .

ومضى الغد وجاء الذى بعده ثم الذى يليه حتى اليوم الموعود . فدخل عليه . وكان قد استشعر اليأس غير أنه تمسك بأهداب الأمل وأنه ليرجو أن يجازيه الرئيس خيراً يعوضه عن هذا الذى يلاقيه . . فالرئيس معذور وأنه العمل الذى يقتضيه وقته كله .

ودخل عليه وكله الرجاء . فوجد شخصاً يهم بدخول الحجرة من باب مجاور . وعرف فيه الرئيس . وتبسم الرجل لأول رؤيته له حتى إذا بدأ متولى أفندى يقص ما جاء لأجله أخذت البسمة تنقشع رويداً رويداً حتى لم يبق إلا شبحها . غير أنه تناول القصة وأمهله ليومين حتى يفرغ مما هو فيه .

ومضى اليومان فأمهله لمثلهما ثم مثلهما حتى جاء الفرج وحان الحين . فتناول الرئيس القصة ولم يأذن لمتولى أفندى حتى بالجلوس . وخفق قلب متولى أفندى . فإن بين شفتى الرئيس الأمل . . فما أن أحكم عويناته فوق أرنبة أنفه حتى ازدادت ضربات قلب الفتى الآمل . . . وشرع الرئيس يقرأ ... سطر من المقدمة وآخر من الوسط فالخاتمة وإنه لينظر إليه من خلف عويناته وإنه ليتكلم ... وتعلقت أنفاس متولى أفندى حتى لا يفوته شئ مما يقوله الرئيس الذى قال وما تزال البسمة التقليدية تتراقص على شفتيه .

— والله كنت أود مساعدتك . لكن ، الورق محدود . . (والموضوع أوردته كتب الأدب) وشعر متولى أفندى كأنما هو مريض وكأن ماء بارداً قد انصب فوقه . فخرج يجر أذيال الخيبة وهو يتوارى عن أعين البواب الذى أشفق عليه وقد كان يأمل أن يتفحه شيئاً .

وطوى القصة وكأنما أشفق عليها حتى من نفسه . فدسها فى «جيبه» حزيناً صامتاً ... ما أقسى الأيام ... إنها ما تزال تدهده نفسه حتى ليكاد آخر أمل له فى الفوز أن يخبو . وانعدمت فى نفسه الثقة أو كادت .

وتنفس نفساً عميقاً يخالجه الألم وهو يذكر ما حدث منذ حين ... أفيخبو فيه هذا السراج الذى يذكيه الطبع والبيئة والمرس .

ثم وإنه لأديب مطبوع . وإنه لن ينهزم ، ولن تقبر فيه طويلا هذه الدرر الغوالى مهما جلت الأحداث ... فإنه ليقفز السلم قفزاً متواصلا سريعاً دون هوادة . وإنه لبالغ القمة . وبالغ ولا بد ما بلغه أحمد أمين أو طه حسين أو شيخه فى القصة فريد أبو حديد ... ولم لا ؟ ألم يكونوا مثله ؟ ... ألم تقس عليهم الأيام قسوتها عليه إن لم تكن أشد وأعنف ؟ إن ذلك اليوم لقريب . وقريب ...

تُرى ما قد يرتسم على وجه رئيس التحرير بعد أن يتلألأ نجم متولى أفندى ويطير اسمه فى الآفاق . ومضى يتصور . وأخرجه عن هذا التصور الجميل صوت سائق مركبة الترام وهو يزجره فى عنف ليتخذ الطريق السوىّ .

ثم أين هو الساعة وهو يسير فى تخبطه بين شوارع القاهرة الكبيرة ... وتحسس بين جنبات ثوبه فإذا بثلاثة قروش تثوى هادئة ناعمة . فاطمأن لذلك . فحسبه منها تدفئة « جيبه » وإشعاره بأنه يمتلك صنف المال . غير أنه

ما لبث حتى استشعر الحبية تمازجها الإشفاق . فإن (المبلغ) ما يلبث حتى يبارح «جيبه» . وذلك أنه كان قد قدم طلباً فى عمل من الأعمال . ويتحتم أن يرفق به على مألوف العادة ورقة تمغة من فئة الثلاثة القروش . وكان العمل مقره الجيزة وهو ما زال فى طرف من أطراف المدينة الكبيرة … وهو مجهد بعد مرض كان قد ألزمه الفراش أياما .

وفكر … لا بأس من أن يعرج على صديقه حسين أفندى الموظف بوزارة المعارف يستقرضه مبلغاً صغيراً وإن بلغ من حيث صغره خمسة قروش يستعين ببعضها على أجر الركوب وحاجات الظروف .

وإنه لتربطه وحسين صداقة ثبتت أركانها منذ بعيد . وإنها من القوة حتى ما يهددها خطب أو عقد قرض … فقد طالما لجأ إليه فى مثل هذه الظروف فوجد فيه الصديق الذى لا يبخل بما ملكت يداه فى إغاثة الإخوان .

وكان متولى أفندى قد صنع خطبة لصديقه يلقيها فى حفل أقيم فى يومه الفائت ، فلا بأس من أن يعرج عليه الساعة يستطلع رأيه فى حفل الأمس وما تم فى الخطبة ويترك الفرصة تواتيه للقرض عرضاً …

أعجبته الفكرة . وحسبه أنها تكفيه شر الطريق وجهد السير للجيزة فى وقت الظهيرة ، ولكنه تردد وأنف أن يتخذ طيبة صديقه وهذا الذى فعله سبيلا للقرض .

ولكنه كان مجهداً .. ومريضاً . وهو معاً كذ الثأ كيد كله أن حسينا لن يتوانى لحظة فى إعطائه ما يريد . غير أنه حاول السير ، وصدف عن الفكرة .. وما كاد يخطو بضع خطوات حتى عاودته العلة وثقل عليه الداء . ولكنه مضى وقد أبعد حسينا عن رأسه إبعاداً . وشغل ببعض ما هو بسبيله … وإذا به أمام وزارة المعارف فى طريقه إلى الجيزة . وتذكر حسينا .

ويل نفسه . وويل لتصاريف تأبى إلا أن ترميه وقت أزماته فى طريق حسين …

… لا بأس . فليعرّج عليه ، غير أن هيئته كانت لا تشجع على مقابلة حسين ، وربما نفر منها زملاء صديقه . وأحجم شيئاً . أيجازف ويعرض عن نظرات الاستخفاف ؟ إنه لا يأبه للناس . وحسبه ما يعرفه حسين من تأدب متولى . وإنه لا ينبغى للأديب التقيد بمكان أو لباس أو زمان .

وقادته قدماه فى غير وعى داخل الوزارة . ووجد نفسه فى حجرة حسين . وما أن رآه صديقه حتى رحب به وتلطف معه . ودعا من فوره بالقهوة ، ثم قدم لفائف التبغ الفاخرة .

ولم يدعه حسين يستتب فى مجلسه حتى راح يحدثه عما كان للخطبة من الأثر وما كان لها من وقع فى النفوس ، وكيف أنها بذت كل ما قيل ، ورفعت من قدر حسين فى عيون الناس حتى أنهم كانوا يستوقفونه فى مقاطعها ، ويستعيدونه العبارة الواحدة مرات عدة ، وأنه لدين له بهذا الذى صنع ، وهز يده فى حرارة وقال :

— إنى لأحتفظ بك كصديق له شأن ، فصبرا .. والأيام لك .

وعظم الأمر على متولى أفندى فلم يدر كيف يصنع . أهذه الخطبة التى لم تستغرق فى يده من الساعة نصفها تبذ غيرها وتستعاد مقاطعها بين قوم لهم من الخطر ومن الرأى شأن .. أى شأن .

أحقاً أن شيئاً مما انتجه قد سمعه الناس وأعجبوا به . وأى شىء … نتاج نصف الساعة أو نحوها ، يا للأيام … وشعر كأنما كان قلبه يغوص عميقاً . عميقاً داخل نفسه .

هل تصدق النبوءة ويصبح له على مر الأيام ذكر ؟ … أفيأتى ذلك اليوم الذى يتبوأ فيه ما تبوأه شيوخ الأدب . وعندها ينضو ذلك الثوب الخلق من أثواب الحياة الجديدة ويرفل فى آخر زاه جميل ؟ … وعز عليه أن يفوه لصديقه بكلمة مما جاء لأجله .. فخرج .

وآثر السير …

ياقوت صديق
كلية الآداب

ذكرى هيلدرلن



الأنسام البيض تخترق الوديان الحالمة بالكروم العتيق ؛ و"زهر الشكر" الباسم يرف هامساً إلى الدير البالى فى حنين تأرجح بين قداسة الدين واستسرار الأسطورة ، بين سمو المسيح وبطولة زجفريد ، والغابات المتدثرة بالسر العميق ، تتراءى غير بعيدة عن بيت القس القائم على أمر هذا الدير ، هذا القس الوقور الذى لم يحى إلا القليل بعد ميلاد ابنه فريدرش فى العشرين من شهر مارس سنة ١٧٧٠ ؛ فتركه فى أحضان أم رقيقة الطبع حتى الحلم ، مشبوبة العاطفة الدينية شأن أمثالها من النسوة اللائى يترملن فى سن مبكرة ، خاصة وقد مات زوجها الثانى بعد قليل ، فلم تنعم به كما لم ينعم به طفلها الذى كان يفيض عليه الحنان ، فكان الجو الذى نشئ فيه هيلدرلن جو حالم بكل ما فيه : حالم فى الطبيعة الباسمة القريبة معاً ، التى امتاز بها إقليم إشفابن فى جنوب ألمانيا ، وهو الإقليم العتيق الذى اشتهر بسمو الروح ، ورقة أبنائه ، حتى كان مهد الشعراء الغنائيين الزامرين فى العصور الوسطى ، وهم المعروفون باسم المِنّيزنجر ؛ حالم فى البيت المتوشح بمسوح الدين ، الناشئ نحواً جبّ بالقداسة الرطبة ، حالم فى الوسط القروى الرقيق الشاحب حتى المرض . ووسط هذا شأنه ، أفليس من الطبيعى إذن أن يخرج طفلاً حالماً مغرقاً فى أنبل الأوهام ، معتصماً بقلعة الأمانى السخية والخيال ؟ متاركة وجدانية حادة بينه وبين الطبيعة الكلية ؛ وحنين وثاب إلى سر علوى جذاب أشد ما يقربه به أنه مجهول عن شدة إحساسه بما يكمن فيه ؛ ومزيج غريب من النصاعة والغموض فيه نزاع دائم بين وجدان الليل وقانون النهار ؛ وعمق فى الباطن حتى النهاية التى يلتقى عندها أعمق الأعماق وأعلى عليين ؛ تلك هى الخصائص العامة لروح هذا الشهاب السماوى الهاوى على الأرض الجحود ، والذى نريد الآن أن نحييه تحية عابرة بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته .

تنازعت روح الفتى هيلدرلن ثقافتان أثرتا فيه بقوة ونفوذ ، ألا وهما الثقافة اليونانية الرومانية والثقافة الدينية المسيحية ؛ وهما ثقافتان على طرفى نقيض : الأولى إنسانية فنية طبيعية تؤكد المعنى الإنسانى فى كل شىء ، والثانية إلهية روحانية خارجة عن الطبيعة نافرة من كل ما هو إنسانى ؛ ولهذا كانتا مصدر صراع عنيف فى نفس كل من يجمع بينهما فى شىء من العمق ، وبخاصة عند مرهفى الحس ، كما هو مشاهد جلياً عند العباقرة الذين عانوا هذه التجربة المزدوجة ، وعلى رأسهم جميعاً رينان ، الذى عبر عنها أروع تعبير فى القطعة الخالدة التى سماها باسم « صلاة على الأكروبول » . فالجمع بينهما محاولة شاذة ، ولكنها خصبة إلى الحد الأقصى : فلها ندين بإيجاد عباقرة من الطراز الأول فى مختلف مرافق الحياة الروحية ، وبخاصة فى الفلسفة والفن بكل أنواعه ، فبواسطتها تكوّن هيجل ورينان وشلنج فى الفلسفة ، وميكلانجلو وهيلدرلن فى الفن والشعر .

وهيلدرلن قد عانى هذه التجربة فى سن مبكرة ؛ فقد

درس في مدارس ملحقة بأديرة في نيرتنجن ودنكندورف وماولبرون ، وهي مدارس كانت كثيرة العناية باللغات القديمة من لاتينية وعبرية ويونانية ، وبخاصة هذه الأخيرة ، مما زود هيلدرلن بثقافة يونانية ممتازة هي صاحبة الفضل الأول والأخير في تكوين روحه العامة : فسيظل طوال حياته الابن المخلص الأكبر لهيلاس الخالدة بأساطيرها الرائعة وفلسفتها العميقة ، وأدبها السامي ، وسيكون التغني بها اللحن السائد في كل أشعاره ، وسيكرس لها أروع ما خلف من آثار ، وهي قصته الغنائية «هيبريون» وهذه الثقافة اليونانية سيتعمقها هيلدرلن حين يدخل جامعة تيبنجن في خريف سنة ١٧٨٨ ، فيكون على صلة أوثق بالدراسات اليونانية التي ازدهرت في ألمانيا خصوصاً في ذلك الحين بعد أن اكتشف فنكلمن الروح اليونانية من جديد لثاني مرة في تاريخ الفكر الأوربي ، فنشأت عن ذلك نزعة إنسانية جديدة تشابه تلك التي وجدت إبان عصر النهضة الأوربية ، فُسّرت الروح اليونانية على أساسها بحسب طبيعة من آمنوا بها وتمثلوها . أما هيلدرلن فقد وجد جوهر هذه الروح في إعلانها بالشبه بين الطبيعة وبين الإنسان ، ومحاولتها التوحيد بينهما في نظرة كونية رائعة عبرت عنها في كل ما أبدعته من آثار في الفن والفلسفة والحياة العامة ؛ وقصدها الرئيسي أن تشيع القيم الإنسانية في الكون ، وأن ترتفع بالإنسان إلى مرتبة الألوهية ، وأن تقدس كل ما هو إنساني . وفي هذا كله ما يتفق وروح هيلدرلن ؛ فلم لا يجعل من هيلاس إذن ملاذ أحلامه ، ومصدر إلهامه ، والنموذج الأسمى المتجسد لمثله العليا ؟

وكان يشاركه في هذه النزعة الإنسانية الجديدة هيجل الذي تعرف إليه في جامعة تيبنجن سنة ١٧٩٠ أو سنة ١٧٩١ حيث كانا يدرسان سويا ، فكانت صداقة خصبة بين الاثنين لها في تطورهما الروحي أثر عميق متبادل . والقريب من أمر هذه الصداقة أن التأثير الفلسفي فيها قد جاء من جانب هيلدرلن الشاعر في هيجل الفيلسوف . وكان هيلدرلن متأثراً في هذا الاتجاه الفلسفي بشلر الذي كان هيلدرلن يقدسه حتى العبادة ؛ وشلر بدوره كان متأثراً بالمثالية التي أقام دعائمها كَنْت . وفي هذه المثالية وجد هيلدرلن ما يرضي نزعته إلى إقامة نظرة في الوجود على أساس التوحيد بين الله والطبيعة الحية والنبالة الإنسانية في صورة رضية حية ، صورة شعرية تناظر الصورة الفلسفية التي وضعها شلنج ، زميله الآخر في تلك الجامعة .

ثم انضاف إلى هذين العاملين النظريين ، عامل الثقافة اليونانية وعامل المثالية الفلسفية ، عامل فعلي هو الثورة الفرنسية التي ألهبت مبادئها الجديدة نفوس الشباب في أوربا كلها في ذلك الحين فملأتها حماسة دافقة تهيب بالعمل وتحاول أن تجد مصرفاً لآمالها ومثلها العليا في الأفعال لا في الخيال ؛ فتأثره هيلدرلن كل التأثر ، ولكن بحسب طبيعته الحالمة : إذ لم يجد مصرفاً لكل هذه النوازع التي تغلي بها روحه الوثابة المتوهجة إلا في الشعر ، والشعر الغنائي على وجه التخصيص . فأنشأ قصيدة رائعة بعنوان « أناشيد للمُثُل العليا الإنسانية » ، أودع فيها أنبل أحلامه : موضوعها الإنسانية لا الإنسان الفرد ، ومرماها إيقاظ الشعور بالجانب الأسمى في الإنسان ، ومدارها على إشاعة روح الحب في الكون بأسره ، حتى ينضم العالم كله في عناق واحد وقبلة واحدة كما نادى شلر ، فإن الحب هو القوة الكونية العليا التي بها تحيا الطبيعة وبدونها لن ينتظم الوجود ؛ والإنسان هو ابنها الأكبر ؛ فليكن المثل الأعلى للإنسان إذن هو الحب الكامل للإنسانية الكامنة في الكون بأكمله . وواضح جداً أن هذه الأناشيد متأثرة بشلر ، خصوصاً في رسائله الفلسفية .

وهكذا كان هيلدرلن الشاب أسمى تعبير عن المثل الأعلى الذي كان يخالج الشباب الأوربي عامة والألماني خاصة في ذلك الحين . ولكن لم يكن كبقية هذا الشباب المعذب القلق . فأكثرهم قد وجد مصرفاً لعواطفه في العمل الذي

انتهى بالكثير منهم إلى القضاء على حياتهم فى الثورات كما هى الحال خصوصاً بالنسبة إلى الشباب الفرنسى ؛ والبعض الباقى قد مل العمل فانتقل إلى مملكة الفكر النظرى فى العلم أو الفلسفة يجد فيها ملاذاً لأمانيه ونوازعه ؛ وكان هنالك نفر قليل جداً من الشعراء الممتازين اندفعوا وراء أوهامهم الجامحة ، متحازين إلى داخل نفوسهم ، معتصمين بفردوس أحلامهم ، مبتعدين عن الأرض وكلّ ما يُشعر بالواقع ، كما فعل كيتس وشلى ونوفالس . ولكن واحداً من هؤلاء النفر القليل لم يبلغ مبلغ هيلدرلن فى نبذ الواقع والانصراف إلى فردوس الأحلام العالية : فقد قضى على كل صلة تربطه ، من بعيد أو من قريب ، بهذا الواقع المحسوس ، وفصل بينه وبين الحياة بهوة لا يمكن عبورها ، آوياً إلى عالم لا ينتسب إلى عالمنا الأرضى فى شىء . والمهم فى هذا ليس فى مجرد الانصراف عن الواقع — فهذا شىء مألوف عند كثير من الشعراء — وإنما فى طبيعة هذا الانصراف : فقد كان مؤمناً بأن هذا العالم الذى خلقه بخياله هو وحده العالم الحقيق ، وما عداه قرائن لا حقيقة له ، ولم يعد يشعر بأن هنالك عالمين : عالم الناس وعالمه هو الخاص ، بل كان يشعر بعالم واحد ، هو عالمه ؛ وهذا الاتجاه يبدو لأول مرة بوضوح فى الأيام الأخيرة من إقامته بجامعة تيبنجن ، فقد بدأ يعبر عنه فى قصة هى القصة الوحيدة الكاملة التى تركها لنا ، ونعنى بها قصة : « هيبريون » التى بدأ العمل فيها فى يونيه سنة ١٧٩٢ .

وهنا وفى ديسمبر من تلك السنة أنهى هيلدرلن سنيه الدراسية فى اشتوتنجرت ، فأصبح فى وسعه أن يمارس وظيفة قسيس ، كما رغبت إليه أمه . ولكنه أنقذ من هذا المصير بواسطة شلر الذى وكلت إليه شرلوت فون كلب أمر اختيار معلم لابنها ؛ فاختار هيلدرلن ولما ينتهِ من امتحانه بعدُ . ونحن نعرف من هى شرلوت فون كلب هذه صديقة جيته : فهى شخصية من أعجب الشخصيات التى ظهرت فى عالم الحياة الروحية ، شخصية غريبة كلها أسرار وألغاز ، فهى « كائن غامض » كما قالت هى من نفسها ، وهى « فى غالب أحوالها حُلْم » كما قال عنها جان بول صديقها الشاعر الرومنتيكى . فطبيعتها إذن أقدر الطبائع على فهم هيلدرلن ، هذا الحالم الأكبر هو الآخر .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من العطف الكبير الذى شملت به هى وزوجها معلم ابنهما ، إلا أنه لم يستطع أن يبقى لديهما طويلا ؛ لسبب واحد ، هو أنه ليس فى وسعه أن يستقر طويلا فى إطار واحد ، ماذا أقول ! بل هو لا يستطيع مطلقاً أن يدخل فى أى إطار أرضىّ من شأنه أن يقيد روحه الملائكية الطائرة أدنى قيد . ولكن هذه الفترة لم تكن عقيما ؛ بل عنى فيها بتعمق فلسفة كَنْت والثقافة اليونانية ؛ كما تأثر شلرّ فى أبحاثه الجمالية التى ظهرت آنذاك ، مما جعله يتجه إلى العناية بعلم الجمال ؛ وفيها استمر يعمل فى قصته « هيبريون » ، حتى ظهرت منها القطعة الأولى فى مجلة « طاليا » التى كان يصدرها شلر .

اضطر إذن إلى العود إلى حياة الحرية ، فغادر بيت فون كلب إلى يينا فى مستهل سنة ١٧٩٥ . وهنا استطاع أن يتصل بشخصية كان لها خطر كبير فى تطوره الروحى . فهنا كان فِشْته ، الفيلسوف المثالى الأول ، يسود تلك المدينة بفكره وشخصيته ، فأعجب به هيلدرلن كل الإعجاب ، لأنه ، كما قال ، لم ير رجلا مثله فى قوة الروح وعمقها .

وطبيعى أن يؤثر فشته فى هيلدرلن هذا التأثير الذى لم يقتصر عليه ، بل تعداه إلى جميع الشعراء الرومنتيكيين الألمان ، لأن فلسفته مثالية مغالية قد رفعت الذات أو الأنا إلى مرتبة الوجود المطلق فكانت مثالية ذاتية متطرفة ، وهذا النوع يستهوى أكثر ما يستهوى طبيعة مثالية شاعرة كطبيعة هيلدرلن ؛ كما أنه قد أتى بنظرة فى تقدم الإنسانية وجد فيها شاعرنا سلواناً ودافعاً له فى تيار أحلامه الإنسانية النبيلة .

ولكن ، وعلى الرغم من أن هذا الجو الروحى الذى وجده فى يينا هو أخصب ما تأثر به من أجواء ، إلا أنه لم

يبق بها طويلا ، بل عاد فى صيف ذلك العام نفسه إلى وطنه فى نيرتنجن عند أمه . واستمر هنا حتى الأيام الأخيرة من ذلك العام ، حين ارتحل إلى فرنكفورت لكى يكون معلما لأبناء أسرة صاحب المصرف يعقوب جونتارد . وفى هذه الفترة حدثت له تجربة غرامية ، هى أعنف تجربة حية عاناها طوال حياته .

فقد وجد هنا ، وفى منزل جونتارد ، مثله الأعلى للمرأة الذى كان يتحرق شوقاً إلى رؤيته وعبادته وهو قائم أمام عينيه . فسوزان جونتارد ، أم تلاميذه ، امرأة ناصعة الجمال كأنها تمثال من المرمر صنعه فنان يونانى : خطوط واضحة ، وقسمات هادئة ، وانسجام فى أجزاء الجسم رائع ؛ ونفس نبيلة سامية ؛ وجمال هنا شأنه لا يثير فى النفس أى معنى من المعانى الجنسية ولا تتعلق به إلا الأرواح الطاهرة طهر روح هيلدرلن . ها هو ذا إذن مثله الأعلى للمرأة قد تحقق عينيًّا ، فلم لا يعجب بها ، بل ولم لا يعبدها محبّاً فيها أمله المنشود . « ديوتيا (وهذا هو الاسم الذى أعطاه لها) ؟ أيتها الحياة النبيلة ، أنت أختى ، أنت من قُرْباى المقدسة ، فقد عرفتك من قبل فى عالم بعيد قبل أن أقدم إليك يدىّ » ؟ أحبها هيلدرلن وبادلته هى حباً بحب ، ونعم كل منهما بهذه النعمة الكبرى ، فكانا كما قال هو فى قصيدته « شكاة مينون من ديوتيا » كزوج من البَلَشُون يسبح هادئاً على سطح البحيرة ، ناظراً وهو يتأرجح على تموج الموج إلى السحب الفضية وهى تنعكس على صفحة الماء ، وإلى الزرقة الأثيرية وهى تتماوج حول الزوارق ؛ وقضيا معاً ساعات مليئة بالعواطف السامية تزوّدها أحاديث هامسة تشيع من خلالها روح الإله ، وتسودها براءة جميلة وسذاجة ناعمة .

هاتان روحان خلقت كل منهما للأخرى ؛ ولكن آه ! ما أظلم حكم الوجود ! فهذه الروح الملائكية العالية قد قضت عليها طبيعة الحياة الظالمة أن تقترن برجل من رجال المال ، قد خلا من كل نبل روحى – شأنهم دائما – ، فلم يكن فى وسعها ولا فى وسع هيلدرلن أن يستمرا على هذا النشيد الغرامى العذب لمدة طويلة . وسرعان ما كان الفراق الضرورى الذى يقتضيه ما جبلت عليه الحياة من شر وحرص على الاشقاء والتعذيب . فاضطر هيلدرلن إلى مغادرة بيت جونتارد بعد أن قضى فيه ثلاث سنوات إلا قليلا .

وبعودته إلى وطنه تكاد تنتهى حياته الشعورية . لقد أصيب بالجنون فى حوالى سنة ١٨٠٢ ، ومنذ ذلك الحين وحياته تكاد تنتقل من الواقع إلى الأسطورة : فهنا وفى كهف الجنون عاش هيلدرلن أكثر من أربعين سنة فى بيت نجار آواه ، كان فى أثنائها كما قال : « لقد حييت قليلا ومع هذا فلست استروح غير برد الماء ؛ وهأنذا هنا صامت أشبه ما أكون بالظلال ؛ وهذا قلبى الحزين ، العاجز من الفناء ، ينام الآن فى صدرى » . واستمر يحيا فى ظلمات الجنون حتى أدركته ظلمات الموت فى السابع من هذا الشهر من مائة عام تماما .

عبد الرحمن بدوى

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

المعاهد الدينية أيضاً — يقظة الضمير ...

المعاهد الدينية أيضا :

كتب إلىّ « أزهرى » يقول من رسالة طويلة :

« ... لقد كنتَ فينا مرجُوّاً قبل هذا ؛ فكيف بالله تغيرتَ عما عهدناه فيك وعما رَجَوْناك له فكتبتَ ما كتبتَ عن المعاهد الدينية(1) ؟ ... ...

« ... على أنى لم أفهم قصدك ؛ أتريد أن تقول إن هذه المعاهد الدينية لا نفع فيها وليس لها مكان فى هذه الأمة التى انخلعتْ من ماضيها وبرئتْ منه ومضت على وجهها فى طريق لا تعرف آخره ولم تفكر فيه ؟ ... إنى أربأ بك أن يكون هذا قصدك ... ، ولا بد أن يبقى هذا الأزهر وروافده « مثابةً للناس وأمناً » تثوب إليه هذه الأمة حين يُضنيها السيرُ فى هذه التاهة التى تضرب فيها على غير هدى وإلى غير غاية ... ...

« ... وتقول فى كلمتك : « إن الأزهر قد أنشئ على منهج علمىّ خاص يوائم حاجات الناس فى شئون الدين وفى شئون الحياة طبقا لمقتضيات عصره ... فإما أن تعود الأمة إلى مثل ما كانت فى ماضيها ويبقى الأزهر حيث كان ، وإما أن يتجدد الأزهر ؛ أما بقاؤه حيث هو اليوم والأمةُ حيث هى فشذوذ وخطل وغفلة » . هكذا قلتَ فيما كتبت ؛ وهو أسلوب له منطوق ومفهوم ، وظاهر وباطن ؛ ولولا أن لى فيك رأياً لا يسهل علىّ أن أغيّره لظننتُ بك الظن ؛ ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أبرِّئك ، لأنى لم أستطع أن أفهم قصدك واضحاً على طول ما حاولت ... »

(1) انظر الثقافة ، العدد : ٢٣١

« ... ومضيتَ فى قولك بعد هذا تبدئ وتعيد وتدور حول نفسك من غير أن تنتهى إلى رأى واضح أو اقتراح عملىّ ، ولكل جملة فى كلامك مفهوم ومنطوق ، وظاهر وباطن ؛ أفلم يكن أجدر بك أن تقترح الرأى حين عرضتَ المشكلة ؛ أم تُراك قد خشيتَ سوء العاقبة ؟ ... »

***

هذه مقتطفات من رسالة « الأزهرى » الأديب ، لم أحذف منها إلا ما رأيتهُ خاصا بى من إطراء أو من تعريض أو من توريط ... ...

ويبدو أن « الأزهرى » الكاتب لم يعجبه ما كتبتُ عن المعاهد الدينية فى جملته دون تفصيله ، لسبب لم أتبينه ، أو لا أريد أن أتبينه ؛ فلعله سبب يتصل بشخصه ، أو بعيشه ؛ فهو لم يجد شيئاً فيما كتبتُ جديراً بالنقض أو بالاعتراض إلا أن يسألنى أن أوضّح له القصد أو أقترح الرأى ؛ أما المشكلة كما عرضتها فلم يناقشها سبباً ولا نتيجة ...

لقد قلتُ إن الإسلام فى حقيقته لا يعترف بشئ مما يسمّى عند غيرنا « رجال الدين » فما ينبغى أن يكون الأزهر معهداً لذلك وحده ؛ وقلتُ إن المعاهد الدينية التى تُعد خريجيها لاكتساب العيش والتأهل للحياة يجب أن تخضع لقانون « الإحصاء والحاجة » ، حتى لا تنشئ نوعاً من البطالة يفرض على الشعب والدولة والحياة الاجتماعية فروضاً لا قِبَل للوفاء بها ...

ذلك ما قلتُه ، وهو قول صريح الدلالة ، صادق المنطوق والمفهوم ، متلاءمٌ ظاهرهُ وباطنه ؛ فإذا كانوا يريدون الأزهر معهداً لتخريج « رجال الدين » فقد بطل موضعُه ، وإن أرادوه معهداً يؤهّل للحياة الدنية وجب أن يحدَّد عددُ طلابه بقدر ما تدعو إليه الحاجه ...

ماذا أقصد بعد ذلك وماذا أقترح ؟ ... لستُ أقترح شيئاً ، وإنما عرضتُ المشكلة ليرى فيها كلُّ ذى رأى

رأيه ؛ وذلك كلُّ ما قصدتُ إليه بريئاً من الهوى والغرض ؛ فإن كان في هذا العرض نقص أو في مقدماته خطأ فليكمّل هذا النقصَ من شاء، أو يصححه ؛ وليس علىّ علاجُ كلّ ما أعرض من مشكلة وحسبي أنى شخّصتُ العلة ...

وما أنكرتُ رأيى خشيةَ سوء العاقبة كما زعم قائلها ؛ ولعله لو تتبّع كل ما أكتب فى هذا الباب لعرف صريحَ مذهبى ؛ فقد التزمتُ فى كل ما أعالج هنا من موضوعات الكتابة أن « أتجرّد » ، فإنى لأعرض المسألة بأسبابها ومقدماتها وألقى عليها الضوء الكاشف ثم أمسك ، لأدع لكل قارئ أن يرى رأيه فلا أفرض عليه رأيى ؛ وكذلك فعلتُ فى هذه المشكلة .

... أم هو يخشى أن تنتهى به هذه المقدمات إلى النتيجة التى لا يرضاها فيهرب من الاعتراض الصريح إلى سؤال : ماذا تعنى ؟ ماذا تقترح ؟ ... ، لا ليس هذا هو الوجه ، وإنما الوجه أن يزيّف ما أسلفتُ من أسباب ومقدمات ، « وعلىّ تبعة الرأى وحدى ! »

يقظة الضمير :

ويسألنى سائل :

« أنت ثبّتَّ رأى الإسلام فيما سماه محرر « الأهرام » صندوق يقظة الضمير[1] ، وقلت إن التائب من ذنب يتعلق بحق من حقوق العباد لا تُقبل توبته إلا أن يردّ إلى كل ذى حق حقه ؛ فإن كان صاحب ذلك الحق بحيث لا يمكن أن يُردّ إليه حقه ، كأن مات أو خفى أثره أو كان غير معروف على التحديد ، وجب أن يودعه فى « بيت مال المسلمين » كما تسميه ، أو فى « صندوق يقظة الضمير » كما يسمونه فى أوربا ...

« ذلك حق ، وهو أدب الإسلام الذى تأدب به أسلافنا فبلغوا ما بلغوا ؛ فكيف غاب عنا معناه اليوم وعقلوه فى أوربا ، فكان فى كل بلد من بلادهم « صندوق يقظة الضمير » ولا ضمير لنا ، حتى ليقتلع السيدُ الغنى حجارة المسجد ليبنى بها غرفة فى قصره للشراب والغناء واللهو الحرام ؟ ... ... »

***

ولستُ أنكر شيئاً مما قال السائل ، وإنه ليجد الجواب فيما أقص عليه :

١ — صديق فلان موظف فى الحكومة ، رأيته ذات يوم يحمل فى حقيبته رزمة من ورق الحكومة إلى داره ؛ فقلت له : أتراك تعمل فى الدار بعض عمل الحكومة ؟

قال : لا ، ولكنه لولدى يؤدى به بعض عمله المدرسى !

قلت : ولكنك لا تملكه ، فكيف جاز لك ؟

فابتسم وقال : أليس من حق ولدى على الدولة أن يتعلم ؟ ولكنها لا تعلّمه إلا عما أدفع للمدرسة من مصروفات أقتطعها من قوتى ! ... أو ليس من حق على الدولة أن تعيننى على تربية بَنِىّ وإنى لعائل كثير الولد ؟ ولكنى لا أقبض من المرتب إلا مثل ما يقبض زميلى العَزَب وإنه لخفيف الظهر ليس عليه إلا نفقة نفسه ! ... أو ليس من حق ولدى على مدرسته أن تعطيه ما يحتاج إليه من « أدوات » وقد دفعتُ إليها ما طلبتْ من أجرة ؟ ولكنها لا تعطيه ما يفى بالحاجة ولا تزال تسأله كل يوم أن يدفع ثمن أدوات جديدة ! ... وتسألنى بعد ذلك كيف جاز لى وإنه لحقّى ! !

٢ — وذلك عامل فى مصنع يعمل بأجر يومى ، يجدّ إذا حضر صاحبُ العمل ويلهو إذا غاب ؛ فإنه ليعمل من اليوم نصفه ويقبض أجر اليوم كله . قلت له : ألا تخاف الله ؟ إنك لتخون الأمانة وتستحلّ أجرةً بلا عمل !

فابتسم العامل كصاحبه ذلك وقال : تسألنى كيف أستحلّ أجرةً بلا عمل ؛ وكان حقيقاً أن تسأل غيرى :

(١) الثقافة : العدد ٢٣٦

كيف تستحلُّ عملا بلا أجرة ؟ ماذا يعطيني صاحب العمل وماذا يأخذ مني ؟ إن ما يقدّره لي من أجرة على عمل اليوم لا يكاد يكافئ عمل ساعة ؛ ولستُ أملك أن أطلب زيادة الأجرة حتى لا يستغني بغيري عني ، ولكني أملك أن أعطيه من العمل على قدر ما يعطيني من الأجرة وأدّخر عافيتي ؛ فإنه ليأخذ حقه كله وإن خُيّل لك غيره ، وما خنتُ الأمانة ولا استحللتُ أجرة بلا عمل !

٣ — وذلك فلاح في حقله ، رأيته يشوى الذرة من حقل جاره فيأ كلها وإن في حقله ذرتُه ؛ فسألته : كيف طوّعتْ لك نفسُك أن تفعل ذلك فتبخل بمالك على نفسك وتسرق جارك ؟

وابتسم ابتسامة صاحبه وأجاب : لست أسرق ولكنه حق ؛ لقد مال جاري على الحد الفاصل بين أرضَيْنا فغصبني بضع قصبات زاد بها مساحةَ أرضه ، ولم أملك أن أستردّ حقي لأنه ذو جاه ومال وعزْوة ، فتركتُ له ما غصب ولكني لا أترك له ثمره ؛ فهذه الذرة التي أكلتُ هي حصاد أرضي التي يملكها غصباً ؛ فهل ترانى بذلك أبخل بمالي لأسرق جاري ؟...

... هؤلاء الثلاثة الذين قصصت قصتهم يعيشون بيننا ، وإن لهم آلافاً من الأشباه في كل ديوان ، وكل مصنع ، وكل حقل . أترى واحداً من هؤلاء وأشباههم يعترف على نفسه بخطيئة وإنه ليعيش في هذا المجتمع ؟ إن في قرارة نفس كل واحد منهم « قاضياً » يفتيه فيقنعه ، لأن كل ما حوله من أسباب الحكم يقدم له أسباب المعذرة قبل الذنب ؛ وما دامت « الجماعة » التي تعيش فيها ليس لها ضمير اجتماعي يعترف لكل فرد فيها بحقه فليس لفردٍ فيها ضمير يعترف لها بحق عليه ، وإنما يحِلُّ الحلالُ ويحرُمُ الحرام حين يشعر كل فردٍ في الجماعة أنه مكفول الحق الشخصي ، والحقّ الإنساني ؛ فإذا ما وقَر في نفس فرد واحد من الأمة أن حقّه مضيّع إن لم يأخذه لنفسه بنفسه ، فقد سَقَط عنه التكليف وزالت عنه التبعة ، إلا من تحرّج من الشبهات وآثر على نفسه ؛ وهي مرتبة فوق مرتبة العامة .

ليس في مصر صندوق من نوع « صندوق يقظة الضمير » يتبرع له بما يتبرع كل متحرج من إثم أو شبهة في مال تطهيراً لنفسه . نعم ، لأنك لا تجد في مصر طامعاً في مالٍ حرام إلا وفي يقينه أنه يسترد حقاً مسلوباً ، فإنه ليستحل ما يسلب وما يسرق كأنما يسترد ماله المغصوب وقد عجز « القاضي » أن يردّه إليه بقوة حكمه !

ليت شعري أين نطلب يقظة الضمير بادئ ذي بدء ، في القاضي ، أم في المتهم ؟ أما إن القاضي لو عدل لكان المذنب حريًّا بأن يستيقظ ضميره !

قاف

الكون... !

أرْسِلِ الخاطرَ في أفْراحِهِ
إنها لِلخاطِرِ الصّديانِ رِيٌّ
كلُّ ما في الكونِ لاهٍ ضاحكٌ
ليس في أعْراسه باكٍ شَجِيٌّ
السَّنا والليل والطيرُ الندى
يُبدع الألحانَ والوردُ النديُّ
وانسياب الماء في جدولِهِ
تَيِّملا يحدوه حاديه الحفيُّ
والنجوم الزهر في صدر الدُّجى
والمروج الخضرُ والطلعُ الجنيُّ

* * *

ليت شعري أيُّ قلبٍ يدَّعي
أنه في هذه الدنيا شقيٌّ ؟
الحياةُ الفرْحَةُ الكبرى فما
أنت — إن لم تقتل الأحزانَ — حيٌّ

إسكندرية — توفيق محمد عيد

من الشعر المحول :

الجنـــة الضائعة

كم من عهودٍ عذبةٍ في عدوةِ الوادي النضيرْ
فضيةِ الأسحارِ مذهبةِ الأصائلِ والبكورْ
كانت أرقَّ من الزهورِ ، ومن أغاريد الطيورْ
وألذَّ من سحر الصبا في بسمة الطفل الغريرْ
قضيتها ومعي الحبيبــةُ لا رقيب ولا نذيرْ
إلا الطفولة حولنا تلهو مع الحب الصغيرْ
أيام كانت للحياة حلاوة الروض النضيرْ
وطهارةُ الموجِ الجميل ، وسحرُ شاطئه المنيرْ
ووداعةُ العصفور ، بين جداول الماء النميرْ
أيامَ لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرورْ
وتتبع النحل الأنيق وقطف تيجان الزهورْ
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخورْ
وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيورْ
مسقوفةً بالورد ، والأعشاب ، والورق النضيرْ
نبني فتهدمها الرياحُ ، فلا نضجُّ ولا نثورْ
ونعود نضحكُ للمروجِ وللزنابق والغديرْ
ونخاطبِ الأصداءَ وهيَ ترفُّ في الوادي المنيرْ
ونعيدُ أغنيةَ السواقي وهيَ تلغو بالخريرْ
ونظلُّ نركضُ خلفَ أسرابِ الفراشِ المستطيرْ
ونمرُّ ما بين المروج الخضر في سكرِ الشعورْ
نشدو ونرقص — كالبلابل — للحياة وللحبورْ
ونظلُّ ننثر للفضاءِ الرحب والنهر الكبيرْ
ما في فؤادينا من الأحلام أو حلو الغرورْ
ونشيد في الأفق المنوَّر من أمانينا قصورْ
أزهى من الشفق الجميل ورونقِ المرج الخضيرْ
وأجلَّ من هذا الوجود وكلُّ أمجاد الدهورْ
أبداً ، تدللنا الحياة بكل أنواع السرورْ
وتبثُّ فينا من مراح الكون ما يغوي الوقورْ
فنسيرُ ، ننشدُ لهونا المعبودَ ، في كل الأمورْ
ونظلُّ نعبثُ بالجليل من الوجود وبالحقيرْ
بالسائل الأعمى ، وبالمعتوه ، والشيخ الكبيرْ
بالقطة البيضاءِ ، بالشاة الوديعةِ بالحميرْ
بالعشب ، بالفنن المنوَّر ، بالسنابلِ ، بالسفيرْ[1]
بالرملِ ، بالصخر المحطَّمِ ، بالجداول ، بالغديرْ
واللهوُ والعبثُ البريءُ الحلوُ مطمحُنا الأخيرْ
ونظلُّ نقفزُ ، أو نغني ، أو نثرثرُ ، أو ندورْ
لا نسأم اللهو الجميلَ ، وليس يدركنا الفتورْ
فكأننا نحيا بأعصابٍ من المرحِ ، المثيرْ
وكأننا نمشي بأقـــدامٍ مجنحةٍ تطيرْ
أيام كنا لُبَّ هذا الكونِ ، والباقي قشورْ
أيام نفرش سبْلَنا الدنيا بأوراق الزهورْ
وتمرُّ أيامُ الحياة بنا كأسرابِ الطيورْ
بيضاء ، لاعبة ، مغردة ، مجنحة بنورْ
وترفرفُ الأفراحُ فوقَ رءوسنا أنَّى نسيرْ !

* * *

[آهِ تواري فجرِيَ القُدسيُّ في ليلِ الدهورْ[2]
وفنى كما يفنى النشيدُ الحلوُ ، في صمتِ الأثيرْ
أوّاه ! قد ضاقت عليَّ سعادةُ القلبِ الغريرْ
وبقيتُ في وادي الزمانِ الجهنميِّ أدأبُ في المسيرْ
وأدوسُ أشواكَ الحياةِ بقلبيَ الدامي الكسيرْ
وأرى الأباطيلَ الكثيرةَ والمآثمَ والشرورْ
وتصادمَ الأهواءِ بالأهواءِ في كلِّ الأمورْ
ومذلةَ الحقِّ الضعيفِ وعزّةَ الظلمِ القديرْ !
وأرى ابنَ آدمَ سائراً في رحلةِ العمرِ القصيرْ
ما بين أهوالِ الوجودِ ، وتحتَ أعباءِ الضميرْ

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

(١) ما تساقط من أوراق الشجر .
(٢) ما بين القوسين أهمله الشيخ المرياضي عند النقل من أبولو لأنه لم يعجبه .

من صور الطبيعة :

الكافورة الشاعرة !

دوحة بالشاطئ الوسنان ... بالله كم صوحت من أزمان !
عجبا كأنك في الضفاف حقيقة ... جبارة خلقت من الأذهان
أرسلت أظلالا راقصها التي ... ربعثت أنغاما بغير لسان !
من همسة الأغصان جرس قصيدة ... قدسية تسمو على الأوزان
و صمتها نغم الطبيعة ناطق ... يا صمتها كم فيك من ألحان !
كم رنة من شاعر قد عانقت ... أنشودة رنت من الأغصان
كم نظرة كشفت عيا صبيهم ... خفيت حقيقته على الأذهان
من ظلك والحياة طليقة ... بسامة خلصت من الأحزان
دوحة بالشط راقصت التي ... ذكراك لم تبرح ضمير جناني
حدت لك الأيام وبحك ولة ... وهي التي نسجت من الطغيان
ويحها حفرت ظلك قبرها ... فطويتها والظل في النسيان
بيل في عطفيك سر خالد ... بعث الحياة بدوحك الفينان
لأنس في كيانك روحه ... رفافة بسامة الأكوان
إليك مع الصباح وفي الضحى ... والليل .. بالعاشق الولهان !

فإذا سرت قبل النسيم وعطرت ... شفة الغصون بعطرها الروحاني
سرت الحياة بنا وغردت التي ... ألحانها السكرى بخمر حنان

* * *

غنيت لنا الإظلال من روح الهوى ... والدمع في كأس من الحرمان
لا الصبر يشفي بخمرة سره ... في معبد الذكرى ولا ألحاني
أشعلت أشجاني وهجت خواطري ... يا شقوتي من ثورة الأشجان
رعشات ظلك ألهبت بي ذكرة ... مجنونة الأشواق والنيران
وحنين طيرك كنت في ملكوته ... أمس .. وقلبي في التأمل فان
سجعت لك الأيام وبحك والطيوف ... ذكر بها في لجة النسيان !
فبحق طيرك والظلال تكلمي ... فالشك يسطع في دجى الكتمان
وتحدثي من سر عيش غامض ... قهر العقول وبغ في الطغيان
دنياك ما دنياك غير حقيقة ... لبست رداء حقيقة البهتان !
الترب أسفلها وأصل حقيقتي ... ما أحقر الدنيا وما أشقاني
وإذا أردت الخير طوقني الضحى ... وإذا أردت الشر ضاء زماني
فتحدثي بالله عن سر الدنا ... فلرب ناطقة بغير لسان
تستطيع لو صدقت بيان حقيقة ... خفيت على الإحساس والأذهان

صبحي محمود الشبيني

متشلقا جبل الحياة الوعر كالشيخ الضرير
دامي الأكف ، ممزق الأقدام ، مغبر الشعور
مترنح الخطوات ما بين الزلالق والصخور
هالته أشباح الظلام ، وراعه صوت القبور
ودوى إعصار الأسى والموت في تلك الوعور !
ماذا جنيت من الحياة ومن تجاريب الدهور
غير الندامة والأسى واليأس والدمع الغزير !
هذا حصادي من حقول العالم الرحب الخطير
هذا حصادي كله في يقظة العهد الأخير !]
قد كنت في زمن الطفولة والسذاجة والطهور
أحيا كما تحيا البلابل والجداول والزهور
لا تحفل الدنيا ، تدور بأهلها أولا تدور
واليوم أحيا مرهق الأعصاب مشبوب الشعور
متأجج الإحساس أحفل بالعظيم وبالحقير
تمشي على قلبي الحياة ، ويزحف الكون الكبير
هذا مصيري يا بني الدنيا ، فما أشقى المصير !

الثقافة :

هذه القطعة الشاردة لأحد رواد الشعر العربي الحديث ، الشاعر الشاب المرحوم أبي القاسم الشابي ، شاعر تونس الخضراء ، وقد نشرتها من قبل مجلة « أبولو » بعدد مايو سنة ١٩٣٣ ! وقد بعث بها إلى الثقافة أحمد العربي جمعة المرياضي الطالب بكلية اللغة العربية بالأزهر يطلب نشرها مذيلة بإسمه . ونحن لا نضن عليه بنشرها ، شاكرين هذه الفرصة التي أتاحت لنا الإشادة بشاعرية أبي القاسم الشابي التي تعتز بها العربية ، وآسفين لهؤلاء الذين لا يخجلون يجرون على تراث الخالدين من أهل الأدب ، ويخدعون أنفسهم .

وعسى أن تكون هذه الإشارة الهينة خير رادع لمن تخدعهم شهوة الشهرة إلى مثل هذا الإسفاف الخلقي ، ثم لعلهم بعد يفقهون قول الشاعر :

لا تطلبوا المولى ولذ خال المنى ... إني أخاف عليكم أن تغلبوا

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — التليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٤ — الثلاثاء ١٩ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٢ — ٢٢ من يونيه سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

إلغاء الكومنترن

للدكتور محمد عوض محمد

إذا قسمنا العالم إلى وحدات سياسية، تفصل ما بينها حدود واضحة المعالم كأنها جدران تحيط بكل وحدة من جميع أطرافها، فإن تقسيمنا هذا يسمى تقسيما رأسيا، لأن كل حد من الحدود بمثابة حائط قائم، يعزل كل وحدة عن جاراتها، ويجعل لها وجودا مستقلا. وكثيرا ما تكون هذه الحدود حقيقة كالحائط المنيع، كما هي الحال في جبال البرانس بين فرنسا وإسبانيا. ولكن سواء أوجدت تلك الجدران الطبيعية، أو أقيمت مكانها حدود فاصلة من نوع آخر، فإن العالم على كل حال مقسم تقسيما رأسيا، يعزل كل دولة في داخل حيز معروف، وفي داخل حدود واضحة.

ولكن كل دولة تشتمل على طبقات بعضها فوق بعض، وهذا النظام الطبقي، يقسم كل دولة تقسيما أفقيا. سواء أكان هذا التقسيم قائما على الثروة والمال، أو على الجاه والسلطان، أو على العلم والعرفان. ومن ثم جاز للناس أن يتحدثوا عن طبقة السادة والسوقة والأحرار والعبيد، والعلماء والجهال. وأصحاب الأعمال والعمال. ولقد ذهب بعض الشعوب في هذا التقسيم الأفقي مدى بعيدا بأن ألزمت كل فرد أن يزاول مهنة أبيه، وأن يظل هكذا في طبقته فلا يبرحها، ولا يخترق الفاصل الطبقي، والإخرج على العرف والدين والتقاليد.

وهذه الطبقات في داخل كل أمة ليست مشابهة تماما للطبقات في كل أمة أخرى، ولكنّ هناك تشابها كبيرا في التقسيم الطبقي بين كثير من الأمم، وهذا التشابه واضح كل الوضوح بوجه خاص في الأمم الكبيرة التي تمتاز بها العصور الحديثة.

ووجود أقسام أو طبقات متشابهة في كثير من الدول كان من شأنه أن خلق تقسيما أفقيا في العالم؛ وأخذ

الناس يتحدثون عن طبقات الحكام ، وطبقات العمال ، وطبقات العلماء وغير ذلك من الاصطلاحات ، التى تنتظم العالم كله ، وبصرف النظر فيها عن الحدود السياسية التى تفصل بين الدول .

ولم يكن بد على مدى الزمن من أن تدرك هذه الأقسام المتشابهة ما بينها من الروابط وأن تسعى فى أن يتصل بعضها ببعض ، وأن يشملها نوع من النظام المشترك . وقد ساعدت سهولة النقل وسرعة السفر بالوسائل الحديثة ، على الاتصال بين هذه الطبقات . وكانت الطوائف العليا أسرع الطبقات إلى التآخى ، أو على الأقل إلى التظاهر بمظهر الإخاء . فلقد كان ملوك أوربا فى الأزمنة الحديثة ، يتخاطبون بيا أخى ، أو — فى أحوال شاذة — بيا ابن عمى . ولم تلبث بعد ذلك الجماعات الأخرى أن أخذ بعضها يتصل بالبعض ، ويلتق أصحاب الحرف الواحدة أو الأغراض المتشابهة ، مرة فى كل عام ، أو فى كل عامين أو ثلاثة ، فيأتمرون فى شئونهم . ثم ينصرف كل وفد إلى بلده ، لكى يسعى فى تنفيذ ما اتفق عليه المؤتمرون ، بقدر الإمكان .

والعادة أن يكون قوام النظام الدولى لكل طبقة شيئين : أولها مؤتمر دولى يجتمع فى دورات منظمة ، والثانى مكتب دولى له مقر ثابت فى مكان من الأمكنة ، وتعمل فيه سكرتيرية دائمة ، هى حلقة الاتصال بين الجماعات المشتركة فى هذا النشاط الدولى الخاص .

وسيقول قائل إن هذه الأقسام الأفقية الدولية تضر بالاستقلال القومى ، وتنقص منه نقصاً شديداً . ولكن هذا يتوقف إلى حد كبير على نوع الطائفة وبرنامجها . فإن اتحاد الشعراء مثلا إذا اجتمع كل عام لكى ينظر فى الوزن والقافية ، وما يجوز للشاعر دون الناثر ، لا يمكن أن يضر بالاستقلال السياسى ضرراً بليغاً .

والاتحاد الدولى للبريد نعمة من أكبر النعم على جميع سكان العالم . وإذا حد من استقلال أمة بأن منعها من العبث بريد أية دولة أخرى . فإن فى هذا خيراً كثيراً للجميع .

والمذهب الكاثوليكى هو من غير شك من النظم الدولية ، لأنه يخترق الحدود السياسية فى العالم القديم والجديد ، ولا بد لكل حكومة تريد أن تضطهد هذا المذهب ، أن تدرك أنها بعملها هذا تجرح شعور حكومات وشعوب عديدة . ومثل هذا يقال أيضاً عن اليهود المنتشرين فى جميع أنحاء العالم .

وصفوة القول إن هذا النشاط الدولى لطوائف عديدة ، يخترق نظامها الحدود السياسية ، لن يكون له أدنى ضرر باستقلال أية دولة ذات نظام داخلى متين . وفوق هذا فإن هذا النشاط كان خير وسيلة لتنظيم الصلات والروابط بين الأمم وإزالة ما بينها من اختلافات ، لو تركت وأهملت لكانت لها عواقب وخيمة .

* * *

والكومنترن مظهر من مظاهر هذا النشاط الدولى ، الذى يخترق الحدود السياسية . ولفظ كومنترن اختصار لكلمتين كومونست (شيوعى) وانترنا سيونال (دولى) ، أى الرابطة الشيوعية الدولية ، وهى الهيئة التى جاهرت ألمانيا بعدائها ، وألفت « اتحاداً » من بضع دول لمناهضتها . والتى طالبت روسيا فى الشهر الماضى من المشتركين فيها إلغاءها .

والكومنترن يدعى أيضاً باسم « الهيئة الدولية الثالثة » . وقد سبقتها هيئة أولى وثانية ، وهى كلها ذات صبغة اشتراكية أو شيوعية ، وقوامها الطبقات العاملة التى تشتغل فى المصانع ، وقد أضيفت إليها بعد ذلك طبقة الفلاحين .

وقد تأسست الهيئة الدولية الأولى فى عام ١٨٦٤ ، بتأثير التعاليم الصادرة من كارل ماركس وإنجلس . وكان

كلاهما من أعضائها العاملين . ولكن الجو لم يكن ملائماً لإنشاء مثل تلك الهيئة . وطبقات العمال لم تبلغ المرتبة التى تمكنها من تنظيم مثل تلك الحركة . ولذلك سارت سيرة عرجاء منذ إنشائها ، إلى أن طويت فى عالم النسيان ، بعد إنشائها بعشر سنين .

وأسست الدولية الثانية عام ١٨٨٩ ، بعد وفاة الأولى بخمسة عشر عاماً . وكانت خليطاً من العناصر الاشتراكية والشيوعية ، ولكن تغلب عليها الصفة الأولى . وكانت أحزاب العمال والجماعات الاشتراكية قد أخذت تظهر فى كثير من دول أوربا وتتألف منها أحزاب سياسية منظمة .

وازدادت الدولية الثانية قوة ونشاطاً حتى كان من بين أعضاء مكتبها فى عام ١٩١٢ أشخاصاً عظماء مثل لنين ، وإيبرت الذى صار رئيس الجمهورية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى . وستاونج الذى أصبح فيما بعد رئيس حكومة السويد ، ورمزى مكدنالد الذى صار رئيساً للحكومة البريطانية نفسها . وقد عنيت هذه الهيئة عناية خاصة بالسياسة الدولية ، وبالعمل على منع الحرب . ولكن النزعات القومية تغلبت عليها ، واشتعلت الحرب العالمية الأولى بالرغم منها . وخمدت الحركة خموداً تاما فى أثناء تلك الحرب .

ولكنها عادت إلى الانتعاش مرة أخرى بعد الحرب ، وتعلمت صفوفها ، وزادها قوة ظهور هيئة جديدة ، وهى الكومنترن (أو الدولية الثالثة) .

وهناك فرق كبير بين الثانية والثالثة فى المبادئ والأغراض والأساليب . فإن الحركة الدولية الثانية تلتمس الوصول إلى أغراضها بالوسائل المشروعة ، وبالتعاون مع الحكومات القائمة ، وتميل إلى النظم البرلمانية الديمقراطية .

أما الحركة الدولية الثالثة ، فإن ظهورها يرجع إلى تدهور الحكم القيصرى فى روسيا ، ولأن قادة الحكم فى ألمانيا رأوا من المصلحة أن يسمحوا لكل من لنين وتروتسكى أن يذهبا إلى روسيا ، لكى يتوليا تنظيم الثورة الجديدة فى روسيا .

وكان لنين قبل ذلك من الأشخاص البارزين فى الحركة الدولية الثانية ، وكان يقود جماعة مستقلة ذات نزعة شيوعية ، وكان يرجو أن يوفق إلى تحويل الحركة الدولية الثانية إلى هيئة شيوعية من غير حاجة إلى خلق هيئة جديدة . فلما خانه التوفيق فى هذا اضطر إلى تأسيس الدولية الثالثة (الكومنترن) فى موسكو فى شهر مارس سنة ١٩١٩ . حيث أنشئ لها مكتب خاص لإدارتها والإشراف عليها .

كان الكومنترن إذن عبارة عن نظام دولى مركزه — ولو مؤقتاً — موسكو ، يجمع الأحزاب الشيوعية فى جميع الدول ، ويضع لها النظم ويرسم لها الخطط ، ويراقب تنفيذها مراقبة دقيقة .

بهذا اختلف الكومنترن عن كل هيئة دولية أخرى لأنه هيئة مركزة تأتمر أجزاؤها فى كل أمر ذى خطر — بالأوامر التى تصدر لها من المركز الرئيسى فى موسكو ، الخاضع من غير شك لتأثير الحكومة الروسية . وهكذا ظهرت فى العالم السياسى ظاهرة جديدة . وهى هيئة خاضعة لإحدى الحكومات . تصدر تعليمات إلى رعايا حكومة أخرى . ومن أجل هذا اضطرت بعض الحكومات إلى تحريم الجمعيات الشيوعية بتاتاً .

وقد استغلت الدعاية الألمانية هذه الحالة أشد استغلال وأسرفت فى التنديد بالحكومة الروسية ، وبمن يصادقها ، أو يتحالف معها . ورأت حكومة موسكو أن تسد هذا الباب فى وجه الدعاية الألمانية ، فقررت إلغاء الكومنترن وطلبت من الأحزاب المشتركة فيه فى جميع الدول أن توافق على هذا الإلغاء ، فقبلت بالإجماع . وزالت الدولية الثالثة من الوجود .

والحقيقة أن الدعاية الألمانية ضد الشيوعية الدولية .

كانت دائما دعاية فارغة لا تقوم على أساس متين ، وذلك لسببين :

أولهما : أن النشاط الدولى الروسى قد هدأ منذ تولى ستالين حكم روسيا .

ثانيهما : أن النظام الشيوعى فى روسيا قد أصبح ملطفا ، واتخذ صورة أقرب إلى الاشتراكية ، والرأسمالية الحكومية .

فإن ستالين لم يكد يتولى الحكم فى روسيا ، حتى نشأ نزاع بينه وبين تروتسكى ، فالأخير كان لا يزال يحلم بنظام عالمى ، ونشاط يتناول جميع طبقات العمال فى العالم . أما ستالين ، فكان ينظر إلى الأمور نظرة قومية . ويرى أن أول واجب على حكومة روسيا أن تعنى بروسيا وبالشعب الروسى . وأن فى موارد روسيا الواسعة ما لو أحسن استغلاله لأصبحت به من أغنى الدول وأكثرها رفاهية ورخاء . لهذا كف قادة روسيا عن التحدث عن نظام شيوعى عالمى ، ووجهوا كل عنايتهم إلى ترقية الصناعة وتحسين وسائل النقل ، وإنشاء المشروعات الضخمة ، التى تدر غلات تزداد عاما بعد عام .

أما أن المبادئ الشيوعية نفسها قد عدلت تعديلا جوهريا ، فإن هذا ما شهد به كثير ممن درسوا الحياة عن كثب فى روسيا ، وحسبنا هنا أن نستشهد بما جاء فى كتاب المستر ديفز رئيس الوفد الأمريكى إلى موسكو . حيث يقول : « ليس من شك فى أن قادة الحكومة الروسية قد اضطروا لأن يعدلوا عن المبدأ الشيوعى بأن يكون الأجر على قدر الحاجة ، إلى المبدأ القديم القاضى بأن يكون الأجر على قدر العمل والمجهود . وهذه الحالة تسود النظام الحالى كله ... وهكذا نرى أن النظرية التى ترمى إلى خلق شعب يتألف كله من طبقة واحدة ، قد أخذت تتلاشى بالتدريج . فالحكومة نفسها عبارة عن نظام بيروقراطى يشتمل على جميع الرتب ، والمميزات الملحقة بكل رتبة ، مثل ارتفاع مستوى المعيشة وما شاكل ذلك . والكتاب ورجال الفن لهم ميزات عديدة ، ويتمتعون بكثير من النعم التى لا يمكن إحرازها إلا بفضل من المال .

وعضوية الحزب تجعل لصاحبها مكانا ممتازا وتلحقه بطبقة ممتازة . وفى الصناعة أخذ نظام الطبقات يظهر بوضوح ، ويزداد ظهورا على مدى الزمن بسبب النظام الذى يقضى بزيادة الأجر لزيادة الإنتاج . فترتب على هذا أن طبقة من العمال أصبحت تعيش عيشة أرغد وتسكن فى منازل أرحب من غيرها . وصارت فى الواقع طبقة ممتازة بين طبقات العمال .

ومثل هذا يقال عن الجيش ، فقد ردت إليه رتبه المختلفة ، وأصبح عبارة عن طبقات بعضها فوق بعض . ولكل طبقة ملابسها ونياشينها وزيتها الخاصة بها .

وفوق هذا كله فإن حكومة روسيا الحالية قد عدلت تماما عن فكرة الشيوعية والثورة الدولية ، واتجهت جهودها كلها إلى تنمية الروح القومية ، وأخذت تقوم بدعاية قوية فى هذا السبيل » .

هذا قليل من كثير مما ذكره المستر ديفز عن هذا الموضوع فى كتابه « بعثة إلى موسكو » وهو رجل دقيق الملاحظة ، شديد العطف على روسيا . ومن كلامه هذا يتضح أن روسيا لم تكن شديدة التمسك بالكومنترن . بل لعلها كانت تنتظر الفرصة المواتية للتخلص من هيئة ، لم تفدها فائدة كبيرة ، ولعلها جرت عليها كثيراً من المضايقات . وبهذا الإلغاء أثبتت أنها لا تنوى أن يكون لها أدنى صلة بالشئون القومية الداخلية ، أو بأى نظام من النظم السياسية فى أى بلد من البلاد .

محمد عوض محمد

كفاح المـــــوت

ترجمة: الدكتور أحمد زكي بك

داء السكر، وقصة دوائه

المعجزة تتحقق

وصل الثالث: طبيب جراح شاب يكندي يدعى «بنتنج» واستأذنه بالجامعة يدعى «مكلود». فبعد إلحاح أذن الأستاذ للطبيب الشاب بعشرة كلاب، وثمانية أسابيع، ومساعد أيضاً، كل هذا ليمتحن صدق نظريته. أما نظريته فهي: البنكرياس، وهو غدة في الجسم، به نوعان من الخلايا: خلايا كبيرة تفرز عصارتها بقناة تصب أخيراً في الأمعاء، فيهضم الطعام بها وهي تسمى العصارة الهضمية، وخلايا أخرى صغيرة، تسمى بالجزائرية، أو خلايا لنجرهنس وهو مكتشفها. فهذه خلايا ظنها صاحبنا سبب البلاء في داء السكر، وهي ليس لها قناة وإنما تصب إفرازها في الدم مباشرة. وظن أنه إذا ربط قناة البنكرياس، حبس عصارته الهضمية فأفسد الخلايا الكبرى التي تفرز هذه العصارة؟ وإذاً تنضمر فتموت. أما الخلايا الصغرى فتظل سليمة. وفي هذه الخلايا السر الخفي، فيها الإفراز المجهول العجيب الذي يقي الأحياء من داء السكر. إذاً فهو سيستخرج هذا السر من هذه الخلايا ليمتحن أثره في الكلاب المريضة بالسكر.

والآن اقرأ:

وأراد «بَنْتِنج» أن يُغلق عيادته، وأن يترك التدريس في الجامعة، وأن يحرّق سفنه حتى لا يكون إلا البحر من ورائه فلا يستطيع أن يعود ولو سوّلت نفسه إليه العودة. أراد أن يتفرّغ لبحثه، ولبحثه وحده، فلا يشغله عنه شاغل. هكذا قال للجراح الكبير «استار» Starr. ولكنّ «استار»، وصديقيه «جالي» Gallie وروبرتسن Robertson، والأستاذَ الكريم «هندرسن»، كلٌّ أولئك ظنّوا به مسّا من خبل لتضييعه مستقبلا في الجراحة كان قد بدأ يزدهر أو هو كاد.

ونصحوه بالعودة إلى عيادته، إلى مدينة لندن بأنتاريو، وبأن يقضي بها بقية العام، فعندئذ تبوخ فكرته في داء السكر والبنكرياس، وعندئذ تنطفىء جذوته وتهبط حماسته.

قال «بنتنج»: «فمن أجل ذلك رجعت إلى لندن».

ولكنّ فكرته لم تبخ. ولكنّ جذوته لم تنطفىء. بل على النقيض من ذلك زادت كلتاهما احترارا وزادتا احتداما طول الشتاء الذي أمضاه هناك. وامتلأ بالفكر رأسه، وضاق بالأمل صدره. ولم يكن لديه في تلك البلدة من وسائل التجربة حيوان واحد. ولم تكن لديه حتى أنبوبة اختبار واحدة. ولم يكن لديه معمل كائنا ما كان. فانصرف إلى القراءة ثم القراءة ثم القراءة، يقرأ عن داء السكر وعن البنكرياس، وعن خيبة الأكابر من البحّاث فيما حاولوا، من تغذية مرضاهم بمادة هذه الغدّة، أو حقنهم بها، وقد أشرفوا على الموت إشرافا. لم ينفع أولئك المرضى أكلُ البنكرياس، ولا حقنةُ البنكرياس، فكان مجهود هؤلاء السادة عبثا. ومجهود صاحبنا كان لا يزال يبذله في التفكير في هذا الأمر، وفيه وحده. أما عيادته فلم يكن به من رغبة في إحيائها. وتعبت عيناه من القراءة فقام يطلب الرسم والتصوير بالزيت ليروّح عن نفسه بين التراءة والقراءة. ولم يكن يعرف عن هذا الرسم شيئاً. ولم يكن إلى جانبه أحد يُرشده. فأخذ يُصوّر بالزيت بريشة لم تُصنع إلا للتصوير بالماء .... أعذروه، فهو لم يكن يعرف فرقَ ما بينهما. ولم يكن من يَهديه. ومع هذا ظلّ يرسم.

وتطلع شمس اليوم السادس عشر من مايو عام ١٩٢١ فتجد «بنتنج» قائما يطلب ما يطلب العلماء من علم. تجده قائما في حجرة صغيرة حقيرة قذرة مكنونة في المبنى الطبيّ بطورنتو، وقد نصّب نفسه للبحث العلميّ، دونَ لقب ودون أجر. وكان باع ما احتوته عيادته من أثاث، وما احتوته من أجهزة وأدوات، فضمِن من هذا البيع رزقه

إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

كان منظراً مُغرياً مضحكا حقا . هذا « بنتنج » قائم إلى منضدة معمل يحاول إجراء التجارب وهو لم يغمس يده قط فى تجربة ، ومع هذا كان يؤمن إيمان المجازف أن تحت ذلك السقف ستنحلُّ حتماً عقدةٌ من عُقَد الطب الكبرى ، عقدة داء السكر . ولم يكن معمله غير ما شغلته تلك المنضدة من كل مكان ، فسائر المعمل — سائر هذه الحجرة الصغيرة الحقيرة — كان يشغله كيميائيون يعملون عمل اليوم الراتب . وكان لديه كل ما وعده « مكلود » : عشرة كلاب وثمانية أسابيع يَحُلُّ فيهما تلك العقدة الطبية الكبرى ، ومساعد واحد يعينه على حلّها . ولم يكن هذا المساعد طبيبا ، ولكن طالبَ طب ، شابا فى الحادية والعشرين من عمره .

وكان اسم هذا المساعد شارلس بِسْت Charles H. Best ، روعى فى اختياره أنه يَحذِق تقدير السكر ، بالطرق الكيميائية ، فى بولِ ما قد يصاب من كلابه بداء السكر ، أو فى دمائها . وكان « بِسْتُ » يعرف عن كيمياء الدم وكيمياء البول أكثر مما عرف « بنتنج » ، وماعرف « بنتنج » عنها غيرَ النزر القليل . كان « بست » ذا شعر أشقر ، وكانت له عينان واسعتان زرقاوان فى وجه متورِّد اللون بسّام ، لا كوجه صاحبنا « بنتنج » مقطّبٍ عبوس . ولعلّ مما أهّل « بِسْتَ » لما اعتزما من أمرٍ جَلَلٍ ، أنه كان كبنتنج قليل الإدراك لسخف ما اعتزماه ، وخيبة ما ارتجياه بتلك العشرة الكلاب وتلك الثمانية الأسابيع .

وبدآ مسعاهما بأن خابا .

زَلا فى الميدان . فكان أول ما صنعاه أن ربطا قناة البنكرياس فى بضعة كلاب أخذاها من العشرة حينًا اتفق . وكان « بنتنج » قد حَذَق الجراحة بعد سنوات أربع قضاها فى الخدمة لجراح الأكبر ، استار Starr ، فشق الكلبَ بعد الكلب ، وأجرى أصابعه فى بطنه إجراء خبير ، ثم خاط البطون . ونجحت العمليات نجاحا كان فى ظاهره باهرا . وشُفيت الكلاب وعادت إلى الحياة . وجاء اليوم السادس من يوليو ، وقد مضى سبعة من الأسابيع الثمانية . فلا بد أن تكون بنكرياسات هذه الكلاب قد انضمرت بربط قنواتها . لا بد أن تكون خلاياها ذات الإفراز الهاضم قد تقلصت ، قد ماتت . ولا بد أن تكون خلاياها الجزائرية ، خلايا لنجر هنس ، تلك الخلايا التى زعم « بنتنج » أنها تفرز فى الدم هرموناً يُعين الجسم على حرق سكَّره ، لا بد أن تكون هذه الخلايا ظلّت سليمة صحيحة لم يَمَسَّها سوء . وإذنْ لم يبق إلا أن يستخرج تلك الخلايا الصحيحة السليمة فيحقنها فى كلاب مريضة بالسكر ، أمرَّضَها هو اصطناعا بنزع بنكرياسها . وكانت تلك الكلاب الأخرى حاضرة متهيئة للحقن .

ولكن وا أسفاه ! شق « بنتنج » بطن كلبين من تلك التى ربط قنواتها ، وانتظر انضمار بنكرياسها ، فوجد البنكرياس فى كليهما على حجمه الأول ، لم يصبه أى انتقاص . خيبة مؤلمة ! ولم يبق من الأسابيع الثمانية غير أسبوع !

كان « بنتنج » رجلا من أولئك الرجال الذين لا تزيدهم الأزمات إلا إقداما . فما وجد ما وجد حتى أخذ المشرطَ يلمع بين أصابعه الحاذقة وهو يجول به ذهابا وجيئة فى بطن أحد الكلبين ، ومن فوق مشرطه عينُه تُشرف قريبةً على مواضع القطع ، وهو يقطع ثم يقطع ثم يقطع حول تلك القناة البنكرياسية التى ظن أنه ربطها فأحكم ربطها .

ألا ما أغفله وما أعماه ! لقد كشف عن تلك القناة فوجد أنه ربطها فوق ما كان يجب ! وإذنْ تنخرت . ثم تخلّب للصل منها ثم أخذت الطبيعة تصنع قناة جديدة

إلى جانب الأخرى القديمة ...... ولم يبق من الوقت غير أسبوع .

وأخذ الرجلان يصمدان ثم يعاودان الصعود من معملهما الصغير على سُلّم طويل لقُتاب إلى غرفة صغيرة أخرى أجريا فيها العمليات للكلاب ، ولم يكن لهذه الغرفة من نافذة ، ولم يكن لها منفذ للضياء غير منوّر في السقف قذر مُهبّب ، زاد ما نفذ من حرّه إلى الغرفة على ما نفذ من ضيائه . في هذه الغرفة ، وفي أثيرها العابق ، وعلى العرق الجاري فوق وجهيهما ، فتحا بعد هذين الكلابين بطون ما بقي من الكلاب . وبرق له بارق من أمل . نعم إنّ أكثر هذه الكلاب لم يضمر بنكرياسه . ولكن بعضها ضمر بنكرياسه حتى عزّ على الجراح إيجاده . إذن فهو انضمر حقاً . ولكن لا بد لها من التأكد هذه المرة . وإذن فقد أعادا ربط القنوات من جديد ، وربطاها في ثلاثة مواضع ، على درجات من الشد ثلاث متفاوتة ، فكل رباط أرخَى من أخيه . ثم خاطا الكلاب . وعادا ينتظران من جديد . والحرّ قائم غير راحم .

***

وأخيراً جاءت الفرصة الكبرى لاختبار فكرته .

الساعة العاشرة من صبيحة السابع والعشرين من مايو . وبالطبع كانت الثمانية الأسابيع التي طلبها « بنتنج » قد مضت وتولت من زمن بعيد . وتوقف بالطبع الأجر الذي كان يؤجره « بِسْت » عن أيامه ، فلم يكن له طريق للعيش إلا أن يقترض من « بنتنج » ، ودفع بنتنج عن رضا ، فلم يكن في وسع شيء أو مقدور ضائقة أن تحول بينه الآن وبين مرماه . وكان الأستاذ «مكلود» قد سافر إلى أوروبا منذ أسابيع ، سافر بعد أن بدأ هذه التجارب بقليل . ومما يُشكر لمكلود أنه لم يكتب فيأمر « بنتنج » أن يتوقف وقد فرغت أسابيعه الثمانية ، بل تركه يجاهد وحده . وعلم الله وحده كيف جاهد .

ففي صبيحة هذا اليوم كان كلب مسكين ، قليل اللحم بيّن العظم ، راقدا على منضدة العمل ، وقد أشرف على الهلاك . وهو كلب كان « بنتنج » قد نزع بنكرياسه منذ تسعة أيام ، فأخذ الكلب يهبط إلى منتهاه سريعاً . وفي تلك الأيام التسعة كان « بنتنج » يقوم باستخراج شيء من دم هذا الكلب ، وإلى جانبه « بِسْت » يقدّر بجهازه الكيميائيّ كم من السكر في هذا الدم ، ثم يعاود الاستخراج ويعاود التقدير ، ومقدار السكر في الدم يرتفع يوماً بعد يوم ، حتى صار الكلب غير قادر أن ينتصب قائماً . ولم يعد يقدر على البصبصة بذنبه عند ما جاءه هذا اليوم . وكان به عطش شديد ، وكان به جوعٌ كافر . كان تماماً كالرجل أصيب بداء السكر إصابة بالغة . كان لا بنكرياس له ، فلم يكن في جسمه ما يحرق سكّر طعامه . وأعطياه في اليوم السابق سكر عنب في ماء ، ولكنّ شيئاً من هذا السكر لم يستقر في أنسجته وهي أحوج ما تكون إلى ما يَشْبِها ، بل جرى كله في بوله أنهاراً .

ففي صبيحة هذا اليوم كان هذا الكلب يوشك أن يموت . ولمعت عينه فكانت كالزجاج . وأراد رفع رأسه وهو راقد على المنضدة ، فما كاد أن يرفعها . وكان إلى جانبه كلب آخر فيه الحياة ، وفيه الحركة والنشاط . فهذا الكلب الثاني أحد الكلاب الذي كان ربط « بنتنج » قناة بنكرياسها ، واشتفت منذ أسابيع . والآن ..

نعم والآن يقوم « بنتنج » إلى هذا الكلب الصحيح السليم ، فينوّمه . وتعبق ريحة البنج في المكان فتموع النفس لها . ثم هو يفتح بطن هذا الكلب الصحيح السليم ، ثم يضع يده في بطنه ، يبحث عن بنكرياسه ، فيجده ، فيُظهره ، ثم يدور بالمشرط خفيفاً لطيفاً حوله ، أو حول ما بقي منه ، فيخلّصه من الجسم تخليصاً .

أي والله ! لقد انضمر هذا البنكرياس حقاً ، وتقلّص . لقد صغُر حتى صار كالإبهام أو أقل حجما . وعندئذ لا تسمع

إلا أنفاس الكلب الأول ، الكلب المريض الذى أوشك أن يقتله داء السكر ، وإلا صوت « بنتنج » وصوت « بِسْت » ، ينطقان الكلم القصير فى إبهام واقتضاب ، وإلا مس الفولاذ للفولاذ . وأخيراً نجد تلك القطعة الصغيرة النقلصية المنضمرة ، تلك القطعة التى كانت تُدعى من قبل بنكرياساً ، نجدها فى هاون ، قد بُرِّدت وأُثلجت حتى صارت جليداً .

ويقوم « بِسْت » يقطّعها ويهشّمها ، ويصب عليها قليلا من ماء ملح ، ويصبّه بارداً ، ثم يدعكها فيه ، ويسحقها حتى تصير حساءً ، ثم هو يرشح هذا الحساء من ورقة الترشيح ، ثم يدفّئ السائل الراشح حتى يكون فى درجة حرارة الجسم ، ثم يأتى بمحقن فيمتص هذا السائل فيه .

وتلمع بريق الأدوات من معدنية وزجاجية فى أيدى الرجلين ، ثم ترى « بنتنج » وقد أكبّ على رقبة الكلب المريض الذى قتله السكر أو كاد ، وبيده المحقن به السائل الذى حوَى ذلك السر المرجوّ ، ثم إذا به يفرغ هذا السائل فى وريد برقبة هذا الكلب ، وقد تعلّق بين الموت والحياة .

وتمر ساعة وكأنها دقيقة ، و « بِسْت » قائم على جهازه الكيميائى يمتحن دم هذا الكلب آناً بعد آن . ثم هو يرفع عينه المتعَبة من الجهاز ، ويقوّم من ظهره وقد جهّده طول الانحناء ، ثم هو ينادى : « بنتنج ! بنتنج ! إن سكر هذا الكلب قد هبط هبوطاً كبيراً . إنه هبط إلى صفر ، شرطة ، واحد ... » ، ومعنى هذا أنه بلغ حد السكر فى الكلاب الصحيحة ، أو كاد .

وكان « بنتنج » فى الغرفة العليا ، مع الكلب فى حجرة التشريح . وما كان به حاجة إلى نداء « بِسْت » ، وإلى خبر ما جرى للسكر فى دم هذا الكلب . فالكلب هذا أمامه يشهد له بالذى وقع . فهذا الكلب الذى عجز من ساعة عن رفع رأسه ليبلغ به الماء ليبلّل به حلقه الذى جف حتى تحلّل ، هذا الكلب يرفع الآن رأسه ، وينظر إلى « بنتنج » . « وبنتنج » يستقيم فى جلسته ليحدّق فيه ثم يحدق . ومضت ساعة ، فوقف الكلب على أرجله . ساعةٌ مضت كلمح البصر فلم يحس بمرورها صاحبنا ، فقد كان فى ذَهلة مما جرى . كان فى شبه غيبوبة ، كان فى شبه انتشاء من سعادة غريبة . والكلب ينظر إليه وكان حقّه أن يكون قد مات . ولكنه ينظر ، ويبصبص بذنبه ، ويمشى . نعم يمشى ولو فى غير اتزان كامل .

وعلى السلم الفاصل نرى « بِسْت » صاعداً هابطاً بين حجرة التشريح والمعمل ، يحمل بول هذا الكلب الذى جاء بالعجب ليقدّر السكر فيه ، وقد جرى عرقه صبيباً ، وهو لا يحس بهذا العرق ولا بتصببه . فماذا وجد « بِسْت » من تحليله ؟ وجد أن هذا الكلب الذى كان يشرب بالأمس غذاءه من السكر فى الماء ، فيجرى فى جسمه حيث يجرى الغذاء ، ثم يخرج منه إلى البول كما هو سكرا فى ماء ، هذا الكلب يشرب الآن السكر فيحبسه جسمُه لينتفع به فلا يعود يجرى فى بوله . حَدَثٌ لا يكاد يُصدَّق . وتمضى خمس ساعات على تعاطيه السكر فينعدم السكر فى بول الكلب أو يكاد . نقص السكر خمساً وسبعين مرةً عن مقداره بالأمس فى مثل تلك الساعة من تعاطيه . كل هذا و « بنتنج » قائم فى الغرفة العليا إلى جانب الكلب يتأمّله والكلب فى دوره ينظر إليه بعين منتعشة ، وهو يبصبص له بذنبه يريد أن يقول له : شكرا يا سيدى شكرا .

تحققت المعجزة أخيرا .

ولكن مهلا . فقد انطوى اليوم وهلّ صباح غده ، فإذا بالكلب قد مات ! وكيف مات ؟ علم هذا موعده المقال الآتى . (يتبع) **أحمد زكى**

نظرات فى التربية النفسية :

سعادة الكلب وسعادة الأرنب

وقفت فى بطن الوادى أتطلع إلى سفح الجبل المشوشب من عيلٍ . وأمجد الخالق الذى أودع فى هذا الصخر الصلد كل ما يترقرق على صفحته من بهاء وجمال . وإذا نقطتان سوداوان تنحدران من قمة الجبل تهوى . لم أتبينهما أول الأمر ولكنهما كانتا تقتربان ...

إنهما أرنب وكلب . . . . الأرنب ينطلق فى عدوه الخفيف كأنه السهم المريش . والكلب من خلفه يهوى كأنه جلمود صخر حطه السيل من علِ . وليس يرى الناظر إليهما إلا أنهما حيوانان يجريان ، ولكن الفرق بينهما فى الواقع هائل عظيم ... فما أبعد ما بين البواعث التى تدفع بكل منهما إلى هذا العدو السريع !

إن أحدهما تغمره السعادة . والثانى يغمره الشقاء !

فالكلب يجرى وراء الأمل الهنىء . والأرنب يجرى فرارا من الشر الوبيل !

أحدهما طامح طامع فهو لذلك سعيد . والآخر خائف واجف فهو لذلك شقى !

لم تستمر هذه الطاردة إلا لحظات ثم تبدل الموقف ...

فالأرنب كان قد لاذ بجحره ، فاستقر فيه وهو يلهث . وجلس الكلب بباب الجحر باسطا ذراعيه وهو كذلك يلهث . ولكن ما أوسع الفرق بين ما يخفق به قلب كل منهما من أحاسيس ؟ ! .

إن الأرنب الآن يخفق قلبه بالهناءة والسعادة لأنه معافى سليم قد آمنه الله من خوفه . أما الكلب فينبض دمه بالحسرة والتعاسة لأن أمله ضاع . ولأن رجاءه خاب !

إنى نظرت إلى هذه الحال فوجدت فيها لونين من السعادة . أحدهما سعادة يتذوقها من أحدق به الخطر فنجح فى الأفلات منه . والآخر سعادة يعرفها من يضع نصب عينيه أملا منشوداً فهو يعمل على تحقيقه .

وهذا اللون الأخير من السعادة هو اللون الجدير بالإنسان الكامل !

ولكن انظر ماذا يفعل رجال الأخلاق والتربية إذا صادفهم مثل هذا المنظر . إنهم يلوحون بعصاهم فى الفضاء صائحين : « هذا عدوان أثيم ! » ويحدون بذلك من نشاط « الكلب » ليفسحوا السبيل أمام « الأرنب » .

وهذا هو الخطأ المشترك الذى يقع فيه معظم الآباء ورجال التربية مع أطفالهم الصغار حين يحدون من نشاط « النزعات الكلبية » فى نفوسهم ليفسحوا السبيل أمام « النزعات الأرنبية » أو بعبارة أخرى حين يوجهونهم إلى نشدان السعادة فى المجاس العافية . ويحذرونهم من التماسها فى اقتحام المصاعب — حين يلقنونهم « سعادة الأرنب » الخوّاف ويمنعونهم من ممارسة « سعادة الكلب » الطموح !

إن سر النجاح فى تربية النشء هى تقييد « الأرنب » فى نفس الطفل ، وإرخاء العنان « للكلب » . وإن نظام التربية الذى يقوم فى أية جزئية من جزئياته على التخويف والإرهاب هو نظام غير جدير بأن يحمل اسمه . لأن السعادة الحقيقية — التى هى غاية الحياة — لا يمكن أن تكون فى الدعة . والأمن . والحياة الميسرة . ولكنها تكون فى السعى . والطموح . والتشوّف ! إنها لا تكون فى « الحصول » على الأشياء . ولكن فى « تحصيلها » . وهى ليست فى قبض اليد على أغراض الحياة ، ولكن فى بسطها لإدراك هذه الأغراض ! والفرق بين خريجى المدرستين ظاهر . فالمدرسة الأرنبية شعارها « الخشية » وأملها « النجاة » . والمدرسة الأخرى شعارها « الإقدام » وأملها « الظفر » .

هذا أحدث ما انتهى إليه أعلام التربية النفسية فى تعليم الأطفال السعادة . أفلا تراه من ترديدا متأنقا لهذا البيت الساذج القديم :

حب السلامة يثنى عزم صاحبه   عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

ع . ج

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

— ٥ —

من يظن أن « خمارة شبت » كما يسميها العوام ، أو « فندق شبرد » كما يسميه المتعلمون اليوم هو الذى كان مدرسة الألسن ، حيث كان الشيخ رفاعة ومساعدوه وتلاميذه يحضّرون الخميرة الأولى للنهضة العلمية والأدبية .

ومن يظن وهو يمر الآن على هذا النُّزُل أن له تاريخاً طويلا ، وأن قد تقلبت عليه أوضاع شتى فتداول عليه الجد والهزل ، واحتلته الأرستقراطية والديمقراطية ، وكان أحياناً حرماً آمناً لا يستطيع أن يقربه أحد ، ثم كان كبرج بابل يرطن فيه بالفرنسية والإنجليزية والعربية والتركية ، وتدوّى فى أرجائه اللغات دوىّ النحل ، ثم أصبح مثابة لشكل أرستقراطى عابر ، لقد كان بيتاً للأمير أحمد بك الدفتردار زوج الأميرة نازلى هانم كريمة محمد على باشا ، ثم مدرسة الألسن ، ثم جعله محمد على فندقاً للإنجليز ، ثم صار فندقاً لمن يشاء ، وهكذا الأماكن « تشقى كما تشقى الرجال وتسعد » ، فهذا البهو الفسيح كان يخطر فيه الشيخ رفاعة وحوله الطلبة يعرضون عليه مشاكلهم اللغوية ، وأحياناً يخطب فيهم فيجلجل صوته ، ثم كان يجلجل فيه صوت الجازبند يرقص على نغماته مهفهفو الشبان ، مع الغيد الحسان .

* * *

سافر الشيخ إلى الأقاليم يفتش فى الكتاب عن نجباء التلاميذ يختار منهم من يصلح ليكونوا تلاميذ لمدرسة الألسن ، وكانت قد انتشرت هذه الكتاب فى الأرياف وأسست على نظام جديد فيه شىء من الثقافة المدنية كالحساب وما إليه ، وسميت « مكاتب الأرياف الأميرية » ، وبلغ عدد طلبتها خمسة عشر ألفا ، اختار « الشيخ » منهم خمسين ، ولكن لوحظ أن أكثر من اختارهم من الصعيد ، فهل كان هذا « محسوبية » من الشيخ وعصبية لأهل بلده وإقليمه ؟ قد يكون ذلك ، فالمحسوبية داء قديم ، وكما يصح أن يفسر هذا التفسير السيء يصح أن يفسر تفسيراً نبيلا ، وهو أن إقبال الناس على تعليم أبنائهم كان ضعيفا ، وكثير ممن تعلموا فى ذلك العصر تعلموا بالإكراه ، وكان من يؤخذ ليتعلم يودّع بالصياح والعويل ، كما يودع من قُبِل فى الجندية اليوم ، وقد يقبل الناس أن يتعلم أبناؤهم فى مكاتب بلادهم ، أما أن يسافروا إلى مصر بعيدين عن أنظارهم ولا يعرفون عاقبة أمرهم ، فهذا ما لا يقبلون ، والشيخ رفاعة صعيدى له فى قومه جاه ، وله فى بلده وما حولها حسن سمعة ، فالناس يطمئنون أن يسلموا أولادهم له ، وليس له من هذه الوجاهة فى الوجه البحرى ما له فى الوجه القبلى ، فهذا علة كثرة الصعايدة فى الدفعة الأولى من تلاميذ مدرسة الألسن ، حتى إذا اطمأن الناس إلى هذه المدرسة رأينا التلاميذ من الأقاليم المختلفة لا فرق بين صعيديّهم وبحريّهم .

خمسون تلميذاً داخلية فى مدرسة الألسن يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتعلمون على حساب الدولة ، ومعهم ثلاثة مدرسين فرنسيين ومدرسون من علماء الأزهر لتدريس اللغة العربية ، ومدرسون للمواد الأخرى وعلى رأسهم الشيخ رفاعة .

ليس من السهل إنشاء مدرسة كهذه ، فهى تسبب مشاكل لا تنتهى : طلبة يأتون من الأرياف « بعَبَلهم » ، لم يروا إلا زرعهم وضرعهم وبيتهم المتواضع الذى تنام فيه الجاموس والبقر بجوارهم ، وفيهم المتزوج وله أولاد ، وفيهم من لم يبلغ الحلم ، يدخلون فجأة هذا القصر المنيف ، ويراد منهم أن يعيشوا عيشة نظامية نظيفة ويجلسون أمام مسيو « بفير » يتعلمون منه الفرنسية ! يالها من معجزة ! والشيخ على الفرقل الأنصارى يخلع حذاءه ويشمر ويتوضأ ، ويخلع جبته ويفرشها على الأرض ويصلى

الظهر فى حجرة واحدة مع مسيو « دزون » .

وأحمد عبيد الطهطاوى الطالب فى المدرسة يمصق على أرض الحجرة المصنوعة من « الباركيه » — عقليات مختلفة فى الطلبة ، وعقلية متباينة فى الأساتذة ، ويُطلَب من كل هذه العناصر المتناقضة أن تكوّن وحدة .

لا بأس ، فالشيخ رفاعة قادر على كل ذلك ، وقد مر بهذه الأدوار كلها وعرف عقلياتها ، فهو مستطيع مواجهتها ومعالجتها ، هو ملتق العقليات المختلفة والتقاليد الاجتماعية المتباينة .

غريب أمر الشيخ فى المدرسة — رزقه الله صحة جيدة لا تمل ، ورزقه قلة النوم ، ورزقه الطبع الفرح المرح الذى يستعذب النكتة ويضحك لها من أعماق قلبه ويشارك فى صنعها ، بكل ذلك ملأ جو المدرسة ، هو أب رحيم لكل الطلبة ، وأخ كريم لكل الأساتذة — هو حركة دائمة لا يتقيد بميعاد ولا جرس ، يحلو له أحياناً أن يعقد درساً بعد العشاء أو فى ثلث الليل الأخير ، فيقبل والطلبة فى إقبال على التحصيل ، والأساتذة فى إقبال على الدرس .

حتى إذا نال الطلبة قسطاً لا بأس به من الفرنسية والعربية مرنهم على الترجمة ، ولكن لا يمرنهم بموضوعات تكتب فى كراساتهم ثم تطرح ، بل فى كتب نافعة يترجمون منها ما استطاعوا ، فإذا وقفوا فى فهم جملة أو لم يستطيعوا ترجمتها رجعوا إلى الشيخ فساعدهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على أستاذ اللغة العربية يصحح لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوى ، فقد كان ساعده الأيمن فى هذه المدرسة بفضل ما منح من قدرة على التدريس بلغة سهلة ، وعبارة فصيحة وقدرته الفائقة على تصحيح عبارات الطلبة فيما يترجمون . فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً .

فأنت يا أبا السعود أفندى ترجم لنا هذا الكتاب وسمه « نظم اللآلى فى السلوك ، فيمن حكم فرنسا من الملوك » . وأنت يا خليفة أفندى محمود ترجم لنا « إتحاف ملوك الزمان فى تاريخ شارلكان » ، فإذا فرغت منه فترجم « المُشرق فى المنطق » ، وأنت يا محمد أفندى مصطفى البيّاع ترجم لنا « مطالع الشموس فى وقائع كرلوس » ملك السويد ، وأنت يا أحمد أفندى عبيد ترجم لنا « الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر » وهكذا .

واسمعوا ما يقوله هذا الأخير فى كتابه ، لأنه يدل على منهج العمل : « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الألسن ، المؤيد رعاية الملك المبدى ، السيد رفاعة أفندى ، فأجاد تربيتى كغيرى ، حتى حسن حالى وسيرى ، وتعلمت بإرشاده اللغتين الفرنساوية والعربية ... فبعد أن رأى فى التعليم حسن حالى ، واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى ، اقتضى رأيه المؤيد ، وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، فاختار ملكاً من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ ، وهو تاريخ بطرس الأكبر ، الذى فضله أشهر من أن يذكر ، لمؤلفه الشهير المسمى فولتير ، الذى يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة ، فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأتم منوال ، وقد شرعت فى نقله من الفرنساوية إلى العربية ، مع إعانته لى فى حل مشكلاته ، وما عسر علىّ من غوامضه ومعضلاته ... وقد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمة ، وسهرت فى مطالعته وفهمه الليالى المدلهمة ... مع ما يضاف إلى ذلك من كون هذا التاريخ معدوداً من التواريخ السياسية المشحونة بالوقائع والحوادث البوليتيقية ، ومؤلفه من كبار المتفلسفين من الميسوية ، ومن عظماء فصحاء الدولة الفرنساوية ، ولا أقول مع ذلك إنه خلى من الخلل ، أو عرىٌ من الخطل ، فإن ذلك ليس فى طاقة الإنسان ، الجامع فى اشتقاقه حروف النسيان » .

وبعد سنوات تخرجت هذه الدفعة الأولى ، فشهدت مصر منها نموذجاً لم تشهده من قبل ، شباب متعلم لغة عربية ولغة أجنبية ، ومثقف ثقافة أدبية — جغرافية وتاريخية . وكل ذلك تعلّمه فى مصر لا فى أوربا ، ولذلك تتلقفهم المصالح المختلفة التى تحتاج إلى هذا النّمط من الموظفين ،

فكنت ترى — فيما بعد — هؤلاء المتخرجين في الدفعة الأولى ، يشغلون مناصب هامة مختلفة ، فهذا عبد الله افندى أبو السعود أكبر رجال الترجمة في مصر ، ومدرس التاريخ العام بدار العلوم ، وهذا محمد افندى عبد الرازق كاتب سر الحضرة الخديوية ، وهذا شحاتة عيسى افندى وقد تخصص بحذق العلوم الرياضية والحربية ، وكان ناظر مدرسة أركان حرب ، وهذا أحمد عبيد افندى وكيل مجلس التجار بالمحروسة ، وهذا حسن فهمى افندى وكيل السكك الحديدية بالأقطار الصعيدية ، وهذا السيد عثمان المدوخ القاضي ، وهذا مصطفى رضوان مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب ، الخ الخ ، ولو رأيتهم يوم دخلوا المدرسة بجلابيبهم وسذاجتهم ورأيتهم يوم تخرجوا بعد سنوات قلائل ، لأخذ منك العجب كل مأخذ ، ولهتفت بحياة « الشيخ رفاعة » .

وقد استفاد هو نفسه من هذه التجربة الأولى ، فأخذ يصلح الأخطاء ، ويوسع الاختصاص وينوع العمل .

فألحقت بمدرسة الألسن مدرسة تجهيزية تعد الطلبة للدخول بها بدل أبناء المكاتب ، وأدخلت اللغة الإنجليزية ضمن اللغات التي تدرس فيها ، وتوسع في قبول الطلبة حتى بلغ من فيها مائة وخمسين طالباً ، وأنشئت بالمدرسة فروع مختلفة ، مدرسة فقه وشريعة إسلامية يدرس بها القانون الفرنساوى والفقه الاسلامى ، ومدرسة محاسبة ومدرسة إدارة أفرنجية ، وكل هذه المدارس يسوسها ويديرها الشيخ رفاعة ، ويحل المصريين أساتذة محل الأوربيين .

سبع عشرة سنة يعمل في هذه المدارس كالنحلة لا يمل ، فأمور إدارية ، وقيام بترجمة كتب ، وإشراف على ما يترجمه غيره ، وفى كل حين يضم إليه عمل آخر جديد ، فيعهد إليه نظارة الوقائع المصرية ، والكتبخانة الأفرنجية ، ويعين عموم المدارس ، ويفتش على المدارس ، ويشرف على الامتحانات العامة في آخر السنة ، ويحبر الخطب تخطب فيها — حتى كوّن جيلا جديداً هو — من غير شك — أثر مجهوده ونتيجة إخلاصه ، وتغير وجه مصر من الناحية العلمية والأدبية ، بجملة ما ألفه وترجمه هو وتلاميذه بين مطبوع وغير مطبوع — نحو ألفي كتاب هي ذخيرة نهضتنا ، وعماد ثقافتنا ، يدين له رجال الأدب بما كوّن لهم من أمثال ابراهيم بك مرزوق الناظم الناثر المشهور ، ومحمد عثمان جلال صاحب العيون اليواقظ ومترجم قصص لافونتين ، وقبول وورجينة الخ ، وصالح مجدى ، ويدين له رجال القانون بما أخرج لهم من أمثال قدرى باشا مقنن الشريعة الإسلامية بكتبه الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والإنصاف ، ومرشد الحيران ، ويدين له الرياضيون بأمثال محمد بك الشيمى وتآليفه في الحساب والهندسة ، إلى ما لا يحصى من رجال الفكر في كل فرع من فروع العلم .

* * *

زهت له الدنيا ، فهو ناجح في عمله ، والولاة مقبلون عليه مقدرون لجهده ، والنعم تتوالى عليه ، فكلما تقدم تلاميذه ومنحوا ألقاباً لم يرض أولو الأمر إلا أن يمنحوه ألقاباً أعلى منهم حتى تقدم مرة بجزء آخر من ترجمة كتاب ملطبرون إلى محمد على باشا فمنحه رتبة ميرالاى ورفع مرتبه إلى ١٣٠٠٠ قرش صاغ في الشهر ، ومنحه ٢٥٠ فداناً في بلده طهطا إحساناً بإحسان .

ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، والعيش — أبداً — حلو ومر ، « والدهر ذو غلظة حيناً وذو لين » ، فهذا عباس باشا الأول يأتي فيقف حركة التعليم ويعطل المصانع والمعامل ، رغبة — فيما زعم — في الاقتصاد ، ولم يبق للتعليم إلا مدارس قليلة جداً ، وكان فيما ألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاعة ، وإذ كان الشيخ أكبر منبع للتعليم ، كان أحق الناس بالمقت ، وإذ كان أحب شيء إلى الشيخ العلم والتعليم ، فأبغض الناس إليه من يلقى العلم والتعليم ، وجاء رجال السوء الذين يزينون للرؤساء كل ما يهوون ، ويخترعون المنطق لكل ما يرغبون ، فإذا قالوا أسود ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أسود ، وإذا قالوا أبيض ، أتوا إليهم بألف دليل على أنه أبيض ، وإذا قالوا أسود أبيض لم يعدموا ألف دليل آخر على أنه أسود أبيض . كالذى يروى أن طاهياً سأل سيده يوماً :

ما ذا تطبخ اليوم ؟

السيد — والله لا أدرى ، أتطبخ باذنجانا ؟

الطاهى — الله — نعم ما ذكرت ، إنه لذيذ الطعم ، مفيد للجسم .

السيد — ولكنه يتعب معدتى :

الطاهى — صدقت ، ما أثقله ، وما أعسر هضمه ، وما أقل فائدته .

السيد — يارجل ! إنك من لحظة تمدحه وتقر بفائدته ؟

الطاهى — اسمع يا سيدى — أنا خادمك أو خادم الباذنجان ؟

كذلك شم هؤلاء رغبة الوالى فى إقفال المدارس ، فاستطاعوا أن يجدوا ألف دليل على ضرر العلم وضرر التعليم وطعنوا فى الشيخ رفاعة بأنه قليل الفائدة ، عقيم الطريقة .

فإذا الأمر يصدر بنفيه إلى الخرطوم تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظرها ومعه طائفة من المغضوب عليهم ولا الضالين . ولم يكن الأمر أمر اختيار كما هو شأننا اليوم ، تقبل الوظيفة أو ترفضها ، إنما الأمر أمر جزم بقبول الوظيفة أو بنفى إلى أسوأ من الخرطوم بلا وظيفة .

الشيخ فى الخرطوم بعد باريس ، ولم تكن الخرطوم كما نعهد اليوم ، نظافة شوارع ، وجمال مساكن ، ومدنية وأبهة ، إنما كانت مدينة صغيرة لا عناية فيها بالصحة ، ولا وسائل متوفرة للعيش ، وهو ناظر مدرسة ابتدائية فى السودان بعد أن كان ناظر التعليم كله فى مصر ، وكل يوم يتخطف الموت أحد معاونيه ، حتى لم يبق إلا نصفهم أو أقل ، والشيخ يستغيث ولا مغيث ، فيشق عليه فى قصائده الاستغاثة ، يستغيث أولا بالأحياء ، فإذا فشل استغاث بالأولياء والأنبياء ، ها هو يستغيث — أولا — بحسن باشا كتخدا مصر بقصيدة من ستة وثمانين بيتاً ، يصف فيها الوشاة فيقول :

مزابلُ الفضائل خاذ لوقى   وهل فى حربهم يكبو جوادى
وزُخْرُفُ قولهم إذ موَّهوه   على تزييفه نادى النادى
قياس مدارس — قالوا — عقيم   بمصر فما النتيجة من بعادى

ويعجب كيف يقوم لمصر مثل هذه الأعمال ، ثم يجازى مثل هذا الجزاء .

على عدد التواتر مُعْشَرَاتى   لها بفنون صيغ أو جهاد
وملطبرون يشهدُ وهو عدل   ومِشْكو بقر بلا تمادى
ومعتزه قراح فرات درسى   قد اقترحوا اسقايه كل صادى
ولاح لسان باريس كشمس   بقاهرة المعز على عمادى

* * *

رحلت بصفقة المغبون عنها   وفضلى فى سواها فى المزاد
وما السودان قط مقام مثلى   ولا سلماى فيه ولا سعادى

ويحز فى نفسه فرقة أولاده :

وقد فارقتُ أطفالا صغاراً   بطهطا دون عَوْدى واعتيادى
أفكر فيهمو سراً وجهراً   ولا تجرى بطيب ولا رقادى
أريد وصالهم والدهر يأبى   مواصلتى ويطمع فى عنادى

وكان الشيخ ماكراً ، فقد وضع القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعتُ لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى

فلما لم يُجْدِه ذلك أخذ يخمس قصيدة لسيدى عبد الرحيم البرعى فى مدح النبى مطلعها :

حلّ الغرام لصبٍّ دمعُه دمه
حيران توجده الذكرى وتُعْدمه

يقول فيها :

« رفاعةٌ » يشتكى من غصة سَنحت
لما رأتْ أبحر العرفان قد زخرت
فارفع ظلامة نفس عندك ادخرت
وهاك جوهرَ أبيات بك افتخرت
جاءت إليك بخط الذنْب ترقمه

أربع سنوات فى السودان كانت عليه كسنى يوسف ، ومع هذا يترجم فيها قصة تليماك ، ويعلم فى مدرسته بعض أبناء السودان ، وأبناء الموظفين من المصريين ، وكانت مدرسته نواة لما أنشئ بعد من مدارس ، ولم ينقذه من نكبته إلا موت عباس وتولى سعيد .   (يتبع)   **أحمد أمين**

صــــــورتان

خلوت من أيام إلى طائفة من الشعراء ، فسمعت جملة من هواجس صدورهم ، وعلى هذه الصورة استطعت أن أخلص بعض الشيء من عالم المادّة الذي نقاسي همومه ، إلى عالم المعنى الذي يخفّف علينا من شدة هـذه الهموم ، ولست أشك في أن هذا العالم ، العـالم المعنوى إنما هو بمنزلة مغطس تغطس فيه نفس الإنسان فتطرح عنها ما تألّب عليها من الشجون ، وما لصق بها من الهموم ، ثم تخرج من مغطسها صافية ، نقية ، مستعدةً لتذليل مصاعب الحياة ، قادرةً على احتمال متاعبها .

والشعراء الذين أخلو إليهم في أفق أخلقه لنفسى من حين إلى حين لا يكثر عددهم ، وهم ليسوا من عصر واحد ولا من أمة واحدة ، فلـكل عصر خصائصه ، ولـكل أمة مزاياها ، ومَلْءُ الذهن من هذه الخصائص ، وإراءه من هذه المزايا ، مصقلة لهذا الذهن .

* * *

هبط شوقى دمشق الشام سنة ١٩٢٥ ، فأعدت النظر في قصيدته الدمشقية ، وفي جملتها هذه الأبيات :

والحُورُ في دُمَّرٍ أو حـول هامتها
حـور كواشف عن ساق وولدان

وربوة الوادى جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان

إنى لم أشأ بعـد قراءة هذين البيتين أن أنظر في فن شوقى أو في لغته ، ولا أن أبحث عن محاسن هذا الفن أو عن مساوئه ، وإنما أردت أن أرى من وراء هذا الشعر روح صاحبه ، أردت أن أجلس إلى شوقى نفسه ، هل يعلم القارئُ الكريم أن دُمَّر والهـامة والربوة التي ورد ذكرها في البيتين إنما هي من جملة متنزهات دمشق ، لقد وقعت عين شوقى على شجر الحور في هـذه المتنزهات ، وشاءت هـذه العين أن تفتش لها عن شيء تشبه به هذا الحور ، ووقعت عينه على وادى الربوة ، وشاءت هذه العين أن تفتش لها عن شيء تشبه به ضفّتى هذا الوادى ، فلم يجد شوقى شبهاً لشجر الحور إلا الحور الـكواشف عن سيقانهن ، ولم يجد شبهاً لضفتى وادى الربوة إلا جلباب راقصة من الراقصات ، ساقها كاسية ، ونحرها عريان !

هذا هو العالم الذي ينعم به خيال شوقى ، فـكل واحد منا يرى الصور الظاهرة ، فترتسم هـذه الصور في أعماق نفسه ، وهي واحدة في لونها وهيأتها ، ولـكنا إذا أردنا أن نخرجها من نفوسنا ، ونعرضها على غيرنا ، فلـكل واحد منا مذهب في تصويرها وعرضها ، وفي هذا المقام يختلف رجال الفن ، بعضهم عن بعض ، لقد رأى كثير منا الحور الذي رآه شوقى ، وتنزّه كثير منا في الربوة التي تنزه فيها شوقى ، وما أظن أنه خطر ببال واحد منا أن هـذا الحور يشبه الحور الـكواشف عن سيقانهنّ ، أو أن هذه الربوة تشبه راقصة ، ساقها كاسية ونحرها عريان ، فـكل واحد منا يعرض على غيره الصور التي تزدحم في صدره على شكل خاص به ، بحسب مزاجه أو ذوقه أو ثقافته أو نشأته أو غير ذلك من العوامل ، فلماذا جعل شوقى الحور والراقصات مادّة لفنه !

لقد ذاق شوقى لذة الدنيا ، وتقلّب في أعطاف نعيمها وضرب في محاسن بلدانها ، فزار فروق التي أفرغت الطبيعة فيها سحرها وألقت عليها حسنها ، فشمّ من هوائها ، وشرب من عيون مائها ، واستضاء بشمسها ، وجلس إلى بحرها وملأ نظره من حـورها . وهذه الحور على نحو ما وصفهن لنا مترعات من النعيم ، راويات من السرور ، مائرات من الدلال ، ناهضات من الغرور ، ناعمات ، طيبات العرف ، ذاهلات عن الزمان ، مشرفات على البحور والأفلاك ، وقضى شوقى ليالى في فروق ما درى عشاءها من فجرها لولا صياح الديك !

هذا هو العالم الذى عاش فيه شوقى ، فلا نعرف السرّ فى تشبيه حور دمر بالحور ، وصفق الربوة بالراقصات إلا إذا عرفنا هذا العالم الذى تقلب فيه وملأ نفسه من سحره ومن فتنته ، فصور هذا العالم ماثلة فى ذهنه ، قائمة فى صدره ، شاغلة لقلبه ، فهى مادّة لفنه ، مادة لاستعاراته وتشبيهاته ومجازاته وكناياته ، فإذا عرض علينا صورةً من الصور الراسخة فى أعماق نفسه فسرعان ما تلصق بهذه الصور المعروفة آثار العالم الذى عاش فيه ونعم به !

وبعد أن خلوت إلى شوقى ساعة من الزمن ، خلوت إلى شاعر آخر ، من طراز آخر ، لقد جعل شوقى بين الطبيعة وبين الحور والراقصات صلة مستحكمة ، فما هى الصلة التى خلقها المتنبى فى مثل هذه المشاهد

قدم المتنبى طبرية ونزه على شواطئ بحيرتها ، ولكن ما أبعد الفرق بين الصور التى تختلج فى قلبه وبين الصور التى تختلج فى قلب شوقى ، أبيات المتنبى فى بحيرة طبرية مشهورة ، لا حاجة بى إلى ذكرها كلها ، ولكنى أذكر منها ثلاثة أبيات :

والموج مثل الفحول مزبدة ... تهدر فيها وما بها قطمُ

والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسان بلق تخونها اللجم

كأنها والرياح تضربها ... جيشا وغى هازم ومنهزم

ما أبعد هذه الدنيا التى عاش فيها المتنبى عن الدنيا التى عاش فيها شوقى ، عاش المتنبى فى عالم الخيل والسلاح والفرسان والجيوش ، عاش فى ميادين الحروب ، فقد يستطيع أن يجد شبهاً للطير والموج فى عالم الرقص ، فحركات الموج وحركات الطير فوق الماء ليست ببعيدة عن بعض حركات الرقص ، ولكن ما للمتنبى وما للرقص ، عاش المتنبى فى عالم تثور فيه جماجم العرب ، وبنيت على هذه الجماجم مملكة عالية وهى مملكة بنى حمدان ، فلا تكاد صور الجيوش تفارق ذهنه ، لقد نشأ فى البادية على رؤية هذه الصور ، وخالطته فى شبابه ، فإذا رأى الطير فوق الحباب حسبها فرسان خيل بلق ، وإذا رأى الرياح تضرب الطير ، ظن أن فى الجو حرباً بينهما : جيش هازم وجيش منهزم ، لم تكن الطبيعة فى نظره عالماً يأنس فيه بالنساء وإنما كانت عالماً أنس فيه بالدماء !

خلق المتنبى لدنيا المعارك والمغازى ولم يخلق لدنيا المسارح والرقص ، فأول ما فتح عينيه فتحهما على البادية وهى ميادين القتال للأعراب ، ثم فتحهما على حروب سيف الدولة وشهد بعض هذه الحروب بنفسه ، فبقيت صور الحروب مختلجة فى صدره فى كل حياته ، فهى مادة فنه ، وهذا السر فى أنه إذا رأى الموج رأى من وراء هذا الموج فحولاً مزبدةً ، وإذا رأى الطير والرياح ، رأى من وراء هذه الطير وهذه الرياح جيشَىْ وغى !

يكفينا من شعر المتنبى هذا القدر اليسير ، فلسنا فى شوق إلى الحروب وأهوالها ، وحسبنا هذه الحروب التى تعانى البشرية شدائدها ، ولكنى لما طرحت الديوانين من يدى : ديوان شوقى وديوان المتنبى ، خطرت ببالى خواطر أرجو أن يخطر مثلها ببال أساتذة الأدب ، وأرجو أن نرى فى شعر شعرائنا وفى كتابة كتابنا شيئاً غير الفن وغير اللغة ، إن مصادر هذا الشعر وهذه الكتابة إنما هى آثار ناطقة يظهر على كل واحد منها روح صاحبه وفكره وعاطفته ، فإن وراء هذه المصادر أشخاصاً ينطقون ويشعرون ، فإذا خالطنا مصادرهم الأدبية وما زجناها أحطنا بظواهرهم وبواطنهم واتصلنا بأسرارهم وألغازهم ، فعرفنا أذواقهم واهتدينا إلى أمزجتهم ، وعلمنا لماذا يسرح خيال فى دنيا النساء ويسرح خيال فى دنيا الدماء !

شفيق جبرى

حكم فى الجنحة العسكرية ١١٨ بندر المنيا سنة ١٩٤٣ بجلسة ١٩/٥/٩٤٣ بحبس على عبد الحكم عبد الصمد بضبط الحمار ثلاثة شهور شغل وغرامة ١٠٠ جنيه والمصادرة وذلك لبيعه قمحاً بسعر أزيد من التسعيرة .

حول الأدب المهموس :

ترنيمة السرير

أرسل الأستاذ عزى يوسف كلمة إلى «الثقافة» ، عن نسبة «ترنيمة السرير» إلى «نسيب عريضة» ، وهو يذكر أنها لإلياس فرحات ، ولكنني راجعت كتابي القديم (ص ٢١٤) فوجدتها لنسيب عريضة كما ذكرت في مقالي ، ولقد ظهر لي أن كتابي هو أيضا «بلاغة العرب في القرن العشرين» ، وهو نفس المرجع الذي رجع إليه الأستاذ عزى يوسف ، وفي هذا ما يدهش ، ولعل تفسير ذلك التناقض في اختلاف الطبعات ، فالنسخة التي بين يدي قديمة ولعلها من أول طبعة ، وهي على الأرجح أصح ، ولقد اتفق أن لاقيت الأستاذ محيي الدين رضا المحرر بجريدة المقطم وناشر «بلاغة العرب في القرن العشرين» ، وسألته في نسبة «الترنيمة» فأخبرني أنها لنسيب عريضة ، ووعدني بأن يخبرنا من المجلة التي أخذ منها «الترنيمة» وهي إحدى المجلات التي تصدرها الجالية العربية بأمريكا .

وأنا شاكر للأستاذ عزى يوسف إحساسه الرقيق .

والترنيمة طويلة لم أذكر منها إلا الأبيات الستة الأولى ، ولقد راعني ما أثاره مقالي عن الهمس في الأدب من جدل ، ولكنني لا زلت عندما أومن به ، وأنا بعدُ لأدعي أنني قلب صلد لا يستشعر الحنان ، وأنا فقير كغيري إلى الكثير من الرحمة . على الأقل رحمة الله .

ومع ذلك أرفض القول بأن أدب المهجر ضعيف منهوك . أين إذن نجد قوة النفس ؟ أين نجد القدرة على الانفعال ؟ أين نجد توثب القلب ووميض العقول ؟ أين نجد نبض الحياة ؟ ليست القوة مكابرة باطلة . ليست القوة حياة كاذبا . القوة ليست نفاقا اجتماعيا .

قالوا إن الصدق في الأدب هو مقياسه الوحيد ، وهذا قول بدائي . الأدب أعمق من الصدق . الأدب ليس تصويرا للواقع ولا تسقطا لأصداء الحياة . الأدب خلق للصدق .

دعنا نستمر في تحليل «الترنيمة» . يقول الشاعر :

ظلام الليل قد أطفا نجوما تخطف الطرفا
فما للطفل لا يغفو أيبقى اليوم ألحانا

ولننظر فيما يحمل البيت الأول من صدق نراه عاريا عنه ، وذلك لما هو واضح من أن ظلام الليل لا يطفئ النجوم بل يزيدها تلألأ ، ومع ذلك أي صدق نفسي في ذلك البيت الرائع . وهذا رجل نشر الحزن بنفسه ظلاما لم يلبث أن غشى بصره ، فالنجوم أن تتلألأ دون أن يرى لها بريقا :

من الألحان لا أدرى سوى أنشودة الصبر
أغنيها من القهر لطفل بات جوعانا

هؤلاء قوم ليسوا ضعافاً ، إنهم يسمون الأشياء بأسمائها . قوم لا ترهبهم الألفاظ . يتغنى الشاعر «من القهر» لجوع طفله ، ولكن من منا لا يحس بأن هذا القهر ليس يأسا وإنما هو استجمام للتوثب . من منا لا يحس بنفس الشاعر العاتية متحفزة خلف هذا القهر الإنساني . من منا لا يحس بنار تتقد . نار لا بد آتية على ما تلقى من مشقات . ليس الأدب ألفاظا . الأدب روح لا تدرى من أين تطالعك . روح لا تدركها إلا الأرواح .

ملاك الرب في الحلم يناجي الطفل كالأم
يناديه من النجم ألا نم : وغفتنا حانا

قلت فيما سبق إن شعراء المهجر يصدرون عن قلب فيه لهفة إلى الله ، ولو أنني قلت إنهم متصوفون لما عدوت الحق ، فالتصوف ليس إلا وقدة في الإحساس . كل شعور قوي تصوف مهما كان موضوع ذلك الشعور ، ولهذا ترى الناس يقتتلون في غير مقتتل حول تصوف شاعر كالخيام ، أمادي هو أم روحي ، وهل خمره خمر الدنان أم خمر

الروح ؟ والأمر بعد سواء . الخيام روح حارة . وكذلك الأمر عند شعراء المهجر . أين منهم فتور أغلب شعرائنا ؟ أين منهم فقرنا الروحي ؟ أين منهم ضعف نفوسنا ؟ أين منهم نفاقنا الخلق ؟ أنظر إلى شاعرنا كيف يجمع بين القيم الإنسانية في ملاك الرب الذي يناجي الطفل كالأم . أليس حنان الأم نَفَساً من روح الله ؟ وهذا النداء « ألا نم ! وقتنا حانا » أليس التعبير مباشراً قريباً قوياً . أو ما تراه يشبه الهمس . الفن اختيار وهؤلاء الشعراء يعرفون كيف يختارون التفاصيل الدالة الفنية بفيضها الإنساني .

يناجيـــــه بأيام سيأتي خيرها طام
سيروى ماؤها الظامى ويشفى النور عميانا

وفى شفاء النور للعميان ما يعزز فهمنا لإطفاء ظلمة الليل لنجوم السماء ، ثم ما القول فى هذا الأمل الباسم ، عجيب أمر هؤلاء الشعراء . يتسمون الأمل ، ومع ذلك تهزنا ابتسامتهم . وكأنى بها تبعث الحزن فى النفس ، وهى بعد ابتسامة تشرق وسط الظلام . ابتسامة يحوطها الحزن ، أولا ترى معى شاعرنا وهو يشد على نفسه فيعزيها بأيام سعيدة ، إننى أحس بالجهد فى تلك الابتسامة الرائعة ، وبعد ذلك يقول قائل : إن أدبهم ضعيف ، وإننا فى حاجة إلى أدب طروب قوى ، ومَنْ يستطيع أن يدلنى على قوة تصدر عن الطرب ، الطرب شيء متبذل لم تره قط مادة لأدب قوى ، وهو بعد لا يحرك النفوس ، الأدب عزاء عن الحياة ، والعزاء قوة . الشعر فى العالم كله ضيق بالحياة وعلاج لها ، ولكنه ليس يأساً ، فاليأس صمت ، وموضع الإعجاز هو أن يدفعك ذلك الضيق إلى متسع الوجود ، هو أن تشق الشكوى من الألم .

ثم يقول بعد ذلك بأبيات :

أصوتى ذاك قد غنى أقلبى ذاك قد أنّا ؟
كفى نغما(١) كفى حزنا فقلب الطفل ما لانا

هزّ الريح ما يسمع وذب الروح ما أسمع
كأنا منصت يخشع إلى الأصوات حيرانا
ظلام الليل قد أطبق فنم يا طفل لا تقلق
يعود النور والرونق إذا ما الله أحيانا

هذا هو الهمس الذى لا أدرى كيف يتهم بالضعف ، وأنا بعد أحس فيه قوة لا أجدها فى نفوس معظم شعرائنا ، والأمر ليس من الشاق تفسيره ، فنحن قوم لصيقون بالأرض . قوم يؤثرن الاستكانة على المقامرة . لقد طوفت فى الكثير من بقاع الأرض ، فلم أر مصريا يجالد غريباً على الحياة ، وعدت إلى مصر ودرت ببصرى فلم أر إلا مظلوما خاضعاً لظالمه ، أو متألماً يخشى أن يشكو ألمه . رأيت ضعف النفاق فى كل مكان . أرى رجالا قليل الشبه بالرجال . فمن أين تأتينا القوة ؟ نحن قوم لا يجسر أحدنا أن يرفع بصره إلى من يظنه أقوى منه ، فكيف بنا نحدق فى الحياة التى تصعق من يناهضها .

نحن قوم متزمتون يظنون النفاق الاجتماعى فضيلة . قوم حسيون شديدو الشغف بالنساء ، وقد قضت حياتنا الاجتماعية بإزال الحنة بنفوسنا ، ولهذا ترى غزلنا فاسدة . إذا نقرأنا جاء غزلنا إما إسفافاً فى الخضوع وإما « طرطشة » فى العاطفة . قوم تعوزهم القوة المتماسكة .

نحن قوم كثيرو الادعاء عن جهل . نكابر الغربيين وندعى الدعاوى العريضة الباطلة ، ونزج بالقومية وما إليها لنغطى جهلنا الريع . مَنْ مِن أدبائنا أو شعرائنا يعرف أن من واجب الأديب أن يكون مثقفاً ثقافة منظمة عميقة مهضومة ؟ مَنْ منهم يدرك أن الأدب ليس خلقاً من العدم ؟

هذه بعض الأمراض النفسية التى تفسد أدبنا ، ولهذا أوثر شعر المهجر ، ولقد علت إشارى بما فى ذلك الشعر من همس ، وحاولت ما استطعت أن أوضح معنى ذلك الهمس ، فقال البعض إنى أتعصب لنوع من الأدب

(١) كنت أوثر ألا يستخدم الشاعر هذا اللفظ لما يثيره من نداع فى الخواطر ، ولكنّ « لفظاً » لا يخير من روح القصيدة العامة .

سيرة صلاح الدين :

— ٧ —

جفاء

« فرغ صلاح الدين من إسقاط الدولة الفاطمية وجعل مصر إمارة عباسية . ثم أصبح وجها لوجه أمام صعوبات كثيرة كان من أولاها هذا النفور الذي ظهرت آثاره قوية بينه وبين نور الدين » .

قال الأمير الشيخ لابنه السلطان : « أتدري يا ولدي منذ كم تغير عليك قلب نور الدين ؟ » .

قال السلطان : « أحسب أن ذلك يا أبي منذ أقدمت على أن أكون وزيرا للعاضد الفاطمي ، وأخذت خلعة الوزارة قبل أن يأتيني من نور الدين إذن بقبولها » .

قال الشيخ : « هو ذلك يا ولدي — فمنذ يومئذ والغيرة منك تدب في قلبه ، والحذر من أن تستقل بمصر وتظهر التشيع بها إرضاء للخليفة المصري يشغل باله ويثير هواجسه » .

قال السلطان : « والله يا أبت — لقد صبرت منه على حز المُدى ووخز الإبر ؛ وما قدر أحد من أصحابه حتى الساعة أن يجد عليّ ما يعتبره ذنبا ؛ وقد اجتهد هو نفسه أن يجد لي هفوة يعتدُّها عليّ فلم يقدر ، ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يصبر أحد على مثلها لعلّي أتضرر أو أتغير فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي فما أبلغته مآربه » .

— « نعم ما فعلت يا ولدي ، وهذا ما نصحت لك به دائما فلكأن رهن هذه التي تسلكها وتصر على اتباعها » .

— « ذلك ما فكرت فيه من جهة نور الدين ، وإني لأفكر أيضا في غير نور الدين ممن أخافهم على نفسي ... »

— « ومن هم أولاء يا ولدي حتى أعينك عليهم » .

— « هم إخوتي يا أبي ، إذ ينظرون إليّ بالعين التي عرفها يوسف من إخوته ، وقد بت أخشى غيرتهم ، وأنا أعلم في الوقت نفسه أن إقطاعهم بمصر لا يقوم بمروءتهم ، فأحاول أن أشغلهم عني بفتوح يعود خيرها عليهم ،

يستجيب له مزاجي الخاص ، ولكن الأمر ليس أمر تعصب ، كما أنه ليس ضيقاً في النفس يمنعها من الإصغاء لغيره من أنواع الأدب ، وإنما هو إيمان بروح إنسانية قوية أحسها في نغمات ذلك الأدب ، روح نافذة موحية ، ومن عجب أن نقول إن الشعر الخطابي إذا خلا من موسيقى اللفظ وقوة النفس اللذين نجدهما عند المتنبي في الشرق ، وهيجو في الغرب مثلا أفسدت الخطابة الشعر ، ثم يأتي من يقول إننا لا نطرب لشعر المتنبي ، يخيل إلي أنه من الخير أن نفسر الهمس بأنه « القدرة على الإيحاء » ؛ فالشاعر الذي ينجح في أن يهزك هو الشاعر العظيم ، وهو قد يستطيع ذلك بضخامة موسيقاه كما قد يستطيعه برقتها ، وأما أولئك الذين تقرأهم فلا ينبض منك حس ، ولا يهتز قلب ، فلست أدري من أين يأتيهم الشعر ؛ لقد تصفحتُ مثلاً « أعاصير مغرب » فعجبت لمن يجرؤون على تسميتها شعراً ، وهي نثرية في مادتها ، نثرية في أسلوبها نثرية في روحها ، ونثريتها بعدُ مبتذلة سميكة ، حتى الإحساس فيها شيء لا تطمئن إليه النفس ، شيء نابٍ .

الأدب الجيد لا بد أن يلونه الإحساس ؛ وصاحب « أعاصير مغرب » من الكتاب الذين قد تبهرك مهارتهم العقلية في التخريج ، ولكنني لا أذكر إلا في النادر الذي لا يذكر أنه قد استطاع يوما أن يحرك في نفسي إحساساً فكيف له بقول الشعر ؛ وكيف يجوز لنا أن نقارن شعراً « كالأعاصير » ونحوها بشعر الهمس الحي ؟

أنا لا أريد أن أملي ذوقي على أحد ، ولكنني أحاول أن أبتصّر بالقيم الإنسانية ، التي يجب أن يتجه إليها أدبنا إذا أردنا أن نلحق بغيرنا بدلا من الجمود على الباطل الذي نحن فيه ؟

محمد مندور

ونكون مع ذلك ردءاً لنا إذا فكر نور الدين في مهاجمتنا في الديار المصرية ليخرجنا منها أذلة ».

— « ونعم هذا الرأي أيضاً ، فما الذي تم في أمر هذه الفتوح التي يقوم بها إخوتك ؟ » .

— « هذا أخي شمس الدولة قد أذنت له في دخول (النوبة) فاتحاً ، فلما لم يجد بها شيئاً نافعاً عاد وطلب أن يسير لفتح (اليمن) ، فأذنت له في ذلك ، وغداً يذهب إلى هناك ويقتل الخارجي الذي ظهر بتلك البلاد ، وقد بلغ من حمق هذا الخارجي أن دعا الناس بها إلى قبر أبيه بعد إذ جعل عليه قبة من ذهب وحشاه كمية ، وحمل الناس على حجه والانصراف من مكة » .

— « إنه من غي جاهل ، فهو عندي أشد غباء من هذه الفئة التي أورثنا الله ملكها وأذن لنا فحبسنا سلالتها في القصر الفاطمي لا يتصل فيه نساؤهم برجالهم كي لا يتناسلوا . ألا فكرت أيضاً في أن نقذف هذه الفئة في موطنها الأول ، في بلاد المغرب ؟ » .

— « هذا ما فكرت فيه جيداً وذلك منذ أطمعني فيه الخادم بهاء الدين قراقوش وهو جندي باسل ، وفارس غيور يتصف بالأمانة . ألا ترى مقدرته على صيانة القصر الفاطمي منذ تسلمه إذ لم يدع شيئاً يخرج منه أو يدخل فيه إلا بإذنه » .

— « ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الآمال . ومولاك نور الدين بالشام لا يرضى عن هذه الفتوح التي تشغل بها نفسك الآن ويرى فيها إضاعة للوقت وتبديداً للمال وإجهاداً للترك الذين عليهم أن يعدوا أنفسهم لمحاربة الفرنج في هذه الجهة التي تفصل الآن بينك وبينه — وهي جهة (الكرك والشوبك) . وقد بات هؤلاء الفرنج لا يخشون إلا حراب الترك ولا تقشعر جلودهم إلا من لقائهم في مواطن القتال » .

وكان القاضي الفاضل دخل منذ برهة فسمحت له بأن يسمع طرفاً من هذا الحديث فقال :

— « يأذن لي المولى أن أقول في هذه المسألة الأخيرة رأياً أدرته في ذهني منذ أيام » .

قال الشيخ : « قل يا عبد الرحيم » .

قال : « ليس الرأي عندي يا مولاي أن نعين نور الدين في مطاردة الصليبيين الذين يحتلون المنطقة التي تفصل الآن بيننا وبينه ، فهي وإن كانت في أيدي أولئك الكفرة الظالمين ، بل في يد طاغية منهم هو (أرناط)[1] المعروف بإيذائه المسلمين ، إلا أنها يا مولاي بمثابة الخليج الذي يعصمنا الآن من شر نور الدين ، ويجعلنا في مأمن منه حتى نمد أمورنا وتثبت أقدامنا ونكون بحيث لا يستطيع أن يخرجنا من ديارنا بمجرد رغبته ، أو لأنه يريد أن ينتقم منا حين لا يتيسر لنا أن ننفذ له مشيئته » .

قال الشيخ : « فالرأي عندك إذن أن تبقى هذه المنطقة مؤقتاً في يد الطاغية ؟ » .

قال الفاضل : « نعم فليست المصلحة الآن في أن نخلي الطريق بيننا وبين رجل الشام » .

فالتفت الأمير الشيخ للسلطان وقال : « وأنت يا صلاح الدين — ما الذي تراه في هذه المشكلة ؟ » .

فسكت السلطان برهة قصيرة ثم قال : « ... مسألة يجيب عنها صلاح الدين القائد الكردي السياسي إجابة لا يرضى عنها صلاح الدين التابع القديس ... ! ! » .

فابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ونظر إلى ابنه نظرة فيها غير كثير من الغرابة ثم قال : « الآن حين تقدم بك العمر واستحكمت ... !! — قل لنا ما الذي تعنيه بكل ذلك ؟ » . قال السلطان :

« الحكمة كلها في رأي الفاضل . فالسياسة هي التي أملت عليه هذا الرأي الحكيم ، والسياسة هي التي قد تحملنا على مخالفة نور الدين . وأنا أعلم أن المخالفة لا تتفق

(١) واسمه [illegible] في الكتب الأوروبية .

والغرض الذى جئنا من أجله إلى مصر » ، وهنا أطرق الشيخ طويلا كأنما يدير هذا الرأى فى ذهنه ويزنه بميزان عقله ثم رفع رأسه وقال : « وأنا أيضا قد بدا لى صدق هذا الرأى .

قال السلطان «وما تقول يا عبد الرحيم فى هذه الفتوح التى أشغل بها إخوتى ليكسبوا لأنفسهم الشهرة فى ميدان الجهاد ، والمال الذى يقوم بمرونتهم فى تلك البلاد ؟ »

قال الفاضل « آفة هـذا الرأى يا مولاى أنه يستنفد جميع ما تملك من المال ؛ وصاحب الشام ينتظر فيما ينتظره منا أن نقرر له مالاً نحمله إليه ليستعين به على كلف الجهاد الذى وهب حياته له » .

قال السلطان « فإنَّا قد بعثنا له بهدية من نفائس القصر الفاطمى ، وما أكثر هذه النفائس التى به ، وما أثمنها ، ورأيت أننا أعهدنا إلى الخادم بهاء الدين قراقوش أن يعدها فأعدها وبالغ فى إعدادها ، وكتبت أنت الخدمة (الرسالة) التى سارت بالهدية إلى صاحب الشام منذ أيام» .

قال الشيخ « حسن كل ذلك يا ولدى ، وإن كنت أعلم من أخلاق نور الدين أن هذه الهدية على عظمها لن تسره وإنه . . . »

وأراد الشيخ أن يتم كلامه لولا أن علم فى تلك اللحظة رسول أتى من قبل نور الدين وبيده رسالة إلى صلاح الدين ، يأمره فيها أن يجمع العساكر المصرية ويسير بهم إلى بلاد الفرنج وينزل على (الكرك والشوبك) ويحاصرها ريثما يجمع هو عساكره ويسير إليهما ، ثم يجتمعان هناك على محاربة الفرنج والاستيلاء منهم على هذه المنطقة التى تفصل بينهما وتقف حجر عثرة دون الغاية التى يعملان لها وهى مطاردة الفرنج .

وقرأ السلطان الرسالة التى بعث بهـا نور الدين ، ثم دفع بها إلى أبيه ليقرأها ويقرأها معه عبد الرحيم . ونظر الثلاثة كل إلى الآخر نظرات سريعة ، وسكتوا سكوتا مريبا ، مالبث أن قطعه عليهم الأمير نجم الدين بقوله يخاطب الرسول :

« وما بال الهدية التى بعث بها صلاح الدين إلى مولاه المعظم ؟ » .

قال الرسول : « أكبر الظن عندى أنها يامولاى لم تقع منه بموقع » .

قال الشيخ : « عجبا يملأ القلب ! ولم ذلك ؟ »

قال الرسول : « بينا أصحاب مولاى نور الدين يطيلون النظر فى هدية السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ويظهرون إعجابهم بهـا ، ويتخيلون نفائس القصر الذى حوى الكثير من أمثالها ، إذ بمولاى نور الدين يخاطب نفسه بصوت سمعه الذين معه ويقول : ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا إلى الذهب حاجة ، ثم تمثل قول أبى تمام :

لم ينفق الذهب المُرْبِى بكثرته
على الحصى وبه فقرٌ إلى الذهب

فأقبل السلطان على الرسول يلاطفه ويغير مجرى حديثه ثم قال له :

« قل لمولاى نور الدين إنى لن أتأخر عن الذهاب بالجند إلى الكرك » .

فرجع الرسول إليه يبلغه كل ذلك . فرحل نور الدين من دمشق إلى الكرك وأقام ينتظر صلاح الدين ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول ، وذلك لاختلال البلاد ، ورغبة أهلها فى الثورة على النظام . وأتى الكتاب نور الدين فغضب لذلك غضباً ذهب بكل حلمه ، وشق ذلك على نفسه ، وعزم على دخول مصر وإخراج السلطان منها .

وبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده وخاله شهاب الدين واستشارهم ، فكلهم أشار عليه بالصمت وبالصبر ، ثم قام من بينهم فارس شاب حاد الطبع ، هو ابن أخى السلطان واسمه (تقى الدين عمر) فقال :

« ما لنا نخاف نور الدين — وهو إذا جاءنا قاتلناه وصددناه من بلادنا بسيوفنا هذه » .

فوقع هذا الكلام موقعاً حسناً من نفس السلطان وهم أن يظهر الرضى به وأحب أن يتكلم في ذلك لولا أن سبقه أبوه بقوله يخاطب تقي الدين عمر :

« اقعد أيها الصبي الأزرق ، اقعد أيها الشاب الطائش ، لبئسما تشير به . ألهذه الغاية تأكل مال المسلمين ؟ ولهذه الغاية أمرنا عليكم نور الدين ؟ »

ثم اتجه إلى السلطان وقال له .

« أنا أبوك وهـذا شهاب الدين خالك — أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ قال : لا . قال نجم الدين :

« فوالله لو رأيت أنا أو رأى خالك نور الدين قادماً ما استطعنا إلا أن نترجل إليه ، ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فإذا كنا نحن هكذا — فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراهم هنا من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وإنما هذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن شاء عزلك ، ثم لا يحتاج إلى المجيء هنا لهذه الغاية ، يأمرك بكتاب مع نجّاب (رسول) حتى تقصد خدمته ويولي البلاد بعدُ من يريد » . ثم التفت كذلك القائد الشيخ إلى الجند وقال : « واسمعوا جميعاً أيها الجند — نحن مماليك نور الدين وعبيده ، وليفعل بنا ما يريد ، إن شاء بقينا في مصر ، وإن شاء نزلنا على رأيه وخرجنا من مصر ، ونحن هنا جنوده وأتباعه . باسمه فتحنا ما فتحنا ، وباسمه نفتح كل بلد نريد بعدُ أن نفتحه » .

وتفرق الجند بعد ذلك ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين يعلمونه كل ذلك ، ثم خلا الشيخ بابنه وقال له : أنت يا ولدي جاهل قليل المعرفة ، تجمع هـذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك . فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد ، جعلك غرضه الذي يرمي إليه ، ولو قصدك لم ترَ معك من هذا العسكر أحداً ، بل تراهم جميعاً يسلمونك إليه . وأما الآن — بعد هذا المجلس — فسيكتب إليه أكثرهم ويعرفونه قولي . وتكتب له أنت أيضاً وترسل في هذا المعنى وتقول له :

« أي حاجة إلى قصدي أيها المولى ، يجيء نجّاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، ويأتي بي إليك ، فهو إذا سمع هذا منك عدل عن قصدك واشتغل بسواك » .

قال السلطان « صدقت يا أبي ، وكنت من الناصحين . إني من أجل هذا أفكر في الذهاب بنفسي إلى الكرك ، فإذا وصلت إلى هناك بعثت أنت في طلبي بحجة اختلال البلاد » قال الشيخ « فاذهب على بركة الله » .

وذهب السلطان إلى ذلك المكان ، وعلم مولاه بهذه الغزاة التي نوى السلطان بها من نفسه تهمة العصيان ، ثم فكر السلطان في العودة إلى بلاده ، وإنه لفي الطريق إليها وإذا بكتاب ورد إليه منها ، فيه نبأ عظمت به لوعته ، واشتدت كما يقول الفاضل به حسرته وروعته ، ذلك النبأ هو موت أبيه نجم الدين بسبب وقوعه عن فرس له كان يركبه في أثناء لعب الكرة . فأخذ الفاضل يهوّن على صاحبه هذا المصاب العظيم ، ويقطع الطريق بحديثه له عن الصبر والصابرين ، ويتأسى معه بقول الذي يقول :

وتخطّفتـــه يد الردى في غيبتي
هبني حضرتُ فكنت ماذا أصنع ؟!

وذلك حتى دخلا مصر . وبينا هو غارق في هذه الأحزان ، وبينا هو خائف في الوقت نفسه من مداهمة صاحب الشام ، إذ به يسمع بموت هذا الرجل أيضاً ، فيحزن عليه ، ولكن يشعر في قرارة نفسه أن حزنه لموت نور الدين قد خفف شيئاً كثيراً من لوعته على أبيه نجم الدين ، وأزاح ضيقاً عن صدره كاد يتلفه ويودي بمستقبله ... ؟!

سيرة أحمد بن طولون

في دار الكتب الظاهرية بدمشق طائفة من الكتب المخطوطة النادرة يجب العناية بأمرها، وإعداد العدة لنشرها بين الناس محافظة على ذلك التراث العظيم الذي خلفه لنا الأقدمون، ورغبة في إذاعة ما فيها من الفوائد العلمية، والطرائف الأدبية التي تفردت بذكرها، ومن تلك الكتب النفيسة التي حفلت بها المكتبة الظاهرية كتاب سيرة أحمد ابن طولون لأبي محمد عبد الله بن محمد البلوي، الذي عني بنشره الأستاذ العلامة محمد كرد علي بك لأن في نشره «إحياء مادة جديدة في تاريخ مصر والشام، ولوناً طريفاً من أدب عصره الجميل فيه حلاوة وطلاوة، ولأن فيه ألفاظاً فصيحة ومعربة في شؤون الحياة كانت مألوفة في زمن المؤلف، ونحن في حاجة إليها اليوم؛ دع ما هناك من قصص واقعية تدل على كياسة ابن طولون وسياسته؛ وتفيد القارئ من حكمته وحنكته، فيها متعة للنفس وسلوى، وصورة صادقة من صور ذلك المجتمع». وقد أنفق الأستاذ جهداً كبيراً في تحقيق هذا الكتاب لا يدرك كنهه إلا من زج بنفسه في هذا المضمار، وزاد من عنائه في رجعه إلى أصله أن المخطوطة لا نظير لها يمكن أن تقابل عليه، وهي مع ذلك عارية من النقط، قد عاثت فيها الأرضة، وأصابها بلل طمس بعض كلماتها. ولكن ذهن الأستاذ الثاقب، وعلمه الواسع وصبره الدائب قد أعانه على حل معمياتها، وفك رموزها، وكشف له عن كثير من أوجه الخطإ، وألوان التحريف حتى خرج الكتاب في تلك الصورة البديعة أقرب ما يكون من الأصل، وأدنى ما يكون من الصواب، وقد أحسن الأستاذ صنعا في كتابة الهوامش التي ذيل بها بعض الصفحات ليتم بها ما فات المؤلف من أنباء ابن طولون. وكذلك أحسن كل الإحسان في وضع العناوين للقصص والفصول تدل عليها، وترشد إلى مضمونها، والكتاب من أهم الكتب التي تجمع بين الأدب والتاريخ والاجتماع، وتكشف عن حياة عظيم من عظماء التاريخ النابغين الذين كونوا أنفسهم بأنفسهم، ورغبوا في المجد، وسلكوا إليه كل سبيل حتى نالوا ما رغبوا فيه، وعملوا له، ومكنوا لسلطانهم في الأرض، ولذ كرهم في التاريخ. وقد سلك المؤلف في تأليفه طريقة جميلة تدل

أما المسلمون فجزعوا جميعاً لموت هذا البطل، وضجوا بالدعاء له أن يجزيه الله خير ما عمل، ولهجوا يومئذ بذكر هذه القصة التي شاعت بينهم على أنها آية حبه للجهاد الديني وهي:

«أنه لما نزل الفرنج دمياط في الحصار الذي قال فيه نور الدين محمود: إني لأستحيي أن يراني الله مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج. ثم في الليلة التي رحل الفرنج فيها من دمياط رأى إمام لنور الدين محمود في منامه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: أخبر نور الدين أن الفرنج رحلوا من دمياط في هذه الليلة. فقال يا رسول الله ربما لا يصدقني، فاذكر له علامة يعرفها، فقال له النبي: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا، ومَن هو محمود الكلب حتى تنصره؟ قال الإمام فانتبهت من نومي ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتهجد فيه حتى يطلع الصبح قال: فتعرضت له فسألني عن أمري، فأخبرته بالنام وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب. فقال نور الدين محمود: اذكر العلامة كلها. وألح علي في ذلك، فقلتها فبكى رحمه الله رحمة واسعة وصدق الرؤيا».

فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج عنها؟

عبد اللطيف حمزة

الدوق ، وترضى القلب ، وتروق العقل ، وتشوق النفس إلى المضى فى قراءة الكتاب حتى تفرغ منه . يروى المؤلف الخبر بسنده القصير على نحو ما كان يصنع الرواة فى القرون الأولى ، ولا يتوارى خلف روايته بل يطالعك بشخصه ، ويصارحك برأيه ، ويصف لك شعوره أحياناً ، وقد يحلل ما يروى ، ويعلل ما يقص فى بعض الأحايين ، وهو مولع بتنسيق الأخبار ، وترتيب الأبواب ، كل ذلك بأسلوب سهل يسير لا تصنّع فيه ولا تكلُّف وقد ساعده أسلوبه العذب ورغبته فى الإطناب ، وحبه للتفوق على من سبقه على رسم صورة جميلة لابن طولون ، لا أظن أن حاكما من الحكام قد ظفر بمثلها على كثرة الصور ، وتعدد السير التى صنعت لهم ، ومرد ذلك فيما أرى إلى ابن طولون نفسه وما كان عليه من فطنة وذكاء ، فقد حدثنا البلوى فى مواضع شتى من كتابه أنه كان يستكتب كتاباً يسميهم « كتاب السر » وأنه أوصى أحدهم فقال له : « إنى جعلتك صاحب خبر على ألفاظى ، فانظر كل ما يجرى بينى وبين من يخاطبنى من صغير وكبير ، فا كتب خطابه وجوابى ، وخطابى إياه وجوابه لى ، وأعرضه علىّ بالعشىّ » ، وأن كتابه كانوا يرعون هذا أشد المراعاة .

ونقل أيضا حديثاً طويلا جرى بين أحد أصحاب ابن طولون ، وبين بعض العلماء ، وأن هذا الصاحب لما حدّث بما جرى قيل له : كيف حفظت هذا الكلام ؟ فقال كان كاتب السر يكتب كل ما يجرى ولا يسقط من ذلك شيئا فسألت أحمد بن طولون أن يأمر الكاتب بأن يطلق لى نسخة فأمره بذلك . وكان هؤلاء الكتاب فى داخل القصر وفى خارجه يكتبون كل صغيرة وكبيرة ، ويرفعونها إليه . ومن ثم كان هذا الكتاب كأنه طائفة من التقارير والمذكرات التى كتبت فى وقتها ، ويرجع الفضل فى حفظها إلى أحمد بن يوسف كاتب الدولة الطولونية وأول مؤلف لسيرتها . وقد اعتمد البلوى على ما كتبه أحمد بن يوسف وزاد عليه طائفة من الرسائل والوثائق والأنباء عن مرض ابن طولون وأيامه الأخيرة . وفصل القول فى نشأته وأخبار حروبه وما كان بينه وبين ولده العباس وغلامه لؤلؤ . وذكر كل عجيبة من أنباء ذكائه ، ودقة ملاحظته ، وقوة فراسته وحسن سياسته وعدله ورحمته ، ومفاخره ومكارمه إلى غير ذلك من الصفات والميزات التى خلعها على ابن طولون . وإن أخذ على المؤلف شىء فهو هذا الغلو فى الدفاع عن مساوىء ابن طولون ، ومحاولته تبرير أعماله السيئة التى ارتكبها فى شطط وإفراط . ويؤخذ على المؤلف أيضا أنه أسرف فى ذكر القصص الغريبة ، والحوادث العجيبة التى يستحيل على العقل تصديقها ، ويصعب على الفكر قبولها ، والتى إن أرضت الفن فلن ترضى العلم ، وإن ظفرت بإعجاب الأدباء فلن تظفر بتأييد المؤرخين . وما أشك مطلقا فى أن تلك الأنباء قد اخترعها البلوى ، وافتراها على التاريخ . وليس ذلك بمستبعد على رجل حدثنا عنه علماء نقد الرجال أنه صنع « رحلة الشافعى » ونمقها وطولها ما وسعه التنميق والتطويل ، وأيّاً ما كان الأمر فالكتاب جدير بالتقدير لأن فيه حقا كثيراً ، وأدبا عظيما ، وأيسر ما يقال فيه : إنه من أهم مصادر الأدب والتاريخ المصرى التى تنير تلك الفترة من تاريخنا المجهول . وهناك بعض ملاحظات عنّت لى أثناء قراءتى السريعة لهذا الكتاب أحب أن أنبه عليها رغبة فى تصحيح الكتاب ، ومساهمة فى رجعه إلى أصله ، وبذلك أكون قد أديت بعض واجبى كقارىء نعِمَ حينا من الزمان بقراءة هذا الكتاب الطريف .

١ — فمن ذلك ما جاء فى ص ٧٦ « فلما أمعن فى الصحراء ساخت فى الأرض يد فرس بعض غلمانه فسقط الغلام فوقف عليه أحمد بن طولون وأخرجت يد الفرس فنظر فإذا بفتق ففتح وأصاب من المال ما كان مقداره ألف ألف دينار ، وهو المطلب الذى شاع خبره »

والصواب فإذا يتفق .

٢ — وفى ص ٩٦ : « فحارب بنفسه ساعة حربا شديدة بانت فيها رجولته وجزالته » ولا معنى لوصف الجزالة هنا ، والصواب وجراءته .

٣ — وفى ص ١٢٠ « وقدم بين يديه صينية فيها كوز ماء ، وقدح نصيف ، وجعل بين يدى الجارية صينية فيها قدح لطيف » وصواب نصيف : « نظيف » حتى تكون هناك مشاكلة بين نظيف ولطيف .

٤ — وفى ص ١٤٢ « سنح له ذكر كاتب شاهده نخف على قلبه وافترس فيه خيرا » والصواب : تفرّس .

٥ — وفى ص ١٨٧ « فدعانى يوما وقال لى : أتعرف إماما يصلى بالمنامة فى موضع كذا فقلت له : نعم أنا أعرف المسجد وما أعرف الرجل » وقد ظن الأستاذ أن كلمة « المنامة » محرفة وقال : كذا فى الأصل ولعلها « المناخة » وللأستاذ العذر فى هـذا الظن فإن « المنامة » لفظة مصرية أصيلة بمعنى « الضريح » وهى لا تزال شائعة الاستعمال فى هذه الأيام . وبعد فإنا نشكر الأستاذ الكبير محمد كرد على بك على عنايته بنشر هـذا الكتاب النفيس ونعده هدية كريمة من الشام إلى مصر نتقبلها شاكرين .

وإنى بهذه المناسبة أقترح على الأستاذ أن يحدثنا عن نوادر المخطوطات فى الشام . ولئن كان هذا الحديث عنها مفيدا وممتعا فى كل وقت فهو فى هذه الأيام التى يستحيل فيها النشر لغلاء الورق أعظم فائدة وأكثر إمتاعا ؟

السيد أحمد صقر

قصيدة الشابى

جاءنا من أحمد الشرباصى كلمة ينفى فيها أنه بعث بالقصيدة للمجلة ، ويقول : « فأنا لم أبعث بشىء كهذا إلى المجلة ، وما كان لمثلى أن يفكر فى اقتراف ذلك الإثم الأدبى الشنيع .. وما حاجتى إلى ادعاء قصيدة مشهورة لشاعر معروف طوته يد الردى ، فأصبح فى ذمة التاريخ ، وله من الحرمة ما للتاريخ ؟ ... ما حاجتى إلى ادعاء هذه القصيدة ، وليس قول الشعر همى وغايتى ، وإنى كنت قد قلت ما يقرب من سبع قصائد ، نشرت فى السياسة الأسبوعية والصباح والإسلام ؟ .. ثم كيف لى بادعاء هـذه القصيدة ، وقد تناولتها بالتحليل والثناء فى إحدى محاضراتى بكلية اللغة العربية ، وقد حضرها مئات ومئات من شباب الأدباء ؟ » .

صدى الوحدة

آهةٌ حيرى بأرجاء الدجى ... رُددت أصداؤها فى مخنق
أشرب الحزنَ كؤوسا كلما ... أُفرغت أترعتُها من أرق
صُوِّبتْ من كل صوب أسهمٌ
لست أدرى أىَّ سهم أتقى ؟
كل آمالى تلاشتْ مثلما ... يتلاشى النورُ عند الغسق
وتساوى الليل عندى والضحى
رب ليـــل جمره لم ينق
جدد الدهرُ همومًا إلما ... من هموم أوقدت لى حرق
أيقدت صحبى وخيلائى كما ... أفرقت صبحى وعمت مفرق
إيه يا ليل أما من مصبح ... أبصر النورَ بعرس الشفق
أبصر الشمسَ كنعش سائر ... يتوارى فى ظلال الأفق
أبصر الأزهار تذوى مثلما ... ذوت الأفراح فى قلب شقى

(بغداد) جمعية إخوان الأدب ... بشر الحيدرى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـــدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ — بعابدين بمصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٦٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٥ الثلاثاء ٢٦ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٢ — ٢٩ من يونيه سنة ١٩٤٣ السنة الخامسة

فهرس العـــدد

بعد إلغاء الدولية الشيوعية

التقرب بين روسيا والدول الغربية

كان إلغاء « الدولية الشيوعية » الذي تم نهائيا في العاشر من يونيه الجاري ، إجراء حاسما عميق الأثر في شئون روسيا السوفيتية ، فقد لعبت هذه « الدولية » الشهيرة دورا من أعظم الأدوار في تكييف السياسة الروسية في العشرين عاما الأخيرة ، وكان لتوجيهها الظاهر أحيانا ، والخفي في معظم الأحيان ، أكبر الأثر في سير كثير من الأحداث والانقلابات الدولية المعاصرة ، وكانت جهودها طيلة هذه الفترة تثير كثيرا من ضروب التوجس والقلق في معظم الدول والحكومات الغربية ؛ وإذن فلا عجب أن يكون لإلغائها الفجائي أعمق وقع في الدوائر الدولية ، وأن ترى فيه مجموعة الأمم الديمقراطية المتحالفة مع روسيا ، خطوة موفقة من جانب الكرملين ؛ وأن تستقبلها بمنتهى الارتياح والرضا .

والآن وقد أصبحت « الدولية الشيوعية » في ذمة التاريخ ، فإنه يجدر بنا أن نستعرض طرفا من تاريخها ونظمها ، وغاياتها ، ثم الآثار الخطيرة التي تترتب على إلغائها .

كانت الدولة الشيوعية ، ثالثة الهيئات الدولية التي أسست لتوحيد حركات العمال في مختلف الأمم ، وإدماجها في جبهة كفاح موحدة ؛ وكانت نواة « الدولية » جماعة العمل الدولية التي قام كارل ماركس إمام الاشتراكية وزميله فردريش انجلز على إنشائها ، واجتمعت لأول مرة في لندن في سنة ١٨٦٤ ، واستمرت تعقد اجتماعاتها الدورية حتى سنة ١٨٧٢ ، وهذه هي الدولية ، أو الدولية الاشتراكية الأولى ؛ ومع أنها لم تحقق كل ما علق على إنشائها من الآمال ، ولم توفق إلى إنشاء جبهة كفاح دولية فإنها كانت مع ذلك نواة الأحزاب الاشتراكية في كثير من الدول الأوربية .

واختتمت الدولية الأولى حياتها ، وانقطعت مؤتمرات العمل الدولية حيناً بسبب الخلاف الذى نشب بين ماركس والزعيم الاشتراكى الروسى باكونين ؛ وفى سنة ١٨٨٩ انتظمت الدولية الاشتراكية الثانية ، واستمرت تعقد مؤتمراتها الدورية حتى سنة ١٩١٤ ، وامتازت جهود هذه الدولية بروح سلمية وإصلاحية ظاهرة ، وكانت ترمى بجهودها إلى التوفيق بين مصالح العمال وأصحاب الأموال ، وإلى تحقيق ما يمكن تحقيقه للعمال من المنح والمزايا ؛ وقد عقدت آخر مؤتمراتها فى أوائل سنة ١٩١٤ ، قبيل نشوب الحرب الكبرى ، برياسة رامسى مكدونالد زعيم حزب العمال البريطانى ، واشترك فيه عدة من أقطاب الاشتراكية المعاصرين مثل كارل كاوتسكى الزعيم الألمانى ، وبرانتنج زعيم السويد ، وفاندرفلد زعيم البلجيك وغيرهم . وكانت الدولة الثانية ، منذ بدت نذر الحرب فى أفق أوربا ، تجاهد فى سبيل اجتنابها ، وتحاول أحزاب العمال التى تنضوى تحت لوائها أن تحمل حكوماتها على تعزيز سياسة السلم ؛ ولكن هذه الجهود ذهبت عبثاً ، ونشبت الحرب الكبرى ؛ وكان من أثر نشوبها أن غاضت النزعة الدولية وغلبت النزعة القومية على جميع الأحزاب الاشتراكية ، وركدت ريح الدولية الاشتراكية مدى حين .

ولما انتهت الثورة البلشفية بالفوز فى أواخر سنة ١٩١٧ ، وقامت حكومة السوفييت الاشتراكية فى روسيا ، فكر لنين وصحبه الزعماء البلاشفة فى بعث « الدولية الاشتراكية » من جديد ، ولكن على أسس جديدة ؛ وهكذا انشئت « الدولية الثالثة » فى سنة ١٩١٨ ، واجتمع مؤتمرها الأول فى مارس من تلك السنة ، وسميت « بالدولية الشيوعية » تمييزاً لها من الدولية الثانية التى كان يعتبرها لنين وصحبه هيئة رجعية خارجة على المبادئ الاشتراكية الصحيحة ؛ وأعلن تأسيسها رسميا فى سنة ١٩١٩ ، وتقرر أن تمثل فيها جميع الأحزاب الشيوعية فى مختلف الدول ، على يد مندوبين يشهدون مؤتمراتها السنوية فى موسكو ؛ وأنشئت لها لجنة تنفيذية اختير لرياستها زعيم بلشفى بارز هو تسينوفييف صديق لنين الحميم وساعده الأيمن ، فلبث فى رياستها أعواما طويلة . ولم تخف « الدولية الشيوعية » غايتها الحقيقية التى أسست لتعمل لها ، وهى إضرام نار الثورة العالمية ؛ وكان لنين وصحبه يعتقدون فى الواقع أن بوادر الثورة العالمية أخذت تبدو واضحة فى الحركات الثورية التى طافت بمعظم الدول الأوربية عقب الحرب الكبرى . وأصدرت الدولية الشيوعية فى مؤتمرها العالمى الثانى الذى عقد فى موسكو فى سنة ١٩٢٠ ، بياناً تبسط فيه غايتها ، وتصور ماحدث فى الحرب الكبرى ، وما تلاها من اضطراب السلم والنظام ، واختلال أسس الحياة الاقتصادية فى معظم أنحاء العالم ، بأنه ليس إلا تطبيقاً لنظرية ماركس ونبوءته بأن النظم الرأسمالية تسير إلى نكبة نفسها ، وأنها ستنحدر من جراء منافساتها العنيفة إلى معترك حرب عالمية طاحنة تؤدى إلى انهيارها ، وأن هذه النكبة سوف تؤدى إلى انحلال الحضارة الأوربية ما لم يقض على النظم الرأسمالية ذاتها .

ولبثت « الدولية الشيوعية » أعواما تضطلع بمهمتها الثورية الخطيرة ، وتعمل ما وسعت على استغلال الأزمات والاضطرابات الدولية أينما حدثت ، وتحرك الأحزاب الشيوعية فى مختلف البلاد بوحيها وتعليماتها المباشرة ، وهذه تعمل بدورها على بث روح الثورة بين طبقات العمال ، وتدبير الاعتصابات والقلاقل المحلية ؛ وكانت أحوال بعض الدول الأوربية التى هزتها الأزمات الاقتصادية والاجتماعية عقب الحرب الكبرى مثل ألمانيا وإيطاليا ودول أوربا الوسطى مسرحا خصباً لجهود الدولية ودعايتها ؛ وكادت هذه الجهود تسفر من فوز الثورات الشيوعية فى المجر وألمانيا ؛ وأحرزت الدولية الشيوعية أعظم نجاح لها فى الصين ، حيث استطاعت أن تؤلب القوى القومية ضد النفوذ الأجنبى ،

وسيادة الدول المستعمرة ، وأن تعاون على إنشاء الجمهورية الصينية ، ثم الحكومة القومية . وكانت الدولية تلجأ في جهودها ومحاولاتها إلى التدابير والوسائل السرية التي قلما تعرف أو تدرك ؛ وكان أعوانها السريون من الدعاة والمحرضين يبثون في كل مكان تأنس فيه فرص النجاح ؛ ولم تكن جهودها الظاهرة من عقد المؤتمرات السنوية وإذاعة البيانات الهجومية ضد الدول « الرأسمالية » والاستعمارية ، سوى أبسط مظاهر نشاطها . وكان هذا الخفاء الذي تلجأ إليه الدولية في تدبير مشاريعها الثورية يزعج معظم الدول الغربية ولا سيما تلك التي تضم أحزابا شيوعية قوية مثل ألمانيا وفرنسا . هكذا كانت دولية لنين وصحبه أداة ثورية مزعجة تعمل بنشاط منقطع النظير لإضرام نار الثورة العالمية ، ولا تدخر في ذلك السبيل وسيلة أو جهدا .

— ٢ —

ولكن روسيا السوفيتية ما لبثت أن أدركت ما تجره عليها جهود الدولية الثورية من خصومات ومشاكل مع الدول الغربية ؛ وكانت سياسة الكرملين تتجه منذ وفاة لنين إلى التقرب من الدول الغربية شيئاً فشيئاً بعد أن عانت روسيا ما عانت من التطرف في تطبيق التجربة الشيوعية . ومذ تولى ستالين وصحبه المعتدلون زمام الأمور (حوالي سنة ١٩٢٨) مالت سياسة روسيا الخارجية إلى مهادنة الدول الغربية ، والابتعاد عن التدخل في شئونها ؛ وحد بذلك من نشاط الدولية الشيوعية . وتوجت سياسة روسيا الجديدة بانضمامها إلى عصبة الأمم في سنة ١٩٣٤ ، وعقد مختلف المواثيق مع الدول . وأخذت الدولية تفقد أهميتها شيئاً فشيئا ، خصوصا بعد أن اقتنع زعماء روسيا الجدد بأن محاولة إضرام نار الثورة العالمية أمر صعب المرام ، وأنه خير لروسيا أن تقنع بتنظيم بيتها ، وأن تعتبر النظام الشيوعي نظاما روسيا داخليا .

وقد أوضح أعضاء اللجنة التنفيذية للدولية في البيان الذي اقترحوا فيه إلغاءها ، أن هذا الإلغاء يستند إلى الحقيقة الواقعة ، وهي أن أحوال العالم قد تغيرت إلى حد كبير منذ تأسست هذه الدولية ، وأن قيام هذا النظام الدولي للطبقات العاملة لم يعد يتفق مع أحوال العالم الحاضرة خصوصاً إزاء الحالة التي أوجدتها الحرب الحالية . ولا يخفى أن الدعاية الألمانية منذ اختارت ألمانيا أن تهاجم روسيا قد استغلت نظرية الخطر الشيوعي إلى أقصى حد ، وأن هذه النظرية ذاتها هي التي اتخذت أساسا لعقد ميثاق مكافحة الشيوعية بين ألمانيا وإيطاليا واليابان في سنة ١٩٣٧ ، وأن ألمانيا مازالت تحشد قوى الدول التي تسيطر عليها باسم حماية المدنية والنظم الأوربية من الخطر الشيوعي . فإلغاء الدولية الشيوعية في هذه الآونة يعتبر خطوة حكيمة موفقة ، ويقضي كما صرح الزعيم ستالين على هذه الدعاية من أساسها ، كما أنه يقضي على مخاوف الدول الغربية من تدخل موسكو في شئونها عن طريق الأحزاب الاشتراكية أو الشيوعية القائمة فيها .

هذا ولا ريب أن مبادرة الحكومة المصرية إلى إعلان اعترافها بحكومة السوفييت تمت بصلة وثيقة إلى قرار إلغاء الدولية الشيوعية . وقد كان قرار الحكومة المصرية بهذا الاعتراف معدا منذ سنة ١٩٣٩ ، ثم حالت التطورات الدولية دون تنفيذه حتى جاء إلغاء الدولية مؤكداً لحياد موسكو وابتعادها عن كل دعاية أو تدخل في شئون الأمم الأخرى .

والخلاصة أن إلغاء الدولية الشيوعية معناه أن روسيا السوفيتية قد عدلت نهائياً عن الأخذ بفكرة الثورة العالمية ، وأضحت ترى في الثورة والنظم الشيوعية انقلاباً روسياً محضاً يجب ألا تتعدى آثاره حدود روسيا ، وهي بذلك تتقدم خطوة جديدة أخرى في سبيل التفاهم والتعاون مع الدول البورجوازية (الرأسمالية) الغربية .

مؤرخ

كفاح المــــوت

ترجمة الدكتور احمد زكى بك

داء السكر، وقصة دوائه

ذبابة فى الحساء

وصل الثالث : طبيب جراح بدي « بنتنج » ، فى مدرسة الطب بجامعة طورنطو بكندا . له نظرية فى داء السكر يطلع أستاذه « مكلود » عليها . وبعد تعب يأذن له الأستاذ بتحقيق هذه النظرية عملياً ويعطيه مساعداً شاباً اسمه « بست » وعشرة كلاب وثمانية أسابيع . أما نظريته فهى : بالبطن غدة تسمى البنكرياس . فيها نوعان من الخلايا . خلايا كبيرة تفرز إفرازاً هاضماً يصب فى قناة البنكرياس ، ثم يصب بدورها فى الأمعاء ، فإذا بلغ إفرازها الأمعاء هضم الطعام الذى بها . ثم خلايا أخرى صغيرة ، واسمها الجزائرية ، تصب إفرازاً مجهولا فى الدم مباشرة . فهذا الإفراز هو مدار البحث ، إذ يرى « بنتنج » أن فيه مادة مجهولة هى التى تعين الجسم على حرق سكره ، فإذا فسدت تلك الخلايا امتلأ الدم والبول سكراً فرض الحيوان فمات . وهو لتحقيق نظريته يقسم كلابه قسمين : قسما يربط قناة بنكرياسه ليتم خلاياه من الإفراز الهضمى ، وإذن تفسد هذه الخلايا ، وإذن يضمر البنكرياس . أما خلاياه الجزائرية ذات الإفراز المجهول المطلوب فتسلم . وإذن يسحق هذا البنكرياس ويصنع منه حساء يحقنه فى كلب مريض بداء السكر ليرى هل يخلق من سكره . وإفساد تلك الخلايا الكبيرة ذات الإفراز الهاضم ضرورى ، لأن إفرازها يفسد الإفراز المجهول المطلوب إذا اختلط به عند عمل الحساء . أما القسم الثانى من الكلاب ، فهو الذى يُمرضه بداء السكر اصطناعا ، وذلك بنزع بنكرياسها وخياطة بطنها ، فتحيا أياما ثم تشرف على الهلاك من كثرة السكر فى دمها وبولها . وتأتى الساعة الرهيبة ساعة الامتحان . فيحقن حساء بنكرياس جاء به من كلب من كلاب القسم الأول ، فى كلب جاء به من كلاب القسم الثانى وقد أشرف على الموت ! فينتعش هذا الكلب ، ويقوم ، ويمشى من جديد . يبعث بعثاً جديداً . تحققت المعجزة على التحقيق . ولكن يطلع الصباح فإذا الكلب قد مات . وكيف ؟

والآن اقرأ :

لقد شعر الحق كيف جاز لهما أن يؤملا أن معجزة كهذه تدوم طويلا . إن الذى حقنوه فى هذا الكلب الذى لا بنكرياس له ، وقد أوشك من داء السكر على الهلاك ، إنما هى قطعة صغيرة ضئيلة قليلة حقيرة ، هى بنكرياسٌ خاصٌ لكلب آخر ، ضمّروا بنكرياسه بربط قناته .

ونظر « بنتنج » إلى « بستَ » وهو كارهٌ أن يقول له ما يجول فى خاطره . كارهٌ أن يسأله : كم من الكلاب إذنْ لا بد من تضحيته لإحياء كلبٍ واحد يصاب بداء السكر ، ثم كم تطول حياة هذا الكلب الواحد وكلُّ يوم بحياه معناه خسران كلب صحيح ؟ لا . لا . إنه عبث . إنه غير جائز ، ولا هو ممكن .

ولكن ما هذا التعجّل ؟ أليس من الجائز أن انتعاش هذا الكلب الهالك بعد حقنه ، كان لسبب عارض غير هذه الحقنة ، كان محضَ مصادفة لا تُعرف لها أسباب ؟ ونظر « بنتنج » إلى « بست » وعينُه تسائله . وكان جواب هذا التسآل صعودهما جميعاً من جديد على هذا السلّم الشقاف إلى غرفة التشريح مرة أخرى ، ثم العمل من حيث بدآ أولا . لا ، لا . لا مصادفة ، ولا شبه مصادفة ، بل هى النتيجة ترتبط بأسبابها ارتباطا وثيقا . فهذا الرابع من أغسطس . وهذا كلب جديد ، بلغ به داء السكر حدودَ ما بين الحياة والموت ، واجتاز الحدودَ إلا بقيةٌ منه ، فردَّا إليه الحياة وقد ضاع الأمل فيها أو كاد . ردَّا إليه الحياة كما ردّها المسيح ابن مريم .

ولكن ... نعم ولكن . فى كل حساءٍ ذبابة .

وهذا الحساء فيه ذبابتان : أولاهما أن الحياة التى رُدّتْ حياة قصيرة لا يلبث أن يعقبها الموت ؛ حياة يَبْسم فيها الأمل قليلا ، ثم يَعبَس طويلا ؛ حياة لا تدوم إلا ساعات . أما الذبابة الثانية فهى أنك إذا طلبت للكلب التالف حياة أطول ، وجب عليك أن تظلّ تحقن فى دمه أحسيةً من بنكرياسات ضمّرتَها فى كلاب أخرى . وهذا

في العقل غير جائز ، ولا هو ممكن . وإذنْ فإضاعة الوقت في عمل خائب لا يجوز ولا يمكن .

حفظا الحياة لكلب مريض هالك ، أمرضاه بالسكر . حفظاها له ثلاثة أيام . فهل تدرى كم كلّفهما هذا ؟ كلّفهما كلبين سليمين يتمتّعان بالصحة ويتنزّيان مرَحَ الفتوة تنزّياً سائغاً . تطلبت هذه الثلاثة الأيام بنكرياسَىْ هذين الكلبين كليهما . فهل هذا في العقول مقبول ؟

كانت ثلاثة أيام ثقيلة لم تُغمض فيها لبنتنج عين . كان قد جرّب في هذا الكلب الهالك كل ما خطر على باله . فآنا حساء من كبد ، وآنا حساء من طحال . وحقن تلك الأحسية في الكلب فلم تنفعه شيئا . فعاد إلى حساء البنكرياس . ومضى اليوم الأول ، وجاء اليوم الثاني والحساء العزيز — إكسير الحياة — آخذ في النقصان . وأمل الرجلين يتأرجح بين الزيادة والنقصان ، وهما صاعدان هابطان بين منضدة العمل السوداء وغرفة التشريح الكريهة بأعلى الدار . وانتصف ليل اليوم الثالث فأخذ الكلب يُحتضَر . وعندئذ حقناه الحقنة بعد الحقنة ، عند انتصاف الليل ، في الساعة الواحدة ، في الساعة الثانية ، في الثالثة ، وكلها في وريد رقبته . فأخذ الكلب تعود إليه الحياة ، وأخذ يزداد قوة فقوة . وفي الساعة الرابعة ، والطيور تستيقظ في أوكارها ، أعطوه حقنة أخيرة هي آخر ما بقي من الحساء . وفي الساعة السابعة نظر الرجلان بأعين حمراء من السهر في جهاز « بنت » الكيميائي لتقدير السكر ، فلم يجدا أثرا للسكر في بول هذا الكلب .

ويضحى النهار ، وترتفع الشمس ، حتى إذا توسطت السماءَ ، مات الكلب .

فرغت الكلاب العشر التي ظن « بنتنج » أنها كافية لإثبات نظريته . فرغت من زمن بعيد . وكان أستاذه ، الأستاذ « مكلود » ، إذ ذاك في أوربا . وليس لديه علم مطلقاً بما صنع « بنتنج » ، أو بما هو صانع ، ولم يخطر في باله أن في تلك الساعة ، في قسمه هو خاصةً من الجامعة ، كانت تجرى أحداث من أمتع ما عرف العلم ، ومن أخطر ما سجّل التاريخ ، يجريها رجلان ، أحدهما فلاح سابق وجراح سابق ، والآخر طالب طب في السنة الرابعة من دراسته . فرغت تلك الكلاب العشر الأولى التي أذن بها لهما الأستاذ « مكلود » ، فهل يسألانه كلابا أخرى ؟ لا . لا فقد عرفا سبيلهما إلى مصادر يَعتسُّها البحّاث ذو العزم الشديد . قال بنتنج : « لسنا في حاجة ، فلدينا الآن من الكلاب كفاية » .

ويأتي اليوم التاسع عشر من أغسطس ، فتجد بنتنج في الساعة الثالثة ، قُبَيل فجر ذلك اليوم ، قاعداً وحده في غرفة التشريح العليا . قال « بنتنج » : « كنت جالساً أرصد الأعراض الأخيرة للكلبة التي رقمها ٩٢ » . والكلبة التي رقمها ٩٢ ، كانت كلبتهما هما ، وكانت عزيزة عليهما . وكانت تجرى من المعمل حيث تشاء ، واليوم هي راقدة تُحتضَر . فقد كانا نزعا بنكرياسها ، ثم حفظا حياتها ثمانية أيام صحّت فيها ، وسكّر دمها قليلٌ كما في الأصحاء ، ولا يكاد يوجد سكرٌ في بولها . وهي في أثناء ذلك تلهو وتلعب لاقطة مداعبات لها الأيام . واليوم هي راقدة تُحتضَر .

قال بنتنج : « لشدّ ما أحببتُ هذه الكلبة » .

ولإبقائها حيّةً هذه الثمانيةَ الأيام ، حقنوا فيها بنكرياساتِ ما لا يقل عن خمسة كلاب . خمسة كلاب تموت لتحيي كلبة واحدة . عمل سخيف فضلا عن فظاعته . ولكن هذه الكلبة أفادتهم فوائد كبرى ، وكانت صديقة مهاودة . كانت تنطُّ إلى المنضدة ، وترقد فوقها على جانبها في هدوء طوعا ، ليستخرج « بنتنج » منها بعض دمها ليأخذه « بنت » فيقدّر سكّره . خاطرتْ هذه الكلبة بحياتها لتعلّم « بنتنج » أنه لا فائدة من حقن البنكرياس إذا لم يسبق ذلك تضميره ، إذا لم يسبق ذلك ربطُ قناته لتتقلّص خلاياه التي تفرز عصارته الهاضمة . وعلّمته شيئاً آخر ، أن حساء البنكرياس أفعل إذا هو استُخلص في

ماء حامض لا قلوى .

وكان يترك هذه الكلبة حتى تكاد تردّى فى قبرها ، ثم يردُّها عنه بحقنته . وكرّر هذا مراراً . وعندئذ وثق وثوقاً لا شبهة فيه أنه أخيراً وقع على إكسيره الذى طلب . وقع على هذا الإكسير فى تلك الخلايا الجزائرية الصغيرة بالبنكرياس . والجزيرة الصغيرة بالأفرنجية لفظها إزلت Islet فسمّى هذا الإكسير إزلتين . سمّاه وهو لم يره ، وهو لم يجسّه ، ولكنه أحس أثره ، فوثق بوجوده وآمن به حتى كأنه رآه . وهكذا يُعرف ويُعبد الله .

وكان واجباً أن يبقى هذا الاسم الذى اختاره « بنتنج » . ولكن هذا الاسم بالطبع تغير ، والناس تعرف ذلك .

عادت الكلبة رقم ٩٢ ، إلى احتضارها . عادت بعد أن فرغ حساء البنكرياس كلّه ، فلم تبق منه قطرة . عادت تحتضر وقد عرف « بنتنج » ما داء السكر ، وعرف ما دواؤه . وأخذ ينظر إلى كلبته وهى تموت ، فهمّه ما رأى . وأخذ يداور الأمر فى رأسه . إن الإزلتين قد ثبت وجوده ، فلم يعد خيالا ، فما الداعى لمواصلة هذه التجارب وهى ألمية قاسية . إن الإزلتين يجعل السكر يحترق فى دم هذه الحيوانات إذا أصابها داء السكر ، فهو يشفيها من هذا الداء ، ولكنه كالجوهر عزيز نادر . وفى الدنيا ملايين من الناس تفتقده وتحتاجه ، وربما مئات الألوف يموتون من عوزه .

قال بنتنج : « وعندئذ خطر لى أن ... ... » .

ويصبح الصباح فتراه يسرع إلى كلب سليم لم يمسه مشرط قط ، فيبنّجه ، ويجرى المشرط فيه سريعا . وهذا « بست » يعالج أمعاء هذا الكلب ليستخلص منها مادة اسمها سكرتين Secretin تصنعها الأمعاء فى أغشيتها فيمتصها الدم فتدور فيه ، حتى إذا أتت البنكرياس حثت خلاياه ذات الإفراز الهاضم على صب إفرازها . وهذا الإفراز هو الذى يتلف الخلايا الجزائرية فيفسد إكسيرها . فلا بد إذن أن يتخلص من هذا الإفراز ليبقى إكسير تلك الخلايا صالحا . وظل « بنتنج » فى ذلك الصباح قائما على رجليه أربع ساعات يحقن فى هذا الكلب ما استخلص من أمعائه ، والكلب يتنفس تحت البنج تنفسا هادئا منتظما . حتى إذا أعلن « بست » خلوّ القناة البنكرياسية من عصارة البنكرياس الهاضمة ، فلم يعد يجرى فيها من تلك العصارة قطرة ، نزع « بنتنج » من هذا الكلب بنكرياسه ، ثم ردّه حتى أثلجه وجلّده ثم هرسه ليصنع منه حساء .

ويصعد بالحساء إلى كلبته ، كلبة رقم ٩٢ ، وهى راقدة فى قفصها ، تتنفس أضعف أنفاسها ولا شىء غير هذا . فيحقنها بالحساء .

وتنحدر الشمس إلى مغربها ، فيجد هذه الكلبة قد راق بصرها ، وأخذت تتشمّ روائح العيش طيبة من جديد . ويفتح « بنتنج » باب قفصها ، فتنط وتخرج منه ، وتجرى فى الغرفة ، وترفع جنبها إلى سيدها ، إلى هذا السيد المجنون الذى قتلها مرارا وأحياها مراراً .

قال بنتنج : « لا أنسى أبدا ما ملأنى من الفرح لما فتحت قفصها ... »

ولكن تعود المسألة إلى قديمها . إنها غير جائزة ، إنها غير ممكنة . فإنك لن تستطيع أن تطهر البنكرياس من عصارته الهضمية فى آلاف الكلاب أو آلاف البقر أو الخنازير بهذه العملية الدقيقة لتشفى ملايين المرضى من الناس تمنع أجسامهم أن تحل فتجرى فى أبوالهم سكرا . إن الذى أتاه « بنتنج » إلى الآن جميل فى أعين العلم ، ولكنه من الوجهة العملية زخرف غير نافع .

ومع هذا لم يفقد صاحبنا أمله . وظل يضرب فى طريقه ، يحدوه رجاء لا يعرف كيف يخيب .

ولم لا يرجو ؟ وكيف يخيب له أمل ؟ لقد كفاه تشجيعا ، وكفاه إغراء برجائه ، رؤيته هذه الكلبة ،

الشيخ رفاعة الطهطاوى

مؤسس النهضة العلمية الحديثة

– ٦ –

يعود الشيخ رفاعة من السودان إلى مصر فى أول عهد سعيد باشا ، ولكن لا تعود مدرسة الألسن ؛ — فسعيد لم يُعِد نهضة التعليم كما كانت فى عهد محمد على وإبراهيم ، وإن توسع بعض الشيء عما كان عليه فى عهد عباس الأول — وإنما يعود ناظراً ثانياً ، أو بعبارة أخرى وكيلا لمدرسة حربية كانت بالحوض المرصود ، وكان ناظرها سيف باشا أو سليمان باشا الفرنساوى مؤسس الجيش المصرى ومنظمه ، وقائد الجيوش فى حروب محمد على وإبراهيم ، وصاحب التمثال فى الميدان المسمى باسمه ؛ وكان جباراً عنيداً ، وقف أمام نابليون وهو ضابط فقال له : هل أنت سيف الذى حدثونى عن غطرسته ؟ فأجاب : إذا كان هذا كل ما تريد أن تقوله لى عدت إلى فرقتى ، ثم أعطى ظهره له ورجع إلى مكانه ، فرقّاه نابليون لجرأته ؛ وهو الذى عمل الأعمال الحربية العظيمة فى مصر ، من تمرين المماليك ثم تمرين المصريين حتى حذقوا الحرب وتفوقوا على الجيش العثمانى ؛ هذا هو الناظر الأول الذى عين ناظره الثانى الشيخ رفاعة ، فالعجب لهذا الوضع الذى لا مبرر له إلا أن الشيخ رفاعة « ميرالاى » .

ومع هذا فقد وسّع « الشيخ » نفوذه العلمى ، فقد وضع مشروع مدرسة بالقلعة تدرس فيها الفنون الحربية والمدنية ، وأقره عليها سعيد باشا ، فاختار لها المدرسين ، وراعى فى كل ذلك ما يشوّق الأهلين للإقبال عليها وإدخال أبنائهم فيها — ثم امتد نفوذه فأعيد قلم الترجمة ، وهو أشبه شيء بمدرسة الألسن ، وجعل مشرفاً عليه ، وأحيلت عليه نظارة مدرسة المحاسبة والهندسة الملكية والمعمارية ؛ وأحبه سعيد باشا وقرّبه جدا إليه ، واستمد الشيخ منه نفوذه بوجهه فى التعليم ونشره .

وهنا ذكر الشيخ عهده بالمستشرق ده ساسى ، والمستشرق كوزن ، وما يقوم به المستشرقون من أعمال قيمة فى خدمة اللغة العربية بنشرهم أمهات الكتب ، فوضع مشروعا للعناية بتصحيح الكتب القديمة القيمة وطبعها بمطبعة بولاق ، وعرضه على سعيد باشا فأجازه ؛ وجرد الشيخ محمد قطة العدوى ، والشيخ إبراهيم الدسوقى ، والشيخ نصر الهورينى وغيرهم ، واشترك معهم فى اختيار الكتب التى تطبع والقيام على تصحيحها وطبعها ؛ فطبع بإرشاده تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، ومقامات الحريرى ، وغير ذلك من الكتب الدينية والأدبية والتاريخية ، فكان هذا دعامة أخرى من دعائم النهضة : تأسيس الكتب بعد تأسيس الرجال ؛ وأعانه على ذلك معرفته الواسعة بالكتب العربية وغرامه

كلبة رقم ٩٢ ، لا تزال قاعة حية تتنفس الأنفاس . عشرون يوما عاشتها وهى لا بنكرياس فيها . فهذا أول حدث من جنسه فى تاريخ الحيوان والناس . وماتت الكلبة أخيرا . ماتت بعد كل هذه النتائج ، ومع هذا غضب « بنتنج » لموتها . لم يكن فيه غرام بالحقيقة النظرية إذا هى لم تؤدِّ به إلى غايته العملية . لقد احتال لإبقاء هذه الكلبة حيّة ، واخترع وافتنّ الفنون الغريبة المستحيلة ليحفظ لمصباح هذه الحياة نوره ، ويمنع شعلته أن يطفئها الريح . وتأزم به الأزمات ، فى كل الأوقات ، فى ضحى النهار أو فى سحَرٍ من الليل ، فلا يعوزه الخاطر والخواطر لحلّها : نعمْ هنا فُرجة يكون منها الإفلات . ثم وراء هذا الركن يكون الروغان والدوران . نعم ... نعم ... ثم هو يندفع إلى المخلّص بقوة ، فكأنما يد الله من ورائه تدفعه . ومن ذا الذى يقف وجلا تدفعه من ورائه يد الله ؟

(يتبع) **أحمد زكى**

باقتنائها ، وإنشاؤه لنفسه مكتبة واسعة غنية بالنوادر .

* * *

لم تكن كل الأمور ميسرة كما نراها اليوم ، بل كان الطريق لكل عمل وعراً محفوفاً بالمصاعب ، فإنشاء مدرسة أو إنشاؤها منوطان بالوالي نفسه ، فلا بد من قصائد مديح ودعوات صالحات وملق أنيق ، تقدّم للوالي في لفائف من حرير لينشئ مدرسة ، ولا بد في أول الكتاب وآخره من ثناء مستطاب ، ودعاء للأنجال ، وتزلّف لمدير المطبعة ليتم طبع الكتاب ، ولا بد ولا بد ولا بد في كل شيء من كل شيء ! والشيخ ماهر في كل ذلك ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويأتي البيوت من أبوابها ، فيسهّل عسيرها ويحلّ عقدتها .

ومسائل العلم نفسها عسيرة كمسائل الولاة والأمراء ، فالعلم الحديث قد تقدم ، والعلم العربي قد وقف منذ سبعة قرون ، وهو إذا أراد ترجمة كتاب حديث اصطدم بالمصطلحات : ماذا منها عرفه القدماء ، وماذا منها لم يعرفوه ؟ وماذا يصنع من الكلمات لما لم يُعرف ، هل يضع الكلمات الأجنبية كما هي بعد صقلها صقلا عربياً ، أو يبحث لها عن لفظ عربي ؟

لقد حيّره ذلك منذ كان في باريس ، وقد عُهد إليه ترجمة كتاب في « الفولكلور » أو عادات الشعوب ، سماه « قلائد المفاخر ، في غريب عوائد الأوائل والأواخر » ، يتمرّن فيه على الترجمة ، فاصطدم بأسماء البلاد الأفرنجية والرجال والأشياء ، وكان هو لم يعرفها فيرجع إلى المعاجم التي تشرحها ، فبم يترجمها ؟

لقد اهتدى إلى فكرة لطيفة ، هي أن يعمل للكتاب ملحقاً يضمّنه كل الأسماء الأفرنجية التي وردت في الكتاب ورتبها على حسب حروف المعجم ، ويضع لها اسما مأخوذاً من اللفظ الأفرنجي ، ويصقله صقلا عربيا : فالبرازيل « ابرزيلة » بسكون الموّحدة وكسر الراء بعدها مثناة تحتية فزاي مكسورة فلام فتاء تأنيث ، ثم يأخذ في شرحها وتاريخها ، وأوميروس أو هوميروس ، ويضبط الكلمة ويعرّف به ، وكذلك البارومتر ، والسبكتا كل ، ويقال له التياترو اسم لعبة ببلاد الفرنج يلعب فيها تقليد سائر ما يقع ، ويأخذ في شرحها في نحو صفحة ، وهكذا .

ويود أن كل مترجم كتاب يجرد هذه المصطلحات ويعربها كما فعل ، ويجمعها في أول الكتاب أو آخره ، حتى يكون للغة العربية بعد ذلك معجم جامع لكل المصطلحات الأفرنجية ، وأسماء البلاد والأشخاص والأشياء ؛ وهذا نص كلامه العجيب : « وقد شرحنا الكلمات الغريبة التي توجد في هذا الكتاب وعرّبناها بأسهل ما يمكن التلفظ به ، حتى يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة في لغتنا كغيرها من الألفاظ المعرّبة عن الفارسية واليونانية ؛ ولو صنع نظير ذلك في كل كتاب ترجم في دولة أفندينا ولي النعم الأكرم لاتسع الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، ونظمها في قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التي ليس لها مرادف أو مقابل في لغة العرب ، فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب ، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب » .

أمنية تمناها ، وخطة أملاها منذ ١١٦ سنة ، لو سرنا عليها لحللنا أكثر مشاكل التعريب التي نعانيها اليوم .

وظل يكافح في هذا الباب كفاح الأبطال ، فقد عُهد إليه منذ عودته أعمال مختلفة تتصل بعلوم مختلفة ، فأخذ في كل منها يواجه مشكلة مصطلحاتها ، ويضع منها ما تدين له بعضها اليوم — يترجم في الهندسة ويضع بعض مصطلحاتها ، وكذلك في الطب ، والجغرافيا ، والتاريخ ؛ ويترجم القانون المدني الفرنساوي ويضع مصطلحاته ، وهكذا .

* * *

بلغ « الشيخ » أوجه في عهد إسماعيل لما عادت الحركة

العلمية قوية نشيطة ؛ بلغ أوجه المالى ، فقد منحه إسماعيل ٢٥٠ فداناً أخرى ، فبلغ مجموع ما مُنحه ٧٣٦ فداناً ، واشترى هو ٩٠٠ فدان أخرى ، فكان ما علكه ١٦٣٦ فداناً ، غير العقارات العديدة فى القاهرة وطهطا ؛ فقد كان فى عهد يكافأ فيه الرجل النافع بما يوسّع رزقه ، ويوفّر جهده لعمله ؛ ومع ذلك فهذا الباب أتفه مقوّماته ، فقد ذهب الشيخ رفاعة وأصبحت أطيانه الموقوفة مصدراً لنزاع لاينتهى ، ولم يخلّده إلا مجهوده العلمى وآثاره الباقية .

ويبلغ أوجه العلمى ، فهو عضو من أعضاء «قومسيون المدارس» ، يضع برامجها ، ويشرف على التعليم والامتحان فيها ، ويقول فيه على باشا مبارك : «كانت مجامع الامتحان لا تزهو إلا به» ، وهو ينشئ أول مجلة مصرية هى «مجلة روضة المدارس» ، يلتف حوله فى تحريرها أدباء مصر وعلماؤها .

ورى أن ليست هناك كتب للمدارس تصلح لمواجهة النهضة الجديدة والعقلية الحديثة ؛ فالكتب الأزهرية لا تناسب الطلبة ، والكتب الأدبية القديمة مملوءة بالغث والسمين ، والدنيا كلها تؤسس تعليمها على النعرة الوطنية ، والتعريف بمزايا الوطن وتاريخه ، وتستنهض هم الناشئين لخدمته ، ولا شئ من ذلك فى الكتب العربية .

إذن فليقم هو بكل هذه المهمات .

يؤلف كتاباً فى النحو على نمط جديد ، محتذياً فيه حذو الفرنسويين فى تسهيل أجروميتهم ، ويسميه «التحفة المكتبية» فى القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية ، ويضع بعض القواعد فى شكل جداول يسهل حفظها .

ويضع لمطالعة المدارس كتاب «مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية» ، وهو أول كتاب عربى ينزع إلى الناحية الوطنية ، فيذكر معنى الوطن ، ومصر ومزاياها ؛ وتشغل ذهنه المنافع العامة فيخصص لها أكثر الكتاب ، فيذكر كيف تؤدّى فى البلاد المتمدنة ، ويبدأ مما قام به بعض رجال السلفين فى سبيل المنفعة العامة ، وواجب الأغنياء ، وكيف يربى الأولاد ، وفصولا فى الاقتصاد المصرى من منابع الثروة وتقسيم الأعمال إلى منتجة للأموال وغير منتجة ؛ ويعود إلى المنافع العامة ويقسمها ويبين تاريخها فى الأمم وتاريخ مصر إزاءها إلى عهد محمد على ، ويذكر الإصلاحات التى عملها ، ثم يذكر الآمال التى يأملها فى المنافع العامة فى المستقبل .

ثم خاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الأمور المستحسنة .

وهو — فى كل ذلك — يجمع بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية .

وينزع إسماعيل إلى تعليم البنات ، وتنشأ أول مدرسة للبنات فى مصر ، ولا يرضى عن ذلك الرأى العام المصرى التدّين ، فيقف الشيخ رفاعة فى كتبه يحبذ تعليم البنات ، ويردّ حُجج المعارضين ، فيقول : «ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ، ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظُمن فى قلوبهم ... وليمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأعمال والأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوّتها وطاقتها ... وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ؛ فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ؛ وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال ، فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فإن

المرأة التي لا عمل لها تقضي الزمن خائضة في حديث جيرانها ، وفيما يأكلون ويشربون ، ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها ، وهكذا . وأما القول بأنه لا ينبغي تعليم النساء الكتابة ، وأنها مكروهة في حقهن ارتكاناً على بعض الآثار ، فينبغي ألا يكون ذلك على عمومه ؛ ولا نظر إلى من قال إن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية ... فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات المذمومة ، وكم من نهي وردت به الآثار كمقاربة السلاطين والتحذير من الفتن ، وقد حمل كل ذلك على ما يعقبه شر وضرر محقق ؛ وتعليم البنات لا يتحقق ضرره ، وكيف ذلك وقد كان من أزواجه صلى الله عليه وسلم من يكتب ويقرأ ، كحفصة وعائشة . الخ الخ .

ألست ترى معي أن هذه نظرة صادقة ، ودعوة جريئة كانت قبل قاسم أمين بنيّف وثلاثين عاما ؛ وقد ملأ « الشيخ » هذا الفراغ بتأليف كتاب للمطالعة يصح أن يوضع في يد الفتى والفتاة سماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » .

* * *

قد يكون (الشيخ) في شعره ضعيفاً أشبه ما يكون بشعر الفقهاء ، وقد لا يبلغ في نثره مبلغاً عالياً ، فكثيرا ما يتعثر في السجع المتصنّع ، ويشد أنواع البديع شداً ؛ ويشبو ذوقه أحياناً في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » في تعرضه لموضوعات لا يصح أن توضع في يد البنات كفصله في « البكارة والثيوبة » ونحو ذلك ؛ ولكن من العدل إذا قسناه أن نقيسه بزمنه ، وبمن قبله لا بمن بعده — فقد نشأ في زمن يُعَدّ فيه « مَن فك الخط » كاتبا ، وعالم الأزهر الذي يقرأ « المطوّل » و « الأطول » في البلاغة لا يحسن أن يكتب خطابا لأمّه أو أبيه .

على أن قيمة « الشيخ » الكبرى ليست في أسلوبه ، وشاعريته أو نثريته ، إنما هي في أنه نشر العلم في أوساط فسيحة ، وأسس نهضة علمية متوثّبة ، وفتح للمتعلمين آفاقا واسعة لم يكن لهم بها عهد ، وذوّقهم معنى العلم الصحيح ، وشوّقهم للاستزادة منه ، وبصّرهم بعيوبهم ، وأبان المناهج لتكميل نقصهم ؛ وليس ذلك بقليل على رجل .

* * *

أربعة وأربعون عاما تقريباً منذ عاد من باريس وهو في هذا العمل الدائب والحركة التي لا تنقطع في التعليم والتأليف والترجمة والنشر ، حتى أوفى على الخامسة والسبعين ، وقد دهمه الدهر الذي لا يرحم ، فلفع بالشيب رأسه ، وأحنى قوسه .

وفي ليلة فاجأه مرض البروستاتا أو التهاب المثانة فعولج حتى شفي ، ثم عاوده واشتد عليه ؛ وفي أول ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ ، ٢٩ مايو سنة ١٨٧٣ حضر بوله ، تسمم دمه ، أسلم لخالقه روحه — سرى البرق بنعيه — اهتزت مصر لموته ، احتشد لتشييع جنازته الألوف المؤلفة من رجال المعارف والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس ، وازدحمت الشوارع بالناس يردّون بعض جميله : يذكره الأزهريون على أنه ابنهم ، والمتعلمون المدنيون على أنه أبوهم ، والجالية الفرنسية على أنه أخوهم ، والمصريون كلهم على أنه مؤسس نهضتهم ؛ وكلهم يتوجع لفقده ، ويشيد بذكره . وسار المشهد من منزله بالهمشا حتى إذا قارب المدينة كان ينتظره شيخ الأزهر وعلماؤه وطلبته ، فاشتركوا في تشييع الجنازة ، ووضع النعش في القبلة الجديدة ، ولا يكون ذلك إلا لعظيم ، وأخذ الأفاضل في رثائه بالقصائد والخطب ، ثم حمل إلى « بستان العلماء » ، حيث طويت صحيفته ، وبقيت آثاره خالدة تعظم وتتزايد وتتوالد — رحمه الله فقد صنع لأمته كثيراً .

(انتهى) أحمد أمين

السوسن وبرعمة الورد

[كتب هذه القصة فريدريك ليوبولد فون هاردنبرج Hardenberg المشهور في عالم الأدب باسم نوفاليس Novalis . ولد في سنة ١٧٧٢ م ، ومات شاباً يغرد في الثامنة والعشرين . ولما استيقظ ذهنه أطلق خياله يحلق في سماء الأدب بجناحي نسر . وتوفر على العلوم والفلسفة ، وتتلمذ على شيلر وارتبط بشليجل Schlegel وثقه بأواصر الصداقة ، وشعره يصدح بالنغم الموسيقي ويضج بالصوفية ، وتتخلله نبرات الحزن الذي قضى عليه قبل الأوان من موت شقيقه وموت خطيبته ، وكانت زهرة يانعة مدهلة قطفها الموت ولما تكمل خمسة عشر ربيعاً] .

كان في سالف الزمان إنسان في نضرة الصبا يعيش بعيداً نحو الغرب . وكان هذا الإنسان طيباً غاية الطيبة ، عجيباً مع ذلك غاية العجب ؛ فهو دائب الحزن في غير ما شيء ، لائذ دائماً بالصمت ، يلتجئ إلى العزلة حين يلهو الناس ، ويتعلق أموراً غاية في الغرابة .

فالمغارة والغابة مقامه المحبوب يتحدث فيه إلى الحيوان والطير ، والشجر والصخر ، حديث خرافة باعثاً على الضحك . وقد جهد في تسليته السنجاب والقرد ، والببغاء ، والصَّعْو[1] ، وتعبت كلها في رده إلى السبيل السوي ؛ لكنه ظل الساخط الكئيب .

كانت الإوزة تقص عليه مختلف الأقاصيص ؛ وكان الغدير يترنم بينها ، والحجر الضخم يقفز أثناءها قفزات مضحكة كقفزات التيس . وكانت الوردة تتبعه راضية حيثما سار ، وتتسلل في خصله متوددة ؛ وكان اللبلاب لا يفتأ يلاطف جبينه الحزين .

لكنه مع هذا لم يدع الاكتئاب ، ولم يزايله التجهم . فكان أبواه من جراء ذلك جد كئيبين ، وكانا أبداً في حيرة من أمره ما ذا يصنعان ؛ فقد كان صحيحاً لا يزهد في طعام ، وكانا حريصين على مرضاته ؛ وكان من سنوات مضت طروباً مرحاً كما لم يكن إنسان ؛ يرتع ويلعب في طليعة اللاعبين ، ويفوز بالتفات الفتيات الحسان . وقد كان جميلا بارع الجمال ، يحسبه الرائي صورة بالألوان ؛ حاذقاً للرقص كحذق المشاق . وكان في الفتيات طفلة فاتنة يخالها من يراها قد صنعت من شمع ، ناعمة الشعر كأنه حرير ، شقراؤه كأنه نضار ، دعجاء العينين ، نامية كالدمية ، قانية الشفتين في لون العناب ، يتمنى المرء لو فني في هواها فهذا القدر حسنها وصباها

وكان السوسن ، وهو اسم الفتى ، يحب البرعمة ، وهذا اسم الفتاة ؛ قد أُشرب حبها إلى حد الفناء . وكان سائر الفتية والفتيات يجهلون أمرهما ، حتى نفضته البنفسجة على الأسماع ، ولحظته القطط تجاور البيتين . فكان السوسن وهو بنافذته ليلا ، وكانت البرعمة وهي بنافذتها كذلك ، تمر بهما القطط في طلبها الجرذان ، فتضحك حين تراهما واقفين ، وتغرب في الضحك بصوت مرتفع يسمعه العاشقان فيغضبان .

وقد حكت البنفسجة حكايتهما لعنب الذئب ، فقصها بدوره على صديقته الفراولة ؛ فجعلت تغمز كأس السوسن ؛ ثم لم تلبث الحديقة أن علمت الأمر ، وانتشر منها إلى نواحي الغابة ، فكان السوسن إذا خرج إليها تجاوبت الغابة بأغنية واحدة :

برعمة الورد يا حبيبة الفؤاد !

فيغضب السوسن ، ثم لا يلبث أن يضحك حين يرى السحلاة آتية تتسلل ، تعتلي حجراً طلباً للدفء ، وتحرك ذنبها كأنها تقول :

برعمة الورد يا طفلتي الحبيبة ،
ما ذا دها عينيك من منظر الحبيب ؟
تطوقين عنقه كما لو كان أمَّا ،
وتبتين شخصه فلا تردين ،
بل تمعنين في تقبيل وجهه الغريب !!

لكنه وا أسفاه ! فقد ولى الهناء ؛ إذ جاء رجل

(١) عصفور صغير .

قادماً من سفر بعيد الأرجاء، ذو لحية مرسلة، وعين غائرة وحاجب رهيب، وثوب عجيب! كثير التنقل، موشى بالصور. فقصد فناء بيت السوسن فألفاه منتظراً فيه الفضول، بحيث لا يستطيع حلية خبره، وأكله بشيء من الخبز والخمر. وفرق الرجل لحيته البيضاء، وأخذ يقص على السوسن القصص إلى ساعة متأخرة من الليل؛ والسوسن لا يتزحزح ولا يتزعزع، ولا يدركه التعب ولا الملال.

وذاع فيما بعد أن الرجل الغريب قد حدث السوسن عن بلاد أجنبية، وأصقاع مجهولة، وأشياء عجيبة، وأنه قضى معه ثلاثة أيام يغوصان إلى الأعماق، ويتسايان إلى الهُوَى(١). ورحمة الورد تصب اللعنات في تلك الأثناء على رأس الشيخ الذي سحر السوسن واستحوذ عليه؛ فلم يعد يأبه لشيء غيره، اللهم إلا القليل من الزاد.

ورحل الرجل بعد إذ ترك للسوسن كتيباً غامضاً، وزوده السوسن بالفاكهة والخبز والخمر، وصاحبه شقة من الطريق؛ ثم عاد مسلوب الفكر حائل الحياة.

وحزنت البرعمة عليه، وأزعجها جفوته وانقطاعه إلى نفسه.

وفي ذات يوم عاد السوسن فجأة إلى بيت والديه فعانق أبويه، وبكى ثم قال: لا بد لي من الرحيل إلى بلد غريب، فقد أهابت بي عجوز الغابة أن أنتجع الصحة، وأحرقت كتبي وأطعمته النار؛ ثم دفعت بي إليكما أنشد بركتكما وقد أعود قريباً وقد لا أعود أبداً. فأبلغا سلامي إلى البرعمة؛ فقد كنت حقيقاً أن أذهب إليها لولا دافع قوي يدفعني إلى الرحيل.

« إني كلما فكرت في الأيام الخوالي تطغى على تفكيري أفكار أقوى. فالراحة زايلتني، والقلب والحب وليّا معها عني، فلا بد من تنشدانها جميعاً. لوددت أن أنبئكم أين مرتحلي، لكنني أنا نفسي لا أعلم ذلك. ولعلي ذاهب إلى أم الأشياء، إلى العذراء ذات القناع! فنفسي تذوب حنيناً إليها. فالوداع! ».

وانتزع نفسه من أحضان والديه، ومضى في سبيله إلى ما لا يعلم من وجهته.

وندبه أبواه، وذرفا عليه الدمع، والتزمت برعمة الورد مخدعها، وجرت عبراتها سخينة غزيرة.

ومضى السوسن يقطع الوديان والقفار، ويعبر الجبال والأنهار، ولا قصد له إلا البلد الحق. فكان يسأل أينما سار عن إزيس الإلهة المقدسة: يسأل الإنسان والحيوان، والصخر والشجر، فيضحك بعضها، ويصمت البعض، ولا يفوز أبداً منها بجواب.

واجتاز أول الأمر أرضاً وعرة موحشة، واعترضه الضباب والسحاب، فكان يقتحم ما يعترضه، حتى إذا أتى صحارى رملية لا يدرك الطرف آخرها، وسار فوق ترابها المضطرم الوهاج، جعلت نفسه تتبدل كلما أمعن في السير فيها، فزايله اضطرابه، وازداد اطمئنانه، وحال التقزز العنيف في نفسه تدريجاً ترسلاً خافتاً، لكنه قوي مستحوذ. ولاح له الزمن، وكأنه عبر منه شوطاً بعيداً.

ثم عادت الأرض غنية ثانية، متنوعة، فاترة الهواء، مستوية الطريق، تستهويه أدغالها الخضراء إلى ظلالها الفيحاء، لكنه لم يكن يفهم كلامها، ولا كانت تبدو أنها تتكلم، وإن أفعمت قلبه نضرة، وأنزلت عليه السكينة والسلام.

وازداد الشوق في نفسه كل يوم شبوبا، وازدادت أوراق الأشجار على الأيام عرضاً، وربت عصارة، وعلت أصوات الطير والحيوان، وازدادت ارتفاعاً وانشراحاً، وطابت الفاكهة على مر الزمن نكهة وشفاء، واشتدت زرقة السماء وحرارة الهواء، وازداد هواه اضطراماً، وجعلت الأيام تمر سراعاً، وكأنما هو من غايته قاب قوسين أو أدنى.

وفي ذات نهار صادف عيناً صافية، وطائفة من الأزهار تهبط وادياً بين عُمُد قاتمة اللون تطاول السماء؛ فحيته الأزهار تحية طيبة بعبارة يفهمها، فقال لها يخاطبها: أيتها الواطنات العزيزات! ترى أين مقام إزيس وقدسها

---

(١) الهوى: جمع هوة.

غسل الكتابة

كانت الحاجة إلى الورق وندرته في العصور الخالية تلجئان النسّاخ الأقدمين إلى أن يكشطوا كتابة بعض الرقوق ، ليستعيضوا منها بغيرها . وفي بعض خزائن الكتب نماذج من هذا القبيل . ففي خزانة المتحف البريطاني مثلاً مخطوطة قديمة العهد على الرقّ ، كُتبت أولاً باللغة اليونانية ، ثم عمد أحد النسّاخ الشرقيين إلى محو تلك الكتابة وإحلال كتابة إرمية محلها ؛ ولكن آثار الكتابة الأولى ما زالت واضحة بيّنة في بعض المواطن كأنها تريد أن تعلن عن أصلها الثابت . وفي بعض الخزائن الكبرى أيضاً ، رقوقٌ فيها خطوط قديمة ، كُتب فوقها خطوط جديدة ، وهـذا ما يعبَّر عنه الفرنج بلفظة Palimpseste

وقد وقفنا على ما يشبه هذا العمل ، مع الاختلاف في الأسلوب والغرض ، وذلك فيما صنعه بعض الناس بكتاباتهم أو بكتابات غيرهم ؛ فقد كانوا يعمدون إلى غسل الكتابة ، بأن يضعوا الكتب أو الأوراق المخطوطة في الماء مدة من الزمن ، فينحلّ حبرها وتطمس كتابتها وتتشوّش معالمها ، وذلك للتخلص ممّا فيها من أقوال أو آراء لا يرغب في الإبقاء عليها ولا في الاحتفاظ بهـا . فكان من يُقْدم على إتلاف تلك الكتابات إنما غرضه التبرؤ مما كتب أو التوبة إلى الله عمّا صنع ، أو تلافي ما فرط منه . من ذلك ما حكاه ابن حجر العسقلاني أنّ صدر الدين ابن الوكيل ، المتوفَّى سنة ٧١٦ للهجرة (١٣١٦ م) كان « إذا مرض غَسَل ما نظمه من الشّعر »[1] ، فكأنّ منظوماته أشعرته بأنها تنافي المطالب الدينية ، وتحول بينه وبين رضا الله عنه .

ونظير ذلك ما قاله ابن حجر العسقلاني أيضاً عن عليّ ابن الحسن بن عبد الله بن الحابي ، المتوفَّى سنة ٧٠١ هـ

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٤ : ١٣٠) .

الأقدس ؟ فإنه لا بد أن يكون في هذه الأرجاء ، وربما كنت أدرى بهذا المكان مني — قالت الأزهار : إنما نعبر هذا المكان عبوراً فحسب ، وتتقدم فيه أسرة من الأرواح تمهد لها السبيل وتعد المقام . وقد مررنا منذ عشية بإحدى الجهات فسمعنا اسم إيزيس على الأفواه ؛ فامض صُعداً إلى حيث ابتدأنا فستعلم أكثر مما علمت .

وابتسمت الأزهار ، وابتسمت العين إذ قالت ذلك ، وزودته بجرعة منعشة ؛ ومضت الأزهار في سبيلها ، ومضى السوسن بإشارتها ، فجعل يسأل ويسأل ، حتى بلغ ذلك المنزل المنشود المتوارى بين النخيل وروائع النبات ، فخفق قلبه خفقاناً شديداً ، وطغى عليه الحنين ، وغمره اضطراب حلو في ذلك القدس الذي تسكنه فصول السنة على الدوام .

وغلبه النعاس في عبق العطور السماوية ، لأن ارتياده قدس الأقداس إنما يكون من طريق الأحلام .

وعبرت به الرؤيا مخادع لا تعرف آخراً ، وأشياء غاية في العجب ، وأصواتاً ساحرة ، مستقرة متفاوتة متعددة الانسجام ، وكأن ما يرى لا يجهله ، لكن روعته فاقت في نظره كل روعة . ثم اختفى من عينه آخر مظهر لهذه الأرض ، وكأنما قد امتصه الهواء ، ثم ألفى نفسه ماثلاً بين يدي العذراء السماوية ، فتقدم فحسر عن وجهها القناع اللامع الرقيق ، فإذا برحمة الورد تبدعه ، وترتمي في أحضانه .

وصدحت من بعد موسيقى تحوط أسرار اللقاء الحبيب ، وتصاحب فيوض الحنين ، وتقص عن المكان البهيج كل غريب .

وعاش السوسن طويلاً بعد ذلك ينعم بعشرة رحمة الورد ، وصحبة أبويه ورفاقه المبتهجين . ورزق الأولاد ، وعمد الأحفاد لعجوز الغابة سداد الرأى ، وفضل النار التى ألهمت استبداد المجهول بالخيال الخصيب .

محمود الدسوقي

(١٣٠١ م) : من أنه «كان قد أغرى بالكيمياء ، وحصل فيها كتباً كثيرة جداً ؛ وكان يزعم أنها صحّت معه . قال ابن الجزرى : كان صاحبي ، وكان يعرف الكيمياء معرفة تامّة . ولما مات توجه الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية فاشترى منها جملة وغسلها فى الحال ، وقال : هذه الكتب كان الناس يضلّون بها وتضيع أموالهم ، فأفديتُهم بما بذلته فى ثمنها»[1] .

ولا يخفى أن ما كان يصبو إليه الكيماويون فى الأزمنة القديمة ، هو البحث عن الإكسير للتوصل به إلى استخراج الذهب من المعادن الخسيسة ، وهو أمل واهٍ لم تحقّقه الأيام !

ومما قرأناه من الأخبار فى هذا الباب ، ما كتبه كمال الدين الأدفوى فى ترجمة محمد بن معتوق الشيبانى النصيبى الشاعر ، المتوفّى سنه ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) قال : «وحضر مرة الشيخ بهاء الدين القفطى من إسنا ، فتوجه النصيبى إليه ، وعرّفوا الشيخ عنه أنه فاضل ، فصار يسأله عن لغز ، فيذكر شيئاً من عنده ويستشهد عليه بشعره ، فيكتب الشيخ ما يقوله ، إلى أن اجتمعت عنده كراريس . فلمّا قصد التوجه جاء إليه وقال : يا سيدنا ، لا تعتمد على هذه الكراريس فإنّى ارتجلتها . فشقّ على الشيخ وغسلها»[2] .

ومن أقدم الأخبار الواردة فى غسل الكتابة ، ما رواه القاضى أبو على المحسّن التنوخى ، المتوفّى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤م) عن أبيه ، وذلك فى معرض كلامه على المنجّمين وما قد يتأتّى لهم من توفيقات وكشوف ، قال : «هذا أبى ، حوّل مولد نفسه السنة التى مات فيها ، فقال لنا : هى سنة قَطْع على مذهب المنجّمين ، وكتب بذلك إلى بغداد إلى أبى الحسن بن البهلول القاضى صهره ، ينعى نفسه إليه ويوصيه ، فلما اعتل أدنى علة وقبل أن تحكم علّته ، أخرج التحويل ونظر فيه طويلاً وأنا حاضر ، فبكى وأطبقه واستدعى كاتبه وأملى عليه وصيّته التى مات عنها ، وأشهد فيها من يومه ؛ فجاء أبو القاسم غلام زُحل المنجم ، فأخذ يطيّب نفسه ويورد عليه شكوكاً ؛ فقال : يا أبا القاسم ، لست ممن يخفى هذا عليه فأنسبك إلى غلط ، ولا أنا ممن يجوز عليه هذا فتستغفلنى . وجلس فوافقه على الموضع الذى خافه ، ثم قال له أبى : دعنى من هذا ، بيننا شكّ فى أنه إذا كان يوم الثلاثاء العصر لسبع بقين من الشهر فإنه ساعة قَطْع عندهم . فأمسك أبو القاسم واستحيا منه أن يقول نعم ؛ فأمسك أبو القاسم غلام زحل لأنه كان خادماً لأبى وبكى أبى طويلاً ، ثم قال : يا غلام ! الطست ! فجاءه به ، فغسل التحويل وقطعه ، وودع أبا القاسم توديع مفارق ، فلما كان فى ذلك اليوم العصر بعينه مات كما قال»[1] .

(بغداد) كوركيس عواد

[1] الدرر الكامنة (٣ : ٣٩) .

[2] الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (ص ٣٠٤) .

[1] نشوار المحاضرة للتنوخى (١ : ٢٦٩ طبعة مرجليوث) .

أثر الثقافة العربية

فى الثقافة المصرية الحديثة

— ١ —

استعمل الكتاب المعاصرون كلمة « ثقافة » ترجمة لكلمة Culture . وهذه الكلمة تدل فى أصل معناها على زرع الأرض واستغلالها وما يتصل بهذا ؛ وتقال مجازاً فيما يحصله الإنسان من علم وفن فيقال مثلا :

Culture des lettres, des sciences, des beaux arts,

وتقال أيضاً فى معنى التعليم والتربية . Instruction, éducation .

وتقال أحياناً فى معنى الحضارة تبعاً لاستعمالها فى اللغة الألمانية .

وقد أراد كتاب الترك فى هذا العصر أن يقابلوا هذه الكلمة Culture بكلمة تقاربها فى أصل معناها ، ويمكن أن تسايرها فى معانيها الأخرى ، فاختاروا من اللغة العربية كلمة « حرث » ، وسوّغ لهم هذا أن الحرث يقال فى العربية لكل ما يكسبه الإنسان . وفى القرآن : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب » .

وكلمة « ثقافة » لها معنى حسّى هو تقويم المعوج من الرماح والقسىّ ونحوها ، والثقاف الآلة التى يقوّم بها . وقد استعملت فى التقويم النفسى بالتعليم والتأديب ، فقيل ثقفه أى أدّبه أو علّمه . وقيل ثقف الإنسان ثقفاً وثقف ثقافة صار حاذقاً فطناً ، وقيل رجل ثقيف وثقف ؛ وكذلك قيل ثقف الشىء ثقفاً وثقافة أى حذقه ، فالثقافة حذق الشىء وإتقانه ، وهى أيضاً الفطنة والخبرة من طول ممارسة العمل.

وقد جاء فى فاتحة كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى :

« وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات . منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان » .

فإذا استعملنا الثقافة فى كل ما يثقفه الإنسان كانت قريبة من استعمالها القديم ، وقريبة من كلمة Culture التى تقابل بها .

إن نكن قد بيّنا معنى الكلمة تبييناً يعين على تحديد موضوعنا ، فقد بقى أن نكمل تحديد الموضوع بتبيين ما نقصد من هذه العبارة : « الثقافة العربية » . أنريد ما ثقفه العرب ، وما ثقفوا به فى مواطنهم الأولى ، والمواطن التى انتشروا فيها بين نجد إيران وبحر الظلمات ، أم نريد كل ما حوته اللغة العربية فى ديار العرب وغيرها ؟

من الحق أنا لسنا فى حاجة إلى أن نتكلم فيما أنشأه العرب الخلّص ، وما أنشأه المستعربون ، أو نبحث عما ألفه العرب وغيرهم فى البلاد العربية ، وما ألفه غير العرب والعرب فى البلاد الأعجمية . ليس هذا موضوعنا ولا يحتاج إليه موضوعنا ، فالحق أن الثقافة التى عرفتها البلاد العربية فى العصور الإسلامية هى كل الثقافة التى دوّنت باللغة العربية ، ولا تحدّد هذه الثقافة بأن كتاباً فى موضوع من موضوعاتها كتب فى بلد عربى وآخر كتب فى بلد عجمى ، أو أن مؤلفى بعض الكتب من العرب ومؤلفى بعضها ليسوا من العرب . أيمكن أن نفرق فى معاجم العربية بين أساس البلاغة الذى ألفه الزمخشرى التركى ، وبين القاموس المحيط الذى ألفه الفيروزبادى العربى أصلا ، ولسان العرب الذى ألفه ابن منظور المصرى الإفريقى الأنصارى الخزرجى ، وكتاب معيار اللغة الذى ألفه محمد على الشيرازى ؟

قد نظرت نظرة إلى كتب الأدب فى مكتبتى وأنا أفكر فى هذا الموضوع ، فرأيت كتاب الأمالى لأبى علىّ القالى وهو أديب أصله من قاليقلا رحل منها إلى العراق وأقام ببغداد ، ثم رحل إلى الأندلس ؛ ورأيت بجانبه شرحه

للوزير أبي عبيد البكري الأندلسي العربي ، فكتاب البيان والتبيين للجاحظ البصري العربي ، فكتاب الأوراق لأبي بكر الصولي التركيّ الأصل ، وكان آباؤه في جرجان ؛ فكتاب بلوغ الأرب للألوسي البغدادي . فهذه كتب خمسة وقع عليها النظر اتفاقا ، منها ما ألف في القرن الثالث الهجري ، ومنها ما ألف في عصرنا ، ومنها ما ألف في البصرة وبغداد ، ومنها ما ألّف في الأندلس ، ومنها ما ألفه عربيّ قحّ ، ومنها ما ألّفه مستعرب ، ولكنها كتب ثقافة واحدة متصلة الموضوع . ولو ألقيت هذه النظرة على كتب الفقه أو كتب التاريخ وأخذت منها خمسة كتب كذلك لوجدت كتبا متفقة على موضوع واحد ، مع اختلاف أعصار المؤلفين وأقطارهم وأجناسهم ، ولا أجد اسما جامعا لهذا كله إلا الثقافة العربية ؛ فإن شئت فقل ثقافة اللغة العربية ؛ وإن شئت فقل ثقافة العرب امتدت إلى غيرهم أو شاركهم فيها غيرهم ، فلن تختلف النتائج .

— ٢ —

ولكنني لا أتكلم عن الثقافة العربية أو المعارف العربية كلها ، بل أفرّق بين جنس منها وجنس . ذلكم أن من ثقافات البشر ما يأبى القومية ، يأبى الانتساب إلى الأقوام والأوطان ؛ فإذا قلت الثقافة العربية أو الثقافة الفارسية أو الثقافة الفرنسية ، بَعُد الفكر عن هذا الجنس العام من المعارف البشرية واتجه إلى جنس آخر . ذلكم أن المعارف أو الثقافة قسمان أو جنسان : قسم يقوم على قوانين الطبيعة الخارجة عن النفس الإنسانية ، كالعلوم الطبيعية والرياضية ؛ وهذه لا تختلف باختلاف الأقوام أو الأوطان . فإذا أدركت الأمم قانونا من قوانين الطبيعة لم يختلف هذا القانون والعلومُ القائمة عليه في أمة وأخرى . فلا يقال الكيمياء الفرنسية والكيمياء الإنكليزية ، أو الرياضة العربية والرياضة الفارسية ، إلا بمقدار ما تختلف الأمم في إدراك القوانين والعجز عن إدراكها أو في الإصابة والغلط إلى أن يأخذ العاجز عن المدرك والمخطئ عن المصيب ؛ وأما القدر الذي يناله إدراك الأمم فلا يختلف باختلافها . وهذا الجنس من المعارف يمكن نقله من أمة إلى أخرى ويسيرٌ أن يُنقل .

والقسم الثاني من ثقافة الناس أو معارفهم يتصل بالأنفس والعواطف والأذواق ، ويختلف باختلاف الأقوام والأوطان والعصور ، ويعسر نقله من أمة إلى أخرى إن لم يتعذّر ؛ وتلكم الآداب والفنون والقوانين والتواريخ ونحوها ، وهي التي تنسب إلى الأقوام والبلدان وتختلف باختلافها .

فإذا قلنا الثقافة العربية فينبغي أن يكون كلامنا في هذا الضرب من الثقافة الذي يقبل الانتساب إلى العرب أو لغة العرب ، ويقبل الاختلاف باختلاف الأمم . ويؤيد هذا التخصيص أن الثقافة لا تخلو من معنى التهذيب والتأديب ، وهما يكونان بالآداب والأخلاق والأمور النفسية لا بالعلوم الطبيعية .

فما هي إذاً الثقافة العربية التي نجعلها موضوع حديثنا ، ونتتبع آثارها في حضارة مصر الحديثة ؟ هي في جملتها الأدب والدين والتاريخ والقانون وما يتصل بها . وأرجو ألا أكون قد أملت بهذا التمهيد الطويل ، فما وجدت عنه مذهباً ولا رأيت عنه بدا في تحديد موضوعنا .

— ٣ —

الأدب :

الأدب الذي نقرؤه وندرسه ونحفظه ، ونعتزّ به ، ونُمتع به نفوسنا ، وننشّئ به أولادنا ونربّي به العاطفة والخيال والخلق ، والذي نتخذ مكارمه مثلا ، ومثالبه سُبّة ، والذي نأنس به ونسكن إليه ، وننتفع بجدّه ونلهو بهزله ؛ الأدب الذي نعرف منشئه والذي نتمثل به في سرّائنا وضرّائنا ، ونضرب أمثاله ونحكيه ونحتذيه وكأنا نعايش أشخاصه ونشهد وقائعه ، هو الأدب العربيّ لا محالة .

ما زال حوادث الأدب العربي في الجاهلية والإسلام موضع عنايتنا نتعرفها ونشيد بها . وما زال شعر زهير وعنترة ولبيد وأوس والحطيئة وجرير والفرزدق والأخطل وذي الرمة والكميت والطرماح ، وابن أبي ربيعة ، وبشار وأبي نواس ، وابن الوليد وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري ، والرضي والأبيوردي ، والأرجاني والغزي وابن هانئ وابن عمار وابن خفاجة وابن حمديس ومن عاصرهم ولحق بهم من الشعراء ، لا يزال شعرهم غذاء المتأدب ومتعة للأديب في مصر ، ومعينا لشعرائنا لا يغيض .

وما زال الجاحظ ، والبديع ، والخوارزمي ، وأبو حيان التوحيدي ، والصابي ، وابن الأثير ، وابن زيدون ، وابن شهيد ، وابن خلدون مثلا ومادة ومتعة لمتأدبينا وكتابنا .

ولا يزال المصريون يطمحون إلى المثل العالية والأخلاق الكريمة التي أشاد بها الأدب العربي ، ما تزال الشجاعة والإقدام والعزة والإباء ، والوفاء والسخاء تستمد من شعر الجاهليين والإسلاميين ، من الشعر الحماسي الذي فاض في الأجيال العربية فيضا من عنترة إلى المتنبي وأبي فراس ، إلى البارودي وشوقي .

وما تزال الديارات والأودية والمياه والجبال التي تغنى بها الشعراء القدماء معروفة محفوظة في نفوسنا — ولا تزال الشجر والحيوان وما اتصل بهما من وصف ولهو وصيد ماثلة في خيالنا ، ولا تزال منابت الشيح والقيصوم والضال والسلم ، ورياض العراق وجنات الشام وغابات الأندلس ، وحدائق مصر ، كما وصفها الشعراء والكتاب ، مصورة بيننا نكاد نشهد جمالها ونشم عبيرها ، ونتفيأ ظلالها ونرد مياهها .

والأدب العامي مشتق في جملته من هذا الأدب وموضوعه ؛ قصص عنترة وسيف اليزن والهلالية تملأ حوادثها نفوس العامة ، ويستولى رجالها على قلوبهم ، ويعيشون بينهم حتى لينقسمون شيعا في الانحياز إلى هذا البطل أو ذاك . وكثيرا ما يتقيل العامة أخلاق هؤلاء الأبطال ، ويتمثلون بأقوالهم .

ثم الأدب الذي ينشئه الشعراء والكتاب المصريون في عصرنا هذا مطبوع على غرار الأدب العربي ، فهو الأدب العربي في أحد عصوره وأوطانه ، هو الأدب العربي في مفرداته وتركيباته ومجازاته وكناياته وتشبيهاته وخيالاته وموضوعاته ، وهو الأدب العربي في قوافيه وأوزانه ؛ والذي نبتدعه نحن من الألفاظ أو المجازات والموضوعات هو تطور لهذا الأدب ، أو زيادة عليه كما تتطور آداب الأمم وتكمل ، وتصعد في سلم الكمال درجات ؛ ولكن الدرجة السفلى والدرجة العليا وما بينهما درجات متوالية في سلم واحد .

والذي يأتينا من الخارج من صور الحضارة الغربية فهو مدد لأدبنا العربي ، ومادة لصناعة كالصبغ للمصور أو الفكرة له ، أو الماء للشجر . وما الفصل عن الأدب العربي من هذا فهو مقصور على فئة قليلة لا بعد من أدب الأمة ولا تعد هذه الفئة من أدبائها ؛ فإنما يعد الأدب أدب أمة حين يعم المتأدبين فيها ، ويبين عن جمهرة عواطفها وأفكارها . كما أن معرفة طائفة من الأمة أدب أمة أخرى واستمدادهم منه لا يجعل أدب تلك الأمة أدبا لأمتهم .

— ٤ —

وأما الدين الإسلامي فلست أبحث هنا في أنه من الثقافة العربية أو ليس منها ، بل أحب أن أسمو به عن النسب الذي يحده بحدود العصبيات ، وهو أوسع من الحدود ، وأسمى من نزعات الأقوام ؛ ولكني أقول إن هذا الدين الإنساني العام قد قدر له البيان العربي فكان وسيلة إلى تمكين هذا البيان في نفوس المسلمين ولاسيما العرب منهم . ولست في حاجة إلى أن أبين أثر القرآن والأحاديث وما اشتق منهما واقتفى أثرهما من مواعظ وحكم وخطب ،

وما فاضت به منابر مصر فى كل مدينة وقرية من البيان العربى فى كل جمعة ، فكان حياة مستمرة وتجديدا دائما للأدب العربى فى النفوس وعلى الألسنة .

ولست فى حاجة إلى أن أبين ما كان لتفسير القرآن وشرح الحديث فى توسعة البيان العربى والإبانة عن وقائعه ، ولا ما اشتملت عليه كتب التفسير والحديث من شواهد الأدب العربى وصوره . ونحن نعلم ما للتفسير والحديث من مكانة فى الجماعات الإسلامية ، ومالهما من اتصال بالنفوس وتأثير فيها مهما أصاب الأدب من تغير ، واعتوره من ضعف بين جمهرة العلماء والمتعلمين . ولم يكن حظ الأمة المصرية من الدين دون حظ الأمم الأخرى ، فكان لها من الأدب المتصل به نصيب موفور .

— ٥ —

القانون :

وأما القانون فهو صورة واضحة جلية من صور الثقافة يبين من مبلغ إدراك الأمم للحقوق والواجبات ، وقواعد العدل ، والوسائل الحسنى التى يلتئم بها شمل الجماعة ، وتنتظم بها علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالجماعات . وبعض هذه القوانين ينفذه السلطان قهرا مثل القانون المدنى والقانون الجنائى ، ومنها ما يترك لحكم الجماعة واستحسانها واستهجانها مثل قانون الأخلاق .

والفقه الإسلامى أوسع وأشمل ؛ فهو يشمل قوانين الحكومة أو قوانين السلطان وقوانين الدول ، ويشمل قانون الأخلاق ، ويشمل غيرها كقوانين العبادات . وهو متصل بالإنسان منذ يخلق جنينا إلا أن يموت وتقسم تركته ؛ يصاحب الإنسان فى بيته بين أسرته وعياله ، وفى الطريق ، وفى السوق ، وفى المزرعة ، وفى كل صلة بينه وبين الجماعة التى يعيش فيها أو فرد من أفرادها ؛ هو فى نظافة جسمه ولباسه ، وفى طعامه وشرابه ، وفى عبادته وتجارته وسعيه للرزق ، وفى سلمه وحربه ، وخصومته وصلحه ، يهتدى بالفقه . الخ . فهو صور كثيرة مفصلة من صور الثقافة المصرية .

وإن قيل إن الفقه يرجع إلى الإسلام ، وقد قلتُ إنى لا أريد حداً بحدود الأمم ، فلا مراء أن الفقه فى قواعده يرجع إلى نصوص القرآن والحديث وإلى ما عرف من مقاصد الإسلام ، ولكنه فى استنباط أحكامه وتعميمها وترتيبها وتفصيلها وشرحها وتطبيقها على الأحداث ، ضرب من الثقافة العربية يمثل جانبا عظيما منها فى عصورها المختلفة . والعرب بدأوا هذا العمل وداموا عليه وشاركهم غيرهم من المسلمين فى السير على هذا المنهاج . وقد فرغنا من القول إنه لا يمكن التفريق بين ما أنشأ العرب وغير العرب ، وبين ما ألف فى البلاد العربية وما ألف فى غيرها ، من ضروب الثقافة التى ساغ لنا أن نسميها الثقافة العربية .

ولا ينقض قولنا ما نراه اليوم فى مصر من قوانين مأخوذة من القوانين الأوربية ، مستندة فى أصولها وتفسيرها إلى الشرائع الأجنبية ، ويتصل بها نظم التقاضى وإنفاذ الأحكام لم تؤخذ من فقهنا . فأما الأمور الشكلية من إثبات الدعوى وما يتصل بها إلى أن يقضى فيها فليست ذات خطر ، ولا ذات أثر فى ثقافة الأمة . وإنما يعنينا قواعد القوانين وأصولها التى تقوم عليها ، على تبدل نصوصها ، واختلاف جزئياتها . وهذه الأصول بعضها موافق للأصول المعروفة فى الفقه فلا تبدل شيئاً فى الثقافة العربية ؛ والمخالف منها لقواعد الفقه لم يحلّ فى نفس الأمة محل هذه القواعد ، بل لا تزال قواعد الفقه أكثر اتصالا بنفس الجماعة ، وأكبر تأثيرا فيها . ولا يزال جمهور الناس يتعرفون أحكام الشرع ليلائموا بينها وبين أعمالهم مختارين محتسبين . يسألون عن حكم الشرع فى بيع أو شركة أو شرط فى عقد ، أو وسيلة إلى ربح ، لتطمئن به نفوسهم ، وتسكن إليه قلوبهم ؛ وهم لا يسألون عن حكم القانون إلا حين التقاضى ليقبلوه طوعا أو كرها ؛ ولا يتحرجون أن يتخلصوا من أحكامه بأية وسيلة ، لأنهم يعدونه غريبا عنهم ، ليس له فى نفوسهم من سلطان إلا سلطان القوة .

وميزة أخرى أن الفقه يعرفه جمهور الناس تديناً ؛ سواء فيهم من يعنى بالقوانين ومن لا يعنى . فثقافته أوسع وأكثر تغلغلا فى الجماعات ، وأكثر أثراً فى أنفسها ، يخالط ضمائرها ويقوّم سيرها ، ويؤثر فى أعمالها ؛ على حين تبقى القوانين الأخرى بعيدة منهم إلا أن تدخلها بينهم الضرورة أو القوّة .

لا أنكر أن فى مصر جماعة تفقهوا القوانين الوضعية ، وآمنوا بها ، وبلغت من نفوسهم وإجلالهم مبلغاً بعيداً ، ولكنى أتكلم عن الأمة كلها ؛ وهى فى جلتها أقرب إلى الفقه ، وأعرف به ، وأكثر إجلالا له وطاعة . وقلّ أن تخلو قرية أو محلة فى مصر من جماعة تعرف الفقه أو تلمّ بكثير من مسائله .

— ٦ —

التاريخ :

وأما التاريخ فيدخل فى الثقافة العربية من جهتين : الأولى من حيث هو معارف وعبر عامة دخلت فى الثقافة العربية ، وشاعت فى أدب العرب ومحاضراتهم ، ومواعظهم وأمثالهم ، ويستوى فى هذا تاريخ الأمة العربية وتاريخ غيرها ؛ فما كتبه مؤرخو العرب عن العرب والفرس واليونان والرومان وغيرهم ، وشاع فى مؤلفاتهم ، وانتشر بين جمهور علمائهم وأدبائهم ، يعد ثقافة عربية ، وهو ضرب من الأدب العربى ؛ فسيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى ، وابن الأثير ، وابن مسكويه ، والذهبى ، والفخرى ، وابن خلدون ، والإكليل للهمدانى ، وتاريخ بغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة ، وتراجم ابن خلكان واليتيمة والذخيرة ، كل هؤلاء ، وأمثالها دخلت فى الثقافة العربية ، وهى اليوم داخلة فى الثقافة المصرية مؤثرة فيها .

ويدخل التاريخ فى الثقافة العربية من جهة ثانية خاصة ، هى تسجيل خطوات الأمة العربية ، وتخليد مفاخرها ومآثرها ، وتدوين عبرها ومَثُلاتها ، والإشادة بالعظماء من رجالها ونسائها ، وأنه يصل بين سِيَرها على مر الزمان ويجريها فى مجرى واحد فيمد عمرها على الأجيال ، ولا يقيسه بأعمار الرجال ، وأنه يعرّفها نفسها ، ويذكّرها ماضيها ، ويدعوها إلى الاحتفاظ بمجدها ، والاعتزاز بمفاخرها ، ويهيب بها إلى الجهاد والدأب ، ويدعوها إلى العزة دعوة لا تنقطع ، ويناديها إلى المجد نداء لا يخفت .

والتاريخ العربى لا يزال داعياً لنا ، موحياً إلينا ، عاملا فينا ، حافزاً لهممنا ، مثيراً لنخوتنا ، محيياً لآمالنا .

نحن نقرأ وندرس تاريخ العرب قبل الإسلام بين الحضارة والبداوة ؛ نقرأ تاريخ دول اليمن أو تاريخ المناذرة والغساسنة ، وتاريخ مكة والمدينة ، ونقرأ تاريخ القبائل البادية وأيامها ومنافراتها ، وتقلبها فى مسارحها من أرض الجزيرة وساحات الزمان ، فلا نشعر أننا نقرأ تاريخ غيرنا ، بل نفخر بمآثر العرب الجاهليين ، ونعتز بأبطالهم .

ونحن نقرأ سير خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأبى عبيدة بن الجراح ومعاوية على أنهم عظماؤنا ؛ ونزهى بعبد الملك ابن مروان والوليد وهشام لأنهم من خلفائنا أو ملوكنا .

وكذلكم نفخر بالمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم كما نفخر بالمعز الفاطمى وعبد الرحمن الناصر الأموى ، والمعتمد بن عباد الأندلسى ، وسيف الدولة الحمدانى ، وأمثال هؤلاء ، ولا يشعر المصرى إلا أنه يقرأ سير سلفه ، وكبراء أمته ، وأبطال تاريخه . وسيرة العرب الأولين هى مثلنا الأعلى فى العدل والإحسان ، وفى الشجاعة والإخلاص ، وغيرها من مكارم الأخلاق . وكم لنا من قدوة بين العلماء والأدباء والصالحين نقرأ سيرهم ونحتذى أفعالهم .

فالتاريخ العربى محيط بالبيئة المصرية ، مستقر فى نفوس المصريين ، مؤثر فيهم تأثير كل تاريخ مجيد فى نفوس الطامحين من أمته .

— ٧ —

وبعد فلعل سؤالا يتردد فى النفوس : ألم يكن لمصر نصيب فى هذه الثقافة ؟ ولماذا لا يعد ما أنشأه المصريون من علم وأدب وثقافة مصرية ؟

لا أجحد نصيب مصر فى هذه الثقافة العربية ؛ فلمصر فقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها وكتابها ومؤرخوها .

الصحافة والأدب فى أسبوع :

" ... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى ... ... "

نعمة الولد ! — الزينة والنعمة ! — مصادرة رأى ! — أسواق الرقيق ! — النهضة النسائية !

نعمة الولد :

رجعتُ بالصغيرة من « عيادة الطبيب الكبير » ، أقودها فى يدى مرة وأحملها على ذراعى أخرى ، وبين عينىّ صورة ذلك « الطبيب الكبير » عابساً متجهِّماً يكاد ينشب أصابعه فى عنق مريضه ، فلولا « ذِلة المرض » لَلَطمه المريضُ لحطم أنفَه !

... وعدتُ أنظر إلى الصغيرة ولم يزل فى عينيها الرعبُ والفزع من عبوسه وغلظته ، فعضَّ الحزنُ على قلبى . لكِ الله ولأبيك أيتها الصغيرة المرزوءة !

وقد ألف المصريون أجمع الكتب للثقافة العربية بعد غارات التتار على العالم الإسلامى ؛ وحسبنا لسان العرب لابن منظور المصرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، ونهاية الأرب للنويرى ؛ وحسبنا أمثال المقريزى والسيوطى .

لاريب أن لمصر نصيباً عظيماً من هذه الثقافة ، ولكنى لا أعده ثقافة مصرية مستقلة ، فكل فرع من هذه الثقافة حين يمسك به الباحث يصله حتماً بالأصل العام . فإذا أخذت لسان العرب مثلا وصلك بكل معاجم العرب ، وإذا أخذت صبح الأعشى وصلك بالموضوعات التى تناولها فى كل البلاد العربية . تلك ثقافة مصرية ولكنها جزء من الثقافة العامة التى أسميناها الثقافة العربية .

ثم أختم الكلام بجواب هذا السؤال . ما أثر الحضارة الأوربية المحيطة بنا فى ثقافة مصر الحديثة ؟ لا شك أن الحضارة الحديثة أثراً فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفكرية من حضارتنا ، ولكن الثقافة الغالبة العامة الشاملة هى الثقافة العربية .

عبد الوهاب عزام

وسألتُ نفسى : أليس عجيباً أن يكون مثله طبيباً ، طبيبَ أطفال ، ولا شىء يعالج الطفلَ ما تعالجه كلمةُ عطف أو ابتسامةُ حنان ؟ ...

وقال لى صديق : هوِّن عليك ؛ فليتك تعلم أن ذلك الطبيب ليس أرفقَ مما رأيتَ بين خاصته وأهله ، إنها طبيعته ؛ وثمة عجيبة أخرى : إن الله لم يرزقه « نعمة الولد » وإنه لأشهر أطباء الأطفال فى مصر !

« نعمة الولد » ! يا عجبا ! ماذا يقول صديق ؟ إنه يزعم الولد نعمة !

وحضرتنى أحزانى ، وأذكرتنى كلمةُ الصديق ما ألقَى كل يوم فى أماسىَّ وأصباحى من شقوة بالولد ؛ أيزعمها صديق نعمة !

كم ليلة بتُّ أقلِّب أجفانى إلى الصباح بين جدرانٍ أربعة من شقوة بالولد !

هذه البُنَيَّة ، وهذه الطفلة ، وهذا الصغير : لكلِّهم منهم نَوْمة وصحوة وأنا الساهر أبداً ؛ ولكلِّهم مَطلب ورغبة وأنا العاجز أبداً ؛ ولكلِّهم مُشتكى ورجاء وأنا اليائس أبداً . أإنّ هؤلاء لنعمة ؟! ...

وقطب صديقى جبينه منكراً وقال : أتنكر ؟ ... إنهم لنعمة وإن خُيِّل لك غيرها ، وإن كنتَ بهم ساهراً أبداً ، عاجزاً أبداً ، يائساً أبداً ... !

وابتسمتُ ولم أجب ؛ كان بين قلبى وفكرى صراع لا ينتهى بى إلى رأى ، ولا يقوم لى بحجة ؛ كان قلبى ينازعنى إلى رأى يستمد عناصره من بعض ما يزخر به من معانى الحنان والعطف والأبوة وصلة الناشئ فما كاد أعترف ، ولكن الفكر لا يلبث أن يجذبنى إلى بعض ما أحس من صور الألم والحرمان ووَخَزات الذكرى فيحملنى على العصيان والإنكار والتمرُّد .

وعاد صديقى يسألنى : أتنكر ؟ ...

وآثرتُ أن أصمت وفى نفسى معانيها ، ولكن صديقى لم يصمت ، وقال : فماذا ترى فى قول الله : « المال والبنون

زينة الحياة الدنيا» ؟ لستَ ذا مال فيما أعرف وإن كنتَ ذا بنين ، فإنك تملك نصفَ زينتها ؛ أم تراك تصرّ على الإنكار ؟

قلت : آمنتُ بالله ! فمن أين لك أن يكون أحد الشيئين نصفَ المجموع ؟ ... إن قارورة العطر زجاجةٌ وسائلٌ تحتويه الزجاجة ، أفتزعم أنها قارورة عطر وإن خَلَتْ من سائلها ؟ ...

« المال والبنون زينة » نَعَم وصَدَقَ الله ؛ أفتَرى بنين بلا مالٍ نصفَ الزينة أم بلاءً كاملاً ماحقاً يحيق بالأب والابن جميعاً ؟ ... ولا تحسبنّي أشكو الفقر وإن لم أكن ذا مال ، ولكنني أصحح قاعدة !

الزينة والنعمة !

... ثم أين معنى « الزينة » من معنى « النعمة » ؟ إنك تراني أنكر عليك أن تقول « نعمة الولد » ، وأرى أبوّتي ألماً مضنيا وشقوة ماحقة وبلاءً أعظم ؛ أفتراني أنكر بذلك أن الأبوة زينة وإن أنكرتُ أنها نعمة ؟ لا وصَدَقَ الله ؛ إنما « النعمة » ما تُحسّه أنت في داخل النفس سببا من أسباب السعادة والنعيم ، وإنما « الزينة » ما يتراءى منك للناس سبباً من أسباب الجمال والفتنة ؛ فالنعمة هي إحساس النفس في باطنها بما تملك من أسباب الرضا والسعادة ، أما الزينة فهي المظهر الذي يحسه غيرك فيك أكثر مما تحسّه أنت في نفسك ؛ ولقد يكون وراء ذلك المظهر الجميل في أعين الناس قُبح ودمامة وشر .... ؛ ذلك فرقٌ ما بين النعمة والزينة !

... وإنما يقوم أساس الاقتناع بالزينة على الباهاة والفخر ومحاولة اكتساب إعجاب الناس ورضاهم ؛ وماذا يعود عليّ أنا من إعجابِ الناس ورضاهم !

... على حين تقدّر قيمة النعمة على مقدار الشعور بها وما تُبشّر لصاحبها من أسباب السعادة في نفسه ؛ فالنعمة هي متاعُ صاحبها ، والزينة هي متاع غيره ...

هذه الزهرة في البستان هي زينتُه في عين كل من نظَر ؛ فهي له عطرٌ ولونٌ ومنظر ؛ فإذا هي لنفسها ؟

وهذه الصبغة الحمراء في شفتي تلك الفتاة الجميلة ، ما أحلاها منظراً في مرآة زينتها وما أمرَّ مذاقها !

كذلك كل زينات الحياة !

معذرة يا بنيّ !

آه يا بَنِيّ ! لكأني بكم وقد كبرتُم فرجعتم إلى ماضي الأيام تنبشونه لتعرفوا ما كان شأنكم وشأن أبيكم في ذلك الماضي الأليم ؛ فإذا رجعتم إلى هذه الصفحات يوماً فلا يؤلمنكم ما تقرءون ، أو يحملكم على سوء الظن بأبيكم ؛ ليس ما في الساعة أن أنكر مكانكم من نفسي وإنكم لتملأون كل ما أجد من فراغٍ في نفسي ، ولكنني أنكر زماني !

وإني لأمسك القلم بين إصبعيّ الساعة وأنظر إلى رءوسكم الصغيرة موسّدة في فراشها أحاول أن أستطلعكم بعضَ ما يتراءى لكم في الحلم من صور تتراءى لي في هذه السِّمات عابسةً ومبتسمة ؛ فماذا أكتب ؟

أنا منكم على ما وصفتُ من حال : ساهر أبداً ، عاجز أبداً ، يائس أبداً ؛ فأين أنتم مني ؟ أفترونني أؤدي لكم حقكم من الحنان والحب وحسن الرعية على مقدار ما أؤدي لنفسي من حقها بالتأوه والشكوى ؟

... ليتني أدري ... ، ولكنكم ستدرون يوماً وتعذرون أباكم !

أسواق الرقيق !

قرأت في العدد ٤٥٣ من آخر ساعة ما يأتي :

« ... كنت في زيارة السيدة هدى هانم شعراوي ، فقالت لي إنها لا توافق على إقامة الحفلات الساهرة في سبيل جمع التبرعات للمؤسسات الخيرية ... وإنه حرام أن يهدم تقاليدنا باسم فعل الخير ، وتختضن الخصور باسم العطف على المساكين ، وتشرب الويسكي في صحة التقوى واتباع أوامر الله ...

قال : « وهنا قالت السيدة الجليلة حرم علوية باشا إنها

حاولت أن تقنع جمعية الهلال الأحمر بهذا الرأي ، ولكن الجمعية استطاعت إقناعها بأن تسعاً وتسعين في المائة ممن يذهبون إلى الحفلات الخيرية لا يذهبون لوجه الله ......

ثم قال : « إنها مأساة ... ولكنها مأساة محمودة العاقبة ما دامت تنتهي بمساعدة المرضى والفقراء ! »

انتهى كلام محرر آخر ساعة ، والعجب أن المأساة كيف تكون محمودة العاقبة ! ثم وازن بين هدم التقاليد ، واحتضان الخصور ، وشرب الويسكي — وبين مساعدة المرضى والفقراء ؛ فإما أن يموت المرضى ويجوع الفقراء ، وإما أن تهدم التقاليد ، وتُحتضن الخصور ، ويُشرب الويسكي ... !

أليست هذه هي القضية بطرفيها كما يعرضها محرر آخر ساعة ؟

وليس لي أن أعقب بشيء على ما قال ، فلعله يعرف أن في الأمة طائفة من بني آدم يرون علاج المريض وإطعام الفقير خيراً وأفضل وأولى بالرعاية من التقاليد ودواعي الشرف والعفة والاستقامة ؛ وبعبارة أخرى : لا يرون بأساً في ابتذال العرض وهوان الشرف في سبيل لقمة عيش وشربة زيت خروع ! !

ويروي المحرر أن تسعة وتسعين في المائة ممن يذهبون إلى الحفلات الخيرية لا يذهبون لوجه الله ! هكذا قالت له سيدة ... ؛ فلماذا يذهبون يا سيداتي وسادتي ؟ ... للرقص والمخاصرة وانتهاب اللذات بثمنها ؟ فما تكون هذه الحفلات إن كان تسعة وتسعون من الذاهبين إليها يقصدون ذلك ، وتسع وتسعون من الذاهبات إليها يعرفن ذلك ؟ ما تكون هذه الحفلات في رأي أصحابها وصاحباتها لا في رأينا نحن الرجعيين ؟ هل هي إلا « أسواق » يُباع فيها كل ما يُباع بثمنه ، ويُبذل فيها ما يُبذل بأجرته ، كأسواق أخرى ضربت الحكومة عليها نطاقاً وأخضعتها للنظام العام ؟

إن القانون العام يحرّم تجارة الرقيق ، فكيف جاز أن تُقام هذه الأسواق ؟

النهضة النسائية ؟

وإنه لما يدعو إلى التأمل والاعتبار أن يكون ذلك هو رأي السيدة هدى شعراوي ؛ والسيدة هدى شعراوي هي زعيمة النهضة النسائية كما يسمّونها ؛ فمن شاء أن يسأل عن هذه « النهضة النسائية » أين هي ؛ فإنه لن يجد لها مظهراً غير هذه الأسواق ؛ فأي تناقض بين القول والفعل أبلغ من هذا التناقض ؟ وما ظنك بنهضة تنكر زعيمتها كل ما تعرف من مظاهرها ؟

... ومنذ بضعة أسابيع قرأت في مجلة روز اليوسف حديثاً للسيدة الجليلة حرم المرحوم قاسم أمين بك تعيب فيه ما ترى ونرى من حال الفتاة المصرية والمرأة المصرية ، وتنكر أن يكون قاسم أمين قد قصد إلى شيء من هذه الحال التي انتهينا إليها في مجتمعنا النسائي ...

كذلك قالت هذه السيدة الجليلة ، كما قالت السيدة هدى شعراوي — فيما يرويه محرر آخر ساعة — فإن كانت كلتاهما صادقة الرأي ، فهل يدل رأيهما إلا على معنى واحد ، هو أن المرأة المصرية لم تبلغ بعد درجة النضج العقلي والخلقي الذي يؤهلها لفهم الدعوة إلى « النهضة النسائية » ؟ وهل يدل إلا على أن الدعوة إلى « تحرير المرأة » التي دعاها قاسم أمين منذ أكثر من ثلث قرن ؛ والدعوة إلى « النهضة النسائية » التي دعتها السيدة هدى شعراوي منذ عشرين سنة — قد سبقت كل منهما أوانها فاتجهت إلى غير ما كان ينبغي أن تتجه ، وأدّت إلى الشر ؟

أرأيت لو أن أحداً عمد إلى وليد ليّن العظم طريّ العضل فأراد أن يحمله على المشي قبل أن يتهيأ له ، فلم يكد يحمله على قدميه ويدعه حتى سقط هشيماً ... ؟

... ذلك مثل المرأة المصرية والدعاة إلى نهضتها وتحررها : لم يعملوا لها إلا أن حملوها على قدم رخوة ثم قالوا لها سيري ، فسقطت ... !

« قاف »

النيـــــل

[تربية الدهر ، ووليد الزمن]

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
وارو ما تعرف عن أصل الوجود

شطك المسحور فردوس الجنان ... وصدى موجك قدسي المعاني
أي قدس قد حواه الشاطئان ... راهب في بردة من أرجوان
عنده العلم بأسرار الزمان ... غامض الحكمة مشكول البيان

عبر طيف من سنا الماضي شرود اللمحات
يوثر السر على النجوى فيخفي النبرات
يملأ القلب خشوعاً بجلال الذكريات
فيه للشاعر وحي بالمعاني الحالمات
فيه للعابد لحن في ترانيم الصلاة
فيه لليائس نور في دياجير الحياة
فيه للعاشق سلوى عن شجون الطيبات

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
وارو ما تعرف عن أصل الوجود

شارد في السهل هيمان الخيال ... رجعت شكواك أنات الدوالي
وعلى شطيك أحلام الليالي ... حالمات هاجها ذكرى الأوالي

بين روض من رياض الخلد عذب المنهل
حالم الريحان والزهر طروب السنبل
وارف الأغصان في الدوح شجي الجدول
عاطر الأنسام كالحب غرود البلبل
علم الفتنة في اللحن بنان الموصلي

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
وارو ما تعرف عن أصل الوجود

عنصر التاريخ والكون جديد ... وسرير الدهر والدهر وليد
أين يا نيل من الماضي البعيد ... عزة الأجيال والملك العتيد

قدس أنت خفي تملأ الحكمة صدرك
وأب بر رحيم عرف الأبناء برك
خلف هذا الموج سر فمن يعرف سرك
ووراء الليل فجر فمتى نشهد فجرك
طال هذا الدهر يا نيل فما أعظم صبرك
فض ختم الغيب واكشف لأخي الصبوة أمرك
هاك الخمرة روحي وغدت تنشد خمرك

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
وارو ما تعرف عن أصل الوجود

وأنا الحائر في ليل الزمان ... دائم الحيرة مجروح الجنان
والأماني آه من ظلم الأماني ... ذبحت روحي وهدت عنفواني

عندك الحكمة يا نيل ومن يأسو جراحي
شاعر أو طائر بالبيد مكسور الجناح
شاحب النغمة والترنيم مذبوح الصداح
ينشر الليـــل جراحاتي ويطويها صباحي
من لأكباد الضحايا بسليبات صحاح

يا أخا الدهر ويا رمز الخلود
هات ما شاهدت من ماضي العهود
وارو ما تعرف عن أصل الوجود

عاوه الشوق بليل داجن ... وبنشه مجروح لحظ الشادن
فارو يا نيل لشاك واهن ... سحر (منفيس) وطب الكاهن

ظبية دون ظباء الحي خضراء العيون
لحظها الساجي وكم في اللحظ من دنيا الفتون
نامت الفتنة في الجفن فويل من سقيمات الجفون
كم وحيد من عذارى النيل حوراء كعاب
حار في الخدين من ريعانها ماء الشباب
فتنت بالسحر في الأجفان من تحت الحجاب
ودم العشاق بالراحة من لون الخضاب

إبليس يغني

مما يؤاخذ به فريق من أدباء الجيل الصاعد ، زرايتهم بأدبنا القديم ، ونفرتهم من تذوقه وبحثه من خزائن الإغفال والنسيان ، لما يكلفهم من جهد في البحث وإتقان للبيان ؛ غير أن العزاء والرجاء في فريق آخر تضلعوا من أدب العرب وأخذوا بالألباب من ثقافة الغرب ، وقد عزت عليهم تلك الزراية على ميراثنا الغالي ، فهبوا إلى بسطه وجلائه ، ولم يدعوا نهزة لرفع الحيف عنه ، وعرض ما اشتمل عليه من طرف باهرة وخواطر ملهمة . من هؤلاء الشباب الجامعين بين روعة التليد وجدة الحديث ، أديب دمشق هو الأستاذ صلاح الدين المنجد الذى شغف بالطاف فى آفاق بنى العباس ، وشاقه التحدث إلى الناس فيما كان لديهم من أفراح ومباهج فانتزع منها صوراً حية ، وعرضها عرضاً أنيقاً على طريقة الحوار فى فن التمثيل . وقد جمع هذه الصور فى باكورة آثاره ، وسماها « إبليس يغنى » ، ولا تثريب عليه فى هذا الاسم ؛ فإبليس زعيم الفتنة وصاحب المعازف والصنوج ! وقد غنى أبو الفتان فى كتاب المنجد فأعجب وأطرب ، وكان من غناء موضوعان بارعان ، يظهر فى أحدهما إبراهيم الموصلى مبتدع اللحون فى حوار له عذب رشيق مع شيخ يصبو للغناء ، فيغنيه إبراهيم حتى يستنفد مجهوده ، ثم يأخذ الشيخ بالغناء ، فينشق صوته صداحاً أخاذاً يلعب بسامعه الذى كان يهتز طرباً وعجباً ؛ ثم يصيران بعد هنيهة إلى جدل عنيف حول الفنون واللحون ، وإذ بالشيخ يختفى فيبحث عنه أهل الدار فلا يقفون له على أثر ، وإذا هو إبليس يغنى … وهكذا يجد القارئ فى كتاب المنجد متعة تخيلية خلع عليها صاحبها من خياله وذوقه ما زاد فى بهجتها وحببها إلى المطالعين ، وجعلهم يعطفون على إبليس . وقد دفع بفنه عن فنان إبليس صفحات القرون التى صرخت وراءه باللعنة والويل من فساده ووسواسه .

الكتاب كما قلت تمثيلى الأسلوب ، سابق أوان وجوده فى ديار الشام ، إذ ليس فيها فن للتمثيل ولا مسرح أو معهد ، ولقد حظى المصريون بهذه المباهج والطرائف منذ عهد بعيد ، فازدهرا بجدها لدى يوسف وهبى ويهزلها لدى الريحانى وأندادهما . ولئن لم يجد كتاب المنجد مسرحاً تمثيل موضوعاته للنظارة ، فحسبه غبطة أن تمثل هذه الموضوعات فى مسارح الشعور والخيال وملاهى النفوس والأوهام . أما لغة الكتاب ففنية حرة يبدو عليها الصقل والإتقان . فللأستاذ صلاح الدين المنجد تهنئة مقدرة لجهده مثنية على هديته .

داود سلمان كيلى

زهرةٌ أو دُرةٌ زفَّتْ إلى صدرِ الشَّباب

يا أخا الدهر ويا رمزَ الخــــلودِ

هاتِ ما شاهدتَ من ماضى العهودِ

وأَرْوِ ما تعرف عن أصلِ الوجودِ

جِدُّكَ للوادى بثوبٍ مخصبٍ ... زخرفَ الخلدِ ومرجَ العشبِ

وروى صدرُكَ نيلَ الذهبِ ... عزَّ آمونَ ومجدَ العربِ

يومَ كان الشرقُ فى التاريخِ مرفوعَ الجبينِ

ومنارَ العلمِ فى الدُّنيا ومحرابَ الفنونِ

راسخَ العزةِ والمُلْكِ على خُلْدٍ ودينِ

دِنْ عدنانَ أو الأديانِ فى عهدِ آمونِ

صفحةٌ يا نيلُ فى التاريخِ هاجتْ من شجونى

يا أخا الدهر ويا رمزَ الخـــلودِ

هاتِ ما شاهدتَ من ماضى العهودِ

وأَرْوِ ما تعرف عن أصلِ الوجودِ

لك يا نيلُ شبيهٌ فى الأيادى ... ذهبيُّ الكفِّ فى يومِ الحصادِ

إنه الفلاحُ تمثالُ الجهادِ ... عصبُ الشعبِ وشريانُ البلادِ

نعمةٌ تشقى ويحيا الناسُ منها فى هناءِ

ووريدٌ كلُّ نبضةٍ منه يجرى بالدماءِ

عرقُ الجبهةِ تحتَ الشمسِ مسلوبُ الرِّداءِ

كم نسيناه وهو راضٍ ما شكا مُرَّ الشقاءِ

وبشيناه وهو بالإيمانِ موفورُ الرجاءِ

ما بكاهُ الشعرُ يوماً بمزاميرِ العَزاءِ

غيرَ أنّاتِ السَّواقى بينَ أشباحِ المساءِ

حيث يا نيلُ «السكرانُ» من نُبْلِ الوفاءِ

على شرف الدين

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ — عابدين مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٦٧٦٩/٤٢٩٩٢

العدد ٢٣٧ | الثلاثاء ١٠ من رجب سنة ١٣٦٢ — ١٣ من يوليو سنة ١٩٤٣ | السنة الخامسة

فهرس العدد

بمناسبة الذكرى الثامنة والثلاثين لوفاة الأستاذ الإمام

محمد عبده المصلح الأخلاقى

ذكر أغلب من كتبوا فى سيرة الشيخ محمد عبده أن أهم رسالة اضطلع بها ذلك الإمام هى إصلاح الدين الإسلامى . وهذا الرأى حق ، ولكن إلى حدٍّ ما : فإذا إذا التمسنا الحقيقة فى نشاط ذلك المصلح المصرى ، وإذا تأملنا على الخصوص مدى تعاليمه ، وحاولنا أن نتفهم روح الرجل وعقليته ، وأن نستشف ما وراء السطور فيما جرى به قلمه ، أدركنا حينئذ أن كل إصلاح خطر بباله إنما مداره دوافع وأسباب أخلاقية .

إذا رجعنا فى سيرة محمد عبده إلى حوالى سنة ١٨٧٠ رأينا ذلك الشاب ، وهو لم يغادر بعد أروقة الأزهر ، مشغولا بالمشكلة الأخلاقية فى علاقتها بالعمل الاجتماعى ! وإذا سرنا معه إلى غداة سنة ١٨٨٢ وجدناً مجاهداً يغادر بلاده منفياً ، فيقصد إلى سوريا ثم إلى أوربا ، ويشتغل مع أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى فى إصدار جريدة « العروة الوثقى » ، مغامراً بنفسه فى العمل السياسى الذى لا يلائم طبعه كل الملاءمة — يكلف نفسه ذلك كله لأنه كان يأمل المشاركة فى إنهاض بلاده نهضة أخلاقية ، إذ يدعو أبناءها إلى الانضواء تحت علم الحرية والجهاد والوطنية .

أليس محمد عبده هو الذى يصبح فى أواخر حياته مفتياً ، فيدعو إلى التسامح وإلى الاجتهاد وإلى التفكير المستقل عن كل سلطة !؟ وهو الذى يصرح غير مرة أن المباحث التى يقضى فيها شيوخ الأزهر أعمارهم لا تعدل جهد ساعة واحدة ، إذا لم تنفع الناس فى أعمالهم وفى قيادة حياتهم !؟

والواقع أن الشيخ محمد عبـده كان أخلاقياً بطبعه وفطرته ، ميالا إلى العمل ميله إلى النظر ، يريد الاتصال بالنـاس ، ويريد مخاطبة الضمائر والتأثير في النفوس أثراً مباشراً . ولعل المفكر المصري كان يرى رأى أفلاطون في أن الاتصال المبـاشر هو الذى يعين على إشعال الجذوة الروحية لدى الآخرين .

والواقع أيضاً أن النظرات الأخلاقية تسود جميع ما عالجه الأستاذ الإمام من مشكلات دينية أو فلسفية : مثال ذلك تفسيره للقرآن ، ونظريته في النبوة ، ونظريته في الحرية . ولا غرو فإن الشيخ محمد عبده ، كـكل مفكر شاعر برسالته ، يعلم أهمية الدور الأخلاقي والاجتماعي الذى يؤديه الفكر . ويبدو لنا أن الرسالة التي حملها محمد عبـده تشبه في كثير من الوجوه رسالة الأخلاقيين القدماء في عهد الإمبراطورية الرومانية : فكما «استطاع فلاسفة رومة القدماء — والرواقيون منهم على الخصوص — أن يؤثروا مباشرة في عقليات الناس بتعليم أليس لم يكن يخلو من قداسة دينية» ، فكذلك استطاع محمد عبده ، في مصر أواخر القرن التاسع عشر ، أن يبث تعاليمه الأخلاقية ، وأن ينشر نفوذه الروحي عن طريق القدوة الحسنة والمثال الفعّال .

وإذن فقد كانت جهود الشيخ محمد عبده موجهة إلى العمل الأخلاقي : يكافح العادات والتقاليد السيئة ، وينقد البدع والمعتقدات الفاسدة ، ويحمل على الظلم والاستبداد ، ويندد بجميع الانحرافات الاجتماعية والسياسية ، ويبذل الجهد لإصلاح مناهج التعليم في الأزهر — يتصدى لذلك كله بغية الإصلاح الأخلاقي للجماعة الإسلامية عموما ، وللمجتمع المصري خصوصاً .

والحق لقد علم محمد عبده أن الدين في كل مذهب أخلاقي يقوم بمهمة ليس عنها غناء . ومن أجل ذلك كان المربون يعمدون إلى الدين ، لـكي يبثوا في نفوس الأطفال مبادئ السلوك القويم ؛ ومن أجل ذلك رأينا الشعوب المثقفة تمو فيها فكرة «تذهب إلى أن الأخلاق إذا خلت من الجزاء الديني فمصيرها إلى الزوال» .

أما حركة الإصلاح الديني التي أصبح اسم محمد عبده عنوانا عليها في العالم الإسلامي ، فلم تكن في ذهن المصلح إلا «وسيلة» لتحقيق «غاية» ، وهي الإصلاح الأخلاقي بمعناه الدقيق . والأستاذ الإمام نفسه يقول هذا صراحة : «مقصدُ الجميع (أى المصلحين المسلمين) ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه . ويمكن أن يقال إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين ؛ حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت الأحوال ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة .

فإذا سمعت داعيا يدعو إلى العلم بالدين ، فهذا مقصده ، أو مناديا يحث على التربية الدينية فهذا غرضه ، أو صائحا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته» . وإذن فالدين في نظر محمد عبده إنما هو أصلح الوسائل وأمثل السبل لتحقيق ذلك الإصلاح الأخلاقي . إذ أن الأذهان لما لم تكن قد نضجت نضوجا كافيا للاستعاضة عن العقائد المبنية بالمبادئ المجردة ، فقد وجب بدء الإصلاح بالدين ؛ وفي ذلك يقول الأستاذ الإمام في وضوح لا يحتاج إلى مزيد : «وهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها . فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟» .

وإذا صحّ لنا ، بيانا لما نحن بسبيله ، أن نستعير كلمة لمستشرق فرنسي معاصر ، قلنا : « إن معقد رجاء الأستاذ الإمام هو أن يبقى الإسلام الحديث هو الإسلام بشرط أن يجدده » ! لكن لعل الشيخ عبده كان « يخشى على المجتمع الإسلامي في حال حدوث تجديد دنيوي تام ، أن يصيبه فقر أخلاقي لا محيص عنه » . فالمذهب الأخلاقي لدى الفقهاء والعلماء الرجعيين كان يبدو له ضعيفاً مهلهلا ، إلا أن طائفة من التقاليد قد استطاعت أن تحفظ عند سواد الشعب « نوعا من السلوك الأخلاقي اللائق لا يستطاع أن ينكر ماله من قيمة اجتماعية » .

وإذن فلم يكن مقصد محمد عبده من الإصلاح ، كما توهم البعض ، هو أن يحقق الوحدة السياسية للشعوب الإسلامية ، ولا « أن يثير فتنة على الأوربيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين » . والشيخ محمد عبده نفسه ينكر هذا ويصرح في غير موارية أن « السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم لم يخطر ببال أحد » من المصلحين المسلمين ممن يدعون إلى الرجعة إلى الدين ، وإنما اختلقه خيال بعض الغربيين « ممن يخشون أن ينتبه المسلمون إلى شؤونهم » ، وأن « يرجعوا إلى الأخذ بدينهم ، وأن يعتصموا بجامعتهم » ، وأن يستقلوا عن غيرهم بأنفسهم .

قال بعض المستعربين الإنجليز : « إن الوحدة الإسلامية حين وضعت ربما دقيقاً لعالم الإسلام إنما اقتبست الكثير من الآراء الرجعية النازعة إلى الحكم المطلق ؛ ولكن كل حركة من هذا القبيل هي في ذاتها مستحيلة ... ومن أجل هذا كانت الجامعة الإسلامية أدنى إلى أن تكون عنصراً من عناصر التفرق والضعف من أن تكون عنصراً من عناصر القوة الملائمة بين الإسلام وبين العالم الحديث » .

والواقع أن الشيخ محمد عبده كان قد عدل منذ زمان طويل عن كل إصلاح سياسي على نحو ما كان يريد أستاذه جمال الدين الأفغاني . فبعد أن تعطلت مجلة « العروة الوثقى » (أواخر سنة ١٨٨٤) ، وفشلت مشروعات الجامعة الإسلامية التي كان السيد جمال الدين يدعو إليها ، اقترح محمد عبده على أستاذه أن يعتزلا الاشتغال بالسياسة ، وأن ينصرفا إلى إنشاء مدرسة خاصة تعنى بتربية النشء (فيما يقول رشيد رضا) وفقاً لمنهج ومقاصد جديدة ؛ وبهذا يصلان من طريق التربية إلى إصلاح الأخلاق ، وتكوين صفوة من الشباب المصري تلائم تربيتهم المثل العليا التي كانا ينشدانها . وإذا كانت النتائج التي يحصل المصلح عليها من طريق التربية أبطأ تحقيقاً وأقل جلية ، إلا أنها ، يقيناً ، أوثق وأعمق أثراً .

ولما كان الشيخ عبده يؤثر التدرج في الإصلاح ، ورآه أكفل في بلوغ النتائج المنشودة ، فقد بادر بالعمل لإصلاح التعليم ، وهو في نظره شرط لا غنى عنه لتقويم الأخلاق . والواقع أن هذا الجانب من التربية الأخلاقية في تجديد محمد عبده يفسر لنا مبلغ ما ظفر به المصلح في مصر وفي العالم الاسلامي من أثر باق عميق .

عثمان أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

داء السكر ، وقصة دوائه

مولد الإنسولين

وصل الثالث : الأشخاص : « بنتنج » طبيب شاب بجامعة طورنطو بكندا . و « بست » مساعده ، وهو طالب طب ، وكيميائي . ثم أستاذهما الأستاذ « مكلود » ، أستاذ علم وظائف الأعضاء بالجامعة . ثم « جلكرست » ، وهو طبيب ، وزميل « بنتنج » في الدراسة ، ويميزه أنه مريض بداء السكر .

الموضوع : نجح « بنتنج » و « بست » في استخلاص « الإزلين » من بنكرياسات الأبقار . أما البنكرياس فهو غدة في بطن الإنسان والحيوان . وأما « الإزلين » فهو اسم الجوهر الذي تصور « بنتنج » أن البنكرياس يفرزه في الدم فتستعين به الأجسام الصحيحة على حرق سكرها ، فلا يجري في دمائها ، ولا يخرج مع أبوالها أنهاراً . وبعد نجاحهما في استخلاص « الإزلين » حقناه في كلاب أمرضاها بداء السكر ، فانتفعت به ، وهبطت نسبة السكر في دمها إلى الدرجة التي هي عليها في الأصحاء . وتطوع صديقهما الدكتور « جلكرست » ، وهو مريض أشد المرض بالسكر ، ليجربا فيه « الإزلين » . فأعطاه « بنتنج » مقداراً من السكر ، وجعله يتنفس أنفاسه في كيس يسمى كيس « دجلاس » ، وأخذ « بست » هذه الأنفاس ليحللها ليعرف من تحليلها مقدار ما يحرق الجسم من السكر الذي تعاطاه . فوجد أن جسمه لا يحرق من السكر إلا القليل . عندئذ حقنه « بنتنج » حقنة « الإزلين » ، وجلس ثلاثتهم ينتظرون .

والآن اقرأ :

وأخذ « جلكرست » آناً فآناً يتنفس في كيس دجلاس . وبأخذ « بست » هذه الأنفاس ليحللها ليرى مقدار ما زفر صاحبه من أكسيد الكربون بالنسبة لما استنشق من أكسجين الهواء ... ومضت ساعة ، ومضت ساعتان ، ومقدار أكسيد الكربون لا يرتفع في أنفاسه . يا للخيبة ! إن جسمه لا يحرق ما تعاطاه من السكر .

واغتمّ « بنتنج » لهذا غمّاً كبيراً . وخرج يلحق بالقطار ليذهب شمالا ليرى أهله ، وليفرّج برؤيتهم عن نفسه . ولم يستطع أن يحدّق في وجه صديقه ومريضه « جلكرست » . إنه خاب وكبّ . إنها للأساة الأبدية القديمة : أن الذي يصحّ في الكلاب ليس من الضروري أن يصحّ في الآدميين .

ولكن « بنتنج » تعجّل الرحيل . وأراد « جلكرست » أن يرحل هو أيضاً ، ولكن « بست » أغراه بالبقاء . قال له : « صبراً ، وهيّا نجرّب مرة أخرى » . وأعطاه حقنة أخرى من الإزلين ، وجاء له بالكيس يتنفّس فيه . شيء غريب ! إنه يتنفّس أحسنَ وأروح . إنه يحسّ الآن أن له رئتين حقاً ، وأنه يستطيع أن يتنفّس بقوة حقاً . ونفخ في الكيس بقوة كما ينفخ روّاد الملاهي في حدائق الألعاب في مكنات تسجّل قوة صدورهم . قال لبست : « أيْ شارلي ! ما هذا الذي حقنتَ أخاك إياه » ؟

وبغتةً ، ولأول مرة في أشهر عدّة ، أحس برأسه تَروق كلاه النصَب ، وأحس برجليه تخفّان من ثِقل أليم .

وأسرع « جلكرست » إلى بيته ، ومن بيته طلب بنتَ « بنتنج » بالتلفون البعيد . ولما اتصل بأهله وصف لهم ما حدث له ، واستحلفهم أن يخبروه الخبر بمجرد وصول قطاره . وفي تلك الليلة تعشّى أول عشاء لسنوات مضت ، أولَ عشاء جدير باسمه . وبعد العشاء خرج بصغيرين من أبناء أعمامه يتروّضون . قال جلكرست : « لن أنسى تلك الليلة ما حييت أبداً » .

وقال : « كل الناس كانت تنظر إلىّ . كنتُ أسير مفتوح الفم واسعه ، بابتسامة عريضة تملأ الدنيا . وكنت أجرجر ، لا رجلىّ هذه المرة ، بل الطفلين من ورائى » .

وقال : « كان كل من مرّ بى يلوى رقبته ليحدّق فىّ . كنت أحس من خفة جسمى أنى أسبح فى الهواء سبحاً ، وقد كانت فارقتنى تلك الخفة خمسة أعوام كاملة » .

ولكن بصبيح الصباح فيعود « جلكرستُ » إلى جر رجليه . ولكنه لا يبالى ، فما عليه إلا أن يذهب فيأخذ حقنة أخرى من الإزلتين .

ويذهب فيجد الإزلتين لم تبق منه بقية .

* * *

كانت تلك الأيام على « بنتنج » شديدة عسيرة ، وكان الظن أن تتسهل له بعد الذى حدث الأمور . ثم أدرك أستاذه الأستاذ « مكلود » أن هذا الشاب قد بلغ بخطته الفجّة ما عجز عن بلوغه أضخم العلماء فى علم وظائف الأعضاء . وبالطبع زها « مكلودَ » أنه الذى أعطى « بنتنج » أولّ الأمر تلك العشرة الكلاب ، وأنه أقرضه مساعده « بست » ثمانية أسابيع . وأسقط « مكلود » ما بين يديه من أبحاث الأُكسيميا ، وحشدَ مساعديه أجمعين للعمل فى هذا الجوهر الجديد الذى به تُكتسَبُ الحياة بعد ضياعها . وأصرّ أولا على تغيير اسمه ، من إزلتين إلى إنسولين ، لأنه أصحّ لاتينيةً ، أو شيء كهذا . وعمل هو ومساعدوه بقوة فيما كشف « بست » و « بنتنج » ، وكان بالطبع كشفاً غير مهذّب الأسلوب ، غير مشذّب النّتاج . فعملوا على تهذيب أسلوبه ، وتشذيب نتاجه ، وعلى تقويته وتثقيفه . وعلى الجملة بدأ « مكلود » يصنع من هذا البحث الخام بحثاً علمياً حقيقياً .

وكان « بنتنج » قد فرغ من هذه التفاصيل ، فلم يعد له همّ بها . وإنما الذى همّه أن يبذل ما يستطيع من معونة للجمهور* الذى بدأ عندئذ يتدفّق على طورونطو ، على

تلالات ، يطلب النجاة من داء أهلكه . وكلٌّ يصيح بالإزلتين . وكان خطاب « بنتنج » الذى ألقاه فى أساطين الطب بمدينة نيوهافن ، وتلعثم فيه ، أولَّ باب خرج منه خبر الإزلتين إلى الناس ، ولكن ذاعت بعد ذلك عنه الأحاديث ، وشاعت الشائعات ، فجاء الناس إليه فى جموعهم تترى . وكان يحزّ فى نفسه إذا جاءته أمٌّ تحمل طفلة نحيلة هامدة ، قد جفّ جلدها ، وخفّ شعر رأسها ، تسأله الخلاص ، أن يقول لها : إنى لِلوائك يا سيدتى آسف حزن ، ولكن . . . » .

وهاجت الدنيا وماجت بالإنسولين . وتكاثر البُحّاث من كل صوب ، فمرَجَ مَرَجٌ ، على الإنسولين . فكل باحث لم يشأ أن يبحث إلا فى الإنسولين . ومن هؤلاء البُحّاث الدكتور « كوليب » ، أخذ إجازةً عاجلة من جامعة ألبرتا Alberta ، وجاء لبنتنج فعلّمه كيف يستخلص الإنسولين من البنكرياس بالكحول المخفف ، ثم كيف ينقّيه بعد ذلك بكحول مركّز . وغلّق « كوليب » بعد ذلك على نفسه الأبواب ، ومن تلقاء نفسه وعلى حسابها ، حاسباً أنه وقع على طريقة يحصل بها على الإنسولين نقيًا لا يضر أجسام الناس .

علم الله ما كان أشد حاجة الناس الآن إلى الإنسولين . إنهم يهرعون إلى حيث ظنّوا أنهم واجدوه ، حتى إذا بلغوا مَظِنّة الرجاء ومَعقِد الآمال ، تبيّن لهم أنها قشة أخرى يتمسّك بها الغريق الهالك .

ثم كشف « مكلودُ » « كوليبَ » باستنباط طريقة صناعية يحضّر بها الإنسولين بمقادير وفيرة .

ولم ينجح « كوليب » فى استنباطه ، فقد وجد أن الطريقة التى تنجح فى تحضير المقادير القليلة فى الأنابيب والقوارير الصغيرة تخيب إذا اتّبعها المرء لتحضير المقادير الكبيرة فى الأوعية الكبرى .

وكان « بنتنج » و « بست » قد آلما فى هذه الجلبة

وهذا الاختلاط ، فما عرف أحدٌ ما صنعا أو يصنعان .

كانت هذه الأيام لبنتنج بئست من أيام . لم يكن له عمل . وكان مُفلساً والدين ركبه . والناس أخذت تذهب عن مدينة طورنطو مُطأطأةَ الرأس كاسفةَ البال خائبةَ الآمال. وجِلْكِرِست المسكين كانت حياته معلّقة بشعرة .

ثم يظهر الأستاذ « مكلود » في اجتماع لجمعية الأطباء الأمريكية ، وهي أكبر جمعية للطب في أمريكا . وقد بلغ من علميّتها أنك لا تتصورها حتى تتصور وجها قاسيا عابساً . نقول هذا ، ولا نقصد به النيل من حرمتها . ففي هذه الجمعية الخطيرة وقف مكلود يُبشّرهم بنبأ الأعظم — نبأ الإنسولين . فكانت ضربة ضربها إياهم في الصميم ، هزّت نفوسهم وأثارت إعجابهم .

ووقف الدكتور وُدْيات Woodjatt ، وهو من شيكاجو ، يقول : « إني أعرض على الجمعية أن تُظهر تقديرها لما صنع الدكتور « مكلود » وما صنع مساعدوه بالتصويت على شكرهم وقوفا » .

ووقف الدكتور ألِنْ Allen يقول : « إننا كلنا مجمعون على تهنئة الدكتور « مكلود » وأصحابه على هذا الفوز العظيم » . وألِنْ هـذا هو الدكتور الذي تناول بالتحسين تدبير التغذية الذي ألفه الدكتور « جِلْبا » Guelpa لمرضى السكر ، وهو بتدبير إجاعة أحق تسميةً منه بتدبير تغذية . وأجرى تجاربه في سبيل هذا التحسين على الكلاب ، فأثبت أن الدكتور « جِلْبا » كان مصيبا في تدبيره . وأثبت أن الإجاعة تزيد في أعمار مرضى السكر قليلا ... وأين أثبت كل هذا ؟ أثبته في معهد رُكفلر Rockefeller . أثبته في تلك المعامل الجليلة بذلك المعهد النابه . وهي خير معامل الدنيا وأغناها . ففيها لا يبالي الباحث كم من الكلاب استهلك ، وفيها لا يبالي الباحث كم من أجهزة الزجاج كسر . وقد يكسر الباحث الواحد في الأسبوع الواحد ما يساوي كل الزجاج الذي احتاجه « بنتنج » و « بست » لاستنباط كشفهما كله .

واليوم يجيء « أَلِنْ » فيهنئ الدكتور « مكلود » . وتلك رجولة منه لا شك فيها ، وقد كان الدكتور « أَلِنْ » نفسه نجح في تخفيض مقدار السكر في دم المرضى من الحيوانات بمستخلصات من البنكرياس . قال : « ولكن هذه التجارب لم تنجح في إثبات شيء . والسبب البيّن لهذا الإخفاق أن هذه المستخلصات كانت سامّة فأضرّت بالحيوان ولم تنفعه شيئا » .

وأجاب « مكلود » على هذه التحيّات ، قال : أودُّ أن أشكر الجمعية شكراً جزيلا باسمي واسم زملائي » .

وفي هذه الأثناء كان « بنتنج » و « بست » يبحثان كالجانين من الإنسولين . و « جِلْكِرِست » كان ينظر إلى تلك الشعرة التي علّقته بالحياة ويسائل نفسه متى تنقطع ، ومرضى السكر كانت تجرُّ أرجلها لتعود بعد بأس إلى منازلها لتموتَ فيها . في هذا الوقت نهضَ « بستُ » ليُريَ « بنتنج » أي معوان هو في الحاجات وعند الأزمات . وكان رجال معامل كونوت Connaught Laboratories أعطت « بنتنج » و « بست » مالا يشتريان به ما يشاءان من كلاب وأرانب وكيميائيات ، وعددا لا حصر له من البنكرياسات . وشمّر كلاهما عن سواعدهما ، وأخذا يعملان بتلك الحرارة القديمة التي يوحيها الحوادث . وبدأا من حيث خاب كوليب .

قال جِلْكِرِست : « وقت عندئذ مقام الأرنب لـ « بست » و « بنتنج » . كنت أرنبهما الآدميّ . كنت أرنبهما الأول والأخطر » .

واستخرجا الإنسولين دفعة بعد دفعة ، وكل دفعة تخرج بالتدريج أقل سمّا من سالفتها ، وأفعل من سابقتها . وكل دفعة يجربانها أولا في « جِلْكِرِست » . وكل يوم يمضي يزيد « بستَ » إمتلاكا لطريقة استخراجه وتحسينا لها .

لم يكن هذا عملا هيّنا . ففي يناير كان « كوليب » قد

وجد أن الإنسولين سيف ذو حدّين ، وأنه نفّاع ضرّار على السواء ، وأنه يضرّ من لا يعرف أيّ حد يقف به عنده . فابتدع « كوليب » طريقة سريعة بارعة يقيس بها مقدار إضراره ، ويعرف بها الحدّ الذي عنده يجب الوقوف . فكان يحقن الإنسولين في أرانب صحيحة سليمة ، ليس بها داء السكر ولا غيره من الأدواء ، فيجد السكر بدماء هذه الأرانب قد احترق ثم احترق ، حتى إذا هبط دون غاية معلومة ، أصابتها نوبة من التشنج ألمّة ، ثم تدخل في غيبوبة لا تفيق منها أبدا . وشغل حسابه في تقدير كم يؤذن به من الإنسولين حتى لا تُبلَغ هذه الغاية . وصارت هذه الطريقة هي المتمدة إلى اليوم في تقدير قوة الإنسولين حتى لا تُبلَغ به هذه الغاية . ولكن هذه الغاية كانت غاية الأرانب ، فأين منها غاية الإنسان ؟ لا بد إذن من أرنب آدمى . فكان جلكرست لبنتنج هذا الأرنب الآدمىّ .

وذهب « بنتنج » و « جلكرست » إلى مستشفى شارع « كرستى » Christie ، حيث يُعالَج المرضى من الجند بطورنطو . وفي هذا المستشفى أتيا بالمعجزات بهذا الإنسولين . وكانوا لا يعطونه إلا المرضى اليائسين . وأخذ هؤلاء الجند القدماء يجاهدون الموت مصابرة كأنهم في الميدان . وكانوا ينادون جلكرست « بحضرة الضابط » لا حضرة الدكتور .

وذات مرة حقن « جلكرستُ » نفسه بنفسه من دفعة جديدة حضّروها من خلاصة الإنسولين ، وذلك ليقدّر كم منه فيها . وبعد الحقنة أخذ يحس العرق يتصبب من جسمه . وكانت الحجرة التي هو فيها باردة ، ووقف فما كادت تحمله ركبتاه . وأراد أن يذكر ما صنع فخانته ذاكرته . وأراد أن يفكّر ، وطلب الألفاظ فخانته الألفاظ . عندئذ دخله الخوف . قال « جلكرست » : « وعندئذ أحسست كما يحس ذلك الأرنب الذى يُحقَن مقدارا من الإنسولين فوق الذى يحتمله ، فيجرى خائفاً هائجا مجنونا ، يندق في الحائط ويختبط بالمناضد » .

وشاء إرادة الله أن ينجو « جلكرستُ » من مخالب الموت ، فقد ذكر في ورطته حيلةً يحتالها الأستاذ « هندرسن » للخلاص من هذا المأزق : ذكر أن « هندرسن » علّم « بنتنج » أن حقنة من سكر العنب تردّ الروح في الأرنب الذى كادت تزهق روحه من قلة السكر في دمه . ذكر هذا فهرع إلى السكر فتعاطى جرعة كبيرة منه ، فكان الخلاص .

(يتبع) **أحمد زكى**

تصحيح

كنت ذكرت في مقالى « مسامير الفلك » المنشور في الثقافة بالعدد ٢٣٩ بيتى شاعر النعمان بن المنذر : كليلى لهم ... وأنه قالها في ليالى الشام في دهرها القديم ، ويظهر أن كلمة « شاعر » كانت منسية أثناء التنضيد ، فخيل إلى السيد م . ح أنى نسبت البيتين المذكورين إلى النعمان بن « المنذر » ، مع أن كل مبتدئ في الأدب يعلم أنهما لشاعر النعمان ، ولم أتصد يومئذ في مقالى للكلام عليهما ، وأنهما قيلا مدحا بالملك الغسانى ، وإنما تمثلت بهما للمثلة الغابنية .

(دمشق) **وداد سكاكينى**

جبرائيل تقلا باشا

تنعى مجلة « الثقافة » المغفور له جبرائيل تقلا باشا ، صاحب جريدة « الأهرام » الغراء ؛ وكانت وفاته خسارة كبرى على الصحافة العربية بما رقى من شؤونها ، وتزعم إنشاء نقابتها ، والنهوض بها إلى مستوى لم تبلغه من قبل . فالثقافة تقدم لأسرته الكريمة وأسرة الأهرام أصدق العزاء .

فى الهـــواء الطلق

فى ركن من أركان « كازينو » رأس البر ، جلستُ وحدى ومعى كتابى ، لعلى أسأم فأقرأ . ورأس البر لم تزدحم بعد بالمصيفين ، فينعم فيها مثلى بعيش هادئٍ واستجمام مريح . جلست أحملق للبحر بعد غيبة عنه طويلة ، فإنى لم أره منذ شهور ، مع حبى له وشوقى إليه . وكرهت أن أفتح الكتاب ، فالبحر نفسه كتاب مفتوح ، وهو كتاب حى وما فى يدى كتاب ميت ! يوحى بأفكار مبتكرة ، وكتابى يوحى بأفكار تقليدية .

هذا هو البحر الذى لا تفنى عجائبه ولا العجب منه ؛ لم تقلل الأيام من جماله ولا جلاله ، كأنما خرج من حكم الزمان وعز على أقاصيه ؛ وقفتْ على شواطئه الأجيال ، ثم طواهم الدهر جيلا بعد جيل ، ولم يستطع أن يمسه هو بسوء ؛ فى شباب دائم ونشاط دائب ، لم يلحقه يوما عجز الشيب ولا وهن الكبر ؛ راحة المكدود ، ومتعة النفس ، وسلوة العاشق ، وحيرة العالم ، وأنس الفيلسوف ، وبسمة المتوائق ، ودمعة المتصوف .

شيئان أشعر معهما — دائما — بضَعَة الإنسان وحقارته ، وتملؤنى العجب من قلة عقله فى نزاعه وحيله ومراوغته ، وذله واستعلائه ، وشغله الدائم بما لا طائل تحته : مطالعة السماء ونجومها بالليل ، ومطالعة البحر وأمواجه وعظمته بالنهار .

ما الإنســان الوضيع أمام هذا البحر الجليل ، وما دنياه كلها بما يعتورها من همٍّ وقلق ، وغم ونكد ، ونزاع وخصام ، وما شئت من أشكال وألوان إلا كموجة واحدة من أمواج هذا البحر تجرى لمستقر لها ، فإذا وصلت إلى الشاطئ تلاشت كأن لم تكن ، وظل البحر فى جماله وجلاله كأن لم ينقصه شىء .

* * *

قطع علىَّ تغزُّلى فى البحر صوت جدل يقرب منى شيئاً فشيئاً حتى يكون بجانبى .

رجلان كهلان مثقفان كما يظهر من حديثهما ، سلَّما وإن لم أعرفهما ، لأن المصيِّفين إذا قلّوا عدوا أنفسهم جميعاً أسرة واحدة . وجلسا على مائدة بجوارى على البحر يتمان حوارهما .

لم أفهم بادئ الأمر كلامهما ، لأنى لم أعرف « دائم الحديث » كما يعبر الإفرنج ، ثم بدأت أفهم ، فقد انتقلا إلى موضوع جديد ، إذ سأل أحدهما الآخر :

ا — أتستطيع أن تخبرنى بحق لماذا أنت عائش ؟

سؤال يهرنى ، ولو سئلته ما عرفت له جوابا .

ب — أصدُقك أنى عائش لأسرتى ، فلهم أسعى وأكد ، ومن أجلهم أتحمل عناء الوظيفة وملق الرؤساء ، ومخالفة الضمير ، وأمل « الدرجة » ؛ أصيِّف تبعاً لهم ، وأشتى تبعاً لهم ، وأحب ما يحبون وأكره ما يكرهون ؛ وأجتهد أن أرقيهم إلى أقصى ما أستطيع جسما وعقلا وخلقا ، وبذلك كانت أسرتى محور أغراضى وأساس اتجاهاتى ، وشاغلة ذهنى ، ومالئة فكرى .

ا — إنك بهذا لم تخرج عن أن تكون « أنانيا » من شكل آخر ، كالذى يعيش لنفسه ويجعل غرضه شخصه ، فأنت تجعل غرضك أسرتك لنفسك ، تُعنَى بها لأنها ملك لك ، كما تعنى بيتك الذى تملكه ومزرعتك التى تستغلها ؛ فأنت تربى أطفالك لأنك فى أعماق نفسك ترى أن تربيتك لهم دَين عليهم فى مستقبل حياتهم ، يوم يأخذ الكبر منك مأخذه ، فتحتاج إلى معونتهم مادياً أو معنوياً ، ويحملون عبئك بعد ما حملت عبئهم .

ب — ما أظن هذا صحيحاً ، فليست هذه أنانية مطلقاً ، فأنا أرقى الأمة من طريق ترقيتى أسرتى ؛ أليست الأمة مجموعة من الأسر ، فإذا عُنى كل رب أسرة بعنايتى كان لنا من ذلك أمة راقية فى أبنائها وبناتها وحياتها

الاجتماعية والاقتصادية ؟ وأملى فى تربيتى أن أجعل أبنائى خيراً منى ، وبناتى خيراً من أمهن ، بل آمل أكثر من هذا أن أجعل من أبنائى قادة فى بعض نواحى الحياة الاجتماعية ؟ وماذا تفعل الأمة الراقية أكثر مما أفعل ، فهى ترقى أسرتها لترقى أمتها ، فإن عددت هذا أنانية فهى أنانية راقية جداً تتحد بالغيرية .

ا — إن كان كذلك فلمَ تعنى بأولادك ولا تعنى بأولاد غيرك ، وقد يكون فيهم من هم أنجب من أولادك ، وأحسن استعداداً وأقوى خلقاً وأكثر قابلية لأن يكونوا قادة ؟ أليس هذا برهان الأنانية ؟ !

ب — غريب هذا ، أتريد أن تجردنى من أنانيتى ، ولو جردتُ منها ما كنت « أنا » « أنا » ، وليس هناك مذهب من مذاهب الأخلاق يريد أن يمحو الأنانية بتاتاً ، وكل ما يدعو إليه أرقاها أن يؤلف بينها وبين الغيرية ؛ فلو عنيت بأبناء غيرى وأهملت أبنائى لما كانت هناك حرارة البواعث الغريزية التى تدعو بطبعها للعناية بأبنائنا ، فلو ربّى غيرى أبنائى وربيت أبناء غيرى لفسد الجميع .

ا — ولكن هب كل هذا صحيحا ، أيصح أن تكون عنايتك بأسرتك كل غرضك فى الحياة ؟ إن تركيز همك كله فى أسرتك يحرمك من الاستمتاع بأفق أوسع ومثل أعلى ؟ بل إن هذا التركيز ضار بأسرتك نفسها ، فكثرة العناية بها والإفراط فى الشعور بالمسئولية منها يعوّد الأسرة كلها رمى حملها عليك : فلا الأم تشاركك فى حمل العبء ، ولا الأبناء يتعودون الشعور بالمسئولية ، لأنهم يجدون كل شىء محمولا عليك ، فينشئون مدللين غير صالحين لأنفسهم ولا للحياة — ألا تعرف فلاناً وأسرته ؟ كان ينبّه أولاده فى الصباح ويشرف على إفطارهم ، ويراهم إذا لبسوا ، ويرسلهم مع الخدم إلى المدارس ، وإذا تأخر عمله تحدث فى التليفون عن عودتهم وصحتهم ، وإذا ارتفعت حرارة أحدهم ربع درجة دعا له أمهر الأطباء ، ودعته الشفقة أن يجيب لهم كل مطلب ، وإذا وجد أحد أبنائه ضعيفاً فى مادة أتى له بالمدرسين الخصوصيين ، وحمل كل عبء عن كل ولد ، وحرم نفسه من كل لذة ليمتعهم بكل لذة ، فماذا كانت النتيجة ؟ خرجوا مائعين لا يصلحون للحياة ، ناعمين لا يتحملون خشونة الحياة ، ففقد بذلك نفسه وفقد أولاده ، وفقدتهم الأمة جميعاً — إن تركيز كل هم الإنسان فى الأسرة ضار بها كضرر التخلى عنها وعدم الشعور بمسئوليتها . إن الأسرة تصلح أن تكون غرضاً من أغراض الحياة لا كل غرض ، وليست — فيما أرى — تصلح لأن تكون إجابة عن سؤال : لماذا أنت عائش ؟

ب — جاءنا مرة فى امتحان الشهادة الابتدائية فى اللغة العربية بيت ظريف وهو :

إنّ على سائلنا أن نسألَهْ والعبء لا تعرفه أو تحملَهْ

فقل لى أنت — بدورك — لماذا أنت عائش ؟

ا — لقد شغل هذا السؤال تفكيرى طويلا ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وأجبت كل إجابة وناقشتها ، فقلت أولا — أعيش لنفسى ، فوجدتنى إذ ذاك كأخس حيوان ، ووجدتنى أعيش فى أضيق أفق ؛ ثم قلت : أعيش لأسرتى ، فكان من الاعتراض عليه ما رأيت ، ثم بحثت أن أعيش لوطنى ولدينى ؛ وأخيراً وطنت نفسى أن أجعل أملى أن أكون مصدراً للخير العام حيث كان ، فأكون كالشمس تلقى أشعتها على كل كائن فقير أو غنى ، مؤمن أو كافر ، مواطن أو غير مواطن ؛ رأيت الباعث على العمل إن كان شخصياً فى أى شكل من أشكاله يبعث على التفرق والخصومة ، ورأيت الباعث إن كان عالمياً عاماً التهم الخصومة وأوجد السلام — لقد حاولت أن أبعث هذا الباعث فى نفسى ، فنجحت أحياناً وفشلت أحياناً ، ولكنى دائماً أحلل أسباب الفشل وأحاول أن أتقيها ، وقد رأيتنى بذلك أتحرر شيئاً فشيئاً من الحقد والبغض ، والحسد والطمع ،

ونحو ذلك ، مما يتعب الناس بلا فائدة ؛ بل رأيتني عندما كنت أحيا للباعث الشخصي كنت أخاف الموت خوفاً شديداً ، وأتألم أشد الألم للكوارث المالية أو النفسية ، فلما سموت بباعثي خف خوفي من الموت ومن الكوارث ، وأحسست التحرر من هذه الآلام إلى حد بعيد ، وشعرت بجمود العاطفة نحو المسائل الشخصية ، وحرارة العاطفة نحو المسائل العامة — لقد أصبح يهمني أولاد جاري ، ويهمني فلاحي في مزرعتي ، لا لأنهم في مزرعتي ، بل لأنهم هم الذين أستطيع نفعهم ؛ بل إني لآلم من بؤس الفلاحين عامة ، وأود أن أستطيع نفعهم ، ولو كان بيدي ميزانية الدولة لجعلت ثلاثة أرباعها للفلاحين وربعها للمدن ؛ ويسرني نجاة مصر من كوارث الحرب بقدر ما يؤلمني كوارث الحرب لأي صنف ؛ وأحب أن يكون لي مال لأنفع به الناس ، وجاه لأستغله في خيرهم ، وشهرة لأستخدمها في منافعهم ؛ فإذا لم يكن من ذلك شيء ، فعلت ما أستطيع على قدر ما في يدي .

ب — ولكن ألا ترى معي أن سعة الباعث يضعف من قوته ؟ فمثلك — إذاً — مثل من رمى زنبيل سكر في النيل ، فلا هو احتفظ بسكره ولا هو أحلى النيل ! إنك إذا ركزت همتك في أسرتك ، وجارك فعل مثل فعلك ، كان لنا من ذلك أسر راقية ؛ ولكن لو كلف عشرة آباء العناية بعشر أسر من غير تخصيص ما وصلت هذه الأسر العشر من الرقي إلى الحالة التي يصل فيها كل عائل بأسرته وحده .

ا — مثلك صحيح ، ولكن علته غير صحيحة ، فحال الأسر هو كما ذكرت ، ولكن لا لسبب كمية الحب ، وضيق الباعث ؛ إن السبب في صحة مثلك هو أن حياة الأسر أساسها الخصوصية ، ولهذا كان لا بد أن تختص ببيت ، وتعيش عيشة فيها معنى الستر ، ومعنى الملكية ، ومعنى الاستقلال ، فإذا انساحت عشر أسر تحت إشراف عشرة أرباب زالت كل هذه المعاني ، ولم تعد الأسرة أسرة .

أما الحب وقدرة الإنسان عليه فليس كمية محدودة بحدود الأشياء المادية — هو ليس ككمية من السكر ، ولا كمية من المال ، لا تتسع إلا لشيء محدود — قارن بين أم لها ولدان وأم لها عشرة أولاد ، أتظن أن الأم ذات العشرة تحب ابنها خُمس حب ذات الاثنين فقط ؟ هذا ليس بصحيح . إن قلب الإنسان مصدر العجائب ، فهو إذا رُبِّي على الحب الواسع وسع كل شيء ؛ إنه إذا رُوِّح عليه اشتعل وأضاء ضوءاً قوياً زالت معه كل ظلمة ، وانكسف له كل ضوء خافت — إنها التربية ، هي التي تحدّ حبنا في شخصنا أو أسرتنا أو بيئتنا ، فإذا هدمت هذه وحل محلها تربية واسعة الأفق أحببنا حباً لا حدود له . وإنك لتعجب إذ ترى الإنسان مع هذا الحب الواسع لم يفقد شيئاً من حبه الجزئي ، فهو يحب شخصه ، ويحب أسرته ، ويحب أمته ، ويحب دينه ؛ ولكن حبه الواسع يلوّن كل حب جزئي بلون خاص لطيف يتفق وسعة أفقه ، وامتداد نظره ، وفيضان حبه .

* * *

ونظر «ب» في ساعته ، وشكا الجو ، ولم أدر أكان هذا فراراً من استمرار الحوار ، أم صدقاً في الشعور بالبرودة . وسلّما وودعا ، وقد استمتعت منهما — على الجوار — بحديث طريف .

وودعت البحر حامداً له وحيه وضيفه .

أحمد أمين

من مذكرات جحا :

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والمهدة على صاحب الوثيقة الذى زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

هذا الربيع الجميل يلف الأرض والسماء بآيات من الحسن والسلام والحياة : الزهور منثورة فى المروج الخضراء مختلفة الألوان ، كأنها وشى تفننت فيه يد صناع . ليس فى تنسيقه نظام ، ولكنه يملأ النفس بما فيه من انسجام وتناسق ؛ فهنا خميلة ذات نوّار عسجدى ، وهناك إلى جوارها خميلة أخرى زهرها أبيض ناصع كالثلج ، وعلى مسافة بعدهما خصلة من أعواد غضة تتمايل مع النسيم الهفاف ، وترف أوراقها اللدنة كأنها أجنحة الفراش الحوّم حولها ، وتتخللها ورود حمراء قد أسندت رؤوسها على صدورها ناعسة فى ضوء الشمس الرفيق ، كأنها تتمتع بالهفاءة من الاستسلام تحلم فيها بلذة الحياة الوديعة ؛ وتجرى فى ثنايا المرج جداول ماء صاف كأن حصباءها من الدر والياقوت والمرجان . ترشف الطيور منها رشفات سريعة وهى ترقص بأذيالها ، وتقفز خفيفة تنظر حولها فى حذر وطرب ، فإذا ما بلغت الجداول أطراف البساط الأخضر انحدرت عنه تتغنى بخريرها الخافت تدندن بنغمات مهموسة ، تناجى بها كل سمع بما يفهم ، فهى للمحزون تعزية ، وهى للطروب مشاركة ومنادمة ، وهى للمحب مسامرة ، وهى للطموح تمنية ، وهى للمتأمل تسبيح وعبادة . والسماء الزرقاء الصافية تمد البصر كأنها تشفق عليه أن يضل فى الفضاء ، فتستند العين منها على متكأ رفيق تلوح لها من ورائه الأبدية الغامضة ، ولكنها تحميها من وعورة الانطلاق الذى لا قرار له ، فتبرق منها بين حين وحين لمحات من الحقيقة ، فإذا بالعالم الأرضى يضمحل ويصغر ويدق ، حتى يصير كالذرة على ساحل المحيط ؛ وتكاد النفس ترتد خاشعة حسيرة ممتلئة بالرهبة الموئسة ، فإذا بالأضواء الصافية الوديعة تحملها فى هينة وهدوء ، فتهبط بها إلى الأرض قريرة راضية ، قانعة بما قسم لأهل الأرض الفانين من اللمحات الأبدية الغامضة ؛ وإذا بالحسرة تنقلب إلى جلال ، وإذا بالحيرة تصير إلى عبرة ، وتعود النفس فتمتلئ روعة وقدسية ، ويستقر بصرها مرة أخرى على أديم الأرض فتخلع عليه من روعتها ومن قدسيتها ظلالا جديدة من وحى العلا .

كل شىء فى هذا الربيع جميل بديع ؛ يشع سلاما وحبا . وأنا أستلقى على الحشائش الخضراء، وأتأمل هذه الحياة فى هدوء شامل ، وأحس السلام يتمشى فى كيانى كله ، فأعجب لهذا العالم الذى يضطرب حولى ؛ وأسائل نفسى : أى فرق بينى وبين هذا الخلق ، فأجدنى فى مثل هذا الاطمئنان الشامل ، على حين أرى كل ما حولى اضطرابا وقلقا وشقاء .

ولو كانت عيون البشر كلها ترى ما أرى ، وتحس ما أحس ، وتستوحى من هذا الربيع ما أستوحى ، لما كان فى العالم كله قلق ولا اضطراب ولا شقاء . فلا شك أن فى الأمر سرا خفيا ، ولا شك أن بينى وبين الناس فرقا فى العين والحس والعقل .

لست أدرى أين هى الحقيقة ؟ أقول الحقيقة ؟ ما هى تلك الحقيقة ؟ هل للحياة قصد يسعى إليه هؤلاء وتخلفت أنا عنهم ، أم هم الذين قد أثارهم الجنون والوهم ، فاضطربوا حين بقيت وادعا سالما ؟

لست أدرى !

أنظر إلى العود الضئيل من الحشيش ، فأرى إبداعا يعجز عن إدراك سموه العقل . وأرى البعوضة أو الذبابة

أو ما قل من ذلك شأناً من الأحياء، أو ما كبر عنه ؛ فأرى خلقة معقدة ، أقل ما فيها يحيّر العقل فى دقته وإحكامه وفنه وسره . فهل أدرك الناس ما فى هذا الخلق من إعجاز وفهموا ما وراء ذلك كله ، ثم انصرفوا إلى حياتهم نحو قصد ، أم هم يضطربون وعيونهم مقفلة إلى غير قصد ؟

لست أدرى ! ولكنى أراهم أمامى ومن حولى تملؤهم رعدة مثل رعدة الحمى ، وكأنى بهم لا يدركون أين يتجهون ، حتى لقد سألت نفسى مراراً — والله يعفو عن زللى وخطئى — سألت نفسى أسئلة منكرة ، لا أزال أستغفر الله منها .

كنت بالأمس مستلقياً كما أنا مستلق الآن فوق الحشائش ، وكانت بعض الدواب ترعى هناك على مرمى بصرى . وكانت بقرة من تلك الدواب راقدة فى فتور واستسلام تجتر وهى مغمضة عينيها . فقلت فى نفسى — ألهذه البقرة قصد من حياتها هذه ؟ إنها بلا شك قطعة بديعة من الخلق ؛ فكل ما فيها ينطق بالإعجاز : لونها . شعرها . عيناها المغمضتان . حركة ذيلها . مضغها للطعام واجترارها . ثم هى تهضم الحشائش فتصير الحشائش لحماً ودماً ودهناً وعظماً ولبناً ، وغير ذلك كثير مما أعرف ومما لا أعرف . هى تتنفس ، وهى تحس ، وهى تتحرك ، وهى تلد وهى وهى . ولكن هل لها قصد فى الحياة ؟ أم هى آية من آيات إعجاز الخالق قد صورها وأبدع فيها ما شاء لكى تكون دليلا على مقدرته ؟

لقد تذكرت عند ذلك الآية : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، وتذكرت الآية « والنجم والشجر يسجدان » ، ثم قلت إن كل هذه المخلوقات لا قصد لها إلا أن تعبد ، وأن تظهر فى خلقها قدرة هذا المبدع العظيم الذى يرى آثار قدرته فيرتاح ، وهى تطيع الكلمة التى أبدعها بها عندما قال لها « كونى » .

ففيم إذن كل هذا الضجيج ؟

ليس الإنسان إلا كهذه البقرة أو كهذه الذبابة أو كهذه البعوضة . إنه ما خلق إلا لطاعة الأمر « كن » ؛ وما كان أحراه أن يقضى حياته فى العبادة بأن يحيا طائعاً ثم يمضى طائعاً ، ولكنى أعود فأقول « لست أدرى » ! فلعل هذا الاضطراب وهذا القلق وهذا التطاحن الذى أراه حولى هو من هذه الطاعة ، من يدرى ؟ كل شىء جائز فى عقل مثلى ممن لا يستطيع إلا أن يقول « لا أدرى » ! ومع ذلك فإنى لا أملك أن أفكر إلا بعقل هذا الذى خلقه الله لى ، فلست أقدر أن أكون مثل هذا أو ذاك من الخلق ، ولا أملك إلا أن أعجب مما لا أفهم ، وأن أضحك أحياناً مما لا أدرك .

لقد سمعت عما يحدثه هذا الطاغية (تيمور الأعرج) فى كل يوم وفى كل ساعة من الأحداث . فقد جمع قومه وألبهم وحرضهم وزعم أنه يسوقهم إلى المجد . وما يريدهم الله إلا أن يسوقهم إلى مذبحة هائلة يَقتلون فيها ويُقتلون . إنه يهبط على البلدان والأرياف بألوفه المؤلفة مثل الجراد الذى لا يُبقى ولا يذر ؛ فهو يهلك الحرث والنسل ، وينشر الموت والألم ، ويذل ويفجر فى كل خطوة يخطوها . ولا أقدر أن أدرك أى قصد له فى هذه الحياة الوحشية التى يملؤها الدم والشهوة . إنى كلما سمعت بوقعة بينه وبين خصومه لا أملك إلا أن أرى ذلك كله سخفاً . فهو يسوق قومه كالجراد لا يبالى ما يسفك من دمائهم ، ويهبط بهم على الناس ، فإذا هبوا للدفاع ثارت معركة يسميها تيمور معركة المجد ؛ أما أنا فلا أرى إلا طاغية يسوق حتى يضطربون أمامه ويسطو بهم على الناس لكى يقتل بعضهم بعضاً ، حتى إذا بقى هو بعد ذلك تربع فوق الأرض راضياً يظن أنه قد نال السعادة ، وأصاب قصد حياته ! ثم ماذا ؟ سيلحق بهم بعد فترة وجيزة — وجيزة جداً لا تزيد على سنوات

معدودة . أليس هذا سخفاً مضحكا ؟! سيمضي الناس جميعاً واحداً بعد واحد حتى لا يبقى منهم أحد في النهاية .

فقيم الاستعجال ؟ لست أدرى ما الذى يبقى من مجد هذا الطاغية تيمور ؟! هذا الجبار الباطل ! وكأنى به بعد قرون قليلة وقد اندثر كل أثر له ، وأصبح اسمه كأن لم يكن شيئاً . بل لكأنى أنظر إلى بقايا أعدائه الذين زعم أنه يحطمهم ويفنيهم ، فتبقى حية على الدهر بعد أن يزول تيمور واسمه ومجده .

لقد قلت ذلك بالأمس لصديق أبي النور فلم يعجبه قولى ورمانى بالجبن وضعف العزيمة . ولست أدرى ما هو الجبن ولا ما هو ضعف العزيمة ؟!

فهل كل فضيلة الشجاعة أنها استعجال موت الآخرين ؟ ولو كان الشجاع يستعجل موت نفسه لهان الأمر ولتركنا الناس حرا يفعل بنفسه ما يشاء . ولكن الشجاعة عند أمثال تيمور أن يُخرج الناس لكى يقتل كل واحد منهم الآخر ، ويقعد هو في مأمن ، وهذه شجاعة لا أفهمها . إن الأسد شجاع بغير شك لأنه لا يهاب أن يموت إذا كان لا بد من الموت ؛ وهو إذا أتاه الأجل رقد صامتا وقضى نحبه في هدوء . وكذلك الكلاب ، وسائر الدواب سواء منها الوحشية والمستأنسة . والإنسان وحده هو الذى يجزع للموت في قرارة نفسه ، ويباهى بأنه يقدم على قتل الآخرين ، ولا يعبأ بذهاب حياته . ولست أظن أن الأسود على شجاعتها فكرت يوما في أن تجتمع في جيوش لكى تقتتل أو تقتل غيرها بحجة أنها تحب الموت ولا تخشاه . وماذا يحمل الأسود على مثل هذه الخطة وهى تكتفى بصيد اليوم ، وما دام عندها قوتها لا تفكر في قتل فريسة أخرى ، ولكن أنى لمثل تيمور أن يقنع بمثل هذا ؟ فهو يريد أن يحوز في شدقيه قوت حياته كلها ، كما تحاول القردة أن تفعل . بل هو يطمع في أن يحوز في شدقيه شيئا فوق القوت . هو يطمع في كل النعمة التى على الأرض لكى يختص بها نفسه في حياته وبعد مماته ، وهل رغبته في توريث أبنائه ، والاستكثار لهم إلا رغبة خفية في الاستئثار بالخيرات بعد الموت ؟ فما الأولاد والذرية إلا كناية عن النفس في عقل الإنسان .

واعجبا لنفسى إذ أسترسل في هذه الخواطر العجيبة التى تلهينى عن التمتع بجمال هذا الربيع الذى تتردد هزاته في الكون ، وتشيع حياته في الفضاء ! ما أجمل الحياة وما أحب هذا السلام الشامل ! إنى أحس السعادة تتغلغل في وجودى لولا هذه الخواطر الحائقة التى تعترض سبيلها كلما تذكرت أنى إنسان .

لو عرف الناس الحقيقة لما أشقوا أنفسهم بالانصراف عن مثل هذا الجمال إلى تلك المطامع الصغيرة التى ينصرفون إليها فلا يعودون منها إلا بفقدان سلامهم .

أرى الناس يسخرون منى ، ويظنون فيّ قلة الهمة والقعود والعجز عن نضال الحياة ؛ وهل كنت لأعجز عن مجاراتهم في طاعة هذه العواطف الغريزية ؟ ليس في العالم كله من يعجز عن الطمع والكذب والمكر والغدر ، وكل ما يوصل إلى النجاح في الحياة ، فإن كل هذه الصفات أصيلة في غرائز كل إنسان ، لأنها من ميراث الإنسانية ، وأنا لم أفقد شيئاً منها ، ولكنى أمسك عنانها وأحمل نفسى بالقسر والقهر على التحكم فيها ، وتلك حال لا يقدر سائر الناس عليها . فهم العاجزون عن زهدى ولست أنا العاجز عن طمعهم . ومع ذلك فلست أدرى ! لعل هذا الرأى الذى أراه ما هو إلا وهم أحاول به بغير وعى منى أن أدارى عجزى وأخادع عنه نفسى . لعلهم على حق إذ يسخرون منى ويتهموننى بقلة الهمة ؛ فإنى لا أقدر أن أقول إنى أدرى ؛ ولكنى لا أستطيع كذلك إلا أن أضحك وأسخر مما لا أدرك .

« طبق الأصل » « عجبا »

نظرات في التربية النفسية:

حقائق مجهـــولة

نشرت « المصور » منذ أيام كلمة لذلك « الراجل » الذي يحرر باب « النسائيات » قال فيها تحت عنوان « غريزة خبيثة » ما يأتي :

« من غرائز المرأة الخبيثة أنك إذا لا حظت عليها » « شيئا — أو شخصا — قادتها غريزتها إلى التعلق بهذا » « الشيء أو بهذا الشخص . وقد تكون في البداية بريئة » « منهما معا . وتسألني عن المنطق فأقول لك : أين كان » « لغريزة المرأة منطق ؟ ... في هذه الدنيا أشياء ونتائج » « لا تظفر لها بسبب أو مبرر أو منطق . ومن هذه » « الأشياء هذا الشيء » .

والواقع أن هذا « الراجل » أستاذ عظيم . وذلك على الرغم من أنه لم يستطع رد هذه الظاهرة إلى أسبابها النفسية . وكفى بأستاذيته عظمة أنه لمح هذه الحقيقة في الأوساط التي يغشاها ، في حين لم يستلفت نظر غيره ممن يغشونها معه إلا أشياء أخرى . أو على الأقل في حين لم يستلفت نظرهم شيء بالمرة .

أما هذه الظاهرة في ذاتها : وهي ظاهرة جموح المرأة في يد من يحاول قيادتها إلى طريق الهداية ، فلها تعليلها في ميدان البحوث النفسية ... ...

وذلك أن بعض الناس يشبون وفيهم من خصال الطفولة شيء كثير . وهذا الأمر في النساء أغلب منه في الرجال . وتلك الخصلة التي تحدث عنها صاحبنا باسم « غريزة خبيثة » هي من خصال الطفولة العادية ، وليست من الغرائز الخبيثة في شيء . فإن من خصال الطفولة أن يقوم الطفل بتجاربه في هذه الحياة ، لا يريد أن يتدخل معه فيها متدخل ، ويسوءه كل الإساءة أن يرى من يقحم نفسه عليه وهو يقوم بهذه التجاريب ، وهذا الكلام يقتضينا أن نستطرد استطرادا بسيطا نستأذن القارىء فيه . . .

* * *

فإن أول ما يسترعي انتباه الطفل مثلا في حركاته التشنجية الأولى عقب مولده ، هو أنه يستطيع أن يحرك يده ، وأنه قادر على أن يوجهها ذات اليمين وذات الشمال . ولما كانت متعة الطفل في هذا الدور من أدوار حياته لا تحصل إلا من طريق فمه ، فإنك تراه يركز كل جهوده في توجيه قبضته نحو فمه ، ثم ما يزال يحوم بها حوله حتى يهتدي إلى فتحته فيدفع بها فيه . ومن الأطفال من يريد ذلك أحيانا فلا يوفق ؛ فتدرك أمه مرماه وتشفق عليه من إخفاقه المتكرر فتساعده في توجيه قبضته إلى فمه . فيأخذ في البكاء والعويل للإعراب عن استيائه من هذا التدخل غير المشروع . ولكن أمه تفسر بكاءه بأنه جائع فتلقمه ثديها ، فينسى الطفل في متعة التقامه ما كان يسعى إلى تحقيقه من وضع قبضته في فمه . ومثل هذا التصرف من جانب الأم خطأ مزدوج . لأنه يقتل في نفس طفلها روح السعادة الحقة — سعادة « التحصيل » — ويميته على تلك السعادة الزائفة الأخرى — وهي سعادة « الحصول » — وتكون نتيجة هذا التصرف الخاطئ أن الطفل يشب يلتمس الأشياء فلا يأخذها إلا « سؤالا » — ولا يعرف قط كيف يأخذها « غلابا » .

فانظر أي أثر خطير تخلفه في نفس الإنسان وفي أخلاقه مثل تلك الحركة الهينة اليسيرة ! وتأمل مقدار مسئولية الوالدين في عدم فهمهم لهذه الحقائق وأمثالها قبل أن يلقوا بنسلهم في خضم هذه الحياة !

ونعود إلى الطفل فنستعرض بعض تجاربه الأولى لنا

في هذا الدور من حياته من أثر بالغ في مستقبل عمره .
فإن الرأي المعول عليه الآن هو أن الطفل يبدأ في تكوين أخلاقه منذ العشر الدقائق الأولى من حياته . ولذلك وجب على من يريد أن يشرف إشرافاً حقيقياً على تكوين ولده ألا تأخذه هوادة في مراقبة كل حركة من حركاته ؛ وفي الوقوف منها ذلك الموقف السليم الصحيح الذي تمليه المبادئ النفسية الحديثة . فإن الطفل إذا ما بلغ شهرين أو ثلاثة من عمره ، وفرغ من تجربته الأولى ، زهد فيها ، ولم يعد يرى في وضع قبضته في فمه ذلك المتاع القديم الذي كان يكفيه أن يشركه أحد في تحقيقه . وانتقل من تلك المرحلة إلى مرحلة أخرى هي أنه يمسك الأشياء ويلقيها على الأرض ليسمع صوتها وهي تصطدم بها ؛ وهو يرى في هذا الصوت الذي استحدثه مظهراً من مظاهر سلطانه على الأشياء التي تحيط به .

ومن الأمهات أيضاً من تتصدى لطفلها في مثل هذه الحركات فتمنعه من هذا الضجيج الذي قد يزعج سمعها «بعض» الإزعاج ولكنه يدخل على نفس طفلها «كل» السرور . وتكون النتيجة أن يحرم الطفل من هذا الإحساس الجميل : إحساس السلطة والقوة فيكبت في أعماق نفسه هذه الرغبة الملحة في استحداث تلك الأصوات ، وينقلب في مستقبل أيامه إلى صخاب عظيم ذي ضجيج وعجيج . ولن نجد تعليلا لمن يصادفك اليوم من كبار الصخابين الذين يتخذون من صخبهم وسيلة للإعراب عن قوتهم واقتدارهم ، إلا أن هؤلاء إنما كانوا حرموا في طفولتهم النعمة سعة الصدر التي كان يقتضيها المقام إذ ذاك حتى يستنفدوا حاجتهم من التجربة التي كانت تشغل بالهم في ذلك الحين .

وإن المدرسين خاصة من بين قراء هذه الكلمة ليجدون فيها ما يذكرهم ببعض تلاميذهم الذين عرفوا فيهم ولعاً خاصاً بإلقاء كتبهم على الأرض أثناء الدرس ، أو إسقاط أدواتهم من غير عمد ، وهم لا يشعرون . كل ذلك في الواقع تلبية لذلك النداء الخفي الذي ينبعث من أعماق نفوسهم المكظومة ؛ والتماساً للتنفيس عن تلك الرغبة القديمة المحبوسة من أثر ذلك التصرف الخاطئ الذي يجني به الآباء في جهلهم على نزعات أطفالهم البريئة .

ونعود فنقترب من موضوعنا الأصلي فنقول : إن المدرس الذي يأخذ أمثال هؤلاء التلاميذ بالعقاب ، إنما يضاعف من قوة هذه الميول في نفوسهم ، فإن القاعدة النفسية المستقرة هي أن العادة السيئة لا تكون محاربتها في نفوس الناس باستعمال العنف معهم لكي يبتعدوا عنها ؛ فإن العنف في أمثال هذه المواقف لا يأتي بخير . والناس يعتقدون خطأ أن أطفالهم يُكوِّنون العادات السيئة إذا هم تركوا يمارسونها . ولكن الحقيقة هي أنهم يكونونها إذا نحن منعناهم من ممارستها .

هذه حقيقة يغفل عنها كثيرون ... وهذه الحقيقة ليست صحيحة بالقياس إلى الأطفال في دور طفولتهم فحسب . ولكنها صحيحة أيضاً بالقياس إلى من يستبقي في خلقه بعض خواص الطفولة ، حتى بعد أن يجتاز أدوارها الأولى بمراحل كثيرة . ولقد بينا في صدر هذه الكلمة أن هذا الأمر كثير الحدوث مع النساء . ولهذه الظاهرة سرها الذي قد نعود لبحثه في فرصة أخرى .

* * *

والخلاصة : أن الشائبة التي قد تشوب الخلق لا يجوز التفكير في إصلاحها «بالهجوم الأمامي» وبإبداء «الملاحظات» ، فإن هذا أدعى أن يزيدها رسوخاً في نفس صاحبها ، ويزيده بها تعلقاً . وليس سبيل الدعوة إلى مقاومتها إلا باستعمال الحكمة والموعظة الحسنة ، وتقديم القدوة الصالحة ، وعدم مواجهة الناقص بنقصه . ولكن

صديقي الدكتور محمد عوض . . .

رأيتك البارحة تسير في الطرقات وأنت تحمل من اللابس ما لو حمله غيرك لعدّ من أبناء الشعب ، وأنت لست من أبناء الشعب ؛ فأبناء الشعب هؤلاء يا سيدي من طبقة أخرى غير طبقتك ، هم أعضاء محلات الروّاد ، ونادي كوري اليمون ، ومؤسسة الرفاق اللبكي ، ونحن وأمثالنا وأضرابنا ونظائرنا .

رأيتك يا سيدي تسير لابسا قيصا من القماش الأبيض الرخيص ، له ثنية متصلة به عند الرقبة ، وعنقك يطل على الشمس والهواء دون أن تحجبه رباط (كرافته) ودون أن تستره الثنية (الياقة) ؛ ثم كنت تلبس سراويل رمادية اللون ، وسترة بيضاء مصنوعة في مصر ، بينا السترات القيمة ينبت صوفها في أستراليا وتنسج في إنجلترا ؛ وهي أشياء لا يخطر ببال واحد من أمثالنا أبناء الشعب أن يفكر فيها ، ناهيك بالتطلع إلى الأزار بمثلها !

ثم كنت تلبس نعلا لا يحجز سوى ما بين قدمك والأرض ؛ وأما ما عدا ذلك فتترك قدمك ترى ما تريد وتلمس ما تريد ، وأصابع قدميك مكشوفة لا يسترها شيء ، تداعب الشمس والهواء كما تشاء ، وتطل على الناس من كل جانب .

حقا أن كل هذه الأشياء كانت نظيفة يدل مظهرها على العناية التامة في التنظيف والسكي والتلميع ، وأن ما يلامس جسمك منها يستريح إليه الجسم من غير قيد أو ضيق ، فيها من الطراوة واللين ما يحبب الجسم في اللباس ؛ وما يجعله يستريح إلى هذا اللباس في الجو الذي نعانيه في القاهرة .

فكيف تجرؤ يا سيدي على أن تمتع جسمك بمثل هذه الحرية ، وتجعله يستخف بحرّ القاهرة إلى هذا الحد ! كيف

يلفت نظره بطريقة ضمنية — خالية من التعريض — إلى كمال غيره ممن لا يعانون هذا النقص .

ويهمني أن أنوّه بصفة خاصة إلى أنه ليس أضيع في هذا المقام من « النصيحة » ، والوقوف من المخطئ موقف المرشد والمهذب ؛ فإن النصيحة لن تزيد أمثال هذه المواقف إلا تعقيداً . وتحضرني بهذه المناسبة أبيات من الشعر أثبتها هنا على سبيل التفكه ، فإن ظاهرها يدل على أنه إنما قصد بها الدعابة ، وإن كانت عباراتها تنطوي على شيء كثير من الحق :

قال قائلها غفر الله — لنا — وله :

إن « النصيحة » تغلو عند بائعها
وليس أرخص منها عند شاريها
فهي التراب إذا ما جئت تأخذها
وهي النضار إذا ما رحت تعطيها
سوق الجهالة تأبى أن تروج بها
بضاعة العقل — خذ عني خوافيها
إني نصحتك : لا تنصح فتًى أبداً
خلّ النصيحة للمخدوع يزجيها

* * *

ونحن بعد هذا الاستطراد الطويل — إذا أردنا أن نعود إلى ذلك « الراجل » الذي استأذناه حتى نفرغ من هذا الكلام — قلنا إن المرأة تمتاز — بحكم جنسها — بشيء من الغرور ؛ وهذا الغرور يصور لها أنها محل كل كمال ، وفوق مستوى كل نقص ؛ فكيف يسمح لنفسه إنسان بأن يأخذ عليها شيئاً ، أو يلفت نظرها إلى شيء ؟ إن من يفعل ذلك لن يكون جزاؤه عندها إلا التحدي ، وإلا أن يشهد من تصرفاتها « الحرة » ما يلقمه الأحجار الكبار . .

هذا — أيها « الراجل » العزيز — جواب ما تساءلت عنه ، وهذا تأويل ما لم تستطع عليه صبراً !

ع . ج

تستطيع يا سيدى أن تنسى رباط الرقبة مع القميص ، وقد خلق هذا الرباط بضغط على أعناقنا بحيث نصبح نستجدى الهواء للرئتين استجداء ، من أين لك الشجاعة فى الازدراء بالقماش الأبيض القطنى الرخيص المصنوع فى مصر ، بينما الطبقة التى تنتمى إليها تزدرى هذه الأشياء ازدراء ؟!

ماذا ! أهى مناورة منك يا سيدى تريد بها القضاء على الفروقات بيننا وبينكم ؟ أتريدون أن تنزلوا إلى مستوى أبناء الشعب ، أم هى مناورة منك تذرو بها الرماد فى عيوننا فنحسبك واحداً منا ؟ أم هى سياسة منك تسعى بها إلى أن تصير عضواً فى منشآتنا محلات الرواد وأشباهها ؟ إن كان هذا غرضك فاعلم يا سيدى أن قيمة الاشتراك عندنا تتراوح بين عشرين ومائة مليم فى السنة . قد نقبلك فى إحداها إن كنت جاداً فى طلبك ، وإن كانت سنك تسمح لك بذلك ؟ وقد نتغاضى عن مسألة السن هذه إن كنت تتذوق النشاط بين أبناء هذه الطبقة . والحق أنى رأيت أولاد الشعب يقبلون عليك ويعتبرونك واحداً منهم فى محلة الرواد وفى كوبرى الليمون .

ومع كل هذا وبرغم كل هذا ما زلت حائراً فى تعليل جراءتك على الظهور فى شوارع المدينة بمثل هذا اللباس . ألست يا سيدى كنت عميداً لكلية الآداب ، وما رأيت عميداً يسير فى أى مكان متنعلاً بما كان يتنعل به أنبياء الأديان الكبرى جميعاً ، وهل يصح لعميد أن يجارى الأنبياء وأولاد الشعب ؟!

أنسيت أنك كنت مدير الرقابة يقف أمامك نقلا باشا وعمر باشا ومحمود أبو الفتح ، ويشدون على أزرار ستراتهم احتراماً للرقيب ، فكيف يشدون على أزرار ستراتهم أمامك وأنت لا تخنق نفسك برباط الرقبة ، ثم تطل أصابع قدميك عليهم من كل ناحية ؟!

كيف تلبس مثل هذه الملابس وأنت أستاذ فى جامعتنا يعرفك وزير المعارف ويحترمك ، ويدعوك باسمك مجرداً الدلالة على الصداقة ورفع الكلفة ؟! لا بل يعرفك رئيس الحكومة ويقول لك : صباح الخير يا عوض ، وكيف حالك يا عوض ، وأين تقضى العطلة الصيفية يا عوض ، وتكرّم بزيارتى يا عوض .

أنا ألبس أحسن منك يا صديقى ، ولا أجرؤ على مجاراتك إلا فى الظلام الدامس حيث يستوى الأعمى والبصير ؟ ألبس أحسن مما تلبس ، لأنى ألبس الجورب مع النعل ، وألبس قميصاً لا يتطلب رباطه رقبة وإنما له سيور كسيور الحذاء متداخلة فى بعضها بحيث تغرر بالناظر ، فلا يدرى أأنا من أبناء الشعب أم من أبناء الدكتور عوض ، وثمن هذا القميص سبعة وثلاثون قرشاً ونصف ، وهو من القطن المصرى ومصنوع فى مصر .

وما أريد أن أستفتيك فيه ، هو هذا : كيف ومن أين لك هذه الجرأة فتظهر فى الطرقات كما رأيتك ؟! ألأنك من الطبقة الاجتماعية (الاستراتوسفيرية) ، فلا تعود تخشى نقد أحد ، وهل ينقدك الناس ، وماذا تحس فى داخلية نفسك عندما ينقدونك ، إذا كانوا ينقدونك ؟

أريد أن أخرج إلى الطرقات فى زى أبناء الشعب ، ولكنى أخشى أن يرانى وزير المعارف ، فيشطب اسمى من قائمة المربين فى البلد ؟ أو يرانى وزير الشئون الاجتماعية فينكر على أنى خادم اجتماعى يعمل لصالح أبناء الشعب ، وعلى هذا تجدنى يا صديقى مضطراً لأن أتنكر لأبناء الشعب بعض الأحيان وأخرج إلى الطرقات فى زى الوزراء وأساتذة الجامعة والرقيب العام .

فما العمل ؟ صديقك

يعقوب فام

من الأدب التركي :

القـــــرط

للكاتب التركي يامى صفا

كان حسين وعلى يسيران فى تراخ وكسل ، فى المكان الذى شب فيه الحريق المروع فى بازيد ... واليوم قد مضى على ذلك الحريق نحو عشرة أعوام ...

لقد جمع العمل هذين الرجلين ، فقد جمعتهما الصدفة فى ذلك الحريق ، فمكثا حتى الفجر يكافحان مع الناس فى إطفاء النيران وحصر الحريق ... ثم لما أدركا أن لا حيلة لهما إزاء هذه النيران الناشبة حملا معهما ما خف حمله من أمتعة المنازل التى قوضتها النيران ، وتركتها أنقاضا ...

ومن ذلك التاريخ أصبحا زميلين فى تخفيف ويلات الإنسانية ! فهما يبحثان عن الحرائق لإطفاء نيرانها ، ثم يأخذان أجرهما من المتاع ...

ذكر حسين هذا كله ، وود أن يفضى إلى صاحبه بما يجول فى ذهنه من الألم والكدر ، وأراد أن يتحدث زميله بشجونه وسبب شقائه ، فقال :

— يا على ! إن أيامنا المقبلة ستكون سيئة ، وإن حظنا آخذ فى الأفول ؛ انظر إلى هذه الدور المشيدة حديثاً ، تراها كلها مبنية بالحجارة ، ولسوف تقل الحرائق ويضيق نطاق النيران ، وسيقل عملنا من جراء ذلك ، وستضطرب أحوالنا .

فلم يرد عليه الآخر ، ولم يحفل بقوله ، لا لأنه منصرف إلى تفكيره فحسب ، بل لأنهما كانا إلى جانب اشتراكهما فى العمل ، وزمالتهما الطويلة ، يكرهان بعضهما كراهية عميقة ، وقد نصب كل من نفسه رقيباً على زميله ، فكلاهما لا يأمن زميله ولا يثق به ؛ وقد يجيء وقت يطفو فيه حقدهما وكراهيتهما ، فيعلنان الحرب الشعواء ، وكل ينال من زميله بلسانه ويده ؛ وتنتهى هذه المعارك اللسانية واليدوية بأن يكون أحدهما الغالب والآخر المغلوب . وهكذا كانت الحرب سجالا ، وكان كل لا يحمل كلام صاحبه إلا على محمل الهزء والسخرية ، بهذا جرت العادة بينهما .

وبينما هما فى سيرهما البطيء صاح على بزميله :

— لا تحزن يا صديق ولا تبتئس ، ودع عنك الجزع ، فلن نموت من الجوع ! انظر أيها الأبله إلى تلك القمامة ، هنالك رزقك فى انتظارك . وأشار بإصبعه نحو بيت خرب ، وفى ناحية منه كومة من القمامة ، ظاهر من بينها علبة صغيرة للمجوهرات ، واستمر قائلا : إنها علبة جواهر ! خذها ، ولسوف تكون فى عيشة راضية ، وتكون سعيدا فى أيامك المقبلة .

وتلقى زميله هذا الكلام ، فأخذ يقهقه بصوت أجش ، وهو يعجب من كلام صاحبه الساخر ، ويحمل قوله محمل الهزء به والنيل منه ... وسارا خطوات ، ولكن نظره ما لبث أن رجع إلى العلبة واتجه إليها ، فسمرت قدماه فى الأرض ، ولبث لحظة قصيرة يفكر ، ثم ما لبث أن قال : نعم ، إن هذه العلبة قديمة جدا ، ولكن من يدرى ؟

وكأنما سر لهذا الخاطر ، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة غامضة ؛ فسار صوب كومة القمامة ، وتناول العلبة وأزال ما علق بظاهرها بكم ثوبه ، ثم فتحها ... وفى هذه الأثناء كان زميله قد اقترب منه ، وكان بجواره حين فتح العلبة .

ولمعت عينا هذين الصعلوكين ، حينما رأيا بداخل العلبة قرطا .

صاح الصعلوكان وقد استخفهما السرور :

— إنه قرط ، جوانبه من الذهب الخالص ، وأحجاره من الألماس ، ولا شبهة فى ذلك ؛ فهما كثيرا ما حملا الذهب والألماس فى أثناء عملهما . يا لله ، الجوانب من الذهب والحجارة من الألماس .. يتفجر منه ألوان سبعة . يا لقلبى ! ويا لدقاته السريعة وأنفاسى المبهورة ! إن سناه يخطف البصر ويعشى النظر ..

وأخذا يطيلان النظر إلى العلبة وهما يتنهدان ، ولم يك يسمع منهما غير هذه الكلمة بين الحين والحين ، مصحوبة بتنهدات عميقة : يا لله ، إنه ألماس صاف ! وذهب خالص !

وقال على : لقد كتبت لنا السعادة ، وزال عنا الشقاء والبؤس . قال هذا وهو يطوح بطربوشه فى الهواء ..

أما حسين فقد وضع العلبة فى جيبه بهدوء ، وقال لرفيقه : — أستودعك الله !

وقد ظن على أن صاحبه يمزح معه ، أو يلهو به ، لهذا ما لبث أن قال : هيا بنا إلى السوق ، ولنذهب إلى متجر كبير ، فنقومه ، ويعلم الله أنه يساوى على الأقل مائة ليرة : خمسون لك وخمسون لى .

ولكن حسيناً لم يكن مازحاً أو هازلا ، لهذا قال بصوت جاف فيه رنة عدم الرضا : إليك عنى ! مال من تنيمه لى ؟ ! أنا الذى تناولت العلبة من الكومة ، لهذا تعتبر هذه العلبة ملكا خالصاً لى ... وسكت هنيهة ، وما لبث أن قال متمماً كلامه : بثمن هذا سأعيش بقية عمرى !

لم يأخذ علىّ هذا الكلام على أنه جد ، بل ظنه مزاحا وهزلا . لذلك أردف يقول : سوف نقبض مائة ليرة ، أليس كذلك أيها الزميل العزيز ؟

— ليس لك شأن فى هذا ، مائة ليرة ، مائة قرش ، مائة بارة ، كل هذه من خصوصياتى ، ولا يعنيك أمرى ، أنا الذى تناولت العلبة ، فأنا صاحبها .

— ولكن لا تنس أنى أنا الذى دللتك عليها ، ووجهت نظرك إليها ، وإن لم أكن وجهت نظرك إليها ما كنت لتراها فتأخذها .

— أنا الذى التقطتها من الكومة .

— أنا الذى أشرت لك عليها .

ووقفا ينظران إلى بعضهما هنيهة ، ونظر على إلى الأرض ساهما مفكرا لحظة قصيرة ، ثم رفع رأسه وقال فى حزم وعزم وإصرار : لن أترك لك هذا القرط .

— ماذا ستفعل ؟

— سآخذه منك بالقوة .

وقبل البدء فى المعركة هزا ذراعيهما فى الهواء ، ونفخا صدريهما ، وتقدم حسين خطوة ، وأعلن الحرب بلكمة وجهها إلى زميله ، ودارت المعركة حامية الوطيس . ومضت لحظات وهما يتطاحنان بدون أن يتغلب أحدهما على الآخر نظرا لتكافئهما فى القوة . ولما كان حسين يرى نفسه صاحب حق ، دافع عن وجهة نظره بعزيمة أقوى ... لذلك ما لبث أن تغلب على غريمه ، وطرحه أرضا ، وجثم على صدره وأطبق يديه الغليظتين على رقبة رفيقه ، وأخذ يشدد فى الضغط ! فاربد وجه على ، وعلا وجهه زرقة داكنة ، فسأل الصعلوك الغالب :

— هل أنت راض بالنصف ؟

فأجاب المغلوب بصوت متحشرج ، وهو يغمض عينيه الجاحظتين ، وأهدابه ترف بسرعة على عينيه ، وقد فتح فمه فتحا كالكهف : هيا ، ولنمض إلى السوق .

وإلى السوق سارا معاً ، يملأ صدر كل منهما الأمل . وهما يقلبان القرط ، ولأجل أن يظهرا جماله وروعته وجدته ، أخذا فى تلميعه بكمى ثوبيهما ، حتى يظهر بريقه ولمعانه ، فيقبضان فيه ثمنا مناسبا . والآن أصبحا صديقين تماما ، وقرّ رأيهما على أن يقضيا ليلة مرحة فى ملاهى (بك أوغلى) .

وكان الجوهرى استيك أفندى يعرفهما من زمن بعيد ، فقد عقدا معه بعض الصفقات فى فترات مختلفة ، كان آخرها حين باعاه ساعة ذهبية وسوارا ماسيا . وحين ولجا دكانه قام لهما ، واحتفل بقدومهما فى حماس ظاهر ، وسرور بالغ ! وقدم الصعلوكان القرط للجوهرى والصمت يجللهما من فرط انفعالهما . وأمسك استيك أفندى أنفاسه وهلة ، ونظر إلى القرط بإمعان تحت ضوء النور وسألهما :

— كم تطلبان ثمناً له ؟

فأجاب حسين : مائتى ليرة . فنظر استيك أفندى إلى الصعلوكين وقال : يا عزيزىّ الفاضلين ! أدفع لكما فيه ثلاثين قرشا إنه قشرة ذهب وحجارته عادية ولا تساوى شيئا .

ترجمة ابراهيم أحمد أدهم

هل الأدباء بشر؟

يحدو بي إلى كتابة هذا المقال عبارة وردت في مقال للأستاذ أحمد أمين بك في مجلة الثقافة العدد ٣٣١ موضوعه: «الشيخ رفاعة الطهطاوي مؤسس النهضة العلمية الحديثة». والعبارة هي: «... ولقد أذكرني ذلك بحكاية طريفة. فقد كنت أتبادل مع سيدة إنجليزية جميلة تعلم الإنجليزية والعربية. وكان لها عينان تشعان الثقة والإخلاص والأمانة، وكان يصعب عليها النطق بالعين. فكانت تقول: «إن عينكم هذه تقتلني»، فأقول في نفسي: «وعينكم أيضاً تقتلني».

وهذه أول مرة — على ما أعلم — يكشف فيها أستاذي الجليل — حفظه الله — عن سريرة من سرائر نفسه بعبارة في غاية الإيجاز والوضوح والجمال.

ومدلول العبارة أن الأستاذ كان في وقت ما، ولمدة لا أحسبها قصيرة، تحت تأثير عينين لا أصفهما بأبلغ مما وصفهما هو بقوله «تقتلني»! فما فعلت هاتان العينان القاتلتان بقلب الأستاذ، وما أثرهما في روحه وأدبه؟ ليس فيما كتب الأستاذ من مؤلفات ومقالات ما ينمّ عن هذا التأثر، لا سيما ومقالاته الوجدانية نادرة، على ما أعلم! فهل يستنتج إذن أن تينك العينين القاتلتين لم ينفذ سحرهما — أستغفر الله — أقصد سحرهما إلى شغاف قلب الأستاذ، ولم يوحيا إليه كتاباً ولا فصلاً ولا مقالاً؟ ما أظن أن هذا معقول. ولكن المعقول، إذا كان الأدباء بشراً — وهذا أمر لا شبهة فيه — أن يكون الأستاذ قد تأثر فكتب، ولكنه ضنّ على القراء، التزاماً لسنن الأدباء المحدثين عامة الذين لا يفصحون عن سرائر قلوبهم، وإن أفصحوا كنوا ورمزوا أو عمّوا وغمغموا، كأن الأديب ليس بشراً، ولا يصح أن يتعرض لما يتعرض له سائر البشر من الأهواء والقلق. وإن قدّر وتعرض لجرح في قلبه فهو من البشر الذين يجب عليهم أن يستتروا حتى يبرأوا، دون أن يعلم الناس من أمرهم شيئاً.

أحقاً — عباد الله — أن الأدباء ليسوا بشراً؟ أحقاً أنهم في منجى من مرمى العيون القاتلة؟ إن كان ذلك حقاً فلنحكم على الأدب الحديث أنه أدب هزيل متكلف، بعيد عن التحدث عن سرائر النفوس، وبعيد عن الكشف عن خفايا القلوب، وبعيد عن تصوير النفس الإنسانية، وهي تتقلب على مثل الجمر، وتشوى كما يشوى لحم الخراف. وأقول أكثر من هذا صادقاً: بعيد عن الأدب الحق.

وشيء من هذه الأوصاف قد استخلصها النقاد الصادقون مما قرأوا من آثار جلّ الأدباء المحدثين. فقالوا: إنه — في عمومه — أدب سطحي لا يتغلغل إلى أعماق النفس، أو حيي رخو بعيد عن تصوير الأحاسيس تصويراً صريحاً صادقاً، أو متكلف يتلبس شخصيات منتحلة لا وجود لها، وما إلى ذلك من أوصاف.

وليس فيما بين أيدينا من مؤلفات المحدثين مؤلَّف واحد يصح أن نعتبره قطعة حيّة من قلب مؤلفه، نرى فيه آثار الدماء، وطراوة اللحم الغريض، وحرارة الجسم الحي. ولهذا نجد أجود ما أنتجه المحدثون إما اقتباس عن قصص وأساطير قديمة، أو نقل عن لغات أجنبية. أما الإنتاج الشخصي فجيّد في بعض نواحيه، وجودته جودة نسبية. ولعل أبرز عناصره رشاقة الأسلوب أو طرافة الأفكار؛ وفي القليل منه وصف رائع أو تحليل لعواطف محدودة ساذجة. أما العواطف العارمة المضطرمة التي هي لب لباب الأدب فليست هناك؛ وأما الوصف الفياض المسهب لدقائق التجارب والمحن الروحية والعقد النفسية فليس هناك كذلك. وإذن فعنصرا العواطف والخيال القائمان على صدق التصوير مفقودان، أو يكادان يكونان في حكم المفقودين.

ولم ذلك؟ ألأن الأدباء المحدثين عاجزون؟ ألأنهم

غافلون ؟ لا ! لأنهم يريدون أن يجاروا العامة في اعتبارهم الأدباء، وأصحاب الفكر أناساً فوق البشر، أو على الأصح، أناساً ليسوا بشراً . وهذا الاعتبار من آثار البيئة التي تفرض الحياء، والتستر والكتمان والروغان . وحين يجمح قلم الأديب وتفلت منه عبارة تكشف عن سريرة نفس أعماق نفسه، ويتبين لك أنها نفس إنسان كسائر الناس تتعرض للأهواء، والقلق، والحرج والشك، كتلك العبارة التي فلتت في مقال الأستاذ، ونمّت عن قلب كبير نابض بالحياة .

تصور الأستاذ وهو جالس إلى فتاة مليحة رشيقة ذات عينين قاتلتين، يبادلها درساً بدرس ؟ وهو ذلك الرجل الرزين الوقور الجادّ في عمله، الذي يدرس الإنجليزية بدافع الرغبة الصادقة فيها، لا لأداء واجب، أو اكتساب رزق أو طمعاً في علامة . وهو يدرس في سنٍّ متقدمة توجب عليه الراحة في أوقات الفراغ، وتفرض عليه الكثير من الواجبات الثقال . تصوره وكله وعي وانتباه يريد أن يحصّل في هذه السويعات أكثر ما يمكن من معرفة اللغة الإنجليزية الفنية بآدابها، وليس عنده منها ولا من غيرها من اللغات الأجنبية زاد يعينه على التحصيل . فهو يجلس إلى معلمته جادّاً رزيناً لا يرفع عينيه عن الكتاب إلا لسؤال يعرض من حين لآخر، فيرفع به صوته مستحيياً، وعيناه خجلتان يصوبهما إلى وجه معلمته لحظات ثم يردها إلى الكتاب سريعاً إلى حين يسمع الجواب فيتسمران فيه . وهو في كل جلسة يشعر أنه أمام مخلوق ذي عينين قاتلتين . ولكن ما للعينين قصد الدرس، وما لها تفرّغ في هذه السويعات القليلة ! ويأخذ شعوره بقوة العينين يزداد يوماً بعد يوم، ولكن يشغله عنهما فهم متزايد للغة أجنبية تفتح له أبواباً جديدة هو في أشد الحرص عليها والحاجة إليها . فقلبه وعقله يتصاولان ويتصارعان بقوة واحدة . ولذلك يظل شعوره معتدلا .

وفجأة يقع بصر معلمته على حرف عين مقبل من بعيد، فترتاع وتضطرب وتخشى أن تُسيء النطق أمام تلميذها ومعلمها، وقد نبهها إلى صحة نطقه مراراً، فيرميها بالغفلة أو الكسل . فيخطر ببالها أن تعتذر لتنجو من هذه الأزمة، فتقول يا سيدى : «إن عينكم تقتلني» . وما يكاد الأستاذ يسمع هذا الاعتذار حتى يرفع بصره عن الكتاب ويصوبه إلى وجه تلميذته ومعلمته، فيقع على عين زرقاء أشدّ قتلاً من هذه العين السوداء، ويحاول أن يتكلم ولكنه يُشغل بالتحدث إلى نفسه بتلك العبارة الوجيزة السريعة : «وعينكم أيضاً تقتلني» . ولكنه لا يُطيل التحدث إلى نفسه خشية أن تكشف معلمته سريرة نفسه فيطمئنها ويهوّن عليها، ويتصل الدرس بالدرس، بعد أن اتصلت العين بالعين، والروح بالروح لحظة أشبه بلمعان البرق في دياجير الظلمات . وتكمن هذه العبارة في نفس الأستاذ كما تكمن جميع الانفعالات في أعماق الأدباء المحدثين، دون أن يجرؤوا على إظهارها أو التحدث بها ؛ إلى أن يكتب هذا المقال عن الشيخ الطهطاوى فيذكره حرف الدال بحرف العين، وتفلت منه عبارة غاية في القوة في الكشف عن أسارير النفوس، وفضح أسرار القلوب .

وأعتقد أن الأستاذ لم يبرأ بيسر من سحر العينين . وأظن ظناً يدنو من اليقين أنه بفعل تينك العينين كتب ما كتب في الثقافة عن مخطوطة «سحر العيون» التي عثر عليها، وهيأت له فرصة مواتية للتحدث عن العيون بلغة غيره من الأدباء . وإنى موقن أنه لو تحدث بلغته هو لجاء حديثه آية في الروعة، لأنه يكون من الفرص القليلة التي يتحدث فيها أديب محدث عن أسرار القلب . ولكن تلك الستائر التي تفرضها البيئة الحيية حالت دون الكشف عن مكنون القلوب وصادق الأحاسيس .

فمتى يا ترى تُمزّق تلك الستائر، ويبدو الأدباء كما هم بشراً، فيفيض أدبهم بالحياة، كما نبضت بها عبارة الأستاذ حفظه الله ؟

(القدس) **اسحق موسى الحسيني**

الصحافة والأدب فى أسبوع :

"... هذا رأيى ، وعلىّ تبعته وحدى... ..."

يوم المستشفيات ! — أيام الحرمان ! — يوم الأخلاق ! ... ...

يوم المستشفيات :

اشتغلت الصحافة المصرية أسابيعَ بأنباء يوم المستشفيات والحديث عما اجتمع له من تبرعات أهل الخير أو أهل السمعة ، وشغلت أنباءُ هذ اليوم ما شغلت من مجتمعات الطبقة الراقية والطبقة النازلة على السواء ... وبلغت جملة التبرعات فى النهاية بضعة وسبعين ألف جنيه ..

... ولم تجتمع هذه التبرعات كلها فى «يوم» ولا فى أسبوع ، ولا فى شهر ؛ ولكن هكذا سمّوا ذلك «الموسم» كله يومَ المستشفيات ، كما سمّوا مواسم سبقتْ من مواسم الإحسان ، حرصاً على « حرفية الترجمة » ، فإنهم كذلك فى أوربا يفرضون « أياما » للإحسان يسمّونها بأسمائها ؛ فمنهم أخذنا الكلمة بشىء من معناها عندهم إلى شىء من معنانا ؛ ذلك أن مدلول « اليوم » عندهم واضح محدود بمشرق الشمس ومغربها ، والزمن كلُّه لا مدلول له عندنا ولا اعتبار ! ...

... ولا علينا من ذلك فما إليه قصدت ، وليس يعنينى فى شىء أن يكون اليوم عندنا أربعاً وعشرين ساعة أو أربعة وعشرين أسبوعاً ؛ ليس يعنينى ذلك فى شىء ، وإنما يعنينى أن أعرف المعنى الذى يقصدونه فى جملته من مثل قولهم «يوم المستشفيات» ، «يوم الفقير» ، «يوم القرش» ، «أسبوع الصحة» ، إلى غيرها من الأيام والأسابيع والمواسم الخيرية ؟

ألا إنه إن كان لكل شىء موسم لا يطيب إلا فيه فإن الإحسان لا موسم له ، لأن كل يوم موسمه ؛ فما معنى أن نسمّى يوماً بخاصته « يومَ الإحسان » دون غيره من الأيام ؟ ... معناه الذى ينبغى أن نقصد إليه هو أن يحتشد الشعب كلُّه فكرةً وعاطفةً ولساناً ويداً فى ذلك اليوم للغرض الذى ندعو له ، فإذا معناه ماثل فى كل نفس ، متحدث به كل لسان ، مبسوطة له كل يد ؛ فمن قَدَرَ فَعَل ، ومَن عجز فله عذره ؛ ومعنى ذلك أن يجتمع الكثير أو القليلُ من التبرعات على قدر طاقة الأمة فى مالها وفى عاطفتها لا على قدر سعى الساعى وإلحاف السائل ، وللأمة كلها شُكر الشاكر أو عَتْبُ العاتب لا للداعى ولا للسائل ... ؛ وثمة معنى آخر ، هو اعتبار ذلك «اليوم» موسماً من المواسم القومية فى الأمة ، لأن قلوب أبنائها جميعاً تجتمع على فكرة واحدة وعاطفة واحدة فى لحظة واحدة ، وما تجتمع الأمة فى لحظة واحدة على عاطفة واحدة وفكرة واحدة إلا لمعنى قوىٍّ سامٍ يؤلف بين القلوب المتنافرة ، ويوحّد الأشتات المتباعدة ؛ وهذه المواسم بهذا المعنى هى دروس فى تربية الأمة وتنمية الشعور بالقومية بين أبنائها جميعا ...

... لهذا المعنى ولذلك سُمّيتْ هذه الأيام وأُقّتت وحُدّدتْ ساعاتُها بدءاً ونهاية ، لتنضبط دقات القلوب على معناها والشعور بها كما تنضبط الساعة على الساعة ؛ ومن هنا كان عدم التوقيت فيها وإغفال التحديد الزمنى خروجاً بالمال المتجمع لها عن معنى حصيلة التعاون الاجتماعى إلى معنى الصدقة ، وشتان بين المعنيين فى شريعة الإنسانية !

ومن هنا أيضا كان توسيع الزمن المحدود لهذه الغاية ليس له إلا دلالة من اثنتين : إما أن الأمة قد بلغتْ من النضج فى معنى القومية والشعور بها مبلغاً يمسكها على فكرة واحدة وعاطفة واحدة ينبض بهما وجدانُها أياما وأسابيع وأشهراً لا تفتر ولا تتلوّن ، وإما ...

أيام الحرمان !

... على أنى لا أرى أن ندعو إلى يوم من أيام الإحسان إلا أن نجعل ذاك اليوم نفسه يوماً من أيام الحرمان ؛ ليحس كل متبرع فى نفسه أنه يدفع ما يدفع مما يحتاج إليه لا مما يفضل عنه ، فيقوى بذلك فى نفسه الشعور بالأخوة الاجتماعية ، ويرتفع ما بينه وبين الناس عن أن يكون تفضلا وصدقة إلى أن يكون تعاونا ومشاركة ، فلا يستعلى غنى بغناه لأنه أعطى ، ولا يذل فقير بفقره لأنه أخذ ...

إنى لأنفق فى « اليوم » ما لو أمسكته لفضل منى ولم يضرنى ؛ فلو كان ثمن طعام لما مت من مسغبة ، ولو كان أجرة ركوب لما عييت بالمشى ، ولو كان مسحة نعل لما بليت نعلى ، ولو كان ثمن « سجاير » لما خرب رأسى ولا طاش عقلى ، وحتى لو كان ثمن دواء ....

فهذا الذى أنفقه كل يوم لو أمسكته « يوما » ، وحرمت نفسى بعض متاعها — أو بعض حاجتها — أربعاً وعشرين ساعة لوجدت فضلاً أبذله ، وكان لى فى « يوم الإحسان » إحسان ، واستمتعت بلذة المعطى حين يحرم نفسه !

أرأيت ما يكون لو جعلنا يوم الإحسان يوم حرمان ؟ فذلك معنى آخر لتحديد هذا الموسم فى « يوم » لا فى أيام ولا فى أسابيع ؛ فإن مقاومة النفس أربعاً وعشرين ساعة أمر يطيقه القوى ولا تضيق به همة الضعيف ؛ فإنه لحقيق بأن يحمل الأمة جميعها على المشاركة فى البر والبذل له ؛ حتى الفقير المحتاج الذى ربما وقع فى نفس من يعرفه أنه أهل لأن يأخذ — يستطيع هو أيضاً أن يحرم نفسه حاجتها يوماً ليبذل من فضله ما يعود إليه ، فلا يستشعر الذلة والهوان ساعة يقال له : خذ ؛ لأنه يستشعر ساعتئذ أنه يأخذ مما أعطى ، وأنه يقتضى الجماعة حقه بما فرض على نفسه للجماعة من واجب حين أعطى !

لست أعنى بذلك أن كل الفائدة فى اعتبار يوم الإحسان يوم حرمان هو تمكين الناس جميعاً أن يبذلوا وأن يعطوا ، فما أقل الجدا لو كان ؛ وإنما عنيت أن يكون ذلك وسيلة لإشعار كل فرد فى الأمة أن عليه للأمة واجباً ، وأنه يستطيع أن يؤدى هذا الواجب بأيسر الجهد وأخف المئونة ؛ وبذلك يشعر كل فرد فى الأمة أن حقه كفاء واجبه ، وينتظم المعنى الاجتماعى عامة الناس وخاصتهم على سواء ؛ وما أحرى هذا اليوم أن يسمى بهذا الاعتبار « يوم الأخلاق » !

إلا أنه لحكمة بالغة فرض الله الزكاة وحدد ميقاتها من شهر الصوم إلى صبيحة يوم العيد ، فكان شهر الحرمان هو شهر الإحسان !

ليت شعرى أتبلغ دعوتى سمعاً لو دعوت الناس جميعاً فى هذه الأمة ليتخذ كل منهم لنفسه يوماً فى كل شهر ، أو فى كل عام ، يمسك نفقته فلا يبذل منها شيئاً لنفسه ويتصدق بها ؟ ...

كان لى صديق كثير « التدخين » ، فإنه ليبذل فى ثمن الدخان أكثر مما يبذل ثمناً للطعام ، فما يقع فى وهمه أو فى وهم أحد من أصحابه أن يقلع عن التدخين يوماً ... ، ولقيته بعد جفوة ، فإذا هو قد ترك التدخين منذ أشهر لم يمسك بين شفتين ولا بين إصبعين دخينة ؛ وسألته عن خبره فقص على ...

قال : كنت ذات يوم فى الطريق لبعض شأنى حين اعترضنى سائل رأيت من واجبى أن أعطيه ، فدفعت إليه ما دفعت ، ولم أتنبه إلا من بعد إلى أنى دفعت إليه كل ما معى ؛ ومضت ساعات قبل أن أجد من حاجتى أن أشترى « سجاير » ، فلما أردت أن أشترى تذكرت أنى لا أملك فى تلك اللحظة مالا ، فأمسكت ... ولم أعد فى ذلك اليوم إلى دارى إلا بعد هدأة من الليل ، وليس فى جيبى دخينة

واحدة ، ولا بائع على مقربة ؛ وهكذا تركتُ التدخين يوماً ... ...

قلت : لقد كان ذلك يوماً ، فما حملك على أن تستمر ؟

قال : هذه هي القصة ، فقد أرسلتُ الخادم في الصباح بجنيه لتشتري لي بعضه وتعود بالباقي ، ولكن الخادم « المباركة » قد ذهبتْ بالجنيه ولم تعد ، وتركتني في النهار أنتظر على نار بلا دخان ! ... وتعلم ما فعلتُ ؟ خرجتُ أبحث عنها وكل همي أن أعثر بها فأقبض عليها فأدفعها إلى الشرطة أو آخذ حقي بيدي ؛ ومضتْ ساعات ، وانتصف النهار ، وأوشك الغروب ، وجاءت ليلةٌ ثانية ولم أدخّن ؛ وهممت أن أشترى ثم ردّني راد ...

... أتعرف ماذا ردّني ؟ لا شيء ، ولا أحد ؛ ولكني قلت لنفسي : ها قد مضى يوم ونصف يوم ولم تشعل دخينة واحدة ، فلم تنطبق السماء على الأرض ، ولم يطر عقلك من رأسك ؛ فما يحملك على الاستمرار في هذه العادة المرذولة ؟ ومنذ ذلك اليوم لم أجد ما يحملني ! ...

قلت : خيراً فعلتَ ، أو خيراً تركتَ !

قال : لا ، ليس ذلك هو كل الخير ؛ فإن خيراً آخر يعنيك أن تعرفه ...

قلت : ماذا ؟

قال : إني ما زلتُ منذ ذلك اليوم أمسك مثل ثمن ما كنت أشترى من السجاير ، فإن معي اليوم بضعة عشر جنيهاً ، أو لعلها عشرون ، وإن كل يوم يمر يزيدها عشرة قروش أو بضعة عشر فتزيد بها عزيمتي . أتدرى فيم أريد أن أنفقها ؟

قلت : فيم ؟

قال : إني مازلت أبحث عن تلك الخادم اللصة لأدفع إليها ما اجتمع لي بتركها من هذه الجنيهات !

قلت : أفلحتَ لو بلغتَ ، ولكنك لن تجدها ، وما أراها الساعةَ إلا منزوية في ركن من حانة إلى جانب جندى محارب ترفّه عنه وبين إصبعيها دخينة ... دخينة !!

ذكرتُ هذه القصةَ الساعةَ وقد ذكرت الإحسانَ والحرمان ؛ أما إنه لا يقع في وهم متوهِّم من ذي عقل أو مجنون أن يصبَّ من وعاءٍ في وعاء غيره ليملأ أحدهما من غير أن ينقص الآخر شيئاً ، وإنما يزيد أحدهما بمقدار ما ينقص الآخر . هذه هي الطبيعة !

يوم الأخلاق :

وصورت بصورة هــذه الحفلات الصاخبة اللاغية التي يدعون إليها باسم الإحسان ، ورأيت أولئك الرجال هناك يبذلون من مالهم ليأخذوا ، ورأيت هؤلاء النساء يعطين ما يعطين ليأخذن مال الرجال ، وسمعت الموسيقى تعزف ، وأبصرت الأنوار تتضوأ ، وشاهدت في ضوء القمر ظلالاً في الحديقة تعتنق وتفترق ، وسألت نفسي : لِمَ كل هذا ؟

قالوا : للإحسان !

وسمع الفقير الواقف بالباب ، والمتربّص بين الشجر للخدمة ، والساعى بالكئوس بين الصفوف ، والعازف على قيثارته في البهو — سمع قهقهاتِ النساء ، ورنات الكئوس ، وأغنيات المرح ؛ وسمع السائلَ والمجيبَ ، فضحك ، أو لعله بكى ؛ فقد كانت في عينيه دموع لم أستطع أن أترجم معناها ....

تلك صور ومناظر من « أيام الإحسان » ؛ إنهم يرقصون ويطربون ويريقون الكئوس على مرأى ومسمع من البائسين والفقراء ويزعمون أنهم يفعلون ذلك براً بهم وإحساناً إليهم !

أتراهم يحسون مقدار ما يعاني البائس والفقير من مرارة الألم حين يرى ما يرى ويسمع ما يسمع وأنهم ليزعمون أنهم يفعلون ذلك براً به وإحساناً إليه ؟ ...

إنهم يكسرون قلبه ويزعمون أنهم يجبرونه ، ويضاعفون ألمه ويزعمون أنهم يواسونه ، ويمزّقون عفته ويزعمون أنهم يسترونه !

إلا إننا في حاجة إلى « يوم الأخلاق » أكثر من حاجتنا إلى هذا اللون من الإحسان ؟ « قاف »

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرماني رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢٣٨ — الثلاثاء ١٧ من رجب سنة ١٣٦٢ — ٢٠ من يوليو سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

غزو صقليـــــة

في فجر اليوم العاشر من يوليه بدأت جيوش الحلفاء غزو جزيرة صقلية ، وبدأ بذلك افتتاح الجبهة الأوربية الثانية ، بعد أن طال أمد ارتقابها ؛ وانتهت بذلك فترة من حدس وتكهنات لا حد لها . ولم يكن غزو صقلية مفاجأة تامة ، بل كان أمراً كثر التنبؤ باحتماله ، وكانت ثمة ظروف عسكرية وجغرافية كثيرة تلي بافتراضه وترجيحه ؛ فصقلية لا تبعد كثيراً عن قواعد الحلفاء البحرية والجوية في مالطة وبنتلاريا ورأس بونه وبنزرت . ولا تبعد خطوط المواصلات بين هذه القواعد وبين الجزيرة الإيطالية الكبيرة أكثر من مائة ميل ، وكان سلاح الحلفاء الجوي يمهد لهذا الغزو بغاراته العنيفة المستمرة على الجزيرة منذ بضعة أسابيع .

وجزيرة صقلية هي أعظم وأغنى جزر البحر الأبيض المتوسط ، وتبلغ مساحتها ٩٩٣٥ ميلا مربعاً ؛ ويبلغ طول ساحلها الشرقي ١٩٠ ميلا ، وطولها من الجنوب ١٤٥ ميلا ، ومن الشمال ٢١٥ ميلا ؛ ويبلغ سكانها زهاء أربعة ملايين ونصف مليون نسمة . وأرضها من الداخل صخرية بركانية ، غنية بالثروات المعدنية ، ولكنها مما يلي الساحل خصبة جداً . وأهم ثغورها : مسيني (مسينا) ، وبلرم (بالرمو) وهي العاصمة ، وسرقوسة (سيراكوزا) ، وقطانية .

وقد كانت صقلية خلال العصور مطمح الغزاة والمتغلبين . غزاها المسلمون أيام سيادتهم البحرية غير مرة ، وافتتحوها في عهد الأغالبة في أوائل القرن التاسع الميلادي ، واستقروا بها زهاء قرنين ؛ وكانت لهم بها حضارة زاهرة تركت أثرها العميق في تاريخ إيطاليا والحضارة الإيطالية .

***

ومن الواضح أن غزو صقلية يمت بصلة وثيقة إلى الهجوم الألماني الجديد في روسيا ؛ فقد وقع هذا الهجوم في الثالث من يوليه ، وبدأ غزو صقلية بعد وقوعه بأسبوع ، والمفروض أن يقع والتحام الروس والألمان على أشده ؛ وهذا الميدان الأوربي الجديد إنما يفتتحه الحلفاء تحقيقاً لرغبة روسيا ، وتخفيفاً لعبء الفادح الذي يضطلع به الجيش الأحمر وحده في أوربا منذ أكثر من عامين ؛ ولا شك أن غزو صقلية يلقي عبئاً جديداً على الجيش الألماني — وبخاصة على سلاح الطيران الألماني — إذا صمم الألمان على المضي في معاونة الإيطاليين على مدافعة الغزاة ، ومعاونة الجبهة الفاشستية بذلك على الثبات ؛ وهذا هو بالذات ما يقصده الحلفاء بفتح الميدان الجديد .

وقد ظهرت أهمية القوى البحرية في هذه الحرب بأروع مظاهرها في حملة صقلية ، كما ظهرت من قبل في حملة إفريقية ، فإن الأساطيل والسفن الزاخرة التي قامت بحمل الجيوش الغازية ومعداتها الضخمة إلى الجزيرة الإيطالية بلغت أكثر من ألفي سفينة . وكان من الأقوال القائمة في أوائل هذه الحرب أن الأساطيل البحرية فقدت كثيراً من أهميتها ، وأن الأساطيل الجوية أضحت أعظم وأخطر أداة في الحرب الحاضرة . والواقع الذي أثبتته الحوادث أن هذا القول ينطبق على القوى البحرية التي لا تتمتع بالحماية الجوية الكافية ؛ وقد أدرك الإنجليز ذلك منذ معارك اليونان وكريت وأفادوا من تجاربهم وأخطائهم السابقة أعظم الفوائد ، فعملوا على إحراز التفوق الجوي ، وتدعيم القوى البحرية بالقوى الجوية الساحقة ، وعلى تنسيق التعاون الوثيق بين القوى البرية والبحرية والجوية ؛ وظهر هذا التعاون في أروع مظاهره في الزحف البريطاني الكاسح من مصر إلى تونس ، ثم في حملة صقلية حيث قامت الأسراب الجوية العظيمة بحماية أساطيل الغزو الزاخرة . وهكذا نرى أن تفوق بريطانيا الأكبر في البحر ما زال يلعب في تطورات الحرب الحاضرة أعظم الأدوار .

وبدأ الحلفاء غزو صقلية من طرفها الجنوبي الشرقي ، أي من ناحية رأس باسيرو ، وهو أقرب نقطة فيها من مالطة ، وتولت القوات البريطانية الزحف شمالا من هذه الناحية ؛ ونزلت القوات الأمريكية في الشاطئ الجنوبي في شقة تمتد إلى الغرب نحو مائة ميل . ومما يذكر بهذه المناسبة أن المسلمين حينما غزوا الجزيرة في سنة ٨٢٧ م ، نزلوا أيضاً في طرفها الجنوبي الشرقي ، كما نزلوا في طرفها الجنوبي الغربي . والظاهر أن طبيعة الجزيرة الصخرية تملي على الغزاة دائماً نفس الخطة ، فإن السهل لا يوجد بها إلا في شقة ضيقة مما يلي شواطئها الشرقية والجنوبية . وقد استطاعت الجيوش المتحالفة حتى كتابة هذه السطور أن تتوغل في الجزيرة مسافات لا بأس بها ، وأن تستولي على عدة من المدن والقواعد والمطارات الهامة ؛ ففي الجهة الشرقية استولت القوات البريطانية على باكينو وسرقوسة وفلوريدا وراجوزا وأغوستا ، وأضحت على مسافة قصيرة من قطانية ؛ واستولت القوات الأمريكية على جيلا وليكاتا في الجنوب ، وأخذت تقترب من جرجنت (جرجنتو) . وهكذا يتقدم الغزاة على طول الشاطئين الشرقي والجنوبي بسرعة . ولكن المعارك المحلية الصغيرة التي حدثت حتى الآن بين الغزاة والمدافعين ، لا تكفي للحكم على مستقبل الحوادث القريب . فما زال على الغزاة أن يخوضوا معركة أو معارك شديدة مع الإيطاليين وحلفائهم الألمان . ويستجمع الآن كل من الفريقين قواه وموارده لهذه المعركة أو المعارك الحاسمة .

ويبدو من اتجاه الزحف البريطاني على طول الشاطئ الشرقي أن خطة الحلفاء ترمي إلى بلوغ مضيق مسيني (مسينا) في أقرب وقت ، وقطع مواصلات صقلية مع شبه الجزيرة الإيطالية . وتتصل صقلية بإيطاليا ، فضلا عن الخطوط البحرية العديدة عبر مضيق مسيني ، بخط حديدي يقوم على سفن متحركة ، ويربط بينها وبين شبه جزيرة كلابريا (قلوريه) ، وعن طريقه تتدفق إليها الأمداد والمؤن .

فإذا استطاعت القوات البريطانيـة أن تبلغ هدفها بقطع هذا الطريق ، وتطويق الجزيرة من النـاحية الشمالية الشرقية ، فإن قوات المحور تصبح فى موقف حرج ، وتزداد مهمتها فى الدفاع عن الجزيرة صعوبة . هـذا بينما تتمتع القوات الغازية بخطوط تموين وإمداد قريبة متعددة تسهل مهمتها .

ومن الصعب أن نتكهن من الآن بالنتائج السياسية أو العسكرية التى يمكن أن تترتب على فتح هذه الجبهة الأوربية الجديدة . ولكن لا ريب أن الحلفاء يرمون باقتناصها ، فضلا عن محاولة التخفيف عن كاهل الجيش الروسى ، إلى غاية أبعد مدى . فقد يؤدى نجاح الحلفاء فى غزو صقلية إلى انهيار الجبهة الداخلية فى إيطاليا وانهيار النظام الفاشستى ، وخروج إيطاليا من الحرب ؛ وهذه هى الغاية التى يتطلع الحلفاء إليها منذ القضاء على قوات المحور فى إفريقية . وقد أنذر مستر تشرشل الشعب الإيطالى فى ذلك الوقت ، وحذره من الغزو المنتظر ، ومن الغارات الجوية المدمرة . ولكن الظاهر أن زعماء الفاشستية ومن ورائهم حلفاؤهم الألمان ، يؤثرون المقاومة إلى النهاية . ومن المحقق أنه يجب على الحلفاء خوض معارك طاحنة أخرى ، وإحراز انتصارات جديدة حاسمة فى إيطاليا ذاتها ، قبل أن يتحقق أملهم فى انهيار الفاشستية وانهيار إيطاليا .

محمد عبد الله عنان

إلى حضرات المشتركين

ترجو إدارة المجلة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا باقى اشتراكاتهم عن سنة ١٩٤٣ التكرم بتسديدها .

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

داء السكر ، وقصة دوائه

إحياء الموتى

وصل الفائت : الأشخاص : « بنتنج » طبيب شاب بجامعة طورنطو بكندا . و « بست » مساعده ، وهو طالب طب ، وكيميائى . ثم « جلكرست » ، وهو طبيب ، وزميل « بنتنج » فى الدراسة . وميزته أنه مريض بداء السكر .

الموضوع : بعد استخراج الإنسولين ، انصرف « بنتنج » إلى تجربته فى المرضى . وانصرف « بست » إلى استنباط الطرق لتحضير الإنسولين نقياً ، حتى لا يؤذى المرضى . وسلم « جلكرست » جسمه لهذين الصديقين يجربان فيه كما يجربان فى الأرانب . وانتقل ثلاثتهم إلى مستشفى شارع « كرستى » ، حيث الجند مرضى بداء السكر أشد المرض . فأصبحنا من هؤلاء الجند أرانب آدمية ، يجربان فيها أيضاً .

والآن اقرأ :

قام « جيلكريست » ، وقام هؤلاء الجند الأبطال بمستشفى شارع كِرستى ، مقام أرانب التجريب لبنتنج ، فى تلك الأيام الشديدة الأولى ، فى مايو ويونيو عام ١٩٢٢ ، أيام كان الإنسولين خاما ، غير نقىّ ، غير مأمون العاقبة . وحقنهم « بنتنج » فى أذرعهم ، وحقنهم فى أرجلهم ، وحقنهم فى أفخاذهم ، فأصابتهم تلك الحُقَن بقروح من بعد قروح ، وخلّفت تلك القروح آثارها فى أجسامهم ، فلم يكد يبقى عليها موضع لإبرة . ولكنهم برغم هـذه الأوجاع عاشوا ، وهذا بيت القصيد . وشبعوا بعد أن تذوّقوا مرارة الجوع أحقبة طويلة . وشاعت فى أبدانهم القوّة من بعد ضعف . والقوّة فيها القدرة على العمل ، والقدرة على الرزق ، والخروج من ربقة الإحسان .

وكان المرض والعجز مصير هؤلاء الجند الكرام عالة على الحكومة ، وفي العيلة الذلة لقوم عجزوا من بعد قدرة .

وصاحوا « بنتنج » : « صحتنا كالجب اليوم يا حضرة الضابط » ، وقد أرادوا يا حضرة الدكتور .

وتراءت لهم فرص العمل ، وفرص الحياة ، وفرص المستقبل ، ممكنة زاهرة . وابتسموا لهذا الأمل العاصي ، وضحكوا كلما عضهم ألم هذه الحُقَن الأولى ، في تلك الأيام الأولى ، التي قضاها « بست » في تحسين هذا الإنسولين ، وتنقيته ، ليقل به ألمهم ، وانتقل مخاطره عليهم .

قال جلكرست : « لا تظنوا البطولة فينا بما احتملنا من آلام . وأي بطولة تعزى لقوم عرفوا أنهم إلى الموت صائرون ، فصبروا ما صبروا رغبة في الحياة » .

ولقد عاش كل هؤلاء الجند من بعد هذه الآلام . عاشوا جميعاً إلى اليوم ، إلا نفراً قليلا . ولكن ليس من هذا النفر رجل واحدٌ مات بداء السكر .

كذلك عاش «جلكرست» . ألا ما كان أغرب إحساسي عندما جلست أتحدث إليه بعد تسع سنوات من تلك الحوادث الشديدة الأولى . في عام ١٩٢١ كان شبحاً صيّره الجوع زكيبة من جلد حشوها عظام . وفي عام ١٩٢٢ كنا نحسب أنا مواروه التراب . ثم هذا أنا أجلس إليه في تلك الليلة ، وقد مضى أكثرها . أجلس إلى « جلكرست » السليم الصحيح ، إلى « جلكرست » الطبيب النشيط الناجح الضاحك ، وكله أملٌ في الحياة وطولها لا يقل عن أمل أي رجل سواه . وكل هذا بسبب حقنتين صغيرتين ضئيلتين تنفذان إلى دمه كل يوم . . . . كان حديثي إليه كحديثي إلى رجل قام من بين القبور .

* * *

هذا مايو عام ١٩٢٢ ، ولم تكد تمضي سنة كاملة منذ بدأ « بنتنج » و « بست » تلك التجارب العشواء الأولى على تلك المنضدة السوداء في معملهما ، أو بتلك الغرفة الحارة بأعلى ذلك المبنى الطبي . واليوم يأخذ « بنتنج » و « كمبل » و « افيلتشر » وغير هؤلاء من أطباء طورنطو ، يأخذون جميعا يشفون الحياة في أقوام فقدوا الأمل في الحياة ، يشفونها حُقَناً من إنسولين قضى « بستُ » الليل والنهار تجدهم بها . وكان إلى هذا الزمان يموت من مرضى السكر أكثر من ستين في المائة ، يموتون بغيبوبة هذا الداء القاتلة . وكان يموت بها كل الأطفال تقريباً ، تطويهم في ظلامها تلك الغيبوبة من حيث لا يحسبون . وهي تأتيهم مما تجمع في دمائهم من هذا السم الحامض التي نتج من احتراق شحمهم لما أعوز النارَ بأجسامهم وقودُ السكر الصالح .

وحتى بهذه الأطفال تغير اليومَ الحال ، كما تغير بالكلبة الشهيرة كلبة رقم ٩٢ — تغير تغيراً مدهشاً لا يكاد يُصدَّق .

ثم هكذا كان الناس كهولا وأطفالا ، كانوا يفقدون من أجسامهم ألفَ شعر ، أو أكثر من ألفين ، يفقدونها سكراً وأحماضا تجري في أبوالهم . وكانوا يطلبون الهواء فلا يُسعفهم الهواء . وكانوا جوعى يطلبون الطعام فلا يُشبعهم طعام ، لأنهم إذا أكلوا ردّوا ما أكلوه . وكانوا عطشى يطلبون الماء فلا يرويهم الماء ، لأنه لم يكن يستقر في أمعدتهم سائل . وكانوا يُحسّون البرد وما في الجو من برودة . فبنكرياساتهم كانت قد تحطمت ، فلم يعد في مقدورها أن تصنع من الطعام الجليكوجين — وهو في أجسام الحيوانات نظيرُ النشا في أجسام النباتات — لتصنع منه الكبدُ ويصنع منه العضلُ سكرا يحرقه الجسم طلباً للطاقة والاستدفاء . فلما أعوز هذا الوقودُ هذه الأجسامَ طلبته من أنسجتها ، فقامت يحرق بعضها بعضا . وكرة العين يلين جامدها فتصبح رخوة كالفالوذج . والجلد يذهب

ماؤه فيصبح جافاً كالورق . والعضلات تتصاغر أحجامها سريعاً فكأنها قِطع الجليد تذوب . وأخيراً تأتيهم الغيبوبة خلاصاً ورحمة . ولم يدخل هذه الغيبوبة أحدٌ قبل هذا المايو ، مايو عام ١٩٢٢ ، وعاد إلى هذه الدنيا يحدّثنا بالذي وجد .

حتى إذا جاء هذا الشهر من هذا العام ، جاء « بنتنج » وأعوانه يبعثون الحياة فى هؤلاء الموتى ، أو فيمن هم فى سبيل الموت . فكنت ترى « بنتنج » وأعوانه ينحنون على الواحد من هؤلاء ، وقد دخل الغيبوبة وتجهّز الموت فيبثّون فيه سرّ الحياة — يحقنونه بالإنسولين . فإذا بالجفن يَطْرِف ، وإذا باللسان المعقود ينحل ، وإذا بالوعى الذاهب يعود ، وإذا بالصوت الذى اختبى يصيحُ فى خفوت : « أين أنا ... » . ورجع « بنتنج » وأعوانه من تلك الغيبوبة بثمانية رجال من اثنى عشر ، عادوا بهم لا إلى الحياة كائنة ما كانت ، بل إلى الحياة سليمة صحيحة قوية عاملة .

فأى دواء فى تاريخ الطب كهذا الدواء ! أى دواء يحمل الوثوق من الحياة فى آخرها وأولها سواء !

واليوم فى مقدور كل أحد ألا يموت بهذه الغيبوبة أبداً . ومن شواهد ذلك الدكتور جُسْلين Joslin ، فى بُسْتن Boston ، فقد عالج ١٢٤١ مريض بالسكر ، لم يمت منهم غير ٤٣ ، ماتوا بغير هذا الداء ، وبغير هذه الغيبوبة .

ومما فعله هذا الإنسولين ، إنسولين « بنتنج » ، أنه عكس مجرى الداء ، فقلبه رأساً على عقب . فى الأزمان الماضية ، قبل مجىء « بنتنج » ، كان الداء أخطر ما يكون على ابن آدم وهو طفل . ويقل خطر الداء بطول الأعمار . وهــذا قانون فى قوانين الطبيعة معكوس . واليوم ، بالإنسولين ، صار الأطفال فى مأمن أى مأمن من هذا الداء . قال جُسْلين : « إن الطفل المريض بالسكر يستطيع أن يمد فى عمره ما شاء ، فى حدود الأعمار الجارية فى الناس » .

ثم إن كثيراً من الناس لا تزال تموت بداء السكر ، تموت بتلك الغيبوبة التى تأتى فى ختامه . ولكن ليس الذنب فى هذا ذنب « بنتنج » ، إنما الذنب ذنب القصور فى الأطباء . قال جُسْلين : « إنى أعتقد أن الموت بداء السكر سببه الأكبر هذا القصور ، قصور الأطباء » .

إن الأطباء الكُفاة لا يموت بين يديهم مريض بالسكر اليوم أبداً . إن الناس لا تموت بالسكر اليوم ، وإنما هم يموتون من تصلّب الشرايين ، داء الشيخوخة المُعضال . وأذكر هذا الداء لأن « جُسلين » يرى فى حلّ العقدة بداء السكر ، حلاً لها بداء الشرايين . فهو يرى أن داء السكر يبدأ بزيادة الشحم بالأجسام ، وهو ينتهى بمرضاه إذ يموتون بزيادة فى الشحم أيضاً — لأن الشحم إذا أكل الآكل مقداراً كبيراً منه تراكم فى الدم فذهب إلى الشرايين . هذا ما يراه « جسلين » فى علة الموت بهذا الداء .

فإذا استطاع « جسلين » أن يمنع مرضى السكر من الموت بتصلّب الشرايين ، بتغذيتهم بغذاء قليل الشحم ، فأىّ درس يُعطاه الناس من هذا ؟ ! ولا أقصد بالناس مرضى السكر والمهدّدين بدائه ، ولكن أقصد غير المرضى ممن يتهددهم أكبر مهدّدٍ للكهولة والشيخوخة ، داء تصلّب الشرايين .

فهذا ما قد تُفضى إليه جهودُ « بنتنج » وتجاربه . إن داء السكر تمكن امتلاكه بالإنسولين ، وبتدبير الغذاء ، معا . فقد تعلّم من هذا طريقة جديدة لمطّ أعمارنا . إنى أتصور « بنتنج » قد ابتسم ابتسامته الريفية البطيئة وقد قيل له إن السر الذى اطّلع عليه فى البنكرياس صار لا يشفى من داء السكر فحسب ، وإنما صار يزيد فى متوسط أعمار المرضى ، ممن عالج « جُسلين » ، عشر سنوات فوق متوسط الأعمار فيمن حوله من الناس .

بالطبع ليس الإنسولين دواء شافياً ، لأن المريض لابد له من تعاطيه ، وموازنته عما يأكل من طعام . ولكن كثيرا من مرضى السكر تجد نفسها على الزمن تحتاج من الإنسولين مقداراً أقل فأقل . ومغزى هذا أنه بتخفيف حمل الطعام عن البنكرياس تقوى هذه الغدة شيئاً فشيئاً ، ويصلح ما فسد منها .

وغير هذا يقول « جسلين » مما استقاه من تجاربه ، ومن خبرته فى مرضاه : « إن الحقنة تضايق الطفل الصغير بأقل من الولد الكبير ، وتضايق الولد أقل من الرجل » . ليتك أيها القارئ رأيت بنيّة صغيرة من مرضاه ، لم تعدُ العاشرة من عمرها ، تضرب الإبرة فى جسمها وهى ناظرة تبتسم لك .

إن الذكرى تحملنى مرة أخرى إلى والدى فى أيامه الأخيرة ، وهو يموت فى مايو ، فى مثل هذا الشهر الذى أكتب فيه ، وعلى مثل غناء هذا الطير الذى أسمعه . إن والدى ما كان يتأذى من حقنتين اثنتين يعطاهما كل يوم فى سبيل الحياة .

لقد جلست إلى « بنتنج » ، إلى هذا الرجل الساذج البسيط ، إلى هذا الرجل الصادق الصدوق ، فوجدت عليه من سيما الفلاح أكثر مما رأيت من سيما العلماء . ومع هذا فقد أتى هذا الرجل بالعجب العُجاب . قال « جسلين » مقتبساً من الإنجيل : إن « بنتنج » أجاب سؤال الرب لحزقيال :

« قال الله لتلك العظام : اشهدى ، فسأنفخ فيك الأنفاس ، وستحيين الحياة . وسأربطك بالأوتار ، وسأكسوك لحماً ، وسأكسو اللحم جلداً ، وسأنفخ فيك الأنفاس ، وستحيين الحياة » .

« . . . . وجاءتهم الأنفاسُ وجاءتهم الحياة ، ووقفوا على أرجلهم فكانوا جيشاً عرمرما » .

إن مئات الألوف الذين أحياهم « بنتنج » تخفّف فى نفسى الأسف على أن ولادته جاءت متأخرة ، فلم يَلحقْ بأبى فيحييه كما أحيا سواه .

منذ قليل تشرفت بصحبة جمع أبه من العلماء الأجلاء . جلسنا جميعاً فى تلك الليلة نسمُرُ فى غير حيطة أو مبالاة ، وكان حديثُنا حديث العلم . فلما ذُكر « بنتنج » ، ابتسم رجلان فى الحاضرين ابتسامة خفيفة لها معناها .

وكان سبب هذه الابتسامة أنى كنتُ ممتلئاً بأعماله ، ممتلئاً بجهوده ، متحمساً له ، مُعجَباً به ولعلّى تحدثت عنه فأفضت قليلا . فقالا : « إنه لم يكن عمل بنتنج بالذات » . عندئذ حلت عليهم حملة شعواء ، فأعطيت لها الحقائق عارية ، وكشفت لها عما جهلا ، فتراجعا أمامى حتى التصق بالحائط ظهراهما . عندئذ قالا : « إذا كان هذا عمل بنتنج حقاً ، فهى صفقة من صفقات الحظ ، ولن يكون له كشف كهذا الكشف أبداً » .

وقد صدقا . فأى الرجال يكون له هذا .

(نهاية داء السكر وقصة دوائه) أحمد زكى

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

....

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

ص

الاشتراك لستة أشهر	٤٥ فى مصر والسودان
	٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

المجانين فى الأدب

لم يهمل أدبنا أخبار المجانين ، فقد كان لهم نصيب غير قليل من رجال الأدب فى قديم الدهر . كان هؤلاء المجانين مصدر وحى لبعض الشعراء أمثال أبى نواس والرقاشى ، فقد قالا على لسان فئة منهم أشعاراً شاعت فى الناس ؛ وكانوا مادة الضحك والإضحاك ، فقد فرّجوا كثيراً من هموم القوم ؛ وكانوا موضوع عبث الصبيان ، فقد سخروا منهم ، وأسمعوهم ما يكرهون ، وآذوهم ؛ وكانوا ينبوع لهو الخلفاء والسلاطين ، فطالما سمعوا نوادرهم ، وأنسوا بها وانبسطوا إليها . وقد رويت لهؤلاء المجانين أشعار وصدرت منهم روائع الحكم ، وتدفقت من ألسنتهم جولات تعجز عنها العقلاء .

إلا أن أدبنا انتفع بهم أكثر من انتفاعهم به ، أخذ منهم أشياء كثيرة ولم يعطهم شيئاً : روى كلامهم ونوادرهم، وجعل هذا الكلام وهذه النوادر فى باب الفكاهة حتى يستريح إلى الهزل من استكدّه الجد من القراء ؛ فلم ينصفهم فى جنونهم ، ولم يعرض سيرهم وأخبارهم فى معارض لائقة . وهذا النحو من الأدب لم يكن ذائعاً فى القديم ، فهو من نتائج الأدب الحديث ، أدب الفرنجة ، الذين لم ينظروا إليهم فى قصصهم ورواياتهم نظرتنا ، ولم يسيئوا إليهم إساءتنا ؛ فقد أحيوهم فى مؤلفاتهم ، والتمسوا لهم العلل فى جنونهم ، وجعلوهم فى المراتب التى يستحقونها ؛ ومنهم من ذهب أبعد من هذه المذاهب ، منهم من جعلهم فى مراتب سائر الناس ، لا بل جعل الناس كلهم مجانين !

أجل ، لم يكن نصيب المجانين من أدباء الفرنجة نظير نصيبهم من أدبائنا ، فقد وضعوا الروايات البارعة فى وصفهم وتصويرهم ؛ من جملتهم الكاتب الإنجليزى الكبير « شارل ديكنس » ، فقد ذكر « أناتول فرانس » وهو الذى أوحى إلىّ هذا المقال ، وعنه اقتبست هذه الأفكار ، أن « ديكنس » أحبّ المجانين ، ووصف فى إحدى رواياته براءة الرجل الصالح ، السيد « ديك » .

كان « ديك » مجنوناً ولكنه رجل ناصح ، لأن العقل الوحيد الذى بقى له إنما هو العقل الصادر عن القلب ، وهذا النوع من العقل لا يغش أبداً ؛ إن صاحبه يلتمس الخير ولا يريد السوء بأحد ، وفى هذا الطراز من الأخلاق طراز من العقل لم يبلغه كثير من العقلاء . ومن محاسن حظ « ديك » أنه ولد فى بلاد الإنجليز حيث يجعلون لحرية الرجل مقاماً رفيعاً ، وحيث لا ينظرون إلى غرابة الطبع نظرة سيئة ، فإنهم يجلونها . وما هو الجنون ، إن هو إلا غرابة العقل . وقد ميّز « أناتول » الجنون من ضياع القوى العقلية بأجمعها ؛ فالأول يختلف عن الثانى ، فما الجنون فى نظره إلا استعمال هذه القوى على صورة غريبة ، منفردة !

من هنا يتبين لنا أن المجانين لم تكن منزلتهم فى أدب الفرنجة مثل منزلتهم فى أدبنا ؛ فلم تكن طائفة منهم فى روايات الفرنجة إلا جماعةً يختلفون عن الناس بطبائعهم الغريبة لا غير ، ومثل هذه النظرة لا نجدها فى كتب أدبنا القديم .

وقد قصّ علينا « أناتول » قصة مجنون عرفه فى صباه . جُن هذا المسكين لما بلغته وفاة ولده الوحيد ، وكان جنونه قائماً على شكل لباسه ، فقد كان لباسه مؤلفاً من قماش فرش النوم ؛ كان الصبيان يتبعونه فى الحى ويصيحون به صيحات مزعجة ، ولكنه كان يجمع بين الرقة والشدة ، فكان يدفع عنه أذى الصبيان بشىء من التهويل دون أن يمسهم بسوء ، وإنه بعمله هذا القدوة صالحة لرجال الشرطة . قصّ « أناتول » قصّة هذا المجنون ، وتفنن خاصة فى دقة تصوير نزع ثيابه إذا دخل دار صديق له ، ومثل هذه الدقة لا يقدر عليها من كتّابنا إلا من هو فى طبقة الجاحظ . فإذا نزع هذا المجنون ثيابه عنه ، ووضعها فى مكان ، وعُنى بوضعها عاد رجلاً من أعقل الناس ، فكأن جنونه كان فى هذا الشكل من الثياب التى يلبسها ؛

فإذا فرغ من نزع ثيابه أفاض في مجامع الموضوعات إفاضة تدل على فرط عقله وذكائه ، فقد كان عالماً ملأ عقله من كل شيء يستطيع أن يوضح به العالم والناس ، وقد اختص بأخبار الرحلات .

كان يعرف اللاتينية واليونانية ، وقد قرأ عليه «أناتول» هاتين اللغتين ، وانتفع به كثيراً ؛ وكان بارعاً في الحساب وله ذاكرة لا تخونه ، فقد كان يذكر حوادث حياته بحذافيرها ، ما خلا الحادثة التي قلبت عقله ، فكأن وفاة ولده قد محيت من ذاكرته ، فلم ينبس في حياته بكلمة تدل على أنه يذكر هذا المصاب الأليم ؛ وكان معتدل المزاج ، جذلاً ، تؤنسه الصور اللطيفة المضحكة .

وبعد أن لبس هذا الشكل من اللباس عشرين سنة ، صيفاً وشتاء ، ظهر ذات يوم في شكل من الثياب ليس فيه ما يضحك الإنسان ، فتغير مزاجه بتغير ثيابه ، وغلب عليه الحزن والصمت ؛ فكانت تخرج منه بعض كلمات تدل على قلقه ورعبه ، فقد تغير وجهه واسودّت شفتاه وتهدّلتا ، وأمسك عن الطعام ؛ وذكر ذات يوم ولده الذي فقده ، وفي الصباح وجدوه مخنوقاً في غرفته .

ظلّت ذكرى هذا الشيخ تستعطف «أناتول» على المجانين الذين يشبهونه ، وهذا النمط منهم قليل ، إذ أن مثل المجانين كمثل سائر الناس ، فالصالحون منهم قليلون . وقد يزور الإنسان مارستانات شتى من دون أن يجد فيها شيخاً تائباً مثل هذا الشيخ ، أو مجنوناً آخر مثل «ديك» .

كلا ، ثم كلا ، لم نقص في أدبنا أخبار المجانين على هذا النحو من القصص ، فلم يظهر عطفنا عليهم كما ظهر في هذا الكلام ، ولكن هذا العطف لم يظهر ظهوره في كلام «أناتول» إلا بعد أن قرأ رواية لأحد كتاب فرنسا ، اسمها «المجهول» ؛ وما هذه الرواية إلا قصة جنون ، ولكنها قصة مخيفة . فبعد أن قرأها «أناتول» شعر بنوعين من الشعور : أحس بالخوف وأحس بازدحام الأفكار في صدره ؛ أما الخوف فإنه لم يشأ أن يخوف القارئ كما خوّفه صاحب الرواية ؛ وأما الأفكار التي ازدحمت في صدره بعد قراءة الرواية فهذه جملة منها :

ذكر «أناتول» أنه لا يستطيع أن يتملص من العطف على المجانين الذين لا يسيئون كثيراً ؛ أما اقتطاع الإساءة ، فهذا عمل لا يقدر عليه الناس ، لا عقلاؤهم ولا مجانينهم ، إذ أنه لا يمكن أن يعيش الناس من دون الإساءة .

لا يريد «أناتول» أن نبغض المجانين ، أفلا يشبهوننا ؟! ومن ذا الذي يفخر بأنه ليس بمجنون في ناحية من النواحي ؟ لقد فتش في بعض المعاجم عن معنى الجنون فلم يجده ، والتعريف الذي وجده فيها لا معنى له . فإذا لم يكن الجنون اختلالاً من ناحية التشريح فإنه يبقى من دون تعريف . إنا نقول : هذا رجل مجنون ، إذا لم يكن تفكيره مثل تفكيرنا ، لا زيادة ولا نقصان . ولكن أفكار المجانين من حيث الفلسفة مشروعة كلها مثل أفكارنا ، فإنهم يتصورون العالم الظاهر بحسب الانفعالات التي تحدث فيهم من هذا العالم ، وهذا ما نصنعه نحن معاشر العقلاء ؛ فإن العالم ينعكس إليهم على صورة تختلف عن صورة انعكاسه إلينا ، فنقول إن الصورة التي جاءتنا من هذا العالم صحيحة والصور التي جاءتهم عنه غير صحيحة . وفي الحقيقة ليس بين هذه الصور ما هو صحيح على وجه الإطلاق ، وليس بينها ما هو غير صحيح على وجه الإطلاق ، فصور المجانين صحيحة في نظرهم ، وصورنا صحيحة في نظرنا . وقد قص «أناتول» بعد هذا الكلام حكاية المرايا ، ووددت لو أنني أذكرها في هذا المقام ، ولكني دونتها في إحدى مقالاتي في هذه المجلة : في عالم الروايا . وبعد أن قصّ هذه الحكاية قال : إني أهديها إلى الأطباء الذين يحجزون المجانين في المارستان ، لأن أهواءهم وعواطفهم تختلف عن أهواء هؤلاء الأطباء وعن عواطفهم ؛ فكل من كان مبذراً أو عاشقاً كان في رأيهم مجنوناً ، كأن لم يكن في التبذير أو في العشق عِلل تشبه العلل في البخل أو في الأثرة .

من مذكرات جحا :

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التي زعم أنها خط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

ما أشد الجمال وقعاً على النفس ! أليس هذا قولاً عجيباً ؟ إن الناس يتحدثون عن الجمال كأنه شيء كله سعادة وسهولة ويسر ، ولكني لم أجده كذلك ، وقد يكون السبب في ذلك شذوذاً في طبعي ، أو اضطراباً في نفسي جعلني أحس غير ما يحسه الناس ؛ حتى لقد يبدو لي أحياناً أن العالم كله في وادٍ وأنا وحدي في وادٍ آخر ، فأنا منعزل منهم ، مخالف لهم في رأيي ونظرتي وإحساسي . ولستُ أحاول أن أوازن أو أقارن ، فلا فائدة من ذلك ، فقد أكون أنا وحدي على الحق وهم جميعاً على الباطل ، وقد يكون الأمر على نقيض هذا ، ولا سبيل إلى الاهتداء إلى الحقيقة . وأين هي الحقيقة ؟ هذا سؤال أردده دائماً ، ولا أملك إلا أن أقول : لست أدري !

ولكن الذي يضيق له صدري أحياناً ، هو أن الناس إذا خالفوني وخالفتهم يسخرون مني ، ويضحكون أحياناً في وجهي ، ويجاهرون بأنهم وحدهم على الحق ، ويستشهدون على ذلك بأنهم كثير يرون الرأي الواحد ، وأنا وحدي أرى الرأي الآخر . وكثرة أصحاب الرأي لا تدل على صدق ذلك الرأي ؛ وإلا لكان العالم بقي إلى اليوم كما كان من يوم خلقه الله ؛ لأن الآراء الجديدة لا يراها إلا فرد واحد في أول أمرها ، ثم تتحرك جموع الناس في بطء حتى تجتمع بعد سنين طويلة على الاعتقاد الذي كانت الجماهير من قبل تراه بدعة ضالة مضلة . فليسخر من شاء مني ، فلست أمنعه من ذلك ، ولن يضرني بسخريته شيئاً ، فإني كذلك أسخر وأضحك ، ولا يخذلني عن سخريتي وضحكي أني واحد ، وأن الذين يخالفونني كثيرون .

الجمال شيء مؤلم ، يعقب في النفس الحسرة بدل أن يشيع فيها السعادة والسرور . هذا قول أقوله وأردده ، وأسخر ممن يخالفني فيه ، وأضحك منه ؛ ولو بقيت وحدي فيه إلى آخر حياتي .

كان الأمس من أجمل الأيام التي مرت بي ، فقد كان عيداً من أعياد الربيع الباهرة ، وقد مر بي منظر في هذا الأمس لم تقع عيني على أروع منه ، ولا أبدع ، ولكنه مع ذلك قد أعقبني حسرة لا تزال تحرق قلبي إلى هذه الساعة . فأنا اليوم موزع القلب لا يقر لي قرار ، أحس كأن لهيباً يندلع في صدري كلما تذكرتها !

نعم فقد كانت آية الله في الجمال البارع ، ليس فيها هنة من الهنات التي تدل على أنها آدمية ؛ فهي أقرب إلى أن تكون حورية من حور الجنان . ولن أحاول أن أصف

إنهم يرون أن المجنون من يسمع ما لا يسمعه الناس ، أو من يرى ما لا يرونه . على أن سقراط كان يستشير شيطانه ، و « جان دارك » كانت تسمع أصواتاً لم يسمعها الناس ، أفلسنا كلنا من هذا القبيل ، أصحاب رؤى وأحلام ؟! هل نعرف أي شيء عن العالم الظاهر ؟ هل نشعر بشيء في حياتنا كلها غير الشيء الذي تشعر به أعصاب سمعنا وبصرنا في اهتزازات الصوت والضياء ؟ حقاً إن شعورنا من هذا الوجه إنما هو شعور ثابت ، عادي ، عام ، أما شعور المجانين فإنه نادر ، شاذ ، متفرد ، وبهذه الصفات يعرف المجانين !

لا أريد أن أتبسط في هذا الموضوع أكثر مما فعلت ، فما عرف المجانين في القديم والحديث عطفاً عليهم مثل هذا العطف ؛ وكم يكون إعجابهم بأناتول فرانس عظيماً إذا قرأوا عبارته في مقالة كتبها بعد حضور رواية « هاملت » ، وهذه العبارة قالها في صفحة خالدة في مخاطبة « هاملت » ، والدفاع عن أقواله ومن أفعاله : من منّا ليس بمجنون !

(دمشق) شفيق جبري

محاسنها ، فذلك شيء يحتاج إلى أكثر من هذه الألفاظ القاصرة التي يتكلم بها الناس ويتفاهمون بحروفها المركبة . إن الألفاظ ميتة ووصفها يحتاج إلى كل الحياة ؛ والألفاظ غامضة ووصفها يحتاج إلى كل الوضوح لكي يمكن أن يفهم ؛ والألفاظ تصف ما اعتاد الناس أن يروه ، وجمالها شيء ليس في الناس مثله حتى تكون في الألفاظ البشرية ما يرسم له صورة في الأذهان . إن وصفها يحتاج إلى أن يراها الناس بعيني ، ويتأملوها بقلبي ، وليس شيء دون ذلك بقادر على تصويرها والتعبير عن محاسنها . فكلما هممت بوصفها لم أجد من الألفاظ إلا ما يدل على صورة حسنها وسحره ، فلا أزيد على أن أقول : ما أجملها ! وما أحلى عينيها ! وما أقوى سحرها ! وما أعذب نظرتها ! وما أبهى طلعتها ! وهذه ألفاظ — كما يعرف من يسمعها — لا تفيد معنى ، بل هي صرخات من الأعماق لا يعرف معناها إلا من رأى آية الجمال ذاتها . وذلك المعنى يذكرني بقول سمعت صديقي أبا النور يقوله ذات يوم ، إذ قال : « ما أضيع عمر الشعراء ! » . نعم ما أضيع عمر الشعراء ، لأنهم لا يقولون إلا أمثال هذه الصرخات التي لا يستطيع أحد أن يفهمها ، إلا إذا تحرك قلبه يوماً لسبب من الأسباب ، فيذكر صرخة الشاعر ، ويحسب أنه ما قصد إلا ذلك المعنى الذي أحسه هو ، مع أن الشاعر قد يكون هائماً في واد آخر ، لا صلة بينه وبين ما يقصده هذا المسكين .

ما علينا . إني أحس التعب يمشي في مفاصل جسمي ، وملأ عيني بثقل الرمل . وأرى صورتها . أرى صورة (علية) ابنة السلطان علاء الدين تتمثل لي في كل ركن ، وفي كل شيء أنظر إليه ! فلأذهب إلى مضجعي ، لعل هذه الصورة الملائكية تؤنس ليلتي بطيفها حين ينام هذا العقل البائس . إني أود لو زارني ذلك الطيف في منامي ، فإن الأحلام لا تبدو في النوم أحلاما ، بل تبدو حقائق ينخدع لها الإنسان ، ويفوز من خداعها بمتعة تفوق متعة الحس الصاحي . وماذا عليّ لو فزت من السعادة بقسط في حلم ثم أفيق فأعلم أني كنت حالماً ؟ ماذا عليّ في ذلك ؟ وهل أصدق اللذات الحسية سوى حلم من الأحلام ، وصورة وهمية من الصور إذا هي انقضت ولم يمض عليها إلا لحظة واحدة ؟ وهل الحياة كلها سوى سلسلة أحلام من صور وهمية بعضها مستقبل وبعضها ماض ؟ وهل الواقع الحاضر سوى اللحظة القصيرة الخاطفة التي نعيش فيها بالحس الحقيقي ؟ وما هي تلك اللحظة الخاطفة ؟ إنها تكاد تبلغ حد العدم لو تأمل المرء كنهها . ما هو الحاضر الواقع ؟ إنه أقصر من أن يكون شيئاً . هو في الحقيقة عبور سريع كومضة البرق ، ثم يصير صورة ماضية .

إذن إلى النوم والأحلام فما هي بأقل شأناً من حقائق الحس ! يا علية ابنة السلطان علاء الدين ! ماذا أنت ؟ هل أنت امرأة ؟ وإذا كنت امرأة فهل زوجتي ربعة امرأة ؟

اعتاد الرجال أن يتكلموا عن النساء ، وما أحمقهم إذ يفعلون ذلك . إنهم يتكلمون عن النساء كما يتكلمون عن صنوف النبات والحيوان ، فهذا النبات طوله كذا ، ولونه كذا ، وثمرته من صفتها أنها كذا . وهذا الحيوان حجمه كيت ، ومن صفته كيت ، ومن طباعه كيت . اعتاد الإنسان أن يتحدث هكذا عن النبات والحيوان وأصناف المعادن والحجارة ، فهو لذلك يتحدث عن النساء جملة ، ويقول فيهن ما يشاء بحسب ما تصوره له نفسه . وما درى ذلك الإنسان الأحمق أنه إنما يصف امرأة عرفها أو نساء عرفهن ، وأنه لا يمكن أن يتحدث عن النساء كلهن بوصف واحد . وقد وقعت أنا في هذا الخطأ نفسه ، فقد كنت أتحدث عن المرأة فيما بيني وبين نفسي ، وفيما بيني وبين الناس ، فلا أصفها إلا باعوجاج الخلقة وفساد الطبيعة ، وكثيراً ما كنت أذكر أنها قد خلقت من ضلع الرجل ، والضلع كما هو معروف عظمة عوجاء لا يمكن أن تستقيم إلا إذا كسرت ؛ ولكم تمنيت لو كانت قد خلقت من

عضو آخر من الأعضاء كالذراع أو الرجل ، فإن ذلك كان أدعى لاستقامتها وصلاح أمرها . ولكم ألقيت عليها وزر خروج زوجها آدم من الجنة ، لأنها غاوية مغوية مغرورة غرارة مفتونة فتانة . كثيراً ما كنت أصفها بهذه الصفات حتى رأيت علية ابنة السلطان علاء الدين فى يوم الأمس فى عيد الربيع . أهذه الحورية الهاربة من الجنة مثل أصبائى رعة ؟ أهى واحدة من النساء اللاتى كنت أصفهن بما أصف ؟ إنى أستغفر الله ، فما كنت أصف من النساء إلا رعة التى أظلمت قلبى ، وسودت أيامى ، وأسهرت ليالى ، وأرتنى النجوم لامعة وقت الظهيرة ، وأشعلت رأسى شيباً من مقاساة أهوالها ، ومعاناة الحياة إلى جوارها . وربما كانت تخفف وطأة خلقها بشىء من الحسن فى صورتها ، فقد شاء الله لها أن تكون كاملة فى القبح ما بين وجهها إلى قلبها . فإذا كنت قد أسأت الظن بالنساء ، فهذه سيئة من سيئات رعة قد أصابت بنات جنسها جميعا . فما بى من كره للنساء ، ولقد اهتززت من أخمص قدمى إلى قمة رأسى عند ما لاحت علىّ من وراء ستارها بالأمس ، إذ لمحتها فى عيد الربيع . ومالى قد نسيت ؟ ألم أكن فى شبابى أحببت علية أخرى ؟ لعل ذلك الاسم الحبيب هو الذى يثير فى نفسى كل هذه العلائق ، ويهزنى هذه الهزة السحرية التى أحسها إلى اليوم تسرى فى جسمى كلما خطر اسمها على قلبى . علية — كيف أنت الآن ؟ أقصد علية التى أحببتها بكل قلبى ، إذ كنت شابا لا أزال أطالع أول أسفار الحياة . لقد كانت المرأة عند ذلك فى نظرى حاملة مفتاح السعادة استمدها من النظرة ، ومن التحية ، ومن الإيماءة ومن الابتسامة . كنت أنظر إليها فى كل يوم مرة ، فأعيش على تلك النظرة سائر اليوم مكتفيا بما أصبت منها من السعادة ، حتى أعود فأراها فى اليوم الذى بعده ، ثم أعود إلى دارى حاملا صورتها ذخرا ليوم المقبل كله . وكنت أدور حول بيتها كما يطوف الحاج بالكعبة ، وقلبي ممتلئ بالخشوع . وكم سرت وراء هودجها وهى تذهب فى زيارتها إلى أهلها ، فأرقبها عن بعد وأنا أقطع الميل بعد الميل حتى تبلغ المنزل الذى تقصده ، فألمحها لمحة ، ثم أعود أطوى الأميال وأنا خفيف الخطا ، باسم الوجه والقلب ، وأقضى الليل مع طيفها المرح تغنى وتتمنى ! ولكن الله لم يكتب لى زواجها ، وكانت من قسمة ذلك الشاب السمج الذى عذبها وأفسد عليها حياتها . إنها لم تكتب لى لأن رعة كانت مكتوبة على جبينى منذ خلقت لكى تتم إرادة الأقدار فى تعذيبى ، وتنكيد عيشى ، وإساءة ظنى بالنساء جميعاً .

ولكنى رأيت علية الأخرى . علية ابنة السلطان العظيم ، فعاد قلبى إلى الامتلاء بعد نظرة واحدة . وماذا على الأقدار لو جعلت علية هذه من نصيبى لتكفر عما ساقته لى من الآلام فيما مضى من أيامى ؟ وماذا على لو تزوجت مرة بعد مرة ، فإن الإسلام لا يمنع أن يتزوج الرجل من امرأتين .

ولكن ما الذى يحملنى على الإبقاء على رعة مع كل ما أصابنى منها ؟ لو كانت امرأة صالحة لترددت فى الأمر ، ولقلت إن من الظلم أن أتزوج بامرأة أخرى تكون أحب إلى منها ، ولأشفقت من التفريط فى أم ولدى التى ربطها الله بى رباطا لا تنفصم عراه . ولكن ما الذى يحملنى على التضحية بنفسى من أجل امرأة مثلها لا أذكر لها حسنة واحدة فى جمال صورة أو جمال خلق . انتهينا . لقد استقر رأيى على أن أستقبل السعادة من جديد ، وأخلع عن نفسى هذا التردد الحزين ، فأتزوج بمن يهتز لها قلبى ، ونفسى ، نظرتها جوانب صدرى ، علية ابنة السلطان علاء الدين . فلأتقدم جريئاً ، فليس بينى وبينها إلا أن يرضى أبوها وترضى هى ثم .... ينتهى الأمر وأحوز السعادة .

إنى أحس فى نفسى قلقا وألما بلغا بى حد الشقاء من وراء نظرة واحدة إلى ذلك الجمال المؤلم . فمتى تجود على الأقدار فتزيل عنى ذلك الشقاء ؟ ليس بينى وبين ذلك إلا أن يرضى السلطان وابنته وينتهى بى الأمر إلى ما أحب .

(عن الأصل) مجا

الاصطلاحات الجغرافية

فى تعريف الأقسام الإدارية والمدن والقرى

وتوابعها فى مصر

بقلم الأستاذ محمد رمزى بك

— ٣ —

أسباب انشاء الكفور والعزب وغيرها من التوابع :

العزبة كالكفر ، عبارة عن مجموعة من الأبنية تقام فى وسط أراض زراعية بعيدة عن سكن القرى الأصلية لسكنى الزراع القائمين بزراعة وخدمة الأرض التى أقيمت العزبة ضمن دائرة زمام إحدى البلاد والنواحى ؛ وتذكر مضافة إلى اسم منشئها ، أو إلى اسم المالك لأراضيها .

ويختلف عدد بيوت كل عزبة باختلاف عدد سكانها ، تبعا لمساحة أراضيها ، قليلة كانت أو كثيرة . وأصحاب العزب فى الغالب يقيمون بها ، إلا من كان منهم مقيما فى المدن .

وقد اضطر أصحاب الأراضى الزراعية التابعة لزمام البلاد ذات المساحات الواسعة والأطراف البعيدة عن مساكن القرى الأصلية ، أن ينشئوا لزارعى أطيانهم « عزبا » يقيمون فيها ، حتى لا يحملونهم مشاق الانتقال يوميا عدة مرات ذهابا وإيابا إلى مسافات بعيدة بين القرية التى يسكنونها وبين موقع الأرض التى يزرعونها ، ويرفعون عنهم كذلك ما يتحملونه من المشاق فى نقل الآلات الزراعية والأسمدة ، وفى نقل الحاصلات من وإلى القرية والعزبة .

وفوق ذلك فإنه يوجد فى كل عزبة زرائب لإيواء المواشى ، ومخازن لحفظ آلات الزراعة وما تخرجه الأرض من الحاصلات الزراعية سنويا .

وقد دلنى البحث على أنه فى الزمن الماضى كان يرجع السبب فى إنشاء بعض الكفور إلى ما كان يحدث قديما بين أهل القرى من المنازعات والخصومات ، فكان يضطر أحد الفريقين المتخاصمين لحسم النزاع أن ينتقل مع أفراد عائلته وينشئون لهم كفرا فى الأرض التى يملكونها داخل زمام القرية .

وجميع العزب معتبرة توابع للنواحى الواقعة فى أراضيها العزب ، إلا ما فصل منها وأصبح ناحية مستقلة بإدارتها ، مع احتفاظها باسم عزبة مضافة إلى اسم منشئها أو المالك لأرضها ، أو للقرية المنفصلة منها ، كما ذكرنا ، مثل عزبة السلانكلى ، وعزبة طرابلسا بمركز دمنهور ، وعزبة يوسف العسكرى بمركز إيتاى البارود .

وتوجد نواح أخرى باسم عزب بالجمع ، مثل عزب الوقف بمركز قوة ، وعزب بسنتاواى بمركز المحمودية .

النجع :

النجع بالفتح بيت الشعر ، جمعه نجوع ، يسكنه العرب الرحل ، ويطلق على طائفة من بيوت الشعر ، فيقال : نجع بنى فلان .

ولما استقر العرب فى الأراضى الزراعية ، واشتغلوا بالفلاحة ، استبدلوا البيوت التى من الشعر ببيوت من البناء ، أطلقوا عليها اسم نجع ، مضافا إلى اسم منشئه ، أو إلى اسم آخر .

والنجع مثل العزبة عبارة عن مجموعة من البيوت ، يسكنها الزارعون القائمون بفلاحة منطقة من الأراضى الزراعية ضمن دائرة إحدى النواحى .

وجميع النجوع كالعزب ، معتبرة توابع للنواحى الواقعة فى أراضيها النجوع ، إلا ما فصل منها وأصبح ناحية مستقلة بإدارتها مع احتفاظها باسم نجع . كما توجد نواح أخرى باسم نجوع مضافة إلى مميزاتها .

النزلة :

النزلة من النزول بالمكان والحلول به ، والجمع نزل ، ويطلق هذا الاسم كالعزبة والنجع على مجموعة من البيوت يسكنها المزارعون المشتغلون بزراعة قسم من الأرض فى دائرة إحدى النواحى ، مضافة إلى اسم منشئها أو إلى اسم آخر .

وجميع النزل معتبرة توابع للنواحى الواقعة فى أراضيها النزل ، إلا ما فصل منها وأصبح ناحية مستقلة بإدارتها مع احتفاظها باسم نزلة .

ومن هذا البيان يتضح أنه لا فرق فى مصر بين الكفر والعزبة والنجع والنزلة ، فكلها أسماء مترادفة لتوابع القرى والنواحى .

وقديما كان الكفر يطلق عادة على توابع البلاد فى مديريات الوجه البحرى ، والنزلة تطلق على توابع النواحى فى مديريات الصعيد ، من الجيزة إلى أسيوط ، والنجع يطلق على توابع البلاد فى مديريات جرجا وقنا وأسوان ، حسب اصطلاح أهالى كل جهة .

وفى وقتنا الحاضر بطل استعمال كلمات : كفر ونزلة ونجع فى تسمية كل ما يستجد إنشاؤه من التوابع ، وصار يطلق عليها اسم عزبة ، ولها قانون باسم قانون العزب .

المنشأة أو المنشية :

المنشأة من أنشأ ، أى أحدث ، والجمع منشآت ، وتحذف الهمزة تخفيفاً ، فيقال : منشاة ، وقد صرفها العامة بقلب الألف ياء فيقولون : منشية ، والجمع مناشى .

وتذكر كلمة منشاة أو منشية بالإضافة إلى اسم منشئها أو إلى اسم آخر ، كاسم القرية التى تفصل منها المنشاة .

وكلمة منشاة أو منشية مستعملة فى مصر فى تسمية البلدان من عهد العرب ، ولا تزال تستعمل فى الوقت الحاضر فى التسمية ؛ فإن أصحاب العزب عندما يطلبون فصلها من البلاد التابعة لها وجعلها ناحية قائمة بذاتها ، يطلبون فى الوقت ذاته تسميتها منشاة فلان أو منشية فلان ، بالإضافة إلى اسم منشئها كما هو مبين فى الدليل الجغرافى .

الحصة :

الحصة هى القسم ، والجمع حصص ، وفى الاصطلاح الإدارى بمصر الحصة هى جزء من سكن القرية يرأسها أحد المشايخ ؛ وكل قرية مقسمة من الوجهة الإدارية إلى حصص تختلف فى العدد بنسبة عدد السكان وأميالهم .

وفى الزمن الماضى كانوا يطلقون على مشايخ البلاد اسم مشايخ الحصص وعلى رئيسهم شيخ البلد . وقد استبدلت هذه التسمية من عهد الخديو إسماعيل فيسمى مشايخ الحصص باسم مشايخ البلاد ، ومشايخ التوابع باسم مشايخ العزب ، ويسمى رئيس الجميع باسم العمدة . هذا هو العرف فيما يختص باسم الحصة ؛ إلا أنه بسبب الاختلاف الدينى ، وما كان يقع قديما من المنازعات بين المسلمين والقبط من سكان القرى ، كان كل جماعة من النصارى يسعون لفصل مساكنهم من مساكن القرية تحت رئاسة عمدة منهم . وكانت الحكومة ترى حسما للنزاع ، ولإيقاف تيار النفور والشقاق بين الفريقين ، الموافقة على هذا الفصل من الوجهة الإدارية ؛ ويطلق على المنطقة التى يسكنها القبط ضمن سكن القرية اسم حصة ناحية كذا ، نسبة إلى اسم القرية التى فصلت منها الحصة ، ويعين عليها عمدة للقبط خاصة غير عمدة البلد ، فى حين أن السكن مشترك بين الجميع ؛ ولهذا السبب وجد بمصر عدة نواح باسم حصة كما يرى من الاطلاع على الدليل الجغرافى .

محمد رمزى

حكم فى المحكمة العسكرية ١٩٧ بنمرة لبنيا سنة ١٩٤٣ بجلسة ١٩٤٣/٦/٢٣ بحبس عطاس تاوضروس خلال بمزرة المعاصر ثلاثة شهور شغل ، وغرامة ١٠٠ جنيه والمصادرة عن التهمة الأولى ، وغرامة ٥٠ جنيها عن التهمة الثانية لامتناعه عن بيع شاى بالتسعيرة ولأنه حبس عن التداول كمية من الشاى .

بين الشــعر والنثر

الشعراء الخالدون الذين ملكوا زمام الصناعتين ، فصاغوا شعرهم من حر الكلام وعلى سجية الطبع والإلهام ، وأحلوا عصم النثر سهل الأباطح ، قليل عديدهم في أدب العرب منذ ظهر وازدهر إلى يومنا هذا ؛ فما يؤتى شاعر موهبة القريض ومناجاة الوحي في القصيد ، ويصبح نوابغ الشعراء ليكون العميد إلا وتشغله بنات الخيال والأحلام عن معالجة النثر المتمسك بأرجاء العقل والواقع ، الزاهد في التهاويل والأوهام . أما الشعراء الذين استهلوا حياتهم الأدبية بنظم الشعر فياضاً بشعورهم في قديم الأدب وحديثه ، ثم عدلوا عنه إلى النثر ، فإن حظهم من البراعة والإبداع كان عظيما رائعاً . لقد بدأ أناتول فرانس بواكيره الفنية بقول الشعر ونشر من منظومه ديواناً ، ثم تجافى عن القيود إلى دنيا المرح والطلاقة ، فبدا أديب الطبع والخاطر وكاتب السهل الممتنع ، حتى غدا علماً من أعلام النثر الفرنسي القديم في دهرنا الجديد . وكذلك حظ المنفلوطي والرافعي وغيرهما في أدب العرب الحديث ، شغفوا بالشعر ونظمه في مستهل نشأتهم الأدبية ، فكان من أعز أمانيهم أن يكونوا شعراء كمعاصريهم من أمثال البارودي وصبري وحافظ وشوقي ، ولكنهم انصرفوا بعد حين إلى مزاولة النثر ، وبعضهم لم يقتصر عليه وحده ، إذ كان يعاوده الشعر لماماً ، ففتحوا في آفاق الأدب فتحاً مبيناً ، إذ جددوا في أساليبه ومذاهبه ، وتزودوا خير زاد من بلاغة العربية وأصول البيان والتأليف حتى بلغوا مبلغهم من الإتقان والتبريز . ولقد رجح في موازين الأدب ومعايير النقد أن من شعر بالشعر ثم صدفت به المصادفات والحياة عن قرض الشعر إلى الأخذ بفنون النثر والتجويد في ضروب الإنشاء كان كاتباً متضلعاً من اللغة ودقائقها ، بصيراً بألوان الكلام . وقد يكون الكاتب في قمة النثر ، فإذا مارس الشعر وتكلف النظم على غير طبع فيه هبط إلى السفوح ، كما فعل الجاحظ وقد بلغ في نثره وجزالته ما قصرت عن مداه همم الكاتبين الذين سلكوا مسلكه وتفيئوا ظلاله ؛ فلما اصطنع الشعر وتعاطاه موزوناً مقفى كشعر الناظمين في أيامنا أخفق فيما تعلق به ، لأن طبيعته الفنية الأصلية أبت أن ترجى به بين الشعراء وزاناً ، وجادت عليه بما أرادت فأزرى نثره المطبوع بشعره المصنوع ، ولكنه شعر قليل ، وأين حجارته وخزفه من قلائده وفرائده المنثورة التي ما ازدان وجه الفلك بأجمل منها ! وعاب الجاحظ على ابن المقفع ما عيَّره به النقاد ، لقد عاب عليه شعره المصنوع ، وابن المقفع مثل الجاحظ أصيل في النثر لكنه دخيل في الشعر . ولو أحصينا كتابنا القدماء الذين تكلفوا الشعر لما استطعنا عليهم عداً ، فإن شيوع الصناعة اللفظية في أيام التكسب والزلفى جعل غاية الأدب مادية تقليدية يتخذها الموهوب وغير الموهوب كصناعة من الصناعات اليدوية ، ولم تكن البراعة فيها لذي الشعور الصادق والأسلوب الخاص ، بل لمن يغلو في تنميقه وتزويقه ، ويتزيد في أماديحه ومعانيها ؛ فكان النثر زخرفاً وأسجاعاً ، والشعر محاكاة وتقليداً . وبهذا غاض معين الفن في الأدب الذي قام في ذلك الحين على قاعدتين من نظم ونثر ، وسماهما أهلوه صناعتين ، ولم تكن كلمة الفن عندهم مخطوطة متداولة ، بل لم يكن لمدلولها حرمة ولا كرامة . ولما وقر في النفوس أن الحظوة والحفاوة لمن يجيد الصناعتين ، تهافت عليهما كثير ، وقليل ما هم أولئك الذين وأتاهم الطبع بالخصائص والمواهب ، ونبغوا في الشعر والنثر معاً . فكان المعري بالمشرق في طليعتهم شاعراً فحلا وناثراً بليغاً ، أشرق فنه وتألقت بصيرته في لزومياته ورسالة غفرانه ؛ وكان منهم في المغرب ابن زيدون شاعر ولادة وكاتب رسائلها . وفي العصر الحديث زاول الشعر كثير من أدباء العرب ، ولكن في تمحل وكلفة وتعسف ، حتى

أن الدكتور طه حسين نظم قصيدة يوم كان — في إهابه الشيخ طه حسين ، أحسبه يبرأ منها ، إذ بدل اليوم إنساناً جديداً وأديباً مبدعاً ! ومجمل القول فإن هذا العصر أنبل حظاً وأحفل بالكاتبين الذين عالجوا الصناعتين ، وجودوا فيهما وافتنوا دون تصنع وتكلف . ففي مطالع هذه النهضة اعتزت العربية بالشاعر الناثر ولى الدين يكن الذى استوفى نصيبه من أدب الطبع ، فأفاض على كتبه جدة النقد والأسلوب ، ورهافة الخيال والشعور ؛ وازدهت مصر في أدبها الجديد بأقطاب العلم والفن ، الذين استفاضت ثقافتهم وتمازجت بلباب الثقافات الغربية ، فبهروا العربية بأشتات المؤلفات ، وغاصوا في بحوث ظهرت عليها بوادر عقولهم ، ووجهات تفكيرهم ؛ ولكن ندر فيهم من تطامنت له الصناعتان ونبغ فيهما معاً ، فمن تثلت كفة ميزانه في الشعر شالت الثانية في النثر ، ومن برع في نثره خفت موازينه في شعره . وأشهر هؤلاء الكاتبين القارضين على ضفاف النيل : المازني ، والعقاد ، وعبد الرحمن شكرى ، والطبيبان أبو شادى وإبراهيم ناجى ، والمهندس على محمود طه ، على أن من الإجحاف بحق هؤلاء الأدباء ألا ننوه بأثر تجديدهم وتوجيههم في تطور الشعر ، وما أدخلوا على أدبنا الحديث من مذاهب النقد والتعبير ، وصور الفن والتفكير ، وبينهم من حمل بعد حافظ وشوقى تكاليف النهضة الشعرية الراهنة ، وسدد خطى المحدثين من الشعراء المصريين ؛ ولهؤلاء جميعاً دواوين مطبوعة كثيرة ، وتصانيف عديدة زاخرة ، بما فيها من تيارات متضاربة ومتجاوبة في مجالى الكون والحياة وحوادث العالم والأيام .

وكان من حظ الشام ولبنان أن يعتز الشقيقان بكوكبة من نوابغ الأدب ، نشروا في سمائه أجنحة من الشعر وأجنحة من النثر ، رفرفوا فيها على جمال الوجود ، وأشرفوا على آفاق الفن ، ثم حطوا على الورق عناقيد أقلامهم فتمتموا حلل الشعر وديباجة النثر رقة إحساسهم وصفاء نفوسهم ، ودقة وعيهم ، وجعلوها مجلى لحياتهم وطبيعة بلادهم ، وصدى لجروحهم وآلامهم ، ولم يقفوا بآدابهم عند عبقرية الضاد ، بل مدوا عيونهم ، وتلفتت قلوبهم صوب الخواطر والنظرات المطلة عليهم من دنيا لامرتين ، وبودلير ، وبول فاليرى ، وأندريه جيد . فمن أولئك الأقلين عدداً ، القائلين مرسلا ومقفى ، شاعر يستوحى منظومه من وجوه الساحل ، ومشارف الجبل ، وخضرة الطبيعة ، ذلك « أمين نخلة » الذى يطبع نثره الخاص رقة وأناقة ، لا يوازيه بل لا يدنو فيهما كاتب ، وإنما يتقيل طريقته الفردة كثير من ناشئة اليوم . ولولا أن أمينا نسيج وحده في نثره وشعره لما أفردته بالذكر ؛ ففي شرق الساحل الأبيض موكب حافل بأفذاذ الكاتبين ولكنهم لم ينبغوا في الصناعتين معاً ، ولم يواتهم الخصب فيهما ؛ فقد يجلى أحدهم في ميدان النثر دون الشعر ، أو تكون سليقته في القريض هي الفضلى .

وفي هذه البقعة المباركة من الفيحاء فريق من العلماء والأدباء يمارسون الشعر والنثر معاً كأندادهم في بلاد العرب ، فيهم الشاعر الفحل والكاتب المترسل ، وعلى صعيدهم شاعر ناثر(١) أعطى مقاليد الفن والبيان ، فأمسك بعمود الشعر رابطاً مجده الحديث بتاريخه القديم ؛ ذلك هو الأستاذ شفيق جبرى الذى تمشى هوى المروءة ، وملأ عطفيه الزهو بماضينا الأغر ، هذا الماضى الذى يجد فيه فلتاً من مضاجر حاضرنا ومن همومنا وأنفسنا لينعم حيناً بمباهج الأمجاد والأجداد ، وإنه لينتزع من ذكرياته الغالية أنضر معانيه وأرصن قوافيه ؛ ولم يقف هذا الشاعر عند عز الماضى وأدبه وعبقريته ، بل تمرس بأدب الغرب وتروى بدائعه وتأنق طويلاً إلى أسفار العلم الأول . ففي نثره المطبوع وأسلوبه الخاص يتجلى ترسل الجاحظ وعقل ابن المقفع ؛ أما شاعريته فتنبجس وتهيج ، وتهتز وتبدع إذا جل

(١) عن أديب الشام « جبرى » أكتب أولى دراساتي للأدب المعاصر وسأنشرها في (الثقافة) الكريمة .

مونتيني
كما يصوره أندريه جيد

مونتيني أديب فرنسي عاش في القرن السادس عشر ولم يخلف لنا سوى كتاب واحد، وذلك هو «المقالات» وكأنه يصب نفسه صباً في هذا الكتاب الفريد الذي كان يدبج سطوره عفو الساعة بغير نظام أو ترتيب؛ ويرسل خواطره إرسالا كما يدفعه إلى ذلك حادث يصادفه أو كتاب يقرؤه؛ ويضمّن مونتيني مقالاته ملاحظاته في الحياة وتجاربه الطويلة التي جمعها في أسفاره في ألمانيا وإيطاليا، والتي شاهدها في الحروب الدينية التي كانت فرنسا تصطلي نيرانها في عهده، والتي مارسها بنفسه قاضياً وحاكما لمدينة بوردو.

وفي أخريات أيامه تخلى عن منصبه وشغل نفسه بالقراءة والتفكير، ولزم بيته لا يكاد يفارقه. وكان كثير الإثبات والمحو فيما يكتب لأنه كان يعتقد أن كل فكرة تدور في خلده قد طرأت لغيره من الكتاب من قبل وعبروا عنها أحسن تعبير. ولذلك كان كثير الاقتباس من المؤلفين الإغريق والرومان، حتى أن القارئ يشك في مقدرة مونتيني على الابتكار. ولم ينفرد مونتيني بهذه الصفة في عصره، فقد كانت الثقافة اليونانية واللاتينية شائعة في زمانه، ينهل منها كل مفكر وأديب. وكان جيُن المؤرخ الانجليزي يرى أن التقيد بهذه الآراء العتيقة يقف حائلا دون تقدم الغرب، وذلك لأن كتاب النهضة الأوربية كانوا يحتذونها ويقلدونها التقليد الأعمى دون أن يتشبعوا بروحها أو يستمدوا وحيها. ويرى جين كذلك أن هذه الثقافة كانت تُثقل الرؤوس إلى حد يتعسر معه تحرير الفكر. وكانت جامعة باريس في القرن السادس عشر لا تخرج غير قرّاء يحذق كتب الأقدمين — وبخاصة أرسطو — ولا يسمح لنفسه بحرية الرأي والتفكير.

ولقد تشبع مونتيني بهذه الثقافة المستمدة من الكتب كغيره من أبناء عصره، ولكنه كان يخالفهم في أنه تمثلها وأصبحت جزءاً من عقله وفكره تعينه ولا تعوقه، اللهم إلا حينما يقتبس من نصوصها اقتباساً صريحاً، ولكنه حينئذ حاذق بارع. وهو يقول: «ماذا يعود علينا إذا نحن ملأنا بطوننا باللحم ولم نهضمه ونتمثله ونتغذّ به ونستمد منه القوة ونحيله دماً ولحماً». وفي موضع آخر يشبّه نفسه بالنحلة «التي تمتص من هذه الزهرة ومن تلك، ولكنها تنتج العسل فيما بعد، وهو عنصر من عناصرها الخاصة يختلف عن الزهر كل الاختلاف».

في «المقالات» يشرح مونتيني دخائل النفس البشرية ودقائقها، تلك الدقائق التي لا ينفذ إليها إلا كل أديب ثاقب النظر، ويميط مونتيني عنها اللثام ويعرضها لنا في جلاء ووضوح، لا يخشى في نقده عزة ولا عقيدة.

خطب أو طاب حفل، فيجلوها قصيدة مواجة بالآثر البيرية، خفاقة بالحياة، وعليها من روح أبي الطيب أطيب النفحات؛ وإذا لم يهزه حادث جلل قبع وانقبض في أفقه الضيق مرتقباً جلاء الغمرة حتى ينطلق ويحلق في السماء التي يريدها. على أن الأدب يؤاخذ شاعرنا بطرح هذا الشعر في تضاعيف الصحف والمجلات، وكان الأولى والأجدى أن يلمه ويضمه بين دفتي ديوان يكون ميزاناً لشعر الشام الحديث.

وبعد، فيا عجبا لصنع الله في العبقريات التي يختص بها من يشاء، فينعم بها خصيصة عجيبة على الموهوبين الذين يمسك أحدهم بيد واحدة ما تعيا به الأيدي، ويبلغون أمد الكفاية والنبوغ فيجتازون الاختصاص الذي فرضه العلم، ويبرزون في كل ما يصدر عنهم من الآثار، ذلك شأن الأدباء، الذين تستوي أقلامهم في إبداع المنثور ووحي الشعور.

(دمشق) وداد سكاكيني

يهمه أن يصل إلى الحقيقة ولا يهمه أن يحكم لها أو عليها. وقد اختار الكاتب الأمريكي أمرسن ستة من عظماء الرجال في التاريخ، كل منهم يمثل ناحية من نواحي النفس البشرية فكان من بينهم مونتيني يمثل الشك في أقوى معانيه، وبخاصة في مقاله «ماذا أعرف». ويقال إن مكتبة شكسبير لم تحتو إلا على كتاب واحد، وذلك هو «مقالات مونتيني»؛ ولم يعجب الشاعر الإنجليزي بَيْرُن بأديب غير مونتيني. ولم ير جبن المؤرخ الإنجليزي غير رجلين اثنين في القرن السادس عشر لم يتصفا بالتعصب، وذانكما هما هنري الرابع ومونتيني.

كان مونتيني يعتقد أن العقل والجسم سواء في الأهمية، وقد كان هو نفسه مثال القوة البدنية: لا يتعفف في ما كله، ينام ملء جفونه، ولا تضنيه الساعات الطوال يقضيها على ظهور الجياد.

لم يكن مونتيني ذلك الكاتب الذي يلبي مطالب عصره فحسب، حتى إذا ما انقضت حياته عفّى عليها النسيان ولم يجد الناس من بعده في أدبه غذاء لعقولهم. هو كاتب يطفئ شهوة التطلع والمعرفة في الناس جميعاً وفي كل العصور. ولعله يصور نفسه حين يقول: «إن القارئ المتمعن يكتشف في أدب كبار الكتاب عن ألوان من الجمال لم يفطن إليها الكتّاب أنفسهم ولم يحلموا بها، ويستمد منه مشاعر وتعابير لم يدركها مؤلفوها».

كان مونتيني يقول: «أنا الحقيقة»، ويقصد بذلك أنه لا يعرف شيئاً معرفة صحيحة غير نفسه. ولذا فهو في مقالاته كثير التحدث عن نفسه، لأن معرفة النفس لديه من أهم ضروب المعارف. وهو يقول: «يجب أن يُرفع القناع عن النفس البشرية كما يُرفع عن سائر الأشياء». الناس لديه جميعاً سواء، لا يختلف أحدهم عن الآخر إلا بما يحيط به من ظروف الزمان والمكان. وهو يصور نفسه في جرأة وإخلاص، ولا يكاد يخفي عن قارئه شيئاً؛ يقول: «لم أر في العالم كله ما يثير فيّ العجب والدهشة أكثر من نفسي. إن المرء يتعود نفسه بطول عشرتها فينسى غرابتها. ولكني كلما عرفت نفسي زاد عجبي من عيوبي وقلّت قدرتي على تفسيرها». ولم يعرف أحد نفسه كما عرف مونتيني، وكان يعتقد أن معرفة النفس لا تحتاج إلى شيء غير الإخلاص.

وإذا حاول مونتيني — كما فعل مرة — أن يرتب أفكاره فقد القارئ الاستمتاع به. إنما جمال أسلوبه في ذلك التدفق الذي ينساب بغير تكلف وبغير جهد حتى وإن أدى ذلك إلى التناقض. ومن ثم اختلف الكتّاب في النظر إليه؛ فباسكال وكانْت يحسبانه مسيحيا مخلصا؛ وأمرسن يراه مثال المتشكك؛ ويراه آخرون ساخرا. ويقول سنت بيف عن هذه المقالات: «إن مونتيني بمحاولته أن يحلل نفسه ويحصرها في بضعة ميول محدودة يمس قلوبنا جميعاً، كل في أعمق أسرار نفسه. وبتصويره نفسه في جلاء لا يشوبه غموض صور أكثر بني الإنسان. إن كلاًّ منا يجد قطعة من نفسه وهو يقرأ مونتيني».

ولعل مونتيني أول أديب غربي أدرك ما في الإنسان من تناقض، وعنه أخذ كبار الأدباء الذين درسوا الطبيعة البشرية من أمثال شكسبير وسرفانتيس وراسين؛ فكأن مونتيني يقدم لهم مبادئ علم النفس التي يبنون على أساسها ما يكتبون من قصص ومسرحيات. ليس العاشق لديه عاشقا فحسب، والبخيل بخيلا، والجبان جبانا، والجسور جسورا، في كل ما يعملون؛ إنما قد يجمع الفرد في شخصه بين هذه الصفات جميعاً، بل ولقد تتألف نفسه من النقيضين.

وتزوج مونتيني ولكن عاطفة الحب الرقيقة لم تعمر قلبه. وقد كتب مرة يقول: «إنه لأيسر للرجل أن يتجاهل كل علاقة بالمرأة من أن يكرس نفسه بكليتها لرفقة زوجته». كان لا يقدس النساء، ولا يرى أن يقصن

يعمل غير إمتاع الرجال ورعاية شئون البيت . ولعله لم يصحب حياته بغير سيدة واحدة ، عطف عليها عطف الأب على ابنته ، وأحبها أكثر من كل شيء في الوجود ، وقد عاونته كثيراً على إنجاز عمله الأدبي ، واحتفظت بالكثير من مخطوطاته التي جمعها الناشرون بعد موته واعتمدوا عليها في نشر آراء هذا الكاتب العظيم .

وكان أطفاله يموتون وهم في سن الرضاع فلا يحزن عليهم كثيراً ، ولكن قلب الرجل — رغم هذا — لم يخل من عاطفة الحب ألبتة ، وبخاصة نحو الفقراء والمساكين ، وكثيراً ما بكى من أجلهم وواساهم وتصدق عليهم ؛ غير أن كتابات مونتيني في جملتها لا تنم عن حياته العاطفية إلا في جانب واحد — وهو جانب الصداقة . وكان لا يحب التكلف والظهور والتقيد بالعادات والتقاليد ، وإنما يميل إلى أن يطلق الحبل لنفسه على الغارب ، فيترك نفسه للطبيعة ولنداء الغرائز البهيمية . غير أنه كان إلى جانب ذلك يملك القدرة على أن يتخلص من حكم الغرائز بين الحين والحين ، ولا يسمح لنفسه أن يقع فريسة لها أو أن تسترقه .

ولم يشعر مونتيني بالندم قط على ما فعل . يقول : « لو قدر لي أن أبدأ حياتي من جديد لسرت في نفس الطريق الذي سلكته من قبل ، ولما غيرت من حياتي قيد أنملة ، فإني لست على الماضي بنادم ولا من المستقبل بمذعور » وذلك لأن مونتيني لم يكن مسيحياً مخلصاً ، ولعله لم يقرأ الإنجيل مرة واحدة في حياته . ولم يقدس في قلبه رجال الدين ولا الأمراء الذين يقول فيهم : « لهم من كل جوارحي الطاعة والخضوع ، ولكن عقلي لهم لا يلين ، فهو لا يستطيع أن يستكين أو يجثو كما تستطيع ركبتاي » .

ولكن مونتيني كان يحشر في مقالاته الثائرة على الدين بعض عبارات الاستسلام والرضا حتى يستطيع أن يذيعها بين الناس بغير مقاومة أو معارضة ، فتسمعه مثلا يقول :

« إن الحياة الباقية تستحق منا بإخلاص أن نتخلى عن الملاذ وشئون هذه الحياة الدنيا » . ولكن أمثال هذه العبارات يزج بها الكاتب زجاً في مقالاته التي تنادي كلها بضرورة التهالك على الملاذ . وإنك لتقرأ بعد هذه العبارة بأسطر قلائل في نفس المقال : « ينبغي لنا أن نتكالب على ملذات هذه الحياة التي تنتزعها منا سنوات العمر واحدة بعد الأخرى » .

كان يحب وطنه حباً جماً ، ويحب باريس خاصة ، وهي « فخر فرنسا ، ومن أجمل وأنبل ما في هذه الدنيا . أحبها حباً حاراً حتى أن عيوبها ونقائصها عزيزة لدي » . ولكنه يحب الإنسانية أكثر من حبه فرنسا . يقول : « إني أرى الناس كلهم مواطنيّ . وإني لأعانق البولندي بشغف كما أعانق الفرنسي . . . إن الصداقة التي تربط بين نفسين لتتخطى تلك العلاقة التي تنشئها أواصر الدم أو الإقليم . لقد أطلقتنا الطبيعة في هذه الدنيا أحراراً لا يكبلنا رباط ، فلماذا نحبس أنفسنا في المآزق كملوك الفرس الذين أخذوا على أنفسهم ألا يشربوا ماءً غير ما يجري به نهر (شوازز) وحرّموا على أنفسهم كل مياه أخرى ، وودوا لو جفت كل أنهار العالم غير ذلك النهر » .

ولو ترك الكاتب لنفسه العنان لما استطاع أن يوفي مونتيني حقه من النقد والتعليق ، فمونتيني يتحدث عن كل شيء ، دون ترتيب أو نظام . ويستطيع كل إنسان أن يجد في مقالاته بغيته ، وقد لا يعجبه ما يعجب به غيره . عنده المتناقضات ، وهو القائل : « إني أقدم الشموع للقديس كما أقدمها للشياطين » ، ولعله إلى الشياطين أشد ميلا .

وقد تأثر بهذا الكاتب فيمن تأثر به من الكتاب الإنجليز بيكن وشيكسبير . ترجمه إلى الإنجليزية فلوريو ، وعلى غرار مقالاته صاغ بيكن أول أديب إنجليزي عالج في الإنجليزية هذا الضرب من ضروب الأدب . وفي التحف

البريطانى نسخة من ترجمة فلوريو لمقالات مونتيني عليها توقيع شيكسبير مؤلف هاملت التى تأثر فيها إلى حد كبير بفلسفة مونتيني ، كما تأثر بها فى رواية العاصفة التى يقول فيها على لسان جنزالو :

«لو آل إلىّ استغلال هذه الجزيرة وحكمها فماذا عساى أن أعمل ؟ إنى لآتى فى دولتى بالمتناقضات . لا أسمح بالتجارة ، ولا ترى فى حكومتى قاضيا ، ولن يُعرف الأدب فى دولتى . والفقر والغنى والعمل لن يكون لها وجود . والتعاقد والإرث والملكية والزراعة لن تكون .

لن يكون هناك عمل : لأجعلن الناس جميعا كسالى خاملين ! وكذلك النساء — على أن يحتفظن بطهرهن وعفتهن . ولن يكون فى جزيرتى ملوك . كل ما فى الطبيعة ينتج دون أن يتصبب من الإنسان عرق أو يبذل جهدا . ولن أسمح بالخيانة أو الغدر ، ولا بالسيوف والحراب والسكاكين والبنادق ، ولا أية آلة أو سلاح . وستنتج الطبيعة من نفسها وفرة من كل شىء تكفى لإطعام شعبى البرىء» .

وقد تأثر شيكسبير — ولا مراء — فى هذه القطعة بمقال لمونتيني عنوانه «أكلة لحوم البشر» يصف فيه سكان العالم الجديد : عاداتهم وآدابهم ، كى يعتبر بهم سكان أوربا .

وتأثر به كذلك حينه فى حب الحياة واعتداله فيها بوحى الطبيعة العاقلة الحكيمة الشفيقة .

يعلمنا مونتيني الحرية ، وهو درس نافع لنا فى هذه الأيام التى بلغ فيها التعصب السياسىّ أشده . يقول : «وسط هذا الاضطراب الذى يقوم فى بلادنا لم تُنس مصلحتى الخاصة صفات أعدائى الطيبة ، ولا الصفات السيئة التى يتصف بها من اتبعهم . . . . إن الخطيب المصقع لن يفقد قيمته فى عينى لأنه يظهر نقائصى وعيوبى . . . . يريد الناس أن يخدموا شهواتهم دون الحقيقة ، وإنى لأخدم الحقيقة دون شهواتى ، حتى لو أدى ذلكَ إلى الإجحاف بنفسى ؛ فإنى أخشى أن تفسدنى الشهوة ، لأنى أفقد الثقة فى نفسى فى كل ما يتعلق برغباتها» . ألسنا بحاجة إلى مثل هذا الدرس فى هذه الأيام ؟

ولم يكن مونتيني يخشى الموت ، ويرى أن تذكره دائما وتصوره يقلل من الفزع منه . يحب الموت كما يحب كل شىء طبيعى . والفلسفة عنده أن يتعلم المرء كيف يموت . ويقال إنه مات مسيحيا مخلصا لدينه . جاء فى إحدى مقالاته : «لو خيرت كيف أموت لاخترت أن أموت على ظهر جواد لا على الفراش ، بعيدا عن بيتى وعن أصدقائى» ولكنه لفظ نفسه الأخير فى بيته إلى جوار زوجه وابنته .

محمود محمود

الأحـــلام

رأيتُ بالأمس — فيما يرى النائم — حُلُماً عجبت له كل العجب ، استولى على مشاعرى وأحاطنى بجو كله غموض وإبهام . حاولت أن أجد له تفسيراً ، بل على الأصح حاولت أن أعلل وقائعه ، فاستلقيت بعد يقظتى زهاء ساعة من الزمن أرتب أفكارى وأنظمها ، على أصل إلى النقطة التى بدأ منها الحلم وعلى أية صورة انتهى . ولولا ثقتى بأنه يطوى بين حوادثه فكرة جديدة — بالنسبة لى على الأقل — لما أجهدتُ نفسى هذا الجهد ، ولتركته كباقى الأحلام ، تمر علىّ دون أدنى اهتمام .

أقول إننى ارتبت فى بادئ الأمر فى تفكيرى ، فلم أستطع التمييز بين البداية والنهاية . فلما قلبت الوضع ، وبدلت فى ترتيب حوادثه وجعلته على صورة معكوسة ، رأيت نفسى أستنتج أشياء لم أكن أعرفها ، بل لم أكن أتوقعها ولم تخطر لى على بال فى يوم من الأيام .

لست أذكر على أية صورة بدأ الحلم ، ولكنى وجدتُ نفسى فجأة أمام حشد هائل من الناس ، ممسكا بيدى عدداً من الكلاب الممتازة كالتى تعرض بين وقت وآخر فى معارض أوربا . وكنت أسير فخوراً بها بين منافسين ينظرون إلىّ نظرة ملؤها الحسد والطمع ، يتمنون أن يملكوا ما أملك .

ولكن حدث فى اللحظة الأخيرة ، وكنت على وشك التقدم إلى هيئة من الحكمين ، أن وثب كلب من كلاب جارى بتحريض من سيده على كلب من مجموعتى النفيسة ، وقضم بأنيابه ذنبه . فصرخ هذا الأخير صرخة كلها ألم وغيظ ، ورد على منافسه التحية بأحسن منها . وما هى إلا لحظات حتى تشابك الكلبان ، وتحوّل الكون إلى جو كله نباح يصم الآذان .

إلى هنا انقطع الحلم باستيقاظى من النوم فجأة على صوت نباح كلب على باب غرفتى . وكانت الساعة إذ ذاك تقرب من الواحدة صباحاً . استيقظت فزعاً لعلمى أنه ليس بالمنزل كلب أو كلاب . ولكنى ما تبينته فيما بعد هو أن كلب الجيران دخل منزلنا خطأ وأغلق عليه الباب ، ولما أحس الغربة ولم يجد لخروجه منفذاً نبح نباحاً شديداً ، أيقظنى وأيقظ من بالمنزل .

هذا ما حدث فى تلك الليلة ؛ وقد حاولت — كما ذكرت سالفاً — أن أجد له تأويلا علميا صحيحاً .

فهل تنبأت أثناء الحلم بوجود الكلب فى المنزل ، وأنه بفضل هذه النبوءة استيقظت على نباحه فى الوقت الذى كان كلبا الحلم يتشاجران وينبحان ؟ إن هذا الفرض يحتم حدوث الحلم قبل نباح الكلب . ولكن كيف اتفقت الحوادث وانتهت بنتيجة واحدة فى وقت واحد ؟

أم نُرى أن الكلب قد نبح مرات عديدة قبل يقظتى وفى خلالها تراءى لى هذا الحلم ؟ إن هذا الفرض أيضاً يحتاج إلى كثير من التفكير ؛ إذ أن أهل المنزل جميعاً استيقظوا دفعة واحدة مما يرجح أن الكلب لم ينبح إلا مرة واحدة .

يقول «مورى» فى كتابه «النوم والأحلام» : إن المدة التى تستغرقها قصة طويلة فى الحلم لا تحتاج فى الواقع إلى أكثر من جزء لا يذكر من الثوانى . وإن سرعة تكوين الأفكار والحوادث لا يمكن قياسها وليس لها ضابط يحكمها . وهو يثبت كلامه بحلم مفزع حدث له أيام شبابه ، وقد دوّنه على الصورة الآتية :

« كنت فى تلك الليلة تعباً خائر القوى ، فاستلقيت على سريرى ، وسرعان ما دب الكرى إلى جفنى . فرأيت فى نومى أنى أعيش فى منزل فى قلب باريس أيام الثورة الفرنسية ، أيام القتل والنهب ، أيام روبسبيير ومارات وفوكييه . وجدتُ نفسى أناقشهم فى مسائل تتعلق بالأمة الفرنسية ، وأعارضهم فى تصرفاتهم ، فغضبوا علىّ ؛ ومع أنى كنتُ عالماً بمصيرى إذا استمررت فى معارضتهم فقد تشبثت بوجهة نظرى ، وألقيت كل اللوم عليهم

وعلى أتباعهم .

وبعد بضع حوادث لا أذكرها ولا أظن أني تذكرتها عند يقظتي ، رأيت نفسي وسط حشد كبير من الناس في ساحة واسعة وضمني في وسطها مقصلة ؟ ثم رأيت اثنين من أصدقائي يتقدمان نحوي بخطوات ثابتة فيعصبان عيني ويضمان رأسي على اللوحة الميتة . وهنا تسقط السكينة بما حملت من أثقال على عنقي فتفصل الرأس عن الجسم في مشهد يقشعر منه البدن . استيقظت من نومي في حالة ذعر وفزع عظيمين . وبحركة آلية لا شعورية تحسست عنقي لأتأكد من أنني كنت في حلم ، فوجدت لشدة دهشتي قطعة من الحديد قد انفصلت من السرير فسقطت على عنقي كما سقطت من قبل سكينة المقصلة » .

يقول « موري » : إن الحلم لا بد قد حدث في نفس الوقت الذي سقطت فيه قطعة الحديد ، في هذا الوقت تكون الحلم بسرعة متناهية فذكره بالمقصلة والعصر المظلم في تاريخ فرنسا .

ومع أن «موري» مصيب في بعض ما يقول ، إلا أنه لم يذكر كل الحقيقة ، بل على عكس ذلك ، فإنه قد شط في الجزء الأخير من استنتاجه وانحرف عن الصواب .

ففي اعتقادي أن حلم « موري » قد استغرق زمنا أطول مما حسب ، وأنه تكوّن بترتيب خاص بُعَيْد سقوط قطعة الحديد .

إن سقوط القطعة على عنقه لم يسبقها ولم يتخللها الحلم المفزع الذي ارتآه . وإنما سقوط الحديدة أيقظه من نومه ، بل قل إنه انتزعه من حالة نوم عميق إلى حالة ليست بالنوم ولا باليقظة ، إنما هي حالة وسط بينهما كان شعوره فيها الخوف والفزع .

وهنا فقط وفي هذه اللحظة يبتدئ الحلم . ماذا حدث لي ؟ ماذا أصابني في عنقي ؟ ... جواب ذلك أنه لا بد وقد سقطت سكينة حادة على عنقي ... إنها سكينة المقصلة . ولكن مالي والمقصلة ؟ .. أين هي وماذا جئت ؟ ... إنها مقصلة لإعدام الثوار ... أيام الثورة والفوضى ... أيام روبسبيير ومارات . إنها نصبت في كل ساحة من ساحات باريس . إنني لا بد وقد عارضت أحد الزعماء » . وهنا تظهر المحاكمة ويظهر روبسبيير وفوكييه وغيرهما لإقناعه بما حدث .

وفي أثناء هذا ، وعندما يصل إلى تلك النقطة من الحلم يكون «موري» قد استيقظ تماماً وفتح عينيه . إنه يتذكر آخر لحظة من حلمه ، تلك اللحظة التي فيها تظهر باريس وحوادثها . إنه يتذكر تدريجا ما حدث له ، ولكن بترتيب غير ترتيب تكوّن الحلم .

إن عقله ، وقد تعود نظاماً خاصاً لا يسمح له إلا أن يرتب أفكاره بالترتيب الطبيعي ، رغم أن الحلم قد ابتدأ بصورة عكسية . وعند تدوين ما ارتآه ، لم يشك مطلقا في أن حوادث الحلم قد بدأت عند النقطة التي انتهى هو بها . إنه تذكر الوضع الطبيعي لكل حلم ، ولكنه نسي أو جهل الوضع المعكوس ، وهو الوضع الصحيح لحلمه .

فإذا ما رجعت إلى حلم الليلة الماضية ، وبنيت تفكيري على ضوء هذه الاستنتاجات ، وشبهت حوادث حلم الكلاب بحوادث حلم المقصلة ، علمت أني استيقظت على أول نبحة صدرت من الكلب المسجون . وفي المدة التي انقضت بين نباحه ويقظتي تكوّن الحلم وتطور على صورة عكسية كانت بدايته صوت نباح الكلب ونهايته مشهد المعرض وصورة المحكمين . . . .

فعندما نبح الكلب استيقظت من نومي مذعوراً لعلمي أنه ليس بالمنزل كلاب . ما هذا النباح الشديد ؟ . . . إنه لا بد نباح كلب قد ألمّ به سوء ! ولكن ما هي إصابته وبأي كيفية حدثت له ؟ ... إلى آخر هذه الأسئلة التي أسائل بها نفسي والتي تنتهي بوجودي بالمعرض عارضا إلى هيئة من المحكمين مجموعة من الكلاب النفيسة . وهكذا تتطور الحوادث بترتيب خاص وبصورة عكسية أرتبها عند يقظتي بالكيفية التي يرتضيها عقلي ، والترتيب الذي تعود عليه تفكيري .

وما يقال من حلم المقصلة أو حلم الكلاب يمكن أن

حول إهداء العقد الفريد

نشرت زميلتنا الأهرام في أحد أعدادها الصادرة في شهر يوليو سنة ١٩٤٢ كلمة رائعة من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، ذكرت في هذه الكلمة أن الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين قد أهدى الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب إلى بعض أصدقائه ولم تصرح باسم المهدى إليه، ونشرت أبياتاً رائعة قالها الأستاذ الزين في إهداء هذا الكتاب إلى صديقه.

ونحن نذكر هنا أن الأستاذ أحمد الزين قد أهدى هذا الكتاب إلى صديقه الكاتب الكبير أنطون الجميل بك رئيس تحرير الأهرام؛ غير أن الأستاذ الجميل قد أملى عليه تواضعه ونبل خلقه المعروفان عنه أن يجتزئ من هذه القصيدة بنشر ما يختص بالكتاب حاذفاً منها ما يختص به هو. وقد رأى الأستاذ الزين أن يبعث إلينا بهذه القصيدة كاملة لنشرها في الثقافة. ونحن ننشرها في ما يلي، تنويهاً بما للمهدى إليه من مودة في نفوس الأدباء والشعراء، وحرصاً على هذه القصيدة الرائعة من أن يضيع بعض أبياتها:

إلى الصديق المفدّى … أهديت ودّي عِقدا
أهديت سِفراً يشدّ الأ … سفار هزلاً وجِدّا
وما له من شبيه … في الكتب جمعاً وحشدا
فيه تبارت بحور الـ … بيان جزراً ومدّا
إنشـــاد وقوله … يُجيد غيّاً ورُشدا
والمؤرخ فيـــه … ما شاء للعُرْب سَردا
مفاخر القوم فيه … نُمي المسطّر عدّا
فيه البيان المصفّى … أشهى وأعذب وِردا
وكم تعبنا إلى أن … محّصتُ مطالبه جهدا
يا ربّ لفظ قضينا … فيه الليالي سُهدا
ورب بيت حشدنا … له من الصبر جُندا
حتى استقام وأعطى … من صابه الأري شهدا
وأسير حق أطلقنا … عليه في الكُتْب كدّا
تجول بين فيافي الأ … وراق قرباً وبعدا
زوّد الذهن بين الآ … راء أخذاً وردّا
لا يفتُر البحث عنه … حتى نرى البحث أجدى
إليك أهديه حبّاً … وأنت بالروح تُهدى
لأنّ فنّك فردٌ … بعثتَ في الكتب فردا
لو ناظم العقد يوماً … رآك أصفاك ودّا
وقال يا قوم حسبي … بشر «أنطون» عِقدا

أحمد الزين

يقال أيضاً من جميع الأحلام التي تنتهي بيقظة الحالم فيجد تشابهاً تاماً بين حوادث الحلم الذي رآه في نومه وصورة الواقع الذي سبّب يقظته.

وإني لأذكر بهذه المناسبة قراءة قصة حلم شبيه بالحلمين السالفين، تكوّن بنفس الطريقة العكسية المذكورة وانتهى بإنقاذ شخص من موت محقق. رأى شخص في نومه أن حريقاً شب في منزله، وأن النيران أحاطته من كل جانب وتركته يتخبط في وسطها حائراً. فهب من نومه مفزوعاً وقد رأى قنديلاً مشتعلاً كان قد سقط بفعل الريح على المنضدة وانسكب ما به من وقود فاندلعت النار وأخذت تلتهم ما حولها بسرعة فائقة.

ظن هذا الشخص أنه في حلمه تنبأ بما حدث ووافقه الكثيرون. فانتشرت القصة وعرضت بصور مختلفة وتأويلات متباينة، ولكنها كانت تدور كلها حول محور واحد. التنبؤ في عالم الأحلام بما قد يحدث في عالم الحقيقة. أما الآن وقد اعترفنا بنظرية الحلم المعكوس فيمكننا تحليل تلك النبوءة تحليلاً علمياً صحيحاً. ألا وهو أن اندلاع النار بسبب سقوط القنديل على الأرض أحدث تغييراً في حرارة جو الغرفة كان سبباً في إيقاظ النائم. وفي المدة التي انصرمت حتى أتم يقظته كان عقله قد تكوّن تصوّر له الحريق واندلاع النيران بالطريقة العكسية وبطريقة الأسئلة والأجوبة عليها.

وبعد، فإن طرق تكوّن الأحلام كثيرة متشعبة، وكانت وما زالت موضع تفكير وبحث العلماء في جميع الأمصار؛ ولعلي أعود إليها في مقال آت إن شاء الله.

محمد أحمد أمين

من شعر المهجر :

اقلب الصفحة في سفر الدهور

شعشع الخمر وهات الكأس من نار ونور
علنى أعلم ببعض العلم ما معنى السرور
يا نديمي وانس ما كان وما سوف يصير
ودع العتب على الدهر فلا تدرى الدهور
قم بنا نطلب لهواً غير عود وزمور
نتأمل مسرح الدنيا بطرف لا يحور
يبصر الناس عليه كألاعيب تدور
كلهم يلعب دوراً غير ما يخفى الضمير
إن ما لاح هو غير الذى خلف الستور

يا نديمي ! إن بعض الناس - إن جست الأمور -
عالم يبحث طول العمر ما بين السطور
جامع في صدره ما ليس تحويه الصدور
ما تراه حاز من فهم الأحاجى والجذور
آه ، هل يحترمُ الأعلامَ دودٌ في القبور
دعك منه ... واقلب الصفحة في سفر الدهور

يا نديمي ! إن بعض الناس - إن جست الأمور -
ذو ثراء يحسب المال غنى وهو غرور
علك المال ولكن هو للمال أجير
دعك منه ... واقلب الصفحة في سفر الدهور

يا نديمي ! إن بعض الناس - إن جست الأمور -
تاجر يطلب ربحاً من بضاعات ودور
يضرب الخمس بسدس وصحيحاً بكسور
يسهد الليل لخوف من متاع أن يبور
ثم ينسى المتجر الأسمى لدى حسب الأجور
دعك منه ... واقلب الصفحة في سفر الدهور

يا نديمي ! إن بعض الناس - إن جست الأمور -
عاشق يرمق في الظلماء أنوار الخدور
همه أن يلتقى بنحور وثغور
يقتل النفس على مرأى قدود وخصور
ما تراه يرتجى من وصل غادات وحور
وإذا ما شبع الجسمُ وأضناه الفتور
أنزل الحب من العرش إلى سوق الفجور
دعك منه . . . واقلب الصفحة في سفر الدهور

يا نديمي ! إن بعض الناس - إن جست الأمور -
شاعر مهنته صوغ القوافى من شعور
يعشق الحسن ويبنى في علا الجو القصور
يتخطى الشمس ويسمو فوق هامات البدور
وهو في الأرض يجر الرجل تدميها الصخور
بأمر الدهر ويتهاه ببهتان وزور
دعك منه . . . واقلب الصفحة في سفر الدهور

يا نديمي ! إنني أبصر هل أنت بصير ؟
ولعمري قد يرى السكران ما يخفى الضمير
إن كل الناس أشباه إذا زحت الستور
ليس في الدنيا غنيٌّ ، ليس في الدنيا فقير
لا عليم ، لا جهول ، لا عظيم ، لا حقير
كلها حالات وقت كغبوق وبكور
كلها تمثيل أدوار على ملهى العصور
فالغنى والفقر إن كنت غنيا في الشعور
والنهى والجهل إن كنت عليا في الصدور

يا نديمي ! نحن مثل الناس إن جست الأمور
كلنا أسرى حياة أذهلتنا عن شعور
نضرم النار ولا نعلم ما تحوى القدور
فاعطني الكأس وهات الخمر من نار ونور
ثم أيقظني ؛ فإن لم أصح من سكر الغرور
دعك مني . . واقلب الصفحة في سفر الدهور

نسيب عريضة

إلى الظلام ...

إلى الظلام الأمين ... تحدّرى يا سفينى
وجانبى كل نور ... النورُ يؤذى جفونى
لقد حطّمتْ شراعى ... ومجدافى وتمينى
وهدَّ عزمىَ موجٌ ... يثور كالمجنون
أخشاه أخشاه جُهدى ... لحاذرى يا سفينى !

طال الصراعُ وناءت ... نفسى بعبء السنين
أريدُ وقفة أمنٍ ... فى مجهل مأمون
أريحُ فيه قليلاً ... من عاتيق الوهون
وأستريحُ رويداً ... من الصراع الحَرُونِ
وقد أعاودُ سَيْرى ... فى اللّجِّ أرجو سفينى

إلى الظلام الأمين ... إلى ملاذِ السكون
طـال التيقظُ حتى ... أعشى السهادُ عيونى
إلى المسارب فامضى ... لأنزوى عن شجونى
وعن رجائى ويأسى ... وكلُّ ما يعنينى
الانزواءُ مريحٌ ... فأوغلى يا سفينى

حلوان ... سيد قطب

قناع الفرعونية

أصدرت مجلة الأنصار كتابها السنوى « قناع الفرعونية » ، وهو تحليل عام لأصول التاريخ الفرعونى فى ضوء العقلية الإسلامية . وأهم فصوله « الفرعونية ماهى ؟ » — « مصادر التاريخ الفرعونى » — « رأى الأديان فى الفرعونية » — « النصرانية فى مصر والفرعونية » ، ثم يستطرد الكتاب بعد ذلك فى موضوعات عن قناع الفرعونية ، وقناع المجتمع ، وقناع المرأة ، وقناع الفن .

وخصص المؤلف فصلا ضافياً للكلام عن التوحيد عند الفراعنة ... !

وقد جاء فى كلمة المجلة فى تقديم الكتاب : « إن الدعاية الفرعونية التى يفندها هذا الكتاب الأول فى نوعه وموضوعه لها نظائر فى مختلف الأقطار العربية الشقيقة ، وواجب القارئ إذا كان مصرياً أو عراقياً أو سورياً أو فلسطينياً أن يتوسع فى تطبيق النقد الاجتماعى والتاريخى الموجه لهذه الدعاية الفاسدة على نظائرها فى مختلف الأقطار العربية » .

وجاء فى مقدمة المؤلف : « إن أكبر ما أرجوه من إصدار هذا الكتاب أن أكون قد أشرت به إلى المقدمة الصحيحة لتطلق الإصلاح فى مصر ، وأن أكون بذلك قد وفرت على الأكفاء الأحرار من أبناء هذا الجيل الجديد كثيراً من ألوان الاضطراب فى تيار الدعايات المتناقضة ... » .

هذا والكتاب مطبوع طبعاً جيداً ، ومزود بالصور البيانية ، ويطلب من إدارة مجلة الأنصار ومن المكاتب ، وثمنه ١٥ قرشاً .

حول استدراك

حضرة الأستاذ الكبير رئيس تحرير مجلة الثقافة الغراء :

قرأت فى العدد ٢٣٠ استدراكا لحضرة الأستاذ عبد اللطيف حمزة . جاء فيه : « أنه وقع سهو من السهل على القارئ أن يفطن إليه . وهو وصف صلاح الدين بالسلطان — والصحيح أن يستبدل هذا الوصف فى جميع المواضع بالوزير » ...

ولما كانت الباء فى كلمة الوزير المتروك . فهل يوافقنى حضرة الأستاذ أن يكون الصحيح كما يلى : « أن يستبدل بهذا الوصف أو بالسلطان — الوزير أو الملك الناصر ...

وللأستاذ منى تحية كلها الإعجاب والتقدير .

عبده عبد الملك صالح

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ٢٤٠ — الثلاثاء ٢ من شعبان سنة ١٣٦٢ — ٣ من أغسطس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

مصرع الفاشستية

فى الوقت الذى كادت الجيوش المتحالفة تتم فيه فتح صقلية ، وتقترب من شواطئ إيطاليا الجنوبية ، حدث انقلاب خطير فى الجبهة الإيطالية الداخلية : ذلك هو تخلى السنيور موسولينى عن الحكم الذى تولى زمامه زهاء إحدى وعشرين عاماً ، وقيام حكومة إيطالية جديدة على رأسها المارشال بادوليو ، وتولى ملك إيطاليا القيادة العامة لجميع القوات الإيطالية المسلحة ، بدلا من « الدوتشى » الذى لبث طوال هـذه المدة يستأثر بالحكم والزعامة والقيادة المطلقة .

واختفاء السنيور موسولينى من الميدان السياسى والعسكرى فى تلك الآونة العصيبة التى تجوزها إيطاليا ، هو بلا ريب حادث جلل فى تاريخ إيطاليا المعاصر ، بل لعله أعظم حوادث التاريخ الإيطالى منذ قامت الفاشستية فى إيطاليا ؛ فهو فى الواقع خاتمة للعهد الذى اقترن باسم الرجل الذى لبث يسيطر على مصاير إيطاليا والشعب الإيطالى زهاء ربع قرن ، والذى شهدت فيه إيطاليا الحديثة أعظم انقلاب فى حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وإنه ليجدر بنا قبل أن نحاول أن ندرس مقدمات هذا الانقلاب الخطير فى الجبهة الإيطالية الداخلية ، وما قد يترتب عليه من النتائج المحتملة أن نقول كلمة عن الرجل الذى يودع باختفائه من الميدان عهداً من أعنف العهود ، وأحفلها بالحوادث الجسام ، وعن النظام الذاهب الذى ينبذه الشعب الإيطالى اليوم راضياً مستبشراً .

نشأ بنيتو موسولينى ، الذى يبلغ اليوم الستين من عمره ، فى بيئة شعبية محضة ، فهو ابن حداد من قرية من قرى إقليم فورلى ؛ وتلقى تربية ابتدائية متواضعة ، واشتغل مدى حين حداداً فى حانوت أبيه ، ثم معلماً وعاملا وصحفياً ، وكان قد ورث من أبيه حب المبادئ الاشتراكية والثورية ؛

فى سنة ١٩١٠ أنشأ فى فورلى صحيفة اشتراكية أسبوعية عنوانها « نضال الطبقات » ، وسجن مراراً من أجل كتاباته ؛ ثم تولى بعد ذلك تحرير جريدة « أفانتى » Avanti الاشتراكية الشهيرة فى ميلان . ولما نشبت الحرب الكبرى كان يدعو أولا إلى حياد إيطاليا ، ثم دعا بعد ذلك إلى تدخلها إلى جانب الحلفاء ، فكان ذلك سبباً فى إخراجه من الحزب الاشتراكى . وعندئذ أنشأ جريدة « بوبولو ديتاليا » (الشعب الإيطالى) وقام على تحريرها .

ولما دخلت إيطاليا فى الحرب إلى جانب الحلفاء تطوع موسولينى فى الجيش جنديا ، وجرح أثناء القتال ؛ ثم ترك خدمة الجيش فى أواخر الحرب ، وعاد إلى تحرير جريدته ، وعكف على محاربة روح المسالمة والاستكانة . ولما انتهت الحرب وبدأت الاضطرابات الاشتراكية تغمر إيطاليا ، وتشل الإضرابات المتواصلة حياتها الاقتصادية ، نشط موسولينى إلى تنظيم حركة وطنية لمقاومة الثورة الاشتراكية ، وساعدته الظروف السائدة يومئذ على حشد جماعات كبيرة من الأنصار . وفى مارس سنة ١٩١٩ ، أنشأ « الهيئة الفاشستية » وقام على تنظيمها وتوجيهها . وكان تقدمها بطيئاً فى البداية ، ولكنها ما لبثت أن استمالت إليها كثيراً من طوائف العمال ، وأخذت تعمل على مقاومة الإضرابات والفوضى الصناعية . ثم أخذت الدعاية الفاشستية تتسرب إلى الجيش وتغزو وحداته وصفوفه ؛ ولم تلبث الحركة أن عمت إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها . وفى أواخر سنة ١٩٢٢ عقد الفاشستيون اجتماعاً عظيما فى نابل ، ثم سارت منهم جموع كبيرة مسلحة إلى رومة وأحاطت بها ؛ وعندئذ بادر الملك فكتور إمانويل بإقالة وزارة السنيور فاكتا التى كانت قائمة فى الحكم ، واستدعى موسولينى واللجنة الرباعية الفاشستية المؤلفة من الجنرال دى بونو ، وشيزارى دى فكيو ، وإيتالو بالبو ، ومكيل بيانكى ، للقيام بتأليف الوزارة الفاشستية . وكان ذلك فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ .

ومن ذلك الحين تسيطر الفاشستية وزعيمها موسولينى على مصاير إيطاليا والشعب الإيطالى . ومن ذلك الحين تتخذ الفاشستية مكانتها بين الحركات الانقلابية المعاصرة ، وتقوم بتنفيذ برنامجها السياسى والاقتصادى والاجتماعى بمنتهى القوة والنشاط ، وتعمل على إقالة إيطاليا من عثراتها والنهوض بها شيئاً فشيئاً إلى المركز الدولى الذى تحلم باحتلاله منذ بعيد إلى جانب الدول العظمى .

وليس من موضوعنا أن نتحدث عن الفاشستية كمذهب سياسى واجتماعى . ويكفى أن نقول إنها تدعو إلى إحياء الروح الرومانى القديم وإحياء مجد الإمبراطورية الرومانية . ومثلها الأعلى إنشاء مجتمع تسوده النزعة الروحية ، وتنحصر فيه الزعامة والقيادة فى جماعة من الصفوة الممتازة يستأثرون بمناصب السلطة والمسئولية . والفاشستية لا تؤمن بإرادة الشعب ولا بسيادة الأمة ، وترى أن الحرية مسألة نسبية تمنحها الدولة بالقدر الذى تراه ، وأنها ليست حقاً مطلقاً للفرد ؛ وهى تعتبر الزعامة مسألة مقدسة وترى فيها أفضل ضمان للحكومة المثالية . والفاشستية من الناحية الاقتصادية تقوم على الفكرة النقابية ، وتعارض الاشتراكية والرأسمالية معاً ، وتقتبس من المذهبين ما يوافق غاياتها . وأما من الناحية الدستورية فإن الحزب الفاشستى (وكذلك الميليشيا الفاشستية) يعتبر هيئة رسمية ، وهو الحزب الوحيد المصرح به فى إيطاليا ، وهو كل شىء فى الدولة والحكومة ، ومن أعضائه يتكون المجلس الفاشستى الأعلى والبرلمان الإيطالى بمجلسيه ، وهو برلمان من نوع خاص ، يسيره الحزب والزعيم وفق رغباته ، ولا يتمتع بشىء من الضمانات الدستورية المعروفة .

وقد استطاعت الفاشستية ، بالرغم من وسائلها الدكتاتورية العنيفة ، فى الأعوام الإحدى والعشرين التى عاشتها ، أن تحقق لإيطاليا كثيراً من الأعمال والمشاريع العمرانية ، ولا سيما فى تخطيط المدن ، وإنشاء الطرق والسكك الحديدية ، والترع ، والمصارف ، والساكن الصحية ، والمستشفيات ، والمنشآت الاجتماعية ؛ وكان أثرها بارزاً بالأخص فى العمل على تحسين الإنتاج الزراعى والصناعى ، وتنظيم الشعب الإيطالى ، والنهوض بمستواه

الاجتماعي والصحي والثقافي والأدبي . ولكن هذه المزايا المادية التي حققتها الفاشستية بوسائلها الخاصة تبدو ضئيلة بالقياس إلى الثمن الفادح الذي دفعته إيطاليا والشعب الإيطالي في سبيل اعتناقها وتدعيمها ؛ فقد قضت الفاشستية على سائر الحقوق والحريات العامة ؛ وخلقت من الجيل الإيطالي الجديد شعبا عبداً لا رأي له ، وبثت إلى نفوس الشعب الإيطالي كثيراً من عواطف الغرور والكبرياء المرذولة والأماني المغرقة ، حتى غدا يتصور لنفسه منزلة السيادة بين الأمم ، وغدا يتصور أنه سيعيد مجد الإمبراطورية الرومانية ، ويستعيد ما كانت تملك من أقطار في الشرق والغرب . وكانت إيطاليا في ظل هذا السراب الخادع تملأ العالم قبيل الحرب بدعاويها وصيحاتها ووعيدها ، وكان العالم المخدوع في حقيقة أمرها يهتز لهذه الصيحات . وفي ظل هذا الوعيد وهذا التظاهر بالقوة ، استطاعت إيطاليا الفاشستية أن تحقق بعض مطامعها الاستعمارية بغزو الحبشة وألبانيا . غير أن أمانيها لم تكن تقف عند هذا الحد المتواضع ؛ فقد كانت لها أطماع محققة في امتلاك مصر وتونس وسوريا وتركيا واليونان وغيرها ؛ وقد دخلت الحرب وهي تضطرم بهذه الأماني الإمبراطورية العريضة ، وتظن تحقيقها أمراً ميسوراً .

وسلكت إيطاليا الفاشستية في السياسة الخارجية مسلكا عنيفا يتفق مع مثلها ووسائلها ، وعمدت إلى انتهاز الفرص بأي الوسائل جرياً على سياستها التقليدية ، فغزت الحبشة بالرغم من جميع العهود التي قطعتها . ولما تألق نجم الهتلرية في ألمانيا ، وشعر موسوليني بخطر الدولة الجرمانية الجديدة ، لم يحجم عن التضحية بالنمسا في سبيل مصادقتها ، وعقد التحالف الإيطالي الألماني الذي عرف فيما بعد « بالمحور » واحتلت إيطاليا ألبانيا ، وأعطيت قسما من أسلاب تشيكوسلوفاكيا الحربية ثمنا لصداقتها . ودخلت إيطاليا الحرب الحاضرة إلى جانب ألمانيا ، تشاطرها أحلامها الإمبراطورية الضخمة ؛ ولكنها اليوم بعد أن ذاقت أهوال الحرب أكثر من ثلاثة أعوام ، ترى نفسها ، وقد فقدت جميع أملاكها الإفريقية ، ومزقت جيوشها شر ممزق ، وترى جيوش الحلفاء وقد غزت صقلية ، وأخذت تدنو من شواطئها ، وأخذت أسرابهم الجوية تمطر مدنها وابلا من النار والدمار .

* * *

والآن وقد استعرضنا سيرة زعيم الفاشستية الذاهب ، وخلاصة النظام الذي أنشأه ، وسيقت إيطاليا إلى الحرب في ظله ، نعود فنلقي نظرة على الظروف التي تم فيها الانقلاب الإيطالي الأخير ، وعلى النتائج التي يمكن أن نرتبها عليه .

إن كل ما هنالك يدل على أن استقالة موسوليني أو بالحري إقالته ، ليست خاتمة لزعامة « الدوتشي » فحسب ، ولكنها أيضا خاتمة للنظام الذي منيت إيطاليا في ظله بتلك المحن الخطيرة ؛ فمن المعروف أن المارشال بادوليو هو زعيم الكتلة المعارضة لموسوليني وسياسته الخارجية ، التي جعلت من إيطاليا شبه مستعمرة ألمانية تحتلها القوى النازية باسم الحلف المحوري ، وأن العرش الإيطالي الذي سلبه النظام الفاشستي كل حقوقه وامتيازاته ، كان من وراء هذه الكتلة المعارضة يؤازرها ، ويترقب الفرصة للعمل معها ؛ وقد سنحت هذه الفرصة بعد أن توالت الهزائم المؤلمة على الجيش الإيطالي ، وفقدت إيطاليا إمبراطوريتها الإفريقية ، وانقضت عليها الجيوش المنتصرة تغزو أرضها ، وتثخن أسرابها الجوية في مدنها ؛ وقد كان لذلك بلا ريب أثره العميق في نفوس الشعب الإيطالي ، وفي قواه المعنوية ، وفي نظرته للنظام القائم ؛ وهكذا يقع الانقلاب الجديد في الجبهة الداخلية الإيطالية في وقت أصبح الشعب الإيطالي يرى فيه سبيل النجاة في التخلص من الفاشستية وزعمائها الذين ألقوا به إلى هاوية لا قرار لها .

ولم يبق شك في أن الفاشستية تلقى مصرعها على يد السلطة الجديدة ، فقد صدر قرار بحل الحزب الفاشستي ، وأزيلت الشارات الفاشستية في جميع أنحاء إيطاليا ، وأدمجت « الميليشيا » الفاشستية في الجيش ؛ وقد كانت

هذه الملیشیا التی تضم نحو ثلاثمائة ألف من خيرة الجند المدرب ، دعامة النظام ودعامة الحزب الفاشستى .

وفى الوقت الذى تنهار فيه الفاشستية إلى غير رجعة تتحرك الأحزاب الديمقراطية القديمة من سباتها الطويل ، وتتحفز لاستئناف نشاطها الذى قبرته الفاشستية ووسائلها العنيفة أعواماً طويلة ، وتترى التظاهرات والمنشورات فى طول البلاد وعرضها مهللة بزوال النظام الذى صفد الشعب الإيطالى جسماً وروحاً مدى إحدى وعشرين عاماً .

والواقع أن انهيار النظام الفاشستى نتيجة طبيعية للانقلاب الجديد ، فإيطاليا المهزومة الجريح تحاول أن تجد سبيلا للخلاص قبل تفاقم الهزيمة ؛ وقد أكد زعيما الدول المتحدة مستر تشرشل والرئيس روزفلت فى ندائهما الذى وجهاه إلى إيطاليا قبل الانقلاب بأيام قلائل ، أن الدول المتحدة لا يمكن أن تفاوض إيطاليا أو تهادنها ما بقى النظام الفاشستى قائماً فيها ؛ وسواء أكان لهذا النداء أثر فى حدوث الانقلاب أم لم يكن ، فإن وقوع الانقلاب فى هذه الظروف ، دليل على اقتناع الشعب الإيطالى بأن تحطيم الفاشستية هو أول خطوة يجب اتخاذها لتمهيد السبيل لخلاص إيطاليا من محنتها .

أما الخطوة التالية التى يمكن أن تترتب على وقوع هذا الانقلاب فما تزال موضع الحدس ، وليس فى بيان ملك إيطاليا وبيان المارشال بادوليو ما يدل على أن إيطاليا تعتزم وقف الحرب فى الحال ، والقتال ما زال دائراً فى صقلية على أشده ؛ وتؤكد الإذاعة الألمانية كما تؤكد جريدة « فلكشر بيوباختر » وهى التى تنطق بلسان هتلر ، أن إيطاليا ستبقى رغم الانقلاب وفية لعهودها ، وستمضى فى الحرب إلى جانب حليفتها ؛ ومن جهة أخرى ؛ فإنه ليس فى بيان مستر تشرشل الذى ألقاه فى مجلس العموم عن الحوادث الإيطالية ما يدل على تفاؤل الحكومة البريطانية من هذه الناحية . وما زال مستر تشرشل ينذر إيطاليا بأن الحرب سوف تجتاح أراضيها حتى تنفصم عن حليفتها ألمانيا عدوة بريطانيا الأولى . ومع ذلك فقد استقبلت دوائر لندن وواشنطون الانقلاب الإيطالى بابتهاج واضح ؛ وقد يكون لهذا الابتهاج ما يبرره ، إذا صح ما يتوقعه البعض من أن هذا الانقلاب إنما هو تمهيد لانسلاخ إيطاليا من الجبهة المحورية ، وخروجها من الحرب ، وسعيها إلى عقد هدنة مستقلة مع بريطانيا وأمريكا . وهذا ما تشير إليه بعض الأنباء فى الواقع ، إذ يقال إن مفاوضات الصلح المستقلة بين إيطاليا والحلفاء قد بدأت بالفعل ، وأن الفاتيكان هو الذى يتولى أمرها . ومن الواضح أن نجاة إيطاليا من الهزيمة المطلقة والدمار الشامل تقضى عليها بسلوك مثل هذا الطريق ؛ ومع أن دوائر لندن وواشنطون ما تزال تؤكد بأن انهيار الفاشستية لا يغير موقفها فى وجوب التسليم بلا قيد ولا شرط ، فإنها بلا ريب ترحب بمثل هذه الخطوة من جانب إيطاليا ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن انهيار الجبهة الفاشستية فى إيطاليا لا بد أن يحدث أثره النفسى فى ألمانيا وفى الجبهة النازية الداخلية ؛ وقد يكون فوق ذلك نذيراً بتصدع الجبهة المحورية العسكرية ، وهو ما يقرب أجل الحرب ، ويقرب أجل النصر الذى تنشده الأمم المتحدة .

محمد عبد الله عنان

«أناتٌ حائرة»

للدكتور أحمد زكى بك

ذهبت باكراً إلى عملى بعد غياب قصير، فحملوا إلىّ البريد، فتناولت أخفّه، فقضيتُ منه حاجة. ودعانى داعى العمل فصرفنى عن أثقله. فلما نالت الأعاريب والموازين من يدى ما نالت، وأكدّ الجهر بصرى حتى أعجزه، وشاع التعب فى أرجل طال بها القيام إلى المناضد، آويت إلى مكتبى أستريح واستروح. وعدت إلى ما بقى من البريد، فأخذ بصرى منه كُتَيِّبٌ أبيض الغلاف، لا يقطع بياضه إلا غصنٌ عليه أخضر. ونظرت فى أسفل الغصن، فوجدت اسم الكتاب، أخضر أيضا: «أناتٌ حائرة». ونظرت إلى أعلى الغصن فوجدت اسم صاحب الكتاب، أخضر أيضا، فلم يحمل إلىّ معنى إلا أنه لا بد أن يكون شابا، فى أيام صباه الأولى، وإلا أنه من أسرة كريمة معروفة. ولاحظت أن الخضرة التى بها اسم الكتاب واسم صاحبه، خضرة باهتة مُستحيية لا تكاد تبين إلى جانب خضرة الغصن البارزة الجريئة، فأحسست كأن صاحب الكتاب يريد أن يتوارى، ولكنه لم يكدْ.

وفتحت الكتاب فى تهاون واسترخاء. وفتحته حيث ما اتفق. فقرأت كلمة كتبها صاحب الكتاب لكُبرَى بنتيه:

إسألى ربّك يُلهمكِ مع الصبر هُداكِ
واتّقى الخطب واستعْلى عليه بصباكِ
واذكرى أمك وابكيها ومن يبكى سواكِ؟
واحملى عبء أشقّائكِ ولا تنسىْ أباكِ

إذن ليس هذا بشاعر حدَث، وليس هذا بشعر حديث ركيك. فالشعر الحديث أكثره لا طعم له، فلا هو بالحلو ولا هو بالمرّ، وإنما هو شيء كبول البهائم، إن كُنتَ ذقته.

وأخذت أقرأ كلمة كتبها لوالده:

قد شهدْنا الخطبَ لما وقعا   ورأينا البيت حين انصدعا
فتبادلنا أنينا وألماً   ذابت الأنفس فيه قِطَعا
وتولانا وجومٌ ذاهلٌ   حبس الدمع وأجرى الهلعا
وأفقْنا فإذا نعمتُنا   لم تكن إلا سرابا لَمَعَا
ذقتَ فى سنّك ما قد ذقتَهُ   لحملنا اليُتْمَ طفلين معا
كُنْتَ بالصبر تلُذ أنت به   وبناسك ربُّ صبرٍ نفعا
واقطع العمر إذا استطعتَ رضا
وابتساما قبل أن ينقطعا
دانت الدنيا ورقّت ودنت   لفتى كافح فيها وسعى

فهذا الشعر من ذاك، كلاهما ينطوى على الجيمة صرة. والشاعر لابد رجل أصبح له ابن وبنتان. وأخذت أقرأ:

فقدتُها خَلّةً للنفس كافية
تكاد تُغنى غَناء الماء والزاد
وموئلا أجدُ الأمنَ الكريم به
إذا تعاوَرَنى بالبغى حُسّادى
تحنو علىّ وترعانى وتبسُط لى
فى غمرة الرأى رأى الناصح الهادى
مال الزمان بنا لما أحيط بها
فى ساعة لا فدى يُغنى ولا فادى
وكل عُمرٍ فمصروف إلى أجلٍ
وكل أنسٍ فمردودٌ لميعاد

فهذا لفظ جميل رفيع، يحمل عاطفة جميلة رفيعة، لا أدرى أيهما أجمل وأسمى. والقصيدة لاشك عزيزة كريمة. وأخذت أقرأ:

تمثلْتُها منصورةَ الحسن طفلة
يُضيء الدجا منها جبينٌ ومَبْسِمُ

وطاوية عهد الدراسة كاعباً
تروعك منها نضرة وتوسم
ومجلوة للعرس وضاءة السنى
تأوّد في وشي الشباب وتنعم
وجامعة في بيتها شمل بيتها
توسطهم كالبدر حفته أنجم
فحمولة منه إلى ساح مُفضل
يُقيل ويعفو عن كثير ويرحم
وقفت أناديها وأهتف باسمها
وألحف حتى أوشكت تتكلم
وقلت لها يا « زين » مامن تحية
تعاظمني إلا وقدرك أعظم
عليك سلام الله يا « أم واثق »
ووالاك من جدواه هتان يثجم
سيبكيك لا يفنى دموعا ولا دما
مدى العمر مقروح الجوانح أيم

أترى هذا القول فينا بروح بهيج ، أم هو أفق عجب ملتاع ؟ وتراه في مبناه ومعناه ، قولا حقيقاً جديراً بهذا الزمان ، أم هو بزمان كريم مضى أحق وأجدر ؟

وأخذت أقرأ في هذا الكتيب الصغير وأقرأ ، ساعة من الزمان ، حسبت فيها أني أقرأ للخنساء – لوعة مشبوبة وحزن مُلح .

ويذهب إلى « بيت عمر » فيقف فيها وقفة تحرك فيه الذكريات ، وترجع له أطياف ما مضى من أيام :

أيام نمرح في صبا وصبابة   موصولة الصبوات والأيام
إلفان مؤتلفان أمت عنهما
غير الزمان وهن غير نيام

***

طوفت بالبيت الحزين مسلما
فبكى وأوشك أن يرد سلامي
وجعلت أسأله وأسأل أهله   يجدي سؤال أو يفيد كلامي
أعرفتني يا دار أم أنكرتني
نهب الأسى والبث والآلام
كنا وكنت لنا مهاد رفاهة
ومراح خالصة وعش غرام
وضممتنا نصفين حين توافقا
حمدا السرى وعواقب الأيام
يا دار قد مال الزمان بأنسنا
وهوى بموثق شملنا الملتام
يا أخت آمال الصبا ومراحه
والضاحك النشوان من أحلامي
إن تبعدي فأنا القيمة لو عتق
ومودتي حتى يحين رحامي
أقسمت لا آوي لغيرك خلة
عهدي إليك على الندى وذمامي

ثم هو يصف ساعة الهول ، فيقول :

قلت هذا صدري تعالي إليه
رب صدر حان عليك شفيق
طالما تنثني بنظرة تجمع العطف (م) إلى الود والوفاء العميق
في طوايا صفاتها الشكر لله (م) وتصديق وعده الصدوق
خصها الله بامتحان غليظ
حملته تحمل الشكور المطيق
دفعت صدرها إلي وألقت
رأسها عند موجع ذي خفوق
ثم قالت في أنة وأناة
أزفت ساعة الفراق السحيق
لا ترع واحمل الفجيعة جلداً
لست للضعف دونها بخليق

وأشارت لطفلة تشهد الهول (م) بقلب دامٍ وجفنٍ غريق
قالت ارْعَ الأولادَ وابْقَ كما كنتَ (م)

مثال الأب المحبّ الرفيق
ومضت تجرع الحياة وتُلقِي
في زفيرٍ أنفاسها وشهيق
في سنى لامعٍ وعرفٍ ذكيٍّ
وابتسام عذب ووجه طليق
لو تراها تقول فسمتها النُّهى (م) فآوت إلى سُبات عميق
ووقفنا مروَّعين نُجيل الطرف
بين التكذيب والتصديق
ثم عُدنا للحق ما بين صرعى من مُفيق يَهذي وغير مفيق

ومضيتُ ، تدفعني القراءة إلى القراءة ، حتى أتيت إلى مقطوعات أسماها الذكريات ، لم أجد أقوى في تحريك القلوب منها . وأريد أن أقتبس منها فلا أدري ما آخذ وما أدع :

يُذكّرنيك كل جليل أمرٍ
وكلّ يسيره فتذوب نفسي
إذا ضحك الصباح فأنت همّي
وإن وقبَ المساء فأنت أنسي
جمعتِ على الهوى طرفيْ نهاري
كأنّي لم أرُعْ بسواك أمسي
رعاك الله ما فارقتِ روحي
وإن فارقتِ بعض الوقت حسي

• • •

ذكرتُ القصر ذا الأبهاء تعلو
قواعدُه على كرم وغرس
يرفّ رفاهةً وسنًى وبشرا
كما رفّتْ عروس يوم عُرس
ومرحِ أصادق ظلّ سُرُرٍ وخمرٍ غيرِ مُنتشعٍ وأُنس
فما زالت صروف الدهر تجري
بمكروهٍ من الأقدار نحس

قالوا كالنجوم الزُّهر حسنا
وما كانوا وحقّك غير نحس[1]
حلتِ مصيرهم فقضيتِ حزنا
فرحتِ شهيدةً تفديك نفسي

أفلا يذكّرك هذا الجرس ، بجرس البحتري في سينيته الشهيرة ، على اختلاف البحر واتحاد القافية !

ثم يقوم هو وبنوه إلى المائدة ، فتمثل "القاعد إلا مقعداً" واحداً ، فيقول :

تذكّرنيكِ أشياء أراها فينشطر الفؤاد لها انشطارا
إذا قمنا لمائدة مساءً وإن قمنا لمائدة نهارا
يطالعنا مكانكِ وهو خالٍ فتنتثر الدموع له ابتدارا
نُحيط به فنوسعه حنينا وتقديساً لذكرك وادّكارا
نرى بمصحافك الجُدد المثارا
وفي كرسيّكِ الأمل المُعارا
وما يُغْري فؤاد أبٍ حزينٍ كأطفال له تكبوا صغارا
لك كالشمس أشبهوا فأمسوا
وإن كنتُ الضنينَ بهم ، حيارى
وكانوا في فم الدنيا ابتساما فأضحوا أدمعاً فيها غِزارا

ثم هو يخرج في بلواه إلى بلد الله الحرام ، فيقف في بطحاء مكة ، ويقف على عرفات ، وفي عوالي منى ، وعلى قبر خديجة أم المؤمنين ، وفي يثرب ، وعند أُحُد ، فيطلق الشعر في جلال وخشوع ، ويذكر الماضي الأبيض البعيد ، ولكنه لا ينسى ماضيه الأسود القريب أبداً .

وقفت أناجي الله عند المشاعر
وقد خشعت نفسي وجاشت خواطري
فقلت له قد شفّها فأتيتها
ضنًى دبّ في حالٍ من العمر ناضر

(١) يشير إلى أخوتها الخمسة .

وحاقت بها الأحداث شتى شكولها
فلم تلقها إلا بإيمان صابر
أخ فأخ ثان فأخت فثالث
تهاووا دراكا كالنجوم الزواهر
تلقت على ضعف مصيبات فقدهم
فنامت بفداح من الخطب صاهر
وزالت كظل الفجر لم تخل روضة
تساهدها من عبقري المآثر
وقلت له يارب أقسم صادقاً وأنت عليم ربنا بالسرائر
فما برمت يوماً بداء ولا شكت
لغيرك ما قدرته من مقادر

أفلا يذكرك هذا بابن الملوح، صاحب ليلى، وقد تمسك بأستار الكعبة.

لست أريد التقصي، فدون ذلك ضيق المكان، فحسبي ما ذكرت. ولكن راعني أن القطع مؤرخة، ويقع تاريخها بين صيفين، صيف عام ١٩٤٢، وصيف عام ١٩٤٣. والوفاة حدثت على ما فهمت من السياق في يونيو عام ١٩٤٢. إذن فالكتاب كله مرثية واحدة، وإذن فهذا شاعر خلقه الحزن في يوم وليلة. ولكن قريحة الشعر لا تكتسب في يوم وليلة. فلعل الأصدق إذن أن نقول، إنه شاعر عريق، لأمر ما خبئ حتى أظهرته الفجيعة. ومن يكون هذا الشاعر؟ وعدت إلى غلاف الكتاب أقرأ: إنه يقول إن صاحبه عزيز أباظه. إني لا أعرف من الأباظية أحداً بهذا الاسم، غير مدير المنيا بالأمس، ومدير البحيرة اليوم. أفيكون هو صاحب الكتاب. كلا. وملكني العرق الجاري نواتي، فقلت كما يقول الناس: ولكن كيف يجتمع الشعر والإدارة! ثم تذكرت أني اقتحمت هذا الكتاب اقتحاماً كما تدخل الدار من غير بابها. تذكرت أن للكتاب باباً، أن له مقدمة، ومن عادتي أن أقرأ مقدمات الكتب أخيراً. فرجعت إلى المقدمة، فقرأتها، فإذا بها مقدمة حزينة باكية، كتبها الدكتور طه حسين بك، وإذا بظني يتحقق. نعم إنه المدير عزيز أباظة بك. وإذا بطه بك يملكه العرق الجاري نواتي كما ملكني، فيقول في مقدمته يتحدث إلى صاحب الكتاب: «لقد كنت متحرجاً يا سيدي من نشر هذه الصحف، لأنك لم تتخذ الشعر صناعة، ولأنك تكره أن يتحدث الناس عن مدير يقول الشعر». ولا أود أن أترك هذا دون أن أقول إن الذي خشيه المدير الشاعر حق. فالأدب كان بالأمس ذخيرة من ذخائر الحياة يأخذ منها كل مثقف بقسط. فكنت تعد في الأدباء والشعراء رجال الحكم ورجال الجيش والأمراء، أما اليوم فكاد الأدب أن يكون في بعض الأوساط سبة. وهي أوساط تسمو عن جد الحياة إلى عبثها، وترتفع عن علم الحياة إلى جهالتها. وعدا هذا فالمدير الشاعر، هو عند المديرين شاعر، وهو عند الشعراء مدير، لا سيما إذا هو أجاد. فقد غلب على أفكار أدبائنا وشعرائنا أن الأدب والشعر لا يكونان إلا احترافاً — لا يباعان إلا في دكان، له عنوان، وله رقم في السجل التجاري.

لك الهنئة يا صاحب الكتاب بشعرك، ولو أنك احترقت فيه. ولكن هكذا أعواد الطيب، لا تفوح إلا إذا احترقت - وغيرك يحترق فلا يكون لنا من عوده غير الدخان.

وقبل أن أختم لا بد لي أن أقول إن الكتاب ليس للبيع، رعاية لحرمة من أوحته. قال صاحبه في مقدمته:

«... فلن يراه الناس سلعة معروضة. ولن يقتنيه من الناس من ينقدني فيه دراهم معدودة. وإنما سيقتنيه منهم إن شاء الله من يعنيني أن أهديهم إياه، أو من يعنيه لمعنى من المعاني أن يستهديه فيهداه».

٢٤ يوليه ١٩٤٣ — أحمد زكي

من مذكرات جحا :

جحا غُرابا

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التي زعم أنها خط به الأديب الكبير جحا نفسه ...]

أريد أن أعيش في عالمي الذي لا يشاركني فيه الناس ، ولكن الناس يأبون على ذلك ويريدونني على أن أعيش في عالمهم برغمي . فهم يحاولون أن يحملوني على أن أكون مثلهم ، وأن أفكر مثل تفكيرهم ، وأن أسلك في الحياة مثل سبلهم ؛ فإذا أنا أبيت أن أفعل ذلك ، أو بقولي آخر إذا أنا لم أستطع أن أكون كما يريدون سخروا مني وضحكوا ، وأذاعوا عني في أركان (ماهوش) ، أني رجل مضحك لا أصلح لشيء غير أن أكون مسلاة لهم . بل أراهم أحياناً يتعمدون أن يتعرضوا لي لكي يروا كيف أفعل وكيف أتكلم ، ويلتمسون في أفعالي وأقوالي أنواعاً من الفكاهة . يالهم من مساكين ! إنهم لا يعرفون أني أضحك وأسخر في قرارة نفسي ، وإن كنت لا أقول لهم ذلك قولا صريحاً . فينصرفون عني بعد أن يصيبوا ما شاءوا من التندر والتفكه ، وقد امتلأت رؤوسهم الجوفاء بالغرور إذ يحسبون أنهم يرون رجلا أحمق يخلط في القول والعمل ، ويحمدون الله على أنه لم يخلقهم على شكلي ، ولم يجعل عقولهم الجوفاء مثل عقلي . وماذا عليّ من ذلك آخر الأمر ؟! فلأدعهم يظنون هذا كله فلن يضير في ذلك شيئاً ، فلست في حاجة إلى شيء مما في أيديهم ، ولست أطمع في إكبارهم ولا في مشاركتهم فيما هم حريصون عليه ، ولن أحرم نفسي متعة النظر إليهم وهم يضحكون ويسخرون ، وأنا أرى البلاهة تقطر من رؤوسهم . إن هذا الناس لا يريد المعرفة ولا يحرص على أن يفهم ، فماذا علي من ذلك ما داموا سعداء في جهالتهم وغرورهم ؟! يلومني صديق أبو النور على أني لا أحرص على أن أكون موضع إجلالهم ، ويظهر الألم كلما رآهم حولي يضحكون ويرأطون ، ولكني ضحكت من قوله ولم أجبه بحرف . وهل كنت لأستحق إجلالهم إلا إذا كنت عندهم مخوفاً ؟ الناس لا يعرفون عدلا حتى يمكن أن يجلّوا الرجل لفضله أو لعقله ، فهم لا يعرفون إلا الخشية من السوط ، سواء أكان ذلك السوط قوة جسم أم قوة سلطان أم قوة مال . فإذا هم أحسوا أنك لا تملك سوطاً تخيفهم به لم يحسوا نحوك شيئاً مما يسمونه الإجلال ؛ وأما إذا خافوك فإنهم عند ذلك يلوّنون خوفهم كما يشاءون وكما تشاء لهم أطماعهم أو رغباتهم ، فيكوّنون من الخوف حباً ، ويكوّنون منه احتراماً ، ويكوّنون منه إخلاصاً ، وغير ذلك من صنوف الحيل النفسية التي تخفي في باطنها الخوف والكراهة ، ولكن ما علينا . دع الخلق للخلاق يا جحا ! وحسبك أن تنظر وتضحك في قرارة نفسك ، وليضحك منك الناس جهرة لعل ذلك يجعل لهم الحياة أحلى أو أكثر خداعاً . وحسبك كذلك أنك تعرف أن سخريتهم منك تنطوي على محبة لا يشوبها خوف ، وهل فوق المحبة مرتبة عند مثلي ممن يقدرون المعاني السامية ؟

كنت بالأمس أسير في الطريق وأنا مشغول القلب بالصورة الحبيبة ، صورة علية ابنة السلطان . فهي دائماً هناك لا تغادر بصيرتي في سير ولا في قعود ، ولا في صحو ولا في منام . وكنت أحمل في يدي قطعة من اللحم اشتريتها من السوق لكي تكون عشاء عيالي . فلم أشعر وأنا غارق في تأمل تلك الصورة الحبيبة إلا وقد انقض طائر — أظنه كان غرابا — فاختطف قطعة اللحم مني ، ثم أسرع كما ينبغي لطائر ماهر مثله فكان فوق نخلة عالية في مثل لمح البصر ، وجعل يأكل قوت عيالي على مرأى مني وأنا عاجز عن مطاردته واستعادة قطعة اللحم منه . فوقفت أحدث نفسي عن ذلك الطائر الخبيث ، وشغلني ذلك الحديث عن صورتي الجميلة حيناً ، وتواردت على قلبي خواطر كثيرة ازدحمت عليه كما يزدحم أهل (ماهوش) حول الحاوي أو حول الأنوار في عيد من الأعياد .

فقلت لنفسي حانقا :

— أهكذا يخطف هذا الغراب الخبيث مالى ، وأنا ساه مثل الطفل الأبله ! ولكن نفسي ردت قائلة : — مالك ! ثم ضحكت ساخرة منى . فتنبهت عند ذلك إلى نفسى وإلى قولها وسخريتها ، وجعلت أتأمل الحقيقة . أأقول مالى ؟ ولمن أقول هذا ؟ قد يكون هذا القول مفهوما إذا قلته للإنسان ، ولكن الغراب لا يفهم معنى لهذا اللفظ ، ولا يحس أنه قد ارتكب جريمة شنعاء عند ما خطف قطعة اللحم منى .

وجعلت أفكر في هذا المعنى وأسترسل فيه حتى تحول حنقى إعجابا ، وغضبى سماحة ورضاء . حقاً إن الحيوان يأكل إذا جاع ، وهو يأكل مما يجد دونه من الطعام لا يسائل عنه نفسه ، ولا يسائل عنه سواه ، ولا يتعب نفسه فى التفكير هل ينبغى له أن يطعم من ذلك الصنف ، أم أنه لا يحل له . فكل طعام يستطيع أن يأكله حلال له ، لم يخلق إلا لكى يكون طعاماً له . فالفار الذى يقرض الكرسى لم يفعل ذلك لكى يغيظ صاحب الأثاث ، لأنه لا يعرف الخبث ولا الضغينة ، بل هو يأكل ما ساقه الله إليه من رزقه ؛ وهو إذا دخل إلى مخزن الدار ، فأصاب من قمحه أو من أرزه أو بل ريقه ببعض سمنه ، لم يفعل ذلك لكى يؤذى أحداً بل ليأكل ولا شىء غير ذلك . وهذا الفار بغير شك أقرب إلى حبى واحترامى من كثير من الناس ، لأنه على الأقل لا يصيب من أى طعام إلا ما يسد جوعته ثم ينصرف لكى يطيع نداء آخر من نداء الطبع الذى فطر عليه ، لا يعرف قيداً ، ولا يشعر بجريمة فى قرارة نفسه . وأغلب ظنى أن الفيران إذا دخلت إلى عقولها تلك المعانى التى عند الإنسان لصارت مثل الآدميين شقية سخيفة ، ولفقدت عندى كثيراً من عظمتها . ولما استرسلت فى هذه الخواطر حدثت نفسى متمنياً لو كنت غرابا لا تقيدنى بالأرض كل هذه القيود المختلفة ، بين قيود مادية وقيود أخرى معنوية ! فلو كنت غرابا لاستطعت كل يوم أن أرى علية ابنة السلطان ، وأتمتع بالقرب منها فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، لا يقف دونها حراس ولا حجاب ، ولا تمنعنى من الاقتراب منها أسوار ولا أبواب . ولو كنت غرابا لما قيدتنى تلك القيود المعنوية التى تمنع من اختطاف ما يحلو لى أن أخطفه إذا كنت فى حاجة إليه !

وفيما كنت أفكر فى هذا ، لاحت لى على مسافة قريبة منى امرأة تحمل فوق رأسها صحفة واسعة فوقها طبق عظيم لا أدرى ما فيه من صنوف الطعام ، إلا أنى رأيت ديكا عظيما بارزاً فوق الطبق ، لا يزال الدخان يتصاعد منه ، وكأن بدهنه لا يزال يطش رذاذا . فلم أدر ماذا كان منى ، إذ وجدت دافعاً قوياً يدفعنى لتجربة نفسى ، لأرى هل أصلح أن أكون مثل الغراب ! فلم أدر إلا وقد اندفعت نحو المرأة ، وفى مثل سرعة الغراب خطفت الديك ، وأسرعت أجرى بما استطعت من قوة حتى علوت ربوة قريبة منى ، فتوغلت فيها حتى بلغت أعلاها وأنا ألهج من التعب . وقلت لنفسى : فلأجرب أن أقف هنا لآكل من هذا الديك . ولكنى ما كدت أمد يدى إلى فمى بقطعة منه حتى رأيت جمعا عظيما من هؤلاء الماطلين الذين لا يكادون يرون حركة حتى يتجمعوا ويتدخلوا فيما لا شأن لهم به ، فإذا بى فى حلقة صاخبة غاضبة من قوم يشبهون أن يكونوا قردة تصرخ ؛ وفى برهة قصيرة تشبه لمح البصر رأيت الديك قد نزع من يدى ، ولم يبق دونى إلا نظرات حانقة ، وألسنة مبلبلة ، كل منها يسأل ، وكل منها يسب ، وكل منها يهدد !!

وأمسك بعضهم بتلابيبى يريدون أن يذهبوا بى إلى القاضى لكى أنال عنده عقابا على جريمتى — نعم جريمتى — فإنى قد اقترفت سرقة منكرة فى الطريق الأعظم من مدينة عامرة ، مدينة ماهوش .

فتذكرت عند ذلك أنه لا حيلة فى التحلل من قيودى ما دمت إنسانا . ونظرت حولى ألتمس المعونة ، وكان مظهرى بلا شك يدعو إلى الشفقة ؛ فقد لاحظت أن فى الجمع جماعة تحركت فيها الشفقة ، وجعلت تدافع عنى وتحاول حمايتى ، ولكن دفاعهم عنى كان دفاعاً عجيباً ،

على هامش الشعر الجاهلي :

مع النابغة الذبياني

على أطلال دار « نُعْم »

لما بلغ الركب مشارف نجد ، وترك القارة السوداء عن يمينه ، واستقبل تلّ بني عامر ، أحس الشاعر بفرحة غامضة تشتمل عليها ضلوعه ، ويرقص لها قلبه ، ولم يعرف لها سبباً ؛ حتى إذا بلغ الركب ذروة التل ، وتكشّف له الفضاء الرحيب ، ومن حوله تلال الرمل الأحمر آخذ بعضها برقاب بعض ، وهي تتموج تموج البحر ، لينة رخوة تود النفس لو نامت عليها ثم اتخذت منها جناحين ناعمين طارت بهما في أجواء حلم فاتن ، والعَلَم الشرقي يلوح من بعيد بأوديته القاحلة ، وصخوره المهولة ، ودون ذلك كله السهل الأفيح ، وغديره الذي لا ينضب ، والنخلات الطيبات به إطافة العاشق بمنزل الحبيب ... هنالك أدرك الشاعر سرّ فرحته : هذه ديار نُعم !

وأقبل الركب ينحدر عن التل ، وقد مدّت الإبل أعناقها ، فسالت بها تلك السفوح والحدور ، واستطاب السَّفْر الإغذاذ ، فضربوا بطون الإبل ، يغتنمون لين الأمسيّة وطيبها ، بعد حرّ الهاجرة واشتعالها ، ليبلغوا الغاية بعد ما طال عليهم السفر ، وقطعوا فيه سواد إحدى عشرة ليلة وبياض نهرها ... وإذا الشاعر يصرخ فيهم صرخة ممعود الفؤاد حزين :

عوجوا فحيُّوا لنعم دِمنة الدار

ويلطم عنق ناقته لا ينتظر جواباً ، فيحوّلها ذات اليمين ، وينطلق يحدوه الشوق ، وتدفعه الذكرى إلى ديار المحبوب . ولم يشأ أصحابه أن يتركوه بهيم في هذه القفار وحيداً ، فتبعوه عن كثب ، يخافون أن تنكأ الدار جراح قلبه ، ولمّا يبرأ من داء الغرام .

كان الشاعر ضاحك الوجه متهللاً ، كأنما قد رجع إليه شبابه الذي ولى منذ حين ، وعادت لياليه البواسم ، فلم يكد يبلغ الحي الخالي ، ويراه قفراً يباباً ، حتى وقف وغمرت نفسه كآبة طمَسَت على وجهه ، فلاحت ظلالها في عيون الرفاق ، فأحزنهم مرآه ، وفاضت نفوسهم بالرثاء له والحدب عليه ، وودوا لو استطاعوا أن يواسوه ، ويرفعوا عنه وقر الذكريات ؛ فأحاطوا به وعيونهم تنطق بأبلغ آيات الحب والإشفاق ، ولكنهم احترموا صمته وأساه ، فلم يحركوا ألسنتهم بكلمة .. وظلت أفكار الشاعر شاردة

أقرب إلى أن يكون سباباً وإهانة منه إلى أن يكون دعاباً — فقد جعلوا يتوسلون إلى الجمع ويستعطفونه عليّ بحجة أني رجل غريب الأطوار ، لا أسأل عما أفعل — حتى استطاعوا أن يلينوا القلوب نحوي ، فإذا بالناس ينقلبون من الغضب إلى السهولة والابتسام ، وجعلوا يسألونني عما دفعني إلى ما فعلت ، فلم أجد لهم جواباً إلا أن قلت لهم الحقيقة — فقد قلت لهم إني كنت أجرب هل أستطيع أن أكون غراباً ! ولكنهم بدلاً من أن يفهموا أو يقتنعوا ويذهبوا في سبيلهم ، علا ضحكهم ، وجعلوا يستعيدون قولي وهم يتغامزون ويتفكهون ، حتى مللت وسرت من وسطهم راجعاً إلى منزلي يائساً من قوة إدراكهم ؛ وعولت فيما بعد ألا أكلم الناس إلا على قدر عقولهم ، وألا أحاول أن أصدقهم ، فإن الناس لا يفيد في معاملتهم إلا أن تخدعهم وتكذب عليهم . ولكني بعد حين قليل عدت إلى صورتي الحبيبة ، وصرت أتأملها . وماذا عليّ إذا كان الناس يضحكون وراء ظهري ويسخرون مني ؟ فليفعل الساكن ما شاءوا ما دام في ذلك إسعاد لهم ، أو تعليل بخداع . وحسبي أنا هذه الصورة التي في أعماق قلبي ، وهذا العالم الساكن الذي أعيش فيه وحدي !!

طلق الأمل — مجهبا

كأنما هي ضائعة في الفضاء ، فطفقوا يثيرون انتباهه إليهم ، ويحاولون أن يشعروه بأنهم حوله حتى يعود إلى حاضره ، وهو غارق في لجج الماضي ، يفكر في المرأة التي أحبها وأحبته ، ويلمح وجهها طالعاً عليه من كل صوب ، ويرى عينيها اللتين حباهما الله زرقة السماء ، وعمق البحر ، وجعلهما مرآة تتجلى فيها ألوان العواطف : فهما تضحكان بلا صوت ، وتبكيان بلا دمع ، وتغضبان وترضيان ، وتعطيان وتمنعان . وإن من الجمال لما يثير الشهوة ، وينطق بلغة الغريزة ؛ ولكن جمال « نُعْم » يثير الحنو والعطف ، ويهيج في النفس الحب ، فتفنى حاجات الجسد في مطالب الروح ، وترفع إلى عالم كله طهر ، وينسى من رآه دنياه حين تغمره لذات هذه الدنيا الصغيرة من الجمال ، ويجمع أهواءه المتفرقة في هوى واحد ، هو القرب منها ، والاطمئنان إليها ، والفناء فيها ...

وجعل يطوف بالحي طواف العابد المتنسك بالبيت الحرام ، يخيَّل إليه الوهم أن الحبيب دانٍ والشمل مجتمع . ثم صحا وانتبه ، فإذا يده صفر من هذا النعيم كله ، وإذا الحياة قد ماتت في الحي ، وخرب العمران ، وامحت صفحة من أمتع صفحات الحب والجمال ، فلم يبق منها إلا بقايا سطور . هنا كانت خيمة الحبيبة مهوى أمانيه وكعبة آماله ، وكان نعيمه كله في أن يجلس فيها مع « نعم » ، فتناجيه بأسرارها وتفتح له قلبها ، ويبيحها أسراره ويكشف لها من قلبه ، وتلك هي غاية ما يبلغه المتحابون :

أيام تخبرني نُعْمٌ وأخبرها
ما أكتم الناسَ من حاجي وأسراري

وهنا كان موقد أهلها ، طالما جالسها عنده تأنس روحه بقربها ، ويحيا فؤاده بنجواها ، وينتعش قلبه بأنفاسها التي لو لامست حرارتها الجلمد لوهبته الحياة ، فكيف بقلب الشاعر ! فلم يبق من خيمة الحبيب إلا هذه الحفرة التي كانت تحف بها تمنع عنها المطر ، ولم يبق من موقدها إلا تلك الحجارة السود ! وتبلجت الحقيقة للشاعر المسكين ، وانتابه الخجل مما حمّل رفقته من عناء الوقوف

على دار الحبيب والدار قواء ، قد عبثت بها الرياح الهوج ، وألبستها ثوبا من التراب ، فأقبل يسائلهم وفي نفسه وجمة الخجل ورنة الأسى :

... ...

ماذا تحيُّون من نُؤيٍ وأحجار
أقوى وأقفر من نعم وغيره
هُوجُ الرياح بهابي الترب مَوّار

وبهم أصحابه بالرحيل لطيتهم ، يحسبون الشاعر قد آب إلى نفسه ، واشتفى من زيارة الدار منه ، ويسايرهم ويريد براحاً ، ولكنه لا يستطيع ، ويجد نفسه معلقاً بالديار قلبه نهب بأيدي الذكر ، وحياته مبعثرة في نواحي الربع ، فيقف ناقته المأمونة ، ويرجع ليسأل الدار عن نعم وآلها :

وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أموناً عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلَّمتنا ذات أخبار

والدار سجل الماضي الحلو ، والدار كتاب الحب ، فيها ولد ونما ، على هذه التلال الطرية القائمة ، في الليالي الساجية ذات النجوم السواهر ، وفي ظلال تلك الشعاف البعيدة ، في مدخل الوادي الملتوي الرهيب ، إذ ينفردان فيه في شدة الهاجرة ، يأويان إلى ظله وبرده ، فيحيله الحب جنة عدن ؛ وعلى الغدير إذ يصب فيه القمر زلاله الصافي النمير ... كم شهدت هذه المغاني من صور الحب ، وكم حفظت من ذكرياته !!

خبري يا دار عن الحبيب وآله ماذا حلّ بالحبيب ؟ يا دار قد ذهبت المجالس ، وقوِّضت الخيام ، وأقفرت من أهلها المنازل ، أفيمحى الحب من الوجود مثلما امحت منازله ... أيفنى الغرام ؟ إن الروح باقية يا دار فلماذا لا تبقى العواطف ويخلد الشعور ؟ ... أو ليست الذكرى من الماضي كالظل من الشاخص ... خبريني إذن يا دار عن حبي ، إن ذكراه لا تزال حية في نفسي ، فأين الحب ؟ أيكون ظل لشيء وليس من شيء ؟ ألماضي حقيقة قائمة ووجود ملموس ، وأين مكانه في هذا الكون ؟ أهو شيء وراء المادة ، أم هو منها وفيها ، أم هو قد فني إلا صورة

له في الشعر هي هذه الذكرى ؟ أو تكون الذكرى هي العذاب لنا والنسيان هو الدواء ؟

أيموت الحب كما يموت المحبوب ؟ ما الحب ، ما البغض ، ما الحياة ؟ خبريني يا دار ماذا صنعت بحبنا وما استودعناك من أنفاسنا الحرار ؟ أبردت هذه الأنفاس واستحالت هواء تصفر به الريح ؟ ووسوسة القبل ، أسكنت (عزائها) وعادت صمتاً ؟ وذلك الحديث الذي كان كأنه قطع الروض الممطور ؟ وأين أثر أقدامنا حين كنا نسير والحب ثالثنا ، ومع الحب الطهر والعفاف ؟ أين يا دار ذهب أمس بما يحمل من شعورنا وعواطفنا ؟ أين ينصب نهر الزمان ؟ هل يلتقى الشيخ المهدم بالشاب المتوثب الذي كان يوماً إياه ؟ أين ذلك الطفل الذي كان يوماً (أنا ...)

ماذا حل بنعم يا دار نعم ؟ لقد سمع القمر نجواها وحديثها ، وحمل النسيم طيبها وأريجها ، وألبسها الشمس حلة من نورها ، وكستها الأمطار ثوبا من قطرها ، فهل تخبرني عنها الشمس والقمر ، وهل يحدثني حديثها النسيم والمطر ؟

لقد كنت في نعيم مع «نعم» ، فمالى أجد هذا النعيم أحلى كلما أوغل في البعد عنى ؟ مالى أحن إلى الماضي كله وأرى سعادتي فيه أكبر كلما ألقيت بيني وبينه من الأيام سجف وأستار ؟ مالى تلذني مآسيه وتؤلمني أفراحه ، الأني فقدتها وخرجت من يدي ؟ ماذا عندك يا دار ؟ خبري !

يا أسفي !

استعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

* * *

وراجع الشاعر ذكرَه وأساه . لقد تركت الدار تفيض بالحياة ، وتضج بالأحياء ، تعيش للحب والحرب ؛ وتلك هي حياة العربي في جاهليته ، وقف على قلبه وسيفه ... وإذا احتضن الجبلُ الشمسَ الغاربة ، اجتمع الحي على الغدير ، فتشرق فيه شموس جمة وأقمار ، من كل فاتنة الطرف فضة الإهاب ، ذات حُسن غير مجلوب ؛ فتدور سوق الغرام ، وينشأ الحب من النظرة الأولى (وأنف السيكولوجيين راغم) ؛ ويعيش هذا المولود قويا مدللاً ، وإن لم يستكمل مدة حمله ، وإن ولد (على رأيهم) قبل أوانه ، وينمو طاهراً لا تعلق به ريبة ، ولا يدنسه خاطر سوء ، غذاؤه النظر والكلام ؛ هو حب الصحارى لا يعيش في المدن ، ولا يدرى به علماؤها ... وإذا أصبح الصباح ، وأضحى الضحى ، وتسعرت الشمس وتلظت ، وبدا الموت من وراء الرمال المتأججة كالح الوجه كاشراً عن نابه ... عصفت في الحى صرخات فرسانه الذين لا تثنيهم الهواجر عما نذروا نفوسهم له من المجد ، يطيرون بخيولهم إلى الفلوات الفيح والبيد القفار ، يحملون لبنى المعمومة الموت الأحمر على ظبا الأسنة وشفار السيوف . لم يكن قد بعث الله لهم بعد من يعلمهم أن المجد في إعلاء كلمة الله ، لا في قتل بني المعمومة ونهب أموالهم ، ولم يكن قد جاء من يقودهم إلى قرطبة من هنا ، والسند من هناك ، فيكتبوا تاريخهم في سطر طويل يمتد من الأندلس إلى الصين ، عنوانه : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ؛ وخلال ذلك رباب البيوت يهيئن الحياة الرغدة لأولئك الفرسان البهاليل ، فلا تجد في الربع إلا عاملاً كادحاً لا ينسيه الحب آماق المجد ، ولا يسليه المجد عن أحلام الحب ...

فلم يبق الشاعر من هذا العالم كله الذى خلفه يوم ارتحل ، إلا الحجارة التي كانت موقد النار ، وهذا النبت الضعيف الواهي الذى لا تحمله سوقه ، فيمتد على الأرض عاجزاً ..

فما وجدتُ بها شيئاً ألوذ به إلا الثمام وإلا موقد النار

* * *

وكأن الشاعر قد اختبل ، ولم تحمل أعصابه هذا الهول كله ، وعرته جِنّة فانطلق ينادى وهو هائم على وجهه في الربع القفر : نعم .. يا نعم ! هأنذا أتيت فتعالى . لقد جئتك بأمتع أحاديثى وأجمل أشعارى ، يا نعم ! مالك لا تجيبين ... لقد طفت بالربع كله ، جست خلال الخيام ،

وأممت التل ، وألممت بالوادى ، وجثوت عند الصخرة ، فوجدت ندى الحب ، ولمحت طيف الذكرى ، وشممت عطر الماضى الحلو ، ولكنى لم أجدك أنت ! فأين أنت يا نعم؟

وطفق يضحك ضحكا مروعا أجفل منه الرفاق ، وأمسكوا قلوبهم بأيديهم ، وحبسوا أنفاسهم حزناً على الشاعر الذى جُنّ حقاً ، وجعل يعانق شيئاً يتوهمه فى الفضاء ... ثم سكت فجأة ، وجذب رفيقه الحارث إليه ، فجعل يشير له إلى بقعة غامضة فى الفضاء ، ويقول له ..

... ... ثبت نظرة حارِ
ألمحة من سنا برق رأى بصرى ... ...

فيحار الحارث ولا يدرى بماذا يجيب ، وهو لا يرى برقاً ولا يبصر شيئاً ، ولا يقدر أن يفجع الشاعر بأحلامه ، فيزيده جنة فيسكت مقتاعاً .

... ... أم وجه نعم بدا لى أم سنا نارِ

ويسكن الشاعر ويعلو وجهه إشراق وابتسام ، فيسير مرحاً وهو يهمس همساً ناعماً ، فرحان مبتهجاً .

بل وجه « نعم » بدا والليل معتكرٌ
فلاح من بين أثوابٍ وأستار

ويغمر حسّه خيال « نعم » ، ويملأ خواطره وشعوره ، ويرى عينيها فيحس كأنما دارت به الأرض ، وهو يحدّق فيهما ، ثم أسرعت فى دورانها ثم اختفت بما عليها ولم يبق فى الوجود إلا عينان ، قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر . وخالط نفسه الميل إليها والرهبة منها ، والحب لها والإكبار ، والرغبة فى امتلاكها وإفنائها فيه ، والاستسلام إليها والفناء فيها ! واختلطت عليه المشاعر فلم يعد يعى شيئاً إلا أنه يعيش مرة ثانية فى الماضى الحبيب ، فأعاد طوافه بالربوع التى كانت مهد غرامه وجنّة أحلامه . والرفاق ينظرون إليه ولا يقدرون له على شىء ، وطيف « نعم » ما يفارقه فصورتها فى ناظريه نقيّة حلوة ، مخلوقة من النور ...

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها
لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

وعطرها فى أنفه ، لا العطر الذى تستعيره الحسان من الزهر ويستجدينه الروض ، بل العطر الذى تقبس الوردة منه فتلبه على زهور الحقل بأريجها ، وتأخذ منه الزنبقة فتختال منه عجباً ، وتشبه الفلّة فتميس بين الرياحين دلالا ، لا تمس « نعم » الطيب إلا لتطيبه بها ..

والطيب يزداد طيباً أن يكون بها
فى جيد واضحة الخدّين معطارِ

ويهمس الشاعر فى أذن الطيف الذى يراه أحاديث الغرام ، ويبثه الشوق المبرح والحنين الطويل ، والطيف صامت لا يجيب ، فتخالطه الحسرة والكمد ، ولا يدرى لهذا العتب سبيله ، ويود لو فداها بروحه وأعتبها . ويقبل على الرفاق يقول لهم وما قوله إلا صدى أفكاره ، ورجع ما فى نفسه من الحسرات :

بنت علىّ على الهجران عاتبة
سقياً ورعياً لذاك العاتب الزارى

ويخاف الرفاق أن يطول بالشاعر تذكره ، أو يعود إلى جِنّته ، فلا يزالون به حتى يصحو من سكرته ويعود إليهم .

* * *

ويولى الركب عن دار « نعم » ، والشاعر منكبٌّ على راحلته صامت كئيب : يفكر فى دار الحبيب ، وهى خلاء قواء ، تنشد فيها الرياح أناشيد الفناء : لا الحب عاد ولا عادت لياليه ، ولا الشباب آب ولا آبت مجاليه ! وإنما هى الذكريات انبعثت فى صدر الشاعر فهدت أركانه ، وضعضعت بنيانه ، وشعبت فى قلبه شعبة تفجّر منها الشعر صادق اللهجة ، ملتهباً بالعاطفة ، قد خرج من فؤاد اشتكى من نار الجوى — يبكى به الحبيب على أطلال دياره — فكان بيت القصيد فى ديوان الغزل .... وكان سيد شعر العاطفة ...

وانتشر الليل . ومشت القافلة صامتة ، قد سكت فيها الحادى وخشع الرفاق ؛ حتى لفها الظلام فى طياته ...

دمشق (دوما) — المكتبة العربية « ع »

في اليوميات :

يوميات مسلولة

انبثقت في حقول الثلوج زهرة ناصعة البياض ، مرهفة الوجه ، ضاوية القوام ، ساهمة القسمات ؛ لا يكاد يبدعك من شبحها الطائر إلا عيون نافذة الأعماق ، تحدّق بنظراتها الرفافة الرجراجة في آفاق باطنة وأخرى ظاهرة ، أحاطت بها جماء هالة من السر الغريب ؛ عيون كأنها نجمة المساء في غسق ليل مبترد ؛ ثم خصلات هائمة من الشعر الرقيق تهدلت على جبينها الوضىء في حركة عصبية عنيفة ، وقشعريرة مهتاجة تؤذنان عما عليه صاحبة هذه الخصلات من قلق ولهفة وطموح نزق . وهذه كلها لمحات جسمانية تناظرها تمام المناظرة صفات روحية : فهي طائف ملائكي لم يكن مقدرا له أن يبقى على الأرض الغليظة غير سنوات قلائل معدودات ، ولكنها قضتها مليئة خصبة ، وكأنها الأعوام الطوال . وهي فتاة طاهرة طهارة ذلك الثلج الذي استمدت منه عنصرها ، فكان لها منه برودها القاسي في تحليل حياتها الباطنة ، وتشريح ما تعانيه من عواطف رقيقة لا تحتمل أن تمس إلا في رفق ، فلا تلبث أن تستحيل إلى تصورات مجردة تغادرها الحياة بعد أن نضب منها الدم ، وفارقتها الحرارة الأولى ؛ وهي طموح تتوثب في قوة هائلة نحو مجد تخشى أن ينتهي عمرها دون أن تظفر به ، فتدفعها هذه الخشية إلى الهذيان ، وكدت أقول إلى الجنون ؛ فهي الطموح بعينه ، وهي إرادة المجد المتجسدة ، وهي تتعلق بالحياة في شبق هائل ، لأنها أحست بنفسها منذ البدء كغريق يصارع الموت في يأس غضوب ، لا يعرف التسليم حتى النهاية ، وإن كان على تمام العلم بما ينتظره من مصير . فكانت تستعجل كل شيء ، وتحيا مقدمًا ما لن يقدر لها أن تحياه بعد من سنين . وما ظنك بفتاة عبقرية مبكرة النضوج كلها ذكاء ، وإرادة حياة ومجد وقوة ، وعلم طافح بأبعد الأماني ، زاخر بأنبل الأحلام ؛ ما ظنك بهذه الفتاة ، وقد أصابها السل وراثة من أبيها ، بل ومن أسرتها كلها ، وتربية من طرزها وضريبها ، إن جاز أن ينتقل بالتربية هذا الداء العياء ؟ أجل ، إنها الفتاة ملطمة بالموت منذ الميلاد ، وما حياتها القصيرة العابرة إلا كحياة محكوم عليه بالإعدام في الأيام الأخيرة السابقة مباشرة على تنفيذ الحكم ، حياة كلها جزع وترصد ، ولكنها مع هذا — أو لهذا — مليئة هائلة حافلة ، حال المرء فيها هي حال « اليوفوريا » المعروفة ، وهي حالة طافحة بالسرور واللذة المرّة ، لأنها حافلة بالفعل الباطن العالي الدرجة والشدة .

وهذه الزهرة الشتوية الفذة التي أذبلها السل في الرابعة والعشرين ولكن عبيرها لا يزال زكيا ، يفوح بقوة ونفوذ في أنوف اللائين من الفتيات ذوات النفوس العالية ، والإحساس المرهف ، والطموح الشارد ؛ هؤلاء اللائي استبدلن بأناقة الأزياء سمو الأفكار ، وبزهو المساحيق لمعان الروح ، وبفتنة الزينة جلال الثقافة ، فكن في الأحلام الصافية غارقات ، وعلى أبواب المجد واقفات مترصدات ، وإلى نبالة الحياة وعمقها وشدة الشعور بها ملتهفات — هذه الزهرة التي سموها في سجل الآدميين ماريه بشكيرتسيف ، هي التي نريد أن نقدم صورتها من خلال « يومياتها » إلى لدات هؤلاء من فتيات هذا الوطن ، إن كان فيهن من ينتسب إلى من وصفت من قريب أو بعيد .

كان ميلاد ماريه في مدينة جفرونتسي في مقاطعة حكومة بلطافة بإقليم أوكرانيا (روسيا) في الحادي عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٦٠ ، وسط السهوب الفسيحة المغرقة في صوفية ، غريبة هي مزيج من التسليم الخاشع ، والفناء الذي يصبو إلى الاتحاد بالوجود ، والحنين إلى انتظام كل شيء ، والإحاطة بالطبيعة كلها . وهي صوفية مميزة للروح الروسية كلها ، كما تظهر في كل ما أنتجته من آثار ، لأنها خاصة بالسهوب الروسية وحدها ، ولا تثيرها غيرها ، وماريه قد عبرت عنها أجمل تعبير ، فقالت في « يومياتها » (١١/٣/١٨٨٤) :

« يبدو لى أنه لا يوجد شخص واحد يستطيع مثلى أن يحب (الكل) مثلى . فأنا أحب الفنون والموسيقى والتصوير والكتب والعالم الدنيوى «والأزياء» و«الترف» والضجة والسكون ، والضحك والحزن ، والهموم والسرور . والحب ، والبرد ، والشمس ، أحب الفصول جميعها ، والأحوال الجوية كلها ، والسهول الساكنة فى روسيا ، والجبال حول نابلى ؛ أحب الثلوج فى الشتاء ، والأمطار فى الخريف ، والربيع بأحواله الجنونية ، وأطراف النهار الهادئة فى الصيف ، والليالى الجميلة ذات النجوم البراقة اللامعة ... إنى لأعبد كلّ شىء ، وأحب بكل شىء . فكل شىء يتمثل لى على أوجه شائقة ، أو أنحاء سامية ، وبودى لو رأيت كل شىء ، وتملكت كل شىء ، وأحطت بكل شىء ؛ بودى لو فنيت فى كل شىء ، ثم أموت — ما دام ذلك ضروريا — بعد سنتين أو بعد ثلاثين ؛ أموت وأنا فى حال من الوجد ، كى أذوق هذا السر الأخير ، هذه النهاية لكل شىء ، أو هذا البدء الإلٓهى . وهذا الحب الكلى ، ليس إحساساً من أحساس مسلولة ، وإنما كنت هكذا دائما » . فليس هذا النزوع نحو الكل إذن صادراً عن عرَض طارئ ألمّ بها وحدها ، بل هو الصفة التى ورثتها عن الطبيعة فى بلادها ؛ فهى إذن ابنة مخلصة للروح الروسية تمثلها فى خاصية من أبرز خصائصها ، بل هى تمثل روسيا الحقيقية ، روسيا الأسيوية المتجهة بروحها نحو الشرق ، لا روسيا الزيفة المستغربة المتجهة بعقلها صوب أوربا ؛ خصوصاً وأنها تنسب من ناحية أجدادها لأمها إلى التتر الذين غزوا روسيا فى غزوتهم الأولى ، فأمها من أسرة تدعى باباتينا ، وهى أسماء تترية ، أسرة نبيلة من نبالة الأقاليم العريقة .

ولكن ، كان لابد لها أن تستغرب بعقلها على الأقل ، شأن غيرها من المثقفين الروسيين ، وبالتالى كان من الضرورى أن تكون روحها مسرحاً لهذا الصراع العنيف الذى نشاهده عند هؤلاء جميعاً ، أعنى الصراع بين الروح الروسية المتسلمة الصوفية المتدينة ، التى تحيا بعواطفها الغامضة ، ونوازعها الخفية ، نحو وحدة الوجود والاتحاد بالكون ، وبين الروح الأوربية العقلية ذات الإرادة المتوترة ، والنزوع نحو اللانهائى للظفر به لا للفناء فيه . وكان هذا الصراع قوياً لديها بوجه خاص ، لأن ظروفها الخارجية قد جعلتها تقضى الشطر الأوفر من حياتها متنقلة فى ربوع أوربا ، بين فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، حتى انقطعت صلتها بروسيا أو كادت فى سن مبكرة ، أعنى فى سنة ١٨٧٠ ؛ وكانت معظم أوقاتها فى فرنسا ، حتى جعلت منها وطنها الثانى ، واتخذت لغتها أداة التعبير لديها ، فلم تكتب إلا باللغة الفرنسية ، ولم تجد من يقدرها حق قدرها غير الفرنسيين .

ويظهر هذا الصراع عنيفاً كأعنف وأعمق ما يكون الصراع حين يتصل الأمر بالمسائل التى تنتسب إلى ميدان العاطفة والروح أكثر من أن تنتسب إلى ميدان الفكر والعقل ؛ وعلى رأسها المسألة الدينية ، وهى مسألة كثيراً ما تعرضت لها فى إلحاح رشيق ، وقلق دقيق ، وتردد لا يخلو من البراعة الساحرة والتهكم النافذ . فنراها هنا مترجحة بين ما تمليه عليها روحها الروسية من إيمان ساذج مقبل على كل شىء فى غير ما تحفظ شكوكى ، ولا قلق نفسى ، وبين ما يقول لها عقلها من إنكار للألوهية ، وتجديف بالدين ، وتمرد على التقوى فى كل صورها . استمع إليها تقول فى صرخة وجزع : « إنى جديرة بالرثاء منذ أصبحت لا أنتظر بعدُ من الله شيئاً . فإنه إذا أعوز هذا الملاذ الأعلى ، فليس على المرء بعد إلا أن يموت ؛ وبدون الله ، لن يكون ثمة شِعْر ، ولا عطف ، ولا عبقرية ، ولا حب ، ولا طموح . إن الوجدانات تقذف بنا فى أحوال من الشك ، وألوان من النوازع والرغبات والاجتهادات الفكرية ، فيشعر المرء بالحاجة إلى عالم آخر ، إلى إلٓه يرد إليه حماساته وصلواته ، إلٓه نطلب منه كل شىء ويقدر على كل شىء ، وإليه نستطيع أن نفضى بكل شىء . وبودى لو اعترف عظماء الرجال عما إذا كانوا لم يهيبوا بالله ، ويثيبوا إليه فى اللحظة التى كانوا فيها عبقريين حقاً ، طموحين حقاً ، أو بائسين حقاً . أجل ، إن الطبائع العادية والنفوس

الوضعية ، حتى ولو كانت حادة الذكاء ، مفرطة العلم ، تستطيع ألا تتعلق به ، ولكن هؤلاء الذين يحملون « الشرارة » ، حتى لو كانوا عليمين بكل العلم ، وكانوا يشكون « بعقولهم » ، هؤلاء يؤمنون بوجدانهم ، أحياناً على الأقل » . ولكنها لا تلبث أن تثور بعقلها الأوربي بعد تلك النبرات الحارة مباشرة فتقول : « أجل ! إنى لست عالمة ، ولكن كل تأملاتى تقودنى إلى هذه النتيجة : ألا وهى أن الله الذى يطلبونا إياه اختراعٌ منهم ! وإلّه الدين أو الأديان ، ألا فلنتجنب الحديث بعد عنه ! أما الله الذى يقول به العباقرة ، الله عند الفلاسفة ، الله الذى يؤمن به الأذكياء فحسب ، من أمثالنا ، هذا الإلّه لن يكون عادلا ، إنه لم يستمع إلينا ، وإذا تصوركه فاعلا للشر ، فلا أدرى ما فائدته » . ثم سرعان ما تَرتد إلى موقفها الأول فتقول مباشرة : « ولكن إذا لم يكن موجوداً ، فمن أين هـذا الشعور بالحاجة إلى عبادة الوجود فى كل مكان ، وعند كل الشعوب ، وفى كل الأزمان ؟ أمن الممكن ألا يكون ثمة شىء يستجيب لكل هذه النوازع الفطرية عند جميع الناس ، ولهذه الفروة التى تدفع بنـا إلى نشدان الوجود الأعلى ، الرب الأعظم ، الله ؟» (٢٩/٨/١٨٨٣) . فالله الذى تؤمن به ليس إذن ذلك الذى تقول به الكتب المقدسة والأديان الوضعية ، وإنما هو فكرة مجردة ، فكرة فلسفية ، بل هو أكثر من هذا : هو الكل فى الكل ، هو الطبيعة كلها بمـا فيها من أرض وسماء ، وهو الكون بأسره بما فيه من نجوم وأجرام . ولكنها لا تستطيع أن تستقر عند هذا الإلّه المجرد ، بل تندفع فى الآن نفســه نحو نشدان إلّه يرى كل شىء ، ويعنى بكل شىء ، ومنه تستطيع أن تطلب كل شىء . . . مثل هذا الإلّه يودى لو آمنت به . ولكن إذا وجد ، هل يؤذن بحدوث ما يحدث ؟ (٢٣/٢/١٨٨٤) إنها معذبة شقية ، وبودها لو استطاعت أن تسكن إلى إلّه يعطف عليها حقا ، ويرحمها من عذابها فعلا . ومن هنـا مصدر عذابها . فهى لشدة إلحادها مؤمنة ، وهى لشدة إيمانها ملحدة ؛ فتراها قلقة يرهقها الشك العنيف ، لا يهدأ لها بال ، ولا تستقر عند حد ، وليس فى وسعها بعد أن تتخلص من عذاب هـذا الشك ، فعبثا تصرخ قائلة : « إلّهى ، لماذا تسمح لى بالتفكير العقلى والبرهان ؟ بودى لو أؤمن هكذا بدون قيد ولا شرط . أنا أومن به أو لا أومن . وحينا أفكر بعقلى لا أؤمن به ؛ ولكننى فى حالة الشقاء أو السرور ، يتجه أول تفكيرى فى أعماق نحو هذا الإلّه القاسى علىّ كل هذه القسوة » (١/٧/١٨٨٤) .

والشىء المميِّز فى هـذه التجربة الدينية عند ماريه بشكرتسف هو هذا التردد القوى بين إيمان ساذج وتصور عقلى فى نفس الآن ، وهى بهذا تمتـاز كثيرا من تجربة تولستوى . فإن التقوى عند الأخير قد أتت بعـد فترة انصراف عن الدين ، ولم يوجد الشك والإيمان معا عنده فى وقت واحد وعلى مستوى واحد ، ولذا لم تكن تجربة شائقة تشوُّق تجربة ماريه . وهى تمتاز كذلك من تجربة دوستويفسكى ، وإلى أبعد حد ؛ فإنه إذا جاز لنا أن نتحدث من تجربة عنده ، فهى محنة إيمانية يلعب فيها الشك الدور الأول ، فإن هذه التجربة كانت تافهة ، لا تعدو أن تكون تركيباً لإيمان ساذج لم ينأثر بفلسفة ، ولم يرهف منه سلاح الشك .

ومرجع هذا خصوصاً إلى أن التجربة الدينية عند ماريه كانت تقوم على تجربة حية عانتها فى قوة وقسوة وحرارة ، ألا وهى تجربة شقائها بسبب الداء الذى أصيبت به ، داء السل ؛ ولذا كانت تجربتها الدينية تجربة صادقة تنبض بالدم ، لا فضولا فكريا كما كانت الحال أن تكون عند تولستوى . ولهذا أيضا نشعر بإخلاصها فى التعبير عنها ، وتسرى إلى نفوسنا منها آلم عميق ، شأن كل ألم صادق عبر عنه فى إخلاص ؛ بينا لا يكاد يستهوينى شىء فى تجربة تولستوى ، إذا غضضت النظر عن صياغتها الفنية ، وهى بعدُ صياغة يبدو أثر الصنعة فيها واضحاً كل الوضوح ؛ ولهذا أفضل عليها تجربة ماريه بمراحل ومراحل . وسيأتيك تفصيل هذا حين نتحدث عن تولستوى فى يومياته .

والخلاصة أن تجربة ماريه تجربة إنسانية ، إنسانية جدا ، ولذا كانت مؤثِّرة ، بل ومؤثِّرة جداً .

(يتبع) عبد الرحمن بدوى

نماذج بشرية :

الأستاذ بتلان

Maître Pathelin

الأستاذ بتلان بطل مهزلة « Farce » ظهرت بفرنسا فى أواخر القرون الوسطى سنة ١٤٦٠ م . ونشرت سنة ١٤٨٠ . وأما مؤلفها فقد تضاربت بشأنه الآراء : فمن قائل إنه « فيون » E. Villon ؛ ومن قائل إنه جيوم دى لوريس Guillaume de Lorris ؛ ومن قائل إنه أنتوان دى لاسال Antoine de La Sale ؛ ومن قائل إنه بير بلانشيه Pierre Blanchet ؛ ولكنها كلها فروض لا تفيد يقينا ، بحيث يصبح من الخير أن نعترف بأننا لا نعرف ذلك المؤلف .

ولقد لاقت تلك المهزلة نجاحا عظيما عند ظهورها ، فمثلت مرات كثيرة ، وإلى اليوم لا تزال تمثل فى الجامعات الفرنسية ، ولا تزال تقرأ رغم صعوبة لغتها القديمة ، التى تختلف اختلافاً محسوساً عن اللغة الفرنسية الحديثة . ولما كانت تدرس بكافة المعاهد الفرنسية ، فإن بطلها قد أصبح فى شهرة أكبر الشخصيات الروائية ، فما من فرنسى يجهل الأستاذ بتلان ، بل قلّ أن يجهله أوربى مثقف .

ولا أدل على نجاح الأستاذ بتلان من أن يصبح اسمه من مفردات اللغة الفرنسية ، فيوصف الرجل بأنه « بتلان » كما يقال C'est un Pathelin أى « ماكر » ، ومن الاسم اشتق فعل كما اشتق مصدر ، فيقال Patheliner (يتلن) ، كما يقال Pathelinage « بتلنة » بمعنى : « يمكر » و « مكر » .

« الأستاذ بتلان » الهازل أنموذج خالد للمكر الذى يعرف من أين تؤكل الكتف ، والمكر ليس ملكة مستقلة ، وإنما هو وليد لمركب عجيب من قوى النفس . المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن الضعف فيها ، وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة ؛ والمكر إحساس باطنى بالنسب ؛ إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يعالجها برفق حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يعى ما يفعل ؛ والمكر أخيرا قدرة على تصريف القول ، وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلاحا لا يمكن أن يغنى عنه سلاح آخر للنجاح فى الحياة . صفة لازمة لا لرجال العمل فحسب ، بل ولرجال الفكر ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير ، وتذليل تلك النفوس ؛ وإذن فالمكر ليس شراً فى ذاته ، وإنما يصبح شرا إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود : فالماء العذب قد يغص به شاربه ، لطافة الحس قد تودى بصاحبها .

ومع هذا فالأستاذ بتلان مثل للمكر السيئ الذى يحيق بصاحبه ، فهو لا يستخدم دهاءه للوصول إلى حق يرد عنه حمق البشر أو شرهم ، بل يستخدمه فى اختلاس مال الغير أو تضييع حقوقهم .

نراه فى أول المسرحية وكأن الملل قد أخذ علكاته فتفت فأتته امرأته « جيمت » Guillemette تستنهضه بصوتها الحاد كالصرصر . قالت : « يا صلاة النبى ! لا قشة بالدار . سيقتلنا القحط . لقد تأكلت ملابسنا ، حتى لم تعد إلا أسمالا ، وما ندرى كيف السبيل إلى تعويضها . إيه ! قل لى ماذا أفدنا من علمك ؟! » ، وما أن حركت « جيمت » كبرياء الأستاذ ، إذ تحدثت عن علمه ، حتى استيقظ من سنته صائحا بها : « اخرسى ! ونعق لو أننى أردت أن أستخدم ذكائى لعرفت أين نجد ما نريد من ثياب وقبعات . وبعون الله سنفلت من الضيق وترتفع لساعتنا . نعم ! من دقيقة إلى أخرى يأتى الله بالفرج ، ولو أننى أخذت فى استغلال مهارتى إذن لما رأيت لى مثيلا » . وانطلق بتلان إلى السوق يتحسس فرائسه ، وإذا به أمام حانوت السيد جيوم جوكوم Maître Guillaume Joceaume بائع الأقمشة المشهور بالحذر والبخل . والأستاذ بتلان رجل معتز علكاته ، ولهذا يروقه أن يستغفل السيد جيوم ، فيرضى

فى نفسه كبرياء الفنان الذى يهزه التغلب على الصعوبات الحقيقية .

وسبيل بتلان إلى ما يريد هو ما ذكرت من فن المكر ، عليه أن يختلس ثقة السيد جيوم . وهو لا يخترع شيئا ؛ وإنما يستخدم الطريقة التى يحذقها حتى اليوم ملايين البشر « آه ! إنى مسرور برؤيتك يا سيد جيوم ! كيف حالك . هيا اعطنى يدك . أملك فى صحة طيبة . والتجارة كيف حالها ... الخ » . وأحس الأستاذ بتلان أنه قد أخذ يصل إلى نفس السيد ، فأوغل فى غزوه ، وتحدث إليه عن والده : « آه ! لقد كان والدك يا سيد جيوم رجلا طيباً . كان تاجراً ماهراً . كم من مرة حدثنى متنبئاً بما نرى اليوم » وسكن السيد جيوم إلى الأستاذ بتلان إذ تحركت نفسه ، وقد رأى رجلا من رفاق أبيه القدماء ، فطلب إليه أن يجلس ، وكان هذا أول نصر أحرزه الأستاذ .

جلس بتلان ووجهه يتهلل سخرية ، وحدق فى وجه السيد جيوم ثم قال : « يالله ! إنى ما رأيت قط ابنا يشبه أباه إلى هذا الحد ! العينان والأنف والفم كلها من المرحوم .. وعرض الذقن . حقا ! إنك هو بقضه وقضيضه . يا للعجب ! كيف تخلق الطبيعة وجهين متشابهين هذا التشابه التام ! » ؛ ومر بتلان من الحديث عن أبى جيوم إلى الحديث عن عمته لورانس ملاحظا أنه يشبهها أيضاً بجسمه ، وعاد من العمة إلى الأب ، الأب الهمام ، الأب الخبير بأسرار التجارة . ولقد كان رحمه الله لا يتردد فى أن يقرض ماله من يريد . وأحس بتلان أن أقواله قد أحدثت أثرها ، وذلك لما لاحظه من أن السيد جيوم قد نام حذره ، فأخذ يبتسم ويتلطف ؛ وهنا رأى الأستاذ أن الوقت قد حان ليخطو خطوة جديدة . وبحركة شبه آلية طرح يده على ثوب من القماش ونظر إلى الثوب ، فقطع عليه الإعجاب سلسلة الحديث : « آه ما أجمله قماشاً ! ليناً . رقيقاً . محتملا » . وفى سرعة خاطفة وجه الحديث وجهة أخرى ؛ ولكن السيد جيوم تاجر ، ولقد أيقظت كلمات بتلان العابرة غريزة الكسب فى نفسه ، فعاد هو بالحديث إلى القماش ، وتظاهر الأستاذ بتلان بالسذاجة حتى أوهم الرجل بأنه سيتجح فى إغرائه بالشراء .

« آه ! حقا . لقد أغريتنى . والواقع أنه لم يكن فى عزمى أن أشترى قماشاً فى هذا العيد ، ولذلك وضعت قبل مغادرة المنزل ثمانين جنيهاً فى الخزانة لأدفعها تسوية لمعاشى مدى الحياة . ولكن يظهر أنك ستأخذ منها عشرين أو ثلاثين . ذلك ما يبدو لى ، فاللون قد أعجبنى إعجاباً خالصاً حتى ليؤلمنى أن تحرم من قماش كهذا » .

بذلك تهيأت الصفقة ، ولم يبق إلا الاتفاق على الثمن ودفعه ؛ وهنا تظهر مهارة بتلان ، فهو يأبى إلا أن يدعو السيد جيوم ، بعد أن اتضح ما بينهما من معرفة قديمة ، إلى تناول الغداء معه ، وبخاصة لأن مدام بتلان فى ذلك اليوم كانت تشوى إوزة سمينة ، وقد أعدت إلى جوارها النبيذ الجيد المعتق ، وتكون هذه فرصة مواتية يوثق فيها الود مع بتلان ، ثم يأخذ جنيهاته ويعود إلى حانوته مشكورا . وأغرت الإوزة ، وأغرى النبيذ السيد جيوم ، فوافق على أن يحمل القماش وقت الغداء ، ويأتى إلى منزل بتلان . ولكن الأستاذ لا يريد هذا الحل ، ولابد له من أن يعود إلى زوجته بالقماش ، وإذن فلابد له من حيلة جديدة يتم ما بدأه ، والأمر سهل ، فهو لا يقبل أن يحمل السيد جيوم ثوب القماش تحت إبطه ، بل سيحمله هو ، وبذلك يوفر على السيد جيوم — ابن ذلك الأب الكريم الذى تشرف بمعرفته منذ سنين — مشقة حمله . ولكن جيوم يأبى هذا الحل ، ويلح فى أن يحمله هو ؛ فينتفض بتلان رافضاً رفضاً باتاً أن يتحمل جيوم كل هذه المشقة من أجله ، ثم يزج باسم المرحوم فى الحديث من جديد ، ذاكراً ما كان بينهما من ود وتزاور . ويتورط جيوم ، فلا يرى بدا من التسليم للأستاذ بما يريد ، ويأخذ بتلان القماش ويعود إلى منزله بعد أن تواعدا على المائدة .

إلى هنا نجح الأستاذ بتلان فى النصب ، فأخذ القماش دون أن يدفع قرشاً واحداً ، وكان سر نجاحه فى علاجه لنفسية جيوم : فقد عرف كيف يحادثه فيما يهمه ، وكيف

يتدرج فى ذلك الحديث كلما ازداد الخصم اقبالا واستنامة ، وقد حرص على أن يكون حديثه دائما أبعد ما يكون عما يريد ، وكأنه حديث برىء ؛ فهو لم يذكر القماش إلا عرضاً وكأنها المصادفة البحتة ، ثم وجه الحديث وجهة أخرى ، وعند ما عاد إليه تظاهر بأن الخصم هو الذى يقوده ويغريه وهو يكبت رغبته الخفية ، حتى لكأن الصفقة فى مصلحة الخصم وما صاحبنا إلا فريسة ! وفى النهاية « يكلفت » السيد جيوم كما يقول العوام فى فيض من الأقوال المعسولة التى تورط الرجل . وتلك لا ريب مهارة دقيقة ، فيها مزيج من التملق اللبق ، ومن التظاهر بالسذاجة ، كما فيها فطنة إلى أهواء الخصم واتجاهات نفسه ، ومواضع ضعفه ، واستغلال لكل ذلك على نحو لا يكاد يلاحظ .

ولكن جيوم سيلاحق أستاذنا بمنزله ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه .

هنا تتكشف نفس بتلان عن قوى جديدة ، أخصها الجرأة ، الجرأة الصفيقة ، فهو يتفق مع زوجته على أن يتصنع المرض ، وأن يدعى أنه مريض منذ أسبوع ، لم يغادر خلاله الفراش قط ، وأن يلعبا الدور معا بحيث يوهمان المسكين جيوم أن قصة القماش ، والجنيهات ، والإوزة والنبيذ ، وما إليها ليست إلا هذيان محموم . وفعلا رقد بتلان فى السرير ، وما يكاد جيوم يدق على الباب حتى تخف إليه « جيمت » على أطراف أصابعها واضعة سبابتها على فمها ليصمت جيوم ، ولا يرفع صوته فيزعج المريض . ويكون حوار مضحك بين جيوم وجيمت يطالب فيه الرجل بالقماش أو النقود ، فتدعى جيمت الغفلة وكأنها لا تفهم شيئا مما تسمع ، وهمها الشاغل مرض زوجها ، وقلقها الشديد على حياته ، وقد يئس الطبيب من شفائه . ويطول الجدال ، فيصيح بتلان من فراشه : « جيمت ! جيمت ! قليلا من ماء الورد . ارفعينى . دثرينى . حككى مسطح قدمى » . وتدخل جيمت إلى المريض فيتبعها جيوم ، ويطالب الرجل بدينه ، بينما بتلان يخاطبه كأنه الطبيب المداوى ، فيحدثه عن أثر الدواء الأخير وعن أرقه وأحلامه المزعجة .

ويثور جيوم فيزداد صوته ارتفاعا . وهنا تقرر جيمت إخراجه ، وتعنفه أشد تعنيف لإقلاقه المريض ، وتطلب إليه الانسحاب حتى لا يأتى الأطباء فيجدونه ، فيظنون أنه قد أتى من أجلها . وعندئذ لا يرى السيد جيوم بداً من التراجع ، وقد أخذت الشكوك تساوره حتى أوشك أن يظن بنفسه الخبل ، أو أنه فى حلم يقظة ، فقرر أن يعود إلى حانوته ليقيس ثوب القماش كاملا ، ويتأكد من أنه قد قطع منه ستة أذرع .

انسحب إذن جيوم ليعود إلى حانوته يختبر بضاعته ، ثم لم يلبث أن عاد . ولكن بتلان لم يكن بالرجل الذى تنفد حيله . عاد جيوم يهدد بإحضار البوليس إن لم يرد إليه القماش أو يعطى جنيهاته ، فاضطربت جيمت ؛ وأما الأستاذ فقد كان أثبت من ذلك قلبا ، فأخذ يهذى بكل اللهجات الفرنسية ، حتى إذا استنفدها هذى باللاتينية ، وسخر من جيوم فى تلك اللغة التى يجهلها بائع القماش . وينجح الأستاذ فى تمثيل الدور نجاحاً ينسى معه جيوم قماشه ، ولا يعود يذكر إلا أنه فى حجرة رجل يحتضر ؛ وهنا يأخذه الخوف حتى ليبدو له أن ما حدث ليس إلا أعوبة من ألاعيب الشيطان الذى تنكر فى هيئة بتلان ليسلبه قماشه ؛ وإذ وصل إلى هذا الإحساس لم ير خيرا من أن ينسحب فى سلام .

بهذه الخاتمة كان من الممكن أن تنتهى القصة : فالسيد جيوم قد استخار الله ، وآمن بأن الشيطان هو الذى أخذ قماشه ، ولقد رسم على جبهته وحيالى صدره صورة الصليب ، ثم هم بالعودة إلى منزله مستعيذاً من الشيطان الرجيم . ولكن القصة فيما يظهر كانت شعبية الأصل ، والشعب يعلم أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ، وبذلك جرت حكمته المأثورة منذ آلاف السنين . وإذن فلابد للقصة من خاتمة أخرى ينال فيها بتلان جزاءه . ومن ثم تصور المؤلف حادثة أخرى من الممكن أن تكون قصة بذاتها ، واتخذ منها خاتمة لقصة بتلان وجزاء لمكره السحيق .

وذلك أن جيوم لم يكد يغادر الباب حتى وجد نفسه أمام راعي غنمه توما الحـمَـيل « مصفر حل » ، وكان توما هو الآخر راعيا ما كرا ، كم من مرة ذبح خراف جيوم ثم ادعى أنها قد ماتت بالحمى ؛ ولـكن السيد جيوم قد أخذه فى المرة الأخيرة متلبساً بجريمته ، وها هو الحيل يأتى إلى الأستاذ بتلان ليوكله فى الدفاع عنه أمام القضاء. ونظر الأستاذ فأحس أن القضية صعبة ، ولـكن انتصاره على جيوم أغواه بانتصار جديد ، فقبـل الوكالة ، وكانت خطة دفاعه بالغة البساطة ؛ فقد اتفق مع الحيـل على أن يلعب راعينا دور الأبله ، فيجيب على كافة الأسئلة التى توجه إليه بجواب واحد هو : « بآ » كحميل حقيق ، وهذا ما كان . فقد تقدم الخصمان إلى المحكمة ، وكان القاضى لا يخلو من بله ، وتقدم الأستاذ بتلان كمدافع عن الحيل ، ولـكن جيوم لم يكد يرى الأستاذ حتى جن جنونه ، فقد تركه أثوه مريضا بمنزله ، وها هو الآن فى ساحة القضاء . واحتدم الغيظ فى نفس الرجل فنسى دعوى الغنم ، وأخذ يهاجم بتلان مطالباً إياه بالقماش أو الجنيهات ، والقاضى لا يفهم شيئاً مما يسمع ؛ فالقضية قضية غنم ، والغنم لا ذكر لها ، والحيل لا يجيب بغير « بآ » ! واستمر السيد جيوم يقفز من الغنم إلى القماش ، ثم يعود إلى الغنم ، حتى ضجر القاضى ، وتهيأت لبتلان الفرص ليطلب من قاضينا المبجل إلزام جيوم الصمت ، وإطلاق سراح الراعى ، والحكم على المدعى بالمصاريف ؛ وهذا ما كان . بل لقد بلغ الأمر ببتلان أن نال ثقة القاضى نفسه ، فدعاه حضرته إلى تناول الغداء معه . وهنا يطير عقل جيوم ، فيسرع إلى بيت بتلان ليتأكد من أن الشيطان لم يخدعه ثانيا ، وليستوثق من أن بتلان قد غادر منزله ، وذهب حقيقة إلى المحكمة .

على هذا النحو يكون المكر قد انتصر مرة أخرى ، وبذلك تظل عزة العدل غير راضية . والشعب حريص على العدل حتى فى مهازل المسرح . وها هو الحيل يهم بمغادرة المحكمة ، وهو يتوثب سرورا بعد أن فاه بآخر « بآ » ، وها هو بتلان وقد كسب القاضى والقضية ، فأين إذن عقاب المكر الخبيث ؟!

لقد تلق بتلان عقابه من الحيل ، وذلك لأنه لم يكد يوقفه بباب المحكمة طالبا إليه أجر الدفاع حتى أجابه حيلنا بـ « بآ » ، وعبثا حاول الأستاذ أن يقنع الحيل بأنه لم يعد فى حاجة إلى « بآ » ، وأن القضية قد انتهت ، وأنه يود الانصراف إلى منزله ويطلب أجره ، والحيل لا يجيب على كافة الأسئلة بغير « بآ » ، حتى انتهى الأمر بأن يلمس بتلان نفسه الذى عبث بجيوم وبالقاضى ، ثم ها هو الحيل يعبث به بدوره . وافترق الرجلان ، وقد تعلم بتلان درساً صفق له الشعب أعنف تصفيق ، إذ قد وجد الماكر من يمكر به ؛ وقد تلخص مكر الحيل فى كلمة واحدة ألقت بأسلحة بتلان كلها إلى الأرض .

هذه هى قصة الأستاذ بتلان الذى أصبح مضرب الأمثال فى الدهاء ، وأجزاؤها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة ؛ فبتلان الذى نلقاه فى الحياة فنثق به ، هو بتلان الذى عرف كيف يحتال فيكسب ثقة السيد جيوم ويأخذ منه القماش . هـذا الجزء من القصـة لا نبالغ إذا قلنا إنه يتجدد عشرات المرات فى اليوم الواحد فى بقاع الأرض كافة ، وبلادنا خاصة . وأما الأحداث التالية ، كتمارض الأستاذ ورطانته بمختلف اللهجات ، وانتهاء الأمر بجيوم إلى الإيمان برجس الشيطان ، وحادثة الحيل و « بآ » ، فمواقف مسرحية تثير الضحك ، ولـكنها لا تكشف عن أسرار الحياة شيئا ، وهى أشبه ما تكون بمهازل مسارحنا . ومن ثم دققنا النظر فى حيل بتلان النفسية « لـكلفتة » جيوم ، ونحن بعد لا نذيع سرا إذا قلنا إننا محاطون من كل جانب بأنواع من بتلان ؛ وأما جيوم فأكبر الظن أنه موجود هو الآخر ، وكل ما نخشاه هو ألا نجد « الحيل » . ورحم الله من قال :

« إنى لستُ بخبٍ ، ولـكنَّ الخبَّ لا يخدَعُنى » .

محمد مندور

لذكرى الإمام وذكرى المعلم :

حكم وعظة

ليس هذا مقالاً ، وإنما هو اقتباس ؛ وليس يحسُن بالمستعير أن يطيل الحديث وهو يعرض على الناس عاريته ، وحسبُه أن يطيلوا هم التمعن فيها ليفيدوا علماً ، وليكسبوا عظات .

إنه حكم أصدره القاضي الجزئي « أحمد فتحي » لنحو من أربعين سنة ؛ وإنه ليعرض فيه قضية الصحافة واللاصحافة ، ويفصل بين اتهام ومتهم ، أو بين « صحيفة » وموظف ، أو بين جريدتي البابا دوغلو المصري والأرب ، وبين الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية . فليسكت المقدِّم ، وليتفضل الخطيب والأستاذ والحاضر :

« وحيث إنه بالنظر لأهمية الجرائد على العموم ، وللفوائد الجليلة التي تعود منها على الأمة والبلاد ، يجب ألا يتولى إدارتها والتحرير فيها إلا رجال من ذوى العلم والعرفان ، يدل حاضرهم على مكانتهم وأهليتهم لمهنة الصحافة الجليلة ، ويشهد ماضي أيامهم بحسن السمعة والجدارة بالثقة العمومية .

وحيث إنه يدعو إلى شديد الأسف ظهور بعض جرائد في هذا العهد يحررها أناس منزلتهم من العلم والفضل تدور بين الشك واليقين ، حتى لقد يقود زمام بعضها من لا دراية له بشيء من القراءة والكتابة على جهة الإطلاق ، مثل صاحب جريدة الفوتوغراف ، فإنه من الأميين كما ظهر في قضية شهد فيها أمام إحدى المحاكم ، حيث وقع الشهادة بالختم مصرحاً بأنه لا علم له بالكتابة .

وحيث إن من نكد البلاد ، ومن البؤس على الصحافة أن يوجد بين أربابها أناس معظمهم من العمل طريدي الهيئة الاجتماعية على ما يظهر ، قد جعلوا ديدنهم الارتزاق من طريق التشهير بالناس والحط من كرامتهم ، لا يوقرون عظيما ، ولا يراعون كبيراً ؛ وأصبحت جرائدهم الكثيرة العدد القليلة البركة من علة الفوضى التي في المطبوعات في البلاد .

وحيث إن الضرر على المجتمع الإنساني من وجود تلك الوريقات المنحطة التي لا تنطق إلا بسفساف القول ، ولا تسير إلا في طريق جرح العواطف وإيلام النفوس ، مما تمجه الآداب ، وتعافه الأذواق ، لمن المضار التي لا يضاهي مقدارها إلا مقدار النفع من الجرائد الجديرة بهذا الاسم ، المخلصة في الخدمة العمومية ؛ وقد يتعدى ضرر تلك الوريقات إلى نفس أصحابها ، لأنها تكون بمثابة السلاح الماضي في يد الصغير .

وحيث إن انطلاق الصحف في ميادين الحرية وإن كان من الأشياء المرغوب فيها ، ولم تكن له الآن قيود في الواقع من جهة السلطة الإدارية ، حيث إنها تصدر بلا رخصة وبدون ضمان ، وغير خاضعة للمراقبة ، غير أنها خاضعة بطبيعة الحال لسيطرة القانون العام ، فهو واقف لها بالمرصاد يضرب بأحكامه على أيدي المعتدين إذا هم خرجوا عن حدود الحرية المعتدلة المعقولة وانتهكوا حرمة الآداب » .

* * *

هذه بعض حيثيات الإدانة في حكم محكمة عابدين الأهلية الصادر في ٦ فبراير سنة ١٩٠٤ ؛ ووَفقاً للوضع السرحي المنقرض يعود المقدِّم فيُلاق بتعقيبه ؛ ولكنه هنا لا يجد إلا أن يوجِّه التحية لذكرى الإمام في شهر وفاته . وإلا أن يشفعها بتحية لذكرى القاضي والأستاذ والمؤلف الذي أصدر حكماً فيه فصْلُ البيان لما هو صحافة وما ليس صحافة ، في أسباب خليقة بالدرس ، معتبرة الموازنة بين الماضي والحاضر في أكثر من ميدان ، ولأكثر من غرض .

عبده حسن الزيات
المحامي

قصة :

العفريت

وعمَّ الرعب البيت كله . فإن في تلوث حذائي عفواً بدم قتيل كان أشد عليهم من رؤية القتيل نفسه .

وكان ذلك بعد العشاء ، وقد تحلقنا المائدة أقص عليهم ما رأيت ظهر اليوم . وذلك أني رأيت رجلا يسير لا حول له ولا قوة ، وإذا بآخر ينقض عليه من خلف جدار متهدم فأهوى على عنقه طعناً بخنجر في يده . وكنت على كثب من الرجل وهو يهوى غارقا في بحر من دمه . وفر قاتله والخنجر يقطر منه الدم القانى . وهاب الناس المجرم ، فما جرؤ أحدهم أن يدنو منه ...

وسقط الرجل صريعاً ولما يستطع أن يلفظ كلمة واحدة عند مجيء رجال الأمن من شدة ما أصابه من طعنات قاتلة فاتكة ، حتى أنه فارق الحياة في ثوان معدودة ، وإن منظره ليذيب أقسى القلوب وأغلظ الأكباد ..

ولقد ذهلت حقاً حتى أني لم أتفطن للدم يلوث حذائي إلا بعد أن خضت فيه ؛ وكنت لذلك جزعا قد ملأ الرعب قلبي .

ومضيت لوجهي لا أكاد أعي مما حولي شيئاً إلا منظر الرجل والدماء حتى وصلت الدار .

ولقد بلغ بي الجزع حداً كنت أتمثل الرجل في كل ما تقع عليه عيني . وصدفت عن العشاء . وأصغى القوم وكأن على رؤوسهم الطير ، وكان أكثرهم إصغاء صهرى «حسين» الذى أثر عنه الخوف الميت من العفاريت . ووجه إلى الكلام في نصيحة لا تخلو من التأنيب ، وكيف أني أسهو كثيراً ، وكيف أني لقيت الجزاء الوفاق لما كنت أسهو.. فحسبي تلوث حذائي . . . واقترح آخر الأمر أنه من الخير ألا يبقى هذا الحذاء المشئوم في البيت . فجزعت لذلك . إلا أنه لم يعدم في إقناعي حججاً لا يدخل إليها الباطل — على زعمه — مما قد سمعه من ناس لا يمكن البتة الشك فيما يقولون ، ومما وقع له بالذات من أحداث .

وأمضينا الليلة في حديث ممتع .... مخيف .... كل يقص ما توارد على الخاطر من ذكر الشياطين ، وكل يروى ما مرّ به أو سمعه مما تناقلته الألسن وورثته الذاكرة من أسلافنا الأقدمين عفا الله عنهم . وكان «حسين» أكثر الجميع رواية . حتى خيل إلينا أن البيت كله أشباح ، مما كان يلقيه في روعنا في أسلوبه الأخاذ من أقاصيص ملؤها الرهبة والخوف .

وجاء وقت النوم . وكنا قد انتقلنا لحجرته ، فتخففت فيها مما على وتركت سهواً في حجرته الحذاء . ومضى كل لحجرته ينام .

وانتصف الليل . والبيت هادئ ساكن . وإذا بحركة خفيفة إلى جوار الباب ، حيث تركت الحذاء ، فسمعتها شقيقتى ، فأيقظت حسيناً في همس قالت : حسين ! أتسمع ؟ فاستيقظ وهمس بصوت أخفت منها : ماذا ؟ أي شيء ؟ قالت : قم فانظر أي صوت هذا . قال في صوت آلى : أي صوت ! أي شيء !

وبينا هو كذلك وإذا بالحركة الأولى تحدث ، فتشبثت به زوجه وقالت : أتسمع ؟ الحذاء .. فبسمل ثم استعاذ بالله وقال : ألم أقل لك ؟! وظلا صامتين .

ومضت على ذلك دقائق قليلة ثم سمع في ردهة الدار صفير خافت كفحيح الأفعى ، وكان له صدى في سكون الليل موحشاً رهيباً ؛ فدفن حسين رأسه في الفراش ، وما أخرج منه حتى أنفاسه . وطالعنى في الصباح بوجه شاحب قال : ألم أنصحك البارحة فلم تصدق ؟! قلت : ماخطبك ؟ قال : الحذاء ! قلت : وماله ؟ قال : ألم تسمع ؟ قلت : ما سمعت شيئاً ؛ فإن نومى كان نوم قتيل . قال : فاسألها . وأشار لزوجه .

وقصت على هذه ما سمعت ، وما تكاد تملك زمام نفسها من فرط الخوف .... وعجبت لأمرهم وكنت إلى السخرية أقرب مما أكثر حسيناً ، ورماني بما رمى به كل متغطرس مكابر .. وصحا كل من في الدار وجعلوا يتساءلون عن مصدر صوت منتصف الليل ، وعن تلك الأقدام التي كانت تغدو وتروح في الردهة ، ثم عن هذا الفحيح .

ومضى اليوم ، وإنه ليوم ... فما كان فيه غير حديث القوم عما كان بالأمس . وجعل كل يفسر ما يتراءى له

من تجرو ظاهرة وجود العفاريت .

يهجم الليل . وأبى الـكل إلا النوم فى حجرة واحدة حتى الخادم . فلم أستسغ هذا . وآليت ألا أبرح حجرتى مهما بلغ الأمر ، فأشفقوا على وكلهم الملك مستنكر . وإنه لولا التصميم لأناموني معهم قسراً . وعزمت أن أواجه العفريت.

ونام الـكل . غير أن النوم ما لبث حتى غلبنى كذلك . فقد كان نالنى تعب فى يومى الفائت ... وساد البيت هذا الجو من الصمت والرهبة . وفى هدأة من هـذا الليل السـاكن سمعت الأقدام تمشى فى تؤدة فى ردهة الدار ، حتى وصلت باب الحجرة الأولى ؛ فانفتح .

وكان شبحاً ما ظهر منه غير عينين براقتين قد اكتسى حلة سوداء ، وتلثم بعمامة سوداء ، وتدلت من يده عصا غليظة ، وركب هذا الشبح فوق الحذاء المعلوم .. وكان منتصب القامة يمشى فى بطء ويسير دون التفات إلى يمين أو إلى شمال ...

وكانت شقيقتى إذ ذاك ترضع وليدها الصغير ، فرفعت رأسها ، فرأته . فارتمت فوق الوسادة تدفن رأسها فيها دفناً وهى توقظ حسيناً فى ذعر ، فانتفض من نومه ، وما أن رأى الباب مفتوحاً وهذا إلى جواره حتى هوى على الفراش مغشياً عليه أو هكذا بدا ...

وبعد أن أفاق لم يشأ أن يتكلم إلا بعد إغلاق الباب ، ثم مضى يحدث من تجمع حوله عن الشبح الذى ظهر واختفى فى أقل من لمح البصر .. والـكل يغرق رعباً دون أن يجرؤ أحدهم فيفتح الباب . ثم آووا إلى أماكنهم جزعين صامتين.

وما تحملهم النوم شيئاً حتى انبعث هذا الصغير الخافت الرعب . ثم أنة طويلة . وحشرجة متقطعة . فانتبهت شقيقتى أول ما انتبهت ، وسألت حسيناً فى همس : أتسمع ؟ قال : أجل . فاخفضى من صوتك . قالت : ألا ما قمت فرأيت أى شيء هذا ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . اخفضى يا سيدتى من صوتك .. اللهم إنا نعوذ بك .

ولم يكد ينتهى من الاستعاذة حتى التوى مقبض باب حجرته فى بطء وتحرك فى تؤدة مفتوحاً . فإذا بحسين قد تقلص فوق الفراش حتى صار ربع حجمه ، وأخفى كل أطرافه تحت الغطاء حتى لم يظهر منه شيء .

وانقذف عليه الحذاء . فلم يتحرك . إلا أنه أخرج رأسه من تحت الغطاء فى حذر فرأى الحذاء ؛ فأخفى وجهه فى سرعة خاطفة وصاح صيحة مكتومة : الحذاء ..

وأيبس الرعب قلوبهم فما قام منهم أحد ... وهوت العصا فوقه ثم انقفل من بعد ذلك الباب . ولما استوثق من ذلك أن حسين طويلا وهو تحت الغطاء وقال : واقدماه ! انضربت والله !

وهب الـكل أيقاظاً وقد تملك الخوف كل جزء من أفئدتهم ، والتصق كل منهم بمن هو أقرب إليه . وتشاوروا فيما بينهم دون جلبة ، ثم تقدموا بكتلتهم وفتحوا الباب . فإذا بملابس حسين ممددة فى مثل شكل الإنسان ، وإذا بالحذاء فوقها ، فدفعوا الباب فأقفلوه كأسرع مما فعلوا .

وهرولت إليهم إذ ذاك من حجرتى ركضاً . وصحت بهم أن افتحوا الباب فلم يفعلوا حتى استوثقوا من صوتى ، فاندفعت نحوهم وقد بدا على الرعب . فاحتضنى حسين وجعل يمالحنى بصب الماء البارد على أطرافى ورأسى بعد أن أعلمته بأنى حسبت رأسى قد شجت من ضربة لا أدرى مأتاها ..

وبعد أن هدأت شيئاً أحببت العودة لحجرتى فمنعنى من ذلك كل المنع ، وقال إنه عين الجنون . واحتجزنى عنده ثم قال كالمخاطب لنفسه : اللهم الطف بنا وعوضنا عن هذا البيت خيراً .

وأضأنا النور كله . وخرجنا جميعاً نستطلع ، فألفينا ملابسه حقاً ممددة فى مثل شكل الإنسان ، فأخذه العجب وصمم على إزالتها من البيت وعدم بقائها بحال من الأحوال ، فهى قد (أزفرت) فما لها بعد ذلك من بقاء ... فأمهلته للتروى فما ثناه عن عزمه شيء . وطوى الملابس وقذف بها من الشباك . وعطف على الحذاء فنهضت أمنعه جزعاً وصحت به : حسبك ! ليس عندى والله غيره . فجذبه منى ورمى به دون أن يأبه لذلك . وارتميت على أقرب مقعد إلى ، يتفصد من وجهى العرق غزيراً . وقد نلت من عبثى الجزاء ... فما كان هذا العفريت أحداً .. سواى .

(كلية الآداب) **ياقوت صبرى**

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الـكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢٤١ — الثلاثاء ٩ من شعبان سنة ١٣٦٢ — ١٠ من أغسطس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

تطور الحادث الايطالى

للدكتور محمد عوض محمد

لم نعرف — نحن سكان هذا الوادى الأمين — قسوة الحرب وويلاتها إلا منذ دخلتها إيطاليا فى شهر يونيو سنة ١٩٤٠ . ومن قبل ذلك كنا لا نكاد نحس من ويلات الحرب شيئاً : كانت بحارنا مفتوحة بعيدة عن الخطر ؛ وطرق الملاحة فى البحر المتوسط لا تكاد الحركة أن تنقطع فيها ؛ والغارات الجوية شيئاً نسمع به ، ولا نعرف له معنى ؛ وكانت مدننا تضاء ليلا من غير حرج ؛ وعلاقاتنا التجارية فى حال لا بأس بها بفضل اتصال موانئنا بفرنسا وأسبانيا وبلاد البلقان ، بل وإيطاليا نفسها .

ولم نكن نحن وحدنا الذين ننعم بالسلم ؛ بل كانت إيطاليا ذاتها فى حالة من اليسر والرخاء والرفاهية ، لم يسبق لها من قبل ، ولن يتأتى لها — قبل زمن طويل — أن تنعم بمثلها . وكانت إيطاليا أقل الدول حاجة إلى الحرب ؛ بل لعلها من أكثر دول العالم حاجة إلى عهد طويل من عهود السلم والعمل الهادئ المطمئن . فلقد نجحت فى أن استولت على إمبراطورية ضخمة فى شرق إفريقية ، وأصبح ملكها ملكاً وإمبراطوراً فى آن واحد ، وهى فى حاجة إلى عمل دائب ، ومجهود غير موزع لاستغلال هذه الدولة العظيمة ذات الثروة الضخمة ، والموارد الموفورة .

وفوق ذلك قد استطاعت إيطاليا — بمزيج من الحقيقة والتهويش — أن تجعل العالم يحسب حساباً لقوتها الحربية ، وأن يضعها بين دول العالم الكبرى ، وأن يتحامى جانبها ، ويتودد إليها . وكانت تلك القوة الحربية أمراً مستوراً لم تسط عليه أشعة التجربة القاسية . وكانت تلك الثمانية الملايين من الحراب البراقة التى طالما حدثنا عنها زعيم إيطاليا أمراً يثير الاهتمام ، وشيئاً غير قليل من الرهبة . وبفضل

هذه القوة المستورة التي لم تُجَرَّب في حومة الوغى ، كان في وسع إيطاليا أن تساوم ، وأن تجنى منافع غير قليلة ، دون أن تسل سيفاً أو تطلق قذيفة واحدة .

كان الخير كل الخير إذن لإيطاليا ولشعبها أن يظل بنجوة من الحرب ، وأن ينعم بالأرباح الطائلة من البيع والشراء والتجارة مع جميع المتحاربين . ولكن زعيم إيطاليا ، صاحب الكلمة العليا فيها ، الذي يوجه دفتها حيث أراد ، دون أن يعترض كلمته معترض ، قرر أن يقحم بلاده في هذه الحرب ، وأخذ يدنو منها شيئاً فشيئاً . فلم يرض لإيطاليا أن توصف بأنها في الحياد ، بل سماها دولة غير محاربة . ثم لما طال الأمد على هذه الحال ، سماها دولة « قبل الحرب » ، إلى غير ذلك من الدعايات المسرحية التي انتهت بدخول إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا في شهر يونيه سنة ١٩٤٠ . وبهذه الخطوة الجريئة زال الأمن عن إيطاليا نفسها ، وأصبح حوض البحر المتوسط يغشاه الخوف والخطر ! وأخذنا نحن سكان مصر نحس مس الحرب ، ونشهد القنابل — التي وصفها رئيس حكومتنا بأنها طائشة — تتساقط على الآمنين من أبناء الأمة المصرية ، فتزهق أرواح بريئة ، وتتهدم منازل ، وتشتعل فيها النيران .

* * *

كان زعيم إيطاليا ينادى قبل الحرب بشهور ، بأن مطامع إيطاليا تنحصر في ثلاثة أشياء ، وقد سماها بثلاثة أسماء : تونس ، والسويس ، وجيبوتى . والحقيقة أن هذه لم تكن مطامع إيطاليا ، ولا مطامع الشعب الإيطالى ، وإنما هى شهوات استعمارية اشتهاها الزعيم وعصبته ، وأراد أن يثيرها في نفوس أبناء الأمة الإيطالية . ولعله قد نجح في إثارة هذه الشهوات ، في نفوس طائفة من الشباب السهلة التأثر ، السريعة الانفعال . ولكنه لم يثر في هذه النفوس الشهوة إلى الموت في سبيل هذه الأغراض الثلاثة ، وتحمل ضروب الويل والهوان في حرب تدوم مدة سنتين .

إن الشعوب الخاضعة للنظام الاستبدادى قد تنعم بشيء كثير من التقدم والرفاهية والعزة ، في ظل زعيم قوى جبار ، يصل بها في مدة وجيزة جداً إلى مرتبة من الرقى المادى والأدبى ، قد لا تستطيع أن تبلغ بعضها تحت ظل الحكم الديمقراطى في مثل تلك المدة . بيد أن هذا الرقى الظاهرى تصحبه حالة نفسية وضيعة ، يصبح الشعب فيها كالقطيع الذى يساق دون أن يستطيع السير ؛ وإذا تُرِكَ لنفسه ضل الطريق ، وعجز عن المحافظة على كيانه . وكل هذا التقدم والرقى رهين بإرادة ذلك الزعيم ، فإذا ارتكب هفوة واتخذ قراراً خاطئاً ، سار بقطيعه إلى الدمار . وقد اتخذ زعيم إيطاليا قراراً واحداً أفسد به أعماله الضخمة في واحد وعشرين عاماً ، وجرَّ الويلات على الشعب الإيطالى الذى أراد أن يرفعه ويرقى به إلى أعلى المراتب ، فإذا هو يذيقه أمرَّ الآلام ، ويعرضه لضروب الذل والحرمان .

وسيقول قائل : ولكن زعيم إيطاليا كان حسن النية فيما عمل ، وكان يريد للشعب الإيطالى الخير كل الخير . فقد انتظر حتى انهزمت فرنسا ، وانتصر الجيش الألمانى نصراً مبيناً ، ولم يبق دون الفوز التام واقتسام الغنائم غير أيام أو أسابيع ، فدخل الحرب وهو مؤمن بأنه سيربح الأرباح الطائلة من غير تضحية تستحق الذكر . وبعبارة أخرى إن الزعيم الإيطالى كان يقامر ، ولم يكن يقامر بماله أو بثروته أو بعشيرته ، بل كان يقامر بحياة الشعب الإيطالى كله ، وبسعادته ورفاهيته . والزعماء الطغاة هم وحدهم القادرون على المقامرة بحياة الشعوب .

لم تلبث إيطاليا أن أخذت تحارب في ثلاثة ميادين : في ليبيا ، وشرق إفريقيا ، وألبانيا . وكان نصيبها الهزيمة في هذه الميادين الثلاثة جميعاً . ولكن الزعيم الألمانى اضطر

لأن يجىء لنجدة أخيه الإيطالى ، فأقعده فى البلقان ؛ وعجز عن مساعدته فى شرق إفريقية ؛ وانهزما معاً فى ليبيا وتونس . ثم اشتركا فى الهزيمة فى جزيرة صقلية ...

ولكن الحرب فى صقلية قد اتخذت شكلاً جديداً ، وظهرت فيها علامات جديدة . فإن صقلية ميدان إيطالى ، وقطعة خطيرة جداً من الوطن الإيطالى .

وقد توهمنا أن الجيش الإيطالى سيدافع هنا دفاع المستميت ، ولا يسلم شبراً من أرض وطنه إلا بعد أن يرويه بدمه . ثم نظرنا ، فإذا القوات الإيطالية تتراجع بسرعة ، وتبادر بالتسليم فى أول فرصة . ولقد اكتسح الجيش الأمريكى النصف الغربى من الجزيرة فى بضعة أيام ، وقد سلمت «بالرم» العاصمة دون أن تطلق قذيفة واحدة . ولم يبذل الجند مجهوداً جدياً يعوقون به تقدم الجيش الأمريكى السابع : لم تبث الألغام فى طريقه ولم تنسف الجسور ، بل لقد كان الجيش الفاتح يقابل بالتحية والترحيب والهتاف ، كأنه جيش منقذ ، وليس جيشاً غازياً . ثم لم تمض أيام حتى صار من الواضح أن الذى يدافع عن صقلية دفاعاً قوياً ، ليس الجيش الإيطالى بل الجيش الألمانى ؛ فهو الذى يحمل عبء الدفاع عن الوطن الإيطالى نفسه ، كما كان يحمل عبء الدفاع عن ليبيا وبرقة وطرابلس وتونس . وقد يكون فى وسع الجيش الألمانى أن ينهض بهذا العبء حيناً من الزمن ؛ ولكن هل فى وسعه مع العبء الهائل الذى يحمله فى روسيا أن يضيف إليه حملاً مرهقاً جديداً فى الأرض الإيطالية ، وأن يظل حاملاً لهذا العبء شهوراً طويلة ؟

فى الحرب الماضية ساعد الحلفاء إيطاليا فى الدفاع من أرضها ، ولكن فى ذلك الوقت كانت الحالة المعنوية للجيش الإيطالى سليمة من مظاهر الضعف والخور التى نشاهدها اليوم . ولو أن ألمانيا أرادت اليوم أن تنهض بعبء الدفاع عن إيطاليا ، فإن هذا العبء قد يرهقها ويضعفها إلى درجة بعيدة .

فى ظل هذه الاعتبارات اجتمع الزعيمان الإيطالى والألمانى منذ بضعة عشر يوماً فى مدينة فيرونا ، وبحثا فى الموقف الحربى فى صقلية ، وما بعد صقلية . ولا شك أن الزعيم الألمانى قد عاد من هذا الاجتماع ، وهو واثق أنه إذا اتسع الميدان الإيطالى فإن عبء القتال فيه سيقع على الجيش الألمانى وحده ؛ وليس هذا بالأمر الذى ترتاح له نفوس الجنود الألمان ؛ وأنه إذا كان هنالك وسيلة لاتقاء هذه الحال ، فإن التوصل بها أمر مرغوب فيه جداً .

وبعد عودة الزعيم الإيطالى من اجتماع فيرونا بأيام قلائل ، فوجئ العالم بنبأ عجيب ، وهو استقالة الزعيم الإيطالى ، وتولى ملك إيطاليا زعامة القوات الحربية كلها ؛ وعين المرشال بادوليو رئيساً للحكومة ، وألغى النظام الفاشستى بجميع مظاهره . وزالت من المنازل والغرف والحجرات تلك الصور العابسة المتجهمة للزعيم السابق ، التى كان الإيطاليون يجملون بها مساكنهم ، ويزينون بها المصالح الحكومية . واتخذت الصحف والإذاعة نغمة معادية للنظام السابق ، وثارت فى جميع أنحاء البلاد مظاهرات طويلة عريضة ، قد كتمت عنا أنباؤها ، فلا نعرف تماماً هل كانت ابتهاجاً بزوال الحكم السابق ، أو فرحاً بوهم توهموه بأن الحرب ستنتهى بانتهاء ذلك العهد ؛ أو أنها كانت مظاهرات صادرة من الجماعات الفاشستية نفسها ، احتجاجاً على الانقلاب الجديد .

ولم يكن وسط هذه الأنباء المتناقضة سوى عبارة واحدة واضحة المعنى ، وهى قول الحاكم الجديد بأن «الحرب مستمرة» . ولكن حتى هذه العبارة لم يكن أحد يصدق أنها يراد بها أن الحكومة الجديدة تريد أن تتابع الحرب التى شنتها الحكومة السابقة ؛ وإن أقصى ما يمكن أن يقال فى تفسير تلك الكلمة أنها يراد بها أن حالة الحرب مستمرة إلى أن يتاح لإيطاليا أن تخرج منها بالشروط التى تريدها ، والتى تريدها حليفتها فى المحور .

وفى وسط الضجة الهائلة التى ثارت حول استقالة موسولينى ، والدخان الكثيف الذى عقد على الجزيرة الإيطالية ، أخذ يبدو فى شىء من الوضوح أن إيطاليا لا تريد أو لا تستطيع أن تقلب سياستها ، فتتحول من ألمانيا وتميل نحو الدول المتحدة ؛ ولعل زمام أمرها ليس كله فى يدها حتى تستطيع أن تقبل السلم من غير قيد ولا شرط . ووجود هذا الجيش الألمانى الكبير فى الأرض الإيطالية ، بقطع النظر عن رجال البوليس السرى الألمانى والموظفين الكثيرين المتغلغلين فى الإدارة الإيطالية ، لن يترك للإيطاليين الخيار فى أن يسلكوا الخطة التى يريدونها.

من أجل هذا كله نرى الحكومة الإيطالية اليوم تمنى نفسها بأمنية عجيبة ، وهى أن تتحول مرة واحدة من دولة محاربة إلى دولة محايدة ، فتجلو عن أرضها القوات الألمانية ، ولا تدخلها الدول المتحدة ، فتتمتع بالسلم والأمن ، وتستبق صداقة ألمانيا ، وتسترد صلاتها بالعالم عامة ، وبالدول المتحدة بوجه خاص . وهى تريد هذه المزايا كلها فى مقابل ذلك الثمن الذى دفعته وهو زوال الحكم الفاشستى .

ولا شك فى أن هذا الحل يرضى ألمانيا كل الرضى ، فإنه يضمن ألا تصبح الأراضى الإيطالية ميدانا جديدا ، وألا تتخذ قاعدة لغزو البلقان وفرنسا ، فتضطر الدول المتحدة إلى فتح ميدان جديد فى غرب أوربا على ما فى هذا من خطر جديد تتعرض له قواتهم . وهذا الحل يريح الجيش الألمانى من عبء كبير ، وهو عبء الدفاع عن إيطاليا ، ويمكنه من تحويل القوات الموجودة فى إيطاليا إلى الميدان الشرقى ، حيث الحاجة شديدة إلى مدد .

هذه هى الخطة التى يبدو أن حكومة إيطاليا أرادت أن تسلكها فى الخروج من هذه الحرب . ولعلها هى الخطة التى دبرها الزعيمان فى فيرونا . فإذا صح هذا ، يكون من العجيب حقا أن قد خطر لهذين الرجلين ولعقلهما الجبار ، أن الحلفاء سيقبلون مثل هذا الحل ، بعد أن توطدت أقدامهم فى صقلية ، وبعد أن أصبح فى وسعهم أن يثبوا منها إلى أرض إيطاليا .

وما الذى يكسبه الحلفاء من مثل هذه الخطة ؟ إن زوال الحكم الفاشستى ليس بالمكسب العظيم إذا جاء بعده حكم يقتفى أثره وينهج نهجه . وإذا قيل إن هذا يوفر على الحلفاء فى مجهودهم الحربى بإخراج الجيش الإيطالى من صفوف المحاربين ، فإن من البديهى أن هذا مكسب ضئيل ، لأن الجيش الإيطالى بعد صقلية ، وبعد هذا الانقلاب فى الحكم الذى توهم الشعب أنه سينهى الحرب ، أصبح قوة قليلة الخطر ، بل لعله من القيد النافع أن يظل هذا الجيش المسلوب الروح المعنوية يحتل حيزا ، ولو صغيرا ، فى الميدان الإيطالى .

يبدو مما تقدم أن مطالبة إيطاليا بسلم مبنى على الحياد ضرب من العبث ؛ وليس أمام الحكومة الإيطالية سوى أن تسلك إحدى الطرق الآتية :

١ — أن تسلم للحلفاء من غير قيد ولا شرط .

٢ — أن تستمر فى الحرب إلى جانب ألمانيا .

٣ — أن تسترد جيوشها من الميادين وتترك لألمانيا مواصلة الحرب فى أرضها .

فإذا أرادت إيطاليا أن تسلك الخطة الأولى ، وجب عليها أن تستعد لمعارضة شديدة من ألمانيا ، التى قد تضطر إلى نزع سلاح الجيش الإيطالى أو جزء منه ، واحتلال إيطاليا أو جزء منها احتلالا عسكريا .

إن الاختيار الذى تختاره حكومة إيطاليا اليوم ليس أمرا هينا . ولكن ليس من المعقول بعد الذى تورطت فيه فى الأعوام الثلاثة الماضية أن تنال السلم سهلا سائغا .

محمد عوض محمد

كفاح الموت

بقلم الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

لولا « بنتنج » ما عاش « مينوت » Minot ، فهو إنما عاش بالإنسولين . فلولا الإنسولين ما امتدَّ به العمر حتى استطاع أن يجرِّب علاجَه في مرضى أوشك أن يودي بهم داؤه . أما داؤه فكان فقرَ الدم الخبيث ، وأما دواؤه فكان الكبدَ يأكلونه .

في عام ١٩٢٥ لم يكن في الأدواء داءٌ معروف الختام ، قاتلٌ ، كهذا الداء الغريب الذى يدخل إلى الدم فيُفرغه ويُجففه . فكنتَ ، إن قال لك طبيب إنك مصاب بفقر الدم الخبيث ، فكأنما قال لك تجهَّزْ للموت ، واتصلْ بحفَّارك ، أو كأنما حكمتْ عليك المحكمة بالإعدام الذى لا نقض له .

وفي عام ١٩٢٦ أعلن الدكتور جورج « مينوت » والدكتور « وليَم مَرْفى » William Murphy أنهما أطعما الكبدَ كلَّ يوم خمسة وأربعين مريضاً ، في صف واحد . وكان هؤلاء المرضى قد عجز نخاعُ عظامهم عن أن يصطنع دماً أحمر . لماذا ؟ لم يكن أحد يدرى . وكان من نتيجة ذلك أن وقفَ هؤلاء المرضى عند حافة قبورهم ، وقد همُّوا بالنزول فيها . ثم هم يُطعَمون الكبدَ ، فإذا بهم يُعطُون ظهورهم للقبور ، ويعودون مرة أخرى إلى حيث الناس والحياة . لم يمت واحدٌ منهم ، بل استرجعوا جميعاً دماءَهم وصحُّوا وعاشوا .

كان هذا خبراً غريباً ، لا يفوقه في غرابته أيُّ خبر آخر في تاريخ الحرب الحديثة القائمة بين الإنسان والموت . ففي هذه الحرب الحديثة ، في هذا العصر الحديث ، الذى صار العلم فيه أساسَ كلِّ تقدم ، ومرتكَزَ كل هجوم ، كان الحاسب يحسب أن مرضا ميئوساً منه كهذا لا يكون له دواءٌ إلا دواءٌ علمياً ، عريقاً في علميَّته ، يستنبطه فطاحل من رجال العلم ، ويخرج من معامل يبرق فيها المعدن والزجاج . أما هذا الدواء فقد خرج من طبيبين ليسوا من العلم في كثير . وهو دواء لمرض عُضال ، ليس مما يتطاول إليه قصار الأطباء ، أو أدعياؤه . وهو دواء بلغ من البساطة حداً يختلط عنده رأى العالم ، ويضلُّ صوابُه ، ويضيع إيمانه ، ومع هذا يفهمه الطفل كل الفهم ، ويؤمن به كل الإيمان .

لا عجب إذن أن يُهمَل هذا الدواء مدةً من الزمان بعد إعلانه ، وأن يظلَّ الناس من بعد إعلانه يموتون من فقر الدم الخبيث ، وقد كان في مقدورهم لو عقَلوا ، أو عَقَل أطباؤهم ، ألا يموتوا . وحتى اليوم ...

أعوز دواءَ « مينوت » الجديد شيءٌ من التعقيد حتى يفوز بالقبول ، وحتى يكسِبَ إيمانَ الناس . إن دواء الطب كالبضاعة ، لا بدَّ من حسن عرضه على أنظار الناس ، ولا بد من ترتيبه وتشكيله من وراء الزجاج في نوافذ الدكاكين حتى يأخذ أبصار المارَّة ، ويدغدغ خيالهم . والتعقيد في الأدوية عنصرٌ من عناصر الدغدغة وسببٌ من أسباب الرواج . فالمرضى ، وأطباؤهم ، كلهم ناسٌ ، لا بد من الدخول إلى موضع العقيدة منهم بشيء من الرائم والطقوس ، بشيء من الإبهام والتعمية ، بشيء من التركُّب والخلط ، حتى يؤمنوا إيماناً صادقاً بدواء لداءٍ فيه الموت حقاً لا كذباً ، كهذا الداء .

إن بساطة هذا الدواء كانت بساطة بالغة جعلت الناس تتشكك فيه . نعم ، نعم ، إن « مينوت » أستاذٌ من أساتذة الطب في جامعة عظيمة شهيرة بجامعة هَرْفَرْد Harvard ، لاشك في هذا ، ولكن كيف يتدنَّى مثله ، ومن هو في مثل وقاره ، إلى الكبد وأكلها ....

إن وصفة كهذه يسمها الناس من عجوز شمطاء خرفة من مجائز الحى ، فيبتسمون لها . أما أنها تصدر عن طبيب محافظ ، كجورج مينوت ، من آل مينوت الأرستقراطيين ، الذين يرون أن العلم اليوم فى تدهور والفن فى تقهقر ، فكبيرة لا يمكن أن تغتفر .

وبعد ، أحقاً كان كشف « مينوت » بسيطاً كل هذه البساطة ، مُسِفًّا فى مظهره كل هذه الإسفاف ؟ لا ثم لا . إن هذا الظاهر البسيط كان يطوى باطناً مُعجباً ، وسراً خفياً ، لا يقاربه فى إعجابه ولا يدانيه فى خفائه ، إلا بساطة هذا المظهر البسيط . إن « مينوت » لم يكن له ذلك الحظ الذى هيأ لزاملَ تلك التجارب المروّعة التى أتاحتها له الطبيعة فى مستشفى الولادة بفينّا . ولم يكن « لمينوت » مثل تلك الفكرة الملحّة ، ولا ذلك المنطق الصارم الذى دفع بيشتنج دفعاً إلى تجاربه بتلك الفرقة العليا بالمبنى العلوىّ بطورنطو . ولكنّ « مينوت » اشترك مع هذين الطبيبين العاديَّين فى شىء واحد : أنه كره الآلام الإنسانية كراهةً لم تأذن له فى الرضوخ لأى داء عُرف عنه أنه لا يرضخ لأى علاج . وهذه صفة الرجل الأول إذا هو أراد مكافحة الموت .

* * *

إن الذى يطّلع على حياة « مينوت » ، وهو طالب طب صغير ، لا يدور فى خلده أن مثله سوف يلقى فى دنياه من العقبات ما يتعود به على المشاق التى لا بدّ منها لكشف خاطر جرىء كالذى اكتشفه . إنه تابع دراسته فى جامعة هرفرد ، ولم يحتج يوماً إلى العمل ليكتسب رزقه ، كبعض أناس غيره ، وليستعين بكسبه على دراسته .

وهو لم يضطر يوماً حتى إلى رهن ساعته لشراء كتبه . وعدا هذا فقد كان بيته بيت علم ، وبيت طب . كان بيتاً فيه من العلم والطب عرفٌ وتقليدٌ كافيان أن يجريانه منهما فى سبيل معبّدة معروفة تنأى به عن سبيل جديدة تُفتتح وتُبتدع . فأبوه ، جيمس جا كسون مينوت ، طبيب بارع من أطباء مدينة بُسْتُن Boston ، اعتزل العمل ، وكان قبل ذلك عضواً عاملا نشيطاً من أطباء المستشفى العام بماساشوست Massachusett . وجدّه ، جيمس جاكسون ، طبيب من أعظم الأطباء التى تفخر بهم أمريكا أبداً ، وكان الطبيبَ الأول لمستشفى ماساشوست . وأخو جدّه ، فرنسيس مينوت ، شغل نفس هذا المنصب الكبير . وابن عمه ، شارلس سِدْجيوك مينوت ، كان عالماً بحّاثاً فى الأحياء ، خبيراً بدواعى الموت والفناء ، وله كتاب عميق عنوانه : « العمر والنمو والموت » . وعلى هذا يكون جورج مينوت ، صاحب هذه القصة ، قد بلغ من الصيت والنجاح حظاً كبيراً قبل أن يولد .

وعلى تيسُّر الأمور له ، وانفتاح طرق الحياة أمامه ، فقد وضعت الطبيعة له فى هذا الطريق عقبة واحدة كأداء كان عليه أن يتخطاها — تلك ضعف بنيته . وقد كان يجمع إلى ضعف بنيته ورقة جسمه ، نضوجا زائداً فى العقل لا يتفق مع سنّه . فإذا أنت رأيته وخبرته حسبتَ أنه أحدُ الألى تُختتم حياتهم وشيكا بمرض عُضال لا بُرء منه . وكانت رقّة هذا الجسم لا تأذن لمثل صاحبها فى الحياة ، فى الأكثر ، إلا بأن يكسب لنفسه فى الطب نُجعة لا بأس بها ، دون أن يأتى فيه بشىء جليل قيّم . ولكن صاحبنا كسب فوق ما تأذن به رقّة جسمه ، وفوقه كثيراً ؛ ذلك لأنه كان يشتغل ويشتغل ، ولا يفتأ يشتغل . كان الشغل دَيْدَنه .

وكان من بدء أيامه شغوفا شغفاً بالغاً بكل نوع من أمراض الدم . لا دم القطط أو دم القردة ، ولكن دم الإنسان . ابحث فى سجلات المستشفى العام بماساشوست ، حيث كان فيه طبيباً مقيماً عام ١٩١٣ ، تجدْ خطه القريب ينبئك عما كان فيه من شغل شاغل بامرأة فقيرة مريضة مرضاً لا يُرجى ، هى الآن طىّ التراب .

من مذكرات جحا :

جحا والحب

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة الذي زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

أيها العقل المفكر قف مكانك، ولا تقلق هذا الكون السرمدي بثرثرتك. القمر يغمر الأرض بنوره الرقيق، فيجلو أرجاءها، ولكنه لا يقسو عليها، ولا يتدسس في خفاياها وأسرارها؛ بل يترك عليها غلالة رقيقة من الظلام يحتفظ تحتها بهذا الغموض الرحيم الذي تستطيع فيه أن تتمتع بأسرارها المقدسة، وهي آمنة من الوضح الباهر الفاضح. فما زالت الأرض منذ القدم تأنس إلى ثنايا الستور، لكي تفوز الإنسانية فيها بمتع الحياة. وما زال بنو آدم منذ خلقهم الله يهربون من النور الكامل إلى ظلال الفحمة الخافت، إذا هم أرادوا اقتناص لذات الحب، أو الإنصات إلى همسات الأماني. وفي ضوء هذا القمر يجد الخيال فسحة يجول فيها وينطلق، وتعينه على جولاته تلك الظلال المتراقصة عند الأفق، وهذه الشعاعات الفضية التي تمرح بين الأشجار، أو بين فرجات الأبنية، أو في أذيال السحب البيضاء. فهنالك لا تزال عين الإنسان الكليلة ترى رقصات الجان، وعربدة العفاريت، ومحاورة الأشباح، وزيارات الأرواح، كلها تهبط إلى الأرض مع أضواء القمر، فلا تزال تمرح وتعبث وتنساب في الآفاق حتى يطل عليها أول خيط من نور الشمس، فلا تلبث أن تهرب لائذة بأكناف الأجواء، أو عائذة منه بالأغوار والكهوف وشعاب الجبال.

في هذا القمر الساجي أرقد مستلقياً على ظهري ناظراً إلى الفضاء الذي لا نهاية له، فكأنني أشخص فيه وأفنى، أو كأن الوجود كله يفنى في روحي، فلا يبقى منه إلا ما بين جنبي! وأرى النجوم الصغيرة تبدو في خجل من ضآلة شعاعها، ولكنها مع ذلك ترسل حديثها الصامت من وراء الفضاء، وفي جوف الماء، تحدث عن الأسرار الهائلة التي يضمها الكون، وتخبر عن سير القرون الطوال — حديثاً قصيراً لا يزيد على لفظ «كانوا». فإذا ما سألتها عما وراءها وما يحيط بها، وعن الكرسي

كان يدور في المستشفى كلَّ يوم، وكلَّ يوم يراها هي ما هي، لا تتغيّر ولا تتبدّل، ووجهها يبعث الرعب في ناظره، فلم يكن أبيض عديمَ الحمرة فحسب، بل كان يمتزج بشيء قليل من صفرة الليمون. وكان بياضاً شاحباً كالشمع. ولم يكن داؤها بالمجهول. ولم يكن مصيرها بالمجهول أيضاً. كان رقمها في السجلات ١٩٠١٨٢. وأمام هذا الرقم كتب «مينوت» الطبيبُ الشاب:

«إنها حالة غير راقدة، وهي تستمتع بالهواء الطلق بفناء المستشفى، ولكنها باقية على ضعفها، وصورة دمها باقية على حالها ... والظاهر أن دواءها يجب أن يكون به حامض الكلوردريك، فعدتها معدة ينقصها هذا الحامض ... ولكن، وايمُ الحقّ، إنه لَفقرُ الدم، وإننا لنجهل ما علاجه».

ولم يكن هو، وايمُ الحقّ، بجاهله وحده. فكل الأطباء استووا في جهله. ولكنه اختلف عنهم في أنه لم يستطع أن يقنع نفسه بأن هذا جهلٌ لا بد منه، وأن هذا داء من الأدواء التي ليس إلى دوائها من سبيل. قال الرجل العظيم، وليم أزلر Osler: إن من الأدواء أدواء لا يمكن الأطباءَ علاجُها، لا اليوم، ولا غداً أبداً. وقرأ «مينوت» قول هذا الرجل العظيم، ومع هذا لم يستطع أن يلمه.

أحمد زكي

الأعظم الذى يسمعها جميعاً ، لمت لمة غاضبة كأنها تقول : « اخسأ » . فلا يسعنى إلا أن أقول ما قلت فى أول كلمتى هذه : « أيها العقل المفكر ، قف مكانك ، ولا تقلق هذا الكون السرمدى بثرثرتك » !! وتطرق أذنى الأصوات المنبعثة من سواقى ذات النعير المتصل : أيتها البقرة الناعسة العينين المستضعفة ! إن دورانك ليس عبثاً كما يحسبون . أليس فى هـذا الصوت الذى يدوى فى سكون الليل ما يعوض عن دأبك فى الدوران ؟! وماذا يعنيك إذا كانت الساقية ترفع ماء يروى النبات أو لا ترفع من الماء شيئاً ؟! حسبك من الدوران نعير هذه الساقية ، حسبك هذه الموسيقى رنانة الأصداء ، التى تكسب الليل قدسية الترتيل والتسبيح . لا تكونى أيتها البقرة حمقاء مثل هذا الإنسان الذى لا يتحرك إلا لمطمع ، فلن تصيبى من الحياة إلا ملء مزودك من الحشيش .

كل شىء فى هذا الليل الساجى يبعث على السلام والسمو ، وأحس وأنا مستلق على حشائش هذا الجرن الواسع أن الحياة جميلة ، وأن الإنسان لم يخلق فيها للآلام . الحياة حلوة ، ولو لم يكن فيها سوى أن تستلقى على ظهرك فى ضوء القمر ، وتتأمل الصور التى حولك ، أو التى فى خبايا صدرك ! هناك تستطيع أن تجد السعادة فى هذا السلام الشامل ، ومناجاة أحلامك المزوقة . هنا أستطيع أن أعيش مع علية ابنة السلطان إذا شئتُ ، لا يفرق بينى وبينها تلك الفوارق التى تحجبها عنى إذا ما طلعت الشمس ، ولا يمنعها منى ذلك السلطان القوى ، الذى لا أحس قوته ولا عظمته ما دمت مستلقيا فى هذا الضوء الرقيق .

قد اعتاد الإنسان أن يتخذ فى ضوء القمر الخافت مجالس حبه ، يخلو فيها بمن أحب ، لأنه يجد فى غموضه وخفوته مشجعا على الخلو بغرامه . وكأنى به لا يجرؤ على على أن يفتح عينيه على حبه ، لأنه غير جدير بالحب ؛ أو كأنى به يخجل من نفسه إذا رآها تطيع تلك العاطفة المظلومة ؛ أما أنا فإنى يحلو لى أن أفكر فى هذا القمر الساطع الذى يحمل خيالى إلى آفاق الملأ ، حيث أجتمع بعلية عند السماك ، بعيداً عن الأرض الضيقة وجهلها وسخافاتها . ولكنى مع ذلك لا أجد لذة أكبر من أن أفتح عينى فى ضوء الشمس لأرى حبى مطلاً غير خفى ، ويحلو لى أن أجهر بحبى ، وأن أعلى بسماع أصداء تسبيحى بذكرها ، لأن كل ما فيها عندى كريم نبيل صريح . لقد قلت وتحدثت وصحت ، وسمع الناس قولى وأحاديثى وتسبيحى ، وماذا يعنينى منهم إذا هم سخروا منى ورمونى بالغرور والجنون وفساد الرأى ؟! لقد أفضى إلى صديقى أبو النور برأيه ، وعنفنى على مجاهرتى بذكر حب علية ، ولامنى على أننى أعرض نفسى للهلاك بهذه الأقوال ، وأجعلها مهزأة للناس . هذا الناس يعجب لصعلوك مثلى إذ يتطاول إلى مقام الملوك . أنا صعلوك ؟ حقا أنى فقير ، ولست أدعى الغنى ، وأنى قبيح ولا أدعى الجمال ، وأنى ضعيف الجاه ولا أدعى القوة ، ولكنى مع ذلك حجا ! إنى حجا على سنٍّ ورمح . أنا الذى أدرك من المعانى ما يفوت عقولهم ، وأسمو فوق الحياة سمواً لا يستطيعه أحد منهم . أنا من إذا فكر تفتحت دونه الأسرار المغلقة ، وإذا كتب تدفقت فى صدره ينابيع من الآيات يغترف منها ما شاء ، ولا يخشى عليها أن تنفد . أنا حجا الذى لا يدارى ولا يمارى ، ولا يعبأ فى الحياة بشىء مما يرغب فيه الناس ، أو مما يرهبونه . فما الذى يمنعنى أن أتطلع إلى ابنة علاء الدين ، وقد كان أجدادى سادة فى ماهوش قبل أن يحل أجدادها فيها ؟

ثم ما الذى يلومنى عليه الناس من حب علية ؟ وما الذى يعنفنى عليه صديقى أبو النور ؟ إن السلطان لا يستطيع أكثر من أن يمنعها منى كبرا واستعلاء . ولئن منعها منى فلن يستطيع أن يمنع قلبى من حبها ، ولن يستطيع أن

يعجب من العوالم التي أكتشفها من تأمل حبها! إنني أعيش في حبها، وأسمو به كما يسمو العابد في صلاته.

وهل الحياة كلها جسم أو جسد لا عبرة فيه بالروح؟ إن روحي تهيم في حبها، وتستطيع أن تقضي كل الأيام والليالي في الأفق الأعلى تتغذى من ذلك الشجن الطاهر الذي يشملها، وتتصل من ذلك الهيام الحار الذي يصهرها.

علية ابنة علاء الدين! لن أكف عن التعلق بك، والتسبيح باسمك، والتماس الحياة العليا من محبتك، وإن لم تقع عيني عليك مرة أخرى!!

أيها الحب كم جنى عليك الأدعياء الذين لم يعرفوك، ولم يفهموا منك إلا هزة الجسم الكثيف المظلم. كم من الأدعياء يرددون لفظك في الشعر الغث، ويلوون به ألسنتهم في غنائهم المخنث! وما هذا الذي ينشدون فيه أشعارهم، ويطوون به أنغامهم، إلا الشهوة الفائرة المتقلبة التي يشاركون فيها الكلب والكلبة، والخنزير والخنزيرة، والحمار والأتان. وكم جنى هؤلاء الأدعياء على النفوس الساذجة التي كانت تستطيع أن تسمو إلى آفاق الحب الصحيح، فصرفوها عنه قبل أن تقدر على ارتياد آفاق العلا، ودفعوا بها إلى الطين المسنون، وخيلوا إليها أن هذا هو الحب.

أيتها النفوس المضللة المسكينة! الحب هو أول ما دفع الخليقة إلى طريق الحياة، إنه الملك الحارس الذي ناط به الله عمران هذا الكون منذ نفخ نفسه فبث في الأرض سر الروح. وما كان لمثل هذا الملك أن يتخذه الرجال لهواً أو مسلاة. وما كان له أن يتخذه النساء رزقاً، أو يتخذن الخداع في سبيله مطية. إنه الجد كله، والطهر كله، والسمو كله، والصدق كله.

أواه، إن هذا التفكير يجهدني، حتى كأنني في بحران محموم، وأحس رأسي يدور ويضطرب ويتصدع. وكم خيل إلي أنني قد قربت من إدراك كنه هذا الحب محوت إلى نفسي، فوجدتني حيث كنت مدفعاً ضائعاً فيه على غير هدى. وهل يقدر العقل على أن يدرك في طوقه الصغير الضعيف كنه السر الذي سبق الحياة نفسها؟

أراني قد استرسلت مع الخيال، فحملني على أجنحته، ولج بي حتى بعد عن هذه الأرض التي لا أستطيع وا أسفاه أن أقطع الأسباب التي تربطني بها. وإنه لمن السخف أن أطير مع الخيال، ورجلاي مثبتتان في هذه الأرض التي يعيش الناس فيها كما يشاءون وكما يتصورون، لا كما أشاء أنا وأتصور! وما أنا بينهم إلا جحا الفقير، جحا الضحكة، جحا الصعلوك الذي لا يحسن إلا أن يقول أقوالا لا يفهمونها، وقد يسخرون منها. ولئن كان الله قد حكم على أن أحرم من أملي لمثل هذا السبب، فلا مناص لي من الخضوع لإرادته، والتأدب اللائق بجلاله. ولأقنع بهذه الصورة الثاوية في قلبي أناجيها، وأعلق فيها بالمثل الأعلى لكل ما هو جميل، وكل ما هو نبيل؛ وأعيش في عالم الصور، مستغنياً به عن دنيا الناس وعالم الجسد والحس. فمثل هذا العالم الأعلى هو الجدير بمثلي.

يا علية ابنة علاء الدين! سأحيي من أجلك معنى الحب كما أراده الله أن يكون، وسأقيم له بقلبي محراباً يسبح فيه القلب بلمحات الحب الأسمى! ولعل الليلة إذا أويت إلى مضجعي، وأغفت العين، وغاب الوعي، وتنبه الروح، أسريت إليك حيث لا يردني حجاب، ولا يرهبني سلطان! ولعل طيفك هذه الليلة لا يسأل عني منكراً من أكون، كما فعل ليلة الأمس. لقد رفعت عيني نحوه ليلة الأمس ضارعا. فالتفت إلي دهشاً، ورفع حاجبيه، ونظر إلى الوصائف المحيطة بي، وأشار إلي منكراً وهو يقول: «ذلك البائس المسكين من يكون؟».

لعل طيفك يكون هذه الليلة أكثر اهتداء إلى محرابه، ولعل مسيل الروح يبلغك حتى يتجه طيفك إلي باسماً، ويرد إلي تحيتي بنظرة عارفة فيها كل معاني السعادة!!

طبق الأصل جحا

السـلطان!

سمعت معترضاً يعترض على بعض دور الإذاعة ، قال : إن بعض هذه الدور تفتح الكتب القديمة ، مثل الأغانى أو العقد الفريد ، وتقرأ على جماهير المستمعين صفحات من هذه الكتب ، فكأنها لا تشعر بانتقال العصور من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ؛ إنا لا نزال نقلّد ، فليس لنا إلاّ الأغانى أو العقد الفريد أو ما شاكلهما ، فلسنا نبدع ولا نخترع !

إنى أقع فى هذا المقال فى الخطأ الذى ذكره هذا الفاضل ، ولكنى لست أدرى هل أقع فيه عامداً أم ساهياً ، فقد فتحت العقد الفريد كما تفتح بعض دور الإذاعة أمثال هذا الكتاب القديم ، وقد باعدت الأيام بينى وبينه ؛ فتحت الجزء الأول منه ، وقرأت ، أو على وجه أضبط أعدت قراءة كتاب اللؤلؤة فى السلطان ، وهو أول الفصول . إنى أكرر فى هذا المقال ما قاله القدماء ، لست مبدعاً ولا مخترعاً ، ولعلّى أرى لنفسى فضلا فى هذا التكرير . لقد قرأت العقد الفريد من عشرين سنة ، ولكنى قرأته من تلك السنين لأحبس فهمى على لفظة أنشها من مدفنها ثم أقوّم بها بيانى ، أمّا الفكرة التى تسترها هذه اللفظة فلم أهتم بها ، أو لم أهتد إليها ؛ غير أنى اليوم أحبس فهمى على الفكرة وحدها ، وأقلّل من الاهتمام باللفظة التى تحجبها ؛ وعلى هذا النحو من القراءة فقد اهتديت إلى ما لم أهتد إليه قديماً ، وذقت من المحاسن ما لم أذقه من قبل . وأعتقد أن المعترضين على قراءة طائفة من الكتب القديمة إذا قرأوا هذه الكتب ليفهموا ما فيها ، لا ليلهوا بها ، فإنهم يخففون من اعتراضهم ، ثم لا يلبثون أن يرجعوا إلى هذه الكتب ، وأن ينعموا بمزاياها ، وأن يروا أن ميراثنا الأدبى فيه أشياء كثيرة من روح هذا العصر ، ومن روح العصور الآتية !

لا أريد أن أشتت الخواطر التى خطرت ببالى وأنا أطالع كتاب اللؤلؤة فى السلطان ، ولكنى أحاول أن أجمع هذه الخواطر ، أو أن أجمع جملة منها فى موضوع واحد ، وهو : السلطان ، دون أن أخرج عن هذا الموضوع !

لم يبق فى عصرنا لكلمة السلطان الشأن الذى كان لها فى عصورنا البعيدة ، فالسلطان كان فى تلك العصور زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذى عليه مدار الدنيا ، وهو حمى الله فى بلاده ، وظلّه الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم ؛ أمّا اليوم فقد حلّت محلّ لفظة السلطان لفظة ثانية ، فزمام الأمور فى عصرنا هذا بيد الحكومة . إنّا لا نقول فى هذا الباب : السلطان ، ولكنا نقول : الحكومة . أفرأينا كيف تشق الألفاظ وتسمد ! أفرأينا كيف يكون لفريق منها شأن فى عصر من العصور ، ثم يأتى عصر آخر فيزحم هذا الفريق ويحل محلّه ألفاظ ثانية ! ولكن ليس هذا موضوعى !

كل الذى أحاول أن أشير إليه فى هذه السطور أن كتاب اللؤلؤة فى السلطان يشتمل على طائفة من الأفكار الخالدة فى مجامع العصور ، إنّا لا نزال فى حاجة إليها ، وأظن أن شيوع مثل هذه الأفكار فينا لا يخلو من خير كثير ، ولست قادراً على أن ألخص فى سطور ما جاء فى ثلاثين صفحة . لا شك فى أن بعض ما اشتملت عليه هذه الصفحات الثلاثون أصبح عتيقا بالنسبة إلى عصرنا ، فقد أنشئت الكتب الحديثة فى الحكومات ، وعيّنت هذه الكتب واجب الحكومة وحقوق الشعب ، ولكن كثيراً مما اشتملت عليه هذه الصفحات لا يزال جديداً ، فإن قول النبى صلى الله عليه وسلم : « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة » ، أو قوله : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » ، إنما هو خالد على وجه الدهر ؛ فما هدم الحكومات فى القديم والحديث إلا هذا الشيء الذى هو ضدّ العدل ، وما ضعضع هذه الحكومات إلا قلة الاعتناء برعاياها !

لقد تضمَّن كتاب اللؤلؤة فى السلطان جملة من الأمور تكاد تكون خلاصة الروح الديموقراطية على تعبير عصرنا هذا ، وأىُّ معنى لديموقراطية لا تعدل فى حكومتها ، أم أىُّ معنى لديموقراطية يأتى رجال حكومتها فينتقمون من خصومهم دون شىء من الإغضاء ؟! قال زياد لما قدم العراق واليًا عليها : أيها الناس ! إنه قد كانت بينى وبينكم إحن ، فجعلت ذلك دبر أذنى ، وتحت قدمى ، فمن كان محسنًا فليزد فى إحسانه ، ومن كان مسيئًا فلينزع من إساءته ؛ إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلُّ من بغضى ، لم أكشف له قناعًا ، ولم أهتك له سترًا ، حتى يبدى صفحته لى . لعلَّ القارئَ الكريم يرى وراء هذا الكلام تجردًا فى الحكم ، إذا أراد أن يرى مثله فى أيامنا هذه ، فلا يستطيع أن يجده إلا فى الذى نسميه : أرقى حكومات العالم !

ولو اطلعنا على قوام سياسة الحجَّاج لعلمنا أن مثل هذا الطراز من السياسة إنما هو المثل الأعلى فى الحكم ؛ فقد كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف أن يصف له سيرته ، فكتب إليه الحجاج : إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى ، فأدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت الحرِّب الحازم فى أمره ، وقلَّدت الخراج الموفَّر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسمًا ، أعطيه حظًا من لطيف عنايتى ونظرى ، وصرفت السيف إلى النطف المسىء ، والثواب إلى المحسن البرىء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب .

أفلا نجد فى مثل هذا الكلام منتهى الحزم ؟ أفلا نجد فيه فنًا من أبرع فنون السياسة ؟ لقد تحقق عندى فى أثناء عنايتى بأخبار الحجاج ونظرى فى سيرته ، أن من جملة العوامل فى نجاح سياسته فى العراق اختياره لرجاله ، فلم يولِّ إلا الحرب الحازم فى أمره ، ولم يقلِّد الخراج إلا الموفر لأمانته ؛ وهل تقوم حكومة فى العالم إلا على هذا الأساس من السياسة ؟ هل تقوم حكومة فى العالم إذا لم يكن رجالها من أصحاب الحزم والتجربة والأمانة وأشباه هذه الصفات ؟ !

لقد جمع كتاب اللؤلؤة فى السلطان أشياء كثيرة من هذا المعنى ، فهل عنى ما كتبه أرسطاطاليس إلى الإسكندر : املك الرعية بالإحسان إليها ، تظفر بالمحبة منها ، فإن طلبك ذلك بإحسانك أدوم بقاء منه باعتسافك ؛ واعلم أنك إنما تملك الأبدان ، فاجمع لها القلوب ؛ واعلم أن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم أن تفعل .

فالذين تتبَّعوا سياسة الحكومات ، وتعقَّبوا زلاَّتها قد علموا العلم كله أن أكثر الفتن والثورات تنشأ عن اعتساف هذه الحكومات ، لأن الرعية تصبر على الاعتساف حينًا من الدهر ، ثم ينقطع صبرها فتنقضُّ على المتسفين : فكتاب اللؤلؤة فى السلطان محتو على حقائق لا نزال نشاهد آثارها .

وكما تضمَّن هذا الكتاب خلاصة الروح الديمقراطية ، فقد تضمَّن التنبيه على أحسن الأصول فى إدخال الإصلاح على سبيل التدريج ؛ قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : يا أبت ! مالك لا تنفذ الأمور ، فوالله لا أبالى فى الحق لو غلت بى وبك القدور . فقال له عمر : لا تعجل يابنى ! فإن الله تعالى ذمَّ الخمر فى القرآن مرتين ، وحرَّمها فى الثالثة ؛ وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة ، فيدفعوه ، وتكون فتنة .

وكم حكومة حاولت أن تحمل الحق على الناس جملة ، فدفعوه وكانت فتنة . فأحسن الإصلاحات لا تكون إلا على الأصول التى بنى عليها عمر بن عبد العزيز ، لأن إخراج الناس من شىء ألفوه وطالت ألفتهم إياه ، إلى شىء لم يألفوه بعدُ ، لا بدَّ فيه من كثير من الرفق والحيلة ، حتى لا يدفعه الناس ، وحتى لا تكون الفتنة التى أشار إليها عمر بن عبد العزيز !

مستطرفات ونوادر

من سيرة الأستاذ الإمام محمد عبده

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده شخصية غنية عن التعريف : أعماله مشهورة ، وآثاره مشهودة في مصر وفي العالم الإسلامي كله . وليس قصدنا هنا أن نتحدث عنه أو من آرائه حديثاً علمياً مذهبياً ؛ وإنما نكتفي في هذه الفصول أن نورد طرفاً من النوادر المتصلة بسيرته ، والتي استقيناها إما من كلام الرجل نفسه ، أو مما رواه الثقاة من معاصريه وتلاميذه ومريديه .

ولنعرض أولاً لما هو مشهور من علاقة الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغاني فيلسوف الشرق في القرن التاسع عشر . قدم جمال الدين إلى مصر المرة الأولى سنة ١٨٦٩ ؛ وكان الشيخ محمد عبده حينذاك طالباً يتلقى العلم في الأزهر ، فلما سمع بقدوم ذلك النابغة الكبير ذهب لزيارته في صحبة الشيخ « حسن الطويل » الذي كان أستاذاً للمنطق بالأزهر . وتحدث جمال الدين إلى زائريه أحاديث طلية في التصوف الإسلامي وفي تفسير القرآن ، فكانت شخصيته تخلب ألباب سامعيه .

ولما عاد الأفغاني من استنبول إلى القاهرة سنة ١٨٧١ ، بادر محمد عبده إلى لقائه ، وتلمذ له ، وأصبح يلازمه كظله . ولقد نشط الأفغاني لبث تعاليمه الحرة التي لم يكن للناس عهد بها ؛ وكان يقرأ لتلاميذه طائفة مختارة من الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المعربة في مختلف فروع الفلسفة والتصوف والسياسة والاجتماع ، فكان ذلك فتحاً جديداً في طرائق التعليم يخالف ما كان سائداً إلى ذلك الحين . ومن المحقق أن جمال الدين كان يفيض قوة ذاتية وسحراً فطرياً ، فاستطاع أن ينفخ من روحه في تلاميذه ، كما قال جرجي زيدان ، « ففتحوا أعينهم وإذا هم في ظلمة ، وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه ، فضلاً عن العلم والفلسفة ، روحانية أرتهم عالمهم كما هي ، إذ نزعت من عقولهم حجب الأوهام ، فنشطوا للعمل في الكتابة ؛ وأنشأوا الفصول الأدبية والحكمية والدينية » .

ولا نزاع في أن الشيخ محمد عبده كان أنبه تلاميذ السيد جمال الدين ، وكان أشدهم تأثراً بطريقته وأكثرهم اعترافاً بفضله وعبقريته — ولقد سجل الشاب الأزهري إعجابه وإجلاله لأستاذه في أكثر من موضع من كتاباته في ذلك العهد ؛ فمن ذلك ما نقرؤه بقلمه في بداية « رسالة الواردات » ، إذ يصف الأفغاني بصفتي « الحكيم الكامل والحق القائم » ، وما نجده كذلك في نسخة نقلها بخطه من كتاب قديم حيث قال في خاتمتها : « وكان الفراغ من

وآخر ما أحب الاستشهاد به من الخواطر التي ازدحمت في صدري وأنا أقرأ كتاب اللؤلؤة في السلطان هذا الخاطر ؛ فقد مرّ سيدنا عمر بن الخطاب على بنيان يبنى بآجرّ وجص ، فقال : لمن هذا ؟ قيل : لعاملك على البحرين . فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ، فأرسل إليه فشاطره ماله !

* * *

كلا ، ثم كلا ، لم يمت العقد الفريد ، ولا عتق كتاب الأغاني ، ولا الكتب التي تشبه العقد الفريد أو الأغاني ! إن هذه الكتب لا تزال زاخرة بحقائقها الخالدة ، ومعانيها البارعة ، ولكن الذي عتق إنما هو فهمنا . إنا لا نعرف كيف نقرأ ، ولا نعرف كيف نذوق محاسن ما نقرأ ، ولجهلنا بهذا كله قلّت روعة ميراثنا الأدبي في نظرنا ؛ إن هذا التراث لا يزال حسناً ، ولكن فلنعرف كيف الاهتداء إلى محاسنه ؛ وإذا اهتدينا إلى هذه المحاسن فلنعرف كيف نذوقها !!

(دمشق) شكيب جبري

قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق إلى جناب الحق ، خلاصة من تحلى بالحكمة ، ومنقذ الضالين في تيه الجهالة والعمة ، محيي الحق والدين ، أستاذنا السيد جمال الدين » .

على أن السيد الأفغاني قد أحلّ الشاب المصري من نفسه منزلة لا تسامى . ولا ريب أن ذلك الأستاذ قد توسم في تلميذه ما ينبئ عن العظمة ويبشر بالنبوغ ، فقال فيه كلمته المشهورة يوم رحل عن مصر المرة الأخيرة (سنة ١٨٧٩) : « لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالماً » .

ولقد روى المخزومي باشا — الذي عاشر الأفغاني ولازمه في استنبول — أن السيد جمال الدين كان شديد الإعجاب بشخصية محمد عبده ، كثير الثناء على أخلاقه ، فكان كلما ذكره يقول : « الصديق » أو « صديق الشيخ » والظاهر أن ذلك أثار بعض الغيرة في قلب « السيد عبد الله نديم » ، وكان ممن يرتادون مجلس جمال الدين ، فقال له ذات يوم : « يا سيد ما قطعت مرة عن إضافة لفظة « الصديق » إلى الشيخ ، كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره ، إذ نراك تنعت من سواه « بصاحبنا » أو « فلان من معارفنا » ؛ فتبسم عند ذلك جمال الدين وقال : « وأنت يا عبد الله صديق ، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديق في الضراء ، وأنت صديق في السراء » ؛ فسكت عبد الله نديم .

* * *

ونعود الآن إلى الحديث عن محمد عبده الشاب ، وهو مجاور في الأزهر ، فنقول : إن الشيوخ حينئذ قد أوغرت صدورهم عليه لاتصاله بالسيد جمال الدين الأفغاني ، وميله إلى دراسة الفلسفة والعلوم العقلية ، ونزوعه في آرائه إلى الإصلاح والتجديد . وذاع أمر محمد عبده بين أقرانه من الطلاب والمجاورين ، فالتفوا حوله ، وأعجبوا به ، وطلبوا إليه ، لما أنسوا فيه من دقة الفهم وحسن البيان ، أن يقرأ لهم ما كانوا يتلقونه في الأزهر . وزاد هو عليه دروساً في الفلسفة وعلم الكلام . وكان طبيعياً أن يحسده القاصرون المتخلفون ؛ فوشوا به إلى « الشيخ محمد عليش » — وكان زعيم المحافظين المتحرجين في الدين — ونقلوا إليه أن « محمد عبده » يعمل على إحياء مذهب المعتزلة (والمعتزلة مشهورون بأنهم « أحرار الفكر » في الإسلام) . فكبر ذلك على « الشيخ عليش » . فاستدعى الشاب الأزهري ودار بينهما الحوار الآتي :

الشيخ عليش : بلغني أنك تقرأ « شرح العقائد النسفية » درساً .

محمد عبده : نعم .

الشيخ عليش : « وبلغني أنك رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية » .

محمد عبده : إذا كنت تحررت من تقليد الأشعرية ، فلماذا أرضى لنفسي تقليد المعتزلة ؟ إني آخذ بالدليل ، ولا أقلد أحداً .

الشيخ عليش : « أخبرني الثقة بذلك » .

محمد عبده : « أين الثقة الذي يشهد بذلك ؟ فليأت ليميز أمامنا بين المذهبين ، وليخبرنا أيهما رجحت » .

الشيخ عليش : « أو مثلك يفهم شرح العقائد ؟ » .

محمد عبده : الكتاب حاضر وأنا حاضر ، فسلني إن شئت » .

هذه المراجعة من طالب شاب لشيخ مهيب تنطوي يقيناً على قدر كبير من الجرأة بالقياس إلى ما كان الحال عليه في ذلك العهد ، فكان طبيعياً أن يغضب « الشيخ عليش » ، ولعله هم بضرب المجاور محمد عبده ، ولعله أراد أن يمنعه من إلقاء دروسه . وسواء أصحت هذه الفروض والروايات ، أم لم تصح ، فقد كان لتلك الحادثة دوي في الأزهر . ولقد ذكر السيد رشيد رضا أن الشيخ محمد عبده لم ينقطع عن قراءة الدرس ؛ ولكنه كان يضع بجانبه عصا ويقول :

« إذا جاء الشيخ (عليش) بمكازه ، فله هذه العصا » .

(للحديث بقية) **عثمان أمين**

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

من مجالس الأدب واللغة في القاهرة :

الضوابط العلمية وإحياء دولتها

أدّى بنا الحديث في بعض أندية الأدب المصرية إلى الأزهر والأزهريين وعلومهم وطرائقهم في التعليم . وكان في مجلسنا شاب أزهري ، حر النزعة ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، يتعاطى الشعر ويجيده أحياناً ، فأخذ يدافع عن الأزهر وشيوخه ويشرح من فوائده وحسن طرائقه في نشر العلوم الإسلامية ، وبث الثقافة العربية ؛ وذكر من هذه الطرائق ما يسمّونه (الضوابط العلمية) . فإن الضبط في اللغة القبض على الشيء وإمساكه بشدّة ، ومسائل العلوم إذا نظمت شعراً واستظهرها الطالب ضُبطَتْ في نفسه وسهُل تذكرها حين الحاجة إليها .

قال : ولم تضبط أحكام علم النحو لولا ألفية ابن مالك ؛ ولا علم التجويد لولا منظومة الشاطبية ؛ ولا العقائد الإسلامية لولا جوهرة التوحيد . وانظروا الفرق بين الجوهرة والسنوسية في حفظ العقائد وسرعة تذكرها .

ثم قال : وهناك ضوابط أخرى تكون في بضعة أبيات ، ومثّل لذلك بالضابط الذي أحصوا فيه معاني كلمة (النحو) لغة فقالوا :

نحونا نحو دارك يا حبيبي   وجدنا نحو ألف من رقيب
وجدتهم عُواةً نحو كلب   تمنوا منك نحواً من شريب

فهذه خمسة معان لكلمة (نحو) إذا حُفظ ضابطها بقيت راسخة في ذهن الطالب طول العمر .

قال : ومن الضوابط اللغوية ما يذهبون فيه مذهب الألغاز كقولهم في ضبط معنى فعل (صار يصور) الذي هو الضم كما في قوله تعالى (فخذ أربعةً من الطير فَصُرْهُنَّ إليك) أي اضممهن إليك ، فقالوا في ضبط ذلك :

إني رأيتُ غزالاً   أورث قلبي خبالا
قد صار كلباً وقرداً   وصار بعدُ غزالا

ولي بذاك دليلٌ   في قول ربي تعالى

قال : وهناك ضوابط أخرى في أقسام التنوين ، وشروط ربّ ، وبناء أمس على الكسر ، وإعمال إذن ، وموانع الصرف ، وفيما يرسم بالياء أو الألف من الأفعال ، إلى غير ذلك .

وكان في المجلس أحد طلاب الجامعة المصرية ، وكأنه لم يعجبه ما قاله الشيخ في مدح أزهره ، فقال له : ولفظ (الشيخ) ، ألم يجعلوا له ضابطاً ؟ قال بلى ؛ فإنهم ضبطوا جموعه وتصغيره بقولهم :

مشايخ مشيوخاء مشيخة كذا
شيوخ وأشياخ وشيخان فاعلما
ومع شيخة جمع لشيخ . وصغّرا
بضم وكسر في شُييخ لتفهما

ولم ندر ما الذي حمل الأزهري على أن وجه الخطاب إلى الجامعي وقال له : وحبّذا لو اتبعت طريقة نظم الضوابط في علوم الجامعة المصرية وفنونها . فاستوى الجامعي جالساً وقال : ماذا ؟ وهل تريد أن يعمد أحد الشعراء من أساتذتنا فينظم علومنا في ضوابط شعرية ؟ فأجابه الشيخ بهدوء : وما يُنْصِبُكَ من هذا ؟ وشعر الجامعي أن محاوره أزهريٌ جَلْد ، فترك الجدل وفضّل الطايبة في الحديث ، فقال : ومجمع فؤاد الأول للغة العربية هل تغنيه من هذه الضوابط الشعرية أو توصيه بها فيحفظ أوضاعه التي تمد بالألوف من الضياع ؟ قال : أتمنّى ذلك له ، ولا سيما أن في أعضائه الأستاذين الشاعرين (الجارم والخضر) . فقال الجامعي دع لنا الجارم وشأنك والخضر . فأجابه : والخضر لعمري خيرُ من يُنتدب لهذا المهمّ . قال الجامعيّ : ولنبدأ إذن بنظم ضوابط المجمع اللغوي منذ الساعة :

هذا الأستاذ — والتفت إلى كاتب هذه السطور — نشر في (أهرام) أمس مقالاً مسهباً حول وضع كلمة عربية تقوم مقام كلمة جنتلمان Gentleman الإنجليزية ، وأجمل

دنيا المرئيات

القصيدة الآتية وهي ستة أيام قضيتها محجوب البصر أثناء عملية جراحية بعيني. ظننت خلالها أن عالم الجمال غلق علي بدنيا المرئيات . وما كان الجمال في شتى صوره هو غذاء الشاعر . فقد كنت وجلاً كل الوجل أن أعيش بعد هذه العملية بلا غذاء . ولكنَّ الله سلم . فهذه القصيدة وحي هذا الشعور .

يا ربِّ أَبْقِ الذي أبقيت من بصري
حتى أرى حُسْنَ ما أبدعتَ في الصُّوَرِ
من كل (شكلٍ) (ولونٍ) في جمالها
ما فيه من بهجةٍ للنفس والنظر
ما أجملَ العالمَ العلويَّ من (سُحُبٍ)
ومن (نجوم) ومن (شمسٍ) ومن (قمر)
وأجملَ الأرضَ من (سهلٍ) ومن (جبلٍ)
ومن (روابٍ) ومن (بحرٍ) ومن (نهر)
في كل شيء جمالٌ حين تنظره
حتى القبائح بها ما شئتَ من صُوَرَ
حتى القرودُ !! فما تخفى ملاحتُها
حتى الكواسرُ من ليثٍ ومن نمر
يكفيكَ من روعةِ الأشياء رؤيتُها
ولو نظرتَ إلى أفعى على حجر
فكيفَ بالكون يصحو بعد رقدته
وقد تبسمت الأضواءُ بالسحر
وكيفَ بالشمس دبَّتْ نحو مشرقها
وحينَ تطلع منهُ طلعة الخفر
وحين تجنحُ نحو الغرب متعبةً
لطول ما انتقلتْ في البدو والحضر
وكيف بالليل يسري في مواكبه
نجومهُ حولهُ وضّاحةُ الغُرر
وبالأهلة لاحت في مطالعها
كأنها بَسَماتُ الكون للبشر

القارئة بين الكلمات الصالحة لهذا الاستعمال ، وفضّل كلمة (لبيق) . فماذا تقول في ضبط لبيق والله كرمها فلا تُنسى؟ قال أقول :

حميدُنا بمجمعنا حقيقٌ   إذ هو في مجلسه لبيقُ

وإذا حميده الذي عناه زميلنا في المجمع الشيخ إبراهيم عروش .

فطابت نفسي يعلم الله عند سماعي قول الأزهري ، وأعجبني بداهته ، فقلت له :

كنت وضعت كلمة (مُرَنّى) على وزن (مُفعّل) للتعبير مقام كلمة « بتشوريسك Pittoresque الفرنسية ؛ فإن معنى رنا إلى الشيء في اللغة أدام النظر إليه استحساناً ، وإذا قلت رنّاه هذا الشيء من باب التفعيل كان معناه أعجبه ، وحمله الإعجاب على إطالة النظر إليه ؛ فماذا تقول في ضبط مُرَنّى؟ قال أقول :

وروضة منظرها مُرَنِّي   قد ملكت عيني وعقلي مني!

فلم تملك القوم نفوسهم من الإعجاب بحسن بداهة هذا الأزهري ، وذلاقة لسانه ، وخفة روحه . وكأنهم أرادوا الاستزادة من هذه الضوابط العصرية فنظروا إليّ ، فقلت له : وكلمة (صَوّنة) كيف تضبطها وتحفظها من الضياع؟ فقد وضعتُها اسماً للمحفظة التي يحملها النساء في أيديهن إذا خرجن من بيوتهن ، ويسمونها بالفرنسية Sac à Main .

فلم يكد الشيخ يسمع قولي حتى قال :

وصوّنةُ الفتاة إمّا خرجتْ
من بيتها للصون فيها وضعتْ

قلتُ : إذن حسبك! وتقوّض المجلس .

عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق
وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة

وبالرياض ، وقد أنجبن بالزهَرَ
وبالغصون ، وقد أنهدن بالثمر
وبالطيور إذا ما حلقت فسمت
أو حومت فهوت تأوى إلى الشجر
وكيف بالصحب ، أو بالأهل تلقاهم
أو بالبنين وقد أقبلت من سفر !
ورؤية الظرفاء الأوفياء ، وقد
جالوا مجالهم في اللهو والسمر
وبالغوانى ، وما يخلعن من فِتَن
وبالعذارى وما يلبسن من خفر
وبالعيون فكم جفن بِـ منكسرة
يرمى بسهم لخاطر غير منكسر
وبالشفاه تراها في تشهيها
يفترّ باسمها عن ساحر خصر
وكيف بالصحف نقرؤها ونكتبها
ورب دنيا حوتها الكتب في سطر
وكم على (الشاشة البيضاء) من عجب
شتى الأفانين في شتى من الصور
وفى (المسارح) ما فيها ألذّها
من كل (فصل) يروض الفن مزدهر
جِدٌّ ، وهزل ، فإن تضحك لهزلها
يوماً فكم فيهما ذكرى لمدّكر
كلاهما آية سرت مباهجها
من النفوس ، وصفّتها من الكدر
هذا وكم عجب للفن في (الصور)
وفى (التماثيل) حتى (الوشى) بالإبر
هذا إلى غير هذا لست أذكره
وكيف حصرى ما يفضى إلى الحصر
دنيا الجمال اختفت عن كف طالبها
وأذنه ، فهى غير اللمس والخبر

دنيا الجمال يراها من له بصر
فإن يغب غابت الدنيا عن الأثر

* * *

وارحمتاه (لمحمود) وعادته
في فقده عينيه ، لا أحداثه الأخر[1]
النفى والحبس هذا يوم حل به
في النفى والحبس خطب غير منتظر
وعوّض الله (إبراهيم) أجل ما
يعوّض الله من آلائه الكبر[2]
ليس العمى في العمى والعين ما نظرت
شيئاً كمثل العمى يأتى على الكِبَر
هذا وكم يعذر الله في محن
وكم جنى النفع جانيه من الضرر
ورب أعمى أراه لحظ خاطره
ما غاب عن مدرك الأشياء بالبصر
(أبو العلاء) و (طه) كشفت لها
غشاها من دياجى كل مستتر[3]
فلا البلاغة لا الزرقاء يشابهها
ولا سواها غداة (البحث والنظر)
و (الزين) بشار وادى النيل كم نظمت
كفاه در القوافى نظم مقتدر[4]
فالحمد لله حمد المطمئن له
فما أبالى ، وإن روعت بالنذر
الله حسبى فما أبغى سواه ولو
أنى الطبيب ، وأنى آخذ حذرى
أراح نفسى أن الله خالقها ثم الرضا بقضاء الله والقدر

محمد الأسمر

(١) محمود باشا سامي البارودي وقد كف بصره وهو بالمنفى .
(٢) الأستاذ إبراهيم الدباغ .
(٣) الدكتور طه حسين بك .
(٤) الشاعر الراوية أحمد الزين .

سيرة صلاح الدين :

– ٨ –

ميراث

فرغ صلاح الدين من جميع المشاكل التي واجهته بمصر، ثم مات نور الدين فأصبح وجهاً لوجه أمام طائفة أخرى من المشاكل التي باتت تنظره بدمشق. فاستعد للتدخل في شؤون الشام طمعاً منه في امتلاكه وضمه إلى الوحدة الإسلامية التي سعى في تكوينها لمحاربة الفرنج

مات نور الدين وخلّف ابناً اسمه الملك الصالح إسمعيل. وكان في الحادية عشرة من عمره، فالتف حوله أمراء أبيه بحجة أنهم يشتركون في تدبير أمره، وهم الوقت نفسه يتمكنون منه تمكنا عظيما أوشك أن يكون نوعا من الحجر عليه.

ومات كذلك عاهل المسيحيين بفلسطين، وهو عموري أو (أماريك) ملك بيت المقدس، وترك عرشه لصبي صغير اسمه (بولدوين). فأصبحت الإمارة الفلسطينية كالمملكة النورية قطراً منقسما على نفسه، بسبب تنازع الأمراء. وبات الأمراء في هذين القطرين معاً لا يخافون شيئاً قدر ما يخافون السلطان، لعلمهم أنه بقوة نفسه وبعد غايته وكبير أمله، أحق منهم بأن يرث كل هذا الملك!!

وبينا السلطان يستعرض هذا الموقف السياسي الجديد، إذ أقبل عليه القاضي الفاضل كعادته، فقال له السلطان:

« هلمّ عبد الرحيم وأدر ذهنك فيما نحن فيه:

هذه مملكة نور الدين قد انشعبت وظهر فسادها: كل قلعة من قلاعها إلى صاحب، والفرنج من حولهم يبنون قلاعاً يتحيّفون بها من أطراف الإسلام، وأمراء الدولة النورية فوق هذا كله لا يستحيون أن يكون بينهم وبين أولئك الفرنج حلف ووئام..!! ».

قال الفاضل: « لعل مولاي يعلم أنهم لا يفعلون ذلك حباً في عليّ، ولكن خوفاً وكراهية لمعاوية.

قال السلطان: « نعم أعلم ذلك جيدا. ولكن من لي بمن يخبر هؤلاء الغافلين، أنه لا سبيل إلى طرد الفرنج من بلادنا إلا بأمر واحد، هو توحيد جهودنا. وأنت ترى الآن أني أكبر ملوك الإسلام سنا.. »

قال الفاضل: « بل أكبرهم يا مولاي خطراً وشأناً! »

قال السلطان: « فما الحيلة إذن في هؤلاء الأمراء؟ أنتركهم ونحارب الفرنج حتى نخلي منهم البلاد، أم ندع الفرنج ونحارب هؤلاء حتى يدينوا لنا بالطاعة، ويتركوا لنا هذا الغلام؟

قال الفاضل: « لو ترك مولاي أولئك الأمراء يتنازعون فيما بينهم أمرهم لانفردت مصر عن الشام، ولطمع الكفر في بلاد الإسلام ».

قال السلطان: « أعلم ذلك جيداً يا عبد الرحيم. بل من أجله أفكر في طريقة أتدخل بها في شؤون الشام حتى لا يستأثر به الأمراء الذين التفوا حول الغلام، يوهمونه بأني عدو له، مع أني أنا الأولى منهم جميعاً بتربيته، والقيام عليه ».

قال الفاضل: « فالرأي عندي إذن أن تبعث بالكتب إلى هذا الغلام تؤكد له فيها طاعتك وإخلاصك، وتفصح له فيها عن رغبتك في تربيته والقيام بأمره، والمحافظة عليه ».

قال السلطان: فإذا أنكر الأمراء الذين معه هذه الكتب؟ ».

قال الفاضل: « فاصبر يا مولاي إذ ذاك؛ فسيأتي اليوم الذي يستصرخك فيه بعضهم على بعض، فإذا غصبهم الفرنج شيئاً من أملاكهم فسيتجهون جميعاً إليك لتنقذهم من هذا الشر. ويومئذ يذهب المولى إلى هناك ليحفظ الولد القائم بعد أبيه، ويعرف هذا الولد، ويعرف الناس معه أنك أولى بأن ترث ملكه وتضمّه إلى ملكك وتستعين بهما على هذه الغاية التي كان يحلم بها نور الدين نفسه، وهي مطاردة الفرنج ».

وبعث السلطان بهذه الكتب إلى الغلام، فقرأها

الأمراء هناك ، وسخطوا على السلطان ، ثم اختلفوا بينهم في الرأي . ولبثوا في انقسامهم وتنازعهم في آرائهم وإذا بالفرنج يغيرون على مدينة لهم هناك ، وهي مدينة «بانياس» ، فلا يستطيع الأمراء النورية ردهم عن هذه المدينة إلا باتفاقهم معهم على جزية سنوية يحملها الشاميون للفرنج ، فذلك أجدى عليهم ، وأسلم عاقبة في رأيهم من استدعاء صلاح الدين ليحول بينهم وبين أولئك المغيرين .

غير أن صلاح الدين لم يكد يسمع بهذه الإهانة التي لحقت بالمسلمين حتى ثار غضبه ، واستثيرت حميته ، واتخذ من ذلك حجة له على سرعة التدخل في شؤون الشام . فاستقر رأيه على الذهاب إلى هناك ، وعلم الغلام وأمراؤه بذلك كله فتركوا له دمشق ، وفرّوا من وجهه إلى حلب . فأتى السلطان دمشق ودخلها من غير تعب .

أما الأمراء الذين فروا إلى حلب فقد استشاطوا غضبا من السلطان ، وأكلت الغيرة قلوبهم من بأسه وصعود نجمه ، ونجاح أمره ، فبعثوا إليه بخطاب شديد اللهجة مع رسول منهم . فأكرم السلطان رسولهم ، وتلقاه بالبشر واللطف والكرم واللين . ثم قال له :

« يا هذا — ارجع إليهم لتقول لهم : إني إنما وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام ، ولتربية الملك الصالح وصيانته وصيانة الشرف الإسلامي نفسه من عار الجزية التي تدفعونها للفرنج . وقل لهم يا هـذا : إن النية لو لم تناجني مولاي نور الدين لدفع إليّ بمولاي ابنه الملك الصالح إسماعيل ليكون في كنفي وتحت رعايتي ، فأنا أولى به من غيري ، لأنني القادر على حمايته من أذى الذئاب التي تنوشه من الفرنج » .

منذ ذلك الوقت والحلبيون وغيرهم بالديار الشامية يقفون في وجه السلطان ، كما وقف الفاطميون له من قبل في الديار المصرية .

وكما بشّر القدر لهذا البطل أن يكون الوارث الحقيق للفاطميين ، فكذلك بشّر له أن يرث ملك نور الدين ، أو أن يرث هذه البقعة المباركة من الأرض التي شهدت أول قبس من نور رسالة هبطت منذ حين على هذا البيت الأتابكي الكريم ، ليقوم بنصيبه في الجهاد من أجل الدين ، ويزيل الفرنج المسيحيين الذين جاءوا من بلادهم النائية بحجة أنهم يحمون القبر المقدس .

وجمع الأمراء الحلبيون جمعهم ، وكادوا للسلطان كيدهم ، والتفوا بالملك الصالح إسماعيل يستغلون طفولته في إثارة شعور المسلمين وإيغار صدورهم على صلاح الدين .

ثم أخذ الحلبيون يستعينون على السلطان بجميع أعدائه في الشام . وكان من أعدائه هذه الفرقة الخطيرة التي كانت تعتصم بالجبل ، والتي كانت مصدر قلق دائم للرجل ، وأعني بها فرقة الإسماعيلية . فاتفقوا مع هؤلاء على اغتيال السلطان ؛ ودخلت جماعة آثمة منهم الخيمة على حين غفلة من جنده ، ورفعت السيف لتقتله به ، وإذا العناية الإلهيّة تكشف عن أمرها ، وتدل عليها من جند السلطان من يمسك بهذه اليد الخائنة المجرمة أن تهوى على رقبته .

ثم لم يكف الحلبيين ذلك حتى استعانوا على السلطان كذلك بالمواصلة ؛ وكانت الموصل إذ ذاك إلى أمير خطير من آل زنكي ، له من شرفه وعظيم منزلته ما يستنكف به أن يكون تابعاً لصلاح الدين ؛ فأفهم الحلبيون هذا الأمير أن السلطان يملك حلب ، ثم لا يكون له بد من قصد بلاده ، وإزالة سلطانه ، والعبث بهذا التاج الأتابكي الذي هو مصدر نعمته وعلو كعبه .

كل ذلك والسلطان ينجو من كيدهم مرة بعد أخرى ، ويوغل في فتح الشام وامتلاكه حصناً حصناً ، والنصر أنّى سار معه يسجل له كل انتصار يحرزه لنفسه ضد أولئك القوم .

وأتى يوم أصبح فيه الحلبيون ، فإذا هم محاصرون بجيش صلاح الدين ، وإذا هم مضطرون إلى مكاتبة حليف لهم من الفرنج كان بيدي الأمير (ريموند) أمير طرابلس ؛ وكان هذا الأمير أسيراً لنور الدين ثم أطلقه الحلبيون بعد وفاته ليكون ظهيراً لهم وقت الحاجة . فلما أتى الأمير صريخ الحلبيين خف من ساعته إلى (حمص) — وهي مدينة من المدن التي افتتحها السلطان ومنذ بالسيف — فلما

الصحافة والأدب في أسبوع :

" ... هذا رأيي ، وعليّ تبعته وحدي ... ... "

بعد الامتحان ! — أدب الطفل ! ...

بعد الامتحان :

قرأت في العدد ٩٧٩ من « المصور » ما يأتي :

« هل الأسئلة صعبة ؟

« يلاحظ المهتمون بشئون التعليم أن هناك شكوى عامة ، ودائمة أيضا ، من ضعف المستوى العلمي للطلبة ، سواء في ذلك المتخرجون والذين مازالون يتابعون مراحل الدراسة ، ومن قصور هؤلاء ، وأولئك قصوراً لا يتمشى مع ما يبدو من ارتفاع نسبة النجاح وزيادتها عاما بعد عام .. »

وبعد أن أوردت المجلة بعض ما بدا لمحررها من الملاحظات في هذا الشأن ، رجعت إلى بعض الإحصائيات الرسمية من الأسئلة ونتائج الامتحانات في السنوات الأخيرة ، ووازنت بينها وبين أمثالها في بعض ما سبق من السنين ، واستخلصت من هذه الموازنة ما استخلصت من الحقائق ؛ ولكنها لم تنته في هذه المشكلة إلى رأي ، ولم تجد لسائلها جوابا ... ...

وأنا فليس يعنيني في علاج هذا الموضوع أن أسأل : أكانت الأسئلة صعبة أم سهلة ؟ ... وليس يعنيني أكانت نسبة النجاح في هذه السنين خيرا منها في سوابقها أم كانت أسوأ ، ولست أجد فائدة في الموازنة بين أعمار الناجحين من التلاميذ في هذه السنين وأعمار زملائهم منذ ربع قرن ... ، ليس يعنيني شيء من ذلك ، ولا أحسبه يعني أحدا من أصحاب الرأي في هذه الأمة ؛ وإنما يعنينا جميعا أن نعرف مبلغ ثقافة التلميذ المصري في هذا الجيل ومقدار ما استفاد من المدرسة .

ليس شيئا ذا بال أن يكثر عدد التلاميذ الناجحين في مدارسنا ، وليس يرضيني أن يزيد عدد الحاصلين على

هجم الأمير الصليبي عليها وجد السلطان نفسه مضطراً إلى العودة إليها ورفع الحصار عن مدينة حلب . وبذلك تم للحلبيين ما أرادوا لأنفسهم ، من إنقاذ مدينتهم والإفلات من مخالب هذا السبع الذي كاد يقتحم عليهم البلد .

وفكر الحلبيون أخيرا في الأمر ، فلم يجدوا خيرا لهم من أن يكسبوا من السلطان بطريق الود والملاطفة ما لا يستطيعون كسبه بطريق الغدر والغلظة والمخاشنة . وما أسرع ما يستجيب رجل كصلاح الدين لدواعي الكرم والعطف والمروءة واللين .

فهذا الملك الصالح إسمعيل يتصل بنفسه بصلاح الدين يطلب منه أن يبقي له على حلب وما حولها ، فيبقي له السلطان عليها ، ويكتفي هو بأن يكون له من حماة إلى مصر ، ويترك للسائل ما فوق ذلك !

ثم هذه الخاتون ابنة نور الدين ، وشقيقة الملك الصالح إسمعيل ، تأتي إليه في استحياء ، وخفر تسأله قلعة هامة من قلاع الشام ، هي قلعة (عزاز) ، كان السلطان قد فتحها بسيفه وضمها إلى ملكه ، فيكرمها السلطان ويعزها ، ويبكي بين يديها لذكرى نور الدين ، ثم يطلق لها (عزازاً) بما فيها من السلاح والمال ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يقدم لها من التحف والجوهر شيئاً كثيرا .

ثم ها هو السلطان يترك مدينة حلب ، ويفكر في العودة منها إلى مصر ، ويصمم في طريقه على الأخذ بثأره من (الإسماعيلية) الذين طغوا وبغوا ، وأعانوا عليه الحلبيين ، ووثبوا عليه وثوباً فيه ما شئت من معاني الجبن والغدر واللؤم والخيانة ، فأراد محاصرة حصونهم ، والقضاء البرم على رؤوسهم وشياطينهم ؛ وعز هؤلاء ذلك ، وباتوا يخشون تنفيذها ، فتوسطوا لدى خاله (شهاب الدين الحارمي) ، وسألوه أن يشفع لهم . فذهب الرجل إليه في ذلك فقبل السلطان شفاعته ، ورحل عنهم ولم ينتقم لنفسه منهم ، وعفا عنهم مع القدرة عليهم ، وآثر يومئذ طريق الصلح والسلام . وعاد إلى مصر بعد أن ترك في كل بلد من البلاد التي فتحها أميرا اختاره له .

عبد اللطيف حمزة

الشهادات العالية عندنا فى كل عام ألفاً أو ألفين ، وما أرى هؤلاء الألف أو الألفين زيادةً فى ثقافة الأمة ، إلا أن يكون ما حصّلوه من العلم فى مدارسهم قد انتهى بهم إلى حقيقة فى أنفسهم تفرض عليهم أن يكونوا لأنفسهم ولبلادهم كما نرجو أن يكونوا !

... فإن كان ثمة وجه الموازنة بين نتائج الامتحانات فى سنين متقاربة أو متباعدة ، فإنما هو أن نوازن بين ثقافة التلميذ اليوم وثقافة زميله الحاصل على مثل درجته أو شهادته العلمية منذ نصف قرن ، أو منذ ربع قرن ، أو منذ عشر سنين ... ؛ فلا يكون سؤالنا : كم عدد الناجحين فى هذا العام بالقياس إلى عددهم فى العام الماضى ، أو فى الأعوام الماضية ؛ ولكن كم عدد الذين أهّلتهم المدرسة فى هذا العام للنجاح فى الحياة ؟ . . . وإن هذه الموازنة وهذا السؤال لخليقان بأن يفتحا أعيننا على حقيقة لعل أحداً فى مصر اليوم لا ينكرها وإن وجدنا الراحة فى تجاهلها ...

بل ، إن التلميذ المصرى اليوم لينتهى من دراسته العالية ، وقد حصّل من العلم أكثر مما حصّل زميله من المدرسة فى أول هذا القرن . هذا حق ، ولكن نجاح المدرسة لا يُقاس بكثرة ما يَدرُس تلاميذها ، ولا بطول مناهج الدراسة وتنوعها ، ولا بتعدد أنواع العلوم والفنون — ليس يقاس نجاح المدرسة بشىء من ذلك إذا لم تستطع المدرسة أن تبعث فى نفس تلميذها الشوق الدائم إلى المعرفة والتماس أسباب التزوُّد من العلم ؛ فما حظُّ المدرسة الحديثة من ذلك وما حظ تلميذها ؟

إن السنين التى يقضيها التلميذ فى المدرسة — مهما تَطُلْ — لا تتسع لكل ما يجب أن يُلمّ به من فنون المعرفة ، فإن العلم لا آخر له ، وإنما غاية المدرسة أن ترسم لتلميذها الطريق وتقول له : امضِ ، أن تضع فى يده المفتاح وتشير له إلى الباب ، أن تعطيه الكتاب وتعرّفه عنوانه ؛ فلا يعلم العلمَ كلّه فى المدرسة ، ولكنه يعرف السبيل إليه ، فيخرج من المدرسة لم يتعلَّم إلا أن يعرف كيف يتعلَّم ... !

هذه مهمة المدرسة وهذا واجبها ؛ فإذا رأيت مدرسة تزعم أنها إنما أُنشئتْ ليتعلم فيها التلميذ كل ما يجب أن يتعلّمه ، وإذا رأيت تلميذاً يزعم أنه قد بلغ الغاية من العلم حين انتهى من مراحل التعليم إلى آخرها — إذا رأيت مدرسة كتلك المدرسة ، أو تلميذاً كهذا التلميذ ، فلا تحسبنّ هذا التلميذ تلميذاً ولا تحسبنّها مدرسة ، ولا يعنيك بعد ذلك ما كانت نسبة النجاح ، وما كان عدد الناجحين ، ومدارسنا الحديثة ، وتلاميذ مدارسنا الحديثة — كلهم هذه المدرسةُ وهذا التلميذ ! !

وما زال « يلاحظ المهتمون بشئون التعليم أن هناك شكوى عامة ، ودائمة أيضاً ، من ضعف المستوى العلمى للطلبة ، سواء فى ذلك المتخرجون والذين ما زالون يتابعون مراحل الدراسة ، ومن قصور هؤلاء وأولئك قصوراً لا يتمشى مع ما يبدو من ارتفاع نسبة النجاح وزيادتها عاماً بعد عام » ...

... ما زالوا يلاحظون ولم يدركوا العلة بعد ، وإنما العلة أن مدارسنا الحديثة تحسب أنها إنما أُنشئتْ ليتعلَّم فيها التلميذُ كل ما يجب أن يتعلم ، فجعلتْ همّها أن يزدحم برنامجها بالمواد الدراسية المختلفة ، وأن تطول مناهجها وتتنوع حتى لا يكاد يحوتها شىء ، وأن تتعدد أنواع العلوم والفنون فيها حتى لا يكاد يُعلَّت منها « عنوان » ؛ ثم تنتهى كل هذه « الموسوعات » إلى ملخّصات يستظهرُها التلميذ ليجوز بها الامتحان ، وقد ازدحم رأسه بالعناوين والرموز والمصطلحات الموجزة المقتضبة ، فيزعم هو أيضاً لنفسه أنه قد حصّل من العلم كل ما ينبغى أن يحصّل ، فيخرج من المدرسة لم يتعلَّم إلا أنه قد تعلَّم ؛ وتظهر الإحصائيات الرسمية تَعُدّ الألوف من الناجحين ، وما منهم واحدٌ قد أهّلته المدرسة للنجاح فى الحياة !!

ويسألني سائلٌ برهاناً على ما أسلفتُ من رأي ... وإني لأسأله : كم تلميذاً خرّجتْه مدارسنا يجيء راجلاً إلى مكتبة من المكتبات العامة يستعير كتاباً – ولا أقول يشتريه – يلتمس به سبباً إلى جديد من العلم ؟ ...

وما أردتُ أن يجيء سائلي بالجواب ، وإنما أردتُ أن يؤمن بما أومن ! ..

ألا إنه ما دامت المدرسة المصرية لا تكاد تعترف بأن مهمتها الأولى هي أن تحمل التلميذ على التماس أسباب العلم لنفسه بنفسه ، فإنها لم تفعل شيئاً ، ويكون الناجحون من تلاميذها ١٠٠ ٪ ولم يتعلم منهم تلميذ واحد !!

أدب الطفل :

وقرأتُ فيما قرأت هذا الأسبوع أن وزارة المعارف تعد عدتها لإنشاء مجلة « رياض الأطفال » بعد أن امتنع ورود مجلات الأطفال من أوربا ، وكان عليها كل الاعتماد في تعليم التلاميذ في « رياض الأطفال » !

قالوا : وستكون مجلة مصورةً مفتّنةً ملوّنة ، وسيصدر منها عدد واحد في كل عام ، وسيحررها ويُعِدّ موضوعاتها معلّماتُ رياض الأطفال !

ولست أعرض في هذا التعليق لتفصيل الموضوع ووسائل تنفيذه ، فلعل الأناة في ذلك خير ، وإنها لوجهةٌ جديدة لوزارة المعارف على كل حال ، والفكرةُ مجردةً من أسبابها حقيقةٌ بالتنويه ، فما ينبغي أن نتعجّل بالنقد قبل أوانه ، فلتكن وسيلة وزارة المعارف إلى تنفيذ هذه الفكرة ما تكون ؟ فإنما الوسيلة شيء غير الفكرة ؛ وإذا رسخ الأساس وثبتتْ أركانه فقد هان ما بقي !

إنما يعنيني هنا أن أنوّه بهذه « الالتفاتة الرسمية » إلى أدب الأطفال وإن جاءت متأخرةً عن موعدها زماناً ... ...

هذا الميدان البكر لم يطرقه طارق من روّاد العربية حتى اليوم على نهج واضح ، وقد كان حقيقاً بأن يلتفت إليه أهل الأدب وأهل التربية جميعاً ، ليقيموا بناء نهضتنا الأدبية والعلمية على أساس ثابت ، فإن الطفل هو أبو الرجل كما يقولون ، فإذا نحن لم نبذل ما علك من جهد للعناية بالطفل اليوم فإننا لن نجد منه في الغد الأبَ الذي نأمل .

وأول ما يجب أن نبذله لهذا الطفل هو العناية بتربية عقله وتغذية وجدانه وترقية فنّه درجةً بعد درجة على نهج يطّرد أوله وآخره حتى ينتهي بنا إلى الهدف الذي نتصوّره على بُعد . ونحن نشكو فيما نشكو اليوم قلةَ إقبال متعلّمينا على القراءة ، ونسأل من نسأل منهم عن سبب ذلك فلا نكاد نجد جواباً ؛ وإنما سببه أننا لم نحاول أن نعقد صلة ما بين متعلّمينا وبين الكِتاب منذ أول عهدهم بالمدرسة ، فنشئوا وبينهم وبين الكتاب جفوة ، فلا هم يطلبونه للعلم ولا للتسلية ، ويكبر الأطفال ولم يتعوّد طفلٌ منهم أن يصحب كتاباً في حِلٍّ أو في سَفر ، ويصير الطفل رجلا ولا يعرف من الكتب إلا ما حمّلته المدرسة – مذ كان تلميذاً – على استظهاره ليجوز الامتحان ، فما يعرف الكتاب إلا أنه تكليفٌ بغيض قد فات عذابُه به ؛ وذلك أول الجهل وآخره ، وإنه إلى ذلك لأول شرٍّ كثير !

هذا هو الداء وإن دواءه لهيّن : دواؤه هذه المجلة وأشباهها من الكتب الطّفلية المحبّبة ، ثم مجلات وكتبٌ تترقى به عقلا ووجداناً وفناً ، درجة بعد درجة حتى تجعل القراءة له عادةً لازمةً كالطبع ؛ فإذا هو يلتمس الكتاب حيث يجده ، وإذا هو يتعلم في المدرسة عِلماً ويحصّل من كتابه عِلماً معه ؛ ثم إذا هو يترك المدرسة لينشئ له من مكتبته مدرسة أخرى لا تزال تمده بالجديد من العلم وتوحي له بالجديد من الفكر ؛ ثم إذا هو إنسانٌ له رأي وإرادة وتفكيرٌ وقوةُ إبداع !

هذه المجلة الصغيرة التي تُعد وزارة المعارف العدة لإنشائها ، هي أول التحوّل – فيما أرى – في مناهج التعليم العامة ، بل في منهج تربية الشعب ؛ هي الخطوة الأولى ، فهل تتبعها خُطا ؟ ...

« قاف »

الكتب الجديدة :

(١) مطالعات علمية

للدكتور على مصطفى مشرفة بك

مجموعة من المقالات والمحاضرات التي ألقاها الدكتور أو كتبها ، وقد قال في مقدمته : « إنه شجعه على جمعها ما رآه من قلة الكتب العربية في الموضوعات العلمية مع شدة الحاجة إليها ؛ فالثقافة الأدبية — مع ما لها من قيمة — لم تعد وحدها كافية ، بل إن الثقافة العلمية لا تقل اليوم عنها شأناً في تكوين العقلية الحديثة » .

وهذا حق ، فإن الثقافة الأدبية وحدها لم تعد تكفى ، بل لا تكفى للأديب نفسه ، فقد أصبح من مكونات الأديب الضرورية معرفة كافية في القضايا العلمية العامة ؛ وتحتمت هذه الضرورة منذ أدركنا أن الأدب ليس جملا رنانة جوفاء ، واستعارات ومجازات بلهاء ، بل لا بد أن يكون للأدب موضوع ، وكل ما في العالم صالح لأن يكون ذلك الموضوع . ولا يفهم العالم إلا قسط وافر من العلم ، ومن أجل هذا امتزج العلم بالأدب . فالأديب يعرض المسائل العلمية يستغلها فيما يكتب من غير أن يدخل في تفاصيلها التي تخل بأدبه ؛ والعالم أصبح يعرض علمه في شكل أدبي أو قصصي لذيذ ، واشتركا معاً في خدمة الإنسانية بالبحث والعرض .

وكذلك فعل الدكتور مشرفة بك في هذا الكتاب ؛ فقد بسط ما عرضه حتى استطاع أن يفهمه غير العالم ، ويشترك في فهمه والاستمتاع به العالم والأديب والمثقف ثقافة عامة ، بما له من أسلوب جذاب ، وروح معلم يضع الأساس ثم يشيد البناء .

حبذا لو كثرت أمثال هذه الكتب ، فهي مادة من أراد العلم ومن أراد الأدب ، وفوق ذلك هي ثقافة الإنسان لأنه إنسان !!

(ب) أنات حائرة

للأستاذ عزيز أباظة بك

مما خجلت له أني لم أعرف أباظة بك أديباً شاعراً قبل اليوم ، وكل ما عرفته أنه مدير ممتاز لمديرية البحيرة .

حتى قرأت ديوانه « أنات حائرة » ، فتكشف لي عن شاعر ممتاز ، في موضوعه ، وأسلوبه ؛ فموضوعه ممتاز بالصدق . أصيب بكارثة عظمى هي وفاة زوجته التي كانت سعادة نفسه ، وسعادة بيته ، وسعادة أسرته ، فخطفتها المنية أسعد ما يكونون ، فخصص لها فنه . ومحال أن يكون هذا الفن نبع فجأة ، فلا بد أن يكون صاحبه تمرّس بالأدب والفن طويلا ، ثم روّحت هذه الفجيعة عن نار الفن فأشعلتها . لقد أذكرني ما قرأت في هذا الديوان بالخنساء وبكائها أخويها ؛ ومتمم بن نويرة وبكائه أخاه مالكا ؛ واتجاه شعرهما كله إلى هذه الناحية يجريان فيها أصدق تعبير ، ويصفان شعورهما أدق وصف ، ويحللان حالاتهما النفسية أجمل تحليل . فطلع علينا عزيز بك بهذا الديوان يصف ويحلل ويبكي زوجه ، في نمط جديد لم تألفه العربية فيما أعلم . فلست أعرف شاعراً قبل الآن وقف ديوانه أو أكثره على رثاء زوجه ، لأن المدنية العربية كانت تأبى هذا وتخجل منه ؛ فلما رفعت المدنية الحديثة شأن المرأة الحديثة وساوتها بالرجل ، كان من نتاج ذلك هذا الديوان الذي يخلص للزوجة ، ويثنى بمحامدها في صدق وإخلاص وصراحة . رأينا — قبل الآن — الشاعر العربي يرثى زوجته بقصيدة أو قصيدتين وكفى ، ولكن ما رأينا من يخصص شعره ، أو كله في رثاء زوجته ، وما كانت تغمر به نفسه وبيته من سعادة ؛ يذكّره بها كل شيء ، ويحيج ليسلو فيزيده الحج حنيناً !

وأما أسلوبه فأسلوب أديب قرأ كثيراً لفحول الشعراء في العصر العباسي ، فتأثر بجزالة شعرهم ، وحسن صياغتهم . لهذا كله كان هذا الديوان مفاجأة أدبية طريفة .

أ . أمين

حديث الكتب :

٣ – الشاعر الرجيم . بودلير

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

أول ما مر بي اسم بودلير أيام كنا ندرس إلمامة بالأدب الفرنسي في مستهل دراستنا بالجامعة .

ولقد جاء اسم بودلير في هذه الإلمامة خلال كتيب صغير كان علينا أن ندرسه . وكأنما تحرج واضعه أن يفيض في خبر هذا الشاعر ، فقد كان قبله شعراء وبعده شعراء ، لم يتحرج في إيراد أخبارهم كما تحرج في خبر بودلير . وإني لأذكر أن كل ما جاء عنه لا يعدو سطوراً تذكر ميلاده ، ووفاته ، واسم ديوانه « أزهار الشر » .

وظلت « أزهار الشر » هذه عالقة بالذهن كعنوان غريب ، أغرب منه التحرج الذي لمسته في التعريف ببودلير . تحرج ما أشبهه بتحرج أستاذ الأدب العربي حين كان يحدثنا عن شعر الغزل الطبيعي ، فدفعنا إلى تقصيه في شتى الكتب ، وإن وقف بنا عن تقصي « أزهار الشر » القصور والنسيان ، واتجاهنا في نواح تباعد بيننا وبين الشعر الفرنسي والشعراء الفرنسيين .

وعند ما أصدر الصديق علي محمود طه كتابه « أرواح شاردة » كان أول ما قرأت في كتابه مقالة الممتع عن بودلير ، فتهيأ لي علم غير قليل بالشاعر ، تمنيت معه لو أتيحت الفرصة لكاتب أن يترجم لهذا الشاعر ترجمة وافية . وكأنما أراد الله أن يحقق أمنيتي ، فأقرأ بعد عامين كتابا عن بودلير . . . الشاعر الرجيم ، هو كتاب الأستاذ عبد الرحمن صدقي .

ولقد سألت نفسي حين طويت الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب : هل عرفت بودلير ؟ وهل عرفت واضحاً سر ذلك التحرج في ذكره ؟ ولقد جاءني الجواب حين ذكرت مقدمة الكتاب . وذكرت أن بودلير نفسه كأنما كان يحس بذلك التحرج حين قال :

أيها القارئ المطمئن الوادع

يا رجل الخير ، السليم الطوية ، القانع

اطرح من يدك هذا الكتاب

هذا الكتاب المستهتر الفاجع . . .

. . . لهذا كان التحرج ! إنه شاعر لا يقربه القانعون ، إنه مستهتر عند أصحاب النظر السطحي ، فاجع عند القادرين على أن يعدوا في الأغوار !

وإنها لبراعة استهلال من عبد الرحمن صدقي أن يلتمس لمقدمته هذه الأبيات من شعر بودلير ، فيتيح للشاعر أن يكشف عن نفسه بلسانه . . .

أجل . إني لأعرف بودلير الآن بعد أن صاحبته من مولده لوفاته متنقلا معه في كل منحنى سارت فيه حياته . أعرف أنه انحدر من حيث هيأ له محتده إلى حيث هيأت له الظروف التي دفعته في سبيلها ؛ وأعرف كيف انحدر ، ولم كانت هذه الظروف التي دفعته . هذه الظروف التي قد تمر بالإنسان العادي ، فلا تترك ما تركت في نفس شاعر ، ولا يتعدى أثرها تدرج الأحداث . أما في نفس شاعر فهي تكون الأحداث وترسم الأخلاق ، على صورة تتوقف على عمق الإحساس بهذه الظروف . ولعل في رسالة بودلير إلى بعض أصحابه يحدثهم فيها عن مولده وظروفه القصة أبلغ تعبير عن عمق شعوره بظروفه ، وبأثر هذه الظروف .

فإذا ما مضيت في الكتاب زاد إحساسي بمعرفتي للشاعر ، ونما إلى جانب ذلك إحساس آخر بالعطف عليه رغم انحداره وتدهوره ، حتى ليصبح هذا العطف إعجاباً حين أمر بلحظات السمو التي لم تفارقه في أشد حالاته تدلياً وانحداراً . لحظات السمو التي يتطلع فيها إلى السماء من قرارة الهاوية ، فأحس معها بأن بقية الخير لا زال ماؤها يترقرق في نفسه رغم جفافها .

عرفت إذن بودلير على هذه الصورة : شاعر تآمرت عليه ظروف مولده وظروف نشأته ، وطبيعة في نفسه ، وتقلبات في حياته ، فجعلته الشاعر الرجيم .

وعرفت إلى جانب ذلك أن هذا الشاعر الرجيم لم يكن أقل إحساساً بالفضيلة والخير والسمو من أسمى الشعراء . . فهو شاعر غريب حقاً ! جدير أن يتحرج من ذكره

القانون ، بل جدير أن يطرحوا شعره على حد تعبيره ...

وإلى جانب بودلير في هــذا الكتاب تقوم شخصية واضع الكتاب . إن في سياقه لحياة الشاعر تبدو شخصية مترجم موفق ناجح ، استطاع في حيز محدود من الصفحات أن يصور حياة كاملة واضحة المعالم والقسمات ، حياة معللة مردودة أحداثها إلى الظروف والملابسات والدوافع في غير تعسف ولا إسراف في التأويل والتحميل .

فإذا تركت الكتاب كقصة حياة ، عدت إلى ما فيه من شعر مترجم عن بودلير . إن فيه ما يزيد عن مائتي بيت ، وفي كل بيت ، بل وفي كل كلمة ، أثر لجهد كاتب دقيق في اختيار ألفاظه ، رشيق في تنسيدها ، مما جعل شعر بودلير يحتفظ بمعناه وكثير من روعته وجماله .

إن أمامي إلى جانب هذه الترجمة العربية لشعر بودلير ترجمة إنجليزية ، طبعت في مصر خلال هذا العام للأستاذ بولن Bullen . المحرر بمجلة الإسفنكس ، وهي لمجموعة متفرقة من شعر بودلير . وإني لأشعر الآن ، وقد أهملت قراءة هذه الترجمة حيناً ، أني سأقرؤها بشوق ومتعة . فقد عرفت الشاعر واستشفته ... وهنا تبدو خاطرة طافت برأسي : ترى ! وهذا شعر بودلير القليل في كتاب الأستاذ صدقي لا يكاد يخرج عن تصوير لبعض لمحات حياته ؟ أيكون كل شعره تصويراً لشكل حياته ؟ فإذا كان الأمر كذلك ألا تكون صورة لحياته تجمع بين دفتيها كل أشعاره أوسع أفقاً وأكثر وضوحاً ؟ أحسب أن ذلك ما يحسه قارئ يقرأ هذا الكتاب ، فيجد المؤلف يتناول أبيات الشاعر كأنها أيام من حياته ، وخلجات من نفسه .. وأحسب أن ذلك ما يحسه المؤلف أيضاً ، وما يجول بنفسه ، ولعله متهيئ لذلك إن واتت الظروف .

صموع الدين زكي

الدموع الحائرة

نشرنا في العدد ٢٣٩ قصيدة بعنوان الدموع الحائرة لحضرة الأستاذ محمد إحسان الحامي ، كان قد أرسلها إلى المجلة منذ كان طالباً ، وقد أرسل إلينا حضرته يبلغنا أنه عين قاضياً ، وطلب إلينا أن نشير إلى ذلك حتى لا يظن أنه لا يزال ينشر قصائده موقعاً عليها بإمضاء « محام » .

الطفل L'ENFANT

لفيكتور هيجو Victor Higo

حينما أقبل فيهم مَرِحا ... صفق الأهلُ وماجوا فرحا
نظرةٌ وادعة مُشرقةٌ ... حلوةٌ تحمل نوراً وسنا
بعثت في أعين الأهل سنا
من سنا الصبح إذا الصبحُ محا
ربَّ ذي وجهٍ قطوبٍ مُعبسٍ ... نضح الحزنُ به ما نضحا
وقبيحِ الفعل ضلَّ دنسٍ ... لا يرى الرشدَ طريقاً وضحا
خلَّفَ السُّوءُ به داجيةً ... وضميراً صارخاً مُنقدحا
شاهدا الطفلَ بريئاً طاهراً ... دائم البسمة طلْقاً مرحا
فتكشَّفتْ وجنتهما إشراقهُ
مثلما قد يُشرقُ الروضُ ضحى
هل رأيتَ الطفلَ في بسمته ... مُشرق الشمس إليها جنحا
ثقةٌ من نفسه مؤمنةٌ ... أقبلَ الحظُّ له أو جمحا
ولقد يبكي ويمضي باكياً ... غيرَ ذي قلب كليمٍ جُرحا
فإذا البسمةُ تعلو ثغرهُ ... وندا العين بها ما برحا
مُقلةٌ عَبْرى وثغرٌ باسمٌ ... وكلا الحالين صدقٌ صرحا
ويريد القولَ طراً جاهداً ... مُخفقاً . ما قوله لو نجحا ؟
يعرضُ النفسَ على الدنيا ولم ... يدرِ فيها خاطراً إن سنحا
نظرةٌ حيرى بها مشدوهةٌ ... تنشد الرشدَ وتبغي الوضحا
باحثاً مُستطلعاً مندهشاً ... جيدٌ مفتونٌ بها مُنشرحا
وفمٌ يهديه لم يحفل به ... يمنح التقبيلَ فيها منحا
لا أراني اللهُ صيفاً خالياً ... روضُهُ من زهره مُنفتحا(1)
لا ، ولا الأقفاصَ لم تشهدْ بها
وافدَ الطير ، وإنْ ما صدحا
والخلايا بسوى النحل إذاً ... شمعُها العامل فيها كدحا
ربِّ والمنزل لا تعدمْ به ... رؤيةَ الطفلِ طروباً مرحا

على شرف الدين

---

(1) في الأصل de jamais voir Segneur l'été Sans pleurs vermeilles ومعناه الدعاء بألا يرى هذا المنظر . وهو يقابل في التعبير العربي : « لا أراني الله صيفاً من غير أزهار ...

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٤٣ — الثلاثاء ٢٣ من شعبان سنة ١٣٦٢ — ٢٤ من أغسطس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

بعد فتح صقلية

للدكتور محمد عوض محمد

كان القدماء يقضون السنين الطوال ، يحاربون من أجل السيادة في صقلية ، ثم ينتهي الأمر بأن يحتل فريق طرفاً من الجزيرة ، ويحتل الفريق الثاني جانباً آخر منها . في ذلك الوقت كانت جزيرة صقلية عالماً عظيماً ، وقطراً ضخماً ؛ وكان لا بد للجيوش من شهور لكي تقطع المسافات ، التي لا تحتاج اليوم إلا لبضع ساعات .

وكان الطامعون في الجزيرة في ذلك العهد يكتفون بأن يكون لهم نصيب منها ، ولأعدائهم نصيب ، ثم يجنحون إلى السلم فترة من الزمن ، إلى أن تتاح الفرصة لإشهار الحرب مرة أخرى .

ولكن صقلية لا ينظر إليها اليوم بأنها قطر ضخم — رغم غناها واتساعها — وليست مقصودة لذاتها ، وإنما هي اليوم بمثابة درجة من سلم ، أو عتبة تنفذ منها الأقدام إلى داخل البيت . والاستيلاء عليها لا ينظر إليه إلا بأنه خطوة أو مرحلة من مراحل الحرب .

في هذه الحرب الصقلية التي لم تدم أكثر من بضعة وثلاثين يوماً ، شهدت الجزيرة أحداثاً عجيبة ؛ لم تشهد الجزيرة في تاريخها الطويل أعجب منها ، على كثرة ما مر بها من الأحداث . وقد سبق للجزيرة أن كانت ميداناً للحرب بين الفونيقيين والرومان ، وبين العرب والروم ؛ وكان هذا في ذاته غريباً ؛ ولكن غرابته لا شك قد تلاشت لما شهدناه في هذه الأسابيع الأخيرة من حرب عجيبة ، يضطلع بعبء الهجوم فيها جيوش آتية من وراء المحيط الأطلسي ، قطعوا آلاف الأميال لكي يشتركوا في غزو جزيرة من جزر البحر المتوسط ، جالبين معهم عدتهم وآلاتهم وأسلحتهم ، وكثيراً من طعامهم وعلاجهم . ومن الجيوش

الأمريكية أفراداً أو من الجانب الغربي من الولايات المتحدة، وهؤلاء قد قطعوا نحو عشرة آلاف من الأميال، لكي يقاتلوا في جزيرة صقلية.

هؤلاء هم المهاجمون؛ أما المدافعون عن صقلية فقصتهم لا تقل غرابة. فإن القوات التي ثبتت طويلاً في ميدان قطانيا وفي حصن ترويتا وراندازو لم تكن الجيوش الإيطالية، بل الجنود الألمان الذين جاءوا من شمالي القارة الأوربية. وهكذا شهدت صقلية حرباً من أغرب الحروب التي مرت بها.

لقد تم للحلفاء فتح صقلية من أولها لآخرها في أقل من أربعين يوماً، دخلوها في اليوم العاشر من يوليو، ولم يكد الشهر أن ينتهي حتى كان أربعة أخماس الجزيرة في أيدي الجيوش المتحدة، ولم يبق أمامهم سوى الركن الشمالي الشرقي؛ وقد اشتد القتال حول هذا الركن الصغير، ودافع عنه المحور دفاعاً مجيداً، مع علمه بأن الجيوش المحورية لا بد لها في النهاية أن تجلو عن الجزيرة تماماً، لأن الحرب الحديثة لا تسمح لقوة محاصرة أن تثبت للهجوم مدة طويلة. ولكن قيادة المحور أرادت أن تطيل الدفاع عن هذا الركن الأخير إلى أقصى حد ممكن، لكي تؤخر وصول الحلفاء إلى بوغاز مسينا بقدر الإمكان.

والآن وقد تم فتح صقلية، وباتت الجزيرة كلها خاضعة لسلطان الدول المتحدة، يجوز لنا الآن أن نتريث لكي نستخلص النقط البارزة التي امتازت بها هذه المرحلة من مراحل الحرب، وننظر في التطورات التي تليها.

وأول ملاحظة تسترعي الانتباه أن غزو صقلية كان شيئاً يتوقعه جميع الناس، منذ زوال نفوذ المحور في إفريقية في النصف الأول من شهر مايو الماضي. إذن كان غزو صقلية متوقعاً قبل حدوثه بشهرين. وفي أثناء الحرب الإفريقية نفسها كانت صقلية أهم مصدر لتموين قوات المحور في تونس؛ فلا بد أن كانت الجزيرة ملأى بعدات الحرب، وفيها من الجنود العدد الكافي. ولئن كان هنالك نقص كبير في قوات الدفاع عنها، فإن مهلة الشهرين كافية لاتخاذ الأهبة اللازمة لمقابلة غزو الحلفاء بما يستحقه من المقاومة العنيفة.

والجزيرة قطعة من الوطن الإيطالي، وعلى اتصال مباشر بألمانيا، فمن السهل إمدادها بالرجال والعتاد في مدة وجيزة؛ بينما قوات الحلفاء يأتيها المدد والرجال من وراء المحيطات، بعد قطع البحار الواسعة المعرضة لأخطار الغواصات والألغام، وبعد كثير من النقل البري الطويل في شمال القارة الإفريقية.

فإذا كان غزو صقلية أمراً ينتظره الجميع، وفي متناول دول المحور أن يعدوا الجزيرة بالقوة الدفاعية اللازمة لها، فإن لنا الحق أن نعجب من أن قوات الحلفاء كانت بادية التفوق في البر والبحر والجو، وأنها استولت على الجزيرة بهذه السرعة الفائقة، وأن دول المحور في الحقيقة لم تحشد القوة اللازمة للدفاع عن الجزيرة.

ومن المعلوم أن طبيعة الجزيرة الجبلية تجعل الدفاع عنها أسهل بكثير من غزوها وفتحها. ولقد كان من الممكن أن الوقفة التي وقفتها جيوش المحور في الطرف الشمالي الشرقي يكون لها نظيرها في الجنوب وفي الغرب، لو أن هنالك جيوشاً تقف في سبيل الغزاة.

لقد قيل في تبرير هذه الظاهرة أمور كثيرة، منها: أن قيادة المحور لم تكن تنوي الاحتفاظ بصقلية.. وأن الخطة التي رسمتها منذ بداية الغزو هي إخلاء الجزيرة تدريجياً، والسماح للحلفاء باحتلالها مع تأخير هذا الفتح إلى أقصى درجة ممكنة. وإذا صح هذا فإن قيادة المحور لها رأيها وهي أدرى بوجاهته منا. ولكنا نحن عامة الناس يحق لنا أن نعجب من التضحية بهذه الجزيرة العظيمة، ذات الموقع الجغرافي والحربي المنقطع النظير؛ ونحن مضطرون لأن نفترض أن المحور قد جلا عن صقلية لأنه كان

عاجزاً عن الاحتفاظ بها .

ويحق لنا بعد هذا أن نفكر في سر هذا العجز .

إن ألمانيا تواجه حرباً شعواء في شرق أوربا ؛ والمرة الأولى تقف أمام جيش روسي استطاع في فصل الصيف أن يبدأ بالهجوم ، وأن يستولي على مدن وحصون منيعة ، وأن يرد الجبهة الألمانية عشرات الأميال إلى الوراء . إن الميدان الروسي أجل خطراً من الميدان الصقلي ؛ وإذا أصابت الجيوش الألمانية كارثة في الميدان الشرقي تعرض الوطن الألماني كله للخطر ؛ ولم يعنه ألف انتصار في إفريقية أو صقلية . ولقد أصيب الجيش المحوري بالهزيمة في إفريقية وفي صقلية فلم يكن لهذا نتيجة مباشرة على الوطن الألماني . ولكن إذا أتيح للروس أن يفوزوا بنصر باهر في جزء واحد من الميدان الشرقي ، أصيب الميدان كله بالانهيار ... لهذا لم يكن بد من أن تكون عناية ألمانيا الأولى موجهة إلى الميدان الشرقي وإلى تقويته وتعزيزه . فإذا كان هنالك فضل من الجند والذخيرة والعتاد فأولى به أن يكون قوة احتياطية لهذا الميدان الخطير .

ولا بد لنا أن نستخلص من هذا أن ألمانيا في صيف هذا العام لم تكن تملك من القوات الاحتياطية ما يمكنها من إمداد الميدان الصقلي بحاجته من الجند ؛ ولهذا لم يكن بد من أن يكون اعتمادها الأكبر على الجيش الإيطالي ؛ وأن تكون القوة الجوية الألمانية بالقدر الضروري . ولقد اعتاد الناس أن يسخروا من الجيش الإيطالي ، وأن يصفوه بالضعف والعجز ؛ ولكن تصريحاً صدر من القائد الأعلى للجيوش المتحدة في الأسبوع الماضي يدل على أن في هذا الوصف شيئاً غير قليل من الإسراف . فقد قال الجنرال إزنهور : إن القوات الإيطالية التي كانت تغطي تراجع الجيش الألماني المتقهقر قد أبلت بلاء حسنا . والذي نستطيع أن نستخلصه من هذا ، أن الجندي الإيطالي لاتعوزه الصفات الحربية اللازمة ، بقدر ماتعوزه الرغبة الصادقة في متابعة هذه الحرب . فبالرغم مما ذكر عن موقف الجنود الإيطاليين التي أبلت بلاء حسنا في المرحلة الأخيرة من الحرب الصقلية ، فإنه لا بد من التسليم بأن الجيش الإيطالي بوجه عام لم يقم بدفاع شديد عن الجزيرة ، وأن كثيراً من الوحدات كانت تسلم من غير حرب ؛ وأننا لا بد لنا أن نخلص من هذا كله إلى نتيجة لا مفر منها ، وهي أن الجيش الإيطالي — كالشعب الإيطالي — قد أخذ يسأم الحرب ، ويزهد فيما قد وعد به من المغانم ؛ وبات اليوم وأقصى أمانيه أن تضع الحرب أوزارها ، وأن ينعم بالسلم مرة أخرى .

إن هذه الروح موجودة في الجيش الإيطالي ولا شك في وجودها ، كما أنه لا شك في أنها آخذة في الزيادة والانتشار ؛ وقد زاد في توكيدها وانتشارها زوال الحكم الفاشستي ، واعتقاد الناس بأن الحرب شديدة الصلة بذلك الحكم ، وأن منطق الأشياء يقضي بأن تزول الحرب وتنقضي بانقضائه . وهذه الحقيقة — وإن تجاهلها رئيس الحكومة الإيطالية في الوقت الحاضر — فإنها ستكون من الأمور ذات الخطر في تقرير مجرى الحوادث في المستقبل .

* * *

وصفوة القول إذن أن الحلفاء قد تم لهم فتح صقلية بهذه السرعة لسببين : أولهما عجز ألمانيا عن إمداد الميدان الصقلي بالدرجة الكافية ؛ والثاني قلة رغبة الجيش الإيطالي — أو جزء كبير منه — في متابعة الحرب . ويحق لنا أن نتساءل : إلى أي حد سيظل هذان السببان قائمين بحيث يؤثران في جميع تطورات الحرب المقبلة ؟

تقف جيوش الحلفاء الآن على مضيق مسينا ، لا يفصلهم عن أرض إيطاليا سوى مساحة ضئيلة من الماء ، لا تزيد على الميلين في أضيق جزء من المضيق . والجزء المقابل لصقلية هو مقاطعة كالابريا ، وهي إقليم جبلي وعر ، ترتفع أرضه من ساحل البحر المقابل لمسينا ، فلا تلبث حتى تبلغ نحو ألفين

من الأمتار . وطرق المواصلات الوحيدة في هذا الأقليم تلتزم الساحل الضيق بين البحر والجبل .

ومن المعلوم المشهور أن إيطاليا تمتد نحو الجنوب في شكل شبه جزيرة ، وطرفها الجنوبي يشبه النعل ؛ فكأن إيطاليا كلها بمثابة رجل قد ألبست حذاء ضخما ، ومقدمة الحذاء هو مقاطعة كالابريا القابلة لسينا ، وكعب الحذاء هو مقاطعة أبوليا المشرفة على البحر الأدرياتى . وهذا الكعب طويل جداً ، بحيث يكون بينه وبين مقدمة الحذاء فراغ عظيم يحتله البحر في صورة خليج وهو خليج تارنتو ، حيث الميناء الحربي الشهير المسمى بهذا الاسم ؛ وحيث يقيم الشطر الأكبر من الأسطول الإيطالى .

والآن — وقد تم للحلفاء بسط سلطانهم على صقلية — قد أخذ الناس يتحدثون في الخطوة التالية ؛ فمن الجائز أن يحاول الحلفاء عبور المضيق ، واحتلال الطرف الشرقى منه ؛ وكأنهم بهذا يتابعون خطتهم ويسيرون في نفس الطريق الذى سلكوه من قبل ، متممين ما بدأوه ، معتبرين هذا المضيق مجرد عقبة ، أو خندق عظيم لا بد من الوثوب فوقه .

غير أن الحالة أكثر تعقداً من هذا ، فإن الاستيلاء على صقلية يتيح للفاتحين احتمالات عديدة . فهم ليسوا مضطرين لأن يهاجموا الطرف الجبلى من كالابريا ، وأمامهم جهات أخرى أكثر سهولة . وفى وسعهم أن يهاجموا أبوليا ، وهى أرض سهلة تمكنهم الاستيلاء عليها من التسلط على ميناء تارنتو وبرنديزى ، والتحكم في مدخل البحر الأدرياتى ؛ إذ ليس من شك في أن كعب الحذاء أجل فائدة وأعظم نفعاً من مقدمة الحذاء ذات الطبيعة الجبلية والمسالك الوعرة . كذلك في وسع الجيوش المتحدة أن تغير على سواحل إيطاليا الجنوبية ؛ وأن تحاول احتلال خليج سالرنو أو خليج نابولى نفسه ، أو خليج بوليكاسترو ؛ ولعل الاحتمال الأخير أقرب إلى الظن .

على أن الخطط الحربية قمينة بأن تخلف كل ظن ، وأن تأتى بما لم يكن متوقعاً . ولقد صادف فتح صقلية انعقاد مؤتمر خطير في أمريكا يشهده كبار سادة الحرب والسياسة من بريطانيين وأمريكيين . وأخذت الألسن تردد أن قرارات خطيرة لا تلبث أن تقطع ، وأن خطوات جليلة في الحرب الأوروبية توشك أن تتخذ . ولقد قيل في جملة ما قيل ، إن أهمية غزو إيطاليا قد نقصت عما كانت ، وأنه يكتفى بفتح صقلية والتحول إلى ميدان جديد ؛ وأشير إلى أن هذا الميدان هو غرب أوربا . وليس بمستبعد أن يحاول الحلفاء غزو أوربا الغربية في هذا الخريف ، فإن حملة صقلية قد أكسبت جيوشهم خبرة جديدة ومرانا على هذا الضرب من الأعمال العسكرية . ولعل لديهم علما بأمور أخرى تبرر التعجيل بهذا الغزو .

ولكن الأمر الذى يصعب قبوله أن يكون هذا الميدان الجديد سببا في إلغاء كل عمل آخر في جنوب إيطاليا . فإن الحلفاء إذا استطاعوا الاستيلاء على جنوب إيطاليا ، بقطع النظر عن سائر المملكة ، فإن هذا وحده يكسبهم منافع عظيمة جدا ، ليس أقلها خطرا تهديد شبه جزيرة البلقان ، والسيطرة على مدخل البحر الأدرياتى . . .

لهذا يصعب أن نتصور أن الحلفاء سيعدلون عن متابعة غزو إيطاليا اكتفاء بفتح ميدان جديد في مكان آخر ؛ بل الأقرب إلى الظن أنهم سيمضون في حملتهم الإيطالية التى لم تكن صقلية سوى الرحلة الأولى منها . وهذه الرحلة لا بد أن يفصلها عن الرحلة التالية فترة من الزمن . فبالرغم من أن مضيق مسينا قليل المساحة ، فإنه لا بد من مضى بعض الوقت ، لكى يتم فيه إصلاح المطارات القريبة من المضيق ، ولإصلاح ميناء مسينا نفسها ، والطرق الممتدة على شاطئ المضيق .

محمد عوض محمد

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

قلبٌ حسّاس ، وتجارب خائبة

وصل الثالث : طبيب شاب أمريكي اسمه « مينوت » ، من آل « مينوت » ، وهي أسرة شهيرة في الطب عريقة ، وداء عيّاهُ هو فقر الدم الخبيث .

أما الداء فلا يعرف الأطباء له دواءً ، ومع هذا يصفون له الأدوية على غير هدى لأن عليهم أن يصفوا شيئاً .

وأما الطبيب فقد تيسّر له في أهله العيش ، وتيسرت له بهم السمعة الطيبة في الطب ، ولكن الطبيعة عوّقته بإضعاف بدنه ، ولكنها عوّضته عنها برغبة في العمل لا تضعف . وعوّضته عنها باستقلال في الرأي يأبى الخضوع لرأي لا يرضاه . وكان رأي الأطباء أن هذا الداء داء لا دواء له ، فلم يرض هذا الرأي . وقرأ قول الطبيب العظيم ، أزلر : إن من الأدواء أدواء لا يمكن علاجها ، لا اليوم ولا غدا . فلم يبلع هذا القول .

وأخذ يبحث تحت المجهر دماء المرضى دائباً أبداً . فوجد أن دماءهم تحسن أحياناً لغير سبب ظاهر ، وعندها يرى في تلك الدماء كريّات جديدة غريبة ، يصبغها باللون الأزرق ، فيظهر نسيجها تحت المجهر شبكيّاً . فهذه كريّات حمراء وليدة نزلت حديثاً إلى الدم ، أنزلها مصنع الكريات الحمراء بالجسم — وهذا المصنع هو نخاع العظام .

ويزول هذا التحسن في المرضى لغير سبب فتخلو من الدم هذه الكريات الوليدة .

واشتغل مع عالم الأمراض ، الدكتور « ريت » ، فشكّه أن فقر الدم الخبيث ينشأ من فساد في نخاع العظام يجعلها تصنع كريات دم حمراء غير نامية . والآن اقرأ :

وكان مينوت قد فتح عيادةً صغيرة في بُسطُن . ومن العجيب أنه حسب أنه يستطيع في هذه العيادة الصغيرة أن يمتحن كل شيء ، وكل أحد ، في دقّة وفي تفصيل ، وعلى مهل كما يفعل في معمل بجامعة . والحق أنه هكذا كان مع كل مريض أتاه ، من أي نوع كان ، وغنيًّا كان أو فقيراً ، حتى أملّ وأضجر . كان يطبّق أساليب العلم على مرضاه ، وكان يسلك بهم طرائق العلم وهي طويلةٌ متعبة ، كما كان يفعل بهم بالمستشفى العام بماساشوست ، أو كما فعل بهم في مدرسة الطب بجامعة هرْفرد . وكان يشغل عندئذ منصبا صغيرا بهذه المدرسة من هذه الجامعة . كان « مينوت » صديقاً محبا لمرضاه . كان ينظر إليهم نظره إلى حيوانات للتجريب في معمل ، ولكنه لم ينْس قط أنهم أناسيّ من نسل آدم .

ويسأله مريض من مرضاه : « وهل تأذن لي في المشي والتنزّه قليلا يا دكتور ؟ » .

فيجيبه الدكتور : « نعم لك أن تمشي حتى تأتي ساحل النهر ولا تتعدّاه . ثم لك أن تسير على النهر طولَ عمارتين ، ثم تعود بأقصر طريق » . ثم هو يجلس ليرسم على الورق أقصر طريق . ثم هو يكرّر المريض : « بأقصر طريق . أفهمت ؟ » . ثم تشعّ البسمةُ في عينيه الزرقاوين حتى لا يُساء المريض . وكانت له ذاكرة عجيبة يذكر بها كل شيء عن مرضاه — كيف ناموا ، وما أكلوا ، وأي الأشياء ، ولو تافهةً تُدخل السرور إلى قلوبهم ، ثم متاعبَهم في أسَرهم . عَلِمَ كل دقيقة من ذلك .

وظلّ على اهتمامه بالدم وكلّ داء يسبّبه اختلالٌ فيه . ولفقر الدم نوعه الآخر غيرُ الخبيث ، ويُعرَف بفقر الدم الثانويّ ، لأنه يكون نتيجةً لداء في الجسم أوليّ أصليّ . وهذا النوع الثانويّ صنوف . فمِنْ توفّر « مينوت » على امتحان دماء مرضاه دائما أبدا ، صار داهيةً في تعرّف كل صنف من هذه الصنوف ، أهو من نزف ، أم من دودة شريطية ، أم من سرطان ، أم من زهريّ ، أم من ملاريا ، أم هو بسبب الحمل .

اجتمعت كل هذه الصنوف من فقر الدم الثانويّ في كومة ، فقابلتها تلك الكومة المعيبة وقد احتوت صنفاً واحدا يعدِل كلَّ تلك الصنوف شرًّا — ذاك فقر الدم الخبيث الذي لا أمل فيه ولا رجاء في شفائه .

واشتغل «مينوت» مع الدكتور «روجر لى» Roger Lee ، وهو طبيب قادر مجرّب ، فكانت تأتيه المرضى تسأله : «ألا يمكن عمل شيء يا دكتور؟ ألا يمكن شيء أبداً؟» . وكان من هؤلاء المرضى قوم ضعفوا حتى عن الخطو فلم يستطيعوا أن يقدموا رجلاً على أخرى. ومنهم من ضعفوا عن الكلام . وكيف يتكلمون وألسنتهم موجعة سليخة كقطع اللحم حمراء . كانوا يحسّون الراحة ما بقوا على سكونهم وسكوتهم ، ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا الضعف يتركهم متضاعفا .

ويجيبهم «مينوت» على ما يسألون : «نعم يمكن إجراء عملية إذا أنتم احتملتموها . ومع هذا لا نستطيع أن نعدكم شيئاً . أفاهمون؟ لا نستطيع أن نؤملكم أملا» . وتبين فى عينه وهو يتحدث صراحة مرة وأمانة قاسية .

وعلى هذا قام الجراحون وزرعوا أطحلة تسعة عشر ، من تسعة عشر مريضاً بلغ المرض من مرضى الدكتورين «لى» و «مينوت» — عام ١٩١٤ إلى ١٩١٧ . فانصرفت بالعملية عن هؤلاء المرضى مساوئ الداء حيناً ، وأخذ دمهم يزداد ثخانة ، وأخذت أعضاؤهم تزداد قوة ، لتسعة أشهر أو لعام كامل . وراقب «مينوت» هؤلاء المرضى ورعاهم ، وهم لا طحال لهم . وأخذ يفحص دماءهم ، ويفحصها باحثاً عن تلك الخلايا الدموية الجديدة الوليدة ، بما لها من نظام شبكي يصطبغ أزرق تحت المجهر . وكثيراً ما رأى الكثير من تلك الخلايا بعد العملية مباشرة ، فانبسط أمله ، ولكنها لا تلبث أن تقل وتعود سيرتها الأولى . ويود لو يعيد العملية حتى تعود تلك الخلايا الجديدة الوليدة إلى الظهور مبشرة بالخير ؛ ولكن أنّى له أن يعيدها ، والمرء ليس له إلا طحال واحد . ثم يعود هؤلاء المرضى إلى نزول الجبل من حيث طلعوا ، ثم يموتون . لقد ماتوا جميعاً ، مات كل هؤلاء التسعة عشر .

كان وقع هذا شديداً على «مينوت» . وكان «مينوت» تعلم آداب الطب عند أفرشة المرضى ، ومارس حيل الأطباء جميعها فى مجاملة مرضاه فلم تفته فائتة . تعلم هذا الأدب ، وأخذ هذه الحيل ، عن الطبيب العظيم «ثاير» بلتيمور Thayer of Baltimore ، وهذا أخذها فى دوره عن السير وليم أزلر Osler نفسه . ولا شك أن أدب الطب وحيله تنفع المريض نفعاً كبيراً . ولا شك أن ابتسامة الطبيب تنير المريض الطريق إلى الشفاء فتخفف من ظلامه . والطبيب يستطيع فى التفريج عن المريض أن يذهب فى هذا إلى حد البهجة الهادئة والنكتة المرحة . إنها شخصية الطبيب تعين المريض عوناً كبيراً . ولكن المصيبة أن شخصية الطبيب وأدب الطب لم يزيدا دماء هؤلاء المرضى كثافة . وعمل «مينوت» على تكثيف تلك الدماء ، وعلى إبقائها كثيفة بكل ما استطاع من قوة دون جدوى . ولو كان أزلر Osler العظيم ، إذن لفزع فى خيبته إلى الإذعان والتسليم ، إلى الإيمان الجميل بالقسم والأرزاق ، ثم نفض يديه جميعاً من كل هذا . ولكن ما هكذا خليق «مينوت» !

وأخذ هو ، وزميله روجر لى Roger Lee — ينقلان من دماء الأصحاء إلى دماء هؤلاء المرضى ، كما كان ينقل كثير غيرهم . وأتما ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ سبعين نقلة من الدم الثخين إلى ستة وأربعين مريضا .

قال مينوت : «وتحسن نصف هؤلاء المرضى لبضعة أسابيع» .

ولكنهم أخيرا ماتوا جميعا .

وعد «مينوت» هذا الإخفاق وصمة فى شرفه ، وعدها لطمة لوجهه أن يموت كل هؤلاء . وقد كان خارق العادة فى هذا ، فمن ذا يلوم طبيباً إذا هو انتهى أخيراً إلى أن يتبلد إحساسه عند موت مرضاه .

وبان لمينوت أن نقل الدم لا يكشف دم فقراء الدماء ، ومع هذا ظل ينقل هذا الدم لعل وعسى .

قال مينوت : «لا بد من نقل الدم حتى ولو ظهر أن

من مذكرات جحا :

الأديب عجيب بن جحا

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التى زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

ولدى عجيب من تلاميذ العصر الحديث الذين يعتقدون أنهم ناشئة عهد تقدم وذكاء وعلم ! وهو مثل إخوانه وأبناء جيله ، يسيئون الظن بجيل آبائهم بقدر إحسانهم ظنهم بأنفسهم . ولِمَ لا يفعلون وذلك أمر تقضى به سنة الكون منذ خلق الله الناس جيلا بعد جيل ؟ كل جيل يبدأ فى تحصيل المعرفة ، فيظن أنه قد أوجد المعارف بنفسه ، وكل منها يذوق أول طعم تجارب الحياة ، فيكون كل شىء عنده جديداً ، فيحسب أنه قد كشف شيئاً جديداً لا عهد لأحد به من قبله ! فلم لا يكون ابنى كذلك ؟ لست ألومه على مثل هذا الوهم ، فهو أمر طبيعى ؛ وكلما رأيته منتفخاً بأوهامه تبسمت وتذكرت أحوالى إذ كنت فى مثل سنه ، وأردُّ له الدين الذى كان لأبى فى عنق . هكذا نحن نسدد ديون الآباء للأبناء .

ولو كان عجيب ابنى يكتفى بسوء ظنه بالجيل القديم لوافقته واستحسنت صنعه ، فقد عاشرت هذا الجيل القديم وعرفته معرفة لم تتح لابنى ، وكلما مرت بى الأيام زاد يقينى أن هذا الجيل القديم خلقة شاذة ، وما أبرئُ نفسى فأنا كذلك خلقة شاذة ! بل لقد بلغ بى الشذوذ عن الطبائع إلى الذروة ، فأنا شاذ فى جيل شاذ . ولكن الداهية أن ابنى يحسن الظن بنفسه وبأهل زمنه ، على حين أنى لا أرى إلا زيادة متصلة فى التخليط والخبط ؛ وقد ولع ابنى بما يسميه الأدب ، واستهتر به استهتاراً ، حتى بلغ به الأمر أن اشترى قاموساً صغيراً وضعه فى جيبه ؛

تقله لا يشفى من الداء ، فإن كثيراً من المرضى تحيا بهذا الدم المنقول ما أدمنا نقله » .

والله وحده يعلم كيف استطاع أن يثابر على نقله ، وهو يعلم أنه الأمل الخائب ، وأن هؤلاء الناس ميتون ميتون .

لقد علمتْ كلُّ سلطة فى الطب عند ذاك أن هؤلاء المرضى لا أمل لهم فى الحياة . وقد كان فى إمكان « مينوت » أن يتخذ من أزلر قدوة يخفف به من شدة تأثره لموت هؤلاء المرضى . ومَن أزلر ؟ إنه أبقراط الطب . قال أزلر :

« إن من الأدواء أدواءً لم يكن منها قط شفاء ، ولن يكون لها على ما نحسب أبداً دواء ؛ فهذه الأدواء تجعل من بعضنا نحن الأطباء ، رجالا حسَّاسين ، يُرخون العنان لمشاعرهم حتى تدقَّ وترق ، فيتألمون حتى كأنهم من حياة البرية مسئولون » .

قال أزلر هذا فى خطابه الشهير عن علاج الأمراض فى طورنطو فى يونيه عام ١٩٠٩ .

وتابع خطابه فقال : « إننا معشرَ الأطباء نعمل بفِطنة الفُطناء ، لا بسحر الساحرين . وما دمنا نبذل لمرضانا كل عناية ، ونرعاهم فى رقة كل رعاية ، ونعمل ما فى وسعنا لتخفيف آلامهم ... » .

وبالطبع « مينوت » لم يكن يؤمن بالسحر والساحرين ، ولم يكن يؤمن بالخرافات ، وكان علميًّا عريقا . ولكنه كان حساساً .

وقال أزلر : « واحذروا أهلَ الطب أن تتنزلوا به ، أو تسيئوا إلى حرمته بما تبذلون من وعود بالشفاء لا يبذلها إلا الأدعياء ، أو بما تسومون أنفسكم فيه من التلوّن فى علاجات داءات اجتمع الرأىُ على أنها لا تلين ولا ترحم » .

لقد علم « مينوت » أكثر من كل أحد أن فقر الدم الخبيث لا يلين ولا يرحم . ولم يكن فى الطب دَعيًّا . ولم يبذل وعدا بالشفاء يبذله الأدعياء . ولكنه ، مع كل هذا ، لم يستطع أن يَرُوض نفسه على ألا تحس الألم كلما مات له مريض بهذا الداء .

أحمد زكى

وكلما وجد فراغاً من وقته فتحه وأخذ يحفظ من ألفاظه كل ما شذّ واستعجم ، ثم تعوّد بعد ذلك أن يستعمل هذه الألفاظ فى كتابته ومناقشاته ؛ وزاد به الأمر حتى ولع بعبارات يجمعها فى قراءته من كل ما هبّ ودبّ من كتب هؤلاء الساكين المخدوعين ، الذين يحسبون أن الأدب لا يزيد على أن يطمسوا الصور ويلقوا على الألفاظ سحباً سوداء من الغموض ، فيضطر القارئ الذى لم يدرك لقولهم معنى أن يتهم فهمه ، ويدفعه اليأس إلى التسليم بأنهم نوابغ فى الأدب ؛ وطالما صدع رأسى بما يقذفه عليه من عبارات هؤلاء البائسين ؛ وطالما سمعته يتغنى بالضوء الذى يداعب أعطاف السماء ، وبالنشوة التى تتمشى فى الظلال الراقصة ، وبالسحر الذى يتموّج فوق مجالى النبضات اللانهائية !! وكنت منذ ليال قلائل جالساً وحدى فى الحديقة أتمتع بضوء القمر الزاهى ، فسمعته يتغنّى بأبيات مما يسمونه شعراً . وكان لا بد لى أن أسمع غناءه وإنشاده ، لأن الليل كان ساجياً ساكناً ، ليس فيه ضجيج أحتمى فيه ؛ ولا أزال إلى اليوم أقشعر كلما مرت هذه الأغنية بخاطرى وعادت أصداؤها إلى ذاكرتى .

كان شيئاً لا معنى له ولا وزن ؛ ووالله لو كان ذلك شعراً لاستطاعت كل عنز أن تكون شاعرة ! كان يتغنى قائلا شيئاً مثل هذا :

الشجر والطير والسحاب   والنور والحب والضباب

فلما زاد بى الألم على قدر طاقتى صحت به أن يسكت ، ولكنه أقبل نحوى فى حماسة شديدة ، وجعل يرجعنى رجعاً متصلا بإنشاده ، حتى أوشكت أن يغمى علىّ .

من أجل كل هذا عُرف عجيب ابنى بالنبوغ بالأدب بين لداته ؛ وتمكن منه الوهم فاعتقد أنه أدب وهب الله له من فضله ، وجعل يسألنى من أسماء شياطين الشعراء ليختار له واحدا من بينهم ظريف الاسم كريم السابقة .

وكثيراً ما أفضى إلىّ بأمله فى أن يكون كبير الأدباء فى جيله ، فتأخذنى الشفقة عليه ، فأهز رأسى صامتاً وأتركه يقول ما يشاء ، فالزمن وحده هو الكفيل بحل كل مشاكل الحياة ؛ ولا فائدة فى المناقشات ، لأن تيار الحياة يحمل الإنسان فى سبيله كما يريد هو لا كما يريد الإنسان . ولست أدرى لعله حقيقة يصير إلى ما أراد ، ويحقق أمله فى أن يصبح كبير أدباء عصره ، فإن الزمن — كما قدمت — صائر إلى فساد بعد فساد ؛ فلعل هذا الأدب الممسوخ يكون فى العصر المقبل آية الإبداع فى أنظار أبنائه ؛ والعبرة بأهل ذلك الزمان لا بنا نحن — ومع ذلك فإنى لم أتمالك نفسى يوما من أن أخوض مع ولدى فى مناقشة صاخبة ، عند ما سمعته يتحدث عن الأدب فى حماسة حمقاء ، فقد قلت له عند ذلك ناصحاً :

— ماذا تريد من ذلك الذى تسميه الأدب ؟ حقاً أن اسمه مغر لكم معشر الأبناء ، لأنكم دائما تسمعون منا أن الأدب محمود ؛ ولكن الأدب الذى تقصده شىء آخر .

فقال لى غاضباً :

— أتظننى لا أعرف معنى الأدب ؟ إننى أعرف عن عظماء الأدباء أكثر مما تظن .

فضحكت وقلت له :

— عظماء ! يا خبر !

فقال وقد نفخ صدره :

— بلا شك ! عظماء وخالدون أيضاً . وسأكون أحد الخالدين .

فقلت له :

— إذن مت جوعا .

وما كان أشد عجبى عند ما سمعته يجيب معانداً :

— وماذا علىّ لو فعلت ؟ إنها ضريبة العظمة ، إنها ثمن الخلود .

فنظرت إليه طويلا ، وهززت رأسى آسفاً . وكان

أمق شديداً ، لأنى أنا والد هذا الفتى الذى صببت له بغير قصد أن يوجد فى هذه الحياة .

ولست أدرى من ذا الذى يلقى مثل هذه الأوهام فى عقول هؤلاء المساكين ؟ أم لعل هذه الأوهام تنبت فى الرؤوس بغير أن يلقى أحد بذورها كما تنبت الحشائش على جانبى الساقى .

أما إذا كان لا بد من إلقاء الذنب على أحد ، فإن هذه الخديعة البارعة لم يقترفها إلا تجار الكتب ، فإنهم بلا شك يحبون أن يختنق الحق بهذه المعانى الجوفاء ، ومن مصلحتهم أن تشيع بين الناس مثل هذه العقيدة . يا خبر ! عظماء ؟ مَن هؤلاء العظماء ، وما معنى عظمتهم ؟ إن نصف أصحاب هذه الأسماء التى تملأ كتب الأدب قد ماتوا جوعاً ، لأنهم ألفوا ما لم يفهمه أحد فى عصرهم ، فكانوا كمن يلقى الجواهر إلى مزاود البقر . هؤلاء ماتوا جوعاً ، وكان حقا عليهم أن ينتهوا إلى تلك النهاية المرة ! ولست أشك أنه عزاء قليل لهم أن يقال عنهم بعد موتهم إنهم عظماء . وإذا كان أحد يجنى ثمرة من تقديسهم بعد الموت فهم تجار الكتب . هذا أمر بديهى .

وأما النصف الثانى من أصحاب هذه الأسماء ، فهو جماعة تسنموا الناس فى الحياة ، لأنهم كانوا تجاراً مهرة ، عرفوا كيف يبيعون للناس ، وكيف يضحكون على ذقونهم . وهؤلاء قد أنصفوا أنفسهم بغير شك ، ولست أضن عليهم بالإعجاب والإكبار ، ولكنهم على أى حال لم يكونوا عظماء ، ولم يعبأوا بمثل هذه الألقاب السخيفة التى تخدع الأغرار . فقد امتلأوا من الحياة كما يمتلئ الطفيليون من الولائم ، ثم خرجوا بعد أن أصابوا من أطايبها ، وهم مشيعون بالغيظ والسخرية . ولكنهم خرجوا أسعد خلق الله وأنعمهم وأطيبهم نفساً .

نسيت أن أذكر السبب الذى دعانى إلى كتابة هذه الكلمة اليوم ؛ فقد مر بى ولدى مجيب وأنا جالس فى الحديقة عند الساقية ، وكان يقرأ فى قاموسه ، ولما قرب منى نظر إلىّ باسماً ابتسامة خبيثة ، ولكنها كانت حلوة فى خبثها . وكان فى هذا اليوم رفيقاً بى ، فلم يعرج علىّ ، ولم ينشد لى شيئاً من محفوظه ولا من تأليفه . ولما بعد عنى جلست وحدى وتواردت على خاطرى هذه المعانى التى أثبتها فى هذه الكلمة . وبعد حين جاء صديقى أبو النور فجلس إلى جوارى وأخذنا نتحدث ، ومال بنا السمر إلى ذكر ولدى وما أرجوه له من عمل فى مستقبل أيامه ؛ فأفضيت إلى صديقى بما يساورنى من المخاوف من أجل ما داخله من حب هذه الصناعة التى يسمونها الأدب . فسألنى أبو النور فى سذاجة :

— وهل فكرت له فى صناعة أجدى عليه ؟ فاندفعت قائلا فى شىء من الغضب :

— ماذا تقول يا رجل ؟ لقد حسبتك أعلم بالحياة من ذلك . إن كل صناعة أخرى وكل تجارة غير هذه المحنة أجدى على أى شاب له عقل . فليكن طبيباً إذا شاء ، فإنه سيكون شيئاً له معنى ، ولن يزاحمه إلا مَن كان له شىء من العلم بصناعة الطب ؛ فإن الناس يفتحون أعينهم ويسألون عن مبلغ علم الطبيب الذى يسلمون إليه أبدانهم ؛ أو فليكن فقيهاً ، فإنها تجارة رابحة رائجة ، ولن يزاحمه فيها إلا من كابد مشقة الحفظ وتحصيل العلم ؛ أو فليكن خبازاً ، فالناس لا يتدسسون بين الخبازين ، إذا لم يكونوا قادرين على صناعة الرغيف الطيب . فليكن أى شىء من هذا أو غير هذا ، لأنه عند ذلك يصبح صاحب حرفة محدودة معروفة ، لها قيود وعليها أسوار تمنعها وتحميها . ولكن لا يبلغن به السفه أن يدخل برجليه إلى تلك الرملة الخوانة التى يسمونها صناعة الأدب .

وقد نسيت وأنا أقول هذا القول ، فحسبت أنى أحدث نفسى ولا يسمعنى أحد ، ولكنى شعرت فجأة بقرصة فى ساعدى ، فتنبهت ، فإذا أبو النور يقول لى :

— أما تسمع ؟

فسكتُّ وتلفت حولي ، فطرقت أذني صرخة مكتومة كأنها خارجة من بطن الأرض ، فقمت مع صاحبي مسرعين ، وجعلنا نركض باحثين عن مبعث الصوت في أنحاء الحديقة ، فلم نجد شيئاً ، واتهمنا أسماعنا ، وعدنا مرة أخرى إلى الساقية بعد أن درنا بالحديقة كلها ، ووقفنا نلقف أنفاسنا لحظة ؛ وهممت أن أسأل صديقي عن رأيه في الأشباح التي ترتفع أصواتها في الليل هل يمكن أن تظهر في وضح النهار ؟ وإذا بالصراخ المكتوم ينبعث مرة أخرى كأنه يصعد من تحت أقدامنا . فنظرت إلى صديقي قائلا :

— بسم الله الرحمن الرحيم !

ولكني رأيته يذهب إلى شفة البئر التي تحت الساقية ؛ فسرت وراءه وأطللت برأسي ، فماذا رأيت ؟ هناك كان رأس ولدي يجيب فوق سطح ماء البئر ، وهو يحاول أن يسند نفسه واضعاً يديه على الجدار الأملس ، ويضطرب برجليه في الماء ، وسمعته يصيح :

— الوهس ! الوهس ! الوحى ! الوحى ! الجدار المتملس يداعب كفي ، وسراب الماء يراود أنفاسي !

وكان يريد الاستمرار ، فخشيت عليه وصحت به :

— اخرس ! ماذا الوهس وماذا الوحى ، وماذا يداعب ، وماذا يراود ؟

فرفع رأسه نحوي متحدياً وقال :

— لقد رأيت (الوهس) قبل سقوطي ، ومعناه الجرى السريع ، وأما الوحى فمعناه العجل ، وأما الجدار المتملس الذي يداعب فهي عبارة رائعة نقلتها من الأديب الكبير ... وأراد أن يستمر فلم أجد ردا إلا أن صحت به :

— دع هذا وقل لي أين الحبل ؟ أين الحبل الذي كان هنا على شفة البئر ؟

فلما أحس الولد الجد مني قال في انكسار :

— هو الذي انقطع بي وأهوانى في تيج الـ ... وكاد يستمر لولا أن صحت به مرة أخرى :

— اخرس !

ثم نظرت حولي لأجد شيئاً أنقذه به ، فوقعت عيني على عمامة صديقي ، فأسرعت فنزعتها عن رأسه ، وساعدني الرجل الطيب على أن أرميها ؛ ثم دلَّيناها إلى الولد حتى أمسك بطرفها ، وتعاونا على رفعه حتى أخرجناه من البئر وهو مثل القط الغارق .

وأخذ صديقي عمامته فنشرها وهو صامت ، وأخذت ولدي إلى البيت خوفاً عليه من إصابة البرد ، ودفعته إلى أمه قائلا :

— أصلحي أمره ، واعتني به حتى لا يُفجَعُ الجيل الجديد في كبير أدبائه !

ورجعت إلى صديقي فوجدته لا يزال يهز أطراف عمامته ليساعدها على أن تجف ؛ فداخلني إشفاق عظيم عليه ، وقلت له في حرارة :

— أشكرك ! فلولا عمامتك لهلك كبير أدباء الجيل الناشئ .

ثم لم أدر ماذا حدث ، ولكني رأيت الضحك ينتابني ، وكان ضحكا طويلا معديا بلا شك ؛ فما مضت لحظة حتى كان أبو النور يضحك ضحكا طويلا مثله ، وهو لا يزال يهز أطراف عمامته بيديه لكي تجف .

طبق الأصل **محجا**

يرجو من حضرات مشتركي مجلة الثقافة أن يبادروا بتسديد الباقي عليهم من اشتراكات سنة ١٩٤٣ بأقرب فرصة ممكنة .

الإدارة

مأساة بيير كورى[1]
مكتشف معدن الراديوم

بدأ يوم الخميس ١٩ أبريل ١٩٠٦ مكفهراً عابساً ممطراً . وكان برنامج بيير كورى اليومى يتلخص فى حضور مأدبة غداء فى مقر اتحاد أساتذة كلية العلوم بباريس ، ثم الذهاب إلى ناشرى كتبه لتصحيح بعض المسودات قبل أن ينتهى به المطاف كعادته اليومية إلى معهد الراديوم ليواصل أبحاثه .

ارتدى بيير ملابسه فى عجلة وأسرع نحو الباب ، وقبل خروجه نادى زوجته مارى — وكانت فى الطابق العلوى تساعد ابنتها إرين وإيف على ارتداء ملابسهما — وسألها إذا كان فى نيتها الذهاب إلى المعمل ، فأجابته بصوت غلبت عليه ضوضاء الشارع : إنها لن تتمكن فى الغالب . ثم سمعت الباب يقفل بشدة ، وشعرت ببيير يجرى على عجل كعادته .

وقضى بيير فترة الغداء مع زملائه الأساتذة فى رابطتهم بشارع دانتون ؛ وفى الساعة الثانية والنصف هَمَّ بالانصراف ، فودع أصدقاءه مبتسما ، وسار نحو الباب . ولما فتحه نظر إلى السماء المكفهرة فى تحدٍّ ، ثم نشر مظلته الكبيرة ومشى فى اتجاه السين قاصداً دار جوتييه فيلار للطبع والنشر ، فوجدها مغلقة بسبب إضراب العمال ، فعرج على شارع « دوفين » الصاخب بضجيج عربات النقل ومركبات الترام . وكان هذا الشارع مشهوراً بزحامه غير العادى ، وكان رصيفه ضيقاً بدرجة لا تسمح بمرور أكثر من صف واحد من المارة فى وقت واحد ؛ فكان بيير يسير أحياناً على الرصيف وأحياناً ينزل إلى عرض الشارع فى خطى مضطربة غير ثابتة ؛ ولعله كان فى ذلك الوقت يفكر فى إحدى تجاربه ، فكان يتخبط فى هذا البحر الخضم من الكتل البشرية والآلية . وإذ هو فى هذا الشرود الفكرى حاول أن يعبر الطريق للوصول إلى الرصيف الآخر ، فلم يلق بالا إلى عربة نقل كبيرة يجرها حصانان آتية من الجانب الآخر ، فاصطدم بيير بأحد الحصانين ؛ ولما أفاق من دهشته حاول أن يتعلق بصدر الحصان ليتفادى الوقوع تحته ، ولكن الصدمة كانت أشد من أن تمكنه من ذلك . ورغم محاولة السائق اليائسة إيقاف حصانيه ، فقد استمر الأخيران فى اندفاعهما ، وصاح عشرات المارة فى فزع أن « قف ! قف ! » . ولكن هيهات ! فقد وقع بيير تحت سنابك الخيل .

ومرت عليه الخيل ، ولكنه لم يمس بأى سوء ، بل بقى فى مكانه لا يتحرك ولا يصرخ ؛ وكان يمكن المعجزة أن تحدث وينجو بحياته ، لولا أن اندفاع العربة بحملها الثقيل البالغ ستة أطنان عجَّل بالنهاية المحزنة ؛ فقد صادفت العجلة اليسرى الخلفية عقبة سهلة غير كؤود حطمتها بسهولة ، وهى رأس بيير كورى ! وتكسرت عظام الجمجمة ، وتناثرت منها فى الوحل مادة لزجة هى مخ بيير كورى !

وأسرع رجال الشرطة يحملون الجثة الهامدة التى انتزعت منها الحياة فى أقل من لمح البصر ؛ وحاولوا إيقاف إحدى العربات لحمله إلى أقرب مركز إسعاف ، ولكن كل السائقين أظهروا عدم اكتراث واستمروا فى سيرهم عندما رأوا أن جثة رجل غارقة فى دمائه وملوثاً بأوحال الطريق هى الحمل المنتظر ! ومرت الدقائق ، وأخذت الناس تتجمع حول الجثة وحول العربة وسائقها المسئول عن الحادث . وأخيراً أحضر رجلان نقالة ، وحُملت الجثة إلى أقرب صيدلية لإجراء إسعافات غير لازمة ، ثم نقلت بعد ذلك إلى مركز الشرطة المجاور ، وهناك فحصت أوراقه وحافظة نقوده . ولما انتشر بين الجموع أن ضحية الحادث هو بيير كورى العالم الكبير ، تألبت الجماهير المجتمعة على السائق تريد الاعتداء عليه ، فاضطر رجال الشرطة إلى التدخل لحمايته من غضبهم .

وأخطرت كلية العلوم بالحادث تليفونيا ، فجرى إلى

(١) مقتبسة من كتاب : مدام كورى ، تأليف إيف كورى . ويرجع لآل كورى الفضل فى اكتشاف معدن الراديوم النفيس الذى ثبتت فائدته فى علاج السرطان وأمراض أخرى مستعصية .

مكان الحادث المسيو كليرك ، مساعد المسيو كورى . وبعد لحظة كان جثمان الفقيد مسجى فى غرفة متواضعة بمركز الشرطة ، وقد انحنى أمامها المسيو كليرك وهو ينتحب ، ووقف مانين سائق العربة يبكى ، بينما بقيت العربة الثقيلة بحملها المكون من الملابس العسكرية عند باب المركز ، واستمر هطول المطر عليها حتى أزيل أثر الدماء من عجلاتها ؛ وأخذت الخيل تضرب الأرض بحوافرها وتنفخ بمنخارها فى قلق وخوف ، وكأنها تستعجل صاحبها الذى طال غيابه داخل المركز !

ذهب مندوب من رئيس الجمهورية الفرنسية إلى منزل آل كورى ليبلغ الخبر وعزاء الرئيس إلى مارى كورى ، ولما علم أنها لم تعد إلى البيت بعد ، انصرف دون أن يترك رسالته . وبعد قليل دق الجرس مرة ثانية ، وإذا بالزائرين جون أبيل عميد كلية العلوم والأستاذ جان بيرن ؛ وكان الدكتور أوجين كورى — والد بيير — بالمنزل وحده ، فدهش لتردد هؤلاء الزوار ذوى الأهمية على غير عادة فى فترة وجيزة ، فتقدم نحوهما فى تردد محدقاً بعينيه فى وجهيهما المكفهر ؛ وكان على جون أبيل أن يخبر مارى زوجة الفقيد أولا ، فوقف صامتاً عند ما علم بغيابها . ولكن الوالد مضى ينظر إليهما ، وبدون أن يسألهما أى سؤال قال : « لقد مات ولدى . . . أليس كذلك » ؟ وعندها أخذ جون أبيل يسرد تفاصيل الحادث فى حزن ؛ وكان الوالد يستمع إليه وقد تقطب جبينه حزناً وغضباً ، وامتزجت فى عينيه دموع الأسى بدموع اليأس عند ما صاح متهماً ابنه بشرود الفكر الذى كلفه حياته ، وأخذ يكرر فى لهجة العتاب : « يا ترى يا ولدى فيم كنت تفكر ؟! » .

وفى تمام الساعة السادسة سمع صوت مفتاح الباب الخارجى يدور فى قفله ، وإذا بمارى كورى تعود من الخارج وهى ممتلئة مرحا وحيوية . ووقفت عند عتبة الباب تنظر إلى زائريها متعجبة لأمارات الحزن والكآبة البادية على وجوه الحاضرين ، وهى لم تعهد فيهم من قبل غير الترحيب والمجاملة . وقبل أن تحاول استنتاج حقيقة الموقف أخذ جون أبيل يكرر على مسمعها تفاصيل الحادث . وكانت تنصت إليه وقد تحجر وجهها ، فلم تبك ولم تولول ، ولم تسقط على الأرض من هول الصدمة ، بل بقيت صامتة فى ذهول ؛ وبعد صمت طويل انفرجت شفتاها وقالت فى صوت خافت : « بيير مات . . . حقا . . . ؟ » . ثم أخذت تفيق تدريجاً ، وفى لهجة آلية طلبت أن يحضروا جثمان زوجها فى الحال إلى منزله ورفضت إجراء الصفة التشريحية ؛ ثم رجت جارتها مدام بيرن أن تستبقى ابنتها إيرن كورى عندها لبضعة أيام . وأرسلت برقية إلى وارسو لتخطر أهلها بمصابها ، وكانت البرقية قصيرة ونصها : « مات بيير نتيجة حادث » ؛ ثم خرجت إلى الحديقة وجلست وقد أسندت رأسها بين يديها ونظرت إلى الباب فى صمت وألم منتظرة وصول رفيق حياتها ...

واستلمت أولا الأشياء التى وجدت فى جيب زوجها ، وكانت عبارة عن : قلم حبر ، وبضعة مفاتيح ، وجراب صغير ، وساعة لم يمس زجاجها بسوء ، وكانت تدق دقا منتظما . وفى الساعة الثامنة تماما وقفت عند الباب عربة الإسعاف ، فجرت مارى نحوها وتسلقتها ونظرت فى الظلام إلى الوجه الهادئ المطمئن ! ثم ساعدت على إنزال الجثة من العربة واحتجزتها فى غرفة منعزلة ، وطلبت ممن حولها أن يتركوها وحدها مع حبيبها . ولما تم لها ما أرادت أخذت فى تقبيله ، فبدأت بوجهه ثم جسمه ثم يديه . وخاف من حولها عليها من أثر الصدمة وتقدموا نحوها يريدون إخراجها ليشرعوا فى إلباس الفقيد ملابسه الأخيرة ، فأطاعتهم فى مبدأ الأمر ، وخرجت من الغرفة ولكنها سرعان ما عادت ثانية وصممت على البقاء بجانبه ، حتى لا تسمح لأحد غيرها أن يمس رفاته الطاهر .

وفى اليوم التالى وصل جاك كورى شقيق الفقيد ، وعندها فقط انفجرت ينابيع الدموع من مآقيها المتحجرة ، وانطلقت تبكى بكاء مراً ، ثم استعادت هدوءها وسكينتها ، وبدأت تجوب فى المنزل سائلة إذا كانت ابنتها إيف قد

غسلت وجهها وتناولت طعام الإفطار . ثم خرجت إلى حديقة منزل الأستاذ بيرين المجاورة ، وهناك وجدت ابنتها إيرين تلعب وتلهو ، فأخبرتها أن والدها قد أصيب فى رأسه إصابة بالغة ، وأنه سيحتاج إلى راحة طويلة ؛ فمضت الطفلة فى لعبها بدون أن تبدى أى اهتمام بما قالته والدتها .

وهنا نقتبس بعض مقتطفات من مذكرات مدام كورى وفيها تصف بقية هذا الموقف المؤلم :

« .. لقد وضعناك فى تابوتك يا حبيبى فى صباح السبت ؛ وقد ساهمت فى هذا بأن أمسكت رأسك بين يدى .. رأسك الذى تحطم ... آه يا حبيبى كم قاسيت فى تلك الدقيقة المشؤومة التى مت فيها ... يعز على أن يمس هذا الرأس الجميل الذى طالما أخذته بين يدى ... وكنت كلما حاولت تقبيل جبهتك أغمضت عينيك فى حركة محبوبة لتمكننى من ذلك ... وعندما أودعناك فى التابوت تهافتنا جميعاً على تقبيل وجهك المرة الأخيرة ، ثم أودعت معك صورتى التى كنت تعجب دائماً بها لترافقك إلى مقرك الأخير ... وأخيراً قفل التابوت واختفى وجهك عنى إلى الأبد .. ولما حاولوا تغطيته بقماش أسود وقفت فى وجوههم وغطيته بالأزهار التى كنت تحبها . وجلست بجانبك حتى أتوا ليأخذوك منى ، فنظرت إليهم فى يأس ولم أتكلم ، بل رافقتهم إلى مقرك الأبدى . وهناك حاولوا إبعادى لكى لا أرى المنظر المؤلم ، وصممت على أن أبقى حتى الدقيقة الأخيرة ... حتى أنزلوك فى تلك الحفرة العميقة ... وعندما انتهى كل شىء ، ذهب بيير إلى الأبد ..

وبعد الحادث بأيام كانت شقيقتها (برونيا) تتأهب للرحيل بعد أن قامت بواجب التعزية والمواساة ، فاقتربت منها مارى وأشارت إليها أن تتبعها غرفة نومها الخاصة ؛ وهناك دهشت برونيا إذ وجدت نار الموقد مشتعلة رغم حرارة الجو . وبعد أن تأكدت مارى من أن الباب مغلقاً اتجهت نحو دولاب ملابسها وأخرجت حزمة من الملابس ، ثم جلست بجانب النار وطلبت من شقيقتها أن تحذو حذوها . وأمسكت بمقص كبير وعمدت وهو تحاول فتح الحزمة قائلة : « برونيا .. يجب أن تساعدينى .. » . ولما أزالت الورق الخارجى كادت برونيا أن تصرخ من شدة الهول ، إذ تبين لها أن ما بالربطة لم يكن سوى ملابس بيير الداخلية والخارجية الملوثة بالدم والوحل نتيجة حادث شارع دوفين المشئوم .. لم تنبس برونيا ببنت شفة ، بل أخذت تراقب يدى شقيقتها المرتعشتين وهما تقطعان الملابس إلى قطع صغيرة لتلقيها فى النيران حيث تحترق وتختفى . ولما صادفت مارى بقايا مخ زوجها العالقة بالملابس توقفت عن عملها ، وأدنت القماش من فمها وأخذت تقبل بحرارة تلك البقايا التى أخرجت فى يوم ما للعالم أعظم الاختراعات وأبدع الفكر . وكانت تقبلها بيأس ظاهر ، فاختطفت برونيا منها المقص وبقية الملابس ، وأجرت عملية التقطيع بسرعة ، وقامت النيران المشتعلة بإزالة كل آثار الحادث الحزين ..!

ولما انتهى كل شىء ، نهضت مارى وألقت بنفسها بين ذراعى شقيقتها وأخذت فى البكاء والنحيب ، وقالت متسائلة : « حدثينى بربك يا برونيا كيف يمكننى أن أعيش بعد الآن .. وأنا وحيدة فى هذا العالم .. » ! فهدأت برونيا من حزنها ولوعتها بعبارات مشجعة ، وساعدتها على خلع ملابس النهار وارتداء ملابس النوم ، وبقيت بجانبها حتى استغرقت فى النوم ...

ولكن مارى كورى لم تكن وحيدة . . فهناك أصدقاؤها وأصدقاء زوجها الكثيرون .. لقد هبوا جميعاً لمساعدتها والعمل على تعيينها فى كرسى الأستاذية الذى خلا بوفاة زوجها . وكان هذا مخالفاً للتقاليد فى ذلك الوقت ، إذ لم يسبق تعيين سيدة فى منصب أستاذ بجامعة السوربون ؛ ولكن المساعى تغلبت أخيراً على هذه العقبة ، وتقرر يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦ كموعد إلقاء محاضرتها الأولى ؛ وكان المدرج غاصاً على سعته بالأساتذة والطلبة ومندوبى الجرائد وسيدات ورجال من جميع الطبقات ، وقد أتوا جميعاً ليشاهدوا « الأرملة العظيمة » وليس ليستمعوا إلى دقائق معدن الراديوم وفلسفته .

في هوامش ضحى الإسلام :

النقيب أبو جعفر يحيى ابن أبي زيد

كل من قرأ الجزء الثالث من كتاب «ضحى الإسلام» لشيخنا العلامة الأستاذ أحمد أمين بك ، مَرَّ في حاشية الصفحة الثامنين والثانية والخمسين منه باسم عالم غير معروف في كتب هذا العصر ، ولا مفصل تاريخه فيما مضى من الدهر ، هو « النقيب أبو جعفر » ؛ وإليه أشار شيخنا مؤلف الضحى بقوله : « هذا مختصر من أقوال أبي جعفر النقيب ، حكاه بطوله ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد) في نهج البلاغة ٤ : ٤٥٤ وما بعدها » . ومَن رجع إلى مظنة ذلك من شرح نهج البلاغة يجد أنَّ مؤلفه يقول في خلال كلامه ما هذا نصه : « وحضرتُ عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي البصري سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد وعنده جماعة وأحدهم يقرأ في الأغاني لأبي الفرج ، فمر[1] ذكر المغيرة بن شعبة ، وخاض القوم ، فذمه بعضهم وأثنى عليه بعضهم وأمسك عنه آخرون ... »

(١) في المطبوع « ٤ : ٤٥٣ » فمن . وهو تحريف .

وبينما ننتظر هؤلاء ظهورها كانت ماري واقفة عند قبر زوجها تناجيه بصوت خافت ؛ ثم عادت إلى الجامعة ودخلت المدرج في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين ، فاشرأبت الأعناق وتهامس الموجودون ، ثم دوت القاعة فجأة بتصفيق حاد أجابت عليه ماري بإمالة خفيفة من رأسها ووقفت إلى طاولة صفت عليها مختلف الأجهزة ، ثم نظرت إلى الحاضرين في جمود وبدأت محاضرتها بالكلمات الآتية :

« كلما فكرنا في التقدم المطرد الذي فازت به العلوم الطبيعية في السنوات العشر الأخيرة أدركنا التطورات التي طرأت على فن الكهرباء والمادة ... »

وهي الكلمات التي انتهى إليها بيير كورى في آخر محاضرة ألقاها قبل موته الفاجع ...

دكتور مصطفى الربواني

فالنقيب أبو جعفر بن أبي زيد البصري كان أستاذ ابن أبي الحديد وغيره من العلماء والأدباء . وإذْ كان القياس بين الأستاذ وتلميذه ، والفقيه وصاحبه ، والعالم وغلامه[1] داخلا في حيّز الإمكان ، مؤدياً في الأحيان إلى المقاربة بينهما والمساواة ، علمنا بعض العلم ما كانَ عليه شيخ ابن أبي الحديد من الاتساع في الأدب والفقه والكلام والأخبار والأنساب ، وسعة الرواية وبراعة الدراية ؛ لأن شرح نهج البلاغة دائرة معارف ، ورياض آداب ، وكنوز أخبار ، وركاز بلاغة ، ومعين محاضرات ، ومظنة ثقافة إسلامية وعربية ؛ وفذلكة نعته أنه أحسن كتاب تركته الدولة العباسية في آخر عصورها ، وأكمل شرح لذلك الكتاب العظيم – أعني نهج البلاغة – مفخرة العربية .

مَن هذا النقيب أبو جعفر يحيى بن أبي زيد ؟ مَن هذا العلامة الأديب الأخباري النسابة التي كانت دارهُ ببغداد مجمع الأدباء والفضلاء ، والطالبين لقراءة كتب العرب وأحاديثها ؟ من هذا الذي كان حياً في سنة ٦١١ هـ ، وكيف كان عصرهُ من حيث الثقافة والدين والسياسة وما يسمونه الاجتماع ؟ إنا عازمون على أن نبسط لقراء « الثقافة » الكلام في ترجمة هذا الرجل الكبير الإمام الخطر ، وفي عصره النير الزهر في كل أسباب الحياة والعلوم ؛ وسيجد الذين تهمهم معرفة الثقافة الإسلامية العربية في العصور المتبهمة ، ما يضيف إلى الفوائد استمتاعا ، وإلى الاطلاع اتساعا ؛ ولسنا نعني بالمتبهمة إلاَّ قلة الاطلاع عليها ، وندرة التحدث بأخبارها وأسرارها . فنحن مختصون بتاريخ العراق ومتحققون لتراجم المشاهير من رجاله ، ونرى خدمة عظيمة للثقافة العربية الإسلامية في الإبانة عن حقيقة ذلك الفهامة العلامة ، الذي كان ركناً من أركان المعارف في القرن السادس وأوائل السابع .

هو شرف الدين أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد[2] العلوي الحسني البصري المعروف بابن أبي زيد ، نقيب

(١) الصاحب والغلام يعني التلميذ والتفقه والتعلم . ولذلك قيل صاحب أبي حنيفة ، وغلام الخلال .

(٢) أي أربع مرات .

البصرة ، ابن نقيبها الأديب الشاعر الأخباريّ البارع ، الراوي الثقة . وُلد بالبصرة في خلافة أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقرأ فيها الأدب على أبي محمد بن الأحمر[1] الحلي ؛ وسمع الحديث النبويّ كالذي في سنن الدارمي من أبيه أبي طالب محمد بن محمد نقيب البصرة ومن غيره ؛ ووافق زمانه أعظم خليفة عباسيّ في العدل والسياسة والديانة ، والعلم والقوة والتدبير ونفوذ الكلمة ، وهو أمير المؤمنين أبو العباس الناصر لدين الله . وقدم بغداد سنة توليه الخلافة — أعني سنة ٥٧٥ هـ ، فمدحه بقصيدة لامية يقول فيها .

وليتَ وعامُ الناس أحمرُ ماحل
فجُدتَ وجاد الغيثُ فانقشع المحلُ
وكم لك من نعماء ليسَ يحدها
لها حاسبٌ إلا إذا حُسِبَ الرملُ[2]

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي ، وهو أحسن من ذكره بعد ابن أبي الحديد ممن رأينا له قولا في التاريخ : « وكان رقيق الشعر مليح النظم ، وأجاز لي شعره ، وهو القائل :

هذا العقيق وهذا الجزع والبان
فاحبس[3] فلي فيه أوطار وأوطانُ
آليتُ — والحرُّ لا تَنوي أليّتُهُ —
ألا تَلَذَّ بطيب النوم أجفـــانُ

حتى تعودَ ليالينا التي سلفَتْ | بالأجرعين وجيراني كما كانوا
يا حبذا شجر الجرعاء من شجر | وحبذا روضه الخضلُ والبان

(١) كذا ورد في « مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان لأبي المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي » ص ٣٨١ » من طبعة شيكاغو سنة ١٩٠٧ . وورد بصورة : « أبي علي بن أحمد الحلي » في « ذيل الروضتين » لأبي شامة ، مخطوط رقمه ٥٨٥٢ » من دار الكتب الوطنية بباريس ورقة « ١٠٢ — ٨ » ؛ وأبو شامة نقل من السبط ، المناقب العباسية والمفاخر المستنصرية لعلي بن أبي الفرج البصري ، مخطوط رقمه ٦١٤٤ ورقة ١٣٢ من دار الكتب الوطنية بباريس. (٢) وخلاصة الذهب المسبوك لعبد الرحمن الإربلي ص ٢٠٧ » من طبعة بيروت سنة ١٨٨٥ .

(٣) في الأصل زيادة « فلوصلك » . وذيل تاريخ بغداد لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن الدبيثي الواسطي . مخطوط رقمه ٢١٣٣ ورقة ٨ من نسخة دار الكتب الوطنية بباريس .

إذا النسيم سرى مالت ذوائبُهُ | كأنما الغصن المطور سكرانُ
فللنسيم على الأغصان هينمة | وللحمام على الأفنان أغصان
وبارق لاح والظلماء داجية | والنجمُ في الأفق الغربي حيرانُ
هنا يذكرني هيفاء ضاحكة | فلم أنم وعذابي هم وأحزان

كتمتُ حبك والأجفان تظهرهُ
وليس للحب عنـــــد العين كتمانُ
غادرتِ بالقدر في الأحشاء نار جوًى
وقد هجرتِ ففيضُ العين غدران[1]

ذكره المؤرخ المذكور في وفيات سنة ٦١٣ هـ ، ونقل قوله أبو شامة في « ذيل الروضتين » ، والإمام شمس الدين الذهبي في تاريخ الإسلام ، وقال : « وكان ذا معرفة بالنسب والأدب وأيام العرب ، وله شعر رائق[2] » . وترجمه بالنقل من كتب هؤلاء ابن تغرى بردى[3] . وذكروا أن وفاته كانت ببغداد في شهر رمضان من السنة المذكورة ، ودفن بمقابر قريش ، وهي مقبرة الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق المعروفة اليوم ببلدة الكاظمية .

والظاهر أنه قدم بغداد غير مرة حينما كان يسكن بالبصرة ؛ فقد ذكر أحد المؤرخين أنه قدمها متظلماً من ناظر البصرة في وزارة معين الدين أبي المعالي سعيد بن علي بن أحمد البغدادي الأنصاري الحنبلي المعروف بابن حديدة ، وكان تولى الوزارة لأمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٥٨٤ هـ ؛ وأنشد هذا النقيب وزير الخليفة قصيدة من جملتها قوله :

وقبائل الأنصار غير قليلة | لكن بنو غنم هم الأخيار
منهم أبو أيوب حلّ محمد | في داره واختاره المختار

أنا منه في النسب الصريح وأنت من
ذاك القبيل فلي بذاك جـــوار

ولقد نزلتُ عليك مثل نزوله | في دار جدك والنزيل يُجار
فعلام أظلم والنبي محمـــد | أعني إليه وقومك الأنصار؟

(١) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان المذكور .

(٢) تاريخ الإسلام ، مخطوط ، رقمه ١٥٨٢ ورقة ٢٠٦ من دار الكتب الوطنية بباريس . (٣) النجوم الزاهرة « ج ٦ سنة ٦١٣ » من طبعة دار الكتب ، والمخطوط المرقوم ١٧٧٩ ورقة ٥٩ من دار الكتب الوطنية بباريس .

فلما سمعها الوزير ابن حديدة رَقَّ له وبكى ، وخلع عليه ووصله ، وقضى حوائجه وأنصفه من ناظر البصرة وعزله[١] . فما كان أعظمهما شاكيا ومشكيا ، ومستجيرا ومجيرا ، ونقيبا ووزيرا ! ونجد في الأخبار الأدبية ومجاميع الأشعار أن النقيب أبا جعفر بن أبي زيد تشرف بالحضور في حضرة الإمام الناصر لدين الله في ليلة من الليـالي ، والتجمل بمحادثته ولو قليلا ، فإن مقرب البحراني العيوني الشاعر المشهور يشير في شعره[٢] إلى أن أحد أرباب دولة الناصر لدين الله المكنى بأبي علي الملقب بأبي علي المعروف بابن الدواي ، كان سبباً في توصل النقيب شرف الدين أبي جعفر يحيي بن أبي زيد إلى الخليفة المذكور وتشرفه بالحضور . ويظهر لي أنه أبو علي الحسن ابن هبة الله بن الحسن ، وكان أحد الأعيان الفضلاء ، تولى للناصر لدين الله حجابة الحجاب ، ثم صدرية المخزن التي هي كوزارة المالية مع وزارة التموين ، ووكالة الخليفة نفسه في أمواله الخاصة ، وتوفي سنة ٦١٦ هـ[٣] . ولما حضر بين يدي الناصر لدين الله أنشده :

ليلتي هــذه كليلة موسى   حين ناجى الإلـه فوق الطور
لم يكن خوفه لكوفي ولا سرّ (م) بلقيا الإلـه مثل سروري[٤]

وذكره مكرر في ديوان ابن مقرّب العيوني ، ففي ص ٩٧ منه ما هذا نصه : « وقال وقد اقترح عليه يحيي النقيب بن أبي الحسين بن أبي القاسم علي بن أبي العباس محمد بن أبي زيد العلوي الحسني ، وقد مرض مرضا خفيفا أبياتاً من الشعر ، فأنشأ هذه القصيدة » ، وذكر الشارح القصيدة وفيها يقول :

جزى الله تاج الدين خيرا فإنه   به تدفع الجلّى وتكفى الحنابث

مشيراً إلى تاج الدين إسماعيل النقيب أبي جعفر المذكور[٥] ، ومنه نعلم أنه خلف من المذكور .

وقد قرأ كثير من الأدباء والأخباريين كتب الأدب والأخبار والنسب كالأغاني والمغازي وجمهرة النسب على الشريف أبي جعفر المذكور .

وأكثر الفضل في بيان مقالات أبي جعفر وأقواله ورأيه هو لتلميذه ابن أبي الحـديد شارح نهج البلاغة المذكور ، فإنه حفظها في كتابه مرة في المعنى ومرة في اللفظ ، وأخرى منهما معا ؛ وضمَّها بعضها إلى بعض أو اختصارُها أو اعتصارها يدل على ما يسمونه بروح ذلك العصر الدينية والاجتماعية . قال ابن أبي الحديد في نقله خبر وفاة النبي (ص) واختلاف الناس وقول الحباب ابن المنذر : « نخاف أن يلي الأمر بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم » ، ما هذه صورته : « قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيي بن محمد العلوي الحسيني (كذا) المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة — رحمه الله تعالى — في سنة عشر وستمائة من كتاب السـقيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهري ، قال : لقد صدقت فراسة الحباب ، فإن الذي خافه وقع يوم الحرة ، وأخذ من الأنصار ثار المشركين يوم بدر . ثم قال لي — رحمه الله — : ومن هنا خاف أيضاً رسول الله (ص) على ذريته وأهله ، فإنه كان عليه السلام قد وتر الناس وعلم أنه إن مات وترك ابنته وولدها سوقة ورعيّة تحت أيدي الولاة كانوا بعرض خطر عظيم . فما زال يقرر لابن عمه قاعدة الأمر بعده حفظا لدمه ودماء أهل بيته ، فإنهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقرب إلى الصيانة والعصمة ، مما إذا كانوا سوقة تحت يد وال من غيره ، فلم يساعده القضاء والقدر ، وكان من الأمر ما كان ، ثم أفضى أمر ذريته إلى ما قد علمت »[١] . وهذا يدل على أن أبا جعفر بن أبي زيد كان شيعيا إماميا في العقيدة ، يؤمن بالنص على خلافة علي ابن أبي طالب . ونقل عنه تلميذه ابن أبي الحديد أيضاً في أثنـاء شرح النهج ما يؤكد مقالته ، قال : « وسألت أبا جعفر يحيي بن محمـد العلويّ نقيب البصرة وقت قراءتي عليه ... وكان رحمه الله — على ما يذهب إليه من مذهب العلوية — منصفاً وافر العقل ؛ فقلت : من يعني (عليّ بن

(١) الفخري لابن الطقطقى ، ص ٢٣٧ — ٨ ، من طبعة المطبعة الرحمانية ١٩٢٧ .
(٢) ص ٤٤ من طبعة بمبي بالهند .
(٣) ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي ، مخطوط رقمه ٥٩٢٢ ، ص ١٣٣ من نسختنا الخطية .
(٤) المناقب العباسية المذكورة ، ورقة ٤٤ .
(٥) الديوان ص ٥٦٢ .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ١٠ : ١٣٣ .

أبي طالب) عليه السلام بقوله : « كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين » ؟ ومن القوم الذين عناهم الأسدي بقوله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به . هل المراد يوم السقيفة أو يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة . فقلت : إن نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان رسول الله — ص — ودفع النص . فقال : وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول — ص — إلى إهمال أمر الإمامة ، وأن يترك الناس فوضى سُدى مهملين ، وقد كان لا يغيب عن المدينة إلا ويؤمر عليها أميراً ، وهو حيّ ليس بالبعيد ، فكيف لا يؤمّر وهو ميت ... »[1].

وكان لابن في كتابه يصف النقيب أبا جعفر بالإنصاف ، فهو حيث استعظم مدح علي بن أبي طالب لرسول الله استعظام المستحسن ، قال : « سألت النقيب أبا جعفر — رحمه الله — وكان منصفاً بعيداً عن الهوى والعصبية ، عن هذا الموضع فقلت له : قد وقفت على كلام الصحابة وخطبهم ، فلم أر فيهم من يعظم رسول الله — ص — تعظيم هذا الرجل (له) ولا يدعو كدعائه ... »[2] ، وبعد إتمام السؤال ذكر تعليل النقيب لذلك ، وكان عنده العارف لبواطن الأمور الحال لمشكلات الأحداث .

وإذ كان لكل مؤرخ قول أو حكم ، لم يسعنا إلا وصف النقيب أبي جعفر بالإنصاف والاعتدال والاقتصاد في اختيار الأقوال ، قال ابن أبي الحديد بعد نقله أخبار المفارقة بين الرسول — ص — وعلي بن أبي طالب وأحوالها : « وكان النقيب أبو جعفر — رحمه الله — غزير العلم ، صحيح العقل منصفاً في الجدال غير متعصب للمذهب ، وإنه

(١) المرجع المذكور « ٢ » : « ٤٧٦ — ٤٧ » والفصيل كلامه هناك ، وهو من أحسن ما قاله الشيعة الإمامية للاستدلال على النص في الإمامة ودفع الإهمال والإغفال . والفرق بين كلام أبي جعفر النقيب وغيره من الإمامية أنه يعلل الأمور تعليلا اجتماعياً وروحياً بحسب القوم والبادة والطباع والغرائز والأخلاق والزمان والديانات والمذاهب . وهذا كأنه الأسلوب الحديث المحقق . وورد لها كلام يشبهه في « ٣ » : « ١١٥ » من الكتاب .

(٢) المرجع المذكور « ٢ » . « ٢٢٠ » .

كان علوياً ، وكان يعترف بفضائل الصحابة ويثني على الشيخين ويقول : إنهما مَهّدا دين الإسلام وأرسيا قواعده ، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله — ص — وإنما مهَّداه بما تيسر للعرب من الفتوح والمغانم في دولتيهما . وكان يقول في عثمان : إن الدولة في أيامه كانت على إقبالها وعلو جدّها ؛ بل كانت الفتوح في أيامه أكثر ، والمغانم أعظم ، لولا أنه لم يُراع ناموس الشيخين ولم يستطع أن يسلك مسلكهما ، وكان مستضعفاً[1] في أصل القاعدة ، مغلوباً عليه وكثير الحب لأهله ، وأتيح له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه ، وحمل الناس على خلعه وقتله . وكان أبو جعفر — رح — لا يجحد الفاضل فضله ... وكان لا يعتقد في الصحابة ما يعتقده أكثر الإمامية فيهم ، ويسفه رأي من يذهب فيهم إلى النفاق والتكفير ، وكان يقول : حكمهم حكم مسلم مؤمن عصى في بعض الأفعال وخالف الأمر ، فحكمه إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء غفر له . قلت له مرةً : أفتقول إنهما من أهل الجنة ؟ فقال : أي والله أعتقد ذلك ... لا أسترب في ذلك أصلاً ولا أشكّ في إيمانهما برسول الله — ص — وصحة عقيدتهما . فقلت له : فعثمان ؟ قال : وكذلك عثمان . ثم قال : رحم الله عثمان ، وهل كان إلا واحداً منا ، وغصناً من شجرة عبد مناف . ولكن أهله كدّروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا »[2].

ونحن قد عجبنا من قول ابن أبي الحديد في أبي جعفر : « ولم يكن إمامي المذهب ، ولا كان يبرأ من السلف ، ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه ؛ على أن العلوي لو كان كرامياً لا بد أن يكون عنده نوع من تعصب وميل على الصحابة وإن قل »[3] . فقد قدمنا قوله فيه : « وكان

(١) في المطبوع « مضعفاً » وهو بتسكين الضاد بمعنى مضعوف ضعفاً وتضعها منسوب إلى الضعف ، والاستضعاف أقوى منهما هنا .

(٢) شرح نهج البلاغة « ٢ » : « ٥٧٩ — ٤٧ » .

(٣) ذلك « ٣ » : « ١١٩ » .

لا يعتقد فى الصحابة ما يعتقده أكثر الإمامية فيهم » . فلو لم يكن من الإمامية لكانت الإشارة باردة والنكتة باطلة ! ألا ترى أنك لا تقول فى وصف عمران بن حطان الخارجى القعدى : « كان لا يعتقد اعتقاد السلبية » لبرودته وخروجه عن مقتضى الموضوع .

أمّا الكلام الذى نقل ذرواً منه شيخنا العلامة الأستاذ أحمد أمين بك فى الموضع المذكور من ضحى الإسلام فلم يكن من كلام أبى جعفر النقيب بل كان من كلام بعض الزيدية ، والدليل على ذلك قوله : « فقال أبو جعفر — رح — قد كنت منذ أيام علقت بخطى كلاماً وجدته لبعض الزيدية فى هذا المعنى نقضاً ورداً على أبى المعالى الجوينى فيما اختاره لنفسه من هذا الرأى ، وأنا أخرجه إليكم لأستغنى بتأمله عن الحديث على ما قاله هذا الفقيه ، فإنى أجد ألماً يمنعنى من الإطالة فى الحديث لا سيما إذا خرج مخرج الجدل ومقاومة الخصوم . ثم أخرج من بين كتبه كراساً قرأناه فى ذلك المجلس واستحسنه الحاضرون ، قال (الزيدى) : لولا أن الله تعالى أوجب معاداة أعدائه كما أوجب موالاة أوليائه ...[1]

وهذا يثبت أنّ النقيب أبا جعفر كان من الثقات الأثبات وصادق الرواة ، لأنه كان يرجع إلى أصول معروفة وكتب منتسخة وتقاييد محرّرة ، على القدماء ممن كانوا يقولون : حدثنا فلان وفلان أو سمعنا فلاناً يقول أو ينشد ، أو حكى عن فلان . ومما مُدح به المحدّثون الصادقون أنهم كانوا لا يحدّثون إلا من كتاب ؛ وكذلك فعل النقيب أبو جعفر فى إخراج قصيدة أبى القاسم على بن الحسين المغربى الوزير الأديب الكبير الشاعر المقتدر ؛ وهى قصيدة نادرة فى موضوعها تدل على بقيّة من العصبيّة العربية الجاهلية العمياء فى القرن الرابع وأوائل الخامس للهجرة ، وهو عهد انحلال المروءة واختلاف المذاهب اختلافاً إيجابياً مبنياً على النقض والردّ والمناظرات والمقامات ، قال ابن أبى الحديد : « وحدثنى أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد[2] العلوى نقيب البصرة ... »[3] . وذكر قدوم أبى القاسم المغربى

(١) ذلك ٤ : ٤٥٤ . (٢) فى الأصل المطبوع « ابن زيد » وهو خطأ . (٣) شرح نهج البلاغة ٢ : ٤٦ .

من مصر إلى بغداد واستكتاب شرف الدولة أبى على بن بويه له وهو يومئذ سلطان الحضرة وأمير الأمراء ، والقادر بالله خليفة . ثم قال : « قال أبو جعفر : وكان أبو القاسم المغربى ينسب فى الأزد ويتعصب لقحطان على عدنان ، وللأنصار على قريش ، وكان غالياً فى ذلك مع تشيّعه ... فاتفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطه شبه مجموع قد جمعه من خطه وشعره وكلامه ... فوجد القادر فى ذلك المجموع قصيدة من شعره فيها تعصب شديد للأنصار على المهاجرين حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة ، وفيها تصريح بالرفض مع ذلك ... وكنتُ رغبة أسأل النقيب أبا جعفر عن القصيدة وهو يُدافعنى بها حتى أملاها علىّ بعد حين ... »[1] . وأنا أقطع بأن الإملاء لتلك القصيدة كان من كتاب على عادة هذا الشريف العلامة الحصيف الرأى فى أمثال هذه الأمور .

وكان رفيع الذوق فى الشعر ، دقيق الإحساس بلطائفه ومعانيه ، عريقٌ القياس فيه ، قال ابن أبى الحديد : « وكان أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد العلوىّ البصرىّ يفضل النابغة (الذبيانى على امرئ القيس) ، واستقرأنى يوماً وبيدى ديوان النابغة قصيدته التى يمدح بها النعمان ابن المنذر ويذكر مرضه ويعتذر إليه مما كان اتهم به وقذفه به أعداؤه وأولها :

كتمتُك ليلاً بالجَمُومين ساهرا
وهمَّين همّا مستكنا وظاهرا[2] »

وذكر القصيدة إلا البيت الأخير منها ، قال : « فجعل أبو جعفر — رح — يهتز ويطربُ ثم قال : والله لو مزجتَ هذه بشعر البحترى لكادت تمتزج بسهولتها وسلاسة ألفاظها وما عليها من الديباجة والرونق ؛ من يقول : « إن امرأ القيس وزهيراً أشعر من هذا ؟ فلوا فى مليحا كونى[3] » . وكان للنقيب أبى جعفر علم بجوهر القصيد وحاسة لبنى علىّ بن أبى طالب ، حتى لقد قال ابن أبى الحديد فى ذكره الأشعار الواردة فى الإباء : « وسمعت

(١) المرجع المتقدم ذكره (٢) راجع الديوان ص ٥٤ من طبعة مطبعة السعادة (٣) الشرح المذكور ٤ : ٥٠١ — ٥٠٢ .

الزمام

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد رمزي بك

الزمام كلمة عربية لها معان كثيرة ، أنسبها لموضوعنا هذا أن « زمام الأمر قوامه وما يضبط به » ، أي تحديده على وجه الدقة ، وبيان مقاديره وتوضيح معالمه ، وهذا ما تقصد إليه الحكومة من الزمام ، إذ تضبط الأرض وتحددها ، وتثبت ذلك في دفاترها الرسمية للرجوع إليه عند الحاجة .

وكلمة الزمام حديثة الاستعمال في الاصطلاحات المساحية في مصر ، إذ أنها لم تستعمل إلا من سنة ١٨٩٩ ، وهي السنة التي بدئ فيها بعملية فك الزمام الحديثة .

وكانت الدفاتر المحصور فيها الزمام لغاية سنة ١٨٩٨ ، هي الدفاتر التي تسمى المكلفات في الدوريات . فلما أنشئت مصلحة المساحة بقرار من مجلس النظار في ٨ يونيه سنة ١٨٩١ ، قامت هذه المصلحة بعملية فك زمام أراضي القطر المصري في المدة بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٩ ، ومسحت الأراضي من جديد في خرائط وحصرتها في دفاتر مساحة جديدة ؛ ومن ذلك الوقت أصبحت كلمة الزمام تطلق على ما هو مقيد من الأراضي في تلك الدفاتر ، وهذا يناسب ما شرحناه من معنى كلمة الزمام .

ويتكون زمام كل ناحية من مجموع الأراضي المحصورة في دفتر مساحتها . وكل زمام يتكون من ثلاثة أنواع من الأراضي وهي : (١) الأراضي ملك الأهالي المربوط عليها الأموال . (٢) الأراضي ملك الحكومة . (٣) الأراضي المخصصة للمنافع العمومية على اختلاف أنواعها . ويقال كذلك زمام الحوض أي مجموع مساحة أطيانه .

فك الزمام

فك الزمام كلمة عرفية حديثة الاستعمال في مصر ، المقصود منها حل قيد المساحة القديمة للأراضي المقيدة في دفاتر المكلفات ، وإجراء عملية مساحة جديدة على جميع الأراضي المصرية بالطرق الهندسية الحديثة ، مع تحديد ومقاس ما في حيازة كل مالك أرض في كل قرية ، وإظهار ما وجد من الزيادة أو العجز في وضع يد كل مالك ، وذلك لربط الضرائب على الأراضي بطريق المساواة .

وأقدم المصادر الرسمية التي ورد فيها كلمة « فك زمام » لأول مرة في مصر ، هي : الأمر العالي الصادر في ٢٧ شوال سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٤ م ، بأن « لا يفك زمام » بلد إلا بأمر عال ، وكذلك الأمر العالي الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م بالتصريح « بفك زمام » أي بلد عند الاقتضاء بغير توقف على صدور أمر عال .

ولما أنشئت مصلحة المساحة في سنة ١٨٩٨ ، كما

النقيب أبا زيد يحيى بن أبي زيد العلوي البصري يقول : كأن أبيات أبي تمام في محمد بن حميد الطائي ما قيلت إلا في الحسين ع :

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر[1]

وذكر بعده ثلاثة أبيات . وأخبار هذا النقيب العلامة كثيرة لا يمكننا سردها في هذا المكان . على أننا نذكر أمراً مهماً في تاريخنا الإسلامي ، هو أن علم أن الثقافة بأنواعها وضروبها حتى الدينية والمذهبية منها كانت تتطور وتتحول وتتبدل بحسب أهواء الخلفاء والسلاطين والملوك[1] . وكثير من العلماء والأدباء والفقهاء والمتألهين ، كانوا يصبغون ما عندهم بصبغة حكام زمانهم ، مما يثبت أن المال والجاه والسلطان تأثيراً عظيماً في مناحي الثقافة وألوانها وأطوارها . وإذ وجدنا في هذا العهد ما يسمونه حرية البحث والإنصاف في الجدال والاعتدال في العقائد ، والتساهل بين الطوائف بعضها على بعض ، وجب أن نعزو أكثر ذلك إلى عهد الإمام الخليفة الناصر لدين الله العباسي .

(بغداد) **دكتور مصطفى جواد**

(١) ذيل ١٤ : ٣٠٢ – ٣٠٣ .

(١) ومن هذا قولهم « الناس على دين ملوكهم » .

صور أدبية :

نفـــــاق . . .

بين أرباب الأدب جماعة منافقون يحلو لهم أن يظهروا على ألسنتهم غير ما تسر قلوبهم . والنفاق المجرد — بمعنى مخالفة الظاهر للباطن — لا يعد فى ذاته خيراً أو شراً ؛ وإنما ينضاف إلى إحدى هاتين الخلتين بالنظر إلى بواعثه وإلى معقباته جميعاً . ومن ثم كان النفاق فى الدين شرا ما بعده شر ؛ إذ باعثه الاستهزاء بأمر الله ، وابتغاء الكيد المؤمنين ، وتلمس الأذى لهم ، ونتيجته الكفر فى أشنع صوره ، مقروناً إليه الكذب والخديعة وإبلاغ المكروه لكل مؤمن ، إلا أن يحمى الله من ذلك أولياءه .

والنفاق مع الله ليس أبلغ فى شره من النفاق فى معاملة الناس ، متى اتصل بهذا الأخير شرط إرادة الكيد وقصد الإضرار والأذى . وبقدر تفاوت هذا الشرط واختلاف ملابسته للبواعث والنتائج تتفاوت مراتب النفاق ، حتى لقد نشاهد النافق الذى يحمل من النفاق اسمه — دون إثمه — كمن يظهر المسرة لطفل بأجيازه اختبارا تافها — مثلا — وهو خالى النفس من كل ما يُظهر ، سوى قصده مسرة هذا الصغير ، وابتعاث دواعى النشاط والهمة عنده .

بل ما لنا نذهب بعيداً وللكذب نفسه أحوال يتجاوز فيها حد الحرمة إلى مرتبة الجواز أو الوجوب ، كما تشير إلى ذلك قوانين الأخلاق ونص قواعد الشرع !

ونعود إلى نفاق الأدباء فنقول : إنهم أقدر من غيرهم على ولوج هذا الباب بما أوتوه من بسطة فى اللسان ، وقدرة على التأثر والانفعال ، وإحاطة تامة بوجوه التصرف فى مناحى التفكير والتعبير . وكما يرتفع الأديب على سائر الناس بقدرته على إبراز المعانى المكنونة وإجادته التعبير الملفوظ عن الخاطر الملحوظ ، يرتفع عليهم أيضا بقدرته على التزيد فى هذه المعانى والخطرات أو التحيف منها ؛ بل بقدرته على التغيير من طبيعة جوهرها — وسلاحه فى ذلك التعبير — إلى الحد الذى ينافق فيه : فيظهر معنى ويبطن معنى ، ويرفع على ذؤابة لسانه من منطوق الآراء غير ما يسر فى قرارة نفسه من مفهومها .

ذكرنا ، أصدر مديرها تعليمات إلى لجان المساحة تحت عنوان أعمال لجان مساحة فك الزمام ، وأن من واجباتهم فك زمام الأراضى الداخلة فى حدود كل بلدة على حدتها .

ومن ذلك الوقت أصبحت كلمة « فك الزمام » مستعملة عند إعادة عملية مساحة أطيان أى بلدة أو مديرية فى أى وقت .

خارج الزمام

خارج الزمام هى كذلك كلمة عرفية حديثة الاستعمال فى مصر ، تطلق على جميع الأراضى ملك الحكومة التى لم يسبق حصرها فى دفاتر المساحة السابقة ، ولم تدخل فى زمام البلاد قبل إنشاء مصلحة المساحة .

وتلك الأراضى هى المعروفة بأراضى السباخ والمراح ، والأراضى الرملية والبرك المجاورة للصحراء ولحواجز الجبال ، وكذلك أراضى البرارى والمستنقعات القريبة من شواطئ البحيرات .

وأقدم مصدر رسمى ذكر فيه كلمة « خارج الزمام » ، هو المادة الرابعة من الأمر العالى الصادر فى ٣ فبراير سنة ١٨٩٢ ، الخاص بربط الضرائب على الأطيان التى تبيعها الحكومة .

ولما قامت مصلحة المساحة بعملية فك الزمام السابق ذكرها ، حصرت جميع الأراضى التى ذكرنا أنواعها فى خرائط مساحة البلاد وفى دفاترها ، وأضافتها إلى زمام البلاد المجاورة لها باسم أراضى البرى .

وبهذه العملية لم يبق اليوم من الأراضى القابلة للإصلاح والزراعة فى مصر أرض يقال لها خارج الزمام ، لأنها حصرت كلها فى دفاتر مساحة النواحى فى أحواض خاصة بها .

محمد رمزى

ولا يغنينا هـذا التفصيل عن ضرب المثل تتبين فيه حقيقة ما ذكرنا ... وليكن نموذجنا هنا ومضرب مثلنا شاعراً من أرداف الملوك وأحلاس قصور الخلفاء والسلاطين ؛ إذ التماس النفاق عند مثله أقرب ، وتطلب الصورة الكاملة من ذلك فى شعره أيسر على من أراد ..

وليكن شاعرنا هنا أبو عبادة البحترى نديم المتوكل ونجى الفتح ، وربيب نعم الأقيال من آل طاهر وآل حميد وآل المدبر .

ولست أفرد البحترى بالكلام لأنه أكثر عندى نفاقاً من غيره ، بل لأنى وجدت المثل الذى ألتمسه كاملا عنده فى مرثية له — من أوائل شعره — صوّر فيها النقمة بصورة النعمة ، وألبس الخطب المبكى ثوب الهناءة المبهج ..

هذا أبو القاسم بن حميد الطوسى قد جلس مجلس العزاء فى ابنة له متوفاة ؛ وإن على وجهه لسيمات من الجزع على فقدها ، وفى قلبه وقدات من جمر الأسى على ما يشفه من فراقها . وهذا البحترى يتقدم لتعزيته ومواساته فينشد :

ظلم الدهر فيكمو وأساءَ   فعزاءً بنى حميد عزاء

ولا يسلك البحترى فى هذه المرثية سبيل الشعراء من أصحاب المراثى ؛ بل هو يأخذ فيها بأسلوب جديد من أساليب التعزية فيه تكلف وفيه نفاق .. إنه يذم فى تعزيته لأبى القاسم أمر النسوة جميعاً ، ويهون عنده من شأنهن تهويناً بالغاً ، ويتظاهر بعظم كراهيتهن تظاهراً تخاله معه مسروراً بفقد هـذه الابنة ، وأنه لم يأت معزياً كسائر الناس ، وإنما جاء ليقنع أباها الثاكل بأحقيته فى إظهار هذا الشعور ، وليحمله على اعتناق مذهبه فى ذلك أعنف الحمل . ولعمرى إن هـذا لهو التكلف المقيت فى العاطفة وفى الفكرة وفى الأسلوب جميعاً ، والنفاق المفضوح فى إظهار شعور عام نحو النساء ، ليس فى قلب الشاعر — ولا فى قلب عاقل أديب — منه أثارة ...

ولنأخذ هنا باستعراض جانب من القصيدة نتبين على ضوئه خطى تفكير البحترى فيها .. إنه يبادر بعد المطلع بالإشارة إلى هذه الحروب التى رفعت لآل حميد فى البطولة ذكراً خالداً ، والتى أجزرتهم إلى جانب ذلك ضحايا الأمجاد فى ساحات الجلاد ، وجعلت من السيف داءهم الذى تطيح به رءوس (رجالهم) فى ساحات الشرف أكرم مطاح :

أصبح السيف داء كم وهو الدا   ء الذى لا يزال يعيى الدواءَ
وانتحى القتل فيكمو فبكينا   بدماء الدموع تلك الدماء

وإذا كان هـذا شأن آل حميد ، أسرة القادة السادة والداهمة القادة ، فماذا يكون قدر النساء عندهم ؟ . أولئك اللواتى لا ينهضن فى حرب ، ولا يقمن بعبء القتال فى معترك !

أتبكّى من لا ينازل بالسيـ   ـف مشيحاً ولا يهز اللواء ؟!
والفتى من رأى القبور لما طا   ف به من بناته أكفاء

يقرر البحترى هـذا فى شبه استيثاق ، حتى ليوهم السامع أنه صادق فى هذه الاستهانة بقدر المرأة ، محق فيما ينبزها به من ضعف الشأن وقلة الغناء ؛ وهو يدعم حجته على ذلك بالتاريخ يستنطق حوادثه ، ويستشهد أنباءه :

قد ولدن الأعداء قدماً وورَّثـ   ـن التلاد الأقاصى البعداءَ
لم يئد كثرهن قيس تميم   عيلةً ، بل حمية وإباء
وتغشى مهلهلَ الذل فيهـ   ـن وقد أعطى الأديمَ حباء
وشقيق بن فاتك حذر العا   ر عليهن فارق الدهناء

أدلة تلك صادقة وشواهد ناطقة ، كان ينبغى لابن حميد أن يجيل فيها عقله ، ثم يقسر على الخضوع لها عاطفته ؛ وإن هو لم يقنع بها فهناك أمثلة أخرى من سير الأنبياء لا يشك فى صدق خبرها وعظم دلالتها :

وعلى غيرهن أحزن يعقو   ب وقد جاءه بنوه عشاء !
وشعيب من أجلهن رأى الوحـ   ـدة ضعفاً فاستأجر الأنبياء
واستزل الشيطان آدم فى الجنـ   ـة لما أغرى به حواء ...

فإذا لم يكفكف أبو القاسم بعد كل هذا من عبرته ، ثم يعتصم من جزعه بالصبر ، ويلطف من حر أساه ببرد التأسى ... فما هو إلا العاجز المغلوب على أمره ، شأن كل رجل تذرى عيناه على امرأة دمعة :

ولعمرى ما العجز عندى إلا   أن تبيت الرجال تبكى النساء !

وهكذا ينافق البحترى فى إبراز فكرته الزائفة ، ويصطنع أسلوباً مجيباً فى التعزية مخاطباً به عقل الرجل فى موضع كان ينبغى فيه أن يخاطب عاطفته ؛ وليس البحترى بالذى يجهل الفرق بين خطاب العقل وخطاب العاطفة .

ولقد كان يجوز له أن يلق بهذا الحديث عن المرأة فى مجلس تناظُر يدور فيه البحث حول شأنها ومبلغ أهميتها فى الحياة ، فذلك مقام تصطرع فيه العقول بسلاح من الحجة والمنطق ، وتستند معه إلى شواهد من التاريخ تثبت رأيها وتدعم وجهة نظرها . أما فى مواقف العزاء فأخْلِق بأن يكون الخطاب للعاطفة المضطرمة وللوجدان الملتهب ؛ لأن من هذين يفيض الحزن ، وفى قرارتهما يصطخب الأسى ويثور . والبحترى فى نفاقه هذا يغالط عن معرفة ، ويعطى عبارته روحاً ليست من صميم نفسه .

ولكنا لا ندخل بهذا كل تعزية فى باب النفاق ؛ إذ المعزّى وإن بالغ فى إظهار التحزن لا يُدعى بحال منافقاً ، ذلك أن المعزّى والسامع جميعاً يدركان حقيقة موقفه ، ويفهمان أنه لا يزيد فى أكثر أمره على المشاركة فى الشعور بالحزن تخفيفاً منه ومجاملة وإسعاداً ، فليس ثمة فى عبارته أو فى شعوره وجهٌ لمخادعة منه أو نفاق . أما مثل حجج البحترى هذه القوية فلا يكون إلا من توليد الفكر المزيف والمغالطة المكشوفة . وهو لا يعترف لصاحبه فى هذا المقام بالحزن ثم يحاول تخفيفه عنه بمشاركته فيه مرة ، والتهوين أخرى ، كما يفعل أصحاب الرثاء عادة ؛ وإنما هو ينكر عليه هذا الحزن أصلا ، ويصطنع الجد كله فى إنكاره ؛ موهماً إياه أن ذلك رأيه وتلك عقيدته فى المرأة ، وأن ليس عليه إلا أن يجاريه فيها فينفض عن نفسه غبار الحزن ! والنظرية مع كل هذا فاسدة مموهة ، والأدلة الناهضة بها أكثر فساداً وتمويها . إذ الحق أن للبنت مهمتها العظمى فى الحياة ، ومكانتها الجليلة فى خدمة المجتمع ، وهى ليست تقل فى ذلك عن الرجل شأناً .

أما وأد البنات — الذى أشار إليه البحترى — فليس بالفضيلة التى يحث عليها أو يؤتسى بها ، . . وأخبار شقيق ومهلهل وغيرهما من الجاهليين حوادث فردية لا تقيم مبدأ ولا تقرر قاعدة . . وحزن يعقوب على يوسف لا يستتبع كراهيته للبنات لو أن الله رزقه منهن نسلا . . واستئجار شعيب لموسى لم يكن مما يقلل من قيمة بنتيه عنده . . وأما حديث آدم وحواء فلا يصيح به لحظة من فى قلبه ذرةٌ من الإيمان بقضاء الله وقدره .

والبحترى نفسه — وقد عرفتَ مقالته فى ابنة الحميدى — هو الذى يرثى (زُرْزجا) . . . من قصيدة فيقول :

وروّع بى فى زُرْزجٍ أن يومه   تعجّل لم يُمهل ولم يتنظّر
قست كبدٌ لم تمتثل لفراقه   وقلبٌ إلى ذكراه لم يتفطّر
عليك أبا العباس بالصبر طائماً   فإن لم تجده طائماً فتصبّر
ولا بد أن يُهراق دمعٌ فإنما   رجىّ ارتقاء الدمع بعد التحدُّر

ولكن من زرزج هذا ؟ إنه غلام أبى العباس بن بسطام وساقيه ، وواحد من صغار الوصفاء فى بيته . . . على كثرتهم !

على أننا نعود فنتساءل : ما مقصد البحترى من هذا الأسلوب الملتوى فى رثاء ابنة الحميدى ؟ وما غايته من هذه المخادعة المنطوية على أتم صورة من صور النفاق ؟ . إنه يرمى ولا شك إلى تسلية أبى القاسم وتخفيف لوعته ؛ ثم لعله يجنى من وراء ذلك عطفه ، أو يقطف من ثمرات ماله وجاهه ؛ وبعض هذه أو كلها أغراض لا تشتط فى إنكارها على الشاعر الذى يكتسب بشعره ، ويدرج فى أحضان بيئة كتلك التى نشأ وعاش فيها البحترى . فنفاق الشاعر هنا خال من سوء البواعث ووضاعة العواقب إلى الحد الذى يعفيه من أكثر ما يتوجه إلى المنافق من لوم . . إنه — مجرد النفاق — الذى أشرنا إليه فى أول الكلام .

على أن هناك صوراً أخرى من نفاق الأدباء تقترن من سوء الباعث أو سوء النتيجة بما يضعها فى مصاف الرذائل البغيضة ؛ وإن كثرة الأمثلة على هذا النوع الثانى لتغنينا عن محاولة الكلام فيه ، وقبح صوره يصدنا عن طلب تصويره ، فلنقتصر من ثمة على ما ذكرناه .

(جرجا) محمود عزت عرفه

الكتب الجديدة :

دراسات عن مقدمة ابن خلدون(١)

للأستاذ ساطع الحصري

ابن خلدون شخصية فذة في تاريخ المسلمين ، بل في تاريخ العالم ، سبق المفكرين جميعاً في خلق «علم الاجتماع» و «فلسفة التاريخ» ؛ ذو عقل مبتكر سما عن التقليد ، وطمح إلى الابتداع فوفق فيه كل التوفيق ؛ قرأ كتب التاريخ ، وشاهد أحداث زمانه ، وسلط عليها عقله يحللها ويربط بين المتشابهات ، ويستخرج منها قواعد كلية يرى أنها قوانين اجتماعية طبيعية لا تتخلف كقوانين الجذب والضوء والحرارة ، من عرفها وسار وفقها وفق ، ومن حاد عنها خذل ودمر ، وكان ذلك حتماً مقضياً .

ولكنه — مع الأسف — جاء والزمان — عن الأمم الإسلامية — مدبر ، والعقول متحجرة ، والتقليد مستحكم ، فلم تنل مقدمته ما كانت تستحق من بحث ودرس وتمحيص وإكبار ؛ كما جاء والأمم الأوربية في بدء نهضتها ، فاتجه علماؤها اتجاه ابن خلدون في بحثه ، وأخذوا مادتهم من الغرب ، كما أخذ ابن خلدون مادته من الشرق ، ثم توسعوا في بحثهم ، وترجموا المقدمة إلى لغتهم وعكفوا عليها يستفيدون منها ، ويبينون خطأ بعض ما جاء فيها ، ويلفتون النظر إلى محاسنها ، ويكملون بنيان علم الاجتماع بما استكشف من قوانين ؛ حتى وصل هذا العلم إلى درجة من النضوج نحن فيها تلاميذه ، وقد كان فيها أستاذنا ابن خلدون أستاذه ومبتكره . ولم نوفه حقه من الدرس والإشادة ، كما وفاه حقه أساتذة الغرب ، فنشروا مقدمته خيراً مما نشرنا ، وترجموها إلى لغتهم ، وعلقوا عليها التعليقات البديعة العميقة ؛ ونحن لما نحسن إبرازها في شكل صحيح : فطبعاتنا مملوءة بالأغلاط ، ومملوءة بكثير من مواضع النقص . ولا ندري متى يأتي الزمان الذي نلتفت فيه إلى « المقدمة » فننشرها نشراً علمياً صحيحاً ، ونستفيد مما وصل إليه علم الاجتماع الحديث ، فنبني بناء نطبقه على تاريخ الشرق وأحداثه ، ونرسم الخطط المستقبلة ، فنحيي ابن خلدون في بيئته كما حيي خارج بيئته .

ومن التباشير الطيبة أن نرى الأستاذ « ساطع الحصري » يوجه عنايته إلى ابن خلدون وآثاره ، ويعكف على دراسته في صبر وأناة وعمق . وقد بلغ من إعجابه به وحبه له أن سمى ابنه «خلدون» ، وتكنى هو (بأبي خلدون) واطلع على ما كتب عن ابن خلدون في اللغات المختلفة وترجمة المقدمة والتعليقات عليها ، وقارن بين الباحثين الأولين في علم الاجتماع وابن خلدون ، ثم طلع علينا بهذا السفر الأول .

وهو — فيه — يبحث في موقف ابن خلدون من المؤرخين ، وحياة المؤلف ، ومنزلة المقدمة ولغتها ، ومكانة المقدمة في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ؛ ويقارن بين ابن خلدون وفيكو ، ذلك الكاتب الإيطالي الذي نسب إليه خلق علم الاجتماع ، ويلخص وجهة نظره ويوازن بينها وبين أبحاث ابن خلدون ؛ وكذلك يفعل بين ابن خلدون ومونتسكيو ، ذلك الكاتب الفرنسي الشهير ؛ ويخرج من ذلك كله إلى رفعة مقام ابن خلدون عن مقاميهما ، وأسبقيته في تأسيس علم الاجتماع منهما . ويعرض في القسم الثالث لآراء ابن خلدون ونظرياته في موضوع التاريخ ومهمة المؤرخ ، وفي طبيعة الاجتماع والقسر الاجتماعي ، والتقليد وطبائع الأمم ، ونظرية العصبية ، والخط والكتابة ؛ وفي كل ذلك يقارن بين ما عرضه ابن خلدون وما عرضه غيره من علماء الاجتماع المحدثين — وبذلك ينتهي هذا الجزء في ٣٢٢ صفحة . ويعد — ونرجو أن ينجز وعده — أن سينشر بحوثه عن الدولة في نظر

(١) طبع هذا الكتاب في مطبعة الكشاف ببيروت ، ويطلب في مصر من مجلة الرسالة .

ابن خلدون ، وآرائه فى علم النفس والتربية ، ونظرية التطور ، وآرائه فى الحروب ، ونظرياته فى المذاهب الاجتماعية وفى الدين واللغة والأدب وفى الكتب العربية .

والأستاذ ساطع الحصرى فى هذا الجزء الذى قرأناه متأثر كل التأثر بابن خلدون وسلامة منطقه وعمق تفكيره واستقصاء بحثه ؛ وبعلماء الغرب فى جودة العرض وجمع الشواهد وتحليل النصوص ، والصبر على جمع الوثائق والمستندات .

وقد انفرد الأستاذ باستعمال مصطلحات جديدة لبعض الألفاظ الافرنجية قد نرى أنه ينقصها الصقل ، كترجمته Rationalism بالتفكير العقلانى ، وScholastique بالتفكير المدرسانى ، و Positivism بالفلسفة الإثباتية — ومثل التفكير الكيانى وRaces بالعروق البشرية ، و Organisé بالسلطة المتعضية الخ . وقد وقفت طويلا فى كلامه على لفظ المقدمة عند رأيه فى معنى «العرب» ، فالأستاذ يرى أن مدلول كلمة «العرب» فى الفصول التى هاجمهم فيها ابن خلدون من أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ، وأنهم لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية الخ ، إنما يريد بهم البدو والأعراب ، ولا يريد من تحضر من العرب ، واستشهد على ذلك بجملة استشهادات قوية . وقد رجعت إلى هذه الفصول فى المقدمة فقرأتها بإمعان ، فرأيت أن الأستاذ محق فى هذا التفسير فى بعض المواضع دون بعض ؛ فابن خلدون يستشهد مثلا فى هذه الفصول بملوك اليمن وليس هؤلاء بدوا ، ومثل ذلك كثير . فالذى أرى أن معنى العرب فى ذهن ابن خلدون لم يكن محدودا ، فأحيانا يستعمله فى معنى البدو والأعراب كما يفسره الأستاذ ، وأحيانا يستعمله فى المتحضرين كما فى هذا الموضع الذى أشرنا إليه ، وكما فى فصل أن العرب أبعد الناس من الصنائع ، وفى فصل أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم .

لسنا نريد أن نقر ابن خلدون على رأيه ، فقد عرضنا فى فجر الإسلام وخطأه لبعض خططه فى هذا الباب . ولكن الموضوع الآن ما الذى يريده ابن خلدون بكلمة العرب فى هذه الأبواب ؟ يرى الأستاذ أنه يريد البدو والأعراب ؛ ونرى أنه لم يستعمل كلمة العرب استعمالا محدد المعنى ، فهو تارة يستعملها فى البدو ، وتارة يستعملها فيما يشمل البدو والحضر ، وتارة يستعملها فى الجنس متطوراً من بداوته إلى حضارته .

وعلى كل فالكتاب يستحق الإعجاب وحسن التقدير ، ويشجعنا على أن نأمل منه المزيد فى إتمام أبحاثه . ونرجو أن تنقشع هذه الحرب التى غزت العلم أيضا فيما غزت ، فكان أثرها واضحا فى ورق هذا الكتاب وطبعه .

وفى اعتقادى أن الكتاب سيفتح فتحا جديدا فى توجيه النظر إلى العناية بابن خلدون ، وخاصة بمقدمته ، فتتوالى بين قراء العربية وأدبائها وكتابها الكتب النافعة فى هذا الباب بفضل هذا الكتاب ؛ والله الموفق .

أحمد أمين

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر —

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٢٦٩

العدد ٢٤٤ — الثلاثاء ٣٠ من شعبان سنة ١٣٦٢ — ٣١ من أغسطس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

مرحـــــلة الفصل

الآن وقد مرت أربعة أعوام كاملة على نشوب الحرب الحاضرة ، نستطيع أن نقول إنها تدخل مرحلتها الفاصلة : هذا ما تدل به جميع الحوادث والتطورات . وقد نشهد هذه المرحلة الفاصلة فى القريب العاجل . وقد تكون مرحلة قصيرة لا تعدو بضعة أشهر ، وقد تطول قليلا إلى ما بعد الشتاء القادم ، وذلك وفقاً لتطور الحوادث المنتظرة ، وميادينها المحتملة .

ولسنا نود أن يحمل هذا القول محل النبوءة والتكهن ، وإنما نريد فقط أن نستعرض منطق الحوادث الجارية ومقدماتها لنصل إلى النتائج المحتملة . فسير الحوادث فى إيطاليا ، وتطور المعارك فى روسيا ، وازدياد أعباء ألمانيا الدفاعية ، وانعقاد مؤتمر كويبك عقب انتهاء حملة صقلية ، وما أذيع عن قراراته الأولى : هذه كلها تحمل على الاعتقاد بأننا سوف نشهد فى القريب العاجل مرحلة الفصل والختام فى الحرب الأوروبية على الأقل .

وربما كان موقف إيطاليا الشاذ أول ما يستوقف النظر فى معترك الحوادث الجارية ؛ فقد كان المتوقع أن يكون انهيار الفاشستية الإيطالية ، وهى المسئولة عن دفع إيطاليا إلى خوض هذه النار الخطرة ، مقدمة لانفصالها عن المحور ، وسعيها إلى عقد هدنة مستقلة . وكان كل ما هنالك يعزز هذا الظن ، ولا سيما بعد أن سقطت صقلية فى يد الحلفاء ، وأصبحت جيوشهم تقف على أبواب الأرض الإيطالية الأصلية ؛ ولكن مضى إلى اليوم أكثر من شهر مذ سقط موسولينى ونظامه الفاشستى دون أن تقدم الحكومة الإيطالية الجديدة على تحديد موقفها بصورة واضحة . ومن الواضح أن المارشال بادوليو يجد نفسه فى مأزق صعب ، فالحلفاء يصرون على أن تسلم إيطاليا دون قيد ولا شرط ؛ ومن جهة أخرى ، فإن القوات الألمانية تحتل إيطاليا . وإذا صحت الأنباء المحايدة ، فإن قوات ألمانية كبيرة تحتشد الآن فى شمالى إيطاليا ، وتقيم فيها خطوطا دفاعية قوية ؛ والظاهر أن الألمان يعتزمون أن يجعلوا من إيطاليا ذاتها مسرحا لحرب دفاعية تشغل الحلفاء وتبعدهم عن الأراضى

الألمانية ذاتها أطول وقت مستطاع . ولو جلا الألمان عن إيطاليا ، واحتلها الحلفاء بسرعة ، لاستطاعت أسرابهم الجوية أن تثخن في جنوبي ألمانيا (في التيرول والنمسا) ؛ ولكن القيادة الألمانية تتبع في الحرب الحاضرة نفس الخطة التي اتبعتها في الحرب الكبرى ، وهي أن تحرص على أن تكون ميادين المعارك بقدر المستطاع خارج الوطن الألماني ، ليسلم الوطن من العبث والتخريب .

وهكذا نجد حكومة بادوليو نفسها بين نارين ؛ وفي ذلك ما يفسر ترددها وحيرتها . ومن الواضح أن الشعب الإيطالي لم يعد راغباً في حرب جرت عليه كل هذه الكوارث ، خصوصاً بعد أن أضحى الوطن الإيطالي نفسه معرضاً لأشد الضربات الجوية ؛ ولكن الشعب الإيطالي لا يعرف أين يسير وكيف يسير ! بيد أن الذي لا ريب فيه هو أن هذه الحالة لا يمكن أن تطول ، خصوصاً إذا بدأ الحلفاء غزو الأرض الإيطالية ذاتها ، وهو ما يرجح وقوعه في القريب العاجل . ونحن لا نعتقد أن الشعب الإيطالي سيصمد عندئذ إلى خوض معارك جديدة تعرض الوطن الإيطالي لمحن جديدة ، ولا طائل تحتها ؛ بل أكبر الظن أن إيطاليا ستبادر عندئذ إلى طلب الهدنة بصورة من الصور ، وإلا عرضت للانهيار المطبق والفوضى . وهنا يتعذر على الألمان أن يحاربوا بمفردهم في بلد لا يرغب في متابعة الحرب ، ولا بد لهم عندئذ من الانسحاب إلى حدودهم الأصلية .

هذا فيما يتعلق بإيطاليا التي تلوح نهايتها القريبة في الأفق . وأما عن تطور الحوادث في الميدان الروسي ، فهي أيضاً تنذر بدخولها في مرحلة الحسم . ولقد اعتدنا في العامين الماضيين أن نشهد كل صيف هجوماً ألمانيا رائعاً في روسيا يكتسح أمامه كل شيء ، وينتهي باستيلاء الألمان على مساحات واسعة من الأراضي الروسية ؛ وأن تشهد الجيوش الروسية تقوم في كل شتاء بهجمات موفقة تسترد فيها بعض الأراضي والقواعد الهامة ، وتحسن مراكزها تحسيناً كبيراً . وقد بذل الروس في الشتاء الماضي أعظم مجهوداتهم الحربية ، وكللت هجماتهم بأعظم نجاح ، فاستردوا ستالنجراد وقضوا فيها على نصف مليون جندي ألماني ، وأوقعوا بجيوش «الريخ» أعظم نكبة أصابتها في هذه الحرب ؛ واستردوا القوقاز ، وتوغلوا غرباً في الميدان الأوسط حتى خاركوف واستولوا على خاركوف ذاتها ، ولكن الألمان استردوها بهجوم قوي مضاد . ودخل الصيف الحالي ، ولم يبدأ الألمان هجومهم الصيفي قبل أوائل يوليه ، وكان هجوماً عنيفاً يشمل الجهة الوسطى فيما بين أوريل وكورسك ، واستطاع الألمان أن يخترقوا الخطوط الروسية بادئ ذي بدء . ولكن سرعان ما تغير الموقف ، وانقلب الروس من الدفاع إلى الهجوم ، فكان هذا أول هجوم صيفي يقوم به الروس . وشمل الهجوم الروسي منطقة تمتد زهاء أربعمائة ميل من أوريل إلى بيلجرود ، وهما من القواعد الهامة التي يرتكز إليها خط الدفاع الألماني في الوسط ؛ وبعد معارك طاحنة استطاع الروس انتزاع هاتين القاعدتين من الألمان . ولم تمض أسبوعان على ذلك حتى استولى الروس على خاركوف أعظم قواعد أكرانيا للمرة الثانية خلال بضعة أشهر ؛ واستيلاؤهم على تلك القاعدة الهامة التي هي أعظم مركز للمواصلات في أكرانيا بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، ضربة شديدة للألمان تعرض خطوطهم في شرقي أكرانيا لخطر دائم ، وتفسح مجالاً لاندفاع الروس نحو الغرب والجنوب . وقد لا تمضي أسابيع أخرى حتى نشهد تطورات هامة أخرى في الميدان الروسي .

وإذا كان هجوم الروس الصيفي قد أسفر عن هذه النتائج الخطيرة ، فإن لنا أن نتوقع ، متى أقبل الشتاء ، أن يضاعف الروس جهودهم لرد الغزاة إلى الوراء . والمعروف أن قسوة الشتاء تضفي على براعة الروس الاستراتيجية مزايا جديدة . ومن المشكوك فيه أن يستطيع الجيش الألماني أن يحتفظ بخطوطه الممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ولا بد له تفادياً من ضغط الروس الخطر أن يلجأ إلى تقصير خطوطه ، خصوصاً إذا نجح الهجوم الروسي في الشمال في اتجاه سمولنسك ؛ وليس بعيداً أن يضطر الألمان

إلى القيام بمثل هذه الحركة قبل مقدم الشتاء ، فيتركوا شرق أكرانيا كله ، ويرتدوا إلى خطوط أقصر ليستطيعوا تركيز قواتهم لملاقاة الروس .

وعلى أى حال ، فإنه يلوح من تطور الحوادث أن الميدان الروسى سوف يشهد فى الشتاء القادم أعظم المعارك الفاصلة بين الروس والألمان . وإذا تركنا مجال التنبؤ جانبا ، ففى وسعنا أن نقول إن الروس يخوضون هذه المعارك فى أحسن الظروف التى أتيحت لهم منذ بداية الحرب ، وأن الألمان سوف يخوضونها وقد أنهكتهم ضربات الروس المتوالية ، وأثرت فى قواهم المعنوية أسوأ تأثير .

— ٢ —

ويجب ألا ننسى بعد ذلك كله ما يمكن أن يسفر عنه مؤتمر كويبك من القرارات والتطورات الخطيرة . والمفهوم أن عقد هذا المؤتمر هو فى ذاته نذير بأن الحرب توشك أن تدخل فى مرحلتها الحاسمة ، وأن زعيما الديمقراطية الغربية مستر تشرشل والرئيس روزفلت قد اجتمعا فى كويبك مع أقطاب القادة والمستشارين لوضع الخطط الأخيرة لإنهاء الحرب . ومع أنه لم يعرف بالتحقيق حتى كتابة هذه السطور شىء عن قرارات هذا المؤتمر العتيد ، فإنه يكاد يكون من المجمع عليه أن مسألة فتح الجبهة الأوربية الثانية هى فى مقدمة ما يعنى به . والمقصود بالجبهة الثانية فى هذه المرة ، هو تنظيم الجيوش المتحالفة لهجوم قوى فى جهة أو أكثر فى غربى أوربا يشغل قوات «الريخ» بصورة مباشرة ، ويرغم ألمانيا على أن تنقل شطراً كبيرا من قواتها من الميدان الروسى إلى الميدان أو الميادين الجديدة ؛ وبذلك يخف العبء الفادح الذى تضطلع به الجيوش الروسية وحدها فى الميدان الشرقى منذ أكثر من عامين ، وترغم ألمانيا بذلك على أن تخوض القتال المباشر فى أكثر من جبهة رئيسية ، وهو ما كانت تخشاه القيادة الألمانية دائما . والظاهر أن المارشال ستالين يلح فى وجوب فتح هذا الميدان بصورة عاجلة ، ليتفسح المجال أمام الجيوش الروسية لإنزال ضرباتها الأخيرة الحاسمة بجيوش «الريخ» فى الميدان الشرقى ؛ بينما يضرب الحلفاء مؤخرة ألمانيا من الغرب . ولم تقنع القيادة الروسية فيما يظهر بما تم من فتح الحلفاء لجبهة ثانية فى أوربا الجنوبية ، أعنى بما وقع من افتتاح صقلية وما قد يليه من المضى فى غزو إيطاليا أو غزو البلقان ، لأن ذلك لا يمكن أن يشغل قوى الريخ إلا بصورة ثانوية ، لبعد هذه الميادين عن الوطن الألمانى . ولم يخف مستر تشرشل والرئيس روزفلت خطورة هذه الخطوة القادمة ، فكلاهما يشير دون تحفظ إلى المعارك الهائلة التى لا بد للحلفاء من خوضها فى أوربا قبل إحراز النصر المنشود . على أنه يبدو أن فتح الجبهة الغربية الثانية أصبح ضرورة لا مفر من تحقيقها فى القريب العاجل حرصا على إرضاء القيادة الروسية ، وتبديد كل شكوك أو فتور يعترى تفاهم روسيا والدول المتحالفة ، وتضامنها فى سحق العدو المشترك .

وكما عنى مؤتمر كويبك بتنسيق الخطط العسكرية القادمة فى أوربا ، فقد عنى أيضاً بمسألة الحرب ضد اليابان ومضاعفة الحلفاء لجهودهم فى ميدان المحيط الهادئ . وهذه مسألة تهم أمريكا بالذات ؛ فالنضال ضد اليابان هو أخص ما تعنى به أمريكا فى هذه الحرب ؛ وهى قد بذلت حتى اليوم أعظم جهودها الحربية فى ميادين تهم بريطانيا العظمى والقارة الأوربية قبل كل شىء . ويرى فريق كبير من الشعب الأمريكى أنه لا بد من أن تعمل الدول المتحالفة على هزيمة اليابان فى نفس الوقت الذى تعمل فيه على هزيمة المحور فى أوربا ، وأنه ليس من الضرورى أن تبقى الحرب فى المحيط الهادئ على فتورها حتى يفرغ الحلفاء من مهمتهم فى أوربا .

ومن المسلم به أيضاً أن مؤتمر كويبك قد درس النتائج التى يمكن أن تترتب على انتهاء الحرب فى أوربا فى المستقبل القريب ، والشروط التى يمكن أن تمنح بها إيطاليا هدنة مستقلة ، وماذا يجب أن تعامل به ألمانيا فى حالة إحراز النصر ، وماذا يمكن أن تكون عليه خريطة أوربا المستقبلة ، وغير ذلك من المسائل الخطيرة التى تتعلق بتنظيم السلم فى

المستقبل . والظاهر أنه سيعقب مباحثات كويبك مباحثات أخرى مع روسيا لتنسيق جميع الشئون والخطط المتعلقة بمتابعة الحرب ؛ وتنظيم السلم عقب انتهائها .

والخلاصة ، أنه يبدو من تطور الحوادث والظروف أن الحرب تدخل بعد أربعة أعوام من نشوبها في مرحلتها الأخيرة والحاسمة ، وهي مرحلة لن يطول أمدها فيما نعتقد ؛ غير أنه يخشى أن تكون أخطر المراحل وأعنفها ، فإن جيوش « الريخ » ما زالت قوية زاخرة ، وما زالت ألمانيا تتمتع بميزات عسكرية واستراتيجية كثيرة ؛ ومن المنتظر أن يبدى الجيش الألماني أعنف مقاومة في كل ساحة يلتق فيها بخصومه . وقد قال هتلر في خطبه أكثر من مرة ، إن الكلمة الفاصلة في هذه الحرب سوف تقال في أوربا ، وإنها اليوم لكذلك . واعتقادنا أنها سوف تقال في القريب العاجل ، وقد يكون ذلك في الميدان الروسي ، وقد يكون في الميدان الغربي الجديد ، أو فيهما معاً ؛ هذا كله إذا سارت الأمور في مجراها الحاضر ، واستطاعت جيوش « الريخ » أن تحرص على تماسكها وقواها المعنوية ، واستطاعت الجبهة الألمانية الداخلية أن تحتفظ بسلامتها . على أنه ليس بعيداً أن تقع في داخل ألمانيا مفاجآت ليست في حسبان أحد ، وعندئذ تنتهي الحرب الأوربية فجأة ، وبأسرع مما يظن .

محمد عبد الله عنان



كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

منطقٌ يقول لا ، وطبيب يقول نعم

وصل الثالث : طبيب شاب أمريكي اسمه « مينوت » ، من آل « مينوت » ، وهي أسرة في الطب عريقة . وداء عَيَاءٌ هو فقر الدم الخبيث .

أُولِع « مينوت » بفحص الدماء ، وأولع بالأمراض التي تتسبب عن اختلال في الدماء . واتخذ من فقر الدم الخبيث دراسة له .

ووجد فيما وجد أن مرضى هذا الداء تتحسن حالهم أحياناً لغير سبب ظاهر ، فينظر دماءهم تحت المجهر ، فيرى فيها كُرَيَّات حديثة غريبة ، هي كريات دم حمراء وليدة نزلت حديثاً إلى الدم ، أنزلها مصنع الكرات الحمراء بالجسم — وهذا المصنع هو نخاع العظام .

ويزول هذا التحسن في المرضى لغير سبب ، فتختفي من الدم هذه الكرات الوليدة .

واشتغل مع عالم الأمراض ، الدكتور « ريت » ، فسلّمه أن فقر الدم الخبيث إن هو إلا فساد في نخاع العظام يجعلها تصنع كرات دم حمراء قاصرة غير نامية .

واشتغل مع الدكتور « لى » ، فقام الاثنان يجادوا بجراحين نزعوا الطحال من أجسام تسعة عشر مريضاً ، فتحسنت حالهم حيناً ، وكثفت دماؤهم . ولكنها عادت بعد ذلك سيرتها الأولى . وماتوا جميعاً .

وقام « مينوت » و « لى » ينقلون الدم من رجال أصحاء ، إلى رجالهم المرضى ، فتحت دماء بعض هؤلاء المرضى ، ولكن إلى حين أيضاً ، وماتوا جميعاً .

حزن « مينوت » لموتاه حزناً كبيراً ، وحزن لخيبته ، ولكنه لم يرفع الراية البيضاء أبداً .

والآن اقرأ :

ثم رقّوه في مدرسة الطب بجامعة هرڤرد ، وقلّدوه إدارة مصلحة طبيّة في مستشفى هنتينجتن Collis Huntington ، وفيها كان يُدرِّس السرطان في مرضاه ،

وفيها كانت تُدرَّس تلك الأمراض التي تنشأ عن خللٍ في مناعة الدم بالأجسام ، كمرض اللوكيميا أو مرض الدم الأبيض . وهو مرض لعين يتميَّز بزيادة في كُرَيّات الدم البيضاء . وإلى جانب هذين العملين كان يعمل طبيباً مساعداً في مستشفى برجهام Peter Bent Brigham ، وخبيراً بأمراض الدم بمستشفاه القديم ، المستشفى العام بماساشوست . وبين كل تلك الأعمال استطاع « مينوتُ » أن يجد ساعات لعيادته الخاصة . وفي كل تلك الأعمال ، وبينا هو يُجري أبحاثه في السرطان ، رأى كثيراً من فقر الدم الخبيث . وأخذ صباحه ومساءه يفكّر في سرّ الخلية البشرية وسرّ نمائها ، ويحاول أن يفسّر كيف أن بعض الخلايا ببعض الناس تقف دون النموّ الكامل ، وتظلّ ، في مثل فقر الدم الخبيث ، قاصرةً تؤذن صاحبها بالدمار ، على ما رأى الدكتور « ريت » .

ويأتي عام ١٩٢١ فيحس « مينوت » بالضعف يحُلّ به ، ويحس رجليه تنوء عن حمل جسمه . كان « مينوت » طويل القامة رقيق الجسم ، وسافر يستمتع بإجازةٍ له ، ولكنه عاد بعد إجازته أرقّ جسماً . وألفى نفسه قبيل العصر يشتري اللوز على غير عادة . ويأكل اللوز ، ثم يأكل كالسعور ، فلم يَرِده الأكل وزناً . ولم يستطع أن يتوقف في عمله ، حتى اليوم الواحد لم يسترحه . وآلمه ظهره ، ودام عطشه ، واستمر ضعفه ، فلم يجد بُدّاً من دخول معمله الصغير يستوضح حال نفسه كانتْ ما كانت . ودخله وحده ذات مساء ، وأغلق الباب وراءه . وما هي إلا بُرهات حتى كان واقفاً إلى منضدةٍ عليها مصباح ذو لهب . وكانت في يده أنبوبة اختبار بها سائل ، فوضع الأنبوبة في اللهب حتى سخنَ السائل وغلا . وأخذ ينظر إلى هذا السائل في إمعانٍ ولونه ينقلب من الأزرق ، إلى الأصفر ، إلى اللون الأحمر المشئوم . قال مينوت لنفسه . « نعم . نعم . إنه البول السكّري . وليس في الأبوال بولٌ يحتوي من السكر أكثر مما احتواه بولي هذا » .

ولم يكن له من العمر عندئذ غير أربعة وثلاثين عاماً . وتلك سنٌّ باكرةٌ كان لا يحيى السكرُ صاحبها حتى يترحَّم عليه الناس . وكان « مينوت » له زوجة وله أطفال . وأسلم نفسه لأحد الأطباء الخبراء في داء البول السكّري ، فوصف له تدبير الغذاء المعروف لمرض السكر ، وهو إلى تدبير إجاعة أقربُ منه إلى تدبير تغذية . فلزم أمرَ طبيبه في كل دقائقه لزوماً يُضحك المتأمّل إذا هو نسي أن « مينوت » إنما كان يدفع بذلك عن حياته . كان « مينوت » يزن بالميزان كل لقمة ، وكل نُخالة من الطعام تنزل إلى معدته . وكان يُدعى إلى العشاء خارج بيته ، فلا يقبل الدعوة إلا أنْ يكون له بالداعي ألفةٌ لا يتحرّج معها أن يحمل ميزانه الصغير إلى داره ليقدّر به كل ما يُعطاه على المائدة من طعام .

وعضّه الجوع كل يوم ، وكل ساعة ، وهو صابر ، علماً منه أنه إن أجاب داعيَ الشهوة فقد أجاب معه داعي الموت . ونحُف جسمه فصار نصف رجل . ومع هذا لم يتوقف عن العمل قط . كانت إرادته العارمة تُمسك بأطراف الحياة إمساكاً . وحفظ هذا القُوتُ المقدَّر الموزون على شمعة روحه شحمَها فظلّت تتّقد . وعرف « مينوتُ » من هذا قيمةَ الطعام يُدبِّره المرء ، نوعاً ومقداراً ، وَفْقاً لحاجته ، فتشيَّع للطعام وتدبيره ، وغلا ، فحسب فيه النفعَ لكل داء .

• • •

وكان أن اكتشف « بنتنجُ » أنسولينه ، فنجا به « مينوتُ » في الناجين . وعاد به إلى قوّته في سرعة مدهشة كأنما لعبتْ به عصا ساحر . فهكذا كان يعود مرضى السكر بالأنسولين .

وزاد إيمانه بالطعام وتدبيره ، وزاد تحمّسه له ، فأدّى به هذا الإيمان وهذا التحمّس لا شك إلى حيث طلع على اكتشافه القريب الذي ظل ينتظره على أفُق الزمان وهو لا يدري عما ينتظره شيئاً .

وأتى عام ١٩٢٢ فوجد «مينوت» حيًا ، يحيا الحياة بالأنسولين فى قوة كعهده الأول بها ، وعلى القرب منه فى جدول الزمان اكتشافه المستقبل البديع . وليس بقلبه خاطرة بأنه منه قريب . كان اكتشافه ينتظره عند ركن فى سبيل حياته ، فاتلك لم يره ، وكان قدر له ألا يراه إلا فجأة إذا هو بلغ تلك الزاوية من الطريق .

كان «مينوت» يهتم بالذى يأكل مرضاه . بدأ إهتمامه بذلك من ذلك العام القديم عام ١٩١٦ .

كان يسأل كل مرضاه ، من فقراء الدم ومن غير فقرائه ، ماذا يأكلون وكيف يأكلون . وكان بالمستشفى صبية صغار يرمون الفكاهة حينًا وحينًا . فكنت تراهم على مرضهم يتناقلون النكتة همسًا : «إن الدكتور اكتشف أن السيدة العجوز فلانة لم تأكل السبانخ قط حتى بلغت العاشرة من عمرها» . ثم هم يضحكون كثيرًا .

ولم يلبث «مينوت» أن أحس من تساؤله الكثير أنه على وشك أن يكتشف أمرًا عجيبًا عن فقراء الدم من مرضاه . فقد وجد الكثير منهم لا يأكلون كما يأكل الناس . وجدهم لا يأكلون كل شىء ، ويتقززون من أكثر الأشياء ، ويتخيرون الطعام تخيرًا غريبًا ، ثم هم لا يطعمون فى ميعاد . وطفق يسأل مرضاه أسئلة لا يتسع وقت الطبيب ولا صبره لسؤالها . ولم يرض الجواب منهم إلا تفصيلا . فإن قالوا له إنهم يأكلون اللحم كل يوم ، سألهم هل هم حقًا يأكلونه ، وأى نوع يأكلون ، وكم يأكلون منه ؟ وعندئذ يجد الكثير منهم لا يأكلونه حقًا لأنهم لا يشتهونه ، وأنه إنما يظهر على المائدة ولكنهم لا يقربونه . ووجد بعضهم يشتهى الزبد والدهن اشتهاء خارقًا .

ويتهامس الصبية الصغار من المرضى ، وأكفهم على أفواههم : «إن الدكتور اكتشف أن المريضة فلانة تأكل فى كل وجبة قرصين فأكثر من الزبدة» ، ثم هم يتضاحكون .

هكذا تابع «مينوت» سؤال مرضاه ، وهم بين ضيق السؤال وضيق المرض آخذون سبيلهم إلى الموت المحتوم ، بوجوه تزداد كل يوم بهتًا ، وجلد يزداد كل يوم تشمعًا . ومنهم من أصابه الشلل قبل أن يصيبه الفناء . كل هذا وصاحبنا الطبيب يقترب رويدًا رويدًا من تصور صورة لطعام يراه أوفق وأجدى بهؤلاء المرضى .

إنه بدأ تخليق صورة هـذا الطعام النافع المزعوم من لا شىء ، وانتهى من تخليقها بمنطق كمنطق من يقول : كلبان وكلبان تساوى خمسة أحجرة . أما العلم الذى دبر به هـذا الطعام فمز يضحك منه حتى هؤلاء الصبية المتهامسون المتضاحكون من صغار المرضى .

وجد «مينوت» أن فقر الدم الخبيث إنما يكثر فى الولايات الشمالية من الولايات المتحدة .

وأخذ «مينوت» يقول لنفسه : إن الولايات الشمالية هى أيضًا أكثر الولايات إنتاجًا للألبان ومشتقات الألبان .

حسن ، فأى شىء ينتج من هذا ؟! إن كثيرًا من سكان تلك المناطق يأكل أشياء كثيرة غير الزبدة والقشدة . ولا شك أن ملايين من الناس تأكل الزبدة والقشدة ، وليس بها تعرض واحد طفيف من أعراض فقر الدم الخبيث .

وتحدث «مينوت» نفسه : «وإذن فلعل طعامًا به قليل من الزبد ، قليل من الدهن ، يكون ... ولكن تمهل» ؛ وتعرض له فكرة أخرى : «إن فقر الدم الخبيث يشبه مرض البلِّجرة كثيرًا — فم موجع ، وهضم مرتبك ، وأعصاب مختلة» .

وذكر أن جولدبرجر Goldberger أرجع سبب البلجرة إلى أن مرضها لا يأكل الكفاية من اللحم ، لا يأكل الكفاية من الزلاليات ، من البروتينات .

وذكر أيضًا أن الأطباء تصف أكل الكبد لمرضى بداء القلاع ، وتقول على عادتهم قولا عامًا : إن الكبد تفيد فيه . ثم أليس فى داء القلاع شىء من فقر الدم ؟

على هذا الأسلوب جرى تفكير « مينوت » ، وبهذا المنطق تحسس طريقه . وهو منطق لو حضر به في امتحانٍ عند أستاذ منطق لأعطاه عليه صفراً : فهل البلَّجْرة حقاً تشبه فقر الدم الخبيث هذا الشَّبه الذي زعم ؟ ثم أليس شفاء البلَّجْرة في أكل اللحم واللبن والبيضات ؟ ثم ألم يُطعم هو مرضاه اللحوم والزلاليات ، ويُطعمهم منها الكثير ، فلم يمنعهم ذلك من الموت ؟

ويقرأ في كتاب ضخم عنوانه « أحدث المعارف في التغذية » ، فيجيء على ذكر فضائل غاقية الزلاليات في الكبد . ويقرأ أن الكبد تزيد في سرعة النمو في الصغار من بيض الفئران . ويقرأ أن أكباد هذه الفئران لما أكلتها خنازير غينية Guinea pigs ، وبها داءُ الحَفَر Scurvy ، زاد مقدار الدم الأحمر — الهيمُجْلوبين — في هذه الخنازير .

ولكن حتى هذا ، ما دخله بالذي هو فيه ؟ إن فقر الدم الخبيث ليس نقصا في الهيمجلوبين فحسب . لا . وتذكّر « مينوت » صاحبه القديم المُزْرَّ الدكتور « رت » يصيح في وجهه : « إن نخاع العظام هو مكان الداء ، إن كريات الدم التي يصنعها النخاع صغيرة تعجز في النمو عن بلوغ حجمها الطبيعي فتظلّ قاصرة ... » .

ويفكر « مينوت » في هذا النمو ... ويفكر في الكبد .

ويقرأ في ذاك الكتاب الضخم فتمرّ به كلمة الكبد مرارا وتكرارا . ولكن ما العلاقة بين عجز النخاع عن صنع كرات دموية حمراء بالغة وبين هذه الكبد التي ساعدت على نموّ الفئران البيض ؟ ثم هو يقرأ شيئاً آخر عن أطفال الآساد ، عن أشبالها :

في جنائن الحيوانات كانوا يربّون الأشبال على اللحم الأحمر ، فيصيبها الكساح ، ثم تموت .

ويفكّر « مينوتُ » في هذا الكساح . إنه عظامٌ مريضة . ثم يأخذ يقرأ في الكتاب :

« ولكن رجال هذه الجنائن عمدوا إلى هذه الأشبال فغذَّوها بالكبد والدهن والعظام . . . فكان أن نمتْ واشتدّتْ وصارت آسادا يَخْشَى الآساد » .

هذه هي الكبد تعود ويعود ذكرها : تضعف العظام والطعام بلا كبد ، ثم تشتد العظام والطعام به الكبد . وفقر الدم الخبيث يُعزَى إلى خلَلٍ بنخاع العظام . إذن ...

إنها فكرة بعيدة جداً ، ومع هذا أخذت تختمر في رأس « مينوت » في كل مكان وكل زمان ، وهو غادٍ إلى عمله ، وهو رائحٌ منه ، وهو عند أسرّة المرضى يرقب شقاءهم ، وهو عند أسرَّتهم في الليل يحضر احتضارهم ، وفي الصباح وهو يحلق ذقنه .

لم تكن تلك الفكرة وليدة بحثٍ منظَّم . فإنّ أحدا لم يُعطِ « مينوت » عشرة مليون دولار ليؤسس بها معهداً يكتشف فيه علاجا لفقر الدم الخبيث ، أو يكشف فيه من فضائل أكل الأكباد . إنه اهتدى إلى ما اهتدى إليه في عيادته الخاصة ، وليست عيادة المريض بالمكان الذي يُعالَج فيه العلمُ أو تُجرَى فيه على الأسلوب العلميّ بحوث . إن هي إلا فكرةٌ مبهمةٌ مغبَّشةٌ كالضباب ، فكرة ظلت تطفو وتنطس في لجّة عقله مع صنوف من أفكار أخرى ، وعديد من مشاغل أخرى .

وإليك تجربة في العلم أخرى أجراها الدكتور ويبل Whipple ، والدكتور هُوبر Hooper ، والدكتور رُوبِنْشَيْت . وهي تجربة من شأنها تخذيلُ « مينوت » فيما هو بصدده أكثر من تشجيعه . جاء هؤلاء الثلاثة الأطباء بكلاب ، ثم نزفوا دماءها نزفا شديداً حتى خفَّت وزهقت . ثم أطعموا هذه الكلاب أكباداً ، فعاد إليها الدم كما كان غنياً كثيفاً .

إن هذا الذي أحدثه الأطباء الثلاثة في الكلاب فقر في الدم يقينا . ولكنه ليس بالفقر الخبيث ، ليس بالفقر الأساسي الأولي ، ولكنه الفقر الثانوي الذي يطاوع علة أخرى ، وينفصل لقَسْمَلة أخرى خارجية عنه ، ليس منها وليست منه . وفقر الدم الثانوي لا شأن له مطلقا بفقر الدم

من مذكرات جحا :

جحا و«البطل الصامت»

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التى زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

لو كان الإنسان لا يحمل إلا هموم نفسه، ولا يعانى إلا المشقات التى تعترض سبيله فى حياته، ولا يتحمل بعد ذلك أحمالا يلقيها الناس على كاهله، ولا يتكلف أن يقاسى عناء المتاعب التى تعترض سبل غيره من خلق الله؛ لو كان الإنسان كذلك لكان سعيدا، وحسبه من السعادة أن يعلم أنه إنما يشقى ويتعب ويكد فيما هو مسئول عنه، فإذا سدد إليه الدهر ضرباته تلقاها صابراً، لأنه يعرف أن تلك الضربات التى تصبها الحوادث على أم رأسه صباً، إنما هى جزاء لما قدم من أعمال، وما فرط فيه مما كان يجب عليه ألا يفرط فيه. لا شك أنه من العدل أن يحمل كل امرئ نتائج ما اقترف فى حياته من الخطأ أو الإثم؛ فإن ذلك يعادل ما يجنيه من ثمار ما أحسن فيه وما وفق فى القيام به. من حق كل زارع أن يحصد ما بذره فى حياته، سواء أكان ذلك رزقاً طيباً أم شوكا مؤلم الوخز.

لو كان الأمر كذلك لكان الإنسان سعيداً، ولكانت الحياة معه عادلة على الأقل؛ ولقد صدق الشاعر إذ قال:

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما
من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولكنى كلما تلفتُّ حولى إلى ما مضى من أيامى لم أجد إلا أحمالا حملتها لم يكن لى فى حملها وزر، ومصاعباً تجشمتها لم يكن من العدل أن أتجشمها، فقد كانت كلها أحمالا ألقيت على كاهلى إلقاء ممن كان من العدل أن يستقلوا بها دونى؛ وقد كان كل ذنبى أن هؤلاء لا يستطيعون حمل أثقالهم، وأنى كنت أستطيع أن أساعدهم بتحمل عبئها عنهم، فكانت نتيجة ذلك أنى قضيت عمرى كله أجرّ نفسى تحت الأعباء، والأثقال التى يلقيها الناس على عاتقى، لا أكاد أفيق من حمل إلا ليلقى علىّ آخر أثقل منه؛ على حين أن كلا من الآخرين سار خفيف الكاهل فارغ القلب من الهموم، بعد أن ألقى على كتفى حمله الوحيد الذى عرض له، ثم قضى سائر حياته فى راحة، مدخرا كل قوته كانزا كل سلامته.

من أجل هذا شبهت نفسى بصديقى العزيز «البطل الصامت» الذى يقضى كل حياته يحمل أحمالا ليس له فى حملها مصلحة، ويقطع عمره كله فى عمل متصل لا يصيب

الخبيث، ولا علاقة به، ولا نسب بينه وبينه. وإن كان فى مقدور الطبيب أن يصيب الكلاب بالفقر الثانوى، فليس فى مقدوره أن يصيبها بالفقر الخبيث. وهذه حقائق يعرفها الطبيب الناشئ.

والدكتور «ويپل» نفسه لم يقل إن الكبد تفيد فى فقر الدم الخبيث شيئا. وليس فى التجربة ذاتها شئ يحمل على إفراد الكبد بميزة أو فضل. فقد قال «ويپل» إن لحم القلب من الأبقار، وكذلك عضلها، يشفيان ما أصاب الكلاب فى دمائها من فقر. أعنى أن اللحمَ والكبد سيان فيما يصنعان.

ولقد علم «مينوت» أن لحوم أبقار الدنيا كلها، لو اجتمعت، ما أفادت مرضى الفقر الخبيث فى جوهر دائهم شيئا. لقد أكلوا هذه اللحوم فماتوا برغمها. إنها تنفع فى فقر الدم الثانوى كالذى كان بتلك الكلاب كما تنفع الأكبادُ تماما. واللحوم لا تنفع الفقر الخبيث، وكذلك لا بد أن تكون الأكباد، فلماذا تجرِّب الأكباد فى مرضى بنى الإنسان.

المنطق يقول لا. ولكن منطق «مينوت» يقول نعم. وإذن أخذ يطعم الأكبادَ مرضاه من بنى الإنسان.

أحمد زكى

منه خيراً ، على حين تذهب ثمرة عنائه للآخرين . ذلك «البطل الصامت» هو الذي يسميه الناس «حمارى» ، ويأبى لى أدبى أن أدعوه بذلك الاسم الذى اعتاد الناس أن يسبوا به من يريدون إظهار الازدراء له لغبائه ، وهوان قدره ! وقد أخذت نفسى بأن أسميه دائماً «البطل الصامت» حتى لا أوذى صديقاً مثله فى كرامته . والناس يعجبون من ذلك ويضحكون منه سخرية ، ويحسبون أنى أتعمد تلك التسمية لكى أسوق لهم بها فكاهة — يا للغباء ! إن «البطل الصامت» عندى أكرم من كثير من هؤلاء الذين يحمّلونه أحمالهم ، ولا يتورعون مع ذلك من إلحاق الأذى به بالضرب والوخز والشتم ، وهو صامت يبذل الجهد صابراً قوياً ، حتى إذا ما تهدم وخارت قواه واعترته العلل قضا على نفسه وتجلد وكد ما بقى من قواه ، وسيبقى دائباً على خطته حتى يخر صريعاً ويلفظ آخر أنفاسه تحت آخر حمل يقطع قلبه .

لا ينفك جيرانى وأصحابى وأهلى يقصدوننى كل يوم من أقصى أركان «ماهوش» وأدناها ، ويطرقون بابى فى الصباح والمساء وجوف الليل ، لكى يضعوا بعض أحمالهم على كتفى ، فإن لم تكن أحمالاً كانت هموماً يسوّدون بها الدنيا فى عينى . ولا أذكر أن واحداً منهم كلف نفسه مشقة الطريق إلى دارى لكى يؤدى ديناً لى عليه ، أو لكى يسدى إلىّ يداً من معروف أو إحسان . ولا أقصد بهذا أنى أحب أن يسدى أحد منهم إلىّ معروفاً ، فأنا بحمد الله غنىّ من مثل هذا الجميل ، وكل ما أرجوه أن أخلص بجلدى وأسلم منهم برأسى ورقبتى ! ولكنى أفضى إلى هذه الكراسة بما يختلج فى نفسى من الهم حتى أنفس عنها بعض ما تجده .

والأدهى من ذلك أنى إذا كان لى دين على أحد من الناس وذهبت إليه لأطلب الوفاء به ، ولم أكلفه عناء السير إلى دارى ، لم أجده يوماً فى داره ! فإذا عثرت عليه فى مكان غير داره ووقعت عينه فى عينى لم ير شيئاً منى ، وإن أطلت الوقوف أمامه لملأ عينيه منى !

ذهبت منذ أيام إلى الشيخ الجليل للأمجاد الدين ، وكانت لى عنده أمانة من مال ، أقرضته إياها فى أيام محنته واحتياجه ! فلما عادت إليه الدنيا وأقبلت عليه الأرزاق قلت لنفسى إن هذه فرصة لى ، ولا بأس عليه إذا استمددت منه الأمانة ، فأنا أولى بها اليوم ، بل لقد كنت أولى بها عندما أودعتها عنده ! فلما ذهبت أبحث عنه عثرت عليه فى حلقة من الناس يلقى عليهم درساً — لم أعرف ما هو — فقد كان يبدى فيه ويعيد ، وينطق ألفاظاً بعد ألفاظ ، ويهز لحيته ليفسر المعنى بهزاتها ، ويأبى المعنى أن ينطلق ، مع أن الشيخ كان عنيفاً فى حركته ، وكان يزمجر أحياناً بزمجرة مخيفة تشبه زمجرة الأسد .

ولما دخلت المسجد وقفت أمامه طويلاً فنظر إلىّ نظرة قصيرة ، ثم أسرع فردّ بصره إلى الحلقة كأنه لم يلحظ وجودى ، وزاد عنفاً فى زمجرته وهز لحيته ، حتى مضت ساعة بعد ساعة ، وقامت طوائف من السامعين وأقبلت بعدها طوائف ، وهم جميعاً يقصدون البركة بالسماع ولا يعنيهم أن يفهموا مما يقول الشيخ شيئاً .

فلما طال بى الانتظار ضقت بسماع ألفاظه ، وثارت نفسى ، لأنى لم أظفر منه بطلب أمانتى ، ولم أستفد من قوله لفظة واحدة من العلم ، ورأيت هنالك منى سفهاً وإسرافاً ، فإن ساعة أقضيها فى ضوء الشمس أجدى علىّ وأشرح لصدرى ، وأعظم فائدة لجسمى من هذه الوقفة المملة فى حلقة درس الشيخ ! وثار غضبى فصحت به :

«يا سيدى الشيخ !» .

فنظر إلىّ مغضباً كأنه لا يعرفنى . فزاد غضبى ، وثار الدم فى رأسى فقلت له :

— أما تعرفنى ؟ إنى أنتظر فراغك منذ ساعات .

فهز الشيخ ذقنه ولمعت عيناه لمعة مخيفة ، ثم نظر إلى الحلقة كأنما يريد أن يستأنف درسه ، وأغفل أن يرد علىّ بلفظ واحد له معنى .

فغاظنى ذلك أشد الغيظ ، وصحت به :

— لا بأس على هذه الحلقة إذا تفضلتم بالغياب عنها لحظات لرد أمانتى إلىّ ، وسأقوم أنا بهز ذقنى لهؤلاء بدلا منك حتى تعود ، فلا تفوتهم منك فائدة .

ولست أدرى ما الذى أغضب الناس من قولى هذا ، وقد كنت أحسب أنهم يشكروننى عليه ، أو يتهامسون على الأقل معجبين بصدق . ولكن هذا هو ما حدث : لقد قاموا جميعاً قومة رجل واحد فى وجهى يشتموننى ويسفهون رأيى ، ويصيحون بى :

— أفى مثل هذه الحلقة تلقى مساخرك ؟! أإلى المسجد تسوق سخافاتك ؟! أليس لمجالس العلم عندك كرامة ؟!

ثم قالوا لى آخر الأمر :

— احفظ عليك حياءك يا جحا واخرج من هنا قبل أن نؤدبك ؛ فليس بنا من حقد عليك ، ولا كراهة لك ؛ ولكن مثلك لا يحلو هاهنا !

فلم أجد بداً من الخروج . ونظر إلىّ الشيخ شامتاً ، فانصرفت وتركته لا يزال يهز ذقنه لى وهم .

ومن عجائب الاتفاق أننى ما كدت أعود إلى منزلى وأستقر فى مجلسى وأستعيد صورة ما مرّ بى ، حتى سمعت طارقاً على الباب .

يا حفيظ يارب ! ترى من يكون ؟ وماذا تحمل لى دقة هذا الباب من جديد ؟ فقمت وقلبى يدق دقتين لكل دقة على الباب ، حتى فتحت المصراعين وأخرجت رأسى من بينهما ، فإذا بى أرى جارى الحاج كمال الدين .

الحاج كمال الدين ! وماذا يريد منى هذا الجار بعد كل ما كان منه ؟ إننى لا أزال أذكر آخر عهدى به يوم جاء يطلب منى « البطل الصامت » ليحمل له بعض (التبن) من غيطه ، فسمحت له به حياء من رده خائباً ؛ ثم اتفق أن مررت بداره عند غروب الشمس ، فرأيت منظراً يذيب القلوب حسرة إذا كان من طبعها أن تذوب ، فقد رأيت « البطل الصامت » المسكين واقفاً عند الباب ، وعليه حمل من (التبن) يبلغ علوه قامتين ، وقد تربعت من فوقه امرأة جارى الشيخ كمال الدين فى كل زينتها ، ويكاد رأسها يبلغ نافذة الدور الأعلى من الدار ، والشيخ من وراء « البطل الصامت » يدفعه ويضربه ضرباً قاسياً ، ويقول له :

— حاء ! حاء ! ياحمار الكلب ! حاء ! لعن الله صاحبك .

وأما « البطل الصامت » المسكين ، فكان يحاول جهده أن يدخل من الباب ، ولكن علو الحمل كان يمنعه ، لأن أعلى الباب كان واقفاً دونه لا يتزحزح . ولكم حاول « البطل المسكين » أن يطأطئ بحمله إلى أسفل ليستطيع الدخول ، فترشح ومد يديه وأخر رجليه وقوس ظهره ، ولكن ذلك كله لم يجده شيئاً ، فوقف يائساً ، وجعل يهز رأسه مقراً بالعجز ؛ ولكن جارى القاسى لم يتنبه إلى إشارته ؛ وما زال يضربه ويشتمه ، ويلعن صاحبه .

فوقع هذا المنظر فى نفسى أسوأ موقع ، فهذا هو « البطل الصامت » يسمى حماراً ، ويقال له ذلك فى وجهه صراحة ، ثم هو يضرب ولا يلتمس له عذر فى عجزه ؛ ثم هذا أنا صاحبه ألعن وأشتم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فقربت من جارى غاضباً ، وما هى إلا كلمات حتى كانت بيننا مجادلة عاصفة انتهت بأن غضب الحاج كمال الدين ، وأمر امرأته أن تنزل عن عرشها ، فنزلت وهى تدمدم وتبرطم ، ثم ألقى الحمل شيئاً فشيئاً عن « البطل الصامت » ، ودفعه إلىّ بقسوة وغضب ؛ فأخذته وسرت إلى جانبه أربت على ظهره وأمسح على رأسه وأحدثه لكى أسرى عنه ، حتى بلغت الدار ، وقضيت سائر يومى أصلح من أمره وأسترضيه وأضاحكه ، حتى عاد إلى نفسه وطيبة قلبه ومرحه . بالاختصار ، رأيت ذلك الحاج كمال الدين وراء المصراعين ؛ فلما وقعت عينه علىّ تبسم ابتسامة حلوة وحيا تحية طيبة . ثم لم ينتظر حتى آذن له فى الدخول ، فتقدم وخطا فوق العتبة ودخل إلى المنظرة ، وأنا أسير وراءه . فلما استقر به المجلس جعل يحدثنى عن أحزانه وآلامه ، وما نكبه الزمان به ، حتى لان له قلبى ، ونسيت كل ما كان منه من الإساءة إلى « البطل الصامت » ، وكاد قلبى يذوب رقة له وعطفاً عليه . ثم أخذ يحكى لى قصة بقرته التى كانت منذ حين حاملا ، وكيف أنها ولدت منذ ليلة ، وكان ابنها عجلا مشوهاً ممسوخاً له صورة القردة وذيل الخنازير وحوافر البغال . فأحسست فى قرارة قلبى ألماً ممضاً ؛ وجعلت أفكر فى حياة هذا العجل

النفس ، وما عسى يكون من شأنه فى مستقبل أيامه ؟ مع أنه لا ذنب له فى أن يلقى به إلى هذه الحياة فى تلك الصورة . وزاد بى الألم حتى شعرت بأنى أكاد أسحق فى مكانى ، فتنبهت إلى نفسى ، وجعلت أزجرها وأعنفها على هذا الضعف ؛ فما لى أنا ومجهول الناس ؟ أما كفانى ما قاسيت من تحمل الهموم من أجل جيرانى ومن أجل غير جيرانى من أهل ماهوش ؟! وثارت عند ذلك عزيمتى التى كنت قد عزمت عليها منذ حين ؛ فقد نسيت أن أقول إننى بعد ما قاسيت من قسوة الناس ونكرانهم للجميل وأثانيهم وجشعهم ، آليت ألا أعبأ إلا بنفسى ، وألا أحفل سوى همومى .

فرفعت رأسى متكلفاً الجمود والبرودة ، وقلت لجارى فى جفاء :

— ليس لى شأن بكل هذا ، فهل عندك قول آخر ، لأنى أحب أن أستريح قليلا .

فدهش الحاج كمال الدين وخجل ، كأن دلواً من الماء البارد قد صُب فوق رأسه . ولكنى لم أعبأ به ، وبقيت على جمودى . فلما لم يجد فى دهشته وخجله فائدة ، قال لى بصوت متلعثم :

— ألا تساعدنى أيها الجار العزيز ؟

فقلت له فاتراً :

— إذا كان فى طوقى أن أساعدك .

فقال متكلفاً الابتسام :

— لاشك أنك تقدر على مساعدتى . ثم طلب إلىّ — بالاختصار — أن أعيره (حمارى) ليحمل له بعض (التبن) .

يا خبر ! « البطل الصامت » يدعى حماراً مرة أخرى ؟ ويطلب هذا الرجل أن أعيره إياه مرة أخرى ؟ لا ، لا ، هذا كثير !

فقلت وقد غلا الدم فى رأسى :

— سآخذ رأى « البطل الصامت » أولا .

فقال وكأنه لم يفهم :

— « البطل الصامت » ؟ ومن هو ؟ وما دخله فى الأمر ؟

فقلت — نعم ! « البطل الصامت » ، وأرجوك بعد اليوم ألا تهين « البطل الصامت » فتدعوه (حمارا) . هل ترضى أنت أن أدعوك (حمارا) ؟! إننى لا أسمح لك بشتمه أمامى . لقد رُبّىَ معى ومع أهلى فى دارى ، ولا أنسى فضله علىّ ، ولا أسمح لأحد بأن يهين كرامته ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

فتبسم الرجل ، وقال معتذرا وفى عينيه لمعة من الخبث :

— تفضل ! خذ رأيه إذا شئت .

فلم يخذلنى منظره من عزيمتى ، وقمت إلى « البطل الصامت » فمسحت على رأسه وظهره ، فرفع رأسه نحوى يتشممنى ، فملت عليه وسألته بصوت مسموع :

— أتحب أن تخدم هذا الجار الذى تعرفه ؟

ولست أدرى إذا كان قد فهم قولى أم لم يفهم ، ولكنه نظر نحو الحاج كمال الدين ، واستعد لأن ينهق نهيقاً غاضباً ، ففهمت ما قصد ؛ وذهبت إلى جارى فأخبرته أن « البطل الصامت » لم يرض بالذهاب معه .

فقال الجار ، وقد زاد الخبث لمعاناً فى عينيه :

— ألا تسأله عن السبب ؟

فزاد بى الغضب ، حتى لم أجد موضعاً للمداراة ولا للمجاملة ، فقلت له متجهماً :

— لقد سألته .

فقال لى الحاج :

— وماذا قال ؟ أراك تفهم لغة الحمير !

فلم أعبأ بسخريته ، وقلت له :

— لقد قال لى إنه سمع فى صباه مثلا حكيما يجب أن يلزم العمل به دائماً .

فقال الرجل ضاحكا بصوت عال فى غير حشمة :

— وما ذلك المثل ، لا شك أنه مثل حمار حكيم .

فقلت بغير تردد :

— نعم ! مَثلٌ حكيم ، « حمار ما هولك ، ظهره

المشاكل الاقتصادية

لما بعد الحرب

حديثنا اليوم هو حديث المستقبل ، والمستقبل حديثه حبيب إلى النفس ، لذيذ على السمع ، وخصوصا إن كان هذا المستقبل تحدوه بسمة الأمل ، ويفتر ثغره عن حادث سعيد.

إن الذي يظن أن الطفرة ممكنة فهو لا شك واهم ، بل إنه كمن يركن إلى الخيال يصوره حقيقة واقعة ، ويوهم النفس بوجودها فله يسعد بذلك الوهم . وإننا لنسمع الآن صيحات متصاعدة من هنا ومن هناك مدارها شيء واحد ورغبة مشتركة ، وهي الوصول إلى عالم أسعد من عالمنا هذا ، وحياة أرغد من هذه الحياة . ويروح الخيال يصور للناس أن ما عليهم إلا أن يطلبوا فتأتيهم الرغبات ، وما عليهم إلا أن يصيحوا فيصير ما يريدون . ولكن الحقيقة التي يجب أن نضعها دائما في مخيلتنا هي أن للسلم درجات وللإنسان قوى محدودة . غير أنه لا يجب علينا أن نهمل أثر الصيحات المتتالية في تنبيه الأذهان إلى ما يجب أن يصير إليه البحث .

وإننا اليوم إن تكلمنا عن اقتصاديات ما بعد الحرب فإنما نعني بذلك حال العالم المادي فيما يلي الحرب ، أما الروحيات وما يدور حولها فلن تكون من مدار هذا البحث ، وذلك على الرغم من اعتقادي أن دراسة الاقتصاد يجب أن ترتكز على أساسين : الأول هو دراسة الثروة المادية ، والثاني هو دراسة النفس البشرية .

والآن نبدأ حديثنا بالتكلم عن حقيقة المشاكل التي تواجه الحياة الاقتصادية الحديثة .

قديماً حين كان الإنسان ينتج بنفسه ولنفسه لم يكن الأمر من التعقيد في شيء ، فقد كانت كمية المنتج غالبا تكفي حاجة المنتج ، فإن زادت في فترة فليس له إلا أن يلفظ تلك الزيادة ولا يستفيد منها في شيء ؛ وإن قلت كمية المنتج فعليه أن يكتفي بالقدر القليل ويربط الحجر على معدته ، وإن اقتضى الأمر فعليه أن يموت جوعا ، ولم يكن الأمر يعدو ذلك .

ولكن حينما بدأ الإنسان ينتج في دائرة أوسع تشمله هو وغيره من المستهلكين بدأت بعض المشاكل تتوالى عليه ، فكان عليه أن يعلم لمن ينتج ؟ وكيف يوصل ما ينتجه لمن يريد ؟ وماذا يحصّل في مقابل ما يعطيه الغير ؟ وما هي الصلة بينه وبين غيره من المستهلكين والمنتجين ؟ وكيف يحتفظ بحقه في استهلاك ما يحق له استهلاكه ؟ هذه المشاكل وغيرها بدأت تظهر الواحدة تلو الأخرى في المجتمع الحديث ، وكان على المجتمع كي يسير في طريقه دون اضطراب أن يصل إلى الحلول المناسبة لها ؛ فنظر في المشكلة الأولى وهي لمن ينتج الفرد ، وهل من الممكن أن يلم الصانع الحديث مدى احتياجات المستهلك ؟ وفي بادئ الأمر اعتقد المنتجون أن رغبات المستهلكين ليس لها حد ، فأخذ كل ينتج على قدر طاقته ، وكان السوق يستوعب ما ينتج — وفي اعتقادي أن السوق سيظل دائما قابلا لاستيعاب منتجات جديدة . ولكن الأمر الذي يستدعي النظر هو دراسة الفائدة النسبية للمنتجات ، وبعبارة أخرى أي المنتجات أكثر منفعة للمجتمع ؟ هذه هي المشكلة التي نتجت من المشكلة الأولى . وقد تخبط الاقتصاديون كثيراً قبل أن يوفقوا إلى نظرية قريبة من الصحة في هذا الشأن ،

قوي ، يضرب جانبه ويلمس صاحبه » .

فنظر إليّ الرجل نظرة طويلة تنفث سما ... ثم قام سريعاً وأدار ظهره وخرج من الدار بغير أن يقرئني سلاما .

ولكن ما الذي يهمني من كل ذلك ؟ لقد عزمت منذ حين عزماً أكيدا على ألا أعبأ بهموم الناس ، وألا أنظر إلا في مصلحتي وفي تدبير أمري ، وكفاني ما ذقت من هذا الخلق العجيب .

لن أدخر بعد اليوم وسعاً في السعي لنفسي ، والنظر فيما يعود بالخير عليّ وحدي ؛ فلعلي أستطيع أن أمحي من حالي ما يقربني إلى أملي الذي ملأ قلبي ، لعلي أقدر على أن أفوز بالأمنية العزيزة التي لا تفارق خيالي في صحوي وفي أحلامي : علية ابنة السلطان !

(طلق الأمل) محمد

وهى نظرية الثمن السوق أى ثمن السلعة فى السوق ؛ ولاستيضاح ذلك نقول : إن هبوط ثمن سلعة ما فى السوق العام يدل على أن حاجة المجتمع لهذه السلعة بدأ يضعف فيقلل المنتجون إنتاجهم من هذا النوع ، وهكذا يستطيع المجتمع أن ينتج أكثر المنتجات منفعة للمجموع . غير أننا بهذه الطريقة يجب أولا أن نصل إلى الكثير من الاضطراب حتى نمر طريقنا إلى الصواب ، وفى هذا مضيعة لا شك فيها لمرافق الإنتاج ، ومجال كبير لحدوث الأزمات . ولقد فكر بعض الاقتصاديين تلافياً لهذا الأمر إيجاد هيئات خاصة مهمتها تقرير الحاجات المستقبلة للمجتمع ، وتوجيه مصادر الإنتاج إلى إنتاج تلك الحاجات بالنسب المطلوبة ؛ ولكن كيف تسترشد تلك الهيئات الخاصة بمدى الحاجات المستقبلة وما سبيلها إلى معرفة النسب الصحيحة ، وأنى لها السلطة التى تستطيع بموجبها أن توجه مصادر الإنتاج ؟ كل تلك الأمور دعت هؤلاء الاقتصاديين إلى نبذ تلك الفكرة مع أن فيها الشىء الكثير من الوجاهة . ولقد نشأ من تلك المسألة الأولى ما سماه البعض أزمات إفراط فى الإنتاج ، وفى رأيى أن هذه التسمية غير صحيحة ، والأوفق أن نسميها أزمات عدم تناسق فى الإنتاج والتوزيع . فالمنتجات على الرغم مما يظنه البعض لم تصل بعد إلى نقطة الإشباع فى الإنسان ، ولسنا نتصور وصولها إلى تلك النقطة . فمن يستطيع أن يقول إن الحاجة إلى زيادة فى الغلال والمواد الخام قد انعدمت ، أو أن الملابس الموجودة فى الأسواق تكفى حاجة الجميع أو — أو الخ . وقد استكان المجتمع إلى فكرة الثمن فى تقرير النسب ، مع ما سبق تبيانه مما ينشأ عن ذلك من الاضطراب ؛ وعلى قادة المجتمع أن يفكروا فى السبيل للقضاء على ذلك الاضطراب .

ثم تأتى المشكلة الثانية وهى كيف يوصل المرء منتجاته إلى من يحتاجون إليها ؛ وهذه المشكلة يدخل فيها الجانب الدولى وهو الجانب المعقد من المسألة . لقد نشأت فئة التجار فكانت الوسيط بين المنتج والمستهلك ، وكفت المنتج مئونة البحث عمن يأخذ منتجاته ، وقامت بديلة عنه فى توزيع تلك المنتجات ؛ وكانت تلك الفئة أيضاً تخضع فى نظمها وأرباحها إلى فكرة الثمن السوق ، أى أن ثمن السلعة فى السوق يتحدد دون تدخل تاجر أو وسيط فى أمره . إلا أنه لظروف خاصة نعين منها سعة مدارك فئة التجار نتيجة عملهم المتشعب ، واستطاعتهم تقدير كمية المنتج والحاجات المستقبلة بالتقريب ، أمكنهم أن يتلاعبوا فى الأسواق وفى الأسعار ، وأن يحصلوا من الأرباح ما يزيد على ما يستحقونه لقاء مجهودهم فى التجارة ؛ فنشأت من ذلك مشكلة حصول بعض الأفراد على ما لا يستحقونه بصورة تعرّض الهيكل الاقتصادى إلى الاضطراب . وسنعود إلى هذه المشكلة فيما بعد .

أما الجانب الدولى من تلك المشكلة ، فيتلخص فى أن الدول مدفوعة بعوامل الوطنية والأنانية الجامحة ، قد وضعت من النظم ما يعرقل سير المنتجات العالمية بالصورة الاقتصادية الصحيحة ، ففرضت الرسوم الجمركية ، ووضعت الحواجز المانعة ، وما إلى ذلك مما أدى ببعض المنتجات إلى البوار ، وأدى فى ذاته إلى الخطأ فى توزيع مرافق الإنتاج . وهذه المشكلة تظهر واضحة فى البلاد التى تتبع نظام الاستقلال الاقتصادى ، ولا داعى لضرب الأمثلة فى هذا الباب .

ثم تأتى المشكلة الثالثة ، وهى المشكلة الاجتماعية والاقتصادية فى وقت واحد ، ولعلها أقرب المشاكل إلى الأذهان نتيجة صلتها المباشرة بمالية الشعوب والأفراد ؛ ألا وهى مشكلة الأجر ، أو بعبارة أخرى ماذا يحصل المنتج فى مقابل ما يعطيه للغير ؟ وكيف يوفى المجتمع كل إنسان حقه ؟ وهل يكون توزيع الثروة المادية بنسبة المجهود الإنتاجى أم بنسبة الحاجات البشرية ؟ وما هو الرابط لتقدير المجهود أو الحاجة ؟ كل تلك الأمور هى من صلب بحث الاقتصاديين الذين يفكرون فى الاقتصاد المستقبل ، وعلينا نحن أن نستبينها وأن نفحصها بقدر ما تسمح معلوماتنا ومداركنا .

وأما ماهية الصلة بين المنتج وأخيه المنتج أو المنتج والمستهلك ، ثم كيف يحتفظ المنتج بحقه فى استهلاك ما يحق له استهلاكه ؟ فتلك مشكلة تتلخص فى كلمتين :

مسألة النقد .

إن كل الأشياء سواء أكانت مادية أو نظرية لا بد لها من مقياس يقربها من الأذهان ، ويجعل لها أساساً تعرف به ، وبقدر ثبات المقياس يكون ثبات الشيء نفسه .
إن مشكلة النقد ما زالت مشكلة المشاكل ، والحلقة المفقودة التي يقف عندها الكثيرون ! فهبنا توصلنا إلى حل المشاكل التي سردناها الآن ، بل هبنا توصلنا إلى تقرير النظام الاقتصادي الصحيح ، فكيف بنا أن نضعه في حيز التنفيذ إذا لم نوفق إلى المقياس الثابت القويم ؟ وكيف بنا نقرر لكل فرد حقه إذا لم نكن نعرف مقدار هذا الحق مبيناً بصورة واضحة ؟ فعلى العالم وعلى من يمثلون الطبقة المفكرة من الأمم أن يبحثوا عن وسيلة عملية لتثبيت النقد بصورة تمنع الاضطرابات والاختلالات في النظام الاقتصادي .

تلك عجالة سردنا فيها المشاكل — أو بعض المشاكل بتعبير أدق — التي واجهت الهيكل الاقتصادي في العالم مجتمعاً وفي الأمم منفردة . ولعمري ما أسهل السرد وأيسر التقرير ؛ وما أصعب العلاج وأعسر التحليل . لم تخف تلك المشاكل عن أنظار الاقتصاديين ، بل إنهم قد حاولوا علاجها فنجحت بعض المحاولات وخاب البعض . أما كيف أقيمت تلك المحاولات وما نصيبها من الحياة ، فهو ما نسرده فيما يلي .

قلنا إن المنتج لم يكن يعرف الرابط لإنتاجه ، والحدود التي يجب أن يقف عندها هذا الإنتاج ، ولكنه اهتدى بشعور من نفسه أنه إنما ينتج ليربح ، فطالما أن هناك مجالاً للربح وطاقة في قواه الإنتاجية ، فإنه لينتج ويوالي الإنتاج ؛ ومن هنا بدأت دراسة المنفعة المتزايدة والمنفعة المتناقصة [1] ، وعلى أساس تلك النظرية أخذ المنتجون ينظمون إنتاجهم . إذاً فليست الرغبة في إفادة المجتمع هي التي توجه المنتجين ! إلا أنه يمكننا أن نتبين أن نظرية الربح أو الفائدة الخاصة إنما تتفق إلى حد كبير مع خير المجتمع ؛ غير أن ارتكاننا إلى هذه النظرية كما سبق أن ذكرنا يكلفنا خسارة نحن في غنى عنها ، وقد يمكننا إذا أحسنا التوجيه تلافي شيء منها ، ويكون ذلك بعمل إحصاءات دولية دقيقة بقدر الإمكان بحاجات أفراد البشرية من مختلف أنواع السلع ، مبتدئة بالسلع الضرورية للشعوب جميعها ، ثم السلع نصف الضرورية ، ثم الكمالية وهكذا ؛ ثم تعمل إحصاءات أخرى مبينة أصلح المناطق لإنتاج أصلح الأنواع ؛ وتنشر هذه الإحصاءات بصورة واضحة وعامة تساعد المنتج على أن ينتج حيث يجب عليه الإنتاج ، كما تساعده على تقدير نسبة الإنتاج . كما أن على الحكومات أن توجه المنتجين إلى إنتاج ما يصلحون لإنتاجه ، وفي الجهات الصالحة لهذا الإنتاج . وإلى أن يستطيع العالم أن يجد لنفسه نظاماً أصلح من نظام الثمن في تقرير نسب الإنتاج وظروفه ، فليس لنا من سبيل إلا أن نخضع لحكم الظرف ، وأن نعمل ما وسعنا العمل للتخفيف من أثر الخضوع إلى هذا النظام . صحيح أن بعض الدول قد اتخذت لنفسها في سبيل تنظيم الإنتاج ونسبه سياسة أخرى غير سياسة الثمن السوقي ، مثل روسيا الشيوعية ، فقد وضعت الإنتاج وتحديد نسبه تحت سلطة الهيئة التنفيذية ، وبذا تخلصت من الاضطراب في الإنتاج والتوزيع إلى حد ما ؛ غير أن لهذا النظام من العيوب ومن الظروف ما يجعلنا نهمله جانباً مما لا يترك لنا إلا أن نحسن النظم القائمة وندخل عليها ما يوافق العصر من روح التجديد .

تكلمنا ، ولا أقول انتهينا ، من كيفية الإنتاج ، فعلينا أن نتساءل الآن : أما وقد أنتجنا فكيف نوصل منتجاتنا إلى من أنتجت لهم ؟ لقد نشأت فئة التجار والمنظمون ليتولوا هم عن المنتجين تلك المهمة ، فنشأت معهم مشكلة الرأسمالية ؛ ذلك أن التاجر أو المنظم بما له من دراية واسعة يستطيع أن يحصل على ربح يزيد كثيراً على أجره الحق ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن تراكم هذا الربح عند التاجر أو المنظم يضع تحت يده قوة شرائية كبيرة لا يستهلكها كلها ، بل يحول النسبة

(١) المنفعة المتزايدة : هي زيادة قيمة المنتج من المجهود والتكاليف المبذولة في إنتاجه .

العظمى منها إلى قوى إنتاجية . وينشأ عن إساءة توزيع القوى الشرائية ، وتحويل نسبة أكبر مما يجب إلى القوى الإنتاجية ، ينشأ من ذلك كساد فى استهلاك السلع الاستهلاكية ، فيحدث هبوط فى الأسعار تصحبه اضطرابات فى النظام الاقتصادى يعرفه البعض بأزمات إفراط فى الإنتاج ، وسميناه نحن فيما سبق عدم تناسق فى الإنتاج والتوزيع .

وقد عمدت الهيئات المسئولة ، تلافياً لهذا الوضع الشاذ ، على فرض الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، كى تأخذ من جانب وتعطى الجانب الآخر ، فتكفل التوازن المنشود . وعلى الرغم مما يشعر به دافع الضرائب من الألم ، وعلى الرغم مما يتصوره الكثيرون من عدم عدالة نظام الضرائب ، فقد أثبت هذا النظام أنه خير حل لمشكلة عدم التوازن فى توزيع القوى الشرائية . غير أنه على الحكومات أن تضع نصب أعينها حين تلجأ إلى فرض الضرائب مسألة هى فى غاية الأهمية ، ألا وهى أثر الضرائب فى قوى الإنتاج ؛ فقد توصلنا إلى أن مدار الإنتاج هو الربح الذى يفوق المجهود ، فطالما أن الضرائب لا تتعدى هذا الحد فلا خوف على نظام الإنتاج .

فإذا وصلنا إلى التبادل التجارى الدولى ، فقد اصطدمنا بصخرة عاتية ؛ فالدولة مدفوعة بعوامل الوطنية والاستقلال السياسى والاقتصادى ، تريد أن تظهر بمظهر المعتد بنفسه الواثق من كفاية نفسه بنفسه ، فيلجأ المنتجون إلى استغلال المرافق الضعيفة التى لا تتناسب مع المجهود المبذول ؛ ولكى توجد السوق لهذه المنتجات الكثيرة النفقات تلجأ الدولة إلى سياسة السوق المقفل ، فتضع الموانع من رسوم جمركية ، إلى قوانين منع — الخ . ولعل الأمثلة قريبة إلى الأذهان بصورة لا تدعو إلى شرح أو تطويل ؛ وليس ثمة شك فى أن هذه السياسة تؤدى إلى خسارة فى عوامل الإنتاج ليس لها ما يبررها .

ولعله يحسن بنا أن نبين العلة الأصلية لهذه الظاهرة . لقد شعرت بعض الدول منذ الثورة الصناعية حوالى منتصف القرن السابع عشر ، أن هناك دولا قد أتخمها الغنى وملأها الثراء المريض دون أيما سبب ، اللهم إلا حظ باسم قد ألقى بمراسى الثروة صدفة ، إذ بدأ هناك الانقلاب الصناعى ، فكانت بداية حسنة . ونتيجة لهذا السبق فى العمل حصلت تلك البلاد على مزايا إنتاجية مكنتها من الإنتاج بنفقات أقل من غيرها ؛ فلم تجد البلاد الأخرى بدا من وضع العراقيل فى وجه تلك المنتجات ، حتى تفسح المجال وتوفر الفرصة لمنتجاتها الأهلية التى تنشأ فى ظروف أقل ملاءمة من غيرها من المنتجات ، وإن كانت تستوفى الشروط الاقتصادية المناسبة للإنتاج ، فكانت النتيجة المباشرة أن قابلتها الدول الأخرى بإجراءات انتقامية مقابلة دون النظر إلى ظروف القرارات الأولى .

وقد كانت سياسة الدول لمعالجة تلك الحالة هى سياسة الاتفاقات الاقتصادية والتسلط الدولى والاستعمار . ولقد أثبتت تلك السياسات عقمها وعدم صلاحيتها ما لم تكن على نطاق دولى وبشكل عادل للجميع ؛ ولكن أنى للعالم السلطة التى تكفل العدالة الدولية ، وكيف للنفوس البشرية وقد اختلفت فى طبيعتها أن تتحد فى إدارتها . لقد ظهرت ، عصبة الأمم ولكنها نشأت كرضيع حكم عليه بالموت ذلك لأن القانون لا يستمد هيبته إلا من قوة منفذة ، ولأن العدل له مقاييس عند مختلف الأفراد وعند مختلف الشعوب . غير أن التجربة الفاشلة فى عرف الرجال إنما هى تمهيد لتجربة ناجحة ، وإنا لنسمع اليوم من كل جهة أحاديث كلها آمال وأمانى تدور حول نظم المستقبل ؛ فسمعنا مثلا عن مشروع نظام أوربا الجديد وما قابله من جهة الحلفاء مشروع حكومة الأمم المتحدة لما بعد الحرب ، وإن كانت هذه الفكرة لم تنضج بعد ؛ ثم ما كان من تقديم مقترحات لتنظيم وتثبيت النقد الدولى ، فقدم اللورد كينز (المشروع البريطانى) مشروعا دعا فيه إلى إنشاء غرفة مقاصة مالية ، كما اقترح وحدة القطع (النقد الدولى) الدولية وأسماها بنكر Bankor ؛ كما قد المستر مرجنتو (المشروع الأمريكى) بتكوين بنك مالى تشترك فيه كل دولة بنسبة دورتها الإنتاجية الحقيقية ، ويتمثل ذلك فى نقدها المصدر المناسب للحالة الاقتصادية ، على ألا تزيد نسبة إحدى الدول من ٢٥٪

نماذج بشرية :

راستنياك RASTIGNAC

إوجين دى راستنياك ، شخصية روائية ضخمة من شخصيات هونوريه دى بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) ، الكاتب الفرنسي الشهير ؛ وأكبر الظن أن اسمه معروف لدى الكثير من القراء ، وذلك لأن بلزاك قد تحدث عنه في عدد كبير من رواياته ، حتى لنحسبه قد بلغ من نباهة الذكر ما يلغه كبار رجال التاريخ . لقد ملأ راستنياك « الكوميديا البشرية »[١] بوجوده الصاخب ، بل لقد أفلت منها ليجوب الحياة ، وهو لا شك حيّ بيننا ، يجده كل من يمعن النظر فيمن يحوطنا من رجال .

ونحن لن نقص تاريخ حياة راستنياك منذ البدء إلى النهاية ، فذلك ما لا تتسع له مجلة . وبلزاك نفسه لم يجمع تلك الحياة ، ولا تتبعها تتبعاً تاريخياً ، وهو القائل في مقدمة روايته « إحدى بنات حواء » في صدد الحديث عن راستنياك : إنه كثيراً ما يحدث « أن نعرف وسط حياة شخص قبل أن نعرف بدأها ، وبدأها بعد خاتمتها ، وتاريخ الوفاة قبل تاريخ الميلاد » . ولقد أدرك المؤلف نفسه ما سيجده النقاد من مشقة عند ما يحاولون استقصاء أخبار إحدى شخصياته الكثيرة التي يسايرها من رواية إلى أخرى ، فتصور مازحا أن يتولى أحد الباحثين وضع « معجم للشخصيات » يلخص فيه حياة كل شخصية ، مشيراً إلى مظان تلك الحياة من « الكوميديا البشرية » ، وهذا ما كان فعلا ؛ فقد كتب الأستاذان أناتول سرفبير وجيل كرستوف « فهرساً تحليلياً للكوميديا البشرية »[١] وباستطاعة القارئ الباحث أن يعود إلى هذا الفهرس ليجد كل ما يريد معرفته عن راستنياك منذ ميلاده إلى أن أصبح وزيراً خطيراً ، وثرياً من كبار الأثرياء .

أما نحن فيكفينا أن نعود إلى مقدمة « إحدى بنات

(١) من المعلوم أن هونوريه دى بلزاك قد جمع رواياته في آخر حياته تحت عنوان واحد هو « الكوميديا البشرية » ؛ ثم قسمها إلى مجموعات هي : ١ — مناظر من الحياة الخاصة . ٢ — مناظر من حياة الأقاليم . ٣ — مناظر من الحياة الباريسية . ٤ — مناظر من الحياة السياسية . ٥ — مناظر من الحياة الحربية . ٦ — مناظر من حياة الريف . ثم أضاف إلى هذه المجموعات : ١ — دراسات فلسفية . ٢ — دراسات تحليلية .

(١) Répertoire de la comédie humaine de H. de Balzac par H. cerfbeer et J. Cristophe.

من الرصيد العام ، وأن يكون لهذا البنك الإشراف التام على حالة العالم المالية والاقتصادية . كل ذلك جميل ، بل لعل تلك المشروعات تحمل في أساسها شيئا جديراً بالبحث والتقرير . ولكن قبل أن نندفع مع تيار المتحمسين علينا أولا أن نراجع الفكر ونسائل المقترحين ، كيف يمكن لأي بنك دولي يشرف على كل الدول ؟ وأن يملي إرادته عليها أو على الأقل يوحي بالرهبة إلى كل من تحدثه نفسه بالخروج عليه ؟ إننا مع اقتناعنا بوجاهة النظم المقترحة وصلاحيتها لأن تكون أساساً للبحث ، ما زلنا نعتقد بأن كل المقترحات التي تبعد عن الأساس إنما هي مسكنات وقتية لا تلبث طويلا ، ثم يأتي رد الفعل أقسى مما كانت عليه الحال أولا . فالسبيل العملي الوحيد هو إنشاء إدارة دولية واحدة تشرف بالقوة العادلة على مصالح العالم الاقتصادي والمالي ، وحينذاك تصبح المشاكل الفرعية كمشكلة الأجور والإنتاج والنقد وما إليها مشكلات سهلة الحل ممكنة التسوية . ولكن السبيل إلى تقرير إدارة دولية عادلة سبيل صعب شائك ؛ فكيف توافق الدول الغنية على التنازل عن غناها بمحض إرادتها ، وخصوصاً أن لها من القوة والنفوذ ما يستحيل معه إنشاء إدارة دولية دون موافقتها ودون اشتراكها فيها . إن هذه المسألة لتجلب اليأس إلى قلوب الكثيرين ؛ ولكن نظرة ممعنة إلى الروح الإنسانية المتغلبة في هذا العصر واقتراب الدول والبقاع نتيجة سهولة المواصلات ، يؤدي بنا إلى شيء من التفاؤل المتحفظ ؛ فأمامنا المثل واضحاً على قبول المجتمع الحديث لفكرة مصلحة المجموع وتضحية البعض في سبيل الغير في نظام الضرائب ، فمع أن الضرائب تأخذ من جانب لتعطي الجانب الآخر ، فقد أصبحت في الدول المتمدينة أمراً عادياً لدى جميع من تقع عليهم ، وخصوصاً إذا تقادم عليها العهد .

محمد صديق الرويطة

حواء » التي أشرنا إليها فيما سبق ، نرى بلزاك نفسه يلخص لنا جانباً كبيراً من حياة بطلنا . فهو يحدثنا أنه قد ولد سنة ١٧٩٩ في راستنياك بمقاطعة شارانت ؛ وأنه ابن البارون والبارونة دى راستنياك ، وأنه قد أتى إلى باريس سنة ١٨١٩ ليدرس القانون بالجامعة ، وسكن في بنسيون مدام فوكير (Vauquer) ، حيث تعرف بجاك كولان (Jacques Collin) ، المشهور باسم فوتران (Vautrin) ؛ كما تعرف بهوراس بيانشو H. Bianchon ، طالب الطب الذي سيصبح فيما بعد طبيباً عظيماً ؛ وأنه قد أحب مدام دى نوسنجان (Mme de Nucingen) ، بعد أن تخلى عنها عشيقها الأول دى مارسيه (De Marsay) .

وكانت مدام دى نوسنجان هـذه بنتاً لرجل يسمى « جوريو » يسكن مع راستنياك في نفس البنسيون ؛ وكان السيد جوريو المذكور فيما مضى تاجر مكرونة ، وقد جمع ثروة طائلة من تجارته ، ولكنه أعطى كل ثروته لبنتيه « دوطه » حتى تتزوجا ، الأولى بأحد أبناء أرستقراطية الدم ، والأخرى بصاحب بنك من أرستقراطية المال ، وهى مدام دى نوسنجان . ولما رأت البنتان أن أباهما لم يعد يملك شيئاً ، وأنه لا يصيبهما منه غير العار ، أهملاه ، بل وتجنبتا لقاءه حتى مات الرجل ميتة حقيرة بالبنسيون ؛ وتولى راستنياك وبيانشو الطالبان دفنه ونفقات ذلك الدفن .

هذه المعلومات يستطيع القارئ أن يجدها في رواية « الأب جوريو » ، وهى الرواية التي سنتخذها مرجعنا الأساسي في تحليل المرحلة التي نريد أن نقف عندها اليوم من حياة راستنياك ، أعنى مرحلة انتقاله من الحياة الريفية النقية الخلق السليمة المبادئ ، إلى حياة المدن التي يسكت فيها صوت الضمير وتستيقظ شهوات النفس مندفعة إلى أهدافها دون أن يردعها شيء ؛ ومنذ أن اجتاز راستنياك تلك المرحلة الشاقة ، لم تعد حياته غير حياة رجل مغامر ، حياة متتابعة الأحداث . ومن السهل على القارئ أن يعود إلى رواية « بنت نوسنجان » ليعرف كيف أصبح راستنياك من كبار الأغنياء سنة ١٨٣٦ ، وقد تزوج في سنة ١٨٣٨ بأوجستا بنت مدام دى نوسنجان عشيقته القديمة التي تركها منذ خمس سنوات . وفي سنة ١٨٣٩ أصبح وزيراً للأشغال العمومية . وأما بقية مغامراته فمنثورة في عدة روايات ، وكلها في انتقال ما ذكرنا من ثراء ونفوذ ووجاهة اجتماعية ، دفع ثمنها راستنياك غالياً من مبادئ الخلق وكرامة الإنسان .

راستنياك الذي يستوقف الباحث ، هو راستنياك الطالب ، كما نجده في رواية « الأب جوريو » ، فهنا تقع المأساة البشرية ، مأساة الصراع في نفس البطل بين نشأته الأولى الشريفة ، وبين مغريات الحياة الباريسية ووسائل تلك الحياة المعيبة . ولنترك لبلزاك مهمة تقديمه للقارئ بعد السنة الأولى من دراسته بالجامعة ، وقد أخذت أعين الشاب تتفتح ، وأخذ الطموح يدب في نفسه ، « وكما يحق للنفوس الكبيرة لم يرد راستنياك أن يدين بشيء لغير مواهبه ، ولكن نفسه كانت من نفوس أهل الجنوب ، تلك التي ما تكاد تصل إلى مرحلة التنفيذ حتى يضرب في عزمها ذلك التردد الذي ينتاب الشبان عند ما يجدون أنفسهم في وسط اللجة دون أن يعرفوا إلى أي جهة يوجهون قواهم ، ونحو أي صوب يرخون قلاعهم ؛ وإذا كان قد أراد في أول الأمر أن يلقى بنفسه إلى العمل ، فإنه لم يلبث أن أغرته ضرورة التعرف بذوى المكانة ، فلاحظ ما للنساء من نفوذ خطير في الحياة الاجتماعية ، وسرعان ما عن له أن ينطلق إلى الوسط الراقى ليجد فيه حماة من النساء ، وهو واثق من أنه لن يعدم العثور على ما يريد ؛ وكيف لا يعثر بهن شاب مثله حاد الذكاء حاضر النكتة ، وقد اجتمع فيه إلى الحرارة والذكاء ما زادهما قيمة من رشاقة سمت ، وجمال عصبي كم يحلو للنساء أن يقعن في شباكه ! ولقد هاجت تلك الأفكار فتانا وسط الحقول ، إذ هو يتريض في مرح مع أخواته اللاتي وجدنه قد تغير تغيراً واضحاً . وكانت خالته « مدام دى مارسياك » De Marcillac قد عرفت فيما مضى كبار الأرستقراطية ، إذ كانت يوماً ما من بين من يترددن على البلاط . وفجأة لمح فتانا الطموح عدة معارف يستطيع أن يصل إليها ،

وهي لا تقل أهمية عن معارفه في كلية الحقوق ؛ ولقد كان في الذكريات التي رعتها بها خالته ما يلهب خياله ، فسألها من روابط القرابة التي يستطيع أن يعود فيصلها . وبعد أن استعرضا شجرة النسب كاملة استقر رأي السيدة العجوز على أن الفيكونتس « دي بوسيان » "De Beauseant" ستكون من بين أقاربهم الأغنياء الأرزن أقلهم تمسكاً في خدمة ابن أختها . وفعلا كتبت خطاباً إلى هذه الفيكونتس الشابة ، كتبته بالأسلوب القديم ، وأعطته لأوجين قائلة إنه لو نجح مع الفيكونتس فإنها ستصله ببقية أقاربه . وبعد أيام قليلة من عودة راستنياك إلى باريس ، أرسل خطاب خالته إلى مدام دي بوسيان ؛ وأجابت الفيكونتس بدعوته إلى حفلة راقصة في اليوم التالي . وكان راستنياك شاباً حاد الذكاء ، عالماً بذكائه . وقد أدرك أن أساس النجاح هو قوة الإرادة ، وهو يحس في نفسه بتلك القوة ؛ ونظر فبدا له أنه لن يستطيع الرضا بالخمول المبتذل ، وهيهات له أن يقنع بما يعده له أهله من دراسة القانون دراسة جيدة والنجاح في الامتحانات بتفوق ، ثم الحصول على مركز وكيل نيابة أو قاضٍ بالأرياف . لقد كان راستنياك يطمح إلى أن يخرج من بين الصفوف فتشرق شخصيته وتتحقق ملكاته ؛ كان يريد أن يعيش في باريس وسط الأرستقراطية ؛ كان يريد الوصول .

وأول ما اتجه إليه عزمه هو المال ، فقد كان يعلم أنه لا بد منه لكي يستطيع الظهور بين النبلاء ، فيلبس كما يلبسون ، وتقوده العربات كما تقودهم ؛ وبالجملة كان حريصاً على أن يظهر في مظهر الأغنياء الذين لا يعدون ما ينفقون . وكان يعلم بؤس أمه وأخواته ، وما يتكبدن في سبيله من تضحيات يقدمنها راضيات لأوجين الذي تركزت فيه آمال الأسرة لعله ينتهي من دراسته بنجاح . ولكنه رغم علمه بضيقهن المادي ، لا يتردد في أن يطلب إليهن المال ليستطيع الاستعداد للذهاب إلى حفلة « الفيكونتس » ؛ ولقد أرسلن إليه ألفاً وخمسمائة فرنك مع توصياتهن الحارة ، فانتزعت التوصيات من عينيه بعض الدموع . ولكن الألف والخمسمائة فرنك نفخت أوداجه وملأته إحساساً بالانتصار ؛ وسرعان ما استدعى الترزي واتفق معه على ما يريد من ملابس يدفع ثمنها أقساطاً مبتدئاً بقسط كبير . عندئذ لم يعد فتانا الهمام يحس بشيء مما حوله ، وقد نزل من حجرته إلى مائدة البنسيون في تلك الهيئة الفريدة التي تخلعها النقود على الشبان . ومن المعلوم أنه ما تكاد النقود تستقر بجيب أحد الطلبة حتى يستشعر جرأة عجيبة ، فهو يسير بأقدام أثبت من أقدامه ، وكأنه قد وضع يده على رافعة الأثقال ، وتصبح نظراته مليئة مباشرة ، وحركاته خفيفة . لقد كان بالأمس حيياً متواضعاً قد يُضرب فلا يحرك ساكناً ، أما اليوم فقد يضرب هو رئيس الوزراء ؛ تمر بنفسه ظواهر عجيبة ، فهو يريد كل شيء ، وهو يستطيع كل شيء ؛ يريد هذا وذاك دون بينة ولا اختيار ، وهو مرح كريم طليق النفس . وفي كلمة واحدة : لقد استرد الطائر المهيض جناحيه القويين . الطالب الذي لا نقود معه يختطف (نتفة) من اللذة ، كالكلب الذي يسرق (عظمة) تحفها المخاطر من كل جانب ، ثم يكسرها ويمص نخاعها ، ويستمر في العدو . وأما الشاب الذي توسوس في جيبه النقود ، فإنه يتذوق لذاته ويحزوها ويتمهل فيها . إنه يتأرجح في السماء ، ولا يعود يذكر لكلمة البؤس معنى . باريس كلها ملك له ؛ ذلك هو السن الذي يلمع فيه كل شيء ، ويتقد ، سن القوة المرحة الذي لا يعرف أحد كيف يستفيد منه ، لا الرجال ولا النساء ؛ سن الديون والمخاوف الكاذبة التي تزيد من طعم اللذات . إن من لم يمش بالضفة اليسرى للسين بين شارع سان جاك وشارع سان بير لا يعرف شيئاً من الحياة البشرية » .

في هذه الصفحة التي تنبض حياة ينفث المؤلف أنفاسه الخاصة في شخصية راستنياك ؛ فلكم حلم بلزاك الذي ولد مع راستنياك في نفس العام بأن يبهر العالم ببذخ ملابسه وأحصنته ؛ ولقد أعوزه المال دائماً ، ولذلك كان الحسد إياه فشعرورة نفسية ، هي تلك التي ترتعد في الصفحة الآتية .

وذهب راستنياك إلى الحفلة ، وقد اتخذ له أستاذاً في فهم الحياة مدام دي بوسيان . وما نظننا في حاجة إلى تفصيل مبادئ الوصول ، فتلك المسائل تقع تحت

أبصارنا كل يوم ، وهل هي إلا تظاهر بالسمو عن الغير ، سمواً سبيله احتقار كل من عدانا ، وتبجح بمثل متسام مثير ، ثم قتل لصوت الضمير في النفس ، وإسكات للمُثل التي تصرفنا عن اغتنام الفرص ، وإعراض عن الرحمة التي تردنا عن القسوة ، وهي أخيراً ألا نرى إلا أنفسنا ، وألا نرد شيئاً إلا إلى أنفسنا ، وأن نضحى بالغير في سبيل أنفسنا ، وأن نعلى أنفسنا على سوانا ، مهما كان في ذلك الإملاء من جروح ! وهذه هي المبادئ التي تلقاها راستنياك عن الفيكونتس . ونحن نجتزئ ببعض ما سمع عندها من دور صريحة مثل : « إن القلب البشري كالكنز استنفده في غرفة واحدة تجد نفسك مفلساً . إن الناس لا يغتفرون لمن يظهر شعوره كله دفعة واحدة أكثر مما يغتفرون لمن لا يملك فلساً واحداً » . وقولها : « كلما ازددت روداً في تقديراتك ازددت تقدماً إلى الأمام ، اضرب بغير شفقة يخشاك الناس . لا تنظر إلى الرجال والنساء إلا نظرك إلى خيل البريد التي تتركها تنفق عند نهاية كل مرحلة ، وبذلك تصل إلى أسمى ما ترتفع إليه رغباتك » .

وعاد راستنياك من الحفلة إلى البنسيون ، بعد أن أمعن النظر في أرستقراطية باريس . وفي البنسيون وجد أستاذه الفحل جاك كولان المعروف بفوتران : مجرم قديم ، أعيى رجال الأمن أمره ، وقد أفلت من السجن حيث كان مقضياً عليه بالأشغال الشاقة ، ولجأ إلى بنسيون مدام فوكير متنكراً . وقد أحس راستنياك في خلق الرجل جرأة ، وفي حديثه سلطة آمرة حتى أوشك أن يقاتله في مبارزة ؛ ولكن فوتران أوقفه بحركة آمرة ، وأرغمه على أن يجالسه تحت إحدى شجيرات الحديقة المحيطة بالبنسيون ، وهناك وجه إليه تلك الخطبة التي ترتعد لها الفرائص ، قال : « تريد أن تعرف من أنا ، ماذا فعلت ، وماذا أفعل ؟ حقاً إنك يا بني مسرف في حب الاستطلاع . آه ! هدوءاً هدوءاً أيها الطفل ! ستسمع أكثر من ذلك ، لقد ابتلتني الحياة ، استمع إليّ أولاً ثم رد بعد ذلك . ها هي حياتي السابقة في ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران . ماذا أفعل ؟ ما يحلو لي . سأوضح لك أنا الوضع الذي أنت فيه ، ولكني سأفصل ذلك في تفوق الرجل الذي اختبر أمور الحياة ، فرأى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما الخضوع الأبله ، وإما الثورة ؛ وأنا لا أخضع لشيء . أواضح ما أقول ؟ هل تعلم ما أنت في حاجة إليه لتسير في الحياة كما تريد الآن ؟ إنك في حاجة إلى مليون فرنك تجدها سريعاً ، وإلا فادلك رأسك الصغير إلى شباك « سان كلو » (السجن) ، لتبحث هناك عن الكائن الأسمى . هذا المليون سأعطيه أنا لك » .

وأمسك فوتران من الحديث منبهة ناظراً إلى راستنياك ، ثم استأنف : « ها ها ! إنك تنظر الآن إلى عمك فوتران نظرة أرفق من ذي قبل — ها هو موقفك أيها الشاب ، لدينا هنالك أب وأم ، وخالة وأختان « في الثامنة عشرة والسابعة عشرة » ، وأخوان صغيران « في الخامسة عشرة والعاشرة » ، هذا عدد الجوقة . الخالة تربي البنات ، والقسيس يعلم اللاتينية للأخوين ، والعائلة تأكل من عصيدة أبي فروة أكثر مما تأكل من الخبز الأبيض . الأب يحافظ على سرواله ، والأم تقنع بثوب للشتاء وآخر للصيف ، والأختان تدبران أمرهما كما تستطيعان ، وأما نحن فلدينا الطموح . نحن أقرباء بوسيان ، ثم نذهب إليهم على الأقدام ! نريد الثروة وليس لدينا سحتوت ، نأكل من « عك » الأم فوكير ، ولكننا نحب الغذاء الفخم في فور بور سان جرمان ؛ ننام على سرير كالشرحة ، ونريد أن نسكن في فيلا . إني لا ألوم رغباتك ، فليس باستطاعة كل إنسان أيها الطفل العزيز أن يكون طموحاً . لقد أحصيت رغباتك لكي أسألك السؤال الآتي : نحن جياع كالذئاب الضارية وقواطعنا ماضية ، فكيف السبيل إلى ملء القدر . ليس لدينا ما نأكله غير مجموعات القوانين ، وهذه لا لذة فيها ولا فائدة من ورائها ، ولكنه الواجب ، فليكن ، ثم نشتغل بالمحاماة لنصبح رؤساء المحكمة جنايات ، فنرسل إلى السجن شياطين المجرمين ، مع أنهم خير منا ، وذلك لكي نثبت للأغنياء أنهم يستطيعون أن يناموا هادئين . هذا عمل لا بهجة له ! ثم إن الشوط طويل ، فلا بد من التسكع سنتين بباريس ، ننظر فيها إلى النقود دون أن نستطيع مسها مع شدة رغبتنا فيها ، وإنه لأمر

معنى أن نستشعر دائماً الرغبة دون أن نستطيع إشباعها. ولو أننا كنا ساحبين وكنا من طبيعة الرواحف لما خشينا شيئاً، ولكن دماءنا من دماء الأسود، وفي شهيتنا قابلية لارتكاب عشرين حماقة في اليوم.

هنا أيها الشاب هو مفترق الحياة، ولقد اخترت، فذهبت عند وسيان من بني عمومتك، ولقد أحسست هناك بالبذخ، كما ذهبت إلى مدام دي رستو De. Restaud بنت الأب جوريو، فشممت فيها رائحة المرأة الباريسية؛ ولقد منذ ذلك اليوم وعلى جبينك كلمة قرأتها في وضوح هي: الوصول، الوصول بأي ثمن؛ فصحت: براڤو؛ هذا عملاق يلائمني؛ ولقد شعرت بالحاجة إلى المال، فأين تجده؟ لقد نزفت دماء أخواتك فاستلبت منهن ألفاً وخمسمائة فرنك بطريقة يعلمها الله، وهي في بلاد قد تجود بأي ثروة أكثر مما تجود بقطع النقود؛ ولكنك تسلك كالجندي الهارب في الظلام. والآن ماذا تفعل بعد ذلك؟ أتجد في العمل، والعمل لا يغني فقيراً، والثروة العاجلة هي المشكلة التي تعرض لخمسين ألف شاب مثلك ممن يجدون أنفسهم في موقفك الحالي، وأنت واحد من هذا العدد. فكر في المجهود الذي يجب أن تبذله، وفي عنف.

المعركة التي ستخوضها. لا بد أنكم ستأكلون بعضكم بعضاً كالعنكبوت التي يجتمع في زهرية واحدة، وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هنالك خمسون ألف مركز كبير. أتدري كيف يشق الناس سبيلهم في هذه الدنيا؟ يشقونه بريق العبقرية، أو بالمهارة في الخسة. يجب أن تسقط في صفوف البشر كقنبلة، أو أن تتسلل بينها كوباء؛ أما الشرف فلا فائدة فيه. إن الناس ينحنون أمام قوة العبقرية، وهم يكرهونها، ويحاولون النيل منها بأقوال السوء، وذلك لأنها تأخذ دون أن تقتسم، ولكنهم ينحنون إذا ثارت؛ وفي كلمة واحدة الناس يعبدونها جاثين عندما يعجزون عن جرها في الأوحال. وكذلك الخسة فهي قوة؛ الخسة سلاح الضعفاء الذين يملأون الأرض، وسوف تحس بوخزاتها في كل مكان. إذا كنت تريد أن تثرى سريعاً، فمن الواجب أن تملك شيئاً أو تتظاهر بأنك تملك شيئاً. لكي تثرى يجب أن تقامر بضربات قوية، وإلا أضعت وقتك في الحبو ثم هيهات.. وفي المائة مهنة التي تستطيع أن تزاولها سترى الجمهور يسمي الشرة الأشخاص الذين ينجحون بسرعة لصوصاً. استخلص الرأي. هذه هي الحياة، فهي ليست أجمل من «الطبيخ»، ورائحتها رائحته. يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى، ولكن يجب أن تعرف كيف «تنظفها». بعد ذلك في هذا جماع الأخلاق في عصرنا. وإذا كنت أحدثك عن الحياة على هذا النحو، فذلك من حق يحكم أني أعرفها. وهل تظن أني أعتب عليها باللوم؟ أبداً، فقد كانت دائماً كذلك ولن يستطيع الوعاظ تغييرها. الإنسان كائن غير كامل، وهو إلى حد ما منافق، ولهذا يرى الحمقى أنه عديم الأخلاق؛ وأنا لا أتهم الأغنياء لصالح الفقراء، فالإنسان هو هو في أعلى وفي أسفل وفي الوسط. وفي كل مليون من هذه الحيوانات الرفيعة قد تجد عشرة لصوص يضعون أنفسهم فوق كل شيء، فوق القوانين ذاتها، وأنا واحد من هؤلاء. أما أنت فإذا كنت رجلاً سامياً فاسر في خط مستقيم مرفوع الرأس، ولكنك ستضطر إلى مقاتلة الحسد والنميمة والحقارة، ستقاتل جميع الناس. لقد لاقى نابليون وزيراً للحرب اسمه أوبري Aubry، ولقد أوشك هذا الرجل أن يرسله إلى المستعمرات. تحسس موضع قوتك، وانظر هل تستطيع أن تستيقظ كل صباح بإرادة أقوى من إرادتك بالأمس؟ وإذا كانت لي نصيحة أعطيها إليك أيها الشك، فهي ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك. وعندما يسألك أحد عن رأي بعه له. والرجل الذي يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائماً في طريق مستقيم. هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ، وليست هناك مبادئ، وإنما هناك أحداث. ليست هناك قوانين، وإنما هناك ظروف، والرجل الممتاز هو من يحتضن الأحداث والظروف لكي يسيرها».

(يتبع)

محمد مندور

بعض ما ينقصنا :

الحب . . . ! !

قد يستغرب القارئ هذا العنوان . وقد لا يصدق أن الحب مما ينقصنا في هذه الحياة ، ومما يقلل من نشاطنا ، ويقعد بنا عن اللحاق بالأمم الأخرى في ميدان الكفاح البشرى ! وغريب حقاً — ونحن نستنفد طاقتنا الحيوية في الحب — أن نكون بعيدين جداً عن دنيا هذا الحب ، جاهلين بأثره أو خطره في خلق الحياة والأمم .

ولكن كيف ينقصنا الحب ، وكل فرد فينا يحب ، ويستنفد طاقته الحيوية في الحب ؟ كل فرد فينا يحب . هذه هي الحقيقة ، الحقيقة الواضحة الملموسة ، نلمسها في منازلنا ومجتمعاتنا ، في مدارسنا وشوارعنا ، في أدبنا وأغانينا ، في كل شأن من شئون حياتنا ومظهر من مظاهرها ... ثم في مثلنا الأعلى في الحياة ... !

الرجل الحي المثقف ، والمرأة الحية المثقفة ، كلاهما يحب ، بل كلاهما يسعى إلى هذا الحب ، ويستقبله على أنه هبة السماء ، على أنه بدء الرحلة التي تتبلور فيها شخصيته ، وتتفتح مواهبه ، ويتحدد هدفه ، ويصبح قوة سعيدة عاملة .

الرجل الحي المثقف ، والمرأة الحية المثقفة ، كلاهما يحب على هذا النمط ، وكلاهما يسير في سبيل الحب سيراً طبيعياً ، وكلاهما يفهم الحب على أنه ضرب من التجلي يحبو الله به من يشاء من عباده .

فالرجل الحي المثقف يتخذه علامة على التوفيق ، وعلى أن الله أراد به خيراً لنفسه ولغيره ، وعلى أنه أراد أن يبعث فيه إنساناً آخر يدين بالمبادئ الإنسانية السامية ، وينشط للعمل بحرارة وشوق ؛ يتحلى بالحميد من الخلال ، ويعمل على إسعاد نفسه ، وكل من يتصل بهم ؛ فهو متفائل ، واثق بالمستقبل ، معتز بالرجولة ، مؤمن بقيمة العمل ، يرى أشواك الحياة على نور الحب وروداً وأزهاراً .

وهو يتخذه حجة على مضاعفة الجد والاجتهاد ، وحافزاً على مواصلة السعي والكفاح ، وعلى النظرة إلى الحياة بمنظار الجد والاعتبار ... وأخيراً يتخذه حلماً لذيذاً ينعم به في سويعات راحته وخلوته ، وظلا وارفاً رطباً يفىء إليه كلما أجهده الجولان في صحراء الحياة ... !

كذلك يفهم الرجل الحي المثقف الحب ، فهو يحبه ، ويتفاءل به ، ويفتح ذراعيه لاحتضانه ؛ يجد في جحيمه تطهيراً ، وفي حرمانه أسمى مبادئ القناعة والرضا ، وفي تضحياته خير وسيلة للتخلص من الأنانية أو الأثرة المقيتة . فالحب لا يدخل في عالمه إعصاراً جامحاً مخرباً ، وإنما يدخل رقيقاً عطراً كنسائم الربيع !

والمرأة الحية المثقفة كالرجل الحي المثقف تحتفل بمقدم الحب ، وتقيم له في أعماقها فرحاً شعرياً ؛ فهو ينضر لها الدنيا ، ويجمّل أمامها الحياة ، ويلقي على نفسها ظلالا من الحبور والبهجة ، ويشيع في عالمها طرباً روحياً عميقاً .

هي لا تفهم الحب جنوناً عارماً ، وصبوة سافرة ، ومجوناً يزري بالتقاليد ، ومكايد تكاد ، وأحابيل تمد للطارقين أو العاشقين ... وهي لا تفهمه ثياباً تصف ما تحتها ؛ أو بهرجة كاذبة زائفة ؛ أو افتناناً في أساليب الغواية والاصطياد ؛ أو إثارة للنزعات الحسية ؛ وإنما هي تفهم الحب صورة ألطف وأطهر من تلك الصورة ! تفهمه على أنه إرهاص بانبثاق فجر الأمل ، ويشير بإقبال السعادة والدنو من البيت ... البيت الذي خلقت وأعدت له ، البيت الذي تشعر فيه بالاستقلال ، وتحشد له مواهبها وتجاربها ، ثم تسكن فيه إلى الزوج والأبناء ... البيت الذي يلازمها ويعاشبها ، ويعانق أحلامها ، ولا يكاد يفارق تفكيرها ... !

ذلك هو الحب في دنيا المثقفين . دنيا المحبين الصادقين ، لا دنيا المثلين الكاذبين !! يفهمونه على هذا الوضع الصحيح ، ويتخذون حتى من آلامه دوافع تربي فيهم قوة الاحتمال والمقاومة ، وتهذب من غرائزهم الجامحة ، وتقوّي من عزائمهم الخائرة ، وتنمي فيهم عناصر الشخصية الممتازة ، ثم تخلق منهم في النهاية ذواتاً إنسانية تخط في سجل الحياة أروع الصفحات !

أما الحب عندنا أو في دنيانا فنكبة . . . ! أي والله نكبة مضحكة ! فكل فرد منا لا يهدأ له نوم ، ولا يهدأ

له بال إلا إذا أحب . فإذا أحب كان ذلك نكبة ووبالا عليه ، وكان من لوازم أو بركات ذلك الحب أن يقعد عن كل عمل ، وكل شأن له في الحياة ، وأن يهمل حتى في مستقبله ، ويصبح ولا شيء يعنيه في الدنيا أكثر من أن ينال التفات حبيبته بحسن هندامه ، وجمال طلعته ، وتصفيف شعره ، وسحر نظراته ، وتفاهة عقله ، وسخافة أحاديثه ، ومظاهر ترفه وغناه ... !! يجرى الزمن في هذا العصر كما ترى ، والمغنون عندنا لا يزالون متخلفين في حبهم وتصوره ، فهم ما فتئوا يحبون ذلك الحب المتبذل الرخيص ، ويُمَوِّتون أو يسممون نفوس الشباب المتطلعة بهذه الشحنات الخبيثة من العواطف المريضة . تسمع غناءهم فلا تكاد تحس في نفسك طربا أو نشوة ، أو طموحا وتطلعا ، أو توثبا وانطلاقا من مادية الجسم ، وإنما حظك منه تخيب مصطنع ، وغثاء يثير النفس ويؤذي الشعور ..!

فالحب عندهم غدر وخيانة ، وضنى وعذاب ، ولؤم ومكر ، وهجر وخصام ، وسهر ودموع ، ورقيب وعذول ، ودماء تراق ، وجراح تطلع في جميع الجوارح والأعضاء ! وليس من الجائز أو الممكن أن يفهموا الحب أو يعرفوه شيئاً غير هذا ، في الوقت الذي تثقفت فيه المرأة المصرية ، وظهرت في المجتمعات ، وخرجت تنافس الرجال في ميادين الأعمال ، وأصبح من السهل مقابلتها ومرافقتها في كل مكان ، دون عذول أو رقيب ؟!... لو كان المغنون أو من يكتبون لهم هذه الأغاني مثقفين محبين حقا ، لحدثونا عن الحب الصحيح ، عن مختلف أحواله وأطواره . عما يجدون فيه من إخصاب في الروح ، وفسحة في الشعور ، وتفجر في النشاط ، وتفاؤل بالمستقبل ، وتعلق بالحياة بدل أن يضايقونا بالغناء الباكي ، والمعاني الخنثة ، والعواطف المشوشة ، مما يفضحهم ، ويبين نقصهم في فهم الحب ، ومدى رسالته ... والشعراء عندنا ... فيم يستنفدون طاقتهم الشعرية ؟ يستنفدها المجيدون منهم في الحب ولو لم يعرفوه أو يقابلوه ! أجل ، يعيشون في حلم مديد من الحب . لا عمل لهم في الحياة أكثر من أن يأكلوا ويحبوا ، وحسب الحياة منهم ذلك . وليتهم يفهمون من الحب ما يفهم الحي المثقف فيفيدوا ويستفيدوا ! وإنما قصاراهم أن يتباكوا ، وأن يسمعونا كل شعر ناضب جامد . وتلك رسالتهم ! والرجل العادي ماذا يدري من الحب ويعرف عنه ؟ إنه لا يعرف منه إلا الجانب المادي ؛ جانب المتعة الرخيصة . أما الإقبال عليه على أنه جزء مكمل لحياته ، مُحَمِّل لها ، فهذا ما لا يقوى على فهمه أو يقدر عليه !

والمرأة المصرية بماذا تقيس الحب ؟ إنها تقيسه بالأطوال ، تقيسه بمقاييس الجمال والمال والجاه والشهرة ، غير مكترثة بالتجاوب في الحب والانسجام فيه . وهكذا يفهم الحبَّ سائرُ الطبقات .. ! من أجل ذلك كنا ناقصين في الحب ؛ جاهلين بخطره وأثره . ومن أجل ذلك تتفكك الأواصر التي ينبغي أن تكون بيننا ، لانعدام الحب العام الذي يقوي تلك الأواصر . ومن أجل ذلك يتعطل الحب في مجتمعنا ، فلا يكاد يؤدي وظيفة أو عملا . ومن أجل ذلك يغلب علينا الجمود وترين الكآبة ، وتسود البطالة ، ويقل النشاط ، وتستحيل حياتنا ضربا من الموت أو الموت ضربا منها !

وسوف نظل هكذا ، حتى تتبدل نظرتنا ، وتستقيم فطرتنا ، ويصح شعورنا ، ويقوى إيماننا بالحياة ..

وبعد ، فلنتحب الحب الذي يقدمنا لا يؤخرنا ، ويحيينا لا يميتنا ، ويسعدنا لا يشقينا . . .

الحب الذي يهب كل شيء ، ولا ينتظر أي شيء . .

الحب الذي يتفاعل مع نقص الحياة فيحدث كمالا ، ومع أوجاعها وأحزانها فيصنع مسرات وأفراحا ، ومع شركها وكفرها فينتج وحدانية وإيمانا .

ذلك هو الحب . . . الحب الذي ينقصنا في حياة ينقصنا فيها الكثير . . . !!

عبد العزيز عتيق

قصة الأدب فى العالم

تأليف الأستاذين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود

سررت أن تفوز اللغة العربية بكتاب فى هذا الموضوع كان مكانه من مكتبتها خاليا ، وظللت انتظره بشوق منذ قرأت الإعلان عنه فى الثقافة الغراء قبل صدوره بأسابيع . فاللغة العربية اليوم حاجة ماسة إلى معالجة هذا الموضوع بشكل واسع النطاق ، على نحو ما صنع الأستاذان الجليلان أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود .

وكل الأمم الحية ، كما ذكرا فى مقدمة الكتاب ، لم تترك أدبا من الآداب الشرقية والغربية إلا أعلمت قومها به ، ونقلت إليهم أقوم آثاره ، بالمطولات والمختصرات ، والمجموعات والمتفرقات ، بينما فرطت اللغة العربية فى ذلك كل التفريط . فالنهضة العربية فى عصر الدولة العباسية أسست على الترجمة ، ولكنها أضربت عن ترجمة الأدب مما سبب خسارة كبيرة للأدب العربى ، وقيد أفقه ، فلم يجر إلا فى مجاريه القديمة ؛ وقد كان ذلك فيما أرى السبب الرئيسى للركود الذى أصاب الأدب العربى منذ نهاية العصر العباسى الأخير إلى عصرنا هذا . وقد عرفت الآداب الغربية فى خلال تلك الفترة الطويلة ، التى يدعوها مؤرخو الأدب بالفترة المظلمة ، أنواعا أدبية جديدة ظللنا بمعزل عنها . وقد ندرك مرارة هذه الحقيقة إذا تذكرنا أننا لم نعرف فى أدبنا الملحمة ولا المسرحية ولا الرواية ولا القصة ولا الشعر القصصى من الفنون الأدبية التى عرفتها آداب الأمم الأخرى.

فإذا كنا نريد لأدبنا العربى أن يجارى تطور الزمان ، ويلحق بالقافلة التى تأخر عنها كثيراً ، فلا بد لنا من دراسة آداب الأمم الأخرى ، والاطلاع عليها ، والتعرف فيها على الأنواع الأدبية المستحدثة ، والأساليب الجديدة ، والأخيلة والأفكار التى تختلف فى كل أدب وعند كل أمة .

وقد كانت الخدمة التى أسداها مؤلفا الكتاب بعد « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » خدمة ممتازة واقعة تامة النفع ، سدت حاجة وملأت فراغا ، ولعلها تفوق سابقتيها فى صعوبتها واتساع موضوعها وما يقوم دون تحقيقها من عقبات . ونظرة مجملة فى موضوعات الكتاب تكفى للدلالة على عظم المجهود المشكور الذى أنفق فيه .

ويختص هذا الجزء الأول من « قصة الأدب فى العالم » بالأدب القديم وأدب العصور الوسطى ، فيدرس الأدب المصرى والأدب الصينى والأدب الهندى والأدب الفارسى القديم والأدب العبرى والأدب اليونانى والأدب الرومانى والأدب الإنكليزى فى العصور الوسطى ، والأدب العربى فى العصور الوسطى ، والأدب الفارسى الإسلامى فى العصور الوسطى — ثم يعطى فى آخر كل فصل أو فى خلاله نماذج مترجمة ترجمة جيدة لكل من هذه الآداب .

ولا ريب فى أن هذه العجالة لن تتسع لدراسة الكتاب والتعليق على فصوله أو نقدها تفصيلا ، وأرجو أن أوفق إلى ذلك فى فرصة أخرى . وهذه ملاحظات عابرة بدت لى وأنا أقرأ الكتاب متمتعا بعرضه الشيق وموضوعه الطريف : ١ — فى الفصل الخامس من « نشأة الأدب » نجد الإشارة الصريحة المتكررة إلى أسبقية الشعر على النثر ، وهذه الإشارة بالرغم من بساطتها وبداهتها أخطأت فيها كثير من كتبنا الأدبية قديمها وحديثها فقدمت النثر على الشعر . ٢ — وفى الفصل عينه نجد نقطة قد تكون جديدة على الدراسات الأدبية العربية ، بالرغم من أهميتها ، وهى النظر إلى الأدب كظاهرة اجتماعية تتأثر بالبيئة ونظمها الاقتصادية والاجتماعية من أوتوقراطية وديمقراطية . ولكن قد يؤخذ على المؤلفين عدم اعتبارهما بهذه النظرة فى غضون الكتاب كثيراً عند دراسة الآداب المتغايرة بيئاتها ومجتمعاتها اختلافا واسعا مع ضرورة إيلائها العناية الكبيرة فى الدراسات الأدبية الحديثة . ٣ — ما ورد فى الصحيفة (٨٨) من خطأ عند الكلام من قصة شمشون ، إذ جاء أن الشاعر الانكليزى ملتن قد تناول هذه القصة فى إحدى قصائده « كما تناولها كذلك الكاتب الفرنسى — سانت سايتس — فى رواية تمثيلية غنائية عربى الطبيعة بين مثيلاتها فى الأدب الحديث » ؛ وسان سان ملحن موسيقى مشهور وضع ألحان هذه الرواية — التى كتبها فرديناند لوميد — وليس بكاتب كما جاء فى الكتاب سهوا فى أغلب الظن . ٤ — ما جاء فى فصل الأدب الفارسى

من شاطئ النجوى :

من يانبي الهوى ...؟

فراشة النور طافت حول وجدانى
تحسو رحيق الهوى والسحر من حانى
مرعوشة الفتح .. كم نحو السنا خطرت
تهدى إليه تسابيحى .. وألحانى
فردها الصمت أحلاماً مروعة
فى خاطر الليل ... ترمى خافق العانى
حومت والليل حولى مرتجعة ...
تذكى خيال الندى من دمعها القانى
فرحت للغيب أبكيها ... فرنّ بنا
ونحن فى نشوة الأحزان ... رو[ي]حانى
فقال شاد بهنا .. والريح ترعشه :
من راح يبكى على شطى ... فبكانى ..؟

فقلت والروح فى جنبى عاصفة :
من يا نبى الهوى لليتم زكانى ...؟
وفى خفاف الأسى والسهد خلفنى
لحناً يتيم الصدى فى عود أحزانى ؟
ومن بكأس الضنى يا رب أرشفنى
وفى غدير الجوى والهم ألقانى ؟
ومن بقفرة عمرى كفنت وترى
وأسلمتنى لعين البؤس رعانى ؟
خلفتنى بأيك الزهر عمرة أطافها سقيت من قلب فنان
فقال : يا زورقاً فى اليم تصرعه
هوج الرياح ولم تنجدك ربانى
حالى كحالك فى الدنيا هو الهنى كأنما نحن للأوهام عشان
فرح لوادى السنا واصرح وعجّ به
فتمنى دنياك يا محروم بومان !!
فقلت ، والطير من شدوى موطنه
ما أبصرت شجوها من قبل عينان
جبت الوجود فلم ألمح بصفحته !!
إلا جحوداً لما تذكيه عيدانى !!
كأننى آهة فى البيد ساخرة
أو فكرة عصفت فى رأس شيطان
أو نغمة .. والصدى فى الصمت ينسخها
همساً يذيع بوادى اليأس أشجانى
فقال : يا راهب الأزمان دع ألماً
فى النفس يخبو فلن ترويك شطآنى
بالأمس رقرقته للموج أغنية فراح يحكى صداها الشاطئ الثانى
فصد لدنياك قد ذوقتنا شجناً
وهدمت رحمك الهوجاء بنيانى
فعدت من شاطئ النجوى وفى كبدى
نار تذيب بحر الدمع أجفانى
وقلت يا روحى العذراء مغفرة إنى دفنت اللى فى قبر أزمانى

محمد عبد الفتاح ابراهيم

الإسلامى فى العصور الوسطى ص ٤٦٠ من تعليق على ملاحظة وردت فى كتاب «شعر الهند» للأستاذ عبد السلام الندوى إذ قال : «إن الفلسفة والتصوف فى الشعر الفارسى والأردى لا نظير لها فى الشعر العربى» ؛ فورد فى الكتاب تعليق على هذه الملاحظة لم أدر أكتبه الدكتور عزام الذى كتب هذا الفصل من الكتاب أم أورده المؤلفان ، وهو يقول إن الفلسفة لا تقبل فيها هذه الدعوى . وأنا بالرغم من قراءتى الشعر الفارسى عن طريق ترجماته فقط — لم أجد ما يؤيد هذا التعليق بقوة ، وياليته كان معززاً بأمثلة وأدلة توضح القصد منه .

وهذه كما يظهر ملاحظات طفيفة لا تنقص من قدر الكتاب الذى يكفيه نبلا أن تعد معايبه . وإنى لعظيم الغبطة أن أقدم إلى قراء الأدب العربى هذا السفر القيم ، وأوصى أدباءنا أن يولوا وجوههم هذا المنحى النافع ، وأن أحيى مؤلفيه الجليلين وأهنئهما خالص التهنئة ، مقدراً لهما جهودهما حق التقدير .

(بغداد) محمد فهمى صفوة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر —

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢٤٥ | الثلاثاء ٧ من رمضان سنة ١٣٦٢ — ٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٣ | السنة الخامسة

فهرس العدد

حديث رمضان :

الحيـــاة الروحية

— ١ —

أعجب ما فى الإنسان أنه يحيا حياة واحدة هى مزيج من جملة ألوان . لا تزال فينا طبائع النبات ومظاهره ، نبحث عن غذائنا فى الأرض كما يبحث ، ونعيش تحت رحمة الرياح والفصول كما يعيش — وفينا أيضا طبائع الحيوان من شهوات وغرائز ، وفينا العقل الذى يسيطر على هذه الطبائع الحيوانية ؛ ولكنه يعجز عن السيطرة عليها سيطرة تامة . وكما يكون نورا إلٰهيًّا يحكم الطبائع والغرائز ، قد يكون نارا شيطانية تثير غرائزه ، فتجعله أفرس من أسد وأمكر من ذئب . ورقى الإنسان إنما هو فى استطاعته أن يوازن الموازنة الدقيقة بين ما فى باطنه من عناصر نبات ، وعناصر حيوان ، وعناصر إنسان ، وما أشقه من عمل !

وهو — لما فى طبيعته من عناصر مختلفة نباتية وحيوانية وإنسانية — قد واجه مشاكل لا تحصى ، لا تزال طوال الزمان يحاول حلها وترقيتها . هو من ناحيته النباتية يواجه مشكلة البيئة التى تناسبه والتى لا تناسبه ؛ وغلة الأرض من النبات ، وحاجته منها بعد أن وُزِّعت فى البقاع والأصقاع حسب طبيعتها ، والأخطار التى يتعرض لها من حشرات وديدان ، وجو وعطش وغرق . وهو من ناحيته الحيوانية قد ورث دَيْنا ثقيلا ، فورث غرائز جامحة ، وورث غريزة افتراس بعضه بعضا ، فكان لا بد له من تحصينه للدفاع والهجوم ؛ ودعاه ذلك أحيانا إلى التعاون لصد العدوّ ، وأحيانا إلى التفرق لقتال بعضه بعضا ، فألّف القبيلة ، ثم الأمة . وتحارب كما يتحارب جنس من الحيوان مع جنس آخر ، وتنازع على الطعام وعلى الشراب وعلى الحب الجنسى كما يتنازع الحيوان ؛ وساعده ما منح من عقل على تنظيم هذا الاجتماع والافتراق ، والتعاون والتحارب ؛ وعلى العموم استخدم العقل لتنظيم الغرائز الحيوانية .

ثم كان من عنصره الإنسانى شوقه الشديد للعلم والمعرفة ، فأخذ من مبدئه يُسلِّم ويتعلم ، وورّث ما وصل

إليه من يأتي بعده من الأجيال ، ويخترع اللغة لإيصال معلوماته . ثم أخذ ينشئ المعاهد يبث فيها ما وصل إليه العلم منذ الأجيال السابقة ، ويزيد في توسيع دائرة العلوم ، وتقليل دائرة المجهول ؛ ثم يستخدم العلم في حياته النباتية والحيوانية ، وينشئ الصناعات — وهو كلما تقدم تعقدت مشاكله ، وتركبت نظمه ، فأوجد الوظائف المختلفة في المجتمعات تنظم شؤونها ، ويقوم كل بقسطه في رقيها . فالأسرة تربي الطفل ، ومعاهد التربية تكمل تربيته ؛ ومعاهد الصناعة تخرج ما يحتاجه العالم ، والدولة تشرف على هذه الأنواع المختلفة من النظم ، وتوحد بينها وتوجهها .

ثم في الإنسان عنصر روحي بجانب عنصره النباتي والحيواني والعقلي ، أحسه الإنسان منذ وجد . وكما أن عنصر العقل فيه مظهره العلم ، فعنصر الروح فيه مظهره الدين — من طبيعة الإنسان الطموح إلى كل ما هو حق وخير وجميل ، وقد وجد مصداق ذلك كله في الدين فاعتنقه . ومن طبيعته الشعور بقوة تسيطر على نفسه وعلى العالم ؛ ومن طبيعته الشعور بأن هناك روحا عليا ليست روحه إلا شرارة منها وقبساً من نورها ، وأنها تتجاوب معها ، فكان ذلك هو الدين على اختلاف مناحيه ومذاهبه وأنواعه وأسمائه وشعائره — لقد شعر منذ نشأته في بداوته إلى منتهى ما وصل إليه من حضارته ، أن في باطنه شيئاً ليس ماديا وليس من جنس الأرض . ولما تقدم العلم كل هذا التقدم لم يهتد إلى حل العلاقة بين العقل والحياة ، وبين المادة ومظاهرها . ولما فرغ العلماء لعلمهم ، وبحثوا واكتشفوا القوانين ، وآمنوا بالعلم كل الإيمان أدرك كثير منهم أنهم يشعرون بفراغ في أنفسهم ، وهذا الفراغ لا يملؤه إلا إيمان بقوة فوق المادة ، وروح تسيطر عليها وتبعث فيها الحياة والروح ، وأنهم بهذا الإيمان يشعرون بقوة عظيمة لاتساع نفسهم واندماجها في العالم أجمع ، وشمولهم والعالم بروح عليا تسيرهم .

وكما يختلف الناس في مقدار العناصر التي يتكونون منها ، فبعض الناس أكبر عناصره العنصر الحيواني فهو أقرب شيء ، إلى أن يعيش بغرائزه كالحيوان ، لاهم له إلا مأكله ومشربه وملبسه ؛ وبعضهم العنصر العقلي ، كما يتجلى ذلك في العلماء المتخصصين للبحث والمعرفة ؛ كذلك بعض الناس يغلب عليهم العنصر الروحي ، وهؤلاء يشعرون بنقص في أنفسهم ، ويشعرون أن روحا عليا تشرف عليهم ، فيجهدون أن يتحرروا من نقص نفوسهم ، ويوسعوا رقيها بالاتصال بالروح العليا ، فتنشرح صدورهم ، ويشعرون أن قبسا من نور أضاء قلوبهم . ويحدث هذا عند نضوج الروح فيدركون العالم على نحو غير الذي يدركه العالِم . هم يرون التشابه في الموجودات والوحدة فيها رغم اختلاف الأسماء والأشكال ؛ وهم لا يقفون عند الظواهر ، فيرون الإنسانية في الذكر والمؤنث ، ويرون وحدة الإنسان مع اختلاف الألوان والأجناس ؛ وهكذا تتسع روحهم حتى يروا الوحدة في الوجود ، والله في كل شيء ، فيتجاوب العالم معهم ويتجاوبون مع العالم ، وتتسع نفوسهم لا إلى حد ، ويرون في ذلك سعادة دونها أي سعادة ؛ ويشعرون أن الظلام الذي كان يحيط بنفوسهم أخذ ينجاب شيئاً فشيئاً حتى صار نورا ساطعاً ، كالذي ينظر إلى خريطة العالم فلا يدرك منها شيئاً حتى يقع نظره على بلدته فيتعرفها ويتعرف البلدان الأخرى بالنسبة إليها ، فإذا الخريطة كلها مفهومة ، وإذا هي ذات معنى . يرون أن المادة خيال ، والشهوات والرغبات أعراض زائلة ، ولكن امتزاج روحهم بروح العالم هو الحق الذي لا يزول ولا يفنى . ويبلغ من شعورهم بوحدة الأشياء أن يشيع الحب في نفوسهم لكل شيء ، فألم إنسان ألمهم ، وسعادة إنسان سعادتهم ، ونجاح الإنسان نجاحهم ، وفشله فشلهم ، حتى ليبلغ الأمر ببعضهم أن يأملوا أن تبلغ الإنسانية من الصحة والنضوج أن تمازج أرواحها ، حتى يشعروا بالوحدة وبالسعادة ينالها بعضهم ، وبالألم يصيب بعضهم ، ويعملوا ليبلغوا السعادة جميعاً .

قد كان علماء النفس في حداثة عهدهم يهزأون بهذه الحالات النفسية ويرونها ضربا من الخيال ، وسبحا في

الوهم ، فلما نضجوا آمن بها بعضهم ، واعترفوا بها فى كتبهم وسجلوها فى تجاربهم .

لقد جنى على الحياة الروحية كثرة ما أحاط بها من تحريف وتمويه ، فكان بجانب الأنبياء المتنبئون الكاذبون ، وبجانب الصوفية الحقة الدجالون المخادعون ، وبجانب الملهَمين المتشاشون . وكان ما أصيب به الجانب الروحى أكثر مما أصيب به الجانب العقلى ، لأن معيار العلم يمكّنه فى سهولة أن يعرف زيفه ، وليس بهذه السهولة الجانب الروحى .

والإنسان بتنميته جانبه الروحى يستطيع أن يدرك من الحق ما لا يدركه العلم ، وأن يقوّى ما لا يقويه العلم . ومن الخطأ الاستناد على العلم وحده دون الروح .

قد يكون عقلاء الشرق معذورين فى دعوتهم القوية إلى البحث العلمى ، وبث الروح العلمى ووجوب الاعتماد عليه ، لأننا فى الشرق نعيش على التقليد والتخريف ، حيث يجب أن نعيش على العلم فى الزراعة والصناعة والتجارة ووسائل التربية وما إلى ذلك ؛ ولكن مع التسليم بهذا كله يجب ألا نهمل الروح فى دائرتها . ولعل الشرق إذا اتجه إلى هذا الجانب الروحى بجانب اهتمامه بالجانب العلمى فاق الغرب فى ذلك ، لأن له تاريخا قديما فى الروحانيات ، وهو مُلهِمها الغرب .

إن العلم له دائرته التى يجب أن نعترف له بها ، ونؤسس حياتنا عليه فى حدوده ، ولكن بجانب العلم الروح ، وبجانب العقل القلب ، وبجانب المنطق الإيمان ، ولكلٍّ وجهة هو موليها ، وما أحسنهما إذا اجتمعا ، وما أشقاهما إذا افترقا .

تعجبنى قصة طريفة للأديب الكبير « هـ . ج . ولز » سماها « مملكة العميان » ، خلاصتها — فيما أذكر — أن جماعة من العميان طوّح بهم القدر حتى أنزلهم واديا بعيدا منعزلا ، تحيط به من كل الجوانب الجبال الشاهقة الوعرة ، فعاشوا فيه ، وتناسلوا عميانا مثلهم ؛ وقد عوّضتهم الطبيعة عن فقدان أعينهم قوة فى حِدّة آذانهم ، وبذلك استطاعوا أن يكوّنوا لأنفسهم مدنية توافق حالتهم وطبيعتهم ، ووثقوا كل الثقة بمعارفهم ومداركهم ، وآمنوا كل الإيمان أن العالم كله محدود بحدود أربعة هى سلسلة جبالهم — وشاء القدر أيضا أن ينزل بواديهم رجل بصير ، فحدّثهم يوما عن السماء الزرقاء فوقهم وجمالها ، والنجوم الساطعة وضيائها ، والثلوج المعممة للجبال وبياضها ولمعانها ، فلم يشكّوا أنه مجنون ، وجزموا أن ما يحدّثهم به عن قوة عينيه ورؤيتها لهذه الأشياء ليست إلا ضربا من الخداع والوهم . وحاول بكل ما يستطيع من قوة وبيان أن يُفهمهم أنهم عميان فاقدو البصر ، وأنه بصير ، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًّا وضلالا ، وإمعانا فى الضحك منه والسخرية به ؛ وقالوا لو كان فى رأس هذا الرجل عقل لتخلّص من هذه الأحلام والأوهام ، ووجّه همته إلى الحياة الواقعية والأشياء العملية ، وقوّى سمعه حتى يبلغ مبلغنا ، واتبع الطريقة التى سلكنا ، وسار على المنهج الذى عليه أجمعنا . فلما أعياهم أمره قرروا أن سبب مصائبه وفساد عقله يرجع إلى هاتين النافذتين فى وجهه التى يزعم الإبصار بهما ، وأن لا شفاء له إلا بفقئهما ؛ ولكن كان من حسن حظه أن يجد منفذا للهرب من هذا الوادى .

لقد رمز « ولز » بهذا إلى ضيق نظر القادة السياسيين والاقتصاديين والاجتماعيين وجمودهم على الآراء العتيقة البالية ، ووقوفهم على ما ورثوه من تقاليد من قبلهم ، وعدم إصغائهم إلى صوت كبار المصلحين الذين يدعون إلى بناء عالم جديد أساسه التفكير الحر وسعة النظر . ولكن قصته كذلك تصلح مثلا لمن يريد أن يخضع كل شىء فى هذا العالم للمادة وقوانينها وعلومها ، وينكر الروح والله والدين والإيمان ، فهو لا يريد أن يعتقد فى شىء إلا ما يعتقده سكان هذا الوادى ، ولا يؤمن بما يرى هذا الضيف بعينيه — هو يسمع ويرى ، ولكن قلبه لا يرى ، وروحه لا ترى ، ثم هو يزعم أن ما يشعر به المؤمنون ليس إلا ضربا من

الخيال والوهم .

إن الناس يتفاوتون في المعرفة تفاوتاً بيّناً ، فمن الناس من إذا أراد أن يعلم حجرة وما فيها نظر من ثقب الباب فرأى بساطاً هنا وكرسياً هناك ثم زعم أنه عرفها ؛ ومنهم من علا درجة عن هذا ففتح الباب ووقف في زاوية من زوايا الحجرة في ضوء قليل وزعم أنه رآها ؛ وهذان موقفهما موقف العامة وأشباههما ؛ ومنهم من تعمد أن يدخلها في وضح النهار ، ويقف في جميع الزوايا ، ويفحص ويمتحن كل ما فيها ، وهذا هو العالم ؛ ومنهم من يفعل ذلك ثم لا يكتفي به ، بل يحاول أن يعرف شأن الغرفة من المنزل ، وموضع المنزل من الشارع ، ومكان الشارع من المدينة ، ومنزلة المدينة من القطر ، ومكانة القطر من العالم ، وذلك هو الفيلسوف من جانب ، والروحي الحق من جانب .

إن في الإنسان ملكات عدة ليس العقل وطريقه العلمي إلا إحداها ؛ وخطأ العالم الغربي في القرن الماضي كان تقوية الناحية العلمية على حساب الملكات الأخرى .

ويعجبني تعبير طريف قرأته لأحد كتاب الغرب إذ يقول : « لقد أسرع العلم في السير حتى جاوز القلب بمراحل ، فحقنا أن نمنح العلم إجازة حتى يدركه القلب » — لقد نجح العلم نجاحاً عظيماً حتى استطاع أن ينفذ إلى أدق أعماق المادة ، وحتى كاد يجعل العالم المادي شفافاً واضحاً ، وحتى أخضع كثيراً من قوانينه لإرادته ، وهذا حسن وجميل . ولكن بجانب ذلك جعل حياة الإنسان مصطنعة سطحية ، إلهها السرعة والعجلة والآلات والأدوات ، فكسب أذنه وخسر عينه ؛ وما ضره لو كسبهما جميعاً ، إذن لوجد روحه التي فقدها في هذه الضوضاء والسرعة ، وأحس الراحة والهدوء في نفسه ساعة يتم بالطبيعة والعالم وربهما .

وكما أن كل إنسان له نوع من الاستعداد والملكات للفن والموسيقى والشعر والعلم ، كذلك عنده استعداد ما للإجابة الروحية ، وهي أرقى من سائر كل الملكات . وكما أن كل إنسان له قدر من الفن ولكن ليس كل إنسان فناناً ، وكل إنسان يغني ولكن ليس كل إنسان يجيد الغناء ، كذلك كل إنسان روحيّ إلى حد ما ، ولكن الروحيين حقاً قليل . ويعجبني شاعر هندي في قوله : « الجواهر أحجار ، ولكن لا توجد في كل مكان ؛ والصندل أشجار ، ولكن لا توجد في كل غابة ـ والفيلة كثيرة ، ولكن فيلا واحداً هو فيل الملك ؛ كذلك ما أكثر الناس ولكن قلّ بينهم الإنسان الحق » .

والنبوغ في كل ملكة موضع إعجاب ، ولكن أعجب العجب في النبوغ الروحي . وكما قال القائل : « إن المصلح وليد المدنية ، ولكن النبيّ أبوها » .

أحمد أمين

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

طبيب يدس الكبد في حلوق مرضاه دساً

وصل الثالث : طبيب شاب أمريكي اسمه « مينوت » ، من آل « مينوت » ، وهي أسرة في الطب عريقة . وداء عيائه هو فقر الدم الخبيث .

أولع « مينوت » بفحص الدماء ، وأولع بالأمراض التي تنسبب من اختلال في الدماء . واتخذ من فقر الدم الخبيث دراسة له .

ووجد فيما وجد أن مرضى هذا الداء تتحسن حالهم أحياناً لغير سبب ظاهر ، فينظر دماءهم تحت المجهر ، فيرى فيها كريات جديدة غريبة ، هي كريات دم حمراء وليدة نزلت حديثاً إلى الدم ، أنزلها مصنع الكرات الحمراء بالجسم — وهذا المصنع هو نخاع العظام .

ويزول هذا التحسن في المرضى لغير سبب ، فتختفي من الدم هذه الكرات الوليدة .

فكر « مينوت » ما فكر ، وبحث ما بحث ، وأخيراً وجد من كثرة تسآله مرضاه أنهم لا يأكلون كما يأكل الناس ، فيقصّرون في ناحية ، ويبالغون في ناحية ، وهم لا يأكلون في ميعاد .

عندئذ وقر في نفسه أن هذا الداء سببه شيء يأتي من شذوذ الطعام . وإذاً ففي الطعام يكون دواؤه .

وقرأ أبحاثاً عديدة عن أمراض أخرى ، فوجد الكبد تذكر فيها كثيراً ، ولكنها كثيراً ما تذكر مع غيرها من الطعام . فوقع في نفسه ، وبغير منطق ، أن الكبد لا غيرها هي الطعام المنشود الذي يشفي من هذا الداء .

وعلى هذا بدأ يطعم الكبد مرضاه .

والآن اقرأ :

ولم تكن عنده الجرأة أن يقترح إطعام الكبد لرضاه بالسلشق خشية أن يضحك منه زملاؤه الأطباء ، وأن يضحكوا عالياً . لهذا بدأ بتجربة إطعامها لمريض من مرضى عيادته الخاصة . ومن حسن الحظ أن هذا المريض كان من مرضى فقر الدم الخبيث الذين يطاولون الداء زماناً ، فلا يقتلهم سريعاً . وكانت لا تزال به شهيّة للطعام لا بأس بها . وخيرٌ من هذا أنه كان رجلاً ذا ضمير حيّ ، إذا وعد شيئاً أو اعتزم أمراً أدّاه كما وعده وكما اعتزمه . . . . كان مثل « مينوت » في هذا .

قال « مينوت » لهذا الرجل المريض : « أرجوك أن تأكل الكبد مرتين في الأسبوع » . ونصحه أن يأكل لحماً كثيراً كذلك ، وأن يقلّل من الزبد والقشطة ما أمكن . وقال له فوق هذا إن الخضار الكثير والفاكهة الكثيرة قد تنفعه . أما السكريات والنشويات فليعتدلْ في أكلها . لم ينصحه « مينوت » إذن بأكل الكبد وحدها . وإذن لم تكن هذه التجربة بالتجربة العلمية التي يريد بها صاحبها أن يعرف في المرّة الواحدة أثر الشيء الواحد .

كان « مينوت » بهذه النصيحة كمن يطلق الطلقة الواحدة يريد بها أن يصيب كل ما على الشجرة من طيور . إنها في الطب تطبيبٌ حسن ، أو هكذا قد تكون . ولكن هل تقول إنها في العلم علمٌ مقبول ؟ نعم ، نعم ، هي علمٌ مقبول ، ولو لم يُتّبع فيها أسلوبُ العلم وأصوله . قال مينوت : « لا تنسَ أن تأكل الكبد مرتين في الأسبوع » .

ورجع الرجل إلى بيته ، وأكل بالضبط ما أمره الطبيب ، وزاد . ولعله كانت به نهمةٌ للكبد . وعلى كل حال ففي السجلّات مكتوبٌ أنه أكل من الكبد فوق ما كان يُنتظر . ثم كان أن نسي « مينوتُ » مريضه . وله العذر . فقد كان بين يديه مرضى أقرب إلى الموت من مريضه هذا ، وكان رأسه تزدحم فيه مشاغل كثيرة . وكان صحا من داء بوله السكريّ بفضل الإنسولين ، فاندفع يعمل ، وأطلق من مرجله كل بخاره . ولكن مريضه عاد إليه أخيراً . وعلم بحضوره « مينوت » ، فقال لنفسه : « لا أحسب إلا أنه هالكٌ آخر في الهالكين » .

ودخل على طبيبه ، فألقى عليه « مينوت » نظرةً عابرة ، لم تلبثْ أن ارتدّت إليه قويةً فاحصة ، وصاح : « أهلا ! أهلا ! » .

قال الرجل : « نعم ياسيدى ، فأنا لاشك أحسن حالاً » .

قال مينوت : « أعلمُ أنك أحسن حالا » .

ولكن « مينوت » رأى من الرجال أكثر من مائة رجل كهذا الرجل — تَحْسُنُ حالُهم ، ثم تسوء ، ثم تعود إلى التحسُّن قليلا ، ثم هم يموتون . وامتحن دم الرجل فوجده أنحس مما كان . فقال له : « استمر على ما وصفتُ من طعام ، ولا تنس الكبد » .

وفى نفس هذا الخريف ، من عام ١٩٢٣ ، جاءت « مينوتَ » امرأةٌ مريضة بفقر الدم الخبيث كهذا الرجل تماماً ، ولكنها أسوأ منه حالا . فوصف لها « مينوت » نفس الذى وصفه للرجل . لقد أقرّ « مينوت » أنه لم يكن لهذه الوصفة مكانٌ فى قلبه . لقد علم أنهم هالكون هالكون . ألا ما أخبثه من داء ! وعلى الرغم من خبثه لم ينخدع به « مينوت » ، ولكن مرضاه السابقين انخدعوا به ، وإلا فما عودتهم هذه إلى طبيبهم فى سَحْنةٍ ضاحكةٍ وأمل مُزدهر . إنها القسوة بالغة تلك التى تمارسها الطبيعة فى تخييب أمل الآملين . إن الطبيعة تخيِّب آمالنا جميعاً ، أخيراً ، بالموت يأتى مَن مرض منا ومن صاحبته السلامة . ولكنها فى هذا الداء ، وهى تذيب دم صاحب الداء وتُلاشيه ، جرتْ على أعوبة قاسية : أن تُلوّح له بالأمل أحياناً فيرجو ويشتاق ؛ وهو رجاء كاذب ، واشتياق تعلمَ اللهُ خائب . ثم تعود امرأة كهذه إلى الهبوط من حيث صعد الأمل بها ، فيخفّ دمها ويزيد خفّةً ، حتى إذا أبرّ « مينوت » إصبعَها طلباً لدم يمتحنه ، لم يكدْ يجد منه شيئاً . ويعود إلى الهبوط من حيث صعد بهم الأمل كثيرٌ غيرها ، وكثيرات ، وهم أثناء الداء قد يَقضى عليهم الجوع أو يصيبهم الشلل ، وهم فى كلا الحالين وفى غيرها يهبطون من ضعف إلى ضعف حتى يحلّ الضعفُ منهم ربقةَ الحياة ، فيخلُصون من همّها وفزعها وعذابها إلى راحة الهالك الفانى وأمانه .

وذهب عن « مينوت » مريضُه الذكر ومريضته الأنثى ؛ وخلا فكره منهما باشتغاله بحوث السرطان بالمستشفى . نعم ! السرطان ، فهذا داء آخر خبيثٌ لا رجاء فيه ، ولكن مع هذا ففيه شفاءٌ إذا بان أمرُه ، وهو فى أوله ، وحسَمه الطبيب قبل استفحاله .

ورجع إليه مريضاه واحداً بعد واحد .

أهلا ! أهلا ! هذان هُما ، كلاهما على حالٍ أحسنَ .

وتجيبه المرأة : « نعم يا دكتور ، أحسُّ اليوم أحسنَ أكثر مما أحسستُ من زمن طويل مضى » .

وزاد عدد كرات دمها الحمراء تحت المجهر . أليس من الغريب المُعجِب فى العلم أن يأتيك المريض فيقول لك أنا أحسن حالا ، فتفحص دمه بعين من زجاج ، فتجد كراته حقاً أكثرَ عدداً . ولكن ما كثرةُ هذه الكرات ؟! إنها لا بد عائدةٌ سيرتَها الأولى من القلة ...

وقال لهما « مينوت » : « رجائى أن تأكلا الكبد كل يوم . ورجائى أن تَزنا ما تأكلان منها . كُلا منها ١٢٥ جرام فى اليوم ، أعنى نحو ربع رطل » .

إنَّ من سوء الحظ أن مرضى فقر الدم الخبيث ، لا يُعجبهم أكثر الطعام ، فهم على المائدة دائماً متكرّهون متأفّفون . إنهم لو اشتهوا الطعام لاستطاع صاحبنا أن يدبّر لهم أمره . وزادت هذه الكبد حالهم سوءاً ، فهى ليست مما تشتهيه الكثرة من الناس . قال مينوت : « أنا نفسى لا أحب الكبد » .

ورجع إليه مريضاه مرّة أخرى ، لم يَفْرق بينهما غير أسبوع أو أسبوعين . ودخلا عليه مكتبه فلمح فى خطوهما قوّة جديدة ، ورأى فى أطراف آذانهما شيئا من حمرة ، وفى الوجهين أبصر شيئاً من لون الدم بعد أن ظلاّ زماناً ولا لون لهما إلا بياض الشموع .

قالت المرأة : « ما أسرع ما تعود إلىّ شهية الطعام » .

وقال الرجل : « إنى أستطيع أن آكل الآن يا دكتور . ولسانى ذهب الوجع عنه » .

وهكذا ظل الحال يجرى طول عام ١٩٢٤ ، ومينوت لا يُلقى إليه باله . فهكذا أخبر فى عو بعد ذلك بزمن طويل . ولم يلبث أن اجتمع على « مينوت » عشرة من مرضى هذا

الداء ، فلبث يقول لكل منهم : كل كذا جراماً من اللحم ، وكذا فاكهة ، وكذا خضارا ، وقليلا جدا من الدهن والدهنيات ...

ويؤكد لهم أخيراً : « ولا أقل من ربع رطل من الكبد ، كل يوم » .

ولم يكن لهذا كله أساس من المنطق . وقد أقر هو أنه لم يكن عندئذ آمن بهذا العلاج إيماناً كبيرا . ومع هذا فقد كان يجيئه من المرضى من لا يحب الكبد ، فيجاهد في إغرائه بأكلها . ولم يكن له مندوحة عن إغراء قوم ذهبت شهيتهم ، واختلت أحشاؤهم ، واختلطت أمعدتهم ، وتوجعت وتلهبت ألسنتهم . كان يخرج إلى كتب الطبخ يستطلعها طرائق لطبخ الكبد على ألوان مشهية ، ويكتب لمرضاه وصف ذلك وصفاً مسهباً بتلك الدقة البالغة المعهودة فيه أبدا . فإذا هم بعد كل هذا جزعوا وأحجموا ، شع في عينه شعاع غريب ، ورماهم بنظرة غاشية ، ثم قال : « والكبد لابد أن تأكلوها » . ويخرجون من عنده فيأكلونها .

وأقر « مينوت » بعد ذلك فقال : « . . . حتى عند ذاك لم أكن أومن بها كل الإيمان » .

ويأتي شتاء عام ١٩٢٥ ، يأتي آخره ، فيجد كل هذا النفر من المرضى حيّا يرزق . وكان المنتظر ، لو أن عادة الداء جرت فيهم ، أن يكون بعضهم قد مات ، وبعضهم قد خف به الدم حتى حط ووقع . لقد كان خف الدم في بعضهم حتى نزلت كرات الحمراء إلى نصف مليون كرة في المليمتر المكعب ، وهي خمسة ملايين في الجسم السليم .

ولكن انظر لهؤلاء القوم الآن ، وانظر إلى دمائهم : مليونان وثمانمائة ألف ، ثلاثة ملايين ومائتا ألف ، ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف . . .

وانظر ، انظر ، فهذا مريض آخر زادت كراته على أربعة ملايين ، وأخذت تقترب من متوسط الرجل الصحيح ، من خمسة ملايين . وها هم جميعاً على صحة أحسن ، وبوجوه ليس بها بياض الشمع وهو من بياض الموت . وكل هذا و « مينوت » لا يكاد يدرك خطر ما يجري بين يديه ، لم يدركه إدراك اليقظ الصاحي . وظل على بذل نصائحه ، أن كلوا الكبد ، وكلوا الكثير منها ، ولا تنسوها ، وكلوها كل يوم .

لعل هذا كان الفرق البارز بين « مينوت » وغيره من أطباء الدنيا . فأي طبيب آخر كان يقول لك : « شيء من الكبد من حين لحين قد تنفعك » .

كذلك أي طبيب آخر ، لا سيما طبيباً يتعلق بالعلم ومنطق العلماء ، كان يقول إذا هو وجد هؤلاء المرضى قد صحوا وتحسنوا معا : « أوه ... إنه توافق غريب ... إنها مصادفة عجيبة تزيد الطبيب بصرا بالمصادفات وتزيده حذرا » .

أما صاحبنا « مينوت » فوقف أمام هؤلاء العشرة موقف الحيران . إنه يستطيع أن يأتي لكل واحد من هذه العشرة بمثيل من بين من رأى في خبرته الطويلة الماضية في فقر الدم الخبيث صح دمه فجاءة بحماً ، ثم لا يلبث أن يأتيه من بعد ذلك عابساً ، ثم . . . إلى آخر المأساة . ولكن لا . فهذه عشرة من المرضى تتحسن دماؤهم دفعة واحدة . . ولكن « مينوت » كان حذرا لا يطمئن إلى إحصاء بسيط كهذا . إنه علم أن الداء له أيامه البيضاء وأيامه السوداء ، وأنها دائما أبدا متداخلة متعاقبة . . . ولكن ألم يحس من تحت هذا التفكير المنطق ، في الصميم الأصم من قلبه ، أن هذه الحالة تختلف لا شك عما عرف من حالات ، وأن اجتماع هذه العشرة كلها على تحسن الحال مرة واحدة له معنى غير ذلك المعنى ... ثم تقوم في رأسه ضد هذا حقائق مرة وتجارب قاسية وعتها حافظته لاثنتي عشرة سنة خلت قضاها يرقب مرضى هذا الداء يموتون .. ثم تعود الحقيقة التي لا تنكر تبرز في فكره مرة أخرى: ولكن هؤلاء العشرة ، أحياء في عينه الباصرة ، أكثر حظاً من الحياة في عين مجهره الباصرة

قال مينوت : « إني لم أتحدث عما جرى عند ذاك ، لأني لم أكن أظن أن شيئاً ذا بال جرى . وحقيقي لهذا الأمر لم تكن بعد استيقظت ... »

من أجل هذا لم يفعل إلا أن دام على إطعام الكبد مرضاه .

أحمد زكي

من مذكرات جحا :

جحا ونوره

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التى زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

جاء صديق أبو النور صباح اليوم فجلس إلى جانبي ، وجعلنا نتحدث ، والحديث ذو شجون ، فمر بنا الوقت سريعاً ، وما أسرع ما تمر الساعات فى مجلس صديقى ! أنا لا أكاد أحس بأنه إلى جانبي ، وأكاد أحسب وأنا أتحدث إليه أنى إنما أناجى نفسى وأردد المعانى إلى ضميرى . صديقى أبو النور مثل الماء الصافى ترى فيه صورتك ؛ وهو كالنسيم العليل ينعشك ويمسح جبينك فى رفق وتواضع لا عنف فيه ؛ وهو كالنور يهديك ولا تحس له مساً . وهو روح وذكاء وخير ومواساة وعطف شامل ، وإن كان لا يبدى ما ينم على أنه يريد أن يصنع لك شيئاً . عيناه الفاترتان تملؤهما الرحمة ، وصوته الخافت ينبض بنبرات الإخلاص ، حتى لحيته الخفيفة تبعث الثقة وتوحى بالصدق .

وفيما نحن جالسان نتحدث حديثنا الوديع ، لاح رجل يخطو فوق سور الحديقة ويسرع نحونا ؛ فلمحته قبل صديقى ، فوخزته فى جنبه لأنبهه ، لأنه كان مشغولا بإتمام حديثه ، فوضع يده فوق حاجبيه ليتحقق منه ، ثم قطع حديثه وقال متعجباً :

— من لعله يكون ؟

فقلت فى فزع :

لابد أن يكون ضيفاً أو سائلا ، أو واحداً من هؤلاء الجيران قد جاء يحملني بعض همومه .

فقال أبو النور :

أو صديقاً جاء يدعوك إلى وليمة . أو رجلا أتى إليك بهدية .

فقلت وقد أضحكتنى سذاجته :

— ألا تراه مسرعاً أيها الشيخ ؟! وهل يدعوك إلى الوليمة من يتخطى إليك الأسوار ؟! ثم أسرعت فاختفيت وراء نخلة قريبة ، لأنى كنت آليت على نفسى منذ حين ألا أقابل طارقاً يطرق بابى ؛ ولم أفطن إلى أن الناس قد يتسورون إلىَّ من وراء الجدران . ولو فطنت إلى ذلك لجعلت سور حديقتى مثل أسوار المدن الحصينة بدلا من ذلك البناء القصير الذى يستطيع كل من أراد أن يقفز من فوقه .

وفيما كنت قائماً لأستخفى همست لصديقى :

قل له إنى لست هنا .

فذهب أبو النور نحوه ليستقبله ، وكان ضعيف البصر فلم يره حتى كاد يصطدم به ، وأخذ يحادثه بصوت مسموع وقال له أخيراً :

— هو ليس هنا . إنه يقول لك هكذا ، ألا تفهم ؟!

فصاح الرجل قائلا :

— أما تستحى أن تكذب وأنت لا تدرى كيف تكذب ؟!

فغضب أبو النور من تهمة الكذب وصاح به :

— لست أكذب . إنه قال هذا حقاً . فلم أطق أن أسمع هذه المحاورة السمجة ، وكاد الغيظ يملأ صدرى من صديقى . وأطلقت برأسى من وراء النخلة وصحت بالرجل : أنت رجل صحيح ! هل تعرف من جحا أكثر مما يعرف هو ؟

ولكن الرجل الجرىء لم يعبأ بصياحى بل ضحك كأنه يسمع مزاحاً . وانطلق فى سبيله نحوى ومد إلىَّ يده من وراء النخلة . فخجلت وخرجت إليه ، وكنت لم أتبين وجهه من قبل ؛ فلما وقعت عينى عليه شهقت شهقة عالية كمن فجأه منظر عفريت . وصحت قائلا :

— أهو أنت ؟

فقال الرجل : نعم أنا هو . أنا صديقك القديم . وقد كان حقا صديق القديم الحاج كال الدين !

فقلت له حانقا : ماذا تريد ؟ لعلك قد جئت تطلب مني أن أعيرك صديق « البطل الصامت » مرة أخرى . ولكن حذار أن تهينه فتدعوه حارا كما اعتدت أن تدعوه .

فنظر الرجل إليّ باسماً ، وقال في لهجة اعتذار ينطوي على الخبث :

— لا تخش يا سيدي ! فما بي من حاجة إلى صديقك « البطل الصامت » .

فانشرح صدري لهذه المجاملة وارتحت إلى سماع حديثه ، وملت إلى مسالمته . فأخذ يثني عليّ ويترحم على أبي ويذكر عهود الجدود ، حتى لان له قلبي ونسيت كل ما كان منه من قبل .

وأخيراً . بدأ يتكلم ، وأخذ قلبي يغوص في صدري كلما استمر في كلامه حتى كاد يبلغ إلى كعبي ، فقد جاء يطلب مني أن أقرضه عشرة دنانير من مال . فتحركت حركة مضطربة كأنني أبحث عن مكان أهرب إليه ، فلم أجد سوى صديق أبي النور ، فقربت منه ولذت به ، والرجل مستمر في كلامه يحاول إقناعي بأنه لن يبقى المال عنده أكثر من أسبوع ، وأن عشرة دنانير لا تستحق أن يطلق امرأته من أهلها ولا سيما هي أم أولاده . ففهمت من مجمل حديثه الملتوي أنه لابد لي من أن أحل عنه حله ، وأجنبه تطليق امرأته . ولا أكتم أنني شعرت بالرحمة تدخل إلى قلبي عند ما تصورت الرجل وامرأته وأولاده ، وما قد أجره عليه من الويل إذا أنا عجزت عن إغاثته . وجعلت أقلب الفكر وأتلفت حولي وأفكر في كل ما عندي من حطام هذه الدنيا ، وأنا صامت حائر ، والعرق يتصبب من جبيني ولم يكن الرجل أقل شقاء مني ، فقد كان مظهره يشبه منظر أرنب يضطرب في جحر ضيق لا يستطيع فيه حراكا . وسمعت أنفاسه تشبه الحشرجة كأنه يتنفس من خرم إبرة . وكان أشد ما أعانيه من الألم راجعا إلى حيرتي في الأمر الذي يطلبه مني ، فلم يكن عندي شيء من المال أقرضه إياه . ولكني لم أكن أقوى على الاعتذار له بهذا العذر . إنني إذا اعتذرت للرجل لم يكن لي بد من أن أطلعه على حقيقة أمري ، ولم يكن من السهل عليّ أن أقول له إنني لا أملك من حطام الدنيا كلها عشرة دنانير . لا ، لا ! فإن مثل هذا الاعتذار شيء لا يمكنني أن أتصور النطق به . إنني أتحمل الكثير من الضرر في سبيل التستر من فضول الناس وإخفاء فقري عنهم . فهذه ساقيتي تدور كل يوم مع أن قواديسها محطمة لا تحمل شيئاً من الماء إلى الحديقة ، بل يتسرب الماء من ثقوب القواديس ؛ فإذا بقي منه شيء لم يجد حوضاً يجمعه ، لأن الحوض قد تهدم . ومع ذلك فإنني حرصت على أن تدور الساقية كل يوم مكتفيا بتعبيرها . وهذا الجرن الواسع الذي لا يحوي كيلة من القمح لا تسخو نفسي ببيعه ، فإنني لا أتحمل أن يقول الناس إنني احتجت فبعت جرني اضطراراً ، بل إنني لا أحب أن أنقص منه شبراً واحداً ، لأني أرى كبر الجرن خيراً من شماتة الأعداء . فكيف أرضى أن أعتذر إلى مثل هذا الجار الذي أتى يقصدني في عشرة دنانير ، وأطلعه على حاجتي وقلة ذات يدي ؟ إن هذا محال ! ومع ذلك فكيف أقدر على أن أتركه يطلق امرأته من أجل مقدار زهيد من المال مثل هذا الذي يطلبه ؟ أما إنه لمأزق محرج سبب لي ألماً لا أقدر على وصفه . ولكني أخيراً وجدت المخرج من مأزقي . هذا هو ثوري أبيعه وأعطي جاري قرضه من ثمنه ، فأبلغ عنده عذري ، فإذا رد إليّ المال بعد قليل أو بعد طويل لم أعدم ثوراً آخر أشتريه .

ولكن الثور لا يباع إلا في يوم السوق ، والسوق لا ينعقد إلا بعد أيام ، والرجل يطلق امرأته الليلة إذا لم أعطه المال الذي يطلبه .

هذه الأفكار كلها دارت في رأسي وأنا مطرق صامت والعرق يتصبب من جبيني ، ووجهي يحمر حينا ويصفر حينا آخر . فلما ضاق بي الأمر رفعت رأسي ونظرت إلى أبي النور ،

وكان ينظر إلىّ كأنه ينتظر أن أرفع رأسى ، وما كادت عيناى تقعان على عينيه العاطفتين حتى رأيت فيهما دمعتين حائرتين تجولان فيهما . وكأنه أدرك ما يدور فى نفسى ، فقال إلى وقال هامسا :

— ما كلف الله نفسا إلا وسعها .

فنظرت إليه حائرا لا أجد لفظا ، فأضاف قائلا :

— لا يسع القل إلا الاعتذار . فتشجعت وحملت نفسى على هذه الخطة القاسية ، واتجهت إلى الحاج كمال الدين وقلت له :

— إن ثورى هذا الذى تعرفه لا يلد ولا أحلب منه لبنا ، وكنت عازماً على بيعه فى يوم السوق .

فبادر الحاج قائلا :

— ولـكن فيم الانتظار إلى يوم السوق ! إن الثور الذى يبـاع فى يوم السوق يستطيع الجزار أن يذبحه ، وتستطيع أنت أن تبيع لحمه أقة أقة ، ورطلا رطلا ، ثم ينتهى ؛ وتربح من بيعه ما كان يربحه الجزار من الناس .

فوقعت هـذه الفكرة الجديدة كأنها الصدمة على أم رأسى . فإنى لا أقوى على أن أرى فرخة تذبح ، وكنت دائما أتعمد أن أنام يوم عيد الأضحى حتى تذبح شاة الضحية وتسلخ وتجهز للأكل . فكيف يمكن أن أرى ثورى السكين وهو يذبح ؟ هل أقدر أن أرى هذا الهيكل يخر كما يخر الجبل ويقع إلى الأرض ، وينحر وتسيل دماؤه كالنهر ، ويضطرب ويفحص الأرض بحوافره ؟ لقد كان خادما مخلصا وصديقا قويا ، ولو رأيت أحدا يريد أن يضربه ضربة واحدة لوقفت أدافع عنه إذا لم يدافع بنفسه بقرنيه ، فلم أشعر إلا وقد قلت للرجل :

— لا . لا . لا يمكن .

فقال الحاج فى عناد :

— إذا كنت لا تحب أن يتدخل الجزار فإنى أقدر أن أذبح وأن أسلخ ، وليس عليك إلا أن تأخذ اللحم وتبيعه . أين هو الثور ؟ قال هذا ثم قام مسرعا إلى مربط

الثور . فقمت وراءه فاتراً — فى دهشة — وقد خدرت أعضائى من وقع المفاجأة . ونظرت أستنجد بأبى النور فنظر إلىّ حائرا لا يتكلم ؛ فأخذته من يده ، وسرنا وراء الرجل نجر أقدامنا فى صمت حتى بلغنا موضع الثور . ولست أدرى كيف استطاع الحاج فى مثل هذه اللحظات أن يتم كل هـذا . ولـكن هو الحق الذى لا شك فيه . فـلما بلغنا موضع الثور حتى رأيناه يتخبط على الأرض والدم يسيل منه كما يسيل الماء من الزيرانيز . فغطيت عينى وخرجت مسرعا ، وقلبى الفزع فلم تسعفنى الدموع . ووقف أبو النور ينظر إلى الرجل وحده ، فالتفت هذا إليه فى وقاحة وقال له :

— ابحث لى عن سكين صغيرة لأسلخ بها . ولـكن أبا النور وقف صامتا ينظر إليه ثابتا لا يقوى على الحركة . فصاح الرجل مرة أخرى :

— هات السكين قبل أن يبرد الثور ويفسد اللحم .

فسمعت القول وخفت أن يبرد الثور ، فأسرعت فأتيت له بسكين وألقيتها إليه من وراء الباب ، ووقفت مطرقا حزينا . فجاء إلىّ أبو النور ووضع يده على كتفى وقال بصوته الهادئ :

— لا فائدة من هذا الوجوم . سأذهب لأحضر أهل القرية ليشتروا . وبعد ساعة كان الحاج كمال الدين قد انتهى من عمله ، وحضر أبو النور مع جماعة من أهل القرية ، وسمعته يحدثهم ويحاول أن يقنعهم أن الثور لم يكن مريضا . وسمعت قائلا منهم يقول : ومن يدرينا هل قرأ عليه الجزار اسم الله ! وقال آخر :

— ومن يدرينا هل مات أولا أو ذبح قبل الموت ؟ فغاظنى ذلك وذهبت نحوهم لأطردهم ، ولـكن صديقى نظر إلىّ نظرة توسل ، فسكنت وهدأت نفسى . وما زال هو بهم حتى أقبلوا معه نحو أكوام اللحم ، فجعلوا يفحصونها فى حذر ودقة .

فقال الحاج كمال الدين :

ما لـكم تقلبون اللحم بأيديكم كأنكم ليست

لكم عيون .

فأحس القوم بألم الكبرياء الجريحة ، فإنهم لم يأتوا ليسمعوا مثل هذا التأنيب ؛ بل جاءوا والنقود فى جيوبهم ليشتروا لحما صالحا .

فقال أحدهم غاضبا :

— لا حاجة بى إلى الشراء . ثم سار متجها نحو الباب وكأنها كانت كلمة سحر — فرددها الجميع وساروا مسرعين وراء صاحبهم ؛ ولم يُجْدِ فى إرجاعهم كل ما قاله صديق أبو النور من حجج وتوسل .

فغاظنى ذلك حتى كاد قلبى ينفجر . فماذا أنا صانع بهذا اللحم كله ؟ ومن لى بمن يحمله وهو مثل التل العظيم ؟ وهل كنت لأتركه حيث هو لينتن ويتعفن ويفسد علىّ الهواء ؟ وما كدت أرى الناس يبلغون باب الدار حتى جن جنونى فصحت بهم :

— هلم أيها الإخوان . عودوا كراما . تعالوا وخذوا اللحم ولا أريد له ثمنا . فترددوا فى السير قليلا ، ثم وقفوا لحظة ، ثم علا صوتهم مختلطا ، ثم انقلب تيارهم عائدا وأسرعوا قليلا قليلا حتى بلغوا مصرع الثور المسكين وهم يركضون ؛ وجعل كل منهم يخطف كل ما تصل إليه يده حتى حملوا كل اللحم ، إلا فخذا ضخما كان الحاج كمال الدين واقفا إلى جوارها وفى يده السكين تبرق وتقطر من الدم ، فارتد الناس عنها وساروا خارجين ، وكل منهم ينظر إلى نصيب الآخرين فى حسد . ولم يحفل أحدهم بأن يلتفت نحوى ، إلا فتى منهم نظر إلىّ بعد أن خرج من الباب ثم ضحك وقال :

— تعيش وتدبح يا جحا !

فوقفت أنظر فى أعقاب القوم فى غيظ ويأس . وغبت فى تأمل عميق لم أفق منه إلا على صوت مشاحة من خلفى ، فالتفت فإذا بى أرى جارى الحاج كمال الدين يحمل الفخذ على كتفه اليسرى ، ويجر بيمناه جلد الثور ، وصديق أبو النور يجاذبه الجلد وهو يقول :

— جحا أولى بجلد ثوره .

فرماه الرجل إليه فى غيظ ووقاحة وقال له :

— خذ ، كله إذا شئت .

ثم سار مسرعا يحمل الفخذ ويهز بيده اليمنى بالسكين .

فصحت به فى لهجة التوسل والغيظ :

— دع السكين فإنها لامرأتى .

فرماها إلى الأرض باحتقار ومضى ولم يلتفت نحوى حتى خرج .

فنظر أبو النور نحوى عاطفا ، ووضع يده على كتفى وقال وهو يرفع جلد الثور :

— أى صديق !

فنظرت له متأثرا وقلت :

صديق !

ثم سرت وهو يسير إلى جانبى واضعا يده على كتفى ويجر الجلد بيده الأخرى ، حتى بلغنا المربط فوجدنا به فوضى تشبه آثار موقعة فى حرب ضروس . وجدنا رأس الثور والأكارع والقروث والمصران وكومة من الأوساخ جعلت الهواء عفنا يكاد يخنق الأنفاس . فرمى صديق بالجلد إلى ناحية من المكان ، وأخذ يرفع الحطام ويكنس الأقذار ؛ فأسرعت إلى جواره أساعده حتى كلت منا الأيدى وتألمت فقرات الظهر من الانحناء .

فرفعت رأسى لأستريح ، ورفع رأسه كذلك ، فتقابلت أعيننا ، ووقفنا حيناً ينظر كل منا فى وجه صاحبه صامتاً ، ثم انفجرت بيننا ضحكة فى وقت واحد — فى ثانية واحدة كأنها ضحكة شخص واحد .

وامتدت الضحكة وطالت حتى كدنا نقع على الأرض من الإعياء ، وجعل كل منا يضرب فى غير وعيه على ركبته ويقول :

— الله ! أما والله إنها لقصة ! . إنها لقصة ظريفة !

(طبق الأصل) جحا

فلسفة «وليم چيمس»

ملخصة بقلم «هنرى برجسن»[١]

— ١ —

« كيف يسوغ لنا أن نتحدث عن فلسفة العمل (البراجماتزم) بعد « وليم چيمس » ؟ وما عسانا أن نقول عنها مما لم يقله هو من قبلُ — خيراً مما نقول نحن — فى الكتاب الجذاب الفتّان الذى نقدم اليوم الترجمة الفرنسية الأمينة الدقيقة ؟ ما كنا لنتكلم لولا أننا وجدنا أن فكر « چيمس » قد تأوله الناس ، فحرّفوه ، وانتقصوا منه . وأن كثيراً من الأفكار تدور بين الناس ، ونخشى أن تقوم حائلا بين القارئ وبين الكتاب ، وأن تشيع غموضاً مصطنعاً فى فلسفة هى عين الوضوح .

إن فهمنا لبرجماتزم « وليم چيمس » يكون قاصراً معيباً ما لم نشرع فى تغيير الفكرة الشائعة عن « الحقيقة » على العموم . يتحدث الناس عن « العالم » وعن « الكسموس » : وهذان اللفظان يدل أصل اشتقاقهما على شىء بسيط ، أو على الأقل شىء حسن التأليف . ويتحدثون عن « الكون » ؛ ويُخطِر هذا اللفظُ فى البال ائتلافاً ممكناً للأشياء . قد يكون الإنسان روحانياً أو مادياً أو « بانثياً » (من أنصار وحدة الوجود) ؛ وقد يكون قليل المبالاة بالفلسفة ، راضياً بما يراه عامة الناس ، لكنه دائماً فى حاجة إلى أن يتمثل مبدأ أو عدة مبادئ بسيطة يستطيع بها أن يفسر مجموع الأشياء المادية والأخلاقية .

ذلك أن ذهننا مشغوف بالبساطة : يقتصد فى بذل الجهد ، ويريد أن تكون الطبيعة قد دبّرت الأمور بحيث لا تتطلب منا ، لكى نتعقلها ، إلا أقل قدر ممكن من العمل . وإذن فذهننا يعطى نفسه القدر المطلوب من العناصر والمبادئ ، ليتيسر له بها أن يعيد تأليف السلسلة اللامتناهية من الأشياء والحوادث .

ولكننا لو اقتصرنا على ما تعطينا التجربة ، بدلاً من أن نؤلف الأشياء تأليفاً ذهنياً فيه أكبر مرضاة للعقل ، لكان تفكيرنا ولكان تعبيرنا مخالفاً كل المخالفة لما نعهد فينا ذهننا ، وقد جرى على عادة الاقتصاد ، يتصور المعلولات على تناسب دقيق مع عللها ، نجد الطبيعة ، وقد درجت على التبذير ، تضع فى العلة أكثر جداً مما يلزم لإحداث المعلول . وبينا يصح أن يكون شعارنا نحن معشر الناس هو : « القدر الواجب ليس غير » ، يكون شعار الطبيعة هو : « أكثر من اللازم » ، زيادة من هذا ، وزيادة من ذاك ، وزيادة من كل شىء . إن الحقيقة كما يتصورها « وليم چيمس » فضفاضة فياضة . وأحسب أنه يرى العلاقة بين هذه الحقيقة وتلك التى يتحدث عنها الفلاسفة ، كالعلاقة التى بين الحياة التى نحياها كل يوم ، والحياة التى يمثلها لنا الممثلون فى المساء على المسرح . فعلى المسرح نجد كل واحد لا يقول إلا ما ينبغى أن يقول ، ولا يعمل إلا ما يجب أن يعمل . وهنالك مشاهد قد قُسّمت ورُتّبت . والمسرحية لها بداية ، ولها وسط ، ولها نهاية ؛ وكل شىء فيها قد دُبّر بتقتير ، وعلى أنجع ما يمكن أن يكون ، من أجل الخاتمة التى قد تكون سعيدة أو مشؤومة . ولكننا إذا نظرنا إلى الحياة ، وجدنا أن فيها تقال أشياء كثيرة لا نفع منها ، وفيها تؤدَّى حركات كثيرة زائدة على الحاجة . ويكاد لا يوجد فى الحياة مواقف صريحة ؛ ولا شىء فيها يتم على ما نبغى من سهولة أو كمال أو جمال ؛ بل المشاهد يطغى بعضها على بعض ، والأشياء تكاد لا تبدأ ولا تنتهى . وليس هنالك خاتمة ترضينا الرضا كله ، ولا حركة هى حاسمة إطلاقاً ، ولا شىء من تلك الكلمات

---

(١) فصل كتبه نشره « هنرى برجسون » الفيلسوف الفرنسى كمقدمة للترجمة الفرنسية لكتاب الفيلسوف الأمريكانى « وليم چيمس » فى « البراجماتزم » أو مذهب العمل . وقد آثرنا أن ننقله إلى العربية تحية لذكرى الفيلسوف الأمريكانى الذى مات فى السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٩١٠ .

ذات الرنين القوى ، والتى يكون فيها القول الفصل — ذلك شأن الحياة الإنسانية ، وأغلب الظن أن ذلك أيضاً هو شأن « الحقيقة » على وجه العموم فى نظر « وليم جيمس » .

حتى إن تجربتنا ليست عديمة الاتساق . فهى فى الحين الذى تعرض علينا أشياء ، وواقعات ، تبين لنا قرابات بين الأشياء ، وصلات بين الواقعات . وهذه الصلات فى نظر « جيمس » حقيقة مشهودة مباشرةً كالأشياء والواقعات نفسها . ولكن الصلات طافية والأشياء سائلة . وشتان بين هذا وبين ذلك العالم الجاف الذى يؤلفه الفلاسفة بعناصر مشطورة شطراً ، ومرتبة ترتيباً ، ذلك العالم الذى كل جزء منه ليس فقط مرتبطاً بجزء آخر ، كما تقول لنا التجربة ، بل وأيضاً متسق مع الكل ، كما يريده عقلنا !

وليس لمذهب « التعدد » (پلورالزم) عند « جيمس » معنى غير هذا : كان القدماء يتصورون عالماً مغلقاً ، مستتباً متناهياً ؛ وهو افتراض فيه إرضاء لبعض مطالب عقولنا . أما المحدثون فهم أميل إلى تمثل عالم لا متناه ؛ وهو افتراض آخر يُرضى حاجات أخرى من حاجات العقل . وأما من وجهة نظر « جيمس » ، وهى وجهة التجربة الخالصة أو « الأمپيرزم » الأصلية ، فالحقيقة لم تعُدْ تبدو كشىء متناه ، ولا كشىء لا متناه ؛ بل كشىء لا معيّن ولا محدود . إنها تسيل ، دون أن نستطيع القول بأن سيلانها فى اتجاه واحد ، بل ولا أن الذى يسيل هو دائماً وفى كل مكان نهر واحد .

وعقلنا بهذا أقل رضاً مما كان ، لأنه لا يطمئن إلى عالم لا يجد فيه صورته كما لو كان يراها فى مرآة . وليس من شك فى أن العقل البشرى قد تضاءل هنا شأنه . ولكن الإنسان نفسه — الإنسان بتمامه ، إرادة وإحساساً وعقلاً — ما أكثر ما ارتفع شأنه عما كان !

ذلك أن الكون الذى يتصوره عقلنا إنما هو كون يتجاوز التجربة البشرية تجاوزاً بعيداً : لأن خاصة العقل أن يطيل فى معروضات التجربة ، وأن يوسع من مداها بطريق التعميم ، وأن يجعلنا نتصور من الأشياء أكثر جداً مما قُدِّر لنا أن ندرك بحواسنا . ومعلوم أن الإنسان فى كون كهذا ليس شيئاً مذكوراً ، ولا يشغل إلا مكاناً صغيراً ؛ فما يعطيه لعقله يسلبه من إرادته . وما دام الإنسان قد نسب إلى فكره القدرة على الإحاطة بكل شىء ، فهو مضطر إلى أن يتمثل الأشياء جميعاً بلغة الفكر ؛ فهو لا يستطيع أن يطلب إلى مطامحه ورغباته وحماسته أن تهديه فى عالم كل ما كان فيه ميسور المنال ، قد اعتبره هو من قبلُ شيئاً يستطاع ترجمته إلى معانٍ خالصة . وحساسيته لا قِبَل لها بأن تضىء ذهنه ، ما دام قد جعل من ذهنه النورَ الذى ليس وراءه نور .

وإذن فأغلب الفلاسفة يضيّقون تجربتنا من ناحية العاطفة والإرادة ، بينما يوسّعونها بلا حساب من ناحية الفكر . و « جيمس » إنما يطلب إلينا ألاّ نضيف إلى التجربة من النظرات الافتراضية أكثر مما يلزم ، وأيضاً ألاّ نشوّهها فيما تملك من قوة ومتانة . فلسنا على تمام اليقين من شىء إلا ما تعطينا التجربة ؛ ولكنّا ينبغى أن نقبل التجربة كاملة غير منقوصة ؛ وعواطفنا هى جزء من تلك التجربة كمدركاتنا الحسية سواء بسواء . فالإنسان كله وبتمامه يجب أن يُحسَب له حساب فى نظر « وليم جيمس » .

بل وينبغى أن يُحسب له ألف حساب فى عالم لم يَعُدْ يثقِل كاهلَه بعظَمه واتساع آفاقه ... وإن الأشياء والواقعات التى تتألف منها تجربتنا يقوم لنا منها عالم إنسانى قد يكون له اتصال بعوالم أخرى ، ولكنه بعيد عنها كل البعد ، وقريب منا كل القرب ، حتى ليصح لنا أن نعتبره مستكفياً بنفسه ، كافياً للإنسان . وإن العواطف القوية التى تضطرب بها النفس فى اللحظات النادرة هى قوًى لا تقل فى حقيقتها عن القوى التى يشتغل بها علماء الطبيعة والإنسان لا يخلقها كما أنه لا يخلق الحرارة ولا الضوء . ونحن — فيما يرى « جيمس » — نسبح فى جو تخترقه

نماذج بشرية :

راستنياك RASTIGNAC

— ٢ —

« راستنياك طالب حقوق فقير من أصل نبيل ، وفد إلى باريس من الريف متشبعاً بمبادئ الخلق ، ثم أغرته الحياة الباريسية فنزع إلى الوصول السريع ، ورأى ذلك فى الاختلاط بالطبقة الراقية ، فاستعان بخالة له على التعرف بتلك الطبقة . وكان ينزل فى بنسيون متواضع ، التقى فيه بمجرم كبير فار من السجن ، معروف باسم (فوتران) ، وقد أسمعه هذا الرجل حديثاً شافياً عن وسائل النجاح فى الحياة بأى ثمن ، وها هى البقية » .

سمع راستنياك هذه الآراء المخيفة ، فنفرت نفسه نفوراً شديداً ، وهو الشاب الذى لا يزال يحتفظ بأثر نشأته الأولى فى الريف ، ولذا صاح عند ما رأى فوتران يغادره فى هدوء واضعاً عصاه تحت إبطه : « أى رأس صلبة يحمل هذا الرجل ! لقد قال لى فى فجاجة ما قالته مدام دى بوسيان بلباقة . لقد مزق قلبى بمخالبه الفولاذية . لماذا أريد أن أذهب عند مدام دى نوسنجان ؟ لقد حدس الرجل دوافعى كما تحركت فى نفسى . لقد حدثنى ذلك الجرم عن الفضيلة أكثر مما حدثنى الرجال والكتب كافة . وإذا كانت الفضيلة لا تقبل مهادنة فلا شك أنى قد سرقت أخواتى » . قال هذه الجملة الأخيرة ، وهو يطرح كيس النقود على المائدة ، وبعد برهة عاد يناجى نفسه « الوفاء للفضيلة ! آه يا له من استشهاد نبيل ! الناس كافة يؤمنون بالفضيلة ، ولكن من منهم الرجل الفاضل ؟ والشعوب كافة تعبد الحرية ، ولكن أين الشعب الحر ؟ إن شبابى لا يزال صافى الزرقة كالسماء التى لا سحب فيها . وإذا كنت أريد أن أصبح رجلا عظيما أو رجلا ثريا ، هل لى بد من أن أكذب وأنحنى وأزحف ثم أنهض وأتملق وأنافق ؟ هل لى بد من أن أضع نفسى خادماً لمن كذب وانحنى وزحف . لا مفر من أن أخدمهم قبل أن أصبح شريكا لهم . آه ! لا . إنى أريد أن أعمل فى نبل وطهارة . أريد أن أعمل ليل نهار ، وألا أدين بشىء لغير اجتهادى » . وهنا نلمس الصراع النفسى الذى لا نستطيع معه إلا أن نهتز عطفاً لتلك النفس الفتية التى لا تزال تجالد الشر بفضل ما اختزنت فى صباها من مثل الخير . ونحن لا يعنينا ما سيؤول إليه راستنياك فى الروايات اللاحقة ، وإنما نقف عنده كما نراه فى « الأب جوريو » لنشاهده

تيارات روحية كبيرة ؛ وإذا كان الكثيرون منا يتصلبون ويقاومون ، فغيرهم ينقادون مستسلمين . وهنالك نفوس تتفتح كل التفتح للنسمة الطيبة ، تلك هى النفوس الصوفية . ونحن نعلم بأى حدب وتعاطف أقبل « جيمس » على دراستها . لما ظهر كتابه عن « صنوف التجربة الدينية » ، لم ير فيه الكثيرون إلا سلسلة من الأوصاف الحية جداً ، والتحليلات الثاقبة جداً ؛ وكانوا يقولون بأنه دراسة بسيكولوجية للشعور الدينى . ولكن ما أشد وهمهم ! وما أبعدهم عن فهم فكر المؤلف ! الحق أن « جيمس » كان يميل إلى النفس الصوفية ، كما نميل نحن من النافذة إلى الخارج فى يوم من أيام الربيع ، لكى نستشعر مداعبة النسيم ، أو كما نراقب ، على شاطئ البحر ، القوارب فى مجيئها ورواحها ، ونلاحظ انتفاخ شراعها ، لنرى من أين هبوب الريح . كأن بالنفوس التى يعلوها الحماس الدينى شيئاً يشيلها شيلا ، ويطير بها طيراناً ؛ فكيف لا تجعلنا نحس ، كما لو كنا بإزاء تجربة علمية ، القوة التى ترفع وتحمل ؟ ولعل هنا منشأ « براجماتزم » وليم جيمس ، ومهبط الوحى من فكره . فهو يرى أن الحقائق التى يعنينا قبل كل شىء أن نعرفها هى حقائق أحس الناس بها ، واختبروها فى حياتهم قبل أن يتأملوها ويرووا الفكر فيها .

(له بقية)

عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

رفض التورط في الإجرام مع فوتران ؛ ونحن ندع جانباً ما كان له من مغامرات في الأوساط الباريسية ، مكتفين بالإشارة إلى أهم تلك المغامرات وهي : عشقه لمدام دى نوسنجان . وموضع الخطر على فتانا لم يكن في ذلك العشق ، وإنما كان فيما رآه من عقوق عشيقته وأختها لأبيهم « الأب جوريو » ، فلقد كان موقفهم منه شديد الشبه بموقف بنات الملك « لير » من أبيهم . بل إننا نعتقد أن بلزاك قد أسرف وأحال في تصور ذلك العقوق ، إذ جعل الأب من الحماقة الشاذة بحيث يتكالب في حبه لابنتيه كلما زادتاه نكالا . ولهذا نرى قيمة تلك الرواية الشهيرة في شخصية راستنياك ، لا في شخصية « الأب جوريو » بطل القصة وعنوانها .

عجيب أن نتتبع راستنياك في محاولاته المختلفة ، وأن نرى إرادته تصلب كلما تناوبه النجاح والفشل ؛ ومن المعلوم أن العزم لا يقوى بغير الصدمات . وهو رغم استرصاد إرادته لا يستطيع أن يسكت في نفسه صوت صباه ، فهو يحب أسرته وإن كان يبتز مالها . ولقد يكون في موقفه هذا ما يدل على أنه يحب ذاته أكثر من حبه لأهله ؛ ولكنه على أي حال لم يكن ميت القلب ، نراه يبكي عندما يقرأ خطابات أمه وأخواته . وإنه لا ريب أمر سهل أن نبكي قليلا ثم نعود إلى رأس أمرنا ، ولكن أليس عدم البكاء إطلاقاً أسهل من البكاء ؟ وهو أخيراً قد تعلق بالأب « جوريو » ورعاه أيام مرضه ، وتكفل بدفنه ونفقات ذلك الدفن مع زميله طالب الطب . ولقد يقال إنه أحب ذلك الشيخ المسكين لأنه كان والد عشيقته ، وربما كان هذا صحيحاً ، ولكنه مما لا شك فيه أن راستنياك الشاب المحب لأهله قد قدر في الأب « جوريو » طيبته ومحبته لبنتيه ، دون أن يرى ما في تلك المحبة الشاذة من حماقة . لقد أرسلت إليه مدام دى نوسنجان ليلة اشتداد المرض بأبيها خطاباً صغيراً تقول فيه : « إني أنتظرك للذهاب إلى حفلة الرقص ، فإذا لم أرك بجواري بعد ساعتين ، لست أدري هل سأستطيع بعد ذلك أن أغتفر لك تلك الخيانة » . ولكنه لم يكد يقرأ هذا الخطاب الوقح حتى أخذ قلمه ليرد فوره : « إني أنتظر الطبيب لأعرف هل سيعيش أبوك أم لا . إنه يحتضر . سآتيك حاملا الخبر ، وإني لأخشى أن يكون خبر الموت . سوف تنظرين عندئذ : هل تستطيعين الذهاب إلى حفلة الرقص ؟! » . ثم إن إرادة مدام دى نوسنجان قد تغلبت في آخر الأمر ، فذهب راستنياك ليرافق عشيقته إلى الرقص ؛ ولكن كم كان صمته لاذعا وهو إلى جوارها بالعربة ! لقد لزم صمت القبور حتى ضاقت به مدام دى نوسنجان فسألته : « ما بك إذن ؟ » ، وإذا به يجيب . « إني أسمع حشرجة أبيك ! » .

هذا هو راستنياك ، شخصية مركبة معقدة ، شخصية تميل إلى اعتبارها خيّرة . وأما إذا أردتني أن أدل على سبب أزلاقها إلى الشر في مستقبل أيامها ، فلست أراه إلا في أمرين : أولهما أن رغبات هذا الشاب كانت تنبعث في نفسه قوية لا تدفع ، ثم تملأ وجدانه فلا يعود يرى غيرها ، وإذا به يندفع وراءها لا يلوى على شيء ؛ وهو إذا كانت رغباته تثور من داخل نفسه ، فإن شجاعته كانت تأتيه من الخارج . إنه لم يكن له بد من النجاح لكي تتحقق ملكاته وتنشط ؛ بل نستطيع أن نقول النجاح كان أول وسائله للوصول . والذي لا شك فيه أنه قد وجد في مغامراته المختلفة ما يرضي تلك الحاجة إلى النجاح . وثاني الأمرين فساد ما رأى من حياة معظم الناس ؛ ولقد كان في موقف بنتي جوريو وصهريه من ذلك الأب البائس ما حمله على مجابهة الهيئة الاجتماعية ومنازلتها بأسلحتها مهما بلغت تلك الأسلحة من الحقارة . وفي الصفحة الأخيرة من الرواية يصف بلزاك دفن الأب جوريو بقوله : « ومع ذلك فعندما وضع النعش على الناقلة ، قدمت عربتان تحمل إحداهما شارة الكونت دى رستو ، والأخرى شارة البارون دى نوسنجان ، ولكنهما خاليتان ، ثم تبعتا النعش إلى المقبرة . وفي الساعة السادسة أنزل جسم الأب جوريو إلى

ثورة الفكر على الواقع ؟

أما من ثورة عالية للعقلاء والمفكرين يقومون بها في إجماع ضد دجاجلة السياسة، وسماسرة المال، وحامل الجاهلية، والمرتدين عن دين الحياة بالعلم والفضيلة ؟

أما يؤلمهم ويحز في نفوسهم أن تخنق آراؤهم ومثلهم العليا، وتداس أفكارهم التي لها يعيشون وبها يأنسون ؟

أما يغيظهم أن يظلوا دائماً مجرورين في عجلات أولئك الدجالين والجهال والسماسرة، يسحبونهم على وجوههم في تلك الطريق المعهودة من عهد الجاهلية للآن ؟

الجامعات، لو صحت الأوضاع، هي رءوس الأمم التي تفكر بها، وتتصرف في شئون الحياة صادرة عن وحيها، فماذا نرى الشوارع تتحكم في الجامعات، ولا نرى الجامعات تتحكم في الشوارع ؟ لماذا نرى الأقدام تتحكم في الرءوس ؟!

هل يقنع الجامعيون من الحق والعلم والفن أن يروا كلا منها في إطار من الصحف والكتب الجميلة والصور المعلقة على جدران الجامعات والمتاحف والمعارض، وأن يتحدثوا عنها في حجرات الدراسة، ويلبسوا لها «الروب» الجامعي، ويهزوا بها ذقونهم، ويقفوا بسمت ووقار، وينطقوا بضخم ولباقة ؟!

ما فائدة هذا التمثيل الدائم على مسارح العلم أيها الحكماء، ما دام هناك مناقضات فاحشة بين ما في البيوت والشوارع، وما في الجامعات، وما دمتم أنتم تلبسون للحياة العملية ثياباً أخرى وتضطرون لأن تواجهوها بوجوه أخرى ؟

ما فائدة الجري وراء البدوات والفروض الرياضية للحياة، والتنقيب عن أحافير الماضي اللغوية والأثرية، والتخييل بأحلام المستقبل المثالية، ما دامت تيارات الحاضر تفلت من أيديكم وتستعصي على توجيهكم ؟

لقد تكل الحاضر بمخلفات الماضي ومقدساته ،

الحفرة، ومن حوله خدم بيتيه الذين احتفلوا مع القسيس بمجرد الانتهاء من الصلاة التي دفع ثمنها الطالب راستنياك. وبمجرد أن انتهى الحفاران من رد بعض حفنات من التراب لتغطية الجسم، لم يلبث الرجلان أن نهضا وقد اتجه أحدهما إلى الطالب يسأله «البقشيش» ! وفتش إوجين في جيبه فلم يجد شيئاً، فاضطر إلى أن يستلف فرنكا من كريستوف خادم البنسيون. ولقد نشرت هذه الحادثة الصغيرة في نفس راستنياك حزناً مظلماً. وكان النهار قد آذن بالأفول، وأخذ الشفق الرطب يثير الأعصاب، فنظر الشاب إلى القبر ودفن فيه آخر دمعة من دموع صباه، وكانت دمعة فاضت بها عاطفة مقدسة من قلب طاهر ! دمعة من تلك الدموع التي ما تكاد تسقط إلى الأرض حتى ترتد إلى السماء، ثم ربع ذراعيه إلى صدره، وأخذ يتأمل السحاب ؛ ورآه كريستوف في هذا الموقف فتركه عائداً. ووجد راستنياك نفسه وحيداً فخطا بضع خطوات نحو أعلى المقبرة حيث رأى باريس راقدة في التواء على ضفتي السين، وقد أخذت الأنوار تسطع، فاستقرت عيناه فيما يشبه النهم بين عمود فندوم وقبة الأنفاليد ؛ وبين هذين الموضعين يقع حي تلك الطبقة الراقية التي أراد أن يختلط بأفرادها. وأرسل إلى تلك الخلية الطنانة نظرة تكاد تمتص ما بها من رحيق، ثم قال هذه الكلمات الرائعة : والآن فلأخلُ لك ! وكان أول عمل من أعمال التحدّي الذى أعلنه راستنياك للهيئة الاجتماعية أن ذهب ليتناول العشاء عند مدام دى نوسنجان».

لقد كان في ذهابه إلى العشاء مع تلك العشيقة الماقة آخر عهده بالحياة الشريفة، بعد أن رأى من فساد الهيئة الاجتماعية ما لا يمكن أن تصمد له مُثل الخير التي ألفها في صباه. ولكن أراه محقاً ؟! (انتهى) محمد مندور

وبآمال المستقبل وتخيلاته تشكيلا فظيعاً ، حين أطلق هذه الحرب الضَّطَمَةَ الطاحنة بصواعقها وقواصفها ، فإذا الأبراج العاجية والصوامع الجامعية تذروها الرياح دخانا وهباء منثوراً مع ما فيها من كنوز الماضي ورصيد المستقبل.

وكان ذلك كذلك لأن الجامعيين والمفكرين لم يؤمّنوا طريق العلم والحضارة ، ولم يكبلوا الوحوش والغيلان الممثلة في الدجالين والسماسرة ، والجائعين للشهرة والجهال الذين يفتكون بالمدنية ، ويأخذون منتجات العلم وينتفعون بها في تسخير الحياة من غير أن يأخذوا الأسس النفسية الفاضلة التي في نفوس العلماء .

وكان ذلك لأن خدام العلم لم يسلكوا في تعبيد طريقه وتأمينها مسلك خدام الدين الأولين ، فلم يقيموه على أساس التعصب له والثورة به والفناء في سبيله ؛ ولم يقيموه في نفوس الطلبة على أساس الروح ذات الجذوة الحمراء التي تنضج كل ما تقتنيه وتحوله إلى كيانها ؛ وإنما أقاموه على أساس الفكر ذى الجذوة البيضاء الهادئة التي تقتنى المعلومات كما تقتنى اليد الأشياء ، وتضعها على الرفوف وفي الخزائن : فهى دائماً منفصلة لا تندمج في كيان المقتنى .

فلا بد إذاً من ثورة إجماعية للعلم تقوم على أساس التعصب له وللفضيلة ، فإن العلم من دين الله الذى يدين به البشرية وتتوحد به غاياتها ومقاصدها ، وتخضع أعناقها لمعجزاته الدائمة المتجددة .

ولا بد من السرعة في إقامة أسس الحياة على الثابت من قوانينه ، حتى لا يكثر العدد من ضحايا عهد الانتقال ، كما هو الحال الآن ، كما لا بد من الثقة بالفكر البشرى الهادى المستنير ثقة كاملة .

فقد قاد الفكر القطيع البشرى ، ونقله من حياة البساطة والعجز والجهل إلى هذه الحياة المعقدة القادرة العالمة ، ولا يزال يقوده وينقله مرحلة فرحلة في طريقه إلى مستقبل مجهول .

وكلما استقرت الأجسام البشرية في مرحلة ، وعاشت فيها حياة آلية رتيبة ، واطمأنت جنوبها إليها ، وقالت هنا ينتهى الطريق ويقوم الهدف ، ثار بها ثائر من عالم الفكر ، ودفعها إلى أفق جديد تقاوم هى الاندفاع إليه في أول الأمر ، ثم لا تلبث أن تسير مع عجلة الفلك بدافع من قوة التطور البديعة ؛ وتأخذ في دور الاستقرار فيما انتقلت إليه ، إلى أن يومض بارق ويثور ثائر على الواقع ، ويلوّح لها بجديد من عالم المثال ، فتتبعه بعد جهد على رغم ما تلاقيه من عنت الانتقال وترك المألوف !!

فقصة الحياة الإنسانية هى قصة الفكر وثوراته المتتابعة على الواقع . ولولاه لظل القطيع البشرى كأى قطيع حيوانى مما يدرج على الأرض : لا ارتقاء له بذاته ، ولا قدرة له على تغيير واقعياته .

وما كان يراه الواقعيون القدماء مستحيلا أو بعيداً عن قدرة الإنسان حققه الفكر المتطلع الثائر ، وجعله من أيدينا دانى القطوف على طرف الثمام . وبعبارة أخرى : كثير من حقائق اليوم وواقعياته التي تتقلب فيها الحواس ، وتعمل فيها الأيدى ، كانت أحلاماً وبروقاً تلوح في آفاق الفكر الموهوب المدرك لما وراء صور الواقع من صور أكمل وأبدع .

والبطء الشديد في الانتقال ، بل التخلف والوقوف الطويل في مرحلة من مراحله ، بل الارتداد الذى يحدث من المجتمع في كثير من الأحيان ، إنما مبعثه العناد والجمود والجموح من القطيع ، والتوانى والإهمال من المدركين للكمال ، القاعدين عن نداء الفكر وإهابته بهم أن يتجردوا لما استُحْفِظُوا عليه ويأخذوا الإنسانية إليه ، الطامسين لتلك الصور الجميلة التي رسمها في صفحات ضمائرهم وخيالاتهم القلم الأعلى الذى يعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويدرجه في قراءة الحقائق وإدراك الكمالات درساً فدرساً .

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون

أحسن مما هي عليه الآن وأكمل ، فتدرج هذه الحياة من صور الاجتماع الأولى إلى هذه الصور المعقدة العظيمة في الاجتماع الحالي . وطواعية الفرد تحت أحكام القوانين والنظم والتقاليد التي تحيط بكل تصرف من تصرفاته ، أكبر دليل على إمكان الوصول إلى ما يصبو إليه ذوو الأفكار السامية والقلوب الكبيرة التي نضجت فيها معاني الإنسانية وأسرارها .

وما يضر الإنسانية شيء ، كما يضرها الاستسلام للواقع الخاطئ الناقص القائم على أسس فاسدة .

وقد كان يصح إلى حد ما اغتفار التواني وترك المجتمع يقوم على أسس فاسدة وأشكال ناقصة أيام كانت الثقافات محدودة والمعارف ضيقة والتعليم لونا من ألوان الترف في الحياة ؛ وأيام كانت حدود الأشياء ، وقيمها مختلطة مشوشة ، وأيام كانت آثار هذا التواني والإهمال ضيقة الأضرار هينة الجرائر والآثام ؛ وأيام كانت المعارف متقاربة بدور الناس بها دورانا نظريا في حيز ضيق من حياة المجتمعات ؛ وأيام كان انتقال الحياة في طريق الآليات والصناعات انتقالا بطيئاً لا تنشأ عنه مسافات بعيدة بين القاعد والماشي ...

أما الآن وقد صارت قيمة التعليم والتهذيب للفرد كقيمة الخبز ، وحدود الأشياء واضحة مميزة ، وصارت آثار التواني في إقامة المجتمع على أسس العلوم والأخلاق والفنون آثارا عميقة غليظة الجرائم والآثام ، وصارت آفاق العلوم والمعارف متباعدة متعددة في نطق واسعة جداً لا اختلاط بينها ولا تشويش ، وصار كل يوم يأتي بأشياء جديدة عجيبة من وسائل العلم والسيطرة والقوة ... فلا يجوز مطلقاً أن يتوانى مفكرو أي مجتمع ويتركوه يقوم على الأسس الفاسدة ، ويسير على مجرى التاريخ الذي يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ...

إن الناس لم يرضوا أن يسيروا بأقدامهم على الطرق والدروب القديمة في المدن والقرى ، بل مهدوها تمهيداً فيه فن وتنظيم على أحدث الأساليب ؛ فكيف يرضون أن يظلوا في حياتهم الفكرية سائرين بروحهم على مسالك وعرة قذرة ، فيها أنقاض وخربات من عالم بائد ؟!

أجل ! في حياتنا الفكرية أنقاض وخربات يسكنها ظلام وحشرات وخفافيش وزواحف سامة تفزعنا وتفسد إحساسنا بجمال الحياة الحديثة ، فيجب هدمها أو تجديدها إذا كان فيها ما يجب أن نبقي عليه . وإلا فسنظل فرائس للفزع والاشمئزاز .

وفي حياتنا النفسية مستنقعات آسنة تنز وترشح إلى ما يجاورها من الرياض العلمية والفنية الحديثة ، وتفرخ فيها كثير من جراثيم الآفات ؛ فيجب ردمها وتحويلها للإزهار والإثمار الصالح . وإلا فسنظل مرضى مصروعين متناقضين ..

وإن الناس ما رضوا أن يتركوا موارد الطبيعة كما هي بدون أن يدخلوا عليها أساليب التنظيم والاستغلال والانتفاع . فلماذا رضوا أن يتركوا موارد النفس ومصادر الأخلاق ، كما هي بدون تنظيم وتعديل ، كما يقضي بذلك الإدراك الصحيح ، والمنفعة العاجلة والآجلة ؟

لقد أقاموا الاستحكامات والسواقي والخزانات على المنابع والأنهار ، ليتقوا غيضها وفيضها وأقذارها مما ذاقوا منه الضار والأمراض في العهود القديمة . ولكنهم لم يقتنعوا بعد بأن موارد النفس ومصادر الأخلاق وما فيها من غيض وفيض وقذر وضعف وطغيان ، تحتاج إلى إقامة أمثال تلك الاستحكامات ووسائل التصفية من الأكدار .

فهل يظلون مصرين على العمى عما وراء الأجسام ، سجناء الشواخص والكثافات وحدها ؟!

لقد صارت الحياة المادية بما أدخله عليها العلم والفن ، حياة قيمة جداً تعمل على الثقة بالإنسان كعامل عظيم من عوامل التكوين والتنويع التي في يد الله ... فيقبح جداً بالإنسان أن يترك نفسه تحت تأثير الغرائز الضيقة ،

والحاقات القديمة التي تحمله على تدمير تلك الحياة المادية القيمة ، وتخريبها هذا التخريب الذي تمثل اليوم مأساته الدامية الشنيعة على مسرح الأرض كلها ...

إن الفكر البشري قوة مبصرة عظيمة تتحكم في كثير من القوى المادية العمياء . فالواجب الأول أن يعنى به قبل غيره ، وأن يحافظ المجتمع على قوانين نموه واطراده والانتفاع به ، وصيانته من العوادي التي تعدو عليه فتفسد حياته ثم تفسد الحياة به .

ومن العجيب أن تفزع الدولة حين ترى جسماً مريضاً مرضاً وبائياً ، فتضرب بينه وبين الناس نطاقاً من العزل الصحي و « التطعيم » والوقاية ؛ ثم لا تبالي ولا تفزع حين ترى الأمراض الفكرية الوبائية تجتاح صحة القلوب والأفكار ، وهي أوعية أسرار الحياة الإنسانية ، وعوامل توجيهها !

إن العناية بالمظاهر الجميلة البراقة لا تغني عن العناية بالخفايا والأسرار في أي شيء ، وخصوصاً في الحياة الإنسانية التي يجب أن يسبق الفكر فيها كل عمل وكل مظهر . وإن المجتمع ليهدر قيمة الفرد الاجتماعية مهما كان جميلا قوي الجسم حين يرى به جِنّة أو مسّا من الخبال ... فيسجنه في مستشفيات المخبولين أو سجون المجرمين ؛ ذلك لأن الفكر هو الشيء الأول الأهم في الإنسان .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسان

والإخلاص للفكر والعلم يحمل على ابتداء حياة الأمة بهما وإنشاء أوضاعها من جديد ، ومقاطعة الاشتغال بأي فرع من فروعها إلا بعد إصلاح الدعامات والأصول التي يقوم عليها بناؤها .

و « الترف العقلي » الذي نراه في الأمم الراقية التي سبقتنا بأشواط وأشواط ، فنفتتن به ونتوجه إليه كأفراد منسلخين عن حياة الشقاء التي تحياها أمتنا ، ينبغي ألا يشغلنا ويصرفنا عن مجابهة العقدة الأولى ، وهي إصلاح أسس حياتنا مهما لقينا من العنت والمشقة والاضطهاد من الراضين بالحياة كما هي ، والذين لهم مصالح في الحرص على بقاء الحياة كما هي ...

وليكن اجتهادنا في صنع القوالب الصالحة وتخطيط الاتجاهات ، ولو كانت تلك العملية مستمة ليس فيها زواق ورواء .

وليكن لغيرنا ممن يأتي بعدنا لذة الاشتغال بألوان الترف العقلي ، وطلب الشهرة بأعمال التلوين والزواق ، مما يفتن العوام وأشباههم ويذيع الشهرة بينهم .

فإذا أصررنا على ترويق الأجسام الآدمية الحديثة بطلاء رقيق من المدنية ، تاركين النفسية القديمة كما هي ، فلن يكون ذلك أقل خداعا من دهن الأحطاب والجذوع النخرة باللون الأخضر . . إيهاماً للناس بأنها نبات صالح في أرض طيبة ...

عبد المنعم محمد خلاف

سافونارولا

(Savonarola)

تمهيـــد — أصل سافونارولا ونشأته — فراره والتحاقه بدير الدومنيكان في بولونيا — إشارة إلى بعض أحوال إيطاليا في عهده — وعظه في فرّارا — خطر الحرب — انتقاله إلى فلورنسا .

ما أن انبثق عصر النهضة في إيطاليا ، إلا وكان المجتمع الإيطالي قد دخل في دور تغير عنيف شمل جميع مرافق الحياة . فتغيرت عقلية الإيطاليين ، وخرجوا على أوضاع العصور الوسطى ، وأهملوا العرف والتقاليد ، وأقبلوا على منبع الحضارة اللاتينية واليونانية يأخذون عنه ألوانا من الفكر والأدب والفن ، واستلهموا ذلك التراث القديم في تغذية عقولهم وإذكاء عبقريتهم . وظهر الفن الجديد الذي استمد عناصره من آثار القدماء ، ومن وحي الحياة الواقعة واستجابة الفنان لمؤثرات بيئته ، وأصبح الفن مبتكراً حياً طبيعياً رائعاً . ونشأ الأدب الجديد الذي يصوّر عواطف الشعراء الصادقة ، ويمجد جمال الروح والجسد ، والذي يحض على التمتع بالحياة قبل فوات الوقت . وأصبح الإنسان مقياس القيم في الوجود ، وبحث الإنسانيون الحياة على الأرض لا في ما بعد الحياة ؛ فتمتع الناس بملذات الدنيا ، وخالفوا قواعد الأخلاق والدين وأقيمت الحفلات والمراقص ، وعاش الأغنياء والأمراء ورجال الدين وعلى رأسهم الباباوات أنفسهم عيش البذخ والترف . كما عصفت بإيطاليا أهواء السياسة وتنازع الأحزاب واختلاف المصالح ، وتعرضت لخطر الغزو الأجنبي .

ولم يخل هــذا الجو الجديد من نهوض معارضة ومقاومة لهذا التيار العام الذي ساد إيطاليا في ذلك الوقت . وتتمثل هذه المعارضة في الحركة التي قام بها جيرولامو سافونارولا ، الراهب المتعصب الذي اشتهر في فلورنسا وفي أنحاء إيطاليا . وتعتبر حركته من بعض الوجوه كرد فعل لعصر النهضة الجارف ، وتحتوي على عنصر الرجوع إلى القديم والتمسك بقواعد الأخلاق والدين ، مع العمل على تحقيق العدالة ومقاومة الاستبداد . فهي حركة دينية سياسية اجتماعية ، ترمي إلى إصلاح المجتمع الفلورنسي والإيطالي على أساس الأخلاق والدين .[*]

سجل التاريخ أخبار أسرة سافونارولا لأول مرة في حوالي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، عند ما ظهر أنطونيو سافونارولا كجندي باسل ، مدافعاً عن حرية مدينة بادوا ضد اعتداء الطاغية إتزيلينو . وفي منتصف القرن الخامس عشر ، انتقل أحد أفرع هذه الأسرة وعلى رأسه ميشيل سافونارولا إلى مدينة فِرّارا (Ferrara) بناء على طلب الدوق نيقولا الثالث . وقد اشتهر ميشيل ، جد بطلنا ، بأنه كان طبيباً بارعاً ، كما امتاز بالتقوى والورع والعطف على الفقراء والمحتاجين . وأصبح طبيب البلاط في فِرّارا ، كما تولى تدريس الطب بجامعتها . ولا نعرف كثيراً عن ابنه نيقولا الذي درس الطب أيضاً ، واشتغل في بلاط الدوق . وامتازت زوجته إيلينا بقوة الشخصية ونبالة الخلق ، وكان لهــا تأثير كبير على ابنها جيرولامو ، فأكسبته صلابة الطبع والثقة بالنفس والتمسك بالمبادئ ؛ وكان عظيم الحب لها شديد الإعجاب بسجاياها ، وطالما التجأ إلى مشورتها يطلب منها العون في ساعات الضيق التي ألمت به في حياته المنيفة .

ولد جيرولامو سافونارولا في ٢١ سبتمبر ١٤٥٢ ، وهو ثالث إخوته الذين بلغ عددهم سبعة . ومعلوماتنا قليلة عن عهد طفولته ونشأته الأولى . ونعرف أن والديه كانا

* يمكن القارئ الذي يرغب في المزيد من الاطلاع أن يرجع إلى ما يلي :

- Armstrong, E., Savonarola (Cambridge Modern History) Vol. 1. Cambridge, 1904.
- Armstrong, E., Italian Studies London, 1934.
- Enciclopedia Italiana.
- Encyclopedia of Religion & Ethics.
- Roeder, R., The Man of the Renaissance. London, 1934.
- Roeder, R., Savonarola. London, 1930.
- Villari, P., Life & Times of Savonarola (Engl. Trans. by Linda Villari) London, 1897.
- Villari, P. & Casanova, E., Scelta di prediche e Scritti di Fra G. Savonarola. Firenze, 1898.

بأملاه أن يصبح جيرولامو طبيباً . وقد عنى جده بتلقينه مبادىء التعليم الأولى ، وحباه عطفه ورعايته ، وحبب إليه الدراسة ، وجعله يقبل على التهام الكتب . ولسوء الحظ مات الجد سريعاً (١٤٦١) ، فأخذ أبوه يلقنه مبادىء الفلسفة كمقدمة لدراسة الطب ؛ فدرس آراء توماس أكويناس فيلسوف العصور الوسطى ، كما درس آراء أرسطو ؛ وقد تأثر بصفة خاصة بآراء أكويناس ، وكان ينصرف إلى مؤلفاته وقتاً طويلا ، حتى أنه آثرها على دراسة الطب ذاته . وكذلك قرأ كتب القدماء ، وألف بعض الأشعار ، ودرس الرسم والموسيقى . ولا نعرف تفصيلات وافية عن سير تعليمه والصعوبات التى واجهته . ويلاحظ أنه كان يميل منذ حداثته إلى العزلة وإلى التفكير والتأمل ، كما كان يشعر ، من وقت لآخر ، بدافع يوجهه إلى الاتصال بالناس والاختلاط بهم .

وفى ذلك الوقت امتاز أمراء فرّارا بتشجيعهم العلوم والفنون والآداب ، وحاولوا أن يجعلوا من مدينتهم مركزاً مهماً من مراكز حركة النهضة فى إيطاليا . وامتازت فرّارا بفخامة وأبهة الحفلات والمراقص التى كانت تقام بين جدران البلاط والقصور ، وفى شوارع المدينة وأماكنها الرئيسية . وقد شهد سافونارولا طرفاً من هذه الحفلات ، خصوصاً عند ما حضر البابا بيو الثانى إلى فرّارا ، فى الرحلة التى قام بها لاجتذاب أمراء إيطاليا وضم صفوفهم لتكوين جبهة متحدة تعمل على طرد الأتراك العثمانيين من أوروبا . وقد ارتبط بهذه الحفلات مظاهر البذخ والترف ومعالم الوثنية القديمة . ولم ترض سافونارولا هذه المظاهر والمباهج ، وأثرت فى نفسه تأثيراً مؤلماً . وأحس منذ طفولته الباكرة بهذه الدوافع التى أسخطته وحثته على محاربة البيئة التى عاش فيها ، فأخذ يبدو حزيناً متواضعاً ، متأملا مخلصاً ، مكباً على الصلاة ، وكثيراً ما انهمرت دموعه عند أسفل المذبح وهو راكع يتعبد .

وحاول أن يسلى نفسه بإيقاع نغمات موسيقية حزينة ، وبنظم الشعر الذى نفّس فيه عن صدره المكروب .

وذكر فى هذا الشعر كيف زالت الفضائل من العالم ، وانعدم النور الذى يضىء الظلمات ، وأنه لم يعد يخجل إنسان من آثامه وخطاياه ؛ وأصبح السعيد ذلك الذى يعيش بالاعتداء على الناس ويمتص دماء الآخرين ، ومن ينهب الأرامل والأطفال الذين أوتمن عليهم ؛ واعتبر رفيعاً من سخر بالسماء والمسيح والفضائل . وازدادت كراهية سافونارولا لأخلاق العصر الذى عاش فيه ، ورفض بإصرار غريب على من فى سنه أن يخطو عتبة قصر دوق فرارا فى رفقة أبيه .

وحدث أن لجأ ستروتزى أحد المنفيين السياسيين من فلورنسا إلى فيرّارا ، وسكن منزلاً مجاوراً لآل سافونارولا . وكان لأسرة ستروتزى تقدير فى نظر سافونارولا لأنها نفيت ضحية للوطنية ودفاعاً عن الحرية . وكان لستروتزى ابنة جميلة غير شرعية تسمى لاوُداميا (Laodamia) ، وعندما التقت عيناه ، لأول مرة بعينى الفلورنسية الجميلة اهتزت نفسه ، واشتعلت فى قلبه نيران الحب ، وثار بين جوانحه ذلك الشعور الذى يجعل الإنسان يؤمن بالسعادة على الأرض ، وبدت الدنيا أمامه تشع ضوءاً جديداً ، وازدحمت فى مخيلته أمان متلاحقة ، وتخيل السعادة المجهولة التى تنتظره ، وامتلأ صدره بالثقة والحماس ؛ فاندفع معلناً عواطفه الصادقة لفتاة أحلامه . ولكن سرعان ما صدم فى شعوره فجأة وعلى غير انتظار ، إذ أعلنت أسرة ستروتزى عدم كفاءة سافونارولا لفتاتهم . فحزّ الرفض فى نفسه الشاعرة ، وأحس بأحلامه تتبخر هباء ، وبأمانيه تطير فى الهواء . فحمل قلبه الجريح ، وانطوى على نفسه ؛ وعاد إلى وحدته المريرة ، يبكى ويتأمل .

وقد رده هذا الفشل إلى شعوره الدينى الصميم ، الذى أصبح عزاء لقلبه المكلوم ، وفتح أمامه طريقاً آمناً للنجاة . وبينما ازدادت كراهيته لحياة المجتمع اشتد إعجابه بآراء توماس أكويناس ، وأخذ يفكر فى هجر العالم إلى الرهبنة . وأدرك بجلاء مدى الصراع العنيف الذى هو مقبل عليه لفراق أهله . وكان من الضرورى له أن يخفى رغبته عنهم حتى لا يحولوا بينه وبين ما اعتزم تنفيذه .

وقد لحظت عليه أمه وجوما فى تفكيره وتغيرا فى طباعه ، وكأنها قد تنبأت بما يجول فى خاطره ، وكانت ترمقه بنظرات الحب والإشفاق والوجل ، فتمزق قلبه الملىء بالعواطف . ولم يكن يجرؤ سافونارولا فى تلك اللحظات على مواجهة عينيها اللتين تفيضان بالحنان . وذات يوم أخذ الفتى يغنى ويعزف على قيثارته لحناً حزيناً نفذ إلى قلب أمه ؛ فقرأت لها الحقيقة الغامضة ، واختلجت نفسها ، وصاحت به بصوت يخنقه العبرات : «أى بنى هذا لحن الفراق!» . فتماسك سافونارولا وتجلد ، وصمت ولم يتكلم ، وكتم أنفاسه ، واستمرت أصابعه المضطربة تداعب أوتار القيثارة ؛ دون أن يقوى على رفع بصره إلى عينيها .

وبينما ذهبت أسرته لحضور إحدى الحفلات الدينية ، غادر سافونارولا فرّارا خلسة فى ٢٤ أبريل سنة ١٤٧٥ ، وانطلق إلى بولونيا حيث طرق أبواب دير سان دومنيك ، ورحب به رؤساؤه . وكتب إلى أبيه كتابا رقيقاً برر فيه هربه المفاجئ ، وقال بأنه لم يعد يطيق مساوئ العالم وخطايا الناس ، وأنه أخفى نيته حتى لا يخونه قلبه فى تنفيذها . وسأله أن يكون قويا ، وأن يعمل على مواساة أمه وتشجيعها ؛ وأشار إلى أنه قد ترك فى غرفته فى فرّارا كتاباً ؛ فهرع إليه أبوه ، ووجد به نفس النغم ، حينما عبّر عن آرائه قائلا بأنه لا يوجد رجل واحد يبغى الفضيلة ويطلب الخير ، وأنه ينبغى للناس أن يتعلموا من الأطفال والنساء ، لأنهم وحدهم الذين يحتفظون بظل من طهارة النفس وسلامة الطوية .

وقضى سافونارولا سبع سنوات فى دير الدومنيكان فى بولونيا . وكان لجدران الدير أثرها الفعّال ، ففصلته عن العالم الخارجى زمناً ، وأضفت على قلبه السلام ، وطهرته من رغبات النفس ، وصرفته إلى العبادة والطاعة . وقد أبدى ملكات ممتازة وقدرة على التحصيل ، فعهد إليه رؤساؤه بأن يتولى تعليم الرهبان الجدد . ويخطئ من يظن أن سافونارولا لم يكن إلا رجلا خاشعاً مطيعاً متواضعاً على الدوام ؛ فقد احتوت نفسه إلى جانب هذه الصفات على عناصر الثورة والجرأة والكفاح والنضال .

وعند ما كان يفكر فى مساوئ الكنيسة وفوضى العصر فإنه كان يثور ويغضب ، ويعلن آراءه بصراحة نادرة ، غير عابئ بقواعد الطاعة والخضوع الأعمى . وكان يغمر قلبه الأسى العميق فيبكى ويصمت ، ويقضى الساعات الطويلة وهو يتأمل جمال الطبيعة الساحرة . وهكذا مرّ الزمن الذى يغيّر كل شيء ، ولكن لم يغيّره هو ، فبقى راسخاً فى إيمانه ، ثابتاً فى عزلته وزهده ، متعصباً لمبادئه ، متطلعاً المستقبل .

وكان البابوات فى ذلك الوقت قد انصرفوا إلى أمور الدنيا . فأظهر البابا پاولو الثانى جشعاً كبيراً فى جمع الأموال ، بينما عمل أقاربه وخلفاؤه على بذلها وتبديدها ؛ واستغرقت حفلات البلاط البابوى الأموال الطائلة ، وناهيك بالزينات والموائد التى كانت تقام فى مناسبات مختلفة . كما أخذ البابوات وأقاربهم يُمعنون فى مخالفة قواعد الدين والأخلاق ، ويسرفون فى التمتع بملذات الحياة ، وعلى رأسهم البابا اسكندر بورجيا ؛ وكذلك أصبح الحال فى سائر أنحاء إيطاليا .

وقد تركزت سلطة الحكم فى بعض أنحاء إيطاليا فى يد حكام من الطغاة المستبدين ، واستطاع بعضهم أن يحكم إمارته حكما معقولا ، ولكن أعوز بعضهم الآخر النظر السليم والملكات اللازمة للحاكم الكفء ، كما امتاز كثير من الحكام باتخاذ وسائل القسوة والخداع والغدر لتحقيق أطماعهم الشخصية مع إهمال مصلحة الشعب ؛ فسرت روح الاستياء بين الناس ، وتطلع أفراد من الخاطرين للقيام بمؤامرات بقصد التخلص من هذا الحال .

وحدثت بعض أمثلة لهذه المؤامرات فى سنة ١٤٧٦ ، إذ حاول جيرولامو جنتيلى أن يحرر جنوا من سيطرة ميلانو ، وقامت مؤامرة انتهت بقتل جالياتزو المستبد بحكم ميلانو ؛ ثم فُتك بالجناة فى شوارع المدينة . وحاول نيقولا دستى أن ينزع حكم فرّارا من أخيه الدوق إركولى ، ولكنه لم يفلح ، وقد أدى فشل هذه المؤامرات إلى استفحال نفوذ الحكام المستبدين . ولكن ذلك الفشل لم يثن الخاطرين عن القيام بمحاولات جديدة . وحدثت أفظع مؤامرة من هذا النوع فى فلورنسا ، وهى مؤامرة

آل باتزى الذين ثاروا ضد استبداد آل مديتشي واستئثارهم بالحكم ؛ وحاولوا قتل لورنتزوا العظيم ، ولكنه تمكن من النجاة ، وقُتل جوليانو دى مديتشى فى كاتدرائية فلورنسا فى أبريل سنة ١٤٧٨ . وتمتاز هذه المؤامرة برفعة شأن من اشترك فيها من كبراء المدينة ورجال الدين ، وقد عضدها البابا سكتوس الرابع لكى يبسط سلطانه على فلورنسا ، كما تمتاز باختيار الوقت المناسب لها وبعدد ضحاياها .

وفى وسط هذا المعترك الإيطالى الصاخب كان سافونارولا يرقب الحوادث ، وقد ملأت نفسه الأسى والرعب . وبدأ يعظ الناس فى بولونيا فى ١٤٨١ . ثم أرسل للوعظ فى فرّارا ، وعاش فيها منعزلا وتجنب مقابلة أصدقائه ، ولم ير أسرته إلا نادراً لكى لا يوقظ فى نفسه عواطفه القديمة . إلا أن شوارع المدينة وأحياءها ومنازلها وكنائسها كانت تتحدث إليه عن ذلك الماضى الذى عمل على إبعاده من ذهنه ، فكانت تتجاذب نفسه مشاعر مختلفة . ولم يكن فى عظاته فى فرارا قد كشف بعد عن مقدرته الخطابية ، وكان قليل الثقة بنفسه للسيطرة على سامعيه ، فى أول الأمر ؛ وإن يكن قد ظهرت فى عظاته لمحات من البلاغة وقوة المعارضة .

وفى نفس السنة هددت فرّارا الحرب . وبدأت موجهة ضد دوق فرارا ، ثم اتسع نطاقها وانقسمت إيطاليا إلى معسكرين متعاديين . ويرجع سبب الحرب الحقيقى إلى رغبة البندقية فى توسيع سلطانها فى الأرض الإيطالية من ناحية ، ورغبة البابا تقوية سلطانه ونفوذ أقاربه فى إيطاليا من ناحية أخرى . وانضم إلى دوق فرارا فلورنسا ونابلى وميلانو وبولونيا ؛ وانضمت جنوا والبندقية إلى البابا فى أول الأمر . ووقعت مناوشات غير حاسمة . وبدت البندقية أنها ستكسب كل الفوائد وسينمو نفوذها على حساب الإمارات الإيطالية الأخرى ؛ وعندئذ غير البابا سياسته ، فصالح أعداءه من أمراء إيطاليا وحرضهم على قتال البندقية العدو الخطر . وكان هذا التغيير الفجائى أمراً غريباً فى نظر من لا يعرف طبيعته ، والوسائل التى يتخذها للوصول إلى أغراضه وملء خزائنه بالمال وتوسيع أملاكه . واستمرت المناوشات بعض الزمن ، ولكن انتهى الأمر بكلال المتحاربين وتبرمهم من الحرب ؛ فوقف القتال وعقد الصلح فى ١٤٨٢ . ومات البابا حانقاً مريضاً ، لأن الصلح قد فوّت عليه فرصة تحقيق أحلامه ومطامعه .

وقد اضطرت هذه الحرب الكثير من رهبان الدومنيكان إلى مغادرة فرّارا . فودع سافونارولا أسرته وأصدقاءه ومدينته لآخر مرة ، إذ لم يقدر له أن يعود إليها بعد ذلك . وأرسل سافونارولا إلى فلورنسا ؛ وأخذ يقطع طريقه بين ممرات جبال الأبنين إلى هذه المدينة الجديدة ، بينما كانت تساور نفسه الأفكار الحزينة من جراء ما أصاب إيطاليا من الفوضى والاضطراب . وأدرك بوضوح ما جرته على بلاده السياسة الخرقاء التى اتبعها البابا وأمراء إيطاليا ، والويلات التى سببتها بصفة خاصة مساعى البابوات لتحقيق أطماعهم بدلا من العمل على توحيد إيطاليا ، بعد أن ثبّت الأتراك العثمانيون أقدامهم فى البلقان ، وأخذوا يرسلون قواتهم لضرب أوترنتو ، كما هددوا بالزحف غرباً إلى قلب أوروبا . وبينما يسير سافونارولا فى طريقه كانت الرياح تضرب أشجار الصنوبر العالية ، وتصفر فوق سفوح الجبال ، وهى تصب لعناتها على من أثار الفوضى والدمار فى إيطاليا .

وما أن هبط سافونارولا فلورنسا حتى أسكرته أنوار المدينة الجديدة ، وأثر فى نفسه اللسان التسكانى الجزل ، ولمس رقة شعور أهل فلورنسا ، واهتزت جوانحه لجمال تسكانا الناطق وفنها العريق ، الذى بدا لعقله المتدين تعبيراً إلهياً مقدسا ، ودليلا على إبداع العبقرية التى تستوحى الإيمان الصادق . ودخل دير سان مارك ، ووجد رهبانه ممتازين فى الثقافة والذوق ؛ وشهد صور فرا أنجيلكو ، التى ملأت جدران الدير ، تشع منها أضواء مقدسة ، فأحس أنه انتقل إلى عالم من الأحلام ، وارتاحت نفسه ، ونسى متاعب الماضى ، وبدت أمامه أنوار الأمل الباسم ؛ ولكنه لم يدر ما يخبئه له المستقبل القريب من الأحداث .

(يتبع) حسن عثمان

من حديث الكتب :

مذكرات دجاجة

الدكتور إسحق موسى الحسينى صاحب هـــذه المذكرات ، أديب فلسطينى مبدع ؛ تولى الدكتور طه حسين بك تقديمه إلى قراء العربية بكلمة طيبة نوّه فيها بإحسانه ، وأثنى على أدبه وفضله ، وتوقع له مستقبلا فى الأدب عظيما .

هذه المذكرات وضعها الدكتور الحسينى على لسان دجاجة ، وأرسلها فى ثوب قصة ، وهى من غير شك تستحق أن توضع فى ميزان النقد .

أول ما أراه فيها أنها ليست بقصة على وجه التحديد ، ولم تأت بوحى من الفن القصصى مطلقاً ؛ وإنما هى عرض عام لآراء الدكتور فى السياسة والدين ، وفى الاجتماع والأخلاق ؛ وهى فلسفة الحياة الإنسانية كما يراها ، وهى تشخيص لأدواء المجتمع الحاضر ، ودواء لما به من علات . والقصة الكاملة قد تعرض لجميع هذه المشكلات ، ولكنها تدور حتما حول محور فنى لا تستقيم بدونه ، وهو منها كالعمود الفقارى من الجسد ، ذلك مايسمونه بالعقدة الفنية . ومذكرات الدكتور الحسينى خالية من العقدة بالأسف ، ولولا ذلك لكانت آية من آيات القصص الرمزى .

سيعجب القارئ إذا قلت إن الوحدة العربية قد بحثت فى هذه المذكرات على لسان تلك الدجاجة بحثاً لم تظفر بمثله إلى اليوم . وسيزداد عجب القارئ إذا قلت إن مشكلة فلسطين قد أثيرت هى أيضاً فى هذه المذكرات ؛ ولعل فى هذه الإشارة مايكفى ، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح .

والمؤلف من دعاة النهضة النسائية ، فقد رأيناه يفكر فى أسلحة تتقى بها الدجاجات خطر التشرد والأيم والبؤس عند فقد الذكور ؛ وسمعناه ينادى بوجوب إعداد الأم لتكون مدرسة .

والأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيّب الأعراق

ثم إنه يبحث الفقر من وجوه عدة ، ويراه العدو الألد للإنسان . ومن الفقر والأثرة تنشأ الأحقاد بين الناس ، وتقوم الحروب بين الأمم .

وهو يرى الالتجاء إلى القوة عند أى خلاف من علائم الضعف ، ويعتقد أن الحق يعلو على القوة بالتفاهم وحسن الإقناع ؛ وهو لذلك مقتنع بأن السلم فى العالم ممكنة إذا خلصت النيات واتجهت القلوب إلى الحق . ويرى أن الاستعمار مما يشين الإنسانية فى العصر الحديث ، وأنه صائر إلى الزوال حتما .

وقد ارتفع المؤلف للذروة فى تحليله لعاطفة الحب ، وتشريحه لعاطفة الأمومة ، وفى عرضه لكثير من الغرائز البشرية . وكان موفقا إلى أبعد حدود التوفيق فى سخريته بضعف الإنسان وجبروته وكبريائه ، مع حقارة شأنه وهوانه على الله .

ويبدو أن المؤلف كان ينتقى ألفاظه بعناية . ولكنه كان ينسى أحياناً أنه من أمة الدجاج ، فيصف الديك بأنه زير نساء ؛ « والنساء » لا تعنى غير الأناث من ذرية آدم وحواء . ما كان ضره لو قال زير دجاجات ، فيكون قد استحدث شيئاً فى اللغة ؟

هذه نظرة عاجلة فى هذا الكتاب القيم ، وعسى أن تتاح لى فرصة لتحليل مراميه ، أو ينظر فيه أعلام النقد ويكتبوا فيه ؛ فهو بالنقد التحليلى جدير . والله المستعان .

السيد الرافعى

قلبى

هالكٌ قلبى فى يد الأشواك طيرٌ يختنقْ
وأمانيه دماءٌ سائلاتٌ كالشفقْ
وغيوم الذكر دمعٌ جفّ فى سود الحدقْ
هالكٌ قلبى لم يعد إلا بقايا تحترقْ
لا تقول الألم الشاكى ولا اليأس المريرْ
أو شجوناً مثل سود السحب فى يوم مطيرْ
لا ، ولا ذكرى أمانٍ طفت مثل البدورْ
لم يعد فيه مكانٌ لظلام أو لنورْ

محمد الفاتى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٢٦٩

العدد ٢٤٦ | الثلاثاء ١٤ من رمضان سنة ١٣٦٢ — ١٤ من سبتمبر سنة ١٩٤٣ | السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

حديث رمضان :

الحيـــاة الروحية

— ٢ —

عماد الأديان كلها أن وراء هذه المملكة الظاهرة في الحياة مملكة أخرى باطنة ، وهاتان المملكتان يختلف بعضهما من بعض تمام الاختلاف ؛ فالمملكة الظاهرة فيها المادة بجميع أشكالها وتطورها ، من حبة الرمل إلى خلية المخ ، وفيها كل مظاهر الحياة مما نرى من جماد ونبات وحيوان ، وفيها كل شؤون الإنسان الظاهرة ، من زرع وتجارة وصناعة ، وتنظيم للحياة الاجتماعية ، واستغلال وجمع وإنفاق ، وتدبير ميزانيات ، وإنشاء دواوين وحكومات تشرف على الأعمال ، وملوك أو برلمانات تشرف على الحكومات ، وهكذا — وكل ما نقرأ من أحداث التاريخ فإنما هو تاريخ هذه المملكة الظاهرة — أما المملكة الباطنة ففيها أنبياء وأولياء وقديسون وملائكة وشياطين ، ويوم آخر ، وبعث ونشور ، وحساب وثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وروح ووحي ، وإلهام وإله .

وهذه المملكة الباطنة سميت أسماء مختلفة ، فبعضهم يسميها « دائرة المجهول » ، و « ما لا يمكن علمه » ، وسماها القرآن « الغيب » ، كما سمى المملكة الظاهرة « الشهادة » ، فقال : « الذين يؤمنون بالغيب » ، « ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة » ، « تلك من أنباء الغيب » . الخ . وترى الأديان أن هذين العالمين إذا قوّما فالمملكة الظاهرة قليلة القيمة جداً إذا قيست بمملكة الباطن ، لأن الأولى ذاهبة فانية ، والأخرى باقية خالدة ، ولأن الأولى دخلها عنصر الزمان فأضعف قيمتها وأقصر مدتها ؛ وأما الأخرى فلم يدخلها عنصر الزمان فخلدت .

وكما كان في مملكة الظاهر خدّاعون وكذّابون يكذبون في العلم والخُلُق والتجارة والصناعة ، كان كذلك خداع وتمويه في عالم الغيب ، كقصص العفاريت ، وأعمال السحرة ، والأساطير المتوارثة في كل أمة والتنجيم والطلاسم ، وهكذا .

وليس الإيمان بعالم الغيب — كما يظن بعضهم — ضرباً من الأوهام ورثناه من آبائنا الأولين أيام كانوا ضعاف العقول ، أقوياء الخيال ، بل هو جزء من طبيعة النفس الإنسانية ملازم لها في جميع أدوار عقليتها ومدنيتها وثقافتها ، والذين أنكروه أنكروه بمنطقهم ، ولم يستطيعوا التجرد منه في نفوسهم ومشاعرهم .

يشعر الناس أن هناك دائرة للمعلوم تحيط بها أسوار ، وأن وراء هذه الأسوار دائرة المجهول أو عالم الغيب ، وأنهم يريدون أن ينفذوا من هذه الأسوار للوصول إليها ، فمنهم من يصل ومنهم من ينقطع .

ووسائل إدراك مملكة الظاهر غير وسائل إدراك مملكة الباطن ، فوسائل الأولى هو ما نسميه « العلم » ، وهذا العلم يعتمد فقط على الحواس الخمس ، وهي : السمع ، والبصر ، والشم ، واللمس ، والذوق ؛ فكل المناهج العلمية ، وكل الآلات والمخترعات ، وكل البحوث في الطبيعة والكيمياء ، والفلك ، والنبات والحيوان ، إنما عمادها هذه الحواس الخمس ، مرهفة أو مكبرة ؛ حتى أدق العمليات الرياضية والهندسية ، إنما هي أعمال الحواس الخمس مُرَقّاة تستخدم فيها المقارنة ، ثم إعمال العقل في هذه المقارنات بالاستنتاج ؛ وكل النتائج العجيبة التي وصل إليها العلم ليست إلا وليدة الملاحظات الحسية مع الاستنتاج المنطقي ، وهذه هي خطة العلم دائماً .

أما وسائل عالم الغيب ، فليست الحواس ولا المنطق ، وإنما هي الرياضة النفسية ، واختطاط خطة غير الحواس الخمس ، ومحاولة تخطي هذه الأسوار ، والنفوذ من خلالها لإدراك عالم المجهول ؛ وهذا ما سلكه دائماً الروحانيون من الأنبياء والمتصلين بهم ، فمحمد ، وعيسى ، وموسى ، وغيرهم لم يسلكوا سبيل العلماء في بحثهم واعتمادهم على الحواس وتجاربهم ومقارنتهم بين المواد والاستنتاج منها ، إنما راضوا نفوسهم على نحو ما ليتفذوا إلى عالم المجهول . وغار حراء بالنسبة لمحمد (ص) في جهده للوصول إلى المجهول من عالم الغيب ، كالمعامل في معمله وتجاربه في عالم الشهادة ؛ هذا منهج وهذا منهج ، وشتان ما بينهما . بالمنهج العلمي من ملاحظة وتجربة واستنتاج ومنطق تكتشف قضايا العلم ، وبالمنهج الروحي الذي أشرنا إليه ، يحدث نوع من المعرفة أساسه ما نسميه بالوحي أو الإلهام .

وفي القرآن قصة ترمز إلى الفرق بين نوعي العلمين : العلم المبني على المنطق ، والعلم المبني على مكاشفة الروح ؛ وهي قصة موسى مع العبد الصالح الذي علمه الله من لدنه علماً ؛ فموسى سلك سبيل المنطق ، وبناء المسببات على الأسباب الظاهرة ؛ وهذا العبد الصالح لم يسلك هذا المسلك ، فخرق سفينة ليس لخرقها من سبب ظاهر ، وقتل نفساً زكية بغير نفس ، وأقام جداراً لأهل قرية أبوا أن يضيفوهما ، وكل هذا منتقد من جانب المنطق ، ولكن له ما يبرره من جانب الإلهام الروحي كما شُرح في القصة [1] .

لقد ذهب كثير من علماء النفس إلى أن وسائل العلم والمعرفة تنحصر في الوسائل المعروفة من ملاحظة وتجربة ، وعدّوا ما يظهر غير ذلك نوعاً من المرض النفسي ، أو شروداً في الخيال ؛ ولكن ظهور حالات كثيرة من المعرفة ، وانكشاف أمور ليس انكشافها أساسه المنطق ، هدّم أذهان كثير من علماء النفس ، فأقروا بأن هناك إدراكاً أساسه المنطق من ملاحظة وتجربة واستنتاج ، وهذا هو العادة والأغلب ؛ ولكن بجانب ذلك أحوال نادرة ، يستطيع فيها الإنسان أن يدرك ويعلم ، ويعرف

(١) اقرأ القصة في سورة الكهف : « وإذ قال موسى لفتاه » الآيات .

عن طريق غير المنطق ، وإن كانت نادرة ؛ وأقروا بأن طريقة علمنا ومعارفنا وبحثنا واستنتاجنا هي الطريقة المألوفة العادية ، ولكن ليست هي كل وسائل المعرفة ، فهناك من الوسائل ومن أنواع الإدراك ما لا يخضع المنطق . ومن ذلك الحين أخذ علماء النفس ينوّعون اتجاهاتهم ، ويوسعون بحثهم ؛ فبحثوا في التصوّف ونفسيته ، وكيفية إدراكه ومعرفته ، ولا يزالون في بدء هذا الاتجاه ، وهذا البدء كان بدءاً فقط من الناحية العلمية ، أما الحقائق نفسها فمقررة في كل دين ، معترَف بها في كل عصر .

على هذا الأساس تكون الإنسانية تسبح في دائرتين : دائرة خارجية أو ظاهرية ، ودائرة داخلية أو باطنية ، مَثل الأولى كجسم الشجرة وجذعها وساقها ، ومَثل الأخرى كالحياة تدب فيها فتكوّن وظائفها المختلفة ، وتهيئها للإزهار والإثمار ، أو كمثل جسم الشمعة وقوتها على الإضاءة .

وكل ما نعني به الآن من علوم على اختلاف أنواعها ، وما نعني به من تاريخ أحداث وحروب واجتماع ، وما نعني به من دعوة إلى الصدق والأمانة ، والجد والعدل ، كل ذلك متعلق بالحياة الخارجية ؛ أما الحياة الروحية فحياة داخل حياة ، وحكومة داخل حكومة ؛ وهذه غذاؤها الدين ، وهو غذاء فاسد إن فسد ، وصالح إن صلح .

ونرى في غضون التاريخ إشارات إلى هذه الحياة الروحية في معابد اليونان ، وهياكل المصريين ورموزهم ؛ فالخاصة كانوا يفهمونها على حقيقتها ويرمزون إلى المعاني التي في صدورهم برموز مجسمة وقصص رمزية ، يفهمها الخاصة على أنها رمز ، ويفهمها العامة على أنها حقائق ، وهكذا الشأن في تاريخ سائر الأمم والديانات .

وقد حاول كشف المجهول من الحياة الخارجية والباطنية أربعة أصول ؛ كلٌّ سلك طريقه الذي يناسب طبيعته ومزاجه : العلم ، والفلسفة ، والدين ، والفن ؛ وكثيراً ما تنازعت في الطريق ، وقامت بينها الشاحنات والخصومات ، ومنازعاتها دليل على أنها لم تدرك وظائفها حق الإدراك ؛ وقد حاول كل أن يوسع طريقه على حساب غيره ، وأن يتعدى في اختصاصه على اختصاص غيره ، ولو نظرت كلها إلى طرقها من طيارة لأدركت أن الطريق المرسوم لكل منها طريق مستقل بنفسه ، واضح بأعلامه ، وأنها كلها تصب في دائرة وسطها ، هي دائرة الحقيقة . ولو سار كلٌّ في طريقه الخاص به ، ولم يتعدَّ على غيره لتوصل إلى الحقيقة من جانبه ، وهذه الحقيقة كفيلة بأن تنكشف في نهاية كل طريق عما يخصه ، وفيها كلها كشف الحياتين الظاهرة والباطنة ، والعالمين عالم الغيب والشهادة ؛ ولكن مع الأسف نرى علماً يُغير على دين ، وديناً يغير على علم ، وفلسفة تُغير عليهما جهلاً بالطريق وعمى عن الحقيقة .

إن العلم — كما قلت — أساسه الملاحظة والتجربة ، ولا يكون ذلك إلا فيما يُلحظ ويجرَّب ، فإن أراد أن يتخطى أسواره إلى عالم الغيب ، فقد أدواته ، وتكلم كلاماً سخيفاً ، وكذلك إذا أصابه الغرور فأنكر ما وراء السور .

والدين عماده الوحي والوصول عن طريق الروح إلى عالم الغيب بالرياضة وما إليها ، والاتصال بالشعور الأنبل إلى القوة العليا ، فإذا هو تخطى الدائرة الروحية إلى الدائرة العلمية ، فتعرض لقضايا العلم يشرحها ويدلل عليها ، أو ينكر على العلماء بحثهم ونتائجهم ، فقد تعدى طوره ؛ وكذلك إذا أخذ يدلل على الدين بقضايا المنطق كما فعل علماء اللاهوت وعلماء الكلام في الإسلام ، فقد أتوا بفلسفة تافهة ليس فيها طعم الفلسفة ولا طعم الدين ؛ وكل هؤلاء وهؤلاء ، مثلهم مثل من أراد أن يشم بعينه ، ويرى بأذنه ، ويتذوق بأنفه .

والفن من أدب وموسيقى وتصوير أساسه الفهم

الباطل ، والشعور بالحق الذي وراء الظاهر ، والوصول إلى قلب الأشياء ومزجها بعواطف الفنان ومشاعره ومزاجه ، وإبرازها في شكل متناغم ، والاستمداد من قوة الخالق ليخلق صوراً وألواناً يلهم بها العواطف النبل والسمو ؛ فإذا هو لم يمس الباطن واكتفى بالسطح أو اقتصر على استخراج السخرية والهزء ، لم يؤد رسالته ، وعدّ من توافه الأشياء ؛ وإن هو اكتفى باستدرار المال من الأمراء والأغنياء ، أو كان وسيلة لإثارة المشاعر الجنسية ، كان سلعة تجارية وضيعة لا سموّاً روحانيا رفيعا .

والفلسفة أساسها التأمل والتفكير المتعمق ، وشرح ما نعلم وتمييزه عما لا نعلم ، والوصول إلى جذور شجرة العلم والفن والدين لإدراك أصولها ؛ فإن هي كانت لعبا بالألفاظ ، وعرضا لآراء الفيلسوف ومشاعره ومضاربتها لآراء الفلاسفة الآخرين ومشاعرهم ، لم تؤد رسالتها ، وكانت فلسفة لفظية أو شكلية أو حوارية ، أو ضرباً من التعمية ، أو سخافة مغلّفة بالألفاظ الغريبة الضخمة .

وما المدنية الحقة إلا هذه الأصول الأربعة راعية لكل أصل حدوده وطرقه ، موازنة بينها حتى لا يطغى منها أصل على أصل ، مهذبة كل أصل حتى لا يدخله الاستبداد والغرور ، منقحة كل واحد منها حتى لا يدخله زيف أو تحوير أو تضليل .

ونفس كل إنسان فيها هذه العناصر الأربعة ، مع تفاوت بين الناس في القدرة والكفاية والفاعلية والقابلية ، والنفس الكلية للعالم كذلك فيها هذه العناصر واضحة جلية ، وهي بجملتها وتفصيلها مظهر المدنية .

وفساد مدنيتنا التي نعيش فيها اليوم أتى من اختلال التوازن بين هذه العناصر ، وما دخل على كل عنصر من الفساد .

فالعلم تقدم وتقدم ، ولكن أين له القلب ؟ لقد ملأ الدنيا آلات وأدوات ، ونظريات في السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ولكن أصيب بعيبين : أولهما أن دائرته الطبيعية هي المادة ، فأداه غروره أن يبحث فيما وراء المادة بأدوات المادة ، فلما لم يجده أنكره ؛ وثانيهما أن الروح لم تتقدم تقدمه وتخلفت وتخلفت ، فاستُخدم التقدم العلمي لخدمة الغرائز الوحشية على شكل ممدن ، فإذا كان الوحشي يقتل بالحجر أو الهراوة ، فالعلم يقتل بالكهرباء والغواصات والطائرات والغازات الخانقات ؛ والوحشي يأسر خصمه ويستعبده لخدمته ، والمدني يغزو ويفتح ويستغل ويستعبد بأسلوب منظم ، وفي الأمة الواحدة أنواع وأنواع من الاستعباد ؛ وكذلك الشأن في بواعث اللهو والسرور ، فقد رَقت في الرقص والموسيقى واللعب . فالغرائز بين المتوحش والمتمدن واحدة ، والبواعث واحدة ، والعلم نظّم الشكل وهذّب الأسلوب فقط ، وقامت عظمة المدنية على ما كان عند المتوحش من غريزة حماية الأسرة أو القبيلة بشكل أضخم من استعداد حربي عظيم ، وتقوية الروح العسكري ونحو ذلك ؛ فالعلم بتقدمه من غير أن يتقدم الباعث القلبي أبقى القديم ورقّى الشكل ؛ فأصبحت المدنية على هذا الوضع وحشية مغلّفة أو همجية مفضضة .

والدين في المدنية الحديثة مظهر لا مخبر ، وعمل بلا قلب ، وشعائر بلا شعور ، وحركات بلا روح ، ورجاله أتباع السلطة المدنية ، لا قادة الحياة الروحية ، ينظرون بأعينهم إلى الأرض ، ولا ينظرون بقلوبهم إلى السماء .

والفن تحريك للشهوة ، واستجلاب للثروة ، وجدّ في بقاء الشعوب في مستواها المرذل .

فهل هذا الذي نرى من تدمير بلغ أقصى مداه ، وقلق واضطراب وصل إلى نهايته ، وزلزلة وبلبلة قلبت العالم رأسه على عقبه إعلان للثورة على المدنية التي لا روح لها ، ليُبنَى على أنقاضها مدنية لها روح ؟ نرجو أن يكون !

أحمد أمين

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

إعلان الـكبد دواء فى مجمع العلماء

وصل الثالث : طبيب شاب أمريكى اسمه « مينوت » ، من آل « مينوت » ، وهى أسرة فى الطب عريقة ، وداء عيّاء هو فقر الدم الخبيث .

أولع « مينوت » بفحص الدماء ، وأولع بالأمراض التى تنسب عن اختلال فى الدماء ، واتخذ من فقر الدم الخبيث دراسة له .

ووجد فيما وجد أن مرضى هذا الداء تتحسن حالهم أحيانا لغير سبب ظاهر ، فينظر دماءهم تحت المجهر ، فيرى فيها كريّات جديدة غريبة ، هى كريّات دم حمراء وليدة نزلت حديثاً إلى الدم ، أنزلها مصنع الـكرات الحمراء بالجسم — وهذا المصنع هو نخاع العظام .

ويزول هذا التحسن فى المرضى لغير سبب ، فتختفى من الدم هذه الـكرات الوليدة .

فـكر « مينوت » ما فـكر ، وبحث ما بحث ، وأخيراً وجد من كثرة ما سأله مرضاه أنهم لا يأكلون كما يأكل الناس ، فيقصّرون فى ناحية ، ويبالغون فى ناحية ، وهم لا يأكلون فى سواء .

عندئذ وقر فى نفسه أن هذا الداء سببه شىء ينتج من شذوذ الطعام ، وإذاً فى الطعام يكون دواؤه .

وقد تركناه فى آخر المقال وقد وقع على الـكبد يطعمها لمرضاه شفاء من هذا الداء . وقد شق بالـكبد مريضاً ومريضة على غير كبير انتظار منه . ثم تقاطر عليه عشرة من المرضى فنصحهم بأكل الـكبد كل يوم ، بل ألزمهم بأكلها ، فصحّوا .

إذاً لا يمكن أن تكون هذه مصادفة فى العشرة جميعاً . ولـكن كان هؤلاء مرضى عيادته الخاصة ، ومرضى العيادات الخاصـة بفقر الدم الخبيث قليلون . وهم قد يأتونه وقد لا يأتونه . ومراقبة المريض الخاص غير مراقبة مريض المستشفى . إذاً فماذا يصنع ؟

والآن اقرأ :

قال مينوت : « إن الرجل الذى أيقظ حبّتى أول مُوقظ ، كان « مرْفى » William Murphy .

كان « مرْفى » طبيباً شاباً تخرّج منذ سنوات خمس . ولم يكن بحّاثة علميّا كما يفهم أهل اليوم معنى البحّاثة العلمى . ولم يكن من الأرستقراطية كما كان « مينوت » ، ولـكنه شابهه فى شغفه بدراسة أمراض الدماء . ووُلد فى ولاية نيويورك ، وكان أبوه قسا ، ثم رحل إلى بُسطُن .

فذات يوم ذكر « مينوت » لمرْفى ما وجد فى هؤلاء العشرة المرضى ، كأنما يقترح عليه عفْوَ الساعة أن يجرّب هـذا النظام الجديد من الطعام فى مرضاه هو بمستشفى إبرجْهام ، وكان فقر الدم قد بلغ بهم حداً من السوء لا يُرجى بالغه . ولم يكن من السهل على « مرْفى » أولَ الأمر أن يجرّب نظاماً كهذا فى مستشفى كهذا .

بدأ « مرفى » يجرب الـكبد ، ولـكن الـكبد الطيّبة عزّت عليه . فلم يكن من السهل إغراء ضابط المستشفى بشراء شىء غير كبد الأبقار ، وكانت جامدة متجلّدة لا يستسيغها الرجل السليم فضلا عن رجل مريض كاد ينقطع به الرجاء . إن المستشفيات فى عمومها تأتى لمرضاها بطعام طيّب غاية فى الجوْدة ، ولـكن هـذه الـكبد ... وشراؤها كل يوم ... إنها بدعة فارغة ، إنها ليست من أصول التغذية فى قليل أو كثير .

ومع هذا فقد كانت فى « مرفى » صفة أسعدتْ نجم « مينوت » : كان « مرفى » أكُولاً أكباد . كان يأكل الـكبد لا للجوع ، ولـكن للتلذّذ بأكلها . وإذن فهذا الرجل كان خير من يُزجّى تلك البضاعة ويُركّبها ، فإنْ هى فقدت شيئاً من حسنها قام حُسن بيانه وحرارة إيمانه ينطقيان كل سوْأة فيها . قال « مرفى » : لم يكن بدّ من إغراء المرضى بأكلها كما يغرى الدلاّل جمهوره بالشراء . فـكان نجاحه لأنه أحب الـكبد حبّا جمّا ، ولأنه أطاع « مينوت » إطاعة الأعمى ، وأطاعه بعصيان العلم

التقليدى ، وقد كان التقليد طاغياً كل الطغيان على هذا المستشفى . ومضى فى سبيله هذه من مايو بصيف عام ١٩٢٥ إلى خريف ذلك العام ، ولم تكن سبيلا سهلة .

كان « مرفى » ذا مزاج لفاوى ، وكان هادئ الحركة بطئ الكلام ، ولكنه لم يكد يبدأ هذه التجربة وتبدو له طلائعها ، حتى أخذت نفسه تتحرك وتجيش بمقدار ما تأذن طبيعة كطبيعته الهادئة الفاترة لنفسه أن تتحرك وتجيش . فإن قوماً أشرفوا بين يديه على الموت وجاء أوان دفنهم وفات ، عجّلوا على الكبد ، وبدأوا يحسون الجوع ، وبدأوا يقفون على أرجلهم ويمشون ، وأخذوا يطلبون المزيد من الكبد لأنهم أنفسهم أحسُّوا بأنها الكبد لا غيرها سرُّ هذا الشفاء .

وإن تعجب فعجبٌ لمينوت كيف أخفى كل هذا عن الناس . إن الطبيعة البشرية لا تكاد تطيق كل هذا الكتمان ، فكيف أطاقه ؟ إنه كان عضواً فى نادٍ يجمع أكبر رؤوس الطب فى بسطن — رجالا ضخاما عظاما . ففى ليلة من ليالى فبراير عام ١٩٢٦ اجتمع هؤلاء القوم على العشاء فى بيت « مينوت » . وبعد العشاء حدثهم « مينوت » عما هو قائم فيه من بحث علمى ، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة عن الكبد ؟ وحدثهم عن الدقو اللمفستوما Lympho-blastoma . ونعم أطلعهم على خريطة تشرح الحقيقة الغريبة النادرة : أن كرات الدم الحمراء فى فقر الدم الخبيث تعود أحجامها إلى أحجامها الأولى عند ما تعود أعدادها إلى أعدادها الأولى — إلى خمسة ملايين فى الملليمتر المكعب الواحد .

ولكنّ أحداً من هؤلاء الرجال العظام لم يخطر له فى بال أن يسأله : وكيف يبلغ عدد الكرات الحمراء فى دماء هؤلاء المرضى خمسة ملايين ؟

ومتى حصل هذا ؟ حصل وكثير من هؤلاء المرضى الهالكون ، نفضوا الأكفان عن أجسامهم ، وقاموا على أرجلهم يمشون ويعملون .

ثم أخذ خبر هذا يتسرب إلى الناس . وكان لمينوت صديق حميم يدعى « مينز » Tames Howard Means كان يعمل فى المستشفى العام بماساشوست . فجاء « مينوت » ذات يوم يسأله : « هل سمعت بالتجربة البارعة التى يجربها بعضهم على مرضى الدم الخبيث بإطعامهم الكبد فى مستشفى أبرجهام ؟ » .

سؤالٌ وقع من قلب « مينوت » موقعاً سارّاً جميلا ، فيه عرف رأى الناس فى النتائج الأولى لتجاربه ، وهم لا يدرون مَن صاحبها ، وهذا أصدق طريق العرفان . كان « مينوت » يؤمن بالحقائق العارية ، وإن كانت مسيئة ، ويقدّس الحكم البرىء فى الموضوع بغضّ النظر من واضعه . وتلك التجربة التى أجراها « مرفى » وسمع بها الناس كانت تجربته ، والحكم فيها كان حكما له . ثم إن « مرفى » أجراها ، ولكنه لم يكن يدرى من علة إجرائها شيئاً ، فمينوت لم يكن قال له من علمه وملاحظاته البديعة السابقة شيئاً .

إن قليلا من الناس من يستطيع أن يجرى التجربة ، ثم يخرج منها بنتائج باهرة ، ثم هو يصبر حتى يغرى صديقاً بإعادة إجرائها ، ثم هو يصبر حتى تؤمّن نتائج الصديق على نتائج أتاها . هذا كله يحتاج فوق الصبر إلى شجاعة نادرة ، وإلى بصيرة نيّرة . وقد اختار « مينوت » لنفسه هذا الطريق ، فأصبح بعد الذى حدث عزيز الموقف ، قويّا ، متجهّزاً للحجاج ، متجهزاً للنضال ، حاضر الجواب لكل صديق كافر شكّاك يأتى إليه فيقول : « ولكن قلْ يا جورج بالله عليك ، لماذا هذه الكبد دون غيرها من المآكل ؟ »

إن من الأدواء أدواء يجنيها المرء بسبب نقص فى عنصر هامّ من عناصر الطعام . ومن أمثلة هذه الأدواء الكساح rickets والحفر Scurvy ، فهما ينشآن من

نقص الفيتامينات . ولكن ليس منها فقر الدم الخبيث ، ذلك لأن الناس في مجموعهم لا يأكلون في العادة الكبدَ بانتظام ، ومع هذا لا يعتريهم هذا الفقر في الدم ، فلا يمكن أن يقال إن من يأتيه هذا الفقر يكون بسبب نقص في مقدار ما يتعاطاه من الكبد . فكيف إذن يشفي أكل هذه الكبد وحده من هذا الداء ؟!

وجرى « مينوت » و « مرفى » في تجاربهما ، فرفعا رُبع الرطل من الكبد دفعة واحدة إلى نصف رطل ، يأكله مرضاهما جميعاً كل يوم .

وقال له أصحابه ، أصحابُ « مينوت » : « ولكن يا جورج ، لا يمكن أن تكون الكبد وحدها هي سبب هذا الشفاء . إن هذا المرض لا يمكن أن يكون من البساطة بحيث تشفيه الكبد على نحو ما تصف » . وحذّروه أن ينشر عن تجاربه شيئاً ، ونصحوه بالتمهّل والتروّي .

وأخذا يزيدان في مقدار ما يعطيانه من الكبد لمرضاهما حتى لم يعد في الإمكان مزيد . لم يكتف « مينوت » بالذي أصابوه من تحسّن ، فحشر الكبد في حلوقهم حشراً ، حتى انقلب هذا التحسن شفاءً وهناءً . ولم تَسُغْ الكبد في كثير من هذه الحلوق ، ولكن « مرفى » قال لهم وما ضَرُّ هذا ما أفادوا منه القوة ، وما أحسوا به الحياة تعود فتَشِيع في أجسامهم بعد ذهابها ! كان « مرفى » من بين الرجلين هو الذي لقّنهم هذا ، وكان بذاك جديراً . وهذا العلم الذي اتّبعاه ما كان أصحّه على الرغم من مَظهره الأكدر ومسّه الأخشن . لقد نجح في كل مريض بالفقر الخبيث ، إلا أولئك الذين بلغ بهم الداء حداً عجزوا عنده عن تناول أي طعام كائناً ما كان . وكانوا أربعة ماتوا هكذا ، فكان فقدهم على « مينوت » وصاحبه شديداً .

ثم جاءتهما امرأةٌ مريضةٌ تسأل . فلما قالوا لها الكبد قالت : وهل من الضروريّ أكلها ناضجة ؟ وهل من ضرر في تقطيعها وهي نيّئة ، ثم هرسها ، ثم خلط هريسها بعصير البرتقال ، ثم تعاطيها بعد ذلك ؟ ورضي الطبيبان عما اقترحت ، ولم يباليا أنها لم تكن أستاذةً في الطب .

ثم أخذ المرضى يفدون على المستشفى وهم في الرمق الأخير . جاءوا وقد خفّت دماؤهم فصارت عُشر ما كانت ، وقلّت كراتها الحمراء فكادت ألا تكون شيئاً . وجاءوا بهم على النقّالات في غير وَعْي . فحلس « مرفى » و « مينوت » إلى أسرّتهم وأخذوا يطعمونهم الكبد نيئةً هريسةً سائلة ، تنزل إلى أمعدتهم في أنابيب من المطّاط . وأداموا إطعامهم على هذه الصورة اليومين والثلاثة والأربعة والخمسة الأيام ، فلم يُؤنسهم أن هذا الرجل ضعفتْ أنفاسه حتى ما تكاد تَبين ، أو أن هذه المرأة خفتتْ دَقّاتُ قلبها حتى ما تكاد تُحَسّ . وأخذا يصبّان الكبد هريسة سائلة ما لَمَحوا بالعين طرفة جفن ، وأخذا يصبّانها حتى انفتحت تلك الجفون من تلك العيون في رؤوس أفرط فيها الضعف فلم تستطع حَراكا . وأخذا يصبّانها عند تلك الفُرُش حتى رَاوَدَا الموتَ عن أصحابها ، فأخذت تتفتح عيونهم وتتحرك شفاههم وتنطق أفواههم همساً تخبّر أنهم أحسن قليلا .

ويمضي الأسبوع فتجدهم جلوساً في أسرّتهم يطلبون الطعام من جوع . ويمضي الأسبوعان فتجدهم يطلبون القيام والسير على الأقدام .

* * *

وأخيراً يخرج اكتشاف « مينوت » من البيئة الصغيرة المتواضعة ، حيث يلفّه ضبابٌ من خمول لا يكاد يراه فيه غير القليل ، إلى البيئة الفخمة النابهة حيث تسطع الأنوار وتضيء في ساحة الطب الشموسُ فيراه الناس على البعد والمدى . كان هذا في عام ١٩٣٦ . في « مدينة الأطلانطي » Atlantic City ، في نفس المكان الذي قام فيه « مكلود » بين أساطين الطب وأرستقراطيته يشرح ما كشف « بنتنج » من داء السكر وما استخرج من الإنسولين فأقام هؤلاء السادة العظام وأقعدهم ، في نفس هذا المكان بين هؤلاء السادة الكرام قام « مينوت »

من مذكرات جحا :

فوق شجرة الجميز

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة الذي زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

لا مناص لبني آدم من أن يقيموا على الأرض ، ويسيروا على الأرض ، ويجلسوا على الأرض ، ويناموا على الأرض ، ويدفنوا أخيراً في جوف الأرض . فمن الأرض خلقنا ، وعليها نعيش . هذا لا شك فيه . وقد اعتاد الناس ذلك وألفوه حتى صاروا لا يطيقون البعد عنها ، ويشعرون بالوحشة والرهبة إذا هم علوا عنها . وإني لأعجب للسر العظيم الذي يجعل الناس لا يقوون على فراقها ، فإذا هم حاولوا ذلك جذبتهم إليها جذباً عنيفاً ، ولم تمكنهم من الإفلات منها . أرى الأطفال يثبون ويحاولون أن يتخلصوا منها ولو لمدة قصيرة ، فإذا بهم يقعون عليها وهم يضحكون كأنهم يلاعبونها ، ويسرهم أن يتظاهروا بمحاولة التخلص منها ، ويسرهم فوق ذلك أنها لا تغفل عن أحد منهم ، بل تمسك بهم وترجعهم إلى حضنها في غير مبالاة . والطير نفسه إذا علا فوقها فإنه لا يفارقها إلا إذا جاهد بجناحيه ، فإذا أعيا أو أصابه عجز في جناحه أو انخلع عنه ريشه هوى إليها كما يهوى الحجر الثقيل . سر الله الأعظم الذي أبدع كل شيء ، فأتقن صنعه !

ولطالما تمنيت لو استطعت بحيلة من الحيل أن أتخلص من قبضة الأرض ، وأنطلق إلى السموات العلا ، فلم أقدر على أن أفك قيد شبر واحد منها . وعرفت مقدار عجزي وضعفي ، وأقررت لله بالحكمة والملكوت .

ولكني وإن عجزت من أن أنطلق من إسار الأرض يحلو لي أن أحتال في السمو ولو قليلا فوقها ، ولهذا حبب إليّ أن أتخذ لي مقعداً فوق شجرة قديمة من الجميز ، لا أذكر متى رأيتها أول مرة ، وأكبر ظني أنها كانت هناك في مكانها منذ وُلِدَ أبي أو قبل ذلك . وهي شجرة شمطاء قد تشابكت فروعها ، وتداخلت أغصانها ، وصار جذعها الجعد مثل سفح التل تظهر عليه آثار فعل الزمن وخطوبه ، فكم بها من قطوع ومن كهوف ومن نقوش رسمها عليها أجيال من الأطفال كنت أنا واحداً منهم . وهي حبيبة إليّ ، وإن كانت لا تحمل زهراً ؛ وهي جميلة في عيني ، وإن كانت أوراقها تبدو كالحلة الخضرة كأن ماء الحياة يسير إليها كارهاً . وأجد طعم ثمارها كأنما لا يزال لذيذاً كما كان في أول يوم ذقت ثمارها .

يحلو لي أن أصعد فوق هذه الشجرة ؛ واتخذت لي عليها مجلساً أو مرقداً لا أحس فيه أني فوق شجرة ، بل أنام عليه ملء جفني مطمئناً إذا غلبني النوم على هدهدة النسيم الوديع .

يشرح ما كشف من فقر الدم الخبيث ، ويصف كيف تيسر له هو وزميله « مرفى » أن ينقلا مرضاه إلى حيث الصحة والشفاء . وأراد « مينوت » أن يعنون مقالته فسماها « فقر الدم الخبيث يعالج بالكبد » ، ولكن نصحاء غلب عليهم الحذر الذي يغلب على أهل العلم الحديث فأقنعوه بالغض من عنوانه قليلا ، وبطمسه وإبهامه ، فصيّره « فقر الدم الخبيث يعالج بطعام خاص » .

وفرغ من خطابه في هذا الجمع النابه المتزن فسرت به حركة وجرت فيه صيحة لم تخل بوقاره . وتحيروا فتساءلوا : « كيف ؟! ألم يمت واحد من هؤلاء المرضى ؟! »

وانفض المجتمع ، فأسرع « مينوت » إلى فندقه ، فصعد سلمه إلى حجرة نومه حيث انتظرته زوجته . قال « مينوت » : « واندفعتُ إلى أوراق أنظر أرقامها وأطالع خرائطها أستوثق من صدق ما قلت لرجال هذا الجمع ، فهالني أني لم أقل لهم شيئاً إلا صواباً حقاً وصدقاً » .

أحمد زكي

يتبع

هناك استطعت أن أسمو قليلا فوق الأرض ، وأن أشرف على الناس من عَل ، وأن أتأملهم وأنظر إلى حركتهم وإلى سكناتهم بغير أن يفطنوا إلى أني أرقبهم أو يداروا عني حقيقتهم . فالناس لا يكشفون حقيقتهم إلا إذا اطمأنوا كل الاطمئنان على أن العين لا تراهم . كم من الناس من يملأون القلوب مهابة والعيون روعة ، فإذا سهوا مرة فأزاحوا الستار عن أنفسهم ، أو اختلس أحد نظرة إليهم من وراء الغطاء المحكم الذي يلفون به جوهرهم ، فاحت منهم روائح العفن ، وأطلت منهم البشاعة والشناعة والحقارة . ولست أحب أن أتدسس في حقائق الأفراد ، ولا استحل أن أتجسس على أحد منهم بعينه ، بل أقصد أن أطل على الإنسان الذي في هؤلاء الأفراد . لقد امتلأ قلبي من أسرار الحياة ، واستطعت اليوم أن أعرف من عيوب نفسي ما يجعلني لا أقسو على عيوب غيري ، ولا أظن إلا أني واحد من أفراد هذه البشرية الضعيفة التي لا ذنب لها في ضعف فطرتها . فلست أحب أن أرى من مقعدي فوق شجرة الجميز الشمطاء سوى ما أكل به على من نفسي ، وعن هذا الخلق الذي خلق من طينتي .

كنتُ أحس في أول الأمر أني مثل القردة التي تعيش فوق الأشجار في بلاد الهند — وداخلني من ذلك شيء من التقزز والكراهة ، فليس هناك من يحب أن يشبه القردة . ولكني فكرت وتأملت في حقائق الأمور ، وروضت نفسي على أن تخضع لحكم العقل والبصر ، فلم ألبث أن حملتها على الاطمئنان إلى شبه القرود .

وزاد بي التأمل ، ولج بي التصور ، فإذا بي أتحقق أن القردة أقرب أنواع الحيوان شبهاً ببني آدم ، وكأن الله تعالى قد جعلها على صورة الإنسان حتى يغض من كبريائه ، ويقلل من غلوائه ؛ وقد حكى بعض أهل الأسفار أنهم رأوا قردة كبيرة الجسم تبلغ مثل حجم الإنسان أو تزيد عليه ، وقيل إن بعضها لا يحمل ذيلا في طرف جسمه ، فإذا استوى واقفاً لم يكن بينه وبين الإنسان إلا فرق ضئيل . ومهما يكن من الأمر ، فإن الإنسان يشبه القرد أكثر مما ي[...] سائر الحيوان ، فهو بلا شك أقرب إلى صورته من ص[...] الأسد أو الغزال أو الكلب ، والإنسان فوق ذلك يج[...] في طباعه ملامح كثيرة من طباع القردة . وكثيراً ما وق[...] أتأمل القرد وهو يلعب أمام مدرّبه ، وينظر بأدب إلى الع[...] التي في يده ، فعجبت من القرابة التي بينه وبيننا معشر [...] آدم . ثم نظرت إلى ذلك الحيوان الرشيق وهو يتما[...] صاحبه من خوف العصا ، وكيف يحاول أن يختلس الجو[...] ويخبئها في فمه ، ثم يلقيها إلى صاحبه إذا أدرك أنه ر[...] وهو يلتقطها . ثم كيف يسرق كل ما تصل إليه يده م[...] الطعام ويدخره في جوانب شدقيه إذا لم يكن جائعاً . تأمل[...] كل هذا ، فصح عندي أنه ليس من الحق أن يبرأ الإنسا[...] من التشبه بالقردة أو يستكبر على أن يكون مثلها في تسلُّ[...] الشجر . مهما يكن من الأمر ، فإن مقعدي فوق شجر[...] الجميز كان نزهة نفسية قلما وجدت مثلها ؛ فهناك كنت أستطيع أن أبعد عن الناس كأنما جعلت بيني وبينهم أميالا وأميالا ، مع أنني لم أعلُ فوق الأرض إلا بضعة أذرع لا تزيد على قامتين . ووجدت نفسي أستطيع أن أنظر حولي فلا أجد أحداً ، بل أرى الجميع تحتي بعيدين ، ويسيرون مطأطئي الرؤوس لا ينظر واحد منهم إلى أعلى ، وهذه من عجائب الطبع الإنساني ؛ حتى لقد خيل إليّ أن الناس في بحث دائم عن أشياء يلتقطونها من تحت أقدامهم .

وهذا الطبع العجيب يجعل إقامتي فوق الشجرة الشمطاء لوناً من ألوان السحر . فهناك أتمتع بما يتمتع به صاحب القلنسوة السحرية التي تسميها شهر زاد في ألف ليلة وليلة (طاقية الإخفاء) ، فينا أرى الناس جميعاً ، وأطلع على حركتهم وسكناتهم لا تقع عين أحد عليّ . وفي هذا ما فيه من مبعث على الدرس والسرور . وقد استطعت من مقعدي هناك أن أعرف أسراراً جديدة في الطبع البشري ، لم أكن لأعرفها لولا شجرة الجميز .

أرى الرجال يسعون سعياً شاقاً ، ويعملون في الحقول

يقطع القلوب ، ويحملون الأحمال الثقيلة التي ينوءون
ا ، فأعجب وأسائل نفسي : ما الذي يضطر هؤلاء إلى
هذه الشقة ؟ فلما أطلت التأمل رأيت أن هناك سوطاً
يلهب ظهورهم ويدفعهم دائماً إلى الأمام — سوطاً
ه عليهم المعدة أحياناً ، ويجرده عليهم النساء أحياناً
ى . وقد لاحظت أن السوط الذي يجرده عليهم النساء
ـ وأقسى ، فإذا ألهب سوط النساء ظهور الرجال اندفعوا
لأمام في عنف ، ولم يترددوا أمام شيء ، حتى الجريمة
ا مهما بلغت من الشناعة . وأما النساء أنفسهن ، فقد
ظت أنهن لا يعرفن الرهبة ، بل هن أشبه شيء بعروس
سود ؛ فالأسد إذا غضب من وقع سوط الروضة التفت
ا غاضباً وزمجر ، ولكنه لا يلبث أن يضع ذيله بين
يه ويفعل ما يؤمر به . ومن أعجب ما لاحظته في النساء
ن لا يقصدن ما يقلنه أبداً . ومن ذلك أن إحداهن
ل « نعم » وهي تقصد « لا » ، ثم تقول « لا » وتنظر
يها قائلة بهما « نعم » .

هـذه كلها ملاحظات وقعت عيني عليها من فوق
جرة ، والناس يمرون أو يجلسون في الظل من تحتي ،
م غير عالمين أن هناك عيناً ترقبهم .

وقد خرجت من كل ما تأملت فيه على حقيقة واحدة ،
ى أن الإنسان كله جدير بالرثاء . الإنسانية ضعيفة
كينة ، وإنه لمن القسوة والظلم أن يحكم إنسان على
سان بأنه مخطئ أو آثم .

والنفوس الكبيرة لا تحب أن تكون فظة غليظة
نها تعرف عن ضعف الإنسان ما يملأ قلبها سماحة . ولم
بين الناس أشد قسوة في حكمه على الناس من أولئك
لذين امتلأت نفوسهم بالعيب والنقص . من أجل كل
ذا الذي اهتديت إليه في تأملي ، وأنا فوق شجرة الجميز ،
حس دائماً بأن خير ما أفعله هو أن أواسي الناس إذا
ستطعت . فالسارق جدير بعطف من أجل جريمته ؛ والذي
رتكب الكبائر أحق بالرثاء والعطف ممن امتلأ قلبه

سلاما ؛ والجاهل لا يستحق الازدراء ، بل هو جدير بأن
ينزل العالم إلى أفقه حتى لا يجرحه .

لقد أصبحت لا أرى في الحياة شيئاً يستحق أن ينكره
الإنسان العاقل أو يغضب له . ليس هناك إلا ما يثير الرثاء
والعطف والمواساة ؛ حتى العداوة نفسها لا تثير في
نفسي إلا مواساة لعدوي المسكين ، الذي يعذب نفسه
بشعورها المرير .

سألني بالأمس سائل : ماذا كنت فاعلا لو ذهبت
إلى بلاد يعبد الناس فيها العجل من دون الله ؟ ففكرت
قليلا ثم قلت : « لا أفعل شيئاً . أحس وأرثي له » .

ولكني ما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى علت
الصيحات من حولي من كل جانب ، وظن الناس أنني
أعابثهم فملأ ضحكهم ، وذهبوا يذيعون فأني في أطراف
« ماعوش » ؛ وأما صديقي أبو النور ، فقد غضب علي وعنفني
أشد التعنيف على كلمة ظن فيها كفراً . ومعاذ الله ما كفرت
منذ آمنت ؛ ولكن هذا ما بلغته من تأملي فوق
شجرة الجميز .

وكلما هدأت الأصوات حولي وهب النسيم من خلال
الأوراق الصفراء ، أو كلما لمع من فوق ضوء الشمس
أو سجا الليل ، أو طلع في السماء القمر والنجم ، كلما حلا
التأمل ، وشملني السلام ، ذكرت علية ابنة علاء الدين
سلطان قونية ، وتمنيت لو كانت هناك إلى جانبي أنظر بعيني
في عينيها لأستوحي منهما الحقيقة الباهرة ، وأستنشق من
قبل أنفاسها عطور الفردوس ، وأملأ قلبي بالسعادة والسلام
من ترنيم ألفاظها . ولكن ... يا علية ابنة السلطان !
ماذا لعلك تظنين بي إذا أنت رأيتني فوق شجرة الجميز
مشرفاً على الناس من بين أغصانها ؟ أتكونين مثل
صورتك كمال الحكمة ، وكمال النبل ، وكمال السمو ، أم
تكونين كسائر هذا الناس تقتحمني عينك وتسخرين ؟
أواه لو كنت يا علية مثل سائر هذا الناس !

(طنق الأمل) محمد

حياة أفلوطين

بقلم تلميذه فورفوريوس

١ — يبدو أن أفلوطين[1] معاصرنا الفيلسوف كان يخجل من كونه ذا جسم ، ولقد تغلغل هذا الشعور في ثنايا نفسه وتعمق أشد العمق ، حتى أنه لم يجسر لأحد قط سبيل إغرائه بالتحدث عن أسلافه أو والديه أو مسقط رأسه .

وكان يبدى أيضاً نفوراً شديداً من الجلوس إلى رسام أو مثّال ، ولما ألح عليه أميليوس في أن يسمح برسم صورة له ، سأله قائلا : « أليس يكفى أن نحمل هذه الصورة التى أودعتنا فيها الطبيعة ؟ وهل تظن حقاً أنه لزام علىّ أن أوافق على صنع صورة لهذه الصورة لتكون مشهداً مرغوباً فيه تنظر إليه ذرارينا من بعدنا ؟ » .

فلما رأى أميليوس إصراره هذا على الرفض والإباء أحضر صديقه كارتيريوس أمهر الفنانين في عصره — أحضره إلى « المؤتمرات » التى كانت مفتوحة على مصراعيها لكل طارق ، وعمل على أن يتمكن الفنان بطول المشاهدة وكثرة الملاحظة من التقاط ملامح الفيلسوف البارزة . فلما تجمعت آثار هذه الملاحظات في ذهنه تيسر له اعتماداً على ذاكرته أن يخرج صورة أولى عرضها على أميليوس ، فأبدى له هذا بعض المقترحات ليكون الشبه بالفيلسوف أقرب . وبهذا الأسلوب وبدون علم أفلوطين جادت لنا عبقرية كارتيريوس بصورة دقيقة شبيهة بالفيلسوف أتم الشبه .

٢ — وكان أفلوطين يشكو في أغلب الأيام مرضاً أصاب أمعاءه ، ومع ذلك فقد كان يرفض استعمال السوائل التى تغسل بها الأمعاء ، قائلا : إن هذا النوع من العلاج لا يليق بشيخ كبير في سنه . ومثل كان يأبى تعاطى العقاقير الطبية التى تحوى مواد مستخلصة من الوحوش الضار الزواحف ، وبخاصة لأنه — كما قال — لم يكن يستسيغ تناول لحوم الحيوانات التى يتعهدها الناس بالتربية يتغذون بها .

وامتنع عن الذهاب إلى الحمام قانعاً بتدليك جسمه كل يوم في المنزل ؛ ولما أهلك الوباء من كان يقوم له بالتدليك امتنع امتناعاً تاماً عن هذا العلاج أيضاً . ثم أصيب بعد ذلك بقليل بمرض الخناق الخبيث .

على أن أعراض هذا المرض لم تكن قد ظهرت عليه أثناء وجودى معه وملازمتى له ؛ وإنما ساءت حاله واشتدت آلام العلة بعد ما أبحرت إلى صقلية . فلما عدت إلى روما حدثنى يوستوكيس أحد خلصائه ، وكان قد لزمه في سنيه الأخيرة ، فقال : إن صوته بح في آخر أيامه وفقد الرنين العالى الذى كنا نعهده فيه ، وإن بصره ضعف ، وظهرت القروح على يديه وقدميه .

ورأى أصحابه أن يعتزلوه أثناء مرضه حرصاً على شفائه إذ كان لا يزال مصراً على مخاطبتهم والتحدث إليهم ؛ وعندئذ برح روما وذهب إلى كمبانيا ، وأوى إلى ضيعة هناك كان يملكها زيتوس أحد أصدقائه القدماء ، وكان قد توفى منذ مدة ما . ومن هذه الضيعة توفرت له أكثر حاجاته ، وما بقى منها بعد ذلك كان يجلب إليه من مينتورنى حيث تقع أملاك كاستريكس .

أما عن اللحظات الأخيرة التى قضاها أفلوطين في هذه الحياة ، فإن رواية يوستوكيس تتلخص فيما يأتى :

كان يوستوكيس مقيماً في بتيولى وحضر متأخراً ؛ فلما وصل ابتدره أفلوطين بقوله : « لطالما انتظرتك — إنى أجاهد في تسليم الإلٰهى فىّ إلى الإلٰهى في الكل » . وعند ما قال ذلك زحف ثعبان من تحت فراشه واختفى في جحر في الحائط . وفى هذه اللحظة مات أفلوطين .

كان هذا في نهاية العام الثانى من حكم كلوديوس . وكان أفلوطين عندئذ ، كما أخبرنى يوستوكيس ، في

(١) ولد أفلوطين في مدينة ليقوبوليس (أسيوط) كما يقول يونابيس ، سنة ٢٠٤ أو ٢٠٥ بعد الميلاد ، وتوفى في روما سنة ٢٧٠ . وليس معروفاً بالضبط جنسية والديه ، ولكن يحتمل أن يكونا مصريين .

...سة والستين من عمره . أما أنا فكنت فى هذا الحين ... ا ليليبايوم ، وكان أميليوس فى أبايا فى سوريا ، ... منريكس فى روما ، فلم يكن بجانبه إذن عند وفاته ... ى يوستوكيس .

وعلى هذا فإذا عدنا إلى الوراء ستا وستين عاما ابتداء ... العام الثانى لحكم كلوديوس ، أمكننا أن نحدد مولد ... طين بأنه كان فى العام الثالث عشر من حكم سفروس . ... أنه لم يبح لنا قط بالشهر أو اليوم الذى ولد فيه ، وذلك ... ه لم يكن يرغب فى إقامة حفل فى يوم مولده ، أو تقديم ... يا ؛ مع أنه كان يقدم الضحايا والقرابين فى يوم مولد كل ... أفلاطون وسقراط ، ثم يقيم بعد ذلك حفلا يخطب فيه ... ل من يستطيع ذلك من أفراد حلقته .

— رغم ما كان يبديه أفلوطين على وجه العموم من ... فور نحو التحدث عن أيامه وتاريخ حياته ، فإن هناك ... ضا من الدقائق والتفصيلات القليلة التى ذكرها لنا فى ... يات حديثه معنا .

وهكذا أخبرنا أنه وهو فى الثامنة من عمره ، وقد أخذ ... الذهاب إلى المدرسة ، كان ما يزال يعلق بمرضعته ويحب ... ن يكشف من ثديها ويرضع منهما ، ولم يمتنع من ذلك إلا ... بعد أن قيل له فى أحد الأيام : إنك شيطان شاذ أو ... عفريت ضال .

ولما بلغ سن العشرين شغف بحب الفلسفة ، فأرشد إلى ... معظم الأساتذة شهرة فى مدينة الإسكندرية ، ولكنه كان ... ذهب إليهم ويعود محزونا خائبا . ولما باح بمكنون نفسه ... إلى أحد أصدقائه أدرك حقيقة هويته ، وأشار عليه بالتوجه ... إلى أمونيوس ؛ ولم يكن قد جربه بعد ، فذهب إليه أفلوطين ... وأصغى إلى إحدى محاضراته ، ثم صاح بصاحبه : « هذا ... هو الرجل الذى كنت أنشد » .

ابتداء من هذا اليوم تبع أفلوطين أمونيوس على ... الدوام ، وتقدم بإرشاده تقدما كبيرا فى الفلسفة ، ... حتى تملكته الرغبة الملحة فى تعرف أساليب الفرس

ومذهب الهنود . وحدث أن الإمبراطور جورديان كان يتهيأ فى ذلك الحين لحملة عسكرية على بلاد الفرس ، فلحق أفلوطين بجيشه وذهب مع الحملة وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره ، لأنه كان قد قضى أحد عشر عاما متلمذا لأمونيوس . ولما قتل جورديان فى أرض العراق لم يستطع أفلوطين الوصول إلى أنطاكيا سالما إلا بشق النفس .

وفى الأربعين من عمره — أى فى حكم فيليب — استقر به المقام فى مدينة روما .

ولقد كان أرينيس وأوريجين وأفلوطين قد تعاهدوا فيما بينهم على ألا يبوحوا بشىء من التعاليم التى كشف لهم عنها أمونيوس . فظل أفلوطين وفيا بعهده هذا ، ولم يذكر لأتباعه شيئا قط من فلسفة أمونيوس . ولكن هذا العهد نقض ، نقضه أولا أرينيس ثم تبعه فى ذلك أوريجين . على أنه من الحق أن نقرر هنا أن أوريجين لم يكتب إلا رسالتين فقط الأولى من « الكائنات الروحية » ، والثانية من « الملك الخالق الواحد » ، وقد حررها فى حكم جالينوس . أما أفلوطين فقد ظل أمدا طويلا لا يكتب شيئا ، ولكنه أخذ يعتمد فى محادثاته على الدراسات التى تلقاها على يدى أستاذه أمونيوس . وعلى هذا النمط قضى عشر سنوات لا يكتب شيئا ، بل يتحدث على الدوام إلى طائفة مختارة من أتباعه ويناقشهم .

وكان يشجع سامعيه على إلقاء الأسئلة ، فأدت به هذه الحرية ، كما قال أميليوس ، إلى الشىء الكثير من الخروج من الموضوع ، وإلى الكلام الذى لا طائل تحته ولا غناء فيه .

وانضم أميليوس إلى حلقته فى العام الثالث من حكم فيليب ، وهو العام الثالث أيضا على بدء إقامة أفلوطين فى روما ، وظل ملازما له إلى العام الأول من حكم كلوديوس ، أى أنه قضى أربعا وعشرين سنة فى هذه الحال . ولما اتصل بأفلوطين كان قد سبق له التمرن مرانا حسنا على يدى ليزيماخوس وفاق زملاءه جميعا بكده ومثابرته وطول عنائه . ولأضرب لك مثلا على هذا بأنه نسخ مؤلفات نيومينس

أبو الهول الذى لا سر له

لأسكار وايلد (١٨٥٦ — ١٩٠٠)

كنت جالسا بعد ظهر يوم خارج قهوة دى لابيه ، أرقب الحياة البارسية ومتناقضاتها ، من مناظر ذل وفقر ، إلى مظاهر عز وغنى ، وإذا بى أسمع من يناديني ، فحوت طهرى ، فرأيت اللورد مرشيسون الذى لم أره منذ تركنا الكلية . وكان من أسباب سرورى أن جمعتني الصدفة به ، وتصافحنا بحرارة ، فقد كنا صديقين حميمين فى أكسفورد ، وكنت أحبه حبا جما لعلو نفسه وكرم محتده ، وكنا نعرفه صريحا لا يوارى ولا يدارى ؛ وقد بدا لى أنه قلق حائر ، ولم أشأ أن أعزو هذا إلى مذهب الإلحاد الحديث ، فمهدى به أنه من أشد المحافظين . ثم انتهيت إلى أن فى الأمر امرأة . وسألته عما إذا كان قد تزوج بعد ، فأجاب : « أنا لا أفهم النساء فهماً كافياً » . فقلت : « يا عزيزى جرالد ، إن النساء خلقن ليحببن لا ليفهمن » ! فأجاب : « ليس فى إمكانى أن أحب حيث لا أثق » . فصحت : « لابد أن هناك سرا فى حياتك . خبرنى عنه » . فأجاب : « دعنا نذهب للنزهة ، إن المكان هنا جد مزدحم . لا ، لا أريد عربة صفراء . أى لون آخر . تلك العربة الخضراء القائمة تفى بالغرض » . فقلت له : « إلى أين نحن ذاهبان ؟ » فقال : « كيف تشاء . إلى المطعم الذى فى الغابة ؛ سنتناول طعام الغداء هناك ، وستحدثنى عن كل ما يتصل بك » فقلت : « أنا أريد منك أن تحدثنى عن نفسك أولا . خبرنى عن سرك » . فأخرج من جيبه صورة امرأة طويلة هيفاء ، ذات طلعة بهية غريبة ، وعينين واسعتين مبهمتين ، وشعر مسترسل .

قال : « ماذا رأيك فى هذا الوجه . أتراه ينم على الإخلاص ؟ »

ولحظته جيدا ، فبدا لى أنه وجه شخص يخفى سرا ، لا أستطيع الحكم عليه إن خيرا أو شرا . وسألته أن يحدثنى عنها ، فوعد أن يفعل بعد الغداء . ولما أحضر الخادم القهوة والسجائر ذكرته بوعده ، فقام من مجلسه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ثم ارتمى على مقعد وقص علىّ القصة الآتية :

« ذات مساء ، كنت أمشى فى شارع بوند ، وكانت العربات محتشدة احتشادا شديدا ، حتى لقد كادت حركة المرور تتوقف . وكانت تقف قريبا من الطوار عربة صفراء

كلها ، وعنى بترتيبها ، وكان على وشك أن يتم حفظها ومنها من ظهر قلب ، كما أنه عنى بتدوين ملاحظات ومذكرات على مؤتمرات أفلاطون ، ثم حررها بعد ذلك فى نحو من مائة رسالة أهداها إلى هوستيلياس وكان قد تبناه .

٤ — أما أنا فقد حضرت من بلاد الإغريق فى العام العاشر من حكم جاليتوس فى صحبة أنطونيوس الرودسى ، فوجدت أميليوس قد سلخ ثمانية عشر عاما ملازما لأفلوطين ، ولكن لم يكن قد أقدم بعد على تحرير أى شىء ، اللهم إلا المذكرات التى لم تكن قد بلغت حينئذ المائة عداً . وكان عمر أفلوطين فى هذا العام العاشر من حكم جاليتوس حوالى تسعة وخمسين عاما ، وكنت أنا فى الثلاثين عندما قابلته أول مرة .

وفى هذا الحين كان أفلوطين قد أخذ يكتب فى الموضوعات التى تناولها البحث فى المؤتمرات . وعندما لقيته فى هذا العام العاشر من الحكم ، كان قد أنشأ إحدى وعشرين رسالة . ولم تكن هذه الرسائل مما يسهل تداوله قطعا ، ومع ذلك فقد أتيح لى الحصول عليها . فالواقع أن توزيع الرسائل لم يكن يحدث إلا سرا وعلى كره ، وإلا بعد أن يختبر من يحصل عليها اختبارا عسيرا .

ولم يضع أفلوطين عناوين لهذه الرسائل ، فكان كل امرئ يضع لكل رسالة ما شاء من عنوان . وما أذكره فيما يلى إنما هى العناوين التى ساد استعمالها فى النهاية . (يتبع)

الإسكندرية — ابراهيم عبد المجيد زكى

صغيرة ، التفت نظرى لسبب ما . ولما مررت بها أطل منها ذلك الوجه الذى أريتك إياه بعد ظهر اليوم ، فسلبنى لبى فى الحال ، وأصبحت صورته تلح على فى اليقظة والنوم . وبعد قرابة أسبوع دعيت للعشاء عند مدام دى راستيل . وبينا نحن جلوس إذ فتح الخادم الباب ؛ وأعلن حضور الليدى الروى . إنها المرأة التى فتنني جمالهـا . وكان من فائض سرورى أن أدعى لصحبتها أثناء العشاء . وبعد أن جلسنا قلت بحسن نية : « يخيل إلى أنى قد رأيت الليدى منذ وقت مضى فى شارع بوند » . فشحب لونها ، وقالت فى صوت خافت : « ربك لا تتكلم بمثل هذا الصوت المرتفع » . وشعرت بتعاسة لهذه البداءة السيئة . وكانت ليدى الروى تتحدث فى صوت موسيقى منخفض ، كأنها تخشى أن يكون هناك من يتسمع . وشعرت بحب جارف نحوها ، وقد أثار جو الغموض المبهم الذى يحوطها فضولى . ولما همت بالذهاب سألتها عما إذا كان فى الإمكان أن أزورها . فترددت لحظة ، ثم نظرت حولهـا وقالت : « نعم ، غدا فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين » . وقد توسلتُ إلى مدام دى راستيل أن تحدثنى عنها ، ولكن كل ما أمكننى أن أعرفه عنها أنها أرملة وأنها تملك منزلا جميلا فى بارك لين .

وفى اليوم التالى ذهبت فى الميعاد المضروب ، ولـكن الخـادم أخبرنى أن الليدى خرجت فى التو واللحظة . وذهبت إلى النادى وأنا مبلبل الفكر شقى النفس ؛ وبعد أن فكرت فى المسألة طويلا كتبت إليها أسألها أن تتيح لى الفرصة فى يوم آخر . فجاءنى منها رد قصير تقول فيه : إنها ستكون فى المنزل يوم الأحد الساعة الرابعة .

وفى يوم الأحد استقبلتنى . ولـما حان موعد ذهابى رجتنى أن أرسل خطاباتى على العنوان الآتى إن أردت الكتابة إليها : « مسز نوكس . طرف مكتبة ويتيكر . شارع جرين » ، ثم عقبت قائلة : « هناك من الأسباب ما يدعونى إلى هذا » .

ورغم أنى كنت ألقاها كثيرا ، فإن جو الغموض لم يزايلها قط . وكنت فى بعض الأحيان أظن أنها فى قبضة رجل آخر . وكان من أصعب الأمور على أن أصل إلى تفسير معقول ، أو نتيجة مرضية . وأخيرا قررت أن أسألها أن تقبلنى لها زوجا ، وكتبت إليها على عنوان المكتبة أسألهـا ميعاداً . وقد أجابت طلبي ، وكنت فى السماء السابعة من السرور . كنت مفتونا بها مشغوفا ، رغم غموضها وإبهامها . وفى يوم الاثنين تناولت الغداء مع عمى وهو يقطن فى ريجنت بارك كما تعلم . وقد أردت أن أصل إلى بيكاديلى ، واختصرت الطريق بالسير فى شوارع قذرة ضيقة . وفجأة رأيت أمامى ليـدى الروى ، وهى متحجبة بحجاب كثيف وتجدُّ فى السير . ولما وصلتْ إلى آخر منزل فى الشارع صعدت الدرج وفتحت الباب بمفتاح كان معها ودخلت . قلت لنفسى : « هذا هو السر ! » وأسرعت نحو المنزل وأخذت أتفحصه . ويظهر أنه كان من تلك الأمكنة التى تؤجر حجرات للناس . وعلى عتبة الباب سقط منديلها ، فالتقطته من الأرض ووضعته فى جيبى . ثم ابتدأت أفكر فيما يجب أن أفعله ، وانتهى بى تفكيرى إلى أنه ليس من حقى أن أتجسس عليها . وذهبت إلى النادى . ولما حانت الساعة السادسة ذهبت إليها ، فألفيتها مضطجعة على أريكة ؛ وكانت تبدو رائعة الحسن ، وحيتنى قائلة : « إنى مسرورة لرؤيتك . لم أغادر المنزل طيلة النهار » . فتفرست فيها فى دهشة ، وأخرجت المنديل من جيبى وقلت لها بهدوء : « لقد سقط هذا المنديل من الليدى بعد ظهر اليوم فى شارع كمنر » ! فنظرت إلىّ فى فزع ، وبادرتها أنا قائلا : « ماذا كنت تفعلين هناك ؟ » فأجابت : « وبأى حق تسألنى ؟ » فقلت : « بحق رجل يحبك . لقد أتيت أسألك أن تقبلينى زوجا » . فدفنت وجهها فى يديها ؛ وانهمرت الدموع من عينيها غزارا . قلت لها : « لابد من أن تخبرينى » . فنظرت إلى وقالت : « لورد مرشيسون ! ليس هناك شىء أخبرك به » . فصحت بها : « لقد ذهبت لتقابلى شخصا ما . هـذا هو سرك . ألا تخبرينى بالحقيقة ؟ » .

كنت مجنونا يائسا ، ولا أدرى ما قلته لها ، ولـكنى أعرف أنى رميتها بأقذع الألفاظ وأخسها ، وخرجت من

في اليوميات :

يوميات مسلولة

فتاة بلا قلب

« لست صاحبة تصوير أو نحت أو موسيقى ؛ ولست امرأة ولا فتاة ولا صديقة ، بل يتحول كل شيء لدي إلى موضوع للملاحظة والتأمل والتحليل : فكل نظرة أو صورة أو صوت ، وكل سرور أو ألم سرعان ما أزنه وأحققه وأمتحنه وأصنفه وأسجله ؛ فإذا ما قلت أو كتبت ، رضيت » (١/٨/٨٤) .

تلك كانت طبيعة ماريا بَشكيرتسف ، وفي هذا سر شقائها .

رمى قلبها الطفل العاري ذو الجناح بسهامه الوردية سهماً من بعد سهم ؛ ولكن متبرقا كانت تردها متكسرة النصال على درعها الفولاذي ، فلا يكاد فؤادها يشتعل بنار الحب حتى يأتي العقل ببروده القاسي فيخمد نار ذلك الحب ؛ وبينا قلبها يهتاج ويثور ، إذا بعقلها يبتسم ويتهكم قائلا : أمامك أيها القلب الساذج ! حتى قال عنها رفيقاتها في الرسم : « إنها لم تحب ، بل ولم يكن في وسعها أن تحب » ؛ وفي إثرهم جاء لومبروزو فنعتها بأنها فتاة متبرجلة لا تعرف من الحب شيئاً ، واستشهد على هذا بقولها : « لا أحسبني شعرت بعاطفة غريبة عن الطموح » .

ونحن هنا في الواقع بإزاء ظاهرة نفسية عامة نشاهدها لدى العباقرة الولعين بالتحليل الذاتي في قسوة وبرود . فإن ما يحسون به من وجدانات لا يستطيعون الشعور به كاملا خالصاً ، فيه سذاجة العاطفة وسعة الشعور والتهاب الإحساس وغرامة الشهوة ، وإنما يعانون هذا كله ناقصاً مشوهاً قد خلا من النضرة وسرى فيه الجفاف . أجل ، قد يكونون أقوى من غيرهم إحساساً ، وأشد منهم درجة في الشعور ، ولكن هذا ليس من شأنه أن يحمل متعتهم به أكبر

عندها تأثرا مهتاجا . وفي اليوم التالي كتبت إلى فأعدت إليها خطابها دون أن أفتحه . ورحلت إلى النرويج من الآن كواتيل . ورجعت بعد شهر ، وكان الخبر الأول الذي طالعته في « المورننج بوست » هو وفاة الليدي الروى . وانصرفت عن الدنيا وأهلها . كنت أحبها حبا جما ، كنت أحبها حب جنون . رباه ! كيف أحببت تلك المرأة !

وذهبت يوما إلى شارع كثير ؛ كان الشك يعذبني . ولما طرقت الباب برزت سيدة يبدو عليها الوقار ، فسألتها عما إذا كان عندها حجرات تؤجرها لي ، فقالت : « لم أر لسيدة منذ ثلاثة شهور . وبما أن الإيجار مستحق عليها ، اعتقد أن في الإمكان أن تحل محلها » . فعرضت عليها صورة الليدي الروى وقلت : « أهذه هي ؟ » فأجابت : « هذه هي بالتأكيد . متى ستعود يا سيدي ؟ » فقلت : « لقد ماتت » . فقالت السيدة : « رباه ! لقد كانت أحسن نازلين عندي . كانت تدفع ثلاثة جنيهات في الأسبوع لمجرد أن تجلس في حجرات الجلوس من وقت لآخر » .

فسألتها : « هل كانت تقابل أحدا هنا ؟ » فأكدت لي أنها كانت تأتي وحدها ، وأنها لم تكن تقابل أي إنسان . وأعطيتها جنيها وذهبت . ما معنى كل هذا ؟ أترى المرأة صادقة فيما قالته ؟

— نعم .

— وكيف تفسر ذهابها إلى هناك ربك ؟

— يا عزيزي جيرالد . لقد كانت عندها نزعة جنونية إلى التخفي ، فاستأجرت تلك الحجرات لمجرد أن تذهب هناك متحجبة وتتخيل نفسها بطلة . أما هي نفسها فلم تكن إلا أبا هول بدون سر .

— هل تعتقد هذا ؟ — إني متأكد .

وأخرج اللورد الصورة من جيبه ، وأمعن النظر فيها ثم قال : « عجباً ! » .

ترجمة وتلخيص

محمود عمرو

ونفوذه فيهم أبعد . ولكنهم ليسوا في هذا على حال واحدة ، بل نستطيع أن نميز فيهم فريقين : فريقاً يوغل في التحليل الباطن كما يتعمق شعوره ، ويحياه حتى أبعد أغواره ؛ وفريقاً أشبه ما يكون بالمرآة تعكس الشعور على العقل كي يستحيل من موضوع للإحساس الخالص إلى موضوع للإدراك المجرد . وتبعاً لهذا كله تختلف طبيعة الأداء لدى كل فريق : فأداء الأول فيه عنف وفيه حرارة ، فيه عمق وفيه غالبا مرارة ، لأنهم يلقون من الكأس حتى الرواسب ؛ وأداء الثاني هادئ بارد ، لا يخلو حينا من السطحية الممزوجة بالدقة والرشاقة . ومارية إلى هذا الفريق تنتسب . غير أن أداءها قد اتخذ لوناً خاصاً يتميز به عن أداء من يشاركها من أبناء هذا الفريق ، لأن عاطفة خاصة بلغت من القوة فيها ما لم تبلغه عند غيرها قد ، أثرت فيها من هذه الناحية كل التأثير ؛ وتلك هي عاطفة الطموح التي قد يبلغ أحياناً حد الكبرياء والزهو . فلئن كان في مجرد كتابة « اليوميات » نوع من الثقة بالنفس يختلف قوة وضعفاً حسب طبائع أصحابها ، إلا أنهم ينحون دائماً نحو التواضع ، بل والظهور بمظهر العجز والضعف الضارع ، إذ يدّعون أنهم هنا يقفون عراة أمام أنفسهم ، فلا مجال إذن لتَلَبُّس القناع الذي لا يدعو الإنسانَ إلى اتخاذه إلا الاجتماع . أما مارية فأبعد ما يكون من هذا التواضع ، لأنها مخلصة في التعبير عن نفسها كل الإخلاص من ناحية ، ولأنها مليئة بالطموح إلى الدرجة القصوى من ناحية أخرى ، حتى كادت هذه العاطفة أن تكون الدافع الوحيد لها في كل فعل أو قول ؛ وسيكون إذن من الزيف المعيب أن نخفيها ، بل وألا نتحدث عنها فنطيل الحديث في شهوة ونشوة . وعاطفة الطموح والزهو هذه تَهَبُ الأداء نبرة قد تثير أحياناً نوعاً من الابتسام المريض ؛ وهي فعلا تثير الشيء الكثير من هذا في بعض صفحات يوميات مارية ؛ ولكن لا يكاد المرء يبدأ الابتسام حتى يذكر طبيعة مارية كلها وكيانها الروحي ، فتختفي البسمات مفسحة الطريق أمام الإعجاب الدقيق ، وتستحيل البسمة الساخرة إلى بسمة حارة .

وعاطفة الحب عند مارية قد أوقدها أو أفسدها هذا الطموح المقل ، وفعلت في تطورها عوامل جامحة لا نستطيع أن نحدد على وجه التدقيق نصيبها الحقيق في تحديد مجرى هذا التطور على النحو الذي كان عليه . ولكن العامل الأكبر في هذا التطور كله هو من غير شك تجربة غرامها الأولى في روما مع بيترو انتونلي ، هذا الرحّالة الإفريقي المغامر ، الذي عرفته مارية أول ما عرفته في روما سنة ١٨٧٤ ، حين رأته يشق طريقه ظافراً وسط جموع الشباب الولهان ، الذي كان يقذف مارية بأكاليل الزهر العاشق ، بينما هي تظل غير مكترثة من طُنُفها ، حاملا تلك الباقة التي ألقتها ابنة خالتها عليه ، ولكنها سقطت بعيدة عنه فنازعه إياها جمعُ الشباب الحاشد النشوان ، ولكنه انتصر عليهم واستخلصها منهم ببسالة ، وأقبل بإزاء مارية كالمظفر الظافر ، فكان جزاؤه منها نظرةٌ خجول هي الباب الخارجي لكل قلب .

ومن هنا بدأت تجربة غرام شبت أوارَها شمسُ الجنوب الحارة ، ووشّاها الريف الضاحي حول روما بألوان زاهية ، فامتزجت فيها نصاعة الشمال بحرارة الجنوب ، وانعقدت عليها روعة الجمال الرطب وثورة الشهوة المتأججة ، فكانت خليقة إذن بأن تكون تجربة من الطراز الأول في عمق الإحساس وشدة العاطفة وسمو الشعور . ولكنها انتهت على العكس من ذلك لأسباب صادرة عن طبيعة كلا الطرفين : فمن ناحيتها هي ، كان عقلها البارد لا يستطيع أن يتابع قلبها الولهان ، فكانت تسخر من كل ما تعانيه من أحاسيس ، حتى كان شعورها أقرب إلى العبث منه إلى الصدق ؛ إذ كان عقلها ينكر قلبها ، فلا تكاد تشعر بأن عاطفة الحب قد بدأت تغزوها ، حتى يثور عقلها ، فتصيح متوسلة إلى القارئ ، بألا يزعم أن هذا « حب » ، وإنما هو « إعجاب » . وتراجع نفسها في السنة التالية ، ولكن بعد ذهاب التجربة ، فتعلق على مذكرات الإعجاب قائلة : « أرجو ، مرة واحدة وإلى الأبد ،

ألا تعطى أيها القارئ ، أهمية خاصة إلى إعجابي ؟ فإني لم أكن أفكر فيما كنت أكتبه عن «أنتونيل ...» ؛ لقد كنت أزين فيه ، حتى أصنع منه قصة» (مايو سنة ١٨٧٧ ، حاشية) .

أما من ناحيته هو فيبدو أنه كان فتى قُلّبا ، صاحب نزوات ؛ فلم يخلص لهذا الغرام حين بدأ يوضع موضع الامتحان . ذلك أنهما قد بدآ يتبادلان حديث الحب ، هو فى حرارة واشتعال ، وهى فى شىء من السخرية وعدم الثقة . واتصل بهما الأمر حتى بلغ حد الاتفاق الضمنى على الزواج . ولكن كان يحول دون تحققه من ناحية الأسرتين اختلاف فى المذهب الدينى : فهى أرثوذكسية ، وهو كاثوليكى ؛ فلم ترض أسرتها بأن تتزوج ابنتها زواجا كاثوليكيا ولم ترض أسرته هو كذلك . ومع هذا استمر الحب شيئاً ، حتى غادرت مارية روما إلى نيس حيث اعتادت أسرتها الإقامة إبان الشتاء ، وأشارت عليه باللحاق بها هناك . ولكنها انتظرته عبثاً ، فقد كان هو معتقلا فى الدير ، كفارة عن الديون التى اقترضها . ثم عادت إلى روما والغضب ملء فؤادها ، حنقاً على هذا الحب الخائن ؛ وكان لقاء ، بارداً أول الأمر ، حاراً بعد أن عرفت ما كان قد حل به . وإذا بالحب يستعيد ناره الأولى ؛ وها هى ذى الأيام تتدافع بسرعة ولم يبق لدى مارية إلا يوم واحد للإقامة بروما ؛ فكان ميعاد ، وكان لقاء فى منتصف الليل عند الدرجة السفلى من درجات السلم الصغير الذى يحتل الممر الداخلى ؛ وكان حديث عذب فيه من جانبه إعلان لغرامه المشبوب ، ومن جانبها ترتيب لمستقبل غرامهما ، ولم يكن يقطعه عليهما إلا صوت خالتها وهى تناديها كى تنام دون أن تعرف أين مكان ابنة أختها الآن ، وعلى أى حال هى . واستمر الحديث ثلاث ساعات توج فى نهايتها بقبلة كانت الأولى . . . والأخيرة . إذ حيل بين الشاب وبين الفتاة من ناحية أسرته التى لم تشأ أن يتم هذا الطائف الغرامى ؛ وبذا انتهت هذه التجربة الغرامية الأولى فى حياة مارية . أما هو فلسنا ندرى عنه بعد أو قبل من هذه الناحية شيئاً ، ولعله كان لا يزال يذكر بعد هذه التجربة ، يذكرها لا فى مرارة وأسف ، بل فى شىء من الابتسام الرقيق ، كذكرى لنزوة عابرة من نزوات الشباب ، نزوة قد تكون جميلة حقاً ، ولكنها لن تترك بعد فى النفس أثراً .

أما بالنسبة إليها ، فما أمرّها من تجربة وأقساها !

والغريب من أمر الذين كتبوا عن مارية أنهم لم يحفلوا كثيراً بهذه التجربة ، ولم يستطيعوا فى شىء ، أن يحددوا مدى ما كان لها من أثر فى تطورها الروحى ، خصوصاً فيما يتصل بنظرتها إلى الإنسان عامة ، وإلى عاطفة الحب خاصة . أما نحن فنستطيع أن نقول مؤكدين مطمئنين إن لهذه التجربة أخطر الأثر فى تطورها الروحى ؛ لأن هذه التجربة كانت أولى تجاربها الغرامية ، بل وأولى تجارب اختبارها للناس فى إخلاصهم وعواطفهم . وإن من أخطر التجارب أثراً فى حياة الإنسان لتجربة فشله فى غرامه الأول . ومسئولية الطرف الخائن فى هذه المسألة بالنسبة إلى الطرف المخون مسئولية خطيرة هائلة ، لا يكاد شىء أن يكفر عنها . وكلنا قد قرأ هذا التحليل العميق الرائع لهذه الظاهرة فى «اعترافات فتى العصر» لألفرد دى موسيه ، وما لها من أثر عميق فى مجرى الحياة الباطنة لمن كان فريسة لها . فمظاهر هذا الأثر عديدة ، أهمها عدم الإيمان بالحب بمعناه الحقيق ، أعنى الحب الخالص لمحبوب واحد أو الخلص إطلاقاً ؛ ثم فقدان الثقة فى الناس من حيث عواطفهم وإخلاصهم فى الشعور بهذه العواطف ؛ وما يلبث هذا الشعور أن يمتد إلى كل آفاق الحياة الإنسانية ، فيستحيل إلى سخرية من كل شىء ، وعدم اكتراث لأى مظهر من مظاهر الود الإنسانى المزعوم ؛ وإلى شك فى قيمة كل ما عسى أن يبدو فى إنسان ما من عواطف نبيلة ، وإلى عدم إقبال المرء على أى شىء يقتضى الثقة بالناس أو الإخلاد إلى نبل مقاصدهم والاعتماد على شرف نواياهم ؛ فلا يعود يسير بين الناس إلا ممتد الشفتين ، منخفض الرأس ، مهتز الكتفين ؛ وقد يفضى أيضا إلى يأس من كل ما فى الحياة .

ويبدو أن مارية قد تأثرت بهـذه التجربة الغرامية الفاشلة على هذا النحو . فقد بدأت بالندم على ما فعلته مع هذا العاشق المزعوم : « انطويت على نفسى ، وكأن نورا باهراً قد أضاء فى نفسى . فقد فهمت أخيراً أنى كنت آثمة حين سمحت بقبلة ، وإن تكن واحدة ، إلا أنها قبلة على كل حال ؛ وحين أعطيته ميعاداً عنـد أسفل السلم ؛ وفهمت أنى لو لم أذهب إلى الممر الداخلى ولا إلى غيره ، ولو كنت لم أستسلم للانفرادية ، إذن لـكان الرحيل قد زاد من تقديره إياى ، ولما كنت شعرت بالحنق ، أو ذرفت الدموع » . ولـكن ماذا يجدى هذا كله ؟ « لم يبق لدى ما أفعله غير شىء واحد هو : التسليم . أجل ! إنى لأعلم أن هذا شاق ، ولكن أين إذن سيكون الفضل ؟ . . . إنى أعتقد ، أنا المجنونة ، بأن سورة الإيمان الملتهب والدعوات الحارة تستطيع شيئاً ! ... إلـهى ، رحماك ! هبنى الطمأنينة ! هبنى نفساً أستطيع التعلق بها ! أنا متعبة ، متعبة أشد التعب . كلا ، كلا ! لست متعبة من العواصف ، بل من خيبة الأمل » . ولا تكاد تذكر الرجل حتى تنتفض فزعاً : « يا للشقاء ، ويا للوضاعة ! ليس فى وسعى بعد أن أثبت ذهنى صوب رجل كهذا . وإذا كنت أشكو شيئاً أو أندب أمراً ، فذلك هو حظى البائس ، وذلك هو حياتى التعسة التى لم تكد تبدأ بعد ، والتى لم يكن نصيبى منها غير الفشل وخيبة الأمل » (١٣/٤/٧٦) .

ومن هنا انتزع منها الإيمان بالحب ، ولم تعد تؤمن بشىء منه إلا باعتباره الحب الـكلى المطلق الذى يتجه إلى الطبيعة كلها لـكى يفى بهذا الحب الإنسانى . فليس فى هذا الحب الـكونى توسع وتعمق فى الحب الإنسانى ، وإنما هو عندها ، وعند غيرها كذلك ، تَنَوُّلٌ للحب الإنسانى ، ودواء للشفاء منه بعـد أن استيأس منه المرء . فعادت تسخر منه ، بل وتسخر من نفسها إذا كانت قد توهمت يوماً أنها أحبت حقاً : « أو تظن أنى أحببت يوماً ما ؟ أنا لا أعتقد . فهذه النزوات الطائشة العابرة تبدو بمظهر الحب ولـكنها ليست كذلك فى الواقع » (٥/١١/٨٣) .

ولـكن ، هل هى صادقة حقاً فى هذا الذى تقول ؟ وهل لو كانت قد نجحت فى حبها الأول فتزوجت ، أكانت تكون كغيرها من النسوة المتزوجات ، أعنى هل كانت تبدد طموحها وتقتل مواهبها العقلية ، كما قد يحدث أحياناً كنتيجة للزواج ؟

أسئلة ملحة فى حلها حلٌّ للغز مارية كلّه ؛ وفى الجواب عنها مجال واسع لـكى يظهر الفرويديون براعتهم وتهاويلهم ؛ ولست أدرى لماذا أفلتت من أيديهم حتى الآن من هذه الناحية ، فلم يعنوا بها ، وإنما الذى عنى بها لومبروزو فى كتابه « العبقرية والجنون » ، ولم ينسب إلى هذه التجربة أثراً فى حياتها ، كما لم يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة ، اللهم إلا السؤال الأول الذى أجاب عنه بأن قال : إنها فتاة متزجلة ؛ كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ثم تابعه حواريه الأكبر ماكس نورداو فاكتفى بأن ألمع عليها بقليل من أوصمة الجنون فى أسطر قليلة ، فقال فى كتابه « الأغلال » : « إنها فتاة متحلّلة ماتت بالسل ، وكانت فريسة لجنون الأخلاق ، مع لوثة من جنون العظمة وجنون الاضطهاد ، فضلا عما فيها من طيش شهوانى جنسى مرضى » .

ونحن ، وإن كنا لسنا ممن يميلون إلى الفرويدية ، إلا أننا نحسب أن هذه التجربة الفاشلة قد أثرت فى حياة مارية الروحية تأثيراً كبيراً . ومع ذلك فنحن نتابعها على إجابتها هى نفسها عن السؤال الثانى ؛ فقد وضعت هى هذا السؤال من قبل فقالت : « سيقولون إنى إذا كنت قد تزوجت فى السابعة عشرة ، إذن لـكنت كغيرى من النسوة . وهـذا خطأ فادح . فلو كان فى الوسع تزويجى كغيرى من الناس ، لـكان من اللازم أن أكون واحدة أخرى » (٨/١١/٨٣) . وهنا لا نفق فى شىء أن يكون فشل حبها الأول قد أثر فى نظرتها إلى الحب ، ونظرتها إلى الناس ، بل ونظرتها إلى مجرى حياتها كلها ، على النحو الذى بيناه من قبل . وإنما الذى ننفيه حقاً ، فهو

لماذا أنت عائش ؟

قرأت فى العدد ٢٣٧ من « الثقافة » الصديق مقال الأستاذ الفاضل أحمد أمين بك « فى الهواء الطلق » ، فلفت نظرى منه ما جاء فى سياق المحاورة التى ابتدعها تساؤله « لماذا أنت عائش ؟ » .

ولقد بهرنى فى الحق هذا السؤال كما بهره ، غير أنى لم أقع على جواب شاف له كما كنت أنتظر ؛ بل على العكس فقد انتهى الحوار وهو يدور حول الموضوع دون أن يمسه من قريب أو من بعيد ...

فالسؤال واضح وصريح ، ليس فيه غموض ولا إبهام : لماذا أنت عائش ، لأى سبب أنت عائش ؟

فالقول بأنك عائش لعائلتك ، أو لقومك ، أو المجتمع ، لا يصلح جواباً له ، إذ أن السائل لم يطلب معرفة لمن أنت عائش ، أو كيف أنت تعيش ، وإنما هو يسأل عن الغاية أو القصد من وجودك فى الحياة ...

والآن فلنعالج الموضوع من طريق آخر ، لعله يلقى ضوءاً فيهدينا إلى الطريق القويم لمعرفة الجواب الحق .

نحن نعلم أن الإنسان لا يني يستغل الأرض ، فهو يزرعها ويستخرج معادنها ، ويغرس الأشجار ويبنى الدور والقصور ، وهذا كله ليس بالطبع سوى مقدمات ، فلماذا هو يفعل ذلك ؟ له بالطبع قصد يرمى إليه .

فهو يزرع الأرض ليقتنى محصولاتها ، ويغرس الأشجار ليأكل ثمارها ، ويستعمل أخشابها فى حاجياته ولوازمه ، ويستخرج المعادن ليستعين بها فى أعماله ، ويبنى الدور والقصور ليأوى إليها ويحتمى بها .

وإذاً فإن المقدمات الأولى قد وضحت الغاية من هذه الأعمال كلها ، وإذاً فهو لا يفعل كل ذلك لمجرد التسلية واللهو ؛ فإذا عرفنا ذلك فلنعد من جديد إلى السؤال الأول ...

لماذا أنت عائش ؟

يخرج المرء إلى الحياة فيتعهده ذووه بألوان من التربية إلى أن يشب فيتزوج وينسل ، ثم هو بدوره يتعهد أولاده بألوان من التربية إلى أن يشبوا ثم يتزوجوا وينسلوا .. الخ

ويقضى الإنسان المدة المقدرة له فى الحياة ، ثم ينتهى أجله فيمضى ويتحلل جسمه إلى عناصره الأولى ليعود فيتكون من جديد بشكل أو بأشكال أخرى ... الخ

وهكذا نرى الموضوع يتكرر ، والقصة تعيد نفسها ، أو التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ؛ فما هى الغاية من كل ذلك يا ترى ؟ وما هو القصد ؟ فى نفس العدد من « الثقافة » مقال ممتع للأستاذ الكبير صاحب مذكرات جحا جاء فيه :

« لست أدرى أين هى الحقيقة ؟ أقول الحقيقة ؟ ما هى تلك الحقيقة ؟ هل للحياة قصد نسعى إليه ؟

لله درك . . . نعم أين الحقيقة التى نسلخ العمر فى البحث عنها ، ولم يهتد إليها أحد من قبل ، ومن يدرى ؟ فلعل أن يهتدى إليها أحد من بعد !

ما يمكن أن يذهب إليه أحد الفرويديين فيقول : إن سر عبقريتها فى هذا الفشل ، ولو كانت تزوجت لكانت شيئاً آخر . وآية ذلك أن امتيازها العقلى لم يكن شيئاً طارئاً كوسيلة من وسائل تسامى غريزتها الجنسية الفاشلة ، وإنما ظهر قبل هذه التجربة بعدة سنوات ، كما يظهر من « يومياتها » هذه التى بدأتها فى الثانية عشرة ؛ وما دامت هذه اليوميات السابقة على هذه التجربة صحيحة ، وما دمنا لا نجد انتقالاً مفاجئاً أو شبه مفاجئ بين حالها العقلية قبل هذه التجربة وبعدها ، فلا دليل يقوم إذن على أنه كان لهذه التجربة مثل هذا التأثير . وإنما التأثير الحقيق الذى صدر عنها ، فهو فى تلوين تطورها الروحى بلون خاص ، هو التهكم والسخرية من كل شىء ، وعدم الاحتفال بالعواطف الإنسانية النبيلة المزعومة ، وعلى رأسها عاطفة الحب ، حتى كان تطورها مؤيداً ، ظاهرياً على الأقل ، لما نعتوها به من أنها فتاة بلا قلب .

« يتبع » عبد الرحمن بدوى

فلسفة «وليم جيمس»

ملخصة بقلم «هنرى برجسن»

— ٢ —

ذهب الناس فى كل زمان إلى القول بأن هنالك حقائق هى من اختصاص العاطفة كما أن منها ما هى من اختصاص العقل . وفى كل زمان أيضاً قالوا إنه إلى جانب الحقائق التى نجدها جاهزة ، هنالك حقائق أخرى تعاون على صنعها ، وتعتمد بعض الاعتماد على إرادتنا . ولكن ينبغى أن نلاحظ أن تلك الفكرة تأخذ عند « جيمس » قوة جديدة ومعنى جديداً ، وأنها ، بفضل نظرة ذلك الفيلسوف إلى الواقع ، تزدهر حتى تضحى نظرية عامة عن الحقيقة .

ما هو الحكم الحق ؟ جرى الناس على أن يطلقوا اسم « الحق » على القول الذى ينطبق على « الواقع » . ولكن أى شىء يمكن أن يكون ذلك الانطباق ؟ إنا نميل إلى أن نرى فيه شيئاً من قبيل مشابهة الصورة للأصل . وعلى ذلك يكون القول الحق هو الذى يكون بمثابة صورة من « الواقع » ؛ ولكنا لو تأملنا الأمر ، رأينا أن ذلك التعريف للحق لا يصدق إلا فى حالات استثنائية نادرة . فما هو « واقع » ، إنما هو هذه الواقعة أو تلك من الوقائع المعينة التى تتم فى زمان أو مكان ما ، وهى أمر فردى ، وهى شىء متغير . أما أقوالنا وأحكامنا فأغلبها عامة ، وهى تتضمن أن لموضوعها بعض الثبات . ولنأخذ حقيقة هى أقرب ما تكون إلى التجربة مثل : « الحرارة تمدد الأجسام » ؛ لأى شىء يمكن أن تكون هذه صورة ؟ يجوز على نحو ما ، أن نأخذ صورة من تمدد جسم معين فى لحظات معينة ، إذا صورنا بالفتوغرافيا ذلك التمدد فى مختلف أطواره . وأكثر من هذا . أنى أستطيع بعد أن أقول ، على سبيل المجاز ، إن القضية : « هذا القضيب من الحديد يتمدد » هى نسخة مما يحدث من مشاهدة تمدد قضيب الحديد . ولكن حقيقة تصدق على جميع الأجسام ، دون أن تختص بواحد منها قد شاهدته ، ليست صورة ولا نسخة لشىء .

ولكنا مع ذلك نريدها أن تصور شيئاً ما . ولقد

أين هى الحقيقة ؟

ثم يستطرد الأستاذ الكبير فيقول فى موضع آخر عن تيمورلنك :

« فهو يسوق قومه كالجراد ، لا يبالى ما يسفك من دمائهم ، ويهبط بهم على الناس ، فإذا هبوا للدفاع كرت معركة يسميها تيمور معركة المجد ! أما أنا فلا أرى إلا طاغية يسوق حمقى يضطربون أمامه ، ويسطو بهم على الناس لكى يقتل بعضهم بعضاً ، حتى إذا بقى هو بعد ذلك تربع فوق الأرض راضياً ، يظن أنه قد نال السعادة وأصاب قصد حياته ... !

ثم ماذا ؟ سيلحق بهم بعد فترة وجيزة — وجيزة جداً لا تزيد على سنوات معدودة ؛ أليس هذا سخفاً مضحكا ؟ ! سيمضى الناس جميعاً واحداً بعد واحد حتى لا يبقى منهم أحد فى النهاية ... »

ثم ماذا ؟ ؟

هكذا نرى أيضاً هارون الرشيد ، ونابليون بونابرت ، والسلطان عبد الحميد ، وغليوم ، وغيرهم وغيرهم ، من رجال التاريخ قد سعوا وجدوا ، وخاضوا المعارك وامتلكوا البلاد ، وحازوا السطوة وعانوا المتاعب والأحزان ، واستمتعوا بالسعادة واللذات ، وسكنوا القصور ، ثم غيبتهم القبور ...

وهكذا نرى الموضوع يدور ويدور ، والقصة تعيد نفسها ، أو التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ..

وماذا بعد ذلك ؟ وما هى الغاية من كل ذلك ؟

نعود فنقول :

لماذا أنت عائش ؟ وما هو القصد من الحياة ؟ ؟

الإسكندرية ا . ع . رواق

درجت الفلسفة فى كل زمان على أن تقدم لنا بهذا الصدد ما رضينا . رأى قدماء الفلاسفة أن ثمة فوق الزمان والمكان عالماً هو المثوى الأزلى لجميع الحقائق الممكنة ، ورأوا أن صدق القضايا الإنسانية يكون بمقدار محاكاتها لتلك الحقائق الأزلية محاكاة أمينة . وأنزل المحدثون الحقيقة من السماء إلى الأرض ، ولكنهم ما فتئوا يرون فيها شيئاً موجوداً قبل أقوالنا وقضايانا . فالحقيقة عندهم مودعة فى الأشياء وفى الواقعات ، وعملنا يمضى باحثاً عنها هنالك ، فيخرجها من مخبئها ، ويعرضها على الناس فى وضح النهار . وقضية مثل : « الحرارة تمدد الأجسام » هى قانون يحكم الوقائع ، ويجلس بينها ، إن لم يجلس منها مجلس الإمارة والملك ، قانون متضمن حقاً فى تجربتنا ، وعملنا مقصور على استخراجه منها . بل إن فلسفة كفلسفة « كانْت » التى تريد أن تكون كل حقيقة علمية نسبيةً ، أى بالقياس إلى الذهن الإنسانى ، ترى أن القضايا الصادقة معطاة من قبل فى التجربة الإنسانية .

ومتى تمّ تنظيم تلك التجربة بواسطة الفكر الإنسانى على العموم ، كان كل عمل العلم عبارة عن أن يخرق الغلاف المتين ، غلاف الواقع ، فيجد الحقيقة جاثمة فى داخله ؛ كالنواة فى باطن الثمرة .

إن تصوّر الحقيقة على هذا النحو طبيعى بالنسبة لأذهاننا ، وطبيعى أيضاً فى الفلسفة : لأن من الطبيعى أن نتمثل الواقع كلاًّ مرتبطاً متسقاً اتساقاً كاملا يسنده سند المنطق ، وهذا السند يكون هو الحقيقة عينها . وعلمنا لا يصنع شيئاً إلا أن يهتدى إلى ذلك السند ، ولكن التجربة وحدها لا تقول لنا شيئاً يشبه هذا . و « جيمس » يتمسك بالتجربة . التجربة تعرض علينا ظواهر متغيرة ؛ فإذا كان قول ما من الأقوال المتصلة بإحدى هذه الظواهر يعيننا على أن نسيطر على الظواهر التى تتلوها ، أو على أن نتنبأ بها فقط ، قلنا حينئذ إن ذلك القول حق . فقضية مثل : « الحرارة تمدّد الأجسام » — وهى قضية هدتنا إليها رؤيتنا تمدد جسم ما ، تجعلنا نتنبأ بما يحدث لأجسام أخرى عند حضور الحرارة ، فهى تعيننا على أن ننتقل من تجربة ماضية إلى تجارب جديدة ؛ إنها « خيط هادٍ » لا أكثر ولا أقل . فالحقيقة تسيل ، ونحن نسيل معها ؛ ونحن نحكم بالصدق على كل قول يستطيع أن يهدينا فى سيرنا خلال الواقع المتحرك ، فيمكّن لنا منه ، ويضعنا فى أحسن الظروف وأنسبها للعمل .

إننا نرى مبلغ الفرق بين هذه النظرة إلى « الحقيقة » ، وبين النظرة التقليدية . جرت العادة أن نعرّف « الحق » باتفاقه مع ما هو موجود من قبل . ولكن « جيمس » يعرّفه بعلاقته بما لم يوجد بعدُ . فالحق فى نظر « وليم جيمس » ليس صورة لشىء قد كان أو لشىء هو كائن ، وإنما هو شىء ينذر بما سيكون ؛ أو إن شئت فقل أنه يمهّد لعملنا وأثرنا فيما سيكون . للفلسفة ميل فطرى إلى تخيل الحقيقة ناظرةً إلى الوراء ؛ أما « جيمس » فيراها ناظرة إلى الأمام .

ونقول بعبارة أدق إن المذاهب الأخرى تجعل من « الحقيقة » شيئاً سابقاً على الفعل المعيّن ، فعل الإنسان الذى يصوغها أول مرة . يقولون إنه كان أول من رآها ؛ ولكنها كانت تنتظره ، كما كانت أمريكا تنتظر « كرستوف كولومب » ، كأنّ شيئاً كان يخفيها أو يحجبها عن جميع الأبصار ، فكشفها هو ورفع عنها الحجاب . أما « وليم جيمس » فيخالف غيره أشد المخالفة فى نظره إلى الحقيقة ؛ إنه لا ينكر أن يكون « الواقع » مستقلا إلى حد بعيد عن أقوالنا عنه أو ظنوننا بشأنه ؛ ولكن « الحقيقة » التى لا يمكن أن تتعلق إلا بما نقرّر من الواقع ، تبدو له وكأن تقريرنا هو الذى ابتدعها . إننا نخترع « الحقيقة » لكى نستخدم « الواقع » ، كما نبتدع أجهزة آلية نستخدم بها قوى الطبيعة . ويخيّل إلىّ أننا نستطيع أن نلخص جوهر نظرية « الحقيقة » لدى « البرجماتزم » فى صيغة كالصيغة التالية : « بينا المذاهب الأخرى ترى أن كل

حقيقة جديدة هي اكتشاف ، يرى مذهب البراجماتزم أنها اختراع »[1] .

وليس يلزم من هذا أن تكون الحقيقة أمراً تحكميًّا . إنه لا قيمة لاختراع آلى إلا بمنفعته العملية . وكذلك لكى يكون قول ما حقاً ، ينبغى أن يزيد من سيطرتنا على الأشياء . وهو مع ذلك قول ابتدعه ذهن من الأذهان الفردية ، ولم يكن موجودا قبل الجهد الذى بذله ذلك الذهن ، كما لم يكن الفونوغراف موجوداً قبل « إديسون » . صحيح إن مخترع الفونوغراف كان لابد له من أن يدرس خواص الصوت ، الذى هو أمر واقع ؛ ولكن اختراعه قد انضاف إلى ذلك الواقع كشىء جديد إطلاقاً ، شىء ربما لم يكن يحدث قط لو لم يكن قد وجد المخترع . وإذن فالحقيقة ، لكى تستطيع أن تحيا ، يجب أن تكون جذورها فى أشياء واقعية ؛ ولكن تلك الأشياء الواقعية ليست إلا الأرض التى تَنبُت تلك الحقيقة عليها . وقد كان من الممكن أن تنبُت هنالك أزهار أخرى ، لو كانت الريح قد جاءت حاملةً إليها بذوراً أخرى .

وإذن فالحقيقة عند البراجماتزم قد صنعت شيئا فشيئاً بفضل الجهود الفردية لعدد عظيم من المخترعين . ولو لم يكن أولئك المخترعون موجودين ووجد غيرهم مكانهم ، لكان لدينا مجموعة من الحقائق تختلف كل الاختلاف عما لدينا اليوم . إن الواقع كان يبقى كما هو أو يكاد ؛ ولكن كانت تختلف المسالك التى رسمها لمصلحة سيرنا . وليس كلامنا هنا مقصورا على الحقائق العلمية ؛ فلسنا نستطيع أن نؤلف جملة واحدة ، بل إننا لم نعُد نستطيع اليوم أن ننطق بكلمة دون أن نتقبل بعض الافتراضات التى أبدعها أسلافنا ، والتى كان من الممكن أن تكون مخالفة كل المخالفة لما هى

عليه . إنى حين أقول : « سقط قلمى تحت المكتب » لا أنطق يقيناً بواقعة من وقائع التجربة ، لأن الذى يدلنى عليه البصر والسمع إنما هو أن يدى قتحت فأفلت منها ما كان بها ؛ والطفل المشدود إلى كرسيه والذى يرى سقوط الشىء الذى يلعب به ، قد لا يتصور أن ذلك الشىء يستمر فى الوجود ، بل إن شئت فقل إنه ليس لديه فكرة واضحة عن « شىء » ما ، أى عن أمر يبقى دون تغيير ويكون مستقلا عنه خلال تغير المظاهر العابرة واختلافها . وأول من تنبّه إلى الاعتقاد بذلك اللاتغير وبذلك الاستقلال قد عمل افتراضاً ما : ذلك هو الافتراض الذى جرينا على اتخاذه كلما استعملنا اسماً وكلما تحدثنا . ولو كانت الإنسانية فى مجرى تطورها قد آثرت اتخاذ افتراضات من نوع آخر ، لاختلفت أجروميتنا ولاختلفت أيضا مفاصل فكرنا وتقاسيمه .

وإذن فبناء الذهن الإنسانى إنما هو إلى مدى بعيد من عملنا ، أو على الأقل من عمل نفر منا . وهنا — فيما يبدو لى — الدعوى الكبرى لمذهب البراجماتزم وإن لم تكن قد صُرّح بها تصريحا . وبهذا تكون « البراجماتزم » استمراراً لمذهب « كانْت » . كان « كانْت » قد قال إن الحقيقة تقوم على التكوين العام عليها للذهن البشرى . والبراجماتزم تضيف ، أو على أقل تقدير ، تتضمّن القول بأن هيئة الذهن البشرى هى نتيجة للسعى الحر الذى يقوم به عدد من الأذهان الفردية .

وأعيد ما قلت من أن هذا لا يعنى أن الحقيقة معتمدة على كل واحد منا ، وإلاّ لصح لنا أن نعتقد أن كل واحد منا كان يمكنه أن يخترع الفونوغراف . ولكن ذلك معناه أن من بين مختلف أنواع الحقيقة ، ليس أقربها ملاءمة لوضوعها هى الحقيقة العلمية ولا هى حقيقة العوام ولا هى على وجه العموم الحقيقة من الطراز العقلى . كل حقيقة هى طريق مرسوم خلال الواقع ؛ ولكن يوجد من هذه الطرق

(١) لست على يقين من أن « جيمس » استعمل لفظ « اختراع » ، ولا أنه صرّح بتشبيه الحقيقة النظرية بالجهاز الآلى . ولكنى أعتقد أن ذلك التشبيه يلائم روح المذهب ، وأنه يستطيع أن يعيننا على فهم البراجماتزم (برجسُن) .

ما كنا نستطيع أن نعطيه وجهة مختلفة كل الاختلاف لو كان اتباعنا قد اتجه اتجاها مختلفا ، أو لو كنا قصدنا إلى نوع آخر من المنفعة ؛ ومنها على العكس ما تكون وجهتها مطبوعة بطابع الواقع نفسه ؛ ومنها ما يصح أن نقول إنها مطابقة لتيارات من الواقع . نعم إن هذه الحقائق من النوع الأخير تعتمد بعدُ علينا إلى حد ما ، لأننا أحرار في أن نقاوم التيار أو أن نتابعه ؛ وحتى إذا تابعناه ففي مقدورنا أن نحوله على وجوه مختلفة ، ما دمنا مشاركين وخاضعين في وقت واحد للقوة التي تتجلى فيه . ومع ذلك فتلك التيارات ليست من صنعنا نحن ؛ إنها جزء أساسي من الواقع . وإذن فالبراجماتزم تفضي إلى قلب النظام الذي اعتدنا أن نضع فيه مختلف أنواع الحقيقة . فبمعزل عن الحقائق التي تترجم إحساسات بحتة ، تكون حقائق الشعور هي التي تمد في الواقع أعمق جذورها . وإذا صح لنا أن نقول إن كل حقيقة هي اختراع ، وجب فيما أظن ، لكي نبقى مخلصين لفكر وليم جيمس ، أن نفرق بين حقائق الشعور والحقائق العلمية عين التفرقة بين المراكب الشراعية والمراكب البخارية مثلا : كلتا الاثنتين من مخترعات الإنسان ، ولكن الأولى ليس فيها من الصنعة إلا قسط ضئيل ، تأخذ اتجاه الريح ، وتجعل القوة الطبيعية التي تستعملها محسوسة لدى عينين ؛ أما في الثانية فآلية الصنعة لها المكان الأكبر ؛ تحجب القوة التي تديرها وترسم لها وجهة اخترناها نحن .

وإذن فالتعريف الذي يعطيه « جيمس » للحقيقة يتمشى مع نظرته إلى الواقع . إذا لم يكن الواقع هو ذلك الكون الاقتصادي المنظم الذي يحلو لعقلنا أن يتصوره ، وإذا لم يكن مسنوداً بسند عقلي ، كانت الحقيقة من الطراز العقلي اختراعاً بشريا نتيجته استعمال الواقع لا إدخاله فيه . وإذا لم ينتظم الواقع في مجموع ، وكان متعدداً ، متحركا ، مصنوعاً من تيارات يلتقي بعضها مع بعض ، فالحقيقة التي تنشأ من الاتصال بواحد من هذه التيارات — تلك الحقيقة التي هي محسوسة قبل أن تكون متصورة تصوراً مجرداً — هي أقدر من الحقيقة العقلية المجردة على اقتناص الواقع نفسه واختزانه .

وإذن فنقول آخر الأمر إنه ينبغي أن يكون نقد مذهب البراجماتزم منصبا أولا على تلك النظرية عن « الواقع » . يُستطاع إيراد الاعتراضات عليها — ونحن أنفسنا سنبدى بشأنها بعض التحفظات : — إن أحداً لا ينازع فيما ينطوى عليه المذهب من عمق وأصالة ؛ وإن أحداً ، بعد الفحص عن نظرية الحقيقة المرتبطة به ، لا ينكر سمو الأخلاق . قيل إن « براجماتزم » جيمس ما هو إلا صورة من صور مذهب الشك ، وقالوا إنه مذهب يحط من شأن الحقيقة ، ويخضعها للمنفعة المادية ، ويصرف الناس عنها ، ولا يشجع على البحث العلمي البرىء . إن تأويلا كهذا لا يخطر مطلقا ببال من يمعنون النظر في آثار البراجماتزم ؛ وإنه ليدهش أشد الدهشة من حظوا بمعرفة وليم جيمس . فإن أحداً لم يحب الحقيقة أكثر مما أحبها ذلك الرجل ؛ وإن أحداً لم يُغرَم بالبحث عنها أكثر من غرامه بها . إن قلقا عظيما كان يساور نفسه فيكاد يطير به طيراناً : كان يسير من علم إلى علم ؛ من علم التشريح والفسيولوجيا إلى علم النفس ، ومن علم النفس إلى الفلسفة — كان يسير منكبا على المشكلات الكبيرة ، غير ملتفت إلى ما سواها ، ناسيا نفسه . وقضى حياته كلها مشاهدا ، مجربا ، متأملا . وكأنه لم يقنع بما عمل ، وما زال يحلم يوم نام نومته الأخيرة ، ويحلم بتجارب غير مألوفة وبجهود تتخطى الطاقة الإنسانية ، وآمال كأنه يرجو بها أن يتجاوز الموت ، فلا ينفك عاملا معنا ، إيثاراً لمصلحة العلم الكبرى ، وابتغاء شرف الحقيقة الأعلى .

(انتهى)

عثمان أمين

نشيد الذكرى

تعالَيْ ، نرتع القُبلة في روضِ المُنى النَّضِرِ
ونغضي اللَّيلَ بالأفراحِ ، والأقداحِ ، والبشرِ
فيُلقي الحبُّ ما في صدركِ الخفّاقِ في صدري
ورعانا هتافُ الرُّوحِ من عالمِه السِّحري
فيا ربَّةَ أحـــلامي دنا الليلُ ليرعانا
ضحوكاً ، سابغَ النُّورِ ، خفيفَ الرُّوحِ ، نشوانا
تعالَيْ ، أسكبِ الذكرى على سمعكِ ألحاناً
أيُغضي الليلُ جذلاناً ، ولم يُسحرْ بنجوانا ؟ !
تعالَيْ ، نتعْ بالرُّوحِ من التَّقييـد والأسرِ
ونستصحبْ على مسرحِ الهوى قيثارةَ الشعرِ
فنشدو بالهوى ، بالحسنِ ، بالأحلامِ ، بالسِّحرِ
ونقضي ليـــلةً فيّاضةَ الأنداءِ والعطرِ
هلمّي استرجعي الماضي وأطيافَ لياليه
فكم طفنا بركْبِ الحبِّ في ضوءِ مجاليه !
وعلّمْنا أغانينَ البقا أطيـــارَ واديه
وأبدعْنا من الآمالِ كوناً ساحراً فيه ! !
هلمّي قبـــل أن تمضي مع الأيامِ أشعاري
ويُودي شبحُ الحرمانِ واليأسِ بأوتاري
فتستيقظُ أشجاري ، على مأتمِ قيثاري
وأمضي ... قبل أن أقضيَ من الآمالِ أوطاري
كفى هجراً وتعذيباً ، فقلبي لم يُطِقْ هجراً
ولم يستطعِ السُّلوانَ ، أو يحتملِ الصبرا
خفوقٌ لالتماعِ الحبِّ ، نزّاعٌ إلى الذكرى
طروبٌ عند ما يرتعُ في نظرتكِ السَّكرى
فكم حامَ عليه البشرُ إذْ هامَ بواديكِ !
وكم حفّت به الأحلامُ إذْ خفَّ لناديكِ !
وكم أطربَ سمعَ النَّجمِ إذ باتَ يُناجيكِ
وكم عطَّرَ أنسامَ الليالي بأغانيـــكِ !

« الكاظمية — العراق » **علي جليل الوردي**

دنياي ...

كرت الأيام كراً وأنا
واقف حيث أنا لست أحور ...
عبثاً يا دهر تبغي لي العنا
إن في قلبيَ ينبوع السرور ...
وإذا ما القلب في الظلمة تاه
سطع البدرُ من الوجه الوضيء
وإذا ما مسَّهُ برد الحياة
كان فيك الشمس بالدفء تجيء
وإذا احتجت إلى الراح فما
حاجتي للراح ؟ والراح هنا ...
رشفة من فمك العذب اللمى
هي لي الراح ؟ والقلب المنى ...
وإذا احتجت إلى الزهر أقولُ
إنما دنيايَ زهر يانع ...
هي زهر ناضر ليس يحولُ
إنني راض بزهري قانع ...
حينما ألقاك أنسى ألمي
ويفيض الكون أمناً ودعةْ ...
حينما يبسم هـــذا الثغر لي
تبسم الأيام والدنيا معه ...

محمد عبد الحميد حب الله

تاريخ الجامع الأزهر

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

يحتوي على تاريخ مفصل للجامع الشهير ، منذ إنشائه إلى يومنا ، وعرض شائق للحركة العقلية المصرية في العصور الوسطى .

ثمنه ٥٠ قرشاً ، ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر وسائر المكاتب .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردلى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٩٩٩٢/ ٥٦٧٦٩

العدد ٢٤٧ — الثلاثاء ٢١ من رمضان سنة ١٣٦٢ — ٢١ من سبتمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

حديث رمضان :

الحيـــاة الروحية

— ٣ —

قصتان هنديتان رمزيتان ، قرأتهما هذا الأسبوع ، أعجبت بهما لطرافتهما ودقتهما ، وإعجابهما إعجاباً واسعاً شاملاً .

فأما الأولى فخلاصتها أن الإنسان الأول لما شعر بضعفه ، وبدأ يتعرّف ربه ، سمع صرخة واستغاثة ملأت الآفاق ، فحار فى تفسيرها ، ولما أعياه الأمر فى البحث عن سرها أظلمت نفسه ، وقلق باله ، حتى جنّه الليل ، فرأى فى منامه أن الروح الأعلى تجلّت له وخاطبته : إن تقبلْ هديتى تزُل قلقك ، وينجلِ لك ما أبهم عليك ، ويضئ ما أظلم من نفسك . إنى خلقت لك ثلاث حمامات بيضاء ، ناصعاً لونها تسرّ الناظرين ، تُسمّى إحداها الإيمان ، والثانية الرجاء ، والثالثة الحب ، فإن أنتَ أسكنتها معك فى أرضك ، واستألفتها إليك ، وحافظت على سكناها معك ، ضمنت لك قوّة فى قلبك ، ونوراً فى نفسك يكشف لك الحق ، ويهديك إلى الخير ، ويحقق لك السعادة .

وانتبه من نومه ، فرأى الحمامات الثلاث فى أرضه تساكنه ، وتتحبّب إلى الناس وتتألف لهم وتصادقهم ؛ ولكن ما لبثت أن رأت قليلا من الناس يألفها ويصادقها ، وكثيراً منهم يهزأ بها ، وكثيراً آخر لا يعبأ بها ، وكثيراً ثالثاً يطاردها ويرجمها بالحجارة ، حتى سئمت الحمامات من سوء ما لقيت ، وعادت إلى بارئها وقالت : « سبحانك ربنا ، لقد مللنا من خلقك فى الأرض ، فليس منهم إلا قليل أحسن استقبالنا ، وأكثرهم عبسوا فى وجهنا ، أو هزئوا بنا ، أو طاردونا — فليس السكان مكاننا فى الأرض ؛ إنا نضرع إليك أن تعفينا من سكنانا هذا ، وتقرّبنا إليك ، وتسكننا فى مملكتك السماوية ، حتى لا نألم ولا نشقى » .

قال خالقها للأولى التى اسمها الإيمان : « ذلك ما ليس فى الإمكان ؛ فليس فى ملكوت السماوات مكان لك ، إن أهله قد ذاب إيمانهم فى تمام معرفتهم ، وانكشاف

الحق لهم ، وتحوّل غيبهم إلى شهادة ، فعودى إلى الأرض حيث أهلها فى حاجة إليك ، وقد منحتك قدرة أن من تقبّلك قبولاً حسناً سعدت نفسه ، ومن آذاك أو طاردك لم يرفق ، فأظلم قلبه وشقى فى حياته » .

« وأما أنتِ أيها الرجاء ، فكذلك لا مكان لكِ عند أهل السماء ؛ فما محل الرجاء عند من بلغوا كل رجائهم ، ونالوا منتهى أملهم — ارجعى إلى الإنسان ، وقد منحتك قوّةً أن تكونى بلسماً لهمومه ، وعوناً له فى محنته ، وألا يخاف من الموت إذا كنت بجانبه » .

« وأما أنتِ يا حمامة الحب ، فلك موقف آخر ، حقاً إن لك مكاناً فى ملكوت السماوات ، وأنتِ نعيم الجنة ؛ ولكن ألا تعودين إلى الأرض مع حامتىْ الإيمان والرجاء ، فليس لهما حياة بدونك ! وإذا كانت الجنة لا تستغنى عنك فسأمنحك القدرة على أن تجولى فى لحظة بين السماء والأرض ، وأن تخطرى فى لمحة بين أهل الفناء وأهل البقاء ؛ وسأجعل جزاء من يتعشّقك ويتذوّقك فى الأرض أن يطمح إلى لقياك فى السماء » .

فأطاعت ما أمرت به ، ونزلت ثلاثتهن إلى الأرض يحتملن الأذى من أهلها ؛ وظلت الثالثة تذهب وتجيء . وكان ما وعدها ربها حقاً من طمأنينةِ مَن تألّف الإيمان ، وشقاء من طارده ، والتئام جراح من احتضن الرجاء ، وعذاب من أطاره ، وسعادة من عانق الحب ، وشقاء من أغلق دونه بابه .

* * *

وفى الحق ما الدين وراء هذه الثلاثة ؟ إيمان بما وراء المحسوس لشعورنا به ، فمهما غالّينا هذا الشعور بتفوّقنا المحسوس أكبر من قيمته ، ومهما غالينا فى تقويم العلم والمنطق ، فنوازعنا الباطنية الطبيعية تنادينا من أعماقنا بالله ، وتحن شوقاً إلى رؤية الحمامة البيضاء ، حمامة الإيمان ؛ ومن فقدوا الإيمان بالله لجئوا إلى تسمية أخرى لِمَا أعجزهم فهمه ، من طبيعة ، أو حظ ، أو قدر ، أو مجهول ، أو مثل أعلى للعالم أو نحو ذلك ؛ فقد تعددت الأسماء والمسمّى واحد سبحانه وتعالى .

والرجاء — عنصر قوى فى الدين ، مبناه الاعتقاد فى سعة رحمة الله — لقد وُجِدَ فى كل دين لون من الرجاء ولون من الخوف ، ووُجِدَ فى كل عصر من رجاله مَنْ قَوَّوْا جانب الرجاء ومَن قووا جانب الخوف ، وأنا أشدُّ حباً لمن كانوا فى جانب الرجاء ، فهو أبعث للعمل ، وأصلح للحياة ، وأدعى إلى الطمأنينة ، وأفتح للرغبة فى بذل الجهد لصالح الأعمال . ولستُ أحب طريقة الحسن البصرى وأمثاله ، ممن ملأوا القلوب رعباً وتخويفاً وتهديداً ، حتى شلّوا القلوب ، وطيروا الحب من النفوس ، وجعلوا الحياة بائسة حزينة بغيضة . والقرآن فى كل مجموعة من آياته يكرر : بسم الله الرحمن الرحيم ، والرحمة مبعث الرجاء والحب لا الخوف والرعب .

ما الحياة وما الدين بلا رجاء ؟ قرأتُ مرّةً أن أحد كبار العلماء المحدثين حضرته الوفاة وعنده بعض أصدقائه من أمثاله ، فقال له أحدهم : « لا تخف ، لقد قربتَ من النهاية ، فتماسك وتقوَّ واحتمل » . فقال المحتضر : « آه ! ولكنى لا أجد ما أتقوّى به وأعتمد عليه ، ليس لدىّ رجاءٌ ولا أملٌ فى حياة أخرى سعيدة ، كل ما حولى ظلام » .

وأما الحب فعماد الدين الحق ، إنه فى الدين يصحب الرجاء ولا يصحب الخوف ، قد يبعث الخوفُ اجتنابَ الشرور والإتيان بالشعائر ، ولكنه كالشرَّير يجتنب الجريمة اتقاء السلطان ؛ بل الحب فى الدين قد يستغنى عن الرجاء والخوف .

وكانت حمامة الحب أجمل الحمامات شكلا ، وأرشقها حركة ، ففُتِن الناس بجمالها أكثر مما فتنوا بحقيقتها ، فصنعوا لها تماثيل كثيرة وسموها الحب ولا روح لها . وكل يوم يستعمل الناس اسمها ألوف المرات فى أتفه الأشياء ، أو فى لا شىء ، وهنا فى نظرهم الحب ؛ وبحدث

ذلك حين تطير إلى السماء ، أو تكون فى مألف القليل ممن يفهم حقيقتها .

* * *

هذه قصة ؛ وأما القصة الثانية فهى أن جِنّيّة ظريفة ممن يسكنّ الأماكن السحيقة ، أحبت المرح يوما ، فنزلت أرض الناس وتسلت فيها ؛ وشاء صغارها أن يلعبن ، فصنعن «عروساً» ، وبَنَيْنَ لها داراً على قدرها ، وأرادت الأم الكبيرة أن تدخل المنزل وترى «العروس» ، فصغر باب المنزل عن حجمها ؛ ففكرت فكرة شيطانية : أن تفرق أجزاءها وترسلها جزءاً جزءاً ، ففكت أصابعها وأدخلتها ، ثم رأسها ، ثم قلبها ، ثم سائر أجزائها ؛ فلما كانت جميع الأجزاء فى المنزل ضاق بها ، واحتك بعضها ببعض فتخاصمت الأعضاء ، وتحاربت وتنازعت على الأماكن ، كل يدّعى ملكية مكانه ، وأنه أولى به ، ولا يقبل من أى عضو احتلال مكانه أو القرب منه أو التحكك به . ثم أراد بعض الأعضاء الخروج فوجد الآخر فى طريقه وأبى أن يفتح له الطريق خشية أن يحتك ببعض الأعضاء الأخرى ، واحتبس الأعضاء جميعاً فى بيت «العروس» الصغير المظلم ، وتدافعوا من غير جدوى ، واضطرب أمرهم ، وأدركتهم الحيرة ، وعَمِىَ على الأعضاء أمرهم وعلاقتهم بالجسم كله ؛ وحينئذ نبض القلب ، ووقف بين سائر الأعضاء خطيباً قائلا : «أيها الأعضاء ! إنكم كلكم منى ، وقد ساءت حالكم ، واضطرب أمركم ، وسأقدم لكم النصح لأزيل اضطرابكم ، وسأقدم لكم المعونة لتخرجوا من مأزقكم ، إنى شاعر بحرجكم وضيقكم ، وسأعمل لرفع الحرج عنكم » .

قال بعض الأعضاء : «إنا راضون عن مكاننا ، غير قلقين فى موقفنا » .

قال القلب : «لا بأس ، إنكم اعتدتم الظلام فحمدتموه ، وألفتم الضيق فاطمأننتم إليه ، وستحمدون من الخروج إلى النور ، والسعة بعد الضيق » .

وما زال بهم حتى ألّف بينهم وقادهم عضواً عضواً إلى الخارج ، ثم جمع أشتاتهم على أحسن ما كانوا .

قال القلب هذا لأنه وحده الذى شعر أن كل عضو جزء منه ، وأن كل الأعضاء متفرقة منه متجمعة حوله ، وهكذا رجعها كلها إليه ، وأعادها متماسكة جسما واحدا كما كانت .

ودعا القلب هذه الدعوة لأنه مسكن الحب ، وهو وحده الذى يستضىء بنوره ، ويصهر بناره ؛ وهو وحده الذى لما مسّه الحب كان منه الصبر واحتمال المكاره ، والتسامح والتضحية ، والعمل لخير الجميع .

* * *

أليست دنيانا منزل «العروس» ؟! كنا جسما واحداً أبناء آدم وحواء ، فتفرقنا فى أنحائها ، وتخاصمنا فى ملكيتها ، واحتبسنا فيها ، وفقدنا الشعور ببعضيتنا ، وسددنا الطرق على أنفسنا ، وظن كل عضو أنه مستقلٌ بنفسه ، مستغنٍ عن غيره .

إن العالم فى كل أزمة كهذه ينتظر الداعى الذى يجمعه بعد تفرّقه ، ويأسوه بعد جراحه ، ويدعوه إلى جمع شتاته ؛ وما هذا الدّاعى إلا نفوسه الكبيرة التى يجود بها الزمان من آن لآن ، على ندرة كندرة الجوهر فى الأحجار ، والصندل فى الأشجار . إن هذه النفوس تشعر شعور الناس ، وتحمل أعباء الناس ، وتحيا للناس ؛ إنها بعملها تمسح المستقبل ، وتلد الأفكار للجيل الجديد ؛ إنها تسمع شكوى الشعوب من ثقل أغلالهم ، واستغاثتهم من سوء قيودهم ، فتقدّم أغلى شىء لديها لفك قيودهم وتحرير عقولهم ؛ إنها تعثر فى أثناء جهادها على حجر الفلاسفة الذى تقلب به معادن الناس إلى ذهب خالص ؛ إنها بأقوالها وأفعالها تحرك العالم وتحوّله من جَزْرٍ إلى مد ؛ إنها ترى الغرض الأسمى على ضوء نار الحب فلا تهاب شيئاً ، وتسير إلى غرضها لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، محطّمة فى طريقها الأصنام التى تعوق الناس من سيرها ، منشدة أناشيد الإنسانية التى تملأ الناس حماسة وأملاً .

أحمد أمين

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

فقر الدماء، وفقر الجيوب

وصل الثالث: طبيب شاب أمريكي اسمه «مينوت»، من آل «مينوت»، وهي أسرة في الطب عريقة. وداء قتّاله هو فقر الدم الخبيث.

أولع «مينوت» بفحص الدماء، وأولع بالأمراض التي تنشأ عن اختلال في الدماء. واتخذ من فقر الدم الخبيث دراسة له.

ووجد فيما وجد أن مرضى هذا الداء تتحسن حالهم أحياناً لغير سبب ظاهر، فينظر دماءهم تحت المجهر، فيرى فيها كريّات جديدة غريبة، هي كريّات دم حمراء وليدة نزلت حديثاً إلى الدم، أنزلها مصنع الكرات الحمراء بالجسم — وهذا المصنع هو نخاع العظام.

وزوال هذا التحسن في المرضى لغير سبب، فتختفي من الدم هذه الكرات الوليدة.

فكر «مينوت» ما فكر، وبحث ما بحث، وأخيراً وجد من كثرة تسآله مرضاه أنهم لا يأكلون كما يأكل الناس، فيقصّرون في ناحية، ويبالغون في ناحية، وهم لا يأكلون في ميعاد.

عندئذ وقر في نفسه أن هذا الداء سببه شيء ينتج من شذوذ الطعام. وإذاً ففي الطعام يكون دواؤه.

ثم وقع على الكبد فأطعمها لمرضاه المفحوصين فتقدّم بها من الداء. ثم أغرى صديقه الدكتور «مرفي» بأن يجربها في مرضى المستشفى ففعلوا بها كذلك. عند ذلك أعلن في مجمع الأطباء أن أكل الكبد يشفي من الداء.

والآن اقرأ:

وكان «مينوت» قد نقل مكتشفه من غلظته الأولى وخشونته، إلى رقة العلم وجلوته، فجعل له حساباً دقيقاً، وجعل له دقة معجبة. فأنت تذكر في تلك الأيام السود الأولى، حين لم يكن من هذا الداء مهرب إلا الموت، أن المريض كان يشعر بغتةً بتحسّن يجيء، من غير ما سبب، ثم يذهب هذا التحسن كما جاء من غير ما سبب. وتذكر أن «مينوت» كان يحدّق في الدماء في تلك الفترات التي ينتعش فيها المرضى فيجد تلك الكرات الحمراء الوليدة، ذات النسيج الشبكيّ الذي يتراءى أزرقَ بعد اصطباغه تحت المجهر، يجدها وقد تكاثرت في الدم معلنةً مبشرةً بهذا التحسن الكاذب الذي لا يلبث أن يذهب فتذهب معه هذه الكرات.

كان هذا قبل أن يُطعم «مينوت» الكبدَ مرضاه. واليوم يطعمهم الكبد فتتحسن حالهم ولكن لا تنتكس من بعد ذلك. فماذا جرى لتلك الكرات الشبكية الوليدة المبشرة بالخير التي يصنعها نخاع العظام ليصبها في مجرى الدماء من الأجسام؟ لقد بدأ «مينوت» بعدّها بمجرد إطعام مرضاه الكبدَ، وعند شعورهم الأول بأن حالهم يطيب، وقبل أن تنخن في عروقهم الدماء. فما الذي وجد؟ وجد شيئاً كنظم الرياضة في انضباطه، أو كالكيمياء الطبيعية في اطراد نتائجها. شيئاً منتظماً لا يشبه الطب أبداً. وجد أن المريض الذي يُعطَى الكبدَ تظهر الخلايا الشبكية الوليدة في دمه حتماً. ووجد أن المريض كلما كان حظه من الداء كبيراً، كان حظه من تلك الخلايا الناشئة كبيراً بنسبة ذلك. فكلما نقصت كرات الدم الحمراء عداً، زادت هذه الخلايا الشبكية عداً، وكان حدُّها الذي تبلغه ارتفاعاً أبعدَ وأعلى. وهي تبلغه في نحو خمسة أيام من دخول الكبد إلى أمعائهم.

لقد كان هذا اختباراً رائعاً أثبت بطريقة علمية لا شبهة فيها أن أولئك المرضى في تلك الأيام الأولى عند ما كانوا يقولون إنهم كانوا يحسون شيئاً من التحسن، إنما كانوا يقولون صدقاً. ألم يجد «مينوت» في دمائهم تلك الخلايا الشبكيةَ الوليدة، وذاك التحسن العارضُ قائمٌ؟! ثم أليس هو الآن يجدها متكاثرة، والتحسن على أكل الكبد متزايد؟! إن ظهور تلك الخلايا الشبكية لدليلٌ صادق على أن نخاع العظام قد صحٌ فعاد إلى صناعته الأولى، صناعة

الكرات الحمراء . وإن عدد تلك الخلايا الشبكية لقياسٌ صادق يقيس به الباحث أثر الكبد وغير الكبد في هذا الداء ، ويقيسه سريعاً في قليل من الأيام ، فلا يفوّت على المريض المستيئس فرصة الشفاء . ثم إنها لقياس صادق للشفاء يأتي بواسطة الكبد وغير الكبد ، وما قد يُقترح بديلا من الكبد . ونقول بديلا من الكبد عمداً . فقد كان لا بد من بديل منها ، فإن كثيراً من المرضى أكلوا الكبد ، فأكلوها ثم أكلوها حتى عافوها ، حتى وهي ليّنة المُضغة ، طيبة المذاق ؛ ويعافونها فيرفضونها فتسوء حالهم من جديد ويعودون القهقرى .

إن فقر الدم الخبيث يجيء الناسَ لأن شيئا في مَكنَة الحياة اختلّ بأجسامهم ، تُرسٌ صغير طار من تروسها ، شيء ضاع من أشيائها ، نقصٌ وقع في حاجة من حاجاتها . وهذا النقص يُسَدُّ ، وهذا الضائع يُرَدُّ بأكل الكبد ، والمثابرة على أكلها ، وأكل الكثير منها .

* * *

اكتشف « مينوت » علاقة ما بين هذه الخلايا الشبكية الوليدة وبين ما يجيء مريض هذا الداء من شفاء ، فاتخذ هذه العلاقةَ وسيلةً يقدّر بها في قليل من أيام ما تفعل الكبدُ وأبدالُ الكبد في المريض ، سواء دخله هذا عن طريق طعامٍ يُطعَمه فمُه ، أو حقنةٍ تحقنها ذراعُه . وقد اهتزّ العلم والعلماء لهذا الكشف الجديد من ساعة اكتشافه ، ومن هؤلاء الأستاذ « كُون » Edwin Cohn وهو أستاذ علم وظائف الأعضاء بمدرسة الطب بجامعة هَرْفَرد . بدأ « كُون » يستخدم هذا الكشف في فحص الكبد ذاتها ، ليتعرّف فيها هذا الأكسير الخفيّ الخفيء ... فعرف أخيراً أن أكثر مادة الكبد لا فائدة منها ، وأنه بمكنته نفيُ هذا الأكثر واستبقاءُ خلاصة قليلة ، فيها كل ما كان بالكبد من شفاء .

وجاء « مينوتَ » و « مرفي » خلاصةٌ من بعد خلاصة مما استخلصه « كون » بطرائقه ، وهي طرائق علمية صحيحة ، فأطعماها مريضاً بعد مريض من مرضاهم ، ونظرا بالمجهر في دماء هؤلاء المرضى ليتعرفا أيّ تلك الخلاصات أنفع وأفضل — أيها يحرّك أمخخة عظامهم الربيضة لاستئناف عملها . نظرا في المجاهر يبحثان عن تلك الخلايا الشبكية الوليدة التي تنعش الأمل ، وتفتح باب الرجاء ...

لقد كان في الأكباد ذاتها الكفايةُ لو استطاع كل الناس أكلَها ، ولكن من المرضى من يبلغ به الحال أن يعافها فيرفضها ويفضّل الموت عليها . فتلك هي العقدة التي لا بد من حلّها ، ولم يكن حلها هيّنا .

فلهؤلاء المرضى جهّز « كُون » خلاصات لم يكن من الصعب تعاطيها ، وهي مركّزة تركّزاً يكفي معه تعاطي القليل جداً منها . ولكن هذه الخلاصات كانت عالية الكُلفة ، لا يقدر عليها كلّ جيب .

فماذا يصنع من ليس عنده فضل من مال ينفقه في شراء هذه الخلاصة ليطول بها أجله ؟

وهمٌ هذا « مينوتَ » وصاحبَه « مرفي » ، ولو أن المسألة لم تكن علماً بحتاً .

عندئذ أخذ « مرفي » ، يعينه طالب طبٍّ اسمه « باوى » Bowie ، أخذا يصنعان من الكبد مَرَقاً ، وأخذا يخثّران المرق ويركّزانه حتى بلغا به حجما تستسيغه الحلوق . ثم ذهب « باوى » يشتغل مع الدكتور « قاصل » William Castle ، وكان هذا الأخير يعمل قديماً مع « مينوت » في أحد المعامل . فبدأ « قاصل » ، يعينه « باوى » ، في العمل لصالح من جعوا إلى فقر الدماء فقر الجيوب ، فطبخوا من الكبد مرقاً يُطبخ في البيوت .

كان « قاصل » مزيجاً من ثلاثة رجال : من رجل ذي عقل يعمل من فطرة سليمة ، وطبيب بسيط لم يرتفع بدراسته إلى مَراقي الطب العالية ، وبحّاثة يميل بطبعه إلى إبداع كل جديد . فبدأ عمله باستخدام عقله الفطري السليم فيما صنع « كُون » من مرق . « وكون » أستاذ عظيم في جامعة عظيمة شهيرة . فدرس « قاصل » هذا المرق ،

ودرس علماً مفصلاً طبّقه « كُون » فى طبخه ، واستفتح طريقة أخرج بها من الكبد مرقاً كرق اللحم طيباً ولذاذة طعم . ولم يجد فى نفسه الحرج الذى قد يجده بعض العلماء ، فأقرّ بأن امرأة من مرضاه هى التى أعطته الفكرة الأولى .

وكان مرقاً يمكن تحسين طعمه ولو خرج من كبد خشنة جامدة رخيصة تنظرها فتحسبها لا تصلح لغير الكلاب .

وكان لا يستخدم فى تجهيز هذا المرق إلا أجهزة توجد فى أفقر البيوت : فرّامة لحم ، وطبق كبير من زجاج أو فخّار ، وحلتان ، وقطعة قماش من شاش ، وكوبة ماء . فبهذه الأجهزة وحدها يخرج حساءٌ له قوةٌ فى بناء الدم فى هذا المرض كقوة أغلى الأكباد وأشهاها .

والفقير مهما بلغ من الفقر لا يعجز عن أربعة من القروش يشترى بها كل يوم كبداً عجوزاً رخيصة من أكباد الأبقار تعطيه القوة التى يتمسك بها بأطراف الحياة ، والتمسك بالحياة حقٌ لا يمكن أن يجحده أحد حتى أكثر الناس فقراً .

* * *

إن أحسن ما يُذكر به هؤلاء الأطباء ، أطباء بسطن ، أنهم لم يضيعوا أوقاتهم فى معاملهم يهذّبون اكتشاف « ميبوت » ويشذّبونه ، ويجلّونه جلوة علمية ، ويلبسونه حلة رائعة أكدعية يصبح بها شيئاً رفيعاً ، مستقرّه أرففٌ عالية لا ينالها إلا الطوال الأمجاد . إنهم بدلاً من أن يصعدوا بهذا المكتشف إلى حيث لا يناله إلا أهل البذخ والثراء ، نزلوا به إلى جذور الإنسانية الدنيا ، إلى أوطأ طبقات المجتمع ، فأنالوه أفقرَ رجل شاكٍ وأفقر شاكية .

إن قصة هؤلاء الأطباء لم تتم بعد ، ولن يكون لها تمامٌ إلى حين بعيد ، وليس بالمستطاع حكايتها هنا لأن الأيام لا تزال قائمة فى كتابتها . إن الطريقة البسيطة التى اكتشفها ميبوت لتعرّف سير الداء ، وقياس ما يكسبه المريض من الشفاء ، بعدٌ ما يتولّد عنده فى الدم من خلايا صغيرة شبكية تحيي الأمل وتبعث الرجاء ، هذه الطريقة قد اقتبسها الآن كلّ البحاث فى بقاع الأرض ، وبها أخذوا يطلُّعون على كشوف فى الطب أعمق وأعجب . وهى كشوف يطمئن بها الدارس على أن القصة التى بدأها « ميبوت » لابد ستكون لها خاتمة سعيدة هائلة . ومن هذه الكشوف الجديدة كشوف « قاسل » ، وهى أعمقها وأعجبها . بدأها بتفكيره فى الأسباب التى من جرّائها تعجز أمخاخ العظام عن صنع الدماء .

فكّر « قاسل » فهداه فكره إلى أن المعدة هى المسئولة عن كل هذه المتاعب — هى المعدة دون سائر أعضاء الجسم وأحشائه . إن الرجل الكبير القديم السكر الذى تتحسّت معدته يصاب بفقر الدم الخبيث ... والمريض الذى تُنزع منه معدته لسرطان فيها فيعيش بعدها بقدرة قادر ، يصاب بفقر الدم هذا ومنه يموت ... فهل يا ترى تصنع الأمعدة ، وهى سليمة ، شيئاً من الطعام يجرى فى الدم ، فإذا بلغ أمخاخ العظام أغراها بصنع دم للجسم جديد ؟

ولم يكن عند « قاسل » حيواناتٌ للتجارب . ولو كان عنده منها ما نفعه ذلك شيئاً . فالحيوانات لا تصاب بفقر الدم الخبيث ، وإنما يصاب به الحيوان الإنسانى وحده . ولم يكن « قاسل » فى العلماء قصير الحيلة ، فاتخذ من نفسه هو حيواناً يجرّب فيه .

بدأ يجرب فى نفسه ، ويسومها فى التجربة عذاباً لم يذكره من بعدُ إلا ضحك منه . ذلك أنه أقرض معدته لرضاه . كان يقوم فى الصباح فيُفطر على لحم مفروم مشوّى ، حتى إذا استقر اللحم فى معدته تركه مدة فيها تفعل فيه فعلها . ثم لا يلبث أن يضع إصبعه فى حلقه ، ثم . . . كُعْ ، وإذا باللحم يخرج من حيث دخل . فعل هذا اليوم بعد اليوم ، والأسبوع بعد الأسبوع . لم يَمَلّ ولم يتقهقر .

ويطعم هذا اللحم المكموعَ مرضى الداء ، وقد خفّ دمهم حتى بلغ المدى ، فماذا حدث ؟ حدث الحدثُ الأكبر المنتظر . حدث أن تلك الخلايا الشبكية الوليدة

الصغيرة المرجوة ظهرت في شرايين المرضى واحتشدت كما يحتشد الأمل في ظلمات اليأس ، أو كما يحتشد جند الخلاص حول القلعة المرهقة وقد أوشكت على التسليم .

فذلك اللحم الفروم الذي قرّ في معدة « قاصل » بعض حين ، إنما قرّ فيها لتصنع منه المعدة تلك المادة المجهولة ، ذلك السر الخفي الذي يمتصه الجسم فيجرى فيه إلى حيث الأنخاع فيجرّكها إلى صنع الدم الجديد وينشّطها . ولكنه لم يُمهَل حتى يجرى في جسم « قاصل » وإلى أنخاعه ، وإنما حيل إلى أمعدة المرضى ليجرى في أجسامهم وليبلغ أنخاعهم . وقد كان ، فجرت في دمائهم تلك الخلايا الوليدة تبشر بالشفاء ، كما كانت تجرى من بعد إطعام الكبد تماما .

عندئذ اجتمع أطباء ثلاثة يستخرجون من عذاب « قاصل » في تلك التجارب راحة لبعض بني الإنسان .

وكان هؤلاء الأطباء الدكتور « شرْب » Sharpe ، وهو موظف في شركة الأدوية الشهيرة ، « پَرْك داڤز » Parke Davis & Co ، والدكتور « اسْتُرْجِس » Sturgis ، والدكتور إسحق Isaacs . وكان لهم معمل بديع في جامعة ميتشيجان Michigan مخصص لأبحاث فقر الدم الخبيث . ففي هذا المعمل استخرجوا مسحوقا صنعوه من معدة الخنزير بعد تجفيفها . وأسموا هذا المسحوق فنتركيولين Ventriculin ، فكان تأثيره في الدماء كتأثير الكبد ، وزاد فكان أحسن طعما .

وجرى « قاصل » فيما هو جار فيه ، فوجد أنه لو أخذ شيئاً من خلاصات الكبد التي استخلصها الأستاذ « كون » ، وأعطاها المرضى ، لا في حلوقهم بلعاً ، ولكن في جلودهم حقناً ، كان أثرها بالحقن أضعاف أثرها بالطعام .

ثم أثبت « قاصل » و « اسْتُرْجِس » و « إسحق » أن في إمكان المريض ألا يأكل الكبد ولا خلاصات الكبد ، سواء صنعها في حساء في بيته أو اشتراها مسحوقة من صيدلي ، ومع هذا يحيا ويطيب ويعمل ويرزق ، وذلك بالذهاب مرة واحدة في الشهر ، أو في الستة الأسابيع ، إلى طبيب أو مستشفى ، فيحقنه حقنة صغيرة من خلاصة في وريد بذراعه .

إن من الأدواء أدواء لا شفاء منها أبدا . وفقر الدم الخبيث ، على ما أعلم ، أول داء في هذه الأدواء استطاع محاربو الموت أن يجدوا منه إلى الخلاص منفذا . وهذا المنفذ الذي وجدوه إلى الخلاص فتح في الطب مبين .

ومَنْ واجد هذا الخلاص ، ومن صاحب هذا الفتح ؟ إنه « مينوت » أصلا وفرعا !

انتهى أحمد زكي

اعتراف بفضل

في هذا المكان المتواضع من « الثقافة » ، وبهذه الحروف الصغيرة ، أحيي عالماً من علماء مصر . وأعاد على هذه الصورة ليتفق التحي مع مكانة العلم والعلماء في الدولة المصرية منذ كان هذا القرن .

وقد أحجم عن ذكر اسمه ، لأنه اسم يكاد يكون نكرة كأسماء العلماء ، لا يكاد يعمل للجمهور معنى . وقد يكفي الجمهور أن يعلم أني رأيته يتخصص في انجلترا ، فيلزم معمله فلا يعرف الحد بين الليل والنهار . ورأيته يعمل في مصر ، في تلك الحجرة المتواضعة من « معمل الأبحاث » بين أنابيبه ومجاهره ، وبين فضلات الإنسان ودمائه وأحشائه ، فيقبل عليها وهي كريهة قذرة ، إقباله على وليمة عقلية روحية نادرة . وأراه ساعا واجما عزيز الكلام ، فأعرف أنه يفتح موضوع هو قائم في بحثه ، فلا يلبث اللسان المعقود أن ينطلق ، ولا يلبث العلم الغزير أن يتدفق ، فنقضي ساعات الليل في نقاش علمي هو أحلى ما يصل إليه الحديث من متعة . ويؤكد لي بعض الحق مرارا وتكرارا خشية أن تكون دقت علية أذني وقتصر الفهم عن إيصالها إلى مكان الوعي من نفسي . ورأيته من بعد ذلك تختنق العلم بين يديه ، وهو على القرن العشرين يتنفس هواء القرن العاشر ، فيأتي له الصديق أنباء على وليد يموت فوق يديه . ثم رأيته اليأس ، فتجمع مجهوده العلمي المركز ، فتبددت قراءة فيمن عرف ومن لم يعرف ، فنال منه الوزير الكبير ، ونال منه الصعلوك الصغير . ثم جاءه الموت لم تمهله غير دقائق خمس ، ولم يكن له إرهاص . ومات وهو قائم في خدمة بعض الناس . فأصبح أن داءه هو ذلك الداء الذي يأتي القلب من جهد عظيم ، جثماني أو عاطفي أو فكري . وقد اجتمعت فيه كل هذه الجهود جميعاً .

واليوم أختم المرحلة الأولى من هذا الكتاب الذي أترجمه ، « كفاح الموت » ، وأنظر على جلدة الكتاب فأقرأ عليها « على حسن » ، فالكتاب هدية منه ، وترجمته من إيحائه . وقد كان كذلك الكتاب الآخر « قصة الميكروب » من إهدائه ومن إيحائه .

رحمه الله رحمة واسعة . أحمد زكي

من مذكرات جحا :

وَزَّة جحا

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التى زعم أنها خط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

أهذه هى « ماهوش » العظيمة تبدو لى مثل خط غائر فى الأرض ، وتعلوها غلالة من الدخان الأبيض ؟ أهناك كل ثروة « ماهوش » ، وكل علمها وفنها ، وهناك كل حركتها التى لا تهدأ ، وأضواؤها التى لا تخبو ، ونيرانها التى لا تخمد ؟ أهناك محنها العظمى وسخافاتها الكبرى ، وما تضطرب له قلوب ألوف الألوف من مآسٍ وملاهٍ ، ومن آمال وأطماع ، ومن خيبة ويأس ، ومن غرور وكبرياء ؟

أهذا هو كل عالم « ماهوش » فى هذا الخط الأغبر الضئيل الذى يخيل إلىّ أن الأنفاس تضيق فيه من هذا الضباب الذى يجثم فوقه سماً كثاً مرنقاً ، كأنه غبار ثائر فوق حفرة مقبرة ؟

أنا هنا ، على قمة التل ، أنظر تحت قدمى إلى الوادى فيخيل إلىّ أنه جحر ضيق تضطرب فيه بعض الزواحف والحشرات التى لا تعبأ بأن تملأ صدرها من الهواء ، ولولا أنى ابن « ماهوش » الذى أقام فيها عمره ، وعرف ما فيها من غنى وحركة وقوة وجمال وحياة — لولا أنى ابن « ماهوش » الذى يعرف كل ذلك ، لما حسبت أن هذا الخط الأسود سوى خدش حقير فى أديم الأرض ، لا ينطوى على شىء سوى فضلات من حجر هشيم ، أو من عظم رميم .

ليت شعرى ، ماذا أرى من هذه الأرض لو صعدت إلى السماء فأشرفت عليها من سطح القمر ، أو من بعض هذه النجوم ؟ ليت شعرى كيف تبدو لى الأرض كلها بما عليها من حياة صاخبة مضطربة ، وما فيها من شعوب وأمم ؟ إنى أغلب ظنى أنها لا تبدو لى هناك إلا نقطة عمياء مظلمة . لا شك أن النجم المتألق الذى يبدو لى وأنا هنا على هذه الأرض صغيراً كالذرة ، أكبر فى رأى العين ، وأجمل وأروع من منظر هذه الأرض كلها إذا نحن اطلعنا عليها من مرقب فى أدنى السموات . ولا شك فى أن كل ما فيها من هموم وآمال ، ومن نعيم وشقاء ، ومن نضال وضجيج ، لا يرتفع أثره إلا قليلا ، ثم يتضاءل حتى يمّحى ، فلا يلوح مما فى هذه الكوكبة الصغيرة شىء سوى الصمت والجهالة !

ليت شعرى ، ماذا هناك فى هذه السموات التى تراها العين صامتة صغيرة هادئة ؟ أى خلق هناك يسكنها ؟ ومن أى مادة برأهم الله ، أمن طين ، أم من نار ، أم من شىء غير ذلك لا يخطر على قلب بشر خلق من تراب ؟

إنى كلما فكرتُ فى هذا الذى أحسستُ همتى تخور ، وينقص فى عينى قدر الحياة ، فلا أجد فيها شيئاً جديراً بأن أسى له ، إلا أن أتأمل وأتساءل وأرثى لهؤلاء الضعفاء — هؤلاء الضعفاء الذين تخدعهم قوتهم الضئيلة ، وهؤلاء الأغبياء الذين يخدعهم ذكاؤهم الضحل ، وهؤلاء العمى الصم البكم الذين تخدعهم حواسهم الكليلة القاصرة . ما أجدر العقل المفكر بأن يرثى لهذا الإنسان الذى يمرح فى غرور حياة فانية قصيرة حقيرة ، وقد أذهله انغماسه فى غمارها عن أن يدرك حقيقة نسبتها إلى الوجود الأعظم والكون الأكبر ، فحسبها كل شىء ، وما هى فى الحقيقة إلا كَلاَ شىء !!

ومع ذلك فلا بد لى من أن أهبط إلى الأرض لكى أعيش كما قدر الله لى ، ولا بد لى من أن أهبط إلى الوادى لأصيب منه ما كان لى أن أصيب منه ، وما مَثلى فى هذا إلا كمثل الألوف وألوف الألوف الذين يعيشون اليوم

ويغنون غدا ، وما زال هذا دأبهم منذ ألوف الآلاف من الأجيال .

إن نزهة اليوم رياضة للنفس تطلعها على لمحة من أنوار الحقيقة ، وحسبها هذه اللمحة ، فإن النفس الإنسانية أكثف من أن تخترقها الأنوار ، وأغلب الظن أنها إن تعرضت للحقيقة ، إلا فى مثل هذه اللمحات الخاطفة ، لن يكون نصيبها إلا الاحتراق والفناء .

فلأهبط إلى الأرض ، ولأنزل إلى « ماهوش » .

نعم ! فإنه لا مناص للبشر من أن يرتبطوا بالأرض ، لأن الأوتاد التى تربطهم بها أقوى من الفولاذ ، لا بل إنهم لا يقدرون على أن ينزعوا أنفسهم من الأرض إلا إذا هلكوا وارتقت أرواحهم إلى عوالمها ، وخلفت الجسد لوطنه الذى هو مستمد منه . فالأرض فينا معاشر الخلق ونحن فيها ، وإن خيل إلينا أننا نستطيع السمو عنها .

هـــذه هى « ماهوش » أخيراً ! ولكن ما هى « ماهوش » ، وما مكانى من « ماهوش » ؟ إنى أحرق نفسى عليها أسفاً كلما رأيت فيها ما أنكره ، أو ما لا يوافق هواى ؛ وقد بلغ الغرور بى أن كل ما لا يوافق هواى أنكره وأعده سيئة وشرا . ومتى كان الإنســان يعبأ بالحق ؟ إن الحق عندى وعند سواى من هذه البشرية هو ما يوافق الهوى . إنى أحب أن أسيّر « ماهوش » حسب هواى ، فإذا لم أجدها تطاوعنى ملأ اليأس قلبى ، فلا أجد فرجة منه إلا بأن أضحك وأسخر . ولكن أنى على من « ماهوش » ؟

أنا هذا جحا المضحك ، الذى لا يجد قوته إلا من فتات الحياة ، لا أستجدى ولا أطلب ، بل ولست أجيب دعوة الداعى إلى الوليمة ، وأوثر أن أقضى الليلة طاويا على على أن يطلع أحد من الناس على خلق وقلة ذات يدى . ولولا هذه الفضلة التى بقيت لى من ميراث الأجداد ، لما بقيت أنا ولا أحد من أولادى فى الحياة . فمالى أملأ قلبى حزناً إذا كانت « ماهوش » لا تسير على ما أحب ؟ ما لى أقطع نفسى همًّا كلما رأيت الأخطار محدقة بها ؟ إنى لا أملك فيها غير هذا المنزل الذى انحدر إلىّ من سلالة طويلة من الأجداد ، حتى بليت أسواره وجدرانه ، ونبتت الأعشاب الخضراء فى قلب حجارته ! ما لى إذاً أملأ صدرى حزناً على كل ما ينذر « ماهوش » بالسوء ، كأنى أنا صاحبها ومالك قصورها وبساتينها ، ووارث ضياعها وقطعانها ؟! إنى لم أفز منها بغير لقب (الأديب الكبير جحا) ؛ ومع ذلك فإن الكثيرين من الناس ينفسون علىّ ذلك اللقب ، ويزعمون أنه لقب لا ينبغى لمثلى أن يفوز به . ولقد جهر بذلك أحد الأميين من هؤلاء الذين يقصدون « ماهوش » من وراء الفلوات ، ويتخذونها موطناً يعيشون فيه كالخفافيش لا يحملون إليها خيراً ، ولا يتركون فيها إلا فضلات أقذارهم — جهر هذا الأمى وقال إنى ما كان ينبغى لى أن أفوز بلقب (الأديب الكبير) . فليكن هذا ؛ ولست أضن بأن يحل ذلك اللقب عليه ، ففى ذلك أعظم انتقام لمثلى من مثله . إن هذا اللقب إذا أطلق على مثله كان صيحة صارخة ضاحكة ساخرة تصيح على الملأ بالتشهير به والحط من شأنه . ما لى أحزن لأحزان « ماهوش » ، مع أنها أفسحت صدرها لكل هؤلاء الجرذان الذين يتوافدون عليها من وراء الفلوات ، ومن وراء البحار ، على حين تضن علىّ وتسرف فى تعذيبى ؟!

كنت أتحدث إلى القاضى — حرسه الله — وعرض لنا فى حديثنا ذكر الأرزاق ، فقال لى — حفظه الله — : إن الأرزاق مقسومة على الناس ، وإن الخيرات موفورة ، وما الذنب فى فقر الفقراء إلا لقعود همتهم وعجزهم عن اصطيادها . فعجبت لقوله ، وقضيت سائر يومى فى همّ وخجل من نفسى ، ولم أقدر على أن أفهم كيف قُسمت هذه الأرزاق ، وكيف يصيب الناس أنصباءهم من هذه الخيرات ؟ فالذى أعرفه حقاً هو أنى فى « ماهوش »

شخص لا رزق له . أنا صورة هائمة مثل المعانى التى تجول فى رأسى ، وأرانى فى حيرة وشقاء ، كما تمثل لى أملى الحبيب علية ابنة السلطان ، وتمثل لى إلى جانبه حرمانى وهوانى على الناس . ألست أنا (جحا) الذى لا تذكر «ماهوش» إلا إذا قال الناس فى أقاصى الأرض وأدانيها : إنها بلد (جحا) ؟ كم من غريب يحل فى «ماهوش» قصداً لكى يتحدث إلىّ ، وكم من أمير أرسل إلىّ يطلب أن ألحق به فى بلده ، وأنا آبى ، وأستكبر أن أغادر موطنى الذى لا أحب موطناً سواه ، ولا أحب قوماً سوى أهله الذين ضاع بينهم نصيبى !!

أليس لى فى «ماهوش» مثل ما يصيبه هؤلاء العاطلين ذوى الزينة الذين يتصيدون الخيرات كما يتصيد الدود الماء الصماء من البثور ؟ أليس لى ما لأحد هؤلاء فى «ماهوش» العزيزة ؟ يقول القاضى — حرسه الله — إنى أنا المذنب ، وإن هذه خيرات الله كثيرة ، فإذا كنت لا أصيب منها كما يصيب الناس ، فذلك لأنى أنا الذى قعدت وقعدتْ همتى عن طلب الرزق .

نعم ! أنا لا أستطيع أن أزرع ، ولا أن أحارب ، ولا أن أتجر . ولكن أليس لمثلى نصيب إلا أن أكون زارعا ، أو تاجرا ، أو جنديا ؟ أنا (جحا) ، ولا حاجة بى إلى أن أقول مَن أنا .

لقد أردت بالأمس أن أمات الناس كما يمازحنى هذا البلد الحبيب ، فإن قاضى «ماهوش» — حرسه الله — كان قد أودع عندى عشرين وَزّة منذ حين ، ثم بعث بالأمس فى طلبها ، لأنه كان يعد ولمية عظيمة ودعانى إليها ؛ ولكنى لم ألب دعوته لسبب بسيط ، وهو أنى لم أجد عندى جبة نظيفة ولا قيصاً لائقاً . فقلت فى نفسى : لماذا لا آخذ واحدة من ذلك الوزّ ، فتكون نصيبى من الولمية ؟ ثم فكرت فى «ماهوش» ونصيبى منها ، وتوزيع الأرزاق فيها ؛ فأحببت أن أنتهز الفرصة لأبين للناس معنى قد لا يفهمونه .

فأخذت الوزة نصيباً لى ، وسقت أمامى الوزّات الباقية ، وجعلت أهش عليها حتى بلغت بها منزل القاضى ، ودخلت إليه لأسلمها إليه . فعدَّها فوجدها ناقصة ؛ فراجعنى فى عددها ، فراجعته مكابرا ، وقلت إنها عشرون بلا شك . فلم يؤمن ولم يصدق ، فقلت له : هات عشرين من أصحابك وحجابك ، واجعل كل واحد منهم يأخذ واحدة ، وهى بلا شك تكفيهم جميعاً ، كما تكفى أرزاق «ماهوش» كل من فيها . فتبسم القاضى وأطاعنى فيما أردت . ولما تناول كل رجل وزة ، بقى واحد منهم بغير نصيب . فنظر إلىّ القاضى وقال ضاحكا :

— أرأيت ؟!

فلم أتحرك ، بل قلت له :

— لقد رأيت . إنه بلا شك رجل قاعد الهمة ، عاجز القوة ، لا ينبغى أن يكون له نصيب ! فنظر القاضى وهو يخفى ابتسامته . فقلت له ولم أنتظر منه قولاً :

— نعم — لقد كان الوز أمامه ، وكان يستطيع أن يأخذ لنفسه واحدة .

فنظر إلىّ القاضى صامتاً ولم يجب ، ثم نظر إلى أصحابه وأمرهم بالانصراف لإعداد الولمية .

لقد فهم القاضى ما أردت ، ولكن الناس جميعاً لم يفهموا سوى أنى مُضحِكة مُسْخَرة لا أقصد سوى أن أملأ بالسرور قلوبهم الجوفاء .

(طبق الأصل) **(جحا)**

المأساة الإيطاليـــــة

لما وقع الانقلاب الإيطالى فى ٢٥ يوليه ، وانهارت دعائم النظام الفاشستى ، وقامت حكومة المارشال بادوليو على انقاض الدكتاتورية الموسولينية ، كان من الواضح أن هذا الانقلاب إنما هو تمهيد لخطوة حاسمة أخرى تتخذها إيطاليا فى سبيل الخروج من حرب لم تجن منها سوى المحنة الشاملة ، وأن هذه الخطوة لن تلبث أن تتخذ قبل أن تضطر القوات المتحالفة التى كانت يومئذ على وشك الانتهاء من حملة صقلية ، إلى أن تقوم ضد إيطاليا بأعمال حربية أخرى . ولكن هذا الظن لم يتحقق بالسرعة التى كان حريا أن يتحقق بها . ذلك أن انكلترا وأمريكا أصرتا على وجوب تسليم إيطاليا بلا قيد ولا شرط ، ولم يكن من السهل على الحكومة الجديدة التى عقد الشعب الإيطالى عليها أمل الخلاص ، أن تذعن لمثل هذا التسليم المؤلم الذى ينطوى بلا ريب على أخطر الاحتمالات بالنسبة لمستقبل إيطاليا . ومن جهة أخرى فقد كان ثمة عامل آخر يكاد يشل حكومة بادوليو من حرية العمل ، هو وجود القوات الألمانية فى إيطاليا ، وتحفزها للعمل على إحباط أى تفاهم أو اتفاق بين إيطاليا والحلفاء .

ولكن الحكومة الإيطالية لم تجد أخيرا مندوحة من الإذعان ؛ وبينما كانت القوات البريطانية تنزل فى البر الإيطالى فى كلابريا ، وتشتبك معها القوات الإيطالية فى معارك صورية ، كانت الهدنة فى طريق التوقيع . وقد عقدت بالفعل فى اليوم الثالث من سبتمبر ، ولكنها لبثت سرا مكتوماً ولم تذع حتى الثامن منه ، وذلك لكى تتمكن الحكومة الإيطالية من اتخاذ ما يجب لتنفيذ شروطها الأساسية قبل أن يفطن الألمان إلى الحقيقة فيعملوا على إحباط مساعيها .

وهكذا سلمت إيطاليا دون قيد ولا شرط ، ووضعت مصايرها بين أيدى أعدائها الظافرين . وكان من أهم شروط الهدنة تسليم الأسطول الإيطالى والطائرات الإيطالية ، وتسليم الأراضى والجزر الإيطالية كلها لاستخدامها قواعد للأعمال الحربية ، وضمان حرية الحلفاء لاستخدام جميع الموانئ والمطارات الإيطالية ، وتسليم أسرى الحرب من رجال الأمم المتحدة ؛ وقد استطاعت الحكومة الإيطالية بالفعل أن تعلن عقد الهدنة للشعب الإيطالى ، وأن تخطره بألا يتعاون مع الألمان بأى صورة ، وأن تصدر الأوامر اللازمة لرجال الأسطول والطيران بأن يسلموا سفنهم وطائراتهم فى موانئ الحلفاء . ولكن القيادة الألمانية كانت ساهرة تتحفز لأحباط مساعى الحلفاء للاستفادة من الهدنة التى اعتبرتها ألمانيا من جانب إيطاليا خيانة لا مثيل لها ؛ وهكذا بادر الألمان باحتلال رومه ، واحتلال معظم الموانئ والمطارات الشمالية ، وأخذت قواتهم تتدفق على سهول لومبارديا وضفاف نهر « بو » لتعزز الجيش الألمانى المرابط فى شمالى إيطاليا . وبادر الحلفاء من جانبهم فنزلوا فى منطقة نابولى ، وتارانتو ، وبرنديزى ، وبارى ، وغيرها من النقط والثغور الجنوبية . وبينما يحاول الألمان إقامة حكومة فاشستية جديدة فى الشمال تحت رياسة موسولينى ، إذا بالملك فكتور أمانويل والمارشال بادوليو يحاولان إقامة حكومة فى الجنوب تحت رعاية الحلفاء ؛ وهكذا تنقسم إيطاليا إلى معسكرين : أحدهما يشمل الشمال والوسط ويسيطر عليه الألمان ؛ والثانى يشمل الجنوب ويجرى فيه النضال والسباق بين الحلفاء والألمان .

* * *

تلك هى المأساة التى انتهت إليها الفاصرة الفاشستية ، وهى مأساة لا مثيل لها فى التاريخ الإيطالى ؛ فقد دخلت إيطاليا الحرب الحاضرة فى العاشر من يونيه سنة ١٩٤٠ ، وهى دولة قوية ذات جيش ضخم مجهز بأحدث الأسلحة ، وأساطيل جوية وبحرية زاخرة ، وإمبراطورية استعمارية ضخمة ، وهى تخرج اليوم منها ، وقد مزقت جيوشها شر ممزق ، وفقدت أسطولها كما فقدت إمبراطوريتها

الاستعمارية كلها ، وغدا الوطن الإيطالي ذاته مسرحاً لمعارك مخربة تنذر إيطاليا بمحن وويلات أخرى . وكانت إيطاليا قبيل نشوب الحرب تحتل مكانة بارزة في الميدان الدولي ، وفي مقدورها أن تؤدي دور الحكم في شئون الحرب والسلم ، وهي تخرج اليوم من الحرب دامية خائرة القوى ، جاثية أمام أعدائها ، ملعونة من حلفائها القدماء ؛ ولو لم ترتكب الدكتاتورية الفاشستية خطأها الفادح بدخول الحرب ، وطعن فرنسا الجريح من الخلف ، ولو بقيت إيطاليا على حيدتها لاتخذت حوادث الحرب الأوربية كلها وجهة أخرى ، ولكان لإيطاليا اليوم في الميدان الدولي أعظم شأن . وقد كان من سخرية القدر أن تفي إيطاليا في هذه الحرب لأول مرة بعهود التحالف ، فتحارب إلى جانب حليفتها ، ذلك لأنها اعتقدت أنها تقف مع الجانب الأقوى؛ أما في الحرب الكبرى فقد آثرت أن تنكث بعهدها ، وأن تغادر شريكتيها في التحالف الثلاثي ، أعني ألمانيا والنمسا ، لتحارب إلى جانب الحلفاء ، وذلك بعد أن ارتضت المزايا الموعودة ثمناً لنكثها ؛ بيد أنها كانت في الحرب الكبرى تقف إلى جانب حلفائها الطبيعيين الذين كان لهم أكبر فضل في تحريرها وإنهاضها من عثراتها . وقد كانت سياسة إيطاليا الخارجية تقوم دائماً على التقلب وانتهاز الفرص ، وكان من نكد طالع إيطاليا أن دفعتها الدكتاتورية الفاشستية إلى أحضان ألمانيا الهتلرية ، تجذبها نفس الأطماع الإمبراطورية الضخمة التي تجيش بها حليفتها .

* * *

والآن لنر ماذا يمكن أن تؤدي إليه هذه التطورات الجديدة في سير الحرب؛ وأول ما يلفت النظر هو أن إيطاليا ستغدو مسرحاً لمعارك طاحنة بين القوى المتسابقة إلى احتلالها ، وبذلك تصبح ميداناً أساسياً ثانياً للحرب بين ألمانيا والحلفاء . وقد ذكر هتلر في خطابه الأخير أن تسليم إيطاليا لا يؤثر كثيراً في مركز ألمانيا من الوجهة الحربية ، ولكن الذي لا ريب فيه هو أن الحلفاء حصلوا بهذا التسليم على مزايا عسكرية لا يستهان بها ؛ وأول هذه المزايا توطد سيادة الحلفاء في البحر الأبيض المتوسط بعد تسليم الأسطول الإيطالي ، وهو ما يسهل لهم غزو الجزر الإيطالية ، ولا سيما كورسيكا التي تعتبر قاعدة أمامية تهدد قلعة ألمانيا الأوربية من الجنوب ، كما أنه يسهل لهم مهاجمة البلقان من ناحية بوغاز ترانت (أوترانتو) ؛ وثانياً يستطيع الحلفاء ، بعد تقدمهم إلى أواسط إيطاليا واستيلائهم على قواعدها الجوية ، أن يقوموا بضرب ألمانيا الجنوبية (النمسا) من الجو بصورة فعالة منتجة ؛ وثالثاً يبدو من إصرار الألمان على احتلال شمالي إيطاليا حتى رومه أنهم يزمعون مقاومة الحلفاء مقاومة شديدة ، وأنهم يستعدون في الشمال لمعارك كبيرة فاصلة بعد أن يعيقوا تقدم الحلفاء إلى أقصى حد ممكن . وظاهر من وقفة الألمان شمالي نهر بو ، واستيلائهم على شبه جزيرة استريا ، وعلى القواعد والمدن الشمالية من تريست حتى ميلان ، أنهم يريدون الدفاع عن الأراضي النمسوية القديمة ، ولا سيما منطقة التيرول الجنوبية التي ضمت إلى إيطاليا عقب الحرب الكبرى ، وأنهم يعتبرونها الآن قطعة من الوطن الألماني ؛ وهذا الدفاع عن منطقة يعتبرها الألمان حيوية لهم سوف يضطرهم إلى تحويل جانب كبير من قواتهم البرية والجوية إلى هذا الميدان الجديد ؛ هذا إلى ما يقتضيه الدفاع عن البلقان من الاستعدادات والقوى الجديدة ، وهذا مما يؤثر بلا ريب على موقف الألمان في الميدان الروسي .

ويواجه الألمان اليوم في روسيا موقفاً حرجاً ، وما زال الزحف الروسي المظفر نحو الشرق يسير بسرعة ، ويسترد الروس مدنهم القديمة تباعاً ؛ وقد ذكر لنا هتلر في خطابه «أن الضرورة الحربية قد تقضي على الجيوش الألمانية بالتقهقر في هذا الميدان أو ذاك ، أو تجنب العمل في ميادين خاصة ، ولكن هذا التراجع لن يحطم النطاق الحديدي الذي أنشأه الألمان حول وطنهم» . وقد يكون معنى ذلك أننا سوف نشهد في القريب العاجل حركة انسحاب كبيرة يقوم بها الألمان في روسيا ، أو في البلقان . وأغلب الظن أن القيادة الألمانية ستعمد إلى تقصير خطوطها في روسيا ؛

في سبيل الأدب :

نداء إلى أدباء مصر !

أتممت البارحة قراءة كتاب (..........)[١] لمؤلفه (........) ، فأعجبني أسلوبه على ما فيه من مخالفة القانون اللغة وقواعد العربية ، لما حل من الصور البيانية ، والمجازات المستحدثة ، والتشابيه التي لا نظير لها ، والاستعارات التي لم تتحدث عنها كتب البلاغة ، لأن علماءها لم يقرأوا مثلها ، ولأنه أسلوب مستمد من قلب حيّ وخيال قويّ ، على حين أن من الأساليب ما يستمد من كتب اللغة ؛ وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحاً بنفس عربي ، فيكون نادرة الأساليب ، ومفخرة الأدب . وهيهات ! ...

أما موضوع الكتاب فلم يعجبني ، لأني وجدت حياة هذا الرجل ، كما يصفها صديقه المؤلف ، سلسلة آثام من كفر إلى فسوق ، ومن اعتماد على امرأة تشتغل وتعوله وهو كسلان يتمدد على فراشه ، إلى خيانة لهذه المرأة ونقض لعهدها ، ومن إكبار لنيتشه المجنون ، إلى الجنون به ، إلى سرقة آثاره وانتحالها ؛ ووجدته في حياته كلها أشبه بالمرأة المدللة الكسول ، همّه شهوته ، إنْ بالحقيقة وإنْ بالمجاز يعبر عنها بهذه الصور العارية ، وهذه القصص الفاسقة التي ردّ على واحدة منها إمام الكتاب المنفلوطي رحمه الله في نظراته ، وهي القصة التي يدعو فيها النساء إلى ترك أزواجهن ، واللحوق بعشاقهن ، لأن رباط الحب الشهواني أقوى عنده من رباط الزواج الشرعي .. ووجدته تتوالى عليه المواعظ فلا يتعظ ، وتتعاقب النذر فلا يتوب ، يموت أبوه وأخته وأمه ، ويصاب بالمرض العضال ينخر جسمه الذي ربي بالحرام نخر السوس ، وتأتيه في خلال ذلك فتاة لم تعرف غير الطهر ، ولم تصحب إلا العفاف ، تريد أن تحيي فيه الكاتب الفيلسوف الذي تكبره وتجله ،

(١) لعل الكاتب الفاضل يشير إلى قصة بودلير . (الثقافة)

وقد ينسحب الألمان من أوكرانيا كلها ومن المناطق الشمالية حتى لتوانيا ، ويقيمون خطاً دفاعياً قوياً فيما بين خليج ريغا والبحر الأسود عبرا روسيا البيضاء (شرق بولونيا) ومستنداً إلى جبال الكربات ؛ وتقصير خطوطهم الدفاعية على هذا النحو يمكنهم من مدافعة الروس بقوة ، ويسمح لهم في نفس الوقت بتحويل جانب كبير من قواتهم إلى الميادين الأخرى لمقاتلة الحلفاء .

على أنه مهما كانت الخطط الجديدة التي ستتخذها ألمانيا لمواجهة الحالة العسكرية الجديدة ، فلا ريب أنها تواجهها في ظروف عصيبة ؛ فالروس يشددون الضغط على الألمان في سائر الميادين ، وتخوض القوات الألمانية في جنوبي إيطاليا معارك شديدة مع القوات البريطانية والأمريكية ، وقد يغزو الحلفاء شواطئ البلقان من الجنوب أو الغرب ويضطر الألمان إلى أن يخوضوا هنالك معارك جديدة ، وهكذا توزع جيوش « الريخ » توزيعاً يصدع من قوتها ومقدرتها الدفاعية ، وهذا ما كانت تتجنبه القيادة الألمانية جهد استطاعتها ؛ أضف إلى ذلك ما ينتظر أن تلاقيه القيادة الألمانية في جميع البلاد المحتلة من صنوف المقاومة والمتاعب . وهكذا تواجه ألمانيا في بدء العام الخامس من الحرب ظروفاً عصيبة لم يسبق أن واجهتها ؛ فليس غريباً إذاً أن نسمع هتلر يشير في خطابه إلى ما ينتظر من تراجع الجيوش الألمانية ، وإلى النطاق الحديدي الذي أنشأه الألمان حول وطنهم ؛ وفي هذه الإشارة التي نسمع مثلها من زعيم « الريخ » لأول مرة ما يؤذن بأن مشاريع الغزو الألمانية التي حققتها ألمانيا بأفدح ثمن من دماء بنيها ومواردها ، قد يضحى بها استعداداً للمرحلة الدفاعية الأخيرة من الحرب ، وهو الدفاع عن « الوطن الألماني » .

محمد عبد الله عنان

قد حلت معها عفافها وطهرها وطيب سريرتها ، فكان رده على تحيتها وترحيبه بهـا ، أن أخرجها من عنده بلا عفاف ولا طهر ، وسلبها أعز شيء عليها : عرضها .

ووجدت كتاب حياته يختصر في كلة واحدة ، هي أنه خسر الإيمان والرجولة والفضائل كلها ، وربح شهرة عريضة ، وترك صفحات فيها كلام جميل ، يلذ قارئه ولكنه يسلبه إيمانه من قلبه ، ويقوض بيته على رأسه ، ولوحات فيها خطوط وألوان لا يرى فيها من كان مثلى من الناس وهم تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف ، إلا أجساماً عارية لا معنى لها ولا دلالة ، ولا يعرف لها رأساً من ذنب ، والباقون من الناس يقولون إنها تدل على معان كبيرة ، وهى رموز لحقائق الحياة ، ويوضحون لك غامضها ، ويفتحون المغلق من معانيها بمحاضرة طويلة لا تفهم منها شيئاً .

هذا هو الرجل الذى اتخذه قومه (نبياً) !!

* * *

خبرونى ماذا يصنع هذا الكتاب بنفوس الناشئة إن هم قرأوه ؟ أى قدوة فى الحياة يكون لهم فيه ؟ أى نمط من العيش يحبب إليهم ؟ أما والله إنه لخطب داهم ، ليس خطب هذا الكتاب وحده ، فإن له لأمثالاً ، وإن أمثاله لكثير ..

وسيقول قوم أن رجل رجعى جامد ، هذا هو الفن ، يغتفر لصاحبه ما لا يغتفر لغيره . ولئن كنت جامداً فهم والله مائعون ، والجامد يستقر ويتماسك ، أما المائع فيسيل ويضيع ؛ ولئن كنت رجعياً فالرجعية مشتقة من الرجوع ، وهى فى الغرب سب لأنها عودة إلى ظلام القرون الوسطى وجهالة الماضى القديم ، وهى عندنا مدح لأنها رجوع إلى مثل ما كان عليه أجدادنا فى عصور العلم والنور . أما قولهم هذا هو الفن ، فإنى أنكره أشد الإنكار .

إن الذى أعرفه أن الفن هو الذى يبحث عن (الجمال) بحث العلم عن (الحقيقة) ، وأنه يدرك بالعاطفة كما يدرك العلم بالعقل ، فمن قال إن الجمال لا يكون إلا فى الفحشاء والمنكر ؟ أليس فى تصور الفضيلة جمال ؟ والوفاء والوطنية والإخلاص والنبل أخَلَتْ كلها من الجمال ، واقتصر الجمال على ما يثير الشهوة ويحركها ؟ أو من أجل حماقة نزت برأس (فرويد) فرفع من شأن الشهوة ونوه بها ، ننسى فضائلنا وسجايانا ؟

إن من كانت هذه مقالتهم لم يأتوا بجديد إلا أنهم لم يسموا الرذيلة رذيلة ولا الفحش فحشاً ، وإنما سموه فناً ؛ والجنون فنون . والذى أعرفه أنا أن الفن إن كانت عاقبته فساد الأخلاق وانهيار بناء الأمة لم يكن له وزن ، وأن للأدب غاية هى تهذيب الطباع وصرف العواطف إلى الخير ، وتنبيه الضمائر الغافلة ، وإيقاظ الهمم والمروءات ، وما إلى ذلك مما يكون منه نفع للناس ، وأن فى الحياة ما هو أغلى من الجمال والفن ، فيها الخلق والعرض ، والفضيلة والدين ، وأن من يبيع ذلك كله بلوحة مزخرفة بالخطوط والألوان ، أو قصيدة قد أودعت سحر البيان ، كان أخسر الناس قاطبة .

وليست مقالتهم فى الفن ، إلا إعادة لما يقوله غيرهم ، فهى عن تقليد لا عن اجتهاد ، وهى محصول ذاكرة تحفظ وتردد ، لا ثمرة عقل يبحث ويقيس ، ثم يصدق أو يكذب ، لذلك تجد لهم الرأى وضده ، وما الأول رأوا ، ولا بدا لهم فعدلوا ، وإنما قال معلموهم فقالوا ، ثم مالوا فمالوا ، فلا سبيل إلى مناقشتهم فيما يقولون ، ولا تجوز مناظرة المقلد الذى يعرف قول إمامه دون دليله . هذا الذى أعرفه ، ولكن من حولى من الأدباء لا يعرفون إلا العبث يشتغلون به والنار تشتعل من حولهم ، والسيل طامياً يندفع إليهم ، والبلاء نازلاً يحيط بهم ، وإلا فأين الأدباء عن هذا الذى فى سواحل الإسكندرية وبيروت ، وعما فى دور الملاهى وحانات الخمر ؟ أين هم عن العرض المثلوم (فى رأس البر

وستانل باى) ، والشرف المهان ، والفجور المعلن ؟ أين هم عن المدارس التي تعلم التلاميذ الجهل مركبًا تركيبًا مزجيًا كيميائيًا ، حين تعلمهم كل شيء إلا حقائق دينهم ، وحين تقرهم على كشف العورات وإشاعة الصلوات واختلاط البنين بالبنات ، أو هي تدفعهم إلى ذلك دفعًا . أين أدباؤنا عن الرجولة التي يعصف بها داء التأنث في الشباب ؟ إن ربع من يطلق الأدب إنما هو حديث الشهوة ملفوفًا برداء الفن ، والمواخير موضوعة بين دفتي كتاب أو في غلاف مجلة ، ويستهين بالعرض والأخلاق ، والعرب أغير الأمم على الأعراض يفخرون بالبخل بها وصيانتها ، كفخرهم بالجود بالمال وبذله ، ويحافظون عليها في صحوهم وسكرهم :

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي ، وعرضي وافر لم يكلم

لأن المال يعوض إن فقد ، والعرض إن ثلم لا يلتئم :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض بالمال

أحتال للمال إن أودى فأجمعه

ولست للعرض أن أودى بمحتال

وكانوا يكنون عن المرأة بالنخلة وبالبيضة والسرحة ، حياء أن يمر على لسانهم ذكر المرأة :

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

ويفخرون بغض الطرف عن الجارات :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

هذا وهم في جاهلية ؛ فلما جاء الإسلام وبعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق ، أقر العرب على ما كانوا عليه من فضيلة ، ومن فضائلهم الغيرة على الأعراض ، وأدبهم أحسن التأديب حين أنزل على نبيهم : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) ، وحرم عليهم كشف العورات . ثم استدار الزمان ، وكان ناس يدعون أنهم عرب مسلمون ولا يتخلقون بأخلاق الجاهلية ، ولا يتأدبون بأدب الإسلام ، غاض ماء الحياء من وجوههم ، فلم يستحيوا أن يسايروا زوجاتهم في الطرقات سافرات ، باديات الشعور والنحور ، واستلت الشهامة من قلوبهم ، وامّحت الغيرة فلم يردعهم دين ، ولم يزعهم خلق عن أن يعرضوا بناتهم ونساءهم وأخواتهم ، عاريات الأجسام كلها إلا ما يستر العورة الكبرى ، في مكان اختلط فيه الرجال بالنساء ؛ أمر* (والله) لو سمعه مسلم من المسلمين الأولين لصُعق له ، ولو سمعه جاهلي لأغمى عليه من غرابته وفظاعته ، و (مصر) ذات الأزهر ، لا تمنع ذلك ولا تحرّمه ، ودينها الرسمي الإسلام !

اللهم إليك المشتكى ...

وهذه مجلات مصر ، تنشر كل أسبوع صور العاريات ، فتزيد نار الشهوة في أعصاب الشبان والشابات ضرامًا ولا منكر ، حتى جرأها هذا السكوت على الإقدام على عدوان يمنعه القانون والذوق والنبل والدين ، وهو تصوير الشيخ الجليل أبي العيون تصويرًا هزليًا بعمامته وجبته ، ومعه امرأة عارية ، وتكرار ذلك مرتين ، وتهكمها عليه لأنه انفرد بإنكار هذا المنكر الفظيع ، وأعلن الغيرة على الأعراض — فإلى متى تمتد هذه الجاهلية العمياء ؟

فيا أدباء مصر انتبهوا ، فو الله إنها لتوشك أن تنهار الأخلاق فلا تقوم لها قائمة ، وتذهب هذه البقية من الدين فلا يبقى دين ، وتموت هذه الفئة من أهل المروءة فلا يبقى من مروءة . يا أدباء مصر ، إن العالم العربي ليسمع منكم ويقتدي بكم ، فإن أنتم لم تسلكوا به سبيل الإصلاح ، وتدلوه على طريق الخير ، كان عليكم أكبر الوزر . ورحم الله ذا قلم جرده لنصرة هذه الدعوة ، والدفاع عن الشرف ، وذا صحيفة فتحها لتلك الأقلام ، وأعانها على دعوتها ، وكل قارئ أقبل عليها ونشرها .

(دمشق) **علي الطنطاوي**

---

* حكم في الجنحة رقم ١٦٩٥ عسكرية الوايلي سنة ١٩٤٢ بحبس أحد عرب مصطفى ثلاثة شهور مع الشغل والنفر والتعليق والغلق والمصادرة لبيعه سكرًا بأزيد من السعر المحدد .

سيرة صلاح الدين :

— ٩ —

ميثـــــاق

« فرغ السلطان من ترتيب أموره بمصر ، ثم تركها بعد موت نور الدين ليتدخل فى أمور الشاميين ، أملا منه فى إخضاعهم لسلطانه ، وتألف اتحاد عام للمسلمين يواجه به الصليبيين تمهيداً لطردهم نهائياً من جميع بلاد المشرق » .

فكّر السلطان فى مغادرة الشام ، وأخذ يتأهب للعودة إلى مصر . وبينما هو فى تفكيره إذ دخل عليه العماد الأصفهانى أملاً فى أن يقترح السلطان عليه أن يصحبه فى رحلته هذه إلى الديار المصرية . وكانت للسلطان هيبة عند جميع أصحابه تمنع أحدهم من أن يبتدره بالسؤال . فلم تكد تقع عينا السلطان على العماد حتى عرف هذا منهما أن السلطان بحالة يقبل فيها مزاحا ، فجعل يقول :

.'. أأذكر حاجتى أم قد كفانى (البيت) .

قال السلطان : « يعز علينا أن تكون لك حاجة لا نقضيها . أتحب أن تصحبنا فى هذه المرة إلى مصر ؟ أم تحب أن نقضى لك أمراً بدمشق ؟ » .

قال العماد : « بل أحب أن أصحب مولاى إلى مصر ، فإن شاء أخذت أهبتى لهذه الرحلة التى أشتاقها ، فلى سنوات لم أر فيها القاضى الفاضل ، ولى سنوات يفاخرنى هو بالديار المصرية ، وأفاخره أنا بالديار الشامية ، وتدور بيننا رسائل فى هذا الغرض » .

قال السلطان : « أما الفاضل فقد شغفته مصر حبًّا وشغفها هو حباً ، وهو كثير الذكر لمحاسنها ، والتغنى بنيلها ومحاسنها ؛ وأذكر أنه قرأ علينا بعض رسائله إليك فى هذا المعنى » .

ثم سكت السلطان برهة قصيرة ، مرت بخاطره فى أثنائها أفكار كثيرة ؛ ثم قال : « تُرى — ما الذى أتمه الأمير بهاء الدين قراقوش من السور العظيم الذى أمرناه بإقامته حول مصر منذ حين ؟ » .

قال العماد : « غداً تأتى خدمة (رسالة) من القاضى الفاضل يذكر لمولى فيها ما يسره ، ويشرح قلبه ، ويطمئن نفسه . وفى همّة بهاء الدين قراقوش ، وفى قوة نفسه وصادق عزمه ، ما يكفى يا مولاى للعمل الذى ندبه له » .

قال السلطان : « الحق يا عماد الدين أنى ما رأيت رجلاً أصدق من بهاء الدين قراقوش ، ولا أقوى منه نفساً ، ولا أعظم منه صبراً ، بحيث لا يعرف الملل أو التعب إليه سبيلا . هذا كله فوق أمانة متينة ، وشهامة عظيمة ، ونفس كريمة ، وبذل عجيب ، وقدرة قلّ أن يكون لها نظير فى تصريف الأمور . وإنى يا عماد الدين مدين له كما أنا مدين للقاضى الفاضل ، وإليهما أردّ فضل إقامة هذه الدولة التى أراد الله لها أن تقوم » .

قال العماد : « أجل يا مولاى — إذا أراد الله لدولة أن تحيا قيّض لها رجالاً يعمل الواحد منهم لخيرها أكثر مما يعمل لنفسه ، وينظر إليها كما ينظر الأب إلى ولده ، يتعهده بالتغذية والتنمية حتى يبلغ أشده ! وأنت يا مولاى قد أراد الله قيام دولتك ، وإعلاء كلمتك ، ونفاذ دعوتك » .

وهما فى هذا الحديث ، وإذا برسالة ترد من القاضى الفاضل وفيها « أن بهاء الدين قد أوشك أن يتم بناء السور ، وأنه بذل فيه جهداً عظيما وصبراً عجيباً ، ومهارة لا تصدر إلاّ عن أمثاله من أولى العزم » . ثم وصل السلطان إلى مصر ومعه العماد ، وكان يوما عظيما مشهوداً ؛ ذلك اليوم الذى عاد السلطان فيه إلى قاعدة ملكه ، وأخذ فى تنظيم أمره ، وتفقد السور الذى بناه صديقه الأمير بهاء الدين قراقوش .

وعلم الفرنج بغيب السلطان عن الشام ، وكانت بينه وبينهم هدنة سعى إليها السلطان ، إذ كان من خطته التى شاركه فى وضعها القاضى الفاضل أن يعمل على توحيد المسلمين فى الشرق ، قبل أن يفكر جديا فى محاربة الفرنج وطردهم إلى ما وراء البحر .

ولكن التاريخ الذى سجل للسلطان بلاءه فى المحافظة

على العهود والمواثيق ، كما سجّل له صبره على هذه المحافظة مهما كلفته من خسارة أو ضيق ، هو الذى سجّل على الصليبيين غدرهم وخياناتهم ، وعبثهم بكل اتفاق يكون بين السلطان وبينهم ، ونظرهم إلى هــذا الاتفاق على أنه فرصة يجمعون فيها أشتاتهم ، ويفيقون فيها من سكراتهم ، ويعودون ذئابا لاتعرف الرحمة سبيلا إلى قلوبهم ، كما لم يعرف الشرف سبيلا إلى أخلاقهم ونفوسهم ! حتى لقد استحى من ذلك كله مؤرخوهم ، وأظهروا كلّ الخجل فى كتاباتهم من هذا الغدر الذى وصموا به تاريخهم . وكان هذا الخجل يصل إلى نهايته عند أولئك المؤرخين حينما كانوا يقيسون غدر الصليبيين بصدق صلاح الدين وشدة حرصه فى المحافظة على وعده ، محافظة هى فى اعتباره أيسر ما يقتضيه الشرف العسكرى . !

فبرغم الهدنة التى كانت بينه وبينهم ، هجمت طائفة من فرسانهم على بعض مدن الشام ، وهزمت هنالك أخا للسلطان كان عاملا له على دمشق . فخف السلطان إلى أخيه على غير استعداد . وكان أول من التقى به من أمرائهم إذ ذاك صاحب الكرك وهو (أرناط) . لقيه بجهة يقال لها (الرملة) فانتصر عليه الأمير المسيحى ، وفر المسلمون من وجهه يطلبون الديار المصرية ، وضلوا طريقهم وسط الصحراء ، ولولا أن أدركهم القاضى الفاضل برجاله وغلاته وأزواده ، فوزعها عليهم وحثهم على اللحاق ثانية ببقية الجيش . وأسر الفرنج فى هذه الموقعة عددا عظيما من المسلمين ، كان فيهم ذلك الفقيه العظيم (عيسى الهكارى) ، وهو صديق السلطان القديم ، وصاحب فضل عليه من قبل فى الظفر بالوزارة المصرية من يد العاضد الفاطمى . فلا غرو أن ذكر له السلطان هذه اليد الكريمة ، وشق على نفسه أن يراه أسيرا ، ففداه بقطعة من المال جسيمة . ثم كتب إلى أخيه بدمشق كتابا جاء فى أوله :

ذكرتك والخطىّ يخطر بيننا   وقد نهلت منا المثقفة السمر

ثم أتى بعد ذلك قوله « .. لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منها إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى ، وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر الح » .

وعاد السلطان بعد هذه الكسرة إلى مصر ، والناس يحمدون سلامته من سيوف العدو . وقدم عليه الشعراء يومئذ يعتذرون له عن هزيمته ، ويخففون من وقعها على نفسه ونفوس المقاتلين معه . وكان من هؤلاء الشعراء رجل أنشد السلطان «

حسبُ العدا يا صلاح الدين حسبهمو
أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسانَ النحل ملتمسٌ
مرّتْ على إصبعيه لذةُ العسل ؟ !

ثم غادر السلطان مصر ، واستناب عنه فى هذه المرة أخاه الملك العادل ، وجعل إلى جانبه وزيره ومشيره القاضى الفاضل ، وخرج هو لملاقاة الصليبيين ليمسح عار انتصارهم منذ حين ! فلقيهم فى جهة يقال لها (مرج عيون) ، كتب له فيها النصر . وكان الأسطول المصرى فى الوقت نفسه قد انتصر انتصارا باهرا فى البحر ، وكان يقوده شاب يحبه السلطان ويفاخر به جميع الأمراء ، وكان هذا الشاب قد أبلى بلاء حسنا فى وقعة الرملة ، ثم عاد فأظهر إقداما نادرا ومهارة عظمى فى قيادة الأسطول المصرى . وهذا الشاب هو (تقى الدين عمر) وهو ابن أخى السلطان ، وإليه كان ينظر السلطان كما كان محمد صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ابن عمه على بن أبى طالب .

ومهما يكن من شىء فقد طرب المسلمون لهــذا الانتصار ، وقرّت به عين السلطان ! وجلس كاتبه العماد الأصفهانى فى الخيمة الكبرى ، وأخذ يكتب أسماء الأسرى على ضوء مشعل ، وكان أولئك الأسرى كثيرين وفيهم (رايموند) صاحب طرابلس . فمن كان منهم يريد أن يفدى نفسه بمال يدفعه قبضه منه العماد الكاتب وأطلقه .

وأتى الشعراء صلاح الدين . وكان فيهم شاعر وقف يقول :

إن هذا الفتح المبين شفاء   لصدور وقرة لعيون
هو يوم أضحى كيوم حنين   مهّل الله نصره فى الحزون

إلى آخر هذه القصيدة العظيمة التي سبقتها أو تلتها قصائد أخرى كثيرة استمع إليها صلاح الدين . ثم ترك وراءه (مرج عيون) واتجه بجيشه إلى حصن منيع من حصون الصليبيين ، ينسب إلى فرقة كانت تلقى الرعب في المسلمين هي فرقة (الداوية) . وكان يطلق على هذا الحصن من حصونهم (بيت الأحزان) أو (بيت يعقوب) أو(حصن المخاض) . وكان الداوية أنفسهم قد أخذوا في عمارته منذ انتصروا على السلطان بقيادة (أرناط) . وقالوا إن السلطان لما سمع بأنهم يعملون في إقامته بذل لهم مالا عظيما ليعدلوا عن ذلك فأبوا . فقرر السلطان بدأ من قتالهم ، فذهب إليهم ، وانتصر بجيوشه عليهم ، وأجهز على هذا الحصن الذي كانوا يستمدون منه قوتهم المعنوية . ثم تركهم السلطان وعاد إلى دمشق ، وكان في انتظاره الشعراء الذين تغنوا بهذا النصر ، وكان فيهم شاعر من شعراء مصر ، قال يخاطب صلاح الدين ، ويسخر من غدر الصليبيين :

وقفت على (حصن المخاض) وإنه
لموقف حتى لا يوازيه موقف
أيسكن أوطان النبيين عصبة   تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكمو ، والنصح في الدين واجب
ذروا (بيت يعقوب) فقد جاء يوسف !

ثم رغب الفرنج في الصلح والهدنة ، فوهبهم السلطان الصلح والهدنة ؛ وتغنى الشعراء يوم الصلح ، كما تغنوا من قبل يوم النصر ، لأنه كان صلحاً عاما دخل فيه الفرنج والشارقة والروم ، كما دخل فيه أهل الموصل وديار بكر وحلب . واتفق الجميع مع السلطان ألا يشهروا في وجهه سيفاً ، ولا ينقضوا له عهداً . ولكن دلت الأيام بعد ، على أن النفس التي طبعت على الغدر لا يمكن أن يصدر عنها غير الغدر ، وأن النفس التي جبلت على الصدق لا يمكن أن تسام خطة غير الصدق ؛ وأن هذا الرجل الكريم إن صح أن يكون له ذنب عظيم ، فهو أنه كان يثق بوعود أعدائه دائماً ، رغم أن أعداءه لم يصدقوا ما عاهدوه عليه مرة واحدة .

وهنا نجد القصص والتاريخ ، أو نجد الأدب والأخلاق مجالا لحديث له أهميته ودلالته :

فقد يعجب الناس برجل عبقري في الحروب ، يستهوي الخطوب :

كالليث بل مثله الليث الهصور إذا
غنى الحديد غناء غير تغريد
يلقى المنية في أمثال عدتها   كالسيل يقذف جلموداً بجلمود

أو يعجب الناس برجل داهية خطير ، ينال بالرفق ما لا يناله الجبار بالبطش أو العنف ، ويصدر الرأي فتأتي الحوادث كلها شاهدة على صدقه ومبلغ نفعه :

موحد الرأي تنشق الظنون له   عن كل ملتبس منها ومعقود

أو يعجب الناس برجل رقيق الحس ، له قلب يفيض بمعاني الرحمة والحنان ، وله نفس تفيض بمعاني البر والإحسان :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

قد يعجب الناس بكل رجل من هؤلاء ، ويتجاوز إعجابهم به حدود المدح والإطراء ، ولكن إعجابهم هذا لن يكون في حالة من الحالات أصدق منه في حالة الإعجاب بخلق الوفاء ، يصدر من نفس كريمة عظيمة هي هذه النفس التي لا ترضى لصاحبها يوما ما بأن يربح الدنيا كلها بطريق الغش أو الخيانة ، ما دام في قدرته أن يكسب جزءاً ضئيلا منها بطريق الصدق والأمانة . ومعنى ذلك أن زيادة إعجاب الناس بخلق الوفاء ، مصدره أن الوفاء يكلف صاحبه من المشقة أكثر مما تكلفه الفضائل الأخرى .

وهكذا كان صاحب السيرة التي نكتبها جنديا لا نظير له في ميادين القتال ، وسياسياً له من طبيعته الكردية الماكرة ما أهله على أن يكون رجلا في ميدان السياسة ذا بال ، ورحيما إلى الحد الذي تسمع به ، فتحكم أن صاحب هذا القدر من الرحمة لا بد أن يكون له أكبر حظ من القوة الأدبية فضلاً عن القوة المعنوية ، وعدلاً ينصف الناس من نفسه ، ويسوي في القضاء بينه وبين خصمه مهما صغر هذا الخصم ؛ وأهم من ذلك كله ، أو أدعى إلى

خواطر صائم :

بين الله وعباده

تلاوة القرآن الكريم جميلة دائماً، وهي أجمل ما تكون في رمضان، ولعل خير أوقاتها فيه الهزيع من الليل واللحظات الأولى من الصباح. وإذا انضم إلى الترتيل محاولة الفهم والتدبر، وإطالة الوقوف عند آيات الذكر الحكيم، لم يعدم القارئ أن تتفتح له أبواب من أسرار الكتاب ربما ظلت مغلقة دونه طول العام.

كنت منذ ليال أقرأ سورة النساء، فلفت نظري في كثير من أجزائها تلطف البارئ جل وعلا في خطاب عباده، وتعقيبه على آيات التشريع والتعليم بآيات تفيض رأفة ورحمة، وتمزج سلطان المشرّع بألطاف الوالد الودود. فقد فصلت السورة في أولها طريق معاملة اليتيم، والقيام على ماله، وحدودَ الميراث، وشرائع الزواج، وآداب الحياة الزوجية وما يعرض لها من مصاعب ومزالق. ثم عقّبت على ذلك بقوله تعالى: (يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سُنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله غفور رحيم. والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً. يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً).

فالوضع — إذن — ليس وضع مشرّع متجبر، يفرض الأحكام فرضاً، ويمليها إملاء، ويؤكدها بضروب الإنذار والتهديد. ولكنه وضع خالق رءوف رحيم بعباده، يريد ليبين لهم ما خفي عليهم من مصالحهم، ويهديهم صراط من تقدمهم من أهل الرشد، وهو عالم بطبائعهم ونواحي الضعف في نفوسهم، يشرع لهم من الدين ما يهذب طباعهم، ويبرئ أدواءهم، ويرشدهم إلى سنن واضح في الحياة والاجتماع.

وقفت عند هذه الآيات وقفة أتبين فيها جميل أدب المولى مع عباده، وأذكر كيف تنبه المتصوفة والسلف الصالحون إلى أمثال هذه المواطن في القرآن، وكيف فهموا التشريع على هذا الأساس، فقدموا الروح على الظاهر، وغلّبوا جانب الود والقرب على جانب الخوف والتجارة في العبادة؟ وكيف تشبّه الأخيار من رعاة المسلمين بأخلاق الله، فساروا في رعيتهم لا سيرة الآمر الناهي، ولكن سيرة الوالد الصديق. ثم خطر لي وأنا سابح في تلك الذكريات أن هذه الروح يجب أن تكون دستوراً لكل راع مسئول عن رعيته، وأنها هي الروح التي تنشدها الإنسانية الحديثة كلما خطت نحو الكمال في دينها وحكومتها وقضائها وتعليمها وسياسة بنيها.

ويظهر أن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه كان ممن لفتت نظره هذه الآيات الثلاث، فوقف عندها وقفة المتأمل، ثم راح يتتبع مثيلاتها في سورة النساء حتى عدهن ثمانياً. فقد قال فيما روي عنه: «ثماني آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت؟ هذه الثلاث، و(إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَوْن عنه) و(إن الله لا يغفر أن يُشرك به) و(إن الله لا يظلم مثقال ذرة) و(من يعمل سوءاً يُجزَ به) و(ما يفعل الله بعذابكم..)؟

الإعجاب من ذلك كله، أنه كان رجلاً صادق الوعد، شديد المحافظة على العهد، يحترم في سبيل هذا العهد عدوه؟ ويتعلم هذا العدو فيما يتعلمه منه أن الصدق كياسة، والأمانة خير سياسة، وأن الشجاعة كلها في أن تلقى عدوك أقوى ما يكون استعداداً للقاء، وأن من الجبن والدناءة أن تأخذه على غرة أو تطعنه من وراء، ذلك أن آية الرجل الشجاع هي أنه لا يفرح لمنازلة عدو يكون أضعف منه..!

كذلك كان صلاح الدين مثلاً أعلى للمسلمين، وخصماً شريفاً للصليبيين؛ وكذلك كانت عظمته الخلقية والحربية التي بهرت أعين الناس في الشرق والغرب جميعاً؛ أما المسلمون فكانوا يتغنون بها، وأما الأوربيون فكانوا يكبرونها، حتى لقد شغلت هذه الشخصية الفذة، أذهان النساء المسيحيات في أوربا، فذهبن يحببنها، وطفقن يحلمن بها؛ واتخذ الأدب الأوربي من أحلامهن مادة فنية بها، وتلذذ الناس بقراءتها طوال العصر الوسيط.

عبد اللطيف حمزة

فأما الآية الرابعة (إن تجتنبوا ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » فإنها تجيء قريبا من سابقتها ، لتعقب على نهي المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل ، وأن يقتلوا أنفسهم ، ولتؤكد طابع الرحمة الذى ختم به هذا النهي في قوله تعالى : (إن الله كان بكم رحيما » ، ولتعد المؤمنين أن يمحو الله سيئاتهم إذا اجتنبوا الكبائر ، ويدخلهم فيما أعد لهم من النعيم مدخلا كريما .

وتجيء بعدها في سياق السورة آية (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) ، وهي واردة في صدد التحضيض على الإحسان إلى ذى القربى واليتامى والمساكين والجيران ، وذم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وينفقون أموالهم رئاء الناس . تجيء الآية الكريمة في هذا السياق لتدعو إلى الإنفاق الخالص دعوة رفيقة ، ولتعد على الحسنات أضعافها من الأجر العظيم .

وأما آية (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فترد أولا في الكلام على بعض أهل الكتاب الذين حرفوا الكلم عن مواضعه ، واستحقوا لعن الله إياهم بكفرهم ، ثم تتكرر في ذم من يشاقّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين . وهي تقرر في صراحة أن أكبر الكبائر الشرك بالله ، وأن ما عداه من الخطايا يهون بجانبها ، وأن الله إذا شاءت رحمته غفر ما دون هذه الكبيرة من الذنوب . والإشارة هنا كما ترى إشارة مطمعة من قادر كريم . ولقد كان بعض الصحابة يتحرجون أن يوجهوا انتباه المسلمين إلى هذه الآية حتى لا يتكلوا .

وتروى كتب التفاسير — في سبب نزول الآية السابعة — أن أهل الكتاب والمسلمين راحوا يتفاخرون ، أولئك بسبق نبيهم وكتابهم ، وهؤلاء بأنهم أوتوا خاتم الكتب وخاتم الأنبياء ، فنزل قوله تعالى : (ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب . من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ؛ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) . ولقد كان الجزء الأول من هذا الوعد كافيا في إزعاج بعض أصفياء القلوب من المسلمين كأبي بكر — إذ يروى أنه لما سمع الآية قال : «فمن ينجو مع هذا يا رسول الله !» . فقال صلى الله عليه وسلم : « أما تحزن ؟ أما تمرض ؟ أما يصيبك اللأواء ؟ » قال : « بلى يا رسول » . قال : « هو ذاك » . وأما الجزء الخاص بالصالحات فهو وعدٌ كريم متفضل واسع العطاء لا يظلم عبده مثقال ذرة أو قدر نقير .

ويتجلى في الآية الثامنة غنى البارى وتعاليه عن النفع والضر ، وتنزهه عن النقمة والتعذيب إرضاء لجبروت أو إشباعا لسلطان . يقول جل شأنه : (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ! وكان الله شاكرا عليما) .

وبعد ، فهذه الآيات الثمان في سورة واحدة من سور القرآن تؤلف أساسا صالحا لفهم سياسة الثواب والعقاب فيه ، وإدراك روح الشرائع والحدود التي جاء بها ، وتهدى بصيرة العبد المؤمن إلى ألطاف الله ومنافذ رحمته ، فتفتح أمام عينيه آفاقا فسيحة من الرجاء تعينه على صالح العمل .

محمد خلف الله

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
....
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العدد ١٥ مليما

حكم في القضية رقم ٢٣١٢ سنة ١٩٤٢ عابدين العسكرية بتغريم كل من فؤاد محمد ناصر وعبد المنعم محمد ناصر خمسين جنيهاً ونشر الحكم في جريدتي المصري والثقافة على نفقة المتهمين وتعليقه على محلهما والقسم التابع إليه لمدة ثلاثة شهور وإغلاق المحل أسبوعاً ومصادرة الزيت موضع الجريمتين لأن الأول امتنع عن بيع الزيت والثاني باع الزيت بأزيد من السعر المحدد

هـــــدنة

[كاتب هذه الرسالة السكاتي سير « إدوارد هوس » ، وهو اسكتلندى ، خدم الجيش فى الحرب الماضية سنة كاملة ، جرح خلالها مرتين . وقد حارب الألمان فى أكثر من ميدان واحد ، وبرهن فى نضاله على شجاعة فائقة ووطنية نادرة ، استحق عليهما رتبة عالية ومركزاً ممتازاً . وفى ميدان الشرف خرّ صريعاً من رصاصة طائشة أصابت منه مقتلا ، ولم يتجاوز إذ ذاك الخامسة والعشرين من عمره . فذهب مبكياً عليه من جنوده ورؤسائه ، مأسوفاً عليه من أمته . وكان ذلك فى فجر اليوم الثانى عشر من شهر مارس عام ١٩١٥

وفيما يلى خطاب موجه منه إلى أمه يصف لها فيه عيد الميلاد فى ساحة الوغى .

وقد نشرته أمه بعد وفاته لما فيه من غرائب . ولولا مركز كاتبه ورواية بعض الشهود لما صُدّق ما جاء به ، ولاعتبرت حوادثه من نسج الخيال] .

٢٨ من شهر ديسمبر سنة ١٩١٤ .

أمى العزيزة .

لقد رجعت توا إلى الخندق بعد أن قضيت يومين من أعجب ما مرّ بى فى حياتى ! أراك قد انزعجت ، ولكن صبراً يا أماه . فقد كانا يومين هادئين انتزعا نزعاً من بين أيام قاتمة مكفهرة ملؤها الصواعق المدمرة .

كان ذلك فى صباح اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر . كانت أصوات المدافع لا تزال تتجاوب من حين لآخر بيننا وبين العدو ، فتحدث قنابلها دويا يصم الآذان . وفجأة وفى جو معكّر بالغبار والسحاب ظهر فى الأفق البعيد من بين خنادق الأعداء أربعة من جنود الألمان مجردين من السلاح ، مشوّحين بأيديهم فى الفضاء ، ميممين شطرنا . لقد ذهلت حقا يا أمى العزيزة ! إذ لم أك أعرف أن الألمان يستعملون بهذه البساطة وعلى هذه الصورة ، لا سيما وأن مراكزهم كانت فى ذاك الوقت سليمة متينة .

أعطيت الأمر بوقف القتال فى الحال وذهبت لمقابلتهم ، وما زلت ، بينى وبين نفسى ، فى حيرة من أمرهم . كانوا جنوداً من جنود المراسلات الحربية ، وقد عرفتهم من زيهم الخاص ... وقفت حازما أمامهم مستعدا لسماع رسالة قائدهم ، بينما كنت أشعر بوقع النظرات الحائرة التى كانت ترسلها إلينا جنودنا من بين شقوق خنادقهم .

« عيد سعيد يا سيدى الضابط . لقد جئنا لنتمنى لك ولجنودك أسعد الأوقات ! » .

وعندما استفسرت منهم عن سبب مجيئهم قال أحدهم : «أولا تدرى ياسيدى أن اليوم يوم عيد؟! يوم ميلاد المسيح ، يوم يجب فيه أن تتصافى القلوب وتتصافح الأيدى ! ثم أخبرنى بربك ، ماذا يُغيِّر وجه التاريخ إذا تأخرت نتيجة الحرب أو تقدمت يوما أو يومين عن نتيجتها المحتومة؟ أعترف لك يا سيدى أننا — معشر الألمان — لا نحمل فى نفوسنا إزاءكم إلا كل محبة وإعجاب . إننا مسوقون فى هذه الحرب الضروس رغم قلوبنا ورغم عاطفتنا . ولولا أوامر القيادة المقدسة لأطعنا نداء الضمير ... » .

حقا ! لقد أنستنى الحرب ومشاغلها أن اليوم يوم مقدس ، له رهبته وواجباته ، له قدسيته وحقوقه ...

تحدثنا زهاء نصف الساعة ، ثم رافقتهم حتى خندقهم بعد أن وافقتهم مبدئيا على وقف القتال حتى آخذ الرأى النهائى من مقر القيادة العليا . وعندما قفلت راجعاً إلى مركزى بالخندق وجدت فى وجوه جنود فرقتى أعينا حيرى تكاد تلتهمنى بأسئلتها . ولولا احترامهم لى وخوفهم من إحراجى لانهالت علىّ الأسئلة من كل صوب ...

ذهبت إلى مركز الإدارة . وعند أوبتى فى الساعة العاشرة سمعت ، لشدة دهشتى ، ضوضاء وهتافات ارتفعت إلى عنان السماء .

يا لها من مفاجأة ! .. تصوّرى يا أماه مئات من الجماعات قد انتشرت هنا وهناك يتضاحكون ويمرحون إنجليز وألمان واقفون جنباً إلى جنب يتبادلون الصور

والتذكارات العائلية ، ويتواعدون على الزيارة بعد نهاية الحرب ! لقد شربوا في هذا اليوم السعيد نخبنا . ولقد شربنا من نبيذهم المعتق نخبهم . والعجيباه ! كان ميدان القتال الذي كنا نتنازعه من أسبوعين ملكاً لنا جميعاً نطؤه بأحذيتنا متكاتفين . . . متحابين .

إنه حلم ساعة ... إنها سحابة صيف .. سوف يتبعها صراع هائل وزلزال في الأرض ورجوم من السماء . . . كنا ننسى أو نتناسى أنه ليس ليومنا غد ولا لليلنا صباح . ورغم هذا كنا نشعر بالسعادة . وقد شاركتنا الطبيعة في سرورنا فأرسلت علينا أشعة دافئة من شمسها غمرت الأرض فألهبت قلوبنا وأشعلت عواطفنا . . . كان كل شيء على الأرض يبعث في النفس شيئاً من البهجة والسرور والانشراح . وفجأة ظهر علينا من طرف السماء طير كان السكون قد أذهله فجاء حذرا يستطلع الخبر ... كان صوت القنابل قد أفزعه ففرّ هنا ينشد الأمان في غير جوّه . ولما استتب الأمر وسكتت المدافع عن مقذوفاتها ، جاءت تلك الطيور فرحة مستبشرة ترقص من حولنا ، فقذفناها بفتات الأطعمة . وكم ضحكنا من منظر غراب أسود اللون كان قد اختطف قطعة كبيرة من الخبز وطار بها ليأكلها وحده داخل فوهة مدفع من مدافعنا !

كان قد اقترح أحد جنودنا أن ننتهز تلك الفرصة لحفر قبور لموتانا وموتاهم ، وأن ندفنهم في منتصف الطريق بين الخنادق . وكان عملا شاقا تعاونا عليه وأتممناه قبل حلول المساء . . .

وقد مرّ علينا الليل بسلام لم نعرفه منذ أن نشبت الحرب ، نعمنا فيه بكل لحظة من لحظاته .

ولما أطلت الشمس من خدرها مؤذنة باستئناف القتال وجدتنا لا نزال نغط في الكرى نهبا لأحلام ممتعة . . .

* * *

بالأمس كان الألمان قد وعدونا ألا يستأنفوا القتال حتى ننذرهم نحن بأول طلقة من جانبنا ؛ فكان ناقوس الإنذار في أيدينا نطرقه وقتما نشاء . والآن وقد انتهت مدة الهدنة وانقضى يوم الميلاد على تلك الصورة التي رويتها ، كان علينا أن نتحفز لأول وثبة وننذرهم بعزمنا على ذلك . ولكن ! وقبل اللحظة الرهيبة ، رأيت الألمان قد خرجوا من خنادقهم مهللين فرحين ، وفي عزمهم مد أجل الهدنة ووصل اليوم بالأمس . كان الأمر محيّراً مربكا ، خشيت منه المسئولية وتبعة عملي . وعندما اجتمعنا بالألمان حددت لهم منتصف الليل ميعاداً لمباشرة القتال واستئناف النضال .

وبعد ، فها أنذا – يا أبي العزيزة – أنتهز هذه الفرصة فأكتب إليك هذه الرسالة ، والوقت يمر علينا سريعا ، واليوم يقترب من نهايته .. فإلى اللقاء في يوم يكون سلام دائم قد استتب على الأرض ، وانتشرت في النفوس روح الوفاق والتراحم والسلام .

محمد أحمد أمين

وحدى

مالى وللناس ، هل قوّمتُ من أوَدِ ؟
وهل وددتُ صلاحَ الأنفسِ الشُّرُدِ ؟

ماذا علىَّ إذا ما خاننى سببٌ ؟
لا الأمرُ أمرى ، ولا الأقدارُ طوعُ يدى

الأمرُ إن جَهِلَ الأقوامُ أو عَقَلُوا
للهِ ، سُبحانَهُ من (واحدٍ صمدِ)

وحدى وُلدتُ ، ووحدى عشتُ مُنفرداً
ولن يكونَ معى إن متُّ من أحدِ

ولى بنفسى شُغُلٌ إن عشتُ قدماً
عن والدٍ كانَ يرعانى ، وعن ولدِ

مالى سوى عملى ، لا شىءَ يشفعنى
غيرُ الذى كانَ من خيرٍ ومن رشدِ

وحدى حملتُ صروفَ الدهرِ فادحةً
ما خاننى منكبى فيها ولا عضدى

وحدى بليت بنفس ليس يعجبها
ما يعجب الناس من رأى ومعتقد
ولا يطيب لها إلا الذى كرهوا
من مركب خشن ، أو مطلب نكد
وحدى شقيت بهذا الشعر أجمعه
أحدوثة الدهر ، أو أنشودة الأبد
يجيء شعر أناس ، وهو مرتحل
فى الأرض من بلد ناء إلى بلد
أصونه من شعاع ليس يحجبه
ستر من الحقد ، أو سور من الحسد
وحدى وفيت بعهدى ، والوفاء أذى
يجنى على الروح ما يجنى على الجسد
كان الوفاء غريبا خان مرجعه
فانصاع غير ذميم ، ثم لم يعد
أبقى له أثرا ينساب ملء دمى
نارا ، ويعمن فى قلبى وفى كبدى
يا نار لا تخمدى ، بالله يا كبدى
زيدى أسى وجوى ، يا قلبى اتقد
من كان يخشى وراء الموت متسعا
يبغى البقاء ، فإنى غير متئد
ما ضقت بالعيش ، إلا أن لى أملا
عند المجرة ، لم يصدر ، ولم يرد
أهم بالأفق الأعلى ، وقد عقدت
مثنى الجناح يد جنية العقد
لى مطلب أعناه فتذهب لى
فيه المنى شططا حتى أقول : قدى
أين الرفاق ، أما تدنو منازلهم
لوالِه النفس ، حران الفؤاد صد ؟
وحدى بقيت أعانى الهم منفردا
والهم حولى ركام غير منفرد
أعده ، وهو شتى ، لا يحيط به
علم الحساب ، وما يحصيه من عدد
هل عند راقد هذا الليل من خبر
عن ليل منتفض الجنبين مرتعد ؟
لا يستقر ، وما ينفك مضجعه
يرتج من نصب آنا ومن صعد
يكاد يقذفه لو خف جانبه
لكنه مثقل بالهم والكمد
وحدى سهرت ، ووحدى ذبت من أسف
كذلك الحب لم ينقص ولم يزد
لى صاحب — لا أطال الله غيبته —
يقول : ليتك لم تفعل ، ولم تكد
لا تبتئس بفراق سوف يعقبه
من اللقاء زمان واسع الأمد
سألته ما يرد النفس إذ ذهبت
فيه شعاعا ، فلم يجمل ولم يجد
وحدى طفقت أغنى ، ما درى أحد
ماذا أردت ، وماذا دار فى خلدى
فقائل : ما له ؟ هل هاجه طرب
وقائل : يا له من طائر غرد
ما لك ذا الجهل فيما ليس يعلمه
ولا خيفت بقول الزور والفند
لو كان للعلم سلطان يؤيده
لم يغلب الجهل فى الدنيا ولم يسد
ولو علت دولة الأخلاق ما اضطجعت
دنيا الشعوب على الأركان والعمد
كأنها لم تقم ثمة راسية
لو مادت الراسيات الشم لم تمد
ليت المعاول إذ هدت جوانبها
هدت قوى الشر من شتى ومن حشد

أحمد محرم

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردادي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٩٩٢/٥ ٦٧٦٩/٥

العدد ٢٤٨ — الثلاثاء ٢٨ من رمضان سنة ١٣٦٢ — ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العــــدد

حديث رمضان :

الحياة الروحيـة

— ٤ —

سعة النفس :

تختلف النفوس سعة وضيقا كما تختلف الحُجر والمنازل والأماكن ؛ فمن الناس من تضيق نفسه حتى تكون كسَمّ الخياط ، ومنهم من تتسع نفسه حتى تشمل العالم وما فيه .

تولد النفس ضيّقة شديدة الضيق ، ثم كل تجربة من الحواس الخمس توسع دائرتها ، وكلما زادت تجاربها زاد اتساعها .

وفائدة التربية توسيع النفس . فكل موضوع نتعلمه يزيد في اتساع نفسنا كما يزيد في اهتمامنا . فإذا قرأنا التاريخ — مثلا — قديمه ووسطه وحديثه زاد شعورنا بالأجيال المختلفة على تعاقبها ، واتصلت نفوسنا بالعالم على توالي العصور ، وارتبطت بعظماء الرجال على نحو ما ، فكان ذلك كله عنصراً هاما لسعة النفس ؛ وكذلك درس النبات يزيد اتصالنا بعالم النبات ويخلق فينا عينا جديدة نقرأ بها في النبات وأنواعه وتطوره وحياته مالم نكن نقرأ ، فتتسع نفوسنا من هذه الناحية اتساعا يجعل علم النبات جزءا منا ؛ وكذلك الشأن في كل علم من جيولوجيا وفلك وطبيعة وكيمياء ، كل علم بشيء يبعث موجات لاسلكية من الأشياء المعلومة ويجعل من نفسنا جهازا مستقبلا لها ، وعلى قدر علمنا بالعالم حولنا تكون سعة نفسنا ، وتكون مقدرة استقبالنا للموجات ، ويكون تجاوب نفسنا مع العالم .

وكما تتسع نفس الإنسان بعلمه بالشيء ، تتسع قدرته ونفوذه ؛ فالمهندس يرى في الأبنية ما لم نر ، ويقرأ فيها من أحجارها وأخشابها وأوضاعها ما لم نقرأ ، ويستطيع أن يتخيل من الصور والأبنية والأشكال ما لم نتخيل ،

ويُخرج إلى الوجود من المشروعات والتصميمات مالم نستطع ؛ وشتان بين موسيقى يدرك أدق شيء فيما يسمع ، ويُصغي إلى نفسه فيستخرج من الألحان ما نُعجَب به ، وبين من ليس له أذن موسيقية فلا يميز بين صوت وصوت ، فضلاً عن خلق ألحان جديدة !

هناك وسائل كثيرة لتوسيع النفس ، أكثرها شيوعاً مزاولة الأعمال المادية مهما اختلفت هذه المادة ؛ فالنجار في نجارته ، والحداد في حدادته ، والتاجر في سلعه ، والزارع في زرعه ، كلٌّ يوسع نفسه ونفوذه في ناحيته ، فممارسته العمل تنمي خياله في موضوعه فيحلم بأشياء في ذهنه يستخرجها إلى حيِّز الوجود بعمله ، وكل التحسينات في الصناعات ناشئة عن هذه السعة في النفس التي تنميها قوة الخيال وإصلاح الإنتاج .

وكل ما يباشره الإنسان ويتصل به يكوّن جزءاً من نفسه ؛ فبيتك الذي تسكنه وأثاث منزلك ومالك وثروتك كل هذا يتحد مع نفسك ويكون جزءاً منها ، من تعدَّى عليه فقد تعدى على نفسك ، ومن عاب بيتك أو أثاثك أو صناعتك فقد عاب نفسك ، ومن مدحها فقد مدح نفسك ، وهكذا .

وهكذا الشأن في المعنويات ، فمن ضروب توسيع النفس وسعادتها اتصالها بنفسٍ مثلها ، فقد تشعر النفس بضيق وظلام حتى تجد نفساً تألفها ، فتشعر بالسعة بعد الضيق ، والنور بعد الظلمة ، وتشعر بلذة التجاوب بين النفسين ، والتناغم بين الروحين ، وهذا هو سر السعادة في الصداقة ، والسعادة في الحب ؛ فالنفس تشعر بسعتها ، وأن نفساً أخرى انضمت إلى نفسها وتكوّنت منهما وحدة ، تسعد كلٌّ بسعادة الأخرى ، وتكمل كلٌّ نفس الأخرى ، وتستمد كل نفس قوة من النفس الأخرى ، وربما استطاعا بامتزاجهما أن ينتجا شيئاً لا تستطيع أن تنتجه كل منهما ولا هما معاً غير ممتزجين ، كالعنصرين يمتزجان فيكوّنان عنصراً جديداً ليس أحدهما وليس هما معاً متفرقين منفصلين . وعمل الأنبياء والمصلحين أن يوحِّدوا الغرض بين النفوس ، ويعملوا بتعاليمهم على توحيدها ، فإذا الجمعية الأولى الملتفة حول النبي أو المصلح متحدة كأنها نفس واحدة ، واسعة لأن كل نفس تشربت سائر النفوس ، وإذا ما يصدر عنها مجتمعةً يستدعي العجب .

ومما ينشده كبار المصلحين المتفائلين في العالم تحقيق نظم اجتماعية وسياسية إنسانية تدرك هذه الحقيقة ، فتوسِّع النفوسُ بالتوحيد بين أغراضها ، والتأليف بين قواها ، والقضاء على عناصر التفريق من وطنية وعصبية ودينية وقومية وجنسية ولغوية ، حتى تتسع النفوس إلى أقصى حد ممكن ، وتتجه كلها لخير الإنسانية على السواء ، وإذ ذاك يقفز المجتمع الإنساني والمدنية قفزة لم يرها التاريخ ، لأن التاريخ في جميع عصوره كان معوَّقاً بالعصبيات القبلية والقومية ، والحدود الجغرافية ، والنزعات الوطنية والجنسية ، والخلافات الدينية ، وكلها مظاهر لضيق النفس .

ومن مزايا الدين توسيع النفس ، وهو ما عبر عنه الإسلام بانشراح الصدر ، ولعلك صادفت في حياتك أناساً ضاق صدرهم ، وتغلب عليهم الشعور بأن القدر يعاكسهم والحظ يعبس في وجوههم ، وأنه كلما سلكوا طريقاً سد أمامهم . إن الدين كفيل بإزالة هذا الشعور ، وانشراح الصدر وسعة النفس ؛ فالمؤمن يشعر شعوراً عميقاً بأن قوة تؤيده وتكتسح الصعاب أمامه ، وهو يشعر بانهدام السدود والحدود في طريقه ، وهو يشعر بانعدام الزمان والمكان بضمه عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، واتصال الحياة الأخرى بالحياة الأولى ، فهو واسع الرجاء ، لا يعوق نظره عائق ، ينجذب إلى عالم علوي فيه السعادة وفيه الرضا والطمأنينة . الدين الحق يغير النفسية فينقلها من عالم ضيِّق محدود إلى عالم فسيح غير محدود ، كالذي حدث في عُبَّاد الأصنام في الجاهلية لما انتقلوا إلى الإسلام ، فشتان بين

أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وأبي عبيدة وخالد بن الوليد الجاهليين، وبينهم أنفسهم وهم إسلاميون! ما أضيق نفسهم في حياتهم الأولى وما أوسعها في الثانية! وكما أقامهم الدين سعة نفس أقامهم قوة نفس؛ فمحال أن كان الجاهليون من العرب يفتحون ما فتحوا وينتصرون ما انتصروا إذا بقوا على دينهم الأول، ولو تجمعوا حول قائد حربي كبير؛ فإن انتصارهم يرجع إلى سببين كبيرين: التوفيق في اختيار قوادهم، وأهم من ذلك العقيدة بأنهم مؤيدون بقوة من عند ربهم. الدين هو الذي فتح أمامهم الأفق، وملأهم روحا للعمل؛ بل هو الذي غيّر موقفهم نحو الحياة، فجعل من الجبان شجاعا، ومن البخيل سمحاً، ومن الشك يقيناً، ومن الجزع ثباتاً — قد كانت النفوس قبله مكبلة ببعض أوهام من غضب الصنم ورضاه، ومن عادات وتقاليد تشل العقل وتقيد الروح، فلما آمنت بأنه واحد فوق كل شيء يرضيه الخير ويغضبه الشر، سمت سمواً كبيراً. وفساد الدين يأتي من التعاليم التي تضيق النفس، وتحجبها عن عالمها العلوي الفسيح — فالنفس إذا اعتقدت في الخرافات ضاق حيزها، وإذا امتلأت رعباً وفزعا من النار وعذابها ارتبك حالها.

ومن أكبر ما أفسد الدين — في نظري — تزمّت رجال الدين ومبالغتهم في وصف الله — تعالى — وصفاً مخيفاً مرعباً، بدل أن يصفوه — كما وصف نفسه — رحمانا رحيما يعفو عن كثير. وقادهم هذا النظر إلى التخويف من كل نعيم الحياة، حتى قالوا إن الضحكة يؤاخذ عليها، والأكلة الطيبة موضع الحساب، ونادوا أن لا غناء، ولا فرح، ولا سرور بالحياة — ما هذا كله؟ وكل ذلك يفسد النفس ويخلق منها مزاجا سيئاً لا يصلح للحياة! إن الدين الحق يفتح للحياة الدنيا كما يفتح للحياة الأخرى، ويكون أساسه حب الله الذي يحب الناس، وأن في الدنيا جنة وفي الأخرى جنة. إن التزمت في الدين مغالاة في الحكمة حتى تعود سخفاً، وحتى تحطم الحياة. الدين الحق يُدخل السرور على القلب والنشاط على النفس؛ أما الحزن والخوف فيضيق الصدر، ويشل النفس، ويبعث السأم — أصبحت الصورة التي رسمها رجال الدين للمتديّن — مع الأسف — صورة رجل متكس الرأس تواضعاً، مملوء القلب رعباً، زاهد في النجاح في الحياة الدنيا طمعاً في الحياة الأخرى، مملوء النفس بالكرب خوفا من الموت وما بعد الموت، راغب عن متع الحياة، شديد المحاسبة لنفسه في كل ما يأتي وما يذر، عابس في وجه الحياة خوف أن تشغله، منهمك في العبادة غير عابئ بحقوق الناس، يفر من الصوت الجميل، ومن الملبس الجميل، والنظافة الجميلة، والفكاهة الحلوة، إلى نحو ذلك.

وهذه الصورة التي رسمها بعض رجال الدين وزادوا فيها على اختلاف العصور تفضي إلى رجل ضيق الأفق حرج الصدر لا يصلح للحياة، يُستغَل ولا يَستغِل، ويُحكم ولا يَحكُم، ويذِل ولا يعتز، وفي ظنه أنه يشقى في الدنيا ولا يسعد في الآخرة؛ فلو أراد الله منا العمل للآخرة وحدها لاستغنى عن وجود الدنيا واختصرها — إنما الصورة الصحيحة للرجل الصالح رجل أحب الله أكثر مما خافه، وأحب الناس من حبه لله، وتفتحت نفسه للدنيا كما تفتحت للآخرة، ربط دينه بإسعاد الناس والتخفيف من متاعبهم، يضحك ويواسي، ويصلي ويتقن عمله، ويحسن علاقته بالله وبالناس، ويبسم للحياة ولا بأس بالموت إذا الموت نزل، ويرى الخير في أن يكون في الصدر في الدنيا وفي أعلى عليين في الآخرة، ويرفع رأسه في الدنيا لأن ذلك مقرون برفع الرأس في الآخرة، يوسع نفسه حتى تحتضن الإنسانية بأجمعها والكون وما فيه، يعتقد أن الدين في القلب لا في المظهر، والدين المعاملة لا العبادة وحدها، وأن خير الناس عند الله أنفعهم للناس — وقد كان هذا هو الدين الأول قبل أن يفسده المخرّفون، وكانت هذه هي صورة التديّن قبل أن يشوهها المتأخرون. لو كان الدين

أتى أوله يمثل ما أتى به آخره ما تحرر أهله ، ولا انتصروا ولا غزوا ، وكانوا طعمة لجيرانهم ، أذلة فى أنفسهم . إن الصورة الأولى التعيسة تملأ النفس شعوراً بالضعة ، وكما يعبر علماء النفس الآن تزيده شعورا « بمركب النقص » ؛ بينما الصورة الثانية تبعث على التسامى . ومركب النقص يفقد الثقة بالنفس وبالرب ، والتسامى يبعثها . إن للنفوس قوانين طبيعية لا تتخلف : احرم النفس طمأنينتها واملأها رعبا وجردها من متع الحياة تفقد احترامها وقوتها ، وأمدها بالمال الذى يلزمها وأصلح الظروف التى تحيط بها تنفتح وتحس القوة والعظمة . واعتقاد النفس فى إله مخيف ليس كاعتقادها فى إله محب رحيم ، وشتان بين شعور ابن نحو أب يحب ويرحم ، ونحو أب يخيف ويرعب .

إن الدين الصحيح يغذى الشعور بالتسامى والتفوق ، ويعالج الشعور بالنقص ، والدين إذا فسد كان على العكس . الدين الصحيح ينقل النفس من الماليخوليا والرعب إلى الطمأنينة والسعادة — إنه يوسع النفس حتى ترى بينها وبين الناس كلها ، وبينها وبين المخلوقات كلها نسبا كنسب الأسرة الواحدة ، ربها الله .

ويحدث فى النفوس العظيمة أن تتصل بعالم غير منظور فيتسع أفقها اتساعا مضاعفا — وهى ظاهرة من الصعب إنكارها ، وإن عز على العلم شرحها . وما نسميهم بنوابغ العالم وعظمائه من هذا القبيل ؛ خلقت نفوسهم ولها الاستعداد والقدرة على هذا الاتصال ، حتى لنرى هذا النوع فى كبار الأدباء والفنانين ، يتعرضون لكتابة كتاب أو تصوير فكرة فيرتج عليهم ويصابون بالعقم ، فما هو إلا أن يشعروا بأرواحهم أن بابا كان مغلقا ثم انفتح فجأة ؛ فاتصلت نفوسهم بعالم غير عالمهم ، ورأوا ما لم يكونوا يرون ، وتدفقت عليهم الإلهامات والمعانى والأفكار ، حتى كأن الرواية أو الكتاب أو القصيدة أو الصورة الفنية أو القطعة الموسيقية تكتب نفسها ؛ وهؤلاء يعالجون التعرض لهذا الوحى بأشكال شتى ، ومعالجات نفسية يستطيعون معها أن يستقبلوه ، إما بنوع من التراخى والاستغراق ، وإما بالتفكير فى فكرة نبيلة ، أو بقراءة كاتب ملهم مثلهم وتركيز النفس فيما كتب ، أو نحو ذلك . وليس أحد منا إلا من قرأ أو جالس عظيما فعجب كيف اتسعت نفسه هذه السعة ، وكيف تتدفق منه الأفكار والآراء كأنها وحى مُنزل ، وتتفق عليه القوة حتى يُعْدِى بها من قرأه أو سمعه . وعظماء رجال الدين من هذا القبيل تتسع نفوسهم لاتصالها بعالم روحى لا يقاس به عالم المادة . ويكاد يكون عند كل إنسان نوع من الاستعداد لهذا الوحى ، ولكن الفرق بين النفوس كالفرق بين حبة ظلت حبة ، وحبة وجدت جوّها وغذاءها فأخرجت جذورا وجذعا وأغصانا وأزهارا وأثمارا . والتربية الصحيحة وتعاليم الدين الصحيحة هى التى ترقى النفوس وتغذيها وتجعلها أقدر على أن تكمل نفسها وتوسع أفقها .

وليكن هذا آخر أحاديث رمضان ، وكل عام وأنتم بخير .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٤٥	فى مصر والسودان
٣٧/٥	لطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

شر في الفراو

الجثة الجوالة

في ولاية وَشِنْجِتُن ، غير بعيد من عاصمة الولايات المتحدة ، تجد بيتاً قائماً على جبل ، يُطل على نهر بوتوماك ، وهو النهر الشهير الذي يروي العاصمة . وهذا البيت بناء طويل قصير ، من الآجُرِّ الأحمر ، وهو قديم عتيق ، ولكنَّ له في قِدَمه وعتاقته روعةً وجمالا . وهو في هذا القدم وهذه العتاقة فريدٌ وحيد بين معامل العصر الحديث في فخامتها وجدتها .

ولقد تجد في غير هذا المعمل من معامل ، مكتشفاتٍ خرجت منها أبعدَ مدى وأمسّ بحياة الكثرة من الناس مما خرج من هذا المعمل . ولكني لم أجد في أي معمل ما وجدت في هذا من رجال سَخِروا في سبيل واجبهم بالموت سخريةً راعتني فأدهشتني ، ولكنها كذلك فتنتني . وما هؤلاء الرجال إلا رجالا عاديين بسطاء ، ولكنهم كفِرَق الحريق ، مُرهَفةٌ آذانهم دائماً لسماع دقة الناقوس لينهضوا لإطفاء الحريق هنا ، أو إطفائه هناك ، وهم في سبيل هذا عرضةٌ لأن يستنشقوا من هذا الموت أو ذاك .

ومِثلُ الموت التي يكافحونها ليست من كُبريات العلل التي تَبهر الخيال ، وليست هي مما يُبذر السواد الكثير من الناس . وهي إذ تقتل لا تقتل في الغالب من ذوي الخطر والسلطان . ولكن بين رجال هذا المعمل ، بين عصبة هذا البيت الأحمر ، عهدٌ مفهوم ، لا هو بالمنشور ولا هو بالصريح المنطوق : أنه من الضروري ، بل من المحبَّب المرغوب أيضاً ، أن يُعرِّض الباحث حياته للخطر في سبيل استكشاف أوبئة صغيرة لا تؤثر تأثيراً كبيراً في وَفَيات الأمّة عند الإحصاء .

أما اسم هـذا المعمل فهو المعمل الصحيّ Hygienic Laboratory ، وهو يتبع وزارة الصحة في الولايات المتحدة .

ويجيء ربيع عام ١٩٢٢ ، فيأتي من الوزارة أمر إلى أحد رجال هذا المعمل ، واسمه اسْپِنسر ، أن يتوجّه من شرق الولايات إلى غربها — من ولاية وَشِنْجِتُن ، حيث العاصمة ، على مقربة من المحيط الأطلسي ، إلى ولاية « مُنتانا » ، على مقربة من المحيط الهادي . ففي غرب هذه الولاية نهر يدعى بطروط Bitter Root . وفي وادي هذا النهر تفد وافدةٌ فظيعة كل عام ، عندما ينبثق ربيع الأرض من ربيع الحياة ، فتقتل نفراً من صيّادي هـذه الناحية ورعاة أبقارها شرَّ قِتلة . فإلى هذا الوادي أُمِر صاحبنا أن يرحل ليكشف سرَّ هذه الحمّى المهلكة . وقد أسموها حمّى جبال رُوكي Rocky Mountain fever ، نسبةً إلى سلسلة من الجبال شهيرة تجري في تلك الولاية . وقد أسموها الحمّى « البقَعة » لبُقَعٍ تظهر على جلد صاحبها ، وأسموها كذلك الحمى السوداء .

ولكن لماذا يرحل اسپنسر ، أو غير اسپنسر ، إلى ذلك الوادي أو تلك الجبال ، فيضيّع وقته سُدًى لحل مشكلة تلك الحمى ، وهي لا تقتل في العام من أهل هـذا الوادي السعيد غير نفر قليل أكثرهم من رجال الجبال ؟

قال أحد أطباء هذا الوادي غاضبا : « وما خطر هذه الحمى حتى تُبعَث لبحثها البعثات ؟ إنها تقتل من الناس في العام عددا دون الذي يموت من الحصبة في مدينة بَطّ » . وبط هـذه بلدة في نفس الولاية ، ولاية « مُنتانا » .

وسخِر أهل هذا الوادي السعيد ، وادي بطروط ، أن يكون في هذه الحمى ما يزعج سلام واديهم أو يفسد

رعاده ، وهو جنّة الشُّليك والأبقار .

بالطبع يجـد الواجد على سفح الوادى الشرقىّ بيوتا من خشب سكنها بعض رعاة البقر ، ثم خلت من بعدهم فظلّت أبوابها مفتوحة لا تجد لها مُغلِقا . وتهُبّ الريح على تلك الأبواب فتصفرّ صريرا يسمع فيه ذو الخيـال الناشح نُواحا تنوحه على أصحابٍ لها ذهب الزمان بهم ، وعقّ النسيان على ذكرهم ، دهتهم الحمى ، فما أسرع ما اسودّ لونهم وانطفأ باسوداده سراج حياتهم . ولكن أعداد هؤلاء كانت قليلة ، وخطرهم بين أهل الوادى مشكوك فيه . وإذن فما كل هذا الاهتمام بهذه الحمى !

ويجىء ربيع عام ١٩٢٢ ، فترى اسبنسر قاعدا فى « وشنجتن » يحزم للسفر أجهزة صيده الِكروب ، وزوجةٌ له وطفلين صغيرين . إن الحمى البقّعة حمّى على ضيق نطاقها كريهة لعينة . ففى بعض السنوات كانت تقتل كل من تصيب . وفى عام ١٩١٢ أصابت رجلا من وزارة الطلحة ، من وزارة اسبنسر نفسه ، فقتلته ، وكان يتصيّد أسبابها فى خليج سْويت هوْس Sweet House Creek . واسم هذا الرجل « مَكْلنتيك » Mc Clintic . وفى كل عام كانت تصيب الحمى العشرة فيموت منهم على الأقل ثمانية . ولكن مع هذا لم تصب الحمى فى العادة أكثر من عشرة فى العام الواحد . وإذن فما كل هذا الاهتمام بهذه الحمى !

وغير أنه بعد كان فى ولاية « مُنتانا » طبيب آخر يدعى « مَكْكْرى » McCray ، حاول أن يجد لواطنيه معقلا واقيا من هذه الحمى ، فاستيقظ ذات يوم على عين عزاء وألم فى النظام . ولم تمض عشرة أيام حتى ذهب إلى حيث ذهب « مكلنتيك » ، إلى حيث لا يرجع الذاهبون .

ومع هذا فمن بين أهل الوادى ، وادى بطروط ، معظم رجال محترمون يقولون ليس فى الحمى شىء يبرر كل هذا الصياح والضجيج ، وأن فى الصياح والضجيج عن هذه الحمى بشىء إلى التجارة وهى نافقة . وقالوا إن كل إنسان يستطيع ضمان الأمان لنفسه ما تجنّب بعض الوديان العميقة فى السفح الغربى من الوادى . وفى هذا الذى قالوه علمٌ صادق لا لغو فيه .

ويدخل القطار بلدة هَمِلْتُن Hamilton ، وفيه « اسْبِنْسر » ، الجراح الساعد سابقا ، والبحّاثة اليوم ، ومعه زوجته وطفلاه . ونزل من القطار فلم تتلقّهُ الطبول والزامير صدّاحة تُرحّب به وتؤهّل . وكيف تتلقاه طبول ومزامير وما هو إلا صائد مكروب صغير حقير كالعادة يعيث فى مرض قد لا يصيب فى العام غير خمسة من الناس . وأى ناس ؟ أولئك الذين يُضطرّون إلى الذهاب إلى تلك الوديان العميقة اضطرارا ، أوهم « لغباوة فيهم » يريدون أن يذهبوا إليها إصرارا .

ولا يلبث أولئك الناس أن يعودوا من تلك الوديان ، على السفح الغربى من الوادى ، حتى تظهر على أجسامهم بُقعٌ حُمْرٌ أرجوانية . ولا تمضى بضعة أيام حتى ينقلب صُراخ هذيانهم إلى حشرجة أنفاسهم ، ثم إلى سكونها فكأنما يد خفيّة أمسكت برقابهم تخنقهم خنقا .

ومن أولئك الناس الذين ذهبوا إلى تلك الوديان « لغباوة فيهم » ، كان أخو الحاكم نفسه ، حاكم الولاية ولاية « مُنتانا » . ذهب هو وزوجه يصعدان تلك السفوح وقد علاها جمال الربيع ، وامتلأت جداولها بالماء حتى تعثر فيها ورقا ، وأخذت أشجارها وهى حور تمتص الحياة صاعدةً لتتفتق فى رأسها عن براعمها الخُضر الأولى . وأصيب الرجل وزوجه فى تلك الجنّة الغنّاء ، وماتا فى عشرة أيام .

فى هـذه الجنة الخوّانة هبط اسْبِنْسرُ ، وهو حديث عهد بصيد الِكروب ، حديث عهد بكفاح الموت . ودار فى « هملتن » يبحث عن مكان ، على أى شكل كان ، ليتخذه معملا مؤقتا .

(يتبع) أحمد زكى

من مذكرات جحا :

جحا تاجراً

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة الذي زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

انتظرتُ الفرج طويلا ، ولكن لم تلُح لى منه بارقة بعد طول الانتظار ، فاضطررتُ بعد أن ضاقت الحلقات ، واستحكمت الشدة ، أن أمَلّ الانتظار ؛ ولم أجد ما أفرج به كربتى إلا أن أبيع بيتى — ذلك البيت القديم الذى خلفه لى الأجداد — والذى يحمل فى كل ركن منه ألوفاً من الذكريات الحلوة ، والذى يتمثل على كل جدار من جدرانه آثار لمس راحات الكرام الأماثل من سراة « ماهوش » الذين انحدرت دماؤهم إلىّ . ولقد كان بيع البيت القديم صدمة لم أقو على احتمالها ، فوقفت عند كل جذع فى الحديقة ، ووقفت عند الساقية المهدمة ، وعند الجرن الأجرد الفسيح ، وذرفت الدموع الغزار أسفاً وحزناً ، وسرت حوله ، فوقفت عند كل لبنة من لبنات السور المتهدم الذى لا يبلغ علوه ذراعا ، وجعلت أناجى النفس وأبثها آلامى وأندب لها سوء حظى ، وأنا لا أقدر على التخلص من الوخزات الأليمة التى تطامن قلبى كلما تذكرت أنى أنا الرجل الذى حمل الدهر من محنته أن يبيع هذا التراث العزيز الذى خلفه لى الأجداد .

نعم ، لقد بعتُ الدار العزيزة فوا أسفاه !

ولكنى عدت إلى نفسى ألتمس لها المعاذير ، فكيف كنت أقدر على أن أعيش ، وأن أنفق على أهلى وصغارى ، وأن أتجمل للضيف والقاصد ، وأحيى سنة الكرم فى بيت أجدادى ؟ كيف كنت أقدر أن أفعل هذا كله إذا أنا لم أبع هذا البيت ، بعد أن لم يبق لى من مال سواه .

النهاية ! فلأنس هذا الرزء ، فإن النسيان رحمة ونعمة .

وقد دبرتُ فى نفسى تدبيراً يعلم الله أنى كددتُ فيه عقلى وروحى ، وجمعت له حيلتى ومعرفتى . ولكن أنّى للإنسان أن يفلح فى تدبير أمره إذا لم يرد الله أن يدبر له أمره ؟ ! حاولت أن أصطاد بكدى رزقاً كما يصيد الناس أرزاقهم ، ونزلت إلى ميادين العمل كما ينزل إليها الناس فيصيبون منها ثمار جهدهم ، وزاحمت فى الأسواق كما يزاحم الناس فيها ولكن ذلك كله ذهب سدى ، وصح عندى ما قاله الشيخ القاضى — حرسه الله — واستقرت فى نفسى كلمته التى قالها لى منذ حين ، إذ قال : إن الذنب ذنبى ، وإن الأرزاق فى الدنيا موفورة لمن استطاع أن يقتنصها . كنت أنزل إلى السوق كل يوم ، فأخرج منها بصفقة المغبون ، على حين يخرج الناس منها بالخير والنال والكسب الوفير ، فلا بد أن يكون بى نقص يقعدنى عن مجاراة الناس فى قنص الخيرات والتقاط الثمرات . ولكنى لا أدرى ما هو ذلك النقص حتى أعمل جهدى فى مداواته والتخلص منه .

حسبتُ فى أول الأمر أن الذى يقعد بى هو الخمول والكسل ، فقضيت ليلى ونهارى فى سعى ، لا أبيح لنفسى أن تستريح فى ساعة ، ولا أن تفتر عن الحركة لحظة . ولكن الحركة المتصلة لم تعقبنى سوى التعب والإعياء . ثم حسبت أن الذى يقعد بى عن الربح هو قلة الاهتمام ، والتعالى عن المطامع المضطربة الصاخبة ، فحملت نفسى على أن تُقبل بكل ما فيها من رغبة على مطامع الحياة ، وأن تقتحم الزحمة مع المزاحمين ، فانشرح صدرى للتجارة وما فيها من عواصف ، وصرت أجد اللذة كلها فى البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، والمجاذبة والمساومة ؛ ولكن ذلك كله لم يجدنى شيئاً ، ولم أجن من كل جولاتى إلا تمزيق الملابس ، وإبلاء النعال ، وبحة الصوت . ولست أستطيع الآن سوى أن أبث آلامى لهذه الكراسة ،

فلا يسع مثلى بعد الخيبة إلا أن ينفّس عن صدره بالشكوى والإفضاء .

ذهبتُ أول يوم لأنظر فى السلع وأختار من بينها سلعة تصلح لأن أتخذها متّجرا لى ؛ وبعد تفكير وتردد اخترت أن أتجر فى الطنافس ، فإنها نظيفة لا يأنف منها الحس ، ولا ينفر منها الذوق ، ولا يتعفف عنها أصحاب المروءة ، ولا يستغنى عنها العظماء والأمراء .

ولما استقر رأيى على هذه النية ، ذهبت لأشترى طنفسة من تلك التحف الثمينة التى لا يقدر على صنعها غير أهل تبريز ؛ وحدثت نفسى بأنى أستطيع أن أبيعها إلى بعض الأغنياء من معارفى ، مثل القاضى — حرسه الله — أو المحتسب ، أو الوالى ، أو أحد القواد فى جيش السلطان ؛ وعللت نفسى بالكسب الهين من وراء هذه التجارة التى لا تزرى بالمروءة ، ولا تحمل المرء على مخالطة الأرذال .

ولم يطل بى البحث حتى رأيت طنفسة بديعة ، لم تقع عين من قبل على مثلها فى البهاء والحسن ، فكأن ألوانها قد خلست من رياض الربيع ، وكأن أضواءها استمدت من أشعة السماء وقت الأصيل إذا ما صبغت أضواء الشمس الغاربة أردان السحب ، ووشت أطرافها بكل باهر بارع من الألوان .

فوقفت حيال ذلك الجمال مأخوذاً لا أقدر أن أرد عينى عنه ، ولا أن أحولها عن تأمله . ومضى وقت طويل وأنا أتنقل بناظرى من زهرة فى النقوش إلى زهرة ، ومن قوس فى الوشى إلى قوس ؛ وضرب بى الخيال إلى بلاد قاصية أتت منها هذه الطنفسة البديعة ، فخيل إلىّ أنى أراها وهى لا تزال على نولها ، ولا تزال الفتيات يعقدن على خيوطها عقدة بعد عقدة ، فإذا هن أتممن ورقة من زهرة ، أو قضيباً من غصن ، امتلأت قلوبهن سروراً ، وفاضت نفوسهن تيهاً وعجباً ؛ فيقفن دون النول ويلحظنه من بعد ، ويملن رؤوسهن يمنة ويسرة لكى يشملن بلذة النظر الملىء إلى الآية التى أبدعتها أناملهن .

وتصورت هاتيك الفتيات وهنّ ما كففن على الطنفسة يعقدن فيها العقدة بعد العقدة ، وهن يتهافتن فيما بينهن بالضحك ، ويتساررن بالهمسات الخافتة ، يتحدثن عن أحلامهن وعن آمالهن ، ويتبادلن أشجانهن وعواطفهن . ثم تصورت إحداهن وقد بدا لها من وراء النافذة شخص لمع لمعة فى عينها ، فتركت العقدة التى بين أناملها لم تتمها ، وأسرعت إلى (المشربية) لتنظر من ورائها إلى الشخص الحبيب . وتدس عينيها فى الفرجات الصغيرة التى بين مخروطاتها الدقيقة ، لكى تتزود من النظر إليه بنظرة تظل لقلبها زادا ، حتى يطلع صباح اليوم الذى بعده ، فيمر الحبيب من وراء النافذة مرة أخرى . فإذا ما عادت الفتاة إلى الطنفسة لتعقد فيها عقدها كانت أناملها مضطربة وعقدها ملتوية ، ولكنها مع ذلك كانت تصور من تلك العقد الملتوية ، وبهذه الأنامل المضطربة زهرة ساحرة فى روعة ألوانها ، وحلاوة منظرها ، وانسجام خطوطها .

تصورت هذا كله وأنا واقف أنظر إلى الطنفسة ؛ ثم صحوت من تأملى ، فذهبت إلى صاحب الطنفسة وساومته فيها ، فوجدته حريصاً عليها ، فزدته فى ثمنها ، ولم أتردد فى أن أبذل له ما يطمعه فى بيعها ؛ وأى ثمن يغلو على طنفسة مثل هذه قد أودعت فيها حرارة الأرواح ونشوة الحب ، وعذوبة الأمانى ؟! وبعد لأى سمح التاجر فدفعها إلىّ ، ووزنت له ثمنها ثلثمائة دينار كاملة ، وحملتها وسرت بها وأنا أكاد أطير فرحا ، فقد خيل إلىّ أنى فزت من الرجل بصفقة ذات ربح مكفول .

ولكن واعجباً للناس ، وواعجباً لنفسى ! ذهبت أعرض الطنفسة على خيار القوم ، فعرضتها على القاضى ، وعلى المحتسب ، وعلى هؤلاء جميعاً ، فلم أجد فى كل من عرضتها عليهم رجلا يستطيع أن يفهم ما فيها من روح

وحرارة وعفوية . فكلما عرضتها على واحد منهم قام إليها يقيسها بالذراع ، ويجسها باليد ، ويزنها بالكف ، كأنما هي سلعة مبتذلة مما يكتفى فيه بالقياس والوزن .

بالاختصار ، لم أخرج من تجارة الطنافس إلا بخسارة نصف مالى ، وعولت على أن أختار تجارة أخرى تكون فى سلعة مما يحتاج الناس إليه ولا يمكنهم أن يستغنوا عنه ، فإن العظماء والأمراء قليلون ، ولكن الناس سوامهم كثيرون ، والبيع والشراء لا يربح إلا إذا كانت السلعة مما ينفق عند العامة التى يبلغ عددها الألوف المؤلفة . وبعد تفكير واجتهاد عولت على أن أتجر فى الأغنام ، فليس بها قطعة واحدة لا تعود على الناس بفائدة ، ثم هى بعد ذلك جميلة المنظر بديعة الخلقة .

يا لله ، ما أحلاها ، وما أبدع خلقتها ، وما أنعم أصوافها ، وما أحلى ثغاءها ! ولقد كنت دائماً أحبها ، وأطعم ما أقتنيه منها بيدى ، وأداعبه كما أداعب ولدى ؛ ولقد أبدع الله خلقتها ، فما ترى فيها من عيب سبحان من جلت قدرته ، وعظمت حكمته ، وبدعت صنعته .

ولكن ... ولكن كل هذا لم يجعل تجارة الأغنام رابحة ، فالناس إذا أتوا لشرائها لم ينظروا إليها بعينى ، وجعلوا يدفعونها فى غلظة ، ويجسونها فى شراهة ، كأن لعابهم يسيل من تصورها مشوية أو مقلية . وبالاختصار لم أخرج من تجارتها إلا بخسارة نصف ما بقى من مالى .

وهكذا استمر بى الحال وأنا أنتقل من تجارة إلى تجارة ، ومن سلعة إلى سلعة ، وكل منها يقتطع نصف ما بقى حتى لم تدع لى الأسواق إلا دراهم معدودة . فلم أجد شيئاً أستطيع أن أشتريه بها إلا البيض — بيض الدجاج . وفى الحق أن البيض سلعة لا بأس بها ، وهو أبيض اللون نظيف جميل الصورة ، وليس فى الأشياء ما يدخل الفرح على القلب مثل البيضة إذا وجدتها فى ركن من الأركان فى بيت الدجاج ، فكأنك عند ذلك قد وجدت لقية من الجوهر .

ولكن ... ولكن البيض لم يكن خيراً من كل ما سبقه ، فقد كنت أشترى تسعة منه بدرهم — بدرهم واحد ، وأعتقد أنى قد نهبت المرأة التى باعته لى ، فقد كانت كل بيضة منه خيراً من الدرهم القذر الذى أدفعه إليها . ولكن الناس كانوا إذا أتوا للشراء منى لم يدركوا ما فى البيض من جلال الخلقة ، ومن جمال الصورة ، ومن إبداع الهندسة ؛ بل كانوا ينظرون إليه فى الضوء ، ويتقدونه نقد الصيرفى للدراهم كأنه شىء مبتذل لا تتجلى فيه قدرة الخالق المبدع الأعظم .

وكان الأمر ينتهى دائماً بأن أبيع العشرة منه بالدرهم الواحد ، حتى ابتلع السوق كل ما بقى من دراهمى .

وأنا اليوم أتلفت حولى فلا أجد إلا يداً فارغة ، وبيتاً خاوياً ، ولا أزال أنتظر الفرج القريب ، وهو لا يزال عنى متباعداً .

لقد أحببت التجارة وأغرمت بها غراماً شديداً ، ففيها للنفس مراح ، وفيها للمتأمل براح ، وفيها للعين لذة ، وفيها للعقل متعة ؛ ولكنى لم أخرج منها بغير صفقة المغبون ، مع كل ما بذلته فيها من الجهد والاجتهاد . رب ! هذا أنا أضرب فى الأسواق لألتمس الرزق ، فلم أقعد ولم أتخاذل ولم أكسل ، ولكنى هذا عبدك ، لا أملك مالا ولا عقارا ، ولا أجد رزقا ، كأنما كنت فى غيبة عند توزيع الأقسام . ألا متى يطلع على الفرج القريب فيزيل من كربتى ، ويحل من عقدتى ، ويزيح عنى تلك الظلم المتراكمة ! ألا متى أبلغ منية النفس التى طال انتظارها ، وكاد الشك يداخلنى فى إمكان تحققها ! ألا متى يطلع ذلك الفرج القريب ، فإن قلبى ما زال يتطلع فى شوق وقلق إلى مهبط أمله ومناط رجائه : علية ابنة السلطان !

(طبق الأصل) محمد

حول ميثاق الأطلنطيق :

في سبيل العدالة الدولية

كثيراً ما توصف الحرب الحاضرة بأنها حرب مبادئ ونظم : حرب بين النظم الديمقراطية ، وما تنطوي عليه من المبادئ الحرة ، وبين النظم الدكتاتورية ، وما تنطوي عليه من مبادئ الطغيان والعنف . وقد شهرت الدول الدكتاتورية الحرب الحاضرة لتحقيق مطامعها في التوسع الإقليمي والاقتصادي بالقوة والعنف ، وبسطت سلطانها كرهاً على طائفة من الأمم الحرة . وقامت الجبهة الديمقراطية من جهة أخرى تقاوم الغزو الدكتاتوري بكل قوتها ، وتعلن أنها تقاوم الطغيان ، وتجاهد في سبيل المبادئ الحرة التي هي قوام الديمقراطية ومثلها الأعلى .

ونحن نحب أن يكون هذا التصور صحيحاً ، وأن تكون المبادئ الإنسانية قبل الغايات السياسية هي محور النضال الحقيقي من ناحية الجبهة الديمقراطية على الأقل ، وأن تسفر هذه الحرب العالمية المروعة عن النتيجة التي تنشدها جميع الأنفس الكريمة الحرة ، وهي تأييد مبادئ الإخاء والعدالة والحرية بين سائر الأمم والشعوب .

ولقد شعرت الجبهة الديمقراطية منذ بداية الحرب بأنها في حاجة لأن توضح للعالم موقفها ، وأن تبرر خوضها لغمار هذا النضال ، وأن تبين بالأخص الأهداف التي ترمي إليها بخوضه . وما زلنا نذكر الخطب والتصريحات الرنانة التي أدلى بها زعماء فرنسا قبل مصرعها ، وأدلى بها بالأخص مستر تشرشل بعد ذلك في خطبه وتصريحاته في مجلس العموم وغيره ، والأحاديث التي كان يلقيها الرئيس روزفلت قبل دخول أمريكا في الحرب تبريراً لسياسة أمريكا في شد أزر الجبهة الديمقراطية ، ورفع الحظر عن إصدار السلاح إلى انكلترا ، وإصدار قانون الإعارة والتأجير ، وغير ذلك مما كان يفصح عن وقوف أمريكا إلى جانب الجبهة الديمقراطية ، بالرغم من حيادها في ذلك الحين .

وشعرت الجبهة الديمقراطية بأنها بعد ذلك كله في حاجة لأن تقطع على نفسها العهود أمام العالم تؤكد تجردها عن المطامع والأهواء السياسية ، وإخلاصها في العمل لتحقيق المبادئ السامية التي تنضوي تحت لوائها ؛ وظهرت هذه العهود في شكل ميثاق مشترك عقدته الدولتان الديمقراطيتان الكبيرتان ، وهما بريطانيا العظمى المحاربة ، وأمريكا المحايدة يومئذ . وأقرته بعدئذ روسيا السوفيتية ، وقد كانت يومئذ تواجه الغزو النازي في أشد صوره لأسابيع قلائل من بدايته ، وكانت حديثة عهد بهذا التضامن مع الدول الديمقراطية في مقاومة العدو المشترك .

ذلك هو ميثاق الأطلنطيق الذي يمكن أن نصفه بأنه دستور الجبهة الديمقراطية في هذه الحرب ، وقد كان عقده ثمرة لأول اجتماع بين زعيمي الديمقراطية مستر تشرشل والرئيس روزفلت ، ولم يمنع عقده كون الولايات المتحدة كانت ما تزال على الحياد يومئذ ؛ ذلك لأنها كانت رغم حيدتها تقف صراحة إلى جانب الجبهة الديمقراطية ، وكان كل شيء ينذر بتأهبها لخوض النضال في الوقت المناسب .

وقد مضى إلى اليوم أكثر من عامين منذ عقد ميثاق الأطلنطيق — إذ كان عقده في ١٤ أغسطس سنة ١٩٤١ — ودخلت الحرب العالمية في مرحلة الفصل ، وأخذت بوادر النصر تلوح في جانب الديمقراطية ، وأخذت جميع الأمم الضعيفة والمغلوبة تتطلع إلى فجر السلام يحدوها الأمل في تحقيق عصر السلم والرخاء والعدالة الدولية الذي يبشر به ميثاق الأطلنطيق .

* * *

والآن لنر ماذا يسجله ميثاق الأطلنطيق من نصوص يحق لنا أن نستند عليها في تعزيز مثل هذه الآمال التي تجيش بها اليوم أمم كثيرة .

فمن الناحية السياسية يسجل الميثاق المبادئ الآتية :

أولا — أن بريطانيا وأمريكا لا تسعيان إلى توسيع ممتلكاتهما .

ثانياً — أنهما لا تريدان أي تبدل إقليمي لا يتفق مع رغبة الدول صاحبة الشأن .

ثالثاً — أنهما تحترمان حق جميع الشعوب في اختيار شكل الحكومة التي تدير شئونها ، وأنهما ترغبان في أن تسترد الأمم التي غلبت على أمرها حقوقها وحكوماتها الخاصة .

رابعاً — أنهما تأملان بعد سحق الاستبداد النازي أن تتوطد دعائم السلم الذي سيمنح جميع الأمم وسائل العيش بسلام في دائرة حدودها ، ويمكن الناس في جميع أنحاء العالم من العيش في مأمن من الشقاء والخوف .

خامساً — أنهما تعتقدان أنه يجب على أمم العالم أن تعدل عن استخدام سلاح القوة لأسباب أدبية ومادية ، إذ يستحيل المحافظة على السلام في المستقبل ما دامت الأمم التي تهدد ، أو يمكنها أن تهدد جيرانها بالاعتداء ، تستخدم الأسلحة البرية والبحرية والجوية .

ومن الناحية الاقتصادية ينص الميثاق على حق جميع الأمم في الوصول إلى اتفاقات تجارية مناسبة ، والحصول على حاجتها من المواد الأولية ، وتنظيم التعاون التام بين جميع الأمم لضمان التوسع الاقتصادي والسلامة الاجتماعية ، وفتح طرق البحار في وجه جميع الناس دون عائق .

تلك هي نصوص ميثاق الأطلنطيق التي أعلنتها الجبهة الدمقراطية دستوراً لها ، والتي ما فتئت تؤيدها بتصريحات وتأييدات مماثلة كلما سنحت فرصة من الفرص ؛ وهي في الواقع نصوص جميلة ، إذا وضعت موضع التنفيذ الفعلي فإنها تفسح مجالا لآمال كبيرة .

غير أنه لابد لنا أن نذكر من جهة أخرى أن هذه المبادئ التي وصفت في ديباجة الميثاق بأنها « بعض المبادئ المشتركة لسياسة الدولتين » قد وضعت في صيغ يحوطها التحفظ ، ونص إلى جانبها على « احترام الالتزامات القائمة » ، ثم إن مستر تشرشل من جهة أخرى كان صريحا كل الصراحة حينما أعلن في بعض أحاديثه أنه لا ينوي العمل على « تصفية الإمبراطورية البريطانية » ، فلا بد إذاً أن نفهم ميثاق الأطلنطيق في نوع من التحفظ أيضا ؛ وأغلب الظن أن حوادث المستقبل والظروف التي ستقترن نهاية الحرب وعقد السلم هي وحدها التي ستقرر الطريقة العملية التي تنفذ بها نصوص الميثاق .

هذا ومما تجدر ملاحظته أن ميثاق الأطلنطيق قد تأثر في بعض نصوصه بالمبادئ أو الحريات الأربع التي ضمنها الرئيس روزفلت رسالته إلى الكونجرس (البرلمان الأمريكي) في يوم ٦ من يناير سنة ١٩٤١ ، وهي : حرية القول والرأي ، وحرية العبادة ، والتحرر من الخوف ، والتحرر من الفقر . فهذه المقاصد الأربعة التي نادت الدمقراطية الأمريكية بوجوب تحقيقها لكي يكفل السلم والرخاء للعالم ، يمكن أن تعتبر بمثابة الحريات السياسية والاقتصادية التي تضمنها ميثاق الأطلنطيق فيما بعد .

* * *

والواقع أن التاريخ هنا يعيد نفسه ؛ فإن ميثاق الأطلنطيق يتضمن بعض النقط الأساسية الشهيرة التي وضعها الرئيس ولسون في يناير سنة ١٩١٨ لتكون دستورا لعقد الصلح في الحرب العالمية الماضية ، ومنها النص على حرية البحار ، وإلغاء الحواجز الجمركية ، وتخفيض السلاح ، وتسوية المسائل الاستعمارية مراعاة لمصالح الشعوب ذات الشأن ، وإنشاء عصبة أمم تشرف على تحقيق الاستقلال السياسي والسيادة الإقليمية لجميع الأمم صغيرها وكبيرها ، وقد أثارت هذه المبادئ الحرة العادلة التي أعلنها الرئيس ولسون يومئذ في نفوس الشعوب الصغيرة والمغلوبة أعظم الآمال ؛ ونحن نعرف ماذا كان مصير هذه المبادئ وكيف أغفلت معاهدات الصلح التي أملتها الدول الظافرة على الدول المغلوبة كثيراً من أسولها وأهدافها ؛ ونحن نعرف أيضاً ماذا كان مصير عصبة الأمم التي كان إنشاؤها أعظم نتائج هذه الدعوة الحرة ، وكيف فشلت العصبة في تحقيق مهمتها الأساسية وهي تحقيق العدالة الدولية بين الأمم ، وحماية الأمم الصغرى من عدوان الدول الكبرى .

بيد أننا نعتقد أن الدمقراطية قد أدركت خلال النضال الحالي كثيرا من أخطائها الماضية ، وأنها لابد معتبرة بها ، حريصة على عدم تكرارها . وقد دفعت الدمقراطية

في الميزان الجديد :

الهمس في الأغاني والأناشيد

- ١ -

تحدثنا في مقالات سابقة عن الهمس في الشعر والنثر ، وكانت مناقشات عجبها الذوق الحاذق ، فقد رأى البعض في رهافة الحس ولطافة الروح أنوثة ؛ ورددنا بأن ذلك ليس وقفاً على النساء ، إذ من الواضح أن الله لم يقصر بعض الصفات على جنس دون جنس ، وإنما نحن بإزاء نِسَب . وكنت أظن أن الحديث كله دائر على الرجولة والأنوثة من الناحية النفسية ؛ وأما من الناحيتين الأخلاقية والاجتماعية ، فذلك ما لم يخطر لي ببال في مجادلة رجال يتصدون لتثقيف الجماهير . وكم كانت دهشتي عندما رأيت كاتباً يذهب إلى أبعد من الرجولة الأخلاقية والاجتماعية ، فيدعي « أني أفخر بمشابهة المرأة في تكوينها » ، مع أنه يعرف معنى كلامي حق المعرفة ، بدليل أنه قد فطن هو نفسه منذ سبعة عشر عاماً فيما يقول إلى « أن حب ناجور أقرب إلى عطف الأنوثة ورحمة الأمومة . فإن فاصل الجنس ليس من المناعة والحسم بالمكان الذي يتوهمه أكثر الناس » ، وأنا لم أقل غير هذا . فالحديث كما قلت لم يعدُ الناحية النفسية ، ومع ذلك يسف الكاتب فيعتقد أنه قد وصل من إلى شيء ، عندما قال : « إني أفخر بمشابهة المرأة في تكوينها » . وأكبر ظني أن الإنسانية كلها مجمعة على أن « أنوثة » قادة البشر من « كبار الرجال » ، الذين وصفوا بتلك الصفة مثل تاجور ، ورينان ، ولامرتين ، وشبليه وغيرهم ، خير من « رجولة » صاحبنا وأذنابه . أولئك يخلدون حباهم الله تفكير الرجال وإحساس النساء وسذاجة الأطفال ، وهؤلاء لا نسمع منهم إلا صلفاً وغروراً ومهاترة مخزية .

ولنترك هـذا الحديث الذي ينزل بالقلوب إلى آخر ينقع بها . وأمامي الآن أغنية ونشيدان من الشعر اللبناني تذكرتها إذ جاءني خطاب يخبرني بوفاة فؤاد البعلبكي ، أحد الطلاب اللبنانيين بجامعة فؤاد ، ولكم طربنا أساتذة وطلبة لصوت هذا الراحل الكريم وهو يتغنى « ليلي » بمفرده ، أو يقود جوقة من إخوانه منشدين : « عليك مني السلام » ، أو « لبنان ما أحلى غاباتك » . تعاودني هذه الذكريات فيزداد حزني لوفاة ذلك الشاب الرقيق الصوت ، الأنيق السمت ، العزيز النفس ، الطيب الخلق ، ألا رحمه الله ! وألتمس سر طربنا لهذه الأشعار ، فأرى فيها إلى جانب الأنغام خاصيتين هامتين يكملان معنى الهمس في نفسي ؛ ذلك المعنى الذي لا بد من الوصول إلى رفع كل لبس عنه حتى يسفر فيتحقق ما نرجوه من توجيه شعرنا الحديث تلك الوجهة التي ندعو إليها بإيمان نزيده رسوخاً

من جراء أخطائنا الماضية أفدح الأثمان ، وكادت تنهار في بداية النضال صريعة هذه الأخطاء ، وهي نفس الأخطاء التي تعلن الديمقراطية اليوم أنها تعمل لإصلاحها ، وذلك بما أخذته على نفسها من عهود في ميثاق الأطلنطيق .

والديمقراطية تعمل اليوم حسبما تسجل على نفسها لإيجاد عالم أفضل ، تحترم فيه حقوق الأمم الضعيفة في الحياة الكريمة الحرة ، والرخاء الاقتصادي ؛ ومعنى ذلك أنها تسعى إلى تحقيق العدالة الدولية التي فشلت في تحقيقها عصبة الأمم . أما كيف يكون تحقيق هذه العدالة وبأي الوسائل ، فهذا مما يجب أن يترك إلى الغد عند ما تضع الحرب أوزارها ، وإن كان من المعروف أن مسائل الغد تشغل اليوم بحثاً في انكلترا وأمريكا . وكل ما يستطيع أن يرجوه الآن أنصار الحق والحرية ، هو أن تستطيع جماعة الأمم الديمقراطية أن تصيب أهداف السلم الحقيق هذه المرة ، وأن توفق إلى عقد سلم وطيد دائم تعيش في ظله الأمم الكبرى والصغرى ، والقوية والضعيفة ، آمنة مطمئنة إلى حقوقها وحرياتها وكرامتها .

محمد عبد الله عنان

أنه نبع من إحساس لن يقل العقل البحث عن تعليله وإيضاحه .

فأما أولى الخاصيتين ، فهي ظاهرة الحب بل العشق ، والحب ليس وقفاً على الغزل الجنسي كما قد يُظن ، فلعله من الناحية النفسية هي اللغة الصادقة لكل شعور حار . ومن عجب أن يفطن نقاد العرب أنفسهم إلى هذه الحقيقة الكبيرة فيحسون بلغة العشق عند أكبر شعراء العرب الخطابيين نفسه ، وهو المتنبي ، فيقول الثعالبي في « اليتيمة » إن المتنبي قد خاطب الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب ، وإنه قد استعمل ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب والجد ؛ وهو يرى في هذا مذهباً تفرد به شاعر الحمدانيين . وهذا حق ، وإن يكن الثعالبي لم يستطع تعليل تلك الظاهرة ، لأن النقد العربي بجملته لم يحاول أن يصل بين نفسية الشاعر وشعره ، وذلك لسبب واضح ، هو أنه لم ينضج إلا في العصر العباسي ، وهو العصر الذي بَعُد فيه الشعر التقليدي من الحياة ، وأصبح يرسف في المحاكاة القديم ، حتى لم يعد فضل المحدثين في غير تجويد العبارة من المعاني المطروقة والتفنن في « الإبداع » . وجارى النقد الشعر ، فأصبح نقداً فنياً بحتاً ؛ ومن هنا لا ندهش عندما نرى الثعالبي يعلل استخدام المتنبي لغة الحب في غير الغزل بأن ذلك كان « اقتدارا منه وتبحرا في الألفاظ والمعاني » ، ثم يضيف سبباً أخلاقياً هو « رغبة الشاعر في رفع رأسه عن درجة الشعراء ، والسمو بها إلى مماثلة الملوك » . وهذه الأسباب وإن تكن صحيحة إلا أنها لا تكفي ، بل لعلها تعدو السبب الحقيق الذي نجده في طبيعة المتنبي النفسية وفي ملابسات حياته . فلقد كان الرجل قوى الانفعال سريع التأثر ، زخرت نفسه بشتى المشاعر ففاضت في لغة الحب ؛ ولقد أحب سيف الدولة حبا حقيقيا إذ رأى فيه رجلا شهما كريماً ، وزاده حباً له كونه عربياً في زمن غلب فيه الأعاجم وسيطروا على العرب في كل مكان ، إلا في حلب حيث كان يرابض الحمداني يحمى الثغور ضد الروم ، ثم يخضع القبائل الثائرة ، ويتبع النصر بالعفو عنهم ليضمهم إلى جانبه في دفاعه المجيد ضد أعداء يرتعد له أعداء العرب جميعاً .

ولقد ترك الشاعر أمير حلب مغضباً ، ومكث في مصر عند أعداء بني حمدان أربع سنوات ، ثم عاد إلى العراق ؛ ومع ذلك لم يهج قط صديقه الحبيب ، ولا عدا في ذكره له حد العتاب الذي تفاوت ليناً وشدة بتفاوت حالات الشاعر النفسية ؛ بل لقد رأيناه يرثى خولة رثاء مؤثراً يدل على حزن حقيق ومشاطرة لأخيها في ألمه . ودعاه سيف الدولة إلى أن يعود إلى جواره فاعتذر ، ومع ذلك لم يكتم فرحه بخطاب تلك الدعوة الكريمة التي أتته من صديقه القديم . ولقد عبر عن حزنه لفراق ذلك الصديق غير مرة في شعر صادق جميل مؤثر ، وبخاصة أثناء إقامته بمصر :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا
حببتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غداراً فكن أنت وافيا
خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وقوله من قصيدة أخرى :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الأيام فيّ بأن أرى
بغيضاً تنائى أو حبيباً تقرب

وقوله :

أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده
أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه فما طلبي منها حبيباً ترده

أحب إذن شاعرنا سيف الدولة حباً حقيقياً ، وحزن لفراقه حزناً موجعاً :

مالى أكتم حباً قد برى جسدى
وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وكذلك قوله :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

... الخ ، مما يفيض غراماً أو ما يشبه الغرام . وألف الشاعر تلك اللغة ، فظهرت في مدحه لغير سيف الدولة ، ككافور في قوله : (وما أنا بالباغي على الحب رشوة ...) وقوله :

ولو لم يكن في مصر ما سرت نحوها
بقلب المشوق المستهام المتيم

وابن العميد بقوله :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

لجد لي بقلب إن رحلت فإنني
مخلف قلبي عند من فضله عندي

وعضد الدولة بقوله :

أروح وقد ختمت على فؤادي
بحبك أن يحل به سواكا
فلو أني استطعت حفظت طرفي
فلم أبصر به حتى أراكا

ولتعليل تلك اللغة في مخاطبة قوم لم يكن المتنبي يحبهم حبه الصادق لأمير حلب ، يجب أن نفطن إلى حقائق نفسية أخرى عند الشاعر ، وأخص تلك الحقائق اثنتان : الطموح والسذاجة ؛ فالطموح من طبيعته أن يخلط بين الغايات والوسائل ، فترى صاحبه يحب كل وسيلة إلى الغاية التي يستهدف ، وكأن الغاية قد اختلطت بالوسيلة . وإذا اجتمعت السذاجة إلى الطموح كما حدث عند المتنبي لم يكن غريباً أن يحب الرجال الذين رأى فيهم وسائل إلى غاياته ، وأن يسرف في هذا الحب عندما تخيل إليه سذاجته أن غايته المحبوبة قد تحققت أو أصبحت في حكم المتحققة ، ولعل في بيته الشهير :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

ما يمثل نفسية الرجل الطموح خير تمثيل ، فهو لا يحب إلا من يولي الجميل ، ولا يرى الطيب إلا حيث ينبت العز . ونحن الآن لا نناقش قيمة هذا الإحساس من الناحية الأخلاقية ، ولكننا نقرر حقيقة نفسية ثابتة ، نجدها عند النفوس المندفعة الطموحة الساذجة في الغالب ، والمتنبي من بينها .

وينتهي بنا هذا التحليل السريع إلى نقطة البدء ، وهي مقدرة المتنبي على الاغتمال ، وبهذه المقدرة نعلل استخدامه لغة العشق أيضاً في الكلام على الحرب كقوله :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقبل

وقوله :

شجاع كأن الحرب عاشقة له
إذا زارها فدته بالخيل والرجل

فأنت ترى الطعن عنده كالقبل ، وترى الحرب عاشقة الشجاع ، وأمثال ذلك كثير في شعره .

هذه هي الظاهرة التي لاحظها الثعالبي ، وقد عللناها بما نراه متمشياً مع نفسية الشاعر ، وهي بعد لا تقف عند المدح أو الفروسية ، بل تكاد تمتد إلى معظم شعره . والقراء لا ريب يذكرون نظرية صديقنا الباحث العميق محمود شاكر ، وهي التي يزعم فيها أن المتنبي قد أحب خولة حب غرام ، ومن أكبر أدلته على ذلك ما في رثائه من حرارة الألم . ونحن وإن كنا غير واثقين من صحة هذا الفرض ، إلا أننا نرده مغتبطين إلى الظاهرة العامة التي لاحظها صاحب اليتيمة وأمننا عليها ، فالمتنبي ككل شاعر كبير جائش النفس غني بنغمات الحب .

والحب هو الذي يحيي نفوسنا عندما نستمع إلى أناشيد لبنان ، وفي هذا تختلف أناشيدنا في جملتها عن أناشيدهم . فنحن نصدر إما عن زهو كقولنا :

« بلادك يا مصري بلاد الأسود »

أو : « نحن زوابع من نار ، في قوة الإعصار ، في عزمة الجبار ، كنا على الدنيا قنا » ، « نحن السيوف الشرعات » ؛ وإما أن ندعو إلى حروب لحروب دون كيشوت نحو « يا قاعد في دارك والعالم في نار ، ما تحمل سلاحك وتحمي الزمار » ،

أو « يا فرحتي ، يا فرحتي ، في الحرب حاخدم أمتي » بلغتها الهشة السمجة التي يصدعنا بها الراديو المصري المشئوم صباح مساء . وإما أن تستلهم « خضرة » الشجاعة في لغة لا أعرف لثقلها مثيلا : « مين زيك عندي يا خضرة[1]... ما تجودي علىّ بنظرة . . . وأنا رايح الميدان » ، وما إلى ذلك من استجداء لا يشعر بالحاجة إليه جندي حقيق يعرف أن البطولة الفذة ستجعل منه معقد أنظار « خضرات » الأرض جميعاً . وما هكذا تكون الأناشيد وإنما تكون شعراً ، والشعر إحساس بجمال الوطن ، وحب لذلك الجمال . الأناشيد لا تحرك النفوس إلا بقدر ما فيها من تفاصيل حقيقية قادرة على استحضار صورة الوطن أمام الخيال ، ثم التغني بتلك التفاصيل غناء مهموساً ناعماً حلواً . استمع مثلا إلى « نشيد العروبة » ، وهو أحد النشيدين اللذين أشرت إليهما :

عليك مني السلام   يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام   وطاب إنشادي

وهذان البيتان هما القرار الذي تردده الجوقة ، وقوام الإحساس فيه ربط الوطن بمستقر الأجداد ، ثم طيب المقام به وتشوق الأبناء إليه ؛ وتأتي المقطوعة الأولى :

عشقت فيك السمر   وبهجة النادي
عشقت ضوء القمر   والكوكب الهادي
والليل لما اعتكر   والنهر والوادي
والفجر لما انتشر   بأرض أجدادي

وهذا شعر سهل قريب ، ولكنك تحس بلغة الحب تتقد بين مقاطعه ، وكأن السمر وضوء القمر ، والكوكب الهادي ، والليل لما اعتكر ، والنهر والوادي ، والفجر لما انتشر ، ليست من الظواهر الشائعة بين البشر بل شيء خاص ، خاص بأرض أجدادي . يخيل إلىّ أن هذه الأشياء كلها غيرها في البقاع النائية للوطن الذي يتغنى به الشاعر . هناك شيء من التخصيص لا أدري من أين أتى ، فهو يجري في المقطوعة كلها ، يجري في الإحساس الصادق بالجمال ، ويجري في يسر العبارة ، يجري في « فيك » بعد « عشقت » الأولى ، وفي « يا » « بأرض أجدادي » بعد « والفجر لما انتشر » ، يجري في موسيقى اللفظ وحرارة القلب .

ويعود القرار : عليك مني السلام . . . الخ ، ثم تأتي المقطوعة الثانية :

يا قوم هذا الوطن   نفسي تناجيـــه
فما لجموا في المحن   جراح أهليـــه
إن تهجروه فمن   في الخطب يحميه
يا ما أحيلى السكن   في أرض أجدادي

أو ما تفعل رقة هذا العتاب في النفس أكثر مما تفعل ألفاظنا الضخمة ، وندااتنا الغليظة المسرفة ؟! فالنفس تناجي هذا الوطن ، وقد تألمت به نحن جرحت أهليه ، هلا ما لجمتموها ! وها أنتم تهاجرون إلتماسا لسعة الحياة ؛ ولكن أما للوطن أن يلتمس فيكم حماه . هذا الوطن الجميل . يا ما أحيلى السكن في أرض أجدادي . عتاب فيه إغراء قوي ، حتى العبارة عذبة جميلة مؤثرة . يا ما أحيلى السكن . يا ما أحيلاه في أرض أجدادي . هذا هو سحر الألفاظ ، سحر مستمد من القلوب . ويعود القرار مرة ثالثة ، ثم نصل إلى المقطوعة الأخيرة ، ولعلها أجمل المقطوعات الثلاث وأكثرها شاعرية :

أهوى عيون العسل   أهوى سواقيها
أهوى ثلوج الجبل   ذات لآليهـــا
سالت كدمع المقل   سبحان مجريها
شاعت كرمز الأمل   بأرض أجـدادي

وهنا يجتمع الإحساس بالجمال الخاص . الجمال الدال على وطن بعينه ، وطن الجبال ذات الثلوج تذوب كاللآلئ ، يجتمع إلى لوعة النفس لوعة فيها روحية التصوف . سالت الثلوج كدمع المقل . سالت سبحان مجريها . شاعت كرمز الأمل . أي ثروة روحية في تلك المعاني التي يلون بعضها بعضاً وقد تدفقت في وحدة نفسية بالغة العمق ! انظر إلى نار الوطنية تشع في تشبيه ثلوج الجبل الجميلة

(١) لقد يقال إن المقصود بخضرة هنا هو « أرض وادي النيل » ؛ ولكن من عرفت الأناشيد المصرية الرموز ؟

كاللؤلؤ بدمع الفل . انظر إلى التصوف الديني في سبحان مجريها . انظر إلى العقاب القوي المثير الباعث للهمم في « ضاعت كرمز الأمل » .

هذا هو شعر الأناشيد الذي يخاطب النفس فيحركها ، لأنه يقوم على الإحساس بجمال الوطن كما قلنا وعلى عشق هذا الجمال(١) . وأما الوطنية ، وأما استنهاض العزائم ، وأما الدعوة إلى الفداء ، فكل تلك معان لا يمسها الشاعر بظاهر اللفظ إلا في رفق يشبه الحياء ، ولكن كم تحسها قوية دامغة في حرارة النغمة ، ولطف الإحساس ، ونفاذ العبارة ! وهذا هو سر الشعر . هو الهمس إن أردت أن تعرف ما تقصد بذلك اللفظ الذي كأنه سر مغلق .

وبعد فأنا أخشى أن يكون مصدر مافي أشعارنا من غلظ ضعف في الحاسة الفنية ، حاسة الإحساس بالجمال ، ثم نقص في القدرة الحقيقية على الحب بمعناه الإنساني الصحيح . ويزيد هذا الخوف في نفسي وضوحا ما ألاحظه من أن شعبنا لا يفطن إلى شيء اسمه جمال في شجرة أو نهر ، في فجر أو عشق ؛ وإنما يعرف ذلك من سمع منا أو تعلم أن هناك شيئا بهذا الاسم ، وأن الله لم يخلق الأشياء لما فيها من نفع مادي للإنسان فحسب ، بل خلقها أيضا لمعان روحية . سل مثلا فلاحا عن جمال شيء ، تحس لساعتك أنك تخاطبه عن أمر خلا منه ذهنه على الإطلاق ! وليس لذلك سبب غير الجهل . فالإحساس بالجمال ذاته لا بد أن يوقظه العلم ؛ واللبنانيون أكثر اتصالا منا بثقافة الغرب ، ولذلك نضج إحساسهم ، ورهفت أذواقهم ، وتفتحت نفوسهم . ومن هنا ترانا ندعو جاهدين إلى نقل الثقافة الغربية إن كنا نريد نهضة حقيقية . وما النهضة إلا نوع من الحياة ، لا أفكار تردد أو نظريات تسرد .

محمد مندور

(١) وهذا الاتجاه الصحيح في كتابة الأناشيد ليس خاصاً بالأدب الغربي ، فهو واضح في معظم الأناشيد الغربية . ولقد سبق أن ترجمنا نشيد « الرين » للشاعر الألماني نيقولا بيكر بالثقافة (عدد ١٦٦) ، وفيه يتغنى الشاعر بجمال نهره ، وجمال نبيذه ، وجمال بناته .

تعليق

سيدي الأستاذ العالم الجليل أحمد بك أمين :

بعد إهداء أطيب التحية . في عدد الثقافة الأخير حملة أخلاقية للأستاذ الأديب الدمشقي « علي الطنطاوي » على أثر فراغه من قراءة كتاب حديث لمؤلف مصري طوى عنا الأستاذ منهما الاسم والعنوان . إلا أن بعضهم أبى إلا أن يحرم الرجلَ من حسن أدبه ومجاملته ، فأشار في الهامش على لسان الثقافة « لعل الكاتب يشير إلى قصة بودلير » . وما كان لي أن اعترض أدنى اعتراض على هذه الإشارة لولا أن البيان الوارد في المقال يقرر أن صاحب الترجمة المقدوح فيه كان شديد الإكبار لنيتشه المجنون ، وأنه كان يسرق آثاره وينتحلها ، ويشير البيان إلى أخته ، ويذكر كلاما عن اعتدائه على عفاف إحدى الفتيات العذارى ، وغير ذلك مما لم يقع شيء منه لبودلير ، ولا أثر له في سيرته .

فأنا أعترض على هذه الإشارة كما ترون لأنها خطأ واقعي لا يصح وقوعه منسوبا إلى « الثقافة » .

ولا شك عندي في أن صاحب الإشارة مبغض للكتاب موغر الصدر عليه . وللناس بطبيعة الحال مطلق الحرية في أن يحبوا ويكرهوا على حسب عقيدتهم وهواهم ؛ ولكن الذي لا حق لهم فيه هو تغيير الحقائق .

والذي يتتبع المؤلفات الحديثة يعرف لا محالة أن كلمة الأستاذ الأديب الطنطاوي منصبّة على ترجمة لحياة أديب راحل هو أشهر أدباء السوريين في المهجر الأمريكي ، بقلم أحد إخوانه الذين يعيشون الآن في سوريا ؛ وقد أثار هذا الكتاب عند ظهوره ضجة جاءت غضبة الأستاذ الطنطاوي مجددة لها .

ويتضح مما تقدم أن معلق الثقافة على جهل بالكتابين . ولا عليه في ذلك من بأس لولا سوء القصد في تعرضه لما لم يعرف .

وإلى خلقكم العالي ونزاهتكم العلمية أرجعُ لوضع الأمر في نصابه ، ونشر هذا التصحيح ، وأكرر خالص تحيتي وعظيم احترامي » .

عبد الرحمن صدقي

أفكار وخواطر :

في الليـــل

انفضّ السامرون ، بعد ما صدّعوا رأسي بأحاديث الانتخابات والنيابات، والمطامع المكسوّة أثواب القناعة ، والمنافع المتّشحة بوشاح الإخلاص، وكان هزيع من الليل فتنفست الصعداء ، وخرجت إلى (الشرفة) أشرف على دمشق — وإن دمشق وغوطتها وسبع عشرة قرية من قراها لتبدو للناظر من شرفة داري في (المهاجرين) واضحة كأنها صفحة الكف ، يأخذ منها فضاء عرضه خمسون كيلاً بنظرة واحدة من علو مائتي متر — وكانت ليلة ساكنة ، رخيّة النسيم ، قد زانها بدر (شعبان) ، فوقفت أمتع النفس بها ، وآنس بسكون الكون بعد ضجّة المجلس ، ورحب الفضاء بعد ضيق الغرفة ، وأرخيت العنان لأفكاري فانسابت على مهل ...

* * *

وبقيت ساهراً وحدي وقد نامت النجوم على فرش المزن الرقاق ، ونامت الجبال على أكتاف الأودية وحواف السهول ، ونامت الغوطة في أحضان قاسيون ، ونامت الأشجار في جنان الغوطة ، حتى بردى فإنه يمشي نائماً فيمشّل الجند وهم قافلون من سفر بعيد متعب ، وقد ملّ من طول السفر ، وبعد الغاية التي لم يصل إليها ، وهو يمشي نحوها منذ ألف ألف سنة ، وكان يخالطه اليأس من بلوغها ، ولم يبق ساهراً معي إلا هذه الأضواء الكليلة التي ترتجف من الوحدة والخوف ، وتنظر بعيونها (الزرقاء) خلال الظلام فلا تبصر الطريق ...

وجعلت أفكر فأرى الطبيعة ظاهرها كباطنها ، لا يضمر الجبل نفاقاً ، ولا السهل يبطن حقداً ، ولا السحاب ينطوي على مكر ، ثم أنظر إلى هذه السقوف ، التي كانت تبدو بهية براقة ، يقطر منها النور بعد ما اغتسلت بضياء القمر ، فأفكر فيها ... ماذا تحت هذه السقوف ؟

كم تحتها من خبايا وعجائب ، ومؤتلف ومختلف . كم من متعبد لتهجد متنسك ، إلى جنب مخدوع لمستهتر متهتك ؛ هذا خلا بربه ، وذاك بحبه ، فتجاورت منهما الظلمة والنور . وكم من سرير لميت يحف به أهله يبكون ، ومضجع لعروسين أحاط بهما الأقرباء يضحكون . ومن بيت يتبرّم بالولد ، ومن يتألم من العقم ، وشاك من التخمة ، وباك من الجوع ، ومسرور يتمنى لو طال الليل ، ومنكود موجع ينتظر النهار . وكادح للعيش ناصب لا يستريح نهاره ولا يكاد ينام ليله ، همه المال يجمعه ويربي كمه ، قد حرم نفسه من أجله الطيبات ، ولو كشف له الغطاء لعلم أنه إنما سخره الله لآخر فهو يجمعه له ، ويكدح من أجله ، وذاك نائم لا يفكر فيه ، ولا يباليه ، حتى يجيء وقته فيأتيه ...

وتلميذ ذكي قد أثقل جفنيه النعاس ، وهدّ جسده التعب ، وهو مقبل على كتبه ودفاتره ، وآخر كسلان يغط غطيط البكر ، ولو اطلعا على الآتي لرأيا أن هذه الدنيا سترفع الجاهل الخامل ، وتخفض العالم العامل ، تفيض على الأول الجد والمال ، وتحرم الثاني ، ولا يدري الحكمة في ذلك إلا الله .

وكم من زوجين باتا متنافرين ، يتمنى كلٌ لو كان عزرائيل ووُكّل بقبض روح صاحبه ، وما ثمّة من سبب إلا أن الزوج راح إلى الدار متألماً من أمر أصابه ، يبتغي الراحة عند زوجته إذ تقبل عليه مواسية مسلية ، بوجه طلق وفم باسم ، وإن الزوجة كانت تنتظره وقد أناخ عليها الملل ، وترقب دخوله ضاحكاً مرحاً ، فلما رأته مربدّ الوجه خاب أملها فيه فتألمت وأعرضت ، ولما رآها معرضة ضاع رجاؤه منها فزوى وجهه عنها ، وأمّل كلٌ أن يبدأه الآخر بالصلح لأنه عند نفسه لا ذنب له ، فلما طال الوقت وهما متنافران يترامیان بالنظرات شزراً كالقطط في عراكها ، استحكمت العقدة فلم يبق إلا الطلاق !

وكم من سجين يتقلب في السجن على مثل الإبر ، يذكر أهله الذين لا عائل لهم سواه ، وقد حبس في تهمة ،

وقاضيه فى النادى يضارب على الأندة الخضراء بالمال الذى قبضه رشوة من خصمه ليحكم عليه .

وتائبة تجول فى الطرقات الخالية مع الكلاب ، لا تجد من يمن عليها بكسرة خبز إلا إن دفعت ثمنها من جسدها لأنها زانية ملعونة ، والذى أفسدها وأغواها يتصدر المجالس ، لا يذكر الناس خطيئته التى استزله الشيطان إليها فى شبابه لأنه تاب منها ، ومن تاب تاب الله عليه .

وكم من أديب ، أديب حقاً ، قد طاعت له عصيّات الكلم ، وذلت له جامحات المعانى ، ودنت له العوالى من قطوف البلاغة ، قد ازوى فى خصّه لا يدرى به أحد ؟ ودعىّ جاهل ، لص معانٍ ، وصفّاف كلمات ، قد جمع له المجد الأدبى من أطرافه ، فكان له الاسم السائر ، والمال الوافر .

ومتمشيخ قد لبس مسوح الزهاد ، واتّزر بإزار الصالحين ، قد عرّض لحيته ، وكوّر عمامته ، وأدلى عذبته وطوّل سبحته ، ودعا الناس إلى الزهد فى الدنيا ، ونبذ الأموال ، ورمى النقود فى الطرقات لأنها وسخ الدنيا ، فلما أطاعوه ورموها خالفهم إليها فالتقطها .

وكم من أزواج قد باتوا فى الفرش مع نساء لا يفضلن زوجاتهم فى جمال ولا كمال ، ولكنه شرع إبليس لا لذة فيه إلا مع الحرام .

وكم من نساء تركن أزواجهن وارتمين فى أحضان اللاعبين من لصوص الأعراض .

* * *

كم تحت هذه السقوف من شاعر يعتقد الناس أنه خلق روحاً بلا جسم ، وأنه يتغذى بالحب ، ويأكل العواطف ، قد أغلق عليه بابه ، وطفق يعد نقوده التى يستوحيها الخيال ، ويستلهمها الشعر ، فلما رآها قليلة لا تزال ، انصرف إلى نظم قصيدة جديدة يستدر بها المال .

ونصير للفضيلة ، سخر صحيفته لها ، ووقفها عليها ، قد هرب من بيته وانصرف فى تلك الساعة إلى عشيقته ليقرأ عليها مقالته الجديدة فى ذم العشق ، وامتداح الوفاء الزوجى ...

وفلاح ما كف على لبنه يخلطه بالماء ، وكلما صب فيه شيئاً نظر إليه وذاقه ، فلما اطمأن إلى أنه لم يعد يحتمل زيادة ، جعل يفكر فى أيمان جديدة يحلف بها غداً على أن اللبن خالص لم يمسه ماء .

وبات عشرون ألف فتاة ينتظرن الزواج ، وبات عشرون ألف فتى ينتظرون الزواج ، وما حال بين الطائفتين إلا غلاء المهور ، وكثرة التكاليف ، وسخف الآباء الذين يحسبون بناتهم دواب تباع فى سوق البقر ، فهم يشتطون بأثمانها ، والذين لا يمتثلون أوامر الشرع ، فيُزوّجوا البنت للخاطب الكفء ، ويطلقونهن فى الطرقات متبرجات سافرات ، فيراهن الفاسق والصالح ، وكل ذى عينين حتى الحمار ...

وبات الخمارات مفتّحة الأبواب ، مزدحمة بالطلاب ، وبات المسجد مغلقاً قد قام خطيبه بالواجب عليه ، فخطب خطبة فى ذم الخمر وألقى درساً ، وانصرف لينام مطمئناً بعد ما أنكر المنكر ، وأمر بالمعروف .

وكان النواب لا يزالون مجتمعين يتباحثون ، وقد ملّ البواب ونعس ، ولكنه بقى قاعداً يعلل النفس بأن البرلمان سيأتيه بقماش رخيص ، وسيكسر رجل صاحب الدار إن جاء يطلب الأجرة ، ويسقط ديونه كلها . وتخيّل الديون ساقطة فأغمض عينيه مرتاحاً ونام ...

وخلال ذلك عشرة آلاف شاب لا ينقصهم شىء من مال ولا صحة ، ولكنهم لا يزالون يشكون الملل ولا يدرون ماذا يصنعون ، فيقبلون على الملاهى أو ينتحرون ، ولو دققوا لعلموا أنهم إنما ينقصهم الإيمان .

وأربعمائة ألف نسوا همومهم وناموا كالقتلى . . .

* * *

وجعلت أجيل خيالى هذه البيوت ، وأجول تحت السقوف ، فأجد كل خبيثة لا تعرفها أصناف الحيوان ، وإن هى عرفتها ترفعت عنها وأبتها ؛ أفهذا هو الإنسان سيد المخلوقات ؟ وفيم هذه السيادة إن لم تكن بالإيمان

والفضيلة والاستقامة والصدق والعلم؟ أليس الإنسان الذي يكفر بالذي خلقه، ويخون وطنه، ويسيء إلى أبيه الذي رباه، وأمه التي حملته، ويكذب وينافق، ويغش ويسرق، ويكون عبد شهواته، وأسير جهله — أليس هذا الإنسان شراً من الحمار؟

وويل لهذا الإنسان، أتته آلاف الأنبياء، والحكماء، والصالحين، وآلاف الآيات والنذر، ولا يزال ممعناً في غوايته، مقبلاً على شهواته. إن امرأة واحدة عارية تهدم في ساعة واحدة ما يبنيه الأستاذ المرشد والمصلح الهادي في عشرين سنة ...

إن الصخر الأصم ليلين ويتفجر منه الماء، وقلب الإنسان لا يلين! وإن الجماد ليعي النذر ويعتبر، وهذا الإنسان لا يعي ولا يعتبر.

من فكر واعتبر بهذه البيوت، كم مر عليها من ساكنين، كم رأت من ذل بعد عز، وعز بعد ذل، ولم يبق من ذلك شيء ... هنالك وراء الأموي كانت (الدار الخضراء) منزل الخلفاء من بني أمية، وكانت أمنع من النجم، وأبهى من الشمس، وكانت سرة الدنيا، من جبال الصين إلى (البرنة)، فأمست اليوم مصبغة صغيرة حقيرة، وسترجع المصبغة قصراً، ثم يصير القصر مقبرة ...

هذه هي الدنيا، ولكنا غافلون عن حقيقتها، مطمئنون إليها، ظانون أنها تدوم لنا ...

ماذا بقي من بني أمية، ومن المماليك، إلا هذه الجدران القائمة وهذه القباب؟

وماذا بقي من بني عثمان إلا (السراي) ... سلوا درج (السراي) كم رأى من صاعدين ونازلين، ما استقر منهم أحد ... لا رب القصر يخلد فيه، ولا ساكن السجن؛ كلهم عابر سبيل ...

* * *

واستغرقت في أفكاري، فلم أنتبه إلا وصوت المؤذن يرن في هذا السكون نقياً صافياً عذباً يقول: «الصلاة خير من النوم». فقلت: صدق والله، ومن السهر، ومن المال، ومن المجد، لأنها هي التي تبقى، على حين تفنى الدنيا بما فيها من مسرات وأحزان. وقمت إلى الصلاة.

(دمشق — دوما) **علي الطنطاوي**

بين العلم والدين

قرأت مقال الأستاذ الجليل أحمد أمين بك المنشور في العدد ٢٤ من الثقافة ، عن الحياة الروحية أو الباطنية وما يقابلها من الحياة الظاهرة أو الخارجية ، أو كما يسمونهما مملكة الظاهر والباطن أو عالم الغيب والشهادة ...

وإن من الأمور المسلم بها أن العلم — بتجاربه الحسية واستنباطاته العقلية — هو الوسيلة الوحيدة لاستيعاب حقائق الحياة الخارجية ؛ ومن المسلم به أيضاً أن الحياة الروحية تنهض على دعامتين من الوحي والإلهام ، ولكن ذلك شيء اختص به الأنبياء والرسل ، ثم الأولياء المقربون . أما سائر أرباب الأديان من الناس — وكلنا من أرباب الأديان — فسبيلهم إلى ذلك الاعتقاد والتصديق أولا ، ثم تقوية هذه العقيدة بالتفكير المؤدي إلى اليقين والاقتناع . ومعنى ذلك أن الوحي والإلهام لا يقيناننا البتة عن سلوك سبيل العلم بما فيه من نظر وتجارب واستنباط ، في سبيل الوقوف على حقائق الدين ، وبلوغ درجة اليقين فيه . ذلك لأن الوحي مختص به الأنبياء كما ذكرنا ، أما الإلهام فمن الحقائق النادرة كما قال الأستاذ أحمد أمين بك صادقاً ، بل هو من الأمور الخطرة التي يصعب مرتقاها وتبعد على المتطلب غايتها ؛ ولقد تحدث عنه الإمام الغزالي في إحيائه ، وأبان صعوبة الشروط البالغة إليه في قوله : « زعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال ، والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه .. » . ثم هو يقول في موضع آخر إن القوم قد « استوعروا هذا الطريق واستبطئوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن قطع العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر » .

والحق أن جميع المتعبدين والدجالين والمصلين في سائر الديانات ، ليسوا إلا أفراداً ممن حاولوا اقتحام هذا الطريق .. طريق الإلهام ، دون أن يمهدوه لأنفسهم بالإيمان الصحيح القائم على العقيدة مدعمة بالعلم والنظر .

وما أصدق قول الغزالي في ذلك حين يقول : « كم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ؛ فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض » .

وعليه فليس لنا أن نفصل العلم عن الدين بحال . ولقد ذكر الأستاذ الكبير أن لدينا أصولاً أربعة لـ « كشف دائرة الحياة الخارجية والباطنية » ، هي العلم والفلسفة والدين والفن ؛ ويعنيني هنا ما أورده في شأن العلم والدين ، فقد قال عن الأول إنه إذا « أراد أن يتخطى أسواره إلى عالم الغيب ، فقد أدواته وتكلم كلاما سخيفاً » ، وذكر عن الثاني أنه « إذا تخطى الدائرة الروحية إلى الدائرة العلمية ، فتعرض لقضايا العلم يشرحها ويدلل عليها أو ينكر على العلماء بحثهم ونتائجهم ، فقد تعدى طوره .. » إلى آخر ما ذكر . وليأذن لي الأستاذ الكبير أن أقول إن الدين في هذا مغبون مغبون ؛ فهو قائم على الوحي كدعامة أساسية حقاً ، بيد في ذلك عن العلم ونظرياته الناهضة على دعائم من المنطق والتفكير .. ولكنه مع ذلك يحتضن العلم وقضاياه جميعاً ، ويتخذه آلة في يده يستعين بها ويتقوى ، فهو يصبغه ولا يصطبغ به ، ويقوده ولا ينقاد إليه .

العلم بمجموعه صفحة من سفر الدين ، وجزء فيه من كل ؛ بل إن هذا الدين ليضم إليه الأصلين الآخرين وهما الفلسفة والفن جميعاً . لأنه إذا كان الفن هو الطريق الموصل إلى إدراك الجمال وإبرازه في أروع صوره ، فذلك من أهم مطالب الدين : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . ثم إذا كانت الفلسفة هي التأمل الدقيق والفكر العميق لإدراك حقائق الحياة ، فذلك من أعظم أهداف الدين أيضاً : « أو لم يتفكروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » ، « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .

ولقد تتباعد هذه الأصول الثلاثة — غير الدين — أعنى العلم والفلسفة والفن ، فيشق كل منها لنفسه طريقاً ؛ ولكنها تلتقى جميعاً تحت ظلال الدين ، فهو يربط بينها ويشتمل عليها كلها .

وطريقنا نحن إلى هذا الدين كما ذكرنا أن نعتقد أولا ، ثم ندعم هذا الاعتقاد بالنظر والتفكير ونتوّجه بالعمل ؛ وفى نظرنا وتفكيرنا وعملنا يدخل العلم والفلسفة والفن جميعاً .

هذا ولنشكر الأستاذ الجليل على أبحاثه القيمة التى توقظ العقل ، وتبعث على طلب المشاركة فى البحث والتفكير .

جرجا محمود عزت عرفة

سابقة تاريخية

فى ٢٧ يوما غزا الحلفاء جزيرة صقلية وطردوا الإيطاليين والألمان منها ، بعد أن أسروا فى ٣٠ يوما ١٣٠,٠٠٠ إيطالى وألمانى ، وغنموا ٥٠٠ مدفع ودمروا ٢,٠٠٠ طائرة ، وبسطوا سلطانهم على سكان الجزيرة وعددهم ٤,٠٠٠,٠٠٠ نفس . وفى السبعة الأيام الأخيرة زاد عدد الأسرى عشرات الألوف وزادت الأسلاب والغنائم زيادة كبيرة . وكان من أثر هذه الانتصارات الباهرة المتوالية أن دب الهلع فى قلوب الإيطاليين والألمان لدرجة أنهم كانوا يستسلمون للحلفاء زرافات ووحدانا ؛ وآخر مثل ورد إلينا من قيادة الحلفاء فى شمال إفريقيا أن استطاع ضابطان أمريكيان الاستيلاء على ثلاث جزر إيطالية وأسروا حامياتها الثلاث ويبلغ عددها ١٠٣٧ جنديا إيطاليا ، كما غنموا دبابتها ، وبسطوا سلطانهم على سكانها وعددهم خمسة آلاف نسمة .

تذكرنى هذه الحادثة بما حدث عندما غزت جيوش محمد على فلسطين وسوريا والأناضول ، إذ أن الهلع الذى دب فى قلوب الناس وصل إلى أقصى الجزع فى المدن وفى الريف وفى الجبال ؛ وأبلغ مثال على ذلك أنه فى يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٣ تقدم محمد أغا ومعه أربعة (أربعة فقط) من جنود محمد على إلى مدينة أزمير ، وطلبوا باسم إبراهيم باشا ابن محمد على تسليم المدينة ، فلم يسع حكام المدينة إلا الرضوخ والاستسلام ، فسلموا المدينة حالا وخرجوا منها . وبعد واقعة حمص التى انتصر فيها جنود محمد علىّ على جيش السلطان محمود عرضت مدينة ديار بكر تسليم زمامها إلى إبراهيم باشا ؛ كما أظهرت بغداد رغبتها فى الاستسلام ، كما أبدى أعراب الصحراء الاستسلام ، كما أبدت أمارات البحرين التسليم . حصل كل هذا على أثر انتصارات جيوش محمد علىّ على جيوش السلطان محمود فى فلسطين وفى سوريا وفى الأناضول ، إذ أن انتصارات الجيش المصرى كانت متتالية متتابعة بسرعة مدهشة . ففى ٨ نوفمبر سنة ١٨٣١ دخل المصريون فى ثغر يافا ، وبعد خمسة أيام أى فى ١٣ منه احتلوا حيفا ، وفيها وفد إليهم زعماء قبائل عرب نابلس وطبرية والقدس وقدموا الطاعة . وفى ٥ أبريل سنة ١٨٣٢ دخل المصريون طرابلس وكانوا من قبل احتلوا صور وصيدا وبيروت ؛ وبعد شهر ونصف أى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ استولوا على عكا ؛ وبعد ١٦ يوما أى فى ١٣ يونيه سنة ١٨٣٢ دخل المصريون دمشق . وبعد ٢٤ يوما أى فى ٨ يوليه سنة ١٨٣٢ انتصر المصريون فى حمص ؛ وبعد يومين اثنين أى فى ١٠ يوليه سنة ١٨٣٢ استولوا على حماة ؛ وبعد أربعة أيام أى فى ١٤ يوليه سنة ١٨٣٢ دخلوا حلب . وبعد ١٦ يوما أى فى ٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢ انتصروا فى بيلان ، ثم احتلوا بعد ذلك طرسوس وأطنة ومضيق كولك بوغاز ، ثم احتلوا أزنكليا . وكان لهذه الانتصارات المتوالية دوىّ عظيم فى الشرق وفى الغرب فى آسيا وفى أوروبا وفى أفريقيا . وفى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٣٢ احتل المصريون قونيه . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٨٣٣ احتلوا كوتاهية . وقد بلغ ذعر الأهالى والحكام من اسم إبراهيم باشا وفزعهم من الجندى المصرى أن تقدم محمد أغا ومعه أربعة من الجنود المصريين إلى أزمير فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٣ وطلب منه باسم إبراهيم باشا تسليم المدينة فأذعن فى الحال وسلّم المدينة .

حقاً إن التاريخ يعيد نفسه ...

عزيز خانكى

من الأدب المقارن :

أدب الأخلاق فى الغرب

كانت الأخلاق ينبوعا لكثير من أدباء الغرب وشعرائه . فقد بدت فى ثنايا آثارهم أفكار شتى تتعلق بالرجل الكامل ، وسيرته فى الدنيا ، ومصائره فى الآخرة ، والآراء التى تنقد أعماله ، وتوجه سيره ، وتسدد خطاه ، تبعاً لمبادئ أخلاقية أو اجتماعية . ومن الملاحظ أن الأدب والأخلاق يتفقان فى طبيعتهما أكثر من اتفاق الأدب والفلسفة ، لأنك لن تجد فى مبادئ الأخلاق ما تجده فى الفلسفة من جفاف ، وما تلقاه فى العلم من تجرد وغموض ، بل هى أحلى فى السمع وأندى على القلب . فإذا أوتى كاتبها أسلوباً رقاقاً ، وفناً بليغاً ، وخاطراً خلاقاً ، كان أشد سحراً وأكثر جمالاً . وعندئذ يفيد الإنسان منها فيتعظ ويذعن ، دون أن تجبره على الاتعاظ أو تسوقه إلى الإذعان ؛ لأن للأدب من قوة التأثير ما ليس لغيره ، ولأن فيه من اللطافة والجمال ما ليس فى تلك النظريات المجردة والمفهومات الغامضة . وكأن الأدب إذا لمس هذه الآراء الأخلاقية بسحره ، نقلها من اختلاف أصحاب المبادئ الأخلاقية ، الذين يرون الأخلاق للأخلاق ، إلى هدوء الأدب وصفائه ، فيجلو الأديب فى شعره أو نثره ما أعجبه منها ، وما يراه مثلاً سامياً جديراً بأن يحتذى حذوه ، ويقتفى أثره .

لم يتخذ الأدب الغربى من المبادئ الأخلاقية مادة له ، إلا منذ تحرر الفكر من قيود الرهبان . فأصبح الأدب بعد ذلك وسيلة لتزويق تلك المثل العليا ، وعرضها فى معرض فاتن ، ونشرها بين الناس وجعلها حبيبة إلى قلوبهم ، وإثارة الحماسة لها والحنو عليها ، والدفاع عنها ؛ كما كان وسيلة لبناء ما تداعت أركانه من تلك المبادئ ، وهدم ما بلى أساسه من المذاهب والشرائع ، هذه المذاهب التى لا تضمن للأفراد حياة فيها هدوء ، وفيها صفاء وانسجام . فكان من أثر ذلك أن أصبح الإنسان يستشف فى بعض الآداب (طراز) الأخلاق التى ترغب فيه الأمة ، أو ترغب عنه . فهذه تدعو إلى القوة والغدر ، وتلك إلى الرحمة والعدل ، وثالثة للتهتك والمجون ، ورابعة للنسك والعبادة والزهد ؛ حتى أصبح الأدب مرآة للأخلاق فى كل حقبة من الحقب . فأدب الاتباعيين classiques أدب مملوء بالقوة والبطولة والفروسية ، والنقد والسخر ؛ وأدب القرن الخامس عشر مملوء بالشك والإلحاد ، مترع بالسخرية اللاذعة والثورة على التقاليد ، فى حين كان أدب الابتداعيين Romantiques أدب ضعف وشكوى ، وحب ودمع ونجوى .

• • •

قلت إن كثيراً من الفكر الأخلاقية ظفرت بروائع من كتاب الغرب وشعرائه ، والأمثلة كثيرة . فقد خص ميريمه P. Merimée بفكرة الضيافة وتعظيمها ، واحترام الضيف وإكرامه ، قصة من أروع قصص الشرف سماها « ماتيو فالكونه Mateo Falcone » وتحدث عن هذا الأب الضخم ، المكتل العضل ، المفتول البراجم ، الخفيف الحركة كالسنور ، الذى ترك ابنه ذات يوم أمام الدار فلجأ إليه رجل صائحاً : « أيها الولد ! إن الشرطة على أثرى وأنا امرؤ لا أستطيع هرباً ، فهل فى دارك ملجأ ومأوى ؟ » ، فيأويه الولد بعد جهد ؛ وما يلبث الجند أن يظهروا ، وإذا بهم يغرون الولد بالدراهم فيدلهم على ضيفه ، فيأخذونه مقيداً بالأكبال .

وجاء الأب ماتيو يمشى . لقد علم أن ابنه خان ضيفاً لجأ إليه .. فاهتز واضطرب ، وناداه : « تعال يابنى ! أنت أول خائن فى أسرتنا ! اتبعنى ... » ثم حمله إلى الغاب ، وهناك ذبحه ، وعاد يستغفر له ربه !

وفى تمثيل لشكسبير تظهر فكرة الأخذ بثأر الأب .

فإن الأمير هملت يثأر لأبيه الذي قتله أخوه كلوديوس ليتبوأ عرشه ويتكح زوجه ، وتدور المسرحية على ذلك .

وفي بوليوكت Polyeucte لكورنيل Corneille نرى كيف يصغي بوليوكت إلى صوت ضميره ، ويطيع وجدانه غير حافل بحب زوجته بولين Pauline ، ولا آبه بالتهديد والوعيد ، لأن صوت الضمير والواجب أحق بالاتباع من نداء الحب والهوى .

وفي كتاب ڤيني A. de Vigny المسمى "Servitude et grandeur Militaire" نرى الدعوة إلى الاستقامة والشرف والإطاعة ، وكيف تظهر تلك الصفات في النظام العسكري .

* * *

وقد تفنن الكتاب والشعراء في عرض هذه المبادئ الأخلاقية ومناقشتها . فجعلها بعضهم خفية مستترة ، وصرح بها آخرون تصريحاً ظاهراً . وربما اتفق الكاتبان في الفكرة الواحدة وطرقاها معاً ، ولكنهما اختلفا في عرضها . ففي رواية هيلويز الجديدة "La Nouvelle Heloise" لروسو ، نجد سان برو يحب جوليا التي أذيتها ، أشد الحب ، فلما أذهله حبها ، وأسقمه هواها ، وعرضت أمور لا يرضاها ، عزم على الانتحار ؛ ولكن روسو كان من أعداء الانتحار ، ولذلك جعل جوليا تغار على حبيبها وتمنعه من الانتحار بأقوال حلوة رائعة ، فيصغي إليها ويذعن .

وفي « فوست » نجد هذا الدكتور الذي قضى عمره في العلم والسحر ، يمل الحياة ويحتقر العلم ، وينفض أولئك الدكاترة العلماء الدجاجلة ، فيهم بالانتحار بجرعة من السم ؛ ولكنه يصغي إلى دقات النواقيس تدعو إلى الله ، فيشعر بالألم يورق في نفسه ، ويصدف عن الانتحار . فسان برو يصدف عن الانتحار لأجل حبيبته جوليا ، والدكتور فوست يميل عن الانتحار لسماعه دقات النواقيس ؛ فالغاية واحدة ، والطريقتان مختلفتان .

وكثيرون من الأدباء حاربوا فكرة الانتحار ، ولا محل لسرد أمثلة أخرى . وقد ذكر كثيراً منها « ألبير بابه Albert Bayet » في كتابه الظريف عن الانتحار "Le Suicide" .

* * *

وقد نجد أثر الأخلاق في الشعر أشد ظهوراً ، ونجد تقليد الشعراء بعضهم بعضاً واضحاً ، فما يكاد شاعر يقول مبدأ حتى يتأثر به آخر فيقلده . فقد أظهر Pope الشاعر الانجليزي في كتابه الرائع Essai sur l'homme فوائد التفاؤل ودعا إليه بتعابير أخاذة ، فقلده ڤولتير Voltaire في فرنسة ، وتأثر بما دعا إليه بوب . ثم يأتي الشاعر الانجليزي المتشائم young يونغ ، ويكتب لياليه ، وهي ليالٍ مملوءة بالتشاؤم والأسى ، فتؤثر في « لورميان Lormian » الشاعر الفرنسي وعضو المجمع العلمي ، ويكتب « سهرات شعرية وأخلاقية Veillées Poétiques et Morales » ، ثم يأتي لامارتين فيستوحي بوب مرة ثانية ، كما استوحاه من قبل ڤولتير ، ويودع تلك الآراء في قصيدته الإنسان "l'homme" حتى أمتلأ أفكار بوب نفسها ؛ وقد أوضح ذلك بالتفصيل الأستاذ لانسون في مقدمته على « التأملات Méditations » . ثم يأتي بيرون Byron فيقلد يونغ ، ويراه يُشالي في تشاؤمه المملوء بالثورة والسخرية ؛ فيقلده موسه Musset في فرنسة ، وبوشكين Pouchkine في روسية ، ولينو Lenau في ألمانية .

* * *

ومن هنا كان بعض الأدباء قادة أخلاقيين للناس ، فقد كان بترارك Petrarque و بوكاس Boccace قادين للأجيال في القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر ، وقد عُدّ بترارك المرشد الذي قاد الناس بآرائه الأخلاقية طوال عصر النهضة . وكذلك كان مونتيني Montaigne

ابتسامة

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

يا مُنى النفس يا مثابة حبّي
ابسمي يبسم الرجاء بقلبي
أشرقي من شعاع ثغرك يسفر
لفؤادي نورٌ من الحسن يُصبي
وأضيئي ذاك السنا من ثنايا
ك تُضيء بالرجاء أحلام صبّ
ابسمي للصديق بسمة راضٍ
عن هواه يُحيل قربا بقرب
ابسمي للوشاة بسمة زارٍ
ساخرٍ بالوشاة غير مُلبّي
ابسمي للسقيم بسمة آسٍ
أيُّ طبٍّ في سحرها أيُّ طبّ
ابسمي للزمان بسمة لاهٍ
ليس يُغري على الزمان بعتب
ابسمي للحياة بسمة راجٍ
يُنهب العيش بالمنى أيّ نهب
ابسمي كلُّ ما ترين جميلٌ
كلُّ شيءٍ يحلو بقلب المحبّ
ابسمي للظلام يبسم بصبحٍ
وابسمي للصباح بسمة عُجْب
ابسمي للرياض يبسم لكِ الزهـ
ـرُ ويكسي النباتُ نضرة خصب
يا شفاهًا كأنما ورقُ الور
دِ سقتها خمر الرضاب بعذب
يا لوردٍ تشيع فيه الثنايا
بسنًا يسحر القلوب ويسبي
لو ضممتِ الشفاه ضمًّا عليها
نفذت بالسنا إلى كلّ لبّ
يا ثنايا كأنها في صغارٍ
درُّ ساقطته أنداءُ سحب
فلجت بينها منافسة الحسـ
ـنِ فكلٌّ يحطّه منه يُنبي
وروحُ الحديث من فيك نبا
تا فيزهى بلؤلؤٍ منه رطب
فإذا مازج الحديث ابتسامٌ
راح منه نشوان من غير شرب
ابسمي للمُقِلّ يستصغر الكو
نَ بما فيه من ثراءٍ وكسب
ابسمي لي إذا سألتُ لقاءً
بسمةٌ منكِ لو تشائين حسبي

أحمد الزين

قائداً ودليلاً في كتابه Les Essais ، وكان له أتباع وأنصار ، وخاصة في انجلترا ، ومنهم براوتون Bruton وتوماس براون . ولم يكد روسو يطلع على الناس بآرائه الأخلاقية العامة حتى انتشرت واستفاضت شهرتها في الغرب كله ؛ وقد أعجب بها الألمان إعجاباً كبيراً ، ومجّدوا روسو تمجيداً عظيماً ، حتى قال شيلر : « إن هذا الرجل يجعل من النصارى رجالاً » ، فكان مرشداً للجيل الذي سبق عهد الإبداع ، وأوحى إليه الطهارة في الهوى ، والصفاء في الحب ، ... وقد بلغ من تأثير روسو في أدباء الشباب الألمان آنئذ أن صاروا يملأون أشعارهم ورواياتهم وأقاصيصهم بآراء روسو وأفكاره .

ولم يقتصر تأثير روسو على هؤلاء ، فلقد تخطت آثاره ألمانية إلى الروسية ، وأثرت آراؤه في تولستوى Tolostol تأثيراً كبيراً ، وقد فصل هذا « ماركوفيتش » في كتابه الجيد المسمى « تولستوى وروسو » .

فهذه نبذ عن الأخلاق في أدب الغرب . والموضوع واسع . ولعلنا نعود إليه .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٣٩٩٣ ، ٥٦٧٦٩

العدد ٢٤٩ — الثلاثاء ٦ من شوال سنة ١٣٦٢ — ٥ من أكتوبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

في الأدب العربي :

عروة بن الورد

في مصر يوم زرتُ أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد باشا في مصيفه في « رأس البر » ؛ وأخذنا نتحدث فنوناً من الحديث ، حتى وصل بنا إلى الأدب ، فقال :

لفتَ نظري وأنا أقرأ في « الأغاني » اليوم ما حكاه من أن معاوية قال : « لو كان لعروة ولدٌ لأحببتُ أن أتزوج إليهم » . وأن عبد الملك بن مروان قال : « ما يسرُّني أن أحداً من العرب ممن لم يلدني قد ولدني إلا عروة بن الورد » .

كيف يكون هذا ومعاوية هو ما هو في نفسه ، وفي ملكه ، وفي عظمته ، وفي قومه ؛ ثم يتمنى أن لو نال شرف الإصهار إلى عروة ؟ وعبد الملك بن مروان ، وهو ما هو في كل ذلك ، يتمنى أن يستعيض عن نسبته إلى معاوية وأبي سفيان وبني أمية — هذه النسبة التي جلبت له الملك الضخم — بنسبته إلى عروة بن الورد ؟

ومَنْ هو عروة ؟ صعلوكٌ من صعاليك العرب . وكُتب اللغة تُعرِّف الصعلوك بأنه الفقير الذي لا يملك شيئاً ، ولا اعتماد له إلا على الغارة والتلصص .

كيف يستقيم ذلك في الأذهان ؟ أحد أمرين : إما أن تكون هذه الأقوال المنسوبة إلى معاوية وعبد الملك غير صحيحة ، وإما أن يكون فهمنا للصعاليك غير صحيح !

وجدتُ السؤال صعباً ، والاعتراض وجيهاً ، فلم أحر جواباً .

واليوم عدتُ إلى مكتبي وذكرتُ السؤال ، فرجعتُ إلى ديوان عروة ألتمس الحل . وجدتُ أن عروة — كما

يصفونه — كان عبسياً، من قبيلة عنترة، «وكان فارساً من فرسانها، وصعلوكاً من صعاليكها المقدّمين الأجواد، وكان يلقب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى».

ووجدتُ أن كلمة الصعلوك تطلق على معنيين متقابلين أتم التقابل، أحدهما في منتهى الخسة والضعة والذلة، والآخر في منتهى العزة والسمو والنبل؛ كلا المعنيين أساسه الفقر، ولذلك سُمّيَ كلا الرجلين صعلوكا، ولكن شتان ما بينهما؛ فأما أولهما ففقير كسول خامل، دنيء النفس، ساقط الهمة، يتلمس رزقه من السؤال، ويدور على الموسرين يتحننهم، ويستدر قوته الحقير من أيديهم؛ هذا صعلوك حقير. وأما الآخر فشهم شجاع، يتلألأ وجهه عند الشدائد، ويطلب رزقه من سن رمحه، فإن نال ما طلب طَعِم منه وأطعم، وأكل وآكل، وتزوّد وزوّد، حتى يأتي على آخره فإذا هو فقير، فهذا صعلوك نبيل.

ولم آت بشيء من عندي في هذا التفريق بين الصعلوكين، فقد عبّر عروة عنه تعبيراً خيراً مما عبّرتُ، وجلاه خيراً مما جلوتُ، فقال:

لَحَا الله صُعْلُوكاً إذا جَنّ ليلُه
مُصَافِي المُشَاشِ آلِفاً كُلَّ مَجْزَرِ (١)

يَعدُّ الغنى من دهره كلَّ ليلةٍ
أصابَ قِرَاها من صديقٍ مُيَسَّرِ (٢)

ينام عِشَاءً ثم يُصبحُ طَاوِياً
يَحُتُّ الحَصَى عن جنبه المُتَعَفِّرِ (٣)

(١) لحا: لعن، وجن الليل: أظلم، والمشاش: رأس العظم اللين الهش، ومصافي المشاش أي مقتفيه وملازمه، وعاقد عقد الألفة بينه وبينه، والمعنى لعن الله صعلوكا حقير النفس، إذا أظلم ليله تحسس مسقط الطعام ولازم مكانه. (٢) أي أن هذا الصعلوك إذا أصاب الضيافة من صديق غني حسب ذلك من نفسه غنى، أي أنه يرضى من عيشه بقرى ليلة من صديق.

(٣) يحت الحصى: يفركه عن جسمه، وهذا علامة خموله وبلادة حسه، فهو كثير النوم لا يسعى لرزق.

قليلَ التماسِ الزادِ إلا لنفسه
إذا هو أمسى كالعَريشِ المُجَوَّرِ (١)

يُعِينُ نساءَ الحيِّ ما يَسْتَعِنَّهُ
فيُضْحِي طليحاً كالبعيرِ المُحَسَّرِ (٢)

ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجهه
كضوءِ شهابِ القابسِ المتنوِّرِ (٣)

مُطِلّاً على أعدائه يَزْجُرونه
بساحتهم زجرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ (٤)

فإن بَعُدوا لا يأمنون اقترابَه
تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظَّرِ (٥)

فذلك إن يلقَ المنيةَ يلقَها
حميداً وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأجدرِ (٦)

وفي هذا المعنى وتقسيم الصعلوك إلى هذين القسمين أيضاً قال حاتم الطائي:

لحا الله صعلوكاً مُنَاه وهَمُّه
من العيش أن يَلْقَى لَبوساً ومَطْعَمَا

ينام الضحى حتى إذا الليل جَنَّه
تنبَّه مثلوجَ الفؤادِ مُوَرَّمَا (٧)

(١) أي إذا هو أمسى وشبع بطنه مما أعطاه الناس سقط على الأرض من التخمة، كالكوخ الذي يتداعى ويسقط، والمجوّر: الساقط.

(٢) أي يقضي نهاره في خدمة النساء في الأعمال الوضيعة حتى يعيا فيكون كالبعير الكليل.

(٣) القابس: طالب النار، والمتنور: الذي يطلب النار من بعيد، أي لله صعلوك فقير آخر متهلل الوجه، منبسط النفس للجد والعمل لا يختشع لفقره، كأن ضوء وجهه ضوء ذي النار المستضيء بنورها.

(٤) مطلا: مشرفاً على أعدائه بغزوهم، فيزجرونه ويصيحون به — كما يصيحون بقداح الميسر عند اللعب بها — ليبعدوه.

(٥) أي إن بعد أعداؤه عنه لم يمهله بعده أن يغزوهم، ولا يأمنون ذلك منه، كما يفعل أهل الغائب الذي ترتقب عودته.

(٦) أي إن يمت يمت حميداً، وإن بقي فاستغنى، فما أجدره بهذا الغنى لأنه ينفقه في المحامد. (٧) مثلوج الفؤاد: بارد القلب بليداً، وموّرما: منتفخاً من النوم.

مقيماً مع المُثْرين ليس ببارح
إذا نال جَدْوَى من طعام ومَجْثِمَا(١)
ولكنَّ صُعلوكاً يُساوِرُ هَمَّهُ
ويمضي على الهيجاء ليثاً مُصَمِّمَا(٢)
إذا ما رأى يوماً مكارمَ أعرضَتْ
تَيَمَّم كُبْراهُنَّ ثُمَّتَ صَمَّما(٣)
فذلك إنْ يَلْقَ الكريهة يَلْقَها
حميداً وإن يستغْنِ يوماً فربما(٤)

* * *

كان عروة صعلوكاً بالمعنى الثاني ، يلمع في وجهه ضياء الأمل والنشاط ، ويترفّع عن المعيشة الدنيئة ، ويهابه أعداؤه ، ويُغير عليهم فيستغني منهم ، ويفرّق ماله على من حوله ، ويعيش فقيراً نبيلا .

وحول هذه المعاني كلّها كان شعره كله ، فهو يسعى مجد وحسن الذكر ، فإما مات في سبيله وإما ناله :

ذَريني ونفسي أمَّ حسانَ إنني
بها قبل ألاّ أملك البيع مُشتَرِي
أحاديثَ تَبقَى والفتى غيرُ خالدٍ
إذا هو أمسَى هامةً فوق صَيِّرِ(٥)
ذريني أُطَوِّفْ في البلاد لعلني
أُخلّيكِ أو أُغنيكِ من سوء مَحْضَرِ
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن
جَزُوعاً وهل عن ذاك من متأخَّرِ
وإن فاز سهمي كَفَّكُم عن مقاعدٍ
لكم خَلْفَ أدبار البيوت ومنظَرِ

كان عروة اشتراكياً عملياً ، لا اشتراكياً نظرياً فحسب ، يذكرنا بتولستوي على بُعد ما بينهما في البداوة والحضارة ، والأمية والثقافة ، والزمن بين القرن السادس والتاسع عشر ؛ ولكن الروح النبيلة فيهما واحدة . فقد حمل « عروة » عبء الفقراء في قبيلته ، وآلى ألا يستريح حياته أو يجدوا كفايتهم ، وألّف منهم فرقة تعمل معه وتسعى سعيه ، وما نالوا فهو للجميع ، ونفسه لا تهدأ من الشعور بهذا العبء :

ومن يك مثلي ذا عيال ومُقْتِراً
من المال يَطْرَحْ نفسه كل مَطْرَحِ
ليبلغَ عذراً أو يُصيبَ رغيبةً
ومُبلِغُ نفسٍ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

وليس عياله هم أولاده كما نفهم نحن اليوم ، ولكن مَنْ يعولهم من أهله وفقراء قومه ، كما تدل عليه سيرته .

وقد جمع « عروة » فقراء قومه حوله ، وبنى لهم حظيرة يقيمون فيها ، وهو يغزو بأشدائهم أعداءه وأعداءهم ، فما جمع وجمعوا فرّقه عليهم ، وساوى بين نفسه وبينهم ، وسماهم اسماً إن كان قبيحاً اليوم فلم يكن قبيحاً في عهده ، سماهم « أصحاب الكنيف » ، و « الكنيف » الحظيرة تقام من الشجر فتقي من فيها الريح والتراب والبرد .

وكان له في الصحبات والغزوات رأي لطيف ، وهو تقصّي حال من ينوي غزوهم ، فإن كانوا كرماء سمحاء تركهم ولم يُغر عليهم ، وإن كانوا أشحاء بخلاء أدنياء ، تعمد غزوهم ، وسلبهم ما في أيديهم وأعطاه لأصحاب الحظيرة .

يحدثنا الرواة عن حادثة طريفة حدثت له ، فقد كان « عروة » حياته في جهد متواصل من الغزو والقتال ، وهذه هي أهم وسيلة من وسائل العيش في ذلك العهد ، وكان إذا أصاب إبلاً أطلع أصحاب الحظيرة منها ، وقسمها عليهم قسمة عادلة ، وأخذ لنفسه نصيباً مثل نصيب أحدهم ؛ فأغار يوما ونال إبلاً كثيرة ، وسبى امرأة ، فقسم الإبل بينهم ، وأراد أن يستخلص المرأة لنفسه ، فأبوا عليه ،

(١) الجدوى : العطية ، والمجثم : المكان يقيم فيه .
(٢) يساور همه : يواثبه ويغالبه . (٣) تيمم : قصد وتعمد .
(٤) فربما أي فربما حمد أمره .
(٥) يريد أن الفتى يموت فتخرج منه هامة تعلو كل قبر كعقيدتهم في الجاهلية .

حتى يطبق الاشتراكية تطبيقاً دقيقاً ، وطلبوا إليه أن يقوِّم المرأة بالإبل ويجعلها سهماً ، فمن شاء أخذها ومن شاء تركها ، أما أن يستصفيها لنفسه فلا . فغضب «عروة» أشد الغضب ، وفكَّر أن يهدم الحظيرة على من فيها ، وينتزع منهم ما أسدى إليهم ، ويقتل مَن أبى عليه منهم ، ولكن رجعت إليه نفسه الخيِّرة فقال : « إن فعلتُ أفسدتُ ما صنعت » ؛ ثم نزل على حكمهم وترك المرأة لهم ، وشكا فى شعره الناس وتعسّيهم ، يقول فيه إنهم كسائر الناس ، ضعاف إذا جاعوا ، لئام إذا شبعوا ؛ وإنى وإياهم كالأم الرءوم على ولدها الصغير ترضعه وتحمله ، وتغذِّيه وتلبسه ، وترهن له ماء عينيها ، حتى إذا تم شبابه ، وأدرك خيرُه تزوج ، فغلبت الزوجة الأمَّ على ابنها ، وسلبته قلبه بما تتطيَّب له وتتزيَّن ، فحارت الأم فى أمرها ، إما أن تخسر ابنها إذا تنكرت له ، أو تصبر على الألم من أن تكون زوجته آثر عنده منها ، فدفعتها الشفقة أن تختار الثانية ؛ وهذا ما كان منه مع أصحاب الحظيرة ، فذلك قوله :

ألا إن أصحابَ الكنيف وجدتُهم
كما الناس لما أخصَبوا وتموَّلوا
وإنى لمدفوعٌ إلىَّ ولاؤهم
بماوانَ إذ نمشى وإذ نتملّل(١)

* * *

فإنى وإياكم كذى الأمِّ أرهنت
له ماءَ عينيها تفدِّى وتحمِلُ
فلما ترجَّتْ نفعه وشبابَه
أتتْ دونها أخرى جديدٌ تكحَّلُ

(١) ماوان : واد فى شرقى المدينة ، يقول أدركتهم وهم هزلى من شدة الجهد ، لا نقدر أن نمشى ، فأخرجتهم وقت بأسهم حتى إذا قووا وأخصبوا وجدتهم كسائر الناس يكفرون النعمة .

فباتت لحدِّ المِرفقين كليهما
توحوحُ مما نابها وتولولُ(١)
تخيَّرُ من أمرين ليسا بغبطةٍ
هو الثُّكْلُ إلا أنها قد تجمَّلُ(٢)

* * *

أكبر ميزة لعروة أنه كان رجلا ، وكان يشعر بالناس أكثر مما يشعر بنفسه ، واخترع لذلك المعنى التعبير الفنيّ الجميل « أقسِّم جسمى فى جسوم كثيرة » ، أى أقسم ما يلزم لجسمى من طعام فى أجسام الناس ، ثم هو لا يعبأ بهزاله إذا صح قومه ، ولا يعبأ بالأعباء يحملها لتخفيفها عن عشيرته ، وقد لخص هذه النظرات فى وصف نفسه بقوله :

أنى امرؤ عافى إنائىَ شِرْكةٌ
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد(٣)
أتهزأ منى أن سمِنتَ وقد ترى
بجسمىَ مسَّ الحق والحق جاهد(٤)
أقسِّمُ جسمى فى جسومٍ كثيرةٍ
وأحسو قراحَ الماء والماء بارد(٥)

لعل هذه المعانى النبيلة وأكثر منها هى التى جعلت معاوية يتمنى أن يصاهره ، وعبد الملك يتمنى عروة أن يكون أباه ؛ وهذا سمو فى تفكير معاوية وعبد الملك عظيم ، وتقدير لمعانى النبل كبير .

أحمد أمين

(١) أى باتت الأم لحد المرفقين ، أى متكئة عليهما من الهم والتفكير .

(٢) يقول تفكر فى خسارة أو بخاسته ، وتتخير ما تريد أن تصنع ، ثم تقول هو ولدى ولا غنى لى عنه .

(٣) عافى إنائى شركة : أى طالب المعروف منى خلق كثير .

(٤) والحق جاهد : أى يجهد الناس ، والحق الذى يعنيه صلة الرحم ومساعدة الضعفاء .

(٥) يقول أقسم طعامى على الناس ، وأكتفى بالماء الخالص غير الممزوج باللبن فى الشتاء حيث الجسم أحوج إلى الغذاء .

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

شرٌ في القراد

محاولاتٌ فاشلة

وصل الثالث : البيت الأحمر معمل على في وشنجتن ، والعصابة التي فيه جماعة من العلماء الأطباء تستخدمهم حكومة الولايات المتحدة ، يبحثون الأدواء حيث ماظهرت في الولايات. ودين الجميع الموت في سبيل الواجب . وأحد هذه العصابة الدكتور اسبنسر ، أشخصته الحكومة إلى الغرب ، إلى ولاية «منتانا» ، إلى حيث الوادى الجميل وادى «بطروط» ، وبه حمى خاطفة تصيب الناس فتقتلهم .

حزم اسبنسر أمتعته وزوجه وطفلين له ، وركب القطار فبلغ بلدة «همِلتن» في تلك الولاية بجوار ذلك الوادى.

والآن اقرأ :

نزل «اسْبِنْسَر» إلى بلدة «هَمِلْتُن» ، فاستقبله الدكتور «بَرْكَر» R. R. Parker . ولم يكن «بركر» دكتور طب ، ولكن دكتورا في علم الهوامّ . وهو لم يكن دكتورا في علم الهوامّ الصغيرة التي لا تُرَى كالمِكروب ، ولكن في علم الهوامّ الكبيرة التي تملأ العين . وأخذ الرجلان يبحثان عن موضع لعملهما . وكان لأهل المدينة رأى في ذلك لا مندوحة عن سماعه . فهذه الحمّى التي جاءا يبحثان عِلّتها لم تكن تقتل إلا النزْرَ اليسير من الناس ، ولكن أهل المدينة رأوا أن الحيطة أسلم ، فمن يدرى ، فلعل حال هذه الحمى غداً يكون غير حالها اليوم . فأخذاً بما رآه أهل المدينة من حيطة ، اختار الرجلان لمعملهما دار مدرسة قديمة تبعد عن البلدة ميلا ونصف ميل . وهي مسافة قدّر أهل البلدة أن أقطع مِكروب لا يستطيع أن يقفزها إليهم .

كان «اسبنسر» و«بَرْكَر» حديثين في علم ما اعتزما بحثه ، فلم يعرفا عنه إلا قليلا . ولكن كانت هناك حقيقة معروفة يصح أن يبدأ منها الباحث ، فبدآ بها . وتلك الحقيقة أن المرء لا يصاب بالحمى المبقّعة إلاّ أن تكون عضّته قُرادة . وكان «بركر» قضى سبع سنوات يمارس علم الحشرات في هذه الولاية ، ولاية «مُنتانا» . وكان في خلال أعماله الحشَريّة الدورية من جمع حشرات ووضعِ خرائط ، قد ملكتْ عليه نفسَه هذه الحمّى فأغرِم إغراما شديدا بكشف خبئها .

وبدأ الرجلان في دار تلك المدرسة العتيقة يتحسّسان سبيلا يسلكانها ، وخطّة للعمل يرسمانها . وتساءلا : كيف أن المرء يعضّه القُراد على سفح الوادى الشرقىّ لوادى «بطروط» فلا تصيبه الحمى ، ولكنّ القُراد يعضه على سفح الوادى الغربى فتصيبه الحمّى ، والقُراد هو القراد ؟

ولكن من أين علما أن القُراد هو المسئول عن هذه الحمى ؟ عَلِماه من عمل طبيبين بسيطين قاما يبحث هذه الحمى قبلهما ، ولكنهما لم يبحثاها في ولاية «مُنتانا» في وادى (بطروط) حيث الحمى شديدة الفتك تقتل كلّ من تصيب أو جُلّهم ، ولكن بحثاها في ولاية (إيداهو) Idaho حيث الحمى أخف فتكا ، إذ تقتل ممن تصيب خمسة في المائة . ولعل في خفّة فتك هذه الحمّى ما حدا بهذين الطبيبين — واسمهما «مَكَلاّ» Mc Calla و«بْرِرِتُن» Brereton — أن يُشبعا نَهَمهما العلمى بهذه التجربة الجريئة :

كان في ولايتهما ، ولاية «إيداهو» ، رجل أصاب الصقيع قدميه كلتيهما ، فتنغنرا ، فبُترا كلاهما . فهذا الرجل أصابته هذه الحمّى المبقّعة . فوضع الطبيبان على ذراعه قرادة ، وتركاها ترْوَى من دمه حتى امتلأت وانتفخت . ثم أخذا القرادة ووضعاها على رجلِ امرأته . قال الطبيبان : «وكان هذا برضاء الزوج وامرأته» . فرضت الزوجة بالحمّى . وكان من حظها وحظ زوجها أن

كانا فى الخمسة والتسعين فى المائة الذين ينجون بعد الإصابة بهذه الحمّى . وقد نسى الناس أمر هذين الحيوانين التجريبيَّين الإنسانين نسيا كاملا .

فى هذا المبدأ الغريب بدأ علم هذه الحمى . واليوم ، فى بلدة « هميلْتُن » يسأل « ركْ » « اسْبِنْسر » : كيف أن إصابة الحمى تنحصر فى سفح الوادى الغربى دون سفحه الشرقى ؟ ثم كيف أن فى هذا السفح الغربى تنحصر الإصابة فى بعض وديانه دون بعضها الآخر ؟

سؤال عقىٌّ فى الصميم . فماذا كان جوابه ؟ لقد كان مهّد لهذا الجواب عالم فى المكروب شهير سبقهما يُدعى « ريكِتْس » Ricketts ، من مدينة « شيكاجو » . أتعب هذا العالم نفسه فى بحث المكروب حتى أجهدها ، فطلب الراحة ، فحضر إلى « ميسولا » Missoula يستجمّ ويستروح . و « ميسولا » بلدة فى نفس هذه الولاية ولاية « منتانا » ، غير بعيدة من نفس هذه البلدة التى نزل بها صاحبانا ، بلدة « هملتن » بوادى « بطروط » . فما نزل صاحبنا عالمُ المكروب فى « ميسولا » حتى هاله ما رأى فى مرضى هذه الحمى — تصيبهم الحمى فتتركهم سودا يلهثون فى طلب الهواء ، ثم هم يختنقون . عندئذ نسى الرجل استرواحه واستجمامه وقام لساعته يبحث هذا الداء ، ولم يمض أسبوعان حتى اقتنص مكروب هذه الحمى فى أجسام هؤلاء المرضى ، وأخذ يربيه فى خنازير غينيَّة ، وينقله فيها من خنزير لخنزير . . . ثم نقله إلى القرود .

فكّر « ركْ » العالم الحشرى فى ما صنع « ريكِتْسُ » العالم المكروبى . وعندئذ خطر له خاطر : أيجوز أن يكون بتلك الوديان الوبيئة حيوان برىٌّ قرّاض ، كالفأر أو نحوه ، اتخذ المكروبُ من جسمه موطنا يعيش فيه ويتكاثر ؟ ومن هذا الخاطر أخذ « ركْ » يختطّ خططا للعمل واسعة ، ثم جلس إلى « اسبنسر » فى دار تلك المدرسة العتيقة يشرح له هذه الخطط .

ونعود إلى « ريكِتْس » ، إلى ذلك العالم المكروبىّ مرة أخرى فنقول إنه مهّد بالذى صنع بعض الطريق للسائرين على دربه من بعده . فقد ذهب بنفسه إلى تلك الوديان الجبلية الوبيئة يطلب القُراد . ذهب يجمع القُراد ، وقد كان المفروض أنه إنما ذهب ليستجم ويستروح . ثم هو تمكن بواسطة هذا القراد من نقل علّة هذا الداء من خنزير غينىٍّ إلى خنزير غينىٍّ فى سلسلة طويلة لا نهاية لها . وضرب — وهو فى إجازته — فى مضارب الداء يعبث بالخنازير والقُراد والقردة عبثاً كان جديراً أن يخرج به من هزل الحياة إلى جِدّ الموت . وذهب — وهو فى إجازته — فى تلك الوديان مذاهب يتحاماها أصلب الرعاة عودا ، وظل يَنْشُطُ الخيل والأبقار والثيران ، مخصيّة وغير مخصية ، والأرانب والأشجار والأعشاب ، كل هذا يبحث عن قراد يكون فيه الوباء « طبعاً » لا نقلا من إنسان أو حيوان مريض .

ووجد ما طلب . وأثبت ما وجد . وإلى هذا وقف ، وظلّ الناس بالحمى يموتون .

* * *

لِمَ كانت تلك الوديان العميقة فى السفح الغربى من الوادى موضع الإصابة بالحمى دون غيرها ؟ أكان هذا بسبب شىء خفىٍّ أختص به الريف فى تلك الناحية دون غيره من النواحى ؟ كان « ركْ » رجلا جمّ النشاط ، يتقن التنظيم فى أعماله ، فاختطّ الخطط المجيبة لبلوغ غايته . اختط أن يرسم كل ركن من أركان هذه الوديان مصوّراً إياها بالفوتوغرافيا من طائرة تجرى فوقها . واختط أن يجمع القراد من كل حيوان وكل طير يرود هذه الوديان وهذه التلال . كل هذا ليكتشف ذلك الشىء الذى يختبئ فيه مكروب الحمى — من حيوان أو طائر — ثم هو يخرج منه إلى القراد ، ثم هو يخرج من القراد إلى الناس . ووقر فى نفسه أن هذا الشىء الذى يختبئ فيه المكروب لابد أن يكون قارضا من القوارض .

ألا ما أجملها خطة مستحيلة الإنفاذ يختطها رجل أمثال ! كان « بركر » فيها كمن سقطت من يده إبرة فوقعت في كومة هائلة من الحشيش فأخذ يبحث عنها ، فلا يقنطه صغر الإبرة ولا يقطع أمله كبر الكومة واختلاطها .

ولم يكن « بركر » في خطته هذه أول رجل يختط خطة غير ممكنة . فقد سبقه في ذلك « مكلنتيك Mc Clintic » من نفس تلك العصبة ، عصبة البيت الأحمر على ذلك الجبل فوق ذاك النهر بولاية « وشنجتن » ، وسبقه في سبيل إنفاذ هذه الخطة إلى الموت .

كان هذا قبل مجيء « بركر » بسنوات . رأى « مكلنتيك » أنه لابد لمحو الحمى من محو القراد . وقال إن القراد الصغير حديث الفقس لا يعيش أبداً إلا إذا هو شرب من دم الحيوان البري الذي يركب جسمه في تلك النواحي . وإذن فمحو الحمى لابد من محو كل حيوان بري في تلك النواحي . وجاء بفئة تحسن الرماية ، وأخذ يطلق النار وإياهم على كل حيوان بري تقع عليه أعينهم . وقتلوا وتصيدوا وسمموا كثيرا من السناجب وأشباه السناجب ، وكثيرا من الأرانب وأشباه الأرانب . وأتوا بمادة كبريتور الكربون ، وهي مادة كيماوية سامة للحشرات والحيوان ، سائلة تشبه البنزين مظهرا ، فصبوها في جحور الأرض حيث تسكن القوارض . وأي جحور وأي قوارض ! جحور لا قاع لها ، وقوارض لا حصر لها . كان وكانوا كمن يرمون بالسكر في النهر ليحلو . وبطلع صباح يوم من تلك الأيام ، فإذا « مكلنتيك » يرتعد كمن مسه البرد ، وإذا به يحس الألم في عظامه يصعد ويهبط . ونظر في ساعته ، ثم هم فنهض ليلحق بقطار الشرق ، فبلغه العاصمة في نفس اليوم الذي قتلته الحمى فيه ، ولكن الموت أمهله ساعة يرى فيها زوجه .

لقد كلف هذا الداء ولاية « منتانا » مالا كثيرا بالنسبة إلى قلة خطره لضيق نطاقه . فقد حاولت الولاية أن تحمل كل راع وكل صاحب ماشية في وادي « بطروط » أن يغطس ماشيته أو خيله في مغاطس بها السوائل السامة كي يموت القراد النامي على أجسامها . وأرسلت الولاية البعثات إلى ذلك الوادي تحمل البنادق والسموم لتقضي بها على كل ما فيه من قوارض ، لتقضي على كل ما فيه من قراد . وأعطت الولاية الدكتور « مكرى Mc Cray » مالا ليستخرج للداء مصلا يقي من وبائه . ولكن كان بيد الدكتور خدش دخل منه الوباء فمات به قبل أن يواجه مسئلة بحثها خائب : أن يستخرج مصلا لداء لا رحم كهذا الداء .

وظل القراد على الرغم من كل هذه المحاولات يتكاثر ويتزايد وعتل وسمنه من دماء آلاف السناجب والأرانب وأشباهها ، وكل ما هبط إلى وادي « بطروط » من البلاد المجاورة من حيوان . ويأتي الربيع بعد الربيع ، فيذهب رجال الجبال في سبيل واجبهم إلى تلك التلال بذلك السفح الغربي من الوادي فيلقون حتوفهم في بضعة أيام .

محاولات كلها مخفقة . ومن تلك المحاولات محاولة وقعت في « نيويورك » ، في ذلك المعهد الأمن الأمين ، معهد « روكفلر Rockefeller » ، حاولها ذاك الياباني الذي قام بمعين الأستاذ « نوجوشي » لاستخراج طعم يقي من الوباء . فهذا الرجل مات من هذا الداء موتة شنيعة ، ودفن — على ما أعلم — فلم يحتفل بدفنه كما يحتفل بالجنود .

ضاعت كل المحاولات سدى ، وذهبت عبثاً . وقالوا طهروا البلد من القراد . وما تطهير البلد منه إلا كغسل الرمل فوق غربال .

ثم يأتي من بعد كل ذلك « بركر » ، فيحاول ، لا تطهيرا ، ولا غربلة رمال ، وإنما يحاول أن يقع على مصدر هذا الوباء ومخبئه ، على ذلك الحيوان القراض الذي اختص دون سائر الحيوان بحمل الوباء في دمه !

(يتبع) **أحمد زكي**

من مذكرات جحا :

جحا يحاول أن يسرق

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التى زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

مضت أيام كثيرة لم أر فيها صديق أبا النور إلا قليلا — مرات معدودة — وضاق صدرى من الوحشة إليه ، فإنه لم يبق لى فى الحياة من سلوى إلا أن أجلس إليه ، وأسمع صوته العاطف .

ولم يكن أبو النور مقصراً فى قلة رؤيتى إياه ، إذ أنى علمت اليوم أنه لم ينقطع يوما من الأيام عن الإلمام بدارى الجديدة التى استأجرتها بعد بيع دارى العزيزة ، وكان كلما أتى إلى الدار لا يجدنى فيها ، فإنى كنت أضيق بالقعود بين جدرانها المظلمة حتى أحس كأن أنفاسى تختنق ، وأن السقف يكاد ينطبق على الأرض ، فأخرج منها لا ألوى على شىء ، وألتمس الهواء الطلق فى أطراف ماهوش وفى طرقها . وكنت كلما وجدت جنازة سرت وراء النعش لأشيعها مع المشيعين ، لا لشىء سوى قضاء الوقت خارج تلك الدار ، فلا أعود حتى يدفن الميت ، وتقرأ عند جدثه الصلوات ، ويعزى المشيعون أهل الفقيد ، ويعود الجميع إلى بيوتهم .

وكان ولدى عجيب يصحبنى فى كثير من هذه الجولات الحائرة ، وكان يجد فيها فرصاً كثيرة لدراساته الأدبية . وقد كنا يوماً نشيع أحد الموتى ، فلما دفن فى قبره وقرئت عليه الصلوات جلسنا نستمع إلى أصحابه وهم يؤبنونه بالمراثى ويبكونه بألفاظ منمقة مؤثرة ، فقال أحدهم فى مرثيته :

« أنت هذا تحملك إلى مقرك الوحش الذى لا ترى فيه الشمس ولا القمر ، ولا تطالعك فيه النجوم الزاهرة ، ولا تهب عليك نسائم الأصيل العليلة . أنت هنا فى مقرك المظلم الذى لا تنفذ إليه الأضواء ، ولا تؤنسه سجعات الأطيار » .

وجعل ذلك الصديق يفيض فى وصف القبر ووحشته وظلمته وضيقه حتى أسهلت منا العبرات ، وسمع من جوانب الجمع شهيق البكاء . فإذا بى أحس يد ولدى تطمئنى فى جنبى ، فالتفت إليه ، وخفضت له رأسى وهمست له سائلا ماذا لعله يبغى من وخزى . فأشار إلى أن أميل بأذنى إليه ليهمس لى قولا ، فلت إليه فقال لى :

— ألا ترى يا أبى أن ذلك الرجل قد بلغ ذروة البلاغة فى رثائه ؟ فهززت رأسى له موافقاً ، ولم أرد أن أطيل الحديث فى مثل ذلك المقام .

وما هممت برفع رأسى حتى وخزنى مرة أخرى ، فلت بأذنى إليه مسرعا فقال :

— ولولا أننى لم أنشر مقالى بعد ، لظننت أن ذلك الرجل قد سرق منى هذه المعانى الرائعة .

فنظرت نحوه مستفهماً ، فقال وقد أخرج ورقة من جيبه :

— هذه هى مقالتى التى صورت فيها بيتنا الجديد ، ووصفته فيها وصفاً كنت أحسبه معجزاً . أتحب أن تسمعه ؟

ولم ينتظر إجابتى ، فأخذ يقرأ لى من الورقة وصف الدار وظلمتها ووحشتها ، فإذا به مثل ذلك الوصف الذى سمعته فى تلك الساعة من صديق الفقيد .

فغصصت بريقى عند ذلك ، ولم أجد لفظاً أجيب به ولدى عند ما سألنى عن رأيى فى مقاله ، وانصرفت من الجمع وعدت إلى الدار حزيناً ، وأحسست عند ذلك بفداحة مصابى وعظم جرمى ، إذ بعت دار أجدادى ، ونقلت ولدى وأهلى إلى تلك الدار المظلمة ، بل إلى ذلك القبر الشارد من جبانته ، وثارت نفسى ثورة هائجة عند ذلك ، فلم أستطع كبح جماحها ؛ وخيل إلى أن هذا العالم قد تعمد ظلمى

والإذلال ، وأنني مطالب بأن أدفع عن نفسي ظلمه وإلا كنت امرأ لا أستحق أن أكون إنساناً . إذ كيف أكون إنساناً ينبض قلبي بدماء الحيوان ، ولا أدافع عن نفسي كما تدافع أحقر أنواع الحيوان عن أنفسها ؟!

لئن كانت ماهوش قد أنكرت محلي ولم تجعل لي في أرزاقها نصيباً ، فإني أنا لا زلت جحا ، ولا زال العالم كله مكاني ؛ والعار في حرماني لاحق بماهوش العزيزة - حاشا الله من كل عار - أواه ! إني أحبك يا ماهوش مع كل ما يلحقني فيك من الأذى والإذلال والفقر ؛ ولن أبيح لنفسي أن أكون سبة عليك تلصق بك إلى آخر الدهر . فلآخذنك نصيبي ولو كان غصباً . سآخذ نصيبي وإن كان ذلك سرقة أو احتيالاً ، أو بأية وسيلة أخرى من الوسائل الدنيئة ، فإن هذا أهون عندي من أن أموت جوعا أنا وأهلي فيقول الناس على تعاقب الدهور : لقد مات جحا جوعاً لأن ماهوش القاسية لم تعرف له مكانه ، ولم تقسم له قسما في أرزاقها ! كيف أترك أولادي وأهلي في هذا البيت المظلم والجوع يعصر بطونهم ، على حين أرى الناس من حولي يحملون السكر والزبيب والتين والجوز وأنواع الفاكهة ، وأرى الحوانيت حافلة بأنواع الفطير والفالوذج والسنبوذج والسكباج واللحوم من كل صنف بين مشوي ومقلي وغير ذلك مما أعرف ومما لا أعرف ؟! كيف أفعل هذا إذا كنت رجلا تجري في عروق دماء الحيوان ؟! هكذا فكرت وفكرت يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة ، حتى رأيت نفسي ذات يوم أندفع اندفاعا نحو إنفاذ ما اعتزمته ، ولم يبق في نفسي عند ذلك مكان للصبر أو ضبط النفس . فقد جاء أبو النور يوما إلى داري يحمل كيلة من القمح وقطعة من السمك ، فوضع ذلك في ركن المقعد ، ثم أخرج من جيبه رمانتين وجلس يمسح العرق من جبينه . وكنت عند ذلك في الدار على غير عادتي ، فقمت إليه ورحبت به كما أوحى إليّ قلبي ، إذ كان شوقي إليه يملأ جوانب صدري . ولما رأيت ما حمله إلى داري سألته عما دفعه إلى ذلك ، وأنكرت عليه أن يحمل نفسه مشقة حمل مثل هذه الهدية ، مع أنه أحوج مني إليها لقلة ذات يده وكثرة عياله . وفيما كنت أكلمه خرجت علينا امرأتي زعة بصوتها الجهوري وحركتها العنيفة ، وجعلت تحتفي على ما قلته لأبي النور . وفهمت من قولها الصاخب أنه لولا هدايا أبي النور في هذه الأسابيع الأخيرة لهلكنا جميعاً من الجوع — نعم لهلكنا جميعاً — هي وأنا والأولاد ولم يبق منا أحد .

ولا أستطيع أن أصور مقدار ألمي عند ذلك ، فقد تبين لي أنني رجل قليل الهمة ، ناقص المروءة ، خائر العزمة ، قد انحدرت وهويت إلى قرار سحيق من الهوان ، وصرت عالة على صديق المسكين يقاسمني رزقه ، ويهبني أكثره على قلة ذات يده وضعف جسمه .

فخرجت من المنزل كالأعمى لا أرى شيئاً أمامي ، حتى رأيت نفسي في أرباض ماهوش ، وتلفتُّ حولي لأرى شيئاً أسرقه ، فلم أجد سوى البساتين الفسيحة تمتد إلى مدى البصر عن يميني وعن شمالي . فعزمت على أن أسرق ما أجد وإن كان نخلة أو جملا . فأسرعت وقفزت فوق سور ، ودخلت بستاناً فوجدت فيه أنواعاً من الخضر والبقول ، فقلت : أسرق من هذه ما دمت لا أجد شيئاً سواها ، وجعلت أقطع منها وأخلع في شيء من الحنق . ولم أجد شيئاً أحمل فيه ما جمعته من ذلك ، فنزعت شملة كانت عليّ ، وجعلت أضع فيها أنواع الخضر المختلفة التي خلعتها من جذورها ، ثم ربطتها ربطة محكمة ، ووقفت أفكر في طريقة حملها والهروب بها إلى منزلي . وفيما أنا أفكر في ذلك لحقني الندم ، على أنني صرت لصاً سارقا أقفز فوق أسوار البساتين وأنزع نباتها في غيبة أصحابها ، ولكنني جعلت أقاوم هذا الندم ودافعت عن نفسي بأن الشدة التي أعانيها لا تقل عن العاصفة الهائجة التي تقذف الإنسان رغمه إلى حيث لا يريد ؛ ولا جناح على الإنسان ولا لوم عليه إذا هو ركب المركب الوعر في وجه العاصفة الهوجاء ، فإنه ما كان ليُقدم على ذلك لولا دفعها الذي لا يقاوم .

وأفقت من هذا التفكير على لمس يد تقع على كتفى ، فالتفت ورائى ؛ فإذا بصاحب البستان ينظر إلى نظرة خبيثة ويهز كتفى بيده ويقول :

ماهنا ياجحا ؟ وماذا جاء بك إلى هنا ؟ ولم أدر كيف أجبت الرجل ، ولا كيف نطقت ، ولا كيف تحركت !

ولكن هكذا كان جوابى :

— حملتنى إلى هنا عاصفة هوجاء .

فتضاحك الرجل خبثاً وقال :

— عاصفة ! إنى لا أحس عاصفة . فقلت له فى مرارة :

— إنك لا تعرفها — إنها عاصفة لا يعرفها أمثالك . ولو هبت عليك يوماً لما سألتنى عما جاء بى إلى هنا .

فضحك الرجل كأن قولى قد سره ثم قال :

— آمنّا يا سيدى أن العاصفة حملتك إلى هنا . ولكن كيف قلعت كل هذه الجذور ؟

فنظرت إليه فى غيظ وقلت :

— دفعتنى العاصفة فتشبثت بهذه الجذور وجذبتها فانخلعت فى يدى .

فضحك الرجل طويلا كأنما هو يسمع مزاحا ثم قال :

— آمنّا أيضاً ، بكل ذلك يا سيد جحا . ولكن ما الذى وضع هذه الخضر فى هذه الشملة ؟

وكنت إلى هذه اللحظة لم أفكر إلا فى العاصفة التى دفعتنى إلى ما اقترفته ، ولم أفكر فى شىء آخر بعد ذلك . فقلت للرجل فى صراحة :

— لقد فاجأتنى قبل أن أفكر فى هذه الشملة وما فيها . وكأنى قد ألقيت على الرجل عند ذلك حجراً أفقده الاتزان فانفجر ضاحكا حتى وقع على الأرض ، فلم يقم إلا بعد حين ، وأنا واقف أنظر إليه متعجباً . ثم أقبل نحوى فحمل الشملة بيديه وألقاها على كتفى وقال لى :

— بارك الله لك فيها يا عم جحا . وأرجو ألا تطير العاصفة بهذه الشملة عن كتفك . ثم فتح لى الباب فخرجت وقلبى ممتلىء بالشكر والحزن — نعم بالشكر والحزن .

وقد حاولت بعد ذلك مراراً أن أغتصب وأسلب وأنهب ، ولكنى كنت فى كل مرة لا أفلح فى إنفاذ عزيمتى . فقد كان الناس كلما رأونى أحمل شيئاً نهبته ، ضاحكونى ووهبونى ما سرقت عن رضا ، فأرجع حزيناً لأنى لم أغتصب شيئاً .

ولكنى ما لبثت أن احتقرت نفسى ، فقد كانت هذه الحال أقرب الأحوال إلى الاستجداء والتكفف ، مع أنى ما قصدت إلا الغصب والنهب ، ولم أقصد أن أصبح شحاذاً .

وزاد من أجل ذلك حزنى حتى لاحظ صديق أبو النور فى زيارته الأخيرة ما اعترانى من الانقباض والإطراق ، وفاتحنى فى أمرى ، ولم أستطع أن أخفى عنه شيئاً منه ، بل أفضيت إليه بكل نأمة وكل خلجة فى أبعد طيات صدرى . وقد اشتد به الحزن حتى غلبه فى ذلك اليوم ، فلم يرد على بحرف واحد حتى قام وفارقنى ، وقد لمحت الدمع ينحدر فوق خديه وهو قائم لينصرف عنى .

أى صديق ! ليس فى طاقتك أن تفعل أكثر مما فعلت . فلقد واسيتنى من مالك القليل ؛ ثم واسيتنى بصمتك ودمعك ، وأشفقت أن تقول لى كلمة تستنزف الدماء من قلبى الجريح !!

(طبق الأصل) (جحا)

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـدد ١٥ مليما

سافونارولا

— ٢ —

إشارة إلى فلورنسا فى عهد لورنزو — انصراف الناس عن عظات سافونارولا — نقلاه ونجاحه فى اجتذاب الجمهور — بعض كتاباته الفلسفية — بعض آرائه الدينية .

وصل سافونارولا إلى فلورنسا عند ما كان لورنزو دى مديتشى — المعظم — فى أوجه . وكان قد قضى على الأحزاب السياسية وأسكت معارضيه وركز سلطة الحكم فى يده ، وحقق فترة من السلام ، وشغل الناس بالحفلات والمراقص ، فنسوا حقوقهم المسلوبة وحرياتهم الضائعة . واستخدم لورنزو كل الوسائل لتحقيق أغراضه ، فصادر الأموال ، ونقض العهود ، وبطش بالأعداء . واحتوت الحياة الفلورنسية فى عهده على المتناقضات ، فذاعت الآداب اللاتينية واليونانية ، وانتشرت الثقافة ، وجمعت المخطوطات والآثار ، ونشأت المدرسة الأفلاطونية ، وتقدمت الفنون ، وأقيمت القصور والكنائس . ولكن رجال الفن والأدب كانوا قد فقدوا معنى الخلق ولم يراعوا قواعد الدين ، وكانت أغانى لورنزو التى تحض على التمتع بالحياة قبل فوات الوقت تتردد على ألسنة الناس فى كل مكان .

وبعد فترة قصيرة قضاها سافونارولا فى فلورنسا بدت له حقائق كانت عنه خافية . فعند ما عرف أهل فلورنسا عن كثب أدرك تميزهم بشقشقة اللسان ، وبروح الشك السائدة فيهم ، ولاحظ أنه حتى بين رهبان سان مارك لم تسد الروح الدينية الخالصة ؛ ووجد أن أهل فلورنسا يؤثرون الاستماع إلى وعاظ ذوى ثقافة قديمة ، وأسلوب فخم ، وكان يستحق إعجابهم رجل الدين قليل الاعتقاد فى الدين . وفى ذلك الوقت كان الراهب ماريانو من ذلك الطراز من الرجال ، حائزاً لثقة الجمهور وتقديره ، فتجدد فى نفس سافونارولا شعور الاشمئزاز والسخط بعد أن علّق على فلورنسا آماله المالية . ووُجد بين أهل فلورنسا أشخاص فهموا مساوئ العصر ، ولكنهم لم يجرؤوا على اتخاذ خطة عملية لعلاجها ، ولم يقووا على مواجهة تيار العصر الجارف ، ولا على مناهضة نفوذ آل مديتشى . ولكن سافونارولا كان رجلا حراً قوياً متعصباً لمبادئه ، فأخذ على عاتقه إصلاح المجتمع الفلورنسى ، وبدأ يخطب فى الناس منددا بآثام البشر وبتزعزع إيمان رجال الدين . وفى أول الأمر لم تكن تسعفه الكلمات ، وكان يتلعثم أمام الجمهور فلم يتأثر الناس به ، ولم تعجبهم كلماته فانصرفوا عن الاستماع إليه . لم يقعده الفشل ، وأخذت تزداد بين جوانحه نيران رغبة عميقة لمخاطبة الناس والتأثير فيهم واجتذابهم إلى طريق الفضيلة والإيمان . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ ولحسن الحظ أنه ابتعد عن هذه البيئة فترة من الزمن ، إذ أرسل إلى رِدْجيو دِعيليا حيث أبدى سافونارولا عقلية ممتازة فى بعض الجلسات الدينية ، وهناك تعرّف إلى بيكو دِلاّ ميراندولا ، الذى امتاز بالجمال والشباب وبسرعة الخاطر وبدراسة التراث القديم . وبالرغم من الفوارق بين بيكو وسافونارولا فإنه قد توطدت بينهما أواصر صداقة متينة ثابتة .

ورجع سافونارولا إلى فلورنسا ، وهو يفكر فى أحوال المدينة ، وكان يرتقب فى صلاته وتفكيره وحياً مباشراً من الله ، وتراءت له أبواب السماء قد فتحت ، وصرت أمام باصرته المصائب التى تهدد البشر ، وسمع صوتاً يأمره بأن يعلن ذلك للناس . ومنذ ذلك الوقت اعتقد أن أمامه رسالة إلهية عليه أداؤها ، وأنه نبى يصرخ فى الفيافى لتنوير عقول الناس ، وتطهير نفوسهم وإرجاعهم إلى الدين القويم . وغادر فلورنسا مرة أخرى ، إذ أرسل فى ١٤٨٤ و ١٤٨٥ للوعظ فى الصيام الكبير فى جمهورية سان جيميناو الصغيرة الواقعة بين الجبال المحيطة بسينا . وفى سان جيميناو استطاع سافونارولا أن يرفع صوته عالياً ،

وعرض آراءه التي ملأت نفسه زمناً طويلا ، وأعلن كلماته التي ستصبح صيحة الحرب وعلم الجهاد في السنوات القادمة ، فقال إنه ينبغي أولا تطهير الكنيسة ، وثانياً إعادة تنظيمها ، وثالثاً أن يحدث ذلك بأسرع ما يكون . وتكلم بشجاعة وحماسة عن ما هاجم فوضى العصر ، وعندما توعد الناس بالويل والعقاب . وقد أزال إعانه الحار تلعثمه أمام الجمهور ، وأجرى على لسانه الكلمات كالسيل المتدفق ؛ وتحدث بحرارة وبساطة ، ومن أعماق قلبه ، فأذهل الناس وأخذهم بسحره وفصاحته ، فتقاطروا لسماعه . وكشف سافونارولا عن مقدرته الخبيئة ، وأدرك أنه قد أظهر الإيطاليين على حقيقة أنفسهم . ثم رجع إلى فلورنسا هذه المرة ، وقد ازداد ثقة بنفسه ، وأصبح أهدأ حالاً وأكثر خبرة بطبائع البشر .

ثم غادر سافونارولا فلورنسا من جديد ، وزار عدة مدن في إقليم لمبارديا ، حيث وعظ الناس فيها وخاصة في مدينة برشيا ، وازدادت حرارة كلماته ، ودوّى صوته كالرعد ، وهدد إيطاليا بغضب الله . ونجح نجاحا عظيما في عظاته في ١٤٨٦ ، فذاع صيته في أنحاء إيطاليا . وكتب لأمه من بافيا راجياً إياها بأن تصفح عنه إذا لم يكن لديه غير الصلاة يمنحها لأسرته ، وقال إنه يشارك الأسرة بقلبه آلامها ومسراتها ، وإنه قد ترك العالم ليخلص الناس من الآثام والخطايا . ثم ارتحل إلى جنوا ، وهناك تلقى خطابا من لورنزو العظيم يستدعيه إلى فلورنسا في صيف ١٤٨٩ . وقد حثه على ذلك بيكو دلا ميراندولا الذي أكد له أن سافونارولا سيكون مصدر شهرة للورنزو ولفلورنسا . وهكذا نجد أن عدو آل مديتشي وعظم سلطهم قد دعاه إلى فلورنسا لورنزو نفسه . وأخذ يخطب الناس في دير سان مارك وامتلك قلوبهم ؛ وتحدث كل أهل فلورنسا بشأنه ، وأمسك أصحاب الدراسات القديمة عن الكلام في أفلاطون ، وأخذوا يناقشون مزايا هذا الراهب الجديد .

ولنعرض لآراء سافونارولا الفلسفية والدينية في سياق الحوادث التي مرت به ، والارتباط وثيق بين آرائه وبين تلك الحوادث . ومن المهم أن نعرف ما هـذه الآراء ، وما هي تعاليمه .

أدت حركة الإحياء في عصر النهضة إلى بعث المذاهب اليونانية القديمة كلها ، وتعصب فريق من المفكرين لكل منها ، فظهرت الأفلاطونية كما ظهرت الأرسطاطاليسية والرواقية والأبيقورية الخ . وسيطرت في عصر سافونارولا بصفة خاصة مدرستان فلسفيتان : المدرسة الأفلاطونية ومدرسة أرسطو . فالمدرسة الأفلاطونية بدأت في فلورنسا بإنشاء الأكادمية الفلورنسية ، وانتشرت بالتدريج في جنوبي إيطاليا ؛ بينما انتشرت آراء أرسطو في الشمال ، وخصوصاً في جامعات بولونيا وبادوا وبافيا ، وفي كل إيطاليا العليا ، وكانت من العوامل التي شجعت منهج البحث التجريبي ، وأدت إلى تقدم العلم الطبيعي الذي وصل إلى أعلى مستوى له بظهور جاليليو جاليلي . وقد تأثر سافونارولا بآراء أرسطو وبالأفلاطونية الحديثة التي عاش في معسكرها الرئيسي ، وبآراء توماس أكويناس فيلسوف العصور الوسطى ، كما درس حياة القديسين ؛ ويضاف إلى ذلك ميله الطبيعي للزهد والتقشف ، كما استقر في أعماق قلبه فكرة خلقية قوية جمعت بين هذه العناصر التي تأثر بها ، وجعلت لها طابعاً خاصاً واضحاً .

ومن أهم كتاباته الفلسفية التي طبعت في ذلك الوقت « ملخص في الفلسفة » و « ملخص في الأخلاق » و « تصنيف العلوم » وطبعت في مجلد واحد . ويبحث « ملخص في الفلسفة » في الكائنات المشخصة ، والحركة والقوى المحركة الأولى ، والسماء ، وكون الأشياء وفسادها ؛ ويدرس الطبيعة كلها من الجماد إلى الإنسان . ويقول عن المعرفة إن الإنسان ينبغي أن يبدأ من المعلوم إلى المجهول عن طريق الإحساس ، وهذا هو أسهل طريق للوصول

إلى الحقيقة . والإحساس مصدر المعرفة ، وهو يختزن فى الذاكرة ، ويحوّل العقل كثيراً من الإحساسات الجزئية إلى قواعد تستخرج منها المعانى الكلية . وهذا الرأى مأخوذ عن أرسطو الذى كان يرى أن باب المعرفة الوحيد هو الإحساس ؛ وعنده أن ليس فى العقل من فكرة إلا ووصلت إليه عن طريق الحواس ، ومن أجل هذا قال كلمته المعروفة : « من فقد حساً فقد علماً » . ويقول سافونارولا إنه مع ذلك فلا يستطيع العقل أن يحوّل الإحساس إلى أفكار دون وجود ملكة أو قوة عقلية سابقة وهى الحدس ، وبغيره لا يمكن إدراك أى إحساس . وهو متأثر فى هذه الناحية بالأفلاطونية الحدثة . وعلى ذلك فإن أى فكرة أو مذهب يجب أن يقوم على الإحساس والحدس معاً . وهكذا بحث سافونارولا مشكلة الفلسفة الأساسية .

وفى بحثه « ملخص الفلسفة الخلقية » نجد سافونارولا يتتبع خطوات توماس أكويناس[١] مع آراء الأفلاطونية الحدثة . فيقول إن غاية الإنسان هى السعادة التى لا تكون بالتفكير فى العلم وإنما بالرؤيا الإلهية . وفى الحياة الدنيا لا يكون للإنسان إلا ظل خفيف من السعادة ، وفى الحياة الأخرى يمكن للإنسان أن ينعم بالسعادة الحقة . ورأى سافونارولا فى الفلسفة كما رأى فى الدين ضرورة قيام الإنسان بالأعمال الصالحة لبلوغ تلك السعادة ، عن طريق الإرادة التى تميز الإنسان عن الحيوان ، وهى غير خاضعة للنجوم أو الأفلاك أو القوى خارجية ؛ وقد خلق الله الناس ولهم إرادة حرة فى نطاق القوانين الطبيعية . ويرى أن الإنسان ينبغى أن يظهر فى كلامه وأعماله كما هو فى الحقيقة أو أقل من ذلك . وينبغى أن يكون فى عنق كل إنسان أن يُظهر الحقيقة لجاره .

أما « تصنيف العلوم » فهو بحث كتبه رداً على اتهامه باحتقار الفلسفة والشعر ، فقسم العلوم وقال إنه يحترمها جميعاً طبقاً للتقسيم الذى يراه . والتقسيم واضح محدود ومأخوذ عن تصنيف أرسطو وشرّاح فلاسفة القدماء . فيقسم الفلسفة إلى قسمين : الفلسفة العقلية ، والفلسفة الوضعية . فالأولى مرشدة للعقل وهى المنطق ، والثانية تبحث الوجودات الحقيقية ، وهى تنقسم إلى فلسفة عملية وإلى فلسفة نظرية . وتنقسم الفلسفة العملية بدورها إلى فلسفة ميكانيكية وفلسفة خلقية (Moral)[٢] ؛ وتنقسم الفلسفة الخلقية إلى فلسفة أخلاقية (Ethical) واقتصادية وسياسية . وتنقسم الفلسفة النظرية إلى علم الطبيعة والرياضيات وما بعد الطبيعة . ويرى سافونارولا أن علم ما بعد الطبيعة هو أفضل العلوم ، لأنه يبحث الحقائق العليا ويعمل أكثر من أى علم آخر على جعل الإنسان نبيل الأخلاق ؛ ويَعتبر هذا التقسيم من وجهة النظر الطبيعية . أما من وجهة النظر الدينية فيرى العلم الإلٰهى هو العلم الحقيق الوحيد ، وأن العلوم الأخرى تبحث مسائل خاصة من وجهة نظر خاصة ، فى حين أن العلم الإلٰهى يبحث كل المسائل من وجهة نظر واحدة كلية . وهو هنا يأخذ عن أرسطو . ويرى سافونارولا أيضاً أن العلم الإلٰهى هو العلم الأول الذى يبحث الأشياء ويتتبعها إلى عللها

(١) توماس أكويناس فيلسوف العصور الوسطى وزعيم المذهب المدرسى . تأثر بأرسطو وكانت مهمته تنصير أرسطو بالتوفيق بين آرائه وتعاليم الدين المسيحى . وقد تأثر أكويناس فى الناحية الخلقية بالأفلاطونية الحدثة .

(٢) اقترح زميلى الدكتور عثمان أمين ترجمة لفظ Moral بكلمة خلق نسبة إلى الخلق الإنسانى بأوسع معانيه ، ولفظ Ethical بكلمة أخلاقى نسبة إلى علم الأخلاق بالمعنى الضيق . وبناء على هذا يكون لفظ الخلق مقابلا للبدنى ويشمل الظواهر السيكولوجية والملكات النفسية والميول والنزعات ؛ وتكون العلوم الخلقية شاملة لعلم اللغة والتاريخ وعلم السياسة والاقتصاد السياسى والتشريع وبالإجمال لعلم الاجتماع ثم لعلم النفس والمنطق ولعلم الأخلاق أيضاً . فى حين أن لفظ الأخلاق يقتصر على علم الأخلاق وعلى ما يتمشى مع مبادئه وقواعده . ويرانى أتقدم بالشكر له وللزميل الدكتور توفيق الطويل على ما تفضلا به من الملاحظات والإيضاحات فى هذه الناحية من الموضوع .

الأولى ، ولهذا فإن نور الطبيعة وحده لا يكفى ، ولابد إلى جانبه من نور السماء .

ولا يوافق سافونارولا على الإسراف فى محاكاة القدماء وتقليدهم ، ويعتبر المقلدين أشخاصاً ضيّقوا عقولهم وقيدوها بسلاسل الماضى ، حتى أنهم لا يقولون إلا ما قاله القدماء ، ويرفضون قول ما لم يقله القدماء . وفى العصر الذى أشاد فيه الناس بآثار القدماء رفع سافونارولا صوته ضد المبالغة فى المحاكاة والتقليد ، ودعا إلى استخدام الإنسان عقله وتفكيره الخاص . وبالرغم من أنه لا يُعتبر من أصحاب المبادئ الفلسفية المبتكرة ، إلا أنه كان فى طليعة الذين حرروا الفلسفة من تأثير القدماء . ومنذ صغره لم يكن يحكم على الكتاب حسب شهرتهم ونفوذهم بين الناس ، بل كان يدرس المسائل التى تعرض له ويستخدم عقله وتفكيره ؛ ومن الأمثلة على ذلك أنه بالرغم من تأثره بالفلاسفة القدماء فإنه قد هاجم الفلسفة والفلاسفة ، وانتقد وانتقد أرسطو ، وقال إنه لم ينجح فى إثبات خلود النفس ، ولم يصل إلى نتائج حاسمة فى مسائل كثيرة . وقد أظهر سافونارولا دقة فى التحليل والاستنباط ، وأبدى حرية واستقلالاً فى كل ما صدر عنه من الأحكام والآراء ، وناضل فى سبيل الدفاع عنها إلى آخر لحظة من حياته . ومن مميزاته تقديره للعقل والتجربة والضمير فى المسائل العلمية والعملية على السواء ، ولم يفرق فى ذلك بين العلم والدين ، لا كما فعل غيره من المعاصرين الذين كان لهم رأى خاص فى الفلسفة ورأى مخالف فى الدين .

أما من ناحية كتاباته الدينية فى ذلك الوقت ، فنلاحظ أنه كان من أهم مظاهر التغير فى عصر النهضة أن أصبح أساس المذاهب الفلسفية والدينية قائماً على محاولة التقريب بين الإنسان والله ، وكان هذا الاتجاه مصدرا مهماً لجماعة المشتغلين بالفلسفة والدين . وكان غرض الفلسفة الجديدة إلغاء التعارض والاختلاف بين الحياة على الأرض وبين الحياة الأخرى ، وبين العقل الأنسانى والطبيعة ، والعمل على اتحاد المخلوقات بالخالق . وفى نهاية القرن الخامس عشر كان أهل إيطاليا قد أخذوا يعقدون الأمل على قوة الأفكار والمبادئ ؛ وقد تشبع سافونارولا منذ حداثته بهذه الآراء وظهر أثرها فى رسائله الدينية .

ومما كتبه فى هذه الناحية رسالة عن « التواضع » ، وأهم ما فيها أن فضيلتى التواضع والبر هما قوام الحياة الروحية فى الإنسان ؛ فينبغى أن يشعر الإنسان فى قرارة نفسه بالتواضع أمام الله ، وبأنه لا يستطيع أن يفعل أمراً صالحاً دون إرادة الله . وينبغى أن يتواضع الإنسان أمام الناس كافة . وفى رسالة عن « الصلاة » يقول : إن على المؤمن أن يتعبد كل يوم فترة طويلة ، وأن يملأ قلبه تواضعاً وبراً ، وإلا كانت صلاته لا قيمة لها .

وفى رسالة عن « الصلاة العقلية » يقول : إن على من يصلى أن يخاطب الله كما لو كان فى حضرته ، وكما لو كان الله ماثلاً فى كل مكان وفى قلب كل إنسان . وقد يهتم الرجل فى صلاته بالكلمات التى تتردد على لسانه ، ولكن هذا شيء مادى . وقد يلتفت بالاً إلى معانى كلماته ، ولكن هذه دراسة أكثر منها صلاة . وقد يركز أفكاره فى الله مباشرة ، وهذه هى الصلاة الصحيحة . ولا ينبغى أن يهتم المؤمن فى صلاته بالألفاظ والمعانى ، ولكن ينبغى أن يسمو روحه عن شخصه ، وأن ينسى العالم وما حوله ويفنى فى التفكير فى الله ؛ فالألفاظ غير ضرورية والكلام عائق والصلاة الصحيحة هى صلاة القلب والعقل . ويشبه هذا التصوف المسيحى ما كان شائعاً عند متصوفى الإسلام .

وفى رسالة عن « حب يسوع المسيح » يقول : إن حب المسيح يدفع المؤمن لأن يجعل روحه متحدة بروح المسيح ، فيرغب فى أن تحيا فى شخصه تماثيله ، وأن يلاقى ما لقيه المسيح من العذاب . ولهذا الحب قوة خارقة تجعل الإنسان المتناهى يتحد بالخالق اللامتناهى عندما تصفو النفس وتتطهر من أدران الجسد وعلائقه . وهو فى هذا يشبه أيضاً ما ساد عند متصوفى الإسلام مثل

أدب المناسبات

يحلو لأكثر المحدثين من أدباء هذا الجيل في إطلاق اسم أدب المناسبات على مدلوله من ضروب الأدب ؛ ذلك أنهم ينبزون به فريقاً من الأدباء الذين يتعقبون كل حادث عارض ، ويجرون وراء كل فرصة سانحة ؛ فيدبجون فيها صحائف من المنثور والمنظوم ، غير مبالين أن يكون ذلك مما يتكلفه اللسان دون ما يجيش به القلب ، ولا مفرقين بين أن يتحرك القلم بوحي الإحساس المتدفق في الصدور ، أو أن تغص الصدور من الإحساس عما يحشمها إياه القلم الذي لامندوحة له من أن يسود الصفحة أو الصفحات .

وذلك نوع من الإنتاج الأدبي حقيق بأن يُنتقص وأن يعاب ، ولكن تسميته بأدب التكلف ووحي الاقتسار والصنعة ، أبلغ في الإشارة إليه ، وأصدق في التعريف به والدلالة على حقيقة معناه . أما المناسبة التي تجيش لها النفس ، وتتدفق حولها منابع الشعور ، فليس من عيب الأديب على استيحائها ، أو يتوجه إليه بلوم أن يستلهم دواعي الكلام فيها . والأدب الجدير بالخلود هو ما يمثل لنا الحياة في أصدق صورها ، فنراها ونسمعها ونحسها ونتعرف إليها مادة حية تنبض بالأنفاس ، وأشباحاً مجسدة تتقمصها الأرواح . ولا ينفث في الأدب تلك الروح الملهمة بكل ما فيها من حرارة وقوة وحيوية إلا هذه الدوافع العارضة من أحداث الحياة كلما عرضت ظروفها أو عنت مناسباتها .

وإذا كانت المهمة الأولى للأديب هي التوجيه والتسديد ورسم المثل العليا للحياة ، وتمهيد السبيل إلى أكرم الغايات فيها ، فإن نجاحه في هذه المهمة الشاقة النبيلة معاً لا يتم إلا بخوضه غمار المجتمع ، والتقاطه جواهر الأفكار فيما حوله كلما لمعت له منها بارقة ، أو انحسرت أمامه عن لألائها موجة ... وذلك هو التماس المناسبة في أظهر معانيه .

والوضوح في الأدب صفة بالغة الأهمية ؛ ومن أقوى دواعي ذلك الوضوح أن ترتبط المعاني وتتداعى الأفكار ، فتنتظم قلائدها في لبات العقول ، وتتعاكس أضواؤها تعاكس الأشعة في متقابل المرايا . والمناسبة القريبة هي الرابطة التي لاتنفصم ، والداعي الذي يتقمصه أرباب البداهة الطيعة النقادة ، ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب ، وارتفعوا أعلام هداية للناس وإرشاد . كان الإمام علي رضي الله عنه صامتاً في مجلسه ذات يوم عند ما نطق رجل بحضرته فقال : أستغفر الله ! كلمة جليلة تنطوي من أسرار الحكمة على مالا يستوعبه إلا عقل نبي ، أو وصي نبي ، ولم

الحلاج وابن العربي . وقد تنبأ سافونارولا بأن هذا الحب كفيل بأن يستحوذ على عقول الناس ، وأنه بإثارة هذا الشعور الديني سيكون من المستطاع إصلاح المجتمع .

ويقول سافونارولا في رسالة عن « حياة الأرامل » : إن أحسن حياة ملائمة لمن أن يزهدن في الدنيا ، ويعشن كالحمام الذي إذا ما فقد أليفه اعتكف ، ولم يبحث عن غيره ؛ وأن تصبح الأرملة مثلا أعلى لغيرها من النساء ، وتتولى رعايتها وعطفها أولادها وأحفادها . ولكن إذا اضطرت الأرملة بسبب تربية أولادها أو بسبب الفقر ، وإذا لم تستطع مقاومة رغبات الجسد ، فعليها أن تعود إلى حياة الزواج المحترم ، لأن هذا أفضل من أن تعيش محاطة بالمحبين الذين يعرضونها للخطر .

ووجد سافونارولا أن الناس الذين تعودوا أن يخضعوا للسلطة لن تكفيهم هذه القواعد ، وأنه لا بد من سلطة تسيرهم نحو الخير ؛ فاستمد تلك السلطة من الكتاب المقدس ، ذلك العالم الحي الزاخر الذي كان له أكبر الأثر في نمو عقليته وتفكيره . ومن ذا الذي يجرؤ على معارضة كلمة الله ؟!

(يتبع) حسن عثمان

يشأ الإمام أن تمر هذه الناسبة دون أن يعترضها ، فتدفق عن قريحة ملهمة يقول[١] : ثكلتك أمك ! أتدرى ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها الندم على ما مضى ، والثانى العزم على ترك العود إليه أبدا ، والثالث أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة .. والرابع .. والخامس .. والسادس .. وهكذا حتى استوفى الإمام — عليه رضوان الله — الكلام فى الاستغفار بما لم يدع بعده مقالاً لقائل .

* * *

إن كان فى أدب المناسبات غيضة فذلك عجز أكثر المتعرضين له عن بلوغ الدرجة الرفيعة فيه ؛ لأنه عباب متدفق جياش منبعه السلائق المطبوعة ، ومجراه البداهة المستوفزة ، وروافده العلوم المتنخلة المنتقاة ، على غزارة فيها لا تنضب ، واستجابة لا تتأبى ولا تستعصى . وإن هذا العلم النفيس الذى يحتشد له العالم والمتعلم ، ويلتقى على بركته المفيد والمستفيد ، ليأبى أن يؤتى ثماره يانعة ما لم يتمكن من الذهن تمكن البذرة من الثرى الخصيب ، وهو لن يكون كذلك إلا أن يجىء معه من المناسبة والملابسة ما يقيه آفات الغموض ويدفع عنه عوادى النسيان . وتحرياً لمثل هذا القصد كان أبو الحسن الصنارى النحوى (قطين مُنذانة من قرى خوارزم) يراعى فى مجلسه للدرس من المناسبات ما يثبت به علمه ، وينبط إليه فرائد حكمته . قالوا[٢] : كان من لطائفه إذا نام واحد من أهل الرستاق فى مجلسه أن يناديه من على المنبر بأعلى صوته . يأيها التيس القاق ، اترك النام واسمع الكلام ، ثم ينشده :

وصاحبٍ نبهته لينهضا ... إذ الكرى فى عينه تمضمضا
فقام عجلانَ وما تأرضا ... وتَم[٣] بالكفين وجهاً أبيضا

(١) نهج البلاغة جـ ٢ ص ٢٣٣ طبعة الحلبى .
(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١٤ ص ٦٤ طبع دار المأمون .
(٣) تم الشيء يتمه إذا جمعه وأصلحه — أساس البلاغة .

ثم يقول : تمضمض من النعاس إذا دب فى عينه ، ومنه المضمضة فى الوضوء ؛ سميت بذلك لأن الغاسل يمضمض الماء فى فمه ، أى يديره ويحركه فيه . وقريب من ذلك ما جرى فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى السنة التى أمحل فيها العراق لظهور الجراد فيه ، وقد اجتمع إليه أصحابه يبثونه شكوى خلاتهم وسوء أحوالهم . وتفرد رجل منهم بالشكوى من فقد أربعة آلاف جريب زرعها بنواحى النهروان بين ملك وضمان وإجارة ، فما لبث أن أتى الجراد عليها جميعاً .... قال أبو سعيد وهو يربط فى ذلك الحديث بمثله ، ويصل الشىء بما يناسبه طلباً للإفادة[١] : « لا يهولنك أمرها ، فإنها جند من جنود الله مأمور . بلغنا أن جرادة سقطت بين يدى عبد الله بن عباس ؛ فأخذها ونشر جناحها ، وقال : أتعلمون ما هو مكتوب عليها ؟ قالوا : لا ، قال : مكتوب عليها : أنا مُفنى الأسعار ، مع تدفق الأنهار ... وأورد فى ذكر الجراد — يعنى أبا سعيد السيرافى — ما حير الناظرين ؛ ثم قال : ومن أحسن ما وصف به الجراد قولُ بعض الخطباء حيث يقول : إن الله سبحانه وتعالى خلق خلقاً وسماها جراداً ، وألبسها أجلاداً ، وجندها أجناداً ، وأدمجها إدماجاً ، وكساها من الوشى ديباجا ، وجعل لها ذرية وأزواجا .. » إلى آخر كلام طويل بليغ يرجع إليه فى مصادره من أراد .

ولقد كان الرجل ربما تجود فكرته ويستقيم منطقه ، فيتدفق فى بيانه من مرتجل كالرزور ، ومبتدر كالمحتفل به ، حتى ليتوهم الناس أنه يقرؤه من كفه . ثم تعرض المناسبة فتكشف منه عن مقدرة بلاغية طال جحدها ... كالذى حدث لخالد بن عبد الله القسرى عامل بنى أمية على العراقين حينما تدفق فى خطبته يوماً كعهد الناس به ، وهم لا يمترون فى أنه يصنع هذا الكلام ويتهيأ له . ثم سقطت جرادة على

(١) معجم ياقوت : ج ٨ ص ١٦٢ .

ثوبه فقطع حديثه وقال ينعتها [١] :

« سبحان مَن الجرادة مِن خلقه ! أدمج قوائمها ، وطوق جناحها ، ووشى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها .. » ثم رجع إلى كلامه من الخطبة ، فعرف الناس له فضل هذه البديهة .

* * *

ولأدب المناسبات على عهدنا مكانة علية ، وموضع مرموق رغم زراية فريق من أدبائنا عليه ، إما لجهل شهم بمعناه ومرماه ، وإما لقصور فى قرائحهم عن التحلق منه بسبب . وما أرانى قرأت عن تاريخ إيران وحضارتها فى قديمها وحديثها بأوضح ولا أحسن مما قرأت عنهما فى فترة الاحتفال بهذا القران السعيد الذى تم بين العائلتين المالكتين هنا وهناك . ولقد كانت نهضت قبل ذلك فى مصر سوق رائجة لما يصح تسميته بـ (أدب الزواج) فى الأيام التى حفت بأسبوع اقتران مولانا الملك المعظم فاروق بصاحبة الجلالة الملكة . .

ولأدب الحرب عندنا اليوم — تاريخاً ورواية وشعراً وقصة وسياسة وتقويم بلدان وغيرها — نهضةٌ قوية وثابة نرجو أن نلمس آثارها النافعة بعد حين .

ولعل من أروع المناسبات التى يستلهم فيها الأدباء روائع القول ما يكون من ذكريات مواليد العظماء ووفياتهم ، أو مرور الحلقات التامة على تواريخ الحوادث المشهورة فى سير الممالك والشعوب . فثمة يقف الأديب اللقن وقفات بارعات يستلهم فيها من عبرة الماضى ما يهز به شعور الحاضر ، ويضفى على أدبه من خلود الذكريات لبوساً سابغاً لا تقوى على نزعه أو إبلائه عاديات الزمن .

ولقد يخمد فوات المناسبة من جمرة الفكر لدى بعض الأدباء بقدر ما يؤججها الظرف الملائم فى صدورهم ؛ وإلى هذه الحقيقة يشير قول المفجع الشاعر [١] من أبيات . وقد كلفه صديق له أن ينظم شعراً فى المهرجان بعد فوات موعده :

قد فات يومُ المهرجانِ فذكرُهُ
فى الشعر أبردُ من سخاءِ المفلسِ !

على أن فى الشعراء من يسمو إلى خلق المناسبة ويحتال لشحذ شعوره بالتعرض لها حتى يبلغ ذلك منه الحدَّ الذى تجيش له نفسه بالأدب الأصيل ؛ وقد يسمى ذلك (الاستيحاء) بصيغة التطلُّب ، ولكن لنعلم أنه (الوحى) نفسه — غير متكلَّف — متى استجاب له الخاطر وانقاد معه الطبع . فقد كان الحسين بن مطير الأسدى [٢] — وهو من مخضرمى الدولتين — فى مجلس والى المدينة يحادثه مرة ، عندما انهلت السماء بمطرٍ جَوْد ، فقال الوالى : صف لى هذا المطر . قال : دعنى أشرف عليه . . فأشرف عليه حتى حلَّق فى سماء منظره خيالُه ، وجاشت خواطره بفيوض من المعانى ، فنزل وهو ينشد قصيدته التى يقول فيها :

كثرتْ لكثرةِ قطرِهِ أطباؤهُ
فإذا تحلَّبَ فاضتِ الأطباءُ

وهى من أجود ما سمع فى وصف المطر والسحاب وما يتصل بهما .

* * *

وقد نقول أحياناً إن فلاناً يحسن (الاقتباس) أو يجيد (الاستشهاد) ، وقد يستطرد القائل منا فيمر فى الحديث من باب إلى باب وهو يردد : الشىء بالشىء يذكر ، أو الحديث شجون ؛ وكل هذه صور مختلفة من التماس المناسبة يجيد عرضها وتجليتها قلة من الأدباء ، هم أشبه شىء فى انثيال أفكارهم وتدفق خواطرهم بالسيول والعوارم ،

(١) جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ٣٠٩ (للأستاذ زكى صفوت) .

(١) معجم ياقوت ج ١٧ ص ١٩٨ .
(٢) انظر ترجمته فى المصدر السابق ج ١٠ ص ٩٦٦ .

أو البحار الخضارم . وقد كان أبو عثمان الجاحظ في طليعة الرعيل من هؤلاء السابقين ، ولكنا نختص بالإشارة منهم أديباً آخر أعز منه ذكراً وأطرف حديثاً ، ذلكم هو أبو الوليد محمد بن عيسى بن يزيد بن دأب الليثي (المتوفى عام ١٧١ هـ في أوائل حكم الرشيد) . كان هذا الشاعر الراوية من أهل الحظوة والجاه والمكان المرموق عند الخليفة الهادي لبديهة فيه حاضرة وفطنة نادرة يفرج بهما كل مضيق ويسهل كل متوعر ؛ فكان لا يمر حديث إلا قرنه بسيله ، وشفعه بشبيهه ومثيله ، حتى لأحرد عليه منافسيه من أدباء عصره فوصموه بالكذب ووصموه بالفرى والاختلاق . . .

خرج الهادي يوماً على أصحابه وهو مغيظ متغير ، فتلطف بعضهم في استيضاحه حتى تكلم فقال(١) : « لم أر كصاحب الدنيا أكثر آفاتٍ ولا أدوم هموماً ! قد عرفتم موضع لبابة بنت جعفر بن أبي جعفر مني ، وأثرتها عندي ، وإنها أغلظت لي بإدلالها في شيء ، فلم أجد صبراً فقتلتها بيدي ، فندمت عليه ! » .

فأبلس القوم لا يحيرون جوابا حتى تهيأ ابنُ دأبٍ للحديث ثم اندفع فقال : وما في ذلك يا أمير المؤمنين ؟ هذا الزبير بن العوام حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، ضرب امرأته أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي من أفضل نساء زمانها حتى كسر يدها ، وكان ذلك سبب مفارقته إياها لأنه قال : أنت طالق إن حال عبد الله بيني وبينك — يعني عبد الله بن الزبير — فلم يخلّه وخلصها . وهذا عمر رضي الله عنه يقول : لا يُسأل الرجل فيم يضرب امرأته . وهذا فلان .. وهذا فلان . وطفق ابن دأب يذكر من أمثال ذلك أحاديث مختلفات كأنما هو يخترعها اختراعا ، حتى سُرِّي عن الهادي وتفرجت كربته ، ثم دعا بالطعام وأمر لابن دأب بخمسين ألف درهم وخمسين ثوبا ! قال مصعب بن عبد الله الزبيري وكان — أحد الحاضرين — : لقد تأسفت كيف سبقني إلى شيء أحفظه مثل حفظه !

ولابن دأب هذا مجالس مُعجبة من أمثال ما ذكرنا ؛ وهي تعد في مجموعها نماذج طريفة لهذا الضرب الذي نشير إليه من ضروب الأدب ، ونعني به أدب المناسبات .

والرجل ينتمي في الواقع إلى قسم (الرواة) من أقسام هذه المدرسة الأدبية المتشعبة ؛ ولكن ليس من العسير علينا أن ندمج هذا الحشد الحاشد في أقسامها المختلفة ، بين شعراء وناثرين ومحدِّثين ولغويين ونحاة وغير أولئك ممن يسهل علينا تقصي سِيَرهم ، واستنباط طرائف تفكيرهم ومجالس بدائهم .

(يتبع) **محمود عزت عرفه**

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٦ ص ١٦٢ .

أعرني قناعا

من الناس من لا يستسيغ عقوبة الإعدام ، ويرى فيها ضرباً من ضروب الوحشية التي تتنافى مع مبادئ الرحمة والإنسانية ؛ ثم يرون أن العقوبة يجب أن يراعى فيها الإصلاح لا الانتقام ؛ وأن النفس البشرية مهما ركبت على الشر والإجرام ، فإن بها نواحي ضعيفة تقبل النصح ، وتشعر بالندم على الجرم الذي أقدمت عليه .

ثم كيف يسوغ لك أن تعدم شخصاً أتى جرما تحت تأثير وراثته أو بيئته ، أو كانت نفسه مفتقرة إلى تهذيب أو تربية ، من غير أن تكون قاسياً عليه بعيداً عن إنصافه ؟! ثم ، إن بتر عضو فاسد من الجسد يمنع أحياناً تسرب المرض إلى باقي الأعضاء ، وإن المجتمع نفسه ليس إلا مجموعة أعضاء ، تتعاون فيما بينها تعاونا وثيقاً ، فكيف نقبل هذا في الجسم الواحد ، ولا نرتضيه في جسم المجتمع كله ؟ ولكن ، إذا كان الطب قد عجز عن مداواة مرض عضال ، فهل تعجز طرق النصح والإرشاد ، أو العقوبة المخففة أو الرادعة ، عن رد المجرم عن فعلته ، وإشعاره الندم والأسف وعدم العودة إلى مثل ما قدمت يداه ؟ إن طرق الإصلاح متعددة متشعبة ، والنفس الإنسانية ضعيفة حائرة ، فلا تسفكوا دماء أنفس يمكن تعديل اعوجاجها ، والإصلاح من شأنها .

* * *

في زمن من الأزمان ، أبطلت فرنسا وإيطاليا عقوبة الإعدام . فهل استفاد المجتمع من ذلك ؟ وهل هبط إحصاء عدد الجرائم ؟ ...

الجواب عن ذلك بالإيجاب ، وقد دلت عليه جميع التقارير في أنحاء البلاد ، كما بشرت بنتائج حسنة مثمرة . ولكن ، على الرغم من هذا وذاك ، فقد ظهر صنف من المجرمين لم يمكن إصلاحه ، وظهر نوع من الإجرام لم يستطع منعه ، فرجعت الدولتان عن قرارهما ، وفكرتا مع باقي الدول في إيجاد وسيلة للإعدام لا تبعث في نفوس الشاهدين التقزز والفظاظة ، ولا تبذر فيهم بذور التوحش والقسوة .

إن الذين يشاهدون منظراً مثيراً من مناظر الإعدام ، يصفونه بكل ما فيه من شناعة وبشاعة وكأنه كابوس ركز على صدورهم . في هذا المشهد تتصارع قوتان غير متعادلتين ، تريد إحداهما للأخرى الموت ، وتريد هذه لنفسها الحياة ...

فإذا كان الموت شنقاً توارت الرءوس بعضها خلف بعض في اللحظة التي يلفظ فيها المشنوق النفس الأخير ويتدلى لسانه وتجحظ عيناه .

ثم ما بالك إذا استبدلت المشنقة بالمقصلة وفيها منظر السكين والرأس المفصول والدم السائل ؟!

ثم ما بالك أيضا إذا أخطأت المقصلة في ضربتها المميتة ، فأصابت السكين في موضع تركته من بعدها فاقد الرشد ولكن ما زال به الرمق من الحياة ؟!

إن مجرد التصور يجعل بدن الإنسان منا يقشعر ويستعيذ بالله .

تلك المناظر وغيرها كانت سبباً في تحول بعض الناس إلى التفكير في استعمال طرق تريح المجرم في موته ، فلا ترهقه بالتعذيب أثناء الإعدام ، وتخفف من شناعة المشهد وبشاعة المنظر .

ففتنوا وأبدعوا . . . ولكن هل ضمنوا بذلك ميتة سريعة فعالة خالية من الألم والتعذيب ؟

فها هو ذا الكرسي الكهربائي ، وقد اخترعته ونفذته أمريكا — بلد العجائب — وفي طريقة استعماله ضمان الموت في لمح البصر . نعم ، ففي مثل لمح البصر يتحول الإنسان الممتلئ صحة وشبابا وفتوة إلى جثة هامدة

لا روح فيها ولا حياة . وتستغرق تلك « العملية » ثوانى معدودات .

ولكن ظهر له أخيراً عيب أساسى جعل الحكومة تفكر فى استبعاده وتنفر من استعماله . فما هو هذا العيب يا ترى ؟

لقد لوحظ — على الآنسة روث سنايدر — المحكوم عليها بالإعدام سنة ١٩٣٧ — بعد كشف القناع عن وجهها أنه — أى الوجه — متقلص ، برزت فيه عروقه ، وهذا إن دل على شيء فعن ألم فظيع انتابها أثناء مرور التيار فى جسدها . لقد تعذبت ما فى ذلك شك ، وها هو الدليل يظهره وجهها وتبينه عضلاتها . جاءها الموت سريعا ولكن بعد أن تقطعت شرايينها وتزحزح قلبها من مكانه محاولا أن يتوسط جسمها ، وهذه خاصية ينفرد بها التيار المستمر الذى يستعمل فى مثل هذه الأحوال .

بهت الذين حضروا ذلك المنظر الرهيب ، ثم نادوا جميعاً بإيقاف هذا اللون من الإعدام الذى لا يتفق مع مبادئ الرحمة والإنسانية .

إذن كان للأمر أهميته ، وكان لا بد للمسألة من حل سريع ...

وتفتق العقل البشرى مرة ثانية ، وتقدم للعالم اختراعه الأخير .

وليسمح لى القارئ الكريم أن استصحبه لمشاهدة منظر فريد فى نوعه ، ألا وهو طريقة الإعدام على طراز حديث : « الإعدام بالغاز الخانق » .

* * *

دقت ساعة التنفيذ ، وسيق رجل فى مستهل العقد الرابع من عمره إلى غرفة صغيرة صنعت من زجاج سميك اصطف حولها جمع غفير . كان الرجل مفتول الساعدين قوى العضلات وافر الجسم ، ولكنه استسلم بين يدى حراسه استسلام الحمل الوديع .

اشرأبت الأعناق ، وعلا همس المتفرجين لما ظهر الرجل ، ولكنه تلاشى الصوت عندما جلس فى غرفته وأخذ الحراس فى وثاق يديه ورجليه بأغلال من حديد .

وفى وسط القاع تلا الحاكم بصوت جهورى مرتفع حكم الإعدام ، ثم انحنى نحو الرجل وسأله : « هل لك من طلب قبل تنفيذ الحكم ؟ » .

فابتسم هذا ابتسامة صفراء وقال :

« نعم أيها الحاكم الطيب القلب . أعرنى قناعا من فضلك » .

وبالرغم من رهبة الموقف ودقته ، فقد انفجر الجمهور ضاحكا ، واشترك معه الحاكم فى الضحك حتى دمعت عيناه . أما الحراس فقد أحضروا إناء كبيراً ملئ حتى حافته بحامض الكبريتيك المخفف ، ووضعوه داخل الغرفة الزجاجية ، وعند ما أعطى الحاكم إشارته قذفوا فى الإناء بعشر كرات من مادة كيمائية تسمى Porassium Cynide وأحكموا إغلاق الباب .

وهنا ظهرت أبخرة كثيفة من خلف الجدران الشفافة ، سرعان ما انتشرت فى جو الغرفة زاحفة تطرد الهواء قبالها وتسعى لكبت تنفس التعس . سعل الرجل مرتين ثم همد وانطفأت عيناه . ولما جاهد ليتحرك كانت قواه قد خارت ، فمايل قليلا ثم هوى برأسه على المسند وأسلم الروح .

ولما تقدم الحراس بخطى وئيدة لرفع جثته بعد انقشاع الغازات ، كانت ملامح وجهه ما زالت هادئة كما كانت من قبل .

* * *

وهكذا نفع الاختراع وبشر بنتائج طيبة ، وفى المدة الأخيرة عممت استخدامه كثير من الدول . فهل تفكر مصر فى استعماله ؟

محمد أحمد أمين

مستطرفات ونوادر

من حياة الأستاذ الامام محمد عبده

- ٢ -

[امتحان العالمية — محمد عبده وإسحاق أديب — محمد عبده ينظم اللغة العربية].

لم يكن الأزهريون ، قبل سبعين سنة ، يعرفون نظام الشهادات الدراسية والدرجات العلمية التي تمنحها المعاهد والجامعات ، ولم يكونوا يعرفون إلا « الإجازات » التقليدية التي كان العلماء والأساتذة يمنحونها تلاميذهم في مادة معينة حفظوها ، أو في كتاب معين قرأوه فأصبحوا قادرين على تدريسه لغيرهم

وفي سنة ١٨٧٢ م حين كان « الشيخ محمد العباسي المهدي » شيخاً للأزهر ، صدر أول قانون لتنظيم الامتحانات الأزهرية : فأصبحت شهادة « العالمية » رسمية ، تصدر بوثيقة من الخديو ، بعد أداء الامتحان في علوم الأصول والفقه والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق . ونظمت طريقة الحصول على العالمية ، وجعلت على ثلاث مراتب أو درجات : أولى وثانية وثالثة .

أتم محمد عبده دراسة تلك المواد الأزهرية ، وأراد الحصول على شهادة « العالمية » ، فعرض نفسه على لجنة الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) . ومحمد عبده نفسه روى لنا أنه لقي في ذلك الامتحان كثيراً من العنت ، وابتلي فيه « أشد الابتلاء » . كيف لا وهو شاب معروف بميوله العصرية ، وأكثر الشيوخ متحاملون عليه : يحسدونه على نبوغه ، ويخوضون في دينه كما يخوضون في دين أستاذه الأفغاني . ولقد تبينا في حادثة اصطدام محمد عبده مع « الشيخ عليش » بادرة من بوادر تلك العداوة العنيفة التي ستظل مستحكمة بين أنصار القديم وأنصار الجديد .

ها هم الشيوخ قد أقبلوا في تؤدة ووقار ، ليعقدوا لجنة الامتحان . ويا لسخرية الأقدار ! ها هو « الشيخ عليش » نفسه قد أقبل بعكازه ، وأخذ مجلسه بين الأعضاء . لقد حانت الساعة المرتقبة للكيد والانتقام من تلميذ جمال الدين ، ذلك المجاور المتفرنج الذي يجسر على الاشتغال بالفلسفة وعلم الكلام !

ويظهر أن الشيخ عليش كان قد أقسم ، قبل الامتحان ، يميناً مغلظة ألا يفلت الشاب الخاسر من يده ، وألا يظفر بدرجة ما . وتعصب أكثر الأعضاء مع الشيخ عليش وأجمعوا أمرهم على حرمان محمد عبده من « العالمية » ، والحيلولة بينه وبين التعليم في الأزهر .

وبدأ الامتحان ، فظهر أن المقصود منه إنما هو « التعجيز » لا الاختبار : إذ وجهت صنوف الأسئلة النادرة الصعبة ، وأثيرت المشكلات اللغوية الشائكة . ولكن سرعان ما تخيب ظنون وتذهب أوهام ! فمحمد عبده أثبت ما يكون جناناً ، وأرفع من ممتحنيه بياناً ، وكأن التحدي لا يزيده إلا براعة وافتناناً . وها هي الحيرة ترتسم على وجوه الشيوخ : لقد أسقط في أيديهم ، ولم يعد لهم من حول ولا طول مع « عفريت » كهذا ، شديد المعارضة ، سريع التخلص ، حاضر البديهة . ولكن أنى لهم أن يرجعوا إلى الحق ، فيعترفوا للطالب بالكفاية ويمنحوه العالمية من الرتبة الأولى ؟ إنهم إن فعلوا ذلك كانوا من الضعفاء المتخاذلين . وإذن فليناقشوا وليراجعوا وليستطردوا ، علهم يجدون ثغرة ينحدرون منها إلى شفاء ما بالنفوس من غل دفين . وهكذا كان ، حتى انقلب الامتحان لجاجاً ومناظرة ، وسادت الأقوال روح المماحكة والمهاترة .

ولم يجد محمد عبده من بين أعضاء اللجنة نصيراً إلا « الشيخ محمد العباسي المهدي » . وكان ذلك الشيخ في طليعة علماء العصر ذكاء وفهماً ورغبة في الإصلاح . وبلغ

من إعجاب الشيخ العباسي بإجابات محمد عبده ، أن صرّح لأعضاء اللجنة أثناء المداولة أنه لم ير في حياته أحداً في ذكائه وتثبته من علمه ، وأنه يستحق الدرجة الأولى ، بل ولو كان فوقها درجة أعلى لاستحقها . وطالت المداولة ولم ينته الأعضاء إلى رأى حاسم . إلى أن تقدم أحدهم بحل وسط : فأخذ ورقة وكتب محمد عبده بنيل شهادة العالمية من الدرجة « الثانية » ، وعرضها على الأعضاء فوقعوها على مضض ، كما وقعها الشيخ العباسي حسما للخلاف . وصدر بهذه الشهادة مرسوم باسم الخديو إسماعيل ، وتاريخه غرة رجب سنة ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٧ م) .

ومما يجدر بالذكر أنه بعد ٢٦ سنة من حصول الشيخ محمد عبده على العالمية ، عادت مشيخة الأزهر ، وكأنها شعرت بما لحق الأستاذ الإمام في شبابه من غبن ، فردّت إليه حقه المسلوب ، ونقلته إلى الدرجة « الأولى » . وأرسلت إليه قرار مجلس إدارة الأزهر بهذا النقل ، ومعه خطاب ، بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٠٤ ، من « الشيخ علي الببلاوي » شيخ الأزهر حينئذ يبلغه ذلك القرار .

***

ومن طريف ما يروى عن الأستاذ الإمام أثناء نفيه في سوريا سنة ١٨٨٣ ، أنه اتصل برجل فارسي اسمه « ميرزا باقر » ، وتعرّف بواسطة هذا الفارسي إلى قس إنجليزي اسمه « إسحاق تيلر » . وكان قد عرض لهذا القس شبهات عن حقيقة الإسلام : رأى خاصة المسلمين متمسكين بالبدع والمحدثات ، وكأنها عندهم من أصول الدين ، ورأى عامتهم حريصين على الخزعبلات والخرافات التي تنفر منها الطباع السليمة . ودارت عن هذه الشبهات ، بين الشيخ المصري والقس الإنجليزي ، مراسلات ومساجلات دافع فيها محمد عبده عن مقاصد الشريعة ، كاشفاً القناع عن محاسنها المديدة . وأعجب القس البروتستانتي بما وجد عند الشيخ المسلم من عقل راجح وحكم سديد . وانتهت هذه المساجلات بزوال كل شبهة عن مقاصد الدين الإسلامي ؛ واقتنع « إسحاق تيلر » بوجهة نظر محمد عبده ، وكتب في ذلك مقالات نشرها في بعض المجلات الإنجليزية ؛ وترجمتها جريدة « ثمرات الفنون » البيروتية .

ويروى لنا المرحوم الشيخ « عبد الوهاب النجار » أن « إسحاق تيلر » ، عمد بعد هذا إلى إعلان اقتناعه بطريقة أخرى : فجمع القساوسة في لندن ، وقام فيهم خطيباً ، وبيّن لهم الشبه التي أوردها على الإسلام ، وذكر لهم ردود الشيخ المصري عليها . وسألهم إنْ كان لهم اعتراض أم يسلمون معه كما سلم هو للشيخ . — ويظهر أن القساوسة خشوا أن يوقع اتفاق الرجلين فتنة في العالم المسيحي ، وخصوصا لما لإسحاق تيلر من علو المنزلة والقدرة على التأثير . فخرجوا من توّهم وقابلوا « الملكة فكتوريا » على غير موعد سابق ، وعرضوا عليها خطر المسألة ، فطمأنتهم ووعدتهم أن تعنى بالأمر . وبادرت الملكة بالاتصال بالسلطان عبد الحميد ، وأخبرته أن في بيروت مصريا خطراً اسمه محمد عبده ، يوشك أن يفسد ما بين المسلمين والمسيحيين . فأما « السلطان عبد الحميد » فيظهر أنه تأول تلك المسألة تأويلاً آخر : خشي أنه إذا اعتنقت انجلترا الإسلام ، فسيصبح الحاكم الإنجليزي أقوى شخصية في المسلمين ، وتؤول الخلافة بالطبع إلى الملكة فكتوريا ، وتخرج من آل عثمان . من أجل هذا أسرع السلطان بمخاطبة والي بيروت ، وخاطب أيضا الغازي « مختار باشا » في مصر . وزار الغازي لهذا الغرض الخديو توفيقا ، ولم يخرج من حضرته حتى صدر أمره بالسماح للشيخ محمد عبده بالعودة إلى مصر . وأرسل السلطان إلى بيروت لتسهيل ترحيل الشيخ المصري ، فلما تم ذلك بعث إلى الملكة يخبرها أنه سأل عن الرجل الذي خاطبته بشأنه ، فعلم أنه غير موجود في بيروت ، إنما هو الآن في عرض البحر .

وهكذا ، في رواية الشيخ النجار ، صدر العفو عن

أحد قادة الثورة العرابية ، فصار من منفاه في ظروف طريفة ، تصلح أن تكون « فيلما » من أفلام السينما .

***

يحدثنا الأستاذ الإمام في أخريات حياته أنه بدأ يتعلم اللغة الفرنساوية وهو قاض في المحاكم الأهلية ، وكانت سنه أربعا وأربعين سنة . ولكن ميله إلى تعلم تلك اللغة ابتدأ في أثناء الحوادث العرابية : فتعلم الهجاء ثم تركه ونسيه تقريباً . وفي سنة ١٨٨٤ ، عندما سافر إلى فرنسا أول مرة ، أقام هناك عشرة أشهر دون أن يتعلم شيئاً من الفرنساوية : لأن اجتماعه بالسيد جمال الدين الأفغاني وبكثير من العرب والشرقيين ، واشتغاله بتحرير جريدة « العروة الوثقى » ، ما كان يسمح له بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة . لكنه بعد عودته من النفي إلى مصر ، اشتغل بالقضاء في المحاكم الأهلية ، ووجد الحكم بها ، خصوصا في الجنايات ، على أصول القوانين الفرنساوية ، وكان جلوسه بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها ؛ فكان ذلك كله مما قوّى عنده الميل إلى تعلم اللغة الفرنساوية ، حتى لا يكون في معرفة القوانين أضعف ممن يجلس معهم مجلس القضاء .

وجاءت الفرصة للائحة للإقبال على تعلم الفرنساوية بجد ومثابرة ، حين جاء الشيخ إلى القاهرة ، مشتغلا بالقضاء في إحدى محاكمها . ووجد الشيخ القاضي معلماً ، فدعاه ، فجاءه حاملاً في يده كتاب نحو (جرامير) فسأله : « ما هذا ؟ » فقال المعلم : « كتاب نحو » . فقال الشيخ : « لا وقت عندي لأن أبتدئ ، وإنما عندي زمن لأن أنتهي » . ثم يحدثنا الشيخ محمد عبده أنه ناول المعلم قصة من تأليف « الكسندر دوما » ، وقال له : « أنا أقرأ وأنت تصلح لي النطق ، وتفسر لي الكلم ؟ وما عدا ذلك فهو عليّ . والنحو يأتي في أثناء العمل » . ويقول بعد ذلك : « وهكذا أتممت الكتاب ، وكتابا بعده وثالثاً عقبه . وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع ، كما وجدت نفسي في بيتي خالياً . فتعلمت مبادئ اللغة الفرنساوية ، وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم ، ولكن ما كنت أستطيع الكلام » .

وسافر الأستاذ الإمام بعد ذلك إلى فرنسا وسويسرا عدة مرات في شهور الصيف . وكان يحضر في « جامعة جنيف » دروس العطلة في الآداب وتاريخ الحضارة . وبهذه الطريقة تعلم اللغة الفرنساوية في أوقات الفراغ ، مع اشتغاله بالقضاء في المحاكم الابتدائية ، ومحاكم الاستئناف .

ونضيف إلى ما ذكرنا أن أصحاب الأستاذ الإمام وخاصته قد أجمعوا على أنه أتقن اللغة الفرنساوية تحدثاً وقراءة وفهماً ، على الرغم من حداثة عهده بتعلمها . وهذا ما شهد به أخيراً الأستاذ لطفي السيد باشا حين ذكر أن الشيخ محمد عبده هو الذي كان يجلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنساوي « تين » في كتابه « الذكاء » . ونحن نعلم من جهة أخرى أن الأستاذ الإمام قد أملى في مرض موته فصلاً بالفرنساوية نشره المسيو «دي جرفيل» في كتابه «مصر الحديثة» بعنوان : «وصية سياسية للمرحوم المفتي الشيخ محمد عبده» ، كما نعلم أنه ترجم عن الفرنساوية كتاب « التربية » للفيلسوف الإنجليزي « هربرت سبنسر » ترجمة تدل على تمكنه من تلك اللغة .

ونحب أن نختم هذا الحديث بما قاله الأستاذ الإمام نفسه مستخلصاً العبرة من تعلم اللغات الأجنبية : « ثم إن الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أوروبية هو أني وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي ، إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية . كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبيين في جميع أقطار الأرض . وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟ » .

عثمان أمين

اذكريني !

للشاعر الفرنسي ألفريد دي موسيه

اذكريني كلما الفجر تجلّى للعيون
باسطاً للشمس والأفراح مهداً من فتون
واذكريني كلما الليل تمادى في الفِكَرْ
هائماً قد لفّه النجمُ بثوبٍ يستعرْ
وإذا ما هاج في جنبيكِ ذكرٌ وحنين
لأهازيج مسرّات وألحان فتون
أو دعاكِ الظلّ للأحلام عند الغربِ
فاسمعي من لجة القلب رنين الطرب :
اذكريني !

اذكريني عندما يعصف بالحب القدرْ
طاوياً ما بين قلبينا بأعقاب العُمُرْ
عندما تُسبل ليالي البين أستار الرجاء
من فؤادٍ قد طواه الهمّ في ليل القضاء
أذكري مني صبابات فؤادٍ ناحلٍ
ووداعاً قد رمى قلبي بسهمٍ قاتلِ
وإذا ما رفرف الحب على قلبي الكسيرِ
فهو البعدَ بآثارٍ من الشوق الكبيرِ
أبداً في الحب يشدو ذلك الداوي الحزين
هاتفاً في لجة الأشواق والعهد الأمين :
اذكريني !

اذكريني عندما يعصف بي ريح الفناء
ويضم التربُ قلباً ذاب في حَرّ الرجاء
اذكريني كلما شاهدتِ في الفجر الوليدْ
زهرةً قامت على قبري ولاحت للوجودْ !!
هي ذكراي إذا ما عاصف الموت طواني
غير أن الروح باقٍ في سحيق والأماني
أبداً يهفو إلى ذكراكِ والعهد الأمين
يبكي الأشواق والأحزان في سمع السنين
فاسمعي من أرغن القبر ترانيم العهودْ !
بين أعماق الليالي بات يشدو وحيداً :
اذكريني !

حسين محمود البشبيشي

في غدير الألم...؟

أذكريني أتغنى في غديرِ الألمِ
وأصوغُ الكونَ لحناً عبقريَّ النغمِ

قد دفنتُ الناي في وادٍ به قبرُ العذارى
فتغنى كيفما شئتَ على أيكِ الحيارى
لستُ بالباكي على قبرٍ وراءَ الليل سارا
أو هزارٍ قد تغنى حولَ دنيايَ وطارا
أو فراشٍ رفّ في جفنيَّ صبحاً وتوارى
أو أمانٍ جرّعتني في الدجى وهمَ السكارى

فاتركيني أتغنى في غديرِ الألمِ
وأصوغُ الكونَ لحناً عبقريَّ النغمِ

إنني في صفحة الأحلام ضيعتُ حياتي .!!
ورياحَ السقمِ والآلامِ لاكت زهراتي
فأذبتُ السحرَ والإلهام خلف الربواتِ
ورشفت اليأس والأوهام في وادي المماتِ
فتلاشت في دمي ناراً صداها نغماتي
وجرتْ محمومةً بأوتارٍ لُناها عبراتي !!

فاتركيني أتغنى في غديرِ الألمِ
وأصوغُ الكونَ لحناً عبقريَّ النغمِ !!

لحناني يا ابنة الأحلام في دنياه راهبْ !!
وصباحي من لهيب الدمع والتعذيب شاحبْ
وتشيدي في ربيع العمر نحوَ الغيب ذاهبْ
وقوافيَّ خلف نعشِ النور والإلهام ذائبْ
فالسجي لي من طيوف النور أهداب الكواكب
ليس مزموري على دنيا الأسى يوماً بعاتبْ !!

أودعيني أتغنى في غديرِ الألمِ
وأصوغُ الكونَ لحناً عبقريَّ النغمِ

(القاهرة) محمد عبد الفتاح ابراهيم

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردانى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٢٦٩٩

العدد ٢٥٠ | الثلاثاء ١٣ من شوال سنة ١٣٦٢ — ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٤٣ | السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

فى الهـــواء الطلق

كان رحلتنا هـذه المرة إلى « الأهرام » فى ليلة اكتمل فيها البدر ، فصبغ العالم بلونه الزاهى الجميل ، وامتلأ الوادى بفيضان النيل ، فكان فى ضوء القمر فضة منسابة ، ورَقّ النسيم ورَاقَ الجو ، فكان كل ذلك متعة النفس وجلاء القلب .

وكنا أربعة خامسنا عالمنا ، قد تخصص فى علم النفس ودرسه فى مصر وفى أوربا ، وفى المدارس النظرية والمدارس العملية ، وشغف به حتى شغله من كل شىء ؛ فهو قليل الكلام إلا إذا عرض شىء لفسانى ، فهو يتدفق ويتدفق ، وإذا تحدثنا فى شخصية من الشخصيات السياسية أو المالية أو العلمية ، أخذ يحللها نفسياً ، ويرجع مظاهرها إلى عناصرها الأولى ، كما نحلل نحن عدداً حسابياً كبيراً إلى عوامله الأولية . وإذا روينا حادثة اجتماعية حدثت ، أخذ يشرّحها وينظر فى أعماقها ودقائقها ، كأن هذا العالم وضع على عينيه « ميكرسكوبا » دقيقاً .

قال له أحدنا : يا دكتور ، هل لك فى هذا الجو الهادئ الجميل أن تحللنا ، وتشرّح لنا نفوسنا ، وتسلّط علينا علمك وميكرسكوبك ، وتقرأ لنا نفوسنا كما يقرأ عالم الكف أكفنا ، فهذا درس عملى لذيذ ، وفرصة سانحة تكشف لنا كثيراً من نفوسنا ، وقد تفيدنا فى أخلاقنا .

الدكتور — لا شك أن هـذا عمل لذيذ مفيد ، وحقيقة إنها لفرصة سانحة ، فقد كنتم أصدقائى منذ صباى ، واطّلعت على نفوسكم وتصرفاتكم فى المواقف المختلفة ، واختزنت منها الشىء الكثير فى ذاكرتى ، مما يسهل لى الحكم عليكم ؛ ولكنى أخشى أن أغضبكم أو أغضب بعضكم . فكشف النفس أمر لا يستحب ككشف الجسم ، وقد يحسن أن يكون ذلك حديثاً منفرداً مع كل منكم ، حتى لا يطلع عليه الآخرون فيألم لذلك ؛ والناس جميعاً فى كل مكان يودّون أن يظهروا

بمظهر الكمال ، وتعرية نفوسهم كشف لعوراتهم ، والناس في مصر أشد حساسية في ذلك ، فهم يكرهون النقد ، ويكرهون الناقد أكثر من غيرهم ، ولذلك ضعف النقد ، وركن الناقد إلى السلامة ، سواء في ذلك النقد السياسي والأدبي والاجتماعي . ولما عدت إلى مصر من أوربا أدركت هذا المعنى في وضوح ؛ فقد بدأت أنقد في مصر كما كنت أنقد في أوربا ، فصُدمت صدمة قوية عنيفة جعلتني أتردد في النقد ؛ ولا أدرى سبب ما رأيت من تأخر النقد ، فقد كان النقاد في مصر أقدر وأجرأ منهم اليوم ، ولا يصح تعليل ذلك بالحرب وإعلان الأحكام العرفية ، فإن هذا إذا صدق في السياسة لم يصدق في الأدب والفن ، وحتى قبيل الحرب لم نكن في هذا الباب خيراً منا الآن .

(ا) — كيف لا تدرى السبب — يا دكتور — وأنت متخصص في علم النفس الفردي والاجتماعي ، ولا شك أنك صادفت مثل هذه الأعراض وحللتها وشرحتها .

الدكتور — ليس الأمر أمام العالم بهذه السهولة ، فعالم النفوس من أعقد العوالم وأدقها ، وفي كثير من الأحيان كانت تعرض علينا حالات فردية كنا نحار في تفسيرها — أنا ومن يعمل معي من أساتذتي وزملائي — ونذهب فيها كل مذهب ؛ وأخيراً نقرر عجزنا عن حلها ، هذا في حالة نفسية فردية ، فكيف في حالة اجتماعية ! ولكن — على العموم — يخيل إلي أن سبب ضعف النقد في مصر وغضب المنقودين يرجع إلى أن رقي الثقافة العامة في أوربا جعلتهم يدركون أن كل فرد له مزاياه وعيوبه ، فإذا كشفت عيوب شخص فلا بأس ، فهذا أمر طبيعي ، ثم فشو الروح الرياضي في الأمم جعلتهم في ألعابهم يتلقون الضربات في سماحة ، ويتلقون النقد في سماحة مثلها ؛ ثم إن معدل « مركب النقص » في مصر أكبر منه في أوربا ، ولذلك كان النقد يزيد في المنقود هنا شعوراً بهذا النقص ، فيغضب ويتألم ، ألا ترى أن الرجل الواثق بنفسه لا يؤلمه النقد كما يؤلم من فقد الثقة بنفسه ، وهكذا !!

(ا) — لكن هذا يا دكتور يصح أن يكون سبباً في ضعف النقد في مصر عنه في أوربا ، ولكن لا يعلل ضعف النقد في مصر عنه في مصر أيضاً منذ سنوات .

الدكتور — هذا صحيح ، وفي ظني أن هذا يرجع إلى أسباب اجتماعية وتاريخية أكثر منه إلى أسباب نفسية ، وإن كانت هذه الأمور مرتبطة بعضها ارتباطاً كبيراً ، فغلبة الرجعية ، وعدم استجابة جمهور الأمة لدعاة التجديد ، وغير ذلك من أسباب ليس هنا موضعها ، كانت سبباً في ذلك .

(ا) — قد خرجنا عن موضوعنا بعض الشيء ، فحلل نفوسنا ، ولك علينا عهد ألا نغضب ، وأنت من جانبك لا تتعمق في مشرطك ، ولا تبالغ في جرحك ، واستعمل الإيماء أحياناً ، والكناية أحياناً ، ففي ذلك كفاية .

(ح) — أما أنا فأنصحك أن تقول كل شيء عني في صراحة من غير تلميح ؛ فإن أنت مدحتني وهديت إلى محاسني ومزاياي كان عملك صحيحاً وكلامك صحيحاً ، وإن ذممتني ونقدتني كان عملك سخيفاً وكلامك سخيفاً ؛ وأنا راض في الحالين ، فالحكم عليك لا علي .

(ضحك الجميع) .

الدكتور — وليكن ، ولكن اسمحوا لي أن أتكلم كلاماً عاماً بعض الأحيان ، وكل منكم يطبقه إن شاء ، — على نفسه ، ومن محاسن الصدف أنكم الأربعة تمثلون أصناف الناس ونماذجهم الأصلية ؛ فأولا — « ا و ب » من النموذج الذي يسميه علماء النفس Introversion ، ولا أدرى كيف أسميه بالعربية ، فمعناه الحرفي « تحويل الظاهر إلى الباطن » ، وهذا الصنف من الناس — عادة — من خصائصه أن يعيش في نفسه أكثر مما يعيش في خارجها ، يميل إلى الدرس والبحث ،

فإذا غلب عليه هذا المزاج فهو أميل إلى الفلسفة والعكوف على أفلاطون وأرسطو وسبينوزا وأمثالهم ؛ ومن هـذا الصنف أيضا فريق المتصوفة الذين يغرقون فى أنفسهم ويحللونها ويشرحون مقاماتهم وأحوالهم ، هم — عادة — خَجولون فى أوساطهم ، يكرهون المجتمعات والحفلات الصاخبة ، يشعرون شعوراً بالغاً من الألم التافه ، ولا يشعرون شعوراً عظيما من الفرح العظيم ، يفضّلون أن يجلسوا فى حجراتهم يحلون مشكلة اجتماعية أو نظرية رياضية على شهود ألعاب رياضية أو حفلة موسيقية .

وأما « حـ و د » فى الصنف الآخر الذى يسميه علماء النفس أيضا Extraversion ، ومعناه الحرفى « تحويل الباطن إلى الظاهر » ، وهذا الصنف من الناس — عادة — لا يستطيعون الصبر على الخلو إلى أنفسهم مدة طويلة ، ولا يستطيعون أن يصبروا على البحث العميق الطويل ، يحبون الناس واجتماعاتهم ، وقد يشتركون فى عمـل الحفلات والولائم والإعداد لها ، ويحبون الاشتراك فى النوادى ، يلفتون الأنظار إليهم فى تصرفاتهم ، ويحبون الظهور وأن يُكتب اسمهم فى الجرائد دائما — يكرهون الفلسفة واسمهـا ، ويكرهون العزلة ؛ ويحبون من الروايات الكوميديا ويكرهون التراجيديا ؛ ويعجبهم من الموسيقى النغمات المرحة ولا تعجبهم النغمات الحزينة وهكذا .

ومنشأ ذلك خلقة وطبيعة وظروف أكثر منها أى شىء آخر .

أتذكر يا فلان (ا) أنك كنت ضعيفاً فى صغرك ، لا تشترك مع الأطفال فى لعبك ! أو لا تذكر يوم كنا فى المدرسة الثانوية معاً ، وكان إخواننا فى الفصل يطلقون عليك لقب « مالك الحزين » ، وقد نما هذا الشعور عندك ، فطلقت الجميات ، واحتضنت الكتب ، وشعرت بمركب النقص عندك ، فنجحت الطبيعة « التعويض » ، وكان هذا التعويض أن تخلق من نفسك عالماً غير العالم الخارجى تسبح فيه ، ثم نمت عقليتك على حساب الملكات الأخرى وعلى حساب الاشتراك مع الأصحاب فى الألعاب والحفلات ، فتفوّقت على زملائك فى العلم والعقل ، وضعفت منهم فى المواهب الأخرى : فى الألعاب الرياضية ، فى الحفلات السارة ، فى الأعمال الاجتماعية ؛ ولتُرضى نفسك بهذا التعويض قوّمت الحياة العقلية أكبر من قيمتها ، كما قومت الأنواع الأخرى من الحياة أقل من قيمتها ؛ ولم تكتف بذلك ، بل سبحتَ فى عالم من الخيال الفلسفى ، وجعلت مُتَعَك فى الحياة عزلة عن الحياة العملية إلى حياة فكرية مجردة تسخر فيها بحياة الناس العملية — حتى إننا لما دعوناك إلى هذه الرحلة معنا أتيت بضغط يشبه الإكراه . أليس كذلك ؟

وعلى العكس من ذلك أخونا (حـ) ، فقد نشأ — كما أعرف وتعرفون — فى صحة جيدة ووسط مُوَات ، ولما كان معنا فى المدرسة الثانوية كان رئيس فرقة الكرة ، وكنا إذا فكرنا فى حفلة فهو منظّمها ، وهو المُهرّج فيها ، وكان لا يحتبس فى بيته للمذاكرة إلا عند الضرورة القصوى ؛ فلما أتم دراسته كان كما ترون رجلاً يعرف الدنيا ، ويلعب بالبيضة والحجر كما يقولون ، لا يعترف بالهزيمة إذا كانت ، يلعب فى حياته كما كان يلعب الكرة فى مدرسته ، إذا غُلبت فرقته مرة ضحك ، واستعد أن يغلب فى المرة القادمة ؛ وبينما أخونا « ا » يحضّر درساً فى حجرته فى نظرية « الأوساط » عند أرسطو ، إذا بأخينا « حـ » يُطبّق نظرية « الأوساط » فى حفلة رقص .

(ضحك من الجميع) .

(ا) — إذن فما رأيك فى أخينا « د » ، وأخينا « ب » ؛ فقد نسيتهما وصببت كل كلامك على « ا » و « حـ » .

الدكتور — الواقع أنى لم أنسهما ، ولكن بدأت بالكلام فى « ا » و« حـ » لأنهما نموذجان متقابلان يشرحان فكرتى فى وضوح ، وباقى إخواننا ليسوا إلا صورة مكبرة

أو مصغرة منهما أو ملونة لوناً آخر غير لونهما ، ولكن الأساس واحد .

فأخونا « و » عكس أخينا « ا » ؛ أخونا « ا » مصاب بمركب النقص ، وأخونا « و » مصاب « بمركب التسامي » ، وكلاهما عيب ، ومركب التسامي في نظر علماء النفس ليس إلا دخاناً كثيفاً يلف مركب النقص . فالمصاب بمركب التسامي تظهر عليه أعراض معينة ، فهو يشعر بنقصه ، ولكن يمنع الناس أن يدركوها كما يدركها هو ، ووسيلة ذلك الظهور بالتسامي والظهور بمظهر العظمة ؛ ألا ترى أن الكلب الكبير حقاً ، العظيم حقاً ، لا ينبح إلا عند الضرورة ، وأما الكلب الصغير الحقير فينبح ويقفز لأتفه الأشياء يعلن بذلك عن نفسه ، ويغطي شعوره بنقصه ؟! كذلك الرجل العظيم حقاً لا يفتخر بعظمته ، لأنه يشعر أن أعماله كافية في التعبير عنه ؛ والمرأة الواثقة بجمالها لا تبالغ في حليها وزينتها كما تبالغ من شعرت في نفسها بشيء من العيب أو القبح ؛ والفني الكبير العريق في الفن لا يتظاهر بما يتظاهر به « المُحدَث في الفن » ؛ وهكذا كل شاعر بنقص في ناحية من النواحي يحتاج إلى عمل إشارات كثيرة تجعل الناس يؤمنون به ولا يطلعون على عيبه ، شأنهم في ذلك شأن الطفل الصغير يشعر بالخوف فيأتي بإشارات وحركات يتظاهر فيها بشجاعته . ألا تروْنه يحاول أن يفرض رأيه علينا فرضاً ، ولا يسمح لأحد أن يقترح رأياً بجانبه ، ويريد أن يشعرنا دائماً بشخصه ، وهو الذي اقترح رحلتنا اليوم ونفذها . لا يحاسب نفسه كثيراً على تصرفه ولا على من اجتاحهم أثناء سيره ، يضحينا دائماً لطموحه ، ويشك في قيمة الناس فيكتسحهم ؟!

(د) كلب في عينك قليل الأدب ، لم يبق إلا أن تثلني بالكلب ، وما الكلب إلا أنت وعلمك الفارغ ، كلمات تحفظها وتطبقها على ما يصلح لها وما لا يصلح ، وشقشقة ألفاظ من مركب النقص ومركب التسامي لا حقيقة وراءها ، إن كنت متكلماً حقاً ، فحلل لنا نفسك وبيّن علاقتها بالكلب .

الدكتور — آسف كل الأسف ، وهـذا ما كنت أخشاه من أول الأمر ، ولكن ما كنت أتوقع أن يبلغ الأمر هذا المبلغ ، فما ذنب طبيب إذا عرض عليه مريض فرأى عنده سرطاناً فقال إنه سرطان ؟ أيكون منصفاً إذا قال إنه ورم بسيط ؟ ولكني نسيت أمراً تعلمته ، وهو أن الإنسان لا يسمح لطبيب النفس أن يشرحه ويبيّن مرضه كما يسمح لمريض الجسم ، ولهذا سبب ليس محله الآن ، وكل ما أقوله إني آسف ومعتذر .

(ا) — غلطتك يا دكتور ليس في التشخيص ، ولا في الشرح ، ولكن في أنك قد فاتك التعبير الرقيق والتشبيه الفني ، فقد كان يمكنك التعبير عن هذا المعنى تعبيراً أرق ؛ وأنت يا « و » ليس لك الحق في الغضب ، فقد تعاقدنا أول الأمر على ألا نغضب ، والجو أمامنا فسيح ، وفيضان النيل أمامنا بالغ منتهاه ، فخذ من الدكتور ما يعجبك ، وارم ما لا يعجبك في النيل أو في الهواء الطلق .

(الجميع) — وهو كذلك . فأكمل لنا « ب » ، وبذلك ينتهي الحديث في صفاء .

الدكتور — أما أخونا « ب » ، فهداه الفرق في نفسه إلى النزعة الدينية ، نشأ مرهف الحس في وسط كثير التديّن ، ولست أنسى والده وصلاحه وكثرة صلاته وصيامه ، وامتلاءه عقيدة بحقارة الدنيا ونعيمها ، وكثرة ذكره الموت ، وتطلعه لحياة أخرى فيها الكمال المطلق ؛ وفي هذا الوسط نشأ أخونا « ب » فنما شعوره القوي بالدين ، وضعف اعتماده على وسائل الدنيا ، فقوي اعتماده على الله ، يعتقد أنه يُنْدَقُ في يد القدَر . يرى أن النفس دائماً أمارة بالسوء ، فهو يتطلع إلى الاستمداد من قوى روحية أخرى تعينه على السلوك المستقيم ، فهو ينال ملاذ الحياة

يحذر ، ويخاف من النعيم أن يجره إلى الإثم ، ومن الإثم أن يجره إلى النار ، فحي ضميره وشعوره من هذه الناحية حتى تسلط على كل أعماله ! فمقياس العمل عنده دائماً الجنة والنار . أضعف نفسه الخوف فهرب من أداء الواجبات الدنيوية ، وركّز نظره إلى الحياة الأخرى يضع فيها آماله . ولا أريد أن أطيل حتى لا يغضب أيضاً .

فلعلكم ترون من هذا هـذه الفرصة السعيدة التى جمعتنا ؛ وكان اجتماعنا أشبه باجتماع النماذج البشرية كاملة ؛ فنا اثنان محكومان بعقلهما ، أحدهما محكوم بعقل منطق فلسفى ، والآخر بعقل عملى ، ومنا اثنان محكومان بعواطفهما ، أحدهما محكوم بعواطف دينية ، والآخر بعواطف دنيوية .

ولكن أرجو أخيراً ألا يكون أخونا «د» لا يزال غاضباً .

(د) — لا ! هذه فورة وقتية وزالت .

الدكتور — لعلى أستطيع فى فرصـة أخرى أن أحدّثك وحدك عن سيكولوجية الغضب ، والأسباب التى تدعوك له .

(د) كلا ، لا أريد سيكولوجيتك ولا تحليلك ، فأنا أعرف بنفسى منك .

(ا) — ولكن يا دكتور ، هل هذه العناصر الأربعة أساسية غير قابلة للتحول ، أو يمكن تحويل عنصر إلى عنصر ؟

الدكتور — أرى أنه لا يمكن ذلك ، فلا يمكن تحويل «ا» إلى «د» ، ولا «ب» إلى «حـ» ، ولو استحال النُّحاس إلى ذهب . وكل ما فى الأمر أن هذه العناصر الأربعة ضرورية فى الحياة ، نافعة للمجتمع ، ولكلٍّ غرض ، وكل يتخذ لإدراك غرضه أدوات وآلات ووسائل . وما يصبو إليه الأخلاق والمصلح الاجتماعى ليس أن يحوّل الإنسان من عنصر إلى عنصر ، ولكن أن يُبقى على غرضه وعنصره ، ويحاول أن يجعله يتخذ من الوسائل ما يتفق وصالح المجتمع ؛ فقد يتخذ صاحب الغرض وسائل خسيسة لتحقيق غرضه ضارة بمجتمعه ، فيأتى المصلح ويهيئ الفرص للناس أن يتخذوا لغرضهم وسائل شريفة تفيد المجتمع . فغرض الشهرة — مثلاً — والقصد إلى التسامى ليس شراً فى ذاته ، ولكن يتفق فى هذا العنصر بعض العظماء جداً وبعض المجرمين جداً : الأول اتخذ وسائله فى الشهرة الإتيان بأعمال تنفع أمته ، والثانى اتخذ وسائله الإجرام ، وشتان ما بينهما وإن اتحد العنصر . والنبى الذى يُبعث ، والمصلح الذى ينبغ ، من أكبر الرجال الذين يعرفون نفسيات الأتباع ، فيعرفون كيف يرشدون كلاًّ إلى الناحية التى خُلق عليها من غير أن يغيّروا من تكوينهم الأساسى ، وعنصرهم الأول .

(ا) — ولكن يا دكتور كيف تسنّى لهذه العناصر المتباينة أن تتصادق ؟ فنحن كما حللتنا ماء ونار ، وحرارة وبرودة ، وعذوبة وملوحة ، ومع ذلك نحن أصـدقاء متحابون لا يستغنى بعضنا عن بعض ، ونشعر كأننا عروة لا تنفصم ، ووحدة لا تتجزأ ، إذا غضب أحدنا لا يلبث أن يصـفو ، وكان مقتضى الظاهر أن نتخاصم وأن نتعادى ، لا أن نتصادق .

الدكتور — لهذا أيضاً سبب سيكولوجى عميق يرجع إلى أصول أبانها علماء تحليل النفس ، فهل أنتم على استعداد للبقاء هنا إلى الصباح ؟

(ا) — لا ، ولكن على أن تعدنى أن نتقابل غداً وحدنا إذا عاق الآخرون عائق فتحدثنى عن سر ذلك !

الدكتور — وهو كذلك

وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، وقد تسلطن القمر فى عرشه ، فركبنا سيارتنا وعدنا من حيث أتينا .

ولما عدت إلى بيتى أبيت إلا أن أقيد أهم ما كان ، حتى لا يطويه النسيان .

أحمد أمين

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

شرٌ فى القراد

الجَدىُ مفتاح الفرج

وصل الثالث : البيت الأحمر معمل علمى فى وشنجتن ، والعصابة التى فيه جماعة من العلماء الأطباء ، تُشخصهم حكومة الولايات المتحدة ، يبحثون الأدواء حيث ما ظهرت فى الولايات . ودين الجميع الموت فى سبيل الواجب .

وأحد هذه العصابة الدكتور «اسبنسر» ، أشخصته الحكومة إلى الغرب ، إلى ولاية «منتانا» ، إلى حيث الوادى الجبلى وادى «بطروط» ، وبه حمى خابية تصيب الناس فتقتلهم .

حزم «اسبنسر» أمتعته وزوجه وطفلين له ، وركب القطار فبلغ بلدة «همِلتن» فى تلك الولاية بجوار ذاك الوادى .

واستقبلهم هناك «بركر» وهو دكتور فى علم الحشرات . وبدأ الرجلان يتحسسان سبيلا لبحث هذه الحمى .

وكان المعروف أن الحمى لا تصيب الرجل إلا إذا عضته قرادة . وكان سبقهما إلى لمس مسئولية القراد علماء آخرون ، أثبتوا أن القراد هو المسئول ، واستخلصوا منه مكروب هذه الحمى ، وربوه فى خنازير غينية ، ونقلوه من خنزير إلى خنزير ، ثم إلى القرود .

وخطر على بال «بركر» أنه لا بد أن يكون فى هذا الوادى الوبيء ، وادى «بطروط» ، حيوان قارض ، كالفأر والسنجاب ، يحمل الوباء فى دمه . وأن القراد الذى يعيش على جلد تلك القوارض يشرب من دمها فيشرب من وبائها ، ثم هو بالعض ينقل هذا الوباء إلى الإنسان الذى يجازف بالذهاب إلى ذلك الوادى .

والآن اقرأ :

وأخذ «اسْبِنسر» يهيئ دار المدرسة القديمة التى وجدها لتكون معملا ، بينما صعد «بَركَر» الحشرىّ إلى الجبال يجمع القُراد ، ويعينه على جمعه «هنرى كاوان» . وكان «كاوان» Cowan رجلا ضخم الجسم أشبهَ شيء بالدبّ العظيم ، وكان لا يخيفه شيء أبدا . وأعان «بركَر» غيرُ «كاوان» رجلٌ يدعى «سَلِسْبُرى» Salisbury ، وكان يعتنق دين المسيحية العلمية ، وهو دين يشبه الدين المسيحى فى مجمل تعاليمه ، إلا أنه يسلّم أنّ لا حقيقة فى الوجود الإنسانىّ غير الإنسان . فالعقل هو الحقيقة التى لا مرية فيها ، والفكر الصادر عنه هو الشيء الحق الموجود الدائم أبدا ، أما الجسم وغيره من المرئيات والمحسوسات فهى من خلق الإحساس ومن نَزعة الفكر ، فلا وجود لها إلا فى الفكر وبالفكر ، وليس لها كينونةٌ ذاتية أصلا . وقد تعلّم «سلسبرى» من دينه هذا أن لا يؤمن بالموت .

صعد هؤلاء الرجال الثلاثة إلى الجبال ، إلى ذلك الوادى الضيق السحيق ، وادى «بْلُدجت» Blodgett ، وادى الموت ، يجمعون القراد .

صعدوا الجبل بين كثيف من الشجر ، من شائك وغير شائك ، وحملوا معهم رايات من فَنِيلّة بيضاء لوّحوا بها أمامهم لتقيهم مسَّ الأغصان وما حملت ، ورويداً رويدا ذهبوا فى وادى الموت صُعُدا . وعلى الأغصان من حولهم اجتمع القُراد يترقب ، وكان صحا من نومة الشتاء ، لمّا مسته شمس الربيع ، وبصحوته صحا فيه إحساس بالجوع وتعطّش للدماء . وتعلق القراد على الأغصان برجليه الوُسطيين ، وأطلق أرجله الأخرى من قُدّام ومن خلف ، يلعب بها فى الفضاء ، متربّصا حتى يرى شيئا متحركا فيسقط عليه . ومضى الرجال الثلاثة يلوّحون بالرايات البيضاء أمامهم فيتساقط عليها القُراد حتى غطاها .

وخلعوا كلَّ حينٍ وحين أقمصتهم — حتى «سَلِزبُرِى» الذى كان لا يؤمن بالموت — خلعوها ليروا هل حطّ شيء من القراد عليها . وفحص بعضهم جلود بعض وهم عرايا . ورجعوا إلى «اسبنسر» كل مساء بأكوام حيّة تتلوّى من قراد فى أحقاق من ورق . وتعرّوا كل ليلة من كل ما سترهم من لباس يتحسّسون جلودهم قبل الرقاد .

ويجلس « اسبنسر » إلى هـذه الأحقاق وهي ملأى بهذا الحصاد الحيّ الزاحف المخوف الذي جمعه « بركر » وصحابه . وينظر إليها ويفكر : أكل هذا القراد فيه الموت؟ أو أيّ من هذا القراد الموت ؟

ووقفوا على حقيقة ذهبت بما كان اختطه « بركر » من مسح مناطق القراد من السماء في طائرة ، أو على الأقل أخرجت هذه الخطة من رؤوسهم لسنوات ، وأنهضتهم كما ينهض كلاب الصيد حزمةٌ واحدة يتشمّمون في أعقاب صيدٍ مكروبيّ من أعجب ما ابتدع خيال إنسان . ونتج كل هذا الأمر عن صفة عريقة في « اسبنسر » ، هي نوع من كسل ، هي رغبة متأصلة فيه أن يحيد عن الطريق الطويلة ، ويحزم إلى غايته طريقا أقصر وأخصر .

وكان طريقه الطويلة أن يمتحن ما جمعه إخوانه من قراد ليرى أيها يحمل أسباب الحمّى ، وأن يمتحنه كله . ومعنى هذا أن يأتي بكثير من الخنازير الغينية ، ثم يحلق بطونها ، ثم يجمع الجمعة من القراد الحيّ فيضعها على البطن المحلوق الواحد ويشدها إليه بشبكة من النحاس الأصفر ، يضمّها إلى البطن شريط عظيم من الأشرطة الأرجة اللاصقة . فأي عمل طويل متكرر متعب هذا .

ثم هو ينتظر من بعد هذا الأيامَ والأسابيع ، يتربّص بالخنازير أن تظهر عليها أعراض الحمى .

أراد « اسپنسر » أن يختصر هذا الطريق الطويل فساءل نفسه كيف يكون الحال لو أنه وضع كل مجموعة من القراد يأتيه بها « بركر » في هاون ، وأعمل فيهـا يدَ الهاون حتى سحقها سحقا جيدا ، ثم أخذ من هذا الحساء الثخين فحقن منه الخنازير . وقال لنفسه إن اختزالا كهذا يوفر نصف الوقت ، ولم يقل كما يقول الكسول إنه يوفر نصف المجهود أيضا . وكان سبق له أن أجرى تجربة صغيرة أرته أن هذه الطريقة قد تكون أضمن وأوثق .

كان في خُلُق « اسپنسر » كسل الرجل الحلاّم ، وكان يجمع هذا الفرجينيّ ذو الكلام البطيء المديد ، كان يجمع إلى كسل الحالم ميلا إلى نقض المألوف من الأشياء ، والعمل بغير ما تعارف عليه الناس . فبدأ بعد سحق قراده وتحضير حسائه ، بأن حقن خنازيره الغينية بهذا الحساء ليعطيها الداء . ولم تكن هذه — علم الله — بالطريقة التي يُعطِي بها القراد المرض في الطبيعة لإنسان أو حيوان . واستقرّ « اسپنسر » إلى هذا العمل الراتب المملّ فظلّ يحقن مائة حقنة في مائة خنزير غينيّ ، من أحسية مائة صنعها من مائة مجموعة من القراد جمعها « بركر » في أحقاق مائة من مائة بقعة موصوفة مرقومة يسكنها الموت إنْ قليلا وإن كثيرا في ذلك الوادي اللعين .

حقن « اسبنسر » هذه الأحسية المائة ، وتربّص بالخنازير أن تصيبها الحمى . فماذا كانت النتيجة .

كانت خيبةً كاملة بديعة .

لم يصب أحداً من هذه الخنازير حمى أو شبه حمى . مع أنه أجرى تحت جلودها الشيء الكثير من دماء قراد جيء به من نفس تلك البقاع الذي سبق أن جاءها الرجال عاما بعد عام ، فعادوا منها لتصيبهم الرعدة بعد بضعة من أيام ، تنذر أن الحمى دخلت إلى أجسامهم .

وأعجب من هذا أنهم أرادوا إصابة نفس تلك الخنازير من بعد ذلك بالحمى يأتون بمكروبها من مرباه في خنازير غينية ، حفظوه بها حيا ينقلونه من خنزير إلى ثان إلى ثالث في سلسلة طويلة لا تنتهي أبدا . فدخل هـذا المكروب إلى دم الخنازير التي حُقنت بالأحسية فلم يضرها شيئا ، وصمدت لهذا المكروب الذي لا يصمد له خنزير أبدا . أفما كسبتها إذن تلك الأحسية حصانة ضد المكروب ؟ أو لا ، فما تفسير هذا ؟ وكيف تأتّى للقراد أن يعجز دمه عن إصابة الخنازير بالحمى ، ثم هو بعـد ذلك يحميها من المكروب الحيّ الذي لا تحتمي منه الخنازير ؟

وحسب « اسپنسر » أن هذه الطريقة التي أراد أن

يجرّم بها إلى غايته اختصاراً ، قد فشلت . وهى قد فشلت حقا لولا « بركر » . و « اسبنسر » أول رجل يعترف بذلك . فقد كان « بركر » ، ذلك الرجلُ الحشرى ، رجلا حسن التنظيم لأعماله . وكان دقيقا فيما يصنع ، كبير الحرص على ما يجمع ، فكان من ذلك أنه لم يُضيّع ذلك القراد ، الثلاثةَ من الأصناف ، بعد أن فرغ « اسبنسر » من تجاربه الفاشلة . فقد كان قام إلى ما تبقى منها فردّه إلى أحقاقه بعناوينها ، ثم وضع الأحقاق فى ثلاجة . لقد علم « بركر » أن تجربة « اسبنسر » قد فشلت ، والحقُّ أنه لم يكن به حاجة أن يحتفظ بما تبقّى من القراد ، ولكن هكذا كان « بركر » لا يحب بطبيعته أن يرى بشىء أبدا .

* * *

حدث بعد ذلك حادث الجدْى الذى خلق من هـذا الفشل نجاحا ، وأخرج من تلك الخيبة شيئا جديدا بديعا . ذلك أن « كاوان » كان فى الجبل هو و « إلمار جرينابِ » Elmer Greenup ، وكانا فى وادى الموت يجمعان القراد . فحدث أن سنح لهما جَدْىٌ فأطلق عليه « كاوان » النار فأرداه . وليس فى السجلات ما يستشف المرء منه إن كان هـذا عن طلب طلبه « اسبنسر » منه ، أن يحمل إليه جديا من جديان هذا الوادى ، أو أن هذا كان لهوى قام عفوَ الساعة فى نفسه . ومهما يكن ، فقد دخل « كاوان » الضخم على « بركر » فى المعمل وقد حمل الجدْى على عاتقيه العريضتين . وكان « بركر » طَلّاب قراد ، يطلبه من شتى الأصقاع وشتى الأوضاع .

وجلس « كاوان » وصاحبه « جرينابِ » يلتقطان القراد من شعر هذا الجدْى النافق . وكان هذا القراد من نفس القراد الذى جمعوه على الرايات لما لوّحوا بها تحت الشجر ، بفارق واحد ، هو أن قراد هـذا الجدْى سمين منتفخ بسبب جرعاتٍ خمس جَرَعها من دم الجدْى ، أما ذلك القراد الذى سقط من أغصان الشجر على الرايات فكان قرادا مُفرطحا جافا لا دم فيه إلا قليلا نادرا .

وأرادوا تجربة هـذا القراد كما جرّبوا ذلك . وكانت تجربة ترامت أنها من السخف بمكان : فجديان الجبل لا تصاب بهذه الحمى المبقّعة ، وليس فى سجلٍّ كائنا ما كان أن ميكروب هـذه الحمى عُثِر عليه فى دم جدى منها . ومع هـذا فقد شاء « بركر » أن يمتحن كل القراد أينما وجد ، على الشجر أو على الطير أو فى جلد حيوان .

وترى « اسبنسر » قائما على هاون يطحن فيه ما جمع الآخران من قُراد الجدى ، وسحَقه حتى صار مَرَقا سائلا شهيًا ... ولم يكن من سبب يدعو « اسْبنسر » إلى اتخاذ حيطة غير عادية ، فلم يكن فى باله أن هذا القراد قد يكون وبيئا . وحقن هذا المَرق فى بطون خنازير .

ولم تمض ثلاثة أيام حتى بلغت حرارة هذه الخنازير أربعين ونصف درجة ، ثم أحدى وأربعين درجة ، ثم ماتت جميعاً .

عند هذا صحا « اسْبنسر » من أحلامه صحوةً مذعورة كما يُذعَر النائم . وأخذ المعملُ ، ذلك المدرسةُ القديمة ، يعج بخُطط لتجارب غريبة لم يسمع بها أحدٌ من قبلُ أبدا . إن القراد المفرطح الذى لا دم فيه ، ذلك الذى سقط من الشجر ، لا ضرر منه للخنازير إذا هو حُقِن حَساءً فيها . أما القراد السمين الملىء بالدم ، ذلك الذى التُقِط من الجدى ، ففيه الموت كلُّ الموت . وكلا القرادان من من نفس الوادى ، وادى الموت المخُوف . فما هذا الذى فرّق بينهما فجعل منهما أضدادا ؟

أيكون أن القراد تنامُ فيه أسباب الحمى عندما يتجمد بصقيع الشتاء فى تلك البرارى ؟ ثم أيكون ما يشربه القراد من الدم فى هواء الربيع الدافئ موقظا لتلك الأسباب النائمة فى القراد ، فتنقلب من أشياء لا ضرر فيها (أو حتى أشياء واقية من الداء) إلى أشياء قاتلة مهلكة ؟

(البقية على صفحة ٢١)

من مذكرات جحا :

أيها الموت !

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التي زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

فيم الحياة وقد سُدت في وجهي سبلها ؟ فلا مال أعيش منه كما يعيش العاطلون ، ولا تجارة أقوى على المزاحمة فيها والفوز في معاركها ومغانمها ، ولا قدرة لي مع هذا كله على أن أكون لصاً سارقاً أو غاصباً نهاباً .

أليس الأليق بمثلي أن يمضي عن هذه الحياة التي لا يستطيع أن يسلك سبيلا من سبلها ؟! لست أدري هل هذه حال في « ماهوش » خاصة ، أم هي الحال التي قدرها الله عليَّ أينما حللت ؟ فإذا كانت الأولى فما أهون العيش وأكرهه في هذا الوطن العزيز الذي يحلو له أن يذلني ويهملني ، وما أوسع بلاد الله أضرب فيها مشرقاً ومغرباً لكي أنفض عن نفسي معرة هذا الهوان ! وإذا كانت الثانية فليس دوني إلا سبيل واحدة ما أوعرها وما أقساها ! ليس لي عند ذلك إلا أن أخلص من هذا العالم كله ، فأستريح من عناء الحياة كلها ؛ ولكني كلما فكرتُ وعزمت ضعفت نفسي واعترتني الوساوس والشكوك . فهل ينبغي لمؤمن مثلي أن يهلك نفسه ؟ إن النار مصير القاتل الذي يسفك الدماء بغير حق ، فما بالي عن يهلك نفسه هو ؟!

أستغفر الله من هذه الخواطر الخانقة التي تدخل إلى قلبي كما تدخل الخفافيش إلى الأركان المظلمة من الخربات المهجورة ، فما كان مثلي ليقدم على إهلاك نفسه ، وهي من خلقة الله بديع السماوات والأرض . وإنه لمن أكبر الغرور أن يقدم الإنسان على التفكير في إهلاك خلقة بديعة يعجز عن أن يخلق خلقة أقل عضو من أعضائها .

اللهم طهر قلبي من هذه الخواطر الدنسة ، وطهر قلبي فوق ذلك من هذا الغيظ الذي يملأ صدري كلما نظرت حولي فرأيت هذا الاضطراب الذي يضرب أطنابه في أركان « ماهوش » . وفيم يمتلئ هذا القلب بالغيظ إذ يرى النعمة المغصوبة مكدسة على القليل ، في حين يرى نفسه محروما منها ؟

فهل كانت هذه النعمة لتهبط عليَّ إذا لم يغصبها هؤلاء ؟ إنني واحد من كثيرين مثلي ، فيمَ يمتلئ قلبي أسى من حسد المنعمين ، ولا يمتلئ رثاء وعطفاً على آلاف المحرومين ؟ إنه لأجدر بي أن أتمسك بأعلى المُثل ، ولن أزال أدعو الله أن يطهر قلبي من خبائث الغيظ والحسد ؛ فالدنيا لا تستحق أن يبذل من أجلها سلام القلب واطمئنانه . لأدع خيرات هذا الوطن المنْشَيْن ، وتجار الخمر ، وقادة الخبائث ، والمرابين ، ومصاصي الدماء ؛ ولأقنع بمُثُلي العُليا ، فإني قد عجزت عن أن أكون أحد هؤلاء الذين يفوزون بغاديتها ، وليس لمثلي إلا أن يكتفي بمعانيه وفضائله طوعا أو كرها . ولأدع « ماهوش » تلهو وتفيض بكرمها على كل من يتملق شهواتها . وماذا يضيرني إذا هي لاقت مصير أمثالها من البلاد التي لا ترتفع فوق الشهوات ؟ اللهم إني أستغفرك من هذه الدفعات الخبيثة التي يدفعني إليها الحنق ، وأعود فأدعوك أن تغفر « لماهوش » ، وأن توفق « ماهوش » ، وأن تتداركَ بلطفك « ماهوش » وطني الذي لا أحب وطناً سواه .

لقد دفعني غيظي بالأمس إلى مداعبة لا أزال ألوم نفسي عليها ، وأقطعها أسفاً على أنني لم أفكر مرتين قبل الإقدام عليها . امتلأ رأسي بالثورة والغضب على أن « ماهوش » تذلني وتتجاهل وجودي ، وقلتُ لنفسي ما يقوله الناس ، إنه لا كرامة لنبي في قومه ، وإن عيون البشرية عشواء لا تستطيع أن ترى ما تحت أقدامها ، فهي عاجزة عن اختراق الحجب ، ولذلك لا يتردد الناس في أن يوقعوا الأذى بالعظماء في حياتهم ، لا لشيء إلا لأنهم لا يعرفون أنهم عظماء في أثناء حياتهم ؛ فإذا اتفق

يوما بعد موت العظيم أن تنبهت أهواء الناس بالصدفة المحضة فجعلتهم يفتتنون به بعد موته ، ثارت عاصفة افتتانهم فتسابقوا في الإعجاب بالمسكين ، بعد أن يكون قد قاسى في حياته المر الزر منهم ، ورحل عن الدنيا وهو في أشد حالات الشقاء والخيبة . عند ذلك تقام له المآتم والموالد ؛ وتؤلف في سيرته الكتب المطولة ، وقد تقام له الآثار ، وتبنى على قبره القباب ، وتجعل على مثواه السدنة والحجاب ؛ ويجني المهرة الأذكياء أرباحا عظيمة من افتتان الناس به ، ويقطفون من تغني الناس باسمه ثماراً حلوة كان العظيم المسكين يتمنى لو أتيح له عشر معشارها في مدة حياته .

امتلأ رأسي بهذه الأفكار الخانقة ، وعولت على أن أجرب ما يحدثه أهل « ماهوش » إذا أنا مت وأخليت لهم مكاني الذي يتجاهلونه . وقلت في نفسي : إن هذه أصدق وسيلة لكي أعرف حقيقة مقداري في نظر أهل وطني ، ومنيت نفسي بأن نبأ موتي سوف يهزهم ، وسوف يشعرهم بالوحشة إليّ ، وسوف يحملهم على معرفة مقداري ؛ فإذا أنا صحوت بعد ذلك ، كان رأيهم فيّ غير هذا الرأي الذي جرت أثره المؤلم في كل حياتي . فتمددت وصلبت أعضائي وقلت : « أيها الموت » !

ولم يكن من الهين عليّ أن أظهر الموت وأنا حيّ أتنفس ، ولكني خاطرت معتمداً على أنه ليس من عادة الناس أن يقلبوا الميت ، أو يجسوا أعضاءه ، ويتحسسوا أنفاسه ونبضاته ؛ فما زال الموت هيبة وحرمة تجعلان الناس يكتفون بالنظر من بعيد إلى أعضائه الساكنة وعينيه الزائغتين . وقد حدث ما توقعت ، وساعدني على نجاح حيلتي أن منزلي مظلم لا يستطيع الإنسان أن يتحقق فيه من شيء . ولست أرتاح هنا إلى كتابة كل ما كان مني بتفصيله ، فإن في ذلك شيئاً يؤلمني ويشعرني بالمذلة . ومجمل القول أني غسلت وجهزت ، ووضعت على الفراش في انتظار النعش . وعند ذلك سمعت ما دار حولي من الحديث ، وعرفت كيف استقبلت «ماهوش» نبأ موتي .

لم يبق في « ماهوش » رجل ولا امرأة إلا أسف عليّ ، وحزن لفقدي ، وتحركت أريحية الناس فجمعوا لي — وأنا ميت — من الدراهم والدنانير ما لو جمعوه لي وأنا أسعى بينهم لكفوني مئونة الحياة وعشت بينهم قرير العين لا أفكر في الموت . وسمعت البكاء والعزاء — حتى امرأتي رعة كادت تقع على الأرض من الحزن ، ولطمت وجهها وقالت عني أقوالا حلوة لم أسمع منها حرفاً واحداً في كل ما مضى من أيامي معها ؛ وكنت كلما أقبلت طائفة جديدة للعزاء كتمت أنفاسي حتى لا تحجب عن سمعي حرفاً مما يقول كل فرد منها ، فخرجت من كل ما سمعت على أن أهل « ماهوش » يجمعون على محبتي ، والعطف عليّ ، والإعجاب بما أسوقه لهم من الملح ، وأطلع به عليهم من الفكاهة . وحسبي والله مثل هذا القدر ، فإني لا أطمع أن يدرك أحد منهم شيئاً مما يفيض به صدري من المعاني المزعجة ، وحسبي أن أزعج بها وحدي ، ومتى كان الناس يفهمون من المعاني إلا ما يحسونه هم ؟ ومتى كان الناس يدركون إلا ما يستطيعون أن يسموا فوقه ؟ لهذا كانت الساعات التي قضيتها في انتظار النعش من أحلى ساعات حياتي وأعظمها فائدة في درس طبائع البشر .

وأخيراً جاء صديقي أبو النور ، بعد أن أعد كل جهازي ، واختار موضع قبري ، واشترى أكفاني وحنوطي ، ولم ينس أن يفرش لحدي بالرمل والحناء ، ليكون أرفق بجثماني . ولما دخل عليّ جلس إلى جانبي ، ولم أسمعه يتكلم ، ولم أحس أنه ذرف دمعة واحدة عليّ ، حتى لكأني به لم يحزن لفراقي . ولكني كنت دائماً على ثقة من أن حزنه عليّ أعمق من أن يذرف له دمعاً ، أو ينطق معه بحرف . وقد أحسست يده تجسني على حين فجأة ؛ فإنه انتهز فرصة خلو الغرفة من الناس فوضع يده على جسمي ومرّ بها على أعضائي ، كأنه لم يصدق أني مت حقاً . وكانت يده كلما مرت على جسدي أحسّ برغبة شديدة في أن أقبلها ، ولمت نفسي على أني قد خدعته كما خدعت الناس ، وكدت أنطق هامساً له بالحقيقة ، ولكني

أمسك خوف أن يفتضح الأمر قبل أن يحين أوانه .

ثم حُملت بعد أن تم تجهيزى ، ووضعت فى النعش ، وسار المشيعون من أمامى ومن خلفى ، بعضهم ينشد الأشعار ، وبعضهم يتلو القرآن ، وبعضهم يحدث جاره فى شؤون تجارته ، أو فى سيرة جيرانه ؛ وكان المشهد بهيج عظيم يَشِىْ بما فيه من عدد عديد . وما زلت محمولا فى طرق « ماهوش » وأنا أكاد أعرف كل موضع حللت فيه مما كان يصل إلى سمعى من أصوات الأسف التى يبعثها النساء والصبيان من بيوتهم ؛ فهؤلاء جيعاً أحبائى أهل « ماهوش » الذين لم أجد وسيلة للعيش فيهم إلا بأن أموت .

وأخيراً بلغ المشهد إلى جانب النهر سالكا من طريق الجسر الأعظم ؛ وكان النهر فى الأمس قد فاض وعلا حتى صارت أمواجه ترتطم بالشاطئ ، ويسمع عجيجها عن بعد عظيم . وكانت العادة أن يخوض أهل «ماهوش» فى ماء النهر حتى يبلغوا الجانب الآخر ، حيث توجد جبانة المدينة . ولكن النهر لم يسبق له أن علا وفاض كما فعل بالأمس ، وهذه من عجائب الصدف وتهكم المقادير . فلما بلغ النعش جانب النهر أحسست تردداً فى السير ، كأن الذين يحملونه قد خافوا أن يخوضوا فى النهر ، ولهم العذر فى ذلك ، فإنهم لو فعلوا لغرقوا وغرقتُ معهم ، وانقلب موتى إلى حقيقة واقعة . وكنتُ أعرف فى النهر موضعاً لا يبلغ فيه الماء فوق الركب مهما فاض النهر وعلا ؛ فلما رأيت تردد القوم ، وخشيت منهم الخطأ ، وخفت أن تقع بهم وبى كارثة ؛ تجلدت ، وشددت نفسى من الأربطة ، ورفعتُ رأسى حتى رفعتُ غطاء النعش الحريرى ، فأشرفت على المشيعين ؛ وهم جيعاً فى شغل ينظرون إلى النهر ويفكرون فى أسلم طريقة للسير فيه ؛ وخشيت أن يبدو لهم رأى جديد فى أن يجعلوا النهر قبرى ويقرأوا على الفاتحة ، ثم يعودوا من حيث أتوا ، فبادرت صائحاً فيهم :

— من هنا . سيروا من هنا . فالخاضة عن يساركم !

وما كدت أنتهى من كلامى حتى علت ضجة ، وارتفعت الأصوات فى فزع ، وتفرق المشيعون يلتمسون السبل كأنهم قطيع من شياه طلع عليها ذئب كاسر . ورمى الحمال النعش فى عنف ، حتى أحسست عظامى تتقعقع ؛ وفى لحظة واحدة لم أجد حولى إلا صديقى أبا النور وحفار القبرة وواحداً من القراء لم يستطع أن يجرى لبعض ضعف فيه .

وأخذ أبو النور يفك عنى أكفانى بأنامل مضطربة من الفرح ؛ ولكنه كان مطمئنا كأنه لم يصدق من قبل أنى قد مت حقيقة . وبعد أن سكنت صدمة الخوف الأولى عاد المشيعون متجهين إلىّ . وكانت لهم ضجة مروّعة من ألفاظ التقريع والتأنيب ؛ حتى أزالوا من نفسى كل ما سمعته منهم من قبل من عبارات المحبة والمودة والتقدير .

ولا عجب فى ذلك ؛ فقد رأوا أنى لا أزال حياً ، والمحبة لا تساق إلا للأموات .

وبعد قليل قمت بينهم وأنا مطرق من الخجل ، ولففت حولى بعض أغطية النعش ، وحاولت أن أعتذر لهم عما سببت لهم من المتاعب ، وأخذت أبيّن لهم ما دعانى إلى ركوب ذلك المركب الوعر . وأخيراً طلبت منهم أن يعطونى ما جمعوه من المال من أجلى ، وما أخذوه من الناس باسمى ، حتى لا أضطر إلى أن أموت مرة أخرى ؛ ومن يدرى ، لعل موتى فى المرة الثانية لا يكون إلا موتاً حقيقياً .

فانهالوا علىّ عند ذلك بالشتائم ، ولم أفز منهم بدرهم واحد ، وعدت إلى منزلى حزيناً أقطع نفسى أسفاً على أنى لم أجن من وراء سعيى إلا ألماً جديداً وخيبة طريفة . وكان أبو النور أشد منى ألماً ؛ فكانت الدموع تتساقط على ثوبه متتابعة ، والأنفاس تهز صدره هزاً عنيفاً بعد أن كان هادئاً صامتاً . وقضى معى تلك الليلة كلها حتى طلع الفجر ، ولم يفارقنى لحظة ، ولم تفارقه الدموع ولا الأنفاس الحارة . ذلك الصديق !

(طبق الأصل) (صما)

مشكلة الأجـــور
في الاقتصاد الحديث

استعرضنا في المقال السابق « المشاكل الاقتصادية لما بعد الحرب » بصورة عامة ودون مراعاة وجه التخصيص ، المشاكل التي تنتظر العالم بعد أن ينتهي من الحرب الحالية ، وذكرنا أن تلك المشاكل لن تكون بنت ساعتها ، بل إنها ستكون استمرارا لما فات وإن انتابها من التعديل ما يكاد يخرجها عن مظهرها الأصيل . ونعود اليوم فنضع كلا من تلك المشاكل تحت المجهر على حدة لندرس دقائقها ، ونتبين التيارات المتضاربة التي تتجاذب كلا منها . ولنبدأ بمشكلة الأجور نظراً لأنها تمس النسبة العظمى من الشعوب ، ولما أثير حولها من أحاديث .

تواجه مشكلة الأجور في كل أنحاء العالم عدة تيارات قوية تتجاذبها من مختلف الوجهات ، ولم يظهر إلى الآن لأي منها الغلبة المطلقة ، وإن كان البعض منها بدأ يطغى على غيره نتيجة آراء تعسفية لم تراع فيها المبادئ الاقتصادية السليمة . فأما الفكرة القديمة التي سادت العالم إلى عهد الثورة الفرنسية (واستمرت في مصر بأوضح مظهر إلى عهد محمد علي باشا) فهي نظرية أجر الكفاف ، أي الأجر الذي يفي بحاجة العامل الضرورية كي يعيش لينتج ؛ أي أن تلك النظرية لم تكن تنظر إلى العامل إلا كآلة تعطى ما يلزمها من الوقود كي لا تتعطل عن العمل ؛ ولكن بقيام الثورة الفرنسية وما انطوت عليه من المبادئ الإنسانية عن حرية الفرد وكرامته ، انتشر مبدأ جديد ينادي بحرية العمل ، وحرية التعاقد Laissey Faire. Laissez Passer فأصبح صاحب العمل حراً في أن يستخدم من العمال من يشاء ، كما أصبح العامل حراً في أن يشتغل حيث شاء ، وكيف شاء . وتصور أصحاب هذا المبدأ أنه بتضارب المصالح المختلفة (العمال من جهة وأصحاب العمل ورأس المال من جهة أخرى) ينـال المجتمع أعدل توازن منشود . ولنا نحن أن نتساءل — هل تتساوى الفرص أمام تلك العناصر الثلاثة حتى تتنافس تنافسا عمليا مشروعا لتنتج فيما بينها التوازن المنشود ؟ ولعله مما لا يحتاج إلى شرح أو توضيح أن نقول بأن الفرص تكاد تنحصر لدى أصحاب الأعمال ورؤوس الأموال ، وتكاد تنعدم لدى العمال ؛ فسعة مدارك الأولين وسعة حيلتهم والفائض الذي لديهم و (رأس المال المدخر) تمكنهم من التحكم في العمال دون رحمة أو تقدير ، ولقد فكر العمال للتغلب على تلك الحالة الطارئة أن يؤلفوا فيما بينهم اتحادات أو نقابات بالمعنى المصطلح ترعى مصالحهم وتجعلهم في مركز الند للند أمام أصحاب الأعمال ، ولقد أدت تلك الاتحادات إلى تقوية مركز العمال ، إلا أنها كانت سلاحا ذو حدين ، فهي وإن كانت قد حدت من طغيان فئة أصحاب الأعمال إلا أنها كثيرا ما أدت إلى اختلال التوازن الاقتصادي في الأمم كما سيأتي شرحه . ولعل العذر الذي يتعلل به أصحاب مبدأ حرية التعاقد هو عذر مقبول ، ذلك لأن رأيهم هذا إنما نشأ في ظروف كان تقدير عمل الفرد أي ما ينتجه سهل التحديد ، وبالتالي كان في إمكان العامل أن يعلم هل يغبنه صاحب العمل أم ينصفه ، ثم إنه لو رأى غبنا في تلك المعاملة لأمكنه أن يعمل في جهة أخرى أو أن يعمل مستقلا . ولعلنا قد تبينا أن مبدأ حرية التعاقد إنما يتضمن مبدأ آخر ، ذلك هو أجر النتاج أي الأجر الذي يساوي ما ينتجه الفرد ، فالشخص الذي ينتج خمس وحدات من سلعة معينة في اليوم لا بد وأن يحصل على أجر يساوي تلك الوحدات الخمس ، وإن لم يحصل على الأجر الذي يستحقه في جهة ما انتقل إلى جهة أخرى .

ولكن التعقيد الذي لازم الحياة الإنتاجية بعد الثورة الصناعية جعل من العسير ، إن لم نقل من المستحيل ، تقدير ما ينتجه الفرد تقديرا تاما بل أصبح التقدير مجملا وبغير تحديد . ونتيجة لهذا اعتقدت فئة العمال في مختلف الأنحاء أنها مغبونة دون أن تستطيع إظهار حقيقة هذا الغبن ، وإن

استطاعت تبيان مظهره في ثراء أصحاب الأعمال ، وبجوار كم هذا الشعور بدأت الضغائن تظهر بين العمال وأصحاب الأعمال. وحينما استقر النظام الديموقراطي أصبح للعمال القول الفصل ، وبدأوا ينادون بنظرية جديدة نعتقد نحن أنها أبعد ما تكون عن الاقتصاد السليم ؛ ويعتقد العمال ومن يجارونهم أنها المبدأ الإنساني القويم ، تلك هي نظرية المستوى الأدنى للأجور وبالتالي الحد الأدنى لمستوى المعيشة . وتنادي هذه النظرية بوضع حد أدنى لأجر العامل مهما كان عمله ومهما كانت كمية إنتاجه حتى يستطيع أن يعيش عيشة مريحة كريمة ، ونحن لسنا ننتقد تلك المعيشة المريحة الكريمة ، بل إنا لنرجوها لكل فرد من أفراد البشرية ، ولكننا في مجال التنظيم لا نعتقد بمبدأ المجاراة والتمويه . فلو حدث وضمنا لعامل ما مستوى معينا من المعيشة المريحة الكريمة فماذا يدفعه إلى العمل والاجتهاد؟ يقول البعض إن كرامة الإنسانية تستدعي هذا ، ونقول نحن إن حسن التنظيم يستدعي شيئاً غيره .

ولعله يجدر بنا أن نتحدث قليلا من مشروع بيفردج وما دار حوله من أحاديث . وضع بيفردج مشروعا خاصاً ببريطانيا مدعماً بالأرقام والنسب جاء فيه : « إن من واجب الدولة أن تكفل لرعاياها التحرز من العوز عن طريق مشروع تأمين إجباري يكون عاما في تطبيقه ؛ فيضمن بهذه الوسيلة حد أدنى من الدخل لكل إنسان » ، كما جاء فيه « إن الإعانة حق وليست عرضة لاختبار وسائل الارتزاق »[1] كما كفل هذا المشروع لكل فرد من أفراد الشعب قدراً من المساعدة حين مولده كإعانة الولادة والتغذية لعهد الطفولة المبكرة ، والعناية الطبية ، كما وفر للإنسان المساعدة حين مماته من مصاريف الدفن وخلافه ، كما قرر معاشاً طيباً للشيخوخة . وقد قابلت أغلب الدوائر هذا المشروع بالتهليل والتكبير لسببين : — أولهما — أنه يرضي فئة العمال ، وهي التي يقع عليها عبء الحرب الأول . وثانيهما — لأنه مشروع إنساني يصيب العاطفة ، وإن لم يتفق مع التفكير السليم . فأما بخصوص القسم الأول من المشروع ، وهو توفير مستوى معين لمعيشة الفرد يحصل عليه سواء أعمل أم لم يعمل ، فقد بينا فيما سبق أننا لا نوافق عليه نظراً لأنه مدعاة لإيجاد روح من الخمول والتواكل بين العمال ، مما يؤدي إلى نقص في الإنتاج ، وبالتالي إلى هبوط في مستوى المعيشة العام . وأما بخصوص القسم الثاني ، وهو تقديم قدر معين من المساعدة للإنسان حين مولده ، فإنا لندعو إلى التوسع فيه قدر الإمكان ، بل إنا لندعو إلى أبعد من ذلك ، فنطلب من الدولة أن ترعى أطفال الفقراء من يوم الميلاد إلى أن يبلغوا سن الشباب التي تؤهلهم إلى العمل ، فتقوم الدولة بتوفير الغذاء اللازم والملبس والتعليم ، كما يجب على الدولة أن توفر المعالجة المجانية والنظافة والمساكن الصحية ، وما إلى ذلك من الخدمات العامة للجميع ؛ على أنها إلى جانب هذا يجب أن تشرف على علاقة العمال بأصحاب الأعمال ، وأن تحد من أرباح الآخرين عن طريق الضرائب المختلفة ، وأن تحارب البطالة بإنشاء الأعمال الجديدة . تلك كلمة عابرة لا تتناسب مع الأهمية الكبيرة التي أعطيت لهذا المشروع ، ولكن المجال هنا لا يسمح بالتوسع أكثر من ذلك ، وإن نحن قد أوردناها هنا ، فإنا أوردناها لصلتها بما سبقها . وقد نعود إلى هذا المشروع في مقال تال .

والآن كنتيجة حتمية لاستكمال هذا المقال ، نورد رأي كارل ماركس في مشكلة الأجور .

يعتقد ماركس أن العامل لا ينال أجره الحق الذي يتناسب مع إنتاجيته ، فهو إن أنتج مثلا ما يساوي عشرة قروش ، فإنه ينال خمسة قروش ، بينما يذهب الباقي إلى المنظم دون وجه حق ! ويتجمع هذا الفائض في أيدي المنظمين فيختل نظام الإنتاج والتوزيع بما يبينه المثل التالي : — لو

(١) مأخوذة من محاضرة للأستاذ بيرعان أستاذ العلوم الاقتصادية بجامعة لندن عن مشروع بيفردج .

فرضنا هناك عدة مصانع ، بكل منها ألف عامل ينتج كل منهم (كل عامل) فى اليوم ما قيمته عشرة قروش بينما يتناول أجراً قدره خمسة قروش فى اليوم ، فإنه يتوافر لدى صاحب العمل كل يوم مبلغ خمسون جنيهاً ، وهو مهما كانت قدرته الاستهلاكية فلن يستهلك بأكثر من ثلاثين جنيهاً فى اليوم مثلا ، فيبقى لديه فائض يومى قدره عشرون جنيهاً ، وهو كغيره من المنظمين لن يتركها عاطلة ، بل سيوظفها فى الإنتاج ، بينما أن أجور العمال المنخفضة لا تمكنهم من شراء تلك السلع المتزايدة ، فينتج من هذا ما يسميه البعض إفراطا فى الإنتاج ، وسميناه نحن فى المقال السابق عدم تناسق فى الإنتاج والتوزيع .

إن الظواهر التى توصل إليها ماركس قد يكون فيها الشىء الكثير من الصحة ، ولكن النظم التى توصل إليها للقضاء على ذلك الاختلال لا تتفق مع ما نراه نحن فى هذا السبيل ، بل إن الأمة ذاتها التى كانت مسرحا لتجربته غيرت كثيراً من النظم التى توصل إليها نظراً للنقص الخطير الذى شملته من امتناع الدافع الشخصى (تغلبت الدول الديموقراطية إلى حد ما على ذلك الاختلال الذى رآه ماركس من طريق الضرائب والأعمال الجديدة ، والمثل نظام روزفلت الاقتصادى فى أمريكا) .

ثم إن هناك مشكلة فرعية أخرى قد نشأت نتيجة الأزمات العامة ، وتتصل بمشكلة الأجور اتصالاً وثيقاً ، وهى مشكلة التضخم والانكماش .(1)

فقلما يعنى العمال حتى فى أكثر البلاد تقدما بالأجور الحقيقية (القوة الشرائية للأجر) ، بل إن كل عنايتهم تتوجه إلى الأجور النقدية التى اصطلح عليها فى الماضى تحت ظروف معينة ، ولهذه الظاهرة أثرها الخطير فى الحياة

(١) التضخم هو زيادة النقود فى السوق عن حاجة التداول ولازم التضخم ارتفاع الأسعار وهو يحدث عادة أوقات الحروب ؛ أما الانكماش فهو عكسه ، ويتلوه عادة لإرجاع الحال إلى أصله . والمثل على التضخم الحرب الماضية ، وعلى الانكماش انجلترا قبل الأزمة العالمية سنة ١٩٣١ .

الاقتصادية ودوراتها ، فلو فرضنا حالة هبوط فى الأسعار ، فإن النتيجة الضمنية هى هبوط القيمة التبادلية(1) للسلع ، وبالتالى نستطيع أن نستنتج أن قيمة العوامل التى اشتركت فى إنتاج تلك السلع قد قلت . والأمر الطبيعى الذى لامندوحة عن اتباعه إذا كانت الأمور تسير سيرها الصحيح هو خفض أجور عوامل الإنتاج ، ومنها أجور العمال ، ولكن تدخل النقابات العمالية فى منع هبوط عائد العمل هبوطاً صوريا (2) يؤدى إلى نتيجتين مباشرتين :

أولا – إيجاد بطالة مفتعلة بين الطبقة العاملة والآلات الإنتاجية .

ثانياً – الإخلال بالتوازن الاقتصادى ، واستمرار حالة الكساد مدة أطول مما يجب . ومن ذلك نتبين أن إنقاص الأجور النقدية للعمال أوقات أزمات الكساد ، لا يتضمن فى حد ذاته أى غبن للهيئة العاملة ، طالما أن الهبوط فى الأجور يتناسب مع الهبوط فى الأسعار ، بل إن إنقاص تلك الأجور النقدية ، هو ضرورة تتطلبها حالة التوازن الاقتصادى ، وبغير ذلك لا بد من أن ينال الطبقة العاملة فى مجموعها ضرر ليس على الرأسماليين تبعته ، وإن تقاسموا مع العمال مغبته .

إنه ليبدو للقارئ لأول وهلة أننا لم نصل إلى أى تلك النظم التى تتجاذب مشكلة الأجور قد أظهر صلاحية تبرر قيامه واستقراره ، وأنها لم توف الغرض الذى قام من أجله لحق عليه الاندثار كى يخلى السبيل لما يفضله من النظم ، ولكننا نذكر أن التقرير ليس من شأن الباحث ، وإنما من شأنه أن يستعرض الأمور ذاكرا أوجه الخير فيها من أوجه الشر ، ثم هو يترك بعد ذلك الأمر لمن بيده الفصل .

محمد صديق لبيطه

(١) القيمة التبادلية قيمة الأشياء بالنسبة لبعضها وبالنسبة للمجموع .

(٢) خفض الأجر النقدى قد لا يعنى بالضرورة خفض كمية السلع التى يستطيع الشخص الحصول عليها نظراً لتقلب الأسعار .

الرحل فى الأدب العربى

إن النضال بين الأضداد أمر راهن مستدام لا يدعو إلى الاستعجاب فضلاً عن الاستغراب ، ومنه النضال بين الحقيقة والخيال — أعنى الواقع والتوهم — فى الحكايات والقصص والرحل وتقييدات[1] السياحات ، والأخبار والآثار . وبعد أن ابتدع أبو بكر بن دريد فن الأخبار الخيالية التى عرفت بعده باسم « المقامات »[2] ، وجاء بعده بديع الزمان الهمذانى بمقاماته ، فكانت أولى المقامات من حيث الوسم لا من حيث الرسم ، نضج فن السجع وتشقيق الكلام والتشديق فى الخطب ، نضجاً أخرجه من حيز الإطناب فى البيان ، إلى صناعة لفظية ثقيلة على القلم واللسان والجنان ؛ وحينئذ ظهر أبو محمد الحريرى بمقاماته ، وهى تصلح لأن تكون معجما لغريب الجمل قبل أن تكون تقييداً [1] لخيال الرحل . ولما استفحل الخيال فى هذا الفن من صناعة الكلام والأقلام ، هبت الحقيقة بل الواقع فشغن الخيال البغيض الثقيت ، وأنغض إليه رأسه ، ثم واثبه وساوره بمثل سلاحه — أعنى السجع المصنوع المتكلف ، وإن كان محكَّكا بعض التحكيك — وهنالك نشأ « فن الرحل » فى الآداب العربية ، وهى القصص المسجع الواقعى .

إن إمام هذا الفن الطريف الجديد ، هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن على الخوارزمى الأديب الملقب بالكامل المعروف أيضاً بالزاوطاني نسبة إلى بلدة « زاوطا » من بطائح واسط ؛ كان والده محمد من أهل خوارزم « فقدم العراق وسكن تلك الناحية من البطائح ، وولد له ابنه هذا عبد الله بها ، ثم قرأ الأدب على أبيه وغيره ، وطلب العلم وسمع الحديث النبوى الشريف من أبيه وأبى سعد أحمد ابن على بن الموصل وغيرهما ؛ وروى بواسط فى سنة خمسمائة للهجرة ، وقدم بغداد فى سنة « ٥١٠ » وروى بها شيئاً ، وقرئ عليه بها شئ آخر من شعره ومن تصانيفه ، منها كتاب « الرحل » وهو جمع رحلة أى قصة واقعية ، وصف بهذه الرحل أخبار نفسه وسفراته والأحداث التى أصابته أو أصابت والده ، وعاد من بغداد إلى بلدته زاوطا فتوفى بها ، ولم نقف على تاريخ وفاته ، إلا أن فى شعره ما يدل على أنه عاش أكثر من سبعين سنة . وكأنه على كونه معاصراً للحريرى ومن أضرابه أهل الفضل الشائع ، أراد أن يصدم خياله بواقعه ، ويعارضه فى سجعه وترجيعه . ونحن لم نر أحداً من المعاصرين الذين عنوا بتاريخ الآداب العربية ، تكلم على هذا الفن أو كتب فيه ، قال عماد الدين الأصفهانى فى نعت الكامل أبى القاسم عبد الله : « وهو ذو الفضل الشائع والنطق الرائع ، وكما للحريرى المقامات فله الرحل ؛ بنى كل رحلة منها على حادثة تمّت ، أو نادرة اتفقت له أو لوالده ، وأودعها من غرائب الاستعارات وبديع الألفاظ وأبكار المعانى كل ما رقّ وراق ، وشاق القلوب وفاق ، وله « الفصول البديعة » التى أنشأها مواعظ فصيحة الألفاظ جزلة الكلام ، جزيلة الجدوى . وله رسائل غريبة ، ومصنفات عجيبة ، وسأورد منها لمعاً ؛ فمن منظومه ما أنشدنيه أبو نصر بن حامد الركوى[1] :

أطاع الهوى فاستعبدته المطامع
* ومالت به نحو الحبيب النوازع
وكان تمادى البعد أنساه وجده
فهيّج ذكراه الحمام السواجع

(١) التقييد عند أدباء القرن الخامس هو المعروف اليوم عند الفرنجة بالألبوم Album . قال ابن جبير وهو من أهل القرن السادس ، وأدرك السابع فى رحلته : « ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندى المتقدم الذكر فى هذا التقييد » .

(٢) فى المجلد « ٢٦ » ص ٢١ من مجموعاتنا الأدبية الموسومة بأصول التاريخ والأدب ، مقامة من مقامات ابن دريد .

(١) منسوب إلى « الركة » فى جنوبى العراق .

نوائحُ يبكى شَجْوَها كل سامع
لهنّ وإن لم تجر منها المدامع
كتمتُ الهوى ما اسطعت فازداد كثرة
بقلبيّ حتى لم تسعْه الأضالع
فوا كبدى ما لى أحنّ إلى الصّبا
وهيهات ما عهد الصبا لى راجع
وإنى لأك قد ناهزتُ سبعين حجة
فقلبيّ فى طبع الصبابة يافع
يُغيّر مَرُّ الدهر أجسامَ أهلـه
ويبـــقى على حالاتهن الطبائعُ

قال العماد : « وأهدى إلىّ صدقةُ بن الحجاج مقدم زاوطا كتاب « الرحل » و « الفصول » بخط الكامل الخوارزمى ، فطالعتهما وانتخبت من خطه ما أوردت منـه (١) » .

نبذة من رحلة من كتاب الرحل

« حفزنى الاضطرار ، وأسلمنى الاصطبار ، لأمر يجمع غرضين مُفترضين ، وعرضين مُعترضين ، فى حال يُتمثل الاستحقاق مع سرعة اللحاق ، ويُتصور الإخفاق فى جنبات الاعتياق ، ووافق القدر ، أربعاء لا يدور فى صفر ، المكروه للسفر ، والقمر عند انقضاء دوله ، قد برك بين القلب والشوله ، فقلت : العقرب النحس الأقرب ، وبعده القوس البلد والتعقيد مولّد ، فقسمت وفكرت ، وقدمت وأخرت ، ثم مضيت واستخرت ، فوافقنى صديق وأخ شفيق ، فأنكر طيتى ، وأكبر خطيئتى ، وقال :

مالك لا تلوى على زاجر   ولا تخاف السفر المعطبا ؟
أما سمعتَ القوم ممن فقتَى   بعلمه فى الحكم أو جرّبا ؟
ونهيه عن سفر لاء إن   أمسى يحـل القمرُ العقربا
لا سيما فى أربعـاء أتى   آخر شهر حان أن يذهبا

غير أنى أريد رجلا جالت جوائله ، واستقلت به رواحله ، وتخلت عنه شواغله ، وفارق واديه ، وأخلى ناديه ، ومتى جنحتُ إلى الإقامة ، وقعت فى الندامة ؛ فلما أعيته مصمما ، وتوجهت ميمما ، وأصررت على العزيمة متمما ، أوسعنى وداعا ، وشيعنى دماعا » . إلى أن يقول : « فلم أزل أفرى من الليل إهابه ، وأقطع من النهار سحابه ، حتى تبدلت من ظهر الأورق ، بطن الزورق ، واعتضت عن ميثرة السرج ، مفترش الزج (كذا) ، وعن حسكة الأحناق سكة الجداف فى بطيحة بعيدة (الأطراف) والجباب ، فسيحة الرحاب » . ثم يصف ضرب الحرامية ـ أى قطاع الطريق ـ له : « فإذا أنا بذئاب فاغرة ، وكلاب داغرة ، قد أحدقوا بى دون الرفقة ، واستداروا علىّ استدارة الحلقة ، فقعدت قعود المحصوب ، والهدف المنصوب ، فما أقلعوا عنى إلا وأنا غربال الإهاب ، معصفر الجلباب ، متصاعد الأنفاس ، فاتر الحواس ، من طعنة تفور ، ودم يمور ، وعظم مكسور ، وجلد مقشور .... » .

قال : ومن نثره ما يجرى مجرى الأمثال : « أطوع من شامى ، وأصنع من رومى ، وآكل من خوارزمى ، وأحيا (كذا) من نبطى ، وأحسب من قبطى ، وأجهل من هندى ، وأطبى من صغدى ، وأذكى من عربى ، وأبخل من مغربى ، وأحلم من قرشى ، وأغلم من حبشى ، وألأم من زنجى ، وأفتك من زنجى ، وأقبح من يمنى ، وأفطن من مدنى » .

ووصف أصناف الحجّاج فقال : « أقبلت أفواج الحجاج من الفجاج ، وقدمت وفود الرفاق من الآفاق :

المصرى : إذا حدّث أتحف ، وإذا سأل ألحف ، وإذا أخذ أجحف ، وإن خاطبك أسهاك ، وإن عاملك

(١) أصول التاريخ والأدب ، مج ١٤ ب ص ٣٦ ، و ، مج ٢٠ ص ٢٢٢ ، ولا شك فى أن جماعة من المؤرخين والأدباء ذكروه كالخطيرى فى « زينة الدهر » ومحب الدين بن النجار فى « التاريخ المجدد لمدينة السلام » وابن الدبيثى فى « تاريخ واسط » . وقد ذكره هذا فى ذيل تاريخ بغداد ومنه نقلنا شيئا من أخباره .

بطالة ..!

Chômage

للأديب الفرنسي الكبير اميل زولا

في الصباح ، عند ما يصل العمال إلى المصنع يجدونه بارداً عليه مسحة من الكآبة ، ففي نهاية القاعة الفسيحة تربض الآلات ، صامتة بعجلاتها المتوقفة عن الحركة . هذه العجلات التي كانت تبث الحياة في أرجاء المصنع كما هي العادة .

... ويهبط الرئيس من مكتبه الصغير ثم يقول لهم :

« ليس ثمة عمل اليوم يا أبنائي ! فإن الطلبات لم ترد بعد ، بينما يصلني من جميع الجهات نقوض(١) لطلبات سلف إرسالها .

وهكذا سأقبع في المصنع أنوء بالبضائع فوق كتفي ، وليس ثمة بد من إيقاف العمل » .

ثم يمد لهم يده ، فيصافحونه في صمت ، ويلبثون هنالك

(١) Contre-ordres

بضع دقائق ، يتملون آلاتهم التي لا تجديهم شيئاً ..

إنها عشرون أو ثلاثون أسرة لن تتغذى طوال الأسبوع المقبل !

... وتتألق العبرات في عيون بعض النسوة اللاتي كن يعملن في المصنع ، ولكن الرجال يريدون أن يظهروا أكثر حزماً ، فيقولون بأنه ما من أحد يموت جوعاً في باريس !

... ثم يخرجون ، الواحد تلو الآخر ، أزوارهم مختنقة ، والبرودة تتمشى في قلوبهم .

● ● ●

ويصبح العامل تلقي فوق الطيوار ، يذرع الأرصفة خلال ثمانية أيام دون أن يستطيع الحصول على العمل ، ثم يعود في بطء صفر اليدين ، وينهمر المطر في تلك الليلة ، فيسير تحت وطأة السيل دون وعي ، لا يستمع إلا لصوت الجوع ، إذ بينما كانت امرأته وبنتاه تبكيان في الصباح ، كان يمدهما بالخبز المساء .

... وتخرج زوج العامل إلى عتبة الباب ، بادية التحول ، مرتدية ثوباً خفيفاً ترتعد من هواء الطريق البارد .

... لم يعد ثمة شيء لديها بالمنزل ، فقد حملت كل ما تملك إلى مكتب الرهائن(١) ، وركبتها الديون ، فلم تعد تستطيع ابتياع شيء على الحساب ، فهي مدينة للخباز والبدال ، ولا تجرؤ حتى على مجرد المرور بالحوانيت !

أما الزوج .. فلم يعد بعد !

... وفي بعض الأحايين يتملكها اليأس ، فتندفع بالرغم من السيل حتى تشارف نهاية الطريق ، فإذا ما ظهر الزوج أخيراً ، تندفع نحوه تتملاه في قلق ، ثم تتمتم قائلة :

« ... حسناً ؟ » .

... أما هو فلا يحير جواباً ، ثم يخفض رأسه .

حينئذ ، تتقدمه في الصعود شاحبة كئيبة !

(ترجمة) **عبد العزيز الكرداني**

(١) Mont-de-Piété

دهائك . لا يزيدك في الدرة على القرة ، ولا يبذل لك في الحسبة أكثر من الحبة .

والعرفي : يملأ وعاءه ، ويخلي معاءه ، ويحفظ ذهبه ، ويطيل سغبه .

وتروقك من الشامي قامته ، وتروعك هامته ، وتعجبك عمامته ، وإذا مسته حبة قامت قيامته ، لا يستنكف ذو العقل أن يماحك في شرى البقل ، ولا يأنف الشريف أن يسترد الطاقة على الباقة .

قلت : ورحله وإن كانت مسجعة ، فيها كثير من الفوائد الأدبية والاعتبارات الاجتماعية ، ألا ترى أن وصفه للحجاج نادر المثال في الآداب العربية ، على كونه قول إنسان واحد فلا يكون قولاً فاصلاً ، ولا حكماً قاطعاً ؟!

(بغداد) **مصطفى جواد**

صورة امرأة

قال صديق: لقيتها منذ شهور في الإسكندرية؛ وإذا قلتُ لقيتها فلست أعني الفتاة وإنما أعني الصورة، إذ الواقع أنني لم ألق الفتاة التي تشرف عليك من هذا الإطار قط.

ونظرتُ إلى الصورة المعلقة على حائط غرفته فرأيت فتاة جميلة الوجه لم تبلغ العشرين بعد، ورأيت في عينيها ابتسامة حائرة لا تكاد تنفرج بها شفتاها، ورأيت استقامة أنف الفتاة وعنقها، وتموج خصل الشعر فوق رأسها، فأدركت أن له العذر كل العذر في الافتتان بها.

قال صديق: وكان التقائي بها في أوائل هذا الصيف وقد حللت في الإسكندرية بمنزل علمتُ من الوكيل الذي أجّره إليّ أن صاحبته تقيم في القاهرة.

وكان المنزل يُشرف على البحر، وهو من طابق واحد تحيط به حديقة، تعانقه أشجارها، وتبدو مياه البحر خلال شجره ونوافذه رقيقة الموج، صافية الزرقة، ناصعة الزبد كأنما هو ماس أذابت به أشعة الشمس فلم يلبث إلا برهة غاص بعدها في اليم، وكان لضربات الموج على الشاطئ موسيقى لا تنقطع عن أذن ساكن البيت.

وأمام السرير في غرفتي قد عُلقت هذه الصورة التي وقعت من نفسي منذ أبصرتها، وكان أشد ما فتنني فيها عيونها الساجية الباسمة.

وعلى مقربة من هذه الصورة التي تراها هنا عُلقت صورة أخرى لعجوز شمطاء، مغضنة الوجه، صغيرة العينين، إلا أنها حسنة الشيب تنم ملامحها عن وداعة وطيبة.

ولاحظت شبها قويا بين الصورتين أيقنتُ معه أن هناك قرابة بين الفتاة والعجوز، فقلتُ لنفسي لعل الفتاة ابنة صاحبة البيت أو أن بينهما قرابة قوية.

ولا أدري ما الذي جعلني أقرر أن العجوز هي صاحبة البيت، لكني شعرتُ في نفسي شعورا قويا بذلك؛ فلما حضر الوكيل يوما سألته عن ذلك فأقرني على رأيي.

وما كنت أول الأمر لأعير الصورة كثيرا من الاهتمام، وقد استأثرت بي مباهج صيف الإسكندرية وملاذه؛ لأني كنت أستيقظ كل صباح فأجد أمامي عين الحسناء الضاحكة وقد أشرفت عليّ من الحائط المقابل حيث نمتُ في فراشي، ويقترن ذلك دائما بالشمس المشرقة تداعب غرفتي خلال النافذة، والأمواج قريبة موسيقاها هادرة لينة، وطيب الزهر يبلغ أنفي من شجرة الياسمين التي تسلقت النافذة، وذلك كله يغمرني بسعادة لست بنقصها إلا أن تشاركني إياها صاحبة العين الضاحكة.

ولم يرتض ذوقي قرب صورة الحسناء من صورة العجوز، فأنزلت الثانية وأخفيتها في دولاب حتى تنتهي مدة إيجاري، ثم بقيتُ كل صباح أمتع عينيّ بالنظر إلى فاتنتي، وأرسل لها أحيانا قبلة أحييها بها تحية الصباح وأنا أخجل من نفسي لما أبدي من خفة وبَلَه؛ فإذا ما نهضت أمشي في الغرفة لم أزل أحس عينيها تتابعني ناظرة إليّ في رضا ووداعة ومحبة.

فكل يوم يمضي يزيدني اقتناعا بأنها ليست مجرد صورة في إطار، بل امرأة كسائر النساء، تشاركني المنزل، إلا أنها أكثر من سائر النساء فتنة وبهاء، وأقل منهن بذلا وسخاء.

وأنا قد أيقنت أن هذه الابتسامة الحائرة في العين التي لا تكاد تنفرج بها شفتاها، قد توجهت بها صاحبتها إلى طارفةً عامدة، وأنها ليست رسما على ورق، وأنها لذلك تختفي إذا ما غبتُ عن الغرفة أو نمت وطوانا الظلام!

فلم تمض الأيام إلا والصورة وصاحبتها قد ملكتا عليّ عقلي، فما زلت أذكر لنفسي أن هذه المخلوقة الفاتنة قد عاشت قبلي في هذا المنزل، وسعدت مثلي بهذه الأصبحة الوضاءة الساحرة، فأطربتها موسيقى الموج، وأسكرها

عبير الزهر والبحر ؛ وأنها لا ريب قد وقفت هنا أمام صورتها فانتشت بحسنها ، وامتلأت نفسها زهواً واختيالا ، وقد أطلت من هذه النافذة ، وجلست على هذا المقعد ، وداعبت بأناملها مفاتيح هذا البيانو ، وسمت خلال هذا الباب بأثوابها الحريرية الفضفاضة ، وملأت هذا الهواء بفاغم عطرها وطيب شذاها .

ولم يمض على أكثر من الشهر في المصيف حتى غدوت عاشقا لهذه المرأة ، وقامت بنفسي رغبة — جنونية إن شئت — فذهبت إلى وكيل مالكة المنزل فأنبأني بعنوانها في القاهرة ، وعجز لحداثة عهده بوكالتها من إنبائي بعلاقة محبوبتي بالمالكة العجوز .

وقد كنت لأسافر من فوري إلى القاهرة ، لولا أن خشيت مغبة العجلة ، وخانتني شجاعتي ، فأرسلت إليها خطابا ألطف وأرفق ، وأذكر شدة الشبه بين صورتها وصورة الفتاة ، وأحاول في مكر رقيق أن أعرف إن كانت الفتاة ابنتها أو أن بينهما قرابة شديدة ، ولمحت في خطابي إلى يسر حالي ، ومتانة مركزي الحكومي ، وحسن خلقي ، وطهارة مقصدي ، ومقتي الشديد لشباب اليوم ممن يتخذون من العلاقة الزوجية المقدسة وسيلة لإرضاء مآربهم الساقطة .

ولم يطل بي الزمن حتى أتاني ردها ، فقرأت فيه كلاماً غامضاً ، ولو أنه لا يبعث على يأس ، فقد نصحتني بالرفق والتروي ، ودعتني لزيارتها إذا انقضى الصيف وعدت إلى القاهرة .

وتملكني حب صاحبة الصورة ، وسد على منافذ تفكيري ، فكان صباحا انعقد فيه عزمي ، فأخذت أول قطار ورجعت إلى القاهرة .

وسرعان ما ألفيتني في غرفة الاستقبال من منزلها وقد وقفت واجف القلب ، مشرئب العنق إلى الباب ، أتطلع لعلي أرى فاتنتي تسير بين غرف المنزل ، ووددت لو أنها أشرفت على بلحمها ودمها تحييني نيابة عن أمها .

ومر الزمن بطيئا فإذا بي أرى مخلوقة صغيرة ، ثوبها أبيض ناصع ، ووجهها مغضن ، وشعرها كامل الشيب ، إلا أنها رقيقة الملامح ، جذابة الابتسام ، تلمح في عينيها نظرة ماكرة ؛ وهي تدب نحوي متباطئة هاشة .

وتصافحنا وتعارفنا ، وهي ترمقني ضاحكة ، والنظرة الماكرة تلمع في عينيها كأنما تسرها ما يبدو على من دلائل القلق . قلت لها بعد المقدمة والتردد :

— سيدتي ! هل تسكن هي هذه الدار معك ؟ قالت :

— نعم هي تسكن هذه الدار . قلت :

— أرجوك أن تدعيها ، فأنا رجل شريف ، وفي رغبة شديدة إلى سماع كلها . قالت :

— هي الآن غير موجودة .

فأسقط في يدي ، وأثقلني إحساس اليأس بعد الأمل ، واستشعرت السخط على العجوز الضاحكة ، ثم تماسكت وسألت :

— ومتى تكون أوبتها ؟ قالت متخابثة :

— لعله اليوم ، ولعله الغد ، ومن يدري ؟ ثم أردفت ضاحكة ولعلها لا تعود أبداً !

فصحت بها : ماذا تعنين ؟ قالت ضاحكة :

— ما أعجلك أيها الشاب !

وقامت تدب في الغرفة لتحضر لي شيئا من الحلوى ، فذكرت شيئا جزعت له نفسي . فهتفت :

— صارحيني بالحقيقة أهي متزوجة ؟

فردت بخبث زاد في كرهي لها :

— كلا ! ما هي بمتزوجة .

وحمدت الله علنا ثم توسلت لها ، وفي نفسي ما بها .

— أتظنينها تقبلني زوجا ؟ قالت هازلة ماجنة :

— من يدريني ؟ لو كنت صاحبة الرأي لما ترددت في قبولك . قلت :

— أرجوك أن تخبريني متى تعود ! حتى أرجع في وقت مناسب .

حول مذكرات دجاجة

أرجو أن يتسع صدر « الثقافة » القراء لهذه الكلمة التي أقصد منها النفع العام لا المصلحة الشخصية .

والواقع أني أشعر بخجل شديد حين أكتب هذه الكلمة ، إذ كنت أود أن أترك للقراء أن يعبّروا عن آرائهم بصراحة بدلاً من أن أقطع عليهم الطريق .

وأول ما أبدأ به شكر جمهرة القراء الذين تفضلوا بالكتابة في المجلات والجرائد وفي رسائل خاصة معبرين عن مختلف آرائهم في مذكرات دجاجة . وقد جنحوا جميعاً إلى الرفق بهذه المخلوقة الصغيرة والحدب عليها والثناء على خلقها . وعلى رأس أولئك القراء أستاذي الجليل الدكتور طه حسين بك الذي تفضّل وقال عنها إنها عاقلة بليغة متفلسفة ، فحمل سائر القراء على أن يبالغوا في حسن الظنّ بها والعطف عليها ؛ فهو ذو الفضل الأول في توجيه القراء هذه الوجهة الكريمة .

وأود ثانياً أن أشير إلى أمر علق ببعض الأذهان — لا سيما في فلسطين — وهو أن الدجاجة تناولت في حديثها قضية سياسية محلية معلومة . ولا شك في أن لكل قارئ الحرية التامة في فهم المذكرات على الوجه الذي يريده . ولكن مما لا يصحّ أن يغيب أن يبنى فهم أغراض الكاتب — أو الكاتبة — ويذهب في تأويلها مذهب التعنت . وهذا ما يحدو بي إلى الإعلان بصراحة تامة أن تلك القضية السياسية المحلية لم تخطر بالبال قط حين دُوِّنت تلك المذكرات ؛ ولو خطرت بالبال لاختلف سياق الحديث بالضرورة .

ولا أدري أهو ذنبي أم ذنب الدجاجة أم ذنب ذلك الفريق من القراء . أما أنا فإني أؤكد أني كنت مترجماً أميناً لهذه الدجاجة التي عاشت في بيتي . وأما هي فلعلها تعود وتتمّ حديثها ، فيتضح بعضُ ما أبهم . وأما هم فما عليهم بعد هذا التصريح البين إلا أن يحسنوا الظنّ بهذه المخلوقة الوديعة ويحلّقوا معها ، بعضَ الوقت ، في عالم مثاليّ ، بريء من الضغائن والخصومات .

وأخيراً فإني آسف لظهور بعض الأخطاء « المطبعية » في الكتاب . وعلم القراء أوسع من أن يتبرموا بها . ولعلّ أظهر هذه الأخطاء انحدار سطر كامل من أعلى ص ٤٤ إلى أسفلها ؛ وزيادة لفظة (لا) قبل سيلو في السطر الثالث عشر في ص ١٥٦ ؛ وحذف نون التوكيد من كلمة لتزدادنّ في السطر السادس عشر في الصفحة نفسها . أما الحركات والنقاط التي وضعت في غير مواضعها ، فأمرها يسير ، وجلّ من لا يسهو . والله تعالى غفور رحيم .

(القدس) اسحق موسى الحسيني

فردت قائلة :

عد متى شئت ، أهلاً وسهلاً . واستغرقني جوابها فمضت وقتٌ كارهاً أن تلقاني بالضحك والسخرية ، وانصرفت عنها بعد أن أعطيتها عنواني وأنا كاره لما يأتي منها ، مصمم أن أراقب باب البيت ، على أرى فاتنتي لتبت في الأمر بيننا .

ولم يمض يومان حتى أتاني خطاب هذا نصه :

« قد فكرت في الأمر بعد زيارتك فخطر لي أولا أن أدعك في جهلك ، وألا أوقظك من حلمك الجميل ، ثم بدا لي بعد ذلك أن هذا النوع من القدر مشين ، فرأيت أن أكتب لك لأقول إن التي يخفق قلبك بحبها هي امرأة في السبعين ، إذ الصورة التي رأيتها في بيت الإسكندرية هي صورتي وأنا شابة .

وإن شئت فسوف أرسل في طلبها وأهديها إليك لتكون تذكاراً لحماقة صباك » .

قال صديقي :

ولأمر ما انتهى بهذا الخطاب حبي للصورة ، وحل محله لبضعة أيام شعور من الحزن العميق ، لا أدرى كيف تفسيره .

محمد عفيفي

عصابة البيت الأحمر

(بقية المنشور على صفحة ٨)

فهذا ما دار برؤوس تلك الفئة من الرجال ، وما كان لتدور فيها نظرية سخيفة كهذه لولا جهلهم بعلم ما هم فيه ، ولولا أنهم فى هذا الأمر يادئون ، وأنهم فى ظلام يتحسسون ، وأنهم بأغلال من ماضيهم غير مغلولين .

عندئذ عادت تظهر تلك القرادات الأولى التى احتجزها « بركر » بعد فشل التجارب الأولى ، بعد أن ثبت أنها لا تعطى الحمى للخنازير ، واحتجزها لغير غاية سوى أنه أنه لا يحب تضييع شىء . فقام « اسبنسر » ، مع آخر يدعى « جتنجر » Gettinger ، إلى الثلاجة ليأتى بشىء من هذا القراد وهو فى أحقاقه مرقوما مُعنونا حيث كان وضعه « بركر » . ومن حُقٍّ من هذه الأحقاق أخرج كتلة من هذا القراد الذى لا ضرر فيه ، وفرّش هذه الكتلة على بطون خنازير غينية ، وحبسها على هذه البطون بشبكة من نحاس أبقاها فى موضعها بشريط لزج لاصق ربطه حول هذه البطون . ومضت ثلاثة أيام شرب فيه هذا القُراد الضامر من دم هذه الخنازير حتى ارتوى وتبشّع ، وصار فى حجم حبّات البن قبل طحنها .

وأخذ « اسبنسر » ، وصاحبه « جتنجر » ، يصلان من فوق هذه الخنازير التى صيّراها مقاهى للقراد يشرب فيها الدم انتفاشا . وعملا ويداهما عاريتان ، ولم لا . . . ألم يثبت لهما مما فشل من تجارب أن هذا القراد لا خطر فيه . وبأيديهما العاريتين بدآ يلتقطان القراد من جلود هذه القوارض ، من جلود هذه الخنازير ، فتصيبت ، فيسخران لصياتها ، لأن الأمر من السلامة والأمن بحيث يُستخف معه الصيات . وبأيديهما العاريتين أخذا يُسقطان هذا القراد ، وهو بالدم ملىء ، فى هاون ، ليسحقاه فيه بقليل من ماء مالح . ويُمسك « جتنجر » ، وهو ذو قوة عظيم ، يمسك بالخنازير الغينية على المنضدة واحدا واحدا لمنعها من الحركة والتلوّى ، بينما يقوم « اسبنسر » عليها بمحقنة يرسل فيها من ذاك الحساء الذى صنعه من دم ذلك القراد .

وقد يقسيان لصيات هذه الخنازير عند ما يجرى الحقن فيها ، فكيف تصيت والعاقبة أمن وسلام .

ولكن لا تمضى ثلاثة أيام حتى يصبح الأمن خوفا ، والسلام حربا ، وتلك الجلود الناعمة الملساء لتلك الحيوانات البائسة تخشُن ، وأجسامها تتأجج نارا ، وأحجامها تصغر نحولا فكأنما شحمها يذوب من فوق نار . ولا تمضى بضعة من أيام أخر حتى تموت جميعها ، وتموت موتة سريعة لم يُسمع بمثلها أبداً .

وبهذه التجربة قلبوا نظريتهم تلك السخيفة البعيدة ، إلى حقيقة ثابتة جديدة : أنك إذا أرضعت هذا القراد الضامر الضعيف اللطيف رضعة كبيرة من دم خنزير غينى صلب ، فإن هذه الرضعة تُحيله فجأة إلى قراد غير ضعيف ولا لطيف ، وإنما إلى قراد يستعر فيه الشر استعاراً

(يتبع)　　　**أحمد زكى**

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥ فى مصر والسودان
	٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١٥ مليما

الكتب الجديدة

المذاهب السياسية المعاصرة

كتاب من سلسلة «اقرأ» التي تصدرها مكتبة المعارف بالقاهرة، يقع في حوالي مائة وخمسين صفحة من القطع الصغير، ومن تأليف الأستاذ على أدهم الموظف بوزارة المعارف.

والكتاب على صغر حجمه يدل على أطلاع واسع ودراسة عميقة، وتشمل أبحاثه مقدمة في أسباب اهتمام الناس بالسياسة وعنايتهم بها في هذه الأيام، وفي اختلاف آرائهم في المسائل السياسية الحديثة، وتفرع المذاهب السياسية أو «تشققها» كما يسميها المؤلف وتعقدها والأزمة العالمية الراهنة.

وتلى المقدمة أبحاث في الفرد والدولة، وقيمة الفرد في ظل الدمقراطية وفي ظل غيرها من نظم الحكم؛ ثم بحث في طلائع الدكتاتورية بدأه بالأسباب التي أدت بالأمم المتحضرة إلى الحالة التي هي عليها الآن، والتي ارتضت معها أن تضع جهودها بين يدى فرد من الأفراد يتصرف فيها كيف شاء؛ وانتقل من هذه الأسباب إلى التيارات الفكرية التي مهدت السبيل لظهور الدكتاتوريات الحديثة في أوربا، فذكر أساتذة موسوليني الطليان أمثال: برجسن وسوريل وباريتو، وأساتذة هتلر الألمان مثل هجل ونتشه.

ووصف الكتاب بعد ذلك الدكتاتوريات الحديثة التي قامت في أوقات متعددة في أوربا، والتي سقط بعضها ولم يعمر طويلا واشتد ساعد بعضها وتوطدت دعائمه. وأعقبه فصل في الأسس النفسية للحكم الدكتاتوري وآخر في فلسفة الفاشية والفلسفة الماركسية.

وتشمل هذه الأبواب السابقة أكثر من نصف الكتاب، أما النصف الآخر فقد خصه الأستاذ بالدمقراطية لأنه كما يقول دمقراطي الرأي والعقيدة. وأكبر الظن أنه على حق في هذا، فالدمقراطية أوسع المذاهب السياسية انتشارا وأثبتها دعامة، وقد تكلم في هذا الفصل عن الدمقراطية والمساواة، والدمقراطية والحرية، والدمقراطية والفردية، والدمقراطية والقومية والأممية؛ ثم بدأ يدافع عن الدمقراطية ويرد على ناقديها، ويصف الأزمة التي تعانيها في هذه الأيام.

واختتم الكتاب ببحث موجز في الدمقراطية واتجاه الحضارة، وآخر أوفى منه في الاتجاهات السياسية الجديدة.

هذه خلاصة الأبحاث التي يحتويها الكتاب، ونكتفي بذكر عناوين الكثير منها لأن المقام لا يتسع لإيراد ما جاء بها من الآراء.

ولا ينتظر من الكتاب بطبيعة الحال أن يبحث في هذا الكتاب الصغير كل ما يمكن أن يقال في هذه الموضوعات المتعددة، ولعله يقصد أن يجعل كتابه هذا مقدمة لمن يريد أن يتوسع في دراسة المذاهب السياسية؛ فإذا كان ذلك فقد كان من واجبه أن يدل القراء على المصادر التي استقى منها معلوماته.

على أنه وقد أورد في الكتاب ما أورد، وذكر بعض عيوب الدمقراطية ورد على أقوال ناقديها، كان ينتظر منه أن يذكر أهم هذه العيوب كلها وهو طريقة التصويت ونظام الأحزاب؛ ذلك أن طريقة التصويت الحالية المرتبطة أشد الارتباط بالنظام الحزبي الذي يحشد الأعضاء ويسيطر على ضمائرهم حين يعطون أصواتهم في المسائل الهامة من أكثر مواضع النقد في النظم الدمقراطية، وقد أغفل الأستاذ أدهم هذا ولم يرد عليه، وهو كما قلنا من أظهر عيوب الدمقراطية وأكثرها ظهوراً أمام الشخص العادي. وشبيه بهذا ذكره بعض التهم التي توجه إلى الدمقراطية ثم إغفاله الرد عليها، أو الرد عليها جملة بعبارات عامة لا تزيل الشكوك. وفي وسع القارئ أن يتبين هذا إذا قرأ هذه الانتقادات والرد عليها في ص ١٣٧، وما بعدها.

وقبل أن ننتقل إلى الكلام مع أسلوب الكتاب، نقول إن الكتاب بطبيعة الحال مكتوب للقارئ العادي لا للقارئ المتخصص الذي درس المذاهب السياسية وعرف أسماء من كتبوا فيها. وإذا كان هذا حقا فإنا نأخذ

على الأستاذ كثيرة ما ذكره في كتابه من أسماء الكتاب الذين لا يعرف القارئ العادي بل القارئ نصف المتخصص شيئاً عنهم. فإذا جاز أن يعرف القارئ العادي شيئاً عن نتشة وهيجل وسوريل، فماذا يعرف عن أودنجه ولحت وبوزانكييه وغيرهم من الأسماء الكثيرة الواردة في الكتاب؟ لقد كان الواجب على الأستاذ وقد أورد هذه الأسماء، أن يذكر كلمة عن أصحابها في هامش الكتاب، ولست أظن أنها كانت تزيد في حجمه أكثر من صحيفة أو اثنتين.

أما من حيث الأسلوب ففي الكتاب أجزاء واضحة كل الوضوح، سلسة كل السلاسة، ومن أمثلة هذه الأجزاء كلامه على المركسية في ص ٨٥، وكلامه على الديمقراطية في ص ٩٧ وما بعدها، ترى في هذه الأجزاء المعاني واضحة، والأفكار متسلسلة يتبع بعضها بعضاً في نظام منطقي متين، وأسلوب عربي مستقيم.

لكن في الكتاب أجزاء أخرى كثيرة معقدة كل التعقيد يصعب استخلاص المعنى المراد منها، لما فيها من عبارات لا معنى لها، كقوله إن هيجل يعتبر الدولة مادة أخلاقية شاعرة بنفسها، وقوله في ص ٣٣ إن مما يثير العجب موقف بعض الرجال الذين «يعتزون إلى الفكر من الديمقراطية»، وقوله في ص ١٤٦ «واستبدال الحرية بالمساواة، والحكومة القائمة على موافقة الشعب والحث والإقناع والمناقشة الحرة المعقولة بالحكومة المستبدة تمن قال في حين أنه ليس هناك ضمان بأننا سنتسلم البضاعة».

وقد يكون منشأ هذا الغموض ما في الأسلوب نفسه من تعقيد: انظر إلى قول المؤلف في ص ١٩، تر هذا التعقيد الشديد الذي لا يكاد الإنسان يتبين منه المعنى المراد: «ومع تسليمنا بأن الفرد في المجتمع يتمكن من إنماء طبيعته وإظهار قدرته، ويظفر بحريته، لأن الرجل الشريد في جزيرة نائية إن كان عنده حريته فإنما هي حرية مجردة سلبية، لأنه — وإن كان في وسعه أن يعمل كل شيء — ولكنه في الحقيقة لا يستطيع أن يعمل شيئاً، أقول إن تسليمنا بذلك لا يقتضي كون الحكومة قادرة على كل شيء، ولا ينفي أن الدولة موجودة لأجل الفرد».

يضاف إلى هذا أن الترقيم في الكتاب كله مضطرب كل الاضطراب، فقد استعمل المؤلف الشولة (،) بين أجزاء الجملة الواحدة في بعض الأحيان، واستعملها بين الجمل المستقلة أحياناً أخرى، وفي كثير من الأحيان ترك الجمل المستقلة متدخلة بعضها في بعض، تدخلا يتعذر معه تحديد أوائلها وأواخرها. ولا حاجة بنا إلى ضرب الأمثلة، لأن في وسع القارئ أن يجد ذلك في أي جزء من أجزاء الكتاب.

ويلوح أن المؤلف لم يراجع أصول الكتاب قبل أن يرسله إلى المطبعة، وإلا لاستطاع أن يصحح كثيراً من الهنات التي به، والتي لا يكاد يخلو منها فصل من فصوله. ونذكر منها على سبيل التمثيل قوله في ص ٣٩: «وأحدث التغييرات المعروفة مثل استبدال الطربوش بالقبعة» وقوله: «إن أساس المجتمع قائم على إنتاج الوسائل»، يريد: إن الأساس الذي يقوم عليه المجتمع؛ وقوله «وعلاقة الاستغلال ولو أنها لم تتغير في الجوهر ولكنها مع ذلك قد أخذت صوراً متعددة»، وقوله: «وأما انتصار طبقة الفقراء في العصر الحديث فإنها ستؤدي إلى خلاص الإنسانية وتقضي على الطبقات»، وقوله: «ويشك الشيوعية في نجاح الديمقراطية لأنها في عهد الرأسمالية لا يمكن إلا تكون خيالا لا حقيقة له»، وقوله: «وليست تعنينا هنا التفصيلات، وإنما الفرق الأساسي بين النظرية الديمقراطية والنظرية الأرستقراطية الخ».

وفي الكتاب بعد ذلك أغلاط مطبعية قليلة كان في وسع المؤلف والطابع بشيء من الدقة أن يصححاها، وبخاصة إذا كان المؤلف الأستاذ أدهم وكان الطابع مطبعة المعارف.

وبعد، فهذه كلمة صادرة عن رغبة صادقة في الإصلاح، وإن خرجت عن المألوف في الكتابة عن المؤلفات، نرجو ألا تحمل على غير المقصود منها، وأن يتسع لها صدر المؤلف والطابع.

م. ع

الرّاديو «المِبَثّ»

رأسٌ أبانَ براعةَ الإنسانِ
في صَنْعَةِ الأسلاكِ والحيطانِ
ولَقَدْ عَلَتْ أُذُنُ الحديدِ بِهِ على
آذانِنا في السِّرِّ والإعلانِ
فَلَهُ مُعِيدٌ ما تَلَقَّى أُذْنُهُ
مِنْ دونِ إطنابٍ ولا نُقصانِ
يَتَسَقَّطُ الوَحْيَ البعيدَ مَبثُّهُ
فتخالُهُ كَلِماً مِنَ الجيرانِ
ما للزَّمانِ والمكانِ بِعُرْفِهِ
قَدْرٌ ولا لِلَوازمِ الإمكانِ
يأتيكَ بالأنباءِ أسرَعَ مُنبِئٍ
في لحظِ طرفٍ لا ببضعِ ثوانِ
في نقلِهِ الإيحاءَ غيرُ مُقَصِّرٍ
أبداً ولا كَسِلٌ ولا مُتَوانِ
إنْ يأذنِ الكذبَ الصُّراحَ يَجِئْ بِهِ
والصدقَ ينقلُهُ بلا استحسانِ
لم تعرفِ الدُّنيا مبثّاً مِثْلَهُ
يحكي الصَّدوقَ وواضعَ البهتانِ
لولا بلوغُ العِلْمِ أقصى غايةٍ
قَدَّرْتَهُ بعضَ صِناعةِ الشيطانِ
ولطالمـــا خَدَمَ العلومَ بِبَثِّهِ
فتبلّغتْ عِلماً ليسَ في الحُسبانِ
وشَفَى القلوبَ بما تَوَدُّ سَماعَهُ
من لحنِ موسيقى وصوتِ أغانِ
للهِ ما بلغَ العقولُ مِنَ العُلا
وَحيُ الصناعةِ من هُدى الرحمانِ

(بغداد) **مصطفى جواد**

يا ليـــل

سهران تحصي خفقات القلوب
والصمتُ في طيك ساجٍ رهيب
ترقبها وأنت مستغرق كأنما أنت عليها رقيب
وفيك يا ليل سجلٌ طوى أسرار كونٍ متراحمٍ رحيب
تضم هذا الكون في طيه يجتمع النائي بها والقريب
ما فات أذنيك صدى خافت
أو حجبت عنك خفايا الغيوب
فتنة المحروم سجلتها ونشوة المشتاق يلقى الحبيب
ودمعة المكروب في سُهده وقد قضى الليل بقلب كئيب
وبسمة الهانئ في نومه يحلم بالعيش الهنيء الرتيب
وصرخة الطفل إلى أمه وأمُّهُ لما صحت تستجيب
وذلك الشيخ وفي عظمه يُسمعُ الموت إليه دبيب
وهذه الحسناء مشغولة يملأ جنبيها شواظ اللهيب

• • •

يا ليل تحوي كل سر عجيب تظل تطويه إلى أن يغيب
فأين تمضي يا ليل ميقاتَهُ وحان في حكمك من المغيب
تمضي به كأنه لم يكن يخطر هذا الفراغ الجديب
كأنما لم تحتويه ساعةً ولم تكن تقسو له أو تطيب
في أي وادٍ في الدجى مظلمٍ تذهب يا ليل بتلك القلوب؟

• • •

وأمس إذ كنتَ وديع السُّرى
هل انطوى يا ليل أمس القريب؟
وهذه الليلة إذ تنثني في نشوة كالسّهام الطروب
هل ينتهي حسنك هذا غدا؟
تطويه في هذا السجل العجيب؟
وهكذا تذهب أعمارنا وكل حسن وجمال حبيب؟
في أي وادٍ في الدجى مظلمٍ تذهب يا ليل بتلك القلوب!
يا ليل! ما أقنا مستفسراً وأنت تمضي ساهما لا تجيب

محمد قطب

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٤٢ / ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٥١ — الثلاثاء ٢٠ من شوال سنة ١٣٦٢ — ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

آراء في تنظيم السلم

في أواخر سنة ١٩٤١ ، حينما كانت جيوش « الريخ » تبدو في أوج ظفرها العسكري ، وحينما كانت ثقة ألمانيا النازية في بلوغ النصر النهائي ما تزال راسخة موطدة ، كثر حديث الدعاية الألمانية عن « نظام أوربا الجديد » ، وهو النظام الذي أعدته ألمانيا الظافرة لتطبقه على أمم أوربا المغلوبة الخاضعة لسولتها ؛ وخلاصته حسبما فهم يومئذ أن تغدو ألمانيا سيدة لجماعة الأمم الأوربية التي تنضوي تحت لوائها في صورة أمم اتحادية ، تفقد كل مظاهر الاستقلال الحقيقي ، وتستأثر ألمانيا بينها بالتفوق الصناعي والاقتصادي وتنظم شئون النقد والتبادل التجاري وفق إرادتها .

ولكن هذا الحديث عن « نظام أوربا الجديد » لم يطل أمده ، وإن كانت ألمانيا قد شرعت بالفعل في تطبيق بعض مبادئه في الأمم المحتلة . ذلك أن الفلك دار دورته ، وطويت مرحلة الظفر الألماني الكاسح ، ومال ميزان التفوق إلى جانب خصوم « الريخ » ، وأخذت آمال النصر الألماني تغيض يوما بعد يوم ، وتلوح في الجانب الآخر ، أعني في جانب الجبهة الديمقراطية المكونة من روسيا السوفيتية والأمم المتحدة .

وهذا الجانب الآخر ، وهو الذي تداعبه اليوم آمال النصر على ألمانيا النازية ، يعني منذ الآن بوضع الخطط والمشاريع المستقبلة التي يجب أن تكفل لأوربا وللعالم سلاما دائما وطيد الدعائم

ولم يعرف حتى اليوم من تلك الخطط والمشاريع المستقبلة شيء ما بصفة رسمية أو محققة ، ولكن المعروف أن لجانا مشتركة كثيرة تعمل في لندن وواشنطون على وضع القواعد والحلول السياسية والاقتصادية لمختلف المشاكل التي ينتظر أن يواجهها الحلفاء عقب انتهاء الحرب .

ومن المسلم به أن مسألة المسائل في هذا المعترك من

المشاكل ، هي كيف تعامل ألمانيا المهزومة ؟ وما هي الإجراءات التي يجب على الدول المتصرة اتخاذها للقضاء بصورة نهائية على خطر العسكرية البروسية التي عرضت له أمم العالم مرتين في ظرف جيل واحد ؟ وما هي الضمانات التي يجب تقريرها لحماية السلم ، وإقامة التوازن الأوربي بصورة يتقي معها خطر سيطرة أمة واحدة أو جنس واحد على القارة الأوربية ، وتدعيم مبادئ القانون الدولي والعدالة الدولية بين جميع الأمم القوية والضعيفة على السواء ؟

وقد عرض لهذه المشكلة جماعة من أساطين الساسة والكتاب الإنجليز والأمريكيين ، وأبدوا لعلاجها مختلف الآراء والمسائل ؛ وهم يرون أن كل صلح يعقد يجب أن يحقق الأغراض العامة الآتية (١) سلم تكفله حماية عسكرية مشتركة (٢) حرية تقوم على إعلان عام للحقوق (٣) رخاء اقتصادي يقوم على سياسة اقتصادية عامة .

ومن الواضح أن هذه الأغراض العامة تقوم في جوهرها على مبادئ ميثاق الأطلنطيق التي اتخذتها الجبهة الديمقراطية دستوراً لها ، والتي سبق أن تناولناها في عدد سابق من « الثقافة » . على أنه يجب لتحقيق هذه الأغراض العامة أن تتخذ حيال أوربا المحتلة ، وحيال ألمانيا المهزومة ، من الإجراءات ما يكفل تحقيقها .

فأما أوربا المحتلة فيلاحظ أنها تضم فريقين من الأمم : الأمم التي غزتها ألمانيا وقضت على حريتها واستقلالها واحتلتها قسراً باعتبارها أمماً مفتوحة ؛ والأمم التي انضمت إلى ألمانيا وآزرتها في اعتدائها على الأمم الأخرى مثل رومانيا والمجر . ومن المسلم به أن الأمم من الفريق الأول سوف تسترد حريتها وحقوقها كاملة ، وتقوم فيها حكومات قومية حرة ، أو تعود إليها حكوماتها التي تقوم اليوم في المنفى ؛ ويرى البعض مع ذلك أن تبقى حكومات الأمم المحررة ، في فترة الانتقال تحت إشراف الأمم المتحدة الأعلى ؛ ويجب عليها لكي يسمح لها بالبقاء والعمل بحرية أن تثبت مقدرتها على حفظ النظام داخل بلادها ، وأن تكون على وئام وتفاهم مع جيرانها .

وأما الفريق الثاني من الأمم المحتلة وهو الذي انضم إلى ألمانيا في مجهودها الحربي ، فيحسن أن تعامل بنوع من الرفق لما هو معروف من أن انضمامها إلى ألمانيا لم يكن محض اختيارها ؛ ولا بأس من أن يسمح فيها بتأليف حكومات قومية من بعض الأشخاص الذين يوثق بولائهم وإخلاصهم لقضية الحلفاء ، على أن تعمل هذه الحكومات تحت رقابة المجلس الأوربي العام الذي سيناط به الإشراف الأعلى على شئون أوربا المحتلة : ويشمل هذا الفريق من الأمم رومانيا والمجر وفنلندا وبلغاريا .

ويجب على الأمم المتحدة في جميع الأحوال أن تتخذ كل أهبة ممكنة لإطعام الأمم المحررة عقب تحررها في الحال بغض النظر عن أي اعتبار ، وإلا فقدت ثقة أوربا في ولائها وصدق بيانها .

● ● ●

وأما عن مشكلة ألمانيا المهزومة وكيف تعامل ، فقد تضاربت الآراء ، وتعددت الاقتراحات ، ولكنها جميعاً تجمع على أمر واحد ، هو أنه يجب أن ينزع سلاح ألمانيا ، وأن يقضى على قوتها وصناعاتها العسكرية قضاء لا نهوض بعده ؛ وأن تتخذ لتحقيق هذه الغاية كل وسيلة سياسية وجغرافية واقتصادية .

ومن المفهوم أن القضاء على النظام النازي (الاشتراكية الوطنية) أو النظام الهتلري ، يجب أن يسبق أي إجراء آخر يتخذ في حق ألمانيا ، فهذا النظام العنيف يحمل أكبر تبعة في إثارة الحرب الحاضرة ، وفي تضليل الشعب الألماني ، ودفعه إلى طريق المغامرات الخطرة ؛ ويجب أن يقضى على الفلسفة النازية وكل آثارها ، وأن يشهر بها تشهيراً كافياً في أعين الشعب الألماني ، وفي العالم أجمع بحيث يغدو اعتناقها أو الإيمان بها عاراً يجب التبرؤ منه ، وبهذه الوسيلة وحدها

يمكن أن تعود ألمانيا إلى حظيرة الأمم العاملة التي تؤمن بحق غيرها كما تؤمن بحقها .

ثم إنه يجب فيما يتعلق بنزع سلاح ألمانيا ألا ترتكب الأخطاء الماضية ؛ فقد تقرر نزع سلاح ألمانيا الإمبراطورية في معاهدة فرساي ، ولكن تركت لها أنقاض الجيش الإمبراطوري سليمة ، وتركت لها الوسائل التي تحيي بها جيشها المنحل ؛ أما في هذه المرة فيجب أن يكون تجريدها من السلاح تاماً شاملاً ، ويجب أن يبدأ في ذلك بتحطيم جماعات اليونكر ، وهي الأسر البروسية العريقة التي يستمد منها « الريخسفر » (الجيش الألماني) معظم ضباطه وقواده ، كما يجب أن تنزع الصفة العسكرية عن الصناعات الحربية والكيماوية والصلبية الألمانية ، وأن توضع تحت إشراف المجلس الأوربي ؛ وأن توضع وسائل النقل الألمانية كلها في يد لجنة أو لجان دولية تقوم على استخدامها وتسييرها .

ولما كان من المسلم به أن تفرض على ألمانيا التعويضات المناسبة لما أحدثه الجيش الألماني من تخريب في مختلف الدول التي غزاها ، وما ارتكبته الإدارة الألمانية في الأراضي المحتلة من صنوف الاغتصاب والسلب ، فإنه يجب أن توضع الصناعة الألمانية كلها تحت الوصاية ، وأن يخصص إنتاجها لدفع التعويضات المطلوبة ؛ وقد بدأت روسيا السوفيتية بالفعل تحصي مطالبها من التعويضات عما ارتكب في أراضيها من العيث والتخريب الشامل . ويقول أصحاب هذا الرأي إن فرض التعويضات على ألمانيا هذه المرة يجب أن يكون بصورة معقولة وعملية ، بحيث تستطيع ألمانيا أداء ما يطلب منها في بضعة أعوام ؛ ولا بأس من أن تؤلف من أعضاء الحزب النازي السابقين فرق خاصة للعمل في المناطق المخربة ، وذلك تيسيراً للأداء ، وتحقيقاً للإصلاح العاجل .

هذا وأما فيما يتعلق بالحلول السياسية والجغرافية التي تطبق على ألمانيا المهزومة ، فقد تعددت الآراء أيضاً ؛ وهناك أقلية ترى أنه لا مانع من الإبقاء على ألمانيا كوحدة قومية سياسية على أن ترد إلى حدودها التي كانت لها قبل سنة ١٩٣٨ ، وهي الحدود التي رسمتها لها معاهدة فرساي مع إجراء التعديلات التي تتطلبها الظروف الجديدة . على أن الرأي الغالب يتجه اتجاهاً آخر ، فهو يرى أن اجتماع الكتلة الجرمانية القوية في قلب أوربا على هذا النحو ، يبقى خطراً دائماً على سلام أوربا ، وما دامت السيطرة البروسية قائمة في ألمانيا ، فإن التقاليد العسكرية البروسية سوف تحدث أثرها دائماً في الشعب الألماني ؛ ولهذا يرى أصحاب هذا الرأي أن ترد بروسيا إلى حدودها القديمة ، وأن تحرر ولايات الرين ووستفاليا وهانوفر وسيليزيا من النير البروسي ؛ وأن تكوّن باقاريا وسكسونية وحدة سياسية خاصة ؛ وأما النمسا فالرأي مجمع على ردها إلى استقلالها القديم ، وإلى حدودها الطبيعية ، وقد يضم إليها فوق ذلك مناطق التيرول الجنوبي التي فصلت منها في الحرب الكبرى ، وأعطيت لإيطاليا .

ومن الواضح أن تنفيذ الحلول والاقتراحات المتقدمة يقتضي أن تحتل الدول الظافرة ألمانيا مدى حين ، وأن توضع ألمانيا فوق ذلك تحت إشراف إدارة دولية ، تراقب تنفيذ النصوص العسكرية والاقتصادية للمدة التي تراها كفيلة بتنفيذ هذه النصوص بصورة مرضية .

تلك خلاصة الآراء والحلول التي يعرضها بعض الكتاب والساسة الديمقراطيين لتنظيم السلم الأوربي المستقبل ، وهي آراء خاصة ليست لها أية صفة رسمية ، أو شبه رسمية ؛ وهي بلا ريب تعالج ناحية فقط من المشكلة العالمية الكبرى ، هي ناحية ألمانيا المهزومة . والواقع أن تنظيم السلم المنشود مشكلة أعظم وأوسع مدى مما تقدم ، ومن المحقق أن تسويتها بجميع نواحيها وتفاصيلها سوف تستغرق جهوداً فادحة من جانب الظافرين والمهزومين على السواء ؛ وقد تمتد هذه الجهود إلى بضعة أعوام .

محمد عبد الله عنان

في الهـــواء الطلق

تلاقينا كما تواعدنا ، وكنتُ والدكتور وحدنا ، فلم أشأ أن أشعّب الحديث ، واقتحمت الموضوع اقتحاما ، فقلت : حدثني — إذن — كيف تكون الصداقة مع اختلاف الطباع والأمزجة والثقافة ؛ وقديماً قالوا — شبيه الشيء منجذب إليه — وقالوا : حدثني مَنْ صديقك أحدّثك مَنْ أنتَ ! ولذلك حيّرني أمر جمعيتنا بالأمس ؛ فقد رأينا فيها متديّناً ومَنْ لا يأبه بدين ، ورجلاً نظريًا ورجلاً عمليًا ، ورجلاً يحكّم بالعقل ، ورجلا يحكم بالعاطفة ، وحليماً وغضوبا ، ومتقشفاً ورجل مال ؛ فكيف اتفق لهؤلاء أن يتصادقوا ، وأن تنعقد بينهم الألفة على اختلاف منازعهم ومشاربهم ؟

الدكتور — لقد علّمتنا التجارب أن الصداقة تفرخ تحت حرارة الإعجاب ، فما لم يكن إعجاب لم تكن صداقة ؛ فأنت تعجب بصديقك من ناحية ما ، أو من جملة نواح ، وهو كذلك . وهذا الإعجاب من شأنه توسيع النفس والشعور باللذة فيما تعجب به ، فأنت تتغذى من صديقك بالنواحي التي أعجبتَ بها ، وتتلذذ هذا الغذاء ، وتشعر أن نفسك اتسعت لتتشرّب نفسه ، وهو يشعر هذا الشعور نحوك ؛ وقد تضحّي ببعض فوائدك ومسرّاتك من أجله ، ولكن هذه التضحية في الواقع ليست إلاّ تضحية لذة للذة أكبر منها ؛ فأنت تُضحي — مثلا — بشيء من راحتك أو مالك لصديقك لتنعم بلذة أكبر منها ، وهي ما تتلذذه من مواضع الإعجاب ، أو ما تتلذذه من تضحية صديقك لك .

ثم هذا الإعجاب من جانب قد يكون مناقضاً للإعجاب من الجانب الآخر ، فيكون أدعى إلى التصادق ؛ فإذا كنت حسن الحديث ، وكان صديقك حسن الاستماع ، وأعجبت به لحسن استماعه ، وأعجب بك لحسن حديثك ، كان ذلك سبباً من أسباب الصداقة إذ تلاقت فيكما الرغبتان ، فقد شعرت أنت بمركّب النقص عندك في الرغبة الكلامية ، وأحس هو بمركب النقص في الرغبة السكونية ، فأعجب كل منكما بصاحبه لأنه يكمل نقصه . فليس صحيحاً دائماً أن شبيه الشيء منجذب إليه ، بل قد يكون التناقض سبب الانجذاب ، كالكهرباء السالبة والموجبة ؛ ومثل هذا في الحياة الواقعية كثير ، فكثيراً ما يقع اختيار الزوج على زوجته لأنه غضوب وهي حليمة ، أو هو مسرف وهي مقتصدة ، أو هو رزين وهي مرحة ، أو نحو ذلك أو عكس ذلك ، ثم يكون الزواج موفقاً ، وسبب التوفيق هذا التناقض ؛ ولو كان الزوجان غضوبين أو مسرفين أو رزينين ، لكانت عيشتهما لا تطاق ، لخير أن ينضم إلى النار ماء ، من أن ينضم إلى النار نار ؛ ومن هذا ترى — يا أخي — أن عجبك من اختلاف الأصدقاء في الطبع والمزاج يساوي عجبي من تصورك أن الصداقة تتطلب الاتحاد في الميول دائما .

فأساس الصداقة — كما ذكرتُ — الإعجاب ؛ وليس الاتحادَ في موضوع الإعجاب ؛ ومصداق ذلك أنك ترى بعض الناس تغلب عليهم عقيدة أن الناس كلهم أشرار خائنون لا شرف لهم ، وأن ما يصدر عنهم مما يظن فيه الخير والمنفعة العامة ليس إلاّ خداعا يسترون به أنانيتهم وحبهم لأنفسهم ، أمثال هؤلاء لا يستطيعون أن يصادقوا ، لأنهم فقدوا الإعجاب ، ففقدوا بفقده الصداقة .

وقد تتم الصداقة بين شخصين أو أكثر ، وتتأكد الصداقة بتأكد الإعجاب ، فإذا فتر الإعجاب فترت الصداقة .

وليس دائماً أن تكون الصداقة مبنية على الإعجاب بالنبل والفضل والأخلاق الجميلة ؛ فقد تكون الصداقة صداقة شرّيرة مبنية على الإجرام ، أو على شرب الخمر ، أو تعاطي كيف من الكيوف ، وقد تكون صداقة

نبيلة أساسها البطولة أو النبوغ أو الفضيلة ، وسواء كان هذا أو ذاك فالأساس هو الإعجاب ، فالمتصادقان على احتساء الخمر سبب صداقتهما إعجاب كلٍّ بقدرة الآخر على السكر ، وتلذذه من أن يرى صاحبه عوناً له على بلوغ غايته ، ونحو ذلك .

ومما يساعد على الصداقة ويقويها الإيثار والتضحية ، ومما يضعفها الأَثَرَة والأنانية ؛ فمحب نفسه حباً لا يمكن أن يصادق ، وتعليل ذلك متصل بما سبق ، وهو أن الأناني جداً قلَّ أن يرى خيراً إلا في شخصه ، بل هو يكره ويمقت مواضع العظمة من غيره لأنها تشعره بنقص نفسه . ولذلك نجد خير أنواع الصداقة عند من تعاونوا على نوع من أنواع الخدمة الاجتماعية ، لأن لهم غرضاً واسعاً خارجاً عن أشخاصهم ، وهو تحقيق نوع من الخير لمجتمعهم ؛ فكلما رأوا أن صاحباً لهم مصدر لهذا النفع زاد الإعجاب فنما كنت الصداقة .

وسكت الدكتور قليلا ، فقلت : إذا كان أساس الصداقة الإعجاب فقط ، وجب أن يتحقق كلما وجد ، وهذا ليس بصحيح ، فكثيراً ما أعجب بإنسان ولا تكون صداقة ، فأنا أعجب بعدل عمر بن الخطاب ، وبطولة خالد بن الوليد ، وفصاحة عليّ ونحو ذلك ، ثم لا تكون هناك صداقة ؛ بل كثيراً ما يكون الإعجاب بين الأحياء ولا صداقة ، فقد أعجب بعقل كاتب إنجليزي أو فرنسي ، أو أسلوبه أو بطولته ، وقد أعجب بإجادة ممثل على المسرح ، أو بجمال غانية ، أو بصوت مغنٍّ أو مغنية ، ثم لا تكون هناك معرفة فضلا عن صداقة . كم من الناس يعجبون بصوت (عبد الوهاب) أو (أم كلثوم) ، أو بكوكب من كواكب السينما ولا معرفة ولا صداقة ؛ وكم من المفكرين يعجبون «ببرنارد شو» ، أو «ويلز» ، أو «برتراندرسل» أو نحوهم من الأدباء والمفكرين ، وكل ما بينهم من صلة صلة روحية لا أستطيع أن أسميها صداقة !

بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأرى أن الإعجاب قد يكون ومعه الكراهية والنفور لا الصداقة ؛ فقد أعجب بفصاحة خطيب أو بلاغة أديب ، ولكني أكره ثقل روحه ، وأعجب بقدرة عظيم لكفايته المالية وأكرهه لأني أعلم أنه مُرْتشٍ ، والخلاصة أن الإعجاب وحده لا يكفي في تكوين الصداقة .

الدكتور — إن الجزء الأول من اعتراضك ، وهو الإعجاب بالأموات ، والإعجاب بالعظماء الأحياء عن بُعدٍ سهلٌ الرد عليه ، وربما كان سبب اعتراضك عدم التفاتك إلى نقطة هامة فيما ذكرت ، وهو أن يكون الإعجاب متبادلا من الجانبين ، فأنت إذا أعجبت بعمر أو خالد أو عليّ ، أو أعجبت ببرنارد شو أو ويلز ، أو عبد الوهاب أو أم كلثوم ، فليس هناك إعجاب متبادل ، وإنما هو إعجاب من جانب واحد ، وبذلك لا تتم الصداقة .

وأما اعتراضك بأنه قد يكون الإعجاب مع الكراهية ، فهو صحيح ، ولكنه يؤيد رأيي ، لأن كراهة شخص من بعض النواحي مع الإعجاب به من نواح أخرى تضعف قوة الإعجاب ، فالكراهية والإعجاب متقابلان ، الإعجاب يدعو إلى التصادق ، ثم تلتهم الكراهية هذا الإعجاب فتقف حائلا بين التصادق .

وأريد أن أزيد شيئاً أكمل به وجهة نظري ، وهو أن الصداقة إذا تأسست على الإعجاب فيجب أن تغذّى دائماً ، وإلا هزلت ثم ماتت ؛ غذاؤها اتصال الأصدقاء ليتجدد الإعجاب ، فإذا لم يتيسر فبادلة الكتب أو تبادل الأحاديث التليفونية أو نحو ذلك من أنواع الاتصال ، لأنه إذا لم يكن اتصال قدم الإعجاب وهزل حتى ينسى فتنتهي معه الصداقة — والحديث المأثور : «تهادَوا تحابُّوا» لا يزال صحيح المعنى ، وليست قيمة الهدية بين الأصدقاء في

ثمنها ، وإنما فيما يحيط بها من معان ، فتقديم الهدية معناه أنى لا زلت أذكرك ، وأنى على استعداد للتضحية فى سبيلك ، وأنى أوثرك بما تحب ، إلى غير ذلك من معان نبيلة تؤكد الصداقة وتنميها ، فالصداقة شجرة ورد لا بد من ريها ، وإلا جفت .

وقد قرأت فى هذا المعنى حكاية لطيفة حدثت ، وهو أن زوجة أوربية متزوجة من غنى كبير اعتاد أن يهديها فى عيد ذكرى زواجها وردة صفراء جميلة ، رمزاً إلى الحب والإعجاب ، فجاء عاماً من أعوامها وأهداها فى ذلك العيد صكا بعشرين ألف جنيه ، فغضبت جداً ، وألمت جداً ، إذ لم يهدها الوردة الصفراء — لأنها رأت أن الوردة الصفراء ، – لا العشرين ألفاً – هى التى تغذى روحها ؛ فالمال عند غنى قد تمنح صدقة ، وقد يؤجر به على عمل ، وقد يقدم لفائدة ميسر ؛ ولكن الوردة الصفراء — رمز الحب — لا تعوض ولا تقدر بمال ، ولا تقدم إلا من محب لمن يُحَب ؛ وكيف يوزن الحب بالمال ، وهو إذا وضع فى كفة ووضعت الدنيا كلها فى الأخرى ما تأثرت الكفة الأولى ؟

قلت : لا يزال فى نفسى شىء مما ذكرت ، فقد تتوافر الشروط التى قلتها من إعجاب متبادل ، وكثرة اتصال ونحو ذلك ، ثم لا تكون صداقة .

الدكتور — أرجو أن تنتظرنى حتى أتم عرض رأيى ، فإذا سكت فإنما أفكر فى جمع ما يكمل فكرتى ، وقد يكون جواب اعتراضك فيما سأذكر ، فنستغنى عن الأخذ والرد ، لا سيما والموضوع عريض ، وتحديده والإلمام بكل أطرافه ليس أمراً هيناً ؛ فأشكال الصداقة متعددة ، وطباع الناس وأمزجتهم مختلفة ، وحصرها كلها تحت قاعدة عامة فى منتهى الصعوبة .

وما أريد أن أقوله الآن هو أنه يجب أن يضاف إلى ما ذكرت أن يكون هناك تناغم بين المتصادقين ، وأن يكون هناك غرض واحد مشترك فى شأن من الشؤون ، ولست أريد بالتناغم اتحاد الطبع أو المزاج ، فقد سبق أن بينت خطأ ذلك ، وإنما أريد بالتناغم الانسجام ، كالانسجام بين الدف والزمار والناى فى الجوقة الموسيقية ؛ بل إن هذا التناغم هو الذى يفسح الجو للصداقة أكثر مما يفسح لها الاتحاد ؛ ثم الاشتراك فى الغرض معناه أن يكون المتصادقين نوع من الغاية المتحدة يسعون لتحقيقها ، وتدعوهم هذه الغاية إلى تعلم خُلُق الأخذ والعطاء ، وهو خلق لا بد منه فى تكوين الصداقة ؛ ويتجلى هذا المعنى — معنى الاشتراك فى الغرض وتبادل الأخذ والعطاء ، فى المتصادقين من حزب سياسى واحد ، أو حزب اجتماعى ، أو لجنة من لجان الخدمة العامة .

ثم إذا استعرضنا الصداقات وجدناها أشكالاً وألواناً ، فهى كدرجات فى سلم طويل ، تبتدئ بالمعرفة ، وتنتهى بالعشق والهيام ، وبين هاتين درجات لا عد لها ؛ ثم هناك طباع تُصادِق من أول نظرة ، وطباع متحفظة لا تصادق إلا ببطء ، وذلك أدعى أن تحتفظ أيضاً بصداقتها ببطء .

وإلى جانب ذلك كله هنـاك صديق تعتبره كالغذاء الروحى لا تستغنى عنه أبداً ، وتشعر أنك فى أشد الحاجة إليه دائماً ، ويصعب عليك أن يمر اليوم ولا تراه ؛ وصديق كالفاكهة تحبها فى موسمها ، وتشتاق إليها حيناً بعد حين ؛ فهناك صديق تلتمسه إذا دعا داعى المرح ، وصديق آخر تلتمسه إذا دعا داعى الجد .

قلت : هل انتهيت ؟

الدكتور — تقريباً ، فإن شئت فاسأل .

قلت : كيف تعلل ما نرى من ظاهرة غريبة ، وهو أن صديق الصـديق قد يكون صديقاً ، وأحياناً نرى صديقاً واحداً لشخصين متعاديين ؟

الدكتور — هذا صحيح ، وتعليله ليس عسيراً بعد

التى ذكرت ؛ ذلك أن نواحى الأخلاق فى الإنسان متشعبة متنوعة ، فإذا كان صديق الصديق مشتركاً معك فى نواحى الإعجاب المتبادل ، والتناغم والاهتمام بغرضك ، كان صديقاً لك أيضاً — ولكن يحدث أن يكون شخصان متعاديان لعدم الإعجاب وعدم التناغم وعدم اتحاد الغرض ؛ ومع ذلك هما يلتقيان معك فى نقطة فيها تبادل الإعجاب ، كثلاث دوائر ، لا أدرى اسمها فى الهندسة ولكن أستطيع أن أرسمها لك هكذا  ،

فمساوى المساوى مساو ، ولكن ليس شبيه الشبيه شبيهاً دائماً ؛ فقد يخالف رجل رجلا فى البياض والسواد ، والطول والقصر ، والعقلية الفلسفية والعملية ، ولكنهما يلتقيان معك فى شيئين عندك لكل منهما شىء ؛ يلتقى الأول معك فى حب الفن ، وهو ليس عند الآخر ؛ ويلتقى الآخر معك فى نوع من الخدمة العامة لا يقوم بها الأول .

أواضح ما أقول ؟

قلت : نعم ! ولكن — يادكتور — ألا ترانا قد بعدنا بعض الشىء عن موضوعنا الأصلى ، وهو سؤالنا الأول : كيف نصادق هؤلاء المتخالفون ؟

الدكتور — بعد هذه القواعد العامة التى ذكرتها ، لم يبق إلا التطبيق على « ا » و « ب » و « حـ » و « د » ، وهذا ليس بالعسير عليك ، فتوله أنت بنفسك ، فقد أحسست بالتعب من طول تفكيرى فى هذا الموضوع ، وعرض نظرياته ، فتعال بعد ذلك نتحدث فيما لا يتعب الفكر .

قلت : أنا أحوج إلى هذا منك ؛ فأنت تتكلم فى موضوعك بعد أن مرنت عليه .

وتحدثنا فيما لا يهم القارىء . ثم افترقنا وذهنى مأخوذ بهذا الحديث المثير للتفكير .

أحمد أمين

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

شرٌ فى القُرَاد

وتعطلت الحركة فى المعمل الحزين

وصل القائل : البيت الأحمر معمل على فى وشنجن ، والعصابة التى فيه جماعة من العلماء الأطباء تُشخصهم حكومة الولايات المتحدة ، يبحثون الأدواء حيث ماظهرت فى الولايات . ودين الجميع الموت فى سبيل الواجب .

وأحد هذه العصابة الدكتور « اسبنسر » ، أشخصته الحكومة إلى الغرب ، إلى ولاية « منتانا » ، إلى حيث الوادى الجميل وادى « بترروت » ، وبه حمى خبيثة تصيب الناس فتقتلهم .

حزم « اسبنسر » أمتعته وزوجه وطفلين له ، وركب القطار فنزل بلدة « همِلتن » فى تلك الولاية بجوار ذلك الوادى .

واستقبلهم هنالك « پركر » وهو دكتور فى علم الحشرات . وبدأ الرجلان يتحسسان سبيلا لبحث هذه الحمى .

وكان المعروف أن الحمى لا تصيب الرجل إلا إذا عضته قرادة . وكان سبقهما إلى علم مسئولية القراد علماء آخرون ، أثبتوا أن القراد هو المسئول ، واستخلصوا منه مكروب هذه الحمى ، وزرعوه فى خنازير غينية ، ونقلوه من خنزير إلى خنزير ، ثم إلى القرود .

ووصل « اسبنسر » و « پركر » و « وجالتجر » ، وصلوا جميعاً بعد التجارب إلى الحقيقة الآتية :

إن القراد فى الشعر يقضى فى الشتاء ويجف كثيراً ، فإذا سحقوه وحقنوا مسحوقه فى خنازير غينية سليمة لم يصبها منه شىء . ولكنهم إذا هم وضعوا هذا القراد حياً على جلد حيوان فشرب من دمه فانتعش وانتفخ وامتلأ ، ثم سُحق وحُقن مسحوقه فى الخنازير السليمة أصابتها الحمى فماتت .

والآن اقرأ :

فى مارس كانت هذه الفئة من الرجال تتحسس أسباب هذه الحمى فى الظلام ، وتتعثر فى طريقها إلى تلك الأسباب . وجاء مايو فصار ذلك التحسس الأول ، وذلك

المصغر، ذكرى . وتمرّن هؤلاء الرجال على البحث فملكوا ناصيته، وصاروا فيه ذوى خبرة وكفاية . وقاموا فى ذلك العمل — فى تلك المدرسة القديمة — يتابعون بحوثهم فى حرّ شديد، فقد كان الجبل يحجب عنهم نسائم الصيف . واشتد عزمهم، وظهر الجدّ على وجوههم، وتوترت بالعمل أعصابهم، وهاج البيت بهم وماج، وكل هذا فى توكيد الحقيقة التى وقعوا عليها : أن القُراد الضامر الجامد الذى لا ضرر فيه ولا شرّ منه، يرضع الرضعة من دم حيوان فينقلب شيئا يستمر فيه البلاء استمراراً . وأكدوا هذه الحقيقة مرة بعد مرة .

ولم تكن هذه الحقيقة باللازمة كل اللزوم لكشف أسباب هذه الحمى . فقد كان يكفيهم أن وقعوا على قُراد فيه الداء . ولكن لذّة الكشف وحب التثبّت من الحقيقة كائنة ما كانت، حملاها على إثبات أن هذه الحقيقة التى وقعوا عليها مصادفةً لم تكن فلتة من فلتات التجارب، ولكنها نتيجة تؤدى إليها أسباب، وأنها تتحقق ولو ألف مرة ما تحققت أسبابها .

وكان بين هذه الفئة « جاينْجَر » . فهذا لقبه . أما اسمه فكان « بيل » . وهو لم يكن طبيباً ولا عالم حشَر أو مكروب، ومع هذا لم يكن بأقلهم تحمساً لما يجرى فى هذا البيت . لقد كان عامل معمل، لا أقل ولا أكثر . وكان يكفل أمه من أجر يومه . ومع هذا فقد كان يقتصد القرش بعد القرش من هذا الأجر، فيجمع هذه القروش ليستعين بها على الدراسة ليتحقق بها حلمه الجميل فيكون طبيباً . وكان لا يُثلج صدرَه مثلُ الأمل أن سيكون يوماً ما باحثاً كبيراً مثل « اسبنسر » أو « ركز » . وفى انتظار هذا الأمل قام مع هذين الرجلين يغمس يديه عاريتين فى القُراد والخنازير، حاسباً أن الحظ واتاه إذْ يعمل مع هذين الرجلين الكبيرين — الكبيرين فى نظره هو . والحق أنه كان حظّاً قلّ أن يأتى طالبَ طب دارس . وقد علم « بيل » ذلك فأراد أن ينتفع بالفرصة أيّما انتفاع .

وجاءهم يوم صائفٌ كالذى يجىء هذه الولاية، ولاية « منتانا » . ولكن على الرغم من حرارة الجوّ أحسّ « بيل » بالرّعدة تسرى فى جسده . وقصّر من العمل فلم يلاحقه بالذى عُهد فيه من سرعة . وساعداه تقُلتا، ورجلاه شاع فيهما التعب . أحسّ أنه فى هذا اليوم ليس الساعد الذى قال عنه اسبنسر : « إن بيل جاينْجَر حمّالُ أعمالٍ لا يَكلّ، وساعدٌ يعوان لا يَخذُلك أبداً » ..

وكره « بيلُ » أن يخبر « اسبنسرَ » بتلك الرعشات الخفيفة التى أحسّها . فقبل ذلك بأيام كان يلتقط الأثنان القراد من جلود الخنازير الغينية بعد أن شبعت من دمائها، وفى أثناء ذلك لمح « اسبنسرُ » « بيلَ » يرفع يده إلى رقبته يحكّ فيها دُمّلا صغيراً لا يُؤبَه له، فصاح به : « حَذارِ يا بيل، واذْكرْ فى أىّ شىء غمسنا أيدينا » . ولكن القراد لا يصيب الإنسانَ ضرره إلا إذا هو حطّ على جسمه، وأخذ يمتص من دمه . وعندها نظر « بيلُ » إلى يده وقال لاسْبنسر : « لا حذر ولا خوف يا دكتور، إنى غسلت يدى » . وكان بيل قوىّ الجسم . كان نسخة مصغّرة من « هنرى كاوان »، صاحب الجِدْى، وحامله إلى العمل .

حدث هذا منذ أيام، واليوم يقوم « بيل جاينجر » فى هذا اليوم الصائف، فيجد أسنانه تصطكّ، ومزاجه يختلّ، وذراعه تهدل، وفكره يزداد وخامةً وثقلا .

وسأله « اسبنسر » : « أتجد الألم فى عظامك » ؟ . وأتى إليه سؤاله فى غير اهتمام كمن يسأل عن شىء غير ذى بال . فضحك « بيل » وقال : « إنْ هو إلا عارضٌ يزول غداً » . وأتى الليل، وحاول « اسبنسر » أن ينام،

فوجد النوم عزيزاً عسيراً .

وجاء الصباح فقـام « بيل » يجرّ رجليه إلى العمل جرّاً ، وقد احمرّ وجهه احمراراً قاتماً ، وعيناه كرهتا شمس يوليو ، ولم تقويا على عنف وقدتها . وفي هذا اليوم خيّم الصمت على العمل ، وتعطّل العمل فيه والكلام ، فلم تسمع الأذن فيه ما اعتادت أن تسمع من حركة .

وتجمهر رجال العمل حول « بيل » ، حول « بيل جانتجر » ، ووضعوا مقياس الحرارة في فمه . وأراد أن يبتسم لهم فسألوه الكَفّ حتى يقرأوا حرارته . وقال له اسبنسر : « والآن دعنا ننظر إلى رُسغيك » . وحملوه بعد ذلك إلى البلدة ، بلدة « هملتن » ، فآووه فيها في مستشفى صغير فوق صيدلية .

ولم يكن من السهل عليهم أن يقروا « بيل » بالرقاد هناك . وفي تلك الليلة حاول اسبنسر أن ينام ، ولكنه لم تغمض له عين . وصاح « بيل » بينهم صيحة الأسد : « لعنة الله عليها . سأغالبها . سأغالبها حتى أميتها قبل أن تميتني » .

وزاد هياج « بيل » حتى لم يستطع أن يردّه « اسبنسرُ » وحده . ولقي أهل البلدة بعضهم بعضاً في الشارع عند الصيدلية ، ولوّحوا بأصابعهم إلى المستشفى الصغير التي فوقها ، وقالوا : « ما كان لهذا الفتى أن يدخل البلدة بهذا الوباء ... »

وزأر « بيل » : « أعطني هذا الأرنب الملعون » . فقد كانت حرارته بلغت أربعين ونصف درجة ، وزادت . وأخذ يسخط ويلعن ما تخيّل من قِراد وخنازير .

وعاش في خَرَفه حياة العمل من جديد ، فشرب المرّ منها ، وطارد القراد الوبى ، والقراد يفر منه . وعلى الرغم من مرضه لم يظهر عليه نقص من قوة أو عنف .

ويقف أهل البلدة على سماع صياحه وزئيره فوق الصيدلية ، فيغضبون ... إن هذا حال لا يطاق ... هذا حال يضر بالتجارة ... وكيف يؤذن ببيت للوباء يقام في قلب البلدة .

ومضت ست ليال لم يعرف فيها « اسبنسر » طعم النوم . لقد مزّق قلبه أن يرى « بيل » يبذل جهده ليستر علائم الخوف من وجهه ، ثم ينتهي جهده بالعودة إلى الخرف والهذيان .

قال اسبنسر : « وظل بيل يجرى التجارب في هذيانه كأنه بالعمل حتى يومه الأخير » .

وعلى هذا لم يتأتّ لبيل أن يصير طبيباً بعد كل ما اقتصد من مال وأمّل من آمال . وإن كان الحظّ قد خانه في هـذا ، فقد أسعده بتذويقه لذة البحث مع « اسبنسر » وزميله « بركر » .

ولم تنس حكومة الولايات « بيل » فقضت له بالذي يقضي به قانون الولايات ، فجعلت لأمه معاشاً في الشهر خمسة عشر ريالا ، أم هي ثلاثون ؟ وقد أصابت الحكومة بما فعلت . فهذا الذي جعلته معاشاً هو بالضبط ما كان « بيل » يجريه على أمه في اليوم الذي غفل فيه فرفع يده الوبيئة إلى المشّل برقبته .

ولم يزد هذا في حبّ الناس « اسبنسرَ » وزميله « بركر » . وكيف يحبونهما وهذا ما يجرى على أيديهما . وهذا العمل الذي أنشآه ما أولاه أن يُغلق . وكيف لا يُغلق وهو لا يأمن أحدٌ على حياته بالعمل فيه ؟!

ووضع « اسبنسر » و « بركر » إنذاراً على دار العمل ، على دار تلك المدرسة العتيقة :

« إن من يدخل هذه الدار إنما يدخلها على مسئوليته » . واستعاضوا عن « بيل » بمساعد آخر . وقلّ تحكمهم . وقصدوا يربدون خنازيرهم فضلا عما يحملون إلى جلودها من قراد رضيع من الدم حتى شبع وانتفخ واستيقظ الشرّ فيه .

(يتبع) أحمد زكي

من مذكرات جحا :

ليس لك هنا مكان !

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التي زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

ماذا ينبغي للإنسان أن يصنع إذا لم يجد شيئاً يعيش به ، وينفق منه على أهله ونفسه ؟ هذا سؤال لا أزال أكرره ولا أقدر على أن أجد له جواباً . وقد يثور الجواب حيناً في حنايا صدري ، ويلمع لمعة سريعة مثل ومضة البرق ، ولكنه لا يلبث أن يخبو ويزول ، ولا يبقى من بعده سوى الظلام . ماذا ينبغي للمحروم أن يفعل ؟ إنه سؤال محير بغير شك ، ولا سيما إذا كان ذلك المحروم شخصاً مثلي ، لا يقدر على عمل آخر غير هذا الذي نسميه الأدب — تلك البضاعة المزجاة التي نتجر فيها ، معشر الحمقى .

لقد اشتدت حلقات الكرب حولي ، وانتظرتُ الفرج أن يطلع عليّ يوما ، ولا أرى الشدة تزداد إلا عنفاً . ولم أجد من أهل « ماهوش » الأعزاء إلا البسمات التي قد تكون ساخرة في بعض الأحيان ، ثم تكون عاطفة في البعض الآخر ، ولكنها بسمات ، والبسمات لا تغني قليلا ولا كثيراً . وفقدتُ كل شيء لي في « ماهوش » ، حتى لحافي الذي كنتُ أتدثر به في ليالي الشتاء الطويلة ؛ حتى لحافي هذا قد سلبوني إياه وأنا أحاول أن أصلح ما بينهم ، وكأنهم لم يثيروا الخصومة إلا لكي ينزعوه من فوق كتفي !

وحاولتُ جهدي أن أعمل ، وأن ألتمس الرزق من كد جسمي وذهني ، فلم أفلح ؛ ثم حاولتُ أن أنهب ، وأن آخذ قسمي من أرزاق « ماهوش » غصباً ، فلم أفلح ؛ ثم حاولت أن أموت لأهل « ماهوش » حتى أفوز منهم بنصيب الأموات ، فما كنت أصحو وأعود إلى الحياة حتى عدت إلى موضعي ، وعادوا هم إلى إغفالي وإهمال أمري ! وعرضتُ نفسي على الأصدقاء ألتمس مساعدتهم ، عرضتها على صديقي القاضي — حرسه الله — وعلى المحتسب — عفا الله عنه — وعلى الوالي — هداه الله — فلم أفز عندهم إلا بالرد والخيبة ، وببعض وخزات من السخرية !!

ذهبتُ إلى القاضي وكان في مجلسه ، وأصحاب الخصومات يزدحمون على أبوابه ، وعجبت من كثرة ما بين الناس من هذه الخصومات ، ولم أدر ، أكان الأمس من دون الأيام يوم الزحام ، أم أن الناس هكذا في كل يوم يختصمون . وجلستُ قريباً من صديقي — حرسه الله — فقد رحب بي ، وأجلسني على أريكة قريبة منه . وكان لا بد لي من أن أسمع ، ومن أن أرى ، ومن أن أتتبع الأقوال وأفهم الحجة بعد الحجة . وجعل القاضي يستقبل الخصوم واحداً بعد واحد ، ويسمع الشهود ، ويناقش ويراجع ، ويزن ويحاسب ؛ فكان كلما انتهى من قضية نظر نحوي بمؤخر عينه ، كأنه يلاحظ حركة أفكاري ، فكنت أظن أنه يريد أن يستأنس برأيي ، حتى لا يضل في الحكم ، فأقترب منه وأفضي إليه بما رأيت ، وأجتهد في رأيي اجتهاداً عظيما بما استطعت من رجوع إلى الكتاب والسنة والقياس والإجماع ؛ ولا أقصد بذلك إلا وجه الله سبحانه وتعالى ، والإعانة على الحق ، والمساعدة على إزالة الظلم . ولكنه كان كلما سمع مني رأيا تجهم وعبس ، ولوى وجهه عني كارهاً ، ثم يقضي في آخر الأمر بحكم هو نقيض حكمي ، ورأي هو عكس رأيي .

وكنتُ في الأحكام الأولى أكوح نفسي وأكذب أذني ، وأتهم عقلي ، وأعزم على أن أكون أكثر تنبها وأدق فهما فيما يأتي من القضايا ، وأقول في سري إن

القاضي أحفظ للكتاب ، وأفقه بأصول الحجة ، وهو أفطن من فهم ، وأعلم مَن علم ، وهو الحكم الرضي ، وأعدل من قضى ؟ ثم أمضي معه إلى القضية التالية ، فإذا بالأمر يطرد ويتسق ، وأراه في كل مرة يحكم حكما غير حكمي ، ويفهم فهما غير فهمي . فتخالجتني فيه الشكوك ، وكنتُ أظن به الظنون ، وتساءلتُ عن نزاهته وقسطه ، وتحركتُ حركات لم أملك ما كان فيها من غضب ومن إنكار ، فاستلفتت حركتي نظره ، واتجه إليَّ مغضبا والشرر يتطاير من شعاع عينيه . فخشعت وسكنت ، ولمتُ نفسي على ما كان منها ، وقلت لها : إني لم آت إلى القاضي لكي أعينه على العدالة ، بل جئت إليه طالباً عونه ، وملتمساً عطفه ، والعدالة بعد كل شيء أمر طالما اختلف الناس في مرماه ، ولم يتفق جيل من الأجيال على معناه . فكيف لي أن أطمع في أن أوافق القاضي فيها على رأيه ، أو يوافقني على رأيي ؟ ولم أكن من بعد ولا من قبل موكلا بنصرة الحق وإقرار العدل ، ولم تكن لي في خصومات « ماهوش » ناقة ولا جمل . فلما رأى القاضي خشوعي وانكساري ، لانت نظرته قليلا ، فتبسمت له وأحنيت رأسي بالتحية ، فصرف عني وجهه وأقبل على قضاياه يفصل فيها ، كما شاء هو لا كما شئت أنا . وحاولت أن أملك زمام وجهي وأعضائي ، وجعلت أصرف عقلي عن متابعة أقوال الخصوم ، حتى لا أسمع شهادة شاهد ، ولا أفهم مراجعة مراجع ؛ وأطرقتُ أفكر في ملكوت السماوات ، وكيف خلق الله الخلق ، وكيف دبر ملكه كما شاء ؛ ونطقت بأمثال هذه الأقوال ، وجهرت مسبحاً بمثل هذه الألفاظ ، فالتفت القاضي إليَّ في عنف ، وسألني ماذا جاء بي إليه ؟ فاضطربت وتلعثمت ، ثم جمعت نفسي وقلت له ما جئت من أجله ، طالباً معونته على عمل أصيب منه رزقاً . ولكنه قاطعني قبل أن أتم حديثي ، وقال لي :

— ليس هنا مكان لك !

وكان هذا جواباً واضحاً حاسماً ، لا تردد فيه ولا مجال للمحاورة حوله ، فقمت واضعاً ذقني فوق صدري من الخجل ، وسرت لا أكاد أبصر مواطئ قدمي ، حتى ذهبت إلى المحتسب ، فوجدته في مجلسه أشبه الناس بالقاضي في مجلسه . وبالاختصار انتهى بي الأمر إلى أن رأيته هو الآخر يحملق فيَّ غاضبا ، ويسألني عما جاء بي إليه ، ثم يقول لي آخر الأمر :

— ليس هنا مكان لك .

وهكذا ترددتُ على واحد بعد واحد من أصحابي ، وممن أعرف من أصحاب الأمر والنهي ، فوجدتهم جميعاً أشباهاً في الحكم وأنداداً في كل شيء ، ولم أسمع منهم إلا هذا الجواب الواحد الحاسم الواضح :

— ليس هنا مكان لك .

فأيقنتُ أخيراً بما كان ينبغي لي أن أفطن إليه من أول الأمر ، وهو أنه ليس لي في « ماهوش » كلها مكان . وهذا أمر طبيعي ، كان يجب عليَّ أن أعرفه بادئ ذي بدء ، فكيف يكون لي بها موضع مع كل مَنْ فيها من الناس ؟ حقاً هي تتسع لكل من يعرف من أين تؤكل الأكتاف ، ثم بعد ذلك كيف تُركب الأكتاف ؛ وهي تتسع لكل من يأتي إليها من وراء الفيافي ، ومن دون لجج البحار ، ولكن هؤلاء جميعاً يعرفون كيف يبلعون أحكام القاضي — حرسه الله — بغير أن تطرف لهم عين ، أو تختلج في وجوههم عضلة . بل إنهم ليسرعون إلى نجدته ، فيبلعون له إذا لم يستطع هو أن يبلع بعض أحكامه . النهاية . انتهى بي المطاف إلى أن عزمتُ على الخروج من « ماهوش » ، ما دمت قد أيقنت أنه لا مكان لي بها .

أي « ماهوش » ، وطني الحبيب ! إن خروجي منك لا يكلفني عسراً ، فليس عليَّ إلا أن أسير على قدمي في الطريق الذاهب منك إلى شرقك أو إلى غربك ؛ فليس

من الأدب المقارن :

الضيافة فى أدب اليونان
والعرب والفرنجة

الضيافة هى قبول الغريب وإكرامه ؛ حفلت بها الأمم الرفيعة لجعلتها مروءة وشرفاً ، وأمرت بها القبائل الخفيضة ورأت فيها سعادة ونصراً ، حتى إنك لتجد فى شرائع قبائل (المانو) من الحث على الضيافة والترحيب بالضيف ما يدهشك ويعجبك ... « فعندما ينزل بكم الضيف ، فليرحب صاحب الدار به ، وليقدم إليه الماء يغسلُ قدميه ، والطعامَ يسدُّ جوعه . وحذار أن يردَّ أحدكم ضيفاً جَنَّ عليه الليل ولم يبلغ مأواه . وسواء أوصل الضيف قبل غروب الشمس ، أم بعد وهْنٍ من الليل ، فلا ينبغى له أن يرحل عن الدار قبل أن يطعم من طعام أهلها ، ولا لصاحب الدار أن يتناول شيئاً قبل أن يُقدِّم لضيفه شطراً منه . رحِّبوا بضيوفكم ، تنالوا السعادة ، والنصر ، والعمر الطويل ... »(١) .

وقد عُنى أهل يونان الأقدمين بها ، فكانوا يشتُّون من طرق بابهم من ذوى الحاجات والسائلين ، مخافة بطش جوبيتر كبير الآلهة ذى الطولْ المتين . على أن بعض الأسر المترفة كانت تحس فى الضيافة عبئاً ثقيلاً ، ولكنها ما كانت لتجد منها مفراً ، لئلا تصيبها لعنة المطرودين ؛ هذه اللعنة التى زعموا أنها تخرج من فم المطرود كالطيف فما تزال تتبع الرجل الملعون حتى تلحق به السوء والمكروه.

ولعلَّ العرب قد سبقت الأمم كلها بكرمها وجودها ، وبذّتهم باحتفالها ورعايتها للضيف . فإكرام الضيف والترحيب به مروءة وشرف ؛ فكانوا يؤثرون ضيفانهم على أنفسهم ولو كانت بهم فاقة : يبيتون جياعاً ليطعموهم ،

(١) انظر : Livre des lois de Manou. 1er livre : Trad. Fra. Loiseleur — Des lonchamps. p. 99, 108 .

لى فيك ما أحله ، ولا ما يثقل نفسى بالحزن على فقده ، اللهم إلاّ أن يكون الصبية الذين من ورائى ؛ ولكن الله هو الذى يتولاهم — ليس أنا ، وإلا أن تكون وحشتى من الصديق الذى آنس إليه — صديق أبوالنور ، وحرمانى من أمل الأثير — علية ابنة السلطان .

آى « ماهوش » ، وطنى الحبيب ! إنى إذ أخرجُ منك ، أخرج كارهاً لمعنى واحد علاَّ قلبى وجلا ، ويسيل الدمع من عينى ألماً ؛ وذلك أن فى خروجى منك سبة تلصق بك إلى آخر الدهر ، إذ يقول الناس على مر السنين واختلاف العصور : إن جحا اضطر إلى أن يخرج من « ماهوش » إذ لم يجد بها مكاناً له . فإذا كنت أيها الوطن تهملنى ولا تحس فقدى ، فإنى أعزك ولا أقوى على أن أكون سبباً فى سبة تلصق باسمك . ولكن . ماذا أستطيع أن أعمل إذا لم أخرج منك إلى بلاد الله الفسيحة ؟ اللهم إن عذرى واضح ، فلا تغضب علىَّ أيها الوطن الحبيب .

ومع ذلك فكيف أتردد ، وكيف أحزن ، وكيف أفكر فى سبة تلصق بهذا الوطن من أجلى ؟ ما هذه الحماقة التى تدفعنى إلى مثل هذه الآراء السخيفة ؟ سأذهب مهاجراً من « ماهوش » ، ولن أعود إليها ، ولن أراها بعد ذلك ، ولن تطأ قدمى ثراها ؛ فلقد ذقت فيها من الهوان ألواناً ومن القسوة والنكران صنوفاً ، ومن الظلم والكيد أنواعاً . ولطالما أخفيت آلامى فى ضحكاتى الساخرة ، ولكن ضحكاتى لم تستطع فى يوم من الأيام أن تخفف من وقع الطعنات والوخزات التى كنتُ أحسها تمزق قلبى . أواه ! إن التجلد ليس معناه أن القلب لا يحترق ، أو أن النصل لا يدمى ويؤلم .

وداعاً أيها الوطن ، وسأحاول أن أمسح دموعى ، وأن أسكن خفقان قلبى ، وأن أهدئ من حرارة أنفاسى !!

(طبق الأصل) . (جحا)

ويبالغون في الإكرام ليرضوهم ، سواء أكان النازل ضيفاً أم ضَيْفَنا ، إنساناً أم بهيمة أم طيراً . فلقد نزل بواحد منهم الجراد ، وجثم حول خبائه ، فعدَّه من ضيفانه ودافع عنه .(١)

وإنك لتجد في بعض الآداب ظلالاً لإكرام الضيف وحَفْله والدفاع عنه . فالأدب الحق تصوير للعادات والأخلاق . وها هي ذي صور أدبية ثلاث من أوفيد وميرتيه والحطيئة ، تريك أثر الضيافة في أدب اليونان والعرب والفرنجة .

* * *

أما الضيافة في أدب اليونان ، فقد صوَّرها لنا أوفيد Ovide الشاعر اللاتيني المشهور في كتابه (Les Métamorphoses) الذي يحكي فيه بأسلوب ناعم وخيال مزركش أساطير القُدامى من اليونانيين .

من أروع أساطير هذا الكتاب ، أسطورة فيليمون وبوسيس Philémon et Baucis ترى فيها جوبيتر ، كبير الآلهة ، وابنه ميركور ، يشقان الدجى متنكرين ، في ليلة هاجت فيها العاصفة ، وبكت السماء ، وأعول الرعد ، وجُنَّ البرق ، وقرَّس البرد ، يستطعمان الناس ، والناس يأبون أن يضيِّفوهما ، وقد يُقابلان منهم بالطرد مرَّة ، وبالصفع تارة ، وبالشتم أحياناً . فما زالا يضربان في السهول والحقول حتى بصرا بكوخ حقير ، فأسرعا نحوه ، وكانت قطرات المطر تتقاطر من خلال القصب والعيدان على عجوزين ملتصقين اتقاء لذعات البرد . لقد كان يعيش في هذا الكوخ فيليمون وزوجه بوسيس ، وقد قضيا فيه شرخ الشباب متنعِّمين ؛ يجدان في عيشهما الساذج اللذة والهناءة رغم الفقر الشديد .

ودخل الإلهان الكوخ ، فرحب به العجوزان كلَّ ترحيب ، وأجلساهما في أشرف مكان ؛ وقامت بوسيس إلى الموقد فأرَّثت النار بأوراق ذاوية ، وقشور يابسة ، ونفخت فيها فامتلس اللهب من ثناياها وأخذ يرقص فرحان ، ثم حملت إليهما ضربين من الزيتون وجبناً وبيضاً وهندباء وبقلا ، فأكلا ؛ ثم خمراً معتقاً ، فشربا ؛ ثم ما شئت من جوز ولوز ، وتين يابس وتمر ، وعنب وتفاح فتفكها . وبذلا من الجهد لإرضائهما مالا سبيل إلى وصفه .

وتسامروا جميعاً وتحدثوا . وعلم العجوزان أن ضيفيهما إلهان من الأولب .

فلما كان السحر ، قال جوبيتر بصوت راعش راعب : لقد طوَّفنا هذه الليلة لنبلو عبادنا ، فنعلم الشاكر لآلائنا ، ونعلم الكافر بها ، فألفيتهم يقهرون اليتامى ، ولا يطعمون الفقراء ، فحقَّ عليهم غضبي ؛ هلمَّا معنا إلى الجبل ، لتريا ماذا يحلُّ بهؤلاء . . .

وخرجوا جميعاً يصعّدون في جبل شامخ صعب المرتقى ، حتى بلغا ذروة عالية تتوشح بالغيوم . عندئذ أشرف جوبيتر على القرية فزمزم ثم دمدم ، فانقضت الصواعق من كل جانب ، وهطلت الأمطار من السماء ، وتدفقت الينابيع في الأرض ، وغمرت المياه الدور والبقاع ؛ ثم هدأت العاصفة ، وإذا الديار خاليات بلاقع ، وإذا كوخهما الحقير يستحيل قصراً عظيماً ذا أعمـدة ضخام ، وجدران شاهقات ، مزركشات بالذهب والرخام .

وناداهما جوبيتر : «والآن ما سؤلكما أيها العجوزان؟» قالا : (شباب غض نضير ، وعيش خَضِل أنيق ، في هذا القصر المنيف . نعيش معاً ، ثم نموت في لحظة معاً) . قال : «لقد أوتيتما سؤلكما . فاذهبا . . .»(١)

وأما الضيافة في أدب العرب ، فلم يبرع أحد كالحطيئة في تصورها . فقد قصَّ علينا قصة ذلك الأعرابي الذي طرقه الضيف ، وقد أصابه الجوع منذ ثلاث ، ببيداء

(١) انظر البحث المفصل الذي كتبه الأستاذ ماستون ريشارد من الضيافة وتاريخها في كتابه الطريف L' Evolution Les Moeurs P. 167

(١) Ovide : des Métamorphoses. وقد نقل الأستاذ خشبة هذه الأسطورة إلى العربية بشكل آخر .

واسعة لم يعرف بها ساكن رحماً ؛ فهو عاصب البطن مرمل ، قد اعتزل الناس وجفاهم ، فإذا رأى الأناسى استوحش ونفر ؛ ولقد أخلد إلى حياة الصحراء فأعجبته وراقته ، حتى أن بؤسه فيها أضحى نعيماً لديه . وهاهم أولاء أولاده وزوجه ؛ أما الأولاد فأشباح دقاق ضعاف تخالهم البُهْم ، حفاة عراة ، أسناهم الجوع . ما اقتفوا يوماً خبز الرماد ، ولا عرفوا طعم البر . وأما الزوج فتلهيهم وتعللهم. وإنه لكذلك ، إذا به يرى شبحاً وسط الظلام ، فرعب وارتاع ؛ وعلم أنه ضيف ، فتشمَّر واهتمَّ ، ونظر نظرة في السماء ، ونادى : « هيا ربَّاه ! إنه ضيف ، ولا قِرَى ! فبحقك لا تُذلَّني ، وبحقك لا تحرمه يا إلهى اللحم ! » .

ونظر إليه ابنه فرآه حيران . قال : « يا أبت ما أنت فاعله ؟ لا تعتذر بالعدم ، فلعلَّه أن يظن لنا مالاً ووفرة غنى فيوسعنا ذماً . اذبحني ، أيا أبتِ ولا تخف . يَسِّر له طعاماً يطعمه ، ولنا ثناءٌ نحمده » . فأطرق الأب مفكراً . لقد همّ أن يذبح فتاه ، ولكنه أحجم . إنه فلذة كبده .. وماذا يفعل وقد طرقه هــذا الضيف ؟ إن إكرامه مروءة ، والإحسان إليه معروف . وعاد ينظر في السماء مضطرباً حيران . ثم مدَّ عينيه أمامه ، فحدَّق ثم حلق . ها هو ذا قطيع من حُمُر الوحش قد انتظم من خلف حمار وحشي كبير ، وأنهن لعطاش يردْن المـاء . فأسرع إلى قوسه وسهامه ، وانساب نحوها خفيفاً مسرعاً ، ما أشد ظمأه إلى دمها ! وما أشد رغبته في لحمها .. ! وأمهلها ، حتى إذا تروَّت عطاشها ، أرسل فيها من كنانته سهماً ؛ وإذا بأتان سمين ذات ولد ، قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً تخرّ صريعة . لقد أصابها السهم فصرعها ، ففرح وسُرّ ، وأسرع إليها . فيا من رأى بِشرَه وهو يجرها نحو أهله ،

ويا من رأى بِشرهم لـمّا رأوا جرحها يدمى !

وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم

وما غرموا غرماً وقد غنموا غنما

وبات أبوهم من بشاشته أباً

لضيفهم ، والأم من بشرها أمّا

فأنت ترى حيرة هذا الأعرابي السغب ، وقد طرقه الضيف . إن عليه حقاً ، ولا سبيل إلى القيـام به ، وإن إكرام الضيف يجرى في عروقه وقد طبع عليه ، بل ها هو ذا الصغير ينادى أباه : اذبحني ، لا تعتذر بعدمك ، يسّر له طعاماً ؛ فذبحه أهون من أن يوسعهم ذماً .

وأما الصورة الثالثة ، فقد صورها ميريمه P. Merimée القصاص الفرنسى الشهير . وحكى لنا كيف خان صبي ضيفه ، فقتله أبوه .

لقد كان ماتيو فالكونه Mateo Falcone يعيش في كورسيكا عيشة هدوء وسلام . وقد استفاضت شهرته ، وعرفت في إصابة الهدف براعته . وكان عاتياً جبّاراً إذا أهين ، رفيقاً لطيفاً إذ أكرم . ولقد تزوّج فلم يرزق غير البنات ؛ فلما رُزق الغلام هشّ له ، وفرح به ، وتلقّاه بأحسن ما يلق به الآباء الأبناء ؛ ثم تعهده بعنايته وأنبته نباتاً حسناً ؛ ثم شب وإذا القوّة في جسمه ، والشجاعة في خلقه .

لقد كان هذا الصبي محبّباً إلى أبيه ، أثيراً عنده ، مكرماً لديه . تركه ذات يوم يحرس الدار ، ومضى وزوجه إلى المرعى يتفقدان الغنم ؛ فجلس الصبي يسرح بصره فيما حوله ، ينظر إلى الأشجار ، ويرنو إلى الغابة ، وينفض الجبال ، فسمع صوت طلقات ، ثم رأى رجلاً يدلف إليه من الغابة ، والدم من فخذه يسيل .

لقد رعب لرآه . فلمـا انتهى إليه ، ناداه : « إن الشرطة على أثرى . أفلا أجد في دارك مأوى ؟ » وأبى الصبي أن يضيفه ، فاندفع الرجل يستعطفه بالـكلام ، ويغريه بالنقود . عندئذ قاده إلى الدار وأخفاه تحت كومة من التبن ، وعاد إلى مكانه .

وأقبل الشُّرط يبحثون . فسألوه فخدعهم وضحك

منهم . فدخلوا الدار فارتدوا خائبين . وتهدد الضابط الصبي ، ثم توعده ، ثم أغراه بساعته الفضية ، وقدمها إليه ؛ ومازال به حتى رفع الصبي يده ، ودلهم على مخبأ الضيف .

وأسرع الشرطة ، فقبضوا على الجريح وقيّدوه .

وما هي إلا لحظات ، حتى أقبل ماتيو فالكونه . فاندفع الضابط يحدثه بحديث ابنه .. « ولولا ابنك ما استطعنا أن نعثر عليه .. » ، فتصدّع قلب الأب لهذا النبأ ، لقد باع ابنه شرفه بثمن بخس . ونظر إلى الجريح ، فرآه يدير بصره نحو الدار ، ويبصق ويقول : « هنا دار الخونة ! » .

لقد خان الولد ضيفه . وغداً سيصبح اسم ماتيو مضغة في الأفواه . ولكن ماذا يفعل وابنه هو الذي لوّث شرفه ، وجلب المعرّة إليه ؟

ونظر الأب إلى ابنه ، وهو يكاد يتميّز من الغيظ . وناداه : « أنت أول خائن في أسرتنا » ، ثم قام يمشي نحو الغابة ، وتلا الصبيُّ خلفه .

وانطلقت الأم تستعطف الأب الثائر .. « إنه ابنك ، إنه ولدك » ، والأب يدفعها ويقول : « ارجعي . ارجعي ! » .

وفي الغابة ، عند صخرة كبيرة ، صوّب الأب إلى ابنه بندقيته غير حافل ببكائه ، وأطلق عليه رصاصة فاستقرت في قلبه ؛ فخرّ يتخبط ويئن : « أوّاه يا أبتاه ! » .

وعاد ماتيو ، يستغفر لابنه ربه ، على خيانته ضيفه .(1)

* * *

فتلك صور ثلاث عن الضيافة ، في أدب اليونان والعرب والفرنجة ، ولكل صورة ميزة ، وإن كانت صورة الحطيئة ثم صورة ميرميه تفوقان صورة أوفيد ، لما فيهما من روعة وسحر وجمال .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

---

(1) Prosper Merimeé : Mateo Falcone (Nouvelle) وقد نقلت هذه القصة إلى العربية على ما أذكر .

هديت الى لجنة التأليف والترجمة والنشر :

حل مشكلة العيش

قبل الترف العقلي

أتوقع أن يحدث بمصر عقب هذه الحرب انقلاب اجتماعي خطير ، كما حدث انقلاب سياسي خطير عقب الحرب الماضية .

ولست أدري : أمبعث هذا التوقع هو ما أشعر به شخصياً من ضرورة هذا الانقلاب ؟ أم هو الأمر المبهم الذي يهم نفوس الجميع ويأخذها بإرهاصاته ومقدماته ، كما هو الشأن قبيل حدوث الانقلابات العظيمة في تاريخ الأمم .

فإن كانت الأولى ، فهذه الأحاديث لن تكون أكثر من صور ساخطة تعكسها نفس تحب الكمال وتنشده لبيئتها ، فلا بأس أن ينظر القارئ نظرة اغتفار لما يكون فيها من ألوان التبرم بالواقع السيئ الذي يبعث في النفس ظلالاً من التشاؤم ، ويثير في الحياة ضباباً من القتام والسواد . .

وإن كانت الأخرى فالحديث هنا في « مجلة الثقافة » حديث في موضع أصيل حقيق أن تعرض فيه المباحث والآراء حول الإصلاح المنشود من الانقلاب المتوقع ، ذلك الإصلاح الذي نتمنى منه أن يسوى لنا « مشكلة العيش » قبل أن يسوى لنا مشكلات الفكر والفن . . . وأن يحدثنا في ضرورات الحياة قبل الحديث في « الترف العقلي » الذي تسلط على عقول مفكرينا فنتنهم وأغواهم ، وأخذهم من الصفوف العاملة ، كما تسلط الترف المادي على قلوب أربابنا ففتنهم وأغواهم وعطل قواهم .

وقد تلفتُّ في جنبات الوادي أبحث عن جماعة يمكنها أن تحتضن فكرة الإصلاح المنشود لمصر والشرق العربي في يقظة وإدراك ، وتسير بها في نمو مطرد وازدهار ، فلم أجد مثل هذه الجماعة المتآخية المستنيرة « لجنة التأليف

والترجمة والنشر » ، الدائبة التي ظلت تنمو متماسكة زهاء ثلث قرن تقريباً ، في بلد لا تجتمع فيه جماعة إلا لتفترق متعادية ، خالقة من أسباب الوصل أسباباً للقطيعة . . . ذلك لأنها جماعة تعارفت نفوسها قبل أن تجتمع أجسادها تحت عنوان واحد ... وأكثر جماعاتنا تؤلف قوانينها ونظمها قبل أن تأتلف أشخاصها ، فهي تجتمع بالأجسام وتتعارف بالأسماء ، ثم لا تلبث النفوس أن تتفرق بعد أن تتكشف وتستبين دخائلها من تناكر فاحش وتَوثُّنٍ شاسع لا يمكن أن يلتقي معه قوم على هدف واحد ...

ولكن اللجنة متسمة التكوين ، وافية العناصر التي تمثل جميع اتجاهات الفكر في مصر ، يتغذى كل فرد فيها من آراء كل فرد وثقافته ، حتى لتجد أدباءها علماء ، وعلماءها أدباء ، وذوي الثقافة الشرقية من أعضائها يحسنون الحديث عن ثقافة الغرب ، وذوي الثقافة الغربية يحسنون الحديث عن ثقافة الشرق ؛ فهي حلقة اتصال قوية بين الشرق والغرب ، تستطيع أن تقول لكل منهما عن الآخر فيسمعا لها .

وجل أفرادها معلمون أو مشرفون على شئون التعليم في مصر ، ابتدأت أيديهم تتصرف في مقاليده وتوجه حركاته ، وهو مركز لعمر الحق عظيم ! والمعلمون مهما اختلفت آراؤهم فهي تجتمع لدى مثل عليا متقاربة غير متطرفة ؛ لأن مهنتهم تعلمهم أن يراعوا قانون التدرج ، وألا يختلسوا حق الزمن في إنضاج الثمار ، وأن يتخذوا الأبجديات الأولية قواعد ارتكاز . فهم أبعد الطوائف عن الأخذ بالطفرة والانقلابات العكسية التي تفلت معها أعنة الأجيال ومقاودها ، لأنهم يدرسون علوم النفس درس صناعة ...

ثم إنها جماعة تدين بالأفكار ذات الوزن والمحصول أكثر مما تدين بالآراء ذات الرنين والأجواء الشعرية غير العملية ؛ ولذلك جعلت النتاج العلمي محور جهدها ومحور ارتكازها في إنهاض مصر والشرق العربي .

ولا شك أن موقف هذه الجماعة كان صحيحاً جداً إلى الآن ؛ حيث أرادت أن تبصر قومها وتوسع آفاقهم بما عند الغرب من ثقافات وعلوم وفنون حتى يأخذوا إخذه ، ويجاهدوه بوسائل جهاده وينافسوه في إغناء التراث الإنساني .

غير أنه يحسن بها الآن أن تسلك في جهادها لحركة الإصلاح العامة مسلكاً آخر يوازي مسلكها الحالي ، فتعمل على توجيه ثقافة البلاد نحو أهداف معينة تدرسها وتؤمن بها ، وتتحول من جماعة خصصت جهدها للتأليف والترجمة والنشر إلى جماعة لها بجانب ذلك دعوة وبرامج ونظام واسع للعضوية والجهاد والصدام إذا لزم الأمر ...

فقد امتلأت أوعيتنا بقضايا العلوم والآداب والفنون ، وتفتحت عيوننا على آفاق الحياة الغربية وأسرارها ، وأدركناها ودعونا كثيراً من مظاهرها إلينا ، وآمنّا بضرورة الأخذ بأسباب المدنية العلمية والصناعية كإيماننا بعقائدنا . وبقي علينا أن نشرع في السير بإجماع على مقتضى ما أدركنا سيراً جمعياً لا فردياً ، حتى لا تتشعب بنا السبل أكثر مما تشعبت ، وتتفرع برامج دراساتنا ومعاهد تعليمنا أكثر مما تفرعت ، فنفترق فراقاً لا لقاء بعده إلا في أعماق هاوية الفوضى والبلبلة والاضطراب ، وبئس اللقاء ! فلو حَمَلَ أرباب الثقافة والفكر بين مصر بعد الحرب وبين تجار السياسة ومحترفي الشعوذة الوطنية وسماسرة المال ودجاجلة الإصلاح ، وتركوهم يسوقون سير مصر إلى موجبات الحياة الحافلة التي يعرفها معرفة الرأي في عقله كل من يتصل بالحياة العالية فكراً وروحاً وصناعة وتجارة وتعليماً ، إذاً لكانت جناية هؤلاء المفكرين المدركين جناية الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهدى ويَكْذِبون أهلهم في الرِّيادة . « والرائد لا يكذبُ أهله ! » وإن ما نلمس في نفوس أكثر الشباب من جمال الروح

وقوة الرجولة ، وما وضع أمامهم من السدود التي تحجب عنهم آفاق الشرف والمجد الوطني والسمو الروحي ، لشيء خطير حقيق أن يوقظ كل مخمور مأخوذ بتخييلات الخمر والخيبر ! وأن يردع كل مَنْهوم بشهوات الجسم والفكر . . وأن يدفع الجميع إلى الموقف المعقول في مثل هذه الظروف . .

وإن الترف العقلي ليهلك الأمم كما يهلكها الترف الجسدي . ومسئولية المترفين عقلياً أعظم ، إذ يدركون الحقيقة والعدالة ، ثم يتركون السعي لإقرارها بين الناس كافة ؛ لأنهم منقطعون بشهوات العلوم وعصوبات الآداب والفنون ، يهيمون في دنياها منفردين ؛ « ومنهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » .

ولو أن المشغولين بالترف العقلي في مصر أجمعوا أمرهم على عدم سبق أمتهم والانقطاع عنها ، والشغف بآخر مستحدثات الأفكار والآراء ، بينما السواد الأعظم من أمتهم لم يهتدوا بعد إلى الخطوات الأولى التي يجب أن تخطى في طريق الحياة الضرورية ، إذاً ما كان يحدث هذا الذي أصابنا من تقطع الأمر وبلبلة الآراء ، ووجود فريق من الأمة يعيش في قمة الحياة الفكرية والفنية ، بينما يعيش الفريق الآخر وهو الأكثر متخلفاً عن سير الحياة بالأحياء في زمن يجري . وإذا استمررنا على هذا الحال بدون تدارك ، فسوف لا يمضي طويل عهد حتى نفقد فقداناً كلياً راحة الجماعة الواحدة الأهداف ، السائرة على جادة واحدة ، المتقاربة النزعات والميول . سنكون كتلك النباتات التي تتشعب فروعها بمجرد انشقاق الأرض عنها ، فلا تجتمع في ساق واحدة قوية ، وجذع غليظ ينصب قوامها ويقيم عمودها ، ويوحد أليافها حتى تكون بناء مرتفعاً عن حياة الانحطاط والضعف ، ثم تتفرع بعد ذلك ، بعد أن يكون أساس حياتها ومجرى غذائها واحداً . .

فلننصرف في إجماع إلى إصلاح الحاضر فترة من الزمن نقيم فيها أساس الحياة الصالحة المنشودة لجميع أفراد الأمة . فمن الخير والوفاء أن نفرغ أولا لإصلاح الحياة المصرية لنلحقها بقافلة الحياة العامة ، ثم نعود لهواياتنا العقلية والفنية التي قد نضيف إلى التراث الإنساني جديداً . ومن العقوق لمصر وللإنسانية كذلك أن يكون بيننا علماء مُتْرَفون عقلياً وجهلاء مُدْقَعون عقلياً ؛ وليس هناك وسط تتدرج عليه طبقات الأمة من الحضيض إلى الأوج .

وسيظل هؤلاء الأرستقراطيون فكريا معذبين بجهالة أمتهم ، ومحاسبين على حماقات سفهائها ، ومهددين بانتقال أمراضها الفكرية إليهم وإلى ذرياتهم ، فإن المجاورة بين الأصحاء والمرضى عقلياً لا تقل خطراً عن المجاورة بين الأصحاء والمرضى جسمياً .

لقد ترك المفكرون المصريون أمتهم ينمو أفرادها في فترة السلم الماضية كما تنمو الأشواك في الغابة . . كل شوكة مسددة إلى جارتها التي في عنقها . . وتركوا أمراض الجهالة ، وعدم الثقة تسرى في النفوس حتى هدت قواها ، فلا تستطيع الآن أن تقاوم هذه الأزمة بجشعها وإغرائها ، وإفساد القيم فيها . .

والآن فقط ابتدأت الأقلام البليغة تفرد مقالات في معالجة أزمات البيض والجاز واللحم وما إليها ، وأخذت مجلات الفكر العالي والفن الرفيع تفسح صدرها للحديث في هذه الشئون بعد أن كانت مشغولة عن ذلك بالأبحاث العميقة عن أفلاطون وأفلوطين وجندب والشنفرى . . . ومذاهب الأدب و « مقاطيق » الشعر . . . !

والآن فقط ابتدأت الحكومة تشعر بإفلات الأمر من دائرة قانون العقوبات ، واتصاله اتصالا أوثق باللوائح والدساتير .

والآن يشعر الذين كانوا يعيشون في الأبراج العاجية والصوامع الخاصة أنه كان لا بد لهم أن يعوجوا في فترات السلام على سكان أكواخ الطين والشرْجيين . . وأن جسم الدولة لا بد فيه من صلاح القدمين كما لا بد فيه من صلاح الرأس . . . وأن الأظفار إذا أهمل أحدها على تفاهة شأنه حتى دَمِيَ وتقذَّر وتقيَّح ، فهو جدير أن يسمم الجسم كله ويُرْدِيَه . .

فى المنفى ....

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

— ١ —

جلس سيمونى مع شاب تترى مجهول الاسم على شاطئ النهر يستدفئان . وكان ثلاثة آخرون ممن يعملون معهما فى القوارب التى تنقلُ الناس من شاطئ إلى شاطئ مضطجعين بالقرب منهما فى كوخ صغير ...

وعلى ما كان يشعر به جليسه التترى فى تلك الليلة من مرض ، راح يحدثه عن وطنه ، عن مقاطعة « سيمبيرسك » وجمال مشاهدها ، وعن زوجته الحسناء .

وكاد الصمت يخيم عليهما لولا أن بدده سيمون بقوله :

— إن الحياة هنا ينقصها عنصر الجمال .. وإذا كانت الجنة فى مكانٍ ما ، فلن تكون فى مثل هذا المكان ...

فنظر الشاب إليه فى ضيق وملل ، ثم قال :

— إن الحياة هنا رديئة ! رديئة جداً ..! فلا شىء إلا الظلام يطلى ، وإلا مياه النهر الباردة تتسابق إلى شقوق الشاطئ الوحلة ، كأنما تريد أن تشق طريقها إلى البحر البعيد ... وإلا أشباح القوارب التى تسميها « كارباس » ، وإلا ذراً تتراءى متلوية هناك كأنها الأفاعى ، وإلا جبالا صغيرة من الثلج يُسمَع اصطدامها بالقوارب ..

وتطلع الشاب لحظات إلى السماء ، ثم استأنف قوله :

— إنى لأرى نجوما كثيرة كتلك التى كنت أراها وأنا فى بيتى ، وطالما كالتى كنت أراه هناك أيضاً ... ولكن شد ما أرى الفرق شاسعاً بين النجوم والظلام هنا وهناك ... !

وقهقه سيمون طويلا لهذا الحديث ، ثم عقّب عليه :

— سوف تعتاد الحياة هنا يا بنى . إنك لا تزال حدثاً طائشاً ، وأحسب أن لبن الرضاع لم يجف بعد من على شفتيك ..! ومن مظاهر طيشك تصورك ألاّ أحد أشقى منك ؛ ولكن سيأتى اليوم الذى تسأل الله فيه لكل إنسان حياة كحياتك . فانظر إلىّ مثلا : إن الفيضان سينخفض فى هذا الأسبوع ، وسنضطر إلى أن نربط قواربنا هنا إلى الشاطئ ، ثم نضرب فى أرض سيبريا باحثين عن القوت ... لقد عشت هذه الحياة اثنتين وعشرين سنة ، وأحمد الله على أنى لم أزعج لذلك ، بل على العكس إنى لا أؤمل شيئاً ، ولا أريد أى شىء ، وإنى لأسأل الله دائما لكل إنسان حياة كحياتى ....

وألقى الشاب بعض الخشب على النار واقترب منها ، ثم قال :

— إن والدى مريض مشرف على الموت ، وقد وعدتنى أمى وزوجتى بالحضور إلى هنا بعد موته .

فسأله سيمون فى انزعاج :

— يحضران إلى هنا ؟ ولماذا تريدهما هنا ؟ ألاَ فليأخذهما الطاعون والوباء ..! إن هذا التصرف منك غايةُ الطيش . إن الشيطان هو الذى يوسوس لك بهذا ، فلا تستسلم أو تُصغ إليه . وعليك حينما يحدثك عن النساء أن تجيبه بحدة : إنى لا أريد النساء ، إنى لا أريدهن .

أجل ، إن رجل الشارع والحقل والمتجر والمصنع والمزبلة ، له فى الدولة ما لأىّ كان من تأثير .. فإن لم ينل قسطه من التهذيب وتفهيمه معنى الوطنية والانتساب إلى الأمة ويقظة الضمير ، كان حريا أن تؤتى أمته من قبله فى زمن تحتاج فيه إلى أن تكون كل خلية فى جسمها صحيحة سليمة يقظة لدافعة الأذى والسموم ، كهذا الزمن الذى لا يحدى الأمة فيه إلا الضمير الحى الحارس الثابت على عوامل الجشع والإغراء ..

فليمض الماضى بآلامه وآثامه .. وليقبل المستقبل بآماله وأحلامه .. وليكن لنا من أزمات الحاضر وعُقَده وخروقه عظاتٌ تبلغ فى نفوسنا حدا نبلغ به الآمال وصلاح الأحوال غداة « البعث » من هذه « القيامة » الصغرى ....!!

عبد المنعم معروف

وعليك أن تُصرّ على حدتك إذا حدثك عن الحرية ، وأن تقول له : إنى لا أريد الحرية . إنى لا أريدها هى أو غيرها . فلست أريد الأب ، ولا الأم ، ولا الزوجة ، ولا الحرية ، ولا المنزل ، ولا الحب . وإنما أريد لا شىء .. أما هذه جميعاً فليأخذها الطاعون والوباء ...!!

وتناول سيمون جرعة من شراب الفودكا ثم تابع حديثه :

— لا تظنني فلاحا من أولئك الفلاحين الحقراء ، وإنمـا أنا ابن شماس ، وقد اعتدتُ أيام إقامتى فى « روزسيك » أن أرتدى « الردنكوت » ، وما زلت بنفسى أروضها حتى سهُل علىّ أن أفترش الأرض وأقتات من أعشابها ... وإنى لأسأل الله دائماً لكل إنسان حياة كهذه الحياة ... ومهما يكن من أمر فلست أريد أى شىء ، أو أخشى أى أحد ، ولا أظن أن على ظهر الأرض من هو أغنى أو أكثر حرية منى ... وحينما أرسلونى إلى هنا قاومت أهوائى ، وقلت : لست أريد أى شىء ، ثم كان يوسوس لى الشيطان ويحدثنى عن زوجتى وأقاربى وحريتى فأجابه بقول : لست أريد أى شىء ، ثم كنت أتحداه دائماً ... وهأنت ترى كيف أعيش الآن ، فلا شىء أشكوه أو أرجوه . وأصبحت أعتقد أن الذى يُسْلِم مقاده إلى الشيطان ويدعه ينفذ إلى قلبه ونفسه هو الذى يخسر قلبه ونفسه معاً . ويُمسى ولا أمل له فى الخلاص ، وليس الفلاحون أمثالك هم ضحايا الشيطان وحدهم ، بل جميع الناس على اختلافهم من ضحاياه .....!!

— ٢ —

وربما كان من الطريف أن أقص عليك تلك القصة : لقد حدث منذ خمس عشرة سنة أن عوقب أحد النبلاء بالنفى من روسيا إلى هنا بسبب نزاع بينه وبين إخوته على تزوير وصية . ولم يكد يستقر حتى اشترى أرضاً ومنزلاً فى « موخرينك » ثم أخذ يصرح : إنى أريد أن أعيش من عمل يدى ، فلم أعد نبيلا وإنما أنا رجل منفى .

كان رجلا صغير السن ، ولكنه كان مشبوب العاطفة، كثير الجرأة والمغامرة ، يخرج دائماً للصيد ، ويقطع عشرات الأميال فوق جواده من غير تعب . وكل ما أخذته عليه من خطأ هو أنه كثيراً ما كان يجلس فى قاربى ويقول متنهداً : آه سيمون . لقد مر زمن طويل من غير أن يرسلوا إلى أى نقود ...!

وكنت أجيبه :

ما أسعدك يا فاسيلى أرْدريتش من غير نقود ! لقد نهضت بالماضى بعيداً كأنه لم يكن ، أو كأنه كان حلماً ، ثم بدأت تحيا حياة أخرى . فدع الشيطان ؛ لا تصغ إليه ، ولا تنتظر منه إلا أن يغويك ثم يسخر منك ! فالآن أنت تريد نقوداً ، وبعد قليل تريد شيئاً آخر غير النقود ... وهكذا وهكذا ..! فالسعادة ألا تتمنى أو تريد شيئاً ، وإذا كان القدر قاسياً على أمثالنا كان من الكرامة ألا نهوى على قدميه ملتمسين المعروف والإحسان .

كنت أنقله بقاربى دائماً . وبعد عامين رأيته ذات يوم مرحا نشيطاً على غير عادته ، ثم سمعته يقول :

— إنى ذاهب الآن إلى « جوردين » لأقابل زوجتى .

ثم عاد معها بعد يوم فرأيت شابة وسيمة تحمل بين ذراعيها طفلة ، ومعها حقائبها وأمتعتها . أما فاسيلى أردريتش ، فكان غارقاً فى محيط من النشوة والسرور حتى قال لى :

— نعم يا صديقى سيمون حتى فى سيبريا يستطيع الناس أن يعيشوا ...

ومبالغة فى إسعادها جعل يختلط بمن هم أقل منه من العابثين والمستهترين ، ولكن أنى لسيدة جميلة قادمة من العاصمة أن تطيق الحياة بين الأوحال والماء والبرودة القاسية حيث لا خضرة ولا زهرة ولا فاكهة ... ومرت ثلاث سنوات تقاسى معه خشونة الحياة فى تجلد واحتمال إلى أن وسوس لها الشيطان ، فإذا زوجها لم يعد فى نظرها نبيلا ، وإنما هو مطلق رجل منفى فى سيبريا ...

ثم سمعت فى ليلة عيد العذراء صيحات على الشاطئ

الآخر ، فانتقلت بقاربي إلى حيث مصدر الصوت ، فإذا زوجته متنكرة مع موظف صغير ، وقبيل الصباح أقبل زوجها يسألني :

— هل عبرت زوجتي يا سيمون مع شاب يلبس منظاراً ؟

فقلت له : نعم عبرت متنكرة معه . وهيهات أن تحصل عليها !

وظل يقتفي أثرها نحو أسبوع ، ثم عاد فاشلا ورأيته يضرب رأسه في القارب من الغيظ ، ويجهش بالبكاء كالأطفال ... ! فقلت له :

— هات ترى كيف تقدر لك أن تعود فتعيش وحدك هنا ... ثم ضحكت ورحت أردد متهكما قوله السابق : نعم في سيبريا يستطيع الناس أن يعيشوا .. ! وتملكته رغبة الإفلات من النفي لاستعادة زوجته من بين أحضان حبيبها ، ولهذا كان يتردد يومياً على السلطات المختلفة في المدينة ملتمساً الإفراج عنه ، وفي سبيل ذلك اضطر إلى بيع أرضه ثم رهن منزله للمرابين .

في هذه الحياة المضطربة قضى ثماني سنوات . . . ثم عادت إليه طمأنينته ولنشاطه القديم ؛ فقد بدأ يتلهى عن زوجته بابنته ، ويوم أدركت واكتملت محاسنها شغف بها حبا حتى لم يعد يطيق فراقها وكثيراً ما كان يقول لي وهي في رفقته : نعم يا سيمون حتى في سيبريا يستطيع الناس أن يعيشوا ويجدوا سعادتهم . انظر كم هي لطيفة ! إنك لن تجد لها نظيراً ولو قمت برحلة طولها ألف ميل ...

ومجاملة له كنت أوافقه وأقول : نعم ، ما ألطفها حقا ! أما فيما بيني وبين نفسي فكنت أقول مسكين هذا الرجل أما يعلم أن الدم الصغير سيجد طريقه ؟ إنها تريد أن تحيا ، ولكن ماذا تكون الحياة هنا ؟ وما هي إلا أشهر حتى تحققت نبوءتي فأدركها الهزال والمرض الشديد . ثم انطلق الوالد البائس يلتمس لها الأطباء ، وكان إذا علم أن طبيبا أو دجالا على بعد مئات الأميال سعى إليه .

ولم يكد يصل سيمون إلى هذا الحد حتى فاجأه الشاب التتري وهو يرتعش بقوله :

— حسن ، حسن !

— حسن حسن ؟ ما هذا الشيء الحسن ؟

— نعم ، حسن أن يرى زوجته وابنته . وأي مال يعادل رؤيته لهما ؟ لطالما قلت : ينبغي للشخص أن يريد لا شيء . ولكن لا شيئك هذه هي الشيطان . ألم يقض مع زوجته هنا ثلاث سنوات ؟ فهذه السنوات الثلاث شيء حسن ، أما لا شيئك هذه فهي الشيطان !! ألا ليت زوجتي تستطيع أن تأتي إلى هنا يوما واحدا بل ساعة واحدة إذن لتحملت من أجل تلك السعادة كل تعذيب وحرمان ، إن يوما واحدا من أيام السعادة خير من لا شيئك هذه ... ؟

رباه ! أأنا مذنب حقا أم أخذت بجريرة غيري ؟ لقد سطا أخواي وعمي على فلاح وسرقوا بعض خيله وضربوه ضربا كاد يفضي به إلى الموت ، ومن العجيب أن يقضى علىّ أنا وأخويّ بالنفي إلى سيبريا ثم يطلق سراح عمي الغني ! وإلى هنا لم يتمالك التتري نفسه ، فأسلم رأسه إلى يديه وراح يجهش بالبكاء ، فأخذ سيمون يلاطفه :

— سوف تعتاد هذه الحياة يا بني ... ! ولكن التتري استسلم إلى الصمت ثم نظر في حيرة إلى النار بعينين محمرتين من الدمع كمن لا يقدر أن يفهم لماذا يعيش هنا في هذا الصقيع والظلام . . . واضطجع سيمون على الأرض ثم أخذه السعال بعد أن أتى على آخر جرعة من شراب الفودكا فأسرع إلى النوم . ولما خلا التتري بنفسه راح يفكر في قريته وزوجته ويتمنى لو أتت لمدة شهر أو يوم واحد ثم تعود ... إن قضاء شهر أو يوم معها أحسن من لا شيء ... وفجأة أحس قشعريرة وألما في جسمه ، فهمّ بالتحول إلى الكوخ ، ولما كان الكوخ أشد برودة من الشاطئ وليس لديه ما يغريه به آثر البقاء بجانب النار ...

— ٣ —

ورأى التتري فيما رأى النائم أن الفيضان قد انخفض وأن الحركة تعثرت على كثير من القوارب فاستراحت إلى الشاطئ ، ولم يعد لرجالها عمل إلا سيمون ، وصار عليه

أن يجوب القرى مستجديا أو باحثاً عن عمل آخر . . .

وانبثق الفجر في خلفه ، واستبانت الحياة قليلا ، وظهر على صخرة موحلة كوخ مسقوف بالقش وخلفه منازل القرية مبعثرة من فوقها الديكة تصيح . . . ! لقد خيل له أن الصخرة والقوارب والنهر والجوع والمرض والبرد ، وربما كل هذه الأشياء جميعا ليس لها وجود حقيقي وما هي إلا أحلام تعرض له ، ثم رأى نفسه في منزله ينادي زوجته وهي ترد عليه من حجرتها كما رأى أمه في الحجرة الأخرى . واستيقظ فجأة على صوت ينادي .

كان الثلج يتساقط وقتئذ ، وكان على الشاطئ الآخر شخص يصيح : « كرباس » ! القارب . فنهض التترى يستدعي رفاقه ثم عاد ومعه ثلاثة منهم يرتدون من جلود الأغنام ، ويسعلون في صوت أجش من شدة البرد . . . لقد بدا النهر لهم بعد النوم بعواصفه الوخازة شيئاً مخيفا كريها ، وظل الصوت يتردد على الشاطئ الآخر ، ثم أطلق صاحبه طلقتين من مسدسه ظنا منه أنهم قد ناموا أو ذهبوا إلى فندق القرية . . . ولم يكد يسمع سيمون صوت المسدس حتى قال بلهجة المقتنع بأن لا شيء في هذه الدنيا يستحق العجلة :

— ماذا ! لا يزال هناك متسع من الوقت !!

وغادر القارب الشاطئ وشق طريقه بطيئا في النهر ، وأعمل رجاله مجاذيفهم في الماء بضربات بطيئة محدودة ، وسيمون مشرئب يثقله على السكان . لقد ظهروا في هذا الضوء الخافت كرجال جالسين على حيوان طوفاني يعوم في إقليم بارد معتم ، ثم سمعوا صيحات متتابعة : أسرعوا أسرعوا

كان ينتظر على الشاطئ الآخر شيخ طويل هزيل في معطف قصير من فراء الثعلب وعلى رأسه قبعة بيضاء من قبعات « استراخان » ، لقد وقف على مقربة من مركبته صامتا لا يتحرك ، تناتابه حالة شعورية قاسية كمن يحاول أن يتذكر شيئاً ، ثم تخونه ذاكرته .. وحينما صعد سيمون إليه ورفع قبعته محيياً مبتسما فاجأه الشيخ : أريد أن أسرع إلى « أستاسيفكا » ، إن ابنتي قد ساءت حالتها مرة أخرى .

وقد أخبرت أن في « أستاسيفكا » طبيباً جديداً ... وأنزلت العربة إلى القارب ، وبينما الرجال يجدفون كان هذا الشيخ الذي يسميه سيمون « فاسيلي أندريتش » واقفاً في سكون يضغط على شفتيه بشدة ويسبح بنظره في الفضاء البديد ذاهلا عمن حوله : ورآه سيمون على هذه الحال ، فتملق بالسكان ونظر إليه في سخرية واستخفاف ثم صدمه بقوله : نعم نعم حتى في سيبريا يستطيع الناس أن يعيشوا . . . ! ثم ظهر على وجه سيمون شعور الانتصار كأنما تحقق من صحة شيء ، أو كأنما سارت الأمور كما قدر ... ومن المؤلم أن نظرة هذا الشيخ البائسة المنكسرة قد سرت سيمون وأطربته ، ولما غادرت المركبة القارب إلى الشاطئ قال فاسيلي أندريتش : إن الطريق موحلة الآن ..... فقال سيمون : يحسن أن تنتظر أسبوعين حتى تجف ... لهذا إذا لم تكن هناك حركة ، ولكنك تعلم أن الناس لا يمكن أن ينقطعوا عن الحركة ليلا ونهارا !

ولكن فاسيلي أندريتش لم يزد على أن أعطاه بعض النقود ثم ركب ومضى لشأنه .

ولم تكد تبتعد المركبة قليلا حتى قال سيمون للشاب التترى : انظر ها هو ذا يعدو في الظلام والبرد يبحث الأوحال والطين يلتمس الطبيب . ألا فليأخذهم الطاعون والوباء جميعاً ... !

لم يستطع الشاب التترى أن يحتمل أكثر مما احتمل ، فمشى نحو هذا الرجل الغريب سيمون وبنظرة يمتزج فيها الحقد بالاحتقار راح يخاطبه بلهجة تترية روسية :

إن هذا الرجل الذي عرفت بمواجهه طيب جدا أما أنت فخبيث غاية الخبث .. لقد منحه الله روحا إنسانية خيرة أما أنت فحيوان شرير ! إنه نبيل وهو حي على حياته ، أما أنت فجامد ميت ! لا شك أن الله قد خلق الإنسان الحي ... الإنسان الذي تتداوله السعادة والشقاء ، والفرح الحزن ، والأمل واليأس ، أما أنت يا من تنكر كل ذلك ، وتهزأ بكل ذلك ، وتنفر من كل ذلك ، فلست بإنسان حي ... ! إنك ... إنك حجر صلد ! فالحجر لا يريد أي

أوراق متساقطة من قصة الأدب

تحت هـذا العنوان نشرت الرسالة في عددها ٥٣٦ نقداً لحضرة الأستاذ البغدادي نزار الحاج سليم جاء فيه : قرأت في كتاب « قصة الأدب » للأستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود ما يأتي :

« .... ولئن كان المصريون الأولون ينقشون آثارهم على جلاميد الصخر ، فقد كانت بابل تكتب آثارها على ألواح من الطَّفل وهي أيسر حلاً وأخف نقلاً » .

فإن كان ذلك حقاً فمن العجيب ألا نجد للبابليين أدباً أو شبه أدب !

والجواب ، كما ذكره الأستاذان : « أنه لم يحدث ذلك لأن القراءة الشعبية لم يكن لها وجود ، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة إلا نفر قليل من القساوسة والنساخ ، وكانت الكتابة مقصورة على موضوعات الدين وأعمال الملوك » .

وهل اقتصرت الكتابة حقيقة على موضوعات الدين وأعمال الملوك ؟ فأين ذهبت ملحمة كلكاميش إذن ؟

وبعد ذلك نجد حضرة الناقد يعرض هذه الملحمة كما سبق أن نشرت بالعدد الثالث والثلاثين من مجلة « الثقافة » ويختم عرضه بقوله : « لقد قرأت كل هذا في مجلة « الثقافة » وكلنا يعرف أنها للأستاذ أحمد أمين ... فهل سها الأستاذ عن مثل هذه الملحمة عند ما جاء مع الأستاذ زكي نجيب محمود يصنف الأدب القديم ؟ وهل يسهو اثنان ؟ ! »

فمن تعليق الأستاذ نزار يتبين لنا أنه لم يقرأ شيئاً في الأدب البابلي أو قرأ ولم يفهم . فجلجمش كان ملكاً ، وجلس على عرش (أوروك) التي هي (وركا) الحالية زمناً طويلاً ، ومن ثم حدث أن طلب إلى شعبه أن يشيد سوراً للمدينة ويبني معبداً للإلـه (أنو) وآخر للإلـهة (عشتر) ، لكن هذا العمل كان شاقاً مضنياً . فلذلك توجه شعبه إلى الآلهة شاكياً متضرعاً ، فخلقت الآلهة كائناً يشبه الملك جلجمش قوة لينافسه السلطان ويثنيه عن مواصلة العمل . أما هذا الشخص فهو (أنجيدو) الذي يقوم بدور هام في هذه الأسطورة

شيء ، وكذلك أنت ... ! وأقسم إن الله لا يحبك وإنما يحب ذلك الرجل الذي جعلت من آلامه غذاء لفلسفتك الدميمة !

وظن التترى أن قد شفى نفسه من هذا الحيوان الشرير ، ولكنّ ما لبث أن ضحك سيمون ومن معه ، فقطب جبينه ، ولوّح بيده ، وتلفع بخرقه البالية ثم اقترب من النار ، بينما مشى الآخرون إلى كوخ فرشت أرضه الوحلة بالقش الرطب حتى إذا صاروا بداخله قال أحدهم بصوت أجش وهو يستلقي على الأرض :

ما أشد برودة الجو ! فرد عليه أحد رفاقه موافقاً :

— نعم ، ليس الجو دافئاً . إن الحياة شاقة قاسية .!

ثم اضطجعوا جميعاً ... ثم أخذت العواصف القارصة تهب عليهم ، والثلوج تتراكم في الداخل ، حتى لم يستطع أحدهم أن ينهض ويقفل الباب من سطوة البرد ... !

ولما شرع سيمون في النوم قال متمتماً : إني لسعيد . إني أسألك لكل إنسان حياة كحياتي ..

ولكنه سمع من يقول له من الخارج :

لست حريّاً أن يحب الله دعاءك . إنك الشيطان بعينه . بل إن الشيطان ليشمئز من مثلك ويخشاه .. !

ثم طرقت آذانهم من الخارج أصواتٌ أشبه بنباح الكلاب فقال أحدهم :

— من هذا ؟ من هناك ؟ فأجاب سيمون :

— إنه التترى يبكي . . . فقال زميله :

— آه . إنه لسمكة غريبة ! فتمتم سيمون :

سوف يعتاد هذه الحياة ...

* * *

وفي الحال أدركه النوم كما أدرك رفاقه ، وظل الباب مفتوحاً حيث العواصف تدوي ، والثلوج تتراكم ، وهم نائمون ... ... !!

عبد العزيز عتيبي

حنـــــين

حنيني إلى ذكراك يسرى بخاطرى
فهل فى انطلاق الفكر قلبك ذاكرى؟
إذا هاجت الذكرى تدفقت التى
عسى طيفك المحبوب يبدو لناظرى
أسير على وهم يطل خاطرى بعودة أيامى وعودة ساحرى
أسير على وهم فأسعد واهماً كأنك زمانى .. كأنك زائرى
كأنك تحيوى قبلتك التى
تسير لأغوارى وتحلو مشاعرى
كأنك والآمال لاحت وأينعت
وطابت وألقت تهوى بأزاهر
تهدهد أشواقى التى جُن طيرها
بصفو حنان عاطر الود زاخر
أرى وجهك البسام فى كل لمحة
تلوح لعينى أو تطوف بخاطرى
فكنت الشعاع السمح يملأ ناظرى
وكنت الهوى البسام يحلو دياجرى
وكنت انطلاق العطر من ثغر زهرة
رف مع الأنسام حلو النشائر
إذا لم يذب قلبى لطيفك ساجداً
فلست بفنان ولست بشاعر!

* * *

سئمت الهوى الخداع يشعل خافقى
فتحطم قيود الحب تحطيم قادر
وبدد أناشيدى وبعثر قصائدى
وضيق ميادينى وحطم خواطرى
فقد عدت لا أخشى سوى عودة الهوى
تجدد أشجانى وتذكى نوازى
وتشعل فى فكرى الشكوك عواصفاً
وإنى لشكاك النهى والسرائر
ملكت فؤادى عنوة وأسرتنى
وهل يسعد المأسور فى كف آسر!

وكما أن استشهاد الأستاذ بهذه الملحمة كان حجة عليه لا له ، كذلك بقية الأدلة التى ساقها كأسطورة — تموز وعشتر — (الصواب تموز) و — ترنيمة عشتر — فكلها عبارة عن ترانيم كانت تغنى فى المناسبات الدينية الخاصة . ويؤسفنى أن أقول هنا إن حضرة الأستاذ الذى أباح لنفسه أن يقف من الأدب البابلى هذا الموقف لا يعرف أن (تموز) هو إله الطبيعة أو الخصوبة فى الديانة البابلية ، وهو وإن لم يكن عضوا فى مجمع الآلهة البابلى إلا أنه كان إلهاً من أكبر الآلهة التى لعبت دورا خطيرا فى ديانات العالم القديم ، ليس عند الساميين فحسب بل عند اليونانيين وغيرهم من الشعوب الذين اتصلوا بالشرق القديم اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

وتحدثنا النصوص التى بأيدينا على أن الشعب البابلى كان يبكيه لموته وانتقاله إلى العالم السفلى فى الشهر المسمى باسمه ، كما أنه كان يحتفل بقيامه من بين الأموات فى فصل الربيع حيث تحيا بحياته الأرض ، ويعود إليها خصبها ونماؤها . وهو كإله للخصوبة لا يستطيع عالم الأموات الاحتفاظ به كما يعجز الظلام عن حبس أشعة الشمس عن الأرض . لكن الخصوبة تتطلب إلى جانب الإله (تموز) وجود الإلهة (عشتر) التى كانت عشيقته أو زوجه ، والتى رحلت إلى العالم السفلى وأنقذته .

فجميع الترانيم التى وصلتنا عن هذين الإلهين إنما هى ترانيم دينية ، وهى وغيرها من سائر الأساطير التى اهتدى إليها علماء اللغات السامية تؤيد قول أستاذى الفاضل أحمد بك أمين والأستاذ زكى نجيب : (وكانت الكتابة مقصورة على موضوعات الدين وأعمال الملوك) .

دكتور فؤاد حسنين

سئمتُ القيود اليوم فأطلقْ مقادتى
عسى تهدأ النيران فى قلب ثائر !
وإن كنت ترعانى وترجو سعادتى
فكن شر خدّاع وكن شر غادر
ولكنْ رويداً .. ! ذاك منطق ثورتى
فإن عدت مشتاقاً وعادتْ مشاعرى
ولم ينطلق قلبى لطيفك ساجـــداً
فلستُ بفنان ولست بشاعر !!

***

إذا سالتْ الأشواق من نبع لهفتى
إليك وحنّت بالحنين سرائرى
ترامت طيـــور الشوق تستبق المنا
إلى وكرك المحبوب من كل طائر
وألقيت للأشواق أشرعة الهـــوى
عسى الشاطئُ المجهول يدنو لحائر !
فتشرق أيامى وتذهب لوعـــتى
وتضحك آمالى ويهــــدأ ثائرى
فؤادى . فؤادى لم يزل من ضلاله
يهيم مع الأوهام عبر الخواطر
ويبنى من الأحلام آمال قادر
ولم يدر أن الحب أروع قادر !
أضعت حياتى واهماً ليت أننى
وأدت أحاسيسى وكذّبت ناظرى !
وحطمت أشواقى وبددت لوعتى
وألقيت للأحلام نظرة ساخر !
على أننى ما كنت أستطيعُ نجوةً
من الحب . إن الحب أروع ماهر !
أرى وجهك البسام فى كل لمحة
تلوح لعينى أو تطوف بخاطرى
فإن لم يذب قلبى لطيفك ساجداً
فلست بفنان ولست بشاعر !!

(الإسكندرية) حسين محمود البشبيشى

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ فى مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمى الإلزام
٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـــدد ١٥ مليما

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٢٥٢ — الثلاثاء ٢٧ من شوال سنة ١٣٦٢ — ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

نبوءات السلم والحرب

للأستاذ محمد خلف الله

من أهم ما يمتاز به عالم الطبيعة أنه يستطيع التنبؤ بما سيحدث من الحوادث في عالمه ، متى توفرت الشروط والظروف ، وتهيأت العلل والأسباب . وصدق هذه النبوءات واحدة بعد أخرى قد أقنع الناس بضرورة قبولها والثقة بها . فهل لعلماء الإنسانيات كذلك نبوءات صادقة يعتدّ بها ؟ لا شك أن تفسير الظواهر الإنسانية وضبطها ، والتنبؤ بما سيحدث منها ، كان — ولا يزال — هدف علماء هذه الفروع في القرنين الماضي والحاضر ، وعلى قدر نجاحهم في هذا يكون قربهم من رجال العلوم الدقيقة ، ومكانهم من العلم الصحيح .

أمامي الآن ثلاثة أمثلة من نبوءات العلوم الإنسانية ، كلها خاصة بالحرب ، وكلها صادرة عن جامعة واحدة — بل كلية واحدة — هي — يونيفرستي كولدج — بجامعة لندن . فقبل أن يندلع لهيب الحرب الحاضرة بست سنوات نشر « ماكري » أستاذ الفلسفة بتلك الكلية كتابه (الحرية في العالم الحديث) ؛ ونشر « سيرل برت » أستاذ علم النفس كتابًا — اشترك فيه وآخرين — عنوانه (كيف يعمل العقل) ؛ ونشر زميله « فلوجل » كتابه (مائة سنة من علم النفس ١٨٣٣ — ١٩٣٣) . وفي كل هذه الكتب يتنبأ هؤلاء العلماء أن الحرب واقعة — إلا إذا عمل الناس على تغيير مجرى الحوادث — وأن شرًا مستطيرًا يوشك أن يدهم العالم ، فيذهب بحرثه ونسله ، ويتلف طارفه وتليده .

بنى « ماكري » فكرته على أساس التفرقة بين ناحيتين من نواحي العقل الإنساني هما الذهن والوجدان : فأما أولهما فهو آلة المنطق والتفكير ، والعلم والاختراع ،

والمدنية وأساليبها المادية الرائعة؛ وأما الثاني فهو مصدر السرور والألم، والعاطفة والانفعال، والفن والتدين، والعرف والتقاليد، والثقافة الروحية على وجه الإجمال. ولن يستقيم السلام في نفس كل فرد، وبين صفوف كل أمة، وبين بعض الشعوب وبعض، إلا إذا انسجمت هاتان الناحيتان فمشتا جنباً إلى جنب، وتحررتا معاً مما يفرض عليهما من قيود، إلا قيود الفطرة والتطور الصحيح. فأما إذا تحرر الذهن — كما حدث في القرنين الماضي والحاضر — فأطلق لنفسه العنان في ميادين التجربة والاختراع، وتفنن ما شاءت له عبقريته في أساليب التدمير والهلاك، وبقي الوجدان مقيداً مكبوتاً في غرائزه وانفعالاته وثقافته الروحية، عاجزاً عن أن يحمل المصباح لهداية الذهن، ويقبض بيده على عنانه، ويكبح قليلاً من جماحه، فلا مفر من جائحة مهلكة لبني البشر، تكاد لا تبقي ولا تذر. وقد كانت هذه في نظره حالة العالم في تلك الأيام (١٩٣٣).

وقرر « فلوجل » فكرة قريبة من هذه في صدد الكلام على تطور الدراسات النفسانية في العصر الحاضر، وضرورة إفساح المجال لها حتى تتكون على أساسها وجهة نظر تعدل التفكير الذي قام منذ القدم على أساس السياسة والدين والاقتصاد والعلم المادي، وتعيد للشخصية الإنسانية توازنها وانسجامها؛ فقد لعب العلم الطبيعي دوراً كبيراً في أن خلع على الناس قوة جديدة لم يحلموا بها من قبل، ووضع في أيديهم أسلحة بالغة الخطر دون أن يعلمهم كيف يحسنون استعمالها. « وإن علم النفس وحده » — في رأي فلوجل — « هو الذي يستطيع أن يقوم بهذا الواجب الأخير — وإذا صدق المثل القديم من أن (التفاهم أساس التسامح)، فلنا أن نرجو — إذن — أن تسفر زيادة معرفتنا بطرائق العقل الإنساني في عمله عن بعض الزيادة في الشفقة الإنسانية والتسامح والتعاون، مما يمنع دعائم المدنية أن تنهار، وهذا الانهيار — كما يؤكد لنا العارفون — خطر حقيقي يوشك أن يقع ».

ولكن دراسات « برت » وزملائه أخذت طابعاً آخر، فقد ألقوا على الراديو الإنجليزي في سنة ١٩٣٣ سلسلة من الأحاديث (نشرت بعد في كتاب) عن طرائق عمل العقل في حياة الفرد — طفلا وراشدا — وفي حياة الجماعة. وتولى « برت » — فيما قام به — الكلام عن هذه الناحية الأخيرة، ناحية الجماعة، ففصل النتائج الحديثة في سيكلوجية الجنسين والشعوب، والسياسة والفراغ، والفن والدين؛ وناقش — فيما ناقش — الفوارق الموجودة بين الأمم: ما الأصيل منها وما الدخيل، ما الفطري منها وما المكسوب، ما الفرص الحقيقية لقيام سلام دولي عام، ومن أين نشأت تلك الآراء والمذاهب السياسية التي تنادي بتفضيل جنس على جنس، وسيطرة قوم على آخرين. وأشار إلى أن الألمان قد وهبوا لأنفسهم برهاناً يرضونه على أن الجنس التيوتوني أعلى الأجناس شرفا، وأن قومه هم المختارون، وأنه مخلوق ليفتح — ويخضع — اللاتيني الهزيل في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا. ثم بين أن الفكر الإنجليزي كان دائما في شك من أمر الخصائص الجنسية الفطرية، وأنه يميل إلى الاعتقاد في قوة التنشئة والتقليد أكثر من اعتقاده في الوراثة والجنس.

غير أن الفكرة التي تهمنا هنا في بحث « برت » تجيء في صدد كلامه على تعليل الطابع العام الذي يتجلى في كل أمة، والروح العامة التي يبدو أثرها في فلسفتها واتجاهاتها السلمية والحربية، وما يكنه المستقبل تبعاً لذلك من أحداث وشئون.

يقول « برت »: شاعت في القرن الماضي نظرية — نبتت أولا في ألمانيا — (وكان بطلها هيجل)، وانتشرت منها مع الحركة الرومانتيكية؛ خلاصتها أن

لكل أمة — كما أن لكل فرد — نوعاً من العقل، إلا أنه في الواحد فردي، وفي الأمة اجتماعي؛ فنحن نتكلم أحياناً من روح الجماعة، ومن إرادة الشعب، ومن بلد بأكمله يعمل كأنه رجل واحد. وهذه العبارات — عند هيجل وأتباعه — ليست مجرد مجازات خاصية، ولكنها حقائق معينة. فكما أن الكائن العضوي يتألف من جسد ذي أعضاء، نرى فيه روح واحدة أو عقل واحد — كذلك الأمة بأعضائها تؤلف كتلة واحدة أو جسداً واحداً، ويتجمع من عقولها عقل واحد هو شعورها أو وعيها الاجتماعي. وقد وجد هذا الرأي تأييداً من علماء نظرية النشوء والترقي، ومن أمثال «هربرت سبنسر» الذي ذهب إلى أن الجماعة الإنسانية يصح أن ينظر إليها باعتبارها كائناً عضوياً معقداً. وإذن فإدراك شعب ما يمكن أن يكون نوعاً من الشعور الجمعي الذي يضم في طياته إدراكات كل أفراد ذلك الشعب، وليس هناك حد لحجم المجموع الذي قد يكون له شعور خاص به؛ بل إن القائلين — من المتصوفين — بوحدة الوجود يمكن أن يتطلعوا إلى روح أعلى يشمل الوجود ويملأ جميع نواحيه.

شغل هذا الرأي حيزاً كبيراً في مناقشات رجال النظريات السياسية، وهو الآن يشغل مكاناً في دراسات علم النفس الاجتماعي، وله أدلة وعليه اعتراضات لا مجال لذكرها هنا. و «فورت» بالضرورة لا يقره على إطلاقه، بل يحاول أن يفسر سلوك الجماهير وأرواح الشعوب على أسس سيكلوجية معروفة، ولكنه يفرد الفلسفة الألمانية الحديثة بإشارة لها مغزاها في الحروب العالمية، ونصيب ألمانيا من إثارتها. يقول:

« خذ الثاليين الألمان في القرن التاسع عشر — مثلاً — تجدهم جميعاً عظموا شأن الدولة؛ فهم، على حسب النظرية التي شرحناها، قد اعتبروا الدولة أشبه بكائن روحي له شعور وإرادة خاصان به، أو أشبه بمخلوق هائل (Leviathan) روحي — فالدولة هي السلطان الآمر، والدولة فوق الجميع، ومصالح الشعب فوق الاعتبارات الخُلُقية، وأهم من مصالح الأفراد، ومن مصالح أي شعب آخر، بل أهم من مصالح العالم كله. وسرعان ما يجر هذا المذهب إلى أخطار القومية الضيقة، ويقود — لا إلى الاضطهاد داخل الدولة فحسب — ولكن إلى حرب خارجها ».

هذه النبوءات والنُّذُر التي سبقت الحرب الحاضرة — وكثير مثلها — تجلو لنا لوناً من ألوان التفكير الذي سيتجه إليه العالم بعد هذه الحرب، بل ضرباً من ضروب العلاج لأدواء الإنسانية الحاضرة. وهو كما ترى يلمس المادية والروحية في الصميم، وينبه بني الشرق — إن لم يكونوا قد تنبهوا — إلى ضرورة إعادة النظر في اتجاهاتهم الثقافية، وسياستهم الحاضرة والمستقبلة في الحياة.

محمد خلف الله

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

شرٌّ في القُرَاد

وانتشر الموت الزاحف داخل المعمل وخارجه

> وصل القارئ: البيت الأحمر معمل علمي في وشنجطن، والعصابة التي فيه جماعة من العلماء الأطباء تستخدمهم حكومة الولايات المتحدة، يحاربون الأدواء حيث ما ظهرت في الولايات، ودين الجميع الموت في سبيل الواجب.
>
> وأحد هذه العصابة الدكتور «اسبنسر». أشخصته الحكومة إلى الغرب، إلى ولاية «منتانا»، إلى حيث الوادي الجميل وادي «بطروط»، وبه حمى خافية تصيب الناس فتقتلهم.
>
> حزم «اسبنسر» أمتعته وزوجه وطفلين له، وركب القطار فبلغ بلدة «همِلتن» في تلك الولاية بجوار ذلك الوادي.
>
> واستقبلهم هناك «بركر» وهو دكتور في علم الحشرات. وهذا الرجلان يتحسسان سبيلا لبحث هذه الحمى.
>
> وكان المعروف أن الحمى لا تصيب الرجل إلا إذا عضته قرادة. وكان سبقهما إلى بحث مسئولية القراد علماء آخرون، أثبتوا أن القراد هو المسئول، واستخلصوا منه مكروب هذه الحمى، وربوه في خنازير غينية، ونقلوه من خنزير إلى خنزير، ثم إلى القرود.
>
> ووصل «اسبنسر» و «بركر» و «وجانسر»، وصلوا جميعاً بعد التجارب إلى الحقيقة الآتية:
>
> أن القراد على الشجر يضمر في الشتاء ويجف كثيراً، فإذا سحقوه وحقنوا مسحوقه في خنازير غينية سليمة لم يصبها منه شيء. ولكنهم إذا هم وضعوا هذا القراد حياً على جلد حيوان فشرب من دمه فانتعش والتفخ وامتلأ، ثم سُحق وحُقن مسحوقه في الخنازير السليمة أصابتها الحمى فماتت.
>
> والآن نقرأ:

ولم يكونوا يعلمون كيف تفهم هذه التجارب، ولكنهم أجرَوْها مراراً وتكراراً، وأثبتوا بعضها بعضاً في غير منطق ظاهر، وهم في كل هذا يحسبون أنهم إنما يعملون شيئاً ذا خطر وذا بال. وظل «بَرْكَر» يحلم بأمله القديم من مسح الوديان التي يسكنها القُراد. وظل «اسبنسر» لا يرى في هذا المسح نفعاً. وظل كلاهما كمثل الغريق يمدّ يده إلى كل ما عثر على الماء، ولو قشّة، عسى أن تكون بها النجاة.

وكان العالم الميكروبيّ الشهير «ريكتس» قد سبق فأشعّ لهم في هذا الظلام شُعاعةً صغيرة تضيء بعض نواحيه. كان قد سبق فأثبت أن المخلوق الذي تصيبه هذا الحمى فيكون من حظه الجميل الخلاصُ منها يصبح من بعدها وهو محصّن منها فلا تصيبه مرة أخرى. أثبت هذا قُبيل لقاء حتفه في بلاد المكسيك حيث ذهب ليكافح التيفوس المكسيكي فكافحه فقتله.

ذلك أن «ريكتس» جاء بقرد كاد يموت بالحمى، وجاء بخنازير غينيّة أعفاها الله من الموت بهذه الحمى، وكان من حقّها أن تموت. جاء بهذا القرد وهذه الخنازير فحقنها بمقادير من ميكروب الحمّى تضيق بها حتماً جلودها، ومع هذا بقيت حيّةً سليمة لم يَطرِف لها عين أو يتغير لها مزاج.

وبالطبع لم يخطر على بال «اسبنسر» أن يجرّب هذا التحصين من الداء في الرجال، وكيف يخطر له أن يُعطيَ الداء لأحد من الناس وهو يعلم أن الموت لا بد واقع في ثمانية من كل عشرة منهم. وما حاجته إلى هذا وهو قد ثبت له أن هذا التحصين حقيقة لا شبهة فيها. ألمْ يأتِ بهذا القراد الضامر الجاف الأمين الذي كان جمعه «كوان» برايته البيضاء من تحت الشجر، فسحقه، ثم حقن سَحيقه في خنازير غينية، فلم يصبها من الحمى شيء، ولكنها اكتسبت من ذلك حصانة ضدّ هذه الحمّى ظهرت في تسعة وعشرين خنزيراً من مائة خنزير

حقنت بدم القراد المنتفخ المتقش الذى استمر فيه مكروب الداء استمارا؟!

ومع هذا، وعلى الرغم من جرأته، لم يقو «اسبنسر» على تجربة هذه الحصانة فى رعاة الأبقار.

وذهب الصيف، وحل الخريف، فقلب «اسبنسر» وصاحبه «بركر» هذا المعمل، أو هذه المدرسة ذات الحجر الأربع وقد أدفأوها من برد الشتاء بحر المصابيح، قلبوها إلى بيت للقراد من كل سن، من قراد وليد، ومن قراد مراهق ناشئ، وبالغ كامل البلوغ؛ واحتوى هذا البيت الملايين من القراد، من قراد لا شر فيه، وقراد بالواحدة فيه من جرائم الداء ما يقع بالمائة من الرجال. وبهذا العدو العديد من القراد بدأوا تجربة هائلة...

إن القرادة الضامرة تشرب من دم الخنزير الغينى فتنتفخ فتنقلب من قرادة لا ضرر منها إلى قرادة بها كل الشر وكل الموت. أفكان كل هذا الانقلاب لشربة من دم؟ أفتنقلب القرادة الضامرة هذا الانقلاب إن هى شربت من غير دم الخنزير، كأن شربت من دم حصان أو بقرة أو جدى أو سنجاب؟ أم هى تنقلب بشربها دماء هذه الحيوانات إلى شيء أخف وألطف، وقد يكون فيه حصانة من الداء؟

وتدخل حجرة ملموئة، فتجد حوائطها محجوبة بأرفف عليها أقفاص كبيرة قد لفت فى أقمشة بيضاء كالأكفان، شدت عليها ثم حزمت من أعاليها. ففى هذه الأقفاص فقسوا آلافا من القراد، تخرج صغيراً لا يكاد يرى. ثم أعدوا هذا القراد الصغير بالداء، ربطه على بطون أرانب وبشق يقطع من الشاش ليمتص من دمائها.

ثم هم يحلون عن أقفاص ذلك القراد سراويلها البيضاء، ثم يغوصون بأيديهم وهى عارية فى تلك الأقفاص إلى قيعانها، وهى من قماش سميك، فيجمعون ما سقط عليها من بطون الأرانب من قراد، بعد أن امتلأ من دمائها. وهم بعد هذا لا يقطعون أبداً بأنهم قد جمعوا كل هذا القراد فلم تفلت منه واحدة...

وكان هذا القراد الصغير فى حجم رأس الدبوس، وفى سرعة الريح. وفقد «اسبنسر» بين هذه المخاطر بروديته واتئاده وكل ما عرف عنه ومن عصابته — رجال البيت الأحمر — من قلة هم وقلة مبالاة. فأخذ يحلم الليالى من هذا القراد، فيرى نفسه فى المنام وقد انقلبت من يده على منضدة المعمل صناديق مليئة به وهو منتفخ ريان، ويرى نفسه وقد تفزع وأسرع يلم ما انتشر منه، فلا يستطيع لمه كله. ثم يصحو وقد تصبب العرق من جسده.

والمصيبة أنه يصحو ليستأنف هذا الحلم صاحياً، ويعود باليقظة إلى حقائق مبصرة ليست أخف وقعاً من الأحلام.

وتمهر «بركر» فى القراد وما اتصل بالقراد. وقضوا أشهراً يعنون بهذا القراد الصغير الذى أولوه من الأرانب، ورأوه يخلع عن نفسه ذلك الجلد الأبيض القريب، وينسلخ من عرائس ذات أرجل ثمان، ثم يرون هذه العرائس يهبط عليها النوم عجيباً، ثم تصحو فتتغذى من دم الأرانب مرة أخرى، ثم تنسلخ مرة ثانية فتكون قرادا بالغاً كامل البلوغ. وفى كل هذه الشهور رأوا الحمى تنام مأمونة، ثم تصحو متوثبة بعد غذوة من دم، ثم تعود إلى النوم فاليقظة فى كل هذه الأدوار من حياة القراد.

بلغ «بركر» الشأو من علم القراد. قال «اسبنسر»: «ولكم قضيت ليالى أحلم أن القراد يزحف على جسمى

حتى تقتَمره » . ولكم قضَوا أسابيع في المعمل وقد ذُعروا حتى تصبب العرق منهم لأنهم افتقدوا عشرات من القراد لا يعرفون أين ذهبت . ويعودون في الأمساء إلى بيوتهم فيجدون القراد الحىّ الريّان في أثوابهم . وذات مساء وجد « اسبنسر » قرادة من هذا القراد المذرر في بيته على طفل صغير من أطفاله .

وهنا لا بد أن أذكر أن الحكومة كانت تدفع لكلا الرجلين مرتباً طيّباً — أربعة آلاف ريال في العام . واستطاعا بهذا الرتب أن يعيشا عيشة طيّبة رخيّة في ذلك الوادي السعيد حيث العيش رغدٌ رخيص . واستطاعا بالذي فضَل منه أن يملآ فعل الرجل الأحزم ، فأمّنا على حياتهما تأميناً ذا عوض كبير . وهنا يتساءل السائل هل وصفا في طلبهما إلى شركة التأمين عملهما مفصّلاً ؟ والجواب عن هذا غير مستطاع ، فليس في السجلات ذكرٌ له .

ومضيا في تجاربهما فلم تزدهما الأيام إلا حُنكة . ووقعا على جواب حاسم لسؤالهم الأول : إنّ القراد الضامر يستيقظ الشرُّ فيه ويستمر الوباء النائم رضعات يرضعها من دم أي حيوان كان ما كان .

وعانوا أي معاناة في تتبّع كل القراد الذي ربطوه على جلود البقر والخيل والجديان لتشرب من دمائها حذرَ أن يفرّ بعضه . وكانت الجديان أعصى هذه الحيوانات لأنها أكثرها جوعاً ، وأقلها مبالاة بالذي تأكل ، فكانت تصل بفمها إلى حيث القراد وما رُبط به القراد ، وإلى الشريط اللاصق ، فتأكل كل هذا أكلاً لمّاً . حتى القراد لا ينجو منه إلا ما استطاع الهرب . وهرب منه ما هرب حتى فشا الوباء في المعمل . وخدعوا الجديان عن طعامها بأن ربطوا القراد على رأسها بين قرونها . ولكن حدث هذا متأخراً ، وبعد أن صار المعمل مَرتعاً للوباء ، في داخله وفي خارجه .

حضر في مصر يوم من أيام الآحاد وله بواب المعمل لِيرى أباه . وكان قد قيل للبوّاب العجوز من قبلُ ألا يأذن لابنه أن يلعب في المعمل ، ولهذا جعل ابنه يلعب في فناء المعمل فلا يتعدّاه إلى البناء .

ومضى أسبوع ، فإذا بالولد يتلهّب من الحمى . وإذا به راقد والبقع تغمره . وإذا به يَهذي . وإذا بالأنفاس تأتيه تلهّفاً ، ثم تقف ، ثم تعود فيتلقّفها في ضعف مرة أخرى . قال « اسبنسر » : « لست أدرى كيف نجا هذا الولد ، فإني لم أرَ أحداً قرُبَ من الموت هذا القرب ، ثم عاش بعد ذلك » .

وجاء الشتاء ، وخيّم على هذا المعمل ، على هذه المدرسة العتيقة ، فتابعت تلك الجماعةُ تجاربها حتى صارت شياطين فيها ، وصاروا لا يفكّرون إلا في القراد ، ولا ينامون إلا على قراد ، ولا يصحُون إلا على القراد . والنتيجة التي حصلوا عليها إلى هذا التاريخ أنهم أحاطوا أنفسهم بمجموعة للموت الزاحف لم يجتمع قط مثلها في معمل واحد .

(يتبع) أحمد زكي

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:
٤٥ في مصر والسودان
٥/٣٧ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

وباء المدنية

إنا نعيش اليوم في عصر من عصور التاريخ نزعم أنه « عصر المدنية » . ولكن ليس من شك في أنا جميعاً — حتى أكثرنا تفاؤلاً — لا نعتقد أنه عصر كامل لا تشوبه الشوائب ولا تعيبه العيوب ؛ بل إن منا من يؤمن بأن المدنية مرض لا بد أن يصيب الأجناس البشرية المختلفة قبل أن يتكامل نموها ويتم نضجها . ولو صح هذا فالإنسانية ما تزال تشكو هذا المرض ، وتئن من ألمه المروع وفتكه الذريع . وذلك لأن التاريخ لم يحدثنا عن شعب من الشعوب أصيب به ثم أبلّ منه ؛ بل إن الأمم التي طواها التاريخ جميعا بلغت أوج المدنية والحضارة ، ثم أصابها الجمود والخمود والفناء ، ولم تستطع أمة منها أن تخرج من هذا الدور — دور المدنية — إلى آخر بعده وأعلى منه مرتبة . فهل هذه « المدنية » هي أقصى ما يستطيع أن يصل الإنسان من حدود الكمال ؟

قد يبدو من الإسراف في القول أن ننعت المدنية بأنها مرض أو وباء ؛ ولكن من الأطباء الباحثين البارزين من يراها كذلك ، ولا يخشى في إعلان ذلك لومة لائم . ومن هؤلاء (ادورد كاربنتر) وهو يدعم رأيه بالحجة الدامغة ، والدليل الساطع .

يقول هذا الكاتب إن هذه الألوف المؤلفة من الأطباء برهان قوي على أن الإنسان من الوجهة الصحية في حالة خطيرة حقاً . وليت هؤلاء الأطباء يستطيعون أن يطبّوا لأمراضنا ، أو يصفوا لها الدواء النافع ، والعلاج الناجع ! ارفع بصرك إلى قصور الأغنياء ، ثم اخفضه إلى أكواخ الفقراء ، فلن ترى إلا شحوب المرض ، ولن تسمع غير أنين الألم ! ومن العسير أن تقع عينك على شخص صحيح لم تجد العلة إلى بدنه سبيلا ، وما أيسر أن يصاب أحدنا بسعال أو برد أو زكام . وبرغم ما بين أيدينا من ألوف الكتب الطبية ، وما بلغنا من علم وفن ، فإنا لم نستطع أن نبلغ ما بلغ الحيوان من القدرة على العناية بأنفسنا . إننا ندفع ثمن المدنية من دمائنا وقلوبنا . إن إنسان المستقبل — كما يقول باحث اجتماعي — مخلوق بغير أسنان ، أصلع ، لا أصابع له ، رخو العضلات والأعضاء ، لا يكاد يقدر على الحركة من مكان إلى مكان .

ولا تقتصر جناية الإنسان على نفسه ، وإنما هو يتجنى كذلك على ما يستأنس من صنوف الحيوان . فليس من شك في أن الأبقار والخيل والأغنام والكلاب والقطط التي تسأنسها ، أصبحت أقل احتمالاً ، وأكثر تعرضاً لضروب من الضعف والمرض لم تكن تعرفها حينما كانت تعيش عيشها المتوحش . إن المدنية ما مست جنساً من الأجناس البشرية المتوحشة إلا وأدخلت معها الأمراض الوبيلة ، كما تدخل الخمر وألوان الفسق والفجور .

ومرض المدنية هذا لم يصب منا الأبدان وحسب ، بل لقد لحق كذلك بحالنا الاجتماعية . فكما أن مرض الجسم ينشأ عن فقدان الانسجام بين الأعضاء ، فيتحارب عضو مع عضو ، أو ينمو عضو على حساب الآخر ، أو تضعف الأجهزة بفعل الجراثيم والطفيليات ؛ فكذلك نجد الانسجام في حياتنا الحديثة مفقوداً ، ذلك الانسجام الذي تقوم على أساسه الجماعة قوية مترابطة الأجزاء . وقد حل محل الانسجام قتال بين الطبقات والأفراد ، وزيادة ونمو في جماعة على حساب الأخرى ، وانحلال عام من جراء الطفيليات الاجتماعية الكثيرة التي تطلب العيش بغير عمل . إن الجماعات المتمدنة اليوم تشكو مرضاً اجتماعياً لا شك فيه .

هذا من الناحيتين الجثمانية والاجتماعية . والحال كذلك أيضاً من الناحية العقلية ؛ ولا نقصد هذه الكثرة من المجانين الذين تغص بهم مستشفيات الجنون ويفيضون منها ، وينتشرون في كل دار ومجتمع ؛ ولا نقصد هذه الأمراض العصبية التي زاد انتشارها في العصر الحديث

زيادة تلفت الأنظار ؛ وإنما نقصد هذا الإحساس العجيب الذى نحسه جميعاً ، ذلك الإحساس بالقلق المقلق الذى يميز سكان هذا الجيل ، والذى يعبر عنه (رسكن) بعبارته المشهورة : « أيا كان ما نملك ، فنحن أبداً نطلب المزيد ؛ وحيثما أقمنا فإنا نتطلع إلى تغيير المكان » . وهذا الشعور بالقلق وعدم الاستقرار يتغلغل فى نفوسنا حتى يبلغ قرارها ، ويصيب الطبيعة الخلقية فيدفعنا إلى الإحساس بالإثم ، ذلك الإحساس الذى يجهله الوثنى ، ولا يشعر به الإنسان الأول ؛ وهو إحساس قد يكون مقدمة لخير مقبل ، ولكنه الآن دليل على اضطراب النفس ، وعلى اعتلال الحياة الإنسانية .

ونحن حين نستعمل كلمة المدنية فى هذا المقال إنما نعنى هذه الحال الاجتماعية التى بلغناها ، ولا نقصد ما قد ينتهى إليه الإنسان فى تقدمه وتطوره . وقد بدأت هذه الحال عندما عرف الإنسان حق الملكية ، وما ترتب عليها من نظم وآراء ، وتقسيم الناس إلى طبقة تملك وطبقة لا تملك ، وقيام الحكومة على أساس الاحتفاظ بالحق المملوك ؛ ويضيف بعض الاجتماعيين إلى الملكية ، اختراع الكتابة وما تبعه من تدوين التاريخ وتسجيل القانون . وعلى هذا الأساس قامت مدنيات كثيرة قبل المدنية الحديثة فى مصر وبلاد اليونان والرومان . وفى هذه الحضارات جميعاً ، لم تستطع « المدنية » أن تتخطى دور العلة إلى ما بعده ، بل سقطت وهى تئن من وطأة المرض .

ولكن هل كان الإنسان الأول خيراً حالاً من هذا الإنسان المتمدن ؟ لا شك أنه كان أحط منه فى بعض الوجوه ؛ ولا شك كذلك أنه كان يفضله فى كثير من الوجوه ، ومن هذه الوجوه خلوه من كثير من الأمراض التى يعانى منها اليوم أخوه المتمدن . وإنك لو نظرت كذلك إلى الحياة الاجتماعية عند هذه الأجناس المتوحشة لألفيتها — مهما تكن بدائية — أكثر انسجاما من حياة الأمم المتحضرة . فأعضاء القبيلة الواحدة لا يقاتل أحدهم الآخر ، ولا تنقسم الجماعة إلى طبقات متناحرة تعيش إحداها على الأخرى ، ولا تفتك بها الطفيليات البشرية ، والوحدة الاجتماعية قوية شديدة التماسك ، ولا تفصل بين طبقة وأخرى هوة سحيقة من علم أو ثروة أو سيادة ، أو غيرها من أمراض هذه المدنية .

ولا شك أن البرابرة من الناحية العقلية خير من أبناء الأمم المتحضرة ، فهم يفكرون بالفطرة تفكيراً هادئاً ، ولا يزعجهم هذا الإحساس بالإثم الذى يقض مضاجعنا . إن القلق الذى يساورنا ما هو إلا جزاء طبيعى لهذه الحياة المتشعبة الأطراف التى نحيا .

ولدينا فى الآداب القديمة وفى إلياذة هوميروس صورة من هذا الإنسان الهمجى القديم ، وهى صورة رائعة ولا مراء . وفى قصص (العصر الذهبى) و (الفردوس المفقود) ، معنى سقوط الإنسان من حال طيبة إلى حال بغيضة ممقوتة ؛ وهى تشير إلى أن أجناساً عديدة أحست بعد ما سارت فى المدنية شوطاً بعيداً أنها فقدت رضاها النفسى وطمأنينتها الساذجة الأولى . ونحن لا نجزم بأن عهداً رخياً سعيداً قد ساد بين الناس فى الزمن القديم ، ولكنا نؤكد أن كلاً منا يحس فى قرارة نفسه ألماً روحانياً ، ما كان أغناه عنه لو أنه عاش عيشة ساذجة بسيطة .

* * *

هكذا كان الإنسان فى الزمن القديم ، وهو اليوم كما نرى ، على درجة يسيرة من الصحة والعقل والخلق والنظام الاجتماعى . فأى طريق يسلك لمستقبله ؟ ليس ثمة ما يدعو إلى التشاؤم . ولئن كان الطريق وعراً شائكا ، فسوف يأتى الوقت الذى تذلل فيه الصعاب حين يشاء الله ، وسيخرج الإنسان من هذه القيود التى تكبله حراً طليقاً كما يخرج الطائر من البيضة بعد ما يحطم قشور البيضة التى تحويه .

ولا شك في أن الاتجاه سيسير نحو عودة الإنسان إلى الطبيعة ، وإلى حياة متسقة منسجمة . بل إن بوادر هذا العصر قد ظهرت بالفعل ، فالشعراء يمجدون الطبيعة ، والسخط شديد على الآلة ، ومن الناس من يأخذ بمذهب العرى . سيعود الإنسان إلى الفردوس المفقود ، أو قل إلى الفردوس المنشود ، وسيمزق ما أسدلته السنون السوالف على روحه من سُتُر حجبت عنه نور الشمس فعاش عيشاً إلى الموت أقرب منه إلى الحياة ، وكأنه في رمس ينتظر يوم البعث والنشور . سيخرج الإنسان من دوره ومخابئه حيث هو الآن يتخفّى كأنه مجرم يتوارى عن الأنظار ، وسيتخذ من الطبيعة بيتاً له ، كما هي بيت الملائكة والحيوان . وقديماً قيل : « إن الإنسان يتستر بالملبس ليهبط إلى الأرض ، ويخلع الرداء ليرتفع إلى السماء » . الإنسان روح قبل كل شيء ، وهو يكسو هذا الروح عادة من طين هي لحمه وعظامه ودمه ؛ وعلى هـذا الجسم يسدل جلود الحيوان والملابس ، ثم يتخفى بعد هذا في بيت خلف الحوائط والسجف ، وهي مبالغة من الإنسان في التستر والتحجب . وما أحرى الإنسان وهو يحمل على روحه هذا العبء الثقيل من جسم وملبس ومسكن أن ينسى أنه روح قبل كل شيء ، وما أحرى روحه أن تخمد شعلته ، أو يأوى إلى سبات عميق !

فإن أردنا لهذا الروح خلاصاً ، كان واجبنا الأول أن نخلع عنه الرداء . إن الحياة داخل الدور وفي البيوت ينبغي ألا تشغل أكثر من زمن يسير من الحيـاة . وينبغي لنا كذلك أن نتخفف من الملبس ؛ إن حياة الهواء الطلق ، وإلف الريح والموج ، والطعام الساذج النقي ، وصحبة الحيوان — كل أولئك يردّ إلى الإنسان علاقته بأمه الطبيعة التي فقدها منذ سنين . وقد يقول دعاة المدنية الغربية إن قسوة البرد لا تشجع الإنسان على الحياة خارج الدور ، وما أيسر الرد على هذا الاعتراض ، فمن ذا الذي قال إن موطن المدنية لا بد أن يكون في الجهات الباردة ! إن البلاد الحارة والبلاد ذات المناخ المعتدل أكثر ملاءمة لنمو المدنية وتقدم الحضارة الحق . ويقول (كاربنتر) بالطعام النباتي ، ويزعم أن أكل اللحوم يؤدي إلى إضعاف الجسم وإصابته بكثير من الأمراض . وبهذه الحياة البسيطة التي يشير بها الكاتب يخف عبء المادة التي يكتسي بها الإنسان ، فتنعدم الهوة التي تفصل اليوم ما بين الجسم والروح .

يجب ألا يكون بين الإنسان والطبيعة هذا العداء الذي نعمل على إثارته . إن الإنسان بحياته التي يحيا اليوم هو الحيوان الوحيد الذي ينبو من انسجام الطبيعة واتساق أجزائها ، وكان بوسعه أن يجمّل الطبيعة ويزينها . إن الذئب لينشئ بيته في الأحراش فيضيف إلى جمالها جمالا ، ولكن الإنسان حين يقيم بيته هناك فكأنه شيطان حلّ ونزل عند قدومه الملائكة . إن الرجل من قبائل البشمان البدائية يستطيع أن يختبئ بين الصخور العارية ، فلا تميز بينه وبين الصخر ، ويبدو جسمه الأصفر الدقيق وكأنه فرع من دوحة عظيمة ؛ ولكن الإنسان المتحضر إذا أقبل وعلى رأسه غطاء ، وفوق جسمه رداء ، ولّت عند رؤيته الطيور من فوق الأغصـان وهي تصيح فزعاً ورعباً . إن مجد الإغريق يرجع إلى أنهم قبلوا الطبيعة وقدسوها وعملوا على كمالها . إنا نتطلع إلى ذلك اليوم الذي يشيد الإنسان لنفسه فيه مسكناً ساذجاً يلائم زوايا التلال وشطآن الأنهار وأطراف الغابات ، ولا يتلف انسجام المناظر الطبيعية وغناء الطيور . الطبيعة تمدنا بالعلم والموسيقى والفن ، وكل ضرب من ضروب اللهو والمتعة ، وإذا ما عدنا إلى أحضانها وجعلناها ملكاً لنا جميعاً ، فلن يبقى ثمة داع للملكية الشخصية ، أو تجميع الثروة ؛ وبضربة واحدة سيمحى من هذا العالم نصف ما به من مشقة وعمل وعناية بشئون البيت ، وستتحطم هذه النوافذ والأبواب التي تصد عن الإنسان الطبيعة كما تصـد أشعة

الحيـــاة

بحث علمي

عناصر البحث : الحياة وهل نشأت بطريق الصدفة — الحياة كظاهرة طبيعية — فناء الكون وموته الحراري

يذكر السير جيمس جينز قولا ينسبه إلى هكسلي ، وهو « إنك إذا تركت ستة قرود تضرب بأصابعها على آلة كاتبة دون قصد أو تفكير مدى ملايين الملايين من السنين ، فإنها في النهاية تكون قد كتبت كل كتب المتحف البريطاني ؛ فلو جئنا بآخر صفحة كتبها أحد تلك القردة ، حينما كان يضرب بأصابعه الآلة الكاتبة على غير هدى ، ووجدناه قد كتب مصادفة إحدى أغنيات شيكسبير ، لحق لنا أن نرى في هذه الحادثة مصادفة عجيبة ؛ ولكننا إذا فحصنا عن جميع ملايين الصفحات التي كتبتها القردة في ملايين السنين التي يخطئها الحصر ، فإننا لا شك واجدون فيها أغنية لشيكسبير جاءت بها المصادفة العمياء »[1] .

(١) الكون الغامض — صفحة ٤ .

هكذا نشأت الحياة بطريق الصدفة ، فقد ترتبت بعض الذرات الكيميائية العادية الموجودة في الكون بطريق المصادفة بالترتيب الذي توجد به الآن في المادة الحية ، فكما كان لا بد للقردة الستة مع طول الزمن أن تسطر يوما إحدى أغاني شيكسبير ، كان لا بد للذرات أن تترتب بهذا الشكل الخاص ، لتنتج مادة حية . هذا ما يراه العلماء الثقات . وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل المادة الحية عبارة عن مجموع الذرات العادية لحسب مرتبة بشكل خاص ، أو هي كذلك مضافا إليها شيء اسمه الحياة ؟ أعني هل الحياة شيء منفصل عن هذه الذرات ، أو هي ظاهرة طبيعية لهذه الذرات مرتبة على هذا النمط الخاص ؟ فأما أن المادة الحية تختلف عن المادة التي لا حياة فيها اختلافا يدل على وجود عناصر كيميائية جديدة لا توجد في الثانية ، فهذا ما لا يمكن القول به ولا يقوم عليه أي دليل . فلم يبق إذن إلا أن نعتقد أن الحياة ظاهرة طبيعية كظاهرة المغناطيسية والإشعاع سواء بسواء . تبدو المغناطيسية أوضح ما تكون في الحديد الذي يدور في ذرته ٢٧ ألكترونا ، ويبدو بدرجة أقل في

الإنسان ؛ وسينتشر ضوء الشمس والهواء في أرجاء البيت ، ويخرج الإنسان أنى شاء وحيثما أراد ، وستنهار هذه الأغلال التي تقيدنا بالدور والمنازل .

في هذه الحياة الإنسانية الجديدة ستقوى الروابط الاجتماعية بين الناس ، ويسود بينهم التعاطف والتعاون كما يسود بين أبناء الأسرة الواحدة ، ويصبح التعاون غريزيا تلقائيا ، يساعد الجار جاره كما تساعد يسراك يمناك ، وسيقوم كل إنسان بالعمل الذي يحب دون أن يفكر في أجر أو مثوبة — ويا له من أمل عظيم ! سوف يصيب كل عامل جزاءه الطبيعي ، كما يتدفق الدم إلى العضو الذي يكد ويجهد ، وسينتهي كل هذا النزاع القائم على العمل والأجر ، والتناحر بين الواجب والعاطفة .

هذه هي الاشتراكية التي تعاديها المدنية كما تعادي الدين .

وستختفي الحكومة والقوانين من وجه الأرض ، لأنها لم تقم إلا لتحل محل حكومة النفس وقانون الضمير ؛ إن الجماعة إذا ارتفعت إلى أعلى مراتبها لم تعد بها حاجة إلى قيام الدولة وانقسام الناس إلى حاكم ومحكوم .

وقد تبقى الآلة في هذه المدنية المنشودة ، ولكنها سوف تخضع للإنسان — بعد ما خضع لها ردحا من الزمن — وتعمل كغيرها من العوامل على تحريره من ربقة العمل ، وعلى زيادة قدرته وقوته .

في المدنية الجديدة يشعر الإنسان باتحاده مع أخيه الإنسان ، ومع الجدول والنهر ، والتل والجبل ، والأرض والنجم ؛ ولا يحس بالعزلة والانفصال عن الطبيعة ، مما يؤدي به أحيانا إلى الانتحار والفرار من هذا العالم البغيض !!

محمود محمود

النيكل الذى عدد ألكترونات ذرته ٢٦ وفى الكوبلت الذى عدد ألكتروناته ذرته ٢٨ . ويبدو النشاط الإشعاعى فى العناصر التى ذراتها من ٨٣ إلى ٩٢ ألكترونات ، وهى من البيزموت إلى الإرانيوم ، ولا تبدو فى غيرها ؛ فعلى هذا الأساس ، وقياساً على ذلك يمكن أن نعد الحياة ظاهرة طبيعية تظهر عند اتحاد ذرة الكربون المكونة من ستة ألكترونات بغيرها من الذرات التى تكون المادة الحية .

على أننا إذا سلمنا بذلك ، فهل نستطيع إذن ابتداء من مادة عديمة الحياة أن نحصل على مادة حية ؟ هل يستطيع كيماوى ماهر أن يوجد لنا حياة باستعمال عدد معين من الذرات ؟ وهل يمكننا تفسير الظواهر الحيوية على أسس طبيعية وكيميائية ؟ لقد نجح «لب» ومعاصروه فى تعهد بويضة لم تلقح بحيث نتج منها كائن له قلب ومعدة وهيكل عظمى ، ولكن تنقصه الدورة الدموية ؛ كان استطاع أن يعيش على هذه الأرض شهراً من الزمان ، ولكنه لم يستطع إحداث ذلك بالاستغناء عن البويضة نفسها . ولكن هذا لا يمكن أن يعنى استحالة الوصول إلى ذلك فى مستقبل الأيام ، فذلك قد يكون . وقد استطاعوا أيضاً أن يفسروا بعض ظواهر الحياة مثل اتجاه الفراشة نحو الضوء فى خط مستقيم بظواهر كيميائية ضوئية .(١)

أعرض الآن لمسألة فناء الكون الحرارى ، وانعدام الحياة تبعاً لذلك الموت الحرارى . فأولا نجح «ماير» فى إرجاع الحركة والحرارة إلى أصل واحد ، وأصبحت هذه حقيقة لا تقبل جدلا ، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً عدم فناء الطاقة ، ويذكر الذين درسوا فى كليتى الهندسة أو العلوم التجربة المشهورة التى بها ترفع طاقة ميكانيكية معينة يمكن قياسها حرارة مسعَّر ، وتنقل إليه كمية معينة من الحرارة تتناسب مع الطاقة الميكانيكية المستخدمة ؛ وهذه النسبة هى المعروفة « بمعامل جول » . فالحرارة إذن مظهر من مظاهر الشغل الميكانيكى ، فهى إذن تتناسب مع طاقة الجزيئات . ومن ذلك يستدل لبنز على أن الحرارة هى مجموع طاقة مصادمات الجزيئات الداخلية . ومعنى هذا أن للجسم حرارة معينة أى لجزيئاته سرعة معينة . وهذه السرعة للجزيئات ليست متساوية تماماً ، فمنها ما هو سريع ، ومنها ما هو بطىء ، لكن ثمة متوسطاً عاماً لسرعة جميع الجزيئات ، وذلك التوسط العام هو الذى يدل على درجة حرارة الجسم .

وأنت إذا وضعت يدك على جسم ساخن ، فإن الحرارة تنتقل من الجسم الساخن إلى يدك ، ولا تنتقل من يدك إلى الجسم الساخن رغم أن يدك تحوى حرارة يمكن أن تنتقل إلى الجسم الساخن لتزيد حرارته وتقل حرارة يدك ؛ وإذا وضعت جسما ساخناً فى الماء، فإن الجسم لا تزداد حرارة وتزداد الماء برودة ، ولكن الذى يحدث دائماً أن انتقال الحرارة يكون من جسم حار لأقل منه حرارة ، ولا يمكن أن يحدث العكس . هذا هو المبدأ الثانى للترموديناميكا الذى يحتم انتقال الحرارة من جسم مرتفع الدرجة إلى جسم خفيضها ، ويقرر أن « العمليات الحرارية تتم جميعها فى الكون على طريقة التوزيع التساوى لكل الكميات الحرارية المستعملة » .

ويفسر « بولتزمان » هذا المبدأ بأنه عند ما يتلاصق جسمان حرارتهما مختلفة ، فإن جزيئاتهما تتصادم وتختلف . ومن الجائز أن يصطدم جزىء بطىء مع آخر سريع ، فينقل إليه سرعته الخاصة به ، ولكن هذا نادر جداً ؛ والأكثر منه أن تحدث مصادمات تتساوى بها سرعة الجزيئات على قدر الإمكان . وهكذا تكون نتيجة التلاصق نزولا حتمياً فى حرارة الجسم الحار وارتفاعا حتمياً فى حرارة الجسم البارد .

ومن هذا المبدأ البسيط ـ المبدأ الثانى للترموديناميكا ـ نصل إلى نتائج فى غاية الأهمية ؛ فإنه عندما تتوزع الطاقة الكلية للكون توزيعاً متساوياً — تطبيقاً لذلك المبدأ — تصبح حرارة المادة المكونة لأجزاء الكون المختلفة

(١) الأستاذ الدكتور محمود محمد طلعت . الرسالة العدد ٢٩٠ .

من مذكرات جحا :

جحا يخرج من البلد

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة الذى زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

خرجتُ من « ماهوش » أسير كالأعمى والأفكار تحتوشنى من كل جانب ، والأنفاس تكاد تمزق صدرى ! ونظرتُ حولى فرأيتُ ربوة « ماهوش » الخضراء تبتسم للصباح ، إذ تلق عليها الشمس أول شعاعها الذهبى ، ورأيتُ سماءها والسحب قد زخرفت أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب والزبرجد والياقوت .

هذه السماء هى التى ملأت قلبى بالتسبيح ، وعلمتنى من المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء ! وألقيتُ نظرى على سهل « ماهوش » إذ تنحدر إليه الجداول الصافية تتدفق من عيون رائقة باردة تنبع فى قمة الربوة ، ثم تسير فى أنهارها التى تلمع فى قيعانها الحصباء ، كأنها الدرر واليواقيت قد انفرطت وتناثرت من عقد حسناء ، كانت تحلى بها صدرها العاجى .

ورأيت بيوت « ماهوش » تنحدر من سفح الربوة إلى السهل كأنها قافلة تحمل الأفاويه من بلاد الهند هابطة من جبال البامير إلى سهول إيران ، تتخللها رياض « ماهوش » بما فيها من النبت والشجر ، ما بين قصير وطويل ، وبين مورق ومجرد ، وقد تداخلت ألوانها ، وتشابكت فروعها ، وتعانقت قضبانها ، واهتزت للنسيم الوديع الذى هبَّ فاتراً كأنه لا يزال وسنان من أثر النعاس فى الليل المنصرم !!

هذه « ماهوش » قرة العين وبهجة القلب وشفاء الصدر أغادرها وأهاجر منها ، وأخلفها من ورائى لأضرب فى الآفاق ! فناديت قلبى أن يتجلد ، وقلت يا عين أغمضى ، ويا نفس اتخذى النسيان .

وما زلت أسير غارقاً فى الأفكار حتى أفقت أخيرا على صدمة عنيفة اندفعتُ على أثرها إلى جانب الطريق ، وكنت أهوى إلى وهدة الحقول المجاورة ، فقد صدمنى فارس من هؤلاء الفرسان أصحاب القلانس العالية الذين يتقنون الانتفاش فى ملابسهم الزاهية فى أيام السلم ، ويتقنون الاختفاء فى منازلهم فى أيام الحرب . وكان مثل

متساوية ؛ ونظراً لأن ما فى الكون من مادة ضئيل جداً بالنسبة لمجموع الحيز ، فإن هذه الحرارة تكون من الانخفاض بحيث لا تسمح لأى نوع من أنواع الحياة بالبقاء ، أى أن الحياة تنعدم على ظهر البسيطة على الأقل على الصورة التى نفهمها الآن من الحياة ، وكذا تنعدم الحركة [1] ، وهذا هو ما يسمونه بالموت الحرارى للكون .

على أن هذا لا يعنى ولا يمكن أن يعنى أن الحركة لا تستأنف بعد ذلك من جديد بعوامل لا تعرف ، تمت إلى الأصل فى معرفة الخليقة ووجود الكون .

ولعل خير مثال يفسر ذلك هو الذى ضربه العلامة الدكتور غال ، إذ شبه هذه الحالة بعصا تقف رأسية ، فإننا نعلم — ونحن أشبه بنملة على هذه العصا — أنها لا بد واقعة على الأرض ، ولكن يجوز أن يكون هنالك شخص يراقب هذه العصا فيعيدها رأسية إذا وقعت أو قبل أن تقع ؛ فوقوع العصا نتيجة حتمية لقانون الجاذبية ، كما أن موت الكون الحرارى نتيجة حتمية للمبدأ الثانى فى الترموديناميكا ، ولكن هناك قوة تستطيع أن تعيد الكون إلى حاله قبل أن يحدث ذلك الموت الحرارى فيستأنف الحركة من جديد ، كما تعيد القوة الخارجة العصا إلى وضعها الأول من جديد .

(....)

(١) المصدر السالف الذكر .

البيضاء في زينته الكاملة وسلاحه التام ، من قلنسوة حمراء فوقها ريشة زرقاء ، ومن تحتها عباءة صفراء تغطي ملابس أخرى بيضاء وخضراء ، وقد التف على وسطه منطقة سوداء ، ودلّى منها سيفاً مفوساً منقوشاً بالفضة مرصعاً بالجوهر ، ومن تحته ومن تحت كل هذه النقوش الباهرة جواد كريم ، لا يقل في ألوان زركشته وزخرفته عن صاحبه الفارس .

وأفقت على أثر صدمتي بهذا الفارس وجواده ، وكان مقبلا من تجاه « ماهوش » إذ كنت أنا موليا عنها وأنا مطرق غارق في هواجسي ، تجرفني همومي ، وبدفعني إلى الأمام حنقي ؛ وقد لطف الله بي ، فلم أصطدم إلا بجانب الفارس وجواده ، وإلا لتحطمتُ تحت السنابك ، ولم أخرج بعدُ من أرباض « ماهوش » .

ولما ذهب عني الدهش ، واستطعت أن أفكر ، نظرت إلى الفارس متعجبا ، وبدأت أسمع ما يقول ؛ وحسبت أنه يريد أن يعرف من أنا . ولم أرد أن أكشف له عن نفسي ، فقلت له :

— أنا فقيه !

فرأيته قد سكن وخمد غضبه ، وقال في شيء من السرور :

— فقيه ؟!

فهززت له رأسي أن نعم . ولكنه كرر سؤاله في اهتمام قائلا وهو يبسم :

— فقيه ؟!

فخفت من تكراره لهذه الكلمة ، وخشيت أن يكون لها عنده معنى آخر ، كتاجر — مثلا — أو صيرفي ، أو جوهري ، فيحسب أنني ممن يحملون معهم الأموال ، وممن يطمع فيهم رفاق الطريق ، فبادرت مجيبا :

— وأديب !

فلم يعجبه هذا اللفظ ، وكرر اللفظ الأول قائلا في اهتمام :

— فقيه ؟

فنظرت إليه مرة أخرى ، ورأيت اختلاف ألوانه ، وامتلأ قلبي ضحكا ، وكدت أنطق قائلا :

— أبوك السقا مات !

ولكني خشيت أن يفهم قولي ، فاكتفيت بأن هززت رأسي وأعدت الكلمة التي أعجبته قائلا :

فقيه !

فنزل من جواده ، وفتح لي ذراعيه ، وأخذ يقبلني بين عيني وهو يرطن بكلام كثير ، ففهمت منه أنه هو وجماعة من قومه يقيمون في بعض أصقاع « ماهوش » ، وطالما امتدت أطماعهم إلى أن يكون لهم فقيه ليتخذوه زينة إسلامية ؛ فما كاد يسمع أني فقيه حتى غلبه السرور ، وحسب أنه قد وجد لقية ثمينة .

وبعد أن أشبع نفسه من التملي بي ، ركب فرسه وأمرني أن أسير وراءه نحو المحلة التي تقيم بها جماعته . فقلت سبحان الله ! أهذه محنة جديدة ؟ ثم سرت وراءه مطرقا ، وجعلت أعزي نفسي قائلا لها : إن السير وراء هذا الفارس لن يغير شيئا من أمري ، فقد خرجت من « ماهوش » لا أقصد قصداً ؛ وسواء لديّ شرق وغرب .

وما زلت أسير حتى مالت الشمس نحو المغيب ، وأخذ التعب ينال مني ؛ ونظرت نحو الفارس لعلي أرى فيه علامة تدل على أنه يريد أن يستريح ، فلم أجد من ذلك شيئا ، فقد كان يهز رجليه ويغني ، كأنه لا يذكر أن حيا يسير وراءه . ولكن الله أرسل الفرج من حيث لم أدر ، فعند منعرج الطريق طلع علينا فارس آخر يجيء من الشرق مقبلا نحو « ماهوش » وهو في زينته وألوانه لا يختلف عن صاحبي ، اللهم إلا في توزيع الألوان وتنسيقها فيما بين رأسه وقدميه .

ولما اقترب ذلك الفارس منا حيّا صاحبه ووقف حياله يحدثه قليلا ويراطنه .

وبعد قليل من هذا الحديث التفت الفارس الجديد نحوي وقال باسما :

— فقيه ؟

فعاودتني الرغبة في الضحك ، وكدت أنطق مرة أخرى قائلا :

— أبوك السقّا مات !

ولكني كظمت نفسي ، واكتفيت بأن تبسمت وهززت رأسي وقلت :

— فقيه !

فنظر الفارس إلى صاحبه ، وجعل يحدثه حيناً ؛ ثم سمعت الحديث يحمى ، والألفاظ تسرع ، ثم رأيتهما يجردان سيفيهما فجأة ويقف أحدهما حيال الآخر موقف الحرب والنزال .

فعجبت أشد العجب لهذا التبدل السريع ، ووقفت أنظر إليهما (متفرجا) ، فليس شيء أشد جذبا للأنظار من فارسين يتنازلان بسيفيهما وجهاً لوجه !

ولكني ما لبثت إلا قليلا حتى رأيت المنظر يتحول فجأة تحولا كريها ، فبدلا من أن يقف الفارسان وجهاً لوجه إلى نهاية المعركة ، رأيت صاحبي ، الفارس الأول ، يتجه نحوي ويهدد صاحبه ، الفارس الآخر ، بأنه سيقتلني ، حتى لا أكون لأحد منهما ؛ لا لهذا ولا لهذا .

ففهمت عند ذلك فقط أن المعركة بينهما كانت عليّ أنا ، إذ كان كل منهما يريد أن يقتنص لجماعته فقيهاً ، وأن صاحبي الفارس الشجاع رأى أن يحسم النزاع بطريقة مختصرة لا تكلفه ولا تكلف صاحبه أية مشقة ، فرأى أن يبقر بطني أنا حتى لا أكون لأحد منهما . وهذا رأي سخيف بلا شك ، وكان لا بد لي من الدفاع عن نفسي ، فلم أجد غير لساني أدافع به ، فصحت قائلا :

— حاسب ! ماذا تريد مني ؟؟

فوقف وجعل يبين لي قصده ، فقلت له :

— هذا رأي غير صائب . ثم أخذت أبيّن له أن خير الطرق هي أن يقاتل صاحبه إلى النهاية المرة ، فإذا قتله سرت وراءه شرقاً أو غرباً ، كما يشاء ، وهو مطمئن ؛ ثم جعلت أبين له أني قد أفيده إذا سرت معه وأنفعه نفعاً لا يساويه نفع من شخص آخر ، فإني فقيه وأديب ، وأستطيع أن أؤلف الشعر ، وأن أكذب فيه كذباً رائعاً ، وأن أكتب الرسائل الرنانة ، وأن أمدحه بما لا يتصور أنه فيه ، فأجعله يشتهر بين الناس بالفضل والكرم ، والسماحة والعز ، والعقل والحكمة والشجاعة ، وكل ما يحلو له أن يكتسب في أعين الناس من الصفات التي ليست فيه .

فوجدته قد رق لي ، ولانت نظرته إليّ ، واقترب مني باسماً ووضع يده على كتفي وقال :

— عظارم !

ثم ذهب نحو صاحبه وأشار إليه أن يقترب منه ، فلما صار على قيد خطوتين منه قال له :

— أتذكر الكلب الأسود الذي أودعته عندي ؟

فقال صاحبه باهتمام :

— بلا شك ، وأنا في حاجة إليه .

فقال له الفارس باسماً في خبث :

— إذا أردت أن أرده إليك ، فانزل لي عن هذا الفقيه ، وإلا فإني قاتل كلبك عند عودتي .

فنزل الفارس عن جواده ، وجثا على ركبتيه أمامه ، وجعل يتوسل إليه أن يبقي على كلبه ، وأن يفعل بي ما يشاء . ثم مسح دمعة ثارت في عينيه وسلم بغير قيد ولا شرط

فأخذني الفارس المنتصر ، وسار بي في طريقه والسعادة تطفر من أسارير وجهه حتى بلغنا محلة الجيش ، وأقبل عليّ الجند من كل صوب يقبلون يدي وهم خاشعون .

وهأنذا اليوم أستقبل الصباح على رزق مكفول ، وظل ممدود ، وجاه عريض ، وعز راسخ الأساس .

أي رب ! هكذا جرى قضاؤك في الأزل القديم ! فقد خرجت من « ماهوش » لا أدري إلى أين أسير ، فإذا بي أصبح فقيهاً لجيش لا أعرفه ، لأن فارساً من

سافونارولا

— ٣ —

مهاجمة سافونارولا مساوئ العصر — سافونارولا ولورنزو — بييرو فى فلورنسا واسكندر فى روما — استقلال دير سان مارك — عودة سافونارولا إلى مهاجمة مساوئ العصر .

ساعدت كتابات سافونارولا الفلسفية والدينية فى تلك الفترة على ذيوع صيته بين الناس ، وعملت على اجتذاب المثقفين الذين ظلوا مترددين إزاءه . وقد تردد سافونارولا عندما وعظ الناس فى الصوم الكبير فى ١٤٩١ فى مهاجمة الملك والأغنياء ورجال الأدب مهاجمة صريحة ، حتى لا يثير غضب لورنزو . إلا أنه لم يستطع الامتناع عن التعبير عما يخالج نفسه ، فندد بصراحة بجشع رجال الدين وحرصهم على جمع المال ، وقال إن الفقراء مضطهدون ومثقلون بأعباء لا قبل لهم بها ، فى حين أن الأغنياء لا يدفعون إلا مبالغ زهيدة ، وهم الذين يفرضون الضرائب تحقيقاً لمطامعهم الذاتية دون رعاية مصلحة الشعب ؛ وهدد فلورنسا بأنها مقبلة على أيام لم يسمع بها الناس من قبل .

وقد أثارت كلمات سافونارولا اهتمام مجلس السينورية فى فلورنسا فدعاه للاستماع إليه فى القصر القديم فى ٦ أبريل سنة ١٤٩١ . فتكلم بشجاعة قائلا إن « الطغاة لا يمكن إصلاحهم لأنهم متكبرون ، ولأنهم يحبون الملق والنفاق ، ولأنهم لا يردون الأموال التى اغتصبوها إلى أصحابها ، وهم يتركون أمور الدولة فى يد وزرائهم ، ويشتدون على الفقراء ويتركون الأغنياء ، ويطلبون أن يعمل لهم الفقراء والفلاحون بلا مقابل ، ويرشون أصحاب الأصوات فى الانتخابات ، ويفرضون الضرائب التى تثقل على كاهل الشعب ، فينبغى أن تزيلوا أسباب الاستياء ، وأن تحققوا العدل ، وأن تتطلبوا الأمانة من الجميع » . وقد استاء لورنزو من هذا الخطاب الجرىء ، لأنه ينصب عليه بصفة خاصة .

وقد زادت هذه الشجاعة شهرة سافونارولا وأعلت نفوذه ، فانتخب رئيساً لدير سان مارك . ورفض أن يقوم بالزيارة التقليدية المفروضة على رئيس الدير للورنزو العظيم ؛

فرسان ذلك الجيش خشى على كلبه الأسود أن يقتل وهو برىء . لقد هان على تركك وطنى لما لقيت فيه من الهوان والإغفال ، وهأنذا أصبح فقيهاً لكتيبة من فرسان لا يعرفنى أحدهم ، ولا تربطنى رابطة بأى منهم !!

وقد قضيت السنين الطوال مع أهل « ماهوش » أكلهم بلغتهم ، وأجاملهم فى أحزانهم ، وأشاركهم فى سرورهم ، وأعفو عما يصيبنى منهم ، وأحب خيرهم ، وأدعو الله أن يسدد خطاهم ؛ ولكنى خرجت من بين ظهرانيهم لأنى لم أجد بينهم لى مكاناً ، وهأنذا منذ تركت « ماهوش » قد صرت فقيهاً بين قوم لا أنطق بلسانهم ، ولم أقدم عند أحدهم خيراً ، ولم أطلب منهم معروفاً أو إحساناً !

أيتها الأقدار العجيبة ! إنك تبلغين أذنك اليمنى من وراء الجانب الأيسر من رأسك ؛ ولست أدرى كيف تعملين ذلك الأمر وهو عسير ؟

ومن يدرى ، لعلنى أستطيع فى يوم من الأيام أن أعود إلى « ماهوش » فأجلو عينى بنظرة أخرى من أهل القلب المعذب : من علية ابنة السلطان .

(طبق الأصل) **(محا)**

— إلى هنا انتهى الجزء الذى أمكننا أن نقرأه ونستجلى غامضه ، وأما ما بعد ذلك ففيه ترميج ومسح وتخريق من أثر البلى . وسنحاول أن نعده للنشر بقدر طاقتنا ؛ فإذا تهيأ لنا شىء من ذلك نشرناه إن شاء الله تعالى ... ... **(الناشر)**

واعتبر أن اختياره لمنصبه يرجع إلى الله وأنه لا يطيع إلا الله . وحاول لورنتزو أن يسترضيه باللين ، فذهب للاستماع إلى عظاته فى الدير ، وكان يمشى بعد الصلاة فى الحديقة ، ولكن سافونارولا لم يكن يخف لرافقته فى تجواله ؛ وقال للرهبان : « إذا لم يطلبنى لورنتزو فدعوه يذهب أو يبق كما يشاء » . وكان سافونارولا قاسياً فى حكمه على لورنتزو ، فهو لم يكن مسئولاً عن خروج الناس على قواعد الأخلاق والدين ، ولم يكن إلا واحداً ممن جاروا تيار العصر ، وعلى العكس كان لورنتزو من الناحية الخلقية يفضل غيره من الملوك والأمراء المعاصرين . وعلى كل حال فلم يكن يرغب سافونارولا فى الاقتراب من طاغية اعتبره محطم حرية فلورنسا ، والعقبة فى سبيل نشر الحياة المسيحية بين الشعب . وحاول لورنتزو أن يسترضيه مرة أخرى بإرسال الهدايا والرسل من كبراء المدينة ، ولكن بدون جدوى . فحاول محاربته بأن جعل الراهب ماريانو يعظ الناس ضده ، واتهمه بأنه نبى باطل ، وأنه مسبب الفوضى ومثير الشقاق بين الناس ؛ ولكن لم يستهو هذا الكلام نفوس السامعين ، وازداد قدر سافونارولا فى أعين أهل فلورنسا . ومضى سافونارولا فى وعظه وخطابته ، فأبدى حماسة هائلة فى نقد بعض مساوئ العصر ، فهاجم القمار ، وتوعد المقامرين من الرجال والنساء باللعنة والخراب ، كما هاجم الربا وابتزاز الأموال . وكان الرجل الوحيد الذى قاتل بإخلاص فى سبيل الدفاع عن الحق والعدل .

وكانت صحة لورنتزو آخذة فى الانحطاط . وبينما هو مسجى على فراش المرض يتألم ، على مقربة من فلورنسا ، إذ به يتذكر سافونارولا الراهب المخلص ، فأرسل إليه يستدعيه ، فسارع إليه . وأعلن له لورنتزو أن ضميره يؤنبه لثلاث مسائل : نهب مدينة فولتيرا ؛ والاستيلاء على أموال الأطفال ؛ وأعمال الانتقام التى قام بها عقب مؤامرة آل باتزى . فطلب إليه سافونارولا أولا أن يعيش مؤمناً برحمة الله ، فوافق على ذلك ؛ وثانياً أن يرد الأموال التى اغتصبها إلى أصحابها ، أو على الأقل يكلف أبناءه بأن يفعلوا ذلك ، فوافق لورنتزو ؛ وثالثاً أن يعيد الحرية إلى شعب فلورنسا ، فغضب لورنتزو وتألم ، واستجمع قواه الباقية وأولاه ظهره دون أن ينطق بكلمة . فخرج سافونارولا دون أن يمنحه الغفران . ومات لورنتزو بعد قليل .

وخلف لورنتزو العظيم ابنه بييرو ، الذى لم تكن له ملكات أبيه فى السياسة وإدارة شئون الدولة ، واهتم بالرياضة واللهو ، وقضى على بقايا مظاهر حرية الشعب التى حرص لورنتزو على الاحتفاظ بها ، وخالف السياسة الخارجية التى اتبعها لورنتزو ، كما سنرى بعد ، وبذلك فقدت فلورنسا بسرعة مركزها فى المجتمع الإيطالى . وساعد ذلك كله على إيجاد الجو الملائم لإحداث التغيير المنتظر . وفى ذلك الوقت مات البابا إنسنت الثامن وخلفه إسكندر بورجيا الذى عاش عيشة إباحية لا تناسب رجال الدين ، فضلا عن رأس الكنيسة الأعلى ، وأخذ ينشط فى جمع الأموال من أملاكه ، ويعمل على تحقيق أطماعه الشخصية ؛ وكان لذلك أثر مرعب فى أذهان الناس ، فتطلع أهل فلورنسا إلى سافونارولا ، وتركزت أبصارهم عليه . وكان سافونارولا قد استولى على نفسه التفكير فى أحوال فلورنسا ومساوئ العصر ، فأخذت تظهر له رؤى مبعثها الإيمان العميق والرغبة الصادقة فى إصلاح المجتمع ؛ فمن ذلك أنه رأى ليلة سيفاً مصلتاً من السماء ، وسمع أصواتاً تعد بالرحمة المحسن ، وتهدد بعقاب الأدنياء ، وتعلن أن غضب الله قريب ؛ واتجه السيف إلى الأرض ، وأظلمت السماء ، وتساقطت منها سيوف وسهام ونيران ، وأصبح العالم طعمة للحرب والمجاعة والوباء ؛ وانتهت الرؤيا بصوت يأمر سافونارولا بأن يعلن ما رآه للناس ، وأن يدعوهم إلى خشية الله ، ويحضهم على اتباع الحياة الطيبة الصالحة .

وعقب رحلة قام بها سافونارولا إلى البندقية وبيزا وبولونيا ، حيث وعظ الناس بعض الزمن ، أخذ يفكر فى فصل المجمع التسكانى الدينى من المجمع اللمباردى ؛ وقد عضده فى ذلك بييرو دى مديتشى ضد رغبة دوق ميلانو وملك نابلى والبابا نفسه . ووافق البابا على ذلك الانفصال بتأثير كردينال نابلى الذى كان يقدر سافونارولا ؛ وبذلك

تمتع دير سان ماركو باستقلاله . ولكن هذا الاستقلال الذي أعطى الحرية لسافونارولا كان من شأنه أن يجعل الأخطار تدنو منه رويداً رويداً . وعمل سافونارولا أولا على تنظيم الدير ، وباع أغلب ممتلكاته ، وحمل رهبانه على العيش المتقشف الخشن ، وحتّم عليهم أن يسعوا للعيش بكدّهم وجهدهم ؛ فأنشأ مدارس يعلم فيها الرهبان التصوير والنحت والعمارة ونسخ المخطوطات ؛ كما عمل على تنشيط دراسة العلم الإلهي والفلسفة والأخلاق، ودراسة الكتاب المقدس واللغات الشرقية ، وبخاصة اليونانية والعبرية .

وفي موسم صوم الميلاد في ١٤٩٣ تابع سافونارولا عظاته ، وتناول فيها الكلام عن بعض مبادئه ، وعلى معيشة الأمراء ورجال الدين ، مكرّراً بعض ما سبق الكلام فيه ، فقال : إن الإيمان منحة من الله ، وهو ضوء يهبط من السماء إلى قلب الإنسان ، ويتوب الخطئ ويدخل في نور الله بإرادة الله . ومن الأمثلة التي ضربها لذلك قصة ماريا المجدلية التي أوغلت في حياة الفسوق ولم تنصت لنصائح أختها مارثا ؛ ولكن عندما مسّها الله بنوره هبّ ضميرها النائم ، واستيقظ قلبها الآثم ، وأسرعت إلى المسيح تبلل قدميه بدموعها الحارة ؛ فالله قد أحياها وخلّصها من آثامها وخطاياها ، وعاشت حياة الطهر والتبتل . ويرى سافونارولا أنه ينبغي ألا يلعن الإنسان الآثمين ، ولكن يلعن آثامهم . وتكلم على مبدأ الحب الذي قوامه البرّ والرحمة والعمل الصالح ، وقال : إن الحب هبة من الله ، وهو قوة هائلة تقوم بالعجائب ، وتتغلب على كل العقبات ، وهو قانون القوانين ومقياس كل الأعمال الإنسانية ، ولا يمكن أن يؤدّى أي عمل صالح بغير الحب . فالطبيب الذي يحاول أن يشخص داء المريض ويصف الدواء ويُعدّه ويعمل على تخفيف آلام المريض ، لا يفعل ذلك بغير دافع من الحب الإنساني ؛ ولو كان قصده مجرد الربح المادي لما عُني بالمريض إلى ذلك الحد . والأم تعنى بطفلها ، وتتحمل من أجله الآلام راضية ، وتنسى متاعبها في سبيله عندما تراه يبسم لها ؛ وهي لا تفعل ذلك بغير الحب .

أما الأمراء فيقول إنهم يعيشون في قصورهم ، ويشبعون غلاتهم ، ويمتصون دماء الشعب ، ويجتمع في بلاطهم الفلاسفة والشعراء المنافقون يمدحونهم ويتغنون بمجدهم الكاذب وبثرواتهم الزائلة ، ويرجعون بأنسابهم إلى الآلهة ! ويكرر القول بأن رجال الدين لا يحرصون في ذلك الوقت إلا على جمع المال والعناية بالمظاهر الباطلة . ويقول : إن الشيطان يغوي الفتاة العذراء بأن يضع في طريقها شاباً مليحاً يعمد إلى خداعها وغوايتها ، ثم يتركها تمضغ أنياب الندم بعد أن يقضي منها مأربه . ويدفع الشيطان أيضاً الرجل الصالح إلى بلاط الأغنياء ، فيبهره ما يراه في ذلك المجتمع الصاخب ، ويجرفه تيار الغواية العنيف . وكذلك يسدد الشيطان ضرباته إلى رجال الدين أنفسهم ، فيجعلهم يحيدون عن الطريق القويم رغم ما تذرعوا به من تعاليم الدين ؛ وهم أصبحوا يعملون لإدخال السرور على نفوس الأمراء ، ولكي ينالوا منهم العطاء والجد ، لا لكي يبثوا تعاليم الأخلاق والدين بين الشعب ؛ وهم قد حطموا الكنيسة الصحيحة وأشادوا بدلها كنيسة باطلة ملوثة . ثم أخذ يتكلم عن سفينة نوح والتجاء الصالحين إليها لتجنب الطوفان ، وقال : إن الله سيسلط عقابه على البلاد ، وأنها ستتعرض للغزو . فارتعدت فرائص الناس ، وسرت بقلوبهم قشعريرة باردة عندما سمعوا كلماته الملتهبة . وعلى غير انتظار ، وكصاعقة هبطت فجأة من السماء ، جاءت الأنباء قائلة إن سيلاً من الغزاة الفرنسيين يتدفق على إيطاليا عبر جبال الألب ؛ فشخصت أبصار الإيطاليين إلى الرجل الذي تنبأ بهذا الخطر ، والتمسوا عنده النصح ، وأمّلوا لديه الخلاص . وفي لمحة عين ، وبقوة السحر أصبح أتباع سافونارولا أصحاب السيطرة في فلورنسا .

(يتبع) حسن عثمان

العيب الذى فينا :

— ١ —

صاحبى (س) كما أراه ويراه أصدقاؤه ، محب للجدل ، يجد فى كل ما يراه موضوعا للمناقشة والاعتراض ، فقلما يرضى ، فهو غاضب دائماً ، ساخط دائماً ، متشكك دائماً ؛ ولهذا كانت مهمتنا إذا ما جمعتنا وإياه ندوتنا الصغيرة ، أو ضمنا طريق ، أن نرسل شيئاً من النور فى ثنايا نظرته الحالكة ، وأن نكبح من روح اليأس التى يمنها تذمره وسأمه .

وإنى لأعترف أننا لم نصل يوما إلى النجاح فى تبديد تذمره ؛ وأقصى ما وصلنا إليه أن نحيل تذمره الناطق الصاخب إلى عبوس صامت ، أما الإقناع فدون إقناعه ألف افتراض واعتراض يجدها دائما ليبرر نظرته ويؤيد نزعته . وقد رضينا بهذ النصيب وتواضعنا عليه ، فنحن — فى نظر أنفسنا — موفقون إلى أسكتناه ، ولا يهمنا بعد ذلك أكان سكوته عن رضا أم عن استسلام .

وقد خطر لى منذ قريب أن أشرك القراء معى فيما يثيره صاحبنا هذا من مشاكل واعتراضات ، أن أشركهم فى سماع جداله مكتوبا ، دون أن أكلفهم عبء مجابهته وعناء مناقشته ؛ ولهم أن يحكموا له أو عليه ، وهو فى كلتا الحالين واجد منفذا ليعترض به على حكمهم … …

كنا نسير معه فى ميدان من ميادين القاهرة ، فلفت نظرنا تجمع الناس فى حلقة ، وكدنا نمضى ، لولا أن اندفع صاحبى ليرى الخبر فتبعناه .

وكان الأمر حادثاً عادياً ، يحدث أمثاله كل يوم ؛ فقد كان أحد الشرطة يقتاد بائعاً متجولا بالتهمة التى اصطلح القانون على تسميتها «مزاحمة الطريق» ، فحاول البائع التملص والاسترحام رفقاً بتجارته التافهة من تجار «الدانجو» أن تذبل معه بين جدران القسم أو عند بابه ؛ واشتط الشرطى فى جذبه ، فوقعت حبات «الدانجو» على الأرض ، والتهمت السيارات العابرة جزءاً منها ، وتناثر الباقى فى جنبات الطريق ، فما كان من البائع إلا أن استشاط غضباً ، ورمى الشرطى بلفظ من ألفاظ السباب . واحمرت عين القانون مرة أخرى ، وأضاف إلى تهمة البائع تهمة أخرى ، وتهافت الناس على الشرطى بين مسترحم يرى خلال يديه القضبان الحديدية التى توشك أن تنطبق على البائع المسكين ، وبين راث للبائع قانع بالرثاء الصامت البليغ .

وقال صاحبى : هيه ! وما رأيكم فى هذا ؟

قلت متحفزاً : رأينا أنه حادث عادى ، لعلك تحب أن يخرق الناس حرمة القانون ، وأن يتركوا بعد ذلك آمنين ؟

قال : ومن زعم أنى أحبذ صنع البائع ؟

قلت : فقيم اعتراضك ؟

قال : لنتفق أولا على المبدأ ، أتشكون فى أن هذا القانون الذى حرم تجول الباعة قانون عادل يرمى إلى حفظ النظام وتأمينه ؟

قلنا : كلا ، وإنا لنظنك أنت الذى تشك فى ذلك !

قال : فأنتم لا تشكون ، وأنا لا أشك . أو تؤمنون أيضا بالحكمة التى تقول : إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع ؟

قلنا : كل الإيمان .

قال : فهذا القانون يعد التجول للبيع مخالفة ، وهؤلاء الباعة المتجولون لم يستقروا فى متاجر يبيعون فيها لأنهم لا يملكون من المال ما يؤسسون به متجراً ، وبعضهم ، بل جلهم ، كل رأس ماله هذه القروش الضئيلة التى يدفعها فى السلعة التى يبيعها كهذا البائع الذى

رأيتموه . وعقوبة المخالفة هي دائماً غرم مالي ضئيل ، غالباً ما يستغرق رأس المال الضئيل . ولنترك جانباً شطط رجل البوليس كهذا الذي رأيتم مما يطيح برأس المال قبل أن تدرك المخالف العقوبة . ولنذهب إلى النتيجة مباشرة ، فبعد ساعات أو أيام يلفظ باب القسم ، أو باب السجن ، إنساناً قد فقد ماله وعمله ، عليه أن يواجه الحياة وبين جنبيه فكرة سيئة عن المجتمع وعن القانون ، وحجته في ذلك أنه كان يعمل عملاً يحرمه القانون ، وكان يملك قروشاً فأخذت الدولة منه هذه القروش .

وطبعي ألا يطرق مثل هذا الإنسان باب عمل شريف ، أولاً لأنه لم يتعلم حرفة غير البيع والمساومة ، وثانياً لأنه لم يعد يملك مالاً يشترى به ما يبيعه . إنما هو إذن سيلجأ إلى جيوب الناس يستعيد منها ما أخذته يد القانون ، ثم يستمرئ المرعى ، فيمضي في هذا السبيل ، ويكون القانون — من غير قصد — قد أحل مبدانا من بائع زعم بتجواله ، ليضيف إليه نشالاً يزحمه بسطواته .

ومن الغريب أن أمثال هذا الإنسان عنصر نشيط ، فهم يقضون اليوم في ذرع طرق العاصمة سيراً ووثباً في الترام والسيارات من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر ، وقد يكون فيهم من يتخذ سلعته ستاراً ليخفي أهدافاً منها سلب المارة ، والاتجار بالمخدرات ، والتسول ؛ ولكن هؤلاء ليسوا نصف الباعة المتجولين ، وليسوا ربعهم ، وإنما هم أقلية ضئيلة يكشف عن أغراضها تفاهة ما تتجر به من سلع .

وسكت صاحبنا ، فقلت : إنك تزعم أن القانون عادل أول الأمر ، ثم تأتي بعد ذلك فـ . . . .

وقاطعني في غضب : فماذا ؟ إني لا أزعم بل أؤكد أن القانون عادل ! لكن هل نسيتم ما أعلنتم من إيمانكم بحكمة من قال مرعنا يستطاع ؟ هل مهدت الدولة لهذا القانون بما يجعل تنفيذه مستطاعاً ؟ هل كفلت العمل لهذا الذي سيخرج بعد تنفيذ العقوبة بلا سلاح ؟ بل هل كفلت قبل ذلك حرفة لكل فرد من الذين لا يملكون ولا يعملون ، وهم طبقة ينطوي تحتها رقم هائل من سكان القطر ؟ إن هذا القانون يفرض سؤالاً : هل هناك عمل لمن لا يملك شيئاً ، ولا يعلم شيئاً ، ولا يجيد عملاً ؟ كان على الدولة أن تجيب عن هذا السؤال أولاً . أما أن يقول الواقع إن لدينا الآلاف ممن يولدون وينشأون لا مال ولا علم ولا حرفة ، شيطانيين ، كنبات الصحراء وحواشي الحقول ، وأن يقول إن هؤلاء الآلاف يمضون إلى عمل الفطرة والبداءة ، المبادلة في صورتها المحدودة ، ثم يأتي القانون بعد ذلك ويقول لا ! فأنا عندئذ أطلب إليكم الاحتكام إلى إيمانكم بحكمة من قال : مر بما يستطاع . . . .

وأيهما شر على الدولة والنظام ؟ بائع متجول في عمله جزء من التسكع ، أم إنسان كل عمله التسكع وما يجر إليه التسكع من شرور ؟ هذا هو السؤال وتلك هي الحكمة !

قلنا : وما رأيك أنت ؟

قال : رأيي أنا ! وهل لي رأي له قيمة إن لم يكن لرأي الواقع قيمة ؟ وماذا . . . .

وأحسسنا بالخطر ، فهو موشك على الثورة ، وإن ثار فلن نستطيع إسكاته . لهذا آثرنا أن نرفق به وبأنفسنا ، فنحن نسير في طريق ، وقد دأب المهذبون على استهجان حدة النقاش في الطرقات ، ففي مزاحمة لآذان الناس واقتحام لها ، وإن كان القانون لا يجزي عليها . . .

وقلت مضطراً : إنك على حق . لا بد أن يكون لرأي الواقع قيمة ، وما قيمة الآراء الفردية إلى جانب رأي الواقع . . . صحيح . . .

صلاح ذهني

أصـــل النقود
وأول من ضربها

يقول المثل اليوناني القديم « مشى الثور على لسانه » ، يضرب اليونان هذا المثل عندما يظهر تأثير الرشوة على الخطباء ، أى أن الذهب أسكته . لا شك فى أن هذا المثل هو خير دليل على أصل النقد عند القدماء قبل استعمال المعادن وتطورها إلى النقد الحالى . فقد كانت أداة التعامل عندهم هى الماشية ، ولما أن اتسعت التجارة بينهم ، فكروا فى حل يسهل التبادل ، فاتخذوا المعادن أداة للتبادل لما انفردت به من ميزات الثقل والصلابة . وقد كانت هـذه الفكرة نواة لحضارتنا العظيمة الآن .

ظل استعمال المعادن قروناً عديدة سلعة كغيرها من السلع على هيئة سبائك بأشكال مختلفة كحلى وأدوات أخرى ، وكانت توزن عند كل عملية مقايضة ؛ وظل الوزن هو الضابط الوحيد لتحديد قيمة المعدن فى المقايضة بغيره من السلع . ولكن تطور الحضارة واتساع التجارة أدى إلى تطور هذه الطريقة البطيئة حتى تناسب حركة التجارة المتزايدة . فكر القدماء بدلا من وزن السبائك باستمرار فى كل مرة فى إيجاد قطع معدنية ذات شكل منتظم لها وزن محدد دقيق ، ثم وقف التقدم عند هذا الحد . وبالرغم من تحديد وزن السبائك المعدنية الدقيق لم يعرف القدماء تلك الفكرة التى تبدو لنا بسيطة سهلة ، وهى طبع هذه القطع ذات الوزن المحدد بختم الدولة القائمة ، الذى يجعل لها قوة قانونية تحتم قبولها فى التبادل بقيمتها الاسمية فى كل مكان .

تعمد القدماء عند تحديد وزن القطع المعدنية أن يجعلوها ذات قيم صغيرة لسد حاجة التبادل اليومى ، وكانت الصفقات الكبيرة يدفع ثمنها إما بعدد كبير من هذه القطع الصغيرة القيمة من ثلاثة معادن : الذهب والفضة والنحاس ، أو بسبائك من هذه المعادن على هيئة قضبان ثقيلة الوزن توزن بالمين ، والتالنت (هى وحدة الموازين الكبيرة — التالنت = ٦٠ ميناً) .

كان اختراع النقود كاختراع الحروف الأبجدية نقطة تحول فى تاريخ المدنية ، فقد وضع أسس الحضارة العظيمة الموجودة الآن . وقد قال عنه أرسطو : « لقد تخلصنا به نهائياً من مضايقات الوزن المستمر » . كان أساس هذا الاختراع العظيم الذى نقل هذه القطع أو السبائك المعدنية من دورها البسيط البدائى إلى تطورها النهائى بشكل نقود حقيقية ، هو وضع الختم الرسمى للدولة على هذه القطع المعدنية الموزونة بدقة . وعلى هذا وثق الناس بهذه القطع من حيث الوزن ونقاء المعدن ؛ وقد صارت بذلك القطعة المعدنية صكا مضموناً . وهذا هو أساس كل نقد حتى أحسن أنواع النقود الذى تطابق قيمته الاسمية القيمة المعدنية تماماً . كان الختم ضماناً بين يدى النـاس لهذه القطع المتبادلة بينهم ، فقبلوا التعامل بها بدون مراجعة الوزن أو نوع المعدن . وبالنسبة لما نشأ عن هذا من سهولة التبادل التجارى ، فقد كان للحكومة الحق فى أن تفرض للنقود قوة التعامل ، وأن ترغم الناس فى كل مكان تحت سلطتها على قبولها بشتى الوسائل على شرط أن تكون عملة جيدة . ومهما كانت قوة القانون الذى يفرض التعامل بالنقود ، فهى لا تمنع تدهور العملة الرديئة التى لها قيمة اسمية أكبر بكثير من قيمتها الحقيقية ، وهذا أمر طبيعى .

كان اختراع العملة متأخراً ، فلم يتحقق إلا فى آخر القرن الثامن وأوائل السابع ق . م . وكل المصادر التاريخية والأثرية تنسب شرف هذا الاختراع إلى الليديين واليونانيين ، ثم انتشر منهما إلى الأمم الأخرى مع انتشار الحضارة اليونانية . وتدل النقوش والمصادر على وجود القطع المعدنية ذات الوزن المحدد من أقدم العصور ، ولكن لم نر أثراً للنقود قبل هذا التاريخ .

كانت أول عملة عند القدماء سبيكة بسيطة تحمل نقشاً بمثابة ختم رسمى . ولا بد أن نشير إلى أنه وجدت قبل ذلك بعض قطع تحمل أختاماً خاصة شخصية كضمان القيمة المعدن ، منهـا واحدة عليها غزال كتب حوله باليونانية « أنا علامة فانوس » ؛ وطبعاً كانت بعض الشخصيات الغنية ذات السمعة الطيبة تختم القطع الخاصة بها ، فيكون

ذلك بمثابة ضمان لنقاء المعدن . ونحن نجد مثل هذه الحالة فى الصين الآن مما يعطينا فكرة واضحة عن هذه الأختام الشخصية . تبين الناس أهمية هذا الختم الرسمى . ولما شاع استعمال النقود تناوله الفنانون المكلفون بضرب العملة بالتحسين ، فاتسع حتى ملأ وجهى القطعة . وكان لكل بلد رمز خاص به ، وكان فى أول الأمر محفوراً فى القطعة ، ثم صار بارزاً على صفحتها ، وارتقى فنيا حتى صار موضع تنافس الفنانين البارزين فى ذلك الوقت . وقد كان الأسيويون يحفرون الرمز على الحجر ، ثم يصبون العملة عليه فيظهر على القطعة رمزاً بارزاً ، وقد قلدهم اليونان ثم تناولوه بالتحسين حتى وصل إلى درجة رائعة من الفن ، وهكذا كانت الضرورة الاقتصادية سبباً فى النهضة الفنية .

جمع بولكس Pollux وهو مؤرخ ثقة عند ما تكلم عن أول من ضرب العملة عن المؤرخين القدماء الذين سبقوه أقوالاً متناقضة جعلت المؤرخين فى حيرة فيمن هو أول من ضرب النقود ، هل هو فيدون Phidon ملك أرجوس اليونانى أم الليديون . هناك نظريتان لهما ما يؤيدهما تاريخياً : النظرية اليونانية وهى أن فيدون أول من ضرب العملة من الفضة فى اليونان الأوربية على شكل سلحفاة بحرية ، ويؤيد ذلك أنه وهب معبد هيريون Heraion بعض السبائك بدون أختام من الفضة على شكل مسلات obeliskoi كانت مستعملة قبله فى اليونان ، وقد وهبها الملك لذكرى اختراعه العملة ؛ والنظرية الأسيوية ، وهى أن الليديين هم أول من ضربوا النقود من الذهب ، ويؤيد ذلك المؤرخ هردوت إذ يقول : « الليديون على حد معرفتنا هم الأول بين الرجال الذين ضربوا العملة من الذهب والفضة » ، وأيده المؤرخ اجزنوفان واقتبس عنه بولكس .

يمكن أن نسلم بهاتين النظريتين ، فأول من ضرب الذهب (إلكتروم electrum ، وهو خليط من الذهب والفضة طبيعى) هم الليديون ، وأول من ضرب الفضة فى اليونان هو فيدون ، ولكن أيهما أسبق ؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال . فإذا عرفنا أن العملة فى ليديا ضربت بعد انتهاء دولة هرمناو أى فى عهد جيجيه Gygès ، وأن تاريخ حكم فيدون ملك أرجوس غامض لا يعرف هل هو قبل أو بعد حكم جيجة ، كان لا بد من الاستشهاد بالآثار نفسها .

وإذا درسنا أقدم القطع فى المجموعتين الليدية واليونانية ، ومما بالتأكيد أقدم ماظهر من العملة وينتميان إلى النصف الأول من القرن السابع ق . م ، وجدنا أن مظاهر الخشونة وعدم الإتقان تبدو بوضوح على القطع اليونانية الفضية ، وهى مستطيلة الشكل على هيئة سلحفاة بحرية ؛ بينما النقود الذهبية الليدية مستديرة الشكل ، وعلى ظهرها ثلاثة نقوش محفورة بنظام ، وفى إحداها صورة ابن آوى ، وهو رمز إله الليديين بساريوس Bassarius ، وليس على وجهها إلا بعض خطوط أدق نسبياً وأرقى مما تم من الوجهة الفنية . وليس ذلك دليلا على أن العملة اليونانية أقدم من الأخرى ، إذ يرجع السبب إلى تقدم الليديين ، لأن الحضارة وارتفاع الفن فى آسيا الصغرى سبقا بمراحل الحضارة اليونانية فى أوربا فى ذلك الوقت . والواقع أن العملة الليدية تمثل الانتقال بين التبادل بالقطع المعدنية ذات الوزن المحدود بدون ختم رسمى ، وبين النقود الحقيقية ، فهى سبائك عليها ختم الدولة الرسمى ، فاكتسبت بذلك ضماناً قانونياً لوزنها ونوع معدنها ؛ فهى من الوجهة الاقتصادية تعتبر نقوداً لها خصائص النقود الأساسية ؛ وأما من جهة فن الضرب فتعتبر ناقصة ، لأن اختراع قوالب العملة الذى يطبع وجه العملة بالشكل البارز الذى يقابل الشكل المحفور على الظهر هو آخر ما وصل إليه تطور فن ضرب النقود ، وظل موضع تحسين إلى عصرنا هذا . إذن فكل عملة تمثل هذا التطور مهما بلغت من الخشونة وعدم الإتقان فى مظهرها تعتبر متأخرة بحكم انتمائها إلى عصر فنى أحدث فى تاريخ ضرب العملة . هذه هى الحالة التى تنطبق على القطع اليونانية التى ضربها فيدون بالرغم من مظاهر الخشونة البادية عليها ؛ فالنقش المحفور على ظهرها يقابله نقش بارز فى عهد جيجة Gygès . فالليديون هم إذن كما أخبرنا بذلك هردوت أول من ضربوا العملة ، ونقلها عنهم اليونان .

محمد عبد المحسن الخشاب

بين المجـــلة والقراء

حول مقال عروة بن الورد :

أخي الأستاذ أحمد أمين بك .

تحية وسلاما وبعد : قرأت مقالك الطريف عن « عروة ابن الورد » ، فلفت نظرى هذا البيت :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا
من المال يطرح نفسه كل مطرح

وأظن أن الرواية الصحيحة ينبغي أن تكون « ومقفرا » لمناسبة هذا اللفظ قوله « من المال » ، ولا سيما أن (أقتر) معناه كما في القاموس (افتقر) ، فلعلك توافق على هذا الرأى . وختاماً أكرر لك تحيتى وشكرى ، ودمت للمخلص

عبد المجيد العبادى

(الثقافة) : راجعت ديوان عروة المطبوع في الجزائر وشعراء النصرانية وغيرها ، فوجدتها كلها تروى البيت « ومقترا » ؛ ولا أرى داعياً إلى التغيير ، فإن معاجم اللغة تنص على أن « أقتر وأقتر وافتقر » بمعنى واحد ، فلا أرى داعياً لتغيير النص ما لم تكن ضرورة داعية .

إلى الأستاذ صلاح الدين المنجد :

ورد في مقال لك في « أدب الأخلاق في الغرب » ، بالعدد ٢٤٨ من الثقافة أشياء آثرت أن أراجعك فيها . أولها : قولك في الحديث عن قصة ماتيو فالكونى ، إن الشرطة رشوا الصبي فورتوناتو بالدراهم ، والواقع أن رئيس الفرقة قدم له ساعة ذهبية هى فى الحق رشوة ، ولكن الصبي حسبها هدية . وقد كانوا حاولوا إغراءه بالدراهم فأبى .

ويبدو من مقالك أنك تنظر إلى روسو كواحد من الخلقيين (Moralistes) ، وهو لم يكن كذلك في يوم ما ؛ بل كان يدعو إلى الحياة الطبيعية الغريزية ، وقد أنشأ في الأدب ما يسمى (Instinctivisme Naturelle) . وليس معنى هذا أن الدعوة إلى بعض المبادئ الخلقية لم تظهر في كتاباته . والأدباء الخلقيون في فرنسا قليلون ، وأشهرهم ميشيل دى مونتين في القرن السادس عشر و (Vauvenargues) و (Duclos) و (Chamfort) و (Rivarol) في القرن الثامن عشر .

ونترك بعض الأخطاء الطبعية في نظرنا من مثل بولين وهي بولين و Tolostoi وهي Tolstoi ونسألك في Corneille: أهي كما كتبتها كورنيل أم هي كما ينطقها الفرنسيون كورنى ؟ ولك تحية المعجب بأدبك .

السيد الزالى

حول كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الذين يتأملون الفن العربي يجدون أحيانا من هذه الملاحظة التي لم أعرف بعد كيف أعللها وهي : أن هذا الفن العربي كثيراً ما يبدو أنه أثر من آثار الجهود الشخصية التي يبذلها العباقرة في كل ضرب من ضروبه ، وأنه ليس أثرا من آثار التطور الذي يخضع له الفن الأوروبي .

والشعر أدخل أنواع الأدب كلها في دائرة الفن . والملاحظة التي نذكرها الآن أكثر انطباقا عليه من النثر ، لأن النثر أدنى من الشعر إلى العقل . ومن السهل مثلا أن نجد تلميذا للجاحظ أو بديع الزمان أو القاضي الفاضل ، ولكن ليس من السهل أن نجد تلميذا لأبي تمام أو المتنبي أو المعري .

ولكن هل معنى ذلك أننا نسكت عن تاريخ الشعر العربي ؟ أو هل معنى ذلك أننا نقف عند وصف الجهود التي بذلها رجال الشعر العربي ؟ لا — بل الواجب أننا نحاول تنظيم الشعراء في صفوف بقدر المستطاع . وهذا ما قد فعله القدماء حين جعلوا الشعراء طبقات بحسب الزمان أو المكان ؛ ثم هذا ما يفعله المحدثون في الوقت الحاضر حين يجعلون الشعراء مذاهب ومدارس ؛ وذلك بحسب الطرق الفنية التي يصدر عنها الشعراء بزعمهم . وهذا وذاك نوع من التكلف لا غنى عنه لتنظيم الدراسة لا أكثر ولا أقل .

نعم — يجب أن نحاول هذه المحاولة ، ولكن لا ينبغي لنا مطلقا أن تنسينا هذه المحاولة أن الشاعر ، لأنه صاحب فن ، لابد أن تكون له أصالته التي يمتاز بها عن غيره من الشعراء مهما اتفقوا معه في العلم أو العقل أو البيئة أو المزاج أو غير ذلك من أسباب الاتفاق .

وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف نفسر ظاهرة كهذه الظاهرة ، وهي : أن المعري لم يحسن أن يفلسف الشعر برغم أنه في نظر الناس فيلسوف ، وأما أبو تمام فقد وفق في أن يفلسف الشعر برغم أنه ليس بفيلسوف ؟ لا سبيل إلى تفسير هذه الظاهرة وأمثالها إلا بالاعتماد على فكرة الأصالة الفنية التي تختلف في كل عبقري من عباقرة الشعر عن سواه .

هذه بعض الخواطر التي شغلت ذهني بعد الفراغ من قراءة الرسالة التي أقدمها لقراء (الثقافة) الآن ، وهي الرسالة التي تقدم بها زميلي وصديقي الدكتور شوقي ضيف لامتحان الدكتوراه ، وموضوعها (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) . وقصدي من إيراد هذه الخواطر ظاهر ، وهو أن أقول أولا إني لا أوافق على الفكرة الأساسية نفسها للرسالة ، وإن كنت في الوقت نفسه لا أتردد مطلقا في الاعتراف بأنها مجهود شاق أشفقت منه على مؤلفه كل الإشفاق . ورأيت أن أثني عليه بما يستحق .

ولكن لندع الثناء جانبا لنفرغ للنقد الذي أريد بهذا المقال ؛ فأول أول ما يؤخذ على هذا الكتاب أن مؤلفه وقع في خطأ التعميم ، وانزلق فيه بدافع من حرصه على اطراد القاعدة ، فالشعر في نظر المؤلف هنا (صنعة وتصنيع وتصنع) ، وهذه الأطوار الأدبية يتبع بعضها بعضا على هذا الترتيب ، وكل طور منها يستغرق فترة ما من فترات التاريخ . ومعنى ذلك أن الشاعر الذي يأتي في فترة الصنعة لا يمكن إلا أن يكون من شعراء الصنعة . وهذا قول لا يستقيم لنا وليس من السهل أن نعتمد عليه .

وقد يؤخذ أيضا على هذا الكتاب أن مؤلفه كثيراً ما يختفي وراء أساتذته ، وآية هذا أن المؤلف كان يثال من قارئه الإعجاب كله في الوقت الذي يعرض فيه رأيا خاصا لم يتأثر فيه بغيره ، ولكنه لم يكن ليحظى بهذا الإعجاب كله حين يقف رأي الأستاذ حائلا بينه وبين رأيه .

وأوضح ما تكون الأمثلة على هذا في كلامه عن المتنبي .

ثم إن من يقرأ هذا الكتاب يحس كأن أبا نواس وبشارا والبحتري وأبا تمام قد استنفدوا جهد المؤلف كله ،

وجعلوه يعدو في بحثه بقوة تثير العجب والدهشة ، حتى إذا وصل به البحث إلى قضية الإقليمية في الشعر العربي لم تجد عنده هذه القضية على خطورتها بقية من نشاطاً يحققه في بحثها ، فيكتفي المؤلف بعرضها عرضاً سريعاً ينتهي فيه إلى نتيجة تفتقر إلى البحث ، وهي : أن الأقاليم العربية كلها كانت تجهل تاريخ الأدب العربي الذي ظهر بالشام والعراق ، وأنها لذلك لم تبتدع بعد شيئاً تتميز به .

ولكن لا يحسبن القارئ أن هذه المآخذ كلها تغض من قيمة رسالة كهذه الرسالة التي ننقدها ، فقليل جداً من المؤلفين من لا يتورطون عادة في مثل هذه المآخذ التي أذكرها . والرسالة بعد هذا كله تمتاز بأشياء :—

فمن الحق أولا أن يقال إنه ربما كان هذا الكتاب أول بحث حديث شرح لنا طبيعة الشعر العربي ، ووصل فيه المؤلف إلى نتائج لها قيمتها . وإن أعجب فعجبي — كما يقول الناس — لهذا الجهد الشاق الذي بذله المؤلف في دراسة أبي تمام بنوع خاص ، حتى ليكاد الكلام عنه هو في كتابه — كما يقول نقاد الأدب الإنجليزي .

وأخرى من حسنات هذا الكتاب أن مؤلفه ربط فيه بين مظاهر الفن الشعري ومظاهر الحياتين العقلية والاجتماعية ربطاً حسناً . ولعل أروع ما ظهر أثر ذلك في كلامه عن الشعر الإسلامي في دور التصنع .

ثم إن المؤلف الشاب انتفع انتفاعاً قيماً (بالأغاني) من كتب الأدب العربي . بل إن انتفاعه هذا يعتبر حسنة من حسنات كتابه لا ينبغي أن نغفل عنها .

وأما أسلوب الكتاب فله جاذبية من نوع خاص ، إذ يعتمد في جملته على التكرار — بقصد الإيضاح ، لأن صاحبه مدرس ، كما يعتمد أحياناً على التشبيه والخيال — لأن صاحبه أديب كما أنه مدرس . بل إن فكرة الألوان والأصباغ التي اصطنعها الدكتور شوقي في كتابه فكرة لا تصدر إلا عن أديب بطبعه ، فضلاً عن أنها أعانتنا كثيراً على فهم الشعراء الذين ذكرهم في هذا البحث القيم .

(وبعد) فإذ يشكر القراء المؤلف الذي تعب في وضع هذا الكتاب ، فإنهم لا شك يشكرون معه الجامعة التي أعانته وشجعته على وضعه . وهم يرجون أن تمضي الجامعة في إنتاجها قدماً ، وأن تعتمد في هذا الإنتاج أكثر ما تعتمد على الشباب حتى تكون بذلك قد أدت بعض ما يجب عليها نحو البحث العلمي .

عبد اللطيف حمزة

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٢٦٩٩٦/٥٦٧٦٩

العدد ٢٥٣ — الثلاثاء ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٦٢ — ٢ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة

لاحِظ الطفل ، وأمعن النظر في تصرفاته ، وراقب البواعث على حركاته وسكناته ، تخرج بنتيجة حتمية ، وهي أنه أنانيٌّ مفرط الأنانية ، يرى أن أهمَّ ما في الوجود شخصه ، وكل شيء حوله يجب أن يكون له ؛ ما يصدر عنه من أعمال فإنما هي لجسمه ، ولذة يلتذها جسمه ، ليس يهمه أي شيء يتصل بغير شخصه ، لا يعنيه من أمه إلا أن ثديها وعاء لبنه ؛ كل ما له من عمل ، وكل ما له من شعور ، وكل ما له من فكر ، وكل ما له من رغبات ، فإنما هي موجهة نحو ذاته ؛ فإذا أحسَّ فراغاً من الزمن ليس فيه شيء مما يشتهي ويلتذُّ بكى ؛ لو كُلِّف أن يرسم خريطة العالم كما يرى ، واستطاع ذلك ، لَرَسَمَ شخصه فقط ، وكان هو العالم كله ، وهو العالم وحده ، وما عداه من شيء فلخدمته .

لاحِظه بعد ذلك وهو ينمو ، تجده يتحول من « أنا » قليلا قليلا إلى « نحن » شيئاً فشيئاً ، فهو يبدأ يشعر بأسرته بجانب شخصه ، ثم تلاميذ مدرسته بجانب نفسه ، ويتعلَّم دروس الأخذ والإعطاء ، بعد أن كان درسه الوحيد هو الأخذ ، ويضم إلى العمل لشخصه العمل لغيره ، ويعتاد ألا يعمل فقط ما يحب ، بل يعمل أيضاً ما يجب ، ويعمل ما تقتضيه التقاليد ، ويعمل خوف الاستهجان أو العقوبة أو نحو ذلك — يتعلَّم ذلك كله في أسرته وفي مدرسته ، وفي ألعابه وفي شارعه ؛ ويتولَّد فيه شعور وتفكير ورغبات للعمل للغير ، كما تولَّدَتْ فيه من قبل هذه الأمور للعمل لشخصه .

ويَرْقَى فيه الشعور بـ « نحن » إذا اتَّسع أُفقه في الحياة العامة ، وخرج من المدرسة وتولَّى عملا ، وعاملَ

الناس وتبادل معهم النافع والمصالح ، فيشعر بأن هناك أناساً غير أسرته وغير مدرسته وغير معارفه ، وأنه مرتبطٌ ببعضهم في التعامُل ، ويشعر بأن هناك مسئولية مُلقاة على عاتقه نحوَ مَنْ يَعمل معهم ، وأنه خاضعٌ لقوانين البلاد ، وله روابط بقومه وأهل دينه ونحو ذلك ، كما يشعر أنه يجب عليه العمل ، لا كما يجب كالطفل ، ولا طاعةً للتقاليد أو خوفاً من العقوبة كالفتى ، ولكن ليحصِّل رزقه ، يقوت به نفسه أو أهله أو مَنْ يحمل عبئهم ؛ وهكذا نراه يبعُد بعض الشيء من « أنا » ويقرُب من « نحنُ » ، ولكن في حدود ضيِّقة معيَّنة .

فإذا نحنُ تتبعْنا بالدراسة « الرجال» وعظماء الناس ، رأينا استغراقاً وعمقاً في « نحنُ » ، وضموراً في « أنا » . رأينا الرجل العظيم الناضج يصل إلى منزلة يرى معها أن لا قيمة لحياته إلا إذا ارتبطت بحياة الناس والعمل لإسعادهم ؛ لا يقتصر في علاقاته الطيبة عن حوله في الأعمال العادية ، ولكن يضع نصب عينه العمل لترقية الناس روحيًّا ونفسيًّا وماديًّا ؛ لا يرى أن مسئوليته هي نحو أُسرته فقط ، ولا أصدقائه فقط ، ولا قريته أو مدينته فقط ، ولكن لأمَّته خاصة ، وللإنسانية عامة إن وسعه الجهد والكفاية ؛ هو واسع النظر ، عميق الفهم ، رحب الصدر ، متسامح أمام ما يشل العقل من العصبية الوطنية والدينية والخلافات الحزبية ؛ يختبر حاجات الناس وأسباب شقائهم في الناحية التي هو مُعَدٌّ لها ، ثم يوجه إرادته لرفع الشقاء عنهم ، وجلب السعادة لهم ما أمكن ، ويحمل مسئولية ذلك في لذة وسرور وتضحية ، ولا بأس إن كان فقيراً ، ولا بأس إن لم تُنبته أسرة أرستقراطية ، ولا بأس إن لم يتسلَّح بقوَّة ، فهو يشعر أن نُبل غرضه قوة فوق قوة المال ، وفوق الأسرة النبيلة ، وفوق أسلحة الناس .

إذا كانت جماهير الناس يعملون للأجر ، ويقوِّمون العمل بالمال ، فإن أُعطوا كثيراً عملوا كثيراً ، وإن أُعطوا قليلا عملوا قليلا ، ويفاضلون بين عمل وعمل بقدر ما يدر من ربح ، فإن هؤلاء العظماء يعملون لأنهم يلذُّهم العمل ، ويقوِّمون العمل بمقدار ما يحقق من خير لأمتهم وللإنسانية أجمع ؛ يدأبون في العمل ، ويعرضون حياتهم للخطر في سبيل مرض يكتشفونه ودواء يعالجونه به ، أو في سبيل تحرير العقول من أغلالها ، أو تحرير العقيدة مما أفسدها ، أو يحاربون الظَّلَمة والطُّغاة لتحقيق العدل في الأمة أو العالم ، يحتملون في ذلك العذاب ألواناً ، لأن عشقهم للحق غلب حبهم للذات ، وهيامهم بـ « نحن » أضعف حبهم لـ « أنا » . فإذا قال الطفل « أنا » ، وقال الإنسان العادى « أسرتى » ، قال الرجل « أمتى » ، أو « عالَمى » ؛ وإن تلذذ الناس بالعمل يربح ، تلذذ هو بالفكرة تنجح ؛ وإن تساءلوا عند العمل : ماذا نجنى من دَخْل ؟ تساءل هو : ماذا يستلزم العمل منى من جهد ؟ .

قد منحهم الله قوةً من قوته ، وقدرة على الخَلْق من قدرته : يخلقون النافع فيما حولهم ، ويبتدعون الجمال ينشرونه في دائرتهم ، فهم — دائماً — مصدر نفع وجمال . حدَّدوا غرضهم في الحياة ، فعلموا أنهم لا يصلون إليه إلا إذا فهموا حق الفهم دنياهم التى يعيشون فيها ، وطبائع نفوس الناس في الاستجابة للإصلاح والنفور منه .

يلتذُّون تحمل التبعات كما يلتذ الجبناء الهرب منها ، يواجهون الصعوبات بابتسام ، ويتقبلون الهزيمة ربما يستعدون للوثوب ؛ أقوياء في خصومتهم ، صابرون في هزيمتهم ، كرماء سمحاء في انتصارهم ؛ آلوا على أنفسهم أن يكونوا قوة محاربة للشر المحيط بهم حتى ينهزم ، وأن يكونوا ضوءا يدافع الظلام حتى ينجاب ؛ يكرهون من أعماق نفوسهم المرض والجهل والفقر ، والسخافة

والتخريف ، وكل عيوب البشرية ، ومع هذا عزجون كراهيتهم لهذه الأشياء بالعطف على التكوين بها حتى ينقذوهم منها .

كافأتهم الطبيعة على حسن صنيعهم براحة ضميرهم وطمأنينة بالهم ، لأن الطبيعة فرضت أن يكون الإنسان اجتماعياً ، وفرضت أن يتبع سنة الارتقاء ، فكافأت من جرى على سنتها ، وعاقبت من خالف قوانينها ؛ فإذا رأيت سأماً وضجراً بالحياة ، وميلاً إلى الانتحار ، وجنوناً بعد عقل ، وشقاوة نفس بعد سعادة ، فثم — ولا شك — قانون طبيعي خولف ، وطريق مستقيم عدل عنه .

* * *

ثم الأمر في النفس ليس كالأمر في الجسم ، فقد ينضج الجسم ويكتمل ، والنفس لا تزال على حالها نفس طفل ؛ فالشاعر كان محقاً حين قال : « جسم البغال وأحلام العصافير » ، وفي الناس حولنا أشكال وألوان من هذا القبيل ، رجولة جسم وطفولة نفس ، ومقياس ذلك الذي لا يتخلف هو ضمير « أنا » و « نحن » ؛ فإن رأيت لا شيء إلا « أنا » رأيت طفلا مهما كان جسمه وسنه ، وإن رأيت « نحن » كثيراً و « أنا » قليلا رأيت رجلا ، والرجال قليل .

هناك من ليس أمامه في الدنيا إلا جسمه ، يبحث حياته عن الأكل الطيب والملبس الطيب والنعيم الطيب ، وذلك كل تفكيره ، وكل سعيه ، وكل غرضه ؛ ركزوا في صحة جسمهم ونعيمه كل شعورهم ، وكل عواطفهم ، وكل ملذاتهم ؛ فإن عملوا عملا خارج هذه الدائرة فلهذه الغاية ، تعرفه بالإفراط في العناية بنوع ما يأكل ، ومقدار ما يأكل ، وبهندامه وعرآه في المرآة ، وبالحذلقة في حركاته وسكناته ونحو ذلك ، ثم لا شيء ؛ فهذا طفل كبير .

وإن شئت فضُدْ من هذا القبيل ناسكا راهباً لا يفكر في أحد من بني آدم حوله ، ولا يهمه حال قومه سياسياً ولا اجتماعياً ، ولا يعنيه شقوا أم سعدوا ، ولا يحمل تبعة شيء ، ولا يصادق أحداً ، ولا همَّ له في الحياة إلا نفسه وعبادته ؛ أليس هو الآخر طفلا كبيراً شغلته « أنا » من « نحن » ؟

وهناك مَنْ يحُدُّ العالم بحدود نفسه ، إذا فكر فكر فيها ، وإذا عمل عمل لها ، لا يعنيه من العمل إلا مقدار ربحه منه ، خسر الناس أو كسبوا ، لا يمنعه من الغش في عمله إلا خوف العقوبة ، فإن أمنها عمل ما شاء ليربح مالاً ، أو يكسب شهرة ، أو يحقق غرضاً من أغراضه لنفسه ، تعلم درس الأخذ ولم يتعلم درس العطاء ، وليست الدنيا كلها وما فيها إلا قنطرة يعبر عليها للوصول إلى غايته ، فهذا كذلك طفل كبير .

وهناك مَن يهرب — كالطفل — من كل تبعة ، لا يقتحم الحياة ولكن ينتظر القدر ، ولا يزاحم ولكن ينتظر الحظ ، إن عرض له شيء متعب تنحَّى عنه إلى شيء مريح .

وهناك أسوأ من هذا : مَن رفع نفسه فوق الناس ، فهم لم يخلقوا إلا له ، ولم تخلق عيونهم إلا لتقع على مطلبه ، ولا آذانهم إلا لتصغي إلى كلمته ، ولا أيديهم إلا للعمل في خدمته ، يسير في الحياة على ما يهوى ، ويحب أن يسير الناس فقط على ما يهوى ، فهذا أيضاً طفل كبير ؛ وكم في الناس من أطفال كبار ، وهم في طفولتهم أشكال وألوان .

* * *

ارسم خطا مستقيما رأسياً ، وضع في أسفله « أنا » وفي أعلاه « نحن » ، وامتحن نفسك : كيف أنت في عملك ، هل لا تنظر إلا إلى شخصك ، أو تراعي فيه مصلحة قومك ؟ وكيف أنت في علاقتك بالناس وعلاقة الناس بك ، وهل تؤدي زكاة مالك ، وزكاة علمك ،

إلى الأستاذ عبد المنعم خلاف :

الثقـــــــافة

والديمقراطية الاجتماعية

لقد استجابت النفس لدعوة الأستاذ خلاف إلى العمل ، والذى لا شك فيه أن لجنة التأليف التى تضم ما يقرب من تسعين رأساً من رؤوسنا المفكرة تستطيع — على الأقل — أن ترسم الخطة للإصلاح الذى حان حينه وتهيأت كافة النفوس لقبوله ، بل والجهاد فى سبيله ؛ وأما التنفيذ و « النزول إلى الشارع » كما يقول السياسيون ، فأمر يتطلب تضحيات ، نود لو استطاعها الجميع أو طائفة بها تقومهم .

هذا أمر تتمناه كل نفس مخلصة . ولكننا إلى جانب هذه الدعوة النبيلة نجد هجوما قويا متكررا من الأستاذ على ما يسميه بالترف العقلى ، وهنا نخالفه أشد المخالفة ؛ ونلت فى الحق خصومة حارة سبقنا إليها مفكرو أوربا ، فأحزاب الشمال جميعاً تتعصب لما يسمونه « ثقافة التنبح » ، ويعنون بها الثقافة الهيهيئية ، وما يلحق بها . وهذا رأى مردود لسببين كبيرين :

فأولا — من المعلوم أن الأساس الثقافى العام ، هو أهم مظاهر الوحدة فى الأمة ، وهذا الأساس لا يمكن إلا أن يكون إنسانياً ، فأنت قد تكشف الفلاح فى الزراعة والنبات وتربية الحيوان ، وقد تكشف الصانع فى الميكانيكا والكيمياء وطبقات الأرض ، والتاجر فى الجغرافيا الاقتصادية ومبادئ الاقتصاد السياسى والقوانين ؛ وقد يجيد كل منهم ثقافته ، ولكنك ستنظر فإذا بهم لا يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم ، لأن أفق كل منهم العقلى ومواضع اهتمامه وسلم قيمه ، بل ونوع إحساسه يختلف عن الآخر تمام الاختلاف ؛ وهذا التنافر لا بد هادم لوحدة الأمة ، وإذن فلا بد من أساس ثقافى يشتركون فيه ، وهذا الأساس هو الثقافة الحرة ، الثقافة الإنسانية التى يسميها الأستاذ ترفاً عقلياً . والأمم الأوربية أكثر وحدة وأكثر تماسكا منا نحن ، لاتساع هذا الأساس العام وعمقه وامتداده إلى منابع الإحساس ذاتها .

ثم إن ما يسميه الأستاذ ترفاً عقلياً ليس كذلك فى الواقع ، فالعقل لا يعرف الترف ؛ العقل جهد ، وكل جهد من هذا النوع لا يقل نفعاً ولا ضرورة عن أى إنتاج مادى ، وإنما يطلبه الطالبون لأنه غير صرف النتائج . هذا الجهد يعمل فى النفوس ، وليس من شك

وزكاة فنك ، وزكاة كفايتك ، أو تشح بكل ذلك ، فلا تنفقه إلا لنال أكثر تحصله ، أو جاه تبتغيه ؟ وكيف أنت فى نياتك ومقاصدك ، هل يؤلمك بؤس الناس وشقاؤهم وفقرهم ، فتتعاطف معهم ، وتعمل جهدك لإسعادهم ، أو أنت وبيتك ، ثم على الدنيا العفاء ؟ وحدد بذلك كله مركزك من الخط المستقيم ، فإذا قربت جداً من « أنا » فهذا دليل الطفولة ولا محالة ، وإن قربت جدا من « نحن » فأنت رجل .

هذا هو التقويم الصحيح للناس ، وهو — مع الأسف — غير ما تواضع عليه الناس ، إنهم يقدرون الرجل بماله وبجاهه وبمنصبه ، وبكل شىء إلا قيمته الحقيقية ؛ ولو راعيت هذا القياس الحق الذى ذكرنا لرفعت من شأن عامل بسيط على صاحب مصنع كبير ؛ وموظفاً فى الدرجة الثامنة على موظف فى الدرجة الأولى ، ومملا أوليا على سرى كبير ، وكناساً مخلصاً على طبيب غير مخلص ، وجندياً مجهولا على قائد مشهور . ولكن أنى لنا المدنية الحقة التى تهدم نظام القيم المتعفن لتضع مكانه نظاما لقيم نظيفاً ؟

أحمد أمين

أن العمل فى النفس لا يقل قدراً عن العمل فى المادة . وهو لا يقف عند تهذيب النفس والسمو بها ، بل يمتد إلى قدرتها الحقيقية على كافة أنواع الإنتاج . نحن فى حياة اجتماعية ، وهذه الحياة مادية وروحية ، تقوم على العلاقات بين الأفراد ، فلكى تنتظم تلك العلاقات لا بد لكل فرد من أن يفهم نفسية الفرد الآخر ؛ وها نحن نختلط ونتقابل ونتحادث كل يوم ، ومع ذلك يسىء أحدنا فهم أخيه كل يوم . هناك قصور عام فى فهم النفوس ، حتى بين خيارنا ، وفى هذا شلل تام لجهودنا المشتركة وتضامننا الاجتماعى . وما يسميه الأستاذ بالترف العقلى قاصداً به إلى الأدب والفن ، لا عمل له فى كافة أنحاء العالم وفى كل العصور غير فهم النفس البشرية ورسم صورة صحيحة للإنسان ؛ هو إظهار لخصائص الروح البشرية ، وكشف عن قواها ، وإيضاح لتفاعلها مع الناس والأشياء . وما يبدو لبعضنا تافهاً أخشى أن يكون ذلك لتخلفنا جميعاً فى فهم النفس البشرية على حقيقتها . كل معرفة أداة من أدوات العمل ، والمعرفة النفسية من أنفع تلك الأدوات .

وأخيراً فليتصور الأستاذ الفاضل أى ضيق نفسى سيجد عندما يفتح « الثقافة » كل أسبوع فلا يجد فيها غير أمراضنا الاجتماعية نولول حولها دون أن نستطيع فى علاجها شيئاً ! الثقافة الحرة إن لم تمنحنا شيئاً ستسلينا على الأقل أشياء ، ستصرفنا عن أنفسنا ولو لحظات نستريح فيها من مشاغلنا المسيطرة ؛ ورعاية الروح ما أظنها تقل قدراً عن رعاية الجسد ، وكثيراً ما تكون رعاية له أيضاً ، وهذا ليس ترفاً بل ضرورة حيوية .

بعد هذا التحفظ العام نستطيع أن نساير الأستاذ فى دعوته المفكرين إلى التفكير الاجتماعى والعمل على تحقيقه ، وكل تفكير فى هذه الناحية لن يجدى ما لم نعالج نظام الحكم فى بلادنا .

•

بالنظر فيما يكتب اليوم فى بلادنا نجد نزعتين : نزعة الديمقراطية الحرة Democratie liberale ، والنزعة الاشتراكية . وأصحاب النزعتين ، فيما أعتقد ، مخطئون ، وأخشى أن أقول آثمون فى تضليل الرأى العام وصرفه عن الاتجاه الصحيح . ومصدر خطئهم أو إثمهم هو صدورهم عن التفكير النظرى الغربى ونقله فى تعصب أعمى له دوافع كثيرة لا تخفى .

فالديمقراطية الحرة تدعو كما هو معلوم إلى الحد من اختصاصات الدولة ، وإلى عدم تدخلها فى الحياة الاقتصادية لأنها تخشى من اعتدائها على حرية الفرد . وهذا مذهب لو طبق فى بلادنا لظللنا على ما نحن فيه من فقر وتخلف ، وذلك لما هو واضح من أن الأخلاق الفردية عندنا لم تعد تملك من الجرأة وروح البدء والصلابة والمثابرة والثقة بالنفس ما يضمن لها النجاح إذا تركت بغير رعاية الدولة ؛ فنحن إذن فى أمس الحاجة إلى تدخل الدولة فى كافة نواحى حياتنا الاقتصادية ، وها هى كبرى المشروعات لا تزال معطلة ، ولن تزال حتى تنهض بها الدولة على نحو ما ، إما بالاستغلال المباشر ، وإما بواسطة شركات تضمن لها الحياة ، وإما بمزيج من النظامين . ونحن بالفعل سائرون إلى هذا . وأما الخوف على حرية الفرد واسترقاق الدولة له ، فهراء نظرى فى بلد كبلدنا ، أين هى تلك الحرية ؟ ورق المادة ، رق الفقر ، هل بعده رق ؟ ثم ما هى النظم التى تحمى الفرد من الدولة فى بلادنا ، وقضاؤنا لا يزال ممنوعاً بحكم لوائح ترتيبه من الفصل فى الخصومات بين الأفراد والدولة ، إلا فيما يخالف الشكل ! وكل ما يستطيعه حتى فى هذه الحالة هو الحكم بتعويض . هل عندنا مجلس دولة على رأس قضاء إدارى يضمن للفرد حريته وكرامته وحقوقه ؟

ثم لننظر فى نظامنا البرلمانى ، وهو رمز الديمقراطية ، يقول الدستور : إن كل نائب يمثل ستين ألف نفس ؛ فهل أحصى أحدنا عدد الأصوات التى تعطى فعلا لبرى

أن الكثيرين من النواب فى كافة العهود ينتخبون بما لا يزيد أحياناً كثيرة على بضعة آلاف صوت ؟ وهل لم نلاحظ جميعاً أن عدد الأصوات أقل ما يكون فى المدن ، مع أنها مقر أكبر عدد من المتعلمين ؟ وإذا صح هذا أو ما يكون فى مقاطعة خيارنا الانتخاب وتنحينا عن أداء أخص واجبات المواطن الصالح ما يدعو إلى النظر ؟ وهل لهذا من علاج غير تدخل الدولة وجعل التصويت إجباريا كما كانوا يفعلون بأسبانيا فى عهد قريب ، ومعاقبة المتخلف عن أداء واجبه ، ولا أقول عن استعمال حقه ؟ ؟

وكل هذا يسوقنا إلى المناداة بتدخل الدولة étatisme لا بالديمقراطية الحرة التى لا تصلح لنا ولا نصلح لها .

ونترك الديمقراطية الحرة كمذهب سياسى لننظر فى الاشتراكية كمذهب اجتماعى ؛ ولقد سبق أن أوضحنا فى مقال بهذه المجلة بعنوان « بؤسنا المادى » أن مشكلة الفقر فى بلادنا ليست مشكلة توزيع فحسب ، لأنه من الثابت أنه لو وزعت الثروة الموجودة الآن ببلادنا بالتساوى لافتقر الجميع ولم يغن أحد ؛ ثم إنه لكى نحقق الاشتراكية لا بد من سفك الدماء فيما أرجح ، وهذا أمر إجرامى لا يمكن أن يفكر فيه عاقل ، لا لأنه بشع فحسب ، بل لأنه كما قلنا لن يحل المشكلة .

وثمة أمر خطير آخر ، وهو أننا الآن أمة ناشئة فى الصناعة ، وهذا يقتضينا إذا أردنا أن تنجح الصناعة فى بلادنا ، فيزداد الدخل العام وتخف وطأة الفقر ، أن نحارب الديمقراطية الحرة والاشتراكية العالمية على السواء ؛ نحارب الديمقراطية الحرة لأنها تقول « دع الفرد يعمل ، دع التجارة تمر » . ولقد سبق لست List العالم الاقتصادى الشهير ، فأوضح بما لا يحتاج إلى مزيد أن الصناعات الناشئة لا بد لها من حماية الدولة ، وأوضح مظاهر هذه الحماية هو فرض الضرائب الجمركية الواقية التى تحمى صناعتنا ضد الصناعات الأجنبية المنافسة القوية بحكم قدمها وضخامة رؤوس أموالها وتنظيم أسواقها ، وإلا هلكت صناعتنا بما يسمونه الإغراق dumping ؛ وهو عبارة عن البيع بخسارة إلى أن تموت الصناعة المحلية ، ثم تعويض الخسائر فيما بعد عند احتكار السوق . فهل ترانا مستطيعون ذلك ونحن دولة ديمقراطية صديقة للديمقراطيات الكبيرة التى تحرص على فتح الأسواق ، وتنادى من الآن بذلك فى بياناتها ؟ ونحن نحارب الاشتراكية العالمية لأننا مع محبتنا لطوائف العمال المجدين نخشى أن تصل بهم الشهوة النفسية إلى شل صناعاتنا الناشئة بمطالبهم المسرفة . ومن المعلوم أن نقابات العمال فى البلاد الأوربية التى نقلدها ، لم تعد اليوم تكتفى بالمطالبة بتحديد ساعات العمل ، وتحديد حد أدنى للأجور ، والتعويض عن مخاطر العمل ، والتأمين ضد الشيخوخة والبطالة ، وما شاكل ذلك ، بل أصبحت تطالب بإلغاء نظام الأجور ذاته ، وإحلال المساهمة فى الأرباح محله . فهل تحتمل صناعتنا الناشئة كل ذلك ؟ وهل سيقبل أصحاب رؤوس الأموال نظاما كهذا ؟ ثم إننا نلاحظ طغياناً فى أوربا من طبقة العمال على الطبقات الاجتماعية الأخرى كالفلاحين وأصحاب المهن الحرة ورجال الفكر ، وفى كل هذا ما يخل بتوازن الأمة الاجتماعى .

وإذن فنحن من جهة نرفض الديمقراطية الحرة ، لأننا لا نرى مفراً فى ظروفنا الحاضرة من دعوة الدولة إلى التدخل فى كافة مظاهر الحياة ، كما نرفض الاشتراكية لأننا نكره وسائلها ونخشى طغيانها ، ونعتقد أن استفحالها الآن قد يشل حركتنا الصناعية التى لا نرى علاجاً لمشكلة الفقر عندنا فى غيرها .

وكل هذا ينتهى بنا إلى المناداة بمذهب نظنه يتمشى مع آراء العقلاء منا ، وهذا المذهب هو مذهب الديمقراطية

الاجتماعية ؛ ننادى بالديمقراطية لأننا نعتز بالفرد ، وبحرية الفرد ، وبكرامة الفرد . ونحن نريد تلك الديمقراطية اجتماعية لتحقق عدلا اجتماعياً ، وهذا العدل لن يكون بغير تدخل الدولة ، وهذا التدخل لن يكون بغير التشريع ، والتشريع تصدره الأمة .

وهكذا ننتهى إلى أن من يريد أن يعمل لحل « مشكلة العيش » من واجبه أولا أن يبحث عن مبادئ ذلك الحل ، وعن الطرق العملية لتحقيق تلك المبادئ . وثانياً ليست هناك طرق غير « النزول إلى الشارع » وكسب الرأى العام تمهيداً للوصول إلى السلطة الفعلية التى تستطيع أن تعمل . فهل أنتم مستعدون لذلك ؟ وأنا معكم ؛ على أن أحتفظ عند ذلك لنفسى بالترف العقلى ، أتعزى به عن حرارة الجهاد ، أو أتذوق به تلك الحرارة .

محمد مندور

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكى بك

شرٌّ فى القُرَاد

صناعة الطعم الواقى

وصل الثالث : البيت الأحمر معمل علمى فى وشنجتن ، والعصابة التى فيه جماعة من العلماء الأطباء تشخصهم حكومة الولايات المتحدة ، يحاربون الأدواء حيث ما ظهرت فى الولايات ، ودين الجميع الموت فى سبيل الواجب .

وأحد هذه العصابة الدكتور « اسبنسر » ، أشخصته الحكومة إلى الغرب ، إلى ولاية « منتانا » ، إلى حيث الوادى الجبلى وادى « بطروط » ، وبه حمى خافية تصيب الناس فتقتلهم .

حزم « اسبنسر » أمتعته وزوجه وطفلين له ، وركب القطار فبلغ بلدة « همِلتن » فى تلك الولاية بجوار ذلك الوادى .

واستقبلهم هناك « ركز » وهو دكتور فى علم الحشرات . وبدأ الرجلان يتحسسان سبيلا لبحث هذه الحمى .

وقد وصفنا من قصتهم وقصة أصحابهم ، من مات منهم ومن نجا ، إلى أنهم أثبتوا أن القراد هو سبب الحمى ينقلها إلى الإنسان بالعض ، وأن القراد ينضمر فى برد الشتاء فينام وينام فيه الوباء ، فإذا حل سحيق هذا القراد فى حيوان لم يصبه المرض . فإذا جاء دفء الربيع ، واستيقظ القراد سقط من فوق الشجر على أجسام الحيوانات فى ذلك الوادى فشرب من دمائها حتى ينتفخ ، وعندئذ يستيقظ الشر فيه . فإذا حل سحيق هذا القراد فى حيوان التهب جسمه بالحمى ، كذلك يصاب الحيوان بالحمى إذا ترك القراد على جسمه زماناً يرعاه ويغذيه . كذلك هم فتشوا القراد من بيضه ، ثم أرشوه صغيراً بالماء ، من حيوانات أصابها الوباء ، وأثبتوا تلك الحقائق مراراً وتكراراً .

والآن اقرأ :

فى أواخر خريف عام ١٩٢٣ رجع « اسبنسر » إلى وشنجتن ، إلى ذلك البيت الأحمر فوق ذلك التل المشرف على النهر ، إلى موطن تلك العصابة الأولى الذى منه يُشخصون وإليه يعودون . وحمل معه أحقاقاً تحتوى

بضعاً من أجناسٍ مختلفة تحمل الشرَّ من القُراد . وإن شئتَ اسمها العلميَّ الضخم فاعلمْ أنه « دِرْماسنتور أنْدرْسونى » Dermacentor andersoni . ولكن ما عليك به وبلاتينيَّته . وفي هذا البيت الأحمر لِقىَ « اسبنسر » مدير ، « مَكْكوى » Mc Coy ، ولقى ذاك الرجل المحنَّك « إيدى فرنسيس » Eddie Francis ، ولقى العالِم « موسى جُلْدبرجر » Goldberger . وقد تحسب أنه أتى لهم بأخبار ذاك الوادى المخوف ، وادى « بطروط » ، فحكى لهم ما يجرى فيه من أحداث رائعة مُريعة ؛ وقد تحسب أنه تفنَّن في حكاية ذلك ، وأنه بالغ فيها فتزيَّد وأطال ليثير في أنفسهم الخوف ويكتسب منهم الإعجاب . فاعلمْ أن شيئاً من هذا لم يحدث . وما كان لشيء من هذا ليُحكَى لقوم عركوا الدهر ، وشربوا المرّ ، ومارسوا التجارب زماناً فذاقوا شهدها ، والتمسوا بإبَرها ، حتى صارت المخاطر عندهم عادة ، وصار الموت مألوفاً مُرتَقبا . واطَّلعوا على ما جاء به « اسبنسر » من قراد يحمل الشر كاثراً ، فما تحرَّكوا له ، حتى ولا لتلك المجموعة في تلك الأحقاق التى رَقَّمها فأسماها « مجموعة ٢٣٥١ ب » .

بقى « ركر » ببلدة « هملتن » في دار تلك المدرسة العتيقة ، وقد غطَّتها ثلوج الشتاء ، يقوم بإدارة ذاك المعمل مكان « اسبنسر » . ورحل « اسبنسر » إلى « وشنجتن » . وأخذ الرجلان ، هذا مشرِّق وهذا مُغرِّب ، يقومان بنفس التجارب في نفس الزمان وفي غير المكان .

وكان « رِكِر » وَلَّادَ قُراد ، فهو يستطيع أن يخبِّرك عن أى سُلالة من هذا القُراد كيف نشأت ، ومَنْ كان أجدادها ، وما أحسابها وأنسابها . ومَهَر حتى صار يجعل القُراد يصنع في المعمل ما شاء الخالق سبحانه أنه يصنعه وهو في الطبيعة طليقاً حراً . وحطَّ « اسبنسر » بضاعته في حجرةٍ ذاتٍ رائحة من ذلك البيت الأحمر العتيق ، وأخذ يفكّ أحقاق تلك المجموعة من القُراد ، مجموعة ٢٣٥١ ب ، وهى مجموعة ربَّما من ساعة ما انفقست عن قُراد صغير برىء لا يُؤْبَه له ، حتى صارت قراداً بالغاً يؤبه له ويُخاف لأن الوباء أُدخِل فيه .

وكان « اسبنسر » قد أبقى هذا القراد الضامر المتوطى الذى لا دم فيه ، قراد مجموعة ٢٣٥١ ب ، أبقاه في ثلاجة مائة واثنى عشر يوما لينام كما ينام شتاءَه بين الثلوج في وادى « بطروط » بولاية « مُنْتانا » . واليوم حلّ يناير ، فأخرجها « اسبنسر » من أحقاقها ، فظلَّت راقدة على مِنضدة المعمل رقيقةً ذابلة متقوِّسة لا تتحرك لها رجل واحدة ، فكأنما نزل الموت بها . وكان قد مضى ستة أشهر على رضعها دم أرنب وبىء في قفص من تلك الأقفاص التى حزموها وزمُّوها في أقمشة بيضاء .

وسحق « اسبنسر » اثنتين من هذا القراد البرىء الطاهر ، سحقهما في ماء مملح ، وحقن مرقهما في زوج من الخنازير الغينية . وبالطبع كان الوباء نائماً في القراد ، فلم يحدث للخنازير شيء إلا أن تكون صاحت وانتفضت وزاطت ، وبقيت من بعد ذلك تَهنأ بالصحة والسلامة .

كان هذا يناير . . . . أى أنه الشتاء . ولكن « اسبنسر » أراد أن يصطنع لها الربيعَ اصطناعاً . فأخذ اثنتين أخريين من هذا القراد البرىء الضامر ، ذى الوباء النائم ، من المجموعة ٢٣٥١ ب ، فأدفأهما في مِدفأة ذات حرارة كحرارة جسم الإنسان . وما انتهى النهار حتى رآهما يحرّكان أرجلهما الثمانية ، يستيقظان من سبات الشتاء استيقاظاً غريباً مدهشاً ، فأخذهما فسحقهما في الماء ذى الملح ، كما فعل بسابقتيهما ، ثم حقن سائلهما في خنزيرين غينيين . فما الذى حدث من ذلك ؟

حدث أن هذين الخنزيرين الشقيَّين ظهرت فيهما أعراض الحمَّى . إذن فمجرَّد تدفئة هذا القراد الوبىء

الضامر تكفى لإيقاظ الوباء فيه .

عندئذ أعاد « اسبنسر » التجربة ، فأدفأ قرادات من نفس المجموعة فى المدفأة حتى حركت أرجلها دليل اليقظة ، ولكن بدل أن يسحقها ويحقن ماءها ، وضعها حية كما هى على بطون محلوقة لأربعة من الخنازير سليمة .

وشربت القرادات من دم هذه البطون حتى امتلأت واكتظت ، فجاءها « اسبنسر » بعد ثلاثة أيام ينزعها من بطون هذه الخنازير وقد أخذ الرض يميل بها . وأمسك القرادة من بعد القرادة بملقط ، وشقها بمشرط صغير ، فانبجس الدم وتطاير منها . قال « اسبنسر » : « نعم ، وقد نال هذا الدم وجهى مرة برشاشه » .

وسحق « اسبنسر » هذه القرادات بدمها حتى جعل منها شيئاً ثخيناً لا يطمئن لمنظره ناظره .

وحقن هذا الشيء الثخين فى خنازير غينية سليمة . وعاد إليها بعد خمسة أيام فى تلك الحجرة الصغيرة فى هذا البيت الأحمر ، فرأى عجباً . رأى تلك الخنازير واقعة على جنوبها وهى تلهث وتموت . لقد فعل فيها الداء فعلته فى نصف المدة التى اعتادها للقضاء على حيوان . فهذه قوة لشر جديدة فى هذا الوباء الحى لهذه الحمى لم يعهدها أحد قط من قبل ذلك .

كان فى القرادة الواحدة من هذه القرادات من السم ما يكفى لقتل ثلاثة آلاف خنزير . فهذه القرادات كان الجرام منها يحتوى مائة قرادة . ولم يكن الجرام من الدم الوبيء (الذى حفظ وباؤه فى سلسلة متصلة من الخنازير) ليقتل أكثر من ألف خنزير . ولكن الجرام من سحيق هذه القرادات الجديدة ، قرادات المجموعة ٢٣٥١ ب ، كان يقضى على ثلاثمائة ألف خنزير ...

أفبعد هذا لا تأذن لاسبنسر أن يقشعر ظهره ويتلبج بعض الشيء من جزع كلما فكر فى هذا القراد وما احتواه ، وذكر أنه هو الذى نشأه على جهل به ورباه ، فى ذلك المعمل البعيد عدينة « هملتن » عند ذلك الوادى الوبيء ، وادى « بطروط » ؟! إنه لم يطلع على قوة هذا القراد الذى قضى ، وكنه هذا السم الذى اصطنع ، حتى خففه ووزنه وقدر ما يحقن منه فى كل مرة ، ثم أخذ ينقص هذا المقدار المرة بعد المرة ، والخنازير تظل تموت على الرغم من صغر المقدار الذى دخل فيها . وحتى بعد هذا خفيت عنه حقيقة أخرى أشد إفزاعاً :

أن الوباء الذى يعطيه القراد بإرضاعه رضعة من حيوان وبيء أشد فتكاً من الوباء الذى يحفظه فى أجسام الخنازير نافلا إياه من خنزير لخنزير . ولكن شر من هذا ، أن هذا الوباء القرادى الفتاك يستطيع أن يدخل الأجسام عن طريق جلودها وهى سليمة غير مجروحة ولا مقطوعة !

وبق « اسبنسر » سعيداً فى جهالته ، وجلس ساهماً يفكر فيما بين يديه من سجلات خط فيها ما خط عن تلك المجموعة الكبيرة الذاهبة من الخنازير الغينية التى أطاحتها تلك المجموعة القتالة من القراد ، مجموعة ٢٣٥١ ب . وبينا هو فى تفكيره خطرت له خاطرة سريعة كبارقة فى سحاب ...

خطر له أن يصنع طعماً تتحصن به من الداء أجسام الأحياء ! ولم لا ؟ وهل يمنع من هذا أن أحداً قط لم ير بعينيه مكروب هذه الحمى ؟ وهل يمنع من هذا أن أحداً قط لم يزرع هذا المكروب كما تزرع المكاريب فى أنبوبة اختبار ؟ بل لقد زرعوها . نعم زرعوها ، ولكن فى غير أنابيب من زجاج . زرعوها فى القراد ، ونقلوها وضعفوها أضعافاً مضاعفة فى القراد . فالقراد أنابيبها ، وإن تكن من غير زجاج .

وحل الربيع ، ربيع عام ١٩٢٤ ، فودع « اسبنسر » أصحابه ، أصحاب البيت الأحمر وشيوخه المحنكين . ورجع مسرعاً إلى ولاية « منتانا » ، إلى صاحبه « بَرْكَر » ،

إلى ذلك المعمل أو تلك المدرسة العتيقة على مقربة من بلدة « هملتن » . ورجع وقد تعلم أن الوباء الذى ينقلونه إلى القراد اصطناعا ، ويربّونه فيه ، أخطر عليهم كثيراً من القراد الذى ينال الناس فيَعضّهم فى الطبيعة . ورجع وقد تعلّم أيضاً لِمَ يذهب الكثير من الناس إلى تلك الوديان الوبيئة ، فيعضهم القراد فيها ، ومع هذا يَسلمون. لأن القراد لا بد له من البقاء على جلود هؤلاء الناس ساعات وأياما ، لا بد له من مص دمائهم طويلا ليستيقظ الوباء فيه فيقتل .

ولكن ليس هذا ما شغل باله وملك عليه فكره . وإنما الذى شغله وملكه رأىٌ جديد أسرع به إلى « بركر » . وكان رأيا ظاهره سخيف . أنْ يقلب هذا القراد من شئ خطر إلى طُعْم واقٍ . ولم لا ؟ ألمْ يُرَبّ هذا الوباء الضخم فى تلك المجموعة من القراد ، مجموعة ٢٣٥١ ب ، وربّاه فتّا كا قتالا ، بتلك الوسيلة البسيطة التى هى إرضاعه ثلاثة أيام من دم خنازير ؟ .. وإذن فلِمَ لا يعجن هذا القراد بعضه فى بعض ، ويسحقه ، ثم يضع عليه قليلا من المطهّر المعروف ، من الفينول مخففاً ، ثم ... وعندئذ ربما ....

على أن « اسبنسر » بنى هذه الفكرة الجامعة على أساس علمىّ . فى هذه السنة نفسها كان « بَرَيْنل » Breinl و « أُسْترِيان » Austrian ، قد نجحا فى حماية الخنازير الغينية من التيفوس بحقنها بقمل فيه وباء التيفوس بعد أن غمسوه فى محلول من الفينول . وبالطبع لا يستطيع أحد أن يجد من القمل كفاية لتحصين البالغين من الرجال ، فالتجربة كانت تجربة علمية بحتة لا يمكن تطبيقها فى الحياة . وقبل هذين الرجلين كان العالم المكروبى « ريكتس » ، قبل ذهابه إلى المكسيك ليكافح التيفوس المكسيكى فيتكفح به ، كان قد حَمَى خنزيراً غينيا من هذه الحمى البقعية بحقنه بمسحوق قرادة وبيئة غمسها فى سائل الكارروفورم . ولكن « ريكتس » لم يعش ليحقق لنفسه أن هذه التجربة لم تكن فلتة واحدة من فلتات التجارب ومصادفة من مصادفاتها .

عاد « اسبنسر » إلى معمله ، إلى دار تلك المدرسة العتيقة ، يتحرق إلى إنفاذ ما اختطه من صنع هذا الطُّعم . وقد كان فى العلم أسباب وجيهة يتكئ عليها المرتكز لتسخيف الفكرة التى تريد أن تستخدم هذا المطهّر ، هذا الفينول — أو حامض الفينيك على ما هو معروف به مشهور — لقلب ميكروب الداء ، من سبب إلى الحمى إلى سبب للتحصّن دونها . فقد علم « اسبنسر » و « بركر » كلاهما أن وباء هذه الحمى فى دم الخنازير الوبيئة يُقتل فتنعدم آثاره إذا أضيف مطهّر إلى هذا الدم ، أو إذا هو سُخّن تسخينا ، وهى من بعد ذلك لا يحصّن الحيوانَ من الداء أبدا .

قال « اسبنسر » وهو يجادل نفسه : « ولكن صبرا . إن الوباء الذى ينمو فى القراد قد يختلف عن هذا الذى ينمو فى الخنازير . أفليس من الحق أن هذا القراد المرطح النامر الذى جمعوه من الشجر فسحقوه فحقنوه فى الخنازير كان يقيها أحياناً من إصابة أخرى بالحمّى ؟! »

وحتى لو سلمنا بهذا ، فالفكرة غير معقولة ولا مقبولة . فأنت لا تستطيع أن تغرى الناس بأن تحقَن بهذا المزيج المقزّز من القراد وحامض الفينيك . وهبْ أنك أغريتهم ، فأنّى لك بهذا القدر من القراد الذى يكفى لتطعيم كل من يُخشَى عليه من مقاربة الداء ، من رعاة بقر ورعاة أغنام ، ومن صيّادين ، ومن كل رجل من رجال الشمال الغربى من الولايات المتحدة يذهب إلى ذلك الوادى الوبىء الجميل ، وادى « بطروط » وفاءً بواجب ، أو استجابة لهوى .

ومضى أسبوع فإذا باسبنسر ويكل هذه الجماعة غارقة إلى أذقانها فى هذه التجربة الجديدة الغريبة — فى صناعة هذا الطعم الواقى .

(يتبع) أحمد زكى

التصوير عند العرب

التصوير كلة لم تتخذ معنى محدوداً فى لغة العرب ، وذلك لأنَّ « الصورة » — وهى أصل اشتقاق التصوير — ليس لها معنى محدود ، فالصُّورة : الشكل والنوع والصفة وغير ذلك من المعانى لا يستلزم البحث ذكرها ، ومن هذا الاتساع قول الجاحظ : « ولولا أن أكونَ عَيَّاباً ثم للعُلماء خاصة ، لَصَوَّرتُ لك فى هذا الكتاب بعض ما سمعتُ من أبى عبيدة ومن هُو أبعدُ فى وهمك من أبى عبيدة » [1]. وورد فى اللغة أن التصاوير هى التماثيل ، والأصل فى التصوير أنْ يُجعَل للشىء صُورة كائنة ما كانت ، قال الله تعالى : « الله الذى جَعَلَ لكم الأرض قراراً والسَّماء بناءً وصوَّركم فأحسَنَ صُوركم » [2]. ووصَفَ — جلَّ من واصف — نفسَه بالمصوِّر فى قوله : « هُو الله الخالق البارئ المصوِّر له الأسماء الحُسنى » [3]. فالمصوِّر من الأسماء الحُسنى ، ومن أجل ذلك قلَّ بل عَدِم أنْ نجدَ من وَصَفَ نفسه « بالمصوِّر » ناعتاً أو محترفاً .

ومما يذكر ها هنا — والقولُ ذو شجون — أنَّ اسمَ « النَّصور » حُرِّف فى بعض النُّسخ من تاريخ بغداد للخطيب البغدادى إلى « المصور » ، فظنَّه العَلّامة السَّعيد [4] أحمد باشا تيمور صحيحاً ، وحسب أنّ الموصوف به « كان نابه الذكر لنبوغه فى فنّه ، فاستحق بشهرته أن يُعرف الشارعُ به دونَ غيره من ساكنيه » [5]. وقد ذكرنا ما يدلُّ على أنَّ الآداب الإسلامية تمنع أبداً مثل

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٢٢٥ سنة ١٩٢٦ .
(٢) سورة غافر : الآية ٦٤ . (٣) سورة الحشر : الآية ٢٤ . (٤) السعيد كلة اصطلح عليها مؤرخو السلفين المتأخرين بمعنى « المرحوم والمغفور له » وما دلَّ على معناها ، وما أجل كلة « السعيد » ! (٥) التصوير عند العرب « ص ١٠٣ » وراجع قول أحد الفضلاء فى هذا الأمر « ص ٢٠٦ » .

هذا الظن والحُسبان . وقد اشتهر عند العرب والسلفين منهم ومن غيرهم ، نَسَبُ « الدهّان والمزوّق والنقّاش » بمعنى « المصور » ، قال شمس الدين الذهبى فى وفيات سنة « ٦٠٨ » هـ : « على بن عبد الرزاق بن على بن محمد بن على أبو الحسن بن الجوزى الدهّان ... وكان ما كنّا مهيباً يزوّق الدور » [1] . وذكر والده فى وفيات سنة « ٥٨٥ » هـ ، وقال : « عبد الرزاق بن على بن محمد ... أبو البقاء البغدادى الصفّار أخو العلامة أبى الفرج ... كان مزوّقاً دهّاناً .. سقط من السقالة فزمن مدة » [2]. وذكر غيرهما من الدهانين كالذى أورد ترجمته فى وفيات سنة « ٦٠٦ » هـ وقال : « محمود بن على بن شعيب أبو الشكر البغدادى ابن الدهّان ... كان يكتب العمر [3] (كذا) ويزوّقها » [4] ، والأدلة على ذلك طويل تعدادُها .

وأما « المزوّق » فقد ذكره أبو سعد السمعانى ، قال : « المزوّق : هذه النسبة إلى حرفة التزويق وتدهين الأشياء الخشبية [5] والسقوف ، والمشهور بهذه النسبة أبو على الحسن بن حاتم المزوّق من أهل بغداد » . قال مصطفى جواد الكاتب لهذا : ومن المعروفين بالمزوّق عمر البنّاء ، أحدُ البغداديين الذين سكنوا مكة — شرفها الله — روى عن أبى بكر الشبلى شيئاً من كلامه ، وروى عنه أبو نعيم الأصبهانى [6] . وقال ياقوت الحموى فى ترجمة ابن البواب على بن هلال : « بلغنى أنه كان فى أول أمره مزوّقاً يصوِّر الدور ، ثم صَوَّر الكتُب ثم تعانى الكتابة » [7].

(١) تاريخ الإسلام ، مخطوط رقم ١٥٨٢ ورقة ١٦٨ من دار الكتب الوطنية بباريس . (٢) المرجع المذكور « ورقة ٢٣ » . (٣) كذا ورد ولعله « الدور » .
(٤) المرجع المذكور « ورقة ١٥٦ — ٥٧ » .
(٥) كذا فى المطبوع من الأنساب « ورقة ٥٢٧ » ولعل الأصل « الأشياء الخشب » ، هكذا قالت العرب .
(٦) ابن النجار فى « التاريخ المجدَّد لمدينة السلام » ، مخطوط ٢١٣١ ورقة ١٢٦ — ١٢٧ من دار الكتب الوطنية بباريس .
(٧) معجم الأدباء « ج ٥ ص ٤٤٥ — ٤٠٦ » .

وقوله : « صوَرُ الكتب » جميل ، فهي كتب مصوَّرة .

وأمَّا « النقَّاش » فقال فيه السمعاني في الأنساب ، « النقَّاش ... هذه الحرفة لمن ينقش السقوف والحيطان ، وعُرِف بها أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد بن زياد ... المقرئ النقاش الموصلي ... وأبو عبد الله هبة الله بن عيسى ابن النقـاش البزاز من أهل بغداد ... وأبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن مرة المقرئ النقاش ... » . وذكر شمس الدين ابن خلكان في ترجمة أبي بكر النقاش الموصلي المذكور من وفيات الأعيان ، أنّ « هذه النسبة إلى من ينقش السقوف والحيطان وغيرها ، وكان أبو بكر المذكور في مبدأ أمره ، يتعاطى هذه الصنعة فعُرِف بها » . وذكر المقريزيّ في حوادث سنة « ٦٨٦ » هـ من السلوك ، أنه « فيها جَهَّز السلطان قلاوون الألفي هدية سنيَّة إلى ملك المغول بأرض القفجاق ، ومبلغ ألفي دينار برسم عمارة جامع قرم ، وأن تكتب عليه ألقاب السلطان ، وجَهَّز نقاش لنقش ذلك وكتابتها — أي الألقاب — بالأصباغ » .

والظاهر أنّ العرب الجنيَّة ممن اتخذوا التصوير منذ الزمان القديم في معايشهم ومساكنهم ، فقد جاء في قصيدة الشاعر الهمداني التي وصف فيها قصر الملك الكبير المسمى بعرق وقصر ذي لَمْوة :

ترى كلَّ تمثالٍ عليها وصورة
سباعاً ووحشاً في الصفاح خلائطا
بجانب ما تنفك تنظر قابضاً
لإحدى يديه في الحبال وباسطاً
ومُستبقات من عقاب وأجدلٍ
على أرنب وهْم وأفراخ قامطاً(١)
وسرب ظباء قد ثُنين بمخنَق
وغضنف ضرباً قد تعلقن ناشطاً

(١) كذا ورد في الجزء الثامن من الإكليل للهمداني « ص ٤٤ » طبعة الأب أنستاس ماري الكرملي ، وهي الطبعة الأولى وفيها رداءة .

فهذه صورة من صُوَر الصيد لأحد الملوك اليمانين ، وقد نقل العلامة السعيد أحمد باشا تيمور في كتابه « التصوير عند العرب » أخباراً من الهمداني غير هـذا . وكانت العرب تصوِّر على الثياب والأكسية وغيرها صوراً تعرف بالتهاويل جمع تهويلة ، كأنها تهولُ من رآها ، قال بشرٌ وذكر الظعائن :

عليهن أمثالُ الخُدارىّ خِلقةً
من الريط والرقم التهاويل كالدم

وقيل إنّ « التهاويل » الألوان المختلفة من الأحمر والأصفر والأخضر(١) ، ولكننا نرى القول الأول ، فإن البسط والأنماط والأنخاخ كانت فيها تهاويل أيضاً ، وفي مثلها يقول الشريف الرضيّ فيمن تعجب صورهم ولا غناءَ فيهم :

صُوَرٌ رائقة لا يُرتجى   نفعُها مثل تهاويل النَّمَط

وكان في الكعبة أيام الجاهلية صور للذين تعتقدهم العربُ عدنان كإبراهيم — عليه السلام — ومريم ابنة عمران — عليها السلام — قال الواقدي : « وقد روى أنّ رسول الله — ص — محا الصوَر بيده . روى ذلك ابن أبي ذئب عن عبد الرحمن بن مهران عن عمر مولى ابن عباس عن أسامة بن زيد ، قال : دخلتُ مع رسول الله — ص — الكعبة فرأى فيها صوراً ، فأمرني أن آتيَه في الدلو بماء فجعل يبُلُّ به الثوبَ ويضربُ به الصوَر ويقولُ : « قاتلَ الله قوماً يصوِّرون ما لا يخلقون(٢) » ، والخبر رواية أخرى بوجه آخر ذكره مؤلف « التصوير عند العرب »(٣) . وروى المرزباني بالواسطة عن أحمد بن محمد الزبيديّ قال : لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان(٤)

(١) أساس البلاغة للزمخشري والصحاح للجوهري « هول » .
(٢) ابن أبي الحديد عبد الحميد في « شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٢١٢ » . (٣) ص ٣ ، ٤٩ . (٤) الميدان الذي ذكر هنا كان قرب محلة الرصافة أي قرب مدفن الإمام أبي حنيفة النعمان وتربته معلومة عند أهل العراق ، أما ميدان بغداد الحالي ، فهذا مستجدٌّ مستحدث في القرن الثامن للهجرة .

— وهو القصر الذى كان للمباسة — جَلَس فيه وجمع أهل بيته وأصحابَه ، وأمرَ أن يلبس الناسُ كلهم الديباج وجَعَل سريره فى الإيوان المنقوش بالفسيفساء الذى كان فى صدره صورة عنقاء ...»[1] . وللعنقاء فى تاريخ العرب بحث طويل .

وقال أبو الحسن محمد بن عيسى الكرَجىّ فى حَمام مصوَّر :

أعجِبْ ببيتٍ يُريكَ باطنُهُ
جوارحاً أرسلَتْ على الوَحْشِ
تغدُو لصيد الظباء مُسرِعةً
كأنّها فى غياضها تمشى
طيورُهُ قد تقابلَتْ نَسَقاً
كأنّها وُقّعٌ على العُشِّ
قصاؤه طابَ فُسْحةً وهَوًى
مُصَقّلُ الأرضِ مُونِقُ الفَرْشِ
وأنتَ فى خلوةٍ مُساعِدة ... تولَعُ بالدلك ثم بالرَّشِّ»[2]

وقال أبو على الحسن بن أحمد بن أبى الناس العسقلانى فى صورتين كانتا على كنيسة تعرف بكنيسة ابن مريم عند باب الصوارف بعسقلان :

لو ذُقتُما طعم الفراق لفاضت
شخصيكما الدنيا بوشك فراق

فى أبيات ، فما مضى لهذا الشعر إلا سنة أو نحوها حتى أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم الكنائس ، فهدمت وهُدمت معها هذه الكنيسة ، وأزيل الشخصان ، فقال :

طويا كما من دميتين تعانقا ... وتفرّقا من بعد طول عناق[3]

وفى غرة ذى الحجة من سنة «٥٤٧» هـ خُطِب ببغداد لولى عهد الخليفة المقتفى لأمر الله ، وهو ابنه يوسف الذى لقب بالمستنجد بالله بعد ذلك ، وعُلّقت ببغداد ،

(١) المرزبانى فى «الموشح ص ٣٠١» .
(٢) الثعالبي «تتمة يتيمة الدهر ج ٤ ص ٦٨» .
(٣) ياقوت الحموى فى «معجم الأدباء ج ٥ ص ٤٣٨» ، طبعة مرغليوث .

أى زُخرفت ، فعمل الذهبيّون — وهم الذين يشتغلون بدار الضرب — قبّة على باب الخان العتيق عليها صورة مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى ، وخاص بك بن بلنكرى الأمير ، وعباس الأمير ، وغيرهم من الأمراء بخركاة ، أى خيمة مليدة تدور ، وعلّق القاضى سديدُ الدين يحيى بن سعيد بن المرخّم قبة فيها خيل تدور وعليها فرسان بخركاة ، وعلّقت بنت قاروت بباب درب المطبخ قبة فيها صورة السلطان (مسعود) وعلى رأسه شمسة[1] ، وعلق ترشك الأمير قبة على سطح داره قائمة على تماثيل صور أتراك برمون بالنشاب[2] . وفى مثل هذه الأخبار يكثر التصحيف ، فتكون الخركاة «حركات» ، و «بنت قاروت» غير ابنته .

وقد رأى ابن جبير الكنانى فى مسجد الرسول — ص — سنة «٥٧٩» تصاوير أشجار عجيبة ، قال : «والنصف الأعلى من الجدار (جدار القبلة) مجزّع كلُّه بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، وقد نَتج الصناعُ نتائج من الصنعة غريبة ، تضمّنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات ، مائلات الأغصان بثمرها ... والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك ومن جهة الجوف أيضاً ، والغربىّ والشرقىّ الناظران إلى الصحن ، مجرّدان أبيضان ومُقرنصان قد زيّنا برسم يتضمن أنواعاً من الأصبغة إلى ما يطول وصفُه وذِكْرُه»[3] . وورد فى أخبار الخليفة المقتدر بالله أنه علق فى قصوره كثير من الستور الديباج المذهّبة المصوَّرة بالجامات والفيلة والخيل والسباع والجمال والطيور[4] .

ومما قدمنا من الأخبار يظهر لكلّ محقّق أن المبانة

(١) الشمسة هى الجتر والمظلة .
(٢) ابن الجوزى فى «المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ج ١٠ ص ١٤٨ — ٩» وفى كتاب «التصوير عند العرب ص ٢٠» مثل هذا الخبر منقولا من كتاب «تاريخ الدول والملوك» لناصر الدين بن الفرات .
(٣) تقييد سياحة ابن جبير ورحلته «ص ١٧٢» من طبعة مطبعة السعادة .
(٤) الخطيب البغدادى فى «تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٢» ،

بالتصوير على الورق وعلى غيره مما يُنقل كانت مدونة ، على الضد مما هو شائع في عصرنا ، ولعلَّ السبب في ذلك قلة الورق القابل لأن يُصَوَّر عليه بل عدمُه . ومن العجيب ما ذكره الخطيب البغدادي : أنَّ ببغداد صُوِّرت لملك الروم أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها غربيها وشرقيها ؛ والجانب الشرقيُّ صوِّرت شوارعه ، فصوِّر شارع الميدان وشارع سويقة نصر بن مالك من باب الجسر إلى الثلاثة الأبواب والقصور التي فيه والأسواق والشوارع من سويقة خضر إلى قنطرة البردان ، فكان ملك الروم إذا شرب دعا بالصور فيشرب على مثال شارع سُويقة نصر ويقولُ : لم أر صورة شيء من الأبنية أحسن منه[1] . ولم يذكر لنا المؤرخ مَن صوَّر لملك الروم بغداد وعلامَ صوِّرت ؟

ورأيتُ في ترجمة الأمير الحكيم فخر الدين أبي سعيد بقدي بن شرف الدين علي بن الملك جمال الدين قشتمر البغداديّ المتوفى سنة « ٦٨٥ » ه أنّه صنّفَ كتباً في الزردرة والبيطرة والصيد والقنص ، وحضر بين يدي السلطان هولاكو وقد صوَّر نفسه في أول كتابه ، وجَمَّل لحيته بيضاء ، فقال له هولاكو : أنت شاب فما معنى البياض ؟ قال : أرجو أن أعيش في دولة الإيلخانية[2] .

والتصوير في الإسلام مختلف في جوازه لشكل ذي حياة ، والكلامُ في هذا الموضوع مفروغ منه ، وليطالعْ مَن به حاجة إلى الاطلاع على ذلك « بابَ تطبيق الستور ذوات التصاوير والنهي عنه » من كتاب أبي بكر الحازمي العلامة »[3] ، فالعالم الإسلاميّ لم يُحرِّمْ فيه تصوير ذي الحياة إلا في عصور المتشددين من الخلفاء والملوك ، والظاهرُ أنّ عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسيّ كان عصرَ تساهل في هذا الفن الرفيع ، وأنه كتب الحازمي كتابَه المذكور فيه ، لأننا علمنا وُجود صُورة إنسان قاعد في أعلى باب الحلبة من أبواب بغداد الشرقية ، نقِشَتْ سنة « ٦١٨ » ه من خلافة هذا الخليفة الأوحد في عظمته ، ثم جازَ تصوير أحوال المقامات الحريرية كما في النسخة المرقومة « ٥٨٤٧ » التي بدار الكتب الوطنية بباريس ، وكاتب هذه النسخة ومصورها هو يحيي بن محمود بن يحيي بن كوّريها[1] الواسطي . وفي دار الكتب المذكورة الجزء الخامس من كتاب ربيع الأبرار ، رقمه ٦٧٤٣ ، وهو مكتوب بيد الواسطي المذكور ، وفي الورقة « ١٢٠ » منه ما هذا نصهُ : « تم الجزء الخامس من ربيع الأبرار ، وافق الفراغ منه سلخ صفر المبارك من سنة تسع وأربعين وستمائة ، كتبه وما قبلهُ يحيي بن محمود بن كوّريها »[1] ، وفي الورقة ١٢٣ أضاف إلى نفسه « الواسطي »[2] .

(بغداد) **مصطفى جواد**

(١) المرجع المذكور « ج ١ ص ٩٤ » .
(٢) ابن الفوطي في « مجمع الآداب في معجم الألقاب » ص ٢٢٨ من نسختنا المخطوطة .
(٣) الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار « ص ١٨٧ » طبعة المطبعة المنيرية .

(١) كأنه فعل أمر من « تكوَّرين » تكوراً .
(٢) أصول التاريخ والأدب ، مخطوط من مخطوطاتنا « ج ١٦ ص ٦١ » .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

٤٥	في مصر والسودان
٣٧/٥	للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠	في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥	في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

لعب المنـــار

لعب المنار أو حرب العجم ، مسرحية مصرية ترجع إلى القرنين الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى ، وهى من هذا النوع الذى وضع خصيصاً لفن خيال الظل ، والذى سبق لى أن عرضت له فى الثقافة من قبل (١) . ومسرحية اليوم التى عالجت الحروب الصليبية حتى سميت بحق حرب العجم ، ووقعت حوادثها فى الإسكندرية ، فأطلق عليها لعب المنار ، لم تصلنا كاملة ، وإن كان قد وصلنا جزء كبير منهـا فى مخطوطة الشيخ سعود ، والشيخ على النحلة ، وداود العطار . وقد سبق الكلام عنها فى مسرحية (لعب التمساح) التى تحدثت عنها فى العدد ٢١٣ من هذه المجلة .

وداود العطار أو الناوى الذى كتب هذه المخطوطة ، ودوّن فيها لنفسه الكثير من أزجاله ، هو أحد أبناء مصر الذين عاشوا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهو الذى أسندت إليه رئاسة فرقة خيال الظل المصرية التى سافرت عام ١٦١٢ — بعد أن أقيمت لها الحفلات الكبرى فى بولاق والإسكندرية — إلى استنبول لإحياء حفلات زواج الوزير التركى محمد باشا السابع الذى حكم مصر حتى أغسطس عام ١٦١١ بكريمة السلطان العثمانى أحمد الأول (١٦٠٣ — ١٦١٧) . ويحدثنا الناوى هـذا أنه تشرف بالمثول بين يدى السلطان الذى أجزل له العطاء ، ومن ثم عادت الفرقة فى عام ١٦١٣ إلى مصر عن طريق دمشق والقدس .

وتبدأ هذه المسرحية بعرض منظر تمثل الأمواج وهى تتكسر على جزيرة فاروس التى أقيمت عليها المنارة عند مدخل الإسكندرية ، ومن ثم يظهر شخص على المسرح يسمى الحاذق ، فيستقبل النار ويقول : الذى نعلم به الريس الأستاذ الحاكم على دا المينة وداك البلاد ، أى بعد أبو السداد ، مقدم على الموارد ، الشارد والوارد . وبعد أن يفرغ من هذه المقدمة ينشد البليق الآتى فى وصف النار .

سعود الأديب يا صاح   نظمو عجز المدحاح

بيت

انظر دا النــــار يا إنسان   تلقى عمود له بنيانْ

من بلور وثنى مرجان   نقشه بالذهب وضاح

بيت

له سلم تراه معقود   مبنى بالمحكم مرصود

كم جا له حزين مكمود   زالت عنه الأتراح

بيت

وانظر باب شريق قد نار   من خلفه رجال أخيار

لما يشهروا البتـــار   يخلّو الدما سواح

بيت

باب البحر يا قمر عنابى   وله منظر

كم جا له ملك قسور   راح مكسور ذليل منجاح

بيت

والفتح يا أولى الألبـاب   قنديلين على الأبواب

كم فيهم فنون وآداب   شيالم خوف الصبــاح

بيت

والمحقق ترى بالعيــن   مظرف حسن د الرجين

جـــوام رجال يا زين   رموا الكافر للفضّاح

بيت

باب الوسط ما مثلـــه   فى حسنه ولا فى شكله

له وزرا زهت نمـــلو   على من يكن جحجاح

وبعد أن وصف الشيخ سعود النار وصفاً دقيقاً ، وتحدث عنه وعن أبوابه والنقش الذى يعلو واجهته ، تحدث عن آلات الدفاع المختلفة فقال :

فوق الواجهـــة يا مجاد   سيوف الجهـاد يا جواد

وفيهم درق فـــولاد   كم بيهم بطل قد صاح

بيت

ومن فوق علاه يا زين   رامى لم يزغ بالعين

لو جاء كل يوم ألفـــين   خــلاهم بلا أرواح

(١) الأعداد ٢٠٨ — ٢١٠ .

وبعد أن سرد مختلف أدوات القتال الحقيقة ، ختم بليقه بقوله :

وانظر منجنيق صاعـــد   فاقد للعـــدا رابض
للكافر والمجـــاهد   يا لله يخطفو التمساح

انتهى الحازق من إنشاده ، والتفت فإذا بمركب من النوع المعروف بالغراب ترسو ويخرج منها رجل مغربى . وبعد أن قرأ وصفاً جيلاً لهذه السفينة يتقدم المغربى على المسرح وينشد بليقاً يخبر فيه المسلمين عن الصليبيين ، والاستعدادات التى يقومون بها لمهاجمة المسلمين ، وقد جاء فى هــذا البليق وصف شامل لسائر البلاد المسيحية التى اشتركت فى الحملة ، وما يجب على المسلمين عمله لهزيمة الصليبيين . وبعد الفراغ من إنشاد هذا البليق يتقدم الحازق ويطلب (ميموناً) الزعق بالنفير ، ويدعو القوم لسماع رسالة المغربى ، وقد استهل الحازق نداءه بقوله :

صيحوا على ميمون أخى   يجى ويزعق بالنفـــير

* * *

دا المغربى اللى قد أتى   يا خل من أقصى البلاد
قد جا يخـــبر يا رجال   من اللئام أهل العناد
قصدى اجمع العسكر لهم   لعـــل نظفر بالمراد

وبعد ذلك نراه يعدد لنا حكمة الجهاد ، وما أعده الله للمسلمين والمجاهدين فى الآخرة فيقول :

يا عصبة الدين والصـــلاة   يا مسلمين يا هل الصيام
قوموا إلى الفرض الذى   قد أفرضوا رب الأنام
فمن يبادر يلتقى   له فى الجنان أعلى مقام
مع الكرام أهل التقى   وينجى قلبه الكسير
صيحوا على ميمون أخى
سلطاننا يا لله انصروا   على الطغاة المشركين
وأيدوا يا خالـــق   بالفتح والنصر المبين
وسائر العسكر جميع   فى حفظ رب العالمين
والحاضرين فى دا المقام   يكون لهم ربى نصير
صيحوا على ميمون أخى   يجى ويزعق بالنفـــير

وبعد الفراغ من هذا الإنشاد تتجمع جيوش المسلمين ويحضر المجاهد من قبل النصارى ، ويخبر المسلمين عن قيام الحرب ، ورغبة الصليبيين فى الاستيلاء على مصر والإسكندرية . فيدور حديث نثرى بين الحـــازق وبين شخص آخر يدعى الرخم ، وفى هذا الحديث نرى تصويراً فكهاً للمتحاربين .

يقول الحازق : تعالى يا بو القطط ، تلاته ما تقاتل ، يقول الرخم : ما يكونوا ؟ يقول الحازق : عريان وجعان وخايف ؛ عندك شيء يا بو القطط من دول ؟ يقول الرخم : ما كنتش عندى ورق طبقة والطبقة هاويه . يقول الحازق : إقف يا بو القطط أنا أحيب لك جماعتى . يقول الرخم : أصبر لما أحيب لك جماعتى . يقول الحازق : جماعتك يجوا إيش يعملوا ؟ يقول الرخم : وانت لآخر جماعتك يجوا إيش يعملوا ؟ يقول الحازق : جماعتى يجوا يقاتلوا . يقول الرخم : وأنا لآخر جماعتى يجوا يا كلوا . يقول الحـــازق : أنا أقول جماعتى يا مجاهدين يا مغازين اجتمعوا فى طاعة رب العالمين ، دا يجى بسيفه ، ودا يجى برمحه ، ودا يجى بدرقته ، ودا يجى بقوسه ، يوقعوا الضرب والطعن بالنبال والقتل فى المشركين . يقول الرخم : ودا أصيح على جماعتى يا جعانين يا عطشانين ، عليكم بصماط صاحب الفرح عمل حلو كتير ، وعمل رز كتير ، وعمل لحم كتير ، دا يجى بقصعته ودا يجى بزلقته ، ودا بماجوره ودا بصحفته ويهجموا على الصماط ..

ثم يلتحم الجيشان وتدور الدائرة على الصليبيين ، فيظهر على المسرح شخص وينشد بليقاً جاء فيه :

جيش اللئام قد انكسر   وجيش الاسلام انتصر
بيت
الروس على أعلى الرماح   والبعض موسوقين جراح
والمسلمين نالوا الصلاح   وصـــيروا الكفار عبر
بيت
وانظر ترى كم قوم أسار   مستيسرين فى انكسار
ذاقوا العنا والاحتضـــار   والهم والضيق والضرر

بيت

وانظر جيوش الكيتلان من القيود ذاقوا الهوان
وحيهم بالقرب خاب وأرواحهم تذهب سقر

بيت

رودس أسرائم جميع بإذن مولانا السميع
وانظر ترام يا شجيع نفر ومن خلفو نفر

بيت

وأهل قبرص الاثنام من حربنا ذاقوا الحمام
وانتصرنا يا كرام على الذى بالدين كفر

بيت

وانظر لديره كبار دموعهم تجرى غزار
وكل واحد فى افتكار للخلق يشخص بالنظر

ويستمر فى عرض مختلف الشعوب التى اشتركت فى تلك الحروب بأسلوب فكه ونكتة مصرية .

دكتور فؤاد حسنين

المصير الأخير ...!

... فى هدأة الليل كان يسير . كان يحمل جسداً واهياً ينطوى على قلب كبير !

وكان شاباً ... وكان كهلا !

... أما الشباب فكنت تحسه فيه كنشنة خافتة تصدر من نأى بعيد ... متقطع الأنفاس ... وكان ثمة شعلة خابية تلوح أبداً من بعيد كأنها تستحث الناى على التنغيم !

... أما الهرم فكان يلفه فى رداء أسود كئيب ...

ونظر إلى ما حوله ... كل شىء يوحى بالكآبة — حتى هذه الأضواء الشاحبة الفضية ، كانت تترنح وكأنها تعكس صورة قلبه المتداعى الكسير !

أى كهف كان يدلج فى شبابه فى هذه الهدأة الموحشة .. أى صحراء جرداء كان يقطر فيها قلبه ما بقى من دماء عنصها الرمال القافية فى خور لذيذ ! أكانت هذه الرمال الناعمة تترعرع ؟! ... أكانت تصطبغ بهذه القطرات القانية ؟! ....

كلا ... إنها ... إنها فى سبات عميق ... منذ الأزل البعيد !

... وكم دبت فوقها أقدام .. وكم داعبتها أنامل .. وكم انسدلت فوقها شعور ... وكم استرخت فوقها أجساد .. وكم تفتت من بينها مشاعر ، وكم لفحتها أنفاس ... وكم ... وكم ...

... وهى ... هى ، جاثية فى خنوع لا تريم !!

* * *

آه من شباب القلب ، وشيخوخة البدن ! آه من وسوسات العقل وهزات الحب ! آه من تفجرات الطبيعة وفجورها ، آه من بشاعة الإثم وإغرائه ، آه وآه ثم آه .

إنها صور .. صور كثيرة ، ناطقة حية تحمل قلوباً .. قلوباً ذوت ثم عراها الذبول ، وحييت ثم تملكها الإنعاش ، وخفقت تصحو على لذع جمرات الحب المحرق المحترق . وما أضنى الحبيب ! وما زالت فى يقظاتها وغفواتها لا تستقر ولا تريم !

* * *

... ومع ذلك .. فكل شىء جامد حوله ، تمشى البرودة فى جسده ، حتى ليكاد يجمد منه دم العروق الشرايين ...

وإن البرودة لتسرى وتسرى حتى تشارف قلبه ... قلبه الكسير الكسيح !

... وإنه ليشفق من هذه الدقات المتهافتة ، لأنها تشكهن بالمصير الأخير !

عبد العزيز الكردانى

بين المجلة والقراء

حياة دزرائيلي

حضرة صاحب العزة الأستاذ الفاضل أحمد أمين بك

بعد التحية ، فرغت بالأمس من مطالعة كتاب « حياة دزرائيلي » الذي نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد لاحظت عليه بعض ملاحظات أحببت أن أبعث بها لكم لمعرفة رأيكم فيها : —

أولا — كان بودي لو عني المعرب بترجمة موجزة في نحو الصفحة عن حياة دزرائيلي مرتبة على سنوات التاريخ ، كما فعلتم في ترجمة المغفور له حافظ إبراهيم بك في أول ديوانه — وذلك لأن الكتاب أغفل تاريخ مولد دزرائيلي ، كما أغفل ذكر بعض السنين التي وقعت فيها بعض الأحداث الهامة في حياته .

وغني عن التعريف أن تعريب الكتاب معناه أن يستفيد منه أبناء اللغة العربية الذين يجهلون غيرها من اللغات — إذ ربما نرى المثقف بثقافة أجنبية يسهل عليه عند الرجوع إلى أي معجم أجنبي أن يجد فيه ترجمة دزرائيلي وسواه من رجالات الغرب . نرى ذلك يعسر على من لا يعرف لغة أجنبية — وهم كثر كما تعلمون — فيفوت الغرض الأساسي من تعريب الكتاب .

ثانياً — كنت أحب لو عني المعرب أو عنيت اللجنة بالإشارة إلى بعض الأعلام التي وردت في الكتاب ، والتي يراها القارئ ومن تعلم لغته سهلة ، بخلاف من لا يعرف لغة أجنبية — وإليكم بعضها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

ا — في ص ٢٢ ذكر ريشليو وألبيروني . فأما الأول فقد يعلمه بعض الناس لما له من أثر بارز خالد في تاريخ فرنسا — وأما ألبيروني ، فكم منهم يعلم أنه كان قسيساً إيطالياً ووزيراً لأسبانيا .

ب — في ص ٨٣ ذكر خيط أريانة ؟ وهو تعبير فرنسي مشهور ، ولكن أبناء العربية لا يعرفون أريانة ولا خيطها . وكتابة سطرين في آخر الصفحة للتعريف بهما كان أولى من ترك العبارة كما هي .

حـ — ذكر في ص ١٠١ أن زوجة دزرائيلي سألت عن عنوان سويفت لتدعوه للعشاء . والعبارة كما وردت لا تحدث الأثر الذي يحدثه أصلها الأجنبي ، ولكن لو ذكر في الهامش أن سويفت هذا كان كاتباً إنكليزياً — وأنه مات سنة ١٧٤٥ م — أي قبل نحو مائة سنة من تاريخ ذكره أمام زوجة دزرائيلي ، لو ذكر ذلك ، لدل على ما أراده المؤلف من بسط جهلها وعدم ثقافتها .

ثالثاً — في ص ٢١٣ غلطة — ربما كانت من الطبع — وهي ذكر أن أسهم قناة السويس التي باعها الخديوي — ١٧٧ سهماً — مع أن الحقيقة أنها — ١٧٦٦٠٢ سهماً — والفارق كبير ، كما أن هذه المسألة تكاد تكون الوحيدة التي تهم مصر من حياة دزرائيلي ، فكان من المستحسن مراعاة صحتها .

رابعاً — جاء في ص ٢٢٢ عبارة : ثورة الغضب التي طغت عليه ضد الأتراك والأنكشارية والورد بيكونسفيلد الخ — ولا بد أن كلمة الأنكشارية سبق قلم من المؤلف جاراه فيه المعرب — فالمعروف أن الأنكشارية أبادهم السلطان محمود سنة ١٢٤١ هـ : ١٨٢٦ م أي قبل نصف قرن من تاريخ حوادث البلقان .

هذا من جهة — ومن جهة أخرى ، فإني أرجو لو تفضلتم بإفادتي عن المقصود من جملة (تاريخ الفهم) التي وردت في ص ٣١ فقد أغلق علي فهمها .

كذلك جاء في ص ١٠٣ عبارة : (ولا يمكن لسكل ذهب أوفير أن يدفعني إلى المذبح) ، والمعروف عن أوفير أنها مناجم سيدنا سليمان الذهبية . ولكن ما المقصود من المذبح ، وأي مذبح هو ، وما مغزى هذه العبارة ؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

روضة خيري باشا — دمنهور صبرة **أحمد خيري**

« الثقافة » : لعل الأستاذ مترجم الكتاب يتفضل بالإجابة عن هذه الأسئلة .

حول كتاب :

الفن ومذاهبـــــــه في الشعر العربى

تفضل زميلي الدكتور عبد اللطيف حمزة فعلق — في العدد السابق من الثقافة — بآراء حول كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربى . وقد كنت أوثر أن أدع له آراءه يكونها كما يريد ، فمن حق كل شخص أن يؤلف لنفسه صورة مما يقرؤه ، وأن يقف منه موقفاً سلبياً أو إيجابياً . غير أنى رأيته يستطرد فيهاجم الفكرة الأساسية في الكتاب ، وهي فكرة وضع مذاهب فنية تفسر صناعة الشعر العربى في أطواره المختلفة ؛ وقد استعان في إحكام هذا الهجوم بفكرة الأصالة التى تتم في رأيه الشعر وأصحابه ونماذجه ، بحيث لا نستطيع أن نقطع بتشابه شاعر مع شاعر ، أو تلمذته له من قريب أو من بعيد ، لأن الشعراء يعيشون في حياتهم الفنية متفرقين ، لا مذهب يجمع بينهم ولا مدرسة .

ليس في الشعر العربى مذهب ولا مدرسة ، وكل بحث يرمى إلى إثبات ذلك ، مهما اتخذ من مراصد ومقاييس ، فهو بحث باطل ، أو هو على الأقل بحث يتزلق بصاحبه إلى تعميمات وأخطاء في الأحكام الأدبية ، لأنه يؤصل مذاهب ومدارس على مزاعم وأوهام لا أصل لها ولا فرع في الفن العربى ، فإن من يتأمل فيه يلاحظ أنه أثر من آثار الجهود الشخصية ، وليس أثراً من آثار التطور الذى يحدث المذاهب والمناهج . ويا لها من دعوى خطيرة تهدم كل تنظيم قام به المحدثون في دراسة الشعر العربى وبيان أطواره ومذاهبه ؛ بل إنها لتهدم كل ما قام به أسلافنا من تخطيط مذاهب الشعراء وبيان مناهجهم ، لماذا ؟ لأنه ليس هناك مذاهب ولا مناهج في حقيقة الأمر ، إنما هي أشياء تكلفها النقاد القدماء والمحدثون من تلقاء أنفسهم !!

وإذن فليحطم النقاد أقلامهم ، وليفبذوا كتبهم وأبحاثهم في آثار الشعر العربى ، لأنهم لم يلتفتوا إلى قانون الأصالة الساحر الذى يعرضه علينا الدكتور عبد اللطيف عرضاً خلاباً لا يكاد يُبقى في نفوسنا ولا في عقولنا بحثاً منظم القراءة أو درساً مؤصلا منمماً . وهل بقى في أيدينا شيء من عمل قديم أو حديث في دراسة الشعر العربى وتفسير أطواره ومذاهبه ؟

إنا لن نستمع بعد اليوم لأحكام أبي الفرج في عقد المشابهات والمشاكلات بين الشعراء في أغانيه ، ونحن أيضاً لن نستمع بعد اليوم لما يقرر في كتب النقد العربى عن أصحاب المناهج القديمة والأخرى الحديثة . لن نستمع إلى ما يقرره الآمدى في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى ، ولا إلى ما يقرره الجرجانى في الوساطة بين المتنبي وخصومه ؛ بل سنندفع — وراء الدكتور عبد اللطيف — في حال ثورة عنيفة ، فنرفض كل الأبحاث الأدبية الطريفة التى ألفها الجاحظ ، وابن المعتز ، وقدامة ، والباقلانى ، والعسكرى ، وعبد القاهر ، وابن رشيق ، وابن الأثير ، وأمثالهم ، ما داموا يستبيحون لأنفسهم هذه المنطقة الحرام ، منطقة الشعر والفن يخترعون لها تلك المقاييس المنكرة التى تكشفها وتفسرها تفسيراً مبيناً .

وا أسفاه ! لن نقرأ بعد اليوم في كتب تاريخ الشعر العربى التى تعنى بعقد المقارنات بين الشعراء من مثل الأغانى واليتيمة ، وكذلك لن نقرأ في كتب النقد العربى لأنها كتب تخطئ أخطاء شديدة إذ تشير إلى مذاهب ومناهج لا أساس لها من واقع مادى ، وأيضاً نحن لن نقرأ في الكتب التى تصف صناعة الشعر والتى كان القدماء يسمونها كتب البلاغة ، لأن ذلك كله ينتهى بنا إلى خطأ التعميم في الأحكام الأدبية !

كلا ! لا تجزعوا أيها الأصدقاء القدماء من نقادنا ، فسنظل نحتفظ بكم وبكتاباتكم ؛ وإن اختصمنا بعد ذلك

مع صديقنا الدكتور عبد اللطيف بسبب الحرص عليكم ، والانتفاع بآرائكم ، وما تزعمونه من أسرار الفن فى الشعر ونواميسه ؛ فإن أنتم آثرتم عابرين إلى مدرسة زهير فى العصر الجاهلى ، أو آثرتم إلى مدرسة البديع فى العصر العباسى ، وجدتم منا من يحرص حرصاً شديداً على بحث هاتين المدرستين ونظائرهما ليضع تقاليد هذه المدارس الفنية ، وما شاع فيها من أصول وقوانين .

لن نصغى إذن إلى دعوة الدكتور عبد اللطيف حمزة ، إذ يدعونا إلى احترام قانون الأصالة ، ما دام هذا القانون يحول بيننا وبين الدراسة العقلية المنظمة للفن والفنانين ؛ بل أنا أسارع فأطمئنه إلى أن هذا القانون احترمه النقاد جميعاً ، قديماً وحديثاً ، حين حاولوا أن يضعوا المذاهب الفنية ، وإلا لما استباحوا مذهباً جديداً ، ولا عملا لشاعر فى مذهب قديم .

لا ينكر النقاد قانون الأصالة فى الفن ، بل هم يحتكمون إليه فيما يؤسسون ويؤصلون ، وكل ما فى الأمر أنهم لا يتخذونه كما يتخذه الدكتور الفاضل رمزاً لخفى ، أو مستور ، أو شىء مما وراء الطبيعة فى الفن والفنانين ، إنما هو رمز فى رأيهم لتجديد أصحاب المذاهب وتنمية تلامذتهم لها ، وصعودهم بها إلى الآفاق العليا ؛ ومن أجل ذلك كانوا إن حاولوا تنظيم دراسة فى مذهب يتحدثون عن أساتذته وتلامذته ، وصنيع كل منهم فى داخله ، حتى تتضح الفوارق الدقيقة بين الشعراء .

أما إن كان الزميل يريد بالأصالة معناها المطلق من الجهود الشخصية ، كما يقول ، وما يستتبعه ذلك من الحرية الفردية بين الشعراء والفنانين ، فإن الأصالة تصبح مجرد أسطورة لا تحتمل جدلا ولا مناقشة . ولست أظن أن باحثاً يستطيع أن يزعم — فى هذا العصر الذى يؤمن بمذهب الجبر والتأثر العميق النافذ بين الفرد والجماعة فى جميع الدراسات — أن شعراء العرب نبتوا نباتاً غير منظم ، فليس بينهم صلة ولا واشجة ، ولا فى شعرهم أثر من بداوة قديمة ، ولا حضارة عباسية حديثة ، إنما هم يعيشون معيشة منعزلة غريبة ، يعيشون متنابذين لا يقبل بعضهم على بعض ، ولا يستفيد بعضهم من بعض ، إذن لما صح أن يكون بينهم فكر مشترك ، ولا أسلوب مشترك ، ولا صورة مشتركة ، ولا موضوع مشترك ، بل ولا تركيب مشترك ، ولا نحو مشترك .

والحق أنه لا يوجد بين نقادنا من ينكر التشابه والتماثل بين الشعراء ، وأنهم كانوا يتلمذون بعضهم لبعض . تشهد بذلك النصوص القديمة عند الجاحظ وأبى الفرج والآمدى وغيرهم من النقاد القدماء ، وهم لم يقولوا ذلك لمطلق تنظيم الدراسة ، بل قالوه ليعبروا عن الوقائع المادية للشعر العربى . ويأتى المحدثون فيتعقبون ما أشار إليه هؤلاء النقاد من مذاهب ومدارس معتمدين لا على التأمل فقط ، بل على الدرس العلمى المنظم حيث تراهم يأخذون أنفسهم بأصول مقررة ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا بقاعدة دون أن يشتقوها من نماذج كثيرة ، فإن هم استخرجوا قاعدة من نموذج معين أو بيت معين كانت قاعدة معينة بهذا النموذج أو هذا البيت لا تقطع بشىء ، إذ القطع فى الأحكام الأدبية يستلزم أن تكون مطردة فى نماذج متنوعة .

ليس الأصل عند من يصطنعون المذاهب الفنية أن يفرضوا قاعدة ويطبقوها ، فذلك إن صح فى قواعد الطبيعة فإنه لا يصح فى قواعد الشعر الملىء بالشذوذ والاستثناء ، ومن أجل ذلك كان النقاد لا يحكمون بشىء ، دون أن يشتقوه من نص بل من نصوص مختلفة ، إذ ليس مرجع هذه القواعد التى نتخذها فى المذاهب إلى خواطر وفروض ، بل هى ترجع إلى النصوص نفسها ، فهى قواعد مسببة أو معللة ، ولا بد لها من الاطراد فى النماذج والأبيات المختلفة ، مع التسليم بأن القاعدة الفنية قد تتخلف فى بعض النماذج ، ولكن هذا لا يعنى بطلانها إنما يشير إلى صفتها ، وهى صفة تجعلنا ندرس ما قد يحدث من شذوذ أو استثناء لنتبين

مثله ومصادره . وعلى هذا النحو يستخرج النقاد — بعد استقراء شاق طويل — القاعدة والقواعد الأدبية ، ثم يشكلون من مجموعة هذه القواعد المذاهب الفنية .

أما تلك الظاهرة التي يعجب منها الدكتور الزميل ، وهي أن أبا العلاء لم يحسن فلسفة الشعر ، بينما أحسن ذلك أبو تمام ، فقبل كل شيء ينبغي أن نحدد ألفاظنا لأن صاحب الكتاب لا يستطيع أن ينتهي إلى هذه النتيجة ، بل إنه لا يجرؤ على القول بها ، إذ كل ما أشار إليه أن أبا تمام استطاع أن يستخدم مُثقفاً من الفلسفة استخداما زاهيا كأدوات من التصنيع والتجميل ، بخلاف أبي العلاء فإنه فلسف الشعر حقاً ، ولكن لم تر عنده هذه الظاهرة من استحالة الفلسفة والثقافة إلى ألوان زاهية ، فلماذا ؟ لأن أبا العلاء من أصحاب مذهب التصنع ، بينما أبو تمام من أصحاب مذهب التصنيع ، وليس هنا مجال الحديث عن نشوء المذهبين ، وبيان تأثير الحياة الاجتماعية والعقلية فيهما ، فذلك قد فُسِّر في الكتاب — على ما أظن — تفسيراً واضحاً لا يدع مظنة لتعجب ولا لسؤال .

وأخرى ، وهي أن الدكتور الزميل يأخذ علينا أننا جعلنا مذهبي الصنعة والتصنيع يظهران في طورين متعاقبين ، وقد عجبت من هذه الملاحظة ، لأن الكتاب يجعل هذين المذهبين متعاصرين أثناء العصر العباسي ، إذ كانا يتقابلان طوال القرنين الثاني والثالث ؛ وقد مثل مذهب الصنعة في القرن الثاني أبو نواس ، ومثله في القرن الثالث البحتري وابن الرومي . بينما كان يمثل مذهب التصنيع في القرن الثاني مسلم وفي القرن الثالث أبو تمام وابن المعتز ، وعلى ذلك أدرت فصول القسم الأول من الكتاب .

وأنا بعد أراني في حاجة هنا إلى الاعتراف ثانية بما صرحت به في مقدمة البحث ، من أني لا أزعم لنفسي أني كشفت عن جميع جوانب الفن في الشعر العربي ومذاهبه ومناهجه ، إنما حاولت ذلك ، ودللت عليه ؛ غير منكر ما قد يكون في هذا البحث الجديد من أثارة إبهام أو غموض .

وإني لأبعث إلى الزميل الدكتور عبد اللطيف بتحية طيبة ، مستأذناً في أن أختم هذا الحديث بقول الجاحظ في مفتتح بيانه : « اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول ، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العُجْب بما نحسن » ... اللهم آمين ... !

شوقي ضيف

أضاليل الأماني

قالوا : أتقضي أسىً إنْ فاتك الوطر؟
فقلتُ : ما فاتني شيءٌ له خطرُ

أشجون بها مُنيةٌ ما نالها أحدٌ
إلّا وقد ضحكتْ في رأسه النُّذُر

نأتي – على الشيب – مثلَ الشيبِ وافدةٌ
لا القلبُ يحمَدُ لُقياه ، ولا البصر

هي العَروسُ جَلَوْها في معارضها
كُرهاً على مُجرم ، أوْلى به الحُفَر

لا تغبطنَّ أخا نُعمى على كِبَرٍ
وافتْ إليه ، فإنَّ الشِّقوةَ الكِبَر

ما كنتُ آسى على ما ماتَ من أملٍ
لو ظلَّ فَوْدَايَ حيًّا فيهما الشَّعَر

ما زالَ يَرْمي سَوادي الشيبُ مشتداً
حتى انتهت فهالتْ مقلتي « سَقَر »

شيبُ الشبابِ بلاءٌ لا يقومُ له
فتًى ، ولو كانَ في أضلاعه حَجَر

هَوَتْ من شأنه لو لم تكن طَرَفَتْ
به « العيونُ التي في طَرْفها حَوَر »

قالوا : تَغافَلَ من طول الفراغ ، أمَا
أتاهمو أنني الصَّمْصَامةُ الذَّكَر

تلك الكواكبُ في الآفاق سارية
وامتازَ من بينها بالكُلْفة القمر

لا تعذلوه على الإخفاقِ ، كَمْ رجحتْ
من صَيْدِها الأُسْدُ لم يُكتب لها الظفر

صدفتُ عن باطل الدنيا وزخرفها
وبتُّ صِلْماً لما يأتي به القَدَر

مضى الصِّبا والهوى والزَّهْوُ بعدهما
كأصْلَعِ[1] الدَّوْحِ : لا ظِلٌّ ولا ثمر

أزاحِمِي أنني ما رُحتُ منتظراً
خيراً من الدهر فيمَن راحَ ينتظر

لا أطلبُ النَّصفَ منه بعد معرفتي
بأنَّ في سوقه لا تَنفُقُ الدُّرَر

عكفتُ في بُرْجيَ العاجي تَسْعدني
به الخيالاتُ ، أو تَشْقيني الذِّكَر

لقيتُ في البعد عن دنيا الأنام وما
فيها شِفاءٌ لقلبٍ غاله الكدر

وكم لقيتهمو من قبلها حَذِراً
وهل يُنجيك من مكروههم حذر؟

علي الجندي

(١) صلع الدوح : تساقطت أوراقه .

الحكومة الملكية المصرية
وزارة المالية

القرض الوطنى ٣¼ ٪ سنة ١٩٦٣/١٩٧٣

سعر الإصدار ١٠٠ ٪

سندات هذا القرض صادرة بمقتضى القانون رقم ٩٥ لسنة ١٩٤٣ ، وتخصص حصيلة القرض لتحويل وتسديد الدين الموحد والدين الممتاز كليهما أو بعضهما .

رخص للبنك الأهلى المصرى فى قبـــول الاكتتاب فى القرض المذكور .

تكفل موارد الخزانة العامة رأس مال القرض وفائدته .

تتعهد الحكومة الملكية المصرية بأن تخصص مبلغاً سنوياً لتكوين مال احتياطى لاستهلاك هذا القرض لا يقل عن ٢ ٪ (اثنين فى المائة) من مجموع الاكتتاب ، وذلك بالمطابقة لنص المادة الثالثة من القانون رقم ٩٥ لسنة ١٩٤٢ .

سندات هذا القرض لحاملها ، وهى بالعملة المصرية . ويجوز لحملة السندات تسجيلها بالبنك الأهلى المصرى ، والحصول منه على شهادات اسمية بذلك .

رأس مال القرض وفائدته معفيان من كل ضريبة حالية أو مستقبلة ، مباشرة أو غير مباشرة بما فى ذلك ضريبة التركات .

فائدة القرض ثلاثة وربع فى المائة سنوياً ، محتسبة من تاريخ الاكتتاب ، وتدفع كل ستة شهور بواقع نصف الفائدة السنوية فى أول مايو وأول نوفمبر من كل سنة بالبنك الأهلى المصرى بمركزه الرئيسى بالقاهرة .

تدفع فوائد الستة شهور الأولى فى أول مايو سنة ١٩٤٤ عن نصف سنة بالكامل .

يجب أن تكون طلبات الاكتتاب بعشرة جنيهات مصرية أو بمضاعفات العشرة الجنيهات المصرية .

يجب أن يدفع المكتتب ثمن السندات المكتتب بها بالكامل عند الاكتتاب ، مضافاً إليها الفائدة المستحقة من أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ لغاية تاريخ اكتتابه .

يستلم المكتتب شهادة مؤقتة بقيمة اكتتابه ، وتسلم فيما بعد — فى مقابل رد تلك الشهادة — سندات لحاملها بقيمة اكتتابه (ملحقاً بها كوبونات الفوائد) من الفئات الآتية :

جنيه	جنيه	جنيه	جنيه	جنيه
١٠	٥٠	١٠٠	٥٠٠	١٠٠٠

يجوز لوزارة المالية فى أى وقت ابتداء من أول نوفمبر سنة ١٩٦٣ أن تستهلك القرض كله أو بعضه بالقيمة الاسمية .

يعلن عن الاستهلاك الجزئى بطريق النشر فى الجريدة الرسمية قبل الميعاد المحدد لرد قيمة السندات المستهلكة بثلاثة أشهر على الأقل .

تنشر أرقام السندات المسحوبة للاستهلاك بالجريدة الرسمية قبل التاريخ المحدد لرد قيمتها بثلاثين يوماً على الأقل .

تحتسب الفائدة عن السندات المستهلكة لى اليوم السابق لليوم المحدد لرد قيمتها .

تدفع قيمة السندات المستهلكة إلى حامليها بالبنك الأهلى المصرى بمركزه الرئيسى فى القاهرة .

أما السندات التى لا تكون قد استهلكت قبل أول نوفمبر ســـنة ١٩٧٣ فترد قيمتها الاسمية لحامليها بالبنك الأهلى المصرى بمركزه الرئيسى بالقاهرة فى التاريخ المذكور .

يسقط الحق فى المطالبة بقيمة السند بعـــد مضى خمس عشرة سنة ميلادية من تاريخ استحقاق قيمته ، ويسقط الحق فى المطالبة بقيمة الكوبون بعد مضى خمس سنوات ميلادية من تاريخ استحقاقه .

يجوز قبول سندات الدينين الممتاز ٣ ½ ٪ والموحد ٤ ٪ الصادرين بالعملة الاسترلينية بدلا من الاكتتابات النقدية فى هذا القرض وذلك بالشروط الآتية :

يجب تقديم الطلبات إلى مكتب خدمة الدين العام بالقاهرة خلال المدة من أول نوفمبر إلى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣ بالنسبة للدين الموحد ٤ ٪ وخلال المدة من ١٦ نوفمبر إلى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ بالنسبة للدين الممتاز ٣ ½ ٪ ، أما طلبات التحويل المقدمة من حملة هذه السندات المقيمين فى خارج القطر المصرى فإنها تقبل إلى يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٣ بالنسبة للدين الموحد ٤ ٪ وإلى يوم ١٥ يناير سنة ١٩٤٤ بالنسبة للدين الممتاز ٣ ½ ٪ ويقبل كذلك بنك انجلترا بلندرة هذه الطلبات على أن يكون تسليم السندات الخاصة بها فى مصر لحساب طالب التحويل .

تقدر سندات الموحد ٤ ٪ بعلاوة قدرها ٢ ٪ فوق قيمتها الاسمية وسندات الممتاز ٣ ½ ٪ بعلاوة قدرها ١ ٪ فوق قيمتها الاسمية . والاكتتابات المقدمة على هذه الصورة والمقدرة قيمتها على هذا الأساس يقبل من قيمتها ما يكون بمضاعفات العشرة الجنيهات وترد نقداً كسور العشرة جنيهات الزائدة على ذلك إلى طالبي التحويل .

(١٠٠ جنيه استرليني = ٩٧ جنيه مصرى و ٥٠٠ مليم) .

يوقف ابتداء من أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ احتساب الفائدة عن سندات الموحد ٤ ٪ ، وسندات الممتاز ٣ ½ ٪ التى تقدم اكتتابا فى هذا القرض .

تدفع فائدة سندات الممتاز ٣ ½ ٪ عن المدة من ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤٣ إلى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٤٣ عند تحويلها إلى هذا القرض .

يجوز قبول سندات قرض القطن ٤ ½ ٪ ١٩٤٢ — ١٩٤٦ وقرض القطن ٤ ٪ ١٩٤٤ — ١٩٤٨ بدلا من الاكتتابات النقدية فى هذا القرض ، وذلك بالشروط الآتية :

يجب تقديم الطلبات إلى البنك الأهلى المصرى بالقاهرة خلال المدة من أول الغاية ثلاثين نوفمبر سنة ١٩٤٣ .

تدفع لحملة سندات القرض ٤ ½ ٪ ١٩٤٢ — ١٩٤٦ قيمة الكوبون المستحق فى أول ديسمبر سنة ١٩٤٣ مضافاً إليها الفائدة الجارية حتى أول يناير سنة ١٩٤٤ وهو اليوم المحدد لتسديد هذا القرض ، ويستنزل من ذلك مبلغ الفائدة بواقع ٣ ½ ٪ عن المدة من أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ لغاية آخر ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

يدفع لحملة سندات قرض القطن ٤ ٪ ١٩٤٤ — ١٩٤٨ قيمة الكوبون المستحق فى ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤ بعد استنزال مبلغ الفائدة بواقع ٣ ½ ٪ من المدة من أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ لغاية ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤ .

يمكن الحصول على نسخ من هذا الإعلان ونماذج طلبات الاكتتاب من البنك الأهلى المصرى وفروعه ومن البنوك المعتمدة من غرفة المقاصة ومن السماسرة المعتمدين من قومسيون إحدى بورصتى الأوراق المالية .

يبدأ الاكتتاب بالبنك الأهلى المصرى بمركزه الرئيسى بالقاهرة فى أثناء ساعات العمل بالبنك المذكور من أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، ويجوز لوزارة المالية أن تقفل الاكتتاب فى أى وقت تشاء .

القاهرة فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٣
١٣٧٠

وزير المالية
أمين عثمان

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكردى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٩٩٩٢ / ٥٦٢٦٩

العدد ٢٥٤ — الثلاثاء ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٦٢ — ٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

مجتمع صـــناعى

يعتبر برتراند رسل من الفلاسفة المشتغلين بدراسة المدنية الحاضرة وما آلت إليه من خير أو شر . ولا شيء يستأثر باهتمام العالم اليوم كتقدير النتائج السياسية وغيرها مما سيعقب هذه الحرب الطاحنة . وقد كتب برتراند رسل فصلا فى أحد كتبه منذ أكثر من عشرة أعوام مبيناً فيه اتجاه الحكومات العصرية إلى إنشاء نوع من الدول يختلف كل الاختلاف عما عرفه التاريخ . ونلخص هذا الفصل الآن لأنه كتب بعيداً عن معترك الأهواء الذى لا يسلم منه كاتب اليوم ، ولأنه يتنبأ بأشياء تحققت بعد ذلك ، وبعضها محتمل الوقوع لعلنا ندركه :

إن بناء مجتمع إنسانى على أساس استخدام العلوم الطبيعية مسألة من مسائل المستقبل وإن كنا نشاهد بوادر ذلك فى بعض الأمم ؛ ونقصد به ذلك المجتمع الذى تستخدم فيه أحدث وسائل العلم فى الإنتاج والتعليم وتوجيه الرأى العام ، ويكون ذلك تطبيقاً لخطة سابقة تحدد أغراضه ومُثله — وهو بهذا يختلف تماماً عن الإمبراطوريات القديمة التى قامت على الجد الحربى فقط ولم يتعد أثرها الناحية الإدارية ، أما الحياة اليومية للشعب فلم تتأثر بها كثيراً — وعلى عكس ذلك يكون أثر الأنبياء والملوك المشرّعين ؛ وحتى هؤلاء أقرت تعاليمهم كثيراً من التقاليد والعادات التى كانت معروفة عند أممهم . وعندما نقترب من العصور الحديثة نلاحظ أن تكوين الأمم الاجتماعى قد تأثر بالثورات السياسية : فالثورة الفرنسية والأمريكية قد جاءتا بنتائج أخرى لم يكن يحلم بها أولئك الذين أشعلوا نارها . ولكن فوق ذلك يمكن بواسطة العلم الحديث تغيير النظام الاجتماعى تغييراً شاملاً وفق خطة معينة ، وهذا هو الفرق بينهما وبين النظم القديمة .

قادنا العلم لاختراع الآلة وتوليد أنواع جديدة من

النباتات والحيوانات ، ويمكن أيضاً ولادة أطفال من جنس جديد بالاستعانة بقوانين الوراثة وتحسين النسل[١] . وبعد ولادتهم يتعهدهم علم النفس فى التربية ويخضعون لوسائل علم الاقتصاد ، فيتكون منهم جيل يختلف عن الجماعات التى نشأت بفعل العوامل الطبيعية وحدها . وستكون لهذه الجماعات مزايا معروفة ، ولكن هذا النوع من التوليد أيضاً سيأتى بنتائج وخصائص جديدة لن يفطن إليها أحد . ونجد مثل هذه الدولة فى اليابان الحديثة وروسيا السوفيتية .

فاليابان الحديثة هى صورة للحلم الذى كان وراء رجال ثورة سنة ١٨٦٧ الذين هالهم نفوذ الدول الغربية وقوتها وخافوا أن تسيطر عليهم وتستعمرهم ، أى أنهم بنوا ثورتهم على أساس حماية أرض الوطن ؛ ولن تتم هذه الحماية بغير قوة حربية وبحرية ، ولذلك فكروا فى إدخال التعليم الغربى والصناعات الحديثة . ولكن مثل هذا الانقلاب الهائل لن يأتى بالسرعة المطلوبة ، فلهذا قد استعانوا بتسخير تقديس الشعب للميكادو أولا ، وبتأثير الديانة الشنتية ثانيا . فأخذوا فى اقتباس المدنية الغربية بحماس دينى حتى تجاوزوا الغرض الأول وهو حماية استقلالهم ، وجاءت نتائج أخرى إذ أصبحت اليابان تملك قوة هائلة أكثر مما تحتاج إليه فى الدفاع[٢] — ولم يأخذ اليابانيون الناحية الفلسفية لهذه المدنية ، بل اكتفوا بالجانب العملى من العلوم الحديثة وجعلوها وسيلة لغاية . وترتبت على ذلك نتائج أخرى سيكون لها أثر سيء فى حياة اليابان ؛ فالطبقات المتعلمة المسيطرة على الأمور قد وجدت طوع أمرها قوة مادية هائلة تغرى بعبادة القوة والتسلط وأعمال القسوة[٣] . ويخشى أن ينهار هذا النظام إذا انساقت اليابان إلى حرب خسرتها ، إذ لن يعمر نظام يقسم الشعب إلى أقلية مسيطرة وأغلبية خاضعة . وربما جاء التغيير بطيئاً أو سريعاً كما حدث فى روسيا بعد الحرب الماضية . ونخلص من هذا إلى أن اليابان لا تعتبر مثلا صالحاً للحياة المؤسسة على العلم الحديث لأنها تفقد عوامل الاستقرار .

أما المجتمع الذى يسعى إليه حكام روسيا السوفيتية فشىء لا شبيه له فى التاريخ ، ولا تزال التجربة قائمة ، ومن الخطأ البين أن نحكم بنجاحها أو فشلها الآن . ولذلك أفضل ألا أتعرض لها بذم أو إطراء ، ولكنى بسبب ذكر العوامل التى تجعلها المثل الأعلى للدولة المؤسسة على العلوم ، وذلك يرجع إلى الأسباب الآتية : كل قوى الإنتاج والتوزيع تحت إشراف الدولة ؛ فلسفة التعليم وضعت لتأييد النظام القائم ؛ تعمل الدولة على محو العادات والمعتقدات القديمة وإحلال هذا النظام محلها ؛ مشروع خمس السنوات .

ولا يوجد فى بلد آخر إشراف حكومى قائم على جميع الموارد كما هو فى روسيا ، ولا تلجأ إليه الأمم الأخرى إلا كإجراء موقوت أيام الحرب — ويمكن القول بأن نجاح مشروع خمس السنوات ربما دعا إلى محاولة التجربة مرات أخرى لتنمية موارد البلاد المختلفة[١] . وقد كان مثل هذا الإشراف التام مستحيلا فى الأزمان الماضية ، ولكنه ممكن الآن بعد أن تهيأ له الأذهان ويوجه الرأى العام بالتعليم والصحافة والسينما والراديو ، ويعتمد أيضاً على المواصلات السريعة ، كما تملك الدولة قوة دفاعية لقمع الحركات الرجعية بالطائرات أو الغازات .

هذا عن روسيا . وإذا ساد هذا النظام العالم استطاعت أن تحكمه أرستقراطية من أهل الرأى تعتمد على القوة التى تحت سيطرتها أكثر من اعتمادها على التصويت العام ، وتعمل الحكم صورة شبيهة بروسيا . ومثل هذه الحال لها مزايا وعيوب ، وتحتاج إلى التنظيم والإدارة الحازمة ؛

(١) رواية الدوس هكسل Brave new world.

(٢) بل أصبحت من الدول التى تعمل للتوسع على حساب جيرانها وغيرهم .

(٣) أعمال الوحشية فى الصين وهيج كنج وإعدام الطيارين الأمريكان فى غارة طوكيو .

(١) تم ذلك بمشروع خمس السنوات الثانى سنة ١٩٣٨ والثالث ونهايته ١٩٤٢ .

وقد أقنعتنا الأزمة العالمية الحاضرة بضرورة التنظيم العالمي لضمان رخاء الحياة ، إذ تستطيع قوى الإنتاج أن تسد حاجيات البشر ويعم الرخاء . ولكن الواقع هو الفقر العام والأزمات الاقتصادية بسبب الأنانية والمنافسة على الربح . والتنظيم الاقتصادي للعالم فوق أنه تسد حاجيات الإنسان المادية ، فإنه يترك له فراغاً لراحته . ومن نتائجه منع الحروب وتوفير نفقاتها . وقد نتساءل هل من الخير أن تكون الحياة منظمة مقدرة هكذا ؟ ولكن لا ننسى أن مجموع القوى المادية الهائلة التي أوجدها تقدم العلوم الطبيعية يمكن تسخيرها للخير والشر معاً ، ولا يمكن تركها بلا قيود تنظمها على أساس تنظيم دولي بشكل من الأشكال .

ومن فوائد هذه الحكومة الدولية[1] إيقاف الحروب وتوفير نفقاتها ؛ ولن يكون هناك سوى جيش صغير لحفظ النظام — والحكومة المركزية يمكن تغييرها بدون أن يتغير معها النظام الموجود ، وإنما يوضع رجل مكان آخر إذا برهن على كفايات ممتازة . ولن تسمح السلطة بالعودة إلى النعرات الوطنية الخاصة ، بل يتحتم على الجميع الولاء للحكومة العالمية . وإذا استطاعت هذه الحكومة أن تستقر جيلا واحداً ضمنت لنفسها البقاء الدائم ، وتوفر الجهود الضائعة في المنافسة على الربح ، ولن تحدث أزمات اقتصادية فجأة ، وسيعمل الجميع والكسالى يعاقبون ؛ وإذا كسدت حرفة من الحرف يتعلم العمال صناعة جديدة بدل أن يتعطلوا[2] . وبالاختصار ستزول كل أسباب الألم والخوف ، ولن يأتي الموت إلا في نهاية العمر الطبيعية والهرم .

ولكن هل يسعد الإنسان في ظل هذه الدولة ؟ ... لا أستطيع الحكم . ولعل علم البيولوجيا والكيمياء يستطيعان أن يجعلاه سعيداً بعد أن توفرت حاجياته المادية . ومن الجائز أن تنتشر الألعاب الرياضية العنيفة ، وتحل المعارك الجوية بالطائرات محل كرة القدم ، وتكثر الاستهانة بالحياة ، ولكن ربما استطعنا أن نهذب غرائز الإنسان الوحشية بالتغذية المناسبة والتعليم ، وتصبح الحياة خالية من العنف .

ستكون لغة التخاطب هي الاسبرانتو ، أو نوع منقح من الإنجليزية ، أما الآداب القديمة فلن يسمح بترجمتها إلى هذه اللغة ، لأن مثلها العليا ونظرتها فردية لا تتفق مع العالم الجديد ، ولكن قد يُسمح لعلماء التاريخ بالاطلاع عليها . وكذلك الأطفال لن يقرأوا قصص اللصوصية أو أخبار المتوحشين ، ويمنع تداول القصص الغرامية أيضاً !

وفي النهاية نقول إن العلم يمكنه أن ينتج خيراً أو شراً ، ولهذا وجب أن نفكر في الوسائل التي تحد من قوى الشر . وإذا تأسس مجتمع صناعي بهذا الوصف كان الناس فيه أقرب إلى الهدوء ، ولن يكون مثلهم الأعلى رجل البطش والقوة ؛ وستكون هناك فوائد وأضرار ، ولا يستطيع أحد التكهن بكثرة الفائدة أو الضرر .

(أم درمان) حسن الطاهر زروق

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

***

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر:

- ٤٥ في مصر والسودان
- ٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
- ٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
- ٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

---

(١) آراء المستر هـ . ج ويلز .

(٢) يتضمن مشروع تدريج فترة كهذه .

مقام الانسان فى الكون

للدكتور على مصطفى مشرفة

قرأت مقالاً [١] للأستاذ أحمد أمين عنوانه «سياحة فى العالم»، أشار فى مطلعه إلى كتابى [٢] الذى ظهر أخيراً بعنوان «مطالعات علمية»، وإلى بعض ما ورد فى هذا الكتاب عن الأجرام السماوية وأبعادها عنا، وكيفية توزيعها فى الفضاء، وعن أحدث الآراء فى اتساع الكون وعظم مسافاته الشاسعة. وكنت قد لجأت فى كتابى إلى حيلة لقياس هذه الأبعاد الكبيرة والمقارنة بينها، فحملت القارئ فى مركب من أشعة النور، يسير بسرعة ثلثمائة ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة، وانطلقنا فى رحلة خيالية نذرع فيها الفضاء من كوكب إلى كوكب، ثم من شمس إلى شمس، ثم من عالم إلى عالم. وقد رأى الأستاذ أحمد أمين أنه يملك خيراً من هذه المطية، وأسرع من هذا الضوء وهو الخيال والفكر الذى يستطيع أن يرحل إلى هذه العوالم فى لحظة، ويطوف حول الكون فى لمحة، فركب هذا الخيال وطاف هذه العوالم فى رحلة عاد منها بنتائج باهرة. وقد كان جميلا وطبيعياً أن يلتقى الأستاذ فى سفره بأبى العلاء، وكيف لا وهو صاحب رسالة الغفران ومبدع الإسراء بالفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال، وهو القائل:

فهل الكواكب مثلنا فى دينها
لا يتفقن فهائد أو مسلم
ولعل مكة فى السماء كمكة
وبها نصارى ويهود وينعم

وقد كان جميلا وطبيعياً أن يلتقى الأستاذ بابن الشبل البغدادى، وبشعراء الصوفية وعظماء رجالها الذين أدركوا وحدة الوجود وجمال الخلق والخالق، ووصلوا إلى أن قلب العوالم ينبض وروحها تختلج. ولعله لقى الإمام الغزالى، وسمع دفاعه فى مشكاة الأنوار عن الحسين بن منصور الحلاج إذ يقول:

يا سر سر يدق حتى يجلّ عن وصف كل حىّ
وظاهراً باطناً تبدى من كل شىء لكل شىّ
يا جملة الكل لست غيرى فما اعتذارى إذن إلىّ

كل هذا جميل وطلى. وإنما يعنينى معنى آخر ذكره الأستاذ وأفاض فيه، وكنت قد لمحت إليه وأوجزت، ذلك أنه رأى فى صغر الحيز الذى يحل فيه الإنسان، بل الذى تحل فيه الكرة الأرضية، وفى عظم الكون الذى يقدر محيطه بآلاف الملايين من السنين الضوئية، كما رأى فى تعدد الشموس التى تعدل شمسنا، حتى إن عددها ليقدر فى عالمنا وحده بمائة ألف مليون شمس، وفى تعدد العالمين التى تشبه عالمنا حتى إن عددها ليقدر بمائة ألف مليون عالم — رأى فى كل هذا ما جعله يستصغر شأن الأرض ويستحقر أمر الإنسان. فالأرض أصغر من أن تذكر بجانب العوالم الأخرى، والإنسان أحقر من أن تعرف حياته لضخامة حياتهم، وأخبار الحروب تافهة وحقيرة لأن الإنسان الذى يقوم بها حقير، ولأن الحروب جزء من الأرض الحقيرة، وهلم جراً. وأكثر من ذلك، فحديث السعادة والشقاء واللذات والآلام والجمال والقبح لا يقع من النفس فى قليل ولا كثير، ولا يزيد فى السمع على طنين ذبابة.

ما مقام الإنسان فى العالم؟ وما حقيقة مكانته؟ إن نسبة حجمه إلى حجم العالم تصلح لأن تكون تعريفاً جيداً للمتناهى فى الصغر الرياضى، كما أن أقصى قوة لعضلاته لا تزن مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. ومع ذلك ففى هذا الجرم المتناهى فى الصغر أكبر معجزة فى الكون بأسره.

كانت بعض المذاهب الفلسفية عند الإغريق تفرق

(١) راجع صفحة ٨ من مجلة الثقافة عدد ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٣.

(٢) انظر صفحة ٤٤ من كتاب «مطالعات علمية» طبعة القاهرة سنة ١٩٤٣.

بين عالمين : «الماكْرُو - كُوزْمُوس» أو العالم الأكبر ، و«الميكْرُو - كُوزْمُوس» أو العالم الأصغر ، فالأول هو الكون بفضائه وسماواته ، والثاني هو الإنسان ، وهذان العالمان ليسا شيئين مختلفين وإنما هما صورتان لشيء واحد ، وكانوا يقولون بانطواء العالم الأكبر في العالم الأصغر :

دواؤك فيك وما تشعر　　وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير　　وفيك انطوى العالم الأكبر

وقد اتصلت هذه المذاهب عندنا بالفلسفة الصوفية ، والقول بوحدة الوجود ، وما زالت تتطور من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل حتى يومنا هذا . والذين يرتأون هذه الآراء لا يجدون في صغر الجرم الإنساني ما يبعث على استصغاره ، ولا في ضعفه النسبي ما يدعو إلى استحقاره . فالإنسان في نظرهم لا ينخفض شأنه عن شأن العالم لأنه هو العالم ! وكيف ينخفض الشيء عن نفسه ؟!

ومن الآراء الفلسفية المشهورة ما قال به الأسقف بارْكْلي الإنجليزي من أن حقيقة الكون نفسية لا موضوعية ، فوجود الكون إنما يقوم بالنفس ولا معنى له بدونها . وعلى هذا الرأي يكون وجود الإنسان شرطاً لازماً لوجود العالم ، ولا يكون هناك معنى لوجود العالم ما لم توجد النفس المدركة ، وهي النفس البشرية .

ولما خلا هذه المذاهب الفلسفية ، وما انطوت عليه من معان خفية ، فإن قضية الإنسان في الكون تستند إلى أسانيد تستمد قوتها من الواقع ومن المنطق السليم . فالأرض التي يسكنها الإنسان يبلغ محيطها أكثر من ٢٥٠٠٠ ميل أو نحو أربعين مليون خطوة من خطواته ، ومع ذلك فقد طاف حولها ، وأحاط بها ؛ ثم إن دورانها على محورها ينشأ عن سرعات تصل إلى أكثر من ألف ميل في الساعة أو ما يعدل سرعته مائة مرة ، ومع ذلك فقد استطاع أن يطير حول الأرض بما يقرب من نصف هذه السرعة ، فكاد يلحق بالشمس في حركتها اليومية . وقد رقي في الجو إلى عشرين كيلو متراً أو ما يعدل عشرة آلاف قامة من قاماته ؛ كما سخر لنفسه من القوى ما يزيد مئات الألوف من المرات على قوى عضلاته ، ومن الآلات ما إن قدرته لتنوء باللايين من أمثال قدرته . أما بعقله وفكره فقد وثب وثبات رائعة ، فأماط اللثام عن طبقة مكهربة في الجو على ارتفاع سبعين ميلا ، ثم عن أخرى على ارتفاع ١٨٠ ميلا ، واستخدمهما في نقل رسالاته اللاسلكية ؛ وقد أماط اللثام أخيراً عن ثالثة تقع وراء القمر ، أي على أكثر من ربع مليون من الأميال ، ووجد عنصر الهليوم على الشمس أي على بعد ٩٣ مليون ميل . والمجموعة الشمسية التي يربو قطرها على سبعة آلاف مليون ميل قد أحاط علماً بحركاتها ، وقدر مواقيتها بما يزيد ضبطاً على الساعة التي يحملها في جيبه . أما الشموس الأخرى ، فقد قاس أحجامها ، وعرف أوزانها ودرجات حرارتها وأطوار حياتها ، وتعداها إلى ما هو أبعد منها من السدم ، فرسم لها صوراً فوتوغرافية ، وحلل أنوارها ، وعرف عناصرها ، وكاد يصل بعقله وعلمه إلى محيط الكون فقدر أبعاده وقاس عظمه .

هذه صحيفة مختصرة لعمله في عالم الحجم وفي عالم القوة ، من شأنها أن تقنع الكثيرين بمكانته وعظم مستقبله . أما أنا فإني لا أنكر على القارئ أني لا أجد تحتها طائلا ولا أبني عليها حكما ؛ فليس مقام الإنسان في نظري مرتكزاً على الأحجام والقوى ، وليس يضير الإنسان في ملتي أن يكون ضئيل الجسد قليل الحول . وإذا كان العالم الذي نعيش فيه واسع الأرجاء رحب الفناء ، فإني لا أجد في ذلك إلا مبعثاً للفخر وحافزاً للسمو بالنفس ، وهل ينقص من قدر المرء أن ينتمي إلى مدينة عظيمة ؟! أو أن يسكن في واد فسيح ؟! وإنما يبنى مقام الإنسان على شيء آخر هو أبعد ما يكون عن عظم الجرم وشدة البأس ، فقد سكن الأرض في العصر الخالي دينوصورات ذات أجسام هائلة ، كأنها الأطواد المتحركة ، وكان لها من قوة عضلاتها ما جعل لها الغلبة على جميع الكائنات الحية التي عاشت على

الأرض في زمانها ، ومع ذلك فقد اندثرت هذه الوحوش الضارية ، ولم يبق منها إلا بضع هيا كل عظيمة متناثرة هي خير عبرة لمن يعتبر ، وعظة لمن يتعظ .

كلا بل يقوم مجد البشر على شيء آخر هو ذلك القبس المقدس الذي نشعر جميعاً أنه ميز الإنسان على سائر الحيوان ، تلك القوة الروحية التي تحرك فينا حب الحق وحب الخير وحب الجمال . وعلى قدر استجابة البشر لذلك الداعي تأتي عظمتهم ورفعة شأنهم . وعندي أن ما وصل إليه الإنسان من العلم ، وما رتب على ذلك من قدرة واختراع ، إنما جاء على قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق ، كما أن حب الحق وحب الخير إنما يتفرعان من حب الجمال . فالحق والخير جميلان ولذلك فمن أحب الجمال أحبهما جميعاً . ووددت لو استطعت أن أصور للقارئ ذلك الجمال الفكري الذي يدركه طالب الحقيقة العلمية ، ذلك التناسق البديع بين أجزاء الكون حتى إن السير جيمس جينز ليصف الكون بأنه فكرة عظيمة ، أو إن شئت فقل فكرة جميلة .

وبعد ، فإني أعتب على الأستاذ أحمد أمين أنه لم يتعرف في رحلته على العلماء الذين أدركوا الحق وعشقوه وهاموا به من أمثال إقليدس والحسن بن الهيثم والسير إزاك نيوتن ؛ فقد روى أنه عرج في طريقه للعودة على طائفة من الناس ظنهم من الفلكيين شغلوا بالمسافات والأبعاد وتحليل الأشعة ، ولكنهم وقفوا عند الظاهر ، ولذلك لم يرهم إلا حين قارب الأرض . وأغلب الظن عندي أن هؤلاء الذين رآهم الأستاذ ، فحسبهم من العلماء ، إنما هم جماعة المقلدين والمدعين ، وما أكثرهم في الأدب والعلم على حد سواء . ولعل الرحلة قد بهرت منه البصر أو خدعه بريق الزحل ؛ ولو أنه نظر في الملأ الأعلى لرأى رجالات العلم ممن تجردوا عن الحياة الدنيا ، وسموا بعقولهم إلى المنتهى ، فكشفوا عن أسرار الكون ، وبرهنوا على وحدة الوجود ، وامتزجت نفوسهم وعقولهم بالحق والخير والجمال والسلام .

علي مصطفى مشرفة

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

شرٌ في القُرَاد

ويحقن السم في ذراعه ضنّاً بإخوانه

> وصل الثالث : أثبت «اسبنسر» وأعوانه أن هذه الحمى — الحمى النمشة — يوجد ميكروبها في القراد ، وأن القراد ناقلها إلى الحيوان والإنسان . وأن الميكروب الذي يربى في القراد بالصناعة شر ألف مرة من هذا الذي يوجد في الطبيعة .
>
> واتجه «اسبنسر» إلى أن يصنع من القراد لقاحاً واقياً ، وذلك بسحقه والوباء مستعر في دمه ، وإضافة قليل من حامض الفينيك إلى الدم المسحوق الناتج . على أن يحقن هذا من بعد ذلك في الحيوان السليم ليحصنه من الداء .
>
> والآن اقرأ :

قال اسبنسر : «وددنا جميعاً لو ننط في الهواء ، ونصك قدمينا فرحاً وشدة سرور» .

فلم يكن مضى على «اسبنسر» شهر منذ عاد إلى هذه البلدة ، بلدة «همِلتن» ، حتى كان هو وأصحابه قد قطعوا إلى غايتهم كل الشوط أو كادوا . ومضى عليهم أسبوع بالعمل ملىء ، وكلهم قائم حول «اسبنسر» يعينه على ما هو فيه ، وهو قائم إلى المنضدة يصنع أحسية مُريعة من قراد وبىء ، بالدم ملىء . وكان في القرادة الواحدة الصغيرة منه مقدار من الوباء يقضي على خمسة آلاف خنزير غيني . وأخذ اسبنسر هذه الأحسية ، وهي دماء ، فصبّ عليها مقادير من الفينول ، أي حامض الفينيك ، لم تزد مقاديرها عن نصف في المائة من تلك الأحسية ، وقد تكوكب حوله كل هذا النفر من أعوانه

ينظرون ماذا يكون . وفى لحظة تغير وجه هذه الأحسية ، فلم تعد به تلك الجهامة وتلك البشاعة . وفى الصباح راقت تلك الخبائص ورسب منها ما رسب بفعل الفينول . وفوق تلك الرواسب قام السائل صافياً كأنه الخمر حمرة لون ورقة مزاج ، كان صفاءً برىء الظاهر حتى ما تحسب أن فيه كل هذا الشر وهذا الفناء .

ويجتمع « اسبنسر » و « بركر » ، و « كاوان » الضخم ، وسائر الأعوان ، يجتمعون على ثلة من الخنازير وهى تتفقص وتصيت . وترى المحقن يلمع فى يد « اسبنسر » ، وتسمع اصطكاك الحديد والزجاج . وإذا بهذا السائل الخمرى يذهب فى الخنازير — هذا الطُّعم الواقى ، أو المزعوم واقياً .

وتعود المحاقن من بعد ذلك إلى أشياعها ، ويعود الحديد والزجاج إلى اصطكاكه ، وتذهب فى هذه الخنازير عينها مقاديرُ من سائل وبىء كاثر . وتمضى فترة انتظار طولها أسبوعان ، ثم ...

قال اسبنسر : « وعندئذ وددنا جميعاً أن نطّ فى الهواء حقاً ونرأط فرحاً » .

وحقٌ لهؤلاء الشياطين من العلماء أن يرأطوا ويفرحوا . وكيف لا يرأطون ويفرحون ، وهذه عشرة من الخنازير — من بعد إطعامها هذا الطعم الجديد ، هذا اللقاح الواقى — يدخل إلى جسم كل منها مقدارٌ من الوباء المستعر الذى أخذ طازجاً من حيوان هو فى سبيل الموت بالحمّى ، مقدارٌ يكفى لا لقتل خنزير واحد ، بل ألف من الخنازير ، ثم هى تظل من بعد هذا صحيحة سليمة كأن لم يكن دخل إلى أجسامها شىء . وسلمت العشرةُ جميعها . ثم إلى جانب هذه العشرة كان اثنان من الخنازير نالا من نفس الوباء ما نالت تلك العشرة ، ونالاه فى نفس الوقت ، ولكنهما لم ينالا ما نالته من الطُّعم الواقى ؛ فهذان الاثنان مالا على جنبيهما واستعرت فيهما الحمّى .

* * *

بهذا حدث لأول مرة فى تاريخ هذه الحمّى البقّعة أن استطاع العلماء أن يجدوا شيئاً مأموناً يطعمونه حيواناً ليحصّنوه من هذه الحمّى . وقد كانت السبيلَ الوحيدة للتحصن منها أن يصاب الحيوان بها ، فيشرف على الموت ، ثم يكون من حظه الطيّب أن ينجو .

كان هذا كله فى الحيوان ، فما بال الإنسان ؟ أفيجوز عليه من أمر التحصّن بهذا اللقاح ما جاز على الحيوان ؟ ثم ألا يكون الطريق الأحزم أن يجرّبوا هذا الطعم الجديد فى القِرَدة قبل أن يجربوه فى الإنسان ؟

نعم هذا ما يقضى به الحزم . ولكن « اسبنسر » لم يستطع صبراً . وغير هذا لم يكن عنده من القردة قردٌ واحد . وغير هذا ، فجوّ هذا الوادى ، وادى « بطروط » ، وشتاؤه جديران أن يقتلا القردة لو تيسّرت له . وإذن لم يبق إلا تجربةُ دم هذا القراد الوبىء ، بعد أن عُولج بالفينول ، فى الإنسان . ولكن من يضمن أنه آمنٌ مأمون ؟ ومع هذا فالرأى عند « اسبنسر » أن يجرّبه فى الإنسان كان ما كان .

ثم يعود الفكر يقلّب وجوه الرأى . إن الفينول الذى أضيف إلى دم القراد كان قليل المقدار ضعيف المفعول ، فهل قتل ما بالدم من وباء على الرغم من قلة مقداره وضعف مفعوله ؟ فى المرجحيج تدفع المرء أن يجيب بلا . وعدا هذا فالبحّاث الآخرون الذين بحثوا أمر هذه الحمّى ، وغيرهم من العلماء الذين درسوا التيفوس والشلل الطفلىّ وداء الكَلَب ، كلهم أجمعوا على أن مكروبَ المرض الذى يحقن فى الأجسام ليحصّنها من الداء ، يجب ألا يكون ميّتاً كل الموت ، يجب أن يكون حيّاً . وهذا الطعم الجديد — حساءُ هذا القراد والفينول — فدحصّن

الخنازير من الداء دون أن يقتلها . وما دام أنه يحصّن ، فالوباء لا بد ما زال حيًّا فيه . فكيف إذن يؤمَن وباءٌ حيٌّ أن يُحقَن في إنسان ؟ وما الضامن أن وباءً حيًّا حُقِن في خنزيرٍ فلم يضرّه ، يُحقَن من بعد ذلك في إنسان فلا يكون منه سوء ؟

لم يكن لهذا ضامن ، ولا لهذا السؤال من جواب ، إلا التجربة .

من أجل هذا اعتزم « اسبنسر » أن يجرّب .

وفي صبيحة اليوم التاسع عشر من مايو عام ١٩٢٤ ، قام اسبنسر يطوى كُمَّ قميصٍ ليكشف بها عن ذراع . فلمن كانت هذه الذراع ؟ أكانت ذراع عامل لا يؤبه به من عمّال المراعي ؟ أم كانت ذراع صاحبه « بركر » ؟ أم صاحبه « كاوان » ؟ أم عونٍ من أعوان المعمل ؟ لم تكن هذه ولا تلك ، ولكن كانت ذراع اسبنسر نفسه . ففي ذراعه هو رمى بحقنة فيها من الوباء ما لو توزّع على خمسة آلاف من الخنازير لارتمت على جوانبها . أمس كان بها هذا الوباء لو أن الفينول لم يُضَف إليها .

فإن يكن فيما صنع « اسبنسر » بطولةٌ فهو آخر من يعترف بها . فهذا الرجل الهادئ الساهم الحلاّم كان يستفزّه الغضب كلما سمع أحداً يقول : إن في الذي صنعه بطولةً أو شبه بطولة . قال اسبنسر : « كيف هذا ! إن الذي يحاول أن يجد خطراً في الذي صنعت ، إنما يحاول أن يجد البلاهة في عقلي ، والخطل في حكمي وتقديري » .

والحق أن الذي لا يضر خنزيراً غينيًّا صغيراً في حجم الكف لا يمكن أن يضر إنساناً كبيراً بالغاً . أو على الأقل هذا ما ارتآه « اسبنسر » وتأكد منه .

قال « اسبنسر » : « وعلى كل حال فقد كنت مروّعاً أخشى هذه الحمّى وهي تجرى من حوالينا في مرابيها من القراد والخنازير . فصار من الطبيعي أن أتمسّك بأي سبب تُرجَى به حمايتنا من هذا الداء اللعين » .

وعدا هذا ، فهناك إخوانه من رجال البيت الأحمر ، أولئك الذين تعاهدوا عهداً صامتاً على لقاء الموت إن كان لا بد من الموت في سبيل الواجب ، فهؤلاء ماذا كانوا يظنون به لو أنه جرّب هذا اللقاح الواقي في جلد غير جلد نفسه ؟

لقد سجّل التاريخ في هذا اليوم التاسع عشر من شهر مايو عام ١٩٢٤ ، سجّل حدثاً لم يسبق له مثيل في التاريخ الإنساني : سجّل لقاحاً يُصنَع من جثة حشرة ملؤها الموت ، ليحصّن إنساناً من الموت . وأحس « اسبنسر » بالصحة والعافية بعد تلقيح نفسه بهذا اللقاح . ومضى على هذا التلقيح أربعة أيام ، فعاد يلقّح نفسه بضِعف ما لقّحها به أولا . أي بمقدار يكفي ، لولا إضافة الفينول إليه ، لقتل عشرة آلاف خنزير غيني .

كان هذا الصيف الصيف الثاني بعد ذاك الصيف الحارّ الذي مات فيه « مانتجر » ، ولعلك تذكر كيف مات ، ولعلك تذكر كيف عاش عيشة المعمل من جديد وهو في خَرَق الموت ، وأخذ فيه يحلم الأحلام سابحاً سارحا في ذلك المستشفى فوق تلك الصيدلية الصغيرة في البلدة ، بلدة « هملتن » . كان قد مضى على هذا سنتان . وتدخلُ المعمل في هذا الصيف الثالث ، تدخل إلى تلك الحجرة التي خصّصوها لتربية القراد ، فتجدها مليئة بأقفاص جديدة في أثواب بيضاء ، تسكنها أرانب فيها الوباء مُرعِياً مزبداً ، وعلى جلودها آلاف القراد يرضع منها الدم والوباء معاً . ولم يستطيعوا ضبط القراد ، فانتشر حيثما شاء له أن ينتشر . انتشر تحت السجّاد وفي الشقوق ، وسرّح إلى مناضد المعمل ، وذهب إلى حيث يجوز ولا يجوز . انتشر في كل مكان .

ووجدوا القراد في ملابسهم في الإمساء عندما عادوا

إلى منازلهم . ولست أعلم كيف لم يصبهم الداء ، فلم تتبقع أرساغهم ولم تتوجع عظامهم ، وقد التمسوا انتهاساً في صناعة اللقاح ، وتقديره وتقنينه ، من قراد مملوء الوباء كاثراً متوثباً .

إن الرجل الوحيد الذي تحصَّن من بينهم باللقاح كان « اسبنسر » ، فلمَ لم يتلقح بسائرهم ؟ أكانوا في شكٍّ من تحصينه أو خوفٍ من إضراره ، فظنّوا أن « اسبنسر » إنما نجا في غفلة من غفلات الدهر وهفوة من هفوات الوباء ؟ لست أدرى جواب هذا ، وليس من يدرى ، فليس في السجلات ذكر لهذا .

ولكن في السجلات أن أحدهم ، « هنرى كاوان » ، صحا يوماً على ألم في الصميم من عظامه . نعم « كاوان » هذا الرجل الضخم ، صاحب الجدْى . ذاك الرجل الذي كان أشبه بالدب العظيم منه بالرجل . هذا الرجل الذي عبث بهذا الحيّ في موطنها بوادى « بطروط » سنوات كاملة . هذا الرجل الذي ضحك من الرجال كلما أحجموا عن النزول بذاك الوادى . هـذا الرجل الذي التقط القراد من فوق جسمه ألف مرة ، والتقطه ضاحكا . هذا الرجل يصحو على عظام وجيعة وعين أليمة ساخنة . لقد نسى « كاوان » العظيم الضخم ما صنع قبلُ « اسبنسر » بهذا الوباء في هذا القراد ، فصبَّره شراً ألف مرة من ذاك الذي تصنعه الطبيعة في القراد بحواطنه من تلك الجبال . لعله نسي هذا ، أو لعله غفل عنه ، أو لم يتشرّب به إعانه !

وحُمّ القضاء ، فنزل ثقيلا على عاتقْ هذا الرجل الضخم فهدّها ، وذهب من هذا العالم يطلب صحبة زميله « جاتنجر » ، وقد غاب عنه سنتين . فلندْعُ الله أن يرحم « كاوان » وصاحبه « جاتنجر » ، وأن يُسكنهما ، هما ومن سبقهما — مَكْيلِنْتِيك ومَكْرِى ، وذاك اليابانى مساعد المعمل الذى قضى بمعهد روكفلر — أن يسكنهم جميعاً في جنّته ، على السرور والغبطة ، في ذاك الجانب الذى اختص به سبحانه ذاكَ النفرَ من صُيّاد الميكروب الأُلى قد يكون الحظ خانهم ساعة فأغفلهم عما كان يجب عليهم أن يأخذوا به من حيطة .

وبالطبع لم يمت « كاوان » حتى هرعت تلك الأسرة جميعها إلى لقاح « اسبنسر » فلاذوا به جلودهم .

لعلهم ظنّوا الأمنَ أوّلا فيما صنع « اسبنسر » ، فأحجموا عن لقاحه ، ولكن جاءت هذه الوفاة فغيرت رأيهم في صاحبهم . فلعل صاحبهم لم يكن بعدُ مأفوناً .

يتبع

أحمد زكى

إدارة البلديات — كهرباء

تقبل العطاءات بمجلس الجيزة المحلى لغاية ظهر يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٣ عن مزايدة بيع سيارتى رش وابور المطافى بحارى وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس نظير ١٠٠ مليم ١٤٥١

وزارة الدفاع الوطنى

تقبل عطاءات لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٣ عن توريد الذرة الرفيعة المربجة اللازمة لوزارة الدفاع الوطنى والشروط بإدارة المشتريات والعقود وثمن النسخة ستون مليما ١٤٩٢

من أحاديث العبيط :

قصـــة العبيط

مع مارى والأطفال

— ١ —

لقد قص دبستويفسكى الكاتب الروسى الشهير أحداثاً كثيرة وقعت لأمير روسى هو موتشكين Muichkine الذى وصفه الكاتب لأمر سنراه فيما بعد بالعبط ، وأودع تلك الأحداث رواية تقع فيما يقرب من ألف صفحة بعنوان « العبيط »[(١)] .

ونحن لا نريد اليوم أن ننزلق إلى مناقشات فلسفية حول العبط ، فمن الناس من يدعى الحكمة ، وما أكثر الدعاوى ، فيرى فى تصرفات هذا الرجل لا عبطاً فحسب ، بل واختلالا فى الإدراك ؛ ومنهم من لم يزل يسلط عقله على عقله يتبين حدوده ويناقش مقدرته على الجزم عن يقين حتى أصبح يرى فى ضوئه ذاته شبئاً من الاضطراب يكاد يحيله ضوءاً كاذباً ، إن لم يكن ظلمة ، ولهذا يحذر أن يصف غيره بالعبط ، فلربما كان هو العبيط .

الأمير موتشكين فى السابعة والعشرين من عمره الآن ، فهو إذن رجل بحكم سنه ، ولكنه مع ذلك يستريح إلى مباشرة الأطفال ، ويضيق بالأشخاص الكبار ، لأنه إذا وُجِدَ معهم لا يدرى ماذا يقول لهم . وهذا أمر غريب يدعونا إلى أن نرى فى الرجل شذوذاً ؛ ونبحث فى نشأته محاولين الكشف عن ذلك الشذوذ فلا نهتدى إلى شىء كثير ؛ فالرجل قد مات أبوه وهو فى سن مبكرة ، فتعهده صديق خيّر من أصدقاء والده .

وكل ما لاح عليه من أمارات غير عادية لا يعدو مرض التشنج العصبى . ونحن لا نستطيع أن نقرر أن هذا المرض يؤدى إلى العبط ، فقد كان دبستويفسكى نفسه مريضاً به ، ولقد مرض به أيضاً فلوبير الكاتب الفرنسى الكبير ، كما مرض به غيرهما ممن لا يجرؤ أحد من عقلائنا أن يصفهم بالعبط .

وفى الحق أننا لا نرى داعياً للبحث عن تعليل حكم لم نتن بعد من صحته ، فموتشكين لم يكن عبيطاً ، بل ربما كان فى وصفه بهذه الصفة أكبر سخرية استطاعها دبستويفسكى من عقلية البشر . يخيل إلينا أن هذا الكاتب العبقرى لم يكن يظن أن العبط بأميره ، بل بنا نحن . وها هى قصة هذا العبيط مع مارى والأطفال توضح سوء ظن المؤلف بالملايين الذين قرأوا روايته . ستقرؤها فلا تملك إلا أن تدهش لقدرة هذا العبيط على فهم جوانب الضعف فى النفس البشرية ، وإذا بك تثور على ما فى طبائع الناس من شر أصيل ، وقد أخذت بنبل الرجل ونفاذ حسه .

من المعلوم أنه عندما اشتد بموتشكين المرض أرسله القائم على تربيته إلى طبيب بسويسرا ليعالجه بمصحته ، ولقد وجد المريض فى جو سويسرا مساعداً على الشفاء ، فأقام هناك أربع سنوات ، دفع مربيه فى السنتين الأوليين أجر علاجه وإقامته ؛ ثم مات هذا المحسن الكبير ، فلم يبق للأمير معيل ، ومع ذلك فقد أمسكه الطبيب الكريم سنتين أخريين ، ولكن العبيط ضاق بالإقامة وقد انقطع عنه كل مدد من روسيا ، فقرر العودة إلى بترسبورج ليلتمس له عملا يعيش به . وتذكر عبيطنا أن أسرته العريقة قد بقيت منها أميرة هى الآن زوجة لجنرال بالجيش ، فقرر أن ينزل بدارها ليتعرف إليها وإلى زوجها ، ثم ينظر ماذا هو فاعل .

(١) L' Idiot de Dostoïevsky : 2 vol. traduit par Victor Dérely. Plon. Paris.

نُزل العبيط عند الجنرال إبنتشين Epanchine ، واستطاع أن يحمل مضيفه على أن يقدمه إلى الأميرة . وغادر الجنرال المنزل لأمر يشغله ، فلم يتناول وجبة الغداء مع أسرته ، فظل الضيف مع الأميرة وبناتها الثلاث ، وتناولوا الغداء سويا ، ثم جلسوا للحديث ؛ وأبى حب الاستطلاع الأصيل في النساء إلا أن يسوق الضيف إلى قصص حياته في الخارج ، وأربعتهن يحسبن به العبط ، إذ كان الجنرال قد بصّرهن بهذه الحقيقة قبل أن يغادر المنزل ، وإن يكن حديث الضيف لم يلبث أن زعزع عند بعضهن هذا اليقين ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان من بينهن من تتمتع بملكة الحكم الشخصي .

قصة العبيط مع ماري والأطفال كانت من بين ما قص بطلنا في ذلك اليوم ، فقد وقعت له أحداثها بالقرية السويسرية حيث كانت المصحة التي أقام بها .

قال : « في أول الأمر لم يكن الأطفال يحبونني . لقد رأوني كبيراً وقد كنت دائماً قبيل (الملاحة) ، ثم إني أعلم أني دميم ، وأخيراً فإني بيني وبينهم أني كنت أجنبياً في قريتهم . لقد كانوا في البدء يتضاحكون مني ، بل أخذوا يرمونني بالحجارة عندما فاجأوني أقبّل ماري ، إني لم أقبلها غير مرة واحدة ... لا ، لا تضحكن ، فإن الحب لم يكن له دخل في الموضوع . ولو أنكن رأيتن هذه المخلوقة البائسة لأمسكن لأخذتكن بها الشفقة كما أخذتني . كانت فتاة من القرية تسكن مع أمها كوخاً صغيراً تضيئه نافذتان ، وكانت الأم العجوز تبيع أربطة الأحذية والخيط والتبغ والصابون ، وبإذن من السلطات كانت تعرض بضاعتها على لوح من الخشب مثبت أمام إحدى النافذتين . وكانت هذه التجارة تأتيها بقليل من النقود الصغيرة تعيش بها ؛ وكانت مريضة متورمة الأرجل ، مما اضطرها إلى أن تظل جالسة ؛ وكانت ماري في العشرين من عمرها ، نحيفة ضعيفة البنية ، وإنه وإن لم يكن مرض السل قد ظهر عندها ، إلا أنها بالرغم من ذلك كانت تعمل باليومية في المنازل ، حيث تقوم بالأعمال الخشنة : فتمسح البلاط ، وتغسل الملابس ، وتكنس الأحواش ، وتقدم للحيوانات علفها ... وفي أحد الأيام أغواها قومسيونجي فرنسي وأخذها معه ، ولكنه بعد أسبوع واحد تركها حيث انتهى به السير ثم ولى ؛ فوجدت نفسها وحيدة بعرض الطريق ، فعادت إلى قريتها وهي تستجدي طول رحلتها ، ووصلت قذرة مهلهلة الأسمال ، ممزقة الحذاء تمزيقاً تاما . لقد سارت ثمانية أيام ؛ تنام في العراء ، وتقاسي لذعة البرد ؛ لقد دميت قدماها ، وتغطت يداها بالقشف والشقوق ، وهي حتى قبل ذلك لم تكن جميلة ، لم يكن لها غير عينين وديعتين تملؤهما الطيبة والبراءة . لقد كان صمتها خارقاً ، فقد اتفق مرة — قبل أن تحدث لها تلك الحادثة — أن أخذت تغني فجأة ، وهي تعمل ، فأحدث هذا الغناء فيما أذكر دهشة عامة ، « لقد غنت ماري ... آه ... ماري تغني ! » ، هكذا قال الناس وهم يضحكون ، وخجلت ماري منذ ذلك الحين ، فانطوت في صمت عنيد . وكانوا يعاملونها عندئذ بشيء من العطف ، ولكنها عندما مرضت وأخذت أطرافها تدمى لم يظهر لها أحد أقل شفقة . ما أغلظ الناس في مثل هذه الحالة ! بأي قسوة يحكمون على هذه الأشياء ؟! وكان أولهم في ذلك الأم العجوز ، فقد تلقت بنتها في غضب واحتقار : « الآن قد لوثت شرفي » ، هذا ما قالت ؛ ثم كانت أسبق الجميع في تعريض ابنتها لسباب الجمهور . وعندما علموا في القرية بعودة ماري أسرعوا جميعاً شيوخاً وأطفالا ونساء وفتيات ليروها . لقد غزا السكان جميعاً كوخ العجوز ، وهناك كانت ترقد ماري على الأرض عند قدمي أمها باكية وهي تموت جوعاً ولا تغطيها غير الأسمال ، وبينما يتقاطر الزائرون كانت تحاول أن تختفي من أبصارهم بأن تتخذ من شعرها المنتشر نقاباً يغطي وجهها ، ثم تطأطئ

رأسها إلى الأرض . لقد التف الجمهور حولها في دائرة وأخذوا ينظرون إليها كثيرة ؛ فالشيوخ يمقتونها مقتاً لا هوادة فيه ، والشبان يكثرون لها من أسبابهم ، والنساء يكلن لها السباب ، وقد أظهرن من الاشمئزاز مثل ما يظهرن عندما يرين عنكبوتاً ، والأم جالسة في حجرتها تشجعهم بالصوت والإشارة ، بدلا من أن ترد عن ابنتها شيئاً من عدوانهم . ولقد كانت في ذلك الحين شديدة المرض ، في حالة احتضار تقريباً . وفي الواقع لقد ماتت بعد ذلك بشهرين ، ومع ذلك فإنها رغم إحساسها بقرب أجلها قد رفضت إلى آخر لحظة أن تتصافى مع ابنتها . إنها لم تخاطبها قط بكلمة واحدة ، وكانت ترسلها إلى الدهليز لتنام به ، بل تركتها بغير غذاء تقريباً ؛ ولقد كانت مضطرة إلى أن تضع مراراً قدميها المريضتين في الماء الساخن ، فكانت مارى تغسلهما لها ، وتقدم إليها كل أنواع الرعاية ، فتقبلها العجوز دون أن تقابلها بأية عبارة رقيقة . ولقد كانت الفتاة تتحمل كل ذلك في استسلام .

وعندما تعرفت إليها فيما بعد ، لاحظت أنها نفسها كانت تبرر كل ما ينزل بها من إهانات ، إذ كانت تعتبر نفسها أحط كائنات الأرض . ولم تعد العجوز تتناول غير اللبن ، فأخذ نساء القرية يفدن إليها ليتناوبن رعايتها وفقاً للعادات المرعية بالريف . وعندئذ أمسكوا إطلاقاً عن إطعام مارى ، فكان كل الريفيين ينحونها عن مداخل منازلهم ، بل إن أحداً منهم لم يقبل أن يعهد إليها بعمل ما كما كانوا يفعلون من قبل . لقد كان كل واحد منهم يلقاها ببصقة تقريباً ، فالرجال لم يعودوا ينظرون إليها كامرأة ، وكانوا يوجهون إليها أقذع الألفاظ ، وأحياناً ، وفي النادر الذي لا يذكر ، كانوا إذا أخذهم الخمار يوم الأحد يرمون إليها بقليل من النقود سخرية منها ، وكانت مارى تجمعها في صمت . ثم أخذت منذ ذلك الحين تبصق الدم ، وانتهت أسمالها بأن أصبحت من القذارة بحيث لم تعد تجرؤ أن تظهر بالقرية . ومنذ عودتها كانت تسير عارية القدمين ، وكان أطفال المدرسة ، وهم أكثر من أربعين ، يحلو لهم بنوع خاص أن يؤذوها ويرموها بالطين . وطلبت إلى أحد الفلاحين أن يسمح لها بحراسة البقر ولكنه رفض ، فألحقت هي نفسها بهذا العمل ، فكانت تصحب المواشي عند خروجها من الحظيرة ولا تتركها طول النهار . ورأى الفلاح أنها تؤدى إليه خدمات عديدة فلم يطردها ، بل كان يعطيها أحياناً بعضاً من فضلات غدائه : قليلا من الخبز والجبن . ولقد رأى في عمله هذا طيبة كبيرة منه . وعندما ماتت الأم لم يخجل القسيس أن يلعن مارى على مسمع من الجميع في وسط الكنيسة ، وأما هي فقد كانت بأسمالها القذرة راكعة إلى جوار التابوت وهي تبكي ؛ وكان حب الاستطلاع قد أتى بكثير من الناس إلى الجنازة ؛ كانوا يريدون أن يروا كيف تبكي الفتاة ، وكيف تسير خلف التابوت . وكان القسيس — الذي لا يزال شاباً — لا يطمح إلا إلى أن يكون واعظاً كبيراً ، فاتجه إلى الجمهور ، وأشار إلى مارى ثم قال : « هاهي تلك التي سببت موت هذه السيدة الجليلة » ، (هذا غير صحيح ، فقد كانت العجوز مريضة منذ سنتين) ، « ها هي أمامكم وهي لا تجسر أن ترفع عينيها ، لأنها قد وسمت بأصبع الله ... ها هي عارية القدمين مغطاة بالأسمال مثلا يتعظ به كل أولئك اللائي قد يغريهن سوء السلوك ... ومن هي ؟ ... إنها ابنتها ... الخ » .

ولنتصور أن هذا الجبن قد سر جميع الحاضرين ؛ ولكن ... حدث عندئذ حدث . فقد أخذ الأطفال جانب البائسة ، وذلك لأنهم عندئذ كانوا قد انضموا إلى وابتدأوا يحبون مارى ؛ وهاهو تفصيل ما حدث .

(البقية في العدد الآتي) محمد مندور

العيب الذى فينا :

— ٣ —

أوينا إلى منتدانا هذا المساء مبكرين ، وكان صاحبنا «س» آخر من حضر ، وكان خليقاً بنا أن نتجنب إثارته ، لولا أن أحدنا تسرّع فقال مجاملا :

— خيراً إن شاء الله . لقد رقبناك طويلا !

وردّ صاحبنا قائلا — الحق يا إخوانى أنى لستُ بالجليس المسامر هذا المساء ، ولقد كان خيراً لكم ألاّ ألقاكم .

وأخفينا ، كأننا على اتفاق ، ابتسامة أوشكتْ أن تقفز إلى شفاهنا ، فما كان صاحبنا يوماً بالجليس المسامر ، وما عهدناه إلا كاليوم ، إنساناً ثائراً حانقاً على الدنيا وعلى الناس وعلى نفسه .

وأسرع فاستأنف حديثه قائلا :

— تصوّروا أنى كنتُ وشيك الذهاب إلى ما لا أحمد عقباه ، ولولا بقية من صبر وأناة تذرعتُ بها ، واحتملتُ ما احتملت لكنت الآن ، ألاقى ما يلاقيه أى آثم فى حق النظام والقانون .

وقلنا فى صوت واحد — والسبب ؟

وقال مسرعا :

— السبب أنى حاولتُ أن أكون حريصاً على روح النظام والقانون . أحببتُ أن يفهم بعض الناس القانون والنظام كما وضعهما الدولة ، ولكن التوفيق أخطأنى .

قلنا — لعله شططك المعتاد ؟

قال — إليكم ما حدث . أعلن فى الصحف أن الدولة قد وضعت نظاماً تكفل به حماية الناس من جشع التجار وراعت فيه إقبال الشتاء ، فحددت أسعار الأقمشة ، وحددت يوماً لهذا التحديد ، وقالت للناس منذ يوم كذا ، وهو اليوم ، ستشترون ملابسكم بأسعار تعرفها الدولة وتعترف بها ...

لذلك استخرتُ الله واختبرتُ جيبى ، فوجدتُ فيه ما أشترى به (بدلة) أظهر بها على برد الشتاء ، وأستريح من لون (بدلتى) الكالحة التى كدتُ أنساه ، وعزمتُ على أن أيمم وجهى شطر متجر معروف . وما كاد يصبح الصباح حتى كنتُ بين مئات يرقبون افتتاح هذا المتجر .

وفتح الباب وتزاحمت الجموع وكدتُ أختنق فاحتملت فى سبيل النتيجة ، ووجدتُ نفسى آخر الأمر داخل المتجر وقد تهافتت الناس تمابن وتنتقى ؛ ورأيتُ فيمن رأيت ضابطاً قد تكاثرت على كتفيه أمارات الرقى والنفوذ تلمع فى وضح النهار ، وأخذت أقلب وجهى لأجد منفذاً ، فإذا بالمحل يزدحم ، وإذا بالحالة تتحرج ويزيد الناس على طاقة الفضاء ، فيعمل البوليس عملا فى تخفيف الضغط ، وإذا بهذا العمل يكون إفراغ شىء مما فى بطن المحل ، وإذا بى أجد نفسى خارجا قبل أن أحمل شيئاً غير أن أرى تهافت الناس وهذا الضابط المعظم ...

ويكافح الناس مرة أخرى ، وأجدُ نفسى داخل المحل ، وأرى نفس المنظر : تهافت الناس وهذا الضابط المعظم . فأشغل نفسى حتى يخف الضغط بتأمل ما حولى ، فإذا بهذا الضابط يشير إلى الثوب من القماش ، فلا يلبث حتى يكون أمامه ، ولا تمضى برهة حتى يكون البائع قد اقتطع منه بضعة أمتار ، ثم يشير إلى ثوب آخر ، فلا يلبث حتى يكون أمامه ، ولا تمضى برهة أخرى حتى يكون البائع قد اقتطع منه أمتاراً . حدث ذلك ثلاث مرات ، ثم وجدتُ نفسى مرة أخرى خارج المحل بين الجموع ... تخفيفاً للزحام ...

وثالث مرة وجدت نفسى داخل المحل ، وثالث مرة رأيت نفس المنظر ، وكان عدد القطع التى اقتطعها الضابط قد بلغ قامته ، فقلت فى نفسى : لعل أخانا قد اكتفى ، فوقفت وراءه مترقباً انصرافه ، لكن الأمر لم ينته ، وزاد عدد القطع على عشرة ، فضاق صدرى ، وخشيت دفعة

أخرى أصبح بها خارج المحل للمرة الثالثة ، وعجبت لأمر هذا الضابط ، وليست به من حاجة لهذه الأقمشة الملونة ، فكيف يطيق هذا العدد من الألوان ، فتشجعت وتنحنحت ، ثم تشجعت ثانية فنطقت ، وقلت في أدب :

— لعل سيدي قد انتهى .

ونظر إليّ سيدى هذا في تعجب وقال في استنكار :

— نعم ؟؟

وأثارني استنكاره فقلت :

— أقول لعل سيدى قد انتهى من عملية التخزين ؟

وناديت البائع في شجاعة قائلا :

— لقد اشترى حضرته ما يشاء فهات لى هذا الثوب .

ولكن البائع — غفر الله له — نظر إليّ في استنكار وقال في برود :

— حضرتك مش شايف أنى مشغول مع البيه ؟

وكدتُ انتهر البائع ، لولا أن أضاف الضابط في تحرش ظاهر :

— يظهر أن حضرتك ما تفهمش في الذوق والأدب .

وخرج من يدى زمام الأمر ، وزمام لساني ، ورأيت نفسي خارج المحل . وتقدم أناس إلى الضابط يستعطفون ويلتمسون لى المعذرة ، في حين ظللت سا كتاً لا أتكلم ، ولعله قد أجاب داعيهم أو داعياً آخر ، فقبل رجاءهم ونظر إلى الشرطى وصاح في مروءة ظاهرة :

— أخل سبيله ، فلعل له من يعولهم ، ولعل هذا الدرس ينفعه !!

أما أنا فمضيتُ في طريق لا أدرى ماذا أفعل ؟ أأستأنف السير إلى حيث كنت أقاد لأشكو هذا الضابط ؟ أم أعود فأدفع نفسي دفعاً للمرة الرابعة إلى داخل المحل لأنال الثوب الذى تحملت هذا العناء في سبيله ، ثم انتهيت أخيراً إلى غير الرأيين ، فسرتُ إلى متجر آخر وكنت في هذه المرة أسعد حالاً ، فلم أجد زحاماً يدفعني إلى الخارج ، بل وجدتُ بائعاً سمح الوجه يتلقاني ببشر وأدب .

قلت : أرنى ما عندك .

قال : إن ما عندى لن يسرك .

ودفع إليّ بعدة أثواب قبيحة الألوان فقلت : أليس عندكم غير هذا ؟

فأجاب متنهداً :

— كان عندنا الكثير الرائع ، لكن ما العمل في نهم الناس وجشعهم ، لقد التهموا كل ما لدينا من قماش جيد كأنما يأخذون زادهم الأخير ، وذكرت حادث الضابط فرددتُ دون قصد :

— ولمَ تسميه جشعاً ؟ إنهم محتاجون لما يستر أجسادهم وتلك فرصة لن تعوَّض .

لكنه ردّ متأسفاً : ليت الأمر كذلك ! لكنه الجشع ، والإسراف في الاحتياط وليست الحاجة ، إنهم يتسابقون في الاحتشاد للظروف فهم يشترون ويشترون خشية الغد ، ولا يدرون أنهم بعملهم هذا يقربون هذا الغد المخيف ، ويحرمون غيرهم ممن يحتاجون حقاً إلى ثوب يواجهون به الشتاء ..

ولم تعجبني نظرة البائع إلى ثوبي وهو ينطق بجملته الأخيرة ، لكنني مع ذلك تبسطت معه في الحديث ، وخرجتُ دون أن أشترى شيئاً . وانتصف اليوم فعدت إلى منزلى ؛ وحين خرجتُ بعد الظهر وجدتُ أغلب المتاجر قد أغلقت أبوابها لتتجنب ازدحام الناس مما يعرض السلع للتلف ، وهكذا أتيتُ آخر النهار وأنا ألعن نفسي ، لأنها تفاءلتْ فظنتْ خيراً وسعتْ بى إلى ما رأيتم من متاعب .

وسكت صاحبنا قليلا فقال أحدنا :

— وعلى مَنْ اللوم في القصة التى سردتها ؟

وقال صاحبنا :

— على مَنْ ؟ طبعاً علينا نحن ، علينا كشعب لا تدعو إليه الظروف قدر ما يسعى هو إلى حتفه . أظن أننى أرتاب في فائدة ما اتخذت الدولة من إجراء للحد من الغلاء ؟ إننى إنما ألوم أمثال هذا الضابط ، وأمثال هذا البائع ، فالأول

بس ، فهم نفوذه ، والثاني بس ، فهم ما رمت إليه الدولة ، ففي حين خلعت على هذا الضابط رداءه ومنحته نفوذه ، إنما فعلت ذلك لتيسر له سبيل واجبه في حفظ النظام ورعاية القانون ، وحين فرضت على الأفراد طاعة أمثاله واحترام أوامرهم ؛ إنما عنت أن يستقيم الأمر ، فغاية الآمر وواجب المأمور هو النظام العام ، وإذا خرج الآمر عما هيئ له ، فقد خرج من منطقة نفوذه ، وسقط حق طاعته ، وإن أسرف فقد سقط واجب احترامه ، وهذا البائع كان يكون أحرص على النظام والقانون لو أنه ردّ هذا الضابط إلى صوابه وألزمه حدوده . فهذا عيب فينا يكلفنا الكثير من العناء ، واللوم على البائع والضابط لن يخفف اللوم الواقع على هؤلاء الذين يسرفون في الخوف والحرص ، فيزيدون الأزمات تعقيداً ، أو يخلقون من ظل الأزمات أزمات ، ويمهدون لما يخافون منه بإسرافهم في الحرص على تجنبه .

أرأيتم من بس ، استعمال ما قصد به الخير إساءة هؤلاء السادة ؟ بل أرأيتم شيئاً يدعو إلى الضيق كهذا الذي رأيته اليوم ؟ وبعد ذلك فأنتم تلوموني وتزعمون أني أسخط في غير ما داع للسخط ، وأثور بغير سبب ؟ .

وتدرج صاحبنا في ثورته فوقفنا بالحديث لإراحة لأعصابه وأعصابنا .

صبرح زهني



ثمن الخلـــــود

أين سوق الخلود ؟ ومَن ذا الذي يدلني عليه ؟ ترى أيكون هنالك على سواقي الزماخ عند تخوم العدم ، أم يقوم على ساق وقدم في زحمة الأشباح عذبة الأوهام ؟ ومن هو تاجر الخلود وبائعه وشاريه ؟ هل له سمسار ، هل له أسعار ؟ هل هو بدينار أو ألف دينار ؟

مَن هذا النادي تحت جنح الليل وكأنه يسوم النجوم مالاً ويسلبها جمالاً ؟ ليس الخلود بضاعة تشترى بذهب ولا متاعاً يباع بفضة ، ولو كان ذلك من شأنه لأحرزه الأغنياء، وذاق حرمانه الفقراء ، لكنه نبوغ يوهب ، ومال ينبذ ، وحياة تبذل ، وإيمان لا يتزعزع ، أو هو كما قال شوقي :

وليس الخلد مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى همم كبار إذا ذهبت مصادرها بقينا

ولقد سألت نفسي ما ثمن الخلود وأنا أرنو إلى السيدة كورى في خاتمة عمرها فأراها متغضنة الجبين شائبة الشعر ، شاحبة اللون ، مسجاة على السرير وحولها بناتها تبكيانها في ساعتها الأخيرة ، وصورة زوجها بيير علامة الطبيعة معلقة على الجدار فوق رأسها — فأجابني صوت من الأعماق يقول :

— ثمن الخلود عبقرية امرأة اغتربت ولبت نداء العلم في باريس ، وقد أذابت في رطوبة حجرة سكنتها شمعة صباها ، ووصلت آناء الليل بأطراف النهار وهي تقلب يديها في المواقد ، وتنصب السوائل وتنشق سموم الدخان جاحظة العينين على الأنابيب ، قابضة بالأصابع على القوارير ؛ فإذا حان طعام أو وجب شراب نالت منهما خبيساً ، وإن أخذ الكرى بمعاقد جفونها راحت إلى بيتها فأكملت ما به بدأت ، وشاركها في ضنك العيش زوج كان بها براً رحيماً ، وعليها حادباً حنوناً . ولما رضي الدهر بأن يبيعهما الخلود فتح كفيه ليأخذ الثمن فدفعاه له أغلى من الذهب وأسمى من الفضة وأنقى من الماس وأشرف من كل الجواهر ، لقد أعطياه معدن الراديوم فوهب لهما الخلود .

فكرت بهذا وقد أخذتني هزة الزهو والإعجاب بالسيدة كورى ، فاهتزت نفسي لهذه الآية النسائية الفريدة ، والحجة الدامغة على الرجال بنبوغ المرأة في علوم الطبيعة ومواهب الاختراع ؛ ولم أكد أتأمل في هذا الخلود العلمي الذي تركت دونه في الذهب أعظم امرأة عرفها تاريخ العلوم إلى اليوم حتى تجهم خاطرى ، إذ تمثل لي زوج مارى الأستاذ كورى وهو في دربه من دار العلم إلى بيته ، فإذا بعربة هاجة بخيلها تصدم جبينه وتحطم رأسه ، ومن يدرى لعله كان سادراً ذاهلاً ، وكان في ذهوله يفكر في إشعاع من إشعاعات المعدن الأعظم الذي اكتشفه وزوجه ، فكان مصرعه ضحية علمه وقد بذل غالياً ثمن خلوده .

ومددت عيني إلى صحائفنا وأيامنا الغر المحجلة فانطلق الفكر بي إلى ليال سحيقة في دهر العرب ، رأيت ظلماتها تلف ألوفاً من العلماء والفلاسفة والشعراء والكاتبين ، أعينهم جواحظ على مجالى إلهامهم وتفكيرهم ، وأقلامهم مكبة على القراطيس ، وقد شغلهم العلم والفكر عن نعيم الحياة وزخرفها ، فخلقوا لأنفسهم مجداً لا يقاس به مجد ، وشرفاً لا يطاوله شرف ؛ فهذا أبو حيان التوحيدي يبذل عمره بالوراقة والتأليف ، ويموت مضطهداً فقيراً ؛ وذاك أبو إسحاق النظام يجوع حتى يأكل الطين وينحدر نحو الأهواز لعله يصيب طعاماً ؛ ويقنع الشافعي الأبي من زمانه بالقوت ، فيكيد له الخراصون والخصوم ، ويريدونه على الناس جدوام أو يحمل قوته وحل الطريق فيموت ولا رضى منهم بالقوت ؛ ويقيم الفراهيدي مبتدع العروض في خص من خصاص البصرة لا يملك فلسين ، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال وهو زاهد فيما يرغبون ؛ ويطلب النبي الرزق له ولجدته فيترك الكوفة متقلباً في البلاد

يمدح الملوك والوزراء ويكسب بالشعر عداوة الناس ، ويسأله القوم ما أنت وما تبتغي ؟ فيقول : ما أبتغي جل أن يسمى ! وتتقاذفه المفاوز والرحلات من غربة إلى غربة ، حتى يصرعه القدر فيكون ثمن خلوده غالياً .

ويموت مئات من الأطباء ، وهم يستقصون الأدواء ويكشفون الجراثيم ، ويطوون أعمارهم في المران والتجريب بين أسرة المرضى ومضاجع الجرحى ليخففوا مواجع الإنسان ، فيشترى الخلود بأغلى الأثمان كبيرهم باستور . وتطوف بالخيال أفواج المخترعين والمكتشفين ترف عليهم رايات المجد والخلود ، مكتوباً عليها هذه الأثمان : ضيعة شباب ، ورضا بالحرمان ، وكدح وسهر ، وتشويه وجروح ، ودأب على الإتقان والإحسان .

وتزحم خيالى قوافل البيد وكتائب البطولة والنضال ، فأرى خالد بن الوليد وأبا عبيدة وطلحة وصحبه العشرة الذين جاهدوا في الله حق جهاده ؛ وأرى صلاح الدين يحوم بجواده حول أسوار بيت المقدس ؛ وسيف الدولة يجوس خلال الوقيعة في ديار الروم ، فأجد ثمن الخلود صبيب دماء وأرواحاً للفداء بذلها الشهداء في سبيل الله ، ذاكرة عند اسمه الأسمى أولئك الأحرار المتهجدين ، الزاهدين في حطام الدنيا ومتاعها ، فأتبين في طليعتهم الصديق أبا بكر والفاروق عمر بن الخطاب وسميه ابن عبد العزيز الخليفة الأموى ، وغيرهم من الصالحين المصلحين ، الذين أصاخوا لصوت الحق ، فحصهم الله ليقوموا بين الناس بعدله . وترن في سمعي صرخات حداد تصل من على أعواد النار ، فأرى وراءها علياً المثل الأعلى يستفز قومه ويحضهم على الكفاح والبلاء ، والخوارج يمكرون به ويتذامرون ؛ وأتمثل الحجاج على منبر الكوفة في عينيه شرر كاللهب ، وعلى لسانه وعيد كحد السيف ، وجبروته محيط بأهل الزلل والعصيان . ثم أرتد بالفكر إلى عصرنا هذا فأرى بأمسه القريب والبعيد الشيخ محمداً عبده ، وقاسم أمين ، وولى الدين ، والزهاوى ، والكواكبي ، وأديب إسحاق ، وهؤلاء سواهم ذاق بعضهم مرارة الاضطهاد والتشريد ؛ واتهم

البعض الآخر بعقيدته ونزعته ، فلا أعجب من ترادف النكبات والهموم على هؤلاء ، وأندادهم قديماً وحديثاً ، لأن من اجتبتهم المواهب والحوادث لبعث النهضات وإيقاظ الرقود وتحرير الأفكار لا بد أن تحف بهم المكاره والمحن ، ويستهدفوا للأقاويل . فإذا جاء أجل هؤلاء المختارين الأخيار تحسرت ما ثرهم وما ورثهم في الأجيال ، وبقى نورهم يسعى بين أيدى الشعوب ، فيا للمواهب المنكوبة التي وهبت وما سلبت ، وهدت وما افتدت ! ويا للقرائح والبطولات ما اشترى أصحابها وما باعوا في سوق المجد والخلود ! ولكن هل كانوا مغبونين ؟ ولعمرى إن في البيع لغبناً ، وإن في الأموال ربحاً أو خسارة ، ولكن ها هنا تلق التجارة سلاحها ، وتتم أرباحها في غير نقصان ولا خسران ؛ وقد يعترى الكساد أو الفساد كل تجارة إلا تجارة الخلود ، فمن نزل سوقها وأوفى نصيباً منها فجاهد وغامر وجاهد وكابد بلغ الشأو واستولى على الأمد .

فيا أيها الذين حسبتم المجد والخلود لقمة رخيصة ، وجرعة سائغة ، رويدكم فيه حتى يبلغكم عن أصله وهوله الخبر ، ويروى لكم عنه السير والعبر ... إن على بابه المرصود قد نقش الدهر بيتين من شعر المتنبي وهما :

فلا تحسبن المجد زقاً وقينة
فما المجد إلا السيف والطعنة البكر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما
تداول سمع المرء أنمله العشر

ولهذا الباب حلقتان كتب على الأولى : «ولا بد دون الشهد من إبر النحل» ، وعلى الثانية : «لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا» . أرأيتم أن الخلود عزيز المنال صعب المرتقى ، وأنه لا يلتمس بمال ولا يكتسب بالزلفى والمحال ، لأنه إبداع من الله يختص به من يشاء ، فيه نفحات من وحى الأنبياء ووحى الحكماء ، وعزم الأبطال ، وثورة الأحرار ، وهو لا يعرف قيوداً ولا حدوداً ، لأن مجهود الخالدين وحصيد عبقرياتهم وقف مشاع على الإنسانية جمعاء .

لقد وعى التاريخ في غابر الدهر ذكرى الخالدين الذين

دراسات أيوبية :

ابن عنـــــين

٥٤٩ — ٦٣٠ هـ

الشاعر الوحيد الذى هجا البطل صلاح الدين

قرأت فى العدد ٢١١ من الثقافة المقال القيم الذى كتبه أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة عن « ديوان الزهاد » ، ولفتت نظرى إشارة الأستاذ — فى إحدى حواشى هـذا المقال — إلى بعض المراجع التى بها لمحات مختصرة « بصدد هذا الشاعر المجهول » ويقصد به شرف الدين (لا شمس الدين) محمد بن عنين .

واسترعتنى هذه الإشارة السريعة من لجة كراسات التحضير ، وكراسات التلاميذ ، ومشاكل القرن التاسع عشر ، وقضايا المنطق ، لتردنى إلى بعض الأضابير التى حملتها معى من مصر إلى قنا .

وماذا فى هذه الأضابير ؟ ! إنها لفتات وجهتنى إليها قراءاتى الطويلة عن مصر بنى أيوب فى مراجع مخطوطة وأخرى مطبوعة ؛ وكنت أعد هـذه اللفتات وأنا فى القاهرة لأخرج منها — فى أوقات فراغى — بعض أبحاث عن كثير من شخصيات العصر الأيوبى البارزة .

لفتة من هذه اللفتات تشير إلى ابن عنين هـذا ، وكنت قد كتبت إلى جانبه : « هو الشاعر الوحيد الذى هجا البطل صلاح الدين » ؛ ولكن هذه الإشـارات لا تسجل كل النصوص التى قرأتها عن ابن عنين ، وإنما هى تشير — فى كثير — إلى أرقام الصفحات وأسماء المراجع التى كتبت عنه ؛ وأنى لى بهذه المراجع هنا فى هذا المنفى فى أقصى الصعيد .

ومع هـذا أجد فى نفسى رغبة ملحة تدفعنى إلى الكتابة عن هذا الرجل ، لحياته المحوطة من الأعاجيب ، فهو رحال طوّف شمالا وجنوباً وشرقاً ؛ أصله من دمشق ، وجاب بلاد الشرق فزار العراق والجزيرة وخراسـان وأذربيجان وخوارزم ، حتى إنه ليقول :

أشقق قلب الشرق حتى كأننى
أفتش فى سودائه عن سنا الفجر

وارتحل إلى مصر ، ومنها إلى اليمن ثم الهند ، وعاد من الهند إلى مصر ، وترك مصر إلى وطنه .

كان شـاعراً مجيداً قال فى الخمر والغزل والوصف والدعابة والفخر ، ومدح كثيراً ولـكنه كان مولعاً بالهجاء وبه اشتهر ؛ واشتغل بالتجارة ، ثم اتصل فى آخر حياته بالمعظم عيسى بن العادل أبى بكر فى دمشق ووزر له .

وعرف عنه حبـه لابنة العنقود ، وقيل إنه يخل بالصلاة ، ورمى بالزندقة ؛ ولـكنه اتصل بالإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى ، وتتلمذ له ، ومدحه ، وتاب فى السنين الأخيرة من حياته ، وبنى لنفسه مسجداً دفن فيه بعد وفاته .

* * *

بدلوا الدنيا غير الدنيا ، ووجهوا الإنسان شطر المثل العليا ، ونحت النقاش أشـباهاً لهم فى تماثيله المنصوبة محفوفة بالروعة والوقار ، ورسمت الريشة صورهم على الألواح فازدهت بهـا الجدر وغالت فيها التاحف ؛ وفى العصور الحديثة أقيمت المجامع العلمية والمجالس الأدبية والسياسـية لجمع شملهم وتكريمهم وتعميم نفعهم فى حياتهم ، وهؤلاء هم الذين واتاهم الحظ وأقبلت عليهم الدنيا ؛ أما الذين عبست لهم الأيام وتولت عنهم ، فإن الموت قد فتح لهم باب الخلود ولم يستطع من بعده أن يطمس معـالم نبوغهم شانئ حسود أو منكر للجميل . فسلام عليكم أيها الخالدون ، يا زهو الوجود ومجد العالم . إن ذكراكم باقية على الزمان ، وأصواتكم على لسانه رمز تجديد وتخليد

دمشق وداد سكاكيني

هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن نصر بن الحسين ابن عنين الأنصارى الملقب شرف الدين[١] وأصله من الكوفة من الخطة المعروفة بمسجد بنى النجار[٢] ، وولد فى دمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

لا نعرف شيئاً كثيراً عن نشأته الأولى ، أو عن المعاهد التى تلقى العلم فيها ، أو الأساتذة الذين تتلمذ عليهم ؛ وكل ما يذكره عنه المؤرخون أنه كان : « من أفاضل العصر لغوى أديب شاعر مجيد » وأنه « كان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب » ، وأنه « أخذ عن الحافظ أبى القاسم بن عساكر وغيره ، وهو يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد ، وبرع فى الشعر وحل الألغاز » ، وأنه « كان من أظرف الناس وأخفهم روحاً ، وأحسنهم مجوناً » .

ويبدو أيضاً أنه لم يقنع بهذا القدر من الثقافة فارتحل — شأن العلماء فى ذلك العصر — إلى العراق والجزيرة وخراسان وأذربيجان وخوارزم ، فاتصل بمشايخ تلك الأقطار ، وعلمائها ، وشعرائها ، وأدبائها ؛ وتدل سيرته على أنه كان ذكيا ممتازاً فى ذكائه ، نشيطاً موفور النشاط ؛ ولعله عاد بعد هذه الرحلة واسع العلم غزير المادة ، فحاول أن يتخذ لنفسه مقاماً علياً بين قومه فى دمشق ، وكان قد تركهم وهو نكرة لا يلتفت إليه إنسان ، فأبوا عليه سعيه فاستثار هذا الإباء عنده غريزة الدفاع عن النفس ، وانطلقت شاعريته ، وهجا فأقذع فى الهجاء .

وكان صلاح الدين بن أيوب قد قضى على دولة بنى

(١) ذكر الدكتور زيادة فى مقاله السالف الذكر أن لقبه « شمس الدين » واللقب الذى ذكرت مأخوذ من : ياقوت ، معجم الأدباء ، جـ ١٩ ص ٨١ ، طبعة دار المأمون ؛ وابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٢ ص ٢٥ ، الطبعة الميمنية ، القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .

(٢) ياقوت ، المرجع السابق ، نفس الجزء ص ٨١ — ٨٢ ، وابن خلكان المرجع والجزء السابق ص ٢٠ و ٢٢ ، وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٩٣ يذكر أن أصله من حوران .

فاطمية فى مصر ، وبدأ يكون لأسرته فيها دولة جديدة ، فاجتذبت هذه الدولة الفتية الشاعر الفتى ابن عنين إليها كما اجتذبت غيره من الشعراء ، والفقهاء ، والصوفية ، والقادة ، والوزراء ، فارتحل إليها ينشد مجداً وجاهاً وثراء ؛ ولكن صلاح الدين لم يكن خلى البال ليتخذ لنفسه بطانة من الشعراء ، فأعرض عن ابن عنين ومن شابهه من الشعراء والندماء ، الذين كانوا يطمعون أن يغدق عليهم العطاء ، كعمارة اليمنى مثلا ، فقد كانت فى مصر ثلة من بقايا الدولة الفاطمية المحتضرة تود أن تقضى عليه ، وأن تعيد الحياة إلى الدولة التى زالت ، ليعود إليها هى أيضاً مجدها .

وكان على القرب منه فى بلاد الشام الصليبيون رابضين متحفزين ، فعقد العزم ، وأخلص النية أن يعد الجهد كله ، والفكر كله ، والمال كله للقضاء على هذين الخطرين . لهذا نجد اليأس يتسرب إلى نفس عمارة — بعد سعى ملح ليكون من رجال صلاح الدين — فينضم إلى أعدائه فى مصر ، ويشترك فى مؤامراتهم التى يفتضح أمرها ، فيقضى عليه بالشنق ؛ أما ابن عنين فكان أقل جرأة فاتخذ من لسانه سلاحاً يهاجم به صلاح الدين ورجال دولته فيقول[١] :

سلطاننا أعرجٌ وكاتبه ... أعمشُ والوزير منحدب
وصاحب الأمر خلقه شرس ... وعارض الجيش داؤه عجب
والدولعى الخطيب منقلف ... وهو على قشر بيضة يثب
ولابن باقى وعظ يغرُّ به ... الناس وعبد اللطيف محتسب

وبلغ هذا القول صلاح الدين فنفاه إلى الهند ، فأذعن وسافر ، ولكنه أرسل إليه هذين البيتين :

فلام أبعدتم أخا ثقة ... لم يقترف ذنباً ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم ... إن كان يُنفى كل من صدقا

(١) شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ١٥ ب ، وهو مخطوط مجهول المؤلف ، منه صور شمسية فى مكتبة جامعة فؤاد الأول ، وانظر أيضاً ابن تغرى بردى ، المرجع والجزء السابق ص ١١٣ ، وابن خلكان ، المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة حيث يذكر أن السلطان « نفاه من دمشق بسبب وقوعه فى الناس » وعندى أن الرأى الأول أرجح .

واشتغل فى الهند بالتجارة ، وأفاد منها مالا ؛ ولكنه كان شديد الحنين إلى وطنه دمشق ، وإلى أهله ، فكان يقول فيهما الشعر الكثير ، فمن ذلك قصيدته الطويلة فى دمشق التى مطلعها :

ألا يا نسيم الريح من تل راهط
ورَوض الحمى كيف اهتديت إلى الهند

ومنه هذان البيتان أرسلهما إلى أخيه :

سامحت كتبك فى القطيعة عالما
أنَّ الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرت طيفك فى الجفاء لأنه
يسرى فيصــــبح دوننا بمراحل

والبيت الثانى المعرى استعمله هنا مضمناً هذا التضمين اللطيف .

ولما اشتد به الحنين إلى وطنه احتال للعودة ، فغادر الهند إلى اليمن ، واتصل هناك بسلطانها الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب — أخى صلاح الدين — (ولى اليمن من ٥٧٧ — ٥٩٣ هـ) « ومدحه بغرر القصائد فأحسن إليه ، وأجزل صلته ، واكتسب من جهته مالا وافراً ، وخرج به من اليمن ، فلما وصل إلى الديار المصرية » ، وسلطانها يومئذ الملك العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين ، (حكم مصر من ٥٨٩ — ٥٩٤ هـ) ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التى وصلت صحبته ، فقال فى ذلك :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون فى فعالها
فذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقة »

ويتضح من هذه الرواية أن ابن عنين بقى فى اليمن ، ولم يفكر فى العودة إلى مصر ، أو إلى دمشق خوفاً من

(١) ابن خلكان ، المرجع السابق ، ج ٦ ص ٢٢٨ ؛ وانظر أيضاً شفاء القلوب ص ١٥٤ ؛ وباخرمة ، تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ١٠٣ ؛ ومقال الدكتور زيادة عن ديوان الزكاة .

صلاح الدين ، فلما علم بوفاته جمع ماله ومتاعه ومتاجره ، وعاد إلى مصر من طريق الحجاز[١] ؛ ولكنه لم يلق من ولد صلاح الدين ، أو على الأصح من حكومته ، خيراً مما لقى من صلاح الدين نفسه ؛ غير أن العزيز عثمان لم يعمر بعد ذلك طويلا ، ومات سنة ٥٩٤ هـ ، وخلفه ابنه الملك المنصور محمد ، ثم أتى من بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب فتولى عرش مصر سنة ٥٩٧ هـ .

وطمع ابن عنين فى حلم العادل وعطفه ، وكان رجلاً سياسياً داهية يغضى كثيراً ليتألف القلوب ؛ وكان ابن عنين قد غاب عن وطنه دمشق ، وعن أهله وأصدقائه سنين طويلة ، وأحس الشوق الشديد إلى العودة إلى مسقط رأسه ، ولهذا نرى قصيدته التى أرسلها إلى العادل يستعطفه ، ويستأذنه فى العودة إلى الشام جميلة كل الجمال ، رقيقة غاية الرقة ، قوية بالغة فى القوة ، فهو يبدؤها بهذا الغزل اللطيف :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى
وعليهم لو سامحونى بالكرى
جنحوا إلى قول الوشاة وأعرضوا
والله يعلم أنَّ ذلك مفترى
يا معرضا عنى بغير جناية
إلا لما نقل العذول وزوّرا
هبنى أسأت كما يقول ويفترى
وأتيت فى حبيك شيئاً منكرا
ما بعد بعدك والصدود عقوبة
يا هاجرى ما آن لى أن تغفرا ؟
لا تجمعن علىّ عتبك والنوى
حسب المحب عقوبة أن يهجرا
عب الصدود أخف من عب النوى
لو كان لى فى الحب أن أتخيّرا

ثم ينتقل من هذه الديباجة الجميلة إلى هدفه الأصلى فيقول :

(١) ياقوت ، المعجم ١٩/٨٢ .

فسقى دمشق وواديهـا والحمى
متواصل الإرهام منفصم العرى

إلى أن يقول :

أرض إذا مرت بها ريح الصبا
حملت على الأغصان مسكا أذفرا
فارقتها لاعن رضا وهجرتها
لا عن قلى ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق فى البلاد مشتت
ومن العجائب أن يكون مقترا(١)
وأصون وجه مدائحى متقنعا
وأكف ذيل مطامعى متسترا(٢)

ثم ينتقل من هذا إلى الشكوى ومدح العادل فيقول :

أشكو إليك نوى تمادى عمرها
حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لا عيشتى تصفو ولا رسم الهوى
يعفو ولا جفنى يصافحه الكرى
ومن العجائب أن يقيل بظلكم
كل الورى ونبذت وحدى بالعرا

ويقول ابن خلكان ، الوفيات ، جـ ٢ ص ٣٦ : «وهذه القصيدة من أحسن الشعر ، وعندى هى خير من قصيدة أبى بكر بن عمار الأندلسى التى أولها : أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى . . . الخ » .

ولكن ابن عنين لم يكد يستقر فى دمشق حتى عادت إليه طبيعته الجامحة الشموس فبدأ يعتز بنفسه ويهجو فقال :

هجوت الأكابر فى جلق ورعت الوضيع بسب الرفيع
وأخرجت منها ولكننى رجعت على رغم أنف الجميع

وتمادى فى الهجاء حتى هجا الملك العادل نفسه بقوله :

إن سلطاننا الذى نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

وهجا أناساً كثيرين من خيرة رجال الدولة كالمحدث الفاضل ابن دحية الكلبى . ودفعته طبيعته الثائرة أخيراً

(١) و (٢) لعل فى هذين البيتين تأييداً لرأينا الذى أبديناه فى أول المقال .

إلى نظم قصيدة طويلة كلها هجاء مقذع ، وسماها «مقراض الأعراض» تفنن فيها كما يقول ياقوت « بأساليب السب والثلب فأورد ما لا يحسن إيراده » .

وتتابعت السنون ، وخفت حدة ابن عنين ، وقل هجاؤه ، واستقر فى دمشق ، وإن كان يغادرها أحياناً إلى بلدان أخرى قريبة ، ولكنه كان لا يلبث أن يعود إليها ؛ وقد اتصل فى هذه الرحلات القصيرة فى تلك الفترة من الزمن بالإمام فخر الدين الرازى ، وحضر مجالسه ، وحلقات درسه ، وتتلمذ عليه ، وتلقى عنه ، ومدحه مدائح كثيرة(١) .

وتتابعت السنون ثم تتابعت ، والكبر ينال من ابن عنين ، ويقلل من شوكته ويضعف من قوته ؛ فهذه سنة ٦١٦ هـ . وقد بلغ ابن عنين السابعة والستين من عمره — وقد مات العادل أبو بكر ، وانفرد ابنه المعظم عيسى بحكم دمشق ، وحدثت بينه وبين القاضى الوقور زكى الدين وحشة ، فأراد أن ينال من مقامه فأرسل إليه بقجة فيها قباء وكلوتة (وهما من ملابس الجند) ، وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه « فلبسهما من خوفه » ، ولكن هذا الحادث آذى القاضى ونال منه فمرض ؛ ويعقب صاحب شفاء القلوب على هذا بقوله(٢) : « وكان ابن عنين الشاعر قد تزهد فبعث إليه المعظم قنينة خمر ونرداً ، وقال سبح بهذه ، فقال ابن عنين فى ذلك :

يا أيها الملك المعظم سنة أحدثتها تبقى على الآباد
تجرى الملوك على طريقك بعدها خلع القضاة وتحفة الزهاد

فأين هذا من هجائه العنيف للبطل القديس صلاح الدين ، وللحاكم الداهية القدير العادل أبى بكر .

٦١٧ — ٦١٨ هـ ، وعجلة الزمن تدور ، وبلغ ابن عنين التاسعة والستين من عمره ، ولكن روحه لا زالت قوية تحس معانى المجد ، وتعتز بنصر المسلمين أقوى وأشد اعتزاز ، فقد وصلته أخبار انتصار المسلمين بقيادة الملك

(١) ياقوت ، المعجم ، جـ ١٩ ص ٨٢ — ٨٣ و ٨٨ ، وابن خلكان جـ ١ ص ٤٧٤ — ٤٧٥ و جـ ٢ ص ٢٦ .
(٢) ص ١٧٢ .

الكامل محمد عند دمياط ، فكان ابن عنين أول المهنئين ، وكانت قصيدته درة الغرر يومذاك ، تقرأها فتحس أن قائلها شاب باسل في عنفوان شبابه خاض غمار الوغى ، وامتطى صهوة الجياد ، وامتشق الحسام ؛ استمع إليه وهو يقول[1] :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اجتمعوا رأيا ودينا وهمة
وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سنا
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت
جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا
إلينا سراعا بالجهاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا

إلى أن يقول :

سرى نحو دمياط بكل سميدع
إمام يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثر محمد خدرتها سيوفه
طوال المدى يفنى الزمان ولا تفنى
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم
مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
منحناهم منا حياة جديدة
فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا
ولوءا ولكنا ملكنا فأسجحنا

ويبدو من هذه القصيدة أن العلاقة بين ابن عنين وبني أيوب قد تحسنت ، وحل الصفاء محل الجفاء ، فقربه المعظم عيسى إليه ، وأرسله في سفارات له ؛ فابن خلكان

(١) شفاء القلوب ص٨٣ ا و ٨٣ ب ، والسلوك للمقريزي ، نشر الدكتور زيادة ، ج ١ ق ١ ص ٢١١ .

يروى أنه قابل ابن عنين في مدينة إربل سنة ٦٢٣ هـ ولم يأخذ عنه شيئاً ، « وكان قد وصل إليها رسولا عن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق » ثم يقول في آخر ترجمته لابن عنين : « وتولى الوزارة بدمشق في آخر دولة المعظم ومدة ولاية الملك الناصر بن المعظم (٦٢٤ — ٦٢٦ هـ) وانفصل منها لما ملكها الأشرف (أي سنة ٦٢٦ هـ) وأقام في بيته ولم يباشر بعدها خدمة »[1] .

لا زالت عجلة الزمن تدور ، ولكنها دورات بطيئة مشرفة في البطء : ٦٢٧ — ٦٢٨ — ٦٢٩ ، وفي سنة ٦٣٠ بلغ ابن عنين الحادية والثمانين من عمره ، وبلغ الكتاب أجله ، فانتقل الشاعر إلى جوار ربه في التاسع من شعبان من تلك السنة ، ودفن بمسجده الذي بناه بأرض المزة ، وهي قرية على باب دمشق ، قال ابن المديني : « زرت قبر بلال مؤذن رسول الله (ص) بمقابر باب الصغير ظاهر دمشق ، فلما خرجت من تربته ، وجدت على الباب قبراً ، فقيل لي هذا قبر ابن عنين فوقفت وترحمت عليه »[2] .

هذا ولم يعرف عنه أنه ألف أو قال غير الشعر ، وإن كان ابن خلكان يقول : « ولم يكن له غرض في جمع شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع في أيدي الناس ، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ماله من النظم ، ومع هذا ففيه أشياء ليست له .. »[3] وإني لأذكر — وإن كنت غير متأكد لحاجتي إلى المرجع — أنه يوجد في دار الكتب المصرية نسخة فوتوغرافية من ديوانه ، فهل يظفر هذا الديوان — إن صح ظني — من أستاذنا الكبير أحمد أمين بك بلفتة من لفتاته الباركة فيعمل أو يشجع على نشره .

جمال الدين الشيال

(١) الوفيات ، ج ٢ ص ٢٥ .
(٢) ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ .
(٣) ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٢ ص ٢٧ .

الكتب الجديدة :

١ – عبقرية الإمام

للأستاذ عباس محمود العقاد

حلقة فى سلسلة كتبه القيّمة عن عظماء الإسلام ، بدأها بعبقرية محمد ، ثم عبقرية أبى بكر ، ثم عبقرية عمر ؛ ثم هذه فى عبقرية الإمام علىّ . وما قلناه فى وصف هذه السلسلة وقيمتها ، وكيفية معالجة الكتاب لموضوعه ، ينطبق على هذه الحلقة — وكل ما لاحظناه من فرق أن المؤلف الفاضل إن كان فى كتبه الأولى فناناً وقاضياً ، فهو فى هذا الكتاب محام أولا ، وفنان ثانياً ؛ فقد تعرّض الكتاب للدفاع عن الإمام علىّ فى مواقف النزاع مع خصومه أكثر مما تعرّض لرسم شخصيته . ولعل جو الكتابة فى علىّ نفسه ، رضى الله عنه ، قضى بذلك ، فقد كانت حياته السياسية نزاعاً لم ينته حتى بالموت ؛ فقد ظلت الخصومة بين أنصاره وأنصار أسرته وخصومه وخصوم أسرته قائمة حتى اليوم ، تتخذ شكل حرب بالسيف ، فإذا أخمد السيف قامت خصومة الكلام ؛ فيظهر أن طبيعة الجو أثرت فى المؤلف الفاضل ، فاتخذ فى ذلك موقف المدافع المناضل . وآخذ على المؤلف أيضاً اعتماده أحياناً على ما رُوى من غير كبير نقد ، كاعتماده على كثير مما روى فى نهج البلاغة ، كوصف الخفاش والطاووس ونحو ذلك . وفى رأيى أنه لو عرض على محك البحث من مقارنته بالأساليب المعروفة فى ذلك العصر لرجح جانب أنها موضوعة ، وكما فى رواية حديث سودة عمرو ، فإنها بالروايات والقصص أشبه ، ولم أجد هذه القصة عند المؤرخين الثقات أمثال الطبرى حسبما اطلعت ؛ والمؤرخون الأثبات إذا رووا هذه القصة حكوها بصيغة التمريض ، كما يعبر إخواننا الأزهريون ، فالمسعودى يقول : « وقد قيل فى بعض الروايات » ، وابن عبد البر فى الاستيعاب بقوله — فيما ذكروا — وكلها تعبيرات تدل على الشك فيها وعدم الجزم بها .

وكالذى روى من وضعه علم النحو ، فتقسيم الكلمة أشبه بالتقسيم المنطقى اليونانى ، وهذا كله نابٍ عن طبيعة العصر .

وهذا لا يقدح فى الكتاب وقيمته ، فقد جلّى نواحى كثيرة من نواحى عظمة الإمام ، وكم له من نواح عظيمة ؛ وقد حلل المؤلف كثيراً من المواقف تحليلاً نفسيًّا واجتماعيا بديعاً ، فنشكره ونقدّره .

٢ – كتاب علم النفس الجنائى

للأستاذ محمد فتحى بك المستشار بمحكمة استئناف مصر وأستاذ علم النفس الجنائى المنتدب بمعهد الدراسات الجنائية بكلية الحقوق

من أكبر خصائص هذا العصر شدة الاهتمام بعلم النفس ، فمدرسة فرويد وأدلر وتلاميذهما ومعاصروهما عنوا العناية التامة بدراسة النفس من نواحيها المختلفة ، وعنوا بالناحية العملية كما عنوا بالناحية النظرية ، وأنشئوا المعامل لعلم النفس كمعامل الطبيعة والكيمياء ، وأنشئوا المستشفيات لمعالجة النفس كالمستشفيات لمعالجة الجسم ؛ وغمر المؤلفون الأوربيون والأمريكيون بالكتب فى علم النفس من نواحيه المختلفة ، الفردى والاجتماعى ، ونفسية الحروب ، ونفسية التصوف ، ونفسية الدين الخ الخ .

ولا تزال اللغة العربية فى حاجة إلى من ينقل لها هذا التراث العظيم ترجمة وتأليفاً .

وقد عنى المؤلف الفاضل فى كتابه بالناحية النظرية والعملية ، فتكلم فى القسم الأول عن نظريات علم النفس ، وفى القسم الثانى من القسم العملى مما يتصل بالجرائم وما إليها .

وشخصية المؤلف ظاهرة فى الكتاب ، وخاصة فى القسم الثانى بما أضاف من تجارب شخصية ومشاهدات واقعية ؛ عرض ذلك كله فى أسلوب سهل واضح ؛ فكان قسمه الثانى الأول من نوعه فى اللغة العربية .

٣ — حواء

ديوان شعر للأستاذ الحومانى الشاعر المشهور ، طبع بمطبعة الكشاف ببيروت ، وقد قسمه إلى أقسام ثلاثة : وحى القُبَل ، ووحى النهود ، ووحى الدموع .

أكثره نظم فى رواية حب حدثت للشاعر عند سفره إلى أمريكا ، فألهبه وأهاج شاعريته ، وخاصة بعد أن فارق من يحب إلى موطنه بالشام . وقد انتشر شعر الحومانى ، وروت الكثير منه بعض صحف الشام ومجلاتها . وقد أحسن الناشر فى جمعه ونشره ، ففى كثير من قطعه خيال لطيف ونظم جميل ، وإن كان أحياناً ينزل إلى مستوى لا يليق أن ينشر ما قيل فيه كقصيدة « الحية الرقطاء » ونحوها ؛ ولولا أن نقع فيما وقع فيه من الخطأ لنشرناها ، ونحن فى زمن أحوج ما نكون فيه إلى الشعر الذى يرسم المثل العليا للحياة ، وفى بعض قصائد الديوان ما يحقق هذا الغرض . وحبذا لو أجال الشاعر قلمه فيه مرة ثانية ، فأبعد منه ما لا يتفق والغرض الأسمى الذى ينشده الفنان النبيل .

٤ — مكتبة الاسكندرية

فى العالم القديم

للأستاذ محمد أحمد حسين

بحث لطيف فى الإسكندرية فى العصور القديمة ومكتبتها فى عهد البطالسة وفى العهد الرومانى ، وفى علوم الإسكندرية وآدابها فى القرنين السادس والسابع الميلادى ، وخاتمة فى بحث ما نسب إلى عمرو بن العاص من إحراق المكتبة ، ثم فصل بالفرنسية للأستاذ ا . كومب عن المكتبة البلدية فى السنين الأخيرة .

وهو بحث صادف وقته فى بدء حياة جامعة فاروق الأول وعملها على إعادة الحياة العلمية فى الإسكندرية ، ولعل المؤلف يجد من وقته ما يتابع فيه بحثه فى مدرسة الإسكندرية ومكتبتها وأكاديميتها ، حتى يشبع حاجة العربية إلى بحث واف شامل .

٥ — رابندرانات تاجور

للأستاذ محمود المنجورى

مجموع مقالات عن « تاجور » كان قد نشرها المؤلف فى مجلة المقتطف ، ثم جمعها وخصصها هدية لأصدقاء تاجور .

والكتاب يقدم لنا صورة لطيفة من صور تاجور فى حياته وشعره ومدرسته ، ونظرته للأخلاق والمدنية والسياسة والمرأة والأدب والدين .

وفى كل ذلك يلخص الكاتب الفاضل نظرة تاجور إلى الموضوع ، ثم يستشهد على هذه الخلاصة بأقوال لتاجور نفسه ، معتمداً فى ذلك على كتبه نفسها وما كتب عنه الأدباء الأوربيون .

ولقد نجح المؤلف فى هذا التصوير ، فيخرج القارئ منه على صورة جلية لتاجور ، صورة تسمو عن الحزبية والوطنية ، وتدعو إلى الإنسانية ، وتشيد بالروح الشرقية وتوضح خطر المدنية الغربية ، إلى سمو بالنفس عن عالم المادة ، وتذوق نبيل لجمال الطبيعة ، وفلسفة يجمّلها الشعر ، وشعر تعمقه الفلسفة ، وإعجاب بالشرق لإجلاله المعانى الروحية ، وإشفاق عليه من جموده ، وإعجاب بالغرب لما فيه من ذخر ثقافى لا يعوض ، وأسف عليه لما يغمره من تيارى العنف والمادة . فهو كتاب يفيد قارئه ، ويفتح له آفاقاً واسعة فى التفكير والعاطفة .

أحمد أمين

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٦٩٩٢ / ٥٦٧٦٩٩

العدد ٢٥٥ — الثلاثاء ١٨ من ذى القعدة سنة ١٣٦٢ — ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

بعد مؤتمر موسكو

حققت الدول المتحالفة فى مؤتمر موسكو أعظم نصر سياسى أتيح لها منذ عقد ميثاق الإطلنطيق فى أغسطس سنة ١٩٤١ ؛ وكان الحديث قد كثر قبل مؤتمر موسكو حول علائق الديمقراطيتين الكبيرتين ، انكلترا وأمريكا روسيا السوفيتية ، وعن اختلاف وجهات النظر بينهما فى بعض المسائل العسكرية والسياسية ، وبالأخص عما يخشى أن تعتزمه روسيا من انتهاج خطة مستقلة قد تحملها على عقد صلح منفرد ، إذا لم تبادر انكلترا وأمريكا إلى تحقيق وعودهما فى فتح جبهة قتال ثانية فى أوربا تعاون فى تخفيف العبء الفادح الذى يضطلع به الجيش الأحمر منذ أكثر من عامين .

كانت هذه الأحاديث وأمثالها تردد قبل مؤتمر موسكو ، بل كان البعض يشك فى إمكان عقد مثل هذا المؤتمر بين الدول الثلاث ، فجاء عقده مبدداً لكل شك وقاطعاً لكل حدس ، وخرجت الجبهة الديمقراطية منه موحدة الكلمة ، موحدة الخطط ، وغاضت جميع الإشاعات التى ذاعت حول عقد الصلح المنفرد مع ألمانيا .

ويبدو من البيان الذى أذيع من قرارات المؤتمر أنه لم يقتصر على بحث الشئون العسكرية العاجلة ، وهى التى تتعلق بتنسيق جهود الجبهة الديمقراطية فى الشرق والغرب ، ومحاولة القضاء على العدو المشترك (ألمانيا) بأسرع ما يستطاع ، ولكنه تناول أيضاً طائفة من المسائل التى تتعلق بتنظيم السلم عقب انتهاء الحرب .

ولم تترك الجبهة الديمقراطية بما أصدرت من قرارات حاسمة فى موسكو شكاً فى اتحاد رأيها وتوطيد عزمها المشترك على مواصلة الحرب حتى تهزم ألمانيا المتظربة ، ولم تترك شكا فى موقفها من ألمانيا المغلوبة ، فلا صلح ولا مفاوضة من أى نوع ، وإنما يجب على ألمانيا المغلوبة وشركائها فى المحور أن تلقى سلاحها على قاعدة التسليم بلا قيد ولا شرط .

ولهذا التصميم على وجوب تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط

أسباب وبواعث تاريخية . ذلك أن الحلفاء يرون أن الطريقة التي انتهت بها الحرب الكبرى في أواخر سنة ١٩١٨ ، ومنح الهدنة لألمانيا ، وجيوش « الريخ » تعسكر كلها خارج الوطن الألماني ، كانت تنطوي على خطأ سياسي وعسكري خطير . والواقع أن ألمانيا الهتلرية عملت على إضرام نار الحرب الحاضرة وشعارها أن ألمانيا الإمبراطورية لم تهزم في الحرب الكبرى هزيمة عسكرية ، ولكنها هزمت هزيمة سياسية فقط بسبب تصدع الجبهة الداخلية ، ولذا فهي تبدأ الحرب الحاضرة من حيث انتهت جيوش «الريخ» الثانية في سنة ١٩١٨ ، وتستأنف نصرها العسكري القديم بسلسلة جديدة من الانتصارات في ميادين الحرب المختلفة ، وتملي شروطها على أعدائها السابقين ، وهم نفس أعدائها الحاليين تقريباً ، بصورة تمكنها من أن تجني ثمار تضحياتها القديمة والحديثة على السواء .

ولهذا يرى الحلفاء أنه يجب لكي يتحقق النصر المنشود في الحرب الحاضرة أن تُضرب جيوش « الريخ » الثالثة ضربة قاضية ، وأن تلقى ألمانيا الهتلرية هزيمتها في ميدان الحرب ، وأن تدخل جيوش الحلفاء الظافرة أراضي « الريخ » لتملي شروطها على ألمانيا المغلوبة ، وأن يشعر الشعب الألماني بمعاني الهزيمة وآثارها شعوراً عميقاً قوياً .

وهذا ما ينطوي عليه قرار التسليم بلا قيد ولا شرط الذي أبرمته دول الحلفاء في موسكو ؛ فألمانيا المهزومة يجب أن تلقي سلاحها دون مفاوضة أو مساومة إذا شاءت وقف القتال ، ويجب عليها في هذه الحالة أن تضع مصيرها تحت رحمة أعدائها الظافرين يملون عليها شروط الصلح وفق مشيئتهم وحدها .

***

على أنه لا يزال أمام الحلفاء لبلوغ هذه الغاية مرحلة شاقة ، وإن لم تكن طويلة .

فألمانيا مصممة حسبما يؤكد زعيمها هتلر في خطابه الأخير على القتال إلى النهاية ، لأنها تدرك أنه مهما كانت فداحة الضحايا والآلام التي يجب أن يتحملها الشعب الألماني في سبيل المضي في القتال ، فإنها لن تكون شيئاً بالنسبة لنتائج التسليم أو الهزيمة .

ويقدر مستر تشرشل أن الحرب الأوربية ستشهد نهايتها في سنة ١٩٤٤ ، إذا سارت الأمور وفق الخطط الموضوعة ، ولم يرتكب الحلفاء خطأً خطيراً في تنفيذها ، وإذا لم يقع حادث فجائي يعجل نهاية الحرب ، كتصدع الجبهة الداخلية في ألمانيا ، وهو فرض لا يعول عليه مستر تشرشل كثيراً .

ولم يبق شك فيما يظهر ، في أن هجوم الحلفاء على أوربا ، وهو الذي يعبر عنه بفتح الجبهة الثانية ، سيقع في الربيع القادم إن لم يقع قبل ذلك . وهذا ما قرره المارشال سمطس قبيل انعقاد مؤتمر موسكو ، وهذا ما يؤكده مستر تشرشل عقب انتهاء المؤتمر ، إذ يحدثنا عن حملة سنة ١٩٤٤ إلى أوربا . ومستر تشرشل كعادته كثير التحفظ ، غير مسرف في التفاؤل ، فهو مع تأكيد ثقته في بلوغ النصر النهائي ، يصرح في جلاء بأن سنة ١٩٤٤ ستشهد أعظم ضحايا الأرواح في القوات البريطانية والأمريكية ، وسوف تضطرم فيها أعظم معارك خاضها الحلفاء في هذه الحرب .

أما أين تكون هذه الجبهة الثانية التي ستشهد خاتمة الحرب الأوربية ، فما زال موضع الحدس الكثير ، فأمام الحلفاء في غربي أوربا منطقة شاسعة تمتد من النرويج إلى فرنسا . ومن الممكن أن يقع هجوم القوات المتحالفة في أية بقعة من هذه المنطقة ، غير أنه من الرجيح ، أن يوجه مثل هذا الهجوم إلى الشواطئ القريبة من الجزيرة البريطانية ؛ من الشواطئ الهولندية إلى شواطئ المانش الفرنسية . ويعزز هذا الفرض ما ينوه به مستر تشرشل من توقع فداحة الضحايا في الأرواح ، وهو ما يقترن عادة بمحاولة

القوات المهاجمة النزول فى شواطئ أحكم تحصينها .

بيد أن تطور الحوادث فى الميدان الروسى قد يحملنا من جهة أخرى على أن نتوقع مفاجآت جديدة فى هذه الناحية . فقد توالت انتصارات الجيش الأحمر فى الأسابيع الأخيرة بسرعة مدهشة ، وقد انتزع كييف آخر القواعد الروسية الرئيسية فى يد الألمان ، وطوق شبه جزيرة القرم ، واقترب من حدود بسارابيا أو بعبارة أخرى من حدود رومانيا ؛ وما زالت الجيوش الألمانية توالى ارتدادها . واقتراب الجيش الأحمر بهذه الصورة من حدود البلقان يحمل على الاعتقاد بأن البلقان قد يشهد فى الأشهر القليلة القادمة تطورات عسكرية خطيرة . فالبلقان طريق الغزو الجنوبى للنمسا والمجر . ومن الممكن أن يقع فى جنوبى البلقان أو فى غربيه هجوم يعززه زحف الروس من الشمال فى اتجاه رومانيا والمجر ، وعندئذ يغدو فى وسع القوات المتحالفة أن تشق طريقها إلى ضفاف الدانوب حيث تلتقى بالجيش الأحمر . وحوادث البلقان الحالية من نشاط العصابات المجاهدة فى يوجوسلافيا وألبانيا واليونان ، واضطراب الحالة فى بلغاريا ، وازدياد متاعب القوات الألمانية المحتلة ، كل ذلك مما يشجع الحلفاء على تنفيذ مثل هذه الخطة . ولا يغيب عن البال أن تركيا قد تؤدى فى مثل هذه التطورات المحتملة دوراً معيناً ؛ ولا شك أن المحادثات التى دارت أخيراً فى القاهرة على أثر مؤتمر موسكو بين مستر إيدن وزير الخارجية البريطانية ، ووزير الخارجية التركية تمت بصلة وثيقة إلى الموقف فى البلقان . ومن المحتمل أن تعتزم تركيا أخيراً أمرها ، بعد أن اطمأنت إلى تفوق الحلفاء ، فتدخل الحرب إلى جانبهم ، أو تقوم بأى دور إيجابى آخر لتسهيل مهمتهم فى غزو البلقان .

هذا ، ومن الواضح أن خطط مؤتمر موسكو العسكرية قد وضعت على ضوء التطورات الأخيرة فى الميدان الروسى ، وما يمكن أن تتمخض عنه فى القريب العاجل . والظاهر أن القيادة الألمانية بعد أن تصدع خط الدفاع الألمانى كله من الشمال إلى الجنوب لن يتاح لها الصمود فيما بقى لديها من أراضى روسيا السهلة ، ولا بد لها أن توالى ارتدادها حتى خط جديد تستطيع الصمود فيه طيلة فصل الشتاء . وقد يستند هذا الخط الجديد إلى جبال الكربات ، وهى الحاجز الطبيعى الذى يحمى سهول المجر ، ويمتد شمالاً من لفوف (لمبرج) إلى خليج ريغا ، وبذلك يتم تحرير ما بقى من أراضى روسيا ما عدا رقعة صغيرة مما يلى بحر البلطيق . ومهما يكن من الأمر فإنه لا شك فيه أن مشاريع الغزو الألمانى لروسيا قد تحطمت كلها أشنع تحطيم ، وانهارت أحلام ألمانيا المضطربة فى امتلاك قمح اليوكرين وحديدها وامتلاك زيت القوقاز ، وذهبت ملايين الجند الألمانى التى هلكت فى فيافى روسيا وثلوجها القاسية هباء منثوراً ؛ كذلك لا شك فى أن الجيش الأحمر لن يقف جامداً متى أتم تحرير الوطن الروسى من الغزاة ، وسوف يجد فى مطاردة أعدائه غرباً فى اتجاه بولونيا والمجر ؛ وقد قطع الجيش الأحمر فى عام واحد ، خلال زحفه المظفر من ستالنجراد إلى كييف زهاء سبعمائة ميل ، ويستطيع مثل هذه المسافة بحملة غرباً حتى أراضى الوطن الألمانى . ومهما أكد زعيم « الريخ » تصميم ألمانيا على المضى فى الحرب إلى النهاية ، ومهما كانت قوى ألمانيا ومواردها الباقية ، فلا ريب أنها تدخل الآن فى أخطر وأدق مرحلة من مراحل الحرب بالنسبة إليها ؛ فسوف ترغم على القتال فى أكثر من ميدان ، فى الجنوب والغرب ، وطوفان الجيش الأحمر يرهقها من الشرق ، ونذر الهزيمة تلاحقها ، وتفت فى قواها المعنوية ، وغارات الحلفاء الجوية تدك مدنها ومصانعها ، وتبعث الدمار والاضطراب فى داخلها ، ولن تغنيها تأكيدات زعيمها بالنصر والانتقام شيئاً ، فى وقت أخذت فيه آمال النصر تخبو تباعاً .

محمد عبد الله عنان

في جـو السماء

كنتُ أهاب ركوب الطائرة، وأحسبُ أني لا أجرؤ عليه ولا أثبت له، وأحدّث نفسي بأني إذا علوت منارة أو بناء عالياً فنظرت إلى ما حولي أخذني الدوار، فكيف أنظر إلى الأرض من لُوح الجوّ.

وكنت أمزح أحياناً فأقول حين أسأل عن ركوب الطائرة: لا أركبها حتى تسير على الأرض. ورأيت في المنام، قبل سبعة أعوام، وأنا في بغداد، أني امتطيت طائرة ميمّمها مصر، فهبطت بي في غزّة، فما لامست الأرض حتى وثبت منها ضاحكا منشداً:

أبِلْ قدميّ ظهر الأرض إني
رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وكنت أقول لنفسي أحياناً: لتركبِنّ الطائرة راضية أو كارهة، فما يمكن أن تعيش في زمان تدوّي طائراته فوق رءوسنا صباح مساء، ولا تركبها.

* * *

ولما عزمت على السفر إلى بيت المقدس في رمضان الماضي وجدتها فرصة لتجريب الطائرات في هذه المسافة القريبة، وفي هذه الطريق التي قتلها طيارونا خُبرا.

قلت: سأركب الطائرة ذاهباً أو آيباً؛ وشرعت أحدّث نفسي بهذا، وأوطّنها عليه.

وذهبت يوما إلى القنصلية المصرية التي في القدس، فتحدثت عن سفري إلى مصر بعد أسبوع، في الخامس والعشرين من رمضان، وأني لا أدري أأسافر بالطائرة أم بالقطار؟ قيل: أتسأل شركة الطيران؟ قلت، وفي النفس شيء: لا بأس. وسرعان ما أجابت الشركة أنه لا مكان لي في الخامس والعشرين، ولكن تستطيع أن تحجز لي مكاناً في طائرة السادس والعشرين. قلت ما أقرب يوما من غده. فليكن السفر يوم الأحد السادس والعشرين. وصرت على مكتب الشركة فقيل: اسمك مسجل ولكنا لا نعِدك بموضع في الطائرة إلا في الساعة الأخيرة، وأكبر الظن أن موضعك لك — وعرفت أن الجند في زمان الحرب مقدّمون على غيرهم في الأسفار، فإذا عرضت حاجة إلى سفر بعضهم سوّغوه مكان المسافرين من غير الجند.

حطّمت هذه العزمة أكثر الوساوس والأوهام من نفسي، ولذّ لي أن أتحدث بأني متخذ إلى القاهرة طريقاً في الهواء. ثم صرت على مكتب الشركة فقيل لا نقبل أجر السفر الآن، ولكن تحضر في الساعة التاسعة من صباح الأحد للسفر إلى اللدّ.

وبقيت أرتقب الميعاد بين الرغبة والرهبة، ويعجبني أن أسمع ممن ركبوا الهواء ما لقوا من راحة، وما أحسّوا من أمن وطمأنينة في مهب الرياح. واتفق أن شهدت قصة في السينما تمثل جرأة الطيارين ومخاطرتهم، وتعرض على النظارة ما يملأ النفس هولا من مناظر الصعود والهُوِيّ، والتحويم والتدويم، والتقلب، والعراك بين العواصف والطائرات، فشهدت منظراً مخيفاً مفظعاً؛ وقلت: بئس المشهد قبل السفر في الهواء، وبئس الفأل. وجال في نفسي أن هذا نذير بيوم عبوس قمطرير، وكدت أعرض عزمتي على التفكير، وأستقبل التردد الذي محوته بالعزمة المصممة. ثم محق العزم الوساوس مرة أخرى.

بدا لي أن أسافر إلى الرملة يوم السبت، وخشيت أن يُستبدل بي مسافر آخر إذا لم أحضر صباح الأحد في القدس، فأخبرتهم أن موعدنا اللدّ. وبلغ من حرصي على المضيّ في عزمي أن سألت القنصلية أن تخبر الشركة أني حاضر في مطار اللدّ يوم الأحد وتوصي أن يحفظوا مكاني ولا يعتلّوا بغيابي عن القدس صبيحة الأحد الموعود.

ركبت من الرملة إلى مطار اللد في رفقة كرام من خلّص الإخوان. فأذن لي وحدي وانتظر المودّعون. وذهبت فأدّيت الأجرة وأخذت التذكرة، ووُزنت ووزنت أمتعتي؛ ورجعت إلى الإخوان أخبرهم في سرور وهيبة أن لي مكاناً في الطائرة، وودعتهم شاكراً داعياً،

ورجعت إلى محطة الطائرات أنتظر الطائر الميمون القادم من مصر .

* * *

لبثنا نرقب السماء، وقد حان الموعد؛ الساعة إحدى عشرة إلا قليلا . رأيت طائرة تحوّم ثم تُسِفّ، ثم هبطت بعيداً؛ فقلت لأحد العمال : أهذه الطائرة المصرية ؟ قال : لا ، هذه صغيرة ، أين هذه من طائرات مصر الكبيرة ، ذات الأجنحة الأربعة ! أحسست شيئاً من الأمن ، وشيئاً من الفخر . ولم يكن في المحطة ذو طربوش غيري . مصرية هذه الطائرات الكبيرة التي تنتظرها هذه الوجوه المختلفة . تلك طائرات مصر وطياروها ثقة الأمم ، لقد بوّأنا رجالنا مكاناً عالياً ، ومهدوا لنا طريقاً في جو السماء . غلبت هذه الأحاديث في نفسي وساوس الجو ومخاوف الطيران .

والتفت إليّ العامل الذي سألته قبلا فقال : هذه الطائرة المصرية ، انظر ، ها هي ذي . ورأيت طائرة كبيرة تؤم المطار ، وحجبها عنا بناء المحطة هنيهة . ثم بدت في جانب المطار الآخر ، فهبطت بعيداً ، ثم جاءت إلينا سائرة على الأرض ، ترى بلونها وعلَمها والكتابة العربية عليها . ونزل الركاب وتقدم المسافرون . ورأيت موظفاً مصريا على مقربة من الطيارة معه أوراق ؛ فسألته عن جواز السفر ، وكان قد أخذ مني . فقال : أقدمتَ من بيروت ؟ قلت بل مسافر إلى مصر . قال : الجوازات في الطائرة . قلت : أأركب إذن ؟ قال : نعم . فصعدت إلى الطائرة في خُيَلاء الذي يُقدم على المخاوف غير مكترث . قلت لأحد موظفي الطائرات : أين أقعد ؟ وأردت أن يشير عليّ بأقل المواضع اضطرابا كما يختار راكب السيارات الكبيرة موضعه . قال ، ولم يعرف مقصدي الخفيّ : حيث تريد . فقعدت في أول مقعد إلى يسار الداخل . وبعد قليل أطبق الباب وحيل بيننا وبين الأرض . ثم دارت الآلات ودوّت المحركات وجرت الطائرة قليلا . وتعمدت ألا أنظر خارج الطائرة لأرى أأشعر بانفصالها عن الأرض ، ولأتجنب الرهبة التي تبعثها رؤية الطائرة ممعنة في علوها .

أحسست أن الطائرة فارقت الأرض ، وآثرت أن أتجنب الرأي الهائل الذي تخيلته من قبل ؛ ولكن قلبي التطلع فنظرت من النافذة فإذا أبنية تجري تحتنا وتبعد سريعاً وتتضاءل . وتوقعت أن الطائرة ستضطرب قليلاً ، فأمسكت بيدي اليمنى في المقعد وباليسرى في حديدة على النافذة . وترجّحت الطائرة علواً وسفلاً ، فقلت في نفسي : مالي وللطائرات ! وكانت قولة لم تتكرر من بعد . ثم استقامت واتّزنت واستمرت معتدلة لا تميل يمنة ولا يسرة إلا ميلاً خفيفاً في الحين بعد الحين ، وتخفق أحياناً خفقة سريعة قصيرة إلى أسفل .

وكنت في شغل برأي الأرض والتعجب من مناظرها ؛ أرى الأشجار على الأرض كأسنان المشط ، والقرى قطعاً صغيرة من الحجر والمدر ، والصحراء ممتدة تقسمها كثبان الرمل ، وتخططها ألوان مختلفة ، وتبدو بين الحين والحين واحاتها جزائر في هذا البحر الرملي . ورأيت طريقاً مرتفعاً مسوّى كأنه أساس جدار ، وطال تعجبي منه إلى أن أدركت أنه السكة الحديدية . ولما سايرنا الساحل رأيت أشباحاً بيضاء متقاربة فتوهمتها مدينة على رأس ضارب في البحر . ثم رأيت أمثالها تجزئها جزراً ، ثم فكرت وتأملت ، على قدر ما يفكر ويتأمل من يركب الطائرة لأول مرة ، ولما مضى في طيرانه ربع ساعة ، فعرفت أن هذه المدينة وهذه الجزر سحب متفرقة في جوّ السماء . قلت : لشد ما بعدنا عن أرضنا . لقد صارت السحب لنا أرضاً ثانية !

وكانت نفسي مقسمة بين الخوف والزهو والإعجاب والتفكير . أقول مرة : لله درّ الإنسان لقد سخر العالم ، وفتح آفاق الأرض والسماء ؛ لقد بلغ من العلم والصنعة مبلغاً عظيماً .

وأتفقد الطير فلا أراها فأقول إنه مسرح لا تبلغه الطير ، وقد عزّ الإنسانُ النسورَ والعقبان ، وحلّق حيث لا تقوى أجنحتها على التحليق . وأشعر بزهو حقّ حين

كارثة لبنان

بعد تهيئة « الثقافة » للطبع حمل إلينا البرق خبراً غريباً في بابه ، وهو أن اللجنة الفرنسية في لبنان أرسلت جنوداً من جنودها السنغاليين قبضوا على رئيس الجمهورية ، وعلى رئيس الوزارة ، وعلى أكثر الوزراء ، وعلى ثمانية وأربعين نائباً ، وعلى عدد كبير من أفراد الشعب ؛ وأعلنوا وقف الدستور الحالي ، وإلغاء مجلس النواب ، وإقامة حكومة مؤقتة !

وهو تصرف لم يكن يخطر ببال أسوأ الناس ظناً بفرنسا والفرنسيين — انتخابات حرة نشأ عنها تكوين مجلس رضا الأغلبية العظمى من اللبنانيين ؛ ثم تمسك من المجلس بحقوق البلاد ، وتعديل للدستور في مصلحة الأمة ؛ كل هذا يثير ثائرة المندوب الفرنسي ، فيحطم العهود الماضية باستقلال البلاد ، والميثاق الإطلانطي بتحرير الأمم ، ويعتدي على الحقوق الطبيعية لكل أمة في تصريف أمورها حسبما ترى من مصلحتها .

هذا عمل الفرنسيين الذين طالما نادوا بالحرية ، وأشعلوا نار الثورة الفرنسية لتحقيق الحرية والإخاء والمساواة ؛ كأن هذه المبادئ إنما هي مبادئ فقط لمعاملة الأوربي للأوربي ؛ أما الشرقي فليس إنساناً له حقوق وله حرية ، ولا يحترم له عهد ، ولا يوزن له نداء ؛ فإذا نادى بحرية انتخاب ، وحقق له مجلساً رضاه ، امتهن هذه الهيئة ، فاعتدى على من اختارهم ، وهوجمت بيوتهم في الليل ، وأبعدوا إلى مكان مجهول .

هذه هي فرنسا التي تنادي في حق نفسها بالعدالة ، بعد أن حاربت وهُزمت ، وتطالب أن تكون لها منزلة رفيعة بعد الحرب ، وأن تستشار في مبادئ الصلح ؛ هذا في حق نفسها ؛ أما من اعتدت عليهم فليس لهم من حقوق كأنهم ليسوا من البشر ، ويفرض عليهم من لا يثقون به فيجيبون ، فإن لم يفعلوا ذلك فلا مجلس ولا برلمان ، ولا حرية ولا أمن !

في أي عصر نعيش ؟ أهذا هو حرب فرنسا الذي كان — فيما يزعمون — لتحرير الشعوب وتحقيق العدالة ، أم هي ألفاظ جوفاء تضحك بها على الأمم المستضعفة ، فإذا جد الجد فاستعباد وإذلال !

ثم إنه يظهر جلياً أن الأمم العربية لا تقبل بعد اليوم مذلة ، ولا تنام على ضيم ، وأن الضيم يلحق بإحداها يلحق بها جميعاً !

هذا ما تفعله فرنسا اليوم ، وهي مهزومة في الحرب ، محتلة بلادها ، شاكة في مستقبلها ؛ فكيف بها إذا عاد إليها شيء من قوتها ؟! إنها إذ ذاك لا ترضى بالاعتقال والنفي .

لقد كانت فرنسا سابقة العالم في مبادئ الإنسانية بالثورة الفرنسية ، واليوم وراء العالم في معاملة الضعيف الناهض بكتم أنفاسه والتضييق عليه !

الحق أن هذا الفصل من فرنسا أفقدها عطف كثير ممن يعطفون عليها .

وليس يرضي الأمم العربية الآن إلا تصحيح ما وقع من خطأ ، والاعتذار عما ارتكب من ظلم ! (***)

أرى نفسي ممتطياً مركباً يشق أجواز الفضاء قوياً مدوّياً سريعاً سائراً على طريقه إلى غايته لا يضطرب ولا يعجز ، ولا يضل ولا يحيد ولا يتحير ؛ ويزيدني عجباً وسروراً أنها طائرة مصرية وطيار مصري .

وحدثت نفسي أحياناً بما يثبتها ؛ قلت : مم أخاف ؟ إن هذه الطائرة قطعت هذه المسافات مئات المرات ولست فيها فلم يصبها شيء . وقد رأيت وأنا على الأرض طائرات كثيرة محلقة في الجو فلم أحسب أنها في خطر ، ولا أشفقت على من فيها . ولم يحدث في الطائرات والطيران شيء إلا أنك تركب الآن الطائرة ، وهذا لا يغير في الأمر شيئاً .

وقلت مم أخاف : إن قانون الله الذي يسير هذه الطائرة على متن الهواء كقانون الله الذي يمسك الأرض التي نعيش عليها في الفضاء . ولم أرد التعمق في هذا القياس خيفة أن تقول نفسي إنه قياس غير تام أو قياس مع الفارق . . .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

عصابة البيت الأحمر

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

شرٌ في القُرَاد

خاتمة

جاء من بعد هذه السنوات المضنية التي قضتها هذه الفئة من العلماء في ذلك المعمل ، في تلك المدرسة العتيقة ، سنواتٌ خيِّرةٌ سعيدة . إلا أن حكاية ما جرى فيها مفصَّلا يُمِلّ القارئ ، لأن فيها إحصاء كثيراً ، لهذا نختصرها اختصاراً .

فمن عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٣٠ بلغ عدد البحّاث الذين اشتغلوا بهذه الحمى خمسة وسبعين ، يدخل في هذا العدد عمّال المعمل وأعوانه . وفي هذه الفترة من الزمن أصيب بهذه الحمى من هؤلاء ستةٌ لم يُلقَّحوا باللقاح الواقي . ومات الستة أجمعون .

ومنذ ما ابتدع « اسبنسر » لقاحه الواقي ، أي منذ ذلك اليوم من مايو عام ١٩٢٤ ، يوم لقّح هو نفسه أولَ ملقَّح باللقاح ، أصيب من أعوانه ثمانية ، فأحسوا الألم في عظامهم ، وظهرت البُقع على أجسامهم . وكانوا لُقِّحوا جميعاً . فلم يمت من هؤلاء الثمانية غير واحد ، هو باحث الميكروب كِرْلى Kerlee ، فذهب منهم ليَلحق رفاقه الذين سبقوا — ليلحق « بجانتجر » و « كاوان » وسائر مَن مضى .

إن من العجب المُعجب أن يَقلب هذا اللقاح هذا الداء الفظيع الجامح الذي لا يكاد ينجو منه أحد ، إلى داء طيِّع لا يكاد يزيد على داء الحصبة سوءاً .

قَبْل « اسبنسر » لم يصب الداء رجلا فوق الستين إلا قضى عليه .

ولكن بعد أن أصيب « كاوان » بالحمى ، وقضى بها ، فزع رجال المعمل من أكابر وأصاغر على أثر موته إلى اللقاح يصبّونه في جلودهم صبّاً ؛ أصابت الحمى بوّاب المعمل ، وكان رجلا شيخاً ، ولكنها أصابته خفيفة هيِّنة ، وظهرت البقع على جسمه ولكنها لم تسودّ ، ووجنتُه لم تظهر عليه مظاهر الخوف والفزع . وكان في جملته كالطفل الذي أصيب بالجُدَرِيّ الكاذب .

ولقد تذكَّرُ ما كان عليه سكان بلدة « هملتن » ، وسكان هذا الوادي البديع وادي « بطروط » وهم خمسة عشر ألف نفر يطفو عليهم الشر وتعلوهم النبطة ؛ لقد تذكر ما كانوا عليه من قلّة مبالاة بتلك الحمى ، ومن التهوين من شأنها لحاجة في نفوسهم . واليوم تعجب لهؤلاء القوم كيف انقلبوا ، وانقلب تهوينهم إكباراً لهذه الحمّى وذعراً منها ، فلا يخرج الخارج منهم إلى هذا الوادي ، وما تضمَّن من شِعاب ، حتى يصبح في طلب اللقاح الواقي .

وفي أربعة أعوام أصابت الحمى ثمانية عشر شخصاً ممن لم يُلقَّحوا باللقاح الواقي ، إما عن سخف أو عن جهالة ، مات منهم خمسة عشر .

وإذا نحن صرفنا النظر عن رجال المعمل وما تعرضوا له عن قرب من أخطار الداء ، وجدنا فيمن لُقِّحوا من رجال الجبل ثلاثةً أصابتهم الحمى . فهؤلاء لم تمت منهم رجل واحد .

وعلى مقربة من بلدة ثِرْموبوليس (وأظن معناها المدينة الساخنة) ، في ولاية وايومنج Wyoming ، توجد بقعة على مقربة من كِرْبى كِريك Kirby Creeh ، بها الحمّى البُقعية شديدة كما هي في وادي « بطروط » .

فقبل مجيء « اسبنسر » لم يصب راعٍ من رعاة تلك البقعة اللعينة بالحمى إلا قَضَى بها . ومات بها في مُخيَّم واحد أربعة رجال في عامين . وفي ثلاثة أعوام أصيب بها سبعة لم يَنْجُ منهم غير اثنين . . .

وهذان الاثنان كانا قد لُقِّحا باللقاح الواقي .

وفي الجنوب من ولاية « إيداهو » Idaho ، بين نهر اسْناك Snake وجبال صُوتوث Sawtooth ، توجد الحمّى البقّعية على صورة هادئة غير عنيفة ، فهي لا تقتل إلا خمسة من كل مائة من مُصابيها . وفي هذه الجهة من الولاية لقّح « اسبنسر » و « بركر » ألوفاً من رجالها ممن صابقهم القراد شرَّ مضايقة .

فمن هؤلاء الآلاف لم يُصَب بالداء غير واحد ، وأصابه هيّناً ، وكان لم يُلقّح باللقاح الواقي غير لقحة واحدة . أما الذين لم يُلقّحوا أبداً فكثير منهم أصابته الحمى . . . .

فمن هذا القراد الذي يملؤه الموت ، استخرج « اسبنسر » وصاحبه « بركر » إكسيراً من أكاسير الحياة .

واليوم صار هذا الإكسير يُطلب في وادي « بطروطة » بكثرة حَدَتْ مجلس الكنجرس أن يخصص اعتماداً مالياً كبيراً لبناء معمل لهم لصناعة هذا اللقاح مكان ذلك المعمل القديم ، تلك المدرسة العتيقة التي فشا فيها القراد فُشواً كبيراً .

لقد بدأ هذان الرجلان هذه المغامرة العلمية يطلبون شيئاً جليلاً ، على أمل قليل ، وانتهوا منها بشيء ذي بال . وعلى ما أعلم لم تطلب الحكومة من البرلمان اعتماداً مالياً لأيهما على سبيل المكافأة ، أو لأحد من أعوانهم ، أولئك العباقرة الذين حذقوا التجريب حتى لا يُشَقّ لهم فيه غبار . وما كان للحكومة أن تطلب .

أي والله ما كان للحكومة أن تطلب مكافأة لهذين أو أولئك . فماذا صنعوا سوى أنهم عرّضوا حياتهم إلى المخاطر في سبيل وقاية أرواح قليلة لقوم لا هم في النبير ولا في النفير .

ويتساءل المرء عن زوجاتهم وأولادهم ، هل رتّبت لهم الحكومة شيئاً يرجعون إليه إذا طاحت الطوائح بأزواجهم وآبائهم ؟ والجواب أنه لا حاجة بهم أن ترتّب الحكومة لهم شيئاً كهذا ، لسببين : أولهما أن اللقاح أصبح واقياً لهم من العدوى ؛ وثانيهما أن هؤلاء الرجال نجحوا أخيراً في صناعة اللقاح ، لا من القراد الصغير المتفقّس من البيض ، بل من القراد الكبير البالغ . فأصبح أمر الوقاية سهلاً ميسوراً .

وعلى ما أحسب لا يزال هذان الرجلان — اسبنسر وبركر — يؤمّنان على حياتهما بمبالغ كبيرة .

وبالطبع يكلّفهم هذا التأمين أقساطاً ثقيلة يدفعونها . ولكن من ذا الذي لا يدفع ثمناً طيّباً للذة التي يجنيها باشتباكه والقراد في معركة غريبة عنيفة كهذه ، ثم لخروجه منها فائزاً منصوراً ليحتلَّ مكانه في جنّة الخُلد ، في ذلك الجانب الذي اختصّ به من حاربوا الموت وأسباب الموت في هذه الحياة الدنيا .

النص — **أحمد زكي**

مستطرفات ونوادر

من حياة الأستاذ الإمام محمد عبده

[فراسة محمد عبده — قاضي العدالة لا قاضي القانون — اعدل العمامة ! — نزاهة الأستاذ الإمام] .

بعد أن عاد محمد عبده من النفي إلى وطنه عيّن سنة ١٨٨٨ قاضياً في المحاكم الأهلية الابتدائية : في بنها ثم في الزقازيق ثم في القاهرة . وبعد عامين عيّن مستشاراً في محكمة الاستئناف .

اشتغل الشيخ بالقضاء أعواماً ، فكان فيه ممتازاً ، كما كان شأنه في كل ما تولاه من عمل . واستعان بذكائه الفطري وعلمه الفقهي وباللغة الفرنساوية التي تعلمها ، على فهم أصول القوانين التي جرى العمل بها في المحاكم الأهلية المصرية .

ولقد كان بارعاً في تحقيق القضايا واكتشاف الحق فيها ، وكان له في ذلك حدوس صائبة وفراسة صادقة أدهشت القضاة والمتقاضين على السواء . ولقد قال الأستاذ الإمام نفسه في ذلك : « إنني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالإدانة مثلا ؛ حتى إذا ما تمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوّض كل ذلك البناء الذي كنت بنيته في ذهني من وجوه ترجيح الإدانة ، وظهر لي بغتة أن المتهم برىء حقاً فأحكم بالبراءة » . واشتهر محمد عبده بصدق الإلهام في أحكامه ، وكثرت حوادثه فيه حتى إن ناظر الحقانية لما سمع ببعضها قال : « اتقوا فراسة المؤمن » .

ذلك أن الشيخ محمد عبده كان « قاضي العدل والإنصاف لا قاضي القانون والرسوم » ، كما قال صديقه حسن باشا عاصم يوم تأبينه . فلم يكن يتمسك بالشكليات أو يتقيد بحرفية النصوص ، بل كان يتحرى دائماً إظهار الحق وإصابة العدل ، معتقداً أن القانون إنما وضع لأجل العدل لا العدل لأجل القانون .

وقد اشتهرت عن الأستاذ الإمام في جلسات القضاء عادة أو « لازمة » لم يكن يشعر هو بها ، ولكن سرعان ما عرفها المحامون والمتقاضون : كان يميل عمامته على جبهته إذا ثبتت عنده إدانة المتهم وأراد الحكم عليه بالعقاب . وكان يميلها إلى الوراء قليلا إذا كان حكمه بالبراءة ؛ واتفق أنه عاد إلى كرسي القضاء يوماً بعد المداولة ، ولما جلس أمال عمامته على جبهته ، عندئذ فزع المتهم الذي أدرك أن الشيخ سينطق بالحكم عليه لا محالة وصاح به : « في عرضك اعدل العمة يا مولانا الشيخ حتى أقول لك الصريح ! » . فضحك الحاضرون . ويقال إن استغاثة الرجل أفادته في تلك القضية . واشتهرت هذه الحكاية في مصر كلها وقتئذ .

وكان محمد عبده يتوخى في أحكامه تربية الجمهور وإيقاظ ضميره ، كما كان شديد العناية بالتوفيق بين الخصوم ، وإصلاح ذات البين بين العائلات . ومما قاله بهذا الصدد لقاض من تلاميذه : « أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً . وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم ؛ فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح » .

* * *

روى أن الأستاذ الإمام حدّث تلاميذه مرة في درس من دروس التفسير عن بعض وقائعه مع الناس ، فذكر أنه ركب القطار ذات ليلة كعادته في عودته إلى منزله بعين شمس ، فما استقر به مجلسه من القطار حتى وجد شيخاً معمّماً ذا لحية واقفاً أمامه . فسأله عما يطلب ، فأجاب الشيخ : « أنا يا سيدي من طلاب الأزهر جئتك متوسلاً إليك أن تميلني على أمري . » . قال المفتي : « إنْ كان في الأزهر يد قد امتدت إليك بظلم فاعلمْ أنني أول من يعينك

يرفع الظلم عنك » .

الشيخ : « أنا يا سيدى من المتقدمين إلى الامتحان بالأزهر فأرجوك أن تساعدنى عليه ، وأنا رجل فقير أستحق العطف والإحسان » .

الفتى : « لو كنت طالب إحسان لما منعتك شيئاً مما أستطيع . ولكن يظهر أنك تريد منى أمراً آخر خطيراً لا قدرة لى عليه . ولو استطعت ما تركت أحداً يمكّنك منه . إنك تريد أن أعينك على الامتحان ! وبعبارة أخرى إنّ لك قضية وتريدنى على أن أكون شاهد زور فيها ! ومتى كانت شهادة الزور حسنة من الحسنات ؟ إن مثلك فى الأزهر مئات يتقدمون للامتحان : فإن منحتك الشهادة من دونهم فأين العدل ؟ ! وإن منحتكم جميعاً فأين الامتحان ؟ » .

وما وصل الأستاذ الإمام من حديثه إلى هذا الحد حتى كان القطار قد وصل إلى المحطة ، فنزل . وما مشى إلا خطوات حتى أحس بالشيخ الأزهرى ماشياً وراءه ، فالتفت إليه وقال له : « أظنك فهمت كلامى كله . فلا تتعب نفسك ولا تضع وقتك » . فما كان من الشيخ إلا أن اقترب من الفتى وقال له : « يا سيدى إن معى هدية أريد أن أقدمها إليك . فهل تتفضل بقبولها ؟ » .

ففهم الفتى غرض الطالب ، وأراد أن يعبث به فقال : « كم تريد أن تعطينى ؟ » .

قال الأزهرى : « ثلاثين جنيهاً » .

قال الفتى : « ذلك قليل » .

قال الأزهرى : « سأعطيك ثلاثين غيرها من صاحب لى يريد منك ما أريده . ورجاؤنا إليك يا مولاى ألا تقسو علينا ، فنحن قوم فقراء ، وأنت من القوم المحسنين » .

عند ذلك غضب الأستاذ الإمام غضبته المعروفة ، ونظر إلى الأزهرى شذراً ، وقال له : « يا شيخ ! إننى إنْ احتملتُ منك كل شىء فلا أستطيع أن أحتمل من طالب من طلبة الشريعة الإسلامية أن يسمى الرشوة وفساد الذمة عطفاً وإحساناً ! » . ثم حمل عليه بعصاه ، وضربه ضربة لم يلو بعدها على شىء .

ولقد ذكر السيد مصطفى المنفلوطى أن الأستاذ الإمام علّق على تلك الواقعة فقال : « لقد خضت غمرات هذه الحياة ، وما بلغت العشرين . وها أنا قد نيفت اليوم على الخمسين ، ولا أعلم أنى طمعت فى يوم من أيام حياتى فى شىء مما زواه الله عنى ؛ كما لا أعلم أنى نظرت إلى زخرف هذه الحياة نظر المتشهّى المتمنّى الذى يشتد فى إثرها عدْواً ويقتل نفسه وراءها سيراً . ولقد مرّت بى فى كثير من أيامى الماضية ساعات كان لى فيها من المداخلة على أصحاب هذه البلاد وذوى الجاه والسلطان فيها ما يملأ بيتى فضة وذهباً . ولا أكتمكم أنى كنت أعالج من مجاهدة هذه الشهوات ومدافعتها ما يجب أن يعالجه كل من نشأ مثلى بين قوم شرهين طامعين . وكنت أحسب أن قد انتشر لى بين الناس من الذكر بالعفة والشرف وإباء النفس ما يثلج به صدرى وتطمئن إليه نفسى . فلما رأيت من حال هذا الرجل ما رأيت ، علمت أنه لا يزال يوجد فى الناس من يظن بى ظن السوء ، ويتوهم أنى من سفلة الناس وجهلائهم الذين لا يطلبون الوظائف إلا ليرتشوا ، ولا يرتشون إلا ليظلموا » .

والواقع أنه كان للشيخ محمد عبده أعداء يكرهونه ، فكانوا يطعنون فى أخلاقه ويرمونه بما هو منه برىء ! وكان له حساد يكيدون له ويحسدونه على ما بلغ من عز وجاه . ولقد روى البعض أن الأستاذ الإمام حين كان مستشاراً مع سعد زغلول وقاسم أمين ، كان بعض الحاسدين الأفاكين يرمون الثلاثة بالرشوة . وجلس الأستاذ الإمام ذات ليلة فى فناء منزله فتحدث مع شاعر النيل حافظ بك إبراهيم من هذا الأمر ، فقال الإمام : « والله يا حافظ لو كنتُ أقبل الرشوة لسال هذا الفناء ذهباً » . ولقد صدق

لامية العرب

لامية العرب ، أو إن شئت فقل قصيدة الصحراء ، هى صورة البادية الناطقة ، ولوحتها الخالدة التى تعرض لنا قحطها وجفافها ، قسوتها وأهوالها ، حرارة صيفها ، وزمهرير شتائها . وهى من وضع شاعر عاش فيها وخبرها بعد أن عاف الحضر ، وكره سكان المدر لأنه :

طريدُ جناياتٍ تياسرْنَ لحمَه
عقيرتُه لأيّها حُمَّ أوّلُ

تنامُ إذا ما نامَ يقظى عيونُها
حِثاثاً إلى مكروهِهِ تتغلغلُ

وصاحب هذه اللامية الشنفرى يبغض أهله ، ويحتقر عشيرته ، فهو لا يستهل قصيدته بالنسيب وبكاء الأطلال أو رثاء الدمن ، ومدح أفراد قبيلته والتغنى بصفاتهم أو التحدث عن بطولتهم كما جرت عادة الشعراء ، بل بقوله :

أقيموا بنى أمى صدورَ مطيّكم
فإنى إلى قومٍ سواكم لأميلُ(١)

ولى دونكم أهلون سِيدٌ عملّسٌ
وأرقطُ زُهلولٌ وعرفاءُ جيألُ

هُمُ الأهلُ لا مستودَعُ السرِّ ذائعٌ
لديهم ولا الجانى بما جرَّ يُخذَلُ

وكلٌّ أبىٌّ باسلٌ غيرَ أننى
إذا عرضتْ أولى الطرائدِ أبسلُ

وهكذا نجد عبقرية ابن مالك الأزدى تفيض عليه بقصيدة يهب فى أبياتها نسيم الحرية ، ويدوى فى أركانها صوت ابن الصحراء :

وفى الأرضِ منأى للكريمِ عن الأذى
وفيها لِمَن خافَ القِلى متحوَّلُ

لعمرُكَ ما فى الأرضِ ضيقٌ على امرئٍ
سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

وتختص الجوع والعطش بأبيات تقرب من الثلاثين ، وتمثل هذا العدد وصف الصحراء وأخلاق الشاعر . والشنفرى فى تصويره للجوع والعطش يرسم لنا لوحة قلما نجدها عند غيره من كبار الفنانين ، فنحن أمام رجل يقول :

أديمُ مِطالَ الجوعِ حتى أميتَه
وأضربُ عنه الذِّكرَ صفحاً فأذهلُ

وأطوى على الخمصِ الحوايا كما انطوتْ
خيوطةُ ماريٍّ تُغارُ وتُفتلُ

وأغدو إلى القوتِ الزهيدِ كما غدا
أزلُّ تهاداه التنائفُ أطحلُ

وأستفُّ تُربَ الأرضِ كى لا يرى له
علىَّ من الطَّولِ امرؤٌ متطوِّلُ

وتضيق الصحراء أمامه ولا يجد من القوت شيئاً ، فيعرض لنا صورة أخرى يجسد فيها الجوعَ والشاعرَ فى شبح ذئب وصفته القصيدة بما يقرب من عشرة أبيات تعتبر من خير الأدب الذى خلفه لنا الشعر الجاهلى . اختار الشنفرى الذئب للتعبير عن الجوع وكان موفقاً فى اختياره ، وعرض القطا لتصوير العطش فكان أبلغ وأدق :

(١) لم ألتزم فى هذا المقال ترتيب أبيات اللامية كما هى بأيدينا ، وأهملت الروايات المختلفة لبعض ألفاظها لضيق المجال .

الشيخ محمد عبده ؟ فالمعروف أنه لم يخلف شيئاً لأهله مع ما كان له من مرتب كبير فى الأوقاف . وصدق أستاذنا مصطفى عبد الرازق باشا إذ قال : « لو شاء الشيخ محمد عبده لكان ذا غنى ، ولترك لأرملته المحترمة المريضة ثروة تكفل لها من بعده رفه الشيخوخة ، وتصونها من ذلة العسر . ولكن الأستاذ الإمام كان أكبر نفساً وأشد احتقاراً للدنيا من أن يبذل جهده فى جمع المال . فعاش عظيما فقيراً ومات فقيراً عظيما » .

عثمان أمين

وأشربُ أسآرَ القطا الكُدْرُ بعدَ ما
سَرَتْ قَرَباً أحناؤها تتصلصلُ
هممتُ وهمّتْ وابتدرْنا وأُسْدِلَتْ
وشمّرَ مني فارطٌ متمهّلُ

إلى أن قال :

فعبّتْ غشاشاً ثمّ ولّتْ كأنّها
مع الصبحِ رَكْبٌ من أحاظةَ مُجفِلُ

وغير الذئب والنمر ، والضبع والقطا عرض لغيره ، وشبه شجاعته بفؤاد السبع ، كما حدثنا عن الألفة التي قامت بينه وبين الأراوى . أما أخلاق الشاعر فأخص ما توصف به الشجاعة والقناعة ، والصبر وعزة النفس ، والفخر ، وقد عبر الشنفرى عن هـذه الصفات وغيرها بعبارات قوية وألفاظ منتقاة ، وهذه هي الأسباب التي جعلت من اللامية قصيدة عالية خالدة استحقت من علماء اللغات السامية من الغربيين هـذه العناية التي صرفت في دراستها وإدراك جمالها . فمنذ أن نشرها (ده ساسي) واتجهت إليها أنظار كثيرين من المستشرقين أمثال (فرتل) و (فيل) و (كزجارتن) و (رويس) و (ريكرت) و (وهر رجشتال) و (الفارت) وغيرهم الذين عنوا بها عناية خاصة ، ونقلوها نظماً ونثراً إلى اللغات الأوربية . ولم تقف عناية الغرب بهذه اللامية عند هذا الحد ، بل نرى كثيرين من علمائه أخذوا يتسابقون إلى اقتناء مخطوطاتها وسد حاجة الباحثين بتوفير نصوصها ، فأصبحنا لا نقرأ أي بحث حولها إلا ونجد إشارة إلى نسخة (بيترمان) و (شبرنجر) ومكتبة (جوتا) و (ليدن) و (باريس) و (الفاتيكان) و (أكسفورد) وغيرها من دور الكتب الغربية الشهيرة . وفي عام ١٨٦٤ رأى شيخ المستشرقين (نولدكه) أن الوقت قد حان لإعادة بحث هذه اللامية ، فانصرف إليها وقتاً ثم خرج للعالم بكتاب حول الشعر الجاهلي عرض فيه للآراء المختلفة التي قيلت في اللامية وناقشها ، ثم قال : ولولا أن رأيت في نسخة — بيترمان — عبارة لامية الشنفرى وقيل إنها منحولة ما تطرق إلى ذهني شك في صحتها . وإذا كانت هذه القصيدة كما يدعي البعض غير حقيقية ودخيلة على الشنفرى ، فالشاعر الذي قالها يجب أن يكون ملماً بالحياة العربية الجاهلية إلماماً تاماً ، كما أن خياله كان غزيراً جداً ، حتى إنه ليستحق أن يتبوأ أسمى مكان بين الشعراء الجاهليين . ويذهب بعيداً في بحثه فيعرض لأبيات القصيدة ومفرداتها على ضوء شعر الشعراء الجاهليين الذين وصلتنا آثارهم ، ويخلص من هذا الدرس إلى قوله : إذا لم تكن هذه القصيدة لبطل الصحراء ، فإنها صنعت للنسب لثله ، وما كان في استطاعة شاعر إسلامي متأخر الخروج من بيئته والتحدث إلينا بمثل قول الشنفرى :

فإن تبتئسْ بالشنفرى أمُّ قسطلٍ
لَمَا اغتبطتْ بالشنفرى قبلُ أطولُ

ولم يقف أمر اللامية عند هذا الحد من العناية ، بل نجدها مع مرور الزمن تخطو خطوات واسعة في التغلغل في الأوساط الأدبية الغربية بفضل عناية رجال اللغات السامية بالشعر الجاهلي ونشر كنوزه . وبعد أن كانت العناية بهذه الآداب العربية قاصرة على الأفراد ، إذ بها تغزو المجامع العلمية ، فنجد مجمع فينا ينشر دراسة لنولدكه في خمس معلقات : زهير ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث بن حلزة ، كما أصدر معلقتي امرئ القيس وطرفة عام ١٩١٣ بعد مجهود عظيم صرفه في بحثهما (جيجر) و (جنز) . وبينما كان المجمع العلمي في فينا منصرفاً إلى مثل هذا النوع من الأبحاث ، إذ بالمجمع العلمي البافاري ينشر في عامي ١٩١٤ و ١٩١٥ عبوع بحثاً يعتبر أحسن ما بأيدينا حول لامية العرب للمستشرق (جورج يعقوب) . ويكفي أن أقول هنا إن هذا العلامة لم يقدم على

هذا البحث إلا بعد أن مهد له بكتاب عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ، وجمع كل المراجع التى تعرضت لهذه اللامية ، كما عنى عناية خاصة بنبات الشرق وحيوانه حتى قال فيه (فلهوزن) مرة : يجب على حكومتنا الألمانية أن تقيم حديقتين لحيوان الشرق ونباته وتعين جورج يعقوب مديراً لها . وهو فى بحثه هذا تراه يصب كل هذه المعلومات فى قالب علمى جميل ، ويناقش فى شىء من اللين والدعة الرأى الذى أجمع عليه شراح اللامية لفظ (السِّمْع) الوارد فى قول الشنفرى :

فإنى لمَولى الصبر اجتاب بَزَّه

على مِثلِ قلبِ السِّمْعِ والحَزْمَ أفعلُ

وقد ذكر الزمخشرى ، وابن زاكور ، وعطاء الله ، والمبرد ، أن : السمع هو ولد الذئب من الضبع : وخالفهم (جورج يعقوب) وقال إن مثل هذا التزاوج لم يتم بين الذئب والضبع ، واستعان لإثبات صحة رأيه بحديقة حيوان (هلاون) التى بحثت فى تجربة التزاوج بين الذئب والثعلب ، وأخفقت فى تحقيق ما ذهب إليه شراح اللامية . فالسِّمْع حسب تقارير الرحالة ، وعلماء الحيوان ، هو حيوان يشبه الكلب ، وفى حجم الحمار إذا لم تصب منه الطلقة الأولى مقتلا تكون عنده مناعة ضد الرصاص ، وهو يهاجم الإنسان ويضربه بمخلبه الأمامى فيبجر بطنه ويفترسه ، ومن شدة خطره وقوة بأسه لا يستطيع الفرد السير ليلا إلا فى صحبة قافلة . ويطلق عليه علماء الحيوان اسم (ليكاون بكتوس) (Lycaon Pictus) وهو مشهور بقوة السمع حتى قيل :

تراه حديد الطرف أبلج واضحاً

أغر طويل الباع أسمع من سِمع

وغير هذه الملاحظة يسوق كثيراً من التعليقات والأدلة التى يستشهد بها على صحة هذه القصيدة ونسبة قائلها ، ومن هذه البراهين التى يقصدها قول الشنفرى :

فَعَبَّتْ غِشَاشاً ثم مرَّت كأنها

مع الصُّبح رَكْبٌ من أحاظة[(1)] مُجْفِلُ

أو قوله :

تَعَشَّتُ له وجهى ولا كِنَّ دونه

ولا سِتْرَ إلا الأَتْحَمِىُّ[(2)] المُرَعْبَلُ

وقبل أن يختم بحثه جاء بمعجم لغوى خاص بمفردات اللامية والمعانى التى استعملت فيها ، كما عرض لسائر المراجع الشعرية والنثرية التى استعملت نفس المعانى التى ذكرها الشنفرى . وبعد شرحه للقصيدة جاء بسائر المصادر التى عرضت للامية أو لبيت منها ، وهذا الجزء الأخير هام جداً لا لدارس الشنفرى فحسب ، بل للشعر الجاهلى أيضاً .

دكتور فؤاد حسنين

(1) منطقة تقع ببلاد اليمن شمال خط عرض 14 وخط طول 44 شرق جرينويش . ويرى صاحب جزيرة العرب فى الجزء الأول ص 78 — 79 أنه برج ببلاد اليمن . ويذكر البكرى فى معجمه الجغرافى : وقد قيل إن أحاظة قبيلة من ذى الكلاع من حمير وهو الصحيح .

(2) برد منسوب إلى أتحم وهى بلدة باليمن .

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لمدة أشهر:
45 فى مصر والسودان
37/5 للطلبة ومعلمى الإلزام
60 فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
75 فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد 15 مليما

العيب الذى فينا :

قرأتُ فى مجلة أسبوعية كلمة لأحمد حسنين باشا عن الحياة الأدبية فى مصر ، قال فيها : إنه لا يوجد فى مصر نقد ولا نُقّاد ؛ وكان شاهده على هذا الرأى كتابه عن الصحراء الذى صدر منذ عشرين عاماً ، فهو يقول إنه حين أصدر هذا الكتاب وتوقع أن يسمع رأى الناس فيه ، لم يَلق إلا الورود تنثر عليه من كل ناحية ، وعند ذلك آمن بأنه لا يوجد نُقّاد فى مصر .

وكانت هذه الكلمة موضوع حديثنا ليلة الأمس ، فتناولها كل منا بالتعليق .

قال واحد — أذكر أنى قرأتُ هذا الكتاب وأعجبتُ به إذ ذاك كل الإعجاب ، وما يخلق بكاتب أن يتشكك فى قدر كتابه ، فيحسب إجماع الناس على الإعجاب به دليلاً على ركود النقد أو انعدامه . . .

وقال آخر — إنى أعرفُ هذا الرجل ، وأعرفُ فى خلقه القويم سيطرة كاملة على قلبه ولسانه ويده ، وما أظن أنه قال هذا القول إلاّ وقد أحسّ فى كتابه ناحية جديرة بالنقد فهاله أن يراها هو ولا يراها الناس .

وقال ثالث — أما أنا فلا أعرفه ، وإنما أعرف أن فى كل كتاب جزءاً ناقصاً ، وأن إتمام هذا الجزء هو عمل الناقد ، وأن حياتنا الأدبية أزدهرت حيناً وانتعشت أيام كان أعلام الأدب والنقّاد يُشرعون أقلامهم ليناقشوا كل شاعر أو كاتب الحساب ، ثم تلا ذلك ما نحن فيه ، عهد نثر الورود ، حتى ألِف الكُتّاب ذلك ، وحتى ألفه القراء ، وأصبح نقد الكتاب يعد عملاً عدائياً ، والتقريظ زكاة أدبية أداؤها فرض وإهمالها إخلال . . .

وكان صاحبنا « س » صامتاً طوال هذا الحديث ، فعجبتُ لأمره وقلتُ له :

— ألا رأى لك تبديه فيما تأخذ به من جدال ؟

قال — وأى رأى وفى قولة هذا الرجل العظيم كل ما يختلج فى النفوس الأبية من ألم لما يسودنا ويغمر حياتنا من رياء ؟ أليس صاحبكم يعبر عن ثناء الناس بنثر الورود ؟ إنه ليعرف ما للورود من عَرف ذكىّ ، وما للونها من جمال . لقد اشتم ذلك العرف واستمتع بصره بذلك الجمال ، لكنه أقوى حساسية من غيره ، فاشتم فى عمله وراء العرف شيئاً ليس من الزهر ، ونفذت بصيرته فرأت وراء الجمال نقصاً وعيباً ، ولقد قال أحدكم إنه رجل يحكمه خلقه القويم ، لذلك ساءه أن يرى فى نفسه ما أخفاه عنه الناس .

إن هذا الرأى يا إخوانى ليس حكماً أدبياً خالصاً ، إنه حكم أخلاقى أيضاً ، إنه صرخة صادقة الباعث ، صادقة الغرض ؛ فنحن لا نشكو من شىء قدر شكوانا من نثر الورود ، من الرياء الذى يُجلّل أخلاقنا . تعالوا معى أيها الإخوان نجل جولة فى أى مجتمع : هذه جماعة يتوسطها سيّد ملحوظ المكانة مرعى الجانب ، وهذا السيّد إنسان له عقل وله هوى ، وقد يغلب عقله هواه غالباً ، وقد يغلب هواه عقله مرة لها ما وراءها ، فماذا يكون موقف الناس منه ؟

أما الذين قبلنا فكانوا يقولون للمُحسن أحسنت ، والمسىء أسأت ، أما جماعتنا فهى تتخذ « أحسنت » هذه شعاراً ، تقولها للمحسن والمسىء ، وهى تعرف إساءة المسىء وتتحدث عنها وراء ظهره ، وهى تضفى عليها من السوء ما ليس فيها ، لكنها أمامه لا تقول إلا أحسنت . كل جماعة فى مجتمعنا تفعل هذا ، وفى كل طبقة نفس هذا ، فى الجهلة والمتعلمين .

كنت أزور صديقاً من ذوى النفوذ ذات يوم فإذا

به يناقش فريقاً من عماله فى شأن من الشئون ، فأبدى واحد منهم رأياً بادى الصواب ، وبدا على وجوههم الارتياح ، لكن صديق هذا تكلم وأدلى برأى آخر ، وكان رأيه بادى الخطأ ، فسكتُّ أنا لا كفِّ نفسى مؤونة التدخل فيما لا يعنينى ، وانتظرت أن يردَّ صاحب الرأى الأول صديق إلى الصواب ، أو أن يناقشه غيره من العمال ليدلوه على الخطأ ، فما راعنى إلا موجة من الإعجاب تغمر الجميع ، وإذا هم متحمسون لرأى صديق وكأنما فيه من الصواب ما يثير الأعصاب ، وإذا بالأمر يدبَّر على هذا الرأى الخاطئ .

وجلستُ لحظة شارداً حتى انصرفوا ، فنظرتُ إلى صديق ونبهته إلى خطأ رأيه ، فإذا به يضحك ويضحك ، ويسخر من اعتراضى وقد تملكه إيمان عجيب بصواب رأيه ، إيمان لم ألمسه منه حين أدلى برأيه أول الأمر . . .

نثر الورود ! إنه داؤنا الفتاك بأصدقائى ، نثر الورود فى سبيل المخطئ ، فتزيد ضلالاً ، وما ضلاله إلا إيمانه بصواب ما يقترف ، فإذا ما استفحل ضلاله ومشا الضرُّ منه كنا أحد رجلين ، مُراءٍ ضيِّق الطاقة فى الرِّياء له بقية من صراحة ينفض عنها التراب ، ومُراءٍ واسع الحيلة يتخفف من حمل ريائه بنثر أشواكه خلف الورود ؛ أما الأول فما أحسب أن الشرَّ إذا تضخم توقفه

زوة غير عارضة ، فهو فاشل إذن ؛ وأما الثانى فما يتقد الخير الشرُّ أبداً ، وما هو بقادر إلا على أن يضيف إلى رذيلة الرِّياء ، رذيلة النم والاغتياب . . .

كم مِنْ مخطئ ناشئ انقلب إلى آثم عريق فى الإثم بفضل ما نثر فى سبيله من ورود ؟!

وكم مِنْ صالح الطوية سليم دواعى النفس سار فى الشر من غير قصد ، وكان خليقاً به أن يرجع لولا أن زيَّن له مَنْ حوله سبيل الخطأ بنثر الورود ؟! .

إنه الرِّياء الذى شكا منه صاحبكم العظيم ، ما أشكو منه أنا وما يشكو منه كل إنسان ، السادة والأتباع ، الحكام والمحكومون ، كلنا يشكو هذا الداء ، وكلنا ينثر الورود فى سبيل الغير ، ليحظى بالورود يوماً فى سبيله ، حتى لقد أضحت حكمة زماننا الذهبية « شَيِّلْنِى واشَيِّلَكْ » ! وإنى لأخشى يوماً أن تسقط أحمالنا على رؤوسنا ، فلا ندرك ثقلها إلا حين تقعدنا عن السير . . .

* * *

وسكت صاحبنا ، وغمرتنا موجة من الإعجاب بما قال ، ولم تلبث إلا أن تبدى له هذا الإعجاب ، لكنه نظر إلينا حذراً وقال :

— ولماذا أيضاً ؟ أتنثرون الورود ؟! . . . . . .

صموع زهنى

سافونارولا

— ٣ —

إشارة إلى ظروف أوربا وإيطاليا — الغزو الفرنسي لإيطاليا — ثورة بدون دماء ، وإرسال سافونارولا إلى شارل الثامن — شارل في فلورنسا — نفوذ سافونارولا .

شهدت أوربا في أثناء القرن الخامس عشر تقوى سلطة الحكومات الملكية ، ونشأة الدول القوية الموحدة . فكان الأتراك العثمانيون مسيطرين في البلقان بقواتهم الحربية الممتازة ؛ وأصبحت أسبانيا دولة قوية بعد أن أتمت وحدتها القومية ، وطردت بقايا العرب من شبه الجزيرة ؛ وألمانيا ولو أنها كانت ضعيفة ظاهرياً إلا أنها كانت تملك قوة حربية آخذة في الازدياد بالتدريج . وكان السويسريون جنوداً أشداء واقفين على حدود إيطاليا مستعدين أن يعبروا الألب لمن يدفع أجورهم ؛ وكانت فرنسا دولة موحدة على رأسها ملك شاب ، وفي يده جيش قوي مدرب . وتطلع كل هؤلاء لغزو إيطاليا ، وستؤدي الظروف إلى أن تصبح ميدان حرب ومسرح قتال للجنود الأجانب ، وستصبح السيطرة على إيطاليا محور السياسة الأوربية الدولية زمناً طويلاً .

وظروف إيطاليا ذاتها هي التي أوجدت هذه الحالة . فهي كانت مهد حركة النهضة ومركز الغنى والثروة . وقد أثار ذلك شعور الغيرة في قلوب الأوربيين نحو إيطاليا ، ووجدوا أنه ليس من المناسب أن تظل إيطاليا محط أنظار الجميع ، وأن تبقى مقصد الطلاب الذين يهرعون إلى جامعاتها من كل أنحاء أوربا ، وأن تظل المركز الوحيد للفنون والعلوم والآداب ، وأن تدرس لغتها وتحتذى عاداتها في بلاط الملوك والأمراء في أوربا ، وأن يعرف الكتاب ورجال الفن والفلسفة والطب والفلك والملاحة والتجار والأمراء الإيطاليون بتفوقهم على نظرائهم في أوربا . ومن هنا نفهم شعور الإعجاب الممزوج بالكراهية الذي أحسه الأوربيون نحو إيطاليا في ذلك العصر . وفي الوقت نفسه كانت ظروف إيطاليا الحربية والسياسية لا تتناسب مع مركزها الثقافي الممتاز ؛ فالإيطاليون الذين كانوا أول من وضعوا فن الحرب الحديث ، وعلموا أوربا الخطط الحربية الحديثة ، وقابلوا القوات الأجنبية بشجاعة نادرة ، كانوا قد زالوا من الوجود . وعند ما عكف الإيطاليون على مسائل الفن والأدب والحضارة ، أهملوا العناية بشئون الحرب ، وعهدوا إلى المرتزقة بالقيام عنهم بأعمال الحرب في الدفاع وفي الهجوم ، وبذلك أصبحت إيطاليا ضعيفة من الوجهة الحربية . ومن الناحية السياسية كانت إيطاليا مقسمة إلى بعض ولايات مستقلة ساد بينها التنافس والصراع الداخلي الدائم ، ولم تستطع قوة بعينها أن تتغلب على أسباب النزاع وتوحد شبه الجزيرة . وكان من المحتم أن تصبح إيطاليا هدفاً للغزو الأجنبي في أواخر القرن الخامس عشر .

وإذا نظرنا إلى فلورنسا بصفة خاصة ، وجدنا أن الظروف الجغرافية قد لعبت دوراً مهماً في تحديد مصيرها . فهي كانت دولة غنية وضعيفة ومحاطة بحلقة من الإمارات التي تنافسها ، وهي : ميلانو والبندقية وأملاك البابوية . وكان الباباوات وبخاصة إسكندر بورجيا مهتمين بسلطتهم الدنيوية ، وتطلعوا إلى الاتساع وخاصة في إقليم روماتيا ، مما يهدد ذلك فلورنسا التي كانت تتاخمها أملاك البابوية من ناحية الجنوب . وفي الشمال الغربي كانت البندقية أقوى وأغنى من فلورنسا ، وهي امتدت في الأرض الإيطالية ، وسعت للنمو والاتساع . وفي الشمال كانت ميلانو تحت حكم آل سفورزا تعاني اضطرابات داخلية . ووجد لورنزو العظيم أن السلام لا يمكن أن يستقر في إيطاليا ، وأن مصلحة فلورنسا لا تتحقق إلا بالمحالفات السياسية ، فحالف نابلي لكي يخفف ضغط البابا عليه . وكذلك حالف ميلانو لكي

يمنع عنه خطر البندقية . وبذلك أوجد حالة من التوازن كان من شأنها أن تعمل على إبعاد خطر الحرب عن فلورنسا وإيطاليا . ولكن ابنه بيرو اتبع سياسة خرقاء . فأخذ يتآمر مع نابلى ضد ميلانو ، وكان الأحرى به أن يوطد علاقاته مع ميلانو لمحاولة الوقوف فى وجه الغزاة الأجانب . فاضطرت ميلانو إلى طلب المساعدة من فرنسا . وستطلب نابلى المساعدة من أسبانيا . وسيصبح الفرنسيون والأسبان غزاة فى الأرض الإيطالية .

وفى الوقت الذى نحن بصدده كان يحكم فرنسا شارل الثامن ، وكان صاحب أطماع واسعة ، وفكر فى أن يقوم بما قام به سان لويس فى الشرق ، وأن يثير حرباً صليبية جديدة ضد الأتراك العثمانيين ، وكانت السيطرة على إيطاليا وعلى نابلى بصفة خاصة أول خطوة فى سبيل تحقيق ذلك المشروع العظيم . وقد اجتمع حول الملك الشاب بعض رجال بلاطه وبعض أمراء نابلى الخارجين على ملكها فردناند ، وحرضوه على ضرورة الإسراع فى القيام بالحملة الإيطالية . وفى أغلب أنحاء إيطاليا كان أصدقاء الحرية يتطلعون إلى قدوم الفرنسيين ؛ وطبيعة أهل إيطاليا المتقلبة ، وعنصر التغير وتوقع المجهول فى أخلاقهم ، جعلهم يأملون التخلص من حكم الطغاة على أيدى الفرنسيين ، وإن لم يكن هذا رأى كل حكام إيطاليا .

وقد أعلن سافونارولا صداقته للفرنسيين معارضاً بذلك سياسة بيرو دى مديتشى . وحظرت لسافونارولا فكرة شارل الثامن لإعادة مجد المسيحية فى الشرق . وتحرك شارل فى أغسطس ١٤٩٣ ، وعبر جبال الألب إلى إيطاليا ، وخف إلى استقباله دوق ميلانو وغيره من الأمراء . واستطاعت القوات الفرنسية أن تتغلب بسهولة على قوات ملك نابلى . وحاول بيرو المقاومة ولكنه لم يفلح . فذهب لمقابلة شارل ، ولكنه لم يحصل على شروط ملائمة ، فسلم قلاعه وتعهد بدفع مبلغ كبير من المال ، واحتل الفرنسيون بيزا وليفورنو أثناء الحرب ؛ وبذلك أصبح شارل مسيطراً على أراضى تسكانا .

وساد فى فلورنسا شعور عام بعدم الثقة بمصير الحوادث ، ولم يكن لآل مديتشى قوة حربية فى فلورنسا يمكن الاعتماد عليها ، ولم توجد بها سلطة فعلية تسيطر على الموقف ، وتهددت المدينة ثورة جامحة . وكان سافونارولا هو الشخص الوحيد الذى له سلطان على الناس ، وتطلع إليه الجميع لإيجاد سبيل للنجاة من الأخطار . فخرج من عزلته وخاطب الناس قائلا : « انظروا ها سيف الله مسلط فوق رقابكم ، وها نبوءاتى قد تحققت وبدأ عقاب الله . . . وإن خطاياك يا فلورنسا ويا روما ويا إيطاليا هى التى جلبت هذه الويلات ، فأعلنوا ندمكم وصلوا لله وكونوا متحدين » . ورأت فلورنسا ضرورة إرسال وفد لمقابلة شارل الثامن ، واختير من بين أعضائه سافونارولا الذى ذهب فى سفارته سيراً على الأقدام . وفى نفس الوقت حاول بيرو أن يحصل على تعضيد الملك كما حاول أن يجمع بعض القوات الحربية ، ورجع إلى فلورنسا ، ولكن رجال السنيورية قابلوه ببرود وأساء العامة استقباله ولم يجد من يعضده ، ففر إلى بولونيا ثم إلى البندقية ، وقررت السنيورية منح مكافأة لمن يحمل إليها بيرو حياً أو ميتاً . وبذلك تمت ثورة بدون دماء . وقابل سافونارولا شارل فى بيزا ، وخاطبه قائلا : « إن الله قد أرسلك لكى تخلص إيطاليا من الويلات ، كما تنبأت بذلك من قبل ، وإنه قد أرسلك لكى تصلح الكنيسة ، وإذا لم تكن رحيماً عادلاً ، وإذا لم تحترم فلورنسا ونساءها وأهلها وحريتها ، فإن الله سيصب عليك غضبه الشديد » .

وفى الوقت الذى طرد فيه آل مديتشى من فلورنسا كانت بيزا قد خرجت على حكم فلورنسا ، وحذت حذوها مدن أخرى تحت أعين الجند الفرنسى . ووصل شارل إلى فلورنسا فى استعراض فخم . واتصل بيرو بشارل ، وعرض

سيرة صلاح الدين

— ١٠ —

توحيد

« ذهب السلطان إلى الشام ، وفتح دمشق وغيرها من البلدان . ثم عاد إلى مصر ، ولم يكن قد فرغ من التغلب على جميع أعدائه من السلفيين بعد . فعاد ثانية إلى الشام ، ليعمل في هذه المرة على إيجاد وحدة إسلامية قوية ، يستطيع بها أن ينجح في مطاردة الفرنج بها » .

هتف بالسلطان هاتف الحج ، وتاقت نفسه الكريمة إلى أداء هذا الفرض ، وأراد أن ينتهز فرصة الصلح الذى عقده منذ حين ليقوم هو بأداء هذه الفريضة من فرائض الدين . وبينما هو يتهيأ لهذا القصد ، وبينا هو يهيم في نوع من الشعور كأنه الوجد ، إذا بصديقه القاضي الفاضل يدخل عليه ويقول : أرى المولى يفكر في أمر .

قال السلطان : نعم أفكر في الحج وزيارة الرسول ، وأود أن يكون لى من الحظ ما كان لك بالأمس يا عبد الرحيم ، فقد كتبتَ إلىّ في الحج ، وقلت إنها حاجة الدنيا والآخرة وأنشدت :

متى يأت هــذا الموت لا يلف حاجة
لنفسى إلاّ قد قضيت قضــــاءها

قال الفاضل : نعم يا مولاى ، وكتبت أنت على رأس الرقعة التي أذنت لى فيها بالحج قولك : « على خيرة الله . يا ليتنى كنت معكم فأفوز فوزاً عظيما » .

قال السلطان : «منذ يومئذ يا عبد الرحيم وهذه الرغبة تتحرك في نفسى ، ويدق لها قلبي ، وأتربص الوقت الذى يسمح بأداء هذا الفرض . وهاهي الفرصة قد سنحت بإبرام الصلح » .

قال الفاضل : « الرأى عندى الآن ألاّ يفكر المولى في ذلك ، فليس الوقت ملائمًا له » .

عليه إذا رجع إلى فلورنسا استعداده للاشتراك في الحكم مع الفرنسيين . وبذلك أبدى شارل صلابة إزاء مفاوضى فلورنسا ، وحادثهم بكبرياء ، واعتبر أنه دخل المدينة فاتحاً . فهبّ أهل فلورنسا للدفاع عن حريتهم ضد هذا الطغيان الجديد ، وأقيمت المتاريس في شوارع المدينة ، ووقعت مشاحنات ومصادمات بين أهل فلورنسا والجند الفرنسى ، تلقى فيها الفرنسيون درساً قاسياً ، وعرفوا أنهم إذا استمروا على هذا الحال عرضوا زهرة قواتهم للضياع بين شوارع المدينة . فوصل الفريقان في ٢٨ نوفمبر ١٤٩٤ إلى الاتفاق التالى : يلقب شارل بحامى حرية فلورنسا ، ويحتفظ الفرنسيون بالقلاع التى في أيديهم لمدة سنتين ، وتتعهد الفلورنسيون بدفع مبلغ كبير من المال ، وينال أهل بيزا العفو عندما يعلنون تبعيتهم لفلورنسا ، وتلغى المكافأة التى وضعت للحصول على رؤوس آل مديتشى ، مع بقائهم بعيدين من الأراضى التسكانية .

وبعد توقيع هــذه الاتفاقية لم يبد شارل استعداده لمغادرة فلورنسا ، فتجددت حوادث الاصطدام بين الفلورنسيين والجند الفرنسى . فأخذ سافونارولا يحض الناس على السكون والهدوء ، ودعاهم للعمل على الدفاع عن حريتهم ، والسعى لتحقيق الوحدة . ثم ذهب لمقابلة الملك مرة أخرى وقال له : « إن بقاءك هنا يسبب ضرراً بالغاً لهذه المدينة ، وإنك تضيع الوقت وتنسى المهمة التى ألقتها العناية الإلهية على عاتقك ، فعليك بمتابعة رحلتك ، ولا تسبب خراب هذه المدينة ، فتثير عليك غضب الله » . وكان لسافونارولا مقام محترم عند شارل ، فرحل عن المدينة . وازداد تقدير الناس لسافونارولا ، وهو الرجل الوحيد الذى استطاع أن يجنب فلورنسا الدمار ، وسفك الدماء في ذلك الوقت العصيب ، والذى نجح في حمل الملك على احترام المدينة .

(يتبع) حسن عثمان

قال السلطان : « كيف ونحن فى هدنة ؟ والحج لون من ألوان الجهاد ، والنية قد صحّت عندى على أدائه » .

قال الفاضل : أليس ما فيه المولى جهاداً لأجل الدين ؟ أليس ما يشتغل به أحمى وأعظم نفعاً للمسلمين ؟ أليس يجاهد الصليبيين الذين ودّوا لو تغفل عنهم فيميلوا عليه ميلة واحدة ؟ » .

قال السلطان : « ولكنا فى صلح ، والرغبة عندى ملحة فى الحج » .

قال الفاضل : « ما يفتأ المولى يثق بوعودهم ! ! هبهم يا مولاى نقضوا العهد وانتهزوا فرصة غيبتك فى الحج . ألا — لا يأسفنّ المولى على زمان ينقضى وهو عُطل من هذه الفريضة ، فبحسبه النية الصالحة فى أدائها ، فالله سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله ، ولكن يسأل عن نيته فى تمام هذا الفعل . وإذا كان المولى آخذاً فى أسباب الجهاد ، فهو فى طاعة هى أجل من سائر الطاعات » .

قال السلطان : « وعسى ألاّ أقوم بأداء هذه الفريضة ، ومن يدرى لعلنا نؤديها فى قابل . فدعنا من ذلك الآن وقم بنا نغنم حياة الشيخ الإمام أبى طاهر بن عوف بالإسكندرية ، فقد سمعت ثناء عاطراً على هذا الشيخ ، وعلمت أنه الآن يشتغل بقراءة الموطأ لمالك . فلنذهبن إليه غداً وليذهب معنا أولادنا جميعاً لسماعه والاستفادة منه » .

قال الفاضل : « أسعد الله المولى بهذه الرحلة الكريمة وأثابه الله عليها . ولله فى الله رحلتاه ، وفى سبيل الله يوماه ، فما منهما إلاّ أغرّ محجّل » .

وبينما هما فى هذا الحديث ، إذ أتى من أخبرهما بموت الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين — مات ولم يبلغ بعد العشرين من عمره ، وبأن الأمراء فى نزاع شديد على ملكه : كل يريد أن ينتهز هذه الفرصة ويضع يده على قطعة من هذا الملك . فحزن السلطان لهذه الأخبار ورأى فى موت الفتى وتنازع الأمراء من بعده محنة جديدة من المحن التى لا بد له من التغلب عليها قبل أن يفكر جدياً فى محاربة الفرنج .

قال الفاضل : « لا يحزنك ذلك أيها المولى أطال الله بقاءك ، وجعل ملك هذا الفتى بعض إقطاعك ، حتى تستطيع جمع كلمة المسلمين ، ومحاربة القوم الظالمين ، والله أعلم حيث يضع رسالته » .

ومضت أيام تأهب السلطان فى أثنائها للرحيل ، ثم خرج من مصر فى موكب ثقيل ، اشترك فيه الجند والشعب على اختلاف طبقاته . وبينا القوم فى أفراحهم ، والسلطان يشاطرهم هذه الأفراح ، إذ بأحد المربين لأولاده أخرج رأسه من خيمته وقال :

تمتعْ من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبضت نفس السلطان ، وخمد نشاطه ونشاط صديقه القاضى الفاضل . وكأنّ المؤدب نطق بما هو كائن فى الغيب ، لأن السلطان لم يعد بعدها إلى مصر ، فقد تركها وغاب بالشام ليقضى الأعوام الطويلة الباقية له من حياته فى جهاد طويل يوحّد به كلمة المسلمين ويجمع به شملهم قبل أن يواجه بهم العدو .

ثم وصل السلطان إلى دمشق ، وأشار عليه أصحابه بالإغارة على حلب ، فأبى عليهم ذلك بحجة أن الهدنة التى بينه وبينهم لمّا تنقض مدتها ، ولا يليق بشرفه هو أن يغير عليهم قبل انقضاء مدتها .

قال له أصحابه : « فإنهم قد هادنوا الفرنج ، وسلّطوا عليك شيخ الجبل — زعيم الحشيشة — ليأخذوك على حين غرة . فادهمهم قبل أن يدهموك ، واشغلهم قبل أن يشغلوك ، وأفسد عليهم خططهم قبل أن يفسدوا عليك خططك » .

فما ازداد السلطان إلا إلحاحاً فى إبائه واستمساكاً بوفائه ، وقال لأصحابه : « إنى لأستحى من الله أن يرانى ناقضاً للعهد ، وإنى لأستحى من نفسى أن أكون كاذب

الوعد ، وما النصر إلاَّ من عند الله » .

ثم مضى أجل الصلح ، وأصبح السلطان فى حل من قتال القوم ، فرأى قبل ذلك أن يبدأ بمكاتبه ملوك الإسلام جميعاً بالوفود عليه ، فمن جاء منهم مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه فى جهاد الكفر . فوفد عليه من رسل الملوك من قبلوا الدخول فى دعوته ، ورفض منهم من أبى الدخول فى طاعته . ثم ذهب السلطان بنفسه إلى بعض مدن الشام ففتحها ، ثم اتجهت همته لأخذ (حلب) فأخذها . وكم كان سرور الرجل عظيما بفتح (حلب) ، ذلك بأنها البلد الذى سبب له من التعب ما لا يقل عما سببه له الفرنج . ولم يكد السلطان يظفر بها حتى علا قلعة من قلاعها ، وكأنما أتاه بها الهاتف الذى يختلف على آحاد من الناس — هم الرسل ومن هم فى منزلة الرسل — فيدعوهم بدعوة الله ، ويعدهم بالنصر من عند الله ، ويهيئهم لأمر من الأمور التى أرادها الله ، فيرى هؤلاء أنفسهم مدفوعين إلى تنفيذ هذه الإرادة الإلهية . فذلك معنى قول السلطان وهو بأعلى هذا المكان :

« والله ما سرّنى فتح مدينة كما سرّنى فتح هذه المدينة . الآن تيقنت أنى أملك البلاد . والآن تيقنت أنى أكسح الفرنج . » !

ونزل السلطان من القلعة فوجد الناس بالمدينة فرحين مسرورين . وفى هذه اللحظة التى كان يشهد فيها سرورهم أتاه نبأ وفاة أخيه الأصغر (تاج الملوك بورى) ، فحزن عليه كل الحزن ، وشق عليه فى الوقت نفسه أن يكدر من صفاء القوم ، فانتحى ناحية أخذ يبكى فيها على أخيه ، وأمر أصحابه ألاَّ يعلنوا موته حتى يفرغ المسلمون لسرورهم . وذلك حتى أقبل على السلطان وفد من شعراء مصر وفيهم القاضى السعيد ابن سناء الملك ، فوقف يهنئ السلطان بقصيدة أتى فى أولها :

بدولة الترك عزّت دولة العرب
وبابن أيوب ذلّت بيعة الصُّلُب

ومنها فى وصف قلعة حلب وذكر تمنّعها :

جليلة النجم فى أعلى مراتبه
وطالما غاب عنها وهى لم تغب
وما نعتّه كمعشوق تمنّعه
أشهى من الشهد أو أحلى من الضَّرَبِ
فتح الفتوح بلا مَيْنٍ وصاحبه
مَلْك الملوك ومولاها بلا كذب

وكان انتصار السلطان على (حلب) وهى الوكر الأول لبيت نور الدين بشيراً بانتصاره على (الموصل) وهى الوكر الثانى لهذا البيت الأتابكى العظيم . إذ كان المواصلة كالحلبيين من أعداء الملك الناصر صلاح الدين . وأتى الرجل لحصارهم ، فأخذوا يفاوضونه فى إعفائهم ، وسلكوا فى ذلك طرقاً شتى : فمرة يبعثون إليه بنساء من بيت نور الدين يشفعن عنده فى تركهم آمنين بالمدينة ، فيكرمهن صلاح الدين ويلقاهن لقاء جميلا ويعتذر إليهن فى لطف ورفق . وأخرى يسممون بمرضه ، ويعلمون أن المرض رقق من مشاعره ورهف من حسه ، وأنه فى المرض ألطف منه فى الصحة بكثير ، فيبعثون إليه برجل عظيم من فقهائهم ، وسياسى أريب من أخطر ساستهم — هو بهاء الدين بن شداد — وكان منهم يومئذ بمنزلة توشك أن تكون كمنزلة القاضى الفاضل من السلطان نفسه . فيأتى هذا الفقيه الجليل على رأس وفد كبير لمفاوضة صلاح الدين ، فيكرم السلطان وفادته ، ويعرض عليه مكاناً رفيعاً فى دولته ، فيأبى الفقيه ذلك بحجة أنه مندوب عن صاحبه أمير الموصل ، فيوافقه السلطان على ذلك ويقره عليه . ثم لا يجد أعضاء الوفد الموصلى بداً من توقيع شروط الصلح ، وهى شروط أملاها عليهم السلطان ، وبها أصبح سيداً أكبر على الجزء الشمالى كله من الإمبراطورية الإسلامية .

ثم اتجه السلطان إلى الأجزاء الجنوبية من هذه الإمبراطورية ولم يكن منها خارجاً عن طاعته غير إقليم واحد كان يفصل مصر من الشام وهو إقليم (الكرك) وأميره أرناط . وفى ذلك المكان اجتمعت عساكر الإسلام ، ودافع الفرنج عن هذه المنطقة دفاعاً لم يغن شيئاً أمام جموع المسلمين الذين فتحوا بلادهم ، وبلاداً غير بلادهم ، وبذلك أصبح السلطان سيداً أكبر على الجزء الجنوبى كله من الأراضى الإسلامية .

وجلس السلطان بمخيمه ، فأتى الشعراء لتهنئته وفيهم الشاعر المصرى الذى مر ذكره ، وهو القاضى السعيد ابن سناء الملك . فأنشد السلطان قصيدة وصف فيها (الكرك) بأنها عوقبت بالعقوبة التى نص عليها القرآن الكريم وهى عقوبة الرجم بالحجارة ، لأنها بلدة مسلمة رضيت أن تكون تحت رجل غير مسلم ، قال :

هى الكرك الثكلى بأولادها انثنت
من النصل مما جرّعته من الثُّكْل

غدا بعلها (الإبرنس)[1] يلعن عرسه
بها وهى لا تنفك من لعنة البعل

وقد رجمتها المنجنيقات إذ زنت
هناك بشيخ كافر جاهل رذل

ثم لم يمض زمن طويل على هذه الفتوح ، حتى وصل إلى السلطان نبأ وفاة صاحب (أرمينية) . مات ولم يترك بعده ولداً ولا ذا قرابة ، فكتب أهل البلاد إلى السلطان يخطبونه لها . فما أسرع ما خف السلطان لأخذها ، ثم ما أسرع ما كتب للخليفة فى بغداد يطلب إليه تقليداً عاماً بها وبالموصل وحلب وديار بكر . فجاء التقليد من الخليفة بالموافقة على كل ذلك .

ونظر السلطان فإذا مملكته تمتد من برقة وما حولها من ناحية الغرب ، ومن اليمن وبلاد النوبة من ناحية الجنوب ، ومن ديار بكر والجزيرة وأرمينية من ناحيتى الشمال والشرق . ونظر أيضاً فإذا هو قد فرغ من جميع أعدائه بالشام ، وإذا هو وحده فى قبضة يده جميع بلاد الإسلام ، وإذا الوقت قد حان ليحصل لنفسه ودينه وشرفه وشرف المسلمين معه فى مشارق الأرض ومغاربها على أمل طال فى انتظاره رجاؤهم ، وتحرقت للظفر به نفوسهم ، ومن أجله كان التفافهم حول أبطالهم وزعمائهم من لدن عماد الدين وابنه نور الدين إلى أن أتى صلاح الدين ، وهو البطل الذى شرفه القدر بذلك الظفر الذى لا يعرف التاريخ الإسلامى ، منذ الفتوح الإسلامية الأولى ، أعلى شأناً ولا أمجد ذكراً ولا أعظم أثراً منه .

عبد اللطيف حمزة

(1) يريد أرناط وهو من يعنيه فى البيت الثالث .

إلى سهول الريف

أذكرى التائه الشريد فقد طا — ل عنائى وحسرتى وعنائى !
تتراءى فى الفجاج طليحاً — ينضو همين : غربة وشقاء
أذكرى زهرة بغصن الأمانى — أذبلتها لواقح الأرزاء
وصدوح دامى الجناحين أصمتـ — ـه على غرة سهام القضاء
خر عن أيكه خضيباً ولم يبـ — ـق منه إلا بقية من ذماء
أذكرينى فصل سود الليالى — تنجلى عن بشاشة وهناء
أنت دنيا من المفاتن هامت — بسناها بصائر الحكماء
قد كساك الوقار ثوب سكون — نطقت فيه ألسن الشعراء
فدعينى بين الأزاهر أغفو — ساهم الطرف فى مجالى الفضاء
ودعينى مع الحمائم أبكى — فقديماً كان البكاء عزائى
كل هذى الطيور تبكى ولكن — لسن يبكين فى الحياة بكائى !
أنا أبكى على هشيم الأمانى — وهى تبكى فى جنة خضراء !
أنت معنى الجلال فيك أناجى — خالق الكون خاشعاً بدعائى
وأناديه شاكياً بدموعى — ضارعاً ، فهو مجيب ندائى

القاهرة — **عامر محمد حامد العطفى**

قصة

المنبوذة

أكانت ضحكتها التى أذكرنى يوم ضحكت . . .

أم تلك الدمعة التى ذرفتها يوم كانت . .

كانت تجلس فى شرفة دارها القريب من دارى ، فنظرت تلقى التحية إلى جارة لها . فأوصدت الجارة من دونها النافذة فى عنف ، كأنما تريد لتبعد عنها ذلك الشبح الذى نزل فى الحى بلوثه ويلطخه بسبة العار .

وأقبر وجه صاحبتى قليلا قليلا . . وانطوت على نفسها . . . ثم انحدرت من عينها دمعة .

وغابت عنى داخل الدار .

نم رأيتها ! وإن الدمعة التى ذرفتها ما زالت تحرق كوامن صدرى . دمعة ما زلت أذكرها ما ذكرت ضن الحياة على أمثالها .

أكانت تعرف ما بنزلها فى أعينهن ساكنات الحى . . أكانت تسمع حديثهن تهامساً وجهراً كلما جد ذكرها فى حديث ، وعما لوثت به الحى من علاقاتها بأقوام السوء ؟ أكانت تعرف . . ؟

وإن إحداهن لتفترى وتزيد بالذى تراه يطلق غلتها من أمر تلك التى قد تفسد عليها يوماً قلب زوجها أو قلب أخيها . . فإنها لذات إغراء . .

نم وإن التبرج كان عليها أغلب فى انقياد الهوى وإجابة نداء الشباب . كذلك عرفت بين الجيران فتبرأوا منها تبرؤ السليم من ذى علة أجرب .

وكان أن أجمع سكان الحى أمرهم على ألا تساكنهم أمثال هذه الجارة . وجعلوا يتربصون بها الدوائر حتى لقد كنت ترى الواحد منهم ينفق الليل إلا أقله مترصداً خلف شباك أو من وراء باب حتى يراها فى أوبتها بعد منتصف الليل .

كنت أسمع ذلك . وكان يداخلنى لون من الشفقة مبهم على أمثال تلك المخلوقة .

أهى قسوة الحياة التى دفعت بها إلى حيث كانت . . أم هى الأقدار الطاغية . . أم هو الإغراء .

وجاءنى يوماً أحد الأصدقاء من الجيران . ثم فاتحنى فى هذا الأمر الحديث . وكان زير نساء يتشوق لذكرهن ويذهب فى هواه كل مذهب . قال فيما قال :

— إن جارتنا هذه يا أخى لذات تكوين بديع . . إن لعينيها لسحراً . . وإنى لأهيم بها هياماً رغم تلك الأقاويل . . .

وصمت لحظة ثم عاد يقول :

— إنها الغيرة والله ممن ولى شبابها ونضب معينها . . . أين جميعهن منها وهى التى . . . ثم تبسم وقال :

— أحسب أنى ما فشلت فى مغامرة فشلى وتلك الجارة

قلت :

— وكيف . . .

وبدا كأنما يستجمع شتات فكره ثم قال :

— رقبتها لأيام . . ثم جعلت أقتفى أثرها وبذلت وسعى فى اجتذاب قلبها واستلفات نظرها . وما أفاد كل ذلك نفعاً .

وضحك ضحكة أبهم على معناها حتى استطرد .

— ما أفدت إلا عظة إبليس .

قلت له :

— غفر الله لى ولك . فما الذى فعلت ؟

قال — . . . أعيتنى منها الحيلة فصممت على وضع حد لتلك المهزلة . . وما كدت أفعل حتى نظرت إلىّ طويلا . . وقالت : « أكذلك يكون حق الجوار » .

وكأنما هو سهم غاص فى أعماق فقلت له : — فلعلك قد ارعويت .

قال — حسبك . . فإنك لحديث عهد بهن !

قلت — أو ليست فيها الكفاية ؟

فنهض منصرفاً وهو يهز كتفيه في غير اكتراث .

وجاءني بعد أيام يهدر ، قال :

— أرأيتها ؟ قلت : — من هي ؟ قال : — تلك التي حسبتها ملاكاً يخرج الحكمة من فيه « أكذلك يكون حق الجوار » ! أتذكر .

فاستوضحته الأمر ، فقال في غيظ مكتوم :

— كان ملاكنا الطاهر يهدي بعض أهل الدنيا على طريقته الخاصة . في منتصف ليلة أمس على ناصية الشارع .

ثم استطرد في تهكم :

— إني لأجزم أن رائحة الخمر كادت تؤذيني على بعد ما كان بيني وبينها . وما كنت لأعني بشأن الغير لولا أنها كلة سبقت ، فقلت له :

— وأين كنت ؟ قال : — ألتمس الطهر في ظل معبد الآلهة . . ! !

ومضت أيام ما رأيت فيها إنساناً يحيك الدسيسة ويستعدي الناس مثل ما رأيت من أمر صاحبي وصاحبته .

كيف وهو الذي لعب بقلوب الغواني والعذارى وما استعصت عليه إحداهن كائنة ما كانت استعصاء هذه الجارة اللعوب . . ! !

أكان قولها عبثاً أو تضليلاً يوم قالت . . . ؟ وحتى يصرف عنها وجهه .

وإن تمنعها ليزيده جنوناً . . . وأعماه عن سبيل الحق والواجب . وكان له من ضعفها ومما هي عليه ما أطمعه فيها ، فاندفع فيما يندفع فيه شاب القلب فيه الحب القاهر إلى البغض الشديد . وبلغ به الغضب حد التهور .

وهي العاجزة . وهي وما كان لها من يكفيها ذل الحاجة التي دفعت بها إلى حيث كانت . فكيف ومن لها من يردع طائلها إذا ظلم ؟ ! فارتكب صاحبي في حقها ما أودى لأجله . وذلك أنه اقتحم عليها الدار ليلا ينتقي السوء . . .

وكأنما شاء القدر أن يجعل منها وهي المهضومة الحق المهيضة الجانب حكماً . . ! وأصبح بين شفتي صاحبتنا أمر تبرئته أو أخذه بالقصاص .

وانفض من حوله الصحب وتبدد المؤيدون بعد إذ استيقنوا سوء العاقبة . وأقفر من بيته الزائر والصديق كأنما خشي أحدهم أن يتحمل شيئاً مما يمكن أن يكون ، بعد أن كان بيته مستراحهم وملهاهم .

وانقشعت الغمامة رويداً رويداً . وتوضح له الأمر الذي أعماه عنه الحب القاهر أو البغض الشديد .

وعرف ما هو مقبل عليه من واقع بغيض فرض .

وطال به المرض . وترجح ميزان حياته . وهذه الإجازة المقررة تنتهي أو تكاد وهو حديث عهد بالعمل ، وهو العائل لأم وثلاث أخوات صغيرات .

وإن المرء وإن بلغ في قساوته مبلغ البغي والجور فقد تأتيه ظروف هي أشد على نفسه وأعنف مما كان يتوقع . وحتى إنه ليستوجب الرثاء ممن لا تربطه بهم رابطة .

ذلك كان أمر صاحبي في مرضه بعد أن أدالته الأيام وعبثت به . وما كان تمتلك غير مرتبه مرتزقاً . . . وإن العاوية لوشيكة ، وما هي إلا أيام أو بعضها حتى يبت القضاء في الأمر كله . والكل يترقب النهاية بقلب متصدع ونفس محزونة .

وكان أن أمضيت عند صاحبي ليلة يعلم الله كيف بدأت وكيف انتهت من قسوة ما خيم على البيت من سحب دكناء قاتمة . وبات صاحبي ولم تغن الحيلة فيما قد وقع فيه . وكان ولابد أن يدفع ثمن ما تورط فيه . وإنه لثمن . . .

وأقبل عليّ صاحبي يتكلم في تلة . ربي وخالق ! ما الذي أسمع !

ولكني لا أريد أن أصدق ما سمعت . . أأذهب إليها ! !

قد أكون مستعداً لأن أبذل له ما أستطيع لأخفف عنه — مكرها — وطأة نهايته . نعم مكرها . فقد عوملت المسكينة معاملة دونها معاملة السوائم .

وقد تثور نفسي الأمارة بما كنت أسمع وأرى من تهتك وفجور . . وإن نفسي لأمارة ظالمة . وإنها لتوحي إلى بما لا أبرئها منه . . أيكون لمثل هذه المخلوقة قلب ؟

لقد والله أحتمل ما أصاب به حيث كان على ألا أقف منها موقف النادم المستغفر . . حاشا لله . كذلك حدثتني نفسي الأمارة .

نعم ! وكيف لو رددت على عقبي خاسرا ؟! كيف لو جابهتني بالذى أبغض أيا كان لونه ؟! ومثلها يشتهي ذلك حتى يكون لهـا من تصغر الخد ما يعوضها عما فقدته بين الناس . حاشاى أن أفعل .

وكذلك حدثتني نفسي الأمارة . .

إني أتحاشى هذا اللون من النساء . فإن التقف وإن تباينت النية لبلغ ما يصل إليه الرجل مع المرأة كافة . فكيف وهذا اللون الذى . .

استغفرك اللهم .

وهممت بالخروج . وإذا بالباب يطرق . وكان ذلك قبيل منتصف الليل . فخفت أم صاحبي ترى الطارق . فغابت شيئا ثم عادت ، ثم دفعت إلينا ورقة . ففضضت غلافها وقرأت . . .

وبدوت وكأنما هي غشاوة يتحجب خلفها بصرى . ما هذا الذى أقرأ . . إنه والله إما أن أكذب عيني أو يكون هذا خيال مما كنت أسمع أو اقرأ . . ولكن الورقة واضحة بينة . فكيف . . وإنها لتحل صاحبي كتابة مما قد وقع فيه . وكذلك وعد بما فيها إذا كان يوم القضـاء . . .

ولقد أخذت بها علم الله أشد مما أخذ بها صاحبي الذى أغمى عليه أو كاد . . وهممت أتعرف الرسول ، وإذا سيدة مقنعة محجبة تتعد فى سبيلها عن البيت . فأدركتها . وما أن رأتني حتى أحكمت القناع وأخفت وجهها . ومضت عني . . واستلفتني شكلها وحسبت أنه مألوف لدى منذ حين . ودفعني الفضول فدققت النظر .

وكأنما انصبّ على لوقتي سيل من الماء البارد .

فما كانت إلا جارتي . . النبوذة .

كلية الآداب **ياقوت صديق**

اســـــتدراك

وقع تصحيف مطبعي فى كلمة « الفكر » بمقال حضرة صاحب العزة الدكتور على مصطفى مشرفة بك « مقام الإنسان فى الكون » المنشور بالعدد رقم ٢٥٤ والعبارة الصحيحة هي : ومبدع الإسراء بالفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال .

نداء الدم

أبلغتنا إدارة ستوديوهات لاما أنها لظروف خاصة اختصرت عرض فيلم نداء الدم وأنها ستعرضه فى أوائل ديسمبر فى سينما لوكس لتمكين الذين لم يشاهدوه من مشاهدته .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٢٦٩١

العدد ٢٥٦ — الثلاثاء ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٦٢ — ٢٣ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

زعماء الإصلاح الإسلامى
فى القرن التاسع عشر

طلع القرن التاسع عشر والعالم الإسلامى فى ظلمة حالكة ، ومحنة شاملة : جهل مطبق ، وظلم فادح ، وفقر مدقع .

هذا سائح فرنسى زار مصر فى آخر القرن الثامن عشر وهو مسيو ڤولنى Volney ، وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات يقول : « إن الجهل فى هـذه البلاد عام شامل ، وهى فى ذلك مثل سائر البلاد التركية ، يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلى فى كل نواحيها الثقافية من أدب وعلم وفن ؛ والصناعات اليدوية فيها فى أبسط حالاتها ، يندر أن تجد فى القاهرة من يصلح لك ساعتك إذا فسدت فإن عثرت على أحد فهو أفرنجى » .

وهـذه الحكومة المصرية تخشى من الرأى العام فى تعليم الرياضة والطبيعة ، فتستفتى شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنبابى « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف ؟ » فيجيب الشيخ فى حذر : « إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها » — كأن هذه العلوم لم يكن المسلمون عهد بها ، ولم يكونوا من مخترعيها وذوى التفوق فيها .

كان العـالم الإسلامى منعزلا لا يتصل بأوربا إلا فيما تعانيه تركيا من مشاكلها السياسية ، فليس هناك اتصال بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوروبية ، فقد أغلقت على العالم الإسلامى الأبواب منذ الحروب الصليبية ، وأخذ يأكل بعضه بعضا — وقفوا فى علمهم فليس إلا ترديد بعض الكتب الدينية واللغوية ، وفى صناعاتهم فلا اختراع بل ولا إتقان للقديم ، وفى آلاتهم الحربية وفنونهم العسكرية فهى على نمط الأقدمين ؛ وسكان المدن والريف قد ابتعدوا

عن الاشتراك في الشؤون السياسية والحربية ، فلا تراهم في جيش ولا في قيادة جيش ، ولا تعرض عليهم المشاكل السياسية ولا رأى لهم فيها ، إنما هم مزرعة الحكام ومستغل الولاة والأمراء ، كلما تفتحت شهواتهم فعلى الرعية أن يجدوا سبيلا لملئها بالمال يجمعونه من عرق جبينهم وصنع أيديهم . مركز الخلافة — وهو الأستانة — مفكك منحل ، والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة منحدرة ، قد أمات نفسها توالى الاستبداد عليها ، يقودها في العلم رجال الدين وهم أجهل الناس بالدنيا وشؤونها واتجاهاتها ، كل همهم كلمة تعرب ، أو جملة في كتاب تفسر ، أو حفظ متن ، أو وضع حاشية على شرح ؛ وهذا كل علمهم . أما الدنيا وكيف تسير ، والشعوب وكيف تظلم ، والعدل وكيف يطلب ، فموكولة إلى الله تعالى يفعل فيها مايشاء ؛ يخدمون كل وال ويلينون مع كل ظالم ؛ حتى نابليون لما دخل مصر لم يجد قنطرة يعبر عليها لحكم مصر إلا على العلماء ، وقال « إنه استعان بهم ليتقي أكبر العقبات لأن أكثرها دينية — ولأنهم لا يعرفون أن يركبوا حصانا ولا أن يقوموا بأي عمل حربي ، وقد استفدت منهم كثيرا واتخذتهم وسيلة للتفاهم مع الشعب ، وألفت منهم ديوان القضاء . »

يأكل بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا . هذا الشيخ الدواخلي — أحد أكابر العلماء ، ونقيب الأشراف — تزدحم الناس على بابه ، وتتزاحم العلماء على مائدته ، فإذا غضب محمد على باشا عليه لكلمة بلغته عنه ، وأمر بالقبض عليه ونفيه إلى دسوق ، هرع هؤلاء العلماء الفضلاء يكتبون العرائض يملؤونها ذما في الدواخلي وتشنيعا عليه ، يعددون عليه ذنوبا أكثرها في الحقيقة محامد ، ويقيمون الأفراح شماتة به ، ويعملون الولائم ويتضاحكون عليه ، فيصرخ « الجبرتي » الرزين ، ويعلق على هذا الحادث بقوله : « إنهم قد زالت هيبتهم من النفوس ، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية ، والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال في المآتم ، والمسارعة إلى الولائم ، في الأفراح والمآتم ، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم ، فتراهم في كل دعوة ذاهبين ، وعلى الحمارات راكبين ... ومع ماوجب عليهم من النصح تاركين .

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب »

وشمت « الجبرتي » بهذا الشيخ الدواخلي لأنه فعل مثل هذا الصنيع مع السيد عمر مكرم . ويقودها في السياسة والٍ ترك يسيطر عليها بطائفة من الجند ، ولا يطيل المكث إلا ريثما يمتلئ هو وجنوده من الأمة بالسلب والنهب والرشا حتى أصبح اسم الحكومة والوالي والجند مرعبا مفزعا ، مقرونا في النفس بمعنى الظلم والعسف واغتصاب المال .

وأعجب من هذا كله إلف الشعوب هذه الحالة السيئة والاستنامة إليها ، وكراهيتهم لكل إصلاح ؛ فإذا أريد إصلاح الجندية ثارت الانكشارية ، وإذا أريد إصلاح القانون غضب العلماء ؛ وهي مع ذلك يسودها الغرور ، فهي تشعر أنها خير مافي الدنيا ، وقوتها فوق كل قوة ، والله ناصرها على كل عدو ، ولا خوف عليها من أي شعب آخر أو ملة أخرى ، أليس الله قد رد أعداءها في الحروب الصليبية ، ومحا كيد من يكيد لها ويعتدي عليها ؟ ! فالعلم ليس إلا ما في كتبهم وعند علمائهم ، والقوة الحربية ليست إلا فيهم ، وما على السلطان إلا أن يرفع البيرق النبوي حتى تلتف حوله جنود الأرض وجنود السماء ، فيمحقون كل قوة ، ويذلون كل جبار . يقول بعض المماليك المصريين عندما بلغه نزول الحملة الفرنسية : « دعوهم فإذا جاءت جميع الجيوش الأفرنجية فسندوسهم بخيولنا » .

وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامي — إذ ذاك — شيخا هرما حطمته الحوادث ، وأنهكه ما أصابه من كوارث ، من حروب صليبية ، وما تبعها من فساد نظام ، واستبداد حكام ، واستئثارهم بالمغانم ، وفوضى أحكام ، وجمود الشعب ، واستسلامه للقضاء والقدر ، وترديد قول الشاعر :

دع المقادير تجـــرى فى أعنّتها
ولا تبيتنّ إلا خالىَ البـــال

فقد الدين روحه وصار شعائر ظاهرية لا تمس القلب ولا تحيى الروح ، وسادت الخرافات وانتشرت الأوهام ، وأصبح التصوف ألعاباً بهلوانية ، ووسيلة النجاح فى الحياة ليس الجد فى العمل ولكن التمسّح بالقبور والتوسل بالأولياء ، فهم الذين ينجحون فى العمل ، وهم الذين ينصرون فى الحروب ، والشوارع والحارات مملوءة بالدجالين والمشعوذين .

هذا ما كان عليه الحال فى الشرق ، أما الغرب فقد حمل معه بذور الإصلاح أيام الحروب الصليبية ، وبدأ يغرسها فى أرضه حتى أنتجت هذه البذور أشجاراً باسقة عصفت بها الريح حيناً ، ودب إليها الفساد حيناً ، ولكنها تحمّلت الشدائد حتى استوى أمرها وكونت لها شخصيتها . وقمت ثوراتها من شأن الشعوب وجعلتها فوق شأن الحكام ، فبينا كان الحكام فى الشرق كل شىء ، ولهم كل الثروة وكل العظمة وللشعوب كل الفقر وكل الجهل ، كان النداء يدوّى فى الغرب بأن الأمة كل شىء ، وأن الحاكم إنما له حق البقاء فى مركزه ما خدم شعبه . وسلبوا القيادة العقلية من رجال الدين وسلّموا زمامها لرجال الدنيا ، يطلقون لعقولهم العنان ، ويبحثون ما شاءوا ويجرّبون ما شاءوا ، ويخترعون ما شاءوا ، وقصروا رجال الدين على قيادتهم فى الأمور الروحانية والمسائل اللاهوتية ، ولكن ليس لهم قيادة فى العلم ولا السياسة ؛ فاتجه العلماء إلى الطبيعة يبحثونها فى كل مناحيها ، ويحاولون الوقوف على أسرار الكون ، ويبنون حياتهم العملية على ما اكتشفوا منها فى صناعاتهم وتجارتهم ، ويستخدمون الهندسة والفلك والكيمياء والرياضة والميكانيكا فى بناء السفن والمدفعية والقوى الحربية ، وسببت عندهم المخترعات والصناعات والآلات ثروة كبيرة لكثير من الأفراد ساعدت على تأسيس شركات تقوم بأضخم الأعمال ؛ وهذا التقدم فى الصناعات رفع من شأن أفراد الشعوب ، وجعل لهم الكلمة العليا فى حكوماتهم ، وحررهم فى الفكر والعمل ، فتضاعف التفكير ، وتضاعف الاستكشاف ، وتضاعف الإنتاج .

* * *

هذا هو الشرق ، مصره لا تعرف أن تصلح ساعة ، وجيوشه تعبأ على طريقة الحرب الصليبية ، وأسلحته هى ما كانت عليه منذ خمسة قرون ، ومشايخه يبحثون فى الكتب ليستخرجوا فتوى بحِلّ تعلّم الحساب أو حرمته ، وشعوبه أكواخ حقيرة قذرة قذرة لعامة الناس ، وقصور فخمة ضخمة ملئت بالجوارى الحسان وكل أسباب الترف والنعيم لعدد محدود من الولاة والأمراء ، وكل ما فى البلاد من خير فلهؤلاء السادة ، وكل ما فى البلاد من شقاء فعلى رءوس الشعب .

وهذا هو الغرب ، ثورة شعوبه على الحكام ونظام الطبقات لتسترد حريتها ، وثورة على النظام الاقتصادى لتنظم الضرائب وتحرر التجارة ، وتحد من تدخل الحكومة فى الأعمال الاقتصادية ، وتنشيط الزراعة والصناعة بشتى الوسائل ، ثم ثورة صناعية نتج عنها توسع فى استخراج الفحم والحديد وصناعة الآلات .

هذا هو الحال عندما اصطدم الشرق بالغرب حول أوائل القرن التاسع عشر — لقد كان الغرب يهيب الشرق لما وقر فى نفسه من عظمته أيام الحروب الصليبية ، ولكن ما لبث التجار والجواسيس والرحالة الغربيون يكشفون لأممهم حال الشرق حتى اقتنعوا بضعفه ؛ وكان أكثر ناحية تفوق فيها الغرب على الشرق عدا ما ذكرنا هى الناحية البحرية ، فإن كانت بعض دول الشرق قوية فى جنودها ، باسلة فى قتالها ، فليس لها ما تعتمد عليه من أساطيل بحرية قوية كالتى للغرب .

لقد غزا الغرب الشرق مسلحا بالعلم الواسع فى شتى نواحيه ، فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وبنفسية الشعوب وجغرافية العالم وتاريخه ، ومسلحا بالأدوات الحديثة فى الحروب برا وبحرا ، وبالأساليب الحربية على آخر طراز ، ومسلحا برءوس الأموال تمده بها الحكومات والشركات ، ومسلحا برجال العلم ينزلون مع الجيش يدرسون وينقبون عن الزراعة والصناعة والحضارة القديمة والفن وما إلى ذلك .

وحينما غزا الغرب قطرا فسرعان ما يبث فيه أسباب حضارته من سكك حديدية تمد ، وبريد ينظم ، وزراعة تصلح ، ومالية تضبط ، وهو المشرف على كل ذلك يسخرها كما يشاء ؛ ولا يكتفى بنشر حضارته المادية بل ينشر حضارته العلمية والأدبية ، فالمدارس الوطنية تدرس لغته وآدابه وفنونه وعلومه ، وتزاحم الثقافة القديمة للبلاد شيئاً فشيئا ، والعادات الغربية تكتسح العادات القديمة ، وعلى الإجمال تبث المدنية الغربية فى البلاد المفتوحة بخيرها وشرها .

كل هذا نبه الشرق مذعوراً من سباته العميق ، والتفت وراءه فرأى ماضياً قريباً يستدعى الخجل : من إهمال مصالح البلاد وفساد مرافقها ، وضعف ثغورها ؛ ورأى حاضرا خائرا لا يقف أمام قوة ، ولا يصد تيارا عنيفا ، وليس عليك شيئا إلا أن يلعن من أوصله إلى هذا الحال ، وما غناء اللعن باللسان أمام قوة السنان ؟

وكانت هذه حال العالم الإسلامى أجمع حول أوائل القرن التاسع عشر ، سواء فى ذلك ما غزى من الأقطار وما ينتظر الغزو القريب ، لأن القوى الغربية تتسابق ، وسقوط الأقطار الشرقية يتلاحق .

وقد كانت أكبر مصيبة أصيب بها الشرق فى هذه الآونة قلة رجاله الخبيرين بالدنيا وشؤونها ، والسياسة وألاعيبها ، الماهرين فى معالجة المشاكل ، الحازمين فى تصريف الأمور ، وحتى كان إذا وجد أمثال هؤلاء ، لم يجدوا تأييدا من الرأى العام الجاهل ، فمن نادى بالمساواة فى العدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتهم بمحاربته المسلمين ، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالتفرنج والخروج على التقاليد ، ومن نادى بتأسيس مجلس شورى اتهم بمحاربة السلطان ، والحض على الثورة ، والعبث بالنظام ؛ وهكذا .

وكانت هذه الحيبة التى منى بها سببا فى التفكير فى حالته والحزن على ما أصابه ، ونزعة بعض المفكرين ، وكبار الرجال فى الإصلاح ، فنبغ رجال قليلون فى سائر الأقطار يعالجون الإصلاح بوسائل مختلفة ، كل ينظر إليه من زاوية خاصة ؛ ولعل أشهر الزعماء فى القرن التاسع عشر أو قبله بقليل وأكبرهم أثراً كان محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز ، ومدحت باشا فى تركيا ، والسيد أحمد خان فى الهند ، والسيد جمال الدين الأفغانى فى مصر ، والسنوسى فى طرابلس ، وخير الدين باشا فى تونس .

ولعلنا نستطيع أن نذكر كلمة عن كل رجل من هؤلاء ، نبين فيها وجهة نظره فى الإصلاح ، وما قدر له من خيبة أو فلاح ، فربما جهل كثير من شباب الجيل الحاضر تاريخهم ، مع قرب العهد بهم ، وتأثرنا فى حاضرنا ومستقبلنا بأعمالهم .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

****

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر

٤٥ فى مصر والسودان

٣٧/٥ لطلبة ومعلمى الإلزام

٦٠ فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٧٥ فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العــدد ١٥ مليما

العبرة بالساعد لا بالسيف

أقرأ في صحفنا بين حين وآخر أن الوزير الفلاني عزم على أن يطلب إلى الممالك المجاورة أن ترسل إليه نسخاً من قوانينها ، وأن الوزير الفلاني قرر أن ينظر في تعديل برامج المدارس ، وغير ذلك من الأخبار التي إذا دلت على شيء فإنها تدل على أنا نعتقد الاعتقاد كله أن الإصلاح إنما يكون في القوانين وحدها ، أو في البرامج وحدها ، فلا نهتم بإصلاح القضاة الذين ينفذون أحكام هذه القوانين ، أو الأساتيذ الذين يدرّسون موادّ هذه البرامج اهتمامنا بإصلاح القوانين والبرامج . إنا نعتقد أن برامجنا إذا كانت مقتبسة عن برامج الدول الأجنبية فإن هذا الاقتباس وحده يرفعنا إلى منازل هذه الأمم ، أو أن قوانيننا إذا كانت مستنبطة من قوانين الأجانب فإن هذا الاستنباط وحده يبسط العدل في أفيائنا !

وقد ذكرتني هذه الأخبار التي أطالعها في صحفنا خبراً قرأته في كتب أدبنا ، قال العتبي : بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معديكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ؛ فكتب إليه في ذلك ، فردّ عليه إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث بالساعد الذي يضرب به !

فالقوانين التي نسعى في الحصول عليها تشبه سيف عمرو ابن معديكرب ، والرجال الذين ينفذون أحكام هذه القوانين يشبهون ساعد عمرو الذي يضرب به ؛ فماذا نقول غداً إذا أرسلت الممالك المجاورة قوانينها إلينا ، ونفّذ قضاتنا أحكامها فوجدناها دون ما كان يبلغنا عنها ؟! فالمهم في مثل هذه الأمور القضاة أنفسهم ، لا القضاء وحده .

أذكر أني في سنة ١٩٣٦ شكوت إلى محكمة يافا جماعة بيني وبينهم مشاكل مالية ، وكان قوام المحكمة رئيساً انجليزياً وعضواً مسلماً وعضواً يهودياً ، وكان الجماعة الذين حاكمتهم على شيء من الأمر النافذ ، فقد استطاعوا أن يتوسطوا في جعل الجلسة الأولى يوم الأحد ، أي في اليوم الذي يغيب فيه الرئيس الانجليزي عن المحكمة ، وقد أدركت الأمر وفهمت سرّ هذه الوساطة ؛ فأشار عليّ بعض القوم أن أراجع الرئيس في هذا الشأن ، فترددتُ في بدء الأمر لعلمي بأن القضاة الإنجليز لا يحبون أمثال هذه المراجعات . ثم عزمت على مواجهة الرئيس كيف كان الأمر ، فزرته في فندقه قبل الجلسة بثلاثة أيام ، دامت الزيارة بضع دقائق ، سألني عن حاجتي ، قلت له : إن لي قضية في محكمتكم وقضاتنا تعودوا من سنين بعيدة الانقياد إلى بعض الوساطات ، فلست ألتمس منكم إلا أمراً واحداً ، هل في استطاعتكم أن تحضروا الجلسة يوم الأحد ؟ فسكت قليلاً ، ثم ابتسم ، ودلّ ابتسامه على فهم ما أريد ، ثم قال : ستصدر الأوامر اللازمة . فرأى في وجهي بعض الارتياح ، فأضاف إلى كلامه : سأحضر الجلسة بنفسي يوم الأحد ، وهذه أول مرة يحضر فيها قاض إنجليزي المحكمة يوم الأحد ، فشكرت له ، واستأذنته في الانصراف . وبعد ثلاثة أيام عقدت الجلسة ، وإذا الرئيس يشهدها ، ولم يشهد غيرها . وبعد أن سمع كلام وكيلي وكلام وكيل خصومي قال للأخير : اليوم الأحد ، فإذا انقضى عليه ثلاثة أيام ولم يُدفع المال الذي يطلبه خصمكم ، فإني أعلن الإفلاس ، وأنفذ ما يستلزمه هذا الإفلاس ، وختم الجلسة وانصرف من المحكمة !

ولما انقضت الأيام الثلاثة دُفع إليّ المال وانتهت المحاكمة .

إني اختصرت قصة هذه القضية ، وحافظت على روحها ، فإن قضية مثل هذه القضية إذا عرضت على محاكمنا فقد يمضي عليها سنتان أو أكثر دون أن تصل فيها إلى نتيجة من النتائج ؛ وليس العيب في ذلك عيب قضاتنا ، وإنما العيب إنما هو عيب رجال القضاء أنفسهم ،

فبعضهم قد تؤثر فيه الوساطة ، وبعضهم قد تستفزه الأهواء ، وآخرون يحتاجون إلى الجرأة ، وآخرون يحتاجون إلى الفهم . فماذا تنفعنا مثلاً قوانين فلسطين إذا بعثوا إلينا بهذه القوانين ولم يبعثوا إلينا بأخلاق تشبه أخلاق الذين يطبقونها ، فلا نجد في القوانين إلا ما وجده عمر بن الخطاب في سيف عمرو بن معديكرب !

وما يقال في القوانين يقال في البرامج ، فإن وزراء المعارف ينظرون في تعديل البرامج من ثلاث وعشرين سنة وإذا استطعنا في خلال هذه المدة أن نحسّن أساليب التدريس بعض الشيء ، فلم نستطع أن نحسّن أخلاقنا ، والسبب في ذلك يرجع إلى أساتيذنا لا إلى برامجنا . أذكر أني قرأت : روح التربية ، لصاحبه الدكتور « جستاف لوبون » : نقد الدكتور وزراء المعارف الذين ينظرون في تعديل البرامج بين وقت وآخر ، وكان نقده منطوياً على كثير من الحقائق ، وقد قال في بعض نقده ما معناه : ليست المسألة مسألة تعديل البرامج ، إنما المسألة مسألة تعديل روح الأساتيذ ، فإذا لم نغير أخلاق الأساتيذ فلا فائدة لنا في تغيير مواد البرامج !

فماذا تنفعنا تقوية النزعة القومية في برامجنا إذا كان بعض الذين يدرّسون مواد هذه البرامج أو يشرفون على تدريسها لا يفقهون معنى هذه القومية ، أو ماذا تنفعنا تنمية روح الاستقلال إذا كان الذين يتولون تنمية هذه الروح لم تذق أخلاقهم لذة الحرية ولم تفهم مداركهم معنى الاستقلال !

قد تكون نيات الذين يحاولون استصلاح القضاء أو المعارف حسنة ، ولا شك في ذلك ، ولكن المسالك التي يسلكونها في هذا الاستصلاح لا تؤدي إلى المواقف المحمودة ، لأن السرّ في ذلك كان إنما هو في أخلاق القضاة والأساتيذ أنفسهم لا في القوانين وحدها ، ولا في البرامج وحدها ؛ وهذه أمور تكاد تكون من بدائه الأمور . وليس معنى هذا أن اقتباس بعض القوانين أو بعض البرامج لا ينفعنا في شيء ، فقد تكون كثيرة من قوانيننا وبرامجنا مفتقرة إلى الإصلاح ، ولكن افتقار قضاتنا وأساتيذنا إلى مثل هذا الإصلاح إنما هو أشد ، فإذا لم يدرك الذين يتولون مقاليد القضاء أو المعارف هذه الحقيقة فلا يكون عملهم كاملاً ، ولا تصل مجهوداتهم إلى نتيجة حسنة !

ماذا كانت قوانيننا وماذا كانت برامجنا لما ولد الإسلام وفتح من الدنيا ما فتح ؟ أظن أن رجالنا في تلك الأيام لم يعرفوا إلا قانوناً واحداً وهو كتاب الله عز وجلّ أو سنّة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأظن أن برامج كتاتيبهم لم يشتمل إلا على مادة واحدة وهي تعليم الأميين ، فكيف تمّ بهم هذا القانون وهذا البرنامج أن فتحوا الدنيا بحذافيرها ؟! أفكانت أحكام القرآن والسنّة وحدها السرّ في هذا الفتح الجليل ؟ لا شك في أنه لولا أخلاق الذين نفذوا هذه الأحكام واتبعوا هذه السنة لما فتح الإسلام من البلدان ما فتح ؛ فهذا كتاب الله عزّ وجلّ لا نزال نصوّب نظرنا فيه ونصمّده في الصبح والمساء ، ولا تزال آذاننا تسمع تجويده في كل يوم ، وهذه أقوال النبي صلى الله عليه وسلم لا نزال نحفظها ونستشهد بها ، فلماذا ملك رجالنا في قديم الدهر ما ملكوا ولم يكن لهم من القوانين والبرامج إلا ما أشرت إليه ، ولماذا أضعنا هذه الممالك وهذه الفتوحات وقد ملأنا دور كتبنا بأحسن القوانين والبرامج في العالم ؟ إنا لا نعجز من الجواب من ذلك ، لقد كانت أخلاقهم في نشأة الإسلام غير أخلاقنا في هذا العصر ، ففتحوا الدنيا بمحاسن أخلاقهم وأضعنا فتوحاتهم بمساوئ أخلاقنا ، لم تضرهم في عصرهم قلة قوانينهم وبساطتها ولم تنفعنا في عصرنا كثرة قوانيننا وتكاملها . فإذا أدركنا هذه الحقائق الثابتة وعملنا بها فقد يجوز أن نحتفظ بما بقي لنا من ميراث الأولين إذا نحن عجزنا عن إضافة شيء إلى هذا الميراث !

(دمشق) شفيق جبري

إلى الحج ... أيها المسلمون!

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات » .

كنت كلما قمت إلى الصلاة ، فتوجهت إلى القبلة ، تصورت الكعبة الشريفة ، والمسلمون يقبلون عليها من آفاق الأرض ، وهم معها بقلوبهم وأرواحهم ، يحفون بها صفوفاً ودوائر تخترق البر والبحر ، والسهل والوعر ، تمر على كل قطر وبكل مصر ، تتعاقب وتتسلسل لا يحصيها عدد ، تضيق كلما دنت الديار من الديار ، وقلّ النأى واقترب المزار ، فأحس بأني إن كنت واحداً بنفسي ، فإني كثير بإخواني هؤلاء الذين أحبهم ولم أعرفهم ، وأشتاقهم ولم ألقهم ، وأشعر بعزة الإيمان ، وأزداد للكعبة حباً وإليها حنيناً . فإذا صليت في مسجد أحببت أن أدنو من المحراب ، وأجلس فيه ضحى ، والمسجد خال ساكن ، فأنظر فيه وكأنما أنظر من نافذة تشرف على جنة ، فينطلق خيالي يخترق تلك الجدر ، وهي آلاف مؤلفة تقوم بيني وبين الكعبة ، حتى يصل إليها ؛ وإن صليت في العراء جعلت أنظر عقب الصلاة إلى الأفق الجنوبي أوغل فيه ، أجوب السهول والحزون أحاول أن أمثل لعيني الحرم الأطهر والكعبة الحرام ، كما رأيت صورتها وقرأت وصفها .

فلما كتب الله لي منذ ثماني سنين أن أتشرف بالعمرة ، وأرى تلك البقاع التي أشرق منها النور على العالم ، بعد ما غرق في بحر لجيّ من الظلمات ، وأقوم في مهبط الوحي وأرض النبوة ، رأيت تلك الدوائر التي كانت تطيف بالكعبة من وراء الجبال والبحار ، تخترق الحدود وتجتاز الأقطار ، قد صغرت حتى اشتملت عليها جدران الحرم ، وحفت بالكعبة الشريفة ، فاجتمع هنالك المغربي والهندي ، والمصري والفارسي ، والتركي والعربي ، وتلاقى المشرق والمغرب ، والشمال والجنوب ، وتدانت المدن ، وجمعت الأرض كلها في ذلك الحرم ، كما التقى الماضي بالحاضر ، وجمع الزمان كله في ساعة واحدة هي الزمان ، فرأى الحاج نفسه في عصر النبوة ، يعايش الصحابة ويعاشرهم ، ويقوم معهم في صلاتهم ، ويطوف طوافهم .

هنالك تنهار حدود الزمان والمكان ، ولا يبقى إلا جلال الإيمان . هنالك يشعر المرء كأنه كان تائهاً في صحراء مافيها إلا السراب والسماء ، والموت بينهما جاثم وراء الرمال ، فرأى سور مدينة يتدفق ماؤها ، وتتمايل أشجارها ، فما زال يطوف بالسور ، ويطلب الباب ، حتى وجده ، فولجه وطفق يجوز من درب إلى درب ، ومن ساحة إلى ساحة ، حتى بلغ قصر الملك ، فترقى في أدراجه ، وتغلغل في غرفه وأبهائه ، حتى دخل الحضرة السلطانية ، ورأى النعيم كله ، ولله المثل الأعلى .

هنالك ينسى المرء أن الدنيا في حرب قد لبس أهلها من الحديد جلوداً ، واتخذوا من الرصاص أظافر ، ورمت عيون دباباتهم بالنار المتسعرة والشر المترامي ، ويسافر في الزمان ويحيا في الماضي الآمن الحبيب ، فيرى الحاج نفسه في عصر النبوة ، ويتخيل مكة قريش ومجالسها حول الكعبة ، ومحمداً إذ يطوف بتلك المجالس يعرض على أهلها سوارى كسرى وتاج قيصر ، ومفاتيح الأندلس والقسطنطينية والسند ، ومجد الدنيا وعز الآخرة ، فيأبون ويفضلون محمداً يحده أبو قبيس من هنا وقعيقعان من هناك ، وملكاً في واد عرضه ثلاثة أميال ، على ملك الدنيا الذي منحهم إياه محمد . ويرى قريشاً وقد ظفر باطلها بحق محمد ، وللباطل جولة ، فطفقت تؤذيه وتنال من أصحابه ، وهم ثابتون على دينهم ثبات الشم الرواسي ، الواحد منهم بجيش والجماعة بأمة ، ثم يرى الباطل يضمحل ، والحق يعلو ، ومحمداً قد أحاط بجبال مكة ، وقد أوقد كل مسلم في جيشه ناراً ، فرفعت قريش نظرها ، فإذا عشرة آلاف نار تتوهج في سواد الليل ، فارتاعت وانخلعت من أعطافها القلوب ،

وألقت بسلاحها وراياتها عند قدمي محمد . ثم يرى الكعبة وقد تهاوت من حولها الأصنام التي نصبتها جهالة قريش ؛ فلم تعد إليها ولن تعود إلى يوم القيامة . ويرى رسول الله قائماً أمامها ورؤوس قريش بين يديه ، يذكرون ما سلف منهم من ذنوب ، وما آذوا به رسول الله والمؤمنين ، يفكرون فيما يلقونه به من العذاب لو أن الكرة والظفر كانا لهم ، وإذا بمحمد يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

هنالك يجد الحاج أن قد امتد عمره حتى أحاط بالقرون الأربعة عشر ، وتخالط أعصابه قوة الخالدين ، فيرفع رأسه كأنما يريد ليتحدى الموت ، ثم يدركه الخشوع فيخفضه خضوعاً لرب هذا البيت الذي خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً ، ويتأدب ويذكر أنه في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم . . . هاهنا كان يجلس محمد بن عبد الله ، سيد العالم ، وحوله الأصحاب الذين طلعوا فيما بعد شموساً مشرقة على أقطار الأرض كلها ، يحملون السيف لدك أسس الظلم ، ونسف أركانه ، والقرآن لإقامة العدل ، وإحقاق الحق ، وهداية الناس إلى الطريق ، فكان الواحد معلم أمة ، ومهذب جيل . . . وينفصل الحاج من حاضره ويعيش بروحه وحسه في ذلك الماضي الأزهر ، ويرتقب رسول الله داخلاً من باب الحرم ، أو طائفاً بالبيت ، أو وارداً ماء زمزم ، أو قائماً في مقام إبراهيم ، ويا سعادة من يرتقب أن يرى رسول الله طالعاً عليه !!

فإلى الحج . . . يا أيها القادرون عليه !

يا من حطت عليهم الآلام ، يا من ترافقت في نفوسهم الآمال . يا من نابت بهم المصائب . يا من تنامت منهم الرغائب ، اذهبوا بآلامكم ومصائبكم ، وامشوا في طلب آمالكم ورغائبكم ، إلى باب أكرم الأكرمين ، فاعرضوها يوم يقوم الناس من كل جنس ولون في صعيد واحد ، يهتفون بكل لغة ولسان : يارب يارب ، يقولون : لبيك ، لبيك ، قد آمنا بك واتبعنا رسولك ، لبيك قد أطعناك وقصدنا رحابك ، لبيك فها نزعنا عنا ثيابنا ودنيانا وشهوات نفوسنا ، وأتيناك متجردين سائلين ؛ يطلب كل حاجته ، ويعرض مسألته ، فلا ينصرف إلا وقد أجيب سؤاله أو أعطى خيراً مما سأل ، ولا ينقص ذلك من ملك ربنا شيئاً .

يا أيها المسلمون ، أما ورب ذلك البيت ، لو لم يكن في الحج إلا شهود هذا المشهد الذي لم يعط الله البشر ثانياً له في جماله وجلاله وكماله ، لاستحق أن تشد إليه الرحال من أقصى الأرض ، فكيف ، ومع الاستمتاع بشهوده ، طاعة الله ومغفرته ورضوانه ! ! .

يا أيها المسلمون ، لقد خلق الله الناس درجات ، ورفع بعضهم فوق بعض ، وجعل التفاوت بالدين والخلق والمال والجاه ، فنسي الناس الموازين كلها واتخذوا المال ميزاناً ، وجعلوا التفريق بالظاهر لا الجواهر ، وقوّموا الرجال بالأموال ، لا بالسجايا والخصال . ومن نظر في فلسفة اللابس لم أن التفاوت كله باللباس وما يشبه اللباس ، لذلك أوجب الإحرام والتجرد من المخيطات التي يتفاوت بها البشر ، فعاد الحجاج سواء أمام الناس كما كانوا أبداً سواء أمام الله ، لا يتفاضلون إلا بالتقى ، ولم يبق في نفس الكبير كبر ، ولا في نفس الصغير مذلة . وكان هذا هو الموقف الفرد ، في تاريخ البشرية كلها ، الذي تحققت فيه المثل العليا ، وصحت أحلام الفلاسفة ، وانهزم المال وهو القوى العاتي ، فلم يبق له عمل في تقويم الناس ، وتمت المساواة التي طالما جرى من أجلها المداد على القراطيس والدم في الميادين ، ولم يحصل عشاقها منها إلا على طيفها في المنام

يا قادرين على الحج حجوا فإن لكم ثوابين ، ثواباً عاجلاً هو ما يترع أفئدتكم من اللذات القدسية ، وما تحفظه قلوبكم من الذكريات التي تعيشون عليها من بعد أمداً طويلاً ، وثواباً آجلاً هو ما ادخره الله لحجاج بيته ،

وضيوف حرمه ، وما زال إكرام الضيف من سنن الكرام .

إلى الحج ... ويا ليتني من القادرين عليه ؛ فما أشق الحب يرى الراحلين إلى ديار المحبوب ، وهو القيد المحبوس ، لا يطيق حراكاً ؛ يا ليتني من القادرين عليه ، فأودع نفسي ومطامعها ، وحبها الجاه والمال في بلدي ، ثم أمضي بلا نفس ولا طمع ، وأتجرد من شهوات الجاه والمال كما أتجرد من ثيابي ، ثم أغرق في هذا اللج المقدس من الحجاج ذوي الأزر ، وأدع الـ (أنا) هنا وأقول : (يا رب لبيك) من قلب منكسر ، لا أقصد بها إلا وجهه .

فيارب هل لأيامي عند بيتك من رجوع ؟ يارب هل لعيني أن تكتحل مرة أخرى برأى الكعبة البيت الحرام ؟ يا رب هل أرى طيبة مرة ثانية ، وأدخل من باب السلام مسلماً على النبي المصطفى ، وهل أجلس في الروضة وأقوم في المحراب الذي قام فيه محمد ؟ هل لي من رجعة إلى المدينة قبل الممات ؟

إن أنس كل شيء فلن أنسى ساعة قال لي الدليل بعد ضلالنا سبع عشرة ليلة في البادية نصلى السعير من شمسها ، ونجتاز على الصراط من رملها ، ونتجرع الجوع والعطش في فيافيها المهلكات ، ساعة قال لي : هذا أحد ، فوثب القلب في صدري فرحاً ، وانعقد اللسان فما يدري فيم يتحرك ، وخشع البصر ، فأحسست حين تصورت القدوم على رسول الله أن قد جمع الله منى البشر ثم أعطانيها ، ونسيت دياري وأهلي ، وكل ما أرجوه وما أخافه ، حين أيقنت بالوصول إلى المدينة ، وأي مسلم لا يفدي ساكنها بدياره وساكنيها . ويا ليتني أستطيع وصف المدينة ، وهيهات أن يستطيع أبلغ كاتب في يده أطوع قلم أن يصف مايشعر به المسلم حين يقبل على طيبة أو الحرم . وهل وصف أحد ما أحس به لما زار الدار التي ولد فيها الكاتب الذي يجله ، أو العظيم الذي يحترمه ، ورأى مثوى طفولته ومربع شبابه ، فكيف بالمسلم يرى البلد الذي شهد مولد محمد وطفولته وشبابه ، ويقف أمام القبلة التي تخفق بحبها قلوب المسلمين ، ويهفو إليها من أقطار الأرض السبعة ، ويطوف بالبنية التي طاف بها محمد ، ويقبل الحجر الذي وضعه بيده وقبله محمد ، ويشرب من الماء الذي شربه محمد ، ثم يقوم أمام الغرفة التي كانت دار محمد ، فيها يأكل وينام ، ويصلي ويتعبد ، ويبعث البعوث ، ويعقد الألوية التي أظلت العالم ، ثم انتقل فيها إلى الرفيق الأعلى ، وفيها قبره الأنور صلى الله عليه وسلم ! ألا ما أعظم الدخول على مكة والقيام بين زمزم والحطيم ، وما يثير في نفس المسلم من خير العواطف وسامي الشعور ، ولكني وجدت الدخول على المدينة أبلغ في نفسي أثراً وأكبر لذة .

يا أيها المسلمون ، أسرعوا إلى الحج ، وإلى زيارة المدينة ، فوالله إن لذة ساعة فيها تنسيكم أتعاب الطريق إليها ولو جئتموها من أقصى الصين سعياً على القدم . ويامن يحج ولا يزور مدينة الرسول ، ويقف على شباكه ويقول : السلام عليك ياسيدي يا رسول الله ، يا من يحج ولا يزور ، عرفت خشوع النفس لكن ما عرفت أفراح القلب ، وشهدت مواكب الجلال ، ولكن لم تشهد أعراس الجمال .

سيروا إلى المدينة أيها الحجاج تحي نفوسكم بأنوارها وتحي أطلها بنوالكم . ورحم الله من ذكرني هناك بدعوة صالحة ، وقال عني أمام شباكه الأطهر : السلام عليكم يا رسول الله ، من المسلم المذنب المقصر ، الذي قام به الشوق وقعد به العجز .

علي الطنطاوي

من أحاديث العبيط :

١ - قصة العبيط

مع ماري والأطفال

— ب —

[كان «العبيط» لديستويفسكي مريضاً بالتشنج العصبي، فأرسل إلى سويسرا لمدة أربع سنوات، وبعد عودته إلى بطرسبورج أخذ يقص على سيدة من أقربائه وبناتها الثلاث بعض حوادث حياته في القرية السويسرية التي كانت بها المصحة، ومنها قصته مع ماري والأطفال: ماري فتاة ريفية أغواها قومسيونجي فرنسي وأخذها معه، ثم تخلى عنها بعد أسبوع؛ فعادت إلى قريتها في حالة يرثى لها. وفي القرية اضطهدها الجميع، بما في ذلك أمها، وهنا ينطبق عليها قصة العبيط والأطفال.. وإليك الباقي ....]

قال العبيط: «لقد أردت أن أسدي إلى الفتاة بعض العون؛ فقد كانت في حاجة إلى النقود، ولكنني طول إقامتي بسويسرا لم أكن أملك درهماً واحداً تحت تصرفي. وكان عندي دبوس من الماس قيمته لأحد التجار الذين يذهبون من قرية إلى أخرى للاتجار في الملابس القديمة؛ ولقد أعطاني ثمناً له ثمانية فرنكات، مع أنه كان يساوي أربعين بلا ريب. ولزمن طويل لم أستطع أن أصل إلى حديث خاص مع ماري. وفي النهاية تقابلنا خارج القرية في إحدى طرق الجبل خلف شجرة، وهنالك أعطيتها ثمانية الفرنكات، وأوصيتها أن تحرص عليها، لأنني لن أستطيع في المستقبل أن أمدها بعون آخر. ثم قبلتها قائلا: لا تظني بي أي قصد سيء، فإذا كنت قد قبلتك فليس ذلك لأني مغرم بك، ولكن لأنك توحين إليّ بشفقة عميقة؛ وفي الواقع لقد رأيت فيك دائماً ومنذ البدء فتاة بائسة لا فتاة مجرمة.

لقد أردت في حرارة أن أعزيها وأن أقنعها بأنها كانت على خطأ في أن تعتبر نفسها دون الآخرين، ولكنني لم ألبث أن أدركت أنها لا تفهم قولي، أدركت هذا من موقفها، وذلك لأنها لم تفه بكلمة واحدة تقريباً، بل ظلت طول الوقت واقفة أمامي مسبلة جفونها كشخص يثقله الخزي. وعند ما انتهيت قبلت يدي، فأمسكت توًّا يدها، وأردت أن أقبلها، ولكنها سحبتها في لحظتها. وفجأة لاحظنا الأطفال وقد اجتمعت هناك جماعتهم، ولقد عرفت فيما بعد أنهم كانوا يرصدون حركاتي منذ حين، وأخذوا يضحكون ويصفرون ويضربون أيديهم يداً على يد. فأسرعت ماري إلى الهرب؛ وفي نفس اليوم علمت القرية كلها بالخبر، فازداد سوء الظن بماري، وتكالب الاعتداء، بل لقد سمعت أنهم قد فكروا في عقابها، ولكن بفضل من الله لم يحدث من ذلك شيء؛ ومع هذا فإن الأطفال لم يتركوا لفريستهم راحة، بل ضاعفوا من عداوتهم لها، وأخذوا يطاردونها ويقذفونها بالطين. وكانت المسكينة عند ما تحس بهم في أعقابها تجري، وهي السلولة، حتى تنقطع أنفاسها، لكي تفلت من أذاهم، وهم يشتدون من خلفها صائحين بالشتائم. ولقد حدث ذات يوم أن كنت أشتبك معهم. وفيما بعد أخذت أردهم إلى العقل، فكنت أتحدث إليهم كل يوم كلما استطعت ذلك. ولقد كانوا يقفون أحياناً ويستمعون إليّ، ولكنهم استمروا رغم ذلك في إيذائهم لماري. وشرحت لهم كيف أنها بائسة، فانتهوا بأن أمسكوا عن شتمها، وأخذوا يمرون بها دون أن يقولوا لها شيئاً. وبالتدريج أخذت أتحادث معهم أحاديث طوالا، ولم أكتم عنهم شيئاً، بل قصصت عليهم كل شيء. وكانوا ينصتون إليّ باهتمام، ولم يلبثوا أن أخذتهم الشفقة على الفتاة، فأصبح الكثيرون منهم يحيونها تحية عابرة إذا مروا بها.

يخيل إليّ أن ماري قد دهشت لهذا التغيير في معاملتهم لها. ولقد حدث مرة أن بنتين صغيرتين حملتا إليها شيئاً من طعامهما، ثم حضرتا ليخبراني بما فعلتا؛ قالتا: إن ماري قد بكت، وإنهما قد أصبحتا الآن تحبانها كثيراً.

ولم يلبث جميع الأطفال أن أحبوها ، كما شعروا نحوى أيضاً بمحبة فائقة ، فكانوا كثيراً ما يأتون إلىّ ويطلبون دائماً أن أقص عليهم شيئاً . ولا بد أنى كنت أجيد القصص لأنهم كانوا يحرصون على حكاياتى . ولقد أخذت نفسى بعد ذلك بالقراءة والدرس لا لشىء، غير أن أحمل إليهم ما أجد فى الكتب . ولقد استمررت على هذه الحال طوال الثلاث السنوات التالية . وعند ما أخذ الطبيب وغيره من الناس يلوموننى لأنى أتحدث إلى الأطفال كأنهم رجال ناضجون ، ولا أكتم عنهم شيئاً ، أجبت بأنه من العار أن نكذبهم ، وأضفت أنهم مهما اتخذوا من احتياطات لن يمنعوا الأطفال من أن يعرفوا دائماً ما يريدون هم أن يظلوا جاهلين به ! بل إنهم سيعرفونه على نحو يدنس خيالهم ، بينما هم لن يتعرضوا من هذا الخطر ، وما على كل منا إلا أن يعود إلى ذكريات طفولته ليتحقق من صحة ما أقول . ولكن هذا الرأى لم يقنع أحداً ...

لقد كانت قبلتى لمارى قبل وفاة أمها بخمسة عشر يوما ، وعند ما ألقى القسيس موعظته كان جميع الأطفال فى جانبى ، فأخبرتهم بالهجوم المخزى الذى سمح القسيس لنفسه به ، ووصفت هذا الهجوم بما يستحق من ألفاظ ، فثاروا جميعاً ، وبلغ الغضب بالكثيرين منهم أن حطموا بالحجارة نوافذ القسيس ، ولقد أفهمتهم أنهم مخطئون فى تصرفهم هذا ! ومع ذلك فقد ذاع فى القرية أنى كنت المحرض لهم على هذا العمل . ومنذ ذلك اليوم اتهمنى الجميع بإفساد أخلاق تلاميذ المدارس . واكتشف الجميع بعد ذلك أن هؤلاء الأطفال يحبون مارى ، فسبب هذا الاكتشاف قلقاً بالغاً ، ولكن الفتاة كانت سعيدة . وحاول الآباء عبثاً أن يحظروا على أطفالهم مخالطتها ؛ ولكنهم كانوا يذهبون سراً لملاقاتها ، حيث ترعى البقر فى مكان بعيد عما يقرب من نصف فرسخ عن القرية . وكانوا يحملون لها الهدايا ، بل إن الكثيرين منهم كانوا يذهبون ليضموها فقط إلى صدورهم ويقبلوها قائلين : مارى ! إنى أحبك ! ثم يعودون مسرعين إلى بيوتهم وهم يعدون ملء أرجلهم . ولا شك أن سعادة كهذه كانت خليقة أن تذهب بصواب مارى ، فهى لم تكن تتصور هذا حتى فى الأحلام . ولقد أحست بمزيج من الفرح والاضطراب . وكان الأطفال وبخاصة البنات يحرصون على الذهاب إليها ليخبروها أنى أحبها ، وأنى أتحدث عنها كثيراً . وقالوا لها : لقد قص علينا قصتك ، والآن نحن نحبك ونرثى لك ، وسنستمر كذلك دائماً . ثم يسرعون إلىّ بأوجههم الصغيرة الزعة ليخبرونى فى اهتمام شديد أنهم قد رأوا مارى ، وأنها ترسل إلىّ تحياتها .

وفى المساء كنت أذهب إلى الشلال ، وهنالك كان يوجد مكان مغلق عن القرية إغلاقاً تاماً ، وشجر السرو يحيطه من جميع النواحى . فى ذلك المكان كنت أستقبل الأطفال فى المساء ، بل إن الكثيرين منهم كان يأتى سراً ؛ وأنا أعتقد أنهم قد وجدوا سروراً كبيراً فى حبى لمارى ، وهذه هى المسألة الوحيدة التى كذبتهم فيها طول إقامتى بينهم . لقد تركتهم يعتقدون أنى مغرم بمارى ، وإن كنت لم أشعر نحوها بغير الشفقة ، ولكننى عند ما رأيت أنهم ينسبون إلىّ إحساساً آخر ، وأن هذه الفكرة تسرهم ، حرصت على ألا أكذب ظنهم ، وتظاهرت بأنهم قد كشفوا دخيلة نفسى . أى طيبة لطيفة فى هذه القلوب الصغيرة ! ولأكشف فى ذلك بمثل واحد : فقد عز عليهم أن يروا صديقهم ليون يحب مارى ، ومارى رثة الثياب ، بل ويعوزها الحذاء ! تصوّرن أنهم حصلوا لها على حذاء وجورب وملابس داخلية ، بل وبعض الثياب . كيف ؟ وبأى حيل عبقرية نجحوا فى الحصول على كل هذا ؟ ذلك ما لا أفهمه ! ولكن المدرسة كلها قد اشتركت فى هذا العمل . وعند ما سألتهم عن الموضوع كان الجواب الوحيد ضحكة مرحة ؛ وقد أخذ البنات الصغيرات يضربن أيديهن يداً فوق يد ويقبلننى . وأحياناً كنت أذهب لرؤية مارى خفية .

ثم اشتد بها المرض ، فأصبحت تقريباً عاجزة عن المشى ؛ وأخيراً انقطعت عن العمل بالمزرعة انقطاعاً تاماً ، ولكنها استمرت تقود الواشى إلى الحقل كل صباح . هنالك كانت تستند إلى صخرة عمودية على الأرض ، وتظل كذلك بلا حراك حتى يحين موعد العودة بالبقر إلى الحظيرة . وأنهكها السل ، وانقبضت أنفاسها ؛ فكانت تظل يومها كله فى حالة تشبه النوم ، مغلقة العينين ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، وكان وجهها شاحباً كالجثة الميتة ، والعرق يبلل جبينها وعارضيها . كنت أجدها دائماً فى هذه الحالة ، ولم أكن آتى إلا لبرهة قصيرة ، لأنى أيضاً لم أكن أريد أن أرى . وبمجرد ظهورى كانت مارى تنتفض فتفتح عينيها وتسرع إلى تقبيل يدى ، وكنت أتركها تفعل ذلك ، لأنها كانت تجد فيه سعادتها . وطول مدة زيارتى كانت ترتعد وتسكب الدموع ، وأحياناً كانت تتكلم ، ولكن حديثها كان فى الحقيقة من الصعب فهمه . لقد كانت تشبه المجنونة بشدة انفعالها وقلقها ! وأحياناً كان الأطفال يقبلون معى ، وفى مثل هذه الحالة كانوا يقفون على مسافة منا ، ليلاحظوا الطريق ، حتى لا يفاجئنى أحد وأنا أتحدث مع مارى ، وكان « دور الحراس » هذا يسرهم كثيراً . وبعد عودتنا كانت مارى تعود إلى وحدتها ، فتظل من جديد بلا حراك ، مغمضة عينيها ، مستندة رأسها إلى الصخرة ، ربما كانت تحلم بشىء .

وفى ذات صباح لم تستطع الخروج كالعادة لتقود القطيع إلى المرعى ، وبقيت فى منزلها الصغير الخالى ، ولم يلبث الأطفال أن علموا بذلك ، فأتوا كلهم تقريباً لزيارتها عدة مرات فى ذلك اليوم وهى طريحة الفراش لا يقوم بخدمتها أحد . ولمدة يومين كان الأطفال وحدهم هم الذين يقومون بأمرها ، وقد أخذوا يتناوبون مهمة تمريضها ؛ ولكن عندما علم أهل القرية بعد ذلك أن مارى تحتضر أتت الفلاحات العجائز كل واحدة بدورها للقيام بجوارها ، وقد لاح فى القرية أنهم أخذوا يشفقون على الفتاة ، فهم على الأقل قد ابتدأوا يتركون للأطفال حريتهم فى أن يدنوا منها ، ولم يعودوا يمنعونهم عن ذلك كما كانوا يفعلون من قبل . وكانت المريضة دائماً فى حالة حشرجة ، فنومها مضطرب ، وسعالها مخيف ؛ وكانت النساء العجائز يمنعن الأطفال من الدخول إلى الغرفة ، ولكنهم كانوا يسرعون إلى النافذة ، وأحياناً لا يبقون هناك إلا لحظة واحدة ليقولوا : صباح الخير مارى العزيزة ! وأما هى فبمجرد رؤيتها لهم أو سماعها لصوتهم كانت تنتعش ، وبلحظتها كانت تصم أذنيها عن ملاحظات ممرضاتها ، فترفع نفسها فى مشقة فوق الفراش لترسل برأسها إشارة إلى أصدقائها الصغار شكراً لهم . واستمر الأطفال على حمل الهدايا إليها ، ولكنها لم تعد تأكل شيئاً ، وبفضلهم — أؤكد لكن — ماتت سعيدة تقريباً ؛ بفضلهم نسيت محنتها وقد تلقت منهم الصفح على نحو ما ، وذلك لأنها حتى النهاية كانت تعتبر نفسها عاصية . لقد كانوا كالطير يضربون كل صباح نافذتها بأجنحتهم ويصيحون : مارى ! إننا نحبك !

لقد ماتت بسرعة ، وكنت أعتقد أنها ستعيش طويلاً ! فى اليوم السابق لموتها ذهبت أراها قبل غروب الشمس ، فلاح لى أنها تعرفنى ، ولقد صافحتها المرة الأخيرة . كم كانت تلك اليد عارية من كل لحم ! وفى الصباح المبكر أتوا جماعة ليخبرونى أن مارى قد ماتت ؛ وفى هذه المرة خرج الأطفال على كافة الأوامر ، فدخلوا المنزل وغطوا الميتة بالزهور ، ووضعوا على رأسها تاجاً منها ؛ وفى الكنيسة احترم القسيس على الأقل ذكرى تلك التى سبها وهى حية ، ثم إن الحضور لم يكونوا غير قليل ممن أتى بهم حب الاستطلاع . وعند رفع الجسد أراد جميع الأطفال أن يحملوا التابوت ، ولكن لما كانت قوتهم لا تكفى لذلك لم تجب رغبتهم . وساروا جميعاً فى الجنازة باكين . ومنذ ذلك الحين وهم يبجلون قبر مارى ، ففى كل عام يزينونه بالأزهار ، كما أنهم زرعوا حوله أشجار الورد .

(تمت) محمد مندور

لقد نقلنا المكان قبل نقل السكان !

كل البوادر تدل على أن مصر بعد هذه الحرب ستكون مركزاً عظيماً للنشاط السياسي العالمي الذي سيعقبها ، وأنها ستكون مجالاً هاماً للطيران الدقيق الذي سيربط العالم ربطاً وثيقاً .

وإذا أجمعت الدول على رأي واحد في سياسة العالم ينظر فيه لجميع الشعوب والأجناس ، وتؤلف له هيئة عالية يسندها جيش عالمي مسلح ، كما يرى الأكثرون وكما يتمنى المخلصون للإنسانية ، فلن يكون هناك مكان أصلح من مصر لتحل فيه هذه الهيئة بجميع تشكيلاتها . وقد جاء ذكرها كثيراً في هذا الغرض .

وكما تجلى مركزها الممتاز ونفعه العظيم لحلفائنا ، في معارك هذه الحرب ، فسيتجلى مكانها الممتاز كذلك في معارك السلام ، التي لابد منها لتضميد جراحات الإنسانية وتخفيف آلام الحرب والحيلولة دون تهديدها للحياة بعد هذه المرة ، إذا خلصت النيات وصحت القلوب ونشد الناس الحق والعدل الدولي بصدق وصراحة . .

فهل ينتفع العالم بوطن المصريين ولا ينتفعون هم به كما ينبغي ؟ وهل يدرك الناس مركز مصر ومكانتها ولا يدركهما المصريون فيعملوا لها عملا يشرف غداة تلاقي الأنظار عليها والتقاء الوفود العالمية فيها ؟

إنه ليروعني ويروع كل مدرك أشد الروع أن تستقبل مصر بوادر مستقبلها المرموق على حالتها الراهنة ، ولا تعد للأمر عدته الكاملة في الجبهة الداخلية بحرص وحذق يليقان بأمة يظن أنها ستكون عنوان الشرق الإسلامي العربي أمام وفود العالم .

والواقع أن كثيراً من بيوت قرى مصر أردأ مما يتصور .

وإنه لعجيب ، ما ينقضي منه عجب ، أن ترضى أمة أن يكون بين أفرادها هذا التفاوت البالغ في التمتع ببركات الحضارة وثمرات الثقافة ، وأن يكون سيرها مختلف الطرق مختلف الخطوات مختلف الأهداف ! واعتقد أن الاعتياد والألفة هما خدرانا وصرفانا عن النظرة الصادقة لما نحن فيه !

هذا شيء ، وعنوان حياتنا العامة شيء آخر ، فعنوان حياتنا العامة هو رجل القرية ورجل الشارع وغيرهما من أفراد الطبقة الزارعة ، وأفراد الطبقة العاملة ، ومساكنهم وطرائق معايشهم واستقبالهم الحياة . . فهؤلاء هم الذين ينظر إلينا الناس من خلالهم ، ويحكمون على حياتنا العامة بحياتهم . .

وقد ارتكبنا أعظم الأخطاء بنقل المكان قبل نقل السكان ! نقلنا مدننا وشوارعها إلى الحضارة الغربية بسرعة فائقة ، ولكننا مع الأسف الشديد أبطأنا أشد الإبطاء في نقل السكان . . فأصبح الرائي يرى مباني وشوارع لا تقل من مثيلاتها في بلاد الحضارة الكبرى ، ثم إذا به يرى في ظلال تلك المباني وأنحاء تلك الشوارع شعبا لا يزال أكثره يسير حافيا في ثياب خلقة قذرة ، يمصّ أفراده ويرضعون الأمراض — كتعبير الدكتور الوكيل بك وزير الصحة المجاهد — بألغام الأمراض ونفثات الصدور العليلة . . ولا تزال جنازاته الفرعونية الجاهلية تخترق أهم الأماكن في هرجلة وشعوذة وشناعة وطيش وسوء تقدير للموت والحياة معا ، أمام أنظار الأجانب الذين يكون مثل هذا المنظر الكريه جداً أن ينزع من قلوبهم العطف والإنصاف لمصر والإسلام المظلوم . . ولا تزال أزياؤه تظهره للناظر الغريب كأنه في مساخر « كرنفال » حشدت فيه جميع أزياء العالم .

وغلطة أخرى تتصل بالغلطة السابقة ارتكبناها : وهى نقل المدن فقط إلى الحضارة وترك القرى كما هى بدون اهتمام بها ، مع أنها المنابع التى لابد من تطهيرها هى أولا ليخرج منها جوهر هذا الشعب نقياً جيلاً قويا . .

وقد حاء منظرقرى مصر أحد مفكرى العرب فى القرن الرابع الهجرى ، وهوعبد اللطيف البغدادى حين مر بمصر فى طريقه إلى الأندلس ، فقال إنها أقذر قرى رآها . . !

فإذا كانت مناظر قرانا قد آذت أبناء القرن الرابع الهجرى ، فهى جديرة أن تضاعف أذاها لمن اتصلوا بمستحدثات الحضارة الدقيقة فى القرن الرابع عشر الهجرى وهو القرن الحالى . . .

لقد اتصلت مصر بالحضارة الغربية منذ قرن ونصف تقريبا فى عهد محمد على ، وقد توثقت صلتها بها منذ عهد إسماعيل أى منذ سبعين سنة ، فهل تظل أمةٌ متصلةً بثقافة وحضارة ما دون أن تُجمع على اختيار شىء منها تجعله أساساً واحدا لبناء نهضتها وإقامة كيانها ؟

هل تمكث أمة تدرك سير الحياة الحضارية الحالية وسرعتها ، ثم تقف مترددة متذبذبة متخلفة عن اللحاق الحقيق بها سبعين سنة على أقل تقدير ؟

لماذا هذا الإكثار من ضحايا عهد الانتقال ؟ ولم التطويل والتمطيط فى ذلك العهد البغيض ؟ لقد أدركت اليابان الحضارة الغربية بعد إدراك مصر إياها بكثير من السنين ، ولكنها أسرعت إلى مقوماتها العلمية والصناعية وأسرارها العظيمة فاستوعبتها فى مدى قصير لم يطل أكثر من اللازم ، فإذا هى الآن ندٌّ عظيم خطير من أنداد أمم الحضارة الغربية الأصيلة ، مع أنها لم تفقد شيئا من مشخصاتها كأمة لها طابع معين فى حياتها الخاصة وقوميتها .

* * *

لئن فات مفكرينا الأولين الذين أدركوا بزوغ فجر الحضارة الحديثة فى ديارنا أن يوقظوا الجميع لرؤية النور الجديد والنهوض لاستقباله ، والسير جميعا فى أشعته وظلاله ، فلهم عذرهم من مفاجأة النور لعيونهم مفاجأة أدهشتهم وجعلتهم يسيرون وحدهم منفردين ذاهلين عمن خلفوهم وراءهم يملؤهم غبار القرون وصدأ الجمود . . .

ولكن لا عذر لمفكرينا الحاليين أن يتركوا أحدا متخلفا عن قافلة الحياة العامة ، محروما من الثمرات المشتركة للحضارة والثقافة ، معزولا عن ضجة الحياة وغنيها العظيم الذى طار فى أجواء كل مكان ، واقتحم المجاهل بمواكبه ومراكبه وجراراته وزوارقه وطائراته القاذفة والمنقضة والمترنحة والشراعية ، وحشود جيوشه الآخذة من شمال الأرض وجنوبها ، وشرقها وغربها ، فى قاراتها الخمس وبحارها السبعة . . .

وإن التبذير والإهمال لمنابع الثروات الشخصية خُرقٌ وحُمقٌ لا يليقان بذوى الألباب المدركين لأمانة الحياة . . فكيف هما فى أعظم ثروات الحياة والدولة ، وهى الرءوس والقلوب البشرية ؟ ! لا شك أن التبذير والإهمال فيهما وهما مادة الحياة أخرق الخرق وأحمق الحمق ! والمسئول عن ذلك حاملو أمانات الفكر .

فعليهم أن يدفعوا كل فرد إلى معرفة قيمته بمعرفة حقه وواجبه فى الدولة ، وإلى الإسراع إلى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوى الصحيح ، والفكر اللطيف الشامخ ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة !

« وبعد » أفليس يسر كل مفكر وكاتب أن يقرأه أكبر عدد من أمته على الأقل ؟ فمن واجبه إذاً أن يكون تفكيره فى السوق الفكرية أو الأدبية كتفكير تاجر السلع المادية فى سوقها ، وهى كما تعلم أول وسائله لرواج بضاعته . فهل لدى مفكرينا وكتابنا أسواق ثقافية ترضيهم وتعوضهم شيئا من عنائهم وجهدهم فى التأليف والترجمة ؟ !

سلوا مؤلفى الكتب القيمة ، ومحررى المجلات الثقافية التى لا تتملق رغبات الجماهير السطحية ولا تثير غرائزهم

المنحطة . . فعند أكثرهم طبقات مكدسة من الطبعات الأولى والأعداد الأولى . . . قد يتقدم منها أن يبيعوها بالأقة في أزمة الورق هذه لسواد الأمة التي قد لا يستعمل أكثر أفرادها الورق إلا لف السلع ومسح الأواني والقوارير التي تملأ بطعام البطون . . .

وعدلٌ من الله كل ما صنع !

إلى الدكتور محمد مندور :

سرني أن تستجيب نفس لها حماس وبيان كنفس الدكتور مندور لكلمتي السابقة التي دعوت بها مفكري مصر إلى حل مشكلة العيش فيها ووضع أساس صالح للحياة الاجتماعية تسير عليه الأمة في إجماع ، وأن يذكر مني « لجنة التأليف والترجمة والنشر » بأنها تستطيع أن ترسم على الأقل خطة للإصلاح . .

وساءني أن يفهم الدكتور الفاضل من كلمتي أني أهجم هجوما قوياً على الثقافة الحرة التي سماها « الترف العقلي » ، فما هجمت عليها ولا انتقصت قدرها لذاتها ، وإنما هاجمت الانكباب عليها وحدها والانقطاع بها عن معالجة مشكلات العيش المشتركة بمصر ، وعن وضع الأساس الصالح لحياة أبنائها جميعاً ، وتحديد الأهداف التي يجب السير إليها في إجماع ؛ وذكرت « اللجنة » بأنها تستطيع بما في تكوينها من عناصر تمثل جميع اتجاهات الفكر في مصر أن تصنع في سبيل ذلك صنعاً جميلا يوازي صنعها الموفق في التأليف والترجمة والنشر ، بعد أن امتلأت أوعيتنا بكثير من قضايا العلوم والآداب والفنون ، ولم يبق إلا نشرها في الأمة على قاعدة عريضة المصلحة العامة من جهة ، ولضمان توسيع نطاق القراء الذين يفهمون معنى الثقافة الحرة ، ويشاركون سكان الأبراج العاجية متاعهم وترفهم الذهني من جهة أخرى .

فسياق مقالي كله موجه إلى الهجوم على اشتغال أكثرية المفكرين بمصر بشئون الثقافة الحرة وحدها دون الاشتغال بإصلاح الضروري من شئون الروح والمادة في تلك الأمة التي نعرف جميعا تخلف سوادها الأعظم من إدراك أبسط التدبير لصحة الجسم والروح .

عبد المنعم خلاف

حول التصوير عند العرب

قرأت في العدد ٢٥٣ من الثقافة مقالا للأستاذ مصطفى جواد في « التصوير عند العرب » جاءت فيه العبارة الآتية (ص ١١) : « ومما نذكر هاهنا — والقول ذو شجون — أن اسم « التصوير » حرّف في بعض النسخ من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي إلى « المصور » ، فظنه العلامة السيد أحمد باشا تيمور صحيحا وحسب أن الموصوف به « كان نابه الذكر لنبوغه في فنه فاستحق بشهرته أن يعرف الشارع به دون غيره من ساكنيه » . وقد علق عليها كاتب المقال في الحاشية ٥ بقوله : « التصوير عند العرب ص ١٠٣ وراجع قول أحد الفضلاء في هذا الأمر ص ٢٠٦ » .

وعندي أن ذكر ذلك على هذه الصورة ليس من الدقة العلمية في شيء ، فقد يتوهم القارئ أن صاحب المقال هو الذي تنبه إلى ما فات المغفور له تيمور باشا . والحق أن ناشر الكتاب قد فطن إلى ذلك قبل صاحب المقال . و « أحد الفضلاء » الذي يشير إليه صاحب المقال هو ناشر الكتاب بالذات ! !

زكي محمد حسن

المنـــــفى

للكاتب الروسى تولستوى

كان أكسيونوف شاباً رقيقاً ، خفيف الظل ، محباً للحياة اللاهية وما فيها من لذائذ ومتع ، ينظر إلى الدنيا من ناحيتها العابثة ، ولا يعرف منها شجونها وآلامها ...

وكانت له تجارة رائجة فى مدينة « فلاديمير » ، ثم تزوج من فتاة جميلة ، وأعقب هذا الزواج اعتدال فى حياته ، فقد ترك الإدمان على الخمر ، وكان من قبل لا يفيق منها إلا لماما ...

وفى إحدى ليالى الصيف فكر فى الذهاب إلى « نيرنى » لأعمال خاصة بتجارته . وحين أقبلت زوجه تودعه قالت له :

— يا زوجى الحبيب ، لا ترحل اليوم ، فقد رأيت حلماً مزعجاً !!

فأغرق أكسيونوف فى الضحك وقال لها :

— أتخشين إذا ذهبت إلى السوق سكرت ؟

فأجابته قائلة : لا أدرى ماذا يروعنى ؟ ولكن الذى أخشاه هو حلمى السيئ ، لقد رأيتك عدت من المدينة وقد اشتعل رأسك شيباً !

فضحك ، ثم أردف قائلاً :

— هذا دليل على حسن حظى ، ولسوف أعود بعد تصفية تجارتى هناك ، وسيكون معى لك هدايا قيمة ...

بهذا ودع أكسيونوف أسرته .

وفى منتصف الطريق التقى بتاجر تربطه به أواصر الصداقة ... فنزلا فى إحدى الفنادق ليقضيا ليلتهما ... وبعد أن تناولا طعام العشاء ... استلقى كل فى فراشه ، ثم لم يلبث أن استغرق فى سبات عميق ...!

كان أكسيونوف قد تعود منذ زمن ، أن يستيقظ فى وقت مبكر ، وود أن يتم رحلته فى جو جميل ، فأمر السائق أن يسرج الجياد ، ولم يكن نور الفجر قد ظهر حين مر بصاحب الفندق وسدد أجر ليلته ، ثم سار فى سبيله ...

وبعد أن قطع مرحلة كبيرة وجد فندقاً ، فتقدم إليه ، طمعاً فى أخذ قسط من الراحة ، ولإطعام الجياد ، وطلب لنفسه كوبا من الشاى ليعيد إليه نشاطه ..

وبعد قليل أقبلت عربة ذات أجراس ، ونزل منها جنديان يصحبهما ضابط ؛ ودنا الضابط من أكسيونوف ، ووجه إليه أسئلة عدة : من هو ؟ وماذا يعمل ؟ ومن أين ؟ وإلى أى مكان يقصد .. ومتى وصل ؟ ..؛

فأجابه أكسيونوف على أسئلته ، ثم دعاه لتناول الشاى معه ، ولكن الضابط لم يعر دعوته اهتماماً ، بل استمر فى إلقاء أسئلته .. كيف قضى ليلته الماضية ؟ أكان منفرداً أم مع زميل آخر ؟ وهل رأى زميله قبيل مغادرته الفندق ؟ ولماذا ترك الفندق قبيل الفجر ؟

فأخذت الدهشة أكسيونوف ، من هذه الأسئلة المتلاحقة المحرجة ، وأوضح للضابط كل ما حدث بالأمس . ثم أعقب ذلك بأن قال : لماذا توجه إلى كل هذه الأسئلة المريبة ، كما لو كنت لصاً أو قاطع طريق ؟ إنى تاجر ، ومسافر لبعض أعمالى التجارية ، فلا حاجة بك لهذا الاستجواب ! ..

ولم يكد ينتهى من كلامه ، حتى أمر الضابط جنده بالقبض عليه .. وقال له : — أنا ضابط هذا المركز . وأما سر هذا الاستجواب ، فهو أن زميلك التاجر وجد مذبوحاً هذا الصباح . ولسوف نفتش أمتعتك !!

وبدأ الجنديان عملهما ، فحلوا أمتعته ، وأخذوا فى البحث ، وفجأة عثر أحدهما على مدية قاطعة فى إحدى الحقائب .. فصرخ الضابط .. مدية من هذه ؟ ...

نظر أكسيونوف إليه ، وما كاد يرى المدية مخضبة

بالدماء ، حتى تملكه ذعر شديد . فسأله الضابط : ماذا تقول في هذه الدماء على مديتك ؟

فحاول أكسيونوف أن يجيب ، ولكن الكلمات وقفت في حلقه . وما استطاع أن يخرج جملة من فمه . وأصابه عي ... وتجلجل ... واستطاع بعد جهد أن يقول هذه الكلمات : أنا ... لا أدري .. ليست لي ..

فقال الضابط : في هذا الصباح وجد التاجر الذي قضى ليلته معك مذبوحاً ، وأنت الوحيد الذي يمكنك أن تفعل هذا ... كان الفندق مغلقاً من الداخل . ولم يكن هناك شخص آخر ... وهذه المدية وجدت في حقيبتك مخضبة بالدماء ، ثم إن حركاتك المريبة تنم عليك ، فأخبرني كيف قتلته ، وكم سرقت ؟

أقسم أكسيونوف بأغلظ الإيمان ، أنه لم يقتله ، وأنه لم يره منذ أن تناولا الطعام قبيل النوم . وأن المدية ليست له ، وأنه يملك ثلاثة آلاف روبل ... ولكن صوته كان مرتجفاً ، ووجهه شاحباً ، وكان يرتعد من شدة الخوف .

أمر الضابط جنوده فوضعوا القيد في رسغيه ، وساقوه إلى العربة ..

وحين سارت العربة به بكى بحرقة وألم ، ودعا ربه أن ينجيه مما فيه من هول ... وسيق لسجن المركز ، وصودرت تجارته .. وبدأت التحريات عن أخلاقه وسلوكه وسيره ، فقرر أهل بلدته أنه كان في أيامه الأولى مولعاً باللهو ، مدمناً على الخمر ، ولكنه اليوم خير الناس خلقاً ، وأصفاهم نفساً .

وبدأ التحقيق ، ونظرت القضية أمام المحكمة ، فحكمت عليه بالجلد ، ثم النفي المؤبد في سيبيريا لقتله تاجراً ، ثم سرقة أمواله !!

* * *

ما كادت الزوج تسمع هذا النبأ الأليم حتى استولى عليها يأس مرير .. ماذا تفعل ؟ ولها منه أبناء صغار .. لا يزال أحدهم رضيعاً ..

جمعت أمرها ، وسارت بهم جميعاً حيث سجن زوجها ، وطلبت رؤيته ، فحالوا دون ذلك .. وبعد أن ألحت وتوسلت وصلت إلى بغيتها ، فقد سمحوا لها بلقائه !

وما كادت ترى زوجها الشاب في أردية السجن ، بين اللصوص والآثمين والمجرمين .. حتى أصابها إعياء شديد ، فسقطت فاقدة الرشد ، ولم تعد إلى صوابها إلا بعد وقت طويل . وضمت صغارها واقتربت منه ، وحدثته بأنباء البلدة والبيت .. وسألته عما حدث .

فقص عليها جلية الخبر ، وما انتهى من قصته ، حتى سألته باكية : والآن ماذا نصنع ؟

أجابها في يأس قائل : ليس أمامنا إلا القيصر ، فلنتوسل إليه ، ويجب ألا يموت برىء !

فأخبرته ، أنها أرسلت شكايتها إلى القيصر ، ولكنها لم تقبل ..

فأخلد أكسيونوف للصمت ، وأطرق في حزن وألم .

فقالت الزوج : إذن لم يكن حلمي عبثاً . ألا تذكر أني أخبرتك بأني رأيتك في حلمي قد ابيض شعر رأسك ؟ أما كان من الأوفق ألا تسافر في ذلك اليوم المشئوم !!

فصمت ، ولم يجب بشيء . ونظرت إليه ، ثم أخذت رأسه إلى صدرها ، وأمرت يدها على شعره ، وسألته : زوجي العزيز ! قل الحق لزوجك . أصدقني ربك ، ألست الجاني ؟

فنظر إليها وقال : حتى أنت تشكين في أمري .. ثم أخفى وجهه بين يديه وراح في بكاء عميق .

وحينذاك أقبل أحد الجنود ليخرج الزوج مع صغارها . وودع أكسيونوف أسرته الحبيبة للمرة الأخيرة . لقد كان هذا اللقاء هو الأخير !!

وحين خلا أكسيونوف لنفسه ؛ استعاد ما دار بينهما من حديث ؛ ولما ذكر أن زوجته تشك فيه مثلهم ، تطلع نحو السماء وقال مناجياً نفسه المحزونة ..

إن الله وحده يعرف الحقيقة ، ويعلم أني برىء . فإليه وحده يجب أن نتوجه ، ومنه نطلب الرحمة التي عزت في الأرض ..

استكانت نفس أكسيونوف ورضى بما نزل به ، ولم يكتب شكاة . وفقد الأمل فى نجاته وبراءة ساحته ، وتوجه إلى الله بقلب سليم يتعبد ويصلى .

وتقد حكم الجلد عليه ، وترك عليه جروحا . ولما اندملت هذه الجروح أرسل إلى منفاه فى سيبريا مع رفاقه المحكوم عليهم مثله .

* * *

عاش أكسيونوف فى منفاه السحيق بسيبريا ستة وعشرين ربيعاً ، وعلا رأسه الشيب وطالت لحيته ، وماتت ابتسامته ، وذهبت بشاشته ، وفنى مرحه ، وانحنى ظهره ، وأصبح إنساناً آخر لا يستطيع السير إلا فى هوادة ، وبطؤت حركته ، وغدا نادر الكلام ، ودائماً يصلى ويتعبد .

وتعلم فى سجنه صناعة الأحذية ، وتمكن من كسب قليل من المال ، فاشترى بجزء منه كتاب «حياة القديسين» وراح يطيل القراءة كلما وجد نوراً يستطيع على ضوئه أن يتبين الحروف ، وكان يتردد على الكنيسة فى أيام الآحاد ، ويشترك فى إنشاد الأغانى الدينية ، وكان لصوته طلاوة

اشتهر أمره فى السجن لوداعته وتواضعه ، فأحبه القائمون بأمر السجن ، واحترمه زملاؤه ، وأطلقوا عليه اسم «الأب الكبير» و «القديس» ، وأصبح لسانهم المعبر لدى أصحاب السلطة ، وأصبح الحكم فيما ينشأ بينهم من شجار ؛ وكان حكمه فوق كل اعتبار .

أما صلته بأسرته الحبيبة إلى قلبه وبلدته فقد انقطعت ، ولم تصله عنها أخبار ، فلم يعرف أبقوا فى قيد الحياة ، أم انتقلوا إلى مكان آخر ..

وذات يوم أقبل فريق جديد من المسجونين ، فاجتمع القدماء برفاقهم المحدثين فى المساء يسألونهم من أين أتوا ؟ وما سبب مجيئهم ؟ وماذا فعلوا ؟

وجلس أكسيونوف فى ركن ، يستمع لأحاديثهم بنفس حزينة وقلب كسير !!

وكان بين الرفاق الجدد سجين طويل القامة ، فى العقد السادس من عمره ، ولكن تبدو عليه أمارات القوة . وكان يقص على زملائه سبب مجيئه ، وكان مما قاله :

ـ أيها الزملاء ، لم آخذ إلا جواداً واحداً ، كان مسرجا إلى عربة ، فألقوا على القبض وحوكمت على جريمة السرقة ، والحق أنى لم آخذه إلا لأعود إلى دارى سريعاً ، ثم تركته بعدها ، هذا إلى أن صاحبها كان صديقاً لى ، فقلت لهم : ماذا فى الأمر . . . ولكنهم لم يصغوا لقولى . واتهمونى بالسرقة . . .

حقيقة لقد اقترفت مرة إثماً — وكان من العدل أن أكون هنا منذ زمن بعيد — ولكن الظروف أبت أن يحدونى فى ذلك الوقت . . أما اليوم فيأتون بى لسبب تافه ولست أكتمكم أنى أتيت إلى هذا المكان مرة قبل اليوم . . ولكنى لم أمكث به طويلا . . .

فسأله أحدهم : من أى بلد أنت ؟

— من فلاديمير وأسرتى تقيم هناك ، أما اسمى «سيمونتش» ، حينذاك رفع أكسيونوف رأسه وسأله : أتعرف شيئاً عن أسرة أكسيونوف التاجر فى فلاديمير . . أما زالوا أحياء ؟

— لا شك أنى أعرفهم جيداً ، هم الآن فى يسر ورخاء ، ولو أن أباهم سجين مثلنا فى مجاهل سيبريا ، وأما أنت فكيف جاءوا بك هنا ؟

لم يجب أكسيونوف للتو ، بل تنهد طويلا . ثم قال : جئت لأكفر عن سيئاتى بهذه الأعوام الستة والعشرين التى قضيتها هنا . فسأله سيمونتش :

— من أى سيئات تتحدث ؟

فأجابه أكسيونوف . . نعم ، لا ريب أنى أستحق كل هذا العقاب الصارم ، وصمت .

أما رفاقه فقد قصوا على القادمين سبب مجىء أكسيونوف ، وكيف أن مجهولاً قتل تاجراً ، ثم وضع المدية فى حقيبة أكسيونوف ، وهكذا جىء به لجريمة لم يقترفها .

ولما سمع سيموتش هذه القصة نظر إلى أكسيونوف ، وقد أخذته الدهشة ، وقال :

— إن هذا لغريب حقاً . لشد ما تغيرت أيها الأب ؟!

فسأله الرفاق . . في الدهشة والعجب . وهل رأى أكسيونوف قبل الآن ؟

ولكنه لم يجبهم بشيء ، وإنما قال : إنه لمن العجيب حقاً أن نلتقي هنا معاً .

حيرت هذه الكلمات أكسيونوف ، وجعلته يتساءل هل يعرف هذا الرجل القاتل الحقيقي . ثم قال لسيموتش . هل سمعت بالجريمة ، وهل رأيتني من قبل ؟

— كيف لا أسمع والدنيا مليئة بالإشاعات والأخبار ، ولكن طول المدة أنساني ما سمعته ! فسأله أكسيونوف مرة ثانية : لعلك سمعت عن القاتل الحقيقي ؟

فضحك سيموتش وأجابه : — القاتل هو الذي وجدت المدية في متاعه ، وإذا كان ثمة إنسان خبأها هنالك فليس بآثم حتى يضبط ، كما هو معروف ، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يضع مدية في أمتعتك وهي قريبة منك ، لا شك أنه كان يوقظك .

وما سمع أكسيونوف هذه العبارة الأخيرة ، حتى أيقن أن هذا هو القاتل الحقيقي ، فقام وذهب بعيداً ولم ينم طول ليله ، وأحس بالتعاسة والبؤس ، وشعر بالآلام تحز في قلبه ، وأخذت الصور تنهال في ذهنه ، وهي مختلفة . . رأى بعين الخيال زوجه وهي تودعه محذرة ، إنه رغم هذه السنين لا يزال يذكر تقاطيع وجهها . . ورأى أطفاله ، وذكر الرضيع تعلو وجهه براءة الطفولة ؛ واستعاد أيامه الماضية ، أيام أن كان مرحاً محباً للحياة واللهو ، لا يفكر في شيء . . كيف كان وكيف الآن . . وتواردت على ذهنه الخواطر سراعاً . . المكان الذي جلد فيه ، هذا هو الجلاد القاسي وهؤلاء الناس يحيطون به . ذكر الستة والعشرين سنة التي قضاها في العذاب الأليم . . وكانت هذه الخواطر مؤلمة له ، وهانت عليه نفسه . . وذكر أن كل هذا من يد هذا الشقي الآثم ، إنه فكر وأطال التفكير ، وامتلأ قلبه حقداً وغضباً ، وود أن ينتقم لنفسه ولو هلك في هذا السبيل . وأخذ يصلي ، ويردد الدعوات . . ولكن السلام والأمن كانا بعيدين عن نفسه . كان في النهار يبتعد من الشقي لكي لا ينظر إليه . وأما الليل فكان يحجبهما بظلامه الكثيف الوحشي . .

قضى أكسيونوف أسبوعين لم ينم خلالها ، واشتد به اليأس ، وعصف الألم ، واشتد الحزن وأصبح حائراً لا يدري ماذا يفعل !

وذات ليلة كان يمر في السجن ، فرأى بعض الأتربة تنهار من بين أحد الجدران ، فانتظر ليرى ما الخبر ، وفجأة ظهر سيموتش ، ونظر إليه باضطراب شديد . . فرغب أكسيونوف أن يواصل مسيره من غير أن ينظر إليه ، ولكن سيموتش وقف في طريقه ، وأمسك بساعده ، وأخبره بأنه حفر حفرة تحت الجدار ، وكان في النهار ينقل التراب في حذائه ويفرغها أثناء العمل ، ثم همس في أذنه : انتظر ، فسوف تخرج معي ، وإذا تكلمت قتلت نفسي ، ولكن بعد أن أجهز عليك .

غضب أكسيونوف حين نظر إلى خصمه الألد ، ثم سحب يده منه بغضب وأنفة وقال : لا رغبة لي في الهرب ولست بحاجة إلى سفك دمي ، فقد قتلتني منذ زمن بعيد ! وأما أن أفشي سرك أو لا أفشيه ، فهذه متعلقة بإرادة الله .

بينما كان المسجونون يغادرون للعمل في اليوم التالي ، لاحظ الحراس أن أحدهم ينقل تراباً ففتشوا أرجاء السجن وعثروا على الحفرة . . وجاء الحاكم وسأل المسجونين عمن حفر الحفرة ، ولكنهم أنكروا ، لأن الذين يعرفون لم يريدوا أن يدفعوا زميلهم إلى الهلاك ، لعلمهم بأنه سيجلد حتى تفيض روحه . وأخيراً نظر الحاكم إلى أكسيونوف وكان يعرف عنه الصدق وقال له : أنت رجل صادق ! أخبرني أمام الله ، من الذي حفر الحفرة ؟ . . . وكان سيموتش واقفاً غير مبال بالأمر ، وكأنه لا يعنيه من الأمر

شيء ، وهو ينقل بصره بين الحاكم وأ كسيونوف .. ارتعد أ كسيونوف واضطربت يده وظـل صامتا لا يستطيع الـكلام ، واضطرمت في أعماقه ثورة جارفة .. لماذا أ كتم سره ، وذلك الذي هدّ كيانى وهدم حياتي ، لماذا لا أدعه للجلاد ليقاسي ما قاسيت ، ويعاني ما عانيت ؟ لماذا لا يكفر عن خطيئته ، ويقاسي جزاء ما فعل . ولـكني إذا أعلنت أمره قتلوه وقد أ كون مخطئا في اتهامه . ثم أي فائدة تعود على ؟ وماذا أجني من وراء ذلك ؟

فقال له الحاكم مرة ثانية ، أيها القديس أخبرني بالحقيقة من حفر هـذه الحفرة .. فنظر أ كسيونوف إلى سيموتش بطرف عينه ثم أجاب لا أستطيع أن أتحدث . ياصاحب السعادة هذه إرادة الله ، وإني أمامك ، فافعل بي ما تريد ! وألح الحاكم في معرفة الفاعل . ولـكن أ كسيونوف كان يزداد إصراراً على رأيه ... وهكذا انتهت هذه الحادثة . .

* * *

في تلك الليلة ، بينما كان أ كسيونوف بين اليقظة والنوم جاء إنسان وجلس بجواره في هدوء وسكون ، فحدق فيه ، ورغم الظلمة عرف فيه سيموتش فقال له : ماذا تريد مني أ كثر مما فعلت . .

لم يجب . فقام أ كسيونوف وقال : ماذا تريد ، اذهب بعيـدا ولا تقترب مني وإلا دعوت الحارس . فاقترب سيموتش منه وهمس في أذنه : أ كسيونوف ! سامحني واصفح عني .

— أنا الذي قتلت التاجر ، وخبأت المدية في حقيبتك ، وكنت أود أن أقتلك أيضاً ولـكن صوتاً في الخارج قطع على تدبيري فخبأت المـدية ، ثم فررت . . . فصمت أ كسيونوف ، ولم يدر ماذا يقول . . وركع سيموتش على الأرض أمام أ كسيونوف . وأخذ يتوسل إليه : اصفح عني لله . . في الصباح سأعترف بجرمي فتخرج من السجن ، وتعود لأهلك .

فأجابه أ كسيونوف : نعم من السهل أن تتحدث الآن بعـد أن قاسيت في سبيلك أهوال هذه الأعوام الستة والعشرين . إلى أين أذهب .. زوجي قدماتت ، وأولادي قد أسدلوا على ستار النسيان ، لم يعد لي مكان أتوجه إليه . . . لم يذهب سيموتش ، بل قال بصوت مختنق :

— اصفح عني . . لم أقاس مثلما أقاسيه الآن ، وحين جلدوني لم أتألم كما أتألم الآن . وأنا أراك تشفق علي فلا تفشي سري ، بعد أن سببت لك هذه المتاعب وهذا الشـقاء . فإكراماً للقديس ولوجه الله اصفح عني . لشد ما أنا بائس الآن .

ثم أخذ يبكي طويلا . . . وبكى معه أ كسيونوف وقال له : ليسامحك الله ، وليغفر لك خطاياك .

* * *

حـل السلام في قلب أ كسيونوف . وعادت إليه الطمأنينة ، وفارقه حنينه إلى بلدته ، وشوقه لأولاده . ولم تعد به رغبة لمغادرة السجن . وأحب أن تدنو ساعته الأخيرة .

وأما سيموتش فقد اعترف بجريمته . وحين ظهرت براءة أ كسيونوف وجاء أمر الإفراج عنه .. كان قد فارق الحياة ! وودع الدنيا . . وذهب ليلقى ربه !!

استانبول ابراهيم أحمد أدهم

أدب الأسبوع...

هذه النافذة — معذرة يا أصدقائي! — نكبة لبنان! — وحدة العاطفة!

هأنذا أعود . . .

لقد خُيل إلىَّ ذات يوم أنى مستطيعٌ أن أجد فى الصمت شيئاً من راحة النفس وهدوء القلب وسعادة الرضا ، أنا الذى لم يصمت قط منذ نطق ، ولم يتحدث إلى أحدٍ حديثاً قط إلا حمل فيه من نبض قلبه وخفقة شعوره ورضا نفسه . . .

. . . وخُيل إلىَّ أن هذا القلم الذى صحبنى وصحبته عمراً من عمرى ، أشبه من ذات نفسى وبينى ، وأتحدث إليه ويحدثنى ، وأدله على الأشياء كما هى فى رأى العين ليكشف لى عن حقيقتها كما هى تحت المجهر — خُيل إلىَّ أن هذا القلم هو سبب ما ألق من ضيق النفس ومن عناء القلب ومن سخط الحياة ؛ أليس هو الذى يُرينى فى كل موجود ما لا يكاد يُرى ، فإذا فى كل جميل قبح ، وفى كل مليح دمامة ، وإذا فى كل ثمرة ناضجة دُودة !

بلى ، وما أرى الحياة فى نظر أهل الفن جميعاً إلا شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن هذه الحياة التى نحيا ، إذ كانوا لا ينظرون حين ينظرون إلى الصورة الماثلة أمام أعينهم ، ولكنْ إلى ماوراءها من معنًى دقَّ واستتر ، أو إلى ماوراء أنفسهم من ألوان العواطف وأشتات الأمانىّ والصور ؛ فلا جَرَمَ كان الفن لذلك مُتَّهَمَةً ومُكَذَّبَةً ، وكان تزييفاً يزيد الحقيقة معنى غيرَ ما فيها ، أو تزويراً يضيف إليها ما ليس منها ، أو تشويهاً يمسخها غير ما هى فى رأى العين ورأى العقل جميعاً ؛ ولا جرم كان الفن هو مضاعفة اللذات أو مضاعفة الآلام ، إذ كان هو صورة نفس الفنان بإزاء الحقائق التى يرى فى الطبيعة ، لا صورة الطبيعة نفسها بإزائه . . .

. . . وقلت لنفسى : مالى ولهذا الفن الذى لا يطالعنى بصور الطبيعة فى حقائقها المجردة ، ولكنْ بالصورة القائمة من نفسى ، فيذكّرنى آلامى كلما حاولتُ أن أنسى ! . . . ومالى ولهذا القلم ؟ . . .

. . . وأويتُ إلى الصمت حيناً ؛ فأين منى ما كنت أنشد ؟ أين منى راحة النفس ، وهدوء القلب ، وسعادة الرضا ؟ . . .

. . . وأطبقتْ علىَّ جدرانُها الأربعةُ حتى لا أكاد أجد متنفَّساً ، ولم تزل أشياء الحياة تطالعنى كما هى فى صورها الماثلة فى رأى العين وكما هى تحت المجهر فى وقتٍ معاً ، ولم أزل أرى فى كل موجود ما لا يكاد يرى غيرى من ألوانه ؛ لأن عليه ظلاً من آلام النفس المكبوتة ؛ فى كل جميلٍ قُبح ، وفى كل مليح دمامة ، وفى كل ثمرة ناضجة دودة ! فماذا أجدى علىَّ هذا الصمتُ الطويل وإن عينى لترى ، وإن قلبى بين جنبىَّ ليشعر ، وإن فكرى ليتعمق الأشياءَ إلى ظلامها الدامس حتى ينفذ من وراء كل لذة إلى ما تُعقِب من حسرة وألم ؟ . . .

. . . ماذا أجدى علىَّ الصمتُ إلا أن حصرنى وأحزانى فى غرفة مظلمة لا أكاد أنفذ فيها إلى بصيص من نور ؟ . . .

. . . فهأنذا أفتح النافذة ثانية لأتروَّح رَوْحَ الحياة . . . وهأنذا أعود !

* * *

وبين يدىَّ الساعة كومةٌ من رسائل الأصدقاء ، أصدقاء لم أرهم ولم يرونى قط ؛ أو لعلى رأيتهم ذات يوم ورأونى ولكنى لا أكاد أذكر ، وإنى مع ذلك لأحبهم وآنس إليهم وأسعد بحديثهم ؛ وآيةُ ذلك أنى عائدٌ من أجلهم الساعة ، ومن أجلهم فتحتُ هذه النافذة ، لأتحدث إليهم وأناجيهم وأسمع منهم ، أنا الذى ضاقتْ عليه الحياةُ بالحب والإيناس والسعادة ، فراح يلتمس ذلك كلَّه من فرجة النافذة !

. . . بين يدىَّ الساعةَ رسائلهم ، وكلهم سائل

يلتمس الجواب ، أو عاتب ينتظر المعذرة ، أو شاكٍ يطمع في الإنصاف ؛ وأين مني ما يريدون . أما الذي تقطعت أسبابه إلى الحياة فليس له من دنياه إلا ما تسر به العين من فرجة النافذة ؟ . . .

. . . وددتُ لو علم هؤلاء الأصدقاء ! . . . لا ، لست أريد لهم أن يعلموا ، إني لأودّهم وأشفق عليهم ، وإني إلى ذلك لأطمع في معذرتهم وإن لم أعتذر ؛ وماذا تفيدهم معذرتي ؟ فليلتمسوا لي من عند أنفسهم ما يتسع له عفوهم من أسباب المعذرة ويدعوني بنجوة . أما الذي فرضتْ عليه الحياة أن يموت فلا يطيق من أعبائها وإنّ عليه مع ذلك أن يلقى الأحياء كل صباح وعلى شفتيه ابتسامة !

● ● ●

ماذا قلتُ ؟ : . . .

يخيّل إلى أني تناولتُ القلم حين تناولته لأكتب حديثاً غير هذا الحديث ؛ فكيف ساغ لي ؟ وإنما أردتُها تحيةً إلى القراء ، فإذا هي بكاءٌ وشكوى ، واعتذار لا يكاد يُفصح عن عذرٍ يشفع !

زارني منذ أيام صديقٌ فلسطيني أشعَرَ في قلبي حين رأيته أن بيني وبينه شأناً مما يكون بين الأصدقاء ، وحاولتُ أن أذكر اسمه وأين لقيته فما وجدته في بالي ، وإنه لماثلٌ في نفسي بكل معانيه ، واستحييتُ أن أسأله فأصمتّ ، ومضى يحدّثني حديثه بين العتب والتحية وأني لصامت ، ومضت فترة ، وحاولتُ أن أجد إليه معتذراً فلم أجدني إلا في لونٍ من هذا الحدث الذي مَضَى . . . . . .

ونهض صديقي بعد ساعة ، وشدّ على يدي مبتسماً وهو يقول : أعلم هذا الذي ذكرتَ من أمرك ؛ فماذا تعرف أنت من أمر إخوانٍ لك هناك ؟ . . . وعدتُ إلى الصمت وأنا أسأل نفسي سؤاله : ماذا أعرف من أمر إخوانٍ لي هناك ، في فلسطين ، ولبنان ، ودمشق ، وبغداد ، وفي بلادٍ أخرى لنا فيها عمومة وخئولة وأبناء أبٍ وأم ؟ . .

ثم ذكرتُ لبنان . ليت شعري ما أذكرُ في لبنانَ الساعة وليس أدنى إليّ ؟ . . . هل أذكر تنفيه إلا آلامه ، وإلا تمرّغاته مما يعاني من جراح ؟ وهل كان لبنان قبل اليوم إلا صخرة بين البحر والبادية يحاول المحاولون منذ سنين أن يقيموا سوراً بينها وبين بلاد العروبة ، حتى كأن قد . . . ، فما هو إلا أن أحس وخز الشوك وتأذى منادياً يطلب الغوث حتى كانت مشكلته مشكلة العروبة ، وهمّه همّ كل عربي بين السهل والمحيط !

ألا إن الألم هو الآصرة الإنسانية الباقية التي لا تنقطع ، والسبب المتين الذي لا يَبلى ، والعروة الوثقى التي لا تنفصم ؛ ولن تجد من شيء في الحياة يُدني قلباً من قلب ما يُدنيه الألم ، ولن تجد من شيء يجدّد حقيقة الإنسانية إذا وَهَتْ أسبابها بين الناس كما تجددها الآلام !

هل كان يعرف لبنان — وكان طائفة من أبنائه يزعمون ما يزعمون — أين مكانه من إخوانه في سائر بلاد العروبة ، وهل كان يعرف إخوانه ثمة أين هو من حقيقة شعورهم الخافي ؟ . . . فقد عرف الجميع اليوم وآمنوا . . .

. . عرفوا أن لبنان العربي منهم وأنهم منه ، وآمنوا وآمن لبنان أن الثور الأبيض لن يؤكل — إن يؤكل — وحده . . . . . . ؟

في لبنان اليوم جراح وآلام ، فإن أرضه مخضوبةٌ بالدم ، وإن سماءه لمائجة بغبار المعركة ؛ بلى ، ولكن ذلك كله خير ، لأنه جمع لبنان وبلاد العروبة على فكرة ، ووحّد العاطفة بين أبناء السهل والجبل ، وأوهى السور المنيع الذي كان يحتجز لبنان في حيّزه بين البحر والبادية ، وأدنى قلوباً من قلوب ! . . . فلتكن نتيجة المعركة الناشبة ثمة ما تكون ، ولتبلغ نهايتها ما تبلغ ؛ فلن يكون من وراء ذلك كله إلا الخير ، وإلا وحدة الشعور والعاطفة بين أبناء العروبة ، وذلك حسْبُ أبناء العروبة !

وتجمّعنا على الآلام كما تفرّقنا على النعمة ، فهل كانت الآلام إلا الآصرة الباقية حين تنقطع الأواصر بين أبناء الدم ؟

وكذلك حُبّب إليّ أن أتغنى بآلامي ، لا أوثر نفسي

بما أشكو وأبكي ، ولكني أحاول أن أوقظ وجدان أمة !.

* * *

. . . وتداعب أبناء العروبة اليوم فكرة ويحدوهم أمل ؟ فيتساءلون ما ينتهي إليهم من أنباء مشاورات الوحدة العربية في شوق ولهفة ، وكأني بهم يستبقون السنين عدواً ليعرفوا أين ينتهي بهم حديث الوحدة يوم ينتهي إلى حقيقة ماثلة . . . ولابد أن ينتهي هذا الحديث يوماً إلى حقيقة ماثلة ؟ فهل عرف أبناء الشعوب العربية ما عليهم من أسباب لتحقيق هذا الأمل البعيد الداني ؟

سيتحدثون عن التعاون الثقافي ، وعن الوحدة الاقتصادية ، وعن المعاهدات السياسية ؟ وإنها جميعها لأسباب ، قد عقلها من عقلها من أهل الرأي وأولياء الأمر وإنهم ليعملون لها ، ولكن ثمة سبباً أقوى ، ووسيلة أكثر جدوى وأدنى أثراً ، هو وحدة العاطفة ؟ ولا سبيل إلى هذه الوحدة إلا أن يتعارف أكبر عدد من أبناء العربية في مختلف أقطارها وجهاً لوجه ، وأن يتكاشفوا نفساً لنفس ، بالرحلة والمراسلة . . .

كثيراً ما سألت نفسي : لماذا يعرف الشامي في فلسطين ولبنان وسوريا ؟ والعراقي في بغداد والموصل وما وراء البحرين ، والعربي في عمان ونجد وصنعاء — لماذا يعرف كل واحد من هؤلاء ومن غير هؤلاء عن مصر بالقدر الذي يعرفه المصري عن أحوال جيرانه ؟

وكنت أجد حرجاً في النفس وتهمة في الظن حين أسأل نفسي هذا السؤال فلا أكاد أجد جوابه . أصحيح ما كان يقول بعض إخوان لنا في بلد ما : إن المصريين لا يكادون يعترفون بما عليهم من حق لإخوانهم في بلاد العربية كفاء ما يعترف لهم به إخوانهم ثمة من الحق عليهم ، ولا يعنون بتنمية الروابط بينهم وبين جيرانهم الأدنين عناية هؤلاء الجيران بهم . . . ؟

ذلك وهم وهمه قائل وأعانه عليه آخرون ، وليس له وجه من الحقيقة ، وإنما ارتحل الشامي والعراقي والعربي إلى مصر فعرفوا المصريين وما عرفهم المصري القاعد في ظل الشجرة وإلى جانب مجرى الماء ، وإنما طوفت رسائل المصريين في الجرائد والمجلات فعرفهم القاصي والداني من كل قارئ في العربية ولم تصل إلى مصر رسالة واحدة في جريدة أو مجلة من دمشق أو بغداد أو بلاد الجزيرة . . .

ذلك هو السبب وحده ولا سبب غيره ، وستظل الأواصر كما هي بين العربي في مصر وأخيه في المغرب ودمشق وبغداد وبلاد الجزيرة ما لم يتعارف أكبر عدد من أبناء بلاد العربية في مصر والمغرب والشام وبلاد الجزيرة ، وجهاً لوجه ، ويتكاشفوا نفساً لنفس ، بالرحلة والمراسلة . . .

وليست الرحلات والمراسلات عملاً من أعمال الحكومات ، ولكنها عمل الشعوب والأفراد ، فلتنته هذه المشاورات إلى ما تنتهي ، ولتبلغ ما تبلغ ، ولتعقد المواثيق الدولية بين هذه البلاد في شئون الثقافة والاقتصاد والسياسة ، وقد تظل هذه الوحدة صورة بلا روح ، ونصوصاً بلا معنى ، ما لم تخط الشعوب خطوتها في سبيل توحيد العاطفة بالرحلة والمراسلة . . . وصورة المرأة الجميلة على الورقة لا تغني الناظر إليها ما يغنيه الجسم الحي واللحن الناطق والنظرة المعبرة . . .

أين من مصر كلها نادٍ واحد أو هيئة واحدة جعلت من برامجها ، في الرياضة ، أو الثقافة ، أو اللهو والتسلية — تنظيم رحلات دورية بين مصر وجاراتها الشقيقة ؟

وأين من مصر كلها نادٍ واحد ، أو هيئة واحدة ، قام برنامجها على توثيق الروابط بالمراسلة بين الطائفة المثقفة في مصر وأبناء عمومتهم في الأقطار الشقيقة ؟

ونحن نزعم هنا — حين نتحدث عن وسائل التربية والتعليم — أن الرحلة نصف العلم ؛ فأين من بلادنا مدرسة واحدة أو معهد واحد جعل في برنامج رحلاته العلمية رحلة دورية منتظمة بين مصر وعمان ، أو بين مصر ولبنان ، أو بين مصر وبابل ، أو بين مصر والأحقاف من بلاد

[البقية على الصفحة التالية]

الحرية ؛ وما زال كثير من حقائق التاريخ المصرى القريب والبعيد دفين الرمال فى كثير من هذه البلاد ؟ . .

وحدة العاطفة : هذا ما نقصد إليه وندعو له ، وهو الوسيلة والغاية جميعاً ، وهو العروة التى لا تنفصم حين تنفصم المواثيق وتعود المعاهدات رسوماً بالية فى قصاصات من ورق ؛ فهل نعمل على توثيق هذه الوحدة قبلُ ؟

« قاف »

الكتب الجديدة :

١ – على هامش السيرة

للدكتور طه حسين بك

هو الجزء الثالث من هذه السلسلة القيمة التى يعرض فيها لأهم الأحداث التى اتصلت بالسيرة النبوية ، فى أسلوب قصصى روائى أخاذ . وقد عرض فى هذا الجزء لصريع الحسد « أبى جهل » وما كان بينه وبين النبى (ص) من خصومة ، وما كان بينه وبين من يتوقعون ظهور النبى ، ويعملون لنصرته ، كنسطاس وورقة بن نوفل ؛ ثم « سيد الشهداء » حمزة بن عبد المطلب ، ثم « ذى الجناحين » ، و « حديث عدّاس » الخ . وكل فصل من الفصول ، رواية قصيرة توضح شخصية البطل ونفسيته .

وسنعود إلى تحليل الكتاب ونقده بالتفصيل فى الأعداد القادمة .

٢ – زهرة العمر

للأستاذ توفيق الحكيم

جملة رسائل بعث بها إلى صديق فرنسى أيام طلبه العلم والفن فى باريس وبعد عودته إلى مصر ، شرح فيها خطرات نفسه ، وحلل فيها نظراته إلى الحياة وتطوره فى فهمها ؛ فهى ترجمة حياة لتوفيق الحكيم ، لا كما اعتاد الناس من تاريخ مولد وتعداد وظائف ، ولكن تاريخ نفس فنانة .

ويظهر أن أكثر الرسائل حقيق ، ولكن مما لا شك فيه أنه تزيد فيها ، وإلا فما باله يكتب إلى صديقه الفرنسى الكتب الطوال يشرح فيها الأدب العربى ، وابن المقفع ، والجاحظ ، وليس صديقه الفرنسى بمستشرق ولا يهمه طول حياته بابن المقفع والجاحظ ؟ فبعيد جداً أن يكتب له توفيق الحكيم فيما لا يهمه هذه الكتابة المطولة ، مهما كانت قيّمة وطريفة .

وسنعود أيضاً إلى نقده بالتفصيل فى الأعداد القادمة .

٣ – الكون العجيب

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

هو الجزء الجديد من سلسلة « اقرأ » ، يصور فيه العالم : من الأرض ، والكواكب السيارة ، والحياة على الكواكب ، والمسافات بينها ، والكسوف والخسوف ، والشهب ، وذوات الأذناب الخ . كل ذلك فى أسلوب أدبى مشوّق . ومن خير العالم العربى أن تكثر فيه هذه الدراسات العلمية المعروضة فى ثوب أدبى على نحو ما فعل « جينس » فى كتابه الذى ترجم إلى العربية « الكون الغامض » ، وعلى نحو ما فعل الدكتور مشرفة فى كتابه « المطالعات العلمية » ، ثم هذا الكتاب القيم ، فكلها غذاء صالح جديد للفكر والأدب معاً .

٤ – الفكر العربى بين ماضيه وحاضره

للأستاذ سامى الكيالى

رسالة لطيفة الحجم عرض فيها كاتبها الفاضل لموضوعات متنوعة ، وهى : الفكر العربى بين ماضيه وحاضره ؛ وابن خلدون والعرب ؛ وكيف نعمل على إحياء ثقافتنا القديمة ؛ والبطولات عند العرب ، ويقصد بالبطولات ما كان يسميه العرب الحماسة ؛ ثم مصر والوحدة العربية ؛ ثم الشباب العربى والنزعات التجديدية .

والرسالة — كما يرى القارىء — تعالج مشاكل فى الصميم من حياتنا الحاضرة تشغل أذهان المصلحين والمفكرين .

والكاتب يعرض لهذه المسائل كلها ويبين رأيه فيها فى صراحة وحرية ، فما يعالجه الكاتب من مشاكل وطريقة عرضه لها جديران بحفز الأدباء لقراءتها والاستفادة منها .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسى رقم ٩ عابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/ ٥٦٧٦٩١

العدد ٢٥٧ — الثلاثاء ٣ من ذى الحجة سنة ١٣٦٢ — ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

فى أسـباب الحروب

لقد ألفنا أن نرى الحروب تدور بين الأمم ؛ حتى بات أكثرنا يتوهم أنها ظاهرة لازمة للمجتمع البشرى فى جميع العصور والأقطار . وقد ثبتت دراسة التاريخ — على النحو الذى ندرسه به الآن — هذا الوهم فى أنفسنا ، حتى إن أكثرنا لا يكاد يفيق من تأثيره ، لكى يتسائل عن الأسباب التى تدفع الناس إلى شن الحروب ، وبات أكثرنا مؤمناً بأن قيام الحروب أمر لا مفر منه ، ولا محيص عنه ؛ فصار مثلنا كمن يعيشون فى الظلام الدامس ، لا يعرفون النور ولا يدرون عنه شيئاً ، فهم لهذا يجدون أن الظلام الحالك شىء بديهى ، لا وجه لاستنكاره ، أو للتفكير فى الخروج عنه . . .

لم يخل الأمر فى بعض العصور من أن ينهض كاتب أو مفكر أو شاعر فيقول كلمة فى ذم الحرب ، على طريقة الشاعر زهير المزنى حين يقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضرَ إذا ضرّيتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحا بثفالها
وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم

ولكننا إذا كنا قد سمعنا من آن لآن صوتاً يذم الحرب ويلعنها ؛ فإننا لم نسمع صوتاً قوياً عالياً ينادى بأن الحرب عبث فى عبث ؛ ويستنكرها فى صراحة وجلاء ، ويرى أن من السخف أن يُظن أنها من الظاهرات التى لا بد منها فى العلاقات البشرية . لم نسمع مثل هذه الصوت قوياً جلياً ، إلا فى زماننا هذا ، وبوجه خاص منذ الحرب الماضية . فإن القرن العشرين — كما امتاز بابتكار أفظع أدوات الحرب ، وأعظم وسائل القتال تخريباً وتدميراً —

فإنه امتاز أيضاً بأنه قد ولدت فيه المدرسة الحديثة التي تتحدى القائلين بأن الحرب لا بد منه ؛ وتتحدث علناً بأن من الممكن خلق الوسائل التي تحفظ السلام بين الأمم، وتقضي على سنة العدوان بين الشعوب ، أو على الأقل تجعل مثل هذا العدوان بين الدول كالعدوان بين الأفراد ، جريمة موجهة إلى المجتمع البشري كله ، يلقى مرتكبها جزاءه ، كما يلقاه أي فرد من الأفراد في أي مجتمع منظم .

آمن كثير من الناس بهذا المذهب الجديد ، وأخذوا يعملون على تحقيقه . ولا شك في أن الرسل الأول في هذا الميدان كانوا يقابلون بشيء غير قليل من التهكم والسخرية ؛ أو على الأقل كان الناس ينظرون إليهم نظرة المشفق الآسف على أولئك الصارخين في البيداء ، النافخين في الرماد . ولكن هذه الصرخات لم تلبث أن نفذت من الآذان إلى القلوب ، وأخذ عدد المنضمين إليها يزداد ، حتى بات يضم جموعاً كبيرة العدد واسعة الجاه عظيمة النفوذ . وهنالك فريق آخر كبير العدد أيضاً لا يزال يشك في أن من الممكن تحقيق هذه الأمنية ؛ كأن السلام بين الأمم حلم جميل ، ولكنه أجل من أن يحققه الزمان . وهم مع ذلك لا ينفرون من الدعاية للسلم ، بل ويتصنتون إليها ، ويشجعونها ، لأن فظاعة الحروب الحديثة قد دفعتهم لأن يلتمسوا الخلاص من هولها بأي وسيلة كانت . وهم لذلك ينظرون إلى دعاة السلم الدائم كأنهم قوم يقومون بتجربة ، ولا يريدون أن يقيموا الصعاب في سبيلها ، لأنهم يتمنون نجاحها ، ولو أنهم يشكون في هذا كل الشك .

ولكن دعاية السلم في حاجة إلى شيء أعظم وأقوى من هذا الموقف السلبي المشرب بالعطف أو الإشفاق ؛ ولو أن العالم ليس فيه سوى طائفتين من الناس ، طائفة تعمل للسلم الدائم ، وأخرى تنظر إليها نظرة الانتظار والإشفاق ، لما كان هنالك ضير كبير . . . ولكن هنالك — ويا للأسف — طائفة ثالثة ، هي طائفة تجار الحرب ، الذين يؤذيهم أن ينشر العدل والإنصاف بين الأمم . لأن هذا يكفكف من غربهم ، ويذودهم عن حقوق الشعوب التي يريدون أن يسطوا عليها ، وينتهكوا حرماتها . إن هذه الفئة قد تكون صغيرة العدد ، ولكنها عظيمة النفوذ ، منتهزة للفرص ، قوية الشكيمة ، لا تتورع عن ارتكاب أكبر الآثام من أجل الوصول إلى بغيتها وبلوغ مآربها ، والإبقاء على الحرب والمحافظة عليها ؛ لأن هذه هي تجارتهم التي منها مجدهم وثراؤهم . ولا شك في أنهم لن يسلموا بزوال الحرب ، ويبذلون كل ما في وسعهم من جهود خبيثة لكي تبوء جميع الدعايات السلمية بالفشل .

هذه الطائفة تشتمل على كثير من الأفراد الذين ينتمون إلى ما يسمى الطبقات الحاكمة ، وكثير منهم يتولى الحكم فعلاً في بلاد عظيمة النفوذ المادي والثقافي ؛ فتراهم حين يرتفع نداء المنادين بإقامة السلم الدائم بين الشعوب ، تظاهروا بأنهم أعظم المؤيدين وأكبر أنصار السلام ، حتى إذا خلا بعضهم إلى بعض سخروا من تلك الدعاية ، وائتمروا على إفسادها والقضاء عليها ؛ فهم يرعون مع الراعي في العلانية ، ويعيثون مع الذئب في السر والخفاء .

أولئك ألد أعداء السلم ، وأكبر عقبة في سبيل التقدم . هم الذين أفسدوا كل محاولة لوضع السلم الدولي على أساس وطيد ؛ هم الذين أفتوا بالتمييز في معاملة الشعوب والأجناس ، وبأن ما يعد جريمة في الغرب قد لا يكون جريمة في الشرق ؛ هم الذين أفسدوا كل محاولة للضمان المشترك بين الدول منذ معاهدة فرساي إلى وقتنا هذا ؛ هم الذين منعوا التعاون بين أمريكا وبريطانيا لوقف عدوان اليابان على الصين في عام ١٩٣١ ؛ وهم الذين أفسدوا عصبة الأمم ، وهم جديرون بأن يقضوا على أي نظام عالمي جديد لإقامة العدل والسلم بين

الأمم . لاشك فى أنهم عندما سمعوا بميثاق الأطلنطى صفقوا له جهاراً وهتفوا له أمام الناس ؛ ثم لم يلبثوا حين خلوا إلى أنفسهم أن استلقوا على ظهورهم من شدة الضحك .

إن أول واجب على دعاة السلم أن يعترفوا بوجود هذه الطائفة ، وأن يدركوا أن من العبث أن يقال إن هذه الحرب هى آخر الحروب جميعا ، بل لابد أن تتلوها حرب تشن على تلك الفئة الضارية ، حتى تنكسر شوكتها ، ويزول أذاها من الوجود . وهنالك يجوز القول بأن العالم سينعم بالسلم الدائم ، ويتحرر تحرراً أبدياً من وباء الحرب .

لهذا كان من اللازم أن تنال الدعاية للسلم تأييداً عاماً قويا ، وألا يكتفى الناس بالنظر إليها نظرة الشك والفتور ؛ فإن نعمة السلم أجل من أن تنال من غير جهد شاق طويل ، والعقبات التى تقف دونها أشد وعورة من أن يتغلب عليها بالهمة الفاترة ، والجهود الضعيفة .

* * *

لا يزال فى العالم كما قدمنا عدد كبير جداً من الناس ، يتوهم أن الحرب شر لابد منه ؛ ومع ذلك فإن المرء إذا أطال النظر والتفكير فى أسباب الحروب الحديثة — وأخص الحديثة لأن المفروض أننا أدرى بها وبالبواعث التى أدت إليها — وطالع ما كتبه المؤرخون ورجال الدولة ، وبحث الوثائق الرسمية والتقارير ، وكل شىء يمت إلى تلك الحروب ، فانه من غير شك سيندهش ويحار لتفاهة الأسباب التى دفعت دولا عظيمة إلى خوض غمار الحرب؛ ويرى فى وضوح أنه قد كان من الجائز جداً أن تمر ساعة الأزمة ، دون أن يطلق مدفع أو تسفك قطرة من دم ، وأن تجنب الحرب لم يكن بالأمر العسير الشاق .

لست أريد الآن أن أعرض لأسباب الحروب الحديثة أو أفندها ، فإن لهذا الأمر الخطير مجالا غير هذا المجال ؛ ولكن هذه الخواطر التى ذكرتها كانت تتردد فى نفسى منذ أخذت أفكر فى حالة الدولة الإيطالية فى الأسابيع الأخيرة ، أى منذ أن أعلنت الحرب على ألمانيا . . لاشك أن أمامنا هاهنا ظاهرة عجيبة تسترعى الانتباه ، وتبعث على التأمل ؛ فإن إيطاليا قد شنت على الحلفاء حربا شعواء ، ألقت فيها بما سماه قائدها الأكبر ثمانية ملايين من الحراب ، ولم يكن عملها هذا صادراً عن تسرع وطيش ، بل عن تدبير ووزن وتقدير . ولم يكن هنالك حادث استفزها فلم تستطع عليه صبرا ؛ أو إهانة وجهت إليها ، فرأت أن الشرف الرفيع لابد أن يراق على جوانبه الدماء . بل لقد كانت فى موقف تغبط عليه ؛ فالحلفاء يسترضونها لكى تظل على الحياد ، وألمانيا تلتمس لها — إذا صح ماقاله رئيسها — كل عذر على تخلفها عن خوض غمار الحرب . وحالة الحياد مغرية أشد الإغراء ، لما تنطوى عليه من المكاسب والأرباح والمغانم ، التى تكفل لإيطاليا أن تخرج من هذه الحرب وهى أغنى الدول وأوسعها ثروة ، وأوفرها تجارة . وهى فوق هذا كله ستظل محتفظة بتلك الملايين الثمانية من الحراب ، موفورة الكرامة ، عزيزة الجناب ، يحسب لها الجميع كل حساب ، لأنها لم تمتحن فى حرب ولم تجرب فى قتال جدى . ولها إلى جانب هذا إمبراطورية عظيمة فى إفريقية الشرقية ، لم يمض على تأسيسها سوى أعوام قلائل، وهى فى حاجة شديدة إلى عهد طويل من الهدوء والاستثمار لكى تأتى ثمرها ، ويتم تكوينها .

ورغم هذه المحرضات القوية التى تغرى بالتزام الحياد ، والتمسك بأهداب السلم ، قرر قادة إيطاليا — وهم رجال عقلاء مجربون — أن يزجوا ببلادهم فى غمار الحرب . ولابد لنا ، نحن الذين نشهد هذه الأحداث العجيبة أن نحكم بأن هنالك أسبابا قاهرة جعلت قادة إيطاليا العقلاء المجربين الموصوفين بالنبوغ والبراعة ، يعدلون عن تلك المكاسب والمغانم الدانية التى يقبضون عليها بأيديهم ، وينصرفون عنها إلى مغانم ومكاسب بعيدة عنهم ، وليست بعد فى متناول أيديهم ، ولا بد أن يخوضوا لها حروباً وأهوالاً . إن هذه الخطوة الهائلة لم يخطها قادة إيطاليا

إلا بعد تبصر وإمعان فكر . ولا بد لنا أن نفترض أنه قد كانت لديهم أسباب قوية دفعتهم إلى المسلك الوعر الذي سلكوه . ولا شك أن المؤرخين سيتعبون أنفسهم ، ويتعبوننا معهم ، في استنباط تلك الأسباب وعرضها أمام أعيننا عرضاً مبوباً مرتباً ، لكي يطلع عليها طلاب علم التاريخ ، ويطمئنوا إلى أن الدولة الفاشستية قد أقدمت على خوض غمار الحرب مع ألمانيا ، على دولة بريطانيا وفرنسا ثم روسيا وأمريكا لأسباب معلومة مفهومة .

وإلى أن تتم هذه الإجراءات التاريخية ، تشغلنا هذه الحرب بأحداثها وأهوالها ، ومفاجآتها وتقلباتها ؛ وتمضي السنين والأشهر ثم ننظر : فإذا الدولة الإيطالية تشن الحرب من جديد ، وتعلن الويل والثبور مرة أخرى على رءوس الأعداء ؛ ولكن هؤلاء الأعداء ليسوا دولة بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا ، بل أصدقاء الأمس من الألمان وشركائهم من قبل في المحور ، الذين كان نصرهم معقد الآمال الإيطالية ، ومشتهى النفس الفاشستية . وهكذا شاهدنا انقلاباً عجيباً ، ورأينا ريح الصبا تنقلب دبوراً ، والشمال تصير جنوباً ، والسلاح الذي كان يشد أزر الألمان يوجه إليهم ، والسيف الذي كان يؤيدهم يشهر عليهم . ولا شك أن لهذه الحرب الجديدة أيضاً أسباباً قوية ، سيشرحها لنا المؤرخون في الوقت المناسب ، ويعرضونها أمام أعيننا مبوبة مرتبة . كما شرحوا لنا من قبل في مجلدات ضخمة أسباب الحرب العالمية الأولى ، وأسباب الحرب السبعينية ، وغيرهما من الحروب الطاحنة الصاخبة .

وإلى أن تتخذ هذه الإجراءات التاريخية ، لا بد لنا أن نعجب من أن دولة إيطاليا ، التي كانت بالأمس معدودة من الدول الكبرى ، قد استطاعت أن تسلك في هذه الحرب مسلكاً أشد إثارة للدهشة والعجب من مسلكها في الحرب الماضية . فلقد لقيت في تلك الحرب توبيخاً قاسياً ، لأنها وهي حليفة دول الوسط لم تشأ — على الأقل — أن تبقى على الحياد ، بل انضمت إلى الحلفاء ، وشنت الحرب على ألمانيا . ونحن لا ننكر أن إيطاليا في ذلك كانت بينها وبين بريطانيا وفرنسا صداقة أكيدة ، ومودة وطيدة ، ولهذا لا نستنكر انضمامها إلى جانب الحلفاء . ولكن إذا كانت خطة العقل والصداقة توجه إيطاليا نحو معسكر الحلفاء ، فلماذا اختارت أن تحالف ألمانيا والنمسا ؟ لماذا تقطع تذكرة إلى برلين ، وهي تريد أن تسافر إلى باريس ولندن ؟ لا شك أن لهذا أسباباً قد شرحها المؤرخون من الطليان وغير الطليان .

وفي الحرب العالمية الثانية استطاعت إيطاليا أن تحالف أعداءها في الحرب العالمية الأولى . وكان بين الشعبين الإيطالي والبريطاني صداقة ومودة قديمة ، قد توجها الأدب والشعر بتاج فني بديع ، ومع ذلك فإن إيطاليا قد حالفت أعداءها السابقين ، لكي تحارب أصدقاءها السابقين ، الذين لم يكن بينهم وبينها عداوة أو حرب في أي وقت من الأوقات . ووجد ساستها أسباباً وجيهة لهذا كله .

إن إيطاليا قطر جميل ، بل لعله أجمل أقطار أوربا على الإطلاق . ولكن سكانه يعانون شدائد قاسية ، من أنواع شتى ؛ منها الزلازل المدمرة ، ومنها البراكين الثائرة ، ومنها هؤلاء الساسة البارعون ، الذين رزقوا عقلا فذاً عجيباً ، يستطيعون به أن يجدوا الأسباب القاهرة التي تدفع إلى الحرب ، وإلى إزهاق الأرواح التي اؤتمنوا عليها ، وكلفوا رعايتها والمحافظة عليها .

ولكن تفاهة الأسباب التي تدفع إلى الحرب ليست مقصورة على هذه الأمثلة الإيطالية ، بل إن تلك التفاهة موجودة في كل حالة أخرى ، وإن كانت أكثر ظهوراً في مسلك دولة إيطاليا الحديثة . . فما أجدر دعاة السلم العالمي أن يدركوا أن ليس وراء هذه الحروب أسباب قوية ، ودوافع ملحة ، بل نفوس امتلأت بالشهوات ، وعقول حشيت بالضلال .

محمد عوض محمد

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

محمد بن عبد الوهاب

١١١٥ — ١٢٠٦هـ

١٧٠٣ — ١٧٠١م

لم يدرك القرن التاسع عشر ؛ إذ مات قبله بقليل ، ولكن تعاليمه وأثرها ظهرت ظهوراً بيناً بعد وفاته فلا غرو إذا نحن عددناه من زعماء الإصلاح في هذا القرن .

هو زعيم الفرقة التي تسمى الوهابية ، وتعتنق مذهبه الحكومة الحاضرة في الحجاز .

نشأ في بلدة تسمى « العيينة » في نجد ، وتعلم دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة ليتم تعلمه ؛ ثم طوّف في كثير من بلاد العالم الإسلامي ، فأقام نحو أربع سنين في البصرة ، وخمس سنين في بغداد وسنة في كردستان ، وسنتين في همذان ؛ ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ، ثم رحل إلى « قُم » ، ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة .

أهم مسألة شغلت ذهنه في درسه ورحلاته مسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام ، والتي تبلورت في « لا إله إلا الله » ، والتي تميَّز الإسلام بها عما عداه ، والتي دعا إليها « محمد » (ص) أصدق دعوة وأحرَّها ؛ فلا أصنام ولا أوثان ، ولا عبادة آباء وأجداد ، ولا أحبار ولا نحو ذلك . ومن أجل هذا تَسَمَّى هو وأتباعه أنفسهم « بالموحدين » ؛ أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليه خصومهم ، واستعمله الأوربيون ثم جرى على الألسن .

وقد رأى أثناء إقامته في الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي أن هذا التوحيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ، ودخله كثير من الفساد .

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التي يسير عليه ، والمشرِّع له ، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ، ولا في حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ؛ لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه ؛ هو الذي بيده الحكم وحده ، وهو الذي بيده النفع والضر وحده ، لا شريك له ؛ فمعنى لا إله إلا الله : ليس في الوجود ذو سلطة حقيقية تسيِّر العالم وَفقاً لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو ، وهذا هو محور القرآن « قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون » .

إذن فما بال العالم الإسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى الإشراك مع الله كثيراً من خلقه؟ فهذه الأولياء يُحَجُّ إليها ، وتُقدَّم لها النذور ، ويعتقد فيها أنها قادرة على النفع والضر ؛ وهذه الأضرحة لأعداد لها تقام في جميع أقطاره ، يشدُّ الناس إليها رحالهم ، ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم ؛ ففي كل بلدة وليّ وأولياء ، وفي كل بلدة ضريح وأضرحة تُشرَك مع الله تعالى في تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير ، كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين يُتقرَّب إليه بذوي الجاه عنده وأهل الزلفى لديه ، ويُرجَون في إفساد القوانين وإبطال العدل ، وليس هذا كما كان يقول مشركو العرب « ما نعبدُهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زلفى » وقولهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » .

بل وا أسفاه ! لم يكتف المسلمون بذلك بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد ؛ فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » باليمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لها قدرة عجيبة ، مَن قصدها من العوانس تزوَّجت لعامها ؛ وهذا الغار في الدرعية يحج

إليه الناس للتبرك ، وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا ؛ ففي مصر شجرة الحنفي ، ونعل الكُلْشَنِي ، وبوابة المتولي[١] ؛ وفي كل قطر حجر وشجر ، فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد ؟

إنها تصد الناس عن الله الواحد ، وتشرك معه غيره ، وتسيء إلى النفوس ، وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة ، وتجردها من عزة التوحيد ، وتفقدها النسامي .

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه « محمد بن عبد الوهاب » ، وهو أن الله وحده هو مشرّع العقائد ، وهو وحده الذي يحلل ويحرم ، فليس كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين ، فالله يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » ؛ فكلام المتكلمين في العقائد ، وكلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة علينا ، إنما إمامنا الكتاب والسنة ، وكل مستوفٍ أدواتِ الاجتهاد له الحق أن يجتهد ، بل عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام — حسب فهمه لنصوص الكتاب وما صح من السنة — ما يؤديه إليه اجتهاده . وإقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين ، إذ أضاع شخصيتهم وقوتهم على الفهم والحكم ، وجعلهم جامدين مقلدين يبحثون وراء جملة في كتاب أو فتوى من مقلد مثلهم ، حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً يلعن بعضهم بعضا ، ولا منجاة من هذا الشر إلا إبطال هذا كله ، والرجوع إلى الدين في أصوله ، والاستقاء من منبعه الأول .

وهكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شريك ، والتوحيد في التشريع فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ، وعلى هذا الأساس بُنِيَتِ الجزئيات .

التقى في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو « ابن تيمية » ، وهو مع أنه حنبلي فقد كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة ، وكان حر التفكير في حدود الكتاب وصحيح السنة ، ذلق اللسان ، قوي الحجة ، شجاع القلب لا يخشى أحدا إلا الله ، ولا يعبأ بسجن مظلم ، ولا تعذيب مرهق ، فهاجم الفقهاء والمتصوفة ، ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها ، وألف في ذلك الرسائل الكثيرة ولم يعبأ إلا بما ورد في الكتاب والسنة ، وخالف إمامه أحمد ابن حنبل إذا أداه اجتهاده إلى ذلك .

فيظهر أن محمد بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية ، فأعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفي المتحف البريطاني بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب ، فكان ابن تيمية إمامه ومرشده وباعث تفكيره ، والموحي إليه بالاجتهاد والدعوة إلى الإصلاح .

دعا مثله إلى رد البدع ، والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسل ولا شفاعة ، وزيارة القبور إن كانت فللعظة والاعتبار لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئا بجانب الله وقوانينه الثابتة التي لا تتخلف والتي نظم الله بها كونه ؛ فالذبح للقبور والنذور لها والاستغاثة بها والسجود عندها شرك لا يرضاه الله ، وهو هدم للتوحيد — الذي جاء به الإسلام — من أساسه ؛ ومثل ذلك تجصيص القبور وبناء الأضرحة وتشييد الأبنية عليها وكسوتها بالحرير المذهب وما إلى ذلك ، فكل هذه لا يعرفها الإسلام .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة

(١) شجرة الحنفي : شجرة كانت في جامع الحنفي يتبرك بها . ونعل الكلشني : نعل قديمة في تكية الكلشني يزعمون أن الماء إذا شرب منها ينفع للتداوي من العشق . وبوابة المتولي مغطاة بالمسامير تعلق بها الشعور والخيطان ليذكر بالخير من علقها وهكذا .

مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا إقامة أذكار يغنّى فيها ورقص ، ولا محل يتبرك ويتمسح ويُحتفل به هـذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعوادا خشبية لا تضر ولا تنفع .

كل هذا يخالف الإسلام الصحيح يجب أن يزال ، ويجب أن نعود إلى الإسلام في صفائه الأول ، وطهارته ونقائه ، ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك ؛ فلا إلـه إلا الله معناها كل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات ، وما في البردة من مثل قوله :

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به
سواك عند حدوث الحادث العمم

وقوله :

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي
فضلا وإلا فقل يا زلّة القدم

وقوله :

فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

ونحو ذلك ، أقوال فاسدة كاذبة ، فلا التجاء إلا إلى الله ، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة إلا عليه .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيتهم ليس له من سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول عهدها صافية نقية من أي شرك ، وكانت لا إلـه إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم خوف أحد إلا الله ، فلا خوف من الموت في سبيل الحق ، ولا خوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من العذاب ، ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت في رفع لواء الحق ودفع الظلم ، وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ؟

ثم لم يتغير شيء إلا العقيدة ، فتدنّوا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك ، فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد أخشاب وقبور أولياء ، وركنوا إلى ذلك في حياتهم العامة ؛ فالزرع ينجح لرضا ولي ويخيب لغضبه ، والبقرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوي أو مثله ، وتموت إذا لم تنذر ، وهكذا في الأمراض والملل والغنى والفقر ، كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية وإنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها . ومثل هذه النفوس الضعيفة التي تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأمر بمعروف أو تنهاهم عن منكر ، فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلوا للأخشاب والأحجار . وما زال كل قرن يمر يزداد معه الآلهة عددا وتزداد النفوس ذلة ، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها ، وانهيار عزتها . ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله ، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة ، ولا بد من هدم هذه البـدع والخرافات باللين إن نجح ، وبالقوة إن لم ينجح ، والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا ، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها ؛ فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب ، إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسدا فسد كل شيء ، وطبيعي أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين في نجد ورئيس الحكم في مصر .

***

أما بعد ، فإن التوحيد الصحيح المطلق المجرد عن شائبة كل تجسيم ، المنزّه عن كل تشخيص ، الذي يصل العبد بربه من غير وساطة ولا وسيلة ، مطلب عسير لا يستطيعه إلا الخاصة أو خاصة الخاصة ، أما من عداهم فيشعرون بالتوحيد لحظات وسرعان ما يتدهورون ويشوب عقيدتهم نوع من

التشخيص ، وأسلوب من التجسيم على نحو ما ، ثم يتخذون من الصالحين وسائل وزلفى — كان ذلك في الجاهلية وكان ذلك في الإسلام بُعيد البعثة إلى الآن .

فالمؤرخون يروون أن أهل الطائف لما أسلموا كان لهم بَنيّة على اللات فأمر النبي بهدمها فطلبوا منه أن يترك هدمها شهراً لئلا يروّعوا نساءهم وصبيانهم حتى يُدخلهم الدين ، فأبى ذلك عليهم وأرسل معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب وأمرهما بهدمها .

وفي الحديث أن العرب كانت لهم في الجاهلية شجرة تسمى «ذات أنواط» كانوا يعلّقون بها سلاحهم ويعكفون حولها ويعظمونها ، فسأل بعض المسلمين رسول الله أن يجعل لهم كذلك «ذات أنواط» فنهاهم عن ذلك .

ولما جاء عمر شعر أن بعض الناس أخذ يحن إلى العادات الجاهلية القديمة ، فرآهم يأتون الشجرة التي بايع رسول الله (ص) تحتها بيعة الرضوان فيصلّون عندها فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت .

ولما رأى عمر كعب الأحبار يخلع نعله ويلمس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس ، قال له : « ضاهيت والله اليهودية يا كعب » .

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجع عن التوحيد المطلق الذي جاء به الإسلام ، لأن التحرر من المادة بكافة أشكالها ، والإفلات من قيود الحس ، والتسامي إلى الله فوق المادة وفوق الحس وفوق التشخيص يتطلب منزلة رفيعة من السمو العقلي تعجز عنه الجماهير .

وقال النبي (ص) « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

ثم سرعان ما اتخذ المسلمون قبور الصالحين وغير الصالحين مساجد ، ولم يكن الصحابة الأولون يشدّون الرحال إلى المشاهد ، ثم كان ذلك ، وهكذا كلما مضى زمن كثرت فيه أصناف التعظيم للقبور والأضرحة وكثير من الأشجار والجماد .

وظهر الدعاة والمصلحون على توالي العصور يحاولون أن يردوا الناس عن هذا ويرجعوهم إلى التوحيد وحده ، وكلما دعا داع إلى ذلك عذب وأهين ورمي بالكفر والإلحاد كما فُعل بابن تيمية ، فقد ألف الرسائل في هذا الموضوع وانتقد حال المسلمين في استغاثتهم بالقبور ورحيلهم إليها وطوافهم بالصخرة في بيت المقدس ، ورحيلهم إلى مشهد الخليل ومشاهد عسقلان ، وتعظيمهم حتى بعض آثار النصرانية ، فعذّب وسجن ! وأتى بعده بقرون محمد بن عبد الوهاب هذا فدعا مثل هذه الدعوة فرمي بالكفر .

وأخيراً جاء الشيخ محمد عبده فدعا إلى العدول عن التوسل والشفاعة والزيارة للقبور ، وملأ دروسه في التفسير وتفسير جزء « عم » بمثل هذه الدعوة ، فلقي من أهل زمنه ما لم يغب عن أذهاننا بعد .

هذا هو جوهر الدعوة التي دعا بها محمد بن عبد الوهاب فماذا كان شأنها ومصيرها ؟ هذا هو موضوع المقالة الآتية إن شاء الله .

أحمد أمين

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
مـ
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد
ثمن العـــدد ١٥ مليما

كلبى

للدكتور أحمد زكى بك

لى كلبٌ عاقل أريب :

عدتُ مرةً إلى بيتى فأُبلغت أن الكلب عضّ حامل البريد . فطلبت الكلب ، وكان الحادث لا يزال ساخناً ، فتباطأ فى الحضور وهو يسمع ندائى ، فلما ألححت حضر وقد طأطأ رأسه إلى الأرض ، ودلّى أذنيه ، وعطف خط سيره فدار حولى ولم يأتنى كعادته قُدُماً . فعلمت من كل هذا أنه يُقر بأن شيئاً وقع ما كان يصح أن يقع . فقلت فى نفسى فاتحةُ خير ، ومبادرةٌ إلى الإقرار بالذنب قلّما يجدها المرء فى غير الكلاب .

فقلت له :

— كيف تعض حامل البريد إلينا ، وحامل البريد كحامل الطعام والعظام ، كل يجرى فى خدمتنا !

فأخذ يدور برأسه يمسح به قدمى كمن يريد أن يخرج من حرج السؤال باعتذار خفيف . ولكنى أعدت السؤال فى صوت الغاضب . فلما لم يجد بداً من الجواب استخار الله فيما هو فيه ، ثم قال :

أهذه أول مرة يحمل فيها الساعى بريد الصباح والمساء إلينا ؟ فقلت : لا ، فقد مضى يحمله إلينا أربع سنوات . قال : أفكنتُ عضضته فى كل هذه السنين مرةً ؟ قلت : لا علم لى بأنك عضضته . قال : فسلْه إذن لمَ عضضتُه هذه المرة . إنك ياسيدى تعرف أن بين باب الحديقة وباب الدار عشر خطوات أو عشرين ، وهذه هى التى عرفتُ أن الساعى يخطوها إذا هو أتى بخطاب . وفى كل مرةٍ ما كنت أصنع سوى أن أنبح نباحاً هيّناً ، غير نباح الحرب ، أُعلن فيه قدومه . أما اليوم فقد أراد أن يخترق حرمة الدار ! . قلت : كيف ؟ . قال : إنى رأيت هاتين الرجلين ذاتى القماش الأصفر ، بدل أن تذهبا من باب الحديقة إلى باب الدار فى خط مستقيم ، رأيتهما تجوزان باب الدار وتدوران حولها ، وتخترقان من بطن الحديقة إلى حيث لا يدخل وحده غريب . عند ذلك نبحتُ ونبحت منذراً ، فلم يُصغ صاحب الرجلين لإنذارى ومشى إلى ماوراء الدار . فزاد نباحى وزاد اقترابى من ذلك القماش الأصفر . فلما تحدّانى لم يكن بدٌّ إلا أن أنهش لحمه . وعندئذ ظهرتَ سيدى عند باب الدار الخلفى ، فزاد كَلَبى على الرجل لولا تخذيلها إياى . قلت : ولكنه إنما جاء إلى الباب الخلفى مبالغة فى الحرص على إيصال ما يحمل من رسائل . قال : أو طمعاً لبعض ماق الحديقة من ثمر ، أو طلباً لما انتثر فيها من متاع . على أنه مالى ولهذا ، فما للكلاب أن تتدخل فى نوايا الرجال .

وكلبى هذا لا يمنع كل أحد من باب دارنا الخلفى . فصبى الجزار وصبى البقال والخباز والمكوجى وأضرابهم يؤدون رسائلهم عند هذا الباب الخلفى . ولكنهم كذلك يدخلون الدار من باب الحديقة الخلفى . وكل هذا على مرأى ومسمع من كلبى . ولكن الويل لهم جميعاً إذا هم دخلوا الدار من بابها الأمامى . وهو كأنما يعرفهم بأشخاصهم ، فإن أتاه منهم غريباً فالويل للغريب من هذا الكلب العجيب .

والبستانىّ بينه وبين كلبى صداقة ، أقلها صداقة الجيرة . فكلاهما يقضى فى الحديقة زمناً غير يسير . وبالطبع يأذن الكلب للبستانى أن يروح ويغدو فيها ، ولكن الويل له إذا هو أراد أن يدخل الدار . إنه ليقف داخل مصراعى بابها كليهما يتحداه أن يخطو خطوة واحدة إليها ، وينسى صداقة الساعات الطويلة بين الأزهار وتحت ظلال الأشجار .

ومنذ أسابيع حضرت إلينا أضياف عدة ، أربعون عدّاً ، جاءوا على ميعاد . فنبحهم تباعاً . فلما حضرنا لتحية الضيف الأول فالثانى فالثالث ، ثم تكاثر الحاضرون ، وأضاء النور فى أكثر من مكان ، كفّ كلبى من نباحه . وبدل أن يمنع سائر الأضياف عن الدار مشى فى أذيالهم ، فكأنما رضى عنهم فأخذ يصطحبهم إليها اصطحاباً . ولما انعقد جمعهم

جعل يدور فيهم ويرفع يده ، أو يديه كلتيهما ، إلى ركبة من يأنس فيه الإنسانية ، يطلب مصافحته . فكلبي يعرف المصافحة ، ويصافح بكلتا يديه ، بهذه ثم بتلك . فإن رددته صافح بتلك ثم بهذه ، ثم بكلتيهما معاً . ولما فحص من أضياف مأربا ، ولم يجد فيهم ما يُشبع أنسه ، خرج إلى الحديقة فإلى الطريق ، وكانت أنوار الدار كشفت عن بعضه ، وفي بعضه خبيئاً في الظلام الحالك . وزاد ارتفاع الشجر على جانبي الطريق له إظلاما ، وشجر المعادى رفيع مديد . عندئذ وجد الكلب شبحاً في الظلام يقترب من باب الدار فأخذ ينبحه نبحاً شديداً ، ينبح هذا الشيء الفرد من دار أذنَ أن يدخلها هذا العددُ العديد من الناس . ولكن تلصّص هذا الشيء الفرد ، ومشيته في الظلام تلك المشية الخفيفة المريبة ، هما اللذان جعلاه ينبح هذا التحرك هوناً في جوف الليل . لقد نسي أنه لا خوف من لص على دار وهي تزدحم بمن تزدحم .

وما كان هذا اللص غير جندي البوليس . ولكلبي كراهة مختارة لرجال الشُرطة ، لست أدري أهي من تلك البندقية التي يحملونها كالعصا — والكلب يجد التحدّي في العصا — أم هي لغيرة حارس من حارس ، حارس يعمل صناعةً بالقانون ، وحارس يعمل طبيعة بالسليقة .

وكلبي عالي الهمة ، وهو لا يعبّ طفلا أبدا . وتنظره فتجد في عينيه الهادئتين هدوء الشيخوخة . ويزيد مظهر الشيخوخة فيه تدلّي شدقيه الكبيرين . وهي شيخوخة جليلة قلما تجدها في الرجال . ويأتيه الطفل ابن الأشهر يحبو ، أو يمشي وهو لا يكاد يستقيم ، فيأخذ يعبث في وجهه ، فيضع إصبعه في عينه وفي أنفه ، ويدخل يده الصغيرة بين أسنانه ويشدّ صدغه ، وصاحبنا لا يتأفف ولا يتحرك كأنما يلذّ له ذلك ، كما يلذّ لبعض الشيوخ أن تعبث الأطفال في لحاهم . وقد يزيد الطفل في عبثه كأن يشدّ شارب الكلب أو يشد أذنه فيؤلم ، فعندئذ لا نرى الكلب يصنع إلا أن يقوم عن إقعاءته ليُلقي في هدوء في مكان بعيد آخر . فإن أخّ الطفل وراءه ترك الحجرة فلا يعود .

والعداوة بين القطط والكلاب عداوة قديمة متوارثة ، يجدها الكلب في دمه ولو لم يكن رأى قط قطا . وكذلك هي في القطط . ولكن في منزلنا صداقة قل أن يوجد مثلها بين الناس . تلك صداقةٌ بين كلبنا هذا وقطتنا . فقد وُلدت القطة في الدار ، ولحقها الكلب وهي طفلة ، ونشأت بين سمعه وبصره ، وعلى ملاطفته ولعبه أحيانا . وهما يأكلان من طبق واحد عندما يتحد نوع الطعام . وكثيراً ما كان يأكل فتأتيه القطة تشركه في طعامه ، فيترك لها عنه ويتنحّى ، كرما أو أنفة . والقطة الآن قطة كبيرة ، بلغت حدّ البلوغ وفاتته بعيدا ، ومع هذا تحب أن تلاعب الكلب . وهي تعزم بالوثوب إلى وجهه لتلاطفه بيديها ، وهو ناظر إليها لا يكاد يلقي إليها بالا ، وقد يُشيح بوجهه عنها وهو جالس ، تارةً يمينا وتارة شمالا ، ليتفادى لطماتها . ويفعل هذا في تؤدة الكريم المتعالي عن العبث .

وتسير قطتي في الحديقة إلى جانب كلبي ، حتى إذا هو لمح قطة أخرى على الندى ، انطلق إليها كما ينطلق السهم ، حتى ليكاد مرة أن يبقر بطن إحداها لولا أن أسعفتها شجرة تسلقتها في سرعة البرق وهي مُوجَعةٌ جريحة . وكان منظر القطتين عجبا . كلتاهما جمعتهما رابطة الدم والجنس ، وهذا الكلب بينهما ، يعادي إحداهما عدواة الموت على غير سابق رؤية أو معرفة ، ويصادق الأخرى نزولا على أحكام العشرة ، ومحافظةً على حرمة الدار الواحدة .

ثم إن صداقة كلبي لقطتي صداقة فيها شيء من التحفّظ ، على الأقل من جانبه ، أو لعله الكبرياء . ومع هذا فهي صداقة ليس كلها صداقة . وإن كان يحك الصداقة الشدائد ، فاسمع هذه عن كلبي :

ركبنا السيارة ، وركبها الكلب معنا . وما كدنا نتحرك حتى انتفض الكلب من بيننا وقلق بنفسه منها مع ما في هذا من خطر على حياته . أفتدري على ما وقع ؟

وقع على كلب آخر كان يسرع وراءنا فطننا وكاد ينالها ، وصرعه قبل أن ينالها بثوان ، ثم دارت بين الكلبين معركة علمتنى أن الوفاء أحياناً يكون أقوى من وشائج القربى وصلة الدماء .

ولكلبى نفس مُرّة لا تعلو على الضيم أبداً . كنا على المائدة أمس فألقمته قطعة من الخبز لم تكن فيها الكفاية من رائحة اللحم . فلما أخليت إصبعى منها ظنا أنه قاضمها ، أشاح بوجهه عنها فسقطتْ على البساط . فغضبتُ وصحتُ : أخرجْ . فخرج وانتحى من الدار مكاناً قصيّاً . ونَاداه من فوق المائدة من الأهل مَن ناداه فلم يستمع لندائهم وظل فى ركنه قابعاً . فمرّ عليهم ، فأغرونى بندائه فناديته باسمه مرة واحدة فجاء توا ، واتخذ وجهه وعيناه لوناً وسطاً بين التغضب والأسف . فلما قلت له بلغة الكلاب لا بأس عليك ، زأط ونط وأراد أن يغمرنى بالعاطف منه كثير . وعدتُ فألقمته اللقمة بعد أن زدت من شحمها فأكلها ، وأتبعتها لقماً غير ذات شحم أولحم ، امتحاناً ، فأكلها ونفسه راضية .

لقد نشأنا ، ونشأ أكثرنا فى الشرق على كراهة الكلاب ، ففقدنا صحبةً من أصدق وأهنأ وآنس ما يجد ابن آدم على ظهر هذه الأرض ؛ فقدنا صُحبة قبيل من خلق الله كان يأنس به أنبياء الله . ألم يكونوا رعاة ؟ وما الراعى بلا كلب يهش عليه غنمه ويؤنس وحدته فى الساعات الطويلة التى يقضيها فى الحقول المنبسطة أو الوديان والجبال الفارغة الخالية إلا من خضرة أعشاب وخرير أمواه ، وإلا من ثُغاء أغنام ونُباح كلاب .

لقد علمونا كراهة الكلاب ، فأصبح الصبى فى الأحياء المحافظة لا يلقى الكلب إلا بحجر أو عصا ؛ وتعلم الكلب ألا يلقى صاحب الحجر والعصا إلا بنبحة زاجرة . وظل سوء التفاهم هـذا قائماً بين رجال الله وكلاب الله ، وهو كـكل سوء تفاهم يقوم على الجهالة من ناحية أو ناحيتين ، فضياع الثقة فى إحدى الناحيتين أو فى كلتيهما .

إن طعام الكلب العظام ، ولقد عـقلوا هذا بتلك الصحبة القديمة التى هى أقدم من الأهرامات ، وأقدم من تقسّم الجمعية البشرية أفخاذاً وقبائل . عقلوها بتلك الصحبة القديمة يوم كان رزق الرجل من صيد الوحش فى الأدغال . فكان يعينه الكلب على الصيد ، فيأكل الرجل والرجال اللحم ، ويأكل الكلب والكلاب ما تخلف من عظام . وكانت شركة أساسها المنفعة للطرفين فدامت ما دامت السنون ، وقالوا ما تلك الصحبة القائمة الحاضرة إلا أثراً من تلك الصحبة القديمة الغابرة .

والصحبة الحاضرة قائمة على النفع كذلك وإن تغيّرت الأوضاع . فصاحب الكلب اليوم لا يُخلّف لكلبه العظم مما يصطاد من الوحش ؛ ولكن مما يشترى لنفسه من الأسواق . والكلب لا يعينه على صيد ، وإنما يحرس داره ومتاعه ، من ساكن ومتحرك ، بأوفى وأرخص مما يحرسه الأجراء من الآدميين . فالحارس الآدمى ينام ، والحارس الآدمى ينام ويحلف لك أغلظ الأيمان أنه لم ينم . وقد يكون حاميها حراميها . أما الكلب فلا ينام ، وإن هو نام أيقظه أخفت الأصوات مما لا تدركه الأذن الإنسانية ، فكأنما يُوحى إليه . وهو لا يكذب لأنه لم يبلغ هذه الرتبة الإنسانية من الذكاء ؛ وهو لا يسرق من حمى . والحارس ذو الرجلين تعطيه أجراً ثلاثة جنيهات أو أربعة ، والحارس ذو الأربع لا يتقاضاك غير العظمتين والثلاث .

وعلى ذكر السرقة أذكر أن كلبنا له ولعٌ كبير بالكعك والفطائر . ويأتينا الأصدقاء فيدور حول الكعك وهو مكشوف لعينه ، قريبٌ من يده وفمه ، ولكنه لا يقربُه أبداً . ويظل يجرى بين الكعك وبيننا رائحاً غادياً ، ولو كان الكعك فى غير حجرتنا ، ولكنه يعفّ أن ينال ما لا يؤذن به ، ويربأ بنفسه أن يكون لصّاً .

إلا مرّة واحدة : غفلْنا عن طلبه ساعات طويلة ، وفرغ الكعك أو كاد ، وقتنا نودّع الضيوف . فلما عرف بحسّه الفطرى العجيب أن بقية الكعك لا بد مرفوعة ، وكان الإغراء له شديداً ، تلصّص إلى الأطباق وأخذ ينظر لها وثباً ، ثم هجم عليها فى لمحة البصر ، وأخذ كعكة ، وأسلم أرجله للريح ولم ينفع فيه دعاء .

أحمد زكى

معجم القرآن الكريم

ليس في العربية كتاب عكف العرب والمسلمون على درسه وشرحه وتفسيره كالقرآن الكريم . فمنذ أربعة عشر قرناً وهو موضع دراسات واسعة متنوعة لاتكاد تنقطع في عام من الأعوام . ومع ذلك فقد أغفل الدارسون والمؤلفون جانباً يعد إغفاله — في نظرنا — من أعجب الأمور ؛ ذلك هو وضع معجم يشرح جميع ما يرد في القرآن الكريم من طير وزهر ونبت وشجر ولباس وآلة موسيقية ومدن ورجال وقبائل وأنبياء وقصص ، وما إلى ذلك مما يمرّ به القارئ دون أن يقف على كنهه أو يستقصي أصله وتاريخه . فإذا قرأ المنّ والسلوى (سورة طه الآية ٧٩) فلا يقنع بقول الشراح إنهما الترنجبين والطير السُّماني ، بل يطلب المزيد من المعرفة حتى يصل إلى وصفها بوجه الدقة والحصر ؛ وإن قرأ السدر والطلح (سورة الواقعة الآية ٢٧ ، ٢٨) لم يكتف بقول الشراح إنهما شجرا النبق والموز ؛ وإن رأى الإستبرق (سورة الكهف الآية ٣٠ ، والدخان الآية ٥٣ ، والرحمن الآية ٥٣ ، والدهر الآية ٢١) تلمس مواطن وروده ، ووقف على وصفه ، وتتبع أصل اللفظة ومنشأها . وقل مثل ذلك فيما يرد من أسماء أعلام وأماكن ، وإشارات إلى قصص وأخبار وما إلى ذلك .

هذا المعجم لا يستغنى عنه قارئ القرآن الكريم سواء أمسلماً كان أم غير مسلم ، طالب هداية وبركة أم طالب علم وتحقيق ؛ وهو في نفسه يؤدي فائدة مزدوجة : فمن جهة يعين على التوضيح والفهم العميق ؛ ومن جهة أخرى يؤدي إلى دراسة طريفة في تاريخ العرب الثقافي والاجتماعي والأدبي زمنَ الرسول عليه السلام وقبيلَ الإسلام ؛ كما يؤدي إلى مقابلات بين ثقافات الأمم الأخرى المعاصرة للأمة العربية .

وليس من شك في أن القرآن الكريم أصح وأصدق مصدر لجميع العناصر الأوليّة التي تؤلف كيان الحياة الجاهلية والإسلامية ، ذلك الكيان الذي نعتمد في إدراكه على الخيال أو ما يشبه الخيال .

وأمامي الآن مباحث جزئية تتناول شطراً يسيراً من هذه الدراسة الواسعة : منها ما يتناول أسماء الطيور الواردة في القرآن الكريم ، ومنها ما يتناول أسماء الحيوانات ، ومنها ما يتناول أسماء الآلات الموسيقية ، ومنها ما يتناول النباتات والأزهار ؛ وهي مباحث أوليّة يُقصد منها الانتفاع الفردي ، إذ أن مثل هذه المباحث يجب أن يتفرغ لها عدد كبير من العلماء المتبحرين في علومهم .

بيد أن ما أودّ أن أشير إليه هنا أن هذه المباحث تؤكد النظرية العامة التي لم يرتب في صحتها باحث قط ، وهي سلامة القرآن الكريم سلامةً كليّةً من أي ريبة ، وصحته صحةً تاريخيّةً علمية . فقد رأيت بعض الباحثين الأوربيين يتخذون من ترتيب سور القرآن الكريم على الشكل الذي نجده في المصاحف دليلاً على صحته . وأظن أن إيراد الأدلة العقلية المنتزعة من القرآن الكريم نفسه للتدليل على هذه الصحة مذهب قديم سليم ، إن لم نقل إنه أقوم وأسلم مذهب .

* * *

لا ريب في أن دراسة القرآن الكريم على هذا النهج أمر جليل الفوائد . والواقع أنه يبدو غريباً غاية الغرابة أن يغفل المسلمون في تاريخهم الطويل عن الاضطلاع بها . وأغلب الظنّ أنهم لم يغفلوا ، ولكنهم ضمّنوا الشروح التي تقصدها تفاسيرهم الواسعة دون تقيّد بتبويب أو ترتيب خاص على النحو الذي أشرت إليه .

وقد أخبرني أحدُ علمائنا الثقات أنه قرأ في مصدر لم يذكره ، أن أحد ملوك المسلمين جمع علماء عصره من فقهاء ولغويّين ومؤرخين وفلاسفة وأطباء وجغرافيين ومَن شاكلهم ، ووكل إليهم أن يفسروا القرآن تفسيراً شاملاً

لجميع العلوم والفنون ، كلٌّ حسب اختصاصه : فالفقيه يشرحه من ناحية الفقه ، والنحوى من ناحية النحو ، والجغرافىّ يشرح ما ورد من أسماء البلدان ، والباقى يشرح أسماء النباتات . . فانقطعوا لهذا العمل ، وجاء تفسيرهم فى مجلدات كثيرة يتطلب نسخها عشرات السنين . فهذه الرواية — إن صحّت — تثبت أن القدماء أدركوا ما لهذه الدراسة الوافية العميقة من شأن ، وأنهم حققوها على وجه لا نعرف — وا أسفاه — عنه شيئاً حتى نحكم أيطابق ما نقصده أم يخالفه . ولكنّا نتصوّر ، على كل حال ، أن العصر الحديث يتذرّع بوسائل شتى لم تكن مألوفة فى العصور الماضية لتبيان المادة المعروضة وتحديدها . وأقلّ ما يصح أن يذكر هنا التصوير والرسم ، فليس أوضح فى شرح اسم لباس أو طير أو نبات من عرض صورته ؛ وتغنى الصورة أو الرسم عن الجمل المبهمة أو التعريفات « التقليدية » التى قد تزيد فى الإبهام .

* * *

وبين أيدينا — لحسن الحظ — دراسات من هذا النوع فى غاية الدقة والتفصيل تتناول الكتاب المقدس . فقد وضع العلماء الأوربيون مؤلفات بعضها فى مجلد ، وبعضها فى عدة مجلدات ، مرتبة حسب الأبجدية ، أسموها جميعاً معجم الكتاب المقدس ؛ أذكر منها على سبيل المثال : (١) Dictionaire De La Bible لمؤلفه F. Vigourow الذى طبع سنة ١٨٩١ ، وذيله المسمى Supplément du Dictionaire De Le Bible فى جزءين طبعا سنة ١٩٢٨ ، و (٢) A Dictionary of the Bible(*) لمحرره James Hastings ومساعدة أربعة من العلماء ، وقد صدر فى أربعة مجلدات وملحق : صدر المجلد الأول سنة ١٨٩٨ ، والثانى سنة ١٨٩٩ ، والثالث سنة ١٩٠٠ ، والرابع سنة ١٩٠٢ ، والملحق سنة ١٩٠٨ . واحتوت هذه المجلدات على مقالات فى أسماء الأعلام والأماكن والآثار والحفريات وعلم سلالات البشر Ethnology وطبقات الأرض والتاريخ الطبيعى ، وفقه الكتاب المقدس Bible Theology وعلم الأخلاق Ethics الخ . . . وفى الكلمات الهامة المستعملة فى الترجمة الإنجليزية وفى الموضوعات المهمة والصعبة . واشترك فى تحرير هذا المعجم عدد كبير من العلماء ، تناول كلٌّ منهم الموضوع الذى تخصّص فى درسه وأحاط به إحاطة جيدة ، مذيلاً موضوعه باسمه لضمان الأمانة العلمية ؛ ثم راجع المحرر ومساعدوه وهيئة من العلماء تلك الموضوعات وأقروها . (٣) وصدر عن جامعة شيكاغو عام ١٩٠٨ Old Testament and Semitic Studies فى مجلدين ألّفه ثلاثة من العلماء . (٤) وصدر عام ١٩١٠ The Temple Dictionary of The Bible(*) فى مجلد واحد ليكون فى تناول عامّة القراء . وقد سار محرراه W. Ewing و T. Thomson على غرار المعاجم السابقة ، فأشركا عدداً من العلماء المتخصّصين فى كتابة بعض المباحث ، وقاما هما بالمراجعة . بيد أن لهذا المعجم مزيتين : الأولى أنه استفاد من الأبحاث والاكتشافات التى جدّت فى مصر وفلسطين ، وخاصة ما وصلت إليه جمعيات الآثار فى فلسطين من معلومات جديدة ؛ والثانية أنه تجنّب المسائل النظرية والجدلية واقتصر على المعلومات منها . (٥) وصدر فى العربية كتاب « مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين » سنة ١٨٦٨ فى مدرسة العلوم الأميركانية فى عبية (لبنان) فى ثلاثة أجزاء ، مجموعةً فى مجلد واحد ؛ يبحث الجزء الأول منها فى وصف الكتاب المقدس والقوانين المفيدة لقراءته ، والثانى يفصّل أسفار العهدين القديم والجديد ، والثالث يوضح أموراً متنوعة مذكورة فى الكتاب المقدس أو لها علاقة به من جهة ما .

(*) Dealing with its Language, Literature, and Contents including The Biblical Theology.

(*) Deals with Biblical Antiquities, Biography, History, Literature, Manners and Customs, natural History, geography, and Topography.

يا من يدلني على الطريق !

قرأت وأنا طالب أدرس الفلسفة ، أن أفلاطون تخيل أطفالاً وضعوا فى غار ، وسلسلوا بالسلاسل الغلاظ كيلا يتحركوا ، وجعلت وجوههم تلقاء الجبل ، وظهورهم إلى الطريق ، وشبوا على ذلك ، فكانوا يسمعون وقع خطى المارين وأصواتهم فى أحاديثهم ، ويرون ظلالهم على جدار الغار ، فيحسبون أن الظلال هى التى تتكلم ، وأن الدنيا هى هذا الغار ، ولا يتصورون أن للظلال حقائق ، وأن وراء الغار عالماً واسعاً ، وأن فيه نور الشمس وسنا القمر وزهر الربيع — وقال إننا فى دنيانا كأولئك الأطفال ، لا ندرى أن كل ما نرى ظلال لحقائق كبرى هى عالم المثل العليا (Les Idées) وأن النفس قبل أن تسجن فى الجسد ، كانت تعيش فيه حرة طليقة عالمة ، وأن كل ما نتعلمه إنما هو تذكر ومراجعة . . .

وما أدرى ، أأحسنت التلخيص والنقل ، أم أنسانى بُعد العهد وطول المدى حقيقة المسألة ، ولكن الذى أدريه أنى اقتنعت بهذه « النظرية » مذ قرأتها ، وخالطت فكرى وحسى ، ووافقت ما كنت أشعر به ولا أملك البيان عنه ؛ إذ كنت أحس من صغرى أنى أعيش فى مجال ضيق ، وأن قلبى فى ظلمة ، وأن فى نفسى فراغاً لا أدرى كيف أملؤه ، وأنى لا أشعر بالنور والسعة إلا فى لحظات سريعة أكون مستغرقاً فيها فى عبادة ومناجاة ، أو فى عاطفة وحب ، أو فى تأمل وخيال . ولازمنى هذا الحس الغريب طول حياتى ، فحبب إلىّ الألم ، الألم المادىّ المثمر الذى أحبه الشعراء ، وهتف له « موسّيه » وصحبه ، ودعوه بالأشعار البارعة ، وهتفوا له بالمآسى البالغة ، لأنه يدنيهم من (عالم المثل) ويسمو بهم عن لذائذ

ومن أطرف ما فى هذا الجزء الفصلان السادس عشر والسابع عشر اللذان يتناولان الآلات الموسيقية والأوزان والنقود والمكاييل والقياسات التى وردت فى الكتاب المقدس .

والكتاب مفيد ، ولكنه دون ما صدر باللغات الأوربية حجماً ونوعاً وترتيباً .

وذلك عدا المجلات التى تصدر فى مختلف اللغات الأوربية قاصرة على دراسة الكتاب المقدس وجميع المباحث التى تتصل به . وفضل هذه المجلات فى عرض المشاكل على ضوء ما يجدّ فى كل وقت من اكتشافات ومباحث ؛ ومن أشهرها La Revue Biblique التى يحررها منذ خمسين عاما الآباء الدومنيكيون القائمون على « المعهد الكتابى والآثارى الفرنسى فى القدس الشريف » .

* * *

وإذا أضفنا إلى هذه المعاجم والمجلات التى يُنتفع من مادتها وأسلوبها أيما انتفاع ، ماجمعه مفسرو القرآن الكريم — لاسيّما المتقدمين منهم — من معلومات لغويّة وتاريخيّة وجغرافيّة ودينيّة ثمينة ، تبيّن أن « المعجم القرآنى » قد مُهدت فى سبيله كثير من الصعاب ، وأضحى البناء ميسوراً لقيامه على منوال سابق مألوف .

ولكن هناك أمراً واحداً لا يصحّ أن يغرب عن البال ، وهو أن هذا المعجم يتطلب دراسات واسعة ، بل أوسع مما يُتصوّر لأول وهلة ، يضطلع بها عدد كبير من العلماء ذوى التخصّص والجلد والميول العلمية ، مدة زمنٍ ليس بالقصير ، تحت إشراف هيئة علمية . ولا شك فى أن جزءاً كبيراً من هذه الدراسات يجب أن يتمّ فى موطن الوحى نفسه .

فهل يظفر القرآن الكريم بهذا المعجم ؟ إن ظفر فإنها لغنيمة خليقة بأن تشدّ إليها الرّحال ، وتُبذل فى سبيلها الأعمار والأموال ، ويتعاون عليها الأفراد والجماعات . وإن لم يَظْفَر فلنحفظ هذه الأمنيّة الغالية فى صدورنا إلى أن يشاء الله . . .

(القدس) إسحق موسى الحسينى

الدنيا التافهة ، كما حبب إلىّ الخيبة والمصائب ، وجعل النقد البالغ والهجاء الساخر والإنكار والإهمال يكسبني قوة ويشد أعصابي ، ويشعرني بازدراء هذه الدنيا والدنوّ من عالمي المنشود . ولقد سحت في البلاد ، ولقيت الرجال وشهدت أفراحاً ورأيت مآسي ، ونلت نجاحاً ولمست الخيبة ، وذقت الفقر وكدت أذوق الغنى ، وأحببت وأبغضت ، وكان لي أصدقاء وكان لي أعداء ، وعرفت كل ما في الحياة من ألوان وصور ، فما ازداد قلبي إلا شعوراً بالضيق والظلام . إنه لم ير النور إلا لمحات خاطفة ، فتارة يشرق عليه نور الإيمان [1] وأخرى يخطف فيه سنا الحب ، وحيناً يومض فيه ضوء المجهول يتطلع إليه أو التأمل يستغرق فيه ، هنالك يشعر هذا القلب باللذة ، لذة لا تدوم ...

وطالما رأيت بصيصاً يلوح لي من بين حنادس الماضي ، فقمت أسعى وراءه بخيالي وأطلبه ، وكم شاقني التذكر فنقبت خلال الماضي ونبشت ركامه ، وبحثت في دقائقه ، وكم سهرت الليالي أناجيه بأعذب كلامي ، وأدعوه بأحلى أسمائه ، فيلبيني ويحمل إليّ بيد الذكرى أجمل أزاهيره ، وأبهى أوراده ، فإذا لمستها وهممت بشمها تساقطت أوراقها واستحالت من القدم هباء ، فلا يبقى في يدي منها شيء .

وما أغنى ماضيّ بالصور والعواطف ، وإن كانت أيامه قصاراً ، إني لأفكر فيه أحياناً وأعرض صوره ، فتدور بي الأرض من كثرتها وازدحامها وتفرقها في البلدان ، ولا أستطيع أن أثبتها . خمس عشرة سنة كاملات وأنا أذرع الأرض في طلب المال والمجد ، ثم رجعت ويدي صفر من المال ، وما لقيت من المجد إلا الأوهام ، وكل ما ربحته هو الذكريات . لقد كنت أغرس الحب حيثما حللت ، وأدع كلما أحببت فلذة من قلبي : في

الشاذروان والمزان من (دمشق) ، وبين الأشرفية والحرش من (بيروت) ، وفي الأعظمية والكرخ من (بغداد) ، وفي الجيزة والروضة من (مصر) ، وبين الأبلة والشط من (البصرة) ، وفي السهل الأفيح من (تسلية) وعند كسرة (الدير) وبيران (كركوك) وبين زمزم والحطيم ، وفي الروضة المباركة وعند القبر الأنور ، فلذات من هذا القلب المسكين . . . ولو ذهبت أعرض دقائق صور الماضي لزاغ بصري من طول التحديق ، ولسال الفؤاد من العينين رقة وشوقاً إلى صحبي في تلك البقاع وخلاني ، وإلى تلك الديار التي كانت لي وطناً ، وكل ديار فيها الآن وطني وأهلها أهلي .

كم شاقني هذا الماضي ، كم ساهرته وسامرته ، كم بكيت لأفراحه التي فقدتها ، كم بسمت لأتراحه التي زالت عني ، غير أني لم أجد النور الذي أبغي ، ووجدتني لم أستمتع بالماضي يوم كان حاضراً ملموساً ، فأنى لي المتعة به وهو محض ذكرى وطيف يمر على الخاطر ؟!

وعدت إلى ظلام الغار وضيقه وصلاصله .

ثم رأيت نوراً يومض من بين سجف الآتي وأستاره ، فهرعت إليه أمزق السجف بخيالي أدعو المستقبل وأناديه ، وأقوم على رؤوس السنين أحاذيه وأناجيه ، وهو لا يجيب ، وجعلت المستقبل أكبر همي ، أتطلع إليه أرجوه وأخافه ؛ فلما كنت تلميذاً كان المستقبل كامناً وراء الشهادة يبسم لي من ثنايا كاللؤلؤ الرطب فيستهويني ويستمليني فأسير إليه وأميل ، فلما أخذت الشهادة فرّ مني فاختبأ وراء الوظيفة ، فلما نلتها هرب فتوارى وراء الشهرة ، فلما ذقت منها ضاع مني فلم أعد أراه أبداً . . .

كدّر عليّ عيشي هذا المستقبل ، فإن سعدت لم ألتذ بسعادة خوف فقدها فيه ، وإن نلت نعمة لم أنعم بها خشية ألا تدوم ، ووجدتني كلما قبضت عليه استحال في يدي حاضراً مقيتاً ، ولم يبق ذلك «المستقبل» المرجوّ المرتقب ، فكأنه الرغيف الذي زعموا أن ساحراً نفث فيه ، فكلما

(١) والإيمان دائماً في قلبي ولكن قد يحجب عني نوره وتخفى عنا حلاوته .

رفعه الأكل إلى فيه صار خشبة يابسة ، وإن تركه عاد رغيفاً. فزهدت في المستقبل ، وخبا في عيني نوره .

* * *

وطالما لاح لي النور في أغنية فاتنة من « عتابا » لبنان ، تحملها أجنحة الليل فتجوز بها على ذراه العالية فتقبس من سموها وجلالها ، وتهبط بها أوديته العميقة الملتوية ، فتأخذ من خشوعها وسحرها ، وتسلك بها طرقه الضائعة خلال الأودية والشعاب ، وقراه المبعثرة النائمة بين تلك السفوح المخضرة والسحاب ؛ فأرى في هذه الآفاق لمحة من العالم المجهول ، ولكن كما يرى الناظر إلى الغابة في سواد الليل إذا لمع البرق ثم اختفى .

وطالما لاح لي الوميض في القصة العميقة النور التي تطرق باب « المجهول » ، وفي القصيدة التي كتبها الشاعر بمداد قلبه ، والبحث الذي وضع فيه العالم عصارة عقله ، فأكون مع الكاتب والشاعر والعالم كأني في عالم أفلاطون الذي وصف وتخيل ! ثم تنقضي القصة ، وتنفد أبيات القصيدة ، ويختم البحث ، فأعود إلى ظلام الغار وسلاسله .

فتركت ذلك كله ، وانغمست في عباب الحياة ، أسبح فيه وأقارع بالأيدي وبالأرجل ، وأزاحم وألاطم ، لعل الضجة تحجب عن أذني صوت نفسي التي تطلب عالمها ، فغامرت في سياسة الأحزاب ، وجردت قلمي ولساني ، حتى قالوا له قلم كالسيف البتار ، ولسان كالسنان الماضي ، وكم من مدحني ورفعني إلى السماك ، وكم من ذمني وهبط بي إلى الحضيض . وأصلحت وأفسدت ، وظلمت وظلمت ، وكنت أخلو إلى نفسي بعد الخطبة التي لعبت فيها بالقلوب ، فصفقت لي قبل الأكف فأجد نفسي فارغة لم يملأها شيء من تلك الأوهام ، فانطفأت نار حماستي حتى عادت رماداً .

وانقلبت بي الحال فذهبت أطلب العزلة وأسعى إليها ، فهبطت مدائن لا أعرف فيها أحداً ، ونزلت غريباً في فنادق ما وراء بابها من يعرفني أو يهتم بي أو يسألني ، آملاً أن يفتح لي اليأس من الناس ومن أنفسهم باب عالمي المنشود ، فما وجدت إلا الكآبة والملل ، وما أحسست إلا ظلمة (الغار) وثقل قيوده ، أفما لهذا الليل من آخر ؟ أما لعالم النور من طريق ؟

* * *

ألا يا من عرفتم الطريق دلوا عليه التائهين ، ألا يا من شممتم عالم المثل الأفلاطونية خذوا بأيدي الضالين إليه . . .

فأين السالكون ؟ أين الصوفية الذين سموا أنفسهم مشايخ الطريق وقاموا للهداية ومنارهم الشرع وإمامهم رسول الله ، ووضعوا للسالكين العلامات والصوى ، وقسموا الطريق إلى مراحل ومحطات ، وزهدوا في الدنيا قبل أن يزهدوا فيها الناس ، وعافوا ملذاتها الفانية لأنهم ذاقوا طعم اللذائذ الباقية ، وهربوا من الناس كيلا يكدروا عليهم صفو ما هم فيه ، ولم يلحقوهم يمدوا إليهم يداً تدعو إلى تقبيلها ويداً تسأل صدقة وعطاء ، أين أنتم ؟ هذا أوانكم ! وهذا موطن الحاجة إليكم ! دلوني على الطريق فقد طالت حيرتي ! أروني النور فقد اشتد علي الظلام ! أخرجوني من ضيق الغار وثقل السلاسل والقيود إلى سعة العالم ونعمة الانطلاق . . . وأين من يعرف الطريق ، أين ؟!

علي الطنطاوي

أدب النهضة ...

كان الأسبوع الماضي عيداً من أعياد مصر الحديثة ، شاركتها في الاحتفال به طائفةٌ من أمم الشرق والغرب جميعا ؛ وكان « العيد الفضي » للنهضة فرصة سعيدة لتُوازن مصر بين ماضيها وحاضرها ، لتتخذ من ذكريات ذلك الماضي وحقيقة هذا الحاضر عُدة للغد المأمول ...

وقد قرأتُ وسمعت وشهدت أكثر ما جرى من احتفالات الهيئات والطوائف بهذا العيد ؛ وقد تناول حديث خطبائها وكتابها كل مظهر من مظاهر هذه النهضة ، وكل أثر من آثارها في حياة مصر الراهنة ؛ حتى ليمكن أن يقال إن حديث الخطباء والكتاب في هذه المناسبة يعد في جملته أعظم سجل تاريخي لهذه الحقبة من تاريخ مصر ؛ ولكن شأناً هاما من شئوننا كان للنهضة فيه أثرٌ أيُّ أثر ، لم يعرض له كاتب واحد ولا خطيب واحد من كتاب هذا العيد وخطبائه : هو أثر النهضة في الأدب ، وما يتصل بذلك من ذكريات أدبية لعل مثلها كان حقيقاً بالتنويه والتسجيل ، ليكون تحت يد مؤرخي الآداب في هذا الجيل مصدراً من مصادر البحث والاستنباط .

متىذا يذكر أين حال الأدب المصري اليوم مما كان منذ ربع قرن ، ثم يذكر أثر النهضة السياسية في هذا التطور العميق الذي ناله جملةً وتفصيلا ؟

أما أنا فلم أشهد فجر هذه النهضة بعينين مبصرتين ، وإن كان كثير من ذكرياتها لم يزل ماثلاً لعيني في صور غامضة تتذبذب وراء الظلال من أحداث الطفولة ورسوم الماضي ؛ ولكني مع ذلك أطمع أن يكون مني من الحديث ما يُغني غَناءً ما في هذا الباب ، ولكنه ليس كلَّ ما يطلب أن يقال في هذا الباب .

... لقد سمعتُ سعدا يخطب ، وسمعت أبا شادي ، والقاياتي ، وفلاناً ، وفلاناً من خطباء النهضة وقادة الجماهير ؛ وقرأت كثيراً من الساجلات السياسية في صحف ذلك العهد ، بين عبد القادر حمزة ، وحافظ عوض ، وأمين الرافعي ، وطه حسين ، ومحمود عزمي ، وتوفيق دياب ، والمازني ، وهيكل ، والعقاد ؛ وطوَّفتُ في كثير من الرحلات الانتخابية بين طنطا ، وزفتى ، وكفر الشيخ ، والمحلة الكبرى ، ودسوق ، وغيرها ، واستمعت إلى إسماعيل صدقي يخطب منافسا نجيب الغرابلي ؛ ثم إلى عبد الحميد سعيد ينافسه فلان ؛ وشهدت في هذه المعارك الانتخابية مجلس نهات الأصفر ، وندوة أحمد الشيخ ؛ وقرأت عشرات الآلاف من المنشورات الانتخابية والسياسية التي كانت تُطبع وتوزَّع في النور أو في الظلام ؛ قرأت ذلك كله ، وسمعته ، وشهدته ، في هذه الفترة من تاريخ مصر الحديث ... فأين أثر ذلك كله في أدب الجيل ، وأين الكاتب أو المؤرخ الذي انتهز هذه المناسبة في « عيد النهضة الفضي » ليروي لنا من ذكرياته ومن مشاهداته قصة الأدب المعاصر في هذا الصراع ، أو ليربط بين الأسباب والمسببات ، وبين المقدمات والنتائج في بحث يوازن فيه بين حالي الأدب في حاضره وفي ماضيه ؟ ...

... إن طائفةً من القراء ليروني كاتباً ؛ فهل يعلمون أين بدأتُ ؟ ... إني لأذكر ذلك ، وكنت يومئذ فتى لم يبلغ حد الشباب ؛ وكانت الشوارع في طنطا مقفرة إلا من الجند والحراب وحاصدات الأرواح منصوبة على أفواه الطرق ...... ولم تكن ثمة معاهد قائمة أو مدارس مفتوحة ، وقد حرَّم عليَّ أبي الشيخُ أن أغادر الدار خشية عليَّ من أذى الطريق ... وكان بي شوق إلى أن أرى وأعرف ماوراء هذه الجدران الأربعة التي يحتجز في حلقها أبي ، وأن أشهد بعينيَّ شيئاً من تلك الأحداث التي تجري تحت السماء ، وتبلغنا أنباؤها مقتضبة أو مزيدة من أفواه الضيوف الذين يفدون إلى الدار ...

وكان أشد ما يشوقني ، أن أعرف شيئاً من أخبار صديقي « أبي ثورة » الذي استودعني حقيبة كتبه ذات صباح وراح يصيح مع الصائحين في مظاهرة عنيفة ثم لم يعُد إليّ بعدُ واقطعت عني أخباره منذ اليوم ، لأني منذ اليوم لم أغادر الدار . . . . . .

أكانت لهفتي إلى لقائه حرصاً على أداء الأمانة التي استودعني إياها في ذلك اليوم ، أم شوقاً إلى ما وراء الجدران من أخبار الدنيا ؟ . . لست أدري ؛ وطال حبسي من صديقي أسابيع ، كنتُ أسمع فيها ما أسمع ، وأتخيّل ما لا أسمع ، وأتوهّم الممكنَ وغير الممكن ، وأقرأ شيئاً من جرائد ذلك العهد . . . ثم جاءني نبأ صديقي : لقد جندله الجند في ذلك اليوم الذي كنت وكان ، فلم يهمس همسة ولم يُوصِ وصية بما حمّلني من وديعته !

وروّعني النبأ وأنكره سمعي ، وضاقت نفسي وثقلتْ عليّ الأمانة ، ولكني حرصتُ على كتمان أمرها حتى لا يتهمني أحدٌ من أهلي بأني كنتُ على صلة بشهيدٍ من شهداء الثورة فيشتد حبسي والتضييق عليّ . . . وانتهزتُ فرصة فتسللت في الظلام لا أبالي الأمر العسكري الذي يمنع التجوال في الليل ، ولا أمر أبي وأمي . . . وكان تحت إبطي حقيبة ؛ ومضيت أتمسح بالجدران حتى بلغت دار « أبي ثورة » ووقفت برهة لا أجد في نفسي شيئاً من الشجاعة ؛ وبثّت مظهر الدار الحزينة إلى نفسي فعدتُ أدراجي لم يشعر بي أحد هنا ولا أحد هناك ؛ وكان يصحبني على الطريق المظلم شبح لا تراه العين ، يتحدث إليّ وأتحدث إليه وأسأله عن أمره ويجيبني ؛ فكأنما شهدت بعيني مصرع صديقي ، . . فعدتُ وفي نفسي ثورة . . . أي ثورة كانت . . . !

ولما هدأ الصوت ونام كل من في الدار ، مضيت ألتمس الخطا إلى غرفة بعيدة عن النوّام لأوقد مصباحي وأبسط بين يديّ ورقات أصنع فيها شعراً في رثاء صديقي و . . . وأحاول أن أشعل ثورة لأنتقم له . . . ورأيتني منذ ذلك اليوم شاعراً يخيل إليه أنه مستطيع أن يقود بشعره أمةً إلى مخاضة الموت . . . . . .

فلما أسفر الصبح كنتُ على الطريق إلى « المسجد الأحمدي » حيث كان يعقد في كل يوم اجتماع عام ، وحيث يتبارى الخطباء والشعراء من الشيوخ والصبيان . . . . . . وكانت أمنيتي أن يتاح لي أن أخطب ثمة وأنشد الجمهور من شعري ؛ فقد كنت على يقين أني أستطيع أن أثير به من عواطف السامعين ثورة لم يبلغ مثلها من نفوسهم خطيبٌ أو شاعر قط ؛ وكيف ظني بهم حين يسمعون قولي :

« يا أبا ثــورة ! يا أبا ثــورة !

في ذمة الله يا صديق الشهيد ! »

إلى آخر ما هنالك من لغو وتخليط !

وقضيتُ نهاري في المسجد أنتظر احتشاد الناس ليستمعوا إليّ ؛ وكان موعد الاجتماع في كل يوم قُبيل المساء ، ونلتُ أمنيتي ، وأُتيح لي أن أصعد المنبر في جلبابي القصير والأبصار شاخصة إليّ ، وكان هذا منظراً مألوفاً ، فكثيراً ما كان يتاح للأطفال ثمة أن يصعدوا هـذا المنبر ليقولوا كلاماً أعـدّه لهم آباؤهم . . . ، وهتفتُ أولَ ما صعدتُ المنبر : « يا أبا ثورة ! . . . » وإذا يد قوية تجتذبني من كتفي لتردّ إلى فمي الصوتَ وصداه ؛ كانت يدَ رجل من أهل الدين تفرقوا في كل وجه من المدينة يحثون عني . . . ، ولم يسمع الجمهورُ شعري ، ولكن ذلك لم يمنعني أن أكون شاعراً منذ ذلك اليوم . ولما سمعتُ الغزايلي يخطب بعد أشهر من ذلك اليوم ، أو لعله بعد سنين ، حُبّب إليّ أن أكون خطيباً ، فكنتُه ، أو هكذا خُيل إليّ ؛ ثم صرتُ كاتباً بعد ، أكتب المنشورات المثيرة ليطبعها زملائي الطلاب الكبار سراً فيذيعوها في الناس ، ومضت سنوات وأنا لا أكاد أجد

لى عملا فى الأدب إلا كتابة المنشورات ، حتى صار لى فى ذلك شهرة بلغت أنباؤها آذان الكبار فزكوا إلىّ ...

... ولما سمعتُ لأول مرة نشيد «اسلمى يا مصر إننى الفدا ... » انصرفتُ حيناً عن تحبير المنشورات وتحضير الخطب إلى محاولة الأناشيد ...

وكان كل خطباء الثورة فى ذلك الوقت وما تلاه يرتجلون ، فما ترى منهم أحداً تحت عينيه ورقةٌ وهو يخطب ، وإنه ليظل فى موقفه ساعة أو ساعات لا يتوقف ولا يتلعثم ولا يعود إلى معنى سبق . . . ، فلما تطورت النهضة من ثورة دامية إلى تدبير وسياسة ، قل المرتجلون من الخطباء قلة ظاهرة ، وألف الناس أن يروا الخطيب وفى يديه ورقاته ، وكانت هذه من قبلُ عيباً يعاب وسبة تشين . . . ثم توارى المرتجلون فلم يبق إلا خطباء المقالات المكتوبة ...

هذه ذكرياتٌ من ذكريات النهضة ، لا أحصى بها كل ما كان ، ولا كل ما أعرف ؛ ولكنها أمثلة لبعض المؤثرات السياسية التى تابعت النهضة ، فى أدب هذا الجيل ؛ فمن ذا أشار إليها أو تناولها راوياً أو باحثاً لمناسبة هذا العيد ؟

من ذا الذى قرأ مساجلات كتاب السياسة ، والبلاغ ، والأخبار ، والأهالى ، والمحروسة ، والأفكار ، ومالا أكاد أذكر من الصحف والمجلات — من ذا الذى قرأ مساجلات هؤلاء الكتاب السياسية والحزبية وحلّل آثارها فى أساليب النقد الأدبى وطبّق ما فيها من ألوان العنف واللين ، والصراحة والمداورة ، والفحش والعفة ، والتهمة بالمروق أو بالغفلة — على ألوان النقد فى المعارك الأدبية التى شارك فيها طه حسين ، والعقاد ، والرافعى ، وعبد الله عفيفى ، وزكى مبارك ، وسلامة موسى ، وغيرهم من النقدة والكتاب ؟

ومن ذا الذى تتبع أثر المجادلات السياسية فى مرافعات المحامين بالمحاكم ، وفى محاضرات الأساتذة بالجامعة ، وفى أساليب البحث العلمى فى المجامع ، وفى مؤلفات المؤلفين ، وفى رسائل الإخوان بعضهم إلى بعض ، وفى مناقشات العامة فى القهوات وعلى المصاطب ؟

ومن ذا الذى تتبع أثر هذه النهضة فى الأدب الشعبى : من الزجل ، والمواليا ، والمحاورات المسرحية ؟

ومن الذى أحصى خطباء الثورة وكتابها ، ثم خطباء الانتخابات ، ثم خطباء البرلمان ، فعرّف بهم وكشف عن خصائصهم وفنهم وأثرهم فى فتق الألسنة وتفصيح الجهال ؟

ثم من الذى تتبع تاريخ الأحياء من أدبائنا المعاصرين فرد آثارهم إلى مصادرها ، وحاول أن يكشف عن العوامل التى أنشأتهم فى الأدب ، ومن الظروف السياسية أو الحزبية التى ارتفعت ببعضهم فوق قدره ، وزلت ببعضهم دون قدره ، ومكانتهم الحقيقية من التاريخ الأدبى بالقياس إلى مكانتهم من الجماهير ؟

وكم خطيباً من خطباء اليوم أنشأته الثورة فلولاها لم يكن ، وكم كاتباً ، وكم أديباً ، وكم مؤلفاً ، وكم كتاباً ...؟ لم يعرض أحد لشىء من ذلك حين عرضوا لكل مظاهر النهضة وآثارها ، وذكرياتها وأمانيها ؛ فهل يكون ذلك لأن الأدب فى تاريخ هذه الأمة على هامش الحياة ، أو لأن أدباءها ومؤرخيها على هامش الأحياء ...؟

« قاف »

تقرير وزير المعارف عن

إصلاح التعليم في مصر

جاءنا والمجلة ماثلة للطبع هذا التقرير ، ولما كان موضوعه أهم موضوع تتوقف عليه السياسة التعليمية في المستقبل وتوجيه الجيل الجديد وصياغته ، كان من الواجب على كل هيئة تعني بالتربية في مصر ، كهيئة « رابطة التربية الحديثة » و « معهد التربية » وما إلى ذلك من هيئات ، أن تهتم به وتجتمع لدراسته ، وتصدر كل هيئة عنه تقريراً مفصلا بما تراه فيه : من إقرار وجهة النظر في بعض نواحيه ، ونقده في البعض الآخر ، حسبما يتراءى لها بعد الدرس الوافي الشامل في صراحة وحكمة . فنحن أمام جيل جديد يتكون ، ومثلنا كل عملية معقدة لابد أن تحل ؛ والتربية هي كل شيء في مستقبل الأمة : في جسمها وعقلها وخلقها . فواجب كل من المختصين أن يقول كلمته ، وقد قال الوزير كلمته ، فيجب أن نستمع لباقي المختصين ، ونستخلص من كل ذلك السياسة الرشيدة التي يجب أن نتبعها ، والتي هي أمانة في عنقنا للأجيال المستقبلة .

وستتابع المجلة ذلك ، وتفتح صدرها له في الأعداد الآتية إن شاء الله .

فى الميزان الجديد :

١ – زهرة العمر

حمل إلىّ البريد أمس الكتاب الجديد لتوفيق الحكيم ، وهو عبارة عن مجموعة « رسائل حقيقية » كتبت بالفرنسية فى ذلك العهد الذى يسمونه «زهرة العمر» . وهى موجهة إلى المسيو أندريه ، الذى جاء وصفه فى « عصفور من الشرق » . وقد بدأ الصديقان يتراسلان بعد مغادرة أندريه باريس للعمل فى مصانع « ليل » بشمال فرنسا ؛ واستمرت المراسلة إلى ما بعد عودة الحكيم إلى مصر والتحاقه بالسلك القضائى . ثم انقطعت بينهما الرسائل والأخبار وانتهى كل شىء ، وجرفهما تيار الحياة كلا « فى واديه »[1] . وأما موضوع الرسائل فحياة توفيق الحكيم — حياته الفنية — جهاده فى تحصيل الثقافة من منابعها الحقة ، ومحاولاته فى سبيل الخلق الفنى ، وخواطره فى قيمة ما يعمل ، وخصائص ما ينتج ، ولمحات كثيرة عميقة عن التربية النفسية ، ووسائل تلك التربية من تفكير وفن وأدب ورثناها عن الغرب والشرق .

لقد انشرح صدرى لهذا الكتاب . وأنا بعد لست بغافل عما يمكن أن يكون فى هذا الانشراح من عامل الأثرة ؛ فلقد مرت بى أيام شديدة الشبه بما يقص الحكيم ، وفى النفس إعجاب بكثير من القيم التى أفنى الكاتب فى سبيلها زهرة حياته . والناقد مهما حاول أن ينحى نفسه عما ينقد لابد مستجيب لتلك النفس الآسرة فى الجهر والخفاء . ولكننى مع ذلك قد أدركت فى وضوح أن هذا الكتاب أوسع أفقاً وأعمق أثراً من حياة الحكيم وما يشابهها من حيوات . إنه مرحلة من مراحل حياتنا الروحية والثقافية .

(١) مقدمة الكتاب .

مرحلة اعتقد أنه سيعيننا على اجتيازها لا بمادته — فالأمم لا ينقلها كتاب ، مهما غزر تفكيره — بل بتوجيهه . سيجتاز تلك المرحلة من قادة الفكر عندنا من يؤمنون بصدق هذا التوجيه ثم يسايرون خطاه .

وذلك مع تحفظات أبدأ بها لأخلص بعد ذلك إلى قيمة هذا الكتاب الخطيرة .

وأولها ما ألاحظ من رهبة الحكيم للحياة ، وانطوائه على نفسه ، وهو رجل تأمل داخلى « لم يتح لى فى لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة ، وأبتسم لابتسامها ، وذلك لأن ما عندى من أزمات داخلية قد شغل قلبى دائما عن الطبيعة . إن عينى مصوبتان دائما إلى أعماق قلبى »[1] . وهذا فى الحق ليس إلا جانباً من ظاهرة عامة عند الحكيم ، فمن البين أن فى نفسه شهوة مسيطرة ، هى شهوة الفن ، وهذه الشهوة هى مصدر ما يجد من قلق وشك وآلام . ولقد اتفق أن أتى بنفسه إلى أوربا ، وهو المرن التفكير ، المفتح النوافذ ، السمح الطبع ، السلس القياد ، السريع التأثر ، الوديع المزاج . فإذا بآيات الفنون والآداب تملك عليه أمره ملكا تاما فلا يعود يرى غيرها ، وكان فى هذا موضع الخطر ؛ فإن المعرفة غير المباشرة من كتب ومحاضرات ومتاحف لم تلبث أن طغت فى نفسه على المعرفة المباشرة . فهو يحدثنا أنه كان يفضل البقاء فى باريس مكبا على القراءة والتحصيل على أن يصاحب إخوانه المصريين إلى شاطئ بحر أو قمة جبل ، وهو يحلل سر إعراضه عن « سائشا » فيما أظن من فتيات باستغراقه فى تغذية نفسه بألوان الفنون . وهكذا تولدت فى قلبه رهبة من الحياة التى أصبح يخشى أن تصرفه عن هدفه فصدف عن وسائل المعرفة المباشرة من مغامرة فى المجتمع ، وسياحة فى بقاع الأرض ، وتقليب للبصر فى مناظر الجمال والقبح التى نستطيع أن

(٢) ص ٢٥٦ .

نلاحظها بكل مكان ، إذا استطعنا أن ننتزع أنفسنا من بطولتها الداخلي لنشرها في الخارج ، على أن نستردها بعد ذلك ، أوفر غنى وأرهف عاطفة . ولقد كنا نفهم عندئذ أن يتجه الحكيم اتجاهاً روحياً صوفياً خالصاً ، ولكنه لم يفعل ، وذلك لأن معدن نفسه فيما يبدو لم يخلق للتصوف . أين نغماته من نغمات الخيام ؟ بل من نغمات شاعور ؟ الحكيم مفكر . مفكر في الحياة : حياته وحياتنا ولكن تفكيره لم ينهض على الملاحظة المباشرة . قارن بينه وبين بلزاك مثلا ، تدرك الفرق الواضح لساعتك . بلزاك يفكر بحواسه ، أما الحكيم فبعقله ، ولا أدل على ذلك من أن تراه يعالج كبرى المسائل الإنسانية علاج من لم تمسه عن قرب . استمع إليه يقول من الحب هذا اللفظ الخطير الذي لن يبليه ابتذال ، لأنه جوهر الحياة — جوهر الشباب على الأقل — : «يخيل إلى أن الحب في هذا العالم عصر سوف يتمكن العلم الحديث من بتره واستئصاله دون أن تخسر الإنسانية شيئاً كبيراً»[1] وفي موضع آخر : «وإنك لتعرف أن للحب مقاما كبيراً عندي في الحياة . في كل حياة . وربما كان الحب هو الشيء الوحيد الجميل الذي نعيش به ومن أجله نحن البشر» : ما سر هذا التناقض ؟ أو ما تراه في صدور الرأيين من العقل ؟ أما الحياة فتسخر من كل ذلك . الحياة لا تعرف الفروض العلية ومهارة التفكير . الحياة سيل ذو اتجاه واحد .

هذا النحو العقلي هو ما سبق أن أوضحته في نقدي لبجماليون ، وإنه لما يشجيني من توفيق الحكيم أن روحه النبيلة الذكية قد رأت ما رأت وعبرت عنه في قوة ووضوح «صدقت يا أندريه في قولك إني أصلح أن أكون رياضيا ، وأن أفكاري وتصرفاتي تكاد تسير على طريقة هندسية أو حسابية أو جبرية . هذا صحيح ، ولا أدري كيف اهتديت إلى ذلك ! أنا مع الأسف كذلك . وهذا ما سوف يهدم كل عمل مسرحي أو فني أحاول إنشاءه . إن إسقاطي الحياة والعواطف كما هي ، وكما راها ويحسها دهماء الناس ، وركوني إلى الطريقة الرياضية في تصريف أفكاري وتأملاتي لمصيبة كبرى . وإليك دليل آخر في قطعة «الحلم» التي أرسلتها إليك . إنك ولا شك لم تجد فيها أي صورة تنطبق على الحياة وعواطف الحياة . ولكنك قد وجدتها متمشية مع العقل والمنطق الذي تقتضيه فروض خاصة أنشأتها أنا في البداية . تلك هي الرياضة فرض وعقل ومنطق . التصوير الحديث أخرج من حسابه العواطف البشرية وجعل أساسه الهندسة والمنطق العقلي الواعي وغير الواعي ، والموسيقى الحديثة أيضا ... يا للبلاء ! إني أحب الفن الحديث وأقلده أحياناً وأخشاه وأخشى منه على نفسي ...»[1]

ودع عنك شك الكاتب في قيمة ما عمل ، فهذا الشك لا تعرفه غير النفوس الكبيرة . ودع عنك جهره بهذا الشك ، فذلك مالا يستطيعه إلا من ضمن الخلود ، ثم انظر معي إلى نمو الروح الهندسية esprit de geometrie كما يسميها بسكال ، عند كاتبنا ، وطغيانها على ما يسميه نفس الكاتب الفرنسي «روح الدقة» esprit de pinesse ثم ابحث عن أسباب ذلك ؟ أوما ترى أن سيطرة الشهوة العقلية — شهوة المعرفة غير المباشرة — وما استتبع ذلك من انصراف عن الحياة ، وضيق بها ، كما تشهد الصفحات التي يتبرم فيها الكاتب بالاحتكاك بالمجرمين في حياته القضائية ، كانت من أهم الأسباب الوجيهة . الحكيم سجين نفسه . سجين عقله .

ولقد حاول كاتبنا النافذ الذكاء أن يرى في بنائه لموضوعه وتصريفه للحوار أسلوبه الخاص . ولكننا

(١) ص ٣٠ .

(١) ص ٥٥ ، ٥٦ .

نلاحظ ما سبق أن وضحناه ، وهو أن بناءه للقصة ومسرحياته رائده دائماً الفكر ، والحياة لسوء الحظ أشد تفورا من أن تنطوى تحت خط من خطوط العقل ، والشخصية الروائية مهما آمنا بالجبر الداخلى لابد مخرقة – فى الحياة – كل منهج مرسوم . أولا ترى إلى كاتب كدستويفسكى كيف تتدفق بعض رواياته – الصبيط مثلا – كما يتدفق سيل الحياة لا يحده شاطئ ولا يسجنه مهد . والحكيم كرجل تفكير لم يعد يرى للصورة جمالا يعتد به ، فاللغة عنده « أداة يسيرة لنقل الأفكار النبيلة »(١) ؛ والأسلوب عنده هو روح الكاتب وشخصيته ومنهجه فى التأليف ، وهذا حق ولكنه ليس كل الحق ، فهناك أيضاً فن العبارة ، وما ينبغى أن تدفعنا ثورتنا المشروعة على أدب اللفظ الذى أفسد حياتنا الروحية قروناً طويلة إلى تحطيم ذلك الفن ، فالسجع والتكلف الأجوف كما عهدناهما لا يقدحان فى المبدأ العام الذى تنهض على أساسه جميع الفنون وأعنى به فن الأداء . ونحن لا نقول ، كما قال مذهب من المذاهب الحديثة ، إن اللغة كمقاطع الرخام يصاغ منها الأدب كما تنحت التماثيل ، ولكننا نؤمن ، ويجب أن نؤمن ، أن الكثير من الأفكار الرائعة والأحاسيس العميقة تفقد من جمالها ، إن لم تفقده كله ، إذا عريت من جمال الصورة ، بل إن التفكير والإحساس كثيراً ما يضيعان ، إذا عجزنا عن إمساكهما ، اللفظ الدال . وكم من كاتب يحدثنا عن موضع الصعوبة فى الخلق الفنى الإنسانى فنجده فى الاحتيال على الفكر أو الإحساس حتى يطمئن إلى اللفظ . وليس من شك فى أن سر الخلود فى الكثير من عيون الأدب يرجع جانب كبير منه إلى خصائص الصياغة . وهل أدل على صحة ما نقول من استحالة ترجمة الشعر الخالص ؟(٢) .

وهكذا نستطيع أن نجمل التحفظات التى نراها :

١ – عدم الإيمان فى الحياة طلباً للمعرفة المباشرة .

٢ – شدة وطأة التفكير الرياضى وعدم تنمية روح الدقة التى ترى التفاصيل والفارقات وتحرص عليها لدلالتها الإنسانية لا لتأييدها لفكرة عامة أو اتجاه نفسى مسيطر ، كما يريد المؤلف فى إحدى صفحات كتابه .

٣ – عدم الإيمان بجمال الصياغة والشكل Le culte de la forme مع أنه إيمان بالجمال المطلق ، ورحم الله أفلاطون إذ قال : « لو صيغت الحقيقة امرأة لأحبها جميع الناس » .

هـذه هى مواضع نقدى على الكتاب وصاحب الكتاب . حرصت على البدء بها لأنى أقدر مبلغ الأثر الذى سيحدثه هذا الكتاب فى النفوس ، كما أقدر قوة كاتبه ، وقد خشيت أن يجتاح المؤلف القراء فيما هو محق فيه وغير محق . ولا شك أن القارئ عندما يقرأ الكتاب – وهذا ما أرجوه أن يفعله – سيحس بإيمان كاتبه إيماناً لا يدفع ، إيماناً خالصاً من نفس مخلصة . ثم كم فيه من ضياء ! كم فيه من فهم عميق سليم لمعنى الثقافة الإنسانية !

هذا الكتاب سيمثل ، كما قلت ، مرحلة من مراحل حياتنا الروحية والثقافية . وذلك ما سوف أبينه فى المقال الآتى . وأما هـذا المقال فلست أتجه به لغير ملكة النقد عند القارئ . وهناك ملكة أخرى هى التى أدعو القارئ إلى أن يتناول بها هذا الكتاب : تلك هى ملكة الفهم بل ملكة المشاركة فى الحس والإيمان .

محمد مندور

---

(١) ص ٢١٦ .

(٢) أريد أن ألفت النظر إلى أنى أناقش هنا رأى الكاتب = فى قيمة فن العبارة . وليس معنى هذا أنه ليس للحكيم أسلوب تعبيرى ، فهذه مسألة أخرى .

إلى الحبيبة المجهولة

صورتك الحسناء مرسومة — ريشة الفنان في خاطري
قلبي يراها كل حين ولم — ينعم رؤيا وجهها ناظري
وردية الأظلال فتانة — كأن عينيها رقى ساحر
خمورية من فتيات السنا — مبسمها كالزنبق العاطر
تشع بالفن وتوحي به — قدسية في ذيلها الطاهر
رمز لدنيا الحسن بين الورى — ومصدر الإلهام للشاعر
حبيبتي هل يبادي الهوى — قلبي من الشوق على طائر
دنياي من غيرك بالخفق — مثل فؤاد الملحد الكافر

هل يسمع الكون أغاني الهوى — رنانة من مُلْبِل الخاطر
هل يسطع الحب فيمحو دجى — هذا الفؤاد الطفل الداجر
طيفك في الأحلام لا ينثني — من زورق ، أفديه من زائر
هل يطول العمر حتى أرى — تحقيق هذا الحلم الزاهر

أحمد أحمد النحاس



طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩١

العدد ٢٥٨ — الثلاثاء ٩ من ذى الحجة سنة ١٣٦٢ — ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

إصلاح التعليم فى مصر

للدكتور أحمد زكى بك

هذا عنوان التقرير الذى كتبه وزير المعارف المصرية ، صاحب المعالى أحمد نجيب الهلالى باشا ، ورسم فيه الخطة التى يرى أن تنهجها الحكومة المصرية ، بوصفه عضواً من أعضائها ، فى سياسة تعليمها .

وقد كان التقليد أن ترى الحكومات رأيها فى أمر الإصلاح ، فى التعليم كان هذا أو فى غير التعليم ، ثم تضمّنه خطاب العرش ، ثم تطلقه يوم افتتاح البرلمان كما تطلق القوانين ، فلا يصيبها من تعديل أو تغيير إلا ما قد تصيبه المعارضة من ذلك ، وهو شىء قليل .

وقد رأى وزير المعارف الحالى أن يتّبع الطريق الأكثر ديمقراطية ، والأعون على التمحيص ، والأكسب لما تُسديه المشورة من خير ، فنشر آراءه على الملأ ، وصاح فى الناس هل من دارس ناقد . فكان حقاً على كل سامع قادر أن يستجيب إلى هذا النداء ، وأن يدلى بدلوه فى الدلاء ، ليس فقط لأن كل دعوة كريمة لابد لها من جواب ، ولكن كذلك لتثبيت هذا التقليد الديمقراطى ، ولإثبات أن الأمة جديرة بأن تستشار ، وأنها فى حلبة الآراء ليست بذات عُقم . على أن هذه الدعوة ليست كلها كرماً ؛ وما كان لستشير أن يطلب الرأى ويتكرّم ، فهو قد رأى بعين واحدة من زاوية قد تكون يحكم الوضع واحدة ، وهو يريد أن يستعير أعيناً أخرى فى مواضع أخرى يرجو أن تكون بصيرة . فعلى الأمة ، وعلى ذوى الآراء ، أن تعير أعينها متكرّمة على وزيرها ، وبالتبع على أنفسها ، وحسْبُ الوزير ، إن فاته الكرم اقتضاءً للديمقراطية ، أن لم تفته الحصافة ، ولم يفته الفخر ، بأنه فى الطليعة من رجال الحكم الحديثين الذين يعرفون فى هذا للجمهور حقه ، ويقدّرون رأيه .

وليس هذا التقرير بأول تقرير لوزير المعارف ، فهو من أرباب السبق والسوابق فى هذا المضمار ، فهو أول من استنّ سنّة التقرير والنشر قبل التقنين والإنفاذ . فتقريره

الأول من التعليم ، وقد كتبه منذ سنوات خمس أو ست ، لا زال طابعُه ظاهراً في نظام التعليم الحاضر . فنظام التوجيهية الحالي ، بما سبق سنة التوجيهية في التعليم الثانوي من إلغاء ، وما تضمنته هذه السنة من تفريع ، إنما هو أثر من آثار ذلك التقرير الأول .

ولست أقول إنه أثر كله خير ، ولكني أقول إنه الأثر الأول البارز ، أو هو من الآثار الأولى البارزة التي أثبتت أن جو المعارف الراتب البارد ليس من خلق الطبيعة ، وأنه ليس سرمديًا كأجواء الأقاليم ، وأنه يمكن لتلك الحجرات الواسعة العالية المسقوفة المثلوجة أن يدخلها شيء من الدفء لو دخلها موقد ذو نار .

ولست أكتب هذا لأبدأ نقاش التقرير ، وإنما أنا أنوه وأستعرض ، وللكُتّاب من بعد هذا أن يحاوروا ويداوروا ، وأن يُعينوا في استجلاء الطريق الأقوم التي يجب أن تسلكها دراريّنا إلى راحة العيش ومجد الحياة .

والتقرير فيه طول ، وفيه عرض ، فهو يقع في نحو من تسعين صفحة ، تتضمن نحوا من ٣٥ ألف كلمة . أي أنه شمل مسائل عدة من مسائل التعليم ، وشملها مساحة لا عمقاً . فالعمق تركه عمدا وتصريحا لأهل الفن في الوزارة ، وهو عمق كأعماق البحار ، أغوارها الأولى ينفذ إليها نور الشمس ، ثم هي تستحيل بعد ذلك إلى ظلمات بعضها فوق بعض . نسأل الله لأهل الفن السلامة .

لقد مسح الوزير بحار التعليم سبحاً ، وترك الأعماق لأهل الفن ، ولكنه كان سبحا شاقا متعبا . وكان أحب البحار إليه المحيط الأطلسي ، فأخذ يتردد بين شاطئيه على بعد ما بينهما من شُقّة ، فآنا مغرّبا يستوحي آراء الولايات المتحدة في التعليم ، وآنا مشرقا يستوحي آراء بريطانيا فيما اعتزمته من إصلاح . وحقاً سبح عند التارة من الإسكندرية ، ولكنه لم يلبث عندها طويلا .

بدأ الوزير تقريره بصفحات عدة يشرح فيها ما اعتزمته الأمم الديمقراطية – أو إن شئت الأمتان الديمقراطيتان – بعد الحرب من إصلاح في التعليم . وهم قد استمدوا فكرة الإصلاح من الحرب الحاضرة ، ومن الديمقراطية ، ومن الحريات الأربع التي كفلتها تصريحات روزفلت وتشرشل في ميثاق الأطلسي ، ومن النظام الجديد لبناء عالم جديد تسوده راحة العيش واطمئنان الأنفس ، فيسوده من جراء ذلك سلام ثابت دائم مقيم . فقد أجمع البحاث أن لا سلام إلا بنشر مبادئ الديمقراطية ، وأن لا ديمقراطية لا تستند على أساس راسخ من التعليم الصحيح . ولن يكون تطبيق مبادئ الديمقراطية – على ما يتمنّون – في أمة دون أمة ، بل هو يَعُمّ الأمم جميعا . والأصول التعليمية التي توحيها الديمقراطية هي التي ستتعاهد عليها الأمم ، وترتبط عليها بميثاق في النظام العالمي الجديد . وقد كان همّ الأمم ذات القوة والسلطان فيما مضى أن ترى الأمم المستضعفة على جهالةٍ تُسهّل عليها أسباب الغلبة ، أما الآن فقد اهتدى البحّاث إلى أن العالم وحدةٌ لا تتجزأ ، وأن خير الأمم جميعا ، حتى كبراها ، لا في نشر الجهل والفقر ، بل في نشر العلم وتنمية موارد الأمم جميعا لصالح الأمم جميعا . حتى ذهبوا في هذا إلى أن واجب الأمة الغنية أن تنفق بعض ما تنفق على نشر الثقافة في الأمم التي تأخّرت .

فأنت ترى أن التعليم ، كغيره من المرافق ، سيكون موضع تعاون بين الأمم ، وموضع اهتمام الأمم حتى في غير أممها . فالتعليم إذن سائر إلى شيء كثير من التوحيد . وهو توحيد يجاري خُطَى الدنية إلى التوحّد عند الأمم جميعا . وهذا أمر لا ارتياب فيه إلا حريص على قبور الموتى ولو أضرّت بمنازل الأحياء .

من أجل هذا اتجه الوزير إلى الغرب يطلب مُثُله في حسم وفي غير إبهام . فستندله لجنة « نوروود » ، والكتاب الإنجليزي الأبيض ، وجامعة نيويورك ، وجمعية

التعليم القومى فى أمريكا ، والأستاذ « دنت » وهو جرا . وكلهم فحول ، وكلها أسانيد لا تُدفَع . ثم إنه عند التطبيق يُوسَّع هنا ، ويُضيَّق هناك ، ويُطيل هنا ، ويقتصر هناك ، ولكنه يفعل هذا فعل الرجل المسلم يُوسِّع سرواله الفرنجىّ ليستطيع به الركوع والسجود .

وانتقل التقرير من بعد هذا إلى ما يخشاه البعض من تعطل ينشأ عن توسع فى التعليم العام ، فآمنهم من خوفهم بأن التعليم المهنىّ الذى يطلبون ، من صناعى وزراعى ، لا يُؤتى ثمره إلا إذا هو استند على أساس راسخ من التعليم العام .

وانتقل التقرير إلى الإصلاح الذى ينشده المربيون فى التعليم ، فقال إنهم يتوسعون فيه طولاً وعرضاً وعمقاً . أما الطول فزيادة فى مدة الدراسة ، فى الإلزامىّ للصغار ، والتثقيف للشباب ، والتكميل للكبار ، أى أنهم يرمون إلى أن يكون تعليمهم من المهد إلى اللحد . أما العرض فتعريض التعليم حتى يشمل طبقات الأمة جميعا . وأما العمق فإتقان التعليم فى نوعه ومادته .

ثم تأتى مشكلات التعليم فيما بعد الحرب ، فيتناول التقرير مشكلات أوروبا ومشكلات مصر ، ويوضح أن مشكلات مصر أثقل وأفدح . فمصر لم تخرّب مدارسها بالقنابل ، ولم يُقتل ويؤسر ويموت جوعا خمسون فى المائة من مدرسيها كما حدث فى بعض الأمم . ولكن فداحة واجبها فى بناء هذه المدارس التى لم تهدمها الحرب لأنها لم تُبنَ ، وثقل واجبها فى تكوين هؤلاء المدرسين الذين لا يقتلون ولا يؤسرون لأنهم لا يوجدون .

ثم ينتقل التقرير إلى الشكوى من التعليم ، فيثبت أنها شكوى عالية . ويقتص مما قاله نقاد الغرب فى ذلك ، فإذا بك تراهم هم يشكون مما نشكو . وتسمع لما يقولون فتخال أنهم إنما ينقدون التعليم فى مصر ، لا فى انجلترا أو فى الولايات المتحدة . ولا يعجبنّ أحدٌ من ذلك ، فتعليمنا كصناعتنا ، نحتذى فيهما كليهما ما يحتذون ، فنهتدى كما اهتدوا ، ونضل كما ضلُّوا .

بعد هذا ينكشف التقرير من أثمن ما فيه ، عن فكرة هى درّة العقد الوسطى ، أو هى البطن من الجسم ، أو هى الصالة الكبرى من الدار توسطتها وتفرّعت عنها سائر الحجرات . تلك فكرة : التكافؤ فى الفرص .

وفى هذا يقول التقرير : « إن على الدولة أن تسوى بين جميع طبقات الأمة فيما تتيح لهم من فرص التعليم . وإن هذه المساواة فى التعليم بين أبناء الشعب فرض لازم على كل حكومة تريد أن تحقق لكل فرد من أفراد أمتها كرامة الإنسان الحرّ . فالمبدأ الأساسى للتضامن الاجتماعى القائم على الحرية والمساواة والعدالة يوجب أن يتساوى الجميع فى المعاملة ، وأن تهيأ الفرصة لكل فرد من أفراد الجماعة . وما دام واجبا على كل فرد أن يبذل لبلاده أغلى ما عنده وهو دمه ونفسه ، فليس كثيراً أن تفرض الدولة على نفسها أن تبذل له أغلى ما عندها من غير تمييز بين طبقة أو طبقة ، ودون نظر إلى الفقر والغنى ، أو الذكورة والأنوثة ، أو السن ، أو العقيدة الدينية ، أو المذهب السياسى » .

تنبهْ منى أيها القارئ ، واعلمْ أن هذا القول الجليل يقال لأول مرّة فى مصر بهذا الحزم وهذا الحسم وهذا الوضوح ، ثم اشكر الحوادث أنْ أتاحت لمصر الفرصة أن يقوم فيها رجل مسئول من أبنائها ، ينادى بهذا الذى ينادى فلا يُكمَّمُ فوه ، ولا يجرى وراء عربة السجّان ذووه .

ويخرج التقرير من هذه الفكرة ، بل من هذا الدستور التعليمى الثورىّ الشامل ، إلى أفكار وتواصٍ أراها كلها له تبعاً .

فمن إلغاء المصروفات فى التعليم الابتدائى والثانوىّ ، إلى تيسير التعليم العالى ، إلى إطالة التعليم الإلزامى ، إلى مدارس الحضانة للأطفال الصغار ، إلى مدارس التعليم

للكبار ، إلى التغذية في المدارس ، كل هذه وأضرابها إن هي إلا تطبيقات لتكافؤ الفرص للجميع دون نظر إلى فقير أو غني ، أو عقيدة دينية أو أخرى سياسية .

واحتاط التقرير لجعل لهذه المساواة حدوداً لا تخرج بها إلى معنى السخف . من ذلك أنه نوّع التعليم ، لا سيما الثانوي ، وعدّد صوره ، وكافأ بينها ، ولكنه جعل الدخول إليها مبنياً على استعداد الفرد وعلى حاجة الإقليم .

وبعد ، فليس يمكن أن يتحدث متحدّث عن تقرير كهذا في صفحات ثلاث ، فعلى القارئ أن يقتنيه ، وعلى وزارة المعارف أن تسهل اقتناءه ، وعلى ذوي الرأي ، من أهل الحكومة وأهل المعارضة ، بل من أهل المعارضة أولا ثم من أهل الحكومة ، أن يدرسوه عن قرب بحسبانه سجلا لسياسة إن مرّت في البرلمان فستدمغ بها التعليم المصري لجيل ، أو بعض جيل ، أو ربما لأجيال . والسياسة التي تُعقد في التعليم ليس من اليسير حلّها . وإن هي حُلّت فبقلقلة عظيمة من سوء الحظ ألا يُترك أثرها في النشء توًّا .

إني لم أتعرض للتقرير بنقد ، ولا يحسبنّ حاسب أنه ليس فيه للنقد مواضع ومواضع . فالشبهة ألا يكون في التقرير مواضع للنقد ، إذن لكان بداية مما لا يحتاج إلى تقرير . وإنما هذا استعراض خاطف ، وتحية واجبة لرجل مسئول مشغول ، استطاع رغم التبعة والشغلة أن يتوفر على الدرس في أوقات قد تكون أحق بالراحة من عناء . وتحية أخرى : أن لغة التقرير جمعت بين السهولة والرصانة ، فهو مؤلف في غير الأدب بأسلوب الأديب المكين ، نحا فيه كاتبه منحى غير الذي عوّدنا إياه في « مخالب القطط ومصائد الفئران » .

أحمد زكي

سابقة تاريخية

كتب حضرة الأستاذ السيد شفيق جبري في العدد الأخير من مجلة الثقافة كلمة تحت عنوان : « العبرة بالساعد لا بالسيف » ، روى فيها من المتنبي : (أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة ، فبعث به إليه ؛ فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك فردّ عليه : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به) .

وهذه الحادثة في تاريخ العرب لها سابقة في تاريخ آل عثمان ، ذلك أنه :

في القرن الخامس عشر ، وفي زمن السلطان محمد الثاني المشهور بالفاتح (سمّي بالفاتح لأنه هو الذي فتح القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ ونقل إليها مقرّ السلطنة) اشتهر إسكندر بك البطل المغوار المشهور بشدة بأسه وقوة عضلاته ، وبالجراءة والشجاعة ، وكان الأرناؤود والترك يضربون به المثل في البطولة والإقدام ، ويشبهونه بهرقل البطل المغوار المشهور . كثيراً ما التحمت الحرب بين الترك والأرناؤود فكان إسكندر بك يسير برجاله الأرناؤود ويقاتل الترك ويبطش بهم ، ويقال إنه نازلهم في عشرين موقعة أو تزيد . وكان لإسكندر بك سيف مشهور ضرب به يعقوب باشا أحد قوّاد الترك فشطر جسمه شطرين ؛ وضرب به حيدر باشا فشق جسمه وتركه شقين . ولما تهادن الترك والأرناؤود اتصل بالسلطان محمد الثاني خبر هذا السيف ، فطلب من إسكندر بك أن يهديه إليه فأرسله إليه . ولما أراد السلطان اختباره رآه سيفا عاديا ولم يجد فيه شيئا خارقا للعادة فردّه إلى صاحبه . ولما وصل رسول السلطان إلى إسكندر بك ردّ إليه السيف وقال : إن السلطان وجده دون ما كان يبلغه عنه . فابتسم إسكندر بك وقال للرسول أخبر مولاك : (أن السر ليس في السيف وإنما السر في الساعد !) .

عزة عاشق

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر

٢ - محمد بن عبد الوهاب

كانت جزيرة العرب عند ما دعا محمد بن عبد الوهاب دعوته — التي شرحناها في العدد الماضي — أشبه شيء بحالها في الجاهلية ، كل قبيلة تسكن موضعاً ورأسها أمير منها ؛ هذا أمير في الأحساء ، وهذا أمير في العسير ، وهؤلاء أمراء في نجد إلخ ، ولا علاقة بين الأمير والأمير إلا علاقة الخصومة غالباً . ثم تتوزعها — أيضاً — الخصومة بين البدو والحضر ، فمن قدر من البدو على خطف شيء من الحضر فعل ، ومن قدر من الحضر على التنكيل ببدوي فعل ؛ والطرق غير مأمونة ، والسلب والنهب على أشدهما ، وسلطة الخلافة في الأستانة تكاد تكون سلطة اسمية ، ومظهرها تعيين الأشراف في مكة وإمدادهم ببعض الجنود وكفى .

فقد بدأ محمد بن عبد الوهاب يدعو دعوته — التي ذكرناها — في لين ورفق بين قومه ، ثم أخذ يرسل الدعوة لأمراء الحجاز والعلماء في الأقطار الأخرى ، حاثاً لهم على استنهاض الهمم في مكافحة البدع والرجوع إلى الإسلام الصحيح .

كم من المصلحين دعوا مثل هذه الدعوة ، ولكنها مرت بسلام ، وإن نالها شيء فسجن الداعي أو التشهير به ، ورميه بالكفر أو الزندقة ، ثم ينتهي الأمر ويعود الناس سيرتهم الأولى ؛ بل نرى من قام بمثل هذه الدعوة في المغرب كالشيخ أبي العباس التيجاني ، فقد أمر بترك البدع ونهى عن زيارة القبور ، وكثرت أتباعه حتى بلغت مئات الألوف ، ولكن لم يلفت الناس والحكام أمره كما لفتهم محمد بن عبد الوهاب ؛ وكذلك الشيخ محمد عبده دعا مثل هذه الدعوة ، فأجابه بعضهم وأنكر عليه بعضهم ، ثم أسدل الستار .

السبب في هذا ما أحاط بالدعوة الوهابية من ظروف لم تتهيأ لغيرها .

فقد اضطهد في بلده العيينة ، واضطر أن يخرج منها إلى الدرعية مقر آل سعود ؛ وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود فقبلها ، وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع ، ونشر الدعوة في جميع جزيرة العرب باللسان عند من يقبلها ، وبالسيف عند من لم يقبلها ؛ وإذ ذاك دخلت الدعوة في دور خطير ، وهو اجتماع السيف واللسان . وزاد الأمر خطورة نجاح الدعوة شيئاً فشيئاً ، ودخول الناس أفواجاً فيها ، وإخضاع بعض الأمراء بالقوة لحكمها ، وكلما دخلوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم ، حتى عمت الحركة كل جزيرة العرب . ولما مات الأمير ومات الشيخ تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة آبائهم في نصرة الدعوة متكاتفين ، وظلوا يعملون حتى تغلبوا على مكة والمدينة .

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها ، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها مركزاً إسلامياً ممتازاً ، تفقد الكثير منه إذا فقدتهما .

فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي باشا في مصر بأن يسيّر جيوشه لمقاتلة الوهابيين ؛ وكما أرسلت الجيوش لمقاتلتهم أرسلت الدعاية من جميع الأقطار الإسلامية للنيل من هذه الدعوة وتكفير مبتدعيها ، وحمل علماء المسلمين عليها حملات منكرة ، وألفت الكتب الكثيرة في التخويف منها والتشنيع عليها .

وهكذا حدثت الحرب بالسيف والحرب بالكلام ، كل هذا خدم الدعوة الوهابية بلفت الأنظار إليها ، ودورانها على كل لسان . وزاد في شأنها أن الوهابيين انتصروا على حملة محمد علي باشا الأولى بقيادة الأمير طوسون .

ثم أعد محمد علي باشا العدة القوية الكبيرة ، وسار

بنفسه وحاربهم بخير سلاحه ، فانتصر عليهم ، وأتم النصر ابنه إبراهيم باشا ، وانهزمت قوة الوهابيين ؛ ولكن بقيت الدعوة إلى أن هيّئ لها في العهد الحاضر المملكة السعودية الحاضرة في تاريخ طويل لا يعنينا هنا ، وإنما يهمنا الدعوة وما تم لها .

على الدعاية التي أحكمت ضدها ، وتعلّق الناس بالدولة العثمانية ، وميلهم الشديد أن تظل بلادها وحدة لا ينفصل عنها جزء ، جعلت عامة المسلمين في أقطار العالم الإسلامي يفرحون بهزيمة الوهابية ، ولو لم يفهموا جوهر دعوتها . وشيء آخر كان كبير الأثر في تنفير عامة المسلمين من هذه الحركة ، وهو أنها حيث استولت على بلد نفّذت تعاليمها بالقوة ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها ؛ فلما دخلوا مكة هدموا كثيراً من القباب الأثرية كقبة السيدة خديجة ، وقبة مولد النبي (ص) ، ومولد أبي بكر وعليّ ؛ ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الحلي والزينة التي كانت على قبر الرسول ؛ فهذه كلها أثارت غضب كثير من الناس وجرحت عواطفهم ، فمنهم من حزن على ضياع معالم التاريخ ، ومنهم من حزن على الفن الإسلامي وكيف يُزال ، ومنهم من حزن لأن مقبرة الرسول (ص) وفخامتها مظهر للعاطفة الإسلامية وقوة الدولة ؛ وهكذا اختلفت الأسباب واشتركوا في الغضب ، والوهابيون لم يعبثوا إلا بإزالة البدع والرجوع بالدين إلى أصله .

قد اهتموا بالناحية الدينية وتقوية العقيدة ، وبالناحية الخلقية كما صوّرها الدين ، ولذلك حيث سادوا قلّت السرقة والفجور وشُرب الخمور وأمن الطريق وما إلى ذلك ؛ ولكنهم لم يمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها إلا في دائرة التعليم الديني ، ولم ينظروا مثلاً كل المدنية الحاضرة ومطالبها . وكان كثير منهم يرون أن ما عداهم من الأقطار الإسلامية التي تنتشر فيها البدع ليست ممالك إسلامية ، وأن دارهم دار جهاد ؛ فلما تولّت حكومة ابن سعود الحاضرة كان لابد أن تواجه الظروف الحاضرة ، وتقف أمام منطق الحوادث ، ورأت نفسها أمام قوّتين قويتين لا معدى لها عن مسايرتهما ، قوة رجال الدين في نجد المتمسكين أشد التمسك بتعاليم ابن عبد الوهاب والمتشددين أمام كل جديد فكانوا يرون أن التلغراف السلكي واللاسلكي والسيارات والمجلات من البدع التي لا يرضى عنها الدين ، وقوة التيار المدني الذي يتطلّب نظام الحكم فيه كثيراً من وسائل المدنية الحديثة كما يتطلب المصانعة والمداراة ، فاختطت لنفسها طريقاً وسطاً بين القوتين ، فقد عدلت نظرها إلى الأقطار الإسلامية الأخرى وعدّتهم مسلمين ، وبدأت نشر التعليم المدني بجانب التعليم الديني ، ونظم الإدارة الحكومية على النمط الحديث ، وتسمح للسيارات والطائرات واللاسلكي بدخول البلاد والاستعمال وما إلى ذلك ، وما أشقّه عملا : التوفيق بين علماء نجد ومقتضيات الزمن ، وبين طبائع البادية وعلاة الحضارة .

* * *

لم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية ، بل تعدّتها إلى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية ، وكان موسم الحج ميداناً صالحاً وفرصة سانحة لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إلى قبولها ، فإذا عادوا إلى بلادهم دعوا إليها . فنرى في زنجبار طائفة كبيرة من المسلمين يعتنقون هذا المذهب ، ويدعون إلى ترك البدع ، وعدم التقرّب بالأولياء .

وقام في الهند زعيم وهابي اسمه السيد أحمد ، حجّ سنة ١٨٢٢ م ، وهناك آمن بالمذهب الوهابي وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه الدعوة في بنجاب وأنشأ بها شبه دولة وهابية ، وأخذ سلطانه يمتد حتى هدّد شمال الهند ، وأقام حربا عوانا على البدع والخرافات ، وهاجم الوعاظ ورجال الدين هناك ،

وأعلن الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه ويقبل دعوته ، وأن الهند دار حرب ؛ ولقيت الحكومة الانجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم .

وكذلك حضر الإمام السنوسي مكة حاجًّا ، وسمع الدعوة الوهابية واعتنقها ، وعاد إلى الجزائر يبشر بها ، ويؤسس طريقته الخاصة في بلاد المغرب كما سيأتي بيانه .

وفي اليمن ظهر أعلم علمائه ، وإمام أئمته وهو الإمام الشوكاني المولود سنة ١١٧٢ ، فسار على نفس هذا النهج ، وإن لم يتلقه عن ابن عبد الوهاب ، وألف كتابه القيم « نيل الأوطار » شارحا فيه كتاب ابن تيمية « منتقى الأخبار » عارضا الأحاديث النبوية ، مجتهداً في فهمها ، مجتهداً في استنباط الأحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعة كلها ؛ وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد وثارت من أجل ذلك حرب كلامية شعواء بينه وبين علماء زمنه ، كان أشدها في صنعاء ، وألف في ذلك رسالة سماها « القول المفيد في حكم التقليد » ؛ ودعا في قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها ، فقال في نيل الأوطار[1] : « وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام ، (منها) اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج ، وملجأ لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا إليها الرحال ، وتمسحوا بها واستغاثوا ، وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

« ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ، ويغار حمية للدين الحنيف لا عالما ولا متعلما ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكا ، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجرا ، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ ، وأبى واعترف بالحق ، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال إنه تعالى ثاني اثنين وثالث ثلاثة .

« فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين أي رزء للإسلام أشد من الكفر ، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المبين ؟ » . وقد مات الإمام الشوكاني سنة ١٢٥٠ بعد أن أبلى في هذا بلاء عظيما ، وخلف تلاميذ كثيرة يدينون برأيه .

وفي مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو ، فرجع إلى هذه التعاليم في أصولها من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية ، إلى عهد ابن عبد الوهاب ؛ وكان أكبر أمله أن يقوم في حياة المسلمين بعمل صالح ، فأداه اجتهاده وبحثه إلى نفس الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه وهما : (١) محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد بالإشراك مع الله تعالى الأولياء والقبور والأضرحة ، و (٢) فتح باب الاجتهاد الذي أغلقه ضعاف العقول من المقلدين ؛ وجرد نفسه لخدمة هذين الغرضين ؛ ولكنه امتاز بميزة كبرى عمن عداه ، وهي ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية ، ومعرفته بشؤون الدنيا وأسسها وتياراتها ، وذلك بتربيته الدينية الأولى المستمرة ، وبانغماسه في الأمور السياسية واطلاعه على الثقافة الفرنسية ، ورحلاته إلى أوربا يخالط علماءها وفلاسفتها وساستها . فلما تعرض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة ، وركزها على أسس نفسية واجتماعية ، كما شارك في تركيزها على الأسس الدينية ؛ ففي دروسه في التفسير التي كان يلقيها في الرواق العباسي بالأزهر ، كان ينتهز كل إشارة لآية ولو من بعيد تندد

(١) جزء ٣ ص ٢٣٤ من الطبعة الأميرية .

بالشرك فيفيض في الحملة على عبادة الصالحين ، وزيارة القبور والشفاعة والتوسل وما إلى ذلك ، فيُطيل الوقوف — مثلا — عند قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » ، فيقسّم الشيخ الأنداد إلى قسمين هؤلاء الشفعاء الذين اتخذهم الناس وسيلة القرب من الله يستقضونهم في الحوائج ، وهؤلاء الذين يقلّدون في الدين ويُتخذ قولهم شرعاً من غير حجة ولا برهان . وتظهر فلسفته المذهب في بيان الأضرار النفسية من هذه العقائد ، فهي تورث الذل وتُخضع الناس لحكام الظالمين ، وتحط بالنفوس إلى الدرك الأسفل ، ثم هي تضر اجتماعيا باعتماد الناس على هؤلاء الأولياء بتركهم القوانين الطبيعية التي جعلها الله أسباباً لابد منها لحصول المسبّب . فالزراعة إنما تنجح بالحرث والتسميد والبذر والسّقي لا بالاستغاثة بولي ؛ والحرب إنما تكسب باتخاذ سلاح مجهّز على آخر طراز كسلاح العدو ، وإعداد العدة الكاملة كما يفعل العدو ، لا بالاستغاثة بأهل القبور ؛ وفضيلة المرء أن يستعين بعد ذلك كله بالله وحده يطلب منه أن يثبّت قلبه ، ويلهمه التوفيق . وهكذا كان يفيض في هذين الأساسين مفنّداً آراء من يقول بالتوسل والشفاعة والتقليد .

وينتهز فرصة وجود جماعة من العلماء عنده في يوم مولد ، ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين ، فيبين لهم أن هذه الموالد كلها منكرات ، وشيء لو صرف ما يصرف في الموالد على تعليم الفقراء ، ويناظرهم في ذلك مناظرة تنتهي بانصراف العلماء إلى العشاء في المولد ، وامتناع الشيخ وحده .

ويضع الشيخ تفسيراً لجزء « عم » للناشئة فيلتمس كل وسيلة للحملة على كل ما يشوب التوحيد من شرك بعبادة المشايخ والقبور والأضرحة والتخريف ، راجياً أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيراً مما عليه آباؤهم — وأعانه في هذه السبيل تلميذه وصديقه السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار ، فقد ملأها كذلك بمثل هذه الدعوة ، ومثل هذه الحجج يُسمع بها المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية .

وفي تركيا قامت الحكومة التركية الكمالية بمحاربة هذه البدع والخرافات ، فأغلقت التكايا وكانت عش التدجيل ، وطاردت المشايخ ، واضطهدت المهرّجين ؛ ولكن الفرق بين هذه الحركة وما قبلها أن كل الحركات السابقة كانت مؤسسة على الدين والإصلاح الديني ، والرجوع إلى الأصول الدينية ، أما هذه الحركة فمؤسسة على العقل المطلق ، وفكرة الإصلاح الاجتماعي من غير أن يكون الوازع عليها الرغبة في الإصلاح الديني .

* * *

وأخيراً وقد مضى على هذه الدعوة الإصلاحية من عهد محمد بن عبد الوهاب إلى الآن عشرات السنين ، واشترك في تنظيم الغزوة عشرات من الأبطال ، فماذا كانت النتيجة ؟

ظل عامة المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية — كما هم — من حيث الالتجاء في قضاء الحوائج إلى المشايخ والقبور والأضرحة ، وظلّت الموالد كما كانت بالاحتفال بها وإن قلّ بهاؤها ورونقها ، وإنما تأثر بهذه الدعوة الخاصة أو خاصة الخاصة ، كما تأثر بها ناشئة الشباب المثقفين بحكم ثقافتهم ونمو عقليتهم ، فلم يلجئوا إلى الزارات والمشايخ كما كان يلجأ آباؤهم ؛ ولكن أخشى ألا يكون كثير منهم يلجأ إلى الله أيضا كما كان يلجأ آباؤهم . والآن ننتقل إلى نوع آخر من الإصلاح ، كان مظهره مدحت باشا في تركيا ، وهو موضوع المقال الآتي إن شاء الله .

أحمد أمين

استدراك

ورد في المقال السابق أن وفاة محمد بن عبد الوهاب كانت سنة ١٧٠١ وهو خطأ مطبعي صوابه سنة ١٧٩١ .

حكم في الجنحة ٢٠٠٢ عسكرية الأزبكية سنة ١٩٤٢ بتغريم فردوس علي عبد الواحد ٢٠٠ قرش والنشر والتعليق لعدم إعلان أسعار الأصناف والسلع المكونة للشيء الذي تبيعه إدارتها .

العناصر الأوربية

في دولة سلاطين مصر

إنه لحديث عجيب ذلك الذي يسوقه إلينا السائحون الأجانب، الذين وفدوا على مصر في القرون الوسطى، وكأن مصر ذات الرأس الأشهب تبعث من أرضها سحراً يجتذب إليها الأفئدة، فقد كانت دائماً تجتذب رواد أهل الغرب وأهل الشرق على سواء؛ وقد خلف كثير من هؤلاء الرواد كتباً دونوا فيها قصص رحلاتهم يصفون فيها عجائب البلاد التي رأوها، وغرائب ما شهدوا فيها من نظم وعادات ومناظر؛ وكان يحلو لهم أن يصفوا جيوشها وسلاطينها، ورسوم دولتها، ومواكبها الرائعة، وأسرار قصورها العالية الأسوار؛ وقد دونوا في تلك القصص نتفاً من الأخبار نراها اليوم فتكشف لنا الستار عن أسرار كثيرة مما كان يخفى على المعاصرين من أهل البلاد. تلك الأسرار التي تمنينا اليوم في البحث التاريخي، لأنها تكشف طائفة من الحقائق الخفية التي كان لها أثر عظيم في توجيه بعض الحوادث التاريخية.

ومن تلك الحقائق التي كشفها هؤلاء السائحون، أن دولة سلاطين المماليك كانت تضم في صفوف جيوشها عدداً عظيماً من الأوربيين من مختلف الشعوب والأجناس، وأن من هؤلاء المماليك الأوربيين من بلغوا أعلى المراتب، وصارت إليهم مناصب الإمارة؛ بل إن منهم من اعتلى العرش سلطاناً لمصر، وكان كثير منهم يحتفظ سراً بديانته المسيحية في حين كانوا أمام الناس مسلمين يتزوجون المسلمات وينجبون منهن ذرية. وكثيراً ما كان هؤلاء الجنود الأوربيون يساعدون بقصد أو بغير قصد على إثارة الثورات وتدبير المؤامرات الدولية، التي كانت أحياناً تؤثر أثراً كبيراً في توجيه سياسة الدولة المصرية.

جاء سائح فرنسي إلى مصر في عام ١٣٣٦ الميلاد، في أيام السلطان محمد بن قلاوون واسمه (ماندفيل)، وخلف كتاباً في وصف رحلته إلى مصر التي كانت عند ذلك أعظم بلاد الأرض وأعلاها مدنية؛ فكان وصفه ينم عن أن عظمة مصر قد ملأته روعة بمظاهر غناها ومدنيتها، وترف حياة عظمائها. وقد حكى لنا بعض تفاصيل من مظاهر الحياة التي كانت تسترعي نظره، مثل قوله: إنه لما مثل بين يدي السلطان قبل له الأرض على العادة المرسومة: بأن انحنى انحناءة عظيمة، ولمس بأطراف أصابعه سطح الأرض، ثم رفع يمينه إلى رأسه وقبلها بشفتيه. ثم وصف في شيء من الدهشة ما رآه في حضرة السلطان من تقاليد تحيط العرش بهالة من الفرابة والروعة أمام ناظريه، ووصف كيف كان السلطان يحدثه ويسائله عن تفاصيل الحياة والسياسة في دول الغرب، وكيف كان يسوق إليه في حديثه نقداً دقيقاً لبعض عادات أهل أوربا ومشاربهم الخلقية. فلما ظهر العجب على وجه الزائر من علم السلطان بتلك الأمور، قال له السلطان: إن أخبار الدول تتجمع لديه من رعاياه الكثيرين الذين كانوا يذهبون إلى أوربا من التجار، الذين كان يحملهم إليها ليبيعوا العروض الثمينة التي كان يتجر فيها من جواهر ومسك وعطور وبلسم — ذلك البلسم الثمين الذي كان لا ينمو في مكان في العالم غير حدائق السلاطين في ضاحية المطرية.

وكان أعجب ما عجب له الزائر أن السلطان كان يحدثه حديثاً بليغاً بلغة فرنسية فصحى، وأن أربعة من المماليك السلطانية التي ذهبت تشيعه عند باب القصر كانوا يجيدون التكلم بهذه اللغة.

بعد أقل من خمسين سنة من هذا التاريخ تخلف لنا كتابان كتبهما اثنان من أهل أوربا، كانا فيمن قصد إلى مصر من جموع السائحين الذين كانوا يفدون عليها. وفي أحد هذين الكتابين خبر يستلفت النظر، وهو أن السلطان برقوق الذي كان يحكم مصر في ذلك الوقت

(سنة ١٣٨٤ الميلاد) كان بوذاياً ، وأن أباه ظل فى بلاده على دينه المسيحى حتى أصبح هو سلطاناً ، فبعث إليه وأدخله فى الإسلام .

أما الكتاب الثانى الذى ألفه (بيجلول) ففيه وصف طويل للسلطان رقوق نفسه ، يتغنى فيه الكاتب بجمال هيئته وتأنقه وحسن أدبه ورقة شمائله . وقد جاءت فى ذلك الكتاب بعض تفاصيل من حياته ؛ فقد ذكر أنه كان يبدل ملابسه الثمينة فى كل يوم ثلاث مرات ، فإذا ما خلع ثوباً وضعه أتباعه فى خزانة خاصة لكى يهب السلطان منها خلعاً لمن يريد تكريمه من قواده وأمرائه ؛ وقد رآه السائح يخرج مرة للصيد إلى سرياقوس ورأى خيمته العظيمة التى كانت تنقل على قافلة من الإبل لكى تضرب له حيث يحل ، فإذا ما نصبت كانت أشبه شىء بالمدينة تتخللها شوارع تقام فيها الأسواق لكى يشترى أتباع السلطان منها ما يحتاجون إليه . وقد وصف كذلك ما كان يتدفق على البلاد من الغنى ، فقال إنه رأى قافلة أتت إلى القاهرة يبعثها نائب الشام إلى سيده السلطان العظيم ، وكانت فى مائة من الإبل تحمل أحمالاً من الذهب والفضة وثمين الثياب ، وقد لبس سائق كل جمل ثوباً مما يحمله جمله ، فكان منظرها رائعاً يأخذ بالألباب . واتفق عند ذلك أن كان الملك رقوق فى رحلة من رحلات الصيد ، فأمر بأن تساق القافلة إليه فى موضعه ، فلما بلغت رحابه فرق كل ما فيها على من كان معه من القواد والأتباع .

وهذا السائح يذكر كذلك أن كثيراً من جنود مصر المماليك كانوا من أصول أوربية .

وقد تخلف لنا وصف رحلة أخرى كتبها السائح (فلكس فابر) الذى زار مصر فى سنة ١٤٨٠ ، وكان السلطان عند ذلك هو الفارس قايتباى صاحب الجيش المنتصر ، والعمارة البديعة ، والفن الرفيع . وكان فلكس فابر صاحب نظرة نقدية نافذة ، فكان لا يدع شيئاً تقع عينه عليه بغير أن يدقق فى استقصاء علمه . وقد بيّن فى كتابه كيف كان أكبر موظفى القصر من أصل أوربى ، وأفاض فى الحديث عن أحدهم الأمير تنجز بيردى الترجمان الأكبر للسلطان ، فصور له صورة حية عجيبة لا يخلو ترديدها هنا مما يبعث على الاهتمام .

كان تنجز بيردى هذا كما يصفه (فلكس فابر) فى أول أمره قسيساً كاثوليكياً ، ثم أسلم بعد ذلك واتصل بسلطان مصر وصار ترجمانه الأعظم ؛ وكان يتولى شئون الأجانب فى مصر وجعل داره مكاناً عرفياً للنظر فى شئونهم .

وكان يبيح لزوار الأوربيين أن ينزلوا عنده ، إذ كان هو الوكيل بحاجتهم ، وكان يستولى منهم نظير نزولهم وحمايته لهم أجوراً تبلغ أحياناً مبلغاً فادحاً . وقد نزل (فابر) فى قصره هذا وشهد منه ما أخافه ، فأراد أن يخرج فيقيم فى مكان آخر ، ولكن تنجز بيردى تنكر له عند ذلك وهدده وأغلظ له فى القول حتى حمله على البقاء عنده خوفاً من بطشه . ولا يملك من يقرأ هذا الحديث إلا أن يعجب بقدرة الكاتب التى أثبتها فى كتابه ، فهو أشبه الأشياء بحديث القصص المتيقة .

وكان فى قصر تنجز بيردى هذا موضع لسجن الأجانب يصفه فلكس فابر وصفاً دقيقاً حياً ناطقاً ، ووصف من كان فيه من الأجانب الذين كان الترجمان الأعظم يتخذهم تجارة له .

ويتحدث فلكس فابر عن جيش المماليك فذكر أن الكثيرين من جنده كانوا فى ذلك الوقت من المسيحيين ، وقد شهد أنه رأى عدداً منهم يأتون سراً لتأدية الصلاة المسيحية مع بعض القسوس ، ويطلبون منهم مباركة أطفالهم وتعميدهم ، مع أنهم من نسل زوجاتهم المسلمات ؛ وقد عرف (فابر) أسرات بعضهم ، وكان فيهم عدد كبير من أولاد الأعيان فى البلقان والمجر وألمانيا ؛ وهو يعلل ذلك بأنهم أسروا فى حروب سلاطين الترك مع المسيحيين ، فأرسلهم سلطان

دراسات اقتصادية من كتب الشريعة الإسلامية :

التسعير الإلزامى

عند ابن قيم الجوزية

تمهيد : كان ظهور أنصار حرية الناس المطلقة فى أعمالهم واتجاهاتهم ، بعد أن ساد فى أوروبة مذهب التجاريين القائل بالحد من نشاط الأفراد الاقتصادى فى سبيل حفظ الثروة العامة وزيادتها ، فاتحة المركة الدولية بمختلف المذاهب الاقتصادية التى ما زالت محتدمة حتى يومنا هذا ؛ والحرب الحاضرة مهما كانت بواعثها وغاياتها ، إنما هى معركة نظم اقتصادية قبل كل شىء ، وهى فى أهم صورها نزاع دولى لتأمين أو حفظ المجال الحيوى الاقتصادى للدول المشتركة فيه . وبالرغم من أبحاث قدماء الإغريق الاقتصادية ، وعدم إهمال المشرعين الرومان لبعض النواحى الهامة فى علم الاقتصاد ، فإن العلماء المحدثين يؤكدون بأن الأفكار الاقتصادية المنسجمة لم يعرفها العالم قبل أبحاث التجاريين فى القرن السادس عشر الميلادى[1] .

فإذا كان التجاريون أدوا بآرائهم فى القرن السادس عشر ، وعارضهم الأحرار بمبادئ نشروها فى منتصف القرن الثامن عشر ، وقامت المذاهب الاشتراكية المدنية فى القرن التاسع عشر ، وظهرت المبادئ الفاشستية فى القرن العشرين ، فما هو موقف الفقه الإسلامى من المسائل الاقتصادية المختلفة ؟ وهل عالج العلماء المسلمون شيئاً منها معالجة سديدة ؟ وهل كان عندهم من الآراء الاقتصادية ما ينفى عدم ظهور الفكر الاقتصادى المنسجم قبل القرن السادس عشر ؟

لست أدرى إن كان أحد ممن كتب فى المواضيع الاقتصادية سبق وأجاب عن هذه الأسئلة إجابة مفصلة شافية أم لا ؟ ولعل الأستاذ محمد صالح بك فى بحثه عن « الفكر الاقتصادى العربى » المشار إليه فى هامش كتاب الدكتور الرفاعى والمنشور فى مجلة القانون والاقتصاد ،

(١) راجع الدكتور عبد الحكيم الرفاعى : الاقتصاد السياسى القاهرة ١٩٣٨ .

الترك إلى مصر ليباعوا إلى سلطان مصر ليجعلهم جنوداً فى جيشه على ما جرت به العادة .

وقد جاء بعد ذلك بقليل الفارس الألمانى (أرنولد دى هارف) فى سنة ١٤٩٩ ، وكان متخفياً فى زى تاجر ولعله كان يقصد التجسس عن أحوال مصر لبعض أمراء أوربا . وقد رأى الملك الشاب أبا السعادات محمد بن قايتباى الذى كثر فى عهده الاضطراب ، وثارت الثورات ؛ وكان عمره لا يزيد على ستة عشر عاماً ولكنه كان شديد الذكاء ، له علم تام بما كان فى أوربا فى عهده من أحوال السياسة . ولقد سأل السلطان هذا السائح عن تفاصيل كثيرة عن ملك فرنسا ، وحاول أن يعلم منه شيئاً من أسراره الحربية ، فسأله عن عدد جيوشه ومن آخر فتوحه ؛ وكان الفارس يجيب بسلسلة من الأكاذيب لأنه لم يجرؤ على أن يمسك عن الإجابة . والفارس دى هارف يذكر كما ذكر غيره من قبله أن جنود مصر كانت على الأكثر مستمدة فى ذلك الوقت من المسيحيين ، وقد عرف السائح اثنين من هؤلاء الجنود المسيحيين ، كان أحدهما من أسرة فى مدينة بال والآخر من أسرة فى دانزج .

هذه الحقائق التى يسوقها هؤلاء السائحون فى كتبهم تفسح المجال لكثير من الخواطر وكثير من الفروض . فلعل التاريخ السرى لدولة سلاطين مصر كان أقرب إلى الحقيقة من ظاهر الحوادث التى تنطوى عليها سجلات التاريخ .

محمد فريد أبو حديد

قد أوفى هذا الموضوع حقه ! أو لعل الدكتور محمصانى الذى قرأنا عنوان أطروحته الفرنسية، (آراء ابن خلدون الاقتصادية) فى دراسات الأستاذ الحصرى(١) ، قد عالج هذه المسائل أو بعضها !

إنى أترك الإجابة عن هذه الأسئلة إلى فرصة ثانية ، قاصراً بحثى هذا على عرض موجز لآراء بعض العلماء المسلمين فى النواحى الاقتصادية التى عالجها كل منهم فيما بين أيدينا من كتبه ورسائله . وأعرض الآن رأى أحد كبار الفقهاء السابقين فى موضوع يحتل اليوم مكاناً أولياً بين الأمور التى تعالجها حكومات العالم بدقة ابتغاء تأمين الرخاء المستطاع لشعوبها ، وأعنى به « التسعير الإلزامى » لمختلف الحاجات والمنافع ؛ لأن حالة الحرب التى عليها العالم بأسره فرضت على كل حكومة من حكوماته الإشراف التام على نشاط جميع أفرادها فى كثير من النواحى ، حتى بلغ الأمر فى دول محاربة أن قضت المصلحة العامة فيها « بمصادرة » خدمات جميع سكانها لأغراض الجيش العسكرية ، وهذا مايعبرون عنه « بتعبئة الأمة الكاملة » لكسب الحرب .

كتاب الطرق الحكمية : بين يدى الساعة كتاب « الطرق الحكمية » لابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ ، وهو من خيرة كتب السياسة الشرعية التى وضعها الفقهاء المسلمون لإرشاد ولاة الأمر إلى أقوم السبل لتأمين المصالح العامة ، والقضاء بين الناس بالعدل وفقاً لمقاصد الشريعة الإسلامية وتعاليمها الرشيدة .

وابن القيم فى كتابه هذا — كعادة فقهاء زمانه — يعالج كثيراً من المسائل المتشابهة معالجة متداخلة ، تلمح من خلالها أثقب الآراء وأدق الأفكار ، وهو يقر أو يضع كثيراً من الأصول والقواعد ، كالتفريق بين الشهود عند الاستجواب مثلا ، وغيرها من القواعد التى تعتبر فى العصر الحديث من الأسس القانونية العامة .

(١) عن مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٤٣ .

وقد تعرض مؤلف الطرق الحكمية لنواح اقتصادية عديدة كتأثير العرض والطلب على الأسعار ، وواجبات السلطان فى الترفيه عن الناس ؛ وكان من المسائل التى عالجها كواجب من واجبات أولى الأمر قضية « التسعير والمصادرة » التالى عرضها ملخصاً مرتباً :

اشراف الدولة على الأسعار : إن تنظيم الحياة الاقتصادية يعتبر من أهم واجبات الحكومة ، خاصة فى الأزمات الطارئة كوجود الأمة فى حالة حرب مع أعدائها ، وذلك لتأمين الرخاء العام لأبعد مدى ممكن بما يتناسب والمنتوجات الداخلية ، والأسواق المالية وظروف المبادلات الخارجية ؛ وواجب الحكومة هذا يتضمن قبل كل شىء مراقبتها للتجارة والأسواق ، ومنع الاحتكار والإشراف على الأسعار ، وتحديدها عند اللزوم حداً لأطماع التجار ، ورأفة بعامة الناس . وقد عقد ابن قيم الجوزية فصلا خاصاً عالج فيه موجبات التسعير الإلزامى ومشروعيته قال فيه : (وأما التسعير فمنه ماهو ظلم محرم ومنه ماهو عدل جائز ، فإذا تضمن ظلم الناس وإكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه أو منعهم مما أباح الله لهم فهو حرام ، وإذا تضمن العدل بين الناس مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل ، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل ، فهو جائز بل واجب) .

ثم يضرب ابن القيم الأمثلة على التسعير الظالم ، ويأتى بالحديث الشريف المانع من التسعير ، مبيناً أن واقعة ذلك الحديث هى واقعة معينة رفض الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسعّر للناس حاجتهم فيها ترجيحاً منه عليه الصلاة والسلام للعدل الذى رآه وقتئذ ؛ وبعد ذلك يقول عن التسعير الواجب على أولى الأمر أن مثاله (أن يمتنع أرباب السلع من بيعها مع ضرورة الناس إليها إلا بزيادة على القيمة المعروفة ، فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل ، ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل ، والتسعير هنا إلزام بالعدل الذى ألزمهم الله به) .

وجوب العدل عند التسعير : ولا يفوت ابن القيم أن ينص على أن السعر الإلزامي يجب أن يكون عادلاً غير مجحف بحقوق التجار ، وهو ينقل عن أبي الوليد النص على واجب الحاكم في مراعاة أصناف السعْر ، وبأن يكون السعر واحداً لكل صنفين متساويين من الحاجات (أما إذا اختلفا لم يؤمر صاحب الجيد أن يبيعه بسعر الدون) ، بل على ولي الأمر أن يضع لكل صنف سعراً عادلاً يتناسب مع أسعار بقية الأشياء .

واشترط بعض العلماء تحقيقاً للعدل عند التسعير الإلزامي مراعاة الثمن الذي اشترى به التجار ، فقال ابن حبيب : (ينبغي للإمام أن يجمع وجوه أهل سوق ذلك الشيء ، ويحضر غيرهم استظهاراً على صدقهم فيسألهم : كيف يشترون ؛ وكيف يبيعون ، فينازلهم إلى ما فيه لهم وللعامة سداد ...) قال أبو الوليد : (ووجه هذا أن يتوصل به إلى معرفة مصالح البائعين والمشترين ، ويجعل للباعة في ذلك من الربح ما يقوم بهم ، ولا يكون فيه إجحاف بالناس) .

التسعير لمصلحة العامة : وإذا كان العدل في التسعير واجباً ويؤخذ فيه بعين الاعتبار إنصاف التجار وعدم حرمانهم من أرباح كافية لهم ، فإن هذا العدل يجب أن يبنى دائماً على مصلحة العدد الأكبر من الناس (لأن المراعى حال الجمهور وبه تقوّم المبيعات ..)

التسعير لمصلحة التجار : ومن الأدلة على دقة تفكير العلماء السالفين أن ابن قيم الجوزية يرى بأن من موجبات التسعير الإلزامي صون التجار عن الخسارة ، لأنهم قد يشترون عند فقدان السعر الإجباري بأثمان باهظة ، معللاً ذلك (بأنهم قد يتساهلون في الشراء إذا علموا أن الربح لا يفوتهم) ، فإذا نزلت أسعار السوق فاتهم ما أملوا من الربح ، وقد يخسرون رؤوس أموالهم كلها ، كما أثبتت لنا الأزمة الأخيرة التي حلت بتجار الشام عند ورود أخبار الانهيار الإيطالي ، بعد أن كانت الأسعار مشتعلة من صدى بعض المعارك السابقة عليه .

التسعير لمصلحة السوق الاقتصادية : ومن أهم واجبات أولي الأمر الاقتصادية حماية الأسواق التجارية من تدخل المغرضين ، الذين يعملون لإفساد الأسواق بإغراقها بالبضائع ، أو بالمضاربات غير المشروعة ، أو بالحط من الأثمان لطرد منافسيهم من السوق ، وهذه كانت من المسائل التي عالجها كثير من العلماء ؛ وقد لخصها ابن القيم في فصل خاص قال فيه : (... وقد تنازع العلماء في التسعير في مسألتين : إحداهما إذا كان للناس سعر غالب فأراد بعضهم أن يبيع بأغلى من ذلك ، فإنه يمنع من ذلك عند مالك ، وهل يمنع من النقصان ؟ على قولين لهم ؟ ... واحتج مالك رحمه الله بما رواه في موطئه عن يونس بن سيف عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب مرّ بحاطب بن أبي بلتعة وهو يبيع زبيباً بالسوق ، فقال له عمر : إما أن تزيد في السعر وإما أن ترفع من سوقنا ؛ قال مالك لو أن رجلاً أراد إفساد السوق فحط عن سعر الناس لرأيت أن يقال له : إما لحقت بسعر الناس وإما رفعت ...) .

وهل يعد هذا التفكير من تفكير سليم ؟ ونحن نرى أن في مقدمة ما يطلب من الحكومات اليوم حماية الأسواق المحلية من شر المضاربات المفسدة لها ، ومن شرور الشركات الأجنبية التي تحاول إغراق الأسواق ببضائعها والاستيلاء عليها بفضل الأثمان المخفضة التي تعرضها على الناس ! وكنا قبل الحرب نرى كيف تسيطر البضائع اليابانية الرخيصة على أسواق أغلب دول العالم ، مما حمل كثيراً منها على تحميل هذه البضائع أشد أنواع الضرائب والرسوم ، وفي بعضها منعت من دخول الأسواق بتاتاً .

حصر البيع : ينكر ابن القيم أن يعمد السلطان إلى حصر بيع صنف من الأصناف في طائفة معينة من الناس ، لأن في الحصر إضراراً بالمستهلكين وإضراراً بالمنتجين ؛ فإن اقتضت المصلحة العامة ، حصر بعض الأصناف كالملح أو التبغ مثلاً ، أو حدثت ظروف طارئة قضت بالحصر كما حدث في هذه الحرب بالنسبة لتجارة الورق

والملاط وأصناف أخرى ، فيقول ابن القيم عن المحصورين بيوم البيع إن (هؤلاء يجب التسعير عليهم وألا يبيعوا إلا بقيمة المثل ولا يشتروا إلا بقيمة المثل ...)

السلاح والذخيرة أثناء الحرب : لما كان الجهاد للذود عن البلاد والوطن ، وللدفاع عن الدين والحرية ، من الأمور الهامة المتعلقة بها كيان الأمة ، وحيث إن حالة الحرب ظرف خطر في حياة الشعوب ، وجب أن تكون تجارة السلاح تحت إشراف الدولة ، وخاصة مصانع الذخيرة وآلات الحرب ، لأن في احتكارها والتلاعب بأثمانها ما يعرض الأمة كلها للخطر الماحق ، لذلك وجب تفاديا للأخطار سيطرة الدولة على كل ماله صلة بالحرب ويلزم لكسبها سيطرة تامة ؛ وابن القيم يردد هذا المعنى كثيراً في كتابه وهو يقول : (إذا احتاج الناس إلى سلاح للجهاد وآلات فعلى أربابه أن يبيعوه بعوض المثل ولا يمكنوا من حبسه إلا بما يريدونه من الثمن ...)

الحرمات وقلة الأيدي العاملة : يقدر ابن القيم أن تحدث ظروف تقل فيها الأيدي العاملة ، وتفحش فيها الأجور ، مما يسبب اضطراباً في الحياة الاقتصادية ويشل حركة الناس ويؤخر أعمالهم ، كما حدث أثناء هذه الحرب ؛ وهو يقول في فصل خاص : (ومن ذلك أن يحتاج الناس إلى صناعة طائفة كالفلاحة والنساجة والبناء وغير ذلك ، فلولي الأمر أن يلزمهم بذلك بأجرة المثل ، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بذلك . . . وكذلك تجهيز الموتى ودفنهم ، وكذلك أنواع الولايات العامة والخاصة التي لا تقوم مصلحة الأمة إلا بها) ، وفي فصل آخر يقول : (... إن الناس إذا احتاجوا إلى أرباب الصناعات كالفلاحين وغيرهم أجبروا على ذلك بأجرة المثل ، وهذا من التسعير الواجب)[1] .

الأجور والمنافع : ومما يقدر ابن القيم حصوله في ظروف خاصة أن يفتش الناس عن أمكنة للسكنى فلا يجدون إلا بأسعار فاحشة لا تتناسب مع المنافع التي يحصلون عليها ، أو أن يتخذ أصحاب الدور تهديد المستأجرين بطردهم منها وسيلة لزيادة الأجور عليهم زيادة غير عادلة ، كما هو الحال الآن تماماً — لولا قوانين الحرب الاستثنائية — وفي هذا يقول ابن القيم في فصل عقده عن الأجور : (فإذا قدر أن قوماً اضطروا إلى السكنى في بيت إنسان لا يجدون سواه . . . أو غير ذلك وجب على صاحبه بذله بلا نزاع) ، وبعد أن يعرض ابن القيم أقوال الفقهاء السابقين في حق صاحب الدار بأخذ أجرة على إسكان غيره فيه يقول : (... ومن جوز له أخذ الأجرة حرّم عليه أن يطلب زيادة على أجرة المثل) .

العقوبات الضامنة للتسعير الإلزامي : بعد أن يوجب ابن قيم الجوزية على السلطان التسعير الإلزامي إذا اقتضته المصلحة العامة ، لا يغفل عن ذكر ما يضمن التقيد بهذا التسعير وعدم الاحتيال للانفلات من قيوده ، فيرى لذلك ضرورة معاقبة المخالفين (. . . وأما إذا امتنع الناس من بيع ما يجب عليهم بيعه ، فهنا يؤمرون بالواجب ويعاقبون على تركه ، وكذلك كل من وجب عليه أن يبيع بثمن المثل فامتنع) ، كما أنه يرى للقضاء على الاحتكار وتأديب المحتكرين أن (لولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه) ؛ وهذا الإكراه الذي يقوم به السلطان يتضمن جميع الوسائل التي يراها كافلة لتنفيذ أوامره المبنية على مقتضيات المصالح العامة حسب الظروف والحالات المختلفة . ولقد اختلف العلماء في مدى هذا الإكراه وتلك المعاقبة ، وإلى أي حد يصلان ؛ وكان أصحاب أبي حنيفة أشد الفقهاء احتراماً لحرية الفرد ، ولكنهم قالوا : (لا ينبغي للسلطان أن يسعر على الناس إلا إذا تعلق به حق ضرر العامة ، فإذا رفع إلى القاضي أمر المحتكر ... نهاه عن الاحتكار ، فإن أبى حبسه وعزّره على مقتضى رأيه زجراً له ودفعاً للضرر عن الناس) .

(١) يلاحظ أن الإلزام هنا لا يكون إلا في ظروف معينة وهو لا يشبه بوجه من الوجوه ما كان معروفاً عند كثير من الأمم من حصر المهن وإلزام الناس بها .

ولكن هل يحكم القاضي بمصادرة الأموال المحتكرة وبيعها ؟ لاشك في هذا لأنه من درجات الإكراه المتروك تقديرها لرأى الحاكم ؛ وهذه المصادرة والبيع بغير رضا المالك الأصلي بالرغم من مماثلتها لبيع مال المدين ، وهو في جوازه على الخلاف المعروف عند الفقهاء ، فقد (قيل ببيع — القاضي — ههنا بالاتفاق لأنه — حتى أبي حنيفة — يرى الحجر لدفع الضرر العام ...)

والمصادرة في الشريعة الإسلامية أقرتها القوة ، وقد اتخذ العلماء قضاء الرسول صلى الله عليه وسلم في قضية عتق العبد المشترك (أصلاً في جواز إخراج الشيء من ملك صاحبه قهراً بثمنه للمصلحة الراجحة) ؛ وإذا أجاز الشرع نزع الملكية لمصلحة شريك أو شخص ثالث ، فإنه بلاشك يجيز ، عند اقتضاء المصلحة العامة ، مصادرة أي شيء يمتلكه فرد أو جماعة من الطعام واللباس وآلات الحرب وغير ذلك من الأشياء والمنافع المختلفة .

وإذا كان القياس في قضاء الرسول عليه الصلاة والسلام يقضي بأن تكون المصادرة بثمن المثل ، فإنها عندما تكون بشكل عقوبة لايبقى فيها عنصر الألم مع دفع الثمن ، فتفقد مزيتها ؛ لهذا كان للقاضي الحكم بالمصادرة المطلقة لأموال المحتكرين ومخالفي التسعير الإلزامي إذا ارتآها ، لأن الذي يملك العقوبة البدنية يملك ما دونها ، والمال دون النفس مرتبة[1] ، وإذا كان (عمر بن الخطاب يطرح اللبن المغشوش في الأرض أدباً لصاحبه . .) فالمصادرة لمصلحة بيت المال أولى من الإتلاف في غير المغشوش والمضر بالصحة العامة[2] .

ومن العقوبات الرادعة التي ذكرها ابن القيم المنع من تعاطي البيع ، فإن (صاحب السوق يسعر على الجزارين لحم الضأن بكذا ولحم الإبل بكذا وإلا خرجوا من السوق) ، ولقد أعطى ابن القيم المنع في هذا المثل شكل التخيير بينه وبين اتباع أوامر السلطان والسعر المعين من قبله ، ولكنه قد يبلغ حد الإقصاء والطرد من تعاطي مهنة التجارة كعقوبة ينزلها الحاكم بمن يخالف أوامره ، (. . . وعلى صاحب السوق الموكل بمصلحته أن ... يتفقد السوق أبداً فيمنعهم — التجار — من الزيادة على الربح الذي جعل لهم ، فمن خالف أمره عاقبه وأخرجه من السوق) .

وأخيراً بعد أن يسرد ابن قيم الجوزية ، خلال أبحاثه ، أدلة التسعير والمصادرة ، ويأتي بأقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ويناقشها ، وبعد أن يخرج من كل ذلك بجواز المصادرة والتسعير الإلزامي للأموال والمنافع والخدمات ، عند اقتضاء المصلحة العامة لكل هذا أو بعضه ، يختم بحثه قائلاً : (وجماع الأمر أن مصلحة الناس إذا لم تتم إلا بالتسعير سعر عليهم تسعير عدل لا وكس ولا شطط) اهـ .

* * *

لعل فيما نقلته من كتاب الطرق الحكمية ما يثبت لنا قيمة هذا الكتاب ودقة تفكير مؤلفه — من الناحية التي عالجتها على الأقل ، وهي بالحقيقة ليست شيئاً كثيراً بجانب المسائل الهامة التي عالجها المؤلف — وكل هذا على ما في الكتاب من تكرار وإسهاب مملين ، وقلة تنسيق ، وبعد عن التبويب المرغوب فيه في العصر الحديث ، ولكن كما يقول الأستاذ الكبير الحصري في دراساته عن مقدمة ابن خلدون ، أن على (كل باحث يقوم بمطالعة كتاب قديم أن يتأمل في كل موضوع من مواضيعه ، وبكل مسألة من مسائله على حدة) ، لأن الكتب القديمة (لا يجوز أن توزن بالموازين الفكرية العصرية ، بل يجب أن تقدر بموازين تاريخية خاصة) ، وأن على من يقرأون تلك المؤلفات القديمة (أن يلتفتوا إلى عدد القرون التي تفصل بيننا وبين تاريخ كتابة) تلك المؤلفات ، كل هذا ليخرجوا منها بكل نافع مفيد ، وليكون حكمهم عليها حكماً دقيقاً عادلاً .

دمشق **محمد عدنان الخطيب**

(١) الرأي هنا في مشروعية المصادرة بلا ثمن هو رأيي واستنتاجي ، وابن القيم لم يتعرض لها في كتابه صراحة ، هذا مع العلم بأن أكثر العلماء ينكرون هذا النوع من العقوبة ، ويؤكدون أن المال لا يكون محلا للعقوبة في الشريعة الإسلامية ، وأن ولي الأمر الذي له التعزير والحبس حتى الإعدام ، ليس له إتلاف المال أو مصادرته بلا ثمن ! !

(٢) إن العلماء المشار إليهم في الحاشية السابقة ينكرون على ابن الخطاب إتلافه المغشوش طالما بقي له قيمة في السوق بعد افتضاحه .

في الميزان الجديد :

٢ – زهرة العمر

« قد تسألني أليس في مصر طبقة من المستنيرين ؟ نعم في مصر بيئة مستنيرة ، فيها كثيرون عاشوا في أوربا وعرفوا الثقافة الأوربية . وفيهم من يعرف الفن الأوربي ويتكلم عن الصورين والتصوير ، ومن يتكلم عن رامس وباخ وهاندل . ولكن النادر أن تجد بين هؤلاء من عرف أن الثقافة الحقيقية شيء ، والكلام فيها شيء آخر . وقليل من هؤلاء من أدرك أن الثقافة العقلية وحدها ليست كل الثقافة ، وأن الثقافة الكاملة شيء أوسع من ذلك بكثير . إن أكثر هؤلاء المتكلمين في الموسيقى والتصوير والفنون يعرفونها برؤوسهم ولا يدركونها بحواسهم . إن المطلوب للثقافة ليس مجرد المعرفة ، بل الإحساس والتذوق والتمثل لمختلف الفنون . ما قيمة الكلام عن بيتهوفن إذا كانت أعماله لاتهز نفسك هزا ؟! وما معنى الحديث في رفاييل ، أو مايكل أو روبانس أو بوتيتشيلي إذا كانت صورهم لا تمر برؤوسنا ليل نهار ، وتحدث ألوانهم وأصباغهم في نفوسنا الأحداث ؟! الثقافة ليست كلاما تملأ به الرؤوس ، ولكنها يقظة للملكات كلها والحواس . إذا سمحت بقول هذا فلا أبالغ إذا قلت لك أن ليس في مصر عدد أصابع اليدين من المثقفين . . . » (ص ٢١٣) .

هذه الحقائق الكبيرة هي الدرس النهائي الذي تتمخض عنه « زهرة العمر » ، ولكي ندرك معناه البعيد يجب أن نحدد المرحلة التي وصلنا إليها اليوم ، وأن نتبين العناصر المكونة لثقافتنا الحالية ، والأمر واضح ؛ فهناك منبعان كبيران لتفكيرنا الحالي ، بل لحياتنا الروحية كلها .

أما المنبع الأول فهو بعثنا لثقافة العرب في عصورها الأولى ، فمصر المعاصرة ليست استمراراً لمصر الإسلامية . وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل ؛ فأجيالنا الناشئة أكثر معرفة وتغذية اليوم بامرئ القيس وجرير والبحتري مثلا منها بالبوصيري والبهاء زهير وابن نباته المصري ؛ ونحن أكثر قراءة للأغاني والأمالي منا لنهاية الأرب أو صبح الأعشى . نعم إن مصر الإسلامية قد آوت الثقافة العربية يوم فرت من وجه المغول ، ولكنها كانت ثقافة فاترة منحلة سطحية . ولقد كان في ظروف مصر السياسية والاجتماعية ما زاد تلك الثقافة ضعفاً ، حتى أصبحت إما دراسات وحواشي وتعليقات وتصانيف أو أدباً إنشائياً متكلفاً لفظيا لا تدب فيه الحياة إلا بمقدار . والذي لا شك فيه أننا لم ننتعش إلا عندما بدأت حركة البعث القديم ، ولعل البارودي أن يكون أول ثمرة لذلك البعث إن لم يكن رائده بمختاراته وديوانه ، وذلك في مجال اللغة وفن الشعر ؛ كما أن الشيخ محمد عبده قد جدد من شباب الإسلام بدعوته إلى الرجوع إلى التقاليد الصحيحة والعدول عن الخرافات التي كانت قد أوشكت أن تقضي على حياتنا الروحية . لقد حدث في مصر في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ما يشبه إلى حد ما حركة البعث العلمي التي ازدهرت بأوروبا في القرن التاسع عشر ، حدث رجوع إلى القديم وبعث له ؛ وكما أحيا الأوربيون تراث روما وأثينا كذلك أخذنا نحن نحيي تراث مكة والمدينة ودمشق وبغداد . وكذلك الأمر في المجال الروحي ، فحركة جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام قد صدرت عن روح شديدة الشبه بالروح التي صدر عنها لوثر وكالفن وزونجلي . هذا هو المنبع الأول نشير إليه ولكنه ليس موضع حديثنا اليوم .

وإنما نريد أن نتمهل عند المنبع الثاني الذي ينقلنا كتاب الحكيم إلى مرحلة جديدة من مراحله ، ونعني به المنبع الأوربي الغربي . والملاحظ في تاريخنا الطويل أن مصر كانت بؤرة للثقافة اليونانية لمدة عشرة قرون كاملة (من ٣٣٠ ق م إلى ٦٤٠ م) أعني مدة البطالسة والرومان

وبيزنطة ، وهذا زمن طويل حتى في حياة الأمم . ومن المعلوم أنه خلال تلك المدة كلها كانت لغة الثقافة والإدارة هي اللغة الإغريقية ، وأن اللغة اللاتينية لم تستعمل إلا في الجيش ومراسلات الحاكم مع الإمبراطور أيام الحكم الروماني ؛ ولقد كان لنا أن ننتظر انتشار الثقافة الإغريقية عصر بين المصريين ، ومع ذلك فإن شيئاً من هذا لم يحدث ، فمصر لم تصبح إغريقية في يوم ما كما أصبحت فيما بعد عربية بسرعة مدهشة ؛ فلقد ظل المصريون بعيدين من الإغريق ، ظلوا يتكلمون اللغة المصرية ويكتبون الكتابة الديموتيقية ، كما ظلوا متمسكين بدينهم وتقاليدهم الموروثة ، وهم لم يتخلوا عن شيء من خصائصهم الروحية إلا أمام المسيحية . ولا غرابة في ذلك ، فقد كان الشعب المصري طوال هذا الزمن في بؤس مادي وبؤس روحي بالغ القدر ، ولقد كان المصريون يبغضون الإغريق والرومان قدر بغض هؤلاء لهم ؛ ولم يحدث قط أن امتزج الشعبان كما امتزج المصريون والعرب فيما بعد .

وفي الحق إنها لظاهرة عجيبة ، فألف عام كانت كفيلة بأن تبذر بذور الثقافة اليونانية في بلادنا ، ولكننا لا نجد أثراً لتلك البذور ؛ ولقد انقضى ذلك الزمن بفتح العرب لمصر وإذا بنا نرى الدواوين تعرب بعد ستة وستين عاما فقط من هذا الفتح ، وسرعان ما اختفت اللغة الإغريقية بل واللغة المصرية ، وأصبحت مصر بلدا عربيا وإسلاميا . وإذا كانت مصر لم تتأثر بالثقافة الإغريقية عن طريق مباشر فإنها لا ريب قد ورثت هذا الأثر فيما ورثت من ثقافة العرب . ومن المعلوم أن العرب قد نقلوا فلسفة اليونان وبخاصة فلسفة أرسطو ودرسوها بل ونموها ثم أعادوها إلى أوروبا خلال القرون الوسطى .

ورثت مصر إذن الفلسفة الإغريقية مع ما ورثت من تراث عربي ، ولكنها لم تضف إلى هذا التراث خلقاً جديداً يعتد به ، فليس لدينا فلاسفة مصريون نذكرهم مع الفارابي أو ابن رشد أو الغزالي .

والأمر في الأدب كالأمر في الفلسفة ، فأدبنا المصري العربي كان قد انفصل عن التفكير الإنساني ، بل والحياة الإنسانية بمعناها العميق .

ولقد استمرت تلك الحالة إلى سنة ١٧٩٨ ، وتلك سنة خطيرة في تاريخنا السياسي والروحي معاً ، وذلك لأننا خرجنا فيها عن وحدتنا وابتدأنا نتصل بأوروبا ونفتح نوافذنا على العالم الحي . لقد كان للحملة الفرنسية في حياتنا من هذه الناحية أبلغ الأثر . ولا شك أنها كانت من الأسباب التي وجهت نظر محمد علي إلى الغرب عامة وفرنسا بنوع خاص ، فأوفد إليها البعثات ، وكانت حركة مباركة في الترجمة نهض بها رفاعة الطهطاوي وتلاميذه في مدرسة الألسن ؛ ولقد استمرت تلك الحركة إلى يومنا هذا ، بل لعلها أخذت في التزايد ، كما انتشرت معرفة اللغات الأجنبية بيننا حتى رأينا من شعرائنا وكتابنا من يجيدها كشوقي ، وإسماعيل صبري وغيرهما ؛ ولكنه بالرغم من ذلك لم تتغير حياتنا الروحية الثقافية حتى السنوات الأخيرة تغيراً يذكر ، والسبب في ذلك هو أن اتصالنا بأوروبا قد تم على نحو ما اتصل العباسيون بالثقافة الإغريقية ، فالذي استطعنا أخذه إنما هو التفكير الأوروبي ، وأما الأدب وغيره من الفنون فذلك ما لم نستطع أن نتمثله . والذي لا شك فيه أن التفكير المجرد لا يكفي لأن يكون منبعاً لثقافة جديدة دائمة التدفق ، والأدب والفن على العكس من ذلك خليقان بأن يفجرا في النفس ينابيع جديدة ، وذلك لأن تمثلهما معناه تمثل نوع جديد من الحياة ، وليس أدل على ذلك مما نجد من صعوبة في ذلك التمثل . ونحن على ثقة من أن العباسيين لو أنهم استطاعوا نقل الأدب اليوناني وهضمه لتغير التاريخ الثقافي للعرب ، ولكن كيف كانوا يستطيعون ذلك وهم لم يقووا على غير أرسطو من الفلاسفة ؟! فأفلاطون نفسه لم يعرفوه معرفة عميقة ، وذلك لسبب بين هو أن فلسفة أفلاطون فلسفة حيوية شعرية من دعائمها الصور والأساطير

وتلك أشياء كانت بعيدة عن محيط العرب العقلى والشعورى . وأما أرسطو فيمثل الروح الرياضية روح التفكير المجرد الذى يستطيع كل عقل أن يدركه .

ونحن فى عصرنا الحاضر لن نستطيع أن نجارى التفكير الأوروبى أو أن نضيف إليه إضافات حقيقية إذا اكتفينا بنقل هذا التفكير ، وذلك لأن الفكرة التى تبنى على فكرة أخرى لا تلبث أن تفقد متعثرة فى فلتات التنطق ، وإنما التفكير الخصب هو الذى تستمده من الحياة ونبنيه على الواقع ، وعلى هذا لا يكون لنا بد إذا أردنا أن نجدد حياتنا الروحية من أن نغير من مقومات تلك الحياة واتجاهاتها وقيمها ، وهذا لن يكون إلا إذا تغذينا بالآداب والفنون الأوروبية من تصوير ونحت وموسيقى .

هذا الغذاء الروحى الجديد هو ما يدعونا إليه توفيق الحكيم فى « زهرة العمر » ، وهو بهذا يدعونا إلى مرحلة جديدة من مراحل حياتنا الروحية . ونحن لا نرتاب نحرك ما فى هذا من مشقة ، فثمة طبائع متأصلة وعادات راسخة واتجاهات نفسية عميقة تنهض فى سبيل تلك الدعوة ؛ ونحن لا نجهل أيضاً أن كافة النفوس ليست فى مرونة نفس الحكيم وغيره من النفر القليل الذين أفادوا من إقامتهم بأوروبا إفادة حقيقية . ومن حولنا عشرات منهم بل مئات ممن قضوا السنوات الطوال بالغرب ثم عادوا وقد تكون فى رؤوسهم نظريات كثيرة وآراء لا تحصى ، ولكنهم لم يتمثلوا الحياة الأوروبية والإحساس الأوروبى والثقافة الأوروبية بمعناها الصحيح . هذه كلها صعوبات لا شك فيها ، ولكننا مع ذلك غير يائسين من الوصول إلى حالة خير من حالتنا الراهنة ؛ وأنا على تمام الثقة من أن كتاب الحكيم سيثير فى نفوس قرائه ثورة حاراً للثقافة الحقيقية ، وبخاصة فى نفوس الشباب الذين لا يزالون فى دور التكوين ، وهذا هو سر انشراح صدرى لهذا الكتاب .

والذى أحرص عليه فى خاتمة هذا المقال هو ألا يضيق القارئ نفساً بما يحس من تبرم الكاتب بحياتنا المصرية الراهنة ، فتلك حالة نفسية قد يصعب فهمها على من لم ينفذ من الثقافة الأوروبية إلى مثل ما نفذ إليه الحكيم . ولكنى أؤكد عن خبرة أن تبرم الحكيم له ما يبرره . وما ينبغى أن نطلبه إلى الكاتب إنما هو الإخلاص والإيمان بما يقول إيماناً قلبياً ، والحكيم هو ذلك الكاتب . فلنتركه إذن يأخذ بأيدى شبيبتنا الناهضة إلى حيث تغترف الثقافة الحقة .

محمد مندور

محاورة بين أولاد الذوات

وهكذا اكتمل الجمع وانتظم عقد المدعوين بملابس السهرة . وكانت المدعوات فى أناقتهن يفحن بالعطور الغالية فيملأن الأنوف ويسحرن العيون فى خطراتهن وروحاتهن .

وكان مسعود باشا يرحب بمدعويه أيما ترحيب ، ويبذل قصارى جهده فى الاحتفاء بهم . . لكن نظرة إلى إحداهن كانت نظرة الذئب يريد أن ينهش لحمها تحت ستار الخدمات لها ولزوجها .

وانتحى مسعود باشا وشلته غرفة من غرفات القصر لينصب الفخ للزوج الطاهر . وإذا بالفريسة تأتى برشة لطيفة ولكن خيوط العنكبوت بدأت تنسج حولها لتوقعها فى الشرك .

وما هى إلا لحظات حتى انكسر باب الغرفة وكانت المحاورة تجاذب بين العفة والطمع ، وبين الشرف والنذالة ؛ بين أنور وجدى يمثل دور الفاتى والزوج البرىء ، وأحمد علام يمثل الأرستوقراطى الذئب مصاص المال والدماء . . فى فيلم (قضية اليوم) إنتاج (ستوديو مصر) وتمثيل فقيلة وأنور وجدى . شاهده اليوم بسينما (ستوديو مصر) .

أنات حائرة

وصف العرب الرثاء فقالوا إن فيه مدحاً الميت مع تفجع عليه. واستحبوا على هذا القرار منذ جاهليتهم، إذا فقدوا حبيباً إليهم أو عزيزاً لديهم بكوه بالدمع المدرار، والمراثي الشجيات التي تفيض على قوافيها وفي تضاعيفها روح الفجيعة واللوعة، وقد عدوا هذا اللون القاتم من شعرهم أرفع القريض وأكرمه.

قيل لأحد شعرائهم ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ فقال لأننا نقولها وقلوبنا محترقة، ولا بدع فالرثاء العاطفي الصادق صدى لما يحسه الشاعر من توجع وتفجع. فإذا هاج الشعر في قريحته محزوناً أو مهموماً ظهرت على أبياته آثار الحرقة في قلبه، أو استفاضت في معانيها الخواطر التي تعرب عن مشاركة الشاعر لأهله أو قومه فيما دهمهم من هموم وأحزان. وإن النفس الحساسة لتأنس وتسكن إلى المراثي التي ترى فيها صراعاً بين فقدت وبكت، وصور من أحبت وفدّت. ولقد تغنت الأمم قديماً وحديثاً في رثائها وبكائها، ولم يخل أدب شعب من أشعار باكية ودامية، وكيف يستطيع الصبر أن يمسك بأطراف الجفون النهلة وقد تدفقت من ورائها الشجون والحسرات بشآبيب العبرات؟

كان فلاسفة الإغريق يتحاورون حول الموت والحياة حواراً فيه زفرات ولواعج، وذلك ما فعله أفلاطون في محاورة فيدون وكيف قص موت سقراط. وكان من روائع الأدب الفرنسي تلك البدائع الشعرية المطبوعة برهافة الشعور وشرف العاطفة، المنبثقة من فؤاد محروق وكبد مفجوعة، وسرعان ما تنفذ إلى الأرواح الحرى والقلوب التي تركن إلى العزاء، وما جرى به القضاء! ففي عصر الثورة الفرنسية كان الشاعر القتيل «آندره شنييه» من ألمع أهل المراثي، وكأنه لقدر محتوم سلك في الشعر مسلك السواد، فما أشعر به ذوو الإرهاب وزج في غيابة السجن حمل ينتظر يوماً تضرب فيه عنقه، وقد نظم في محبسه شعراً عاطفياً هو في أدب الفرنسيين دموع لا تنضب. وإذا ذكرت هوجو ألفيته يبكي أحر بكاء في قصائده التي رثى فيها بنته العروس وزوجها وقد فقدهما غريقين في نهر، ثم فجع بولده فرثاه، وبقيت في شعر هوجو تلك الأناشيد الأسيفة التي بكى شجوه فيها. ولم يكن حظ الشعر العربي أقل من حظ الشعر الغربي روعة المآسي وفجيعة الأحزان؛ فقد بدأ شعر الرثاء في الجاهلية، وكانت الخنساء أصدق من بكى على القريب الحبيب في شعرها الفجيع، وزاحمتها في عكاظ على الفخر والتنافس في شعر الرثاء هند بنت عتبة. ولقد انبسطت آفاق هذا الشعر في قصائد الفحول من شعراء العرب كجرير والفرزدق وأبي تمام والبحتري والمتنبي، ثم صار في عصر اليقظة والنهضة إلى البارودي ثم إلى شوقي وحافظ؛ فرثى أبو تمام ولده وأتاه بقصيدة تنهمر على أبياتها الدموع بدايا ومنهلات؛ وبكى البحتري الخليفة المتوكل وقصره الجعفري بما يشهد على أسفه الفرقدان؛ وناح أبو الطيب على جدته التي طلب لها الرزق ففاتت وفاته، وحشدت تسكاب الدموع على خولة أخت سيف الدولة حتى كاد يشرق بالدمع كما زعم؛ وكان شوقي يقول:

يقولون رثى كل خل وصاحب
نعم إنما أقضي حقوق صحابي

وكان حافظ إبراهيم ينظم أحزاناً بأحزان، وهو القائل في تحية الشام:

إذا تصفحت ديواني لتقرأني
وجدت شعر المراثي نصف ديواني

هؤلاء الشعراء هم أشهر وأكبر من رثى وبكى في ماضينا القريب والبعيد؛ ولكن ما خبر الشاعر الجديد الذي طلع بالأمس على دنيا العرب بشعر هتون، كل بيت فيه لهفة وشكوى، وبث ونجوى، بل هو «أنات حائرة» لكنها للمحزونين سلوى! ذلك ديوان الشاعر المطبوع عزيز أباظة مدير البحيرة في مصر الشقيقة. ولهذا الكتاب حديث يشف عن وفاء عجيب وشعور رهيف، يهز النفوس

الوجيعات بصدقه ورقته ، ويأسى له القلب الرحيم ، وكيف لا يأسى على سعادة تحطمت ، وأسرة تفرقت ، وأحلام ذهب الموت بأمهم الحنون وهي في ريّق العمر ونضارة الحياة ؟ لقد توفيت بنت الروح شقيًا بأحلامه وآماله ، فقد حز في نفسه أساها وعده نواها ، تلك « زينب » أم أولاده التي كانت أمل صباه وهواه ، فشاء فراقها على نفسه كالطير شريد . وما لبث أن عاد إلى أطفاله بعد خطبه فضمهم إلى صدره ، وضرج قلوبهم الصغيرة بقلبه الكبير الذي وسع بالأمس الحب والأنس والمودة ، فهو يسع اليوم الحنان والإحسان ، حنا عليهم وغنّاهم شعراً يفيض بالصدق والوفاء ، نبهه فيه يتمهم بأمهم ، لم يتكلف فيما سكب من الأنات ، ولا زيّف فيما صعد من الزفرات ، وليست هذه القصائد الفاجعة بضائرة لهم ، فإنها تصهر نفوسهم في بوتق الدموع ؟ وإن ولداً يعلم قيمة أمه ومبلغ تأثيرها في أبيهم ، ليحتذي مثالها بالمروءة والإخلاص ، ويكون الأسى له أستاذاً ومهمازاً ، والدمع باعث حنان وإشفاق . وكان الأب الملهوف مؤمناً تقياً ، وقد أسبغ الله على المؤمنين نعمة الصبر على ما أصابهم . فلما حزن الشاعر أباظة وضج بقلبه الشجن الحبيس ، فزع حاجاً إلى بيت الله الحرام يلتمس العزاء ؟ غير أن خيال القرينة رافقه فأشجاه ، وحسبه أن لم تقف معه وقفة الرضا على عرفات ، ولم تطوّف بالعتيق ، فأنكر صحبه شجوه وأناته ، وناجى ربه عند المشعر الحرام مستغفراً لها وله ؟ وفي « عوالى منى » ذكرها على منى ، وأقسم أنها كانت رحمة ومأمنا ؟ وفي « أيام التشريق » عقه صبره ، فترقرقت عبراته ، واهتاج حنينه الذي خلّف في أحشائه ألف ضياء ! و « على قبر خديجة » أم الزهراء أجهش قلبه وجاشت خواطره بالذكريات العذاب ؟ وفي « نجوى » ، و « ليلة وليلة » ، و « من أطياف الماضي » و « أشجان رمضان » أبيات داميات تضج بشعر بليغ ، وحسرة كاوية ، وعزة بالماضي الآخر ، وعزاء لجراحات القلوب .

وما رجع الشاعر المحزون من منزل الوحي ودارات النبوة ، إلى بلده ، حتى جدد اللوعة وردد اللهفة ، لا يجد مفراً من شكاة بثه في شعر يتألق بالعروبة والمضرية ، ولكنه كان متحرجاً من نشره على الخلي والشجي من الناس ، حتى قيض لأديب العرب الدكتور طه حسين أن يستنشد الشاعر من رثائه ويستزيده من حديثه الذي بلغ قلب الأديب العظيم محرقاً لاذعاً ، فأعجب بصوره الشعرية التي عبرت عن عواطف صادقة ، وصورت شجون قلب مكلوم . وقد كتب الدكتور طه حسين تصديراً لهذا الكتاب حلل فيه عواطف الإنسان تلقاء الأحزان ، ووصف شعر الأستاذ أباظة بغزارة الطبع وصدق الشعور . ومن العجيب في صاحب « الأنات الحائرة » أنه لم يُعرف شاعراً قبل اليوم ، وإنما عرف مديراً جديراً في مناصب الدولة ، ولقد فرّ من الشهرة فأدركته في زهادته بها ، وثارت أقلام أعلام في الأدب في خصومة وملامة حول التصدير الكريم الذي نوه فيه العميد بشعر الأنات زادت في شيوع شهرتها ورفعة صيتها ، على أن صاحبها قد أصاب برمية واحدة ما أخطأه غيره من الشعراء في طوال السنين ؟ وما عليه من حيف إن السكبت مدامعه شعراً ، وحسبه نبلاً أن جعل باكورة هذا الشعر رثاء زوجته وأم أولاده فكان عزاء النساء في الوفاء ، وما أشبه رثاءه بمراثي الخنساء لأخيها قتيل حرملة ، وجرير الذي رثى زوجته بقوله :

لولا الحياء لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولّهت قلبي إذ علتني كبرة ... وذوو التمائم من بنيك صغار

وقد خطر في البال هنا مرثاة شاعر السيف والقلم محمود سامي البارودي الذي فجع بزوجته وهو في منفاه فقال يبكيها :

يا دهر فيم فجعتني بحليلة ... أفلا رحمت من الأسى أولادي

أما بكاء الشاعر أباظة فيتجلى فيما كتب لكبرى بنيه :

من قصص الحرب :

البولونية الحسناء

قال صديق :

كان الوقت مساءً ونهر دجلة ينساب في هدوئه المعتاد بين شطين مثقلين بالنخيل السامقة وأشجار التين المتسعة بخضرتها الداكنة وأوراقها الخشنة . . . وكانت تنظر إلى الشمس المائلة للغروب بروح صافية واغتباط جلى . . . وقد كانت تكوّن في جلستها البريئة الشعرية منظراً من أجمل مناظر الحياة . . .

ظلت تحدق إلى ألوان السماء ، وجريان الماء ، والزوارق الصغيرة المندفعة إلى الجزر القائمة في كبد النهر أو في منعطفه الطويل ... وكنت بدوري أتأمل عينيها الزرقاوين التائقتين ، وأنظر أجفانها الطويلة ترتفع وتهبط بين الفينة والأخرى بفتور وارتخاء . . .

وهبت نسمات الغروب .. وكانت مشوبة بعطر مجهول فلفحت وجهها وداعبت خصل شعرها الذهبية ، فتململت ثملة بما شهدت ورأت من جمال أخاذ .

وقالت وهي تلتفت إليّ : ما أجمل بلادكم ! . . إن الشرق بلد السحر حقاً . . . إن كل شيء هنا طبيعي وساذج ، وهكذا تتابع الحياة عندكم دورانها الحقيق ، وتخلق هذه المشاهد الجميلة لكم مسرات خالدة . . . وحين أجلس معك هنا أمجد بلادكم تعاودني ذكريات جمة من بلادي أيضاً . . . بلادي الخربة تحت ضربات قنابل جائرة . . .

إن المآسي أحياناً تكون سبباً للشراسة ، وهكذا أجد في روحي عاطفة عميقة للانتقام . . . أنت لا تستطيع أن تتصور ويلات الحرب . . . وويلات التخريب المنظم . . . وويلات المجاعات والفقر والخوف . . . ولكننا نحن الذين قدر لنا التاريخ أن نكون شهود كل تلك الأشياء المخيفة وأن تكون في بلادنا المسرح الأول لهذه الحرب العظيمة نعرف ما نقول . . .

ليست بولونيا الجميلة وحدها التي نالت الضرب المبرح والتهديم البربري ، ولكن بلد كل إنسان عزيز عليه من دون البلدان !

قلت لها وأنا أخفف من لوعتها : — ليست الحروب يا صديقي العزيزة غير صور متكررة لأحزان طويلة تمر في فترات من عمر الإنسانية ... وما علينا أمام الواقع الأليم إلا الجلد والصبر ... إني أشعر معك بألمك ... وأقدس فيك ذلك الضمير الحي الذي لا ينسيك بلادك لحظة ، ولكن ما جدوى الأحزان في مثل هذه الساعة ؟!

انظري ... إنها سماء الشرق ، فالشمس لم تترك وراءها غير أشعة حمراء تصبغ ذرا النخيل وغير غبش يتقدم من الشاطئين ...

قالت متأسفة : — شكراً لك . . . أظنني سببت لك بعض المتاعب ... لو أنك يا سيدي رأيت بولونيا لعرفت كم هي جديرة بالحب والرثاء . . . وإذا كنت تقول الشعر فكم يحلو لي أن أصور لك بولونيا بغادة جميلة نائمة في محفة

أسألي ربك يلهمك مع الصبر هداك

وابتهي للخطب واستعلي عليه بصباك

واذكري أمك وابكيها ومن يبكي سواك

واحملي عبء أشقائك ولا تنسي أباك

ولعل مصعد « الأنات الحائرة » نفس عن قلبه المفجوع ، واشتفى بهذا الرثاء الذي لابد أن يعقب راحة من جواه ، فيطلع علينا بالغد القريب بشعر طريف يجول فيه كل مجال ، ويتصل بكل أفق يبسط فنه وعبقريته .

بقي أن أقول إن الشاعر عزيز أباظة سما بأناته الحائرة لحرمتها وكرامتها ، فلم يجعل منها كسباً وتجراً ، بل شاء أن تكون تذكرة غالية وهدية تهدى ، وكان لي نصيب منها . فالله أفرغ صبراً على صاحب الأنات ، واحفظ له البنين والبنات ، واجعله بعد الهم والحزن شاعر عز وفرحة للوطن .

(دمشق) وداد سكاكيني

من أشواك . . . إن هذه التصورات يا سيدتى تؤلمنى ، وليست لى من حيلة فى ذلك . . . شكراً لك على هذه الساعات التى تحاول فيها أن تمسنى الشقاء . . .

ونظرت إلى عينيها من جديد . . . عينيها التألقتين بضوء باهر فيه الذكرى وفيه الاعتراف بالجميل وفيه الخوف من القدر . . . ثم قلت : — ألا تذهبين فى جولة قارب ؟ إن النهر هادئ هنا وليس من خوف من الضلال . . . وإنه ليسرنى أن نحيى بغداد كما نحيى وارسو !!.

ولمعت على وجهها الوردى ابتسامة لطيفة وقالت : أحبه . . . أحب بغداد من كل قلبى . . . إن الشرق كله يحمل طيبة القلب والسماحة والإنسانية ، دافعاً أمامه عواطفه الدينية وتذكارات مجده الإبداعى فى حقول الفن والحياة . وإذا تركت بغداد وعادت الحياة السعيدة ثانية إلى بولونيا الجميلة سأذكرك بكثير من الإخلاص . . .

أيها الصديق العزيز العابر ! إن الحرب التى تسبب لنا فقدان كثير من الأعزاء ، تربط بيننا بأواشج جديدة ، وتعوضنا بأحباب وأصدقاء آخرين . . . شكراً لهذه المصادفات ، هل لى أن أطلب إليك تمضية بعض هذه الليلة فى فلم « بلالايكا » ؟...

مشينا على الطريق المبلطة السوداء ننظر إلى الناس يسيرون زرافات وعلى وجوههم ضحكات رتيبة . . . . أما صاحبتى فلم تكف عن التفكير ببلادها لحظة . . . وكذلك فكرت معها ببولونيا الشهيدة مشاركاً إياها بالمأساة الكبرى التى خلقتها ألمانية الرجال !

● ● ●

رجع صديقى إلىّ بوجه شاحب وصوت خفيف ، وكان عهدى به طليق المحيا دائم البشاشة والبشر ، وأخذ محله فى المقهى المعتاد متهالكاً على كرسى من الخيزران وراح ينظر إلى النهر بذهول .

ربتُّ على كتفه بحنان وزمالة وقلت : — ما بك يا صديق ؟ أراك مبتئساً هذه الليلة ، فهل من أحزان طارئة تبعثها مناظر الفقر والثراء ؟..

قال بصوته الواطئ القاتم : — لا . . . ليس ذلك يا صديق . . . إنها لأحزان نفسى . إنها التذكارات المريرة التى تطوف فى ذهنى . . وإنه لظلام روحى التعبة هذه الليلة .

قلت : — على مهلك يا صديق . . . هل أنت جاد فيما تقول ؟ أتشقى وأنت بصحبة ذلك البدر الطالع والوجه الساحر والأدب الوفير . . . أتشقى وأنت زميل فتاة شجاعة فى جمال . . . وبراعة فى أدب . . . إن غرامك هو موضع أحاديثنا وحبك موئل أحزاننا . . حدثنا يا صديق عنها . . . حدثنا فليس من الحق أن تحرمنا حتى من الحديث . . .

زوى ما بين عينيه بحدة وألم ، وتنفس بانقباض أليم وقال : أتعنيها ؟.. قلت : أجل . . . أعنى تلك البولونية الجميلة . . . تلك الصديقة الودود . فأخرج من علبته « سيكارة » وأشعلها ثم سحب منها نفساً طويلاً وقال بألم عميق : لقد رحلت يا صديقى !! وأكبّ يقرأ رسالة زرقاء . . . . وسل الدخان بدداً فى الهواء . . .

(بغداد) عبد المجيد الملطى

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

● ● ● ●

رئيس التحرير المسئول

محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر	٤٥	فى مصر والسودان
	٣٧/٥	للطلبة ومعلمى الإلزام
	٦٠	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	٧٥	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد ١٥ مليما

قيس ولبـــنى

لعلّ الرثاء من دون فنون الشعر هو الباب الذى تقف أمامه العاطفة الصادقة مترددة حيرى ... يستهويها إليه أن الحزن لا تتجلى روعته إلا فى ديباجته الجزلة ، ويصدّها عنه أن صدق العاطفة قد لا يتسق وتكلف الوزن . وربما لا تستسيغ بعض النفوس الحسّاسة بكاء لا تذرف فيه الدموع إلا طبقاً لأحكام القافية ... ولكن الأستاذ عزيز أباظة ولج هذا الباب بقدم ثابتة ، تحدوه عاطفة لا شك فى صدقها ولا ريب فى إخلاصها ؛ فقرأنا له « أنّات حائرة » وشاركناه آلامه وأحزانه ، ونسينا — من أجلها ودون أن نخسر شيئاً — معايير الشعر وموازينه ، واسترحنا قليلا من بعض شعراء هذه الأيام الذين يباهوننا ببراعتهم وحذقهم ...

ثم رأينا مسرحية « قيس ولبنى » ولا ندرى هل كتبها قبل « أنّات حائرة » أم بعدها ، وعلى كلٍّ فالديوانان متشابهان ! — أما وقد خرج الأستاذ عزيز من الاعترافات النفسية إلى التحدث عن غيره — أم لعلّه يختفى وراء قيس — فلا حرجَ علينا من أن نعود إلى معايير الشعر وموازينه ... وبالأخص لأنه اختار موضوعاً سبقه إليه شوقى ، وهو لا يزال يسمى — بحق أو بغير حق — أمير الشعراء . ولشعر شوقى روعة ورنّة وتأنق تأسر — ولو إلى حين — أذن المستمعين . فما دام شوقى قد عالج هذا الموضوع — إذ أن « قيس ولبنى » صورة أخرى من « مجنون ليلى » — فحتم على من يجىء بعده إذا لم يبزه أن يساويه على الأقل ... ولا أظن أن الأستاذ عزيزاً قصد أن يعارض شوقى أو يجاريه . أفما كان الأجدر به إذن أن يختار موضوعاً جديداً لا يحلق فوقه — رغم أنوفنا — شبح شوقى ، ويصد علينا انتباهنا إلى جمال الشعر الذى يلقى علينا ؟ لعلّ هذا هو السبب فى أننا لم نهتز كثيراً لأبيات الأستاذ عزيز ؛ وإذا استثنينا بعض أبيات قليلة تتسحت آذاننا فلا نغالى إذا قلنا إن مسرحيته أقرب إلى النظم منها إلى الشعر .

وكذلك لم تثبت قدمه فى فن القصة ثبوت المتمكن الخبير ، فالفصل الأول جميل بجوّه الشعرى وعواطفه الجامحة ، وأخذنا نهيئ أنفسنا فيه للانتقال إلى دنيا العشق بخرافاتها وأوهامها ، فإذا بنا نفاجأ فى الفصل الثانى بمأساة منزلية تردنا إلى حياتنا الواقعية ، حياة كل يوم ، وكل دار ، وكل عصر ، مأساة الحماة وكنتها ... فنسينا ربات الشعر واتجهنا إلى ألسنة ربات الخدور ... ولم يجئ الفصل الثالى حتى راحت قيمته المسرحية إذ جمع فيه المؤلف — دون أى داع فنى — بين قيس وقيس ... شخصيتان متطابقتان حتى فى الاسم — وكدنا نتهم أعيننا بالحول ... وما زال « قيس الأول » يتساقط ويتهالك من اليمين ، و« قيس الثانى » يترنح ويتهد من الشمال ، حتى لو جىء لهما برجال الإسعاف لاحتاروا بأيهما يبدأون ... ولكننا — ولا نرائى — لا ننكر أن بعض مواقف قيس هزت قلوبنا واستطاع الأستاذ عزيز أن يسمرنا فى مقاعدنا راضين مطمئنين غير قلقين ، بل سمعنا بعض السيدات يبكين من أنوفهن ، ورأينا المناديل فى أيدى بعض الرجال ...

أما الأستاذ فتوح نشاطى فقد أخرج المسرحية فى يُسر وبعد من التكلف يتسجم وروح شعرها . ولكننا نعيب عليه رضاءه عن تنوع الملابس تنوعاً زاد على الحد المعقول ، وولوعه « باللوحات الحيّة » التى ذكرتنا بمناحف الشمع وحفلات الجمعيات الخيرية . فكثيراً ما نجد الواقفين على المسرح فى أماكنهم كأنهم فى سبات التنويم .. ولا نبالغ إذا قلنا إننا رأينا ظهر بعض الممثلين أكثر مما رأينا وجوههم ...

أما علام فقد عاد إلى قيس وعاد قيس إليه ، وعندنا نمن إلى رؤيته يتحرق ويتوجع ، ويضرب صدره ، ويبسط راحتيه ، ويستند على صديق ، ويلوذ برفيق ، ويغأوه ويبكي حتى لا ندري أجعلنا علام نرثى لقيس أم جعلنا قيس نرثى لعلام ... وكذلك فردوس حسن ، كانت في الفصول الأولى لا بأس بها ثم انطفأت في الفصل الأخير – ولعله من التعب ! – فحبذا لو استيقظت فيه قليلا وخاصة أنها تعود فيه إلى الحبيب .

وبعد – فإننا نرجو أن تكون هذه المسرحية أول الغيث ، وأن يزيدنا الأستاذ عزيز من شعره ازداد حباً له وتقديراً . ولاجدال في أن المسرحية قد نجحت ، وأن الفرقة القومية تستحق كل تهنئة . ولكننا نربأ بها أن تطمئن لهذا النجاح فهو خداع ، إذ ليس أسهل في مصر من نجاح التأوهات والعبرات ، وليس أسهل على ممثلينا من الحركات المصطنعة والوقفات المتكلفة ، والإلقاء المطنطن بملء الفم ، وقد يغتفر كل ذلك في مثل هذه المسرحيات الغرامية الشعرية ، ولكنه خطر كل الخطورة في المسرحيات النثرية الفنية .

يحيى

هو ذا المختـــــــــار

المجلة الممتازة التي يفوق انتشارهـا

انتشار كل مجلة أخرى في العـالم

المختار – يرشدك إلى سر النجاح بتنمية قوة حصر الذهن . اقرأ : « احصر ذهنك في الموضـوع » . إنها مقالة تفيد كل رجـل وكل امرأة .

المختار – يطلعك على عجائب دواء جـديد ، يفوق كلّ دواء آخر كشف في مقالة أصناف معينة من الميكروبات ، متاح الآن لبعض القوات المسلحة ، ومن المرجح أن يتاح للمدنيين بعد الحرب سلاح جديد في كفاح المرض .

المختار – يأتيك بكتاب « الملكات يمتن كريمات » موجزاً في ٣٦ صفحة تفاصيل كأنها منقـولة بريشة رسام لمآثر البطـولة في القتال في الفضاء . سجل يملك زمام النفس بما فيه من آيات الشجاعة والبسالة في القتال .

والمختار يحتوي ١٩ مقالة أخرى ، جديدة تعقد الصـلة بينك وبين العالم ، وتبقيك مطلعاً على تيارات الحرب والحياة . فهل ظفرت بنسختك ؟

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢/٥٦٧٦٩

العدد ٢٥٩ — الثلاثاء ١٩ من ذى الحجة سنة ١٣٦٢ — ١٤ من ديسمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــــدد

منطق الأرقام

قال لى صاحبى وقد طوى صفحات تقرير رسمى عن إصلاح بعض الشئون العامة بعد أن فرغ من قراءته : « إنها لآراء حسنة ومقترحات نافعة ، ولكنى أراها أدخل فى باب الآمال البعيدة المنال منها فى باب المشروعات الممكنة التحقيق » .

قلت : أو تشك فى إمكان تحقيق تلك البرامج ؟ وهل الأمر إلا أن نؤمن بالفكرة ، ونرسم الخطط الدقيقة لإخراجها إلى حيز العمل ، ثم نقوم على تنفيذها بهمة صادقة ؟

قال : « ما أحسب الأمر بهذا اليسر ! وهل تظن كل ما ينقصنا للإصلاح العام هو رسم الخطط الدقيقة وصدق الرغبة فى تنفيذها ؟ وأنى لنا بالمال اللازم لهذه المشروعات ونحن شعب فقير محدود الموارد ، والمشروعات المقترحة مشروعات شاملة واسعة النطاق لا يستطاع إتمامها إلا بالمال الكثير ؟ ولأكن أكثر تحديداً فأحدثك بلغة الأرقام ، فلعلها أبلغ إقناعاً لك وأفضل إيضاحاً لما أريد : سأكتفى بناحيتين اثنتين من نواحى الإصلاح وهما الصحة والتعليم . فكم يقتضى تعميم التعليم بين طبقات الشعب جميعاً وتيسير الوسائل لجميع أبناء الأمة للتزود بقدر كاف من الثقافة العامة يجعلهم أكثر بصراً بمقتضيات الحياة الحديثة ، وأوسع انتفاعاً بخيرات البيئة التى يعيشون فيها ؟

يقدرون عدد من هم فى سن التعليم فى مصر بنحو ثلاثة ملايين ، فماذا ينبغى أن ينفق على تعليم هؤلاء كل عام تعليماً مثمراً ينفعهم فى معاشهم وخدمة بلادهم ؟ لا أقول

يصرف عليهم ما يصرف على أمثالهم فى غير مصر من البلاد المتمدنة ، ولا أقول يصرف على الفرد منهم مثل ما نصرفه الآن على الطالب بمدارسنا الابتدائية أو الثانوية ؛ ولكنى ابتغاء التيسير سأهبط بمتوسط ما ينفق عليه فى العام إلى ما يقرب من نصف ذلك ، وأقدره بمبلغ خمسة عشر جنيها فى العام . وظاهر أن جملة ما تحتاج الدولة لإنفاقه كل عام على التعليم ستكون على هذا الأساس نحو خمسة وأربعين مليونا من الجنيهات ، وهو مبلغ يقرب من ثلاثة أرباع إيرادات الدولة فى هذه الأيام التى بلغت فيها إيراداتها مبلغا لا ينتظر بقاؤه بعد انتهاء الحرب .

أضف إلى ما تقدم أن تحقيق هذا البرنامج يقتضى مصروفات أساسية غير ما ينفق كل عام ، وهى ما يلزم لبناء المدارس وتأثيثها واستيفاء معداتها ؛ وهذه نفقات كبيرة تقدر بعشرات الملايين من الجنيهات . على أن هناك صعوبة عملية أخرى تعترض تحقيق هذا المشروع غير صعوبة تدبير المال ، وهى مشكلة تدبير الرجال الكافين لتحقيقه ؛ فهذه الملايين الثلاثة من طلاب العلم بحاجة إلى جيش كبير من المعلمين لا يقل عدده عن مائة ألف وخمسين ألفاً ؛ وليس لدينا الآن من هذا العدد إلا نسبة صغيرة لا تبلغ ربعه ، فكيف نسد هذا النقص ونهيئ هؤلاء الرجال ، وكم من السنوات يتطلبها ذلك ؟

ولأدع التعليم وأنتقل بك إلى الصحة فالبرنامج المعد من شأنه أن ينشئ فى كل جهات القطر وحدات صحية تتولى رعاية الشئون الصحية العامة فى دائرة محدودة ، فلنفرض أننا أنشأنا لكل بضعة آلاف من السكان وحدة من تلك الوحدات ، وأننا على هذا الأساس أنشأنا فى البلاد كلها نحو ٤٠٠٠ وحدة ، وأننا زودنا كل وحدة بالعدد الكافى من الأطباء والطبيبات والممرضين والممرضات ، فكم ننفق على هذه الوحدات كل عام لكى تكون أداة فعالة فى تحسين الصحة العامة لمن تتولاهم ؟ لا أظن ذلك يكلف الدولة أقل من اثنى عشر مليونا من الجنيهات كل عام ، عدا ما ينفق على المستشفيات السائرة ومقاومة الأمراض الوافدة ، يضاف إلى هذا نفقات تأسيس هذه الوحدات من حيث إعداد مبانيها وتأثيثها وتجهيزها بالمعدات والأدوات ، وهى نفقات تقدر بملايين الجنيهات .

ويتصل بهذا الإصلاح الصحى توفير مياه الشرب الصالحة للسلطان فى جميع أنحاء القطر ، وردم البرك والمستنقعات ، وكل ذلك يقتضى طائل النفقات .

فأنت ترى أن مشروعات التعليم والصحة وحدها يستغرقان كل ميزانية الدولة ، فكيف إذا ضمت إليهما مشروعات الإصلاح فى سائر الشئون العامة ؟! أولست ترى معى بعد هذا أنها من الوجهة العملية بعيدة التحقيق ؟ »

قلت : إنى مقدر تمام التقدير قوة حجتك التى تستند إلى الأرقام ، ولكنى أرجو أن تأذن لى باقتباس أسلوبك الحسابى هذا لأعيد عرض المشكلة على صورة جديدة .

تعال معى ننظر ما هى النتائج التى تعود على الشعب من تحسين حالته الصحية وتعميم التعليم بين أفراده ، وما تقويم هذه النتائج بلغة المال ، فإن رجحت كفة ما تفيده الأمة من الإصلاح على ما تنفقه عليه ، وجب المضى فيه بلا تريث ، وتدبير المال الذى يتطلبه بكل الوسائل مهما احتملنا بسبب ذلك من أعباء ! وإن كانت الأخرى قنعنا من الأمر بالتطور البطىء ، ورضينا بخطة التدرج والحذر والسير بقدر ، حتى يأذن الله .

كم نخسر كل عام من المال بسبب سوء الحالة الصحية ؟ ليس بين أيدينا من الإحصاءات ما يعيننا على تحديد ذلك تحديداً دقيقاً . ولكن هل نحن بحاجة لمن يقنعنا بالحقيقة الملموسة التى نراها جميعاً رأى العين ، وهى أن جمهور الشعب المصرى من فلاحين وعمال ضعاف البنية ، وأن الأمراض

المتوطنة وسوء التغذية وتلوث مياه الشرب وقلة وسائل الوقاية والعلاج تفتك بهم فتودي بكثير من الأرواح وتضعف نشاط سائرهم ؟ وهل نكون مغالين إذا قلنا إن الفرد العادي في مصر ينتج نصف ما كان ينبغي أن ينتجه بسبب ضعف حيويته وسوء صحته ؟ إني أحس ما ينقص هذا التقدير من الدقة العلمية .

وأعلم أن الوصول إلى نتائج صحيحة يتطلب بيانات وإحصاءات شاملة ، لكني مطمئن إلى أن تقديري هذا يميل إلى زيادة القدرة الإنتاجية للفرد في مصر لا إلى بخس هذه القدرة ، وأن الخسارة الحقيقية التي تصيب مصر بسبب سوء الصحة أكثر مما يدل على هذا التقدير .

على أني زيادة في الاحتياط أقدر أن ما ينتجه الفرد الآن في المتوسط يبلغ ثلثي ما كان ينبغي له إنتاجه ، وأن هذا الثلث نتيجة سوء الصحة وضعف الحيوية ، فإذا قدرنا من هم في سن العمل من الرجال وحدهم بخمسة ملايين نسمة ، وقدرنا متوسط قيمة إنتاج الفرد الواحد في اليوم بخمسة قروش فقط ، وأنه كان من الممكن أن هذه القيمة تصير سبعة قروش ونصف قرش لو أنه كان أصح بدنا ، أمكننا بغير كبير عناء ، أن ندرك أن سوء الحالة الصحية يضيع على البلاد سنويا ما يقوم بخمسة وأربعين مليوناً من الجنيهات !!

وكذلك الحال في التعليم . بل لعل خسارتنا بسبب الجهل أبلغ أثراً وأبعد مدى ، فضرره لا يقف عند حد ، بل يمتد إلى كل الشئون ، والخسارة بسبب الجهل مزدوجة . فالجهل يضعف قيمة الإنتاج ويزيد سوء التصرف في الإنفاق .

والتعليم المنشود هو التعليم الذي يعد للحياة العملية ، ويفتح العيون لترى التقدم العلمي الكبير الذي بلغته الحياة الحديثة في الصناعة وغيرها من الشئون ، ويقتبسه في حياتنا اليومية . وإني أدع لك تقدير النسبة بين إنتاج شاب مستنير ، منظم التفكير ، حسن الإدراك للظروف والأحوال التي تحيط به ، يقظ الاستعداد للاستفادة من كل ما يقع عليه حسه ، وبين إدراك عامل مغلق الذهن ، ضعيف الإدراك للحقائق ، ضعيف الانتفاع بما يجد حوله من الأمور ؛ وهل ترانا لا نكون قد بخسنا المتعلم حقه إذا قومنا إنتاجه بضعف إنتاج العامل الجاهل ؟!

وإذا كان أقل ما تقوم به إنتاج العاملين الآن في مصر بتسعين مليونا من الجنيهات ، أفلا أكون محقاً إذا قلت أن إصلاح التعليم وتعميمه خليقان أن يربحا البلاد ربحاً جديدا كل عام يقدر بنحو تسعين مليونا من الجنيهات .

والآن أيها الصديق ! ألا ترى أن منطق الأرقام قد أنصفني منك ؟ وأن الإصلاح المقترح ليس ضربا من أحلام الخيال ، ولكنه حقيقة توجب الضرورة العملية والمصلحة الاقتصادية تنفيذها ؟

***

صاحب امتياز المجلة

رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

أحمد أمين بك

رئيس التحرير المسئول

د عبد الواحد خلوف

الاشتراك لستة أشهر

٤٥ في مصر والسودان

٣٧/٥ للطلبة ومعلمي الإلزام

٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد

٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

مدحت باشـــا

١٢٣٨ — ١٣٠١ هـ

١٨٢٢ — ١٨٨٣ م

وهـذا مصلح آخر من جنس آخر ؛ محمد بن عبد الوهاب مصلح ديني ، وهـذا مصلح اجتماعي ؛ ذاك في نجد ، وهذا في استنبول ؛ ذاك لا شأن له بالسياسة ولا بالمدنية الحديثة ، وإنما همه إصلاح العقيدة ؛ وهذا منغمس في السياسة لا مشكلة أمامه غيرها ؛ ذاك برنامج إصلاحه الرجوع إلى عهد الرسـول (ص) وصحابته لنعتقد كما يعتقدون ، ونعمل ما يعملون ، ونترك ما يتركون ؛ وهذا يرى الإصلاح في الرجوع إلى المدنية الحاضرة ومناهجها في الأمم الحية لنختار منها ما يصلح لنا ويتفق ومواقفنا ، دارسين في إمعان كيف شق الأوربيون طريقهم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكيف تعثروا وكيف نهضوا ، فنتعلم من خطئهم وصوابهم ، ونقتبس خير ما أنتجته عقولهم .

* * *

لقد ولد في عهد السلطان محمود ، ونضج شبابه في عهد السلطان عبد المجيد ، وبدأت كهولته في عصر عبد العزيز ، وتمت في عهد عبد الحميد .

جاء والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية ، وحركة الجزر تلي حركة المد ، والمملكة تنقص من أطرافها ، ويدب الفساد في داخلها .

يقع الظلم على سكانها المسلمين والنصارى على السواء ، ولكن المسلمين ينادون بالإصلاح في هدوء وإشفاق ، والنصارى من ورائهم أمم تحميهم وتتخذ ظلمهم وسيلة للتدخل في شؤون الدولة بدعوى حمايتهم ، والعمل على تحريرهم ، فأصبحت الدولة وكل يوم تقتطع منها ممالك ، وكل يوم تعقد معاهدات تنقص حقوقها تفرض عليها بالتهديد والوعيد .

حكام في كل ولاية ، يحكمون البلاد بعقول ضيقة وشهوات واسعة ، تحقحقة في الظهر ، وسخف في الخبر ؛ لا يقيدهم قانون ، ولا يردعهم عدل ، ولا يرون للشعوب حقاً إلا أن تؤمر فتطيع ، وتنهب فتصبر ؛ بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة وإنما يطلبون المدح والثناء عليهم في ظلمهم وطريقة حكمهم ، فمن امتعض من ذلك فهو ثائر ، ومن شكا فهو كافر ، فأورث ذلك الهجرة عند من احتفظ بإبائه ، والذل والهوان عند من لصق بأرضه .

لا عناية بصحة ولا تعليم ، فالأمراض فاشية ، والجهل عميم ، والمسلمون في ذلك أسوأ حالا من المسيحيين ، لأن الجمعيات المسيحية في الأمم الغربية تعين مسيحيي الشرق بفتح المدارس لهم ، ونشر التعليم بينهم ، والمسلمون حائرون بين إقدام على التعلم في هذه المدارس مع التعرض لما يمس دينهم ، وبين الاحتفاظ بدينهم ومعه الاحتفاظ بجهلهم .

والفقر ضارب أطنابه بين الشعوب لضعف وجوه الاستغلال ، فلا زراعة صالحة ، ولا صناعة ناجحة ، فهذه كلها تدار بيد أضعفها الفقر ، وعقل أضره الجهل ، وعقيدة أفسدها التخريف ؛ ثم عدم اكتراث الناس لما ينتج إذ ليس يحميه العدل .

الجنود في الدولة لا تزال قوية شجاعة على رغم كل ذلك ، تحتقر الموت وتستعذبه ؛ وحالتها المعنوية عالية رفيعة ، ولكن لا نظام لها على النمط الحديث ، ولا نظام في التموين بالآلات والعدد والغذاء ؛ فإن انتصروا في

بعض المواقع فبفضل قوة إيمانهم، وسمو روحهم، وعلى الرغم من سوء تدريبهم، وضعف عُدَدهم؛ وتلك حال لا تبشر بخير دائم. والأمم الحية حولهم كل يوم تجد جديداً من الآلات، وتستكمل نقصاً في النظام، وتتخذ الأساليب الخفية والظاهرة في الظفر بالأعداء؛ فكيف ينفع بقاء القديم وسير الأمور في مجراها العتيق؟

وهذه الدول من حولها أحست بضعفها، وشعرت بدنو أجلها، فهي كل يوم تنصب الشباك حولها، وتتفنن صنعها في دقة ومهارة، ولكل دولة أساليبها في الحبائل، وطرقها في الصيد، وكل دولة تصطنع من الدولة رجالا هم عيونها وعدتها ووسائلها.

والمملكة خليط من عناصر مختلفة يختلف جنسها ويختلف لغتها، ويختلف دينها، ولكل عنصر هوى، ولكل جنس أسباب متصلة بأمم أخرى تستهويها وتستنجدها.

فلا المالية صالحة، ولا الإدارة صالحة، ولا الجيش صالح، ولا الأمة متحدة النوازع والآمال والآلام.

وزاد الأمر سوءاً أن السلطان عبد العزيز جاء تالياً على الحالة التي وصلت إليها الأمة، وانتقد أخاه عبد المجيد في تصرفاته، وفي إسرافه في شهواته، وفي تبذيره المال، وعدم نظره إلى شؤون الدولة كما ينظر إلى نفسه، وأعلن أنه آت لإصلاح الفاسد، والأخذ بيد الشعب، والاقتصار على زوجة واحدة، والاقتصاد في نفقات الحريم، ولكن سرعان ما تبددت هذه الوعود، وخطا في سبيل البذخ والترف والنعيم والإسراف أضعاف ما كان يخطوه من أخيه. وارتكب في عهده غلطتين كبيرتين: استفزازه عواطف رعاياه المسلمين في أنهم أولى بالتفضيل في مزايا الدولة في المعاملة والمناصب ونحو ذلك، وأن ليس يصح أن يساويهم رعاياه المسيحيون في ذلك، فأوقد بذلك شعور البغضاء والحقد وحب الانتقام بين عنصري الأمة الواحدة، ومهد الطريق للدول الأوروبية للتدخل في حماية أهل دينها.

والغلطة الثانية: وقوعه في الدَّين من المصارف الأجنبية لقلة دخل الدولة وكثرة إسرافه. نعم إن بعض هذا المال أُنفق في إصلاح الجند والبحرية، ولكن كثيراً منه أُنفق في بناء قصوره العديدة الفخمة وما تحوي من أسباب الترف والنعيم [مع أنه لما أراد سعيد باشا والي مصر الاستدانة بعث إليه بكتاب طويل مملوء بكل الحجج التي يمكن أن تقال في سوء عاقبة الاستقراض وضرره بالممالك] فكان هذا أيضاً وسيلة أخرى من وسائل التدخل الأجنبي؛ هذا إلى اعتداده بنفسه، واستبداده برأيه، وتركيز أعمال الحكومة كلها في شخصه؛ فهو مرجع كل شيء، لا يسمع نصيحة ناصح، ولا رأي مجرب، ويخشى الذكاء والعلم والثقافة الواسعة ومعرفة بواطن الأمور، لأنها كلها تؤدي إلى مراقبة أعماله، ومحاسبته على إسرافه.

وجاء السلطان عبد الحميد فزاد في الطنبور نغمة بل نغمات؛ فقد لعب خوفه على شخصه برأسه، وقد سمع من التاريخ أن كثيراً من أجداده خلعوا أو قتلوا، وهذا بالأمس القريب عبد العزيز خلع وقيل قُتل، فليحذر أن يحل به هذا المحذور؛ ثم ذكاء نادر، ومال كثير وسلطان كبير، كل هذا وجَّهه المحافظة على شخصه أن يمس بسوء، فلا تذكر الله والأمة في الصحف والمجلات، بل تذكر «الذات الشاهانية» متوَّجة بالألقاب الضخمة الفخمة، فهو السلطان الأعظم والخاقان الأكرم، وسلطان البرين والبحرين، وإمام الحرمين الشريفين، وهو ظل الله في أرضه، المحفوف بألطافه الصمدانية، وعنايته الربانية.

ويصادر الكتاب إذا كان فيه «الأئمة من قريش»، ومنع «العقائد النسفية» من الطبع لأن فيها فصلا في الإمامة وشروط الخلافة؛ وكل كتاب يطبع في الشام أو العراق

أو الآستانة لابد له من « رخصة جليلة » ؛ ويحبس كتاب كان يدرس فى « مكتب الحقوق » ويحرق لأنه وردت فيه جملة مضمونها أنه إذا اختلت دولة من الدول يكون للدولة المجاورة الحق فى طلب إصلاحها .

وخطيب الجمعة يتحرى الحديث الذى يذكره فى الخطبة فلا يكون مما ينهى عن ظلم ، ولا مما يشير إلى حق رعية على راع ولا نحو ذلك ؛ ولذلك يطلب أن يكون الحديث « إن الله جميل يحب الجمال » .

والجواسيس لا عداد لها ، والجاسوسية سبيل الارتقاء ، وعشرة آلاف جندى يقفون للمحافظة على حياة السلطان ، وإظهار أبهته وجلاله إذا خرج للصلاة يوم الجمعة . والقصر مملوء بالمشعوذين والدجالين من المشايخ ، يختلقون رؤيا يزعمون أنهم رأوها ، أو يفسرون حلما ، أو يوقعون بمن يقف فى سبيل دجلهم ، والأمور تدار والمشاكل السياسية تحل بمثل هذه الرؤى ، وآراء هؤلاء الطغام .

* * *

فى هذه الأجواء عاش مدحت باشا وكافح وجاهد حتى مات .

ما أشق الإصلاح على من يعمل فيها ! فأنفاسه معدودة عليه ، وحركاته وسكناته تسجلها الجواسيس ، وهم لا يكتفون بما يعمل بل يزيدون عليه مالم يعمل ، ويؤولون ما يصدر عنه تأويلا يزيد فى ربحهم وقربهم . يخلص فى عمله فيقال إنه يرمى إلى أخطر غاية ، ويعزل من عمله فيقال إنه يدبر المكايد ، ويبعد ليعمل خارج العاصمة فيقال إنه يسعى للاستقلال بولايته ، ويعمل للدستور فيقال إنه يريدها جمهورية ؛ وهكذا وهكذا ، فى كل خطوة عقبة ، وفى كل فكرة وساوس ، وفى كل حركة دسائس ، وليس يحتمل مثل هذا إلا أولو العزم الذين يدأبون مهما عذبوا ، ويعملون مهما اضطهدوا ، عقيدة تملكتهم أنهم ليسوا ملكا لأنفسهم ولا لأسرتهم ، إنما هم ملك لفكرة استحوذت عليهم ، ومبدأ غمر مشاعرهم ؛ أما غيرهم فسرعان ما يحيدون عن منتصف الطريق سائلين الله السلامة ، مكتفين بأول عذاب ألم ليستريح ضميرهم ، ويلقوا التبعة على غيرهم . وكان مدحت من هؤلاء الذين فى خلقهم حدّة ، وفى طبعهم تحدٍّ للشر ، وثبات على الجهاد ، وجلد على تحمل الألم حتى يلفظ آخر أنفاسه وعار عليه أن يتأوه .

* * *

ولد مدحت فى استانبول ؛ وكان أبوه « الحاج حافظ محمد أشرف » عالما دينيا تولى بعض أيامه القضاء الشرعى فى بعض الولايات ، فأنشأه أبوه تنشئة دينية ، فحفّظه القرآن وهو فى العاشرة ، ولقب بالحافظ وهو لقب لكل من يحفظ القرآن من الأتراك ، فكان اسمه الحافظ أحمد شفيق ؛ أما مدحت الذى غلب عليه فهو اسم ديوانى . والتحق بالديوان الهمايونى يتعلم الخط الديوانى ، وتنقل مع والده فى الولايات التى تولى فيها القضاء يتعلم فى مكاتبها ؛ حتى إذا عاد والده إلى الآستانة ألحقه بأحد أقلام الحكومة يساعد الكتبة ويتعلم منهم بعض الوقت والبعض الآخر يقضيه فى جامع الفاتح ، وكانت فيه حلقات الدروس تشبه حلقات الأزهر ، لكل شيخ حلقته وتلاميذه . فكان يتعلم هناك اللغة العربية والفارسية والدروس الدينية والنحو والمنطق والفقه والبلاغة والفلسفة التى كانت تسمى الحكمة ؛ وظل على هذه الحال إلى أن ناهز العشرين ، فيبدأ فى دواوين الحكومة وتلميذاً فى جامع الفاتح .

وهى ثقافة — كما ترى — ضعيفة ، فلا تاريخ ولا جغرافيا ولا رياضة ولا لغة أجنبية ، ولكن قد يعلم الزمن العقل المستعد أكثر مما تعلمه المدارس النظامية والبرامج الثقافية ، ولذلك نراه يشعر بنقصه الثقافى إذا كبر فيطالع بنفسه الكتب ، ولما جاوز الخامسة والثلاثين رأى الحاجة

الثقافية والسياسية ماسة إلى تعلم لغة أجنبية ، فتعلم اللغة الفرنسية ، فكان يدرسها وهو يشتغل في (وظيفته).

وشيء آخر أفاده فائدة كبرى في ثقافته العملية ، وهو سياحته في أوروبا لدرس النظم السياسية والاجتماعية التي أصلحت من شأنها ، وعالجت بها أمثال المفاسد التي تعانيها تركيا ؛ فحصل على رخصة للسفر سنة ١٢٧٤ وسنه إذ ذاك نحو ست وثلاثين ، فأنفق في سياحته هذه نحو ستة أشهر فزار فيها باريس ، ولندن ، وفينا ، وبلجيكا ؛ وكانت زيارته زيارة درس واستطلاع ، كيف تنظم الدول ماليتها ، وكيف تسوس أمورها ، وما نظام الحكم ، وما علاقة شعوبها بملوكها ، وما أهم وسائل العمران عندهم ، إلى غير ذلك من الأسئلة التي ملأت ذهنه ؛ وأراد أن يتطلب الإجابة عنها من كل مملكة زارها — وفي الوقت عينه أراد من سياحته أن يتقن اللغة الفرنسية التي تعلمها على كبر ؛ فتم له ما أراد لعقله المتفتح وهمته العالية ، واستقامته التي أخذها عن دينه .

ولذلك كان مزيجاً غريباً ، محافظة على الصلاة والسبحة ومعرفة بشؤون الدنيا ، واطلاع واسع على تيارات العالم وأسس المدنية الحديثة ، ودروشة ويقظة .

أول ما لفت الأنظار إليه في تركيا أنه شب صريحاً لا يتقن فن المجاملة ، حاداً لا يكظم غيظه ، حازماً في تنفيذ ما رأى في وسط بارد بطيء ، مخلص لفكرته ، على حين أن كثيراً ممن حوله إنما يخلص لشخصه . ربي في مدرسة كبرلي باشا ورشيد باشا وعالي باشا ، وتعلم منهم القوة والتصميم ، والقدرة على التنفيذ ؛ فلما خلفهم من لا يملأ كراسيهم اصطدم بهم . تولى محمد باشا القبرصلي « صدراً أعظم » ، وكان بينه وبين مدحت إحن وأحقاد ، واندلع لهيب الثورة إذ ذاك في البلقان ، واحتاجت إلى رجل شديد ، فرماها القبرصلي باشا بمدحت ، لعله يفشل أو يقتل فيستريح منه ، وإن نجح فلا بأس ، فأقل ما فيها أنه أبعده عن وجهه ؛ فسافر مدحت ومعه قوة عسكرية ، وقضى ستة أشهر في قمم الجبال ومغاورها يقبض على أشقيائها ، وأثبت إدانة أربعة منهم وأعدمهم ، وحبس ثمانين أرسلهم إلى الآستانة ، وهدأت الفتنة ووضع مشروع الإصلاح ، فكان ذلك مما لفت الأنظار إلى قوته وحزمه .

كما لفت الأنظار إلى حسن إدارته عند ما عين والياً في الصرب وبلغاريا ، وقضى فيها أربع سنوات كان فيها مجدداً حقاً ، يختلف عن سائر الولاة العثمانيين ، بث المدارس في أنحاء الولاية والمستشفيات ، وأصلح من الطرق نحو ألفي ميل ، وبنى نحو ١٤٠٠ جسر ، فإذا أعوزه المال الرسمي حض الأهالي على التبرع بعد ما لمسوا قيمة الإصلاح في تحسين حالهم ؛ وأهم ما تمتاز به إدارته مما كان جديداً في نظر العثمانيين عدم تفرقته في سياسته وإدارته ، وعدله بين مسلم ومسيحي ، ثم شدته المتناهية على العصاة ومثيري الدسائس ، ومعاقبته لهم بما يؤمن البريء ، ويردع المسيء ؛ فأصبحت بفضله هذه المقاطعة على فقرها وكثرة فتنها مضرب المثل في الغنى والأمن أيام حكمه من غير أن يكلف الدولة مالاً .

كل هذا كان إرهاصاً بما سيكون إذا أسندت إليه شؤون الدولة ، وهو موضوع الحديث الآتي إن شاء الله .

أحمد أمين

الشياطين فى الأدب

لا أعرف لفظة كتب لها نصيب من طول الحياة فى أدبنا مثل لفظة الشيطان ، فقد لازم الشيطان لغتنا وأدبنا على تعاقب السنين مثل ملازمته لكثير من أعمالنا فى حياتنا ودهورنا ، أو مثل ملازمتنا له إذا نحن أخطأنا الإنصاف . امتلأ كتاب الله عزّ وجلّ بذكره فى معظم سوره الباهرات : سجد الملائكة لآدم إلّا إبليس أبى واستكبر ، والشيطان هو الذى أزلّ آدم وزوجه عن الجنة وأخرجهما مما كانا فيه ، وهو الذى يعد المؤمنين الفقر ويأمرهم بالفحشاء ، والشياطين هم الذين يعلّمون الناس السحر ، وإذا وعد الشيطان كان وعده غروراً ، والخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمله ، والشيطان هو الذى يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدّهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، والشيطان للإنسان عدو مبين ، وهو الذى يدخل النسيان على الإنسان ، وهو الذى نزغ بين يوسف وإخوته ، وهو الذى ينزغ بين عباد الله ، والمبذّرون إخوان الشياطين ، والشيطان هو الذى زيّن لعاد وثمود أعمالهم فصدّهم عن السبيل ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ، وكفى بالشيطان قبحاً أن شجرة الزقوم طلعها كأنه رؤوس الشياطين !

والخلاصة : الشيطان هو الذى دلّ آدم على شجرة الخلد وملك لا يبلى حتى أكل وزوجه من هذه الشجرة ! فالشيطان فى كتاب الله مصدر كل شر فى هذه الدنيا !

ولم ينفرد كتاب الله تبارك وتعالى بذكر الشيطان ، فقد جاء ذكره فى كتب أدبنا : استعان به رجال الفن ، فجعلوا للشعراء شياطين يوحون إليهم شعرهم ؛ ولجأ إليه رجال الأخلاق ، فإذا أرادوا أن يشبهوا هوى من أهواء النفس بشىء شبهوه بالشيطان ، فمن قول بعضهم : إن الغضب شيطان فاستعذ بالله منه . فالشيطان له نصيب وافر فى باب الأخلاق ، فإذا سلك حاسد مهاوى الضلالة وورد مقاحم الهلكة ، وصار لنعم الله تعالى بالمرصاد ، فالشيطان هو الذى أسلكه هذه المهاوى وأورده هذه المقاحم ! واستظهر به أصحاب السياسة ؛ فإذا خرج قوم عن طاعة فالشيطان هو الذى أخرجهم عنها ، فكم كان الحجّاج يجد فى الشيطان مادّة تعينه على تصوير أعمال الناس وأخلاقهم ، فمن خطبته بعد دير الجماجم : إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ، ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ ، ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشعركم خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤامراً تستشيرونه . . .

وإذا سئل أحدهم عن مسئلة فيها أغلوطة قالوا له : أمسكها حتى تسأل عنها أخاك إبليس ، فإبليس أخو أصحاب الأغلوطات ، أى صعاب المسائل .

وكان الشيطان فى بعض الأحوال صورة الرجل القوى ، القسيم ، فقد كان قوم من العرب رؤوس الناس وشياطينهم .

وإذا عجز الشيطان عن شىء فإنه قد عجز عن فتح الغلق ومن حلّ الوكى ، ومن كشف الإناء ، قال صلّى الله عليه وسلّم : أوكئوا السقاء ، وأكفئوا الإناء ، وأغلقوا الأبواب وأطفئوا المصباح ، فإن الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يحل وكئاً ولا يكشف الإناء !

وإذا فرّ من شىء فإنه يفر من الأذان .

وقد كان الشيطان فى بعض الأحيان مادّة للأسماء ، فقد سمّوا : شيطان الطاق .

* * *

هذا نبذ من ذكر الشيطان فى أدبنا ، فقد أوحى إلى رجال أدبنا فى القديم كثيراً من الأفكار خلّدوه فى كتبهم ، وجعلوا ذكره بعد ذكره فى كتاب الله متردداً بين الخاطر والفكر على ترادف السنين .

وعلى الرغم من هذا كله لم نتفح فى الشياطين شيئاً من الروح فى أدبنا ، كما نفخوه فى أدب الإفرنجة ؛ فلا نعرف شيئاً من لباس الشيطان أو من سحنته ، ولا نذكر شيئاً من أحاديثه وآرائه ؛ فقد كان أدب الإفرنجة أفق من أدبنا فى هذا المعنى ، استحكمت الصداقة بين طائفة من أدبائهم وبين الشياطين ، فكانوا يتصاحبون ويتساقطون الأحاديث ؛ وقد وصف هؤلاء الأدباء لنا سحنات الشياطين ووصفوا ملابسهم ، ودوّنوا جملة من أحاديثهم التى كانوا يفيضون فيها .

أقتصر فى هذا المقال على ذكر كاتب من كتّاب الإفرنجة الذين خالطوا الشياطين وعاشروهم ، وهو : جيوفانى بابينى ، صاحب كتاب : الشيطان قال لى .

تحدّث « بابينى » والشيطان خمس مرات فى حياته ، وقد طرحت الكلفة بينهما ، فقد كان الشيطان يعامل «بابينى» معاملة لا يعامل الناس مثلها ، فإذا خلا «بابينى» إليه فتح أذنيه ليسمع أحاديثه .

الشيطان فى أدب « بابينى » مديد القامة ، أصفر اللون ، شاب فى عنفوان شبابه ، ولكن شبابه من نوع الشباب الذى عاش كثيراً ، فهو أكأب من الشيخوخة ، ليس فى سحنته الصفراء المستطيلة ما يقيّد النظر من الملامح إلا شفتان رقيقتان ، تطبّقت الواحدة على الثانية تطبّقاً محكماً ، وإلا تجعيدة واحدة ولكنها عميقة ، تذهب من أشفار العين على شكل عمودى ، وتضيع فى جذور الشعر .

لم يستطع « بابينى » أن يعرف لون عينى صديقه الشيطان لأنه لم يقدر على النظر إليه إلا بقدر طرفة عين ، وهو لا يعرف لون شعره ، لأنه يغطى رأسه بغطاء من حرير لا ينزعه عن رأسه أبداً ، ولباسه أسود اللون ، ويداه فى قفازين لا تخرجان منهما .

لا يهبط شيطان «بابينى» فى أيامنا هذه إلى الأرض إلا فى الندرة . وقد قال له هذا الشيطان مرة : إنى لا أجد فى نفسى بعد اليوم اهتماماً بالرجال ، فقد عكّن شرائرهم بشىء قليل ، وقيمتهم تنقص كل يوم ، فليس فيهم روح ولا حياة .

ومع هذا كله فقد يغلب على هذا الشيطان الضجر فى بعض الأوقات فى بلده الذى يزدحم الناس فيه ، فيهبط إلى الأرض ، ولكن لا يشعر به أحد لأن الناس أصبحوا لا يعرفونه ، وهم يمرون به فيظنونه واحداً منهم ، فيبتسمون فى وجهه ، ويسلّمون عليه ؛ أما «بابينى» فإنه يحس بالأثر الذى يتركه الشيطان وراءه ، ويجهد فى لقائه وألفته ، بسبب ما يجده فى هذه الألفة من السرور ، وهو لا يعرف حديثاً ألذّ وأنفع من حديثه ، إنه من طراز هذه الأحاديث التى تجعلنا نفهم العالم وندركه وخاصّة العالم الذى نشتمل عليه ، وليس فى كتب المكتبات ما يبلغ بنا هذا الفهم وهذا الإدراك !

لم يصادف «بابينى» مخلوقاً أشدّ مسامحة من الشيطان ، فالشيطان يعرف ظلم الناس وشرّهم وخداعهم وحيوانيتهم ، ولكنه لا يعجب من أعمالهم ولا يستفزّه شىء من الغضب عليهم ؛ إنه هادئ الطبع ، مبتسم ، وإذا جرى ذكر الله عزّ وجلّ على لسانه فإنه يقرّ بأن الله عادل كلّ العادل فى دحرجته من رأس السماء ، لأن الملك لا يستطيع أن يرى حوله مخلوقات أصحاب عنجهية ، خارجين من طاعته ، فقد قال لبابينى : لو كنت بدلاً من الله تعالى لأذقت المتمرد العاصى أشدّ العذاب ، فقد كنت أمنعه عن كل عمل وعن كل حركة ، أمّا الله تبارك وتعالى فقد رأف بى وعطف علىّ ، فمهّد لى سبيل الصناعة التى خلقت لها .

يعطف شيطان « بابينى » على الناس عطفاً فيه تهكم واحتقار ، خلق هذا الشيطان ليكون جزءاً للبشر ، ولكن المادة جعلته على طول الأيام أقلّ قساوة وفظاعة ؛ فهو

(البقية على الصفحة التالية)

اليوم ليس بالشيطان الذي كان يجرُّ ذنبه وراءه ويحمل قرونه كما صوروه من أحقاب بعيدة ؛ ليس بالشيطان الذي كان يدخل الأديرة ليداعب العذارى ، أو يذهب إلى الصحراء ليضل النسَّاك . لقد فهم هذا الشيطان وأدرك أن النزغ بين الناس أصبح عملاً لا فائدة فيه ، لأن الناس يضلون بطباعهم وغرائزهم ، فهم لا يحتاجون إلى نزغ الشياطين ، إنه يتركهم وهدوءهم ، فيتبعونه كما يتبع الماء منحدره ؛ وهو لا ينظر إليهم نظرته إلى عدو يبتغي قهره ، وإنما ينظر إليهم نظرته إلى رعية طائعة تدفع ما عليها من الخراج دون شيء من البرمة ؛ لقد نشأت في قلبه في هذه الأيام الأخيرة شفقة على معاشر الرجال ، لا تهدم الاحتقار الذي يحتقرهم إياه ولكنها تخفف من هذا الاحتقار وتحجبه !

فتى نجد في أدبنا حياة مثل هذه الحياة !

(دمشق) شكيب حبري

في جو السماء

سايرت الطائرة ساحل البحر بعد قليل من طيرانها ، واستمرت كذلك ، فكنت كلما نظرت إلى اليمين أبصرت الدأماء ، وكلما نظرت إلى الشمال رأيت الصحراء ، وما أشبه هذه بتلك ، كلاهما صفحة واسعة رائعة تنبسط أحياناً وتموج أحياناً بسلاسل من الأمواج أو سلاسل من الكثبان . وهكذا يتداول العين هذان المنظران من يمين وشمال .

وكان محرك الطائرة الأيمن الذي يلي البحر يلوح كأنه خفقات من الأشعة على الماء ، وأما المحرك الأيسر الذي يلي الصحراء فما استطعت أن أراه لا جسما دائراً ، ولا شعاعا خافقا .

كنت أكثرَ الوقتِ في شُغُل بهذه الموازنة بين البحر والصحراء ، والمحرك الأيمن والمحرك الأيسر ، حريصاً على أن أرقب مسايرة الطائرة الساحل وانقسام البصر بين هذين المنظرين ، أحاول أن أرى البحر من ناحية الصحراء فلا أراه . وبعد ساعة من مسايرة الساحل رأيت خلجاناً صغيرة ضاربة في الصحراء فرأيت الماء من الجانبين ، ومررنا فوق ماء ضحضاح خيِّل إليَّ أنه نيل ؛ ولم أدر لماذا كان هذا الغليان في رأي العين . ورأيت في هذا الضحضاح شبحا حزرت أنه إنسان يصطاد سمكا . وكانت الساعة حينئذ اثنتي عشرة وأربعين دقيقة ، فقد مضينا في سفرنا ساعة وثلثاً ، فليت شعري كم بقي لبُرسَعيد ؟ شغلت بالحساب زمناً : قيل إن الطائرة تقطع المسافة إلى ألماظة في ثلاث ساعات ، فإن قدرت لما بين برسعيد وألماظة زهاء ساعة فلا يزال بيننا وبين المدينة نصف ساعة أو خمس وعشرون دقيقة ،

وبينما أحسب وأعيد الحساب ، وأقدِّر أطول المدد وأقصرها وأوسطها ، اندفعت الطيارة صوب البحر وبعدت عن الساحل ، ثم رأيت الركاب يتطلعون ، فنظرت فإذا أبنية كثيرة ، قلت : أية مدينة في طريقنا قبل بُرسعيد ؟ ثم نظرت فإذا في الماء جدران عرفت أنها حواجز الميناء . وقطع الشكَّ هذا البرهانُ الواضح الممتد من البحر في الصحراء لاحباً مستطيلا متوغلا في الأرض : قناة السويس .

فرحت بهذه الفجاءة ، فلم أملك أن مددت يدي إلى أحد المتطلعين فغمزت كتفه قائلا : أبرسعيد ؟ فأشار : نعم . ولا أدري أسمع صوتي أم لا ، بل لا أدري أسمعت أنا صوت نفسي أم لا .

دارت الطائرة حول المدينة ، ثم أخذت تهبط حتى أصفقت ، فأصابت الأرض والساعة واحدة إلا خمس

دقائق . وبلغ منى الفرح بأول لقاء الأرض بعد أول فراق لها ، فسارعت إلى الباب وهبطت إلى الأرض ، وأنساني السرور أن أنشد البيت الذي أنشدته في المنام :

أنِل قدميَّ ظهر الأرض إني
رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وذهبت لأخذ جواز السفر ، فكنت أتكلم فلا أسمع ولا أستمع ، وذلك بفعل دويّ الطائرة في الآذان .

لبثنا ربع ساعة ثم استأنفنا الطيران . وتأملت الأرض بعد أن ارتفعت الطائرة فإذا منظر عجيب : سطح أبيض براق تتخلله أشكال مختلفة الألوان بين السواد والخضرة والصُّهبة ، وعرفت أننا فوق بحيرة المنزلة ، وأن الأعشاب والصخور نقشت عليها هذه الألوان العجيبة ، وعرضتها في هذا المرأى الجميل . وأبصرت أشباحا بيضاء خلتها بادئ الأمر وزّا ثم تبينت أنها شُرُع الفُلك في البحيرة .

وجاوزنا البحيرة إلى مرأى أجمل وأعجب : أرض مصر الخصبة السخية تموج في بهجة من زروعها ، وزينة من طرقها . بدت الأرض رقعة افتنّ فيها نقّاش صَنَع ، فلم يألُ تقسيما وتلوينا واختلافا في التقسيم والتلوين . رُويت الأرض وعُرضت علينا متبرّجة ساحرة بالألوان والأشكال ، وتوالت مناظرها على هذا النسق شائقة العين والفكر ، مانحة الشفاء بسمة دائمة : وتبدو القرى الصغيرة أكداسا من المدَر ، والقرى الكبيرة أبنية لاطئة بالأرض ، تقسّمها وتحيط بها سبل واضحة . وقد حدّثت بهذا أحد تجار السجّاد البغداديين ، وكان قد شهد القنال من الطائرة ، فقال : كأنها زُوليّة (سجّادة) . وحدّثت أديبة من أديبات الشام قدمت إلى مصر بالطائرة كذلك ، فقالت : كأنها قطع من الحلوى أتقن صفّها وتلوينها .

والصحراء تبدو من شمالنا متموجة بجانب الأرض المزروعة ، تطمن فيها حينا ، وتطمن المزارع فيها حينا ، ولكن طيراننا فوق المزارع ، والصحراء عن شمالنا لا تتحوّل .

وحسبت أن الطائرة قلّت في ارتفاعها ، وأحسست صداعا ودوارا خفيفا حزرت أنه من التوغل في لُوح الجوّ . وقد حدّثت نفسي أن منظر المزارع خيِّل إليّ أننا علونا أبعد مما علونا في الصحراء . فلما جاوزنا المزارع إلى الصحراء وجدت مرآها أبعد مما قدّرت ونحن في صحراء سيناء . وقد صدق حزري ، إذ سألت الطيّار بعد أن بلغنا الغاية فقال : كنا نعلو ثلاثة آلاف قدم ، وكنا في صحراء سيناء أدنى من هذا قليلا .

ضربنا في الصحراء قليلا ، ولاحت لنا خيام كثيرة منثورة على الرمل . فقلت : لعلنا أوفينا على الغاية . ثم لاحت مصر الجديدة عالية الأبنية ، واضحة الطرق ، تظهر فيها السيارات مسرعة في شوارعها اللامعة ، فعرفت أننا نهبطها ، وأننا — إن شاء الله — على الأرض بعد هنيهة .

وقدمت الطائرة هابطة قليلا قليلا حتى لامست الأرض فجرت عليها ثم وقفت . ونزلت في جَذَل مَن ظفر بأمنية مخوفة ، وجاز طريقا محذورة ، وبلغ الغاية بسلام . نزلت وفي نفسي فرح وزهو ، وفي أذنيّ وقر ، أكاد لا أستمع ولا أسمع ، ولم أنس أن أنشد البيت :

أنِل قدميَّ ظهر الأرض إني
رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وسألت نفسي : قد جرّبت التجربة التي لم يكن منها بدّ ، هل يسرّك أن أعاود الطيران من بَعد ؟ لا أذكر كيف أجابت ، وأغلب ظني أنها خرجت بالصمت من لا ونعم .

عبد الوهاب عزام

جبرائيل دانتزيو

شاعر بسطرا وعبقري الخلفاء

يقف جبرائيل دانتزيو وحده كشاعر إيطاليا الوحيد ، الباقي على الدهر بعد دانتي وليوباردي وكاردوتشي ، بل هو الشاعر الذي لم يعترف بسيد ولم يأخذ عن شاعر ولا معلم ، وهو الشاعر الذي لم يترك مدرسة ولا تلميذا ، ولم يخلف بعده ورثة ولا أتباعاً ، فإن الفن الإيطالي الجديد يبدأ في الواقع مع دانتزيو . والموسيقى التي بعثها هذا الشاعر جاءت إلى سمع العالم بنغم لا عهد لها به ، ودخلت على الآذان بعذوبة لم تتشنف بمثلها على السنين — كان لكل بلد ممثلوها في تلك النهضة المزدوجة ، نهضة الفكر ونهضة الشعر ، ولكل منها حلة أعلامها ورافعو لوائها ، وها هي الأيام تشهد انطفاء مصباح من المصابيح الساطعة ، فلم يبق بعد دانتزيو سوى وليم تيرنس الزنجي في جو ارلندا المشبع بالضباب الكثيف على مقربة من الجبال والوديان والمروج ، حيث ينمو ريش الخيال لمن خلق بغير جناح ! وهو آخر من شهد تلك العصور الذهبية الذاهبة أدراجها ، فإذا ما انقضت تلك العصور فإن الأجيال القادمة ستقدر مكانة زعماء تلك النهضة أكثر من تقدير عصرنا المضطرب الحائر .

حرص دانتزيو في كافة مراحل حياته على تجديد روح الثقافة بين أبناء قومه ، فلا يسعنا أمام ذلك سوى ضمه إلى مجموعة الشعراء العباقرة الذين تمسكوا بنظريات الشباب ونسجوا على منوال بودلير — لكن شعر دانتزيو كان أرق وأجمل وأنفذ إلى القلوب بعمايه العالية ، ونغماته الموسيقية ؛ فقد تجلى الفن في شعره منذ نعومة أظفاره ، وكان يعبث بالألفاظ الإيطالية كأنها أوتار قيثارة بين أنامله ، فيخرج منها نغمات تارة عنيفة قاسية ، وطورا هادئة منسجمة جذابة ، بل تارة متألمة شاكية باكية ، وأخرى صاخبة كصدى الحديد والبرونز — أما وجه الطرافة في فنه البديع فهو ماثل في ذلك الشكل الواضح الذي امتاز به شعره حتى استحق أن يشبه بالتمثال المنحوت ، ولنذكر على سبيل المثل « المطر في غابة الصنوبر » ، فهي خير ما نظمه من الشعر الغنائي ، إذ عني باختيار ألفاظه ، وتنويع نغماته ووصف الطبيعة وصفاً موسيقياً دقيقاً ، جعل من هذه القصيدة قطعة فن روحه الوثابة .

جمع دانتزيو شخصيات عديدة في نفسه العبقرية ، لكن شخصية الشاعر طغت عليها كلها ؛ فهو يعتبر عن جدارة خليفة كاردوتشي ؛ بل هو شعلة نار اندمج في ضميرها شعبة موسيقى فأخرج من البيان سحرا . أما خارج إيطاليا فقد عرف دانتزيو مؤلفا روائيا أكثر منه شاعرا ، إذ نقلت قصصه ومسرحياته إلى اللغات الحية فتذوقتها الجماهير ، وأخذت تكتشف فيها أشياء ثمينة تمت بصلة متينة إلى فن زولا ، وهويسمان ، وبول بورجيه — ولكن هل في ذلك أي عيب ؟ ألم ينهل موليير وراسين ولافونتين منهلا واحدا ؟ ومع كل فقد اعتبر عمل كل واحد منهم قائما بذاته ، فماذا يضير دانتزيو أن نقل اتجاهاته عن طائفة من الكتاب العالميين وقد طبعها بشخصيته القوية فخلقها خلقاً جديدا ؟! وانظر إلى أبطاله : اندريا سبيريلي في « ابن الشهوة الجامحة » وجورجيو أوريسيا في « انتصار الموت » وكلوديو كانتلمو في « العذارى على الصخور » — إذن لرأيت دانتزيو بنفسه في هياج الفاتح ، وآلام المحتضر وشعوره المتحمس للحياة والموت ، وحبه الوثني للطبيعة الحيوانية الشهوانية ، ورقته الجنونية ، وأحزانه المتشائمة ، وعزمته المتجهة إلى جميع ضروب اللذات .

قرأت نقدا وجهه كاتب من الكتاب إلى فن دانتزيو الروائي ، فنعت قصصه بأنها شاخت وأكل الدهر عليها وشرب — لكن الحقيقة أنها مجرد شيخوخة وقتية

لا يلبث أن يحل الشباب محلها ؛ فالمؤلفات تشيخ إذا شاخ قراؤها . أما قصص دانزيو فلا تخلو إحداها من نيران الذكرى المشتعلة ، ومن صفحات بديعة مفعمة بالأحلام التي لا تمحى ، ومن مفارقات طريفة بين الأشخاص والحوادث .

وإذا كان هناك عيب في فنه فلنذكر في صراحة أنه اعتاد أن يخرج مؤلفات كاملة من فصول ناقصة ، ويتجلى هذا العيب بوضوح في مسرحياته « كالمدينة الميتة » التي اقتبسها من إحدى الأساطير الإغريقية وقد بلغ إطنابه وثرثرته أقصى حد في بعض قصصه مثل : « حلم صباح الربيع » أو « حلم صباح الخريف » حيث طغت شخصية الخطيب على شخصية الشاعر إلى حد بلغ من الغرابة بمكان — وتعتبر مسرحيته « ابنة جوريجيو » خير ما وضعه في فن الدراما ، وهي مستقاة من أخلاق « الأبروزة » وتمتاز بوضوح المعاني وسحر التعبير فضلا عن أنها أقل كلفة وصراوفة من سائر مسرحياته .

عند نشوب الحرب العظمى كان دانزيو مقيما في وطنه الفكري « فرنسا » ، وقد شارف الخمسين من عمره . هناك ظهرت مواهبه ، وتجلت مقدرته الأدبية في الشخصيات التي ابتكرها ونفث فيها روح حماسته وتضجره ، وحشمه وتعلله ، ثم أحلامه الزاهية الممولة .

ودعاه واجبه الوطني للعودة إلى إيطاليا فسرعان ما تحول من الأدب إلى السياسة ؛ ولأمر ما أخذ يدعو إلى ضرورة الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء ، وصادفت دعوته قبولا من الشباب المتحمس . ثم تطوع بنفسه في صفوف الجند وخدم في المشاة والفرسان والبحرية ، وأخيراً تدرب على فنون الطيران ، وأصبح طيارا ماهرا ، وانتقل على متن الهواء في المواقع الحربية حتى ضرب بالنار وفقد إحدى عينيه واخترق الرصاص طيارته ، واشتعلت النار في جوانبها وعبثا حاول أن يموت فقد نجا من الموت بأعجوبة أو على الأصح هرب منه الموت ! ! !

وضعت الحرب أوزارها ، وكان خيال منطقة « فيومي » الواقعة على الساحل الشرقي من البحر الأدرياتيكي شاخصاً أمام عينيه ، وظل يتحين الفرص لضمها إلى إيطاليا ، فلما قررت لجنة الحلفاء اعتبار هذه المنطقة دولية ، انفجرت عواطف دانزيو فقام على رأس قوة بحرية هائلة مقتربا من ثغر فيومي ضاربا بقرار ولسن عرض الأفق حتى إذا ما أصبح على قاب قوسين منها تصدى له الجنرال بتالوجا قائد الحامية ، ولكن دانزيو لم يعبأ بذلك بل اعتمد على ذلاقة لسانه وقوة بيانه ، فخطب بينهم خطابا حماسيا أثر في نفس الحامية فسلمه مفتاح الميناء .

وعندما لامه العالم على فعلته وكيف أقدم على خرق حرمة المعاهدات الدولية وجه إليه قصيدة موسيقية رائعة بدأها بقوله : « استخفت فرنسا التي أحببت شاعرها هيجو ، وانجلترا التي خرج منها كاتبها ملتون ، وأمريكا التي قادها إلى النصر بطلها لنكولن أن يكن شاهدات عيانا على ما قد أتيته أنا ابن الوطن « الجندي الجريح » الذي أذهلته نتائج الحرب ودفعته إلى ضم فيومي الرضيعة إلى أمها إيطاليا .

عاد دانزيو بعد هذا الانتصار الحاسم بنحو خمسة عشر شهرا إلى ربوع وطنه حاملا مبادئ جديدة وأفكاراً جديدة ، غير أن شهواته المحمومة طغت على شخصيته السياسية فجرفته في الميدان ليسير وراء الشيطان ، ويقضي أوقاته نهبا بين الخطيئة والكأس والميسر ، وصار ينفلت من ذراعي امرأة ليعود فيرتمي في أحضان أخرى ، حتى إذا ضاقت به حياة اللهو والصخب والمتعة الحمراء فر إلى صومعة نائية في رأس الجبل يتزهد ويتعبد بتلاوة الصلاة وتلاوة الكتب المقدسة .

إنك تقرأ طرفا من سيرته في « الكتاب السري » الذي أصدره في أواخر أيامه ، فتعجب من تمجيده « نيتشه » الوقح كيف كان ينظر إلى المرأة كمخلوق تافه يروى منها ظمأه ويشبع نهمه — كان مولعا بأن يوقع كل امرأة في شراكه

لا هياماً بها وإنما إرضاء لنزوة جنونية ، فإذا قضى منها وطره قذف بها إلى عرض الطريق وعلق اسمها في أسلاب مؤلفاته ، وظل يفخر بوقائعها الغرامية ، كما يباهي الجنود الحمر بتعليق رؤوس ضحاياهم حول قصورهم .

كان في وسع دانزيو أن يغوى أية امرأة في العالم بنفس المهارة التي أغوت بها الحية حواء ليأكل من ثمار الشجرة المحرمة ، لأنه حين يلتقى بها يجتهد في أن يضفي عليها مسحة من خياله الشعرى ، ويغمرها بأطياف من السعادة الوهمية ، وألوان من النعيم ، بحيث تعتقد أنها المرأة الوحيدة التي يهواها . . .

وعندما أعلن اعتزاله العالم ، وقنع بنصيبه في الحياة تملك الصومعة الثانية محبته ماريا جراڤينا ، ولازمته سنوات عرف فيها معنى الحياة وتذوق نعيمها ، فقد ارتبط معها هذه الفترة الطويلة لأنه كان يحب ابنتها حباً أبوياً عميقاً ، وهي التي سهرت عليه ستة أشهر قضاها في ظلام حالك بعد أن فقد إحدى عينيه في الحرب ، غير أنه وقع ما لابد منه ، فقد فر منها في النهاية ليلقى بنفسه بين أحضان الممثلة البارعة اليونورا دوزى يستنشق من أنفاسها عبير الفن والحب ، ويستلهم من جمالها روعة أشعاره الخالدة .

لقد استغل الشاعر حب هذه الفنانة أبشع استغلال ، وتناثرت الإشاعات حول استغلاله لها ماديا ، ولكن ألا يحق لسوبرمان أن يستغل المرأة كما يستغل الرجال العاديين ، تمشياً مع قانون التطور ونزولا على رغبة الفردية القوية ؟

استغل فنها فكانت تمثل مسرحياته في إيطاليا وتخلد أبطاله خارج إيطاليا ، واستغل مالها فكانت تسدد ديونه الباهظة ، واستغل روحها فصارت لا ترى حياتها إلا مكتملة بحياة الشاعر ، وأخيراً استغل سرها ففضحه في روايته « النار » ، إلى حد أن كل من قرأ الكتاب يتبين شخصية اليونورا دوزى بين السطور ؛ وكانت العاشقة الولهة لا تكترث بكل هذه النوازل ، إذ كانت تعتقد أنه يهواها !

ولكن لما هجرها وطار من عشها انتزعه من بين أحضانها يد أقوى من يدها ، فضى الموت على شجونها فانتحرت وهي تصيح « أنبئوه أني قد غفرت له » .

لاح اسم موسوليني في الأفق ، وأصبح ملء الأفواه والأسماع ، واستطاع الدكتاتور أن يلبس مسوح دانزيو السياسي ويتقدم بالمبادئ التي وضعها للفاشية . . . ووقف كلاهما يقاتل في صف واحد من أجل المجد . ولكن الدنيا ابتسمت قليلا للدوتشى الداهية فريع المركة — ولما كانت روما لا تسعهما وكلاهما عبقرى أنانى ، ولما لم يكن من السهولة أن يقدم موسوليني على إقصاء بطل فيومى وقلوب الشعب لا تزال مرتبطة به ارتباطا وثيقاً فقد أدرك بفطنته وكياسته كيف يرضيه ، فهو يعرف عنه أنه شاعر قبل كل شيء ، وكان قبل أن يكون رجلا من رجال السياسة والحكم ، لذلك أعطاه كل ما هو في حاجة إليه ، وكل ما تصبو إليه نفسه الشاعرة ؛ وهبه قصرا منيفاً هو « الفيتوريالى » الذى تحول إلى جنان فيحاء ، ومنحه لقب « أمير » وأهداه بحتا بقائده وبحارته ، ووضع تحت تصرفه حرساً خاصاً .

في هذه المملكة الصغيرة قضى الشاعر حياته في عزلة تامة ، متحصنا في قصره الواقع بين منحنيات بحيرة الرفيتير جاردونى يكتب وينظم الشعر بعد أن حارب وانتصر ومزج الحب بالمغامرات — حقاً إنها حياة جديرة بأبطال عصور النهضة . أولئك الأبطال الذين أراد أن يقتدى بهم فكان له ما أراد . روائى عظيم وشاعر عظيم ، ورجل عظيم — هذا هو جبرائيل دانزيو الذى فارق العلم في الدقيقة الخامسة بعد الساعة العشرين من اليوم الأول من شهر مارس سنة ١٩٣٨ ، فدخل في حكم التاريخ ونال الجزاء الخالد الجدير بأمثاله ، ممن استحقوا الخلود بقوتهم وعبقريتهم ، وكم من الشعراء يتوق أن يكتب له شبه هذا المصير . . !!

محمد أمين حسونة

عمر بن الخطاب

فى عام الرمادة

(١)

عرف الناس عمر بن الخطاب فى الجاهلية فتى فى خلقه جفاء وشدة ، وعرفوه فى عهد النبوة صحابياً من أمضى الصحابة عزيمة وأغلظهم على معاندى الدعوة الإسلامية من الكفار والمنافقين ، وعرفوه فى خلافته قاضياً عظيماً ومنظماً قديراً . ولكن الناس لم يعرفوا عمر راعياً رؤوفاً برعيته كل الرأفة ، وأباً لأمته شفيقاً عليها كل الشفقة ؛ وإن يكونوا فعلوا فهم لم يعرفوه من هذه الناحية الإنسانية حق معرفته ، ولا قدروه حق قدره .

ونحن نجلو على القراء من تاريخ الفاروق صحيفة بيضاء مشرقة ، تصوره لنا حاكما شديد الشعور بالمسئولية عمن ألقيت إليه مقاليد حكمهم ، حتى لقد أنزلهم من نفسه منزلة دونها منزلة النفس والولد والأهل والعشيرة . تلك صحيفة سيرته فى الشدة التى نزلت بجزيرة العرب فى العام المعروف بعام الرمادة .

ويسمى أخباريو العرب بعام الرمادة العامَ الذى بدأ من منصرف الناس من الحج فى سنة ١٨ هـ ، وامتد إلى موسم الحج من سنة ١٩ هـ ؛ وسمى بعام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء ، فشبهت لذلك بالرماد .

* * *

ولقد دهم عمر بن الخطاب من أمر الناس فى ذلك العام شىء عظيم ، فنظرة الحاكم الإنسانى الشفيق كانت تمثل له هول القحط وفتك الجوع بالناس ؛ ونظرة السياسى الرشيد كانت تؤدى إليه أن قلب الدولة العربية الناهضة وشك أن تمر به سكتة يكون فيها انهيار تلك الدولة وذهابها .

ولكن عمر تجرد للأمر تجرداً ، وعلم أن فى إنكار الذات ومضاء العزمة وسرعة المبادرة ما يكفل تهوين تلك الشدة على أقل تقدير . فأنشأ يأخذ الناس بالاقتصاد فى معيشتهم ، وجعل يخالطهم بنفسه ويعيش كواحد منهم ؛ فكان يطعمهم أول الأمر الثريد من الخبز مأدوماً بالزيت ، وربما نحر لهم فى أيام معينة جزوراً يجعل لحمها على الثريد ، ويأكل مع الناس مما يأكلون . ويروى أنهم غرفوا له ذات مرة أطايب الجزور « فإذا قِدَدٌ من سنام وكبد ، فقال : بخ ! بخ ! ! بئس الوالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها » ، وأمر مولاه بأن يرفع هذا الطعام ويحمله إلى أهل بيت مقفرين ، وأن يأتيه هو بخبز وزيت .

على أنه لم يلبث أمام اشتداد الحال أن حرم على نفسه وأهل بيته لذائذ العيش من سمن ولحم وفاكهة ، ولذلك قصص يروونها عنه ؛ منها أنه أتى مرة بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلا بدويا فأكل معه ، فجعل البدوى يتتبع الودك فى جانب الصحفة ، فقال له عمر : إنك مقفر من الودك ؟ فقال : أجل ! ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت آكلا له منذ كذا وكذا قبل اليوم . فحلف عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس . وكان بطنه ربما تقرقر من أكل الزيت المطبوخ على النار ، فكان يقول : تقرقر ! لا والله لا تأكله حتى يأكله الناس . وكانت لابنه عبيد الله بهمة ، فجعلها فى التنور ، فخرج ريحها على عمر وهو فى نفر من أصحابه ، فقال : ما أظن أحداً من أهلى اجترأ على هذا ! وقال لمولاه أسلم : اذهب فانظر من أين هذه الريح ؛ قال : فوجدت البهمة فى التنور ، فقال عبيد الله : استر علىّ سترك الله ! فقلت : قد عرف حين

أرسلني أني لا أكذبه . قال : فاستخرجها ، ثم جاء فوضعها بين يديه واعتذر إليه من أن يكون عز بها ، وقال : أنا كنت اشتريتها لابني فقرم إلى اللحم فذبحت له وشويت .

ونظر يوماً إلى بطيخة في يد بعض ولده ، فقال : بخ ! بخ ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ؟ فخرج الصبي هاربا وبكى ؛ فسأل عمر عن أمر تلك البطيخة فقيل له : اشتريت بكف من نوى ، فسكت عمر .

* * *

وتشتد المجاعة في داخل الجزيرة ويهجم الشتاء وتعصف ريح الموت بأرجائها فتحمل القبائل من بواديها إلى الحواضر عامة ، والمدينة خاصة ، على عادة أهل البدو في النوائب والأزمات ، فأنزلهم عمر بأرباضها فيما بين رأس الثنية ، إلى بني حارثة ، إلى بني عبد الأشهل ، إلى البقيع ، إلى بني قريظة ، وأنزل منهم طائفة بني سلمة ؛ وكان عمر يتعاهدهم بنفسه . قال أبو هريرة يرحم الله ابن حنتمة ، فقد رأيته عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرابين ، وفي يده عكة زيت ، وإنه ليعتقب هو وأسلم . فلما رآني قال : من أين يا أبا هر ؟ قلت قريبا ، قال كن معنا . فحملنا ذلك حتى انتهينا إلى صرار فإذا نحو عشرين بيتاً من محارب ، فقال عمر ما أقدمكم ؟ قالوا الجهد ! وأخرجوا لنا جلد ميتة مشويا كانوا يأكلونه ، ورمة عظام مسحوقة كانوا يستفونها ؛ فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم اتزر ، فما زال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شبعوا . ثم أرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم كساهم وكان يختلف إليهم حتى رفع الله ذلك .

ورأى عمر أن الأقطار المفتوحة إن يكن فيها خير فذلك وقته ، فكتب إلى عماله عليها يستميثهم ويستنجدهم ، وإلى القارىء نص المراسلة التي دارت بينه في هذا الشأن وبين عمرو بن العاص عامله على مصر : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص : سلام عليك ، أما بعد أفتراني هالكا ومن قبلي ، وتعيش أنت ومن قبلك ؟ فيا غوثاه ! ثم يا غوثاه ! ! » فكتب إليه عمرو : « سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الغوث ، فلأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام » . ويظهر أن عاملي الشام والعراق ردا بمثل هذا المعنى ، فأما أمداد مصر فوردت في البحر الأحمر في عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك . وبعث عمرو في البر بألف بعير تحمل الدقيق والزيت ، وبعث بخمسة آلاف كساء . وبعث معاوية من الشام بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق وثلاثة آلاف عباءة . وبعث سعد من العراق بألف بعير عليها الدقيق . وندب عمر من ثقات رجاله من استقبل المدد الوارد في البر من مصر والشام والعراق ومال به إلى البادية ، وأمره أن يحمل الظروف ، أي الأوعية ، لحفا يلبسونها ، وأن ينحر لهم الإبل يأكلون من لحومها ويحتملون من ودكها . وبعث إلى الجار ، وكانت إذ ذاك مرفأ المدينة ، من حمل ما بعث به عمرو في البحر إلى تهامة فأطعمه الناس .

وقد نظم عمر توزيع الطعام على الناس توزيعاً ساذجا ولكنه واف بالغرض المطلوب ، فكون لجنة تتولى ذلك مؤلفة من أربعة نفر هم : ابن أخت النمر ، والمسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود ؛ وكان كل رجل من هؤلاء الأربعة على ناحية من المدينة . واتخذ عمر موائد عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم من أيام معلومة عشرون جزورا من جزر بعث بها عمرو من مصر . ومن لم يحضر العشاء العام من العيالات والصبيان والمرضى أرسل إليهم طعامهم في منازلهم . هذا في الأيام التي يباح فيها أكل اللحم . أما في الأيام الأخر فكان عمر يأمر بالزيت فيصير في القدور الكبار على النار حتى يذهب حره ، ثم يثرد الخبز ويؤدم بذلك الزيت . وكان

العيب الذى فينا :

قال صاحبنا وقد تملكته ثورة غضب عنيفة .

— أرضيكم هذا ؟

ودفع إلينا صحيفة أسبوعية فى يده مشيراً إلى مقال معين ، فأخذ أحدنا الصحيفة وقرأنا المقال .

وقال أحدنا :

— وما يثيرك فى هذا ؟ إنسان أبدى رأياً فرد عليه آخر فى شىء من العنف ؟

قال صاحبنا :

فإليكم الخبر . أما الإنسان الذى أبدى فهو رجل محنك بلغ من العمر حافة حلقته الخامسة ، محنك فى موضوع الرأى الذى أبداه ، إنه فنان والرأى الذى أبداه فى الفن ؛ وأما الآخر فهو فنان ناشئ قدم لونا من ألوان الفن ، ووفق فى تقدمته وكوفئ على توفيقه بباقات الثناء قدمت له من كل من شهد عمله ، وتنبأ له الكثيرون ، وأنا منهم ، بمستقبل زاهر ؛ ومضت الأيام والناس تذكر بالخير عمل هذا الناشئ فى الفن ويتوقعون خطوته الثانية فى كثير من التمنى والأمل ، فإذا العام يدور دورته وصاحبنا لا يعمل عملا ، ثم تعلن الصحف أنه وشيك أن يطلع على الناس بخطوته الثانية ، وتفيض فى جلال هذه الخطوة وفى روعتها . ويرى الناس خطوته الثانية فإذا به يرجع إلى الوراء ولا يتقدم ، وتليها خطوته الثالثة وهو أيضاً يرجع إلى الوراء ، ويتبدد أمل الناس ويظن بأسهم حتى ليظن بعضهم أن توفيقه الأول كان محض مصادفة .

وهذا المقال الذى قرأتموه يكشف السر عن فشل هذا الفنان الناشئ ، بل لعله يكشف السر عن عيب من عيوبنا الشائعة ؛ فقد رأيتم أنه يرد على شيخ محنك فى الفن لأنه أبدى رأياً يخالفه ، فيتهمه بالجهل والقصور ، ويتهجم

منادى عمر ينادى : من أحب أن يحضر طعامنا فيأكل فليفعل ، ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فيأخذ !

وكان النفر الذى سمينا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه ما كانوا فيه . فسألهم عمر ليلة وقد تعشى الناس : أحصوا من تعشى عندنا ! فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل ؛ وأحصوا من أرسل الطعام إليهم فى منازلهم فوجدوا أربعين ألفا ؛ ثم أحصوهم بعد ليال فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف ، ووُجد الآخرون خمسين ألفا .

* * *

غير أن ذلك الجهد كله لم يزد على أن خفف من وطأة المجاعة ، فلقد كان متعذراً أن ينقل إلى الجزيرة فى تلك الأيام من المؤن ما يكفى لسد حاجة أهلها دفعة واحدة ، كما كان مستحيلا ألا تتأثر الصحة العامة بهذا النوع من الطعام الخشن الجشب ، الذى اضطر الناس إليه اضطراراً ، وحملوا عليه حملا ؛ فوقع الفناء فى الناس حتى قيل إنه هلك فى تلك السنة من العرب الذين نزلوا أرباض المدينة نحو ثلثيهم ، وكانوا يزيدون على مائة ألف ، هذا عدا من هلك فى داخل الجزيرة . وكان عمر يأتى بنفسه فيصلى على الموتى ، ولقد رؤى مرة وهو يصلى على عشرة جميعا .

فلما تناهت الشدة إلى تلك الحال لم يعى عمر بالأمر ولا ضاق به ذرعا ، بل نهج فى تفريج الكرب وتهوين الخطب منهجاً جديداً هداه إليه فكره السليم وقلبه الكبير .

(يتبع) عبد المجيد العبادى

على الخبرة الطويلة معتزاً بنزعة الشباب ونشاطه ، محقراً قيمة التجارب .

قلت : — كأنك لا ترضى عن حرية الرأى ؟

قال : — بل إنى أدعو إليها ولكننى أدعو أيضا إلى قوة الخلق ، فالرحلة بعيدة بين حرية الرأى وما ترون ، إنه الغرور فى حالتنا هذه ، الغرور الذى يتملكنا ويصبغ تصرفاتنا إذا ما صادفنا بعض النجاح . إنها ليست حرية الرأى وإنما هو الغرور الذى يدفع شابا أن يسخر برأى خبير مجرب وأن يتغنى بالشباب ، وآراء الشباب ، وعزيمة الشباب ، وأين الشباب فيا يدعى وقد سبق ما حدثتكم عنه من فشله مرتين بعد أن أسكرته خمر النجاح مرة . وإنما اخترت هذا المثل الذى سقته لكم لأننى راقبت حال هذا الشاب منذ أول خطوة حتى اليوم . عرفته حين كان شابا ساذجا حيياً متواضعاً يقدم باكورة إنتاجه الذى خجلا يترقب ؛ وعرفته حين وفق فلقى جزاء التوفيق كل الثناء وكنت ممن غمروه بالثناء ؛ وعرفته بعد ذلك يتغير كل شىء فيه ، فتختفى مسحة الحياء والتواضع من وجهه ويحل محلها كبرياء فيه من القحة أكثر مما فيه من الثقة والاعتداد . ولقد سمعته أكثر من مرة يتحدث فتتألمت أذنى ، ذلك أن حديثه لم يكن حديث شاب يملؤه الأمل ، بل حديث عبقرى جبار قد وصل ، سمعته يحقر من أعمال غيره ويتحدث عن نفسه حديثاً عجباً ، فهو يشيد بجهوده ويعدد مواهبه دون أن يتملكه الخجل من مدح نفسه .

عرفته إذ ذاك ، ثم عرفته بعد ذلك حين تهاوى وانحدر ولم يتهاو غروره ولم ينحدر كبرياؤه ، بل ظل على ما هو عليه ، ملأ الغرور عقله فلم يتسع بعد ذلك لعلم أو تجربة ؛ وأين تأوى المعلومات وليس لها مكان فى رأسه ؟ وأين تحل الخبرة إذا كان مكانها قد ملىء فى عقليته بالصلف والغطرسة ؟ وكلما حاول إنسان أن يرده إلى صوابه ثار فى وجهه ورماه بالجهل ، ورماه بالحقد مستكبراً على النصح ، مستنكراً أن يوجد فى الناس من يرشده أو يوجهه ؟ هكذا فعل مع كل الناس من قبل ، وهكذا رأيتم اليوم كيف يرد على واحد أكثر منه خبرة وأكبر سناً ، فلا يناقش الحجة بالحجة ، ولا يصطنع الأدب الواجب لمن يعتقد الحق فى جانبه ، ولا يرعى واجب اللياقة الذى يفرضه بعد ما بينهما من سنوات فى العمر وفى الحنكة والدراية ، أترون فى شىء من ذلك ما يسمى بحرية الرأى ، أم أنه الغرور !

إنه داء من أدوائنا المستعصية ، نحس نتائجه كل يوم ، ونلمسها فى كل عمل رائع الطلع بارع الاستهلال ، لا يكاد يبدو بريقه حتى يخبو لهيبه وينطفئ نوره ، نلمسها فى كل كاتب أو شاعر أو فنان ناشىء ، نسمع باسمه مرة يحلق كأنه زيد لامع أخاذ . عشرات من هؤلاء الناشئين الذين طالعونا يوماً بسنا لم يكد يلمع حتى انطفأ قد قتلهم الغرور وكانت ترجى لهم حياة موفورة ، كلهم هذا الشاب الذى قدمت لكم صورة من عقليته …

وسكت صاحبنا على مضض ، وكأنما يريد الإفاضة فلا يطاوعه لسانه ، أو لعله أشفق بنا وبنفسه من هذا الوجوم الذى علانا ، فلم نملك معه إلا أن نجاريه فى السكوت …

ممدوح زهنى

تدخل الدولة

Etatisime

فى عدد مضى من الثقافة الزاهرة كتب الأستاذ منصور داعيا إلى تدخل الدولة فى كافة مظاهر الحياة، وإلى محاربة الديمقراطية الحرة والاشتراكية العالية ، مبيناً أن الخوف على حرية الفرد وعلى استغراق الدولة له — فى نظره — هراء فى هراء . ولما كانت الدعوة إلى هذا التدخل دعوة لا تتفق ومصلحة أمة فتية كأمتنا ، فقد آثرنا أن نوضح جلية هذا الأمر — على قدر استطاعتنا ...

لقد بحثت فى كتب شتى فى القانون والاقتصاد السياسى والاجتماع ، فلم أجد مؤلفا ولا مشرعا ولا كاتبا دعا إلى تلك الدعوة بمثل تلك الصراحة . . . إن التاريخ القديم قد بين لنا أن هناك تناسبا عكسيا بين تدخل الدولة فى كل شىء ، وبين اعتماد الأمة على نفسها فى كل شىء ؛ فلقد انحطت الأمم الصينية والهندية واليونانية لما صارت حكوماتها المسيطرة على كل شىء ، وهى العاملة لكل شىء ، ولما وقفت الأمة موقف المتفرج أو موقف النقاد . كما أن تاريخ العصور الوسطى يرينا أن الفرد كان عبدا ذليلا خاضعاً للدولة بروحه وما له وفكره وتفكيره ، ذلك لأنها الحامية له والوصية عليه ، والقادرة وحدها على رقيه أو انحطاطه ، إسعاده أو إشقائه . . . لا يعمل إلا ما تهيئه له ، ولا يأخذ إلا ما تقدمه إليه ؛ وتنافست الكنيسة والدولة لا فى سبيل رقى الفرد ، ولا فى سبيل إسعاد الأمة ، ولكن فى سبيل إشقائه وإذلاله ، واتفقت الهيئتان طبقاً لنظرية السيفين وعاونت الكنيسة الفرد أكثر من الدولة ، ولم تتدخل فى شئونه مثل تدخل الدولة ، فمال إليها والتصق بها ، حتى حان حين القضاء على تدخل الدولة وعلى تحكمها ، فانهار هذا التدخل ، وسقط — إلى غير رجعة — هذا التحكم .

وفى العصور الحديثة دل التاريخ والواقع على أن الإصلاحات الاجتماعية إنما قامت بها الشعوب قبل أن تتولاها الحكومة ، بل يدلنا على أن عمل الحكومات فى تلك الإصلاحات لم يزد على الرعاية والرقابة والتوجيه[1] وأن الأمم اللاتينية بوجه عام ، والشرقية بوجه خاص ، قد سقطت فى الميدان لأن من مميزاتها كما قال مسيو ربون دايت أن ليس من خلقها أن تنتج بعض الأعمال الفردية أو الكمالية المتعلقة بالحضارة دون أن تحثها حكومتها عليه وتساعدها فيه ، وأنها كما قال أحد الأساتذة ، ولعله جوستاف لوبون ، لا تحب إلا أن تكون مسوسة دائما ، منقادة دائما ، لأن الإنسان عندما يفقد الأمل فى نفسه يضطر إلى خلقه فى غيره ، وكلما ازداد عدم اهتمام الأفراد بشئونهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها ، عند ذلك تضطر إلى إبدال إقدامهم على الأعمال بإقدامها ، والقيام بدلهم فى الأخذ بيد المشروعات كلها .

أما الأمم الأنجلو أمريكية فإنها لا تعتمد على الدولة إلا فى الضرورة القصوى ، ولا تقبل مساعدتها إلا فى أقصر حد ممكن ، حتى لقد عظم أثر الفرد إلى أقصى حدود الاستطاعة ، وبلغت تلك الأمم من السمو والرقى درجات لا يمكن أن تصل إليها دولة أخرى ، ما لم يعتمد أفرادها على أنفسهم كاعتماد أفراد الأمم الأنجلو أمريكية على أنفسهم ... بل إن أثر عدم تدخل الدولة لم يقف عند حد الإصلاح الاجتماعى والتقدم المادى والثقافى ، بل شمل الناحية الأخلاقية هى الأخرى ؛ فلقد شمل الانحطاط الأخلاقى فى أمريكا طائفة من الساسة وبعض التجار وأرباب الصناعة ، والذى قلل من أثر هذا الانحطاط هو أن تدخل الدولة كان قليلا وقليلا جداً . وإن هذا التدخل الذى تدعو اليوم إليه سوف يخلق من الشعب أشخاصا تعيش فى هذه الأمة كأنها

(١) مجلة الشئون الاجتماعية .

الأوراق المتثورة على صفحة النهر ، يحملها أنى شاء وشاء تيار ، وسوف يكون هؤلاء الأشخاص مسيرين لا مسيرين في هذه الدنيا من حياة هي الموت ، لولا أن صاحبها كما يقول سنيكا من يتنفسون ... وسوف تفشل مشروعاتنا الاجتماعية والصحية والمادية ، وسوف نعود إلى الخلف خطوات أكثر عددا مما خطونا ... » لقد قال السير « سيمون هاتن » الذي كان قنصل أمريكا في فرنكفورت ، أثناء حديثه عن المشاريع المدنية في روسيا : « إن من غرائب ما حققناه أن هذه المشاريع آلت كلها إلى السقوط أيام كانت الحكومة تديرها .. » وقد قال أيضا بول لراوليو أثناء حديثه عن فرنسا : « إن تدخل الحكومة يقود فرنسا إلى فقد ملكة الاستنباط ، وإلى ضعف العزائم والنشاط الذاتي فيها ، ويؤدي إلى استبداد الحكومة بها أو حكمها حكما بابويا مطلقا ... » ، وكما قال جوستاف لوبون مرة : « إن الأمم التي تترك لحكومتها صنع ما يمكنها أن تقوم بنفسها تنحط إزاء الأمم الأخرى .. » ، كما قال مرة أخرى : « إن تولى الحكومة زمام الإنتاج والأعمال عوضا عن أن تترك السعي والقيام بالمشاريع للأفراد ينتج عنه نتيجة ثابتة لا تتغير ولا تتقلب ، وهي أن تزول الكفاءة والغزارة في المحصولات وتحصل زيادة جسيمة في نفقات العمل ... »

وهناك برهان قاطع ودليل ساطع على أن الحكومة لا تستطيع الأخذ وحدها بيد المشروعات ، فالنظام التعاوني الإنجليزي شيء لا يد للحكومة فيه ، ولا سيطرة لها عليه ، وقد ترعرع ونما حتى أصبح أعظم قوة اقتصادية في النظام الاقتصادي . هناك تماثل الحكم الدستوري في ميدان السياسة ؛ وهنا في مصر يصرح مدير التعاون ورجاله في كل فرصة أن التعاون ما خلق ليكون حكوميا ، بل إنه لن يزدهر ولم ترج له ثمرة ما دام الشعب لم يؤازره ولم يعاونه بإيمان وإخلاص . وها هو ذا فؤاد سراج الدين باشا يصيح بأعلى صوته ، في قاعة يورت في الأسبوع الماضي ، بأن الشعب يجب ألا يتوقع الكثير من الحكومة ، بل يجب أن يتوقع الأكثر من نفسه ، « فهذه وزارة المعارف الإنجليزية لم تنشأ إلا في سنة ١٨٩٩ أي أن عمرها لا يزيد على ٤٤ سنة ، بينما التعليم في انجلترا أقدم من ذلك بمئات السنين » ! وها هي ذي حكومة الولايات المتحدة لا توجد بها وزارة المعارف ، وكل ما هنالك من وجوه الإشراف على التعليم هي مصلحة تتبع وزارة الداخلية ...

بل إن معظم المستشفيات والمصحات والجامعات في انجلترا وأمريكا من عمل الشعب ، بل إنها تفضل مستشفيات ومصحات وجامعات الحكومة .

* * *

إن هذا التدخل هو في اعتقادي جريمة من كبريات الجرائم ، لا على هذا الجيل وحده ، بل على الأجيال المقبلة أيضا . فإذا ما أحببنا أن نسير إلى ما نتشوف به من تقدم ورقي ، وجب علينا أولا أن نؤمن إيمانا وثيقا بأن ثقتنا بأنفسنا واعتمادنا على مجهودنا وتعاوننا مع بعضنا هو خير وسيلة وأسلم طريقة لكي نحقق آمالنا ، ولكي نغير مجرى تاريخنا ، بل لنسلك على إرادتنا في تاريخنا ... إن الدعوة إلى هذا التدخل أيا كان نوعه ، وأيا كان اسمه ، دعوة إلى الضعف ، وحرام علينا أن ندعو إلى الضعف في أمة شابة ؛ إنه عود إلى الدكتاتورية في صورة جديدة ، واتحاد مع الاشتراكية بأساليب جديدة .

صبري أبو المجد

قصة :

المُجدِف

حدثني صاحبي قال :

. . . وكان لابد من الرغيف . وإنه ثالث يوم لا أعرف فيه للأدم طعما . وإن البرد ليتكالب عليّ . وإنه لينفذ من الجلد الواهي فيستقر في صلب عظمي . إن معدتي لتصرخ ، وإنه الجوع .

كنت لا أمتلك قلبا واحداً أشعر معه أني قادر على تسكين هذه المعدة الثائرة ، وإن الأصدقاء لتنفر مني وتزور ، وإن الناس لتنظر إليّ كأنني لست منهم في شيء .

ومضيت أضرب في أزقات القاهرة علّي أعثر على واحد ممن زعم يوما أني كنت صديقه ، وأني بذلت نفسي راضيا لأجلهم يوم كنت ...

أما اليوم ... اليوم أقفرت الشوارع والأزقة من الأصدقاء بعد أن سدت في وجهي أبوابهم !

وأذّن الظهر فالعصر فالمغرب . فأذّن معها حوق أذان الفناء . ونفذ الجهد . وإن خطوة واحدة أخطوها لن تكون إلا إن كانت إلى القبر .

وكنت حينئذ في أحد هذه الميادين الكبيرة ، فارتميت على مقعد من هذه المقاعد الصخرية المبعثرة في أرجائه ، والتي تنفث السم في برودة يحسها الجالس . ولكني شعرت براحة ، ولبثت لا أعي مما حولي شيئا ! وإنما هو استرخاء شملني جميعا حتى عقلي المكدود . وربما رضيت بذلك . غير أنه جوعي المستعر ، كيف يهدأ ؟ وطفقت ألتمس الحيلة .

وأية حيلة في شخص معدم لا يملك من هذه الدنيا غير نفسه وكسوته التي يرتديها . كسوة لا يدري تماما متى صاحبته ، وليس يمكنه كذلك أن يقدر متى تنفر منه وتزور ازورار الصحاب ، وإنه ليعمل جهده في حفظ هيئتها رغم عبث الأيام بها .

ولكنها الساعة أبت وجدها إلا الوفاء . ولابد من التضحية .. لأنها البطن ، ولأنه الجوع !!

ونهضت وكلي الإعياء حتى صرت إلى هذه الحوانيت بين أزقة الأحياء التجارية أعرض (سترة بدلتي) العزيزة . . . وواقساه . كم لقيت وأنا أعرض بضاعتي (الغالية) من هزء القوم وسخريتهم . حتى منّ الله عليّ بشخص قبِل أن يشتريها . . . إشفاقا !

وكانت بضعة دراهم لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عدا . إلا أنها دراهم .

وقذفت بنفسي إلى أقرب مطعم ودفعت له المال وقلت له : « هات بهذا كله » .

وتبسم الرجل . وقدم لي من الطعام مالا أدري نوعه . فالتهمته كله .

وخرجت ، وقد هدأت شيئاً من ثورة البطن . ولكني شعرت رعدة تتمشى في أعضائي ... لست أدري أهي مما تناولت أم من هذا البرد القاتل ، أم من فرط النشوة بانتصاري على الجوع ، أم من كلها جميعا ؟

ومع البرد ذكرت المأوى . قلت لا بأس ! ولا عليّ لو جعلت أطوف على بيوت هؤلاء الصحاب فربما وجدت أحدهم ، ولعله أن يشفق فيأويني الليلة على علم مني بأن ذلك هو السراب . ولكنها محاولة .. فالبرد قارس والريح عاصفة والسماء ممطرة ! وكنا في منتصف يناير ، والجو على أشده . وكنت قد عزمت على ألا أعرض نفسي على أي صديق غير هذه الليلة حتى يمن الله على من عنده بالفرج حيث كان موعدي مع فؤاد بك . وذلك أني كنت قد أنجزت له بعض الأعمال الأدبية فقدر لأتعابي جنيها مصريا ، ووعدني بهذا الغد ، وحسبي هذا المبلغ الذي كان مبتغاي في مثل هذه الأيام السود .

وهجم الليل ، ولم أعثر على صديق واحد في بيته ، أو كذلك خُبِّرت ...

وقست الطبيعة وأدلهم الجو . وما هو إلا أن دلفت

إلى مسجد من هذه المساجد الأثرية ، وقبعت فى ركن منه أحاول بائسا النوم . وكيف لى به ؟! برد وجوع ، وكأنى والله ما طعمت شيئا ، وكأنما كنت جوعانا لأيام . . . غير أنى رضيت بالذى أنا فيه . فقد أمنت المطر والريح وإن كنت لم آمن البرد القاتل .

وعرفت عندها أية خسارة كانت فى ضياع (سترتى) . أما النوم فقد ثنا كنت الليلة بأنه أصيب بداء الأصدقاء ، فلا رجوع له . اللهم إلا وسنات تطوف ثم تولى كأسرع مما جاءت . . .

لست أدرى أى وقت مضى ، وكذلك شأنى . غير أنى سمعت صوتا يتطرق إلى سمعى كأنما هو آت من أغوار قبر عميق . . لم أعره اهتماما . إلا أنها لكزة قاسية وصوت أجش قبيح أخرجانى مما كنت فيه . وإذا الضارب خادم المسجد وهو يوقظنى لصلاة الفجر .

ورأى الرجل تباطئى فلكزنى لكزة أخرى كادت تهد لها أضلاعى . قبحه الله . أيدرى هذا المخلوق أن الماء لم يصافح جسدى لثلاثة أشهر أو تزيد . .

وكان أن وقفت مع الواقفين ، وصليت مع المصلين ، ثم سلمت مع المسلمين . وما كنت غير شبح وقف ثم انحنى ثم قعد فسلم .

أجل ! كنت قد نسيت ربى ، بل نسيت كل شىء . كل شىء . . . إلا بطنى . . .

وكان الصباح ، وكان معه الأمل . فالجنيه لا يلبث أن يقع بين يدى رزقا حلالا . وإن منتصف الثانية بعد الظهر لواحق الورقة فى بيداء حياتى المقفرة .

وجعلت أستحث الساعات ، وكأنما استحالت دقائقها دهورا تمر فى بطء وملل ، احتملتها صابرا متصبرا .

وبينا كنت فى بعض الطريق إذ وجدتنى أمام (قهوة بلدية) كان عاملها يرش ماء من قدر فى يده فبللنى ، فنظرت إليه معاتبا . فصعدنى بنظرة ساخرة وقال :

— امض لشأنك . فوالله إنها لأنظف من وجهك .

وعززت على نفسى . أيسبنى مثل هذا الصعلوك على ملأ من الناس . . وتغاضيت تعففا .

وهممت بالسير إلا أن الشقى أبى إلا أن يؤكد سوء خلقه ، فقذف عمدا بما تبقى فى القدر من ماء فبلت القميص . فتضاحك معتذرا وقال :

— سيان يا (افندى) فإن القميص ليس أنظف من الأرض فى شىء .

وثار دمى . فمهما يلعب بى الأيام ونالت منى ، فإن نفسى مازالت أبية . فرجعت للوقد أزجره . فتماسكنا . وتمزق القميص . فكان مركز الشرطة ، وويل لى من من مركز الشرطة ورجال الشرطة . . وبل . فإن أحدهم ليظن وهو فى كرسيه إنما هو سيد الدنيا . وويل لدنيا ذلك شأن سيدها . . . كل من فى مركز الشرطة سواء . فلا والله لقد كان فتاى ألطف مدخلا ، وأرق حاشية منى بعد إذ لقيت منهم الذى لقيته . .

ويا ليتنى . . ويا ليت !

وخرجت . وكانت الساعة الرابعة . فرحمتك يارب السموات . . . وجعلت أنهب الأرض سيرا حتى وصلت إلى منزل (البك) وكلى الإعياء .

تقـدمت فى وجل أضغط الجرس الكهربى . وإن قلبى لينبض فى قوة وعنف ، وخوف يحدوه الرجاء .

وفتحت الخادم الباب . فعرفتها بنفسى . فقالت مؤنبة :

— إن سيدى البك انتظرك حتى آخر لحظة قبل مبارحة القاهرة إلى (العزبة) . . .

وأخشى ألا يرجع قبيل أسبوع .

يا رحمة السماء . . . ويا أيتها الأقدار الطاغية . حسبك سخرية فقد بت لا أحتمل حتى نفسى !!

لست أدرى مما قلت بعد ذلك شيئا . إلا أنها حمم من نار قذفتها بطنى الثائرة ونفسى الملتهبة غيظا . . . جدفت وجدفت . . .

ونظرت إلى السماء ، وجعلت أتوعد بقبضتى .

وسمعتني سيدة الدار . وما كدت أخطو عن الدار خطوات حتى كان الخادم فى أثرى ..

وجىء بى إليها . فاستوضحتنى الأمر . وكأنما كان قد تنفس عن صدرى الملتهب ، فقصصت عليها كل شىء . كل شىء ... وطفرت من عينى الدموع .

كيف قلت لها هذا الذى كنت أضن به حتى على نفسى فلا أثير شجنها القاتل . لست أدرى ؟ كيف قلت لها إن هذا الشاعر البائس الذى طوحت به الأيام فى بيدائها المقفرة ما أظلتنى فيها شجرة واحدة أفىء إليها من لظى الأيام وعبثها ...

كيف كنت فى ربيع الحياة وما أدرى ما ربيع الحياة ! كنت شقياً ..

ولست فيها شيئاً غير هذا الذى رأيته فيما مضى من أيام صباى ... لست فيها شيئاً كنت أفتقده . كان حلما يطوف بى فى ساعات الوحدة .

ما هذا ؟ ... إن السيدة ليترقرق عينها الدموع ... ويح نفسى ...

— ما يبكيك ياسيدتى ؟

— . . .

ودعت بطعام . فعفته ؛ وكأنما أرادت لتهدئ من روعى فدعت كذلك بحلة ووعدتنى ضعف ما كنت أرجوه من زوجها البك . وجلست إلى جوارى .

وشعرت بهذه اليد الناعمة تمر فى رفق فوق كتفى . فجعلت أتقبض على نفسى تحرجا . فتبسمت . وصمتت شيئاً ثم قالت : أرجو ألا تحسب أنك وحيد فى شقائك .

ومضت تتكلم ... وتتكلم . وإنى لأرجو ألا أكون قد سمعت شيئاً ، ولكننى سمعت ...

وكأنما شاءت مماثلة القدر إلا أن تفرض عليها ما فرضته على منذ حين فقالت ما قالت ..

وتنفس صدرها عما احتبسته سنيناً طوالا ...

وجمع بيننا الألم . فإنها لكذلك تعيش فى هذه الحياة ولا تدرى ما الحياة ... وإن هذا الشيخ الذى نضب معينه وخلا منه ، لا يقتنع بسجن هذا الطائر الفرد فى قفص من الحرمان إلا أن يحوطه بقضبان من الغيرة ... الغيرة حتى الجنون . هذا الجسد الحى ... هذا الجسد الصارخ يمنعه لذة الحياة صاحبه البالى وتقاليد العائلة ...

وشعر كل منا كأنما هو خل لصاحبه منذ سنين ... وطرحت عنها قيود المجتمع والعائلة وزوجها ... الهم البغيض ، فجلست إلى جوارى .

كنت مضطربا . أردت أن أركز فكرى الشارد فى هذا الذى تقول . كنت أحاول أن أضم إلىّ هذا الفكر النائى ، فأبى إلا أن يكون مع البك فى رحلته إلى (العزبة) .

أيظن أنى الساعة إلى جوار من يغار عليها حتى الجنون ؟ . . . أيظن أن الذى أشفق عليه يوماً لصيقاً إلى حليلته ؟ ...

وصحت ... أين هى منى ؟! أين هى من ذلك الشريد الذى نبذه العالم وازورّ منه الصحاب ؟! أى نفع كانت ترجوه منى ؟! ونظرت إليها ... فارتدت عيناى .

هذه الآيات من الضنى والحرمان لتتضور تحت أهدابها .. عميقا .

أهو القدر الذى أبى إلا أن يهزهز نفسى فأقرأ فى عينيها ما قرأت . . . وكيف كنت المختار فيرميني بأعنف ما استهدفت له فى أيامى السود . أهو مجرد اتفاق وتصاريف ؟!

وعظم علىّ الأمر فبت نهبة لأفكار متضاربة عنيفة . واستثار جودى هذا الجسد ... الصارخ . فأقبلت علىّ . أقبلت على هذا المخلوق فى قميصه الرقع وشكله المنفّر . . . أقبلت تعالج هذه النفس المحزونة . . . والشباب الضائع .

وفى بطء . انفتح الباب ، وكان البك . ورآنا . . .

* * *

ونفر منى صاحبى الشاعر البائس ، وجعل يتوعد السماء بقبضته . . ويجدف . .

يالرث صبرى
كلية الآداب

من الشعر المنثور :

(١)

الكوكو

للشاعر وردزورث

أيها الوافد الطروب ! ها قد سمعت !
إنى أسمعك فأبتهج
أيها الكوكو ! هل لى أن أسميك طائرا
أم صوتا يهيم ؟
عندما أستلقى على العشب
أسمع نداءك المزدوج
وكأنه ينتقل من تل إلى تل
متدانيا قصيا .
تُنادى النور والزهر غناؤك
ولكنك تعيد إلى نفسى حديث الساعات الحالمة .
أهلا أهلا ! على الرحب يا حبيب الربيع !
وحتى الآن لا أحسبك طائرا ، بل شبحاً لا يرى
أحسبك صوتا ، أحسبك سرا !
ذلك الذى كنت أصغى له أيام حداثتى ،
ذلك النداء الذى جعلنى أنظر متلفتا بكل سبيل
إلى العشب والشجر والسماء .
ولكم جبت فى الغابات والسهول الخضر ألتمسك ،
ولكنك ظللت أملا ، ظللت رغبة ،
تتوق لها النفس ولا ترى .
وما زلت أستطيع أن أصغى إليك ،
أستلقى على السهل وأصغى
إلى أن أستعيد ذلك العهد الذهبى .
أيها الطائر الميمون ! ها هى الأرض التى تخط فوقها
تلوح وكأنها مكان أثيرى مسحور
خليق بأن يكون لك وكرا .

(٢)

النرجس المائى

كنت أهيم وحيدا كغمامة تسبح عاليا فوق الوديان والتلال
وفجأة ، إلى جانب البحيرة تحت الشجر ،
رأيت حشدا ، رأيت جماعة من النرجس الذهبى
ترف وترقص فى النسيم .
محتشدة كالنجوم التى تضىء وتتلألأ فى المجرة
قد انتثرت إلى حافة الخليج فى خط ماله من نهاية .
عشرة آلاف رأيتها فى لمحة ، تنفض رءوسها فى رقص
مفعم بالحياة .
لقد رقصت إلى جوارها الأمواج ولكنها بزت الموج
الطروب ،
ولم يكن لشاعر إلا أن يمتلئ بهجة
فى مثل تلك الصحبة المرحة .
وجعلت أحدق وأحدق ، ولكنى لم أكد أدرك
أى ثروة قد حملها ذلك المنظر إلى نفسى ،
وعندما أستلقى على الفراش ذاهلا أو متأملا ،
كم من مرة يعود فيبرق أمام تلك العين الداخلية التى
هى نعمة الوحدة ،
وعندئذ يفيض قلبى بالسرور ، وأرقص مع النرجس المائى .

مشكاة عبد العزيز

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر

الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٢٩٩٢/٥٦٢٩٩١

العدد ٣٦١ — الثلاثاء أول المحرم سنة ١٣٦٣ — ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

العام الجديد

تحتفل بهذا العدد من « الثقافة » بثلاثة أعياد في عيد ، عيد رأس السنة الهجرية ، وعيد رأس السنة الميلادية ، وعيد مولد « الثقافة » إذ بلغت ثمراتها التي أضيفت اليوم ستاً ، ولنا في كل عيد من هذه الأعياد الثلاثة درس مفيد .

فأما درس الهجرة فاستعذاب العذاب في سبيل الحق ، والاستخفاف بأشد المصاعب في سبيل العقيدة ، والصبر على المكاره ، والعمل المتواصل حتى يأتي النصر .

هؤلاء حفنة قليلة من المؤمنين في مكة يصبرون على أذى العدو الكثير من صناديد قريش وعتاتها ، ولهم المال والجاه ، وكل وسائل الاضطهاد ، وكل قوة التقاليد الموروثة ، ولكن كل هذا لم يمنع النابتة الجديدة أن تظهر ، وأن تلح في ندائها بالوحدانية ، وأن تعلن دينها الجديد في مظان الفتك بها ، ولا بأس بالموت إذا الموت نزل .

العبد الذي لا عصبية له كبلال بن رباح الحبشي ، يخرجونه إذا حميت الظهيرة إلى بطحاء مكة ، ويمددونه على الأرض في الشمس ، ويأتون بالحجر العظيم يضعونه فوق صدره ، ثم يقولون له : لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فيكون جوابه « أحد ، أحد » ؛ والسيد ذو المال والجاه والعصبية كعثمان بن عفان يهدر عصبيته ويلبد ويهجر ؛ ويساء إليه في ماله وأهله ، فيحتمل كل ذلك في صبر ، وأخيراً لا هؤلاء يتحولون عن دينهم ولا يسكتون عن الدعوة ، ولا أولئك يكفون عن تعذيبهم واضطهادهم .

لم يبق حل إلا الهجرة ، وما أشقها على المهاجرين ! يتركون أهلهم ووطنهم ومصالحهم وعلاقاتهم وما ربوا إلى بلد جديد ليس لهم فيه أهل ولا مال ولا صلة ، ولكن كل ذلك هين ما بقيت العقيدة ، فهي وطنهم وهي أهلهم وهي مالهم .

وكان الرائي يرى أحد عشر رجلا وأربع نسوة فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، والزبير بن العوام ، وليلى العَدَوية مع زوجها عامر بن ربيعة يمشون على أقدامهم من مكة إلى اليمن ، وإذا تيسر لبعضهم في الطريق ركوب ركب ، ثم يستأجرون سفينة من اليمن إلى الحبشة بنصف دينار ، وينزلون بين قوم لا يعرفون لغتهم وعاداتهم ، ويتشقّون في الحياة طريقاً وعراً لكسب قوتهم وهذه هي الهجرة الأولى .

ثم يعودون إلى بلادهم وقد أتعبتهم الغربة وظنوا أن قريشاً ثابت إلى رشدها ، وكفت عن تعذيبها ، فوجدوا أن الحال أسوأ ، والعذاب أشد ، فعاد بعضهم إلى الحبشة ثانية ومعهم غيرهم ، وكانوا هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة .

والنبي نفسه (صلى الله عليه وسلم) يهاجر إلى الطائف أملا ثقيفاً تكون خيراً من قريش ، فتستجيب لدينه وتحمي دعوته ، فيقيم بها شهراً يدعو سادتهم فيجدهم وقريشاً في الشر سواء ، بل لم يراعوا حق الضيافة ولا كانت فيهم حمية النجدة ، فلم يسمحوا حتى بالرد الجميل ، بل حرضوا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء ، وعاد يائساً من ثقيف أيضاً ، ولكن ليس يائساً من ربه إذ يقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . اللهم إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي » .

ثم كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة بمشاقها ومصاعبها فكان بعضها خفية وبعضها علناً بمدعناب ، فالمهاجرون ، قد تعودوا جو مكة وألفوا معيشتها وجبالها وماءها ، وها هم أولاء يدخلون المدينة فلا توافق مزاجهم ، ويصاب كثير منهم بالحمى ، فكان أبو بكر تأخذه الحمى فيقول :

كل امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى هاجه الشوق إلى مكة فيرفع عقيرته ويقول :

« ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلةً
بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجَلِيلُ[1]
وهل أرِدَنْ يوماً مياه مَجَنَّةٍ
وهل يبدوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ[2]

اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء » !!

ولكن لا بأس فكل شيء هين إذا سلمت العقيدة .

وزال وباء المدينة كما زال وباء قريش ، وجاء نصر الله والفتح ، وأتم الله نعمته ، وأدى المسلمون الأولون الامتحان على خير وجه وأكمله مع ما بلغ من شدته وقسوته ، ثم رحلوا إلى جوار ربهم وخلفوا لنا درسهم قائماً : « أن العقيدة الحقة تصحح العزيمة وتبعث على العمل الدائب ، وتستخف بالمصاعب ، وتصبر على نار الامتحان حتى تخرج ذهباً إبريزاً ، وواجب كل أن يعمل للحق ما دامت له عين تطرف وبه جنان تحس ويد تعمل ، لا يخشى فقراً ولا تستعبده شهوة » والله لا يضيع أجر المحسنين » .

* * *

هذا وحي الهجرة ، أما درس السنة الميلادية فهو أن العالم يلتفت فيرى خامس عام يأتي والناس في شقاء ، فتحت أبواب جهنم فانطلقت منها زبانية الشر ! كم من الملايين يقتلون أو يشوهون ، وكم من الخراب والتدمير والفزع يصيب العالم مما لم يشهد له من قبل نظيراً ، وكم بيوت هدمت ، ونفوس فزّعت ، وأسر شتتت ، وحريات قيدت ،

(١) يريد بالوادي وادي مكة ؛ والإذخر نوع من الحشائش مكة له رائحة طيبة ؛ والجليل نبت صغير .

(٢) المجنة : موضع على أميال من مكة كانت به سوق جاهلية . وشامة وطفيل جبلان قرب مكة .

وآمال حطمت، مما لا يستطيع البلغاء أن يصفوه أو يصفوا عشر معشاره، فلم ذلك كله؟

لا يبرر هذا إلا أن يكون ألم المخاض لولادة عالم جديد أسعد حالا وأدق نظاما وأحيا قلبا وأصلح نفسا من العالم القديم.

إن هذه الحرب الحاضرة إعلان بإفلاس العالم الماضي، وكل كارثة مما يحدث معول لهدم قاعدة من قواعده؛ ليؤسس العالم بعد ذلك على قواعد نظيفة جديدة أساسها الإنسانية. إن العصر الحديث قد ولّد القومية وظلت تلهبها التربية والأدب والخطابة والسياسة حتى بلغت منتهى حدتها، وأفادت كثيراً من الفوائد، فاستخرجت من الأمم نشاطها وبعثت حيويتها، وجعلت تتسابق في ميادين التجارة والصناعة والاختراع، ولكن هذه المزايا كلها لا تساوي ما نشأ عنها من خصومات حادة بين الأمم سببها الحقد والبغض، والشعور العام بأحقية كل أمة في أسبقيتها، وخوفها من أن يسبقها غيرها، والتلهف على انتهاز الفرص لخطف المغانم قبل أن تخطفها أمة أخرى وهكذا، حتى نتجت هذه الحرب بما نشرت على العالم من تعاسة وشقاء يفوق مراحل ما خلفته القومية من المزايا التي ذكرتها.

فإذا كان العالم الآن يتمخض عن نزعة إنسانية، وإخاء شامل، وعمل للخير العام وشعور بالوحدة فحبذا هذه الضحايا للوصول إلى هذه الغاية.

هذه الأمم الكبيرة الآن تحاول — حتى في أيام الحرب — أن تصور المولود الجديد صوراً جميلة فيها التعاون على توفير الرزق، وفيها ضمان الحرية للأمم، وفيها التعاون العام بين الشعوب، وأكثر من ذلك أن فيها حياة القلب بجانب حياة المادة والعلم، وفيها تأكيد بأنهم يرسمون صورة جدية لا صورة هزلية، وأنهم اتعظوا بما أصاب مبادئ «ولسن» وعصبة الأمم من فشل، وأنهم لا يريدون أن يكرروا الغلطة أو يعيدوا المأساة.

لا شك أن هذا النظر الجديد يفيد الشرق كما يفيد الغرب؛ لقد كان الغرب في العالم القديم ينظر إلى الشرق نظرة التاجر القصير النظر يهمه الربح العاجل دون الربح الآجل، أو صاحب المصنع يستغل عماله، وهمه في نتاجهم لا في أنفسهم — أما في العالم الجديد فيسود الجميع الأمل أن لا مستغِل ولا مستغَل، ولا سيد ولا مسود، وإنما إخوة في أسرة، كل عدها بكفايته، والكبير يعطف على الصغير، والقوي يأخذ بيد الضعيف، والكلُّ يعمل لخير الكل.

هذا هو ما سيسود العالم المستقبل لا محالة، فإن عقل رُبان اليوم فهذه النتيجة حاصلة فوراً؛ وإلا فالحرب تلو الحرب، والخراب يتبع الخراب. حتى تكون النتيجة التي تحتمها الطبيعة ويريدها الله.

إن التاجر البعيد النظر يهمه أن يرقى عميله، وصاحب المصنع الحكيم يفضل مصلحة الصناع مع الفائدة القانعة — ولو قليلة — على فائدة كبيرة تحصل بالبغض والكراهية، كذلك العالم إذا سادته الإنسانية كان طيب القلب، واسع الصدر؛ يرحم الجائع حتى يأكل، والعاري حتى يلبس، والجاهل حتى يتعلم، والفاسد حتى يصلح؛ ويرى زمالة الضعيف خيراً من استعباده، ومصادقة الأجير خيراً من استذلاله.

وهذه النظرة العالمية ستسود بحمد الله طوعاً أو كرهاً، فالراعي الذي لم يعتنقها طوعاً تحمله الرعية على اعتناقها كرهاً، لأن كل شيء في العالم فتح عينها وأرهف أذنها وعلّمها ما لم تكن تعلم.

ولعل تقارب العامين الجديدين في البدء والاستهلال، ومصادفة المحرم لينابر في هذا العام، يكون إرهاصاً لطيفاً في الأخوة، وحل المشاكل بروح العدل، والنظر إلى الأمور بروح الإنسانية، واختفاء عهد الغالبة وقصر

قاض فاضل

هو أحمد بن بقى بن مخلد قاضى الجماعة بقرطبة على عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) كان أبوه بقى بن مخلد عالماً فاضلا ورعا زاهداً . وهو أحد الذين عرض عليهم القضاء فأبوا قبوله تحرجاً ؛ وذلك أن أمير الأندلس المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥) أراد أن يوليه القضاء فأبى . فذهب إلى استكراهه فاعتذر اعتذاراً لطيفاً وقبل الأمير عذره . وقد نشأ ابنه أحمد نشأة حسنة جميلة ، وعرف منذ حداثة سنه بالفضل ، ووسم بحب الخير . وكان أمير الأندلس عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠) يشاوره ويأخذ برأيه مع أن سنه إذ ذاك لم تكن تعدو خمسا وعشرين سنة . فلما تولى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الخلافة ولاه صلاة الجماعة بقرطبة ، ثم ولاه بعد ذلك قضاء الجماعة بها وأقره على الصلاة التى كان عليها ، وذلك فى سنة ٣١٤ هـ .

* * *

وكان منصب قاضى الجماعة بقرطبة أحد المناصب الثلاثة التى تعتبر أركان الحكم فى الأندلس على عهد بنى أمية ، وهى (١) إمارة الثغر الأعلى بسرقسطة (٢) إمارة الأسطول بالمرية (٣) قضاء الجماعة بقرطبة . وربما كان قاضى الجماعة يأتى لمنزلته الدينية ومكانته الاجتماعية بعد الحاجب الذى كان عندهم بمنزلة رئيس الوزراء عندنا ؛ وكثيراً ما كانوا يلقبون قاضى الجماعة بالوزير القاضى تفخيما لشأنه وتعظيما لقدره . وكان اختصاصه عندهم يشمل النظر فى المواريث والوصايا والتحجير والأحباس وأموال اليتامى وقضايا الطلاق ، وقد تجمع له فوق ذلك إمامة الصلاة العامة ، وهى صلاة الجمعة والعيدين وصلاة الاستسقاء ، كما كان الإشراف على الحسبة داخلا فى اختصاصه . من أجل ذلك كانوا لا يسندون قضاء الجماعة إلا إلى كل من عرف بغزارة

النظر ، وحلول الأخذ باليد محل روح الاستغلال .

وأخيراً نرجو أن يحوز العام الجديد وسام الشرف بحمله البشرى السعيدة بولادة العالم الجديد المؤسس على الإنسانية والعدل ، وحياة الضمير .

* * *

وتستقبل « الثقافة » عامها السادس مغتبطة بماضيها رغم ما أحاط بها من ظروف الحرب القاسية فى المادة والمعنى ، آملة فى مستقبلها بفضل ما ترى من التفاف قرائها حولها ، وشعورهم بالاتصال الوثيق بها ، ينقدونها إذا أخطأت ، ويوجهونها إلى ما يفيدهم إذا غفلت ، ويزيد « الثقافة » كل يوم وازدياده كل عام دليل على تأكد هذه الصلة الروحية ونموها ؛ و « الثقافة » من جانبها تصغى لنقد الناقد ، وتوجيه المفكر ، واقتراح المقترح ، وتشعر بأن ذلك كله دليل على اهتمام القارئ وشدة ارتباطه بالمجلة ، ورأيها وقراءها مدرسة يتعاون أعضاؤها على نشر العلم على خير وجه ممكن ، والوصول إلى المبادئ الحقة والمعلومات الصحيحة بقدر المستطاع ، أو قاعة محاضرات واسعة تلقى فيها الآراء المختلفة فى حرية ، وتعرض للبحث والنقد فى صراحة حتى تتجلى الحقيقة من وجوهها المختلفة ، فإن لم نصل إلى هذا كله كاملا فلا أقل من احتياطنا بالسير فى سبيل تحقيقه .

وقد يعوق الوصول إلى الغاية ما اقتضته ظروف الحرب من تقييد القول وتحديد حرية الرأى ؛ والحرية هى الغذاء الوحيد الصالح للصحافة وللرأى العام ، حتى يتجلى الحق من جميع وجوهه ؛ فإذا نحن أملنا فى العام الجديد تمتين الرشون لسلام العالم وطمأنينته فإننا نأمل فيه أيضاً أن يرد إلينا حريتنا كاملة ، حتى تؤدى الصحف والمجلات رسالتها كاملة ، والله الموفق .

أحمد أمين

العلم والبراعة في الفقه ، ووصف بالفضل والورع ونزاهة الضمير . ولعله لم يتول قضاء الجماعة بقرطبة رجل أجمع لتلك الخصال من أحمد بن بقي ، حتى ليمكن اعتباره المثل الصالح للقاضي الشرعي في عصر ازدهار الدولة الإسلامية بالأندلس .

* * *

كان ذا معيشة سهلة ساذجة ، « إذا طرقه ضيف ليلا لم يذبح له شيئاً من الطير ، وقال الليل أمان لها ، ويقتصر على العسل والسمن والبيض وما شاكل ذلك فيقربه إلى الضيف » .

وكان متواضعاً ، سئل مرة عن نسبه وولائه فقال ولاؤنا لامرأة من أهل جَيَّان . وكان ولي عهد الدولة الحكم المستنصر يعجب من صدقه في ذلك ويقول : لو شاء لادعى أشرف الأنساب ثم لا يجد في ذلك مكذبا .

وكان رءوف القلب ، رفيق العقوبة إذا عاقب . جاءته مرة امرأة تخاصم زوجها فجعلت تستطيل على زوجها بلسانها وتؤذيه بصافها ، فنظر إليها ابن بقي وقال لها : أقصري ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت المرأة شيئاً ثم عاودت الصلف ، فقال لها القاضي مرة أخرى : أقصري ! وإلا عاقبتك ! فانكسرت شيئاً ثم عاودت الصلف . عند ذلك عطف عليها أحمد بن بقي فجعل يقول لها : أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! أنت ظالمة ! ثم قال : ألم أخوفك من قبل هذا ؟ ولم تزد عقوبته المرأة على ذلك .

وكان كثيراً ما يدرأ الحدود الشرعية بالشبهات يتعمدها تعمداً وسياسة منه للعامة ورفقاً منه بها . قالوا أتاه المحتسب مرة برجل به رائحة الشراب ، فقال القاضي لكاتبه : استنكهه ! ففعل ، فقال : نعم ! عليه رائحة الشراب . فظهر بوجهه الكراهية لذلك ، ثم قال لآخر ممن كان حاضراً بمجلسه : استنكهه أنت ! ففعل ، فقال : أجد رائحة ولا أدري إن كانت رائحة مسكر أم لا ؟ فتهلل وجه القاضي وأمر بتخلية سبيله .

* * *

ومع أنه كان رءوف القلب رفيق العقوبة يرى الرفق والتجاوز في كثير من المواطن أبلغ من العنف والمؤاخذة ، فإنه كان في صميم واجبه القضائي مثال الدقة والدأب والاستقصاء . كان لا يوقع شهادته في وثيقة حتى يقرأها من أولها إلى آخرها . من ذلك أن صديقاً له أرسل إليه مرة بوثيقة كتبها على رجل غال ليشهده عليها . وقد ذكر في الوثيقة سبباً يجعلها واهنة . فلما قرأها ابن بقي وتبين له ما فيها من الوهن كره أن يوقع عليها على ذلك الوهن ، وكره ألا يوقع عليها فيسخط صديقه ، وكره أن ينبه المشهود عليه إلى وهنها . فأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال للمشهود عليه أتشهدني على أن لفلان عندك كذا وكذا مثقالا إلى أجل كذا وكذا ؟ قال نعم ! فعقد شهادته على هذا اللفظ بعينه لا غير .

كان جم العناية بأمر الوثائق خاصة ، شديد التعقب عليها . وكانت الوثائق يحررها رجل اسمه محمد بن إبراهيم ابن الحباب كثير الزهو والاعتداد بعمله ، فغاظه تعقب القاضي عليه وقال : من أين يتعاطى ابن بقي أنه أعلم بالوثائق مني ؟ وبلغ قوله القاضي . فانتهز فرصة عرضه عليه وثائق ، واستفرغ جهده في التعقب عليها حتى أخذ عليه مواضع أبانها له وأمره بتغييرها ، فغيرها وأتاه بها . فانتقد عليه فيها مرة أخرى . فأرسل إليه ابن الحباب يقول : إني أقر لك أنك أعلم بها مني وأشهد بذلك ، فدعني من كثرة هذا البحث والكشف وإلا حلفت ألا أكتب وثيقة ؛ فتركه ابن بقي بعد ذلك وسامحه .

* * *

وكان من عادة ابن بقي فيما يتخاصم عنده فيه أن ينفذ الظاهر البين ، ويستعمل الأناة والتؤدة فيما التبس عليه منه ، حتى تظهر له الحقيقة أو يصير المتخاصمان إلى التصالح والتراضي . وربما جر ذلك التمكث والتمهل في القضايا المشتبهة إلى تأخير الأحكام زمنا طويلا قد يضجر الخصوم . وقد عيب عليه ذلك في حضرة الخليفة الناصر وربما عرف

به من لين الجانب ، فقال : أعوذ بالله من لين يؤدى إلى ضعف ، ومن شدة تبلغ إلى عنف ؟ ثم جعل يذكر فساد الزمان واحتيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التي لا تتبين له حقيقتها ولا يكشف له وجهها ، ثم قال : قد اشتبه على عمر بن الخطاب رضى الله عنه خصومة قوم طال نظره فيها ، فكره أن يحكم مع الاشتباه فأمرهم بابتداء الخصومة من أولها .

ومما يصدق مذهبه هذا في التوقف عند الشبهات أنه رفعت إليه خصومة وقعت بين الحاجب محمد بن موسى — والحاجب عندهم كما قدمنا بمنزلة رئيس الوزراء عندنا — وبين رجل اسمه يحيى بن إسحاق . وكانت شهادة الشهود في مصلحة الحاجب . ولكن القاضي اصطنع الأناة ولم يعجل الحكم لشبهة وقعت في نفسه . فأرسل إليه الحاجب يقول « قد عرفت محبتي لك ، وشجى بجميع أسبابك ، وقد دار عندك على يحيى بن إسحاق ما قد علمت من المخاصمة ، وقد شهدت عندك البينة العدول ، وتأنيت عن الحكم عليه » . فقال القاضي للرسول : « تبلغ الحاجب عنى السلام وتقول له : إن محبتنا كانت لله ولوجهه ، ويحيى بن إسحاق وغيره في الحق سواء ، وقد دخل على ارتياب ، ولا والله ما أحكم على يحيى بن إسحاق بشيء ، حتى يتضح عندي أمره بنور كاتضاح الشمس في الدنيا ، فإنه لا يجير في أحد من يحيى بن إسحاق إن جافاني الخصومة بين يدى الله » . فأدى الرسول هذه المقالة للحاجب وهو ساكت لا يقول شيئاً . وجعل بعض من حضر من الوزراء يقع في القاضي ويبدى ويعيد في ذلك . فتحول الحاجب إليه أخيراً وقال له : « يا أخى ! القاضي والله رجل صالح ، ولا زال بخير ما كان هو وشبهه بين أظهرنا . . .

والله ما زاده فعله عندى إلا محبة واعتقاداً » .

* * *

قالوا وكان أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر يثق به ويجله ويعرف حقه ولم يعزله من القضاء حتى توفى سنة ٣٢٤ عن أربع وستين سنة .

عبد الحميد العبادى

الإلهام والوحي
في حياة الرسول

لعل « محمداً » عليه الصلاة والسلام هو الرسول الوحيد الذي حفظ التاريخ من نواحي سيرته ما يفتح أمام الفكر آفاقاً جديدة من البحث في طبيعة النفوس العظيمة . ومع أن مصادر هذه السيرة لا تزال في حاجة إلى التمحيص والتحقيق ، فإن معالمها راجحة الصحة ، لقوة أسانيدها ، ولانطباقها على ما يقتضيه منطق الحوادث والاجتماع ، ولتكرر الإشارات إليها في القرآن — وهو مرجع ثبتت صحته من الوجهة التاريخية .

ومن أدق ما يستلفت النظر في حياة الرسول من الوجهة العقلية تلك اللحظات التي كان يخرج فيها عن مألوف كيانه الجثماني والنفساني ، ويتصل بآفاق علوية ملهمة يتلقى عنها فيوضاً من الإلهام (inspiration) والوحي (revelation) ، حتى إذا سُرّي عنه هتف لسانه بما أُفيض عليه من سورة أو حديث . وقد توخى الرسول الدقة في وصف هذه اللحظات ، ولم يفُت أصحابه أن يلاحظوا ما كان يعتريه أثناءها من أحوال ؛ « فعائشة » تصف المراحل التمهيدية للرسالة فتقول : « أول ما بُدئ به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، فمكث على ذلك ما شاء الله ، ثم حُبّب إليه الخلوة — فلم يكن شيء أحب إليه منها ، وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله — ثم يرجع إلى « خديجة » فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء » . وتصف حاله أثناء الوحي فتقول : « كان .. إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ، ويتربد وجهه ، ويجد برداً في ثناياه ، ويعرق حتى يتحدر منه مثل الجمان » . ويسأله « الحارث بن هشام » : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فيقول : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس — وهو أشده عليّ — فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال ؛ وأحياناً يتمثل لي فيكلمني فأعي ما يقول » . ويذكر « ابن عباس » أن رسول الله كان يعالج من التنزيل شدة — يحرك به شفتيه — فأنزل الله : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) أي إن علينا جمعه في صدرك ثم تقرؤه ، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) ، أي استمع له وأنصت ، (ثم إن علينا بيانه) أي ثم علينا أن تقرأه . — فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع له ، فإذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه .

رجع علماء الإسلام إلى هذه الآثار ، وما أشبهها فاستخرجوا منها كيفيات للوحي ، يعدّها « السيوطي » — مثلاً — في « الإتقان » خمساً : إحداها أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّ حالات الوحي عليه ؛ والثانية أن ينفث في روعه الكلام نفثاً ؛ والثالثة أن يأتيه في صورة الرجل فيكلمه — وتلك أهونه عليه ؛ والرابعة أن يأتيه الملك في النوم ؛ والخامسة أن يكلمه الله إما في اليقظة أو في المنام . وقد ذكر العلماء فيما ذكروا أنه كان للتنزيل طريقان : (أحدهما) أن النبي « ص » انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية ، وأخذه من جبريل ؛ و (الثاني) أن الملك انخلع إلى البشرية حتى أخذه الرسول منه .

وبعد ، فكيف يعالج الفكر الحديث موضوع الإلهام والوحي ؟ إن اتجاه الدراسات العلمية الصحيحة إلى التجارب الدينية أمر حديث العهد ، ساعدت على نشأته المادة التي جمعها علماء السلالات البشرية عن القبائل البدائية وشعائرها ، ومهدوا بها السبيل لنشوء علم الدين المقارن ؛ ثم المادة التي جمعها علماء النفس عن ظواهر التصوف والتدين ، والحماسة للأفكار والدعوات الدينية ، والتحول من عقيدة إلى أخرى ، والصلاة وتأثيرها ،

والتجلى وخطاته ، متذفعين فى ذلك ببعض التأملات ، والتراجم الذاتية التى خلفها أمثال « أوغسطين » و« الغزالى » و« كارليل » و« نيمَن » و« فوكس » ، وغيرهم من زعماء حركات الإصلاح والإحياء الدينى منذ العصور الماضية إلى أيامنا هذه . وهؤلاء العلماء حريصون أن يُنَبِّهوا إلى أن العلم لم يخترع بعد من الخطط والأساليب ما يمكن من دراسة هذه التجارب الروحية دراسة دقيقة ، وحريصون كذلك على أن يفرقوا بين الدراسة الوصفية لهذه التجارب ، وبين الحكم عليها من جهة قيمتها أو صحتها أو أصالتها . وهم حين تمتد بهم الدراسات إلى أشخاص الأنبياء يصطدمون بعقبات ليس من الصعب تخطيها : فجمهرة الأنبياء قد عاشوا فى أزمان متطاولة فى القدم ، وتواريخهم غير مدونة إلا فى القليل النادر ، وتجاربهم التى يتحدثون عنها تتصل بآفاق لم يقبس من سناها إلا القليل من بنى الإنسان . غير أن العلماء الحديثين قد توافر لديهم من المعلومات التجريبية ، والنظرية عن العقل الإنسانى ما جعلهم يشبهونه — كما يقول « ستانلى هول » — بجبل الثلج العائم فى المحيط ثُمْنُه ظاهر فوق الماء ، وسبعة أثمانه تحت السطح — فالجزء الظاهر من العقل هو الشعور ، وسبعة الأثمان ما تحت الشعور . وهذه الطبقات العقلية المستترة هى مهبط الإلهام على اختلاف درجاته ، ولا حدّ للآفاق التى تستطيع الاتصال بها ، والينابيع التى تقدر أن تغترف منها . ومن عجيب أمر هذه الطبقات العقلية فى بنى الإنسان أنها موطن الحيوية الجياشة ، وملتقى التيارات المختلفة من الرغبات والانفعالات ، ومن الصور والذكريات التى ترتسم فى النفس من عهد الطفولة ، أو تنحدر إليها مع تراث الماضى ، أو تنبثق فيها من تجاريب الحياة ومآسيها ، وخيالاتها وأحلامها ، وأطماعها وآمالها ، وقصصها وأشعارها ، وكتبها وأساطيرها . فكل أولئك يتجمع

ويحيا فى طيات العقل وحناياه ، ثم لا يلبث أن يجد طريقه — صريحا أو مقنعا — إلى آفاق الحياة السلوكية أو التعبيرية ، فى صور قد لا نجد لها فى دائرة الشعور أسبابا معقولة ظاهرة . فتارة تشق طريقها إلى عقولنا الشاعرة على أجنحة الرؤى والأحلام ؛ وأخرى تُسَيِّرنا من حيث لا نشعر فتتحكم فيما يعرض لنا من أحوال الحب والكراهية ، والرضا والغضب ، واللذة والألم ، والتذكر والنسيان ، والصلاح والفجور ، ولكنها كثيرا ما تختار لظهور آثارها ميدان الإنتاج الذهنى والفنىّ من كتابة أو خطابة أو شعر أو تصوير أو غيرها . فإنك ترى الكاتب — مثلا — والفكرة تدور برأسه أياما ، وهو يعالج منها ما يعالج فى غدواته وروحاته ، حتى إذا حَمِىَ الفكر وتتابع أوى صاحبنا إلى مكتبه تجرى قلمه على القرطاس سهلا طيعا كأنّ مُمليا يملى عليه . وترى الخطيب على منبر البيان ، وقد بدأ متعثرا لا يكاد يقيم جملة على أخرى حتى إذا اضطرب كيانه النفسى وحميت الحماسة جوانبه ، تدفق فى خطابته وامتلك زمام جمهوره . وترى الشاعر وقد لجأ إلى خلوة من خلواته على منعطف نهر أو شاطئ بحر ، وفى روضة مزهرة أو صحراء مقفرة ، وقد ماجت جوانب نفسه بأنغام مختلفة كما تموج الخلية بجلبات النحل ، وربما مرت عليه ليلة بأكملها ، وخلع ضرس من أضراسه أهون عليه من قول بيت شعر ، حتى إذا تفتحت له خزائن الفيض الشعرى انهالت عليه المعانى انهيالا ، وجاءته الأبيات ممسكة بأعنة قوافيها ، وخطبت وده كل عذراء من بنات القريض .

هذه اللحظات — التى يبدو فيها المنتج الفنى وكأنه خرج عن حاله الظاهرة إلى حال أخرى باطنة ، أو كأن كنوز العبقرية الفنية قد تفتحت له بعد أن كانت مغلقة — هى التى يعنيها الناس فى الغالب حين يتكلمون عن لحظات الإلهام الفنى ؛ وهى التى إذا واتت رجل الفن جاء إنتاجه عبقريا ملهما ، وجاءت آثاره رائعة خالدة . وهذا النوع من الفنانين تعرفهم بسيماهم من أثر الفيض الباطنى ،

وتستطيع أن تفرق بينهم ، وبين الشعوريين الذين يجيء إنتاجهم وليد التفكير والإتقان ، والذين يعتمدون في خلقهم الفكري على عقلهم الواعي ، وإرادتهم الشاعرة ، أكثر مما يستمدون من عقلهم الباطن وخواطرهم المدخرة . وتاريخ الفن في الأمم المختلفة حافل بالإشارات إلى هـذه الينابيع العميقة التي كانت تنسب في القديم إلى قوى خارجة عن طبيعة الإنسان ، والتي زعم العلماء المحدثون أنهم وجدوا أصولها فيما وراء الشعور من طبقات العقل الإنساني ، مستدلين على ذلك بما قرره كثير من مبدعي الفنون من أنهم أنشأوا أروع أعمالهم وهم في غيبوبة حالمة ، وبما يلجأ إليه بعض الفنانين أحيانا من الاستعانة على تنبيه الإلهام بتخدير الحواس الظاهرة بوسائل مصطنعة .

إذا صح هذا أفلا يكون من المعقول أن نتصور التصوف والتدين والصلاح الديني على غرار الفنان في إلهامه ، وأن نجد لأحوال هؤلاء وإنتاجهم الروحي مصادر في مقاصير عقولهم العميقة ؟ وهل نستطيع أن نخطو خطوة أوسع فنتصور جانبا كبيراً من إلهام النبي على هذا الطراز ؟ النبي بشر ، وإذا كانت حكمة الله قد اقتضت أن يختار من البشر أنبياءه ورسله ، فهو القادر على أن يزود هذا الصنف من الخلق بأسمى أنواع الاستعداد لفيوض إلهامه ، وأن يمدها بالعلامات القاطعة التي تفرق بهـا بين الإلهام الصادق والوسواس الخادع .

لقد حرص محمد (ص) على ان يذكر أصحابه وأتباعه — بين فترة وأخرى — بأنه ليس إلا بشراً رسولا ، وردد القرآن هذه الحقيقة أكثر من مرة : (قل إنما أنا بشر مثلكم) . (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) . وأكدها « أبو بكر » قوية مقنعة يوم أن كاد المسلمون يفقدون رشدهم لوفاة الرسول ، فتمثل بقوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم !) . وقد عاش الرسول أيام رسالته إنسانا يأكل ويشرب ، وينام ويصحو ، ويحارب ويجاهد ، وينتصر وينهزم ، ويجوع ويألم ، ويسر ويحزن ، وتدمع عيناه لموت ابنه إبراهيم ، فيقول أصحابه : يا رسول الله — أتبكي وأنت رسول الله ! فيقول : « إنما أنا بشر ، تدمع العين ، ويخشع القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » . ويتنزل عليه الوحي فيعتريه شبه ما يعتري الأناسيّ حين تحل بهم تجارب نفسية قاسية ، فيكرب ويتربد وجهه . وتلك تجارب إذا نظرنا إليهـا باعتبارها تجارب بشر رأينا فيها استمراراً لحالات ومقدمات سبقت النبوة ؛ فقد عاش محمد في شبابه عيشة الشاب الصالح ؛ وعُرف بين قومه بأخلاق هي في عرف المجتمع البشري أخلاق القديسين ؛ فكان يصل الرحم ، ويصدق الحديث ، ويؤدي الأمانة ، ويحمل الكَلّ ، ويعين على نوائب المعروف ؛ وكان أبعد ما يكون شاب عن لهو الصبا وضلالاته ؛ وكان لا يحضر مجامع الأصنام التي كانت تعظمها قريش ، وتنسك لها النساك ، حتى كان من ذلك أن غضب عمه « أبو طالب » وغضبت عليه عماته ، وجعلن يقلن : « إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا — أما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً أو تكثر لهم جمعاً ! » وقد حدث مرة أن أجاب داعي قومه ، فذهب فغاب ما شاء الله ، ثم رجع مرعوبا فزعاً ، فقال له عماته : ما دهاك ؟ قال : « إني أخشى أن يكون بي لمم » : فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك — فما الذي رأيت ؟ » قال : « إني كلما دنوت من صنم تمثل لي رجل أبيض يصيح بي : وراءك يا محمد ، لا تمسه » . قالت أم أيمن — راوية الخبر — « فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ » .

فالأخبار التي بين أيدينا عن الرسول — إذن — تبعث على الظن بأنه كان يأخذ نفسه في شبابه ورجولته بنوع من الرياضة والعبادة ، والاستعداد لأمر كان في الغيب ؛ فقد كان يحب الخلوة إلى نفسه ، وكان يختلف إلى

الغار يتحنث فيه ، وربما أخذ أهله معه فكانوا في جواره مدة تحنثه ؛ وكان جو أهل الكتاب من حوله يرهص بنبي عربي قد آن أوانه يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، وكان من أهل الكتاب أنفسهم أفراد انقطعوا للعبادة ، كلهم يرجو أن يكون ذلك الرسول ، بل يذكر بعض الباحثين الحديثين ممن تفرغوا لدراسة أنبياء بني إسرائيل أنه كانت منهم في القديم طوائف تنقطع للرياضة والاستعداد للنبوة . وطبيعي أن يكون بعض العرب قد وصل إليهم نبأ دعوة إبراهيم : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْن لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرِنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .

والظاهر أن « عبد المطلب » كان يلمح في حفيده وهو صبي مخايل النجابة ، وبعد الهمة ، فكان يأنس به ويشجع فيه روح التطلع إلى معالي الأمور ، فقد ذكروا - مثلاً - أنه كان يُفرَش لعبد المطلب في ظل الكعبة فراش ، ويأتي بنوه فيجلسون حول الفراش ينتظرون عبد المطلب ، ويأتي محمد وهو غلام جَفر (ممتلئ الجسم) حتى يرقى الفراش فيجلس عليه ، فيقول أعمامه : مهلا يا محمد عن فراش أبيك ! فيقول عبد المطلب — إذا رأى ذلك منه — « إن ابني هذا ليؤنس مُلكا — أو إنه ليحدث نفسه بمُلك »

إن التتبع لهذه الأخبار وللجو السياسي والاجتماعي والديني الذي عاش فيه محمد قبل أن يختاره الله لرسالته يجد نفسه ميالا إلى تأكيد الجانب الإنساني من شخصية الرسول ، ويحس أن في هذا التأكيد إضافة لعظمة محمد ، وفهما لنواحي نفسه الكبيرة ؛ فالراجح أنه صلوات الله عليه جاهد كما يجاهد كل بشر في سبيل أهداف روحية سامية قد لا تكون معالمها تحددت في ذهنه قبل أن تجيئه النبوة ؛ وقد أخذ نفسه بضروب الرياضة والتأمل حتى كانت جديرة بأن تكون صاحبة أروع كتاب وأخلده على مر الأيام ، ولا بد أن تكون سنو الرياضة هذه قد جعلت من جوهر عقله ينابيع صافية ملهمة ، وقد جاء القرآن الكريم يصور موقف الرسول من الدعوة كما يمثل نفسه في حالَيْ حرارتها وهدوئها ، وحماستها واطمئنانها وتغنّيها بمجد بارئ السموات والأرض ، وعملها الهادئ في التقنين والتشريع ، فكان من ذلك السور المكية والسور المدنية ، أو سور الموسيقى والحماسة والتأثير ، وسور التشريع والتروية والتفكير .

يقول « نيكولسون » (في كتابه التاريخ الأدبي للعرب) : « إذا أردنا أن نلتمس دليلا على موهبة النبوة عند محمد فلنلتمسه في السور القصيرة الواردة في نهاية القرآن . هذه السورة كانت أول ما نزل — وإنك لترى فيها شعلة الإلهام تتقد خالصة في قوة طبيعية غير منقوصة » .

والمنصفون من الباحثين الأوربيين متفقون على أن متن القرآن كما وصل إلينا صحيح صحة تسمو على كل شك ، وأنه بجانب كونه كتاب دين — وثيقة جليلة الخطر تصور مراحل الدعوة وشخصية الرسول محمد ، وتتصل بحوادث حياته النبوية اتصالا وثيقا ، وأن محمدا لم يكن مدعيا ولا مُزَوِّرا ، ولا مريضا بأعصابه ، ولا مضطرب الطبيعة النفسانية ، ولكنه كان بشرا صادقا ، ورجلا عبقريا ، ونبيا ملهما .

محمد خلف الله

العلم بين الكفر والايمان

للدكتور أحمد زكي بك

دخل المساء ، وأخذت نفسي ، في حجرات ذلك البيت الضيق الأضواء ، إلا حجرة واحدة ، هي أكبر ما في البيت من حجر ، ظلت مُعتمة ، لأن من عادتها أن تزخر بالنور والناس معاً . وتقدّم الليل ، ودخلها الزائر الأول ، فالجليس الثاني ، فالثالث ، وازدحمت حتى لم يبق فيها موضع لقاعد . وأخذ القوم في الحديث رهواً . وهو حديث ، وهم جمع ، لا يشبهه أو يشبههم شيء ، مما يجتمع عليه الناس في هذه الأيام . فهو وهم أشبه بحديث تلك « الندوات » الشرقية القديمة التي كان يجتمع فيها ذلك النفر العتيق من آبائنا وأجدادنا ، يجتمعون على السمر ، وتبادل الفكر ، وتقارع الحجيج ، ويجتمعون فيها في وقت معتاد ، ولكن على غير ميعاد ، وبحضور صاحب البيت وفي غيبته ، فالحجرة للجميع وإن خصّت صاحب الدار ملكاً .

بدأ الحديث رهواً كما قدّمت ، وأخذ كلٌّ بطرف من أطرافه أخذةَ رفق لا يبالي صاحبه شدّ أم أرخى . وإذا بعض من أعيان المجلس يُدعى ، فيخرج ، ثم لا يكاد يخرج حتى يدخل ومعه ضيف ذو مقام ، فيقدّمه إلى المجلس بما يتطلبه المقام من كلمات طيبات وتحيات عاطرات .

وتراءى لي الضيف الكريم من أول وهلة غريباً في أطواره . وتراءى لي من دون هذا الجسم شخصيةٌ قوية عاتية ثائرة ، كان مما أثارها احتواء هذا الجسم إياها ، فتلوّت فيه عنيفةً تريد لها منه مخلصا ، فتلوّى الجسم بتلوّيها ، فانحنى ، ثم سكنت العاصفة في منتصف الطريق ودام للجسم انحناؤه . وطُلبت القهوة له ، فطلبها قهوةً مُغلاةً . وكل قهوة بالطبع مُغلاةٌ ، وإذن فلا بد من شرح . فهي قهوة وصفها كذا وكذلك تم هكذا . وابتسم

صاحب الضيافة لتلك الأوصاف الجديدة ، وقال : هل من مزيد ؟ وكان الرجل في طلبه ووصفه ظريفاً أخّاذاً ، ذكّرني بشيطان « بابيني » في ظرفه ولذّة حديثه .

وشيطان « بابيني » ، على ما وصفه كاتب « الثقافة » في عدد فات ، مخلوق خفيف الروح ، لن تجد أشد منه تسامحا ؛ فهو يعرف ظلم الناس وشرهم وخشاهم ، ولكنه لا يستفزه شيء من الغضب عليهم ؛ وهو هادئ الطبع ، مبتسم . وإذا جرى ذكر الله على لسانه قال إن الله عادل رءوف ، فقد زحزحه عن السماء ، ولكنه عطف عليه فهيّد له ضاحية لا بأس بها على ظهر هذه الأرض .

وغشيت الجمعَ من كل هذا سكتة ، وظلّوا صامتين ، كلٌّ ينتظر لساناً يقطع السكوت . فكان هذا اللسان لسان صاحبنا الضيف ، شيطان « بابيني » .

قال : كنت أقرأ كتابا لرجل فرنسي في الإلحاد ،

فقلت في نفسي : إ فتاح . وقلت : مقدّمةٌ تجري إلى غايتها .

قال : ومع أنه كتاب في الإلحاد فقد بدأه كاتبه بالحمد لله

قلت : ضربٌ بيد ، فلما مات ، أسندها بالأخرى .

قال صاحب الضيافة يعزّز تلك الضربة السائدة : هذا يذكّرني برجل ملحد ظل يعلن إلحاده لصاحبه ، وهذا لا يصدّق ، فلما ضاق بالإنكار ذرعا ، صاح في غضب يقول : والله العظيم إني لملحد . وضحك الجميع ، وضحك الضيف مع الضاحكين .

وعاد شيطان « بابيني » يقول معتذرا عن فلتة صاحبنا الناشئ : إن المرء لا يستطيع أن يتخلّص من ماضيه فجأة ، ولا أن ينزع ثوب إيمانه ، وهو ثوب ذو طبقات ، دفعة واحدة . ولابد له من التنفذ الطويل حتى يصبح في الكفر أستاذا .

قال هذا وسكت . لقد وضع الكرة في أوسط الميدان

وتربّص أحد اللاعبين أن يتقدّم بقدمه ليضرب الكرة فيبدأ بها الشوط ، ولكن الحاضرين ظلّوا صامتين كأنما يتطلعون « إلى ماوراء عصام » .

وحقق عصام الرجاء . واستطرد صاحبنا الضيف فى حديثه ، حتى قالها قولة جامعة : إن الدين علم الأقدمين ، وإن العلم دين الأحدثين .

فبهذه دحرج الكرة شيطانُ « بابيني » دحرجةً لم تستطع عليها الأقدام صبرا ، فأخذت كلُّ قدمٍ حصّتها من النزال .

قال أحد الجلساء : حسبت الأمر هزلا فإذا هو جدٌّ ، وإذنْ فالأحرى بنا أن نعرّف الدين ونحدّده ، حتى يكون النقاش على بيّنة . إن الدين يتعلق بأشياء تتضمّن الأخلاق الفردية ، والمعاملات الاجتماعية ، والعبادات والعقائد . فالأخلاق مثلا كيف يصنعها العلم ؟

قال الشيطان : يصنعها بألا يقال للطفل لا تكذب فإن للكذب عقابا ، واصدقْ فإن للصدق عند الله ثوابا ، ولكن يقال له لا تكذب حتى لا يكذب عليك غيرك فيضرّك كما ضرَرْتَ ، واصدقْ حتى يصدق معك غيرك فينفعك كما نفعت ، فيكون أساس الخلق فى المجتمع ما يصيب المجتمع منها ، وما يصيب أفراده بالتبع ، من منافع وأضرار . وإلا فما خير أخلاق تباع بالثمن كما تباع السلع فى الأسواق ؟!

قال الجليس الأول : هذا يذكرنى بقول المعرّى :

أتحبُّ قوما لم يحبوا ربّهم   إلا لفردوس لديه ونار ؟

قال جليس ثانٍ : إن الإيمان طبقات ، ليس من أرفعها هذه الطبقة التى تصف . وكيف يراد بالطفل أن يفهم المجتمع وهو لا يكاد يتصور معنى الأسرة . والطفل فى أخلاقه الأولى بهيم ، والبهائم إحساسها بالمجتمع ومعنى المجتمع ضعيف . والأطفال فى الناس كثيرون وإن كبرت أعمارهم .

قال جليس ثالث : على أنى لا أكاد أدرك الفرق بين رجل يقال له اصدقْ ، لأن للصدق ثوابا عند الله ، وبين رجل يقال له اصدقْ ، لأن للصدق ثوابا عند المجتمع ، يأتيك ويعود عليك من أهل بيئتك جزاءً على جميلك . كلا الثوابين ثمن لبضاعة .

الجليس الأول : ولم لا نحسب أن ثواب المجتمع من ثواب الله . على أن أرقى درجات الإيمان أن يصدق الصادق للصدق وحده ؟!

الجليس الثالث : إن من أسخف ما أسمع ، ولا تؤاخذنى ، هذا الذى يقال من أن يفعل الرجل لقصد الفعل وحده .. فهو يصدق للصدق وحده ، وهو يحب للحب وحده . استطردْ وقل معى إنه يأكل للأكل وحده ، لا للذة التى يجد ، أو أنه يبكى للبكاء وحده ، لا للألم الذى يجد ، أو قل معى إنه يحيا للحياة وحدها ، أو يموت للموت وحده ، يتبينْ لك سخف الفكرة التى تقول إن إنسانا يفعل كذا بقصد الفعلة وحدها . إن الحياة فعل وانفعال ، وأسباب تنتهى إلى غايات ، وهى عند ذوى اليقظة من الأحياء مقارَضات ، وصفَقات متبادَلات ، لا شارٍ فيها ولا مشروٍ . وقد تخفى من الصفقة البضاعة ويَبين الثمن ، وقد يخفى الثمن وتَبين البضاعة ، وإنى لأعيذك بالله ، أو إن شئتم فبالشيطان ، أن تسموا مثل هذه البضاعة هبةً ، أو تسموا مثل هذا الثمن جودا .

وأخذ القوم فى هذا النقاش الأخلاق ساعة ، حتى نبّههم منبّه إلى ما انساقوا إليه .

قال الجليس الرابع : مهلا أيها الإخوان . إن النقاش على ما فهمتُ شىء بين الدين والعلم . وإذا ذُكر الدين فى هذا المعرض فإنما يُقصَد به إلى ما فى الدين من عقائد . ونقصد بالتخصيص إلى فكرة الله . فما للعلم الحديث والأخلاق ، أو صنوف العبادات ؟ والضيف الفاضل الذى فتح هذا الباب إنما فتحه بالحديث عن كتاب للحد ،

والإلحاد إنكار الذات الإلهية ، فى ذات الله ذكّروا الحديث . فالقضية أن العلم الحديث ينفى فكرة الله . فالقضية قضية العلم والأديان جميعا مهما اختلفت عباداتها وأخلاقها وتواصيها .

قال شيطان « بابيني » موضّحا ، بحسبانه مقدِّمَ القضية : إن الإنسان الأول لم تكن لديه فكرة عن إله أو آلهة ، ثم أفزعته ظواهر الطبيعة العارية فاحتمى بآلهة ظنّها باعثةً هذه الظواهر تريد بها شرّه ! ثم تدرّجت الفكرة حتى كانت الآلهة كُنفوشىّ ، وبوذا ، ثم إلهَ اليهود ، فإله النصارى وهو ذو شعب ثلاث ، ثم إله محمد ، ثم جاء العلم فمحا كل هذه الآلهة محوا .

جليس خامس : إنك يا سيدى تحسن النقل ، وإنك لبوقٌ من جيد الأبواق . إن هـذا الذى تحكى يا سيدى هو هذا الذى كتبه صاحب كتابك ، كتاب الإلحاد ، ذاك الفرنسى النصرانى سابقا . وإنى أحسبك يا سيدى كفرت بالتوراة والإنجيل والقرآن ، واتخذت من كتاب صاحبك توراة وإنجيلا وقرآنا ، فاستبدلت كتابا بكتاب ، وربّا بربّ ، وساء ما استبدلت كتابا ، وساء ما استبدلت ربّا .

الجليس الثانى : رفقا يا صديقى بالنقاش ، ولا تغضب ، فلن يزيد الغضب الحجة إلا وهنا . أما أنت أيها الضيف الجليل فقل لى متىٰ أثبت أن الإنسان الأول كان يجهل الله . وهب جدلا أنه جهله ، فكيف يقوم هذا حجة على انتفاء وجود الله ؟ إن الآساد وحشيةٌ فى أدغالها ، وإن الحمير مستأنسةٌ بين ظهرانينا ، لا تدرك لله وجودا ، بل هى لا تدرك وجودك أنت بين ظهرانينا الآن يا سيدى ، فهل يقوم هذا حجة على انتفاء وجود الله أو انتفاء وجودك ؟

وتقول إن الإنسان استنبط فكرة الله من ظواهر الطبيعة ، فإن كان هذا فما أجمله مصدرا للاستنباط ، وما أصحها وسيلة فى حكم المنطق ! وتقول إنه تدرج من فكرة الآلهة ، إلى إله موسى وإله عيسى وإله محمد ، فإن كان هذا ، فما أجمله مظهرا من الترقى والنشوء ، وهما من سنة الكون ! وتقول إن العلم محا إله موسى وعيسى ومحمد ، فهل لك أن تخبرنا كيف محاه ؟

شيطان « بابيني » : إن العلماء يرون أن ...

الجليس الخامس : إن كان الحديث عن العلم فليتحدث عنه رجل من أهله . وبيننا رجل من أهله ظلّ المشيّةَ صامتا ، فما باله لا يُدلى بدَلْوه . خذْ بالحديث يا صاحبى .

صاحب العلم : إنى لأجد فى الصمت والاستماع لذّة لا أجدها فى الحديث ، ومع هذا فلا بأس بالحديث القليل يتخلّل الصمت الكثير . إن أول شيء أود أن أقرّره أن العلم لم يبحث يوما فى فكرة الله ، ولم يُدْعَ يوما إلى البحث فى فكرة الله ، ولم يدّعِ يوما أن الموضوع موضوعه . إن العلم الحديث يقتصر صراحة على بحث ما هو مادىّ ، على بحث ما هو طبيعى ، ولا شأن له بما وراء الطبيعة أبدا . لهذا نجد العالم النباتى والعالم الحيوانى والعالم الفزيائى والكيميائى والفلكى وهلم جرا ، ولا نجد عالما من أهل العلم الحديث اسمه العالم الإلٰهىّ . فالإلهيات ليست من اختصاص العلم الحديث وعلمائه ، إلا أن تكون النجارة من اختصاص الحدّاد ، والحدادة من اختصاص النجار . ولكن العلم الحديث طغى بنتائجه على عقول البشر وبهر ، فنسبوا إليه ما لم يدّعِ هو لنفسه ، كما بهرت الأنبياء عقول الضعفاء من الناس قديما وحديثا ، فجعلوا منهم ، ومن غيرهم ، آلهة . إن العلم الحديث لتعجز آلاته الحاضرة ، وطرقه الحاضرة ، عن معالجة ما وراء الطبيعة ، وفكرة الله بعضٌ مما وراء الطبيعة ، فهى مما يعجز العلم عن تناوله . فهذا أول شيء أريد أن أثبته .

أما الشيء الثانى فهو أن العلماء ، وأكثرهم غربيون نصرانيون ، قد يكونون قد وجدوا فى تفاصيل دينهم ما يتناول

الطبائع المادية ، أموراً تتعارض مع ما استنبطوه بدراساتهم العلمية الطبيعية ، فكفروا بهذه التفاصيل ، ولكن بقيت عندهم فكرة الله قائمة لا يمسها شيء ، نفياً أو إثباتاً ، لأنها وراء الطبيعة ، والعلماء إنما يمسون الطبيعة نفياً أو إثباتاً .

وشيء ثالث أريد أن أقرره ، ذلك أن العلم يبحث في الماديات من وجهات عدة ، فهو يبحثها من وجهة انحلالها واتحادها (الكيمياء) ، ومن وجهة حركتها وسكونها (الطبيعة) ، ومن وجهة نمائها وفنائها (الحيوان والنبات) ، ويبحث في أجرام الأرض وأجرام السماء ؛ ويبحث المادة من أركان عديدة تكاد تشمل كل ركن ، وينظر إليها من مراقب شتى تكاد تشمل كل مرقب ، فيرى تلك القوانين التي تعمل لشتى الأغراض إنما تعمل على أتم تناسق ، فلا يمس تمام هذا التناسق بعد المكان ولا اختلاف الزمان . لقد قيل إن المادة لا حياة فيها . وإني لأرى فيها نوعاً من الحياة ، أرى لها روحاً تضبط حركتها وسكونها ، هو ذلك الطبع الذي يجري فيها انسجاماً فنسميه قانوناً ، وهي روح واحدة تشمل النوع الواحد ، حل في بطن حجر ، أو طلع نخلة ، أو معدة كلب ، أو مخ إنسان ، أو في جوف كوكب سيار ، أو في ذيل مذنب طواف . ومعنى هذا أن الإصبع التي تعمل في تلك الأشياء على اختلاف أوعيتها ، وعلى تراخي أبعادها — وهي أبعاد تشمل الكون أجمع — إن هي إلا إصبع واحدة . وهي إصبع عملت أمس وتعمل غداً ، فهي إصبع على ما نحسب أزلية أبدية .

إن العالم ، في أي موضع من مواضع الكون هبط ، ومن أي مرقب من مراقب البصر نظر ، وفي أي بحث عالج ، أو حقيقة استكشف ، ليصدم دائماً تلك الإصبع الواحدة تقول له : إنك لواجدني أينما ذهبت ، فليس لك مني محيص .

على أن هذا التناسق ، وهذا الترابط ، ووحدة تلك الأغراض المختلفات ظاهراً ، المتآلفات باطناً ، لا تحتاج إلى عين عالم ليبصرها . إن النخلة لتنمو وتسمو ثم تثمر ثمراً حلواً يأكله الرجل ليحيله شحماً . ولكن هذا السكر الحلو لا يدخل مجرى الدماء من الرجال لولا أنزيمات خاصة في الأجسام تفلقه لجزء من أبوابها . فلولا السكر ما كان لهذه الأنزيمات معنى . إن الإصبع التي مهدت السكر أن يخلق هي هي التي مهدت لهذه الأنزيمات أن تكون . وموضعهما مختلف ، وزمانهما مختلف . كذلك عيون الخلائق ، وهذا التركيب البديع الذي احتواها ، من عدسة كعدسة العامل تبأر الضوء ، وستار في قاع العين كشاشة الصور البيضاء تنعكس عليها بالصور الأضواء — هذه العين ما كان لها معنى في الوجود لولا ضياء هذه الشمس الذي يأتينا من السماء . فالإصبع التي تعمل في أقاصي السماء فتنتج هذه الأضواء ، هي هي الإصبع التي تعمل في ظلمات الأرحام لتشكل هذه الأعين التي من العبث أن تشكل لولا ضياء هذه السماء .

إن الأمثلة أيها الأخوان كثيرة شتيتة بل هي لا حصر لها ، فأينما نظرت مثل . إن هذا الكون كجوقة موسيقية عظمى ، هذا ينفخ بوقاً ، وهذا يدق طبلاً ، وهذا يضرب وتراً ، ولكن أعين الجميع تلتقي عند عصا قائدها حتى لا يضل وتر أو يكون نشاز .

الجليس الرابع : ومن يكون قائد هذه الجوقة ؟

الجليس الخامس : إنه الواحد الأوحد . ملء السماوات والأرض . لا يشبهه شيء . وهو العلي العظيم .

عند ذلك نهض شيطان «إبليس» يستأذن لينصرف ، ودار على الجماعة مسلماً ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة .

ثم انفض الجمع ، وأطفئت الأنوار ، وعادت الحجرة إلى سكونها وظلامها ، ليعاودها الضوء وتعاودها الحركة في موعد غير بعيد .

أحمد زكي

يحيى الغــــزال

شاعر وفيلسوف وسياسي

— ١ —

كان عصر الحكم بن هشام أمير الأندلس (١٨٠ — ٢٠٦ هـ) بالرغم مما تخلله من ثورات وقلاقل ، بداية عهد استقرار ونهوض بالنسبة للدولة الأموية بالأندلس ؛ وفيه استطاعت الدولة الأموية لأول مرة منذ ذهابها بالشرق ، أن تستعيد قسطا من بهائها القديم ، وأن تبدو في حلل ملوكية جديدة ، وأن تبث إلى دولة التفكير والأدب روحا جديداً . وكان بلاط الحكم فوق ما يضمه من أكابر القادة وأقطاب الحكم ، يجمع طائفة كبيرة من المفكرين والشعراء والأدباء ، يلوذون بحمايته ، ويتمتعون بعطفه ؛ وكان الحكم وهو أديب وشاعر موهوب ، يتخذ منهم بطانته ويؤثرهم بصداقته ، ويجرى عليهم الأرزاق الحسنة .

وكان من أعلام عصر الحكم ، يحيى الغزال الجيّاني ، وهو شخصية فذة جمعت بين الأدب والحكمة والسياسة ؛ وهو أبو زكريا يحيى بن الحكم البكرى نسبه إلى بنى بكر ابن وائل ؛ وأصله من جيّان ولقب بالغزال لجماله وظرفه وأناقته . وكان في أواخر عهد الحكم في نحو الخمسين من عمره ، فمولده بذلك يرجع إلى نحو منتصف القرن الثاني من الهجرة . وقد عاصر الغزال قبل الحكم ، أباه هشام ابن عبد الرحمن ، وجده عبد الرحمن الداخل ؛ كما عاصر من بعده ولده عبد الرحمن ، وحفيده الأمير محمد ، وبذا يكون قد عاصر خمسة من أمراء بنى أمية ، وعاش زهاء تسعين عاماً .

ونظم الغزال الشعر حدثاً ، وبلغ ذروة عنفوانه وشهرته في عهد الحكم ، وكان شعره يميل إلى الدعابة والتهكم اللاذع ، ولكن تطبعه في نفس الوقت نزعة فلسفية حرة ، ذلك أن الغزال لم يكن شاعراً فقط ، ولكنه كان على قول ابن حيان « حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها » ؛ كان متضلعا في علوم عصره ، يأخذ بقسط من الفلسفة والفلك والتنجيم ؛ وكان حر التفكير يتناول في شعره أموراً تثير الريب في عقيدته . ونحن نعرف أن عصر الحكم كان مليئاً بصنوف الجدل والمناقشات الدينية ، وأن الحكم كان هدفاً لسخط الفقهاء ، وحملاتهم المرة ، لما جنح إليه من التضييق عليهم والقضاء على نفوذهم وإبعادهم عن التدخل في شئون الدولة ؛ وكان الفقهاء قد تبوأوا منذ عهد أبيه هشام مكانة رفيعة في الدولة ، وتغلغل نفوذهم في معظم الشئون العامة ، وأصبحوا خطراً على نفوذ العرش وسلطانه . فلما عمد الحكم إلى تحطيم نفوذهم ، ثاروا سخطاً عليه ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأهداب الدين ؛ وكان الحكم بإسرافه في مجالى اللهو والبذخ يسبغ على دعايتهم قوة ؛ وقد عمد الحكم إلى مقاومتهم بنفس سلاحهم ، فكان يحشد حوله جماعة من العلماء والفقهاء المستنيرين ، وكان الجدل يضطرم بين الفريقين من فوق المنابر ، وفي الرسائل والقصائد . وكانت هذه الجماعة المستنيرة من العلماء والأدباء والشعراء الأحرار الذين يلتفون حوله ويشدون أزره ، تشاطره آثار هذه الخصومة ، فلم ينج أحد منهم من اتهام الفقهاء المتعصبين بالإلحاد والزيغ ؛ وكان الغزال وصديقه الفيلسوف الرياضي عباس بن فرناس في مقدمة من لحقتهم هذه التهمة ؛ وقدم ابن فرناس بالفعل إلى القضاء متهما بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته .

ولبث الغزال طيلة حياته على خصومته للفقهاء يكثر من التعريض بهم والطعن عليهم ، غير مكترث لاتهاماتهم ومساعيهم للإيقاع به ، وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنياً ليت شعرى من أين يستغنونا
تقطع البر والبحار طلاب الر زق والقوم هاهنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا

والواقع أن الغزال لم يكن متحفظا فى شعره ، وكان يقدم بنفسه من آن لآخر إلى خصومه مادة الوقيعة والطعن ، ومن ذلك قصيدة نظمها فى ذكر النفس والروح يقول فيها :

يا ليت شعرى أى شىء تحصل ر
ى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأى
فقل للقلوب النائمات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها
وواقعه شبه الوقار سكون

وعرض الغزال فى أرجوزته التى نظمها فى أبواب العلوم إلى القدر وغيره من الأمور الشائكة بطريقة لم يرض عنها فقهاء عصره ، وكانت مثار الطعن فى عقيدته .

(٣)

على أن صفة الشاعر الفيلسوف والمفكر الحر ، لم تكن أخص ما تميزت به شخصية الغزال ؛ فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر هى صفة الحكيم الناصح ، والسياسى الحنك ؛ واشتهر بأصالة الرأى ، وحسن التدبير واللباقة والدهاء . ومع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، فقد كانت هذه الخلال تفسح له فى بلاط قرطبة مكانة خاصة وتجعله موضع الثقة والتقدير . ولما توفى الحكم بن هشام ، وخلفه ولده عبد الرحمن ، لبث الغزال على مكانته فى الدولة ، ونظم فى سلك كتاب البلاط . وكان منصب الكتابة من المناصب التى يسند عادة إلى المقربين من خاصة الأمير وجلسائه من الأدباء والشعراء ، فيغدو لهم مورد رزق . وتوثقت بين الغزال وبين الأمير الجديد صداقة متينة العرى ، وغدا من خاصة بطانته ، وكان عبد الرحمن يستشيره فى كثير من شئون الدولة ومهامها .

وفى سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) وقع حادث سياسى كان له فى بلاط قرطبة أعظم صدى . ذلك أن الإمبراطور تيوفيلوس قيصر قسطنطينية ، أرسل إلى أمير الأندلس سفارة وهدية فخمة ؛ ووفد السفير البزنطى ، واسمه قرطيوس ، على بلاط قرطبة يحمل كتاب القيصر إلى عبد الرحمن ، وفيه يذكره بما كان بين الأوائل من بنى أمية وبين قياصرة قسطنطينية من أواصر المودة والصداقة ، ويشكو إليه مر الشكوى من عمال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ومن استيلاء البحارة الأندلسيين بقيادة أبى حفص البلوطى على جزيرة اقريطش وهى من أملاكه ، ويطلب إليه استئناف هذه الصداقة القديمة بين القياصرة وبنى أمية ، ويبشره بقرب انهيار الدولة العباسية ، ويرغبه فى ملك آبائه بالمشرق ، ويستنهض همته لاستردادها ، ويعده بنصرته فى هذا المشروع .

واستقبل السفير البزنطى فى بلاط قرطبة بمنتهى الحفاوة والتكريم ، واعتزم عبد الرحمن بن الحكم الرد على هذه السفارة بما يليق من الاهتمام ، وهنا اتجهت الأنظار إلى يحيى الغزال صديق الأمير وكاتبه ومستشاره ؛ وكانت شخصيته الممتازة ، وكياسته ولباقته ترشحه لمثل هذه السفارة الخطيرة ؛ وكان الغزال قد جاوز الستين من عمره يومئذ ، ولكنه كان يحتفظ بكثير من ظرفه وأناقته ؛ وقبل الغزال تلك المهمة على غضاضة منه ، وذهب ليقدم كتاب الأمير وهديته إلى قيصر قسطنطينية ، وغادر قرطبة مع زميله يحيى بن حبيب برفقة السفير البزنطى ، فوصل إلى قسطنطينية بعد رحلة شاقة ، وقد وصف لنا أهوال البحر والموج فى قصيدة طويلة يقول فيها :

قال لى يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتـ ـت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو ت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأى الـ ـعين حالا بعد حال

واستقبل الإمبراطور تيوفيلوس سفير الأندلس استقبالا حسنا ، وكان عبد الرحمن يرد في كتابه على جميع ما توجه به إليه الإمبراطور ، ويرحب بصداقته ، ويشاطره السخط والنقمة على بني العباس ، ويعده في شأن استرداد ملكه بالمشرق خيرا . وهنا ظهر الغزال بديع مواهبه وخلاله فسحر الإمبراطور والبلاط البزنطي بظرفه ودلاقته ورائق حديثه ودعابته ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور ومليكه في جو يفيض ثقة وعطفا ؛ وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا ، فسحرته رائع جمالها ، وبلغ من تأثره عندئذ أن كاد ينسى وجود الإمبراطور وكاد يتعثر في محادثته ، ولما سأله الإمبراطور عن سبب ذهوله لم يخف عليه حقيقة السبب ، وصرح له بأنه لم ير في حياته « صورة أحسن ولا منظرا آنق » من هذه الملكة الحسناء التي « يبهر وجهها الشمس بضيائه ، ويكسفها ببهائه ، ويذكر العاقل بقدرة الله على إبداع الخلق » . فسر الملكان من إجابته ؛ وأنست الامبراطورة بحديثه ودعابته وخصته بعطفها ، ووهبته طائفة من اللآلئ النادرة لكي يستعين بها على تجهيز بناته ؛ وقدمت إليه ابنها الأمير ميخائيل الذي تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعا ، فسحره الفتى بظرفه وبارع خلاله ، وفيه يقول الغزال من قصيدة طويلة :

وأهيف لين الأطراف رخص
كحيل الطرف ذي عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه
يلوح كرونق السيف الصقيل
من ابناء البطارق قيصري
(م) العمومة حين ينسب والخؤول
على قد سواء لا قصير فتحقره ولاهو بالطويل
ولكن بين ذلك في اعتدال
كغصن البان في قرب المسيل

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البزنطية وروعة البلاط البزنطي ؛ وترك الغزال في بلاط القيصر وبطانته أجل الأثر بما أبداه من فطنته وكياسته ، ورقيق خلاله وشمائله .

— ٣ —

ولبث الغزال على مكانته ونفوذه في بلاط قرطبة حتى توفي عبد الرحمن بن الحكم في سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) ؛ وعاش الغزال بعد وفاة صديقه وحاميه دهرا آخر ، وحضر شطرا من عهد ولده الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وهو يتمتع بمثل مكانته التي تبوأها في البلاط منذ عهد الحكم . ثم توفي في أواسط عهد الأمير محمد في نحو التسعين من عمره ؛ ونحن نجهل تاريخ وفاته بالضبط كما نجهل تاريخ مولده ؛ ولكن بعض الروايات تضع وفاته حوالي سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) ، ويقول لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس إنه عمر أربعا وتسعين سنة ، ولحق عصور خمسة من أمراء بني أمية بالأندلس ، أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الحكم .

وقد لبث الغزال زهاء نصف قرن يتبوأ مكانته الرفيعة في الشعر والأدب ؛ بيد أنه يلوح لنا أن الشاعرية لم تكن أخص مواهبه ، وأنه لم يبلغ في الشعر مرتبة الزعامة ؛ وإنما اشتهر الغزال بالأخص بالحكمة والكياسة والبراعة والسياسة . فهو فيلسوف في شعره وفي تفكيره ، وهو سياسي من الطراز الأول ، وربما كانت هذه أبرز صفاته وأجلها(١) .

محمد عبد الله عنان

(١) انتفعت في كتابة هذا المقال بمراجعة أوراق مخطوطة في تاريخ الأندلس تلقيتها من صديق العلامة المستشرق الأستاذ ليفي بروفنسال ؛ وراجع في ترجمة الغزال وأخباره : نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ و ٤٤١ وما بعدها — ودوزي Recherches. App. 34 ؛ وليفي بروفنسال : Un Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance .

من صور التاريخ :

منـــــظر

من مفاوضات مصر التاريخية

لم تكن مصر فى القرون الوسطى معزلة عن أوربا — كانت دولة الشرق العظمى التى تتصل بكبريات دول الغرب اتصالا وثيقا فى التجارة والسياسة معا . وهذه صورة من صور هذا الاتصال السياسى فى مدة السلطان قانصوه الغورى فى أوائل القرن السادس عشر الميلاد .

كانت مصر فى القرون الوسطى أعظم الدول الشرقية بغير شك ؛ إلا أن تكون الدولة العثمانية الناشئة قد أخذت تظهر على الأفق من أرض الروم ، وتنظر إليها فى شىء من التحدى . ولكن قانصوه الغورى ورث عظمة قرون طويلة فكانت دولته لا تزال تتألق وتجرى رسومها على الأساليب المتوارثة التى تنم عن ماضيها الباهر ؛ الماضى الذى لم يكن لها فيه منافس ولا منازع .

وكانت البندقية أعظم دول الغرب بلا شك ؛ إلا أن تكون تلك الدويلات الناشئة قد أخذت تظهر على الأفق البعيد عند شواطئ المحيط الاطلنتيق — البرتغال ، إسبانيا ، فرنسا ، إنجلترا — ولكن الدوج العظيم رئيس جمهورية البندقية لا يزال وارث دولة القديس مرقص ، ولا يزال يطمع أن يبقى سيد التجارة فى أوربا . وهو لا يرضى أن تقاضيه مصر العظيمة فى الوقت الذى تحرك فيه هذه الدول الشابة الطموحة تعلل النفس بأن تنتزع التجارة من أساطيل البندقية العظمى .

ولكن قنصل البندقية فى دمشق السيد (بيترو زن) أغضب السلطان العظيم قانصوه ، وأوشك أن يفسد العلاقة بين دولته وبين مصر . فى الوقت الذى كانت البندقية تحرص أشد الحرص على معاونة مصر فى مكافحة دويلات الغرب الناهضة التى ترسل أساطيلها الجريئة إلى مجاهل المحيط ، تحاول أن تنتزع منها سيادة البحار وكنوز التجارة الشرقية ، فى هذا الوقت قبض على رسل تحمل خطابات تدل على أن هذا القنصل البندقى متصل بعدو السلطان — الشاه إسماعيل الصوفى ملك فارس — وأنه شريك فى مؤامرة على مصالح مصر .

كانت غضبة السلطان عظيمة ، وأوشكت علاقات المودة بين مصر وبين البندقية أن تفسد فسادا لا صلاح له من بعد ؛ فأسرعت الجمهورية الكبرى وأوفدت إلى السلطان رسولا من قبلها وهو السفير (دومنيكو تريفيسان) ليزيل شكوك السلطان ومخاوفه ، ويعاقب القنصل المذنب ، ويزيد العلاقات بين الدولتين مودة وتوثقا بمعاهدة جديدة تجعلهما يواجهان معا الأخطار التى تهدد تجارة الشرق من قبل العدو المشترك .

نزل السفير دومنيكو تريفيسان إلى بر الإسكندرية ، فى اليوم الثانى عشر من شهر أبريل من عام ١٥١٢ ، وكانت طرق الإسكندرية تموج بجموع الأهلين عندما مر موكب السفير : أربعة صفوف من الخيل الجياد عليها سروج من الحرير الموشى بالقصب ، فى كل صف منها راكبان ، وفى طليعة الموكب السفير عن يسار وأمير البحر المصرى عن يمين .

وكانت الزينة التى أقامها التجار جارية على العرف المتبع إذ ذاك فى مثل هذه المواكب ، فأقيمت الرايات على أبواب المنازل ، وغطيت جدرانها بالقطيفة الحمراء والحرير الملون ، وكثرت التحيات على أقواس النصر .

ثم استقبل السفير فى دار أمير البحر وقدم أوراق اعتماده كما جرت به العادة ، وتبودلت بينهما التحيات حينما ركب السفير واتجه إلى الدار التى أعدت له ؛ وهى دار عظيمة يقول عنها الكاتب الذى وصف رحلة السفير : « هى دار قد أنفقت عليها أموال لا يتصورها العقل . كانت أرضها من فسيفساء الرخام والمرمر ، وكانت أبوابها مطعمة بالأبنوس

والعاج ، كل قطعة منها تساوى بدْراً مليئة بالذهب . وفى الدار نحو ستين من تلك الأبواب » .

وسافر السفير من الإسكندرية فى الرابع من مايو عن طريق رشيد والنيل حتى بلغ القاهرة بعد يومين ، ونزل فى بولاق فاستقبله الترجمان (يونس) وهو إيطالى من مدينة فيرونا التى كانت من قبل تابعة للبندقية .

كانت القافلة التى تحمل متاع السفير من بولاق أربعين بعيراً ، على كل منها غطاء أحمر قرمزى نقش عليه رسم القديس مرقص وعلم السفير . وركب السفير وحاشيته متون الخيل الجياد ، وكان يلبس ثياباً من الحرير المزركش بالذهب ومعه أربعة أتباع من الصبيان : اثنان منهما يمسكان لجام فرسه وعليهما ثياب طويلة من الدمقس القرمزى ، والآخران يلبسان ملابس أرجوانية على جانبي ركابه . وركب مع السفير مهمندار السلطان ؛ وسار خلف الموكب جمع من المماليك على خيلهم ، وجمع آخر من المغاربة راكبون الحمير .

وجاء بعد الموكب ركب آخر من أعيان البندقية المقيمين فى القاهرة .

وأنزل السفير فى قصر عظيم جدرانه موشاة بالنقوش الذهبية ، وكانت أرضه كسائر قصور العظماء من الفسيفساء ، وأبوابه مطعمة بالأبنوس والعاج .

وأخيراً بلغ الموكب القلعة فنزل السفير ومن معه ، وصعدوا سلماً عدد درجه أربعون درجة ، ثم دخلوا من باب عليه جمع من الحراس . ومروا بعد ذلك بأبواب متعددة بين كل منها والآخر فضاء فيه عدد كبير من المماليك . فلما بلغوا الباب الرابع وجدوا مصطبة الأمير قائد القلعة ، وكان قريباً منه عشرة مماليك يعزفون الموسيقى ويوقعون مع أنغامها بقرع درعين من الحديد أحدهما بالآخر . فلما اقترب السفير نهض الأمير من مجلسه وحياه بإحناء رأسه ، فرد عليه السفير التحية بمثلها .

ثم واصل السفير سيره ودخل فى باب بعد باب حتى بلغ السابع فرأى بعده فضاءً واسعاً تحيط به الجدران ، وقد علقت عليها صفوف من السلاح تزينها ؛ وكان فى ذلك الفضاء طائفة من صناع السلاح نحو خمسين ، بعضهم يصنع الرماح وبعضهم يطرق الحديد .

وكانت أصوات المدافع تدوى فى الأسماع ، على ما جرت به العادة من تحية العظماء .

ثم دخل السفير بعد ذلك من أربعة أبواب أخرى أو خمسة تتخللها أفنية فيها جموع من المماليك حتى بلغ أخيراً رحبة فسيحة مكشوفة للسماء تزيد سعتها على فضاء رحبة القديس مرقص فى البندقية .

وكان السلطان فى أقصى الرحبة جالساً على كرسى على هيئة مصطبة علوها من الأرض نحو قدمين ، وعلى الكرسى غطاء من القطيفة الخضراء ، وكان السلطان يلبس عمامة كبيرة الحجم فى مقدمها من أعلاها زائدتان تشبهان القرنين ، طول كل منهما نحو نصف ذراع ، وكان عليه ثوب من القطن الأبيض من فوقه عباءة من النسيج الأخضر القاتم .

وكان متربعاً على الكرسى وقد ثنى رجليه فوقه فى مثل جلسة الحائك ؛ وقد وضع سيفه ودرعه إلى يمينه إذ كان لا يفارق سيفه حيثما يكون ؛ ووقفت عن يمينه طائفة من حاشيته نحو العشرين وقد لبسوا مثله ثياباً بيضاء من القطن ، وجعل كل منهم على رأسه عمامة تشبه عمامته . وهؤلاء هم أمراء المئين مقدمو الألوف ، أو هم أعظم أمراء جيوش الدولة شأناً . ثم وقفت فى أنحاء الساحة جماعات أخرى من الحاشية حتى غص بهم المكان على سعته .

ودخل السفير فى حاشيته ، وعن يمينه صبيان من أتباعه وعن يساره مثلهما يرفعان ذيول ثوبه الفضفاض . فلما وقعت عينه على السلطان فى أقصى الإيوان كشف رأسه ، ورفع قلنسوته القطيفية وانحنى حتى مس الأرض بأطراف أصابعه ، ثم رفع يده إلى شفتيه وإلى رأسه ، وحيا من حوله من أتباعه بمثل تحيته — وهكذا قبل الجميع الأرض بين يدى السلطان . ثم تقدموا نحو خمس عشرة خطوة

وأعادوا التحية ، ثم تقدموا حتى صاروا على طرف البساط على نحو عشرين خطوة من السلطان فحيوا مرة ثالثة . ثم انحنى السفير وأخرج من صدره خطاب (الدوج) رئيس جمهورية البندقية مكتوبا على ورق بنفسجي مختوماً بخاتم من الذهب ، وكان معلقا في حبل من الحرير الذهبي . وكانت كتابته كذلك بحروف مذهبة . فقبل السفير الخطاب ووضعه على جبينه ثم قدمه للمهمندار ليسلمه إلى السلطان .

وفتح السلطان الخطاب وأمر بقراءته ، ثم جعل المهمندار يسعى بين السلطان وبين السفير ذهاباً ورجوعاً لكي يبلغ سؤال السلطان عن صحة الدوج ويفضي إلى السفير بتحيات مولاه . وكان السفير يرد على هذه التحيات والمهمندار في كل مرة يسعى متردداً بين الجانبين لإبلاغ ما يحمله من تحية وردّها .

فلما انتهى الاحتفال على رسمه المعتاد تراجع السفير القهقرى أربع خطوات ، ثم حيا مثل تحياته الأولى وانصرف إلى المنزل الذي أُعدّ له .

وقد لاحظ الكاتب الذي وصف رحلة السفير أنه لا يباح في حضرة السلطان أن يبصق إنسان أو يتمخط ، فإن هذه تعد من أكبر السقطات .

ولما عاد السفير إلى المنزل بعث ما أعده من الهدايا إلى السلطان والأعيان . فلما ذهب رسول السفير بالهدايا إلى القلعة أدخل إلى إيوان فسيح يصفه بقوله : « دخلنا إلى بهو باهر العظمة لا يقاس بجماله شيء في بهو الاحتفال الأعظم في دار الرياسة في البندقية » .

وكان السلطان في ذلك البهو ، فدخل عليه رسول السفير فوجده جالسا عند نافذة تطل على حديقة وتقال ، وكان سيفه ودرعه إلى جانبه على ما اعتاد ، وهو جالس على أريكة علوها نحو قدمين متربعا عليها عاري القدمين ، وقد لبس فوق رأسه قلنسوة غير التي كان يلبسها في الاستقبال الرسمي ، وهي قلنسوة ساذجة ليس لها الزائدتان من الأمام . واقترب الرسول منه حتى وقف أمامه على خطوتين ، واستطاع أن يملأ منه عينه .

كان يلوح على السلطان مظهر الوقار والنبل ، وكان في نظره يبلغ نحو الستين من العمر ، على أن الناس يزعمون أنه قد بلغ السبعين . وكانت لحيته سوداء قد تخللتها خيوط بيضاء ، وهو أسمر اللون ضخم الجسم ، قوى البنية . وعرضت عليه الهدايا فاستعرضها واحدة بعد أخرى ، ثم دعا الترجمان وقال له بالعربية : « بلغ السفير أن الهدايا قد وصلت إلى ، وأني وجدتها بديعة قد وقعت مني موقع الرضاء ، ولكن أبلغه أن زيارة السفير كانت أبدع عندي من أنفس الهدايا ، فلقد رأيت منه رجلا كاملا حصيفا ليس فيه نزق ولا خفة » .

فأفضى الترجمان إلى رسول السفير بما قال السلطان ، ثم أذن له السلطان ، فانصرف يسير القهقرى بعد تقبيل الأرض على السنة المرسومة . وقابل السفير السلطان مرة ثانية ، وكانت المقابلة بينهما في ميدان الخيل تحت أسوار القلعة ، وهو في سعته ضعف ميدان القديس مرقص . وأدخل السفير إلى حديقة السلطان التي أنشأها بجوار ذلك الميدان وكانت في ضعف سعة الميدان . وكان في وسط الحديقة جوسق يعلو سطح الأرض بنحو خطوة تظلله الأشجار ، وتتسلق على أعمدته الأعواد الخضراء ، ووضعت على جوانبه ستائر من الحرير تقي من فيه حر الشمس . وكان عند كل عمود من أعمدة الجوسق قفص فيه طير يغني ، واستقبل السلطان السفير هناك — وكانت على رأسه قلنسوة صغيرة لا زوائد لها . ولم يكن حوله في هذه المرة إلا الترجمان وأمين السر والمهمندار . وأدخل السفير وحده عليه ليبدأ معه حديث المفاوضة ، وكان طول مدة الاجتماع واقفًا على قدميه وقلنسوته في يده .

ولما خرج السفير من حضرة السلطان دار في الحديقة يرى ما فيها من الحيوان العجيب كالزرافة والفيل والقردة والأسود ، ثم ذهب بمن معه إلى بيت الدوادار (وهو طومان باك الذي كان آخر السلاطين) ، فأديرت عليهم

رجلُ صِدق

كان الركب على الطريق فى آخر غزاةٍ يشهدها محمد فى صحابته ، وكان طريق القوم غير ما ألفوا ، وعدوُّهم غير من لقُوا حتى اليوم من عَدُوٍّ ؛ إن وجهتهم اليوم إلى « تبوك » ، وإنهم ليقصدون إلى قتال بنى الأصفر ! وما بنو الأصفر ؟ إنهم ليعرفونهم اسماً وخبراً وما لقُوهم قطُّ فى معركة ولا اشتجرتْ رماحهم فى ميدان ، فلولا أن الأمر أمرُ محمد فيما يوحَى إليه من ربه لخارت قلوبٌ ووهنتْ عزائم ...

... ومضى المسلمون على وجوههم فى المفازة الجرداء لا تكاد تحملهم رواحلهم من التعب والحر والظمأ ، فلا ينزلون منزلا على طريق إلا تخلَّفَ منهم معتذرٌ بعلَّة ، فإنهم لينقصون ولا يزيدون . وقال وديعة بن ثابت لأصحابه فى بعض منازل الطريق :

« أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنَّا بكم غداً مقرَّنين فى الحبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ! » .

قال صاحبه :

« صَه ! ... وددتُ أنك لم تقلها وأنى لم أسمع .. إنك — فيما أعلم — لتضمر شراً ، وإن الله ليضمر لك ... ! » .

وارتدت الكلمةُ إلى فم قائلها فلم ينبس بعدُ وعلَتْ وجهه قترة ...

وهمس رجلٌ فى أذن صاحبه :

هناك أكواب الشراب السكر فى أوانٍ من الخزف الصينى ، فشرب الدوادار قليلا من أحد الأكواب وقدمه إلى السفير ، ثم أديرت الكؤوس على سائر الضيوف .

واجتمع السفير مرة ثالثة بالسلطان فى الميدان تحت القلعة وكان هذه المرة فى هيئته الرسمية كما كان فى المقابلة الأولى .

وفى أثناء ذلك الاجتماع أحضر السيد (بيترو زين) قنصل البندقية فى دمشق وأعلن السفير براءة الجمهورية من جرم قنصلها ، وأنه سيلقى فيها جزاءه بعد أن يحاكم على يد القضاء ؛ ووضع السفير بيديه سلسلة حول عنق قنصل دولته ، وخرج به من حضرة السلطان ليسجنه حتى يذهب به إلى بلاده ليحاكم فيها .

ولم يسمح لذلك القنصل بالركوب بعد خروجه من حضرة السلطان ، بل سار على قدميه والسلسلة فى عنقه . والترجمان يسير إلى جانبه حتى بلغ دار السفير . قال كاتب الرحلة : « وكان كل ذلك ترضية للسلطان ، فإن القنصل برىء مما اتهم به ، ولا بد لمن كان فى مثل مكانته أن يخرج من المحاكمة بريئاً « بشرفه الرفيع » .

وتكررت بعد ذلك المقابلة بين السفير والسلطان ولكنها كانت سرية ، وكان الاجتماع فى مواضع غير تلك التى تعد للحفلات الرسمية . وتعددت هذه المقابلات السرية فكان السلطان فى كل مرة ينتقل إلى قاعة جديدة تفوق ما سبقها جمالا وروعة ، وكل منها رائعة النقوش تتوهج بالذهب ؛ ويجلس بها السلطان على وسادة حريرية ، وسيفه ودرعه إلى جانبه كعادته ، ويتكئ إلى جانب نافذة ذات حاجز من قضبان البرنز يطل منها على فسقية بديعة الصنع « يدفع رشاش الماء حتى يبلغ موضع النافذة ، وتعلو من حول الفسقية أشجار البرتقال تظللها ويبلغ أعلاها أطراف النافذة .

وفى الجلسة السابعة الختامية عقد السلطان مجلساً عاماً وخلع فيه على السفير وأتباعه ثياباً ثمينة من القطيفة المزينة بالفراء ، تختلف قيمتها باختلاف أقدارهم .

وكانت رحلة السفير موفقة ناجحة ، فقد صفا الجو بعدها بين الدولتين العظيمتين ، فبقيتا جنباً إلى جنب فى وجه عدوهما المشترك . ولكن أبى التاريخ إلا أن يسير فى وجهته .

محمد فريد أبو حديد

« إنى لأعرف النفاق فى كثير ممن ترى من أخٍ وابن عم ... ! » .

قال : « بلى ، وإنا لنلبسهم على ما نعرف فيهم وإنهم ليلبسوننا ؛ ما من ذلك بدٌّ حتى نبلغ ما أراد الله من أمر . . . ! » .

* * *

... وعصفت الريح حتى لتقتلع الرجل من بين صحابته فتقذف به إلى الجبل لا يدرون أين مضت به ولا يدرى ، فتأوّه الفتى السَّلَمى وهو يقول : « أين منى عريش ُ نمرة قد رششته وبرّدت لى فيه ماءً فى ظل الحائط الفينان بالمدينة ، من هذا السَّمّ والحر والريح ! » .

فتبسّم صاحبه وهو يقول : « كذلك أنتم يا بنى سَلِمة ، إنكم لتؤثرون الظلّ واللماء البارد والوجه المليح على الجهاد لله وعلى طاعة رسول الله ! » .

فانتهض السلمى غضبان يقول : « ويْ ! أتُعيّرنى من أجل كلمة ابتعثها الحنينُ إلى امرأتى وأهلى ، وإنك لتعلم مكانة بنى سلمة من الأنصار ! » .

فزادت ابتسامة صاحبه طولاً وعرضاً وأجاب : « بلى ، وأعرف مكانة كعب بن مالك السلمى الأنصارى . . . إنه ليحسن أن يقول :

قد علم الجميع أنى كعبُ وأننى متى تشبُّ الحربُ
ماضٍ على الهول جرىء صلبُ
معى حسامٌ كالعقيق عضبُ
بكفّ ماضٍ ليس فيه عيبُ
نذكّكم حتى يذلّ الصعبُ !

إنه ليحسن أن يقول ذلك ، فإذا دعا الداعى إلى الجهاد فلا كعب هناك ، وما هو إلا شعر شاعر ... ! » .

وقُطع بالفتى السَّلَمىّ فلم يُجب ، وأطرق إلى الأرض خزيان ...

* * *

وقال محمد وقد نزل منزله من تبوك : « ما فعل كعب ؟ » .

قال رجل : « يا رسول الله ، حبسه بُرداه ونظرُه فى عِطفيه ! » .

قال معاذ بن جبل : « بئس ما قلت ! والله ما علمنا عنه يا رسول الله إلا خيراً ... ... » .

وتبسّم محمد تبسّم المغضب ، وسكت ...

* * *

وكان كعب بن مالك فتىً فى الثلاثين ، ريّان العود ، ناضر الشباب ، جرىء القلب ، قد أعطى البيانَ والفتوة وجراءةَ اللسان واليد ؛ وإنه لثالث ثلاثة من شعراء النبى ، وإنه ليسمّونه من دون صاحبيه : « شاعرَ الحرب » ! فأى شأن قعد به عن الخروج وهو مَن هُو ... ؟

... لقد همّ ولم يفعل ، وحثّت نيّته ثم تراخَى ، وكانت وسائله ميسّرةً ولكن فى طبعه استرخاء ؛ وإنه لطبع شاعر ؛ فلما استكمل عزمته وتهيّأ للخروج جاءه النبأ أن محمداً وأصحابه على طريق الإياب موفورين ؛ فأسقط فى يده ؛ لم يكن عن جُبنٍ قعودُه ، ولا عن عجز أو تردُّد ، ولكن هكذا أُريدَ له ...

واتخذ النبىُّ صلى الله عليه وسلم مجلسه من المسجد فى المدينة ، وجاء المخلّفون من المنافقين يعتذرون إليه ويحلفون ، فقبل النبىُّ منهم واستغفر لهم ؛ ومثل كعبٌ بين يدى النبىّ ، ونازعته نفسُه إلى الكذب فلم يجد له به طاقة ، فأطرق إلى الأرض خزيانَ لم يجد معتذَراً ، وصمتَ كأن لم يكن له لسانٌ ولا بيان وإنه لشاعر الأنصار ومحاميها فى الخصام . . .

قال محمد وقد طال صمتُ كعبٍ وإطراقه : « ما خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك ؟ » .

قال كعب : « بلى ، إنى والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنْ سأخرجُ من سخطه بعذر ،

ولقد أعطيتُ جدلا ، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ، ليوشكن اللهُ أن يُسخطك عليّ ؛ ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله . لا والله ما كان لي عذر ! والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلّفتُ عنك ...! » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ... أما هذا فقد صَدقَ ! فقم حتى يقضي اللهُ فيك ! » .

وتمّت عدة المتخلفين من المخلّفين بضعة وثمانين نفراً ، أما ثمانون فقد وجدوا ما يقولون فنالوا ظاهرَ المغفرة ، وأما كعب بن مالك واثنان معه فآثروا ألا يكذبوا على الله ورسوله فأقرّوا ، متحمّلين ما لا يطاق من غضب المسلمين وقطيعة محمد وأصحابه ؛ وجفاهم الناس لا يكلمهم أحدٌ ولا يكلّمون أحدا يجدون جواباً عنده ؛ ولزم الشيخان مرارة بن الربيع وهلال بن أمية دارهما يستغفران الله في وحدتهما الموحشة باكيين قد بلّل الدمع موضع سجودهما ، ولا تتحرك شفاههما همساً إلا بذكر الله وطلب مغفرته ؛ وأما كعب ... يا له من تعسه ! ... إنه لشابٌّ في مستقبل العمر وموفور النشاط ؛ فما له طاقة بأن يلزم مكاناً لا يبرحه وإنه ليجد الحركة في يديه ورجليه وإن لم يتحرك ، وما له طاقةٌ بالصمتُ وإن لم يردَّ عليه أحدٌ جواباً ، فإنه ليضطرب في الأسواق ليشهد الناس ، فراراً من الوحدة الموحشة ، فما تكاد عين مسلم تقع عليه حتى يمضي معرضا عنه : يأبى المسلمون أن يبادلوه النظر أو يردوا له التحية ... ؛ وطالت به جفوة الناس وقطيعتهم ، حتى لقد أنكر الأرض فما هي التي يعرف ؛ وضاقت عليه نفسُه ؛ فلما ثقل عليه ما يلقى مضى يلتمس الأسباب إلى ابن عمه أبي قتادة — وإنه منذ كان لصفيُّه وأحبُّ الناس إليه — يحسبه واجداً عنده من الأنس بعض ما يفتقد ، وكأنْ لم يجد نفسه أهلاً لولوج بابه فتسوّر إليه جدار بستانه ؛ وتطلع إليه صديقه أبو قتادة يهبط من الجدار فأعرض عنه وفي عينيه إغضاء وفي نفسه ألم ؛ وخطا إليه كعب فاستقبله يقول وفي صوته ضراعةٌ وذلة : « أنشدك بالله يا أبا قتادة ! هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ » ولكن أبا قتادة يمضي فلا يجيب ، ويكررها كعب فلا يلقى من أبي قتادة غير الإغضاء والصمت ، ويعيدها ثالثة فما ردَّ إليه أبو قتادة جوابه ولكنه يقول وفي صوته أسف : « الله ورسوله أعلم ! » .

وينصرف كعبٌ أسوان تفيض عيناه بالدمع : حتى أنتَ يا أبا قتادة !

ويتحدث الناس في شأن كعبٍ ولا يتحدث أحدٌ منهم إليه ؛ فإن نبأه لتتقاذفه البيداء منزلا بعد منزل حتى يبلغ الشام ؛ ويبتسم ملك غسان ويقول لبطانته : هذا رجل من أصحاب محمد ناله منه الضرُّ ، فما أخلقك أن تصطنعه بما تقدّم إليه من بر وبما تعيد إليه من الأنس وبشاشة الحياة . ثم يدفع كتاباً منه إلى نبطي من أنباطه ليذهب به إلى كعب بن مالك يدعوه إليه ليأنس في بلاطه بما لا يجد بعضه أو قريبا منه عند أهله وخاصته ، ويحبّب إليه مفارقةَ المدينة التي نبذه أهلها وأحلّوه بينهم دار الهوان . ويبلغ كعباً كتابُ ملك غسان ، فلا يجد منه الأنسَ والطمأنينة وراحة النفس ، وإنما يجد مضاعفةَ الهم والألم وعذاب الضمير . أتراه قد بلغ هذه المنزلةَ حتى يساومه مشركٌ على دينه ؟ واحَرَبا ! ... ويمضي إلى التنور فيشعل به كتاب الملك وفي صدره ناره وفي رأسه دخانه ..

... ويقبل على امرأته وعلى شفتيه ابتسامة يأمل أن يجد مثلها على شفتيها ، ولكن امرأته لا تبسم له ولا تجيب نظرته بنظرة . ماذا ؟ حتى زوجته ! ... فماذا بقي له ؟ ... لقد فقد دنياه وآخرته معاً ؛ فلا هو هنا ولا هو هناك ؟ ولكنه لم ييأس بعدُ من رحمة الله ؛ فإنه

ليغدو ويروح إلى المسجد ، ولكنه لا يُقبل على صلاته بالقلب الخالص والنفس الواعية ، وإنه فى موقفه من الصلاة ليسترق السمع والنظر ، ليرى ويسمع : هل ينظر إليه أحد ؟ هل يتحدث إليه أحد ؟... ثم ينفتل من صلاته ليقبل على الناس بالتحية فلا يجد ردَّ التحية ، كأن لم يخرج صوتٌ من شفتين ؛ أتراه لم يسمع بها من طول ما تعوَّد الحديثَ إلى نفسه فى وحدته المنقطعة فلا صوتَ له ؟ !

وأيقن المسكينُ أن قد قُطع به ، فاستسلم لأمر الله ، واعتزل الناسَ إلى خيمة ابتناها فى ظهر « سَلع » من جبال المدينة ، يبلغه صوتُ الناس ولا يبلغهم صوتُه ، وكأنما احتفر لنفسه فى رأس شاهقةٍ قبراً لا يزوره زائرٌ من عدوٍّ أو حبيب !

وتمَّتْ عدةُ الأيام خمسين ، وما فى الخيمة على ظهر سَلَع إلا شابٌّ قد ثقلت عليه أيامه حتى ما يكاد يرفع رأسه إلا ضارعاً يدين إلى السماء يسأل الله المغفرة والعفو ، فلو أنها خمسون عاماً لكان أقومَ عوداً وأصلب قامة ، فإنه لفى ركوعه ذات يوم يدعو ربَّه ، إذ سمع صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته : « يا كعب بن مالك ، أبشر ... ! »

وسبق النداءُ المنادى ؛ فما هو إلا أن بلغ مسمع كعب حتى خر ساجدا لله ثم نهض مستقيم العود يرقب على البعد فارساً ركض إليه ليتلو عليه قول الله :

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسرة من بعد ما كاد يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبتْ وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ... »

وشَفَع له صدقُه حين انكشف كذبُ المتذرين من أهل النفاق وظنوا أنهم مستطيعون أن يخدعوا الله ورسوله .

قال كعب بن مالك :

« فلما مثلتُ بين يدى النبى قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله ! »

قال : « أمسك عليك بعضَ مالك فهو خير لك ! »

قال كعب « حَسْبى أن أمسك من مالى سهمى الذى بخَيْبَر » .

ثم قال : « إن الله إنما نجّانى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدّث إلا صدقا ما عشت ! »

وعاش كعب بن مالك بعدها بضعا وأربعين سنة لم يكذب كذبة ؛ وكان يقول كما ذكرها :

« والله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ مما أبلانى ، والله ما أنعم الله علىَّ من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألاَّ أكونَ كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا ... ... »

« قاف »

وحي الهجرة

غرّد مع الفجر الفريد فريدا ... واسطع مع النور الجديد جديدا
سر كالنسيم تعطرت نفحاته ... وسرت ترف إلى النفوس ورودا
واستقبل الدنيا بشعرك باسما ... تستقبل الدنيا قصيدك عيدا
أنّى التفتّ ترى الفضائل عدّةً ... وترى الهدى ملءَ القلوب عتيدا
لله جيش من عقيدة مؤمن ... ملأت قلوب المؤمنين جنودا
فمشوا إلى الهيجاء يسعى نورهم ... ومشى أمامهم السلام وفودا
قهروا الضلال بحكمة علوية ... هلا رأيت لواءها معقودا
في هجرة حثّ "الثلاثة" ركبها ... وشدا لها حادي السعود سعودا
في عصبة نبذوا الضلال وآثروا ... نور الهداية موئلاً ورشيدا
لا تعجبوا فقد كان الرسول يديرها ... تجري على طلل الزمان خلودا
لم تعرف الأيام مثل حقيقة ... كانت بهجرته هدًى وصعودا
ضحك الهدى فيها وغرّد طيره ... وبكى الضلال وصار ثمّ طريدا
خرّت لها الأيام في فجر الهدى ... والقوم في ليل الضلال سجودا
إن الذي كتب الخلود لدينه ... جعل الهداية للضلال قيودا
من قائد الأيام في ظلم الدجى ... لم يخش وحشتها وكان سديدا
يا باعث الإيمان يسطع رحمة ... ويفيض من نبع الهداية جودا
أدرك برحمتك العباد فإنهم ... ضلوا وصار بناؤهم تبديدا
عبدوا الحديد ومزّقوا ورد الهوى ... يا ويحهم جعلوا الورود حديدا
الموت قد جعلوه طوع يمينهم ... فطغى عليهم عاصفاً ومبيدا
جُنّوا وعن إنسانهم فتفجرت ... لُسُنُ الدمار قنابلاً ورعودا
ملأوا السماء مكان أنوار الهدى ... طيراً يزمجر في الفضاء مريدا
طيراً يدك معابداً وملاعبا ... لم تبق نسّاكاً ولا عربيدا
لم يدركوا شأو الأسود طبيعة ... فغدوا يصوغون الحديد أسودا
أمحمد ولأنت مشرق رحمة ... ساد الهوى أفلا بعثت مزيدا؟
أدرك بهجرتك الكريمة نحلهم ... وابعث لهم صوت الهدى غرّيدا
نبذوا الهداية والسلام وأصبحوا ... يستلهمون الغاز والطوربيدا
فانشر لهم من فيض نورك رحمة ... يغدو بها العام الجديد سعيدا
صغت النجوم إلى علاك قصائدا ... ووهبت قلبي في سماك قصيدا
وهتفت في الأيام أوقظ سرّها ... لأرى مسيرك في الظلام وحيدا
وأحسّ نبلك كيف بدّد شرّهم ... وجرى بجمعهم فصار بديدا
يا منقذ الأيام من ظلم الدجى ... إني أذبت الروح فيك نشيدا
وعبرت أيامي أمهدك خاطئاً ... قيد الزمان وكم حطمت قيودا
كي أستظل بنور خلدك بعدما ... سارت بوارقه إليّ وفودا
قد همت في نجواك أنهل صفوها ... فحسبت أني قد بعثت جديدا

* * *

يا يوم قدّسك الإله فلانيا ... ولبست من نور الرسول برودا
إن كنت في لغة الحياة وركبها ... يوما فكن يا بن الخلود عهودا
قد لاح فجرك من ضياء جبينه ... يجري على طلل الزمان خلودا
ذكراك أسكرت الزمان فهاتها ... ذكرى تفيض على الليالي تجديدا

حسين محمود البشبيشي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
****
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
٤٥ في مصر والسودان
٣٧ ½ للطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

كلمة (قل ..) فى القرآن

من أعجب كلمات القرآن الكريم هذه الكلمة ذات الحرفين ، أو هـذا الأمر بالقول الكثيرُ الورود فى القرآن . وأبرز عجائبه عندى أنه يبطل فى حرفين زعم من زعم أن القرآن من كلام النبى صلوات الله عليه ، لأنه يظهر بوضوح أن القرآن كلام من وجِّه إلى النبى هذا الأمر المتكرر المطرد (قُلْ ..) :

(قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين) . «سورة يوسف» .

(قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد) «سورة الكهف» .

(قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) «سورة الأعراف» .

(قل ما كنت بِدْعاً من الرسل ، وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم ، إن أتّبع إلا ما يوحَى إلىّ ، وما أنا إلا نذير مبين) «سورة الأحقاف» .

(قل لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عُمراً من قبله ، أفلا تعقلون) «سورة يونس» .

فلو تأملت بهذه الآيات الكريمة ، وهى قليل من كثير مثلها فى القرآن ، وصرفت النظر عن إعجازها الدال على أنها ليست من قول البشر ، لما وجدت شيئا يحمى القارئَ المؤمن من أن يسبق إلى نفسه أنها من كلام النبى إلا هذه الكلمة الكريمة ذات الحرفين ، أو هذا الأمر (قُلْ ..) فى أول كل منها ، لأن ضمير المتكلم فى كل منها راجع إلى النبى صلوات الله عليه . فإن كان القارئُ غير مؤمن وجد أمر (قُلْ ..) هذا قائما حيال كل آية يوقظه وينبهه أنه يقرأ كلاما لا يمكن أن يكون محمد قاله من عند نفسه ما دام مأمورا بالقول هكذا فى كل آية .

أو على الأقل يجد غير المؤمن أن العقيدة التى تلقاها ووقرت فى نفسه من أن القرآن كلام محمد تريد أن تتقلقل وتتزعزع بكلمة (قُلْ) هذه كلما قرأها فى مواطنها من الآيات . فكأن هذه الكلمة الكريمة تقوم حيال كل آية وردت فيها تذود الشك عن نفس المؤمن وتزعج نفس غير المؤمن أن تطمئن . كلما أراد غير المؤمن أن يفهم أن محمدا يقول : (هذه سبيلى) ، (إنما أنا بشر مثلكم) ، (لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا) ، (ما كنت بدعا من الرسل) أزعجته كلمة «قل» من هذا ، كأنها تقول له فى كل مرة ليس هذا من كلام محمد ، ليس هذا من كلام محمد ، حتى ليجد نفسه مضطرا — إن كان يطيع داعى عقله — أن يتساءل من الذى يقول لمحمد قُلْ .. قل .. قل .. هكذا بهذا التكرار فى تلك الآيات وأمثالها فى القرآن .

وعجيبة أخرى لتلك الكلمة الكريمة كلمة (قُلْ ..) أن ذكرها من رسول فى صلب رسالة المأمور هو بتبليغها يخالف كل مألوف الناس ، أو إن شئت يخالف إجماع الناس فى كل لغة وفى كل عصر فى الأدب أو فى الخطاب . واسأل نفسك هل تعرف فيما قرأت أو سمعت أن أحدا حين يُبلغ رسالة حُمِّلها إلى فرد أو جماعة يبلغها مصدرة بقول قل أو بلِّغ أو نَبِّئْ أو أى صيغة أخرى من الصيغ التى يمكن أن تستعمل عند الأمر بالتبليغ أو الإخبار ؟ طبعا لا . فإن حامل الرسالة أو الخبر عند أدائها أو أدائه يجد نفسه بالطبيعة بين أمرين : إما أن يقتصر على الخبر أو الرسالة يلقيها بالنص أو بالمعنى من غير إشارة إلى مصدرها ، وإما أن يخبر أيضا عن الطبيعة بصيغة من صيغ الخبر التى جرى بها عرف اللغة فى الخطاب . أما أن يعيد نفس كلام الآمر عند الأمر حتى قول قُلْ ونبّئ فهذا يخالف كل ما جرى عليه البشر فى الكلام .

ولقد روى ثقات المحدِّثين عدة أحاديث للنبى صلى الله عليه وسلم بلَّغ فيها عن ربه بصيغة الخبر التى يقضى بها عرف اللغة ، مثل حديث : (إن الله كره لكم ثلاثا :

قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال) . رواه البخاري ومسلم وغيرهما فيما ذكر المنذري . ومثل الوصية المشهورة له صلى الله عليه وسلم : (أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبراً) .

فها هو ذا النبي يبلغ عن ربه كما ألف الناس ، ليس في الكلام قل ولا نبئ ولا أنذر ولا ما شابهها من الكلمات . أفليست كلمة (قل) و (نبئ) و (أنذر) وما ماثلها في القرآن الكريم ، منفردة ومجتمعة ، شاهداً واضحاً ومذكراً ناطقاً على أن القرآن ليس بكلام محمد صلوات الله عليه ، وإلا لاتبع محمد الفصيح البليغ طريقة البشر في التبليغ ، ولما خالف عرف الخطاب عند الناس أجمعين على اختلاف الألسنة واختلاف الألوان ؟

ومعجبة أخرى لهذه الكلمة المباركة كلمة (قل) أنها وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم حين أمر بتبليغ الرسالة القرآنية أمر أيضاً ألا يغير منها حرفاً ، ومنع من أن يتصرف فيها أي تصرف ، ولو كان ذلك في الصيغة ، ولو كان ذلك بإسقاط كلمة قل مع أداء مقول القول بالحرف دون أدنى تغيير . أليس من عجيب الحكمة وعظيم الرحمة أن أثبت هذا الحرف وأمثاله في القرآن رمزاً للرسالة وشهادة بها ، وليدل الناس في إعجاز وصراحة على أن القرآن ليس من عند محمد ، وأن محمداً تلقاه من عالم الغيب ونقله إلى عالم الشهادة بكل لفظ فيه وكل حرف ؟! فكل لفظ فيه وكل حرف هو من عند من أوحى القرآن إلى رسوله ليبلغه بنصه وفصه للناس :

(قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين) « سورة ص » . (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد) .

(قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد . قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ، وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي ، إنه سميع قريب) .

ماذا ترى يمنع القارئ الذي لا يفقه إعجاز القرآن أن يقول في نفسه إن هذا كلام من يرجع إليه ضمير المتكلم إلا كلمة (قل) هذه تقوم في أول كل آية كالحارس القائم بسلاحه على مستودع ذخيرة جيش ، أو كالحربة القائمة دون صدر جندي من جنود الله ؟

والآيات الأخيرة في القوس الأخير آيات متتالية من آخر سورة سبأ . فأعد قراءتها الآن . ماذا تجد وقعها في نفسك ؟ ثم اقرأها مرة أخرى من غير كلمة (قل) في أول كل منها . ماذا تجد الآن ؟ أرأيت الفرق بين الآيات الكريمة كما أنزلها الله وبينها نفسها بعد حذف هذه الكلمة المكررة فيها ، والتي قد يظن الملحد والجاحد أن لا لزوم لها في الكلام ؟ فهذه معجبة أخرى وسر آخر من أسرار هذه الكلمة الكريمة كلمة (قُلْ) ، التي تميز القرآن وتفرد بكثرة ورودها فيه من بين جميع الكتب المنزلة على الأنبياء .

وفي القرآن آيات قليلة جداً لعلها لا تتجاوز الاثنتين فيها ضمير المتكلم راجع إلى النبي صلوات الله عليه ، لكنها لم تصدر بهذا الأمر الكريم أمر (قُلْ ...) ككثير من الآيات . لكن شاءت رحمة الله وحكمته أن يحيطها بما يذود خاطر السوء عن قلب القارئ ذود اليقين ، مثل آية آخر سورة النمل :

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) .

ألا ترى إلى كلمة قل في آخر الآية الثانية كيف صححت موقف العقل من الآيتين جميعاً ، وسدت عليه باب احتمال أن تكون الآيتان من كلام النبي أدرجتا في القرآن ؟ إن لها وقعاً بلاغياً عظيماً . ففرق بين الآيتين الكريمتين

كما أوردنا وبينهما بحذف كلمة قل من نابتهما مع إثبات الفاء طبعاً . لكن هذا الفرق لا يبلغ مبلغه في حالة الآيات الكريمة التي سبق الاستشهاد بها من آخر سورة سبأ . فهناك يتفكك الكلام ويذهب منه كثير من الروعة ، وهنا لا يحرك تفككه وإن ذهب منه من الروعة والجلال ما ركز في كلمة (قل ...) هذه . لكن بقطع النظر عن هذا لا تتغير الرسالة الكريمة المودعة في الآيتين بحذف (قلْ . .) من نابتهما ، وإنما ينفتح للشيطان باب الوسوسة إلى الإنسان ؛ وأقل ما يوسوس به أن هذا كلام للنبي أدرج في القرآن ، ليزلزل بذلك من القارئ المؤمن اعتقاده أن القرآن كلام الله كله ، ليس لمخلوق منه حرف ، نبي أو غير نبي . وسيلجأ المؤمن طبعاً إذ ذاك إلى خاصة الإعجاز يدرأ بها الوسوسة عن نفسه . ولكن كم في الناس من أوتي من البصر ما يستطيع به إدراك إعجاز الآيات ؟ سهل على الشيطان أن يشكك في الإعجاز اللغوي لآية أو آيتين ، لكن من الصعب حتى على الشيطان أن يطمس الدلالة العقلية لكلمة (قلْ .) في آخر الآية الثانية . إن الآيتين كلتيهما ليستا من كلام النبي ، وإنهما لا يمكن أن تكونا من كلام النبي بوجه من الوجوه .

الحق أن وجود كلمة قل وأنذر ونبئ وأمثالها في القرآن لا يمكن أن يستقيم في عقل مع الفرض الذي يلبس به الشيطان على الملحدين والجاحدين أن القرآن من كلام محمد بن عبد الله . فكل منها كاف لزعزعة هذا الفرض في نفس معترضة إذا اقترن بشيء من الإخلاص ؛ وكلها كاف لاقتلاعه من أساسه وإبطاله كل الإبطال عند طلاب الحق من منكري غير المؤمنين ؛ وتكون الخطوة التالية لهم إذا أمعنوا التفكير أن يتساءلوا مَن هو ذلك الذي وجه إلى محمد هذا الأمر بالقول أو الإنذار أو الإنباء ما دام قد وضح أن القرآن هو نص كلام ذلك الآمر ؟ إذ لا يمكن في طبيعة النظام اللغوي الإنساني أن يكون هو كلام محمد المأمور المشهود له بالإخلاص حتى عند هؤلاء .

وقد سهل الله لمن يتجه هذا الاتجاه ويبلغ هذه المرحلة من التساؤل أن يصل إلى الحق بالدلائل العقلية الأخرى التي أودعها الله سبحانه واضحة جلية في القرآن . ومن غير الممكن الآن أن نوضح إلا إلماماً منها ببعض الأمثال .

خذ إليك الآيات الكريمة الآتية :

(قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يومٌ لا بيع فيه ولا خلال) « سورة إبراهيم »

(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا) « سورة الزُمَر »

(نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) « سورة الحِجْر » .

(قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء مَلَكا رسولا) « سورة الإسراء » .

فهذه آيات كريمة حوت هذا الأمر الكريم قل ونبئ ، ولكنها حوت أيضا ما يدل دلالة قاطعة على أن الآمر لمحمد — صلوات الله عليه — لا يمكن أن يكون أحد من الخلق ، لأن ضمير المتكلم فيها لا يمكن أن يكون راجعا إلا إلى الله رب العباد ورازقهم ورب الخلق أجمعين .

ويلاحظ أن رجوع ضمير المتكلم إلى الحق سبحانه لا يكفي وحده دليلا على قرآنية الكلام ، فهناك أحاديث شريفة رواها ثقات المحدثين فيها ضمير المتكلم راجع إلى الله سبحانه ، وسموها من أجل ذلك أحاديث قدسية تمييزا لها ، ولكن لم يقل أحد إنها من القرآن . خذ إليك منها :

عن أنس رضي الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (قال الله يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي) رواه الترمذي .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به) الحديث . رواه البخاري ومسلم .

المسلمون في مفترق الطرق

مضى على المسلمين منذ هاجر صاحب الدعوة الإسلامية عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة ثلثان وستون وثلثمائة وألف من السنين ، وهى فترة إن تكن لمحة خاطفة فى عمر الزمان فهى مدة ليست بالقصيرة فى حساب الإنسان ، وهى حقبة من الزمن ملأى بالحوادث الجسام تقلب فيها المسلمون بين النعماء والبأساء ، وتوالت عليهم خلالها أوقات أمن وفزع ، وحالات استقرار واضطراب ، ووحدة وفرقة ، وضعف وقوة ، وتداولتهم أيد عادلة وأخرى جائرة ، وتنازعتهم عوامل صلاح وفساد ، وامتحنوا بالفتن الداخلية تحل عقدتهم وتوهن شوكتهم ، وبالغارات العدائية من الخارج تجتاح بلادهم وتخرب عامرها ، وتهز بنيان حضارتهم من القواعد . فماذا أبقت الأيام منهم بعد ذلك كله ؟ وإلى أية حال صار أمرهم اليوم ؟

أما من الوجهة الجغرافية فلا يزال الإسلام يبسط سلطانه الروحى على كثير من أمم الأرض على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ، ولا يزال المسلمون يعمرون أقطارا واسعة فى مختلف القارات ؛ ويكوّنون نسبة كبيرة من سكان العالم . ففى آسيا يكاد الجانب الغربى والجزء الأوسط منها يكوّن عالماً إسلامياً تاما ، ويشمل ذلك بلاد العرب والشام والعراق والأناضول والقوقاز وإيران وتركستان والأفغان ، كما يكوّنون نسبة كبيرة من سكان الهند وبلاد الملايو وبعض جزر المحيط الهندى والباسفيكى . وفى الصين وروسيا الأسيوية ملايين كثيرة من المسلمين يبلغ عددهم نسبة ذات شأن من مجموع السكان .

وفى إفريقية يسود الإسلام النصف الشمالى من القارة وجزءاً من سواحلها الشرقية والغربية فى نصفها الجنوبى ، ويشمل ذلك مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، والسودان المصرى والسودان الفرنسى وبلاد الصومال وكينيا ، وإقليم بحيرة تنجانيقا ، وإفريقية الشرقية البرتغالية ، وأوغندا ونياسالاندا وجزءاً من الحبشة ، وورنو وتنجيريا والسنغال وغيرها من بلاد الساحل الغربى الإفريقى .

وفى أوروبا عدد غير قليل من المسلمين فى بلاد البلقان عدا مسلمى تركيا وألبانيا ، وفى بولاندا وروسيا ؛ ولا يعدم الإسلام فى كل دولة من دولها الكبيرة آلافا يعتنقونه ويعتنقون مبادئه وتعاليمه .

ولم تخل القارة الجديدة ـ أمريكا ـ من المسلمين الذين هاجروا إليها واتخذوها موطنا لهم ، وإن يكن أكثر المهاجرين من نصارى العرب الذين لا يعدّون من المسلمين وإن يكونوا بحكم عروبتهم قد تأثروا بثقافة الإسلام الخاصة وبتقاليده التى سرت فى نفوس أهل الذمة الذين نشأوا فى أحضانه .

فأحداث الزمان كما يتبين من هذا العرض الجغرافى السريع لم تنل من الإسلام من حيث عدد المسلمين وانتشارهم فى أرجاء العالم وغلبتهم على كثير من أقطاره ،

عن أبى ذرّ رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يقول الله عز وجل يا بنى آدم : كلكم مذنب إلا من عافيت . فاستغفرونى أغفر لكم وكلكم فقير إلا من أغنيت فاسألونى أعطكم ، وكلكم ضال إلا من هديت فاسألونى الهدى أهدكم) رواه مسلم

فهذه أحاديث شريفة فيها ضمير التكلم راجع إلى الحق سبحانه وليست بقرآن . والفرق بينها وبين الآيات الكريمة المستشهد بها أخيرا هو — بصرف الإعجاز — صيغة الأمر (قل ...) فى الآيات ، وصيغة الخبر قال الله ويقول عز وجل — فى الأحاديث .

هذه دلالة لفظ واحد من ألفاظ القرآن على حقيقة القرآن . والقرآن كله بعد ذلك دلائل على أنه من عند الله لا من عند أحد من خلقه . ولقد يسر الله القرآن للذكر لو يذّكر الإنسان .

محمد أحمد الغمراوى

ولعل فى مقاومة العالم الإسلامى لعوامل الفناء التى تجمعت عليه طوال العصور ، وفى احتفاظه بكيانه على رغم الجهود المنظمة وغير المنظمة التى بذلت لهدمه ، ما يدل على مناعة روحه وما بقى من القوى العظيمة الكامنة فيه التى غالبت كل تلك العوامل خلال العصور ، وخرجت بجسمه إلى اليوم سليما من العطب .

أما من الوجهة السياسية فقد تفككت عرى الوحدة التى كانت تربط بين أجزائه وتؤلف منها وحدة سياسية كبيرة فى العصور الأولى ؛ وهو اليوم دول متفرقة يخضع بعضها لسلطان الأمم الغربية ، وبعضها يستقل بشئونه ، وبعضها لا يكاد يسلم من التدخل المستتر والنفوذ المقنع من جانب دول الغرب . على أن هناك مع هذا كله يقظة سياسية عامة فى العالم الإسلامى أجمع . والحركات الطالبة باستقلال المسلمين بشئون بلادهم والتحرر من النفوذ الأجنبى تكاد تكون عامة فى كل البلاد الإسلامية ، وإن تكن تختلف قوة وضعفا ، وتتشكل بصور شتى تبعاً لظروف كل أمة ومبلغ انتشار العلم بين أفرادها .

والمسلمون على تباعد أقطارهم وضعف الصلات المادية التى تربط بينهم ، وشدة النفوذ الذى يفصل بعضهم من بعض بحواجز قد تكون قاسية ، تربطهم الأخوة الروحية الإسلامية برباط وثيق ، وتجعلهم على بعد ما بينهم إخوانا متعاطفين ؛ فلا تكاد حركة تقوم فى مصر حتى يتردد صداها فى الهند وغيرها من بلاد الإسلام ؛ ولا يكاد يصيب أهل الشام حيف حتى يغضب له أهل مصر والعراق ؛ ولا تنزل نازلة بالترك ، حتى يتفجع لها إخوانهم المسلمون بمختلف الأقطار ؛ ولا يظهر فى بلد من بلاد الإسلام عالم نابه أو مفكر ممتاز إلا اعتز به المسلمون جميعا وعدُّوه واحداً منهم ومفخرة من مفاخرهم . وقد يكون فى القبلة المشتركة التى يولى الجميع شطرها وجوههم وهم يصلون ، وفى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام التى يقوم بها كل قادر منهم ، وتصبو لها نفوس من قعد بهم العجز عن أدائها ، ما يشير إلى الجامعة القوية التى تجمع بينهم على اختلاف أجناسهم ، وتباعد أوطانهم .

وقد بدا الاتجاه نحو تقوية الروابط بين الأمم الإسلامية فى بعض المواثيق السياسية التى انتهت إلى حلف بين بعض الدول الإسلامية المستقلة ، كما يبدو ذلك فى المباحثات التى تدور هذه الأيام بين الدول العربية لتقوية الروابط بينها ، وإزالة كثير من الحواجز التى تحول دون تمام تعاونها على ما فيه خيرها جميعا .

بقى أن نشير إلى أن تقوية هذه الروابط بين الأمم الإسلامية ليس فيه ما يخيف الغرب ، فالمسلمون لا يبغون من ورائها إلا توحيد جهود كتلة بشرية عظيمة الشأن لخدمة الإنسانية جميعا ، وهم لا يرمون من وراء ترابطهم إلا إلى أن يعين قويهم ضعيفهم ، ويرشد عالمهم جاهلهم ، ويأخذ السابق منهم بيد المتخلف ليلاحقوا جميعا سير النهضة الإنسانية العامة ، وليكونوا أعضاء قوية نافعة فى بنائها . والمسلمون حريصون على مودة الغربيين ، مقدرون لهم ميزة تقدمهم عليهم فى الحضارة ، عالمون أن الخير فى تبادل النافع بينهم ، وفى تعاونهم جميعا على ما فيه صلاح الجنس البشرى . ولكنهم إنما ينفرون من تغلب روح الجشع والأنانية على بعض الغربيين ، ويغفلون عن شعورهم ومصلحتهم . فالمسلمون يريدون أن تكون علاقتهم بالغربيين علاقة الند بالند ، ويكون اشتراكهم فى الشئون العالمية على أساس تعاون الحر الكريم مع الحر الكريم ، وألا يكون هناك سادة ومسودون ، ولكن إخوان فى الإنسانية متساوون ؛ وألا يكون ضعف الضعيف أو جهل الجاهل مسوغا لأن يسترقه القوى أو يخدعه العالم ، بل يكون ذلك حافزا للأخذ بيده وإرشاده . فإذا غلبت هذه الروح على الغرب فى علاقته مع الشرق تم بينهما التفاهم ، وزالت الشكوك التى تسمم الجو بينهما . إن المسلمين بطبيعة دينهم أشد الناس تسامحا مع أهل الأديان الأخرى ، وأقربهم للائتلاف مع كل حضارة تقوم على المساواة والحرية

والإنصاف ، وهم لذلك أقرب عاطفة لكتلة الدول الديمقراطية التي تعلن هذه المبادئ في مواثيقها . ولا يرجو المسلمون إلا أن تصدق أفعالهم أقوالهم ، ويؤيد واقع تصرفاتهم ما تقرره نظرياتهم ، متى تم لهم النصر على خصومهم .

هذا موقف المسلمين السياسي . أما حالتهم الثقافية فلعلها أضعف جوانبهم ، ولعلها علة كثير من تأخرهم الاقتصادي . فالمسلمون في أكثر بلاد الأرض تغلب عليهم الأمية ، ويتفشى فيهم الجهل ، وهذا عجيب في أهل دين يقول رسوله الكريم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . ولسنا بسبيل تبين أصل هذا الداء وأسبابه الممتدة في ظلمات العصور . ولكننا يكفينا أن نقرر أن عامة المسلمين في سائر أقطاره ينقصهم إدراك قيمة العلم والشعور القوي بضرورته للفرد والجماعة . على أن هناك يقظة فكرية نشأت من اتصال بعض أمم الشرق الإسلامي اتصالاً كبيراً بالغرب ، وقد كان من آثارها قيام كثير من المدارس التي تسير على نظم التربية الغربية . وتكوَّن جيل من الشباب المثقف بالثقافة الغربية تولى أكثرهم بعض الشئون العامة في بلادهم ، وتزعم بعضهم حركات الإصلاح والتجديد بين أممهم ؛ ولكن جهودهم تسير بطيئة متعثرة بسبب غلو هؤلاء المثقفين في التشيع للحضارة الغربية وغفلتهم عما فيها من نقط ضعف وعناصر لا تتفق مع طبائع المسلمين وإغفالهم ما في تراثهم القديم ، من خير كثير ، وتجارب قيمة ، ومصادر غنية يمكن استثمارها في حركة النهضة أفضل استثمار . والواقع أن أكثر الأمم الإسلامية تحتفظ بمراكز للثقافة تمتد نشأتها بعيداً في التاريخ ؛ وأن هذه المراكز تؤوي إليها طائفة من العلماء والمتعلمين قصروا أنفسهم على علوم الدين ، وطريقتهم في ذلك لا تعدو قراءة ما كتبه العلماء السابقون وترديد عباراتهم وأساليب نقاشهم ؛ وقد انتهى بهم الحال إلى شيء من الجمود والحرج من أي انحراف أو خروج عن تلك الكتب والآراء . وبذلك عزلوا أنفسهم عن الحياة الحاضرة عزلتين . فهم لم يعيروا شئون الدنيا وعلومها ، وما أحدثه الفكر من الانقلابات العظيمة فيها أي اهتمام ، وهم وقفوا في علوم الدين عندما وقف لديه علماء القرون القديمة . ولم يستطيعوا أن يسلكوا بالبحث الديني مسالك التطور الطبيعي ، وينظروا في مسائله على ضوء الحياة الجديدة ومقتضيات المجتمع الحديث .

فالمسلمون اليوم بين تيارين قويين يتنازعان الحركة الثقافية فيه : تيار الغلاة من أشياع الثقافة الغربية وقطع كل صلة بالماضي ؛ وتيار الغلاة من علماء الدين الذين يرون علوم الدين كافية وحدها لإصلاح حال المسلمين ، ويتصورون هذه العلوم قد بلغت منزلة ترتفع بها عن الجدل ولا تجيز فيها استحداثاً أو تخريجاً أو فهماً جديداً يخالف ما انتهى إليه العلماء السابقون .

وظاهر أن كلتا النزعتين ضارة بالمسلمين مؤخرة نهضتهم الصحيحة . فالتهافت التام على الحضارة الغربية يقطع صلة المسلمين بماضيهم ويضعف ذاتيتهم ؛ وقد يكون من شأنه أن يرقى بالمسلمين مادياً وأن يرقى حياتهم العقلية . ولكنه سينقل إليهم كثيراً من الأمراض النفسية العصبية التي تغلغلت جراثيمها في تلك الحضارة ، والتي انتهت بها إلى الأزمات العالية التي يجتازها العالم الآن . وقصارى ما وصلت إليه تلك الحضارة أنها سخرت للإنسان قوى الطبيعة على أوسع نطاق ، ووضعت بين يديه أسلحة جديدة ، ولكنها أفلست في تقييده باستخدام تلك القوى للخير ، واستعمال تلك الأسلحة فيما ينفع الناس . فهي فهمت الحياة وأدركت كثيراً من أسرارها ، ولكنها لم تعرف لها غاية عليا تضبط تصرفاتها فيها ، ولا هدفاً أسمى توجه جهودها نحوه .

والجامدون من رجال الدين يصدوا بجمودهم عن إدراك الروح الصحيح للإسلام الذي يدعو المسلمين إلى العمل للدنيا والآخرة ، وإلى السعي للرزق مع العبادة ، وإلى أن تكون الحياة ونشاطها والسلوك فيها قنطرة السلم

للآخرة . وهم بعزلتهم وحياتهم الدينية السلبية ، ووقوفهم فى وعظهم وإرشادهم عند حد العبادات ، والتزام الطاعات واجتناب المعاصى ، والترغيب والترهيب ، وتقصيرهم فى فتح الأذهان على مطالب الحياة وأسباب النجاح فيها ، وإعداد العدة القوية لمواجهة غزو الأجانب لمرافقهم ومصادر حياتهم ، هم بهذا كله يحملون أكبر الوزر فى تأخر المسلمين فى الشئون الاقتصادية وتمكين النفوذ الأجنبى من بسط سلطانه عليهم .

والثقافة الصحيحة التى تلائم المسلمين هى ثقافة مزدوجة تأخذ من مصدرين ، وتستق من منبعين : ثقافة روحية قوية تستمد أصولها من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، بفهم سليم وإدراك واسع لحاجات العصر ومقتضيات الحياة الحديثة ؛ وثقافة عقلية تأخذ عن العلم الغربى ، وتفيد من طرقه فى البحث ونشاطه فى التطبيق العملى . وبهذا يتم للمسلمين ، إذا وفقهم الله لذلك ، التوازن بين نشاط العقل ونشاط الروح ، والجمع بين الدين والدنيا .

والمسلمون بحاجة شديدة إلى المصلحين الأقوياء الذين يؤمنون بهذه الفكرة ، ويحملون لواء هذه النهضة المزدوجة ، ويسيرون بسفينة المسلمين فى الطريق الوسط بين هذين التيارين ، ويوجهون المسلمين للإفادة من تعاليم دينهم القوية وروحه السامى ، مع أخذهم بأسباب الحياة الحديثة ومماشاتهم لنهضتها ، ومساهمتهم فى النشاط الفكرى الذى يسود العالم الغربى .

هؤلاء المصلحون هم الحلقة المفقودة التى ينشدها المسلمون والتى نرجو ألا يطول افتقادها .

محمد عبد الواحد مخلوف

صفحات مطوية من التاريخ الإسلامي :

البلغار المسلمون

— ١ —

أقدم ما يعي التاريخ من أخبار الإسلام في أوربا الشرقية يرجع إلى بلاد البلغار . وهي ثانية البقاع الأوروبية استنارة بالإسلام ؛ وأولاها الأندلس .

ولا يسبقنّ إلى الوهم أننا نعني بلاد البلغار المعروفة بهذا الاسم اليوم ، وهي البلاد التي تقع جنوبيّ نهر الطونة ، فإنا نعني بلادا أخرى كانت تسمى بهذا الاسم ، وهو اسم القوم الذين استوطنوها ؛ ويجمعهم وبُلغارَ هذا العصر أصول مشتركة . وأصولهم ترجع إلى أقوام من الجنس التركي مثل الُجواش والجِيرمش . وقد ذكر شمس الدين الدمشقي أن جماعة من البلغر مرّوا ببغداد في طريقهم إلى الحج ، فأقيم لهم من الديوان الإقامات الوافرة وما استعانوا به . وسألهم سائل من أي الأمم أنتم ؟ وما البلغر ؟ فقالوا قوم مستولدون بين الترك والصقالبة ، وليس بعيدا أن يكونوا خالطوا الصقالبة حين جاوروهم .

وقد ميّز مؤرخو العرب بين هؤلاء البلغار المسلمين وبين بلغار الطونة . قال ابن الأثير بعد ذكر حوادث وقعت بين الروم والبلغار في حدود سنة أربعمائة من الهجرة : « وهؤلاء البلغار غير الطائفة المسلمة . فإن هؤلاء أقرب إلى الروم من المسلمين بنحو شهرين ، وكلاهما يسمى بلغارا » . ولكن وقع الخلط بين أخبار المملكتين في كثير من الروايات الإسلامية .

وبلغار الطونة هم الذين ذكرهم المتنبي في قصائد سيف الدولة ، كقوله في ملك الروم :

يجمع الروس والصقالب والبـ ... ـغر فيها وتجمع الآجالا

وكلمة بلغار اسم للقوم والموطن الذي استوطنوه والمدينة الكبرى في ذلك الوطن ، ونجدها في بعض الروايات بُلغَر بغير ألف وبُرغَر وابن ، وبُلار بإسقاط الغين ، وبلكار .

— ٢ —

كانت مملكة البلغار القديمة تمتد من جبال أورال في الشرق إلى مجرى نهر وُلغا ونهر أوقا في الغرب . ونهر ولغا هو فلجا الذي يتردد ذكره في أنباء العالم كل حين ، ويسمى في الكتب العربية والتركية نهر إتل أو إدل . وحدودها الجنوبية تمتد إلى البحر القزويني ، أو ما يقرب منه ؛ وقد اختلفت على مر الزمان . وأما الحدود الشمالية فكانت تنتهي إلى البلاد التي سماها القدماء أرض الظلمة . يعنون آخر المعمور المعروف في تلك العصور .

وقال ابن بطوطة بعد ذكر وصوله إلى البلغار :

« وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة ، والدخول إليها من بلغار ، وبينهما أربعون يوماً ، ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى . والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار ؛ فإن تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها » .

وقد ذكر البلغارَ كثيرٌ من المؤرخين والجغرافيين والرحالين المسلمين . قال المسعودي : « ومدينة برغر على ساحل بحر مانطش ، وهو بحر متصل بخليج القسطنطينية وأرى أنهم في الإقليم السابع ؛ وهم نوع من الترك . والقوافل متصلة منهم إلى بلاد خوارزم وأرض خراسان ومن بلاد خوارزم إليهم ؛ إلا أنّ ذلك بين بوادي غيرهم من الترك » . ولكن المسعودي خلط هؤلاء البغار ببلغار البلقان حين قال : « إن ملك البرغر يغزو بلاد القسطنطينية » ، وحين قال : « والبرغر أمة عظيمة في البأس ينقاد إليها من جاورها ولا تمتنع القسطنطينية منهم إلا بأسوار » .

كما أخطأ المسعودي حين قال : إن مدينة البرغر على بحر مانطش ، أي البحر الأسود وقد استدرك عليه هذا الخطأ ياقوت في معجم البلدان . وتابع البكريُّ المسعوديَّ في هذا الخلط .

وقال ابن رستة : « وبلكار متاخمة لبلاد برداس . وهم نزول على حافة النهر الذي يصب في بحر الخزر والذي

يسمى إتِل ، وهم بين الخزر والصقالبة . وملكهم يسمى ألمس ، وهو ينتحل الإسلام . وأرضوهم غياض ومشاجر ملتفة .. .. والخزر تتاجرهم وتبايعهم . وكذلك الروسية إليهم يصيرون بتجاراتهم ... وهم قوم لهم زرع وحراثة يزرعون كل الحبوب من الحنطة والشعير والدخن وغير ذلك . وأكثرهم ينتحلون دين الإسلام ، وفي محالهم مساجد ومكاتب ولهم مؤذنون وأئمة ... وإذا جاءتهم سفن المسلمين للتجارة أخذوا منهم العشر . وملابسهم شبيهة بملابس المسلمين ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين الخ ... »

وقال أبو عبد الله الغرناطي : « لسان الخزر والبلغار واحدة ولكن لسان البرطاس والروس مغايرة » .

— ٣ —

وكانت مدينة بلغار حاضرة المملكة شرق نهر إتِل (الفلجا) على نصف فرسخ منه حيث الدرجة خمسة وخمسون من العرض الشمالي ، والدرجة ست وستون من الطول الشرقي .

وقال ياقوت : « بلغار مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال ، شديدة البرد لا يكاد يقلع الثلج عن أرضهم صيفاً ولا شتاءً ، وقلما ترى أهلها أرضاً نشفة . وبناؤهم بالخشب وحده بأن يركّبوا أعواداً فوق عود ويسمروها بأوتاد من خشب أيضاً محكمة . والفواكه والخيرات بأرضهم لا تنجب . وبين إتِل مدينة الخزر (وهي حاجطرخان أو استراخان) وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد إليها في نهر إتِل نحو شهرين ، وفي الحدور نحو عشرين يوماً .

ويقول أبو الفداء : « إن مدينة بُلار — ويقال لها بالعربية بلغار — بلدة في نهاية العمارة الشمالية . وهي قريبة من شط إتل من البرّ الشمالي الشرقي . وهي وسراي في برّ واحد ؛ وبينهما فوق عشرين مرحلة . وهي في وطاءة من الأرض ، والجبال منها على أقل من يوم » .

ولا تزل آثار مدينة بلغار ظاهرة : بقايا مساجد وقصور ، ورسوم خنادق ونحوها ، وتدل الكتابة التي على بعض القبور هناك أنها ترجع إلى القرنين السابع والثامن بعد الهجرة .

وقد زار هذه الآثار الشيخ محمود الداغستاني المتوفى في مدينة حاجطرخان (استراخان) فأنشأ أبياتاً بالتركية منها :

شهر بلغاره كوكل شوبله أو لبدر مشتاق
حمه بلغار گوريدو ركوز مزه باقين يراق

شهر بلغاره كوكل قيلمه برابر أصلا
مصر وشام ويمن وشهر خراسان وعراق

« إن القلب يشتاق إلى مدينة بلغار شوقاً يقربها إلى أعيننا . أيها القلب لا تسوِّ بمدينة بلغار مصر والشام وخراسان والعراق » .

وكذلك زارها سنة ١٣٢٥ هـ محمد الرمزي مؤلف « تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار » . وتمثل فيها بأبيات عربية منها :

إن كنت مثلي للأحبة فاقداً ... أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها ... يا دار ما فعلت بك الأيام

— ٤ —

وأما دخول البلغار في الإسلام فقد رُوي أنه كان أيام المأمون العباسي والواثق ، ولا يبعد أن يكون الإسلام عرف بينهم في ذلك الزمان ؛ ولكن أكثر المؤرخين يؤرخون إسلامهم في عهد الخليفة المقتدر . ويقدّمون أن هؤلاء القوم أرسلوا وفداً إلى بغداد سائلين الخليفة أن يرسل إليهم من يعلمهم الإسلام ؛ فأرسل ابن فضلان في جماعة . وكتب هذا الرسول رسالة وصف رحلته منذ فارق بغداد إلى أن عاد إليها . ويؤخذ من هذه الرسالة أن الملك الذي استقبل رسولَ الخليفة كان أولَ ملك مسلم في بلغار . وهذه نبذ من رسالة ابن فضلان منقولة عن معجم البلدان ، قال ابن فضلان : « ولما وصل كتاب ألمس بن شلكى بلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله العباسي وسأله فيها أن يبعث إليه من يفقهه في الدين ويعرّفه شرائع الإسلام ويبني له مسجداً ، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته ، وسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له أجيب إلى ذلك ... ثم يقول ابن

فضلان : « فرحلنا من مدينة السلام لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٩ » (وذلك ٢١ يونية سنة ٩٢١)

يقول ياقوت : ثم ذكر ما مر به في الطريق إلى خوارزم ، ثم منها إلى بلاد الصقالبة مما يطول شرحه ثم ينقل قول ابن فضلان :

« ولما كنا من ملك الصقالبة ، وهو الذي قصدنا له ، على مسيرة يوم وليلة وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده ، وإخوته وأولاده ؛ فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس وساروا معنا . فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو نفسه . فلما رآنا نزل وخرّ ساجداً لله شكراً ، وكان في كمه دراهم فنثرها علينا . ونصب لنا قبابا فنزلناها . وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة خلت من المحرم سنة ٣١٠ هـ » (وذلك ١٢ مايو سنة ٩٢٢) .

يتبين من هذا أن رسول الخليفة قطع المسافة من بغداد إلى مدينة بلغار في سنة شمسية إلا عشرين يوما . ويتبين كذلك أنه سار إلى خوارزم في طريقه . ويقول هو إنه قطع المسافة من الجرجانية مدينة خوارزم إلى غايته في سبعين يوما . ويقول المستشرق الروسي بارتولد : « نستدل من عدد الأيام التي أمضاها الوفد في رحلته أنه أتى من خوارزم إلى المجرى الأدنى لنهر إتل (فلجا) ، ثم دخل منه إلى بلاد البلغار مخترقا أرض الخزر والبرطاس » .

يقول ابن فضلان : « فأقمنا إلى يوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا حتى اجتمع ملوك أرضه وخواصه ليسمعوا قراءة الكتاب . فلما كان يوم الخميس نشرنا المطرّزين اللذين كانا معنا (يظهر أنهما لواءان) . وأسرجنا الدابة بالسرج الموجّهة إليه ، وألبسناه السواد وعممناه ، وأخرجت كتاب الخليفة فقرأته وهو قائم على قدميه ، ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس ، وهو قائم أيضا وكان بدينا ، ونثر أصحابه علينا الدراهم وأخرجنا الهدايا وعرضناها عليه ؛ ثم خلعنا على امرأته وكانت جالسة بجانبه . وهذه سنتهم ودأبهم .

ثم وجه إلينا فحضرنا قبته ، وعنده الملوك عن يمينه . وأمرنا أن نجلس على يساره ، وأولاده جلوس بين يديه ، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي . فدعا بالمائدة فقدمت إليه وعليها لحم مشوي . فابتدأ الملك وأخذ سكينا وقطع لقمة فأكلها وثانية وثالثة . ثم قطع قطعة فدفعها إلى سوسن الرسول (رسوله إلى الخليفة) ؛ فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه — وكذلك رسمهم ، لا يمد أحد يده إلى أكل حتى يناوله الملك ، فإذا تناولها جاءته مائدة — ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة . ثم ناول الملك الثاني فجاءته المائدة . وكذلك حتى قدّم إلى كل واحد من الذين بين يديه مائدة . وأكل كل واحد منا من مائدته لا يشاركه فيها أحد ، ولا يتناول من مائدة غيره شيئا . فإذا فرغ من الأكل حمل كل واحد منا ما بقي من مائدته إلى منزله . فلما فرغنا دعا بشراب العسل ، وهم يسمونه السجو ، فشرب وشربنا » .

وهناك ينتهي ابن فضلان من وصف رحلته الطويلة المفيدة من بغداد إلى بلغار ، ووصف استقبال الملك وخواصه إياه .

(يتبع) عبد الوهاب عزام

محـــادثة تليفونيـــة ..

بين الاسكندرية والقاهرة

صبيحة هانم وحيدة هانم شقيقتان ، تقيم الأولى فى مدينة الإسكندرية بشارع محرم بك ، وتقيم الثانية بالقاهرة بشارع حمدى .

تزوجت الأولى بزوج صناعته (سمسار) ، وتزوجت الثانية بزوج موظف فى إحدى المصالح .

وكانت كل منهما تحمل آلام إهمال زوجها وعدم اهتمامه بالمنزل ؛ لأن كل زوج تعود الخروج من داره إلى عمله فلا يعود إليه إلا فى الربع الأخير من الليل . فاتحدت الشقيقتان فى الهم والشكوى ، وأصبح حديثهما لا يخرج من ترديد هذه الشكوى إذا اجتمعا أو تحدثا تليفونيا .

وفى صبيحة أحد أيام الأسبوع الماضى ، قرع جرس التليفون فى منزل حيدة هانم فى القاهرة . وإذا بالمتحدثة شقيقتها صبيحة هانم بالاسكندرية ، وكانت فى هذه المرة على غير عادتها مرحة الصوت تظهر فى رنته علامات الابتهاج والسرور ، وهى عادة لم تتعودها صبيحة هانم ولا تعرفها عنها شقيقتها حيدة هانم .

كانت المحادثة ما يأتى :

— ألو . . . حيدة ؟ . . . . ازيك ياحبيبتى .

— الله يسلمك . . . . . . يا أختى صوتك مفرفش وماتيش زى عادتك !

— طبعا . موش الراجل اتعدل حاله واتغير طبعه وبقى حاجة تانية خالص ومن عمله للبيت ؟ .

— غريبة . . . ضرورى عيان . . ؟

— أبدا . . . ولا عيان ولا حاجة . زى الجن .

— أمال عملتى إيه ؟

— حاجة بسيطة خالص . . . رحت معاه السينما مرة واحدة .

— طيب ما أنا رحت مع جوزى خمسين مرة وهو بعينه !

— لأ . موش كل سينما . أنا شفت فيلم فهمنى ازاى أعدله .

— فيلم إيه ياختى ده اللى يعدل الجوز ؟

— فيلم أما عيان يا حيدة . . . . آه لو شفتيه مرة واحدة . تشوفى جوزك حيبقى ازاى

— طيب والنبى لأروح . هو إمتى حايجى عندنا فى مصر .

— يوم ٣٠ ديسمبر فى سينما الكوزمو . أوعك تنسى ؟

— أنسى ازاى ياختى ! ودى حاجة تتنسى .

وعندها وحجزت لها ولزوجها لوجا لترى هذا الفيلم الذى يعدل الأزواج .

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسى رقم ٩ بعابدين — مصر